# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

# المجموعة الكاملة لمؤلفات
# الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الأول

فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

# مقــدمة الناشر

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعد: ـ فإن خدمة كتاب الله وتعلمه وتعليمه من أعظم القربات، وأجزلها مثوبة عند الله. كيف لا؟! وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، فجدير بالمسلمين أن يتمسكوا بمبادئه السامية، ويتحلوا بآدابه الكريمة سلوكاً ومنهجاً..؟!

ولقد تنافس علماء السلف قديماً وحديثاً في تفسير هذا الكتاب وصار لكل منهم منهجه الخاص في ذلك ـ جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ومن أوضح تلك التفاسير، وأقربها فهماً على طلاب العلم، تفسير العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الموسوم بـ«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

فلقد أجاد فيه رحمه الله وانتهج منهجاً وسطاً بين التطويل الممل، والتقصير المخل، فكان بذلك مطابقاً لاسمه لفظاً ومعنى.

وقد قام بتصحيحه وتحقيقه وضبط كلماته الشيخ محمد زهري النجار من علماء الأزهر.

وحيث أن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وهي رائدة الدعوة في هذه البلاد قد سعت إلى إعادة طبع هذا الكتاب وتوزيعه تقديراً منها لأهميته، وعظم شأنه، وكما هو شأنها في العمل على كل ما من شأنه خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق نشر كتب التراث وكذلك الكتب الحديثة التي تهتم بأمور الإسلام والذود عنه وتوضح مبادئه وتشرح قضاياه علاوة على ترجمة وطباعة الكتب الإسلامية بلغات أجنبية عديدة من أجل تيسير فهم الإسلام ونشره في أنحاء المعمورة.

ولهذا فقد قررت ـ الرئاسة ـ طباعة هذا الكتاب على نفقتها وتوزيعه مجاناً على

طلبة العلم وذلك بعد أن حصلت على موافقة خطية من ابن المؤلف الشيخ عبدالله ابن عبد الرحمن السعدي.

وقد ندبت مجموعة من العاملين لديها لتصحيح بعض أخطائه المطبعية وإظهار بعض الكلمات الخفية التي قد أثر عليها طول الزمن وذلك مساهمة منها في نشر العلم.

والرئاسة إذ تقدم هذا الكتاب في طبعته الجديدة لترجو من المسلمين أن يهتموا بنشر تراثهم في كافة أنحاء العالم مساهمة منهم في نشر الدعوة. نسأل الله تعالى أن يعيد مجد المسلمين وعزهم إنه جواد كريم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

**الرئاسة العامة**

**لإدارات البحوث العلمية والإفتاء**

**والدعوة والإرشاد**

# ترجمة المؤلف

## بقلم أحد تلاميذه

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدى من قبيلة تميم ، ولد في بلدة عنيزة في القصيم ، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية ، وتوفيت أمه وله أربع سنين ، وتوفي والده وله سبع سنين ، فتربى يتيماً ، ولكنه نشأ نشأة حسنة ، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم ، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب ، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة ، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم ، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك ، حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعاً إليه ؛ ومعول جميع الطلبة في التعلم عليه .

## بعض مشايخ المؤلف

أخذ عن الشيخ ابراهيم بن حمد بن جاسر ، وهو أول من قرأ عليه ، وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث ، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم ، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه ، وقلة ذات يده رحمه الله ، ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل ، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما ، ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي ( قاضي عنيزة ) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية ، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رحمه الله ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عايض ، ومنهم الشيخ صعب القويجري ، ومنهم الشيخ علي السناني ومنهم الشيخ علي الناصر أبو واداي ، قرأ عليه في الحديث ، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك ، ومنهم

الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع ( مدير المعارف في المملكة العربية السعودية ) في وقتنا الحالي ، وقد قرأ عليه المؤلف في عنيزة ؛ ومن مشائخه الشيخ محمد الشنقطي ( نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير ) لما قدم عنيزه وجلس فيها للتدريس قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية ، كالنحو والصرف ونحوهما .

## نبذة من أخلاق المؤلف

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير ، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً ، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها ، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية ، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه ، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى ، وكثيراً ما يحل المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل ، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات ، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله ؛ وكان من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً ، مرتباً لأوقات التعليم ، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم ، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون ؛ وكل من حفظه أعطى الجعل ولا يحرم منه أحد . ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة ، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم ، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال ، لأنهم يتلذذون من مجالسته ، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير ولا يزال كذلك ، متع الله بحياته ؛ وبارك الله لنا وله في الأوقات ورزقنا وإياه التزود من الباقيات الصالحات .

## مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه ، أصوله وفروعه . وفي أول أمره متمسكاً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشائخه ، وحفظ بعض المتون من ذلك ، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه ، نظم رَجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحاً مختصراً ، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقده أولا .

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الاسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم ، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة ، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي ؛ بل يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعي . ولا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوسين ، هدانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين . وله اليد الطولى في التفسير ، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه ، وألف تفسيراً جليلا في عدة مجلدات ، فسره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره ، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسره ارتجالا ، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده ؛ ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة ، حتى أن سامعه يود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص ، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات ، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه .

# مصنفات المؤلف

١ — تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان » في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع .

٢ — حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي . ولم تطبع .

٣ — إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبه على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً .

٤ — الدرة المختصرة في محاسن الاسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ هـ .

٥ — الخطب العصرية القيمة ، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً .

٦ — القواعد الحسان لتفسير القرآن ، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ . ووزع مجاناً .

٧ — تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القصيمي في أغلاله ، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقه وجيه الحجاز « الشيخ محمد افندي نصيف » عام ١٣٦٦ .

٨ — الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين .

٩ — توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم .

١٠ — وجوب التعاون بين المسلمين ، وموضوع الجهاد الديني ، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً .

١١ - القول السديد في مقاصد التوحيد ، طبع في مصر « بمطبعة الامام » على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧ .

١٢ - مختصر في أصول الفقه ، لم يطبع .

١٣ - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن . طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين ، وزع مجاناً . طبع بمطبعة الامام .

١٤ - الرياض الناضرة ، وهو هذا - طبع بمطبعة الامام ( الطبعة الاولى ).

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها ، وله تعليقات شتّى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتّى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً . ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور ؛ وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلا فرآه شاقاً عليه؛ فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له ؛ ولهذا لم نعده من مصنفاته .

## غايته من التصنيف :

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا ينال منها عرضاً زائلا ، أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً ، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

## وفاته :

وبعد عمر طويل دام قرابة ٦٩ عاماً في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربه في عام ١٣٧٦ هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رحمه الله رحمة واسعة .

# تنبيـــه

اعلم أن طريقتى فى هذا التفسير أنى أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها ، ولا أكتفى بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة ، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه « مثانى » تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة ، وأمر بتدبره جميعه لما فى ذلك من زيادة العلوم والمعارف ، وصلاح الظاهر والباطن ، وإصلاح الأمور كلها .

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ، والسعداء والأشقياء ، والحق والباطل .

وجعله - برحمته - هدى للناس عموماً ، وللمتقين خصوصاً - من ضلال الكفر ، والمعاصى والجهل ، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم .

وأنزله شفاء للصدور ، من أمراض الشبهات والشهوات ، ويحصل به اليقين والعلم ، فى المطالب العاليات ، وشفاء للأبدان من أمراضها ، وعللها ، وآلامها ، وأسقامها .

وأخبر أنه لا ريب فيه ، ولا شك ، بوجه من الوجوه ، وذلك لاشتماله على الحق العظيم ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

وأنزله مباركاً ، فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير ، والأسرار البديعة ، والمطالب الرفيعة .

فكل بركة وسعادة تنال فى الدنيا والآخرة ، فسببها الاهتداء به واتباعه .

وأخبر أنه مصدق ومهيمن ، على الكتب السابقة .

فما شهد له ، فهو الحق ، وما رده فهو المردود لأنه تضمنها وزاد عليها .

وقال تعالى فيه : [ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ] .

فهو هاد لدار السلام ، مبين لطريق الوصول إليها ، وحاث عليها ، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها .

وقال تعالى مخبراً عنه : [ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ] .

فبين آياته أكمل تبيين ، وأتقنها أى إتقان ، وفصلها بتمييز الحق من الباطل ، والرشد من الضلال ، تفصيلا كاشفاً للبس ، لكونه صادراً من حكيم خبير .

فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين ، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر . ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية .

وأقسم تعالى بالقرآن ، ووصفه بأنه « مجيد » والمجد : سعة الأوصاف وعظمتها ، وذلك لسعة معانى القرآن وعظمتها .

ووصفه بأنه « ذو الذكر » أى : يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ، ويتعظ به من يخشى .

وقال تعالى : [ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ] ، وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه ، وأمرنا بتدبره ، والتفكر فيه ، والاستنباط لعلومه .

وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير ، محصل للعلوم والأسرار .

فلله الحمد والشكر والثناء ، على أن جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً ، وتبصرة وتذكرة ، وعبرة وبركة ، وهدى وبشرى للمسلمين .

فإذا علم هذا ، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها :

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه فى تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك .

وقد كثرت تفاسير الأئمة ، رحمهم الله ، لكتاب الله .

فمن مطول خارج فى أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مقتصر ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية ، بقطع النظر عن المراد .

وكان الذى ينبغى فى ذلك ، أن يجعل المعنى ، هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه.

فينظر فى سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره ، فى موضع آخر ، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم .

فالنظر لسياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه ، وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته ، وفهم المراد منه .

خصوصاً إذا انضم إلى ذلك ، معرفة علوم العربية ، على اختلاف أنواعها .

فمن وفق لذلك ، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر فى ألفاظه ومعانيه ، ولوازمها ، وما تتضمنه ، وما تدل عليه ، منطوقاً ومفهوماً .

فإذا بذل وسعه فى ذلك ، فالرب أكرم من عبده ، فلا بد أن يفتح عليه من علومه ، أموراً لا تدخل تحت كسبه .

ولما منّ البارى علىّ وعلى إخوانى ، بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا ، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ، ما تيسر ، وما من به الله علينا ، ليكون تذكرة للمحصلين ، وآلة للمستبصرين ، ومعونة للسالكين ، ولأقيده(١) خوف الضياع .

ولم يكن قصدى فى ذلك ، إلا أن يكون المعنى ، هو المقصود .

ولم أشتغل فى حل الألفاظ والعقود ، للمعنى الذى ذكرت .

---

(١) كذا فى الأصل والصواب أن يقال : « وقيدته » .

ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

والله أرجو ، وعليه أعتمد ، أن ييسر ما قصدت ، ويذلل ما أردت ، فإنه ، إن لم ييسر الله ، فلا سبيل إلى حصوله ، وإن لم يعن عليه ، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله .

وأسأله تعالى ، أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع العميم ، إنه جواد كريم . اللهم صل على محمد .

فوائد مهمة ـ تتعلق بتفسير القرآن

من

# بدائع الفوائد

لابن القيم رحمه الله تعالى

## ( فصل )

قال : النكرة فى سياق النفى تعم ، مستفاد من قوله تعالى : [ ولا يظلم ربك أحداً ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ] .

وفى الاستفهام من قوله تعالى : [ هل تعلم له سمياً ] .

وفى الشرط من قوله : [ فإما ترين من البشر أحداً ] .

[ وإن أحد من المشركين استجارك ] .

وفى النهى من قوله تعالى : [ولا يلتفت منكم أحد ] .

وفى سياق الإثبات ، بعموم العلة والمقتضى قوله : [ علمت نفس ما أحضرت ] .

وإذا أضيف إليها « كل » نحو [وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد].

ومن عمومها بعموم المقتضى [ ونفس وما سواها ].

## ( فصل )

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله : [ إن الإنسان لفى خسر ] وقوله : [ ويقول الكافر ] .

وعموم المفرد المضاف من قوله : [ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ] ، [ وكتابه ] .

قرأ أهل البصرة وحفص [ وكتبه ] على الجمع .

وقرأ الآخرون [ وكتابه ] على التوحيد .

وقوله : [ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ] والمراد جميع الكتب التى أحصيت فيها أعمالهم .

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله : [ وإذا الرسل أقتت ] .

وقوله : [ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ] .

وقوله تعالى : [ إن المسلمين والمسلمات ] إلى آخرها .

والمضاف من قوله : [ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى : [ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ] .

وقال : [ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ] .

وقال : [ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ] .

وقوله : [ أينما تكونوا يدرككم الموت ] .

وقوله : [ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ] .

وقوله :[وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ] .

وقوله: [ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ] هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين .

فإن كان خبراً ماضياً ، لم يلزم العموم كقوله: [ وإذا رأو تجارة أو لهواً انفضوا إليها ] [ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ] .

وإن كان مستقبلا ، فالتزموا رد العموم كقوله تعالى : [ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ] .

وقوله : [ وإذا مروا بهم يتغامزون ] وقوله : [ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ] .

وقد لا يعم كقوله تعالى : [ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ]

## ( فصل )

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب ، من ذمه لمن خالفه ، وتسميته إياه عاصياً ، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل .

ويستفاد كون النهي للتحريم ، من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً ، وترتيبه العقاب على فعله .

ويستفاد الوجوب ، بالأمر تارة ، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب ، ولفظة « على » ، ولفظة « حق على العباد وعلى المؤمنين ».

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل ، وإيجاب الكفارة بالفعل .

وقوله: « لا ينبغي» فإنها ـ في لغة القرآن والرسول ـ للمنع عقلا وشرعاً .

ولفظة « ما كان لهم كذا وكذا » و « لم يكن لهم » ، وترتيب الحد على الفعل ، ولفظة « لا يحل » و « لا يصلح » ، ووصف الفعل بأنه فساد ، وأنه من تزيين الشيطان وعمله ، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده ، ولا يزكي فاعله ، ولا يكلمه ، ولا ينظر إليه ونحو ذلك .

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير ، والأمر بعد الحظر ، ونفي الجناح والحرج ، والإثم والمؤاخذة ، والإخبار بأنه يعفو عنه ، والإقرار على فعله في زمن الوحي ، وبالإنكار على من حرم الشيء ، والإخبار بأنه خلق لنا

كذا وجعله لنا ، وامتنانه علينا به ، وإخباره عن فعل من قبلنا ، غير ذام لهم عليه .

فإن اقترن بإخباره مدح ، دل على رجحانه ، استحباباً ، أو وجوباً .

## ( فصل )

وكل فعل عظمه الله ورسوله ، أو مدحه ، أو مدح فاعله لأجله ، أو فرح به ، أو أحبه ، أو أحب فاعله ، أو رضى به ، أو رضى عن فاعله ، أو وصفه بالطيب ، أو البركة ، أو الحسن ، أو نصبه سبباً لمحبته أو ثوابه ، عاجلا أو آجلا ، أو نصبه سبباً لذكره لعبده ، أو لشكره له ، أو لهدايته إياه ، أو لإرضاء فاعله ، ووصف فاعليه بالطيب ، أو وصف الفعل بأنه معروف ، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله ، أو وعده بالأمن ، أو نصبه سبباً لولايته ، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله ، أو وصفه بكونه قربة ، أو أقسم به أو بفاعله ، كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله ، أو عجبه به — فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

## ( فصل )

وكل فعل طلب الشارع تركه ، أو ذم فاعله ، أو عاب عليه ، أو مقت فاعله ، أو لعنه ، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله ، أو نفى الرضا به ، أو الرضا عن فاعله ، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين ، أو جعله مانعاً من الهدى ، أو وصفه بسوء أو كراهة ، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه ، أو جعل سبباً لنفى الفلاح ، أو لعذاب عاجل أو آجل ، أو لذم أو لوم ، أو ضلالة أو معصية ، أو وصفه بالخبث ، أو رجس ، أو نجس ، أو بكونه فسقاً أو إثماً ، أو سبباً لإثم أو رجس ، أو لعن أو غضب ، أو زوال نعمة ،

أو حلول نقمة ، أو حد من الحدود ، أو قسوة ، أو خزى ، أو ارتهان نفس ، أو لعداوة الله ومحاربته ، أو الاستهزاء به وسخريته ، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله ، أو وصف نفسه بالصبر عليه ، أو الحلم عنه ، أو الصفح ، أو دعا إلى التوبة منه ، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار ، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه ، أو تولى الشيطان لفاعله ، أو وصفه بصفة ذم ، مثل كونه ظلماً أو بغياً ، أو عدواناً أو إثماً ، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله ، أو شكوا إلى الله من فاعله ، أو جاهروا فاعله بالعداوة ، أو نصب سبباً لخيبة فاعله ، عاجلا أو آجلا ، أو رتب عليه حرمان الجنة ، أو وصف فاعله بأنه عدو لله ، أو الله عدوه ، أو أعلن(١) فاعله بحرب من الله ورسوله أو حمل فاعله إثم غيره ، أو قيل فيه « لا ينبغى هذا » أو « لا يصلح » أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه ، أو أمر بفعل يضاده ، أو هجر فاعله ، أو تلا عن فاعلوه فى الآخرة ، أو تبرأ بعضهم من بعض ، أو وصف فاعله بالضلالة ، أو أنه « ليس من الله فى شىء » أو أنه ليس من الرسول وأصحابه ، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم فى الحكم والخبر عنه بخبر واحد ، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح ، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، أو قيل لفاعله « هل أنت منته » أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله ، أو رتب عليه إبعاد ، أو طرد أو لفظة « قتل من فعله » ، أو « قاتل الله من فعله » ، أو أخبر أن فاعله « لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه » أو أن الله لا يصلح عمله ، ولا يهدى كيده ، أو أن فاعله لا يفلح ، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء ، أو أن الله يغار من فعله ، أو نبه على وجه المفسدة فيه ، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلا ، أو أخبر أن

(١) فى الأصل ( أعلم ) وهو تحريف .

من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين ، أو جعل الفعل سبباً لإزاغة قلب فاعله ، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه ، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل « لم فعل » نحو :

[ لم تصدون عن سبيل الله من آمن ] ، [ لم تلبسون الحق بالباطل ] ، [ ما منعك أن تسجد ] ، [ لم تقولون ما لا تفعلون ] ما لم يقترن به جواب من السؤال فإذا قرن به جواب ، كان بحسب جوابه .

فهذا ونحوه ، يدل على المنع من الفعل ، ودلالته على التحريم أطرد[1] من دلالته على مجرد الكراهة .

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله ، أو مكروه ـ فأكثر ما يستعمل فى المحرم ، وقد يستعمل فى كراهة التنزيه .

وأما لفظة « وأما أنا ، فلا أفعل » فالمحقق منه الكراهة كقوله « أما أنا فلا آكل متكئاً » .

وأما لفظة « ما يكون لك » و « ما يكون لنا » فاطرد[2] استعمالها فى المحرم نحو [ما يكون لك أن تتكبر فيها ] ، [ما يكون لنا أن نعود فيها] ، [ ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ] .

## ( فصل )

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ، ورفع الجناح ، والإذن ، والعفو ، و « إن شئت فافعل » و « إن شئت فلا تفعل » ، ومن الامتنان بما فى الأعيان من المنافع ، وما يتعلق من الأفعال نحو :

---

(١) اطرد . أى : أنسب لجريانه على قواعد اللغة والأصول .

(٢) فاطرد . أى : جرى على قاعدة لا شذوذ فيها .

[ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ] ونحو [وبالنجم هم يهتدون] .

ومن السكوت عن التحريم ، ومن الإقرار على الفعل فى زمن الوحى .

# فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو « عجب ربك من شاب ليست له صبوة » ونحوه ، قد يدل على بغض الفعل كقوله :

[ وإن تعجب فعجب قولهم ] وقوله : [ بل عجبت ويسخرون ] .

وقوله : [ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ] .

وقد يدل على امتناع الحكم ، وعدم حسنه كقوله : [ كيف يكون للمشركين عهد عند الله ] .

ويدل على حسن المنع منه قدراً ، وأنه لا يليق به فعله كقوله تعالى : [ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ] .

# فائدة

نفى التساوى فى كتاب الله ، قد يأتى بين الفعلين كقوله تعالى :

[ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ] الآية .

وقد يأتى بين الفاعلين كقوله : [ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ] .

وقد يأتى بين الجزأين كقوله: [لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ] .

وقد جمع الله بين الثلاثة فى آية واحدة وهى قوله تعالى :

[ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ] الآيات .

# فائدة

ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور :

التذكير، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره فى صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل ، كنسبة المحسوس إلى الحس .

وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر ، وإبطال أمر .

# فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط فى نظره ، وغالط فى مناظرته .

فانظر إلى قوله [ ذق إنك أنت العزيز الكريم ] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير .

# فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد .

منها : أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده .

ومنها : أن يكون موعظة وتذكرة .

ومنها : أن يكون شاهداً على ما أخبر به ، من توحيده ، وصدق رسوله ، وإحياء الموتى .

ومنها : أن يذكر فى معرض الامتنان .

ومنها : أن يذكر فى معرض اللوم والتوبيخ .

ومنها : أن يذكر فى معرض المدح أو الذم .

ومنها : أن يذكر فى معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه . وغير ذلك من الفوائد . انتهى كلامه رحمه الله . وهو فى غاية النفاسة ، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن ، فجزاه الله خيراً .

قلت : وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثنيت فيه وأعيدت :

فمنها : ضرب الأمثال ، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها .

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة ، وفى ذلك فوائد عديدة :

منها : أن الأوصاف التى يوصف بها أهل الخير ، تدل على محبة الله ورضاه ، وأنها محمودة .

والصفات التى يوصف بها أهل الشر ، تدل على بغض الله لها ، وأنها مذمومة .

ومنها : ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده ، فهو ثواب معجل ، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة ، فيكون عقاباً معجلا .

ومنها : أن فيه حثاً للنفوس ، على الاقتداء بأهل الخير ، ومنافستهم ، وتنشيط العمال على الأعمال ، ببيان أن من عملها فهو من أولياء الله .

وفيه الترهيب عن أفعال أهل الشر ، وتبغيض المعاصى التى أثرت مع عامليها ما أثرت .

ومنها : الاعتبار بصفات أهل الخير والشر ، وأن من فعل مثل فعلهم ، ناله ما نالهم .

وقد حث تعالى على الاعتبار ، فى غير موضع من كتابه .

وحقيقتة : العبور من شيء إلى شيء ، وقياس الشيء على نظيره .

ومنها : أن العبد إذا نظر إلى أعمال أهل الخير ، وعجزه عن القيام بها ، أوجب له ذلك ، الإزار على نفسه واحتقارها .

وهذا هو عين صلاحه ، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر ، هو عين فساده ، إلى غير ذلك من الفوائد .

ومنها : ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله ، وتقديسه عن النقائص ، وفى دلك فوائد عظيمة .

منها : أن هذا العلم ـ وهو العلم المتعلق بالله تعالى ـ أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق .

فالاشتغال بفهمه ، والبحث التام عنه ، اشتغال بأعلى المطالب ، وحصوله للعبد من أشرف المواهب .

ومنها : أن معرفة الله تعالى ، تدعو إلى محبته وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، وإخلاص العمل له ، وهذا عين سعادة العبد ، ولا سبيل إلى معرفة الله ، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته ، والنفقة فى فهم معانيها .

وقد اشتمل القرآن من ذلك ، على ما لم يشتمل عليه غيره ، من تفاصيل ذلك وتوضيحها ، والتعرف بها إلى عباده ، وتعريفهم لنفسه ، كى يعرفوه .

ومنها : أن الله خلق الخلق ، ليعرفوه ويعبدوه ، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم .

فالاشتغال بذلك ، اشتغال بما خلق له العبد ، وتركه وتضييعه ، إهمال لما خلق له .

وقبيح بعبد ، لم تزل نعم الله عليه متواترة ، وفضله عليه عظيم من كل وجه ، أن يكون جاهلا بربه ، معرضاً عن معرفته .

ومنها : أن أحد أركان الإيمان ، بل أفضلها وأصلها ، الإيمان بالله .

وليس الإيمان مجرد قوله : « آمنت بالله » من غير معرفته بربه .

بل حقيقة الإيمان ، أن يعرف الرب الذى يؤمن به ، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته ، حتى يبلغ درجة اليقين .

وبحسب معرفته بربه ، يكون إيمانه ، فكلما ازداد معرفة بربه ، ازداد إيمانه ، وكلما نقص ، نقص .

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك ، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن .

والطريق[1] فى ذلك ، إذا مر به اسم من أسماء الله ، أن يثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه ، وينزهه عما يضاد ذلك .

ومنها : أن العلم به تعالى ، أصل الأشياء كلها .

حتى إن العارف به حقيقة المعرفة ، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله ، على ما يفعله ، وعلى مايشرعه من الأحكام ، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة .

وكذلك ، لا يشرع مايشرعه من الأحكام ، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته ، وفضله وعدله .

فأخباره كلها حق وصدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل وحكمة .

---

(١) قوله : ( والطريق الخ ) يريد أن المؤمن إذا طرق سمعه اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته أن يثبت لله ذلك المعنى بكماله على وجه العموم مع اعتقاد أن كمال الله لا تحيط به العقول كما أنه سبحانه منزه عن النقائص مهما استصغرتها العقول ، فالنقائص ـ صغيرها وكبيرها ـ بعيدة عن الله كل البعد فلا بد من إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل .

وهذا العلم ، أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه :

وكيف يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها : ذكر الأنبياء والمرسلين ، وما أرسلوا به ، وما جرى لهم مع أممهم .

وفى ذلك عدة فوائد :

منها : أن من تمام الإيمان بهم ، معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم .

وكلما كان المؤمن بذلك أعرف ، كان أعظم إيماناً بهم ، ومحبة لهم ، وتعظيما لهم ، وتعزيزاً وتوقيراً .

ومنها : أن من بعض حقوقهم علينا – خصوصاً النبى محمد صلى الله عليه وسلم – معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة ، ولا سبيل لذلك ، إلا بمعرفة أحوالهم .

ومنها : أن معرفة الأنبياء ، موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، بعد أن كانوا فى ضلال مبين .

ومنها : أن الرسل هم المربون المؤمنين ، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على أيديهم وبسببهم . فقبيح بالمؤمن ، أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه .

وإذا كان من المستنكر ، جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك ، فكيف بحالة الرسول ، الذى هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أبوهم الحقيقى ، الذى حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى ؟ ! !

ومنها : أن فى معرفة ما جرى لهم ، وجرى عليهم ، تحصل للمؤمنين الأسوة والقدوة ، ويخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات ، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة ، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء .

قال تعالى : [ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ] .

ومن أعظم الاقتداء ، الاقتداء بتعليماتهم ، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق ، والصبر على التعليم ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وبهذا وأمثاله ، كان العلماء ورثة الأنبياء .

ومن فوائد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى .

والمراد منها ، موقوف على معرفة أصول الرسول ، وسيرته مع قومه وأصحابه ، وغيرهم من الناس ، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، تختلف اختلافاً كثيراً .

فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معانى القرآن ، من دون معرفة منه لذلك ، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله ، وعلى مراد الله من كلامه ، شىء كثير .

وهذا إنما يعرفه ، من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله ، على العرف الحادث ، فوقع الخلل الكثير ، ولغير ذلك من الفوائد المفيدة ، والنتائج السديدة .

ومن علوم القرآن ، الأمر ، والنهى الموجه لهذه الأمة وغيرها ، وهذا هو المقصود منهم ، وفى معرفة ذلك عدة فوائد :

منها : أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله ، وذم من لم يعرف ذلك .

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده ، الأوامر والنواهى ، التى كلفنا بها ، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها .

ولا سبيل إلى امتثالها ، أو اجتنابها ، إلا بمعرفتها ، ليتأتى فعلها أو تركها .

وذلك ، أن المكلف إذا أمر بأمر ، وجب عليه أولا ، معرفة ما هو الذى أمر به ، وما يدخل به ، وما لا يدخل .

فإذا عرف ذلك، استعان بالله، واجتهد فى امتثاله بحسب القدرة والإمكان .

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور ، وجب عليه معرفة ذلك المنهى وحقيقته ، ثم يبذل جهده ، مستعيناً بربه ، على تركه ، امتثالا لأمر الله ، واجتناباً لنهيه .

وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، كل منهما واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب .

فعرفت أن العلم بها قبل العمل ، ومتقدم عليه .

ومنها : أن الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يمكن حصولها وتحصيلها ، إلا بعد معرفة الخير ، ليدعو إليه ، ومعرفة المعروف ليأمر به ، ومعرفة المنكر لينهى عنه ، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال ، ومتضمن له أكمل تضمن .

ومن علوم القرآن ، أحوال اليوم الآخر ، وهو ما يكون بعد الموت ، مما أخبر به الله فى كتابه ، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت ، والقبر ، والموقف ، والجنة والنار ، وفى العلم بذلك فوائد كثيرة :

منها : أن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان الستة ، التى لا يصح الإيمان بدونها .

وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ، ازداد إيمان العبد به .

ومنها : أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة ، يفتح للانسان باب الخوف والرجاء ، اللذين إن خلا القلب منهما ، خرب كل الخراب ، وإن عمر بهما ، أوجب له الخوف ، الانكفاف عن المعاصى .

والرجاء تيسير الطاعة ، وتسهيلها ، ولا يتم ذلك ، إلا بمعرفة تفاصيل الأمور ، التى يخاف منها وتحذر .

كأحوال القبر وشدته ، وأحوال الموقف الهائلة ، وصفات النار المفظعة .

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم ، والحبرة والسرور ، ونعيم القلب والروح والبدن ، فيحدث بسبب ذلك ، الاشتياق الداعى للاجتهاد فى السعى للمحبوب المطلوب ، بكل ما يقدر عليه .

ومنها : أن يعرف بذلك ، فضل الله وعدله ، فى المجازاة على الأعمال الصالحة ، والسيئة ، الموجب لكمال حمده ، والثناء عليه بما هو أهله .

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب ، يعرف بذلك فضل الله ، وعدله وحكمته .

ومن علوم القرآن ، مجادلة المبطلين ، ودفع شبه الظالمين ، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية .

وهذا الفن من علوم القرآن ، من خواص العلماء الربانيين ، والجهابذة الراسخين ، والعقلاء المستبصرين .

وقد اشتمل القرآن على الأدلة العقلية ، والقواطع البرهانية ، ما لو جمع ما عند المتكلمين من حق ، لكان بالنسبة إليه ، كنقرة عصفور ، بالنسبة لماء البحر .

ذلك بأن القرآن هو الحق ، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل

والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح ، فإن ذكر التوحيد والشرك ، وأمر بالأول ، ونهى عن الثانى ، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه ، طريقاً للنجاة ، وقبح الشرك وبطلانه ، وكونه هو الطريق للهلاك ، ما يجعل ذلك للبصيرة ، كالشمس فى نحر الظهيرة .

وإن أمر بالأوامر الشرعية ، وحث على الآداب ، ومكارم الأخلاق ، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية ، التى يحتاجونها فى معاشهم ومعادهم ، ما يجزم بأنه لا أحسن منها ، وأن حكمته تقتضى الأمر بها ، أشد اقتضاء .

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث ، أخبر بما فى ضمنها من الفساد والضرر ، والشر الحاصل بتناولها ، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم ، وتنزيههم عنها ، وتكريمهم ، وتعلية أقدارهم عن التلبس بها ، فوق كل نعمة .

فالمأمورات ، مشتملة على المصالح ، والمحرمات ، مشتملة على المفاسد .

وإن شرع فى الحجاج للمبطلين ، وتزييف شبه المشبهين ، وبطلان مذاهب الضالين ، فقل ما شئت من إحقاق حق ، ودفع باطل ، وإرشاد ضال ، وإقامة الحجة على المعاند ، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شىء من الحق ، بل هو ، على اسمه ، باطل لا حقيقة له ، إن هى إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت ، تبينت هباء منثوراً .

ورأيته يسوق البراهين العقلية ، بأوضح عبارة وأوجزها ، وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء .

فيجمع بين الدليل العقلى والنقلى فى كلمة واحدة ، إيجازاً غير مخل بالمطلوب .

وتارة يفصل ذلك ، ويسرد من البراهين ما يكفى بعضه بالبيان .

فلله الحمد والشكر .

فهذه مقدمة نافعة ، إن شاء الله ، ينبغى للمسلم استقراؤها فى كل مواردها ، والتنبه لكل ما يرد عليه من هذه المطالب على وجه التفصيل .

فمن استعملها فى كل ما يرد عليه من الآيات ، انتفع بها نفعاً عظيما .

وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

تفسير

# سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

---

[ بسم الله ] أى : أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف ، فيعم جميع الأسماء الحسنى .

[ الله ] هو المألوه المعبود ، المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية وهى صفات الكمال .

[ الرحمن الرحيم ] اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شىء ، وعمت كل حى ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله .

فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة ، ومن عداهم ، فله نصيب منها .

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ، الإيمان بأسماء الله وصفاته ، وأحكام الصفات .

فيؤمنون مثلا ، بأنه رحمن رحيم ، ذو الرحمة التى اتصف بها ، المتعلقة بالمرحوم .

. . . . . . . . . . .

فالنعم كلها ، أثر من آثار رحمته ، وهكذا فى سائر الأسماء .

يقال فى العليم : إنه عليم ذو علم ، يعلم به كل شىء ، قدير ، ذو قدرة يقدر على كل شىء .

[ الحمد لله ] هو الثناء على الله بصفات الكمال ، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل ، فله الحمد الكامل ، بجميع الوجوه .

[ رب العالمين ] الرب ، هو المربى جميع العالمين .

وهم من سوى الله ، بخلقه إياهم ، وإعداده لهم الآلات ، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة ، التى لو فقدوها ، لم يمكن لهم البقاء .

فما بهم من نعمة ، فمنه تعالى .

وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : هى خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم ، التى فيها بقاؤهم فى الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه .

وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

ولعل هذا المعنى ، هو السر فى كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب .

فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة .

فدل قوله [ رب العالمين ] على انفراده بالخلق والتدبير ، والنعم ، وكمال غناه .

وتمام فقر العالمين إليه ، بكل وجه واعتبار .

. . . . . . . . . . .

---

[ مالك يوم الدين ] المالك : هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأصناف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن فى ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق.

حتى إنه يستوى فى ذلك اليوم، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار.

كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا، فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام.

وقوله [ إياك نعبد وإياك نستعين ] أى : نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة.

لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه.

فكأنه يقول : نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وتقديم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

و « العبادة » اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة.

. . . . . . . . . . .

و« الاستعانة » هى الاعتماد على الله تعالى فى جلب المنافع ، ودفع المضار، مع الثقة به فى تحصيل ذلك .

والقيام بعبادة الله والاستعانة بهما هو الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة من جميع الشرور .

فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما .

وإنما تكون العبادة عبادة ، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصوداً بها وجه الله .

فبهذين الأمرين تكون عبادة .

وذكر « الاستعانة » بعد « العبادة » مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد فى جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى .

فإنه إن لم يعنه الله ، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر ، واجتناب النواهى .

ثم قال تعالى : [ اهدنا الصراط المستقيم ] أى : دلنا وأرشدنا ، ووفقنا إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله ، وإلى جنته ، وهو معرفة الحق والعمل به ، فاهدنا إلى الصراط واهدنا فى الصراط .

فالهداية إلى الصراط ، لزوم دين الإسلام ، وترك ما سواه من الأديان.

والهداية فى الصراط ، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا .

فهذا الدعاء ، من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به فى كل ركعة من صلاته ، لضرورته إلى ذلك .

. . . . . . . . . . .

وهذا الصراط المستقيم هو [ صراط الذين أنعمت عليهم ] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

[ غير ] صراط [ المغضوب عليهم ] الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم .

و [ لا ] صراط [ الضالين ] الذين تركوا الحق على جهل وضلال ، كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة ، على إيجازها ، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن .

فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة :

توحيد الربوبية يؤخذ من قوله [ رب العالمين ] .

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة ، يؤخذ من لفظ [ الله ] ومن قوله [ إياك نعبد وإياك نستعين ] .

وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى ، التى أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ، وقد دل على ذلك لفظ [ الحمد ] كما تقدم .

وتضمنت إثبات النبوة فى قوله [ اهدنا الصراط المستقيم ] لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة .

وإثبات الجزاء على الأعمال فى قوله [ مالك يوم الدين ] وأن الجزاء يكون بالعدل ، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل .

. . . . . . . . . . .

---

وتضمنت إثبات القـدر ، وأن العبد فاعل حقيقة ، خلافا للقـدرية والجبرية .

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال فى قوله [ اهدنا الصراط المستقيم ] لأنه معرفة الحق والعمل به . وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك .

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى ، عبادة ، واستعانة فى قوله :

[ إياك نعبد وإياك نستعين ] . فالحمد لله رب العالمين .

---

# تفسير

# سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

---

تقدم الكلام على البسملة .

وأما الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فالأسلم فيها ، السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعى ، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها .

وقوله [ ذلك الكتاب ] أى هذا الكتاب العظيم الذى هو الكتاب على الحقيقة ، المشتمل على مالم تشتمل عليه كتب المتقدمين ، من العلم العظيم ، والحق المبين .

فهو [ لا ريب فيه ] ولا شك بوجه من الوجوه .

ونفى الريب عنه ، يستلزم ضده ، إذ ضد الريب والشك ، اليقين .

فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب .

. . . . . . . . . . .

وهذه قاعدة مفيدة ، أن النفى المقصود به المدح ، لابد أن يكون متضمناً لضده ، وهو الكمال ، لأن النفى عدم ، والعدم المحض ، لامدح فيه .

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال :

[ هدى للمتقين ] والهدى : ماتحصل به الهداية من الضلالة والشبه ؛ وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة .

وقال [ هدى ] وحذف المعمول ، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ، ولا للشىء الفلانى ، لإرادة العموم ، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين .

فهو مرشد للعباد فى المسائل الأصولية والفروعية ، ومبين للحق من الباطل ، والصحيح من الضعيف ، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم ، فى دنياهم وأخراهم .

وقال فى موضع آخر [ هدى للناس ] فعمم .

وفى هذا الموضع وغيره [ هدى للمتقين ] لأنه فى نفسه هدى لجميع الناس .

فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً . ولم يقبلوا هدى الله ، فقامت عليهم به الحجة ، ولم ينتفعوا به لشقائهم .

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر ، لحصول الهداية ، وهو التقوى التى حقيقتها : إتخاذ ما يقى سخط الله وعذابه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فاهتدوا به ، وانتفعوا . غاية الانتفاع .

قال تعالى [ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ] .

فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية ، والآيات الكونية .

. . . . . . . . . . .

---

ولأن الهداية نوعان : هداية البيان ، وهداية التوفيق .

فالمتقون حصلت لهم الهدايتان ، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق .

وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ، ليست هداية حقيقية تامة .

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، لتضمن التقوى لذلك فقال :

[ الذين يؤمنون بالغيب ] .

حقيقة الإيمان : هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل ، المتضمن لانقياد الجوارح .

وليس الشأن فى الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس ، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر .

إنما الشأن فى الإيمان بالغيب ، الذى لم نره ولم نشاهده ، وإنما نؤمن به ، لخبر الله وخبر رسوله .

فهذا الإيمان الذى يميز به المسلم من الكافر ، لأنه تصديق مجرد لله ورسله .

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به ، أو أخبر به رسوله ، سواء شاهده ، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله ، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه .

بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية ، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم ، ومرجت أحلامهم .

وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله .

. . . . . . . . . . .

---

ويدخل فى الإيمان بالغيب ، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، وأحوال الآخرة ، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها ، وما أخبرت به الرسل من ذلك .

فيؤمنون بصفات الله ووجودها ، ويتيقنونها ، وإن لم يفهموا كيفيتها .

ثم قال [ ويقيمون الصلاة ] لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون بالصلاة ، لأنه لا يكفى فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة .

فإقامة الصلاة ، إقامتها ظاهراً ، بإتمام أركانها ، وواجباتها ، وشروطها .

وإقامتها باطناً ، بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر مايقوله ويفعله منها .

فهذه الصلاة هى التى قال الله فيها [ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ] وهى التى يترتب عليها الثواب .

فلا ثواب للعبد من صلاته ، إلا ماعقل منها .

ويدخل فى الصلاة فرائضها ونوافلها .

ثم قال [ ومما رزقناهم ينفقون ] يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، والمماليك ونحو ذلك .

والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير .

ولم يذكر المنفق عليهم ، لكثرة أسبابه وتنوع أهله ، ولأن النفقة من حيث هى ، قربة إلى الله .

وأتى بـ « من » الدالة على التبعيض ، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً

. . . . . . . . . . .

---

يسيراً من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مثقل ، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .

وفى قوله [ رزقناهم ] إشارة إلى أن هذه الأموال التى بين أيديكم ، ليست حاصلة بقوتكم وملككم ، وإنما هى رزق الله ، الذى خولكم ، وأنعم به عليكم .

فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده ، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم ، وواسوا إخوانكم المعدمين .

وكثيراً مايجمع تعالى بين الصلاة والزكاة فى القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للاخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة ، متضمنة الاحسان على عبيده .

فعنوان سعادة العبد ، إخلاصه للمعبود ، وسعيه فى نفع الخلق .

كما أن عنوان شقاوة العبد ، عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان .

ثم قال [ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ] وهو القرآن والسنة .

قال تعالى [ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ] .

فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه ، فيؤمنون ببعضه ، ولا يؤمنون ببعضه ، إما بجحده أوتأويله ، على غير مراد الله ورسوله ، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة ، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم ، بما حاصله عدم التصديق بمعناها ، وإن صدقوا بلفظها ، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً .

. . . . . . . . . . .

---

وقوله [ وما أنزل من قبلك ] يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة .

ويتضمن الإيمان بالكتب ، الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه ، خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور .

وهذه خاصية المؤمنين ، يؤمنون بالكتب السماوية كلها ، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم .

ثم قال [ وبالآخرة هم يوقنون ] .

و « الآخرة » اسم لما يكون بعد الموت .

وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان .

ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل .

و « اليقين » هو العلم التام ، الذى ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل .

[ أولئك ] أى الموصوفون بتلك الصفات الحميدة [ على هدى من ربهم ] أى : على هدى عظيم ، لأن التنكير للتعظيم .

وأى هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة ؟ ! ! .

وهل الهداية فى الحقيقة ، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها ، فهى ضلالة .

وأتى بـ « على » فى هذا الموضع ، الدالة على الاستعلاء ، وفى الضلالة يأتى بـ « فى » كما فى قوله [ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ] لأن

صاحب الهدى مستعل بالهدى ، مرتفع به ، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر .

ثم قال [ وأولئك هم المفلحون ] والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب .

حصر الفلاح فيهم ، لأنه لاسبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم ، وماعدا تلك السبيل ، فهى سبل الشقاء والهلاك والخسار ، التى تفضى بسالكها إلى الهلاك .

فلهذا ، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً ، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال .

[ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم ] .

يخبر تعالى : أن الذين كفروا ، أى : اتصفوا بالكفر ، وانصبغوا به ، وصار وصفاً لهم لازماً ، لايردعهم عنه رادع ، ولا ينجع فيهم وعظ .

إنهم مستمرون على كفرهم ، فسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

وحقيقة الكفر ، هو : الجحود لما جاء به الرسول ، أو جحد بعضه .

فهؤلاء الكفار ، لاتفيدهم الدعوة ، إلا إقامة الحجة ، وكأن فى هذا قطعاً ، لطمع الرسول صلى الله عليه وسلم فى إيمانهم ، وأنك لا تأس عليهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ
غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

---

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال :

[ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ] أى : طبع عليها بطابع لايدخلها الإيمان ، ولا ينفذ فيها فلا يعون ماينفعهم ، ولا يسمعون مايفيدهم .

[ وعلى أبصارهم غشاوة ] أى : غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذى ينفعهم ، وهذه طرق العلم والخير ، قد سدت عليهم ، فلا مطمع فيهم ، ولا خير يرجى عندهم .

وإنما منعوا ذلك ، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ماتبين لهم الحق ، كما قال تعالى :

[ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ] وهذا عقاب عاجل .

ثم ذكر العقاب الآجل فقال :

[ ولهم عذاب عظيم ] وهو عذاب النار ، وسخط الجبار المستمر الدائم .

ثم قال تعالى : فى وصف المنافقين ، الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ

---

[ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ] .

واعلم أن النفاق هو : إظهار الخير . وإبطان الشر .

ويدخل فى هذا التعريف ، النفاق الاعتقادى ، والنفاق العملى .

كالذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وفى رواية « وإذا خاصم فجر » .

وأما النفاق الاعتقادى المخرج عن دائرة الإسلام ، فهو الذى وصف الله به المنافقين فى هذه السورة وغيرها .

ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ولا بعد الهجرة ، حتى كانت وقعة « بدر » وأظهر الله المؤمنين ، وأعزهم .

فذل من فى المدينة ممن لم يسلم ، فأظهر الإسلام بعضهم خوفا ومخادعة ، ولتحقن دماؤهم ، وتسلم أموالهم ، فكانوا بين أظهر المسلمين ، فى الظاهر أنهم منهم ، وفى الحقيقة ، ليسوا منهم .

فمن لطف الله بالمؤمنين ، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها ، لئلا يغتر بهم المؤمنون ، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم .

وقال تعالى [ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ] .

إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

---

فوصفهم الله بأصل النفاق فقال :

[ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ] فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

فأكذبهم الله بقوله [ وما هم بمؤمنين ] لأن الإيمان الحقيقى ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين .

والمخادعة : أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ، ويبطن خلافه لكى يتمكن من مقصوده ممن يخادع .

فهؤلاء المنافقون ، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك ، فعاد خداعهم على أنفسهم .

وهذا من العجائب ، لأن المخادع ، إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده ، أو يسلم ، لا له ولا عليه .

وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم ، وكأنهم يعملون مايعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها .

لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئاً ، وعباده المؤمنون ، لايضرهم كيدهم شيئاً .

فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان ، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم ، وصار كيدهم فى نحورهم ، وحصل لهم بذلك الخزى والفضيحة فى الدنيا ، والحزن المستمر بسبب مايحصل للمؤمنين من القوة والنصرة .

. . . . . . . . . . .

ثم فى الآخرة ، لهم العذاب الأليم الموجع المفجع ، بسبب كذبهم ، وكفرهم ، وفجورهم ، والحال أنهم — من جهلهم وحماقتهم — لايشعرون بذلك .

وقوله [فى قلوبهم مرض] المرادبالمرض هنا : مرض الشك ، والشبهات ، والنفاق .

وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله :

مرض الشبهات الباطلة ، ومرض الشهوات المردية .

فالكفر والنفاق ، والشكوك والبدع ، كلها من مرض الشبهات .

والزنا ، ومحبة الفواحش والمعاصى وفعلها ، من مرض الشهوات .

كما قال تعالى [ فيطمع الذى فى قلبه مرض ] وهو شهوة الزنا .

والمعافى ، من عوفى من هذين المرضين ، فحصل له اليقين والإيمـــان ، والصبر عن كل معصية ، فرفل فى أثواب العافية .

وفى قوله عن المنافقين [ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ] بيان لحكمته تعالى فى تقدير المعاصى على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة ، يبتليهم بالمعاصى اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى .

[ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ] .

وقال تعالى [ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ] .

وقال تعالى [وأما الذين فى قلوبهم رجس فزادتهم رجساً إلى رجسهم] .

فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها .

قال تعالى [ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

أى : إذا نهى هؤلاء المنافقون عن الإفساد فى الأرض ، وهو العمل بالكفر . والمعاصى ، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين [ قالوا إنما نحن مصلحون ] .

فجمعوا بين العمل بالفساد فى الأرض ، وإظهار أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح ، قلباً للحقائق ، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً .

وهؤلاء أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصى ، مع اعتقاد تحريمها ، فهذا أقرب للسلامة ، وأرجى لرجوعه .

ولما كان فى قولهم [ إنما نحن مصلحون ] حصر للاصلاح فى جانبهم — وفى ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح — قلب الله عليهم دعواهم بقوله: [ ألا إنهم هم المفسدون ] فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله ، وزعم — مع هذا — أن هذا إصلاح ، فهل بعد هذا الفساد فساد ؟ ! !

ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم ، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله .

وإنما كان العمل فى الأرض إفساداً ، لأنه سبب لفساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار ، والنبات ، لما يحصل فيها من الآفات التى سببها المعاصى .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

ولأن الإصلاح فى الأرض ، أن تعمر بطاعة الله والإيمان به ، لهذا خلق الله الخلق ، وأسكنهم الأرض ، وأدر عليهم الأرزاق ، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته .

فإذا عمل فيها بضده ، كان سعياً فيها بالفساد ، وإخراباً لها عما خلقت له .

أى: إذا قيل للمنافقين : آمنوا كما آمن الناس ، أى : كإيمان الصحابة رضى الله عنهم وهو الإيمان بالقلب واللسان ، قالوا — بزعمهم الباطل — : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ .

يعنون — قبحهم الله — الصحابة رضى الله عنهم ، لزعمهم أن سفههم ، أوجب لهم الإيمان ، وترك الأوطان ، ومعاداة الكفار .

والعقل عندهم يقتضى ضد ذلك ، فنسبوهم إلى السفه ؛ وفى ضمن ذلك ، أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى .

فرد الله ذلك عليهم ، وأخبر أنهم ، هم السفهاء على الحقيقة ، لأن حقيقة السفه ، جهل الإنسان بمصالح نفسه ، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم .

كما أن العقل والحجا ، معرفة الإنسان بمصالح نفسه ، والسعى فيما ينفعه ، وفى دفع مايضره .

وهذه الصفة ، منطبقة على الصحابة والمؤمنين .

فالعبرة بالأوصاف والبرهان ، لا بالدعاوى المجردة ، والأقوال الفارغة .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

---

هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين ، أظهروا أنهم على طريقتهم ، وأنهم معهم ، فإذا خلو إلى شياطينهم — أى كبرائهم ورؤسائهم بالشر — قالوا : إنا معكم فى الحقيقة ، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم ، أنا على طريقتهم .

فهذه حالهم الباطنة والظاهرة ، ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله .

قال تعالى [ الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ] .

وهذا جزاء لهم ، على استهزائهم بعباده .

فمن استهزائه بهم ، أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والأحوال الخبيثة ، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين ، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم .

ومن استهزائه بهم يوم القيامة ، أن يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً ، فإذا مشى المؤمنون بنورهم ، طفىء نور المنافقين ، وبقوا فى الظلمة بعد النور متحيرين ، فما أعظم اليأس بعد الطمع .

[ ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ] الآية .

قوله [ ويمدهم ] أى يزيدهم [ فى طغيانهم ] أى : فجورهم وكفرهم [ يعمهون ] أى حائرون مترددون ، وهذا من استهزائه تعالى بهم .

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

---

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم [ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ] .

أولئك ، أى : المنافقون الموصوفون بتلك الصفات [ الذين اشتروا الضلالة بالهدى ] أى : رغبوا فى الضلالة ، رغبة المشترى فى السلعة ، التى — من رغبته فيها — يبذل فيها الأموال النفيسة .

وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة ، التى هى غاية الشر ، كالسلعة .

وجعل الهدى ، الذى هو غاية الصلاح ، بمنزلة الثمن .

فبذلوا الهدى ، رغبة عنه فى الضلالة رغبة فيها .

فهذه تجارتهم ، فبئس التجارة ، وهذه صفقتهم ، فبئست الصفقة .

وإذا كان من يبذل دينارا فى مقابلة درهم خاسرا ، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما ؟!! فكيف من بذل الهدى . . . فى مقابلة الضلالة ، واختار الشقاء على السعادة ، ورغب فى سافل الأمور وترك عاليها ؟ ! ! فما ربحت تجارته ، بل خسر فيها أعظم خسارة.

[ أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين] .

وقوله [ وما كانوا مهتدين ] تحقيق لضلالهم ، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شىء ، فهذه أوصافهم القبيحة .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ
مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

---

ثم ذكر مثلهم فقال : [ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير ] .

أى : مثلهم المطابق لما كانوا عليه ، كمثل الذى استوقد ناراً .

أى : كان فى ظلمة عظيمة ، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره ، ولم تكن عنده معدة ، بل هى خارجة عنه .

فلما أضاءت النار ماحوله ، ونظر المحل الذى هو فيه ، وما فيه من

. . . . . . . . . . .

---

المخاوف وأمنها ، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه ، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك ، إذ ذهب الله بنوره ، فزال عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقى فى الظلمة العظيمة والنار المحرقة ، فذهب مافيها من الإشراق ، وبقى مافيها من الإحراق .

فبقى فى ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف ؟ .

فكذلك هؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن صفة لهم ، فاستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا ، فحقنت بذلك دماؤهم ، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن فى الدنيا .

فبينما هم كذلك ، إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصى على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار ، وبئس القرار .

فلهذا قال تعالى عنهم [ صم ] أى : عن سماع الخير [ بكم ] أى : عن النطق به [ عمى ] أى : عن رؤية الحق [ فهم لايرجعون ] لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون إليه .

بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لايعقل ، وهو أقرب رجوعا منهم .

ثم قال تعالى [ أو كصيب من السماء ] أى : كصاحب صيب وهو المطر الذى يصوب ، أى : ينزل بكثرة .

. . . . . . . . . . .

---

[ فيه ظلمات ] ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمات المطر .

[ ورعد ] وهو : الصوت الذى يسمع من السحاب .

[ وبرق ] وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب .

[ كلما أضاء لهم ] البرق فى تلك الظلمات [ مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ] أى : وقفوا .

فهكذا حالة المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده ، وتزعجهم وعوده .

فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذى يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه فى أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة .

وأما المنافقون ، فأنى لهم السلامة ، وهو تعالى محيط بهم ، قدرة ، وعلماً فلا يفوتونه ولا يعجزونه ، بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها أتم الجزاء .

ولما كانوا مبتلين بالصمم ، والبكم ، والعمى المعنوى ، ومسدودة عليهم طرق الإيمان . قال تعالى :

[ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ] أى : الحسية .

ففيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة الدنيوية ، ليحذروا ، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم .

[ إن الله على كل شىء قدير ] فلا يعجزه شىء .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

ومن قدرته ، أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض .

وفى هذه الآية وما أشبهها ، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة فى قدرة الله تعالى ، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة فى قوله [ إن الله على كل شىء قدير ] .

هذا أمر عام لجميع الناس ، بأمر عام ، وهو العبادة الجامعة ، لامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتصديق خبره ، فأمرهم تعالى بماخلقهم له .

قال تعالى [ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ] .

ثم استدل على وجوب عبادته وحده ، بأنه ربكم ، الذى رباكم بأصناف النعم ، فخلقكم بعد العدم ، وخلق الذين من قبلكم ، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها ، وتنتفعون بالأبنية ، والزراعة ، والحراثة ، والسلوك من محل إلى محل ، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها .

وجعل السماء بناء لمسكنكم ، وأودع فيها من المنافع ماهو من ضروراتكم وحاجاتكم ، كالشمس ، والقمر ، والنجوم .

[ وأنزل من السماء ماء ] والسماء هو كل ماعلا فوقك فهوسماء ، ولهذا قال المفسرون : المراد بالسماء ههنا ، السحاب .

. . . . . . . . . . .

فأنزل منه تعالى ماء [ فأخرج به من الثمرات ] كالحبوب ، والثمار ، من نخيل ، وفواكه ، وزروع وغيرها [رزقا لكم] به ترتزقون ، وتتموتون وتعيشون وتفكهون .

[فلاتجعلوا لله أنداداً ] أى : أشباها ونظراء من المخلوقين ، فتعبدونهم كما تعبدون الله ، وتحبونهم كما تحبونه ، وهم مثلكم ، مخلوقون ، مرزوقون مدبرون ، لايملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا ينفعونكم ولا يضرون .

[ وأنتم تعلمون ] أن الله ليس له شريك ، ولا نظير ، لافى الخلق ، والرزق ، والتدبير ، ولا فى الألوهية والكمال .

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك ؟ هذا من أعجب العجب ، وأسفه السفه .

وهذه الآية ، جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة ماسواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته ، وبطلان عبادة ماسواه ، وهو ذكر توحيد الربوبية ، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير .

فإذا كان كل أحد ، مقراً بأنه ليس له شريك بذلك ، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك فى عبادته ، وهذا أوضح دليل عقلى ، على وحدانية البارى تعالى ، وبطلان الشرك .

وقوله [ لعلكم تتقون ] يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده ، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه ، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إذا عبدتم الله ، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى ، وكلا المعنيين صحيح ، وهما متلازمان .

فمن أتى بالعبادة كاملة ، كان من المتقين .

ومن كان من المتقين ، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه .

وهذا دليل عقلى ، على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحة ماجاء به فقال :

وإن كنتم — يامعشر المعاندين للرسول ، الرادين دعوته ، الزاعمين كذبه — فى شك واشتباه ، مما نزلنا على عبدنا ، هل هو حق أو غيره ، فههنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه .

وهو أنه بشر مثلكم ، ليس من جنس آخر ، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم ، لايكتب ولا يقرأ .

فأتاكم بكتاب ، أخبركم أنه من عند الله ، وقلتم أنتم ، إنه تقوله وافتراه .

فإن كان الأمر كما تقولون ، فأتوا بسورة من مثله ، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم ، فإن هذا أمر يسير عليكم ، خصوصاً ، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة ، والعداوة العظيمة للرسول .

. . . . . . . . . . .

---

فإن جئتم بسورة من مثله ، فهو كما زعمتم ، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ، فهذا آية كبيرة ، ودليل واضح جلى على صدقه وصدق ماجاء به ، فيتعين عليكم اتباعه ، واتقاء النار التى بلغت فى الحرارة العظيمة والشدة ، أن كان وقودها الناس والحجارة ، ليست كنار الدنيا ، التى تتقد بالحطب ، وهذه النار الموصوفة ، معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسله .

فاحذروا الكفر برسوله ، بعدما تبين لكم أنه رسول الله .

وهذه الآية ونحوها يسمونها آية التحدى ، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويعارضوه بوجه .

قال تعالى [ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ] .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب ؟ .

أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه ، أن يأتى بكلام ككلام الكامل ، الذى له الكمال المطلق ، والغنى الواسع من جميع الوجوه ؟ .

هذا ليس فى الإمكان ، ولا فى قدرة الإنسان .

وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام ، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء ، ظهر له الفرق العظيم .

وفى قوله [ وإن كنتم فى شك ] إلى آخره ، دليل على أن الذى يرجى له الهداية من الضلالة ، هو الشاك الحائر الذى لم يعرف الحق من الضلالة .

. . . . . . . . . . .

فهذا الذى إذا بين له الحق حرى باتباعه ، وإن كان صادقا فى طلب الحق .

وأما المعاند الذى يعرف الحق ويتركه ، فهذا لايمكن رجوعه ، لأنه ترك الحق بعد ماتبين له ، ولم يتركه عن جهل ، فلا حيلة فيه .

وكذلك الشاك الذى ليس بصادق فى طلب الحق ، بل هو معرض ، غير مجتهد بطلبه ، فهذا — فى الغالب — لايوفق .

وفى وصف الرسول بالعبودية فى هذا المقام العظيم ، دليل على أن أعظم أوصافه صلى الله عليه وسلم ، قيامه بالعبودية ، التى لايلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين .

كما وصفه بالعبودية فى مقام الإسراء فقال [سبحان الذى أسرى بعبده ليلا].

وفى مقام تنزيل القرآن عليه فقال [ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ] .

وفى قوله [ أعدت للكافرين ] ونحوها من الآيات ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الجنة والنار مخلوقتان ، خلافا للمعتزلة .

وفيها أيضاً ، أن الموحدين — وإن ارتكبوا بعض الكبائر — لايخلدون فى النار ، لأنه قال [ أعدت للكافرين ] .

فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها ، لم تكن معدة للكافزين وحدهم خلافا للخوارج والمعتزلة .

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه ، وهو الكفر ، وأنواع المعاصى على اختلافها .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

ولما ذكر جزاء الكافرين ، ذكر جزاء المؤمنين ، أهل الأعمال الصالحات ، كما هي طريقته تعالى في كتابه ، يجمع بين الترغيب والترهيب ، ليكون العبد راغباً راهباً ، خائفاً راجياً فقال :

[ وبشر ] أي : أيها الرسول ، ومن قام مقامك .

[ الذين آمنوا ] بقلوبهم [ وعملوا الصالحات ] بجوارحهم ، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين ، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم [ أن لهم جنات ] أي : بساتين جامعة للأشجار العجيبة ، والثمار الأنيقة ، والظل المديد ، والأغصان والأفنان ، وبذلك صارت جنة ، يجتن بها داخلها ، وينعم فيها ساكنها .

[ تجرى من تحتها الأنهار ] أي : أنهار الماء ، واللبن ، والعسل ، والخمر يفجرونها كيف شاءوا ، ويصرفونها أين أرادوا ، وتسقى منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار .

. . . . . . . . . . .

---

[ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ] أى: هذا من جنسه ، وعلى وصفه ، كلها متشابهة فى الحسن واللذة .

ليس فيها ثمرة خاسة ، وليس لهم وقت خال من اللذة ، فهم دائماً متلذذون بأكلها .

وقوله [ وأتوا به متشابهاً ] قيل : متشابهاً فى الاسم ، مختلفاً فى الطعم .

وقيل : متشابهاً فى اللون ، مختلفاً فى الاسم .

وقيل : يشبه بعضه بعضاً ، فى الحسن ، واللذة ، والفكاهة ، ولعل هذا أحسن .

ثم لما ذكر مسكنهم ، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم ، ذكر أزواجهم ، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه ، وأوضحه فقال .

[ ولهم فيها أزواج مطهرة ] فلم يقل « مطهرة من العيب الفلانى » ليشمل جميع أنواع التطهير .

فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار .

فأخلاقهن ، أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولى والفعلى ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمنى ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة .

ومطهرات الخلق أيضاً ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والطرف .

. . . . . . . . . . .

---

قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

ففى هذه الآية الكريمة ، ذكر المبشر والمبشر ، والمبشر به ، والسبب الموصل لهذه البشارة .

فالمبشر ، هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته .

والمبشر ، هم المؤمنون العاملون الصالحات .

والمبشر به ، هى الجنات الموصوفات بتلك الصفات .

والسبب الموصل لذلك ، هو الإيمان والعمل الصالح .

فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة ، إلا بهما .

وهذا أعظم بشارة حاصلة ، على يد أفضل الخلق ، بأفضل الأسباب .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين ، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها ، فإنها بذلك ، تخف وتسهل .

وأعظم بشرى حاصلة للانسان ، توفيقه للايمان والعمل الصالح .

فذلك أول البشارة وأصلها .

ومن بعده ، البشرى عند الموت .

ومن بعده ، الوصول إلى هذا النعيم المقيم . نسأل الله من فضله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

يقول تعالى [ إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما ] أى أى مثل كان [ بعوضة فما فوقها ] لاشتمال الأمثال على الحكمة ، وإيضاح الحق ، والله لايستحى من الحق .

وكأن فى هذا ، جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال فى الأشياء الحقيرة . واعترض على الله فى ذلك . فليس فى ذلك محل اعتراض . بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم . فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر . ولهذا قال :

[ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ] فيفهمونها . ويتفكرون فيها .

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل . ازداد بذلك علمهم وإيمانهم . وإلا علموا أنها حق . وما اشتملت عليه حق . وإن خفى عليهم وجه الحق فيها . لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً . بل لحكمة بالغة . ونعمة سابغة .

[ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ] فيعترضون

. . . . . . . . . . .

---

ويتحيرون . فيزدادون كفراً إلى كفرهم . كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم . ولهذا قال :

[ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ] .

فهذه حال المؤمنين والكافرين . عند نزول الآيات القرآنية .

قال تعالى [ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ] .

فلا أعظم نعمة على العباد . من نزول الآيات القرآنية .

ومع هذا . تكون لقوم محنة . وحيرة . وضلالة . وزيادة شر إلى شرهم .

ولقوم منحة ؛ ورحمة ؛ وزيادة خير إلى خيرهم .

فسبحان من فاوت بين عباده ؛ وانفرد بالهداية والإضلال .

ثم ذكر حكمته وعدله فى إضلاله من يضل فقال :

[ وما يضل به إلا الفاسقين ] أى : الخارجين عن طاعة الله ؛ المعاندين لرسل الله ؛ الذين صار الفسق وصفهم ؛ فلا يبغون به بدلا .

فاقتضت حكمته تعالى ؛ إضلالهم ؛ لعدم صلاحيتهم للهدى .

كما اقتضى فضله وحكمته ؛ هداية من اتصف بالإيمان ؛ وتحلى بالأعمال الصالحة .

والفسق نوعان : نوع مخرج من الدين ؛ وهو الفسق المقتضى للخروج من الإيمان ؛ كالمذكور فى هذه الآية ونحوها .

. . . . . . . . . . .

---

ونوع غير محرج من الإيمان كما فى قوله تعالى [ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ] الآية .

ثم وصف الفاسقين فقال [ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ] .

وهذا يعم العهد الذى بينهم وبين ربهم ؛ والذى بينهم وبين الخلق ؛ الذى أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات .

فلا يبالون بتلك المواثيق ؛ بل ينقضونها ؛ ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه ؛ وينقضون العهود التى بينهم وبين الخلق .

[ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ] وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة .

فإن الله أمرنا ؛ أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به ؛ والقيام بعبوديته .

وما بيننا وبين رسوله؛ بالإيمان به ؛ ومحبته ؛ وتعزيره ؛ والقيام بحقوقه .

وما بيننا وبين الوالدين والأقارب ؛ والأصحاب ؛ وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم التى أمر الله أن نصلها .

فأما المؤمنون ؛ فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق ؛ وقاموا بها أتم القيام .

وأما الفاسقون ؛ فقطعوها ؛ ونبذوها وراء ظهورهم ؛ معتاضين عنها بالفسق والقطيعة ؛ والعمل بالمعاصى ؛ وهو : الإفساد فى الأرض .

[ فأولئك ] أى : من هذه صفته [ هم الخاسرون ] فى الدنيا والآخرة .

فحصر الخسارة فيهم ؛ لأن خسرانهم عام فى كل أحوالهم ؛ ليس لهم

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

نوع من الربح ؛ لأن كل عمل صالح ؛ شرطه الإيمان ؛ فمن لا إيمان له ؛ لاعمل له ؛ وهذا الخسار ؛ هو خسار الكفر .

وأما الخسار الذى قد يكون كفراً ؛ وقد يكون معصية ؛ وقد يكون تفريطاً فى ترك مستحب المذكور فى قوله تعالى [ إن الإنسان لفى خسر ] فهذا عام لكل مخلوق ؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح ؛ والتواصى بالحق ؛ والتواصى بالصبر ؛ وحقيقة فوات الخير ؛ الذى كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه .

ثم قال تعالى [ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ] .

هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار .

أى : كيف يحصل منكم الكفر بالله ؛ الذى خلقكم من العدم ؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم ؛ ثم يميتكم عند استكمال آجالكم ؛ ويجازيكم فى القبور ؛ ثم يحييكم بعد البعث والنشور ؛ ثم إليه ترجعون ؛ فيجازيكم الجزاء الأوفى .

فإذا كنتم فى تصرفه ؛ وتدبيره ؛ وبره ؛ وتحت أوامره الدينية ؛ وبعد ذلك تحت دينه الجزائى ؛ أفيليق بكم أن تكفروا به ؛ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير . ؟

بل الذى يليق بكم ؛ أن تتقوه ؛ وتشكروه ؛ وتؤمنوا به ؛ وتخافوا عذابه ؛ وترجوا ثوابه .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

[ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ] أى : خلق لكم ، براً بكم ورحمة ، جميع ما على الأرض ، للانتفاع والاستمتاع ، والاعتبار .

وفى هذه الآية الكريمة ، دليل على أن الأصل فى الأشياء ، الإباحة والطهارة ، لأنها سيقت فى معرض الامتنان .

يخرج بذلك ، الخبائث ، فإن تحريمها أيضاً ، يؤخذ من فحوى الآية ، وبيان المقصود منها ، وأنه خلقها لنفعنا ، فما فيه ضرر ، فهو خارج من ذلك .

ومن تمام نعمته ، منعنا من الخبائث ، تنزيها لنا .

وقوله : [ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ] .

## ﴿ معانى كلمة « استوى » ﴾

[ استوى ] : ترد فى القرآن على ثلاثة معانى :

فتارة لا تعدى بالحرف . فيكون معناها ، الكمال والتمام ، كما فى قوله عن موسى [ ولما بلغ أشده واستوى ] .

وتارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » ، وذلك إذا عديت بـ « على » كقوله تعالى : [ الرحمن على العرش استوى ] ، [ لتستووا على ظهوره ] .

وتارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عديت بـ « إلى » كما فى هذه الآية. أى : لما خلق تعالى الأرض ، قصد إلى خلق السماوات ، فسواهن سبع سماوات ، فخلقها وأحكمها ، وأتقنها ، وهو بكل شىء عليم .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

---

فيعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، و [ يعلم ما تسرون ، وما تعلنون ] يعلم السر وأخفى .

وكثيراً ما يقرن بين خلقه ، وإثبات علمه كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : [ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ] لأن خلقه للمخلوقات ، أدل دليل على علمه ، وحكمته ، وقدرته .

[ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ] .

هذا شروع فى ابتداء خلق آدم عليه السلام أبى البشر ، وفضله ، وأن الله تعالى — حين أراد خلقه — أخبر الملائكة بذلك ، وأن الله مستخلفه فى الأرض .

فقالت الملائكة عليهم السلام : [ أتجعل فيها من يفسد فيها ] بالمعاصي [ ويسفك الدماء ] ، وهذا تخصيص بعد تعميم ، لبيان شدة مفسدة القتل .

وهذا بحسب ظنهم أن المجعول فى الأرض ، سيحدث منه ذلك ، فنزهوا البارى عن ذلك ، وعظموه ، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا :

[ ونحن نسبح بحمدك ] أى : ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك .

[ ونقدس لك ] يحتمل أن معناها : ونقدسك ، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص .

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ
هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا
مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

---

ويحتمل أن نكون، ونقدس لك أنفسنا . أى: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه ، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة .

قال الله للملائكة : [ إنى أعلم ] من هذا الخليفة [ ما لا تعلمون ] .

لأن كلامكم بحسب ما ظننتم ، وأنا عالم بالظواهر والسرائر ، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة ، أضعاف أضعاف ما فى ضمن ذلك ، من الشر

فلو لم يكن فى ذلك ، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبى منهم الأنبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ولتظهر آياته للخلق ، ويحصل من العبوديات التى لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة ، كالجهاد وغيره ، وليظهر ما كمن فى غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان ، وليتبين عدوه من وليه ، وحزبه من حربه ، وليظهر ما كمن فى نفس إبليس من الشر الذى انطوى عليه ، واتصف به ، فهذه حكم عظيمة ، يكفى بعضها فى ذلك .

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، أراد الله تعالى ، أن يبين لهم من فضل آدم ، ما يعرفون به فضله ، وكمال حكمة الله وعلمه فقال :

[ وعلم آدم الأسماء كلها ] أى : أسماء الأشياء ، وما هو مسمى لها .

فعلمه الاسم والمسمى ، أى : الألفاظ والمعانى ، حتى المصغر من الأسماء والمكبر ، كالقصعة والقصيعة .

بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

---

[ ثم عرضهم ] أى : عرض المسميات [ على الملائكة ] امتحاناً لهم ، هل يعرفونها أم لا ؟.

[ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ] فى قولكم وظنكم ، أنكم أفضل من هذا الخليفة .

[ قالوا سبحانك ] أى : ننزهك من الاعتراض منا عليك ، ومخالفة أمرك .

[ لا علم لنا ] بوجه من الوجوه [ إلا ما علمتنا ] إياه ، فضلا منك وجودا .

[ إنك أنت العليم الحكيم ] العليم الذى أحاط علماً بكل شىء ، فلا يغيب عنه ، ولا يعزب مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ولا أصغرمن ذلك ولا أكبر .

الحكيم ، من له الحكمة التامة ، التى لا يخرج عنها مخلوق ، ولا يشذ عنها مأمور .

فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، ولا أمر بشىء إلا لحكمة .

والحكمة : وضع الشىء فى موضعه اللائق به .

فأقروا ، واعترفوا بعلم الله وحكمته ، وقصورهم عن معرفة أدنى شىء .

واعترافهم بفضل الله عليهم ؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون .

فحينئذ قال الله : [ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ] أى : أسماء المسميات التى عرضها الله على الملائكة ؛ فعجزوا عنها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

---

[ فلما أنبأهم بأسمائهم ] تبين للملائكة فضل آدم عليهم ؛ وحكمة البارى وعلمه فى استخلاف هذا الخليفة .

[ قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ] وهو ما غاب عنا ؛ فلم نشاهده .

فإذا كان عالما بالغيب ؛ فالشهادة من باب أولى .

[ وأعلم ما تبدون ] أى : تظهرون [ وما كنتم تكتمون ] .

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم ؛ إكراما له وتعظيما ؛ وعبودية لله تعالى.

فامتثلوا أمر الله ؛ وبادروا كلهم بالسجود .

[ إلا إبليس أبى ] امتنع عن السجود ؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم ..

قال [ أأسجد لمن خلقت طيناً ] .

وهذا الإباء منه والاستكبار ؛ نتيجة الكفر الذى هو منطو عليه ؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ؛ ولآدم ؛ وكفره واستكباره .

وفى هذه الآيات من العبر والآيات ؛ إثبات الكلام لله تعالى ؛ وأنه لم يزل متكلما ؛ يقول ما شاء ؛ ويتكلم بما شاء ؛ وأنه عليم حكيم.

وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله فى بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه ؛ التسليم ؛ واتهام عقله ؛ والإقرار لله بالحكمة .

وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة ؛ وإحسانه بهم ؛ بتعليمهم ما جهلوا ؛ وتنبيههم على ما لم يعلموه .

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

---

وفيه فضيلة العلم من وجوه :

منها : أن الله تعرف للملائكته ؛ بعلمه وحكمته .

ومنها : أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم ؛ وأنه أفضل صفة تكون في العبد .

ومنها : أن الله أمرهم بالسجود لآدم ؛ إكراما له ؛ لما بان فضل علمه .

ومنها : أن الامتحان للغير ؛ إذا عجزوا عما امتحنوا به ؛ ثم عرفه صاحب الفضيلة ؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء .

ومنها الاعتبار بحال أبوى الإنس والجن ؛ وبيان فضل آدم ؛ وأفضال الله عليه ؛ وعداوة إبليس له ؛ إلى غير ذلك من العبر .

لما خلق الله آدم وفضله ؛ أتم نعمته عليه ؛ بأن خلق منه زوجه ؛ ليسكن إليها ؛ ويستأنس بها ؛ وأمرها بسكنى الجنة ؛ والأكل منها رغداً ؛ أى : واسعاً هنيئاً .

[ حيث شئتما ] أى : من أصناف الثمار والفواكه ؛ وقال الله له :

[ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى].

[ ولا تقربا هذه الشجرة ] نوع من أنواع شجر الجنة ؛ الله أعلم بها .

وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء ؛ أو لحكمة غير معلومة لنا .

[ فتكونا من الظالمين ] دل على أن النهى للتحريم ؛ لأنه رتب الظلم عليه .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

---

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه ؛ حتى أزلهما أى : حملهما على الزلل بتزيينه .

[وقاسمهما] بالله [ إنى لكما لمن الناصحين ] فاغترا به وأطاعاه ؛ فأخرجهما مما كانا فيه ؛ من النعيم والرغد ؛ وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة .

[ بعضكم لبعض عدو ] أى : آدم وذريته ؛ أعداء لإبليس وذريته .

ومن المعلوم أن العدو ؛ يجد ويجتهد فى ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق ؛ وحرمانه الخير بكل طريق .

ففى ضمن هذا ، تحذير بنى آدم من الشيطان كما قال تعالى [ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . ] [ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ] .

ثم ذكر منتهى الإهباط فقال [ ولكم فى الأرض مستقر ] أى: مسكن وقرار .

[ ومتاع إلى حين ] انقضاء آجالكم ، ثم تنتقلون منها للدار التى خلقتم لها ، وخلقت لكم .

ففيها أن مدة هذه الحياة ، مؤقتة عارضة ، ليست مسكنا حقيقياً ، وإنما هى معبر يتزود منها لتلك الدار ، ولا تعمر للاستقرار .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

[ فتلقى آدم ] أي : تلقف وتلقن ، وألهمه الله [ من ربه كلمات ] وهي قوله [ ربنا ظلمنا أنفسنا ] الآية .

فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته [ فتاب ] الله [ عليه ] ورحمه [ إنه هو التواب ] لمن تاب إليه وأناب .

وتوبته نوعان :

توفيقه أولا ، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيا .

[ الرحيم ] بعباده ، ومن رحمته بهم ، أن وفقهم للتوبة ، وعفا عنهم وصفح .

كرر الإهباط ، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله [ فإما يأتينكم منى هدى ]

أي : أي وقت وزمان جاءكم مني ، يا معشر الثقلين ، هدى ، أي : رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني ، ويدنيكم مني ، ويدنيكم من رضائي.

فمن تبع هداى منكم ، بأن آمن برسلي وكتبي ، واهتدى بهم ، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب ، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي .

[ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ] .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

وفى الآية الأخرى [ فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى ] .

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء :

نفى الخوف ، والحزن ، والفرق بينهما ، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن ، وإن كان منتظراً ، أحدث الخوف .

فنفاهما عمن اتبع الهدى وإذا انتفيا، ثبت ضدهما ، وهو الهدى والسعادة.

فمن اتبع هداه،حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى .

وانتفى عنه كل مكروه ، من الخوف ، والحزن ، والضلال ، والشقاء .

فحصل له المرغوب ، واندفع عنه المرهوب .

وهذا عكس من لم يتبع هداه ، فكفر به ، وكذب آياته .

فأولئك أصحاب النار ، أى : الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه .

[ هم فيها خالدون ] لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وفى هذه الآيات وما أشبهها ، انقسام الخلق من الجن والإنس ، إلى أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك .

وأن الجن كالإنس فى الثواب والعقاب ، كما أنهم مثلهم ، فى الأمر والنهى .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا

---

ثم شرع تعالى يذكر بنى إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال :

[ يا بنى إسرائيل ] المراد بإسرائيل ، يعقوب عليه السلام .

والخطاب مع فرق بنى إسرائيل ، الذين بالمدينة وما حولها ، ويدخل فيهم من أتى بعدهم ، فأمرهم بأمر عام فقال [ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ] ، وهو يشمل سائر النعم ، التى سيذكر فى هذه السورة بعضها .

والمراد ذكرها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ، ثناء ، وبالجوارح ، باستعمالها فيما يحبه ويرضيه .

[ وأوفوا بعهدى ] وهو ما عهده إليهم من الإيمان به ، وبرسله ، وإقامة شرعه .

[ أوف بعهدكم ] وهو المجازاة على ذلك .

والمراد بذلك: ما ذكره الله فى قوله [ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى ] إلى قوله [ فقد ضل سواء السبيل ] .

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده ، وهو الرهبة منه تعالى ، وخشيته وحده ، فإن من خشيه ، أوجبت له خشيته ، امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

ثم أمرهم بالأمر الخاص ، الذى لا يتم إيمانهم ، ولا يصح إلا به فقال :

[ وآمنوا بما أنزلت ] وهو القرآن الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

فأمرهم بالإيمان به ، واتباعه ، ويستلزم ذلك ، الإيمان بمن أنزل عليه .

وذكر الداعى لإيمانهم فقال [ مصدقا لما معكم ] أى : موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً .

فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب ، غير مخالف لها ، فلا مانع لكم من الإيمان به ، لأنه جاء بما جاء به المرسلون ، فأنتم أولى من آمن به وصدق به ، لكونكم أهل الكتب والعلم .

وأيضاً فإن فى قوله [ مصدقاً لما معكم ] إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به ، عاد ذلك عليكم ، بتكذيب ما معكم ، لأن ماجاء به هو الذى جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء .

فتكذيبكم له تكذيب لما معكم .

وأيضاً ، فإن فى الكتب التى بأيديكم ، صفة هذا النبى الذى جاء بهذا القرآن والبشارة به .

فإن لم تؤمنوا به ، كذبتم ببعض ما أنزل إليكم ، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه ، فقد كذب بجميعه .

كما أن من كفر برسوله ، فقد كذب الرسل جميعهم .

فلما أمرهم بالإيمان به ، نهاهم وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال : [ ولا تكونوا أول كافر به ] أى : بالرسول والقرآن .

وقوله [ أول كافر به ] أبلغ من قوله [ ولا تكفروا به ] لأنهم إذا كانوا أول كافر به ، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر، عكس ما ينبغى منهم ،

بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

---

وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم .

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان ، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال [ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ] وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل ، التى يتوهمون انقطاعها ، إن آمنوا بالله ورسوله ، فاشتروها بآيات الله واستحبوها ، وآثروها .

[ وإياى ] أى : لا غيرى [ فاتقون ] فإنكم إذا اتقيتم الله وحده ، أوجبت لكم تقواه ، تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل .

كما أنكم ، إذا اخترتم الثمن القليل ، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم .

ثم قال [ ولا تلبسوا ] أى : تخلطوا [ الحق بالباطل وتكتموا الحق ] فنهاهم عن شيئين ، عن خلط الحق بالباطل ، وكتمان الحق .

لأن المقصود من أهل الكتب والعلم ، تمييز الحق ، وإظهار الحق ، ليهتدى بذلك المهتدون ، ويرجع الضالون ، وتقوم الحجة على المعاندين .

لأن الله فصل آياته ، وأوضح بيناته ، ليميز الحق من الباطل ، ولتستبين سبيل المجرمين .

فمن عمل بهذا من أهل العلم ، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم .

ومن لبس الحق بالباطل ، فلم يميزهذا من هذا ، مع علمه بذلك ، وكتم الحق الذى يعلمه ، وأمر بإظهاره ، فهو من دعاة جهنم ، لأن الناس لا يقتدون فى أمر دينهم بغير علمائهم ، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين .

وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

---

ثم قال [وأقيموا الصلاة] أي: ظاهراً وباطناً [وآتوا الزكاة] مستحقيها. [واركعوا مع الراكعين] أي: صلوا مع المصلين.

فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى عبيده وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية،.

وقوله [واركعوا مع الراكعين] أى: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها.

وفيه أن الركوع، ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع.

والتعبير عن العبادة بجزئها، يدل على فرضيته فيها.

[أتأمرون الناس بالبر] أى: بالإيمان والخير [وتنسون أنفسكم] أى تتركونها عن أمرها بذلك، والحال [وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون].

وسمى العقل عقلا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره.

وذلك أن العقل يحث صاحبه، أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه.

. . . . . . . . . . .

---

فمن أمر غيره بالخير ، ولم يفعله ، أو نهاه عن الشر فلم يتركه ، دل على عدم عقله وجهله ، خصوصاً إذا كان عالما بذلك ، قد قامت عليه الحجة .

وهذه الآية ، وإن كانت نزلت فى سبب بنى إسرائيل ، فهى عامة لكل أحد لقوله تعالى :

[ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ] .

وليس فى الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به ، أنه يترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين .

وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين :

أمر غيره ونهيه ، وأمر نفسه ونهيها .

فترك أحدهما ، لا يكون رخصة فى ترك الآخر .

فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما .

وأما قيامه بأحدهما دون الآخر ، فليس فى رتبة الأول ، وهو دون الأخير .

وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله .

فاقتداؤهم بالأفعال ، أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة .

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

---

أمرهم الله أن يستعينوا فى أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه .

وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركها ، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها .

فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه ، معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله .

وكذلك الصلاة ، التى هى ميزان الإيمان ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور [ وإنها ] أي : الصلاة [ لكبيرة ] أى : شاقة [ إلا على الخاشعين ] .

فإنها سهلة عليهم خفيفة ، لأن الخشوع ، وخشية الله ، ورجاء ما عنده ، يوجب له فعلها ، منشرحاً صدره ، لترقبه للثواب ، وخشيته من العقاب .

بخلاف من لم يكن كذلك ، فإنه لا داعى له يدعوه إليها ، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والخشوع هو : خضوع القلب وطمأنينته ، وسكونه لله تعالى ، وانكساره بين يديه ، ذلا وافتقاراً ، وإيمانا به وبلقائه .

ولهذا قال [ الذين يظنون ] أى : يستيقنون [ أنهم ملاقو ربهم ] فيجازيهم بأعمالهم [ وأنهم إليه راجعون ] فهذا الذى خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلى فى المصيبات ، ونفس عنهم الكربات ، وزجرهم عن فعل السيئات .

رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ
عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾

---

فهؤلاء لهم النعيم المقيم فى الغرفات العاليات .

ومن لم يؤمن بلقاء ربه ، كانت الصلاة وغيرها من العبادات ، من أشق شيء عليه .

ثم كرر على بنى إسرائيل التذكير بنعمته ، وعظاً لهم ، وتحذيراً وحثاً، وخوفهم بيوم القيامة الذى [ لا تجزى ] فيه أى: لا تغنى [ نفس] ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين [ عن نفس ] ولو كانت من العشيرة الأقربين [ شيئاً ] لا كبيراً ولا صغيراً وإنما ينفع الإنسان عمله الذى قدمه .

[ ولا يقبل منها ] أى : النفس ، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له ، ولا يرضى منه العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة .

[ ولا يؤخذ منها عدل ] أى : فداء « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب » ولايقبل منهم ذلك [ ولا هم ينصرون ] أى : يدفع عنهم المكروه .

فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ

---

فقوله [ لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ] هذا فى تحصيل النافع .

[ ولا هم ينصرون ] هذا فى دفع المضار ، فهذا النفى للأمر المستقبل به النافع .

ولا تقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، هذا نفى للنفع الذى يطلب ممن يملكه بعوض ، كالعدل ، أو بغيره ، كالشفاعة .

فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين ، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع ، وأن يعلقه بالله الذى يجلب المنافع ، ويدفع المضار ، فيعبده وحده لا شريك له ويستعين على عبادته .

هذا شروع فى تعداد نعمه على بنى إسرائيل على وجه التفصيل فقال : [ وإذ نجيناكم من آل فرعون ] أى : من فرعون وملأه وجنوده وكانوا قبل ذلك [ يسومونكم ] أى: يولونهم ويستعملونهم ( والمعنى يذيقونكم ).

[ سوء العذاب ] أى أشده بأن كانوا [ يذبحون أبناءكم ] خشية نموكم .

[ ويستحيون نساءكم ] أى : فلا يقتلونهن فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم .

[ وفى ذلك ] أى : الإنجاء [ بلاء ] أى : إحسان [ من ربكم عظيم ]. فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره .

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة .

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ
ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ
إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ
فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾

---

ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده ، أى ذهابه .

[ وأنتم ظالمون ] تعلمون بظلمكم ، قد قامت عليكم الحجة ، فهو أعظم جرما وأكبر إثما .

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً فعفا الله عنكم بسبب ذلك [ لعلكم تشكرون ] الله .

[ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ] وهذا غاية الجرأة على الله وعلى رسوله .

[ فأخذتكم الصاعقة ] إما الموت أو الغشية العظيمة .

[ وأنتم تنظرون ] وقوع ذلك ، كل ينظر إلى صاحبه .

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ

---

[ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ] .

ثم ذكر نعمته عليهم فى التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال [ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن ] وهو اسم جامع لكل رزق يحصل بلا تعب ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك .

[ والسلوى ] طائر صغير يقال له السمانى طيب اللحم فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم [ كلوا من طيبات ما رزقناكم ] أى : رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين ، فلم يشكروا هذه النعمة ، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

[ وما ظلمونا ] يعنى بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين ، كما لا تنفعه طاعات الطائعين .

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] فيعود ضرره عليهم .

وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزا ووطنا ومسكنا ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد وأن يكون

خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ
ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

---

دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب سجداً ، أى : خاضعين ذليلين .

وبالقول ، وهو أن يقولوا [ حطة ] أى أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته .

[ يغفر لكم خطاياكم ] بسؤالكم المغفرة .

[ وسنزيد المحسنين ] بأعمالهم ، أى جزاء عاجلا وآجلا .

[ فبدل الذين ظلموا ] منهم،ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا [ قولا غير الذى قيل لهم ] فقالوا بدل حطة حبة فى حنطة استهانة بأمر الله ، واستهزاء وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى.

ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم قال [ فأنزلنا على الذين ظلموا « منهم » رجزا ] .

أي : عذابا [ من السماء بما كانوا يفسقون ] بسبب فسقهم وبغيهم .

استسقى ، أى : طلب لهم ماء يشربون منه .

[ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ] إما حجر مخصوص معلوم عنده ، وإما اسم جنس .

ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ

---

[فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا] وقبائل بنى إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة.

[قد علم كل أناس مشربهم] أى: محلهم الذى يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال [كلوا واشربوا من رزق الله] أى: الذى آتاكم من غير سعى ولا تعب.

[ولا تعثوا فى الأرض] أى: تخربوا على وجه الإفساد.

أى: واذكروا، إذ قلتم لموسى، على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها.

[لن نصبر على طعام واحد] أى: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعا، لكنها لا تتغير.

[فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها] أى: نباتها الذى ليس بشجر يقوم على ساقه.

[وقثائها] وهو الخيار [وفومها] أى ثومها. (وعدسها وبصلها) والعدس والبصل معروف.

ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

---

قال لهم موسى [ أتستبدلون الذى هو أدنى ] وهو الأطعمة المذكورة.

[ بالذى هو خير ] وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم .

فإن هذه الأطعمة التى طلبتموها ، أى مصر هبطتموه وجدتموها .

وأما طعامكم الذى من الله به عليكم ، فهو خير الأطعمة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلا ؟

ولما كان الذى جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم فقال [ وضربت عليهم الذلة ] التى تشاهد على ظاهر أبدانهم [ والمسكنة ] بقلوبهم .

فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهممهم أردأ الهمم .

[ وباءوا بغضب من الله ] أى : لم تكن غنيمتهم التى رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست الحالة حالتهم .

[ ذلك ] الذى استحقوا به غضبه [ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ] الدالات على الحق الموضحة له ، فلما كفروا بها ، عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا [ يقتلون النبيين بغير حق ] .

. . . . . . . . . . .

---

وقوله [ بغير حق ] زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين ، لا يكون بحق ، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

[ ذلك بما عصوا ] بأن ارتكبوا معاصى الله [ وكانوا يعتدون ] على عباد الله ، فإن المعاصى يجر بعضها بعضا .

فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب فى هذه الآيات لأمة بنى إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزون القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهى فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة .

منها أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به .

فبين الله من أحوال سلفهم التى قد تقررت عندهم ، مايبين به لكل واحد منهم ، أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالى الأعمال .

فإذا كانت هذه حالة سلفهم — مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ، ممن بعدهم — فكيف الظن بالمخاطبين ؟ ! ! .

ومنها أن نعمة الله على المتقدمين منهم ، نعمة واصلة إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء .

فخوطبوا بها ، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم فى وقت واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع .

لأن ما يعمله بعضهم من الخير ، يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكرها ، والراضى بالمعصية شريك للعاصى .

إلى غير ذلك من الحكم ، التى لا يعلمها إلا الله .

ثم قال تعالى حاكما بين الفرق الكتابية [ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ] .

وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة ، لأن الصابئين ، الصحيح ، أنهم من جملة فرق النصارى .

فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة ، واليهود والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وصدقوا رسلهم ، فإن لهم الأجر العظيم ، والأمن ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر ، فهو بضد هذه الحال ، فعليه الخوف والحزن .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف ، من حيث هم ، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا ، إخبار عنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وأن هذا مضمون أحوالهم .

وهذه طريقة القرآن ، إذا وقع فى بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام ، فلابد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم ، لأنه تنزيل ممن يعلم الأشياء قبل وجودها ، ومن رحمته وسعت كل شىء .

وذلك — والله أعلم — أنه لما ذكر بنى إسرائيل وذمهم ، وذكر معاصيهم وقبائحهم ، ربما وقع فى بعض النفوس ، أنهم كلهم يشملهم الذم .

فأراد البارى تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه .

ولما كان أيضاً ، ذكر بنى إسرائيل خاصة ، يوهم الاختصاص بهم ، ذكر تعالى حكما عاما يشمل الطوائف كلها ، ليتضح الحق ، ويزول التوهم والإشكال .

فسبحان من أودع فى كتابه ، ما يبهر عقول العالمين .

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بنى إسرائيل بما فعل سلفهم فقال :

[ وإذ أخذنا ميثاقكم ] الآية .

أى : واذكروا [ إذ أخذنا ميثاقكم ] وهو العهد الثقيل المؤكد

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

بالتخويف لهم ، برفع الطور فوقهم وقيل لهم [خذوا ما آتيناكم ] من التوراة [ بقوة ] أى : بجد واجتهاد ، وصبر على أوامر الله .

[ واذكروا ما فيه ] أى : ما فى كتابكم ، بأن تتلوه وتتعلموه .

[ لعلكم تتقون ] عذاب الله وسخطه ، أو لتكونوا من أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البايغ [ توليتم ] وأعرضتم ، وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات .

ولكن [ لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ] .

[ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ] أى : ولقد تقرر عندكم حالة [ الذين اعتدوا منكم فى السبت ] وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله [ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ] الآيات .

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم ، أن غضب الله عليهم ، وجعلهم [ قردة خاسئين ] حقيرين ذليلين .

وجعل الله هذه العقوبة [ نكالا لما بين يديها ] أى : لمن حضرها من الأمم ، وبلغه خبرها ، ممن هو فى وقتهم .

[ وما خلفها ] أى: من بعدها ، فتقوم على العباد حجة الله ، وليرتدعوا عن معاصيه ، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين .

وأما من عداهم ، فلا ينتفعون بالآيات

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ

---

أى : واذكروا ما جرى لكم مع موسى ، حين قتلتم قتيلا ، فادارئتم فيه ، أى : تدافعتم واختلفتم فى قاتله ، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد — لولا تبيين الله لكم — يحدث بينكم شر كبير .

فقال لكم موسى فى تبين القائل : اذبحوا بقرة .

وكان من الواجب، المبادرة إلى امتثال أمره ، وعدم الاعتراض عليه.

ولكنهم أبوا إلا الاعتراض ، فقالوا : [ أتتخذنا هزوا ] فقال نبى الله [ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ].

فإن الجاهل هو الذى يتكلم بالكلام الذى لا فائدة فيه ، وهو الذى يستهزىء بالناس .

وأما العاقل ، فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل ، استهزاءه بمن هو آدمى مثله . وإن كان قد فضل عليه ، فتفضيله يقتضى منه الشكر لربه ، والرحمة لعباده .

فلما قال لهم موسى ذلك ، علموا أن ذلك صدق فقالوا [ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ] أى : ما سنها [ قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ] أى : كبيرة [ ولا بكر ] أى : صغيرة [ عوان بين ذلك ] أى : متوسطة بين. السنين ، المذكورين سابقا . وهما الصغر والكبر .

وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا
تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ

---

[ فافعلوا ما تؤمرون ] واتركوا التشديد والتعنت .

[ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ] أى : شديد [ تسر الناظرين ] من حسنها .

[ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا ] فلم نهتد إلى ما تريد [ وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال : إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ] أى مذللة بالعمل .

[ تثير الأرض ] بالحراثة [ ولا تسقى الحرث ] أى : ليست بسانية [ مسلمة ] من العيوب أو من العمل [ لا شية فيها ] أى : لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم .

[ قالوا الآن جئت بالحق ] أى : بالبيان الواضح .

وهذا من جهلهم ، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة .

فلو أنهم اعترضوا أى بقرة ، لحصل المقصود ، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم ، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها.

[ فذبحوها ] أى : البقرة التى وصفت بتلك الصفات .

[ وما كادوا يفعلون ] بسبب التعنت الذى جرى منهم .

فلما ذبحوها ، قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها ، أى : بعضو منها ،

تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ
قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ
كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ

---

إما بعضو معين ، أو أى عضو منها ، فليس فى تعيينه فائدة ، فضربوه ببعضها فأحياه الله ، وأخرج ما كانوا يكتمون ، فأخبر بقاتله .

وكان فى إحيائه — وهم يشاهدون — ما يدل على إحياء الله الموتى .

لعلكم تعقلون ، فتنزجرون عن ما يضركم .

[ ثم قست قلوبكم ] أى : اشتدت وغلظت ، فلم تؤثر فيها الموعظة .

[ من بعد ذلك ] أى : من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة ، وأراكم الآيات .

ولم يكن ينبغى أن تقسو قلوبكم ، لأن ما شاهدتم ، مما يوجب رقة القلب وانقياده .

ثم وصف قسوتها بأنها [ كالحجارة ] التى هى أشد قسوة من الحديد .
لأن الحديد والرصاص إذا أذيب فى النار ، ذاب ، بخلاف الأحجار .
وقوله [ أو أشد قسوة ] أى : إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار .

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

---

وليست « أو » بمعنى « بل » .

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال [ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ] فبهذه الأمور فضلت قلوبكم .

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال [ وما الله بغافل عما تعملون ] بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها ، وسيجازيكم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله ، قد أكثروا فى حشو تفاسيرهم من قصص بنى إسرائيل ، ونزلوا عليها الآيات القرآنية ، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله ، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ﴾ .

والذى أرى أنه ، وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه ، تكون مفردة غير مقرونة ، ولا منزلة على كتاب الله ، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴾ .

فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها ، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه .

۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

---

فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التى يغلب على الظن كذبها ، أو كذب أكثرها ، معانى لكتاب الله ، مقطوعا بها ، ولا يستريب بهذا أحد .

ولكن بسبب الغفلة عن هذا ، حصل ما حصل . والله الموفق .

هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب ، أى : فلا تطمعوا فى إيمانهم .

وأخلاقهم لا تقتضى الطمع فيهم ، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه ، فيضعون له معانى ، ما أرادها الله ، ليوهموا الناس أنها من عند الله ، وما هى من عند الله .

فإذا كانت حالهم فى كتابهم الذى يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله ، فكيف يرجى منهم إيمان لكم ؟! .

فهذا من أبعد الأشياء .

ثم ذكر حال منافقى أهل الكتاب فقال [ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ] فأظهروا لهم الإيمان قولا بألسنتهم ، ما ليس فى قلوبهم .

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

---

[ وإذا خلا بعضهم إلى بعض ] فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض : [ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ] أى : أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم ، فيكون ذلك حجة لهم عليكم ؟ .

يقولون : إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق ، وما هم عليه باطل ، فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم .

[ أفلا تعقلون ] أى : أفلا يكون لكم عقل ، فتتركون ما هو حجة عليكم ؟ . هذا يقوله بعضهم لبعض .

[ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ] فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم ، وزعموا أنهم بإسرارهم ، لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين ، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير ، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم ، فيظهر لعباده ما هم عليه .

[ ومنهم ] أى : من أهل الكتاب [ أميون ] أى : عوام ، وليسوا من أهل العلم .

[ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ] أى : ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط ، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم ، وهؤلاء ، إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم .

فذكر فى هذه الآيات علماءهم ، وعوامهم ، ومنافقيهم ، ومن لم ينافق منهم ، فالعلماء منهم ، متمسكون بما هم عليه من الضلال .

والعوام مقلدون لهم ، لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم فى الطائفتين .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

توعد تعالى المحرفين للكتاب ، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون [ هذا من عند الله ] وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق ، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم [ ليشتروا به ثمنا قليلا ] .

والدنيا كلها ـ من أولها إلى آخرها ثمن ـ قليل .

فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما فى أيدى الناس ، فظلموهم من وجهين :

من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوها .

ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال [ فويل لهم مما كتبت أيديهم ] أى : من التحريف والباطل [ وويل لهم مما يكسبون ] من الأموال .

والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفى ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام(١) لما ذكر هذه الآيات من قوله ( أفتطمعون ) إلى ( يكسبون ) : فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة ، على ما أصله من البدع الباطلة .

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه .

ومتناول لمن كتب كتابا بيده ، مخالفاً لكتاب الله ، لينال به دنيا

---

( ١ ) هو ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه .

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

---

وقال : إنه من عند الله ، مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الكتاب والسنة ، وهذا معقول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين ، الذى يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية .

ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة ، لئلا يحتج به مخالفه فى الحق الذى يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جداً فى أهل الأهواء جملة ، كالرافضة ، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء . انتهى .

ذكر أفعالهم القبيحة ، ثم ذكر – مع هذا – أنهم يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله ، والفوز بثوابه ، وأنهم لم تمسهم النار إلا أياما معدودة ، أى : قليلة تعد بالأصابع ، فجمعوا بين الإساءة والأمن .

ولما كان هذا مجرد دعوى ، رد الله تعالى عليهم فقال :

[قل]لهم، يا أيها الرسول[ أتخذتم عند الله عهداً ] أى بالإيمان به وبرسله وبطاعته ، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذى لا يتغير ولا يتبدل .

[ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ] ؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم ومتوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما .

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً ، فتكون دعواهم صحيحة .

وإما أن يكونوا متقولين عليه ، فتكون كاذبة ، فيكون أبلغ لخزيهم عذابهم .

مَا لَا تَعلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

---

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً ، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء ، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم ، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق .

فتعين بذلك ، أنهم متقولون مختلقون ، قائلون عليه ما لا يعلمون .

والقول عليه بلا علم ، من أعظم المحرمات ، وأشنع القبيحات .

ثم ذكر تعالى ، حكما عاما لكل أحد ، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم ، وهو الحكم الذى لا حكم غيره ، لا أمانيهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين فقال : [ بلى ] أى : ليس الأمر كما ذكرتم ، فإنه قول لا حقيقة له .

ولكن [ من كسب سيئة ] وهو نكرة فى سياق الشرط ، فيعم الشرك فما دونه .

والمراد به : - هنا - الشرك ، بدليل قوله [ وأحاطت به خطيئته ] أى : أحاطت بعاملها ، فلم تدع له منفذاً ، وهذا لا يكون إلا الشرك ، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته .

[ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية ، وهى حجة عليهم كما ترى ، فإنها ظاهرة فى الشرك ، وهكذا كل مبطل يحتج بآية ، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ

---

[ والذين آمنوا ] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[ وعملوا الصالحات ] ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين :

أن تكون خالصة لوجه الله ، متبعاً بها سنة رسوله .

فحاصل هاتين الآيتين ، أن أهل النجاة والفوز ، هم أهل الإيمان والعمل الصالح .

والهالكون أهل النار هم المشركون بالله ، الكافرون به .

فهذه الشرائع من أصول الدين ، التى أمر الله بها فى كل شريعة ، لاشتمالها على المصالح العامة ، فى كل زمان ومكان ، فلا يدخلها نسخ ، كأصل الدين .

ولهذا أمرنا بها فى قوله [ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ] إلى آخر الآية .

فقوله [ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ] هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به ، استعصوا(١) فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة ، والعهود الموثقة .

[ لا تعبدون إلا الله ] هذا أمر بعبادة الله وحده ، ونهى عن الشرك به.

وهذا أصل الدين ، فلا تقبل الأعمال كلها ، إن لم يكن هذا أساسها ، فهذا حق الله تعالى على عباده ، ثم قال :

---

(١) قوله ( أن كل أمر أمروا به . إلخ ) هكذا فى الأصل ، والعبارة قلقة كما ترى والأوضح أن يقال ( أنهم كلما أمروا بأمر ، استعصوا . إلخ ) .

حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

---

[ وبالوالدين إحسانا ] أى : أحسنوا بالوالدين إحسانا .

وهذا يعم كل إحسان ، قولى ، وفعلى ، مما هو إحسان إليهم .

وفيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين ، أو عدم الإحسان والإساءة .

لأن الواجب ، الإحسان ، والأمر بالشىء ، نهى عن ضده .

وللإحسان ضدان : الإساءة ، وهى أعظم جرما .

وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن يلحق بالأول .

وكذا يقال فى صلة الأقارب واليتامى ، والمساكين .

وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد ، بل تكون بالحد ، كما تقدم .

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال: [ وقولوا للناس حسنا ] ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .

ولما كان الإنسان لايسع الناس بماله ، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون فى ضمن ذلك ، النهى عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار ، ولهذا قال تعالى : [ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ] .

ومن أدب الإنسان الذى أدب الله به عباده ، أن يكون الإنسان نزيها فى أقواله وأفعاله ، غير فاحش ولا بذىء ، ولا شاتم ، ولا مخاصم .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

بل يكون حسن الخلق ، واسع الحلم ، مجاملا لكل أحد ، صبورا على ما يناله من أذى الخلق ، امتثالا لأمر الله ، ورجاء لثوابه .

ثم أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة للاحسان إلى العبيد .

ثم بعد هذا الأمر لكم ، بهذه الأوامر الحسنة التى إذا نظر إليها البصير العاقل ، عرف أن من إحسان الله على عباده ، أن أمرهم بها ، ، وتفضل بها عليهم ، وأخذ المواثيق عليكم [ ثم توليتم ] على وجه الإعراض .

لأن المتولى قد يتولى ، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه .

وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع فى هذه الأوامر .

فنعوذ بالله من الخذلان .

وقوله [ إلا قليلا منكم ] هذا استثناء ، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم .

فأخبر أن قليلا منهم ، عصمهم الله وثبتهم .

وهذا الفعل المذكور فى هذه الآية ، فعل للذين كانوا فى زمن الوحى بالمدينة .

وذلك أن الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مشركين ، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية .

فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود ، بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع .

ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ

---

فكل فرقة منهم ، حالفت فرقة من أهل المدينة .

فكانوا إذا اقتتلوا ، أعان اليهودى حليفه على مقاتليه ، الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود ، فيقتل اليهودى اليهودى ، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب .

ثم إذا وضعت الحرب أوزارها ، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا .

والأمور الثلاثة كلها ، قد فرضت عليهم .

ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وإذا وجدوا أسيراً منهم ، وجب عليهم فداؤه .

فعملوا بالأخير وتركوا الأولين ، فأنكر الله عليهم ذلك فقال :

[ أفتؤمنون ببعض الكتاب ] وهو فداء الأسير [ وتكفرون ببعض] وهو القتل والإخراج .

وفيها دليل على أن الإيمان ، يقتضى فعل الأوامر ، واجتناب النواهى وأن المأمورات من الإيمان قال تعالى :

[فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا] وقد وقع ذلك.

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

---

فأخزاهم الله ، وسلط رسوله عليهم ، فقتل من قتل ، وسبى من سبى منهم ، وأجلى من أجلى .

[ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ] أى : أعظمه [وما الله بغافل عما تعملون ] .

ثم أخبر تعالى عن السبب الذى أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب ، والإيمان ببعضه فقال : [ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ] توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار ؛ فاختاروا النار على العار .

فلهذا قال : [ فلا يخفف عنهم العذاب ] بل : هو باق على شدته ، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات .

[ ولا هم ينصرون ] أى : يدفع عنهم مكروه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ
بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ
أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

---

يمتن تعالى على بنى إسرائيل ، أن أرسل لهم كليمه موسى ، وآتاه التوراة ، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة ، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليه السلام .

وآتاه من الآيات البينات ، ما يؤمن على مثله البشر .

[ وأيدناه بروح القدس ] أى : قواه الله بروح القدس .

قال أكثر المفسرين : إنه جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه الإيمان الذى يؤيد الله به عباده .

ثم مع هذه النعم التى لا يقدر قدرها ، لما أتوكم [ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ] عن الإيمان بهم .

[ ففريقاً ] منهم [ كذبتم وفريقاً تقتلون ] فقدمتم الهوى على الهدى ، وآثرتم الدنيا على الآخرة .

وفيها من التوبيخ والتشديد ، ما لا يخفى .

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ

---

أى : اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه ، يا أيها الرسول ، بأن قلوبهم غلف ، أى : عليها غلاف وأغطية ، فلا تفقه ما تقول .

يعنى، فيكون لهم — بزعمهم — عذر لعدم العلم ، وهذا كذب منهم .

فلهذا قال تعالى : [ بل لعنهم الله بكفرهم ] أى : أنهم مطرودون ملعونون ، بسبب كفرهم .

فقليلا ، المؤمن منهم ، أو قليلا ، إيمانهم . وكفرهم هو الكثير .

أى : ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق ، وخاتم الأنبياء ، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين فى الجاهلية حروب ، استنصروا بهذا النبى ، وتوعدوهم بخروجه ، وأنهم يقاتلون المشركين معه .

فلما جاءهم هذا الكتاب والنبى الذى عرفوا ، كفروا به، بغياً وحسداً، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

فلعنهم الله ، وغضب عليهم غضباً بعد غضب ، لكثرة كفرهم ، وتوالى شكهم وشركهم .

أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ

---

[ ولهم فى الآخرة عذاب مهين ] أى : مؤلم موجع ، وهو صلى الجحيم ، وفوت النعيم المقيم .

فبئس الحال حالهم ، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله ، الكفر به ، وبكتبه ، وبرسله ، مع علمهم وتيقنهم ، فيكون أعظم لعذابهم .

أى : وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وهو القرآن استكبروا وعتوا ، و [ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ] أى : بما سواه من الكتب .

مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً ، سواء أنزل عليهم ، أوعلى غيرهم ، وهذا هو الإيمان النافع ، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب ، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان ، بل هو الكفر بعينه ، ولهذا قال تعالى :

[ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله

فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم

ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ] .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ، رداً شافياً ، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه ، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال : [ وهو الحق ] ،

فإذا كان هو الحق فى جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات ، والأوامر والنواهى ، وهو من عند ربهم ، فالكفر به — بعد ذلك — كفر بالله ، وكفر بالحق الذى أنزله .

ثم قال [ مصدقا لما معهم ] أى : موافقاً له فى كل ما دل عليه من الحق ومهيمنا عليه .

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم ، وتكفرون بنظيره ؟ .

هل هذا إلا تعصب ، واتباع للهوى لا للهدى ؟

وأيضاً ، فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم ، يقتضى أنه حجة لهم على صدق ما فى أيديهم من الكتب ، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به .

فإذا كفروا به وجحدوه ، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ، ليس له غيرها ، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته ، ثم يأتى هو لبينته وحجته ، فيقدح فيها ويكذب بها ؛ أليس هذا من الحماقة والجنون ؟

فكان كفرهم بالقرآن ، كفراً بما فى أيديهم ونقضاً له .

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله :

[ قل ] لهم [ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ . ولقد جاءكم موسى بالبينات ] أى : بالأدلة الواضحات المبينة للحق .

مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم
بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ
قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

---

ثم اتخذتم العجل من بعده ] أى : بعد مجيئه [ وأنتم ظالمون ] فى ذلك ليس لكم عذر .

[ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ] أى : سماع قبول وطاعة واستجابة .

[ قالوا سمعنا وعصينا ] أى : صارت هذه حالتهم [ وأشربوا فى قلوبهم العجل ] أى : صبغ حب العجل ، وحب عبادته ، فى قلوبهم ، وشربها بسبب كفرهم .

[ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ] أى : أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق ، وأنتم قتلتم أنبياء الله ، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله ، لما غاب عنكم موسى ، نبى الله ، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم ، فالتزمتم بالقول ، ونقضتم بالفعل .

فما هذا الإيمان الذى ادعيتم ، وما هذا الدين ؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم ، فبئس الإيمان الداعى صاحبه إلى الطغيان ، والكفر برسل الله ، وكثرة العصيان .

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

---

وقد عهد أن الإيمان الصحيح ، يأمر صاحبه بكل خير ، وينهاه عن كل شر .

فوضح بهذا كذبهم ، وتبين تناقضهم .

* أي :[قل] لهم على وجه تصحيح دعواهم [إن كانت لكم الدار الآخرة] يعني الجنة [ خالصة من دون الناس ] كما زعمتم ، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة .

فإن كنتم صادقين فى هذه الدعوى [ فتمنوا الموت ] وهذا نوع مباهلة بينهم ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم ، إلا أحد أمرين:

إما أن يؤمنوا بالله ورسوله .

وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم ، وهو تمنى الموت الذى يوصلهم إلى الدار التى هى خالصة لهم ، فامتنعوا من ذلك .

فعلم كل أحد أنهم فى غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله ،مع علمهم بذلك.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

---

ولهذا قال تعالى [ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ] من الكفر والمعاصى ، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة .

فالموت أكره شيء إليهم ، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس ، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب .

ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال : [ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ] .

وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ، تمنوا حالة هى من المحالات .

والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور ، لم يغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا .

[ والله بصير بما يعملون ] تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم .

* أى: قل لهؤلاء اليهود ، الذين زعموا أن الذى منعهم من الإيمان بك، أن وليك جبريل عليه السلام ، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا : إن هذا الزعم منكم ، تناقض وتهافت ، وتكبر على الله .

فإن جبريل عليه السلام هو الذى نزل القرآن من عند الله على قلبك ، وهو الذى ينزل على الأنبياء قبلك ، والله هو الذى أمره ، وأرسله بذلك ، فهو رسول محض .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

مع أن هذا الكتاب الذى نزل به جبريل ـ مصدقاً لما تقدمه من الكتب ـ غير مخالف لها ولا مناقض ، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات ، والبشارة بالخير الدنيوى والأخروى ، لمن آمن به .

فالعداوة لجبريل ، الموصوف بذلك ، كفر بالله وآياته ، وعداوة لله ولرسله وملائكته .

فإن عداوتهم لجبريل ، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق ، على رسل الله .

فيتضمن الكفر والعداوة ، للذى أنزله وأرسله ، والذى أرسل به ، والذى أرسل إليه ، فهذا وجه ذلك .

* يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم [ولقد أنزلنا إليك آيات بينات] تحصل بها الهداية لمن استهدى ، وإقامة الحجة على من عاند ، وهى فى الوضوح والدلالة على الحق ، قد بلغت مبلغاً عظيما ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله ، وخرج عن طاعة الله ، واستكبر غاية التكبر .

وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم ، وعدم صبرهم على الولاء بها .

* فـ [ كلما ] تفيد التكرار ، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض .

ما السبب فى ذلك ؟ .

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ
سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ

---

فعدم إيمانهم هو الذى أوجب لهم نقض العهود .
ولو صدق إيمانهم ، لكانوا مثل من قال الله فيهم :
[ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ] .

* أى: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به .

[ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ] الذى أنزل إليهم أى طرحوه رغبة عنه [ وراء ظهورهم ] وهذا أبلغ فى الإعراض كأنهم فى فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به ، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق فى أيديهم شىء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول ، فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون .

ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ماينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع ، ابتلى بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عبادة الرحمن ، ابتلى بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ، ابتلى بمحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ومن لم ينفق ماله فى طاعة الله أنفقه فى طاعة الشيطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلى بالذل للعبيد .

ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ

---

ومن ترك الحق ابتلى بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة فى ذلك فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق فى قيله :

[ وما كفر سليمان ] أى : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه .

[ ولكن الشياطين كفروا ] فى ذلك .

[ يعلمون الناس السحر ] من إضلالهم وحرصهم على إغواء بنى آدم

وكذلك اتبع اليهود السحر الذى أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

[ وما يعلمان من أحد حتى ] ينصحاه ، و[ يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ] أى : لا تتعلم السحر فإنه كفر فينهيانه عن السحر ويخبرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام .

وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة .

ٱشْتَرَىٰهُ مَالَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

---

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذى تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفاسد السحر فقال : [ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ] مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن الله قال فى حقهما [ وجعل بينكم مودة ورحمة ] وفى هذا دليل على أن السحر له حقيقة وأنه يضر بإذن الله أى بإرادة الله ، والإذن نوعان :

إذن قدرى وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما فى هذه الآية .

وإذن شرعى كما فى قوله تعالى فى الآية السابقة .

[فإنه نزله على قلبك بإذن الله ] وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير ، ولم يخالف فى هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية فى أفعال العباد زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله .

فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة ، ليس فيه منفعة لادينية ولادنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية فى بعض المعاصى .

كما قال تعالى فى الخمر والميسر [ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ

---

فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلا ، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها .

[ ولقد علموا ] أى اليهود [ لمن اشتراه ] أي : رغب فى السحر رغبة المشتري فى السلعة .

[ ما له فى الآخرة من خلاق ] أى : نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ، فلم يكن فعلهم إياه جهلا ، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

[ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ] علما يثمر العمل ما فعلوه .

* كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين [ راعنا ] أى : راع أحوالنا ، فيقصدون بها معنى صحيحاً .

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً ، فانتهزوا الفرصة ، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ، ويقصدون المعنى الفاسد .

فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، سداً لهذا الباب .

ففيه النهى عن الجائز ، إذا كان وسيلة إلى محرم .

مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

---

وفيه الأدب ، واستعمال الألفاظ ، التى لا تحتمل إلا الحسن ، وعدم الفحش ، وترك الألفاظ القبيحة ، أو التى فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق .

فأمرهم بلفظة ، لا تحتمل إلا الحسن فقال [ وقولوا انظرنا ] .

فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور .

[ واسمعوا ] لم يذكر المسموع ، ليعم ما أمر باستماعه .

فيدخل فيه سماع القرآن ، وسماع السنة التى هى الحكمة ، لفظاً ومعنى ، واستجابة .

ففيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع ، وأخبر عن عداوة اليهود المشركين للمؤمنين ، أنهم ما يودون [ أن ينزل عليكم من خير ] .

أى : لا قليلا ولا كثيراً [ من ربكم ] حسداً منهم ، وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله فإنه [ ذو الفضل العظيم ] .

ومن فضله عليكم ، أنزل الكتاب على رسولكم ، ليزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فله الحمد والمنة .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

النسخ ، هو النقل ، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع ، إلى حكم آخر ، أو إلى إسقاطه .

وكان اليهود ينكرون النسخ ، ويزعمون أنه لا يجوز ، وهو مذكور عندهم فى التوراة ، فإنكارهم له ، كفر وهوى محض .

فأخبر الله تعالى عن حكمته فى النسخ فقال :

[ ما ننسخ من آية أو ننسها ] أى : ننسها العباد ، فنزيلها من قلوبهم .

[ نأت بخير منها ] وأنفع لكم [ أو مثلها ] .

فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول ، لأن فضله تعالى يزداد ، خصوصاً على هذه الأمة ، التى سهل عليها دينها ، غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح فى النسخ ، قدح فى ملكه وقدرته فقال :

[ ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ] .

فإذا كان مالكا لكم ، متصرفا فيكم ، تصرف المالك البر الرحيم فى أقداره وأوامره ونواهيه ، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير ، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام .

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية ، فما له والاعتراض؟

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

وهو أيضاً ، ولى عباده ، ونصيرهم .

فيتولاهم فى تحصيل منافعهم ، وينصرهم فى دفع مضارهم .

فمن ولايته لهم، أن يشرع لهم من الأحكام ، ماتقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع فى القرآن والسنة من النسخ ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده ، وإيصالهم إلى مصالحهم ، من حيث لا يشعرون بلطفه .

* ينهى الله المؤمنين ، أو اليهود ، بأن يسألوا رسولهم [ كما سئل موسى من قبل ] .

والمراد بذلك ، أسئلة التعنت والاعتراض ، كما قال تعالى :

[ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ] .

وقال تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ] .

فهذه ونحوها ، هى المنهى عنها .

وأما سؤال الاسترشاد والتعليم ، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى [ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ] .

ويقرهم عليه ، كما فى قوله [ يسئلونك عن الخمر والميسر ] و [ يسألونك عن اليتامى ] ونحو ذلك .

ولما كانت المسائل المنهى عنها مذمومة ، قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال : [ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ] .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟
حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

---

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب ، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا [ لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ] وسعوا فى ذلك ، وعملوا المكايد ، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى :

[ وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ] وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم .

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم بالعفو عنهم ، والصفح ، حتى يأتى الله بأمره .

ثم بعد ذلك ، أتى الله بأمره إياهم بالجهاد ، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم ، فقتلوا من قتلوا ، واسترقوا من استرقوا ، وأجلوا من أجلوا [ إن الله على كل شىء قدير ] .

ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات .

ووعدهم أنهم ، مهما فعلوا من خير ، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه [ إن الله بما تعملون بصير ] .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

أي : قال اليهود ، لن يدخل الجنة إلا من كان هودا .

وقالت النصاري ، لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى .

فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة ، إلا بحجة وبرهان ، فأتوا بها إن كنتم صادقين .

وهكذا كل من ادعى دعوى ، لابد أن يقيم البرهان على صحة دعواه .

وإلا ، فلو قلبت عليه دعواه ، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما .

فالبرهان ، هو الذى يصدق الدعوى أو يكذبها .

ولما لم يكن بأيديهم برهان ، علم كذبهم بتلك الدعوى .

ثم ذكر تعالى البرهان الجلى العام لكل أحد ، فقال : [بلى] أى : ليس بأمانيكم ودعاويكم ، ولكن [ من أسلم وجهه لله ] أى : أخلص لله أعماله ، متوجها إليه بقلبه .

[ وهو ] مع إخلاصه [ محسن ] فى عبادة ربه ، بأن عبده بشرعه ، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم .

[ فله أجره عند ربه ] وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم [ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] فحصل لهم المرغوب ، ونجوا من المرهوب .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ

---

ويفهم منها ، أن من ليس كذلك ، فهو من أهل النار الهالكين .

فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول .

وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد ، إلى أن بعضهم ضلل بعضاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم .

فكل فرقة تضلل الأخرى ، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل ، الذى أخبر به عباده ، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين ، وامتثل أوامر ربه ، واجتنب نواهيه ، ومن عداهم ، فهو هالك .

* أى : لا أحد أظلم ، وأشد جرما ، ممن منع مساجد الله ، عن ذكر الله فيها ، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات .

[ وسعى ] أى : اجتهد وبذل وسعه [ فى خرابها ] الحسى والمعنوى .

فالخراب الحسى : هدمها وتخريبها ، وتقذيرها .

والخراب المعنوى ، منع الذاكرين لاسم الله فيها .

وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

---

وهذا عام ، لـكل من اتصف بهذه الصفة ، فيدخل فى ذلك أصحاب الفيل ، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية ، والنصاري حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة ، الساعين فى خرابها ، محادة لله ، ومشاقة .

فجازاهم الله ، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدراً ، إلا خائفين ذليلين ، فلما أخافوا عباد الله ، أخافهم الله .

فالمشركون الذين صدوا رسوله ، لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيراً ، حتى أذن الله له فى فتح مكة .

ومنع المشركين من قربان بيته ، فقال تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] .

وأصحاب الفيل ، قد ذكر الله ما جرى عليهم .

والنصارى ، سلط الله عليهم المؤمنين ، فأجلوهم .

وهكذا كل من اتصف بوصفهم ، فلابد أن يناله قسطه ، وهذا من الآيات العظيمة ، أخبر بها البارى قبل وقوعها ، فوقعت كما أخبر .

واستدل العلماء بالآية الكريمة ، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد .

[ لهم فى الدنيا خزي ] فضيحة كما تقدم [ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ] .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فلا أعظم إيماناً ممن سعى فى عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية ، كما قال تعالى :

[ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ] .

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها ، فقال تعالى :

[ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ] .

والمساجد أحكام كثيرة ، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة .

أى : [ ولله المشرق والمغرب ] .

خصهما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، فى مطالع الأنوار ومغاربها .

فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات .

[ فأينما تولوا ] وجوهكم من الجهات ، إذا كان توليكم إياها بأمره ، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس ، أو تؤمرون بالصلاة فى السفر على الراحلة ونحوها ، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشتبه القبلة ، فيتحرى الصلاة إليها ، ثم يتبين له الخطأ ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك .

فهذه الأمور ، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً .

وبكل حال ، فما استقبل جهة من الجهات ، خارجة عن ملك ربه .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

---

[ فثم وجه الله إن الله واسع عليم ] فيه إثبات الوجه لله تعالى ، على الوجه اللائق به تعالى ، وأن لله وجها لا تشبهه الوجوه ، وهو — تعالى — واسع الفضل والصفات عظيمها ، عليم بسرائركم ونياتكم .

فمن سعته وعلمه ، وسع لكم الأمر ، وقبل منكم المأمور ، فله الحمد والشكر .

[ وقالوا ] أي : اليهود والنصارى والمشركون ، وكل من قال ذلك .

[ اتخذ الله ولداً ] فنسبوه إلى مالا يليق بجلاله ، وأساءوا كل الإساءة ، وظلموا أنفسهم .

وهو — تعالى — صابر على ذلك منهم ، قد حلم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم مع تنقصهم إياه .

[سبحانه ] أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله .

فسبحان من له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، الذى لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه .

ومع رده لقولهم ، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال :

[ بل له ما فى السموات والأرض ] أى : جميعهم ملكه وعبيده ، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك ، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره.

. . . . . . . . . . .

---

فإذا كانوا كلهم عبيده ، مفتقرين إليه ، وهو غنى عنهم ، فكيف يكون منهم أحد ، يكون له ولداً ، والولد لابد أن يكون من جنس والده ، لأنه جزء منه .

والله تعالى المالك القاهر ، وأنتم المملوكون المقهورون ، وهو الغنى وأنتم الفقراء .

فكيف مع هذا ، يكون له ولد ؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه .

والقنوت نوعان: قنوت عام وهوقنوت الخلق كلهم، تحت تدبيرالخالق.

وخاص ، وهو قنوت العبادة .

فالنوع الأول كما فى هذه الآية .

والنوع الثانى كما فى قوله تعالى [ وقوموا لله قانتين ] .

ثم قال [ بديع السموات والأرض ] أى : خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق .

[ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ] فلا يستعصى عليه ، ولا يمتنع منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ
ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ

---

أى : قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم : هل يكلمنا الله ، كما كلم الرسل .

[ أوتأتينا آية ] ، يعنون آيات الاقتراح ، التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة ، التى تجرأوا بها على الخالق ، واستكبروا على رسله كقولهم .

[ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ] ،[يسألك أهل الكتاب أن تنزل كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ] الآية .

[ وقالوا لولا نزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة من نخيل وعنب ] الآيات .

وقوله [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ] الآيات .

فهذا دأبهم مع رسلهم ، يطلبون آيات التعنت ، لا آيات الاسترشاد ، ولم يكن قصدهم تبين الحق .

فإن الرسل ، قد جاءوا من الآيات ، بما يؤمن على مثله البشر ، ولهذا قال تعالى [ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ] .

فكل موقن ، فقد عرف من آيات الله الباهرة ، وبراهينه الظاهرة ، ما حصل له به اليقين ، واندفع عنه كل شك وريب .

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال :

بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

---

[ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ] فهذا مشتمل على الآيات التى جاء بها ، وهى ترجع إلى ثلاثة أمور :

الأول ، فى نفس إرساله ، والثانى ، فى سيرته وهديه ودله .

والثالث ، فى معرفة ما جاء به من القرآن والسنة .

فالأول والثانى ، قد دخلا فى قوله : [ إنا أرسلناك ] .

والثالث فى قوله [ بالحق ] .

وبيان الأمر الأول وهو ـ نفس إرساله ـ أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان ، وتبديلهم للأديان ، حتى كانوا فى ظلمة من الكفر ، قد عمتهم وشملتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، قد انقرضوا قبيل البعثة .

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ، ولم يتركهم هملا ، لأنه حكيم عليم ، قدير رحيم .

فمن حكمته ورحمته بعباده ، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم ، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له ، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله .

وأما الثانى ، فمن عرف النبى صلى الله عليه وسلم معرفة تامة ، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة الناظرين ، فمن عرفها ، وسبر

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

أحواله ، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين ، لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

وأما الثالث ، فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم ، والقرآن الكريم ، المشتمل على الإخبارات الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهي عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة .

قوله [ بشيراً ] أي لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية .

[ ونذيراً ] لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي .

[ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ] أي : لست مسئولا عنهم ، إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

يخبر تعالى رسوله ، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى ، إلا باتباعه دينهم ، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه ، ويزعمون أنه الهدى .

فقل لهم [ إن هدى الله ] الذي أرسلت به [ هو الهدى ] .

وأما ما أنتم عليه ، فهو الهوى بدليل قوله [ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله ولي ولا نصير ] .

فهذا فيه النهي العظيم ، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى ، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم .

والخطاب ـ وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فإن أمته داخلة في ذلك .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن
نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

---

لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب .

كما أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم قال : [ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون . يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزى نفس **عن** نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ] .

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ، ومن عليهم به منة مطلقة ، أنهم [ يتلونه حق تلاوته ] أى : يتبعونه حق اتباعه ، والتلاوة : الاتباع .

فيحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه .

وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب ، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها ، وآمنوا بكل الرسل ، ولم يفرقوا بين أحد منهم .

فهؤلاء ، هم المؤمنون حقاً ، لا من قال منهم « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

---

ولهذا توعدهم بقوله [ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ] وقد تقدم تفسير الآية التى بعدها .

يخبر تعالى ، عن عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، المتفق على إمامته وجلالته ، الذى كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه ، بل وكذلك المشركون : أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات ، أى : بأوامر ونواهى ، كما هى عادة الله فى ابتلائه لعباده ، ليتبين الكاذب الذى لا يثبت عند الابتلاء ، والامتحان من الصادق ، الذى ترتفع درجته ، ويزيد قدره ، ويزكو عمله ، ويخلص ذهبه .

وكان من أجلهم فى هذا المقام ، الخليل عليه السلام .

فأتم ما ابتلاه الله به ، وأكمله ووفاه ، فشكر الله له ذلك ، ولم يزل الله شكوراً فقال :

[ إنى جاعلك للناس إماماً ] أى : يقتدون بك فى الهدى ، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية ، ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ، والتعظيم من كل أحد .

وهذه ـ لعمر الله ـ أفضل درجة ، تنافس فيها المتنافسون ، وأعلى مقام ، شمر إليه العاملون ، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم ، من كل صديق متبع لهم ، داع إلى الله وإلى سبيله .

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام ، وأدرك هذا ، طلب ذلك لذريته ، لتعلو درجته ودرجة ذريته .

وهذا أيضاً من إمامته ، ونصحه لعباد الله ، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون .

فلله عظمة هذه الهمم العالية ، والمقامات السامية .

فأجابه الرحيم اللطيف ، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال :

[ لا ينال عهدى الظالمين ] أى : لا ينال الإمامة فى الدين ، من ظلم نفسه وضرها ، وحط قدرها ، لمنافاة الظلم لهذا المقام ، فإنه مقام ، آلته الصبر واليقين .

ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة ، والأخلاق الجميلة ، والشمائل السديدة ، والمحبة التامة ، والخشية والإنابة .

فأين الظلم وهذا المقام ؟

ودل مفهوم الآية ، أن غير الظالم ، سينال الإمامة ، ولكن مع إتيانه بأسبابها .

ثم ذكر تعالى ، أنموذجاً باقياً دالا على إمامة إبراهيم ، وهو : هذا البيت الحرام الذى جعل قصده ، ركناً من أركان الإسلام ، حاطاً للذنوب والآثام .

وفيه من آثار الخليل وذريته ، ما عرف به إمامته ، وتذكرت به حالته فقال :

[ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ] أى : مرجعاً يثوبون إليه ، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية ، يترددون إليه ، ولا يقضون منه وطراً .

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

وجعله [ أمناً ] يأمن به كل أحد ، حتى الوحش ، وحتى الجمادات كالأشجار .

ولهذا كانوا فى الجاهلية ـ على شركهم ـ يحترمونه أشد الاحترام ، ويجد أحدهم قاتل أبيه فى الحرم ، فلا يهيجه .

فلما جاء الإسلام ، زاده حرمة وتعظيماً ، وتشريفاً وتكريماً .

[ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ] يحتمل أن يكون المراد بذلك ، المقام المعروف الذى قد جعل الآن ، مقابل باب الكعبة .

وأن المراد بهذا ، ركعتا الطواف ، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم ، وعليه جمهور المفسرين .

ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً ، فيعم جميع مقامات إبراهيم فى الحج .

وهى المشاعر كلها ، من الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، ومزدلفة ورمى الجمار والنحر ، وغير ذلك من أفعال الحج .

فيكون معنى قوله : [مصلى] أى : معبداً ، أى : اقتدوا به فى شعائر الحج .

ولعل هذا المعنى أولى ، لدخول المعنى الأول فيه ، واحتمال اللفظ له .

[ وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل أن طهرا بيتى ] أى : أوحينا إليهما ، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك ، والكفر والمعاصى ، ومن الرجس والنجاسات ، والأقذار ، ليكون [ للطائفين ] فيه [ والعاكفين والركع السجود ] أى : المصلين .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

---

قدم الطواف ، لاختصاصه بالمسجد الحرام .

ثم الاعتكاف ، لأن من شرطه ، المسجد مطلقاً .

ثم الصلاة ، مع أنها أفضل ، لهذا المعنى .

وأضاف الباري البيت إليه لفوائد .

منها : أن ذلك يقتضى شدة اهتمام إبراهيم وإسمعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله .

فيبذلان جهدهما ، ويستفرغان وسعهما فى ذلك .

ومنها : أن الإضافة ، تقتضى التشريف والإكرام .

ففى ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه .

ومنها : أن هذه الإضافة ، هى السبب الجالب للقلوب إليه .

أى : وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت ، أن يجعله الله بلداً آمناً ، ويرزق أهله من أنواع الثمرات .

ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين ، تأدباً مع الله ، إذ كان دعاؤه الأول ، فيه الإطلاق ، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم .

فلما دعا لهم بالرزق ، وقيده بالمؤمن ، وكان رزق الله شاملا للمؤمن والكافر ، والعاصى والطائع ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ

[ ومن كفر ] أى : أرزقهم كلهم ، مسلمهم وكافرهم .

أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة .

وأما الكافر ، فيتمتع فيها قليلا [ ثم أضطره ] أى : ألجئه وأخرجه مكرهاً [ إلى عذاب النار وبئس المصير ] .

أى : واذكر إبراهيم وإسمعيل ، فى حالة رفعهما القواعد من البيت . الأساس ، واستمرارهما على هذا العمل العظيم .

وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء ، حتى إنهما – مع هذا العمل – دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما ، حتى يجعل فيه النفع العميم .

ودعوا لأنفسهما ، وذريتهما بالإسلام ، الذى حقيقته ، خضوع القلب ، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح .

[ وأرنا مناسكنا ] أى : علمناها على وجه الإرادة والمشاهدة ، ليكون أبلغ .

يحتمل أن يكون المراد بالمناسك : أعمال الحج كلها ، كما يدل عليه السياق والمقام .

ويحتمل أن يكون المراد : ما هو أعظم من ذلك ، وهو الدين كله ، والعبادات كلها ، كما يدل عليه عموم اللفظ ، لأن النسك : التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج ، تغليباً عرفياً .

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

---

فيكون حاصل دعائهما ، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع ، والعمل الصالح .

ولما كان العبد ـ مهما كان ـ لا بد أن يعتريه التقصير ، ويحتاج إلى التوبة قالا :

[ وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم ] أى : فى ذريتنا [ رسولا منهم ] ليكون أرفع لدرجتهما ، ولينقادوا له ، وليعرفوه حقيقة المعرفة .

[ يتلو عليهم آياتك ] لفظاً ، وحفظاً ، وتحفيظاً [ ويعلمهم الكتاب والحكمة ] معنى .

[ ويزكيهم ] بالتربية على الأعمال الصالحة والتبرى من الأعمال الردية ، التى لا تزكى النفس معها .

[ إنك أنت العزيز ] أى : القاهر لكل شىء ، الذى لا يمتنع على قوته ، شىء .

[ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فبعزتك وحكمتك ، ابعث فيهم هذا الرسول .

فاستجاب الله لهما ، فبعث الله هذا الرسول الكريم ، الذى رحم الله به ذريتهما خاصة ، وسائر الخلق عامة :

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « أنا دعوة أبى إبراهيم » .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ
ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ
لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

---

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم ، وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى : [ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ] .

أى : ما يرغب [عن ملة إبراهيم ] بعد ما عرف من فضله [ إلا من سفه نفسه ] أى : جهلها وامتهنها ، ورضى لها بالدون ، وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ، ممن رغب فى ملة إبراهيم .

ثم أخبر عن حالته فى الدنيا والآخرة فقال :

[ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ] أى : اخترناه ووفقناه للأعمال ، التى صار بها ، من المصطفين الأخيار .

[ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ] الذين لهم ، أعلى الدرجات .

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ
إِبْرَٰهِمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

---

[ إذ قال له ربه أسلم قال ] امتثالا لربه [ أسلمت لرب العالمين ] .

إخلاصاً وتوحيداً ، ومحبة ، وإنابة فكان التوحيد لله نعته .

ثم ورثه فى ذريته ، ووصاهم به ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه ، وتوارثت فيهم ، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه .

فأنتم ـ يا بنى يعقوب ـ قد وصاكم أبوكم بالخصوص ، فيجب عليكم كمال الانقياد ، واتباع خاتم الأنبياء قال :

[ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ] أى : اختاره وتخيره لكم ، رحمة بكم ، وإحساناً إليكم ، فقوموا به ، واتصفوا بشرائعه ، وانصبغوا بأخلاقه ، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه ، لأن من عاش على شيء ، مات عليه ، ومن مات على شيء ، بعث عليه .

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، ومن بعده يعقوب ، قال تعالى منكراً عليهم :

[ أم كنتم شهداء ] أى : حضوراً [ إذ حضر يعقوب الموت ] .

أى : مقدماته وأسبابه .

فقال لبنيه على وجه الاختبار ، ولتقر عينه فى حياته بامتثالهم ما وصاهم به .

[ ما تعبدون من بعدى ] فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا :

[ نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ] .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

---

فلا نشرك به شيئاً ، ولا نعدل به .

[ ونحن له مسلمون ] فجمعوا بين التوحيد والعمل .

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب ، لأنهم لم يوجدوا بعد .

فإذا لم يحضروا ، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية ، لا باليهودية ..

ثم قال تعالى : [ تلك أمة قد خلت ] أى : مضت [ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ] أي : كل له عمله ، وكل سيجازى بما فعله ، لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع أحداً إلا إيمانه وتقواه .

فاشتغالكم به وادعاؤكم ، أنكم على ملتهم ، والرضا بمجرد القول ، أمر فارغ لا حقيقة له .

بل الواجب عليكم ، أن تنظروا حالتكم التى أنتم عليها ، هل تصلح للنجاة أم لا .

أى : دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول فى دينهم ، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال .

قال له مجيباً جواباً شافياً [ بل ] نتبع ] ملة إبراهيم حنيفاً ] أي : مقبلا على الله ، معرضاً عما سواه ، قائماً بالتوحيد ، تاركاً للشرك والتنديد .

فهذا الذى فى اتباعه الهداية ، وفى الإعراض عن ملته ، الكفر والغواية ..

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

---

هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به .

واعلم أن الإيمان الذى هو تصديق القلب التام ، بهذه الأصول ، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح .

وهو – بهذا الاعتبار – يدخل فيه الإسلام ، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها .

فهى من الإيمان ، وأثر من آثاره .

فحيث أطلق الإيمان ، دخل فيه ما ذكر .

وكذلك الإسلام ، إذا أطلق دخل فيه الإيمان .

فإذا قرن بينهما ، كان الإيمان اسماً لما فى القلب من الإقرار والتصديق .

والإسلام ، اسماً للأعمال الظاهرة .

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة .

فقوله تعالى : [ قولوا ] أى : بألسنتكم ، متواطئة عليها قلوبكم .

وهذا هو القول التام ، المترتب عليه الثواب والجزاء .

فكما أن النطق باللسان ، بدون اعتقاد القلب ، نفاق وكفر .

فالقول الخالى من العمل عمل القلب ، عديم التأثير ، قليل الفائدة ، وإن كان العبد يؤجر عليه ، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان .

. . . . . . . . . . .

---

لكن فرق بين القول المجرد ، والمقترن به عمل القلب .

وفى قوله [ قولوا ] إشارة إلى الإعلان بالعقيدة ، والصدع بها ، والدعوة لها ، إذ هى أصل الدين وأساسه .

وفى قوله : [ آمنا ] ونحوه ، مما فيه صدور الفعل ، منسوباً إلى جميع الأمة ، إشارة إلى أنه يجب على الأمة ، الاعتصام بحبل الله جميعاً ، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً ، وعملهم متحداً ، وفى ضمنه النهى عن الافتراق .

وفيه : أن المؤمنين كالجسد الواحد .

وفى قوله : [ قولوا آمنا بالله ] الخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان ، على وجه التقييد ، بل على وجوب ذلك .

بخلاف قوله « أنا مؤمن » ونحوه ، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة ، لما فيه من تزكية النفس ، والشهادة على نفسه بالإيمان .

فقوله : [ آمنا بالله ] أى : بأنه واجب الوجود ، واحد أحد ، متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، مستحق لإفراده بالعبادة كلها ، وعدم الإشراك به فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

[ وما أنزل إلينا ] يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى :

[ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ] فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله ، من صفات البارى ، وصفات رسله ، واليوم الآخر ، والغيوب الماضية والمستقبلة ، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الأمرية الشرعية ، وأحكام الجزاء وغير ذلك .

. . . . . . . . . . .

---

[ وما أنزل إلى إبراهيم ] إلى آخر الآية .

فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء .

والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ، ما نص عليه فى الآية ، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار .

فالواجب فى الإيمان بالأنبياء والكتب ، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول .

ثم ما عرف منهم بالتفصيل ، وجب الإيمان به مفصلا .

وقوله :[ لا نفرق بين أحد منهم ] أى : بل نؤمن بهم كلهم .

هذه خاصية المسلمين ، التى انفردوا بها عن كل من يدعى أنه على دين .

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم ـ وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب ـ فإنهم يكفرون بغيره .

فيفرقون بين الرسل والكتب ، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به .

وينقض تكذيبهم تصديقهم .

فإن الرسول الذى زعموا ، أنهم قد آمنوا به ، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كذبوا محمداً ، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به ، فيكون كفراً برسولهم .

وفى قوله : [ وما أوتى النبيون من ربهم ] دلالة على أن عطية الدين ، هى العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية .

. . . . . . . . . . .

---

لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتى الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك .

بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع .

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ، ووسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ دينه ، ليس لهم من الأمر شىء .

وفى قوله : [ من ربهم ] إشارة إلى أنه من كال ربوبيته لعباده ، أن ينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، فلا تقتضى ربوبيته ، تركهم سدى ولا هملا .

وإذا كان ما أوتى النبيون ، إنما هو من ربهم ، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعى النبوة ، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه .

فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير ، ولا ينهون إلا عن كل شر .

وكل واحد منهم ، يصدق الآخر ، ويشهد له بالحق ، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم [ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ] .

وهذا بخلاف من ادعى النبوة ، فلا بد أن يتناقضوا فى أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع ، وعرف ما يدعون إليه .

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به ، عموماً وخصوصاً ، وكان القول لا يغنى عن العمل قال :

[ ونحن له مسلمون ] أى : خاضعون لعظمته ، منقادون لعبادته ، بباطننا وظاهرنا ، مخلصون له العبادة .

بدليل تقديم المعمول ، وهو [ له ] على العامل وهو [ مسلمون ] .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة ـ على إيجازها واختصارها ـ على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب .

وعلى التخصيص الدال على الفضل ، بعد التعميم .

وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله فى ذلك .

وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ، ومن ادعى النبوة من الكاذبين .

وعلى تعليم البارى عباده ، كيف يقولون ، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة .

فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

أي : فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به ـ يا معشر المؤمنين ـ من جميع الرسل ، وجميع الكتب ، الذين أول من دخل فيهم ، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وأسلموا لله وحده ، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل [ فقد اهتدوا ] للصراط المستقيم ، الموصل لجنات النعيم .

أى : فلا سبيل لهم إلى الهداية ، إلا بهذا الإيمان .

ولا كما زعموا بقولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » .

فزعموا أن الهداية ، خاصة بما كانوا عليه .

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

---

و « الهدى » هو العلم بالحق ، والعمل به ، وصده ، الضلال عن العلم ، والضلال عن العمل بعد العلم ، وهو الشقاق الذى كانوا عليه ، لما تولوا وأعرضوا .

فالمشاق ، هو الذى يكون فى شق والله ورسوله ، فى شق .

ويلزم من المشاقة ، المحادة ، والعداوة البليغة ، التى من لوازمها ، بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول .

فلهذا وعد الله رسوله ، أن يكفيه إياهم ، لأنه السميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم ، بالغيب والشهادة ، بالظواهر والبواطن .

فإذا كان كذلك ، كفاك الله شرهم .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ، وسلطه عليهم ، حتى قتل بعضهم ، وسبى بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وشردهم كل مشرد .

ففيه معجزة من معجزات القرآن ، وهو الإخبار بالشىء قبل وقوعه ، فوقع طبق ما أخبر .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

---

أى : الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياماً تاماً ، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده فى جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة ، وصفة من صفاتكم .

فإذا كان صفة من صفاتكم ، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره ، طوعاً واختياراً ومحبة ، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذى صار له صفة ، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية ، لحث الدين على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ومعالى الأمور .

فلهذا قال ـ على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية ـ :

[ ومن أحسن من الله صبغة ] أى : لا أحسن صبغة من صبغته .

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ ، فقس الشىء بضده .

فكيف ترى فى عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً ، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح .

فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، ونعت جليل .

ويتخلى من كل وصف قبيح ، ورذيلة وعيب .

فوصفه ، الصدق فى قوله وفعله ، والصبر والحلم ، والعفة ، والشجاعة ،

. . . . . . . . . . .

---

والإحسان القولى والفعلى ، ومحبة الله وخشيته ، وخوفه ، ورجاؤه .

فحاله الإخلاص للمعبود ، والإحسان لعبيده .

فقسه بعبد كفر بربه ، وشرد عنه ، وأقبل على غيره من المخلوقين .

فاتصف بالصفات القبيحة ، من الكفر ، والشرك والكذب ، والخيانة ، والمكر ، والخداع ، وعدم العفة ، والإساءة إلى الخلق ، فى أقواله ، وأفعاله .

فلا إخلاص للمعبود ، ولا إحسان إلى عبيده .

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما ، ويتبين لك أنه لا أحسن من صبغة الله ، وفى ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه .

وفى قوله : [ ونحن له عابدون ] بيان لهذه الصبغة ، وهى القيام بهذين الأصلين ، الإخلاص والمتابعة ، لأن « العبادة » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة .

ولا تكون كذلك ، حتى يشرعها الله على لسان رسوله .

والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده ، فى تلك الأعمال .

فتقديم المعمول ، يؤذن بالحصر .

وقال : [ ونحن له عابدون ] فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ، ليدل على اتصافهم بذلك .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

---

المحاجة هى : المجادلة بين اثنين فأكثر ، تتعلق بالمسائل الخلافية ، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله ، وإبطال قول خصمه .

فكل واحد منهما ، يجتهد فى إقامة الحجة على ذلك .

والمطلوب منها ، أن تكون بالتى هى أحسن ، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق ، ويقيم الحجة على المعاند ، ويوضح الحق ، ويبين الباطل .

فإن خرجت عن هذه الأمور ، كانت مماراة ، ومخاصمة لا خير فيها ، وأحدثت من الشر ما أحدثت .

فكان أهل الكتاب ، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين ، وهذا مجرد دعوى ، تفتقر إلى برهان ودليل .

فإذا كان رب الجميع واحداً ، ليس رباً لكم دوننا ، وكل منا ومنكم ، له عمله ، فاستوينا نحن وأنتم بذلك . فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره .

لأن التفريق مع الاشتراك فى الشىء ، من غير فرق مؤثر ، دعوى باطلة ، وتفريق بين متماثلين ، ومكابرة ظاهرة .

وإنما يحصل التفضيل ، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده .

وهذه الحالة ، وصف المؤمنين وحدهم ، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم لأن الإخلاص ، هو الطريق إلى الخلاص .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

---

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بالأوصاف الحقيقية ، التى يسلمها أهل العقول ، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول .

ففى هذه الآية ، إرشاد لطيف لطريق المحاجة ، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين .

وهذه دعوى أخرى منهم ، ومحاجة فى رسل الله ، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين .

فرد الله عليهم بقوله [ أأنتم أعلم أم الله ] فالله يقول : [ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنفياً مسلماً وما كان من المشركين ] وهم يقولون : بل كان يهودياً أو نصرانياً .

فإما أن يكونوا ، هم الصادقين العالمين ، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك ، فأحد الأمرين متعين لا محالة .

وصورة الجواب مبهم ، وهو فى غاية الوضوح والبيان

حتى إنه ـ من وضوحه ـ لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق ، ونحو ذلك ، لانجلائه لكل أحد .

كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار ؟ والنار أحر أم الماء ؟ والشرك أحسن أم التوحيد ؟ ونحو ذلك .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء ، لم يكونوا هوداً ولا نصارى ، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة ، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم .

ولهذا قال تعالى : [ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ] فهى شهادة عندهم ، مودعة من الله ، لا من الخلق ، فيقتضى الاهتمام بإقامتها ، فكتموها ، وأظهروا ضدها .

جمعوا بين كتم الحق ، وعدم النطق به ، وإظهار الباطل، والدعوة إليه .

أليس هذا ، أعظم الظلم ؟ بلى والله ، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة .

فلهذا قال : [ وما الله بغافل عما تعملون ] بل قد أحصى أعمالهم ، وعدها وادخر لهم جزاءها ، فبئس الجزاء جزاؤهم ، وبئست النار ، مثوى للظالمين .

وهذه طريقة القرآن فى ذكر العلم والقدرة ، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التى يجازى عليها .

فيفيد ذلك الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

ويفيد أيضاً ، ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام ، أن الأمر الدينى والجزائى ، أثر من آثارها ، وموجب من موجباتها ، وهى مقتضية له .

ثم قال تعالى : [ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ] تقدم تفسيرها ، وكررها ، لقطع التعلق بالمخلوقين ، وأن المعول عليه ، ما اتصف به الإنسان ، لا عمل أسلافه وآبائه .

فالنفع الحقيقى بالأعمال ، لا بالانتساب المجرد للرجال .

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

قد اشتملت الآية الأولى ، على معجزة ، وتسلية ، وتطمين قلوب المؤمنين ، واعتراض وجوابه ، من ثلاثة أوجه ، وصفة المعترض ، وصفة المسلم لحكم الله دينه .

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس ، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم ، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن ، وهم اليهود والنصارى ، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه .

وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، مدة مقامهم بمكة .

ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، نحو سنة ونصف ـ لما لله فى ذلك من الحكم التى سيشير إلى بعضها ، وكانت حكمته تقتضى أمرهم باستقبال الكعبة .

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس [ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ] وهى استقبال بيت المقدس .

أى : أى شىء صرفهم عنه ؟ .

وفى ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه ، وفضله وإحسانه .

فسلاهم ، وأخبر بوقوعه ، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه ، قليل العقل ، والحلم ، والديانة .

فلا تبالوا بهم ، إذ قد علم مصدر هذا الكلام .

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۞

---

فالعاقل لا يبالى باعتراض السفيه ، ولا يلقى له ذهنه .

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله ، إلا سفيه جاهل معاند .

وأما الرشيد المؤمن العاقل ، فيتلقى أحكام ربه بالقبول ، والانقياد ، والتسليم كما قال تعالى : [ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ] .

[ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ] الآية .

[ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ] .

وقد كان فى قوله « السفهاء » ما يغنى عن رد قولهم ، وعدم المبالاة به .

ولكنه تعالى — مع هذا — لم يترك هذه الشبهة ، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض ، فقال تعالى : [ قل ] لهم مجيباً [ لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ] .

أى : فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله ، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه ، ومع هذا يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التى هى من ملة إبراهيم - فلأى شىء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله ، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له ؟

فهذا يوجب التسليم لأمره ، بمجرد ذلك .

فكيف ، وهو من فضل الله عليكم ، وهدايته وإحسانه ، أن هداكم لذلك . فالمعترض عليكم ، معترض على فضل الله ، حسداً لكم وبغياً .

. . . . . . . . . . .

---

ولما كان قوله [ يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ] مطلقاً ، والمطلق يحمل على المقيد ، فإن الهداية والضلال ، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله ، وقد أخبر فى غير موضع من كتابه بأسباب الهداية ، التى إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى [ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ] ذكر فى هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية ، ومنة الله عليها فقال :

[ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ] أى : عدلا خيارا .

وماعدا الوسط ، فالأطراف داخلة تحت الخطر .

فجعل الله هذه الأمة ، وسطاً فى كل أمور الدين .

وسطاً فى الأنبياء ، بين من غلا فيهم ، كالنصارى ، وبين من جفاهم ، كاليهود ، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك .

ووسطاً فى الشريعة ، لا تشديدات اليهود وآصارهم ، ولا تهاون النصارى .

وفى باب الطهارة والمطاعم ، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم ، ولا يطهرهم الماء من النجاسات ، وقد حرمت عليهم الطيبات ، عقوبة لهم .

ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً ، ولا يحرمون شيئاً ، بل أباحوا ما دب ودرج .

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها .

. . . . . . . . . . .

---

وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ، وحرم عليهم الخبائث من ذلك .

فلهذه الأمة من الدين ، أكمله ، ومن الأخلاق أجلها ، ومن الأعمال أفضلها .

ووهبهم الله من العلم والحلم ، والعدل والإحسان ، ما لم يهبه لأمة سواهم .

فلذلك كانوا [ أمة وسطاً ] كاملين معتدلين ، ليكونوا [ شهداء على الناس ] بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ، ولا يحكم عليهم غيرهم .

فما شهدت له هذه الأمة بالقبول ، فهو مقبول ، وما شهدت له بالرد ، فهو مردود .

فإن قيل كيف يقبل حكمهم على غيرهم ، والحال أن كل مختصمين ، غير مقبول قول بعضهم على بعض ؟

قيل : إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين ، لوجود التهمة .

فأما إذا انتفت التهمة ، وحصلت العدالة التامة ، كما فى هذه الأمة ، فإنما المقصود ، الحكم بالعدل والحق .

وشرط ذلك ، العلم والعدل ، وهما موجودان فى هذه الأمة ، فقبل قولها .

فإن شك شاك فى فضلها ، وطلب مزكياً لها ، فهو أكمل الخلق ، نبيهم صلى الله عليه وسلم .

فلهذا قال تعالى [ ويكون الرسول عليكم شهيداً ] .

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم ، أنه إذا كان يوم القيامة ، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم ، والأمم المكذبة عن ذلك ، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم — استشهد الأنبياء بهذه الأمة ، وزكاها نبيها .

وفى الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة ، حجة قاطعة ، وأنهم معصومون عن الخطأ ، لإطلاق قوله [ وسطاً ] .

فلو قدر اتفاقهم على الخطأ ، لم يكونوا وسطاً ، إلا فى بعض الأمور ، وفيها اشتراط العدالة فى الحكم ، والشهادة ، والفتيا ، ونحو ذلك .

* يقول تعالى : [وما جعلنا القبلة التى كنت عليها ] وهى استقبال بيت المقدس أولا [إلا لنعلم ] أى: علما يتعلق به الثواب والعقاب(١) ، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها .

---

(١) قوله ( أى علما يتعلق به الثواب . الخ ) هذه العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح ، ونذكر ما أفاده الأئمة : النسفى ، وأبو السعود ، وابن كثير فى تفاسيرهم ، وأبو حيان فى بحره ، فنقول : ( لنعلم ) أي لنميز التابع من الناكص ، وينكشف أمرهم وحالهم للرسول وللمؤمنين ، كما قال تعالى [ حتى يميز الخبيث من الطيب ] فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم يقع به التمييز ، وهو سببه فأطلق السبب — الذى هو العلم — وأراد المسبب — الذى هو التمييز — ويؤيد ما قلنا قراءة [ ليعلم ] بالياء وبالبناء للمجهول ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه . أو هو ملاطفة الخطاب كقولك لمن ينكر ذوب الذهب : فانلقه فى النار لنعلم أيذوب الذهب أم لا ؟ اهـ . =

يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

ولكن هذا العلم ، لا يعلق عليه ثوابا ولا عقابا ، لتمام عدله ، وإقامة الحجة على عباده .

بل إذا وجدت أعمالهم ، ترتب عليها الثواب والعقاب .

أى : شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن [ من يتبع الرسول ] ويؤمن به ، فيتبعه على كل حال ، لأنه عبد مأمور مدبر .

---

= وفى البحر المحيط لأبى حيان : وظاهر قوله [ لنعلم ] ابتداء العلم ، وليس المعنى على الظاهر إذ يستحيل حدوث علم الله تعالى فأول على حذف مضاف ، أى : ليعلم رسولنا والمؤمنون . وأسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى لديه ، فيكون هذا من مجاز الحذف أوعلى إطلاق العلم على معنى التمييز ، لأن بالعلم يقع التمييز ، أى : لنميز التابع من الناكص ، كما قال تعالى : [ حتى يميز الخبيث من الطيب ] ويكون هذا من مجاز إطلاق السبب ، ويراد به المسبب ، وحكى هذا التأويل عن ابن عباس رضى الله عنهما أو على أنه أراد ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة أو المعصية إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب . أو أريد بالمستقبل هنا الماضى والتقدير : لما علمنا أو لعلمنا من يتبع الرسول ممن يخالف . اهـ . بتصرف .

واقتصر ابن كثير فى تفسيره على جعل المعنى ليعلم المؤمنون وينكشف حال ضعاف الإيمان فقال ( يقول تعالى: إنا شرعنا لك يا محمد ، التوجه أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك ، حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبيه ) . اهـ .

عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

---

ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة ، أنه يستقبل الكعبة .

فالمنصف الذى مقصوده الحق ، مما يزيده ذلك إيماناً ، وطاعة للرسول .

وأما من انقلب على عقبيه ، وأعرض عن الحق ، واتبع هواه ، فإنه يزداد كفراً إلى كفره ، وحيرة إلى حيرته ، ويدلى بالحجة الباطلة ، المبنية على شبهة لا حقيقة لها .

[ وإن كانت ] أى : صرفك عنها [ لكبيرة ] أى : شاقة [ إلا على الذين هدى الله ] فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم ، وشكروا ، وأقروا له بالإحسان ، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم ، الذى فضله على سائر بقاع الأرض .

وجعل قصده ، ركناً من أركان الإسلام ، وهادماً للذنوب والآثام ، فلهذا خف عليهم ذلك ، وشق على من سواهم .

ثم قال تعالى [ وما كان الله ليضيع إيمانكم ] أى : ما ينبغى له ولا يليق به تعالى ، بل هو من الممتنعات عليه .

فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم .

وفى هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ، وحفظه نوعان :

حفظ عن الضياع والبطلان ، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيد له ، ومنقص من المحن المقلقة ، والأهواء الصادة .

. . . . . . . . . . .

---

وحفظ بتنميته له ، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ، ويتم به إيقانهم .

فكما ابتدأكم ، بأن هداكم للايمان ، فسيحفظه لكم ، ويتم نعمته ، بتنميته وتنمية أجره ، وثوابه ، وحفظه من كل مكدر .

بل إذا وجدت المحن المقصود منها ، تبين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين ، وتظهر صدقهم .

وكأن فى هذا احترازاً ، عما قد يقال ، إن قوله : [ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ] قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم ، فدفع هذا الوهم بقوله [ وما كان الله ليضيع إيمانكم ] بتقديره لهذه المحنة أو غيرها .

ودخل فى ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة ، فإن الله لا يضيع إيمانهم ، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله فى وقتها .

وطاعة الله ، امتثال أمره فى كل وقت ، بحسب ذلك .

وفى هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .

وقوله [ إن الله بالناس لرءوف رحيم ] أى : شديد الرحمة بهم عظيمها.

فمن رأفته ورحمته بهم ، أن يتم عليهم نعمته التى ابتدأهم بها .

وأن ميز عنهم من دخل فى الإيمان بلسانه دون قلبه .

وأن امتحنهم امتحاناً ، زاد به إيمانهم ، وارتفعت به درجتهم .

وأن وجههم إلى أشرف البيوت ، وأجلها .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

---

يقول الله لنبيه [ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ] أى : كثرة تردده فى جميع جهاته ، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحى باستقبال الكعبة .

وقال [ وجهك ] ولم يقل « بصرك » لزيادة اهتمامه ، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر .

[ فلنولينك ] أى : نوجهك لولايتنا إياك .

[ قبلة ترضاها ] أى : تحبها ، وهى الكعبة .

وفى هذا بيان لفضله وشرفه صلى الله عليه وسلم ، حيث إن الله تعالى ، يسارع فى رضاه ، ثم صرح له باستقبالها فقال :

[ فول وجهك شطر المسجد الحرام ] والوجه : ما أقبل من بدن الإنسان.

[ وحيثما كنتم ] أى : من بر وبحر ، وشرق وغرب ، جنوب وشمال.

[ فولوا وجوهكم شطره ] أى : جهته .

ففيها اشتراط استقبال الكعبة ، للصلوات كلها ، فرضها ، ونفلها ، وأنه إن أمكن استقبال عينها ، وإلا فيكفى شطرها وجهتها .

وأن الالتفات بالبدن ، مبطل للصلاة ، لأن الأمر بالشىء نهى عن ضده .

ولما ذكر تعالى فيما تقدم ، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ

---

وذكر جوابهم ، ذكرهنا ، أن أهل الكتاب والعلماء منهم ، يعلمون أنك فى ذلك على حق واضح ، لما يجدونه فى كتبهم ، فيعترضون عناداً وبغياً .

فإذا كانوا يغمون بخطاهم ، فلا تبالوا بذلك .

فإن الإنسان إنما يغمه ، اعتراض من اعترض عليه ، إذا كان الأمر مشتبها ، وكان ممكنا أن يكون معه صواب .

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه ، وأن المعترض معاند ، عارف ببطلان قوله ، فإنه لا محل للمبالاة ، بل ينتظر بالمعترض ، العقوبة الدنيوية والأخروية ، فلهذا قال تعالى [ وما الله بغافل عما يعملون ] بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها .

وفيها وعيد للمعترضين ، وتسلية للمؤمنين .

كان النبى صلى الله عليه وسلم — من كمال حرصه على هداية الخلق — يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة ، ويتلطف بهدايتهم ، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله .

فكان من الكفار ، من تمرد عن أمر الله ، واستكبر على رسل الله ، وترك الهدى ، عمداً وعدواناً .

فمنهم : اليهود والنصارى ، أهل الكتاب الأول ، الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم عن يقين ، لا عن جهل .

بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

فلهذا أخبره الله تعالى أنك [ لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ] أي : بكل برهان ودليل ، يوضح قولك ، ويبين ما تدعو إليه .

[ ما تبعوا قبلتك ] أي : ما تبعوك ، لأن اتباع القبلة، دليل على اتباعه.

ولأن السبب هو شأن القبلة .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأنهم معاندون ، عرفوا الحق وتركوه .

فالآيات إنما ينتفع بها ، من يتطلب الحق ، وهو مشتبه عليه ، فتوضح له الآيات البينات .

وأما من جزم بعدم اتباع الحق ، فلا حيلة فيه .

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم، حاصل، وبعضهم ، غير تابع قبلة بعض.

فليس بغريب منهم — مع ذلك — أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد ، وهم الأعداء الحسدة حقيقة ، وقوله [ ما أنت بتابع قبلتهم ] أبلغ من قوله [ ولا تتبع ] لأن ذلك يتضمن أنه صلى الله عليه وسلم اتصف بمخالفتهم ، فلا يمكن وقوع ذلك منه .

ولم يقل « ولو أتوا بكل آية » لأنهم لا دليل لهم على قولهم .

وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية ، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه ، لأنها لا حد لها ، ولأنه يعلم بطلانها ، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح ، فهو باطل ، فيكون حل الشبه من باب التبرع .

[ ولئن اتبعت أهواءهم ] إنما قال « أهواءهم » ولم يقل « دينهم » لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم — فى قلوبهم — يعلمون أنه ليس بدين.

ومن ترك الدين ، اتبع الهوى ، لا محالة .

قال تعالى : [ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ]

[ من بعد ما جاءك من العلم ] بأنك على الحق ، وهم على الباطل .

[ إنك إذاً ] أى : إن اتبعتهم ، فهذا احتراز ، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ، ولو فى الأفهام .

[ لمن الظالمين ] أى : داخل فيهم ، ومندرج فى جملتهم .

وأى ظلم أعظم، من ظلم ، من علم الحق والباطل ، فآثر الباطل على الحق.

وهذا ، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم ، فإن أمته داخلة فى ذلك .

وأيضاً ، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك — وحاشاه — صار ظالماً مع علو مرتبته ، وكثرة إحسانه — فغيره من باب أولى وأحرى.

* ثم قال تعالى [ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين ] .

يخبر تعالى : أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم ، وعرفوا أن محمداً رسول الله ، وأن ما جاء به ، حق وصدق ، وتقينوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون بغيره .

فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون .

أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

ولكن فريقاً منهم — وهم أكثرهم — الذين كفروا به ، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها ، وهم يعلمون [ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ] .

وفي ضمن ذلك ، تسلية للرسول والمؤمنين ، وتحذير له من شرهم وشبههم.

وفريق منهم ، لم يكتموا الحق وهم يعلمون .

فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر به ، جهلا .

فالعالم ، عليه إظهار الحق ، وتبيينه وتزيينه ، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ، ومثال ، وغير ذلك ، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق ، وتشيينه ، وتقبيحه للنفوس ، بكل طريق مؤد لذلك .

فهؤلاء الكاتمون ، عكسوا الأمر ، فانعكست أحوالهم .

[ الحق من ربك ] أي : هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء ، لما اشتمل عليه من المطالب العالية ، والأوامر الحسنة ، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ، ودفع مفاسدها ، لصدوره من ربك ، الذي — من جملة تربيته لك ، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس ، وجميع المصالح .

[فلا تكونن من الممترين ] أي : فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه .

بل تفكر فيه.وتأمل ، حتى تصل بذلك إلى اليقين ، لأن التفكر فيه لا محالة ، دافع للشك ، موصل لليقين .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

---

أى : كل أهل دين وملة ، له وجهة يتوجه إليها فى عبادته .

وليس الشأن فى استقبال القبلة ، فإنه من الشرائع التى تتغير بها الأزمنة والأحوال ، ويدخلها النسخ والنقل ، من جهة إلى جهة .

ولكن الشأن كل الشأن ، فى امتثال طاعة الله ، والتقرب إليه ، وطلب الزلفى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية .

وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة. كما أنها إذا اتصفت به ، فهى الرابحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق ، وأمرهم به .

والأمر بالاستباق إلى الخيرات ، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات .

فإن الاستباق إليها ، يتضمن فعلها ، وتكميلها ، وإيقاعها على أكمل الأحوال ، والمبادرة إليها .

ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات ، فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات ، فالسابقون أعلى الخلق درجة .

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة ، وصيام ، وزكاة وحج ، وعمرة ، وجهاد ، ونفع متعد وقاصر .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

---

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير ، وينشطها ، ما رتب الله عليها من الثواب قال : [ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ] فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته ، فيجازى كل عامل بعمله [ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ] .

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل.

كالصلاة فى أول وقتها ، والمبادرة إلى إبراء الذمة ، من الصيام ، والحج ، والعمرة، وإخراج الزكاة ، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية !!.

* أى : [ ومن حيث خرجت ] فى أسفارك وغيرها ، وهذا للعموم ، [ فول وجهك شطر المسجد الحرام ] أى : جهته .

ثم خاطب الأمة عموما فقال [ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ] ، وقال : [ وإنه للحق من ربك ] أكده بـ « إن » واللام ، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة ، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهى لا الامتثال .

[ وما الله بغافل عما تعملون ] بل هو مطلع عليكم فى جميع أحوالكم ، فتأدبوا معه ، وراقبوه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

فإن أعمالكم غير مغفول عنها ، بل مجازون عليها أتم الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شراً ، فشر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ

---

وقال هنا [ لئلا يكون للناس عليكم حجة ] أى : شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين.

فإنه لو بقى مستقبلا لبيت المقدس ، لتوجهت عليه الحجة .

فإن أهل الكتاب ، يجدون فى كتابهم أن قبلته المستقرة ، هى الكعبة البيت الحرام .

والمشركون يرون أن من مفاخرهم ، هذا البيت العظيم ، وأنه من ملة إبراهيم ، وأنه إذا لم يستقبله محمد صلى الله عليه وسلم ، توجهت نحوه حججهم ، وقالوا : كيف يدعى أنه على ملة إبراهيم ، وهو من ذريته ، وقد ترك استقبال قبلته ؟

فباستقبال القبلة ، قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين ، وانقطعت حججهم عليه .

[ إلا الذين ظلموا منهم ] أى : من احتج منهم بحجة ، هو ظالم فيها ، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم ، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه .

وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التى يوردونها على سبيل الاحتجاج ، محلا يؤبه لها ، ولا يلقى لها بال ، فلهذا قال تعالى :

[فلا تخشوهم] لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه، مخذول، مخذول صاحبه.

وهذا بخلاف صاحب الحق ، فإن للحق صولة وعزا ، يوجب خشية من هو معه ، وأمر تعالى بخشيته ، التى هى رأس كل خير .

حُجَّةٌ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

---

فمن لم يخش الله ، لم ينكف عن معصيته ، ولم يمتثل أمره .

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها أهل الكتاب ، والمنافقون ، والمشركون ، وأكثروا فيها من الكلام والشبه .

فلهذا بسطها الله تعالى ، وبينها أكمل بيان ، وأكدها بأنواع من التأكيدات ، التي تضمنتها هذه الآيات .

منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة .

ومنها : أن المعهود ، أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه الأمة ، أو للأمة عموماً .

وهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص فى قوله [ فول وجهك ] .
والأمة عموما فى قوله [ فولوا وجوهكم ] .

ومنها أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التى أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها .

ومنها : أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب .

ومنها قوله [ وإنه للحق من ربك ] .

فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف ، ولكن مع هذا قال : [ وإنه للحق من ربك ] .

ومنها : أنه أخبر — وهو العالم بالخفيات — أن أهل الكتاب متقرر عندهم ، صحة هذا الأمر ، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم .

. . . . . . . . . . .

---

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة ، نعمة عظيمة ، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته ، لم يزل يتزايد ، وكلما شرع لهم شريعة ، فهى نعمة عظيمة قال [ ولأتم نعمتى عليكم ] .

فأصل النعمة ، الهداية لدينه ، بإرسال رسوله ، وإنزال كتابه .

ثم بعد ذلك ، النعم المتممات لهذا الأصل ، لا تعد كثرة ، ولا تحصر ، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا .

وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم ، وأعطى أمته ، ما أتم به نعمته عليه وعليهم ، وأنزل الله عليه [ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ] .

فلله الحمد على فضله ، الذى لا نبلغ له عدا ، فضلا عن القيام بشكره .

[ ولعلكم تهتدون ] أى : تعلمون الحق ، وتعملون به .

فالله تبارك وتعالى — من رحمته — بالعباد ، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ، ونبههم على سلوك طرقها ، وبينها لهم ، أتم تبيين .

حتى أن فى جملة ذلك ، أنه يقيض للحق ، المعاندين له فيجادلون فيه ، فيتضح بذلك الحق ، وتظهر آياته وأعلامه ، ويتضح بطلان الباطل ، وأنه لا حقيقة له .

ولولا قيامه فى مقابلة الحق ، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق .

وبضدها تتبين الأشياء . فلولا الليل ، ما عرف فضل النهار .

ولولا القبيح ، ما عرف فضل الحسن .

ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور .

ولولا الباطل ، ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً . فلله الحمد على ذلك .

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم

---

يقول تعالى : إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع ، والنعم المتممة ، ليس ذلك ببدع من إحساننا ، ولا بأوله ، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها ، فأبلغها، إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم ، تعرفون نسبه وصدقه ، وأمانته وكماله ونصحه .

[ يتلو عليكم آياتنا ] وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها .

فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، التي دلتكم أولا ، على توحيد الله وكماله ، ثم على صدق رسوله ، ووجوب الإيمان به ، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب ، حتى حصل لكم الهداية التامة ، والعلم اليقيني .

[ويزكيكم ] أي يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتهم من الشرك ، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع ، إلى التحابب والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية .

[ ويعلمكم الكتاب ] أي : القرآن ، ألفاظه ومعانيه .

[ والحكمة] قيل : هى السنة ، وقيل : الحكمة ، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها ، وتنزيل الأمور منازلها .

مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

---

فيكون — على هذا — تعليم السنة داخلا فى تعليم الكتاب ، لأن السنة ، تبين القرآن وتفسره ، وتعبر عنه .

[ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ] لأنهم كانوا قبل بعثته ، فى ضلال مبين ، لا علم ولا عمل .

فكل علم أو عمل ، نالته هذه الأمة فعلى يده صلى الله عليه وسلم ، وبسببه كان .

فهذه النعم هى أصول النعم على الإطلاق ، وهى أكبر نعم ينعم بها على عباده . فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها .

فلهذا قال تعالى [ فاذكرونى أذكركم ] فأمر تعالى بذكره ، ووعد عليه أفضل جزاء ، وهو ذكره لمن ذكره ، كما قال تعالى على لسان رسوله ﴿ من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ﴾ .

وذكر الله تعالى ، أفضله ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وهو الذى يثمر معرفة الله ومحبته ، وكثرة ثوابه .

والذكر هو رأس الشكر ، فلهذا أمر به خصوصا ، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال : [ واشكروا لى ] أى : على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم .

والشكر يكون بالقلب ، إقراراً بالنعم ، واعترافا ، وباللسان ، ذكراً وثناء ، وبالجوارح ، طاعة لله وانقياداً لأمره ، واجتناباً لنهيه .

. . . . . . . . . . .

فالشكر فيه بقاء(١) النعمة الموجودة ، وزيادة فى النعم المفقودة .

قال تعالى [ لئن شكرتم لأزيدنكم ] .

وفى الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية ، من العلم وتزكية الأخلاق و التوفيق للأعمال ، بيان أنها أكبر النعم ، بل هى النعم الحقيقية ، التى تدوم ، إذا زال غيرها .

وأنه ينبغى لمن وفقوا لعلم أو عمل ، أن يشكروا الله على ذلك ، ليزيدهم من فضله ، وليندفع عنهم الإعجاب ، فيشتغلوا بالشكر .

ولما كان الشكر ضده الكفر ، نهى عن ضده فقال [ ولا تكفرون ] المراد بالكفر ههنا ، ما يقابل الشكر ، فهو كفر النعم وجحدها ، وعدم القيام بها .

ويحتمل أن يكون المعنى عاما ، فيكون الكفر أنواعا كثيرة ، أعظمه الكفر بالله ، ثم أنواع المعاصى ، على اختلاف أنواعها وأجناسها ، من الشرك ، فما دونه .

(١) قوله : ( فالشكر فيه بقاء النعم الخ ) عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم ( الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود ) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

---

أمر الله تعالى المؤمنين ، بالاستعانة على أمورهم الدنيوية [ بالصبر والصلاة ] .

فالصبر هو : حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :

صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها ، وعن معصية الله حتى تتركها ، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه .

وخصوصاً ، الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار ، إلى تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة .

فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة ، عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان .

وكذلك المعصية التي تشتد دواعى النفس ونوازعها إليها وهى فى محل قدرة العبد .

فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعى قلبه ونوازعها ، لله تعالى ، واستعانة بالله على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجأ إليه ، والافتقار على الدوام .

. . . . . . . . . . .

---

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه فى كل حالة من أحواله .

فلهذا أمر الله تعالى به ، وأخبر أنه [ مع الصابرين ] أى : مع من كان الصبر لهم خلقا ، وصفة ، وملكة — بمعونته وتوفيقه ، وتسديده .

فهانت عليهم بذلك ، المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة .

وهذه معية خاصة ، تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذه منقبة عظيمة للصابرين .

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله ، لكفى بها فضلا وشرفا .

وأما المعية العامة ، فهى معية العلم والقدرة ، كما فى قوله تعالى : [ وهو معكم أينما كنتم ] وهذه عامة للخلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ،وهى الصلة بين العبد وبين ربه .

فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعاً فيها مايلزم فيها ، ومايسن ، وحصل فيها حضور القلب ، الذى هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها ، استشعر دخوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضرا لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقا بمناجاة ربه ودعائه — لاجرم أن هذه الصلاة ، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ولأن هذا الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه ، وصفا ، وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه ، واجتناب نواهيه .

هذه هى الصلاة التى أمر الله ، أن نستعين بها على كل شىء .

* لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ، ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه ، وهو الجهاد فى سبيله ، وهو أفضل الطاعات البدنية ، وأشقها على النفوس ، لمشقته فى نفسه ، ولكونه مؤدياً للقتل ، وعدم الحياة ، التى إنما يرغب الراغبون فى هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها .

فكل ما يتصرفون به ، فإنه سعى لها ، ودفع لما يضادها .

ومن المعلوم ، أن المحبوب لايتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم .

فأخبر تعالى : أن من قتل فى سبيله ، بأن قاتل فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه الظاهر ، لا لغير ذلك من الأغراض ، فانه لم تفته الحياة المحبوبة ، بل حصل له حياة أعظم وأكمل ، مما تظنون وتحسبون .

فالشهداء [ أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاخوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وأن الله لايضيع أجر المؤمنين ] .

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى ، وتمتعهم برزقه البدنى فى المأكولات والمشروبات اللذيذة ، والرزق الروحى ، وهو الفرح . وهو الاستبشار ، وزوال كل خوف وحزن .

. . . . . . . . . . .

وهذه حياة برزخية ، أكمل من الحياة الدنيا .

بل قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش .

وفى هذه الآية ، أعظم حث على الجهاد فى سبيل الله ، وملازمة الصبر عليه .

فلو شعر العباد بما للمقتولين فى سبيل الله من الثواب ، لم يتخلف عنه أحد .

ولكن عدم العلم اليقينى التام ، هو الذى فتر العزائم ، وزاد نوم النائم ، وأفات الأجور العظيمة والغنائم .

لم لا يكون كذلك والله تعالى قد[... اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ] .

فوالله لو كان للانسان ألف نفس ، تذهب نفساً فنفساً فى سبيل الله ، لم يكن عظيما فى جانب هذا الأجر العظيم .

ولهذا لا يتمنى الشهداء ـ بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه ـ إلا أن يردوا إلى الدنيا ، حتى يقتلون فى سبيله مرة بعد مرة .

وفى الآية ، دليل على نعيم البرزخ وعذابه ، كما تكاثرت بذلك النصوص .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ

---

أخبر تعالى ، أنه لا بد أن يبتلى عباده بالمحن ، ليتبين الصادق من الكاذب ، والجازع من الصابر ، وهذه سنته تعالى فى عباده .

لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ، ولم يحصل معها محنة ، لحصل الاختلاط الذى هو فساد ، وحكمة الله تقتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر.

هذه فائدة المحن ، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ، ولا ردهم عن دينهم ، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين .

فأخبر فى هذه الآية أنه سيبتلى عباده [ بشىء من الخوف ] من الأعداء [ والجوع ] أى : بشىء يسير منهما .

لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله ، أو الجوع ، لهلكوا ، والمحن تمحص لا تهلك .

[ ونقص من الأموال ] وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال ، من جوائح سماوية ، وغرق ، وضياع ، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة ، وقطاع الطريق وغير ذلك .

[ والأنفس ] أى ذهاب الأحباب ، من الأولاد ، والأقارب ، والأصحاب ، ومن أنواع الأمراض فى بدن العبد ، أو بدن من يحبه .

[ والثمرات ] أى الحبوب ، وثمار النخيل ، والأشجار كلها ، والخضر ببرد ، أو برد ، أو حرق ، أو آفة سماوية ، من جراد ونحوه .

فهذه الأمور ، لابد أن تقع ، لأن العليم الخبير أخبر بها ، فوقعت كما أخبر.

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ
صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

---

فاذا وقعت ، انقسم الناس قسمين : جازعين وصابرين .

فالجازع ،حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة.

وفوات ماهو أعظم منها ، وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر .

ففاز بالخسارة والحرمان ، ونقص ما معه من الإيمان .

وفاته الصبر والرضا والشكران ، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان .

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب ، فحبس نفسه عن التسخط ، قولا وفعلا ، واحتسب أجرها عند الله ، وعلم أن مايدركه من الأجر بصبره ، أعظم من المصيبة التى حصلت له ، بل المصيبة تكون نعمة فى حقه ، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها ، فقد امتثل أمر الله ، وفاز بالثواب .

فلهذا قال تعالى [ وبشر الصابرين ] أى : بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب .

فالصابرين ، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .

ثم وصفهم بقوله [ الذين إذا أصابتهم مصيبة ] وهى كل مايؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره .

[ قالوا إنا لله ] أى : مملوكون لله ، مدبرون تحت أمره وتصريفه ، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شىء .

. . . . . . . . . . .

---

فإذا ابتلانا بشيء منها ، فقد تصرف أرحم الراحمين، بماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه .

بل من كمال عبودية العبد، علمه ، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذى هو أرحم بعبده من نفسه .

فيوجب له ذلك ، الرضا عن الله ، والشكر له على تدبيره ، لما هو خير لعبده ، ، وإن لم يشعر بذلك .

ومع أننا مملوكون لله ، فإنا إليه راجعون يوم المعاد ، فمجاز كل عامل بعمله . فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفوراً عنده .

وإن جزعنا وسخطنا ، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر .

فكون العبد لله ، وراجعا إليه ، من أقوى أسباب الصبر .

[ أولئك ] الموصوفون بالصبر المذكور[ عليهم صلوات من ربهم ] أى : ثناء وتنويه بحالهم [ ورحمة ] عظيمة .

ومن رحمته إياهم ، أن وفقهم للصبر الذى ينالون به كمال الأجر .

[ وأولئك هم المهتدون ] الذين عرفوا الحق ، وهو فى هذا الموضع ، علمهم بأنهم لله ، وأنهم إليه راجعون ، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله .

ودلت هذه الآية ، على أن من لم يصبر ، فله ضد مالهم ، فحصل له الذم من الله ، والعقوبة ، والضلال والخسارة .

فما أعظم الفرق بين الفريقين « وما أقل تعب الصابرين ، وأعظم عناء الجازعين » .

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها ، لتخف وتسهل ، إذا وقعت .

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

---

وبيان ماتقابل به ، إذا وقعت ، وهو الصبر .

وبيان مايعين على الصبر ، وما للصابرين من الأجر .

ويعلم حال غير الصابر ، بضد حال الصابر .

وأن هذا الابتلاء والامتحان ، سنة الله التى قد خلت ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وبيان أنواع المصائب .

* يخبر تعالى [ إن الصفا والمروة ] وهما معروفان [من شعائر الله ] أى أعلام دينه الظاهرة، التى تعبد الله بها عباده ،

وإذا كانا من شعائر الله ، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال [ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ] .

فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله ، وأن تعظيم شعائره ، من تقوى القلوب .

والتقوى واجبة على كل مكلف،وذلك يدل على أن السعى بهما فرض لازم للحج والعمرة ، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبى صلى الله عليه وسلم وقال « خذوا عني مناسككم » .

[ فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ] .

هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما ، لكونهما فى الجاهلية تعبد عندهما الأصنام .

. . . . . . . . . . .

فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم ، لا لأنه غير لازم .

ودل تقييد نفى الجناح فيمن تطوف بهما فى الحج والعمرة ، أنه لا يتطوع بالسعى مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة .

بخلاف الطواف بالبيت ، فإنه يشرع مع العمرة والحج ، وهو عبادة مفردة .

فأما السعى والوقوف بعرفة ومزدلفة ، ورمى الجمار فإنها تتبع النسك .

فلو فعلت غير تابعة للنسك ، كانت بدعة ، لأن البدعة نوعان .

نوع يتعبد لله بعبادة ، لم يشرعها أصلا .

ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة ، فتفعل على غير تلك الصفة ، وهذا منه .

وقوله [ ومن تطوع ] أى : فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى [ خيرا ] من حج وعمرة ، وطواف ، وصلاة ، وصوم وغير ذلك [ فهو خير له ] .

فدل هذا ، على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ، ازداد خيره وكماله ، ودرجته عند الله ، لزيادة إيمانه .

ودل تقييد التطوع بالخير ، أن من تطوع بالبدع ، التي لم يشرعها الله ولا رسوله ، أنه لا يحصل له إلا العناء ، وليس بخير له ، بل قد يكون شرا له إن كان متعمدا عالما بعدم[1] مشروعية العمل .

---

( ١ ) فى الأصل ( لعدم ) وهو خطأ لأن ( علم ) لا تتعدى إلا بالباء كما قال تعالى ( والله عليم بذات الصدور ) .

. . . . . . . . . . .

---

[ فإن الله شاكر عليم ] الشاكر والشكور ، من أسماء الله تعالى ، الذى يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويجازيهم عليه ،العظيم من الأجر، الذى إذا قام عبده بأوامره ، وامتثل طاعته ، أعانه على ذلك ، وأثنى عليه ومدحه ، وجازاه فى قلبه نورا وإيمانا ، وسعة ، وفى بدنه قوة ونشاطاً ، وفى جميع أحواله زيادة بركة ونماء ، وفى أعماله زيادة توفيق .

ثم بعد ذلك ، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرا ، لم تنقصه هذه الأمور .

ومن شكره لعبده ، أن من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيراً منه .

ومن تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا ، تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشى ، أتاه هرولة ، ومن عامله ، ربح عليه أضعافا مضاعفة .

ومع أنه شاكر ، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل ، بحسب نيته وإيمانه وتقواه ، ممن ليس كذلك .

عليم بأعمال العباد ، فلا يضيعها ، بل يجدونها أوفر ما كانت ، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ

---

هذه الآية ، وإن كانت نازلة فى أهل الكتاب ، وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله [ من البينات ] الدالات على الحق المظهرات له .

[ والهدى ] وهو العلم الذى تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم ، ويتبين به طريق أهل النعيم ، من طريق أهل الجحيم .

فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم ، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه .

فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين ، كتم ما أنزل الله ،والغش لعباد الله

فأولئك ( يلعنهم الله ) أى : يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته .

[ ويلعنهم اللاعنون ] وهم جميع الخليقة ، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة ، لسعيهم فى غش الخلق وفساد أديانهم ، وإبعادهم من رحمة الله ، فجوزوا من جنس عملهم .

كما أن معلم الناس الخير ، يصلى الله عليه وملائكته ، حتى الحوت فى جوف الماء ، لسعيه فى مصلحة الخلق ، وإصلاح أديانهم ، وقربهم من رحمة الله ، فجوزى من جنس عمله .

فالكاتم لما أنزل الله ، مضاد لأمر الله ، مشاق لله ، يبين الله الآيات للناس ويوضحها .

عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

---

وهذا يسعى في طمسها وإخفائها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد .

[ إلا الذين تابوا ) أى رجعوا عماهم عليه من الذنوب ، ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة ( وأصلحوا ) ما فسد من أعمالهم .

فلا يكفى ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن .

ولا يكفى ذلك فى الكاتم أيضا ، حتى يبين ما كتمه ، ويبدى ضد ما أخفى .

فهذا يتوب الله عليه ، لأن توبة الله غير محجوب عنها .

فمن أتى بسبب التوبة ، تاب الله عليه ، لأنه [ التواب ] أى. الرجاع على عباده بالعفو والصفح ، بعد الذنب إذا تابوا ، وبالإحسان والنعم بعد المنع ، إذا رجعوا .

[ الرحيم ] الذى اتصف بالرحمة العظيمة ، التى وسعت كل شىء .

ومن رحمته ، أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم ، لطفاً وكرما ، هذا حكم التائب من الذنب .

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ، ولم ينب إليه ، ولم يتب عن قريب فأولئك [ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ] .

لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتاً ، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول ، لأن الحكم يدور مع علته ، وجوداً وعدما .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

و [ خالدين فيها ] أى : فى اللعنة ، أو فى العذاب ، وهما متلازمان .

و[ولا يخفف عنهم العذاب]بل عذابهم دائم شديد مستمر[ولا هم ينظرون] أى : يمهلون ، لأن وقت الإمهال — وهو الدنيا — قد مضى ، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون .

* يخبر تعالى — وهو أصدق القائلين — أنه [ إله واحد] أى : متوحد متفرد فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

فليس له شريك فى ذاته ، ولا سمى له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق ، ولا مدبر غيره .

فإذا كان كذلك ، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه ، لأنه [ الرحمن الرحيم ] المتصف بالرحمة العظيمة ، التي لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حى .

فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات .

وبرحمته اندفع عنها كل نقمة .

وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة ، فمن الله ، وأن أحدا من المخلوقين ، لا ينفع أحداً — علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة ، وأن يفرد بالمحبة والخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والتوكل ، وغير ذلك من أنواع الطاعات .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقين من تراب، برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه، مع الخالق المدبر القادر القوى. الذى قهر كل شيء. ودان له كل شيء.

فى هذه الآية، إثبات وحدانية البارى وإلهيته. وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم. فهذا دليل إجمالى على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال:

[إن فى خلق السموات الأرض. الآية].

* أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة، آيات أى أدلة على وحدانية البارى وإلهيته. وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته.

ولكنها [لقوم يعقلون] أى: لمن لهم عقول يعملونها. فيما خلقت له. فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبيره.

ففى [خلق السموات] فى ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفى خلق [الأرض] مهادا للخلق، يمكنهم القرار عليها، والانتفاع

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

بما عليها ، والاعتبار ، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها ، وحكمته التي بها أتقنها ، وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع ، من منافع الخلق ومصالحهم ، وضروراتهم وحاجاتهم .

وفى ذلك أبلغ الدليل على كماله ، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة ، لانفراده بالخلق والتدبير ، والقيام بشئون عباده .

وفى [ اختلاف الليل والنهار ] ، وهو تعاقبهما على الدوام ، إذا ذهب أحدهما ، خلفه الآخر .

وفى اختلافهما فى الحر ، والبرد ، والتوسط ، وفى الطول ، والقصر ، والتوسط ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول ، التى بها انتظام مصالح بنى آدم وحيواناتهم ، وجميع ما على وجه الأرض ، من أشجار ونباتات .

كل ذلك بانتظام وتدبير ، وتسخير ، تنبهر له العقول ، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها ، وعلمه وحكمته ، ورحمته الواسعة ، ولطفه الشامل ، وتصريفه وتدبيره ، الذى تفرد به ، وعظمته ، وعظمة ملكه وسلطانه ، مما يوجب أن يؤله ويعبد ، ويفرد بالمحبة والتعظيم ، والخوف والرجاء ، وبذل الجهد فى محابه ومراضيه .

وفى [ الفلك التى تجرى فى البحر ] وهى السفن والمراكب ونحوها ، مما ألهم الله عباده صنعتها ، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ، ما أقدرهم عليها .

ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح ، التى تحملها بما فيها من الركاب

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

---

والأموال ، والبضائع التى هى من منافع الناس ، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم .

فمن الذى ألهمهم صنعتها ، وأقدرهم عليها ، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها ؟.

أم من الذى سخر لها البحر، تجرى فيه بإذنه وتسخيره ، والرياح ؟.

أم من الذى خلق للمراكب البرية والبحرية ، النار والمعادن المعينة على حملها ، وحمل ما فيها من الأموال ؟

فهل هـذه الأمور ، حصلت اتفاقا ، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز ، الذى خرج من بطن أمه ، لا علم له ولا قدرة ؟ ثم خلق له ربه القدرة ، وعلمه ما يشاء تعليمه ؟

أم المسـخر لذلك رب واحد ، حكيم عليم ، لا يعجزه شيء ، ولا يمتنع عليه شيء ؟

بل الأشياء قد دانت بربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته؟

وغاية العبـد الضعيف ، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب ، التى بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمـة الله وعنايته بخلقه ، وذلك يوجب أن تـكون المحبة كلها له ، والخوف والرجاء ، وجميع الطاعة ، والذل والتعظيم .

[ وما أنزل الله من السماء من ماء ] وهو المطر النازل من السحاب .

. . . . . . . . . . .

---

[ فأحيا به الأرض بعـــد موتها ] فأظهرت من أنواع الأقوات ، وأصناف النباتات ، ماهو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها .

أليس ذلك دليلا على قدرة من أنزله ، وأخرج به ما أخرج ورحمتـه ، ولطفه بعبـاده ، وقيامه بمصالحهم ، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه ؟

أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم ؟

أليس ذلك دليلا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ؟

[ وبث فيها ] أى : فى الأرض [ من كل دابة ] أى : نشر فى أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ، ماهو دليل على قدرته وعظمته ، ووحدانيته وسلطانه العظيم .

وسخرها للناس ، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع .

فمنها : ما يأكلون من لحمه ، ويشربون من دره .

ومنها : ما يركبون .

ومنها : ماهو ساع فى مصالحهم وحراستهم ، ومنها ما يعتبر به .

ومنها : أنه بث فيها من كل دابة .

فإنه سبحانه ، هو القائم بأرزاقهم ، المتـكفل بأقواتهم .

فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها

وفى [ تصريف الرياح ] باردة وحارة ، وجنوباً وشمـالا ، وشرقا ودبوراً وبين ذلك .

. . . . . . . . . . .

وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه ، وتارة تدره ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة تكون رحمة ، وتارة ترسل بالعذاب .

فمن الذى صرفها هذا التصريف ، وأودع فيها من منافع العباد ، مالا يستغنون عنه ؟

وسخرها ، ليعيش فيها جميع الحيوانات ، وتصلح الأبدان والأشجار ، والحبوب والنباتات[1] ، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ، ومحبة وإنابة وعبادة ؟

وفى تسخير السحاب بين السماء والأرض — على خفته ولطافته — يحمل الماء الكثير ، فيسوقه الله إلى حيث شاء .

---

( ١ ) فى الأصل ( النوابت ) وهو خطأ فى التعبير ، قال فى القاموس : والنوابت : الأغمار من الأحداث ، والأغمار : مفرد ( غمر ) بضم الغين وسكون الميم ، أى : من لم يجرب الأمور ، بين الغمارة ، من قوم أغمار . اهـ صحاح بتصرف يسير .

وفى المصباح : ورجل غمر ، لم يجرب الأمور ، وقوم أغمار ، مثل قفل وأقفال ، والمرأة غمرة بضم الغين وسكون الميم ، يقال فى الفعل غمر بضم الميم فى الماضى والمضارع ومصدره « غمارة » بفتح الغين ، وبنو عقيل تقول : غمر من باب تعب ، وأصله : الصبى الذى لا عقل له . اهـ بتصرف ، ومن هنا يعلم خطأ استعمال ( النوابت ) مراداً بها ( النباتات ) .

. . . . . . . . . . .

---

فيحيي به البلاد والعباد ، ويروى التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه .

فإذا كان يضرهم كثرته ، أمسكه عنهم ، فينزله رحمة ولطفاً ، ويصرفه عناية وعطفاً .

فما أعظم سلطانه ، وأغزر إحسانه ، وألطف امتنانه !!

أليس من القبيح بالعباد ، أن يتمتعوا برزقه ، ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه .

أليس ذلك دليلا على حلمه وصبره ، وعفوه وصفحه ، وعظيم لطفه ؟
فله الحمد أولا وآخراً ، وباطنا وظاهرا .

والحاصل ، أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات ، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات ، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة ، علم بذلك ، أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب دلالات ، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته ، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مسخرات ، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوى والسفلى كلهم إليه مفتقرون ، وإليه صامدون وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات .

فلا إله إلا الله ، ولا رب سواه .

ثم قال تعالى [ ومن الناس ] إلى [ وما هم بخارجين من النار ] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ

---

☆ ما أحسن اتصال هذه الآية بالتى قبلها .

فإنه تعالى ، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة ، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين ، المزيلة لكل شك .

ذكر هنا أن [ من الناس ] مع هذا البيان التام [ من يتخذ من دون الله أندادا ] لله أى : نظراء ومثلاء ، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة ، والتعظيم والطاعة .

ومن كان بهذه الحالة — بعد إقامة الحجة ، وبيان التوحيد — علم أنه معاند لله ، مشاق له ، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر فى مخلوقاته ، فليس له أدنى عذر فى ذلك ، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله ، لا يسوونهم بالله فى الخلق والرزق والتدبير ، وإنما يسوونهم به ، فى العبادة ، فيعبدونهم ليقربوهم إليه .

وفى قوله « اتخذوا » دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له ، تسمية مجردة ، ولفظاً فارغاً من المعنى . كما قال تعالى .

[ وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ] .

[ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن ] .

يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

---

فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق ، وغيره مخلوق ، والرب هو الرازق . ومن عداه مرزوق ، والله هو الغني وأنتم الفقراء .

وهو الكامل من كل الوجوه ، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه .

والله هو النافع الضار ، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء .

فعلم علماً يقينا ، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً .

سواء كان ملكا أو نبياً ، أو صالحا ، صنما ، أو غير ذلك .

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة ، والذل التام .

فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله [ والذين آمنوا أشد حباً لله ] أى: من أهل الأنداد لأندادهم ، لأنهم أخلصوا محبتهم له ، وهؤلاء أشركوا بها .

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه .

والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً ، ومحبته عين شقاء العبد وفساده ، وتشتت أمره .

فلهذا توعدهم الله بقوله .

[ ولو يرى الذين ظلموا ] باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله ، وسعيهم فيما يضرهم .

ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

---

[ إذ يرون العذاب ] أى : يوم القيامة عيانا بأبصارهم .

[ أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ] أى : لعلموا علماً جازما ، أن القوة والقدرة لله كلها ، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء .

فتبين لهم فى ذلك فى اليوم ، ضعفها وعجزها ، لا كما اشتبه عليهم فى الدنيا ، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً ، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه .

نخاب ظنهم ، وبطل سعيهم ، وحق عليهم شدة العذاب ، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً ، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع .

بل يحصل لهم الضرر منها ، من حيث ظنوا نفعها .

وتبرأ المتبعون من التابعين ، وتقطعت بينهم الوصل ، التى كانت فى الدنيا ، لأنها كانت لغير الله ، وعلى غير أمر الله ، ومتعلقة بالباطل الذى لاحقيقة له ، فاضمحلت أعمالهم ، وتلاشت أحوالهم .

وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين ، وأن أعمالهم التى يؤملون نفعها وحصول نتيجتها ، انقلبت عليهم حسرة وندامة ، وأنهم خالدون فى النار لايخرجون منها أبداً .

فهل بعد هذا الخسران خسران ؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل ، ورجوا غير مرجو ، وتعلقوا بغير متعلق ، فبطلت الاعمال ببطلان متعلقها .

ولما بطلت ، وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها ، فضرتهم غاية الضرر .

تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

---

وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين ، وأخلص العمل لوجهه ، ورجا نفعه .

فهذا قد وضع الحق فى موضعه ، فكانت أعماله حقاً ، لتعلقها بالحق ، ففاز بنتيجة عمله ، ووجد جزاءه عند ربه ، غير منقطع كما قال تعالى .

[ الذين كفروا وصدوا عن سبيلى الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ] .

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم، بأن يتركوا الشرك بالله ، ويقبلوا على إخلاص العمل لله .

وهيهات ، فات الأمر ، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار .

ومع هذا ، فهم كذبة ، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وإنما هو قول يقولونه ، وأمانى يتمنونها ، حنقاً وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم .

فرأس المتبوعين على الشر ، إبليس ، ومع هذا يقول لأتباعه .

[ لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا

---

هذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم .

[ فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأ كلوا من جميع ما فى الأرض ، من حبوب ، وثمار ، وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها [ حلالا ] .

أى : محللا لكم تناوله . ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصلا بمعاملة محرمة أو على وجه محرم أو معينا على محرم .

[ طيباً ] أى ليس : بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث كلها .

ففى هذه الآية ، دليل على أن الأصل فى الأعيان الإباحة . أ كلا وانتفاعا ، وأن المحرم نوعان :

إما محرم لذاته ، وهو الخبيث الذى هو ضد الطيب .

وإما محرم لما عرض له ، وهو المحرم لتعلق حق الله ، أوحق عباده به ، وهو ضد الحلال .

وفيه دليل على أن الأ كل بقدر ما يقيم البنية واجب ، يأثم تاركه لظاهر الأمر .

ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به . إذ هو عين صلاحهم ، نهاهم عن اتباع [ خطوات الشيطان ] أى : طرقه التي يأمر بها ، وهى جميع المعاصى ، من كفر ، وفسوق ، وظلم .

يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا

---

[ ويدخل فى ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك .

ويدخل فيه تناول المأكولات المحرمة .

[ إنه لكم عدو مبين ] أى : ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم ، إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير .

فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته ، حتى أخبرنا — وهو أصدق القائلين ـ بعداوته الداعية للحذر منه ، ثم لم يكتف بذلك ، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به ، وأنه أقبح الأشياء ، وأعظمها مفسدة فقال :

[ إنما يأمركم بالسوء ] أى : الشر الذى يسوء صاحبه ، فيدخل فى ذلك ، جميع المعاصى .

فيكون قوله : [ والفحشاء ] من باب عطف الخاص على العام ، لأن الفحشاء من المعاصى ، ما تناهى قبحه ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والقتل ، والقذف ، والبخل ونحو ذلك ، مما يستفحشه من له عقل .

[ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ] فيدخل فى ذلك ، القول على الله بلا علم ، فى شرعه ، وقدره .

فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه ، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن زعم أن لله نداً ، وأوثانا ، تقرب من عبدها من الله ، فقد قال على الله تعالى بلا علم .

عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ومن قال : إن الله أحل كذا ، أو حرم كذا ، أو أمر بكذا ، أو نهى عن كذا ، بغير بصيرة ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن قال : الله خلق هذا الصنف من المخلوقات،للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن أعظم القول على الله بلا علم ، أن يتأول المتأول كلامه ، أوكلام رسوله ، على معانى اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال ، ثم يقول : إن الله أرادها .

فالقول على الله بلا علم ، من أكبر المحرمات ، وأشملها ، وأكبر طرق الشيطان التى يدعو إليها ،

فهذه طرق الشيطان التى يدعو إليها هو وجنوده ، ويبذلون مكرهم وخداعهم ، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه .

وأما الله تعالى ، فإنه يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

فلينظر العبد نفسه ، مع أى الداعيين ، ومن أى الحزبين ؟

أتتبع داعى الله الذى يريد لك الخير والسعادة الدنوية والأخروية ، الذى كل الفلاح بطاعته ، وكل الفوز فى خدمته ، وجميع الأرباح فى معاملة

. . . . . . . . . . .

---

المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، الذى لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر .

أم تتبع داعى الشيطان ، الذى هو عدو الإنسان ، الذى يريد لك الشر ، ويسعى — بجهده — على إهلاكك فى الدنيا والآخرة .

الذى كل الشر فى طاعته ، وكل الخسران فى ولايته .

والذى لا يأمر إلا بشر ، ولا ينهى إلا عن خير .

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله ، مما تقدم وصفه ، رغبوا عن ذلك وقالوا .

[ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ] .

فاكتفوا بتقليد الآباء ، وزهدوا فى الإيمان بالأنبياء .

ومع هـذا ، فآباؤهم أجهل الناس ، وأشدهم ضلالا وهذه شبهة لرد الحق ، واهية .

فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ، ورغبتهم عنه ، وعدم إنصافهم.

فلو هدوا ، لرشدهم ، وحسن قصدهم ، لكان الحق هو القصد .

ومن جعل الحق قصده ، ووازن بينه وبين غيره ، تبين له الحق قطعا ، واتبعه ، إن كان منصفاً .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

---

ثم قال تعالى [ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ] .

لما بين تعالى ، عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل ، وردهم لذلك ، بالتقليد ، وعلم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ، ولا مستجيبين له ، بل كان معلوما لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم — أخبر تعالى ، أن مثلهم - عند دعاء الداعى لهم إلى الإيمان - كمثل البهائم التى ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها .

فهم يسمعون مجرد الصوت ، الذى تقوم به عليهم الحجة ، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم ، فلهذا كانوا صما، لايسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميا ، لا ينظرون نظر اعتبار ، بكما ، فلا ينطقون بما فيه خير لهم .

والسبب الموجب لذلك كله ، أنه ليس لهم عقل صحيح ، بل هم أسفه السفهاء ، وأجهل الجهلاء .

فهل يستريب العاقل ، أن من دعى إلى الرشاد ، وذيد عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب ، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه ، وفوزه ، ونعيمه فعصى الناصح ، وتولى عن أمر ربه ، واقتحم النار على بصيرة ، واتبع الباطل ، ونبذ الحق — أن هذا ليس له مسكة من عقل ، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء ، فإنه من أسفه السفهاء .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ

---

هذا أمر للمؤمنين خاصة ، بعد الأمر العام ، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة — بالأوامر والنواهى ، بسبب إيمانهم ،

فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، والشكر لله على إنعامه ، باستعمالها بطاعته ، والتقوى بها على مايوصل إليه .

فأمرهم بما أمر به المرسلين فى قوله [ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ] .

فالشكر فى هذه الآية ، هو العمل الصالح .

وهنا لم يقل « حلالا » لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق ، خالصة من التبعة .

ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له .

وقوله [ إن كنتم إياه تعبدون ] أى : فاشكروه .

فدل على أن من لم يشكر الله ، لم يعبده وحده ، كما أن من شكره ، فقد عبده ، وأتى بما أمر به .

ويدل أيضا على أن أكل الطيب ، سبب للعمل الصالح وقبوله .

والأمر بالشكر ،عقيب النعم ، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة .

ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

كما أن الكفر ، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة(١) .

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال [ إنما حرم عليكم الميتة ] وهى : ما مات بغير تذكيه شرعية ، لأن الميتة خبيثة مضرة ، لرداءتها فى نفسها ، ولأن الأغلب ، أن تكون عن مرض ، فيكون زيادة مرض .

واستثنى الشارع من هذا العموم ، ميتة الجراد ، وسمك البحر ، فإنه حلال طيب .

[ والدم ] أى : المسفوح كما قيد فى الآية الأخرى .

[ وما أهل به لغير الله ] أى : ذبح لغير الله ، كالذى يذبح للاصنام والأوثان ، من الأحجار ، والقبور ونحوها ، وهذا المذكور غير خاص للمحرمات .

وجىء به ، لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله [طيبات] .

فعموم المحرمات ، تستفاد من الآية السابقة ، من قوله : [ حلالا طيبا ] كما تقدم .

---

(١) وقوله ( أن الكفر ينفر النعم المفقودة الخ ) عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله .

اذَا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا      فَإِنَّ ٱلْمَعَاصِى تُزِيلُ ٱلنِّعَمْ

. . . . . . . . . . .

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها ، لطفا بنا ، وتنزيها عن المضر .

ومع هذا [ فمن اضطر ] أى : ألجىء إلى المحرم ، بجوع وعدم ، وإكراه .

[ غير باغ ] أى : غير طالب المحرم ، مع قدرته على الحلال ، أو مع عدم جوعه .

[ ولا عاد ] أى : متجاوز الحد فى تناول ما أبيح له ، اضطراراً .

[ فلا إثم ] أى: جناح وذنب [ عليه ] .

وإذا ارتفع الإثم ، رجع الأمر إلى ما كان عليه .

والإنسان بهذه الحالة ، مأمور بالأكل ، بل منهى أن يلقى بيده إلى التهلكة ، وأن يقتل نفسه .

فيجب ، إذا ، عليه الأكل ، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ، فيكون قاتلا لنفسه .

وهذه الإباحة والتوسعة ، من رحمته تعالى بعباده ،

فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال :

[ إن الله غفور رحيم ] .

ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين ، وكان الإنسان فى هذه الحالة ، ربما لا يستقصى تمام الاستقصاء فى تحقيقها — أخبر ، أنه غفور ، فيغفر ما أخطأ فيه فى هذه الحال ، خصوصاً وقد غلبته الضرورة ، وأذهبت حواسه المشقة .

وفى هذه الآية ، دليل على القاعدة المشهورة « الضرورات تبيح المحظورات » .

فكل محظور، اضطر إليه الإنسان ، فقد أباحه له ، الملك الرحمن .

فله الحمد والشكر ، أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله ، من العلم الذى أخذ الله الميثاق على أهله ، أن يبينوه للناس ولا يكتموه .

فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوى ، ونبذ أمر الله ، فأولئك .

[ ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ] ، لأن هذا الثمن الذى اكتسبوه ، إنما حصـــل لهم بأقبح المكاسب ، وأعظم المحرمات ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم .

[ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ] بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم .

فهذا أعظم عليهم من عذاب النار .

[ ولا يزكيهم ] أى : لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة ، وليس(١) لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها .

وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التى أعظم أسبابها ، العمل بكتاب الله ، والاهتداء به ، والدعوة إليه .

فهؤلاء نبـذوا كتاب الله ، وأعرضوا عنه ، واختاروا الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة .

---

(١) قوله : ( وليس لهم أعمال إلخ ) هكذا فى الأصل والصـواب أن يقال : ( إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح الخ ) لأن المقام يقتضى التعليل بدليل قوله : ( لأنهم فعلوا أسباب التزكية الخ ) .

أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ
بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

---

فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار ، فكيف يصبرون عليها ، وأنى لهم الجلد عليها ؟ !!

[ ذلك ] المذكور ، وهو مجازاته بالعدل ، ومنعه أسباب الهداية ، ممن أباها واختار سواها .

[ بأن الله نزل الكتاب بالحق ] ومن الحق ، مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وأيضاً ففى قوله : [ نزل الكتاب بالحق ] ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه ، وتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال .

فمن صرفه عن مقصوده ، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة .

[ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ] أى : وإن الذين اختلفوا فى الكتاب ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه .

والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم [ لفى شقاق ] أى : محادة .

[ بعيد ] من الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذى جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض .

فمرج أمرهم ، وكثر شقاقهم ، وترتب على ذلك افتراقهم .

بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به ، وحكموه فى كل شىء ، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه .

﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ

وقد تضمنت هذه الآيات ، الوعيد للكاتمين لما أنزل الله ، المؤثرين عليه ، عرض الدنيا — بالعذاب والسخط ، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ، ولا بالمغفرة .

وذكر السبب فى ذلك وهو إيثارهم الضلالة على الهدى .

فترتب على ذلك ، اختيار العذاب على المغفرة .

ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار ، لعملهم بالأسباب التى يعلمون أنها موصلة إليها .

وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه ، وعدم الافتراق .

وأن كل من خالفه ، فهو فى غاية البعد عن الحق ، والمنازعة والمخاصمة ، والله أعلم .

* يقول تعالى: [ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ] أى : ليس هذا هو البر المقصود من العباد ، فيكون كثرة البحث فيه والجدال ، من العناء الذى ليس تحته إلا الشقاق والخلاف .

وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » ونحو ذلك .

[ ولكن البر من آمن بالله ] أى : بأنه إله واحد ، موصوف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص .

[ واليوم الآخر ] وهو كل ما أخبر الله به فى كتابه ، أو أخبر به الرسول ، مما يكون بعد الموت .

وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

---

[ والملائكة ] الذين وصفهم الله لنا فى كتابه ، ووصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

[ والكتاب ] أى : جنس الكتب التى أنزلها الله على رسوله ، وأعظمها القرآن ، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام .

[ والنبيين ] عموماً ، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم

[ وآتى المال ] وهو كل ما يتموله الإنسان من مال ، قليلا كان أو كثيرا .

أى : أعطى المال [ على حبه ] أى : حب المال [ على حبه ] أى : حب المال .

بين به أن المال محبوب للنفوس ، فلا يكاد يخرجه العبد .

فمن أخرجه مع حبه له ، تقرباً إلى الله تعالى ، كان هذا برهانا لإيمانه.

ومن إيتاء المال على حبه ، أن يتصدق وهو صحيح شحيح ، يأمل الغنى ، ويخشى الفقر .

وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة ، كان أفضل ، لأنه فى هذه الحال، يحب إمساكه ، لما يتوهمه من العدم والفقر .

وكذلك إخراج النفيس من المال ، وما يحبه من ماله كما قال تعالى :

[ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ] .

فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه .

ثم ذكر المنفق عليهم ، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك .

من [ ذوى القربى ] الذين تتوجع لمصابهم ، وتفرح بسرورهم ، الذين يتناصرون ويتعاقلون .

وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

---

فمن أحسن البر وأوفقه ، تعاهد الأقارب بالإحسان المالى والقولى ، على حسب قربهم وحاجتهم .

[ واليتامى ] الذين لا كاسب لهم ، وليس لهم قوة يستغنون بها .

وهذا من رحمته تعالى بالعباد ، الدالة على أنه تعالى ، أرحم بهم من الوالد بولده .

فالله قد أوصى العباد ، وفرض عليهم فى أموالهم ، الإحسان إلى من فقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه .

ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره ، رحم يتيمه .

[ والمساكين ] وهم الذين أسكنتهم الحاجة ، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء ، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها ، بما يقدرون عليه ، وبما يتيسر .

[ وابن السبيل ] وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده .

فحث الله عباده على إعطائه من المال ، ما يعينه على سفره ، لكونه مظنة الحاجة ، وكثرة المصارف .

فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته ، وخوله من نعمته ، أن يرحم أخاه الغريب ، الذى بهذه الصفة ، على حسب استطاعته ، ولو بتزويده ، أو إعطائه آلة لسفره ، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها .

[ والسائلين ] أى : الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج ، توجب السؤال .

كمن ابتلى بأرش جناية ، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور ، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة ، كالمساجد ، والمدارس ، والقناطر ، ونحو ذلك ،

فهذا له الحق ، وإن كان غنياً [ وفى الرقاب ] فيدخل فيه العتق والإعانة عليه ، وبذل مال للمكاتب ، ليوفى سيده ، وفداء الأسرى عند الكفار ، أو عند الظلمة .

[ وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ] قد تقدم مرارا ، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة ، لكونهما أفضل العبادات ، وأكمل القربات ، عبادات قلبية ، وبدنية ، ومالية ، وبهما يوزن الإيمان ، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان .

[ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ] والعهد ، هو ، الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه .

فدخل فى ذلك حقوق الله كلها ، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها ، ودخلوا تحت عهدتها ، ووجب عليهم أداؤها ، وحقوق العباد ، التى أوجبها الله عليهم ، والحقوق التى التزمها العبد كالأيمان والنذور ، ونحو ذلك .

[ والصابرين فى البأساء ] أى : الفقر ، لأن الفقير يحتاج الى الصبر من وجوه كثيرة ، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ، ما لا يحصل لغيره .

فإن تنعم الأغنياء ، بما لا يقدر عليه ، تألم .

وإن جاع ، أو جاعت عياله ، تألم .

وإن أكل طعاما ، غير موافق لهواه ، تألم .

وإن عرى ، أو كاد ، تألم ، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذى يستعد له تألم ، وإن أصابه البرد الذى لا يقدر على دفعه، تألم .

ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

فكل هذه ونحوها ، مصائب ، يؤمر بالصبر عليها ، والاحتساب ، ورجاء الثواب من الله عليها .

[ والضراء ] أى : المرض على اختلاف أنواعه ، من حمى ، وقروح ، ورياح ، ووجع عضو ، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك ، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك .

لأن النفس تضعف ، والبدن ، يألم ، وذلك فى غاية المشقة على النفوس، خصوصا مع تطاول ذلك ، فإنه يؤمر بالصبر ، احتسابا لثواب الله تعالى .

[ وحين البأس ] أى : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلاد، يشق غاية المشقة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل، أوالجراح، أو الأسر ، فاحتيج إلى الصبر فى ذلك ، احتسابا ، ورجاء لثواب الله تعالى ، الذى منه النصر والمعونة ، التى وعدها الصابرين .

[ أولئك ] أى : المتصفون بما ذكر ، من العقائد الحسنة ، والأعمال التى هى آثار الإيمان ، وبرهانه ونوره ، والأخلاق التى هى جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية .

فأولئك [ الذين صدقوا ] فى إيمانهم ، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم .

[ وأولئك هم المتقون ] لأنهم تركوا المحظور ، وفعلوا المأمور .

لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير ، تضمنا ولزوما ، لأن الوفاء بالعهد ، يدخل فيه الدين كله .

ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهؤلاء الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة ، من الثواب الدنيوى والأخروى ، مما لا يمكن تفصيله فى مثل هذا الموضع .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ

---

يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم [ القصاص فى القتلى ] أى : المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل على الصفة ، التى قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين ، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه ـ إعانة ولى المقتول ، إذا طلب القصاص ويمكنه من القاتل ، وأنه لايجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ، ويمنعوا الولى من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ، ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم بين تفصيل ذلك فقال [الحر بالحر] يدخل بمنطوقها ، الذكر بالذكر .

[ والأنثى بالأنثى ] والأنثى بالذكر ، والذكر بالأنثى ، فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله « الأنثى بالأنثى » مع دلالة السنة ، على أن الذكر يقتل بالأنثى .

وخرج من عموم هذا ، الأبوان وإن علوا .

فلا يقتلان بالولد ، لورود السنة بذلك .

مع أن فى قوله [ القصاص ] ما يدل على أنه ليس من العدل ، أن يقتل الوالد بولده .

ولأن فى قلب الوالد من الشفقة والرحمة ، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال فى عقله ، أو أذية شديدة جداً من الولد له .

وخرج من العموم أيضاً ، الكافر بالسنة ، مع أن الآية فى خطاب المؤمنين خاصة .

مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

---

وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولى الله بعدوه .

والعبد بالعبد ، ذكراً كان أو أنثى ، تساوت قيمتهما أو اختلفت .

ودل بمفهومها على أن الحر ، لايقتل بالعبد ، لكونه غير مساو له .

والأنثى بالأنثى ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الأصل وجوب القود فى القتل ، وأن الدية بدل عنه .

فلهذا قال [ فمن عفى له من أخيه شىء ] أى عفا ولى المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص ، وتجب الدية ، وتكون الخيرة فى القود ، واختيار الدية إلى الولى .

فإذا عفا عنه ، وجب على الولى ، أى : ولى المقتول أن يتبع القاتل [ بالمعروف ] من غير أن يشق عليه ، ولايحمله مالا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ، ولا يحرجه .

وعلى القاتل [ أداء إليه بإحسان ] من غير مطل ولا نقص ، ولا إساءة فعلية أوقولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء .

وهذا مأمور به فى كل ما يثبت فى ذمم الناس للانسان .

مأمور من له الحق ، بالاتباع بالمعروف .

ومن عليه الحق ، بالأداء بالاحسان .

وفى قوله [ فمن عفى له من أخيه ] ترقيق وحث على العفو إلى الدية .

وأحسن من ذلك ، العفو مجانا .

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

---

وفى قوله [ أخيه ] دليل على أن القاتل ، لايكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا ، أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها .

ومن باب أولى ، أن سائر المعاصى ، التى هى دون الكفر ، ولا يكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

وإذا عفا أولياء المقتول ، أو عفا بعضهم ، احتقن دم القاتل ، وصار معصوما منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال [ فمن اعتدى بعد ذلك ] أى : بعد العفو [ فله عذاب أليم ] أى : فى الآخرة .

وأما قتله وعدمه ، فيؤخذ مما تقدم ، لأنه قتل مكافئا له ، فيجب قتله بذلك .

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل ، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ، ولايجوز العفو عنه ، وبذلك قال بعض العلماء .

والصحيح الأول ، لأن جنايته لاتزيد على جناية غيره .

ثم بين تعالى حكمته العظيمة فى مشروعية القصاص فقال :

[ ولكم فى القصاص حياة ] أى : تنحقن بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل ، لايكاد يصدر منه القتل ، وإذا رؤى القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره ، وانزجر ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذى يحصل بالقتل .

وهكذا سائر الحدود الشرعية ، فيها من النكاية والانزجار ، مايدل على حكمة الحكيم الغفار .

ونكر « الحياة » لإفادة التعظيم والتكثير .

ولما كان هذا الحكم ، لايعرف حقيقته ، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة ، خصهم بالخطاب دون غيرهم .

وهذا يدل على أن الله تعالى ، يحب من عباده ، أن يعملوا أفكارهم وعقولهم ، فى تدبر ما فى أحكامه ، من الحكم ، والمصالح الدالة على كماله ، وكمال حكمته وحمده ، وعدله ورحمته الواسعة وأن من كان بهذه المثابة ، فقد استحق المدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب ، وكفى بذلك فضلا وشرفا ، لقوم يعقلون .

وقوله [ لعلكم تتقون ] وذلك أن من عرف ربه وعرف ما فى دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة ، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله ، ويعظم معاصيه ، فيتركها ، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين .

☆ أى. فرض الله عليكم ، يا معشر المؤمنين [ إذا حضر أحدكم الموت] أى : أسبابه ، كالمرض المشرف على الهلاك ، وحضور أسباب المهالك .

وكان قد [ ترك خيراً ] وهو المال الكثير عرفا ، فعليه أن يوصى لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف ، على قدر حاله من غير سرف ، ولا اقتصار على الأبعد ، دون الأقرب .

بل يرتبهم على القرب والحاجة ، ولهذا أتى بأفعل التفضيل .

وقوله [حقاً على المتقين] دل على وجوب ذلك ، لأن الحق هو : الثابت وقد جعله الله من موجبات التقوى .

خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ

---

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث.

وبعضهم يرى أنها فى الوالدين والأقربين غير الوارثين ، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل .

والأحسن فى هذا أن يقال : إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجارى .

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف فى آيات المواريث ، بعد أن مجملا .

وبقى الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف ، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره .

وهذا القول تتفق عليه الأمة ، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين ، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظا ، واختلف المورد .

فبهذا الجمع ، يحصل الاتفاق ، والجمع بين الآيات ، فإنه أمكن الجمع ، كان أحسن من ادعاء النسخ ، الذى لم يدل عليه دليل صحيح .

ولما كان الموصى قد يمتنع من الوصية ، لما يتوهمه أن من بعده ، قد يبدل ما وصى به قال تعالى .

[ فمن بدله ] أى : أى الإيصاء للمذكورين أو غيرهم [ بعد ما سمعه ] أى : بعد ما عقله ، وعرف طرقه وتنفيذه .

عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

---

[ فإنما إثمه على الذين يبدلونه ] وإلا فالموصى وقع أجره على الله ، وإنما الإثم على المبدل المغير .

[ إن الله سميع ] يسمع سائر الأصوات ، ومنه سماعه لمقالة الموصى ووصيته .

فينبغى له أن يراقب من يسمعه ويراه ، وأن لا يجور فى وصيته .

[ عليم ] بنيته ، وعليم بعمل الموصى إليه .

فإذا اجتهد الموصى ، وعلم الله من نيته ذلك ، أثابه ولو أخطأ .

وفيه ، التحذير للموصى إليه من التبديل .

فإن الله عليم به ، مطلع على فعله ، فليحذر من الله . هذا حكم الوصية العادلة .

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف ، وإثم .

فينبغى لمن حضر الموصى وقت الوصية بها ، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل ، وأن ينهاه عن الجور .

والجنف ، وهو : الميل بها عن خطأ ، من غير تعمد ، والاثم : وهو التعمد لذلك .

فإن لم يفعل ذلك ، فينبغى له أن يصلح بين الموصى إليهم ، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضى والمصالحة ، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفاً عظيما ، وليس عليهم ، كما على مبدل الوصية الجائزة ولهذا قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

---

[ إن الله غفور ] أي : يغفر جميع الزلات ، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه ، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه ، وترك بعض حقه لأخيه ، لأن من سامح ، سامحه الله .

غفور لميتهم الجائر في وصيته ، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته .

رحيم بعباده ، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون .

فدلت هذه الآيات ، على الحث على الوصية ، وعلى بيان من هي له ، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة ، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة .

* يخبر تعالى ، بما من الله به على عباده ، بأنه فرض عليهم الصيام ، كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع والأوامر ، التي هي مصلحة للخلق في كل زمان .

وفيه تنشيط لهذه الأمة ، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال ، والمسارعة إلى صالح الخصال ، وأنه ليس من الأمور الثقيلة ، التي اختصصتم بها .

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال [ لعلكم تتقون ] .

فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه .

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ

---

فما اشتمل عليه من التقوى ، أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها ، التي تميل إليها نفسه ، متقرباً بذلك إلى الله ، راجيا بتركها ، ثوابه . فهذا من التقوى .

ومنها أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى ، فيترك ما يهوى نفسه ، مع قدرته عليه ، لعلمه باطلاع الله عليه .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان ، فإنه يجرى من ابن آدم ، مجرى الدم ، فبالصيام ، يضعف نفوذه ، وتقل منه المعاصى .

ومنها : أن الصائم فى الغالب ، تكثر طاعته ، والطاعات من خصال التقوى .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع ، أوجب له ذلك ، مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام ، أخبر أنه أيام معدودات ، أى : قليلة فى غاية السهولة .

ثم سهل تسهيلا آخر . فقال [ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ] وذلك للمشقة ، فى الغالب ، رخص الله لهما ، فى الفطر .

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن ، أمرهما أن يقضياه فى أيام أخر إذا زال المرض ، وانقضى السفر ، وحصلت الراحة .

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

---

وفى قوله [ فعدة من أيام ] فيه دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان ، كاملا كان ، أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماقصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وقوله [ وعلى الذين يطيقونه ] أى : يطيقون الصيام [ فدية ] عن كل يوم يفطرونه [ طعام مسكين ] .

وهذا فى ابتداء فرض الصيام ، لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان فرضه حتما ، فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم ، بأسهل طريق .

وخير المطيق للصوم ، ، بين أن يصوم ، وهو أفضل ، أو يطعم .

ولهذا قال : [ وأن تصوموا خير لكم ] .

ثم بعد ذلك ، جعل الصيام حتما على المطيق وغير المطيق ، يفطر ويقضيه فى أيام أخر .

وقيل [ وعلى الذين يطيقونه ] أى يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة ، كالشيخ الكبير ، فدية عن كل يوم ، طعام مسكين ، وهذا هو الصحيح .

[ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ] أى : الصوم المفروض عليكم ، هو شهر رمضان ، الشهر العظيم ، الذى قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم .

. . . . . . . . . . .

وهو القرآن الكريم ، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان ، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال ، وأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فحقيق بشهر ، هذا فضله ، وهذا إحسان الله عليكم فيه ، أن يكون موسماً للعباد ومفروضاً فيه الصيام .

فلما قرره ، وبين فضيلته ، وحكمة الله تعالى فى تخصيصه قال :

[ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ] هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر .

ولما كان النسخ للتخيير ، بين الصيام والفداء خاصة ، أعاد الرخصة للمريض والمسافر ، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضا منسوخة فقال :

[ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ] أى : يريد الله تعالى ، أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه ، أعظم تيسير ، ويسهلها أبلغ تسهيل .

ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده فى غاية السهولة فى أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله ، سهله تسهيلا آخر ، إما بإسقاطه ، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات .

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها ، لأن تفاصيلها ، جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات .

[ ولتكملوا العدة ] وهذا — والله أعلم — لئلا يتوهم متوهم ، أن صيام رمضان ، يحصل المقصود منه ببعضه ، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴿١٨٦﴾﴾

---

عدته ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده ، وبالتكبير عند انقضائه ، ويدخل فى ذلك ، التكبير عند رؤية هلال شوال، إلى فراغ خطبة العيد .

☆ هذا جواب سؤال سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا : يارسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل .

[ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ] لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ، المطلع على السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو قريب أيضاً من داعيه ، بالإجابة .

ولهذا قال [ أجيب دعوة الداع إذا دعان ] .

والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة ، والمعونة والتوفيق .

فمن دعا ربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة .

وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهى الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ، الموجب للاستجابة .

فلهذا قال : [ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ] أى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟

يحصل لهم الرشد ، الذى هو الهداية للايمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم البغى ، المنافى للايمان والأعمال الصالحة .

ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما قال تعالى .

[ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ] .

ثم قال تعالى [ أحل لكم ] إلى قوله [ لعلهم يتقون ] .

﴿ كان فى أول فرض الصيام ، يحرم على المسلمين ، الأكل، والشرب ، والجماع فى الليل بعد النوم ، فحصلت المشقة لبعضهم .

فخفف الله تعالى عنهم ذلك ، وأباح فى ليالى الصيام كلها ، الأكل ، والشرب ، والجماع . سواء نام أو لم ينم ، لكونهم يختانون أنفسهم ، بترك بعض ما أمروا به .

[ فتاب ] الله [ عليكم ] بأن وسع لكم أمراً كان — لولا توسعته — موجباً للاثم [ وعفا عنكم ] ماسلف من التخون .

[ فالآن ] بعد هذه الرخصة والسعة من الله [ باشروهن ] وطئا وقبلة ولمسا وغير ذلك .

[ وابتغوا ما كتب الله لكم ] أى : انووا فى مباشرتكم لزوجاتكم ، التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء ، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه ، وفرج زوجته ، وحصول مقاصد النكاح .

مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ

---

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالى صيام رمضان فلاينبغى لكم ، أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها ، وتضيعوها .

فاللذة مدركة ، وليلة القدر — إذا فاتت — لم تدرك .

[ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ] هذا غاية للأكل والشرب والجماع .

وفيه أنه إذا أكل ونحوه ، شاكا فى طلوع الفجر ، فلا بأس عليه .

وفيه دليل على استحباب السحور ، للأمر ، وأنه يستحب تأخيره ، أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد .

وفيه أيضاً ، دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر ، وهو جنب من الجماع ، قبل أن يغتسل ، ويصح صيامه ، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر ، أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق .

[ ثم ] إذا طلع الفجر [ أتموا الصيام ] أى : الإمساك عن المفطرات [ إلى الليل ] وهو غروب الشمس .

ولما كان إباحة الوطء فى ليالى الصيام ، ليست إباحة عامة لكل أحد ، فإن المعتكف لايحل له ذلك ، استثناه بقوله .

[ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ] أى : وأنتم متصفون بذلك .

حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

---

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ، وهو لزوم المسجد ، لطاعة الله[1] تعالى ، وانقطاعا إليه وأن الاعتكاف لايصح إلا فى مسجد .

ويستفاد من تعريف المساجد ، أنها المساجد المعروفة عندهم ، وهى التى تقام فيها الصلوات الخمس .

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

تلك المذكورات — وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات فى الصيام ، وتحريم الفطر على غير المعذور ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات [ حدود الله ] التى حدها لعباده ، ونهاهم عنها فقال :

[ فلا تقربوها ] أبلغ من قوله « فلا تفعلوها » لأن القربان ، يشمل النهى عن فعل المحرم بنفسه ، والنهى عن وسائله الموصلة إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها ، غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليه .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » فنهى عن مجاوزتها .

---

( ١ ) قوله ( لطاعة الله ) الأنسب ( طاعة لله ) ليتناسب مع قوله ( انقطاعا ) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ ﴾

[ كذلك ] أى : يبين[1] الله لعباده الأحكام السابقة ، أتم تبيين ، وأوضحها لهم ، أكمل إيضاح .

[ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ] فإنهم إذا بان لهم الحق ، اتبعوه وإذا تبين لهم الباطل ، اجتنبوه .

فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله .

فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سببا للتقوى .

* أى : ولا تأخذوا أموالكم أى : أموال غيركم .

أضافه إليهم ، لأنه ينبغى للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله ، كما يحترم ماله ولأن أكله لمال غيره يجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعا بحق ، ونوعا بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده الله تعالى بذلك .

ويدخل بذلك ، أكلها على وجه الغصب ، والسرقة ، والخيانة فى وديعة أو عارية ، أو نحو ذلك .

ويدخل فيه أيضاً ، أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا ، والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس فى مقابلة عوض مباح .

---

(١) قوله « يبين » كذا فى الأصل وهو تحريف بدليل ما بعد وهو ( وأوضحها ) ولذلك أصلحناها بـ « بين » .

بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

ويدخل فى ذلك أخذها ، بسبب غش فى البيع ، والشراء ، والإجارة ، ونحوها .

ويدخل فى ذلك ، استعمال الأجرار ، وأكل أجرتهم .

وكذلك أخذهم أجرة على عمل ، لم يقوموا بواجبه .

ويدخل فى ذلك ، أخذ الأجرة على العبادات والقربات ، التى لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله تعالى .

ويدخل فى ذلك ، الأخذ من الزكوات والصدقات ، والأوقاف ، والوصايا ، لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه ، من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه .

حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة ، غلبت حجة المحق ، وحكم له الحاكم بذلك .

فإن حكم الحاكم ، لا يبيح محرماً ، ولا يحال حراما ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية .

فليس فى حكم الحاكم للمبطل راحة ، ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة ، وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون آكلا لمال غيره ، بالباطل والإثم ، وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ فى عقوبته ، وأشد فى نكاله .

وعلى هذا ، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل فى دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى [ ولا تكن للخائنين خصيما ]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾

---

فقوله تعالى [ يسألونك عن الأهلة ] جمع — هلال — ما فائدتها وحكمتها، أو عن ذاتها .

[ قل هى مواقيت للناس ] أى جعلها الله تعالى ، بلطفه ورحمته ، على هذا التدبير .

يبدو الهلال ضعيفاً فى أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع فى النقص إلى كماله[1] ، وهكذا ، ليعرف الناس بذلك ، مواقيت عباداتهم ، من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع فى أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتا كثيرة قال : [ والحج ] وكذلك تعرف بذلك ، أوقات الديون المؤجلات ، ومدة الإجارات ، ومدة العدد[2] والحمل ، وغير ذلك ، مما هو من حاجات الخلق.

فجعله تعالى ، حساباً ، يعرفه كل أحد ، من صغير ، وكبير ، وعالم ، وجاهل .

فلو كان الحساب بالسنة الشمسية ، لم يعرفه إلا النادر من الناس .

[ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ] وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب ، إذا أحرموا ، لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبداً بذلك ، وظناً أنه بر .

---

( ١ ) قوله [ إلى كماله ] يعنى : أن الهلال لايزال يتناقص إلى نهاية الشهر ، حتى ينمحق فلا يرى منه شىء .

( ٢ ) قوله « والعدد » جمع « عدة » أى عدة الطلاق وعدة المتوفى عنها زوجها .

وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

---

فأخبر تعالى ، أنه ليس من البر ، لأن الله تعالى ، لم يشرعه لهم .

وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة .

وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور ، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلا .

فالآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة ، التي بها يحصل المقصود أو بعضه .

والمتعلم والمعلم ، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده .

وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه ، وثابر عليه ، فلابد أن يحصل له المقصود ، بعون الملك المعبود .

[ واتقوا الله ] هذا هو البر ، الذي أمر الله به ، وهو لزوم تقواه على الدوام ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإنه سبب الفلاح ، الذي هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

فمن لم يتق الله تعالى ، لم يكن له سبيل إلى الفلاح ، ومن اتقاه ، فاز بالفلاح والنجاح .

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ

---

هذه الآيات ، تتضمن الأمر بالقتال فى سبيل الله ، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة ، لما قوى المسلمون للقتال ، أمرهم الله به ، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم .

وفى تخصيص القتال [ فى سبيل الله ] حث على الإخلاص ، ونهى عن الاقتتال فى الفتن بين المسلمين .

[ الذين يقاتلونكم ] أى . الذين هم مستعدون لقتالكم ، وهم المكلفون الرجال ، غير الشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال .

والنهى عن الاعتداء ، يشمل أنواع الاعتداء كلها ، من قتل من لا يقاتل ، من النساء ، والمجانين والأطفال ، والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى ، وقتل الحيوانات ، وقطع الأشجار ونحوها ، لغير مصلحة تعود للمسلمين .

ومن الاعتداء ، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها ، فإن ذلك لا يجوز .

[ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ] هذا أمر بقتالهم ، أينما وجدوا فى كل وقت ، وفى كل زمان قتال مدافعة ، وقتال مهاجمة .

ثم استثنى من هذا العموم قتالهم [ عند المسجد الحرام ] وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال ، فإنهم يقاتلون ، جزاء لهم على اعتدائهم .

وهذا مستمر فى كل وقت ، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا ، فإن الله

وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

---

يتوب عليهم ، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله، والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده .

ولما كان القتال عند المسجد الحرام ، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك ، والصد عن دينه ، أشد من مفسدة القتل ، فليس عليكم — أيها المسلمون — حرج في قتالهم .

ويستدل من هذه الآية — على القاعدة المشهورة — وهي : أنه يرتكب أخف المفسدتين ، لدفع أعلاهما .

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله ، وأنه ليس المقصود به ، سفك دماء الكفار ، وأخذ أموالهم .

ولكن المقصود به أن [ يكون الدين لله ] تعالى ، فيظهر دين الله تعالى ، على سائر الأديان ، ويدفع كل ما يعارضه ، من الشرك وغيره ، وهو المراد بالفتنة .

فإذ حصل هذا المقصود ، فلا قتل ولا قتال .

[ فإن انتهوا ] عن قتالكم عند المسجد الحرام [ فلا عدوان إلا على الظالمين ] أي : فليس عليهم منكم اعتداء ، إلا من ظلم منهم ، فإنه يستحق المعاقبة ، بقدر ظلمه .

## ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾

يقول تعالى : «الشهر الحرام بالشهر الحرام» ، يحتمل أن يكون المراد به ، ما وقع من صد المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية ، عن الدخول لمكة ، وقاضوهم على دخولها من قابل ، وكان الصد والقضاء في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، فيكون هذا بهذا .

فيكون فيه ، تطييب لقلوب الصحابة ، بتمام نسكهم ، وكماله .

ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام ، فقد قاتلوكم فيه ، وهم المعتدون ، فليس عليكم في ذلك حرج .

وعلى هذا فيكون قوله : [ والحرمات قصاص ] من باب عطف العام على الخاص .

أي : كل شيء يحترم من شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو إحرام ، أو ما هو أعم من ذلك ، جميع ما أمر الشرع باحترامه ، فمن تجرأ عليها ، فإنه يقتص منه .

فمن قاتل في الشهر الحرام ، قوتل .

ومن هتك البلد الحرام ، أخذ منه الحد ، ولم يكن له حرمة .

ومن قتل مكافئاً له قتل به ، ومن جرحه أو قطع عضوا ، منه ، اقتص منه.

ومن أخذ مال غيره المحترم ، أخذ منه بدله .

ولكن هل لصاحب الحق ، أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا ؟

خلاف بين العلماء ، الراجح من ذلك ، أنه ، إن كان سبب الحق ظاهرا

فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

---

كالضيف، إذا لم يقره غيره، والزوجة، والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه، فإنه يجوز أخذه من ماله.

وإن كان السبب خفياً، كمن جحد دين غيره، أو خانه فى وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعا بين الأدلة، ولهذا قال تعالى، توكيداً وتقوية لما تقدم:

[فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم].

هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هى المماثلة فى مقابلة المعتدى.

ولما كانت النفوس — فى الغالب — لا تقف على حدها إذا رخص لها فى المعاقبة لطلبها التشفى، أمر تعالى بلزوم تقواه، التى هى الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه [مع المتقين] أى: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه، حصل له السعادة الأبدية.

ومن لم يلزم التقوى، تخلى عنه وليه، وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده بالنفقة فى سبيله ، وهو إخراج الأموال فى الطرق الموصلة إلى الله .

وهى كل طرق الخير ، من صدقة على مسكين ، أو قريب ، أو إنفاق على من تجب مؤنته .

وأعظم ذلك ، وأول ما دخل فى ذلك الإنفاق فى الجهاد فى سبيل الله .

فإن النفقة فيه ، جهاد بالمال ، وهو فرض كالجهاد بالبدن .

وفيها من المصالح العظيمة ، الإعانة على تقوية المسلمين ، وتوهين الشرك وأهله ، وعلى إقامة دين الله واعزازه .

فالجهاد فى سبيل الله ، لايقوم إلا على ساق النفقة .

فالنفقة له ، كالروح ، لا يمكن وجوده بدونها .

وفى ترك الإنفاق فى سبيل الله ، إبطال للجهاد ، وتسليط للأعداء ، وشدة تكالبهم .

فيكون قوله تعالى : [ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ] كالتعليل لذلك .

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين : لترك(١) ما أمر به العبد ، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح .

وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح ، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة .

---

(١) فى الأصل ( اترك ) وهو خطأ .

. . . . . . . . . . .

---

فمن ذلك ، ترك الجهاد فى سبيل الله ، أو النفقة فيه ، الموجب لتسلط الأعداء .

ومن ذلك ، تغرير الإنسان بنفسه ، فى مقاتلة ، أو سفر مخوف ، أو محل مسبعة[1] أو حيات ، أو يصعد شجرا ، أو بنيانا خطرا ، أو يدخل تحت شىء فيه خطر ونحو ذلك .

فهذا ونحوه ، ممن ألقى بيده إلى التهلكة .

ومن ذلك الإقامة على معاصى الله ، واليأس من التوبة .

ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض ، التى فى تركها(٢) هلاك للروح والدين .

ولما كانت النفقة فى سبيل الله ، نوعاً من أنواع الإحسان ، أمر بالإحسان عموما فقال : [ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ] وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيده بشىء دون شىء .

فيدخل فيه ، الإحسان بالمال كما تقدم .

ويدخل فيه ، الإحسان بالجاه ، بالشفاعات ونحو ذلك .

ويدخل فى ذلك ، الإحسان بالأمر المعروف ، والنهى عن المنكر ، وتعليم العلم النافع .

ويدخل فى ذلك ، قضاء حوائج الناس ، من تفريج كرباتهم ، وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وارشاد ضالهم ، وإعانة

---

(١) مسبعة : أرض يكثر فيها السباع .

(٢) فى الأصل ( التى تركها ) وهو خطأ .

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن

من يعمل عملا ، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك ، مما هو من الإحسان الذى أمر الله به .

ويدخل فى الإحسان أيضاً ، الإحسان فى عبادة الله تعالى ، وهو كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

فمن اتصف بهذه الصفات ، كان من الذين قال الله فيهم [للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ] وكان الله معه يسدده ويرشده ، ويعينه على كل أموره .

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ، ذكر أحكام الحج فقال :

[ وأتموا الحج والعمرة لله . الآية ] .

يستدل بقوله [ وأتموا الحج والعمرة ] على أمور :

أحدها ، وجوب الحج والعمرة ، وفرضيتهما .

الثانى : وجوب إتمامهما ، بأركانهما ، وواجباتهما ، التي قد دل عليها فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله « خذوا عنى مناسككم » .

الثالث : أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة

الرابع : أن الحج والعمرة ، يجب إتمامهما بالشروع فيهما ، ولو كانا نفلا .

الخامس : الأمر بإتقانهما وإحسانهما ، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما .

كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ

---

السادس : وفيه الأمر بإخلاصهما [ لله ] تعالى .

السابع : أنه لايخرج المحرم بهما ، بشيء من الأشياء حتى يكملهما ، إلا بما استثناه الله ، وهو الحصر ، فلهذا قال :

[ فإن أحصرتم ] أى : منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما ، بمرض ، أو ضلالة ، أو عدو ، ونحو ذلك من أنواع الحصر ، الذى هو المنع.

[ فما استيسر من الهدى ] أى : فاذبحوا ما استيسر من الهدى ، وهو سبع بدنة ، أو سبع بقرة ، أو شاة يذبحها المحصر ، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لما صدهم المشركون عام الحديبية .

فإن لم يجد الهدى ، فليصم بدله ، عشرة أيام كما فى المتمتع ثم يحل .

ثم قال تعالى [ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ] .

وهذا من محظورات الإحرام ، ازالة الشعر ، بحلق أو غيره ، لأن المعنى واحد من الرأس ، أو من البدن ، لأن المقصود من ذلك ، حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته ، وهو موجود فى بقية الشعر .

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر ، تقليم الأظفار بجامع الترفه .

ويستمر المنع مما ذكر ، حتى يبلغ الهدى محله ، وهو يوم النحر .

تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

---

والأفضل ، أن يكون الحلق بعد النحر ، كما تدل عليه الآية .

ويستدل بهذه الآية ، على أن المتمتع إذا ساق الهدى ، لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر .

فإذا طاف وسعى للعمرة ، أحرم بالحج ، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى .

وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك ، لما فيه من الذل والخضوع لله ، والانكسار له ، والتواضع الذى هو عين مصلحة العبد ، وليس عليه فى ذلك من ضرر .

فإذا حصل الضرر(١) بأن كان به أذى من مرض ، ينتفع بحلق رأسه له ، أو قروح ، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية ، من صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك مايجزى فى أضحية ، فهو مخير .

والنسك أفضل ، فالصدقة ، فالصيام .

ومثل هذا ، كل ماكان فى معنى ذلك ، من تقليم الأظفار ، أو تغطية الرأس ، أو لبس المخيط ، أو الطيب ، فإنه يجوز عند الضرورة ، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع ، إزالة مابه يترفه .

---

(١) قوله ( فإذا حصل) الخ. فى العبارة شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال ( فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض فى رأسه أوقروح أو قمل فله أن يحلق رأسه .

. . . . . . . . . . .

---

ثم قال تعالى [ فإذا أمنتم ] أى : بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره .

[ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ] بأن توصل بها إليه ، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها .

[ فما استيسر من الهدى ] أى : فعليه ما تيسر من الهدى ، وهو مايجزى فى أضحية .

وهذا دم نسك ، مقابلة لحصول النسكين له فى سفرة واحدة ، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة، بعد فراغ العمرة ، وقبل الشروع فى الحج .

ومثلها ، القران لحصول النسكين له .

ويدل مفهوم الآية ، على أن المفرد للحج ، ليس عليه هدى .

ودلت الآية ، على جواز ، بل فضيلة المتعة ، وعلى جواز فعلها فى أشهر الحج .

[ فمن لم يجد ] أى الهدى أو ثمنه [ فصيام ثلاثة أيام فى الحج .

أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة ، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر ، أيام رمى الجمار ، والمبيت بـ « منى » .

ولكن الأفضل منها ، أن يصوم السابع ، والثامن ، والتاسع .

[ وسبعة إذا رجعتم ] أى : فرغتم من أعمال الحج ، فيجوز فعلها فى مكة ، وفى الطريق ، وعند وصوله إلى أهله .

. . . . . . . . . . .

---

[ ذلك ] المذكور من وجوب الهدى على المتمتع .

[ لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ] بأن كان عند مسافة قصر فأكثر ، أو بعيداً عند عرفات ، فهذا الذى يجب عليه الهدى ، لحصول النسكين له فى سفر واحد .

وأما من كان أهله من حاضرى المسجد الحرام ، فليس عليه هدى ، لعدم الموجب لذلك .

[ واتقوا الله ] أى : فى جميع أموركم ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ومن ذلك ، امتثالكم لهذه المأمورات ، واجتناب هذه المحظورات المذكورة فى هذه الآية .

[ واعلموا أن الله شديد العقاب ] أى : لمن عصاه ، وهذا هو الموجب للتقوى ، فإن من خاف عقاب الله ، انكف عما يوجب العقاب .

كما أن من رجا ثواب الله ، عمل لما يوصله إلى الثواب .

ومن لم يخف العقاب ، ولم يرج الثواب ، اقتحم المحارم ، وتجرأ على ترك الواجبات .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أن [ الحج ] واقع فى [ أشهر معلومات ] عند المخاطبين ، مشهورات ، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص . كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس .

وأما الحج ، فقد كان من ملة إبراهيم ، التي لم تزل مستمرة فى ذريته معروفة بينهم .

والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور ، شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة ، فهى التى يقع فيها الإحرام بالحج غالباً .

[ فمن فرض فيهن الحج ] أى : أحرم به ، لأن الشروع فيه . يصيره فرضا ، ولو كان نفلا .

واستدل بهذه الآية ، الشافعى ومن تابعه ، على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره .

قلت لو قيل: فيها دلالة لقول الجمهور، بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً .

فإن قوله [فمن فرض فيهن الحج]دليل على أن الفرض قد يقع فى الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها ، وإلا لم يقيده .

وقوله [ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ] أى : يجب أن تعظموا الإحرام بالحج ، وخصوصا ، الواقع فى أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه ، من الرفث وهو : الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ، خصوصا عند النساء ، بحضرتهن .

. . . . . . . . . . .

والفسوق وهو : جميع المعاصى ، ومنها محظورات الإحرام .

والجدال ، وهو : المماراة والمنازعة والمخاصمة ، لكونها تثير الشر ، وتوقع العداوة .

والمقصود من الحج ، الذل والانكسار لله ، والتقرب إليه بما أمكن من القربات ، والتنزه عن مقارفة السيئات ، فإنه بذلك ، يكون مبروراً والمبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة .

وهذه الأشياء ، وإن كانت ممنوعة فى كل مكان وزمان ، فإنه يتغلظ المنع عنها فى الحج .

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصى حتى يفعل الأوامر .

ولهذا قال تعالى [ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ] .

[ أتى بـ « من » للتنصيص على[1] العموم فكل خير وقربة وعبادة ، داخل فى ذلك .

أى : فإن الله به عليم ، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير ، خصوصا فى تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة ، فإنه ينبغى تدارك ما أمكن تداركه فيها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وطواف ، وإحسان قولى وفعلى .

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك ، فإن التزود فيه ، الاستغناء عن المخلوقين ، والكف عن أموالهم ، سؤالا واستشرافاً .

---

(١) فى الأصل ( لتنصيص العموم ) فأصلحناه كما ترى لتستقيم العبارة.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ

---

وفى الإكثار منه ، نفع وإعانة للمسافرين ، وزيادة قربة لرب العالمين .

وهذا الزاد الذى المراد منه ، إقامة البنية — بلغة ومتاع .

وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه ، فى دنياه ، وأخراه ، فهو زاد التقوى الذى هو زاد إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة ، وأجل نعيم دائماً أبدا .

ومن ترك هذا الزاد ، فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين . فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولى الألباب فقال [ واتقونى ياأولى الألباب ] .

أى: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم ، الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على الجهل ، وفساد الرأى .

✡ لما أمر تعالى بالتقوى ، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب فى مواسم الحج وغيره ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج ، وكان الكسب حلالا منسوبا إلى فضل الله ، لا منسوبا إلى حذق العبد ، والوقوف مع السبب ، ونسيان المسبب ، فإن هذا هو الحرج بعينه .

وفى قوله [ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ] دلالة على أمور :

أحدها : الوقوف بعرفة ، وأنه كان معروفا أنه ركن من أركان الحج.

وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾
ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

---

فالإفاضة من عرفات ، لا تكون إلا بعد الوقوف .

الثانى : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضاً معروف ، يكون ليلة النحر بائتا بها ، وبعد صلاة الفجر ، يقف فى المزدلفة داعيا ، حتى يسفر جداً ، ويدخل فى ذكر الله عنده ، إيقاع الفرائض والنوافل فيه .

الثالث : أن الوقوف بمزدلفة ، متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء والترتيب .

الرابع ، والخامس : أن عرفات ومزدلفة ، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها ، وإظهارها .

السادس : أن مزدلفة فى الحرم ، كما قيده بالحرام .

السابع : أن عرفة فى الحل ، كما هو مفهوم التقييد بـ « مزدلفة » .

[ واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ] أى : اذكروا الله تعالى ، كما من عليكم بالهداية بعد الضلال ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

فهذه من أكبر النعم ، التى يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان .

[ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ] أى : ثم أفيضوا من مزدلفة ، من حيث أفاض الناس ، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن .

رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا

---

والمقصود من هذه الإفاضة ، كان معروفا عندهم، وهو رمى الجمار ، وذبح الهدايا ، والطواف ، والسعى ، والمبيت بـ « منى » ليالى التشريق وتكميل باقى المناسك .

ولما كانت هذه الإفاضة ، يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر المناسك ، أمر تعالى عند الفراغ منها ، باستغفاره والإكثار من ذكره .

فالاستغفار للخلل الواقع من العبد ، فى أداء عبادته وتقصيره فيها .

وذكر الله ، شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة .

وهكذا ينبغى للعبد ، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير ، ويشكره على التوفيق ، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ، ومن بها على ربه ، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمقت ، ورد الفعل .

كما أن الأول ، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ، ولكن مقاصدهم تختلف .

فمنهم [ من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ] أى : يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته ، وليس له فى الآخرة من نصيب ، لرغبته عنها ، وقصر همته على الدنيا .

وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

---

ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر إليه فى مهمات دينه ودنياه .

وكل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم تعالى ، على حسب أعمالهم ، وهماتهم ونياتهم ، جزاء دائرا بين العدل والفضل ، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع ، مسلما أو كافراً ، أو فاسقاً .

ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه ، دليلا على محبته له وقربه منه ، إلا فى مطالب الآخرة ، ومهمات الدين .

والحسنة المطلوبة فى الدنيا ، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنى واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقر به العين ، وراحة ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ونحو ذلك ، من المطالب المحبوبة والمباحة .

وحسنة الآخرة ، هى السلامة من العقوبات ، فى القبر ، والموقف ، والنار ، وحصول رضا الله ، والفوز بالنعيم المقيم ، والقرب من الرب الرحيم .

فصار هذا الدعاء ، أجمع دعاء وأكمله ، وأولاه بالإيثار ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به ، والحث عليه .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

---

يأمر تعالى بذكره فى الأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق الثلاثة بعد العيد ، لمزيتها وشرفها ، وكون بقية المناسك تفعل بها ، ولكون الناس أضيافا لله فيها ، ولهذا حرم صيامها .

فللذكر فيها مزية ، ليست لغيرها ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق ، أيام أكل وشرب ، وذكر الله » .

ويدخل فى ذكر الله فيها ، ذكره عند رمى الجمار ، وعند الذبح ، والذكر المقيد عقب الفرائض .

بل قال بعض العلماء : إنه يستحب فيها التكبير المطلق ، كالعشر ، وليس ببعيد .

[ فمن تعجل فى يومين ] أى خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثانى .

[ فلا إثم عليه ومن تأخر ] بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد [ فلا إثم عليه ] وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده ، فى إباحة كلا الأمرين .

ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين ، فالمتأخر أفضل ، لأنه أكثر عبادة .

ولما كان نفى الحرج ، قد يفهم منه نفى الحرج فى ذلك المذكور وفى

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ

---

غيره ، والحال[١] أن الحرج منفى عن المتقدم والمتأخر فقط ـ قيده بقوله .

[ لمن اتقى ] أى : اتقى الله فى جميع أموره ، وأحوال الحج .

فمن اتقى الله فى كل شىء ، حصل له نفى الحرج فى كل شىء .

ومن اتقاه فى شىء دون شىء ، كان الجزاء من جنس العمل .

[ واتقوا الله ] بامتثال أوامره واجتناب معاصيه .

واعلموا أنكم إليه تحشرون ] فمجازيكم بأعمالكم .

فمن اتقاه ، وجد جزاء التقوى عنده ، ومن لم يتقه ، عاقبه أشد العقوبة .

فالعلم بالجزاء ، من أعظم الدواعى لتقوى الله ، فلهذا حث تعالى ، على العلم بذلك .

* لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصا فى الأوقات الفاضلة ، الذى هو خير مصلحة وبر ، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله ، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال :

[ ومن الناس من يعجبك قوله ، فى الحياة الدنيا ] أى : إذا تكلم ، راق كلامه للسامع[٢] .

وإذا نطق ، ظننته يتكلم بكلام نافع ، ويؤكد مايقول بأنه [ يشهد

---

(١) فى الأصل ( والحاصل ) وهو خطأ .

(٢) فى الأصل ( السامع ) وما أثبتناه أوضح .

سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

---

الله على ما فى قلبه ] بأن يخبر أن الله يعلم ، أن ما فى قلبه موافق لما نطق به ، وهو كاذب فى ذلك ، لأنه يخالف قوله فعله .

فلو كان صادقا ، لتوافق القول والفعل ، كحال المؤمن غير المنافق ، ولهذا قال :

[ وهو ألد الخصام ] أى : إذا خاصمته ، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب ، وما يترتب على ذلك ، ما هو من مقابح الصفات ، ليس كأخلاق المؤمنين ، الذين جعلوا السهولة مركبهم ، والانقياد للحق وظيفتهم ، والسماحة سجيتهم .

[ وإذا تولى ] هذا الذى يعجبك قوله إذا حضر عندك [ سعى فى الأرض ليفسد فيها ] أى : يجتهد على أعمال المعاصى ، التى هى إفساد فى الأرض [ ويهلك ] بسبب ذلك [ الحرث والنسل ] فالزروع والثمار والمواشى ، تتلف وتنقص ، وتقل بركتها ، بسبب العمل فى المعاصى .

[ والله لا يحب الفساد ] فإذا كان لا يحب الفساد ، فهو يبغض العبد المفسد فى الأرض ، غاية البغض ، وإن قال بلسانه قولا حسنا .

ففى هذه الآية دليل على أن الأقوال التى تصدر من الأشخاص ، ليست دليلا على صدق ولا كذب ، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

لها ، المزكى لها[1] وأنه ينبغى اختبار أحوال الشهود ، والمحق والمبطل من الناس، بىر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لايغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم .

ثم ذكر أن هذا المفسد فى الأرض بمعاصى الله ، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف .

[وأخذته العزة بالإثم] فيجمع بين العمل بالمعاصى والتكبر على الناصحين.

[ فحسبه جهنم ] التى هى دار العاصين والمتكبرين .

[ ولبئس المهاد ] أى : المستقر والمسكن ، عذاب دائم ، وهم لاينقطع ، ويأس مستمر ، لايخفف عنهم العذاب ، ولايرجون الثواب ، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم .

فعياذاً بالله ، من أحوالهم .

* معانى المفردات . قال فى الصحاح : شريت الشىء أشريه شراء : إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً ، وهو من الأضداد .

قال الله تعالى [ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ] أى : يبيعها .

[ وقال تعالى : [ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ] أى : باعوه اه ومثله فى القاموس .

هذه الآية نزلت فى صهيب بن سنان الرومى حين أراده المشركون

(١) قوله ( المصدق لها المزكى ) تكرار ( لا ) بعد (المصدق) و (المزكى) لاداعى له . فالأنسب أن يقال ( المصدق والمزكى لها ) .

. . . . . . . . . . .

---

على ترك الإسلام ، كما رواه ابن عباس وأنس ، وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة غيرهم .

وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ، منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر : فعل .

فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة ، إلى طرف الحرة ، فقالوا له : ربح البيع ربح البيع

فقال : وأنتم ، فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ؟

فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب» .

وحدث أبو عثمان النهدى عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم قالت لى قريش :

ياصهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ؟ والله لا يكون ذلك أبداً .

فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى ؟ قالوا : نعم .

فدفعت إليهم مالى ، فخلوا عنى ، فخرجت حتى قدمت المدينة .

فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ربح صهيب ربح صهيب » مرتين .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب قال :

. . . . . . . . . . .

أقبل صهيب مهاجراً نحو النبى صلى الله عليه وسلم، فاتبعه نفر من قريش.
فنزل عن راحلته ، ونثل ما فى كنانته ، ثم قال :
يامعشر قريش ، قد علمتم أنى من أرماكم رجلا .
وأنتم — والله — لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى ، ما بقى فى يدى منه شىء ثم افعلوا ما شئتم .
وإن شئتم دللتكم على مالى وقنيتى بمكة ، وخليتم سبيلى ، قالوا له : نعم .
فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ربح البيع » قال: ونزلت ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد(١).
وأما الأكثرون ، فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى :
[ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ].
ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين ، أنكر عليه بعض الناس .
فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما ، وتلوا هذه الآية .
ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد اه.
من تفسير ابن كثير بتصرف يسير .

---

(١) قال أبو السعود فى تفسيره : فـ «يشرى» حينئذ بمعنى « يشترى » لجريان الحال على صورة الشرى اه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

---

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا [ فى السلم كافة ] أى : فى جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئا ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه ، تركه .

بل الواجب ، أن يكون الهوى ، تبعاً للدين ، وأن يفعل كل ما يقدر عليه ، من أفعال الخير ، وما يعجز عنه ، يلتزمه وينويه ، فيدركه بنيته .

ولما كان الدخول فى السلم كافة ، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال :

[ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ] أى : فى العمل بمعاصى الله [ إنه لكم عدو مبين] ظاهر العداوة .

والعدو المبين ، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم .

ولما كان العبد لابد أن يقع منه خلل وزلل ، قال تعالى [ فإن زللتم ] أى أخطأتم ووقعتم فى الذنوب . [ من بعد ما جاءتكم البينات ] أى : على علم ويقين [ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ] .

وفيه من الوعيد الشديد ، والتخويف ، ما يوجب ترك الزلل ، فإن العزيز المقام الحكيم ، إذا عصاه العاصى ، قهره بقوته ، وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته ، تعذيب العصاة والجناة .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

---

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ، ما تنخلع له القلوب.

يقول تعالى : هل ينتظر الساعون فى الفساد فى الأرض ، المتبعون لخطوات الشيطان ، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال ، الذى قد حشى من الأهوال والشدائد والفظائع ، ما يقلقل قلوب الظالمين ، ويحيق به الجزاء السيىء على المفسدين .

وذلك أن الله تعالى يطوى السموات والأرض ، وتنتثر الكواكب ، وتكور الشمس والقمر ، وتنزل الملائكة الكرام ، فتحيط بالخلائق ، وينزل البارى تبارك وتعالى [ فى ظلل من الغمام ] ليفصل بين عباده بالقضاء العدل .

فتوضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة ، ويتميز أهل الخير من أهل الشر .

وكل يجازى بعمله .

فهنالك يعض الظالم على يديه ، إذا علم[1] حقيقة ما هو عليه .

وهذه الآية وما أشبهها ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، المثبتين

---

(١) قوله ( إذا علم إلخ ) تعبير فيه نظر ، لأن العلم فى عرصات القيامة متحقق لجميع المخلوقين ، فالأنسب أن يقال ( حينما يرى ما هو فيه من سوء الحال ، وتنكشف حالته التى فارق عليها الدنيا ، فيشاهدها متجسدة وماثلة أمام ناظريه ) .

. . . . . . . . . . .

للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى ، عن نفسه ، وأخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم .

فيثبتونها لمعانيها على وجه يليق بجلال الله وعظمته ، من غير تشبيه ولا تحريف . ولا تعطيل .

خلافا للمعطلة ، على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ونحوهم ، ممن ينفي هذه الصفات ، ويتأول — لأجلها — الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، بل حقيقتها ، القدح في بيان الله وبيان رسوله ، والزعم بأن كلامهم ، هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب .

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ، بل ولا دليل عقلي .

أما النقلي ، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، ظاهرها ، بل صريحها ، دال على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل ، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص .

وهذا كما ترى ، لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقل ، فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات .

بل العقل دل على أن الفاعل ، أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى ، المتعلق بنفسه ، والمتعلق بخلقه ، هو كمال .

فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه .

قيل لهم : الكلام على الصفات ، يتبع الكلام على الذات .

فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات ، فلله صفات لا تشبهها الصفات .

فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه ، تبع لذواتهم ، فليس في إثباتها ، ما يقتضي التشبيه بوجه .

﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

---

ويقال أيضاً ، لمن أثبت بعض الصفات ، ونفى بعضاً ، أو أثبت الأسماء دون الصفات :

إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه ، وأثبته رسوله .

وإما أن تنفي الجميع ، وتكون منكراً لرب العالمين .

وأما إثباتك بعض ذلك ، ونفيك لبعضه ، فهذا تناقض .

ففرق بين ما أثبته ، وبين ما نفيته ، ولن تجد إلى الفرق سبيلا .

فإن قلت : ما أثبته لا يقتضى تشبيها .

قال لك أهل السنة والإثبات : لما نفيته لا يقتضى تشبيها .

فإن قلت : لا أعقل من الذى نفيته إلا التشبيه .

قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذى أثبته إلا التشبيه .

فما أجبت به النفاة ، أجابك به أهل السنة ، لما نفيته .

والحاصل أن من نفى شيئاً ، مما دل الكتاب والسنة على إثباته ، فهو متناقض ، لا يثبت له دليل شرعى ولا عقلى ، بل قد خالف المعقول والمنقول .

* يقول تعالى : [ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ] تدل على الحق ، وعلى صدق الرسل ، فتيقنوها وعرفوها ، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة ، التى تقتضى القيام بها .

بل كفروا بها ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه .

وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلا لها ، لأن من أنعم الله عليه نعمة

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

دينية أو دنيوية ، فلم يشكرها ، ولم يقم بواجبها ، اضمحلت عنه وذهبت ، وتبدلت بالكفر والمعاصى ، فصار الكفر بدل النعمة .

وأما من شكر الله تعالى ، وقام بحقها ، فإنها تثبت وتستمر ، ويزيده الله منها .

* يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ، ولم ينقادوا لشرعه ، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا .

فزينت فى أعينهم وقلوبهم ، فرضوا بها ، واطمأنوا بها(١) فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها ، فأقبلوا عليها ، وأكبوا على تحصيلها ، وعظموها ، وعظموا من شاركهم فى صنيعهم ، واحتقروا المؤمنين ، واستهزأوا بهم وقالوا :

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر ، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران .

بل المؤمن فى الدنيا ، وإن ناله مكروه ، فإنه يصبر ويحتسب ، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ، ما لا يكون لغيره .

وإنما الشأن كل الشأن ، والتفضيل الحقيقى ، فى الدار الباقية ، فلهذا قال تعالى :[والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة] فيكون المتقون فى أعلى الدرجات ،

(١) قوله « اطمأنوا بها » الأوضح أن يقال « اطمأنوا إليها » على تضمين « اطمأن » كلمة « ارتاح » أو « استكان » وهذا ما يقتضيه سياق الكلام وسباقه.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

---

متمتعين بأنواع النعيم والسرور ، والبهجة والحبور .

والكفار تحتهم فى أسفل الدركات ، معذبين بأنواع العذاب والإهانة ، والشقاء السرمدى ، الذى لا منتهى له .

ففى هذه الآية تسلية للمؤمنين ، ونعى على الكافرين .

ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية ، لا تحصل إلا بتقدير الله ، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى : [ والله يرزق من يشاء بغير حساب ] فالرزق الدنيوى ، يحصل للمؤمن والكافر .

وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ، ومحبة الله ، وخشيته ورجائه ونحو ذلك ، فلا يعطيها إلا من يحبه .

☆ أى : كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ، ليس لهم نور ولا إيمان .

فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم [ مبشرين ] من أطاع الله بثمرات الطاعات ، من الرزق ، والقوة فى البدن والقلب ، والحياة الطيبة ، وأعلى ذلك ، الفوز برضوان الله والجنة .

[ ومنذرين ] من عصى الله ، بثمرات المعصية ، من حرمان الرزق ، والضعف ، والإهانة ، والحياة الضيقة ، وأشد ذلك ، سخط الله والنار .

[ وأنزل معهم الكتاب بالحق ] وهو الإخبارات الصادقة ، والأوامر العادلة .

فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

---

فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية ، فهو حق، يفصل بين المختلفين فى الأصول والفروع .

وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع ، أن يرد الاختلاف والتنازع ، إلى الله وإلى رسوله .

ولولا أن فى كتابه ، وسنة رسوله ، فصل النزاع ، لما أمر بالرد إليهما .

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب ، وكان هذا يقتضى اتفاقهم عليها واجتماعهم ـ أخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض ، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف .

فاختلفوا فى الكتاب الذى ينبغى أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه ، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالا بعيدا .

[ وهدى الله الذين آمنوا ] من هذه الأمة [ لما اختلفوا فيه من الحق ] فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب ، وأخطأوا فيه الحق والصواب ، هدى الله للحق فيه هذه الأمة [ بإذنه ] تعالى وتيسيره لهم ورحمته .

[ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ] .

فعم الخلق تعالى ، بالدعوة إلى الصراط المستقيم ، عدلا منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا « ماجاءنا من بشير ولا نذير » .

وهدى — بفضله ورحمته ، وإعانته ولطفه — من شاء من عباده .

فهذا فضله وإحسانه ، وذاك عدله وحكمته ، تبارك وتعالى .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

---

يخبر تبارك وتعالى ، أنه لابد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم ، فهى سنته الجارية ، التى لاتتغير ولاتتبدل ، أن من قام بدينه وشرعه ، لابد أن يبتليه .

فإن صبر على أمر الله ، ولم يبال بالمكاره الواقعة فى سبيله،فهو الصادق الذى قد نال من السعادة كمالها ، ومن السيادة آلتها .

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله ، بأن صدته المكاره عما هو بصدده وثنته المحن عن مقصده ، فهو الكاذب فى دعوى الإيمان .

فإنه ليس الإيمان بالتحلى والتمنى،ومجرد الدعاوى ، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه .

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم [ مستهم البأساء والضراء ] أى : الفقر والأمراض فى أبدانهم .

[ وزلزلوا ] بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل ، والنفى ، وأخذ الأموال ، وقتل الأحبة ، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال ، وآل بهم الزلزال ، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به .

ولكن لشدة الأمر وضيقه [ يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ].

فلما كان الفرج عند الشدة ، وكلما ضاق الأمر اتسع . قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

[ ألا إن نصر الله قريب ] فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن .

فكلما اشتدت عليه وصعبت — إذا صابر وثابر على ما هو عليه — انقلبت المحنة فى حقه منحة ، والمشقات راحات ، وأعقبه ذلك ، الانتصار على الأعداء وشفاء ما فى قلبه من الداء .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ] .

وقوله تعالى [ الۤمۤ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ] فعند الامتحان ، يكرم المرء أو يهان .

* أى : يسألونك عن النفقة ، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه .

فأجابهم عنهما فقال : [ قل ما أنفقتم من خير ] أى : مال قليل أو كثير ، فأولى الناس به ، وأحقهم بالتقديم ، أعظمهم حقاً عليك ، وهم الوالدان الواجب برهما ، والمحرم عقوقهما .

ومن أعظم برهما ، النفقة عليهما ، ومن أعظم العقوق ، ترك الإنفاق عليهما .

ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة ، على الولد الموسر .

ومن بعد الوالدين ، الأقربون ، على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب فالأقرب ، على حسب القرب والحاجة ، فالإنفاق عليه صدقة وصلة .

[ واليتامى ] وهم الصغار الذين لا كاسب لهم ، فهم فى مظنة الحاجة ،

لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم ، وفقد المكاسب ، فوصى الله بهم العباد ، رحمة منه بهم ولطفاً .

[ والمساكين ] وهم أهل الحاجات ، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة ، فينفق عليهم ، لدفع حاجاتهم وإغنائهم .

[ وابن السبيل ] أى : الغريب المنقطع به فى غير بلده ، فيعان على سفره بالنفقة ، التى توصله إلى مقصده .

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف ، لشدة الحاجة ، عمم تعالى فقال :

[ وما تفعلوا من خير ] من صدقة على هؤلاء وغيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات ، لأنها تدخل فى اسم الخير .

[ فإن الله به عليم ] فيجازيكم عليه ، ويحفظه لكم ، كل على حسب نيته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلتها ، وشدة الحاجة إليها ، وعظم وقعها ونفعها .

* هذه الآية ، فيها فرض القتال فى سبيل الله ، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكثر المسلمون ، وقووا أمرهم الله تعالى بالقتال .

وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف .

ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مرب ، على ما فيه من الكراهة .

أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

و[ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ] وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقب الخذلان ، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات ، عامة مطردة ، فى أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس — لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة — فهى شر ، بلا شك .

وأما أحوال الدنيا ، فليس الأمر مطرداً ، ولكن الغالب على العبد المؤمن ، أنه إذا أحب أمراً من الأمور ، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له ، فالأوفق له فى ذلك ، أن يشكر الله ، ويعتقد الخير فى الواقع ، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأقدر على مصلحة عبده منه ، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى [ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ] .

فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سرتكم أو ساءتكم .

ولما كان الأمر بالقتال ، لو لم يقيد ، لشمل الأشهر الحرم وغيرها ، استثنى تعالى ، القتال فى الأشهر الحرم فقال :[ يسألونك عن الشهر الحرام . الآية ].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ

---

الجمهور على أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ، منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا .

وقال بعض المفسرين : إنه لم ينسخ ، لأن المطلق محمول على المقيد .

وهذه الآية مقيدة ، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً .

ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم : بل أكبر مزاياها ، تحريم القتال فيها ، وهذا إنما هو فى قتال الابتداء .

وأما قتال الدفع . فإنه يجوز فى الأشهر الحرم ، كما يجوز فى البلد الحرام .

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل ، لسرية عبد الله بن جحش ، وقتلهم عمرو بن الحضرمى ، وأخذهم أموالهم ، وكان ذلك — على ما قيل فى شهر رجب — عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم ، وكانوا فى تعييرهم ظالمين ، إذ فيهم من القبائح ، ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين ، قال تعالى فى بيان ما فيهم .

[وصد عن سبيل الله] أى : صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله ؛ وفتنتهم من آمن به ، وسعيهم فى ردهم عن دينهم ، وكفرهم الحاصل فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، الذى هو بمجرده ، كاف فى الشر .

فكيف ، وقد كان فى شهر حرام وبلد حرام ؟ !! .

[ وإخراج أهله ] أى : أهل المسجد الحرام ، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأنهم أحق به من المشركين ، وهم عماره على الحقيقة ، فأخرجوهم

يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

---

[ منه ] ولم يمكنوهم من الوصول إليه ، مع أن هذا البيت ، سواء العاكف فيه والباد .

فهذه الأمور كل واحد منها [ أكبر من القتل ] فى الشهر الحرام ، فكيف وقد اجتمعت فيهم ؟ ! فعلم أنهم فسقة ظلمة ، فى تعييرهم المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين .

وليس غرضهم فى أموالهم وقتلهم ، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم ، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير .

فهم باذلون قدرتهم فى ذلك ، ساعون بما أمكنهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

وهذا الوصف ، عام لكل الكفار ، لا يزالون يقاتلون غيرهم ، حتى يردوهم عن دينهم .

وخصوصاً ، أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ألفوا الجمعيات ، ونشروا الدعاة ، وبثوا الأطباء ، وبنوا المدارس ، لجذب الأمم إلى دينهم ، وإدخالهم عليهم ، كل ما يمكنهم من الشبه ، التى تشككهم فى دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى ، الذى من على المؤمنين بالإسلام ، واختار

. . . . . . . . . . .

---

لهم دينه القيم ، وأكمل لهم دينه — أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام ، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره ، ويجعل كيدهم فى نحورهم ، وينصر دينه ، ويعلى كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار ، كما صدقت على من قبلهم .

[ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ] .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام ، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً .

[ فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ] لعدم وجود شرطها ، وهو الإسلام .

[ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] .

ودلت الآية بمفهومها ، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، أنه يرجع إليه عمله .

وكذلك من تاب من المعاصى ، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

هذه الأعمال الثلاثة، هى عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران.

فأما الإيمان، فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شىء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟

وهو الذى إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه، لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل.

وأما الهجرة، فهى مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى.

فيترك المهاجر وطنه، وأمواله، وأهله، وخلانه، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد، فهو بذل الجهد فى مقارعة الأعداء، والسعى التام فى نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان.

وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء.

وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين. على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة — على لأوائها ومشقتها — كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

. . . . . . . . . . .

---

فحقيق بهؤلاء ، أن يكونوا هم الراجين رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة .

وفى هذا دليل على أن الرجاء ، لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة.

وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز وتمن وغرور .

وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر ، وسقى ، ونحو ذلك .

وفى قوله [ أولئك يرجون رحمة الله] إشارة إلى أن العبد — ولو أتى من الأعمال بما أتى به — لا ينبغى له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه .

ولهذا قال [ والله غفور ] أى : لمن تاب توبة نصوحا [ رحيم ] وسعت رحمته كل شىء ، وعم جوده وإحسانه ، كل حى .

وفى هذا دليل [ على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة ، حصل له مغفرة الله ، إذ [ الحسنات يذهبن السيئات ] وحصلت له رحمة الله .

وإذا حصلت له المغفرة ، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة . التي هى آثار الذنوب ، التي قد غفرت واضمحلت آثارها .

وإذا حصلت له الرحمة ، حصل على كل خير فى الدنيا والآخرة .

بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم ، فلولا توفيقه إياهم ، لم يريدوها ، ولولا إقدارهم عليها ، لم يقدروا عليها ، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم .

فله الفضل ، أولا وآخراً ، وهو الذى من بالسبب والمسبب .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

ثم قال تعالى [ يسألونك عن الخمر الآية ] أى يسألك — ياأيها الرسول — المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر ، وقد كانا مستعملين فى الجاهلية وأول الإسلام ، فكأنه وقع فيهما إشكال فلهذا سألوا عن حكمهما .

فأمر الله تعالى نبيه ، أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما ، وتحتيم تركهما .

فأخبر أن إثمهما ومضارهما ، وما يصدر عنهما ، من ذهاب العقل والمال ، والصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، والعداوة ، والبغضاء — أكبر مما يظنونه من نفعهما ، من كسب المال بالتجارة بالخمر ، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس ، عند تعاطيهما .

وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما ، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته ، ويجتنب ما ترجحت مضرته .

ولكن لما كانوا قد ألفوهما ، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة ، قدم هذه الآية ، مقدمة للتحريم ، الذى ذكره فى قوله .

[ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ] .

إلى قوله [ فهل أنتم منتهون ] وهذا من لطفه ورحمته وحكمته .

ولهذا لما نزلت ، قال عمر رضى الله عنه : انتهينا انتهينا .

فأما الخمر ، فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه ، من أى نوع كان .

وأما الميسر ، فهو كل المغالبات التى يكون فيها عوض من الطرفين ، من النرد ، والشطرنج ، وكل مغالبة قولية أو فعلية ، تعوض بعوض ، سوى مسابقة الخيل ، والإبل ، والسهام ، فإنها مباحة ، لكونها معينة على الجهاد ، فرخص فيها الشارع .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم .

فيسر الله لهم الأمر ، وأمرهم أن ينفقوا العفو ، وهو المتيسر من أموالهم ، الذى لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم .

وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه ، من غنى وفقير ومتوسط ، كل له قدرة على إنفاق ما عنا من ماله ، ولو شق تمرة .

ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم ، ولا يكلفهم ما يشق عليهم .

ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا ، أو تكليفا لنا بما يشق .

بل أمرنا بما فيه سعادتنا ، وما يسهل علينا ، وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحق على ذلك ، أتم الحمد .

ولما بين تعالى هذا البيان الشافى ، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال :

[ كذلك يبين الله لكم الآيات ] أى : الدالات على الحق ، المحصلات للعلم النافع والفرقان .

[ لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ] أى : لكى تستعملوا أفكاركم فى أسرار شرعه ، وتعرفوا أن أوامره ، فيها مصالح الدنيا والآخرة .

وأيضاً لكى تتفكروا فى الدنيا وسرعة انقضائها ، وفى الآخرة وبقائها ، وأنها دار الجزاء فتعمروها .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

---

لما نزل قوله تعالى [ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ] شق ذلك على المسلمين ، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى ، خوفا على أنفسهم من تناولها ، ولو فى هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها ، وسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

فأخبرهم تعالى أن المقصود ، إصلاح أموال اليتامى ، بحفظها وصيانتها ، والاتجار فيها وأن خلطتهم إياهم فى طعام وغيره ، جائز على وجه لا يضر باليتامى ، لأنهم إخوانكم ، ومن شأن الأخ ، مخالطة أخيه ، والمرجع فى ذلك إلى النية والعمل .

فمن علم من نيته ، أنه مصلح لليتيم ، وليس له طمع فى ماله ، فلو دخل عليه شىء — من غير قصد — لم يكن عليه بأس .

ومن علم الله من نيتـه ، أن قصده بالمخالطة ، التوصل إلى أكلها ، فذلك الذى حرج وأثم ، و« الوسائل لها أحكام المقاصد » .

وفى هذه الآية ، دليـل على جواز أنواع المخالطات ، فى المآكل والمشارب ، والعقود وغيرها ، وهذه الرخصة ، لطف من الله تعالى ، وإحسان ، وتوسعة على المؤمنين .

وإلا [ لو شاء الله لأعنتكم ] أى : شق عليكم بعدم الرخصة بذلك ، فحرجتم . وشق عليكم وأثمتم .

[ إن الله عزيز ] أى : له القوة الكاملة ، والقهر لكل شيء .

ولكنه — مع ذلك ( حكيم ) لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة ، فعزته لا تنافى حكمته .

فلا يقال : إنه ما شاء فعل ، وافق الحكمة أو خالفها :

بل يقال ، إن أفعاله وكذلك أحكامه ، تابعة لحكمته ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، بل لا بد له من حكمة ، عرفناها ، أم لم نعرفها .

وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة .

فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة ، أو راجحة ، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة ، لتمام حكمته ورحمته .

☆ أى [ ولا تنكحوا ] النساء [ المشركات ] ما دمن على شركهن .

[ حتى يؤمن ] لأن المؤمنة — ولو بلغت من الدمامة ما بلغت — خير من المشركة ، ولو بلغت من الحسن ما بلغت ، وهذه عامة فى جميع النساء المشركات .

وخصصتها آية المائدة ، فى إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى : [ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ] .

[ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ] وهذا عام لا تخصيص فيه .

ثم ذكر تعالى ، الحكمة فى تحريم نكاح المسلم أو المسلمة ، لمن خالفهما فى الدين فقال :

[ أولئك يدعون إلى النار ] أى : فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فمخالطتهم على خطر منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية ، إنما هو الشقاء الأبدى .

خَيْرٌ مِن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

---

ويستفاد من تعليل الآية ، النهى عن مخالطة كل مشرك ومبتدع ، لأنه إذا لم يجز التزوج — مع أن فيه مصالح كثيرة — فالخلطة المجردة من باب أولى ، وخصوصاً ، الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم ، كالخدمة ونحوها .

وفى قوله [ ولا تنكحوا المشركين ] دليل على اعتبار الولى فى النكاح .

[ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة ] أى : يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة ، التي من آثارها ، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة ، والتوبة النصوح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

[ ويبين آياته ] أى : أحكامه وحكمها [ للناس لعلهم يتذكرون ] فيوجب لهم ذلك ، التذكر لما نسوه ، وعلم ما جهلوه ، والامتثال لما ضيعوه .

ثم قال تعالى [ ويسألونك عن المحيض الآيات ] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ

---

يخبر تعالى ، عن سؤالهم عن المحيض ، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض ، كما كانت قبل ذلك ، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود ؟ .

فأخبر تعالى أن الحيض أذى ، وإذا كان أذى ، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذي وحده ، ولهذا قال : [فاعتزلوا النساء فى المحيض].

أي : مكان الحيض ، وهو الوطء فى الفرج خاصة ، فهذا هو المحرم إجماعا .

وتخصيص الاعتزال فى المحيض ، يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها ، فى غير الوطء فى الفرج ، جائز .

لكن قوله [ ولا تقربوهن حتى يطهرن ] يدل على ترك المباشرة فيما قرب من الفرج ، وذلك فيما بين السرة والركبة ، فينبغى تركه كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأته وهى حائض ، أمرها أن تتزر ، فيباشرها .

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض [ حتى يطهرن ] أي : ينقطع دمهن ، فإذا انقطع الدم ، زال المنع الموجود وقت جريانه ، الذى كان لحله شرطان ، انقطاع الدم ، والاغتسال منه .

فلما انقطع الدم ، زال الشرط الأول وبقى الثانى ، فلهذا قال :

[ فإذا تطهرن ] أي : اغتسلن [ فأتوهن من حيث أمركم الله ] أى : فى القبل لا فى الدبر ، لأنه محل الحرث .

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ

---

وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض ، وأن انقطاع الدم ، شرط لصحته .

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده ، وصيانة عن الأذى قال تعالى:

[ إن الله يحب التوابين ] أى : من ذنوبهم على الدوام [ ويحب المتطهرين ] أى : المتنزهين عن الآثام

وهذا يشمل التطهر الحسى من الأنجاس والأحداث .

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً ، لأن الله تعالى يحب المتصف بها ، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً ، شرطاً لصحة الصلاة والطواف ، وجواز مس المصحف .

ويشمل التطهر المعنوى عن الأخلاق الرذيلة ، والصفات القبيحة ، والأفعال الخسيسة .

* [ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ] مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا فى القبل ، لكونه موضع الحرث ، وهو الموضع الذى يكون منه الولد .

وفيه دليل على تحريم الوطء فى الدبر ، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا فى الموضع الذي منه الحرث .

وقد تكاثرت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تحريم ذلك، ولعن فاعله .

شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

[ وقدموا لأنفسكم ] أى : من التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ، ويجامعها على وجه القربة والاحتساب ، وعلى رجاء تحصيل الذرية ، الذين ينفع الله بهم .

[ واتقوا الله ] أى : فى جميع أحوالكم ، كونوا ملازمين لتقوى الله ، مستعينين على ذلك بعلمكم [ واعلموا أنكم ملاقوه ] ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها .

[ وبشر المؤمنين ] لم يذكر المبشر به ، ليدل على العموم ، وأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

وكل خير ، واندفاع كل ضير ، رتب على الإيمان — فهو داخل فى هذه البشارة .

وفيها محبة الله المؤمنين ، ومحبة ما يسرهم ، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوى والأخروى .

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

المقصود من اليمين والقسم ، تعظيم المقسم به ، وتأكيد المقسم عليه . وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان ، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء .

ولكن الله تعالى استثنى من ذلك ، إذا كان البر باليمين ، يتضمن ترك ما هو أحب إليه .

فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة ، أي : مانعة وحائلة عن أن يبروا أي : يفعلوا خيراً ، ويتقوا شراً ، ويصلحوا بين الناس .

فمن حلف على ترك واجب ، وجب حنثه ، وحرم إقامته على يمينه .

ومن حلف على ترك مستحب ، استحب له الحنث .

ومن حلف على فعل محرم ، وجب الحنث ، أو على فعل مكروه ، استحب الحنث .

وأما المباح ، فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث .

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، أنه « إذا تزاحمت المصالح ، قدم أهمها » .

فهنا تتميم اليمين ، مصلحة ، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء ، مصلحة أكبر من ذلك ، فقدمت لذلك .

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال :

[ والله سميع ] أي . لجميع الأصوات [ عليم ] بالمقاصد والنيات ، ومنه ، سماعه لأقوال الحالفين ، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر .

وفي ضمن ذلك ، التحذير من مجازاته ، وأن أعمالكم ونياتكم ، قد استقر علمها عنده .

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن

---

ثم قال تعالى [ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حليم ] .

* أى : لا يؤاخذكم بما يجرى على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التى يتكلم بها العبد ، من غير قصد منه ولا كسب قلب ، ولكنها جرت على لسانه كقول الرجل فى عرض كلامه : « لا والله » و « بلى والله » ، وكحلفه على أمر ماض ، يظن صدق نفسه . وإنما المؤاخذة ، على ما قصده القلب .

وفى هذا ، دليل على اعتبار المقاصد فى الأقوال، كما هى معتبرة فى الأفعال.

والله « غفور » لمن تاب إليه ، « حليم » بمن عصاه ، حيث لم يعاجله بالعقوبة ، بل حلم عنه وستر ، وصفح مع قدرته عليه ، وكونه بين يديه .

* وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة ، فى أمر خاص وهو حلف الرجل ، على ترك وطء زوجته مطلقاً . أو مقيداً . بأقل من أربعة أشهر أو أكثر .

فمن آلى من زوجته خاصة — فإن كان لدون أربعة أشهر ، فهذا مثل سائر الأيمان ، إن حنث كفر ، وإن أتم يمينه ، فلاشىء عليه ،وليس لزوجته عليه سبيل ، لأنه ملكه أربعة أشهر .

وإن كان أبداً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر ، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه ، إذا طلبت زوجته ذلك ، لأنه حق لها .

فَـآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

---

فإذا تمت ، أمر بالفيئة ، وهو الوطء .

فإن وطىء ، فلا شىء عليه إلا كفارة اليمين .

وإن امتنع ، أجبر على الطلاق ، فإن امتنع ، طلق عليه الحاكم .

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته ، أحب إلى الله تعالى ، ولهذا قال :

[ فإن فاءوا ] أى : رجعوا إلى ما حلفوا على تركه ، وهو الوطء .

[ فإن الله غفور ] يغفر لهم ماحصل منهم من الحلف ، بسبب رجوعهم .

[ رحيم ] حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ، ولم يجعلها لازمة لهم ، غير قابلة للانفكاك ، ورحيم بهم أيضاً ، حيث فاءوا إلى زوجاتهم ،وحنوا عليهن ورحموهن .

[ وإن عزموا الطلاق ] أى : امتنعوا من الفيئة ، فكان ذلك دليلا على رغبتهم عنهن ، وعدم إرادتهم لأزواجهم ، وهذا لا يكون إلا عزما على الطلاق .

فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة ، وإلا أجبره الحاكم عليه ، أو قام به .

[ فإن الله سميع عليم ] فيه وعيد وتهديد ، لمن يحلف هذا الحلف ، ويقصد بذلك ، المضارة والمشاقة .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الإيلاء ، خاص بالزوجة ، لقوله « من نسائهم ، وعلى وجوب الوطء فى كل أربعة أشهر مرة ، لأنه بعد الأربعة ، يجبر ، إما على الوطء ، أو على الطلاق ، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا .

أى : النساء اللاتى طلقهن أزواجهن [ يتربصن بأنفسهن ] أى : ينتظرن ويعتددن مدة [ ثلاثة قروء ] أى : حيض ، أو أطهار على اختلاف العلماء فى المراد بذلك ، مع أن الصحيح أن القرء ، الحيض ، ولهذه العدة ، عدة حكم .

منها : العلم ببراءة الرحم ، إذا تكرر عليها ثلاثة الأقراء ، علم أنه ليس فى رحمها حمل ، فلا يفضى إلى اختلاط الأنساب .

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن [ ما خلق الله فى أرحامهن ] وحرم عليهن ، كتمان ذلك ، من حمل أو حيض ، لأن كتمان ذلك ، يفضى إلى مفاسد كثيرة .

فكتمان الحمل ، موجب أن تلحقه بغير من هو له ، رغبة فيه ، أو استعجالا لانقضاء العدة .

فإذا ألحقته بغير أبيه ، حصل من قطع الرحم والإرث ، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه ، وربما تزوج ذوات محارمه .

وحصل فى مقابلة ذلك ، إلحاقه بغير أبيه ، وثبوت توابع ذلك ، من الإرث منه وله ، ومن جعل أقارب الملحق به ، أقارب له .

وفى ذلك من الشر والفساد ، مالا يعلمه إلا رب العباد .

ولو لم يكن فى ذلك ، إلا إقامتها مع من نكاحها باطل فى حقه ، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة ، وهى الزنا ـ لكفى بذلك شراً .

وأما كتمان الحيض ، فإن استعجلت فأخبرت به وهى كاذبة ، ففيه من

لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

انقطاع حق الزوج عنها ، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر ، كما ذكرنا .

وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض ، لتطول العدة ، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه ، بل هى سحت عليها محرمة من جهتين :

من كونها لاتستحقه ، ومن كونها ، نسبته إلى حكم الشرع وهى كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة ، فيكون ذلك سفاحا ، لكونها أجنبية منه(١) ، فلهذا قال تعالى :

[ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ] .

فصدور الكتمان منهن ، دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر ، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر ، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن ، لم يصدر منهن شىء من ذلك .

وفى ذلك دليل على قبول خبر المرأة ، عما تخبر بها عن نفسها ، من الأمر الذى لايطلع عليها غيرها ، كالحمل والحيض ونحوها .

ثم قال تعالى [ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ] أى : لأزواجهن ما دامت متربصة فى تلك العدة ، أن يردوهن إلى نكاحهن [إن أرادوا إصلاحاً أى : رغبة وألفة ومودة .

(١) جواب ( إن ) فى قوله ( وإن كذبت الخ ) لم يذكره والمقام يقتضى أن يذكر الجواب بعد قوله ( أجنبية منه ) وهو ( فبذلك تكون قد ارتكبت إثما عظيما فلهذا قال تعالى الخ وبهذا ينتظم الكلام ويتضح المعنى .

ٱلْأَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح ، فليسوا بأحق بردهن ، فلا يحل لهم أن يراجعوهن ، لقصد المضارة لها ، وتطويل العدة عليها .

وهل يملك ذلك ، مع هذا القصد ؟ فيه قولان .

الجمهور على أنه يملك ذلك ، مع التحريم .

والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح ، لا يملك ذلك ، كما هو ظاهر الآية الكريمة ، وهذه حكمة أخرى فى هذا التربص .

وهى : أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها ، فجعلت له هذه المدة ، ليتروى بها ويقطع نظره .

وهذا يدل على محبته تعالى ، للألفة بين الزوجين ، وكراهته للفراق ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وهذا خاص فى الطلاق الرجعى .

وأما الطلاق البائن ، فليس البعل بأحق برجعتها .

بل إن تراضيا على التراجع ، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط .

ثم قال تعالى [ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ] أى : وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم ، مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة .

ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف ، وهو :

العادة الجارية فى ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله .

ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، والأشخاص والعوائد .

مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

---

فى هذا دليل على أن النفقة والكسوة، والمعاشرة، والمسكن، وكذلك الوطء ـ الكل يرجع إلى المعروف.

فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالا.

[ وللرجال عليهن درجة ] أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى:

[ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ].

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغري والكبرى، وسائر الولايات بالرجال.

وله ضعفا ما لها فى كثير من الأمور، كالميراث ونحوه.

[ والله عزيز حكيم ] أى: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذى دانت له جميع الأشياء، ولكنه ـ مع عزته ـ حكيم فى تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية، الحوامل، فعدتهن وضع الحمل.

واللاتى لم يدخل بهن، فليس لهن عدة.

والإماء، فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضى الله عنهم.

وسياق الآية، يدل على أن المراد بها، الحرة.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا

---

كان الطلاق فى الجاهلية ، واستمر أول الإسلام ، هو أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية .

فكان إذا أراد مضارتها ، طلقها ، فإذا شارفت[1] انقضاء عدتها ، راجعها ، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً ، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم .

فأخبر تعالى أن [ الطلاق ] أى الذى تحصل به الرجعة [ مرتان ] .

ليتمكن الزوج — إن لم يرد المضارة — من ارتجاعها ، ويراجع رأيه فى هذه المدة .

وأما ما فوقها ، فليس محلا لذلك ، لأن من زاد على الثنتين ، فإما متجرىء على المحرم ، أو ليس له رغبة فى إمساكها ، بل قصده المضارة .

فلهذا أمر تعالى الزوج ، أن يمسك زوجته [ بمعروف ] أى : عشرة حسنة ، ويجرى مجرى أمثاله مع زوجاتهم ، وهذا هو الأرجح ، وإلا يسرحها ويفارقها [ بإحسان ] ،

ومن الإحسان ، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من ماله ، لأنه ظلم ، وأخذ المال فى غير مقابلة بشىء ، فلهذا قال :

[ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما

---

(١) شارفت . أى : قاربت .

يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

حدود الله ] وهى المخالعة بالمعروف ، بأن كرهت الزوجة زوجها ، لخلقه أو خلقه أو نقص دينه ، وخافت أن لا تطيع الله فيه .

[ فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ] لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة .

وفى هذا مشروعية الخلع ، إذا وجدت هذه الحكمة .

[ تلك ] أى ما تقدم من الأحكام الشرعية [ حدود الله ] أى : أحكامه التى شرعها لكم ، وأمر بالوقوف معها .

[ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ] وأى ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال ، وتعدى منه إلى الحرام ، فلم يسعه ما أحل الله ؟

والظلم ثلاثة أقسام :

ظلم العبد فيما بينه وبين الله ، وظلم العبد الأكبر[1] الذي هو الشرك ، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق .

فالشرك ، لا يغفره الله بالتوبة ، وحقوق العباد ، لا يترك الله منها شيئاً .

والظلم الذى بين العبد وربه فيما دون الشرك ، تحت المشيئة والحكمة[2]

(١) قوله : الأكبر ، صفة لـ « ظلم » والمعنى : والظلم الأكبر الصادر من العبد هو الشرك بالله .

(٢) وفى هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد .

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ ... فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا

---

يقول تعالى : [ فإن طلقها ] أى : الطلقة الثالثة [ فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ] أى : نكاحاً صحيحاً ويطأها ، لأن النكاح الشرعى[1] لا يكون صحيحاً ، ويدخل فيه العقد والوطء ، وهذا بالاتفاق .

ويتعين أن يكون نكاح الثانى ، نكاح رغبة .

فإن قصد به تحليلها للأول ، فليس بنكاح ، ولا يفيد التحليل .

ولا يفيد وطء السيد ، لأنه ليس بزوج .

فإذا تزوجها الثانى راغباً ووطئها ، ثم فارقها وانقضت عدتها [فلاجناح عليهما ] أى : على الزوج الأول والزوجة [ أن يتراجعا ] أى : يجددا عقدا جديدا بينهما ، لإضافته التراجع إليهما ، فدل على اعتبار التراضى .

ولكن يشترط فى التراجع أن يظنا [ أن يقيما حدود الله ] بأن يقوم كل منهما ، بحق صاحبه .

وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق ، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة ، فهنا لاجناح عليهما فى التراجع .

ومفهوم الآية الكريمة ، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله ، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية ، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما فى ذلك جناحا ، لأن جميع الأمور ، إن لم يقم فيهما أمر الله ، ويسلك بها طاعته ، لم يحل الإقدام عليها .

---

(١) قوله (لأن النكاح الشرعى الخ ) فى العبارة اضطراب . والصواب أن يقال (لأن النكاح الشرعى الصحيح ، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء).

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

وفى هذا دلالة على أنه ينبغى للإنسان ، إذا أراد أن يدخل فى أمر من الأمور ، خصوصاً الولايات ، الصغار ، والكبار ، أن ينظر فى نفسه .

فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ، ووثق بها ، أقدم ، وإلا أحجم .

ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة قال :

[ وتلك حدود الله ] أى : شرائعه التى حددها وبينها ووضحها .

[ يبينها لقوم يعلمون ] لأنهم هم المنتفعون بها ، النافعون لغيرهم .

وفى هذا من فضيلة أهل العلم ، مالا يخفى ، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده ، خاصا بهم ، وأنهم المقصودون بذلك .

وفيه أن الله تعالى يحب من عباده ، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها .

ثم قال تعالى : [ وإذا طلقتم النساء ] أى : طلاقا رجعياً بواحدة أو اثنتين .

[ فبلغن أجلهن ] أى : قاربن انقضاء عدتهن .

[فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف] أى : إما أن تراجعوهن ، ونيتكم القيام بحقوقهن ، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ، ولهذا قال :

[ ولا تمسكوهن ضرارا ] أى : مضارة بهن [ لتعتدوا ] فى فعلكم هذا الحلال ، إلى الحرام .

عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

---

فالحلال : الإمساك بالمعروف ، والحرام : المضارة .

[ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ] ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار .

[ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ] لما بين تعالى حدوده غاية التبيين ، وكان المقصود ، العلم بها والعمل ، والوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً ، بل أنزلها بالحق والصدق والجد ، نهى عن اتخاذها هزوا ، أى : لعبا بها ، وهو التجرى عليها ، وعدم الامتثال لواجبها .

مثل استعمال المضارة فى الإمساك ، أو الفراق ، أو كثرة الطلاق ، أو جمع الثلاث .

والله — من رحمته — جعل له واحدة بعد واحدة ، رفقا به وسعياً فى مصلحته .

[ واذكروا نعمة الله عليكم ] عموما باللسان ، حمداً وثناء .

وبالقلب ، اعترافا ، وإقراراً ، وبالأركان ، بصرفها فى طاعة الله .

[ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ] أى : السنة اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها ، وطرق الشر وحذركم إياها ، وعرفكم نفسه ووقائعه فى أوليائه وأعدائه ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وقيل : المراد بالحكمة : أسرار الشريعة ، فالكتاب فيه ، الحكم .

والحكمة فيها ، بيان حكمة الله فى أوامره ونواهيه . وكلا المعنيين صحيح.

ولهذا قال [ يعظكم به ] أى : بما أنزل عليكم ، وهذا مما يقوى أن

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

---

المراد بالحكمة ، أسرار الشريعة ، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة ، والترغيب ، أو الترهيب ، فالحكم به ، يزول الجهل .

والحكمة مع الترغيب ، يوجب الرغبة .

والحكمة مع الترهيب ، يوجب الرهبة [ واتقوا الله ] فى جميع أموركم [ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ] فلهذا بين لكم هذه الأحكام ، التى هى جارية مع المصالح فى كل زمان ومكان ، فله الحمد والمنة .

* هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة ، وأراد زوجها أن ينكحها ، ورضيت بذلك ، فلا يجوز لوليها ، من أب وغيره ؛ أن يعضلها ؛ أى : يمنعها من التزوج به حنقاً عليه ؛ وغضباً ؛ واشمئزازا لما فعل من الطلاق الأول .

وذكر أن [ من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ] فإيمانه يمنعه من العضل .

[ ذلكم أزكى لكم وأطهر ] وأطيب مما يظن الولى أن عدم تزويجه ، هو الرأى واللائق وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه ، كما هو عادة المترفعين المتكبرين .

فإن كان يظن أن المصلحة ، فى عدم تزويجه ، فإن [ الله يعلم وأنتم لاتعلمون ].

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ

فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم ، مريد لها ، قادر عليها ، ميسر لها من الوجه الذى تعرفون وغيره .

وفى هذه الآية ، دليل على أنه لابد من الولى فى النكاح ، لأنه نهى الأولياء عن العضل ، ولا ينهاهم إلا عن أمر ، هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق . ثم قال تعالى [ والوالدات يرضعن . الآية ] .

* هذا خبر بمعنى الأمر ، تنزيلا له منزلة المتقرر ، الذى لايحتاج إلى أمر بأن [ يرضعن أولادهن حولين ] .

ولما كان الحول ، يطلق على الكامل ، وعلى معظم الحول قال :

[ كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ] فإذا تم للرضيع حولان ، فقد تم رضاعه وصار اللبن بعد ذلك ، بمنزلة سائر الأغذية ، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين ، غير معتبر ، فلا يحرم[1] .

ويؤخذ من هذا النص ، ومن قوله تعالى [ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ] .

أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأنه يمكن وجود الولد بها .

(١) قوله ( فلا يحرم ) أى : لاتثبت به الأخوة ولا النسب من الرضاعة بعد الحولين الكاملين ، وعلى هذا فيجوز أن يتزوج كل منهما بالآخر .

بِوَلَدِهِ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ

---

[ وعلى المولود له ] أي : الأب [ رزقهن وكسوتهن بالمعروف ] وهذا شامل لما إذا كانت فى حباله أو مطلقة ، فإن على الأب رزقها ، أى : نفقتها وكسوتها ، وهى الأجرة للرضاع .

ودل هذا ، على أنها إذا كانت فى حباله ، لايجب لها أجرة ، غير النفقة والكسوة ، وكل بحسب حاله ، فلهذا قال :

[ لا تكلف نفس إلا وسعها ] ، فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغنى ، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد .

[ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ] أى : لايحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها ، إما أن تمنع من إرضاعه ، أو لاتعطى ما يجب لها من النفقة ، والكسوة أو الأجرة .

[ ولا مولود له بولده ] بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة ، أو تطلب زيادة عن الواجب ، ونحو ذلك من أنواع الضرر .

ودل قوله [مولود له] أن الولد لأبيه ، لأنه موهوب له ، ولأنه من كسبه .

فلذلك جاز له الأخذ من ماله ، رضى أو لم يرض ، بخلاف الأم .

وقوله [ وعلى الوارث مثل ذلك ] أى : على وارث الطفل إذا عدم الأب ، وكان الطفل ليس له مال ، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

---

فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين ، على القريب الوارث الموسر .

[ فإن أرادا ] أى : الأبوان [ فصالا ] أى فطام الصبى قبل الحولين .

[ عن تراض منهما ] بأن يكونا راضيين [ وتشاور ] فيما بينهما ، هل هو مصلحة للصبى أم لا ؟ .

فإن كان مصلحة ورضيا [ فلا جناح عليهما ] فى فطامه قبل الحولين .

فدلت الآية بمفهومها ، على أنه إن رضى أحدهما دون الآخر ، أو لم يكن مصلحة للطفل ، أنه لا يجوز فطامه .

وقوله : [ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ] أى : تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة [ فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ] أى : المرضعات ، [ والله بما تعملون بصير ] فمجازيكم على ذلك بالخير والشر .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

---

أى : إذا توفى الزوج ، مكثت زوجته ، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا .

والحكمة فى ذلك ، ليتبين الحمل فى مدة الأربعة الأشهر ، ويتحرك فى ابتدائه ، فى الشهر الخامس .

وهذا العام مخصوص بالحوامل ، فإن عدتهن بوضع الحمل .

وكذلك الأمة ، عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمسة أيام .

وقوله : [ فإذا بلغن أجلهن ] أى : انقضت عدتهن [ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن ] أى : من مراجعتها للزينة والطيب .

[ بالمعروف ] أى : على وجه غير محرم ولا مكروه .

وفى هذا وجوب الإحداد ، مدة العدة ، على المتوفى عنها زوجها ، دون غيرها من المطلقات والمفارقات ، وهو مجمع عليه بين العلماء .

[ والله بما تعملون خبير ] أى : عالم بأعمالكم ، ظاهرها وباطنها ، جليلها وخفيها ، فمجازيكم عليها .

وفى خطابه للأولياء بقوله : [ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن ] دليل على أن الولى ينظر على المرأة ، ويمنعها مما لايجوز فعله ويجبرها على ما يجب ، وأنه مخاطب بذلك ، واجب عليه .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

---

هذا حكم المعتدة من وفاة ، أو المبانة فى الحياة .

فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها فى الخطبة ، وهو المراد بقوله [ولكن لا تواعدوهن سراً ] .

وأما التعريض ، فقد أسقط تعالى فيه الجناح .

والفرق بينهما : أن التصريح ، لا يحتمل غير النكاح ، فلهذا حرم ، خوفا من استعجالها ، وكذبها فى انقضاء عدتها ، رغبة فى النكاح .

ففيه دلالة على منع وسائل المحرم ، وقضاء ، لحق زوجها الأول ، بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها .

وأما التعريض ، وهو : الذى يحتمل النكاح وغيره ، فهو جائز للبائن كأن يقول : إنى أريد التزوج ، وإنى أحب أن تشاورينى عند انقضاء عدتك ، ونحو ذلك ، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح ، وفى النفوس داع قوى إليه .

وكذا إضمار الإنسان فى نفسه أن يتزوج من هى فى عدتها ، إذا انقضت .

ولهذا قال [ أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ] هذا التفصيل كله ، فى مقدمات العقد .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾

---

وأما عقد النكاح فلا يحل [ حتى يبلغ الكتاب أجله ] .
أى : تنقضى العدة .

واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم ] أى : فانووا الخير ، ولا تنووا الشر ، خوفا من عقابة ورجاء لثوابه .

[ واعلموا أن الله غفور ] لمن صدرت منه الذنوب ، فتاب منها ، ورجع إلى ربه [ حليم ] حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم ، مع قدرته عليهم .

* أى : ليس عليكم – يامعشر الأزواج – جناح وإثم ، بتطليق النساء قبل المسيس ، وفرض المهر ، وإن كان فى ذلك كسر لها ، فإنه ينجبر بالمتعة .

فعليكم أن [ تمتعوهن ] بأن تعطوهن شيئا من المال ، جبراً لخواطرهن .

[ على الموسع قدره وعلى المقتر ] أى : المعسر [ قدره ] .

وهذا يرجع إلى العرف ، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال : [ متاعا بالمعروف ] فهذا حق واجب [ على المحسنين ] ليس لهم أن يبخسوهن .

فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن ، وتعلق قلوبهن ، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه ، فعليهم – فى مقابلة ذلك – المتعة .

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهى ، وأدله على حكمة شارعه ورحمته !!

ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ !!

فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر .

ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

---

أى : إذا طلقتم النساء قبل المسيس ، وبعد فرض المهر ، فللمطلقات من المهر المفروض ، نصفه ، ولكم نصفه .

وهــــذا هو الواجب مالم يدخله عفو ومسامحة ، بأن تعفو عن نصفها لزوجها ، إذا كان يصح عفوها ، [أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح] وهو الزوج على الصحيح ، لأنه الذى بيده حل عقدته .

ولأن الولى ، لايصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة ، لكونه غير مالك ولا وكيل .

ثم رغب فى العفو ، وأن من عفا ، كان أقرب لتقواه ، لكونه إحسانا موجباً لشرح الصدر ، ولكون الإنسان لا ينبغى أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف ، وينسى الفضل الذى هو أعلى درجات المعاملة ، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين :

إما عدل وإنصاف واجب ، وهو : أخذ الواجب ، وإعطاء الواجب .

وإما فضل وإحسان ، وهو إعطاء ماليس بواجب والتسامح فى الحقوق ، والغض مما فى النفس .

فلا ينبغى للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ، ولو فى بعض الأوقات ، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة ، أو مخالطة ، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم .

ولهذا قال : [ إن الله بما تعملون بصير ] .

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

ثم قال تعالى : [ حافظوا على الصلوات الخ الآيتين ] .

يأمر تعالى بالمحافظة [ على الصلوات ] عموما وعلى [ الصلاة الوسطى ] وهى العصر خصوصاً .

والمحافظة عليها : أداؤها بوقتها ، وشروطها ، وأركانها ، وخشوعها ، وجميع مالها ، من واجب ومستحب .

وبالمحافظة على الصلوات ، تحصل المحافظة على سائر العبادات ، وتفيد النهى عن الفحشاء والمنكر ، وخصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله :

[ وقوموا لله قانتين ] أي ذليلين مخلصين ؛ خاشعين .

فإن القنوت : دوام الطاعة مع الخشوع .

وقوله : [ فإن خفتم ] حذف المتعلق ، ليعم الخوف من العدو ، والسبع ، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا ، [ رجالا ] ماشين على أرجلكم .

[ أو ركبانا ] على الخيل والإبل ، وسائر المركوبات ، وفى هذه الحال ، لا يلزمه الاستقبال .

فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف . فاذا حصل الأمن ، صلى صلاة كاملة .

ويدخل فى قوله [ فإذا أمنتم فاذكروا الله ] تكميل الصلوات .

ويدخل فيه أيضاً ، الإكثار من ذكر الله ، شكراً له على نعمة التعليم ، لما فيه سعادة العبد .

وفى الآية الكريمة ، فضيلة العلم ، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم ، الإكثار من ذكر الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

---

وفيه الإشعار أيضاً بأن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم أخرى، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: [ والذين يتوفون منكم الآية ].

* اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التى قبلها وهى قوله تعالى.

[ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ] وأن الأمر كان على الزوجة، أن تتربص حولا كاملا، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم فى الوضع، لا فى النزول. لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ.

وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر فى الآية، هو الصواب.

وأن الآية الأولى فى وجوب التربص أربعة أشهر وعشرا، على وجه التحتيم، على المرأة.

وأما فى هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولا كاملا، جبرا لخاطرها، وبراً بميتهم.

ولهذا قال [ وصية لأزواجهم ] أى: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

فإن رغبت ، أقامت فى وصيتها ، وإن أحبت الخروج ، فلا حرج عليها ، ولهذا قال : [ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن ] .

أي : من التجمل واللباس .

لكن الشرط ، أن يكون بالمعروف ، الذى لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار.

وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين ، الدالين على كمال العزة ، وكمال الحكمة ، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته ، ودلت على كمال حكمته ، حيث وضعها فى مواضعها اللائقة بها .

* لما بين فى الآية السابقة ، إمتاع المفارقة بالموت ، ذكر هنا أن كل مطلقة ، فلها على زوجها ، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها ، وأنه حق ، إنما يقوم به المتقون ، فهو من خصال التقوى الواجبة والمستحبة .

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق ، وطلقها قبل الدخول ، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره .

وإن كان مسمى لها ، فمتاعها نصف المسمى .

وإن كانت مدخولا بها ، صارت المتعة مستحبة ، فى قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك ، استدلالا بقوله [ حقاً على المتقين ] والأصل فى « الحق » أنه واجب ، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين ، وأصل التقوى ، واجبة .

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين ، أثنى على أحكامه

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

---

وعلى بيانه لها وتوضيحه ، وموافقتها للعقول السليمة ، وأن القصد من بيانه لعباده ، أن يعقلوا عنه ما بينه ، فيعقلونها حفظا ، وفهماً وعملا بها ، فإن ذلك من تمام عقلها .

* أي : ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل ، حيث حل الوباء بديارهم ، فخرجوا بهذه الكثرة ، فرارا من الموت ، فلم ينجهم الفرار ، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون .

فعاملهم بنقيض مقصودهم ، وأماتهم الله عن آخرهم .

ثم تفضل عليهم ، فأحياهم ، إما بدعوة نبي ، كما قاله كثير من المفسرين ، وإما بغير ذلك .

ولكن ذلك ، بفضله وإحسانه ، وهو لا زال فضله على الناس ، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله . بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله .

ومع ذلك ، فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر .

وفي هذه القصة ، عبرة بأنه على كل شيء قدير ، وذلك آية محسوسة على البعث .

فإن هذه القصة معروفة منقولة ، نقلا متواتراً عند بني إسرائيل ، ومن اتصل بهم .

ولهذا أتى بها تعالى ، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين .

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ، خوفا من الأعداء ، وجبناً عن لقائهم .

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

---

ويؤيد هذا ؛ أن الله ذكر بعدها . الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل ؛ أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم .

وعلى الاحتمالين ؛ فإن فيها ترغيباً فى الجهاد ؛ وترهيبا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغنى عن الموت شيئاً .

[ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ].

☆ جمع الله بين الأمر بالقتال فى سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين .

وحث على الإخلاص فيه ، بأن يقاتل العبد ، لتكون كلمة الله هى العليا .

فإن الله [ سميع ] للأقوال وإن خفيت [ عليم ] بما تحتوى عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها .

وأيضاً ، فإنه إذا علم المجاهد فى سبيله ، أن الله سميع عليم ، هان عليه ذلك ، وعلم أنه ، بعينه ، ما يتحمل المتحملون من أجله ، وأنه لابد أن يمدهم بعونه ولطفه .

. . . . . . . . . . .

---

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة ، وأن المنفق قد أقرض الله الملى ، الكريم ، ووعده المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى :

[ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ] .

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق ، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله ، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ، ويبسطه على من يشاء .

فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر ، ولا يظن أنه ضائع بل مرجع العباد كلهم إلى الله .

فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده ، مدخرا ، أحوج ما يكونون إليه .

ويكون له من الوقع العظيم ، مالا يمكن التعبير عنه .

والمراد بالقرض الحسن : هو ماجمع أوصاف الحسن ، من النية الصالحة ، وسماحة النفس ، بالنفقة ، ووقوعها فى محلها وأن لا يتبعها المنفق ، منا ولا أذى ؛ ولا مبطلا ومنقصاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً

---

يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ؛ ليعتبروا وليرغبوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عنه .

فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة فى الدنيا والآخرة ؛ والناكلين خسروا الأمرين .

فأخبر تعالى أن أهل الرأى من بنى إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ؛ تراودوا فى شأن الجهـاد ، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا ؛ لينقطع النزاع بتعيينه ، وتحصل الطاعة التامة ؛ ولا يبقى لقائل مقال .

وأن نبيهم خشى ؛ أن طلبهم هذا ، مجرد كلام لا فعل معه .

فأجابوا نبيهم ، بالعزم الجازم ؛ وأنهم التزموا ذلك التزاما تاما .

وأن القتال متعين عليهم ، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم .

مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

---

وأنه عين لهم نبيهم ؛ طالوت ملكا ؛ يقودهم فى هذا الأمر الذى لابد له من قائد يحسن القيادة .

وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت ؛ وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالا.

فأجابهم نبيهم : إن الله اختاره عليكم ؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة ؛ وقوة الجسم ؛ اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة ، وحسن التدبير .

وأن الملك ليس بكثرة المال ؛ ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة فى بيوتهم . فالله يؤتى ملكه من يشاء .

ثم لم يكتف ذلك النبى الكريم بإقناعهم بما ذكره ؛ من كفاءة طالوت ، واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم .

[ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ] .

فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ
فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ
كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

---

وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء .

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية فى طالوت ، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم ، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة ، ولهذا قال :

[ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ] فحينئذ سلموا وانقادوا .

فلما ترأس فيهم طالوت ، وجندهم ، ورتبهم ، وفصل بهم إلى قتال عدوهم ، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ، مايحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل قال : [ إن الله مبتليكم بنهر ] تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء .

[ فمن شرب منه فليس منى ] أى : لايتبعنى ، لأن ذلك برهان على قلة صبره ، ووفور جزعه [ ومن لم يطعمه فإنه منى ] لصدقه وصبره [ إلا من اغترف غرفة بيده ] أى : فإنه مسامح فيها .

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء ، شربوا كلهم منه [ إلا قليلا منهم ] فإنهم صبروا ولم يشربوا .

[فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا] أى : الناكلون أو الذين عبروا : [ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ].

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ

---

فإن كان القائلون ، هم الناكاين ، فهذا قول يبررون به نكولهم .

وإن كان القائلين هم الذين عبروا مع طالوت ، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم .

ولكن شجعهم على الثبات والإقدام ، أهل الإيمان الكامل حيث قالوا : [ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن والله مع الصابرين ] بعونه وتأييده ، ونصره ، فثبتوا ، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده .

[ وقتل داود ] صلى الله عليه وسلم [ جالوت ] وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم .

[ وآتاه الله ] أى : داود [الملك والحكمة] النبوة والعلوم النافعة وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب .

ثم بين تعالى ، فائدة الجهاد فقال :

[ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض] باستيلاء الكفرة والفجار ، وأهل الشر والفساد .

[ ولكن الله ذو فضل على العالمين ] حيث لطف بالمؤمنين ، ودافع عنهم ، وعن دينهم ، بما شرعه وبما قدره

فلما بين هذه القصة قال لرسوله صلى الله عليه وسلم .

[ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ] .

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

---

ومن جملة الأدلة على رسالته ، هذه القصة ، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع . وفى هذه القصة ، عبر كثيرة للأمة .

منها : فضيلة الجهاد فى سبيله ، وفوائده ، وثمراته ، وأنه السبب الوحيد فى حفظ الدين ، وحفظ الأوطان ، وحفظ الأبدان والأموال .

وأن المجاهدين ، ولو شقت عليهم الأمور ، فإن عواقبهم حميدة ، كما أن الناكلين ، ولو استراحوا قليلا ، فإنهم سيتعبون طويلا .

ومنها : الانتداب لرياسة من فيه كفاءة ، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين.

إلى العلم الذى هو علم السياسة والتدبير .

وإلى القوة التى ينفذ بها الحق .

وأن من اجتمع فيه الأمران ، فهو أحق من غيره .

ومنها الاستدلال بهذه القصة ، على ما قاله العلماء ، أنه ينبغى للأمير للجيوش ، أن يتفقدها عند فصولها ، فيمنع من لا يصلح للقتال ، من رجال وخيل وركاب ، لضعفه ، أو ضعف صبره ، أو لتخذيله ، أو خوف الضرر بصحبته . فإن هذا القسم ضرر محض على الناس .

ومنها : أنه ينبغى عند حضور اليأس ، تقوية المجاهدين ، وتشجيعهم ، وحثهم على القوة الإيمانية ، والاتكال الكامل على الله ، والاعتماد عليه ، وسؤال الله التثبيت ، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء .

ومنها : أن العزم على القتال والجهاد ، غير حقيقته .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم

---

فقد يعزم الإنسان ، ولكن عند حضوره ، تنحل عزيمته ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم .

« أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد » .

فهؤلاء الذين عزموا على القتال ، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم ، لما جاء الوقت ، نكص أكثرهم .

ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وسلم « وأسألك الرضا بعد القضاء » .

لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس ، هو الرضا الحقيقى .

* يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل فى الفضائل الجليلة ، والتخصيصات الجميلة ، بحسب ما من الله به عليهم ، وقاموا به من الإيمان الكامل ؛ واليقين الراسخ ، والأخلاق العالية ، والآداب السامية ، والدعوة ، والتعليم والنفع العميم :

فمنهم : من اتخذه خليلا ، ومنهم : من كلمه تكليما ، ومنهم : من رفعه فوق الخلائق درجات .

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر ، إلى الوصول ، إلى فضلهم الشامخ .

وخص عيسى بن مريم ، أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقا ، وعبده صدقاً ، وأن ما جاء به عن عند الله كله حق .

فجعله يبرىء الأكمة والأبرص ؛ ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس فى المهد صبياً ، وأيده بروح القدس ، أى : بروح الإيمان .

مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

---

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له بذلك ، القوة والتأييد ، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاما لكل مؤمن ، بحسب إيمانه كما قال [ وأيدهم بروح منه ]

لكن ما لعيسى أعظم ، مما لغيره ، لهذا خصه الله بالذكر .

وقيل : إن روح القدس—هنا — جبريل ، أيده الله بإعانته ومؤازرته لكن المعنى الأصح ، هو الأول .

ولما أخبر عن كمال الرسل ، وما أعطاهم من الفضل والخصائص ، وأن دينهم واحد ، ودعوتهم إلى الخير واحدة ، كان موجب ذلك ومقتضاه ، أن تجتمع الأمم على تصديقهم ، والانقياد لهم ، لما آتاهم من البينات التى على مثلها ، يؤمن البشر .

لكن أكثرهم ، انحرفوا عن الصراط المستقيم ، ووقع الاختلاف بين الأمم . فمنهم من آمن ؛ ومنهم من كفر .

ووقع لأجل ذلك ؛ الاقتتال الذى ؛ هو موجب الاختلاف والتعادى .

ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ؛ فما اختلفوا .

ولوشاء الله أيضاً ـ بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ـ ما اقتتلوا .

ولكن حكمته ؛ اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب .

فى هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى ، يتصرف فى جميع الأسباب لمسبباتها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

وأنه إن شاء أبقاها ، وإن شاء منعها .

وكل ذلك تبع لحكمته وحده ، فإنه فعال لما يريد .

فليس لإرادته ومشيئته ، ممانع ولا معارض ولا معاون .

☆ يحث الله المؤمنين على النفقات ، فى جميع طرق الخير .

لأن حذف المعمول ، يفيد التعميم .

ويذكرهم نعمته عليهم ، بأنه هو الذى رزقهم ، ونوع عليهم النعم .

وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما فى أيديهم ، بل أتى بـ « من » الدالة على التبعيض .

فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق .

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات ، مدخرة عند الله ، فى يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ، ولا التبرعات ، ولا الشفاعات .

فكل أحد يقول : ما قدمت لحياتى(١) .

فتنقطع الأسباب كلها ، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الفجر الآية ٢٤ [ ياليتنى قدمت لحياتى ] .

[ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا ] .

[ ثم قال تعالى : [ والكافرون هم الظالمون ] وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ، ورزقهم وعافاهم ، ليستعينوا بذلك على طاعته .

فخرجوا عما خلقهم الله له ، وأشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا .

واستعانوا بنعمه ، على الكفر والفسوق والعصيان .

فلم يبقوا للعدل موضعاً ، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم .

☆ أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أعظم آيات القرآن ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة ، وسعة الصفات للبارى تعالى .

فأخبر أنه [الله] الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو .

فألوهية غيره ، وعبادة غيره ، باطلة .

وأنه [الحى] الذى له جميع معانى الحياة الكاملة ، من السمع ، والبصر ، والقدرة ، والإرادة وغيرها ، والصفات الذاتية .

كما أن [ القيوم ] تدخل فيه جميع صفات الأفعال ، لأنه القيوم الذى قام بنفسه ، واستغنى عن جميع مخلوقاته ، وقام بجميع الموجودات ، فأوجدها وأبقاها ، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه فى وجودها وبقائها .

وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ

---

ومن كمال حياته وقيوميته ، أنه [ لا تأخذه سنة ] أى : نعاس [ ولا نوم ] .

لأن السنة والنوم ، إنما يعرضان للمخلوق ، الذى يعتريه الضعف ، والعجز ، والانحلال .

ولا يعرضان ، لذى العظمة ، والكبرياء ، والجلال .

وأخبر أنه مالك جميع مافى السموات والأرض .

فكلهم عبيد لله مماليك ، لايخرج أحد منهم عن هذا الطور .

[ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ] . فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذى له صفات الملك والتصرف ، والسلطان ، والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا [ يشفع عنده ] أحد [ إلا بإذنه ] .

فكل الوجهاء والشفعاء ، عبيد له مماليك ، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم .

[ قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض ] .

والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا توحيده ، واتباع رسله .

فمن لم يتصف بهذا ، فليس له فى الشفاعة نصيب .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدى الخلائق ، من

مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

---

الأمور المستقبلة، التى لا نهاية لها [وما خلفهم] من الأمور الماضية، التى لا حد لها.

وأنه لا تخفى عليه خافية [يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور].

وأن الخلق لا يحيط أحد بشىء من علم الله ومعلوماته [إلا بما شاء] منها.

وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل فى علوم البارى ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة [سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا].

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم، بالأسباب والنظامات، التى جعلها الله فى المخلوقات.

ومع ذلك، فلا يؤوده، أى: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته فى أحكامه.

[وهو العلى] بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلى بعظمة صفاته.

وهو العلى الذى قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

[العظيم] الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذى تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شىء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة فى جانب عظمة العلى العظيم.

فآية، احتوت على هذه المعانى التى هى أجل المعانى، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهما، أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك، من شرور الشيطان.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

---

هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامى ، وأنه — لكمال [1] براهينه ، واتضاح آياته ، وكونه هو دين العقل والعلم ، ودين الفطرة والحكمة ، ودين الصلاح والإصلاح ، ودين الحق والرشد ، فلكماله وقبول الفطر له — لا يحتاج إلى الإكراه عليه .

لأن الإكراه ، إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ، ويتنافى مع الحقيقة والحق ، أو لما تخفى براهينه وآياته .

وإلا فمن جاءه هذا الدين ، ورده ولم يقبله ، فإنه لعناده .

فإنه قد تبين الرشد من الغى ، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة ، إذا رده ولم يقبله .

ولا منافاة بين هذا المعنى ، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد .

فإن الله أمر بالقتال ، ليكون الدين كله لله ، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين .

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ، ماض مع البر والفاجر ، وأنه من الفروض المستمرة ، الجهاد القولى الفعلى .

---

(١) قوله ( لكمال ) هذا الجار والمجرور متعلق بقوله الآتى ( **لا يحتاج** ).

. . . . . . . . . . .

---

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية ، تنافى آيات الجهاد ، فجزم بأنها منسوخة — فقوله ضعيف ، لفظاً ومعنى ، كما هو واضح بين ، لمن تدبر الآية الكريمة ، كما نبهنا عليه .

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين :

قسم آمن بالله وحده لاشريك له ، وكفر بالطاغوت — وهو كل ماينافى الإيمان بالله من الشرك وغيره — فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى ، التى لا انفصام لها ، بل هو مستقيم على الدين الصحيح ، حتى يصل به إلى الله ؛ وإلى دار كرامته .

ويؤخذ القسم الثانى ، من مفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل كفر به ، وآمن بالطاغوت ، فإنه هالك هلاكا أبديا ، ومعذب عذابا سرمدياً .

وقوله : [ والله سميع ] أى : لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، وسميع لدعاء الداعين ، وخضوع المتضرعين .

[ عليم ] بما أكنته الصدور ، وما خفى من خفايا الأمور .

فيجازى كل أحد ، بحسب ما يعلمه ، من نياته وعمله .

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

---

هذه الآية مترتبة على الآية التى قبلها .

فالسابقة ، هى الأساس ، وهذه هى الثمرة .

فأخبر تعالى ، أن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا إيمانهم ، بالقيام بواجبات الإيمان ، وترك كل ماينافيه ، أنه وليهم ، يتولاهم بولايته الخاصة ، ويتولى تربيتهم ، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصى والغفلة والإعراض ، إلى نور العلم واليقين والإيمان ، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم .

وينور قلوبهم ، بما يقذفه فيها من نور الوحى والإيمان ، وييسرهم لليسرى ، ويجنبهم العسرى .

وأما الذين كفروا ، فإنهم لما تولوا غير وليهم ، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم ، وخذلهم ، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم ، ممن ليس عنده نفع ولا ضر .

فأضلوهم ، وأشقوهم ، وحرموهم هداية العلم النافع ، والعمل الصالح .

وحرموهم السعادة ، وصارت النار مثواهم ، خالدين فيها مخلدين .

اللهم تولنا فيمن توليت .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ

---

يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته فى هذا الأمر، الذى لا يقبل شكا، ولا إشكالا، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذى هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال، إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذى أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحدا من الرسل، سوى محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال إبراهيم مناظراً له [ربى الذى يحي ويميت] أى: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة.

فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة.

فقال ذلك الجبار مباهتا [ أنا أحي وأميت ].

وعنى بذلك أنى أقتل من أردت قتله، وأستبقى من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود.

وأن المقصود، أن الله تعالى هو الذى تفرد بإيجاد الحياة فى المعدومات، وردها على الأموات.

قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

---

وأنه هو الذى يميت العباد والحيوانات بآجالها ، بأسباب ربطها وبغير أسباب .

فلما رآه الخليل مموها تمويهاً ، ربما راج على الهمج الرعاع .

قال إبراهيم - ملزما له بتصديق قوله إن كان كما يزعم :

[ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ] أى : وقف ، وانقطعت حجته ، واضمحلت شبهته .

وليس هذا من الخليل ، انتقالا من دليل إلى آخر .

وإنما هو إلزام لنمرود ، بطرد دليله إن كان صادقاً .

وأتى بهذا الذى لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه .

فجميع الأدلة ، السمعية والعقلية ، والفطرية ، قد قامت شاهدة بتوحيد الله ، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير .

وأن من هذا شأنه ، لا يستحق العبادة إلا هو .

وجميع الرسل ، متفقون على هذا الأصل العظيم .

ولم ينكره إلا معاند مكابر ، مماثل لهذا الجبار العنيد .

فهذا من أدلة التوحيد .

ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال : [ أو كالذى مر على قرية - الآية ] .

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ

---

هذان دليلان عظيمان ، محسوسان فى الدنيا قبل الآخرة ـ على البعث والجزاء .

واحد أجراه الله على يد رجل شاك فى البعث على الصحيح ، كما تدل عليه الآية الكريمة .

والآخر ، على يد خليله إبراهيم .

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده .

فهذا الرجل ، مر على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها .

قد مات أهلها وخربت عمارتها ، فقال ـ على وجه الشك والاستبعاد :

[ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ] ؟

أى : ذلك بعيد ، وهى فى هذه الحال .

يعنى : وغيرها مثلها ، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة .

فأراد الله رحمته ورحمة الناس ، حيث أماته الله مائة عام .

وكان معه حمار ، فأماته معه .

ومعه طعام وشراب ، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة .

فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال :

[ كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ] وذلك بحسب ماظنه .

فقال الله [ بل لبثت مائة عام ] .

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ

---

والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام .

ومن تمام رحمة الله به وبالناس ، أنه أراه الآية عيانا ، ليقتنع بها .

فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله ، قيل له :

[ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ] أى : لم يتغير فى هذه المدد الطويلة .

وذلك من آيات قدرة الله ، فإن الطعام والشراب ـ خصوصاً ماذكره المفسرون : أنه فاكهة وعصير ـ لا يلبث أن يتغير ، وهذا قد حفظه الله ، مائة عام وقيل له :

[ انظر إلى حمارك ] ، فإذا هو قد تمزق وتفرق ، وصار عظاما نخرة .

[ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ] أى : نرفع بعضها إلى بعض ، ونصل بعضها ببعض ، بعد ما تفرقت وتمزقت .

[ ثم نكسوها ] بعد الالتئام [ لحما ] ثم ، نعيد فيه الحياة .

[ فلما تبين له ] رأى عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه .

[ قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ] .

فاعترف بقدرة الله على كل شىء وصار آية للناس ، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره ، وعرفوا قضيته ، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى .

هذا هو الصواب فى هذا الرجل .

إِبْرَٰهِمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ

---

وأما قول كثير من المفسرين : إن هذا الرجل ، مؤمن ، أو نبي من الأنبياء ، إما عزيز أو غيره ، وأن قوله [ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ] ، يعنى كيف تعمر هذه القرية ، بعد أن كانت خراباً ، وأن الله أماته ، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق ، وأنها عمرت فى هذه المدة ،وتراجع الناس إليها وصارت عامرة ، بعد أن كانت دامرة ـ فهذا لايدل عليه اللفظ بل ينافيه ، ولايدل عليه المعنى .

فأي آية وبرهان ، برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة ، وهذه لم تزل تشاهد ، تعمر قرى ومساكن ، وتخرب أخري .

وإنما الآية العظيمة ، فى إحيائه بعد موته ، وإحياء حماره ، وإبقاء طعامه وشرابه ، لم يتعفن ولم يتغير .

ثم قوله [فلما تبين له] صريح فى أنه لم يتبين له إلا بعد ماشاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عيانا .

وأما البرهان الآخر ، فإن إبراهيم قال طالباً من الله ، أن يريه كيف يحيي الموتى :

فقال الله له : [ أو لم تؤمن ] ليزيل الشبهة عن خليله .

[ قال ] إبراهيم : [ بلى ] يارب ، قد آمنت أنك على كل شيء قدير ، وأنك تحيي الموتى ، وتجازي العباد .

ولكن أريد أن يطمئن قلبي ، وأصل إلى درجة عين اليقين .

ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

---

فأجاب الله دعوته ، كرامة له ، ورحمة بالعباد .

[ قال فخذ أربعة من الطير ] ولم يبين أى الطيور هى .

فالآية حاصلة بأى نوع منها ، وهو المقصود .

[ فصرهن إليك ] ضمهن ، واذبحهن ، ومزقهن .

[ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ] .

ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال ، التى حوله،ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه ، أى : سريعات ، لأن السعى : السرعة .

وليس المراد ، أنهن جئن على قوائمهن ، وإنما جئن طائرات ، على أكمل ما يكون من الحياة .

وخص الطيور بذلك ، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن .

وأيضاً أزال فى هذا كل وهم ، ربما يعرض للنفوس المبطلة .

فجعلهن متعددات أربعة ، ومزقهن جميعاً ، وجعلهن على رءوس الجبال ليكون ذلك ظاهراً علنا ، يشاهد من قرب ومن بعد ، وأنه نحاهن عنه كثيراً ، لئلا يظن أن يكون عاملا حيلة من الحيل .

وأيضاً أمره أن يدعوهن ، فجئن مسرعات .

فصارت هذه الآية ، أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته .

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه ، وتمام عدله وفضله .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ
لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

---

هذا حث عظيم من الله لعباده على إنفاق أموالهم فى سبيله ، وهو طريقه للوصل إليه .

فيدخل فى هذا ، إنفاقه فى ترقية العلوم النافعة ، وفى الاستعداد للجهاد فى سبيله ، وفى تجهز المجاهدين وتجهيزهم ، وفى جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين .

ويلى ذلك ، الإنفاق على المحتاجين ، والفقراء والمساكين .

وقد يجتمع الأمران ، فيكون فى النفقة دفع الحاجات ، والإعانة على الخير والطاعات .

فهذه النفقات مضاعفة،هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك .

ولهذا قال [ والله يضاعف لمن يشاء ] وذلك بحسب مايقوم بقلب المنفق، من الإيمان ، والإخلاص التام ، وفى ثمرات نفقته ونفعها .

فإن بعض طرق الخيرات ، يترتب على الإنفاق فيها ، منافع متسلسلة ، ومصالح متنوعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

ثم أيضاً ، ذكر ثواباً آخر المنفقين أموالهم فى سبيله ، نفقة صادرة ، مستوفية لشروطها ، منتفية موانعها .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٢٦٣)

---

فلا يتبعون المنفق عليه منا منهم عليه ، وتعداداً للنعم ، وأذية له ، قولية ، أو فعلية .

فهؤلاء [ لهم أجرهم عند ربهم ] بحسب ما يعلمه منه ، وبحسب نفقاتهم ونفعها ، وبفضله الذى لا تناله ، ولا تصل إليه : صدقاتهم .

[ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ] فنفى عنهم المكروه الماضى ، بنفى الحزن ، والمستقبل بنفى الخوف عليهم ، فقد حصل لهم المحبوب ، واندفع عنهم المكروه .

☆ ذكر الله أربع مراتب للإحسان :

المرتبة العليا ، النفقة الصادرة عن نية صالحة ، ولم يتبعها المنفق منا ولا أذى

ثم يليها ، قول المعروف وهو : الإحسان القولى بجميع وجوهه ، الذى فيه سرور المسلم ، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئا ، وغير ذلك من أقوال المعروف .

والثالثة : الإحسان بالعفو والمغفرة ، عمن أساء إليك ، بقول أو فعل .

وهذان أفضل من الرابعة ، وخير منها ، وهى التى يتبعها المتصدق الأذى للمعطى ، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً .

فالخير المحض — وإن كان مفضولا — خير من الخير الذى يخالطه شر ، وإن كان فاضلا ، وفى هذا ، التحذير العظيم لمن يؤذى من تصدق عليه ، كما يفعله أهل اللؤم والحمق والجهل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

---

[ والله ] تعالى [ غنى ] عن صدقاتهم ، وعن جميع عباده .

[ حليم ] مع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، يحلم عن العاصين ، ولا يعاجلهم بالعقوبة .

بل يعافيهم ، ويرزقهم ، ويدر عليهم خيره ، وهم مبارزون له بالمعاصى .

* ثم نهى أشد النهى ، عن المن والأذى ، وضرب لذلك مثلا فقال :

[ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . الآية ]

ضرب الله فى هذه الآيات ، ثلاثة أمثلة :

للمنفق ابتغاء وجهه ، ولم يتبع نفقته منا ولا أذى .

ولمن أتبعها منا وأذى ، وللمرائى .

فأما الأول ، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة ، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام [ ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ] أى : ينفقون ، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل[1] هذا العمل [ كمثل جنة بربوة ] وهو المكان المرتفع ، لأنه يتبين للرياح والشمس ، والماء فيها غزير .

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير ، حصل طل كاف ، لطيب منبتها ،

---

( ١ ) قوله : فمثل الخ ) جواب ( لما ) فى قوله ( فأما الأول الخ ) .

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن

---

وحسن أرضها ، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا [ آتت أكلها ضعفين ] أى متضاعفاً .

وهذه الجنة التى على هذا الوصف ، هى أعلى ما يطلبه الناس ، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل .

وأما من أنفق لله ، ثم أتبع نفقته منا وأذى ، أو عمل عملا ، فأتى بمبطل لذلك العمل ، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة ، لكن سلط عليها [ إعصار ] وهو الريح الشديدة [ فيه نار فاحترقت ] وله ذرية ضعفاء ، وهو ضعيف قد أصابه الكبر .

فهذه الحال من أفظع الأحوال ، ولهذا صدر هذا المثل بقوله : [ أيود أحدكم ] إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته . فان تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى. ثم حصول هذه الفاجعة — وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل ، وله ذرية ضعفاء ، لا مساعدة منهم له ، ومؤنتهم عليه — فاجعة أخرى ، فصار صاحب هذا المثل ، الذى عمل لله ، ثم أبطل عمله بمناف له ، يشبه حال صاحب الجنة ، التى جرى عليها ما جرى ، حين اشتدت ضرورته إليها .

المثل الثالث : الذى يرائى الناس ، وليس معه إيمان بالله ، ولا احتساب

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ
ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

---

لثوابه ، حيث شبه قلبه بالصفوان ، وهو : الحجر الأملس · عليه تراب يظن الرائى ، أنه إذا أصابه المطر ، أنبت كما تنبت الأراضى الطيبة .

ولكنه كالحجر ، الذى أصابه الوابل الشديد ، فأذهب ماعليه من التراب ، وتركه صلدا .

وهذا مثل مطابق لقلب المرائى ، الذى ليس فيه إيمان ، بل هو قاس لايلين ولايخشع .

فهذا ، أعماله ونفقاته ، لا أصل لها ، تؤسس عليه ، ولا غاية لها ، تنتهى إليه ، بل ما عمله ، فهو باطل ، لعدم شرطه .

والذى قبله بطل بعد وجود الشرط ، لوجود المانع .

والأول ، مقبول مضاعف ، لوجود شرطه الذى هو الإيمان والإخلاص والثبات ، وانتفاء الموانع المفسدة .

وهذه الأمثال الثلاثة ، تنطبق على جميع العاملين .

فليزن العبد نفسه وغيره ، بهذه الموازين العادلة ، والأمثال المطابقة .

[ وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ

---

يحث البارى عباده ، على الإنفاق مما كسبوا ، فى التجارات ، ومما أخرج لهم من الأرض ، من الحبوب والثمار .

وهذا يشمل زكاة النقدين ، والعروض كلها ، المعدة للبيع والشراء ، والخارج من الأرض ، من الحبوب والثمار .

ويدخل فى عمومها ، الفرض والنفل .

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ، ولايقصدوا الخبيث ، وهو الردىء الدون ، يجعلونه لله .

ولو بذله لهم من لهم حق عليه ، لم يرتضوه ، ولم يقبلوه ، إلا على وجه المغاضاة والإغماض .

فالواجب ، إخراج الوسط من هذه الأشياء ، والكمال : إخراج العالى ، والممنوع إخراج الردىء فإن هذا لايجزئ عن الواجب ، ولايحصل فيه الثواب التام فى المندوب .

[ واعلموا أن الله غنى حميد ] فهو غنى عن جميع المخلوقين ، وهو الغنى عن نفقات المنفقين ، وعن طاعات الطائعين .

وإنما أمرهم بها ، وحثهم عليها ، لنفعهم ، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام ، الموصلة لهم إلى دار السلام .

حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

---

وحميد فى أفعاله ، التى لا تخرج عن الفضل ، والعدل والحكمة .

وحميد الأوصاف ، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات ، لا يبلغ العباد كنهها ، ولا يدركون وصفها .

فلما حثهم على الإنفاق النافع ، ونهاهم عن الإمساك الضار ، بين لهم أنهم بين داعيين : داعى الرحمن ، يدعوهم إلى الخير ، ويعدهم عليه الخير ، والفضل والثواب العاجل والآجل ، وإخلاف ما أنفقوا .

وداعى الشيطان ، الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم ، إن أنفقوا أن يفتقروا .

فمن كان مجيباً لداعى الرحمن ، وأنفق مما رزقه الله ، فليبشر بمغفرة الذنوب ، وحصول كل مطلوب .

ومن كان مجيباً لداعى الشيطان ، فإنه إنما يدعو حزبه ، ليكونوا من أصحاب السعير .

فليختر العبد أى الأمرين أليق به .

وختم الآية بأنه [ واسع عليم ] أى واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات .

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

---

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال ، وأن الله أعطاهم ، ومن عليهم بالأموال التى يدركون بها النفقات فى الطرق الخيرية ، وينالون بها المقامات السنية ، ذكر ما هو أفضل من ذلك ، وهو أنه يعطى الحكمة من يشاء من عباده ، ومن أراد بهم خيراً من خلقه .

والحكمة هى : العلوم النافعة ، والمعارف الصائبة ، والعقول المسددة ، والألباب الرزينة ، وإصابة الصواب فى الأقوال والأفعال .

وهذا أفضل العطايا ، وأجل الهبات ، ولهذا قال :

[ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً] لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى ، ومن حمق الانحراف فى الأقوال والأفعال ، إلى إصابة الصواب فيها ، وحصول السداد ، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم ، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع ، فى دينهم ودنياهم .

وجميع الأمور لاتصلح إلا بالحكمة ، التى هى : وضع الأشياء فى مواضعها . وتنزيل الأمور منازلها ، والإقدام فى محل الإقدام والإحجام فى موضع الإحجام .

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم ، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم .

[ إلا أولو الألباب ] وهم : أهل العقول الوافية ، والأحلام الكاملة ، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه ، والضار فيتركونه .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ

---

وهذان الأمران ، وهما بذل النفقات المالية ، وبذل ، الحكمة العلمية، أفضل ماتقرب به المتقربون إلى الله ، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات .

وهما اللذان ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس » .

* يخبر تعالى ، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون ، أو نذر الناذرون ، فإن الله يعلم ذلك .

ومضمون الإخبار بعلمه ، يدل على الجزاء ، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة .

ويعلم ما صدرت عنه ، من نيات صالحة ، أو سيئة .

وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم ، أو يقتحمون ما حرم عليهم ، ليس من دونهم أنصار ، ينصرونهم ويمنعونهم . وأنه لابد أن تقع بهم العقوبات .

وأخبر أن الصدقة ، إن أبداها المتصدق ، فهى خير ، وإن أخفاها ، وسلمها للفقير ، كان أفضل .

لأن الإخفاء على الفقير ، إحسان آخر .

وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم
مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

---

وأيضاً ، فإنه يدل على قوة الإخلاص . وأحد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « من تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وفى قوله : [ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ] فائدة لطيفة .

وهو أن إخفاءها خير من إظهارها ، إذا أعطيت الفقير .

فأما إذا صرفت فى مشروع خيرى ، لم يكن فى الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها ، بل هنا قواعد الشرع ، تدل على مراعاة المصلحة .

فربما كان الإظهار خيراً ، لحصول الأسوة والاقتداء ، وتنشيط النفوس على أعمال الخير .

وقوله : [ ويكفر عنكم من سيئاتكم ] فى هذا : أن الصدقات يجتمع فيها الأمران .

حصول الخير ، وهو : كثرة الحسنات والثواب والأجر .

ودفع الشر والبلاء الدنيوى والأخروى ، بتكفير السيئات .

[ والله بما تعملون خبير ] فيجازي كلا بعمله ، بحسب حكمته .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ
وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم

---

أى : إنما عليك — أيها الرسول — البلاغ ، وحث الناس على الخير ، وزجرهم عن الشر ، وأما الهداية ، فبيد الله تعالى :

ويخبر عن المؤمنين حقاً ، أنهم لاينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم ، واحتساب ثوابه ، لأن إيمانهم ، يدعوهم إلى ذلك .

فهذا خير وتزكية للمؤمنين ، ويتضمن التذكير لهم ، بالإخلاص .

وكرر علمه ـ تعالى ـ بنفقاتهم ، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده ، مثقال ذرة « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

* يعنى أنه ينبغى أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء ، الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله ، وعلى طاعته ، وليس لهم إرادة فى الاكتساب ، أو ليس لهم قدرة عليه ، وهم يتعففون .

إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء [ لايسألون الناس إلحافاً ] .

فهم لا يسألون بالكلية ، وإن سألوا اضطراراً ، لم يلحفوا فى السؤال .

فهذا الصنف من الفقراء ، أفضل ما وضعت فيهم النفقات ، لدفع

بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

---

حاجتهم ، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير ، وشكراً لهم على ما اتصفوا به ، من الصبر ، والنظر إلى الخالق ، لا إلى الخلق .

ومع ذلك ، فالإنفاق فى طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا ، فإنه خير وأجر ، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى :

[ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ] الآية .

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والمكريهات .

وقوله : [ فلهم أجرهم عند ربهم ] أى كل أحد منهم بحسب حاله .

وتخصيص ذلك ، بأنه عند ربهم ، يدل على شرف هـــذه الحال ، ووقوعها فى الموقع الأكبر ، كما فى الحديث الصحيح .

« إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى تـكون مثل الجبل العظيم » .

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ
ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ

---

لما ذكر الله حالة المنفقين ومالهم من الله ، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات ، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة ، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم .

فكما كانوا فى الدنيا فى طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين ، عوقبوا فى البرزخ والقيامة ، بأنهم لا يقومون من قبورهم ، أو يوم بعثهم ونشورهم [ إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ] أى : من الجنون والصرع .

وذلك عقوبة ، وخزى وفضيحة لهم ، وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم [ إنما البيع مثل الربا ] .

فجمعوا — بجراءتهم — بين ما أحل الله ، وبين ما حرم الله ، واستباحوا بذلك ، الربا .

ثم عرض تعالى ، العقوبة على المرابين وغيرهم فقال :

[ فمن جاءه موعظة من ربه ] بيان مقرون به الوعد والوعيد .

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ

---

[ فانتهى ] عما كان يتعاطاه من الربا [ فله ما سلف ] مما تجرأ عليه وتاب منه .

[ وأمره إلى الله ] فيما يستقبل من زمانه .

فإن استمر على توبته ، فالله لا يضيع أجر المحسنين .

[ ومن عاد ] بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا [ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] فى هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها ، وذلك لشناعته ، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان .

وهذا من جملة الأحكام ، التى تتوقف على وجود شروطها ، وانتفاء موانعها .

وليس فيها حجة للخوارج ، كغيرها من آيات الوعيد .

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة .

فيؤمن العبد ، بما تواترت به النصوص ، من خروج من فى قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان ، من النار .

رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

---

ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار ، إن لم يتب منها .

ثم أخبر تعالى ، أنه يمحق مكاسب المرابين ، ويربى صدقات المنفقين ، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق ، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده ، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته ، من الله تعالى .

وما عندالله ، لا ينال إلا بطاعته ، وامتثال أمره .

فالمتجرىء على الربا ، يعاقبه بنقيض مقصوده ، وهذا مشاهد بالتجربة و« من أصدق من الله قيلا » .

[ والله لا يحب كل كفار أثيم ] وهو الذى كفر نعمة الله ، وجحد منة ربه ، وأثم بإصراره على معاصيه .

ومفهوم الآية ، أن الله يحب من كان شكورا على النعماء ، تائباً من المآثم والذنوب .

ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا ، وهى قوله :

[ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ] الآية ، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ماحرم اللهمن المكاسب الربوية ، تكميل الإيمان وحقوقه .

. . . . . . . . . . .

خصوصاً ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ، ينافى تعاطى الربا ، الذى هو ظلم لهم ، وإساءة عليهم .

ثم وجه الخطاب للمؤمنين ، وأمرهم أن يتقوه . ويذروا ما بقى من معاملات الربا ، التى كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم إن لم يفعلوا ذلك ، فإنهم محاربون لله ورسوله .

وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا ، حيث جعل المصر عليه ، محارباً لله ورسوله .

ثم قال [ وإن تبتم ] يعنى من المعاملات الربوية .

[ فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ] الناس بأخذ الربا [ ولا تظلمون ] ببخسكم رءوس أموالكم .

فكل من تاب من الربا ، فإن كانت معاملات سالفة ، فله ما سلف ، وأمره منظور فيه .

وإن كانت معاملات موجودة ، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله. فإن أخذ زيادة ، فقد تجرأ على الربا .

وفى هذه الآية ، بيان لحكمة تحريم الربا ، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين ، بأخذ الزيادة ، وتضاعف الربا عليهم ، وهو واجب إنظارهم[1] .

(١) قوله [ وهو واجب إنظارهم ] الصواب أن يقال : وإن المستدينين يجب إنظارهم إلى وقت الميسرة .

. . . . . . . . . . .

---

ولهذا قال :[ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ] .

أى : وإن كان الذى عليه الدين معسرا ، لا يقدر على الوفاء ، وجب على غريمه ، أن ينظره إلى ميسرة .

وهو[1] يجب عليه إذا حصل له وفاء بأى طريق مباح ، أن يوفى ما عليه .

وإن تصدق عليه غريمه — بإسقاط الدين كله أو بعضه — فهو خير له ، ويهون على العبد ، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين ، علمه[2] بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله ، ويوفيه عمله ، ولا يظلمه مثقال ذرة . كما ختم هذه الآية بقوله :

[ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ،ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون ] .

ثم قال تعالى [ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ] الآية .

---

( ١ ) قوله ( وهو يجب الخ ) فى العبارة اضطراب ، والأوضح أن يقال : والمدين ( أى الذى عليه الدين ) يجب عليه الوفاء متى حصل على مال من طريق مباح ، وتحرم عليه المماطلة ، فإن مطل الغنى ( أى : الذى يقدر على الوفاء ) ظلم يحل عرضه وعقوبته ، كما ورد فى الحديث .

(٢) قوله « علمه » فاعل لقوله المتقدم « ويهون الخ » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ

---

احتوت هذه الآيات ، على إرشاد البارى عباده فى معاملاتهم ، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التى لا تقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها ، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها : جواز المعاملات فى الديون ، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلا ثمنه ، فكله جائز ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، وما أخبر به عن المؤمنين ، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها : وجوب تسمية الأجل فى جميع المداينات وحلول الإجارات .

ومنها : أنه إذا كان الأجل مجهولا ، فإنه لا يحل ، لأنه غرر وخطر ، فيدخل فى الميسر .

ومنها : أمره تعالى ، بكتابة الديون .

وهذا الأمر قد يجب ، إذا وجب حفظ الحق ، كالذى للعبد عليه ولاية ، وكأموال اليتامى ، والأوقاف ، والوكلاء ، والأمناء .

وقد يقارب الوجوب ، كما إذا كان الحق متمحضا للعبد ، فقد يقوى الاستحباب ، بحسب الأحوال المقتضية لذلك .

وعلى كل حال ، فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة ، لكثرة النسيان ، ولوقوع المغالطات ، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ

سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ

وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ

---

ومنها : أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل ، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها ، ولا على أحدهما ، لعداوة ونحوها .

ومنها : أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ، ومن الإحسان إليهما .

وفيها حفظ حقوقهما ، وبراءة ذممها ، كما أمره الله بذلك .

فليحتسب الكاتب بين الناس ، هذه الأمور ، ليحظى بثوابها .

ومنها : أن الكاتب لابد أن يكون عارفا بالعدل ، معروفاً بالعدل .

لأنه إذا لم يكن عارفا بالعدل ، لم يتمكن منه .

وإذا لم يكن معتبراً عدلا عند الناس رضياً ، لم تكن كتابته معتبرة ، ولا حاصلا بها المقصود ، الذى هو حفظ الحقوق .

ومنها : أن من تمام الكتابة والعدل فيها ، أن يحسن الكاتب الإنشاء ، والألفاظ المعتبرة ، فى كل معاملة بحسبها .

وللعرف فى هذا المقام ، اعتبار عظيم .

ومنها : أن الكتابة من نعم الله على العباد ، التى لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها ، وأن من علمه الله الكتابة ، فقد تفضل عليه بفضل عظيم .

وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ

---

فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى ، أن يقضى بكتابته حاجات العباد ، ولا يمتنع من الكتابة ولهذا قال : [ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ].

ومنها : أن الذى يكتبه الكاتب ، هو اعتراف من عليه الحق ، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذى عليه .

فإن كان لا يحسن ذلك ـ لصغره ، أو سفهه ، أو جنونه ، أو خرسه ، أو عدم استطاعته ـ أملى عنه وليه ، وقام وليه فى ذلك مقامه .

ومنها : أن الاعتراف من أعظم الطرق ، التى تثبت بها الحقوق ، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ، ما أملى عليه من عليه الحق .

ومنها : ثبوت الولاية على القاصرين ، من الصغار ، والمجانين ، والسفهاء ونحوهم .

ومنها : أن الولى يقوم مقام موليه ، فى جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه .

ومنها : أن من أمنته فى معاملة ؛ وفوضته فيها ؛ فقوله فى ذلك مقبول . وهو نائب منابك ؛ لأنه إذا كان الولى على القاصرين ؛ ينوب منابهم . فالذى وليته باختيارك ؛ وفوضت إليه الأمر ، أولى بالقبول ، واعتبار قوله وتقديمه على قولك ؛ عند الاختلاف .

ومنها : أنه يجب على الذى عليه الحق — إذا أملى على الكاتب —

لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

أن يتقي الله ؛ ولا يبخس الحق الذي عليه ؛ فلا ينتقصه فى قدره ؛ ولا فى وصفه ، ولا فى شرط من شروطه ؛ أو قيد من قيوده .

بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق ؛ كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له .

فمن لم يفعل ذلك ؛ فهو من المطففين الباخسين .

ومنها : وجوب الاعتراف بالحقوق الخفية ؛ وأن ذلك من أعظم خصال التقوى ؛ كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها .

ومنها : الإرشاد إلى الإشهاد فى البيع .

فإن كانت فى المداينات ؛ فحكمها حكم الكتابة كما تقدم ؛ لأن الكتابة هى كتابة الشهادة .

وإن كان البيع بيعاً حاضراً ؛ فينبغى الإشهاد فيه .

ولا حرج فيه بترك الكتابة ؛ لكثرته وحصول المشقة فيه .

ومنها : الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين .

فإن لم يمكن ، أو تعذر ، أو تعسر ، فرجل وامرأتان .

وذلك شامل لجميع المعاملات ، بيوع الإدارة ، وبيوع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها .

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ
وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ

وإذا قيل : قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالشاهد الواحد مع اليمين ، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين .

قيل : الآية الكريمة ، فيها إرشاد البارى عباده إلى حفظ حقوقهم .

ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق ، وأقواها .

وليس فيها ، ما ينافى ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم من الحكم بالشاهد واليمين .

فباب حفظ الحقوق فى ابتداء الأمر ، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام .

وباب الحكم بين المتنازعين ، ينظر فيه إلى المرجحات والبينات ، بحسب حالها .

ومنها : أن شهادة المرأتين ، قائمة مقام الرجل الواحد ، فى الحقوق الدنيوية .

وأما فى الأمور الدينية — كالرواية والفتوى — فإن المرأة فيه ، تقوم مقام الرجل ، والفرق ظاهر بين البابين .

ومنها : الإرشاد إلى الحكمة فى كون شهادة للمرأتين عن[1] شهادة

---

(١) قوله ( عن شهادة الخ ) هكذا فى الأصل وفى العبارة غموض كما ترى . والصواب أن يقال ( ومنها : الإرشاد إلى حكمة جعل الشارع شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل وذلك لضعف ذاكرة المرأة غالباً الخ ) .

ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

---

الرجل ، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً ، وقوة حافظة الرجل .

ومنها : أن الشاهد لو نسى شهادته ، فذكره الشاهد الآخر ، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان ، إذا زال بالتذكير لقوله : [ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ] ومن باب أولى ، إذا نسى الشاهد ، ثم ذكر من دون تذكير ، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين .

ومنها : أن الشهادة لابد أن تكون عن علم ويقين ، لا عن شك .

فمتى صار عند الشاهد ، ريب فى شهادته ـ ولو غلب على ظنه ـ لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم .

ومنها : أن الشاهد ليس له أن يمتنع ، إذا دعى للشهادة ، سواء دعى للتحمل أو للأداء .

وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة ، كما أمر الله بها ، وأخبر عن نفعها ومصالحها .

ومنها: أنه لايحل الإضرار بالكاتب ، ولابالشهيد ، بأن يدعيا فى وقت أو حالة ، تضرهما .

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين ، وأن يضاروا الشهود والكتاب، فإنه أيضاً ، نهى للكاتب والشهيد ، أن يضار المتعاملين أو أحدهما .

وفى هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب — إذا حصل عليهما ضرر فى الكتابة والشهادة — أنه يسقط عنهما الوجوب .

. . . . . . . . . . .

---

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف ، لايحل إضرارهم ، وتحميلهم مالا يطيقون ، فـ « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » .

وكذلك على من أحسن وفعل معروفا ، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولى والفعلى ، بمن أوقع به المعروف ، فإن الإحسان ، لا يتم إلا بذلك .

ومنهـا : أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة ، حيث وجبت ، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد ، ولأنه من مضارة المتعاملين .

ومنها : التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة ، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل ، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال : [ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا] وهذه مصالح ضرورية للعباد .

ومنها : أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية ، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان .

ومنها : أن من خصه الله بنعمة من النعم ، يحتاج الناس إليها .

فمن تمام شكر هذه النعمة ، أن يعود بها على عباد الله ، وأن يقضى بها حاجتهم ، لتعليل الله النهى عن الامتناع عن الكتابة ، بتذكير الكاتب بقوله [ كما علمه الله ] .

ومع هذا « فمن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته » .

ومنها : أن الإضرار بالشهود والكتاب ، فسوق بالإنسان .

. . . . . . . . . . .

فإن الفسوق هو : الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، وهو يزيد وينقص ، ويتبعض .

ولهذا لم يقل « فأنتم فساق » أو «فاسقون» بل قال [ فإنه فسوق بكم ] .

فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه ، فإنه يحصل به من الفسوق ، بحسب ذلك .

واستدل بقوله تعالى [ واتقوا الله ويعلمكم الله ] أن تقوى الله ، وسيلة إلى حصول العلم .

وأوضح من هذا قوله تعالى [ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ] أى : علماً تفرقون به بين الحقائق ، والحق والباطل .

ومنها : أنه كما أنه من العلم النافع ، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات ، فمنه أيضاً ، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فإن الله تعالى ، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم ، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء .

ومنها : مشروعية الوثيقة بالحقوق ، وهى الرهون والضمانات ، التى تكفل للعبد حصوله على حقه ، سواء عامل براً أو فاجراً ، أميناً خائناً .

فكم فى الوثائق ، من حفظ حقوق ، وانقطاع منازعات .

ومنها : أن تمام الوثيقة فى الرهن ، أن يكون مقبوضاً .

ولا يدل ذلك ، على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض ، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً ، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً ، تحصل به الثقة التامة ، وقد لا يكون مقبوضاً ، فيكون ناقصاً .

. . . . . . . . . . .

ومنها : أنه يستدل بقوله [ فرهان مقبوضة ] أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن فى مقدار الدين الذى به الرهن ، أن القول قول المرتهن ، صاحب الحق ، لأن الله جعل الرهن وثيقة به .

فلولا أنه يقبل قوله فى ذلك ، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود .

ومنها : أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، ولا شهود ، لقوله [ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى ائتمن أمانته ] ولكن فى هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله ، وإلا فصاحب الحق مخاطر فى حقه ولهذا أمر الله فى هذه الحال ، من عليه الحق ، أن يتقى الله ويؤدى أمانته .

ومنها : أن من ائتمنه معامله فقد عمل معه معروفاً عظيما ، ورضى بدينه وأمانته .

فيتأكد على من عليه الحق ، أداء الأمانة من الجهتين :

أداء لحق الله ، وامتثالا لأمره ، ووفاء بحق صاحبه ، الذى رضى بأمانته ، ووثق به .

ومنها : تحريم كتم الشهادة ، وأن كاتمها قد أثم قلبه ، الذى هو ملك الأعضاء .

وذلك لأن كتمها ، كالشهادة بالباطل والزور ، فيها ضياع الحقوق ، وفساد المعاملات ، والإثم المتكرر فى حقه ، وحق من عليه الحق .

وأما تقييد الرهن بالسفر ـ مع أنه يجوز حضراً وسفراً ـ فللحاجة إليه ، لعدم الكاتب والشهيد .

وختم الآية بأنه « عليم » بكل ما يعمله العباد ، كالترغيب [1] لهم فى المعاملات الحسنة ، والترهيب من المعاملات السيئة .

---

(١) الصواب « للترغيب » لأن المقام مقام تعليل .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾

---

يخبر تعالى ،بعموم ملكه لأهل السماء والأرض ، وإحاطة علمه بما أبداه العباد ، وما أخفوه فى أنفسهم ، وأنه سيحاسبهم به ، فيغفر لمن يشاء ، وهو المنيب إلى ربه ، الأواب إليه [ إنه كان للأوابين غفورا ] .

ويعذب من يشاء ،وهو المصر على المعاصى ، فى باطنه وظاهره .

وهذه الآية ، لاتنافى الأحاديث الواردة فى العفو ، عما حدث به العبد نفسه ، ما لم يعمل أو يتكلم .

فتلك الخطرات هى التى تتحدث بها النفوس ، التى لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها .

وأما هنا فهى العزائم المصممة ، والأوصاف الثابتة فى النفوس ،أوصاف الخير ، وأوصاف الشر ، ولهذا قال [ ما فى أنفسكم ] أى : استقر فيها وثبت ، من العزائم والأوصاف .

وأخبر أنه [ على كل شىء قدير ] فمن تمام قدرته ، محاسبة الخلائق ، وإيصال مايستحقونه ، من الثواب والعقاب .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

---

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن من قرأ هاتين الآيتين فى ليلته كفتاه أى : من جميع الشرور ، وذلك لما احتوتا عليه من المعانى الجليلة .

فإن الله أمر فى أول هذه السورة ، الناس بالإيمان ، بجميع أصوله فى قوله : [ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ] الآية .

وأخبر فى هذه الآية ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، آمنوا بهذه الأصول العظيمة ، وبجميع الرسل ، وجميع الكتب .

ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض ، وكفر ببعض ، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة .

وفى قرن المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد ، شرف عظيم للمؤمنين .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم مشارك للأمة فى الخطاب الشرعى له ، وقيامه التام به ، وأنه فاق المؤمنين بل فاق جميع المرسلين فى القيام بالإيمان وحقوقه .

وقوله [ وقالوا سمعنا وأطعنا ] هذا التزام من المؤمنين ، عام لجميع ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد .

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

---

ومضمون ذلك ، تضرعهم إلى الله فى طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات ، وما ارتكبوه من المحرمات ، وكذلك تضرعوا إلى الله فى هذه الأدعية النافعة .

والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فقال « قد فعلت » .

فهذه الدعوات ، مقبولة من مجموع المؤمنين قطعا ، ومن أفرادهم ، إذا لم يمنع من ذلك مانع فى الأفراد .

وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة ، فى الخطأ والنسيان ، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل .

ولم يحملهم من المشاق ، والآصار ، والأغلال ، ماحمله على من قبلهم ، ولم يحملهم فوق طاقتهم ، وقد غفر لهم ورحمهم ، ونصرهم على القوم الكافرين .

فنسأل الله تعالى ، بأسمائه وصفاته ، وبما من به علينا من التزام دينه ، أن يحقق لنا ذلك ، وأن ينجز لنا ماوعدنا على لسان نبيه ، وأن يصلح أحوال المؤمنين .

ويؤخذ من هنا ، قاعدة التيسير ، ونفى الحرج فى أمور الدين كلها .

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

---

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ ، فى العبادات ، وفى حقوق الله تعالى .

وكذلك فى حقوق الخلق من جهة رفع المأثم ، وتوجه الذم .

وأما وجوب ضمان المتلفات ، خطأ أو نسيانا ، فى النفوس والأموال ، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق ، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان ، والعمد .

تم تفسير سورة البقرة ، ولله الحمد والثناء . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

تفســـير

# سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

[ الم ] من الحروف التى لا يعلم معناها إلا الله .

فأخبر تعالى أنه [ الحى ] كامل الحياة [ القيوم ] القائم بنفسه ، المقيم لأحوال خلقه .

وقد أقام أحوالهم الدينية ، وأحوالهم الدنيوية والقدرية .

فأنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب بالحق ، الذى لا ريب فيه ، وهو مشتمل على الحق [ مصدقاً لما بين يديه ] من الكتب .

أى : شهد بما شهدت به ، ووافقها ، وصدق من جاء بها من المرسلين .

وكذلك [ أنزل التوراة والإنجيل من قبل ] هذا الكتاب [ هدى للناس ] .

وأكمل الرسالة ، وختمها بمحمد صلى الله عليه وسلم ] وكتابه العظيم

كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ
ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

---

الذى هدى الله به الخلق ، من الضلالات ، واستنقذهم به من الجهالات ، وفرق به بين الحق والباطل ، والسعادة والشقاوة ، والصراط المستقيم ، وطرق الجحيم .

فالذين آمنوا به واهتدوا ، حصل لهم به ، الخير الكثير ، والثواب العاجل والآجل .

و[ أن الذين كفروا بآيات الله ] التى بينها فى كتابه وعلى لسان رسوله [ لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ] ممن عصاه .

ومن تمام قيوميته تعالى ، أن علمه محيط بالخلائق [ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ] حتى ما فى بطون الحوامل .

فهو [ الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ] من ذكر وأنثى ، وكامل الخلق وناقصه ، متنقلين فى أطوار خلقته وبديع حكمته .

فمن هذا شأنه مع عباده ، واعتناؤه العظيم بأحوالهم ، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم ، لامشارك له فى ذلك — فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو .

[ لا إله إلا هو العزيز ] الذى قهر الخلائق بقوته ، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم [ الحكيم ] فى خلقه وشرعه .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ

---

يخبر تعالى، عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذى تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذى لم يوجد — ولن يوجد — له نظير أو مقارب فى هدايته، وبلاغته، وإعجازه، وإصلاحه للخلق.

وأن هذا الكتاب يحتوى على المحكم الواضح المعانى البين، الذى لايشتبه بغيره.

ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعانى، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين فى قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم — يتبعون المتشابه منه.

فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف — فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها فى غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذى تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ

---

فيردون المتشابه إلى المحكم ، فيعود كله محكما ، ويقولون :

[ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر ] للأمور النافعة ، والعلوم الصائبة [ إلا أولو الألباب ] أى : أهل العقول الرزينة .

ففى هذا دليل على أن هذا ، من علامة أولى الألباب ، وأن اتباع المتشابه ، من أوصاف أهل الآراء السقيمة ، والعقول الواهية ، والقصود السيئة .

وقوله [ وما يعلم تأويله إلا الله ] إن أريد بالتأويل ، معرفة عاقبة الأمور ، وما تنتهى وتئول ، تعين الوقوف على « إلا الله » حيث هو تعالى ؛ المتفرد بالتأويل بهذا المعنى . .

وإن أريد بالتأويل : معنى التفسير ، ومعرفة معنى الكلام ، كان العطف أولى .

فيكون هذا مدحا للراسخين فى العلم ، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة ، محكمها ومتشابهها .

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين ، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا : [ ربنا لا تزغ قلوبنا ] أى لا تملها عن الحق إلى الباطل .

قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

[ بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ] تصلح بها أحوالنا [ إنك أنت الوهاب ] أى كثير الفضل والهبات .

وهذه الآية ، تصلح مثالا للطريقة ، التى يتعين سلوكها فى المتشابهات . وذلك : أن الله تعالى ذكر عن الراسخين ، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم ، بعد إذ هداهم .

وقد أخبر فى آيات أخر عن الأسباب التى بها تزيغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله [ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ] ، [ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ] .

[ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ] .

فالعبد إذا تولى عن ربه ، ووالى عدوه ، ورأي الحق ، فصدف عنه ، ورأى الباطل ، فاختاره ـ ولاه الله ماتولى لنفسه ، وأزاغ قلبه ، عقوبة له على زيغه .

وما ظلمه الله ، ولكنه ظلم نفسه ، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء . والله أعلم .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

---

* هذا من تتمة كلام الراسخين فى العلم ، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء ، واليقين التام ، وأن الله ، لابد أن يوقع ما وعد به .

وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه ، من العمل والاستعداد لذلك اليوم .

فإن الإيمان بالبعث والجزاء ، أصل صلاح القلوب ، وأصل الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ، اللذين هما أساس الخيرات .

* لما ذكر يوم القيامة ، ذكر أن جميع من كفر بالله ، وكذب رسل الله ، لابد أن يدخلوا النار ويصلوها .

وأن أموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم شيئاً من عذاب الله .

وأنه سيجرى عليهم فى الدنيا من الأخذات والعقوبات ، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله [ أخذهم الله بذنوبهم ] وعجل لهم العقوبات الدنيوية ، متصلة بالعقوبات الأخروية .

[ والله شديد العقاب ] فإياكم أن تستهونوا بعقابه ، فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب .

﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

---

وهذا خبر وبشرى للمؤمنين ، وتخويف للكافرين ، أنهم لابد أن يغلبوا فى هذه الدنيا .

وقد وقع كما أخبر الله ، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير .

وجعل الله تعالى ، ما وقع فى «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله ، وأنه على الحق ، وأعداءه على الباطل ، حيث التقت فئتان .

فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، مع قلة عددهم .

وفئة الكافرين ، يناهزون الألف ، مع استعدادهم التام فى السلاح وغيره .

فأيد الله المؤمنين بنصره ، فهزموهم بإذن الله .

ففى هذا عبرة لأهل البصائر .

فلولا أن هذا هو الحق الذى إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان ـ بحسب الأسباب الحسية ـ الأمر بالعكس .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ
وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾
قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

---

أخبر تعالى ، فى هاتين الآيتين ، عن حالة الناس ، فى إيثار الدنيا على الآخرة ـ وبين التفاوت العظيم ، والفرق الجسيم بين الدارين .

فأخبر أن الناس ، زينت لهم هـذه الأمور ، فرمقوها بالأبصار ، واستحلوها بالقلوب ، وعكفت على لذاتها ، النفوس .

كل طائفة من الناس ، تميل إلى نوع من هذه الأنواع ، قد جعلوها هى ، أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، وهى ـ مع هذا ـ متاع قليل ، منقض فى مدة يسيرة .

فهذا [ متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المـآب ] .

* ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله ، القائمين بعبوديته ، لهم خير من هذه اللذات .

فلهم أصناف الخيرات ، والنعيم المقيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولهم رضوان الله ، الذى هو أكبر من كل شىء .

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

---

ولهم الأزواج المطهرة ، من كل آفة ونقص ، جميلات الأخلاق ، كاملات الخلائق ، لأن النفى يستلزم ضده ،

فتطهيرها عن الآفات ، مستلزم لوصفها بالكمالات .

[ والله بصير بالعباد ] فييسر كلا منهم لما خلق له .

أما أهل السعادة ، فييسرهم للعمل لتلك الدار الباقية ، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته .

وأما أهل الشقاوة والإعراض ، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة ، ويرضون بالحياة الدنيا ، ويطمئنون بها ، ويتخذونها قرارا .

* أى : هؤلاء الراسخون فى العلم ، أهل العلم والإيمان ، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم ، لمغفرة ذنوبهم ، ووقايتهم عذاب النار ، وهذا من الوسائل التى يحبها الله ، أن يتوسل العبد إلى ربه ، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة ، إلى تكميل نعم الله عليه ، بحصول الثواب الكامل ، واندفاع العقاب .

ثم وصفهم بأجمل الصفات : بالصبر الذى هو : حبس النفوس على ما يحبه الله ، طلبا لمرضاته .

يصبرون على طاعة الله ، ويصبرون عن معاصيه ، ويصبرون على أقداره المؤلمة .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

---

وبالصدق بالأقوال والأحوال ، وهو استواء الظاهر والباطن ، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم .

وبالقنوت الذى هو : دوام الطاعة ، مع مصاحبة الخشوع والخضوع .

وبالنفقات فى سبل الخيرات ، وعلى الفقراء ، وأهل الحاجات .

وبالاستغفار ، خصوصاً وقت الأسحار ، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر ، فجلسوا يستغفرون الله تعالى .

* هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ، ومن الملائكة ، وأهل العلم ، على أجل مشهود عليه ، وهو توحيد الله ، وقيامه بالقسط .

وذلك يتضمن الشهادة ، على جميع الشرع ، وجميع أحكام الجزاء .

فإن الشرع والدين ، أصله وقاعدته ، توحيد الله وإفراده بالعبودية ، والاعتراف بانفراده ، بصفات العظمة والكبرياء ، والمجد ، والعز ، والقدرة ، والجلال ، ونعوت الجود ، والبر والرحمة ، والإحسان ، والجمال وبكماله المطلق الذى لايحصى أحد من الخلق ، أن يحيطوا بشىء منه ، أو يبلغوه ، أو يصلوا إلى الثناء عليه ، والعبادات الشرعية ، والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهى ، كله عدل وقسط ، لاظلم فيه ولا جور ، بوجه من الوجوه .

بل هو فى غاية الحكمة والإحكام .

والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة ، كله قسط وعدل .

[ قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله ] .

. . . . . . . . . .

---

فتوحيد الله ، ودينه وجزاؤه ، قد ثبت ثبوتاً لاريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد أقام الله على ذلك من البراهين ، والأدلة ، مالا يمكن إحصاؤه وعده .

وفى هذه الآية : فضيلة العلم والعلماء ، لأن الله خصهم بالذكر ، من دون البشر .

وقرن شهادتهم ، بشهادته وشهادة ملائكته .

وجعل شهادتهم ، من أكبر الأدلة والبراهين ، على توحيده ودينه وجزائه .

وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة .

وفى ضمن ذلك : تعديلهم ، وأن الخلق تبع لهم ، وأنهم ، هم الأئمة المتبوعون .

وفى هذا من الفضل والشرف ، وعلو المكانة ، ما لا يقادر قدره .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

---

يخبر تعالى [ أن الدين عند الله ] أى : الدين الذى لا دين له سواه ، ولا مقبول غيره ، هو [ الإسلام ] وهو : الانقياد لله وحده ، ظاهراً وباطناً ، بما شرعه على ألسنة رسله ، قال تعالى :

[ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ] .

فمن دان بغير دين الإسلام ، فهو لم يدن لله حقيقة ، لأنه لم يسلك الطريق الذى شرعه على ألسنة رسله .

ثم أخبر تعالى ، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وإنما اختلفوا ، فانحرفوا عنه ، عناداً وبغياً .

وإلا فقد جاءهم العلم المقتضى لعدم الاختلاف ، الموجب للزوم الدين الحقيقى .

ثم لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عرفوه حق المعرفة ، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله ، هى التى صدتهم عن اتباع الحق .

[ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ] أى : فلينتظروا ذلك فإنه آت ، وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون .

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

لما بين أن الدين الحقيقى عنده الإسلام ، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبى صلى الله عليه وسلم بالمجادلة ، وقامت عليهم الحجة ، فعاندوها ، أمره الله تعالى عند ذلك ، أن يقول ويعلن ، أنه أسلم وجهه أى : ظاهره وباطنه ، لله ، وأن من اتبعه كذلك ، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص .

وأن يقول للناس كلهم ، من أهل الكتاب ، والأميين أى : الذين ليس لهم كتاب ، من العرب وغيرهم .

إن أسلمتم ، فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق .

وإن توليتم ، فحسابكم على الله ، وأنا ليس علي إلا البلاغ ، وقد أبلغتكم ، وأقمت عليكم الحجة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم

---

أى الذين جمعوا بين هذه الشرور : الكفر بآيات الله وتكذيب رسل الله ، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق ، وهم الرسل وأئمة الهدى ، الذين يأمرون الناس بالقسط ، الذى اتفقت عليه الأديان والعقول :

فهؤلاء قد [ حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ] واستحقوا العذاب الأليم ، وليس لهم ناصر من عذاب الله ، ولا منقذ من عقوبته .

* أى : ألا تنظر وتعجب من هؤلاء [الذين أوتوا نصيباً من الكتاب] و [ يدعون إلى كتاب الله ] الذى يصدق ما أنزله على رسله .

[ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ] عن اتباع الحق .

فكأنه قيل : أى داع دعاهم إلى هذا الإعراض ، وهم أحق بالاتباع ، وأعرفهم بحقيقة ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فذكر لذلك سببين :

أمنهم ، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة .

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

---

وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة ، كأن تدبير الملك راجع إليهم ، حيث قالوا [لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ] .

ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة ، شرعا وعقلا .

والسبب الثانى : أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه ، زين لهم الشيطان سوء عملهم ، واغتروا بذلك ، وتراءى لهم أنه الحق ، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق ، فهؤلاء كيف يكون حالهم [1] ـ إذا جمعهم الله يوم القيامة ، ووفى العاملين ما عملوا ، وجرى عدل الله فى عباده ، فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب ، وما يفوتهم من الخير والثواب ، وذلك بما كسبت أيديهم « وما ربك بظلام للعبيد » .

---

(١) قوله (فهؤلاء يكون حالهم الخ) الاستفهام ـ هنا ـ للتهويل وحذف خبر ( يكون ) ليدل على شدة ما يكونون عليه من الندم ، الذى لا يبلغ الوصف مداه .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ

---

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أصلا ، وغيره تبعاً ـ أن يقول عن ربه ، معلناً بتفرده بتصريف الأمور ، وتدبير العالم العلوى والسفلى ، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق ، والتصريف المحكم ، وأنه يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب ولا غيرهم ، بل الأمر أمر الله ، والتدبير له .

فليس له معارض فى تدبيره ، ولا معاون فى تقديره .

وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس ، فهو المتصرف بنفس الزمان .

وقوله [بيدك الخير] أى : الخير كله منك ، ولا يأتى بالحسنات والخيرات ، إلا الله .

وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى ، لا وصفاً ، ولا اسماً ، ولا فعلا .

ولكنه يدخل فى مفعولاته ، ويندرج فى قضائه وقدره .

فالخير والشر ، كله داخل فى القضاء والقدر ، فلا يقع فى ملكه إلا ما شاءه .

ولكن الشر لا يضاف إلى الله .

فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

---

فلا يقال « بيدك الخير والشر » ، بل يقال « بيدك الخير » كما قاله الله ، وقاله رسوله .

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال « وكذلك الشر بيد الله » فإنه وهم محض .

ملحظهم ، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ، ينافى قضاءه وقدره العام ، وجوابه ما فصلنا .

يولج النهار فى الليل ويولج الليل فى النهار ، أى : يدخل هذا على هذا ، ويحل هذا محل هذا ، ويزيد فى هذا ، ماينقص من هذا ، ليقيم بذلك مصالح خلقه .

ويخرج الحى من الميت ، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها ، والمؤمن من الكافر ، والميت من الحى .

كما يخرج الحبوب والنوى ، والزروع والأشجار ، والبيضة من الطائر .

فهو الذى يخرج المتضادات ، بعضها من بعض ، وقد انقادت له جميع العناصر .

وقوله [ وترزق من تشاء بغير حساب ] قد ذكر الله فى غير هذه الآية ، الأسباب التى ينال بها رزقه كقوله :

[ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ] .

[ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ] .

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق ، إلا من الله ، ويسعوا فيه بالأسباب التى يسرها الله وأباحها .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

هذا نهى من الله ، وتحذير للمؤمنين ، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والله وليهم .

[ ومن يفعل ذلك ] التولى [ فليس من الله فى شىء ] أى : فهو برىء من الله ، والله برىء منه كقوله تعالى [ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ] .

وقوله : [ إلا أن تتقوا منهم تقاة ] أى : إلا أن تخافوا على أنفسكم فى إبداء العداوة للكافرين ، فلكم — فى هذه الحال — الرخصة فى المسالمة والمهادنة ، لا فى التولى الذى هو محبة القلب ، الذى تتبعه النصرة .

[ ويحذركم الله نفسه ] أى : تخافوه واخشوه ، وقدموا خشيته على خشية الناس ، فإنه هو الذي يتولى شئون العباد ، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصيرون إليه .

فيجازى من قدم حقوقه ورجاءه ، على غيره ، بالثواب الجزيل .

ويعاقب الكافرين ، ومن تولاهم ، بالعذاب الوبيل .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ
رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

يخبر تعالى بإحاطة علمه بما فى الصدور ، سواء أخفاه العباد ،أو أبدوه. كما أن علمه محيط بكل شىء ، فى السماء والأرض ، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه ، فهو العظيم القدير على كل شىء ، الذى لا يمتنع عن إرادته موجود .

ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه ، ما يوجب للعباد أن يراقبوه فى كل أحوالهم ، ذكر لهم أيضاً ، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه ، وهو : أنهم كلهم صائرون إليه ، وأعمالهم — حينئذ ، من خير وشر — محضرة.

فحينئذ يغتبط أهل الخير ، بما قدموه لأنفسهم ، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه ، وكادح فى هذه الحياة ، وأنه لا بد أن يلاق ربه ، ويلاق سعيه ، أوجب له أخذ الحذر ، والتوق من الأعمال التى توجب الفضيحة والعقوبة ، والاستعداد بالأعمال الصالحة ، التى توجب السعادة والمثوبة .

ولهذا قال تعالى [ ويحذركم الله نفسه ] وذلك بما يبدى لكم من أوصاف عظمته ، وكمال عدله وشدة نكاله ، ومع شدة عقابه ، فإنه رءوف رحيم .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

ومن رأفته ورحمته ، أنه خوف العباد ، وزجرهم عن الغى والفساد ، كما قال تعالى ـ لما ذكر العقوبات [ ذلك يخوف الله به عباده ، ياعباد فاتقون ]

فرأفته ورحمته ، سهلت لهم الطرق ، التى ينالون بها الخيرات .

ورأفته ورحمته ، حذرتهم من الطرق التى تفضى بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى ، أن يتمم علينا إحسانه، بسلوك الصراط المستقيم ، والسلامة من الطرق ، التى تفضى بسالكها ، إلى الجحيم .

* هذه الآية هى الميزان ، التى يعرف بها من أحب الله حقيقة،ومن ادعى ذلك دعوى مجردة .

فعلامة محبة الله ، اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل متابعته ، وجميع ما يدعو إليه ، طريقاً إلى محبته ورضوانه .

فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه ، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

فمن فعل ذلك ، أحبه الله ، وجازاه جزاء المحبين ، وغفر له ذنوبه ، وستر عليه عيوبه .

فكأنه قيل : ومع ذلك ، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها ؟

فأجاب بقوله . [ قل أطيعوا الله والرسول ] بامتثال الأمر ، واجتناب النهى وتصديق الخبر .

[ فإن تولوا ] عن ذلك ، فهذا هو الكفر والله [ لا يحب الكافرين].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى

---

لله تعالى من عباده أصفياء ، يصطفيهم ويختارهم ، ويمن عليهم بالفضائل العالية ، والنعوت السامية ، والعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والخصائص المتنوعة .

فذكر هذه البيوت الكبار ، وما احتوت عليه من كملة الرجال ، الذين حازوا أوصاف الكمال ، وأن الفضل والخير ، تسلسل فى ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم .

وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه .

[ والله سميع عليم ] يعلم من يستحق الفضل والتفضيل ، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته .

فلما قرر عظمة هذه البيوت ، ذكر قصة مريم وابنها عيسى صلى الله عليه وسلم ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة ، وكيف تنقلت بهما الأحوال ، من ابتداء أمرهما إلى آخره ، وأن امرأة عمران قالت ـ متضرعة إلى ربها ، متقربة إليه بهذه القربة التى يحبها ، التى فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته :

[ إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً ] أى : خادماً لبيت العبادة ، المشحون بالمتعبدين .

وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ

---

[ فتقبل منى ] هذا العمل أى : اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مثمراً للخير والثواب .

[ إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت ربى إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ]

كان فى هذا الكلام ، نوع تضرع منها ، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً ، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ، ما يحصل من أهل القوة ، والأنثى بخلاف ذلك .

فجبر الله قلبها ، وتقبل الله نذرها ، وصارت هذه الأنثى ، أكمل وأتم من كثير من الذكور ، بل من أكثرهم .

وحصل بها من المقاصد ، أعظم مما يحصل بالذكر ، ولهذا قال :

[ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا ] أى : ربيت تربية عجيبة ، دينية ، أخلاقية ، أدبية كملت بها أحوالها ، وصلحت بها أقوالها وأفعالها ، ونما فيها كمالها ، ويسر الله لها زكريا كافلا .

وهذا من منة الله على العبد ، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .

لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

---

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا ، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب ، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ [ كلما دخل عليها زكريا المحراب ] وهو محل العبادة .

وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها [ وجد عندها رزقاً ] هنيئاً معداً .

قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عندالله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ] .

فلما رأى ذكريا هذه الحال ، والبر واللطف من الله بها ، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد ، على حين اليأس منه فقال :

[ رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله ] اسمه أى : الكلمة التى من الله « عيسى بن مريم » :

فكانت بشارته بهذا النبى الكريم ، تتضمن البشارة بـ « عيسى » ابن مريم ، والتصديق له ، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله ، كلمة شريفة ، اختص الله بها عيسى بن مريم .

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّى ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ

---

وإلا ، فهى من جملة كلماته التى أوجد بها المخلوقات ، كما قال تعالى : [ إن مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ]

وقوله [ وسيداً وحصورا ] .

أى : هذا المبشر به وهو يحيى ، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم :

« والحصور » قيل : هو الذى لا يولد له ، ولا شهوة له فى النساء ، وقيل : هو الذى عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة .

وهذا أليق المعنيين :

[ ونبياً من الصالحين ] الذين بلغوا فى الصلاح ذروته العالية .

[ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟! ] .

فهذان مانعان .

فمن أى طريق ـ يارب ـ يحصل لى ذلك ، مع ما ينافى ذلك ؟ ! .

[ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ] فإنه ـ كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة ـ فإنه قد يخرق ذلك ، لأنه الفعال لما يريد ، الذى قد انقادت الأسباب لقدرته ، ونفذت فيها مشيئته وإرادته ، فلا يتعاصى على قدرته ، شىء من الأسباب ، ولو بلغت فى القوة ، ما بلغت .

وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ
وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ
وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

---

[ قال رب اجعل لى آية ] ليحصل السرور والاستبشار .

وإن كنت ـ يارب ـ متيقنا ما أخبرتنى به ، ولـكن النفس تفرح ، ويطمئن القلب ، إلى مقدمات الرحمة واللطف .

[ قال آيتك أن لاتـكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ] .

( و ) فى هذه المدة [ اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار ] أول النهار وآخره .

فمنع من الـكلام فى هذه المدة ، فـكان فى هذا ، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الـكبير ، والمرأة العاقر .

وكونه لايقدر على مخاطبة الآدميين ، ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه ، آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار ، وشكر الله ، وأكثر من الذكر والتسبيح ، بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود ، من بركات مريم بنت عمران ، على زكريا .

فإن ما من الله به عليها ، من ذلك الرزق الهنى ، الذى يحصل بغير حساب ، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال .

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ

---

والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب ، ولكنه يقدر أمورا محبوبة على يد من يحبه ، ليرفع الله قدره ، ويعظم أجره .

ثم عاد تعالى ، إلى ذكر مريم وأنها بلغت فى العبادة والكمال ، مبلغاً عظيما فقال تعالى :

[ وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك ] أى اختارك ، ووهب لك من الصفات الجليلة ، والأخلاق الجميلة .

[ وطهرك ] من الأخلاق الرذيلة [ واصطفاك على نساء العالمين ] .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام .

فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك ، لتغتبط بنعم الله ، وتشكر الله ، وتقوم بحقوقه ، وتشتغل بخدمته ، ولهذا قالت الملائكة .

[ يامريم اقنتى لربك ] أى : أكثرى من الطاعة ، والخضوع والخشوع لربك ، وأديمى ذلك [ واسجدي واركعى مع الراكعين ] أى : صلى مع المصلين .

يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ

---

فقامت بكل ما أمرت به ، وبرزت ، وفاقت فى كمالها .

ولما كانت هذه القصة وغيرها ، من أكبر الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أخبر بها مفصلة محققة ، لا زيادة فيها ولا نقص ، وما ذاك إلا لأنه وحى من الله العزيز الحكيم ، لا بتعلم من الناس — قال تعالى :

[ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ] حيث جاءت بها أمها ، فاختصموا أيهم يكفلها ، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم ، وكلهم يريد الخير والأجر من الله ؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها ، فألقوا أقلامهم مقترعين ، فأصابت القرعة زكريا ، رحمة من الله به وبها .

فأنت — ياأيها الرسول — لم تحضر تلك الحالة لتعرفها ، فتقصها على الناس ، وإنما الله نبأك بها .

وهذا هو المقصود الأعظم ، من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة .

وأعظم العبر ، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة ،والبعث،وغيرها من الأصول الكبار .

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم

---

[ وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ] .

أى : له الوجاهة ، والجاه العظيم فى الدنيا والآخرة عند الخلق .

ومع ذلك فهو ـ عند الله ـ من المقربين ، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله ، وأعلاهم درجة .

وهذه بشارة لا يشبهها شىء من البشارات .

ومن تمام هذه البشارة أنه [ يكلم الناس فى المهد ] فيكون تكليمه آية من آيات الله ، ورحمة منه بأمه وبالخلق ،

( و ) كذلك يكلمهم [ كهلا ] أى فى حال كهولته .

وهذا تكليم النبوة والدعوة ، والإرشاد .

فكلامه فى المهد ، فيه آيات وبراهين ، على صدقه ، ونبوته ، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة .

وكلامه فى كهولته ، فيه نفعه العظيم للخلق ، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم ، فى وحيه ، وتبليغ دينه وشرعه .

. ومع ذلك فهو [ من الصالحين ] الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه ، وألسنتهم ، بالثناء عليه وذكره ، وجوارحهم بطاعته وخدمته .

بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ

---

[ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ] وهذا من الأمور المستغربة [ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ] ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير ، وأنه لا ممانع لإرادته .

[ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب ] .

أى : جنس الكتب السابقة ، والحكم بين الناس ، ويعطيه النبوة .

( و ) يجعله [ رسولا إلى بنى إسرائيل ] ويؤيده بالآيات البينات ، والأدلة القاهرة حيث قال :

[ إنى قد جئتكم بآية من ربكم ] تدلكم أنى رسول الله حقاً .

وذلك [ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه ] وهو ممسوح العينين ، الذى فقد بصره وعيناه [ والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك ] المذكور [ لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما لما بين يدى من التوراة ] فأيده الله بجنسين من الآيات، والبراهين والخوارق المستغربة ، التى لا يمكن لغير الأنبياء ، الإتيان بها ، والرسالة والدعوة ، والدين الذى جاء به ، وأنه دين التوراة ، ودين الأنبياء السابقين ، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين .

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا
ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ
وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ

---

فإنه لو كان من الكاذبين ، لخالف ما جاءت به الرسل ، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم .

فعلم بذلك أنه رسول الله ، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه .

وأيضاً فقوله [ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ] أى : لأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال .

[ فاتقوا الله وأطيعون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ] .

وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل ، عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعتهم .

وهذا هو الصراط المستقيم ، الذى من يسلكه ، أوصله إلى جنات النعيم .

فحينئذ اختلفت أحزاب بنى إسرائيل فى عيسى .

فمنهم من آمن به واتبعه .

ومنهم من كفر به وكذبه ، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود .

[ فلما أحس عيسى منهم الكفر ] والاتفاق على رد دعوته [ قال ] : نادباً لبنى إسرائيل على مؤازرته [ من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون ] .
أى : الأنصار :

[ نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ] وهذا من منة الله

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

---

عليهم ، وعلى عيسى ، حيث ألهم هؤلاء الحواريين ، الإيمان به ، والانقياد لطاعته ، والنصرة لرسوله .

[ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ] وهذا التزام تام للإيمان ، بكل ما أنزل الله ، ولطاعة رسوله .

[ فاكتبنا مع الشاهدين ] لك بالوحدانية ، ولنبيك بالرسالة ، ولدينك بالحق والصدق .

[ ولما أحس عيسى منهم الكفر ] وهم جمهور بنى إسرائيل ، فإنهم [ مكروا ] بعيسى [ ومكر الله ] بهم [ والله خير الماكرين ] .

فاتفقوا على قتله وصلبه ، وشبه لهم عيسى .

فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى [ إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ] .

فرفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وصلبوا من قتلوه ، ظانين أنه عيسى ، وباءوا بالإثم العظيم .

وسينزل عيسى بن مريم ، فى آخر هذه الأمة حكما عدلا ، يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم ، وأنهم مغرورون مخدوعون .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّلِحَتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

وقوله [ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ] المراد بمن اتبعه : الطائفة التى آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا هم أتباعه حقاً ، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم ، وأظهرهم بالدين الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم [ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ] الآية .

ولكن حكمة الله عادلة ، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين ، نصره الله النصر المبين .

وأن من ترك أمره ونهيه ، ونبذ شرعه ، وتجرأ على معاصيه ، أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء ، [ والله عزيز حكيم ] .

وقوله [ ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ] .

ثم بين ما يفعله بهم فقال : [ فأما الذين كفروا ] الآيتين .

* وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف ، من جميع أهل الأديان السابقة .

ثم لما بعث سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ونسخت رسالته ، الرسالات كلها ، ونسخ دينه ، جميع الأديان ، صار المتمسك بغير هذا الدين ، من الهالكين . وقوله تعالى [ ذلك نتلوه عليك ] الآية .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ

---

أى : هذا القرآن العظيم ، الذى فيه نبأ الأولين والآخرين ، والأنبياء والمرسلين ـ هو آيات الله البينات ، وهو الذى يذكر العباد كل مايحتاحونه، وهو الحكيم المحكم ، صادق الأخبار ، حسن الأحكام .

* لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق وأنه عبد أنعم الله عليه ، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية ، فقد كذب على الله ، وكذب جميع أنبيائه ، وكذب عيسى صلى الله عليه وسلم .

فإن الشبهة التى عرضت لمن اتخذه إلها ، شبهة باطلة .

فلو كان لها وجه صحيح ، لكان آدم أحق منه ، فإنه خلق من دون أم ولا أب .

ومع ذلك ، فاتفق البشر كلهم ، على أنه عبد من عباد الله .

فدعوى إلهية عيسى ، بكونه خلق من أم بلا أب ، دعوى من أبطل الدعاوى .

وهذا هو الحق الذى لاريب فيه ، أن عيسى ـ كما قال عن نفسه :

[ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ] .

تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ
ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

---

وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وقد تصلبوا على باطلهم ، بعد ما أقام عليهم النبي صلى الله عليه وسلم البراهين ، بأن عيسى عبد الله ورسوله ، حيث زعموا إلهيته .

فوصلت به وبهم الحال ، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم .

فإنه قد اتضح لهم الحق ، ولـكن العناد والتعصب منعاهم منه .

فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه ، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ، ثم يدعون الله تعالى ، أن ينزل عقوبته ولعنته ، على الـكاذبين . فتشاوروا ، هل يجيبونه إلى ذلك ؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه ، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً .

وأنهم — إن باهلوه — هلـكوا ، هم وأولادهم وأهلوهم .

فصالحوه ، وبذلوا له الجزية ، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة .

فأجابهم صلى الله عليه وسلم ولم يحرجهم ، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق .

وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة ، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين .

* فإن أعرضوا عن الحق بعد ما تبين لهم ، ولم يرجعوا عن ضلالاتهم ، فهم المفسدون ، والله عليم بهم .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

ولهذا قال تعالى [ إن هذا لهو القصص الحق ] أى : الذى لاريب فيه [ وإن الله لهو العزيز ] الذى قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات ، وأذعنت له سكان الأرض والسماوات .

ومع ذلك فهو [ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

* هذه الآية الكريمة ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب .

وكان يقرأ أحياناً فى الركعة الأولى من سنة الفجر [قولوا آمنا بالله] الآية .

ويقرأ بها فى الركعة الآخرة من سنة الصبح ، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد ، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون ، واحتوت على توحيد الإلهية ، المبنى على عبادة الله وحده ، لاشريك له ، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم فى طور البشرية ، لايستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية ، ولا من نعوت الإلهية .

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا ، فقد اهتدوا .

و [ إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ] كقوله تعالى [ قل يا أيها الكافرون ] إلى آخرها .

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ
ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ
هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ
وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

كانت الأديان كلها ، اليهود والنصارى ، والمشركون ، وكذلك المسلمون كلهم ، يدعون أنهم على ملة إبراهيم .

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به ، محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، وأتباع الخليل ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما اليهود والنصارى ، والمشركون ، فإبراهيم برىء منهم ، ومن ولايتهم ، لأن دينه ، الحنيفية السمحة ، التى فيها الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب ، وهذه خصيصة المسلمين .

وأما دعوى اليهود والنصارى ، أنهم على ملة إبراهيم ، فقد علم أن اليهودية والنصرانية ، التى هم يدعون أنهم عليها ، لم تؤسس إلا بعد الخليل .

فكيف يحاجون فى هذا الأمر ، الذى يعلم به كذبهم وافتراؤهم ؟!

﴿ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم ، فكيف يحاجون فى هذه الحالة ؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان ، يعلم فساد دعواهم .

وفى هذه الآية دليل على أنه لايحل للإنسان ان يقول أو يجادل فيما لا علم له به .

وقوله [ والله ولى المؤمنين] فكلما قوى إيمان العبد، تولاه الله بلطفه ، وييسره لليسرى ، وجنبه العسرى .

* هذا من منة الله على هذه الأمة ، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب ، وأنهم ـ من حرصهم على إضلال المؤمنين ـ ينوعون المكرات الخبيثة .

فقالت طائفة منهم [ آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ] أى : أوله ، وارجعوا عن دينهم آخر النهار ، فإنهم — إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم — استرابوا بدينهم .

وقالوا : لولا أنهم رأوا فيه مالا يعجبهم ، ولايوافق الكتب السابقة ، لم يرجعوا .

ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن
يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ
بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

---

هذا مكرهم ، والله تعالى هو الذى يهدى من يشـــاء ، وهو الذى بيده الفضل ، يختص به من يشاء .

نخصكم — ياهذه الأمة — بما لم يخص به غيركم .

ولم يدر هؤلاء الماكرون ، أن دين الله حق ، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب ، لم يزدد صاحبه ـ على طول المدى ـ إلا إيمانا ويقينا .

ولم تزده الشبه ، إلا تمسكا بدينه ، وحمداً لله ، وثناء عليه حيث من به عليه .

وقولهم [ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ] .

يعنى : أن الذى حملهم على هذه الأعمال المنكرة ، الحسد والبغى ، وخشية الاحتجاج عليهم .

كما قال تعالى [ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ] الآية .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، أن منهم طائفة أمناء ، بحيث لو أمنته على قناطير من النقود ، وهى المال الكثير ، يؤده إليك ، ومنهم طائفة خونة ، يخونك فى أقل القليل .

ومع هذه الخيانة الشنيعة ، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون : [ ليس علينا فى الأميين سبيل ] أى : ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم ، لأنهم لا حرمة لهم .

قال تعالى : [ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ] أن عليهم أشد الحرج .

فجمعوا بين الخيانة ، وبين احتقار العرب ، وبين الكذب على الله ، وهم يعلمون ذلك ، ليسوا كمن فعل ذلك جهلا وضلالا .

ثم قال تعالى : [ بلى ] أى ليس الأمر كما قالوا .

فإنه [من أوفى بعهده واتقى] أى : قام بحقوق الله وحقوق خلقه ، فإن هذا هو المتقى ، والله يحبه .

أى : ومن كان بخلاف ذلك ، فلم يف بعهده وعقوده ، التى بينه وبين الخلق ، ولا قام بتقوى الله ، فإن الله يمقته . وسيجازيه على ذلك أعظم النكال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

أى : إن الذين يشترون الدنيا بالدين ، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة ، والعهود المنكوثة ، فهؤلاء [ لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ] أى : قد حق عليهم سخط الله ، ووجب عليهم عقابه ، وحرموا ثوابه ، ومنعوا من التزكية ، وهى : التطهير .

بل يردون القيامة ، وهم متلوثون بالجرائم ، متدنسون بالذنوب العظائم .

* أى : وإن من أهل الكتاب فريقاً ، هم محرفون لكتاب الله .

[ يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ] وهذا يشمل التحريف اللفظى ، والتحريف المعنوى ، .

ثم هم — مع هذا التحريف الشنيع — يوهمون أنه من الكتاب ، وهم كذبة فى ذلك ، ويصرحون بالكذب على الله ، وهم يعلمون حالهم ، وسوء مغبتهم .

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟
رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم
بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

---

أى : يمتنع ويستحيل كل الاستحالة ، لبشر من الله عليه بالوحى والكتاب ، والنبوة ، وأعطاه الحكم الشرعى — أن يأمر الناس بعبادته ، وبعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابا ، لأن هذا هو الكفر ، فكيف ، وقد بعث بالإسلام المنافى للكفر من كل وجه ، فكيف يأمر بضده ؟!!

هذا من الممتنع ، لأن حاله وما هو عليه ، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص — تقتضى العبودية الكاملة ، والخضوع التام لله الواحد القهار .

وهذا جواب لوفد نجران ، حين تمادى بهم الغرور ، ووصلت بهم الحال والكبر ، أن قالوا : أتأمرنا — يا محمد — أن نعبدك ؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته .

فبين البارى ، انتفاء ما قالوا ، وأن كلامهم وكلام أمثالهم ، فى هذا ، ظاهر البطلان .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

---

هذا إخبار منه تعالى ، أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم ، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم ، من الكتاب والحكمة ، المقتضى للقيام التام ، بحق الله وتوفيته .

أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم ، بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط ، والأصول التى اتفقت عليها الشرائع ، أنهم يؤمنون به وينصرونه .

فأقروا على ذلك ، واعترفوا ، والتزموا ، وأشهدهم ، وشهد عليهم ، وتوعد من خالف هذا الميثاق .

وهذا أمر عام بين الأنبياء ، أن جميعهم طريقهم واحد ، وأن دعوة كل واحد منهم ، قد اتفقوا وتعاقدوا عليها .

وعموم ذلك ، أنه أخذ على جميعهم الميثاق ، بالإيمان ، والنصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

فمن ادعى أنه من أتباعهم ، فهذا دينهم الذى أخذه الله عليهم ، وأقروا به واعترفوا .

فمن تولى عن اتباع محمد ، ممن يزعم أنه من أتباعهم ، فإنه فاسق خارج

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ
وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا
فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

---

عن طاعة الله ، مكذب للرسول الذى يزعم أنه من أتباعه ، مخالف لطريقه .

وفى هذا إقامة الحجة والبرهان ، على كل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتب والأديان .

وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم ، الذين يزعمون أنهم أتباعهم ، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ، صلى الله عليه وسلم .

* قد تقدم فى سورة البقرة أن هذه الأصول التى هى أصول الإيمان التى أمر الله بها هذه الأمة ، قد اتفقت عليها الكتب والرسل .

وأنها هى الغرض الموجه لكل أحد ، وأنها هى الدين والإسلام الحقيقى .

وأن من ابتغى غيرها ، فعمله مردود ، وليس له دين يعول عليه .

فمن زهد عنه ، ورغب عنه ، فأين يذهب ؟ .

إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران ؟ .

أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان ؟ .

أو إلى التعطيل لرب العالمين ؟ .

أو إلى الأديان الباطلة ، التى هى من وحى الشياطين ؟

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ

---

وهؤلاء كلهم - فى الآخرة - من الخاسرين .

* يعنى : أنه يبعد كل البعد ، أن يهدى الله قوماً عرفوا الإيمان ، ودخلوا فيه ، وشهدوا أن الرسول حق،ثم ارتدوا على أعقابهم ، ناكصين ناكثين .

لأنهم عرفوا الحق فرفضوه .

ولأن من هذه الحالة وصفه ، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له ، إذ عرف الحق فتركه ، والباطل فآثره ، فولاه الله ما تولى لنفسه .

فهؤلاء [ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ] خالدين فى اللعنة والعذاب .

[ لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ] إذا جاءهم أمر الله لأن الله ، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءهم النذير .

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد ، التائبين من كفرهم وذنوبهم ، المصلحين لعيوبهم ، فإن الله يغفر لهم ما قدموه ، ويعفو عنهم ما أسلفوه .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ
كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ
مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

---

ولكن من كفر وأصر على كفره ، ولم يزدد إلا كفرا حتى مات على كفره .

فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى ، السالكون لطريق الشقاء .

وقد استحقوا بهذا ، العذاب الأليم ، فليس لهم ناصر من عذاب الله .

ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به ، لم ينفعهم شيئاً .

فعياذا بالله ، من الكفر وفروعه .

* يعني : لن تنالوا وتدركوا البر، الذى هو : اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة حتى تنفقوا مما تحبون ، من أطيب أموالكم وأزكاها .

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس ، من أكبر الأدلة على سماحة النفس ، واتصافها بمكارم الأخلاق ، ورحمتها ، ورقتها .

. . . . . . . . . . .

---

ومن أول الدلائل على محبة الله ، وتقديم محبته على محبة الأموال ، التى جبلت النفوس على قوة التعلق بها .

فمن آثر محبة الله على محبة نفسه ، فقد بلغ الذروة العليا من الـكمال .

وكذلك من أنفق الطيبات ، وأحسن إلى عباد الله ، أحسن الله إليه ووفقه أعمالا وأخلاقا ، لا تحصل بدون هذه الحالة .

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه ، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، من طريق الأولى والأحرى .

ومع أن النفقة من الطيبات ، هى أكمل الحالات .

فمهما أنفق العبد ، من نفقة قليلة أو كثيرة ، من طيب أو غيره ، فإن الله به عليم .

وسيجزى كل منفق ، بحسب عمله ، سيجزيه فى الدنيا بالخلف العاجل ، وفى الآخرة بالنعيم الآجل .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

---

من جملة الأمور التى قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، أنهم زعموا أن النسخ باطل وأنه لايمكن أن يأتى نبى يخالف النبى الذى قبله .

فكذبهم الله بأمر يعرفونه ، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالا لبنى إسرائيل،إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل وهو : يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه .

ثم إن التوراة ، فيها من التحريمات التى نسخت ، ما كان حلالا قبل ذلك ، شيء كثير .

قل لهم - إن أنكروا ذلك — [ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ] بزعمكم أنه لانسخ ولاتحليل ولاتحريم .

وهذا من أبلغ الحجج ، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره .

فإن انقاد للحق ، فهو الواجب .

وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان ، تبين كذبه وافتراؤه ، وظلمه وبطلان ما هو عليه ، وهو الواقع من اليهود .

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : قل صدق الله فى كل ما قاله ، ومن أصدق من الله قيلا وحديثاً .

وقد بين فى هذه الآيات ، من الأدلة على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبراهين دعوته ، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب ، الذين كذبوا رسوله ، وردوا دعوته .

فقد صدق الله فى ذلك ، وأقنع عباده على ذلك ، ببراهين وحجج ، تتصدع لها الجبال ، وتخضع لها الرجال .

فتعين عند ذلك على الناس كلهم ، اتباع ملة إبراهيم ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وتصديق كل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله .

والإعراض[1] عن الأديان الباطلة المنحرفة .

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد ، متبرئا من الشرك وأهله .

---

(١) قوله ( الإعراض ) معطوف على قول المتقدم ( اتباع ) .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

---

يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين — شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج.

ومن بعده، تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الحرم الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً وديناً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها — أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلا، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده.

ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكن تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها.

فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين.

ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين.

ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ

---

* لما أقام فيما تقدم ، الحجج على أهل الكتاب — فهم أنهم قبل ذلك ، يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم — وبخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله ، وصدهم الخلق عن سبيل الله ، لأن عوامهم تبع لعلمائهم . والله تعالى ، يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

* لما أقام الحجج على أهل الكتاب ، ووبخهم بكفرهم وعنادهم .
حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم ، وبين لهم أن هذا الفريق منهم ، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان .

ولكن — ولله الحمد — أنتم — يا معشر المؤمنين — بعد ما من الله عليكم بالدين ، ورأيتم آياته ومحاسنه ، ومناقبه وفضائله ، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم ، واعتصمتم بالله وبحبله ، الذي هو دينه — يستحيل أن يردوكم عن دينكم ، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس ، المشرقة الأنوار ، تنجذب إليه الأفئدة ، ويأخذ بمجامع القلوب ، ويوصل العباد إلى أجل غاية ، وأفضل مطلوب .

تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن
يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

---

[ ومن يعتصم بالله ] أى : يتوكل عليه ، ويحتمى بحماه .

[ فقد هدى إلى صراط مستقيم ] وهـذا فيه الحث على الاعتصام به ، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية .

* [هذه الآيات ، فيها حث الله عباده المؤمنين ، أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة ، بأن يتقوه حق تقواه ، وأن يقوموا بطاعته ، وترك معصيته ، مخلصين له بذلك .

وأن يقيموا دينهم ، ويستمسكوا بحبله الذى أوصله إليهم ، وجعله السبب بينهم وبينه ، وهو دينه وكتابه ، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق.

وأن يستديموا ذلك إلى الممات .

وذكرهم ماهم عليه قبل هذه النعمة ، وهو : أنهم كانوا أعداء متفرقين.

فجمعهم بهذا الدين ، وألف بين قلوبهم ، وجعلهم إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فأنقذهم من الشقاء .

ونهج بهم طريق السعادة .

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم
مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾
وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

---

[ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ] إلى شكر الله والتمسك بحبله .

وأمرهم بتتميم هذه الحالة ، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم ، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية .

[ يدعون إلى الخير ] وهو الدين ، أصوله ، وفروعه ، وشرائعه .

[ ويأمرون بالمعروف ] وهو ما عرف حسنه شرعا وعقلا .

[ وينهون عن المنكر ] وهو ما عرف قبحه ، شرعا وعقلا .

[ أولئك هم المفلحون ] المدركون لكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

ويدخل في هذه الطائفة ، أهل العلم والتعليم ، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس ، عموما وخصوصاً ، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات ، وإيتاء الزكاة ، والقيام بشرائع الدين ، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم ، أو على وجه الخصوص ، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة ، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين ، الذين جاءهم الدين والبينات ، الموجب لقيامهم به ، واجتماعهم ، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً .

ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال ، وإنما صدر عن علم وقصد سيء ، وبغى من بعضهم على بعض . ولهذا قال [ وأولئك لهم عذاب عظيم ] .

ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ، ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال :

[ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ] الآيتين .

يخبر تعالى ، بتفاوت الخلق يوم القيامة ، فى السعادة والشقاوة .

وأنه تبيض وجوه أهل السعادة ، الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

وأن الله تعالى ، يدخلهم الجنات ، ويفيض عليهم أنواع الكرامات ، وهم فيها خالدون .

وتسود وجوه أهل الشقاوة ، الذين كذبوا رسله ، وعصوا أمره ، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال لهم [ أكفرتم بعد إيمانكم ] فكيف اخترتم الكفر على الإيمان ؟! .

[ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

---

يثنى تعالى ، على ما قصه على نبيه من آياته ، التى حصل بها الفرقان بين الحق والباطل ، وبين أولياء الله وأعدائه ، وما أعده لهؤلاء من الثواب ، وللآخرين من العقاب .

وأن ذلك مقتضى فضله وعدله ، وحكمته .

وأنه لم يظلم عباده ، ولم ينقصهم من أعمالهم ، أو يعذب أحداً بغير ذنبه ، أو يحمل عليه وزر غيره .

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال :

[ولله ما فى السموات ومافى الأرض وإلى الله ترجع الأمور ] فيجازى المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم .

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ليبين لعباده أنه الحاكم المطلق ، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية ، والأحكام الجزائية .

فهو الحاكم بين عباده ، فى الدنيا والآخرة .

ومن سواه من المخلوقات ، محكوم عليها ليس لها من الأمر شىء .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾
لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

---

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب ، التى تميزوا بهذا وفاقوا بها سائر الأمم ، وأنهم خير الناس للناس ، نصحاً ، ومحبة للخير ، ودعوة ، وتعليما ، وإرشاداً ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، وجمعاً بين تكميل الخلق ، والسعى فى منافعهم ، بحسب الإمكان ، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله ، والقيام بحقوق الإيمان .

وأن أهل الكتاب ، لو آمنوا بمثل ما آمنتم به ، لاهتدوا وكان خيراً لهم .

ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل .

وأما الكثير ، فهم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، محاربون للمؤمنين ، ساعون فى إضرارهم بكل مقدورهم .

ومع ذلك ، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان .

وإلا ، فلو قاتلوهم ، لولوا الأدبار ، ثم لا ينصرون .

وقد وقع ما أخبر الله به .

فإنهم لما قاتلوا المسلمين ، ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة ، فهم خائفون أينما ثقفوا .

ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة ، وسبب يأمنون به ، يرضخون لأحكام الإسلام ، ويعترفون بالجزية .

أو [ بحبل من الناس ] أى : إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم ، كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً .

فإنهم لم يتمكنوا فى الوقت الأخير من الملك المؤقت فى فلسطين ، إلا بنصر الدول الكبرى ، وتمهيدها لهم كل سبب .

[ وباءوا بغضب من الله ] أى : قد غضب الله عليهم ، وعاقبهم بالذلة والمسكنة .

والسبب فى ذلك ، كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق .

أى : ليس ذلك عن جهل ، وإنما هو بغى وعناد .

تلك العقوبات المتنوعة عليهم [ بما عصوا وكانوا يعتدون ] .

فالله تعالى ، لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب .

وإنما الذى أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، وكفرهم وتكذيبهم للرسل ، وجناياتهم الفظيعة .

﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

---

لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب ، بين حالة المستقيمين منهم ، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه .

[ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ] وهو الخير كله ، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر .

كما قال تعالى [ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ] .

و [ يسارعون فى الخيرات ] والمسارعة إلى الخيرات ، قدر زائد على مجرد فعلها .

فهو وصف لهم بفعل الخيرات ، والمبادرة إليها ، وتكميلها بكل ماتم به من واجب ومستحب .

ثم بين تعالى أن كل مافعلوه ، من خير ، قليل أو كثير ، فإن الله سيقبله ، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص .

[ فلن يكفروه ] يعنى : لن ينكر ماعملوه ، ولن يهدر .

[ والله عليم بالمتقين ] وهم الذين قاموا بالخيرات ، وتركوا المحرمات ، لقصد رضا الله ، وطلب ثوابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ
مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

---

بين تعالى : أن الكفار ، والذين كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ، ولا ينفعهم نافع ، ولا يشفع لهم عند الله شافع .

وأن أموالهم وأولادهم ، التى كانوا يعدونها للشدائد والمكاره ، لا تفيدهم شيئاً .

وأن نفقاتهم التى أنفقوها فى الدنيا ، لنصر باطلهم ، ستضمحل .

وأن مثلها [ كمثل ] حرث أصابته [ ريح ] شديدة [ فيها صر ] أى : برد شديد ، أو نار محرقة ، فأهلكت ذلك الحرث ، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب ، وإنما ظلموا أنفسهم .

وهذه كقوله تعالى [ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ

---

هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار ، واتخاذهم بطانة ، أو خصيصة وأصدقاء ، يسرون إليهم ، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين .

فوضح لعباده المؤمنين ، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالا .

أى : هم حريصون غير مقصرين ، فى إيصال الضرر بكم ، وقد بدت البغضاء من كلامهم ، وفلتات ألسنتهم ، وما تخفيه صدورهم ، من البغضاء والعداوة ، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم .

فإن كانت لكم ، فهوم وعقول ، فقد وضح الله لكم أمرهم .

وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة ، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم فى الدين وفى مقابلة إحسانكم ؟ .

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل ، تؤمنون بكل رسول أرسله الله ، وبكل كتاب أنزله الله .

وهم يكفرون بأجل الكتب ، وأشرف الرسل ، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه .

ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

---

فكيف تحبونهم ، وهم لا يحبونكم ، وهم يداهنونكم وينافقونكم .

فإذا لقوكم ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا مع بنى جنسهم ، عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم .

قال تعالى [ قل موتوا بغيظكم ] أى : سترون من عز الإسلام وذل الكفر ، ما يسوءكم ، وتموتون بغيظكم ، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون.

[ إن الله عليم بذات الصدور ] فلذلك بين لعباده المؤمنين ، ما تنطوى عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين .

[ إن تمسسكم حسنة ] عز ونصر وعافية وخير [ تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة ] من إدالة العدو ، أو حصول بعض المصائب الدنيوية [ يفرحوا بها].

وهذا وصف العدو الشديدة عداوته .

لما بين تعالى شدة عداوتهم ، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة ، أمر عباده المؤمنين بالصبر ، ولزوم التقوى .

وأنهم إذا قاموا بذلك ، فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً ، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم ، التى يكيدونكم فيها .

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى ، أنهم لا يضرونكم شيئاً ، فلا تشكوا فى حصول ذلك .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ
وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ
بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ

---

[ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ] إلى آخر القصة .

وذلك يوم « أحد » حين خرج صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ، حين وصل المشركون — بجمعهم — إلى قريب من « أحد » .

فنزلهم صلى الله عليه وسلم منازلهم ، ورتبهم فى مقاعدهم ، ونظمهم تنظيما عجيباً ، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة فى فنون السياسة والحرب ، كما كان كاملا فى كل المقامات .

[ والله سميع عليم ] لا يخفى عليه شىء من أموركم .

[ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ] وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة .

لكن تولاهما البارى بلطفه ورعايته ، وتوفيقه .

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] فإنهم إذا توكلوا عليه ، كفاهم وأعانهم ، وعصمهم من وقوع ما يضرهم ، فى دينهم ودنياهم .

وفى هذه الآية ونحوها ، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله .

والتوكل . هو : اعتماد العبد على ربه ، فى حصول منافعه، ودفع مضاره .

فلما ذكر حالهم فى « أحد » وما جرى عليهم من المصيبة ، أدخل فيها

الْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن
فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم
بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

---

تذكيرهم بنصره ، ونعمته عليهم ، يوم « بدر » ليكونوا شاكرين لربهم ، وليخفف هذا هذا فقال :

[ وإذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ] فى عددكم وعددكم، فكانوا ثلثمائة ، وبضعة عشر ، فى قلة ظهر ، ورثاثة سلاح .

وأعداؤهم ، يناهزون الألف ، فى كمال العدة والسلاح .

[ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ] الذى أنعم عليكم بنصره .

[ إذ تقول ] مبشراً [ للمؤمنين ] مثبتاً لجنانهم :

[ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ] أى : من حملتهم هذه بهذا الوجه .

[ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ] أى : معلمين علامة الشجعان .

واختلف الناس ، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة ، مباشرة للقتال ، كما قاله بعضهم ، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين ، وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ، كما قاله كثير من المفسرين .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

---

ويدل عليه قوله [ وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عندالله العزيز الحكيم ] ، وفى هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد ، بل يعتمد على الله .

وإنما الأسباب وتوفرها ، فيها طمأنينة للقلوب ، وثبات كل على الخير.

[ ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ]

أى: نصرالله لعباده المؤمنين ، لايعدو أن يكون قطعا لطرف من الكفار .

أو ينقلبوا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، كما أرجعهم يوم الخندق ، بعد ما كانوا قد أتوا على حرد قادرين ، أرجعهم الله بغيظهم خائبين :

* لما أصيب صلى الله عليه وسلم يوم «أحد» وكسرت رباعيته ، وشج فى رأسه ، جعل يقول :

كيف يفلح قوم ، شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وبين أن الأمر كله لله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس له من الأمر شيء ، لأنه عبد من عبيد الله ، والجميع تحت عبودية ربهم ، مدبرون لا مدبرون .

وهؤلاء الذين دعوت عليهم ، أيها الرسول ، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم ، إن شاء الله تاب عليهم ، ووفقهم للدخول فى الإسلام ، وقد فعل ، فإن أكثر أولئك ، هداهم الله فأسلموا .

وإن شاء الله عذبهم ، فإنهم ظالمون ، مستحقون لعقوبات الله وعذابه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

---

يخبر تعالى ، أنه هو المتصرف فى العالم العلوى والسفلى ، وأنه يتوب على من يشاء ، فيغفر له ، ويخذل من يشاء ، فيعذبه .

[ والله غفور رحيم ] فمن صفته اللازمة ، كمال المغفرة والرحمة ، ووجود مقتضياتهما فى الخلق والأمر ، يغفر للتائبين ، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة .

قال تعالى [ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ] .

* تقدم فى مقدمة هذا التفسير ، أن العبد ينبغى له مراعاة الأوامر والنواهى ، فى نفسه وفى غيره .

وأن الله تعالى إذا أمره بأمر ، وجب عليه ـ أولا ـ أن يعرف حده ، وما هو الذى أمر به ، ليتمكن بذلك من امتثاله .

فإذا عرف ذلك ، اجتهد ، واستعان بالله على امتثاله ، فى نفسه وفى غيره ، بحسب قدرته وإمكانه .

وكذلك إذا نهى عن أمر ، عرف حده ، وما يدخل فيه ، ومالا يدخل ، ثم اجتهد واستعان بربه فى تركه .

تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ
وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

---

وأن هذا ينبغى مراعاته ، فى جميع الأوامر الإلهية والنواهى .

[وهذه الآيات الكريمات ، وقد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير ، أمر الله بها ، وحث على فعلها ، وأخبر عن جزاء أهلها . وعلى نواهى ، حث على تركها .

ولعل الحكمة ـ والله أعلم ـ فى إدخال هذه الآيات، أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى ، وعد عباده المؤمنين ، أنهم ـ إذا صبروا ، واتقوا ـ نصرهم على أعدائهم ، وخذل الأعداء عنهم كما فى قوله تعالى :

[ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ] ثم قال :

[ وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم ] الآيات .

فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى ، التى يحصل بها النصر والفلاح ، والسعادة ، فذكر الله فى هذه الآيات ، أهم خصال التقوى التى إذا قام العبد بها ، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحري .

ويدل على ما قلنا ، أن الله ذكر لفظ « التقوى » فى هذه الآيات ، ثلاث مرات .

مرة مطلقة وهى قوله [ أعدت للمتقين ] .

ومرتين مقيدتين فقال [ واتقوا الله ، واتقوا النار ] .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ
يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ

---

فقوله تعالى [ياأيها الذين آمنوا ] كل ما فى القرآن من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، يدل على أن الإيمان ، هو السبب الداعى والموجب لامتثال ذلك الأمر ، واجتناب ذلك النهى .

لأن الإيمان هو : التصديق الكامل ، بما يجب التصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح .

فنهاهم عن أكل الربا ، أضعافا مضاعفة ، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ، ومن لا يبالى بالأوامر الشرعية .

من أنه إذا حل الدين على المعسر ، ولم يحصل منه شيء ، قالوا له :

إما أن تقضى ماعليك من الدين ، وإما أن نزيد فى المدة ، ونزيد مافى ذمتك .

فيضطر الفقير ، ويستدفع غريمه ، ويلتزم ذلك ، اغتناما لراحته الحاضرة .

فيزداد ـ بذلك ـ مافى ذمته أضعافا مضاعفة ، من غير نفع وانتفاع .

ففى قوله [ أضعافا مضاعفة ] تنبيه على شدة شناعته بكثرته ، وتنبيه لحكمة تحريمه .

وأن تحريم الربا ، حكمته : أن الله منع منه ، لما فيه من الظلم .

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

---

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر ، وبقاء ما فى ذمته من غير زيادة .

فإلزامه بما فوق ذلك ، ظلم متضاعف .

فيتعين على المؤمن المتقى ، تركه ، وعدم قربانه ، لأن تركه ، من موجبات التقوى .

والفلاح ، متوقف على التقوى ، فلهذا قال : [ واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ] بترك ما يوجب دخولها ، من الكفر ، والمعاصى ، على اختلاف درجاتها .

فإن المعاصى كلها ـ وخصوصاً المعاصى الكبار ـ تجر إلى الكفر ، بل هى من خصال الكفر ، الذى أعد الله النار لأهله .

فترك المعاصى ، ينجى من النار ، ويقى من سخط الجبار .

وأفعال الخير والطاعة ، توجب رضا الرحمن ، ودخول الجنان ، وحصول الرحمة ولهذا قال :

[ وأطيعوا الله والرسول ] بفعل الأوامر وامتثالها، واجتناب النواهى [ لعلكم ترحمون ] .

فطاعة الله وطاعة رسوله ، من أسباب حصول الرحمة ، كما قال تعالى :

[ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ] الآيات .

. . . . . . . . . . .

ثم أمرهم تعالى ، بالمسارعة إلى مغفرته ، وإدراك جنته ، التى عرضها السموات والأرض ، فكيف بطولها التى أعدها الله للمتقين ، فهم أهلها وأعمال التقوى هى الموصلة إليها .

ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال : [ الذين ينفقون فى السراء والضراء ] أى : فى عسرهم ويسرهم .

إن أيسروا ، أكثروا من النفقة .

وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ، ولو قل.

[ والكاظمين الغيظ ] أى : إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم – وهو امتلاء قلوبهم من الحنق ، الموجب للانتقام بالقول والفعل – هؤلاء لايعملون بمقتضى الطباع البشرية ، بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ ، ويصبرون عن مقابلة المسىء إليهم .

[ والعافين عن الناس ] يدخل فى العفو عن الناس ، العفو عن كل من أساء إليك بقول ، أو فعل .

والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذة ، مع السماحة عن المسىء .

وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة وممن تاجر مع الله ، وعفا عن عباد الله ، رحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ، ويكون أجره على ربه الكريم ، لا على العبد الفقير ، كما قال تعالى [فمن عفا وأصلح فأجره على الله] .

ثم ذكر حالة أعم من غيرها ، وأحسن ، وأعلى ، وأجل ، وهى الإحسان .

. . . . . . . . . . .

فقال تعالى : [ والله يحب المحسنين ] والإحسان نوعان .

الإحسان فى عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان فى عبادة الخالق ، فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «أن تعبدالله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وأما الإحسان إلى المخلوق ، فهو إيصال النفع الدينىوالدنيوى إليهم ، ودفع الشر الدينى والدنيوى عنهم .

فيدخل فى ذلك ، أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليم جاهلهم ، ووعظ غافلهم ، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم ، والسعى فى جمع كلمتهم .

وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم ، على اختلاف أحوالهم ، وتباين أوصافهم .

فيدخل فى ذلك ، بذل الندى ، وكف الأذى ، واحتمال الأذى ، كما وصف الله به المتقين فى هذه الآيات .

فمن قام بهذه الأمور ، فقد قام بحق الله وحق عبيده .

ثم ذكر اعتذارهم لربهم ، من جناياتهم وذنوبهم فقال :

[ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ] أى : صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك ، بادروا إلى التوبة والاستغفار ، وذكروا ربهم ، وما توعد به العاصين ، ووعد به المتقين .

فسألوه المغفرة لذنوبهم ، والستر لعيوبهم ، مع إقلاعهم عنها ، وندمهم عليها .

. . . . . . . . . . .

فلهذا قال [ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ] .

[ أولئك ] الموصوفون بتلك الصفات [ جزاؤهم مغفرة من ربهم ] تزيل عنهم كل محذور .

[ وجنات تجري من تحتها الأنهار ] فيها من النعيم المقيم ، والبهجة والحبور والبهاء ، والخير والسرور ، والتصور ، والمنازل الأنيقة العاليات ، والأشجار المثمرة البهية ، والأنهار الجاريات فى تلك المساكن الطيبات .

[ خالدين فيها ] لا يحولون عنها ، ولا يبغون بها بدلا ، ولا يغير ما هم فيه من النعيم .

[ ونعم أجر العاملين ] عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ « عند الصباح يحمد القوم السرى » وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفرا .

وهذه الآيات الكريمات ، من أدلة أهل السنة والجماعة ، على أن الأعمال تدخل فى الإيمان ، خلافا للمرجئة .

وجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية ، التى فى سورة الحديد ، نظير هذه الآيات وهى قوله :

[ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ] فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله ، وهناك قال [ أعدت للمتقين ] .

ثم وصف المتقين ، بهذه الأعمال المالية والبدنية .

فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات ، هم أولئك المؤمنون . ثم قال تعالى : [ قد خلت من قبلكم سنن ] الآيات .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

---

وهذه الآيات الكريمات ، وما بعدها فى قصة « أحد » يعزى تعالى ، عباده المؤمنين ويسليهم ، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم ، امتحنوا ، وابتلى المؤمنون منهم بقتال الكافرين ، فلم يزالوا فى مداولة ومجاولة ، حتى جعل الله العاقبة للمتقين ، والنصر لعباده المؤمنين .

وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين ، وخذلهم الله بنصر رسله ، وأتباعهم .

[ فسيروا فى الأرض ] بأبدانكم وقلوبكم [ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ] فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين ، بأنواع العقوبات الدنيوية .

قد خوت ديارهم ، وتبين لكل أحد خسارهم ، وذهب عزهم وملكهم ، وزال بذخهم وفخرهم .

أفليس فى هذا ، أعظم دليل ، وأكبر شاهد ، على صدق ما جاءت به الرسل ؟ !!

وحكمة الله التى يمتحن بها عباده ، ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم.

ولهذا قال تعالى : [ هذا بيان للناس ] أى : دلالة ظاهرة ، تبين للناس الحق من الباطل ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين .

[ وهدى وموعظة للمتقين ] لأنهم هم المنتفعون بالآيات .

فتهديهم إلى سبيل الرشاد ، وتعظهم وتزجرهم ، عن طريق الغى .

وأما باقى الناس ، فهى بيان لهم ، تقوم به عليهم الحجة من الله ، ليهلك من هلك عن بينة .

ويحتمل أن الإشارة فى قوله [هذا بيان للناس] للقرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، وأنه بيان للناس عموماً ، وهدى وموعظة للمتقين ، خصوصاً ، وكلا المعنيين ، حق .

* يقول تعالى : مشجعاً لعباده المؤمنين ، ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم : [ ولا تهنوا ولا تحزنوا ] أى : ولا تهنوا وتضعفوا ، فى أبدانكم ، ولا تحزنوا فى قلوبكم ، عند ما أصابتكم المصيبة ، وابتليتم بهذه البلوى .

فإن الحزن فى القلوب ، والوهن على الأبدان ، زيادة مصيبة عليكم ، وأعون ، لعدوكم عليكم .

بل شجعوا قلوبكم ، وصبروها ، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم .

وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن ، وهم الأعلون ، فى الإيمان ، ورجاء نصر الله وثوابه .

فالمؤمن المبتغى ما وعده الله ، من الثواب الدنيوى والأخروى ، لا ينبغى له ذلك .

ولهذا قال تعالى : [ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ] .

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة ، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك ، فقال تعالى :

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ

---

[ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ] فأنتم وهم ، قد تساويتم فى القرح ، ولكنكم ترجون من الله مالا يرجون كما قال تعالى :

[ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ] .

ومن الحكم فى ذلك ، أن هذه الدار ، يعطى الله منها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فيداول الله الأيام بين الناس : يوم لهذه الطائفة ، ويوم للطائفة الأخرى .

لأن هذه الدار الدنيا ، منقضية فانية .

وهذا بخلاف الدار الآخرة ، فإنها خالصة للذين آمنوا .

[ وليعلم الله الذين آمنوا ] هذا أيضاً من الحكم أنه يبتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء ، ليتبين المؤمن من المنافق .

لأنه لو استمر النصر للمؤمنين ، فى جميع الوقائع ، لدخل فى الإسلام ، من لا يريده .

فإذا حصل فى بعض الوقائع ، بعض أنواع الابتلاء ، تبين المؤمن حقيقة ، الذى يرغب فى الإسلام ، فى الضراء والسراء ، واليسر والعسر ، ممن ليس كذلك .

[ ويتخذ منكم شهداء ] وهذا أيضاً من بعض الحكم ، لأن الشهادة عند الله ، من أرفع المنازل ، ولا سبيل لنيلها ، إلا بما يحصل من وجود أسبابها .

شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ

---

فهذا من رحمته بعباده المؤمنين ، أن قيض لهم من الأسباب ، ما تكرهه النفوس ، لينيلهم ما يحبون ، من المنازل العالية ، والنعيم المقيم .

[ والله لا يحب الظالمين ] الذين ظلموا أنفسهم ، وتقاعدوا عن القتال فى سبيله .

« ولو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

[وليمحص الله الذين آمنوا] وهذا أيضاً من الحكم ، أن الله يمحص بذلك المؤمنين ، من ذنوبهم وعيوبهم .

يدل ذلك على أن الشهادة والقتال فى سبيل الله ، تكفر الذنوب ، وتزيل العيوب .

ويمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين ، فيتخلصون منهم ، ويعرفون المؤمن من المنافق .

ومن الحكم أيضاً أن يقدر ذلك ، ليمحق الكافرين .

أى : ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة ، فإنهم إذا انتصروا ، بغوا ، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم ؛ يستحقون به المعاجلة بالعقوبة ، رحمة بعباده المؤمنين .

ثم قال تعالى : [ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ] هذا استفهام إنكارى .

أى : لا تظنوا ، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة ، من دون مشقة ، واحتمال المكاره فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

فإن الجنة ، أعلى المطالب ، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون .

وكلما عظم المطلوب ، عظمت وسيلته ، والعمل الموصل إليه .

فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ، ولا يدرك النعيم ، إلا بترك النعيم .

ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله — عند توطين النفس لها ، وتمرينها عليها ، ومعرفة ما تئول إليه تنقلب — عند أرباب البصائر — منحاً يسرون بها ، ولا يبالون بها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم وبخهم تعالى ، على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ، ويودون حصوله فقال:

[ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ] وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر ، كانوا يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً ، يبذلون فيه جهدهم .

قال الله تعالى لهم [ فقد رأيتموه ] أي : ما تمنيتم بأعينكم [وأنتم تنظرون] فما بالكم وترك الصبر ؟ هذه حالة لا تليق ، ولا تحسن ، خصوصاً لمن تمنى ذلك ، وحصل له ما تمنى .

فإن الواجب عليه ، بذل الجهد ، واستفراغ الوسع في ذلك .

وفي هذه الآية ، دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة .

ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ، ولم ينكر عليهم .

وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : [ وما محمد إلا رسول ] إلى [ وسنجزي الشاكرين ] .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ

---

يقول تعالى [ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ] .

أى . ليس ببدع من الرسل ، بل هو من جنس الرسل الذين قبله .

وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم ، وتنفيذ أوامره .

ليسوا بمخلدين ، وليس بقاؤهم شرطاً فى امتثال أوامر الله .

بل الواجب على الأمم ، عبادة ربهم فى كل وقت وبكل حال .

ولهذا قال [ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ] بترك ما جاءكم به، من إيمان أو جهاد ، أو غير ذلك .

قال الله تعالى [ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً] إنما يضر نفسه .

وإلا ، فالله تعالى غنى عنه ، وسيقيم دينه ، ويعز عباده المؤمنين .

فلما وبخ تعالى ، من انقلب على عقبيه ، مدح من ثبت مع رسوله ، وامتثل أمر ربه فقال [ وسيجزى الله الشاكرين ] .

والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى ، فى كل حال .

وفى هذه الآية الكريمة ، إرشاد من الله تعالى لعباده ، أن يكونوا بحالة ، لا يزعزعهم عن إيمانهم ، أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم.

وما ذاك إلا بالاستعداد فى كل أمر من أمور الدين ، بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم ، قام به غيره .

لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

---

وأن يكون عموم المؤمنين ، قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان .

لا يكون لهم قصد ، فى رئيس دون رئيس .

فبهذه الحال ، يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفى هذه الآية أيضاً ،أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر ، أبى بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها ، معلقة بآجالها ، بإذن الله . وقدره وقضائه .

فمن حتم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب .

ومن أراد بقاءه ، فلو وقع من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله .

وذلك أن الله قضاه ، وقدره ، وكتبه إلى أجل مسمى .

« إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » .

ثم أخبر تعالى ، أنه يعطى الناس من ثواب الدنيا والآخرة ، ما تعلقت به إراداتهم ، فقال :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا

---

[ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها].

قال الله تعالى [كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ] .

[ وسنجزى الشاكرين ] ولم يذكر جزاءهم ، ليدل ذلك على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء ، على قدر الشكر ، قلة وكثرة ، وحسناً .

* هذا تسلية المؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعلهم ، وأن هذا ، أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك فقال :

[ وكأين من نبي ] أى : وكم من نبي [ قاتل معه ربيون كثير ] .

أي : جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان ، والأعمال الصالحة ، فأصابهم ، قتل وجراح ، وغير ذلك .

[ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ].

أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا .

أي : ذلوا لعدوهم .

بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال :

[ والله يحب الصابرين ] .

ثم ذكر قولهم ، واستنصارهم لربهم فقال :

ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

---

[ وما كان قولهم ] أى : فى تلك المواطن الصعبة [ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ] .

والإسراف هو : مجاوزة الحد ، إلى ما حرم .

علموا أن الذنوب والإسراف ، من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلى منها ، من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على مابذلوا جهدهم به ، من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم .

فجمعوا بين الصبر ، وترك ضده ، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم.

لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال :

[ فآتاهم الله ثواب الدنيا ] من النصر والظفر والغنيمة .

[ وحسن ثواب الآخرة ] وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم ،الذى قد سلم من جميع المنكدات .

وما ذاك ، إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلهذا قال :

[ والله يحب المحسنين ] فى عبادة الخالق ، ومعاملة الخلق .

ومن الإحسان ، أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء المؤمنين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ

---

ثم قال تعالى [ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ] إلى [ وبئس مثوى الظالمين ] .

وهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين ، من المنافقين والمشركين .

فإنهم ، إذا أطاعوهم ، لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر ، الذى عاقبته الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه يتولى أمورهم ، بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفى ضمن ذلك ، الحث لهم ، على اتخاذه وحده ، ولياً وناصراً ، من دون كل أحد .

فمن ولايته ونصره لهم ، أنه وعدهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم من الكافرين ، الرعب ، وهو الخوف العظيم ، الذى يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين — بعد ما انصرفوا من وقعة « أحد » — تشاوروا فيما بينهم ، وقالوا :

كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ؟ ولما نستأصلهم ؟ فهموا بذلك .

أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

فألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فانصرفوا خائبين .

ولا شك أن هذا ، من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم ، أن نصر الله لعباده المؤمنين ، لايخرج عن أحد أمرين :

إما أن يقطع طرفا ممن كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين . وهذا من الثانى .

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين فقال :

[ بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ] أى : ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه ، من الأنداد والأصنام ، التى اتخذوها [1] على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة ، من غير حجة ولا برهان ، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن .

فمن ثم ، كان المشرك مرعوبا من المؤمنين ، لايعتمد على ركن وثيق ، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق ، هذا حاله فى الدنيا .

وأما فى الآخرة ، فأشد وأعظم ، ولهذا قال : [ ومأواهم النار ] .

أى : مستقرهم الذى يأوون إليه وليس لهم عنها خروج .

[ وبئس مثوى الظالمين ] بسبب ظلمهم وعدوانهم ، صارت النار مثواهم .

---

(١) قوله ( اتخذوها ) أى : جعلوها آلهة يعبدونها ويتقربون إليها بأنواع القربات والعبادات واتخاذها وسائط بينهم وبين الله تعالى فى جلب نفع ودفع ضر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

---

أى [ ولقد صدقكم الله وعده ] بالنصر ، فنصركم عليهم ، حتى ولوكم أكتافهم ، وطفقتم فيهم قتلا ، حتى صرتم سبباً لأنفسكم ، وعوناً لأعدائكم عليكم .

فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور [ وتنازعتم فى الأمر ] الذى فيه ترك أمر الله ، بالائتلاف وعدم الاختلاف ، فاختلفتم .

فمن قائل : نقيم فى مركزنا ، الذى جعلنا فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن قائل : ما مقامنا فيه ، وقد انهزم العدو ، ولم يبق محذور .

فعصيتم الرسول ، وتركتم أمره [ من بعد ما أراكم الله ماتحبون ] وهو انخذال أعدائكم .

لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب ، أعظم من غيره .

فالواجب فى هذه الحال خصوصاً ، وفى غيرها عموما ، امتثال أمر الله ورسوله .

[ منكم من يريد الدنيا ] وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب .

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم

[ ومنكم من يريد الآخرة ] وهم الذين ، لزموا أمر رسول الله ، وثبتوا حيث أمروا .

[ ثم صرفكم عنهم ] أى : بعد ما وجدت هذه الأمور منكم ، صرف الله وجوهكم عنهم ، فصار الوجه لعدوكم ، ابتلاء من الله لكم ، وامتحانا ، ليتبين المؤمن من الكافر ، والطائع من العاصى ، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ، ماصدر منكم فلهذا قال :

[ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ] أى : ذو فضل عظيم عليهم ، حيث من عليهم بالإسلام ، وهداهم لشرائعه ، وعفا عنهم سيئاتهم ، وأثابهم على مصيباتهم .

ومن فضله على المؤمنين ، أن لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة ، إلا كان خيراً لهم .

إن أصابتهم سراء فشكروا ، جازاهم جزاء الشاكرين ، وإن أصابتهم ضراء فصبروا ، جازاهم جزاء الصابرين .

☆ يذكرهم تعالى حالهم ، فى وقت انهزامهم عن القتال ، ويعاتبهم على ذلك فقال [ إذ تصعدون ] أى : تجدون فى الهرب ولا تلوون على أحد ] أى : لا يلوى أحد منكم على أحد ، ولا ينظر إليه .

بل ليس لكم هم إلا الفرار ، والنجاء من القتال .

مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ

---

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير.

إذ لستم آخر الناس ، مما يلى الأعداء ، ويباشر الهيجاء.

بل [ الرسول يدعوكم فى أخراكم ] أى : مما يلى القوم يقول : « إلى عباد الله » .

فلم تلتفتوا إليه ، ولا عرجتم عليه ، فالفرار نفسه ، موجب للوم .

ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس ، أعظم لوما،بتخلفكم عنها.

[ فأثابكم ] أى : جازاكم على فعلكم [ غما بغم ] أى : غما يتبعه غم .

غم بفوات النصر وفوات الغنيمة ، وغم بانهزامكم ، وغم ، أنساكم كل غم ، وهو سماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل .

ولكن الله — بلطفه ، وحسن نظره لعباده — جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين ، خيراً لهم فقال :

[ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ] من النصر والظفر .

[ولا ما أصابكم ] من الهزيمة والقتل والجراح ، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل ، هانت عليكم تلك المصيبات ، واغتبطتم بوجوده المسلى عن كل مصيبة ومحنة .

فلله ما فى ضمن البلايا والمحن ، من الأسرار والحكم .

لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ

---

وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم ،وظواهركم،وبواطنكم.

ولهذا قال : [ والله خبير بما تعلمون ] .

ويحتمل أن معنى قوله [ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ] .

يعنى : أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم ، لكى تتوطن نفوسكم ، وتمرنوا على الصبر على المصيبات ، ويخف عليكم تحمل المشقات :

[ ثم أنزل عليكم من بعد الغم ] الذى أصابكم [ أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ] .

ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة طمأنينة .

لأن الخائف لا يأتيه النعاس ، لما فى قلبه من الخوف .

فإذا زال الخوف عن القلب ، أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس ، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ، ورضا الله ورسوله ، ومصلحة إخوانهم المسلمين .

وأما الطائفة الأخرى الذين [ قد أهمتهم أنفسهم ] فليس لهم هم فى غيرها ، لنفاقهم ، أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصبهم من النعاس ، ما أصاب غيرهم [ يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ] .

وهـــذا استفهام إنكارى ، أى : مالنا من الأمر أي : النصر والظهور ـــ شىء .

ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

فأساءوا الظن بربهم ، وبدينه ، وبنبيه ، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله ، وأن هذه الهزيمة ، هى الفيصلة والقاضية على دين الله .

قال الله فى جوابهم : [ قل إن الأمر كله لله ] .

الأمر يشمل الأمر القدرى ، والأمر الشرعى .

لجميع الأشياء ، بقضاء الله وقدره ، وعاقبتها ، النصر والظفر لأوليائه، وأهل طاعته وإن جرى عليهم ، ما جرى .

[ يخفون ] يعنى المنافقين [ فى أنفسهم ما لا يبدون لك ] .

ثم بين الأمر الذى يخفونه فقال :

[ يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ] أى : لو كان لنا فى هذه الواقعة رأى ومشورة [ ما قتلنا ههنا ] .

وهذا إنكار منهم ، وتكذيب بقدر الله ، وتسفيه منهم لرأى رسول الله، ورأى أصحابه ، وتزكية منهم ، لأنفسهم فرد الله عليهم بقوله :

[ قل لو كنتم فى بيوتكم ] التى هى أبعد شىء عن مظان القتل .

[ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ] .

فالأسباب — وإن عظمت — إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء .

فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً ، بل لا بد أن يمضى الله ما كتب فى اللوح المحفوظ ، من الموت والحياة .

[ وليبتلى الله ما فى صدوركم ] أى : يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

---

[ وليمحص ما فى قلوبكم ] من وساوس الشيطان ، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة .

[ والله عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها ، وما أكنته .

فاقتضى علمه وحكمته ، أن قدر من الأسباب ، ما به يظهر مخبئات الصدور ، وسرائر الأمور .

* يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم « أحد » وما الذى أوجب لهم الفرار ، وأنه من تسويل الشيطان ، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم .

فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكنوه بما فعلوا من المعاصى ، لأنها مركبه ومدخله .

فلو اعتصموا بطاعة ربهم ، لما كان له عليهم من سلطان .

قال تعالى : [ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ] .

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا مايوجب المؤاخذة .

وإلا فلو آخذهم ، لاستأصلهم .

[ إن الله غفور ] للمذنبين الخطائين ، بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار ، والمصائب المكفرة .

[ حليم ] لا يعاجل من عصاه ، بل يستأنى به ، ويدعوه إلى الإنابة إليه ، والإقبال عليه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ

---

ثم إن تاب وأناب ، قبل منه ، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب ، ولم يصدر عنه عيب . فلله الحمد على إحسانه .

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ، ولا بقضائه وقدره ، من المنافقين وغيرهم .

ينهاهم عن مشابهتهم فى كل شىء ، وفى هذا الأمر الخاص — وهو أنهم يقولون لإخوانهم فى الدين أو فى النسب :

[ إذا ضربوا فى الأرض ] أى : سافروا للتجارة [ أو كانوا غزى ] أى : غزاة ، ثم جرى عليهم قتل أو موت ، يعارضون القدر ويقولون :

[ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ] وهذا كذب منهم .

فقد قال تعالى : [ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ] .

ولكن هذا التكذيب لم يفدهم ، إلا أن الله يجعل هذا القول ، وهذه العقيدة ، حسرة فى قلوبهم ، فتزداد مصيبتهم .

وأما المؤمنون ، فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله ، فيؤمنون ويسلمون ، فيهدى الله قلوبهم ، ويثبتها ، ويخفف بذلك ، عنهم المصيبة .

يُحْيِ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ
أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

---

قال الله ، رداً عليهم [والله يحيي ويميت] أى : هو المنفرد بذلك ، فلا يغنى حذر عن قدر .

[والله بما تعملون بصير] فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم .

ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيله ، أو الموت فيه ، ليس فيه نقص ولا محذور .

وإنما هو ، مما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون ، لأنه سبب مفض ، وموصل إلى مغفرة الله ورحمته ، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا ، من دنياهم ، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا ، أو قتلوا بأى حالة كانت ، فإنما مرجعهم إلى الله ، ومآلهم إليه ، فيجازى كلا بعمله .

فأين الفرار إلا إلى الله ، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله ؟ !!

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

---

أى برحمة الله لك ولأصحابك ، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك ، وخفضت لهم جناحك ، وترققت عليهم ، وحسنت لهم خلقك ، فاجتمعوا عليك وأحبوك ، وامتثلوا أمرك .

[ ولو كنت فظا ] أى : سيء الخلق [ غليظ القلب ] أى : قاسيه ، [لانفضوا من حولك] لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء .

فالأخلاق الحسنة من الرئيس فى الدنيا ، تجذب الناس إلى دين الله ، وترغبهم فيه ، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص .

والأخلاق السيئة من الرئيس فى الدين ، تنفر الناس عن الدين ، وتبغضهم إليه ، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص .

فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول ، فكيف بغيره .

أليس من أوجب الواجبات ، وأهم المهمات ، الاقتداء بأخلاقه الكريمة ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به صلى الله عليه وسلم ، من اللين وحسن الخلق والتأليف ، امتثالا لأمر الله ، وجذبا لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير فى حقه ، صلى الله عليه وسلم ، ويستغفر لهم فى التقصير ، فى حق الله ، فيجمع بين العفو والإحسان .

[ وشاورهم فى الأمر ] أى : الأمور التى تحتاج إلى استشارة ، ونظر ، وفكر .

فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

---

فإن فى الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ، ما لا يمكن حصره .

منها : أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

ومنها : أن فيها تسميحاً لخواطرهم ، وإزالة لما يصير فى القلوب عند الحوادث .

فإن من له الأمر على الناس — إذا جمع أهل الرأى والفضل ، وشاورهم فى حادثة من الحوادث — اطمأنت إليه نفوسهم وأحبوه ، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم ، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع .

فبذلوا جهدهم ومقدورهم فى طاعته ، لعلمهم بسعيه فى مصالح العموم .

بخلاف من ليس كذلك ، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ، ولا يطيعونه ، وإن أطاعوه ، فطاعة غير تامة .

ومنها : أن فى الاستشارة ، تنور الأفكار ، بسبب إعمالها فيما وضعت له ، فصار فى ذلك زيادة للعقول .

ومنها : ما تنتجه الاستشارة ، من الرأى المصيب ، فإن المشاور لا يكاد يخطىء فى فعله .

وإن أخطأ ، أو لم يتم له مطلوب ، فليس بملوم .

فإذا كان الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم — وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً — : [وشاورهم فى الأمر] فكيف بغيره .

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠)

---

ثم قال تعالى [ فإذا عزمت ] أى : على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه ، إن كان يحتاج إلى استشارة .

[ فتوكل على الله ] أى : اعتمد على حول الله وقوته ، متبرئا من حولك وقوتك .

[ إن الله يحب المتوكلين ] عليه ؛ اللاجئين إليه .

* أى : إن يمددكم الله بنصره ومعونته [ فلا غالب لكم ] .

فلو اجتمع عليكم ؛ من فى أقطارها ؛ وما عندهم من العدد والعدد ، لأن الله لا مغالب له ، وقد قهر العباد ، وأخذ بنواصيهم .

فلا تتحرك دابة إلا بإذنه ، ولا تسكن إلا بإذنه .

[وإن يخذلكم] ويكلكم إلى أنفسكم [فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ ] .

فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وقد ضمن ذلك ، الأمر بالاستنصار بالله ، والاعتماد عليه ، والبراءة من الحول والقوة .

ولهذا قال [وعلى الله فليتوكل المؤمنون] وتقدم المعمول ، يؤذن بالحصر .

أى : توكلوا على الله ، لا غيره ، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده .

فالاعتماد عليه ، توحيد محصل للمقصود .

والاعتماد على غيره ، شرك غير نافع لصاحبه ، بل ضار .

وفى هذه الآية ، الأمر بالتوكل على الله وحده ، وأنه بحسب إيمان العبد ، يكون توكله .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

الغلول هو : الكتمان من الغنيمة ، والخيانة فى كل ما يتولاه الإنسان ، وهو محرم إجماعا ، بل هو من الكبائر ، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص .

فأخبر الله تعالى ، أنه ما ينبغى ، ولا يليق بنبى ، أن يغل .

لأن الغلول — كما علمت — من أعظم الذنوب ، وشر العيوب .

وقد صان الله تعالى أنبياءه ، عن كل ما يدنسهم ، ويقدح فيهم ؛ وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا ، وأطهرهم نفوساً ، وأزكاهم وأطيبهم ، ونزههم عن كل عيب ، وجعلهم محل رسالته ، ومعدن حكمته [الله أعلم حيث يجعل رسالته] .

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم ، يجزم بسلامتهم ، من كل أمر يقدح فيهم .

ولا يحتاج إلى دليل ، على فساد ما قيل فيهم ، من أعدائهم ، لأن معرفته بنبوتهم ، تستلزم دفع ذلك ، ولذلك أتى بصيغة ، يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال :

[وما كان لنبى أن يغل] أى : يمتنع ذلك ، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته .

ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: [ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة] .

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

---

أى : يأت به حامله[1] على ظهره ، حيوانا كان ، أو متاعا ، أو غير ذلك ، يعذب به يوم القيامة .

[ثم توفى كل نفس ما كسبت] الغال وغيره ، كل يوفى أجره ووزره ، على مقدار كسبه .

[ وهم لا يظلمون ] أى : لا يزاد فى سيئاتهم ، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم .

وتأمل حسن هذا الاحتراز فى هذه الآية الكريمة .

لما ذكر عقوبة الغال ، وأنه يأتى يوم القيامة بما غله ، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه ، وكان اقتصاره على الغال ، يوهم — بالمفهوم — أن غيره من أنواع العاملين ، قد لا يوفون — أتى بلفظ عام جامع له ولغيره .

* يخبر تعالى ، أنه لا يستوى من كان قصده رضوان الله ، والعمل على ما يرضيه ، كمن ليس كذلك ، ممن هو مكب على المعاصى ، مسخط لربه

هذان لا يستويان فى حكم الله ، وحكمة الله ، وفى فطر عباد الله .

[ أفمن كان مؤمناً ، كمن فاسقاً ، لا يستوون ] ولهذا قال :

---

(١) قوله ( حامله ) فيه غموض واشتباه ، فالصواب أن يقال حاملا إياه .

[ هم درجات عند الله ] أى : كل هؤلاء متفاوتون فى درجاتهم ومنازلهم ، بحسب تفاوتهم فى أعمالهم .

فالمتبعون لرضوان الله ، يسعون فى نيل الدرجات العاليات ، والمنازل والغرفات ، فيعطيهم الله من فضله وجوده ، على قدر أعمالهم .

والمتبعون لمساخط الله ، يسعون فى النزول فى الدركات ، إلى أسفل سافلين ، كل على حسب عمله .

والله بصير بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شيء .

بل قد علمها ، وأثبتها فى اللوح المحفوظ ، وملائكته الأمناء الكرام ، أن يكتبوها ويحفظوها ، ويضبطوها .

* هذه المنة التى امتن الله بها على عباده ، أكبر النعم ، بل أصلها .

وهى الامتنان عليهم ، بهذا الرسول الكريم ، الذى أنقذهم الله به ، من الضلالة ، وعصمهم به ، من الهلكة فقال :

[ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ] يعرفون نسبه ، وحاله ، ولسانه ، من قومهم وقبيلتهم ، ناصحاً لهم ، مشفقاً عليهم .

[ يتلو عليهم آياته ] يعلمهم ألفاظها ومعانيها .

[ ويزكيهم ] من الشرك ، والمعاصى ، والرذائل ، وسائر مساوىء الأخلاق .

و[ يعلمهم الكتاب ] إما جنس الكتاب الذى هو القرآن ، فيكون قوله [ يتلو عليهم آياته ] المراد به الآيات الكونية .

مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

---

أو المراد بالكتاب — هنا — الكتابة ، فيكون قد امتن عليهم ، بتعليم الكتاب والكتابة ، التي بها تدرك العلوم وتحفظ .

[ والحكمة ] هي : السنة ، التي هي شقيقة القرآن ، ووضع الأشياء مواضعها ، ومعرفة أسرار الشريعة .

فجمع لهم ، بين تعليم الأحكام ، وما به تنفيذ الأحكام ، وما به تدرك فوائدها وثمراتها ، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة ، جميع المخلوقين ، وكانوا من العلماء الربانيين .

[ وإن كانوا من قبل ] بعثة هذا الرسول [ لفي ضلال مبين ] لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم ، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها ، بل ما يزين لهم جهلهم فعلوه ، ولو ناقض ذلك عقول العالمين .

* هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حين أصابهم ما أصابهم يوم « أحد » وقتل منهم نحو سبعين ، فقال الله :

إنكم [ قد أصبتم ] من المشركين [ مثليها ] فقتلتم سبعين من كبارهم ، وأسرتم سبعين .

فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم ، مع أنكم لا تستوون ، أنتم وهم . فإن قتلاكم في الجنة ، وقتلاهم في النار .

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ

---

[ قلتم أنى هذا ] أى : من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا ؟

[ قل هو من عند أنفسكم ] حين تنازعتم ، وعصيتم ، من بعدما أراكم ما تحبون .

فعودوا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المردية .

[ إن الله على كل شىء قدير ] فإياكم وسوء الظن بالله ، فإنه قادر على نصركم .

ولكن له أتم الحكمة ، فى ابتلائكم ، ومصيبتكم .

[ ذلك ولو شاء الله ، لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ] .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان ، جمع المسلمين ، وجمع المشركين فى « أحد » من القتل والهزيمة ، أنه بإذنه ، وقضائه وقدره ، لا مرد له ، ولا بد من وقوعه .

والأمر القدرى — إذا نفذ ، لم يبق إلا التسليم له ، وأنه قدره ، لحكم عظيمة ، وفوائد جسيمة .

وأنه ليتبين بذلك ، المؤمن من المنافق ، الذين لما أمروا بالقتال .

[ وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله ] أى : ذباً عن دين الله ، وحماية له وطلباً لمرضاة الله [ أو ادفعوا ] عن محارمكم وبلدكم ، إن لم تكن لكم نية صالحة .

قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

---

فأبوا ذلك واعتذروا بأن [ قالوا لو نعلم قتالا لأتبعناكم ] .

أي : لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال ، لاتبعناكم ، وهم كذبة في هذا .

قد علموا وتيقنوا ، وعلم كل أحد ، أن هؤلاء المشركين ، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين ، بما أصابوا منهم ، وأنهم قد بذلوا أموالهم ، وجمعوا ما يقدرون عليه ، من الرجال والعدد ، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم ، متحرقين على قتالهم .

فمن كانت هذه حالهم ، كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال ؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة ، وبرزوا لهم ، هذا من المستحيل.

ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر ، يروج على المؤمنين .

قال تعالى [ هم للكفر يومئذ ] أي : في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين [ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ] .

وهذه خاصة[1] المنافقين ، يظهرون بكلامهم وفعالهم ، ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم .

---

( ١ ) قوله ( خاصة ) فيه إبهام والأوضح أن يقال ( وهذه خاصية من خصائص المنافقين .

يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

---

ومنه قولهم [ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ] فإنهم علموا وقوع القتال .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة « ارتكاب »[1] أخف المفسدتين » لدفع أعلاهما ، وفعل أدنى المصلحتين ، للعجز عن أعلاهما ، لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين ، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان .

[ والله أعلم بما يكتمون ] فيبديه لعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

---

( ١ ) قوله ( ارتكاب الخ ) نص القاعدة الأصولية ( ارتكاب أخف الضررين ) الضرران أعم من أن يكونا مفسدتين وغير مفسدتين ولا يلزم من الضررين أن يكونا مفسدتين لأن الفساد فى اصطلاح الشرع أن يكون منهياً عنه والقاعدة تعنى أعم من هذا ! مثاله : لو أشرفت سفينة على الغرق ، وكان فى طرح المال سلامة للنفوس يطرح فى البحر قدر ما يسلمها من الغرق ، ومنها حبس الأب ، لو امتنع عن الإنفاق على ولده ومنها : التسعير عند تعدى أرباب الطعام فى بيعه بغبن فاحش ومنها بيع الطعام المحتكر ، جبراً عليه عند الحاجة وامتناعه عن البيع ، دفعاً للضرر العام .

ومن هذه الأمثلة يعلم أن الضرر لا يشترط أن يكون فاسداً شرعاً لذاته بل قد يكون لعارض .

وللكلام هنا مجال فسيح لا تسمح ببسطه هذه العجالة .

والذى دفعنى إلى ذلك كلمة ( المفسدتين ) التى تخالف رواية القاعدة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

---

ثم قال تعالى [ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ] .

أى : جمعوا بين التخلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره . قال الله رداً عليهم .

[ قل فادرأوا ] أى : أدفعوا [ عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ] أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا ، لا تقدرون على ذلك ، ولا تستطيعونه .

وفى هـــذه الآيات ، دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر ، وخصلة إيمان .

وقد يكون إحداها ، أقرب من الأخرى .

* هذه الآيات الكريمات ، فيها فضل الشهداء وكرامتهم ، وما من الله عليهم به ، من فضله وإحسانه .

وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم ، وتعزيتهم ، وتنشيطهم للقتال فى سبيل الله ، والتعرض للشهادة فقال :

[ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ] أى : فى جهاد أعداء الدين ، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله .

[ أمواتاً ] أى : لا يخطر ببالك وحسبانك ، أنهم ماتوا وفقدوا ، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا ، والتمتع بزهرتها ، الذى يحذر من فواته ، من جبن عن القتال ، وزهد فى الشهادة .

[ بل ] قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

---

فهم [ أحياء عند ربهم ] فى دار كرامته .

ولفظ « عند ربهم » يقتضى علو درجتهم ، وقربهم من ربهم .

[ يرزقون ] من أنواع النعيم ، الذى لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم.

ومع هذا صاروا [ فرحين بما آتاهم الله من فضله ] أى: مغتبطون بذلك.

وقد قرت به عيونهم ، وفرحت به نفوسهم ، وذلك لحسنه ، وكثرته، وعظمته ، وكمال اللذة فى الوصول إليه ، وعدم المنغص .

فجمع الله لهم ، بين نعيم البدن بالرزق ، ونعيم القلب والروح ، بالفرح بما آتاهم من فضله :

فتم لهم النعيم والسرور ، وجعلوا [ يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ، وأنهم سينالون ما نالوا .

[ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ] أى : يستبشرون بزوال المحذور عنهم ، وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور .

[ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ] أى : يهنىء بعضهم بعضاً ، بأعظم مهنأ به ، وهو : نعمة ربهم ، وفضله ، وإحسانه .

[ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ] بل ينميه ويشكره ، ويزيده من فضله ، مالا يصل إليه سعيهم .

۞ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا
وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

---

وفى هذه الآيات ، إثبات نعيم البرزخ ، وأن الشهداء ، فى أعلى مكان عند ربهم .

وفيه تلاقى أرواح أهل الخير ، وزيارة بعضهم بعضاً ، وتبشير بعضهم بعضاً .

* لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من «أحد» إلى المدينة ، ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا — على ما بهم من الجراح — استجابة لله ولرسوله ، فوصلوا إلى « حمراء الأسد » ، وجاءهم من جاءهم وقال لهم :

[ إن الناس قد جمعوا لكم ] وهموا باستئصالكم ، تخويفاً لهم وترهيباً .

فلم يزدهم ذلك ، إلا إيمانا بالله ، واتكالا عليه .

[ وقالوا حسبنا الله ] أى : كافينا كل ما أهمنا [ ونعم الوكيل ] المفوض إليه تدبير عباده ، والقائم بمصالحهم .

[ فانقلبوا ] أى : رجعوا [ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ] .

وجاء الخبر المشركين ، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم ، وندم من تخلف منهم .

فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، واستمروا ، راجعين إلى مكة .

وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

---

ورجع المؤمنون ، بنعمة من الله وفضل ، حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم ،

ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة .

فسبب إحسانهم بطاعة ربهم ، وتقواهم عن معصيته ، لهم أجر عظيم ، ثم قال تعالى :

[ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ] أى : إن ترهيب من رهب من المشركين ، وقال : إنهم جمعوا لكم ، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف .

[ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ] أى:فلا تخافوا المشركين، أولياء الشيطان ، فإن نواصيهم بيدالله ، لا يتصرفون إلا بقدره .

بل خافوا الله ، الذى ينصر أولياءه الخائفين إياه[1] المستجيبين لدعوته.

وفى هذه الآية ، وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان.

فعلى قدر إيمان العبد ، يكون خوفه من الله .

والخوف المحمود : ما حجز العبد عن محارم الله .

---

(١) فى الأصل ( الخائفين له ) والصواب ( الخائفين إياه ) لأن (خاف) لا يتعدى باللام ، بل يتعدى بنفسه ، كما قال تعالى ( فلا تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين ) ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ

---

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على الخلق ، مجتهداً فى هدايتهم . وكان يحزن ، إذا لم يهتدوا ، قال الله تعالى :

[ ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ] من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه [ إنهم لن يضروا الله شيئاً ] .

فالله ناصر دينه ، ومؤيد رسوله ، ومنفذ أمره من دونهم ، فلا تبالهم ولا تحفل بهم .

إنما يضرون ، ويسعون فى ضرر أنفسهم ، بفوات الإيمان فى الدنيا ، وحصول العذاب الأليم فى الأخرى ، من هوانهم على الله ، وسقوطهم من عينه ، وإرادته أن لايجعل لهم نصيباً فى الآخرة .

ثوابه ، خذلهم فلم يوفقهم ، لما وفق إليه أولياءه ، ومن أراد به خيراً ، عدلا منه وحكمة ، لعلمه بأنهم غير زاكين[1] على الهدى ، ولا قابلين للرشاد ، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم .

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، ورغبوا فيه ، رغبة

---

(١) قوله ( زاكين الخ ) يريد : أن أنفسهم غير طاهرة ولا حريصة على قبول الهدى والحق فيكون استعمال ( زاكين ) مجازاً .

[ وأنت ترى أن التعبير بكلمة ( زاكين ) فيه مافيه من الغموض فإن المعاجم كلها متفقة أنها بمعنى طهارة النفوس .

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

---

من يذل مايحب من المال ، فى شراء مايحب من السلع [ لن يضروا الله شيئا ] بل ضرر فعلهم ، يعود على أنفسهم ، ولهذا قال :

[ ولهم عذاب أليم ] وكيف يضرون الله شيئا ، وهم قد زهدوا أشد الزهد فى الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن ؟ ! فالله غنى عنهم .

وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم .

وأعد له — ممن ارتضاه لنصرته — أهل البصائر والعقول ، وذوى الألباب من الرجال الفحول .

قال الله تعالى [ قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ] الآيات .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾

---

أي : ولا يظن الذين كفروا بربهم ، ونابذوا دينه ، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم فى هذه الدنيا ، وعدم استئصالنا لهم ، وإملائنا لهم — خير لأنفسهم ، ومحبة منا لهم .

كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، وإنما ذلك لشر ، يريده الله بهم ، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ، ولهذا قال :

[ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ] :

فالله تعالى يملى للظالم ، حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كفرانه ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

فليحذر الظالمون من الإمهال ، ولا يظنوا ، أن يفوتوا الكبير المتعال .

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

---

أي : ما كان فى حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط ، وعدم التمييز ، حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق والصادق من الكاذب .

ولم يكن فى حكمته أيضاً ، أن يطلع عباده على الغيب الذى يعلمه من عباده :

فاقتضت حكمته الباهرة، أن يبتلى عباده ، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب ، من أنواع الابتلاء والامتحان .

فأرسل الله رسله ، وأمر بطاعتهم ، والانقياد لهم ، والإيمان بهم ، ووعدهم — على الإيمان والتقوى — الأجر العظيم .

فانقسم الناس — بحسب اتباعهم للرسل — قسمين :

مطيعين وعاصين ، ومؤمنين ومنافقين ، ومسلمين وكافرين .

ليرتب على ذلك الثواب والعقاب ، وليظهر عدله وفضله ، وحكمته لخلقه .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ

---

أى : ولا يظن الذين يبخلون ، أى : يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله ، من المال ، والجاه ، والعلم ، وغير ذلك ، مما منحهم الله ، وأحسن إليهم به ، وأمرهم ببذل مالا يضرهم منه لعباده ، فبخلوا بذلك ، وأمسكوه ، وضنوا به على عباد الله ، وظنوا أنه خير لهم ، بل هو شر لهم ، فى دينهم ودنياهم ، وعاجلهم وآجلهم ،

[ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ] أى : يجعل ما بخلوا به ، طوقا فى أعناقهم ، يعذبون به كما ورد فى الحديث الصحيح .

« إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة ، شجاعا أقرع ، له زبيبتان يأخذ بلهزميه يقول :

أنا مالك ، أنا كنزك » .

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك ، هذه الآية .

فهؤلاء حسبوا أن بخلهم ، نافعهم ، ومجد عليهم .

فانقلب عليهم الأمر ، وصار من أعظم مضارهم ، وسبب عقابهم .

[ ولله ميراث السموات والأرض ] أى : هو تعالى ، مالك الملك ، وترد جميع الأملاك إلى مالكها ، وينقلب العباد من الدنيا ، ما معهم درهم ولا دينار ، ولا غير ذلك من المال .

بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

---

قال تعالى [ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ] .

وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائى والسبب الغائى، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله .

أخبر أولا : أن الذى عنده وفى يده ، فضل من الله ونعمة ، ليس ملكا للعبد .

بل لولا فضل الله عليه وإحسانه ، لم يصل إليه منه شىء .

فمنعه ذلك ، منع لفضل الله وإحسانه .

ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى [ وأحسن كما أحسن الله إليك ] .

فمن تحقق أن ما بيده ، هو فضل من الله ، لم يمنع الفضل الذى لا يضره، بل ينفعه فى قلبه وماله ، وزيادة إيمانه ، وحفظه من الآفات .

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذى بيد العباد كله ، يرجع إلى الله ، ويرثه تعالى ، وهو خير الوارثين .

فلا معنى للبخل بشىء هو زائل عنك ، منتقل إلى غيرك .

ثم ذكر ثالثا ، السبب الجزائى فقال [ والله بما تعملون خبير ] .

فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعاً — ويستلزم ذلك ، الجزاء الحسن ، على الخيرات ، والعقوبات على الشر — لم يتخلف من فى قلبه مثقال ذرة من

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

---

إيمان ، عن الإنفاق الذى يجزى به الثواب ، ولا يرضى بالإمساك ، الذى به العقاب .

* يخبر تعالى ، عن قول هؤلاء المتمردين ، الذين قالوا أقبح المقالة ، وأشنعها ، وأسمجها .

فأخبر أنه قد سمع ما قالوه ، وأنه سيكتبه ويحفظه ، مع أفعالهم الشنيعة، وهو : قتلهم الأنبياء الناصحين ، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ، وأنه يقال لهم — بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء — [ ذوقوا عذاب الحريق ] المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة ، وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم فإنه [ ليس بظلام للعبيد ] فإنه منزه عن ذلك

وإنما [ ذلك بما قدمت أيديهم ] من المخازى والقبائح ، التى أوجبت استحقاقهم العذاب ، وحرمانهم الثواب .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ، نزلت فى قوم من اليهود ، تكلموا بذلك .

وذكروا منهم « فنحاص بن عازوراء » من رؤساء علماء اليهود فى المدينة .

﴿ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي

---

وأنه لما سمع قول الله تعالى [ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ] [ وأقرضوا الله قرضا حسنا ] قال — على وجه التكبر والتجرؤ [1] هذه المقالة ، قبحه الله .

فذكرها الله عنهم ، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم ، بل قد سبق لهم من الشنائع ، ماهو نظير ذلك ، وهو : قتلهم الأنبياء بغير حق .

هذا القيد يراد به ، أنهم تجرأوا على قتلهم ، مع علمهم بشناعته ، لا جهلا وضلالا ، بل تمرداً وعناداً .

* يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين [ إن الله عهد إلينا ] أى : تقدم إلينا ، وأوصى ، أن لانؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

فجمعوا بين الكذب على الله ، وحصر آية الرسل بما قالوه ، من هذا الإفك المبين .

وأنهم إن لم يؤمنوا برسول ، لم يأتهم بقربان تأكله النار .

فهم — فى ذلك — مطيعون لربهم ، ملتزمون عهده .

وقد علم أن كل رسول يرسله الله ، يؤيده من الآيات والبراهين ، بما

---

(١) فى الأصل ( والتجرهم ) ولم أجد معنى هذه الكلمة فى المعاجم ولعلها تحريف ولذلك أبدلتها بكلمة ( والتجرؤ ) لأن المقام يقتضى ذلك .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

---

على مثله آمن البشر ، ولم يقصرها على ماقالوه ، ومع هذا ،فقد قالوا ، إفكا لم يلتزموه ، وباطلا لم يعملوا به .

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم :

[ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ] الدلات على صدقهم [ وبالذى قلتم ] بأن أتاكم بقربان تأكله النار [ فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ ] .

أى : فى دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار .

فقد تبين بهذا كذبهم ، وعنادهم ، وتناقضهم .

ثم بشر رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : [ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك ].

أى : هذه عادة الظالمين ، ودأبهم ، الكفر بالله ، وتكذيب رسل الله .

وليس تكذيبهم لرسل الله ، عن تصور بما أتوا به ، أو عدم تبين حجة .

بل قد [ جاءوا بالبينات ] أى : الحجج العقلية ، والبراهين النقلية .

[ والزبر ] أى : الكتب المزبورة ، المنزلة من السماء ، التى لا يمكن أن يأتى بها غير الرسل .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

---

[ والكتاب المنير ] للأحكام الشرعية ، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية ، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة .

فإذا كان هذا عادتهم فى عدم الإيمان بالرسل ، الذين هذا وصفهم .

فلا يحزنك أمرهم ، ولا يهمك شأنهم .

ثم قال تعالى : [ كل نفس ذائقة الموت ] الآية .

* هذه الآية الكريمة ، فيها التزهيد فى الدنيا بفنائها ، وعدم بقائها ، وأنها متاع الغرور ، تفتن بزخرفها ، وتخدع بغرورها ، وتغر بمحاسنها .

ثم هى منتقلة ، ومنتقل عنها ، إلى دار القرار ، التى توفى فيها النفوس، ماعملت فى هذه الدار ، من خير ، وشر .

[ فمن زحزح ] أى : أخرج [ عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ] .

أى : حصل له الفوز العظيم ، بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم ، التى فيها ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ومفهوم الآية ، أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقى الشقاء الأبدى ، وابتلى بالعذاب السرمدى .

وفى هذه الآية ، إشارة لطيفة ، إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

يجزون فيه بعض الجزاء ، بما عملوه ، ويتقدم لهم أنموذج مما أسلفوه .

يفهم هذا من قوله [ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ] أى : توفية الأعمال التامة ، إنما يكون يوم القيامة .

وأما مادون ذلك ، فيكون فى البرزخ .

بل قد يكون قبل ذلك فى الدنيا كقوله [ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ] .

* يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين ، أنهم سيبتلون فى أموالهم ، من النفقات الواجبة والمستحبة ، من التعريض لإتلافها ، فى سبيل الله ، وفى أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة ، على كثير من الناس ، كالجهاد فى سبيل الله، والتعرض فيه للتعب ، والقتل ، والأسر ، والجراح، وكالأمراض التى تصيبه فى نفسه ، أو فيمن يحب .

[ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ] من الطعن فيكم ، وفى دينكم ، وكتابكم ، ورسولكم .

وفى إخباره لعباده المؤمنين بذلك ، عدة فوائد .

منها : أن حكمته تعالى ، تقتضى ذلك ، ليتميز المؤمن الصادق من غيره .

ومنها : أنه تعالى ، يقدر عليهم هذه الأمور ، لما يريده بهم من الخير

. . . . . . . . . . .

---

ليعلى درجاتهم ، ويكفر من سيئاتهم ، وليزداد بذلك ، إيمانهم ، ويتم به إيقانهم .

فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر [ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ] .

ومنها : أنه أخبرهم بذلك ، لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع .

لأنهم قد استعدوا لوقوعه ، فيهون عليهم حمله ، وتخف عليهم مؤنته ويلجأون إلى الصبر والتقوى ، ولهذا قال :

[وإن تصبروا وتتقوا] أى: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم ، من الابتلاء ، والامتحان ، وعلى أذية الظالمين ، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله ، والتقرب إليه ، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعى من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال ، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله .

[ فإن ذلك من عزم الأمور ] أى : من الأمور التى يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى .

[ وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ

---

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد .

وهذا الميثاق أخذه الله تعالى ، على كل من أعطاه الله الكتب ، وعلمه العلم ، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ، ولا يكتمهم ذلك ، ويبخل عليهم به ، خصوصاً إذا سألوه ، أو وقع ما يوجب ذلك .

فإن كل من عنده علم ، يجب عليه فى تلك الحال ، أن يبينه ، ويوضح الحق من الباطل .

فأما الموفقون ، فقاموا بهذا أتم القيام ، وعلموا الناس مما علمهم الله ، ابتغاء مرضاة ربهم ، وشفقة على الخلق ، وخوفا من إثم الكتمان .

وأما الذين أوتوا الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ومن شابههم ، فنبذوا هذه العهود والمواثيق ، وراء ظهورهم ، فلم يعبأوا بها .

فكتموا الحق ، وأظهروا الباطل ، تجرؤا على محارم الله ، وتهاونا بحقوقه تعالى ، وحقوق الخلق ، واشتروا بذلك الكتمان ، ثمنا قليلا .

وهو : مايحصل لهم إن حصل ، من بعض الرياسات ، والأموال الحقيرة ، من سفلتهم المتبعين أهواءهم ، المقدمين شهواتهم على الحق .

[ فبئس مايشترون ] لأنه أخس العوض ، والذى رغبوا عنه — وهو بيان الحق ، الذى فيه السعادة الأبدية ، والمصالح الدينية والدنيوية — أعظم المطالب وأجلها .

أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

---

فلم يختاروا الدين الخسيس ويتركوا العالى النفيس ، إلا لسوء حظهم ، وهوانهم ، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له .

ثم قال تعالى [ لاتحسبن الذين يفرحون بما أتو] أى : من القبائح ، والباطل القولى والفعلى .

[ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ] أى : بالخير الذى لم يفعلوه ، والحق الذى لم يقولوه .

فجمعوا بين فعل الشر وقوله ، والفرح بذلك ، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذى ما فعلوه .

[ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ] أى : بمحل نجوة منه وسلامة ، بل قد استحقوه ، وسيصيرون إليه ، ولهذا قال [ ولهم عذاب أليم ] .

ويدخل فى هذه الآية الكريمة ، أهل الكتاب الذين فرحوا بماعندهم من العلم ، ولم ينقادوا للرسول ، وزعموا أنهم ، المحقون فى حالهم ومقالهم .

وكذلك كل من ابتدع بدعة ، قولية أو فعلية ، وفرح بها ، ودعا إليها ، وزعم أنه محق وغيره مبطل ، كما هو الواقع من أهل البدع .

ودلت الآية بمفهومها ، على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير ، واتباع الحق ، إذا لم يكن قصده بذلك ، الرياء والسمعة ، أنه غير مذموم .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

بل هذا من الأمور المطلوبة ، التى أخبر الله أنه يجزى بها المحسنين ، فى الأعمال والأقوال ، وأنه جازى بها خواص خلقه ، وسألوها منه .

كما قال إبراهيم عليه السلام [ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ] .

وقال [ سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ] .

وقد قال عباد الرحمن [ **واجعلنا للمتقين إماماً** ] وهى من نعم البارى على عبده ، ومننه التى تحتاج إلى الشكر .

☼ أى : هو المالك للسموات والأرض وما فيهما ، من سائر أصناف الخلق ، المتصرف فيهم ، بكمال القدرة ، وبديع الصنعة ، فلا يمتنع عليه منهم أحد ، ولا يعجزه أحد .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

يخبر تعالى [ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ] .

وفى ضمن ذلك ، حث العباد على التفكر فيها ، والتبصر بآياتها ، وتدبر خلقها .

وأبهم قوله [ آيات ] ولم يقل « على المطلب الفلانى » إشارة لكثرتها وعمومها .

وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ، ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين ، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية .

فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن مخلوقاً أن يحصره، ويحيط ببعضه.

وفى الجملة ، فما فيها من العظمة والسعة ، وانتظام السير والحركة ، يدل على عظمة خالقها ، وعظمة سلطانه وشمول قدرته

وما فيها ، من الإحكام ، والإتقان ، وبديع الصنع ، ولطائف الفعل ، يدل على حكمة الله ، ووضعه الأشياء مواضعها ، وسعة علمه .

وما فيها من المنافع للخلق ، يدل على سعة رحمة الله ، وعموم فضله ، وشمول بره ووجوب شكره .

وكل ذلك ، يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها ، وبذل الجهد

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾
رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا

---

فى مرضاته ، وأن لا يشرك به سواه ، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره ، مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وخص الله بالآيات ، أولى الألباب ، وهم : أهل العقول ، لأنهم ، هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم ، لا بأبصارهم .

ثم وصف أولى الألباب بأنهم [ يذكرون الله ] فى جميع أحوالهم (١)

---

( ١ ) قوله ( فى جميع أحوالهم ) إيضاح ذلك أن يذكر المؤمن ربه فى جميع أحواله وأحواله : منحصرة فى ثلاث ، القيام ، والقعود والاضطجاع ، فالله تعالى ، امتدح المؤمنين الذين يذكرونه بالتسبيح والتحميد والتهليل فى جميع حالاتهم من قيام وقعود واضطجاع ولم يفرض الله على عباده هيئة خاصة لذكره بأنواع الأذكار ولا طهارة خاصة من وضوء وغسل ، بل ندب إليه ورغب فيه فى جميع الأحوال ، ومن نعم الله على عباده أن جعل آلة الذكر — الذى هو اللسان — عضواً لا يعتريه الملل ولا يصيبه التعب كبقية الجوارح فإن المرء تتعب يده بحمل شىء مهما كان خفيفاً وينقله من يد إلى أخرى وأما اللسان فليس كذلك ، فلذلك أخبر الرسول أن خير حالات المرء أن يكون لسانه رطباً من ذكر الله وأن أفضل حالاته عند فراقه هذه الدنيا ، أن يفارقها ولسانه رطب من ذكر الله .

فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ
لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

---

[ قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ] ، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب .

ويدخل فى ذلك ، الصلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع، فعلى جنب .

وأنهم [ يتفكرون فى خلق السموات والأرض ] أى : ليستدلوا بها على المقصود منها :

ودل هذا ، على أن التفكر عبادة ، من صفات أولياء الله العارفين .

فإذا تفكروا بها ، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون .

[ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ] عن كل ما لا يليق بجلالك ، بالحق وللحق ، بل خلقتها مشتملة على الحق .

[ فقنا عذاب النار ] بأن تعصمنا من السيئات ، وتوفقنا للأعمال الصالحات ، لننال بذلك ، النجاة من النار .

ويتضمن ذلك ، سؤال الجنة ، لأنهم — إذا وقاهم الله عذاب النار — حصلت لهم الجنة .

ولكن لما قام الخوف بقلوبهم ، دعوا الله بأهم الأمور عندهم .

[ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ] أى : لحصوله على السخط من الله ، ومن ملائكته وأوليائه ، ووقوع الفضيحة ، التى لا نجاة منها ، ولا منقذ منها .

. . . . . . . . . .

---

ولهذا قال : [ وما للظالمين من أنصار ] ينقذونهم من عذابه .

وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم .

[ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ] وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، يدعو الناس إليه ، ويرغبهم فيه ، فى أصوله وفروعه .

[ فآمنا ] أى : أجبناه مبادرة ، وسارعنا إليه .

وفى هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم ، وتبجح بنعمته ، وتوسل إليه بذلك ، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

والذى من عليهم بالإيمان ، يمن عليهم بالأمان التام .

[ وتوفنا مع الأبرار ] يتضمن هذا الدعاء ، التوفيق لفعل الخير ، وترك الشر ، الذى به يكون العبد من الأبرار ، والاستمرار عليه ، والثبات إلى الممات .

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان ، وتوسلهم به إلى تمام النعمة — سألوه الثواب على ذلك ، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله ، من النصر ، والظهور فى الدنيا ، ومن الفوز برضوان الله وجنته ، فى الآخرة فإنه تعالى ، لا يخلف الميعاد ، فأجاب الله دعاءهم ، وقبل تضرعهم .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

---

فلهذا قال : [ فاستجاب لهم ربهم ]الآية .

أى : أجاب الله دعاءهم ،دعاء العبادة ، ودعاء الطلب وقال :

[أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ] .

فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفراً .

أى : كلكم على حد سواء فى الثواب والعقاب .

[ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا ].

فجمعوا بين الإيمان والهجرة ، ومفارقة المحبوبات ، من الأوطان ، والأموال ، طلباً لمرضاة ربهم ، وجاهدوا فى سبيل الله .

لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ] الذى يعطى عبده الثواب الجزيل ، على العمل القليل .

[ والله عنده حسن الثواب ] مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فمن أراد ذلك ، فليطلبه من الله بطاعته ، والتقرب إليه ، بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

---

وهذه الآية ، المقصود منها ، التسلية عما يحصل للذين كفروا ،من متاع الدنيا ، وتنعمهم فيها ، وتقلبهم فى البلاد ، بأنواع التجارات، والمكاسب، واللذات ، وأنواع العز ، والغلبة فى بعض الأوقات ، فإن هذا كله [متاع قليل] ليس له ثبوت ولا بقاء ، بل يتمتعون به قليلا ، ويعذبون عليه طويلا، هذه أعلى حالة تكون للكافر ، وقد رأيت ما تئول إليه .

وأما المتقون لربهم ، المؤمنون به — فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها [ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ] .

فلو قدر أنهم فى دار الدنيا ، قد حصل لهم كل بؤس ، وشدة، وعناد، ومشقة — لكان هذا — بالنسبة إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، والسرور والحبور ، والبهجة — نزراً يسيراً ، ومنحة فى صورة محنة ،ولهذا قال تعالى:

[ وما عند الله خير للأبرار ] وهم الذين برت قلوبهم ، فبرت أقوالهم وأفعالهم .

فأثابهم البر الرحيم من بره ، أجراً عظيما ، وعطاء جسيما ،وفوزاً دائماً .

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

---

أى : وإن من أهل الكتاب ، طائفة موفقة للخير ، يؤمنون بالله ، ويؤمنون بما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم .

وهذا هو الإيمان النافع ، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ، ويكفر ببعض .

ولهذا — لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً — صار نافعا ، فأحدث لهم خشية الله ، وخضوعهم لجلاله ، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه ، والوقوف عند حدوده .

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة ، كما قال تعالى :

[ إنما يخشى الله من عباده العلماء ] .

ومن تمام خشيتهم لله ، أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا .

فلا يقدمون الدنيا على الدين ، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلا .

وأما هؤلاء ، فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران ، الرضا بالدون عن الدين ، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية ، وترك الحق ، الذى هو : أكبر حظ وفوز ، من الدنيا والآخرة فآثروا الحق ، وبينوه ، ودعو إليه ، وحذروا عن الباطل .

فأثابهم الله على ذلك ، بأن وعدهم الأجر الجزيل ، والثواب الجميل .

ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

---

وأخبرهم بقربه ، وأنه سريع الحساب ، فلا يستبطئوا ما وعدهم الله . لأن ما هو آت ، محقق حصوله ، فهو قريب .

ثم حض المؤمنين ، على ما يوصلهم إلى الفلاح — وهو : الفوز بالسعادة والنجاح ، وأن الطريق الموصل إلى ذلك ، لزوم الصبر ، الذى هو حبس النفس على ما تكرهه ، من ترك المعاصى ، ومن الصبر على المصائب ، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس ، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك .

والمصابرة هى : الملازمة والاستمرار على ذلك ، على الدوام ، ومقاومة الأعداء فى جميع الأحوال .

والمرابطة وهو : لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون : يفوزون بالمحبوب الدينى والدنيوى والأخروى ، وينجون من المكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات .

فلم يفلح من أفلح ، إلا بها ، ولم يفت أحد ، الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» ، والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تم الجزء الأول من ( تيسير الرحيم الرحمن ، فى تفسير القرآن )

عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى

ويليه الجزء الثانى وأوله تفسير « سورة النساء »

والحمد لله رب العالمين

# فهرس

## الجزء الأول

صفحة

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات
## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن
# في
# تفسير كلام المنان

الجزء الثاني
من تفسير سورة النساء والمائدة والأنعام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

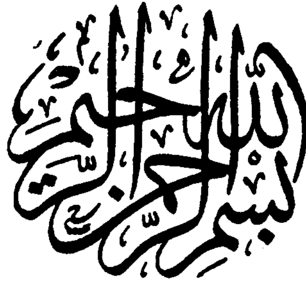

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

# تفسير

# سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً

---

* افتتح تعالى هذه السورة ، بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر بصلة الأرحام ، والحث على ذلك .

وبين السبب الداعى ، الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه أنه [ ربكم الذى خلقكم ] ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة ، التى من جملتها خلقكم [ من نفس واحدة وخلق منها زوجها ] ليناسبها ، فيسكن إليها ، وتتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور .

وكذلك ، من الموجب الداعى لتقواه ، تساؤلكم به ، وتعظيمكم .

حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم ، توسلتم بها ، بالسؤال.

فيقول من يريد ذلك لغيره : أسألك بالله ، أن تفعل الأمر الفلانى .

لعلمه بما قام فى قلبه ، من تعظيم الله الداعى ، أن لا يرد من سأله بالله .

فكما عظمتموه بذلك ، فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أى : مطلع على العباد، فى حال حركاتهم وسكونهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع الأحوال ، مراقباً لهم فيها ، مما يوجب مراقبته ، وشدة الحياء منه ، بلزوم تقواه .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

---

وفى الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بثهم فى أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد — ليعطف بعضهم على بعض ، ويرقق بعضهم على بعض .

وقرن الأمر بتقواه ، بالأمر ببر الأرحام ، والنهى عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق .

وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم ، هو من حق الله الذى أمر به .

وتأمل كيف افتتح هذه السورة ، بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً .

ثم بعد ذلك ، فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجمل منها ، موضحة لما أبهم .

وفى قوله [ وجعل منها زوجها ] تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج .

فبينهم وبينهن ، أقرب نسب ، وأشد اتصال وأوثق علاقة .

وقوله تعالى : [ وآتو اليتامى أموالهم ] الآية .

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

---

* هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق فى هذه السورة .

وهم اليتامى ، الذين فقدوا آباءهم ، الكافلين لهم ، وهم صغار ضعاف ، لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الرءوف الرحيم عباده ، أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتى هى أحسن ، وأن يؤتوهم أموالهم ، إذا بلغوا ، ورشدوا ، كاملة موفرة .

وأن لا [ تتبدلوا الخبيث ] الذى هو أكل مال اليتيم بغير حق .

[ بالطيب ] وهو الحلال ، الذى ما فيه حرج ولا تبعة .

[ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ] أى : مع أموالكم .

ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم ، بهذه الحالة ، التى هى قد استغنى بها الإنسان ، بما جعل الله له ، من الرزق فى ماله .

فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى [ حوباً كبيراً ] أى : إثماً عظيما ، ووزراً جسيما .

ومن استبدال الخبيث بالطيب ، أن يأخذ الولى ، من مال اليتيم ، النفيس ، ويجعل بدله من ماله ، الخسيس .

وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثبوت ولاية المؤتي على ماله .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾

---

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله ، حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميه ، وعدم تعريضه المخاوف والأخطار .

* أى : وإن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء، التى تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن ، لعدم محبتكم إياهن — فاعدلوا إلى غيرهن ، وانكحوا [ ما طاب لكم من النساء ] أى : ما وقع عليهن اختياركم ، من ذوات الدين ، والمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن ، فاختاروا على نظركم .

ومن أحسن ما يختار من ذلك ، صفة الدين كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يمينك » .

وفى هذه الآية — أنه ينبغى للإنسان ، أن يختار قبل النكاح .

بل قد أباح له الشارع ، النظر إلى من يريد تزوجها ، ليكون على بصيرة من أمره .

ثم ذكر العدد الذى أباحه من النساء فقال :

[ مثنى وثلاث ورباع ] أى : من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل ، أو ثلاثاً فليفعل ، أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد عليها ، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان .

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾

---

فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً .

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة ، فأبيح له واحدة بعد واحدة ، حتى تبلغ أربعاً ، لأن فى الأربع ، غنية لكل أحد ، إلا ما ندر .

ومع هذا ، فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ، ووثق بالقيام بحقوقهن .

فإن خاف شيئاً من هذا ، فليقتصر على واحدة ، أو على ملك يمينه .

فإنه لا يجب عليه القسم ، فى ملك اليمين .

[ ذلك ] أى : الاقتصار على واحدة ، أو ما ملكت اليمين [ أدنى أن لا تعولوا ] أى : تظلموا .

وفى هذا ، إن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم ، وعدم القيام بالواجب — ولو كان مباحاً — أنه لا ينبغى له أن يتعرض له ، بل يلزم السعة والعافية ، فإن العافية خير ما أعطى العبد .

ولما كان كثير من الناس ، يظلمون النساء ، ويهضمونهن حقوقهن — خصوصاً الصداق ، الذى يكون شيئاً كثيراً ، ودفعة واحدة ، يشق دفعه للزوجة — أمرهم وحثهم على إيتاء النساء [ صدقاتهن ] أى : مهورهن [ نحلة ] أى : عن طيب نفس ، وحال طمأنينة ، فلا تمطلوهن ، أو تبخسوا منه شيئاً .

وفيه : أن المهر يدفع إلى المرأة ، إذا كانت مكلفة ، وأنها تملكه بالعقد ، لأنه أضافه إليها ، والإضافة تقتضى التمليك .

. . . . . . . . . .

---

[ فإن طبن لكم عن شيء منه ] أي : من الصداق [ نفساً ] بأن سمحن لكم عن رضا واختيار ، بإسقاط شيء منه ، أو تأخيره أو المعاوضة عنه .

[ فكلوه هنيئاً مريئاً ] أي : لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة .

وفيه دليل على أن للمرأة ، التصرف في مالها — ولو بالتبرع — إذا كانت رشيدة ، فإن لم تكن كذلك ، فليس لعطيتها حكم .

وأنه ليس لوليها من الصداق شيء ، غير ما طابت به .

وفي قوله [ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ] دليل على أن نكاح الخبيثة، غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمشركة ، وكالفاجرة ، كما قال تعالى : [ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ] وقال [ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ] .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) ﴾

* السفهاء ، جمع « سفيه » وهو : من لا يحسن التصرف فى المال .

إما لعدم عقله ، كالمجنون والمعتوه ، ونحوهما .

وإما لعدم رشده ، كالصغير وغير الرشيد .

فنهى الله الأولياء ، أن يؤتوا هؤلاء أموالهم ، خشية إفسادها وإتلافها .

لأن الله جعل الأموال ، قياماً لعباده ، فى مصالح دينهم ودنياهم .

وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها .

فأمر الله الولى أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ، ويكسوهم ، ويبذل منها ، ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ، وأن يقولوا لهم قولا معروفاً ، بأن يعدوهم — إذا طلبوها — أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ، ونحو ذلك ، ويلطفوا لهم فى الأقوال ، جبراً لخواطرهم .

وفى إضافته تعالى ، الأموال إلى الأولياء ، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا فى أموال السفهاء ، ما يفعلونه فى أموالهم ، من الحفظ ، والتصرف ، وعدم التعرض للأخطار .

وفى الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه ، فى مالهم ، إذا كان لهم مال ، لقوله [ وارزقوهم فيها واكسوهم ] .

وفيه دليل على أن قول الولى مقبول فيما يدعيه ، فى النفقة الممكنة ، والكسوة .

لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم ، فلزم قبول قول الأمين .

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

---

☆ الابتلاء هو : الاختبار والامتحان .

وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد ، الممكن رشده ، شيئاً من ماله ، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله ، فيتبين بذلك رشده من سفهه .

فإن استمر غير محسن للتصرف ، لم يدفع إليه ماله ، بل هو باق على سفهه ، ولو بلغ عمراً كثيراً .

فإن تبين رشده وصلاحه فى ماله وبلغ النكاح [فادفعوا إليهم أموالهم] كاملة موفرة .

[ ولا تأكلوها إسرافاً ] أى مجاوزة للحد الحلال الذى أباحه الله لكم ، من أموالكم إلى الحرام الذى حرمه الله عليكم من أموالهم .

[ وبداراً أن يكبروا ] أى : ولا تأكلوها ، فى حال صغرهم ، التى لا يمكنهم فيها أخذها منكم ، ولا منعكم من أكلها ، تبادرون بذلك أن يكبروا ، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها .

وهذا من الأمور الواقعة ، من كثير من الأولياء ، الذين ليس عندهم خوف من الله ، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم .

يرون هذه الحال ، حال فرصة ، فيغتنمونها ، ويتعجلون ما حرم الله عليهم .

فنهى الله تعالى ، عن هذه الحالة بخصوصها .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

---

* كان العرب فى الجاهلية — من جبروتهم[1] وقسوتهم ، لا يورثون الضعفاء ، كالنساء والصبيان ، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء . لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال ، والنهب والسلب .

فأراد الرب الرحيم الحكيم ، أن يشرع لعباده شرعاً ، يستوى فيه رجالهم ونساؤهم ، وأقوياؤهم وضعفاؤهم .

وقدم بين يدى ذلك ، أمراً مجملا ، لتتوطن على ذلك النفوس .

فيأتى التفصيل بعد الإجمال ، قد تشوفت له النفوس ، وزالت الوحشة، التى منشأها ، العادات القبيحة فقال :

[ للرجال نصيب] أى : قسط وحصة [ مما ترك ] أى : خلف [الوالدان] أى : الأب والأم [والأقربون] عموما بعد خصوص [وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ] .

فكأنه قيل : هل ذلك النصيب ، راجع إلى العرف والعادة ، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون ؟ أو شيئاً مقدرا ؟

فقال تعالى [ نصيباً مفروضاً ] أى : قدره العليم الحكيم .

وسيأتى — إن شاء الله — تقدير ذلك .

---

(١) فى الأصل (جبريتهم) وهو غير سائغ لغة، ولذا أبدلناها بـ (جبروتهم).

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَـٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

---

وأيضاً ، فهنا توهم آخر ، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدين ، ليس لهم نصيب ، إلا من المال الكثير ، فأزال ذلك بقوله، [ مما قل منه أو كثر ] فتبارك الله أحسن الحاكمين .

* وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة ، الجابرة للقلوب فقال :

[ وإذا حضر القسمة ] أى : قسمة المواريث [ أولوا القربى ] أى : الأقارب غير الوارثين ، بقرينة قوله [ القسمة ] لأن الوارثين من المقسوم عليهم.

و [ اليتامى والمساكين ] أى : المستحقون من الفقراء .

[ فارزقوهم منه ] أى : أعطوهم ما تيسر من هذا المال ، الذى جاءكم بغير كد ولا تعب ، ولا عناء ، ولا نصب ، فإن نفوسهم متشوفة إليه ، وقلوبهم متطلعة .

فاجبروا خواطرهم ، بما لا يضركم ، وهو نافعهم .

ويؤخذ من المعنى ، أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدى الإنسان ، ينبغى له أن يعطيه منه ، ما تيسر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه ، فليجلسه معه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله لقمة أو لقمتين » أو كما قال :

وكان الصحابة رضى الله عنهم – إذا بدأت باكورة أشجارهم – أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرّك عليها ، ونظر إلى أصغر وليد

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

---

عنده ، فأعطاه ذلك ، علماً منه بشدة تشوفه إلى ذلك ، وهذا كله ، مع إمكان الإعطاء .

فإن لم يمكن ذلك — لكونه حق سفهاء ، أو ثم أهم من ذلك — فليقولوا لهم [ قولا معروفاً ] يردونهم رداً جميلا ، بقول حسن ، غير فاحش ، ولا قبيح .

* قيل : إن هذا خطاب لمن يحضر ، من حضره الموت وأجنف فى وصيته ، أن يأمره بالعدل فى وصيته ، والمساواة فيها بدليل قوله .

[ وليقولوا قولا سديداً ] أى : سداداً ، موافقاً للقسط والمعروف .

وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده ، بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم .

وقيل : إن المراد بذلك ، أولياء السفهاء ، من المجانين ، والصغار ، والضعاف ، أن يعاملوهم فى مصالحهم الدينية والدنيوية ، بما يحبون أن يعامل به من بعدهم ، من ذريتهم الضعاف .

[ فليتقوا الله ] فى ولايتهم لغيرهم ، أى : يعاملونهم بما فيه تقوى الله ، من عدم إهانتهم ، والقيام عليهم ، وإلزامهم لتقوى الله .

. . . . . . . . . . .

---

ولما أمرهم بذلك ، زجرهم عن أكل أموال اليتامى ، وتوعد فقال : على ذلك أشد العذاب [ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ] أى : بغير حق .

وهذا القيد ، يخرج به ما تقدم ، من جواز الأكل للفقير بالمعروف ، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى .

فمن أكلها ظلماً ، فإنما [ يأكلون فى بطونهم ناراً ] أي : فإن الذى أكلوه ، نار تتأجج من أجوافهم وهم الذين أدخلوه فى بطونهم .

[ وسيصلون سعيراً ] أى : ناراً محرقة[1] متوقدة .

وهذا أعظم وعيد ورد فى الذنوب ، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها ، وأنها موجبة لدخول النار .

فدل ذلك ، أنها من أكبر الكبائر . نسأل الله العافية .

---

(١) فى الأصل ( محترقة ) وهو تحريف .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ

﴿أحكام المواريث — بيان أصحابها﴾

هذه الآيات، والآية التي هى آخر السورة من آيات المواريث المتضمنة لها.

فإنها — مع حديث عبدالله بن عباس، الثابت فى صحيح البخارى «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقى، فلأولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها، كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات، فإنه غير مذكور فى ذلك.

لكنه قد ثبت فى السنن، عن المغيرة بن شعبة، ومحمدبن مسلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

﴿بيان ميراث الأولاد﴾

[يوصيكم الله فى أولادكم] أى: أولادكم - يامعشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية.

فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى:

[ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة]

فالأولاد - عند والديهم - موصى بهم.

فإما أن يقوموا بتلك الوصية، فلهم جزيل الثواب.

وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب.

وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين - مع كمال شفقتهما، عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال [ للذكر مثل حظ الأنثيين ] أى : الأولاد للصلب ، والأولاد للابن ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، إن لم يكن معهم صاحب فرض ، أو ما أبقت الفروض ، يقتسمونه كذلك .

وقد أجمع العلماء على ذلك ، وأنه ـ مع وجود أولاد الصلب ـ فالميراث لهم .

وليس لأولاد الابن شىء ، حيث كان أولاد الصلب ، ذكوراً وإناثاً .

هذا مع اجتماع الذكور والإناث .

وهنا حالتان : انفراد الذكور ، وسيأتى حكمها .

وانفراد الإناث ، وقد ذكره بقوله .

﴿ أحكام البنات فى الميراث ﴾

[ فإن كن نساء فوق اثنتين ] أى : بنات صلب ، أو بنات ابن ، ثلاثاً فأكثر [ فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة ] أى : بنتاً ، أو بنت ابن [ فلها النصف ] وهذا إجماع .

بقى أن يقال . من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين ، الثلثين بعد الإجماع على ذلك ؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله [ فإن كانت واحدة فلها النصف ] .

فمفهوم ذلك ، أنه إن زادت على الواحدة ، انتقل الفرض عن النصف ، ولا ثم بعده إلا الثلثان .

فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ

---

وأيضاً ، فقوله [ للذكر مثل حظ الأنثيين ] إذا خلف ابنا وبنتا ،فإن الابن ، له الثلثان ، وقد أخبر الله ، أنه مثل حظ الأنثيين .

فدل ذلك ، على أن للبنتين الثلثين .

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها ـ وهو أزيد ضرراً عليها من أختها ـ فأخذها له ـ مع أختها ـ من باب أولى وأحرى .

وأيضاً فإن قوله تعالى فى الأختين [ فإن كانتا اثنتين ، فلهما الثلثان مما ترك ] نص فى الأختين الثنثين .

فإذا كان الأختان الثنتان ـ مع بُعدهما ـ يأخذان الثلثين ، فالابنتان ـ مع قربهما ـ من باب أولى وأحرى .

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنتي سعد ، الثلثين كما فى الصحيح .

بقى أن يقال : فما الفائدة فى قوله [ فوق اثنتين ] ؟

قيل : الفائدة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ليعلم أن الفرض الذى هو الثلثان ، لا يزيد بزيادتهن على الثنتين ، بل من الثنتين فصاعداً .

ودلت الآية الكريمة ، أنه إذا وجد بنت صلب واحدة ، وبنت ابن أو بنات ابن ، فإن لبنت الصلب ، النصف ، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات ، أو بنات الابن ، السدس ، فيعطى بنت الابن ،أو بنات الابن ، ولهذا يسمى هذا السدس ، تكملة الثلثين .

ومثل ذلك ، بنت الابن ، مع بنات الابن ، اللاتى أنزل منها .

وتدل الآية ، أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين ، أنه

لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ

---

يسقط من دونهن ، من بنات الابن ، لأن الله لم يفرض لهن ، إلا الثلثين ، وقد تم .

فلو لم يسقطن ، لزم من ذلك أن يفرض لهن ، أزيد من الثلثين ، وهو خلاف النص .

وكل هذه الأحكام ، مجمع عليها بين العلماء ، ولله الحمد .

ودل قوله [ مما ترك ] أن الوارثين ، يرثون كل ما خلف الميت ، من عقار ، وأثاث ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك ، حتى الدية ، التي لم تجب إلا بعد موته ، وحتى الديون التي فى الذمة .

﴿ أحكام الأبوين فى الميراث ﴾

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال :

[ ولأبويه ] أى أبوه وأمه [ لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ] أى : ولد صلب ، أو ولد ابن ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو متعدداً .

فأما الأم ، فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد .

﴿ أحكام الأب فى الميراث ﴾

وأما الأب ، فمع الذكور منهم ، لا يستحق أزيد من السدس .

فإن كان الولد أنثى أو إناثا ، ولم يبق بعد الفرض شىء ، كأبوين وابنتين ، لم يبق له تعصيب .

وإن بقى بعد فرض البنت أو البنات شىء ، أخذ الأب السدس فرضاً ، والباقى تعصيباً .

لأننا ألحقنا الفروض بأهلها ، فما بقى ، فلأولى رجل ذكر ، وهو أولى من الأخ والعم ، وغيرهما .

[ فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ] أى : والباقى للأب ، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم ، إضافة واحدة ، ثم قدر نصيب الأم ، فدل ذلك ، على أن الباقى للأب .

وعلم من ذلك ، أن الأب — مع عدم الأولاد — لا فرض له ، بل يرث — تعصيباً — المال كله ، أو ما أبقت الفروض .

ولكن لو وجد مع الأبوين ، أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة ، يأخذ فرضه ، ثم تأخذ الأم ثلث الباقى والأب ، الباقى .

وقد دل على ذلك قوله [ وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ] ثلث ماورثه الأبوان .

وهو فى هاتين الصورتين ، إما سدس فى زوج وأم وأب ، وإما ربع فى زوجة ، وأم وأب .

فلم تدل الآية على إرث الأم ، ثلث المال كاملا ، مع عدم الأولاد .

حتى يقال : إن هاتين الصورتين ، قد استثنيتا من هذا .

ويوضح ذلك ، أن الذى يأخذه الزوج أو الزوجة ، بمنزلة ما يأخذه الغرماء .

فيكون من رأس المال ، والباقى ، بين الأبوين .

ولأنا لو أعطينا الأم ثلث المال ، لزم زيادتها على الأب ، فى مسألة الزوج ، أو أخذ الأب فى مسألة الزوجة ، زيادة عنها نصف السدس ، وهذا لا نظير له .

فإن المعهود مساواتها للأب ، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم .

[ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ] أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، ذكورا أو إناثا ، وارثين ، أو محجوبين بالأب ، أو الجد .

لكن قد يقال : ليس ظاهرُ قولِه [ فإن كان له إخوة ] شاملا لغير الوارثين ، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف .

فعلى هذا ، لايحجبها عن الثلث من الإخوة ، إلا الإخوة الوارثون .

ويؤيده أن الحكمة فى حجبهم لها عن الثلث ، لأجل أن يتوفر لهم شىء من المال ، وهو معدوم . والله أعلم . ولكن يشرط كونهم اثنين فأكثر .

ويشكل على ذلك ، إتيان لفظ « الإخوة » بلفظ الجمع .

وأجيب عن ذلك ، بأن المقصود ، مجرد التعدد لا الجمع ، ويصدق ذلك باثنين .

وقد يطلق الجمع ، ويراد به الاثنان كما فى قوله تعالى عن داود وسليمان [ وكنا لحكمهم شاهدين ] وقال فى الإخوة للأم :

[ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ] .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ

فأطلق لفظ الجمع ، والمراد به ، اثنان فأكثر ، بالإجماع .

فعلى هذا ، لو خلف أما وأبا وإخوة ، كان للأم السدس ، والباقى للأب ، فحجبوها عن الثلث ، مع حجب الأب إياهم ، إلا على الاحتمال الآخر ، فإن للأم الثلث ، والباقى للأب .

ثم قال تعالى [ من بعد وصية يوصى بها أو دين ] أى هذه الفروض والأنصباء ، والمواريث ، إنما ترد وتستحق ، بعد نزع الديون التى على الميت لله ، أو للآدميين ، وبعد الوصايا ، التى قد أوصى الميت بها بعد موته ، فالباقى عن ذلك ، هو التركة ، التى يستحقها الورثة .

وقدم الوصية – مع أنها مؤخرة عن الدين – للاهتمام بشأنها ، لكون إخراجها ، شاقاً على الورثة ، وإلا ، فالديون مقدمة عليها ، وتكون من رأس المال .

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للأجنبى الذى هو غير وارث .

وأما غير ذلك ، فلا ينفذ ، إلا بإجازة الورثة ، قال تعالى :

[ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ] .

فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم ، لحصل من الضرر ، ما الله به عليم ، لنقص العقول ، وعدم معرفتها بما هو اللائق والأحسن ، فى كل زمان ومكان .

فلا يدرون أى الأولاد ، أو الوالدين ، أنفع لهم وأقرب ، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية .

إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

[ فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ] أى : فرضها الله الذى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحكم ماشرعه ، وقدر ما قدره ، على أحسن تقدير ، لاتستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة ، لكل زمان ، ومكان ، وحال .

﴿ حكم الزوج والزجات فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى : [ ولكم ] أيها الأزواج [ نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ] .

ويدخل فى مسمى الولد ، المشروط وجوده أو عدمه ، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى ، الواحد والمتعدد ، الذى من الزوج ، أو من غيره ، ويخرج عنه ، ولد البنات إجماعا .

﴿ بيان معنى ( الكلالة ) ونصيبها فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى [ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ] أى : من أم ، كما هى فى بعض القراءات .

وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة — هنا — الإخوة للأم .

فإذا كان يورث كلالة أى : ليس للميت والد ولا ولد ، أى : لا أب ، ولا جد ، ولا ابن ، ولا ابن ابن ، ولا بنت ، ولا بنت ابن وإن نزلوا . وهذه هى : الكلالة ، كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد حصل على ذلك ، الاتفاق ، ولله الحمد .

مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ

---

[ فلكل واحد منهما ] أى : من الأخ والأخت [ السدس ] .

[فإن كانوا أكثر من ذلك] أى : من واحد [ فهم شركاء فى الثلث ] أى : لا يزيدون على الثلث ، ولو زادوا عن اثنين .

ودل قوله [ فهم شركاء فى الثلث ] أن ذكرهم وأنثاهم سواء ، لأن لفظ « الشريك » يقتضى التسوية .

ودل لفظ [ الكلالة ] على أن الفروع وإن نزلوا ، والأصول الذكور وإن علوا ، يسقطون أولاد الأم ، لأن الله لم يورثهم إلا فى الكلالة ، فلو لم يكن يورث كلالة ، لم يرثوا منه شيئا ، اتفاقا .

ودل قوله [ فهم شركاء فى الثلث ] أن الإخوة الأشقاء ، يسقطون فى المسألة المسماة بالحمارية .

وهى : زوج ، وأم ، وإخوة أشقاء .

وللزوج ، النصف . وللأم ، السدس . وللاخوة للأم : الثلث .

ويسقط الأشقاء ، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم .

فلو شاركهم الأشقاء ، لكان جمعا ، لما فرق الله حكمه .

وأيضا ، فإن الإخوة للأم ، أصحاب فروض ، والأشقاء ، عصبات .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى ، فلأولى رجل ذكر » .

وأهل الفروض هم : الذين قدر الله أنصباءهم .

يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

فني هذه المسألة ، لا يبقى بعدهم شيء ، فيسقط الأشقاء ، وهذا هو الصواب في ذلك .

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء ، أو لأب ، فمذكور في قوله :

[ يستفنونك قل الله يفتيكم في الكلالة ] الآية .

فالأخت الواحدة ، شقيقة ، أو لأب ، لها النصف .

والثنتان ، لهما الثلثان .

والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب ، أو الأخوات ، تأخذ النصف والباقي من الثلثين ، للأخت ، أو الأخوات لأب ، وهو السدس ، تكملة الثلثين .

وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين ، تسقط الأخوات للأب ، كما تقدم في البنات ، وبنات الابن .

وإن كان الإخوة ، رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين .

﴿ حكم القاتل واختلاف دين الميت وأقربائه ﴾

فإن قيل : فهل يستفاد حكم ميراث القاتل ، والرقيق ، والمخالف في الدين ، والمبعض والخنثى ، والجد مع الإخوه لغير أم ، والعول ، والرد وذوى الأرحام ، وبقية العصبة ، والأخوات لغير أم ، مع البنات ، أو بنات الابن ، من القرآن أم لا ؟

مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً

قيل : نعم ، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات .

فأما ( القاتل والمخالف فى الدين ) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية ، فى توزيع المال على الورثة ، بحسب قربهم ، ونفعهم الدينى والدنيوى .

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله [ لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا ] .

وقد علم أن القاتل ، قد سعى لمورثه[1] بأعظم الضرر ، فلا ينتهض ما فيه ، من موجب الإرث ، أن يقاوم ضرر القتل ، الذى هو ضد النفع الذى رتب عليه الإرث .

فعلم من ذلك ، أن القتل أكبر مانع يمنع من الميراث ، ويقطع الرحم الذى قال الله فيه :

[ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] .

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية ، أن « من استعجل شيئا قبل أوانه ، عوقب بحرمانه » .

وبهذا ونحوه ، يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له .

---

(١) قوله : الأولى ( لموروثه ) خطأ ، والصحيح ( لمورثه ) لأن كلمة (موروث) معناها الحقيقى تركة الميت فيقال : مال موروث . ولا يقال ـ على وجه الحقيقة ـ ميت موروث، لأن جثته لاتورث، ولا داعى لارتكاب المجاز .

أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟

---

وذلك أنه قد تعارض الموجب ، الذى هو : اتصال النسب ، الموجب للإرث ، والمانع الذى ، هو المخالفة فى الدين ، الموجبة للمباينة من كل وجه .

فقوى المانع ، ومنع موجب الإرث ، الذى هو النسب .

فلم يعمل الموجب لقيام المانع .

يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين ، أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية .

فإذا مات المسلم ، انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به .

فيكون قوله تعالى :

[ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] إذا اتفقت أديانهم .

وأما مع تباينهم ، فالأخوة الدينية ، مقدمة على الأخوة النسبية المجردة .

قال ابن القيم فى « جلاء الأفهام » : « وتأمل هذا المعنى من آية المواريث ، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة ، دون المرأة كما فى قوله تعالى [ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ] .

ففيه إيذان[1] بأن هذا التوارث ، إنما وقع بالزوجية ، المقتضية للتشاكل والتناسب .

---

(١) إيذان . أى : إعلام وتعليم .

أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ

---

والمؤمن والكافر ، لا تشاكل بينهما ، ولاتناسب ، فلا يقع بينهما التوارث .

وأسرار مفردات القرآن ومركباته ، فوق عقول العاقلين » انتهى .

﴿ حكم الرقيق فى الميراث ﴾

وأما ( الرقيق ) ، فإنه لايرث ولايورث .

أما كونه لايورث فواضح ، لأنه ليس له مال يورث عنه ، بل كل مامعه ، فهو لسيده .

وأما كونه لايرث ، فلأنه لايملك ، فإنه لو ملك ، لكان لسيده ، وهو أجنبى من الميت ، فيكون مثل قوله تعالى :

[ للذكر مثل حظ الأنثيين — ولكم نصف ماترك أزواجكم — فلكل واحد منهما السدس ] ونحوها ، لمن يتأتى منه التملك .

وأما الرقيق ، فلا يتأتى منه ذلك ، فعلم أنه لاميراث له .

وأما من بعضه حر ، وبعضه رقيق ، فإنه تتبعض أحكامه .

فما فيه من الحرية ، يستحق بها مارتبه الله فى المواريث ، لكون مافيه من الحرية ، قابلا للتملك ، وما فيه من الرق ، فليس بقابل لذلك .

فإذاً يكون المبعض ، يرث ويورث ، ويحجب بقدر مافيه من الحرية .

وإذا كان العبد يكون محمودا ومذموماً ، مثابا ومعاقباً ، بقدر مافيه من موجبات ذلك ، فهذا كذلك .

أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿ حكم الخنثى والمشكل فى الميراث ﴾

وأما (الخنثى) فلا يخلو ، إما أن يكون واضحاً ذكوريته أوأنوثيته ، أو مشكلا .

فإن كان واضحاً ، فالأمر فيه واضح .

إن كان ذكرا ، فله حكم الذكور ، ويشمله النص الوارد فيهم .

وإن كانت أنثى ، فلها حكم الإناث ، ويشملها النص الوارد فيهن .

وإن كان مشكلا ، فإن كان الذكر والأنثى لايختلف إرثهما — كالإخوة للأم — فالأمر فيه واضح .

وإن كان يختلف إرثه ، بتقدير ذكوريته ، وبتقدير أنوثيته ، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك ، لم نعطه أكثر التقديرين ، لاحتمال ظلم من معه من الورثة ، ولم نعطه الأقل ، لاحتمال ظلمنا[1] إياه .

فوجب التوسط بين الأمرين ، وسلوك أعدل الطريقين ، قال تعالى : [ اعدلوا هو أقرب للتقوى ] .

فليس لنا طريق إلى العدل فى مثل هذا ، أكثر من هذا الطريق المذكور .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » « فاتقوا الله ما استطعتم » .

---

(١) قوله (ظلمنا له) هكذا فى الأصل وهوخطأ نحوى . لأن (ظلم) يتعدى بنفسه لاباللام ، كما قال تعالى ( وما ظلمهم الله ) ولذا أصلحناه كما ترى .

. . . . . . . . . . .

---

## ﴿ ميراث الجد ﴾

وأما ( ميراث الجد ) مع الإخوة الأشقاء ، أو لأب ، وهل يرثون معه أم لا ؟ .

فقد دل كتاب الله ، على قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أن الجد يحجب الإخوة ، أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، كما يحجبهم الأب .

وبيان ذلك : أن الجد : أب فى غير موضع من القرآن كقوله تعالى :

[ إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق ] الآية .

وقال يوسف عليه السلام [ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ] .

فسمى الله الجد ، وجد الأب : أباً . فدل ذلك ، على أن الجد ، بمنزلة الأب ، يرث ما يرثه الأب ، ويحجب من يحجبه ( أى : عند عدمه ) .

وإذا كان العلماء ، قد أجمعوا على أن الجد ، حكمه حكم الأب عند عدمه فى ميراثه مع الأولاد وغيرهم ، من بين الإخوة والأعمام وبنيهم ، وسائر أحكام المواريث ـ فينبغى أيضاً ، أن يكون حكمه حكمه ، فى حجب الإخوة لغير أم .

وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب ، فلم لايكون الجد بمنزلة الأب ؟

وإذا كان جد الأب ، مع ابن الأخ ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه . فلم لايحجب جد الميت أخاه ؟

. . . . . . . . . . .

فليس مع من يورث الإخوة مع الجد ، نص ولا إشارة ، ولاتنبيه ، ولاقياس صحيح .

## ﴿ العول وأحكامه ﴾

وأما مسائل ( العول ) فإنه يستفاد حكمها من القرآن .

وذلك أن الله تعالى ، قد فرض ، وقدر لأهل المواريث أنصباء . وهم بين حالتين .

إما أن يحجب بعضهم بعضاً ، أولا .

فإن حجب بعضهم بعضاً ، فالمحجوب ساقط،لايزاحم ، ولايستحق شيئاً

وإن لم يحجب بعضهم بعضاً ، فلا يخلو .

إما أن لاتستغرق الفروض التركة ، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص أو تزيد الفروض على التركة .

ففي الحالتين الأوليين ، كل يأخذ فرضه كاملا .

وفي الحالة الأخيرة وهي — ما إذا زادت الفروض على التركة — فلا يخلو من حالين .

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ، ونكمل للباقين منهم فروضهم ، وهذا ترجيح بغير مرجح ، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر .

فتعينت الحال الثانية ، وهو : أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه ، بقدر الإمكان ، ونحاصص بينهم ، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم .

. . . . . . . . . . . .

ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول .

فعلم من هذا ، أن العول فى الفرائض ، قد بينه الله فى كتابه .

﴿ بيان أحكام الرد على أصحاب الفرائض ﴾

وبعكس هذه الطريقة بعينها ، يعلم ( الرد ) .

فإن أهل الفروض — إذا لم تستغرق فروضهم التركة ، وبقى شىء ليس له مستحق ، من عاصب قريب ولا بعيد ، فإن رده على أحدهم ، ترجيح بغير مرجح ، وإعطاؤه غيرهم ، ممن ليس بقريب للميت ، جنف وميل ، ومعارضة لقوله [ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] .

فتعين أن يرد على أهل الفروض ، بقدر فروضهم .

﴿ حكم الرد على الزوجين فى الميراث ﴾

ولما كان الزوجان ، ليسا من القرابة ، لم يستحقا الزيادة على فرضهم المقدر عند القائلين ، بعدم الرد عليهما .

وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين ، حكم باقى الورثة فى الرد، فالدليل المذكور ، شامل للجميع ، كما شملهم دليل العول .

﴿ حكم ذوى الأرحام فى الميراث ﴾

وبهذا يعلم أيضاً ، ميراث ذوى الأرحام .

فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ، ولا عاصباً ، وبقى الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبيت المال ، لمنافع الأجانب ، وبين كون ماله يرجع

. . . . . . . . . . .

---

إلى أقربائه المدلين بالورثة ، المجمع عليهم ، تعين الثانى .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

[ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] .

فصرفه لغيرهم ، ترك لمن هو أولى من غيره ، فتعين توريث ذوى الأرحام .

وإذا تعين توريثهم ، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم فى كتاب الله .

وأن بينهم وبين الميت وسائط ، صاروا ـ بسببها ـ من الأقارب .

فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط . والله أعلم .

﴿ بيان من هم عصبة الميت وحكمهم فى الميراث ﴾

وأما ( ميراث بقيـة العصبة ) كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم الخ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فلأولى رجل ذكر » .

وقال تعالى : [ ولكل جلعنا موالى ، مما ترك الوالدان والأقربون ] .

فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ، ولم يبق شىء ، لم يستحق العاصب شيئا .

وإن بقى شىء ، أخذه أولى العصبة ، بحسب جهاتهم ، ودرجاتهم .

﴿جهات العصبة﴾

فإن جهات العصوبة خمس : البنوة ، ثم الأبوة ثم الأخوة وبنوهم ، ثم العمومة وبنوهم ، ثم الولاء ، ويقدم منهم الأقرب جهة .

فإن كانوا فى جهة واحدة ، فالأقرب منزلة .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

---

فإن كانوا بمنزلة واحدة، فالأقوى، وهو الشقيق.

فإن تساووا من كل وجه، اشتركوا. والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم، مع البنات، أو بنات الابن عصبات، يأخذن مافضل عن فروضهن، فلأنه ليس فى القرآن، مايدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقى شىء بعد أخذ البنات فرضهن، فإنه يعطى للأخوات، ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

* أى: تلك التفاصيل التى ذكرها فى المواريث، حدود الله، التى يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها.

وفى ذلك دليل، على أن الوصية للوارث منسوخة، بتقديره تعالى أنصباء الوارثين.

ثم قوله تعالى [ تلك حدود الله فلا تعتدوها ] فالوصية للوارث، بزيادة على حقه، يدخل فى هـذا التعدى، مع قوله صلى الله عليه وسلم « لا وصية لوارث ».

ثم ذكر طاعة الله ورسوله، ومعصيتهما، عموما، ليدخل فى العموم، لزوم حدوده فى الفرائض، أو ترك ذلك فقال:

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

---

[ ومن يطع الله ورسوله ] بامتثال أمرهما ، الذى أعظمه ، طاعتهما فى التوحيد ، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها ، واجتناب نهيهما ، الذى أعظمه الشرك بالله ، ثم المعاصى على اختلاف طبقاتها [ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ] .

فمن أدى الأوامر ، واجتنب النواهى ، فلا بد له من دخول الجنة ، والنجاة من النار .

[ وذلك الفوز العظيم ] الذى حصل به النجاة ، من سخطه وعذابه ، والفوز بثوابه ورضوانه ، بالنعيم المقيم ، الذى لا يصفه الواصفون .

[ ومن يعص الله ورسوله . الخ ] ويدخل فى اسم المعصية ، الكفر فما دونه من المعاصى .

فلا يكون فيها شبهة للخوارج ، القائلين بكفر أهل المعاصى .

فإن الله تعالى رتب دخول الجنة ، على طاعته ، وطاعة رسوله .

ورتب دخول النار ، على معصيته ومعصية رسوله .

فمن أطاعه طاعة تامة ، دخل الجنة بلا عذاب .

ومن عصى الله ورسوله ، معصية تامة ، يدخل فيها الشرك ، فما دونه ، دخل النار وخلد فيها .

ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية .

﴿ وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّـٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا

---

وقد دلت النصوص المتواترة ، على أن الموحدين ، الذين معهم طاعة التوحيد ، غير مخلدين فى النار .

فما معهم من التوحيد ، مانع لهم من الخلود فيها .

* أى : النساء [ اللاتى يأتين الفاحشة ] أى : الزنا .

فوصفها بالفاحشة ، لشناعتها وقبحها .

[ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ] أى : من رجالكم المؤمنين العدول .

[ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ] احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة .

وأيضاً ، فإن الحبس ، من جملة العقوبات .

[ حتى يتوفاهن الموت ] أى : هذا منتهى الحبس .

[ أو يجعل الله لهن سبيلا ] أى : طريقا غير الحبس فى البيوت .

فهذه الآية ليست منسوخة ، فإنما هى ، مغياة إلى ذلك الوقت .

فكان الأمر فى أول الإسلام كذلك ، حتى جعل الله لهن سبيلا ، وهو رجم المحصن والمحصنة وجلد غير المحصن والمحصنة .

(و) كذلك [ اللذان يأتيانها ] أى : الفاحشة [ منكم ] من الرجال والنساء [ فآذوهما ] بالقول والتوبيخ والتعيير ، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة .

مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

فعلى هـذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون ، والنساء يحبسن ويؤذين .

فالحبس غايته للموت ، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح .

ولهذا قال [ فإن تابا ] أى : رجعا عن الذنب الذى فعلاه ، وندما عليه ، وعزما أن لايعودا [ وأصلحا ] العمل الدال على صـدق التوبة [ فأعرضوا عنهما ] أى : عن أذاهما [ إن الله كان توابا رحيما ] أى : كثير التوبة على المذنبين الخطائين ، عظيم الرحمة والإحسان ، الذى - من إحسانه - وفقهم للتوبة ، وقبلها منهم ، وسامحهم عن ماصدر منهم .

ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أن بينة الزنا ، أن تكون أربعة رجال مؤمنين .

ومن باب أولى وأحرى ، اشتراط عدالتهم .

لأن الله تعالى ، شدد فى أمر هذه الفاحشة ، ستراً لعباده .

حتى إنه ، لايقبل فيها النساء منفردات ، ولامع الرجل ، ولا مع دون أربعة .

ولابد من التصريح بالشهادة ، كما دلت على ذلك ، الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية لما قال [ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ] .

لم يكتف بذلك حتى قال [ فإن شهدوا ] أى : لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً ، من غير تعريض ، ولا كناية .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ

---

ويؤخذ منهما ، أن الأذية بالقول والفعل ، والحبس ، قد شرعه الله ، تعزيراً لجنس المعصية ، الذى يحصل به الزجر .

* توبة الله على عباده نوعان :

توفيق منه للتوبة ، وقبول لها ، بعد وجودها من العبد .

فأخبر هنا ـ أن التوبة المستحقة على الله ، حق أحقه على نفسه ، كرماً منه وجوداً ، لمن عمل السوء أى : المعاصى [ بجهالة ] أى: جهالة منه لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه ، وجهل منه ، لنظر الله ومراقبته له ، وجهل منه ، بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه .

فكل عاص لله ، فهو جاهل بهذا الاعتبار ، وإن كان عالماً بالتحريم . بل العلم بالتحريم ، شرط لكونها معصية ، معاقباً عليها .

[ ثم يتوبون من قريب ] يحتمل أن يكون المعنى : ثم يتوبون قبل معاينة الموت .

فإن الله يقبل توبة العبد ، إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب، قطعا.

وأما بعد حضور الموت ، فلا يقبل من العاصين توبتهم، ولا من الكفار رجوع ، كما قال تعالى عن فرعون :

[ فلما أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ] الآية .

إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

---

وقال تعالى : [ فلما رأوا بأسنا ، قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ] وقال هنا :

[ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ] أى : المعاصى فيما دون الكفر.

[ حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، فأولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ] .

وذلك ، أن التوبة فى هذه الحال توبة اضطرار ، لا تنفع صاحبها .

إنما تنفع توبة الاختيار .

ويحتمل أن يكون معنى قوله « من قريب » أى : قريب من فعلهم الذنب ، الموجب للتوبة .

فيكون المعنى : من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب ، وأناب إلى الله ، وندم عليه فإن الله يتوب عليه .

بخلاف من استمر على ذنبه ، وأصر على عيوبه ، حتى صارت فيه صفات راسخة ، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة .

والغالب أنه لا يوفق للتوبة ، ولا ييسر لأسبابها .

كالذى يعمل السوء على علم قائم ، ويقين متهاون بنظر الله إليه ، فإنه يسد على نفسه ، باب الرحمة .

نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب ، على عمد ويقين ، للتوبة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ

---

النافعة ، التي يمحو بها ما سلف من سيئاته ، وما تقدم من جناياته ولكن الرحمة والتوفيق للأول ، أقرب .

ولهذا ختم الآية الأولى بقوله [ وكان الله عليما حكيما ] .

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها ، فيجازى كلا منهما ، بحسب ما استحق بحكمته .

ومن حكمته ، أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته ، توفيقه للتوبة .

ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، عدم توفيقه . والله أعلم .

* كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته ، رأى قريبه ، كأخيه ، وابن عمه ونحوهما ، أنه أحق بزوجته من كل أحد ، وحماها عن غيره ، أحبت أو كرهت .

فإن أحبها ، تزوجها على صداق ، يحبه دونها .

وإن لم يرضها ، عضلها ، فلا يزوجها إلا من يختاره هو .

وربما امتنع من تزويجها ، حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه ، أو من صداقها .

وكان الرجل أيضاً ، يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها ، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين :

أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ

---

إذا رضيت ، واختارت نكاح قريب زوجها الأول ، كما هو مفهوم قوله [ كرها ] .

وإذا أتين بفاحشة مبينة ، كالزنا ، والكلام الفاحش، وأذيتها الزوجها ، فإنه فى هذه الحال ، يجوز له أن يعضلها ، عقوبة لها على فعلها ، لتفتدى منه إذا كان عضلا بالعدل .

ثم قال [ وعاشروهن بالمعروف ] وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية.

فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف ، من الصحبة الجميلة ، وكف الأذى ، وبذل الإحسان ، وحسن المعاملة ، ويدخل فى ذلك النفقة ، والكسوة ونحوها .

فيجب على الزوج لزوجته ، المعروف ، من مثله لمثلها ، فى ذلك الزمان والمكان .

وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال .

[فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ].

أى : ينبغى لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن ، فإن فى ذلك ، خيراً كثيراً . من ذلك ، امتثال أمر الله ، وقبول وصيته التى فيها سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس ، والتخلق بالأخلاق الجميلة .

مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

---

وربما أن الكراهة تزول ، وتخلفها المحبة ، كما هو الواقع فى ذلك .

وربما رزق منها ولداً صالحا ، نفع والديه فى الدنيا والآخرة .

وهذا كله ، مع الإمكان فى الإمساك ، وعدم المحذور .

فإذا كان لا بد من الفراق ، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم.

بل متى [ أردتم استبدال زوج مكان زوج ] أى : تطليق زوجة ، وتزوج أخرى .

أى : فلا جناح عليكم فى ذلك ولا حرج .

ولكن إذا [ آتيتم إحداهن] أى : المفارقة ، أوالتي تزوجها [ قنطاراً ] أى : مالا كثيراً .

[ فلا تأخذوا منه شيئاً ] بل . وفروه لهن ، ولا تمطلوا بهن .

وفى هذه الآية ، دلالة على عدم تحريم كثرة المهر ، مع أن الأفضل واللائق ، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى تخفيف المهر .

ووجه الدلالة ، أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ، ولم ينكره عليهم . فدل على عدم تحريمه .

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق ، إذا تضمن مفسدة دينية ، وعدم مصلحة تقاوم .

ثم قال : [ أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ] فإن هذا لا يحل ، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل ، فإن إثمه واضح .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

---

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله : [ وكيف تأخذونه ، وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ] .

وبيان ذلك : أن الزوجة قبل عقد النكاح ، محرمة على الزوج ، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر ، الذى يدفعه لها .

فإذا دخل بها ، وأفضى إليها ، وباشرها المباشرة التى كانت حراما قبل ذلك ، والتى لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض ، فثبت عليه العوض .

فكيف يستوفى المعوض ، ثم بعد ذلك يرجع فى العوض ؟

هذا من أعظم الظلم والجور .

وكذلك أخذ الله على الأزواج ، ميثاقاً غليظاً ، بالعقد، والقيام بحقوقها.

* أى : لا تتزوجوا من النساء ، ما تزوجهن آباؤكم ، أى: الأب وإن علا.

[ إنه كان فاحشة ] أى : أمرا قبيحا يفحش ويعظم قبحه [ ومقتا ] من الله لكم ومن الخلق ، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه ، والأب ابنه ، مع الأمر ببره .

[ وساء سبيلا ] أى : بئس الطريق طريقا لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية ، التى جاء الإسلام بالتنزه عنها ، والبراءة منها .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ

---

* هذه الآيات الكريمات ، مشتملات على المحرمات بالنسب ، والمحرمات بالصهر ، والمحرمات بالجمع ، وعلى المحللات من النساء .

فأما المحرمات فى النسب ، فهن السبع اللاتى ذكرهن الله .

الأم ، يدخل فيها ، كل من لها عليك ولادة ، وإن بعدت .

ويدخل فى البنت كل من لك عليها ولادة ، والأخوات الشقيقات ، أو لأب أو لأم .

والعمة كل : أخت لأبيك ، أو لجدك ، وإن علا .

والخالة : كل أخت لأمك ، أو جدتك وإن علت ، وارثة أم لا .

وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، أى : وإن نزلت .

فهؤلاء هن المحرمات من النسب ، بإجماع العلماء ، كما هو نص الآية الكريمة ، وما عداهن فيدخل فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » ، وذلك كبنت العمة والعم ، وبنت الخال والخالة .

وأما المحرمات بالرضاع ، فقد ذكر الله منهن ، الأم ، والأخت .

وفى ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها ، إنما هو لصاحب اللبن .

دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن ، يكون أبا للمرتضع .

فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ، ثبت ما هو فرع عنهما ، كأخوتهما ، وأصولهما ، وفروعهما .

وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

---

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «يحرم من الرضاع، ما يحرم من النسب».

فينتشر التحريم من جهة المرضعة، ومن له اللبن، كما ينتشر فى الأقارب، وفى الطفل المرتضع، إلى ذريته فقط.

لكن بشرط أن يكون الرضاع، خمس رضعات فى الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع.

حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء، وإن نزلوا، وارثين، أو محجوبين.

وأمهات الزوجة، وإن علون.

فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.

والرابعة: الربيبة، وهى بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا [ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ] الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله [ اللاتى فى حجوركم ] قيد خرج بمخرج الغالب، لا مفهوم له.

فإن الربيبة تحرم، ولو لم تكن فى حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: التنبيه على الحكمة فى تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها.

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ

---

والثانية : فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة ، وأنها بمنزلة من هى فى حجره من بناته ونحوهن . والله أعلم .

وأما المحرمات بالجمع ، فقد ذكر الله ، الجمع بين الأختين ، وحرمه .

وحرم النبي صلى الله عليه وسلم . الجمع بين المرأة وعمتها ، أو خالتها .

فكل امرأتين بينهما رحم محرم ، لو قدر إحداهما ذكراً ، والأخرى أنثى ، حرمت عليه ، فإنه يحرم الجمع بينهما ، وذلك لما فى ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام .

ومن المحرمات فى النكاح [المحصنات من النساء] أى : ذوات الأزواج .

فإنه يحرم نكاحهن ما دمن فى ذمة الزوج ، حتى تطلق ، وتنقضي عدتها .

و [ إلا ما ملكت أيمانكم ] أى : بالسبي .

فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج ، حلت للمسلمين ، بعد أن تستبرأ .

وأما إذا بيعت الأمة المزوجة ، أو وهبت ، فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثانى ، نزل منزلة الأول ، ولقصة بريرة ، حين خيرها النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله [ كتاب الله عليكم ] أى : الزموه واهتدوا به ، فإن فيه الشفاء والنور ، وفيه تفصيل الحلال من الحرام .

فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ
مِن بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

---

ودخل فى قوله : [ وأحل لكم ما وراء ذلكم ] كل ما لم يذكر فى هذه الآية ، فإنه حلال طيب .

فالحرام محصور ، والحلال ليس له حد ولا حصر ، لطفامن الله، ورحمة ، وتيسيراً للعباد .

وقوله [ أن تبتغوا بأموالكم ] أى . تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم ، من اللاتى أباحهن الله لكم حالة كونكم [ محصنين ] أى : مستعفين عن الزنا ، ومعفين نساءكم .

[ غير مسافحين ] والسفح : سفح الماء فى الحلال والحرام ، فإن الفاعل لذلك ، لا يحصن زوجته ، لكونه وضع شهوته فى الحرام ، فتضعف داعيته للحلال ، فلا يبقى محصنا لزوجته .

وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف ، لقوله تعالى :

[ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ] .

[ فما استمتعتم به منهن ] أى : من تزوجتموها [ فآتوهن أجورهن ] أى الأجور ، فى مقابلة الاستمتاع .

ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته ، تقرر عليه صداقها .

[ فريضة ] أى إتيانكم إياهن أجورهن ، فرض فرضه الله عليكم ، ليس بمنزلة التبرع ، الذى إن شاء أمضاه ، وإن شاء رده .

. . . . . . . . . . .

---

أو معنى قوله فريضة : أى مقدرة قد قدرتموها ، فوجبت عليكم ، فلا تنقصوا منها شيئاً .

[ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ] أى : بزيادة من الزوج ، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ، هذا قول كثير من المفسرين .

وقال كثير منهم : إنها نزلت فى متعة النساء التي كانت حلالا فى أول الإسلام ، ثم حرمها النبي صلى الله عليه وسلم ،وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذى بينهما ، فتراضيا بعد الفريضة ، فلا حرج عليهما ، والله أعلم .

[ إن الله كان عليما حكيما ] أى : كامل العلم واسعه ، كامل الحكمة .

فمن علمه وحكمته ، شرع لكم هذه الشرائع ، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام .

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ

---

ثم قال تعالى [ ومن لم يستطع طولا ] الآية .

* أى : ومن لم يستطع الطول الذى هو المهر لنكاح المحصنات ، أى : الحرائر المؤمنات ، وخاف على نفسه العنت ، أى : الزنا والمشقة الكثيرة ، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات .

وهذا بحسب ما يظهر ، وإلا ، فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره .

فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور ، وأحكام الآخرة مبنية على ما فى البواطن .

[ فانكحوهن ] أى : المملوكات [ بإذن أهلهن ]أى: سيدهن ،واحداً، أو متعدداً .

[ وآتوهن أجورهن بالمعروف ] أى : ولو كن إماء ، فإنه كما يجب المهر للحرة ، فكذلك يجب للأمة .

ولكن لا يجوز نكاح الإماء ، إلا إذا كن [ محصنات ]أى: عفيفات عن الزنا .

[ غير مسافحات ] أى : زانيات علانية .

[ ولا متخذات أخدان ] أى : أخلاء فى السر .

فالحاصل ، أنه لا يجوز للحر المسلم ، نكاح أمة ، إلا بأربعة شروط ذكرها الله :

فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

---

إيمانهن ، والعفة ظاهراً ، وباطنا ، وعدم استطاعة طول الحرة ، وخوف العنت .

فإذا تمت هذه الشروط ، جاز له نكاحهن .

ومع هذا ، فالصبر عن نكاحهن أفضل ، لما فيه من تعريض الأولاد للرق ، ولما فيه من الدناءة والعيب .

وهذا إذا أمكن الصبر ، فإن لم يمكن الصبر عن الحرام، إلا بنكاحهن، وجب ذلك .

ولهذا قال [ وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ] .

وقوله [ فإذا أحصن ] أى : تزوجن أو أسلمن ، أى الإماء [ فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات ] أى : الحرائر [ من العذاب ] .

وذلك الذى يمكن تنصيفه ، وهو : الجلد ، فيكون عليهن خمسون جلدة.

وأما الرجم ، فليس على الإماء رجم ، لأنه لا يتنصف .

فعلى القول الأول ، إذا لم يتزوجن ، فليس عليهن حد ، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة .

وعلى القول الثانى : إن الإماء غير المسلمات.إذافعلن فاحشة أيضا عزرن .

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين « الغفور الرحيم » لكون

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ

---

هذه الأحكام ، رحمة بالعباد ، وكرما ، وإحسانا إليهم ، فلم يضيق عليهم ، بل وسع غاية السعة .

ولعل فى ذكر المغفرة بعد ذكر الحد ، إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده ، كما ورد بذلك الحديث .

وحكم العبد الذكر فى الحد المذكور ، حكم الأمة ، لعدم الفارق بينهما .

* يخبر تعالى ، بمنته العظيمة ، ومنحته الجسيمة ، وحسن تربيته لعباده المؤمنين ، وسهولة دينه فقال :

[ يريد الله ليبين لكم ] أى : جميع ما تحتاجون إلى بيانه ، من الحق والباطل ، والحلال والحرام .

[ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ] أى : الذين أنعم الله عليهم، من النبيين وأتباعهم ، فى سيرهم الحميدة ، وأفعالهم السديدة ، وشمائلهم الكاملة ، وتوفيقهم التام .

فلذلك نفذ ما أراده ، ووضح لكم ، وبين بيانا ، كما بين لمن قبلكم ، وهداكم هداية عظيمة فى العلم والعمل .

[ ويتوب عليكم ] أى : يلطف لكم فى أحوالكم ، وما شرعه لكم ، حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله ، والاكتفاء بما أحله ، فتقل ذنوبكم ، بسبب ما يسر الله عليكم ، فهذا من توبته على عباده .

ومن توبته عليهم ، أنهم إذا أذنبوا ، فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع

عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

---

قلوبهم الإنابة إليه ، والتذلل بين يديه ، ثم يتوب عليهم ، بقبول ما وفقهم له .

فله الحمد والشكر ، على ذلك .

وقوله [ والله عليم حكيم ] أى : كامل الحكمة ، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون . ومنها هذه الأشياء والحدود .

ومن حكمته ، أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته ، التوبة عليه.

ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، من لا يصلح للتوبة .

وقوله [ والله يريد أن يتوب عليكم ] أى : توبة تلم شعثكم ، وتجمع متفرقكم ، وتقرب بعيدكم .

[ ويريد الذين يتبعون الشهوات ] أى : يميلون معها حيث مالت ، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ، ويعبدون أهواءهم ، من أصناف الكفرة والعاصين ، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم .

فهؤلاء يريدون [ أن تميلوا ميلا عظيما ] أى : تنحرفوا عن الصراط المستقيم ، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن ، إلى طاعة الشيطان ، وعن التزام حدود من السعادة كلها ، فى امتثال أوامره ، إلى من الشقاوة كلها فى اتباعه .

فإذا عرفتم أن الله تعالى ، يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم ، وسعادتكم ، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم ، يأمرونكم ، بما فيه غاية الخسار والشقاء ، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين ، وتخيروا أحسن الطريقتين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

---

[ يريد الله أن يخفف عنكم ] أى : بسهولة ما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ثم مع حصول المشقة فى بعض الشرائع ، أباح لكم ماتقتضيه حاجتكم، كالميتة والدم ونحوها ، للمضطر ، وكتزوج الأمة للحر ، بتلك الشروط السابقة .

وذلك لرحمته التامة ، وإحسانه الشامل ، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان، من جميع الوجوه ، ضعف البنية ، وضعف الإرادة وضعف العزيمة ، وضعف الإيمان ، وضعف الصبر .

فناسب ذلك ، أن يخفف الله عنه ، ما يضعف عنه،وما لا يطيقه إيمانه ، وصبره ، وقوته .

* ينهى تعالى ، عباده المؤمنين ، أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل .

وهذا يشمل أكلها بالغصوب ، والسرقات ، وأخذها بالقمار ، والمكاسب الرديئة .

بل لعله يدخل فى ذلك ، أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف ، لأن هذا من الباطل ، وليس من الحق .

ثم أنه — لما حرم أكلها بالباطل — أباح لهم أكلها بالتجارات ، والمكاسب الخالية من الموانع ، المشتملة على الشروط ، من التراضى وغيره .

[ ولا تقتلوا أنفسكم ] أى : لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يقتل الإنسان نفسه .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

---

ويدخل فى ذلك ، الإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك .

[ إن الله كان بكم رحيما ] ومن رحمته ، أن صان نفوسكم وأموالكم ، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ، ورتب على ذلك ، ما رتبه من الحدود .

وتأمل هذا الإيجاز والجمع ، فى قوله « لا تأكلوا أموالكم » ولا تقتلوا أنفسكم » كيف شمل أموال غيرك ، ومال نفسك ، وقتل نفسك ، وقتل غيرك ، بعبارة أخصر من قوله « لا يأكل بعضكم مال بعض » و « لا يقتل بعضكم بعضاً » مع قصور هذه العبارة على مال الغير ، ونفس الغير .

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين ، فيه دلالة على أن المؤمنين ، فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، ومصالحهم ، كالجسد الواحد ، حيث كان الإيمان يجمعهم ، على مصالحهم الدينية والدنيوية .

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل ، التى فيها غاية الضرر عليهم ، على الآكل ، ومن أخذ ماله — أباح لهم ، مافيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات ، وأنواع الحرف والإجارات فقال :

[ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ] أى : فإنها مباحة لكم .

وشرط التراضى — مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا ، لأن الربا ليس من التجارة ، بل مخالف لمقصودها ، وأنه لابد أن يرضى كل من المتعاقدين ، ويأتى به اختيارا .

. . . . . . . . . . .

---

ومن تمام الرضا ، أن يكون المعقود عليه ، معلوما ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، لا يتصور الرضا مقدورا على تسليمه ، لأن غير المقدور عليه ، شبيه ببيع القمار .

فبيع الغرر بجميع أنواعه ، خال من الرضا ، فلا ينفذ عقده .

وفيها أنه تنعقد العقود ، بما دل عليها ، من قول أو فعل ، لأن الله شرط الرضا ، فبأي طريق حصل الرضا ، انعقد به العقد .

ثم ختم الآية بقوله [ إن الله كان بكم رحيما ] ومن رحمته ، أن عصم دماءكم وأموالكم ، وصانها ، ونهاكم عن انتهاكها .

ثم قال [ ومن يفعل ذلك ] أى : أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفوس [ عدوانا وظلما ] أى : لا جهلا ونسيانا [ فسوف نصليه نارا ] أى : عظيمة كما يفيده التنكير [ وكان ذلك على الله يسيرا ] .

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

* وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات ، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات ، وأدخلهم مدخلا كريما ، كثير الخير ، وهو الجنة ، المشتملة على مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

ويدخل فى اجتناب الكبائر ، فعل الفرائض التى يكون تاركها مرتكبا كبيرة ، كالصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم .

« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهما ، ما اجتنبت الكبائر » .

وأحسن ما حدت به الكبائر ، أن الكبيرة ما فيه حد فى الدنيا ، أو وعيد فى الآخرة ، أو نفى إيمان ، أو ترتيب لعنة ، أو غضب عليه .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ، مافضل الله به غيره ، من الأمور الممكنة ، وغير الممكنة .

فلا تتمنى النساء خصائص الرجال ، التى بها فضلهم على النساء ، ولا صاحب الفقر والنقص ، حالة الغنى والكامل ، تمنيا مجرداً ، لأن هذا ، هو الحسد بعينه ، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ، ويسلب إياها .

ولأنه يقتضى السخط على قدر الله ، والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة ، التى لايقترن بها عمل ، ولا كسب .

وإنما المحمود أمران ، أن يسعى العبد على حسب قدرته ، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية .

ويسأل الله تعالى من فضله . فلا يتكل على نفسه ، ولا على غير ربه .

ولهذا قال تعالى [ للرجال نصيب مما اكتسبوا ] أى : من أعمالهم المنتجة للمطلوب .

[ وللنساء نصيب مما اكتسبن ] فكل منهم لايناله ، غيرما كسبه ، وتعب فيه .

[ واسألوا الله من فضله ] أى : من جميع مصالحكم فى الدين والدنيا.

فهذا كمال العبد ، وعنوان سعادته ، لا من يترك العمل ، أو يتكل

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

---

على نفسه ، غير مفتقر لربه ، أو يجمع بين الأمرين ، فإن هذا مخذول خاسر .

وقوله [ إن الله كان بكل شيء عليما ] فيعطى من يعلمه أهلا لذلك ، ويمنع من يعلمه غير مستحق .

* أي : [ ولكل ] من الناس [ جعلنا موالى ] أي يتولونه ويتولاهم ، بالتعزز والنصرة ، والمعاونة على الأمور .

[ مما ترك الوالدان والأقربون ] وهذا يشمل سائر الأقارب ، من الأصول والفروع والحواشي . هؤلاء الموالى من القرابة .

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال :

[ والذين عقدت أيمانكم ] أي : حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة ، والاشتراك بالأموال ، وغير ذلك .

وكل هذا من نعم الله على عباده ، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً .

قال تعالى [ فآتوهم نصيبهم ] أي : آتوا الموالى نصيبهم ، الذى يجب القيام به ، من النصرة والمعاونة ، والمساعدة ، على غير معصية الله .

والميراث للأقارب الأدنين من الموالى .

[ إن الله كان على كل شيء شهيداً ] أي : مطلعا على كل شيء ، بعلمه لجميع الأمور ، وبصره لحركات عباده ، وسمعه لجميع أصواتهم .

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ

---

* يخبر تعالى أن [ الرجال قوامون على النساء ] أى : قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى ، من المحافظة على فرائضه ، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم ، أن يلزموهن بذلك ، وقوامون عليهن أيضاً ، بالإنفاق عليهن ، والكسوة ، والمسكن .

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال :

[ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ] أى: بسبب فضل الرجال على النساء ، وإفضالهم عليهم .

فتفضيل الرجال على النساء ، من وجوه متعددة .

من كون الولايات مختصة بالرجال ، والنبوة، والرسالة ، واختصاصهم بكثير من العبادات ، كالجهاد ، والأعياد ، والجمع .

وبما خصهم الله به ، من العقل ، والرزانة ، والصبر ، والجلد ، الذى ليس للنساء مثله .

وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات ، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ، ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا ، سر قوله [ بما أنفقوا ] وحذف المفعول ، ليدل على عموم النفقة .

فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

---

فعلم من هذا كله، أن الرجل كالوالى والسيد لامرأته ، وهى عنده عانية أسيرة .

فوظيفته ، أن يقوم بما استرعاه الله به .

ووظيفتها ، القيام بطاعة ربها ، وطاعة زوجها ، فلهذا قال :

[ فالصالحات قانتات ] أى : مطيعات لله تعالى [ حافظات للغيب ] أى : مطيعات لأزواجهن حتى فى الغيب ، تحفظ بعلها بنفسها ، وماله ، وذلك بحفظ الله لهن ، وتوفيقه لهن ، لا من أنفسهن ، فإن النفس أمارة بالسوء ، ولكن من توكل على الله ، كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه .

ثم قال : [ واللاتى تخافون نشوزهن ] أى : ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن ، بأن تعصيه بالقول أو الفعل ، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل .

[ فعظوهن ] أى ببيان حكم الله فى طاعة الزوج ومعصيته ، والترغيب فى الطاعة ، والترهيب من المعصية .

فإن انتهت ، فذلك المطلوب ، وإلا فيهجرها الزوج فى المضجع ، بأن لايضاجعها ، ولايجامعها بمقدار مايحصل به المقصود .

وإلا ، ضربها ضربا غير مبرح .

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور ، وأطعنكم [ فلا تبغوا عليهن سبيلا ] أى : فقد حصل لكم ماتحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

---

الماضية ، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ، ويحدث بسببه ، الشر.

[ إن الله كان عليا كبيرا ] أى : له العلو المطلق ، بجميع الوجوه ، والاعتبارات ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، الكبير الذى لا أكبر منه ، ولا أجل ، ولا أعظم ، كبير الذات والصفات .

* أى : وإن خفتم الشقاق بين الزوجين ، والمباعدة والمجانبة ،حتى يكون كل منهما فى شق .

[ فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ] أى : رجلين مكلفين ، مسلمين عدلين ، عاقلين ، يعرفان مابين الزوجين ، ويعرفان الجمع والتفريق .

وهذا مستفاد من لفظ « الحكم » لأنه لايصلح حكما ، إلا من اتصف بتلك الصفات .

فينظران ماينقم كل منهما على صاحبه ، ثم يلزمان كلا منهما مايجب .

فإن لم يستطع أحدهما ذلك ، أقنعا الزوج الآخر بالرضا ، بما تيسر من الرزق والخلق .

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح ، فلا يعدلا عنه .

فإن وصلت الحال ، إلى أنه لايمكن اجتماعهما وإصلاحهما ، إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ، ومعصية الله ، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح ، فرقا بينهما .

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ

---

ولا يشترط رضا الزوج ، كما يدل عليه ، أن الله سماهما الحكمين .

والحكم يحكم ، وإن لم يرض المحكوم عليه .

ولهذا قال : [ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ] أى : بسبب الرأى الميمون ، والكلام الذى يجذب القلوب ، ويؤلف بين القرينين .

[ إن الله كان عليما خبيرا ] أى : عالما بجميع الظواهر والبواطن ، مطلعا على خفايا الأمور وأسرارها .

فمن علمه وخبره ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة ، والشرائع الجميلة .

* يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له ، وهو الدخول تحت رق عبوديته ، والانقياد لأوامره ونواهيه ، محبة ، وذلا ، وإخلاصاً له ، فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة .

وينهى عن الشرك به شيئا ، لاشركا أصغر ، ولا أكبر ، لاملكا ، ولا نبيا ، ولا وليا ولاغيرهم من المخلوقين ، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ، ولانشورا .

بل الواجب المتعين ، إخلاص العبادة ، لمن له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، وله التدبير الكامل ، الذي لايشركه ، ولايعينه عليه أحد .

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه ، أمر بالقيام بحقوق العباد ، الأقرب ، فالأقرب .

ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ

فقال : [ وبالوالدين إحسانا ] أى : أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، والخطاب اللطيف ، والفعل الجميل ، بطاعة أمرهما ، واجتناب نهيهما ، والإنفاق عليهما ، وإكرام من له تعلق بهما ، وصلة الرحم ، التى لارحم لك إلا بهما .

وللإحسان ضدان ، الإساءة ، وعدم الإحسان . وكلاهما منهى عنه .

[ وبذى القربى ] أيضاً إحساناً ، ويشمل ذلك جميع الأقارب ، قربوا ، أو بعدوا ، بأن يحسن إليهم ، بالقول ، والفعل ، وأن لايقطع رحمه ، بقوله أو فعله .

[ واليتامى ] أى : الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين ، سواء كانوا أقارب أو غيرهم ، بكفالتهم ، وبرهم ، وجبر خواطرهم ، وتأديبهم ، وتربيتهم أحسن تربية ، فى مصالح دينهم ودنياهم .

[ والمساكين ] وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر ، فلم يحصلوا على كفايتهم ، ولا كفاية من يمونون .

فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، بسد خلتهم ، وبدفع فاقتهم ، والحض على ذلك ، والقيام بما يمكن منه .

[ والجار ذى القربى ] أى : الجار القريب ، الذى له حقان ، حق الجوار ، وحق القرابة ، فله على جاره حق ، وإحسان ، راجع إلى العرف .

وكذلك [ الجار الجنب ] أى : الذي ليس له قرابة .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

وكلما كان الجار أقرب بابا ، كان آكد حقا .

فينبغى للجار ، أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة ، والدعوة ، واللطافة بالأقوال والأفعال ، وعدم أذيته ، بقول أو فعل .

[ والصاحب بالجنب ] قيل : الرفيق فى السفر ، وقيل : الزوجة ، وقيل الصاحب مطلقا ، ولعله أولى ، فإنه يشمل الصاحب فى الحضر والسفر ، ويشمل الزوجة .

فعلى الصاحب لصاحبه ، حق زائد على مجرد إسلامه ، من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له ؛ والوفاء معه ، فى اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ، ما يحب لنفسه ، ويكره له ، مايكره لنفسه ، وكلما زادت الصحبة ، تأكد الحق ، وزاد .

[ وابن السبيل : هو : الغريب الذى احتاج فى بلد الغربة ، أو لم يحتج ، فله حق على المسلمين ، لشدة حاجته ، وكونه فى غير وطنه ، بتبليغه إلى مقصوده ، أو بعض مقصوده ، وبإكرامه ، وتأنيسه .

[ وما ملكت أيمانكم ] أى : من الآدميين والبهائم ، بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ، ما يشق عليهم وإعانتهم على ما تحملوه ، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم .

فمن قام بهذه المأمورات ، فهو الخاضع لربه ، المتواضع لعباد الله ، المنقاد لأمر الله وشرعه ، الذى يستحق الثواب الجزيل ، والثناء الجميل .

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ

---

ومن لم يقم بذلك، فإنه عبد معرض عن ربه ، غير منقاد لأوامره ، ولا متواضع للخلق .

بل هو متكبر على عباد الله ، معجب بنفسه ، فخور بقوله ، ولهذا قال :

[ إن الله لايحب من كان مختالا ] أى : معجباً بنفسه ، متكبرا على الخلق .

[ فخوراً ] يثنى على نفسه ويمدحها ، على وجه الفخر والبطر ، على عباد الله .

فهؤلاء ، مابهم من الاختيال والفخر ، يمنعهم من القيام بالحقوق .

ولهذا ذمهم بقوله [ الذين يبخلون ] أى : يمنعون ماعليهم من الحقوق الواجبة .

[ ويأمرون الناس بالبخل ] بأقوالهم وأفعالهم .

[ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ] أى : من العلم الذى يهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ، ويظهرون لهم من الباطل ، مايحول بينهم وبين الحق .

فجمعوا بين البخل بالمال ، والبخل بالعلم ، وبين السعى فى خسارة أنفسهم ، وخسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، فلهذا قال تعالى :

[ وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ] أى : كما تكبروا على عباد الله ،

وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

ومنعوا حقوقه ، وتسببوا فى منع غيرهم ، من البخل ، وعدم الاهتداء ، أهانهم بالعذاب الأليم ، والخزى الدائم .

فعياذاً بك اللهم من كل سوء .

ثم أخبر عن النفقة الصادرة ، عن رياء وسمعة ، وعدم إيمان به ، فقال :

[ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ] أى : ليروهم ، ويمدحوهم ، ويعظموهم .

[ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ] أى : ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ، ورجاء ثوابه .

أى : فهذا من خطوات الشيطان وأعماله ، التى يدعو حزبه إليها ، ليكونوا من أصحاب السعير .

وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها ، فلهذا قال :

[ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ] أى : بئس المقارن والصاحب الذى يريد إهلاك من قارنه ، ويسعى فيه أشد السعى .

فكما أن من بخل بما آتاه الله ، وكتم ما من به الله عليه ، عاص آثم ، مخالف لربه .

فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله ، فإنه آثم عاص لربه ، مستوجب للعقوبة .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

---

لأن الله إنما أمر بطاعته ، وامتثال أمره ، على وجه الإخلاص ، كما قال تعالى :

[ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ] فهذا هو العمل المقبول الذى يستحق صاحبه المدح والثواب ، فلهذا حث تعالى عليه بقوله :

[ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر . الآية ] .

* أى : أى شىء عليهم ، وأى حرج ومشقة ، تلحقهم ، لو حصل منهم ، الإيمان بالله ، الذى هو الإخلاص ، وأنفقوا من أموالهم ، التى رزقهم الله ، وأنعم بها عليهم ، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق .

ولما كان الإخلاص ، سراً بين العبد وربه ، لا يطلع عليه إلا الله ، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال [ وكان الله بهم عليما ] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ

---

* يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله ، وتنزهه عما يضاد ذلك ، من الظلم القليل ، والكثير فقال :

[ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ] أى : ينقصها من حسنات عبده ، أو يزيدها فى سيئاته .

كما قال تعالى [ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ] .

[ وإن تك حسنة يضاعفها ] أى : إلى عشرة أمثالها : أى أكثر من ذلك ، بحسب حالها ونفعها ، وحال صاحبها ، إخلاصاً ، ومحبة : وكمالا .

[ ويؤت من لدنه أجراً عظيما ] أى : زيادة على ثواب العمل بنفسه ، من التوفيق لأعمال أخر ، وإعطاء البر الكثير ، والخير الغزير .

ثم قال تعالى : [ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ] .

أى : كيف تكون تلك الأحوال ، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم ، الذي جمع أن من حكم به ، كامل العلم ، كامل العدل ، كامل الحكمة ، بشهادة أزكى الخلق ، وهم الرسل ، على أممهم ، مع إقرار المحكوم عليه ؟!! فهذا ـ والله ـ الحكم ، الذى هو أعم الأحكام ، وأعدلها ، وأعظمها .

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له ، لكمال الفضل والعدل ، والحمد والثناء .

أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

---

وهناك يسعد أقوام ، بالفوز والفلاح ، والعز والنجاح .

ويشقى أقوام ، بالخزى والفضيحة ، والعذاب المبين ، ولهذا قال :

[ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ] أى : جمعوا بين الكفر بالله ورسوله ، ومعصية الرسول [ لو تسوى بهم الأرض ] أى :تبتلعهم ، ويكونون تراباً وعدما ، كما قال تعالى[ ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً ].

[ ولا يكتمون الله حديثاً ] أى : بل يعترفون له بما عملوا ،وتشهدعليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملون .

يومئذ يوفيهم الله دينهم : جزاءهم الحق،ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

فأما ما ورد ، من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم ، فإن ذلك يكون فى بعض مواضع القيامة ، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله .

فإذا عرفوا الحقائق ، وشهدت عليهم جوارحهم ، حينئذ ينجلى الأمر ، ولا يبقى للكتمان موضع ، ولا نفع ، ولا فائدة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يقربوا الصلاة ، وهم سكارى ، حتى يعلموا ما يقولون .

وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة ، كالمسجد ، فإنه لا يمكن السكران من دخوله .

وشامل لنفس الصلاة ، فإنه ، لا يجوز للسكران ، صلاة ،ولا عبادة ، لاختلاط عقله ، وعدم علمه بما يقول .

ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم ، بما يقول السكران .

وهذه الآية الكريمة ، منسوخة بتحريم الخمر مطلقا .

فإن الخمر — فى أول الأمر — كان غير محرم .

ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه ، بقوله [ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ] .

ثم إنه تعالى ، نهاهم عن الخمر ، عند حضور الصلاة ، كما فى هذه الآية .

ثم إنه تعالى ، حرمه على الإطلاق فى جميع الأوقات فى قوله :

[ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ] الآية .

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة ، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة . بعد حصول مقصود الصلاة ، الذى هو روحها ولبها،وهو الخشوع وحضور القلب ، فإن الخمر يسكر القلب ، ويصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة.

ويؤخذ من المعنى ، منع الدخول فى الصلاة ، فى حال النعاس المفرط ، الذى لا يشعر صاحبه ، بما يقول ويفعل .

سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا

---

بل لعل فيه إشارة ، إلى أنه ينبغى لمن أراد الصلاة ، أن يقطع عنه كل شاغل ، يشغل فكره ، كمدافعة الأخبثين ، والتوق لطعام ونحوه ، كما ورد فى ذلك الحديث الصحيح .

ثم قال [ ولا جنبا إلا عابرى سبيل ] أى : لا تقربوا الصلاة ، حالة كون أحدكم جنباً إلا فى هذه الحال ، وهو عابر السبيل أى: تمرون فى المسجد ، ولا تمكثون فيه .

[ حتى تغتسلوا ] أى : فإذا اغتسلتم ، فهو غاية المنع ، من قربان الصلاة للجنب .

فيحل للجنب ، المرور فى المسجد فقط .

[ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا ] .

فأباح التيمم للمريض مطلقا ، مع وجود الماء وعدمه والعلة ، هى: المرض، الذى يشق معه استعمال الماء ، وكذلك السفر ، فإنه مظنة فقد الماء .

فإذا فقده المسافر ، ووجد ما يتعلق بحاجته ، من شرب ونحوه ، جاز له التيمم .

وكذلك إذا أحدث الإنسان ، ببول أو غائط ، أو ملامسة النساء ، فإنه يباح له التيمم ، إذا لم يجد الماء ، حضراً وسفراً ، كما يدل على ذلك عموم الآية .

فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ...

والحاصل : أن الله تعالى أباح التيمم فى حالتين :

حال عدم الماء ، وهذا مطلقاً فى الحضر والسفر .

وحال المشقة باستعماله ، بمرض ونحوه .

واختلف المفسرون فى معنى قوله [ أو لامستم النساء ] هل المراد بذلك : الجماع ، فتكون الآية نصاً فى جواز التيمم للجنب ، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة ؟

أو المراد بذلك : مجرد اللمس باليد ، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذى ، وهو المس الذى يكون لشهوة ، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك[1] ؟ .

واستدل الفقهاء بقوله [ فلم تجدوا ماء ] بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت .

قالوا : لأنه لا يقال : « لم يجد » لمن لم يطلب ، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب .

واستدل بذلك أيضا ، على أن الماء المتغير بشىء من الطاهرات ، يجوز ، بل يتعين ، التطهر به لدخوله فى قوله [ فلم تجدوا ماء ] وهذا ماء .

---

( ١ ) الذى انتهى إليه التحقيق فى لمس المرأة أنه لا ينقض الوضوء إلا إذا كانت بشهوة وكان اللامس يعرف من نفسه أنه يخرج منه مذى باللمس . وأما إذا لم يؤد اللمس إلى خروج المذى ، فلا ينقض اللمس الوضوء . والمسألة راجعة إلى حالة اللامس فكل ما أفضى إلى الإمذاء فهو ناقض للوضوء .

. . . . . . . . . . .

ونوزع فى ذلك ، أنه ماء غير مطلق ، وفى ذلك نظر .

وفى هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم ، الذى امتن به الله على هذه الأمة ، وهو مشروعية التيمم ، وقد أجمع على ذلك العلماء ، ولله الحمد .

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب ، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض ، سواء كان له غبار أم لا .

ويحتمل أن يختص ذلك ، بذى الغبار ، لأن الله قال فى آية الوضوء من سورة المائدة الآية ٦ [ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ] .

ومالا غبار له ، لا يمسح به .

وقوله [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم] أى : منه . كما فى آية ( المائدة ) هذا محل المسح فى التيمم : الوجه جميعه ، واليدان إلى الكوعين ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ، كما دل على ذلك حديث عمار ، وفيه أن تيمم الجنب ، كتيمم غيره ، بالوجه واليدين .

# فائدة

اعلم أن قواعد الطب ، تدور على ثلاث قواعد : حفظ الصحة عن المؤذيات ، والاستفراغ منها ، والحمية عنها . وقد نبه تعالى ، عليها فى كتابه العزيز .

أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذى ، فقد أمر بالأكل والشرب ، وعدم الإسراف فى ذلك .

. . . . . . . . . . . .

وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظا لصحتهما ، باستعمال ما يصلح البدن ، على وجه العدل ، وحماية للمريض عما يضره .

وأما استفراغ المؤذى ، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذى برأسه ، أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه .

ففيه تنبيه على استفراغ ، ما هو أولى منها ، من البول ، والغائط ، والقىء ، والمنى ، والدم ، وغير ذلك .

نبه على ذلك ابن القيم ، رحمه الله تعالى .

وفى الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين ، وأنه يجوز التيمم ، ولو لم يضق الوقت ، وأنه لا يخاطب بطلب الماء ، إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله [ إن الله كان غفوراً رحيما ] .

أى : كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين ، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل ، بحيث لا يشق على العبد امتثاله ، فيحرج بذلك .

ومن عفوه ومغفرته ، أن رحم هذه الأمة ، بشرع الطهارة بالتراب ، بدل الماء ، عند تعذر استعماله .

ومن عفوه ومغفرته ، أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ، ودعاهم إليه ، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم .

ومن عفوه ومغفرته ، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيه لا يشرك به شيئاً ، لأتاه بقرابها مغفرة .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

---

* هذا ذم لمن [ أوتوا نصيباً من الكتاب ] وفى ضمنه ، تحذير عباده عن الاغترار بهم ، والوقوع فى أشراكهم .

فأخبر أنهم ، فى أنفسهم [ يشترون الضلالة ] أى : يحبونها محبة عظيمة ، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير ، فى طلب ما يحبه .

فيؤثرون الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان ، والشقاء على السعادة . ومع هذا [ يريدون أن تضلوا السبيل ] .

فهم حريصون على إضلالكم ، غاية الحرص ، باذلون جهدهم فى ذلك . ولكن لما كان الله ولى عباده المؤمنين ، وناصرهم ، بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال ولهذا قال :

[ وكفى بالله ولياً ] أى : يتولى أحوال عباده ، ويلطف بهم ، فى جميع أمورهم ، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم .

[وكفى بالله نصيراً] ينصرهم على أعدائهم ، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم .

فولايته تعالى ، فيها حصول الخير ، ونصره ، فيه زوال الشر .

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم ، وإيثارهم الباطل على الحق فقال :

وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

---

[ من الذين هادوا ] أى : اليهود ، وهم علماء الضلال منهم .

[ يحرفون الكلم عن مواضعه ] إما بتغيير اللفظ أو المعنى ، أوهما جميعا .

فمن تحريفهم تنزيل الصفات التى ذكرت فى كتبهم ، التى لاتنطبق ولا تصدق ، إلا على محمد صلى الله عليه وسلم ، على أنه غير مراد بها ، ولا مقصود بها ، بل أريد بها ، غيره ، وكتمانهم ذلك .

فهذا حالهم فى العلم ، شر حال ، قلبوا فيه الحقائق ، ونزلوا الحق على الباطل ، وجحدوا لذلك الحق .

وأما حالهم فى العمل والانقياد فإنهم [يقولون سمعنا وعصينا] أى : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك .

وهذا غاية الكفر والعناد ، والشرود عن الانقياد .

وكذلك يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب ، فيقولون :

[ اسمع غير مسمع ] قصدهم : اسمع منا غير مسمع ما تحب ، بل مسمع ما تكره .

[ وراعنا ] قصدهم بذلك الرعونة ، بالعيب القبيح .

. . . . . . . . . . . .

ويظنون أن اللفظ ـ لما كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور ـ أنه يروج على الله وعلى رسوله ، فتوصلوا بذلك اللفظ الذى يلوون به ألسنتهم، إلى الطعن فى الدين ، والعيب للرسول ، ويصرحون بذلك فيما بينهم ، فلهذا قال :

[ لياً بألسنتهم وطعنا فى الدين ] .

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال :

[ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ] .

وذلك لما تضمنه هذا الكلام ، من حسن الخطاب والأدب اللائق فى مخاطبة الرسول ، والدخول تحت طاعة الله ، والانقياد لأمره ، وحسن التلطف فى طلبهم العلم ، بسماع سؤالهم ، والاعتناء بأمرهم .

فهذا هو الذى ينبغى لهم سلوكه .

ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية ، أعرضوا عن ذلك ، وطردهم الله ، بكفرهم وعنادهم .

ولهذا قال : [ ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ

---

* يأمر تعالى أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، أن يؤمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم ، المهيمن على غيره ، من الكتب السابقة التى صدقها ، فإنها أخبرت به .

فلما وقع المخبر به ، كان تصديقاً لذلك الخبر .

وأيضاً ، فإنهم — إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فإنهم لم يؤمنوا بما فى أيديهم من الكتب ، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً ، ويوافق بعضها بعضاً .

فدعوى الإيمان ببعضها ، دون بعض ، دعوى باطلة ، لايمكن صدقها .

وفى قوله [ آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ] حث لهم ، وأنهم ينبغى أن يكونوا قبل غيرهم ، مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به ، من العلم، والكتاب الذى يوجب أن يكون ما عليهم ، أعظم من غيرهم ، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال :

[ من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ] وهذا جزاء من جنس ما عملوا .

فكما تركوا الحق ، وآثروا الباطل ، وقلبوا الحقائق ، فجعلوا الباطل حقاً ، والحق باطلا جوزوا[١] من جنس ذلك ، بطمس وجوههم ، كما طمسوا

---

(١) فى الأصل ( فجوزوا ) ولا معنى هنا لاقتران الفعل بالفاء لأن قواعد النحو تأبى ذلك.

كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

---

الحق ، وردها على أدبارها ، بأن تجعل فى أقفائهم ، وهذا أشنع ما يكون .

[ ونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ] بأن يطردهم من رحمته ، ويعاقبهم بجعلهم قردة ، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا فى السبت .

[ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ] .

[ وكان أمر الله مفعولا ] كقوله [ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ] .

* يخبر تعالى : أنه لايغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ، ويغفر مادون ذلك ، من الذنوب ، صغائرها ، وكبائرها ، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك ، إذا اقتضت حكمته مغفرته .

فالذنوب التى دون الشرك ، قد جعل الله لمغفرتها ، أسبابا كثيرة كالحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ، وكدعاء المؤمنين ، ، بعضهم لبعض ، وبشفاعة الشافعين .

ومن دون ذلك كله ، رحمته ، التى أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك ، قد سد على نفسه أبواب المغفرة ، وأغلق دونه أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئا .

. . . . . . . . . . .

---

[ وما لهم يوم القيامة من شافعين * ولاصديق حميم[١] ] .

ولهذا قال تعالى [ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ] أى : افترى جرما كبيرا .

وأى ظلم ، أعظم ، ممن سوى المخلوق — من تراب ، الناقص من جميع الوجوه ، الفقير بذاته من كل وجه .

الذى لا يملك لنفسه — فضلا عمن عبده — نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا — بالخالق لكل شىء الكامل من جميع الوجوه ، الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، الذى بيده النفع والضر ، والعطاء والمنع ، الذى ما من نعمة بالمخلوقين ، إلا منه تعالى .

فهل أعظم من هذا الظلم شىء ؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب [ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ] .

وهذه الآية الكريمة فى حق غير التائب .

وأما التائب ، فإنه يغفر له الشرك فما دونه ، كما قال تعالى [قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ] أى : لمن تاب إليه ، وأناب .

---

( ١ ) الآيتان ١٠٠و١٠١ بنصهما فى سورة الشعراء . والمؤلف أتى بمعنى الآية الأولى لمناسبة سياق الكلام . وأتى بنص الآية الثانية .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى
مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

* هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم، من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم، من كل من زكى نفسه، بأمر ليس فيه.

وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: [ نحن أبناء الله وأحباؤه ].

ويقولون: [ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ] وهذا مجرد دعوى، لا برهان عليها.

وإنما البرهان، ما أخبر به فى القرآن فى قوله:

[ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون ].

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: [بل الله يزكى من يشاء] أى: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلى عن الأخلاق الرذيلة، والتحلى بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء، فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم، أنهم على شىء، وأن الثواب لهم وحدهم - فإنهم كذبة فى ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: [ ولا يظلمون فتيلا ].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ

---

وهذا لتحقيق العموم ، أى : لايظلمون شيئا ، ولا مقدار الفتيل الذى فى شق النواة ، أو الذى يفتل من وسخ اليد وغيرها .

قال تعالى : [ انظر كيف يفترون على الله الكذب ] أى : بتزكيتهم أنفسهم ، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله .

لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم ، الإخبار بأن الله ، جعل ما هم عليه حقا ، وما عليه المؤمنون المسلمون ، باطلا .

وهذا أعظم الكذب ، وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلا ، والباطل حقا .

ولهذا قال : [ وكفى به إثما مبينا ] أى : ظاهرا بينا ، موجبا للعقوبة البليغة ، والعذاب الأليم .

* وهذا من قبائح اليهود ، وحسدهم للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أن أخلاقهم الرذيلة ، وطبعهم الخبيث ، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت ، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله ، أو حكم بغير شرع الله .

فدخل فى ذلك ، السحر والكهانة ، وعبادة غير الله ، وطاعة الشيطان .

كل هذا من الجبت والطاغوت .

وكذلك حملهم الكفر والحسد ، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله ، عبدة الأصنام ، على طريق المؤمنين فقال :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ

---

[ ويقولون للذين كفروا ] أى لأجلهم ، تملقـا لهم ومداهنة ، وبغضا للإيمان :

[ هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا] أى : طريقا .

فما أسمجهم ، وأشد عنادهم ، وأقل عقولهم !! .

وكيف سلكوا هذا المسلك الوخيم ، والوادى الذميم ؟ ! !

هل ظنوا أن هذا ، يروج على أحد من العقلاء ، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء .

فهل يفضل دين ، قام على عبادة الأصنام والأوثان ، واستقام على تحريم الطيبات ، وإباحة الخبائث ، وإحلال كثير من المحرمات ، وإقامة الظلم بين الخلق ، وتسوية الخالق بالمخلوقين ، والكفر بالله ، ورسله وكتبه ، على دين قام على عبادة الرحمن ، والإخلاص لله ، فى السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه ، من الأوثان ، والأنداد ، والكاذبين ، وعلى صلة الأرحام ، والإحسان ، إلى جميع الخلق ، حتى البهائم ، وإقامة العدل والقسط بين الناس ، وتحريم كل خبيث وظلم ، ومصدق فى جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان .

وصاحب هذا القول ، إما من أجهل الناس ، وأضعفهم عقلا ، وإما من أعظمهم عنادا وتمرداً ، ومراغمة للحق .

وهذا هو الواقع ، ولهذا قال تعالى عنهم [ أولئك الذين لعنهم الله ] أى : طردهم عن رحمته ، وأحل عليهم نقمته .

ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ

---

[ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ] أى : يتولاه ، ويقوم بمصالحه ، ويحفظه عن المكاره ، هذا غاية الخذلان .

[ أم لهم نصيب من الملك ] أى : فيفضلون من شاءوا على من شاءوا ، بمجرد أهوائهم ، فيكونون شركاء لله فى تدبير المملكة .

فلو كانوا كذلك ، لشحوا وبخلوا أشد البخل ، ولهذا قال :

[ فإذاً ] أى : لو كان لهم نصيب من الملك [ لايؤتون الناس نقيرا ] أى : شيئا ، ولا قليلا . وهذا وصف لهم ، بشدة البخل ، على تقدير وجود ملكهم ، المشارك لملك الله .

وأخرج هذا ، مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره ، عند كل أحد .

* [ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ] أى : هل الحامل لهم على قولهم ، كونهم شركاء لله ، فيفضلون من شاءوا ؟ أم الحامل لهم على ذلك ، الحسد للرسول وللمؤمنين ، على ما آتاهم الله من فضله ؟

وذلك ليس ببدع ولا غريب ، على فضل الله .

[ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ] وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة ، والكتاب ، والملك الذى أعطاه من أعطاه ، من أنبيائه كـ « داود » و « سليمان » .

سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ

---

فإنعامه لم يزل مستمراً ، على عباده المؤمنين .

فكيف ينكرون إنعامه ، بالنبوة ، والنصر ، والملك ، لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الخلق ، وأجلهم ، وأعظمهم معرفة بالله ، وأخشاهم له ؟!!

[ فمنهم من آمن به ] أى . بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنال بذلك السعادة الدنيوية ، والفلاح الأخروى .

[ ومنهم من صد عنه ] عناداً ، وبغيا ، وصدا ، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ، ما هو بعض آثار معاصيهم .

[ وكفى بجهنم سعيرا ] تسعر على من كفر بالله ، وجحد نبوة أنبيائه ، من اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، من أصناف الكفرة .

* ولهذا قال : [ إن الذين كفروا بآياتنا ، سوف نصليهم ناراً ] أى : عظيمة الوقود ، شديدة الحرارة .

[ كلما انضجت جلودهم [1] ] أى : احترقت [ بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ] أى : ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ .

---

(١) خص الجلود ، لأنها موضع الإحساس بالألم كما ثبت ذلك بالطب .

جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

---

ولما تكرر منهم الكفر والعناد ، وصار وصفا لهم وسجية ؛ كرر ، عليهم العذاب جزاء وفاقا . ولهذا قال : [ إن الله كان عزيزا حكيما ] أى : له العزة العظيمة ، والحكمة فى خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه .

[ والذين آمنوا ] أى بالله ، وما أوجب الإيمان به [وعملوا الصالحات] من الواجبات والمستحبات [ سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها أزواج مطهرة ] أى : من الأخلاق الرذيلة ، والخلق الذميم ، ومما يكون من نساء الدنيا ، من كل دنس وعيب ( وندخلهم ظلا ظليلا ) أى : دائم الظل .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

* الأمانات ، كل ما ائتمن عليه الإنسان ، وأمر بالقيام به .

فأمر الله عباده بأدائها أى : كاملة موفرة ، لا منقوصة ولا مبخوسة ، ولا ممطولا بها .

ويدخل فى ذلك ، أمانات الولايات والأموال ،والأسرار ؛ والمأمورات التى لا يطلع عليها إلا الله .

وقد ذكر الفقهاء ، أن من ائتمن أمانة ؛ وجب عليه حفظها ، فى حرز مثلها .

قالوا : لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها ؛ فوجب ذلك .

وفى قوله تعالى ( إلى أهلها ) دلالة على أنها ، لا تدفع ، وتؤدى ، لغير المؤتمن ، ووكيله بمنزلته ؛ فلو دفعها لغير ربها ، لم يكن مؤديا لها .

( وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) وهذا يشمل الحكم بينهم فى الدماء ، والأموال ، والأعراض ، القليل من ذلك ، والكثير ، على القريب ، والبعيد ، والفاجر ، والولى ، والعدو .

والمراد بالعدل الذى أمر الله بالحكم به ، هو ماشرعه الله على لسان رسوله ، من الحدود والأحكام ، وهذا يستلزم معرفة العدل ، ليحكم به .

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة ، قال :

أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

---

( إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً ) وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ، ودفع مضارهما ، لأن شارعها السميع البصير، الذى لاتخفى عليه خافية ، ويعلم من مصالح العباد ، مالا يعلمون .

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك بامتثال أمرهما ، الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما .

وأمر بطاعة أولى الأمر ، وهم : الولاة على الناس ، من الأمراء ، والحكام، والمفتين ، فإنه لايستقيم للناس ، أمر دينهم ودنياهم ، إلا بطاعتهم والانقياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده .

ولكن بشرط ، أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك ، فلاطاعة لمخلوق ، فى معصية الخالق .

ولعل هذا هو السر فى حذف الفعل ، عند الأمر بطاعتهم ، وذكره مع طاعة الرسول .

فإن الرسول ، لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه ، فقد أطاع الله .

وأما أولو الأمر ، فشرط الأمر بطاعتهم ، أن لايكون معصية .

ثم أمر برد كل ماتنازع الناس فيه ؛ من أصول الدين وفروعه ، إلى الله والرسول ، أى : إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإن فيهما الفصل فى جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحهما ، أو عمومهما ؛ أو إيماء ، أو تنبيه ، أو مفهوم ، أو عموم معنى ، يقاس عليه ما أشبهه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَا
بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ

---

لأن كتاب الله وسنة رسوله، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما، شرط فى الإيمان، فلهذا قال: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر فى الآية بعدها.

[ذلك] أى: الرد إلى الله ورسوله [خير وأحسن تأويلا] فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، فى أمر دينهم، ودنياهم، وعاقبتهم.

* يعجب تعالى عباده، من حالة المنافقين.

[الذين يزعمون أنهم آمنوا] بما جاء به الرسول وبما قبله.

ومع هذا [يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت] وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم [قد أمروا أن يكفروا به] فكيف يجتمع هذا والإيمان؟.

فإن الإيمان يقتضى الانقياد لشرع الله وتحكيمه، فى كل أمر من الأمور.

فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب فى ذلك.

رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم
مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

---

وهذا من إضلال الشيطان إياهم ، ولهذا قال :

[ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ] عن الحق .

[ فكيف ] يكون حال هؤلاء الضالين [ إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ] من المعاصى ، ومنها تحكيم الطاغوت ؟! .

[ ثم جاءوك ] معتذرين لما صدر منهم ، و[ يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ] أى : ما قصدنا فى ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم ، وهم كذبة فى ذلك .

فإن الإحسان ، تحكيم الله ورسوله .

ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

ولهذا قال :

[ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ] أى : من النفاق والقصد السىء.

[ فأعرض عنهم ] أى : لاتبال بهم ولا تقابلهم على مافعلوه واقترفوه .

[ وعظهم ] أى : بين لهم حكم الله تعالى ، مع الترغيب فى الانقياد لله ، والترهيب من تركه .

[ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً ] أى : انصحهم سراً ، بينك وبينهم ،

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ فى زجرهم وقمعهم ، عما كانوا عليه .

وفى هذا دليل على أن مقترف المعاصى ، وإن أعرض عنه ، فإنه ينصح سراً ، ويبالغ فى وعظه ، بما يظن حصول المقصود به .

* يخبر تعالى خبراً ، فى ضمنه الأمر ، والحث على طاعة الرسول ، والانقياد له .

وأن الغاية من إرسال الرسل ، أن يكونوا مطاعين ، ينقاد لهم المرسل إليهم فى جميع ما أمروا به ، ونهوا عنه ، وأن يكونوا معظمين ، تعظيم المطاع من المطيع .

وفى هذا إثبات عصمة الرسل ، فيما يبلغونه عن الله ، وفيما يأمرون به وينهون عنه .

لأن الله ، أمر بطاعتهم مطلقاً ، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ ، لما أمر بذلك مطلقاً .

وقوله : [بإذن الله] أي : الطاعة من المطيع ، صادرة بقضاء الله وقدره .

ففيه إثبات القضاء والقدر ، والحث على الاستعانة بالله ، وبيان أنه لا يمكن الإنسان — إن لم يعنه الله — أن يطيع الرسول .

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ، ودعوته لمن اقترفوا السيئات — أن يعترفوا ويتوبوا ، ويستغفروا الله فقال :

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

---

[ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ] أى : معترفين بذنوبهم ، باخعين بها .

[فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما ] أى لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم ، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها ، والثواب عليها.

وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مختص بحياته ، لأن السياق يدل على ذلك ، لكون الاستغفار من الرسول ، لايكون إلافى حياته.

وأما بعد موته ، فإنه لا يطلب منه شيء ، بل ذلك شرك .

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة ، أنهم لا يؤمنون ، حتى يحكموا رسوله ، فيما شجر بينهم أى : فى كل شيء يحصل فيه اختلاف .

بخلاف مسائل الإجماع ، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة.

ثم لا يكفى هذا التحكيم ، حتى ينتفى الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض .

ثم لا يكفى هذا التحكيم ، حتى يسلموا لحكمه تسلما ، بانشراح صدر ، وطمأنينة نفس ، وانقياد بالظاهر والباطن .

فالتحكيم ، فى مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج ، فى مقام الإيمان ، والتسليم فى مقام الإحسان .

فمن استكمل هذه المراتب ، وكملها ، فقد استكمل مراتب الدين كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

---

ومن ترك هذا التحكيم المذكور ، غير ملتزم له ، فهو كافر .

ومن تركه — مع التزامه — فله حكم أمثاله من العاصين .

* يخبر تعالى ، أنه لو كتب على عباده ، الأوامر الشاقة على النفوس ، من قتل النفوس ، والخروج من الديار ، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر .

فليحمدوا ربهم ، وليشكروه ، على تيسير ما أمرهم به ، من الأوامر التي تسهل على كل أحد ، ولا يشق فعلها .

وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى ، أن يلحظ العبد ، ضد ما هو فيه ، من المكروهات ، لتخف عليه العبادات ، ويزداد حمداً وشكراً لربه .

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به ، أى : ما وظف عليهم ، فى كل وقت بحسبه ، فبذلوا هممهم ، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله ، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ، ولم يكونوا بصدده ، وهذا هو الذي ينبغى للعبد ، أن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها ، فيكملها ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً ، حتى يصل إلى ما قدر له ، من العلم والعمل ، فى أمر الدين والدنيا .

وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ، ولم يؤمر به بعد ، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة ، وحصول الكسل ، وعدم النشاط .

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به ، وهو أربعة أمور :

( أحدها ) الخيرية فى قوله [ لكان خيراً لهم ] أى : لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم ، من أفعال الخير ، التى أمروا بها .

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

---

أى : وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار ، لأن ثبوت الشىء ، يستلزم نفى ضده .

( الثانى ) حصول التثبيت والثبات وزيادته ، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان ، الذى هو القيام بما وعظوا به .

فيثبتهم فى الحياة الدنيا ، عند ورود الفتن فى الأوامر، والنواهى، والمصائب .

فيحصل لهم ثبات ، يوفقون به لفعل الأوامر ، وترك الزواجر ، التى تقتضى النفس فعلها ، وعند حلول المصائب ، التى يكرهها العبد .

فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا ، أو الشكر .

فينزل عليه معونة من الله ، للقيام بذلك ، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفى القبر .

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به ، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية ، حتى يألفها ، ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات .

* ( الثالث ) قوله [ وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ] أى فى العاجل والآجل ، الذى يكون للروح والقلب ، والبدن ، ومن النعيم المقيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

( الرابع ) الهداية إلى صراط مستقيم .

وهذا عموم بعد خصوص ، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم ، من كونها

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ
وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

---

متضمنة للعلم بالحق ، ومحبته وإيثاره به ، والعمل به ، وتوقف السعادة والفلاح ، على ذلك .

فمن هدى إلى صراط مستقيم ، فقد وفق لكل خير ، واندفع عنه ، كل شر وضير .

* أى : كل من أطاع الله ورسوله — على حسب حاله ، وقدر الواجب عليه ، من ذكر وأنثى وصغير وكبير .

[ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ] أى : النعمة العظيمة التى تقتضى الكمال والفلاح ، والسعادة

[ من النبيين ] الذين فضلهم الله بوحيه ، واختصهم بتفضيلهم ، بإرسالهم إلى الخلق ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

[ والصديقين ] وهم : الذين كمل تصديقهم ، بما جاءت به الرسل ، فعلموا الحق ، وصدقوه بيقينهم ، وبالقيام به ، قولا ، وعملا ، وحالا ، ودعوة إلى الله .

[ والشهداء ] الذين قاتلوا فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فقتلوا .

[ والصالحين ] الذين صلح ظاهرهم وباطنهم ، فصلحت أعمالهم .

فكل من أطاع الله تعالى ، كان مع هؤلاء فى صحبتهم .

[ وحسن أولئك رفيقاً ] بالاجتماع بهم ، فى جنات النعيم ، والإنس بقربهم ، فى جوار رب العالمين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ

[ ذلك الفضل ] الذى نالوه [ من الله ] .

فهو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ، وأعطاهم من الثواب ، مالا تبلغه أعمالهم .

[ وكفى بالله عليما ] ، يعلم أحوال عباده ، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل ، بما قام به ، من الأعمال الصالحة ، التى تواطأعليها القلب والجوارح.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين .

وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب ،التي بها يستعان على قتالهم ، ويستدفع مكرهم وقوتهم ، من استعمال الحصون والخنادق ، وتعلم الرمى والركوب ، وتعلم الصناعات التى تعين على ذلك ، وما به يعرف مداخلهم ، ومخارجهم ، ومكرهم ، والنفير فى سبيل الله .

ولهذا قال : [ فانفروا ثبات ] أى : متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم [ أو انفروا جميعاً ] .

وكل هذا ، تبع المصلحة ، والنكاية ، والراحة للمسلمين فى دينهم .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ] .

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال :

[ وإن منكم ] أي أيها المؤمنين [ لمن ليبطئن ] أى يتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ، ضعفاً ، وخوراً ، وجبناً . هذا هو الصحيح .

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى

---

وقيل معناه : ليبطئن غيره ، أى يزهده عن القتال ، وهؤلاء ، هم المنافقون

ولكن الأول أولى ، لوجهين :

أحدهما قوله [ منكم ] والخطاب للمؤمنين .

والثانى : قوله فى آخر الآية : [ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ] .

فإن الكفار ، من المشركين ، والمنافقين ، قد قطع الله بينهم ، وبين المؤمنين المودة .

وأيضاً ، فإن هذا ، هو الواقع ، فإن المؤمنين على قسمين :

صادقون فى إيمانهم ، أوجب لهم ذلك ، كمال التصديق والجهاد .

وضعفاء ، دخلوا فى الإسلام ، فصار معهم إيمان ضعيف ، لا يقوى على الجهاد .

كما قال تعالى [قالت الأعراب آمنا قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ، ونهاية مقاصدهم ، وأن معظم قصدهم ، الدنيا وحطامها فقال :

[ فإن أصابتكم مصيبة ] أى : هزيمة ، وقتل ، وظفر الأعداء عليكم فى بعض الأحوال ، لما لله فى ذلك من الحكم .

[ قال ] ذلك المتخلف [ قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً ] .

كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

---

رأى — من ضعف عقله وإيمانه — أن التقاعد عن الجهاد — الذى فيه تلك المصيبة — نعمة .

ولم يدر أن النعمة الحقيقية ، هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة ، التى بها يقوى الإيمان ، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران ، ويحصل له فيها ، عظيم الثواب ، ورضا الكريم الوهاب .

وأما القعود ، فإنه ، وإن استراح قليلا ، فإنه يعقبه تعب طويل ، وآلام عظيمة ، ويفوته ما يحصل للمجاهدين ( أى من الأجر العظيم ) .

ثم قال [ ولئن أصابكم فضل من الله ] أى : نصر وغنيمة .

ما يحصل للمجاهدين .

ثم قال [ ولئن أصابكم فضل من الله ] أي : نصر وغنيمة [ ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما ] .

أى : يتمنى أنه حاضر ، لينال من المغانم . ليس له رغبة ، ولا قصد ، فى غير ذلك .

كأنه ليس منكم ، يامعشر المؤمنين ـ ولا بينكم ، وبينه المودة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، أن المؤمنين مشتركون فى جميع مصالحهم ، ودفع مضارهم ، يفرحون بحصولها ، ولو على يد غيرهم ، من إخوانهم المؤمنين ، ويألمون بفقدها ، ويسعون جميعاً ، فى كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم .

فهذا الذى يتمنى الدنيا فقط ، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة .

ومن لطف الله بعباده ، أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها .

يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ
أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

---

بل من حصل على غير ما يليق أمره ، دعاه إلى جبر نقصه، وتكميل نفسه.

فلهذا أمر هؤلاء ، بالإخلاص ، والخروج فى سبيله فقال :

* [ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ] .

هذا أحد الأقوال فى هذه الآية ، وهو أصحها .

وقيل : إن معناه ، فليقاتل فى سبيل الله ، المؤمنون الكاملو الإيمان ، الصادقون فى إيمانهم .

[ الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ] أى يبيعون الدنيا ، رغبة عنها بالآخرة ، رغبة فيها .

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب ، لأنهم، الذين قد أعدوا أنفسهم، ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام ، المقتضى لذلك .

وأما أولئك المتثاقلون ، فلا يعبأ بهم ، خرجوا أو قعدوا .

فيكون هذا ، نظير قوله تعالى :

[ قل آمنوا به أولا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ] إلى آخر الآيات .

وقوله [ فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ] .

وقيل : إن معنى الآية : فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة .

فيكون على هذا الوجه « الذين » فى محل نصب على المفعولية .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

---

[ ومن يقاتل فى سبيل الله ] بأن يكون جهاداً ، قد أمر الله به ورسوله ، ويكون العبد مخلصاً لله فيه ، قاصداً وجه الله .

[ فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ] زيادة فى إيمانه ودينه ، وغنيمة ، وثناء حسناً ، وثواب المجاهدين فى سبيل الله الذين أعد الله لهم فى الجنة ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

* هذا حث من الله لعباده المؤمنين ، وتهييج لهم على القتال فى سبيله وأن ذلك ، قد تعين عليهم ، وتوجه اللوم العظيم عليهم ، بتركه فقال :

[وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله] والحال أن المستضعفين من الرجال ، والنساء ، والولدان ، الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ومع هذا ، فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم .

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم ، بالكفر ، والشرك ، وللمؤمنين بالأذى ، والصد عن سبيل الله ، ومنعهم من الدعوة لدينهم ، والهجرة .

ويدعون الله ، أن يجعل لهم ولياً ونصيراً ، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

---

فصار جهادكم على هذا الوجه ، من باب القتال ، والذب عن عيلاتكم[1] وأولادكم ، ومحارمكم ، لأن باب الجهاد ، الذى هو الطمع فى الكفار فإنه ، وإن كان فيه فضل عظيم ، ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم .

فالجهاد الذى فيه استنقاذ المستضعفين منكم، أعظم أجراً ، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء .

ثم قال [ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ] الآية .

* هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون فى سبيله [ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ] الذى هو الشيطان .

فى ضمن ذلك عدة فوائد :

منها : أنه بحسب إيمان العبد ، يكون جهاده فى سبيل الله ، وإخلاصه ، ومتابعته .

فالجهاد فى سبيل الله ، من آثار الإيمان ، ومقتضياته ولوازمه .

كما أن القتال فى سبيل الطاغوت ، من شعب الكفر ومقتضياته .

ومنها : أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، ينبغى له ، ويحسن منه ، من الصبر والجلد ، مالا يقوم به غيره .

---

(١) قوله ( عيلاتكم ) معناه الدفاع عن نسائكم وأطفالكم والمحافظة عليهم بأن لا يتعرضوا للوقوع فى أيدى الأعداء .

. . . . . . . . . . .

---

فإذا كان أولياء الشيطان ، يصبرون، ويقاتلون ، وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك ، كما قال تعالى فى هذا المعنى :

[ إن تـكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ] الآية .

ومنها أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، معتمداً على ركن وثيق ، وهو الحق ، والتوكل على الله .

فصاحب القوة ، والركن ، يطلب منه ، من الصبر والثبات ، والنشاط مالا يطلب ممن يقاتل ، عن الباطل ، الذى لاحقيقة له ، ولاعاقبة حميدة . فلهذا قال تعالى :

( فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ) .

والـكيد : سلوك الطرق الخفية ، الذى فيه إلحاق الضرر بالعدو .

فالشيطان ، وإن بلغ مكره مهما بلغ ، فإنه فى غاية الضعف ، الذى لايقوم لأدنى شيء من الحق ، ولا لـكيد الله لعباده المؤمنين .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

* كان المسلمون — إذ كانوا بمكه — مأمورين بالصلاة والزكاة ، أى : مواساة الفقراء ، لا الزكاة المعروفة ، ذات النصب والشروط ، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة ، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء ، لعدة فوائد :

منها : أن من حكمة البارى تعالى ، أن يشرع لعباده ، الشرائع ، على وجه لايشق عليهم ؛ ويبدأ بالأهم ، والأسهل فالأسهل .

ومنها : أنه لو فرض عليهم القتال — مع قلة عددهم وعددهم ، وكثرة أعدائهم — لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام .

فروعى جانب المصلحة العظمى ، على ما دونها ، ولغير ذلك من الحكم .

وكان بعض المؤمنين ، يودون أن لو فرض عليهم القتال فى تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك .

وإنما اللائق فيها ، القيام بما أمروا به فى ذلك الوقت ، من التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى :

[ ولوأنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ] .

فلما هاجروا إلى المدينة ، وقوى الإسلام ، كتب عليهم القتال ، فى وقته المناسب لذلك .

فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك ، خوفا من الناس ، وضعفا وخورا : [ ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ ] .

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ

---

وفى هذا تضجرهم ، واعتراضهم على الله .

وكان الذى ينبغى لهم ، ضد هذه الحال — التسليم لأمر الله ، والصبر على أوامره .

فعكسوا الأمر المطلوب منهم ، فقالوا [ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ] أى : هلا أخرت فرض القتال ، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر .

وهذه الحال ، كثيرا ما تعرض لمن هو غير رزين ، واستعجل فى الأمور قبل وقتها .

فالغالب عليه ، أنه لايصبر عليها وقت حلولها ، ولا ينوء بحملها ، بل يكون قليل الصبر .

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال ، التى فيها التخلف عن القتال فقال : [ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ] أى : التمتع بلذات الدنيا وراحتها ، قليل .

فتحمل الأثقال فى طاعة الله ، فى المدة القصيرة ، مما يسهل على النفوس ويخف عليها .

لأنها ، إذا علمت أن المشقة التى تنالها ، لايطول لبثها ، هان عليها ذلك .

فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة ، وأن الآخرة خير منها ، فى ذاتها ، ولذاتها ، وزمانها .

وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

فذاتها – كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثابت عنه – « أن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » .

ولذاتها ، صافية عن المكدرات ، بل كل ماخطر بالبال ، أو دار فى الفكر ، من تصور لذة – فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى .

[ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ] .

وقال الله على لسان نبيه « أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأما لذات الدنيا ، فإنها مشوبة بأنواع التنغيص ، الذى لو قوبل بين لذاتها ، وما يقترن بها من أنواع الآلام ، والهموم والغموم ، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه .

وأما زمانها ، فإن الدنيا منقضية ، وعمر الإنسان – بالنسبة إلى الدنيا – شىء يسير .

وأما الآخرة ، فإنها دائمة النعيم ، وأهلها خالدون فيها .

فإذا فكر العاقل فى هاتين الدارين ، وتصور حقيقتهما حق التصور ، عرف ماهو أحق بالإيثار ، والسعى له ، والاجتهاد لطلبه ، ولهذا قال :

[ والآخرة خير لمن اتقى ] أى : اتقى الشرك ، وسائر المحرمات .

[ ولا تظلمون فتيلا ] أى : فسعيكم للدار الآخرة ، ستجدونه كاملا موفرا ، غير منقوص منه شيئا .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ

---

* ثم أخبر أنه لايغنى حذر عن قدر ، وأن القاعد لايدفع عنه قعوده شيئا فقال :

[ أينما تكونوا يدرككم الموت ] أى : فى أى زمان ، وأى مكان .

[ ولو كنتم فى بروج مشيدة ] أى : قصور منيعة ، ومنازل رفيعة .

وكل هـذا حث على الجهاد فى سبيل الله ، تارة بالترغيب فى فضله وثوابه . وتارة بالترهيب من عقوبة تركه ، وتارة بالإخبار أنه لاينفع القاعدين قعودهم ، وتارة بتسهيل الطريق فى ذلك ، وقصرها .

ثم قال [ وإن تصبهم حسنة ] الآية .

يخبر تعالى ، عن الذين لايعلمون ، المعرضين عما جاءت به الرسل ، المعارضين لهم : أنهم إذا جاءتهم حسنة ، أى : خصب وكثرة أموال ، وتوفر أولاد وصحة ، قالوا ·

[ هذه من عند الله ] وأنهم ، إن أصابتهم سيئة أى : جدب ، وفقر ، ومرض ، وموت أولاد وأحباب قالوا :

[ هذه من عندك ] أى : بسبب ما جئتنا به يامحمد .

تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تطير أمثالهم برسل الله ، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم [ إذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ] .

وقال قوم صالح [ اطيرنا بك وبمن معك ] .

ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

---

وقال قوم ياسين لرسلهم [ إنا تطيرنا بكم ،لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ] الآية.

فلما تشابهت قلوبهم بالكفر ، تشابهت أقوالهم وأفعالهم .

وهكذا كل من نسب حصول الشر ، أو زوال الخير ، لما جاءت به الرسل أو لبعضه ، فهو داخل فى هذا الذم الوخيم .

قال الله فى جوابهم [ قل كل ] أى من الحسنة والسيئة ، والخير والشر .

[ من عند الله ] أى : بقضائه وقدره ، وخلقه .

[ فما لهؤلاء القوم ] أى : الصادر منهم تلك المقالة الباطلة .

[لا يكادون يفقهون حديثاً] أى: لا يفهمون حديثاً بالكلية ، ولا يقربون من فهمه ، أو لا يفهمون منه ، إلا فهما ضعيفا .

وعلى كل ، فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله ، وعن رسوله ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم .

وفى ضمن ذلك ، مدح من يفهم عن الله وعن رسوله ، والحث على ذلك ، وعلى الأسباب المعينة على ذلك ، من الإقبال على كلامهما وتدبره ، وسلوك الطرق الموصلة إليه .

فلو فقهوا عن الله ، لعلموا أن الخير والشر ، والحسنات والسيئات ، كلها بقضاء الله وقدره ، لا يخرج منها شىء عن ذلك .

وأن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، لا يكونون سببا لشر يحدث ، لاهم ، ولا ما جاءوا به ، لأنهم بعثوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين .

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

* ثم قال تعالى [ما أصابك من حسنة ] أى : فى الدين والدنيا [ فمن الله] هو الذى منَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها .

[ وما أصابك من سيئة ] فى الدين والدنيا ( فمن نفسك ) أى : بذنوبك وكسبك ، وما يعفو الله عنه أكثر .

فالله تعالى ، قد فتح لعباده أبواب إحسانه ، وأمرهم بالدخول لبره وفضله ، وأخبرهم أن المعاصى مانعة من فضله .

فإذا فعلها العبد ، فلا يلومن إلا نفسه ، فإنه المانع لنفسه ، عن وصول فضل الله وبره .

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

[ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ] على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره ، والمعجزات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، فهى أكبر شهادة على الإطلاق .

كما قال تعالى : [ قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم ] .

فإذا علم أن الله تعالى ، كامل العلم ، وتام القدرة ، عظيم الحكمة ، وقد أيد الله رسوله بما أيده ، ونصره نصراً عظيما ، تيقن بذلك ، أنه رسول الله .

وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ

---

* أى : كل من أطاع رسول الله فى أوامره ونواهيه (فقد أطاع الله) تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى، إلا بأمر الله، وشرعه، ووحيه وتنزيله.

وفى هذا عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله أمر بطاعته مطلقاً.

فلولا أنه معصوم فى كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة:

حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله، والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم مختص بالرسول، وهو التعزيز، والتوقير، والنصرة.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهما وطاعتهما.

كما جمع الله بين هذه الحقوق فى قوله [لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا].

فمن أطاع الرسول، فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير، ما رتب على طاعة الله.

[ومن تولى] عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً.

[فما أرسلناك عليهم حفيظا] أى: تحفظ أعمالهم، وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً.

بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

---

وقد أديت وظيفتك ، ووجب أجرك على الله ، سواء اهتدوا ، أم لم يهتدوا .

كما قال تعالى [ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ] الآية .

ولابد أن تكون طاعة الله ورسوله ، ظاهراً وباطناً ، فى الحضرة والمغيب .

فأما من يظهر فى الحضرة ، الطاعة والالتزام ، فإذا خلا بنفسه ، أو أبناء جنسه ، ترك الطاعة ، وأقبل على ضدها ، فإن الطاعة التى أظهرها ، غير نافعة ولا مفيدة ، وقد أشبه من قال الله فيهم :

[ يقولون طاعة ] أى : يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك .

[ فإذا برزوا من عندك ] أى : خرجوا ، وخلوا فى حالة لايطلع فيها عليهم .

[ بيت طائفة منهم غير الذى تقول ] أى : بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية .

وفى قوله [ بيت طائفة منهم غير الذى تقول ] دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه ، غير الطاعة ، لأن التبييت ، تدبير الأمر ليلا ، على وجه يستقر عليه الرأى .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

[ والله يكتب ما يبيتون ] أى : يحفظه عليهم ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء ، ففيه وعيد لهم .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

---

ثم أمر رسوله ، بمقابلتهم بالإعراض ، وعدم التعنيف ، فإنهم لا يضرونه شيئاً ، إذا توكل على الله ، واستعان به ، فى نصر دينه ، وإقامة شرعه .

ولهذا قال [ فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا ] .

* يأمر تعالى بتدبر كتابه ، وهو : التأمل فى معانيه ، وتحديق الفكر فيه ، وفى مبادئه وعواقبه ، ولوازم ذلك .

فإن فى تدبر كتاب الله مفتاحا للعلوم والمعارف ، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم .

وبه يزداد الإيمان فى القلب ، وترسخ شجرته .

فإنه يعرف بالرب المعبود ، وماله من صفات الكمال ؛ وماينزه عنه من سمات النقص .

ويعرف الطريق الموصلة إليه ، وصفة أهلها ، وما لهم عند القدوم عليه .

ويعرف العدو ، الذى هو العدو على الحقيقة ؛ والطريق الموصلة إلى العذاب ؛ وصفة أهلها ؛ ومالهم عند وجود أسباب العقاب .

وكلما ازداد العبد تأملا فيه ، ازداد علما ، وعملا ، وبصيرة .

ولذلك أمر الله بذلك ، وحث عليه ، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن ، كما قال تعالى :

[ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ] .

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

---

وقال تعالى [ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ] .

ومن فوائد التدبر لكتاب الله : أنه بذلك ، يصل العبد إلى درجة اليقين ، والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه ، يصدق بعضه بعضاً ، ويوافق بعضه بعضاً .

فترى الحكم والقصة والأخبار ، تعاد فى القرآن ؛ فى عدة مواضع ، كلها متوافقة متصادقة ، لا ينقض بعضها بعضاً .

فبذلك يعلم كمال القرآن ، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور .

فلذلك قال تعالى [ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ] .

أى : فلما كان من عند الله ؛ لم يكن فيه اختلاف أصلا .

* هذا تأديب من الله لعباده ، عن فعلهم هذا ، غير اللائق .

وأنه ينبغى لهم ، إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة ، والمصالح العامة ، ما يتعلق بالأمن ، وسرور المؤمنين ، أو بالخوف الذى فيه مصيبة عليهم ، أن يتثبتوا ، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر .

بل يردونه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم ، أهل الرأى ، والعلم والنصح ، والعقل ، والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ، ويعرفون المصالح وضدها .

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

---

فإن رأوا فى إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين ، وسرورا لهم ، وتحرزا من أعدائهم ، فعلوا ذلك .

وإن رأوا مافيه مصلحة ، أو فيه مصلحة ، ولكن مضرته تزيد على مصلحته ، لم يذيعوه .

ولهذا قال [ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ] أى : يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة ، وعلومهم الرشيدة .

وفى هذا دليل لقاعدة أدبية ، وهى أنه إذا حصل بحث فى أمر من الأمور ، ينبغى أن يولى من هو أهل لذلك ، ويجعل إلى أهله ، ولا يتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ .

وفيه النهى عن العجلة والتسرع ، لنشر الأمور ، من حين سماعها .

والأمر بالتأمل قبل الكلام ، والنظر فيه ، هل هو مصلحة ، فيقدم عليه الإنسان ، أم لا ؟ فيحجم عنه ؟

ثم قال تعالى : [ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ] أى فى توفيقكم ، وتأديبكم ، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون .

[ لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ] لأن الإنسان بطبعه ، ظالم جاهل ، فلا تأمره نفسه إلا بالشر .

فإذا لجأ إلى ربه ، واعتصم به ، واجتهد فى ذلك ، لطف به ربه ، ووفقه لكل خير ، وعصمه من الشيطان الرجيم .

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* هذه الحالة ، أفضل أحوال العبد ، أن يجتهد فى نفسه على امتثال أمر الله ، من الجهاد وغيره ، ويحرض غيره عليه .

وقد يعدم فى العبد ، الأمران أو أحدهما ، فلهذا قال لرسوله :

[ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ] أى : ليس لك قدرة على غير نفسك ، فلن تكلف بفعل غيرك .

[ وحرض المؤمنين ] على القتال ، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين ، وقوة قلوبهم ، من تقويتهم ، والإخبار بضعف الأعداء ، وفشلهم ، وبما أعد للمقاتلين من الثواب ، وما على المتخلفين من العقاب .

فهذا وأمثاله ، كله يدخل فى التحريض على القتال .

[ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ] أى : بقتالكم فى سبيل الله ، وتحريض بعضكم بعضاً .

[ والله أشد بأساً ] أى : قوة وعزة [ وأشد تنكيلا ] بالمذنب فى نفسه ، وتنكيلا لغيره ، فلو شاء تعالى ، لانتصر من الكفار بقوته ، ولم يجعل لهم باقية .

ولكن – من حكمته – يبلو بعض عباده ببعض ، ليقوم سوق الجهاد ، ويحصل الإيمان النافع ، إيمان الاختيار ، لا إيمان الاضطرار والقهر ، الذى لا يفيد شيئاً .

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

---

* المراد بالشفاعة هنا : المعاونة على أمر من الأمور .

فمن شفع غيره ، وقام معه على أمر من أمور الخير ـ ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم ـ كان له نصيب من شفاعته ، بحسب سعيه وعمله ، ونفعه ، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر ، شيء .

ومن عاون غيره على أمر من الشر ، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه .

ففي هذا ، الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى ، ، والزجر العظيم ، عن التعاون على الإثم والعدوان .

وقرر ذلك بقوله :

[ وكان الله على كل شيء مقيتاً ] أي : شاهداً حفيظاً ، حسيباً على هذه الأعمال ، فيجازى كلا ، ما يستحقه .

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

---

* التحية هى : اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين ، على وجه الإكرام والدعاء ، وما يقترن بذلك اللفظ ، من البشاشة ونحوها .

وأعلى أنواع التحية ، ما ورد به الشرع ، من السلام ابتداء ورداً .

فأمر تعالى ، المؤمنين أنهم ، إذا حيوا بأى تحية كانت ، أن يردوها بأحسن منها ، لفظاً ، وبشاشة ، أو مثلها فى ذلك .

ومفهوم ذلك ، النهى عن عدم الرد بالكلية ، أو ردها بدونها .

ويؤخذ من الآية الكريمة ، الحث على ابتداء السلام والتحية ، من وجهين :

أحدهما : أن الله أمر بردها ، بأحسن منها ، أو مثلها ، وذلك يستلزم أن التحية ، مطلوبة شرعاً .

والثانى : ما يستفاد من أفعل التفضيل ، وهو « أحسن » الدال على مشاركة التحية وردها ، بالحسن ، كما هو الأصل فى ذلك .

ويستثنى من عموم الآية الكريمة ، من حيا بحال غير مأمور بها ، كـ « على مشتغل بقراءة ، أو استماع خطبة ، أو مصل ونحو ذلك» فإنه لايطلب إجابة تحيته .

وكذلك يستثنى من ذلك ، من أمر الشارع بهجره ، وعدم تحيته ، وهو العاصى غير التائب ، الذى يرتدع بالهجر ، فإنه يهجر ، ولا يحيا ، ولا ترد تحيته ، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى .

ويدخل فى رد التحية ، كل تحية اعتادها النـاس ، وهى غير محظورة شرعا ، فإنه مأمور بردها وبأحسن منها .

ثم وعد تعالى وتوعد ، على فعل الحسنات والسيئات بقوله [ إن الله كان على كل شىء حسيباً ] فيحفظ على العباد ، أعمالهم ، حسنها ، وسيئها ، صغيرها ، وكبيرها ، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله ، وحكمه المحمود .

* يخبر تعالى ، عن انفراده بالوحدانية ، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو ، لكماله فى ذاته وأوصافه ، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير ، والنعم الظاهرة والباطنة .

وذلك يستلزم الأمر بعبادته ، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية .

لكونه المستحق لذلك وحده ، والمجازى للعباد ، بما قاموا به من عبوديته ، أو تركوه منها .

ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء — وهو يوم القيامة — فقال: [ ليجمعنكم ] أى : أولكم وآخركم ، فى مقام واحد .

[ إلى يوم القيامة لا ريب فيه ] أى : لا شك ولا شبهة ، بوجه من الوجوه ، بالدليل العقلى ، والدليل السمعى .

فالدليل العقلى ، ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها ، ومن وجود النشأة الأولى ، التى وقوع الثانية ، أولى منها بالإمكان .

ومن الحكمة التى يجزم[١] ، بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً ، يحيون ثم يموتون.

---

( ١ ) قوله (ومن الحكمة التى يجزم الخ) هكذا فى الأصل المطبوع ، والعبارة قلقة والأوضح أن يقال : ( ومن الحكمة التى يجب على الإنسان أن يجزم به ، أن الله لم يخلق خلقه عبثا الخ ) .

وأما الدليل السمعى ، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك ، بل إقسامه عليه ، ولهذا قال :

[ ومن أصدق من الله حديثاً ] .

كذلك أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم عليه فى غير موضع من القرآن ، كقوله تعالى :

[ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ] .

وفى قوله [ ومن أصدق من الله حديثاً ] ، [ ومن أصدق من الله قيلا ] إخبار بأن حديثه وأخباره ، وأقواله فى أعلى مراتب الصدق ، بل أعلاها .

فكل ما قيل فى العقائد والعلوم والأعمال ، مما يناقض ما أخبر الله به ، فهو باطل ، لمناقضته للخبر الصادق اليقين ، فلا يمكن أن يكون حقاً .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟

---

* المراد بالمنافقين المذكورين فى هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم.

وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم، فيهم اشتباه.

فبعضهم تحرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم، بسبب ما أظهروه من الإيمان.

وبعضهم علم أحوالهم، بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم.

فأخبر عنه تعالى، أنه لا ينبغى لكم، أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا.

بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم، وودوا — مع ذلك — كفركم، وأن تكونوا مثلهم.

فإذا تحققتم ذلك منهم [ فلا تتخذوا منهم أولياء ].

وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً، بغضهم، وعداوتهم، لأن النهى عن الشىء، أمر بضده.

وهذا الأمر موقت، بهجرتهم.

فإذا هاجروا، جرى عليهم، ما جرى على المسلمين، كما كان النبى

فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ
أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ

---

صلى الله عليه وسلم يجرى أحكام الإسلام على كل[1] من كان معه ، وهاجر إليه ، سواء كان مؤمنا حقيقة ، أو ظاهر الإيمان .

وأنهم إن لم يهاجروا ، وتولوا عنها [ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ] أى : فى أى وقت ، وأى محل كان .

وهذا من جملة الأدلة الدالة ، على نسخ القتال فى الأشهر الحرم ، كما هو قول جمهور العلماء .

والمنازعون يقولون : هذه نصوص مطلقة ، محمولة على تقييد التحريم فى الأشهر الحرم .

ثم إن الله ، استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ، ثلاث فرق :

فرقتين أمر بتركهم ، وحتم على ذلك .

إحداها ، من يصل إلى قوم ، بينهم وبين المسلمين ، عهد وميثاق بترك القتال ، فينضم إليهم ، فيكون له حكمهم ، فى حقن الدم والمال .

---

( ١ ) فى الأصل ( فكل من كان معه وهاجر إليه وسواء الخ ) والصواب أن يقال ( على كل من كان معه وهاجر إليه سواء الخ ) فلذلك صححنا مافي الأصل بحذف الفاء من كلمة ( فكل ) وحذف الواو من ( وسواء ) كما ترى لينتظم الكلام ، ، ويتضح المعنى .

يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ
إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ

---

والفرقة الثانية قوم [ حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ].
أى : بقوا ، لا تسمح أنفسهم بقتالكم ، ولا بقتال قومهم ، وأحبوا ترك قتال الفريقين .

فهؤلاء أيضاً ، أمر بتركهم ، وذكر الحكمة فى ذلك بقوله :
[ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ] فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:
إما أن يكونوا معكم ، ويقاتلوا أعداءكم . وهذا متعذر من هؤلاء .

فدار الأمر ، بين قتالكم مع قومهم ، وبين ترك قتال الفريقين ، وهو أهون الأمرين عليكم ، والله قادر على تسليطهم عليكم .

فاقبلوا العافية ، واحمدوا ربكم الذى كف أيديهم عنكم ، مع التمكن من ذلك .

ف[ هؤلاء إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ].

الفرقة الثالثة : قوم يريدون مصلحة أنفسهم ، بقطع النظر عن احترامكم .

وهم الذين قال الله فيهم [ ستجدون آخرين ] أى : من هؤلاء المنافقين.

[ يريدون أن يأمنوكم ] أى : خوفا منكم [ ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ] أى : لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

---

وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن ، أعماهم ، ونكسهم على رءوسهم ، وازداد كفرهم ونفاقهم .

وهؤلاء فى الصورة — كالفرقة الثانية ، وفى الحقيقة ، مخالفة لها .

فإن الفرقة الثانية ، تركوا قتال المؤمنين ، احتراما لهم ، لا خوفا على أنفسهم .

وأما هذه الفرقة ، فتركوه خوفا ، لا احتراما .

بل لو وجدوا فرصة فى قتال المؤمنين ، فإنهم سيقدمون لا نتهازها .

فهؤلاء إن لم يتبين منهم ، ويتضح اتضاحا عظيما ، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم ، فإنهم يقاتلون .

ولهذا قال [ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ] أى المسالمة والموادعة .

[ ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا ] أى : حجة بينة واضحة ، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن

---

* وهذه الصيغة من صيغ الامتناع .

أي : يمتنع ويستحيل ، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أى : متعمداً .

وفى هذا ، الإخبار بشدة تحريمه ، وأنه مناف للإيمان ، أشد منافاة .

وإنما يصدر ذلك ، إما من كافر ، أو من فاسق ، قد نقص إيمانه نقصاً عظيما ، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك .

فإن الإيمان الصحيح ، يمنع المؤمن من قتل أخيه، الذى قد عقد الله بينه وبينه ، الأخوة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، محبته وموالاته ، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى ، وأي أذى أشد من القتل ؟ .

وهذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

فعلم أن القتل من الكفر العملى ، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

ولما كان قوله [ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً ] لفظا عاما ، لجميع الأحوال ، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه ، بوجه من الوجوه ، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال :

[ إلا خطأ ] فإن المخطىء الذى لا يقصد القتل ، غير آثم ، ولا مجترىء على محارم الله .

ولكنه لما كان قد فعل فعلا شنيعاً ، وصورته كافية فى قبحه ، وإن لم يقصده ـ أمر تعالى بالكفارة والدية فقال [ ومن قتل مؤمنا خطأ ] سواء

يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ

---

كان القاتل ذكراً أو أنثى ، حراً أو عبداً ، صغيراً أو كبيراً ،عاقلاً أومجنوناً ، مسلماً أو كافراً ، كما يفيده لفظ « من » الدالة على العموم ، وهذا من أسرار الإتيان بـ « من » فى هذا الموضع .

فإن سياق الكلام يقتضى أن يقول فإن قتله ،ولكن هذا لفظ،لا يشمل ما شمله « من » .

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيرا ، كما يفيده التنكير فى سياق الشرط .

فإن على القاتل [ تحرير رقبة مؤمنة ] كفارة لذلك ، تكون فى ماله ، ويشمل ذلك الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والصحيح والمعيب ، فى قول بعض العلماء .

ولكن الحكمة ، تقتضى أن لا يجزىء عتق المعيب فى الكفارة .

لأن المقصود بالعتق ، نفع العتيق ، وملكه منافع نفسه .

فإذا كان يضيع بعتقه ، وبقاؤه فى الرق أنفع له ، فإنه لا يجزىء عتقه .

مع أن فى قوله « تحرير رقبة » ما يدل على ذلك .

فإن التحرير : تخليص من استحقت منافعه لغيره ، أن تكون له .

فإذا لم يكن فيه منافع ، لم يتصور وجود التحرير .

فتأمل ذلك ، فإنه واضح .

أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

---

وأما الدية ، فإنها تجب على عاقلة القاتل ، فى الخطأ ، وشبه العمد .

[ مسلمة إلى أهله ] جبراً لقلوبهم .

والمراد بأهله هنا ، هم ورثته ، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت .

فالدية داخلة فيما ترك ، وللدية تفاصيل كثيرة ، مذكورة فى كتب الفقه.

وقوله [ إلا أن يصدقوا ] أى يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية ، فإنها تسقط .

وفى ذلك حث لهم على العفو ، لأن الله سماها صدقة ، والصدقة مطلوبة فى كل وقت .

[ فإن كان ] المقتول [ من قوم عدو لكم ] أى : من كفار حربيين [ وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ] أى : وليس عليكم لأهله دية ، لعدم احترامهم فى دمائهم وأموالهم .

[ وإن كان ] المقتول [ من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ] وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

[ فمن لم يجد ] رقبة ولا ثمنها ، بأن كان معسرا بذلك ، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية ، شىء يفى بالرقبة .

[ فصيام شهرين متتابعين ] أى : لا يفطر بينهما من غير عذر .

فإن أفطر لعذر ، فإن العذر لا يقطع التتابع ، كالمرض ، والحيض ونحوهما.

وإن كان لغير عذر ، انقطع التتابع ، ووجب عليه استئناف الصوم .

. . . . . . . . . . .

---

[ توبة من الله ] أى هذه الكفارات التى أوجبها الله على القاتل ، توبة من الله على عباده ، ورحمة بهم ، وتكفيراً لما عساه أن يحصل منهم، من تقصير ، وعدم احتراز ، كما هو الواقع كثيراً للقاتل خطأ .

[ وكان الله عليما حكيما ] أى : كامل العلم ، كامل الحكمة ، لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، فى أى وقت كان ، وأى محل كان .

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع ، شيء .

بل كل ما خلقه وشرعه ، فهو متضمن لغاية الحكمة .

ومن علمه وحكمته ، أن أوجب على القاتل ، كفارة مناسبة لما صدر منه .

فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة ، وأخرجها من الوجود إلى العدم .

فناسب أن يعتق رقبة ، ويخرجها من رق العبودية للخلق ، إلى الحرية التامة.

فإن لم يجد هذه الرقبة ، صام شهرين متتابعين .

فأخرج نفسه من رق الشهوات ، واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية ، إلى التعبد لله تعالى بتركها ، تقرباً إلى الله .

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة فى عددها ، ووجوب التتابع فيها ، ولم يشرع الإطعام ، فى هذه المواضع ، لعدم المناسبة .

بخلاف الظهار ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ومن حكمته ، أن أوجب فى القتل ، الدية ، ولو كان خطأ ، لتكون

. . . . . . . . . . .

---

رادعة ، وكافة عن كثير من القتل ، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك (١)

ومن حكمته أن أوجبت على العاقلة فى قتل الخطأ ، بإجماع العلماء ، لكون القاتل ، لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة .

فناسب أن يقوم بذلك ، من بينه وبينهم ، المعاونة ، والمناصرة ، والمساعدة على تحصيل المصالح ، وكف المفاسد .

ولعل ذلك من أسباب منعهم ، لمن يعقلون عنه من القتيل ، حذار تحميلهم .

ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم ، بقدر أحوالهم وطاقتهم .

وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين .

ومن حكمته وعلمه ، أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم ، بالدية التى أوجبها على أولياء القاتل .

---

( ١ ) وليكون أيضاً سداً لباب الاحتيال والكذب فيدعى القاتل أنه إنما صدر القتل منه خطأ ، وفى الواقع أنه تعمد القتل لحقد فى نفسه على المقتول ، ولكن ليست هناك بينة تكشف كذبه .

فمن حكمة الشارع : أن ألزم الدية على من قتل خطأ ، سداً لتلك الذرائع ، وقمعاً للنفوس التى ترتكب الجريمة وتتذرع بأوهى الأسباب خصوصا فى زماننا هذا ، الذى عم فيه الكذب معظم الناس .

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾

* تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن ، وأن القتل من الكفر العملى .

وذكر هنا ، وعيد القاتل عمداً ، وعيداً ترجف له القلوب ، وتنصدع له الأفئدة ، وينزعج منه أولو العقول .

فلم يرد فى أنواع الكبائر ، أعظم من هذا الوعيد ، بل ولا مثله .

ألا : وهو الإخبار ، بأن جزاءه جهنم .

أى : فهذا الذنب العظيم ، قد انتهض وحده ، أن يجازى صاحبه بجهنم ، بما فيها من العذاب العظيم ، والخزى المهين ، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح ، وحصول الخيبة والخسار .

فعياذا بالله ، من كل سبب يبعد عن رحمته .

وهذا الوعيد ، له حكم أمثاله من نصوص الوعيد ، على بعض الكبائر والمعاصى ، بالخلود فى النار ، أو حرمان الجنة .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله ، فى تأويلها ، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة ، الذين يخلدونهم فى النار ، ولو كانوا موحدين .

والصواب فى تأويلها ، ما قاله الإمام المحقق « شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى «المدارج»[1] فإنه قال ـ بعد ما ذكر تأويلات الأئمة فى ذلك وانتقدها فقال :

---

(١) يعنى كتاب « مدارج السالكين » .

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٣﴾

وقالت فرقة : إن هذه النصوص وأمثالها ،مماذكر فيه المقتضى للعقوبة ، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه .

وغاية هذه النصوص ، الإعلام بأن كذا ، سبب للعقوبة ومقتض لها .

وقد قام الدليل على ذكر الموانع ، فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص .

فالتوبة ، مانع بالإجماع .

والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة ، التى لا مدفع لها .

والحسنات العظيمة الماحية ، مانعة .

والمصائب الكبار المكفرة ، مانعة .

وإقامة الحدود فى الدنيا ، مانع بالنص .

ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعه ، وإعمالا لأرجحها .

قالوا : وعلى هذا ، بناء مصالح الدارين ومفاسدها .

وعلى هذا ، بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها ، خلقا وأمرا .

وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه ، ويقاومه ، ويكون الحكم للأغلب منهما .

. . . . . . . . . . .

فالقوة ، مقتضية للصحة والعافية .

وفساد الأخلاط وبغيها ، مانع من عمل الطبيعة .

وفعل القوة ، والحكم ، للغالب منهما وكذلك قوى الأدوية والأمراض.

والعبد يكون فيه مقتض للصحة ، ومقتض للعطب .

وأحدهما ، يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه .

فإذا ترجح عليه وقهره ، كان التأثير له .

ومن هنا يعلم ، انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولا يدخل النار ، وعكسه .

ومن يدخل النار ثم يخرج منها ، ويكون مكثه فيها ، بحسب ما فيه من مقتضى المكث ، فى سرعة الخروج ، وبطئه .

ومن له بصيرة منورة ، يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه ، من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى العين .

ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه ، وربوبيته ، وعزته ، وحكمته ، وأنه مستحيل عليه خلاف ذلك .

ونسبة ذلك إليه ، نسبة ما لا يليق به إليه .

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته ، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره .

وهذا يقين الإيمان ، وهو الذى يحرق السيئات ، كما تحرق النار الحطب.

وصاحب هذا المقام من الإيمان ، يستحيل إصراره على السيئات .

وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان ، يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله فى عدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله.

انتهى كلامه ، قدس الله روحه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، إذا خرجوا جهادا فى سبيله ، وابتغاء مرضاته ـ أن يتبينوا ، ويتثبتوا فى جميع أمورهم المشتبهة .

فإن الأمور قسمان : واضحة وغير واضحة .

فالواضحة البينة ، لا تحتاج إلى تثبت وتبين ، لأن ذلك ، تحصيل حاصل

وأما الأمور المشكلة غير الواضحة ، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين ، هل يقدم عليها أم لا ؟ .

فإن التثبت فى هذه الأمور ، يحصل فيه من الفوائد الكثيرة ، والكف عن شرور عظيمة ، فإن به يعرف دين العبد ، وعقله ، ورزانته .

بخلاف المستعجل للأمور فى بدايتها ، قبل أن يتبين له حكمها ، فإن ذلك يؤدى إلى مالا ينبغى .

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله فى الآية ، لما لم يتثبتوا ، وقتلوا من سلم عليهم ، وكان معه غنيمة له أو مال غيره ، ظنا أنه يستكفى [1] بذلك قتلهم ، وكان هذا خطأ فى نفس الأمر ، فلهذا عاتبهم بقوله :

[ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ] .

أى : فلا يحملنكم العرض الفانى القليل ، على ارتكاب ما لا ينبغى ،

---

(١) يستكفى يعنى : يدفع عند القتل .

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

---

فيفوتكم ماعند الله من الثواب الجزيل الباقى ، فما عند الله خير وأبقى .

وفى هذا إشارة إلى أن العبد ينبغى له ، إذا رأى دواعى نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى ، وهى مضرة له ـ أن يذكرها ، ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها ، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه ، فإن فى ذلك ترغيباً للنفس ، فى امتثال أمر الله ، وإن شق ذلك عليها .

ثم قال تعالى ـ مذكرا لهم بحالهم الأولى ، قبل هدايتهم إلى الإسلام .

[كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم] أى : فكما هداكم بعد ضلالكم ، فكذلك يهدى غيركم .

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئا فشيئا ، فكذلك غيركم .

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ، ومعاملته لمن كان على مثلها ، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة ـ من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه .

ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال [ فتبينوا ] .

فإذا كان من خرج للجهاد فى سبيل الله ، ومجاهدة أعداء الله ، واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم ، مأمورا بالتبين لمن ألقى إليه السلام ، وكانت القرينة قوية ، فى أنه إنما سلم تعوذا من القتل ، وخوفا على نفسه ـــ فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت ، فى كل الأحوال التى يقع فيها نوع اشتباه ، فيتثبت فيها العبد ، حتى يتضح له الأمر ، ويتبين الرشد والصواب.

## ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾

[ إن الله كان بما تعملون خبيرا ] فيجازى كلا ، ماعمله ونواه ، بحسب ماعلمه من أحوال عباده ونياتهم .

* أى : لا يستوى من جاهد من المؤمنين ، بنفسه وماله ، ومن لم يخرج للجهاد ، ولم يقاتل أعداء الله .

ففيه الحث على الخروج للجهاد ، والترغيب فى ذلك ، والترهيب من التكاسل ، والقعود عنه ، من غير عذر .

وأما أهل الضرر ، كالمريض ، والأعمى ، والأعرج ، والذى لا يجد ما يتجهز به ، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين ، من غير عذر .

فمن كان من أولى الضرر ، راضياً بقعوده ، لاينوى الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، ولايحدث نفسه بذلك ، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر .

ومن كان عازما على الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، يتمنى ذلك ، ويحدث به نفسه ، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد .

لأن النية الجازمة ، إذا اقترن بها مقدورها ، من القول ، أو الفعل ـ ينزل صاحبها منزلة الفاعل .

ثم صرح تعالى ، بتفضيل المجاهدين على القاعدين ، بالدرجة أي : الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال .

ثم صرح بذلك على وجه التفصيل ، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التى تشتمل على حصول كل خير ، واندفاع كل شر .

وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

---

والدرجات التى فصلها النبى صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه فى الصحيحين ، أن فى الجنة مائة درجة ، مابين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله .

وهـذا الثواب ، الذى رتبه الله على الجهاد ، نظير الذى فى سورة الصف فى قوله :

[ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ] إلى آخر السورة .

وتأمل حسن هذا الانتقال ، من حالة إلى أعلى منها .

فإنه نفى التسوية أولا ، بين المجاهد وغيره .

ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة .

ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة ، والرحمة ، والدرجات .

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل ، والمدح ، أو النزول من حالة إلى مادونها ، عند القدح والذم ـ أحسن لفظاً ، وأوقع فى النفس .

وكذلك إذا فضل تعالى ، شيئاً على شىء ، وكل منهما له فضل ، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين ، لئلا يتوهم أحد ، ذم المفضل عليه كما

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ
وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ
وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

---

قال هنا [ وكلا وعد الله الحسنى ] .

وكما قال تعالى فى الآيات المذكورة فى الصف فى قوله : [ وبشر المؤمنين ]

وكما فى قوله تعالى [ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ].

أى : ممن لم يكن كذلك .

ثم قال : [ وكلا وعد الله الحسنى ] .

وكما قال تعالى [ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ] .

فينبغى لمن يبحث فى التفضيل بين الأشخاص ، والطوائف ، والأعمال ، أن يفطن لهذه النكتة .

وكذلك لو تكلم فى ذم الأشخاص والمقالات ، ذكر ما تجتمع فيه ، عند تفضيل بعضها على بعض ، لئلا يتوهم أن المفضل ، قد حصل له الكمال .

كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس ، فليقل ـ مع ذلك ـ وكل منهما كافر .

والقتل أشنع من الزنا ، وكل منهما معصية كبيرة ، حرمها الله ورسوله وزجر عنها .

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين [ الغفور الرحيم ] ختم هذا الآية بهما فقال [ وكان الله غفوراً رحيما ] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ

---

* هذا الوعيد الشديد ، لمن ترك الهجرة ، مع قدرته عليها ، حتى مات .

فإن الملائكة الذين يقبضون روحه ، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ، ويقولون لهم [ فيم كنتم ] أى : على أى حال كنتم ؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين ؟ بل كثرتم سوادهم ، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين ، وفاتكم الخير الكثير ، والجهاد مع رسوله ، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم .

[ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ] أى : ضعفاء مقهورين مظلومين ، ليس لنا قدرة على الهجرة .

وهم غير صادقين فى ذلك ، لأن الله وبخهم ، وتوعدهم ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

واستثنى المستضعفين حقيقة ، ولهذا قالت لهم الملائكة [ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ] وهذا استفهام تقرير ، أى : قد تقرر عند كل أحد ، أن أرض الله واسعة .

فحيثما كان العبد فى محل ، لا يتمكن فيه من إظهار دينه ، فإن له متسعا وفسحة من الأرض ، يتمكن فيها من عبادة الله كما قال تعالى :

[ ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ] .

قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم [ فأولئك مأواهم جهنم وساءت

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

---

مصيرا ] وهذا كما تقدم ، فيه ذكر بيان السبب الموجب ، فقد يترتب عليه ، مقتضاه ، مع اجتماع شروطه ، وانتفاء موانعه ، وقد يمنع من ذلك مانع .

وفى الآية دليل على أن الهجرة ، من أكبر الواجبات ، وتركها ، من المحرمات ، بل من أكبر الكبائر .

وفى الآية دليل على أن كل من توفى ، فقد استكمل واستوفى ، ماقدر له من الرزق ، والأجل ، والعمل ، وذلك مأخوذ من لفظ « التوفى » فإنه يدل على ذلك .

لأنه لو بقى عليه شىء من ذلك ، لم يكن متوفيا .

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم ، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم ، على وجه التقرير والاستحسان منهم ، وموافقته لمحله .

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة ، الذين لاقدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه فقال : [ ولايهتدون سبيلا ] .

فهؤلاء قال الله فيهم :

[ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا ] .

و « عسى » ونحوها ، واجب وقوعها من الله تعالى ، بمقتضى كرمه وإحسانه .

وفى الترجية بالثواب ، لمن عمل بعض الأعمال ، فائدة .

وهو أنه قد لايوفيه حق توفيته ، ولا يعمله على الوجه اللائق الذى ينبغى .

لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

---

بل يكون مقصرا ، فلا يستحق ذلك الثواب . والله أعلم .

وفى الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن الأمور ، من واجب وغيره ، فإنه معذور ، كما قال تعالى فى العاجزين عن الجهاد :

[ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ] .

وقال فى عموم الأوامر [ فاتقوا الله ما استطعتم ] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم » .

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده ، وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله : [ لا يستطيعون حيلة ] .

وفى الآية تنبيه على أن الدليل فى الحج والعمرة ، ونحوهما — مما يحتاج إلى سفر — من شروط الاستطاعة .

## وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا(١)

* هذا فى بيان الحث على الهجرة ، والترغيب ، وبيان ما فيها من المصالح ، فوعد الصادق فى وعده ، أن من هاجر فى سبيله ، ابتغاء مرضاته ، أنه يجد مراغما فى الأرض وسعة ، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا .

وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن فى الهجرة شتاتا بعد الألفة ، وفقرا بعد الغنى ، وذلا بعد العز ، وشدة بعد الرخاء .

والأمر ليس كذلك ، فإن المؤمن ، مادام بين أظهر المشركين ، فدينه فى غاية النقص ، لا فى العبادات القاصرة عليه ، كالصلاة ونحوها ، ولا فى العبادات المتعدية ، كالجهاد بالقول والفعل ، وتوابع ذلك ، لعدم تمكنه من من ذلك ، وهو بصدد أن يفتن عن دينه ، خصوصاً ، إن كان مستضعفا .

فإذا هاجر فى سبيل الله ، تمكن من إقامة دين الله ، وجهاد أعداء الله ، ومراغمتهم .

فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله ، من قول وفعل .

وكذلك مايحصل له سعة فى رزقه ، وقد وقع كما أخبر الله تعالى .

واعتبر ذلك بالصحابة رضى الله عنهم ، فإنهم لما هاجروا فى سبيل الله

---

(١) قال فى القاموس : المراغم : المذهب والمهرب والحصن والمضطرب اهـ ومثله فى المختار من الصحاح ، والمعنى : يجد فى الأرض متسعا ومجالات كثيرة واسعة .

كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

---

وتركوا ديارهم ، وأولادهم ، وأموالهم لله ، كمل بذلك إيمانهم ، وحصل لهم من الإيمان التام ، والجهاد العظيم ، والنصر لدين الله ، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم .

وكذلك حصل لهم ، مايترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ، ما كانوا به أغنى الناس .

وهكذا كل من فعل فعلهم ، يحصل له ماحصل لهم ، إلى يوم القيامة .

ثم قال [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله] أى: قاصداً ربه ، ورضاه، ومحبته لرسوله ، ونصراً لدين الله ، لا لغير ذلك من المقاصد .

[ ثم يدركه الموت ] بقتل أو غيره .

[ فقد وقع أجره على الله ] أى : فقد حصل له أجر المهاجر، الذىأدرك مقصوده بضمان الله تعالى .

وذلك ، لأنه نوى وجزم ، وحصل منه ابتداء ، وشروع فى العمل .

فمن رحمة الله به وبأمثاله ، أن أعطاهم أجرهم كاملا، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ، ما حصل منهم من التقصير فى الهجرة وغيرها .

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال :

[ وكان الله غفوراً رحيما ] يغفر للمؤمنين ، ما اقترفوه من الخطيئات ، خصوصاً ، التائبين المنيبين إلى ربهم .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ

---

[ رحيما ] بجميع الخلق ، رحمة أوجدتهم وعافتهم ، ورزقتهم من المال والبنين والقوة ، وغير ذلك .

رحيما بالمؤمنين ، حيث وفقهم للإيمان ، وعلمهم من العلم ، مايحصل به الإيقان ، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح ، وما به يدركون غاية الأرباح .

وسيرون من رحمته وكرمه ، ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

فنسأل الله ، أن لايحرمنا خيره ، بشر ما عندنا .

* هاتان الآيتان ، أصل فى رخصة القصر ، وصلاة الخوف .

يقول تعالى [ وإذا ضربتم فى الأرض ] أى : فى السفر ، وظاهر الآية ، أنه يقتضى الترخيص فى أى سفر كان ، ولو كان سفر معصية ، كما هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، وخالف فى ذلك الجمهور ، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم ، فلم يجوزوا الترخيص فى سفر المعصية ، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة ، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده ، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا .

والعاصى بسفره ، لايناسب حاله التخفيف .

وقوله [ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ] أى : لاحرج ولا إثم عليكم فى ذلك .

ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَـكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ

ولا ينافى ذلك ، كون القصر هو الأفضل ، لأن نفى الحرج ، إزالة لبعض الوهم الواقع فى كثير من النفوس .

بل ولا ينافى الوجوب ، كما تقدم ذلك فى سورة البقرة ، فى قوله [ إن الصفا والمروة من شعائر الله ] إلى آخر الآية .

وإزالة الوهم فى هذا الموضع ظاهرة ، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين ، وجوبها على هـــذه الصفة التامة ، ولايزيل هذا عن نفوس أكثرهم ، إلا بذكر ماينافيه .

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران .

أحدهما : ملازمة النبى صلى الله عليه وسلم على القصر فى جميع أسفاره .

والثانى : أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد .

والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته .

وقوله [ أن تقصروا من الصلاة ] ولم يقل أن تقصروا الصلاة ، فيه فائدتان .

إحداهما : أنه لو قال أن تقصروا الصلاة ، لــكان القصر غير منضبط بحد من الحدود .

فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة ، وجعلها ركعة واحدة ، لأجزأه .

فإتيانه بقوله [ من الصلاة ] ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط ، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

الثانية أن « من » تفيد التبعيض ، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات ، لا جميعها .

فإن الفجر والمغرب ، لا يقصران ، وإنما الذى يقصر ، الصلاة الرباعية من أربع ، إلى ركعتين .

فإذا تقرر أن القصر فى السفر ، رخصة ، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى هذا القيد ، وهو قوله :

[ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ] الذى يدل ظاهره ، أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما ، السفر مع الخوف .

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله [ أن تقصروا ] قصر العدد فقط ؟ أو قصر العدد والصفة ؟

فالإشكال ، إنما يكون على الوجه الأول .

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى سأل عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا ؟ أى والله يقول [ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ] .

فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » أو كما قال .

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به ، نظرا لغالب الحال ، التى كان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه عليها .

فإن غالب أسفاره أسفار ، جهاد .

وفيه فائدة أخرى ، وهى بيان الحكمة والمصلحة ، فى مشروعية رخصة القصر .

فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ

فبين فى هذه الآية أنهى(١) ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة ، وهى اجتماع السفر والخوف .

ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده ، الذى هو مظنة المشقة .

وأما على الوجه الثانى ، وهو أن المراد بالقصر : قصر العدد والصفة ، فإن القيد على بابه .

فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد ، وقصر الصفة .

وإذا وجد السفر وحده ، جاز قصر العدد فقط .

أو الخوف وحده ، جاز قصر الصفة .

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله [ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ] أي : صليت بهم صلاة تقيمها ، وتتم ما يجب فيها ، ويلزم فعلهم ما ينبغى لك ولهم ، فعله .

ثم فسر ذلك بقوله [ فلتقم طائفة منهم معك ] أى : وطائفة قائمة بإزاء العدو ، كما يدل على ذلك ما يأتى :

[ فإذا سجدوا ] أى : الذين معك أى : أكملوا صلاتهم ، وعبر عن الصلاة بالسجود ، ليدل على فضل السجود ، وأنه ركن من أركانها ، بل هو أعظم أركانها .

---

(١) أنهى . أى : غاية ما يتصور الخ .

يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

[ فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى ، لم يصلوا ] وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو [ فليصلوا معك ] .

ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى ، منتظراً للطائفة الثانية ، فإذا حضروا صلى بهم ما بقى من صلاته ثم جلس ينتظرهم ، حتى يكملوا صلاتهم ، ثم يسلم بهم ، وهذا أحد الوجوه فى صلاة الخوف .

فإنها صحت عن النبى صلى الله عليه من وجوه كثيرة ، كلها جائزة .

وهذه الآية ، تدل على أن صلاة الجماعة ، فرض عين من وجهين :

أحدهما : أن الله تعالى أمر بها فى هذه الحالة الشديدة ، وقت اشتداد الخوف من الأعداء ، وحذر مهاجمتهم .

فإذا أوجبها فى هذه الحالة الشديدة ، فإيجابها فى حالة الطمأنينة والأمن ، من باب أولى وأحرى .

والثانى : أن المصلين صلاة الخوف ، يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم ، ويعفى فيها ، عن كثير من الأفعال المبطلة فى غيرها ، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة ، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب .

فلولا وجوب الجماعة ، لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها .

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل ، أن يصلوا بإمام واحد .

ولو تضمن ذلك الإخلال بشىء ، لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة ، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين ، واتفاقهم ، وعدم تفرق كلمتهم ، وليكون ذلك أوقع هيبة فى قلوب أعدائهم .

لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

---

وأمر تعالى ، بأخذ السلاح ، والحذر فى صلاة الخوف .

وهذا ، وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة ، فإن فيه مصلحة راجحة ، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد ، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص ، على الإيقاع بالمسلمين ، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى :

[ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ] .

ثم إن الله عذر من له عذر ، من مرض ، أو مطر ، أن يضع سلاحه ، ولكن مع أخذ الحذر فقال :

[ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ] .

ومن العذاب المهين ، ما أمر الله به حزبه المؤمنين ، وأنصار دينه الموحدين ، من قتلهم وقتالهم ، حيثما ثقفوهم ، ويأخذوهم ، ويحصروهم ، ويقعدوا لهم كل مرصد ، ويحذروهم فى جميع الأحوال ، ولا يغفلوا عنهم ، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم .

. . . . . . . . . . .

---

فلله أعظم حمد وثناء ، على ما من به على المؤمنين ، وأيدهم بمعونته وتعاليمه ، التى لو سلكوها على وجه الكمال ، لم تهزم لهم راية ، ولم يظهر عليهم عدو ، فى وقت من الأوقات .

وقوله [ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ] يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام ، لأنه أولا ، ذكر أن الطائفة تقوم معه ، فأخبر عن مصاحبتهم له .

ثم أضاف الفعل بعد ، إليهم دون الرسول ، فدل ذلك على ما ذكرناه .

وفى قوله [ فلتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ] دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا .

وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة ، فى ركعتهم الأولى ، وحكما فى ركعتهم الأخيرة .

فيستلزم ذلك ، انتظار الإمام إياهم ، حتى يكملوا صلاتهم . ثم يسلم بهم ، وهذا ظاهر للمتأمل .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا

* أى : فإذا فرغتم من صلاتكم ، صلاة الخوف وغيرها ، فاذكروا الله فى جميع أحوالكم وهيئاتكم . ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد.

منها : أن القلب صلاحه وفلاحه ، وسعادته ، بالإنابة إلى الله تعالى ، فى المحبة ، وامتلاء القلب من ذكره ، والثناء عليه .

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود ، الصلاة ، التى حقيقتها : أنها صلة بين العبد وبين ربه .

ومنها : أن فيها من حقائق الإيمان ، ومعارف الإيقان ، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة .

ومن المعلوم أن صلاة الخوف ، لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة ، بسبب اشتغال القلب ، والبدن ، والخوف ، فأمر بجبرها بالذكر بعدها .

ومنها : أن الخوف ، يوجب قلق القلب وخوفه ، وهو مظنة لضعفه .

وإذا ضعف القلب ، ضعف البدن عن مقاومة العدو .

والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر لله تعالى — مع الصبر والثبات — سبب للفلاح والظفر بالأعداء .

كما قال تعالى [ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ] .

فأمر بالإكثار منه فى هذه الحال ، إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله [ فإذا اطمأنتم فأقيموا الصلاة ] أى : إذا أمنتم من الخوف ،

وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

---

واطمأنت قلوبكم وأبدانكم ، فأقيموا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهرا وباطنا ، بأركانها وشروطها ، وخشوعها ، وسائر مكملاتها .

[ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ] أى : مفروضا فى وقته .

فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتاً ، لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات ، التى قد تقررت عند المسلمين ، صغيرهم ، وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ودل قوله [ على المؤمنين ] على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب إيمان العبد ، تكون صلاته ، وتتم وتكمل .

ويدل ذلك ، على أن الكفار — وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة — أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ، بل ولا تصح منهم ، ما داموا على كفرهم ، وإن كانوا يعاقبون عليها ، وعلى سائر الأحكام ، فى الآخرة .

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

* أى : لا تضعفوا ولا تكسلوا ، فى ابتغاء عدوكم من الكفار ، أى: فى جهادهم ، والمرابطة على ذلك فإن وهن القلب ، مستدع لوهن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء .

بل كونوا أقوياء ، نشيطين فى قتالهم .

ثم ذكر ما يقوى قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين .

الأول : أن ما يصيبكم من الألم ، والتعب ، والجراح ونحو ذلك ، فإنه يصيب أعداءكم .

فليس من المروءة الإنسانية ، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وهم ، وقد تساويتم فيما يوجب ذلك .

لأن العادة الجارية ، أن لا يضعف ، إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام .

لا من يدال له مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثانى : أنكم ترجون من الله مالا يرجون .

فترجون الفوز بثوابه ، والنجاة من عقابه .

بل خواص المؤمنين ، لهم مقاصد عالية ، وآمال رفيعة ، من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين .

## إِنَّآ أَنزَلْنَآ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

فهذه الأمور ، توجب للمؤمن المصدق ، زيادة القوة ، وتضاعف النشاط ، ، والشجاعة التامة .

لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوى ، إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته .

فسبحان من فاوت بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته .

ولهذا قال : [ وكان الله عليما حكيما ] كامل العلم ، كامل الحكمة .

* يخبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله ، الكتاب بالحق ، أى : محفوظا فى إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل .

بل نزل بالحق ، ومشتملا أيضاً على الحق .

فأخباره صدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل [ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ] .

وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفى الآية الأخرى [ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ] .

فيحتمل أن هذه الآية ، فى الحكم بين الناس ، فى مسائل النزاع والاختلاف .

وتلك فى تبيين جميع الدين ، وأصوله ، وفروعه .

ويحتمل أن الآيتين كلتيهما ، معناهما واحد .

فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم فى الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفى العقائد ، وفى جميع مسائل الأحكام .

بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ

---

وقوله [ بما أراك الله ] أى : لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك .

كقوله تعالى [ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ] .

وفى هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها .

وأنه يشترط فى الحكم ، العلم والعدل لقوله [ بما أراك الله ] ولم يقل : بما رأيت .

ورتب أيضاً ، الحكم بين الناس على معرفة الكتاب .

ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط ، نهاه عن الجور والظلم ، الذى هو ضد العدل فقال :

[ ولا تكن للخائنين خصيما ] أى : لا تخاصم عن من عرفت خيانته ، من مدع ما ليس له ، أو منكر حقاً عليه ، سواء علم ذلك ، أو ظنه .

ففى هذا ، دليل على تحريم الخصومة فى باطل ، والنيابة عن المبطل ، فى الخصومات الدينية ، والحقوق الدنيوية .

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول فى نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم .

[ واستغفر الله ] مما صدر منك ، إن صدر .

[ إن الله كان غفورا رحيما ] أى : يغفر الذنب العظيم ، لمن استغفره ، وتاب إليه وأناب ، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك ، الموجب لثوابه ، وزوال عقابه .

أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ

---

[ ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم ] .

« الاختيان » و « الخيانة » بمعنى الجناية ، والظلم ، والإثم ، وهذا يشمل النهى عن المجادلة ، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة ، من حد أو تعزير ، فإنه لايجادل عنه ، بدفع ما صدر منه من الخيانة ، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية .

[ إن الله لايحب من كان خوانا أثيما ] أى : كثير الخيانة والإثم .

وإذا انتفى الحب ، ثبت ضده ، وهو البغض ، وهذا كالتعليل ، للنهى المتقدم .

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم [ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ] .

وهذا من ضعف الإيمان ، ونقصان اليقين ، أن تكون مخافة الخلق عندهم ، أعظم من مخافة الله فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة ، على عدم الفضيحة عند الناس ، وهم — مع ذلك — قد بارزوا الله بالعظائم ، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم .

وهومعهم بالعلم ، فى جميع أحوالهم ، خصوصاً فى حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول ، من تبرئة الجانى ، ورمى البرىء بالجناية ، والسعى فى ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، ليفعل ما بيتوه .

فقد جمعوا بين عدة جنايات ، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات ، المطلع على سرائرهم وضمائرهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله :

مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

[ وكان الله بما يعملون محيطا ] أى : قد أحاط بذلك علما .

ومع هذا ، لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم ، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم ، الموجب للعقوبة البليغة .

☆ [ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ] .

أى : هبكم جادلتم عنهم فى هذه الحياة الدنيا ، ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة ، عند الخلق .

فماذا يغنى عنهم وينفعهم ؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة ، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ؟ « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

فمن يجادل عنهم ، من يعلم السر وأخفى ، ومن أقام عليهم من الشهود مالا يمكن معه الإنكار ؟ .

وفى هذه الآية ، الإرشاد إلى المقابلة ، بين مايتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله ، أو فعل مناهيه .

وبين ما يفوت من ثواب الآخرة ، أو يحصل من عقوباتها .

فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله :

ها أنت ، تركت أمره كسلا وتفريطا ، فما النفع الذى انتفعت به ؟

أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ

---

وماذا فاتك من ثواب الآخرة ؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران ؟

وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة ، قال لها :

هبك فعلت ما اشتهيت ، فإن لذته تنقضى ، ويعقبها من الهموم ، والغموم ، والحسرات ، وفوات الثواب ، وحصول العقاب — ما بعضه يكفى العاقل فى الإحجام عنها .

وهذا من أعظم ماينفع العبد تدبره ، وهو خاصة ، العقل الحقيقى .

بخلاف من يدعى العقل ، وليس كذلك .

فإنه — بجهله وظلمه — يؤثر اللذة الحاضرة ، والراحة الراهنة ، ولو ترتب عليها ما ترتب . والله المستعان .

ثم قال تعالى: [ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ] .

أى : من تجرأ على المعاصى ، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارا تاما ، يستلزم الإقرار بالذنب ، والندم عليه ، والإقلاع ، والعزم على أن لايعود .

فهذا[1] قد وعده من لايخلف الميعاد ، بالمغفرة والرحمة .

---

(١) قوله [ فهذا الخ ] جواب ( من ) فى قوله ( من تجرأ الخ ) .

إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن

فيغفر له ماصدر منه من الذنب ، ويزيل عنه ، ماترتب عليه من النقص والعيب ، ويعيد إليه ، ما تقدم من الأعمال الصالحة ، ويوفقه فيما يستقبله من عمره ، ولايجعل ذنبه حائلا عن توفيقه ، لأنه قد غفره ، وإذا غفره ، غفر مايترتب عليه .

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق ، يشمل سائر المعاصى ، الصغيرة ، والكبيرة .

وسمى « سوءا » لكونه يسوء عامله بعقوبته ، ولكونه ـ فى نفسه ـ سيئا ، غير حسن .

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق ، يشمل ظلمها بالشرك ، فما دونه .

ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر ، قد يفسر كل واحد منهما ، بما يناسبه .

فيفسر عمل السوء هنا ، بالظلم الذى يسوء الناس ، وهو ظلمهم ، فى دمائهم ، وأموالهم وأعراضهم .

ويفسر ظلم النفس ، بالظلم والمعاصى ، التى بين الله وبين عبده .

وسمى ظلم النفس « ظلما » لأن نفس العبد ، ليست ملكا له ، يتصرف فيها بما يشاء .

وإنما هى ، ملك لله تعالى ، قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل ، بإلزامها الصراط المستقيم ، علما وعملا ، فيسعى فى تعليمها ما أمر به ، ويسعى فى العمل بما يجب .

يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا

فسعيه فى غيرهذا الطريق ، ظلم لنفسه ، وخيانة ، وعدول بها عن العدل ، الذى ضده ، الجور والظلم .

ثم قال : [ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ] وهذا يشمل ، كل مايؤثم ، من صغير و كبير .

فمن كسب سيئة ، فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية ، على نفسه ، لاتتعداها إلى غيرها ، كما قال تعالى : [ ولاتزر وازرة وزر أخرى ] .

لـكن إذا ظهرت السيئات ، فلم تنـكر ، عمت عقوبتها ، وشمل إثمها ، فلا تخرج أيضاً ، عن حكم هذه الآية الـكريمة ، لأن من ترك الإنـكار الواجب ، فقد كسب سيئة .

وفى هذا ، بيان عدل الله وحكمته ، أنه لايعاقب أحداً بذنب أحد ، ولا يعاقب أحداً ، أ كثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه ، ولهذا قال :

[ وكان الله عليما حكيما ] أى : له العلم الـكامل ، والحـكمة التامة .

ومن علمه وحكمته ، أنه يعلم الذنب ، ومن صدر منه ، والسبب الداعى لفعله ، والعقوبة المترتبة على فعله .

ويعلم حالة المذنب ، أنه إن صدر منه الذنب ، بغلبة دواعى نفسه الأمارة بالسوء ، مع إنابتـه إلى ربه ، فى كثير من أوقاته ، أنه سيغفر له ، ويوفقه للتوبة .

وإن صدر بتجرؤه على المحارم ، استخفافا بنظر ربه ، وتهاونا بعقابه ، فإن هذا بعيد من المغفرة ، بعيد من التوفيق للتوبة .

ثم قال [ومن يكسب خطيئة ] أى : ذنباً كبيراً [أو إثما] مادون ذلك .

وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ

---

[ ثم يرم به ] أى : يتهم بذنبه [ بريئا ] من ذلك الذنب ، وإن كان مذنباً .

[ فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ] أى : فقد حمل فوق ظهره ، بهتا للبرىء وإثما ظاهرا بينا .

وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب ، وموبقاتها .

فإنه قد جمع عدة مفاسد : كسب الخطيئة ، والإثم .

ثم رمى من لم يفعلها بفعلها .

ثم الكذب الشنيع ، بتبرئة نفسه ، واتهام البرىء .

ثم مايترتب على ذلك ، من العقوبة الدنيوية ، تندفع عمن وجبت عليه ، وتقام على من لا يستحقها .

ثم مايترتب على ذلك أيضاً ، من كلام الناس فى البرىء ، إلى غير ذلك من المفاسد ، التى نسأل الله العافية منها ، ومن كل شر .

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال :

[ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ] .

وذلك أن هذه الآيات الكريمات ، قد ذكر المفسرون ، أن سبب نزولها ، أن أهل بيت ، سرقوا فى المدينة .

فلما اطلع على سرقتهم ، خافوا الفضيحة ، وأخذوا سرقتهم ، فرموها ببيت من هو برىء من ذلك .

مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ

واستعان السارق بقومه ، أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا منه أن يبرىء صاحبهم ، على رءوس الناس .

وقالوا : إنه لم يسرق ، وإنما الذى سرق ، من وجدت السرقة ببيته ، وهو البرىء .

فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبرىء صاحبهم .

فأنزل الله هذه الآيات ، تذكيراً ، وتبيينا لتلك الواقعة ، وتحذيرا للرسول صلى الله علية وسلم ، من المخاصمة عن الخائنين ، فإن المخاصمة عن المبطل ، من الضلال ، فإن الضلال نوعان :

ضلال فى العلم ، وهو الجهل بالحق ، وضلال فى العمل ، وهو : العمل بغير مايجب .

فحفظ الله رسوله ، عن هذا النوع من الضلال ، كما حفظه عن الضلال فى الأعمال .

وأخبر أن كيدهم ومكرهم ، يعود على أنفسهم ، كحالة كل ماكر ، فقال :

[ وما يضلون إلا أنفسهم ] لكون ذلك المكر ، وذلك التحيل ، لم يحصل لهم ، فيه مقصودهم ، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان ، والإثم ، والخسران .

وهذه نعمة كبيرة ، على رسوله صلى الله عليه وسلم ، تتضمن النعمة بالعمل ، وهو : التوفيق لفعل ما يحب ، والعصمة له عن كل محرم .

وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال : [ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ] .

أى : أنزل عليك هذا القرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، الذى فيه تبيان كل شىء ، وعلم الأولين والآخرين .

والحكمة : إما السنة ، التى قد قال فيها بعض السلف : إن السنة تنزل عليه ، كما ينزل القرآن .

وإما : معرفة أسرار الشريعة الزائدة ، على معرفة أحكامها ، وتنزيل الأشياء منازلها ، وترتيب كل شىء بحسبه .

[ وعلمك ما لم تكن تعلم ] وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى .

فإنه صلى الله عليه وسلم ، كما وصفه الله قبل النبوة بقوله [ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ] ، [ ووجدك ضالا فهدى ] .

ثم لم يزل يوحى الله إليه ، ويعلمه ، ويكمله ، حتى ارتقى مقاما من العلم ، يتعذر وصوله على الأولين والآخرين .

فكان أعلم الخلق على الإطلاق ، وأجمعهم لصفات الكمال ، وأكملهم فيها .

ولهذا قال [ وكان فضل الله عليك عظيما ] ففضله على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أعظم من فضله على كل الخلق .

وأجناس الفضل التى قد فضله الله به ، لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها .

## ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾

☆ أي : لا خير في كثير ، مما يتناجى به الناس ويتخاطبون .

وإذا لم يكن فيه خير ، فإما لا فائدة فيه ، كفضول الكلام المباح .

وإما شر ، ومضرة محضة ، كالكلام المحرم بجميع أنواعه .

ثم استثنى تعالى فقال : [ إلا من أمر بصدقة ] من مال ، أو علم ، أو أى نفع كان .

بل لعله ، يدخل فيه العبادات القاصرة ، كالتسبيح ، والتحميد، ونحوه .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » الحديث .

[ أو معروف ] وهو الإحسان والطاعة ، وكل ما عرف فى الشرع والعقل حسنه .

وإذا أطلق الأمر بالمعروف ، من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر ، دخل فيه النهى عن المنكر .

وذلك لأن ترك المنهيات ، من المعروف .

وأيضاً لا يتم فعل الخير ، إلا بترك الشر .

وأما عند الاقتران ، فيفسر المعروف ، بفعل المأمور ، والمنكر ، بترك المنهى .

[ أو إصلاح بين الناس ] والإصلاح ، لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين .

أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ...

---

والنزاع ، والخصام ، والتغاضب ، يوجب من الشر والفرقة ، ما لا يمكن حصره .

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس ، فى الدماء ، والأموال والأعراض .

بل وفى الأديان ، كما قال تعالى :

[ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ] .

وقال تعالى: [ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ] الآية .

وقال تعالى : « والصلح خير » .

والساعى فى الإصلاح بين الناس ، أفضل من القانت بالصلاة ، والصيام ، والصدقة .

والمصلح ، لابد أن يصلح الله سعيه وعمله .

كما أن الساعى فى الإفساد ، لا يصلح الله عمله ، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى :

[ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ] .

فهذه الأشياء ، حيثما فعلت ، فهى خير ، كما دل على ذلك ، الاستثناء .

ولكن كمال الأجر وتمامه ، بحسب النية والإخلاص ، ولهذا قال :

[ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما ] .

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ

فلهذا ينبغى للعبد ، أن يقصد وجه الله تعالى ، ويخلص العمل لله ، فى كل وقت ، وفى كل جزء من أجزاء الخير ، ليحصل له بذلك ، الأجر العظيم ، وليتعود الإخلاص ، فيكون من المخلصين ، وليتم له الأجر ،سواء تم مقصوده أم لا ، لأن النية حصلت ، واقترن بها ، ما يمكن من العمل .

* أى : ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعانده فيما جاء به [ من بعد ما تبين له الهدى ] بالدلائل القرآنية ، والبراهين النبوية .

[ ويتبع غير سبيل المؤمنين ] وسبيلهم هو : طريقهم فى عقائدهم وأعمالهم .

[ نوله ما تولى ] أى : نتركه وما اختاره لنفسه ، ونخذله ، فلا نوفقه للخير ، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه .

فجزاؤه من الله عدلا ، أن يبقيه فى ضلاله حائراً ، ويزداد ضلالا إلى ضلاله. كما قال تعالى [ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ] وقال تعالى [ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ] .

ويدل مفهومها ، على أن من لم يشاقق الرسول ، ويتبع سبيل المؤمنين ، بأن كان قصده وجه الله ، واتباع رسوله ، ولزوم جماعة المسلمين ، ثم صدر منه ، من الذنوب أو الهم بها ، ما هو من مقتضيات النفوس ، وغلبات الطباع ، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه ، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه ، بحفظه ، ويعصمه من السوء كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام :

[ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ] .

مصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

---

أى : بسبب إخلاصه ، صرفنا عنه السوء ، وكذلك كل مخلص ، كما يدل عليه ، عموم التعليل .

وقوله [ ونصله جهنم ] أى : نعذبه فيها عذاباً عظيما .

[ وساءت مصيراً ] أى : مرجعاً له ومآلا .

وهذا الوعيد ، المترتب على الشقاق ، ومخالفة المؤمنين ، مراتب ، لا يحصيها إلا الله ، بحسب حالة الذنب ، صغراً وكبراً .

فمنه ما يخلد فى النار ، ويوجب جميع الخذلان .

ومنه ، ما هو دون ذلك ، فلعل الآية الثانية ، كالتفصيل لهذا المطلق .

وهو : أن الشرك ، لا يغفره الله تعالى ، لتضمنه القدح فى رب العالمين ، ووحدانيته ، وتسوية المخلوق ، الذى لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بمن هو مالك النفع والضر ، الذى ما من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات .

فمن أعظم الظلم ، وأبعد الضلال ، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته ، وصرف شىء منها للمخلوق ، الذى ليس له من صفات الكمال شىء ، ولا له من صفات الغنى شىء ، بل ليس له إلا العدم .

عدم الوجود ، وعدم الكمال ، وعدم الغنى من جميع الوجوه .

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصى ، فهو تحت المشيئة .

إن شاء الله غفره برحمته وحكمته .

لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

وإن شاء عذب عليه ، وعاقب بعدله وحكمته .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة ، على أن إجماع هذه الأمة ، حجة ، وأنها معصومة من الخطأ .

ووجه ذلك : أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين ، بالخذلان والنار.

وسبيل المؤمنين مفرد مضاف ، يشمل سائرما المؤمنون عليه، من العقائد والأعمال .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، أو تحريمه ، أو كراهته ، أو إباحته — فهذا سبيلهم .

فمن خالفهم فى شىء من ذلك ، بعد انعقاد إجماعهم عليه ، فقد اتبع غير سبيلهم .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

[كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر].

ووجه الدلالة منها ، أن الله تعالى ، أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة ، لا يأمرون إلا بالمعروف .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، فهو مما أمروا به .

فيتعين ـ بنص الآية ـ أن يكون معروفاً ، ولا شيء بعد المعروف ، غير المنكر .

وكذلك إذا اتفقوا على النهى عن شىء ، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً .

. . . . . . . . . . .

---

ومثل ذلك ، قوله تعالى [ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ] .

فأخبر تعالى ، أن هذه الأمة ، جعلها الله وسطاً أى : عدلا خياراً ، ليكونوا شهداء على الناس ، أى : فى كل شىء .

فإذا شهدوا على حكم ، بأن الله أمر به ، أو نهى عنه ، أو أباحه ، فإن شهادتهم معصومة ، لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين فى شهادتهم . فلو كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يكونوا عادلين فىشهادتهم ، ولا عالمين بها .

ومثل ذلك قوله تعالى [ فإن تنازعتم فى شىء ،فردوه إلى الله والرسول ].

يفهم منها ، أن مالم يتنازعوا فيه ، بل اتفقوا عليه ،أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة .

وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسنة ، فلا يكون مخالفاً .

فهذه الأدلة ونحوها ، تفيد القطع ، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة .

ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله : إن يدعون من دونه إلى ( محيصا ) .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا

أى : ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً ، أى : أوثاناً وأصناما ، مسميات بأسماء الإناث ، كـ « العزى » و« مناة » ونحوها .

ومن المعلوم ، أن الاسم دال على المسمى .

فإذا كانت أسماؤها ، أسماء مؤنثة ناقصة ، دل ذلك ، على نقص المسميات بتلك الأسماء ، وفقدها لصفات الكمال .

كما أخبر الله تعالى ، فى غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدفع عن عابديها ، بل ولا عن نفسها ؛ نفعاً ولا ضراً ، ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء ، وليس لها أسماع ، ولا أبصار ، ولا أفئدة .

فكيف يعبد ، من هذا وصفه ، ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا والحمد والكمال ، والمجد ، والجلال ، والعز ، والجمال ، والرحمة ، والبر ، والإحسان ، والانفراد بالخلق والتدبير ، والحكمة العظيمة فى الأمر والتقدير ؟!!

هل هذا إلا من أقبح القبيح ، الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه من الخسة والدناءة ، أدنى ما يتصوره متصور ، أو يصفه واصف ؟!!.

ومع هذا فعبادتهم ، إنما صورتها فقط ، لهذه الأوثان الناقصة .

وبالحقيقة ، ما عبدوا غير الشيطان ، الذي هو عدوهم ، الذى يريد إهلاكهم ، ويسعى فى ذلك بكل ما يقدر عليه ، الذى هو فى غاية البعد من الله ، لعنه الله وأبعده عن رحمته .

فكما أبعده الله من رحمته ، يسعى فى إبعاد العباد عن رحمة الله .

شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ

---

[ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ] .

ولهذا أخبر الله عن سعيه ، فى إغواء العباد ، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسما .

[ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ] أى : مقدراً .

علم اللعين ، أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله ، وأن عباد الله المخلصين ، ليس له عليهم سلطان .

وإنما سلطانه ، على من تولاه ، وآثر طاعته على طاعة مولاه .

وأقسم فى موضع آخر ليغوينهم فقال: [ لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ] .

فهذا الذى ظنه الخبيث وجزم به ، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله :

[ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ] .

وهذا النصيب المفروض ، الذى أقسم ليتخذه منهم ، ذكر ما يريده بهم ، وما يقصده لهم بقوله :

[ ولأضلنهم ] أى : عن الصراط المستقيم ، ضلالا فى العلم ، وضلالا فى العمل .

[ ولأمنينهم ] أى : مع الإضلال ، لأمنينهم أن ينالوا ، ما ناله المهتدون .

وهذا هو الغرور بعينه .

ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا

---

فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ، ما هم فيه من الضلال .

وهذا زيادة شر إلى شرهم ، حيث عملوا أعمال أهل النار ، الموجبة للعقوبة ، وحسبوا أنها موجبة للجنة .

واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم .

[ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم وكذلك زينا لكل أمة عملهم ] ، [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ] الآيات :

وقال تعالى عن المنافقين أنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين :

[ ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ] .

وقوله [ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ] أى : بتقطيع آذانها ، وذلك كالبحيرة ، والسائبة والوصيلة ، والحام ، فنبه ببعض ذلك على جميعه .

وهذا نوع من الإضلال ، يقتضى تحريم ما أحل الله ، أو تحليل ما حرم الله .

ويلتحق بذلك ، من الاعتقادات الفاسدة ، والأحكام الجائرة ، ماهو من أكبر الإضلال .

[ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ] وهذا يتناول الخلقة الظاهرة ، بالوشم ، والوشر ، والنمص ، والتفليج للحسن ، ونحو ذلك ، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن .

مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ

وذلك يتضمن التسخط من خلقته ، والقدح فى حكمته ، واعتقاد أن مايصنعونه بأيديهم ، أحسن من خلقة الرحمن ، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره .

ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة .

فإن الله تعالى خلق عباده ، حنفاء مفطورين ، على قبول الحق ، وإيثاره فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل ، وزينت لهم الشر والشرك ، والكفر ، والفسوق ، والعصيان .

فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ولكن أبواه ، يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه ، ونحو ذلك ، مما يغيرون به ، ما فطر الله عليه العباد ، من توحيده ، وحبه ومعرفته .

فافترستهم الشياطين فى هذا الموضع ، افتراس السبع والذئاب ، للغنم المنفردة .

ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين ، لجرى عليهم ، ما جرى على هؤلاء المفتونين ، فخسروا الدنيا والآخرة ، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة

وهذا الذى جرى عليهم ، من توليهم عن ربهم وفاطرهم ، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر ، من كل وجه .

ولهذا قال [ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسراناً مبيناً ] .

وأى خسار أبين وأعظم ، ممن خسر دينه ودنياه ، وأوبقته معاصيه وخطاياه ؟ ! !

وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

فحصل له الشقاء الأبدى ، وفاته النعيم السرمدى .

كما أن من تولى مولاه ، وآثر رضاه ، ربح كل الربح ، وأفلح كل الفلاح ، وفاز بسعادة الدارين ، وأصبح قرير العين .

اللهم ، فلا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت .

اللهم تولنا فيمن توليت ، وعافنا فيمن عافيت .

ثم قال [ يعدهم ويمنيهم ] أى : يعد الشيطان من يسعى فى إضلالهم .

والوعد ، يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى [ الشيطان يعدكم الفقر ] .

فإنه يعدهم — إذا أنفقوا فى سبيل الله ، افتقروا .

ويخوفهم إذا جاهدوا ، بالقتل وغيره كما قال تعالى :

[ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ] الآية .

ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله ، بكل ما يمكن ، وبما لا يمكن ، مما يدخله فى عقولهم ، حتى يكسلوا عن فعل الخير .

وكذلك يمنيهم الأمانى الباطلة ، التى هى — عند التحقيق — كالسراب الذى لا حقيقة له .

ولهذا قال [ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . أولئك مأواهم جهنم ] أى : من انقاد للشيطان ، وأعرض عن ربه ، وصار من أتباع إبليس وحزبه ، مستقرهم النار .

[ ولا يجدون عنها محيصا ] أى : مخلصاً ولا ملجأ ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ

ولما بين مآل الأشقياء ، أولياء الشيطان ، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال : والذين آمنوا : الآية .

* أى : [ آمنوا ] بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره ، على الوجه الذى أمروا به ، علماً ، وتصديقاً ، وإقراراً .

[ وعملوا الصالحات ] الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات ، من واجب ، ومستحب ، الذى على القلب ، والذى على اللسان ، والذى على بقية الجوارح .

كل له ، من الثواب المرتب على ذلك ، بحسب حاله ومقامه ، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

ويقويه ، ما رتب على ذلك ، بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل .

وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته .

وكذلك وعده الصادق ، الذى يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله :

[ سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ] فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من أنواع المآكل ، والمشارب اللذيذة ، والمناظر العجيبة ، والأزواج الحسنة ، والقصور ، والغرف المزخرفة والأشجار المتدلية ، والفواكه المستغربة ، والأصوات الشجية ، والنعم السابغة

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

وتزاور الإخوان ، وتذكرهم ما كان منهم ، فى رياض الجنات .

وأعلى من ذلك وأجل ، رضوان الله عليهم ، وتمتع الأرواح بقربه ، والعيون برؤيته ، والأسماع بخطابه ، الذى ينسيهم كل نعيم وسرور .

ولولا الثبات من الله لهم ، لطاروا ، وماتوا من الفرح والحبور .

فلله ما أحلى ذلك النعيم ، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم ، وما حصل لهم ، من كل خير وبهجة ، لا يصفه الواصفون .

وتمام ذلك وكماله ، الخلود الدائم ، فى تلك المنازل العاليات ، ولهذا قال :

[ خالدين فيها أبدا . وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلا ] .

فصدق الله العظيم ، الذى بلغ قوله وحديثه فى الصدق ، أعلى ما يكون .

ولهذا لما كان كلامه صدقا ، وخبره صدقا — كان ما يدل عليه ، مطابقة ، وتضمناً ، وملازمة ، كل ذلك مراد من كلامه .

وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

* أى : [ ليس ] الأمر والنجاة والتزكية [ بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ] .

والأمانى : أحاديث النفس المجردة عن العمل ، المقترن بها ، دعوى مجردة ، لو عورضت بمثلها ، لكانت من جنسها .

وهذا عام فى كل أمر .

فكيف بأمر الإيمان ، والسعادة الأبدية ؟ !.

فإن أمانى أهل الكتاب ، قد أخبر الله بها ، أنهم قالوا :

[ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم ] وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ، ولا رسول ، من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله فى ذلك من ينتسب إلى الإسلام ، لكمال العدل والإنصاف .

فإن مجرد الانتساب إلى أى دين كان ، لا يفيد شيئاً ، إن لم يأت الإنسان ببرهان ، على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى ، أو تكذبها ، ولهذا قال تعالى : [ من يعمل سوءا يجز به ] وهذا شامل لجميع العاملين .

لأن السوء شامل ، لأى ذنب كان ، من صغائر الذنوب ، وكبائرها .

وشامل أيضاً ، لكل جزاء ، قليل ، أو كثير ، دنيوى ، أوأخروى.

والناس فى هذا المقام درجات ، لايعلمها إلا الله ، فمستقل ومستكثر .

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

---

فمن كان عمله كله سوءا ، وذلك لايكون إلا كافراً .

فإذا مات من دون توبة ، جوزى بالخلود فى العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً ، وهو مستقيم فى غالب أحواله ، وإنما يصدر منه أحيانا بعض الذنوب الصغار ، فما يصيبه من الهم ، والغم ، والأذى ، وبعض الآلام ، فى بدنه ، أو قلبه ، أو حبيبه ، أو ماله ، ونحو ذلك — فإنها مكفرات للذنوب ، لطفا من الله بعباده .

وبين هذين الحالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء ، على عمل السوء العام ، مخصوص فى غير التائبين .

فإن التائب من الذنب ، كمن لاذنب له ، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله [ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ] لإزالة بعض ما لعله يتوهم ، أن من استحق المجازاة على عمله ، قد يكون له ولى ، أو ناصر ، أو شافع ، يدفع عنه ما استحقه .

فأخبر تعالى ، بانتفاء ذلك ، فليس له ولى ، يحصل له المطلوب ، ولا نصير يدفع عنه المرهوب ، إلا ربه ومليكه .

[ ومن يعمل من الصالحات ] دخل فى ذلك ، سائر الأعمال القلبية والبدنية .

. . . . . . . . . . .

---

ودخل أيضا ، كل عامل ، من إنس ، أو جن ، صغير ، أو كبير ، ذكر ، أو أنثى .

ولهذا قال [ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ] وهذا شرط لجميع الأعمال لاتكون صالحة ، ولا تقبل ، ولايترتب عليها الثواب ، ولايندفع بها العقاب ، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان ، كأغصان شجرة ، قطع أصلها ، وكبناء ، بني على موج الماء .

فالإيمان ، هو الأصل والأساس ، والقاعدة ، التى يبنى عليها كل شيء .

وهذا القيد ، ينبغى التفطن له ، فى كل عمل مطلق ، فإنه مقيد به .

[ فأولئك ] أى : الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

[ يدخلون الجنة ] المشتملة على ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين .

[ ولا يظلمون نقيرا ] أى : لا قليلا ولا كثيراً ، مما عملوه من الخير . بل يجدونه كاملا موفرا ، مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾

* أى : لا أحد أحسن من دين ، من جمع بين الإخلاص للمعبود ، وهو : إسلام الوجه لله ، الدال على استسلام القلب وتوجهه ، وإنابته ، وإخلاصه وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله .

[وهو] مع هذا الإخلاص والاستسلام [محسن] أى : متبع لشريعة الله ، التى أرسل الله بها رسله ، وأنزل كتبه ، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم .

[ واتبع ملة إبراهيم ] أى : دينه وشرعه [ حنيفاً ] أى : مائلا عن الشرك إلى التوحيد ، وعن التوجه للخلق ، إلى الإقبال على الخالق .

[ واتخذ الله إبراهيم خليلا ] والخلة أعلى أنواع المحبة .

وهذه المرتبة ، حصلت للخليلين ، محمد ، وإبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام .

وأما المحبة من الله ، فهى لعموم المؤمنين .

وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، لأنه وفى بما أمر به ، وقام بما ابتلى به .

فجعله الله إماما للناس ، واتخذه خليلا ، ونوه بذكره فى العالمين .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

---

* وهذه الآية الكريمة ، فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء .

فأخبر أنه له [ ما فى السموات وما فى الأرض ]

أى : الجميع ملكه وعبيده .

فهم المملوكون ، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم .

وقد أحاط علمه بجميع المعلومات ، وبصره بجميع المبصرات ، وسمعه بجميع المسموعات ، ونفذت مشيئته وقدرته ، بجميع الموجودات ، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات ، وقهر بعزه وقهره ، كل مخلوق ، ودانت له جميع الأشياء .

۞ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ

---

* الاستفتاء : طلب السائل من المسئول ، بيان الحكم الشرعى فى ذلك المسئول عنه .

فأخبر عن المؤمنين ، أنهم يستفتون الرسول صلى الله عليه وسلم ،فى حكم النساء المتعلق بهم فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال :

[قل الله يفتيكم فيهن] فاعملوا على ما أفتاكم به ، فى جميع شئون النساء ، من القيام بحقوقهن ، وترك ظلمهن ، عموما وخصوصا .

وهذا أمر عام ،يشمل جميع ما شرع الله ، أمراً ، ونهياً ،فى حق النساء ، الزوجات وغيرهن ، الصغار والكبار .

ثم خص — بعد التعميم — الوصية بالضعاف ، من اليتامى ، والولدان، اهتماماً بهم ، وزجراً عن التفريط فى حقوقهم فقال :

[وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء ] أى : ويفتيكم أيضاً ، بما يتلى عليكم فى الكتاب ، فى شأن اليتامى من النساء .

[ اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ] .

وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة فى ذلك الوقت .

فإن اليتيمة ، إذا كانت تحت ولاية الرجل ، بخسها حقها ، وظلمها ، إما بأكل مالها الذى لها ، أو بعضه ، أو منعها من التزوج ، لينتفع بما لها ، خوفا من استخراجه من يده ، إن زوجها ، أو يأخذ من صهرها، الذى تتزوج به ، بشرط أو غيره ، هذا إذا كان راغباً عنها .

لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

---

أو يرغب فيها وهى ذات جمال ومال ، ولا يقسط فى مهرها ، بل يعطيها دون ما تستحق .

فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص ، ولهذا قال : [ وترغبون أن تنكحوهن ] أى : ترغبون عن نكاحهن ، أو فى نكاحهن كما ذكرنا تمثيله .

[ والمستضعفين من الولدان ] أى : ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان الصغار ، أن تعطوهم حقهم ، من الميراث ، وغيره ، وأن لا تستولوا على أموالهم ، على وجه الظلم والاستبداد .

[ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ] أى : بالعدل التام .

وهذا يشمل القيام عليهم ، بإلزامهم أمر الله ، وما أوجبه على عباده ، فيكون الأولياء ، مكلفين بذلك ، يلزمونهم بما أوجبه الله .

ويشمل القيام عليهم ، فى مصالحهم الدنيوية ، بتنمية أموالهم ، وطلب الأحظ لهم فيها ، وأن لا يقربوها إلا بالتى هى أحسن .

وكذلك لا يحابون فيهم ، صديقا ولا غيره ، فى تزوج وغيره ، على وجه الهضم لحقوقهم

وهذا من رحمته تعالى بعباده ، حيث حث غاية الحث ، على القيام بمصالح ، من لا يقوم بمصلحة نفسه ، لضعفه ، وفقد أبيه .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ

---

ثم حث على الإحسان عموماً ، فقال :

[ وما تفعلوا من خير ] لليتامى ولغيرهم ، سواء كان الخير متعديا ، أو لازماً .

[ فإن الله كان به عليما ] أى : قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير ، قلة وكثرة ، حسنا وضده ، فيجازى كلا بحسب عمله .

* أى : إذا خافت المرأة نشوز زوجها ، أى ترفعه عنها ، وعدم رغبته فيها ، وإعراضه عنها ، فالأحسن فى هذه الحالة ، أن يصلحا بينهما صلحاً ، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها ، على وجه تبقى مع زوجها.

إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة ،أو الكسوة،أو المسكن، أو القسم ، بأن تسقط حقها منه .

أو تهب يومها وليلتها ، لزوجها ، أو لضرتها .

فإذا اتفقا على هذه الحالة ، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها ، لا عليها ، ولا على الزوج .

فيجوز حينئذ لزوجها ، البقاء معها على هذه الحال ، وهى خير من الفرقة.
ولهذا قال : [ والصلح خير ] .

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى ، أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة فى جميع الأشياء ، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه ، لما فيه من الإصلاح ، وبقاء الألفة ، والاتصاف بصفة السماح .

ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

---

وهو جائز فى جميع الأشياء ، إلا إذا أحل حراماً ، أو حرم حلالا ، فإنه لا يكون صلحاً ، وإنما يكون جوراً .

واعلم أن كل حكم من الأحكام ، لا يتم ، ولا يكمل ، إلا بوجود مقتيضيه ، وانتفاء موانعه .

فمن ذلك ، هذا الحكم الكبير ، الذى هو الصلح .

فذكر تعالى المقتضى لذلك ، ونبه على أنه خير ، والخير كل عامل يطلبه ، ويرغب فيه .

فإن كان — مع ذلك — قد أمر الله به ، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ، ورغبة فيه .

وذكر المانع بقوله [ وأحضرت الأنفس الشح ] أى : جبلت النفوس على الشح ، وهو : عدم الرغبة فى بذل ما على الإنسان ، والحرص على الحق الذى له .

فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً .

أى ينبغى لكم ، أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنىء ، من نفوسكم ، وتستبدلوا به ، ضده وهو : السماحة ، وهو بذل الحق الذى عليك ، والاقتناع ببعض الحق الذى لك .

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن ، سهل — حينئذ — عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله ، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب .

بخلاف من لم يجتهد فى إزالة الشح من نفسه ، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة ، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله ، ولا يرضى أن يؤدى ما عليه .

فإن كان خصمه مثله ، اشتد الأمر .

ثم قال: [ وإن تحسنوا وتتقوا ] أى : تحسنوا فى عبادة الخالق ، بأن يعبد العبد ربه ، كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

وتحسنوا إلى المخلوقين ، بجميع طرق الإحسان ، من نفع بمال ، أوعلم ، أو جاه ، أو غير ذلك .

[ وتتقوا ] الله ، بفعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات .

أو تحسنوا بفعل المأمور ، وتتقوا بترك المحظور .

[ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ] قد أحاط به ، علما وخبرا ، بظاهره وباطنه ، فيحفظه لكم ، ويجازيكم عليه ، أتم الجزاء .

* يخبر تعالى : أن الأزواج لا يستطيعون ، وليس فى قدرتهم العدل التام بين النساء .

وذلك ، لأن العدل : يستلزم وجود المحبة على السواء ، والداعى على السواء ، والميل فى القلب إليهن على السواء ، ثم العمل بمقتضى ذلك .

وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عفا الله ، عما لا يستطاع[1] ونهى عما هو ممكن بقوله :

---

(١) فى الأصل ( لا يستطيع ) وهو خطأ ، فأصلحناه كما ترى لينتظم الكلام .

فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

---

[ فلا تميلو كل الميل فتذروها كالمعلقة ] أى : لا تميلوا ميلا كثيراً ، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة .

بل افعلوا ما هو باستطاعتكم فى العدل .

فالنفقة والكسوة ، والقسم ونحوها ، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها .

بخلاف الحب ، والوطء ونحو ذلك ، فإن الزوجة ، إذا ترك زوجها ، ما يجب لها ، صارت كالمعلقة ، التى لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج ، ولا ذات زوج ، يقوم بحقوقها .

[ وإن تصلحوا ] ما بينكم وبين زوجاتكم .

وبإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس ، احتساباً وقياماً بحق الزوجة .

وتصلحوا أيضا ، فيما بينكم وبين الناس .

وتصلحوا أيضا بين الناس ، فيما تنازعوا فيه .

وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم .

[ وتتقوا ] الله بفعل المأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

[ فإن الله كان غفورا رحيما ] يغفر ما صدر منكم ، من الذنوب ، والتقصير فى الحق الواجب ، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن .

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

* هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق، فإنه لا بأس بالفراق.

فقال[1] [وإن يتفرقا] أى: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك. [يغن الله كلا] من الزوجين [من سعته] أى: من فضله، وإحسانه الواسع الشامل.

فيغنى الزوج بزوجة، خير له منها، ويغنيها من فضله.

وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها، زوجا خيرا منه.

[وكان الله واسعاً] أى: كثير الفضل، واسع الرحمة.

وصلت رحمته وإحسانه، إلى حيث وصل إليه علمه.

وكان — مع ذلك — [حكيما] أى: يعطى بحكمته، ويمنع لحكمته.

[فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده، من إحسانه، بسبب في العبد، لا يستحق معه الإحسان — حرمه، عدلا وحكمة.

(١) قوله (فقال) الأحسن أن يقال (ولذا قال) لأن المقام مقام تعليل.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن

---

* يخبر تعالى، عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره، بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف، قدرا، وشرعا.

فتصرفه الشرعى، أن وصى الأولين والآخرين، أهل الكتب السابقة واللاحقة ـ بالتقوى المتضمنة للأمر والنهى، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية، بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها، بأليم العذاب.

ولهذا قال [ وإن تكفروا ] بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك، إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولاتنقصون ملكه.

وله عبيد خيرمنكم، وأعظم، وأكثر، مطيعون له، خاضعون لأمره.

ولهذا رتب على ذلك قوله [ وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً ] له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التى لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار.

لو اجتمع أهل السماوات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم، ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً.

ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام.

إنما أمره لشىء إذا أراد شيئاً، أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه، أنه كامل الأوصاف.

تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا

---

إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه ، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال .

بل ، له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفة كمالها .

ومن تمام غناه ، أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا شريكا فى ملكه ، ولا ظهيراً ، ولا معاوناً له على شيء ، من تدابير ملكه .

ومن كمال غناه ، افتقار العالم العلوى والسفلى ، فى جميع أحوالهم وشئونهم ، إليه ، وسؤالهم إياه ، جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة .

فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة ، وأغناهم وأقناهم ، ومن عليهم بلطفه ، وهداهم .

وأما الحميد ، فهو من أسماء الله تعالى الجليلة ، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ، ومحبة ، وثناء وإكرام .

وذلك لما اتصف به من صفات الحمد ، التى هى صفة الجمال والجلال ، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال ، فهو المحمود على كل حال .

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين [ الغنى الحميد ] ! !

فإنه غنى محمود ، فله كمال من غناه ، وكمال من حمده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

ثم كرر إحاطة ملكه ، لما فى السموات والأرض ، وأنه على كل شيء وكيل .

حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾

---

أى : عالم قائم بتدبير الأشياء ، على وجه الحكمة ، فإن ذلك ، من تمام الوكالة .

فإن الوكالة تستلزم العلم ، بما هو وكيل عليه ، والقوة ، والقدرة على تنفيذه وتدبيره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة .

فما نقص من ذلك ، فهو لنقص بالوكيل .

والله تعالى منزه عن كل نقص .

أى : هو الغنى الحميد الذى له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

---

☆ [ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ] غيركم ، هم أطوع لله منكم وخير منكم .

وفى هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم ، وإعراضهم عن ربهم ، فإن الله لا يعبأ بهم شيئاً ، إن لم يطيعوه ، ولكنه يمهل ، ويملى ، ولا يهمل.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية ، غير متجاوزة ثواب الدنيا ، وليس له إرادة في الآخرة ، فإنه قد قصر سعيه ونظره ، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا ، سوى ما كتب الله له منها .

فإنه تعالى ، هو المالك لكل شيء ، الذى عنده ثواب الدنيا والآخرة ، فليطلبا منه ، وليستعن به عليهما .

فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به ، والافتقار إليه على الدوام .

وله الحكمة تعالى ، فى توفيق من يوفقه ، وخذلان من يخذله ، وفى إعطائه ومنعه .

ولهذا قال [ وكان الله سميعاً بصيرا ] .

ثم قال تعالى [ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين ] الآيتين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا [ قوامين بالقسط شهداء لله ].

والقوام ، صيغة مبالغة ، أى : كونوا فى كل أحوالكم ، قائمين بالقسط ، الذى هو العدل فى حقوق الله ، وحقوق عباده .

فالقسط فى حقوق الله ، أن لا يستعان بنعمه على معصيته ، بل تصرف فى طاعته .

والقسط فى حقوق الآدميين ، أن تؤدى جميع الحقوق التى عليك ، كما تطلب حقوقك .

فتؤدى النفقات الواجبة ، والديون ، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، من الأخلاق والمكافأة ، وغير ذلك .

ومن أعظم أنواع القسط ، القسط فى المقالات والقائلين .

فلا يحكم لأحد القولين ، أو أحد المتنازعين ، لانتسابه أو ميله لأحدهما.

بل يجعل وجهته ، العدل بينهما .

ومن القسط أداء الشهادة ، التى عندك على أى وجه كان ، حتى على الأحباب ، بل على النفس ، ولهذا قال : [ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ].

أي : فلا تراعوا الغنى لغناه ، ولا الفقير — بزعمكم — رحمة له .

بل اشهدوا بالحق ، على من كان .

والقيام بالقسط ، من أعظم الأمور ، وأدلها على دين القائم به ، وورعه ومقامه فى الإسلام .

فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

فيتعين على من نصح نفسه ، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام ، وأن يجعله نصب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن نفسه ، كل مانع وعائق يعوقه ، عن إرادة القسط ، أو العمل به .

وأعظم عائق لذلك ، اتباع الهوى ، ولهذا ، نبه تعالى ، على إزالة هذا لمانع بقوله :

[ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ] أى : فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق .

فإنكم — إن اتبعتموها ، عدلتم عن الصواب ، ولم توفقوا للعدل.

فإن الهوى ، إما أن يعمى بصيرة صاحبه ، حتى يرى الحق باطلا ، والباطل حقاً .

وإما أن يعرف الحق ويتركه ، لأجل هواه .

فمن سلم من هوى نفسه ، وفق للحق ، وهدى إلى الصراط المستقيم .

ولما بين أن الواجب ، القيام بالقسط ، نهى عن ما يضاد ذلك ، وهو لي اللسان عن الحق ، فى الشهادات وغيرها ، وتحريف النطق ، عن الصواب المقصود من كل وجه ، أو من بعض الوجوه .

ويدخل فى ذلك ، تحريف الشهادة ، وعدم تكميلها ، أو تأويل الشاهد على أمر آخر .

فإن هذا ، من اللى ، لأنه الانحراف عن الحق .

[ أو تعرضوا ] أى : تتركوا القسط المنوط بكم ، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه ، الذى يجب عليه القيام به .

[ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ] أى : محيطاً بما فعلتم ، يعلم أعمالكم، خفيها وجليها .

وفى هذا تهديد شديد ، للذى يلوى أو يعرض .

ومن باب أولى ، الذى يحكم بالباطل ، أو يشهد بالزور ، لأنه أعظم جرماً .

لأن الأولين ، تركا الحق ، وقام هو بالباطل .

* اعلم أن الأمر ، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فى الشىء ولم يتصف بشىء منه . فهذا يكون أمراً له ، فى الدخول فيه .

وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان كقوله تعالى :

[ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم ] الآية .

وإما أن يوجه إلى من دخل فى الشىء ، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد .

ومنه ماذكره الله فى هذه الآية ، من أمر المؤمنين بالإيمان .

فإن ذلك يقتضى أمرهم بما يصحح إيمانهم ، من الإخلاص والصدق ، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات .

ويقتضى أيضاً ، الأمر بما لم يوجد من المؤمن ، من علوم الإيمان وأعماله .

فإنه كلما وصل إليه نص ، وفهم معناه ، واعتقده ، فإن ذلك من المأمور به .

ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

---

وكذلك سائر الأعمال الظاهرة ، والباطنة ، كلها من الإيمان ، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة ، وأجمع عليه سلف الأمة .

ثم الاستمرار على ذلك ، والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى :

[ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ] .

وأمر هنا بالإيمان به ، وبرسله ، وبالقرآن ، وبالكتب المتقدمة .

فهذا كله من الإيمان الواجب ، الذى لايكون العبد مؤمنا إلا به .

إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله ، وتفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل .

فمن آمن هذا الإيمان المأمور به ، فقد اهتدى وأنجح .

[ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً ] .

وأى ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم ، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم ؟ ! !

واعلم أن الكفر بشىء من هذه الأمور المذكورة ، كالكفر بجميعها ، لتلازمها ، وامتناع وجود الإيمان ببعضها ، دون بعض .

ثم قال [ إن الذين آمنوا ثم كفروا ] الآية .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلَا ﴿١٣٧﴾ ﴾

---

☆ أى : من تكرر منه الكفر بعد الإيمان ، فاهتدى ، ثم ضل وأبصر ، ثم عمى وآمن ، ثم كفر واستمر على كفره ، وازداد منه ، فإنه بعيد من التوفيق والهداية ، لأقوم الطريق ، وبعيد عن المغفرة ، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها .

فإن كفره ، يكون عقوبة وطبعاً ، لايزول كما قال تعالى [ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ] .

[ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ] .

ودلت الآية : أنهم ، إن لم يزدادوا كفرا ، بل رجعوا إلى الإيمان ، وتركوا ماهم عليه من الكفران ، فإن الله يغفر لهم ، ولو تكررت منهم الردة .

وإذ كان هذا الحكم فى الكفر ، فغيره — من المعاصى التى دونه — من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ، ثم عاد إلى التوبة ، عاد الله له بالمغفرة .

بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ

* البشارة ، تستعمل فى الخير[1] ، وتستعمل فى الشر بقيد ، كما فى هذه الآية .

يقول تعالى [ بشر المنافقين ] أى : الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، بأقبح بشارة وأسوإها ، وهو العذاب الأليم .

---

(١) قوله ( وتستعمل البشارة فى الخير ، وتستعمل فى الشر بقيد ) أي : لنكتة بلاغية وهى إرادة السخرية بهؤلاء المجرمين على حد قوله تعالى ( هذا نزلهم يوم الدين ) .

ومعلوم أن النزل هو البيت الذى يكرم فيه الأضياف كالفنادق ونحوها ولاشك أن تسمية ( جهنم ) التى هى مأوى العصاة — نزلا لتزيد حسراتهم ويتضاعف عذابهم ، لأنهم لم يسلكوا سبيل المؤمنين .

ومراد القول فى استقصاء الكلام فى هذا الموضوع ، وإيراد الشواهد من القرآن وكلام العرب — فسيح ، ومجاله واسع ، لاتتسع له هذه العجالة .

ومن أراد الاستقصاء ، فليرجع إلى تفسير الزمخشرى المعروف بالكشاف وإلى تفسير الآلوسى .

والمقصود أن استعمال البشارة فى الشر استعمال مجازى بدليل القيد المشروط فيه ، والقيود لا يفتقر إليها إلا المجاز .

قال فى الصحاح : البشارة المطلقة لا تكون إلا بخير ، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة ، كقوله تعالى ( فبشرهم بعذاب أليم ) اهـ .

يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

---

وذلك بسبب محبتهم الكفار ، وموالاتهم ، ونصرتهم ، وتركهم لموالاة المؤمنين .

فأى شىء حملهم على ذلك ؟ أيبتغون عندهم العزة ؟ .

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين .

ساء ظنهم بالله ، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين .

ولحظوا بعض الأسباب ، التى عند الكافرين ، وقصر نظرهم عما وراء ذلك .

فاتخذوا الكافرين أولياء ، يتعززون بهم ، ويستنصرون .

والحال أن العزة لله جميعاً ، فإن نواصى العباد بيده ، ومشيئته نافذة فيهم .

وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين ، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين .

وإدالة العدو عليهم ، إدالة ، غير مستمرة ، فإن العاقبة والاستقرار ، للمؤمنين .

وفى هذه الآية ، الترهيب العظيم من موالاة الكافرين ؛ وترك موالاة المؤمنين ، وأن ذلك ، من صفات المنافقين .

وأن الإيمان يقتضى محبة المؤمنين وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

---

* أى : وقد بين الله لكم — فيما أنزل عليكم — حكمه الشرعى عند حضور مجالس الكفر والمعاصى [ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ] أى : يستهان بها .

وذلك أن الواجب على كل مكلف فى آيات الله ، الإيمان بها ، وتعظيمها وإجلالها ، وتفخيمها .

وهذا هو المقصود بإنزالها ، وهو الذى خلق الله الخلق لأجله .

فضد الإيمان ، الكفر بها ، وضد تعظيمها ؛ الاستهزاء بها واحتقارها.

ويدخل فى ذلك ، مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم .

وكذلك المبتدعون ، على اختلاف أنواعهم .

فإن احتجاجهم على باطلهم ، يتضمن الاستهانة بآيات الله ، لأنها لا تدل إلا على الحق ، ولا تستلزم إلا صدقا .

بل وكذلك يدخل فيه ، حضور مجالس المعاصى والفسوق ، التى يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه ، وتقتحم حدوده التى حدها لعباده .

ومنتهى هذا النهى عن القعود معهم [ حتى يخوضوا فى حديث غيره ] أى : غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها .

فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ
مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ

---

[ إنكم إذا ] أى : إن قعدتم معهم فى الحال المذكور [ مثلهم ] لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم ، والراضى بالمعصية ، كالفاعل لها .

والحاصل أن من حضر مجلساً ، يعصى الله به[1] ، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم ، مع القدرة ، أو القيام مع عدمها .

[ إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ] كما اجتمعوا على الكفر والموالاة .

ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم — فى الظاهر — مع المؤمنين كما قال تعالى :

[ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ، انظرونا نقتبس من نوركم ] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ، ومعاداتهم للمؤمنين فقال:

[ الذين يتربصون بكم ] أى : ينتظرون الحالة التى تصيرون عليها ، وتنتهون إليها ، من خير أو شر ، قد أعدوا لكل حالة جوابا بحسب نفاقهم.

[ فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ] .

فيظهرون أنهم مع المؤمنين ، ظاهرا وباطنا ، ليسلموا من القدح والطعن عليهم ، وليشركوهم فى الغنيمة والفىء ، ولينتصروا بهم .

---

(١) لعل الصواب فيه .

بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

---

[ وان كان للكافرين نصيب ] ولم يقل فتح ، لأنه لايحصل لهم فتح ، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة .

بل غاية ما يكون ، أن يكون لهم نصيب غير مستقر ، حكمة من الله .

فإذا كان ذلك [ قالوا ألم نستحوذ عليكم ] أى : نستولى عليكم [ ونمنعكم من المؤمنين ] .

أى : يتصنعون عندهم ، بكف أيديهم عنهم ، مع القدرة ، ومنعهم من المؤمنين ، بجميع وجوه المنع فى تنفيرهم ، وتزهيدهم فى القتال ، ومظاهرة الأعداء عليهم ، وغير ذلك ، مما هو معروف منهم .

[ فالله يحكم بينكم يوم القيمة ] فيجازى المؤمنين ، ظاهراً وباطنا ، بالجنة ، ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات .

[ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ] أى : تسلطا واستيلاء عليهم .

بل لاتزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة ، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم .

ولايزال الله ، يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ، ودفع تسليط الكافرين ، ماهو مشهود بالعيان .

حتى إن بعض المسلمين ، الذين تحكمهم الطوائف الكافرة ، قد بقوا محترمين لايتعرضون لأديانهم ، ولا يكونون مستصغرين عندهم .

بل لهم العز التام من الله ، فلله الحمد ، أولا وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟
إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

---

* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه ، من قبيح الصفات ، وشنائع السمات .

وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى ، أى : بما أظهروه من الإيمان ، وأبطنوه من الكفران .

ظنوا أنه يروج على الله ، ولا يعلمه ، ولا يبديه لعباده ، والحال أن الله خادعهم .

فمجرد وجود هذه الحال منهم ، ومشيهم عليها ، خداع لأنفسهم .

وأى خداع أعظم ، ممن يسعى سعيا ، يعود عليه بالهوان والذل والحرمان ؟!! .

ويدل — بمجرده — على نقص عقل صاحبه ، حيث جمع بين المعصية ، ورآها حسنة ، وظنها من العقل والمكر .

فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه ! ! .

ومن خداعه لهم يوم القيامة ، ما ذكره الله فى قوله :

[ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ] إلى آخر الآيات .

ومن صفاتهم أنهم [ إذا قاموا إلى الصلاة ] التى هى أكبر الطاعات العملية ، إن قاموا [ قاموا كسالى ] متثاقلين لها ، متبرمين من فعلها .

قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾

---

والكسل ، لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم .

فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله، وإلى ماعنده، عادمة للإيمان ، لم يصدر منهم الكسل .

[ يراءون الناس ] أى : هذا الذى انطوت عليه سرائرهم ، وهذا مصدر أعمالهم ، مراءاة الناس .

يقصدون رؤية الناس ، وتعظيمهم ، واحترامهم ، ولا يخلصون لله .

فلهذا [ لا يذكرون الله إلا قليلا ] لامتلاء قلوبهم من الرياء .

فإن ذكر الله تعالى ، وملازمته ، لا يكون إلا من مؤمن ، ممتلىء قلبه ، بمحبة الله وعظمته .

[ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ] .

أى : مترددين ، بين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين .

فلا من المؤمنين ظاهرا وباطنا ، ولا من الكافرين ظاهرا وباطنا .

أعطوا باطنهم للكافرين ، وظاهرهم للمؤمنين ،وهذا أعظم ضلال يقدر.

ولهذا قال [ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ] أى : لن تجد طريقاً لهدايته ، ولا وسيلة لترك غوايته ، لأنه انغلق عنه باب الرحمة ، وصار بدله، كل نقمة .

فهذه الأوصاف المذمومة ، تدل — بتنبيهها — على أن المؤمنين ، متصفون بضدها ، من الصدق والإخلاص ، ظاهراً وباطناً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

---

وأنهم لا يجهل ما عندهم ، من النشاط [1] فى صلاتهم ، وعباداتهم ، وكثرة ذكرهم لله تعالى .

وأنهم قد هداهم الله ، ووفقهم للصراط المستقيم .

فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين ، وليختر أيهما أولى به ، والله المستعان .

* لما ذكر أن من صفات المنافقين ، اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة ، وأن يشابهوا المنافقين ، فإن ذلك موجب لأن [ تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً ) أى : حجة واضحة على عقوبتكم .

فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها ، وأخبرنا بما فيها من المفاسد .

فسلوكها — بعد هذا — موجب للعقاب .

وهذه الآية ، دليل على كمال عدل الله ، وأن الله لا يعذب أحدا ؛ قبل قيام الحجة عليه .

وفيه التحذير من المعاصى ؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً .

---

(١) فى الأصل المطبوع « نشاطهم » وهو خطأ نحوى فلذلك أصلحناها بـ « من النشاط » لأن « ما » تحتاج إلى بيان ، و « من » بيان لها .

۞ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ
لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ

---

* يخبر تعالى ، عن مآل المنافقين ، أنهم فى أسفل الدركات من العذاب ، وأشر الحالات من العقاب .

فهم تحت سائر الكفار ، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله.

وزادوا عليهم ، المكر والخديعة ، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين ، على وجه لا يشعر به ولا يحس .

ورتبوا على ذلك ، جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق ما لا يستحقونه .

فبذلك ونحوه ، استحقوا أشد العذاب .

وليس لهم منقذ من عذابه ، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه .

وهذا عام لكل منافق ، إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات .

[ وأصلحوا ] له الظواهر والبواطن [ واعتصموا بالله] والتجأوا إليه، فى جلب منافعهم ، ودفع المضار عنهم .

[ وأخلصوا دينهم ] الذى هو الإسلام ، والإيمان والإحسان [ لله ] .

فقصدوا وجه الله ، بأعمالهم الظاهرة والباطنة،وسلموا من الرياء والنفاق.

فمن اتصف بهذه الصفات [ فأولئك مع المؤمنين ] أى : فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة .

[ وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ] لا يعلم كنهه إلا الله ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ

---

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص ، بالذكر ، مع دخولهما في قوله :

[ وأصلحوا ] لأن الاعتصام والإخلاص ، من جملة الإصلاح ، لشدة الحاجة إليهما ، خصوصا في هذا المقام الحرج ، الذي تمكن فيه النفاق من القلوب .

فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ، ودوام اللجأ والافتقار إليه ، في دفعه ، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق .

فذكرهما لفضلهما ، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما .

وتأمل كيف — لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين — لم يقل ( وسوف يؤتيهم أجرا عظيما ، مع أن السيئات فيهم .

بل قال [ وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ] .

لأن هذه القاعدة الشريفة — لم يزل الله يبدىء فيها ويعيد ، إذا كان السياق في بعض الجزئيات ، وأراد أن يرتب عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه .

رتب[1] الثواب ، في مقابلة الحكم العام ، الذي تندرج تحته ، تلك القضية وغيرها .

---

( ١ ) قوله ( رتب إلخ ) جواب ( إذا ) في قوله المتقدم ( إذا كان السياق . إلخ ) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ
وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

---

ولئلا يتوهم اختصاص الحكم ، بالأمر الجزئى ، فهذا من أسرار القرآن البديعة .

فالتائب من المنافقين ، مع المؤمنين ، وله ثوابهم .

* ثم أخبر تعالى ، عن كمال غناه ، وسعة حلمه ، ورحمته ؛ وإحسانه فقال:

[ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ] والحال أن الله شاكر عليم .

يعطى المتحملين لأجله ؛ الأثقال، الدائبين فى الأعمال ؛ جزيل الثواب وواسع الإحسان .

ومن ترك شيئاً لله ، أعطاه الله خيرا منه .

ومع هذا ، يعلم ظاهركم وباطنكم ، وأعمالكم ، وما تصدر عنه من إخلاص وصدق ، وضد ذلك .

وهو يريد التوبة والإنابة منكم والرجوع إليه .

فإذا أنبتم إليه ، فأى شىء يفعل بعذابكم ؟

فإنه لا يتشفى بعذابكم ، ولا ينتفع بعقابكم .

بل العاصى لا يضر إلا نفسه ، كما أن عمل المطيع ، لنفسه .

والشكر هو : خضوع القلب ، واعترافه بنعمة الله ، وثناء اللسان على المشكور .

وعمل الجوارح بطاعته ، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه .

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

* يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، أى : يبغض ذلك ويمقته ، ويعاقب عليه .

ويشمل ذلك ، جميع الأقوال السيئة ، التى تسوء وتحزن ، كالشتم ، والقذف ، والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله ، من المنهي عنه ، الذى يبغضه الله .

ويدل مفهومها ، أنه يحب الحسن من القول ، كالذكر ، والكلام الطيب اللين .

وقوله [ إلا من ظلم ] أى : فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ، ويشتكى منه ، ويجهر بالسوء لمن جهر له به ، من غير أن يكذب عليه ، ولا يزيد على مظلمته ، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه .

ومع ذلك ، فعفوه ، وعدم مقابلته ، أولى كما قال تعالى : [ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ] .

[ وكان الله سميعاً عليما ] ولما كانت الآية ، قد اشتملت على الكلام السيء ، والحسن ، والمباح ، أخبر تعالى ، أنه سميع ، فيسمع أقوالكم ، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم .

* وفيه أيضا ترغيب على القول الحسن [ عليم ] بنياتكم ومصدر أقوالكم .

ثم قال تعالى [ إن تبدوا خيرا أو تخفوه ] وهذا يشمل كل خير ، قولى ، وفعلى ، ظاهر ، وباطن ، من واجب ، ومستحب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ

[ أو تعفوا عن سوء ] أى : عمن أساء إليكم[1] فى أبدانكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، فتسمحوا عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

فمن عفا لله ، عفا الله عنه ، ومن أحسن ، أحسن الله إليه ، فلهذا قال: [ فإن الله كان عفوا قديراً ] أى : يعفو عن زلات عباده ، وذنوبهم العظيمة ، فيسدل عليهم ستره ، ثم يعاملهم بعفوه التام ، الصادر عن قدرته .

وفى هذه الآية ، إرشاد إلى التدبر[2] فى معانى أسماء الله وصفاته ، وأن الخلق والأمر ، صادر عنها ، وهى مقتضية له ، ولهذا يعلل الأحكام ، بالأسماء الحسنى ، كما فى هذه الآية .

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسىء ، رتب على ذلك ، بأن أحالنا على معرفة أسمائه ، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص قال [ إن الذين يكفرون ] إلى [ وكان الله غفوراً رحيما ] .

* هنا قسمان ، قد وضحا لكل أحد : مؤمن بالله ، وبرسله كلهم ، وكتبه ، وكافر بذلك كله .

وبقى قسم ثالث : وهو : الذى يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل ، دون بعض ، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله ، إن هذا إلا مجرد أمانى .

فإن هؤلاء ، يريدون التفريق بين الله وبين رسله .

فإن من تولى الله حقيقة ، تولى جميع رسله ، لأن ذلك من تمام توليه .

ومن عادى أحدا من رسله ، فقد عادى الله ، وعادى جميع رسله كما قال تعالى:

(١) فى الأصل المطبوع « ساءكم » وهو خطأ لغوى .
(٢) فى الأصل « التفقد » وهو خطأ .

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

---

[ من كان عدوا لله ] الآيات .

وكذلك من كفر برسول ، فقد كفر بجميع الرسل ، بل بالرسول ، الذى يزعم أنه به مؤمن ، ولهذا قال : [ أولئك هم الكافرون حقا ] .

وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة ، بين الإيمان والكفر .

ووجه كونهم كافرين — حتى بمن زعموا الإيمان به — أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به ، موجود هو أومثله ، أو ما هو فوقه للنبي الذى كفروا به .

وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها فى النبي الذى كفروا به، موجود مثلها ، أو أعظم منها ، فيمن آمنوا به .

فلم يبق بعد ذلك ، إلا التشهى والهوى ، ومجرد الدعوى ، التى يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها .

ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا ، ذكر عقاباشاملا لهم، ولكل كافر فقال :

[ وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ] كما تكبروا عن الإيمان بالله ، أهانهم بالعذاب الأليم المخزى .

يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا

---

[ والذين آمنوا بالله ورسله ] وهذا يتضمن الإيمان ، بكل ما أخبر الله به عن نفسه ، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام .

[ ولم يفرقوا بين أحد منهم ] بل آمنوا بهم كلهم .

فهذا هو الإيمان الحقيقى ، واليقين المبنى على البرهان .

[ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ] أى : جزاء إيمانهم ، وماترتب عليه، من عمل صالح ، وقول حسن ، وخلق جميل ، كل على حسب حاله .

ولعل هذا ، هو السر فى إضافة الأجور إليهم .

[ وكان الله غفوراً رحيما ] يغفر السيئات ويتقبل الحسنات .

* هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب ، للرسول محمدصلى الله عليه وسلم، على وجه العناد والاقتراح ، وجعلهم هذا السؤال . يتوقف عليه تصديقهم ، أو تكذيبهم .

وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة والإنجيل .

وهذا غاية الظلم منهم ، فإن الرسول ، بشر عبد ، مدبر ، ليس فى يده من الأمر شىء ، بل الأمر كله لله .

فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

---

وهو الذى يرسل وينزل ما يشاء على عباده ، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التى فيها اقتراح المشركين عليه صلى الله عليه وسلم .

[ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشر رسولا ] .

وكذلك جعلهم الفارق ، بين الحق والباطل ، مجرد إنزال الكتاب جملة ، أو مفرقاً ، مجرد دعوى ، لا دليل عليها ، ولامناسبة، بل ولاشبهة .

فمن أين يوجد فى نبوة أحد من الأنبياء ، أن الرسول الذى يأتيكم بكتاب ، نزل مفرقا ، فلا تؤمنوا به ، ولا تصدقوه ؟

بل نزول القرآن مفرقاً بحسب الأحوال ، مما يدل على عظمته، واعتناء الله بمن أنزل عليه كما قال تعالى :

[ وقالوا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ] .

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد ، أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم .

بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ، ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول، الذى يزعمون أنهم آمنوا به ، من سؤالهم له ، رؤية الله عياناً ، واتخاذهم العجل إلها يعبدونه ، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ، مالم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم ، وهو التوراة ، حتى رفع الطور من فوق رءوسهم ، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا ، أسقط عليهم ،

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰناً عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا
ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن

---

فقبلوا ذلك على وجه الإغماض ، والإيمان الشبيه بالإيمان الضرورى .

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية ، التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين ، فخالفوا القول والفعل .

ومن اعتداء من اعتدى منهم فى السبت ، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة .

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم ، فنبذوه وراء ظهورهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا رسله بغير حق .

ومن قولهم : إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه .

والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ، بل شبه لهم غيره ، فقتلوا غيره وصلبوه .

وادعائهم أن قلوبهم غلف ، لا تفقه ما تقول لهم ، ولا تفهمه .

وبصدهم الناس عن سبيل الله ، فصدوهم عن الحق ، ودعوتهم إلى ماهم عليه من الضلال والغى .

وبأخذهم السحت ، والربا ، مع نهى الله لهم عنه ، والتشديد فيه .

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل ، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء .

وهذه الطريقة ، من أحسن الطرق ، لمحاجة الخصم المبطل .

شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ

---

وهو : أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ، ما جعله شبهة له ولغيره ، فى رد الحق ، أن يبين من حاله الخبيثة ، وأفعاله الشنيعة ، ما هو من أقبح ما صدر منه ، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادى الخسيس ، وأن له مقدمات يجعل هذا معها .

وكذلك كل اعتراض يعترضون به ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يمكن أن يقابل بمثله ، أو ما هو أقوى منه ، فى نبوة من يدعون إيمانهم به ، ليكتفى بذلك شرهم ، وينقمع باطلهم .

وكل حجة سلكوها ، فى تقريرهم لنبوة من آمنوا به ، فإنها ونظيرها ، وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة ، لم يبسطها فى هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها ، وقد بسطها فى غير هذا الموضع فى المحل اللائق ببسطها .

وقوله [ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ] .

يحتمل أن الضمير هنا فى قوله [ قبل موته ] يعود إلى أهل الكتاب .

فيكون — على هذا — كل كتابى يحضره الموت ، ويعاين الأمر حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ، ولكنه إيمان لا ينفع ، لأنه إيمان اضطرار .

مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، أن لا يستمروا على هذه الحال ، التى سيندمون عليها قبل مماتهم فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم ؟ !!

ويحتمل أن الضمير فى قوله [ قبل موته ] راجع إلى عيسى عليه السلام .

فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب ، إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة ، وظهور علاماتها الكبار .

فإنها تكاثرت الأحاديث فى نزوله عليه السلام فى آخر هذه الأمة .

يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين .

ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل هى موافقة لشرع الله أم لا ؟ .

وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف لشريعة القرآن .

ولما دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم علمنا بذلك ، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام ، وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق .

إلا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الحق ، وما عداه ، فهو ضلال وباطل .

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

---

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب ، كثيراً من الطيبات ، التى كانت حلالا عليهم .

وهذا تحريم عقوبة ، بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه .

فمنعوا المحتاجين ، ممن يبايعونه عن العدل .

فعاقبهم الله من جنس فعلهم ، فمنعهم من كثير من الطيبات ، التى كانوا بصدد حلها ، لكونها طيبة .

وأما التحريم الذى على هذه الأمة ، فإنه تحريم ، تنزيها لهم عن الخبائث التى تضرهم ، فى دينهم ودنياهم .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

---

* لما ذكر معايب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم فقال :

[ لكن الراسخون فى العلم ] أى : الذين ثبت العلم فى قلوبهم، ورسخ الإيقان فى أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام [ بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ] .

وأثمر لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال .

وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد .

وآمنوا باليوم الآخر، فخافوا الوعيد، ورجو الوعد .

[ أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما ] لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب، والرسل السابقة واللاحقة .

* إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّنَ مِن بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

---

* يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله ، من الشرع العظيم ، والأخبار الصادقة ، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وفى هذا عدة فوائد :

منها أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليس ببدع من الرسل ، بل أرسل الله قبله من المرسلين ، العدد الكثير ، والجم الغفير ، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد .

ومنها : أنه أوحى إليه ، كما أوحى إليهم ، فى الأصول ، والعدل الذى اتفقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .

ومنها : أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر، بإخوانه المرسلين.

فدعوته ، دعوتهم ؛ وأخلاقهم ؛ متفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛ وغايتهم واحدة .

فلم يقرنه بالمجهولين ؛ ولا بالكذابين ، ولا بالملوك الظالمين .

ومنها : أن فى ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم ، من التنويه بهم ، والثناء الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم ، مما يزداد به المؤمن ، إيمانا بهم ، ومحبة لهم ، واقتداء بهديهم ، واستنانا بسنتهم ، ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك مصداقا لقوله .

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

---

[سلام على نوح فى العالمين — سلام على إبراهيم — سلام على موسى وهرون — سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين ] .

فكل محسن ، له من الثناء الحسن بين الأنام ، بحسب إحسانه .

والرسل — خصوصاً هؤلاء المسمون — فى المرتبة العليا من الإحسان .

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ، ذكر تخصيص بعضهم .

فذكر أنه : آتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف ، المزبور الذى خص الله به داود عليه السلام ، لفضله وشرفه .

وأنه كلم موسى تكليما ، أى : مشافهة منه إليه ، لا بواسطة ، حتى اشتهر بهذا عند العالمين ، فيقال « موسى كليم الرحمن » .

وذكر أن الرسل ، منهم من قصه الله على رسوله ، ومنهم من لم يقصصه عليه .

وهذا يدل على كثرتهم ، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم ، بالسعادة الدنيوية والأخروية ، ومنذرين من عصى الله ، وخالفهم بشقاوة الدارين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا :

[ ما جاءنا من بشير ولا نذير . قد جاءكم بشير ونذير ] .

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى ، يبينون لهم أمر دينهم ، ومراضى ربهم ومساخطه ، وطرق الجنة وطرق النار .

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وهذا من كمال عزته تعالى ، وحكمته ، أن أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب .

وذلك أيضاً من فضله وإحسانه ، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء ، أعظم ضرورة تقدر ، فأزال هذا الاضطرار ، فله الحمد والشكر .

ونسأله ، كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم ، أن يتمها بالتوفيق ، لسلوك طريقهم . إنه جواد كريم .

* لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين ، أخبر هنا ، بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به .

و [ أنزل بعلمه ] يحتمل أن يكون المراد ، أنزله مشتملا على علمه ، أى : فيه من العلوم الإلهية ، والأحكام الشرعية ، والأخبار الغيبية ، ما هو من علم الله تعالى ، الذى علم به عباده .

ويحتمل أن يكون المراد : أنزله ، صادرا عن علمه .

ويكون فى ذلك إشارة وتنبيه ، على وجه شهادته .

وأن المعنى : إذا كان تعالى ، أنزل هذا القرآن ، المشتمل على الأوامر والنواهى ، وهو يعلم ذلك ، ويعلم حالة الذى أنزله عليه ، وأنه دعا الناس إليه ، فمن أجابه وصدقه ، كان وليه ، ومن كذبه وعاداه ، كان عدوه ،

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ

---

واستباح ماله ودمه ، والله تعالى يمكنه ، ويوالى نصره ، ويجيب دعواته ، ويخذل أعداءه ، وينصر أولياءه .

فهل[1] توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر ؟ !!

ولا يمكن القدح فى هذه الشهادة ، إلا بعد القدح بعلم الله ، وقدرته ، وحكمته ، وإخباره تعالى ، بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله ، لكمال إيمانهم ، ولجلالة هذا المشهود عليه .

فإن الأمور العظيمة ، لايستشهد عليها ، إلا الخواص ، كما قال تعالى فى الشهادة على التوحيد : [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ] وكفى بالله شهيداً .

* لما أخبر عن رسالة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وأخبر برسالة خاتمهم محمد ، وشهد بها ، وشهدت ملائكته — لزم من ذلك ، ثبوت الأمر المقرر ، والمشهود به ، فوجب تصديقهم ، والإيمان بهم واتباعهم .

ثم توعد من كفر بهم فقال : [ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ] .

أى جمعوا بين الكفر بأنفسهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله .

وهؤلاء أئمة الكفر ، ودعاة الضلال [ قد ضلوا ضلالا بعيداً ] .

---

(١) قوله ( فهل ) الخ جواب (إذا) فى قوله المتقدم [وأن المعنى إذا كان].

لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴿١٦٨﴾ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

---

وأى : ضلال ، أعظم من ضلال من ضل بنفسه ، وأضل غيره ، فباء بالإثمين ، ورجع بالخسارتين ، وفاتته الهدايتان ، ولهذا قال :

[ إن الذين كفروا وظلموا ] وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم ، وإلا فالكفر — عند إطلاق الظلم ـ يدخل فيه .

والمراد بالظلم هنا ، أعمال الكفر والاستغراق فيه .

فهؤلاء بعيدون من المغفرة ، والهداية للصراط المستقيم .

ولهذا قال: [ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم ] .

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية ، لأنهم استمروا فى طغيانهم ، وازدادوا فى كفرهم ، فطبع على قلوبهم ، وانسدت عليهم طرق الهداية ، بما كسبوا .

[ وما ربك بظلام للعبيد ] .

[ وكان ذلك على الله يسيرا ] أى : لايبالى الله بهم ، ولا يعبأ ، لأنهم لا يصلحون للخير ، ولا يليق بهم ، إلا الحالة التى اختاروها لأنفسهم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى جميع الناس ، أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر السبب الموجب للإيمان به ، والفائدة فى الإيمان والمضرة ، فى عدم الإيمان به .

فالسبب الموجب ، هو : إخباره بأنه جاءهم بالحق .

فمجيئه نفسه حق ، وما جاء به من الشرع حق .

فإن العاقل ، يعرف أن بقاء الخلق فى جهلهم يعمهون ، وفى كفرهم يترددون ، والرسالة قد انقطعت عنهم ، غير لائق بحكمة الله ورحمته .

فمن حكمته ورحمته العظيمة ، نفس إرسال الرسول إليهم ، ليعرفهم الهدى من الضلال ، والغى من الرشد .

فمجرد النظر فى رسالته ، دليل قاطع على صحة نبوته .

وكذلك النظر إلى ماجاء به ، من الشرع العظيم ، والصراط المستقيم .

فإنه فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة ، والخبر عن الله ، وعن اليوم الآخر ـ مالا يعرفه أحد إلا بالوحى والرسالة .

وما فيه من الأمر ، بكل خير وصلاح ، ورشد ، وعدل ، وإحسان ،

. . . . . . . . . . .

---

وصدق ، وبر ، وصلة ، وحسن خلق ، ومن النهى عن الشر والفساد ، والبغى والظلم ، وسوء الخلق ، والكذب والعقوق ، مما [1] يقطع به أنه من عند الله .

وكلما ازداد به العبد بصيرة ، ازداد إيمانه ويقينه ، فهذا السبب الداعى للإيمان .

وأما الفائدة فى الإيمان ، فأخبر أنه [ خيرا لكم ] والخير ، ضد الشر .

فالإيمان ، خير للمؤمنين ، فى أبدانهم ، وقلوبهم ، وأرواحهم ، ودنياهم ، وأخراهم .

وذلك لما يترتب عليه ، من المصالح والفوائد .

فكل ثواب ، عاجل وآجل ، فمن ثمرات الإيمان .

فالنصر ، والهدى ، والعلم ، والعمل الصالح ، والسرور ، والأفراح ، والجنة ، وما اشتملت عليه ، من النعيم ـ كل ذلك ، سبب عن الإيمان .

كما أن الشقاء الدنيوى ، والأخروى ، من عدم الإيمان ، أو نقصه .

وأما مضرة عدم الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان .

---

(١) قوله (مما يقطع) جملة فعليه واقعة فى محل رفع خبر عن المبتدأ الذى هو قوله ( وما فيه أخ ) .

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ

---

وأن العبد لايضر إلا نفسه ، والله تعالى ، غنى عنه ، لاتضره معصية العاصين .

ولهذا قال : [ فإن لله مافى السموات والأرض ] أى : الجميع خلقه وملكه ، وتحت تدبيره وتصريفه [ وكان الله عليما ] بكل شىء [ حكيما ] فى خلقه وأمره .

فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية ، الحكيم فى وضع الهداية والغواية ، موضعهما .

* ينهى تعالى ، أهل الكتاب عن الغلو فى الدين ، وهو : مجاوزة الحد ، والقدر المشروع ، إلى ما ليس بمشروع .

وذلك كقول النصارى ، فى غلوهم بعيسى عليه السلام ، ورفعه عن مقام النبوة ، والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لا يليق بغير الله

فكما أن التقصير والتفريط ، من المنهيات ، فالغلو كذلك .

ولهذا قال [ ولاتقولوا على الله إلا الحق ] وهذا الكلام ، يتضمن ثلاثة أشياء .

أمرين منهى عنهما ، وهما قول الكذب على الله ، والقول بلا علم ، فى أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرعه ، ورسله .

والثالث : مأمور وهو : قول الحق فى هذه الأمور .

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية ، وكان السياق فى شأن عيسى عليه

أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ

السلام ، نصا على قول الحق فيه ، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال:

[ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ] أى: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى مايصل إليه من مراتب الكمال ، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهى درجة الرسالة ، التى هى أعلى الدرجات ، وأجل المثوبات .

وأنه [ كلمته ألقاها إلى مريم ] أى: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة ، وإنما كان بها ، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم .

وكذلك قوله [ وروح منه ] أى : من الأرواح التى خلقها ، وكملها بالصفات الفاضلة ، والأخلاق الكاملة .

أرسل الله روحه ، جبريل عليه السلام ، فنفخ فى فرج مريم عليهما السلام .

فحملت بإذن الله ، بعيسى عليه السلام .

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام ، أمر أهل الكتاب بالإيمان به ، وبرسله ، ونهاهم أن يجعلوا الله ، ثالث ثلاثة ، أحدهم عيسى ، والثانى مريم فهذه مقالة النصارى ، قبحهم الله .

فأمرهم أن ينتهوا ، وأخبر أن ذلك ، خير لهم ، لأنه الذى يتعين ، أنه سبيل النجاة ، وما سواه ، فهو طرق الهلاك .

ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

---

ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال :

[ إنما الله إله واحد ] أى : هو المنفرد بالألوهية ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[ سبحانه ] أى : تنزه وتقدس [ أن يكون له ولد ] لأن : [ له مافى السموات وما فى الأرض ] فالكل مملوكون له ، مفتقرون إليه ، فمحال أن يكون له شريك منهم ، أو ولد .

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلى ، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها ، ومجازيها فقال تعالى : [ لن يستنكف المسيح ] إلى قوله [ ولياً ولا نصيراً ] .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

☆ لما ذكر تعالى غلو النصارى فى عيسى عليه السلام ، وذكر أنه عبده ورسوله ، ذكر هنا ، أنه لايستنكف عن عبادة ربه ، أى : لايمتنع عنها رغبة عنها لا هو [ ولا الملائكة المقربون ] .

فنزههم عن الاستنكاف ، وتنزيههم عن الاستكبار ، من باب أولى. ونفى الشيء فيه إثبات ضده .

أى : فعيسى والملائكة المقربون ، قد رغبوا فى عبادة ربهم ، وأحبوها وسعوا فيها ، بما يليق بأحوالهم ، فأوجب لهم ذلك ، الشرف العظيم ، والفوز العظيم .

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيته ، ولا لإلهيته ، بل يرون افتقارهم لذلك ، فوق كل افتقار .

ولا يظن أن رفع عيسى ، أو غيره من الخلق ، فوق مرتبته ، التى أنزله الله فيها ، وترفعه عن العبادة كمالا ، بل هو النقص بعينه ، وهو محل الذم والعقاب ، ولهذا قال :

[ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ]

أى : فسيحشر الخلق كلهم إليه ، المستنكفين ، والمستكبرين وعباده المؤمنين ، فيحكم بينهم ، بحكمه العدل ، وجزائه الفصل .

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟
وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

---

ثم فصل حكمه فيهم فقال : [ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أي : جمعوا بين الإيمان المأمور به ، وعمل الصالحات ، من واجبات ، ومستحبات ، فى حقوق الله ، وحقوق عباده .

[ فيوفيهم أجورهم ] أي : الأجور التى رتبها على الأعمال ، كل بحسب إيمانه وعمله .

[ ويزيدهم من فضله ] من الثواب ، الذى لم تنله أعمالهم ، ولم تصل إليه أفعالهم ، ولم يخطر على قلوبهم .

ودخل فى ذلك ، كل ما فى الجنة ، من المآكل، والمشارب، والمناكح والمناظر ، والسرور ، ونعيم القلب والروح ، ونعيم البدن .

بل يدخل فى ذلك ، كل خير ، دينى ، ودنيوى ، رتب على الإيمان ، والعمل الصالح .

[ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ] أى عن عبادة الله تعالى [ فيعذبهم عذاباً أليما ] وهو سخط الله وغضبه ، والنار الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة .

[ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ] أى : لا يجدون أحدا من الخلق ، يتولاهم ، فيحصل لهم المطلوب ، ولا من ينصرهم ، فيدفع عنهم المرهوب .

بل قد تخلى عنهم ، أرحم الراحمين ، وتركهم فى عذابهم خالدين .

وما حكم به تعالى ، فلا راد لحكمه ، ولا مغير لقضائه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟

* يمتن تعالى، على سائر الناس، بما أوصل إليهم، من البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة فقال:

[ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ] أى حجج قاطعة على الحق، تبينه وتوضحه، وتبين ضده

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية الآيات الأفقية، والنفسية [سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ].

وفى قوله [ من ربكم ] ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم، الذى رباكم التربية الدينية والدنيوية.

فمن تربيته لكم، التى يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

[ وأنزلنا إليكم نورا مبيناً ] وهو هذا القرآن العظيم، الذى قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهى عن كل ظلم وشر.

فالناس فى ظلمة، إن لم يستضيئوا بأنواره، وفى شقاء عظيم، إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس ـ بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به ـ قسمين.

[ فأما الذين آمنوا بالله ] أى: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل

بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

---

وصف كامل ، وتنزيهه من كل نقص وعيب .

[ واعتصموا به ] أى : لجأوا إلى الله ، واعتمدوا عليه ، وتبرأوا من حولهم وقوتهم ، واستعانوا بربهم .

[ فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ] أى : فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة ، فيوفقهم للخيرات ، ويجزل لهم المثوبات ، ويدفع عنهم البليات .

[ويهديهم إليه صراطاً مستقيما ] أى: يوفقهم للعلم والعمل ومعرفة الحق والعمل به .

أى: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته ، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم ، فلم يهتدوا ، بل ضلوا ضلالا مبيناً ، عقوبة لهم على تركهم الإيمان ، فحصلت لهم الخيبة والحرمان .

نسأله تعالى ، العفو ، والعافية ، والمعافاة .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ
هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ
يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا

---

✲ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله صلى الله عليه وسلم أى: فى الكلالة بدليل قوله :

[ قل الله يفتيكم فى الكلالة ] وهى: الميت يموت ، وليس له ولد صلب ، ولا ولد ابن ، ولا أب ، ولا جد ، ولهذا قال :

[ إن امرؤ هلك ليس ولد ] أى : لا ذكر ولا أنثى ، لا ولد صلب ، ولا ولد ابن .

وكذلك ، ليس له والد ، بدليل أنه ورث فيه الإخوة والإخوة[1] بالإجماع ، لا يرثون مع الوالد .

فإذا هلك ، وليس له ولد ، ولا والد [ وله أخت ] أى: شقيقة، أو لأب ، لا لأم ، فإنه قد تقدم حكمها .

---

( ١ ) فى الأصل ( والإخوان ) أصلحناها بكلمة ( الإخوة ) لأنها خاصة بالنسب والولادة وأما [ الإخوان ] فعامة تطلق على ما كان أخاً فى النسب وعلى ما كان فى الصداقة غالباً، والمقام هنا يقتضى أن يكون الأخ فى الولادة.

قال فى الصحاح : وأكثر ما يستعمل ( الإخوان ) فى الأصدقاء والإخوة فى الولادة . اه .

إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

---

[ فلها نصف ما ترك ] أى نصف متروكات أخيها ، من نقود ، وعقار ، وأثاث ، وغير ذلك ، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم .

[ وهو ] أى : أخوها الشقيق ، أو الذى للأب [ يرثها ، إن لم يكن لها ولد ] ولم يقدر له إرث ، لأنه عاصب فيأخذ مالها كله ، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه ، أو ما أبقت الفروض .

[ فإن كانتا ] أى الأختان [ اثنتين ] أى : فما فوق [ فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ] أى : اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم ، مع الإناث ( فللذكر مثل حظ الأنثيين ] فيسقط فرض الإناث ، ويعصبهن إخوتهن .

[ يبين الله لكم أن تضلوا ] أى : يبين لكم أحكامه التى تحتاجونها ، ويوضحها ، ويشرحها لكم ، فضلا منه وإحسانا ، لكى تهتدوا ببيانه ، وتعملوا بأحكامه ، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم ، بسبب جهلكم ، وعدم علمكم .

[ والله بكل شىء عليم ] أى : عالم بالغيب والشهادة ، والأمور الماضية والمستقبلة ويعلم حاجتكم إلى بيانه ، وتعليمه ، فيعلمكم من علمه الذى ينفعكم على الدوام ، فى جميع الأزمنة والأمكنة .

آخر تفسير سورة النساء . فلله الحمد والشكر

تفسير

# سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم

---

* هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، بالوفاء بالعقود أى : بإكمالها ، وإتمامها ، وعدم نقضها ونقصها .

وهذا شامل للعقود ، التى بين العبد وبين ربه ، من التزام عبوديته ، والقيام بها أتم قيام ، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا ، والتى بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه ، والتى بينه وبين الوالدين ، والأقارب ، ببرهم ، وصلتهم ، وعدم قطيعتهم .

والتى بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة فى الغنى والفقر ، واليسر والعسر ، والتى بينه وبين الخلق من عقود المعاملات ، كالبيع ، والإجارة ، ونحوهما ، وعقود التبرعات ، كالهبة ونحوها ، والقيام بحقوق المسلمين ، التى عقدها الله ، بينهم فى قوله : [إنما المؤمنون إخوة] بل التناصر على الحق ، والتعاون عليه ، والتآلف بين المسلمين ، وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه ، فكلها داخلة فى العقود التى أمر الله بالقيام بها .

بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْـكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْـكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

---

ثم قال — ممتناً على عباده — [ أحلت لـكم ] أى لأجلـكم ، رحمة بكم [ بهيمة الأنعام ] من الإبل ، والبقر والغنم .

بل ربما دخل فى ذلك، الوحش منها ، والظباء ، وحمر الوحش ونحوها ، من الصيود .

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية ، على إباحة الجنين ، الذى يموت فى بطن أمه ، بعد ما تذبح .

[ إلا ما يتلى عليكم ] تحريمه منها فى قوله [ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ] إلى آخر الآية .

فإن هذه المذكورات ، وإن كانت من بهيمة الأنعام ، فإنها محرمة .

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة فى جميع الأحوال والأوقات ، استثنى منها الصيد فى حال الإحرام فقال :

[ غير محلى الصيد وأنتم حرم ] أى : أحلت لـكم بهيمة الأنعام فى كل حال ، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم ، غير محلى الصيد ، وأنتم حرم ، أى : متجرئون على قتله فى حال الإحرام ، فإن ذلك لا يحل لـكم ، إذا كان صيدا ، كالظباء ونحوه .

والصيد . هو : الحيوان المأكول المتوحش .

[ إن الله يحكم ما يريد ] أى : فمهما أراده تعالى ، حكم به حكما موافقا لحـكمته ، كما أمركم بالوفاء بالعقود ، لحصول مصالحـكم ودفع المضار عنكم .

وأحل لـكم بهيمة الأنعام ، رحمة بكم ، وحرم عليكم ما استثنى منها ،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ

---

من ذوات العوارض ، من الميتة ونحوها ، صوناً لكم ،واحتراما ، ومن صيد الإحرام ، احتراماً للإحرام ، وإعظاما .

* يقول تعالى [ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله] أى : محرماته ، التى أمركم بتعظيمها ، وعدم فعلها .

فالنهى يشمل النهى عن فعلها ، والنهى عن اعتقاد حلها ، فهو يشمل النهى ، عن فعل القبيح ، وعن اعتقاده .

ويدخل فى ذلك ، النهى عن محرمات الإحرام ، ومحرمات الحرم .

ويدخل فى ذلك ما نص عليه بقوله [ ولا الشهر الحرام ]أى:لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره ، من أنواع الظلم كما قال تعالى :

[ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم].

والجمهور من العلماء ، على أن القتال فى الأشهر الحرم ، منسوخ بقوله تعالى:

[ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ] وغير ذلك من العمومات ، التى فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً ، والوعيد فى التخلف عن قتالهم مطلقاً .

وبأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قاتل أهل الطائف ، فى ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم .

وقال آخرون : إن النهى عن القتال فى الأشهر الحرم ، غير منسوخ لهذه الآية وغيرها ، مما فيه النهى عن ذلك بخصوصه .

أَلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ

وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك ، وقالوا : المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال : لا يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، وأما استدامته ، وتكميله ، إذا كان أوله فى غيرها ، فإنه يجوز .

وحملوا قتال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأهل الطائف على ذلك ، لأن أول قتالهم فى « حنين » فى « شوال » .

وكل هذا فى القتال الذى ليس المقصود منه الدفع .

فأما قتال الدفع — إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال — فإنه يجوز للمسلمين القتال ، دفعا عن أنفسهم ، فى الشهر الحرام وغيره ، بإجماع العلماء.

وقوله [ ولا الهدى ولا القلائد ] أى : ولا تحلوا الهدى الذى يهدى إلى بيت الله ، فى حج ، أو عمرة ، أو غيرها ، من نعم وغيرها ، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله ، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها ، ولا تقصروا به ، أو تحملوه ما لا يطيق ، خوفا من تلفه ، قبل وصوله إلى محله ، بل عظموه ، وعظموا من جاء به .

[ ولا القلائد ] هذا نوع خاص من أنواع الهدى ، وهو الهدى الذى يفتل له قلائد أو عرى ، فيجعل فى أعناقه، إظهاراً لشعائر الله ، وحملا للناس على الاقتداء ، وتعليما لهم للسنة ، وليعرف أنه هدى ، فيحرم ، ولهذا كان تقليد الهدى من السنة والشعائر المسنونة .

[ ولا آمين البيت الحرام ] أى : قاصدين له [ يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ] .

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن

أى : من قصد هذا البيت الحرام ، وقصده فضل الله بالتجارة ، والمكاسب المباحة ، أو قصده رضوان الله ، بحجه وعمرته ، والطواف به ، والصلاة ، وغيرها من أنواع العبادات ، فلاتتعرضوا له بسوء ، ولا تهينوه ، بل أكرموه ، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم .

ودخل فى هذا ، الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله ، وجعل القاصدين له ، مطمئنين مستريحين ، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك .

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى [ ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] .

فالمشرك ، لا يمكن من الدخول إلى الحرم .

والتخصيص فى هذه الآية ، بالنهى عن التعرض لمن قصد البيت ، ابتغاء فضل الله أو رضوانه ـــ يدل(١) على أن من قصده ، ليلحد فيه بالمعاصى ، فإن من تمام احترام الحرم ، صد من هذه حاله ، عن الإفساد ببيت الله ، كما قال تعالى : [ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ] .

ولما نهاهم عن الصيد فى حال الإحرام قال :

[ وإذا حللتم فاصطادوا ] أى : إذا حللتم من الإحرام ، بالحج والعمرة ، حل لكم الاصطياد ، وزال ذلك التحريم .

---

( ١ ) قوله ( يدل الخ ) جملة فعلية فى محل رفع خبر عن المبتدأ السابق فى قوله ( والتخصيص الخ ) .

تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

---

والأمر بعد التحريم ، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل .

[ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ] أى : لا يحملنكم بغض قوم ، وعداوتهم ، واعتداؤهم عليكم ، حيث صدوكم عن المسجد ، على الاعتداء عليهم ، طلبا للاشتفاء[1] منهم ، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ، ويسلك طريق العدل ، ولو جنى عليه ، أو ظلم ، واعتدى عليه .

فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يخون من خانه .

[ وتعاونوا على البر والتقوى ] أى : ليعن بعضكم بعضاً على البر .

وهو : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال الظاهرة والباطنة ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

والتقوى فى هذا الموضع : اسم جامع ، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله ، من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها ، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها ، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه ، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين ، بكل قول يبعث عليها ، وينشط لها ، وبكل فعل كذلك.

---

( ١ ) قوله « للاشتفاء » يعنى شفاء غيظهم بالانتقام من الذين أساءوا إليهم ولو عبر « بالتشفى » لكان أولى وأوضح .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

---

[ ولا تعاونوا على الإثم ] وهو التجرى على المعاصى ، التى يأثم صاحبها ، ويحرج .

[ والعدوان ] وهو : التعدى على الخلق ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فكل معصية وظلم ، يجب على العبد ، كف نفسه عنه ، ثم إعانة غيره على تركه .

[ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ] على من عصاه ، وتجرأ على محارمه.

فاحذروا المحارم ، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل .

☆ هذا الذى حولنا الله عليه فى قوله [ إلا ما يتلى عليكم ] .

واعلم أن الله تبارك وتعالى ، لا يحرم ما يحرم ، إلا صيانة لعباده ، وحماية لهم من الضرر الموجود فى المحرمات ، وقد يبين للعباد ذلك ، وقد لا يبين .

فأخبر أنه حرم [ الميتة ] ، والمراد بالميتة : ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية ، فإنها تحرم ، لضررها ، وهو احتقان الدم فى جوفها ولحمها ، المضر بآكلها .

وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها ، فتضر بالآكل .

ويستثنى من ذلك ، ميتة الجراد ، والسمك فإنه حلال .

[ والدم ] أى : المسفوح ، كما قيد فى الآية الأخرى .

[ ولحم الخنزير ] وذلك شامل لجميع أجزائه .

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴿٣﴾

---

وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع ، لأن طائفة من أهل الكتاب ، من النصارى ، يزعمون أن الله أحله لهم .

أى : فلا تغتروا بهم ، بل هو محرم من جملة الخبائث .

[ وما أهل لغير الله به ] أى ذكر عليه اسم غير الله ، من الأصنام ، والأولياء ، والكواكب ، وغير ذلك من المخلوقين .

فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة ، فذكر اسم غيره عليها ، يفيدها خبثاً معنوياً ، لأنه شرك بالله تعالى .

[ والمنخنقة ] أى : الميتة بخنق ، بيد ، أو حبل ، أو إدخالها رأسها بشىء ضيق ، فتعجز عن إخراجه ، حتى تموت .

[ والموقوذة ] أى : الميتة بسبب الضرب ، بعصاً ، أو حصى ، أو خشبة ، أو هدم شىء عليها ، بقصد ، أو بغير قصد .

[ والمتردية ] أى : الساقطة من علو ، كجبل ، أو جدار ، أو سطح ونحوه ، فتموت بذلك .

[ والنطيحة ] وهى التى تنطحها غيرها فتموت .

[ وما أكل السبع ] من ذئب ، أو أسد ، أو نمر ، أو من الطيور التى تفترس الصيود ، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع ، فإنها لا تحل .

وقوله [ إلا ما ذكيتم ] راجع لهذه المسائل ، من منخنقة ، وموقوذة ،

. . . . . . . . . .

---

ومتردية ، ونطيحة ، وأكيلة سبع ، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها .

ولهذا قال الفقهاء : « لو أبان السبع أو غيره ، حشوتها ، أو قطع حلقومها ، كان وجود حياتها ، كعدمها ، لعدم فائدة الذكاة فيها » .

وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة ، فإذا ذكاها وفيها حياة، حلت، ولو كانت مبانة الحشوة ، وهو ظاهر الآية الكريمة .

[ وأن تستقسموا بالأزلام ] أى : وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام .

ومعنى الاستقسام : طلب ما يقسم لكم ، ويقدر بها .

وهى قداح ثلاثة ، كانت تستعمل فى الجاهلية ، مكتوب على أحدها « افعل » وعلى الثانى « لا تفعل » والثالث «غفل» لا كتابة فيه .

فإذا هم أحدهم بسفر ، أو عرس أو نحوها ، أجال تلك القداح المتساوية فى الجرم ، ثم أخرج واحداً منها .

فإن خرج المكتوب عليه « افعل » مضى فى أمره .

وإن ظهر المكتوب عليه « لا تفعل » لم يفعل ولم يمض فى شأنه .

وإن ظهر الآخر ، الذى لاشىء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين ، فيعمل به .

فحرم الله عليهم الذى فى هذه الصورة ، وما يشبهها ، وعوضهم عنه ، بالاستخارة لربهم ، فى جميع أمورهم .

[ ذلكم فسق ] الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات ، التى حرمها الله، صيانة لعباده ، وأنها فسق ، أى : خروج عن طاعته ، إلى طاعة الشيطان .

۞ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

ثم امتن على عباده بقوله :

[ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ] الآية .

* واليوم المشار إليه ، يوم عرفة ، إذ أتم الله دينه ، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالا بليغاً ، بعد ما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم ، طامعين فى ذلك .

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يئسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم ، وصاروا يخافون منهم ويخشون .

ولهذا فى هذه السنة ، التى حج فيها النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع — لم يحجج فيها مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ولهذا قال [ فلا تخشوهم واخشون ] أى : فلا تخشوا المشركين ، واخشوا الله ، الذى نصركم عليهم ، وخذلهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

[ اليوم أكملت لكم دينكم ] بتمام النصر ، وتكميل الشرائع ، الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع .

ولهذا كان الكتاب والسنة ، كافيين كل الكفاية ، فى أحكام الدين ، وأصوله وفروعه .

فكل متكلف يزعم ، أنه لابد للناس فى معرفة عقائدهم وأحكامهم ، إلى علوم ، غير علم الكتاب والسنة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل ، مبطل فى دعواه ، قد زعم أن الدين لايكمل ، إلا بما قاله ، ودعا إليه .

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

---

وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله .

[ وأتممت عليكم نعمتى ] الظاهرة والباطنة [ ورضيت لكم الإسلام دينا ] أي : اخترته واصطفيته لكم دينا ، كما ارتضيتكم له .

فقوموا به ، شكراً لربكم ، واحمدوا الذي من عليكم ، بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها .

[ فمن اضطر ] أي : ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة ، فى قوله [ حرمت عليكم الميتة ] [ فى مخمصة ] أي : مجاعة [ غير متجانف ] أي : مائل [ لإثم ] بأن لا يأكل حتى يضطر ، ولا يزيد فى الأكل على كفايته .

[ فإن الله غفور رحيم ] حيث أباح له الأكل فى هذه الحال .

ورحمه ، بما يقيم به بنيته ، من غير نقص يلحقه فى دينه .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَـكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

---

☆ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [ يسألونك ماذا أحل لهم ] . من الأطعمة ؟ .

[ قل أحل لكم الطيبات ] وهى كل ما فيه نفع أو لذة ، من غير ضرر بالبدن ، ولا بالعقل .

فدخل فى ذلك ، جميع الحبوب ، والثمار ، التى فى القرى والبرارى .

ودخل فى ذلك ، جميع حيوانات البر ، إلا ما استثناه الشارع ، كالسباع ، والخبائث منها .

ولهذا دلت الآية بمفهومها ، على تحريم الخبائث ، كما صرح به فى قوله تعالى :

[ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ] .

[ وما علمتم من الجوارح ] .

أى : أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية .

دلت هذه الآية على أمور :

أحدها : لطف الله بعباده ، ورحمته لهم ، حيث وسع عليهم طرق الحلال ، وأباح لهم ، ما لم يذكوه ، مما صادته الجوارح .

والمراد بالجوارح : الكلاب ، والفهود ، والصقر ، ونحو ذلك ، مما يصيد بنابه ، أو بمخلبه .

فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

---

الثانى: أنه يشترط ، أن تكون معلمة ، بما يعد فى العرف تعليما ، بأن يسترسل ، إذا أرسل ، وينزجر إذا زجر ، وإذا أمسك ، لم يأكل ، ولهذا قال :

[ تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم ] أى : أمسكن من الصيد لأجلكم .

وما أكل منه الجارح فإنه لايعلم أنه أمسكه على صاحبه ، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه .

الثالث : اشتراط أن يجرحه الكلب ، أو الطير ونحوهما ، لقوله [ من الجوارح ] مع ماتقدم من تحريم المنخنقة .

فلو خنقه الكلب أو غيره ، أو قتله بثقله ، لم يبح .

هذا بناء على أن الجوارح اللاتى يجرحن الصيد ، بأنيابها ، أو مخالبها .

والمشهور أن الجوارح ، بمعنى الكواسب أى : المحصلات للصيد ، والمدركات له .

فلا يكون فيها ـ على هذا ـ دلالة . والله أعلم .

الرابع : جواز اقتناء كلب الصيد ، كما ورد فى الحديث الصحيح ، مع أن اقتناء الكلب محرم لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه ، جواز اقتنائه .

. . . . . . . . . . .

---

الخامس : طهارة ما أصابه فم الكلب ، من الصيد ، لأن الله أباحه ، ولم يذكر له غسلا ، فدل على طهارته .

السادس : فيه فضيلة العلم ، وأن الجارح المعلم ـ بسبب العلم ـ يباح صيده ، والجاهل بالتعليم ، لا يباح صيده .

السابع : أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ، ليس مذموماً ، وليس من العبث والباطل .

بل هو أمر مقصود ، لأنه وسيلة لحل صيده ، والانتفاع به .

الثامن : فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد ، قال : لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك .

التاسع : فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح ، وأنه إن لم يسم الله متعمداً ، لم يبح ماقتل الجارح .

العاشر : أنه يجوز أكل ما صاده الجارح ، سواء قتله الجارح ، أم لا .

وأنه إن أدركه صاحبه ، وفيه حياة مستقرة ، فإنه لا يباح إلا بها .

ثم حث تعالى على تقواه ، وحذر من إتيان الحساب فى يوم القيامة ، وأن ذلك ، أمر قد دنا ، واقترب فقال :

[ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ] .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ

---

* كرر تعالى إحلال الطيبات ، لبيان الامتنان ، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره ، حيث أباح لهم ماتدعوهم الحاجة إليه ، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات .

[ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ] أى : ذبائح اليهود والنصارى ، حلال لكم ـ يامعشر المسلمين ـ دون باقى الكفار ، فإن ذبائحهم لاتحل للمسلمين .

وذلك لأن أهل الكتاب ، ينتسبون إلى الأنبياء والكتب .

وقد اتفق الرسل كلهم ، على تحريم الذبح لغير الله ، لأنه شرك .

فاليهود والنصارى ، يتدينون بتحريم الذبح لغير الله ، فلذلك أبيحت ذبائحهم ، دون غيرهم .

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم ، أن الطعام الذى ليس من الذبائح ، كالحبوب ، والثمار ، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية ، بل يباح ذلك ، ولو كان من طعام غيرهم .

وأيضاً ، فإنه أضاف الطعام إليهم .

فدل ذلك ، على أنه كان طعاماً ، بسبب ذبحهم .

ولا يقال : إن ذلك للتمليك ، وأن المراد : الطعام الذى يملكون .

لأن هذا ، لايباح على وجه الغصب ، ولا من المسلمين .

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ

---

[ وطعامكم ] أيها المسلمون [ حل لهم ] أى : يحل لكم أن تطعموهم إياه .

[ و ] أحل لكم [ المحصنات ] أى : الحرائر العفيفات [ من المؤمنات ] والحرائر العفيفات [من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ] أى: من اليهود والنصارى .

وهذا مخصص لقوله تعالى [ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ] .

ومفهوم الآية ، أن الأرقاء من المؤمنات ، لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك .

وأما الكتابيات ، فعلى كل حال ، لا يبحن ، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً ، لقوله تعالى : [ من فتياتكم المؤمنات ] .

وأما المسلمات ـ إذا كن رقيقات ـ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين ، عدم الطول ، وخوف العنت .

وأما الفاجرات ، غير العفيفات عن الزنا ، فلا يباح نكاحهن ، سواء كن مسلمات ، أو كتابيات ، حتى يتبن لقوله تعالى :

[ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ] الآية .

وقوله [ إذا آتيتموهن أجورهن ] أى : أبحنا لكم نكاحهن ، إذا أعطيتموهن مهورهن .

فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها ، فإنها لا تحل له .

أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

---

وأمر بإيتائها ، إذا كانت رشيدة ، تصلح للإيتاء ، وإلا أعطاه الزوج لوليها .

وإضافة الأجور إليهن ، دليل على أن المرأة ، تملك جميع مهرها ، وليس لأحد منه شيء ، إلا ماسمحت به لزوجها ، أو وليها أو غيرهما .

[ محصنين غير مسافحين ] أى : حالة كونكم ـ أيها الأزواج ـ محصنين لنسائكم ، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن .

[ غير مسافحين ] أى : زانين مع كل أحد [ ولامتخذى أخدان ] .

وهو : الزنا مع العشيقات لأن الزناة فى الجاهلية ، منهم من يزنى مع من كان ، فهذا هو المسافح .

ومنهم من يزنى مع خدنه ومحبه .

فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ، ينافى العفة .

وأن شروط التزوج ، أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا .

وقوله تعالى : [ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ] أى : ومن كفر بالله تعالى ، ومايجب الإيمان به ، من كتبه ورسله ، أو شيء من الشرائع ، فقد حبط عمله ، بشرط أن يموت على كفره كما قال تعالى :

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » [ وهو فى الآخرة من الخاسرين ] أى : الذين خسروا أنفسهم ، وأموالهم ، وأهليهم يوم القيامة وحصلوا على الشقاوة الأبدية .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ

✲ هذه آية عظيمة، قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها، مايسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات . فيها[1] امتثالها . والعمل بها من لوازم الإيمان، الذى لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله «يا أيها الذين آمنوا» إلى آخرها.

أى: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم، بما شرعناه لكم.

والثانى: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله [إذا قمتم إلى الصلاة].

والثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: [إذا قمتم إلى الصلاة] أى: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة، لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل فى الأمر، الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل مايطلق عليه اسم الصلاة، فى الفرض، والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة، والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة، من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن، طولا.

ومن الأذن إلى الأذن، عرضا.

(١) هكذا في الأصل. لعل الصواب أن (فيها) زائدة.

وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة .

ويدخل فيه، الشعور التى فيه .

لكن إن كانت خفيفة، فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة .

وإن كانت كثيفة، اكتفى بظاهرها .

الثامن : الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين .

و « إلى » كما قال جمهور المفسرين، بمعنى « مع » كقوله تعالى [ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ] .

ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق .

التاسع : الأمر بمسح الرأس .

العاشر : أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هى للملاصقة(١) وأنه يعم المسح بجميع الرأس .

الحادى عشر : أنه يكفى المسح كيفما كان — بيديه، أو إحداهما، أو خرقة، أو خشبة، أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح، ولم يقيده بصفة، فدل ذلك، على إطلاقه .

الثانى عشر : أن الواجب، المسح .

فلو غسل رأسه، ولم يمر يده عليه، لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به .

---

( ١ ) قوله [للملاصقة] يريد : للإلصاق، ولو عبر به لكان أولى موافقة لجمهور علماء اللغة فكلهم يقول [ الباء للإلصاق ] ولم يقل أحد للملاصقة .

إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ

الثالث عشر : الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين ، ويقال فيهما ما يقال فى اليدين .

الرابع عشر : فيها الرد على الرافضة ، على قراءة الجمهور بالنصب .

وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين .

الخامس عشر : فيه الإشارة إلى مسح الخفين ، على قراءة الجر فى « وأرجلكم » .

وتكون كل من القراءتين ، محمولة على معنى .

فعلى قراءة النصب فيها ، غسلهما ، إن كانتا مكشوفتين .

وعلى قراءة الجر فيها ، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف .

السادس عشر : الأمر بالترتيب فى الوضوء ، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة .

ولأنه أدخل ممسوحاً — وهو الرأس — بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة ، غير الترتيب .

السابع عشر : أن الترتيب ، مخصوص بالأعضاء الأربعة ، المسميات فى هذه الآية .

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين ، فإن ذلك غير واجب .

بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق ، على غسل الوجه .

وتقديم اليمنى ، على اليسرى من اليدين والرجلين .

وتقديم مسح الرأس ، على مسح الأذنين .

سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟

الثامن عشر : الأمر بتجديد الوضوء ، عند كل صلاة ، لتوجد صورة المأمور به .

التاسع عشر : الأمر بالغسل من الجنابة .

العشرون : أنه يجب تعميم الغسل للبدن ، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء .

الحادى والعشرون : الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه فى الجنابة .

الثانى والعشرون : أنه يندرج الحدث الأصغر ، فى الحدث الأكبر ، ويكفى من هما عليه ، أن ينوى ، ثم يعمم بدنه ، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء .

الثالث والعشرون : أن الجنب يصدق على من أنزل المنى ، يقظة أو مناما ، أو جامع ولو لم ينزل .

الرابع والعشرون : أن من ذكر أنه احتلم ، ولم يجد بللا ، فإنه لاغسل عايه ، لأنه لم تتحقق منه الجنابة .

الخامس والعشرون : ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعيته التيمم.

السادس والعشرون : أن من أسباب جواز التيمم ، وجود المرض ، الذى يضره غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

السادس والعشرون : أن من جملة أسباب جوازه ، السفر والإتيان من البول والغائط ، إذا عدم الماء .

فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء ، لحصول التضرر به .

وباقيها يجوزه ، العدم للماء ، ولو كان فى الحضر .

مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكم مِّنْهُ

السابع والعشرون : أن الخارج من السبيلين ، من بول وغائط ، ينقض الوضوء .

الثامن والعشرون : استدل بها من قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران .

فلا ينتقض بلمس الفرج ، ولا بغيره .

التاسع والعشرون : استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ ،لقوله تعالى: [ أو جاء أحد منكم من الغائط ] .

الثلاثون : أن لمس المرأة بلذة وشهوة ، ناقض للوضوء .

الحادى والثلاثون : اشتراط عدم الماء ، لصحة التيمم .

الثانى والثلاثون : أن مع وجود الماء ، ولو فى الصلاة ، يبطل التيمم ، لأن الله إنما أباحه ، مع عدم الماء .

الثالث والثلاثون : أنه إذا دخل الوقت ، وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طلبه فى رحله ، وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال « لم يجد » ، لمن لم يطلب .

الرابع والثلاثون : أن من وجد ماء لا يكفى بعض طهارته ، فإنه يلزمه استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك .

الخامس والثلاثون : أن الماء المتغير بالطاهرات ، مقدم على التيمم ، أى يكون طهوراً ، لأن الماء المتغير ماء ، فيدخل فى قوله [ فلم تجدوا ماء ] .

السادس والثلاثون : أنه لا بد من نية التيمم لقوله [ فتيمموا ] أى : اقصدوا .

السابع والثلاثون : أنه يكفى التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض ، من تراب وغيره .

فيكون على هذا ، قوله [ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ] إما من باب التغليب ، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين.

وإما أن يكون إرشادا للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذى فيه غبار فيه(١) ، فهو أولى .

الثامن والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس ، لأنه لا يكون طيباً ، بل خبيثاً .

التاسع والثلاثون : أنه يمسح فى التيمم ، الوجه واليدان فقط ، دون بقية الأعضاء .

الأربعون: أن قوله [ بوجوهكم ] شامل لجميع الوجه وأن يعمه بالمسح ، إلا أنه معفو عن إدخال التراب فى الفم والأنف ، وفيما تحت الشعور ، ولو خفيفة .

الحادى والأربعون : أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين عند الإطلاق ، كذلك .

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين ، لقيده الله بذلك ، كما قيده فى الوضوء.

الثانى والأربعون : أن الآية عامة فى جواز التيمم ، لجميع الأحداث

(١) فيه : هكذا في الأصل . لعل الصواب أن ( فيه ) زائدة .

نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

كلها ، الحدث الأكبر ، والأصغر ، بل ونجاسة البدن ، لأن الله جعلها [1] بدلا عن طهارة الماء ، وأطلق فى الآية ، فلم يقيد .

وقد يقال : إن نجاسة البدن ، لا تدخل فى حكم التيمم ، لأن السياق فى الأحداث ، وهو قول جمهور العلماء .

الثالث والأربعون : أن محل التيمم فى الحدث الأصغر والأكبر ، واحد ، وهو الوجه واليدان .

الرابع والأربعون : أنه لو نوى من عليه حدثان ، التيمم عنهما ، فإنه يجزىء ، أخذاً من عموم الآية وإطلاقها .

الخامس والأربعون : أنه يكفى المسح بأى شىء كان ، بيده أو غيرها ، لأن الله قال « فامسحوا » ولم يذكر الممسوح به ، فدل على جوازه بكل شىء .

السادس والأربعون : اشتراط الترتيب فى طهارة التيمم ، كما يشترط ذلك فى الوضوء .

ولأن الله بدأ بمسح الوجه ، قبل مسح اليدين .

السابع والأربعون : أن الله تعالى — فيما شرعه لنا من الأحكام — لم يجعل علينا فى ذلك من حرج ولا مشقة ، ولا عسر .

وإنما هو رحمة منه بعباده ، ليطهرهم ، وليتم نعمته عليهم .

وهذا هو الثامن والأربعون : أن طهارة الظاهر بالماء والتراب ، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد ، والتوبة النصوح .

---

( ١ ) قوله ( جعلها ) أى : جعل الطهارة بالتيمم .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

---

التاسع والأربعون : أن طهارة التيمم — وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة ، تدرك بالحس والمشاهدة ، فإن فيها طهارة معنوية ، ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى

والخمسون: أنه ينبغى للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار، فى شرائع الله، فى الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً ، ويزداد شكراً لله ومحبة له ، على ما شرع من الأحكام التى توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة .

* يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية ، بقلوبهم وألسنتهم .

فإن فى استدامة ذكرها ، داعياً لشكر الله تعالى ، ومحبته ، وامتلاء القلب من إحسانه .

وفيه زوال للعجب ، من النفس ، بالنعم الدينية ، وزيادة لفضل الله وإحسانه .

و [ ميثاقه ] أى : واذكروا ميثاقه [ الذى واثقكم به ] أى : عهده الذى أخذه عليكم .

وليس المراد بذلك ، أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق .

وإنما المراد بذلك ، أنهم — بإيمانهم بالله ورسوله — قد التزموا طاعتهما .

ولهذا قال [ إذ قلتم سمعنا وأطعنا ] أى : سمعنا ما دعوتنا به ، من آياتك القرآنية والكونية ، سمع فهم ، وإذعان ، وانقياد .

وأطعنا ما أمرتنا به ، بالامتثال ، وما نهيتنا عنه بالاجتناب .

وهذا شامل لجميع شرائع الدين ، الظاهرة والباطنة .

وأن المؤمنين يذكرون فى ذلك ، عهد الله وميثاقه عليهم ، وتكون منهم على بال ، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملا غير ناقص .

[ واتقوا الله ] فى جميع أحوالكم [ إن الله عليم بذات الصدور ] أى : ما تنطوى عليه ، من الأفكار ، والأسرار ، والخواطر .

فاحذروا أن يطلع ، من قلوبكم ، على أمر لا يرضاه ، أو يصدر منكم ما يكرهه ، واعمروا قلوبكم ، بمعرفته ، ومحبته ، والنصح لعباده .

فإنكم — إن كنتم كذلك — غفر لكم السيئات ، وضاعف لكم الحسنات ، لعلمه بصلاح قلوبكم .

* أى [ يا أيها الذين آمنوا ] بما أمروا بالإيمان به ، قوموا بلازم إيمانكم ، بأن تكونوا [ قوامين لله شهداء بالقسط ] ، بأن تنشط للقيام بالقسط ، حركاتكم الظاهرة والباطنة .

وأن يكون ذلك القيام ، لله وحده ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية .

وأن تكونوا قاصدين للقسط ، الذى هو العدل ، لا الإفراط ولا التفريط ، فى أقوالكم ولا فى أفعالكم .

وقوموا بذلك ، على القريب ، والبعيد ، والصديق والعدو .

بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

---

[ ولا يجرمنكم ] أى لا يحملنكم [ شنآن قوم ] أى : بغضهم .

[ على أن لا تعدلوا ] كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط .

بل كما تشهدون لوليكم ، فاشهدوا عليه ، وكما تشهدون على عدوكم ، فاشهدوا له ، فلو كان كافراً أو مبتدعاً .

فإنه يجب العدل فيه ، وقبول ما يأتى به من الحق ، لا لأنه قاله .

ولا يرد الحق لأجل قوله ، فإن هذا ظلم للحق .

[ اعدلوا هو أقرب للتقوى ] أى : كلما حرصتم على العدل ، واجتهدتم فى العمل به ، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم ، فإن تم العدل ، كملت التقوى .

[ إن الله خبير بما تعملون ] فمجازيكم بأعمالكم ، خيرها ، وشرها ، صغيرها ، وكبيرها ، جزاء عاجلا ، وآجلا .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

---

* أى [ وعد الله ] الذى لا يخلف الميعاد ، وهو أصدق القائلين ـ المؤمنين به ، وبكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[ وعملوا الصالحات ] من واجبات ، ومستحبات ـ بالمغفرة لذنوبهم ، بالعفو عنها ، وعن عواقبها ، وبالأجر العظيم الذى لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

[ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ] .

[ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ] الدالة على الحق المبين ، فكذبوا بها ، بعد ما أبانت الحقائق .

[ أولئك أصحاب الجحيم ] الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، بنعمه العظيمة ، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان .

وأنهم — كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم ، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة — فليعدوا أيضاً ، إنعامه عليهم ، بكف أيديهم عنهم ، ورد كيدهم فى نحورهم ، نعمة .

فإن الأعداء ، قد هموا بأمر ، وظنوا أنهم قادرون عليه .

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم ، فهو نصر من الله ، لعباده المؤمنين ينبغى لهم أن يشكروا الله على ذلك ، ويعبدوه ويذكروه .

وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر ، من كافر ، ومنافق ، وباغ ، كف الله شره عن المسلمين ، فإنه داخل فى هذه الآية .

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم ، وعلى جميع أمورهم فقال :

[ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ] أى : يعتمدوا عليه فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ، ويتبرأوا من حولهم وقوتهم ، ويثقوا بالله تعالى ، فى حصول ما يحبون .

وعلى حسب إيمان العبد ، يكون توكله ، وهو من واجبات القلب المتفق عليها .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ

---

* يخبر تعالى أنه أخذ على بنى إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد .

وذكر صفة الميثاق وأجرهم ، إن قاموا به ، وإثمهم ، إن لم يقوموا به .

ثم ذكر أنهم ما قاموا به ، وذكر ما عاقبهم به فقال :

[ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ] أى : عهدهم المؤكد الغليظ .

[ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ] أى : رئيساً وعريفاً على ما تحته ، ليكون ناظراً عليهم ، حاثا لهم على القيام بما أمروا به ، مطالباً يدعوهم .

[ وقال الله ] للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا :

[ إنى معكم ] أى : بالعون والنصر ، فإن المعونة ، بقدر المؤنة .

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال :

[ لئن أقمتم الصلاة ] ظاهراً ، وباطناً ، بالإتيان بما يلزم وينبغى فيها ، والمداومة على ذلك .

[ وآتيتم الزكاة ] لمستحقيها [ وآمنتم برسلى ] جميعهم ، الذين أفضلهم وأكملهم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[ وعزرتموهم ] أى : عظمتموهم ، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة .

[ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ] وهو الصدقة والإحسان ، الصادر عن الصدق والإخلاص ، وطيب المكسب .

ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

فإذا قمتم بذلك [ لأ كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ] .

فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم ، واندفاع المكروه بتكفير السيئات ، ودفع مايترتب عليها من العقوبات .

[ فمن كفر بعد ذلك ] العهد والميثاق المؤكد بالإيمان ، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه .

[ فقد ضل سواء السبيل ] أى : عن عمد وعلم ، فيستحق ما يستحقه الضالون ، من حرمان الثواب ، وحصول العقاب .

فكأنه قيل : ليت شعرى ، ماذا فعلوا ؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه ، أم نكثوا ؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال :

[ فبما نقضهم ميثاقهم ] أى : بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات .

الأولى : أن [ لعناهم ] أى : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ، ولم يقوموا بالعهد الذى أخذ عليهم ، الذى هو سببها الأعظم .

الثانية : قوله [ وجعلنا قلوبهم قاسية ] أى : غليظة لا تجدى فيها المواعظ ، ولا تنفعها الآيات والنذر ، فلا يرغبهم تشويق ، ولا يزعجهم تخويف .

ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ

---

وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون قلبه بهذه الصفة ، التى لايفيده معها ، الهدى ، والخير إلا شراً .

الثالثة : أنهم [ يحرفون الكلم عن مواضعه ] أى : ابتلوا بالتغيير والتبديل ، فيجعلون الكلام الذى أراد الله له معنى ، غير ما أراد الله ، ولا رسوله .

الرابعة : أنهم [ نسوا حظا مما ذكروا به ] .

فإنهم ذكروا بالتوراة ، وبما أنزل الله على موسى ، فنسوا حظا منه .

وهذا شامل ، لنسيان علمه ، وأنهم نسوه ، وضاع عنهم ، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه ، عقوبة منه لهم .

وشامل لنسيان العمل ، الذى هو الترك ، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به .
ويستدل بهذا على أهل الكتاب ، بإنكارهم بعض الذى قد ذكر فى كتابهم ، أو وقع فى زمانهم ، أنه مما نسوه .

الخامسة : الخيانة المستمرة التى [ لا تزال تطلع على خائنة منهم ] أى خيانتهم لله ، ولعباده المؤمنين .

ومن أعظم الخيانة منهم ، كتمهم الحق ، عن من يعظهم ، ويحسن فيهم الظن ، وإبقاؤهم على كفرهم ، فهذه خيانة عظيمة .

وهذه الخصال الذميمة ، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم .

فكل من لم يقم بما أمر الله به ، وأخذ به عليه الالتزام ، كان له نصيب

عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

---

من اللعنة وقسوة القلب ، والابتلاء بتحريف الكلم ، وأنه لا يوفق للصواب ونسيان حظ مما ذكر به .

وأنه لابد أن يبتلى بالخيانة . نسأل الله العافية .

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظا ، لأنه هو أعظم الحظوظ ، وما عداه فإنما هى حظوظ دنيوية .

كما قال تعالى [ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم ] .

وقال فى الحظ النافع [ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ] .

وقوله [ إلا قليلا منهم ] أى : فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم ، وهداهم للصراط المستقيم .

[ فاعف عنهم واصفح ] أي : لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى ، الذى يقتضى أن يعفى عنهم .

واصفح ، فإن ذلك من الإحسان [ والله يحب المحسنين ] .

والإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وفى حق المخلوقين : بذل النفع الدينى والدنيوى لهم .

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* أي : وكما أخذنا من اليهود العهد والميثاق ، فكذلك أخذنا [ من الذين قالوا إنا نصارى ] لعيسى بن مريم ، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله ، وما جاءوا به ، ونقضوا العهد .

[ فنسوا حظا مما ذكروا به ] نسيانا علمياً ، ونسياناً عمليا .

[ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ] أى: سلطنا بعضهم على بعض ، وصار بينهم من الشرور والإحن ، ما يقتضى بغض بعضهم بعضا ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة .

وهذا أمر مشاهد ، فإن النصارى لم يزالوا فى بغض وعداوة وشقاق .

[ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ] فيعاقبهم عليه .

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

---

* لما ذكر تعالى ، ما أخذه الله على أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك ، إلا قليلا ، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته .

وهى : أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس ، حتى عن العوام من أهل ملتهم .

فإذا كانوا هم المشار إليهم فى العلم ولا عند أحد فى ذلك الوقت إلا ما عندهم ، فالحريص على العلم ، لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم .

فإتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن العظيم ، الذى بين به ما كانوا يتكاتمون بينهم ، وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب — من أدل الدلائل على القطع برسالته .

وذلك مثل صفة محمد فى كتبهم ، ووجود البشائر به فى كتبهم ، وبيان آية الرجم ونحو ذلك .

[ ويعفو عن كثير ] أى : يترك بيان مالا تقتضيه الحكمة .

[ قد جاءكم من الله نور ] وهو القرآن ، يستضاء به فى ظلمات الجهالة ، وعماية الضلالة .

[ وكتاب مبين ] بكل ما يحتاج الخلق إليه ، من أمور دينهم ودنياهم ،

رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

---

من العلم بالله، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، ومن العلم بأحكامة الشرعية وأحكامه الجزائية .

ثم ذكر من الذى يهتدى بهذا القرآن ؟ وما هو السبب الذى من العبد لحصول ذلك فقال :

[ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ] أى : يهدى من اجتهد وحرص ، على بلوغ مرضاة الله ، وصار قصده حسناً ـ سبل السلام ، التى يسلم صاحبها من العذاب ، وتوصله إلى دار السلام ، وهو العلم بالحق والعمل به ، إجمالا وتفصيلا .

[ ويخرجهم من الظلمات ] ظلمات الكفر والبدعة والمعصية ، والجهل والغفلة .

[ إلى النور ] نور الإيمان والسنة ، والطاعة ، والعلم ، والذكر .

وكل هذه من الهداية بإذن الله ، الذى ماشاء كان ، ومالم يشأ ، لم يكن .

[ ويهديهم إلى صراط مستقيم ] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

* لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه ـ ذكر أقوالهم الشنيعة.

فذكر قول النصارى، القول الذى ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح بن مريم.

ووجه شبهتهم، أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل.

مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم.

وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم.

فهلا ادعوا فيهما الإلهية، كما ادعوها فى المسيح ؟.

فدل على أن قولهم، اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة.

فرد الله عليهم، بأدلة عقلية واضحة فقال : [ قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ].

فإذا كان المذكورون، لا امتناع عندهم، يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك ـ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا فى قوته شيء من الفكاك.

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ

---

ومن الأدلة أن [ لله ] وحده [ ملك السموات والأرض وما بينهما ] يتصرف فيهم بحكمه الكونى والشرعى والجزائى ، وهم مملوكون مدبرون .

فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير ، إلها معبوداً ، غنيا من كل وجه ؟ هذا من أعظم المحال .

ولا وجه لاستغرابهم ، لخلق المسيح عيسى بن مريم ، من غير أب فإن الله [ يخلق مايشاء ] إن شاء من أب وأم ، كسائر بنى آدم ، وإن شاء من أب بلا أم ، كحواء

وإن شاء من أم بلا أب ، كعيسى .

وإن شاء من غير أب ولا أم ، كآدم .

فنوع خليقته تعالى ، بمشيئته النافذة ، التى لايستعصي عليها شىء ولهذا قال : [ والله على كل شىء قدير ] .

ومن مقالات اليهود والنصارى ، أن كلا منهما ، ادعى دعوى باطلة ، يزكون بها أنفسهم بأن قال كل منهما : [ نحن أبناء الله وأحباؤه ] .

والابن فى لغتهم هو الحبيب ، ولم يريدوا البنوة الحقيقية ، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى فى المسيح .

بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

---

قال الله رداً عليهم ، حيث ادعوا بلا برهان : [ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ] ؟ .

فلو كنتم أحبابه ، ما عذبكم ، لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه .

[ بل أنتم بشر ممن خلق ] تجرى عليكم أحكام العدل والفضل .

[ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ] إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب .

[ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ] أى : فأى شيء خصكم بهذه الفضيلة ، وأنتم من جملة المماليك ، ومن جملة من يرجع إلى الله فى الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

---

* يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب ـ بسبب مامن عليهم من كتابه ـ أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشكروا الله تعالى ، الذى أرسله إليهم [ على فترة من الرسل ] وشدة حاجة إليه .

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأن يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية .

وقد قطع الله بذلك حجتهم ، لئلا يقولوا :

[ ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ] .

يبشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .

وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .

[ والله على كل شيء قدير ] انقادت الأشياء طوعاً وإذعانا ، لقدرته ، فلا يستعصي عليه شيء منها .

ومن قدرته أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ

---

* لما امتن الله على موسى وقومه، بنجاتهم من فرعون وقومه، وأسرهم واستبعادهم، ذهبوا قاصدين، لأوطانهم ومساكنهم، وهى بيت المقدس، وما حواليه وقاربوا وصول بيت المقدس.

وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم، ليخرجوه من ديارهم.

فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم، ليقروا على الجهاد فقال:

[ واذكروا نعمة الله عليكم ] بقلوبكم وألسنتكم.

فإن ذكرها، داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة.

[ إذ جعل فيكم أنبياء] يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون.

[ وجعلكم ملوكا ] تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

[ وآتاكم ] من النعم الدينية والدنيوية [ ما لم يؤت أحداً من العالمين ].

فإنهم - فى ذلك الزمان - خيرة الخلق، وأكرمهم على الله.

وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعى ذلك لإيمانهم، وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه ولهذا قال:

أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

---

[ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة] أي : المطهرة [التى كتب الله لكم].

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم ، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله .

وأنه قد كتب الله لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم.

[ولا ترتدوا] أي : ترجعوا [على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين] قد خسرتم دنياكم ، بما فاتكم من النصر على الأعداء ، وفتح بلادكم.

وآخرتكم ، بما فاتكم من الثواب ، وما استحققتم ـ بمعصيتكم ـ من العقاب .

فقالوا قولا ، يدل على ضعف قلوبهم ،وخور نفوسهم ، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله.

[ياموسى إن فيها قوماً جبارين] شديدى القوة والشجاعة ، أى : فلهذا من الموانع لنا من دخولها .

[وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون].

وهذا من الجبن وقلة اليقين .

وإلا ، فلو كان معهم رشدهم ، لعلموا أنهم كلهم من بنى آدم ، وأن القوي ، من أعانه الله بقوة من عنده ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله .

ولعلموا أنهم سينصرون عليهم ، إذ وعدهم الله بذلك ، وعدا خاصاً .

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

[ قال رجلان من الذين يخافون ] الله تعالى، مشجعين لقومهم ، منهضين لهم على قتال عدوهم ، واحتلال بلادهم .

[ أنعم الله عليهما ] بالتوفيق ، وكلمة الحق ، فى هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم ، وأنعم عليهم بالصبر واليقين .

[ ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون ] أى : ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم ، وتدخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه عليهم ، فإنهم سينهزمون .

ثم أمرهم بعدة هى أقوى العدد فقال :

[ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ] .

فإن فى التوكل على الله – وخصوصاً فى هذا الموطن – تيسيراً للأمر ، ونصرا على الأعداء .

ودل هذا على وجوب التوكل ، وعلى أنه بحسب إيمان العبد ، يكون توكله .

فلم ينجع فيهم هذا الكلام ، ولا نفع فيهم الملام ، فقالوا قول الأذلين :

[ ياموسى ، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون ] .

يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ

---

فما أشنع هذا الكلام منهم ، ومواجهتهم به لنبيهم فى هذا المقام الحرج الضيق ، الذى قد دعت الحاجة والضرورة فيه إلى نصرة نبيهم ، وإعزاز أنفسهم .

وبهذا وأمثاله ، يظهر التفاوت بين سائر الأمم ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث قال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين شاورهم فى القتال يوم « بدر » مع أنه لم يحتم عليهم :

يارسول الله ، لوخضت بنا هذا البحر ، لخضناه معك ، ولو بلغت بنا برك الغماد(١) ، ما تخلف عنك أحد .

ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى [ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ] .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، من بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن يسارك .

فلما رأى موسى عليه السلام ، عتوهم عليه [ قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ] أى : فلا يدان لنا بقتالهم ، ولست بجبار على هؤلاء .

[ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ] أى : احكم بيننا وبينهم ، بأن تنزل فيهم من العقوبة ، ما اقتضته حكمتك .

---

(١) قال فى القاموس «برك الغماد» بكسر الباء وبفتحها وسكون الراء فيهما ، موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض اهـ .

إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ
إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ

---

ودل ذلك ، على أن قولهم وفعلهم ، من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق .

[قال] الله مجيبا لدعوة موسى : [ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ] أى : إن من عقوبتهم ، أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التى كتبهم الله لها ، مدة أربعين سنة .

وتلك المدة أيضاً ، يتيهون فى الأرض ، لايهتدون إلى طريق ، ولا يبقون مطمئنين .

وهذه عقوبة دنيوية ، لعل الله تعالى ، كفر بها عنهم ، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها .

وفى هذا ، دليل على أن العقوبة على الذنب : قد تكون بزوال نعمة موجودة ، أو دفع نقمة ، قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها ، إلى وقت آخر .

ولعل الحكمة فى هذه المدة ، أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ، الصادرة عن قلوب لاصبر فيها ولاثبات .

بل قد ألفت الاستعباد لعدوها ، ولم تكن لها هم ترقيها إلى مافيه ارتقاؤها وعلوها .

ولتظهر ناشئة جديدة ، تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء ، وعدم الاستعباد ، والذل المانع من السعادة .

بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ

---

ولما علم الله تعالى ، أن عبده موسى ، فى غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه ، وأنه ربما رق لهم ، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم فى هذه العقوبة ، أو الدعاء لهم بزوالها ، مع أن الله قد حتمها ، قال :

[ فلا تأس على القوم الفاسقين ] أى: لاتأسف عليهم ولاتحزن ، فإنهم قد فسقوا ، وفسقهم اقتضى وقوع مانزل بهم ، لاظلماً منا .

✡ أى : قص على الناس ، وأخبرهم بالقضية التى جرت على ابنى آدم بالحق ، تلاوة يعتبر بها المعتبرون ، صدقاً ، لا كذبا ، وجداً ، لا لعباً .

والظاهر أن ابنى آدم ، هما : ابناه لصلبه ، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق ، وهو قول جمهور المفسرين .

أى : اتل عليهم نبأهما ، فى حال تقريبهما للقربان ، الذى أداهما إلى الحال المذكورة .

[ إذ قربا قرباناً ] أى : أخرج كل منهما شيئاً من ماله ، لقصد التقرب إلى الله .

[ فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ] بأن علم ذلك بخبرمن السماء ، أو بالعادة السابقة فى الأمم ، أن علامة تقبل الله للقربان ، أن تنزل نار من السماء فتحرقه .

مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ
بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

---

[قال] الابن ، الذى لم يتقبل منه للآخر ، حسداً وبغيا [ لأقتلنك ] .

فقال له الآخر — مترفقاً له فى ذلك — [ إنما يتقبل الله من المتقين ] فأى : ذنب لى وجناية ، توجب لك أن تقتلنى ؟ إلا أنى اتقيت الله تعالى ، الذى تقواه واجبة على وعليك ، وعلى كل أحد ؟ .

وأصح الأقوال فى تفسير المتقين هنا ، أى : المتقين لله فى ذلك العمل ، بأن يكون عملهم خالصا لوجه الله ، متبعين فيه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال له ـ مخبرا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله ، لا ابتداء ، ولا مدافعة فقال :

[ لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك .

وليس ذلك جبنا منى ولا عجزاً .

وإنما ذلك لأنى [ أخاف الله رب العالمين ] والخائف لله ، لا يقدم على الذنوب ، خصوصا ، الذنوب الكبار .

وفى هذا ، تخويف لمن يريد القتل ، وأنه ينبغى لك أن تتقى الله وتخافه .

[ إنى أريد أن تبوء ] أى : ترجع [ بإثمى وإثمك ] .

أى : إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلا أو تقتلنى ، فإنى أوثر أن تقتلنى ، فتبوء بالوزرين [ فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ] .

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ
أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ
سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

---

دل هذا ، على أن القتل من كبائر الذنوب ، وأنه موجب لدخول النار.

فلم يرتدع ذلك الجانى ، ولم ينزجر ، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها ، حتى طوعت له قتل أخيه ، الذى يقتضى الشرع والطبع ، احترامه .

[ فقتله فأصبح من الخاسرين ] دنياهم وآخرتهم ، وأصبح قد سن هذه السنة ، لكل قاتل .

« ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ولهذا ورد فى الحديث الصحيح أنه « ما من نفس تقتل ، إلا كان على ابن آدم الأول ، شطر من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .

فلما قتل أخاه ، لم يدر كيف يصنع به ، لأنه أول ميت مات من بنى آدم ، [ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ] أى : يثيرها ليدفن غرابا آخر ميتاً .

[ ليريه ] بذلك [ كيف يواري سوءة أخيه ] أى : بدنه ، لأن بدن الميت يكون عورة [ فأصبح من النادمين ] .

وهكذا عاقبة المعاصى ، الندامة والخسارة .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

---

* يقول تعالى [ من أجل ذلك ] الذى ذكرناه فى قصة ابني آدم ، وقتل أحدهما أخاه ، وسنه القتل لمن بعده ، وأن القتل ، عاقبته وخيمة وخسارة فى الدنيا والآخرة .

[ كتبنا على بنى إسرائيل ] أهل الكتب السماوية [ أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ] أى: بغير حق [فكأنما قتل الناس جميعا ] .

لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين ، و أنه لا يقدم على القتل ، إلا بحق .

فلما تجرأ على قتل النفس ، التى لم تستحق القتل ، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره .

وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء .

فتجرؤه على قتله ، كأنه قتل الناس جميعاً .

وكذلك من أحيا نفسا أى : استبقى أحداً ، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله ، فمنعه خوف الله تعالى من قتله ، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً .

لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل .

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين .

إما أن يقتل نفسا بغير حق ، متعمدا فى ذلك ، فإنه يحل قتله ، إن كان مكلفا مكافئا ، ليس بوالد للمقتول .

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ

---

وإما أن يكون مفسدا فى الأرض ، بإفساده لأديان الناس، أوأبدانهم، أو أموالهم ، كالكفار المرتدين ، والمحاربين ، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل .

وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ، ممن يصول على الناس لقتلهم ، أو أخذ أموالهم .

[ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ] التى لا يبقى معها حجة لأحد .

[ ثم إن كثيرا منهم ] أى : من الناس [ بعد ذلك ] البيان القاطع للحجة ، الموجب للاستقامة فى الأرض [ لمسرفون ] فى العمل بالمعاصى ، ومخالفة الرسل ، الذين جاءوا بالبينات والحجج .

* المحاربون لله ولرسوله ، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوافى الأرض، بالكفر ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة السبل .

والمشهور أن هذه الآية الكريمة ، فى أحكام قطاع الطريق ، الذين يعرضون للناس ، فى القرى والبوادى ، فيغصبونهم أموالهم ، ويقتلونهم ، ويخيفونهم ، فيمتنع الناس من سلوك الطريق ، التى هم بها ، فتنقطع بذلك .

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم — عند إقامة الحد عليهم — أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور .

فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ

---

واختلف المفسرون : هل ذلك على التخيير ، وأن كل قاطع طريق ، يفعل به الإمام أو نائبه ، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة ؟ وهذا ظاهر اللفظ .

أو أن عقوبتهم ، تكون بحسب جرائمهم ، فكل جريمة لها قسط يقابلها ، كما تدل عليه الآية ، بحكمها وموافقتها لحكمة الله تعالى .

وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم ، حتى يشتهروا ويختزوا ، ويرتدع غيرهم .

وإن قتلوا ، ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط .

وإن أخذوا مالا ، ولم يقتلوا ، تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، اليد اليمنى ، والرجل اليسرى .

وإن أخافوا الناس ، ولم يقتلوا ، ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض ، فلا يتركون يأوون فى بلد ، حتى تظهر توبتهم .

وهذا قول ابن عباس رضى الله عنه ، وكثير من الأئمة ، على اختلاف فى بعض التفاصيل .

[ ذلك ] النكال [ لهم خزى فى الدنيا ] أى : فضيحة وعار [ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ].

فدل هذا ، أن قطع الطريق ، من أعظم الذنوب ، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة .

فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

---

وأن فاعله ، محارب لله ولرسوله .

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة ، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق ، عن القتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الناس ، من أعظم الحسنات ، وأجل الطاعات ، وأنه إصلاح فى الأرض ، كما أن ضده إفساد فى الأرض .

[ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ] أى : من هؤلاء المحاربين .

[ فاعلموا أن الله غفور رحيم ] أى : فيسقط عنه ، ما كان لله ، من تحتم القتل ، والصلب ، والقطع ، والنفى .

ومن حق الآدمى أيضاً ، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم .

فإن كان المحارب مسلماً ، فإن حق الآدمى ، لا يسقط عنه من القتل ، وأخذ المال .

ودل مفهوم الآية ، على أن توبة المحارب — بعد القدرة عليه — أنها لا تسقط عنه شيئاً .

والحكمة فى ذلك ظاهرة .

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه ، تمنع من إقامة الحد فى الحرابة ، فغيرها من الحدود ـ إذا تاب من فعلها ، قبل القدرة عليه ـ من باب أولى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

* هذا أمر من الله لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، من تقوى الله ، والحذر من سخطه وغضبه .

وذلك بأن يجتهد العبد ، ويبذل غاية ما يمكنه المقدور ، فى اجتناب ما يسخطه الله، من معاصى القلب ، واللسان، والجوارح ،الظاهرة ، والباطنة.

ويستعين بالله على تركها ، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه .

[ وابتغوا إليه الوسيلة ] أى : القرب منه ، والحظوة لديه ،والحب له .

وذلك بأداء فرائضه القلبية ، كالحب له ، وفيه ، والخوف ، والرجاء ، والإنابة والتوكل .

والبدنية ، كالزكاة ، والحج .

والمركبة من ذلك ، كالصلاة ونحوها ، من أنواع القراءة والذكر ، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق ، بالمال ، والعلم ، والجاه ، والبدن ، والنصح لعباد الله .

فكل هذه الأعمال ، تقرب إلى الله .

ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله ، حتى يحبه .

فإذا أحبه ، كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ويستجيب الله له الدعاء .

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه ، الجهاد فىسبيله، وهو: بذل الجهد فى قتال الكافرين ، بالمال، والنفس ، والرأى ، واللسان ،

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

والسعى فى نصر دين الله ، بكل ما يقدر عليه العبد ، لأن هذا النوع ، من أجل الطاعات ، وأفضل القربات .

ولأن من قام به ، فهو على القيام بغيره ، أحري وأولى[ لعلكم تفلحون] إذا اتقيتم الله ، بترك المعاصى ، وابتغيتم الوسيلة إلى الله ، بفعل الطاعات ، وجاهدتم فى سبيله ، ابتغاء مرضاته .

والفلاح هو : الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب ، والنجاة من كل مرهوب .

فحقيقته ، السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم .

* يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين يوم القيامة وما لهم من العذاب الفظيع .

وأنهم لو افتدوا من عذاب الله ، بملء الأرض ذهباً ومثله معه ، ما تقبل منهم ، ولا أفاد ، لأن محل الافتداء قد فات ، ولم يبق إلا العذاب الأليم ، الموجع الدائم الذين لا يخرجون منه أبدا ، بل هم ماكثون فيه ، سرمداً .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا
نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ

---

* السارق : هو من أخذ مال غيره المحترم خفية ، بغير رضاه .

وهو من كبائر الذنوب الموجبة ، لترتب العقوبة الشنيعة ، وهو قطع اليد اليمنى ، كما هو فى قراءة بعض الصحابة .

وحد اليد عند الإطلاق : من الكوع .

فإذا سرق ، قطعت يده من الكوع ، وحسمت فى زيت ، لتنسد العروق فيقف الدم .

ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية ، من عدة أوجه :

منها : الحرز ، فانه لابد أن تكون السرقة من حرز ، وحرز كل مال : ما يحفظ به عادة .

فلو سرق من غير حرز ، فلا قطع عليه .

ومنها : أنه لابد أن يكون المسروق نصاباً ، وهو : ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، أو ما يساوى أحدهما .

فلو سرق دون ذلك ، فلا قطع عليه .

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها .

فان لفظ « السرقة » أخذ الشيء ، على وجه ، لا يمكن الاحتراز منه .

وذلك أن يكون المال محرزاً .

فلو كان غير محرز ، لم يكن ذلك سرقة شرعية .

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد ، فى الشيء النزر التافه .

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

---

فلما كان لا بد من التقدير ، كان التقدير الشرعى ، مخصصاً للكتاب .

والحكمة فى قطع اليد فى السرقة ، أن ذلك حفظ للأموال ، واحتياط لها ، وليقطع العضو الذى صدرت منه الجناية .

فإن عاد السارق ، قطعت رجله اليسرى .

فإن عاد ، فقيل : تقطع يده اليسرى ، ثم رجله اليمنى ، وقيل : يحبس حتى يموت .

وقوله [ جزاء بما كسبا ] أى : ذلك القطع ، جزاء للسارق بما سرقه ، من أموال الناس .

[ نكالا من الله ] أى : تنكيلا وترهيباً للسارق ولغيره ، ليرتدع السراق — إذا علموا — أنهم سيقطعون إذا سرقوا .

[ والله عزيز حكيم ] أى : عز وحكم ، فقطع السارق .

[ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ] .

فيغفر لمن تاب ، فترك الذنوب ، وأصلح الأعمال والعيوب .

وذلك أن الله له ملك السموات والأرض ، يتصرف فيهما بما شاء ، من التصاريف القدرية والشرعية ، والمغفرة ، والعقوبة ، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ

---

* كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم — من شدة حرصه على الخلق — يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ، ثم يرجع إلى الكفر .

فأرشده الله تعالى ، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء .

فإن هؤلاء ، لا فى العير ولا فى النفير .

إن حضروا ، لم ينفعوا وإن غابوا ، لم يفقدوا .

ولهذا قال — مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم — فقال :

[ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ] فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم ، من كان معدودا من المؤمنين ، ظاهراً وباطناً .

وحاشا لله ، أن يرجع هؤلاء عن دينهم ، ويرتدوا ، فإن الإيمان ـ إذا خالطت بشاشته القلوب ـ لم يعدل به صاحبه غيره ، ولم يبغ به بدلا .

[ ومن الذين هادوا ] أى : اليهود [ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ] .

أى : مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم ، المبنى أمرهم على الكذب ، والضلال ، والغى .

وهؤلاء الرؤساء المتبعون [ لم يأتوك ] بل أعرضوا عنك ، وفرحوا بما عندهم من الباطل .

مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ

---

[ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ] أى : يجلبون معانى للألفاظ ، ما أرادها الله ، ولا قصدها ، لإضلال الخلق ، ولدفع الحق .

فهؤلاء المنقادون ، للدعاة إلى الضلال ، المتبعين المحال ، الذين يأتون بكل كذب ، لا عقول لهم ولا همم .

فلا تبال أيضاً ، إذا لم يتبعوك ، لأنهم فى غاية النقص ، والناقص لا يؤبه له ، ولا يبالى به .

[يقولون إن أوتيتم هذا ، نخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ] أى : هذا قولهم عند محا كمتهم إليك ، لا قصد لهم ، إلا اتباع الهوى .

يقول بعضهم لبعض : إن حكم لكم محمد بهذا الحكم ، الذى يوافق هواكم ، فاقبلوا حكمه .

وإن لم يحكم لكم به ، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك .

وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس .

[ ومن يرد الله فتنته ، فلن تملك له من الله شيئاً ] كقوله تعالى :

[ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ] .

[ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ] أى : فلذلك صدر منهم ما صدر .

فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ

فدل ذلك ، على أن من كان مقصوده بالتحاكم ، إلى الحكم الشرعى، اتباع هواه ، وأنه إن حكم له رضى ، وإن لم يحكم له ، سخط ، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه .

كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ، ورضى به ، وافق هواه أو خالفه ، فإنه من طهارة القلب .

ودل على أن طهارة القلب ، سبب لكل خير ، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد ، وعمل سديد .

[لهم فى الدنيا خزى] أى : فضيحة وعار [ولهم فى الآخرة عذاب عظيم] هو : النار ، وسخط الجبار .

[سماعون للكذب] والسمع ههنا ، سمع استجابة أى : من قلة دينهم وعقلهم ، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب .

[أكالون للسحت] أى : المال الحرام ، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم ، من المعلومات والرواتب ، التى بغير الحق .

فجمعوا بين اتباع الكذب ، وأكل الحرام .

[فإن جاءوك ، فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] فأنت مخير فى ذلك .

وليست هذه منسوخة ، فإنه — عند تحاكم هذا الصنف إليه — يخير بين أن يحكم بينهم ، أو يعرض عن الحكم بينهم ، بسبب أنه ، لا قصد لهم فى الحكم الشرعى ، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم .

فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

---

وعلى هذا ، فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم ، يعلم من حاله ، أنه ، إن حكم عليه ، لم يرض ، لم يجب الحكم ، ولا الإفتاء لهم .

فإن حكم بينهم ، وجب أن يحكم بالقسط ، ولهذا قال : [ وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين ] .

حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء ، فلا يمنعك ذلك من العدل فى الحكم بينهم .

وفى هذا بيان فضيلة العدل والقسط فى الحكم بين الناس ، وأن الله تعالى يحبه .

ثم قال متعجباً منهم : [ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ] .

فإنهم ـ لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه ـ لم يصدفوا عن حكم الله الذى فى التوراة ، التى بين أيديهم ، إلا لعلمهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم .

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً ، لم يرضوا بذلك ، بل أعرضوا عنه ، فلم يرتضوه أيضاً .

قال تعالى [ وما أولئك ] الذين ، هذا صنيعهم [ بمؤمنين ] .

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ

---

أى : ليس هذا دأب المؤمنين ، وليسوا حريين بالإيمان . لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم ، وجعلوا أحكام الإيمان ، تابعة لأهوائهم .

[ إنا أنزلنا التوراة ] على موسى بن عمران ، عليه الصلاة والسلام .

[ فيها هدى ] يهدى إلى الإيمان والحق ، ويعصم من الضلالة .

[ ونور ] يستضاء به فى ظلم الجهل والحيرة والشكوك ، والشبهات ، والشهوات .

كما قال تعالى : [ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ، وضياء وذكرى للمتقين ] .

[ يحكم بها ] بين الذين هادوا ، أى : اليهود فى القضايا والفتاوى [ النبيون الذين أسلموا ] لله ، وانقادوا لأوامره ، الذين إسلامهم ، أعظم من إسلام غيرهم ، صفوة الله من العباد .

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام ، والسادة للأنام ، قد اقتدوا بها ، وائتموا ، ومشوا خلفها ، فما الذى منع هؤلاء الأراذل من اليهود ، من الاقتداء بها ؟

وما الذى أوجب لهم ، أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يقبل عمل ظاهر وباطن ، إلا بتلك العقيدة ؟

هل لهم إمام فى ذلك ؟

نعم لهم أئمة دأبهم التحريف ، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس ،

أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن

---

والتأكل بكتمان الحق ، وإظهار الباطل ، أولئك أئمة الضلال ، الذين يدعون إلى النار .

وقوله: [ الربانيون والأحبار ] أى : وكذلك يحكم بالتوراة الذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أى : العلماء العاملين المعلمين ، الذين يربون الناس بأحسن تربية ، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين .

والأحبار أى : العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم ، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم .

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق [ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء] أى : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه ، من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشتبه على الناس منه .

فالله تعالى قد حمل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، فى الإخلاد إلى البطالة والكسل .

وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التى إذا قام بها غير أهل العلم ، سلموا ونجوا .

كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ

---

وأما أهل العلم ، فكما أنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه ، من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية ، والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ولهذا قال :

[ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ] فتكتموا الحق ، وتظهروا الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل .

وهذه الآفات ، إذا سلم منها العالم ، فهو من توفيقه .

وسعادته بأن يكون همه ، الاجتهاد فى العلم والتعليم ، ويعلم ، أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم ، واستشهده عليه وأن يكون خائفاً من ربه .

ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم ، من القيام بما هو لازم له .

وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العلم ، أن يكون مخلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه .

قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى فى أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله ، إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ، ودفع حظا جسيما ، حرم منه غيره .

فنسألك اللهم ، علما نافعاً ، وعملا متقبلا ، وأن ترزقنا العفو والعافية ، من كل بلاء . يا كريم .

وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

---

[ ومن لم يحكم بما أنزل الله ] من الحق المبين ، وحكم بالباطل الذى يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة [ فأولئك هم الكافرون ] .

فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة .

وذلك إذ اعتقد حله وجوازه .

وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر ، قد استحق من فعله ، العذاب الشديد .

✻ هذه الأحكام من جملة الأحكام التى فى التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون ، والأحبار .

فإن الله أوجب عليهم ، أن النفس ـ إذا قتلت ـ تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة .

والعين ، تقلع بالعين ، والأذن ، تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن .

ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التى يمكن الاقتصاص منها بدون حيف .

[ والجروح قصاص ] والاقتصاص . أن يفعل به كما فعل .

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

---

فمن جرح غيره عمداً ، اقتص من الجارح جرحاً ، مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضعاً ، وطولا ، وعرضاً وعمقاً .

وليعلم أن شرع من قبلنا ، شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

[ فمن تصدق به ] أى : بالقصاص فى النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله .

[ فهو كفارة له ] أى : كفارة للجانى ، لأن الآدمى عفا عن حقه .

والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه .

وكفارة أيضاً عن العافى ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو عمن يتعلق به — فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته .

[ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ] قال ابن عباس ، كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله ، غير مستحل له .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

☆ أى : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة ، بعبدنا ورسولنا ، عيسى بن مريم ، روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم .

بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ، ولما جاء به من التوراة ، بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف فى بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه أنه قال لبنى إسرائيل .

[ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ] .

[ وآتيناه الإنجيل ] الكتاب العظيم ، المتمم للتوراة .

[فيه هدى ونور] يهدى إلى الصراط المستقيم ، ويبين الحق من الباطل .

[ ومصدقا لما بين يديه من التوراة ] بتثبيتها والشهادة لها ، والموافقة .

[ وهدى وموعظة للمتقين ] فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ، ويتعظون بالمواعظ ، ويرتدعون عما لا يليق .

[وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه] أى : يلزمهم التقيد بكتابهم ، ولا يجوز لهم العدول عنه .

[ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ] .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

* يقول تعالى [ وأنزلنا إليك الكتاب ] الذى هو القرآن العظيم ، أفضل الكتب وأجلها .

[ بالحق ] أى : إنزالا بالحق ، ومشتملا على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

[ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، لأنه شهد للكتب السالفة ، ووافقها ، وطابقت أخباره أخبارها ، وشرائعه الكبار شرائعها ، وأخبرت به ، فصار وجودها مصداقا لخبرها .

[ ومهيمنا عليه ] أى : مشتملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة ، وزيادة فى المطالب الإلهية ، والأخلاق النفسية .

فهو الكتاب الذى يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به ، وحث عليه ، وأكثر من الطرق الموصلة إليه .

وهو الكتاب الذى فيه نبأ السابقين واللاحقين .

وهو الكتاب الذى ، فيه الحكم ، والحكمة ، والأحكام ، الذى عرضت عليه الكتب السابقة .

فما شهد له بالصدق ، فهو المقبول ، وما شهد له بالرد ، فهو مردود ، قد دخله التحريف والتبديل .

وإلا ، فلو كان من عند الله ، لم يخالفه .

[ فاحكم بينهم بما أنزل الله ] من الحكم الشرعى ، الذى أنزله الله عليك .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِيَبْلُوَكُمْ

---

[ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ] أى : لاتجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق ، بدلا عما جاءك من الحق ، فتستبدل الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

[ لكل جعلنا منكم ] أيها الأمم [ شرعة ومنهاجا ] أى : سبيلا وسنة .

وهذه الشرائع التى تختلف باختلاف الأمم ، هى التى تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال ، وكلها ترجع إلى العدل ، فى وقت شرعتها .

وأما الأصول الكبار ، التى هى مصلحة وحكمة فى كل زمان ، فإنها لاتختلف ، فتشرع فى جميع الشرائع .

[ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ] تبعا لشريعة واحدة ، لايختلف متأخرها ولامتقدمها .

[ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ] فيختبركم ، وينظر كيف تعملون ، ويبتلى كل أمة بحسب ماتقتضيه حكمته ، ويؤتى كل أحد مايليق به ، وليحصل التنافس بين الأمم .

فكل أمة تحرص على سبق غيرها ، ولهذا قال : [ فاستبقوا الخيرات ] .

أى : بادروا إليها ، وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب ، من حقوق الله ، وحقوق عباده ، لا يصير فاعلها سابقا لغيره ، مستوليا على الأمر ، إلا بأمرين .

فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ

---

المبادره إليها ، وانتهاز الفرصة ، حين يجيء وقتها ، ويعرض عارضها ، والاجتهاد فى أدائها ، كاملة على الوجه المأمور به .

ويستدل بهذه الآية ، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها ، فى أول وقتها .

وعلى أنه ينبغى أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزى فى الصلاة وغيرها من العبادات ، من الأمور الواجبة .

بل ينبغى أن يأتى بالمستحبات ، التى يقدر عليها ، لتتم وتكمل ، ويحصل بها السبق .

[ إلى الله مرجعكم جميعاً ] الأمم السابقة واللاحقة ، كلهم سيجمعهم الله ، ليوم لاريب فيه .

[ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ] من الشرائع والأعمال .

فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ، ويعاقب أهل الباطل ، والعمل السيء .

[ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ] هذه الآية هى التى قيل : إنها ناسخة لقوله [ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ] .

والصحيح : أنها ليست بناسخة ، وأن تلك الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم مخير بين الحكم بينهم ، وبين عدمه ، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

---

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم ، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله ، من الكتاب والسنة .

وهو القسط الذى تقدم أن الله قال [ وإن حكمت ، فاحكم بينهم بالقسط ] .

ودل هذا ، على بيان القسط ، وأن مادته هو ماشرعه الله من الأحكام فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط ، وما خالف ذلك ، فهو جور وظلم .

[ ولا تتبع أهواءهم ] كرر النهى عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها .

ولأن ذلك ، فى مقام الحكم والفتوى ، وهو أوسع ، وهذا فى مقام الحكم وحده .

وكلاهما ، يلزم فيه أن لايتبع أهواءهم ، المخالفة للحق ، ولهذا قال :

[ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ] .

أى : إياك والاغترار بهم ، وأن يفتنوك ، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك .

فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلا إلى ترك الحق الواجب ، والفرض اتباعه .

[ فإن تولوا ] عن اتباعك ، واتباع الحق [ فاعلم ] أن ذلك عقوبة عليهم و [ أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ] فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

---

ومن أعظم العقوبات ، أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول ، وذلك لفسقه .

[ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ] أى : طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله ، واتباع رسوله .

[ أفحكم الجاهلية يبغون ] أى : أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك ، حكم الجاهلية .

وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله .

فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية .

فمن أعرض عن الأول ، ابتلى بالثانى المبنى على الجهل ، والظلم ، والغى ولهذا ، أضافه الله للجاهلية .

وأما حكم الله تعالى ، فمبنى على العلم ، والعدل ، والقسط ، والنور ، والهدى .

[ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ] فالموقن ، هو الذى يعرف الفرق بين الحكمين ويميز ـ بإيقانه ـ ما فى حكم الله ، من الحسن والبهاء ، وأنه يتعين ـ عقلا وشرعاً ـ اتباعه .

واليقين ، هو : العلم التام ، الموجب للعمل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

* يرشد تعالى عباده المؤمنين ، حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى ، وصفاتهم غير الحسنة ، أن لا يتخذوهم أولياء .

فإن [ بعضهم أولياء بعض ] يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا على من سواهم .

فأنتم ، لاتتخذوهم أولياء ، فإنهم ، هم الأعداء على الحقيقة .

ولا يبالون بضركم ، بل لايدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم .

فلا يتولاهم ، إلا من هو مثلهم ، ولهذا قال : [ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ] .

لأن التولى التام ، يوجب الانتقال إلى دينهم .

والتولى القليل ، يدعو إلى الكثير ، ثم يتدرج شيئا فشيئاً ، حتى يكون العبد منهم .

[ إن الله لايهدى القوم الظالمين ] أى : الذين وصفهم الظلم ، وإليه يرجعون ، وعليه يعولون .

فلو جئتهم بكل آية ، ماتبعوك ، ولا انقادوا لك .

ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم ، أخبر أن ممن يدعى الإيمان ، طائفة تواليهم فقال :

يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

[ فترى الذى فى قلوبهم مرض ] أى : شك ، ونفاق ، وضعف إيمان ، يقولون : إن تولينا إياهم[1] للحاجة فإننا [ نخشى أن تصيبنا دائرة ] أى : تكون الدائرة لليهود والنصارى فإذا كانت الدائرة لهم ،فاذاً لنا معه يد[2] يكافئوننا عنها ، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام .

قال تعالى ـ راداً لظنهم السيء ـ [ فعسى الله أن يأتى بالفتح ] الذى يعز الله به الإسلام ، على اليهود والنصارى ، ويقهرهم المسلمون [ أو أمر من عنده ] ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين ، من اليهود وغيرهم .

[ فيصبحوا على ما أسروا ] أى : أضمروا [ فى أنفسهم نادمين ] على ما كان منهم وضرهم ، بلا نفع حصل لهم .

فحصل الفتح الذى نصر الله به الإسلام والمسلمين ، وأذل به الكفر والكافرين .

فندموا وحصل لهم من الغم ، ما الله به عليم .

---

(١) قوله ( تولينا إياهم ) خطأ نحوى والصواب ( توليناهم ) لأن المقرر فى القواعد النحوية كما ذكره ابن هشام ـ فى كتاب ( القطر ) وابن مالك فى ألفيته أن الضمير مهما أمكن اتصاله فلا يعدل عنه إلى الانفصال .

(٢) قوله ( فإذاً لنا معهم يد ) تعبير ليس على ماينبغى ، الصواب ( فتكون لنا عندهم يد ) .

نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

---

[ويقول الذين آمنوا] متعجبين من حال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض:

[أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم] أى: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم فى الإيمان، وما يلزمه من النصرة، والمحبة، والموالاة.

ظهر ما أضمروه، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذى كادوه، وظنهم الذى ظنوه بالإسلام وأهله ـ باطلا.

وبطل كيدهم [حبطت أعمالهم] فى الدنيا [فأصبحوا خاسرين] حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

* يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين ، وأنه من يرتد عن دينه ، فلن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه .

وأن لله ، عباداً مخلصين ، ورجالا صادقين ، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ، ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً ، وأقواهم نفوساً ، وأحسنهم أخلاقاً .

أجل صفاتهم أن الله [ يحبهم ويحبونه ] .

فإن محبة الله للعبد ، هى أجل نعمة أنعم بها عليه ، وأفضل فضيلة ، تفضل الله بها عليه .

وإذا أحب الله عبداً ، يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووفقه لفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه ، بالمحبة والوداد

ومن لوازم محبة العبد لربه ، أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطناً ، فى أقواله وأعماله ، وجميع أحواله .

كما قال تعالى [ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ] .

كما أن من لوازم محبة الله للعبد ، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله ، بالفرائض والنوافل ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن الله :

ٱلْـكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

---

« وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ومن لوازم محبة الله ، معرفته تعالى ، والإكثار من ذكره .

فإن المحبة بدون معرفة بالله ، ناقصة جداً ، بل غير موجودة ، وإن وجدت دعواها .

ومن أحب الله أكثر من ذكره .

وإذا أحب الله عبداً ، قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل .

ومن صفاتهم أنهم [ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ] .

فهم للمؤمنين أذلة ، من محبتهم لهم ، ونصحهم لهم ، ولينهم ، ورفقهم ، ورأفتهم ، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم ، وقرب الشىء الذى يطلب منهم.
وعلى الكافرين بالله ، المعاندين لآياته ، المكذبين لرسله ـ أعزة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم ، على معاداتهم ، وبذلوا جهدهم فى كل سبب يحصل به الانتصار عليهم .

قال تعالى : [ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ] .

. . . . . . . . . . .

وقال تعالى [ أشداء على الكفار رحماء بينهم ] .

فالغلظة الشديدة على أعداء الله ، مما يقرب العبد إلى الله ، ويوافق العبد ربه ، فى سخطه عليهم .

ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة ، دعوتهم ، إلى الدين الإسلامى ، بالتى هى أحسن .

فتجتمع الغلظة عليهم ، واللين فى دعوتهم ، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم .

[ يجاهدون فى سبيل الله ] بأموالهم وأنفسهم ، بأقوالهم وأفعالهم .

[ ولا يخافون لومة لائم ] بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين .

وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم ، فإن ضعيف القلب ، ضعيف الهمة .

تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين ، وتفتر قوته ، عند عذل العاذلين .

وفى قلوبهم تعبد لغير الله ، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم ، على أمر الله .

فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله ، حتى لا يخاف فى الله لومة لائم .

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات ، الجميلة ، والمناقب العالية ، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير ـ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه ، لئلا يعجبوا بأنفسهم ، وليشكروا الذى من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله ، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب ، فقال :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ

---

[ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ] أى : واسع الفضل والإحسان ، جزيل المنن ، قد عمت رحمته كل شىء ، ويوسع على أوليائه من فضله ، ما لا يكون لغيرهم .

ولكنه عليم بمن يستحق الفضل ، فيعطيه ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلا وفرعاً .

* لما نهى عن ولاية الكفار ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين ، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه .

وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال : [ إنما وليكم الله ورسوله ] .

فولاية الله ، تدرك بالإيمان والتقوى .

فكل من كان مؤمنا تقيا ، كان لله ولياً ، ومن كان لله ولياً ، فهو ولى لرسوله .

ومن تولى الله ورسوله ، كان تمام ذلك ، تولى من تولاه ، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ، ظاهراً وباطناً ، وأخلصوا للمعبود ، بإقامتهم الصلاة ، بشروطها ، وفروضها ، ومكملاتها ، وأحسنوا للخلق ، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم .

وقوله : [ وهم راكعون ] أى : خاضعون لله ذليلون .

فأداة الحصر فى قوله [ إنما وليكم الله والذين آمنوا ] تدل على أنه

وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ

---

يجب قصر الولاية على المذكورين ، والتبرى من ولاية غيرهم .

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال :

[ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون] .

أي : فإنه من الحزب المضافين إلى الله ، إضافة عبودية وولاية ، وحزبه الغالبون ، الذين لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : [ وإن جندنا لهم الغالبون ] .

وهذه بشارة عظيمة ، لمن قام بأمر الله ، وصار من حزبه وجنده ، أن له الغلبة .

وإن أديل عليه فى بعض الأحيان ، لحكمة يريدها الله تعالى ، فآخر أمره ، الغلبة والانتصار ، ومن أصدق من الله قيلا .

* ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار ؛ أولياء ، يحبونهم ، ويتولونهم ، ويبدون لهم أسرار المؤمنين ، ويعاونونهم على بعض أمورهم ، التى تضر الإسلام والمسلمين .

وأن ما معهم من الإيمان ، يوجب عليهم ترك موالاتهم ، ويحثهم على معاداتهم .

وكذلك التزامهم لتقوى الله ، التى هى امتثال أوامره واجتناب زواجره مما يدعوهم إلى معاداتهم .

أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ
ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

---

وكذلك ما كان عليه المشركون ، والكفار والمخالفون للمسلمين ، من قدحهم فى دين المسلمين ، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً ، واحتقاره واستصغاره ، خصوصاً الصلاة ، التى هى أظهر شعائر المسلمين ، وأجل عباداتهم .

إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً ، وذلك لعدم عقلهم ، ولجهلهم العظيم .

وإلا فلو كان لهم عقول ، لخضعوا لها ، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التى تتصف بها النفوس .

فإذا علمتم ـ أيها المؤمنون ، حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم ـ فمن لم يعادهم بعد هذا ، دل على أن الإسلام عنده ، رخيص ، وأنه لا يبالى بمن قدح فيه ، أو قدح بالكفر والضلال ، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شىء .

فكيف تدعى لنفسك دينا قيما ، وأنه الدين الحق ؛ وما سواه باطل ، وترضى بموالاة من اتخذه هزواً ولعباً ، وسخر به وبأهله ، من أهل الجهل والحمق ؟!

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

---

* أى : [ قل ] يا أيها الرسول [ يا أهل الكتاب ] ملزما لهم .

إن دين الإسلام هو الدين الحق ، وإن قدحهم فيه ، قدح بأمر ينبغى المدح عليه :

[ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون ] أى : هل لنا من العيب ، إلا إيماننا بالله ، وبكتبه السابقة واللاحقة ، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين ، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان ، فإنه كافر فاسق ؟ .

فهل تنقمون منا ، بهذا الذى أوجب الواجبات على جميع المكلفين ؟!!

ومع هذا ، فأكثرهم فاسقون ، أى : خارجون عن طاعة الله متجرئون على معاصيه فأولى لكم ـ أيها الفاسقون ـ السكوت .

فلو كان عيبكم ، وأنتم سالمون من الفسق ، وهيهات ذلك ـ لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم .

ولما كان قدحهم فى المؤمنين ، يقتضى أنهم يعتقدون أنهم على شر ، قال تعالى :

[ قل ] لهم ، مخبرا عن شناعة ما كانوا عليه :

[ هل أنبئكم بشر من ذلك ] الذى نقمتم فيه علينا ، مع التنزل معكم.

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ

---

[ من لعنه الله ] أى : أبعده عن رحمته [ وغضب عليه ] وعاقبه فى الدنيا والآخرة [ وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ] وهو الشيطان ، وكل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت .

[ أولئك ] المذكورون بهذه الخصال القبيحة [ شر مكاناً ] من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم ، ورضى الله عنهم ، وأثابهم فى الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين .

وهذا النوع ، من باب استعمال[1] أفعل التفضيل فى غير بابه .

وكذلك قوله [ وأضل عن سواء السبيل ] أى : وأبعد عن قصد السبيل.

[ وإذا جاءوكم قالوا آمنا ] نفاقاً ومكراً [ و ] هم [ قد دخلوا ] مشتملين [ بالكفر وهم قد خرجوا به ] فمدخلهم ومخرجهم ، بالكفر — وهم يزعمون أنهم مؤمنون .

فهل أشر من هؤلاء ، وأقبح حالا منهم ؟!!

---

( ١ ) قوله : ( من باب استعمال أفعل التفضيل الخ ) يريد بهذا الكلام أن أفعل التفضيل يأتى على وزن ( أفعل ) غير أن كلمتين خرجتا عن القاعدة لكثرة دورانهما فى الكلام وهما ( خير ) و ( شر ) والقياس أن يكونا على وزن أفعل فيقال مثلا ( أخير ) و( أشر ) .

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

---

[ والله أعلم بما كانوا يكتمون ] فيجازيهم بأعمالهم ، خيرها وشرها .

ثم استمر تعالى ، يعدد معايبهم ، انتصارا لقدحهم فى عباده المؤمنين فقال:

[ وترى كثيراً منهم ] أى: من اليهود [يسارعون فى الإثم والعدوان] أى : يحرصون ، ويبادرون المعاصى المتعلقة فى حق الخالق والعدوان على المخلوقين .

[ وأكلهم السحت ] الذى هو الحرام .

فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك ، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه .

وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصى والظلم .

هذا ، وهم يدعون لأنفسهم ، المقامات العالية .

[ لبئس ما كانوا يعملون ] وهذا فى غاية الذم لهم ، والقدح فيهم .

[ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ] .

أى : هلا ينهاهم العلماء ، المتصدون لنفع الناس ، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة — عن المعاصى التى تصدر منهم ، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم .

فإن العلماء، عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعى، ويرغبوهم فى الخير : ويرهبوهم من الشر [ لبئس ما كانوا يصنعون ] .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا

* يخبر تعالى ، عن مقالة اليهود الشنيعة ، وعقيدتهم الفظيعة فقال :

[وقالت اليهود يد الله مغلولة] أى : عن الخير والإحسان ، والبر .

[غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا] وهذا دعاء عليهم ، بجنس مقالتهم .

فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم ، بالبخل ، وعدم الإحسان .

فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقا عليهم .

فكانوا أبخل الناس ، وأقلهم إحسانا ، وأسوأهم ظنا بالله ، وأبعدهم عن رحمته ، التى وسعت كل شىء ، وملأت أقطار العالم العلوى والسفلى .

ولهذا قال : بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] لا حجر عليه ، ولا مانع يمنعه ، مما أراد .

فإنه تعالى ، قد بسط فضله ، وإحسانه الدينى والدنيوى ، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده ، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه ، بمعاصيهم .

فيده سحاء الليل والنهار ، وخيره فى جميع الأوقات مدرارا .

يفرج كرباً ، ويزيل غما ، ويغنى فقيراً ، ويفك أسيرا ويجبر كسيراً ، ويجيب سائلا ، ويعطى فقيرا عائلا ، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين.

وينعم على من لم يسأله ، ويعافى من طلب العافية ، ولا يحرم من خيره عاصيا.

بل خيره ، يرتع فيه البر والفاجر ، ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال .

مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ

---

ثم يحمدهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهى من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ، ما لا يدركه الوصف ، ولا يخطر على بال العبد .

ويلطف بهم فى جميع أمورهم ، ويوصل إليهم من الإحسان ، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه .

فسبحان من كل النعم ، التى بالعباد ، فمنه، وإليه يجأرون فى دفع المكاره.

وتبارك من لا يحصى أحد ، ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين ، بل ولا وجود لهم ، ولا بقاء إلا بجوده .

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه ، ونسبه إلى مالا يليق بجلاله .

بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ، ونحوهم ممن حاله كحالهم ، ببعض قولهم ، لهلكوا ، وشقوا فى دنياهم .

ولكنهم يقولون تلك الأقوال ، وهو تعالى ، يحلم عنهم ، ويصفح ، ويمهلهم ، ولا يهملهم .

وقوله [ وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ]

وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون الذكر الذى أنزله الله على رسوله ، الذى فيه حياة القلب والروح ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وفلاح الدارين ، الذى هو أكبر منه ، امتن الله بها على عباده ، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها ، والاستسلام لله بها ، وشكراً لله عليها ، أن تكون

وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ

---

لمثل هذا زيادة غى إلى غيه ، وطغيان إلى طغيانه ، وكفر إلى كفره .

وذلك ، بسبب ، إعراضه عنها ، ورده لها ، ومعاندته إياها ، ومعارضته لها ، بالشبه الباطلة .

[ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ] فلا يتألفون ، ولا يتناصرون ، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم .

بل لم يزالوا متباغضين فى قلوبهم ، متعادين بأفعالهم ، إلى يوم القيامة ،

[ كلما أوقدوا نارا للحرب ] ليكيدوا بها الإسلام وأهله ، وأبدوا ، وأعادوا ، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم [ أطفأها الله ] بخذلانهم ، وتفرق جنودهم ، وانتصار المسلمين عليهم .

[ ويسعون فى الأرض فسادا ] أى : يجتهدون ويجدون ، ولكن بالفساد فى الأرض .

أى : بعمل المعاصى ، والدعوة إلى دينهم الباطل ، والتعويق عن الدخول فى الإسلام .

[ والله لا يحب المفسدين ] بل يبغضهم أشد البغض ، وسيجازيهم على ذلك .

ثم قال تعالى : [ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ] .

وهذا من كرمه وجوده ، حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم ،

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ
مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

---

وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة ، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع كتبه ، وجميع رسله ، واتقوا المعاصى ، لكفر عنهم سيئاتهم ، ولو كانت ما كانت ، ولأدخلهم جنات النعيم ، التى فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

[ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ] :

أى : قاموا بأوامرها ، كما ندبهم الله وحثهم .

ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه ، من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة ، التي أنزلها ربهم إليهم ، أى : لأجلهم وللاعتناء بهم .

[ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ] أى: لأدر الله عليهم الرزق، ولأمطر عليهم السماء ، وأنبت لهم الأرض كما قال تعالى :

[ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ].

[ منهم ] أى : من أهل الكتاب [ أمة مقتصدة ] أى : عاملة بالتوراة والإنجيل ، عملا غير قوى ولا نشيط .

و [ كثير منهم ساء ما يعملون ] أى : والمسيء منهم الكثير .

وأما السابقون منهم ، فقليل ما هم .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

* هذا أمر من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه .

ويدخل فى هذا ، كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم ، من العقائد ، والأعمال ، والأقوال ، والأحكام الشرعية ، والمطالب الإلهية .

فبلغ صلى الله عليه وسلم أكمل تبليغ ، ودعا ، وأنذر ، وبشر ، ويسر ، وعلم الجهال الأميين ، حتى صاروا من العلماء الربانيين .

وبلغ ، بقوله ، وفعله ، وكتبه ، ورسله .

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرها عنه .

وشهد له بالتبليغ ، أفاضل الأمة ، من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ، ورجال المسلمين .

[وإن لم تفعل] أى : لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك [فما بلغت رسالته] أى : فما امتثلت أمره .

[ والله يعصمك من الناس ] هذه حماية وعصمة من الله ، لرسوله من الناس ، وأنه ينبغى أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله ، وقد تكفل بعصمتك ، فأنت إنما عليك البلاغ المبين ، فمن اهتدى ، فلنفسه .

وأما الكافرون الذين لاقصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ، ولا يوفقهم للخير ، بسبب كفرهم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

* أى : قل لأهل الكتاب — مناديا على ضلالهم ، ومعلناً ببطلهم :

[لستم على شىء] من الأمور الدينية ، فإنكم ، لا بالقرآن ومحمد ، آمنتم ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم ، ولا بحق تمسكتم ، ولا على أصل اعتمدتم .

حتى تقيموا التوراة والإنجيل ] أى : تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما ، والتمسك بكل ما يدعوان إليه .

[ و ] تقيموا [ ما أنزل إليكم من ربكم ] الذى رباكم ، وأنعم عليكم ، وجعل أجل إنعامه ، إنزال الكتب إليكم .

فالواجب عليكم ، أن تقوموا بشكر الله ، وتلتزموا أحكام الله ، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده .

[وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين ] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، من أهل القرآن والتوراة والإنجيل ، أن سعادتهم ونجاتهم ، فى طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح .

فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فله النجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ، ولاهم يحزنون على ما خلفوا منها .

وهذا الحكم المذكور ، يشمل سائر الأزمنة .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائل ] أى : عهدهم الثقيل بالإيمان بالله ، والقيام بواجباته ، التى تقدم الكلام عليها فى قوله [ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ] إلى آخر الآيات.

[ وأرسلنا إليهم رسلا] يتوالون عليهم بالدعوة ، ويتعاهدونهم بالإرشاد ولكن ذلك ، لم ينجح فيهم ، ولم يفد .

[ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ] من الحق ، كذبوه ، وعاندوه ، وعاملوه أقبح المعاملة .

[ فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون . وحسبوا أن لا تكون فتنة ] أى : ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم ، لا يجر عليهم عذابا ، ولا عقوبة ، واستمروا على باطلهم .

[ فعموا وصموا ] عن الحق [ ثم ] نعشهم و [ تاب عليهم ] حين تابوا إليه ، وأنابوا .

[ ثم ] لم يستمروا على ذلك ، حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة . حيث [ عموا وصموا كثير منهم ] بهذا الوصف ، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم .

[ والله بصير بما يعملون ] فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ

---

* يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم [ إن الله هو المسيح بن مريم ] . بشبهة أنه خرج من أم بلا أب ، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية .

والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى ، وقال لهم : [ يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ] فأثبت لنفسه العبودية التامة ، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق .

[ إنه من يشرك بالله ] أحداً من المخلوقين ، لا عيسى ولا غيره .

[ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ] وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق ، وصرف ما خلقه الله له — وهو العبادة الخالصة — لغير من هى له ، فاستحق أن يخلد فى النار .

[ وما للظالمين من أنصار ] ينقذونهم من عذاب الله ، أو يرفعون عنهم بعض ما نزل بهم .

[ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ] وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم .

زعموا أن الله ثالث ثلاثة ، الله ، وعيسى ، ومريم ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى .

كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء ، والعقيدة والقبيحة ؟!!.

مِن أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ

---

كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق ؟ ! ! .

كيف خفى عليهم رب العالمين ؟ ! ! .

قال تعالى ـ راداً عليهم وعلى أشباههم ـ : [وما من إله إلا إله واحد] متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص ، منفرد بالخلق والتدبير ما بالخلق من نعمة إلا منه .

فكيف يجعل معه إله غيره ؟!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ثم توعدهم بقوله [ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم ، عذاب أليم ] .

ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال:

[ أفلا يتوبون إلى الله ] أى : يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد ، وبأن عيسى عبد الله ورسوله ـ عما كانوا يقولونه .

[ ويستغفرونه ] عن ما صدر منهم [ والله غفور رحيم ] أى يغفر ذنوب التائبين ، ولو بلغت عنان السماء ، ويرحمهم ، بقبول توبتهم ، وتبديل سيئاتهم حسنات .

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذى هو غاية اللطف واللين فى قوله .

[ أفلا يتوبون إلى الله ] .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

---

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه ، الذى هو الحق ، فقال : [ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ] .

أى : هذا غايته ، ومنتهى أمره ، أنه من عباد الله المرسلين ، الذين ليس لهم من الأمر ، ولا من التشريع ، إلا ما أرسلهم به الله ، وهو من جنس الرسل قبله ، لا مزية له عليهم ، تخرجه عن البشرية ، إلى مرتبة الربوبية .

[ وأمه ] مريم [ صديقة ] أى : هذا أيضاً غايتها ، أن كانت من الصديقين ، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء .

والصديقية ، هى : العلم النافع ، المثمر لليقين ، والعمل الصالح .

وهذا دليل على أن مريم ، لم تكن نبية ، بل أعلى أحوالها ، الصديقية ، وكفى بذلك فضلا وشرفا .

وكذلك سائر النساء ، لم يكن منهن نبية ، لأن الله تعالى جعل النبوة فى أكمل الصنفين . فى الرجال ، كما قال تعالى [ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ] .

فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله ، وأمه صديقة ، فلأى شىء اتخذهما النصارى إلهين مع الله ؟ .

وقوله : [ كانا يأكلان الطعام ] دليل ظاهر ، على أنهما عبدان فقيران ، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

فلو كانا إلهين ، لاستغنيا عن الطعام والشراب ، ولم يحتاجا إلى شيء ، فإن الإله ، هو الغنى الحميد .

ولما بين تعالى البرهان قال : [ انظر كيف نبين لهم الآيات ] الموضحة للحق ، الكاشفة لليقين ، ومع هذا ، لا تفيد فيهم شيئاً ، بل لا يزالون على إفكهم ، وكذبهم ، وافترائهم . وذلك ظلم وعناد منهم .

* أى : [ قل ] لهم أيها الرسول : [ أتعبدون من دون الله ] من المخلوقين الفقراء المحتاجين .

[ من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ] وتدعون من انفرد بالضر والنفع ، والعطاء والمنع .

[ والله هو السميع ] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[ العليم ] بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة ، والأمور الماضية والمستقبلة .

فالكامل تعالى ، الذى هذه أوصافه ، هو الذى يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة ، ويخلص له الدين .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا۟
عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ
لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

---

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ] أى : لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل .

وذلك كقولهم فى المسيح ، ما تقدم حكايته عنهم .

وكغلوهم فى بعض المشايخ ، متبعين [ أهواء قوم قد ضلوا من قبل ] أى : تقدم ضلالهم .

[ وأضلوا كثيراً ] من الناس ، بدعوتهم إياهم إلى الدين ، الذى هم عليه.

[ وضلوا عن سواء السبيل ] أى : قصد الطريق ، فجمعوا بين الضلال والإضلال .

وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم ، وعن اتباع أهوائهم المردية ، وآرائهم المضلة . ثم قال تعالى :

[ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل ] أى : طردوا وأبعدوا عن رحمة الله .

[ على لسان داود وعيسى بن مريم ] أى : بشهادتهما وإقرارهما ، بأن الحجة قد قامت عليهم ، وعاندوها .

[ ذلك ] الكفر واللعن [ بما عصوا وكانوا يعتدون ] .

كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾
تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

---

أى : بعصيانهم لله ، وظلمهم لعباد الله ، صار سبباً لكفرهم ، وبعدهم عن رحمة الله ، فإن للذنوب والظلم ، عقوبات .

ومن معاصيهم التى أحلت بهم المثلات ، وأوقعت بهم العقوبات أنهم :

[ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ] أى : كانوا يفعلون المنكر ، ولا ينهى بعضهم بعضاً .

فيشترك بذلك المباشر وغيره ، الذى سكت عن النهى عن المنكر ، مع قدرته على ذلك .

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله ، وأن معصيته خفيفة عليهم .

فلو كان لديهم تعظيم لربهم ، لغاروا لمحارمه ، ولغضبوا لغضبه .

وإنما كان السكوت عن المنكر — مع القدرة — موجباً للعقوبة ، لما فيه من المفاسد العظيمة .

منها : أن مجرد السكوت ، فعل معصية ، وإن لم يباشرها الساكت .

فإنه — كما يجب اجتناب المعصية — فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية .

ومنها : ما تقدم ، أنه يدل على التهاون بالمعاصى ، وقلة الاكتراث بها .

ومنها : أن ذلك يجرىء العصاة والفسقة ، على الإكثار من المعاصى ، إذا لم يردعوا عنها ، فيزداد الشر ، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية ، ويكون لهم الشوكة والظهور .

أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ

---

ثم بعد ذلك ، يضعف أهل الخير ، عن مقاومة أهل الشر ، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولا .

ومنها : أنه ـ بترك الإنكار للمنكر ـ يندرس العلم ، ويكثر الجهل .

فإن المعصية ـ مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص ، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها ـ يظن أنها ليست بمعصية ، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة .

وأى مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله ، حلالا ؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا ؟ !!

ومنها : أن بالسكوت على معصية العاصين ، ربما تزينت المعصية فى صدور الناس ، واقتدى بعضهم ببعض .

فالإنسان ، مولع بالاقتداء بأحزابه ، وبنى جنسه . ومنها ومنها .

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة ، نص الله تعالى ، أن بنى إسرائيل الكفار منهم ، لعنهم بمعاصيهم ، واعتدائهم ، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم .

[ لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ] بالمحبة والموالاة والنصر .

[لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ] البضاعة الكاسدة ، والصفقة الخاسرة .

كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

وهى : سخط الله ، الذى يسخط لسخطه كل شيء ، والخلود الدائم فى العذاب العظيم .

فقد ظلمتهم أنفسهم ، حيث قدمت لهم ، هذا النزل ، غير الكريم .

وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم .

[ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ، ما اتخذوهم أولياء ].

فإن الإيمان بالله وبالنبى ، وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاة ربه ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة من كفر به وعاداه ، وأوضع فى معاصيه .

فشرط ولاية الله والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء .

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط ، فدل على انتفاء المشروط .

[ولكن كثيراً منهم فاسقون] أى : خارجون عن طاعة الله والإيمان به ، وبالنبى .

ومن فسقهم ، موالاة أعداء الله .

ثم قال تعالى [ لتجدن أشد الناس عداوة ] إلى [ أصحاب الجحيم ].

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

---

يقول تعالى — فى بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين ، وإلى ولايتهم ، ومحبتهم ، وأبعدهم من ذلك :

[ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ] .

فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق ، أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعياً فى إيصال الضرر إليهم .

وذلك ، لشدة بغضهم لهم ، بغياً ، وحسداً ، وعناداً ، وكفراً .

[ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ] .

وذكر تعالى لذلك عدة أسباب .

منها : أن [ منهم قسيسين ورهبانا ] أى : علماء متزهدين ، وعبادا في الصوامع متعبدين .

والعلم مع الزهد ، وكذلك العبادة — مما يلطف القلب ويرقه ، ويزيل عنه ما فيه ، من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدة المشركين .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

---

ومنها : [ أنهم لا يستكبرون ] أى : ليس فيهم تكبر ولا عتو ، عن الانقياد للحق .

وذلك موجب لقربهم من المسلمين ، ومن محبتهم .

فإن المتواضع ، أقرب إلى الخير ، من المستكبر .

ومنها : أنهم [إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول] محمد صلى الله عليه وسلم ، أثر ذلك فى قلوبهم وخشعوا له ، وفاضت أعينهم ، بحسب ما سمعوا من الحق الذى تيقنوه ، فلذلك آمنوا ، وأقروا به فقالوا :

[ ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ] وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يشهدون لله بالتوحيد ، ولرسله بالرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، ويشهدون على الأمم السابقة ، بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى [ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ] .

فكأنهم ليموا على إيمانهم ، ومسارعتهم فيه ، فقالوا :

[ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ] .

أى : وما الذى يمنعنا ، من الإيمان بالله ، والحال ، أنه قد جاءنا الحق من ربنا ، الذى لا يقبل الشك والريب .

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق ، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة ، مع القوم الصالحين .

فأى مانع يمنعنا ؟ أليس ذلك موجبا للمسارعة والانقياد للإيمان ، وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى: [ فأثابهم بما قالوا ] أى : بما تفوهوا به من الإيمان ، ونطقوا به من التصديق بالحق .

[ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين ]

وهذه الآيات ، نزلت فى النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كالنجاشى وغيره ، ممن آمن منهم .

وكذلك لايزال يوجد فيهم ، من يختار دين الإسلام ، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركين ، إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين ، ذكر عقاب المسيئين فقال :

[ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ] لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

---

يقول تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم] من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه، إذ أحلها لكم، واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها.

فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على الله، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب، حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: [ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين] بل يبغضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك.

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون، ما أحل الله فقال:

[وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا] أى كلوا من رزقه الذى ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالا، لا سرقة، ولا غصبا، ولا غير ذلك، من أنواع الأموال، التى تؤخذ بغير حق.

وكان أيضا طيباً، وهو: الذى لا خبث فيه. نخرج بذلك، الخبيث من السباع والخبائث.

[واتقوا الله] فى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

[الذى أنتم به مؤمنون] فإن إيمانكم بالله، يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه. فإنه لا يتم إلا بذلك.

۞ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

ودلت الآية الكريمة ، على أنه إذا حرم حلالا عليه ، من طعام ، وشراب ، وسرية ، وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراما بتحريمه .

لكن لو فعله ، فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى [ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ] الآية .

إلا أن تحريم الزوجة ، فيه كفارة ظهار .

ويدخل فى هذه الآية ، أنه لاينبغى للإنسان ، أن يتجنب الطيبات ، ويحرمها على نفسه ، بل يتناولها ، مستعينا بها ، على طاعة ربه .

۞ أى : فى أيمانكم ، التى صدرت على وجه اللغو ، وهى الأيمان ، التى حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك .

[ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان] أى : بما عزمتم عليه ، وعقدت عليه قلوبكم .

كما قال فى الآية الأخري [ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ] .

[ فكفارته ] أى : كفارة الأيمان ، التى عقدتموها بقصدكم [ إطعام عشرة مساكين ] .

وذلك الإطعام [ من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ] أى : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة ، هى التى تجزى فى الصلاة .

[ أو تحرير رقبة مؤمنة ] كما قيدت فى غير هذا الموضع .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

---

فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة ، فقد انحلت يمينه .

[فمن لم يجد] واحداً من هذه الثلاثة [فصيام ثلاثة أيام ، ذلك] المذكور [كفارة أيمانكم إذا حلفتم] تكفرها ، وتمحوها ، وتمنع من الإثم .

[واحفظوا أيمانكم] عن الحلف بالله كاذباً ، وعن كثرة الأيمان ، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً ، فتمام الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير .

[كذلك يبين الله لكم آياته] المبينة للحلال من الحرام ، الموضحة للأحكام .

[لعلكم تشكرون] الله ، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

فعلى العبد ، شكر الله تعالى ، على ما من به عليه ، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

* يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة ، ويخبر أنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس .

[ فاجتنبوه ] أى : اتركوه [ لعلكم تفلحون ] فإن الفلاح ، لا يتم إلا بترك ما حرم الله ، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة .

وهى الخمر وهى : كل ما خامر العقل أى : غطاه بسكره .

والميسر ، وهو : جميع المغالبات ، التى فيها عوض من الجانبين ، كالمراهنة ونحوها .

والأنصاب ، وهى : الأصنام والأنداد ونحوها ، مما ينصب ويعبد من دون الله .

والأزلام ، التى يقتسمون بها .

فهذه الأربعة ، نهى الله عنها ، وزجر ، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها ، واجتنابها .

فمنها : أنها رجس ، أى : نجس ، خبث معنى ، وإن لم تكن نجسة حساً .

والأمور الخبيثة ، مما ينبغى اجتنابها ، وعدم التدنس بأوضارها .

ومنها : أنها من عمل الشيطان ، الذى هو أعدى الأعداء للإنسان .

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه ، وتحذر مصايده وأعماله ، خصوصاً ، الأعمال التى يعملها ، ليوقع فيها عدوه ، فإنها فيها هلاكه .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ

---

فالحزم كل الحزم ، البعد عن عمل العدو المبين ، والحذر منها ، والخوف من الوقوع فيها .

ومنها : أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها .

فإن الفلاح هو : الفوز بالمطلوب المحبوب ، والنجاة من المرهوب .

وهذه الأمور مانعة من الفلاح ، ومعوقة له .

ومنها : أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس ، والشيطان حريص على بثها ، خصوصاً : الخمر والميسر ، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء .

فإن فى الخمر ، من انقلاب العقل ، وذهاب حجاه ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه ، من المؤمنين .

خصوصاً ، إذا اقترن بذلك من الأسباب ، ما هو من لوازم شارب الخمر ، فإنه ربما أوصل إلى القتل .

وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير فى غير مقابلة ، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء .

ومنها : أن هذه الأشياء تصد القلب ، وتبعد البدن عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، اللذين خلق لهما العبد ، وبهما سعادته .

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

فالخمر والميسر ، يصدانه عن ذلك أعظم صد ، ويشتغل قلبه ، ويذهل لبه في الاشتغال بهما ، حتى يمضى عليه مدة طويلة ، وهو لا يدرى أين هو .

فأى معصية أعظم وأقبح ، من معصية تدنس صاحبها ، وتجعله من أهل الخبث ، وتوقعه فى أعمال الشيطان وشباكه ، فينقاد له ، كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها ، وتحول بين العبد ، وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ؟ ! !

فهل فوق هذه المفاسد شىء أكبر منها ؟ !!

ولهذا عرض تعالى ، على العقول السليمة ، النهى عنها ، عرضاً بقوله [ فهل أنتم منتهون ] .

لأن العاقل ـ إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد ـ انزجر عنها ، وكفت نفسه ، ولم يحتج إلى وعظ كثير ، ولا زجر بليغ .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

* طاعة الله وطاعة رسوله ، واحدة ، فمن أطاع الله ، فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول ، فقد أطاع الله .

وذلك شامل للقيام ، بما أمر الله به ورسوله ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة ، والباطنة ، الواجبة والمستحبة ، المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق خلقه ، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه ، كذلك .

وهذا الأمر أعم الأوامر ، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ، ظاهر ، وباطن .

وقوله : [ واحذروا ] أي : من معصية الله ، ومعصية رسوله ، فإن في ذلك ، الشر والخسران المبين .

[ فإن توليتم ] عما أمرتم به ، ونهيتم عنه .

[ فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ] وقد أدى ذلك .

فإن اهتديتم فلأنفسكم ، وإن أسأتم فعليها ، والله ، هو الذي يحاسبكم . والرسول قد أدى ما عليه ، وما حمل به .

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

---

* لما نزل تحريم الخمر ، والنهى الأكيد والتشديد فيه ، تمنى أناس من المؤمنين ، أن يعلموا حال إخوانهم ، الذين ماتوا على الإسلام ، قبل تحريم الخمر ، وهم يشربونها .

فأنزل الله هذه الآية ، وأخبر تعالى أنه [ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ] أى : حرج وإثم [ فيما طعموا ] من الخمر والميسر قبل تحريمها .

ولما كان نفى الجناح ، يشمل المذكورات وغيرها ، قيد ذلك بقوله :

[ إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ] أى بشرط أنهم تاركون للمعاصى ، مؤمنون بالله إيمانا صحيحاً ، موجباً لهم عمل الصالحات ، ثم استمروا على ذلك .

وإلا ، فقد يتصف العبد بذلك ، فى وقت دون آخر .

فلا يكفى ، حتى يكون كذلك ، حتى يأتيه أجله ، ويدوم على إحسانه ، فإن الله يحب المحسنين فى عبادة الخالق المحسنين ، في نفع العبيد .

ويدخل فى هذه الآية الكريمة ، من طعم المحرم ، أو فعل غيره بعد التحريم ، ثم اعترف بذنبه ، وتاب إلى الله ، واتقى وعمل صالحا ، فإن الله يغفر له ، ويرتفع عنه الإثم في ذلك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

---

* هذا من منن الله على عباده ، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدراً ، ليطيعوه ، ويقدموا على بصيرة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

فقال تعالى [ يا أيها الذين آمنوا ] لابد أن يختبر الله إيمانكم .

[ ليبلونكم الله بشىء من الصيد ] أى : بشىء غير كثير ، فتكون محنة يسيرة ، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً .

وذلك الصيد الذى يبتليكم الله به [ تناله أيديكم ورماحكم ] أى : تتمكنون من صيده ، ليتم بذلك الابتلاء ، لا غير مقدور عليه بيد ، ولارمح فلا يبقى للابتلاء فائدة .

ثم ذكر الحكمة فى ذلك الابتلاء فقال : [ ليعلم الله ] علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب [ من يخافه بالغيب ] .

فيكف عما نهى الله عنه ، مع قدرته عليه ، وتمكنه ، فيثيبه الثواب الجزيل ، ممن لا يخافه بالغيب ، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه .

[ فمن اعتدى ] منكم [ بعد ذلك ] البيان ، الذى قطع الحجج ، وأوضح السبيل .

[ فله عذاب أليم ] أى : مؤلم موجع ، لايقدر على وصفه إلا الله ، لأنه لا عذر لذلك المعتدى ، والاعتبار بمن يخافه بالغيب ، وعدم حضور الناس عنده .

بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

---

وأما إظهار مخافة الله عند الناس ، فقد يكون ذلك ، لأجل مخافة الناس ، فلا يثاب على ذلك .

ثم خرج بالنهى ، عن قتل الصيد ، فى حال الإحرام فقال :

[ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ] أى : محرمون فى الحج والعمرة .

والنهى عن قتله ، يشمل النهى عن مقدمات القتل ، وعن المشاركة فى القتل ، والدلالة عليه ، والإعانة على قتله ، حتى إن من تمام ذلك ، أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل ، أو صيد لأجله .

وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم ، أنه يحرم على المحرم ، قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام .

وقوله : [ ومن قتله منكم متعمداً ] قتل صيداً عمداً [ ف ] عليه [ جزاء مثل ما قتل من النعم ] أى الإبل ، أو البقر ، أو الغنم .

فينظر ما يشبهه من ذلك ، فيجب عليه مثله ، يذبحه ويتصدق به .

والاعتبار بالمماثلة [ يحكم به ذوا عدل منكم ] أى : عدلان يعرفان الحكم ، ووجه الشبه ، كما فعل الصحابة رضى الله عنهم ، حيث قضوا بالحمامة شاة ، وفى النعامة بدنة ، وفي بقر الوحش — على اختلاف أنواعه — بقرة ؛ هكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ، ففيه مثله .

ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ

فإن لم يشبه شيئاً ، ففية قيمته ، كما هو القاعدة فى المتلفات .

وذلك الهـدي لابد أن يكون [ هدياً بالغ الـكعبة ] أى : يذبح فى الحرم .

[ أو كفارة طعام مساكين ] أى : كفارة ذلك الجزاء ، طعام مساكين ، أى : يجعل مقابل المثل من النعم ، طعام يطعم المساكين .

قال كثير من العلماء : يقوم الجزاء ، فيشترى بقيمته طعام ، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره .

[ أو عدل ذلك ] الطعام [ صياماً ] أى : يصوم عن إطعام كل مسكين يوما .

[ ليذوق ] بإيجاب الجزاء المذكور عليه [وبال أمره ، عفا الله عما سلف [ ومن عاد ] بعد ذلك [ فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ] .

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد ، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطىء ، كما هو القاعدة الشرعية ــ أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة ، فإنه يضمنها على أى حال كان ، إذا كان إتلافه بغير حق .

لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام ، وهذا للمتعمد .

وأما المخطىء ، فليس عليه عقوبة ، إنما عليه الجزاء . هذا قول جمهور العلماء .

عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

---

والصحيح ، ما صرحت به الآية ، أنه لا جزاء على غير المتعمد ، كما لا إثم عليه .

ولما كان الصيد يشمل الصيد البرى والبحرى ، استثنى تعالى ، الصيد البحرى فقال :

[ أحل لكم صيد البحر وطعامه ] أى أحل لكم ـ فى حال إحرامكم ـ صيد البحر وهو : الحى من حيواناته ، وطعامه ، وهو : الميت منها ، فدل ذلك على حل ميتة البحر .

[متاعا لكم وللسيارة ] أى : الفائدة فى إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم ، وانتفاع رفقتكم ، الذين يسيرون معكم .

[ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ] .

ويؤخذ من لفظ « الصيد » أنه لا بد أن يكون وحشياً لأن الإنسى ليس بصيد .

ومأكولا ، فإن غير المأكول ، لا يصاد ، ولا يطلق عليه اسم الصيد .

[ واتقوا الله الذى إليه تحشرون ] أى : اتقوه بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون .

فيجازيكم ، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل ، أم لم تقوموا ، فيعاقبكم ؟

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

✡ يخبر تعالى ، أنه جعل [ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ] .

يقوم ، بالقيام بتعظيمه ، دينهم ودنياهم ، فبذلك يتم إسلامهم ، وبه تحط أوزارهم ، وتحصل لهم ـ بقصده ـ العطايا الجزيلة ، والإحسان الكثير.

وبسببه تنفق الأموال ، وتقتحم — من أجله — الأهوال .

ويجتمع فيه ، من كل فج عميق ، جميع أجناس المسلمين ، فيتعارفون ، ويستعين بعضهم ببعض ، ويتشاورون على المصالح العامة ، وتنعقد بينهم الروابط ، فى مصالحم الدينية والدنيوية .

قال تعالى : [ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ] .

ومن أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العلماء : إن حج بيت الله ، فرض كفاية فى كل سنة .

فلو ترك الناس حجه ، لأثم كل قادر ، بل لو ترك الناس حجه ، لزال ما به قوامهم ، وقامت القيامة .

وقوله [ والهدي والقلائد ] أى : وكذلك جعل الهدى والقلائد ـ التى هى أشرف أنواع الهدى ـ قياما للناس ، ينتفعون بهما ، ويثابون عليهما .

[ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات ومافى الأرض، وأن الله بكل شىء عليم ] .

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

---

فمن علمه ، أن جعل لكم هذا البيت الحرام ، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية .

[ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ] أى : ليكن هذان العلمان ، موجودين فى قلوبكم ، على وجه الجزم واليقين ، تعلمون أن الله شديد العقاب — العاجل والآجل — على من عصاه ، وأنه غفور رحيم ، لمن تاب إليه وأطاعه .

فيثمر لكم هذا العلم ، الخوف من عقابه ، والرجاء لمغفرته وثوابه . وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء .

ثم قال تعالى : [ ما على الرسول إلا البلاغ ] وقد بلغ كما أمر ، وقام بوظيفته ، وما سوى ذلك ، فليس له من الأمر شىء .

[والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] فيجازيكم بما يعلمه ـ تعالى ـ منكم.

﴿ قُلْ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

---

* أى [ قل ] للناس — محذراً عن الشر ومرغباً فى الخير — :

[ لا يستوى الخبيث والطيب ] من كل شىء .

فلا يستوى الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، ولا أهل الجنة وأهل النار ، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة ، ولا يستوي المال الحرام ، بالمال الحلال .

[ ولو أعجبك كثرة الخبيث ] فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً ، بل يضره فى دينه ودنياه .

[ فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ] .

فأمر أولى الألباب ، أى : أهل العقول الوافية ، والآراء الكاملة ، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب .

وهم : الذين يؤبه لهم ، ويرجى أن يكون فيهم خير .

ثم أخبر أن الفلاح ، متوقف على التقوى ، التى هى موافقة الله ، فى أمره ونهيه .

فمن اتقاه ، أفلح كل الفلاح .

ومن ترك تقواه ، حصل له الخسران ، وفاتته الأرباح .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ

---

* ينهى عباده المؤمنين، عن سؤال الأشياء، التى إذا بينت لهم، ساءتهم وأحزنتهم .

وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عن آبائهم، وعن حالهم فى الجنة أو النار .

فهذا ربما أنه، لو بين للسائل، لم يكن له فيه خير، كسؤالهم للأمور غير الواقعة .

وكالسؤال، الذى يترتب عليه، تشديدات فى الشرع، ربما أحرجت الأمة .

وكالسؤال عما لا يعنى .

فهذه الأسئلة، وما أشبهها، هى المنهى عنها .

وأما السؤال الذى لا يترتب عليه شىء من ذلك، فهو مأمور به، كما قال تعالى :

[ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ] .

[ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، تبد لكم ] أى : وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها، حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفى وجهه عليكم، فى وقت يمكن فيه نزول الوحى من السماء، تبد لكم، أى : تبين لكم وتظهر، وإلا، فاسكتوا عما سكت الله عنه .

عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

---

[ عفا الله عنها ] أى : سكت معافياً لعباده منها .

فكل ما سكت الله عنه ، فهو مما أباحه ، وعفا عنه .

[ والله غفور رحيم ] أى : لم يزل بالمغفرة موصوفاً ، وبالحلم والإحسان معروفاً .

فتعرضوا لمغفرته وإحسانه ، واطلبوه ، من رحمته ورضوانه .

وهذه المسائل التى نهيتم عنها [ قد سألها قوم من قبلكم ] أى : جنسها وشبهها ، سؤال تعنت لا استرشاد .

فلما بينت لهم وجاءتهم [ أصبحوا بها كافرين ] كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :

« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به ، فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك من كان قبلكم ، كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ

---

* هذا ذم للمشركين ، الذين شرعوا فى الدين ، مالم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله .

فجعلوا بآرائهم الفاسدة ، شيئاً من مواشيهم محرماً ، على حسب اصطلاحاتهم ، التى عارضت ما أنزل الله ، فقال :

[ ما جعل الله من بحيرة ] وهى : ناقة ، يشقون أذنها ، ثم يحرمون ركوبها ، ويرونها محترمة .

[ ولا سائبة ] وهى : ناقة ، أو بقرة ، أو شاة ، إذا بلغت سناً اصطلحوا عليه ، سيبوها ، فلا تركب ، ولا يحمل عليها ، ولا تؤكل ، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله ، يجعله سائبة .

[ ولا حام ] أى : جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل ، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم .

فكل هذه ، مما جعلها المشركون محرمة ، بغير دليل ولا برهان .

وإنما ذلك ، افتراء على الله ، وصادرة من جهلهم ، وعدم عقلهم ، ولهذا قال :

[ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ] .

فلا نقل فيها ولا عقل ، ومع هذا ، فقد أعجبوا بآرائهم ، التى بنيت على الجهالة والظلم .

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

---

فإذا دعوا [ إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ] أعرضوا ، فلم يقبلوا ، و [ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا ] من الدين ، ولو كان غير سديد ، ولا دينا ينجى من عذاب الله .

ولو كان فى آبائهم كفاية ومعرفة ودراية ، لهان الأمر .

ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً ، أى ، ليس عندهم من المعقول شيء ، ولا من العلم والهدى ، شيء .

فتباً لمن قلد من لا علم عنده صحيح ، ولا عقل رجيح ، وترك اتباع ما أنزل الله ، واتباع رسله ، الذى يملأ القلوب ، علما ، وإيمانا ، وهدى ، وإيقانا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ] أى : اجتهدوا فى إصلاحها ، وكما لها ، وإلزامها سلوك الصراط المستقيم .

فإنكم ـ إذا صلحتم ـ لايضركم من ضل عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد إلى الدين القويم ، وإنما يضر نفسه .

ولا يدل هذا ، أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لايضر العبد تركهما وإهمالهما .

فإنه لايتم هداه ، إلا بالإتيان بما يجب عليه ، من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

نعم ، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر ، بيده ، ولسانه ، وأنكره بقلبه ، فإنه لايضره ضلال غيره .

وقوله [ إلى الله مرجعكم جميعاً ] أى : مآلكم يوم القيامة ، واجتماعكم بين يدى الله تعالى .

[ فينبئكم بما كنتم تعملون ] من خير وشر .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا

---

* يخبر تعالى خبراً متضمنا للأمر ، بإشهاد اثنين على الوصية ، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه .

فينبغى له ، أن يكتب وصيته ، ويشهد عليها اثنين ، ذوى عدل ، ممن يعتبر شهادتهما .

[ أو آخران من غيركم ] أى : من غير أهل دينكم ، من اليهود ، أو النصارى ، أو غيرهم ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين .

[ إن أنتم ضربتم فى الأرض ] أى : سافرتم فيها .

[ فأصابتكم مصيبة الموت ] أى : فأشهدوهما .

ولم يأمر بإشهادهما ، إلا لأن قولهما فى تلك الحال مقبول ، ويؤكد عليهما ، أن يحبسا [ من بعد الصلاة ] التى يعظمونها .

[ فيقسمان بالله ] أنهما صدقا ، وما غيرا ، ولا بدلا . هذا [ إن ارتبتم ] فى شهادتهما ، فإن صدقتموها ، فلا حاجة إلى القسم بذلك .

ويقولان : [ لا نشترى به ] أى : بأيماننا [ ثمنا ] بأن نكذب فيها ، لأجل عرض من الدنيا .

[ ولو كان ذا قربى ] فلا نراعيه لأجل قربة منا [ ولا نكتم شهادة الله ]

مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾
فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن
شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ

---

بل نؤديها على ما سمعناها [ إنا إذا ] أى : إن كتمناها [ لمن الآثمين ] .

[ فإن عثر على أنهما ] أى : الشاهدين [ استحقا إثما ] بأن وجد من القرآن ، ما يدل على كذبهما ، ، وأنهما خانا ، فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأوليان .

أى : فليقم رجلان من أولياء الميت ، وليكونا من أقرب الأولياء إليه .

[ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ] أى : أنهما كذبا ، وغيرا ، وخانا .

[ وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين ] أى : إن ظلمنا واعتدينا ، وشهدنا بغير الحق .

قال الله تعالى فى بيان حكمة تلك الشهادة ، وتأكيدها ، وردها على أولياء الميت ، حين تظهر من الشاهدين الخيانة .

[ ذلك أدنى ] أى : أقرب [ أن يأتوا بالشهادة على وجهها ] حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات .

أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ
بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

---

[ أو يخافوا أن ترد أيمانهم ] أى : أن لا تقبل أيمانهم ، ثم ترد على أولياء الميت .

[ والله لا يهدى القوم الفاسقين ] أى : الذين وصفهم الفسق ، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم .

وحاصل هذا ، أن الميت — إذا حضره الموت فى سفر ونحوه ، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين — أنه ينبغى أن يوصى شاهدين مسلمين عدلين .

فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين ، جاز أن يوصى إليهما .

ولكن لأجل كفرهما ، فإن الأولياء ، إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة ، أنهما ما خانا ، ولا كذبا ، ولا غيرا ، ولا بدلا ، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما .

فإن لم يصدقوهما ، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت ، فليقم منهم اثنان ، فيقسمان بالله : لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين ، الأولين ، وأنهما خانا وكذبا ، فيستحقون منهما مايدعون .

وهذه الآيات الكريمة ، نزلت فى قصة « تميم الدارى » و « عدى بن بداء » المشهورة حين أوصى لهما العدوى ، والله أعلم .

. . . . . . . . . . .

---

ويستدل بالآيات الكريمات ، على عدة أحكام .

منها : أن الوصية مشروعة ، وأنه ينبغى لمن حضره الموت ، أن يوصى .

ومنها : أنها معتبرة ، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلامته ، مادام عقله ثابتاً .

ومنها : أن شهادة الوصية ، لابد فيها من اثنين عدلين .

ومنها : أن شهادة الكافرين فى هذه الوصية ونحوها ، مقبولة لوجود الضرورة .

وهذا مذهب الإمام أحمد .

وزعم كثير من أهل العلم : أن هذا الحكم منسوخ .

وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه ، أن شهادة الكفار — عند عدم غيرهم ، حتى فى غير هذه المسألة — مقبولة، كما ذهب إلى ذلك ، شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر ، إذا لم يكن محذور .

ومنها : جواز السفر للتجارة .

ومنها : أن الشاهدين — إذا ارتيب منهما ، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما ، وأراد الأولياء — أن يؤكدوا عليهما اليمين ، يحبسونهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

. . . . . . . . . . .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولاريب لم يكن حاجة إلى حبسهما ، وتأكيد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة ، حيث أضافها تعالى ، إلى نفسه ، وأنه يجب الاعتناء بها ، والقيام بها ، بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين ، عند الريبة منهما، وتفريقهما ، لينظر فى قيمة شهادتهما صدقا أو كذبا[1].

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين فى هذه المسألة — قام اثنان من أولياء الميت ، فأقسما بالله . أن أيماننا أصدق من أيمانهما ، ولقد خانا وكذبا .

ثم يدفع إليهما ما ادعياه ، وتكون القرينة — مع أيمانهما — قائمة مقام البينة .

(١) فى الأصل المطبوع ( لينظر عن شهادتهما ) والعبارة ـ كما ترى ـ لا تؤدى المعنى المراد ، ولذلك أصلحناها حسبما يقتضى المقام والسياق .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

---

* يخبر تعالى، عن يوم القيامة، وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم.

[ ماذا أجبتم ] أى : ماذا أجابتكم به أممكم ؟

[ قالوا لا علم لنا ] وإنما العلم لك — ياربنا، فأنت أعلم منا.

[ إنك أنت علام الغيوب ] أى : تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

[ إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ] أى : اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعما، ما أنعم بها على غيرك.

[ إذ أيدتك بروح القدس ] أى : إذ قويتك بالروح والوحى، الذى طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله.

وقيل : إن المراد « بروح القدس » جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به، وبملازمته له، وتثبيته، فى المواطن المشقة.

[ تكلم الناس في المهد وكهلا ] المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذى هو مجرد الكلام.

وإنما المراد بذلك التكليم الذى ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله.

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ

---

ولعيسى عليه السلام من ذلك ، ما لإخوانه ، من أولى العزم ، من المرسلين ، من التكليم في حال الكهولة ، بالرسالة والدعوة إلى الخير ، والنهى عن الشر .

وامتاز عنهم ، بأنه كلم الناس فى المهد فقال :

[ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ] الآية .

[ واذ علمتك الكتاب والحكمة ] فالكتاب ، يشمل الكتب السابقة ، وخصوصاً التوراة ، فإنه من أعلم أنبياء بنى إسرائيل — بعد موسى - بها .

ويشمل الإنجيل الذى أنزله الله عليه .

والحكمة هى : معرفة أسرار الشرع ، وفوائده ، وحكمه ، وحسن الدعوة والتعليم ، ومراعاة ما ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى .

[ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ] أى : طيراً مصوراً ، لاروح فيه . فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه ] الذى : لابصر له ولاعين .

[ والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ] .

فهذه آيات بينات ، ومعجزات باهرات ، يعجز عنها الأطباء وغيرهم ، أيد الله بها عيسى ، وقوى بها دعوته .

إِسْرَآءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

[ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ] لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به .

[ إن هذا إلا سحر مبين ] .

وهموا بعيسى أن يقتلوه ، وسعوا فى ذلك .

فكف الله أيديهم عنه ، وحفظه منهم ، وعصمه .

فهذه منن ، امتن الله بها على عبده ورسوله ، عيسى بن مريم ، ودعاه إلى شكرها ، والقيام بها .

فقام بها عليه السلام ، أتم القيام ، وصبر كما صبر إخوانه ، من أولى العزم .

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

* أى : واذكر نعمتى عليك ، إذ يسرت لك أتباعا وأعوانا .

فأوحيت إلى الحواريين أى : ألهمتهم ، وأوزعت قلوبهم الإيمان بى وبرسولى ، وأوحيت إليهم على لسانك ، أى : أمرتهم بالوحى الذى جاءك من عند الله .

فأجابوا لذلك وانقادوا ، وقالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون .

فجمعوا بين الإسلام الظاهر ، والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن ، المخرج لصاحبه من النفاق ، ومن ضعف الإيمان .

والحواريون هم : الأنصار ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين :

[ من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون . نحن أنصار الله ] .

[ إذ قال الحواريون . ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ] أى : مائدة فيها طعام .

وهذا ليس منهم عن شك فى قدرة الله ، واستطاعته على ذلك .

وإنما ذلك ، من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح ، منافياً للانقياد للحق ، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ، ربما أوهم ذلك ، وعظهم عيسى عليه السلام فقال :

قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ
مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا

---

[ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ] فإن المؤمن ، يحمله مامعه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لايدرى ما يكون بعدها .

فأخبر الحواريون ، أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة .

لأجل الحاجة إلى ذلك [ قالوا نريد أن نأكل منها ] وهذا دليل على أنهم محتاجون لها .

( وتطمئن قلوبنا ) بالإيمان ، حين نرى الآيات العيانية ، حتى يكون الإيمان عين اليقين .

كما سأل الخليل ، عليه الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيي الموتى ( قال أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ) .

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم ، واليقين ، والإيمان كل وقت ، ولهذا قال:

[ ونعلم أن قد صدقتنا ] أى : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق .

[ ونكون عليها من الشاهدين ] فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

---

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم فى ذلك .

فقال : [ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ] أى : يكون وقت نزولها ، عيداً وموسماً ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات ، وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم ، مذكرة لآياته ، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ، وفضله وإحسانه عليهم .

[ وارزقنا وأنت خير الرازقين ] أى : اجعلها لنا رزقا .

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين ، مصلحة الدين ، بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهى : أن تكون رزقاً .

[ قال الله : إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ] لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر ، عنادا وظلما ، فاستحق العذاب الأليم ، والعقاب الشديد .

واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم — إن كفروا — بهذا الوعيد . ولم يذكر أنه أنزلها .

فيحتمل أنه لم ينزلها ، بسبب أنهم لم يختاروا ذلك .

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى

---

ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى ، ولا له وجود .

ويحتمل أنها نزلت ، كما وعد الله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

ويكون عدم ذكرها فى الأناجيل التى بأيديهم ، من الحظ الذى ذكروا به فنسوه .

أو أنه لم يذكر فى الإنجيل أصلا ، وإنما ذلك كان متواترا بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكتفى الله بذلك ، عن ذكره فى الإنجيل .

ويدل على هذا المعنى قوله [ ونكون عليها من الشاهدين ] والله أعلم بحقيقة الحال .

[ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ] .

وهذا توبيخ للنصارى ، الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة فيقول الله هذا الكلام لعيسى .

فيتبرأ منه عيسى ويقول [ سبحانك ] عن هذا الكلام القبيح ، وعما لا يليق بك .

[ ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ] أى : ما ينبغى لى ، ولا يليق أن أقول شيئاً ، ليس من أوصافى ، ولا من حقوقى .

وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ

---

فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم ، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية .

وإنما الجميع عباد ، مدبرون ، وخلق مسخرون ، وفقراء عاجزون .

[ إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ] فأنت أعلم بما صدر منى .

[ إنك أنت علام الغيوب ] وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام ، فى خطابه لربه .

فلم يقل عليه السلام « لم أقل شيئاً من ذلك » .

وإنما أخبر بكلام ينفى عن نفسه ، أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف ، وأن هذا من الأمور المحالة .

ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

ثم صرح بذكر ما أمر به بنى إسرائيل فقال : [ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ] فأنا عبد متبع لأمرك ، لا متجرىء على عظمتك .

[ أن اعبدوا الله ربى وربكم ] أى : ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهى ، عن اتخاذى وأمى إلهين من دون الله ، وبيان أنى عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربى .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

[ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ] أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به .

[ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ] أي : المطلع على سرائرهم وضمائرهم .

[ وأنت على كل شىء شهيد ] علما وسمعاً وبصراً .

فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالمسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذى تجازى عبادك ، بما تعلمه فيهم من خير وشر .

[ إن تعذبهم فإنهم عبادك ] وأنت أرحم بهم من أنفسهم ، وأعلم بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون ، لم تعذبهم .

[ وإن تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم ] أى : فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو ، عن عجز وعدم قدرة .

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك ، أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة .

[ قال الله ] مبيناً لحال عباده يوم القيامة ، ومن الفائز منهم ، ومن الهالك ، من الشقى ، ومن السعيد .

[ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ] والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ، ونياتهم ، على الصراط المستقيم ، والهدى القويم .

أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

---

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق ، إذا أحلهم الله فى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر .

ولهذا قال : [ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ] .

والكاذبون بضدهم ، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم ، وثمرة أعمالهم الفاسدة .

[ لله ملك السموات والأرض وما فيهن ] لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدرى ، وحكمه الشرعى ، وحكمه الجزائى ، ولهذا قال :

[ وهو على كل شىء قدير ] فلا يعجزه شىء ، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ، ومسخرة بأمره .

تم تفسير سورة المائدة ، بفضل من الله وإحسان

والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى

---

هذا إخبار عن حمده والثناء عليه ، بصفات الكمال ، ونعوت العظمة والجلال عموماً ، وعلى هذه المذكورات خصوصاً .

فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض ، الدالة على كمال قدرته ، وسعة علمه ورحمته ، وعموم حكمته ، وانفراده بالخلق والتدبير ، وعلى جعله الظلمات والنور .

وذلك شامل للحسى من ذلك ، كالليل والنهار ، والشمس والقمر .

والمعنوى ، كظلمات الجهل ، والشك ، والشرك ، والمعصية ، والغفلة ، ونور العلم والإيمان ، واليقين ، والطاعة .

وهذا كله ، يدل دلالة قاطعة أنه تعالى ، هو المستحق للعبادة ، وإخلاص الدين له .

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان [ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ] به سواه .

خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

يسوونهم به فى العبادة والتعظيم ، مع أنهم لم يساووا الله فى شىء من الكمال ، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه .

[ هو الذى خلقكم من طين ] وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام .

[ثم قضى أجلا] أى : ضرب لمدة إقامتكم فى هذه الدار ، أجلا فتتمتعون به وتمتحنون ، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله .

[ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ] ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر .

[ وأجل مسمى عنده ] وهى : الدار الآخرة ، التى ينتقل العباد إليها من هذه الدار ، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر .

[ ثم ] مع هذا البيان التام وقطع الحجة [ أنتم تمترون ] أى : تشكون فى وعد الله ووعيده ، ووقوع الجزاء يوم القيامة .

وذكر الله الظلمات بالجمع ، لكثرة موادها ، وتنوع طرقها .

ووحد النور ، لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة ، لا تعدد فيها ، وهى : الصراط المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به كما قال تعالى [ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ] .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : وهو المألوه المعبود ، فى السموات وفى الأرض ، فأهل السماء والأرض ، متعبدون لربهم ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزه وجلاله ، الملائكة المقربون ، والأنبياء والمرسلون ، والصديقون ، والشهداء والصالحون .

وهو تعالى ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، فاحذروا معاصيه وارغبوا فى الأعمال ، التى تقربكم منه ، وتدنيكم من رحمته ، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ، ومن رحمته .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن

---

* هذا إخبار منه تعالى ، عن إعراض المشركين ، وشدة تكذيبهم وعداوتهم ، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات ، حتى تحل بهم المثلات فقال :

[ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ] الدالة على الحق دلالة قاطعة ، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله .

[ إلا كانوا عنها معرضين ] لا يلقون لها بالا ، ولا يصغون لها سمعاً ، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها ، وولوها أدبارهم .

[ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ] والحق حقه ، أن يتبع ، ويشكر الله على تيسيره لهم ، وإتيانهم به .

فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد .

[ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ] أى : فسوف يرون ما استهزأوا به ، أنه الحق والصدق ، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار .

فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين « هذه النار التى كنتم بها تكذبون » .

وقال تعالى : [ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى

قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

---

يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ] ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة فقال :

[ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ] أى : كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين ، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك ، بأن [ مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ] من الأموال والبنين والرفاهية .

[ وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ] تنبت لهم بذلك ما شاء الله ، من زروع وثمار ، يتمتعون بها ، ويتناولون منها ما يشتهون .

فلم يشكروا الله على نعمه ، بل أقبلوا على الشهوات ، وألهتهم اللذات

فجاءتهم رسلهم بالبينات ، فلم يصدقوها ، بل ردوها وكذبوها فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ] أى : فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قرنا آخرين .

فهذه سنة الله ودأبه ، فى الأمم السابقين واللاحقين .

فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ

---

* هذا إخبـار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين ، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ، ولا لجهل منهم بذلك ، وإنما ذلك ظلم وبغى ، لا حيلة لكم فيه .

فقال : [ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ] وتيقنوه [ لقال الذين كفروا ] ظلماً وعدواناً [ إن هذا إلا سحر مبين ] .

فأى بينة أعظم من هذه البينة ، وهذا قولهم الشنيع فيها ، حيث كابروا المحسوس ، الذى لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه ؟ !!

[ وقالوا ] أيضاً — تعنتاً مبنياً على الجهل ، وعدم العلم بالمعقول .

[ لولا أنزل عليه ملك ] أى : هلا أنزل مع محمد ملك ، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر ، وأن رسالة الله ، لا تكون إلا على أيدى الملائكة .

قال الله — فى بيان رحمته ولطفه بعباده ، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به ، عن علم ، وبصيرة ، وغيب .

[ ولو أنزلنا ملكا ] برسالتنا ، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيمانا بالشهادة ، الذى لا ينفع شيئاً وحده .

وهذا إن آمنوا ، ، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة .

فلو لم يؤمنوا [ لقضى الأمر ] بتعجيل الهلاك عليهم ، وعدم إنظارهم ، لأن هذه سنة الله ، فيمن طلب الآيات المقترحة ، فلم يؤمن بها .

أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

---

فإرسال الرسول البشرى إليهم ، بالآيات البينات ، التى يعلم الله أنها أصلح للعباد ، وأرفق بهم ، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين — خير لهم وأنفع .

فطلبهم لإنزال الملك ، شر لهم ، لو كانوا يعلمون .

ومع ذلك ، فالملك لو أنزل عليهم ، وأرسل ، لم يطيقوا التلقى عنه ، ولا احتملوا ذلك ، ولا أطاقته قواهم الفانية .

[ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ] لأن الحكمة لا تقتضى سوى ذلك .

[ وللبسنا عليهم ما يلبسون ] أى : ولكان الأمر ، مختلطا عليهم ، وملبوساً .

وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم ، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التى فيها اللبس ، وعدم بيان الحق .

فلما جاءهم الحق ، بطرقه الصحيحة ، وقواعده التى هى قواعده ، لم يكن ذلك هداية لهم ، إذا اهتدى بذلك غيرهم .

والذنب ذنبهم ، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحو أبواب الضلال .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ـ مسلياً لرسوله ، ومصبراً ومتهدداً أعداءه ، ومتوعدا .

[ ولقد استهزىء برسل من قبلك ] لما جاءوا أممهم بالبينات ، كذبوهم واستهزأوا بهم ، وبما جاءوا به .

فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب ، ووفر لهم من العذاب أكمل نصيب .

[ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ] فاحذروا ـ أيها المكذبون ـ أن تستمروا على تكذيبكم ، فيصيبكم ما أصابهم .

[ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ] أى : فإن شككتم فى ذلك ، أو ارتبتم ، فسيروا فى الأرض ، ثم انظروا ، كيف كان عاقبة المكذبين ، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين ، وأمما فى المثلات تالفين .

قد أوحشت منهم المنازل ، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل .

أبادهم الملك الجبار ، وكان نبأهم عبرة لأولى الأبصار .

وهذا السير المأمور به ، سير القلوب والأبدان ، الذى يتولد منه الاعتبار .

وأما مجرد النظر من غير اعتبار ، فإن ذلك لا يفيد شيئاً .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [ قل ] لهؤلاء المشركين ، مقرراً لهم وملزماً بالتوحيد : [لمن ما فى السموات والأرض] أى : من الخالق لذلك ، المالك له ، المتصرف فيه ؟

[ قل ] لهم : [ لله ] وهم مقرون بذلك لا ينكرونه ، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله ، بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد ؟ ! ! .

وقوله [ كتب على نفسه الرحمة ] أى : العالم العلوى والسفلى ، تحت ملكه وتدبيره ، وهو تعالى ، قد بسط عليهم رحمته وإحسانه ، وتغمدهم برحمته وامتنانه ، وكتب على نفسه كتابا «أن رحمته تغلب غضبه » و « أن العطاء أحب إليه من المنع » و « أن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة ، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم ، ودعاهم إليها ، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم » . وقوله [ ليجمعنكم إلى يوم القيامة . لا ريب فيه ] وهذا قسم منه ، وهو أصدق المخبرين .

وقد أقام على ذلك ، من الحجج والبراهين . ما يجعله حق اليقين .

ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً ، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق ، فأوضعوا[1] فى معاصيه ، وتجرأوا على الكفر به ، فخسروا دنياهم وأخراهم ولهذا قال : [ الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون ] .

---

(١) أوضعوا . أى أسرعوا فى السير إلى المعاصى .

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

إعلم أن هذه السورة الكريمة ، قد اشتملت على تقرير التوحيد ، بكل دليل عقلى ، ونقلى .

بل كادت أن تكون كلها ، فى شأن التوحيد ، ومجادلة المشركين بالله ، المكذبين لرسوله .

فهذه الآيات ، ذكر الله فيها ، ما يتبين به الهدى ، وينقمع به الشرك .

فذكر أن [ له ] تعالى [ ما سكن فى الليل والنهار ] .

وذلك هو المخلوقات كلها ، من آدميها ، وجنها ، وملائكتها ، وحيواناتها وجماداتها .

فالكل خلق مدبرون ، وعبيد مسخرون لربهم العظيم ، القاهر المالك .

فهل يصح فى عقل ونقل ، أن يعبد من هؤلاء المماليك ، الذى لا نفع عنده ولا ضر ؟ ويترك الإخلاص للخالق ، المدبر المالك ، الضار النافع ؟!! .

أم العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، تدعو إلى إخلاص العبادة ، والحب ، والخوف ، والرجاء لله رب العالمين ؟ !! .

[ السميع ] لجميع الأصوات ، على اختلاف اللغات ، بتفنن الحاجات .

[ العليم ] بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن ، لو كان كيف كان يكون ، المطلع على الظواهر والبواطن ؟!! .

[ قل ] لهؤلاء المشركين بالله : [ أغير الله أتخذ وليا ] من هؤلاء المخلوقات العاجزة ، يتولانى ، وينصرنى ؟ !! .

وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

---

فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه ، فاطر السموات والأرض ، أى : خالقهما ومدبرهما .

[ وهو يطعم ولا يطعم ] أى : وهو الرازق لجميع الخلق ، عن غير حاجة منه تعالى إليهم .

فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرازق ، الغنى ، الحميد ؟ !!

[ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ] لله بالتوحيد ، وانقاد له بالطاعة .

لأنى أولى من غيرى ، بامتثال أوامر ربى .

[ ولا تكونن من المشركين ] أى : ونهيت أيضاً ، عن أن أكون من المشركين ، لا فى اعتقادهم ، ولا فى مجالستهم ، ولا فى الاجتماع بهم ، فهذا أفرض الفروض على ، وأوجب الواجبات .

[ قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ] فإن المعصية فى الشرك ، توجب الخلود فى النار ، وسخط الجبار .

وذلك اليوم ، هو اليوم الذى يخاف عذابه ، ويحذر عقابه .

لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ ، فهو المرحوم ، ومن نجا فيه ، فهو الفائز حقاً .

كما أن من لم ينج منه ، فهو الهالك الشقى .

ومن أدلة توحيده ، أنه تعالى ، المنفرد بكشف الضراء ، وجلب الخير والسراء .

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا
هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً

---

ولهذا قال : [ وإن يمسك الله بضر ] من فقر ، أو مرض ، أو عسر ، أو غم ، أو هم أو نحوه .

[ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير ، فهو على كل شيء قدير ] .

فإذا كان وحده النافع الضار ، فهو الذى يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية .

[ وهو القاهر فوق عباده ] فلا يتصرف منهم متصرف ، ولا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بمشيئته .

وليس للملوك وغيرهم ، الخروج عن ملكه وسلطانه ، بل هم مدبرون مقهورون .

فإذا كان هو القاهر ، وغير مقهوراً ، كان هو المستحق للعبادة .

[ وهو الحكيم ] فيما أمر به ونهى ، وأثاب ، وعاقب ، وفيما خلق وقدر .

[ الخبير ] المطلع على السرائر والضمائر ، وخفايا الأمور ، وهذا كله من أدلة التوحيد .

[ قل ] لهم ـ لما بينا لهم الهدى ، وأوضحنا لهم المسالك ـ : [ أى شيء أكبر شهادة ] على هذا الأصل العظيم .

قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ

---

[ قل الله ] أكبر شهادة ، فهو [ شهيد بينى وبينكم ] فلا أعظم منه شهادة ، ولا أكبر ، وهو يشهد لى بإقراره وفعله ، فيقرنى على ماقلت لكم .

كما قال تعالى ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ) .

فالله حكيم قدير ، فلا يليق بحكمته وقدرته ، أن يقر كاذبا عليه ، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله ، وأن الله أمره بدعوة الخلق ، ولم يأمره ، وأن الله أباح له دماء من خالفه ، وأموالهم ونساءهم ، وهو مع ذلك ، يصدقه بإقراره وبفعله ، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة ، وينصره ، ويخذل من خالفه وعاداه ، فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة ؟ ! !

وقوله [ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ] أى وأوحى الله إلى هذا القرآن ، لمنفعتكم ومصلحتكم ، لأنذركم به من العقاب الأليم .

والنذارة ، إنما تكون بذكر ماينذرهم به ، من الترغيب ، والترهيب ، وببيان الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة ، التى من قام بها ، فقد قبل النذارة .

فهذا القرآن ، فيه النذارة لكم ، أيها المخاطبون ، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة ، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية .

لما بين تعالى شهادته ، التى هى أكبر الشهادات على توحيده ، قال :

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله ، والمكذبين لرسله [ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ] .

أى : إن شهدوا ، فلا تشهد معهم .

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ، ورب العالمين ، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ، على توحيد الله، وحده لاشريك له، وشهادة أهل الشرك ، الذين مرجت(١) عقولهم وأديانهم ، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم ، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء .

بل خالفت شهادتهم فطرهم ، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى .

مع أنه لا يقوم على ماخالفوه أدنى شبهة ، فضلا عن الحجج .

واختر لنفسك أى الشهادتين ، إن كنت تعقل .

ونحن نختار لأنفسنا ، ما اختاره الله لنبيه ، الذى أمرنا الله بالاقتداء به فقال :

[ قل إنما هو إله واحد ] أى : منفرد ، لا يستحق العبودية والإلهية سواه ، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير .

[ وإننى برىء مما تشركون ] به ، من الأوثان ، والأنداد ، وكل ما أشرك به مع الله .

---

(١) مرجت أى : أصاب عقولهم اختلاط وامتزجت عقولهم التي أفسدها العناد بأديانهم الباطلة .

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

فهذا حقيقة التوحيد ، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه .

* لما بين شهادته ، وشهادة رسوله على التوحيد ، وشهادة المشركين ، الذين لا علم لديهم على ضده ، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

[ يعرفونه ] أى : يعرفون صحة التوحيد [ كما يعرفون أبناءهم ] .

أى : لا شك عندهم فيه ، بوجه ، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم ، خصوصاً البنين الملازمين فى الغالب لآبائهم .

ويحتمل أن الضمير ، عائد إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ، ولا يمترون بها ، لما عندهم من البشارات به ، ونعوته التي تنطبق عليه ، ولا تصلح لغيره .

والمعنيان متلازمان .

قوله [ الذين خسروا أنفسهم ] أى : فوتوها ما خلقت له ، من الإيمان والتوحيد ، وحرموها الفضل من الملك المجيد [ فهم لا يؤمنون ] .

فإذا لم يوجد الإيمان منهم ، فلا تسأل عن الخسار والشر ، الذى يحصل لهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : لا أعظم ظلماً وعناداً ، ممن كان فيه أحد الوصفين ، فكيف لو اجتمعا ، افتراء الكذب على الله ، أو التكذيب بآياته ، التى جاءت بها المرسلون ، فإن هذا ، أظلم الناس ، والظالم لا يفلح ابداً .

ويدخل فى هذا ، كل من كذب على الله ، بادعاء الشريك له والمعين (١) وزعم أنه ينبغى أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا ، وكل من رد الحق الذى جاءت به الرسل أو من قام مقامهم .

---

(١) قوله « والعوين » هكذا فى الأصل المطبوع وهو تحريف والصواب ( المعين ) ولذلك أصلحناها كما ترى بعد أن بحثنا فى المعاجم فلم نجد ( عوين ) بمعنى ( معين ) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم [ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ] أى إن الله ليس له شريك ، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء [ ثم لم تكن فتنتهم ] أى لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين [ أنظر ] متعجباً منهم ومن أحوالهم .

[ كيف كذبوا على أنفسهم ] أى كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم ـ والله ـ غاية الضرر [ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] من الشركاء الذين زعموهم مع الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* أى : ومن هؤلاء المشركين ، قوم يحملهم بعض الأوقات ، بعض الدواعى إلى الاستماع .

ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه ، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع ، لعدم إرادتهم للخير .

[ وجعلنا على قلوبهم أكنة ] أى : أغطية وأغشية ، لئلا يفقهوا كلام الله ، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء .

[ وفى آذانهم ] جعلنا [ وقراً ] أى : صما ، فلا يستمعون ما ينفعهم .

[ وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها ] ، وهذا غاية الظلم والعناد ، أن الآيات البينات الدالة على الحق ، لا ينقادون لها ، ولا يصدقون بها ، بل يجادلون بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولهذا قال : [ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ] أى : مأخوذ من صحف الأولين المسطورة ، التي ليست عن الله ، ولا عن رسله .

وهذا من كفرهم ، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوى لأنباء السابقين واللاحقين ، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون ، والحق ، والقسط ، والعدل التام ، من كل وجه ، أساطير الأولين .

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ

---

* وهم: أي المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال.

ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه.

ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين، بفعلهم هذا، شيئاً.

[ إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ] بذلك.

* يقول تعالى — مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار.

[ ولو ترى إذ وقفوا على النار ] ليوبخوا ويقرعوا، لرأيت أمراً هائلا، وحالا مفظعة.

ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا.

[ فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ].

وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

---

فإنهم كانوا يخفون فى أنفسهم ، أنهم كانوا كاذبين. ويبدو فى قلوبهم، فى كثير من الأوقات .

ولكن الأغراض الفاسدة ، صدتهم عن ذلك ، وصدفت [1] قلوبهم عن الخير ، وهم كذبة فى هذه الأمنية وإنما قصدهم ، أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب .

[ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ].

[ وقالوا ] منكرين للبعث [ إن هى إلا حياتنا الدنيا ] أى : ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها .

[ وما نحن بمبعوثين ].

---

( ١ ) صدفت : أى : صرفت .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

* أى : [ ولو ترى ] الكافرين [ إذ وقفوا على ربهم ] لرأيت أمراً عظيما ، وهولا جسيما .

[ قال ] لهم موبخاً ومقرعاً [ أليس هذا ] الذى ترون من العذاب [ بالحق ؟ قالوا بلى وربنا ] فأقروا ، واعترفوا ، حيث لا ينفعهم ذلك .

[ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ] .

* أى : قد خاب وخسر ، وحرم الخير كله ، من كذب بلقاء الله ، فأوجب له هذا التكذيب ، الاجتراء على المحرمات ، واقتراف الموبقات .

[ حتى إذا جاءتهم الساعة ] وهم على أقبح حال وأسوأه ، فأظهروا غاية الندم .

[ وقالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ] ولكن هذا تحسر ذهب وقته .

[ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ] .

فإن وزرهم وزر ، يثقلهم ، ولا يقدرون على التخلص منه ، ولهذا خلدوا فى النار ، واستحقوا التأبيد فى غضب الجبار .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* أما حقيقة الدنيا : فإنها لعب ولهو ، لعب فى الأبدان ، ولهو فى القلوب .

فالقلوب لها ، والهة ، والنفوس لها ، عاشقة ، والهموم فيها متعلقة ، والاشتغال بها ، كلعب الصبيان .

وأما الآخرة ، فإنها [ خير للذين يتقون ] فى ذاتها وصفاتها ، وبقائها ودوامها .

وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من نعيم القلوب والأرواح ، وكثرة السرور والأفراح .

ولكنها ليست لكل أحد ، وإنما هى للمتقين ، الذين يفعلون أوامر الله ، ويتركون نواهيه وزواجره .

[ أفلا تعقلون ] أى : أفلا يكون لكم عقول ، بها تدركون ، أى الدارين أحق بالإيثار .

* قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ

---

* أى : قد نعلم أن الذى يقول المكذبون فيك ، يحزنك ويسوءك .

ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر ، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية .

فلا تظن أن قولهم ، صادر عن اشتباه فى أمرك ، وشك فيك .

[ فإنهم لا يكذبونك ] لأنهم يعرفون صدقك ، ومدخلك ومخرجك ، وجميع أحوالك ، حتى إنهم كانوا يسمونه — قبل بعثته — الأمين .

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ] أى : فإن تكذيبهم لآيات الله ، التى جعلها الله على يديك .

[ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ] .

فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

[ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ] ما به يثبت فؤادك ، ويطمئن به قلبك .

ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

---

[ وإن كان كبر عليك إعراضهم ] أى : شق عليك ، من حرصك عليهم ، ومحبتك لإيمانهم ، فابذل وسعك فى ذلك ، فليس فى مقدورك ، أن تهدى من لم يرد الله هدايته .

[ فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ] .

أى : فافعل ذلك ، فإنه لايفيدهم شيئا .

وهذا قطع لطمعه فى هداية أشباه هؤلاء المعاندين .

[ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ] ولكن حكمته تعالى ، اقتضت أنهم يبقون على الضلال .

[ فلا تكونن من الجاهلين ] الذين لايعرفون حقائق الأمور ، ولاينزلونها على منازلها .

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ إنما يستجيب ] لدعوتك ، ويلبي رسالتك ، وينقاد لأمرك ونهيك [ الذى يسمعون ] بقلوبهم، ماينفعهم وهم أولو الألباب والأسماع .

والمراد بالسماع هنا : سماع القلب والاستجابة ، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر .

فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى ، باسماع آياته ، فلم يبق لهم عذر ، فى عدم القبول .

[ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ] يحتمل أن المعنى ، مقابل للمعنى المذكور .

أى : إنما يستجيب لك ، أحياء القلوب وأما أموات القلوب ، الذين لايشعرون بسعادتهم ، ولايحسون بما ينجيهم ، فإنهم لايستجيبون ذلك ، ولا ينقادون ، وموعدهم يوم القيامة ، يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون .

ويحتمل أن المراد بالآية ، على ظاهرها ، وأن الله تعالى يقرر المعاد ، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون .

ويكون هذا ، متضمنا للترغيب فى الاستجابة ، لله ورسوله ، والترهيب من عدم ذلك .

[ وقالوا ] أى : المكذبون بالرسول ، تعنتاً وعناداً : [ لولا نزل عليه آية من ربه .

قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

يعنون بذلك ، آيات الاقتراح ، التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة .

كقولهم [ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ] الآيات .

[ قل ] مجيبا لقولهم : [ إن الله قادر على أن ينزل آية ] فليس فى قدرته قصور عن ذلك .

كيف ، وجميع الأشياء منقادة لعزته ، مذعنة لسلطانه ؟ !

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون ما هو شر لهم من الآيات ، التى لو جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها - لعوجلوا بالعقاب ؛ كما هى سنة الله ، التى لاتبديل لها .

ومع هذا ، فإن كان قصدهم ، الآيات التى تبين لهم الحق ، وتوضح السبيل .

فقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم ، بكل آية قاطعة ، وحجة ساطعة ، دالة على ماجاء به من الحق ، بحيث يتمكن العبد فى كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به ، عدة أدلة عقلية ونقلية ، بحيث لاتبقى فى القلوب ، أدنى شك وارتياب .

فتبارك الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

* أى : جميع الحيوانات ، الأرضية والهوائية ، من البهائم والوحوش ، والطيور ، كلها أمم أمثالكم [ خلقناها كما خلقناكم ، ورزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا ، كما كانت نافذة فيكم .

[ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ] أى : ما أهملنا ولا أغفلنا ، فى اللوح المحفوظ ، شيئا من الأشياء .

بل جميع الأشياء ، صغيرها ، وكبيرها ، مثبتة فى اللوح المحفوظ ، على ماهى عليه .

فتقع جميع الحوادث ، طبق ماجرى به القلم .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الكتاب الأول ، قد حوى جميع الكائنات .

وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب .

علم الله الشامل ، لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته وقدرته العامة النافذة فى كل شىء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، حتى أفعال العباد .

ويحتمل أن المراد بالكتاب ، هذا القرآن ، وأن المعنى كالمعنى فى قوله تعالى [ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ ﴾

---

وقوله [ ثم إلى ربهم يحشرون ] أى : جميع الأمم تجمع وتحشر إلى الله فى موقف القيامة ، فى ذلك الموقف العظيم الهائل .

فيجازيهم بعدله وإحسانه ، ويمضى عليهم حكمه الذى يحمده عليه الأولون والآخرون ، أهل السماء وأهل الأرض .

* هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله ، المكذبين لرسله ، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحوا باب الردى .

وأنهم [ صم ] عن سماع الحق [ وبكم ] عن النطق به ، فلا ينطقون إلا بالباطل .

[ فى الظلمات ] أى : منغمسون فى ظلمات الجهل ، والكفر ، والظلم ، والعناد ، والمعاصى .

وهذا من إضلال الله إياهم ، فإنه [ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ] لأنه المنفرد بالهداية والإضلال ، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته .

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

---

* يقول تعالى لرسوله : ( قل ) للمشركين بالله ، العادلين به غيره :

( أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ) .

أى . إذا حصلت هذه المشقات ، وهذه الكروب ، التى يضطر إلى دفعها ، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم ، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين .

( بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون )

فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد ، تنسونهم ، لعلمكم أنهم لايملكون لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشوراً .

وتخلصون لله الدعاء ، لعلمكم أنه هو الضار النافع ، المجيب لدعوة المضطر .

فما بالكم فى الرخاء ، تشركون به ، وتجعلون له شركاء ؟ .

هل دلكم على ذلك ، عقل أو نقل ، أم عندكم من سلطان بهذا .

أم تفترون على الله الكذب ؟

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ

---

* يقول تعالى : [ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ] من الأمم السالفين ، والقرون المتقدمين ، فكذبوا رسلنا ، وجحدوا بآياتنا .

[ فأخذناهم بالبأساء والضراء ] أى : بالفقر والمرض والآفات، والمصائب، رحمة منا بهم .

[ لعلهم يتضرعون ] إلينا ، ويلجأون عند الشدة إلينا .

[ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ] .

أى : استحجرت فلا تلين للحق .

[ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ] فظنوا أن ماهم عليه ، دين الحق فتمتعوا فى باطلهم برهة من الزمان ، ولعب بعقولهم الشيطان .

[ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ] من الدنيا ولذاتها وغفلاتها .

[ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ] .

أى : آيسون من كل خير ، وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة ، وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم ، وأعظم لمصيبتهم .

دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ

---

[ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ] أى اصطلموا بالعذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

[ والحمد لله رب العالمين ] على ما قضاه وقدره ، من هلاك المكذبين .

فإن بذلك ، تتبين آياته ، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون .

* يخبر تعالى ، أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها ، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية فقال :

[ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ] فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل [ من إله غير الله يأتيكم به ] .

فإذا لم يكن غير الله ، يأتى بذلك ، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شىء إلا إذا شاءه الله .

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : [ انظر كيف نصرف الآيات ] .

أى : ننوعها ، ونأتى بها فى كل فن ، ولتنير الحق ، وتستبين سبيل المجرمين .

[ ثم هم ] مع هذا البيان التام [ يصدفون ] عن آيات الله ، ويعرضون عنها .

بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

---

[ قل أرأيتكم ] أى : أخبرونى [ إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ] أى : مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات ، تعلمون بها وقوعه .

[ هل يهلك إلا القوم الظالمون ] الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم ، بظلمهم وعنادهم .

فاحذروا أن تقيموا على الظلم ، فإنه الهلاك الأبدى ، والشقاء السرمدى

* يذكر تعالى ، زبدة ما أرسل به المرسلين ، أنه البشارة والنذارة ، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به والأعمال التى إذا عملها العبد، حصلت له البشارة .

والمنذر والمنذر به ، والأعمال التى من عملها ، حقت عليه النذارة .

ولكن الناس انقسموا — بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها — إلى قسمين .

[ فمن آمن وأصلح ] أى : آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته [ فلا خوف عليهم ] فيما يستقبل [ ولا هم يحزنون ] على ما مضى .

[ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب ] أى : ينالهم ، ويذوقونه [ بما كانوا يفسقون ] .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ أن يخاطب المقترحين عليه الآيات أو القائلين له : إنما تدعونا لنتخذك إلهاً مع الله .

[ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ] أى : مفاتيح رزقه ورحمته .

[ ولا أعلم الغيب ] وإنما ذلك كله عند الله .

فهو الذى [ ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ] وهو — وحده — عالم الغيب والشهادة .

( فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ) .

[ ولا أقول لكم إنى ملك ] فأكون نافذ التصرف قوياً ، فلست أدعى فوق منزلتى ، التى أنزلني الله بها .

[ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ] أى : هذا غايتى ومنتهى أمرى وأعلاه ، لا أتبع إلا ما يوحى إلى، فأعمل به فى نفسى ، وأدعوا الخلق كلهم إلى ذلك .

فإذا عرفت منزلتى ، فلأى شىء يبحث الباحث معى ، أو يطلب منى أمراً لست أدعيه . وهل يلزم الإنسان ، بغير ماهو بصدده ؟ .

ولأى شىء — إذا دعوتكم ، بما يوحى إلى — تلزموننى أنى أدعى لنفسى غير مرتبتى . وهل هذا ، إلا ظلم منكم ، وعناد ، وتمرد ؟

قل - لهم فى بيان الفرق ، بين من قبل دعوتى ، وانقاد لما أوحى إلى وبين من لم يكن كذلك - [ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون] فتنزلون الأشياء منازلها ، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار ؟

۞ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم

---

* هذا القرآن ، نذارة للخلق كلهم ، ولكن إنما ينتفع به [ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ] .

فهم متيقنون للانتقال ، من هذه الدار ، إلى دار القرار ، فلذلك يستصحبون ماينفعهم ويدعون ما يضرهم .

[ ليس لهم من دونه ] أى : من دون الله [ ولى ولا شفيع ] أى: لا من يتولى أمرهم ؛ فيحصل لهم المطلوب ، ويدفع عنهم المحذور ، ولا من يشفع لهم ، لأن الخلق كلهم ، ليس لهم من الأمر شىء .

[ لعلهم يتقون ] الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإن الإنذار موجب لذلك ، وسبب من أسبابه .

[ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ] .

أى: لاتطرد عنك ، وعن مجالستك ، أهل العبادة والإخلاص ، رغبة فى مجالسة غيرهم ، من الملازمين لدعاء ربهم ، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ، ودعاء المسألة ، فى أول النهار وآخره ، وهم قاصدون بذلك ، وجه الله ، ليس لهم من الأغراض ، سوى ذلك الغرض الجليل .

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم ، بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم ، وإدنائهم ، وتقريبهم ، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء ، والأعزاء — فى الحقيقة — وإن كانوا - عند الناس - أذلاء .

مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ
مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا

---

[ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ]
أي : كل له حسابه ، وله عمله الحسن ، وعمله القبيح .

[ فتطردهم ، فتكون من الظالمين ] وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، أشد امتثال .

[ فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين ، صبر نفسه معهم ، وأحسن معاملتهم ، وألان لهم جانبه ، وحسن خلقه ، وقربهم منه ، بل كانوا هم ، أكثر أهل مجلسه رضى الله عنهم .

وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن أناساً من قريش ، أو من أجلاف العرب ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك ، فاطرد فلانا وفلانا ، أناساً من فقراء الصحابة ، فإنا نستحى أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء .

فحمله حبه لإسلامهم ، واتباعهم له ، فحدثته نفسه بذلك .
فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها .

[ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ] .

أى : هذا ، من ابتلاء الله لعباده ، حيث جعل بعضهم غنياً ؛ وبعضهم فقيراً ، وبعضهم شريفاً ، وبعضهم وضيعاً .

جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ

---

فإذا من الله بالإيمــان على الفقير ، أو الوضيع ؛ كان محل محنة للغني والشريف .

فإن كان قصده الحق واتباعه ، آمن ، وأسلم ، ولم يمنعه من ذلك ؛ مشاركه الذي يراه دونه ، بالغنى ، أو الشرف .

وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق ، كانت هـذه ، عقبة ترده عن اتباع الحق .

وقالوا ـ محتقرين لمن يرونهم دونهم ـ : [ أهؤلاء من الله عليهم من بيننـا ] .

فمنعهم هذا ، من اتباع الحق ، لعدم زكائهم .

قال الله ـ مجيبا لـكلامهم ، المتضمن ، الاعتراض على الله في هداية هؤلاء ، وعدم هداية الله إياهم [1] .

[ أليس الله بأعلم بالشاكرين ] الذين يعرفون النعمة ، ويقرون بها ، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح ، فيضع فضله ومنته عليهم ، دون من ليس بشاكر.

---

(١) في الأصل المطبوع ( وعدم هدايتهم هم ) وهو خطأ تأباه القواعد النحوية ،لذلك أصلحنا العبارة كما ترى لتتمشى العبارة على القواعد النحوية لأن (هم ) ضمير منفصل مختص بالرفع وكلمة ( هداية ) مصدر مضاف لفاعله ، والمفعول به هنا ضمير ، فيتعين أن يكون كلمة ( إياهم ) المختصة بالنصب .

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

---

فإن الله تعالى حكيم ، لايضع فضله ، عند من ليس له أهل .

وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف .

بخلاف من منَّ الله عليهم ، بالإيمان ، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون .

ولما نهى الله رسوله ، عن طرد المؤمنين القانتين ، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام ، والتبجيل والاحترام ، فقال :

[ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ] .

أى : وإذا جاءك المؤمنون ، فحيهم ، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاماً ، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم ، من رحمة الله ، وسعة جوده وإحسانه ، وحثهم على كل سبب وطريق ، يوصل لذلك .

ورهبهم من الإقامة على الذنوب ، وأمرهم بالتوبة من المعاصى ، لينالوا مغفرة ربهم وجوده .

ولهذا قال : [ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ] .

أى : فلا بد مع ترك الذنوب ، والإقلاع ، والندم عليها ، من إصلاح العمل ، وأداء ما أوجب الله ، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة .

فإذا وجد ذلك كله [ فإنه غفور رحيم ] أى : صب عليهم من مغفرته ورحمته ، بحسب ما قاموا به ، بما أمرهم به .

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

---

[ وكذلك نفصل الآيات ] أى : نوضحها ونبينها ، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ، والغى والرشاد ، ليهتدى بذلك المهتدون ، ويتبين الحق الذى ينبغى سلوكه .

ولتستبين سبيل المجرمين ] الموصلة إلى سخط الله وعذابه .

فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت ، أمكن اجتنابها ، والبعد منها .

بخلاف مالو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لايحصل هذا المقصود الجليل .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ قل ] لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى .

[ إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ] من الأنداد والأوثان ، التى لاتملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً .

فإن هذا باطل ، وليس لكم فيه حجة ولاشبهة ، إلا اتباع الهوى الذى اتباعه أعظم الضلال .

ولهذا قال [ قل لا اتبع أهواءكم قد ضلت إذا ] أى : إن اتبعت أهواءكم [ وما أنا من المهتدين ] بوجه من الوجوه .

وأما ما أنا عليه ، من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذى تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة .

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ

وأنا [ على بينة من ربى ] أى : على يقين مبين ، بصحته ، وبطلان ما عداه .

وهذه شهادة من الرسول جازمة ، لاتقبل التردد ، وهو أعدل الشهود على الإطلاق .

فصدق بها المؤمنون ، وتبين لهم من صحتها وصدقها ، بحسب ما من الله به عليهم .

[و] لكنكم أيها المشركون - [ كذبتم به] وهو لايستحق هذا منكم ، ولايليق به إلا التصديق .

وإذا استمررتم على تكذيبكم ، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله ، هو الذى ينزله عليكم ، إذا شاء ، وكيف شاء .

وإن استعجلتم به ، فليس بيدى من الأمر شىء [ إن الحكم إلا لله ].

فكما أنه هو الذى حكم بالحكم الشرعى ، فأمر ونهى ، فإنه سيحكم بالحكم الجزائى ، فيثيب ويعاقب ، بحسب ماتقتضيه حكمته .

فالاعتراض على حكمه مطلقاً ، مدفوع وقد أوضح السبيل ، وقص على عباده الحق قصاً ، قطع به معاذيرهم ، وانقطعت له حجتهم .

ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة

[ وهو خير الفاصلين ] بين عباده ، فى الدنيا والآخرة فيفصل بينهم فصلا ، يحمده عليه ، حتى من قضى عليه ، ووجه الحق نحوه .

إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

---

[ قل ] للمستعجلين بالعذاب ، جهلا وعناداً وظلماً .

[ لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ] فأوقعته بكم ، ولا خير لكم فى ذلك .

ولكن الأمر ، عند الحليم الصبور ، الذى يعصيه العاصون ، ويتجرأ عليه المتجرئون ، وهو يعاقبهم ، ويرزقهم ، ويسدى إليهم نعمه[1] ، الظاهرة والباطنة .

[ والله أعلم بالظالمين ] لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فيمهلهم ولا يهملهم .

---

(١) فى الأصل المطبوع ( ويسدى عليهم إلخ ) خطأ نحوي لأن أسدى يتعدى بـ « إلى » لا بـ «على» فلذلك أصلحنا العبارة بـ « أسدى إليهم » ولو عبر بـ « يسبغ عليهم نعمه إلخ » لكان أجمل وأبلغ .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

* هذه الآية العظيمة ، من أعظم الآيات تفصيلا ، لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها ، التى يطلع منها ما شاء من خلقه .

وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين .

وأنه يعلم ما فى البرارى والقفار ، من الحيوانات ، والأشجار ، والرمال والحصى ، والتراب .

وما فى البحار ، من حيوانات ، ومعادنها ، وصيدها ، وغير ذلك ، مما تحتويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها .

[ وما تسقط من ورقة ] من أشجار البر والبحر ، والبلدان والقفر ، والدنيا والآخرة ، إلا يعلمها .

[ ولا حبة فى ظلمات الأرض ] من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التى يبذرها الخلق ؛ وبذور النباتات البرية التى ينشىء منها أصناف النباتات .

[ ولا رطب ولا يابس ] هذا عموم بعد خصوص [ إلا فى كتاب مبين ] وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها ، واشتمل عليها .

وبعض هذا المذكور ، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء .

فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته ، فى أوصافه كلها .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾

---

وأن الخلق ـ من أولهم إلى آخرهم ـ لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ، لم يكن لهم قدرة ، ولا وسع فى ذلك .

فتبارك الرب العظيم ، الواسع ، العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد ، المحيط .

وجل من إله ، لايحصى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق مايثني عليه عباده .

فهذه الآية ، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط ، بجميع الحوادث .

* هذا كله ، تقرير لإلهيته ، واحتجاج على المشركين به ، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام .

فأخبر أنه وحده ، المتفرد بتدبير عباده ، فى يقظتهم ومنامهم ، وأنه يتوفاهم بالليل ، وفاة النوم ، فتهدأ حركاتهم ، وتستريح أبدانهم .

ويبعثهم فى اليقظة من نومهم ، ليتصرفوا فى مصالحهم الدينية والدنيوية.

وهو ـ تعالى ـ يعلم ماجرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال .

ثم لايزال تعالى هكذا ، يتصرف فيهم ، حتى يستوفوا آجالهم .

فيقضى بهذا التدبير ، أجل مسمى ، وهو : أجل الحياة ، وأجل آخر فيما بعد ذلك ، وهو البعث بعد الموت ، ولهذا قال :

[ ثم إليه مرجعكم ] لا إلى غيره [ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ] من خير وشر .

ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

---

[ وهو ] تعالى [ القاهر فوق عباده ] ينفذ فيهم إرادته الشاملة ، ومشيئته العامة .

فليسوا يملكون من الأمر شيئا ، ولا يتحركون ، ولا يسكنون إلا بإذنه .

ومع ذلك ، فقد وكل بالعباد ، حفظة من الملائكة ، يحفظون عليه ماعمل كما قال تعالى :

[ وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون « عن اليمين وعن الشمال قعيد » ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ] .

فهذا حفظه لهم فى حال الحياة .

[ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ] أى الملائكه الموكلون بقبض الأرواح .

[ وهم لا يفرطون ] فى ذلك ، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ، ولا ينقصون ، ولاينفذون من ذلك ، إلا بحسب المراسيم الإلهية ، والتقادير الربانية .

[ ثم ] بعد الموت والحياة البرزخية ، وما فيها من الخير والشر [ ردوا إلى الله مولاهم الحق ] أى : الذى تولاهم بحكمه القدرى ، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير .

ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب .

رَسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ
أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

---

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ، ويثيبهم على ما عملوا ، من الخيرات ، ويعاقبهم على الشرور والسيئات ، ولهذا قال :

[ ألا له الحكم ] وحده لاشريك له ( وهو أسرع الحاسبين ) لكمال علمه وحفظه لأعمالهم ، بما أثبته فى اللوح المحفوظ ، ثم أثبته ملائكته فى الكتاب ، الذى بأيديهم .

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير ، وهو القاهر فوق عباده ، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء ، فى جميع أحوالهم وهو الذى له الحكم القدرى ، والحكم الشرعى ، والحكم الجزائى ، فأين للمشركين ، العدول عن من هذا وصفه ونعته ، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ، ولا عنده مثقال ذرة من النفع ، ولا له قدرة وإرادة ؟ !

أما والله لو علموا حلم الله عليهم ، وعفوه ورحمته بهم ، وهم يبارزونه بالشرك والكفران ، ويتجرأون على عظمته بالإفك والبهتان ، وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت ، دواعيهم إلى معرفته ، وذهلت عقولهم فى حبه .

ولمقتوا أنفسهم أشد المقت ، حيث انقادوا لداعى الشيطان ، الموجب للخزى والخسران ، ولكنهم قوم لايعقلون .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

* أى : [ قل ] للمشركين بالله ، الداعين معه آلهـة أخرى ، ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية ، على ما أنـكروه من توحيد الإلهية .

[ من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ] أى: شدائدهما ومشقاتهما ، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم ، وجه الحيلة ، فتدعون ربكم تضرعا ، بقلب خاضع ، ولسان لايزال يلهج بحاجته فى الدعاء ، وتقولون — وأنتم فى تلك الحال :

[لئن أنجانا من هذه] الشدة التى وقعنا فيها [لنـكونن من الشاكرين] لله أى المعترفين بنعمته ، الواضعين لها فى طاعة ربهم ، الذين حفظوها عن أن يبذلوها فى معصيته .

[ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ] أى من هذه الشدة الخاصة ، ومن جميع الـكروب العامة .

[ ثم أنتم تشركون ] لا تفون لله بما قلتم ، وتنسون نعمه عليكم .

فأى : برهان أوضح من هذا ؛ على بطلان الشرك ، وصحة التوحيد ؟!!

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن
فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

---

* أى : هو تعالى ؛ قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة .

[ من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم ] أى : يخلطكم [ شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ] أى : فى الفتنة ، وقتل بعضكم بعضاً .

فهو قادر على ذلك كله ، فاحذروا من الإقامة على معاصيه ، فيصيبكم من العذاب ، ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك .

ولكن من رحمته ، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم ، والحصب ، ونحوه ، ومن تحت أرجلهم ؛ بالخسف .

ولكن عاقب من عاقب منهم ، بأن أذاق بعضهم بأس بعض ، وسلط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة ، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ، ويشعر بها العاملون .

[انظر كيف نصرف الآيات] أى ننوعها ، ونأتى بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق .

[ لعلهم يفقهون ] أى : يفهمون ما خلقوا من أجله ، ويفقهون الحقائق الشرعية ، والمطالب الإلهية .

[ وكذب به ] أى : بالقرآن [ قومك وهو الحق ] الذى لا مرية فيه ، ولا شك يعتريه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ

---

[ قل لست عليكم بوكيل ] أحفظ أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، وإنما أنا منذر ومبلغ .

[لكل نبأ مستقر ] أى: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

[ وسوف تعلمون ] ما توعدون به من العذاب .

* المراد بالخوض فى آيات الله : التكلم بما يخالف الحق ، من تحسين المقالات الباطلة ، والدعوة إليها ، ومدح أهلها ، والإعراض عن الحق ، والقدح فيه وفى أهله

فأمر الله رسوله أصلا ، وأمته تبعاً ، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشىء مما ذكر ، بالإعراض عنهم ، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك ، حتى يكون البحث والخوض فى كلام غيره .

فإذا كان فى كلام غيره ، زال النهى المذكور .

فإن كان مصلحة ، كان مأموراً به ، وإن كان غير ذلك ، كان غير مفيد ولا مأمور به .

وفى ذم الخوض بالباطل ، حث على البحث ، والنظر ، والمناظرة بالحق .

ثم قال : [ وإما ينسينك الشيطان ] أى : بأن جلست معهم ، على وجه النسيان والغفلة .

بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

---

[ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ] يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور، عند حضور المنكر، الذى لا يقدر على إزالته.

هذا النهى والتحريم، لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم فى القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار.

فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذى يصدر منهم، فيترتب على ذلك زواله وتخفيفه — فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال:

[ وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ].

أى: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.

وفى هذا دليل على أنه ينبغى أن يستعمل المذكر من الكلام، ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى.

وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، كان تركه هو الواجب، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ

---

* المقصود من العباد ، أن يخلصوا لله الدين ، بأن يعبدوه وحده لاشريك له ، ويبذلوا مقدورهم فى مرضاته ومحابه .

وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه ، وكون سعى العبد نافعاً ، وجداً ، لا هزلا ، وإخلاصاً لوجه الله ، لا رياء ولا سمعة .

هذا هو الدين الحقيقى ، الذى يقال له دين .

فأما من زعم أنه على الحق ، وأنه صاحب دين وتقوى ، وقد اتخذ دينه لعباً ولهوا .

بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته ، وأقبل على كل ما يضره ، ولها فى باطله ، ولعب فيه ببدنه لأن العمل والسعى إذا كان لغير الله ، فهو لعب .

فهذا ، أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ، ولا يغتر به ، وتنظر حاله ، ويحذر من أفعاله ، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله .

[ وذكر به ] أى : ذكر بالقرآن ، ما ينفع العباد ، أمراً ، وتفصيلا ، وتحسينا له ، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن ، وما يضر العباد نهياً عنه ، وتفصيلا لأنواعه ، وبيان ما فيه ، من الأوصاف القبيحة الشنيعة ، الداعية لتركه .

ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

---

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت ، أي : قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرؤه على علام الغيوب ، واستمراره على ذلك المرهوب .

فذكرها ، وعظها ، لترتدع وتنزجر ، وتكف عن فعالها .

وقوله [ ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ] أي : قبل أن تحيط بها ذنوبها ، ثم لا ينفعها أحد من الخلق ، لا قريب ولا صديق ، ولا يتولاها من دون الله أحد ، ولا يشفع لها شافع .

[ وإن تعدل كل عدل ] أي : تفتدي بكل فداء ، ولو بملء الأرض ذهباً [ لا يؤخذ منها ] أي : لا يقبل ولا يفيد .

[ أولئك] الموصوفون بما ذكر [الذين أبسلوا] أي : أهلكوا وأيسوا من الخير ، وذلك [ بما كسبوا ، لهم شراب من حميم ] أي : ماء حار ، قد انتهى حره ، يشوي وجوههم ، ويقطع أمعاءهم [ وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ] .

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ

---

* [قل] يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبينا وشارحا لوصف آلهتهم، التى يكتفى العاقل بذكر وصفها، عن النهى عنها .

فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين، جزم ببطلانه، قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال :

[ أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ] .

وهذا وصف، يدخل فيه، كل من عبد من دون الله ، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شىء، إن الأمر إلا لله .

[ ونرد على أعقابنا بعدإذ هدانا الله ] أى : ونتقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغى، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التى تفضى بسالكها إلى العذاب الأليم .

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها [ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض ] أى أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل إلى مقصده .

فبقى [ حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ] والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقى بين الداعيين حائراً .

وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم

هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ

---

جواذب ودواعى متعارضة ، دواعى الرسالة والعقل الصحيح ، والفطرة المستقيمة .

[ يدعون إلى الهدى ] والصعود الى أعلى عليين .

ودواعى الشيطان ، ومن سلك مسلكه ، والنفس الأمارة بالسوء ، يدعونه إلى الضلال ، والنزول إلى أسفل سافلين .

فمن الناس من يكون مع دواعى الهدى ، فى أموره كلها أو أغلبها .

ومنهم من بالعكس من ذلك .

ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ، ويتعارض عنده الجاذبان .

وفى هذا الموضع ، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة .

وقوله : [ قل إن هدى الله هو الهدى ] أى : ليس الهدى إلا الطريق التى شرعها الله على لسان رسوله ، وما عداه ، فهو ضلال وردى ، وهلاك .

[ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ] بأن ننقاد لتوحيده ، ونستسلم لأوامره ونواهيه ، وندخل تحت عبوديته .

فإن هـذا ، أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد ، وأكمل تربية أوصلها إليهم .

[وأن أقيموا الصلاة] أى : وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها .

قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

---

[ واتقوه ] بفعل ما أمر به ، واجتناب ما عنه نهى .

[ وهو الذى إليه تحشرون ] أى : تجمعون ليوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم ، خيرها وشرها .

[ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ] ليأمر العباد وينهاهم ، ويثيبهم ويعاقبهم .

[ ويوم يقول كن فيكون . قوله الحق ] الذى لا مرية فيه ولا مثنوية ، ولا يقول شيئاً عبثاً .

[ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ] أى : يوم القيامة خصه بالذكر — مع أنه مالك كل شىء — لأنه تنقطع فيه الأملاك ، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار .

[ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ] الذى له الحكمة التامة ، والنعمة السابغة ، والإحسان العظيم ، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَـٰكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ

---

* يقول تعالى : واذكر قصة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، مثنياً عليه ومعظماً فى حال دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك .

[إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة] أى : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شىء .

[ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ] حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً ، وتركتم عبادة خالقكم ، ورازقكم ، ومدبركم .

[وكذلك] حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه [ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ] أى : ليرى ببصيرته ، ما اشتملت عليه ، من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة [وليكون من الموقنين ] .

فإنه بحسب قيام الأدلة ، يحصل له الإيقان ، والعلم التام ، بجميع المطالب.

[فلما جن عليه الليل] أى : أظلم [ رأى كوكباً ] لعله من الكواكب المضيئة ، لأن تخصيصه بالذكر ، يدل على زيادته عن غيره .

ولهذا — والله أعلم — قال من قال : إنه الزهرة .

[ قال هذا ربى ] أى : على وجه التنزل مع الخصم أى : هذا ربى ، فهلم ننظر ، هل يستحق الربوبية ؟

ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّآ رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن
لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّآ رَءَا
ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ

---

وهل يقوم لنا دليل على ذلك ؟ فإنه لا ينبغى لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان .

[ فلما أفل ] أى : غاب ذلك الكوكب [ قال لا أحب الآفلين ] أى : الذى يغيب ويختفى عمن عبده .

فإن المعبود ، لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده ، ومدبراً له فى جميع شئونه .

فأما الذي يمضى وقت كثير وهو غائب ، فمن أين يستحق العبادة ؟ !

وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه ، وأبطل الباطل ؟ !

[ فلما رأى القمر بازغا ] أى : طالعاً ، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها [ قال هذا ربى ] تنزلا .

[ فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ] .

فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله ، فلا هادى له ، وإن لم يعنه على طاعته ، فلا معين له .

[فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر] من الكوكب ومن القمر .

[ فلما أفلت ] تقرر حينئذ الهدى ، واضمحل الردى [ قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ] حيث قام البرهان الصادق الواضح ، على بطلانه

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ
قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ

---

[ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ] أى : لله وحده ، مقبلا عليه ، معرضاً عن من سواه .

[ وما أنا من المشركين ] فتبرأ من الشرك ، وأذعن بالتوحيد ، وأقام على ذلك البرهان .

وهذا الذى ذكرنا فى تفسير هذه الآيات ، هو الصواب .

وهو أن المقام مقام مناظرة ، من إبراهيم لقومه ، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها .

وأما من قال : إنه مقام نظر فى حال طفوليته ، فليس عليه دليل .

[ وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانى ] أى : أى فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى ؟

فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين ، فإنه ـ هو بنفسه ـ يدعو الناس إلى ما هو عليه .

[ ولا أخاف ما تشركون به ] فإنها لن تضرنى ، ولن تمنع عنى من النفع شيئا .

[ إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ] فتعلمون أنه — وحده — المعبود المستحق للعبودية .

مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

---

[ وكيف أخاف ما أشركتم ] وحالها حال العجز ، وعدم النفع ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ، مالم ينزل به عليكم سلطانا ] أى : إلا بمجرد اتباع الهوى .

[ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ] .

قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين [ الذين آمنوا ولم يلبسوا ] أى : يخلطوا [ إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ] الأمن من المخاوف ، والعذاب والشقاء ، والهداية إلى الصراط المستقيم .

فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاصى ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة .

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء .

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام ، بما بين به من البراهين القاطعة قال

[ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ] أى : علا بها عليهم وفلجهم بها .

ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

---

[ نرفع درجات من نشاء ] كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام فى الدنيا والآخرة ، فإن العلم يرفع الله به صاحبه ، فوق العباد درجات .

خصوصاً ، العالم العامل ، المعلم ، فإنه يجعله الله إماماً للناس ، بحسب حاله .

ترمق أفعاله ، وتقتفى آثاره ، ويستضاء بنوره ، ويمشى بعلمه فى ظلمة ديجوره .

قال تعالى [ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ] .

[ إن ربك حكيم عليم ] فلا يضع العلم والحكمة ، إلا فى المحل اللائق بهما ، وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغى له .

۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ

---

* لما ذكر الله عبده وخليله، إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به، من العلم، والدعوة، والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب.

وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التى لايدرك لها نظير فقال:

[ ووهبنا له إسحق ويعقوب ] ابنه، الذى هو إسرائيل، أبو الشعب الذى فضله الله على العالمين.

[ كلا ] منهما [ هديناه ] الصراط المستقيم، فى علمه وعمله.

[ ونوحا هدينا ]ه [ من قبل ] وهدايته أعلى أنواع الهدايات الخاصة التى لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل، الذى هو أحدهم.

[ ومن ذريته ] يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، لأن الله ذكر مع من ذكر، لوطا، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق فى مدحه والثناء عليه.

ولوط — وإن لم يكن من ذريته — فإنه ممن آمن على يده.

وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

---

فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك ، أبلغ من كونه مجرد ابن له .

[ داود وسليمان ] بن داود [ وأيوب ويوسف ] بن يعقوب .

[ وموسى وهرون ] ابنى عمران .

[ وكذلك ] كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل ، لأنه أحسن فى عبادة ربه ، وأحسن فى نفع الخلق كذلك .

[ نجزى المحسنين ] بأن نجعل لهم ، من الثناء الصدق ، والذرية الصالحة ، بحسب إحسانهم .

[ وزكريا ويحيى ] ابنه [ وعيسى ] بن مريم .

[ وإلياس كل ] هؤلاء [ من الصالحين ] فى أخلاقهم وأعمالهم ، وعلومهم ، بل هم سادة الصالحين وقادتهم ، وأئمتهم .

[ وإسمعيل ] ابن إبراهيم أبو الشعب ، الذى هو أفضل الشعوب ، وهو الشعب العربى ، ووالد سيد ولد آدم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[ ويونس ] بن متى [ ولوطا ] بن هاران ، أخى إبراهيم .

[ وكلا ] من هؤلاء الأنبياء والمرسلين [ فضلنا على العالمين ] لأن درجات الفضائل أربع — وهى التى ذكرها الله بقوله .

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ

---

[ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ] .

فهؤلاء من الدرجة العليا ، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق .

فالرسل الذين قصهم الله فى كتابه ، أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك .

[ ومن آبائهم ] أى : آباء هؤلاء المذكورين [ وذرياتهم وإخوانهم ] .

أى : وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم .

[ واجتبيناهم ] أى اخترناهم [ وهديناهم إلى صراط مستقيم ] .

[ ذلك ] الهدى المذكور [ هدى الله ] الذى لا هدى إلا هداه .

[ يهدى به من يشاء من عباده ] فاطلبوا منه الهدى فإن لم يهدكم ، فلا هادى لكم غيره ، وممن شاء هدايته ، هؤلاء المذكورون .

[ ولو أشركوا ] على الفرض والتقدير [ لحبط عنهم ما كانوا يعملون ] .

فإن الشرك محبط للعمل ، موجب للخلود فى النار .

فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا — وحاشاهم — لحبطت أعمالهم ، فغيرهم أولى .

بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل
لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

[ أولئك ] المذكورون [ الذين هدى الله فبهداهم اقتده ] أى : امش — أيها الرسول الكريم — خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم ، فاهتدي بهدى الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم .

فاجتمعت لديه ، فضائل وخصائص ، فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وبهذا الملحظ ، استدل بهذا من استدل من الصحابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل الرسل كلهم .

[ قل ] للذين أعرضوا عن دعوتك : [ لا أسألكم عليه أجرا ] .

أى : لا أطلب منكم مغرما ومالا ، جزاء عن إبلاغى إياكم ، ودعوتى لكم فيكون من أسباب امتناعكم ، إن أجرى إلا على الله .

[ إن هو إلا ذكرى للعالمين ] يتذكرون به ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيذرونه .

ويتذكرون به ، معرفة ربهم ، بأسمائه ، وأوصافه .

ويتذكرون به الأخلاق الحميدة ، والطرق الموصلة إليها ، والأخلاق الرذيلة ، والطرق المفضية إليها .

فإذا كان ذكرى للعالمين ، كان أعظم نعمة ، أنعم الله بها عليهم ، فعليهم قبولها والشكر عليها .

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

---

* هذا تشنيع على من نفى الرسالة ، من اليهود والمشركين ، وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء .

فمن قال هذا ، فما قدر الله حق قدره ، ولا عظمه حق عظمته .

إذ هذا ، قدح فى حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم .

ونفى لأعظم منة ، امتن الله بها على عباده ، وهى الرسالة ،التى لاطريق للعباد إلى نيل السعادة ، والكرامة ، والفلاح ، إلا بها ، فأى قدح فى الله أعظم من هذا ؟!!

[قل] لهم — ملزما بفساد قولهم وقررهم ، بما به يقرون — : [من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى] وهو التوراة العظيمة [نوراً] فى ظلمات الجهل [وهدى] من الضلالة ، وهاديا إلى الصراط المستقيم علما ، وعملا ، وهو الكتاب الذى شاع وذاع ، وملأ ذكره القلوب والأسماع .

حتى أنهم جعلوا يتناسخونه فى القراطيس ، ويتصرفون فيه بما شاءوا.

فما وافق أهواءهم منه ، أبدوه وأظهروه ، وما خالف ذلك ، أخفوه وكتموه ، وذلك كثير .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

---

[ وعلمتم ] من العلوم ، التى بسبب ذلك الكتاب الجليل « ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ] فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات ــ فأجب عن هذا السؤال .

[ ذرهم فى خوضهم يلعبون ] أى: اتركهم يخوضوا فى الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه ، حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون .

* أى [وهذا] القرآن [كتاب أنزلناه إليك مبارك] أى: وصفه البركة . وذلك لكثرة خيراته ، وسعة مبراته .

[ مصدق الذى بين يديه ] أى : موافق للكتب السابقة ، وشاهد لها بالصدق .

[ ولتنذر أم القرى ومن حولها ] أى : وأنزلناه أيضاً، لتنذر أم القرى، وهى : مكة المكرمة ، ومن حولها ، من ديار العرب بل ، ومن سائر البلدان .

فتحذر الناس عقوبة الله ، وأخذه الأمم ، وتحذرهم مما يوجب ذلك :

[ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به] لأن الخوف إذا كان فى القلب ، عمرت أركانه ، وانقاد لمراضى الله .

[ وهم على صلاتهم يحافظون ] أى : يداومون عليها ، ويحفظون أركانها وحدودها ، شروطها وآدابها ، ومكملاتها . جعلنا الله منهم .

۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ

---

* يقول تعالى : لا أحد أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، ممن كذب على الله .

بأن نسب إلى الله قولا أو حكما وهو تعالى برىء منه .

وإنما كان هذا أظلم الخلق ، لأن فيه من الكذب ، وتغيير الأديان ، أصولها ، وفروعها ، ونسبة ذلك إلى الله ـــ ما هو من أكبر المفاسد .

ويدخل فى ذلك ، ادعاء النبوة ، وأن الله يوحى إليه ، وهو كاذب فى ذلك .

فإنه ـــ مع كذبه على الله ، وجرأته على عظمته وسلطانه ـــ يوجب على الخلق أن يتبعوه ، ويجاهدهم على ذلك ، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم .

ويدخل فى هذه الآية ، كل من ادعى النبوة ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، والمختار ، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف .

[ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ] أى : ومن أظلم ممن زعم ، أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ، ويجارى الله فى أحكامه ، ويشرع من الشرائع ، كما شرعه الله .

ويدخل فى هذا ، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن ، وأنه فى إمكانه ، أن يأتى بمثله .

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

---

وأى ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات ، الناقص من كل وجه ، مشاركة القوى الغنى ، الذى له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، فى ذاته ، وأسمائه وصفاته ؟ !! .

ولما ذم الظالمين ، ذكر ما أعد لهم من العقوبة فى حال الاحتضار ، ويوم القيامة فقال :

[ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ] أى : شدائده وأهواله الفظيعة ، وكربه الشنيعة — لرأيت أمرا هائلا ، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها .

[ والملائكة باسطوا أيديهم ] إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب ، والعذاب .

يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها ، وتعصيها عن الخروج من الأبدان :

[ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ] أى : العذاب الشديد ، الذى يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل .

فإن هذا العذاب [ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ] من كذبكم عليه ، وردكم للحق ، الذى جاءت به الرسل .

[ وكنتم عن آياته تستكبرون ] أى : تترفعون عن الانقياد لها ، والاستسلام لأحكامها .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ

---

وفى هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه .

فإن هذا الخطاب ، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار ، وقبيل الموت وبعده .

وفيه دليل ، على أن الروح جسم ، يدخل ويخرج ، ويخاطب، ويساكن الجسد ، ويفارقه ، فهذه حالهم فى البرزخ .

وأما يوم القيامة ، فإنهم إذا وردوها ، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ، ولا أولاد ولا جنود ، ولا أنصار ، كما خلقهم الله أول مرة ، عارين من كل شىء .

فإن الأشياء ، إنما تتمول وتحصل ، بعد ذلك ، بأسبابها ، التى هى أسبابها .

وفى ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور ، التى كانت مع العبد فى الدنيا ، سوى العمل الصالح ، والعمل السيء ، الذى هو مادة الدار الآخرة ، الذى تنشأ عنه ، ويكون حسنها وقبحها ، وسرورها وغمومها ، وعذابها ونعيمها ، بحسب الأعمال .

فهى التى تنفع ، أو تضر ، وتسوء أو تسر .

وما سواها ، من الأهل والولد ، والمال والأنصار ، فعوار خارجية ، وأوصاف زائلة ، وأحوال حائلة ، ولهذا قال تعالى :

[ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم ] أى : أعطيناكم ، وأنعمنا به عليكم [ وراء ظهوركم ] لايغنون عنكم شيئاً :

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

---

[ وما نرى معكم شفعاءكم ، الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ] .

فإن المشركين يشركون بالله ، ويعبدون معه الملائكة ، والأنبياء ، والصالحين ، وغيرهم .

وهم كلهم لله ، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم ، وشركة فى عبادتهم .

وهذا زعم منهم ، وظلم ، فإن الجميع ، عبيد لله ، والله مالكهم ، والمستحق لعبادتهم .

فشركهم فى العبادة ، وصرفها لبعض العبيد ، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك ، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة .

[وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم].

أى : تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم ، من الشفاعة وغيرها .

فلم تنفع ولم تجد شيئاً .

[ وضل عنكم ما كنتم تزعمون ] من الربح ، والأمن ، والسعادة ، والنجاة ، التى زينها لكم الشيطان ، وحسنها فى قلوبكم ،فنطقت بها ألسنتكم.

واغتررتم بهذا الزعم الباطل ، الذى لا حقيقة له ، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون .

وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم ، وأهليكم ، وأموالكم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ

---

* يخبر تعالى ، عن كماله ، وعظمة سلطانه ، وقوة اقتداره ، وسعة رحمته ، وعموم كرمه ، وشدة عنايته بخلقه ، فقال :

[ إن الله فالق الحب ] شامل لكل الحبوب ، التي يباشر الناس زرعها ، والتي لا يباشرونها ، كالحبوب التي يبثها الله فى البرارى والقفار .

فيفلق الحبوب عن الزروع والنباتات ، على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومنافعها .

ويفلق النوى عن الأشجار ، من النخيل ، والفواكه ، وغير ذلك .

فينتفع بها الخلق ، من الآدميين والأنعام ، والدواب .

ويرتعون فيما فلق الله ، من الحب ، والنوى .

ويقتاتون ، وينتفعون بجميع أنواع المنافع ، التى جعلها الله فى ذلك .

ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ، ويذهل الفحول .

ويريهم من بدائع صنعته ، وكمال حكمته ، ما به يعرفونه ويوحدونه ، ويعلمون أنه هو الحق ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة .

[ يخرج الحى من الميت ] كما يخرج من المنى حيواناً ، ومن البيضة فرخا ، ومن الحب والنوى ، زرعاً وشجراً .

[ ومخرج الميت ] وهو الذى لا نمو فيه ، أو لا روح [ من الحى ] .

كما يخرج من الأشجار والزروع ، النوى ، والحب ، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك .

[ ذلكم ] الذى فعل ما فعل ، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها

[ الله ربكم ] أى : الذى له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين .

ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ

---

وهو الذى ربى جميع العالمين بنعمه ، وغذاهم بكرمه .

[ فأنى تؤفكون ] أى : فأنى تصرفون ، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ؟ ! !

ولما ذكر تعالى ، مادة خلق الأقوات ، ذكر منته بتهيئة المساكن ، وخلقه كل مايحتاج إليه العباد ، من الضياء ، والظلمة ، ومايترتب على ذلك ، من أنواع المنافع والمصالح فقال :

[ فالق الإصباح ] أى : كما أنه فالق الحب والنوى ، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجى ، الشامل لما على وجه الأرض ، بضياء الصبح الذى يفلقه شيئاً فشيئاً ، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ، ويخلفها الضياء والنور العام ، الذى يتصرف به الخلق ، فى مصالحهم ، ومعايشهم ، ومنافع دينهم ودنياهم .

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة ، التى لاتتم إلا بوجود النهار والنور [جعل] الله [الليل سكنا ] يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم ، والأنعام إلى مأواها ، والطيور إلى أوكارها ، فتأخذ نصيبها من الراحة .

ثم يزيل الله ذلك ، بالضياء ، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة .

[ و ] جعل تعالى [ الشمس والقمر حسبانا ] بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتنضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التى لولا وجود الشمس والقمر ، وتناوبهما ، واختلافهما — لما عرف ذلك ، عامة الناس ، واشتركوا فى علمه .

تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟

بل كان لايعرفه ، إلا أفراد من الناس ، بعد الاجتهاد ، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ، مايفوت .

[ ذلك ] التقدير المذكور [ تقدير العزيز العليم ] الذى – من عزته – انقادت له هـذه المخلوقات العظيمة ، فجرت مذللة مسخرة بأمره ، بحيث لاتتعدى ماحده الله لها ، ولا تتقدم عنه ولاتتأخر .

[العليم] الذىأحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، والأوائل والأواخر .

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه ، تسخير هذه المخلوقات العظيمة ، على تقـدير ، ونظام بديع ، تحيرت العقول ، فى حسنه ، وكماله ، وموافقته للمصالح والحـكم .

[ وهو الذى جعل لـكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ] حين تشتبه عليـكم المسالك ، ويتحير فى سيره السالك .

فجعل الله النجوم ، هداية للخلق إلى السبيل ، التى يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم ، وتجاراتهم ، وأسفارهم .

منها نجوم لاتزال ترى ، ولا تسير عن محلها .

ومنها : ما هو مستمر السير ، يعرف سيره ، أهـــل المعرفة بذلك ، ويعرفون به الجهات والأوقات .

ودلت هذه الآية ونحوها ، على مشروعية تعلم سير الـكواكب ومحالها الذى يسمى علم التسيير ، فإنه لاتتم الهداية ولا تمـكن ، إلا بذلك .

بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ

---

[ قد فصلنا الآيات ] أى بيناها ، ووضحناها ، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر ، بحيث صارت آيات الله ، بادية ظاهرة .

[ لقوم يعلمون ] أى : لأهل العلم والمعرفة ، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ، ويطلب منهم الجواب .

بخلاف أهل الجهل والجفاء ، المعرضين عن آيات الله ، وعن العلم الذى جاءت به الرسل ، فإن البيان لايفيدهم شيئا ، والتفصيل ، لايزيل عنهم ملتبسا ، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا .

[ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ] وهو : آدم عليه السلام .

أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمى ؛ الذى قد ملأ الأرض .

ولم يزل فى زيادة ونمو ، الذى قد تفاوت فى أخلاقه وخلقه ، وأوصافه ، تفاوتا لايمكن ضبطه ، ولايدرك وصفه .

وجعل الله لهم مستقراً ، أى منتهى ينتهون إليه ، وغاية يساقون إليها وهى : دار القرار ، التى لا مستقر وراءها ، ولانهاية فوقها .

فهذه الدار ، هى التى خلق الخلق لسكناها ، وأوجدوا فى الدنيا ، ليسعوا فى أسبابها ، التى تنشأ عليها وتعمر بها .

وأودعهم الله فى أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ، ثم فى دار الدنيا ، ثم فى البرزخ .

كل ذلك ، على وجه الوديعة ، التى لاتستقر ولاتثبت ، بل ينتقل منها ، حتى يوصل إلى الدار ، التى هى المستقر .

قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ

---

وأما هذه الدار ، فإنها مستودع وممر .

[ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ] عن الله آياته ، ويفهمون عنه حججه ، وبيناته .

* وهذا من أعظم مننه العظيمة ، التي يضطر إليها الخلق ، من الآدميين وغيرهم .

وهو أنه . أنزل من السماء ماء متتابعاً ، وقت حاجة الناس إليه ، فأنبت الله به كل شيء ، مما يأكل الناس والأنعام .

فرتع الخلق ، بفضل الله ، وانبسطوا برزقه ، وفرحوا بإحسانه ، وزال عنهم الجدب والقحط .

ففرحت القلوب ، وأسفرت الوجوه ، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ، ما به يتمتعون ، وبه يرتعون ، مما يوجب لهم ، أن يبذلوا جهدهم، فى شكر من أسدى النعيم ، وعبادته[1] والإنابة إليه ، والمحبة له .

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء ، من أنواع الأشجار ، والنبات ، ذكر الزرع والنخل ، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال :

---

( ١ ) قوله ( وعبادته والإنابة إليه ، والمحبة له ) هذه الأسماء الثلاثة منصوبة ، لأنها معطوفة على قوله (جهدهم الذى هو مفعول به لـ «يبذلون»).

مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

---

[ فأخرجنا به خضراً نخرج منه ] أى : من ذلك النبات الخضر .

[ حباً متراكباً ] بعضه فوق بعض ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ، وغير ذلك ، من أصناف الزروع .

وفى وصفه بأنه متراكب ، إشارة إلى أن حبوبه متعددة ، وجميعها تستمد من مادة واحدة ، وهى لا تختلط ، بل هى متفرقة الحبوب ، مجتمعة الأصول .

وإشارة أيضاً ، إلى كثرتها ، وشمول ريعها وغلتها ، ليبقى أصل البذر ، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار .

[ ومن النخل ] أخرج الله [ من طلعها ] وهو الكفرى ، والوعاء ، قبل ظهور القنو منه ، فيخرج من ذلك الوعاء [ قنوان دانية ] أى : قريبة سهلة التناول ، متدلية على من أرادها ، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت ، فإنه يوجد فيها كرب ومراقى ، يسهل صعودها .

[ و ] أخرج تعالى بالماء [ جنات من أعناب والزيتون والرمان ] . فهذه من الأشجار الكثيرة النفع ، العظيمة الوقع ، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنباتات .

وقوله [ مشتبها وغير متشابه ] يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون ، أى : مشتبها فى شجره وورقه ، غير متشابه فى ثمره .

. . . . . . . . . . .

---

ويحتمل أن يرجع ذلك ، إلى سائر الأشجار والفواكه ، وأن بعضها مشتبه ، يشبه بعضه بعضاً ، ويتقارب فى بعض أوصافه ، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره .

والكل ينتفع به العباد ، ويتفكهون ، ويقتاتون ، ويعتبرون ، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به ، فقال :

[ انظرو ] نظر فكر واعتبار [ إلى ثمره ] أى : الأشجار كلها ، خصوصا : النخل ، إذا أثمر .

[ وينعه ] أى : انظروا إليه ، وقت إطلاعه ، ووقت نضجه وإيناعه . فإن فى ذلك عبراً ، وآيات ، يستدل بها على رحمة الله ، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده .

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر ، وليس كل من تفكر ، أدرك المعنى المقصود .

ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات ، بالمؤمنين فقال :

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ] فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان ، على العمل بمقتضياته ولوازمه ، التى منها : التفكر فى آيات الله ، والاستنتاج منها ، ما يراد منها ، وما تدل عليه ، عقلا ، وفطرة ، وشرعاً .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ
وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* يخبر تعالى : أنه — مع إحسانه لعباده ، وتعرفه إليهم ، بآياته البينات ، وحججه الواضحات — أن المشركين به ، من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء ، يدعونهم ، ويعبدونهم ، من الجن ، والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء .

فجعلوها شركاء ، لمن له الخلق والأمر ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم ، الدافع لجميع النقم .

وكذلك « خرق المشركون » أى : ائتفكوا ، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله ، بنين وبنات ، بغير علم منهم .

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم ، وافترى عليه أشنع النقص ، الذى يجب تنزيه الله عنه ؟ ! ! .

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال :

[ سبحانه وتعالى عما يصفون ] فإنه تعالى ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وآفة ، وعيب .

[ بديع السموات والأرض ] أى : خالقهما ، ومتقن صنعتهما ، على غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام ، وبهاء .

لا تقترح عقول أولى الألباب مثله ، وليس له فى خلقهما مشارك .

[ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ] أى : كيف يكون لله الولد ، وهو الإله السيد الصمد ، الذى لا صاحبة له ، أى : لا زوجة له ، وهو الغنى

وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

---

عن مخلوقاته ، وكلها فقيرة إليه ، مضطرة فى جميع أحوالها إليه .

والولد لابد أن يكون من جنس والده .

والله خالق كل شىء وليس شىء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه .

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء ، ذكر إحاطة علمه بها فقال :

[ وهو بكل شىء عليم ] وفى ذكر العلم بعد الخلق ، إشارة إلى الدليل العقلى ، على ثبوت علمه ، وهو هذه المخلوقات ، وما اشتملت عليه،من النظام التام ، والخلق الباهر .

فإن فى ذلك ، دلالة على سعة علم الخالق ، وكمال حكمته ، كما قال تعالى :

[ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ] وكما قال تعالى :

[وهو الخلاق العليم ] ذلكم الذى ، خلق ما خلق ، وقدر ما قدر .

[ ذلكم الله ربكم ] أى المألوه المعبود ، الذى يستحق نهاية الذل له،ونهاية الحب . الرب ، الذى ربى جميع الخلق بالنعم ، وصرف عنهم صنوف النقم .

[ لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ] أى : إذا استقر وثبت ، أنه الله الذى لا إله إلا هو ، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة ، وأخلصوها لله ، واقصدوا بها وجهه .

فإن هذا هو المقصود من الخلق ، الذى خلقوا لأجله [ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ] .

[ وهو على كل شىء وكيل ] أى : جميع الأشياء ، تحت وكالة الله وتدبيره ، خلقاً ، وتدبيراً ، وتصريفاً .

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

ومن المعلوم ، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته ، وتمامه ، وكمال انتظامه ، بحسب حال الوكيل عليه .

ووكالته تعالى على الأشياء ، ليست من جنس وكالة الخلق ، فإن وكالتهم ، وكالة نيابة ، والوكيل فيها ، تابع لموكله .

وأما البارى ، تبارك وتعالى ، فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكمال العلم ، وحسن التدبير والإحسان فيه ، والعدل .

فلا يمكن أحداً ، أن يستدرك على الله ، ولا يرى فى خلقه خللا ، ولا فطوراً ، ولا فى تدبيره ، نقصاً وعيباً .

ومن وكالته : أنه تعالى ، توكل ببيان دينه ، وحفظه عن المزيلات والمغيرات ، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم .

[ لا تدركه الأبصار ] لعظمته ، وجلاله وكماله .

أى : لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه فى الآخرة ، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم .

فنفى الإدراك ، لا ينفى الرؤية ، بل يثبتها بالمفهوم .

فإنه إذا نفى الإدراك ، الذى هو أخص أوصاف الرؤية ، دل على أن الرؤية ثابتة .

فإنه لو أراد نفى الرؤية ، لقال « لا تراه الأبصار » ونحو ذلك .

فعلم أنه ليس فى الآية ، حجة لمذهب المعطلة ، الذين ينفون رؤية ربهم فى الآخرة .

بل فيها ما يدل على نقيض قولهم .

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

[ وهو يدرك الأبصار ] أى : هو الذى أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، وسمعه ، بجميع الأصوات الظاهرة ، والخفية وبصره ، بجميع المبصرات ، صغارها ، وكبارها ، ولهذا قال :

[ وهو اللطيف الخبير ] الذى لطف علمه وخبرته ، ودق ، حتى أدرك السرائر والخفايا ، والخبايا ، والبواطن .

ومن لطفه ، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ، ويوصلها إليه بالطرق ، التى لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها .

ويوصله إلى السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدى ، من حيث لا يحتسب .

حتى إنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد ، ويتألم منها ، ويدعو الله أن يزيلها ، لعلمه أن دينه أصلح ، وأن كماله متوقف عليها .

فسبحان اللطيف لما يشاء ، الرحيم بالمؤمنين .

[ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ] .

لما بين تعالى من الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، الدالة على الحق فى جميع المطالب والمقاصد ، نبه العباد عليها ، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم ، فقال :

[ قد جاءكم بصائر من ربكم ] أى : آيات ، تبين الحق ، وتجعله للقلب ،

. . . . . . . . . . .

بمنزلة الشمس للأبصار ، لما اشتملت عليه ، من فصاحة اللفظ ، وبيانه ، ووضوحه ، ومطابقته للمعانى الجليلة ، والحقائق الجميلة ، لأنها صادرة من الرب ، الذى ربى خلقه ، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ، التي من أفضلها وأجلها ، تبيين الآيات ، وتوضيح المشكلات .

[ فمن أبصر ] بتلك الآيات ، مواقع العبرة ، وعمل بمقتضاها [ فلنفسه ] فإن الله هو الغنى الحميد .

( ومن عمى ) بأن بصر ، فلم يتبصر ، وزجر ، فلم ينزجر ، وبين له الحق ، فما انقاد له ولا تواضع ، فإنما مضرة عماه[1] عليه .

[ وما أنا ] أيها الرسول [ عليكم بحفيظ ] أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام ، إنما على البلاغ المبين ، وقد أديته ، وبلغت ما أنزل الله إلي، فهذه وظيفتي ، وما عدا ذلك ، فلست موظفاً فيه .

---

(١) فى الأصل المطبوع كانت العبارة هكذا ( عماه مضرته ) وهو خطأ واضح فلذا صححنا العبارة كما ترى لينتظم الكلام .

وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ

* قوله تعالى ( وكذلك نصرف الآيات ) الكاف فى موضع نصب صفة للمصدر المحذوف ، أى: نصرف الآيات تصريفا ، مثل ما تلونا عليك .

والتصريف معناه : التنويع .

والمراد : أن الله تعالى ،ينوع الآيات الدالة على المعانى الرائعة ، الكاشفة عن الحقائق الفائقة ،لاتصريفا أدنى منه ، بل تصريفاً بلغت فى الروعة مبلغاً ارتقى عن إدراك المخلوقين .

قوله تعالى ( وليقولوا درست ) جوابه محذوف ، تقديره « ونحن نصرفها » أو نفعل مانفعل من التصريف المذكور [ معنى درست ] تعلمت.

وقرأت كتب أهل الكتاب أى : قدمت هذه الآية ومضت .

كما قالوا : أساطير الأولين ، تلقاها ممن مضوا من أهل الكتاب من الأمم السابقة .

( وليقولوا درست ) علة لفعل قد حذف ، تعويلا على دلالة السياق عليه .

أى ، وليقولوا : درست نفعل ما نفعل ، من التصريف المذكور .

واللام للعاقبة والصيرورة ، والواو اعتراضية . أى : لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست وهو كقوله تعالى .

( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ) وهم لم يلتقطوه للعداوة وإنما التقطوه ، ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة .

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟

---

وكذلك الآيات ، صرفت للتبيين ، ولم تصرف ليقولوا : درست .

ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، فشبه به .

وقوله تعالى [ ولنبينه ] أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً ، أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

[ لقوم يعلمون ] الحق من الباطل .

ومجمل معنى الآية :

ومثل هذا التنويع البديع فى عرض الدلائل الكونية ، نعرض آياتنا فى القرآن منوعة مفصلة،لنقيم الحجة بها على الجاحدين ، فلا يجدوا الاختلاق والكذب ، فيتهموك بأنك تعلمت من الناس ، لا من الله ، ولنبين ما أنزل إليك من الحقائق ، من غير تأثر بهوى ، لقوم يدركون الحق ، ويذعنون له .

* اتبع — أيها النبى — ماجاءك به الوحى من الله ، مالك أمرك ، ومدبر شئونك ، إنه — وحده — الإله المستحق للطاعة والخضوع ، فالتزم طاعته ، ولا تبال بعناد المشركين ، ولا تحتفل بهم ، وبأقاويلهم الباطلة .

* قوله تعالى [ ولو شاء الله ] أى : إيمانهم فالمفعول به محذوف [ ما أشركوا ] بين أنهم لايشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٧﴾

اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فأشركوا بمشيئته

☆ قوله تعالى ( وماجعلناك عليهم حفيظاً ) أى رقيبا مهيمنا من قبلنا مراعيا لأعمالهم مأخوذا بإجرامهم وكذلك قوله ( وما أنت عليهم بوكيل ) **من** جهتهم ولا بمسلط تقوم بتدبير أمورهم وترعى مصالحهم .

والمعنى الإجمالى للآية :

ولو أراد الله أن يعبدوه وحده ، لقهرهم على ذلك ، بقوته وقدرته ، لكنه تركهم لاختيارهم .

وما جعلناك رقيباً ، تحصى عليهم أعمالهم ، وما أنت بمكلف ، بأن تقوم عنهم ، بتدبير شئونهم ، وإصلاح أمرهم .

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

* ينهى الله المؤمنين ، عن أمر كان جائزاً ، بل مشروعاً فى الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التى اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله ، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها .

ولكن لما كان هذا السب ، طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذى يجب تنزيه جنابه العظيم ، عن كل عيب ، وآفة ، وسب ، وقدح — نهى الله عن سب آلهة المشركين ، لأنهم يتحمسون[1] لدينهم ، ويتعصبون له.

لأن كل أمة ، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسناً ، وذبوا عنه ، ودافعوا بكل طريق .

حتى إنهم ، يسبون الله ، رب العالمين ، الذى رسخت عظمته فى قلوب الأبرار والفجار ، إذا سب المسلمون آلهتهم .

ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه ، وتعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يحمون » وهو خطأ ، فلذلك صححنا الكلمة بـ « يتحمسون » .

. . . . . . . . . .

وفى هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية[1] وهو أن الوسائل

(١) قوله [ دليل للقاعدة الشرعية الخ ] الرواية المشهورة فى هذه القاعدة معروفة لدى العلماء على وجوه عدة متداولة فيما بينهم .

الأولى : الغاية تبرر الوسيلة .

الثانية : الوسائل لها حكم المقاصد .

الثالثة : وهى التى وردت فى المادة الثانية من ( مجلة الأحكام العدلية ) بهذه الصيغة .

الأمور بمقاصدها يعنى أن الحكم الذى يترتب على أمر يكون على مقتضى ما هو المقصود من ذلك الأ[مر] .

أى : إن الحكم الذى يترتب على فعل المكلف ين[ظر] فيه إلى مقصوده .

فعلى حسبه يترتب الحكم ، تملكا وعدمه ، ثواباً وعدمه ، عقابا وعدمه مؤاخذة وعدمها ، ضمانا وعدمه .

فهذه قاعدة جامعة مستنبطة من الحديث المشهور أخرجه الأئمة الستة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ومن تدبر مسائل النية فى متفرقات أبواب الفقه وجدها فى العبادات بكمالها أعنى الطهارة والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وفى بعض المعاملات .

وفيها بيان أن الشىء الواحد ، يتصف بالحل ، والحرمة باعتبار ما قصد له .

وإليك بعض الأمثلة توضيحا لتلك القاعدة .

فلو رمى إنسان سهما قاصداً صيداً ، فأصاب إنسانا فقتله ، لا يقتل به =

. . . . . . . . . . . .

---

تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأن وسائل المحرم ، ولو كانت جائزة ، تكون محرمة ، إذا كانت تفضى إلى الشر .

---

= ولو قال : أنت على كظهر أمى ، أو مثل أمى ، يرجع إلى نيته .

فإن قصد الظهار فمظاهر،أو الكرامة ، كان كرامة ، أو الطلاق ، كان طلاقا ، أو اليمين كان إيلاء ، لأن اللفظ يحتمل كل ذلك وإذا قصد السارق أخذ الدين من مديونه ، لا تقطع يده .

وإذا أخرج المودع الوديعة بنية لبسها فهلكت قبل اللبس ، يضمن ، وإن لم تكن بتلك النية ، لا يضمن .

واذا وطىء الرجل زوجته على ظن أنها أجنبية يأثم ، وفى شرب الماء على ظن أنه خمر . وفى قتل قاتل مورثه على ظن أنه معصوم الدم . ففى كل هذه الصور يأثم .

فيفسق لقصده الزنا ، وشرب الخمر ، والقتل .

ولكن لا يحد فى جميع الصور المتقدمة ، لقيام الشبهة .

وباقى الكلام مبسوط فى شرح المادة الثانية من ( مجلة الأحكام الشرعية ) لمفتى حمص الأسبق الشيخ « محمد طاهر الأتاسى » الشقيق الأكبر، لصاحب الدولة (هاشم الأتاسى) الرئيس الأسبق للجمهورية العربية السورية فقد أجاد وأفاد ، رحمه الله رحمة واسعة .

وفى ( الأشباه والنظائر ) لابن نجيم ، وفى ( الفتاوى الهندية ) وفى ( رد المحتار على الدر المختار ) تفريعات كثيرة على هذه القاعدة ، فمن أراد الاستقصاء فعليه بمراجعتها .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ

---

* أى وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

[ بالله جهد أيمانهم ] أى : قسما اجتهدوا فيه ، وأكدوه .

[ لئن جاءتهم آية ] تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم [ ليؤمنن بها ].

وهذا الكلام الذى صدر منهم ، لم يكن قصدهم فيه ، الرشاد .

وإنما قصدهم ، دفع الاعتراض ، ورد ماجاء به الرسل قطعاً .

فإن الله أيد رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، التى — عند الالتفات إليها — لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال فى صحة ما جاء به .

فطلبهم — بعد ذلك — للآيات ، من باب التعنت ، الذى لا يلزم إجابته .

بل قد يكون المنع من إجابتهم ، أصلح لهم .

فإن الله ، جرت سنته فى عباده ، أن المقترحين للآيات على رسلهم ، إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها ـ أنه يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال :

[ قل إنما الآيات عند الله ] أى : هو الذى يرسلها إذا شاء ، ويمنعها إذا شاء ، ليس لى من الأمر شىء .

فطلبكم منى الآيات ، ظلم ، وطلب لما لا أملك ، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به ، وتصديقه ، وقد حصل .

يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ

---

ومع ذلك ، فليس معلوماً ، أنهم إذا جاءتهم الآيات ، يؤمنون ويصدقون ، بل الغالب ، ممن هذه حاله ، أنه لا يؤمن ، ولهذا قال :

[ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ] .

أى : ونعاقبهم ، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعى ، وتقوم عليهم الحجة ، بتقليب القلوب ، والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم .

وهذا من عدل الله ، وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم ، وفتح لهم الباب ، فلم يدخلوا ، وبين لهم الطريق ، فلم يسلكوا .

فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق ، كان مناسبا لأحوالهم .

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ، ومشيئتهم وحدهم ، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط .

فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة ، من تنزيل الملائكة إليهم ، يشهدون للرسول بالرسالة ، وتكليم الموتى ، وبعثهم بعد موتهم ، [وحشرنا عليهم كل شىء] حتى يكلمهم [قبلا] ومشاهدة ، ومباشرة ، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل[1] لهم الإيمان ، إذا لم يشأ الله إيمانهم ، ولكن أكثرهم يجهلون .

---

(١) قوله «ما حصل» جواب «لو» فى قوله المتقدم « فإنهم لو جاءتهم ».

قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ

---

فلذلك رتبوا إيمانهم ، على مجرد إتيان الآيات .

وإنما العقل والعلم ، أن يكون العبد مقصوده ، اتباع الحق ، ويطلبه بالطرق التى بينها الله ، ويعمل بذلك ، ويستعين ربه فى اتباعه ، ولا يتكل على نفسه ، وحوله وقوته ، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ، مالا فائدة فيها .

* يقول تعالى ـ مسليا الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ، ويحاربونك ، ويحسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل نبى نرسله إلى الخلق ، أعداء ، من شياطين الإنس والجن ، يقومون بضد ما جاءت به الرسل .

[ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ] أى : يزين بعضهم لبعض ، الأمر الذى يدعون إليه ، من الباطل ، ويزخرفون له العبارات ، حتى يجعلوه فى أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعانى .

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقاً ، ولهذا قال تعالى :

رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ
أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم
مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

---

[ ولتصغى إليه ] أى : ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف [ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ] لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة ، يحملهم على ذلك .

[ وليرضوه ] بعد أن يصغوا إليه ، فيصغون إليه أولا .

فإذا مالوا إليه ، ورأوا تلك العبارات المستحسنة ، رضوه ، وزين فى قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة ، وصفة لازمة .

ثم ينتج من ذلك ، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ، ماهم مقترفون .

أى : يأتون من الكذب بالقول والفعل ، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة .

فهذه حال المفترين ، شياطين الإنس والجن ، المستجيبين لدعوتهم .

وأما أهل الإيمان بالآخرة ، وأولو العقول الوافية ، والألباب الرزينة ، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات ، ولا تخلبهم تلك التمويهات .

بل همتهم ، مصروفة إلى معرفة الحقائق ، فينظرون إلى المعانى التى يدعو إليها الدعاة .

فإن كانت حقا ، قبلوها ، وانقادوا لها ، ولو كسيت عبارات رديئة ، وألفاظا غير وافية .

وإن كانت باطلا ، ردوها على من قالها ، كائناً من كان ، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ، ما هو أرق من الحرير .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ

ومن حكمته تعالى ، فى جعله للأنبياء أعداء ، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه ، أن يحصل لعباده ، الابتلاء ، والامتحان ليتميز الصادق من الكاذب ، والعاقل من الجاهل ، والبصير من الأعمى .

ومن حكمته أن فى ذلك بيانا للحق ، وتوضيحا له .

فإن الحق يستنير ويتضح ، إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه .

فإنه ـ حينئذ ـ يتبين من أدلة الحق ، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ، ومن فساد الباطل وبطلانه ، ما هو من أكبر المطالب ، التى يتنافس فيها المتنافسون .

* أى : قل يا أيها الرسول [أفغير الله أبتغى حكما] أحاكم إليه ، وأتقيد بأوامره ونواهيه .

فإن غير الله محكوم عليه ، لا حاكم .

وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص ، والعيب ، والجور .

وإنما الذى يجب أن يتخذ حاكما ، هو الله وحده لا شريك له ، الذى له الخلق والأمر .

[ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ] أى : موضحاً فيه الحلال والحرام ، والأحكام الشرعية ، وأصول الدين وفروعه ، الذى لا بيان فوق بيانه ، ولا برهان أجلى من برهانه ، ولا أحسن منه حكما ، ولا أقوم قيلا ، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة .

مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

---

وأهل الكتب السابقة ، من اليهود ، والنصارى ، يعترفون بذلك [ ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق ] ولهذا ، تواطأت الأخبار [فلا] تشكن فى ذلك ولا [ تكونن من الممترين ] .

ثم وصف تفصيلها فقال : [ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ] أى : صدقا فى الإخبار ، وعدلا ، فى الأمر والنهى .

فلا أصدق من أخبار الله التى أودعها هذا الكتاب العزيز ، ولا أعدل من أوامره ونواهيه و [ لا مبدل لكلماته ] حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق .

فلا يمكن تغييرها ، ولا اقتراح أحسن منها .

[ وهو السميع ] لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات .

[ العليم ] الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والماضى والمستقبل .

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

---

* يقول تعالى ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، محذرا عن طاعة أكثر الناس : [وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله] فإن أكثرهم قد انحرفوا فى أديانهم ، وأعمالهم ، وعلومهم .

فأديانهم فاسدة ، وأعمالهم تبع لأهوائهم ، وعلومهم ليس فيها تحقيق ، ولا إيصال لسواء الطريق .

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن ، الذى لا يغنى من الحق شيئاً ويتخرصون فى القول على الله ، مالا يعلمون .

ومن كان بهذه المثابة ، فحرى أن يحذر الله منه عباده ، ويصف لهم أحوالهم .

لأن هذا ـ وإن كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ـ فإن أمته تبع له ، فى سائر الأحكام ، التى ليست من خصائصه .

والله تعالى أصدق قيلا ، وأصدق حديثا ، و [ هو أعلم بمن يضل عن سبيله ] وأعلم بمن يهتدى ويهدى .

فيجب عليكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم ، وأرحم بكم من أنفسكم .

ودلت هذه الآية ، على أنه لا يستدل على الحق ، بكثرة أهله ، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور ، أن يكون غير حق .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ

---

بل الواقع بخلاف ذلك ، فإن أهل الحق ، هم الأقلون عددا ، الأعظمون ـ عند الله ـ قدراً وأجراً .

بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل ، بالطرق الموصلة إليه .

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بمقتضى الإيمان ، وأنهم ، إن كانوا مؤمنين ، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، من بهيمة الأنعام ، وغيرها ، من الحيوانات المحللة ، ويعتقدوا حلها ، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية ، من تحريم كثير من الحلال ، ابتداعا من عند أنفسهم ، وإضلالا من شياطينهم .

فذكر الله ، أن علامة المؤمن ، مخالفة أهل الجاهلية ، فى هذه العادة الذميمة ، المتضمنة لتغيير شرع الله ، وأنه ، أى شىء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم ، وبينه ووضحه ؟

فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة ، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال ، خوفا من الوقوع فى الحرام .

ودلت الآية الكريمة ، على أن الأصل فى الأشياء والأطعمة ، الإباحة .

وأنه ، إذا لم يرد الشرع بتحريم شىء منها ، فإنه باق على الإباحة .

فما سكت الله عنه ، فهو حلال ، لأن الحرام قد فصله الله ، فما لم يفصله الله ، فليس بحرام .

عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

---

ومع ذلك ، فالحرام الذى قد فصله الله ، وأوضحه ، قد أباحه عند الضرورة ، والمخمصة ، كما قال تعالى : [ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ] إلى أن قال : [ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ] .

ثم حذر عن كثير من الناس ، فقال : [وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم] أى : بمجرد ما تهوى أنفسهم [ بغير علم ] ولا حجة .

فليحذر العبد من أمثال هؤلاء ، وعلامتهم — كما وصفهم الله لعباده — أن دعوتهم ، غير مبنية على برهان ، ولا لهم حجة شرعية .

وإنما يوجد لهم شبه ، بحسب أهوائهم الفاسدة ، وآرائهم القاصرة .

فهؤلاء معتدون على شرع الله ، وعلى عباد الله ، والله لايحب المعتدين .

بخلاف الهادين المهتدين ، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى ، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية ، ولا يتبعون فى دعوتهم إلا رضا ربهم ، والقرب منه .

﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

* المراد بالإثم : جميع المعاصى ، التى تؤثم العبد ، أى : توقعه فى الإثم ، والحرج ، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق عباده .

فنهى الله عباده ، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن .

أى : السر والعلانية ، المتعلقة بالبدن والجوارح ، والمتعلقة بالقلب .

ولا يتم للعبد ، ترك المعاصى الظاهرة والباطنة ، إلا بعد معرفتها ، والبحث عنها .

فيكون البحث عنها ، ومعرفة معاصى القلب ، والبدن ، والعلم بذلك ، واجباً متعيناً على المكلف .

وكثير من الناس ، يخفى عليه كثير من المعاصى ، خصوصاً ، معاصى القلب ، كالكبر ، والعجب ، والرياء ، ونحو ذلك .

حتى إنه يكون به كثير منها ، وهو لايحس به ولايشعر ، وهذا من الإعراض ، عن العلم ، وعدم البصيرة .

ثم أخبر تعالى ، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن ، سيجزون على حسب كسبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، قلت أو كثرت .

وهذا الجزاء يكون فى الآخرة .

وقد يكون فى الدنيا ، يعاقب العبد ، فيخفف عنه بذلك ، من سيئاته .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ

---

* ويدخل تحت هذ المنهى عنه ، ما ذكر عليه اسم غير الله ، كالذى يذبح للأصنام ، وآلهة المشركين .

فإن هذا ، مما أهل لغير الله به ، المحرم بالنص عليه خصوصاً .

ويدخل فى ذلك ، متروك التسمية ، مما ذبح لله ، كالضحايا ، والهدايا ، أو للحم والأكل ، إذا كان الذابح متعمدا ترك التسمية ، عند كثير من العلماء .

ويخرج من هذا العموم ، الناسى بالنصوص الأخر ، الدالة على دفع الحرج عنه .

ويدخل فى هذه الآية ، ماما ت بغير ذكاة من الميتات ، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه .

ونص الله عليها بخصوصها ، فى قوله : [ حرمت عليكم الميتة ] ولعلها سبب نزول الآية ، لقوله [ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ] • بغير علم .

فإن المشركين — حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة ، وتحليله للمذكاة ، وكانوا يستحلون أكل الميتة — قالوا — معاندة لله ورسوله ، ومجادلة بغير حجة ولابرهان — أتأكلون ماقتلتم ، ولا تأكلون ماقتل الله ؟
يعنون بذلك : الميتة .

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

وهذا رأى فاسد ، لايستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدةالتى لو كان الحق تبعاً لها،لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول ، على شرع الله وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة ، والمنافع الخاصة .

ولا يستغرب هذا منهم ، فإن هذه الآراء وأشباهها ، صادرة عن وحى أوليائهم من الشياطين ، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير .

[ وإن أطعتموهم ] فى شركهم ، وتحليلهم الحرام ، وتحريمهم الحلال [ إنكم لمشركون ]لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين ، فلذلك كان طريقكم، طريقهم .

ودلت هذه الآية الكريمة ، على أن مايقع فى القلوب ، من الإلهامات، والكشوف ، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم ، لاتدل ـ بمجردها على أنها حق ، ولاتصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله .

فإن شهدا لها بالقبول ، قبلت ، وإن ناقضتها ، ردت ، وإن لم يعلم شيء من ذلك ، توقف فيها ، ولم تصدق ، ولم تكذب .

لأن الوحى والإلهام ، يكون من الشيطان ، فلابد من التميز بينهما . والفرقان وبعدم التفريق بين الأمرين ، حصل من الغلط والضلال ، مالا يحصيه إلا الله .

۞ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ
فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ

---

* يقول تعالى : [ أو من كان ] من قبل هداية الله له [ ميتًا ] في ظلمات الكفر ، والجهل ، والمعاصى .

[ فأحييناه ] بنور العلم والإيمان والطاعة ، فصار يمشى بين الناس في النور ، متبصراً في أموره ، مهتديًا لسبيله ، عارفا للخير ، مؤثرا له ، مجتهدًا في تنفيذه فى نفسه .

وغيره عارفا بالشر ، مبغضاً له ، مجتهدًا فى تركه ، وإزالته عن نفسه وعن غيره .

فيستوي هذا بمن هو في الظلمات ، ظلمات الجهل والغى ، والكفر والمعاصى .

[ليس بخارج منها ] قد التبست عليه الطرق ، وأظلمت عليه المسالك ، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء .

فنبه تعالى ، العقول بما تدركه وتعرفه ، أنه لا يستوى هذا ولا هذا كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء والظلمة ، والأحياء والأموات .

فكأنه قيل : فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل ، أن يكون بهذه الحالة ، وأن يبقى فى الظلمات متحيراً :

فأجاب بأنه [ زين للكافرين ما كانوا يعملون ] فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ، ويزينها فى قلوبهم ، حتى استحسنوها ، ورأوها حقا .

أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

---

وصار ذلك عقيدة فى قلوبهم ، وصفة راسخة ملازمة لهم .

فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح .

وهؤلاء ، الذين فى الظلمات يعمهون ، وفى باطلهم يترددون ، غير متساوين .

فمنهم : القادة ، والرؤساء ، والمتبوعون ، ومنهم: التابعون المرءوسون.

والأولون ، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال ، ولهذا قال :

[ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ] أى : الرؤساء الذين قد كبر جرمهم ، واشتد طغيانهم [ ليمكروا فيها ] بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ، ومحاربة الرسل وأتباعهم ، بالقول والفعل .

وإنما مكرهم وكيدهم ، يعود على أنفسهم ، لأنهم يمكرون ، ويمكر الله، والله خير الماكرين .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم فى سبيل الله ، ويسلكون بذلك ، السبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ، ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر فى عاقبته ، بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين .

سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

---

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذى جاءت به الرسل ، حسداً منهم وبغياً ، فقالوا :

[ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ] من النبوة والرسالة .

وفى هذا اعتراض منهم على الله ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق الذى أنزله على أيدى رسله ، وتحجر على فضل الله وإحسانه .

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين ، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين :

فقال : [ الله أعلم حيث يجعل رسالته ] فيمن علمه يصلح لها ، ويقوم بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومتبرىء من كل خلق دنىء ، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلا وتبعاً .

ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ، ولا يزكو عنده .

وفى هذه الآية ، دليل على كمال حكمة الله تعالى ، لأنه ، وإن كان تعالى رحيما ، واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله .

ثم توعد المجرمين فقال : [ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ] أى : إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق ، أذلهم الله .

[ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ] أى : بسبب مكرهم ، لا ظلماً منه تعالى .

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، وعلامة شقاوته وضلاله — :

إن من انشرح صدره للإسلام ، أى : اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيي بضوء اليقين ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذا به — غير مستثقل — فإن هذا ، علامة ، على أن الله قد هداه ، ومن عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق .

وأن علامة من يرد الله أن يضله ، أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً .

أى : فى غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين .

قد انغمس قلبه فى الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته ، يكاد يصعد فى السماء ، أى : كأنه يكلف الصعود إلى السماء ، الذى لا حيلة فيه .

وهذا سببه ، عدم إيمانهم ، فهو الذى أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان .

وهذا ميزان لا يعول ، وطريق لا يتغير .

فإن من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، ييسره الله لليسرى .

ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسييسره للعسرى .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

* أى : معتدلا ، موصلا إلى الله ، وإلى دار كرامته ، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه ، وميز الخير من الشر .

ولكن هذا التفصيل و البيان ، ليس لكل أحد ، إنما هو [ لقوم يذكرون ] :

فإنهم الذين علموا ، فانتفعوا بعلمهم ، وأعد لهم الجزاء الجزيل ، والأجر الجميل .

فلهذا قال : [ لهم دار السلام عند ربهم ] .

وسميت الجنة دار السلام ، لسلامتها من كل عيب ، وآفة وكدر ، وهم وغم ، وغير ذلك من المنغصات .

ويلزم من ذلك ، أن يكون نعيمها : فى غاية الكمال ، ونهاية التمام ؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون ، من نعيم الروح ، والقلب ، والبدن .

ولهم فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

[ وهو وليهم ] الذى يتولى تدبيرهم وتربيتهم ، ولطف بهم في جميع أمورهم ، وأعانهم على طاعته ، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته .

وإنما تولاهم ، بسبب أعمالهم الصالحة ، ومقدماتهم التى قصدوا بها رضا مولاهم .

بخلاف من أعرض عن مولاه ، واتبع هواه .

فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه ، فأفسد عليه دينه ودنياه .

۞ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

* يقول تعالى [ ويوم يحشرهم جميعاً ] أى : جميع الثقلين ، من الإنس والجن ، من ضل منهم ، ومن أضل غيره .

فيقول موبخاً للجن ، الذين أضلوا الإنس ، وزينوا لهم الشر ، وآزوهم إلى المعاصى :

[ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ] أى: من إضلالهم ، وصدهم عن سبيل الله .

فكيف أقدمتم على محارمى ، وتجرأتم على معاندة رسلى ؟ وقمتم محاربين لله ، ساعين فى صد عباد الله عن سبيله ، إلى سبيل الجحيم ؟

فاليوم حقت عليكم لعنتى ، ووجبت لكم نقمتى . وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم ، وإضلالكم لغيركم .

وليس لكم عذر به تعتذرون ، ولا ملجأ إليه تلجأون ، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع .

فلا تسأل حينئذ ، عما يحل بهم من النكال ، والخزى والوبال ، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً .

وأما أولياؤهم من الإنس ، فأبدو عذراً غير مقبول فقالوا :

[ربنا استمتع بعضنا ببعض] أي تمتع كل من الجنى والإنسى ، بصاحبه ، وانتفع به .

إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ

---

فالجنى يستمتع بطاعة الإنسى له ، وعبادته ، وتعظيمه ، واستعاذته به .

والإنسى ، يستمتع بنيل أغراضه ، وبلوغه ، بحسب خدمة الجنى له ، بعض شهواته .

فإن الإنسى يعبد الجنى ، فيخدمه الجنى ، ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية .

أى : حصل منا ، من الذنوب ، ما حصل ، ولا يمكن رد ذلك .

[ وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ] أى : وقد وصلنا المحل الذى نجازى فيه بالأعمال .

فافعل بنا الآن ، ما تشاء ، واحكم فينا ، بما تريد .

قد انقطعت حجتنا ، ولم يبق لنا عذر ، والأمر أمرك ، والحكم حكمك.

وكان فى هذا الكلام منهم ، نوع تضرع وترقق ، ولكن فى غير أوانه .

ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل ، الذى لا جور فيه فقال: [ النار مثواكم خالدين فيها ] .

ولما كان هذا الحكم ، من مقتضى حكمته وعلمه ، ختم الآية بقوله : [ إن ربك حكيم عليم ] .

فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها ، فحكمته الغائية، شملت الأشياء وعمتها ووسعتها .

[ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ] .

أى : وكما ولينا الجن المردة ، وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

---

وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك .

كذلك من سنتنا ، أن نولى كل ظالم ظالما مثله ، يؤزه إلى الشر ، ويحثه عليه ، ويزهده فى الخير ، وينفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها ، البليغ خطرها .

والذنب ذنب الظالم ، فهو الذى أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه جنى [ وما ربك بظلام للعبيد ] .

ومن ذلك ، أن العباد ، إذا كثر ظلمهم وفسادهم ، ومنعهم الحقوق الواجبة ، ولى عليهم ظلمة ، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم ، بالظلم والجور ، أضعاف ما منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ، على وجه غير مأجورين فيه ، ولا محتسبين .

كما أن العباد ، إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاة ظلم واعتساف .

ثم وبخ الله ، جميع من أعرض عن الحق ورده ، من الجن والإنس ، وبين خطأهم ، فاعترفوا بذلك ، فقال :

[ يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ] الواضحات البينات ، التى فيها تفاصيل الأمر والنهى ، والخير والشر ، والوعد والوعيد .

[ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ] ويعلمونكم أن النجاة فيه ،

وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ
يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ

---

والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وأن الشقاء والخسران فى تضييع ذلك .

فأقروا بذلك واعترفوا ، فـ « قالوا » [ بلى شهدنا على أنفسنا.وغرتهم الحياة الدنيا ] بزينتها ، وزخرفها ، ونعيمها فاطمأنوا بها ، ورضوا بها ، وألهتهم عن الآخرة .

[ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين] فقامت عليهم حجة الله ، وعلم حينئذ ، كل أحد ، حتى هم بأنفسهم . عدل الله فيهم .

فقال لهم : حاكما عليهم بالعذاب الأليم :[ ادخلوا في] جملة [أمم،قد خلت من قبلكم ، من الجن والإنس ] صنعوا كصنيعكم ، واستمتعوا بخلاقهم ، كما استمتعتم ، وخاضوا بالباطل كما خضتم ، إنهم كانوا خاسرين .

أى : الأولون من هؤلاء والآخرون .

وأى خسران أعظم ، من خسران جنات النعيم ، وحرمان جوار أكرم الأكرمين ؟ !!

ولكنهم ، وإن اشتركوا فى الخسران ، فإنهم يتفاوتون فى مقداره ، تفاوتا عظيما .

[ولكل] منهم [ درجات مما عملوا ] بحسب أعمالهم ، لا يجعل قليل الشر منهم ، ككثيره ، ولا التابع كالمتبوع ، ولا المرءوس كالرئيس .

كما أن أهل الثواب والجنة ، وإن اشتركوا فى الربح والفلاح ودخول

دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ

---

الجنة ، فإن بينهم من الفرق ، مالا يعلمه إلا الله ، مع أنهم كلهم ، رضوا بما آتاهم مولاهم ، وقنعوا بما حباهم .

فنسأله تعالى ، أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى ، التي أعدها الله للمقربين من عباده ، والمصطفين من خلقه ، وأهل الصفوة ، أهل وداده .

[ وما ربك بغافل عما يعملون ] فيجازى كلا بحسب عمله ، وبما يعلمه من مقصده .

وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ، ونهاهم عن الأعمال السيئة ، رحمة بهم ، وقصدا لمصالحهم .

وإلا ، فهو الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، فلا تنفعه طاعة الطائعين ، كما لا تضره معصية العاصين .

[ إن يشأ يذهبكم ] بالإهلاك [ ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ] .

فإذا عرفتم بأنكم ، لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار ، كما انتقل غيركم ، وترحلون منها ، وتخلونها لمن بعدكم ، كما رحل عنها من قبلكم ، وخلوها لكم .

فلم اتخذتموها قرارا ؟ وتوطنتم بها ، ونسيتم ، أنها دار ممر لادار مقر .

وأن أمامكم دارا ، هى الدار التى جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص ؟

كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ

---

وهى الدار التى يسعى إليها الأولون والآخرون ، ويرتحل نحوها ، السابقون واللاحقون .

التى إذا وصلوها ، فثم الخلود الدائم ، والإقامة اللازمة ، والغاية التى لا غاية وراءها ، والمطلوب الذى ينتهى إليه كل مطلوب ، والمرغوب الذى يضمحل دونه كل مرغوب .

هنالك ، والله ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ويتنافس فيه المتنافسون ، من لذة الأرواح ، وكثرة الأفراح ، ونعيم الأبدان والقلوب ، والقرب من علام الغيوب .

فلله همة ، تعلقت بتلك الكرامات ، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات !!

وما أبخس حظ من رضى بالدون ، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون !!

ولا يستبعد المعرض الغافل ، سرعة الوصول إلى هذه الدار .

[ إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين ] لله ، فارين من عقابه ، فإن نواصيكم تحت قبضته ، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه .

[ قل ] يا أيها الرسول لقومك : إذا دعوتهم إلى الله ، وبينت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه ، فامتنعوا من الانقياد لأمره ، واتبعوا أهواءهم ، واستمروا على شركهم :

[ يا قوم اعملوا على مكانتكم ] أى : على حالتكم التى أنتم عليها ، ورضيتموها لأنفسكم .

إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

[ إنى عامل ] على أمر الله ، ومتبع لمراضى الله .

[ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ] أنا أو أنتم .

وهذا من الإنصاف ، بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعامليها ، وجعل الجزاء مقرونا بنظر البصير ، ضارباً فيه صفحا ، عن التصريح الذى ، يغنى عنه التلويح .

وقد علم أن العاقبة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة ، للمتقين .

وأن المؤمنين لهم عقبى الدار ، وأن كل معرض عن ماجاءت به الرسل ، عاقبته سوء وشر ، ولهذا قال :

[ إنه لا يفلح الظالمون ] فكل ظالم ، وإن تمتع فى الدنيا بما تمتع به ، فنهايته فيه ، الاضمحلال والتلف « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

---

* يخبر تعالى ، عما عليه المشركون المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم ، من سفاهة العقل ، وخفة الأحلام ، والجهل البالغ .

وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم ، لينبه بذلك ، على ضلالهم ، والحذر منهم ، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق ، الذى جاء به الرسول ، لا تقدح فيه أصلا ، فإنهم لا أهلية لهم فى مقابلة الحق .

فذكر من ذلك أنهم [ جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ] ولشركائهم من ذلك نصيباً .

والحال أن الله تعالى ، هو الذى ذرأه للعباد ، وأوجده رزقا ، فجمعوا بين محذورين بل ثلاثة محاذير .

منتهم على الله ، فى جعلهم له نصيباً ، مع اعتقادهم أن ذلك منهم ، تبرع .

وإشراك الشركاء ، الذين لم يرزقوهم ، ولم يوجدوا لهم شيئاً فى ذلك .

وحكمهم الجائر ، فى أن ما كان لله ، لم يبالوا به ، ولم يهتموا ، ولو كان واصلا إلى الشركاء .

وما كان لشركائهم اعتنوا به ، واحتفظوا به ، ولم يصل إلى الله ، منه شىء .

وذلك أنهم إذا حصل لهم — من زروعهم وثمارهم وأنعامهم ، التى أوجدها الله لهم — شىء ، جعلوه قسمين :

قسما قالوا : هذا لله بقولهم وزعمهم ، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه ، ولا يقبل عمل من أشرك به .

وقسما ، جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد .

فإن وصل شيء مما جعلوه لله ، واختلط بما جعلوه لغيره ، لم يبالوا بذلك.

وقالوا : الله غنى عنه ، فلا يردونه .

وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله ، ردوه إلى محله .

وقالوا : إنها فقيرة ، لابد من رد نصيبها .

فهل أسوأ من هذا الحكم . وأظلم ؟!! حيث جعلوا ما للمخلوق ، يجتهد فيه وينصح ، ويحفظ ، أكثر مما يفعل بحق الله .

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ، ما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الله تعالى أنه قال :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من أشرك معى شيئاً تركته وشركه » .

وأن معنى الآية أن ما جعلوه ، وتقربوا به لأوثانهم ، فهو تقرب خالص لغير الله ، ليس لله منه شىء .

وما جعلوه لله — على زعمهم — فإنه لا يصل إليه لكونه شركا ، بل يكون حظ الشركاء والأنداد ، لأن الله غنى عنه ، لايقبل العمل الذى أشرك به معه أحد من الخلق .

لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ

---

ومن سفه المشركين وضلالهم ، أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم — أى : رؤساؤهم وشياطينهم — قتل أولادهم ، وهو : الوأد ، الذين يدفنون أولادهم وهم أحياء خشية الافتقار ، والإناث خشية العار .

وكل هذا من خدع الشياطين ، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ، ويلبسوا عليهم دينهم ، فيفعلون الأفعال التى فى غاية القبح .

ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم ، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة .

ولو شاء الله أن يمنعهم ، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ، ويمنع أولادهم عن قتال الأبوين لهم ، ما فعلوه .

ولكن اقتضت حكمته ، للتخلية بينهم وبين أفعالهم ، استدراجا منه لهم ، وإمهالا لهم ، وعدم مبالاة بما هم عليه ، ولهذا قال :

[ فذرهم وما يفترون ] أى : دعهم مع كذبهم وافترائهم ، ولا تحزن عليهم ، فإنهم لن يضروا الله شيئاً .

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التى أحلها الله لهم عموما ، وجعلها رزقا ورحمة ، يتمتعون بها ، وينتفعون ، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالا ، من تلقاء أنفسهم .

فعندهم اصطلاح فى بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها :

[ هذه أنعام وحرث حجر ] أى : محرم [ لا يطعمها إلا من نشاء ]

إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

---

أى : لا يجوز أن يطعمه أحد ، إلا من أردنا أن يطعمه ، أو وصفناه بوصف من عندنا .

وكل هذا — بزعمهم — لا مستند لهم ولا حجة ، إلا أهويتهم ، وآراؤهم الفاسدة .

وأنعام ليست محرمة من كل وجه ، بل يحرمون ظهورها ، أى: بالركوب والحمل عليها ، ويحمون ظهرها ، ويسمونها الحام .

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، بل يذكرون اسم أصنامهم ، وما كانوا يعبدون من دون الله عليها ، وينسبون تلك الأفعال إلى الله ، وهم كذبة فجار فى ذلك .

[ سنجزيهم بما كانوا يفترون ] على الله ، من إحلال الشرك ، وتحريم الحلال ، من الأكل ، والمنافع .

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ، ويعينونها — محرما ما فى بطنها ، على الإناث دون الذكور ، فيقولون :

[ ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ] أى : حلال لهم ، لا يشاركهم فيها النساء .

[ ومحرم على أزواجنا ] أى : نسائنا ، هذا إذا ولد حياً .

إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

---

وإن يكن ما فى بطنها يولد ميتاً ، فهم فيه شركاء ، أى : فهو حلال للذكور والإناث .

[ سيجزيهم ] الله [ وصفهم ] حيث وصفوا ما أحله الله ، بأنه حرام ، ووصفوا الحرام بالحلال ، فناقضوا شرع الله ، وخالفوه ، ونسبوا ذلك إلى الله .

[ إنه حكيم ] حيث أمهل لهم ، ومكنهم مما هم فيه من الضلال .

[ عليم ] بهم ، لا تخفى عليه خافية ، وهو تعالى ، يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه ، وهو يعافيهم ، ويرزقهم ، جل جلاله .

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال :

[ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ] أى : خسروا دينهم وأولادهم ، وعقولهم ، وصار وصفهم — بعد العقول . الرزينة — السفه المردى ، والضلال .

[ وحرموا ما رزقهم الله ] أى : ما جعله رحمة لهم ، وساقه رزقا لهم . فردوا كرامة ربهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصفوها بأنها حرام ، وهى من أحل الحلال .

وكل هذا [ افتراء على الله ] أى : كذب يكذب به كل معاند كنار .

[قد ضلوا وما كانوا مهتدين] أى: قد ضلوا ضلالا بعيدا ، ولم يكونوا مهتدين فى شىء من أمورهم .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ

---

* لما ذكر تعالى تصرف المشركين فى كثير مما أحله الله لهم ، من الحروث والأنعام ، ذكر تبارك وتعالى ، نعمته عليهم بذلك ، ووظيفتهم اللازمة عليهم ، فى الحروث والأنعام فقال :

[وهو الذى أنشأ جنات] أى : بساتين ، فيها أنواع الأشجار المتنوعة ، والنباتات المختلفة .

[ معروشات وغير معروشات ] أى : بعض تلك الجنات ، مجعول لها عرش ، تنتشر عليه الأشجار ، ويعاونها فى النهوض عن الأرض .

وبعضها خال من العروش ، تنبت على ساق ، أو تنفرش فى الأرض .

وفى هذا تنبيه على كثرة منافعها ، وخيراتها ، وأنه تعالى ، علم العباد كيف يعرشونها ، وينمونها .

[ و ] أنشأ تعالى [ النخل والزرع مختلفا أكله ] أى : كله فى محل واحد ، ويشرب من ماء واحد ، ويفضل الله بعضه على بعض فى الأكل .

وخص تعالى ، النخل ، والزرع على اختلاف أنواعه ، لكثرة منافعها ، ولكونها هى القوت لأكثر الخلق .

( و ) أنشأ تعالى [ الزيتون والرمان متشابها ] فى شجره [وغير متشابه] فى ثمره وطعمه .

كأنه قيل : لأى شىء أنشأ الله هذه الجنات ، وما عطف عليها ؟

مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال : [كلوا من ثمره] أى : النخل والزرع [إذا أثمر] .

[وآتوا حقه يوم حصاده] أى : أعطوا حق الزرع ، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة فى الشرع .

أمرهم أن يعطوها يوم حصادها ، وذلك لأن حصاد الزرع ، بمنزلة حولان الحول .

لأنه الوقت ، الذى تتشوف إليه نفوس الفقراء ، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع ، ويكون الأمر فيها ظاهراً ، لمن أخرجها ، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج .

وقوله : [ولا تسرفوا] يعم النهى عن الإسراف فى الأكل ، وهو : مجاوزة الحد والعادة ، وأن يأكل صاحب الزرع أكلا يضر بالزكاة ، والإسراف فى إخراج حق الزرع ، بحيث يخرج فوق الواجب عليه ، أو يضر نفسه أو عائلته أو غرماءه .

فكل هذا ، من الإسراف الذى نهى الله عنه ، الذى لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقت عليه .

وفى هذه الآية ، دليل على وجوب الزكاة فى الثمار ، وأنه لا حول لها ، بل حولها ، حصادها فى الزروع ، وجذاذ النخيل .

وأنه لا تتكرر فيها الزكاة ، لو مكثت عند العبد أحوالا كثيرة ،

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ

---

إذا كانت لغير التجارة ، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه ، إلا وقت حصاده .

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر ، أنه لا يضمنها ، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع ، قبل إخراج الزكاة منه ، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة ، بل يزكى المال الذى يبقى بعده .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يبعث خارصاً ، يخرص للناس ثمارهم ، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث ، أو الربع ، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره ، من أهلها ، وغيرهم .

* أى : [ و ] خلق وأنشأ [ من الأنعام حمولة وفرشا ] أى : بعضها ، تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها ، لا تصلح للحمل والركوب عليها ، لصغرها ، كالفصلان ونحوها ، وهى الفرش .

فهى من جهة الحمل والركوب ، تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل ، وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها ، تؤكل ، وينتفع بها .

ولهذا قال : [ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ] أى : طرقه وأعماله ، التى من جملتها ، أن تحرموا بعض ما رزقكم الله .

[وإنه لكم عدومبين] فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدى .

وهذه الأنعام التى امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالا طيبا ، فصلها بأنها :

أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ

---

[ ثمانية أزواج من الضأن اثنين] ذكر وأنثى [ومن المعز اثنين] كذلك.

فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها .

فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئا دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزما لهم بعدم وجود الفرق ، بين ما أباحوا منها ، وحرموا :

[ آلذكرين ] من الضأن والمعز [ حرم ] الله ، فلستم تقولون بذلك وتطردونه .

[ أم الأنثيين ] حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم،لاتحريم الذكور الخلص ، ولا الإناث الخلص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتملا على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال :

[ أم ] تحرمون [ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ) أي : أنثى الضأن، وأنثى المعز ، من غير فرق ، بين ذكر وأنثى،فلستم تقولون أيضاً بهذا القول .

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟ .

[ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ] في قولكم ودعواكم .

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولا سائغاً في العقل، إلا واحداً من هذه الثلاثة .

قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

---

وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التى يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث ، دون الذكور ، أو محرمة فى وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التى يعلم علماً لا شك فيه ، أن مصدرها ، من الجهل المركب ، والعقول المختلفة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ، ما أنزل — بما قالوه — من سلطان ، ولا لهم عليه ، حجة ، ولا برهان .

ثم ذكر فى الإبل والبقر مثل ذلك .

فلما بين بطلان قولهم ، وفساده ، قال لهم قولا ، لا حيلة لهم فى الخروج من تبعته ، إلا فى اتباع شرع الله .

[أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا] أى : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها .

وهى : أن تقولوا : إن الله وصانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله .

بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب.

وهذا افتراء لا يجهله أحد ، ولهذا قال :

[فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم] أي : مع

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ

---

كذبه وافترائه على الله ، قصده بذلك ، ضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل .

[ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ] الذين لا إرادة لهم ، فى غير الظلم والجور ، والافتراء على الله .

* لما ذكر تعالى ذم المشركين ، على ما حرموا من الحلال ، ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم .

أمر تعالى رسوله ، أن يبين للناس ، ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال .

من نسب تحريمه إلى الله ، فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون ، إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله :

[ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ] أى: محرما أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

[ إلا أن يكون ميتة ] والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل .

كما قال تعالى : [ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ] .

[أو دما مسفوحاً ] وهو : الدم الذى لا يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذى يضر احتباسه فى البدن ، فإذا خرج من البدن ، زال الضرر بأكل اللحم .

أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

---

ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذى يبقى فى اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

[ أو لحم خنزير فإنه رجس ] أى : فإن هذه الأشياء الثلاثة ، رجس ، أى : خبث نجس مضر ، حرمه الله ، لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث .

[ أو ] إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان ، والآلهة التى يعبدها المشركون ، فإن هذا ، من الفسق الذى هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته .

[ فمن اضطر ] أى : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أى : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شىء منها ، بأن لم يكن عنده شىء ، وخاف على نفسه التلف .

[ غير باغ ] أي : مريد لأكلها ، من غير اضطرار .

[ ولا عاد ] أى : متجاوز للحد ، بأن يأكل زيادة عن حاجته .

[ فإن ربك غفور رحيم ] أى : فالله قد سامح من كان بهذه الحال .

واختلف العلماء رحمهم الله فى هذا الحصر المذكور ، فى هذه الآية ، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها ، كالسباع ، وكل ذى مخلب من الطير ونحو ذلك .

فقال بعضهم : إن هذه الآية ، نازلة قبل تحريم ما زاد،على ما ذكرفيها.

رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ

---

فلا ينافى هذا الحصر المذكور فيها ، التحريم المتأخر بعد ذلك ، لأنه لم يجده فيما أوحى إليه فى ذلك الوقت .

وقال بعضهم : إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة .

فإن قوله تعالى فى تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير ، أو الأخير منها فقط : [ فإنه رجس ] وصف شامل لكل محرم . فإن المحرمات كلها ،رجس، وخبث ، وهى من أخبث الخبائث المستقذرة ، التى حرمها الله على عباده ، صيانة لهم ، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس .

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم ، من السنة ، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه .

فإذا كان الله تعالى ، لم يحرم من المطاعم ، إلا ما ذكر ، والتحريم لا يكون مصدره ، إلا شرع الله — دل ذلك على أن المشركين ، الذين حرموا ما رزقهم الله ، مفترون على الله ، متقولون عليه ما لم يقل .

وفى الآية احتمال قوى ، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير .

وهو : أن السياق فى نقض أقوال المشركين المتقدمة ، فى تحريمهم لما أحله الله ، وخوضهم بذلك ، بحسب ما سولت لهم أنفسهم ، وذلك فى بهيمة الأنعام خاصة .

وليس منها ، محرم إلا ما ذكر فى الآية : الميتة منها ، وما أهل لغير الله به ، وما سوى ذلك ، فحلال .

أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا ، على هذا الاحتمال ، أن بعض الجهال ، قد يدخله فى بهيمة الأنعام ، وأنه نوع من أنواع الغنم ، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم ، فينمونها ، كما ينمون المواشى ، ويستحلونها ، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام .

فهذا المحرم على هذه الأمة كلها ، من باب التنزيه لهم والصيانة .

وأما ما حرم على أهل الكتاب ، فبعضه طيب ، ولكنه حرم عليهم ، عقوبة لهم ولهذا قال :

[ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ] وذلك كالإبل، وما أشبهها.

[ ومن البقر والغنم ، حرمنا عليهم ] بعض أجزائها،وهو:[شحومهما].

وليس المحرم جميع الشحوم منها ، بل شحم الإلية والثرب ، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال :

[ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا ] أى : الشحم المخالط للأمعاء [ أو ما اختلط بعظم ] .

( ذلك ) التحريم على اليهود [ جزيناهم ببغيهم ] أى : ظلمهم وتعديهم فى حقوق الله وحقوق عباده فحرم الله عليهم هذه الأشياء ، عقوبة لهم ، ونكالا .

[ وإنا لصادقون ] فى كل ما نقول ، ونفعل ، ونحكم به .

ومن أصدق من الله حديثاً ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

* أى : فإن كذبك هؤلاء المشركون ، فاستمر على دعوتهم ، بالترغيب والترهيب ، وأخبرهم بأن الله [ ذو رحمة واسعة ] أى : عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها .

فسارعوا إلى رحمته بأسبابها ، التى رأسها وأساسها ومادتها ، تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

[ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ] أى : الذين كثر إجرامهم وذنوبهم .

فاحذروا الجرائم الموصلة ، لبأس الله ، التى أعظمها ورأسها ، تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

* هذا إخبار من الله ، أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ، ما أحل الله بالقضاء والقدر ، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء ، من الخير والشر ، حجة لهم فى دفع اللوم عنهم .

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه ، كما قال فى الآية الأخرى :

[ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ] الآية .

فأخبر تعالى أن هذه الحجة ، لم تزل الأمم المكذبة ، تدفع بها عنهم دعوة الرسل ، ويحتجون بها ، فلم تجد فيهم شيئاً ، ولم تنفعهم ، فلم يزل هذا دأبهم ، حتى أهلكهم الله ، وأذاقهم بأسه .

فلو كانت حجة صحيحة ، لدفعت عنهم العقاب ، ولما أحل الله بهم العذاب ، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه .

فعلم أنها حجة فاسدة ، وشبهة كاسدة ، من عدة أوجه :

منها : ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة ، لم تحل بهم العقوبة .

ومنها : أن الحجة ، لابد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان .

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص ، الذى لا يغنى من الحق شيئاً ، فإنها باطلة ، ولهذا قال :

[ قل هل عندكم عن علم فتخرجوه لنا ] فلو كان لهم علم ـ وهم خصوم ألداء ـ لأخرجوه ، فلما لم يخرجوه علم أنه ، لا علم عندهم .

حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ

---

[ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ] ومن بنى حججه على الخرص والظن ، فهو مبطل خاسر .

فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد ؟

ومنها : أن لله الحجة البالغة ، التي لم تبق لأحد عذراً ، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون ، والكتب الإلهية ، والآثار النبوية ، والعقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة ، والأخلاق القويمة .

فعلم بذلك ، أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة ، باطل ، لأن نقيض الحق ، لا يكون إلا باطلا .

ومنها : أن الله تعالى ، أعطى كل مخلوق ، قدرة ، وإرادة ، يتمكن بها ، من فعل ما كلف به .

فما أوجب الله على أحد ، ما لا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد ، ما لا يتمكن من تركه .

فالاحتجاج ـ بعد هذا ـ بالقضاء والقدر ، ظلم محض ، وعناد صرف .

ومنها : أن الله تعالى ، لم يجبر العباد على أفعالهم ، بل جعل أفعالهم ، تبعاً لاختيارهم .

فإن شاءوا ، فعلوا ، وإن شاءوا ، كفوا .

وهذا أمر مشاهد ، لا ينكره إلا من كابر ، وأنكر المحسوسات .

فإن كل أحد ، يفرق بين الحركة الاختيارية ، والحركة القسرية ، وإن كان الجميع داخلا فى مشيئة الله ، ومندرجاً تحت إرادته .

ومنها : أن المحتجين على المعاصى بالقضاء والقدر ، يتناقضون فى ذلك .

فإنهم لا يمكنهم ، أن يطردوا ذلك ، بل لو أساء إليهم مسىء ، بضرب ، أو أخذ مال ، أو نحو ذلك ، واحتج بالقضاء والقدر ، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ، ولغضبوا من ذلك ، أشد الغضب .

فياعباً [1] ، كيف يحتجون به على معاصى الله ومساخطه . ولا يرضون من أحد ، أن يحتج به ، فى مقابلة مساخطهم ؟ ! !

ومنها : أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ، ليس مقصوداً ، ويعلمون أنه ليس بحجة .

وإنما المقصود منه ، دفع الحق ، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل .

فهم يدفعونه ، بكل ما يخطر ببالهم ، من الكلام المصيب عندهم ، والمخطىء .

(١) هكذا في الأصل . لعل الصواب فياعجباً .

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا
فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

---

* أى: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم، الذين يشهدون أن الله حرم هذا .

فإذا قيل لهم هذا الكلام ، فهم بين أمرين :

إما : أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا ، فتكون دعواهم ، إذاً باطلة ، خلية من الشهود والبرهان .

وإما : أن يحضروا أحداً ، يشهد لهم بذلك ، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم ، غير مقبول الشهادة .

وليس هذا ، من الأمور التى يصح أن يشهد بها العدول ، ولهذا قال تعالى ـ ناهياً نبيه ، وأتباعه عن هذه الشهادة ـ :

[ فإن شهدوا ، فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ] أى : يسوون به غيره من الأنداد والأوثان .

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر ، غير موحدين الله ، كانت أهواءهم ، مناسبة لعقيدتهم ، وكانت دائرة ، بين الشرك والتكذيب بالحق .

فحرى بهوى ، هذا شأنه ، أن ينهى الله خيار خلقه ، عن اتباعه ، وعن الشهادة مع أربابه .

وعلم حينئذ ، أن تحريمهم لما أحل الله ، صادر عن تلك الأهواء المضلة .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

---

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ قل ] لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله .

[ تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ] تحريماً عاماً ، شاملا لكل أحد ، محتوياً على سائر المحرمات ، من المآكل ، والمشارب ، والأقوال ، والأفعال .

[ أن لا تشركوا بالله شيئاً ] أى : لا قليلا ولا كثيراً .

وحقيقة الشرك بالله : أن يعبد المخلوق ، كما يعبد الله ، أو يعظم كما يعظم الله ، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية .

وإذا ترك العبد الشرك كله ، صار موحداً ، مخلصاً لله فى جميع أحواله .

فهذا حق الله على عباده ، أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً .

ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال : [ وبالوالدين إحساناً ] من الأقوال الكريمة الحسنة ، والأفعال الجميلة المستحسنة .

فكل قول وفعل ، يحصل به منفعة للوالدين ، أو سرور لهما ، فإن ذلك ، من الإحسان ، وإذا وجد الإحسان ، انتفى العقوق .

[ ولا تقتلوا أولادكم ] من ذكور وإناث [ من إملاق ] أى : بسبب الفقر وضيقتكم من رزقهم ، كما كان ذلك موجوداً فى الجاهلية القاسية الظالمة .

وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال ، وهم أولادهم ، فنهيهم عن قتلهم ، لغير موجب ، أو قتل أولاد غيرهم ، من باب أولى ، وأحرى .

نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّٰكُم بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ

---

[ نحن نرزقكم وإياهم ] أي : قد تكفلنا برزق الجميع ، فلستم الذين ترزقون أولادكم ، بل ولا أنفسكم ، فليس عليكم منهم ضيق .

[ ولا تقربوا الفواحش ] وهى : الذنوب العظام المستفحشة .

[ ما ظهر منها وما بطن ] أى : لا تقربوا الظاهر منها ، والخفى ، أو المتعلق منها بالظاهر ، والمتعلق بالقلب والباطن .

والنهى عن قربان الفواحش ، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها ، فإنه يتناول النهى عن مقدماتها ، ووسائلها الموصلة إليها .

[ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ] وهى : النفس المسلمة ، من ذكر ، وأنثى ، صغير ، وكبير ، بر ، وفاجر ، والكافرة التى قد عصمت ، بالعهد والميثاق .

[ إلا بالحق ] كالزانى المحصن ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة .

[ ذلكم ] المذكور [ وصاكم به لعلكم تعقلون ] عن الله وصيته ، ثم تحفظونها ، ثم تراعونها ، وتقومون بها .

ودلت الآية ، على أنه بحسب عقل العبد ، يكون قيامه بما أمر الله به .

[ ولا تقربوا مال اليتيم ] بأكل ، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم ، أو أخذ من غير سبب .

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

---

[ إلا بالتى هى أحسن ] أى : إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم ، وينتفعون بها .

فدل هذا ، على أنه لا يجوز قربانها ، والتصرف بها ، على وجه يضر اليتامى ، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة .

[حتى يبلغ] اليتيم [ أشده] أى : حتى يبلغ ويرشد ، ويعرف التصرف .

فإذا بلغ أشده ، أعطى ، حينئذ ، ماله ، وتصرف فيه على نظره .

وفى هذا دلالة على أن اليتيم ـ قبل بلوغ الأشد ـ محجور عليه ، وأن وليه ، يتصرف فى ماله بالأحظ ، وأن هذا الحجر ، ينتهى ببلوغ الأشد .

[ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ] أى : بالعدل ، والوفاء التام .

فإذا اجتهدتم فى ذلك ، فإننا [ لا نكلف نفساً إلا وسعها ] أى : بقدر ما تسعه ، ولا تضيق عنه .

فمن حرص على الإيفاء ، فى الكيل ، والوزن ، ثم حصل منه تقصير ، لم يفرط فيه ، ولم يعلمه ، فإن الله غفور رحيم .

وبهذه الآية استدل الأصوليون ، بأن الله لا يكلف أحداً ، ما لا يطيق ، وعلى أن من اتقى الله ، فيما أمر ، وفعل ما يمكنه من ذلك ، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك .

[ وإذا قلتم ] قولا تحكمون به بين الناس ، وتفصلون بينهم الخطاب ، وتتكلمون به على المقالات والأحوال [ فاعدلوا ] فى قولكم ، بمراعاة الصدق

وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

---

فيمن تحبون ، ومن تكرهون والإنصاف ، وعدم كتمان ما يلزم بيانه .

فإن الميل ، على من تكره بالكلام فيه ، أو فى مقالته ، من الظلم المحرم .

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع ، فالواجب عليه ، أن يعطى كل ذى حق حقه ، وأن يبين ما فيها ، من الحق والباطل ، ويعتبر قربها من الحق ، وبعدها منه .

وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين ، فى لحظة ، ولفظة .

[ وبعهد الله أوفوا ] وهذا يشمل العهد الذى عاهده عليه العباد ، من القيام بحقوقه ، والوفاء بها ، ومن العهد الذى يقع التعاهد به بين الخلق .

فالجميع ، يجب الوفاء به ، ويحرم نقضه ، والإخلال به .

[ ذلكم ] الأحكام المذكورة [ وصاكم به لعلكم تذكرون ] ما بينه لكم من الأحكام ، وتقومون بوصية الله لكم ، حق القيام ، وتعرفون ما فيها ، من الحكم والأحكام .

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار ، والشرائع المهمة ، أشار إليها ، وإلى ما هو أعم منها فقال :

[ وأن هذا صراطى مستقيما ] أى : هذه الأحكام وما أشبهها ، مما

عن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

بينه الله فى كتابه ، ووضحه لعباده ، صراط الله الموصل إليه ، وإلى دار كرامته ، المعتدل السهل المختصر .

[ فاتبعوه ] لتنالوا الفوز والفلاح ، وتدركوا الآمال والأفراح .

[ ولا تتبعوا السبل ] أى : الطرق المخالفة لهذا الطريق .

[ فتفرق بكم عن سبيله ] أى : تضلكم عنه وتفرقكم ، يميناً وشمالا .

فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم ، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

[ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ] ، فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم، علماً وعملا ، صرتم من المتقين ، وعباد الله المفلحين .

ووحد الصراط ، وأضاف إليه ، لأنه سبيل واحد موصل إليه .

والله هو المعين للسالكين ، على سلوكه .

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟

---

* [ ثم ] فى هذا الموضع ، ليس المراد منها الترتيب الزمانى ، فإن زمن موسى عليه السلام ، متقدم على تلاوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب ، وإنما المراد ، الترتيب الإخبارى .

فأخبر أنه آتى [ موسى الكتاب ] وهو : التوراة [ تماماً ] لنعمته ، وكمالا لإحسانه .

[ على الذى أحسن ] من أمة موسى ، فإن الله أنعم على المحسنين منهم ، بنعم لا تحصى .

من جملتها وتمامها ، إنزال التوراة عليهم .

فتمت عليهم نعمة الله ، ووجب عليهم القيام بشكرها .

[ وتفصيلا لكل شىء ] يحتاجون إلى تفصيله ، من الحلال ، والحرام ، والأمر ، والنهى ، والعقائد ونحوها .

[ وهدى ورحمة ] أى : يهديهم إلى الخير ، ويعرفهم بالشر ، فى الأصول ، والفروع .

[ ورحمة ] يحصل لهم بها ، السعادة والرحمة ، والخير الكثير .

[ لعلهم ] بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم .

[ بلقاء ربهم يؤمنون ] فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة ، على البعث ، والجزاء بالأعمال ، وما يوجب لهم الإيمان ، بلقاء ربهم ، والاستعداد له .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

---

[ وهذا ] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم .

[ كتاب أنزلناه مبارك ] أى : فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير .

وهو الذى تستمد منه سائر العلوم ، وتستخرج منه البركات .

فما من خير ، إلا وقد دعا إليه ، ورغب فيه ، وذكر الحكم والمصالح ، التى تحث عليه .

وما من شر ، إلا وقد نهى عنه ، وحذر منه ، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله ، وعواقبها الوخيمة .

[ فاتبعوه ] فيما يأمر به، وينهى ، وابنوا أصول دينكم ، وفروعه عليه .

[ واتقوا ] الله تعالى أن تخالفوا له أمراً [ لعلكم ] إن اتبعتموه [ ترحمون ] .

فأكبر سبب لنيل رحمة الله ، اتباع هذا الكتاب ، علما وعملا .

[ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ] .

أى : أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك ، قطعاً لحجتكم ، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى : اليهود والنصارى .

( وإن كنا عن دراستهم لغافلين ) أى : تقولون لم تنزل علينا كتاباً والكتب ، التى أنزلتها على الطائفتين ، ليس لنا بها علم ولا معرفة .

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ

---

فأنزلنا إليكم كتاباً ، لم ينزل من السماء كتاب ، أجمع ، ولا أوضح ، ولا أبين ، منه .

[ أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ] .

أى : إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم .

وإما أن تعتذروا ، بعدم كمالها وتمامها ، فحصل لكم بكتابكم ، أصل الهداية وكمالها .

ولهذا قال : [ فقد جاءكم بينة من ربكم ] وهذا اسم جنس ، يدخل فيه كل ما يبين الحق .

[ وهدى ] من الضلالة [ ورحمة ] أى : سعادة لكم فى دينكم ودنياكم .

فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه ، والإيمان بأخباره ، وأن من لم يرفع به رأساً ، وكذب به ، فإنه أظلم الظالمين ، ولهذا قال :

فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ] أى : أعرض ونأى بجانبه .

[سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب] الذى يسوء صاحبه ، ويشق عليه .

ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

[ بما كانوا يصدفون ] لأنفسهم ولغيرهم ، جزاء لهم ، على عملهم السيء [ وما ربك بظلام للعبيد ] .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن علم القرآن ، أجل العلوم وأبركها ، وأوسعها ، وأنه به ، تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم ، هداية تامة ، لايحتاج معها إلى تخرص المتكلفين ، ولا إلى أفكار المتفلسفين ، ولا لغير ذلك ، من علوم الأولين والآخرين .

وأن المعروف ، أنه لم ينزل جنس الكتاب ، إلا على الطائفتين ، من اليهود والنصارى .

فهم أهل الكتاب عند الإطلاق ، لايدخل فيهم سائر الطوائف . لا المجوس ، ولاغيرهم .

وفيه : ما كان عليه الجاهلية ، قبل نزول القرآن ، من الجهل العظيم ، وعدم العلم بما عند أهل الكتاب ، الذين عندهم ، مادة العلم ، وغفلتهم عن دراسة كتبهم .

۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ

---

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم .

[ إلا أن يأتيهم ] مقدمات العذاب ، ومقدمات الآخرة ، بأن تأتيهم [ الملائكة ] لقبض أرواحهم .

فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال ، لم ينفعهم الإيمان ، ولا صالح الأعمال.

[ أو يأتى ربك ] لفصل القضاء بين العباد ، ومجازاة المحسنين والمسيئين .

[ أو يأتى بعض آيات ربك ] الدالة على قرب الساعة .

[ يوم يأتى بعض آيات ربك ] الخارقة للعادة ، التى يعلم بها أن الساعة قد دنت ، وأن القيامة قد اقتربت .

[ لا ينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ] .

أى : إذا وجد بعض آيات الله ، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن ، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك . وما كان له من الخير الموجود ، قبل أن يأتى بعض الآيات .

والحكمة فى هذا ، ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع ، إذا كان إيمانا بالغيب ، وكان اختيارا من العبد .

إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

فأما إذا وجدت الآيات ، صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضرورى ، كإيمان الغريق ، والحريق ، ونحوهما ، ممن إذا رأى الموت ، أقلع عما هو فيه ، كما قال تعالى :

[ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ].

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن المراد ببعض آيات الله ، طلوع الشمس من مغربها ، وأن الناس إذا رأوها ، آمنوا ، فلم ينفعهم إيمانهم ، ويغلق حينئذ ، باب التوبة .

ولما كان هذا وعيدا للمكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، منتظراً ، وهم ينتظرون ] بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال [ قل انتظروا إنا منتظرون ] فستعلمون أينا أحق بالأمن .

وفى هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، فى إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى ، كالاستواء ، والنزول ، والإتيان لله ، تبارك وتعالى من غير تشبيه له ، بصفات المخلوقين .

وفى الكتاب والسنة ، من هذا ، شىء كثير .

وفيه أن من جملة أشراط الساعة ، طلوع الشمس من مغربها .

وأن الله تعالى حكيم ، قد جرت عادته وسنته ، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا ، كما تقدم .

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه .

فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو ، إذا كان مع العبد إيمان .

فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شىء من ذلك .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

---

* يتوعد تعالى ، الذين فرقوا دينهم ، أى : شتتوه وتفرقوا فيه ، وكل أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء ، التى لا تفيد الإنسان فى دينه شيئا ، كاليهودية والنصرانية ، والمجوسية .

أو لا يكمل بها إيمانه ، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ، ويجعله دينه ، ويدع مثله .

أو ماهو أولى منه ، كما هو حال أهل الفرقة ، من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة .

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف فى أهل الدين ، وفى سائر مسائله الأصولية والفروعية .

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال : [ لست منهم فى شىء ] أى لست منهم ، وليسوا منك ، لأنهم خالفوك وعاندوك .

[ إنما أمرهم إلى الله ] يردون إليه ، فيجازيهم بأعمالهم [ ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ] .

ثم ذكر صفة الجزاء فقال : [ من جاء بالحسنة ] القولية والفعلية ، الظاهرة ، والباطنة ، المتعلقة بحق الله ، أو حق خلقه .

[ فله عشر أمثالها ] هذا أقل ما يكون من التضعيف .

[ ومن جاء بالسيئة ، فلا يجزى إلا مثلها ] وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : [ وهم لا يظلمون ] .

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا
مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي
وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

---

* يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول ويعلن ، بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم :

الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة ، والأعمال الصالحة ، والأمر بكل حسن ، والنهى عن كل قبيح ، الذى عليه الأنبياء والمرسلون ، خصوصاً أمام الحنفاء ، ووالد من بعث من بعد موته ، من الأنبياء ، خليل الرحمن ، إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو الدين الحنيف ، المائل عن كل دين غير مستقيم ، من أديان أهل الانحراف ، كاليهود ، والنصارى ، والمشركين .

وهذا عموم ، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال :

[ قل إن صلاتى ونسكى ] أى : ذبحى ، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ودلالتهما على محبة الله تعالى ، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب واللسان ، والجوارح ، وبالذبح الذى هو بذل ما تحبه النفس ، من المال ، لما هو أحب إليها ، وهو الله تعالى .

ومن أخلص فى صلاته ونسكه ، استلزم ذلك إخلاصه لله فى سائر أعماله وأقواله :

[ ومحياي ومماتي ] أى : ما آتيه فى حياتى ، وما يجريه الله علي ، وما يقدر علي فى مماتى .

الجميع [ لله رب العالمين لاشريك له ] فى العبادة ، كما أنه ليس له شريك فى الملك والتدبير .

وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

ليس هذا الإخلاص لله ، ابتداعاً منى ، وبدعاً أتيته من تلقاء نفسى .

بل [ وبذلك أمرت ] أمراً حتما ، لا أخرج من التبعة ، إلا بامتثاله [ وأنا أول المسلمين ] من هذه الأمة .

[ قل أغير الله ] من المخلوقين [ أبغى ربا ] أى : يحسن ذلك ويليق بى ، أن أتخذ غيره ، مربياً ومدبراً والله رب كل شىء،فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته ، منقادون لأمره ؟ ! ! .

فتعين على وعلى غيرى ، أن يتخذ الله ربا ، ويرضى به ، ولا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذلك الجزاء فقال :

[ ولا تكسب كل نفس ] من خير وشر [ إلا عليها ] كما قال تعالى : [ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ] .

[ ولا تزر وازرة وزر أخرى ] بل كل عليه وزر نفسه .

وإن كان أحد قد تسبب فى ضلال غيره ووزره ، فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شىء .

[ ثم إلى ربكم مرجعكم ] يوم القيامة [ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ] من خير وشر ، ويجازيكم على ذلك ، أو فى الجزاء .

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ
وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ
رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

---

[ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ] أى : يخلف بعضكم بعضاً ، واستخلفكم الله فى الأرض ، وسخر لكم جميع ما فيها ، وابتلاكم ، لينظر كيف تعملون .

[ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ] فى القوة والعافية ، والرزق ، والخلق والخُلق .

[ ليبلوكم فيما آتاكم ] فتتفاوت أعمالكم .

[ إن ربك سريع العقاب ] لمن عصاه وكذب بآياته .

[ وإنه لغفور رحيم ] لمن آمن به ، وعمل صالحاً ، وتاب من الموبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام ، وبه تم الجزء الثانى من ( تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ) ، فلله الحمد والثناء .

ويليه الجزء الثالث ، وأوله تفسير سورة الأعراف .

. . . . . . . . . . .

---

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

وكان الفراغ من كتابته ، فى يوم الجمعة ، الموافق خمسة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ . بقلم الفقير إلى ربه المنان على الحسن العلى البريكان .

وقد نسخته من نسخة المؤلف ، غفر الله له ، وأثابه على ذلك ، الثواب الجزيل .

وجزاه الله عنا ، وعن جميع المسلمين ، أفضل الجزاء ، فى دار الجزاء .

وأدخله الله ــ برحمته ــ فسيح الجنان ، ووقانا وإياه ، عذاب النيران ، بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ــ آمين ثم آمين . يارب العالمين .

# فهرس

## الجزء الثانى

صفحة

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

## الجزء الثالث

من تفسير سورة الأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود

مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة

المملكة العربية السعودية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تفســـير

# سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ
حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم

---

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، مبينا له عظمة القرآن :

[ كتاب أنزل إليك ] أى : كتاب جليل ، حوى كل ما يحتاج إليه العباد ، وجميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية ، محكما مفصلا .

[ فلا يكن فى صدرك حرج منه ] أى : ضيق وشك واشتباه .

بل لنعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ، وأنه أصدق الكلام ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فلينشرح له صدرك ، ولتطمئن به نفسك ، ولتصدع بأوامره ونواهيه ، ولا تخش لائماً ومعارضاً .

[ لتنذر به ] الخلق ، وتعظهم ، وتذكرهم ، فتقوم الحجة على المعاندين .

[ و ] ليكن [ ذكرى للمؤمنين ] كما قال تعالى [ وذكر فإن الذكرى

مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

---

تنفع المؤمنين ] يتذكرون به الصراط المستقيم ، وأعماله الظاهرة والباطنة ، وما يحول بين العبد ، وبين سلوكه .

ثم خاطب الله العباد ، ولفتهم إلى الكتاب فقال :

[ واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ] أي : الكتاب الذى أريد إنزاله لأجلكم ، وهو :

[ من ربكم ] الذى يريد أن يتم تربيته لكم ، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذى إن اتبعتموه ، كملت تربيتكم ، وتمت عليكم النعمة ، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ، ومعاليها .

[ ولا تتبعوا من دونه أولياء ] أى : تتولونهم ، وتتبعون أهواءهم ، وتتركون لأجلها الحق .

[ قليلا ما تذكرون ] فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة ، لما آثرتم الضار على النافع ، والعدو على الولىّ .

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم ، فلا يشابهونهم فقال :

[ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ] أي : عذابنا الشديد [ بياتا أو هم قائلون ] أى : في حين غفلتهم ، وعلى غرتهم غافلون ، لم يخطر الهلاك على قلوبهم .

فحين جاءهم العذاب ، لم يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أغنت عنهم آلهتهم ،

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

---

التى كانوا يرجونهم[1]، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصى.

[ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ] كما قال تعالى :

[ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ].

وقوله [ فلنسألن الذين أرسل إليهم ] أى : لنسألن الأمم ، الذين أرسل الله إليهم المرسلين ، عما أجابوا رسلهم ، ( ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ) الآيات .

[ولنسألن المرسلين] عن تبليغهم، لرسالات ربهم ، وعما أجابتهم به أممهم.

---

( ١ ) قوله ( يرجونهم الخ ) من باب تغليب العقلاء على غيرهم ، لأن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويرجونها وليست من العقلاء كما كانوا أيضاً يعوذون برجال من الجن والإنس كما اتخذوا فرعون والنمرود إلها فتعبير المؤلف بـ « يرجونهم » إنما يتمشى على إرادة العقلاء ، لأن « هم » لا تكون إلا للعقلاء فلذلك قلنا : « من باب تغليب العقلاء » ولو كان المعنى مقتصراً على الأصنام ، لما صح التعبير بـ « يرجونهم » بل لتعين أن يقال « يرجونهن » لأن ضمير « هن » صالحة للعاقلات ولغير العقلاء مؤنثا ومذكرا .

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

---

[فلنقصن عليهم] أي : على الخلق كلهم ما عملوا [بعلم] منه تعالى لأعمالهم .

[ وما كنا غائبين ] فى وقت من الأوقات ، كما قال تعالى :

[ أحصاه الله ونسوه ] .

وقال تعالى [ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين] .

* ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال : [ والوزن يومئذ الحق ] إلى قوله :

[ بما كانوا بآياتنا يظلمون ] .

أى : والوزن يوم القيامة يكون بالعدل ، والقسط ، الذى لا جور فيه ولا ظلم بوجه .

[ فمن ثقلت موازينه ] بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته .

[فأولئك هم المفلحون] أى : الناجون من المكروه ، المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الربح العظيم ، والسعادة الدائمة .

[ ومن خفت موازينه ] بأن رجحت سيئاته ، وصار الحكم لها .

[ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ] إذ فاتهم النعيم المقيم ، وحصل لهم العذاب الأليم .

[ بما كانوا بآياتنا يظلمون ] فلم ينقادوا لها ، كما يجب عليهم ذلك .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ

---

* يقول تعالى — ممتنا على عباده بذكر السكن والمعيشة [ ولقد مكناكم فى الأرض ] أى : هيأناها لكم ، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ، ووجوه الانتفاع بها .

[ وجعلنا لكم فيها معايش ] مما يخرج من الأشجار والنبات ، ومعادن الأرض ، وأنواع الصنائع والتجارات ، فإنه هو الذى هيأها ، وسخر أسبابها .

[ قليلا ما تشكرون ] الله ، الذى أنعم عليكم بأصناف النعم ، وصرف عنكم النقم .

* يقول تعالى ، مخاطباً لبنى آدم : [ولقد خلقناكم] بخلق أصلكم ومادتكم التى منها خرجتم ، من أبيكم آدم عليه السلام [ ثم صورناكم ] فى أحسن صورة ، وأحسن تقويم .

وعلمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة ، أسماء كل شىء .

ثم أمر الملائكة الكرام ، أن يسجدوا لآدم ، إكراماً واحتراماً ، وإظهاراً لفضله ، فامتثلوا أمر ربهم .

[ فسجدوا ] كلهم أجمعون ، [ إلا إبليس ] أبى أن يسجد له ، تكبرا عليه ، وإعجابا بنفسه .

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا

---

فوبخه الله على ذلك وقال : [ ما منعك ألا تسجد ] لما خلقت بيدىَّ ، أي : شرفته ، وفضلته بهذه الفضيلة ، التى لم تكن لغيره ، فعصيت أمرى ، وتهاونت بى ؟

[ قال ] إبليس معارضاً لربه : ( أنا خير منه ) .

ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له : [ خلقتنى من نار وخلقته من طين ] .

وموجب هذا ، أن المخلوق من نار ، أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين ، وصعودها .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، فإنه باطل من عدة أوجه .

منها : أنه فى مقابلة أمر الله له بالسجود ، والقياس إذا عارض النص ، فإنه قياس باطل ، لأن المقصود بالقياس ، أن يكون الحكم الذى لم يأت فيه نص ، يقارب الأمور المنصوص عليها ، ويكون تابعاً لها .

فأما قياس يعارضها ، ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص ، فهذا القياس من أشنع الأقيسة .

ومنها : أن قوله [ أنا خير منه ] بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث .

فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه ، وتكبره ، والقول على الله بلا علم. وأى نقص أعظم من هذا ؟ ! !

ومنها : أنه كذب فى تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب .

يَكُون لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَال أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

---

فإن مادة الطين، فيها الخشوع، والسكون، والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض، من الأشجار، وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه.

وأما النار، ففيها الخفة، والطيش، والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين.

فقال الله له: [ فاهبط منها ] أى من الجنة [ فما يكون لك أن تتكبر فيها ] لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم.

[ فاخرج إنك من الصاغرين ] أى: المهانين الأذلين، جزاء على كبره وعجبه، بالإهانة والذل.

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بنى آدم.

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه، ومن يطيع عدوه، أجابه لما سأل فقال: [ إنك من المنظرين ].

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

---

* أى : قال إبليس — لما أبلس ، وأيس من رحمة الله — [ فبما أغويتنى لأقعدن لهم ] أى : للخلق [ صراطك المستقيم ] أى : لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدى ، على صد الناس عنه ، وعدم سلوكهم إياه .

[ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ] أى : من جميع الجهات والجوانب ، ومن كل طريق يتمكن فيه ، من إدراك بعض مقصوده فيهم .

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم ، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم ، ظن وصدق ظنه فقال :

[ ولا تجد أكثرهم شاكرين ] فإن القيام بالشكر ، من سلوك الصراط المستقيم ، وهو يريد صدهم عنه ، وعدم قيامهم به ، قال تعالى :

[ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ] .

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله ، لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا ، ونحترز منه بعلمنا ، بالطريق التى يأتى منها ، ومداخله التى ينفذ منها ، فله تعالى علينا بذلك ، أكمل نعمة .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

---

* أى : قال الله لإبليس لما قال ما قال : [ اخرج منها ] خروج صغار واحتقار ، لا خروج إكرام بل [ مذءوما ] أى : مذموما [ مدحورا ] مبعداً عن الله ، وعن رحمته ، وعن كل خير .

[ لأملأن جهنم منكم ] أى : منك وممن تبعك منهم [ أجمعين ] وهذا قسم من الله تعالى ، أن النار دار العصاة ، لابد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس .

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال :

* [ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ] إلى قوله : [ من الخاسرين ] .

أى أمر الله تعالى ، آدم وزوجته حواء ، التى أنعم الله بها عليه ، ليسكن إليها ، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا ، إلا أنه عين لهما شجرة ، ونهاهما عن أكلها .

والله أعلم ، ما هى ، وليس فى تعيينها فائدة لنا .

وحرم عليهما أكلها ، بدليل قوله :

[ فتكونا من الظالمين ] فلم يزالا ممتثلين لأمر الله ، حتى تغلغل إليهما ، عدوهما إبليس بمكره ، فوسوس لهما وسوسة ، خدعهما بها ، وموه عليهما وقال :

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ

---

[ مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ] أى : من جنس الملائكة [ أو تكونا من الخالدين ] كما قال فى الآية الأخرى :

[ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ] .

ومع قوله هذا أقسم لهما بالله [ إنى لكما لمن الناصحين ] أى : من جملة الناصحين ، حيث قلت لكما ، ما قلت .

فاغترا بذلك ، وغلبت الشهوة فى تلك الحال على العقل .

[ فدلاهما ] أى: أنزلهما عن رتبتهما العالية ، التى هى البعد عن الذنوب والمعاصى إلى التلوث بأوضارها ، فأقدما على أكلها .

[ فلما ذاقا الشجرة ، بدت لهما سوآتهما ] أى : ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة .

فصار للعرى الباطن من التقوى فى هذه الحال ، أثر فى اللباس الظاهر ، حتى انخلع ، فظهرت عوراتهما .

ولما ظهرت عوراتهما ، خجلا ، وجعلا يخصفان على عوراتهما ، من أوراق شجر الجنة ، ليستترا بذلك .

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

---

[ وناداهما ربهما ] وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبا .

[ ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ] فلم اقترفتما المنهى ، وأطعتما عدوكما ؟

فحينئذ ، من الله عليهما بالتوبة وقبولها ، فاعترفا بالذنب ، وسألا من الله مغفرته فقالا :

[ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ] .

أى : قد فعلنا الذنب ، الذى نهيتنا عنه ، وأضررنا بأنفسنا ، باقتراف الذنب ، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا ، بمحو أثر الذنب وعقوبته ، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا .

فغفر الله لهما ذلك [ وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * ] .

هذا ، وإبليس مستمر على طغيانه ، غير مقلع عن عصيانه .

فمن أشبه آدم بالاعتراف ، وسؤال المغفرة والندم ، والإقلاع — إذا صدرت منه الذنوب — اجتباه ربه وهداه .

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب ، لا يزال يزداد من المعاصى - فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا .

قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا

---

* [ قال اهبطوا ] أى : قال الله ، مخاطبا لآدم وحواء بلفظ الجمع ، لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء ، ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض .

وكرر الأمر لإبليس ، تبعا لهما ، ليعلم أنهم قرناء أبداً ، لأن إبليس ، لايفارق الإنسان ، بل يلازمه كل الملازمة ، ويبذل كل جهده ، فى إضلال بنى آدم .

وجملة [ بعضكم لبعض عدو ] فى موضع نصب على الحال ، من الضمير الذى هو الواو ، فى [ اهبطوا ] .

وخلاصة المعنى أن الله قال لهما وللشيطان : اهبطوا جميعاً من الجنة إلى الأرض متعادين ، ولكم فى الأرض ، استقرار ، وموضع استقرار ، تتمتعون وتنتفعون ، إلى حين انقضاء آجالكم .

* أى : لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض ، أخبرهما بحال إقامتهم فيها ، وأنه جعل لهم فيها حياة ، يتلوها الموت ، مشحونة بالامتحان والابتلاء ، وأنهم لايزالون فيها ، يرسل إليهم رسله ، وينزل عليهم كتبه ، حتى يأتيهم الموت ، فيدفنون فيها .

ثم إذا استكملوا ، بعثهم الله ، وأخرجهم منها إلى الدار التى هى الدار حقيقة ، التى هى دار المقامة .

وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

---

ثم امتن عليهم بما يسر لهم ، من اللباس الضروري ، واللباس الذى المقصود منه ، الجمال .

وهكذا سائر الأشياء ، كالطعام ، وللشراب ، والمراكب ، والمناكح ونحوها .

قد يسر الله للعباد ضروريها ، ومكمل ذلك ، وبين لهم أن هذا ، ليس مقصوداً بالذات ، وإنما أنزله الله ، ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ، ولهذا قال :

[ ولباس التقوى ذلك خير ] من اللباس الحسى ، فإن لباس التقوى ، يستمر مع العبد ، ولا يبلى ولا يبيد ، وهو جمال القلب والروح .

وأما اللباس الظاهري ، فغايته أن يستر العورة الظاهرة ، فى وقت من الأوقات .

أو يكون جمالا للإنسان ، وليس وراء ذلك منه نفع .

وأيضاً ، فبتقدير عدم هذا اللباس ، تنكشف عورته الظاهرة ، التى لا يضره كشفها ، مع الضرورة .

وأما بتقدير عدم لباس التقوى ، فإنها تنكشف عورته الباطنة ، وينال الخزى والفضيحة .

وقوله : [ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ] أى : ذلك المذكور لكم من اللباس ، مما تذكرون به ، ما ينفعكم ويضركم ، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ، محذراً لبنى آدم ، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم :

[ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان ] بأن يزين لكم العصيان ، ويدعوكم إليه ، ويرغبكم فيه ، فتنقادون له [ كما أخرج أبويكم من الجنة ] وأنزلهما من المحل العالى ، إلى أنزل منه .

فإياكم[1] يريد أن يفعل بكم كذلك ، ولا يألو جهده عنكم ، حتى يفتنكم ، إن استطاع .

فعليكم أن تجعلوا الحذر منه فى بالكم ، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه ، وأن لا تغفلوا عن المواضع التى يدخل منها إليكم .

[ إنه ] يراقبكم على الدوام ، و [ يراكم هو وقبيله ] من شياطين الجن [ من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ] .

فعدم الإيمان ، هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان .

( إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ) .

---

(١) فى الأصل المطبوع ( فأنتم ) وهو خطأ نحوى لأن ( أنتم ) من الضمائر المختصة بالرفع فلذلك أبدلناه بـ « إياكم » المختص بالنصب .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ

---

* يقول تعالى ، مبيناً لقبح حال المشركين ، الذين يفعلون الذنوب ، وينسبون لله أنه أمرهم بها .

[ وإذا فعلوا فاحشة ] وهى : كل ما يستفحش ويستقبح ، ومن ذلك : طوافهم بالبيت ، عراة .

[ قالوا : وجدنا عليها آباءنا ] وصدقوا فى هذا .

[ والله أمرنا بها ] وكذبوا فى هذا ، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال :

[ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ] أى : لا يليق بكماله وحكمته ، أن يأمر عباده بتعاطى الفواحش ، لا هذا الذى يفعله المشركون ولا غيره .

[ أتقولون على الله ما لا تعلمون ] وأى افتراء أعظم من هذا !!!

ثم ذكر ما يأمر به فقال : [قل أمر ربى بالقسط] أى : بالعدل فى العبادات والمعاملات ، لا بالظلم والجور .

[وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد] أى : توجهوا إلى الله ، واجتهدوا فى تكميل العبادات ، خصوصاً « الصلاة » أقيموها ، ظاهراً وباطناً ، ونقوها من كل نقص ومفسد .

كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ

---

[ وادعوه مخلصين له الدين ] أى : قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له .

والدعاء يشمل دعاء المسألة ، ودعاء العبادة أى : لا تريدوا ولا تقصدوا من الأغراض فى دعائكم ، سوى عبودية الله ورضاه .

[ كما بدأكم ] أول مرة [ تعودون ] للبعث .

فالقادر على بدء خلقكم ، قادر على إعادته ، بل الإعادة ، أهون من البدء .

[ فريقاً ] منكم [هدى] الله ، أى : وفقهم للهداية ، ويسر لهم أسبابها ، وصرف عنهم موانعها .

[ وفريقاً حق عليهم الضلالة ] أى : وجبت عليهم الضلالة ، بما تسببوا لأنفسهم ، وعملوا بأسباب الغواية .

[ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ] ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسرانا مبيناً .

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن ، واستحبوا ولاية الشيطان ، حصل لهم النصيب الوافر، من الخذلان ، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران .

أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ

---

[ وهم يحسبون أنهم مهتدون ] لأنهم انقلبت عليهم الحقائق ، فظنوا الباطل حقاً ، والحق باطلا .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن الأوامر والنواهى ، تابعة للحكمة والمصلحة .

حيث ذكر تعالى ، أنه لايتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول.

وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص .

وفيه دليل على أن الهداية ، بفضل الله ومنه ، وأن الضلالة بخذلانه للعبد ، إذ تولى — بجهله وظلمه — الشيطان ، وتسبب لنفسه بالضلال .

وأن من حسب أنه مهتد ، وهو ضال ، فإنه لا عذر له ، لأنه متمكن من الهدى .

وإنما أتاه حسبانه ، من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى .

* يقول تعالى ـ بعد ما أنزل على بنى آدم لباساً يوارى سوءاتهم وريشاً ـ :

[ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ] أى : استروا عوراتكم عند الصلاة كلها ، فرضها ونفلها ، فإن سترها زينة للبدن ، كما أن كشفها ، يدع البدن قبيحاً مشوهاً .

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ، ما فوق ذلك ، من اللباس النظيف الحسن..

ففى هذا ، الأمر بستر العورة فى الصلاة ، وباستعمال التجميل فيها ، ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس .

وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

ثم قال [ وكلوا واشربوا ] أى : مما رزقكم الله من الطيبات [ ولا تسرفوا ] فى ذلك .

والإسراف ، إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافى ، والشره فى المأكولات التى تضر بالجسم .

وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق[1] فى المآكل، والمشارب، واللباس

وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام .

[ إنه لا يحب المسرفين ] فإن السرف يبغضه الله ، ويضر بدن الإنسان ومعيشته ، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات .

ففى هذه الآية الكريمة ، الأمر بتناول الأكل والشرب ، والنهى عن تركهما ، وعن الإسراف فيهما .

---

(١) تنوق : لغة فى تأنق . قال فى المختار من الصحاح : شىء أنيق . أى : حسن معجب ، وتأنق فى الأمر ، أي : عمله بنيقة مثل تنوق ، والاسم منه : النيقة وبعضهم لا يقول : تنوق .

وفى المصباح : أنق الشىء من باب « تعب » راع حسنه وأعجب ، وأنقت به : أعجبت ، ويتعدى بالهمزة فيقال : آنقنى وشىء أنيق ، مثل : « عجيب » وزناً ومعنى ، وتأنق فى عمله : أحكمه . اهـ

والمراد هنا : التفنن وبذل الجهد فى صنع الأطعمة بصفة جذابة رائعة تأخذ بالألباب وتبهر الأنظار .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

---

* يقول تعالى - منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات:-

[ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ] من أنواع اللباس ، على اختلاف أصنافه ، والطيبات من الرزق ، من مأكل ، ومشرب ، بجميع أنواعه .

أى : من هذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد ، ومن ذا الذي يضيق عليهم ، ما وسعه الله ؟!! .

وهذا التوسيع من الله لعباده ، بالطيبات ، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته ، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين ، ولهذا قال :

[ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ] أى لا تبعة عليهم فيها .

ومفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل استعان بها على معاصيه ، فإنها غير خالصة له ولا مباحة ، بل يعاقب عليها ، وعلى التنعم بها ، ويسأل عن النعيم يوم القيامة .

[ كذلك نفصل الآيات ] أى : نوضحها ونبينها [ لقوم يعلمون ] لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات ، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها .

* ثم ذكر المحرمات ، التى حرمها الله فى كل شريعة من الشرائع فقال :

رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

---

[ قل إنما حرم ربى الفواحش ] أى : الذنوب الكبار ، التى تستفحش وتستقبح ، لشناعتها وقبحها ، وذلك ، كالزنا ، واللواط ، ونحوهما .

وقوله [ ما ظهر منها وما بطن ] أى : الفواحش التى تتعلق بحركات البدن ، والتى تتعلق بحركات القلوب ، كالكبر ، والعجب والرياء ، والنفاق ، ونحو ذلك .

[ والإثم والبغى بغير الحق ] أى : الذنوب التى تؤثم ، وتوجب العقوبة فى حقوق الله .

والبغى على الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فدخل فى هذا ، الذنوب المتعلقة بحق الله ، والمتعلقة بحق العباد .

[ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ] أى : حجة ، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد .

والشرك ، هو : أن يشرك مع الله فى عبادته ، أحد من الخلق .

وربما دخل فى هذا ، الشرك الأصغر ، كالرياء ، والحلف بغير الله ، ونحو ذلك .

[ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ] فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرعه .

فكل هذه قد حرمها الله ، ونهى العباد عن تعاطيها ، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة ، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله ، والاستطالة على عباد الله . وتغيير دين الله وشرعه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

* أى : وقد أخرج الله بنى آدم إلى الأرض ، وأسكنهم فيها ، وجعل لهم أجلا مسمى ، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ، ولا تتأخر ، لا الأمم المجتمعة ، ولا أفرادها .

* لما أخرج الله بنى آدم من الجنة ، ابتلاهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب عليهم ، يقصون عليهم آيات الله ، ويبينون لهم أحكامه .

ثم ذكر فضل من استجاب لهم ، وخسار من لم يستجب لهم فقال :

[ فمن اتقى ] ما حرم الله ، من الشرك ، والكبائر ، والصغائر .

[ وأصلح ] أعماله الظاهرة والباطنة [ فلا خوف عليهم ] من الشر الذى قد يخافه غيرهم [ ولا هم يحزنون ] على ما مضى .

وإذا انتفى الخوف والحزن ، حصل الأمن التام ، والسعادة ، والفلاح الأبدى .

[ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ] أى : لا آمنت بها قلوبهم ، ولا انقادت لها جوارحهم .

[ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] كما استهانوا بآياته ، ولازموا التكذيب بها ، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

---

* أي : لا أحد أظلم [ ممن افترى على الله كذباً ] بنسبة الشريك له ، والنقص له ، والتقول عليه ما لم يقل .

[ أو كذب بآياته ] الواضحة المبينة للحق المبين ، الهادية إلى الصراط المستقيم .

فهؤلاء ، وإن تمتعوا بالدنيا ، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم فى اللوح المحفوظ — فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً ، يتمتعون قليلا ، ثم يعذبون طويلا .

[ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ] أى : الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، واستيفاء آجالهم .

[ قالوا ] لهم فى تلك الحالة — توبيخاً وعتاباً — [ أين ما كنتم تدعون من دون الله ] من الأصنام والأوثان ، فقد جاء وقت الحاجة ، إن كان فيها منفعة لكم ، أو دفع مضرة .

[ قالوا ضلوا عنا ] أى : اضمحلوا وبطلوا ، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شىء .

[ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ] مستحقين للعذاب المهين الدائم .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ

---

فقالت لهم الملائكة [ ادخلوا فى أمم ] أى : فى جملة أمم .

[ قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ] أى : مضوا على ما مضيتم عليه ، من الكفر والاستكبار ، فاستحق الجميع الخزى والبوار ، والخلود [ فى النار ] .

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار [ لعنت أختها ] كما قال تعالى [ ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ] .

[ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً ] أى : اجتمع فى النار ، جميع أهلها ، من الأولين والآخرين ، والقادة ، والرؤساء ، والمقلدين الأتباع .

[ قالت أخراهم ] أى متأخروهم ، المتبعون الرؤساء [ لأولاهم ] أى : لرؤسائهم ، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم :

ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار ] أى : عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا ، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة .

[ وقالت أولاهم لأخراهم ] أى : الرؤساء، قالوا لأتباعهم : [ فما كان لكم علينا من فضل ] أى : قد اشتركنا جميعاً فى الغى والضلال ، وفى فعل أسباب العذاب ، فأى فضل لكم علينا ؟ .

ٱلنَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

---

[ قال ] الله [ لكل ] منكم [ ضعف ] ونصيب من العذاب [ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ] .

ولكنه من المعلوم ، أن عذاب الرؤساء ، وأئمة الضلال ،أبلغ وأشنع ، من عذاب الأتباع .

كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع .

قال تعالى [ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يكسبون ] .

فهذه الآيات ونحوها ، دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله ، مخلدون فى العذاب ، مشتركون فيه وفى أصله ، وإن كانوا متفاوتين فى مقداره ، بحسب أعمالهم ، وعنادهم ، وظلمهم ، وافترائهم ، وأن مودتهم التى كانت بينهم فى الدنيا ، تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ

---

* يخبر تعالى، عن عقاب من كذب بآياته، فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها، فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى — أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم، إذا ماتوا، وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها.

كما لم تصعد فى الدنيا إلى الإيمان بالله، ومعرفته، ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية، أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله، المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء، حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله، فى العالم العلوى، وتبتهج بالقرب من ربها، والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار [ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل ] وهو البعير المعروف [ فى سم الخياط ] أى: حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسما، فى خرق الإبرة، الذى هو من أضيق الأشياء.

وهذا من باب تعليق الشىء بالمحال.

أى: فكما أنه محال دخول الجمل فى سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله، محال دخولهم الجنة. قال تعالى [ إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار ].

وقال هنا [ وكذلك نجزى المجرمين ] أى: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا

---

* [ لهم من جهنم مهاد ] أى : فراش من تحتهم [ ومن فوقهم غواش ] أى : ظلل من العذاب ، تغشاهم .

[ وكذلك نجزى الظالمين ] لأنفسهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

* لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين ، ذكر ثواب المطيعين فقال :

[ والذين آمنوا ] بقلوبهم [ وعملوا الصالحات ] بجوارحهم ، فجمعوا بين الإيمان والعمل ، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة ، بين فعل الواجبات وترك المحرمات .

ولما كان قوله ( وعملوا الصالحات ) لفظا عاماً يشمل جميع الصالحات ، الواجبة والمستحبة ، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد ، قال تعالى :

[ لا نكلف نفساً إلا وسعها ] أى: بمقدار ما تسعه طاقتها ، ولا يعسر على قدرتها ، فعليها فى هذه الحال ، أن تتقى الله ، بحسب استطاعتها .

وإذا عجزت عن بعض الواجبات ، التى يقدر عليها غيرها ، سقطت عنها ، كما قال تعالى :

[ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ] * لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها *

مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ

---

ما جعل عليكم فى الدين من حرج * فاتقوا الله ما استطعتم ] .

فلا واجب مع العجز ، ولا محرم مع الضرورة .

[ أولئك ] أى : المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ] أصحاب الجنة هم فيها خالدون ] أى : لا يحولون عنها ، ولا يبغون بها بدلا ، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات ، وأصناف المشتهيات ، ما تقف عنده الغايات ، ولا يطلب أعلى منه .

[ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ] وهذا من كرمه وإحسانه ، على أهل الجنة ، أن الغل الذى كان موجوداً فى قلوبهم ، والتنافس الذى كان بينهم ، أن الله يقلعه ويزيله ، حتى يكونوا إخواناً متحابين ، وأخلاء متصافين .

قال تعالى : [ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ] ويخلق الله لهم من الكرامة ، ما به يحصل لكل واحد منهم ، الغبطة والسرور ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم ، نعيم .

فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض ، لأنه قد فقدت أسبابه .

قوله [ تجرى من تحتهم الأنهار ] أى يفجرونها تفجيراً ، حيث شاءوا ، وأين أرادوا .

إن شاءوا فى خلال القصور ، أو فى تلك الغرف العاليات ، أو فى رياض الجنات ، من تحت تلك الحدائق الزاهرات .

أنهار تجرى فى غير أخدود ، وخيرات ، ليس لها حد محدود .

جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

---

[ و ] لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به [ قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ] بأن من علينا ، وأوحى إلى قلوبنا ، فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا ، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار .

فنعم الرب الكريم ، الذى ابتدأنا بالنعم ، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ، مالا يحصيه المحصون ، ولا يعده العادون .

[ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ] أى : ليس فى نفوسنا قابلية للهدى ، لولا أنه تعالى منّ علينا بهدايته واتباع رسله .

[ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ] أى : حين كانوا يتمتعون بالنعيم ، الذى أخبرت به الرسل ، وصار حق يقين لهم ، بعد أن كان علم يقين لهم — قالوا لقد تحققنا ، ورأينا ما وعدتنا به الرسل ، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين ، لا مرية فيه ولا إشكال .

[ ونودوا ] تهنئة لهم ، وإكراما ، وتحية ، واحتراما .

[ أن تلكم الجنة أورثتموها ] أى كنتم الوارثين لها ،وصارت إقطاعا لكم ، إذ كان إقطاع الكفار النار .

أورثتموها [ بما كنتم تعملون ] .

قال بعض السلف : أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله ، وأدخلوا الجنة برحمة الله ، واقتسموا المنازل ، وورثوها ، بالأعمال الصالحة ،وهى من رحمته ، بل من أعلى أنواع رحمته .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — بعد ما ذكر استقرار كل من الفريقين فى الدارين، ووجدا ما أخبرت به الرسل ، ونطقت به الكتب ، من الثواب والعقاب ، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا :

[ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ] حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح ، الجنة ، فأدخلناها ، ورأينا ما وصفه لنا .

[ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم ] على الكفر والمعاصى [ حقاً ] .

[ قالوا : نعم ] قد وجدناه حقا ، فبين للخلق كلهم ، بياناً لاشك فيه ، صدق وعد الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، وذهبت عنهم الشكوك والشبه ، وصار الأمر حق اليقين .

وفرح المؤمنون بوعد الله ، واغتبطوا ، وأيس الكفار من الخير ، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .

[ فأذن مؤذن بينهم ] أى : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال [ أن لعنة الله ] أى : بعده وإقصاؤه ، عن كل خير [ على الظالمين ] إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ، ظلماً ، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ

---

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه .

[و] هؤلاء [ يبغونها عوجاً ] أى : منحرفة صادة عن سواء السبيل . [ وهم بالآخرة كافرون ] .

وهذا الذى أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ، ورجائهم للثواب .

ومفهوم هذا ، أن رحمة الله على المؤمنين ، وبره شامل لهم ، وإحسانه ، متواتر عليهم .

* أى : وبين أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، حجاب يقال له « الأعراف » لا من الجنة ، ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه ، حال الفريقين .

وعلى هذا الحجاب ، رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار ، بسيماهم ، أى : علاماتهم ، التى بها يعرفون ويميزون .

فإذا نظروا إلى أهل الجنة ، نادوهم [ أن سلام عليكم ] أى : يحيونهم ، ويسلمون عليهم .

وهم — إلى الآن — لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم يطمعون فى دخولها ولم يجعل الله الطمع فى قلوبهم ، إلا لما يريد بهم من كرامته .

[ وإذا صرفت أبصارهم ، تلقاء أصحاب النار ] ورأوا منظراً شنيعاً ، وهولا فظيعاً [ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ] .

يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ

---

فأهل الجنة — إذا رآهم أهل الأعراف — يطمعون أن يكونوا معهم فى الجنة ، ويحيونهم ، ويسلمون عليهم .

وعند انصراف أبصارهم ، بغير اختيارهم ، لأهل النار ، يستجيرون من حالهم هذا ، على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال :

[ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ] وهم من أهل النار ، وقد كانوا فى الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال ، وأولاد .

فقال لهم أصحاب الأعراف — حين رأوهم منفردين فى العذاب ، بلا ناصر ولا مغيث :

[ ما أغنى عنكم جمعكم ] فى الدنيا ، الذى كنتم تستدفعون به المكاره ، وتتوسلون به إلى مطالبكم فى الدنيا ، فاليوم اضمحل ، ولم يغن عنكم شيئا .

وكذلك ، أى شىء نفعكم استكباركم على الحق ، وعلى ماجاء به ، وعلى من اتبعه .

ثم أشاروا لهم ، إلى أناس من أهل الجنة ، كانوا فى الدنيا فقراء ضعفاء يستهزىء بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار :

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

---

[ أهؤلاء ] الذين أدخلهم الله الجنة [ الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ] احتقاراً لهم ، وازدراء ، وإعجابا بأنفسكم ، قد حنثتم فى أيمانكم ، وبدا لكم من الله ، مالم يكن لكم فى حساب .

[ ادخلوا الجنة ] بما كنتم تعملون ، أى : قيل لهؤلاء الضعفاء ، إكراما واحتراما : ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة .

[ لاخوف عليكم ] فيما يستقبل من المكاره [ ولا أنتم تحزنون ] على ما مضى ، بل آمنون مطمئنون ، فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى [ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون] إلى أن قال [فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ] .

واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم ؟ .

والصحيح من ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم ، فدخلوا النار ، ولا رجحت حسناتهم ، فدخلوا الجنة فصاروا فى الأعراف ما شاء الله .

ثم إن الله تعالى يدخلهم — برحمته — الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسعت كل شىء .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

---

* أي : ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يمسهم الجوع المفرط ، والظمأ الموجع ، يستغيثون بهم ، فيقولون :

[ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ] من الطعام .

فأجابهم أهل الجنة بقولهم : [ إن الله حرمهما ] أى: ماء الجنة وطعامها [ على الكافرين ] .

وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذى أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

[ لهواً ولعباً ] أى : لهت قلوبهم ، وأعرضت عنه ، ولعبوا ، واتخذوه سخريا .

أو أنهم جعلوا بدل دينهم ، اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم .

[ وغرتهم الحياة الدنيا ] بزينتها وزخرفها ، وكثرة دعاتها ، فاطمأنوا إليها ، ورضوا بها ، وفرحوا ، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

[ فاليوم ننساهم ] أى : نتركهم فى العذاب [ كما نسوا لقاء يومهم هذا ] فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا ، وليس أمامهم عرض ولاجزاء .

يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

---

[ وما كانوا بآياتنا يجحدون ] والحال أن جحودهم هذا ، لاعن قصور فى آيات الله وبيناته ، بل قد [ جئناهم بكتاب فصلناه ] أى بينا فيه جميع المطالب ، التى يحتاج إليها الخلق [على علم] من الله بأحوال العباد فى كل زمان ومكان ، وما يصلح لهم وما لا يصلح .

ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور ، فيجهل بعض الأحوال ، فيحكم حكما غير مناسب .

بل تفصيل من أحاط علمه بكل شىء ، ووسعت رحمته كل شىء .

[ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ] أى : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب ، الهداية من الضلال ، وبيان الحق والباطل ، والغىّ والرشد .

ويحصل أيضاً لهم به الرحمة ، وهى : الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة فينتفى عنهم بذلك ، الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب ، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه ، فلم يبق فيهم حيلة ، إلا استحقاقهم أن يحل بهم ، ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : [ هل ينظرون إلا تأويله ] أى : وقوع ما أخبر به ، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : [ هذا تأويل رؤياى من قبل ] .

[ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ] متندمين متأسفين على

بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ
ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

---

ما مضى ، متشفعين فى مغفرة ذنوبهم . مقرين بما أخبرت به الرسل :

[ قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد ] إلى الدنيا ( فنعمل غير الذى كنا نعمل ) وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

( فما تنفعهم شفاعة الشافعين ) .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم ، كذب منهم ، مقصودهم به ، دفع ما حل بهم ، قال تعالى : [ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ] .

[ قد خسروا أنفسهم ] حين فوتوها الأرباح ، وسلكوا بها سبيل الهلاك .

وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث ، أو الأولاد ، إنما هذا خسران ، لا جبران لمصابه .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] فى الدنيا ، مما تمنيهم أنفسهم به ، ويعدهم به الشيطان .

قدموا على ما لم يكن لهم فى حساب ، وتبين لهم باطلهم وضلالهم ، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

---

* يقول تعالى ، مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له [ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ] وما فيهما ، على عظمهما وسعتهما ، وإحكامهما ، وإتقانهما ، وبديع خلقهما .

[ فى ستة أيام ] أولها : يوم الأحد ، وآخرها ، يوم الجمعة .

فلما قضاهما ، وأودع فيهما من أمره ما أودع [ استوى ] تبارك وتعالى [ على العرش ] العظيم ، الذى يسع السموات والأرض ، وما فيهما ، وما بينهما .

استوى ، استواء يليق بجلاله ، وعظمته ، وسلطانه .

فاستوى على العرش ، واحتوى على الممالك ، وأجرى عليهم أحكامه الكونية ، وأحكامه الدينية ، ولهذا قال :

[ يغشى الليل ] المظلم [ النهار ] المضيء ، فيظلم ما على وجه الأرض ، ويسكن الآدميون ، وتأوى المخلوقات إلى مساكنها ، ويستريحون من التعب ، والذهاب والإياب ، الذى حصل لهم فى النهار .

[ يطلبه حثيثا ] كلما جاء الليل ، ذهب النهار ؛ وكلما جاء النهار ، ذهب الليل ، وهكذا أبدا ، على الدوام ، حتى يطوى الله هذا العالم ، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

[ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ] أى بتسخيره وتدبيره ، الدال على ماله من أوصاف الكمال .

وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

بخلقها وعظمها ، دال على كمال قدرته .

وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان ، دال على كمال حكمته .

وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية ومادونها ، دال على سعة رحمته وعلمه ، وأنه الإله الحق ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[ ألا له الخلق والأمر ] أى : له الخلق الذى صدرت عنه جميع المخلوقات علويها ، وسفليها ، أعيانها ، وأوصافها ، وأفعالها ، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات .

فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدرية .

والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية .

وثم أحكام الجزاء ، وذلك يكون فى دار البقاء .

[ تبارك الله ] أى : عظم وتعالى ، وكثر خيره وإحسانه .

فتبارك فى نفسه ، لعظمة أوصافه وكمالها .

وبارك فى غيره بإحلال الخير الجزيل ، والبر الكثير .

فكل بركة فى الكون ، فمن آثار رحمته ، ولهذا قال : [ تبارك الله رب العالمين ] .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ، ما يدل ذوى الألباب على أنه وحده ، المعبود المقصود فى الحوائج كلها ، أمر بما يترتب على ذلك فقال : ادعوا ربكم تضرعا ) إلى ( من المحسنين ) .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

* الدعاء : يدخل فيه ، دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

فأمر بدعائه [ تضرعاً ] أى : إلحاحا فى المسألة ، ودءوباً فى العبادة .

[ وخفية ] أى : لاجهر أو علانية ، يخاف منه الرياء ، بل خفية ، وإخلاصاً لله تعالى .

[ إنه لايحب المعتدين ] أى : المتجاوزين للحد فى كل الأمور .

ومن الاعتداء : كون العبد يسأل الله مسائل ، لاتصلح له ، أو ينقطع فى السؤال ، أو يبالغ فى رفع صوته بالدعاء ، فكل هذا داخل فى الاعتداء المنهى عنه .

[ ولا تفسدوا فى الأرض ] بعمل المعاصى [ بعد إصلاحها ] بالطاعات ، فإن المعاصى ، تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى : ( ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ) كما أن الطاعات ، تصلح بها ، الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأموال الدنيا والآخرة .

[ وادعوه خوفا وطمعاً ] أى : خوفا من عقابه ، وطمعاً فى ثوابه .

طمعاً فى قبولها ، وخوفا من ردها ، لا دعاء عبد مدل على ربه ، قد أعجبته نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاه .

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء : الإخلاص فيه لله وحده ، لأن ذلك يتضمنه الخفية .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا

---

وإخفاؤه وإسراره ، أن يكون القلب خائفاً طامعاً ، لا غافلا ، ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان فى كل عبادة ، بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ولهذا قال :

[ إن رحمة الله قريب من المحسنين ] فى عبادة الله ، المحسنين إلى عباد الله .

فكلما كان العبد أكثر إحسانا ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان ربه قريبا منه برحمته .

وفى هذا من الحث على الإحسان ، ما لا يخفى .

* بين تعالى ، أثراً من آثار قدرته ، ونفحة من نفحات رحمته فقال :

[ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ] أى : الرياح المبشرات بالغيث ، التى تثيره بإذن الله ، من الأرض ، فيستبشر الخلق برحمة الله ، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله .

[ حتى إذا أقلت ] الرياح [ سحابا ثقالا ] قد أثاره بعضها ، وألفته ريح أخرى ، وألقحته ريح أخرى [ سقناه لبلد ميت ] قد كادت تهلك حيواناته ، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله .

[ فأنزلنا به ] أى : بذلك البلد الميت [ الماء ] الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره ، وريحاً تفرقه بإذن الله .

بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا
نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

---

[ فأخرجنا به من كل الثمرات ] فأصبحوا مستبشرين برحمة الله ، راتعين بخير الله .

وقوله [ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ] أى : كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات ، كذلك نخرج الموتى من قبورهم ، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين .

وهذا استدلال واضح ، فإنه لا فرق بين الامرين .

فمنكر البعث ، استبعاداً له — مع أنه يرى ما هو نظيره — من باب العناد ، وإنكار المحسوسات .

وفى هذا ، الحث على التذكر والتفكر فى آلاء الله ، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال ، لا بعين الغفلة والإهمال .

ثم ذكر تفاوت الأراضى ، التى ينزل عليها المطر فقال :

[ والبلد الطيب ] أى : طيب التربة والمادة ، إذا نزل عليه مطر [ يخرج نباته ] الذى هو مستعد له [ بإذن ربه ] أى : بإرادة الله ومشيئته ، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء ، حتى يأذن الله بذلك .

[ والذى خبث ] من الأراضى [ لا يخرج إلا نكداً ] أى : إلا نباتا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة .

[ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ] أى : ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه ، والإقرار بها ، وصرفها فى مرضاة الله .

. . . . . . . . . . .

---

فهم الذين ينتفعون بما فصل الله فى كتابه ، من الأحكام ، والمطالب الإلهية لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم .

فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها ، فيتدبرونها ، ويتأملونها ، فيبين لهم من معانيها ، بحسب استعدادهم .

وهذا مثال للقلوب ، حين ينزل عليها الوحى الذى هو مادة الحياة ، كما أن الغيث ، مادة الحيا[1] .

فإن القلوب الطيبة ، حين يجيئها الوحى ، تقبله وتعلمه ، وتنبت بحسب ، طيب أصلها ، وحسن عنصرها .

وأما القلوب الخبيثة ، التى لا خير فيها ، فإذا جاءها الوحى ، لم يجد محلا قابلا ، بل يجدها غافلة معرضة ، أو معارضة ، فيكون كالمطر الذى يمر على السباخ والرمال والصخور ، فلا يؤثر فيها شيئا ، وهذا كقوله تعالى [ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ] الآيات .

---

(١) الحيا . أى : المطر .

۞ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

---

* لما ذكر تعالى ، من أدلة توحيده ، جملة صالحة ، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده ، مع أممهم المنكرين لذلك .

وكيف أيد الله أهل التوحيد ، وأهلك من عاندهم ولم ينقد لهم .

وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ، ومعتقد واحد .

فقال عن نوح — أول المرسلين — : [ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ] يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، حين كانوا يعبدون الأوثان .

[ فقال ] لهم : [ يا قوم اعبدوا الله ] أى : وحده [ مالكم من إله غيره ] لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، وما سواه مخلوق مدبر ، ليس له من الأمر شيء .

ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله فقال : [ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ] .

وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدى ، والشقاء السرمدى ، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم .

فلما قال لهم هذه المقالة ، ردوا عليه أقبح رد .

[ قال الملأ من قومه ] أى : الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق ، وعدم انقيادهم للرسل .

لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ

---

[ إنا لنراك فى ضلال مبين ] فلم يكفهم — قبحهم الله — أنهم لم ينقادوا له ، بل استكبروا عن الانقياد له ، وقدحوا فيه أعظم قدح ، ونسبوه إلى الضلال .

ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ، ضلالا مبيناً ، واضحاً لكل أحد .

وهذا من أعظم أنواع المكابرة ، التى لا تروج على أضعف الناس عقلا .

وإنما هذا الوصف ، منطبق على قوم نوح ، الذين جاءوا إلى أصنام ، قد صوروها ونحتوها بأيديهم ، من الجمادات التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنهم شيئاً .

فنزلوها منزلة فاطر السموات ، وصرفوا لها ما أمكنهم ، من أنواع القربات .

فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم ، بل هم أهدى منهم وأعقل .

فرد نوح عليهم ردا لطيفاً ، وترقق لهم ، لعلهم ينقادون له فقال :

[ يا قوم ليس بى ضلالة ] أى : لست ضالا فى مسألة من المسائل ، بوجه من الوجوه ، وإنما أنا هاد مهتد .

وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ

بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه ، أولى العزم من المرسلين ، أعلى أنواع الهدايات وأكملها ، وأتمها وهى هداية الرسالة التامة الكاملة ، ولهذا قال :

[ ولكنى رسول من رب العالمين] أى : ربى وربكم ورب جميع الخلق ، بأنواع التربية ، الذى من أعظم تربيته ، أن أرسل إلى عباده رسلا ، تأمرهم بالأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها ولهذا قال :

[ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ] أى : وظيفتى تبليغكم ، ببيان توحيده ، وأوامره ، ونواهيه ، على وجه النصيحة لكم ، والشفقة عليكم .

[وأعلم من الله ما لا تعلمون] فالذى يتعين أن تطيعونى وتنقادوا لأمرى إن كنتم تعلمون .

[ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ] أى : كيف تعجبون من حالة لا ينبغى العجب منها ، وهو : أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة ، على يد رجل منكم ، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله ؟ !!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذى يتلقى بالقبول والشكر.

وقوله : [ لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ] أى لينذركم العذاب الأليم ، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ، ظاهراً وباطناً ، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة .

فلم يفد فيهم ، ولا نجح [ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ] أى : السفينة التى أمر الله نوحا عليه السلام بصنعها ، وأوحى إليه أن يحمل

مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ

---

من كل صنف من الحيوانات ، زوجين اثنين وأهله ، ومن آمن معه ، فحملهم فيها ونجاهم الله بها .

[ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ] عن الهدى ؛ أبصروا الحق ، وأراهم الله — على يد نوح — من الآيات البينات ، ما به يؤمن أولوا الألباب ، فسخروا منه ، واستهتروا به ، وكفروا .

* أى : [ و ] أرسلنا [ إلى عاد ] الأولى ، الذين كانوا فى أرض اليمن .

[ أخاهم ] فى النسب [ هودا ] عليه السلام ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك والطغيان فى الأرض .

[ قال ] لهم : [ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ] سخطه وعذابه ، إن أقمتم على ما أنتم عليه ، فلم يستجيبوا ولا انقادوا .

[ قال الملأ الذين كفروا من قومه ] رادين لدعوته ، قادحين فى رأيه .

[ إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ] أى : ما نراك إلا سفيها غير رشيد .

ويغلب على ظننا ، أنك من جملة الكاذبين .

لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ

---

وقد انقلبت عليهم الحقيقة ، واستحكم عماهم ، حيث ذموا نبيهم ، عليه السلام ، بما هم متصفون به ، وهو أبعد الناس عنه ، فإنهم السفهاء حقاً ، الكاذبون .

وأى : سفه أعظم ممن قابل أحق الحق ، بالرد والإنكار ، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء ، وانقاد قلبه وقالبه ، لكل شيطان مريد ، ووضع العبادة فى غير موضعها ، فعبد من لا يغنى عنه شيئاً من الأشجار ، والأحجار ؟ !!

وأى : كذب ، أبلغ من كذب ، من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى ؟ ! !

[ قال يا قوم ليس بى سفاهة ] بوجه من الوجوه ، بل هو الرسول ، المرشد الرشيد .

[ ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ] .

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد ، وطاعة رب العباد .

[ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ] أى كيف تعجبون من أمر ، لا يتعجب منه ، وهو أن الله أرسل إليكم ، رجلا منكم تعرفون أمره ، يذكركم بما فيه مصالحكم ، ويحثكم على ما فيه النفع لكم ، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين .

خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ

---

[ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ] أى : واحمدوا ربكم واشكروه ، إذ مكن لكم فى الأرض ، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة ، الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأبقاكم ، لينظر كيف تعملون .

واحذروا أن تقيموا على التكذيب ، كما أقاموا ، فيصيبكم ما أصابهم .

[ و ] اذكروا نعمة الله عليكم ، التى خصكم بها ، وهى أن [ زادكم فى الخلق بسطة ] فى القوة ، وكبر الأجسام ، وشدة البطش .

[ فاذكروا آلاء الله ] أى : نعمه الواسعة ، وأياديه المتكررة .

[ لعلكم ] إذا ذكرتموها بشكرها ، وأداء حقها [ تفلحون ] أى : تفوزون بالمطلوب ، وتنجون من المرهوب .

فوعظهم ، وذكرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنه ناصح أمين .

وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم ، وذكرهم ، نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ، ولا استجابوا .

[ قالوا ] متعجبين من دعوته ، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه .

[ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ] .

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ

---

قبحهم الله ، جعلوا الأمر الذى هو أوجب الواجبات ، وأكمل الأمور من الأمور التى يعارضون بها ، ما وجدوا عليه آباءهم

فقدموا ما عليه الآباء الضالون ، من الشرك ، وعبادة الأصنام ، على مادعت إليه الرسل ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وكذبوا نبيهم ، وقالوا : [ ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ] وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم .

( قال ) لهم هود عليه السلام : [ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ] أى : لابد من وقوعه ، فإنه قد انعقدت أسبابه ، وحان وقت الهلاك .

[ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ] أى : كيف تجادلون على أمور ، لا حقائق لها ، وعلى أصنام سميتموها آلهة ، وهى لاشىء من الإلهية فيها ، ولا مثقال ذرة و [ ما أنزل الله بها من سلطان ] فإنها لو كانت صحيحة ، لأنزل الله بها سلطانا .

فعدم إنزاله له ، دليل على بطلانها ، فإنه ما من مطلوب ومقصود وخصوصاً الأمور الكبار — إلا وقد بين الله فيها من الحجج ، ما يدل عليها ، ومن السلطان ، ما لاتخفى معه .

[ فانتظروا ] ما يقع بكم من العقاب ، الذى وعدتكم به [ إنى معكم من المنتظرين ] وفرق بين الانتظارين ، انتظار من يخشى وقوع العقاب ، ومن يرجو من الله النصر والثواب ، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال :

أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

---

[ فأنجيناه ] أى : هودا [ والذين ] آمنوا [ معه برحمة منا ] فإنه الذى هداهم للإيمان ، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته .

[ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ] أى : استأصلناهم بالعذاب الشديد الذى لم يبق منهم أحداً ، وسلط الله عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم .

فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج ، فلم ينقادوا لها ، وأمروا بالإيمان ، فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .

[ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بُعْداً لعاد قوم هود ] .

وقال هنا [ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ] بوجه من الوجوه ، بل وصفهم التكذيب والعناد ، ونعتهم ، الكبر والفساد .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

* أى ( و ) أرسلنا ( إلى ثمود ) القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله ، من أرض الحجاز ، وجزيرة العرب .

أرسل الله إليهم [ أخاهم صالحاً ] نبيا يدعوهم ، إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد .

[قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره] دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين — الأمر(١) بعبادة الله ، وبيان أنه ليس للعباد ، إله غير الله .

[ قد جاءتكم بينة من ربكم ] أى خارق من خوارق العادات ، التى لا تكون إلا آية سماوية ، لايقدر الناس عليها .

ثم فسرها بقوله [ هذه ناقة الله لكم آية ] أى : هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى ، إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة .

وقد ذكر وجه الآية فى قوله [ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ] .

وكان عندهم بئر كبيرة ، وهى المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها ، هم والناقة .

للناقة يوم تشربها ، ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم ، يردونها ، وتصدر الناقة عنهم .

---

(١) قوله ( الأمر ) خبر للمبتدأ الذى هو ( دعوته ) .

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام [ فذروها تأكل فى أرض الله ] فلا عليكم من مئونتها شىء .

[ ولا تمسوها بسوء ] أى : بعقر أو غيره ، [ فيأخذكم عذاب أليم ] .

واذكروا إذ جعلكم خلفاء ] فى الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم [ من بعد عاد ] الذين أهلكهم الله ، وجعلكم خلفاء من بعدهم .

[ وبوأكم فى الأرض ] أى : مكن لكم فيها ، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون .

[ تتخذون من سهولها قصورا ] أى : من الأراضى السهلة ، التى ليست بجبال .

[ وتنحتون الجبال بيوتاً ] كما هو مشاهد إلى الآن ، من آثارهم التى فى الجبال ، من المساكن والحجر ونحوها ، وهى باقية ،مابقيت الجبال .

[ فاذكروا آلاء الله ] أى : نعمه ، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة .

[ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ] أى : لا تخربوا فى الأرض ، بالفساد

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ
قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا

---

والمعاصى ، فإن المعاصى ، تدع الديار العامرة ، بلاقع[1] وقد أخلت ديارهم منهم ، وأبقيت مساكنهم ، موحشة بعدهم .

[ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ] أى : الرؤساء والأشراف ، الذين تكبروا عن الحق .

[ للذين استضعفوا ] ولما كان المستضعفون ، ليسوا كلهم مؤمنين ، قالوا : [ لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ] .

أى : أهو صادق أم كاذب ؟ .

فقال المستضعفون : [ إنا بما أرسل به مؤمنون ] من توحيد الله ، والخبر عنه ، وأمره ونهيه .

[ قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ] حملهم الكبر على أن لا ينقادوا للحق ، الذى انقاد له الضعفاء .

---

( ١ ) بلاقع . أى : لاشىء فيها من نبات ولا إنسان . ولامن الحيوانات التى ينتفع من ألبانها وأوبارها وأصوافها وركوبها .

وفى الحديث ( اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع ) أى : خراباً مقفرة من كل ما ينتفع به .

بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن

---

[ فعقروا الناقة ] التى توعدهم إن مسوها بسوء ، أن يصيبهم عذاب أليم.

[ وعتوا عن أمر ربهم ] أى : قسوا عنه ، واستكبروا عن أمره الذى من عتا عنه ، أذاقه العذاب الشديد .

لا جرم ، أحل الله بهم من النكال ، ما لم يحل بغيرهم .

[ وقالوا ] مع هذه الأفعال ، متجرئين ، على الله ، معجزين له ، غير مبالين بما فعلوا ، بل مفتخرين بها :

[ ياصالح ائتنا بما تعدنا ] من العذاب [ إن كنت من المرسلين ] .

فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

[ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ] على ركبهم ، قد أبادهم الله ، وقطع دابرهم .

[ فتولى عنهم ] صالح عليه السلام ، حين أحل الله بهم العذاب .

[ وقال ] مخاطباً لهم ، توبيخاً وعتاباً ، بعد ما أهلكهم الله :

[ ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ] أى : جميع ما أرسلنى الله به إليكم ، قد أبلغتكم به ، وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت فى سلوككم الصراط المستقيم ، والدين القويم .

[ ولـكن لا تحبون الناصحين ] بل رددتم قول النصحاء ، وأطعتم كل شيطان رجيم .

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون فى هذه القصة ، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء ، اقترحوها على صالح ، وأنها تمخضت تمخض الحامل ، فخرجت الناقة ، وهم ينظرون ، وأن لها فصيلا حين عقروها ، رغى ثلاث رغيات ، وانفلق له الجبل ، ودخل فيه .

وأن صالحاً عليه السلام قال لهم : آية نزول العذاب بـكم ، أن تصبحوا فى اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهـكم مصفرة ، واليوم الثانى : محمرة ، والثالث : مسودة . فـكان كما قال .

هذا من الإسرائيليات التى لا ينبغى نقلها فى تفسير كتاب الله ، وليس فى القرآن ما يدل على شىء منها ، بوجه من الوجوه .

بل لو كانت صحيحة ، لذكرها الله تعالى ، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ، ما لا يهمله تعالى ، ويدع ذكره ، حتى يأتى من طريق من لا يوثق بنقله .

بل القرآن يـكذب بعض هذه المذكورات ، فإن صالحاً قال لهم [تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ] أى : تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً ، فإنه ليس لـكم من المتاع واللذة ، سوى هذا .

وأى لذة وتمتع ، لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب ، وذكر لهم وقوع مقدماته ، فوقعت يوما فيوما ، على وجه يعمهم ويشملهم لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً

---

هل هذا إلا مناقض للقرآن ، ومضاد له ؟! ! .

فالقرآن ، فيه الكفاية والهداية ، عن ما سواه .

نعم لو صح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما لا يناقض كتاب الله ، فعلى الرأس والعين ، وهو مما أمر القرآن باتباعه .

[ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ] .

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية ،ولو على تجويز الرواية عنهم ، بالأمور التى لا يجزم بكذبها ، فإن معانى كتاب الله، يقينية ، وتلك أمور ، لا تصدق ولا تكذب ، فلا يمكن اتفاقهما .

* أى : [ و ] اذكر عبدنا [ لوطاً ] عليه الصلاة والسلام ، إذ أرسلناه إلى قومه ، يأمرهم بعبادة الله وحده ، وينهاهم عن الفاحشة ، التى ما سبقهم بها أحد من العالمين .

[ قال أتأتون الفاحشة ] أى : الخصلة التى بلغت — فى العظم والشناعة — إلى أن استغرقت أنواع الفحش .

[ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ] فكونها فاحشة من أشنع الأشياء ، وكونهم ابتدعوها ، وابتكروها ، وسنوها لمن بعدهم ، من أشنع ما يكون أيضاً .

ثم بينها بقوله : [ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ] أى : كيف تذرون النساء ، التى خلقهن الله لكم ، وفيهن المستمتع الموافق

مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

---

للشهوة والفطرة ، وتقبلون على أدبار الرجال، التى هى غاية ما يكون فى الشناعة والخبث ، وهى تخرج منه الأنتان والأخباث ، التى يستحيي من ذكرها فضلا عن ملامستها وقربها .

[ بل أنتم قوم مسرفون ] أى : متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه .

[ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ] أى : يتنزهون عن فعل الفاحشة .

[ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ] .

[فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين] أى : الباقين المعذبين .
أمره الله أن يسرى بأهله ليلا ، فإن العذاب مصبح قومه .
فسرى بهم ، إلا امرأته أصابها ما أصابهم .

[ وأمطرنا عليهم مطراً ] أى : حجارة حارة شديدة ، من سجيل ، وجعل الله عاليها سافلها .

[ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ] الهلاك والخزى الدائم .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ

---

* أى : [ و ] أرسلنا [ إلى مدين ] القبيلة المعروفة [ أخاهم ] فى النسب [ شعيباً ] يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان : وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وأن لا يعثوا فى الأرض مفسدين ، بالإكثار من عمل المعاصى .

ولهذا قال [ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ] .

فإن ترك المعاصى ، امتثالا لأمر الله ، وتقرباً إليه ـ خير ، وأنفع للعبد ، من ارتكابها الموجب لسخط الجبار ، وعذاب النار .

[ ولا تقعدوا ] للناس [ بكل صراط ] أى : طريق من الطرق ، التى يكثر سلوكها ، تحذرون الناس منها [ وتوعدون ](١) من سلوكها [ وتصدون عن سبيل الله ] من أراد الاهتداء به [ وتبغونها عوجا ] أى : تبغون سبيل الله تكون معوجة ، وتميلونها ، اتباعا لأهوائكم .

---

( ١ ) توعدون أى : تهددون من سلك سبيل الله بأنواع الأذى والعذاب .

ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ

---

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم ، الاحترام والتعظيم ، للسبيل التى نصبها الله لعباده ، ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ، ورحمهم بها أعظم رحمة ، وتصدون لنصرتها ، والدعوة إليها ، والذب عنها .

لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر لنعمة الله ، ومحادة لله ، وجعل أقوم الطرق وأعدلها ، مائلة ، وتشنعون على من سلكها .

[ واذكروا ] نعمة الله عليكم [ إذ كنتم قليلا فكثركم ] أى : نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات ، والنسل ، والصحة .

وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم ، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم(١) ولا فرقكم فى الأرض .

بل أنعم عليكم ، باجتماعكم . وإدرار الأرزاق ، وكثرة النسل .

[ وانظر كيف كان عاقبة المفسدين ] فإنكم لا تجدون فى جموعهم إلا الشتات ، ولا فى ربوعهم ، إلا الوحشة والانبتات(٢) .

---

( ١ ) يجتاحكم ، أى : يهلككم بأنواع الشدائد .

( ٢ ) الانبتات ، أى : الانقطاع والمراد ، خلو مساكنهم من الناس بالهلاك الذى أنزله الله بهم .

يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

---

ولم يورثوا ذكراً حسناً ، بل أتبعوا فى هذه الدنيا ، لعنة، ويوم القيامة خزياً وفضيحة .

[ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ] وهم الجمهور منهم .

[ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ] فينصر الحق ، ويوقع العقوبة على المبطل .

[ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ] وهم الأشراف ، والكبراء منهم ، الذين اتبعوا أهواءهم ، ولهوا بلذاتهم .

فلما أتاهم الحق ، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة ، ردوه ، واستكبروا عنه .

فقالوا لنبيهم شعيب ، ومن معه من المؤمنين المستضعفين : [ لنخرجنك يا شيعب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ] .

استعملوا قوتهم السبعية ، فى مقابلة الحق ، ولم يراعوا دينا ، ولاذمة ، ولا حقاً .

وإنما راعوا ، واتبعوا أهواءهم ، وعقولهم السفيهة ، التى دلتهم على هذا القول الفاسد .

فقالوا : إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا .

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ

---

ف « شعيب » عليه الصلاة والسلام ، كان يدعوهم ، طامعاً فى إيمانهم ، والآن لم يسلم ، حتى توعدوه إن لم يتابعهم — بالجلاء عن وطنه ، الذى هو ومن معه أحق به منهم .

[ قال ] لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم :

[ أو لو كنا كارهين ] أى : أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها ، فإنما يدعى إليها ، من له نوع رغبة فيها .

أما من يعلن بالنهى عنها ، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها ؟ ! !

[ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ] أى : اشهدوا علينا ، أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها ، وأنقذنا من شرها ، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب .

فإننا نعلم ، أنه لا أعظم افتراء ، ممن جعل لله شريكا ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولا شريكا فى الملك .

[ وما يكون لنا أن نعود فيها ] أى : يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال .

فآيسهم عليه الصلاة والسلام ، من كونه يوافقهم ، من وجوه متعددة .

رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

---

من جهة أنهم كارهون لها ، مبغضون لما هم عليه من الشرك .

ومن جهة أنه جعل ماهم عليه كذبا ، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه ، فإنهم كاذبون .

ومنها : اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها .

ومنها : أن عودتهم فيها ـ بعد ما هداهم الله ـ من المحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما فى قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له بالعبودية ، وأنه الإله وحده ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له وحده ، لاشريك له ، وأن آلهة المشركين ، أبطل الباطل ، وأمحل المحال .

وحيث أن الله منّ عليهم ، بعقول يعرفون بها الحق والباطل ، والهدى والضلال .

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة فى خلقه ، التى لا خروج لأحد عنها ، ولو تواترت الأسباب ، وتوافقت القوى ، فإنهم لايحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه .

ولهذا استثنى [ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ] أى : فلا يمكننا ولا غيرنا ، الخروج عن مشيئته ، التابعة لعلمه وحكمته .

وقد [ وسع ربنا كل شىء علماً ] فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه .

[ على الله توكلنا ] أى : اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم ، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ، فإن من توكل على الله ، كفاه ، ويسر له أمر دينه ودنياه .

قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ

---

[ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ] أى : انصر المظلوم ، وصاحب الحق ، على الظالم المعاند للحق [ وأنت خير الفاتحين ] وفتحه تعالى لعباده ، نوعان .

فتح العلم ، بتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ومن هو المستقيم على الصراط ، ممن هو منحرف عنه .

والنوع الثانى : فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين ، والنجاة والإكرام للصالحين .

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم ، بالحق والعدل ، وأن يريهم من آياته وعبره ، ما يكون فاصلا بين الفريقين .

[ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ] محذرين عن اتباع شعيب .

[ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ] هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء ، فى اتباع الرشد والهدى .

ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة ، فى لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال ، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال .

[ فأخذتهم الرجفة ] أى : الزلزلة الشديدة [ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ] أى : صرعى ميتين ، هامدين .

قال تعالى ناعيا حالهم [ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ] أى : كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ، وكأنهم ما تمتعوا فى عرصاتها ، ولا تفيئوا

يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

---

فى ظلالها ، ولا غنوا فى مسارح أنهارها ، ولا أكلوا من ثمار أشجارها .

فأخذهم العذاب ، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات ، إلى مستقر الحزن والشقاء ، والعقاب ؛ والدركات ، ولهذا قال :

[ الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ] أى : الخسار محصور فيهم لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وذلك هو الخسران المبين ، لا من قالوا لهم : [ لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ] .

فحين هلكوا ، تولى عنهم نبيهم ، عليه الصلاة والسلام [ وقال ] معاتبا وموبخا ومخاطبا لهم بعد موتهم :

[ ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ] أى : أوصلتها إليكم ، وبينتها حتى بلغت منكم ، أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم [ونصحت لكم] فلم تقبلوا نصحى ، ولا انقدتم لإرشادى ، بل فسقتم وطغيتم.

[ فكيف آسى على قوم كافرين ] أى : فكيف أحزن على قوم ، لا خير فيهم ، أتاهم الخير فردوه ، ولم يقبلوه ، ولا يليق بهم إلا الشر .

فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم ، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم .

فعياذا بك اللهم من الخزى والفضيحة ، وأى شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ؟!! .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ وما أرسلنا فى قرية من نبى ] يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر ، فلم ينقادوا له :

[ إلا أخذنا أهلها ] أى : ابتلاهم الله [ بالبأساء والضراء ] أى : بالفقر، والمرض ، وأنواع البلايا .

[ لعلهم ] إذا أصابتهم ، خضعت نفوسهم [ فهم يضرعون ] إلى الله ، ويستكينون للحق .

[ ثم ] إذا لم يفد فيهم ، واستمر استكبارهم ، وازداد طغيانهم .

[ بدلنا مكان السيئة الحسنة ] فأدرّ عليهم الأرزاق ، وعافى أبدانهم ، ورفع عنهم البلايا .

[ حتى عفوا ] أى : كثروا ، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا فى نعمة الله وفضله ، ونسوا ما مر عليهم من البلايا .

[ وقالوا ] قد مس أباءنا الضراء والسراء ] أى : هذه عادة جارية، لم تزل موجودة فى الأولين واللاحقين ، تارة يكونون فى سراء وتارة فى ضراء ، وتارة فى فرح ، ومرة فى ترح ، على حسب تقلبات الزمان ، وتداول الأيام .

وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ، ولا للاستدراج والنكير .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟

حتى إذا اغتبطوا ، وفرحوا بما أوتوا ، وكانت الدنيا ، أسر ما كانت إليهم .

[ فأخذناهم ] بالعذاب [ بغتة وهم لا يشعرون ] أى : لا يخطر لهم الهلاك على بال

وظنوا(١) أنهم قادرون على ما آتاهم الله ، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه .

☆ لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل ، يبتلون بالضراء ، موعظة وإنذارا وبالسراء ، استدراجاً ومكراً ، ذكر أن أهل القرى ، لو آمنوا بقلوبهم ، إيماناً صادقاً ، صدقته الأعمال ، واستعملوا تقوى الله تعالى ، ظاهراً وباطناً ، بترك جميع ما حرم الله — لفتح عليهم بركات من السماء والأرض .

فأرسل السماء عليهم مدراراً ، وأنبت لهم من الأرض ، ما به يعيشون ، وتعيش بهائمهم ، فى أخصب عيش ، وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا [ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ] بالعقوبات والبلايا ، ونزع البركات ، وكثرة الآفات ، وهى بعض جزاء أعمالهم .

وإلا ، فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة .

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون » .

---

( ١ ) قوله « وظنوا » أى : اعتقدوا حتى صار ذلك عندهم بمنزلة علم اليقين ، و « الظن » ليس على بابه الذى هو الرجحان ، بل هو لليقين .

يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

---

[ أفأمن أهل القرى ] أى : المكذبة ، بقرينة السياق [ أن يأتيهم بأسنا ] أى : عذابنا الشديد [ بياتا وهم نائمون ] أى : فى غفلتهم ، وغرتهم ، وراحتهم .

[ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ] أى : أى شىء يؤمنهم من ذلك ، وهم قد فعلوا أسبابه ، وارتكبوا من الجرائم العظيمة ، ما يوجب بعضه ، الهلاك ؟ ! .

[ أفأمنوا مكر الله ] حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويملى لهم ، إن كيده متين .

« فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » فإن من أمن من عذاب الله ، فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان .

وهذه الآية الكريمة ، فيها من التخويف البليغ ، على أن العبد ، لا ينبغى له أن يكون آمنا ، على ما معه من الإيمان .

بل لا يزال خائفاً وجلا ، أن يبتلى ببلية ، تسلب ما معه من الإيمان ، وأن لا يزال داعياً بقوله : «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

وأن يعمل ويسعى ، فى كل سبب يخلصه من الشر ، عند وقوع الفتن ، فإن العبد ـــ ولو بلغت به الحال ما بلغت ـــ فليس على يقين من السلامة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ

---

* يقول تعالى - منبها للأمم الغابرين[1] بعد هلاك الأمم الغابرين[2] [ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ] أى أو لم يتبين ويتضح ، للأمم الذين ورثوا الأرض ، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين ؟ .

أو لم يهتدوا أن الله ، لو شاء لأصابهم بذنوبهم ، فإن هذه سنة فى الأولين والآخرين .

وقوله : [ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ] أى : إذا نبههم الله ، فلم ينتبهوا ، وذكرهم ، فلم يتذكروا ، وهداهم بالآيات والعبر ، فلم يهتدوا ، فإن الله تعالى يعاقبهم ، ويطبع على قلوبهم ، فيعلوها الران والدنس ، حتى يختم عليها ، فلا يدخلها حق ، ولا يصل إليها خير ، ولا يسمعون ما ينفعهم ، وإنما يسمعون ، ما به تقوم الحجة عليهم .

[ تلك القرى ] الذين تقدم ذكرهم [ نقص عليك من أنبائها ] ما يحصل به عبرة للمعتبرين ، وازدجار للظالمين . وموعظة للمتقين .

[ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ] أى : جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم ، تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم ، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة ، والبينات المبينات للحق ، بيانا كاملا ، ولكنهم لم يفدهم هذا ، ولا أغنى عنهم شيئا .

---

( ١ ) أى : الباقين . ( ٢ ) أى : الماضين .

فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

---

[ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ] أى : بسبب تكذيبهم ، وردهم الحق أول مرة .

ما كان يهديهم للإيمان ، جزاء لهم على ردهم الحق ، كما قال تعالى « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

[ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ] عقوبة منه .

وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

[ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ] أى : وما وجدنا لأكثر الأمم ، الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد ، أى: من ثبات والتزام ، لوصية الله، التى أوصى بها جميع العالمين ، ولا انقادوا لأوامره ، التى ساقها إليهم ، على ألسنة رسله .

[ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ] أى : خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وأمرهم باتباع عهده وهداه .

فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة .

وأما أكثر الخلق ، فأعرضوا عن الهدى ، واستكبروا عما جاءت به الرسل ، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ

---

* أى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل ، موسى الكليم ، الإمام العظيم ، والرسول الكريم ، إلى قوم عتاة جبابرة ، وهم فرعون وملاه ، من أشرافهم وكبرائهم .

فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير [ فظلموا بها ] بأن لم ينقادوا لحقها الذى من لم ينقد له ، فهو ظالم ، بل استكبروا عنها .

[ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ] كيف أهلكهم الله ، وأتبعهم الذم واللعنة ، فى الدنيا ، ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود ، وهذا مجمل ، فصله بقوله :

* [ وقال موسى ] حين جاء إلى فرعون ، يدعوه إلى الإيمان .

[ يافرعون إنى رسول من رب العالمين ] أى : إنى رسول من مرسل عظيم ، وهو رب العالمين ، الشامل للعالم العلوى والسفلى ، مربى جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية ، التى من جملتها ، أنه لا يتركهم سدى ، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

وهو الذى ، لا يقدر أحد ، أن يتجرأ عليه ، ويدعى أنه أرسله ، ولم يرسله .

فإذا كان هذا شأنه ، وأنا قد اختارنى واصطفانى لرسالته ، فحقيق على أن لا أكذب عليه ، ولا أقول عليه إلا الحق .

عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ

---

فإنى لو قلت غير ذلك ، لعاجلنى بالعقوبة ، وأخذنى أخذ عزيز مقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه ، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة ، على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم ، أن يعملوا بمقصود رسالته ، ولها مقصودان عظيمان .

إيمانهم به ، واتباعهم له ، وإرسال بنى إسرائيل ، الشعب الذى فضله الله على العالمين ، أولاد الأنبياء ، وسلسلة يعقوب عليه السلام ، الذى موسى عليه الصلاة والسلام ، واحد منهم .

فقال له فرعون : [ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين. [ فألقى عصاه] فى الأرض [ فإذا هى ثعبان مبين ] أى: حية ظاهرة ، تسعى ، وهم يشاهدونها .

[ ونزع يده ] من جيبه [ فإذا هى بيضاء للناظرين ] من غير سوء .

فهاتان آيتان كبيرتان ، دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه ، وأنه رسول رب العالمين .

ولكن الذين لا يؤمنون ، لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون ، حتى يروا العذاب الأليم .

مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم
مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ

---

فلهذا [ قال الملأ من قوم فرعون ] — حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة ـ :

[ إن هذا لساحر عليم ] أي : ماهر فى سحره .

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام، وسفهاء العقول، بأنه :

[ يريد ] موسى بفعله هذا [ أن يخرجكم من أرضكم ] أى : يريد أن يجليكم عن أوطانكم [ فماذا تأمرون ] أى : إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم .

فإن ما جاء به، إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل فى عقول أكثر الناس .

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون :

( أرجِهْ وأخاه ) أى : احبسهما، وأمهلهما، وابعث فى المدائن أناساً، يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم، أى : يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى .

فقالوا : ياموسى، اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت، مكاناً سوى .

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون، فجمع كيده ثم أتى » :

ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ
أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ

---

وقال هنا [ وجاء السحرة فرعون ] طالبين منه الجزاء إن غلبوا [قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ] ؟ .

ف[ قال ] فرعون : [ نعم ] لكم أجر [ وإنكم لمن المقربين ] .

فوعدهم الأجر والتقريب ، وعلو المنزلة عنده ، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم ، فى مغالبة موسى .

فلما حضروا مع موسى ، بحضرة الخلق العظيم ، [ قالوا ] على وجه التألى وعدم المبالاة ، بما جاء به موسى :

[ ياموسى إما أن تلقى ] ما معك [ وإما أن نكون نحن الملقين ] .

[ قال ] موسى : [ ألقوا ] لأجل أن يرى الناس ما معهم ، وما مع موسى .

[ فلما ألقوا ] حبالهم وعصيهم ، إذا هى من سحرهم ، كأنها حيات تسعى.

وبذلك [ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم ] لم لم يوجد له نظير من السحر .

وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ] فألقاها [ فإذا هى ] حية تسعى ، و[ تلقف جميع ما يأفكون ] أى : يكذبون به ويتوهون .

مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴿١١٩﴾وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴿١٢٠﴾
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

---

[ فوقع الحق ] أى : تبين وظهر ، واستعلن فى ذلك المجمع .

[ وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك ] أى : فى ذلك المقام .

[ وانقلبوا صاغرين ] أى : حقيرين ، قد اضمحل باطلهم ، وتلاشى سحرهم ، ولم يحصل لهم المقصود ، الذى ظنوا حصوله .

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر ، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ، ما لا يعرفه غيرهم .

فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله ، لا يدان لأحد بها .

[وألقى السحرة ساجدين ۞ قالوا آمنا برب العالمين ۞ رب موسى وهرون] أى : وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات .

[ قال ] لهم [ فرعون ] متهددا لهم على الإيمان : [ ءآمنتم به قبل أن آذن لكم ] .

كان الخبيث حاكما مستبداً على الأديان والأقوال ، قد تقرر عنده وعندهم ، أن قوله هو المطاع ، وأمره نافذ فيهم ، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه .

وبهذه الحالة تنحط الأمم ، وتضعف عقولها ونفوذها ، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها ، ولهذا قال الله عنه : « فاستخف قومه فأطاعوه »

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ

---

وقال هنا [ ءآمنتم به قبل أن آذن لكم ] أى : فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علىّ .

ثم موه على قومه وقال : [ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ] .

أى : إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم أنتم وهو ، على أن تنغلبوا له ، فيظهر ، فتتبعوه ، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم ، فتخرجوا منها أهلها .

وهذا كذب يعلم هو ، ومن سبر الأحوال ، أن موسى عليه الصلاة والسلام ، لم يجتمع بأحد منهم ، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ، ورسله .

وأن ماجاء به موسى ، آية إلهية ، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم فى مغالبة موسى ، حتى عجزوا ، وتبين لهم الحق ، فاتبعوه .

ثم توعدهم فرعون بقوله : [ فسوف تعلمون ] ما أحل بكم من العقوبة.

[ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ] زعم الخبيث أنهم مفسدون فى الأرض ، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين ، من تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أى : اليد اليمنى والرجل اليسرى .

[ ثم لأصلبنكم ] فى جذوع النخل ، لتخزوا بزعمه [ أجمعين ] أى: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد ، بل كلكم سيذوق هذا العذاب .

أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ
إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ

---

فقال السحرة ، الذين آمنوا ، لفرعون حين تهددهم :

[ إنا إلى ربنا منقلبون ] أى : فلا نبالى بعقوبتك ، فالله خير وأبقى ، فاقض ما أنت قاض .

[ وما تنقم منا ] أى : وما تعيب منا على إنكارك علينا ، وتوعدك لنا ؟

فليس لنا ذنب [ إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ] فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه ، ويستحق صاحبه العقوبة ، فهو ذنبنا .

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا : [ ربنا أفرغ ] أى : أفض [ علينا صبرا ] أى : عظيما ، كما يدل عليه التنكير ، لأن هذه محنة عظيمة ، تؤدى إلى ذهاب النفس .

فيحتاج فيها من الصبر ، إلى شىء كثير ، ليثبت الفؤاد ، ويطمئن المؤمن على إيمانه ، ويزول عنه الانزعاج الكثير .

[ وتوفنا مسلمين ] أى : منقادين لأمرك ، متبعين لرسولك .

والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه ، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان .

هذا ، وفرعون وملأه ، وعامتهم المتبعون للملأ ، قد استكبروا عن آيات الله ، وجحدوا بها ، ظلما وعلوا ، وقالوا لفرعون مهيجين له على

وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ
وَنَسْتَحْىِ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ

---

الإيقاع بموسى ، وزاعمين أن ماجاء به باطل وفساد :

[ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ] بالدعوة إلى الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، التى هى الصلاح فى الأرض ، وماهم عليه هو الفساد ، ولـكن الظالمين لا يبالون بما يقولون .

[ ويذرك وآلهتك ] أى يدعك أنت وآلهتك ، وينهى عنك ، ويصد الناس عن اتباعك .

[ قال ] فرعون مجيبا لهم ، بأنه سيدع بنى إسرائيل مع موسى ، بحالة لا ينمون فيها ، ويأمن فرعون وقومه — بزعمه — من ضررهم :

[ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ] أى : نستبقيهن فلا نقتلهن ، فإذا فعلنا ذلك ، أمنا من كثرتهم ، وكنا مستخدمين لباقيهم ، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال .

[ وإنا فوقهم قاهرون ] لاخروج لهم عن حكمنا ، ولا قدرة ، وهذا نهاية الجبروت والعتو والقسوة من فرعون .

[ قال موسى لقومه ] موصيا لهم فى هذه الحالة ، التى لا يقدرون معها على شىء ، ولا مقاومة إلا بالمقاومة الإلهية ، والاستعانة الربانية :

[ استعينوا بالله ] أى : اعتمدوا عليه فى جلب ماينفعكم ، ودفع ما يضركم .

وَٱلْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ
مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

---

وثقوا بالله ، أنه سيتم أمركم [ واصبروا ] أى : الزموا الصبر على ما يحل بكم ، منتظرين للفرج .

[ إن الأرض لله ] ليست لفرعون ولا لقومه ، حتى يتحكموا فيها .

[ يورثها من يشاء من عباده ] أى : يداولها بين الناس ، على حسب مشيئته وحكمته .

ولكن العاقبة للمتقين ، فإنهم — وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة — فإن النصر لهم .

[ والعاقبة ] الحميدة [ للمتقين ] على قومهم .

وهذه وظيفة العبد ، أنه عند القدرة ، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ، ما يقدر عليه ، وعند العجز ، أن يصبر ويستعين الله ، وينتظر الفرج .

[ قالوا ] لموسى متضجرين من طول ما مكثوا فى عذاب فرعون ، وأذيته :

[ أوذينا من قبل أن تأتينا ] فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب ، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا [ ومن بعد ما جئتنا ] كذلك .

[ قال ] لهم موسى ، مرجيا لهم بالفرج والخلاص من شرهم :

[ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض ] أى : يمكنكم فيها ، ويجعل لكم التدبير فيها [ فينظر كيف تعملون ] هل تشكرون أم تكفرون ؟ .

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ

---

وهذا وعد ، أنجزه الله ، لما جاء الوقت الذى أراده الله .

قال الله تعالى ـ فى بيان ما عامل به آل فرعون فى هذه المدة الأخيرة . أنها على عادته وسنته فى الأمم ، أن يأخذهم بالبأساء والضراء ، لعلهم يضرعون . الآيات :

[ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين] أى: بالدهور والجدب[1] ،[ ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ] أى : يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم ، معاتبة من الله لهم ، لعلهم يرجعون عن كفرهم .

فلم ينجع فيهم ولا أفاد ، بل استمروا على الظلم والفساد .

[ فإذا جاءتهم الحسنة ] أى : الخصب وإدرار الرزق .

[ قالوا لنا هذه ] أى : نحن مستحقون لها ، فلم يشكروا الله عليها .

[ وإن تصبهم سيئة ] أى : قحط وجدب [ يطيروا بموسى ومن معه ] أى : يقولوا : إنما جاءنا ، بسبب مجىء موسى ، واتباع بنى إسرائيل له .

---

( ١ ) قوله [ بالدهور والجدب ] كلام فيه ما فيه ، فإن المعاجم القرآنية واللغوية متفقة على أن (السنين) معناها : السنون المجدبة والقحوط فالأولى أن يقال : أى : بالسنين المجدبة والأعوام التى لا تنبت الأرض شيئاً من الزروع والثمار .

أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ

---

قال الله تعالى [ ألا إنما طائرهم عند الله ] بقضائه وقدرته ، ليس كما قالوا بل إن ذنوبهم وكفرهم ، هو السبب فى ذلك .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] أى : فلذلك قالوا ما قالوا .

[ وقالوا ] مبينين لموسى أنهم لا يزالون ، ولا يزولون عن باطلهم .

[ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ] أى : قد تقرر عندنا ، أنك ساحر ، فمهما جئت بآية ، جزمنا أنها سحر ، فلا نؤمن لك ، ولا نصدق .

وهذا غاية ما يكون من العناد ، أن يبلغ بالكافرين ، إلى أن تستوى عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات ، أم لم تنزل .

[ فأرسلنا عليهم الطوفان ] أى : الماء الكثير ، الذى أغرق أشجارهم وزروعهم ، وأضرهم ضرراً كثيراً .

[ والجراد ] فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم .

[ والقمل ] قيل : إنه الدباء ، أى : صغار الجراد ، والظاهر ، أنه القمل المعروف [1] .

---

( ١ ) قوله ( القمل ) ذكر فى ( المنتخب من تفسير القرآن ) أن القمل : حشرة . تفسد الثمار وتقضى على الحيوان والنبات .

وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

---

[ والضفادع ] فملأت أوعيتهم ، وأقلقتهم ، وآذتهم أذية شديدة .

[ والدم ] إما أن يكون الرعاف ، أو كما قال كثير من المفسرين ، أن ماءهم الذى يشربون ، انقلب دما ، فكانوا لا يشربون إلا دما، ولا يطبخون.

[ آيات مفصلات ] أى : أدلة وبينات ، على أنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وعلى أن ما جاء به موسى ، حق وصدق .

[ فاستكبروا ] لما رأوا الآيات [ وكانوا ] فى سابق أمرهم [ قوما مجرمين ] .

فلذلك عاقبهم الله تعالى ، بأن أبقاهم على الغى والضلال .

[ ولما وقع عليهم الرجز ] أى : العذاب ، يحتمل أن المراد به : الطاعون ، كما قاله كثير من المفسرين .

ويحتمل أن يراد به ، ما تقدم من الآيات ، الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، فإنها رجز وعذاب ، وأنهم كلما أصابهم واحد منها .

[ قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ] اى : تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده ، من الوحى والشرع .

[ لئن كشفت عنا الرجز ، لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ]

وهم فى ذلك كذبة ، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب ، وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره

مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ

---

**فلما** كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ] أى : إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها ، وليس كشفاً مؤبداً ، وإنما هو مؤقت .

[ إذا هم ينكثون ] العهد الذى عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بنى إسرائيل .

فلا آمنوا به ، ولا أرسلوا معه بنى إسرائيل ، بل استمروا على كفرهم يعمهون ، وعلى تعذيب بنى إسرائيل دائبين .

[ فانتقمنا منهم ] أى : حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا ، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده .

[ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ] يجمعون الناس ، ليتبعوا بنى إسرائيل ، وقال لهم :

«إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركوا * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين » .

وقال هنا :

[ فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ] أى : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق .

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ

---

[ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ] فى الأرض ، أى : بنى إسرائيل ، الذين كانوا خدمة لآل فرعون ، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله [ مشارق الأرض ومغاربها ] والمراد بالأرض ههنا ، أرض مصر ، التى كانوا فيها مستضعفين ، أذلين أى : ملكهم الله جميعاً ، ومكنهم فيها [ التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ] حين قال لهم موسى [ استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ] .

[ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ] من الأبنية الهائلة ، والمساكن المزخرفة [ وما كانوا يعرشون ] فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون .

[ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ] بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه ، وأهلكهم الله ، وبنوا إسرائيل ينظرون .

[ فأتوا ] أى : مروا [ على قوم يعكفون على أصنام لهم ] أى : يقيمون عندها ويتبركون بها ، ويعبدونها .

قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

---

[ قال ] لهم موسى : [ إنكم قوم تجهلون ] وأى جهل أعظم من جهل الإنسان ، ربه وخالقه وأراد أن يسوى به غيره ، ممن لا يملك نفعاً ولاضراً، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ؟!! .

ولهذا قال لهم موسى [ إن هؤلاء متبر(١) ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون ] ، لأن دعاءهم إياها باطل ، وهى باطلة بنفسها ، فالعمل باطل ، وغايته باطلة .

[ قال أغير الله أبغيكم إلها ] أى : أطلب لكم إلها غير الله المألوه ، الكامل فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

[ وهو فضلكم على العالمين ] فيقتضى أن تقابلوا فضله ، وتفضيله ، بالشكر .

وذلك بإفراد الله وحده ، بالعبادة ، والكفر بما يدعى من دونه .

[ قالوا ] من جهلهم وسفههم ، لنبيهم موسى ، بعد ما أراهم الله من الآيات ما أراهم .

[ ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ] أى : اشرع لنا ، أن نتخذ أصناماً آلهة ، كما اتخذها هؤلاء .

---

( ١ ) قوله ( متبر ) أى مهلك ، ومدمر ، والمراد ، إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالك ماهم فيه من الدين الباطل وزائل عملهم ، لا بقاء له .

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا

---

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم ، فقال :

[ وإذ أنجيناكم من آل فرعون ] أى : من فرعون وآله .

[ يسومونكم(١) سوء العذاب ] أى : يوجهون إليكم من العذاب أسوأه وهو أنهم كانوا [ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم ] أى: النجاة من عذابهم [ بلاء من ربكم عظيم ] أى : نعمة جليلة، ومنحة جزيلة.

أو فى ذلك العذاب الصادر منهم لكم ، بلاء من ربكم عليكم عظيم .

فلما ذكرهم موسى ووعظهم ، انتهوا عن ذلك .

ولما أتم الله نعمته عليهم ، بالنجاة من عدوهم ، وتمكينهم فى الأرض ، أراد تبارك وتعالى ، أن يتم نعمته عليهم ، بإنزال الكتاب الذى فيه الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

فواعد موسى ثلاثين ليلة ، وأتمها بعشر ، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى ، ويتهيأ لوعد الله ، ويكون لنزولها ، موقع كبير لديهم ، وتشوق إلى إنزالها .

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه ،قال لهرون ـ موصياً له على بنى إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته : ـ

---

( ١ ) يسومونكم أى: يذيقونكم أشد العذاب ويسخرونكم لخدمتهم فى مشاق الأعمال .

بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ
ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ

---

[اخلفنى فى قومى] أى: كن خليفتى فيهم، واعمل فيهم، بما كنت أعمل.

[وأصلح] أى: اتبع طريق الصلاح [ولا تتبع سبيل المفسدين] وهم الذين يعملون بالمعاصى.

[ولما جاء موسى لميقاتنا] الذى وقتناه له لإنزال الكتاب [وكلمه ربه] بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه، واشتياقاً لرؤيته.

[قال: ربى أرنى أنظر إليك، قال] الله [لن ترانى] أى: لن تقدر الآن على رؤيتى، فإن الله تبارك وتعالى، أنشأ الخلق فى هذه الدار، على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله.

وليس فى هذا، دليل على أنهم لا يرونه فى الجنة.

فإنه قد دلت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى[1].

---

(١) أقول. رؤية الله أجل نعمة وأعظم متعة ومنحة، فلا تكون إلا فى دار لم تتدنس بالمعاصى وهى الجنة، وأما الأرض فقد حصل على ظهرها من الآثام مالا يعلم عظمها إلا الله، فلا يمكن أن يقع فيها أعظم النعم وهى رؤية الله التى ينسى بها الراءون نعيم الجنان.

ذكر هذا «الكلاباذى» فى كتابه (التعرف بمذهب التصوف) وهو كتاب نفيس لم يخرج عن الكتاب والسنة.

قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

---

ولهذا رتب الله الرؤية فى هذه الآية ، على ثبوت الجبل ، فقال ـ مقنعاً لموسى فى عدم إجابته للرؤية ـ :

[ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ] إذا تجلى الله له [ فسوف ترانى ].

[ فلما تجلى ربه للجبل ] الأصم الغليظ [ جعله دكا ] أى : انهال مثل الرمل ، انزعاجا من رؤية الله وعدم ثبوته لها .

[ وخر موسى ] حين رأى ما رأى [ صعقاً ] أى : مغشيا عليه .

[ فلما أفاق ] تبين له حينئذ ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك .

واستغفر ربه ، لما صدر منه من السؤال ، الذى لم يوافق ، موضعاً ، ولذلك :

[ قال سبحانك ] أى : تنزيها لك ، وتعظيما عما لا يليق بجلالك .

[ تبت إليك ] من جميع الذنوب ، وسوء الأدب معك .

[ وأنا أول المؤمنين ] أى : جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه ، بما كمل الله له ، مما كان يجهله قبل ذلك ، فلما منعه الله من رؤيته ـ بعد ما كان متشوقا إليها ـ أعطاه خيرا كثيراً فقال :

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

---

[ ياموسى إنى اصطفيتك على الناس ] أى : اخترتك واجتبيتك، وفضلتك، وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة .

[ برسالاتى ] التى لا أجعلها، ولا أخص بها، إلا أفضل الخلق .

[ وبكلامى ] إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة، اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين .

[ فخذ ما آتيتك ] من النعم، وخذ ما آتيتك، من الأمر والنهى، بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد .

[ وكن من الشاكرين ] لله، على ما خصك وفضلك .

[ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء ] يحتاج إليه العباد [ وموعظة ] ترغب النفوس فى أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر .

[ وتفصيلا لكل شىء ] من الأحكام الشرعية، والعقائد، والأخلاق، والآداب .

[ فخذها بقوة ] أى : بجد واجتهاد على إقامتها .

[ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ] وهى الأوامر الواجبة، والمستحبة، فإنها أحسنها .

وفى هذا دليل، على أن أوامر الله — فى كل شريعة — كاملة، عادلة، حسنة .

قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

---

[سأوريكم دار الفاسقين] بعد ما أهلكهم الله ، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم ، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون .

وأما غيرهم ، فقال عنهم : [ سأصرف عن آياتى ] أى عن الاعتبار فى آيات الأفقية ، والنفسية ، والفهم لآيات الكتاب [ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ] .

أى : يتكبرون على عباد الله ، وعلى الحق ، وعلى من جاء به .

فمن كان بهذه الصفة ، حرمه الله خيرا كثيراً ، وخذله ، ولم يفقه من آيات الله ، ما ينتفع به .

بل ربما انقلبت عليه الحقائق ، واستحسن القبيح .

[ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ] لإعراضهم ، واعتراضهم ، ومحادتهم لله ورسوله .

[ وإن يروا سبيل الرشد ] أى : الهدى والاستقامة ، وهو الصراط الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته .

[ لا يتخذوه ] أى : لايسلكوه ولا يرغبوا فيه [ سبيلا ] .

[ وإن يروا سبيل الغى ] أى : الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء [ يتخذوه سبيلا ] .

سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾
وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ

---

والسبب فى انحرافهم هـذا الانحراف [ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ] .

فردهم لآيات الله ، وغفلتهم عما يراد بها ، واحتقارهم لها ـ هو الذى أوجب لهم من سلوك طريق الغى ، وترك طريق الرشد ، ما أوجب .

* [ والذين كذبوا بآياتنـا ] العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا .

[ ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ] لأنها على غير أساس ، وقد فقد شرطها وهو ، الإيمان بآيات الله ، والتصديق بجزائه .

[ هل يجزون ] فى بطلان أعمالهم ، وحصول ضد مقصودهم [ إلا ما كانوا يعملون ] فإن أعمال من لايؤمن باليوم الآخر ، لايرجو فيها ثواباً ، وليس لها غاية تنتهى إليها ، فلذلك اضمحلت وبطلت .

[ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً ] صاغه السامرى وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار [ له خوار[1] ] وصوت فعبدوه ، واتخذوه إلها .

---

(١) الخوار : صوت البقر .

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا

---

« وقال[1] هذا إلهكم وإله موسى » فنسى موسى ، وذهب يطلبه .

وهذا من سفههم ، وقلة بصيرتهم .

كيف اشتبه عليهم ، رب الأرض والسموات ، بعجل من أنقص المخلوقات ؟ ! !

ولهذا قال ـ مبينا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ، ولا الفعلية ، ما يوجب أن يكون إلها .

[ ألم يروا أنه لايكلمهم ] أى : وعدم الكلام ، نقص عظيم ، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد ، الذى لايتكلم [ ولا يهديهم سبيلا ] أى : لايدلهم طريقا دينيا ، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية .

لأن من المتقرر فى العقول والفطر ، أن اتخاذ إله لايتكلم ، ولاينفع ، ولايضر ، من أبطل الباطل ، وأسمج السفه ، ولهذا قال :

[ اتخذوه وكانوا ظالمين ] حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وأشركوا بالله ، مالم ينزل به سلطانا .

وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله ، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى .

---

(١) أى : السامرى .

رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ
أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ

---

لأن الله ذكر، أن عدم الكلام، دليل على عدم صلاحية الذى لايتكلم، للإلهية.

[ ولما ] رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم، ندموا [ وسقط فى أيديهم ] أى : من الهم والندم على فعلهم.

[ ورأوا أنهم قد ضلوا ] فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا [ وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ] فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال.

[ ويغفر لنا ] ما صدر منا من عبادة العجل.

[ لنكونن من الخاسرين ] الذين خسروا الدنيا والآخرة.

[ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ] أى : ممتلئا غضبا وغيظا عليهم، لتمام غيرته، عليه السلام، وكمال نصحه وشفقته.

[ قال بئسما خلفتمونى من بعدى ] أى : بئس الحالة التى خلفتمونى بها من بعد ذهابى عنكم، فإنها حالة تفضى إلى الهلاك الأبدى، والشقاء السرمدى.

[ أعجلتم أمر ربكم ] حيث وعدكم بإنزال الكتاب.
فبادرتم — برأيكم الفاسد — إلى هذه الخصلة القبيحة.

[ وألقى الألواح ] أى : رماها من الغضب [ وأخذ برأس أخيه ] هرون ولحيته [ يجره إليه ] وقال له :
« ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لاتتبعنى أفعصيت أمرى ».

قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

---

لك بقولى [ اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ] .

[ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولى ] .

و [ قال ] هنا [ ابن أم ] هذا ترقيق لأخيه ، بذكر الأم وحدها .

وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه : [ إن القوم استضعفونى ] أى: احتقرونى حين قلت لهم : « ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى » .

[ وكادوا يقتلوننى ] أى : فلا تظن بى تقصيراً [ فلا تشمت بى الأعداء ] بنهرك لى ، ومسكك إياى بسوء .

فإن الأعداء ، حريصون على أن يجدوا علىّ عثرة ، أو يطلعوا لى على زلة .

[ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ] فتعاملنى معاملتهم .

فندم موسى عليه السلام ، على ما استعجل من صنعه بأخيه ، قبل أن يعلم براءته ، مما ظنه فيه من التقصير .

و [ قال رب اغفرلى ولأخى ] هرون [ وأدخلنا فى رحمتك ] أى : فى وسطها ، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب ، فإنها حصن حصين ، من جميع الشرور ، وثمّ كل خير وسرور .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

---

[ وأنت أرحم الراحمين ] أى : أرحم بنا من كل راحم ، أرحم بنا ، من آبائنا ، وأمهاتنا ، وأولادنا ، وأنفسنا .

قال الله تعالى ـ مبينا حال أهل العجل الذين عبدوه :

[ إن الذين اتخذوا العجل ] أى : إلهـا [ سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ] كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره .

[ وكذلك نجزى المفترين ] فـكل مفتر على الله ، كاذب على شرعه ، متقول عليه ما لم يقل ، فإن له نصيبـاً من الغضب ، من الله ، والذل فى الحياة الدنيا .

وقد نالهم غضب الله ، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأنه لايرضى الله عنهم إلا بذلك .

فقتل بعضهم بعضاً ، وانجلت المعركة ، عن كثير من القتلى (١) ثم تاب الله عليهم بعد ذلك .

ولهذا ذكر حكما عاما يدخلون فيه وغيرهم فقال :

[ والذين عملوا السيئات ] من شرك ، وكبائر ، وصغائر [ ثم تابوا من

---

(١) فى الأصل المطبوع ( عن قتلى كثيرة ) ولا شك أنه تعبير غير قويم فلذلك أبدلنا الجملة بـ ( عن كثير من القتلى ) .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى

---

بعدها ] بأن ندموا على ما مضى ، وأقلعوا عنه ، وعزموا على أن لا يعودوا

[ وآمنوا ] بالله ، وبما أوجب الله من الإيمان به .

ولا يتم الإيمـان ، إلا بأعمال القلوب ، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ، [ إن ربك من بعدها ] أى : بعد هذه الحالة ، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات .

[ لغفور ] يغفر السيئات ويمحوها ، ولو كانت ملء قراب الأرض .

[ رحيم ] بقبول التوبة ، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها .

[ ولما سكت عن موسى الغضب ] أى : سكن غضبه ، وتراجعت نفسه ، وعرف ما هو فيه ، اشتغل بأهم الأشياء عنده .

فـ [ أخذ الألواح ] التى ألقاها ، وهى ألواح عظيمة المقـدار ، جليلة [ وفى نسختها ] أى : مشتملة ومتضمنة [ هدى ورحمة ] أى : فيها الهدى من الضلالة ، وبيان الحق من الباطل ، وأعمال الخير ، وأعمال الشر ، والهدى لأحسن الأعمال ، والأخلاق ، والآداب ، ورحمة وسعادة ، لمن عمل بها ، وعلم أحكامها ومعانيها .

ولـكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته .

وإنما يقبل ذلك وينقاد له ، ويتلقاه بالقبول [ الذين هم لربهم يرهبون ] أى : يخافون منه ويخشونه .

وأما من لم يخف الله ، ولا المقام بين يديه ، فإنه لا يزداد بها ، إلا عتوا ونفورا ، وتقوم عليه حجة الله فيها .

[ و ] لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم [ اختار موسى

وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ
رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم
مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ

---

قومه ] أى : منهم [ سبعين رجلا ] من خيارهم ، ليعتذروا لقومهم عند ربهم ، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه .

فلما حضروه ، قالوا : ( ياموسى ، أرنا الله جهرة ) فتجرأوا على الله جراءة كبيرة ، وأساءوا الأدب معه :

ف [ أخذتهم الرجفة ] فصعقوا وهلكوا .

فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام ، يتضرع إلى الله ويتبتل [ قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل ] أن يحضروا ويكونون فى حالة يعتذرون فيها لقومهم ، فصاروا هم الظالمين[1] .

[ وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ] أى : ضعفاء العقول ، سفهاء الأحلام ، فتضرع إلى الله ، واعتذر بأن المتجرئين على الله ، ليس لهم عقول كاملة ، تردعهم عما قالوا وفعلوا ، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر[2] بها

---

(١) قوله ( رب ، لو شئت أهلكتهم ) إلى ( فصاروا هم الظالمين ) .
هذا التفسير غير منتظم مع الآية فكان الأولى - بل الصواب - للمفسر أن يقول ( لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات وأهلكتنى معهم ) وبهذا ينمشى التفسير مع الآية ؛ فالمفسر لم يتعرض لكلمة ( وإياى ) .

(٢) قوله : يخطر هكذا فى الأصل المطبوع ولعل الصواب ( يخطىء ) .

تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً

---

الإنسان ، ويخاف من ذهاب دينه فقال :

[ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ] أى : أنت خير من غفر ، وأولى من رحم ، وأكرم من أعطى ، وتفضل .

فكأن موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : المقصود يارب بالقصد الأول لنا كلنا ، هو التزام طاعتك ، والإيمان بك ، وأن من حضره عقله ورشده ، وتم[1] على ما وهبته من التوفيق ، فإنه لم يزل مستقيما .

وأما من ضعف عقله ، وسفه رأيه ، وصرفته الفتنة ، فهو الذى فعل ما فعل ، لذينك السببين .

ومع هذا ، فأنت أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، فاغفر لنا وارحمنا .

فأجاب الله سؤاله ، وأحياهم من بعد موتهم ، وغفر لهم ذنوبهم .

وقال موسى فى تمام دعائه [ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ] من علم نافع ، ورزق واسع ، وعمل صالح .

[ وفى الآخرة حسنة ] ، وهى ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب .

---

(١) قوله ( وتم ) أى : استمر .

وَفِى ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ

---

[ إنا هــدنا إليك ] أى : رجعنا مقرين بتقصيرنا ، منيبين فى جميع أمورنا .

[ قال ] الله تعالى [ عذابى أصيب به من أشاء ] ممن كان شقيا ، متعرضاً لأسبابه .

[ ورحمتى وسعت كل شىء ] من العالم العلوى والسفلى ، البر والفاجر ، المؤمن والــكافر .

فلا مخلوق ، إلا قد وصلت إليه رحمة الله ، وغمره فضله وإحسانه .

ولــكن الرحمة الخاصة ، المقتضية لسعادة الدنيـا والآخرة ، ليست لــكل أحد .

ولهذا قال عنها : [ فسأ كتبها للذين يتقــون ] المعاصي ، صغارها ، وكبارها .

[ ويؤتون الزكاة ] الواجبة مستحقيها [ والذين هم بآياتنا يؤمنون ] .

ومن تمام الإيمان بآيات الله ، معرفة معناها ، والعمل بمقتضاها .

ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطنا ، فى أصول الدين ، وفروعه .

[ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ] احتراز عن سائر الأنبياء ، فإن المقصود بهذا ، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم .

ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

---

والسياق فى أحوال بنى إسرائيل وأن الإيمان بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم، شرط فى دخولهم فى الإيمان، وأن المؤمنين به، المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التى كتبها الله لهم.

ووصفه بالأمى، لأنه من العرب، الأمة الأمية، التى لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

[ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ] باسمه وصفته، التى من أعظمها وأجلها، مايدعو إليه، وينهى عنه.

وأنه [ يأمرهم بالمعروف ] وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه، ونفعه.

[ وينهاهم عن المنكر ] وهو: كل ما عرف قبحه فى العقول، والفطر.

فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك.

وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحله، وحرمه.

فإنه [ يحل لهم الطيبات ] من المطاعم، والمشارب، والمناكح.

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

[ ويحرم عليهم الخبائث ] من المطاعم ، والمشارب ، والمناكح ، والأقوال ، والأفعال .

[ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ] أى : ومن وصفه أن دينه ، سهل سمح ميسر ، لا إصرفيه ، ولا أغلال ، ولامشقات ، ولا تكاليف ثقال .

[ فالذين آمنوا به وعزروه ] أى : عظموه وبجلوه [ ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ] وهو القرآن ، الذى يستضاء به فى ظلمات الشك والجهالات ويقتدى به ، إذا تعارضت المقالات .

[ أولئك هم المفلحون ] الظافرون ، بخير الدنيا والآخرة ، والناجون من شرها .

لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح .

[ وأما من لم يؤمن بهذا النبى الأمى ، ويعزره ، وينصره ، ولم يتبع النور الذى أنزل معه ، فأولئك هم الخاسرون .

ولما دعا أهل التوراة من بنى إسرائيل ، إلى اتباعه ، وكان ربما توهم متوهم ، أن الحكم مقصور عليهم ، أتى بما يدل على العموم فقال :

[ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ] أى : عربيكم ، وعجميكم ، أهل الكتاب فيكم ، وغيرهم .

إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن

---

[ الذى له ملك السموات والأرض ] يتصرف فيها بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية ، وبأحكامه الشرعية الدينية ، التى من جملتها : أن أرسل إليكم رسولا عظيما .

يدعوكم إلى الله ، وإلى دار كرامته .

ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ، ومن دار كرامته .

[ لا إله إلا هو ] أى : لا معبود بحق ، إلا الله وحده لاشريك له ، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله .

[ يحيي ويميت ] أى : من جملة تدابيره : الإحياء والإماتة ، التى لايشاركه فيها أحد .

وقد جعل الله الموت ، جسراً ، ومعبراً ، يعبر الإنسان منه إلى دار البقاء ، التى من آمن بها ، صدق الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ، قطعا .

[ فآمنوا بالله و سوله النبي الأمى ] إيمانا فى القلب ، متضمنا لأعمال القلوب والجوارح .

[ الذى يؤمن بالله وكلماته ] ، أى : آمنوا بهذا الرسول المستقيم فى عقائده ، وأعماله .

[ واتبعوه لعلكم تهتدون ] فى مصالحكم الدينية والدنيوية ، فإنكم إذا لم تتبعوه ، ضللتم ضلالا بعيداً .

قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ
ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ
أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ

---

[ ومن قوم موسى أمة ] أى : جماعة [ يهدون بالحق وبه يعدلون ] أى : يهدون الناس فى تعليمهم إياهم ، وفتواهم لهم ، ويعدلون به فى الحكم بينهم ، فى قضاياهم ، كما قال تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وفى هذا فضيلة لأمة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الله تعالى ، جعل منهم هداة يهدون بأمره .

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة ، فيه نوع احتراز مما تقدم .

فإنه تعالى ، ذكر فيما تقدم ، جملة من معايب بنى إسرائيل ، المنافية لكمال المناقضة للهداية .

فربما توهم متوهم ، أن هذا يعم جميعهم ، فذكر تعالى ، أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية .

[ وقطعناهم ] أى : قسمناهم [ اثنتى عشرة أسباطا أمما ] أى : اثنتى عشرة قبيلة ، متعارفة ، متوالفة ، كل بنى رجل من أولاد يعقوب ، قبيلة .

[ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ] أى : طلبوا منه أن يدعو الله تعالى ، أن يسقيهم ما يشربون منه ، وتشرب منه مواشيهم .

وذلك لأنهم — والله أعلم — فى محل قليل الماء .

كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ

---

فأوحى الله لموسى ، إجابة لطلبتهم [ أن اضرب بعصاك الحجر ] يحتمل أنه حجر معين .

ويحتمل أنه اسم جنس ، يشمل أى حجر كان .

فضربه [ فانبجست ] أى : انفجرت من ذلك الحجر [ اثنتا عشرة عينا ] جارية سارحة .

[ قد علم كل أناس مشربهم ] أى : قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتى عشرة ، وجعل لكل منهم عينا ، فعلموها ، واطمأنوا ، واستراحوا من التعب والمزاحمة ، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

[ وظللنا عليهم الغمام ] فكان يسترهم من حر الشمس .

[ وأنزلنا عليهم المن ] وهو الحلوى .

[ والسلوى ] وهو لحم طير ، من أحسن أنواع الطيور ، وألذها .

فجمع الله لهم ، بين الظلال ، والشراب ، والطعام الطيب ، من الحلوى واللحوم ، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم : [ كلوا من طيبات مارزقناكم وما ظلمونا ] حين لم يشكروا الله ، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] حيث فوتوها كل خير ، وعرضوها للشر والنقمة ، وهذا كان مدة لبثهم فى التيه .

وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَٓـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ

---

[ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ] أي : ادخلوها لتكون وطنا لكم ومسكنا ، وهى « إيلياء[1] » [ وكلوا منها حيث شئتم ] أى: قرية كانت كثيرة الأشجار ، غزيرة الثمار ، رغيدة العيش ، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا .

[ وقولوا ] حين تدخلون الباب : [ حطة ] أى : احطط عنا خطايانا ، واعف عنا .

[ وادخلوا الباب سجدا ] أى : خاضعين لربكم ، مستكينين لعزته ، شاكرين لنعمته

فأمرهم بالخضوع ، وسؤال المغفرة ، ووعدهم على ذلك ، مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال :

[ نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ] من خير الدنيا والآخرة .

فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهى ، بل خالفوا .

[ فبدل الذين ظلموا منهم ] أى : عصوا الله واستهانوا بأمره [ قولا غير الذى قيل لهم ] فقالوا ، بدل طلب المغفرة ، وقولهم « حطة » ، « حبة في شعيرة » .

---

(١) إيلياء : أى مدينة القدس.

بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

---

وإذا بدلوا القول — مع يسره وسهولته — فتبديلهم للفعل من باب أولى .

ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم .

[ فأرسلنا عليهم ] حين خالفوا أمر الله وعصوه [ رجزا من السماء ] أى : عذابا شديداً ، إما الطاعون وإما غيره ، من العقوبات السماوية .

[ وما ظلمهم الله بعقابه ، وإنما كان ذلك [ بما كانوا يظلمون ] .

[ واسألهم ] أى : اسأل بنى إسرائيل [ عن القرية التى كانت حاضرة البحر ] أى : على ساحله ، فى حال تعديهم وعقاب الله إياهم .

[ إذ يعدون فى السبت ] وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً ، فابتلاهم الله ، وامتحنهم .

فكانت [ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ] أى : كثيرة طافية على وجه البحر .

[ ويوم لايسبتون ] أى : إذا ذهب يوم السبت [ لا تأتيهم ] أى : تذهب في البحر ، فلا يرون منها شيئا [ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ] .

ففسقهم ، هو الذى أوجب أن يبتليهم الله ، وأن تكون لهم هذه المحنة .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا

---

وإلا ، فلو لم يفسقوا ، لعافاهم الله ، ولما عرضهم للبلاء والشر .

فتحيلوا على الصيد ، فكانوا يحفرون لها حفراً ، وينصبون لها الشباك .

فإذا جاءت يوم السبت ، ووقعت فى تلك الحفر والشباك ، لم يأخذوها فى ذلك اليوم .

فإذا جاء يوم الأحد ، أخذوها ، وكثر فيهم ذلك ، وانقسموا ثلاث فرق .

معظمهم ، اعتدوا وتجرأوا ، وأعلنوا بذلك .

وفرقة أعلنت بنهيهم ، والإنكار عليهم .

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ، ونهيهم لهم وقالوا :

[ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ]

كأنهم يقولون : لا فائدة فى وعظ من اقتحم محارم الله ، ولم يصغ للنصيح ، بل استمر على اعتدائه وطغيانه ، فإنه لابد أن يعاقبهم الله ، إما بهلاك ، أو عذاب شديد .

فقال الواعظون : نعظهم وننهاهم [ معذرة إلى ربكم ]

أى : لنعذر فيهم .

[ ولعلهم يتقون ] أى : يتركون ماهم فيه من المعصية ، فلا نيأس من هدايتهم ، فربما نجح فيهم الوعظ ، وأثر فيهم اللوم .

نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن

---

وهذا هو المقصود الأعظم ، من إنكار المنكر ، ليكون معذرة ، وإقامة حجة على المأمور المنهى ، ولعل الله أن يهديه ، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر ، والنهى .

[ فلما نسوا ما ذكروا به ] أى : تركوا ما ذكروا به ، واستمروا على غيهم واعتدائهم .

[ نجينا الذين ينهون عن السوء ] وهكذا سنة الله فى عباده ، أن العقوبة إذا نزلت ، نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

[ وأخذنا الذين ظلموا ] وهم الذين اعتدوا فى السبت [ بعذاب بئيس ] أى : شديد [ بما كانوا يفسقون ] .

وأما الفرقة الأخرى التى قالت للناهين « لم تعظون قوما الله مهلكهم » .

فاختلف المفسرون فى نجاتهم ، وهلاكهم .

والظاهر ، أنهم كانوا من الناجين ، لأن الله خص الهلاك بالظالمين ، وهو لم يذكر ، أنهم ظالمون .

فدل على أن العقوبة ، خاصة بالمعتدين فى السبت .

ولأن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فرض كفاية .

إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ، فاكتفوا بإنكار أولئك .

ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم [ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم

مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

عذاباً شديداً ] فأبدوا من غضبهم عليهم ، مايقتضى أنهم كارهون أشد الكراهة ، لفعلهم ، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة .

[ فلما عتوا عما نهوا عنه ] أى : قسوا فلم يلينوا ، ولا اتعظوا .

[ قلنا لهم ] قولا قدرياً ، [ كونوا قردة خاسئين(١) ] فانقلبوا بإذن الله قردة ، وأبعدهم الله من رحمته .

ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقى منهم فقال :

[ وإذ تأذن ربك ] أى : أعلم إعلاما ، صريحاً .

[ ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ] أى : يهينهم ، ويذلهم .

[ إن ربك لسريع العقاب ] لمن عصاه ، حتى إنه يعجل له العقوبة فى الدنيا .

[ وإنه لغفور رحيم ] لمن تاب إليه وأناب ، يغفر له الذنوب ، ويستر عليه العيوب ، ويرحمه ، بأن يتقبل منه الطاعات ، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات .

وقد فعل الله بهم ما وعدهم به ، فلا يزالون فى ذل وإهانة ، تحت حكم غيرهم ، لاتقوم لهم راية ، ولاينصر لهم علم .

---

(١) خاسئين أى : ذليلين ، حقيرين .

أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن

---

[ وقطعناهم فى الأرض أمما ] أى : فرقناهم ومزقناهم فى الأرض ، بعد ما كانوا مجتمعين .

[ منهم الصالحون ] القائمون بحقوق الله ، وحقوق عباده .

[ ومنهم دون ذلك ] أى : دون الصلاح ، إما مقتصدون ، وإما الظالمون لأنفسهم .

[ وبلوناهم ] على عادتنا وسنتنا ، [ بالحسنات والسيئات ] أى : باليسر والعسر .

[ لعلهم يرجعون ] عما هم عليه مقيمون ، من الردى ، ويراجعون ما خلقوا له من الهدى ، فلم يزالوا بين صالح ، وطالح ، ومقتصد .

[ فخلف من بعدهم خلف ] زاد شرهم [ ورثوا ] بعدهم [ الكتاب ] وصار المرجع فيه إليهم ، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم ، وتبذل لهم الأموال ، ليفتوا ويحكموا ، بغير الحق ، وفشت فيهم الرشوة .

[ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون ] مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة :

[ سيغفر لنا ] وهذا قول خال من الحقيقة ، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة .

فلو كان ذلك ، لندموا على ما فعلوا ، وعزموا على أن لا يعودوا .

ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر ، ورشوة أخرى - يأخذونه .

يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ

---

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، واستبدلوا الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

قال الله تعالى – فى الإنكار عليهم ، وبيان جرائهم – :

[ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ] .

فما بالهم يقولون عليه غير الحق ، اتباعا لأهوائهم ، وميلا مع مطامعهم.

[ و ] الحال أنهم قد [ درسوا ما فيه ] فليس عليهم فيه إشكال ، بل قد أتوا أمرهم متعمدين ، وكانوا فى أمرهم مستبصرين .

وهذا أعظم للذنب ، وأشد للوم ، وأشنع للعقوبة .

وهذا من نقص عقولهم ، وسفاهة رأيهم ، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، ولهذا قال :

[ والدار الآخرة خير للذين يتقون ] ما حرم الله عليهم ، من المآكل التى تصاب ، وتؤكل رشوة على الحكم ، بغير ما أنزل الله ، وغير ذلك من أنواع المحرمات .

[ أفلا تعقلون ] أي : أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغى إيثاره ، وما ينبغى الإيثار عليه ، وماهو أولى بالسعى إليه ، والتقديم له على غيره .

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا
ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

فخاصية العقل، النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيما عظيما باقياً فأنى له العقل والرأى؟!!.

وإنما العقلاء حقيقة، من وصفهم الله بقوله [والذين يمسكون بالكتاب] أى: يتمسكون به علماً وعملا، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار، التى علمها، أشرف العلوم.

ويعلمون بما فيها من الأوامر، التى هى قرة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً.

ولهذا خصها بالذكر لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان.

وإقامتها، داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحا، قال تعالى: [إنا لانضيع أجر المصلحين] فى أقوالهم وأعمالهم، ونياتهم، مصلحين، لأنفسهم، ولغيرهم.

وهذه الآية، وما أشبهها، دلت على أن الله بعث رسله، عليهم الصلاة والسلام، بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا، بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

* ثم قال تعالى [وإذ نتقنا[1] الجبل فوقهم] حين امتنعوا من قبول ما فى التوراة.

---

(١) نتقنا. أى: قلعناه ورفعناه من أصله فوق رءوسهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن

---

فألزمهم الله العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل ، فصار فوقهم [ كأنه ظله ، وظنوا أنه واقع بهم ] وقيل لهم [ خذوا ما آتيناكم بقوة ] أى : بجد واجتهاد .

[ واذكروا ما فيه ] دراسة ومباحثة ، واتصافا بالعمل [ لعلكم تتقون ] إذا فعلتم ذلك .

* يقول تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ] أى : أخرج من أصلابهم ، ذريتهم ، وجعلهم يتناسلون ، ويتوالدون ، قرناً بعد قرن .

[ و ] حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم [ أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ] أى : قررهم ، بإثبات ربوبيته ، بما أودعه فى فطرهم ، من الإقرار ، بأنه ربهم ، وخالقهم ، ومليكهم .

قالوا : « بلى » قد أقررنا بذلك ، فإن الله تعالى ، فطر عباده على الدين الحنيف القيم .

فكل أحد ، فهو مفطور على ذلك ، ولكن الفطرة قد تغير ، وتبدل ، بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة ، ولهذا [ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ] .

أى : إنما امتحناكم ، حتى أقررتم ، بما تقرر عندكم ، من أن الله تعالى ، ربكم ، خشية أن تنكروا يوم القيامة ، فلا تقروا بشىء من ذلك ، وتزعمون

تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ
إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا

---

أن حجة الله ، ما قامت عليكم ، ولا عندكم بها علم ، بل أنتم غافلون عنها لاهون .

فاليوم ، قد انقطعت حجتكم ، وثبتت الحجة البالغة لله ، عليكم .

أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى ، فتقولون : [ إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ] فحذونا حذوهم ، وتبعناهم فى باطلهم .

[ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ] ، فقد أودع الله فى فطركم ، ما يدلكم على أن ما مع آبائكم ، باطل ، وأن الحق ما جاءت به الرسل ، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ، ويعلو عليه .

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ، ومذاهبهم الفاسدة ، ما يظنه هو الحق ، وما ذاك إلا لإعراضه ، عن حجج الله وبيناته ، وآياته الأفقية ، والنفسية .

فإعراضه ذلك ، وإقباله على ما قاله المبطلون ، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق .

هذا هو الصواب فى تفسير هذه الآيات .

وقد قيل : إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم ، حين استخرجهم من ظهره ، وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا بذلك .

فاحتج عليهم بما أمرهم به فى ذلك الوقت ، على ظلمهم ، فى كفرهم ، وعنادهم فى الدنيا والآخرة .

بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

---

ولـكن ليس فى الآية ، ما يدل على هذا ، ولا له مناسبة ، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى .

والواقع شاهد بذلك .

فإن هذا العهد والميثاق ، الذى ذكروا ، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره ، حين كانوا فى عالم كالذر ، لا يذكره أحد ، ولا يخطر ببال آدمى. فـكيف يحتج الله عليهم بأمر ، ليس عندهم به خبر ، ولا له عين ولا أثر ؟!! .

ولهذا لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً ، قال تعالى :

[ وكذلك نفصل الآيات ] أى : نبينها ونوضحها [ ولعلهم يرجعون ] إلى ما أودع الله فى فطرهم ، وإلى ما عاهدوا الله عليه ، فيرتدعوا عن القبائح .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ] أى : علمناه كتاب الله ، فصار العالم الكبير ، والحبر النحرير .

[ فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ] أى : انسلخ من الاتصاف الحقيقى ، بالعلم بآيات الله ، فإن العلم بذلك ، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويرقى إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المقامات .

فترك هذا ، كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق ، التى يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس .

فلما انسلخ منها ، أتبعه الشيطان ، أى : تسلط عليه ، حين خرج من الحصن الحصين ، وصار إلى أسفل سافلين ، فأزه[١] إلى المعاصى أزاً .

[ فكان من الغاوين ] ، بعد أن كان من الراشدين المرشدين .

وهذا ، لأن الله تعالى خذله ، ووكله إلى نفسه ، فلهذا قال تعالى :

[ ولو شئنا لرفعناه بها ] بأن نوفقه للعمل بها ، فيرتفع فى الدنيا والآخرة ، فيتحصن من أعدائه .

[ ولكنه ] فعل ما يقتضى الخذلان ، إذ أخلد[٢] إلى الأرض ] أى : إلى الشهوات السفلية ، والمقاصد الدنيوية .

[ واتبع هواه ] وترك طاعة مولاه .

---

(١) أزه . أى : أغراه بالمعاصى ، وهيجه ودفعه إليها .

(٢) أخلد . أى : ركن إلى الأرض ورضى بالدنيا ظاناً أنه يدوم ويخلد فيها .

إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ

---

[ فمثله ] فى شدة حرصه على الدنيا ، وانقطاع قلبه إليها .

[ كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث][1] أى: لا يزال لاهثاً فى كل حال ، وهذا لا يزال حريصاً ، حرصاً قاطعاً قلبه ، لا يسد فاقته شىء من الدنيا .

[ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ] بعد أن ساقها الله إليهم ، فلم ينقادوا لها ، بل كذبوا بها ، وردوها ، لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

[ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ] فى ضرب الأمثال ، وفى العبر والآيات .

فإذا تفكروا ، علموا ، وإذا علموا ، عملوا .

* [ ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ] .

أى : ساء وقبح ، مثل من كذب بآيات الله ، وظلم نفسه ، بأنواع المعاصى ، فإن مثلهم ، مثل السوء .

وهذا الذى آتاه الله آياته ، يحتمل أن المراد شخص معين ، قد كان منه ، ما ذكره الله ، فقص الله قصة تبينها للعباد .

---

( ١ ) يلهث . أى : يدفع لسانه ويخرجه بالنفس الشديد .

يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

---

ويحتمل أن المراد بذلك ، أنه اسم جنس ، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته ، فانسلخ منها .

وفى هذه الآيات ، الترغيب فى العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه ، وعصمة من الشيطان .

والترهيب من عدم العمل به ، وأنه نزول إلى أسفل سافلين ، وتسليط الشيطان عليه .

وفيه أن اتباع الهوى ، وإخلاد العبد إلى الشهوات ، يكون سبباً للخذلان .

* ثم قال — مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال — :

[ من يهد الله ] بأن يوفقه للخيرات ، ويعصمه من المكروهات ، ويعلمه ما لم يكن يعلم .

[ فهو المهتدى ] حقاً لأنه آثر هدايته تعالى .

[ ومن يضلل ] فيخذله ولا يوفقه للخير [ فأولئك هم الخاسرون ] لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ـ مبيناً كثرة الغاوين الضالين ، المتبعين إبليس اللعين ـ :

[ ولقد ذرأنا ] أى : أنشأنا وبثثنا [ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ] صارت البهائم أحسن حالة منهم .

لهم قلوب لا يفقهون بها ] أى : لا يصل إليها فقه ولا علم ، إلا مجرد قيام الحجة .

[ ولهم أعين لا يبصرون بها ] ما ينفعهم ، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

[ ولهم آذان لا يسمعون بها ] سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم .

[ أولئك ] الذين بهذه الأوصاف القبيحة [ كالأنعام ] أى : البهائم ، التى فقدت العقول .

وهؤلاء آثروا ما يفنى ، على ما يبقى ، فسلبوا خاصية العقل .

[ بل هم أضل ] من البهائم ، فإن الأنعام ، مستعملة فيما خلقت له .

ولها أذهان ، تدرك بها ، مضرتها من منفعتها ، فلذلك كانت أحسن حالا منهم .

[ وأولئك هم الغافلون ] الذين غفلوا عن أنفع الأشياء .

غفلوا عن الإيمان بالله ، وطاعته ، وذكره .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون، بأن يكونوا ممن ذرأ (١) الله لجهنم وخلقهم لها.
فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها، يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح فى عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء، أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

* هذا بيان، لعظيم جلاله، وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أى: له كل اسم حسن.

وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً، لم تكن حسنى.

وكذلك لو دلت على صفة، ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى.

فكل اسم من أسمائه، دال على جميع الصفة، التى اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

---

(١) ذرأ. أى: خلق.

. . . . . . . . . . .

---

وذلك نحو « العليم » الدال على أن له علماً محيطا عاما لجميع الأشياء .

فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

و « الرحيم » الدال على أن له رحمة عظيمة ، واسعة لـكل شىء .

و« القدير » الدال على أن له قدرة عامة ، لا يعجزها شىء ، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها « حسنى » أنه لا يدعى إلا بها ، ولذلك قال : [ فادعوه بها ] [1] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

فيدعى فى كل مطلوب ، بما يناسب ذلك المطلوب .

فيقول الداعى مثلا : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عَلَىَّ ياتواب ، وارزقنى يارزاق ، والطف بى يالطيف ونحو ذلك .

وقوله [وذروا الذين يلحدون [1] فى أسمائه سيجرون ما كانوا يعملون]

---

( ١ ) قوله [ فادعوه بها ] أى : ادعوا ربكم بأسمائه ، على حسب حاجاتكم ، فإن أردتم الرزق ، قولوا : اللهم باسمك الرزاق ارزقنا . وإذا أردتم النصر قولوا : باسمك الناصر ، انصرنا ، وهكذا فإن لـكل اسم من أسماء الله الحسنى خاصية ، يدعى به الله ويسأل ، والمراد : التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى حسب تنوع الحاجات هذا هو الظاهر ، والأوضح فى تفسير هذه الآية .

( ٢ ) يلحدون . أى : يميلون وينحرفون عن الحق .

أى : عقوبة وعذابا على إلحادهم فى أسمائه .

وحقيقة الإلحاد ، الميل بها ، عما جعلت له .

إما بأن يسمى بها ، من لا يستحقها ، كتسمية المشركين بها لآلهتهم .

وإما بنفى معانيها وتحريفها ، وأن يجعل لها معنى ، ما أراده الله ولا رسوله .

وإما أن يشبه بها غيرها .

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ، ويحذر الملحدون فيها :

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » .

* وقوله : [ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ]

أى: وممن جملة من خلقنا ، أمة فاضلة ، كاملة فى نفسها ، مكملة لغيرها ، يهدون أنفسهم وغيرهم ، بالحق ، فيعلمون الحق ، ويعملون به ، ويعلمونه ، ويدعون إليه وإلى العمل به .

[ وبه يعدلون ] بين الناس فى أحكامهم ، إذا حكموا فى الأموال ، والدماء والحقوق ، والمقالات ، وغير ذلك .

وهؤلاء أئمة الهدى ، ومصابيح الدجا .

وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وهم الصديقون الذين مرتبتهم ، تلى مرتبة الرسالة .

وهم فى أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله ، وعلو منزلته .

فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ

---

* أى : والذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ، فردوها ولم يقبلوها .

[ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ] بأن الله يدر لهم الأرزاق

[وأملى لهم ] أى: أمهلهم ، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ، ولا يعاقبون ، فيزدادوا كفراً وطغياناً ، وشراً إلى شرهم .

وبذلك تزيد عقوبتهم ، ويتضاعف عذابهم ،فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون ، ولهذا قال : [ إن كيدى متين ] أى : قوى بليغ .

* [ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم ] صلى الله عليه وسلم [ من جنة ] أى : أو لم يعملوا أفكارهم ، وينظروا : هل فى صاحبهم ، الذى يعرفونه ، ولا يخفى عليهم من حاله شيء ، هل هو مجنون .

فلينظروا فى أخلاقه وهديه ، ودله وصفاته ، وينظروا فى ما دعا إليه .

فلا يجدون فيه من الصفات ، إلا أكملها ، ولا من الأخلاق إلا أتمها ، ولا من العقل والرأى ، إلا ما فاق به العالمين ، ولا يدعو إلا لكل خير ، ولا ينهى إلا عن كل شر .

أفبهذا ياأولى الألباب جنة ؟!! أم هو الإمام العظيم ، والناصح المبين ، والماجد الكريم ، والرءوف الرحيم ؟!! .

يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

---

ولهذا قال : [ إن هو إلا نذير مبين ] أى : يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب ، ويحصل لهم الثواب .

* [ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ] فإنهم إذا نظروا إليها ، وجدوها أدلة على توحيد ربها ، وعلى ماله من صفات الكمال .

[ و ] كذلك لينظروا إلى جميع [ ما خلق الله من شىء ] فإن جميع أجزاء العالم ، تدل أعظم دلالة ، على الله وقدرته ، وحكمته ، وسعة رحمته ، وإحسانه ، ونفوذ مشيئته ، وغير ذلك من صفاته العظيمة ، الدالة على تفرده بالخلق، والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله [وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم] أى: لينظروا فى خصوص حالهم ، ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ، ويفجأهم الموت ، وهم فى غفلة معرضون ، فلا يتمكنون حينئذ ، من استدراك الفارط .

[ فبأى حديث بعده يؤمنون ] أى : إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل ، فأى حديث يؤمنون به ؟!! أبكتب الكذب والضلال ؟ أم بحديث كل مفتر دجال ؟ .

ولكن الضال لا حيلة فيه ، ولا سبيل إلى هدايته .

ولهذا قال تعالى [من يضلل الله فلا هادى له، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون] أى: يتحيرون ويترددون ، فلا يخرجون من طغيانهم ، ولا يهتدون إلى حق.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

---

* يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: [يسألونك] أى: المكذبون لك، المتعنتون [ عن الساعة أيان مرساها ] أى : متى وقتها ، الذى تجىء به ، ومتى تحل بالخلق ؟ .

[ قل إنما علمها عند ربى ] أى : إنه تعالى المختص بعلمها .

[ لا يجليها لوقتها إلا هو ] أى : لا يظهرها لوقتها الذى قدر أن تقوم فيه ، إلا هو .

[ ثقلت فى السموات والأرض ] أى : خفى علمها على أهل السموات والأرض ، واشتد أمرها أيضا عليهم ، فهم من الساعة مشفقون .

[ لا تأتيكم إلا بغتة ] أى : فجأة من حيث لا يشعرون ، لم يستعدوا لها ، ولم يتهيأوا لها .

[ يسألونك كأنك حفى(١) عنها ] أى : هم حريصون على سؤالك عن الساعة ، كأنك مستحف(٢) عن السؤال عنها ، ولم يعلموا أنك — لكمال علمك بربك ، وما ينفع السؤال عنه — غير مبال بالسؤال الخالى من المصلحة ، المتعذر علمه ، فإنه لا يعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب .

---

( ١ ) حفى . أى : عالم بها ، ومستقص فى السؤال عنها .

( ٢ ) قوله ( مستحف ) المراد : يسألونك هذا السؤال كأنك حريص على العلم بها ، ومستقص بالسؤال عنها ، كما يستفاد من المختار من الصحاح .

عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

---

وهى من الأمور التى أخفاها عن الخلق ، لـكمال حكمته ، وسعة علمه .

[ قل إنما علمها عند الله ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ] .

فلذلك حرصوا ، على ما لا ينبغى الحرص عليه .

وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ، ويدعون ما يجب عليهم ، من العلم ، ثم يذهبون إلى مالا سبيل لأحد أن يدركه ، ولا هم مطالبون بعلمه .

* [ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ] فإنى فقير مدبر ، لا يأتينى خير ، إلا من الله ، ولا يدفع عنى الشر ، إلا هو ، وليس لى من العلم إلاما علمنى الله تعالى .

[ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ] .

أى : لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تنتج لى المصالح والمنافع ، ولحذرت من كل ما يفضى إلى سوء ومكروه ، لعلمى بالأشياء قبل كونها ، وعلمى بما تفضى إليه .

ولـكنى — لعدم علمى — قد ينالنى ما ينالنى من السوء ، وقد يفوتنى ما يفوتنى ، من مصالح الدنيا ومنافعها .

فهذا أول دليل ، على أنى لا علم لى بالغيب .

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

---

[ إن أنا إلا نذير ] أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية ، والأخروية ، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك ، وأحذر منها .

[ وبشير ] بالثواب العاجل ، ببيان الأعمال الموصلة إليه ، والترغيب فيها .

ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة ، وإنما ينتفع بذلك ، ويقبله ، المؤمنون .

وهذه الآيات الكريمات ، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه لحصول نفع ، أو دفع ضر .

فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه الله ، ولا يدفع الضر ، عمن لم يدفعه الله عنه ، ولا له من العلم ، إلا ما علمه الله .

وإنما ينفع ، من قبل ما أرسل به ، من البشارة والنذارة ، وعمل بذلك .

فهذا نفعه عليه السلام ، الذى فاق نفع الآباء والأمهات ، والأخلاء والإخوان ، بما حث العباد على كل خير ، وحذرهم عن كل شر ، وفيه لهم ، غاية البيان والإيضاح .

۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا

---

* أى : [ هو الذى خلقكم ] أيها الرجال والنساء ، المنتشرون فى الأرض على كثرتكم وتفرقكم .

[ من نفس واحدة ] وهو : آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم .

[ وجعل منها زوجها ] أى : خلق من آدم زوجته حواء [ ليسكن إليها ] لأنها إذا كانت منه ، حصل بينهما من المناسبة والموافقة ، مايقتضى سكون أحدهما إلى الآخر ، فانقاد كل منها إلى صاحبه ، بزمام الشهوة .

[ فلما تغشاها ] أى تجللها مجامعاً لها قدر البارى أن يوجد من تلك الشهوة ، وذلك الجماع ، النسل ، وحينئذ [ حملت حملا خفيفا ] وذلك فى ابتداء الحمل ، لاتحس به الأنثى ، ولا يثقلها .

[ فلما ] استمرت و [ أثقلت ] به حين كبر فى بطنها ، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد ، وعلى خروجه حيا ، صحيحا ، سالماً لا آفة فيه .

لذلك [ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا ] ولداً [ صالحاً ] أى : صالح الخلقة تامها ، لانقص فيه [ لنكونن من الشاكرين ] .

[ فلما آتاهما صالحا ] على وفق ماطلبا ، وتمت عليهما النعمة فيه [ جعلا له شركاء فيما آتاهما ] أي : جعلا لله شركاء فى ذلك الولد ، الذى انفرد الله

ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ

---

بإيجاده ، والنعمة به ، وأقرّ به أعين والديه ، فعبّداه لغير الله .

إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ « عبد الحارث » و « عبد العزى ، و « عبد الكعبة » ونحو ذلك .

أو يشركا فى الله فى العبادة ، بعد ما منّ الله عليهما بما منّ به ، من النعم التى لايحصيها أحد من العباد .

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس ، فإن أول الكلام ، فى آدم وحواء .

ثم انتقل الكلام فى الجنس .

ولا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيراً ، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك ، وأنهم فى ذلك ، ظالمون ، أشد الظلم ، سواء كان الشرك فى الأقوال ، أم فى الأفعال .

فإن الله ، هو الخالق لهم ، من نفس واحدة ، الذى خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا ، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ، مايسكن بعضهم إلى بعض ، ويألفه ، ويلتذ به .

ثم هداهم إلى مابه تحصل الشهوة واللذة ، والأولاد ، والنسل .

ثم أوجد الذرية فى بطون الأمهات ، وقتا موقوتاً ، تتشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجه سويا صحيحا ، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم .

يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

---

أفلا يستحق أن يعبدوه ، ولايشركوا فى عبادته أحداً ، ويخلصوا له الدين .

ولكن الأمر جاء على العكس ، فأشركوا بالله [ مالا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم ] أى : لعابديها [ نصرا ولا أنفسهم ينصرون ] .

فإذا كانت لاتخلق شيئا ، ولا مثقال ذرة ، بل هى مخلوقة ، ولاتستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها ، ولا عن أنفسها فكيف تتخذ مع الله آلهة ؟ ! !

إن هذا إلا أظلم الظلم ، وأسفه السفه .

* [ وإن تدعوهم ] أى : وإن تدعوا ، أيها المشركون هذه الأصنام ، التى عبدتموها من دون الله [ إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ] .

فصار الإنسان أحسن حالة منها ، لأنها لاتسمع ، ولاتبصر ، ولاتَهدِى ولا تُهدَى .

وكل هذا ، إذا تصوره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً ، جزم ببطلان إلهيتها ، وسفاهة من عبدها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ

---

* وهذا من نوع التحدى للمشركين العابدين للأوثان .

يقول تعالى [ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ] أى : لافرق بينكم وبينهم ، فكلكم عبيد لله مملوكون .

فإن كنتم كما تزعمون صادقين ، فى أنها تستحق من العبادة شيئا [ فادعوهم فليستجيبوا لكم ] فإن استجابوا لكم ، وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين ، أنكم كاذبون فى هذه الدعوى ، مفترون على الله أعظم الفرية .

وهذا لايحتاج إلى تبيين فيه ، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها ، دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء .

فليس لها أرجل تمشى بها ، ولا أيد تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ، ولا آذان تسمع بها ، فهى عادمة لجميع الآلات والقوى ، الموجودة فى الإنسان .

فإذا كانت لاتجيبكم إذا دعوتموها ، فهى عباد أمثالكم ، بل أنتم أكمل منها ، وأقوى على كثير من الأشياء ، فلأى شيء عبدتموها .

[ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ] أى : اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ، على إيقاع السوء والمكروه بى ، من غير إمهال ولا إنظار .

فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

---

فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بى .

[ إن وليى الله ] الذى يتولانى ، فيجلب لى المنافع ويدفع عنى المضار .

[ الذى نزل الكتاب ] الذى فيه الهدى ، والشفاء ، والنور .

وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية .

[ وهو يتولى الصالحين ] الذين صلحت نياتهم وأعمالهم ، وأقوالهم ، كما قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

فالمؤمنون الصالحون — لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ، ولم يتولوا غيره ، ممن لاينفع ، ولا يضر — تولاهم الله ، ولطف بهم ، وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة ، فى دينهم ، ودنياهم ، ودفع عنهم — بإيمانهم — كل مكروه ، كما قال تعالى « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

---

* وهذا أيضاً فى بيان عدم استحقاق هذه الأصنام ، التى يعبدونها ، من دون الله ، شيئاً من العبادة ، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار ، فى نصر أنفسها ، ولا فى نصر عابديها ، وليس لها قوة العقل والاستجابة .

فلو دعوتها إلى الهدى ، لم تهتد ، وهى صور لاحياة فيها .

فتراهم ينظرون إليك ، وهم لايبصرون حقيقة ، لأنهم صوروها على صور الحيوانات ، من الآدميين أو غيرهم ، وجعلوا لها أبصاراً ، وأعضاء .

فإذا رأيتها ، قلت : هذه حية ، فإذا تأملتها ، عرفت أنها جمادات ، لاحراك بها ، ولا حياة .

فبأى رأيٍ اتخذها المشركون آلهة مع الله ؟

ولأى مصلحة ، أو نفع ، عكفوا عندها ، وتقربوا لها ، بأنواع العبادات ؟

فإذا عرف هذا ، عرف أن المشركين وآلهتهم التى عبدوها ، لواجتمعوا ، وأرادوا أن يكيدوا ، من تولاه فاطر السموات والأرض ، متولى أحوال عباده الصالحين ، لم يقدروا على كيده ، بمثقال ذرة من الشر ، لكمال عجزهم وعجزها ، وكمال قوة الله واقتداره ، وقوة من احتمى بجلاله ، وتوكل عليه .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

---

وقيل : إن معنى قوله [ وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ] أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى عليه وسلم .

فتحسبهم ينظرون إليك يارسول الله ، نظر اعتبار ، يتبين به الصادق من الكاذب .

ولكنهم لا يبصرون حقيقتك ، وما يتوسمه المتوسمون فيك ، من الجمال والكمال ، والصدق .

* هذه الآية جامعة ، لحسن الخلق مع الناس ، وماينبغى فى معاملتهم .

فالذى ينبغى أن يعامل به الناس ، أن يأخذ العفو ، أى : ما سمحت به أنفسهم ، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق .

فلا يكلفهم ، مالا تسمح به طبائعهم ، بل يشكر من كل أحد ، ما قابله به، من قول ، وفعل ، جميل ، أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم .

ولا يتكبر على الصغير لصغره ، ولا ناقص العقل لنقصه ، ولا الفقير لفقره .

بل يعامل الجميع ، باللطف ، والمقابلة بما تقضيه الحال ، وتنشرح له صدورهم .

[ وأمر بالعرف ] أى : بكل قول حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل للقريب والبعيد .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٠٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

---

فاجعل ما يأتى إلى الناس منك ، إما تعليم علم ، أو حثا على خير ، من صلة رحم ، أو برّ والدين ، أو إصلاح بين الناس ، أو نصيحة نافعة ، أو رأى مصيب ، أومعاونة على بر وتقوى ، أو زجرعن قبيح ، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية ، أو دنيوية .

ولما كان لابد من أذية الجاهل ، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل ، بالإعراض عنه ، وعدم مقابلته بجهله .

فمن آذاك ، بقوله ، أو فعله ، لاتؤذه ، ومن حرمك ، لا تحرمه ، ومن قطعك ، فَصِلْهُ ، ومن ظلمك فاعدل فيه .

وأما ما ينبغى أن يعامل به العبد شياطين الجن ، فقال تعالى : [ وإما ينزعنك ] إلى [ ثم لايقصرون ] .

* أى : أى وقت ، وفى أى حال [ ينزغنك من الشيطان نزغ ] أى: تحس منه بوسوسة ، وتثبيط عن الخير، أوحث على الشر، وإيعاز به .

[ فاستعذ بالله ] أى : التجىء واعتصم بالله ، واحتم بحماه [ إنه سميع ] لما تقول .

[ عليم ] بنيتك وضعفك ، وقوة التجائك له ، فسيحميك من فتنته ، ويقيك من وسوسته ، كما قال تعالى : « قل أعوذ برب الناس » إلى آخر السورة .

ولما كان العبد ، لابد أن يغفل وينال منه الشيطان ، الذى لايزال مرابطا ، ينتظر غرته وغفلته ، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين ، وأن المتقى ــ إذا أحس بذنب ، ومسه طائف من الشيطان ، فأذنب بفعل محرم

ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ

---

أو ترك واجب ـ تذكر من أى باب أُتِىَ، ومن أى مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة.

فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا فى الذنوب، لا يزالون يمدونهم فى الغى، ذنبا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك.

فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سلسى القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

* أى لا يزال هؤلاء المكذبون لك فى تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد.

فإذا جئتهم بشىء من الآيات الدالة على صدقك، لم ينقادوا.

[ وإذا لم تأتهم بآية ] من آيات الاقتراح، التى يعينونها [ قالوا لولا اجتبيتها ] أى: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، والمعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شىء.

أو لو لا اخترعتها من نفسك.

أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

---

[ قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ] ، فأنا عبد متبع ، مدبر .

والله تعالى هو الذى ينزل الآيات ويرسلها ، على حسب ما اقتضاه حمده ، وطلبته حكمته البالغة .

فإن أردتم آية ، لا تضمحل على تعاقب الأوقات ، وحجة ، لاتبطل فى جميع الآنات .

فإن [ هذا ] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم [ بصائر من ربكم ] يستبصر به فى جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الإنسانية ، وهو الدليل والمدلول [ فمن تفكر وتدبره ، علم أنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وبه قامت الحجة ، على كل من بلغه ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

وإلا فمن آمن ، فهو [ هدى ] له من الضلال [ ورحمة ] له من الشقاء .

فالمؤمن ، مهتد بالقرآن ، متبع له ، سعيد فى دنياه وأخراه .

وأما من لم يؤمن به ، فإنه ضال شقى ، فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

* هذا الأمر عام فى كل من سمع كتاب الله يتلى ، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات .

والفرق بين الاستماع والإنصات ، أن الإنصات فى الظاهر ، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه .

وأما الاستماع له ، فهو أن يلقى سمعه ، ويحضر قلبه ، ويتدبر ما يستمع .

فإن من لازم على هذين الأمرين ، حين يتلى كتاب الله ، فإنه ينال خيرا كثيرا ، وعلما غزيراً ، وإيماناً مستمراً متجدداً ، وهدى متزايداً ، وبصيرة فى دينه .

ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما .

فدل ذلك ، على أن من تلى عليه الكتاب ، فلم يستمع له ولم ينصت ، أنه محروم الحظ ، من الرحمة ، قد فاته خير كثير .

ومن أوكد ما يؤمر مستمع القرآن ، أنه يستمع له وينصت ، فى الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه ، فإنه مأمور بالإنصات .

حتى إن أكثر العلماء يقولون : إن اشتغاله بالإنصات ، أولى من قراءته الفاتحة ، وغيرها .

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

---

* الذكر لله تعالى، يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله.

فأمر الله، عبده ورسوله، محمداً أصلا، وغيره تبعا ـ بذكر ربه فى نفسه أى: مخلصاً خالياً.

[ تضرعا(١) ] بلسانك، مكررا لأنواع الذكر.

[ وخيفة ]فى قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وَجِلَ القلب منه، خوفا أن يكون عملك غير مقبول.

وعلامة الخوف، أن يسعى ويجتهد، فى تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

[ ودون الجهر من القول ] أى: كن متوسطا، لاتجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا.

[ بالغدو ] أول النهار [ والآصال ] آخره

وهذان الوقتان، فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

[ ولا تكن من الغافلين ] الذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم.

فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة.

وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز، فى ذكره وعبوديته.

---

(١) تضرعا. أى: مظهرا شدة الاضطرار والذلة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

---

وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة ، فى الاشتغال به .

وهذه من الآداب ، التى ينبغى للعبد أن يراعيها حق رعايتها .

وهى : الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار ، خصوصاً ، طرفى النهار، مخلصا خاشعا، متضرعا ، متذللا ، ساكنا ، متواطئا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار ، وإقبال على الدعاء والذكر ، وإحضار له بقلبه ، وعدم غفلة ، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه .

ثم ذكر تعالى أن له عباداً . مستديمين لعبادته ، ملازمين لخدمته وهم الملائكة ، لتعلموا أن الله ، لايريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة ، ولا ليتعزز بها من ذلة .

وإنما يريد نفع أنفسكم ، وأن تربحوا عليه ، أضعاف أضعاف ، ما عملتم ، فقال :

[ إن الذين عند ربك ] من الملائكة المقربين ، وحملة العرش والكروبيين .

[ لايستكبرون عن عبادته ] بل يذعنون لها ، وينقادون لأوامر ربهم

[ ويسبحونه ] الليل والنهار ، لايفترون .

[ وله ] وحده لاشريك له [ يسجدون ] ، فليقتد العباد ، بهؤلاء الملائكة الكرام .

وليداوموا على عبادة الملك العلام

تم تفسير سورة الأعراف

ولله الحمد والشكر والثناء . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير

# سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن

---

الأنفال، هى: الغنائم، التى ينفلها الله لهذه الأمة، من أموال الكفار.

وكانت هذه الآيات فى هذه السورة، قد نزلت فى قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين.

فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع.

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فأنزل الله [يسألونك عن الأنفال] كيف تقسم وعلى من تقسم؟

[قل] لهم [الأنفال لله والرسوله] يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله.

بل عليكم إذا حكم الله ورسوله، أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما.

وذلك داخل فى قوله [فاتقوا الله] بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

[وأصلحوا ذات بينكم] أى: أصلحوا ما بينكم من التشاحن، والتقاطع، والتدابر، بالتوادد، والتحاب، والتواصل.

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

---

فبذلك تجتمع كلمتكم ، ويزول ما يحصل — بسبب التقاطع — من التخاصم ، والتشاجر والتنازع .

ويدخل فى إصلاح ذات البين ، تحسين الخلق لهم ، والعفو عن المسيئين منهم فإنه — بذلك — يزول كثير مما يكون فى القلوب من البغضاء ، والتدابر .

والأمر الجامع لذلك كله قوله [ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ].

فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله .

كما أن من لم يطع الله ورسوله ، فليس بمؤمن .

ومن نقصت طاعته لله ورسوله ، فذلك لنقص إيمانه .

ولما كان الإيمان قسمين ، إيماناً كاملا يترتب عليه المدح والثناء ، والفوز التام ، وإيماناً ، دون ذلك — ذكر الإيمان الكامل فقال :

[ إنما المؤمنون ] الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان .

[ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ] أى : خافت ورهبت ، فأوجبت لهم ، خشية الله تعالى ، الانكفاف عن المحارم ، فإن خوف الله تعالى ، أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب .

[ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ] .

ووجه ذلك ، أنهم يلقون له السمع ، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك ، يزيد إيمانهم .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

---

لأن التدبر من أعمال القلوب ، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى ، كانوا يجهلونه ، ويتذكرون ما كانوا نسوه .

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير ، واشتياقاً إلى كرامة ربهم .

أو وجلا من العقوبات ، وازدجاراً عن المعاصى ، وكل هذا مما يزداد به الإيمان .

[ وعلى ربهم ] وحده ، لا شريك له [ يتوكلون ] أى : يعتمدون فى قلوبهم على ربهم ، فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى ، سيفعل ذلك .

والتوكل ، هو ، الحامل للأعمال كلها ، فلا توجد ولا تكمل ،إلا به .

[ الذين يقيمون الصلاة ] من فرائض ، ونوافل ، بأعمالها الظاهرة والباطنة ، كحضور القلب فيها ، الذى هو روح الصلاة ولبها .

[ ومما رزقناهم ينفقون ] النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، وما ملكت أيمانهم .

والمستحبة كالصدقة فى جميع طرق الخير .

[ أولئك ] الذين اتصفوا بتلك الصفات [هم المؤمنون حقاً ] لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان ، بين الأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، بين العلم والعمل ، بين أداء حقوق الله ، وحقوق عباده .

وقدم تعالى أعمال القلوب ، لأنها أصل لأعمال الجوارح ، وأفضل منها.

وفيها دليل على أن الإيمان ، يزيد وينقص ، فيزيد بفعل الطاعة ، وينقص بضدها .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا

---

وأنه ينبغي للعبد ، أن يتعاهد إيمانه وينميه .

وأن أولى ما يحصل به ذلك ، تدبر كتاب الله تعالى ، والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال :

[ لهم درجات عند ربهم ] أي : عالية بحسب علو أعمالهم .

[ ومغفرة ] لذنوبهم [ ورزق كريم ] وهو ما أعد الله لهم فى دار كرامته، مما لا عين رأت : ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ودل هذا ، على أن من يصل إلى درجتهم فى الإيمان — وإن دخل الجنة — فلن ينال ما نالوا ، من كرامة الله التامة .

* قدم تعالى — أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة — الصفات التى على المؤمنين أن يقوموا بها ، لأن من قام بها ، استقامت أحواله ، وصلحت أعماله ، التى من أكبرها ، الجهاد فى سبيله .

فكما أن إيمانهم ، هو الإيمان الحقيق ، وجزاءهم هو الحق الذى وعدهم الله به .

كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، من بيته إلى لقاء المشركين فى « بدر » بالحق الذى يحبه الله تعالى ، وقد قدره وقضاه .

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم فى ذلك الخروج ، أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال .

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ

---

فحين تبين لهم أن ذلك واقع ، جعل فريق من المؤمنين ، يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك ، ويكرهون لقاء عدوهم ، كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون .

والحال أن هذا ، لا ينبغى منهم ، خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق ، ومما أمر الله به ، ورضيه .

فهذه الحال ، ليس للجدال فيها محل ، لأن الجدال ، محله وفائدته ، عند اشتباه الحق ، والتباس الأمر .

فأما إذا وضح وبان ، فليس إلا الانقياد والإذعان .

هذا ، وكثير من المؤمنين ، لم يجر منهم من هذه المجادلة شىء ، ولا كرهوا لقاء عدوهم .

وكذلك الذين عاتبهم الله ، انقادوا للجهاد أشد الانقياد ، وثبتهم الله ، وقيض لهم من الأسباب ، ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتى ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم ليتعرضوا[1] لعير ، خرجت مع أبى سفيان بن حرب لقريش إلى الشام ، قافلة كبيرة .

فلما سمعوا برجوعها من الشام ، ندب النبى صلى الله عليه وسلم ، الناس .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يتعرضون » والمقام يقتضى التعليل فلذلك أصلحنا الكلمة بـ « ليتعرضوا » .

إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

---

فخرج معه ، ثلثمائة ، وبضعة عشر رجلا ، معهم سبعون بعيراً ، يعتقبون عليها ، ويحملون عليها متاعهم .

فسمع بخبرهم قريش ، فخرجوا لمنع عيرهم ، فى عدد كثير وعُدَدٍ وافرة ، من السلاح ، والخيل ، والرجال ، يبلغ عددهم قريباً من الألف .

فوعد الله المؤمنين ، إحدى الطائفتين ، إما أن يظفروا بالعير ، أو بالنفير .

فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين ، ولأنها غير ذات الشوكة .

ولكن الله تعالى ، أحب لهم ، وأراد أمراً ، أعلى مما أحبوا .

أراد أن يظفروا بالنفير ، الذى خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم.

[ويريد الله أن يحق الحق بكلماته] فينصر أهله [ ويقطع دابر الكافرين].

أى يستأصل أهل الباطل ، ويُرِىَ عباده من نصرة للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم .

[ ليحق الحق ] بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه .

[ ويبطل الباطل ] بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه [ ولو كره المجرمون ] فلا يبالى الله بهم .

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ

---

* أى: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم [فاستجاب لكم] وأغاثكم بعدة أمور.

منها أن الله أمدكم [بألف من الملائكة مردفين] أى: يردف بعضهم بعضاً.

[وما جعله الله] أى إنزال الملائكة [إلا بشرى] أى: لتستبشر بذلك نفوسكم.

[ولتطمئن به قلوبكم] وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد، ولا عُدَدٍ.

[إن الله عزيز] لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذى يخذل من بلغوا من الكثرة، ومن العدد والآلات، ما بلغوا.

[حكيم] حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم، أن أنزل عليكم نعاساً [يغشيكم] أى: فيذهب ما فى قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون [أمنة] لكم، وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً، ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم من وساوس الشيطان، ورجزه.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ
عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ

---

[ وليربط على قلوبكم ] أى : يثبتها فإن ثبات القلب ، أصل ثبات البدن .

[ ويثبت به الإقدام ] فإن الأرض كانت سهلة دهسة[1] فلما نزل عليها المطر ، تلبدت ، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة [ أنى معكم ] بالعون والنصر والتأييد .

[ فثبتوا الذين آمنوا ] أى : ألقوا فى قلوبهم ، وألهموهم الجراءة على عدوهم ، ورغبوهم فى الجهاد وفضله .

[ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ] الذى هو أعظم جندلكم عليهم.

فإن الله إذا ثبت المؤمنين ، وألقى الرعب فى قلوب الكافرين ، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ، ومنحهم الله أكتافهم .

[ فاضربوا فوق الأعناق ] أى : على الرقاب [واضربوا منهم كل بنان]. أى : مفصل .

---

( ١ ) دهسة أى : ما سهل ولان من الأرض ولم يبلغ أن يكون رملا ، اهـ ، نهاية لابن الأثير .

بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

---

وهذا خطاب ، إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، فيكون فى ذلك دليل ، أنهم باشروا القتال يوم بدر .

أو للمؤمنين يشجعهم الله ، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين ، وأنهم لا يرحمونهم .

[ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ] أى : حاربوهما ، وبارزوهما بالعداوة .

[ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ] ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه ، وتقتيلهم .

[ ذلكم ] العذاب المذكور [ فذوقوه ] أيها المشاقون لله ورسوله عذاباً معجلا .

[ وأن للكافرين عذاب النار ] .

وفى هذه القصة من آيات الله العظيمة ، ما يدل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، رسول الله حقاً .

منها : أن الله وعدهم وعداً ، فأنجزهموه .

ومنها : ما قال الله تعالى « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين » الآية .

ومنها : إجابة دعوة الله للمؤمنين ، لما استغاثوه ، بما ذكره من الأسباب .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا
فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

---

وفيها الاعتناء العظيم ، بحال عباده المؤمنين ، وتقييض الأسباب ، التى بها ثبت إيمانهم ، ثبتت أقدامهم ، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية .

ومنها : أن من لطف الله بعبده ، أن يسهل عليه طاعته ، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية .

* أمر الله تعالى عباده المؤمنين ، بالشجاعة الإيمانية ، والقوة فى أمره ، والسعى فى جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان .

ونهاهم عن الفرار ، إذا التقى الزحفان فقال: [ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ] أى : صف القتال ، وتزاحف الرجال ،واقتراب بعضهم من بعض .

[ فلا تولوهم الأدبار ] ، بل اثبتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم.، فإن فى ذلك ، نصرة لدين الله ، وقوة لقلوب المؤمنين ، وإرهابا للكافرين .

[ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء ] أى : رجع [ بغضب من الله ومأواه ] أى مقره [ جهنم وبئس المصير ] .

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف ، من غير عذر ، من أكبر الكبائر ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد .

ومفهوم الآية : أن المتحرف للقتال ، وهو الذى ينحرف من جهة

لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

---

إلى أخرى ، ليكون أمكن له فى القتال ، وأنكى لعدوه ، فإنه لا بأس بذلك ، لأنه لم يول دبره فاراً ، وإنما ولى دبره ، ليستعلى على عدوه ، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته ، أو ليخدعه بذلك ، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين ، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار ، فإن ذلك جائز .

فإن كانت الفئة فى العسكر ، فالأمر فى هذا واضح .

وإن كانت الفئة فى غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدى الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين ، فقد ورد من آثار الصحابة مايدل على أن هذا جائز .

ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون ، أن الانهزام أحمد عاقبة ، وأبقى عليهم .

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار فى ثباتهم لقتالهم ، فيبعد ـ فى هذه الحال ـ أن تكون من الأحوال المرخص فيها ، لأنه — على هذا — لا يتصور الفرار المنهى عنه .

وهذه الآية مطلقة ، وسيأتى فى آخر السورة تقييدها بالعدد .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

---

* يقول تعالى — لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون.

[ فلم تقتلوهم ] بحولكم وقوتكم [ ولكن الله قتلهم ] حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

[ وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى ].

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، وقت القتال، دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده فى نصرته.

ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها فى وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم.

فما بقى منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه، وفمه، وعينيه منها.

فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه : لست بقوتك — حين رميت التراب — أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم، بقوتنا واقتدارنا.

[ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ] أى : إن الله تعالى، قادرعلى انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال.

ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد، إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسنا، وثواباً جزيلا.

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

---

[ إن الله سميع عليم ] يسمع تعالى ، ما أسر به العبد ، وما أعلن ، ويعلم ما فى قلبه ، من النيات الصالحة وضدها .

فيقدر على العباد أقداراً ، موافقة لعلمه وحكمته ، ومصلحة عباده ، ويجزى كلا بحسب نيته وعمله .

[ ذلكم ] النصر ، من الله لكم [ وأن الله موهن كيد الكافرين ] أى : مضعف كل مكر وكيد ، يكيدون به الإسلام وأهله ، وجاعل مكرهم محيقا [1] بهم .

* [ إن تستفتحوا ] أيها المشركون ، أى : تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه . على المعتدين الظالمين .

[ فقد جاءكم الفتح ] حين أوقع الله بكم من عقابه ، ما كان نكالا [2] لكم ، وعبرة للمتقين [ وإن تنتهوا ] عن الاستفتاح [ فهو خير لكم ] لأنه ربما أمهلكم ، ولم يعجل لكم النقمة .

---

( ١ ) محيقاً ، أى : محيطاً بهم ، وفعله « أحاق » مثل « حاق » أى : أحاط به ، كما يستفاد من القاموس .

(٢) نكالا . أى : عقوبة لكم ، تكون عبرة لغيركم ، تمنعهم عن مثل ما استحققتم به العقاب من سوء الأعمال .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

[ ولن تغنى عنكم فئتكم ] أى : أعوانكم وأنصاركم ، الذين تحاربون وتقاتلون ، معتمدين عليهم [ شيئا ، وإن كثرت وأن الله مع المؤمنين ] ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عدده .

وهذه المعية التى أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين ، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان .

فإذا أديل العدو على المؤمنين فى بعض الأوقات ، فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه ، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه . لما انهزمت لهم راية انهزاما مستقرا ولا أديل عليهم عدوهم أبداً .

* لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين ، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته فقال : [ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ] بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما .

[ولا تولوا عنه] أى: عن هذا الأمر الذى هو طاعة الله، وطاعة رسوله.

[ وأنتم تسمعون ] ما يتلى عليكم من كتاب الله ، وأوامره ، ووصاياه ، ونصائحه .

فتوليكم ، فى هذه الحال ، من أقبح الأحوال .

[ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون] أى: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية ، التى لا حقيقة لها ، فإنها حالة ، لا يرضاها الله ولا رسوله .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

فليس الإيمان بالتمني والتحلي ، ولكنه ما وقر فى القلوب ، وصدقته الأعمال .

* يقول تعالى : [ إن شر الدواب عند الله ] من لم تفد فيهم الآيات والنذر .

وهم [ الصم ] عن استماع الحق [ البكم ] عن النطق به .

[ الذين لايعقلون ] ماينفعهم ، ويؤثرونه على مايضرهم .

فهؤلاء ، شر عند الله ، من شرار الدواب ، لأن الله أعطاهم ، أسماعا وأبصاراً ، وأفئدة ، ليستعملوها فى طاعة الله ، فاستعملوها فى معاصيه ، وعدموا — بذلك — الخير الكثير .

فإنهم كانوا ، بصدد أن يكونوا من خيار البرية ، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم ، أن يكونوا من شر البرية .

والسمع الذين نفاه الله عنهم ، سمع المعنى المؤثر فى القلب .

وأما سمع الحجة ، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم ، بما سمعوه من آياته .

وإنما لم يسمعهم السماع النافع ، لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته .

[ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم ] على الفرض والتقدير

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ

---

[ لتولو] عن الطاعة [ وهم معرضون ] لا التفات لهم إلى الحق ، بوجه من الوجوه .

وهذا دليل على أن الله تعالى ، لا يمنع الإيمان والخير ، إلا عمن لا خير فيه ، والذى لا يزكو لديه ، ولا يثمر عنده . وله الحمد تعالى والحكمة ، فى هذا .

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان منهم ، وهو : الاستجابة لله وللرسول ، أى : الانقياد لما أمر به ، والمبادرة إلى ذلك ، والدعوة إليه ، والاجتناب لما نهيا عنه ، والانكفاف عنه ، والنهى عنه.

وقوله [ إذا دعاكم لما يحييكم ] وصف ملازم ، لكل ما دعا الله ورسوله إليه ، وبيان لفائدته وحكمته ، فإن حياة القلب والروح ، بعبودية الله تعالى ، ولزوم طاعته ، وطاعة رسوله ، على الدوام .

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال :

[ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ] فإياكم أن تردوا أمر الله ، أول ما يأتيكم ، فيحال بينكم وبينه ، إذا أردتموه بعد ذلك ، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، يقلب القلوب حيث شاء ، ويصرفها ، أنى شاء .

فليكثر العبد من قول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » يا مصرف القلوب ، اصرف قلبى إلى طاعتك .

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

[ وأنه إليه تحشرون ] أى : تجمعون ليوم لاريب فيه ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بعصيانه .

[ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ] بل تصيب فاعل الظلم وغيره .

وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير ، فإن عقوبته ، تعم الفاعل وغيره .

وتُتَّقَى هذه الفتنة ، بالنهى عن المنكرَ وقمع أهل الشر والفساد ، وأن لايمكنوا من المعاصى والظلم ، مهما أمكن .

[ واعلموا أن الله شديد العقاب ] لمن تعرض لمساخطه ، وجانب رضاه .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — ممتنا على عباده ، فى نصرهم بعد الذلة ، وتكثيرهم بعد القله ، وإغنائهم بعد العيلة[1].

[ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ] أى : مقهورون تحت حكم غيركم [ تخافون أن يتخطفكم الناس ] أى : يأخذوكم .

[ فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات ] فجعل لكم بلداً تأوون إليه ، وانتصر من أعدائكم على أيديكم ، وغنمتم من أموالهم ، ما كنتم به أغنياء .

[ لعلكم تشكرون ] الله على منته العظيمة ، وإحسانه التام ، بأن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً .

---

( ١ ) العيلة . أى : الفقر .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه ، من أوامره ، ونواهيه .

فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا .

فمن أدى الأمانة ، استحق من الله الثواب الجزيل ، ومن لم يؤدها بل خانها ، استحق العقاب الوبيل ، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته ، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات ، وأقبح الشيات ، وهى الخيانة ، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها ، وهى : الأمانة .

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده ، فربما حملته محبته ذلك ، على تقديم هوى نفسه ، على أداء أمانته ، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد ، فتنة يبتلى الله بهما عباده ، وأنهما عارية ، ستؤدى لمن أعطاها ، وترد لمن استودعها [ وأن الله عنده أجر عظيم ] .

فإن كان لكم عقل ورأى ، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة .

فالعاقل يوازن بين الأشياء ، ويؤثر أولاها بالإيثار ، وأحقها بالتقديم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

* امتثال العبد لتقوى ربه ، عنوان السعادة ، وعلامة الفلاح .

وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة ، شيئاً كثيراً .

فذكر هنا ، أن من اتقى الله ، حصل له أربعة أشياء ، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها :

الأول : الفرقان ، وهو : العلم والهدى ، الذى يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة .

الثانى والثالث ، تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب .

وكل واحد منها داخل فى الآخر ، عند الإطلاق ، وعند الاجتماع .

يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر ، ومغفرة الذنوب ، بتكفير الكبائر .

الرابع : الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، لمن اتقاه ، وآثر رضاه على هوى نفسه .

[ والله ذو الفضل العظيم ] .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى [ و ] أذكر ، أيها الرسول ، ما منّ الله به عليك .

[ إذ يمكر بك الذين كفروا ] حين تشاور المشركون فى دار الندوة ، فيما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ، ويوثقوه .

وإما أن يقتلوه فيستريحوا — بزعمهم — من دعوته .

وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم .

فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأياً رآه .

فاتفق رأيهم ، على رأى رآه شريرهم ، أبو جهل ، لعنه الله .

وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش ، فتى ، ويعطوه سيفاً صارما ، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد ، ليتفرق دمه فى القبائل .

فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته ، فلا يقدرون على مقاومة جميع قريش .

فترصدوا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فى الليل ، ليوقعوا به ، إذا قام من فراشه .

فجاء الوحى من السماء ، وخرج عليهم ، فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج ، وأعمى الله أبصارهم عنه .

حتى إذا استبطأوه ، جاءهم آت وقال : خيبكم الله ، قد خرج محمد ، وذَرَّ على رءوسكم التراب .

. . . . . . . . . . . .

فنفض كل منهم التراب عن رأسه .

ومنع الله رسوله منهم ، وأذن له فى الهجرة إلى المدينة .

فهاجر إليها ، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار .

ولم يزل أمره يعلو ، حتى دخل مكة عنوة ، وقهر أهلها .

فأذعنوا له ، وصاروا تحت حكمه ، بعد أن خرج مستخفياً منهم ، خائفا[١] على نفسه .

(١) قوله (خائفاً على نفسه) كلام غير صحيح . كيف إن الله طمأنه بحفظه وقال [ والله يعصمك من الناس ] فشجاعته عليه الصلاة والسلام بلغت أقصى الغايات ولم يستخف بخروجه من منزله ، بل شق طريقه — امتثالا لأمر الله — فى وسط صفوفهم أفيكون هذا الخروج استخفاءاً ؟! بل هو غاية فى الاستعلان ، ولم يكن النبي فى وقت من الأوقات خائفاً من المخلوقين . وما فعل ما فعل من الخروج من منزله ومن مكة بلده ومسقط رأسه إلا بأمر من ربه وما كان استخفاؤه فى الغار إلا تشريعاً لأمته كيف يتخذون الحيطة لأنفسهم عند الأزمات ، فعجيب جداً أن يقال : إن الرسول كان يخشى على نفسه من الناس . كيف يكون ذلك مع فضله وتكريمه على الخلق أجمع فهل يكون أقل شجاعة من ابن رواحة الذى قال كلمته المدوية فى غزوة مؤتة مشجعاً إخوانه الجنود حينما رأوا كثرة العدو ، وتضاعفه — ( والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم لأجله ( أى الشهادة ) نحن لا نحارب بكثرة الرجال ولكن نحارب بقوة الإيمان الذى أودعه الله فى قلوبنا . فهذا صحابى بلغ به قوة الإيمان هذا المبلغ ولقى مصرعه بين تلك الجموع الكثيفة . أفيكون رسول الله أقل منه شجاعة ويقال عنه خرج مستخفياً منهم خائفاً على نفسه ) اللهم عرفنا بك ثم بقدر نبيك .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

---

فسبحان اللطيف بعباده الذى لا يغالبه مغالب .

* يقول تعالى — فى بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم — [ وإذا تتلى عليهم آياتنا ] الدالة على صدق ما جاء به الرسول .

[ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ] وهذا من عنادهم وظلمهم .

وإلا فقد تحداهم الله، أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله ، فلم يقدروا على ذلك ، وتبين عجزهم .

فهذا القول الصادر من هذا القائل ، مجرد دعوى ، كذبه الواقع .

وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا رحل ليدرس ، من أخبار الأولين ، فأتى بهذا الكتاب الجليل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

[ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا ] الذى يدعو إليه محمد [هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ] قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم ، والجهل بما ينبغى من الخطاب .

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ، ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه — قالوا لمن ناظرهم ، وادعى أن الحق معه .

ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ

---

إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم .

فمذ قالوا : [ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ] الآية ، علم بمجرد قولهم ، أنهم السفهاء الأغبياء ، الجهلة الظالمون .

فلو عاجلهم الله بالعقاب ، لما أبقى منهم باقية .

ولكنه تعالى ، دفع عنهم العذاب ، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال :

[ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ] فوجوده صلى الله عليه وسلم ، أمنة لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة ، التي يظهرونها على رءوس الأشهاد ، يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم ، فيستغفرون الله تعالى فلهذا قال [ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ] .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم ، بعد ما انعقدت أسبابه .

ثم قال [ وما لهم أن لا يعذبهم الله ] أي : أى شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك وهو صد الناس عن المسجد الحرام ، خصوصاً صدهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، الذين هم أولى به منهم .

ولهذا قال : [ وما كانوا ] أي المشركون [ أولياءه ] يحتمل أن الضمير يعود إلى الله ، أى : أولياء الله .

ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أى:وما كانوا أولى به من غيرهم.

وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ
إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً
فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

---

[ إن أولياؤه إلا المتقون ] وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة ، وأخلصوا له الدين .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] فلذلك ادّعَوْا لأنفسهم أمراً ، غيرهم أولى به .

* يعنى : أن الله تعالى ، إنما جعل بيته الحرام ، ليقام فيه دينه ، وتخلص له فيه العبادة .

فالمؤمنون ، هم الذين قاموا بهذا الأمر .

وأما هؤلاء المشركون ، الذين يصدون عنه ، فما كان صلاتهم فيه ، التى هى أكبر أنواع العبادات [ إلا مكاء وتصدية ] .

أى صفيراً وتصفيقاً ، فعل الجهلة الأغبياء ، الذين ليس فى قلوبهم تعظيم لربهم ، ولا معرفة بحقوقه ، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها .

فإذا كانت هذه صلاتهم فيه ، فكيف ببقية العبادات ؟ ! ! .

فبأى شىء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة ، والأفعال السديدة .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ

---

لا جرم ، أورثهم الله بيته الحرام ، ومكنهم منه .

وقال — بعد ما مكن لهم منه — « ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

وقال هنا [ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ] .

* يقول تعالى ـ مبيناً لعداوة المشركين ، وكيدهم ، ومكرهم ، ومبارزتهم لله ولرسوله ، وسعيهم فى إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقال :

[ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ] أى : ليبطلوا الحق ، وينصروا الباطل ، ويبطل توحيد الرحمن ، ويقوم دين عبادة الأوثان .

[ فسينفقونها ] أى : فسيصدرون هذه النفقة ، وتخف عليهم ، لتمسكهم بالباطل ، وشدة بغضهم للحق .

[ ثم تكون عليهم حسرة ] أى : ندامة ، وخزيا ، وذلا .

[ ثم يغلبون ] فتذهب أموالهم ، وما أملوا ، ويعذبون فى الآخرة أشد العذاب .

ولهذا قال : [ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ] أى : يجمعون إليها ، ليذوقوا عذابها ، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء .

وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ

---

والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل كل واحد على حدة ، وفى دار تخصه .

فيجعل الخبيث بعضه على بعض ، من الأعمال ، والأموال والأشخاص .

[ فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون ] الذين خسروا أنفسهم ، وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

* هذا من لطفه تعالى بعباده ، لا يمنعه كفر العباد ، ولا استمرارهم فى العناد ، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى ، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغى والردى ، فقال :

[ قل للذين كفروا إن ينتهوا ] عن كفرهم ، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له .

[ يغفر لهم ما قد سلف ] منهم من الجرائم [ وإن يعودوا ] إلى كفرهم وعنادهم [ فقد مضت سنة الأولين ] بإهلاك الأمم المكذبة ، فلينتظروا ما حل بالمعاندين ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

فهذا خطابه للمكذبين .

وأما خطابه للمؤمنين ، عندما أمرهم بمعاملة الكافرين ، فقال :

[ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ] أى : شرك ، وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام .

لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

---

[ويكون الدين كله لله] فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين ، أن يدفع شرهم عن الدين ، وأن يذب عن دين الله ، الذى خلق الخلق له ، حتى يكون هو العالى على سائر الأديان.

[ فإن انتهوا ] عن ما هم عليه من الظلم [ فإن الله بما يعملون بصير ] لا تخفى عليه منهم خافية .

[ وإن تولوا ] عن الطاعة ، وأوضعوا فى الإضاعة [ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ] الذى يتولى عباده المؤمنين ، ويوصل إليهم مصالحهم ، وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية .

[ ونعم النصير ] الذى ينصرهم ، فيدفع عنهم كيد الفجار ، وتكالب الأشرار .

ومن كان الله مولاه وناصره ، فلا خوف عليه ، ومن كان الله عليه ، فلا عزّ له ، ولا قائمة تقوم له .

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ

---

* يقول تعالى : [ واعلموا أنما غنمتم من شيء ] أي : أخذتم من مال الكفار قهراً بحق ، قليلا كان أو كثيراً .

[ فإن لله خمسه ] أي : وباقيه لكم ، أيها الغانمون ، لأنه أضاف الغنيمة إليهم ، وأخرج منها خمسها .

فدل على أن الباقي لهم ، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم ، وللفارس سهمان سهم لفرسه ، وسهم له .

وأما هذا الخمس ، فيقسم خمسة أسهم ، سهم لله ولرسوله ، يصرف فى مصالح المسلمين العامة ، من غير تعيين لمصلحة ، لأن الله جعله له ولرسوله ، والله ورسوله غنيان عنه ، فعلم أنه لعباد الله .

فإذا لم يعين الله له مصرفا ، دل على أن مصرفه للمصالح العامة .

والخمس الثانى : لذى القربى ، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، من بنى هاشم ، وبنى المطلب .

وأضافه الله إلى القرابة ، دليلا على أن العلة فيه ، مجرد القرابة ، فيستوى فيه غنيهم وفقيرهم ، ذكرهم وأنثاهم .

والخمس الثالث ، لليتامى وهم : الذين فقدت آباؤهم ، وهم صغار ، جعل الله لهم خمس الخمس ، رحمة بهم ، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم ، وقد فقد من يقوم بمصالحهم .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ

---

والخمس الرابع للمساكين ، أى : المحتاجين الفقراء ، من صغار ، وكبار ، ذكور ، وإناث

والخمس الخامس ، لابن السبيل ، وهو : الغريب المنقطع به فى غير بلده .

وبعض المفسرين يقول : إن خمس الغنيمة ، لا يخرج عن هذه الأصناف ، ولا يلزم أن يكونوا فيه ، على السواء ، بل ذلك تبع للمصلحة ، وهذا هو الأولى .

وجعل الله أداء الخمس على وجهه ، شرطاً للإيمان فقال :

[ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ] وهو يوم « بدر » الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وأظهر الحق ، وأبطل الباطل .

[ يوم التقى الجمعان ] جمع المسلمين ، وجمع الكافرين .

أى : إن كان إيمانكم بالله ، وبالحق الذى أنزله الله على رسوله يوم الفرقان ، الذى حصل فيه من الآيات والبراهين ، ما دل على أن ما جاء به هو الحق .

[ والله على كل شىء قدير لا يغالبه أحد إلا غلبه .

[ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ] أى : بعدوة الوادى القريبة من المدينة .

[ وهم بالعدوة القصوى ] أى : جانبه البعيد من المدينة ، فقد جمعكم واد واحد .

[ والركب ] الذى خرجتم لطلبه ، وأراد الله غيره [ أسفل منكم ] مما يلى ساحل البحر .

فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

[ ولو تواعدتم ] أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال [ لاختلفتم في الميعاد ] أى : لا بد من تقدم أو تأخر ، أو اختيار منزل ، أو غير ذلك ، مما يعرض لكم ، أو لهم ، يصدفكم عن ميعادهم.

[ ولكن ] الله جمعكم على هذه الحال [ ليقضى الله أمراً كان مفعولا ] أى : مقدراً فى الأزل ، لابد من وقوعه .

[ ليهلك من هلك عن بينة ] أى ليكون حجة وبينة للمعاند ، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه ، فلا يبقى له عذر عند الله .

[ ويحيا من حى عن بينة ] أى : يزداد المؤمن بصيرة ويقينا ، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ، ما هو تذكرة لأولى الألباب .

[وإن الله لسميع ] سميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات.

[ عليم ] بالظواهر ، والضمائر ، والسرائر ، والغيب ، والشهادة .

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ

---

* وكان الله قد أرى رسوله ، المشركين فى الرؤيا ، قليلا ، فبشر بذلك أصحابه ، فاطمأنت قلوبهم ، وتثبتت أفئدتهم .

[ ولو أراكهم الله كثيراً ] فأخبرت بذلك أصحابك [ لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ] .

فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ، ومنكم من لا يرى ذلك ، والتنازع مما يوجب الفشل .

[ ولكن الله سلم ] أى : لطف بكم [ إنه عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها من ثبات وجزع ، وصدق وكذب .

فعلم الله من قلوبكم ، ما صار سببا للطفه وإحسانه بكم ، وصدق رؤيا رسوله .

فأرى الله المؤمنين عدوهم ، قليلا فى أعينهم ، ويقللكم — يامعشر المؤمنين — فى أعينهم .

فكل من الطائفتين ، ترى الأخرى قليلة ، لتقدم كل منهما على الأخرى .

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟
وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

---

[ ليقضى الله أمراً كان مفعولا ] من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ، ورؤساء الضلال منهم ، ولم يبق منهم أحد ، له اسم يذكر ، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام ، فصار أيضاً لطفا بالباقين، الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام .

[ وإلى الله ترجع الأمور ] أى : جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويحكم فى الخلائق بحكمه العادل ، الذى لاجور فيه ، ولا ظلم .

* يقول تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ] أى : طائفة من الكفار تقاتلكم .

[ فاثبتوا ] لقتالها ، واستعملوا الصبر ، وحبس النفس ، على هذه الطاعة الكبيرة ، التى عاقبتها العز والنصر .

واستعينوا على ذلك ، بالإكثار من ذكر الله [ لعلكم تفلحون ] أى : تدركون ما تطلبون ، من الانتصار على أعدائكم .

فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله ، من أكبر الأسباب للنصر .

[ وأطيعوا الله ورسوله ] فى استعمال ما أمروا به ، والمشى خلف ذلك فى جميع الأحوال .

وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

---

[ ولا تنازعوا ] تنازعا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها .

[ فتفشلوا ] أى : تجبنوا [ وتذهب ريحكم ] أى : وتنحل عزائمكم ، وتفرق قوتكم ، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله .

[ واصبروا ] نفوسكم على طاعة الله [ إن الله مع الصابرين ] بالعون والنصر والتأييد ، واخشعوا لربكم ، واخضعوا له .

[ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ] أى : هذا مقصدهم الذى خرجوا إليه ، وهذا الذى أبرزهم من ديارهم ، لقصد الأشر والبطر فى الأرض ، وليراهم الناس ويفخروا لديهم .

والمقصود الأعظم : أنهم خرجوا ، ليصدوا عن سبيل الله ، من أراد سلوكه.

[ والله بما يعملون محيط ] فلذلك أخبركم بمقاصدهم ، وحذركم أن تشبهوا بهم ، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

فليكن قصدكم فى خروجكم ، وجه الله تعالى ، وإعلاء دين الله ، والصد عن الطريق الموصلة إلى سخط الله وعقابه ، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم ، الموصل لجنات النعيم.

مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

---

[ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ] حسنها فى قلوبهم .

[ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ] ، فإنكم فى عَدَدٍ وعُدَدٍ ، وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه .

[ وإنى جار لكم ] من أن يأتيكم أحد ، ممن تخشون غائلته ، لأن إبليس قد تبدّى لقريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكانوا يخافون من بنى مدلج ، لعداوة كانت بينهم .

فقال لهم الشيطان : أنا جار لكم ، فاطمأنت نفوسهم ، وأتوا على حرد قادرين[1] .

فلما [ تراءت الفئتان ] المسلمون والكافرون ، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع[2] الملائكة خاف خوفا شديداً [ ونكص على عقبيه ] أى : ولى مدبرا .

---

( ١ ) قوله ( على حرد قادرين ) قال الراغب ، أى : على امتناع من أن يتناولوه قادرين على ذلك اهـ . فيكون المراد : وأتوا بمنع وحدة وغضب .

(٢) قوله ( يزع ) أى : حبس أولهم على آخرهم ، فلم يتركهم يتطلقون كما يشاءون ، بل كان جبريل يقودهم بنظام .

وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

[ وقال ] لمن خدعهم وغرهم : [ إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ] .

أى : أرى الملائكة الذين لايدان ، لأحد بقتالهم .

[ إنى أخاف الله ] أى : أخاف أن يعاجلني بالعقوبة فى الدنيا [ والله شديد العقاب ] .

ومن المحتمل أن يكون الشيطان ، سول لهم ، ووسوس فى صدورهم ، أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، وأنه جار لهم .

فلما أوردهم مواردهم ، نكص عنهم ، وتبرأ منهم ، كما قال تعالى :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » .

* [ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ] أى : شك وشبهة ، من ضعفاء الإيمان ، للمؤمنين ، حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم .

[ غر هؤلاء دينهم ] أى : أوردهم الدين الذى هم عليه ، هذه الموارد ، التى لا يدان لهم بها ، ولا استطاعة لهم بها .

يقولونه ، احتقارا لهم ، وا . ستخفافا بعقولهم ، وهم — والله — الأخفَّاء عقولا ، الضعفاء أحلاما .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

فإن الإيمان ، يوجب لصاحبه ، الإقدام على الأمور الهائلة ، التى لا يقدم عليها الجيوش العظام .

فإن المؤمن المتوكل على الله ، الذى يعلم أنه ، ما من حول ، ولا قوة ، ولا استطاعة لأحد ، إلا بالله تعالى .

وأن الخلق ، لو اجتمعوا كلهم ، على نفع شخص ، بمثقال ذرة ، لم ينفعوه .

ولو اجتمعوا على أن يضروه ، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وعلم أنه على الحق ، وأن الله تعالى حكيم رحيم ، فى كل ماقدره وقضاه فإنه لايبالى بما أقدم عليه ، من قوة وكثرة ، وكان واثقاً بربه ، مطمئن القلب لافزعاً ولا جبانا .

ولهذا قال : [ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز ] لا تغالب قوته قوة .

[ حكيم ] فيما قضاه وأجراه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : ولو ترى الذين كفروا بآيات الله ، حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، وقد اشتد بهم القلق ، وعظم كربهم ، و[ الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ] يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج ، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم .

ولهذا قال : [ وذوقوا عذاب الحريق ] أي : العذاب الشديد المحرق .

ذلك العذاب ، حصل لكم غير ظلم ولا جور ، من ربكم ، وإنما هو بما قدمت أيديكم ، من المعاصى ، التى أثرت لكم ما أثرت ، وهذه سنة الله فى الأولين والآخرين .

فإن دأب هؤلاء المكذبين أى : سنتهم ، وما أجرى الله عليهم من الهلاك ، بذنوبهم .

[ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ] من الأمم المكذبة .

[ كفروا بآيات الله فأخذهم الله ] بالعقاب [ بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب ] لا يعجزه أحد يريد أخذه ، « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم

---

* [ ذلك ] العذاب الذى أوقعه الله بالأمم المكذبة ، وأزال عنهم ما هم فيه ، من النعم والنعيم ، بسبب ذنوبهم ، وتغييرهم ما بأنفسهم .

[ بأن الله يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم ] من نعم الدين والدنيا ، بل يبقيها ، ويزيدهم منها ، إن ازدادوا له شكراً .

[حتى يغيروا ما بأنفسهم ] من الطاعة إلى المعصية ، فيكفروا نعمة الله ، ويبدلوا بها كفراً ، فيسلبهم إياها ، ويغيرها عليهم ، كما غيروا ما بأنفسهم .

ولله الحكمة فى ذلك والعدل والإحسان إلى عباده ، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم ، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه ، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره .

[ وأن الله سميع عليم ] يسمع جميع ما نطق به الناطقون ، سواء من أسر القول ومن جهر به .

ويعلم ما تنطوى عليه الضمائر ، وتخفيه السرائر ، فيجرى على عباده من الأقدار ، ما اقتضاه علمه ، وجرت به مشيئته .

[ كدأب آل فرعون ] أى : فرعون وقومه [ والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ] حين جاءتهم [ فأهلكناهم بذنوبهم ] كل بحسب جرمه .

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

---

[ وأغرقنا آل فرعون وكل ] من المهلكين المعذبين [ كانوا ظالمين ] لأنفسهم ، ساعين فى هلاكها ، لم يظلمهم الله ، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه .

فليحذر المخاطبون ، أن يشابهوهم فى الظلم ، فيحل الله بهم من عقابه ، ما أحل بأولئك الفاسقين .

* [ إن ] هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث — الكفر ، وعدم الإيمان ، والخيانة — بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ، ولا قول قالوه .

هم [ شر الدواب عند الله ] فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها ، لأن الخير معدوم منهم ، والشر متوقع فيهم .

فإذهاب هؤلاء ومحقهم ، هو المتعين ، لئلا يسرى داؤهم لغيرهم ولهذا قال :

[فإما تثقفهم فى الحرب] أى : تجدنهم فى حال المحاربة ، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق .

[ فشرد بهم من خلفهم ] أى نكل بهم غيرهم ، وأوقع بهم من

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

---

العقوبة ، مايصيرون به ، عبرة لمن بعدهم [ لعلهم ] أى : من خلفهم [ يذكرون ] صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

وهذه من فوائد العقوبات والحدود ، المرتبة على المعاصى ، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصى ، بل وزجراً لمن عملها ، أن لايعاودها .

ودل تقييد هذه العقوبة فى الحرب ، أن الكافر — ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر — أنه إذا أُعْطِىَ عهداً ، لايجوز خيانته وعقوبته .

* أى : وإذا كان بينك وبين قوم ، عهد وميثاق ، على ترك القتال ، فخفت منهم خيانة .

بأن ظهر من قرائن أحوالهم ، مايدل على خيانتهم ، من غير تصريح منهم بالخيانة .

[ فانبذ إليهم ] عهدهم ، أى : ارمه عليهم ، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم .

[ على سواء ] أى : حتى يستوى علمك وعلمهم بذلك ، ولايحل لك أن تغدرهم ، أو تسعى فى شىء مما منعه ، موجب العهد ، حتى تخبرهم بذلك .

[ إن الله لايحب الخائنين ] بل يبغضهم أشد البغض .

فلا بد من أمر بيِّنٍ ، يبرئكم من الخيانة .

ودلت الآية ، على أنه ، إذا وجدت الخيانة المحققة منهم ، لم يحتج أن

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

ينبذ إليهم عهدهم ، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك ، ولعدم الفائدة ولقوله : [ على سواء ] .

وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم .

ودل مفهومها أيضاً ، أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة ، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك ، أنه لايجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته .

* أي : لايحسب الكافرون بربهم ، المكذبون بآياته ، أنهم سبقوا الله وفاتوه ، فإنهم لايعجزونه ، والله لهم بالمرصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة ، فى إمهالهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، التى من جملتها ، ابتلاء عباده المؤمنين ، وامتحانهم ، وتزودهم من طاعته ومراضيه ، ما يصلون به المنازل العالية ، واتصافهم بأخلاق وصفات ، لم يكونوا بغيره ، بالغيها .

فلهذا قال لعباده المؤمنين : [ وأعدوا لهم ما استطعتم ] إلى [ وأنتم لاتظلمون ] .

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ

* أى : [ وأعدوا ] لأعدائكم الكفار ، الساعين فى هلاككم ، وإبطال دينكم .

[ ما استطعتم من قوة ] أى : كل ما تقدرون عليه ، من القوة العقلية والبدنية ؛ وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ، مما يعين على قتالهم .

فدخل فى ذلك ، أنواع الصناعات ، التى تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات ، من المدافع ، والرشاشات ، والبنادق ، والطيارات الجوية ، والمراكب البرية والبحرية ، والقلاع ، والخنادق ، وآلات الدفاع ، والرأى والسياسة ، التى بها يتقدم المسلمون ، ويندفع عنهم به ، شر أعدائهم ، وتَعَلُّم الرَّمْىِ ، والشجاعة ، والتدبير .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرَّمْىُ » .

ومن ذلك : الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال .

ولهذا قال تعالى : [ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ] .

وهذه العلة موجودة فيها فى ذلك الزمان ، وهى إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته .

فإذا كان شىء موجودا أكثر إرهابا منها ، كالسيارات البرية والهوائية ، المعدة للقتال ، التى تكون النكاية فيها أشد ، كانت مأموراً بالاستعداد بها ، والسعى لتحصليها .

حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة ، وجب ذلك ، لأن « ما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب » .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

---

وقوله [ ترهبون به عدو الله وعدوكم ] ممن تعلمون أنهم أعداؤكم .

[ وآخرين من دونهم لاتعلمونهم ] ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت ، الذى يخاطبهم الله به [ الله يعلمهم ] فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم .

ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك ، النفقات المالية ، فى جهاد الكفار .

ولهذا قال تعالى مرغبا فى ذلك : [ وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله ] قليلا كان أو كثيراً [ يوف إليكم ] أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة .

حتى إن النفقة فى سبيل الله ، تضاعف إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

[ وأنتم لاتظلمون ] أى : لاتنقصون ، من أجرها وثوابها ، شيئاً .

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ

---

* يقول تعالى [ وإن جنحوا ] أى : الكفار المحاربون أى: مالوا [للسلم] أى : الصلح وترك القتال .

[ فاجنح لها وتوكل على الله ] أى : أجبهم إلى ماطلبوا ، متوكلا على ربك ، فإن فى ذلك فوائد كثيرة .

منها : أن طلب العافية ، مطلوب كل وقت ، فإذا كانوا ، هم المبتدئين فى ذلك ، كان أولى لإجابتهم .

ومنها : أن فى ذلك استجماماً لقواكم ، واستعداداً منكم لقتالهم فى وقت آخر ، إن احتيج إلى ذلك .

ومنها : أنكم ، إذا أصلحتم ، وأمن بعضكم بعضاً ، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر ، فإن الإسلام يعلو ، ولا يعلى عليه .

فكل من له عقل وبصيرة ، إذا كان معه إنصاف ، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان ، لحسنه فى أوامره ونواهيه ، وحسنه فى معاملته للخلق ، والعدل فيهم ، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه ، فحينئذ يكثر الراغبون فيه ، والمتبعون له .

فصار هذا السلم ، عونا للمسلمين على الكافرين .

ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة ، وهى أن يكون الكفار ، قصدهم بذلك ، خدع المسلمين ، وانتهاز الفرصة فيهم .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ

---

فأخبرهم الله ، أنه حسبهم وكافيهم خداعهم ، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال :

[وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ] أى : كافيك ما يؤذيك ، وهو القائم بمصالحك ومهماتك ، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ، ما يطمئن به قلبك .

وإنه [ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ] أى : أعانك بمعونة سماوية وهو : النصر منه ، الذى لا يقاومه شىء ، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك .

[ وألف بين قلوبهم ] فاجتمعوا وائتلفوا ، وازدادت قوتهم ، بسبب اجتماعهم .

ولم يكن هذا بسعى أحد ، ولا بقوة ، غير قوة الله .

وإنك [ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ] من ذهب ، وفضة وغيرهما ، لتأليفهم بعد تلك النفرة ، والفرقة الشديدة [ ما ألفت بين قلوبهم ] لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى .

[ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ] ومن عزته ، أن ألف بين قلوبهم ، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ
وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن
مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ

---

ثم قال تعالى [ يا أيها النبى حسبك الله ] أى : كافيك [ ومن اتبعك من المؤمنين ] أى : وكافى أتباعك من المؤمنين .

وهذا وعد من الله ، لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله ، بالكفاية ، والنصرة على الأعداء .

فإذا أتوا بالسبب ، الذى هو الإيمان والاتباع ، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم ، من أمور الدين والدنيا ، وإنما تتخلف الكفاية ، بتخلف شرطها.

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ] أى : حثهم واستنهضهم[(١)] إليه بكل ما يقوى عزائمهم ، وينشط هممهم ، من الترغيب فى الجهاد ، ومقارعة الأعداء ، والترهيب من ضد ذلك ، وذكر فضائل الشجاعة ، والصبر ، وما يترتب على ذلك ، من خير فى الدنيا والآخرة ، وذكر مضار الجبن ، وأنه من الأخلاق الرذيلة ، المنقصة للدين والمروءة ، وأن الشجاعة بالمؤمنين ، أولى من غيرهم « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ».

[ إن يكن منكم ] أيها المؤمنون [ عشرون صابرون يغلبوا مائتين ،

---

(١) فى الأصل المطبوع « ونهضهم » وهو خطأ لغوى .

يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ
خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

---

وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ] يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار .

وذلك [ بأنهم ] أى : الكفار [ قوم لا يفقهون ] أى : لا علم عندهم ، بما أعد الله للمجاهدين فى سبيله ، فهم يقاتلون لأجل العلو فى الأرض ، والفساد فيها .

وأنتم تفقهون المقصود من القتال ، أنه لإعلاء كلمة الله ، وإظهار دينه والذب عن كتاب الله ، وحصول الفوز الأكبر عند الله .

وهذه كلها ، دواع للشجاعة والصبر ، والإقدام على القتال .

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال :

[ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ] فلذلك اقتضت رحمته وحكمته ، التخفيف .

[ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ] بعونه وتأييده .

وهذه الآيات ، صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين ، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين ، يغلبون ذلك المقدار المعين فى مقابلته من الكفار ، وأن الله يمتن عليهم ، بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية .

. . . . . . . . . . .

---

ولـكن معناها وحقيتها ، الأمر ، وأن الله أمر المؤمنين — فى أول الأمر — أن الواحد لايجوز له أن يفر من العشرة ، والعشرة من المـائة ، والمائة من الألف .

ثم إن الله خفف ذلك ، فصار لايجوز فرار المسلمين من مثليهم من الـكفار ، فإن زادوا على مثليهم ، جاز لهم الفرار ، ولـكن يرد على هذا أمران .

أحدهما : أنها بصورة الخبر ، والأصل فى الخبر ، أن يكون على بابه ، وأن المقصود بذلك ، الامتنان ، والإخبار بالواقع .

والثانى: تقييد ذلك العدد ، أن يكونوا صابرين ، بأن يكونوا متدربين على الصبر .

ومفهوم هذا ، أنهم إذا لم يكونوا صابرين ، فإنه يجوز لهم الفرار ، ولو أقل من مثلهم ، إذا غلب على ظنهم الضرر ، كما تقتضيه الحـكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول ، بأن قوله : [ الآن خفف الله عنـكم ] إلى آخرها ، دليل على أن هذا الأمر لازم ، وأمر محتم ، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد .

فهذا ظاهر فى أنه أمر ، وإن كان فى صيغة الخبر .

وقد يقال : إن فى إتيانه بلفظ الخبر ، نـكتة بديعة ، لا توجد فيه ، إذا كان بلفظ الأمر .

وهى : تقوية قلوب المؤمنين ، والبشارة بأنهم ، سيغلبون الـكافرين .

ويجاب عن الثانى : أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين ، أنه حث على الصبر ، وأنه ينبغى منـكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك .

فإذا فعلوها ، صارت الأسباب الإيمانية ، والأسباب المـادية ، مبشرة بحصول ما أخبر الله به ، من النصر ، لهذا العدد القليل

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ

---

* هذه معاتبة من الله لرسوله والمؤمنين ، يوم « بدر » إذ أسروا المشركين ، وأبقوهم لأجل الفداء .

وكان رَأْيُ أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب فى هذه الحال ، قتلهم واستئصالهم .

فقال تعالى : [ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ] أى : ما ينبغى ، ولا يليق به ، إذا قاتل الكفار ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ، ويسعون لإخماد دينه ، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله ، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم ، لأجل الفداء ، الذى يحصل منهم ، وهو عرض قليل ، بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم ، وإبطال شرهم .

فما دام لهم شر وصولة ، فالأوفق أن لا يؤسروا .

فإذا أثخن فى الأرض ، وبطل شر المشركين ، واضمحل أمرهم ، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم ، وإبقائهم .

يقول تعالى : [ تريدون ] بأخذكم الفداء وإبقائهم [ عرض الحياة الدنيا ] أى : لا لمصلحة تعود إلى دينكم .

[ والله يريد الآخرة ] بإعزاز دينه ، ونصر أوليائه ، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم ، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك .

[ والله عزيز حكيم ] أى : كامل العزة ، ولو شاء أن ينتصر من

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

---

الكفار ، من دون قتال ، لفعل ولكنه حكيم ، يبتلى بعضكم ببعض .

[ لولا كتاب من الله سبق ] به القضاء والقدر ، أنه قد أحل لكم الغنائم ، وأن الله رفع عنكم - أيتها الأمة - العذاب [ لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ] وفى الحديث « لو نزل عذاب يوم بدر ، ما نجا منه إلا عمر » .

[ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ] وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة ، أن أحل لها الغنائم ، ولم تحل لأمة قبلها .

[ واتقوا الله ] فى جميع أموركم ولازموها ، شكراً لنعم الله عليكم .

[ إن الله غفور ] يغفر لمن تاب إليه ، جميع الذنوب .

ويغفر لمن لم يشرك به شيئا ، جميع المعاصى .

[ رحيم ] بكم ، حيث أباح لكم الغنائم ، وجعلها حلالا طيباً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

---

وهذه نزلت فى أسارى يوم بدر ، وكان من جملتهم ، العباس ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما طلب منه الفداء ، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك ، فلم يسقطوا عنه الفداء .

فأنزل الله تعالى ، ، جبراً لخاطره ، ومن كان على مثل حاله .

[ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ] أى : من المال ، بأن ييسر لكم من فضله ، خيراً كثيراً ، مما أخذ منكم .

[ ويغفر لكم ] ذنوبكم ، ويدخلكم الجنة [ والله غفور رحيم ] .

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره ، فحصل له — بعد ذلك — من المال ، شىء كثير .

حتى إنه مرة ، لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، مال كثير ، أتاه العباس ، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ، مايطيق حمله فأخذ منه ، ما كاد أن يعجز عن حمله .

[ وإن يريدوا خيانتك ] فى السعى لحربك ، ومنابذتك .

[ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ] فليحذروا خيانتك ، فإنه تعالى قادر عليهم ، وهم تحت قبضته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم

---

والله عليم حكيم أى : عليم بكل شىء ، حكيم ، يضع الأشياء مواضعها .

ومن علمه وحكمته ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة ، وقد تكفل بكفايتكم ، شأن الأسرى وشرهم ، إن أرادوا خيانة .

* هذا عقد موالاة ومحبة ، عقدها الله بين المهاجرين ، الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله . وتركوا أوطانهم لله ، لأجل الجهاد فى سبيل الله .

وبين الأنصار ، الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وأعانوهم فى ديارهم وأموالهم وأنفسهم .

فهؤلاء ، بعضهم ، أولياء بعض ، لكمال إيمانهم ، وتمام اتصال بعضهم ببعض .

[ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ] .

فإنهم قطعوا ولايتكم ، بانفصالهم عنكم ، فى وقت شدة الحاجة إلى الرجال .

فلما لم يهاجروا ، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شىء .

مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

---

لكنهم [ إن استنصروكم فى الدين ] أى : لأجل قتال من قاتلهم [ فعليكم النصر ] والقتال معهم .

وأما من قاتلوهم لغير ذلك ، من المقاصد ، فليس عليكم نصرهم .

وقوله تعالى [ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ] أى : عهد بترك القتال ، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون ، الذين لم يهاجروا قتالهم ، فلا تعينوهم عليهم ، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق .

[ والله بما تعملون بصير ] يعلم ما أنتم عليه ، من الأحوال ، فيشرع لكم من الأحكام ، ما يليق بكم .

* لما عقد الولاية بين المؤمنين ، أخبر أن الكفار ، حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض ، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم .

وقوله [ إلا تفعلوه ] أى : موالاة المؤمنين ، ومعاداة الكافرين ، بأن واليتموهم أو عاديتموهم كلهم ، أو واليتم الكافرين ، وعاديتم المؤمنين .

[ تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ] فإنه يحصل بذلك ، من الشر ، مالا ينحصر ، من اختلاط الحق بالباطل ، والمؤمن بالكافر ، وعدم كثير من العبادات الكبار ، كالجهاد ، والهجرة ، وغير ذلك من مقاصد الشرع ، والدين ، التى تفوت ، إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء ، بعضهم لبعض .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

---

* الآيات السابقات ، فى ذكر عقد الموالاة ، بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الآيات ، فى بيان مدحهم وثوابهم ، فقال : [ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون] من المهاجرين والأنصار أى : المؤمنون [ حقا ] لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به ، من الهجرة ، والنصرة ، والموالاة ، بعضهم لبعض ، وجهادهم لأعدائهم ، من الكفار والمنافقين .

( لهم مغفرة ) من الله ، تمحى بها سيئاتهم ، وتضمحل بها زلاتهم .

( و ) لهم ( رزق كريم ) أى : خير كثير ، من الرب الكريم ، فى جنات النعيم .

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ، ما تقر به أعينهم ، وتطمئن به قلوبهم .

وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد فى سبيل الله .

[ فأولئك منكم ] لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت فى أول الإسلام - لها وقع كبير ، وشأن عظيم

حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم ، آخى بين المهاجرين والأنصار ،

مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

---

أخوة خاصة ، غير الأخوة الإيمانية العامة ، وحتى كانوا يتوارثون بها ، فأنزل الله [ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] .

فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات ، وأصحاب الفروض .

فإن لم يكونوا ، فأقرب قراباته ، من ذوى الأرحام ، كما دل عليه عموم الآية الكريمة .

وقوله [ فى كتاب الله ] أى : فى حكمه وشرعه .

[ إن الله بكل شىء عليم ] ومنه ما يعلمه ، من أحوالكم ، التى يجرى من شرائعه الدينية عليكم ، ما يناسبها .

تم تفسير سورة الأنفال ـ ولله الحمد والمنة

تفسير

# سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾

---

أى : هذه براءة من الله ، ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاندين ، أن لهم أربعة أشهر ، يسيحون فى الأرض على اختيارهم ، آمنين من المؤمنين ، وبعد الأربعة الأشهر ، فلا عهد لهم ، ولا ميثاق .

وهذا لمن كان له عهد مطلق، غير مقدر ، أو مقدر بأربعة أشهر، فأقل .

أما من كان له عهد مقدر ، بزيادة على أربعة أشهر ، فإنه يتعين أن يتم له عهده ، إذا لم يخف منه خيانة ، ولم يبدأ بنقض العهد .

ثم أنذر المعاهدين فى مدة عهدهم ، أنهم ، وإن كانوا آمنين ، فإنهم لن يعجزوا الله ، ولن يفوتوه .

وأنه ، من استمر منهم على شركه ، فإنه لا بد أن يخزيه .

فكان هذا ، مما يجلبهم إلى الدخول فى الإسلام ، إلا من عاند ، وأصر ، ولم يبال بوعيد الله .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ

---

* هذا ما وعد الله به المؤمنين ، من نصر دينه ، وإعلاء كلمته ، وخذلان أعدائهم ، من المشركين ، الذين أخرجوا الرسول ومن معه ، من مكة ، من بيت الله الحرام ، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه ، من أرض الحجاز .

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة ، وأذل المشركين ، وصار للمؤمنين ، الحكم والغلبة ، على تلك الديار .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر ، وهو : يوم النحر ، وقت اجتماع الناس ، مسلمهم ، وكافرهم ، من جميع جزيرة العرب ، أن يؤذن بأن الله برىء ورسوله من المشركين .

فليس لهم عنده ، عهد وميثاق ، فأينما وجدوا قتلوا ، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا ، وكان سنة تسع من الهجرة .

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأذن ببراءة يوم النحر ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال : [ فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم ، فاعلموا أنكم غير معجزى الله ] .

أى : فائتيه ، بل أنتم فى قبضته ، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

---

[ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ] أى : مؤلم مفظع فى الدنيا ، بالقتل ، والأسر ، والجلاء ، وفى الآخرة ، بالنار ، وبئس القرار .

* أى هذه البراءة التامة المطلقة ، من جميع المشركين .

[ إلا الذين عاهدتم من المشركين ] واستمروا على عهدهم ، ولم يجر منهم ما يوجب النقص ، فلا نقصوكم شيئاً ، ولا عاونوا عليكم أحداً ، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، قَلَّتْ ، أو كثرت .

لأن الإسلام ، لا يأمر بالخيانة ، وإنما يأمر بالوفاء .

[ إن الله يحب المتقين ] الذين أدوا ما أمروا به ، واتقوا الشرك والخيانة ، وغير ذلك ، من المعاصى .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ] أى : التى حرم فيها قتال المشركين المعاهدين ، وهى أشهر التيسير الأربعة ، وتمام المدة ، لمن له مدة أكثر منها ، فقد برئت منهم الذمة .

[ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ] فى أى مكان وزمان .

[ وخذوهم ] أسرى [ واحصروهم ] أى : ضيقوا عليهم ، فلا تدعوهم يتوسعون فى بلاد الله وأرضه ، التى جعلها معبداً لعباده .

فهؤلاء ، ليسوا أهلا لسكناها ، ولا يستحقون منها شبراً ، لأن الأرض أرض الله ، وهم أعداؤه ، المنابذون له ولرسله ، المحاربون ، الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

[ واقعدوا لهم كل مرصد ] أي : كل ثنية وموضع ، يمرون عليه ، ورابطوا فى جهادهم ، وابذلوا غاية مجهودكم فى ذلك ، ولا تزالوا على هذا الأمر ، حتى يتوبوا من شركهم .

ولهذا قال : [ فإن تابوا ] من شركهم [ وأقاموا الصلاة ] أى : أدوها بحقوقها [ وآتوا الزكاة ] لمستحقيها [ نخلوا سبيلهم ] أى : اتركوهم ، وليكونوا مثلكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

[ إن الله غفور رحيم ] يغفر الشرك فما دونه ، للتائبين ، ويرحمهم ، بتوفيقهم للتوبة ، ثم قبولها منهم .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

---

وفى هذه الآية ، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة ، فإنه يقاتل حتى يؤديها ، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه

* لما كان ما تقدم من قوله [ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ] أمراً عاماً فى جميع الأحوال ، وفى كل الأشخاص منهم ، ذكر تعالى ، أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم ، جاز ، بل وجب ذلك فقال :

[ وإن أحد من المشركين استجارك ] أى : طلب منك أن تجيره ، وتمنعه من الضرر ، لأجل أن يسمع كلام الله ، وينظر حالة الإسلام .

[ فأجره حتى يسمع كلام الله ] ثم إن أسلم ، فذاك ، وإلا فأبلغه مأمنه ، أى : المحل الذى يأمن فيه .

والسبب فى ذلك ، أن الكفار قوم لا يعلمون .

فربما كان استمرارهم على كفرهم ، لجهل منهم ، إذا زال ، اختاروا عليه الإسلام .

فلذلك أمر الله رسوله ، وأمته أسوته فى الأحكام ، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله .

وفى هذا حجة صريحة ، لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، لأنه تعالى ، هو المتكلم به ، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

---

وبطلان مذهب المعتزلة ، ومن أخذ بقولهم : أن القرآن مخلوق .

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول ، ليس هذا ، محل ذكرها .

* هذا بيان للحكمة الموجبة ، لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين ، فقال : [ كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله ؟! ] هل قاموا بواجب الإيمان ، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم ؟ .

حاربوا الحق ونصروا الباطل ؟

أما سعوا فى الأرض فساداً ، فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم ، وأن لا يكون لهم عهد عنده ، ولا عند رسوله ؟ .

[ إلا الذين عاهدتم ] من المشركين [ عند المسجد الحرام ] فإن لهم — فى العهد — وخصوصاً فى هذا المكان الفاضل — حرمة أوجب أن يراعوا فيها .

[ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين ] ، ولهذا قال :

( كيف وإن يظهروا ) إلى قوله ( لقوم يعلمون ) .

* كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ

---

* أى : [ كيف ] يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق [و] الحال أنهم [ إن يظهروا عليكم ] بالقدرة والسلطة ، لا يرحموكم ، و [ لا يرقبوا منكم إلا ولا ذمة[1] ] أى : لا ذمة ولا قرابة ، ولا يخافون الله فيكم ، بل يسومونكم سوء العذاب ، فهذه حالكم معهم لو ظهروا .

ولا يغرنكم منهم ، ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم ، فإنهم [ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ] الميل والمحبة لكم ، بل هم الأعداء حقاً ، المبغضون لكم صدقاً .

[ وأكثرهم فاسقون ] لا ديانة لهم ، ولا مروءة .

[ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ] أى : اختاروا الحظ العاجل الخسيس فى الدنيا . على الإيمان بالله ورسوله ، والانقياد لآيات الله .

[ فصدوا ] بأنفسهم ، وصدوا غيرهم [ عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ] أى : لأجل عداوتهم للإيمان إلا ولا ذمة ] أى : لأجل عداوتهم للإيمان وأهله .

---

( ١ ) قال الراغب الأصفهانى : ( الإل ) كل حالة ظاهرة من عهد حلف وقرابة ، « تئل : تلمع فلا يمكن إنكاره والمراد هنا : لا يرعون عهداً ولا حلفاً ولا قرابة وقوله ( ولا ذمة ) أى : لا عهد لهم ولا أمان .

إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

---

فالوصف ، الذى جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم ، هو الإيمان .

فذبوا عن دينكم ، وانصروه ، واتخذوا من عاداه ، عدواً ، ومن نصره لكم ولياً ، واجعلوا الحكم يدور معه ، وجوداً وعدما .

لا تجعلوا الولاية والعداوة ، طبعية تميلون بها ، حيثما مال الهوى ، وتتبعون فيها النفس الأمارة بالسوء ، ولهذا :

[ فإن تابوا ] عن شركهم ، ورجعوا إلى الإيمان [ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فإخوانكم فى الدين ] وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين ، لتكونوا عباد الله المخلصين ، وبهذا يكون العبد ، عبداحقيقة.

لما بين من أحكامه العظيمة ما بين ، ووضح منها ما وضح ، أحكاما وحِكَماً ، وحُكْماً ، وحكمة قال :

[ ونفصل الآيات ] أى : نوضحها ونميزها [ لقوم يعلمون ] فإليهم سياق الكلام ؛ وبهم تعرف الآيات والأحكام ، وبهم عرف دين الإسلام، وشرائع الدين .

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ، ويعملون بما يعلمون ، برحمتك وجودك ، وكرمك ، وإحسانك ، يارب العالمين .

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ
فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ

---

* يقول تعالى — بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين ، إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء .

[ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ] أى : نقضوها وحلوها ، أو أعانوا على قتالكم ، أو نقصوكم .

[ وطعنوا فى دينكم ] أي : عابوه ، وسخروا منه .

ويدخل فى هذا ، جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين ، أو إلى القرآن .

[ فقاتلوا أئمة الكفر ] أى : القادة فيه ، الرؤساء الطاعنين فى دين الرحمن ، الناصرين لدين الشيطان .

وخصهم بالذكر ، لعظم جنايتهم ، ولأن غيرهم تبع .

وليدل على أن من طعن فى الدين ، وتصدى للرد عليه ، فإنه من أئمة الكفر .

[ إنهم لا أيمان لهم ] أى : لا عهود ، ولا مواثيق ، يلازمون على الوفاء بها ، بل لا يزالون خائنين ، ناكثين للعهد ، لا يوثق منهم .

[ لعلهم ] فى قتالهم إيام [ ينتهون ] عن الطعن فى دينكم ، وربما دخلوا فيه

ثم حث على قتالهم ، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف ، التى صدرت من هؤلاء الأعداء ، والتى هم موصوفون بها ، المقتضية لقتالهم فقال :

[ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ] الذى يجب

ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

---

احترامه ، وتوقيره ، وتعظيمه ؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم .

[ وهم بدأوكم أول مرة ] حيث نقضوا العهد ، وأعانوا عليكم .

وذلك حيث أعانت قريش — وهم معاهدون — بنى بكر حلفاءهم ، على خزاعة ، حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط فى السيرة .

[ أتخشونهم ] فى ترك قتالهم [ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ] .

فالله أمركم بقتالهم ، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد .

فإن كنتم مؤمنين ، فامتثلوا لأمر الله ، ولا تخشوهم ، فتتركوا أمر الله .

ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد ، وكل هذا ، حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال :

[ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ] بالقتل [ ويخزهم ] إذا نصركم الله عليهم ، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه .

[ وينصركم عليهم ] هذا وعد من الله وبشارة ، قد أنجزها .

[ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ] فإن فى قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ، ما يكون قتالهم وقتلهم ، شفاء لما فى قلوب المؤمنين

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

---

من الغم ، والهم ، إذ يرون هؤلاء الأعداء ، محاربين لله ولرسوله ، ساعين فى إطفاء نور الله ، وزوالاً للغيظ ، الذى فى قلوبكم .

وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين ، واعتنائه بأحوالهم .

حتى إنه جعل — من جملة المقاصد الشرعية — شفاء ما فى صدورهم وذهاب غيظهم .

ثم قال : [ويتوب الله على من يشاء] من هؤلاء المحاربين ، بأن يوفقهم للدخول فى الإسلام ، ويزينه فى قلوبهم ، ويُكَرِّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

[ والله عليم حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه ، ومن لا يصلح ، فيبقيه فى غيه وطغيانه .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

---

* يقول تعالى لعباده المؤمنين — بعد ما أمرهم بالجهاد — :

[ أم حسبتم أن تتركوا ] من دون ابتلاء وامتحان ، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب .

[ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ] أى : علماً يظهر ما فى القوة إلى الخارج ، ليترتب عليه الثواب والعقاب .

فيعلم الذين يجاهدون فى سبيله : لإعلاء كلمته [ ولم يتخذوا من دون الله ولا المؤمنين وليجة(١) ] أى: ولياً من الكافرين ، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء .

فشرع الله الجهاد ، ليحصل به هذا المقصود الأعظم ، وهو أن يتميز الصادقون ، الذين لا يتحيزون إلا لدين الله ، من الكاذبين ، الذين يزعمون الإيمان ، وهم يتخذون الولائج والأولياء ، من دون الله ، ورسوله ، والمؤمنين .

[ والله خبير بما تعملون ] أى : ما يصير منكم ويصدر ، فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه ، ويجازيكم على أعمالكم ، خيرها وشرها .

---

(١) وليجة أى : أصدقاء وبطانة . تطلعونهم على جميع أسراركم وتعتمدون عليهم فى شئونكم قال الراغب فى شرح مفردات غريب القرآن ( الوليجة كل مايتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله من قولهم « فلان وليجة فى القوم » إذا لحق بهم وليس منهم ، إنسانا كان أو غيره ) اهـ .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ

---

* يقول تعالى : [ ما كان ] أى ما ينبغى ولا يليق [ للمشركين أن يعمروا مساجد الله ] بالعبادة ، والصلاة ، وغيرها من أنواع الطاعات ، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر ، بشهادة حالهم وفطرهم ، وعلم كثير منهم ، أنهم على الكفر والباطل .

فإذا كانوا [ شاهدين على أنفسهم بالكفر ] وعدم الإيمان ، الذى هو شرط لقبول الأعمال ، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله ، والأصل منهم مفقود ، والأعمال منهم باطلة ؟!! .

ولهذا قال : [ أولئك حبطت أعمالهم ] أى : بطلت وضلت [ وفى النار هم خالدون ] .

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال : [ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ] الواجبة والمستحبة ، بالقيام بالظاهر منها والباطن .

[ وآتى الزكاة ] لأهلها [ ولم يخش إلا الله ] أى قصر خشيته على ربه ، فكف عنه ما حرم الله ، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة .

فوصفهم بالإيمان النافع ، وبالقيام بالأعمال الصالحة ، التى أُمُّها ، الصلاة ، والزكاة ، وبخشية الله ، التى هى أصل كل خير .

وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ

---

فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها ، الذين هم أهلها .

[ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ] و« عسى » من الله واجبة .

وأما من لم يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا عنده خشية لله ، فهذا ليس من عمار مساجد الله ، ولا من أهلها ، الذين هم أهلها ، وإن زعم ذلك ، وادعاه .

* لما اختلف بعض المسلمين ، أو بعض المسلمين وبعض المشركين ، فى تفضيل عمارة المسجد الحرام ، بالبناء ، والصلاة ، والعبادة فيه ، وسقاية الحاج ، على الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله — أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما ، فقال:

[ أجعلتم سقاية الحاج ] أى : سقيهم الماء من زمزم ، كما هو المعروف ، إذا أطلق هذا الإسم ، أنه هو المراد [ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله ] .

فالجهاد والإيمان بالله ، أفضل من سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، بدرجات كثيرة ، لأن الإيمان ، أصل الدين ، وبه تقبل الأعمال ، وتزكو الخصال .

وأما الجهاد فى سبيل الله ، فهو ذروة سنام الدين ، به يحفظ الدين الإسلامى ، ويتسع ، وينصر الحق ، ويخذل الباطل .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

---

وأما عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج ، فهى ، وإن كانت أعمالا صالحة ، فهى متوقفة على الإيمان ، وليس فيها من المصالح ، ما فى الإيمان والجهاد ، فلذلك قال :

[ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ] أى : الذين وصفهم الظلم ، الذين لا يصلحون لقبول شىء من الخير ، بل لا يليق بهم إلا الشر .

ثم صرح بالفضل فقال : [ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم ] بالنفقة فى الجهاد ، وتجهيز الغزاة [ وأنفسهم ] بالخروج بالنفس [ أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ] أى : لا يفوز بالمطلوب ، ولا ينجو من المرهوب ، إلا من اتصف بصفاتهم ، وتخلق بأخلاقهم .

[ يبشرهم ربهم ] رحمة منه ، وكرماً ، وبراً بهم ، واعتناء ومحبة لهم .

[ برحمة منه ] أزال بها عنهم الشرور ، وأوصل إليهم بها كل خير .

[ ورضوان ] منه تعالى عليهم ، الذى هو أكبر نعيم الجنة وأجله ، فيحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

[ وجنات لهم فيها نعيم مقيم ] من كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، مما لا يعلم وصفه ومقداره ، إلا الله تعالى ، الذى منه أن الله أعد للمجاهدين

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ

---

فى سبيله ، مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، ولو اجتمع الخلق فى درجة واحدة منها لوسعتهم .

[ خالدين فيها أبداً ] لا ينتقلون عنها ، ولا يبغون عنها حِوَلاً .

[ إن الله عنده أجر عظيم ] لا تستغرب كثرته على فضل الله ، ولا يتعجب من عظمه وحسنه ، على من يقول للشيء كن فيكون .

* يقول تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا ] اعملوا بمقتضى الإيمان ، بأن توالوا من قام به ، وتعادوا من لم يقم به .

و [ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم ] الذين هم أقرب الناس إليكم . وغيرهم من باب أولى وأحرى ، فلا تتخذوهم [ أولياء إن استحبوا ] أى : اختاروا على وجه الرضا والمحبة [ الكفر على الإيمان ] .

[ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ] لأنهم تجرأوا على معاصى الله ، واتخذوا أعداء الله أولياء .

وأصل الولاية : المحبة والنصرة .

وذلك أن اتخاذهم أولياء ، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ، ومحبتهم على محبة الله ورسوله .

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ

---

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو أن محبة الله ورسوله ، يتعين تقديمها على محبة كل شيء ، وجعل جميع الأشياء تابعة لها فقال :

[ قل إن كان آباؤكم ] ومثلهم الأمهات [ وأبناؤكم وإخوانكم ] فى النسب والعشيرة [ وأزواجكم وعشيرتكم ] أى : قراباتكم عموما [ وأموال اقترفتموها ] أى : اكتسبتموها ، وتعبتم فى تحصيلها .

خصها بالذكر ، لأنها أرغب عند أهلها ، وصاحبها أشد حرصا عليها ، ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كدّ .

[ وتجارة تخشون كسادها ] أى : رخصها ونقصها ، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات ،من الأثمان،والأوانى، والأسلحة ، والأمتعة ، والحبوب ، والحروث ، والأنعام ، وغير ذلك .

[ ومساكن ترضونها ] من حسنها وزخرفتها ، وموافقتها لأهوائكم .

فإن كانت هذه الأشياء [ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ] فأنتم فسقة ظلمة .

[ فتربصوا ] أي : انتظروا ما يحل بكم من العقاب [ حتى يأتى الله بأمره ] الذى لا مرد له .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

[ والله لا يهدى القوم الفاسقين ] أى : الخارجين عن طاعة الله ، المقدمين على محبة الله ، شيئاً من المذكورات .

وهذه الآية الكريمة ، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ، وعلى تقديمها على محبة كل شىء .

وعلى الوعيد الشديد[1] والمقت الأكيد ، على من كان شىء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله .

وعلامة ذلك ، أنه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبه الله ورسوله ، وليس لنفسه فيها هوى .

والآخر ، تحبه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله ، أو ينقصه .

فإنه إن قدم ما تهواه نفسه ، على ما يحبه الله ، دل على أنه ظالم ، تارك لما يجب عليه .

( ١ ) قوله ( وعلى الوعيد الشديد الخ ) معطوف على قوله السابق ( على وجوب ) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ

---

* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بنصره إياهم فى مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ، ومواضع الحروب والهيجاء ، حتى فى يوم « حنين » الذى اشتدت عليهم فيه الأزمة ، ورأوا من التخاذل والفرار ، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها .

وذلك أن النبى صلى الله مليه وسلم ، لما فتح مكة ، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه .

فسار إليهم صلى الله عليه وسلم ، فى أصحابه ، الذين فتحوا مكة ، وممن أسلم من الطلقاء ، أهل مكة .

فكانوا اثنى عشر ألفاً ، والمشركون أربعة آلاف .

فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم ، وقال بعضهم :

لن نغلب اليوم من قلة .

فلما التقوا ، هم وهوازن ، حملوا على المسلمين حملة واحدة ، فانهزموا ، لايلوى أحد على أحد ، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا نحو مائة رجل ، ثبتوا معه ، وجعلوا يقاتلون المشركين .

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم ، يركض بغلته نحو المشركين ويقول « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ

---

ولما رأى من المسلمين ما رأى ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادى في الأنصار ، وبقية المسلمين ، وكان رفيع الصوت فناداهم :

يا أصحاب السمرة ، يا أهل سورة البقرة .

فلما سمعوا صوته ، عطفوا عطفة رجل واحد ، فاجتلدوا مع المشركين .

فهزم الله المشركين ، هزيمة شنيعة ، واستولوا على معسكرهم، ونسائهم، وأموالهم .

وذلك قوله تعالى [ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين ] وهو اسم للمكان الذى كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف .

[ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ] أى : لم تفدكم شيئاً ، قليلا ولا كثيراً [ وضاقت عليكم الأرض ] بما أصابكم من الهم والغم ، حين انهزمتم [ بما رحبت ] أى على رحبها وسعتها .

[ ثم وليتم مدبرين ] أى منهزمين .

[ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ] والسكينة : ما يجعله الله في القلوب ، وقت القلاقل والزلازل ، والمفظعات ، ما يثبتها ، ويسكنها، ويجعلها مطمئنة ، وهى من نعم الله العظيمة على العباد .

[ وأنزل جنوداً لم تروها ] وهم الملائكة ، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين ، يثبتونهم ، ويبشرونهم بالنصر .

[ وعذب الذين كفروا ] بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم .

كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ
ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ

---

[ وذلك جزاء الكافرين ] يعذبهم الله فى الدنيا ، ثم يردهم فى الآخرة إلى عذاب غليظ .

[ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ] فتاب الله على كثير ، ممن كانت الوقعة عليهم ، وأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مسلمين تائبين ، فرد عليهم نساءهم ، وأولادهم .

[ والله غفور رحيم ] أى : ذو مغفرة واسعة ، ورحمة عامة ، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين ، ويرحمهم — بتوفيقهم للتوبة والطاعة ، والصفح عن جرائمهم ، وقبول توباتهم .

فلا ييأسنَّ أحد من رحمته ومغفرته ، ولو فعل من الذنوب والإجرام ، ما فعل .

* يقول تعالى [ ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون ] بالله الذين عبدوا معه غيره [ نجس ] أى خبثاء فى عقائدهم وأعمالهم .

وأى نجاسة أبلغ ، ممن كان يعبد مع الله آلهة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تغنى عنه شيئاً ؟ ! ! .

وأعمالهم ما بين محاربة لله ، وصد عن سبيل الله ، ونصر للباطل ، ورد للحق ، وعمل بالفساد فى الأرض لا فى الصلاح .

مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها ، عنهم .

[ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] وهو سنة تسع من الهجرة ، حين حج بالناس أبو بكر الصديق .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه ، علياً ، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ « براءة » .

فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وليس المراد هنا ، نجاسة البدن ، فإن الكافر ـ كغيره ـ طاهر البدن ، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها ، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها .

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار ، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها ، تَقَذُّرَهُمْ من النجاسات .

وإنما المراد ـ كما تقدم ـ نجاستهم المعنوية ، بالشرك .

فكما أن التوحيد والإيمان ، طهارة ، فالشرك نجاسة .

وقوله [ وإن خفتم ] أيها المسلمون [ عيلة ] أى : فقراً وحاجة ، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام ، بأن تنقطع الأسباب التى بينكم وبينهم ، من الأمور الدنيوية .

[ فسوف يغنيكم الله من فضله ] فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ، ومحل واحد ، بل لا ينغلق باب ، إلا وفتح غيره أبواب كثيرة ، فإن فضل الله واسع ، وجوده عظيم .

. . . . . . . . . . .

---

خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الله الكريم ، فإن الله أكرم الأكرمين .

وقد أنجز الله وعده ، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله ، وبسط لهم من الأرزاق ، ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك .

وقوله : [ إن شاء ] تعليق للإغناء بالمشيئة ، لأن الغنى فى الدنيا ، ليس من لوازم الإيمان ، ولا يدل على محبة الله ، فلهذا علقه الله بالمشيئة .

فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان والدين ، إلا من يحب .

[ إن الله عليم حكيم ] أى : علمه واسع ، يعلم من يليق به الغنى ، ومن لا يليق .

ويضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

وتدل الآية الكريمة ، وهى قوله [ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] ، أن المشركين — بعد ما كانوا ، هم الملوك والرؤساء بالبيت ، ثم صار بعد الفتح ، الحكم لرسول الله والمؤمنين ، مع إقامتهم فى البيت ، ومكة المكرمة ، ثم نزلت هذه الآية .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، أمر أن يجلوا من الحجاز ، فلا يبقى فيها دينان .

وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام ، فيدخل فى قوله [ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] .

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ

---

* هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من [الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.

[ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله] فلا يتبعون شرعه، فى تحريم المحرمات.

[ولا يدينون دين الحق] أى: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين، غير الحق.

لأنه إما دين مبدل، وهو: الذى لم يشرعه الله أصلا.

وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فيبقى التمسك به بعد النسخ، غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء، وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وغيى ذلك القتال [حتى يعطو الجزية] أى: المال الذى يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كلٌّ على حسب حاله، من غنى، وفقير، ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب وغيره، من أمراء المؤمنين.

وقوله [عن يد] أى: حتى يبذلوها فى حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطوها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما، ولا غيره، بل لا تقبل إلا

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

من أيديهم . هم صاغرون[1] ] .

فإذا كانوا بهذه الحال ، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية ، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم ، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم ، واستسلموا للشروط التى أجراها المسلمون ، بما ينفى عزهم وتكبرهم ، ويوجب ذلهم وصغارهم ، وجب على الإمام أو نائبه ، أن يعقدها لهم .

وإلا ، بأن لم يفوا ، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لم يجز إقرارهم بالجزية ، بل يقاتلون حتى يسلموا .

واستدل بهذه الآية ، الجمهور ، الذين يقولون : لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم .

وأما غيرهم ، فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا .

وألحق بأهل الكتاب ـ فى أخذ الجزية ، وإقرارهم فى ديار المسلمين ، المجوس .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخذ الجزية من مجوس هجر .

ثم أخذها أمير المؤمنين عمر ، من الفرس المجوس .

وقيل : إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم.

لأن هذه الآية ، نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين

(١) صاغرون ، أى : طائعون منقادون .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

---

والشروع فى قتال أهل الكتاب ونحوهم ، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع ، لا مفهوماً له .

ويدل على هذا ، أن المجوس أخذت منهم الجزية ، وليسوا أهل كتاب .

ولأنه قد تواتر عن المسلمين ، من الصحابة ومن بعدهم ، أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث .

إما الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو السيف ، من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره .

* لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ، ذكر من أقوالهم الخبيثة ، مايهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم ، على قتالهم ، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال :

[ وقالت اليهود عزيز ابن الله ] وهذه المقالة ، وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم

فيدل ذلك ، على أن فى اليهود ، من الخبث والشر ، ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة ، التى تجرأوا فيها على الله ، وتنقصوا عظمته وجلاله .

وقد قيل : إن سبب ادعائهم فى « عزير » أنه ابن الله ، أنه لما تسلط الملوك على بنى إسرائيل ، ومزقوهم كل ممزق ، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة ، وجدوا عزيرا بعد ذلك ، حافظا لها أو أكثرها ، فأملاها عليهم من حفظه ، واستنسخوها ، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة .

قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟

---

[ وقالت النصارى المسيح ] عيسى بن مريم [ ابن الله ] .

قال الله تعالى [ ذلك ] القول الذى قالوه [ قولهم بأفواههم ] لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا .

ومن كان لايبالى بما يقول ، لا يستغرب عليه أى قول يقوله ، فإنه لادين ولا عقل ، يحجزه ، عما يريد من الكلام .

ولهذا قال : [ يضاهئون ] أى : يشابهون فى قولهم هـذا [ قول الذين كفروا من قبل ] أى : قول المشركين الذين يقولون : « الملائكة بنات الله » تشابهت أقوالهم فى البطلان .

[ قاتلهم الله أنَّى يؤفكون ] أي : كيف يصرفون على الحق ، الصرف الواضح المبين ، إلى القول الباطل المبين .

وهذا ـ وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة ، أن تتفق على قول ـ يدل على بطلانه ، أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه ـ فإن لذلك سببا وهو أنهم:

[ اتخذوا أحبارهم ] وهم علماؤهم [ ورهبانهم ] أى : العُبَّاد المتجردين للعبادة .

[ أربابا من دون الله ] يُحِلُّون لهم ماحرم الله ، فيحلونه ، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه ، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها .

وكانوا أيضاً يغلون فى مشايخهم وعبادهم ، ويعظمونهم ، ويتخذون

إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ

---

قبورهم أوثانا ، تعبد من دون الله ، وتقصـــد بالذبائح ، والدعاء ، والاستغاثة .

[ والمسيح بن مريم ] اتخذوه إلها من دون الله .

والحال أنهم خالفـوا فى ذلك ، أمر الله لهم على ألسنة رسله قال الله تعالى :

[وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلاهو] فيخلصون له العبادة والطاعة ، ويخصونه بالمحبة والدعاء .

فنبذوا أمر الله ، وأشركوا به ، ما لم ينزل به سلطانا .

[ وسبحانه ] وتعالى [ عما يشركون ] أى : تنزه وتقدس ، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم ، فإنهم ينتقصونه فى ذلك ، ويصفونه بما لا يليق بجلاله .

والله تعالى العالى فى أوصافه وأفعاله ، عن كل ما نسب إليه ، مما ينافى كماله المقدس .

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ، ولا برهان لما أصّلوه ، وإنما هو مجرد قول قالوه ، وافتراء افتروه ـ أخبر أنهم [ يريدون ] بهذا [ أن يطفئوا نور الله بأفواههم ] .

ونور الله : دينه ، الذى أرسل به الرسل ، وأنزل به الكتب .

وسماه الله نوراً ، لأنه يستنار به فى ظلمات الجهل ، والأديان الباطلة .

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

---

فإنه علم بالحق ، وعمل بالحق ، وما عداه ، فإنه بضده .

فهؤلاء اليهود والنصارى ، ومن ضاهاهم من المشركين ، يريدون أن يطفئوا نور الله ، بمجرد أقوالهم ، التى ليس عليها دليل أصلا .

[ ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ] لأنه النور الباهر ، الذى لا يمكن لجميع الخلق ، لو اجتمعوا على إطفائه ، أن يطفئوه .

والذى أنزله ، جميع نواصى العباد بيده .

وقد تكفل بحفظه ، من كل من يريده بسوء ، ولهذا قال :

[ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ] وسعوا ما أمكنهم فى رده وإبطاله ، فإن سعيهم ، لا يضر الحق شيئا .

* ثم بين تعالى ، هذا النور الذى قد تكفل بإتمامه وحفظه ، فقال :

[ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ] الذى هو العلم النافع [ ودين الحق ] الذى هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، مشتملا على بيان الحق من الباطل ، فى أسماء الله ، وأوصافه ، وأفعاله، وفى أحكامه وأخباره ، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب ، والأرواح ، والأبدان ، من إخلاص الدين لله وحده ، ومحبة الله وعبادته ، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، والأعمال الصالحة ، والآداب النافعة ، والنهى عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه ، من الأخلاق ، والأعمال السيئة ، المضرة للقلوب والأبدان ، والدنيا والآخرة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

فأرسله الله بالهدى ودين الحق [ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] أي : ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وإن كره المشركون ذلك ، وبغوا له الغوائل ، ومكروا مكرهم ، فإن المكر السيء ، لا يضر إلا صاحبه .

فوعد الله ، لا بد أن ينجزه ، وما ضمنه ، لا بد أن يقوم به .

* هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين ، عن كثير من الأحبار والرهبان ، أي : العلماء والعباد ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، أي : بغير حق ، ويصدون عن سبيل الله .

فإنهم — إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس ، أو بذل الناس لهم من أموالهم - فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ، ولأجل هداهم وهدايتهم .

وهؤلاء يأخذونها ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، فيكون أخذهم لها ، على هذا الوجه ، سحتا وظلما .

فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم ، إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم .

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق ، أن يعطوهم ليفتوهم ، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله .

فهؤلاء الأحبار والرهبان ، ليحذر منهم هاتان الحالتان :

وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

---

أخذهم لأموال الناس بغير حق ، وصدهم الناس عن سبيل الله .

* [ والذين يكنزون الذهب والفضة ] أى : يمسكونها [ ولا ينفقونها فى سبيل الله ] أى : طرق الخير الموصلة إلى الله ، وهذا هو الكنز المحرم ، أن يمسكها عن النفقة الواجبة .

كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات ، أو الأقارب ، أو النفقة فى سبيل الله إذا وجبت .

[ فبشرهم بعذاب أليم ] . ثم فسره بقوله [ يوم يحمى عليها ] .

أى : على أموالهم .

[ فى نار جهنم ] فيحمى كل دينار أو درهم على حدته .

[ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ] فى يوم القيامة كلما بردت أعيدت فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ويقال لهم توبيخاً ولوماً :

[ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ] فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، وعذبتموها بهذا الكنز .

وذكر الله فى هاتين الآيتين ، انحراف الإنسان فى ماله ، وذلك بأحد أمرين :

۞ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ

---

إما أن ينفقه فى الباطل ، الذى لا يجدى عليه نفعاً ، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض .

وذلك كإخراج الأموال فى المعاصى والشهوات ، التى لاتعين على طاعة الله ، وإخراجها للصد عن سبيل الله .

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه فى الواجبات ، و« النهى عن الشيء ، أمر بضده » .

* يقول تعالى [ إن عدة الشهور عند الله ] أى فى قضاء الله وقدره .

[ اثنا عشر شهراً ] وهى هذه الشهور المعروفة [ فى كتاب الله ] أى فى حكمه القدرى .

[ يوم خلق السموات والأرض ] وأجرى ليلها ونهارها ، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهراً .

[ منها أربعة حرم ] وهى : رجب الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

وسميت حرما ، لزيادة حرمتها ، وتحريم القتال فيها .

[ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ] يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا ، وأن الله تعالى ، بين أنه جعلها مقادير للعباد ، وأن تعمر بطاعته ،

كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

ويشكر الله تعالى على مِنَّتِهِ بها ، وتقييضها لصالح العباد ، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم ، وأن هذا نهى لهم عن الظلم فيها ، خصوصا مع النهى عن الظلم كل وقت ، لزيادة تحريمها ، وكون الظلم فيها أشد منه فى غيرها .

ومن ذلك ، النهى عن القتال فيها ، على قول من قال : إن القتال فى الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه ، عملا بالنصوص العامة فى تحريم القتال فيها .

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ ، أخذا بعموم نحو قوله تعالى:

[ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ] أى : قاتلوا جميع أنواع المشركين ، والكافرين برب العالمين .

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد ، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك ، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم ، لا يألونهم من الشر شيئا .

ويحتمل أن [ كافة ] حال من الواو فيكون معنى هذا :

وقاتلوا جميعكم (١) المشركين ، فيكون فيها وجوب النفير ، على جميع المؤمنين .

---

(١) الأولى أن يقال « مجتمعين » كلكم حتى يتضح معنى الاحتمال الأخير ولأن الحال يجب أن تكون مشتقة، وكلمة ( جميع ) ليست مشتقة فلا يصار إلى التأويل إذا أمكن عدمه .

۞ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله : [ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ] الآية .

[ واعلموا أن الله مع المتقين ] بعونه ، ونصره ، وتأييده .

فلتحرصوا على استعمال تقوى الله ، فى سركم ، وعلنكم ، والقيام بطاعته .

خصوصا عند قتال الكفار ، فإنه فى هذه الحال ، بما ترك المؤمن العمل بالتقوى فى معاملة الكفار الأعداء المحاربين .

* النسىء هو : ما كان أهل الجاهلية يستعملونه فى الأشهر الحرم .

وكان من جملة بدعهم الباطلة ، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال ، فى بعض أوقات الأشهر الحرم ، رأوا ـ بآرائهم الفاسدة ـ أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم ، التى حرم الله القتال فيها ، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم ، أو يقدموه ، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ، ما أرادوا .

فإذا جعلوه مكانه ، أحلوا القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً .

فهذا ـ كما أخبر الله عنهم ـ أنه زيادة فى كفرهم وضلالهم ، لما فيه من المحاذير .

منها : أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه .

والله ورسوله بريئان منه .

فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

---

ومنها : أنهم قلبوا الدين ، فجعلوا الحلال حراماً ، والحرام حلالا .

ومنها : أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم ، وعلى عباده ، ولبسوا عليهم دينهم ، واستعملوا الخداع والحيلة فى دين الله.

ومنها : أن العوائد المخالفة للشرع ، مع الاستمرار عليها ، يزول قبحها عن النفوس .

وربما ظن ، أنها عوائد حسنة ، فحصل من الغلط والضلال ، ما حصل .

ولهذا قال : [ يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ] أى : ليوافقوها فى العدد ، فيحلوا ما حرم الله .

[ زين لهم سوء أعمالهم ] أى : زينت لهم الشياطين ، الأعمال السيئة ، فرأوها حسنة ، بسبب العقيدة المزينة فى قلوبهم .

[ والله لا يهدى القوم الكافرين ] أى : الذين انصبغ الكفر والتكذيب فى قلوبهم ، فلو جاءتهم كل آية ، لم يؤمنوا .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

---

اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة ، نزلت فى غزوة تبوك .

إذ ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزو الروم ، وكان الوقت حاراً ، والزاد قليلا ، والمعيشة عسرة .

فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ، ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم ، فقال تعالى :

* [ يا أيها الذين آمنوا ] ألا تعلمون بمقتضى الإيمان ، ودواعى اليقين ، من المبادرة لأمر الله ، والمسارعة إلى رضاه ، وجهاد أعدائه لدينكم .

فـ[ ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ] أى : تكاسلتم ، وملتم إلى الأرض ، والدعة ، والسكون فيها .

[ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ] أى : ما حالكم إلا حال من رضى بالدنيا ، وسعى لها ، ولم يبال بالآخرة ، فكأنه ما آمن بها .

[ فما متاع الحياة الدنيا ] التى مالت بكم ، وقدمتموها على الآخرة [ إلا قليل ] .

أفليس قد جعل الله لكم عقولا ، تَزِنُون بها الأمور ، وأيها أحق بالإيثار ؟ .

أفليست الدنيا ـ من أولها إلى آخرها ـ لا نسبة لها فى الآخرة .

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا ، حتى يجعله الغاية ، التى لا غاية وراءها .

فيجعل سعيه ، وكده وهمه ، وإرادته ، لايتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار ، المشحونة بالأخطار .

فبأى رَأْيٍ ، رأيتم إيثارها على الدار الآخرة ، الجامعة لكل نعيم ، التى فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون .

فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة ، من وقر الإيمان فى قلبه ، ولا من جزل رأيه ، ولا من عُدَّ من أولى الألباب .

ثم توعدهم على عدم النفير فقال :

[ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ] فى الدنيا والآخرة .

فإن عدم النفير فى حال الاستنفار ، من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب ، لما فيه من المضار الشديدة .

فإن المتخلف ، قد عصى الله تعالى ، وارتكب لنهيه ، ولم يساعد على نصر دين الله ، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه ، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم ، الذى يريد أن يستأصلهم ، ويمحق دينهم .

وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان ، بل ربما فَتَّ فى أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله .

فحقيق بمن هذا حاله ، أن يتوعده الله بالوعيد الشديد ، فقال :

* [ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولاتضروه شيئا ] .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

---

فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته .

فسواء امتثلتم لأمر الله ، أو ألقيتموه وراءكم ظهريا .

[ والله على كل شيء قدير ] لا يعجزه شيء أراده ، ولا يغالبه أحد .

* أى : إلا تنصروا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالله غنى عنكم ، لا تضرونه شيئا .

فقد نصره فى أقل ما يكون [ إذ أخرجه الذين كفروا ] من مكة ، لما هموا بقتله ، وسعوا فى ذلك ، وحرصوا أشد الحرص ، فالجأوه إلى أن يخرج .

[ ثانى اثنين ] أى : هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه .

[ إذ هما فى الغار ] أى : لما هربا(١) من مكة ، لجآ إلى غار ثور ، فى أسفل

---

( ١ ) قوله ( لما هربا ) تعبير فيه ما فيه من المؤاخذات .

والذى يتتبع كتب السيرة وتمهيدات الهجرة النبوية ، يعلم يقيناً ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يحرك ساكنا ، ولم يأت بعمل ، إلا بأمر الله تعالى ،

وقد تحمل صلى الله عليه وسلم ، من أذى قريش ، ما لا يتحمله إلا أشد الناس ، وأشجع من خلق الله تعالى .

ولا يستغرب ذلك منه ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه سيد أولى العزم من الرسل وأشجعهم .

فلو كان خروجه هرباً من المشركين ، لهام على وجهه ، ولم يلبث بمكة =

. . . . . . . . . . .

= ولا ما بقربها من الأماكن ، لحظة واحدة ، كما هو شأن الهاربين .

ولم يكن مكثه فى الغار ، تلك الأيام ، إلا تشريعاً للأمة ، وتعليما لهم ، بأخذ الحيطة فى الأمور المتأزمة .

تصفح معى كتب السيرة ، تعلم تماماً ، أن تحركات النبى كلها ، لم تكن إلا بالوحى الإلهى .

وذلك أنه لما تآمرت قريش على قتله ، وانتدبت من كل قبيلة شاباً جلداً ، فى يد كل واحد سيف صارم تنزل عليه تلك السيوف دفعة واحدة ، فيتفرق دمه فى القبائل .

فلا يستطيع بنو هاشم محاربة كل العرب ، فتقدم ديته إليهم وينقضى الأمر .

ودخلت المسألة فى دور التنفيذ .

فحاصر هؤلاء الشبان ، بيت النبى ، وأحاطوا به ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر .

ومع هذا فهو ثابت الجأش ، رابط القلب .

فنزل عليه جبريل يبلغه أمر الله إياه بالهجرة فامتثل الأمر ، وخرج شاقاً وسط تلك الجموع ذاراً فوق رءوسهم حفنة من رمل وهو يتلو قوله تعالى :

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »

فاجتاز تلك الصفوف ، ولم يره أحد .

أيكون هذا العمل هرباً ؟ اللهم لا . =

. . . . . . . . . . .

---

= أيكون اختباؤه خوفاً من المشركين ؟ اللهم لا ، بل تعليم للأمة فى أخذ الحيطة فى الأزمات ، وليقف على حركات قريش ، ويعلم مقاصدهم ، ولينكشف ما اعتزموا عليه .

وما قول الله [إذ أخرجه الذين كفروا] إلا من إطلاق السبب على المسبب .

وذلك أنه لما تفاقم إيذاء قريش للنبي وأصحابه ولم يبق ثمة علاج ، واستعصى الداء على الدواء ، ولم ينجع أى دواء ، وانتشرت الدعوة الإسلامية فى المدينة المنورة .

حينذاك أمره الله بالهجرة إلى دار صالحة التربة ، لبذر بذور الإسلام .

فخرج صلى الله عليه وسلم ، امتثالا لأمر الله ، واستقر فى المدينة .

فأخصبت الدعوة الإسلامية فيها ، وضربت جذور الدعوة فى أعماق الأرض ، وأخذت أصولها وفروعها فى السموق إلى السماء ، كما قال تعالى :

( أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ) .

فتكونت الدولة الإسلامية ، وخرجت جيوشها المظفرة ، ففتحت البلاد ، ومصرت الأمصار ، وحطمت دول الكفر ، وأتت على بنيان الطغيان من القواعد فهدمته ، وجعلته هشيما تذروه الرياح .

وما إضافة الله إخراج النبي إلى الذين كفروا ، إلا من إضافة السبب إلى المسبب كما قلنا ، لأنهم ركبوا رءوسهم فى العناد ، وبلغ إيذاؤهم للنبي وأصحابه ، نهايته ، وظهر لكل ذى عينين أن مكة يومئذ غير صالحة لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، وبلغ السيل الزبى . =

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

---

مكة ، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب .

فهما فى تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة ، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما ، من نصره ، مالا يخطر على البال.

[ إذ يقول ] النبى صلى الله عليه وسلم [ لصاحبه ] أبى بكر لما حزن واشتد قلقه .

[ لا تحزن إن الله معنا ] بعونه ونصره وتأييده .

[ فأنزل الله سكينته عليه ] أى : الثبات والطمأنينة ، والسكون المثبتة للفؤاد .

---

= فاقتضت عدالة الله وحكمته ، أن أذن لرسوله بالهجرة من مكة ، ونسب هذا الخروج لمن تسبب فيه ، وهم المشركون .

فهذه الإجراءات كلها ، تلقى أسطع الأنوار على حقيقة تحركات النبى ، وأنها كلها كانت بأمر من الله ، أيكون عمر بن الخطاب أشجع من رسول حينما أعلن على ملأ من قريش أنه اعتزم على الهجرة وقال لهم كلمته التى تداولتها كتب السيرة ( من أراد أن ييتم أطفاله ويرمل امرأته فليلقنى فى موضع كذا ) فلم يتجرأ منهم أحد على ملاقاته ولا على منعه من الهجرة .

ومما بسطناه من الكلام ، يعلم القارىء أن قول المؤلف ( لما هربا ) تعبير غير لائق بالجناب النبوى ، فمعاذ الله أن يوصف الرسول بالهرب الذى هو من أخس الصفات .

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ

---

ولهذا لما قلق صاحبه سكنه و« قال لا تحزن إن الله معنا » .

[ وأيده بجنود لم تروها ] وهى الملائكة الكرام ، الذين جعلهم الله حرساً له .

[ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ] أى : الساقطة المخذولة .

فإن الذين كفروا ، كانوا على حرد قادرين ، فى ظنهم أنهم يقدرون على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذه ، حنقين عليه ، فعملوا غاية مجهودهم فى ذلك .

فخذلهم الله ، ولم يتم لهم مقصودهم ، بل ولا أدركوا شيئاً منه .

ونصر الله رسوله ، بدفعه عنه .

وهذا هو النصر المذكور فى هذا الموضع .

فإن النصر على قسمين ، نصر المسلمين إذا طمعوا فى عدوهم ، بأن يتم الله لهم ما طلبوا ، وقصدوا ، ويستولوا على عدوهم ، ويظهروا عليهم .

والثانى نصر المستضعف ، الذين طمع فيه عدوه القادر .

فنصر الله إياه ، أن يرد عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ولعل هذا النصر أنفع النصرين .

ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين من هذا النوع .

وقوله [ وكلمة الله هى العليا ] أى كلماته القدرية ، وكلماته الدينية ، هى العالية على كلمة غيره ، التى من جملتها قوله :

( وكان حقا علينا نصر المؤمنين ) ، ( إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا

فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ) ، ( وإن جندنا لهم الغالبون ) .

فدين الله ، هو الظاهر العالى ، على سائر الأديان ، بالحجج الواضحة ، والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

[ والله عزيز ] لا يغالبه مغالب ، ولا يفوته هارب .

[ حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وقد يؤخر نصر حزبه ، إلى وقت آخر ، اقتضته الحكمة الإلهية .

وفى هذه الآية الكريمة ، فضيلة أبى بكر الصديق ، بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة ، وهى الفوز بهذه المنقبة الجليلة ، والصحبة الجميلة .

وقد أجمع المسلمون ، على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة .

ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبى بكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، كافراً لأنه منكر للقرآن الذى صرح بها .

وفيها فضيلة السكينة ، وأنها من تمام نعمة الله على العبد ، فى أوقات الشدائد والمخاوف ، التى تطيش لها الأفئدة ، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه ، وثقته بوعده الصادق ، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفيها : أن الحزن قد يعرض لخواص عباده الصديقين ، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى فى ذهابه عنه ، فإنه مضعف للقلب ، موهن للعزيمة .

۞ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ

---

* يقول تعالى ، لعباده المؤمنين — مهيجاً لهم على النفير فى سبيله :— [ انفروا خفافا وثقالا ] فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والحر والبرد ، وفى جميع الأحوال .

[ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ] أى : ابذلوا جهدكم فى ذلك ، واستفرغوا وسعكم ، فى المال والنفس .

وفى هذا دليل ، على أنه — كما يجب الجهاد فى النفس — يجب فى المال ، حيث اقتضت الحاجة ، ودعت لذلك .

ثم قال [ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ] أى : الجهاد فى النفس والمال ، خير لكم من التقاعد عن ذلك ، لأن فيه رضا الله تعالى ، والفوز بالدرجات العاليات عنده ، والنصر لدين الله ، والدخول جملة جنده وحزبه .

[ لو كان ] خروجهم [ عرضاً قريباً ] أى : لطلب عرض قريب ، ومنفعة دنيوية ، سهلة التناول [ و ] كان السفر [ سفراً قاصداً ] أى : قريباً سهلا .

[ لاتبعوك ] لعدم المشقة الكثيرة .

[ ولكن بعدت عليهم الشقة ] أي : طالت عليهم المسافة ، وصعب عليهم السفر ، فلذلك تثاقلوا عنك .

وليس هذا من أمارات العبودية ، بل العبد حقيقة ، هو المتعبد لربه فى كل حال ، القائم بالعبادة السهلة والشاقة ، فهذا العبد لله على كل حال .

وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

---

[ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ] أى : سيحلفون لتخلفهم عن الخروج — أن لهم عذراً ، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

[ يهلكون أنفسهم ] بالقعود والكذب ، والإخبار بغير الواقع .

[ والله يعلم إنهم لكاذبون ] .

وهذا العتاب ، إنما هو للمنافقين ، الذين تخلفوا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى « غزوة تبوك » وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا .

فعفا النبى صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم ، من غير أن يمتحنهم ، فيتبين له الصادق من الكاذب ، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم فقال : ( عفا الله عنك ) إلى قوله ( فى ريبهم يترددون )

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم [ عفا الله عنك ] أى : سامحك ، وغفر لك ما أجريت .

[لم أذنت لهم] فى التخلف [حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين].

بأن تمحنهم ، ليتبين لك الصادق من الكاذب ، فتعذر من يستحق العذر ، ممن لا يستحق ذلك .

ثم أخبر ، أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون فى ترك الجهاد ، بأموالهم وأنفسهم ، لأن ما معهم من الرغبة فى الخير والإيمان ، يحملهم على الجهاد ، من غير أن يحثهم عليه حاث ، فضلا عن كونهم يستأذنون فى تركه من غير عذر .

[ والله عليم بالمتقين ] فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه .

ومن علمه بالمتقين ، أنه أخبر ، أن من علاماتهم ، أنهم لا يستأذنون فى ترك الجهاد .

[ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ]

أى : ليس لهم إيمان تام ، ولا يقين صادق ، فلذلك قلّت رغبتهم فى الخير، وجبنوا عن القتال ، واحتاجوا أن يستأذنوا فى ترك القتال .

[ فهم فى ريبهم يترددون ] أى : لا يزالون فى الشك والحيرة .

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ

---

* يقول تعالى : مبيناً أن المتخلفين من المنافقين ،قد ظهر منهم من القرائن ، ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية ، وأن أعذارهم التى اعتذروها ، باطلة ، فإن العذر ، هو المانع الذى يمنع ، إذا بذل العبد وسعه ، وسعى فى أسباب الخروج ، ثم منعه مانع شرعى ، فهذا الذى يعذر .

[ و ] أما هؤلاء المنافقون [ لو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة ] أى : لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب .

ولكن لما لم يعدوا له عدة ، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

[ ولكن كره الله انبعاثهم ] معكم فى الخروج للغزو [ فثبطهم ] قدراً وقضاء ، وإن كان قد أمرهم ، وحثهم على الخروج ، وجعلهم مقتدرين عليه .

ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم ، بل خذلهم وثبطهم [ وقيل اقعدوا مع القاعدين ] من النساء والمعذورين .

ثم ذكر الحكمة فى ذلك فقال [ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ] أى : نقصاً .

[ ولأوضعوا خلالكم ] أى : ولسعوا فى الفتنة والشر بينكم ، وفرقوا جماعتكم المجتمعين .

[ يبغونكم الفتنة ] أى : هم حريصون على فتنتكم ، وإلقاء العداوة بينكم .

وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

---

[ وفيكم ] أناس ضعفاء العقول [ سماعون لهم ] أى : مستجيبون لدعوتهم ، يغترون بهم .

فإذا كانوا حريصين على خذلانكم ، وإلقاء الشر بينكم ، وتثبيطكم عن أعدائكم ، وفيكم من يقبل منهم ، ويستنصحهم .

فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم ؟.

فلله ما أتم الحكمة حيث ثبطهم ، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم ، ولطفاً من أن يداخلهم ، مالا ينفعهم ، بل يضرهم .

[ والله عليم بالظالمين ] فيعلم عباده كيف يحذرونهم ، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم .

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق فى الشر فقال :

* [ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ] أى : حين هاجرتم إلى المدينة ، فبذلوا الجهد .

[ وقلبوا لك الأمور ] : أى : أداروا الأفكار ، وأعملوا الحيل ، فى إبطال دعوتكم ، وخذلان دينكم ، ولم يقصروا فى ذلك .

[ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كافرون ] فبطل كيدهم واضمحل باطلهم .

فحقيق بمثل هؤلاء ، أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم ، وأن لا يبالى المؤمنين ، بتخلفهم عنهم .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يستأذن فى التخلف ، ويعتذر بعذر آخر عجيب .

فيقول : [ ائذن لى ] فى التخلف [ ولا تفتنى ] فى الخروج .

فإنى إذا خرجت ، فرأيت نساء بنى الأصفر ، لا أصبر عنهن ، كما قال ذلك « الجد بن قيس » .

ومقصوده فى قلبه — قبحه الله — الرياء والنفاق ويعبر بلسانه بأن مقصودى مقصود حسن ، فإن فى خروجى فتنة وتعرضاً للشر ، وفى عدم خروجى ، عافية ، وكفاً عن الشر .

قال الله تعالى — مبيناً كذب هذا القول — [ ألا فى الفتنة سقطوا ] .

فإنه على تقدير صدق هذا القائل فى قصده ، فإن فى التخلف مفسدة كبرى ، وفتنة عظمى ، محققة ، وهى : معصية الله ، ومعصية رسوله ، والتجرى على الإثم الكبير ، والوزر العظيم .

وأما الخروج ، فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف ، وهى متوهمة .

مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير ، ولهذا توعدهم الله بقوله :

[ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ] ليس لهم عنها مفر ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص .

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ
يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾
قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً أن المنافقين ، هم الأعداء حقاً ، المبغضون للدين صرفاً .

[ إن تصبك حسنة ] كنصر وإدالة[1] على العدو [ تسؤهم ] أى : تحزنهم وتغمهم .

[ وإن تصبك مصيبة ] كإدالة العدو عليك [ يقولوا ] متبجحين بسلامتهم من الحضور معك .

[ قد أخذنا أمرنا من قبل ] أى : قد حذرنا وعملنا ، بما ينجينا من الوقوع فى مثل هذه المصيبة .

[ ويتولوا وهم فرحون ] بمصيبتك ، وبعدم مشاركتهم إياك فيها .

قال تعالى ـ رادًّا عليهم فى ذلك ـ [قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ] أى : ما قدره وأجراه فى اللوح المحفوظ .

[ هو مولانا ] أى : متولى أمورنا الدينية والدنيوية ، فعلينا الرضا بأقداره ، وليس فى أيدينا من الأمر شىء .

[وعلى الله] وحده [ فليتوكل المؤمنون ] أى : ليعتمدوا عليه ، فى جلب

---

(١) إدالة على العدو . أى : انتصار على العدو .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

---

مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، وليثقوا به فى تحصيل مطلوبهم ، فلا خاب من توكل عليه .

وأما من توكل على غيره ، فإنه مخذول ، غير مدرك لما أمل .

* أى : قل للمنافقين ، الذين يتربصون بكم الدوائر : أى شىء تربصون بنا ؟

فإنكم لا تربصون بنا ، إلا أمراً ، فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين .

إما الظفر بالأعداء ، والنصر عليهم ، ونيل الثواب الأخروى والدنيوى .

وإما الشهادة التي هى من أعلى درجات الخلق ، وأرفع المنازل عند الله .

وأما تربصنا بكم — يا معشر المنافقين — فنحن نتربص بكم ، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، لا سبب لنا فيه ، أو بأيدينا ، بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم .

[ فتربصوا ] بنا الخير [ إنا معكم متربصون ] بكم الشر .

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

---

* يقول تعالى ـ مبينا بطلان نفقات المنافقين ، وذاكراً السبب فى ذلك ـ

[ قل ] لهم [ أنفقوا طوعا ] من أنفسكم [ أو كرها ] على ذلك ، بغير اختياركم .

[ لن يتقبل منكم ] شىء من أعمالكم [ إنكم كنتم قوما فاسقين ] خارجين عن طاعة الله .

ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم بقوله :

[ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ] والأعمال كلها ، شرط قبولها ، الإيمان ، فهؤلاء ، لا إيمان لهم ، ولا عمل صالح .

حتى إن الصلاة ، التى هى أفضل أعمال البدن ، إذا قاموا إليها ، قاموا كسالى ، وقد بين الله ذلك فقال :

[ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ] أى : متثاقلون ، لا يكادون يفعلونها ، من ثقلها عليهم .

[ولا ينفقون إلا وهم كارهون] من غير انشراح صدر ، وثبات نفس .

ففى هذا ، غاية الذم ، لمن فعل مثل فعلهم .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

---

وأنه ينبغى للعبد ، أن لا يأتى الصلاة ، إلا وهو نشيط البدن ، والقلب إليها .

ولا ينفق ، إلا وهو منشرح الصدر ، ثابت القلب ، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده ، ولا يتشبه بالمنافقين .

* يقول تعالى : فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم ، فإنه لا غبطة فيها .

وأول بركاتها عليهم ، أن قدموها على مراضى ربهم ، وعصوا الله لأجلها [ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ] .

والمراد بالعذاب هنا ، ما ينالهم من المشقة فى تحصيلها ، والسعى الشديد فى ذلك ، وهم القلب فيها ، وتعب البدن .

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم ، لم يكن لها نسبة إليها ، فهى - لما ألهتهم عن الله وذكره - صارت وبالا عليهم ، حتى فى الدنيا .

ومن وبالها العظيم الخطر ، أن قلوبهم تتعلق بها ، وإرادتهم لاتتعداها فتكون منتهى مطلوبهم ، وغاية مرغوبهم ولا يبقى فى قلوبهم للآخرة نصيب ، فيوجب ذلك ، أن ينتقلوا من الدنيا [وتزهق أنفسهم وهم كافرون].

فأى : عقوبة أعظم من هذه العقوبة ، الموجبة للشقاء الدائم ، والحسرة الملازمة .

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

---

[ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ولكنهم ] قصدهم في حلفهم هذا أنهم [ قوم يفرقون ] أى : يخافون الدوائر ، وليس فى قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم .

فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ، ويخافون أن تتبرأوا منهم ، فيتخطفهم الناس من كل جانب .

وأما حال قوى القلب ، ثابت الجنان ، فإنه يحمله ذلك ، على بيان حاله ، حسنة كانت أو سيئة .

ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن ، وحلوا بحلية الكذب .

ثم ذكر شدة جبنهم فقال : [ لو يجدون ملجأ ] يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد .

[ أو مغارات ] يدخلونها ، فيستقرون فيها [ أو مدخلا ] أى : محلا يدخلونه فيتحصنون فيه [ لولوا إليه وهم يجمحون ] أى : يسرعون ويهرعون . فليس لهم ملكة ، يقتدرون بها على الثبات .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يعيبك فى قسمة الصدقات ، وينتقد عليك فيها .

وليس انتقادهم فيها وعيبهم ، لقصد صحيح ، ولا لرأى رجيح ، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها .

[ فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها ، إذا هم يسخطون ] وهذه حالة ، لا ينبغى للعبد أن يكون رضاه وغضبه ، تابعاً لهوى نفسه الدنيوى ، وغرضه الفاسد .

بل الذى ينبغى ، أن يكون لمرضاة ربه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم، « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وقال هنا : [ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ] أى : أعطاهم من قليل وكثير .

[ وقالوا حسبنا الله ] أى : كافينا الله ، فنرضى بما قسمه لنا .

وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا : [ سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ] أى : متضرعون فى جلب منافعنا ، ودفع مضارنا .

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال : [ إنما الصدقات ] إلى [ عليم حكيم ] .

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا

* يقول تعالى : [ إنما الصدقات ] أى : الزكوات الواجبة ، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد ، لا يخص بها أحد دون أحد .

إنما الصدقات ـ لهؤلاء المذكورين ، دون من عداهم ، لأنه حصرها فيهم ، وهم ثمانية أصناف .

الأول والثانى . الفقراء ، والمساكين ، وهم فى هذا الموضع ، صنفان متفاوتان .

فالفقير ، أشد حاجة من المسكين ، لأن الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ، ففسر الفقير ، بأنه الذى لا يجد شيئاً ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها .

والمسكين : هو الذى يجد نصفها فأكثر ، ولا يجد تمام كفايته ، لأنه لو وجدها لكان غنياً ، فيعطون من الزكاة ، ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث : العاملون على الزكاة ، وهم : كل من له عمل وشغل فيها ، من حافظ لها ، وجابٍ لها من أهلها ، أو راعٍ ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك .

فيعطون لأجل عمالتهم ، وهى أجرة لأعمالهم فيها .

والرابع : المؤلفة قلوبهم .

والمؤلفة قلبه هو: السيد المطاع فى قومه ، ممن يرجى إسلامه ، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته ، قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو جبايتها ممن لا يعطيها .

فيعطى ، ما يحصل به التأليف والمصلحة .

وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

---

الخامس : الرقاب ، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم .

فهم يسعون فى تحصيل ما يفك رقابهم ، فيعانون على ذلك من الزكاة .

وفك الرقبة المسلمة التي فى حبس الكفار ، داخل فى هذا ، بل أولى .

ويدخل فى هذا ، أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالا ، لدخوله فى قوله « وفى الرقاب » .

السادس ، الغارمون ، وهم قسمان :

أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس ، شر وفتنة ، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم ، بما يبذله لأحدهم أو لهم كلهم .

فجعل له نصيب من الزكاة ، ليكون أنشط له ، وأقوى لعزمه ، فيعطى ، ولو كان غنياً .

والثانى: من غرم لنفسه ، ثم أعسر ، فإنه يعطى ما يُوَفِّى به دينه .

والسابع : الغازى فى سبيل الله ، وهم : الغزاة المتطوعة ، الذين لا ديوان لهم .

فيعطون من الزكاة ، ما يعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو دابة ، أو نفقة له ولعياله ، ليتوفر على الجهاد ، ويطمئن قلبه .

وقال كثير من الفقهاء : إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم ، أعطى من الزكاة ، لأن العلم داخل فى الجهاد فى سبيل الله .

فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

وقالوا أيضاً : يجوز أن يعطى منها الفقير ، لحج فرضه ، وفيه نظر .

والثامن : ابن السبيل ، وهو : الغريب المنقطع به فى غير بلده .

فيعطى من الزكاة ، ما يوصله إلى بلده .

فهؤلاء الأصناف الثمانية ، الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم .

[فريضة من الله] فرضها وقدرها ، تابعة لعلمه وحكمه [والله عليم حكيم].

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ، ترجع إلى أمرين .

أحدهما : من يعطى لحاجته ونفعه ، كالفقير ، والمسكين ، ونحوهما .

والثانى : من يعطى للحاجة إليه ، وانتفاع الإسلام به .

فأوجب الله هذه الحصة ، فى أموال الأغنياء ، لسد الحاجات الخاصة والعامة ، للإسلام والمسلمين .

فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم ، على الوجه الشرعى ، لم يبق فقير من المسلمين .

ولحصل من الأموال ، ما يسد الثغور ، ويجاهد به الكفار ، وتحصل به جميع المصالح الدينية .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

* أى : من هؤلاء المنافقين [ الذين يؤذون النبى ] بالأقوال الردية ، والعيب له ولدينه .

[ ويقولون هو أذن ] أى : لايبالون بما يقولون من الأذية للنبى .

ويقولون : إذا بلغه عنا بعض ذلك ، جئنا نعتذر إليه ، فيقبل منا ، لأنه أذن ، أى : يقبل كل ما يقال له ، لايميز بين صادق وكاذب .

وقصدهم — قبحهم الله - فيما بينهم ، أنهم غير مكترثين بذلك ، ولا مهتمين به .

لأنه إذا لم يبلغه ، فهذا مطلوبهم ، وإن بلغه ، اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل .

فأساءوا كل الإساءة ، من أوجه كثيرة ، أعظمها أذية نبيهم ، الذى جاء لهدايتهم ، وإخراجهم من الشقاء والهلاك ، إلى الهدى والسعادة .

ومنها : عدم اهتمامهم أيضاً بذلك ، وهو قدر زائد على مجرد الأذية .

ومنها : قدحهم فى عقل النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدم إدراكه ، وتفريقه بين الصادق والكاذب .

وهو أكمل الخلق عقلا ، وأتمهم إدراكا ، وأثقبهم رأيا وبصيرة ، ولهذا قال تعالى :

مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟

---

[ قل أذن خير لكم ] أى : يقبل من قال له خيراً وصدقا .

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المتذرين بالأعذار الكاذبة ، فلسعة خلقه ، وعدم اهتمامه بشأنهم ، وامتثاله لأمر الله فى قوله :

[سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ] .

وأما حقيقة ما فى قلبه ورأيه ، فقال عنه : [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] الصادقين المصدقين ، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيرا مايعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم .

[ ورحمة للذين آمنوا منكم ] فإنهم به يهتدون ، وبأخلاقه يقتدون .

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة ، بل ردوها ، فخسروا دنياهم وآخرتهم .

[ والذين يؤذون رسول الله ] بالقول والفعل [ لهم عذاب أليم ] فى الدنيا والآخرة.

ومن العذاب الأليم ، أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه .

[ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ] فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها .

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

---

فغايتهم أن ترضوا عليهم .

[ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ] لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه .

فدل هذا ، على انتفاء إيمانهم ، حيث قدموا رضا غير الله ورسوله .

وهذا محادة لله ، ومشاقة له ، وقد توعد من حاده بقوله :

[ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ] بأن يكون فى حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله ، وتجرأ على محارمه .

[ فأن له نار جهنم خالدين فيها وذلك الخزى العظيم ] الذى لا خزى أشنع ولا أفظع منه ، حيث فاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا بالله من حالهم .

۞ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

---

* كانت هذه السورة الكريمة، تسمى « الفاضحة » لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم .

فما زال الله يقول : ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين .

إحداهما : أن الله ستِّيرٌ، يحب الستر على عباده .

والثانية : أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين ، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلي يوم القيامة .

فكان ذكر الوصف، أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف .

قال الله تعالى « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » .

وقال هنا [ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ] أى : تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم ، حتى تكون علانية لعباده ، ويكونوا عبرة للمعتبرين .

[ قل استهزئوا ] أى : استمروا على ما أنتم عليه ، من الاستهزاء والسخرية .

[ إن الله مخرج ما تحذرون ] وقد وفَّى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التى بينتهم وفضحتهم، وهتكت أستارهم .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

---

* [ ولئن سألتهم ] عما قالوه من الطعن فى المسلمين ، وفى دينهم ، يقول طائفة منهم فى غزوة تبوك « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء – يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه – أرغب بطونا ، وأكذب ألسنا ، وأجبن عند اللقاء ونحو ذلك » .

ولما بلغهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد علم بكلامهم ، جاءوا يعتذرون إليه ويقولون :

[ إنما كنا نخوض ونلعب ] أى : نتكلم بكلام ، لا قصد لنا به ، ولا قصدنا الطعن والعيب .

قال الله تعالى — مبينا عدم عذرهم وكذبهم فى ذلك : —

[ قل ] لهم [ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * قد كفرتم بعد إيمانكم ] .

فإن الاستهزاء بالله ورسوله ، كفر مخرج عن الدين .

لأن أصل الدين ، مبنى على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ورسله .

والاستهزاء بشيء من ذلك ، مناف لهذا الأصل ، ومناقض له أشد المناقضة .

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول ، يعتذرون بهذه المقالة ، والرسول لايزيدهم على قوله [ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ] .

إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله [ إن نعف عن طائفة منكم ] لتوبتهم واستغفارهم وندمهم .

[ نعذب طائفة ] منكم [ بأنهم ] أى بسبب أنهم [ كانوا مجرمين ] مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن من أسر سريرة ، خصوصا السريرة ، التى يمكر فيها بدينه ، ويستهزىء به وبآياته ورسوله ، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ، ويعاقبه أشد العقوبة .

وأن من استهزأ بشىء من كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر بذلك ، أو تنقصه ، أو استهزأ بالرسول ، أو تنقصه ، فإنه كافر بالله العظيم ، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب ، وإن كان عظيما .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

* يقول تعالى : [ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ] لأنهم اشتركوا فى النفاق ، فاشتركوا فى تولِّى بعضهم بعضا ، وفى هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم .

ثم ذكر وصف المنافقين العام ، الذى لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير ، فقال :

[ يأمرون بالمنكر ] وهو : الكفر ، والفسوق ، والعصيان .

[ وينهون عن المعروف ] وهو : الإيمان ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، والآداب الحسنة .

[ ويقبضون أيديهم ] عن الصدقة ، وطرق الإحسان ، فوصفهم البخل

[ نسوا الله ] فلا يذكرونه إلا قليلا .

[ فنسيهم ] من رحمته ، فلا يوفقهم لخير ، ولا يدخلهم الجنة ، بل يتركهم فى الدرك الأسفل من النار ، خالدين فيها ، مخلدين .

[ إن المنافقين هم الفاسقون ] حصر الفسق فيهم ، لأن فسقهم ، أعظم من فسق غيرهم ، بدليل أن عذابهم ، أشد من عذاب غيرهم ، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم ، إذ كانوا بين أظهرهم ، والاحتراز منهم شديد .

[ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، نار جهنم خالدين فيها ، هى

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

---

حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم ] جمع المنافقين والكفار ، فى نار جهنم ، واللعنة والخلود فى ذلك ، لاجتماعهم فى الدنيا على الكفر ، والمعاداة لله ورسوله ، والكفر بآياته .

* يقول تعالى واصفاً حال المنافقين : إن حالكم — أيها المنافقون — كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر ، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالا وأولاداً ، استمتعوا بما قدر لهم ، من حظوظ الدنيا ، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه ، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف ، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم .

وقد استمتعتم بما قدر لكم ، من ملاذ الدنيا كما استمتعوا ، وخضتم فيما خاضوا فيه ، من المنكر والباطل .

إنهم قد بطلت أعمالهم ، فلم تنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وكانوا هم الخاسرين .

وأنتم مثلهم فى سوء الحال والمآل ، والعاقبة الوخيمة .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا

---

* يقول تعالى ـ محذراً للمنافقين ، أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم المكذبة .

قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ] أى : قرى قوم لوط .

فكلهم [ أتتهم رسلهم بالبينات ] أى : بالحق الواضح الجلى ، المبين لحقائق الأشياء ، فكذبوا بها ، فجري عليهم ، ماقص الله علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم .

[ استمتعتم بخلاقكم ] أى : بنصيبكم من الدنيا ، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة ، معرضين عن المراد منه .

واستعنتم به على معاصى الله ، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ، ما خولتم من النعم ، كما فعل الذين من قبلكم [ وخضتم كالذى خاضوا ] أى : وخضتم بالباطل والزور ، وجادلتم بالباطل ، لتدحضوا به الحق .

فهذه أعمالهم وعلومهم ، استمتاع بالخلاق ، وخوض بالباطل .

فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ، مااستحق من قبلهم ، ممن فعلوا كفعلهم .

وأما المؤمنون منهم — وإن استمتعوا بنصيبهم ، وماخولوا من الدنيا ـ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله .

وأما علومهم فهى علوم الرسل ، وهى الوصول ، إلى اليقين فى جميع المطالب العالية ، والمجادلة بالحق ؛ لإدحاض الباطل .

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ

---

قوله [ فما كان الله ليظلمهم ] إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع .

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] حيث تجرأوا على معاصيه ، وعصوا رسلهم ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .

* لما ذكر أن المنافقين ، بعضهم من بعض ، ذكر أن المؤمنين ، بعضهم أولياء بعض ، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال :

[ والمؤمنون والمؤمنات ] أى : ذكورهم وإناثهم [ بعضهم أولياء بعض ] فى المحبة والموالاة ، والانتماء والنصرة .

[ يأمرون بالمعروف ] وهو اسم جامع ، لكل ما عرف حسنه ، من العقائد الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وأول من يدخل فى أمرهم أنفسهم .

[ وينهون عن المنكر ] وهو : كل ما خالف المعروف وناقضه ، من العقائد الباطلة ، والأعمال الخبيثة ، والأخلاق الرذيلة .

[ ويطيعون الله ورسوله ] أى لايزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام .

[ أولئك سيرحمهم الله ] أى : يدخلهم فى رحمته ، ويشملهم بإحسانه .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

---

[ إن الله عزيز حكيم ] أى : قوى قاهر ، ومع قوته ، فهو حكيم ، يضع كل شيء موضعه اللائق به ، الذى يحمد على ماخلقه وأمر به .

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال :

* [ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار] جامعة لكل نعيم وفرح ، خالية من كل أذى وترح ، تجرى من تحت قصورها ، ودورها ، وأشجارها — الأنهار الغزيرة ، المروية للبساتين الأنيقة ، التى لايعلم ما فيها من الخيرات ، إلا الله تعالى .

[ خالدين فيها ] لا يبغون عنها حِوَلاً [ومساكن طيبة فى جنات عدن ] قد زخرفت ، وحسنت ، وأعدت لعباد الله المتقين .

قد طاب مرآها ، وطاب منزلها ومقيلها ، وجمعت من آلات المساكن العالية ، مالا يتمنى فوقه المتمنون ، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفا فى غاية الصفاء والحسن ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

فهذه المساكن الأنيقة ، التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس ، وتنزع إليها القلوب ، وتشتاق لها الأرواح ، لأنها فى جنات عدن ، أى : إقامة لايظعنون عنها ، ولا يتحولون منها .

فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ

---

[ ورضوان من الله ] يحله على أهل الجنة [ أكبر ] مما هم فيه من النعيم .

فإن نعيمهم لم يطب ، إلا برؤية ربهم ، ورضوانه عليهم .

ولأنه الغاية ، التي أمَّها العابدون ، والنهاية ، التي سعى نحوها المحبون .

فرضا رب الأرض والسموات ، أكبر من نعيم الجنات .

[ ذلك هو الفوز العظيم ] حيث حصلوا على كل مطلوب ، وانتفى عنهم كل محذور ، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور ، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ] أي : بالغ في جهادهم [ واغلظ عليهم ] حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم .

وهذا الجهاد يدخل فيه ، الجهاد باليد ، والجهاد بالحجة واللسان .

فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليـد ، واللسان ، والسيف والسنان .

عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ
وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ
يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ

---

ومن كان مذعنا للإسلام ، بذمة أو عهد ، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام ، ومساوى الشرك والكفران ، فهذا مالهم فى الدنيا .

[ و ] أما فى الآخرة ، فإن [ مأواهم جهنم ] أى : مقرهم الذى لا يخرجون منه [ وبئس المصير(١) ] .

* [ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ] أى : إذا قالوا قولا ، كقول من قال منهم « ليخرجن الأعز منها الأذل » والكلام الذى يتكلم به ، الواحد بعد الواحد ، فى الاستهزاء بالدين ، وبالرسول .

فإذا بلغهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد بلغه شىء من ذلك ، جاءوا إليه يحلفون بالله ، ما قالوا .

قال تعالى مكذباً لهم [ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ] .

فإسلامهم السابق — وإن كان ظاهره ، أنه أخرجهم من دائرة الكفر — فكلامهم الأخير ، ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر .

[ وهموا بما لم ينالوا ] وذلك حين هموا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تبوك .

فقص الله عليه نبأهم ، فأمر من يصدهم عن قصدهم .

---

(١) أى ما أسوأ هذه العاقبة ، وما أفظعها عذاباً وألماً ؟ ! !

يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

---

[ و ] الحال أنهم [ ما نقموا ] وعابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [ إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ] بعد أن كانوا فقراء معوزين .

وهذا من أعجب الأشياء ، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومغنياً لهم بعد الفقر .

وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ، ويؤمنوا به ويجلوه ؟ ! !

ثم عرض عليهم التوبة فقال : [ فإن يتوبوا يك خيرا لهم ] لأن التوبة ، أصل لسعادة الدنيا والآخرة .

[ وإن يتولوا ] عن التوبة والإنابة [ يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ] فى الدنيا ، بما ينالهم من الهم ، والغم ، والحزن على نصرة الله لدينه ، وإعزاز نبيه ، وعدم حصولهم على مطلوبهم ، وفى الآخرة ، فى عذاب السعير .

[ وما لهم فى الأرض من ولى ] يتولى أمورهم ، ويحصل لهم المطلوب .

[ ولا نصير ] يدفع عنهم المكروه .

وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى ، فثَمَّ أصناف الشر والخسران ، والشقاء والحرمان .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ

---

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من أعطى الله عهده وميثاقه [ لئن آتانا من فضله ] من الدنيا فبسطها لنا ووسعها [ لنصدقن ولنكونن من الصالحين ] .

فنصل الرحم ، ونقرى الضيف ، ونعين على نوائب الحق ، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة .

[ فلما آتاهم من فضله ] لم يفوا بما قالوا ، بل [ بخلوا به وتولوا ] عن الطاعة والانقياد [ وهم معرضون ] أي : غير ملتفتين إلى الخير .

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه ، عاقبهم و [ أعقبهم نفاقا فى قلوبهم ] مستمراً [ إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ] .

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع ، أن يعاهد ربه ، إن حصل مقصوده الفلانى ، ليفعلن كذا وكذا ، ثم لا يفى بذلك ، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثابت فى الصحيحين .

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف » .

فهذا المنافق الذى وعد الله وعاهده ، لئن أعطاه الله من فضله ، ليصدقن ، وليكونن من الصالحين ، حدث فكذب ، وعاهد فغدر ، ووعد فأخلف .

وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

---

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع ، بقوله :

[ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ] .

وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال ، التى يعلمها الله تعالى :

وهذه الآيات ، نزلت فى رجل من المنافقين يقال له « ثعلبة » .

جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وسأله أن يدعو الله له ، أن يعطيه من فضله ، وأنه إن أعطاه ، ليتصدقن ، ويصل الرحم ، ويعين على نوائب الحق ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم ، له .

فكان له غنم ، فلم تزل تتنامى ، حتى خرج بها عن المدينة ، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس .

ثم أبعد ، فكان لايحضر إلا صلاة الجمعة .

ثم كثرت فأبعدها ، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة .

ففقده النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بحاله ، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها . فمروا على ثعلبة ، فقال ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية .

فلما لم يعطهم ، جاءوا ، فأخبروا بذلك ، النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا ويح ثعلبة » ثلاثا .

۞ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ

---

فلما نزلت هذه الآية فيه ، وفى أمثاله ، ذهب بها بعض أهله ، فبلغه إياها .

فجاء بزكاته ، فلم يقبلها النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم جاء بها إلى أبى بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها .

ثم جاء بها بعد أبى بكر إلى عمر فلم يقبلها .

فيقال : إنه هلك فى زمن عثمان .

* وهذا أيضاً من مخازى المنافقين ، فكانوا — قبحهم الله — لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا ، إلا قالوا وطعنوا ، بغيا وعدوانا .

فلما حثّ الله ورسوله على الصدقة ، بادر المسلمون إلى ذلك ، وبذلوا من أموالهم ، كل على حسب حاله ، منهم المكثر ، ومنهم المقل .

فيلمزون المكثر منهم ، بأن قصده بنفقته ، الرياء والسمعة .

وقالوا للمقل الفقير : إن الله غنى عن صدقة هذا .

فأنزل الله تعالى [ الذين يلمزون ] أى يعيبون ، ويطعنون [ المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ] فيقولون : مراءون ، قصدهم الفخر والرياء .

[ و ] يلمزون [ الذين لا يجدون إلا جهدهم ] فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غنى عن صدقاتهم [ فيسخرون منهم ] .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

---

فقوبلوا على صنيعهم بأن [ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ] فإنهم جمعوا فى كلامهم هذا ، بين عدة محاذير .

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم .

والله يقول [ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ] .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين ، لأجل إيمانهم ، كفرا بالله تعالى ؛ وبغضاً للدين .

ومنها : أن اللمز محرم ، بل هو من كبائر الذنوب ، فى أمور الدنيا .

وأما اللمز فى أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله ، وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذى ينبغى ، هو إعانته ، وتنشيطه على عمله .

وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم ، وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأى شر أكبر من هذا ؟ ! !

. . . . . . . . . .

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة « الله غنى عن صدقة هذا » .

كلام مقصوده باطل ، فإن الله غنى عن صدقة المتصدق ، بالقليل ، والكثير ، بل وغنى عن أهل السموات والأرض .

ولكنه تعالى ، أمر العباد ، بما هم مفتقرون إليه .

فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وفى هذا القول ، من التثبيط عن الخير ، ما هو ظاهر بين .

ولهذا كان جزاؤهم ، أن يسخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .

* [استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة] على وجه المبالغة .

وإلا ، فلا مفهوم لها .

[ فلن يغفر الله لهم ] كما قال فى الآية الأخرى « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » .

ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : [ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ] .

والكافر ، لا ينفعه الاستغفار ، ولا العمل ، ما دام كافراً .

[ والله لا يهدى القوم الفاسقين ] أى : الذين صار الفسق لهم وصفاً ، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا ، يأتيهم الحق الواضح ، فيردونه .

فيعاقبهم الله تعالى ، بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ

---

* يقول تعالى ـ مبينا تبجح المنافقين ، بتخلفهم ، وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

[ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ] .

وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ] .

وهذا بخلاف المؤمنين ، الذين إذا تخلفوا — ولو لعذر — حزنوا على تخلفهم ، وتأسفوا غاية الأسف ، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، لما فى قلوبهم من الإيمان ، ويرجون من فضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

[ وقالوا ] أى : المنافقون لا تنفروا فى الحر ] أى : قالوا إن النفير مشقة علينا ، بسبب الحر .

فقدموا راحة قصيرة منقضية ، على الراحة الأبدية التامة .

وحذروا من الحر الذى تقى منه الظلال ، وتذهبه البكور والآصال ، على الحر الشديد ، الذى لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .

ولهذا قال : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ] لما آثرو ، ما يفنى ، على ما يبقى ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

---

* قال تعالى: [ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً ] أى : فليتمتعوا فى هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بلعبها .

فسيبكون كثيراً فى عذاب أليم [ جزاء بما كانوا يكسبون ] من الكفر والنفاق ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

* [ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ] وهم الذين تخلفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم .

[ فاستأذنوك للخروج ] لغير هذه الغزوة ، إذا رأوا السهولة .

[ فقل ] لهم عقوبة [ لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا ] فسيغنى الله عنكم .

[ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ] وهذا كما قال تعالى « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة ، لن يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضاً تعزير لهم ، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد ، لمعصيتهم ، كان ذلك توبيخاً لهم ، وعاراً عليهم ونكالا ، أن يفعل أحد كفعلهم .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [ ولا تصل على أحد منهم مات ] من المنافقين [ ولا تقم على قبره ] بعد الدفن ، لتدعو له ، فإن صلاته ، ووقوفه على قبورهم ، شفاعة منه لهم ، ولا تنفع فيهم الشفاعة .

[ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ] ومن كان كافراً ومات على ذلك ، فما تنفعه شفاعة الشافعين .

وفى ذلك عبرة لغيرهم ، وزجر ، ونكال لهم .

وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق ، فإنه لا يصلى عليه .

وفى هذه الآية ، دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين ، والوقوف عند قبورهم ، للدعاء لهم ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يفعل ذلك فى المؤمنين .

فإن تقييد الله بالمنافقين ، يدل على أنه قد كان متقرراً فى المؤمنين .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

* أى : لا تغتر بما أعطاهم الله فى الدنيا ، من الأموال والأولاد .

فليس ذلك لكرامتهم عليه ، وإنما ذلك ، إهانة منه لهم .

[ إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ] فيتعبون فى تحصيلها ، ويخافون من زوالها ، ولا يتهنئون بها .

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها ، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة ، حتى ينتقلوا من الدنيا [ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ] قد سلبهم حبها كل شىء ، فماتوا ، وقلوبهم بها متعلقة ، وأفئدتهم عليها متحرقة .

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ــ فى بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات ، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات .

[وإذا أنزلت سورة] يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد فى سبيل الله . [استأذنك أولوا الطول منهم] يعنى:أولى الغنى والأموال، الذين لاعذرلهم. وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ، ويقومون بما أوجبه عليهم ، وسهل عليهم أمره[1] . ولكن أبوا إلا التكاسل ، والاستئذان فى القعود [ وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ] .

قال تعالى [ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ] كيف :رضوا لأنفسهم، أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد .

هل معهم فقه أو عقل ، دلهم على ذلك ؟ .

أم [ طبع الله على قلوبهم ] فلا تعى الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح ؟ .

---

(١) قوله ( بما أوجب عليهم وسهل عليهم أمره ) تعبير فيه ما فيه من ناحية السبك والصياغة الإنشائية .

ولو قال ( ويقومون بما أوجب الله عليهم من الإنفاق فى مرضاته وبما سهل لهم من السبل الموصلة إلى الغنى والسعة ، فى الأرزاق ) لكان أوضح .

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

---

فهم لا يفقهون مصالحهم .

فلو فقهوا حقيقة الفقه ، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال ، التى تحطهم عن منازل الرجال .

* يقول تعالى : إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد ، فالله سيغنى عنهم .

ولله عباد وخواص من خلقه ، اختصهم بفضله ، يقومون بهذا الأمر .

وهم [ الرسول ] محمد صلى الله عليه وسلم ، [والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ] غير متثاقلين ولا كسلين ، بل هم فرحون مستبشرون .

[ وأولئك لهم الخيرات ] الكثيرة فى الدنيا والآخرة .

[ وأولئك هم المفلحون ] الذين ظفروا بأعلى المطالب ، وأكمل الرغائب .

* [ أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ] .

فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه ، وخسر دينه ، ودنياه ، وأخراه .

وهذا نظير قوله تعالى « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » .

وقوله [ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ] .

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ

---

* يقول تعالى [ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ] .

أى : جاء الذين تهاونوا ، وقصروا منهم فى الخروج ، لأجل أن يؤذن لهم فى ترك الجهاد ، غير مبالين فى الاعتذار ، لجفائهم ، وعدم حيائهم ، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف .

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية.

ويحتمل أن معنى قوله [المعذرون] أى : الذين لهم عذر، أتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليعذرهم ، ومن عادته ، أن يعذر من له عذر .

[ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ] فى دعواهم الإيمان، المقتضى للخروج، وعدم علمهم بذلك .

ثم توعدهم بقوله [ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ] فى الدنيا والآخرة .

لما ذكر المعتذرين ، وكانوا على قسمين ، قسم معذور فى الشرع ، وقسم غير معذور ، ذكر ذلك بقوله :

[ ليس على الضعفاء ] فى أبدانهم وأبصارهم ، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال .

[ ولا على المرضى ] وهذا شامل لجميع أنواع المرض ، الذى لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد ، من عرج ، وعمى ، وحمى ذات الجنب ، والفالج ، وغير ذلك .

لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا

---

[ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ] أى : لا يجدون زادا ، ولا راحلة يتبلغون بها فى سفرهم .

فهؤلاء ، ليس عليهم حرج ، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله ، بأن يكونوا صادق الإيمان ، وأن يكون من نيتهم ، وعزمهم ، أنهم لو قدروا لجاهدوا ، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه ، من الحث ، والترغيب ، والتشجيع على الجهاد .

[ ما على المحسنين من سبيل ] أى : من سبيل يكون عليهم فيه تبعة ، فإنهم - بإحسانهم ، فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم .

وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه ، سقط عنه مالا يقدر عليه .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة .

وهى : أن من أحسن على غيره ، فى نفسه ، أو فى ماله ، ونحو ذلك ، ثم ترتب على إحسانه ، نقص أو تلف ، أنه غير ضامن لأنه محسن ، ولا سبيل على المحسنين .

كما أنه يدل ، على أن غير المحسن - وهو المسىء - كالمفرط ؛ أن عليه الضمان .

[ والله غفور رحيم ] ومن مغفرته ورحمته ، عفا عن العاجزين ، وأثابهم بنيتهم الجازمة ، ثواب القادرين الفاعلين .

مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ
عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

---

[ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] فلم يصادفوا عندك شيئا [قلت] لهم معتذراً [لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون] فإنهم عاجزون، باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة، ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو. أن من نوى الخير، واقترن بنيته الجازمة، سَعْيٌ فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

[إنما السبيل] يتوجه واللوم يتأكد [على الذين يستأذنونك وهم أغنياء] قادرون على الخروج، ولا عذر لهم.

فهؤلاء [رضوا] لأنفسهم ومن دينهم [أن يكونوا مع الخوالف] كالنساء والأطفال ونحوهم.

[و] إنما رضوا بهذه الحال لأن الله [طبع على قلوبهم] أى. ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية.

[فهم لا يعلمون] عقوبة لهم، على اقترفوا.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

* لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء ، وأنهم لاعذر لهم ، أخبر أنهم سوف [ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ] من غزاتكم .

[ قل ] لهم [ لاتعتذروا لن نؤمن لكم ] أى : لن نصدقكم فى اعتذاركم الكاذب .

[ قد نبأنا الله من أخباركم ] وهو الصادق فى قيله ، فلم يبق للاعتذار فائدة ، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم ، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذى ، هو أعلى مراتب الصدق .

[ وسيرى الله عملكم ورسوله ] فى الدنيا ، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب .

وأما مجرد الأقوال ، فلا دلالة فيها على شىء من ذلك .

[ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ] الذى لا تخفى عليه خافية .

[ فينبئكم بما كنتم تعملون ] من خير وشر ، ويجازيكم بعدله أو بفضله ، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة .

واعلم أن المسىء المذنب له ثلاث حالات .

إما أن يقبل قوله وعذره ، ظاهراً وباطنا ، ويعفى عنه ، بحيث يبقى كأنه لم يذنب .

تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ

---

وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلى ، على ذنبهم .

وإما أن يعرض عنهم ، ولا يقابلوا بما فعلوا ، بالعقوبة الفعاية .

وهذه الحال الثالثة ، هى التى أمر الله بها فى حق المنافقين . ولهذا قال :

[ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم ] .

أى : لا توبخوهم ، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم .

[ إنهم رجس ] أى : إنهم قذر خبثاء ، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم ، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم .

[ و ] يكفيهم أن [ مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ] .

* وقوله : [ يحلفون لكم لترضوا عنهم ] أى : ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم ، غير مجرد الإعراض ، بل يحبون أن ترضوا عنهم ، كأنهم ما فعلوا شيئاً .

[ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ] أى : فلا ينبغى لكم — أيها المؤمنون — أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه ، بل عليكم أن توافقوا ربكم ، فى رضاه وغضبه .

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

وتأمل كيف قال : [ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ] ولم يقل « فإن الله لا يرضى عنهم » ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح ، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم ، فإن الله يتوب عليهم ، ويرضى عنهم .

وأما ما داموا فاسقين ، فإن الله لا يرضى عليهم ، لوجود المانع من رضاه .

وهو : خروجهم عن ما رضيه الله لهم ، من الإيمان والطاعة ، إلى ما يغضبه من الشرك ، والنفاق ، والمعاصى .

وحاصل ما ذكره الله ، أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد ، من غير عذر ، إذا اعتذروا للمؤمنين ، وزعموا أن لهم أعذارا فى تخلفهم ، فإن المنافقين يريدون بذلك ، أن تعرضوا عنهم ، وترضوا ، وتقبلوا عذرهم .

فأما قبول العذر منهم ، والرضا عنهم ، فلا حبا ، ولا كرامة لهم .

وأما الإعراض عنهم ، فيعرض المؤمنون عنهم ، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس .

وفى هذه الآيات ، إثبات الكلام لله تعالى فى قوله [ قد نبأنا الله من أخباركم ] .

وإثبات الأفعال الاختيارية لله ، الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته ، فى هذا ، وفى قوله :

[ وسيرى الله عملكم ورسوله ] أخبر أنه سيراه بعد وقوعه .

وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين ، والغضب والسخط ، على الفاسقين .

۞ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ

---

* يقول تعالى [ الأعراب ] وهم سكان البادية والبرارى [ أشد كفراً ونفاقاً ] من الحاضرة ، الذين فيهم كفر ونفاق ، وذلك لأسباب كثيرة .

منها : أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية ، والأعمال والأحكام .

فهم أحرى [ وأجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ] من أصول الإيمان ، وأحكام الأوامر والنواهى .

بخلاف الحاضرة ، فإنهم أقرب ، لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، فيحدث لهم — بسبب هذا العلم — تصورات حسنة ، وإرادات للخير ، الذى يعلمون منه ، مالا يكون فى البادية .

وفيهم من لطافة الطبع ، والانقياد للداعى ، ما ليس فى البادية .

ويجالسون أهل الإيمان ، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية .

فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان فى البادية والحاضرة ، كفار ومنافقون ، ففى البادية أشد وأغلظ ، مما فى الحاضرة .

ومن ذلك ، أن الأعراب أحرص على الأموال ، وأشح فيها .

فمنهم [ من يتخذ ماينفق ] من الزكاة والنفقة فى سبيل الله وغير ذلك .

[ مغرما ] أى : يراها خسارة ونقصاً ، لا يحتسب فيها ، ولا يريد بها وجه الله ، ولا يكاد يؤديها إلا كرها .

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ
ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ

---

[ ويتربص بكم الدوائر ] أى : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم ، أنهم يودون وينتظرون فيهم ، دوائر الدهر ، وفجائع الزمان .

وهذا سينعكس عليهم فتكون [ عليهم دائرة السوء ] .

وأما المؤمنون ، فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ، ولهم العقبى الحسنة .

[ والله عليم حكيم ] يعلم نيات العباد ، وما صدرت عنه الأعمال ، من إخلاص وغيره وليس الأعراب كلهم مذمومين .

بل منهم [ من يؤمن بالله واليوم الآخر ] فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان .

[ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ] أى : يحتسب نفقته ، ويقصد بها وجه الله تعالى ، والقرب منه [ و ] يجعلها وسيلة إلى [ صلوات الرسول ] أى : دعائه لهم ، وتبريكه عليهم .

قال تعالى — مبينا لنفع صلوات الرسول :

[ ألا إنها قربة لهم ] تقربهم إلى الله، وتنمى أموالهم، وتحل فيها البركة .

[ سيدخلهم الله فى رحمته ] فى جملة عباده الصالحين [ إنه غفور رحيم ] .

فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه ، ويعم عباده برحمته ، التى وسعت كل شىء ، ويخص عباده المؤمنين ، برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات ، ويحميهم فيها من المخالفات ، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وفى هذه الآية ، دليل على أن الأعراب ، كأهل الحاضرة ، منهم الممدوح ومنهم المذموم .

فلم يذمهم الله ، على مجرد تعربهم وباديتهم ، إنما ذمهم ، على ترك أوامر الله ، وأنهم فى مظنة ذلك .

ومنها : أن الكفر والنفاق ، يزيد وينقص ، ويغلظ ويخف ، بحسب الاحوال .

ومنها : فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب ، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها : أن العلم النافع ، الذى هو أنفع العلوم ، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه ، كمعرفة حدود الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والفلاح ، والطاعة ، والبر ، والصلة ، والإحسان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والزنا ، والخمر ، والربا ، ونحو ذلك .

فإن فى معرفتها ، يتمكن العارف من فعلها ، إن كانت مأمورا بها ، أو تركها ، إن كانت محظورة ومن الأمر بها أو النهى عنها .

ومنها : أنه ينبغى للمؤمن ، أن يؤدى ما عليه من الحقوق ، منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، ويحرص أن تكون مغنماً ، ولا تكون مغرماً .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* [ السابقون الأولون ] هم : الذين سبقوا هذه الأمة وبدورها للإيمان والهجرة ، والجهاد ، وإقامة دين الله .

[ من المهاجرين ] الذين ، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

[ و ] من [ الأنصار ] الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة .

[ والذين اتبعوهم بإحسان ] بالاعتقادات ، والأقوال ، والأعمال .

فهؤلاء ، هم الذين سلموا من الذم ، وحصل لهم نهاية المدح ، وأفضل الكرامات من الله .

[ رضى الله عنهم ] ورضاه تعالى ، أكبر من نعيم الجنة .

[ ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ] الجارية ، التى تساق إلى سَقْيِ الجنان ، والحدائق الزاهية الزاهرة ، والرياض الفاخرة .

[ خالدين فيها أبداً ] لا يبغون عنها حولا ، ولا يطلبون منها بدلا .

لأنهم مهما تمنوه ، أدركوه ، ومهما أرادوه ، وجدوه .

[ ذلك الفوز العظيم ] الذى حصل لهم فيه ، كل محبوب للنفوس ، ولذة

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

---

للأرواح ، ونعيم للقلوب ، وشهوة للأبدان ؛ واندفع عنهم كل محذور .

* يقول تعالى : [ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ] أيضا منافقون [ مردوا على النفاق ] أى : تمرنوا عليه ، وازدادوا فيه طغيانا .

[ لا تعلمهم ] بأعيانهم ، فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما لله فى ذلك من الحكمة الباهرة .

[ نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ] يحتمل أن التثنية على بابها ، وأن عذابهم عذاب فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

ففى الدنيا ، ما ينالهم من الهم والغم ، والكراهة ، لما يصيب المؤمنين ، من الفتح والنصر .

وفى الآخرة عذاب النار ، وبئس القرار .

ويحتمل أن المراد ، سنغلظ عليهم العذاب ، ونضاعفه عليهم ، ونكرره .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

---

* يقول تعالى : [ وآخرون ] ممن بالمدينة : ومن حولها ، بل ومن سائر البلاد الإسلامية .

[ اعترفوا بذنوبهم ] أى : أقروا بها ، وندموا عليها ، وسعوا فى التوبة منها ، والتطهر من أدرانها .

[ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ] ، ولا يكون العمل صالحاً ، إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان ، المخرج عن الكفر والشرك ، الذى هو شرط لكل عمل صالح.

فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة ، بالأعمال السيئة ، من التجرى على بعض المحرمات ، والتقصير فى بعض الواجبات ، مع الاعتراف بذلك والرجاء ، بأن يغفر الله لهم .

فهؤلاء [ عسى الله أن يتوب عليهم ] وتوبته على عبده نوعان .

الأول : التوفيق للتوبة والثانى : قبولها بعد وقوعها منهم .

[ إن الله غفور رحيم ] أى : وصفه المغفرة والرحمة ، اللتان لايخلو مخلوق منهما .

بل لابقاء للعالم العلوى والسفلى إلا بهما .

فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ما ترك على ظهرها من دابة .

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ، إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

---

ومن مغفرته : أن المسرفين على أنفسهم ، الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة ، إذا تابوا إليه وأنابوا ، ولو قبيل موتهم بأقل القليل ، فإنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

فهذه الآية ، دالة على أن المخلط المعترف النادم ، الذى لم يتب توبة نصوحا ، أنه تحت الخوف والرجاء ، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما المخلط الذى لم يعترف ، ولم يندم على ما مضى منه ، بل لايزال مصراً على الذنوب ، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ، ومن قام مقامه ، آمرا له بما يطهر المؤمنين ، ويتمم إيمانهم :

[ خذ من أموالهم صدقة ] وهى الزكاة المفروضة .

[ تطهرهم وتزكيهم بها ] أى : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

[ وتزكيهم ] أى : تنميهم ، وتزيد فى أخلاقهم الحسنة ، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد فى ثوابهم الدنيوى والأخروى ، وتنمى أموالهم .

[ وصل عليهم ] أى : ادع لهم ، أى : للمؤمنين عموماً وخصوصاً ، عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم .

[ إن صلاتك سكن لهم ] أى: طمأنينة لقلوبهم ، واستبشار لهم .

[ والله سميع ] لدعائك ، سمع إجابة وقبول .

. . . . . . . . . . .

---

[ عليم ] بأحوال العباد ونياتهم ، فيجازى كل عامل بعمله ، وعلى قدر نيته .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يمتثل لأمر الله ، ويأمرهم بالصدقة ، ويبعث عماله لجبايتها .

فإذا أتاه وأخذ صدقته ، دعا له ، وبرّك .

ففى هذه الآية ، دلالة على وجوب الزكاة ، فى جميع الأموال .

وهذا إذا كانت للتجارة ، ظاهرة ، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها .

فمن العدل أن يواسى منها الفقراء ، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة .

وما عدا أموال التجارة ، فإن كان المال ينمى ، كالحبوب ، والثمار ، والماشية المتخذة للنماء ، والدر ، والنسل ، فإنها تجب فيها الزكاة ، وإلا ، لم تجب فيها ، لأنها إذا كانت للقنية ، لم تكن بمنزلة الأموال التى يتخذها الإنسان فى العادة ، مالا يتمول ، ويطلب منه المقاصد المالية ، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها .

وفيها أن العبد لايمكنه أن يتطهر ويتزكى ، حتى يخرج زكاة ماله ، وأنه لا يكفرها شىء سوى أدائها ، لأن الزكاة والتطهير ، متوقف على إخراجها .

وفيها : استحباب الدعاء من الإمام أونائبه ، لمن أدى زكاته ، بالبركة .

وأن ذلك ينبغى ، أن يكون جهراً ، بحيث يسمعه المتصدق ، فيسكن إليه .

ويؤخذ من المعنى ، أنه ينبغى إدخال السرور على المؤمن ، بالكلام اللين ، والدعاء له ، ونحو ذلك ، مما يكون فيه طمأنينة ، وسكون لقلبه .

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

---

أى : أما علموا سعة رحمة الله ، وعموم كرمه ، وأنه [ يقبل التوبة عن عباده ] التائبين ، من أى ذنب كان ، بل يفرح تعالى بتوبة عبده ، إذا تاب ، أعظم فرح يقدر .

[ ويأخذ الصدقات ] منهم أى يقبلها ، ويأخذها بيمينه ، فيربيها لأحدهم ، كما يربى الرجل فلوه[1] ، حتى تكون التمرة الواحدة ، كالجبل العظيم فكيف بما هو أكبر ، وأكثر من ذلك .

[ وأن الله هو التواب الرحيم ] أى : كثير التوبة على التائبين .

فمن تاب إليه ، تاب عليه ، ولو تكررت منه المعصية مراراً .

ولا يمل الله من التوبة على عباده ، حتى يملوا هم ، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه ، وموالاتهم عدوهم .

[ الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شيء ، وكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآياته ، ويتبعون رسوله .

---

( ١ ) بوزن ( عدو ) وفيه لغة ثانية على وزن ( حمل ) بكسر الحاء وسكون الميم أى : المهر يفصل عن أمه والجمع أفلاء مثل عدو وأعداء والأنثى ( فلوة ) على وزن ( عدوة ) بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو وعلى لغة فتح العين وضم الدال تكون الواو مشددة . اهـ من المصباح بزيادة إيضاح .

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [وقل] لهؤلاء المنافقين : [ اعملوا ] ما ترون من الأعمال ، واستمروا على باطلكم ، فلا تحسبوا أن ذلك ، سيخفى .

[ فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ] أى : لا بد أن يتبين عملكم ويتضح .

[ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ] من خير وشر .

ففى هذا ، التهديد والوعيد الشديد ، على من استمر على باطله وطغيانه ، وغيه وعصيانه .

ويحتمل أن المعنى : أنكم مهما عملتم من خير وشر ، فإن الله مطلع عليكم ، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين ، على أعمالكم ، ولو كانت باطنة .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

---

أي : [ وآخرون ] من المخلفين [مرجون] أى : مؤخرون [ لأمرالله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ] .

فى هذا ، التخويف الشديد للمتخلفين ، والحث لهم على التوبة والنـــدم .

[ والله عليم حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

فإن اقتضت حكمته ، أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة ، فعل ذلك .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ

---

* كان أناس من المنافقين من أهل قباء ، اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء ، يريدون به المضارة والمشاقة ، بين المؤمنين ، ويعدونه لمن يرجونه ، من المحاربين لله ورسوله ، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه .

فبين تعالى خزيهم ، وأظهر سرهم فقال :

[ والذين اتخذوا مسجدا ضراراً ] أى : مضارة للمؤمنين ولمسجدهم ، الذى يجتمعون فيه [ وكفراً ] أى : مقصدهم فيه الكفر ، إذا قصد غيرهم الإيمان .

[وتفريقا بين المؤمنين] أى : ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا .

[ وإرصاداً ] أى : إعداداً [ لمن حارب الله ورسوله من قبل ] أى : إعانة للمحاربين لله ورسوله ، الذين تقدم حرابهم ، واشتدت عداوتهم .

وذلك كأبى عامر الراهب ، الذى كان من أهل المدينة .

فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، كفر به ، وكان متعبدا فى الجاهلية .

فذهب إلى المشركين ، يستعين بهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ، ذهب إلى قيصر ، بزعمه أنه ينصره .

فهلك اللعين فى الطريق ، وكان على وعد ومماثلة ، هو والمنافقون .

فكان مما أعدوا له ، مسجد الضرار ، فنزل الوحى بذلك .

إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

---

فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، من يهدمه ، ويحرقه ، فهدم وحرق ، وصار بعد ذلك مزبلة .

قال تعالى ـ بعد ما بين مقاصدهم الفاسدة فى ذلك ، المسجد ـ [ وليحلفن إن أردنا ] فى بنائنا إياه [ إلا الحسنى ] أى : الإحسان إلى الضعيف ، والعاجز والضرير .

[ والله يشهد إنهم لكاذبون ] فشهادة الله عليهم ، أصدق من حلفهم .

[ لا تقم فيه أبدا ] أى : لا تصل فى ذلك المسجد ، الذى بنى ضرارا أبدا. فالله يغنيك عنه ، ولست بمضطر إليه .

[ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ] ظهر فيه الإسلام فى «قباء» وهو مسجد « قباء » أسس على إخلاص الدين لله ، وإقامة ذكره ، وشعائر دينه ، وكان قديماً فى هذا ، عريقاً فيه .

فهذا المسجد الفاضل [ أحق أن تقوم فيه ] وتتعبد ، وتذكر الله تعالى، فهو فاضل ، وأهله فضلاء ، ولهذا مدحهم الله بقوله :

[فيه رجال يحبون أن يتطهروا ] من الذنوب،ويتطهروا من الأوساخ ، والنجاسات ، والأحداث .

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً ، لا بد أن يسعى له ، ويجتهد فيما يحب .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

---

فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ، والأحداث.

ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه. وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول الله صلى عليه وسلم، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبى صلى الله عليه وسلم، بعد ما نزلت هذه الآية فى مدحهم عن طهارتهم.

فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

[ والله يحب المطهرين ] الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الرذيلة.

والطهارة الحسية، كإزالة الأنجاس، ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال:

* [ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ] أى: على نية صالحة، وإخلاص.

[ ورضوان ] بأن كان موافقاً لأمره، فجمع فى عمله، بين الإخلاص والمتابعة.

[ خير أم من أسس بنيانه على شفا ] أى: على طرف [ جرف هار ] أى: بال، قد تداعى للانهدام.

[ فانهار به فى نار جهنم، والله لا يهدى القوم الظالمين ] لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

---

[لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ] أى : شكا ، وريباً ما كثاً فى قلوبهم .

[ إلا أن تقطع قلوبهم ] بأن يندموا غاية الندم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويخافوه غاية الخوف ، فبذلك يعفو الله عنهم .

وإلا فبنيانهم ، لا يزيدهم إلا ريباً إلى ريبهم ، ونفاقاً إلى نفاقهم .

[ والله عليم ] بجميع الأشياء ، ظاهرها ، وباطنها ، خفيها ، وجليها ، وبما أسره العباد ، وأعلنوه .

[ حكيم ] لا يفعل ، ولا يخلق ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به . فلله الحمد .

وفى هذه الآيات ، عدة فوائد .

منها : أن اتخاذ المسجد ، الذى يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه ، أنه محرم ، وأنه يجب هدم مسجد الضرار ، الذى اطلع على مقصود أصحابه .

ومنها : أن العمل ، وإن كان فاضلا ، تغيره النية ، فينقلب منهياً عنه ، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم ، إلى ما ترى .

ومنها : أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين ، فإنها من المعاصى ، التى يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم ، يتعين اتباعها ، والأمر بها ، والحث عليها .

لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار ، بهذا المقصد الموجب للنهى عنه ، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : النهى عن الصلاة فى أماكن المعصية ، والبعد عنها ، وعن قربها

ومنها : أن المعصية تؤثر فى البقاع ، كما أثرت معصية المنافقين فى مسجد الضرار ، ونهى عن القيام فيه .

وكذلك الطاعة تؤثر فى الأماكن كما أثرت فى مسجد « قباء » حتى قال الله فيه :

[ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ] .

ولهذا كان لمسجد قباء ، من الفضل ، ما ليس لغيره ، حتى كان صلى الله عليه وسلم ، يزور قباء كل سبت ، يصلى فيه ، وحث على الصلاة فيه.

ومنها : أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة فى الآية ، أربع قواعد مهمة ، وهى :

كل عمل فيه مضارة لمسلم ، أو فيه معصية لله ، فإن المعاصى من فروع الكفر ، أو فيه تفريق بين المؤمنين ، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه ، وعكسه بعكسه .

ومنها : أنه إذا كان مسجد قباء ، مسجداً أسس على التقوى ، فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى أسسه بيده المباركة ، وعمل فيه ، واختاره الله له ، من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن العمل المبنى على الإخلاص والمتابعة ، هو العمل المؤسس على التقوى ، الموصل لعامله إلى جنات النعيم .

والعمل المبنى على سوء القصد ، وعلى البدع والضلال ، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ

---

* يخبر تعالى خبراً صدقا ، ويعد وعداً حقاً ، بمبايعة عظيمة ، ومعاوضة جسيمة .

وهو : أنه [ اشترى ] بنفسه الكريمة [ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ] فهى الثمن والسلعة المبيعة .

[بأن لهم الجنة] التى فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من أنواع اللذات والأفراح ، والمسرات ، والحور ، الحسان ، والمنازل الأنيقات .

وصفة العقد والمبايعة ، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم ، فى جهاد أعدائه ، لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه [ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ] .

فهذا العقد والمبايعة ، قد صدرت من الله ، مؤكدة بأنواع التأكيدات.

[ وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ] التى هى أشرف الكتب ، التى طرقت العالم ، وأعلاها ، وأكملها ، وجاء بها أكمل الرسل ، أولو العزم ، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق .

[ ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ] أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله .

مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

---

[ ببيعكم الذى بايعتم به ] أى : لتعزموا بذلك ، وليبشر بعضكم بعضاً ، ويحث بعضكم بعضاً .

[ وذلك هو الفوز العظيم ] الذى لا فوز أكبر منه ، ولا أجل ، لأنه يتضمن السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، والرضا من الله ، الذى هو أكبر من نعيم الجنات .

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة ، فانظر إلى المشترى من هو ؟ وهو الله جل جلاله .

وإلى العوض ، وهو أكبر الأعواض وأجلها ، جنات النعيم .

وإلى الثمن المبذول فيها ، وهو : النفس ، والمال ، الذى هو أحب الأشياء للإنسان .

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع ، وهو أشرف الرسل .

وبأى الكتب رقم ، فى كتب الله الكبار المنزلة ، على أفضل الخلق .

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ

---

* كأنه قيل : من هم المؤمنون ، الذين لهم البشارة من الله ، بدخول الجنات ، ونيل الكرامات ؟

فقال : هم [ التائبون ] أي : الملازمون للتوبة فى جميع الأوقات ، عن جميع السيئات .

[ العابدون ] أى : المتصفون بالعبودية لله ، والاستمرار على طاعته ، من أداء الواجبات والمستحبات ، فى كل وقت ، فبذلك يكون العبد من العابدين .

[ الحامدون ] لله فى السراء والضراء ، واليسر والعسر ، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، المثنون على الله بذكرها وبذكره ، فى آناء الليل ، وآناء النهار .

[ السائحون ] فسرت السياحة ، بالصيام ، أو السياحة فى طلب العلم .

وفسرت بسياحة القلب ، فى معرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه على الدوام .

والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر فى القربات ، كالحج ، والعمرة ، والجهاد ، وطلب العلم ، وصلة الأقارب ، ونحو ذلك .

[ الراكعون الساجدون ] أى : المكثرون من الصلاة ، المشتملة على الركوع والسجود .

[ الآمرون بالمعروف ] ويدخل فيه ، جميع الواجبات والمستحبات .

[ والناهون عن المنكر ] وهى جميع ما نهى الله ورسوله عنه .

لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ

---

[ والحافظون لحدود الله ] بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله ، وما يدخل فى الأوامر ، والنواهى ، والأحكام ، وما لا يدخل ، الملازمون لها فعلا وتركا .

[وبشر المؤمنين] لم يذكر ما يبشر لهم به ، ليعم جميع ما رتب على الإيمان، من ثواب الدنيا ، والدين والآخرة .

فالبشارة متناولة لكل مؤمن .

وأما مقدارها وصفتها ، فإنها ، بحسب حال المؤمنين ، وإيمانهم ، قوة ، وضعفاً ، وعملا بمقتضاه .

* يعنى: ما يليق ولا يحسن بالنبى والمؤمنين به [أن يستغفروا للمشركين] . أى : لمن كفر به ، وعبد معه غيره [ ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ] .

فإن الاستغفار لهم فى هذه الحال ، غلط غير مفيد ، فلا يليق بالنبى والمؤمنين .

لأنهم إذا ماتوا على الشرك ، أو علم أنهم يموتون عليه ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، ووجب عليهم الخلود فى النار ، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، ولا استغفار المستغفرين .

ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

---

وأيضا فإن النبى ، والذين آمنوا معه ، عليهم أن يوافقوا ربهم ، فى رضاه ، وغضبه ، ويوالوا من والاه الله ، ويعادوا من عاداه الله .

والاستغفار منهم ، لمن تبين أنه من أصحاب النار ، مناف لذلك ، مناقض له .

ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن ، إبراهيم عليه السلام ، لأبيه فإنه [ عن موعدة وعدها إياه ] فى قوله « لأستغفرن لك ربى إنه كان بى حفيا » وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه .

فلما تبين لإبراهيم ، أن أباه عدو لله ، سيموت على الكفر ، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير [ تبرأ منه ] موافقة لربه وتأدباً معه .

[ إن إبراهيم لأواه ] أى : رجّاع إلى الله فى جميع الأمور ، كثير الذكر ، والدعاء ، والاستغفار ، والإنابة إلى ربه .

[ حليم ] أى : ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه ، من الزلات ، لا يستفزه جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجانى عليه بجرمه .

فأبوه قال له : « لأرجمنك » وهو يقول له « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى » .

فعليكم أن تقتدوا به ، وتتبعوا ملة إبراهيم فى كل شىء « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » كما نبهكم الله عليها ، وعلى غيرها .

ولهذا قال : ( وما كان الله ليضل قوما ) إلى ( ولا نصير ) .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

---

* يعنى أن الله تعالى ، إذا منّ على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، فإنه تعالى ، يتمم عليهم إحسانه ، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورتهم ، فلا يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم .

فنى هذا ، دليل على كمال رحمته ، وأن شريعته وافية ، بجميع ما يحتاجه العباد ، فى أصول الدين وفروعه .

ويحتمل أن المراد بذلك [ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ] فإذا بين لهم ما يتقون ، فلم ينقادوا له ،عاقبهم بالإضلال . جزاء لهم ، على ردهم الحق المبين . والأول ، أولى .

[ إن الله بكل شىء عليم ] فلكمال علمه وعمومه ، علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وبين لكم ما به تنتفعون .

* [ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ] أى : هو المالك لذلك ، المدبر لعباده ، بالإحياء والإماتة ، وأنواع التدابير الإلهية .

فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى ، فكيف يخل بتدبيره الدينى ، المتعلق بإلهيته ، ويترك عباده سدى مهملين ، أو يدعهم ضالين جاهلين ، وهو أعظم توليه لعباده ؟ ! ! .

فلهذا قال : [ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ] أى : ولى يتولاكم ، بجلب المنافع لكم ، أو [ نصير ] يدفع عنكم المضار .

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

---

* يخبر تعالى ، أنه من لطفه وإحسانه [ تاب على النبي ] محمد صلى الله عليه وسلم ، [ والمهاجرين والأنصار ] فغفر لهم الزلات ، ووفر لهم الحسنات ، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات ، ولهذا قال :

[ الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ] أى : خرجوا معه لقتال الأعداء ، فى غزوة « تبوك » وكانت فى حر شديد ، وضيق من الزاد والركوب ، وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف .

فاستعانوا الله تعالى ، وقاموا بذلك [ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ] أي : تنقلب قلوبهم ، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم، وأيدهم وقواهم .

وزَيْغُ القلب ، هو : انحرافه عن الصراط المستقيم .

فإن كان الانحراف فى أصل الدين ، كان كفراً .

وإن كان فى شرائعه ، كان بحسب تلك الشريعة ، التى زاغ عنها .

إما قصر عن فعلها ، أو فعلها على غير الوجه الشرعى .

وقوله [ ثم تاب عليهم ] أى : قبل توبتهم [ إنه بهم رءوف رحيم ] .

ومن رأفته ورحمته ، أن مَنَّ عليهم بالتوبة ، وقبلها منهم، وثبتهم عليها .

[ و ] كذلك لقد تاب [ على الثلاثة الذين خلفوا ] عن الخروج مع

خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

---

المسلمين ، فى تلك الغزوة ، وهم « كعب بن مالك » وصاحباه ، وقصتهم مشهورة معروفة ، فى الصحاح والسنن .

[حتى إذا] حزنوا حزناً عظيما ، و[ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ] أى : على سعتها ورحبها [ وضاقت عليهم أنفسهم ] التى هى أحب إليهم من كل شىء .

فضاق عليهم الفضاء الواسع ، والمحبوب الذى لم تجر العادة بالضيق منهم . وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج ، بلغ من الشدة والمشقة ، ما لا يمكن التعبير عنه .

وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شىء .

[ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ] أى : تيقنوا ، وعرفوا بحالهم ، أنه لا ينجى من الشدائد ، ويلجأ إليه ، إلا الله وحده لا شريك له .

فانقطع تعلقهم بالمخلوقين ، وتعلقوا بالله ربهم ، وفروا منه إليه .

فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة .

[ ثم تاب عليهم ] أى أذن فى توبتهم ، ووفقهم لها [ ليتوبوا ] لتقع منهم ، فيتوب الله عليهم .

[ إن الله هو التواب ] أى : كثير التوبة والعفو ، والغفران عن الزلات والنقصان .

. . . . . . . . . . .

---

[ الرحيم ] وصفه الرحمة العظيمة ، التى لا تزال تنزل على العباد ، فى كل وقت وحين ، فى جميع اللحظات ، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن توبة الله على العبد ، أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده ، وامْتَنَّ عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التى يحبها ويرضاها :

ومنها : لطف الله بهم ، وتثبيتهم فى إيمانهم ، عند الشدائد ، والنوازل المزعجة .

ومنها : أن العبادة الشاقة على النفس ، لها فضل ومزية ، ليست لغيرها. وكلما عظمت المشقة ، عظم الأجر .

ومنها : أن توبة الله على عبده ، بحسب ندمه وأسفه الشديد .

وأن من لا يبالي بالذنب ، ولا يحرج إذا فعله ، فإن توبته مدخولة ، وإن زعم أنها مقبولة .

ومنها : أن علامة الخير وزوال الشدة ، إذا تعلق القلب بالله تعالى ، تعلقاً تاماً ، وانقطع عن المخلوقين .

ومنها : أن من لطف الله بالثلاثة ، أن وسمهم بوسم ، ليس بعار عليهم فقال :

[ خلفوا ] إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم ، أو خلفوا عن من بُتَّ فى قبول عذرهم ، أو فى رده ، وأنهم لم يكن تخلفهم ، رغبة عن الخير ، ولهذا لم يقل « تخلفوا » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومنها : أن الله تعالى ، من عليهم بالصدق ، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال : ( يا أيها الذين آمنوا ) الآية .

* أي : [ يا أيها الذين آمنوا ] بالله ، وبما أمر الله بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى الله ، باجتناب ما نهى الله عنه ، والبعد عنه .

[ وكونوا مع الصادقين ] فى أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق .

وأعمالهم ، وأحوالهم ، لا تكون إلا صدقاً خالية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة ، فإن الصدق، يهدى إلى البر ، وإن البر ، يهدى إلى الجنة .

قال تعالى : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » الآية .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

* يقول تعالى — حاثا لأهل المدينة المنورة ، من المهاجرين ، والأنصار ، ومن حولها من الأعراب ، الذين أسلموا ، فحسن إسلامهم :

[ ما كان لأهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب ، أن يتخلفوا عن رسول الله ] .

أى : ما ينبغى لهم ذلك ، ولا يليق بأحوالهم .

[ ولا يرغبوا بأنفسهم ] فى بقائها وراحتها ، وسكونها [ عن نفسه ] الكريمة الزكية .

بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

فعلى كل مسلم ، أن يفدى النبي صلى الله عليه وسلم ، بنفسه ، ويقدمه عليها .

فعلامة تعظيم الرسول ، ومحبته ، والإيمان التام به ، أن لا يتخلفوا عنه .

ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال :

[ ذلك بأنهم ] أي : المجاهدين فى سبيل الله [ لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ] أى : تعب ومشقة [ ولا مخمصة فى سبيل الله ] أى : مجاعة .

وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْـكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

---

[ ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ] من الخوض لديارهم ، والاستيلاء على أوطانهم .

[ ولا ينالون من عدو نيلا ] كالظفر بجيش ، أو سرية ، أو الغنيمة لمال .

[ إلا كتب لهم به عمل صالح ] لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم .

[ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ] الذين أحسنوا فى مبادرتهم إلى أمر الله ، وقيامهم بما عليهم من حقه ، وحق خلقه .

فهذه الأعمال ، آثار من آثار عملهم .

ثم قال : [ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً ] فى ذهابهم إلى عدوهم [ إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ] .

ومن ذلك ، هذه الأعمال ، إذا أخلصوا فيها لله ، ونصحوا فيها .

ففى هذه الآيات ، أشد ترغيب ، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ، والاحتساب لما يصيبهم فيه ، من المشقات ، وأن ذلك ، لهم رفعة درجات ، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له ، فيها أجر كبير .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغى لهم : —

[ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ] أى : جميعاً لقتال عدوهم .

فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك ، ويفوت به كثير ، من المصالح الأخرى .

[ فلولا نفر كل فرقة منهم ] أى : من البلدان ، والقبائل ، والأفخاذ [ طائفة ] تحصل بها الكفاية والمقصود ، لكان أولى .

ثم نبه على أن فى إقامة المقيمين منهم ، وعدم خروجهم ، مصالح ، لو خرجوا ، لفاتتهم .

فقال : [ ليتفقهوا ] أى : القاعدون [ فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ] أى . ليتعلموا العلم الشرعى ، ويعلموا معانيه ، ويفقهوا أسراره ، وليعلموا غيرهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

ففى هذا فضيلة العلم ، وخصوصاً الفقه فى الدين ، وأنه أهم الأمور .

وأن من تعلم علماً ، فعليه نشره وبثه فى العباد ، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم ، من بركته وأجره ، الذى ينمى .

وأما اقتصار العالم على نفسه ، وعدم دعوته إلى سبيل الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترك تعليم الجهال مالا يعلمون ، فأى منفعة حصلت للمسلمين منه ؟ وأى نتيجة ، نتجت من علمه ؟

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

---

وغايته أن يموت ، فيموت علمه وثمرته .

وهذا غاية الحرمان ، لمن آتاه الله علما ، ومنحه فهما .

وفى هذه الآية أيضاً دليل ، وإرشاد ، وتنبيه لطيف ، لفائدة مهمة .

وهى : أن المسلمين ينبغى لهم ، أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة ، من يقوم بها ، ويوفر وقته عليها ، ويجتهد فيها ، ولا يلتفت إلى غيرها ، لتقوم مصالحهم ، وتتم منافعهم ، ولتكون وجهة جميعهم ، ونهاية ما يقصدون ، قصداً واحداً ، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم .

ولو تفرقت الطرق ، وتعددت المشارب ، فالأعمال متباينة ، والقصد واحد .

وهذه من الحكمة العامة النافعة ، فى جميع الأمور .

* وهذا أيضاً إرشاد آخر ، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال ، أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار ، والغلظة عليهم ، والشدة فى القتال ، والشجاعة والثبات .

[ واعلموا أن الله مع المتقين ] أى : وليكن لديكم علم ، أن المعونة من الله ، تنزل بحسب التقوى ، فلازموا على تقوى الله ، يُعِنْكُم وينصركم على عدوكم .

وهذا العموم فى قوله [ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ] مخصوص بما إذا كانت المصلحة فى قتال غير الذين يلوننا ، وأنواع المصالح كثيرة جداً .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟

---

* يقول تعالى — مبينا حال المنافقين ، وحال المؤمنين عند نزول القرآن ، وتفاوت ما بين الفريقين ، فقال : [ وإذا ما أنزلت سورة ] فيها الأمر ، والنهى ، والخبر عن نفسه الكريمة ، وعن الأمور الغائبة ، والحث على الجهاد .

[ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ] أى : حصل الاستفهام ، لمن حصل له الإيمان بها ، من الطائفتين .

قال تعالى — مبينا الحال الواقعة — : [ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ] بالعلم بها ، وفهمها ، واعتقادها ، والعمل بها ، والرغبة فى فعل الخير ، والانكفاف عن فعل الشر .

[ وهم يستبشرون ] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بما منَّ الله عليهم من آياته ، والتوفيق لفهمها والعمل بها .

وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله ، وطمأنينة قلوبهم ، وسرعة انقيادهم ، لما تحثهم عليه .

[ وأما الذين فى قلوبهم مرض ] أي : شك ونفاق [ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ] أى : مرضاً إلى مرضهم ، وشكا إلى شكهم ، من حيث إنهم كفروا بها ، وعاندوها ، وأعرضوا عنها ، فازداد لذلك مرضهم ، وترامى بهم إلى الهلاك [ و ] الطبع على قلوبهم ، حتى [ ماتوا وهم كافرون ] .

وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً
أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

---

وهذا عقوبة لهم ، لأنهم كفروا بآيات الله ، وعصوا رسوله ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه

قال تعالى — موبخا لهم ، على إقامتهم على ماهم عليه ، من الكفر والنفاق .

[ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ] بما يصيبهم من البلايا والأمراض ، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية ، التى يراد بها اختبارهم .

[ ثم لايتوبون ] عما هم عليه من الشر [ ولاهم يذكرون ] ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه .

فالله تعالى ، يبتليهم — كما هى سنته فى سائر الأمم — بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهى ، ليرجعوا إليه ، ثم لا يتوبون ، ولا هم يذكرون .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه ينبغى للمؤمن ، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده ، فيجدده وينميه ، ليكون — دائما — فى صعود .

وقوله : [ وإذا ما أنزلت سورة ] إلى [ لا يفقهون ] .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

* يعنى : أن المنافقين ، الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة ، تنبئهم بما فى قلوبهم .

[ إذا ما أنزلت سورة ] ليؤمنوا بها ، ويعملوا بمضمونها .

[ نظر بعضهم إلى بعض ] جازمين على ترك العمل بها ، ينتظرون الفرصة ، فى الاختفاء عن أعين المؤمنين ، ويقولون :

[ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ] متسللين ، وانقلبوا معرضين ، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم .

فكما انصرفوا عن العمل [ صرف الله قلوبهم ] أى : صدها عن الحق وخذلها .

[ بأنهم قوم لا يفقهون ] فقها ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا ، لكانوا — إذا نزلت سورة ـ آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها .

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره ، من شرائع الإيمان ، كما قال تعالى عنهم :

« فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ، ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » .

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

---

* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بما بعث فيهم النبي الأمى ، الذى من أنفسهم ، يعرفون حاله ، ويتمكنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الانقياد له .

وهو صلى الله عليه وسلم فى غاية النصح لهم ، والسعى فى مصالحهم .

[ عزيز عليه ما عنتم ] أى : يشق عليه الأمر ، الذى يشق عليكم ويعنتكم .

[ حريص عليكم ] فيحب لكم الخير ، ويسعى جهده ، فى إيصاله إليكم ، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده ، فى تنفيركم عنه .

[ بالمؤمنين رءوف رحيم ] أى : شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم .

ولهذا كن حقه مقدما على سائر حقوق الخلق ، وواجب على الأمة الإيمان به ، وتعظيمه ، وتوقيره ، ونعزيره .

[ فإن ] آمنوا ، فذلك حظهم وتوفيقهم ، وإن [ تولوا ] عن الإيمان والعمل ، فامض على سبيلك ، ولا تزل فى دعوتك ، وقل :

[ حسبي الله ] أى : الله يكفينى ، جميع ما أهمنى .

[ لا إله إلا هو ] أى : لامعبود بحق ، سواه .

ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

[ عليه توكلت ] أى : اعتمدت ، ووثقت به ، فى جلب ما ينفع ، ودفع ما يضر .

[ وهو رب العرش العظيم ] الذى هو أعظم المخلوقات .

وإذا كان رب العرش العظيم ، الذى وسع المخلوقات ، كان ربًّا لما دونه ، عن باب أولى ، وأحرى .

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه

فلله الحمد ، أولا وآخرا ، وظاهراً وباطناً

تفسير

# سُورَة يُونُس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾
أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ

---

* يقول تعالى [ الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم ] وهو هذا القرآن ، المشتمل على الحكمة والأحكام ، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية ، والأوامر والنواهي الشرعية ، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد .

ومع هذا ، فأعرض أكثرهم ، فهم لايعلمون ، فتعجبوا [ أن أوحينا إلى رجل منهم : أن أنذر الناس ] عذاب الله ، وخوفهم نقم الله ، وذكرهم بآيات الله .

[ وبشر الذين آمنوا ] إيمانا صادقا [ أن لهم قدم صدق عند ربهم ] أي : لهم جزاء موفور ، وثواب مذخور عند ربهم ، بما قدموه ، وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة .

قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا ، حملهم على الكفر به .

[ قال الكافرون ] عنه : [ إن هذا لساحر مبين ] أي : بَيِّنُ السحر ، لا يخفى — بزعمهم — على أحد ، وهذا من سفههم وعنادهم .

فإنهم تعجبوا من أمر ، ليس مما يتعجب منه ، ويستغرب .

وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم .

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ، الذى بعثه الله من أنفسهم ، يعرفونه حق المعرفة ، فردوا دعوته ، وحرصوا على إبطال دينه ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ

---

* يقول تعالى — مبينا لربوبيته ، وإلهيته ، وعظمته : —

[ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ] مع أنه قادر على خلقها فى لحظة واحدة .

ولـكن لما له فى ذلك من الحكمة الإلهية ، ولأنه رفيق فى أفعاله .

ومن جملة حكمته فيها ، أنه خلقها بالحق وللحق ، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة .

[ ثم ] بعد خلق السموات والأرض [ استوى على العرش ] استواء يليق بعظمته .

[ يدبر الأمر ] فى العالم العلوى ، والسفلى ، من الإماتة والإحياء ، وإنزال الأرزاق ، ومداولة الأيام بين الناس ، وكشف الضر عن المضرورين ، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير ، نازلة منه ، وصاعدة إليه ، وجميع الخلق ، مذعنون لعزته ، خاضعون لعظمته وسلطانه .

[ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ] فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة ، ولو كان أفضل الخلق ، حتى يأذن الله .

ولا يأذن ، إلا لمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له .

إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

---

[ ذلكم ] الذى هذا شأنه [ الله ربكم ] أى : هو الله الذى له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال ، ووصف الربوبية ، الجامع لصفات الأفعال .

[ فاعبدوه ] أى : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية .

[ أفلا تذكرون ] الأدلة الدالة ، على أنه وحده ، المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام .

فلما ذكر حكمه القدرى ، وهو التدبير العام ، وحكمه الدينى ، وهو شرعه ، الذى مضمونه ومقصوده ، عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزئى ، وهو : مجازاته على الأعمال بعد الموت ، فقال :

[ إليه مرجعكم جميعا ] أى : سيجمعكم بعد موتكم ، لميقات يوم معلوم .

[ وعد الله حقا ] أى : وعده صادق ، لا بد من إتمامه [ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ] .

فالقادر على ابتداء الخلق ، قادر على إعادته .

والذى يرى ابتداءه بالخلق ، ثم ينكر إعادته للخلق ، فهو فاقد العقل ، منكر لأحد المثلين ، مع إثبات ما هو أولى منه ، فهذا دليل عقلى واضح ، على المعاد .

ثم ذكر الدليل النقلى فقال : [ ليجزى الذين آمنوا ] بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به .

لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ
شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

---

[ وعملوا الصالحات ] بجوارحهم ، من واجبات ، ومستحبات .

[ بالقسط ] أى : بإيمانهم وأعمالهم ، جزاء قد بينه لعباده ، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

[ والذين كفروا ] بآيات الله ، وكذبوا رسل الله .

[ لهم شراب من حميم ] أى : ماء حار ، يشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء .

[ وعذاب أليم ] من سائر أصناف العذاب [ بما كانوا يكفرون ] .

أى : بسبب كفرهم وظلمهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا

---

* لما قرر ربوبيته وإلهيته ، ذكر الأدلة العقلية الأفقية ، الدالة على ذلك وعلى كماله ، فى أسمائه وصفاته ، من الشمس والقمر ، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما ، من سائر أصناف المخلوقات ، وأخبر أنها آيات [ لقوم يعلمون ] و [ لقوم يتقون ] .

فإن العلم ، يهدى إلى معرفة الدلالة فيها ، وكيفية استنباط الدلائل ، على أقرب وجه .

والتقوى ، تحدث فى القلب ، الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ، الناشئين عن الأدلة والبراهين ؛ وعن العلم واليقين .

وحاصل ذلك ، أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة ، دال على كمال قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحياته ، وقيوميته .

وما فيها من الأحكام ، والإتقان ، والإبداع والحسن ، دال على كمال حكمة الله ، وحسن خلقه ، وسعة علمه .

وما فيها ، من أنواع المنافع والمصالح — كجعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، يحصل بهما من النفع الضرورى وغيره مما يحصل — يدل ذلك على رحمة الله تعالى ، واعتنائه بعباده ، وسعة بره ، وإحسانه .

وما فيها من التخصيصات ، دال على مشيئة الله ، وإرادته النافذة .

وذلك دال على أنه وحده ، المعبود ، والمحبوب المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأوصاف العظام ، الذى لا تنبغى الرغبة والرهبة ، إلا إليه ،

بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

---

ولا يصرف خالص الدعاء، إلا له ، لا لغيره ، من المخلوقات المربوبات ، المفتقرات إلى الله ، فى جميع شئونها .

وفى هذه الآيات : الحث والترغيب ، على التفكير فى مخلوقات الله ، والنظر فيها ، بعين الاعتبار .

فإن بذلك تنفسح البصيرة ، ويزداد الإيمان والعقل ، وتقوى القريحة .

وفى إهمال ذلك ، تهاون بما أمر الله به ، وإغلاق لزيادة الإيمان ، وجمود للذهن والقريحة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ

---

* يقول تعالى [ إن الذين لا يرجون لقاءنا ] أى : لا يطمعون بلقاء الله ، الذى هو أكبر ما طمع فيه الطامعون ؛ وأعلى ما أمله المؤملون .

بل أعرضوا عن ذلك ، وربما كذبوا به [ ورضوا بالحياة الدنيا ] بدلا عن الآخرة .

[ واطمأنوا بها ] أى : ركنوا إليها ، وجعلوها غاية أمرهم ، ونهاية قصدهم .

فسعوا لها ، وأكبوا على لذاتها وشهواتها ، بأى طريق حصلت حصلوها ، ومن أى وجه لاحت ، ابتدروها .

قد صرفوا إرادتهم ونياتهم ، وأفكارهم ، وأعمالهم ، إليها .

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها ، وكأنها ليست بدار ممر ، يتزود فيها المسافرون ، إلى الدار الباقية التى ، إليها ، يرحل الأولون والآخرون ، وإلى نعيمها ولذاتها ، شمر الموفقون .

[ والذين هم عن آياتنا غافلون ] فلا ينتفعون بالآيات القرآنية ، ولا بالآيات الأفقية والنفسية .

والإعراض عن الدليل ، مستلزم للإعراض والغفلة ، عن المدلول المقصود .

[ أولئك ] الذين هذا وصفهم [ مأواهم النار ] أى : مقرهم ومسكنهم ، التى لا يرحلون عنها .

ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ

---

[ بما كانوا يكسبون ] من الكفر والشرك ، وأنواع المعاصى .

فلما ذكر عقابهم ، ذكر ثواب المطيعين فقال : [ إن الذين آمنوا ] إلى [ أن الحمد لله رب العالمين ] .

* يقول تعالى [ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أى : جمعوا بين الإيمان ، والقيام بموجبه ومقتضاه ، من الأعمال الصالحة ، المشتملة على أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، على وجه الإخلاص والمتابعة .

[ يهديهم ربهم بإيمانهم ] أى : بسبب ما معهم من الإيمان ، يثيبهم الله أعظم الثواب ، وهو : الهداية .

فيعلمهم ما ينفعهم ، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ، ويهديهم للنظر فى آياته ، ويهديهم فى هذه الدار ، إلى الصراط المستقيم ، وفى دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم . ولهذا قال :

[ تجرى من تحتهم الأنهار ] الجارية على الدوام [ فى جنات النعيم ] .

أضافها الله إلى النعيم ، لاشتمالها على النعيم التام .

نعيم القلب بالفرح والسرور ، والبهجة والحبور ، ورؤية الرحمن ، وسماع كلامه ، والاغتباط برضاه وقربه ، ولقاء الأحبة والإخوان ، والتمتع

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

---

بالاجتماع بهم ، وسماع الأصوات المطربات ، والنغمات المشجيات ، والمناظر المفرحات .

ونعيم البدن بأنواع المآكل ، والمشارب ، والمناكح ، ونحو ذلك ، مما لا تعلمه النفوس ، ولا خطر ببال أحد ، أو قدر أن يصفه الواصفون .

[ دعواهم فيها سبحانك اللهم ] أى عبادتهم فيها لله ، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص ، وآخرها ، تحميد لله ، فالتكاليف سقطت عنهم فى دار الجزاء .

وإنما بقى لهم ، أكمل اللذات ، الذى هو ألذ عليهم ، من المآكل اللذيذة .

ألا وهو : ذكر الله الذى تطمئن به القلوب ، وتفرح به الأرواح .

وهو لهم بمنزلة النَّفَس ، من دون كلفة ومشقة .

[ و ] أما [ تحيتهم فيها ] فيما بينهم عند التلاقى والتزاور ، فهو السلام ، أى : كلام سالم من اللغو والإثم ، موصوف بأنه [ سلام ] .

وقد قيل فى تفسير قوله [ دعواهم فيها سبحانك ] إلى آخر الآية .

أن أهل الجنة — إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما ـ قالوا سبحانك اللهم ، فأحضر لهم فى الحال .

[ وآخر دعواهم ] إذا فرغوا [ أن الحمد لله رب العالمين ] .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* وهذا من لطفه وإحسانه بعباده ، أنه لو عجل لهم الشر ، إذا أتوا بأسبابه ، وبادرهم بالعقوبة على ذلك ، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه [ لقضى إليهم أجلهم ] أى لمحقتهم العقوبة .

ولكنه تعالى ، يمهلهم ، ولا يهملهم ، ويعفو عن كثير من حقوقه .

فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ماترك على ظهرها من دابة .

ويدخل فى هذا ، أن العبد إذا غضب على أولاده ، أو أهله ، أو ماله ، ربما دعا عليهم دعوة ، لو قبلت منه ، لهلكوا ، ولأضره ذلك غاية الضرر ، ولكنه تعالى ، حليم حكيم .

وقوله : [ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ] أى : لا يؤمنون بالآخرة ، فلذلك لايستعدون لها ، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله .

[ فى طغيانهم ] أى : باطلهم ، الذى جاوزوا به الحق والحد .

[ يعمهون ] يترددون حائرين ، لايهتدون السبيل ، ولا يوفقون لأقوم دليل .

وذلك عقوبة لهم على ظلمهم ، وكفرهم بآيات الله .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

* وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وأنه إذا مسه ضر ، من مرض ، أو مصيبة ، اجتهد فى الدعاء ، وسأل الله فى جميع أحواله ، قائما ، وقاعداً ، ومضطجعا ، وألح فى الدعاء ، ليكشف الله عنه ضره .

[ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ] أى : استمر فى غفلته ، معرضا عن ربه ، كأنه ما جاءه ضر ، فكشفه الله عنه .

فأى ظلم أعظم من هذا الظلم ؟ ! ! يطلب من الله قضاء غرضه .

فإذا أناله إياه ، لم ينظر إلى حق ربه ، وكأنه ليس عليه لله حق .

وهذا تزيين من الشيطان ، زين له ما كان مستهجنا مستقبحا فى العقول والفطر .

[ كذلك زين للمسرفين ] أى : المتجاوزين للحد [ ما كانوا يعملون ] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟
وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ
بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية ، بظلمهم وكفرهم ، بعد ما جاءتهم البينات ، على أيدى الرسل ، وتبين الحق ، فلم ينقادوا لها ، ولم يؤمنوا .

فأحل بهم عقابه ، الذى لا يرد عن كل مجرم ، متجرىء على محارم الله .

وهذه سنته فى جميع الأمم .

[ ثم جعلناكم ] أى : المخاطبين [ خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون ] فإن أنتم اعتبرتم ، واتعظتم بمن قبلكم ، واتبعتم آيات الله ، وصدقتم رسله ، نجوتم فى الدنيا والآخرة .

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم ، أحل بكم ما أحل بهم ، ومن أنذر فقد أعذر .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ
مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

---

* يذكر تعالى ، تعنت المكذبين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق ،أعرضوا عنها ، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا ، جراءة منهم وظلما :

[ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ] فقبحهم الله ، ما أجرأهم على الله ، وأشدهم ظلما ، ورداً لآياته .

فإذا كان الرسول العظيم ، يأمره الله ، أن يقول لهم :

[ قل ما يكون لى ] أى ما ينبغى ، ولا يليق بى [ أن أبدله من تلقاء نفسى ] .

فإنى رسول محض ، ليس لى من الأمر شىء .

[ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ] أى : ليس لى غير ذلك ، فإنى عبد مأمور .

[ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ] .

فهذا قول خير الخلق ، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه .

فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين ، الذين جمعوا بين الجهل والضلال ، والظلم والعناد ، والتعنت والتعجيز لرب العالمين ، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم ؟ ! ! .

عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ
عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

---

فإن زعموا أن قصدهم ، أن يتبين لهم الحق بالآيات ، التى طلبوا ، فهم كَذَبَةٌ فى ذلك .

فإن الله قد بين من الآيات ، ما يؤمن على مثله ، البشر .

وهو الذى يصرفها كيف يشاء ، تبعا لحكمته الربانية ، ورحمته بعباده .

* [ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً ] طويلا [ من قبله ] أى : قبل تلاوته ، وقبل درايتكم به ، وأنا ما خطر على بالى ، ولا وقع فى ظنى .

[ أفلا تعقلون ] أنى ، حيث لم أتله فى مدة عمرى ، ولا صدر منى ، ما يدل على ذلك .

فكيف أتقوَّله بعد ذلك ، وقد لبثت فيكم عمراً طويلا ، تعرفون حقيقة حالى ، بأنى أمى ، لا أقرأ ، ولا أكتب ، ولا أدرس ، ولا أتعلم من أحد ؟ ! !

فأتيتكم بكتاب عظيم ، أعجز الفصحاء ، وأعيا العلماء .

فهل يمكن – مع هذا – أن يكون من تلقاء نفسى ، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد ؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم ، وتدبرتم حالى وحال هذا الكتاب ،

بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾

لجزمتم جزماً لا يقبل الريب بصدقه ، وأنه الحق ، الذى ليس بعده ، إلا الضلال .

ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد ، فأنتم لاشك أنكم ظالمون .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو كذب بآياته » ؟ ! !

فلو كنت مُتَقَوِّلاً ، لكنت أظلم الناس ، وفاتنى الفلاح ، ولم تخف عليكم حالى .

ولكنى جئتكم بآيات الله ، فكذبتم بها ، فتعين فيكم الظلم .

ولابد أن أمركم سيضمحل ، ولن تنالوا الفلاح ، مادمتم كذلك .

ودل قوله [ قال الذين لا يرجون لقاءنا ] الآية ، أن الذى حملهم على هذا التعنت ، الذى صدر منهم ، هو عدم إيمانهم بلقاء الله ، وعدم رجائه ، وأن من آمن بلقاء الله ، فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ، ويؤمن به ، لأنه حسن القصد .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

* يقول تعالى : [ ويعبدون ] أى : المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

[ من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ] أى : إن معبوداتهم ، لاتملك لهم مثقال ذرة ، من النفع ، ولا تدفع عنهم شيئا .

[ ويقولون ] قولا خاليا من البرهان :

[هؤلاء شفعاؤنا عند الله ] أى : يعبدونهم ، ليقربوهم إلى الله ، ويشفعوا لهم عنده .

وهذا قول من تلقاء أنفسهم ، وكلام ، ابتكروه ، هم .

ولهذا قال تعالى ـ مبطلا لهذا القول : ـ

[ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ] .

أى : الله تعالى هو العالم ، الذى أحاط علما بجميع ما فى السموات والأرض ، وقد أخبركم ، بأنه ليس له شريك ولا إله معه .

أفأنتم ـ يامعشر المشركين ـ تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء ؟ .

أفتخبرونه بأمر خفى عليه ، وعلمتوه ؟ أأنتم أعلم أم الله ؟

فهل يوجد قول أبطل من هذا القول ، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء ، أعلم من رب العالمين ؟

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

---

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول ، فإنه يجزم بفساده وبطلانه .

[ سبحانه وتعالى عما يشركون ] أى : تقدس وتنزه ، أن يكون له شريك أو نظير .

بل هو الله الأحد الفرد الصمد ، الذى لا إله ، فى السموات والأرض ، إلا هو .

وكل معبود فى العالم العلوى والسفلى سواه ، فإنه باطل عقلا ، وشرعا ، وفطرة .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » .

* أى [ وما كان الناس إلا أمة واحدة ] متفقين على الدين الصحيح ، ولكنهم اختلفوا .

فبعث الله الرسل ، مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

[ ولولا كلمة سبقت من ربك ] بإمهال العاصين ، وعدم معاجلتهم بذنوبهم .

[ لقضى بينهم ] بأن ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين المكذبين ، وصار هذا فارقا بينهم [ فيما فيه يختلفون ] .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

---

ولكنه ، أراد امتحانهم ، وابتلاء بعضهم ببعض ، ليتبين الصادق من الكاذب .

* [ ويقولون ] أى : المكذبون المتعنتون ، [ لولا أنزل عليه آية من ربه ] .

يعنون : آيات الاقتراح ، التى يعينونها ، كقولهم « ولولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » الآيات .

وكقولهم « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات ( ٩٠ إلى ٩٣ ) من سورة الإسراء .

[ فقل ] لهم إذا طلبوا منك آية [ إنما الغيب لله ] أى : هو المحيط علما بأحوال العباد ، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم ، وحكمته البديعة ، وليس لأحد تدبير فى حكم ولا دليل ، ولا غاية ، ولا تعليل .

[ فانتظروا إنى معكم من المنتظرون ] أى : كل ينتظر بصاحبه ، ما هو أهل له ، فانظروا لمن تكون العاقبة .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا
لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ
مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى: [وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ] كالصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، والأمن بعد الخوف ، نسوا ما أصابهم من الضراء ، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة ، بل استمروا فى طغيانهم ومكرهم .

ولهذا قال : [ إذا لهم مكر فى آياتنا ] أى يسعون بالباطل ، ليبطلوا به الحق .

[ قل الله أسرع مكراً ] فإن المكر السىء ، لايحيق إلا بأهله .

فمقصودهم منعكس عليهم ، ولم يسلموا من التبعة ، بل تكتب الملائكة عليهم ، ما يعملون ، ويحصيه الله ، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

* لما ذكر تعالى ، القاعدة العامة فى أحوال الناس ، عند إصابة الرحمة لهم ، بعد الضراء ، واليسر بعد العسر ، ذكر حالة ، تؤيد ذلك ، وهى : حالهم فى البحر ، عند اشتداده ، والخوف من عواقبه .

فقال : [ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ] بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها ، وهداكم إليها .

[ حتى إذا كنتم فى الفلك ] أى : السفن البحرية [ وجرين بهم بريح طيبة ] موافقة لما يهوونه ، من غير انزعاج ولا مشقة .

[ وفرحوا بها ] واطمأنوا إليها .

فبينما هم كذلك ، [ إذ جاءتها ريح عاصف ] شديدة الهبوب [ وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ] أى : عرفوا أنه الهلاك .

فانقطع حينئذ ، تعلقهم بالمخلوقين ، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده .

وحينئذ [ دعوا الله مخلصين له الدين ] ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام .

فقالوا : [ لئن أنجيتنا من هذه ، لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ
إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾

---

إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ] أى نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء ، وما ألزموه أنفسهم ، فأشركوا بالله ، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد ، ولا يدفع عنهم المضايق .

فهلا أخلصوا لله العبادة فى الرخاء ، كما أخلصوها فى الشدة ؟!! .

ولكن هذا البغى ، يعود وباله عليهم ، ولهذا قال :

[ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ] أى : غاية ما تؤملون ببغيكم ، وشرودكم عن الإخلاص لله ، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها ، النزر اليسير ، الذى سينقضى سريعاً ، ويمضى جميعاً ، ثم تنتقلون عنه بالرغم .

[ ثم إلينا مرجعكم ] فى يوم القيامة [ فننبئكم بما كنتم تعملون ] وفى هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم .

۞ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ

---

* وهذا المثل من أحسن الأمثلة ، وهو مطابق لحالة الدنيا .

فإن لذاتها ، وشهواتها ، وجاهها ، ونحو ذلك ، يزهو لصاحبه ، إن زها وقتاً قصيراً .

فإذا استكمل وتم ، اضمحل ، وزال عن صاحبه ، أو زال صاحبه عنه .

فأصبح صفر اليدين منها ، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها .

فذلك [ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ] أى : نبت فيها من كل صنف ، وزوج بهيج [ مما يأكل الناس ] كالحبوب والثمار [ و ] مما تأكل [ الأنعام ] كأنواع العشب ، والكلأ المختلف الأصناف .

[ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ] أى : تزخرفت فى منظرها ، واكتست فى زينتها ، فصارت بهجة للناظرين ، ونزهة للمتفرجين ، وآية للمتبصرين .

فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر ، وأصفر ، وأبيض وغيره .

[ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ] أى : حصل معهم طمع ، بأن ذلك سيستمر ويدوم ، لوقوف إرادتهم عنده ، وانتهاء مطالبهم فيه .

فبينما هم فى تلك الحالة [ أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ] أى : كأنها ما كانت . فهذه حالة الدنيا ، سواء بسواء .

عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ

---

[ كذلك نفصل الآيات ] أى : نبينها ونوضحها ، بتقريب المعانى إلى الأذهان ، وضرب الأمثال [ لقوم يتفكرون ] أى : يعملون أفكارهم فيما ينفعهم .

وأما الغافل المعرض ، فهذا لا تنفعه الآيات ، ولا يزيل عنه الشك البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا ، وحاصل نعيمها ، شوّق إلى الدار الباقية فقال :

[ والله يدعو إلى دار السلام ] إلى [ وهم فيها خالدون ] .

* عمم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام ، والحث على ذلك ، والترغيب .

وخص بالهداية ، من شاء استخلاصه واصطفاءه .

فهذا فضله وإحسانه ، والله يختص برحمته من يشاء .

وذلك عدله وحكمته ، وليس لأحد عليه حجة ، بعد البيان والرسل .

وسمى الله الجنة « دار السلام » لسلامتها من جميع الآفات والنقائص .

وذلك ، لكمال نعيمها ، وتمامه ، وبقائه ، وحسنه من كل وجه .

ولما دعا إلى دار السلام ، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها ، الموصلة إليها ، أخبر عنها بقوله :

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

---

[ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ] أى : للذين أحسنوا فى عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة ، فى عبوديته ، وقاموا بما قدروا عليه منها ، وأحسنوا إلى عباد الله ، بما يقدرون عليه من الإحسان القولى والفعلى ، من بذل الإحسان المالى ، والإحسان البدنى ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتعليم الجاهلين ، ونصيحة المعرضين ، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان .

فهؤلاء الذين أحسنوا ، لهم « الحسنى » وهى: الجنة الكاملة فى حسنها و « زيادة » وهى : النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، والفوز برضاه والبهجة بقربه .

فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ، ويسأله السائلون .

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: [ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة] .

أى : لا ينالهم مكروه ، بوجه من الوجوه ، لأن المكروه ، إذا وقع بالإنسان . تبين ذلك فى وجهه ، وتغير ، وتكدر .

وأما هؤلاء ـ فكما قال الله عنهم ـ « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ».

[ أولئك أصحاب الجنة ] الملازمون لها [ هم فيها خالدون ] لا يحولون ، ولا يزولون ، ولا يتغيرون .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار .

فذكر أن بضاعتهم التى اكتسبوها فى الدنيا هى الأعمال السيئة المسخطة لله ، من أنواع الكفر والتكذيب ، و صناف المعاصى .

فـ [ جزاؤهم سيئة بمثلها ] أى : جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم .

[ وترهقهم ] أى تغشاهم [ ذلة ] فى قلوبهم وخوف من عذاب الله .

لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم .

وتسرى تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم ، فتكون سواداً فى وجوههم .

[ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] فكم بين الفريقين من الفرق ، ويابعد ما بينهما من التفاوت ؟!

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة * وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة » .

۞ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم
مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

---

* يقول تعالى [ ويوم نحشرهم جميعاً ] أى : نجمع جميع الخلائق ، لميعاد يوم معلوم ، ونحضر المشركين ، وما كانوا يعبدون من دون الله .

[ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤهم ] أى : الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم .

[ فزيلنا بينهم ] أى : فرقنا بينهم، بالبعد البدنى والقلبى .

فحصلت بينهم العداوة الشديدة ، بعد أن بذلوا لهم فى الدنيا ، خالص المحبة ، وصَفْوَ الوداد .

فانقلبت تلك المحبة والولاية ، بغضاً وعداوة .

[ وقال شركاؤهم ] متبرئين منهم : [ ما كنتم إيانا تعبدون ] فإننا ننزه الله أن يكون له شريك ، أو نديد .

[ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين ] .

ما أمرناكم بها ، ولا دعوناكم لذلك ، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك ، وهو الشيطان كما قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وقال : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » .

إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

---

فالملائكة الكرام، والأنبياء، والأولياء ونحوهم: يتبرأون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون فى ذلك.

فحينئذ يتحسر المشركون حسرة، لا يمكن وصفها.

ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من ردىء الخصال.

ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال: [ هنالك ] أى: فى ذلك اليوم [ تبلو كل نفس ما أسلفت ] أى: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

[ وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ] من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله، تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

---

* أى : قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً — محتجا عليهم بما أقروا به ، من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الألوهية — [ قل من يرزقكم من السماء والأرض ] بإنزال الأرزاق من السماء ، وإخراج أنواعها من الأرض ، وتيسير أسبابها فيها ؟

[ أم من يملك السمع والأبصار ] أى : من هو الذى خلقهما وهو مالكهما ؟ .

وخصهما بالذكر ، من باب التنبيه على المفضول بالفاضل ، ولكمال شرفهما ونفعهما .

[ ومن يخرج الحى من الميت ] كإخراج أنواع الأشجار والنبات ، من الحبوب والنوى ، وإخراج المؤمن من الكافر ، والطائر من البيضة ، ونحو ذلك .

[ ويخرج الميت من الحى ] عكس هذه المذكورات .

[ ومن يدبر الأمر ] فى العالم العلوى والسفلى ، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية .

فإنك إذا سألتهم عن ذلك [ فسيقولون الله ] لأنهم يعترفون بجميع ذلك ، وأن الله لا شريك له فى شىء من المذكورات .

[ فقل ] لهم إلزاما بالحجة [ أفلا تتقون ] الله فتخلصون له العبادة ، وحده لا شريك له ، وتخلعون ما تعبدونه من دونه ، من الأنداد والأوثان .

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

---

[ فذلكم ] الذى وصف نفسه بما وصفها به [ الله ربكم ] أى : المألوه المعبود المحمود ، المربى جميع الخلق بالنعم وهو [ الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ] .

فإنه تعالى ، المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء ، الذى ما بالعباد من نعمة ، إلا منه ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة ، والجلال والإكرام .

[ فأنى تصرفون ] عن عبادة مَنْ هذا وصفه ، إلى عبادة الذى ليس له من وجوده إلا العدم ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًا ، ولا موتا ، ولا حياة ولا نشورا .

فليس له من الملك مثقال ذرة ، ولا شركة له بوجه من الوجوه ، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه .

فتبًا لمن أشرك به ، وويحاً لمن كفر به .

لقد عدموا عقولهم ، بعد أن عدموا أديانهم ، بل فقدوا دنياهم وأخراهم .

ولهذا قال تعالى عنهم : [ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون] بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ، ما فيه عبرة لأولى الألباب ، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ
مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن
يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا

---

* يقول تعالى — مبيناً عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها، بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: [ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ] أى يبتديه [ ثم يعيده ].

وهذا استفهام، بمعنى النفى والتقرير أى: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهى أضعف من ذلك، وأعجز.

[ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ] من غير مشارك، ولا معاون له على ذلك.

[ فأنى تؤفكون ] أى: تصرفون، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

[ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ] ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه.

[ قل الله ] وحده [ يهدى للحق ] بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

[ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهدى ] أى: لا يهتدى [ إلا أن يهدى ] لعدم علمه، ولضلاله، وهى شركاؤهم، التى لا تهدى ولا تهتدى إلا أن تُهْدَى [ فما لكم كيف تحكمون ] أى: أىّ

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ
الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

---

شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل ، بصحة عبادة أحد مع الله ، بعد ظهور الحجة والبرهان ، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله ، أوصافاً معنوية ، ولا أوصافاً فعلية ، تقتضي أن تعبد مع الله ، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها ، فلأى شيء جعلت مع الله آلهة ؟

فالجواب : أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان ، أقبح البهتان ، وأضل الضلال ، حتى اعتقد ذلك وألفه ، وظنه حقاً ، وهو لا شيء .

ولهذا قال : [ وما يتبع أكثرهم ] أى : أكثر الذين يدعون من دون الله شركاء .

[ إلا ظناً ] أى : ما يتبعون فى الحقيقة شركاء لله ، فإنه ليس لله شريك أصلاً ، عقلا ، ولا نقلا ، وإنما يتبعون الظن [ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ] .

فسموها آلهة ، وعبدوها مع الله ، « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » .

[ إن الله عليم بما يفعلون ] وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

---

* يقول تعالى : [ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ] أى : غير ممكن ولا متصور ، أن يفترى هذا القرآن على الله ، لأنه الكتاب العظيم ، الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » :

وهو الكتاب الذى « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

وهو الكتاب الذى تكلم به رب العالمين .

فكيف يقدر أحد من الخلق ، أن يتكلم بمثله ، أو بما يقاربه ، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه ؟ ! ! .

فإن كان أحد يماثل الله فى عظمته ، وأوصاف كماله ، أمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن .

ولو تنزلنا على الفرض والتقدير ، فَتَقوَّله أحد على رب العالمين ، لعاجله بالعقوبة ، وبادره بالنكال .

[ ولكن ] الله أنزل هذا الكتاب ، رحمة للعالمين ، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله [ تصديق الذى بين يديه ] من كتب الله السماوية ، بأن وافقها ، وصدقها بما شهدت به ، وبشرت بنزوله ، فوقع كما أخبرت .

وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن

---

[ وتفصيل الكتاب ] للحلال والحرام ، والأحكام الدينية والقدرية ، والإخبارات الصادقة .

[ لا ريب فيه من رب العالمين ] أى : لا شك ولا مرية فيه ، بوجه من الوجوه .

بل هو الحق اليقين « تنزيل من رب العالمين » الذى ربَّى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته ، أن أنزل عليهم هذا الكتاب ، الذى فيه مصالحهم الدينيه والدنيوية ، المشتمل على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال.

* [ أم يقولون ] أى المكذبون به ، عناداً وبغياً : [ افتراه ] محمد على الله ، واختلقه .

[ قل ] لهم — ملزماً لهم بشىء — إن قدروا عليه ، أمكن ما ادَّعوه ، وإلا كان قولهم باطلا .

[ فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ] يعاونكم على الإتيان بسورة مثله ، وهذا محال .

ولو كان ممكناً ، لادعوا قدرتهم على ذلك ، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم ، تبين أن ما قالوه باطل ، لا حظَّ له من الحجة .

يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾
وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ
أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

---

والذي حملهم على التكذيب بالقرآن ، المشتمل على الحق ، الذى لاحق فوقه ، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً ، وفهموه حق فهمه ، لأذعنوا بالتصديق به .

وكذلك ، إلى الآن ، لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال .

وهذا التكذيب الصادر منهم ، من جنس تكذيب من قبلهم .

ولهذا قال : [ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ] وهو الهلاك ، الذى لم يبق منهم أحداً .

فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيحل بهم ، ما أحل بالأمم المكذبين ، والقرون المهلكين .

وفى هذا دليل على وجوب التثبت فى الأمور ، وأنه لا ينبغى للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده ، قبل أن يحيط به علماً .

* [ ومنهم من يؤمن به ] أى : بالقرآن وما جاء به .

[ ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ] وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم ، والعناد ، والفساد ، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

* [ وإن كذبوك ] فاستمر على دعوتك ، وليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، لكل عمله .

[فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون].

كما قال تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى

---

* يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ، ولما جاء به .

[ و ] أن [ منهم من يستمعون ] إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقت قراءته للوحى ، لا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه التفرج والتكذيب ، وتَطَلُّب العثرات ، وهذا استماع ، غير نافع ، ولا مُجْدٍ على أهله خيراً .

لا جرم ، انسد عليهم باب التوفيق ، وحرموا من فائدة الاستماع .

ولهذا قال [ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ] .

وهذا الاستفهام ، بمعنى النفى المتقرر .

أى : لا تسمع الصم ، الذين لا يستمعون القول ، ولو جهرت به ، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوما .

فإذا كان من المحال إسماع الأصم ، الذى لا يعقل ، للكلام ، فهؤلاء المكذبون ، كذلك ، ممتنع إسماعك إياهم ، إسماعاً ينتفعون به .

وأما سماع الحجة ، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة .

فهذا طريق عظيم ، من طرق العلم ، قد انسد عليهم ، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر .

ثم ذكر انسداد الطريق الثانى ، وهو : طريق النظر فقال :

* [ ومنهم من ينظر إليك ] فلا يفيدهم نظرهم إليك ، ولا استراحوا لك شيئاً .

ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

فكما أنك لا تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، فكذلك لا تهدى هؤلاء .

فإذا فسدت عقولهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، التى هى الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق ، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق ؟ .

ودل قوله [ ومنهم من ينظر إليك ] الآية ، أن النظر إلى حالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهديه ، وأخلاقه ، وأعماله ، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه ، وصحة ما جاء به ، وأنه يكفى البصير عن غيره من الأدلة .

* وقوله : [ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ] فلا يزيد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

[ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ] بمجيئهم الحق ، فلا يقبلونه ، فيعاقبهم الله بعد ذلك ، بالطبع على قلوبهم ، والختم على أسماعهم وأبصارهم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن سرعة انقضاء الدنيا ، وأن الله تعالى ، إذا حشر الناس ، وجمعهم ليوم لا ريب فيه ، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار ، وكأنه ، ما مر عليهم نعيم ولا بؤس .

وهم يتعارفون بينهم ، كحالهم فى الدنيا .

ففى هذا اليوم ، يربح المتقون ، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ، إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، حيث فاتهم النعيم ، واستحقوا دخول النار .

* أى : لا تحزن أيها الرسول ، على هؤلاء المكذبين ، ولا تستعجل لهم ، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذى نعدهم من العذاب .

إما فى الدنيا ، فتراه بعينك ، وتقرَّ به نفسك .

وإما فى الآخرة بعد الوفاة ، فإن مرجعهم إلى الله ،وسينبئهم بما كانوا يعملون ، أحصاه ونسوه ، والله على كل شىء شهيد .

ففيه الوعيد الشديد لهم ، والتسلية للرسول الذى كذبه قومه وعاندوه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ ولكل أمة ] من الأمم الماضية [ رسول يدعوهم ] إلى توحيد الله ودينه .

[ فإذا جاء ] هم [ رسولهم ] بالآيات ، صدقه بعضهم ، وكذبه آخرون .

فيقضى الله بينهم بالقسط ، بنجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبين [ وهم لا يظلمون ] بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول ، وبيان الحجة ، أو يعذبوا بغير جرمهم .

فليحذر المكذبون لك ، من مشابهة الأمم المهلكين ، فيحل بهم ما حل بأولئك .

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا : [ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] فإن هذا ظلم منهم ، حيث طلبوه من النبى صلى الله عليه وسلم .

فإنه ليس له من الأمر شىء ، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس .

وأما حسابهم ، وإنزال العذاب عليهم ، فمن الله تعالى ، ينزل عليهم إذا جاء الأجل، الذى أجله فيه، والوقت الذى قدره فيه ، الموافق لحكمته الإلهية .

فإذا جاء ذلك الوقت ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فليحذر المكذبون من الاستعجال ، فإنهم مستعجلون بعذاب الله ،

۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ ءَآلْـَٔنَ

---

الذى إذا نزل ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولهذا قال :

« قل أرأيتم » إلى « تكسبون » .

* يقول تعالى [ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً ] وقت نومكم بالليل [ أو نهاراً ] فى وقت غفلتكم [ماذا يستعجل منه المجرمون] أى : أى بشارة استعجلوا بها ، وأى عقاب ابتدروه ؟ .

* [ أثم إذا ما وقع آمنتم به ] فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم — توبيخاً وعتاباً فى تلك الحال ، التى زعموا أنهم يؤمنون .

[ الآن ] تؤمنون فى حال الشدة والمشقة ؟

[ وقد كنتم به تستعجلون ] فإن سنة الله فى عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب .

فإذا وقع العذاب ، لا ينفع نفساً إيمانها ، كما قال تعالى عن فرعون ، لما أدركه الغرق « قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وأنه يقال له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وقال تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده » .

وقال هنا [ أثم إذا ما وقع آمنتم به ، آلآن ] تدّعون الإيمان .

وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ

---

[وقد كنتم به تستعجلون] فهذا ما عملت أيديكم ، وهذا ما استعجلتم به .

* [ ثم قيل للذين ظلموا ] حين يوفون أعمالهم يوم القيامة : [ ذوقوا عذاب الخلد ] أي : العذاب الذى تخلدون فيه ، ولا يفتر عنكم ساعة .

[هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون] من الكفر والتكذيب والمعاصى .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ ويستنبئونك أحق هو ] أى : يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد ، لا على وجه التبين والاسترشاد .

[ أحق هو ] أى : أصحيح حشر العباد ، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؟

[ قل ] لهم مقسما على صحته ، مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان :
[ إى ، وربى إنه لحق ] لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه .

[ وما أنتم بمعجزين ] لله أن يبعثكم .

فكما ابتدأ خلقكم ، ولم تكونوا شيئاً ، كذلك يعيدكم مرة أخرى ، ليجازيكم بأعمالكم .

* [ و ] إذا كانت القيامة [ لو أن لكل نفس ظلمت ] بالكفر والمعاصى . جميع [ ما فى الأرض ] من ذهب وفضة وغيرها ، لتفتدى به من

لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

---

عذاب الله [ لافتدت به ] ولما نفعها ذلك ، وإنما النفع والضر ، والثواب والعقاب ، على الأعمال الصالحة ، والسيئة .

[ وأسروا ] أى : الذين ظلموا [ الندامة لما رأوا العذاب ] ندموا على ما قدموا ، ولات حين مناص .

[ وقضى بينهم بالقسط ] أى : العدل التام ، الذى لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه .

* [ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ] يحكم فيهم بحكمه الدينى والقدرى ، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائى .

ولهذا قال : [ ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ] فلذلك لا يستعدون للقاء الله ، بل ربما لم يؤمنوا به ، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية ، والبراهين النقلية والعقلية .

* [ هو يحيي ويميت ] أى : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، وسائر أنواع التدابير ، لا شريك له فى ذلك .

[ وإليه ترجعون ] يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ

* يقول تعالى — مرغبا الخلق ، فى الإقبال على هذا الكتاب الكريم ، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال :

[ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ] أى : تعظكم ، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله ، المقتضية لعقابه ، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها .

[ وشفاء لما فى الصدور ] وهو : هذا القرآن ، شفاء لما فى الصدور ، من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع ، وأمراض الشبهات ، القادحة فى العلم اليقينى .

فإن ما فيه من المواعظ ، والترغيب ، والترهيب ، والوعد والوعيد ، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة فى الخير ، والرهبة عن الشر ، ونمتا على تكرر ما يرد إليها ، من معانى القرآن ، أوجب ذلك ، تقديم مراد الله على مراد النفس ، وصار ما يرضى الله ، أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه ، من البراهين ، والأدلة ، التى صرفها الله ، غاية التصريف ، وبينها أحسن بيان ، مما يزيل الشبه القادحة فى الحق ، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صح القلب من مرضه ، ورفل بأثواب العافية ، تبعته الجوارح كلها ، فإنها تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

[ وهدى ورحمة للمؤمنين ] فالهدى هو ، العلم بالحق والعمل به .

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

والرحمة هى : ما يحصل من الخير والإحسان ، والثواب العاجل والآجل ، لمن اهتدى به .

فالهدى ، أجل الوسائل ، والرحمة ، أكمل المقاصد والرغائب .

ولكن لا يهتدى به ، ولا يكون رحمة إلا فى حق المؤمنين .

وإذا حصل الهدى ، وحلت الرحمة الناشئة عنه ، حصلت السعادة والفلاح ، والربح والنجاح ، والفرح والسرور .

* ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : [ قل بفضل الله ] الذى هو : القرآن ، الذى هو أعظم نعمة ومنة ، وفضل تفضل الله به على عباده [ورحمته] الدين والإيمان ، وعبادة الله ومحبته ومعرفته .

[ فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ] من متاع الدنيا ولذاتها .

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين ، لا نسبة بينها ، وبين جميع ما فى الدنيا ، مما هو مضمحل زائل عن قريب .

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته ، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها ، وشكرها لله تعالى وقوتها ، وشدة الرغبة فى العلم والإيمان ، الداعى للازدياد منهما ، وهذا فرح محمود .

بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها ، أو الفرح بالباطل ، فإن هذا مذموم .

كما قال تعالى عن قوم قارون له : « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وكما قال تعالى ، فى الذين فرحوا بما عندهم من الباطل ، المناقض ، لما جاءت به الرسل :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، فرحوا بما عندهم من العلم » .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

* يقول تعالى ـــ منكراً على المشركين ، الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه :

[ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ] يعنى أنواع الحيوانات المحللة ، التى جعلها الله رزقاً لهم ورحمة فى حقهم .

[ فجعلتم منه حراماً وحلالا ] قل لهم ـ موبخاً على هذا القول الفاسد ـ :

[ آلله أذن لكم أم على الله تفترون ] ؟

ومن المعلوم ، أن الله لم يأذن لهم ، فعلم أنهم مفترون .

* [ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ] أن يفعل الله بهم من النكال ، ويحل بهم من العقاب .

قال تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» .

[ إن الله لذو فضل على الناس ] كثير ، وذو إحسان جزيل .

[ ولكن أكثرهم لا يشكرون ] إما أنهم ، لا يقومون بشكرها .

وإما أن يستعينوا بها على معاصيه .

وإما أن يحرموا منها ، ويردوا ما منّ الله به على عباده .

وقليل منهم الشاكر ، الذى يعترف بالنعمة ، ويثنى بها على الله ، ويستعين بها على طاعته .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الأصل فى جميع الأطعمة ، الحل ، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق، الذى أنزله لعباده .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد، فى حركاتهم، وسكناتهم، وفى ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال:

[ وما تكون فى شأن ] أى: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.

[ وما تتلو منه من قرآن ] أى: وما تتلو من القرآن، الذى أوحاه الله إليك.

[ ولا تعملون من عمل ] صغير أو كبير [ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ] أى: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله فى أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها. وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

[ وما يعزب عن ربك ] أى: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره، ومشاهدته [ من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ] أى: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان، من مراتب القضاء والقدر، كثيراً ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى:

« ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ».

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ

---

* يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم. فقال : [ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ] فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال .

[ ولا هم يحزنون ] على ما أسلفوا ، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال .

وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثبت لهم الأمن والسعادة ، والخير الكثير ، الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر وصفهم فقال : [ الذين آمنوا ] بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر ، خيره وشره ، وصدقوا إيمانهم ، باستعمال التقوى ، بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى .

فكل من كان مؤمناً تقياً ، كان لله تعالى ولياً ، لذلك كانت [ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ] .

أما البشارة فى الدنيا ، فهى : الثناء الحسن ، والمودة فى قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة ، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق ، وصرفه عن مساوىء الأخلاق .

وأما فى الآخرة ، فأولها . البشارة عند قبض أرواحهم ، كما قال تعالى :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

وفى القبر ، ما يبشر به من رضا الله تعالى ، والنعيم المقيم .

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

---

وفى الآخرة ، تمام البشرى ، بدخول جنات النعيم ، والنجاة من العذاب الأليم .

[ لا تبديل لكلمات الله ] بل ما وعد الله ، فهو حق ، لا يمكن تغييره ولا تبديله ، لأنه الصادق فى قيله ، الذى لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه .

[ ذلك هو الفوز العظيم ] لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور ، والظفر بكل مطلوب محبوب .

وحصر الفوز فيه ، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى .

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب ، رتبه الله فى الدنيا والآخرة ، على الإيمان والتقوى ، ولهذا أطلق ذلك ، فلم يقيده .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾

* أى : ولا يحزنك قول المكذبين فيك ، من الأقوال ، التى يتوصلون بها إلى القدح فيك ، وفى دينك فإن أقوالهم ، لا تُعِزُّهُمْ . ولا تضرك شيئاً .

[ إن العزة لله جميعاً ] يؤتيها من يشاء ، ويمنعها ممن يشاء .

قال تعالى « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » أى : فليطلبها بطاعته ، بدليل قوله بعده « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ،

ومن المعلوم ، أنك على طاعة الله ، وأن العزة لك ولأتباعك ، من الله .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وقوله : [ هو السميع العليم ] أى : سمعه قد أحاط بجميع الأصوات ، فلا يخفى عليه شىء منها .

وعلمه ، قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وهو — تعالى — يسمع قولك ، وقول أعدائك فيه ، ويعلم ذلك تفصيلا ، فاكتف بعلم الله وكفايته ، فمن يتق الله ، فهو حسبه .

۞ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

* يخبر تعالى : أن له ما فى السموات والأرض ، خلقاً وملكا ، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه .

فالجميع مماليك لله ، مسخرون ، مدبرون ، لا يستحقون شيئاً من العبادة.

وليسوا شركاء لله ، بوجه الوجوه ، ولهذا قال : [ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ] أى : الذى لا يغنى من الحق شيئاً [ وإن هم إلا يخرصون ] فى ذلك ، خرص إفك وبهتان .

فإن كانوا صادقين ، فى أن معبوداتهم شركاء لله ، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة ، فلن يستطيعوا .

فهل منهم أحد يخلق شيئاً ، أو يرزق ، أو يملك شيئاً من المخلوقات ، أو يدبر الليل والنهار ، الذى جعله الله قياماً للناس ؟ .

و [هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ] فى النوم والراحة بسبب الظلمة ، التى تغشى وجه الأرض ، فلو استمر الضياء ، لما قرُّوا ، ولما سكنوا.

[ و ] جعل الله [ النهار مبصراً ] أى : مضيئاً ، يبصر به الخلق ، فينصرفون فى معايشهم ، ومصالح دينهم ودنياهم .

لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

---

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ] عن الله ، سمع فهم ، وقبول ، واسترشاد ، لا سمع تعنت وعناد .

فإن فى ذلك لآيات ، لقوم يسمعون ، ويستدلون بها ، على أنه ، وحده ، المعبود وأنه الإله الحق ، وأن إلهية ما سواه باطلة ، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم .

* يقول تعالى — مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين — [ قالوا اتخذ الله ولدا ] .

فنزه نفسه عن ذلك بقوله : [ سبحانه ] أى : تنزه عما يقول الظالمون ، فى نسبة النقائص ، إليه علوا كبيرا ، ثم برهن عن ذلك ، بعدة براهين .

أحدها : قوله [ هو الغنى ] أى : الغنى منحصر فيه ، وأنواع الغنى مستغرقة فيه .

فهو الغنى ، الذى له الغنى التام ، بكل وجه واعتبار ، من جميع الوجوه .

فإذا كان غنياً من كل وجه ، فلأى شىء يتخذ الولد ؟

أَلِحَاجَةٍ منه إلى الولد ، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدا إلا لنقص فى غناه .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

---

البرهان الثانى ، قوله : [ له ما فى السموات وما فى الأرض ] وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض ، الجميع مخلوقون عبيد مماليك .

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ، ينافى أن يكون له ولد .

فإن الولد من جنس والده ، لا يكون مخلوقا ولا مملوكا .

فملكيته لما فى السموات والأرض عموما ، تنافى الولادة .

البرهان الثالث ، قوله : [ إن[1] عندكم من سلطان بهذا ] أى : هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدا ، فلو كان لهم دليل ، لأبدوه .

فلما تحداهم وعجّزهم على إقامة الدليل ، علم بطلان ما قالوه ، وأن ذلك قول بلا علم .

ولهذا قال : [ أتقولون على الله مالا تعلمون ] فإن هذا من أعظم المحرمات .

* [ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ] أى : لا ينالون مطلوبهم ، ولا يحصل لهم مقصودهم .

وإنما يتمتعون فى كفرهم وكذبهم ، فى الدنيا ، قليلا ، ثم ينتقلون إلى الله ، ويرجعون إليه ، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

---

( ١ ) « إن » حرف نفى ، أى : ( ما عندكم حجة على ادعائكم أن لله ولداً ] فحمل المؤلف حرف « إن » على الاستفهام خطأ ، غير وجيه .

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

---

* يقول تعالى لنبيه [واتل عليهم] أي: على قومك [نبأ نوح] فى دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم، ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يزدهم دعاؤه إياهم، إلا طغيانا فتمللوا منه، وسئموا.

وهو، عليه الصلاة والسلام، غير متكاسل، ولا متوان فى دعوتهم، فقال لهم :

[ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله] أى : إن كان مقامى عندكم، وتذكيرى إياكم، ما ينفعكم [بآيات الله] الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تنالونى بسوء أو تردوا الحق.

[فعلى الله توكلت] أى : اعتمدت على الله، فى دفع كل شر يراد بى، وبما أدعو إليه، فهذا جندى، وعُدَّتى.

وأنتم، فأتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العَدَدَ والعُدَدَ.

[فأجمعوا أمركم] كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئاً.

[و] أحضروا [شركاءكم] الذى كنتم تعبدونهم وتوالونهم، من دون الله، رب العالمين.

[ثم لا يكن أمركم عليه غمة] أى : مشتبها خفياً، بل ليكن ذلك ظاهرا علانية.

ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

---

[ ثم اقضوا إلىّ أى ] أى : اقضوا علىّ بالعقوبة والسوء ، الذى فى إمكانكم .

[ ولا تنظرون ] أى : لا تمهلونى ساعة من نهار .

فهذا برهان قاطع ، وآية عظيمة ، على صحة رسالته ، وصدق ما جاء به . حيث كان وحده ، لا عشيرة تحميه ، ولا جنود تؤويه .

وقد بادأ قومه . بتسفيه آرائهم ، وفساد دينهم ، وعيب آلهتهم .

وقد حملوا من بغضه ، وعداوته ، ما هو أعظم من الجبال الرواسى ، وهم أهل القدرة والسطوة .

وهو يقول لهم: اجتمعوا ، أنتم وشركاؤكم ، ومن استطعتم ، وأبدوا كل ما تقدرون عليه ، من الكيد ، فأوقعوا بى ، إن قدرتم على ذلك ، فلم يقدروا على شىء من ذلك .

فعلم أنه الصادق حقاً ، وهم الكاذبون فيما يوعدون ، ولهذا قال :

[ فإن توليتم ] عن ما دعوتكم إليه ، فلا موجب لتوليكم ، لأنه تبين أنكم ، لا تولون عن باطل إلى حق ، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على فساده .

ومع هذا [ فما سألتكم من أجر ] على دعوتى ، وعلى إجابتكم ،فتقولوا : هذا جاءنا ، ليأخذ أموالنا ، فتمتنعون لأجل ذلك .

[ إن أجرى إلا على الله ] أى : لا أريد الثواب والجزاء ، إلا منه .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

---

[ و ] أيضا فإنى ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده .

بل [ أمرت أن أكون من المسلمين ] فأنا أول داخل ، وأول فاعل، لما أمرتكم به .

[ فكذبوه ] بعد ما دعاهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا .

[ فنجيناه ومن معه فى الفلك ] الذى أمرناه ، أن يصنعه بأعيننا ، وقلنا له — إذا فار التنور ، : « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ومن آمن » ففعل ذلك .

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر « وحملناه على ذات ألواح ودسر » تجرى بأعيننا .

[ وجعلناهم خلائف ] فى الأرض ، بعد إهلاك المكذبين .

ثم بارك الله فى ذريته ، وجعل ذريته ، هم الباقين ، ونشرهم فى أقطار الأرض .

[ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ] بعد ذلك البيان ، وإقامة البرهان .

[ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ] وهو : الهلاك المخزى ، واللعنة المتتابعة عليهم فى كل قرن يأتى بعدهم ، لا تسمع فيهم إلا لوما ، ولا ترى إلا قدحاً وذماً .

فليحذر هؤلاء المكذبون ، أن يحل بهم ، ما حل بأولئك الأقوام المكذبين ، من الهلاك ، والخزى ، والنكال .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* أى : [ ثم بعثنا من بعده ] أى : من بعد نوح عليه السلام [ رسلا إلى قومهم ] المكذبين ، يدعونهم إلى الهدى ، ويحذرونهم من أسباب الردى .

[ فجاءوهم بالبينات ] أى : كل نبى أُيِّد دعوته ، بالآيات الدالة على صحة ما جاء به .

[فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل] يعنى: أن الله تعالى عاقبهم ، حيث جاءهم الرسول ، فبادروا بتكذيبه ، فطبع الله على قلوبهم،وحال بينهم وبين الإيمان ، بعد أن كانوا متمكنين منه ، كما قال تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

ولهذا قال هنا [ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ] أى : نختم عليها ، فلا يدخلها خير .

وما ظلمهم الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، بردهم الحق ، لما جاءهم ، وتكذيبهم الأول .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ

---

* أى : [ ثم بعثنا من بعدهم ] أى : من بعد هؤلاء الرسل ، الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين .

[ موسى ] بن عمران ، كليم الرحمن ، أحد أولى العزم من المرسلين ، وأحد الكبار المقتدى بهم ، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة .

[ و ] جعلنا معه أخاه [ هرون ] وزيرا وبعثناهما [ إلى فرعون وملإه ] أى : كبار دولته ورؤسائهم ، لأن عامتهم ، تبع للرؤساء .

[ بآياتنا ] الدالة على صدق ما جاءا به ، من توحيد الله ، والنهى عن عبادة ماسوى الله تعالى .

[ فاستكبروا ] عنها ، ظلما وعلوا ، بعد ما استيقنوها .

[ وكانوا قوما مجرمين ] أى : وصفهم الإجرام والتكذيب .

[ فلما جاءهم الحق من عندنا ] الذى هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله ، الذى خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين ، المربى جميع خلقه بالنعم .

* فلما جاءهم الحق من عند الله ، على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه .

و [ قالوا : إن هذا لسحر مبين ] لم يكفهم — قبحهم الله — إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذى حقيقته التمويه ، بل جعلوه سحراً مبينا ، ظاهراً ، وهو الحق المبين .

أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

---

ولهذا [ قال ] لهم [ موسى ] - موبخا لهم عن ردهم الحق ، الذى لايرده إلا أظلم الناس : -

[ أتقولون للحق لما جاءكم ] أى : أتقولون إنه سحر مبين .

[ أسحر هذا ] أى : فانظروا وصفه ، وما اشتمل عليه .

فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق .

[ ولا يفلح الساحرون ] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

فانظروا لمن تكون العاقبة ، ومن له الفلاح ، وعلى يديه النجاح .

وقد علموا بعد ذلك ، وظهر لكل أحد ، أن موسى عليه السلام ، هو الذى أفلح ، وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

* [ قالوا ] لموسى ، رادين لقوله بما لايرد به : [ أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ] أى : أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا ، من الشرك ، وعبادة غير الله ، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لاشريك له ؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين ، حجة ، يردون بها الحق ، الذى جاءهم به موسى عليه السلام .

وقوله : [ وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ] أى : وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ، ولتخرجونا من أراضينا .

أْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ

وهذا تمويه منهم ، وترويج على جهالهم ، وتهييج لعوامهم ، على معاداة موسى ، وعدم الإيمان به .

وهذا لايحتج به ، من عرف الحقائق ، وميز بين الأمور ، فإن الحجج لاتدفع ، إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق ، فرد قوله بأمثال هذه الأمور ، فإنها تدل على عجز موردها ، عن الإتيان بما يرد القول الذى جاء خصمه ، لأنه لو كان له حجة ، لأوردها ، ولم يلجأ إلى قوله : قصدك كذا ، أومرادك كذا ، سواء كان صادقا فى قوله وإخباره عن قصد خصمه ، أم كاذبا .

مع أن موسى عليه الصلاة والسلام ، كل من عرف حاله ، وما يدعو إليه ، عرف أنه ليس له قصد فى العلو فى الأرض .

وإنما قصده ، كقصد إخوانه المرسلين ، هداية الخلق ، وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر ، كما نطقوا به بقولهم : [ وما نحن لكما بمؤمنين ] أى : تكبراً وعناداً ، لا لبطلان ما جاء به موسى وهرون ، ولا لاشتباه فيه ، ولا لغير ذلك من المعانى ، سوى الظلم والعدوان ، وإرادة العلو ، الذى رموا به موسى وهرون .

* [وقال فرعون] معارضاً للحق، الذى جاء به موسى، ومغالبا للملإ وقومه: [ ائتونى بكل ساحر عليم ] أى : ماهر بالسحر ، متقن له .

فأرسل فى مدائن مصر ، من أتاه بأنواع السحرة ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

* [فلما جاء السحرة] للمغالبة لموسى [قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون] .

أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ
ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ

---

أى : أى شيء أردتم ، لا أعين لكم شيئا .

وذلك لأنه جازم بغلبته ، غير مبال بهم ، وبما جاءوا به .

* [ فلما ألقوا ] حبالهم وعصيهم ، إذا هى كأنها حيات تسعى .

[ قال موسى ما جئتم به السحر ] أى : هذا السحر الحقيق العظيم .

ولكن مع عظمته [ إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ] .

فإنهم يريدون بذلك ، نصر الباطل على الحق ، وأى فساد أعظم من هذا ؟ ! ! .

وهكذا كل مفسد ، عمل عملا ، واحتال كيدا ، أو أتى بمكر ، فإن عمله سيبطل ويضمحل .

وإن حصل لعمله رواج فى وقت ما ، فإن مآله ، الاضمحلال والمحق .

وأما المصلحون ، الذين قصدهم بأعمالهم ، وجه الله تعالى ، وهى أعمال ووسائل نافعة ، مأمور بها ، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها ، وينميها على الدوام .

فألقى موسى عصاه ، فتلقفت جميع ماصنعوا ، فبطل سحرهم ، واضمحل باطلهم .

* [ ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون ] فأذعن السحرة ، حين تبين لهم الحق .

لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ
أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم

---

فتوعدهم فرعون بالصلب ، وتقطيع الأيدى والأرجل فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملأه ، وأتباعهم ، فلم يؤمن منهم أحد ، بل استمروا فى طغيانهم يعمهون .

* ولهذا قال : [ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ] أى : شباب من بنى إسرائيل ، صبروا على الخوف ، لما ثبت فى قلوبهم الإيمان .

[ على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم ] عن دينهم [ وإن فرعون لعال فى الأرض ] أى : له القهر والغلبة فيها ، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته .

[ و ] خصوصا [ إنه كان من المسرفين ] أى : المتجاوزين للحد ، فى البغى والعدوان .

والحكمة - والله أعلم - بكونه ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، أن الذرية والشباب ، أقبل للحق ، وأسرع له انقيادا .

بخلاف الشيوخ ونحوهم ، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث فى قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد عن الحق من غيرهم .

* [ وقال موسى ] موصيا لقومه بالصبر ، ومذكرا لهم مايستعينون به على ذلك فقال : -

مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا
وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

---

[ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله ] فقوموا بوظيفة الإيمان بالله .

[ فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ] أى : اعتمدوا عليه ، والجأوا إليه واستنصروه .

* [ فقالوا ] ممتثلين لذلك [ على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ] أى : تسلطهم علينا ، فيفتنونا ، أو يغلبونا ، فيفتنونا بذلك ، ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

* [ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ] لنسلم من شرهم ، ولنقيم على ديننا ، على وجه نتمكن به ، من إقامة شرائعه ، وإظهاره ، من غير معارض ، ولا منازع .

* [ وأوحينا إلى موسى وأخيه ] حين اشتد الأمر على قومهما ، من فرعون وقومه ، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم .

[ أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ] أى : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتا ، يتمكنون بها من الاستخفاء فيها .

[ واجعلوا بيوتكم قبلة ] أى : اجعلوها محلا ، تصلون فيها ، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة فى الكنائس ، والْبِيَعِ العامة .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

---

[ وأقيموا الصلاة ] فإنها معونة على جميع الأمور .

[ وبشر المؤمنين ] بالنصر والتأييد ، وإظهار دينهم ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا .

وإذا اشتد الكرب ، وضاق الأمر ، فرّجه الله ، ووسعه .

فلما رأى موسى ، القسوة والإعراض من فرعون وملإه ، دعا عليهم ، وأمّن هرون على دعائه ، فقال :

[ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ] يتزينون بها من أنواع الحلى والثياب ، والبيوت المزخرفة ، والمراكب الفاخرة ، والخدام .

[ وأموالا ] عظيمة [ فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ] .

أى : إن أموالهم ، يستعينون بها على الإضلال فى سبيلك ، فَيَضِلُّون وَيُضِلُّون .

[ ربنا اطمس على أموالهم ] أى : أتلفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما بجعلها حجارة ، غير منتفع بها .

[ واشدد على قلوبهم ] أى : قَسِّها[1] [ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ] .

---

(١) قسها . أى : اجعلها قاسية .

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

---

قال ذلك ، غضبا عليهم ، حيث تجرأوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدوا عن سبيله .

ولكمال معرفته بربه ، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

* [ قال ] الله تعالى [ قد أجيبت دعوتكما ] .

هذا دليل على أن موسى ، كان يدعو ، وهرون يُؤَمِّنُ على دعائه ، وأن الذى يؤمن ، يكون شريكا للداعى فى ذلك الدعاء .

[ فاستقيما ] على دينكما ، واستمرا على دعوتكما .

[ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ] أى : لا تتبعان سبيل الجهال الضلال ، المنحرفين عن الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق الجحيم .

فأمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا ، وأخبره أنهم سيتبعونه .

وأرسل فرعون فى المدائن حاشرين .

يقولون « إن هؤلاء » أى : موسى وقومه « لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون » .

فجمع جنوده ، قاصيهم ودانيهم ، فأتبعهم بجنوده ، بغيا وعدوا أى : أخرجهم باغين على موسى وقومه ، ومعتدين فى الأرض .

وإذا اشتد البغى ، واستحكم الذنب ، فانتظر العقوبة .

* [ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ] وذلك أن الله أوحى إلى موسى ،

وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾
ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

---

لما وصل البحر ، أن يضرب به بعصاه ، فضربه ، فانفلق اثنى عشر طريقا ، وسلكه بنو إسرائيل .

وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده داخلين فيه ، أمر الله البحر ، فالتطم على فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الغرق ، وجزم بهلاكه [ قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ] وهو الله الإله الحق الذى لا إله إلا هو [ وأنا من المسلمين ] أى : المنقادين لدين الله ، ولما جاء به موسى .

قال الله تعالى — مبينا أن هذا الإيمان فى هذه الحالة غير نافع له — :

[ آلآن ] تؤمن ، وتقر برسول الله [ وقد عصيت قبل ] أى : بارزت بالمعاصى ، والكفر والتكذيب [ وكنت من المفسدين ] فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله ، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية ، أنه لا ينفعهم إيمانهم ، لأن إيمانهم ، صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد القيامة ، والذى ينفع ، إنما هو الإيمان بالغيب .

[ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ] .

قال المفسرون : إن بنى إسرائيل لما فى قلوبهم من الرعب العظيم ، من فرعون ، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه ، وشكوا فى ذلك .

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

---

فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ، ليكون لهم عبرة وآية .

[ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ] فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

وأما من له عقل وقلب حاضر ، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل .

* [ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ] أى : أنزلهم الله وأسكنهم فى مساكن آل فرعون ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

[ ورزقناهم من الطيبات ] من المطاعم والمشارب وغيرها [ فما اختلفوا ] فى الحق [ حتى جاءهم العلم ] الموجب لاجتماعهم وائتلافهم .

ولكن بغى بعضهم على بعض ، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق ، فحصل بينهم من الاختلاف شىء كثير .

[ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ] بحكمة العدل الناشىء على علمه التام ، وقدرته الشاملة .

وهذا هو الداء ، الذى يعرض لأهل الدين الصحيح .

. . . . . . . . . . .

---

وهو : أن الشيطان إذا أعجزه أن يطيعوه فى ترك الدين بالكلية ، سعى فى التحريش بينهم ، وإلقاء العداوة والبغضاء ، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك .

ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض ، وعداوة بعضهم لبعض ، ما هو قرة عين اللعين .

وإلا فإذا كان ربهم واحدا ، ورسولهم واحدا ، ودينهم واحدا ، ومصالحهم العامة متفقة ، فلأى شيء يختلفون اختلافا ، يفرق شملهم ، ويشتت أمرهم ، ويحل رابطتهم ونظامهم ، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية مايفوت ، ويموت من دينهم ، بسبب ذلك ما يموت ؟ .

فنسألك اللهم ، لطفا بعبادك المؤمنين ، يجمع شملهم ويرأب صدعهم ، ويرد قاصيهم على دانيهم ، ياذا الجلال والإكرام .

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك] هل هو صحيح ، أم غير صحيح ؟ .

[ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ] أى : اسأل أهل الكتب المنصفين ، والعلماء الراسخين ، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به ، وموافقته لما معهم .

فإن قيل : إن كثيرا من أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم ، كذبوا رسول الله ، وعاندوه ، وردوا عليه دعوته .

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم ، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به ، وبرهانا على صدقه ، فكيف يكون ذلك ؟

فالجواب عن هذا ، من عدة أوجه .

منها : أن الشهادة ، إذا أضيفت إلى طائفة ، أو أهل مذهب ، أو بلد ونحوهم ، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم .

وأما من عداهم ، فلو كانوا أكثر من غيرهم ، فلا عبرة فيهم ، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق ، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين ، كـ « عبد الله بن سلام » وأصحابه ، وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، ومن بعدهم .

ومنها : أن شهادة أهل الكتاب للرسول ، مبنية على كتابهم التوراة الذى ينتسبون إليه .

. . . . . . . . . . .

---

فإذا كان موجوداً فى التوراة ، ما يوافق القرآن ويصدقه ، ويشهد له بالصحة ، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم ، على إنـكار ذلك ، لم يقدح بما جاء به الرسول .

ومنها : أن الله تعالى أمر رسوله ، أن يستشهد بأهل الـكتاب على صحة ما جاءه ، وظهر ذلك ، وأعلنه على رءوس الأشهاد .

ومن المعلوم أن كثيراً منهم ، من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فلو كان عندهم مايرد ما ذكره الله ، لأبدوه ، وأظهروه وبينوه .

فلما لم يكن شيء من ذلك ، كان عدم رد المعادى ، وإقرار المستجيب ، من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

ومنها : أنه ليس أكثر أهل الـكتاب ، رد دعوة الرسول ، بل أكثرهم استجاب لها ، وانقاد طوعا واختياراً ، فإن الرسول بعث ، وأكثر أهل الأرض المتدينين ، أهل الـكتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة ، حتى انقاد للإسلام ، أكثر أهل الشام ، ومصر ، والعراق ، وما جاورها من البلدان ، التى هى مقر دين أهل الـكتاب .

فلم يبق إلا أهل الرياسات ، الذين آثروا رياساتهم على الحق ، ومن تبعهم من العوام الجهلة ، ومن تدين بدينهم اسما لامعنى ، كالإفرنج ، الذين حقيقة أمرهم ، أنهم دهرية ، منحلون عن جميع أديان الرسل .

وإنما انتسبوا للدين المسيحى ، ترويجا لملـكهم ، وتمويها لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

---

وقوله : [ لقد جاءك الحق ] أى : الذى لاشك فيه بوجه من الوجوه [ من ربك فلا تكونن من الممترين ] كقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

* [ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكون من الخاسرين ] .

وحاصل هذا : أن الله نهى عن شيئين : الشك فى هذا القرآن والامتراء منه .

وأشد من ذلك ، التكذيب به ، وهو آيات الله البينات ، التى لاتقبل التكذيب بوجه ، ورتب على هذا الخسار وهو : عدم الربح أصلا ، وذلك بفوات الثواب ، فى الدنيا والآخرة ، وحصول العقاب ، فى الدنيا والآخرة .

والنهى عن الشىء أمر بضده ، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن ، وطمأنينة القلب إليه ، والإقبال عليه ، علما وعملا .

فبذلك يكون العبد من الرابحين ، الذين أدركوا أجل المطالب ، وأفضل الرغائب ، وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

---

* يقول تعالى : [ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك ] .

أى : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لابد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا ، وغيًّا إلى غيهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم ، بردهم للحق ، لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله ، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، الذى وعدوا به .

فحينئذ يعلمون حق اليقين ، أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ماجاءتهم به الرسل هو الحق .

ولكن فى وقت لا يجدى عليهم إيمانهم شيئا .

فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولاهم يستعتبون .

وأما الآيات ، فإنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

---

* يقول تعالى : [ فلولا كانت قرية ] من القرى المكذبين [ آمنت ] حين رأيت العذاب [ فنفعها إيمانها ] أى : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه ، حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا ، لما قال :

« آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » فقيل له « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وكما قال تعالى « فلما جاءهم بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى خلت فى عباده » .

وقال تعالى « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا » .

والحكمة فى هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطرارى ، ليس بإيمان حقيقة ، ولو صرف عنه العذاب ، والأمر الذى اضطره إلى الإيمان ، لرجع إلى الكفران .

وقوله [ إلا قوم يونس لما آمنوا بعد ما رأوا العذاب ، كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ] فهم مستثنون من العموم السابق .

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة ، لم تصل إلينا ، ولم تدركها أفهامنا .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا
أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

قال الله تعالى « وإن يونس لمن المرسلين » إلى قوله « فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين » .

ولعل الحكمة فى ذلك ، أن غيرهم من المهلكين ، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس ، فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر ، بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه ، والله أعلم .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ] بأن يلهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقدرته صالحة لذلك .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن كان بعضهم مؤمنين ، وبعضهم كافرين .

[ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ] أى : لاتقدر على ذلك ، وليس فى إمكانك ، ولا قدرة لغير الله على شىء من ذلك .

* [ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ] بإرادته ومشيئته ، وإذنه القدرى الشرعى .

فمن كان من الخلق قابلا لذلك ، ويزكو عنده الإيمان ، وفقه وهداه .

[ ويجعل الرجس ] أى : الشر والضلال [ على الذين لا يعقلون ] عن الله أوامره ونواهيه ، ولا يلقوا بالاً لنصائحه ومواعظه :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى
ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا

---

* يدعو تعالى عباده ، إلى النظر لما فى السموات والأرض .

والمراد بذلك : نظر الفكر والاعتبار والتأمل ، لما فيها ، وما تحتوى عليه ، والاستبصار .

فإن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وَعِبَرًا لقوم يوقنون ، تدل على أن الله وحده ، المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأسماء والصفات العظام .

[ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ] فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم .

[ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ] أى : فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله ، بعد وضوحها ، [ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ] أى: من الهلاك والعقاب ، فإنهم صنعوا كصنيعهم وسنة الله جارية فى الأولين والآخرين .

[ قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ] فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة ، والنجاة فى الدنيا والآخرة ، وليست إلا للرسل وأتباعهم .

* ولهذا قال : [ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ] من مكاره الدنيا والآخرة ، وشدائدها .

عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ

---

[ كذلك حقا علينا ] أوجبناه على أنفسنا [ ننجى المؤمنين ] فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإنه — بحسب ما مع العبد من الإيمان — تحصل له النجاة من المكاره .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخير الموقنين :

[ قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى ] أى: فى ريب واشتباه فإنى لست فى شك منه ، بل لدىَّ العلم اليقين أنه الحق ، وأن ماتدعون من دون الله باطل ، ولى على ذلك ، الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة .

ولهذا قال : [ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ] من الأنداد ، والأصنام وغيرها ، لأنها لاتخلق ولا ترزق ، ولاتدبر شيئا من الأمور ، وإنما هى مخلوقة مسخرة ، ليس فيها ما يقتضى عبادتها .

[ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ] أى : هو الله الذى خلقكم ، وهو الذى يميتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم .

فهو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد .

[ وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أقم وجهك للدين حنيفا ]

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

---

أى : أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله ، وأقم جميع شرائع الدين حنيفا، أى : مقبلا على الله ، معرضاً عما سواه .

[ ولا تكونن من المشركين ] لا فى حالهم ، ولا تكن معهم .

[ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ] وهذا وصف لكل مخلوق ، أنه لا ينفع ولا يضر ، وإنما النافع الضار ، هو الله تعالى .

[ فإن فعلت ] أى : دعوت من دون الله ، مالا ينفعك ولا يضرك [ فإنك إذا لمن الظالمين ] أى : الضارين أنفسهم بإهلاكها .

وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره ، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره ؟ ! !

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ
وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

* هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده ، المستحق للعبادة ، فإنه : النافع الضار ، المعطى ، المانع ، الذى إذا مس بضر ، كفقر ومرض ، ونحوها [ فلا كاشف له إلا هو ] لأن الخلق ، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشىء ، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً ، لم يقدروا على شىء من ضرره ، إذا لم يرده .

ولهذا قال : [ وإن يردك بخير فلا راد لفضله ] أى : لا يقدر أحد من الخلق ، أن يرد فضله وإحسانه

كما قال تعالى « ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

[ يصيب به من يشاء من عباده ] أى : يختص برحمته من شاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم .

[ وهو الغفور ] لجميع الزلات ، الذى يوفق عبده ، لأسباب مغفرته .

ثم إذا فعلها العبد ، غفر الله ذنوبه ، كبارها ، وصغارها .

[ الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووصل جوده إلى جميع الموجودات ، بحيث لا تستغنى عن إحسانه ، طرفة عين .

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع ، أن الله ، هو المنفرد بالنعم ، وكشف.

﴿ قُل يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

---

النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء، إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه، هو الباطل.

ولهذا — لما بين الدليل الواضح قال بعده :ـ

* أى : [ قل ] يا أيها الرسول، لما تبين البرهان [ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ] أى : الخبر الصادق المؤيد بالبراهين، الذى لاشك فيه، بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذى من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن، الذى فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية، والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغى، ولم يبق لأحد شبهة.

[ فمن اهتدى ] بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه، وآثره على غيره [ فإنما يهتدى لنفسه ] والله تعالى غنى عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم، راجعة إليهم.

[ ومن ضل ] عن الهدي بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به.

[ فإنما يضل عليها ] ولا يضر الله شيئا، فلا يضر إلا لنفسه.

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

---

[ وما أنا عليكم بوكيل ] فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وإنما أنا لكم نذير مبين ، والله عليكم وكيل .

فانظروا لأنفسكم ، مادمتم فى مدة الإمهال .

* [ واتبع ] أيها الرسول [ ما يوحى إليك ] علما ، وعملا ، وحالا ، ودعوة إليه .

[ واصبر ] على ذلك ، فإن هذا ، أعلى أنواع الصبر ، وأن عاقبته حميدة ، فلا تكسل ، ولا تضجر ، بل دم على ذلك ، واثبت .

[ حتى يحكم الله ] بينك وبين من كذبك [ وهو خير الحاكمين ] فإن حكمه ، مشتمل على العدل التام ، والقسط الذى يحمد عليه .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، وثبت على الصراط المستقيم ، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان بعد ما نصره الله عليهم ، بالحجة والبرهان .

فلله الحمد ، والثناء الحسن ، كما ينبغى لجلاله ، وعظمته ، وكماله ، وسعة إحسانه .

تم تفسير سورة يونس ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ

* يقول تعالى : هذا [ كتاب ] عظيم ، ونزل كريم .

[ أحكمت آياته ] أى : أتقنت وأحسنت ، صادقة أخبارها ، عادلة أوامرها ونواهيها ، فصيحة ألفاظه بهية معانيه .

[ ثم فصلت ] أى : ميزت ، وبينت بيانا ، فى أعلى أنواع البيان .

[ من لدن حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منالها .

لا يأمر ، ولا ينهى ، إلا بما تقتضيه حكمته .

[ خبير ] مطلع على الظواهر والبواطن .

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير ، فلا تسأل بعد هذا ، عن عظمته وجلالته ، واشتماله على كمال الحكمة ، وسعة الرحمة .

وإنما أنزل الله كتابه لأجل [ أن لاتعبدوا إلا الله ] أى : لأجل إخلاص الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه .

[ إننى لكم ] أيها الناس [ منه ] أى : من الله ربكم [ نذير ] لمن تجرأ على المعاصى ، بعقاب الدنيا والآخرة .

وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

---

[ وبشير ] للمطيعين لله ، بثواب الدنيا والآخرة .

* [ وأن استغفروا ربكم ] عن ما صدر منكم من الذنوب [ ثم توبوا إليه ] فيما تستقبلون من أعماركم ، بالرجوع إليه ، بالإنابة والرجوع ، عما يكرهه الله إلى مايحبه ويرضاه .

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال : [ يمتعكم متاعا حسنا ] أى : يعطيكم من رزقه ، ما تتمتعون به ، وتنتفعون .

[ إلى أجل مسمى ] أى : إلى وقت وفاتكم [ ويؤت ] منكم [ كل ذى فضل فضله ] أى : يعطى أهل الإحسان والبر ، من فضله وبره ، ما هو جزاء لإحسانهم ، من حصول ما يحبون ، ودفع ما يكرهون .

[ وإن تولوا ] عن ما دعوتكم إليه ، بل أعرضتم عنه ، وربما كذبتم به [ فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ] وهو يوم القيامة ، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين .

* [ إلى الله مرجعكم ] ليجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر .

وفى قوله : [ وهو على كل شىء قدير ] كالدليل على إحياء الله الموتى ، فإنه على كل شىء قدير ، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى ، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين ، فيجب وقوع ذلك عقلا ونقلا .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن جهل المشركين ، وشدة ضلالهم أنهم [ يثنون صدورهم ] أى : يميلونها [ ليستخفوا منه ] أى : من الله ، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله، بأحوالهم ، وبصره لهيئاتهم .

قال تعالى — مبيناً خطأهم فى هذا الظن —[ ألا حين يستغشون ثيابهم ] أى يتغطون بها ، يعلمهم فى تلك الحال ، التى هى من أخفى الأشياء .

بل [ يعلم ما يسرون ] من الأقوال والأفعال [ وما يعلنون ] منها .

بل ما هو أبلغ من ذلك وهو [ أنه عليم بذات الصدور ] أى: بما فيها من الإرادات، والوساوس ، والأفكار ، التى لم ينطقوا بها ، سراً ولا جهراً .

فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه .

ويحتمل أن المعنى فى هذا ، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول ، الغافلين عن دعوته ، أنهم — من شدة إعراضهم — يثنون صدورهم ، أى : يحدودبون ، حين يرون الرسول ، لئلا يراهم ، ويسمعهم دعوته ، ويعظهم بما ينفعهم .

فهل فوق هذا الإعراض شىء ؟! !

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم ، وأنهم لا يخفون عليه ، وسيجازيهم بصنيعهم .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

---

✡ أى : جميع ما دب على وجه الأرض ، من آدمى ، وحيوان ، برى ، أو بحرى ، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم ، فرزقهم على الله .

[ ويعلم مستقرها ومستودعها ] أى : يعلم مستقر هذه الدواب ، وهو : المكان الذى تقيم فيه ، وتستقر فيه ، وتأوى إليه ، ومستودعها : المكان الذي تنتقل إليه فى ذهابها ومجيئها ، وعوارض أحوالها .

[ كل ] من تفاصيل أحوالها [ فى كتاب مبين ] أى : فى اللوح المحفوظ المحتوى على جميع الحوادث الواقعة ، والتى تقع فى السموات والأرض .

الجميع قد أحاط بها علم الله ، وجرى بها قلمه ، ونفذت فيها مشيئته ، ووسعها رزقه .

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها،وأحاط علماً بذواتها ، وصفاتها

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ

* يخبر تعالى ، أنه [ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ] أولها : يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

[ و ] حين خلق السموات والأرض [ كان عرشه على الماء ] فوق السماء السابعة .

فبعد أن خلق السموات والأرض ، استوى على عرشه ، يدبر الأمور ، ويصرفها كيف شاء ، من الأحكام القدرية ، والأحكام الشرعية .

ولهذا قال [ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ] أى : ليمتحنكم ، إذ خلق لكم ما فى السموات والأرض ، بأمره ونهيه ، فينظر أيكم أحسن عملا .

قال الفضيل بن عباس رحمه الله « دين الله أخلصه وأصوبه » .

قيل ، يا أبا على « ما أخلصه وأصوبه » ؟ .

فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا ، لم يقبل .

وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً .

والخالص : أن يكون لوجه الله ، والصواب : أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة[1] .

---

(١) قوله : متبعاً فيه الشرع والسنة . أى : تكون العبادات جارية على الصورة الواردة بالكتاب والسنة، غير مخالفة لها ، لا بزيادة ولا نقصان ، =

وهذا كما قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقال تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » .

فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، وأمرهم بذلك .

فمن انقاد ، وأدى ما أمر به ، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون .

ولا بد أن يجمعهم فى دار ، يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم .

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء ، فقال : [ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ] .

---

=ولا وضع شىء من الأذكار فى غير مواضعها ، التى لم يرد بها كتاب ولا سنة، فلا يزاد فى الأذان ، الصلاة على النبى ، ولا يقرأ قرآن فى سجود ولا ركوع ، لأن ابتداع شىء فى العبادات وفى صورها استدراك على الشارع الحكيم ، وتجهيل له ، حيث لم يعرف الشارع الأكمل والأحسن ، وهذا معنى قبيح جداً ، لا يرضى به مؤمن ، ولا يقبله مسلم على نفسه .

إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ
لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

---

أي : ولئن قلت لهؤلاء ، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت ، لم يصدقوك ، بل كذبوك أشد التكذيب ، وقدحوا فيما جئت به ، وقالوا : [ إن هذا إلا سحر مبين ] ألا وهو الحق المبين .

* [ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ] أى : إلى وقت مقدر فاستبطأوه ، لقالوا من جهلهم وظلمهم [ ما يحبسه ] .

ومضمون هذا ، تكذيبهم به ، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا ، على كذب الرسول ، المخبر بوقوع العذاب ، فما أبعد هذا الاستدلال ! ! .

[ ألا يوم يأتيهم العذاب ليس مصروفا عنهم ] فيتمكنون من النظر فى أمرهم .

[ وحاق بهم ] أى : أحاط بهم ونزل [ ما كانوا به يستهزئون ] من العذاب ، حيث تهاونوا به ، حتى جزموا بكذب من جاء به .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، أنه جاهل ظالم ، بأن الله إذا أذاقه منه رحمة ، كالصحة ، والرزق ، والأولاد ، ونحو ذلك ، ثم نزعها منه ، فإنه يستسلم لليأس ، وينقاد للقنوط ، فلا يرجو ثواب الله ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها ، أو مثلها ، أو خيرا منها . عليه .

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته ، أنه يفرح ويبطر ، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول : [ ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور ] أى : يفرح بما أوتى مما يوافق هوى نفسه ، فخور بنعم الله على عباد الله .

وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس ، والتكبر على الخلق ، واحتقارهم ، وازدرائهم . وأى عيب أشد من هذا ؟ ! !

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله ، وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده ، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء ، فلم ييأسوا ، وعند السراء ، فلم يبطروا ، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات .

[ أولئك لهم مغفرة ] لذنوبهم ، يزول بها عنهم كل محذور .

[ وأجر كبير ] وهو : الفوز بجنات النعيم ، التى فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

---

* يقول تعالى — مسلياً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، عن تكذيب المكذبين: [فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ] .

أى: لا ينبغى هذا لمثلك ، أن قولهم يؤثر فيك ، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك ، ويضيق صدرك ، لتعنتهم بقولهم : [ لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك ] .

فإن هذا القول ، ناشىء من تعنت ، وظلم ، وعناد ، وضلال ، وجهل بمواقع الحجج والأدلة .

فامض على أمرك ، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة ، التى لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك .

فهل أوردوا عليك حجة ،لا تستطيع حلها ؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً ، يؤثر فيه ، وينقص قدره ، فيضيق صدرك لذلك ؟ ! .

أم عليك حسابهم ، ومطالب بهدايتهم جبرا ؟ .

و [ إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ] فهو الوكيل عليهم ، يحفظ أعمالهم ، ويجازيهم بها أتم الجزاء .

* [ أم يقولون افتراه ] أى : افترى محمد هذا القرآن ؟ .

ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ

---

فأجابهم بقوله : [ قل ] لهم [ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ] .

أى: إن كان قد افتراه ، فإنه لا فرق بينكم وبينه فى الفصاحة والبلاغة ، وأنتم الأعداء حقاً ، الحريصون بغاية ما يمكنكم ، على إبطال دعوته .

فإن كنتم صادقين ، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات .

[ فإن لم يستجيبوا لكم ] على شىء من ذلكم [فاعلموا أنما أنزل بعلم الله] من عند الله ، لقيام الدليل والمقتضى ، وانتفاء المعارض .

[ وأن لا إله إلا هو ] أى : واعلموا [ أنه لا إله إلا هو ] أى : هو المستحق للألوهية والعبادة .

[ فهل أنتم مسلمون ] أى : منقادون لألوهيته ، مستسلمون لعبوديته .

وفى هذه الآيات ، إرشاد إلى أنه لا ينبغى للداعى إلى الله ، أن يصده اعتراض المعترضين ، ولا قدح القادحين .

خصوصاً ، إذا كان القدح لا مستند له ، ولا يقدح فيما دعا إليه ، وأنه لا يضيق صدره ، بل يطمئن بذلك ، ماضيا على أمره ، مقبلا على شأنه .

وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين ، للأدلة التى يختارونها .

بل يكفى إقامة الدليل ، السالم عن المعارض ،على جميع المسائل والمطالب .

فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

---

وفيها أن هذا القرآن ، معجز بنفسه ، لا يقدر أحد من البشر ، أن يأتى بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، بل ولا سورة من مثله .

لأن الأعداء البلغاء الفصحاء ، تحداهم الله بذلك ، فلم يعارضوه ، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك .

وفيها : أن مما يطلب فيه العلم ، ولا يكفى غلبة الظن ، علم القرآن ، وعلم التوحيد .

لقوله تعالى : [ فاعلمو أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ] .

* يقول تعالى [ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ] .

أى: كل إرادته ، مقصورة على الحياة الدنيا ، وعلى زينتها ، من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة ، من الذهب ، والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث .

قد صرف رغبته ، وسعيه ، وعمله ، فى هذه الأشياء ، ولم يجعل لدار القرار من إرادته ، شيئاً .

فهذا لا يكون إلا كافراً ، لأنه لو كان مؤمنا ، لكان ما معه من الإيمان ، ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا .

بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال ، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة .

أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ

---

ولكن هذا الشقى ، الذى كأنه خلق للدنيا وحدها [ نوف إليهم أعمالهم فيها ] أى : نعطيهم ما قسم لهم ، فى أم الكتاب من ثواب الدنيا .

[ وهم فيها لا يبخسون ] أى : لا ينقصون شيئا ، مما قدر لهم ، ولكن هذا منتهى نعيمهم .

* [ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ] خالدين فيها أبداً ، لا يُفَتَّر عنهم العذاب ، وقد حرموا جزيل الثواب .

[ وحبط ما صنعوا فيها ] أى : فى الدنيا ، أى ، بطل واضمحل ماعملوه مما يكيدون به الحق وأهله ، وما عملوه من أعمال الخير ، التى لا أساس لها ، ولا وجود لشرطها ، وهو الإيمان .

* يذكر تعالى ، حال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قام مقامه ، من ورثته القائمين بدينه ، وحججه الموقنين بذلك ، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم فقال :

[ أفمن كان على بينة من ربه ] بالوحى الذى أنزل الله فيه المسائل المهمة ، ودلائلها الظاهرة ، فتيقن تلك البينة .

[ ويتلوه ] أى : يتلو هذه البينة والبرهان ، برهان آخر [ شاهد منه ]

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

---

وهو شاهد الفطرة المستقيمة ، والعقل الصحيح حين شهد حقيقة، ما أوحاه الله وشرعه ، وعلم بعقله حسنه ، فازداد بذلك ، إيمانا إلى إيمانه .

[ و ] ثمَّ شاهد ثالث [ من قبله ] وهو [ كتاب موسى ] التوراة ، التي جعلها الله [ إماما ] للناس [ ورحمة ] لهم ، يشهد لهذا القرآن بالصدق ، ويوافقه فيما جاء به من الحق .

أى : أفمن كان بهذا الوصف ، قد تواردت عليه شواهد الإيمان ، وقامت لديه ، أدلة اليقين ، كمن هو فى الظلمات والجهالات ، ليس بخارج منها ؟! .

لا يستوون عندالله ، ولا عند عبادالله .

[ أولئك ] أى : الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم .

[ يؤمنون به ] أى : بالقرآن حقيقة ، فيثمر لهم إيمانهم ، كل خير فى الدنيا والآخرة .

[ ومن يكفر به من الأحزاب ] أى : سائر طوائف أهل الأرض ، لمتحزبة على رد الحق .

[ فالنار موعده ] لا بد ، من وروده إليها [ فلا تك فى مرية ] .

أى : فى أدنى شك [ منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

إما جهلا منهم ، وضلالا . وإما ظلماً وعناداً ، وبغياً .

وإلا ، فمن كان قصده حسناً ، وفهمه مستقيما ، فلا بد أن يؤمن به ، لأنه يرى ، ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه .

* يخبر تعالى ، أنه لا أحد [ أظلم ممن افترى على الله كذبا ] ويدخل فى هذا ، كل من كذب على الله ، بنسبة شريك له ، أو وصفه بما لا يليق بجلاله ، أو الإخبار عنه ، بما لم يقل ، أو ادعاء النبوة ، أو غير ذلك ، من الكذب على الله .

فهؤلاء أعظم الناس ظلما [ أولئك يعرضون على ربهم ] ليجازيهم بظلمهم .

فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد [ يقول الأشهاد ] أى: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم :

[ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ] .

أى : لعنة لا تنقطع ، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما ، لا يقبل التخفيف .

ثم وصف ظلمهم فقال [ الذين يصدون عن سبيل الله ] فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله ، وهى سبيل الرسل ، التى دعوا الناس إليها ، وصدوا غيرهم عنها ، فصاروا أئمة يدعون إلى النار .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ

---

[ ويبغونها ] أى : سبيل الله [ عوجا ] أى : يجتهدون فى ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس، غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله [ وهم بالآخرة هم كافرون ].

[ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ] أى : ليسوا فائتين الله، لأنهم تحت قبضته، وفى سلطانه.

[ وما كان لهم من دون الله من أولياء ] فيدفعوا عنهم المكروه، أو يحصلوا لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

[ يضاعف لهم العذاب ] أى : يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا بأنفسهم، وأضلوا غيرهم.

[ ما كانوا يستطيعون السمع ] أى : من بغضهم للحق، ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون، أن يسمعوا آيات الله، سماعا ينتفعون به « فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة ».

[ وما كانوا يبصرون ] أى : ينظرون نظر عبرة وتفكر، فيما ينفعهم. وإنما هم كالصم البكم، الذين لا يعقلون.

يُبْصِرونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

---

* [ أولئك الذين خسروا أنفسهم ] حيث فوتوها ، أعظم الثواب ، واستحقوا أشد العذاب .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] أى : اضمحل دينهم ، الذى يدعون إليه ويحسنونه ، ولم تغن عنهم آلهتهم ، التى يعبدون من دون الله ، لما جاء أمر ربك .

[ لا جرم ] أى : حقا وصدقا [ أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ] .

حصر الخسار فيهم ، بل جعل لهم منه أشده ، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب . فنستجير بالله من حالهم .

ولما ذكر حال الأشقياء ، ذكر أوصاف السعداء ، وما لهم عند الله من الثواب .

فقال : ( إن الذين آمنوا ) إلى قوله ( أفلا تذكرون ) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ إن الذين آمنوا ] بقلوبهم ، أى : صدقوا واعترفوا ، لما أمر الله بالإيمان به ، من أصول الدين وقواعده .

[ وعملوا الصالحات ] المشتملة على أعمال القلوب والجوارح ، وأقوال اللسان .

[ وأخبتوا إلى ربهم ] أى : خضعوا له ، واستكانوا لعظمته ، وذلوا لسلطانه ، وأنابوا إليه بمحبته ، وخوفه ، ورجائه ، والتضرع إليه .

[ أولئك ] الذين جمعوا تلك الصفات [ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ] .

لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا ، إلا أدركوه ، ولا خيراً ، إلا سبقوا إليه .

[ مثل الفريقين ] أى : فريق الأشقياء ، وفريق السعداء .

[ كالأعمى والأصم ] هؤلاء الأشقياء .

[ والبصير والسميع ] مثل السعداء .

[ هل يستويان مثلا ] لا يستوون مثلا ، بل بينهما من الفرق ، ما لا يأتى عليه الوصف .

[ أفلا تذكرون ] الأعمال ، التى تنفعكم ، فتفعلونها ، والأعمال التى تضركم ، فتتركونها .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ

---

أى : [ ولقد أرسلنا نوحاً ] أول المرسلين [ إلى قومه ] يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال : [ إنى لكم نذير مبين ] أى : بينت لكم ما أنذرتكم به ، بيانا زال به الإشكال .

[ أن لا تعبدوا إلا الله ] أى : أخلصوا العبادة لله وحده ، واتركوا كل ما يعبد من دون الله .

[ إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ] إن لم تقوموا بتوحيد الله ، وتطيعونى .

[فقال الملأ الذين كفروا من قومه] أى: الأشراف والرؤساء ، رادين لدعوة نوح عليه السلام ، كما جرت العادة لأمثالهم ، أنهم أول من رد دعوة المرسلين :

[ ما نراك إلا بشراً مثلنا ] وهذا مانع — بزعمهم — عن اتباعه ، مع أنه — فى نفس الأمر — هو الصواب ، الذى لا ينبغى غيره ، لأن البشر ، يتمكن البشر ، أن يتلقوا عنه ، ويراجعوه فى كل أمر ، بخلاف الملائكة .

[ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ] أى : ما نرى اتبعك منا ، إلا الأراذل والسفلة ، بزعمهم .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً

---

وهم — فى الحقيقة — الأشراف ، وأهل العقول ، الذين انقادوا للحق ، ولم يكونوا كالأراذل ، الذين يقال لهم الملأ ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد ، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر ، يتقربون إليها ويسجدون .

فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس ؟ .

وقولهم : [ بادى الرأى ] أى . إنما اتبعوك من غير تفكر وروية ، بل بمجرد ما دعوتهم ، اتبعوك .

يعنون بذلك ، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، ولم يعلموا أن الحق المبين ، تدعو إليه بداهة العقول ، وبمجرد ما يصل إلى أولى الألباب ، يعرفونه ويتحققونه .

لا كالأمور الخفية ، التى تحتاج إلى تأمل ، وفكر طويل .

[ وما نرى لكم علينا من فضل ] أى : لستم أفضل منا فننقاد لكم .

[ بل نظنكم كاذبين ] وكذبوا فى قولهم هذا ، فإنهم رأوا من الآيات ، التى جعلها الله مؤيدة لنوح ، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه .

ولهذا [ قال ] لهم نوح مجاوبا [ يا قوم إن كنت على بينة من ربى ] أى : على يقين وجزم ، يعنى ، وهو الرسول الكامل القدوة ، الذى ينقاد له أولو الألباب ، وتضمحل فى جنب عقله ، عقول الفحول من الرجال ، وهو الصادق حقاً .

فإذا قال : إنى على بينة من ربى ، فحسبك بهذا القول ، شهادة له وتصديقا .

مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا

---

[وآتانى رحمة من عنده] أى: أوحى إلى وأرسلنى، ومنّ على بالهداية.

[فعميت عليكم] أى: خفيت عليكم، وبها تثاقلتم.

[أنلزمكموها] أى: أنكرهكم على ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه؟

[وأنتم لها كارهون] حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا، صادًا لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته، أن يكون صادًا لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، تزعمون أنه باطل.

فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم، على ما أمر الله، ولا إلزامكم، ما نفرتم عنه، ولهذا قال:

[أنلزمكموها وأنتم لها كارهون].

[وياقوم لا أسألكم عليه] أى: على دعوتى إياكم [مالا] فتستثقلون المغرم.

[إن أجرى إلا على الله] وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء. فقال لهم [وما أنا بطارد الذين آمنوا] أى: ما ينبغى لى، ولا يليق

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ
ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ

---

ذلك ، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام ، والإعزاز والإعظام [ إنهم ملاقون ربهم ] فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم .

[ ولكنى أراكم قوما تجهلون ] حيث تأمروننى ، بطرد أولياء الله ، وإبعادهم عنى .

وحيث رددتم الحق ، لأنهم أتباعه ، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم « إنى على بشر مثلكم » وإنه ليس لنا عليكم من فضل .

[ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ] أى : من يمنعنى من عذابه ، فإن طردهم ، موجب للعذاب والنكال ، الذى لا يمنعه من دون الله مانع .

[ أفلا تذكرون ] ما هو الأنفع لكم والأصلح ، وتدبرون الأمور .

[ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ] أى : غايتى أنى رسول الله إليكم ، أبشركم ، وأنذركم ، وما عدا ذلك ، فليس بيدى من الأمر شىء .

فليست خزائن الله عندى ، أدبرها أنا ، وأعطى من أشاء ، وأحرم من أشاء .

[ ولا أعلم الغيب ] فأخبركم بسرائركم وبواطنكم [ ولا أقول إنى ملك ] .

والمعنى : أنى لا أدعى رتبة فوق رتبتى ، ولا منزلة سوى المنزلة ، التي أنزلنى الله بها ، ولا أحكم على الناس ، بظنى .

لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ

---

[ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ] أى : الضعفاء المؤمنين ، الذى يحتقرهم الملأ الذين كفروا [ لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم ] .

فإن كانوا صادقين فى إيمانهم ، فلهم الخير الكثير ، وإن كانوا غير ذلك ، فحسابهم على الله .

[ إنى إذاً ] أى : إن قلت لكم شيئا مما تقدم [ لمن الظالمين ] .

وهذا تأييس منه ، عليه الصلاة والسلام لقومه ، أن ينبذ فقراء المؤمنين ، أو يمقتهم ، وإقناع لقومه ، بالطرق المقنعة للمنصف .

فلما رأوه ، لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ، ولم يدركوا منه مطلوبهم [ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ] .

فما أجهلهم وأضلهم ، حيث قالوا هذه المقالة ، لنبيهم الناصح .

فهلا قالوا : إن كانوا صادقين : يانوح قد نصحتنا ، وأشفقت علينا ، ودعوتنا إلى أمر ، لم يتبين لنا ، فنريد منك أن تبينه لنا . لننقاد لك ، وإلا فأنت مشكور فى نصحك .

لكان هذا الجواب المنصف ، للذى قد دعا إلى أمر خفى عليه .

ولكنهم فى قولهم ، كاذبون ، وعلى نبيهم متجرئون .

ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة ، فضلا عن أن يردوه بحجة .

إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى

---

ولهذا عدلوا — من جهلهم وظلمهم — إلى الاستعجال بالعذاب ، وتعجيز الله .

ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله [ إنما يأتيكم به الله إن شاء ] أى : إن اقتضت مشيئته وحكمته ، أن ينزله بكم ، فعل ذلك .

[ وما أنتم بمعجزين ] لله ، وأنا ليس بيدى من الأمر شىء .

[ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ] .

أى : إن إرادة الله غالبة ، فإنه إذا أراد أن يغويكم ، لردكم الحق .

فلو حرصت غاية مجهودى ، ونصحت لكم أتم النصح — وهو قدفعل عليه السلام — فليس ذلك بنافع لكم شيئاً .

[ وهو ربكم ] يفعل بكم ما يشاء ، ويحكم فيكم ، بما يريد [ وإليه ترجعون ] فيجازيكم بأعمالكم .

[ أم يقولون افتراه ] هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح ، كما كان السياق فى قصته مع قومه ، وأن المعنى : أن قومه يقولون : افترى على الله كذبا ، وكذب بالوحى الذى يزعم أنه من الله ، وأن الله أمره أن يقول [ قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ] أى : كلٌّ عليه وزره « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

---

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكون هذه الآية معترضة ، فى أثناء قصة نوح وقومه ، لأنها من الأمور التى لا يعلمها إلا الأنبياء .

فلما شرع الله فى قصها على رسوله ، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته ، ذكر تكذيب قومه مع البيان التام فقال :

[ أم يقولون افتراه ] أى . هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه .

أى : فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها ، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب ،فجاءبهذا الكتاب، الذى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله .

فإذا زعموا — مع هذا — أنه افتراه ، علم أنهم معاندون ، ولم يبق فائدة فى حجاجهم .

بل اللائق فى هذه الحال ، الإعراض عنهم ، ولهذا قال :

[ قل إن افتريته فعلى إجرامى ] أى ذنبى وكذبى .

[ وأنا برىء مما تجرمون ] أى : فلم تستلجون فى تكذيبى .

وقوله : [ وأوحى إلى نوح ، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدآمن ] أى : قد قسوا .

[ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ] أى : فلا تحزن ، ولا تبال بهم ، وبأفعالهم .

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ

---

فإن الله ، قد مقتهم ، وأحق عليهم عذابه الذى لا يرد .

[ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ] أى : بحفظنا ، ومرأى منا ، وعلى مرضاتنا .

[ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ] أى : لا تراجعنى فى إهلاكهم .

[ إنهم مغرقون ] أى : قد حق القول ، ونفذ فيهم القدر .

فامتثل أمر ربه ، وجعل يصنع الفلك [ وكلما مر عليه ملأ من قومه ] ورأوا ما يصنع [ سخروا منه ، قال إن تسخروا منا ] الآن [ فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ] نحن ، أم أنتم . وقد علموا ذلك ، حين حل بهم العقاب .

[ حتى إذا جاء أمرنا ] أى قدرنا بوقت نزول العذاب بهم [ وفار التنور ] أى : أنزل الله السماء بالماء المنهمر ، وفجر الأرض كلها عيونا حتى التنانير ، التى هى محل النار فى العادة ، وأبعد ما يكون عن الماء ، تفجرت فالتقى الماء على أمر ، قد قدر .

[ وقلنا ] لنوح : [ احمل فيها من كل زوجين اثنين ] أى : من كل صنف من أصناف المخلوقات ، ذكر وأنثى ، لتبقى مادة سائر الأجناس

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْـهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا
وَمُرْسَٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ
كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا

---

وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين ، فإن السفينة لا تطيق حملها [وأهلك إلا من سبق عليه القول] ممن كان كافراً ، كابنه الذى غرق .

[ ومن آمن ، و ] الحال أنه [ ما آمن معه إلا قليل ] .

[ وقال ] نوح لمن أمره الله أن يحملهم : [ اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ] أى . تجرى على اسم الله ، وترسى بتسخيره وأمره .

[ إن ربى لغفور رحيم ] حيث غفر لنا ، ورحمنا ، ونجانا من القوم الظالمين .

ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال :

[ وهى تجرى بهم ] أى : بنوح ، ومن ركب معه [ فى موج كالجبال ] والله حافظها وحافظ أهلها .

[ ونادى نوح ابنه ] لما ركب ، ليركب معه [ وكان ] ابنه [فى معزل] عنهم ، حين ركبوا ، أى : مبتعداً وأراد منه ، أن يقرب ليركب .

فقال له : [ يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ] فيصيبك ما يصيبهم .

[ وقال ] ابنه ، مكذبا لأبيه ، أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة .

وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى
مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا
ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ
وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ
وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ

---

[ سآوى إلى جبل يعصمني من الماء ] أى : سأرتقى جبلا ، أمتنع به من الماء .

[ قال ] نوح : [ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ] فلا يعصم أحداً ، جبل ولا غيره ، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب ، لما نجا إن لم ينجه الله .

[ وحال بينهما الموج فكان ] الابن [ من المغرقين ] .

[ و ] لما أغرقهم الله ، ونجى نوحا ومن معه [ قيل يا أرض ابلعى ماءك ] الذى خرج منك ، والذى نزل إليك ، ابلعى الماء ، الذى على وجهك [ ويا سماء أقلعى ] فامتثلتا لأمر الله ، فابتلعت الأرض ماءها ، وأقلعت السماء .

[ وغيض الماء ] أى : نضب من الأرض .

[ وقضى الأمر ] بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

[ واستوت ] السفينة [ على الجودى ] أى : أرست على ذلك الجبل المعروف فى أرض الموصل .

[ وقيل بعداً للقوم الظالمين ] أى : أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعداً ، وسحقاً ، لا يزال معهم .

إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

---

[ونادى نوح ربه فقال رب : إن ابني من أهلى ، وإن وعدك الحق] . وقد قلت لى « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » ولن تخلف ما وعدتنى به .

لعله عليه الصلاة والسلام ، لما حملته الشفقة ، وأن الله وعده بنجاة أهله ، ظن أن الوعد لعمومهم ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء .

ومع هذا ، ففوض الأمر لحكمة الله البالغة ، حيث قال :[ وأنت أحكم الحاكمين ] .

[ قال ] الله له : [ إنه ليس من أهلك ] الذين وعدتك بإنجائهم [ إنه عمل غير صالح ] أى : هذا الدعاء الذى دعوت به ، لنجاة كافر ، لا يؤمن بالله ولا رسوله .

[ فلا تسألن ما ليس لك به علم ] أى : مالا تعلم عاقبته ، ومآله ، وهل يكون خيراً ، أو غير خير .

[ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ] أى : أنى أعظك وعظاً ، تكون به من الكاملين ، وتنجو به من صفات الجاهلين .

فحينئذ ندم نوح ، عليه السلام ، ندامة شديدة ، على ما صدر منه ،

قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى
وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا
وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم

---

و[ قال ربى إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ].

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين .

ودل هذا ، على أن نوحاً ، عليه السلام ، لم يكن عنده علم ، بأن سؤاله لربه ، فى نجاة ابنه ، محرم .

داخل فى قوله [ ولا تخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون ] بل ، تعارض عنده الأمران ، وظن دخوله فى قوله : [ وأهلك ] .

وبعد هذا ، تبين له أنه داخل فى المنهى عن الدعاء لهم ، والمراجعة فيهم.

[ قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ] من الآدميين وغيرهم من الأزواج التى حملها معه .

فبارك الله فى الجميع ، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها .

[ وأمم سنمتعهم ] في الدنيا [ ثم يمسهم منا عذاب أليم ] أى : هذا الإنجاء ، ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك ، أحللنا به العقاب ، وإن متعوا قليلا ، فسيؤخذون بعد ذلك .

قال الله لنبيه ، محمد صلى الله عليه وسلم . بعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة ، التى لا يعلمها إلا منّ عليه برسالته .

مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ

---

[ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ] فيقولوا : إنه كان يعلمها .

فاحمد الله ، واشكره ، واصبر على ما أنت عليه ، من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والدعوة إلى الله .

[ إن العاقبة للمتقين ] الذين يتقون الشرك وسائر المعاصى .

فستكون لك العاقبة على قومك ، كما كانت لنوح على قومه .

* أى [ و ] أرسلنا [ إلى عاد ] وهم القبيلة المعروفة فى الأحقاف ، من أرض اليمن .

[ أخاهم ] فى النسب [ هوداً ] ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه .

[ قال ] لهم [ ياقوم اعبدوا الله ، مالكم . من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون ] أى : أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهاهم عما هم عليه ، من عبادة غير الله ، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب فى عبادتهم لغيره ، وتجويزهم لذلك ، وأوضح لهم وجوب عبادة الله ، وفساد عبادة ما سواه .

عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم
مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

---

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال [ ياقوم لا أسألكم عليه أجراً ] .

أى: غرامة من أموالكم ، على ما دعوتكم إليه ، فتقولوا : هذا يريد أن يأخذ أموالنا ، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانا .

[ إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ] ما أدعوكم إليه ، وأنه موجب لقبوله ، منتفى المانع عن رده .

[ وياقوم استغفروا ربكم ] عما مضى منكم [ ثم توبوا إليه ] فيما تستقبلونه ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إلى الله تعالى .

فإنكم إذا فعلتم ذلك [ يرسل السماء عليكم مدراراً ] بكثرة الأمطار ، التى تخصب بها الأرض ، ويكثر خيرها .

[ ويزدكم قوة إلى قوتكم ] فإنهم كانوا من أقوى الناس ، ولهذا قالوا : « من أشد منا قوة » ؟ .

فوعدهم أنهم إن آمنوا ، زادهم قوة إلى قوتهم .

[ ولا تتولوا ] عنه ، أى : عن ربكم [ مجرمين ] أى : مستكبرين عن عبادته ، متجرئين على محارمه .

قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا

---

[ قالوا ] رادين لقوله : [ يا هود ما جئتنا ببينة ] إن كان قصدهم بالبينة البينة التى يقترحونها ، فهذه غير لازمة للحق ، بل اللازم أن يأتى النبى بآية ، تدل على صحة ماجاء به .

وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة ، تشهد لما قاله بالصحة ، فقد كذبوا فى ذلك .

فإنه ما جاء نبى لقومه ، إلا وبعث الله على يديه ، من الآيات ، مايؤمن على مثله البشر .

ولو لم تكن له آية ، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله، وحده لاشريك له ، والأمر بكل عمل صالح ، وخلق جميل ، والنهى عن كل خلق ذميم ، من الشرك بالله ، والفواحش ، والظلم ، وأنواع المنكرات ، مع ما هو مشتمل عليه هود ، عليه السلام ، من الصفات ، التى لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم ، لكفى بها آيات وأدلة ، على صدقه .

بل أهل العقول ، وأولو الألباب ، يرون أن هذه الآية ، أكبر من مجرد الخوارق ، التى يراها بعض الناس ، هى المعجزات فقط .

ومن آياته ، وبيناته الدالة على صدقه ، أنه شخص واحد ، ليس له أنصار ولا أعوان .

وهو يصرخ فى قومه ، ويناديهم ، ويعجزهم ، ويقول لهم : « إنى توكلت على الله ربى وربكم » .

بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ

---

[ إنى أشهد الله واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ] .

وهم الأعداء ، الذين لهم السطوة والغلبة ، ويريدون إطفاء ما معه من النور ، بأى طريق كان ، وهو غير مكترث ، ولا مبال بهم ، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشىء من السوء ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقولهم [ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ] أى : لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك ، الذى ما أقمت عليه بينة بزعمهم .

[ وما نحن لك بمؤمنين ] وهذا تأييس منهم لنبيهم ، هود عليه السلام ، فى إيمانهم ، وأنهم لا يزالون فى كفرهم يعمهون .

[ إن نقول ] فيك [ إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ] أى : أصابتك بخبال وجنون ، فصرت تهذى بما لا يعقل .

فسبحان من طبع على قلوب الظالمين ، كيف جعلوا أصدق الخلق ، الذى جاء بأحق الحق ، بهذه المرتبة ، التى يستحى العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم .

ولهذا بين هود ، عليه الصلاة والسلام ، أنه واثق غاية الوثوق ، أنه لا يصيبه منهم ، ولا من آلهتهم أذى ، فقال :

[ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ] .

عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى

---

أى : اطلبوا إلىّ الضرر كلكم ، بكل طريق تتمكنون بها منى [ ثم لاتنظرون ] أى : لا تمهلون .

[ إنى توكلت على الله ] أى : اعتمدت فى أمرى كله على الله [ ربى وربكم ] أى : هو خالق الجميع ، ومدبرنا وإياكم ، وهو الذى ربانا .

[ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ] فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه .

فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بى ، والله لم يسلطكم علىّ ، لم تقدروا على ذلك ، فإن سلطكم ، فالحكمة أرادها .

[ إن ربى على صراط مستقيم ] أى : على عدل ، وقسط ، وحكمة ، وحمد فى قضائه وقدره ، وشرعه وأمره ، وفى جزائه وثوابه ، وعقابه .

لاتخرج أفعاله عن الصراط المستقيم ، التى يحمد ، ويثنى عليه بها .

[ فإن تولوا ] عما دعوتكم إليه [ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ] فلم يبق علىّ تبعة من شأنكم .

[ ويستخلف ربى قوماً غيركم ] يقومون بعبادته ، ولا يشركون به شيئاً .

[ ولاتضرونه شيئاً ] فإن ضرركم ، إنما يعود إليكم ، فالله لاتضره

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ

---

معصية العاصين . ولا تنفعه طاعة الطائعين « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » .

[ إن ربى على كل شىء حفيظ ] .

* [ ولما جاء أمرنا ] أى : عذابنا بإرسال الريح العقيم ، التى « ما تذر من شىء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم » .

[ نجينا هودا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ] أى : عظيم شديد ، أحله الله بـ « عاد » ، فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم .

* [ وتلك عاد ] الذين أوقع الله بهم ما أوقع ، بظلم منهم لأنهم [ جحدوا بآيات ربهم ] ولهذا قالوا : « ماجئتنا ببينة » .

فتبين بهذا ، أنهم متيقنون لدعوته ، وإنما عاندوا وجحدوا [ وعصوا رسله ] .

لأن من عصى رسولا ، فقد عصى جميع المرسلين ، لأن دعوتهم واحدة .

[ واتبعوا أمر كل جبار ] أى : متسلط على عباد الله بالجبروت .

عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا
كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

---

[ عنيد ] أى : معاند لآيات الله .

فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم ، واتبعوا كل غاش لهم ، يريد إهلاكهم لاجرم أهلكهم الله .

[ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ] فما من وقت وجيل ، إلا ولأنبائهم القبيحة ، وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم [ ويوم القيامة ] لهم أيضاً لعنة .

[ ألا إن عادا كفروا ربهم ] أى : جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم .

[ ألا بعدا لعاد قوم هود ] أى : أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ

---

* أى [ و ] أرسلنا [ إلى ثمود ] وهم : عاد الثانية ، المعروفون ، الذين يسكنون الحجر ، ووادى القرى .

[ أخاهم ] فى النسب [ صالحا ] عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده .

[ قال ياقوم اعبدوا الله ] أى : وحدوه ، وأخلصوا له الدين [ ما لكم من إله غيره ] لا من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض .

[ هو أنشأكم من الأرض ] أى : خلقكم منها [ واستعمركم فيها ] أى : استخلفكم فيها ، وأنعم عليكم بالنعم ، الظاهرة والباطنة ، ومكنكم فى الأرض ، تبنون ، وتغرسون ، وتزرعون ، وتحرثون ماشئتم ، وتنتفعون بمنافعها ، وتستغلون مصالحها .

فكما أنه لاشريك له فى جميع ذلك ، فلا تشركوا به فى عبادته .

[ فاستغفروه ] مما صدر منكم ، من الكفر ، والشرك ، والمعاصي ، وأقلعوا عنها .

[ ثم توبوا إليه ] أى : ارجعوا إليه بالتوبة النصوح ، والإنابة .

[ إن ربى قريب مجيب ] أى : قريب ممن دعاه دعاء مسألة ، أو دعاء عبادة .

يجيبه بإعطائه سؤاله ، وقبول عبادته ، وإثابته عليها ، أجل الثواب .

واعلم أن قربه تعالى نوعان : عام ، وخاص .

فالقرب العام ، قربه بعلمه ، من جميع الخلق ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

والقرب الخاص ، قربه من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه ، وهو المذكور فى قوله تعالى « فاسجد واقترب » .

وفى هذه الآية ، وفى قوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى » .

وهذا النوع ، قرب يقتضى إلطافه تعالى ، وإجابته لدعواتهم ، وتحقيقه لمرادتهم ، ولهذا يقرن ، باسمه « القريب » اسمه « المجيب » .

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ، ورغبهم فى الإخلاص لله وحده ، ردوا عليه دعوته ، وقابلوه أشنع المقابلة .

[ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ] أى : قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع .

وهذا شهادة منهم ، لنبيهم صالح ، أنه مازال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من خيار قومه .

ولكنه ، لما جاءهم بهذا الأمر ، الذى لايوافق أهواءهم الفاسدة ، قالوا هذه المقالة ، التى مضمونها ، أنك قد كنت كاملا ، والآن أخلفت ظننا فيك ، وصرت بحالة لايرجى منك خير .

وذنبه ، ما قالوه عنه : [ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ] وبزعمهم أن

وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

---

هذا ، من أعظم القدح فى صالح ، كيف قدح فى عقولهم ، وعقول آبائهم الضالين ، وكيف ينهاهم عن عبادة ، من لاينفع ولا يضر ، ولا يغنى شيئا من الأحجار ، والأشجار ونحوها .

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم ، الذى لم تزل نعمه عليهم تترى ، وإحسانه عليهم دائماً ينزل ، الذى ، ما بهم من نعمة ، إلا منه ، ولايدفع عنهم السيئات إلا هو .

[ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ] أى : ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه ، شكا مؤثراً فى قلوبنا الريب .

وبزعمهم أنهم لو علموا ، صحة ما دعاهم إليه ، لاتبعوه ، وهم كذبة فى ذلك ، ولهذا بين كذبهم فى قوله :

[ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ] أى : برهان ويقين منى [ وآتانى منه رحمة ] أى : منَّ علىَّ برسالته ووحيه .

أى : أفأتابعكم على ما أنتم عليه ، وما تدعوننى إليه ؟ .

[ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ] أى : غير خسار وتباب ، وضرر .

[ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية ] لها شرب من البئر يوماً ، ثم يشربون كلهم من ضرعها ، ولهم شرب يوم معلوم .

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ
فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ

---

[ فذروها تأكل فى أرض الله ] أى : ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شىء .

[ ولا تمسوها بسوء ] أى : بعقر [ فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال ] لهم صالح : [ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ] بل لابد من وقوعه .

[ فلما جاء أمرنا ] بوقوع العذاب [ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ] أى : نجيناهم من العذاب والخزى والفضيحة .

[ إن ربك هو القوى العزيز ] ومن قوته وعزته ، أن أهلك الأمم الطاغية ، ونجّى الرسل وأتباعهم .

[ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ] فقطعت قلوبهم .

[ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ] أى : خامدين لاحراك لهم .

[ كأن لم يغنوا فيها ] أى : كأنهم — لما جاءهم العذاب — ما تمتعوا

رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ

---

فى ديارهم ، ولا أنسوا فيها ، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر

قد فارقهم النعيم ، وتناولهم العذاب السرمدى ، الذى ينقطع ، والذى كأنه لم يزل .

[ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ] أى : جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة .

[ ألا بعدا لثمود ] فما أشقاهم وأذلهم ، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها .

* أى : [ولقد جاءت رسلنا] من الملائكة الكرام ، رسولنا [ إبراهيم ] الخليل [ بالبشرى ] أى : بالبشارة بالولد ، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم ، فيبشروه بإسحق .

فلما دخلوا عليه [ قالوا سلاما ، قال سلام ] أى : سلموا عليه ، ورد عليهم السلام .

فى هذا مشروعية السلام ، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام وأن السلام قبل الكلام ، وأنه ينبغى أن يكون الرد ، أبلغ من الابتداء ، لأن سلامهم بالجملة الفعلية ، الدالة على التجدد ، ورده بالجملة الاسمية ، الدالة على الثبوت والاستمرار ، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم فى علم العربية .

[ فما لبث ] إبراهيم لما دخلوا عليه [ أن جاء بعجل حنيذ ] أى : بادر

لَا تَصِلُ إِلَيْـهِ نَـكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَاتَخَفْ إِنَّـآ

---

لبيته ، فاستحضر لأضيافه عجلا مستويا[1] على الرضف سمينا ، فقربه إليهم فقال : ألا تأكلون ؟ .

[ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ] أى : إلى تلك الضيافة[2] [ نـكرهم وأوجس منهم خيفة ] وظن أنهم أتوه بشر ومكروه ، وذلك قبل أن يعرف أمرهم .

[ قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ] أى : إنا رسل الله ، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

---

(١) مستويا أى : مشويا على الحجارة المحماة بالنار كالفرن فى عصرنا.

(٢) قوله ( إلى تلك الضيافة ) الأوضح أن يقال ( إلى العجل الحنيذ ) لأن الضمير لايرجع إلا إلى مذكور . وكلمة ( الضيافة ) غير مذكورة : ولايصح أيضاً حمل ( الضيافة ) على الطعام الذى يقدم للضيف لمخالفته لنصوص اللغة .

قال فى القاموس وضفته أضيفه ضيفا وضيافة نزلت عليه ضيفا . اهـ وفى « المختار من الصحاح » أضاف الرجل وضيفه تضييفاً أنزله به ضيفا وضافه ضيافة ، إذا نزل عليه ضيفا وكذا تضيفه . اهـ .

ومما ذكرنا يعلم أن ( الضيافة ) مصدر لفعل ( ضيافة ) .

فلا يصح إطلاق المصدر على طعام الضيف بوجه من الوجوه ، لا حقيقة ولامجازاً .

أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا
بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠
عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ

---

[ وامرأته ] أى : وامرأة إبراهيم [ قائمة ] تخدم أضيافه [ فضحكت ] حين سمعت بحالهم ، وما أرسلوا به ، تعجباً .

[ فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ] فتعجبت من ذلك و [ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ] فهذان ما نعان من وجود الولد [ إن هذا لشىء عجيب ] .

[ قالوا أتعجبين من أمر الله ] فإن أمره لاعجب فيه ، لنفوذ مشيئته التامة فى كل شىء ، فلا يستغرب على قدرته شيء ، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه ، لأهل هذا البيت المبارك .

[ رحمة الله وبركاته ] أى : لاتزال رحمته ، وإحسانه ، وبركاته ، وهى : الزيادة من خيره وإحسانه ، وحلول الخير الإلهى [عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ] .

أى : حميد الصفات ، لأن صفاته ، صفات كمال .

حميد الأفعال ، لأن أفعاله ، إحسان ، وجود ، وبر ، وحكمة ، وعدل ، وقسط .

مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ
يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ

---

مجيد ، والمجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ؛ وله من كل صفة كمال ، أكملها ، وأتمها ، وأعمها .

[ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ] الذى أصابه من خيفة أضيافه [ وجاءته البشرى ] بالولد ، التفت حينئذ ، إلى مجادلة الرسل فى إهلاك قوم لوط .

وقال لهم : « إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ، إلا امرأته » .

[ إن إبراهيم لحليم ] أى : ذو خلق وسعة صدر ، وعدم غضب ، عند جهل الجاهلين .

[ أواه ] أى : متضرع إلى الله فى جميع الأوقات .

[ منيب ] أى : رجّاع إلى الله ، بمعرفته ومحبته ، والإقبال عليه ، والإعراض عمن سواه ، فلذلك كان يجادل عن من حتّم الله بهلاكهم .

فقيل له: [ يا إبراهيم أعرض عن هذا ] الجدال [ إنه قد جاء أمر ربك ] بهلاكهم [ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ] فلا فائدة فى جدالك .

[ولما جاءت رسلنا] أى : الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا .

بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ
وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ

---

[ لوطا سیء بهم ] أی : شق علیه مجیئهم .

[ وضاق بهم ذرعاً وقال هذا یوم عصیب ] أی : شدید حرج .

لأنه علم أن قومه لا یترکونهم ، لأنهم فی صور شباب ، جرد ، مرد ، فی غایة الکمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر بباله .

[ وجاءه قومه یهرعون إلیه ] أی : یسرعون ویبادرون ، یریدون أضیافه بالفاحشة ، التی ما سبقهم إلیها أحد من العالمین .

[ قال : یاقوم هؤلاء بناتی هن أطهر لکم ] من أضیافی ، وهذا کما عرض سلیمان صلی الله علیه وسلم ، علی المرأتین أن یشق الولد المختصم فیه ، لاستخراج الحق .

ولعله أن بناته ممتنع منالهن ، ولا حق لهم فیهن .

والمقصود الأعظم ، دفع هذه الفاحشة الکبری .

[ فاتقوا الله ولاتخزون فی ضیفی ] أی : إما أن تراعوا تقوی الله ، وإما أن تراعونی فی ضیفی ، ولاتخزونی عندهم .

[ ألیس منکم رجل رشید ] فینهاکم ، ویزجرکم .

وهذا دلیل علی مروجهم وانحلالهم ، من الخیر والمروءة .

[ قالوا ] له : [ لقد علمت مالنا فی بناتك من حق ، وإنك لتعلم

مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا

---

ما نريد ] أى : لا نريد إلا الرجال ، ولا لنا رغبة فى النساء .

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ، و [ قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ] كقبيلة ما نعة ، لمنعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، وإلا ، فإنه يأوى إلى أقوى الأركان وهو الله ، الذى لا يقوم لقوته أحد ، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه ، واشتد الكرب .

[ قالوا ] له : [ يالوط إنا رسل ربك ] أى : أخبروه بحالهم ، ليطمئن قلبه .

[ لن يصلوا إليك ] بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا يتوعدون لوطا بمجىء الصبح .

وأمر الملائكة لوطا ، أن يسرى بأهله [ بقطع من الليل ] أى : بجانب منه قبل الفجر بكثير ، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم .

[ ولا يلتفت منكم أحد ] أى : بادروا بالخروج ، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

[ إلا امرأتك إنه مصيبها ] من العذاب [ ما أصابهم ] لأنها تشارك قومها فى الإثم ، فتدلهم على أضياف لوط ، إذا نزل به أضياف .

مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

---

[ إن موعدهم الصبح ] فكأن لوطا ، استعجل ذلك ، فقيل له : [ أليس الصبح بقريب ] .

[ فلما جاء أمرنا ] بنزول العذاب ، وإحلاله فيهم [ جعلنا ] ديارهم [ عاليها سافلها ] أى . قلبناها عليهم [ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ] أى : من حجارة النار الشديدة الحرارة [ منضود ] أى . متتابعة ، تتبع من شذ عن القرية .

[ مسومة عند ربك ] أى : معلمة ، عليها علامة العذاب والغضب .

[ وما هى من الظالمين ] الذين يشابهون لفعل قوم لوط [ ببعيد ] .

فليحذر العباد ، أن يفعلوا كفعلهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟

---

☆ أى ( و ) أرسلنا [ إلى مدين ] القبيلة المعروفة ، الذين يسكنون مدين ، فى أدنى فلسطين .

[ أخاهم ] فى النسب [ شعيبا ] لأنهم يعرفونه ، ويتمكنون من الأخذ عنه .

[ قال ] لهم : [ ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ] أى : أخلصوا له العبادة .

فإنهم كانوا يشركون .

وكانوا — مع شركهم — يبخسون المكيال والميزان ، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال :

[ ولا تنقصوا المكيال والميزان ] بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط .

[ إنى أراكم بخير ] أى بنعمة كثيرة ، وصحة ، وكثرة أموال وبنين ، فاشكروا الله على ما أعطاكم ، ولا تكفروا بنعمة الله ، فيزيلها عنكم .

[ وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ] أى : عذاباً يحيط بكم ، ولا يبقى منكم باقية .

[ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ] أى : بالعدل الذى ترضون أن تعطوه .

ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ

---

[ ولاتبخسوا الناس أشياءهم ] أي : لاتنقصوا من أشياء الناس ، فتسرقوها بأخذها ، بنقص المكيال والميزان .

[ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ] فإن الاستمرار على المعاصى ، يفسد الأديان ، والعقائد ، والدين ، والدنيا ، ويهلك الحرث ، والنسل .

[ بقية الله خير لكم ] أى : يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير ، وما هو لكم .

فلا تطمعوا فى أمر لكم عنه غنية ، وهو ضار لكم جداً .

[ إن كنتم مؤمنين ] فاعملوا بمقتضى الإيمان .

[ وما أنا عليكم بحفيظ ] أى : لست بحافظ لأعمالكم ، ووكيل عليها.

وإنما الذى يحفظها ، الله تعالى ، وأما أنا ، فأبلغكم ما أرسلت به .

[ قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ] أى : قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم ، والاستبعاد لإجابتهم له .

ومعنى كلامهم : أنه لا موجب لنهيك لنا ، إلا أنك تصلى لله ، وتتعبد له .

فإن كنت كذلك ، أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ، لقول ليس عليه دليل ، إلا أنه موافق لك ، فكيف نتبعك ، ونترك آباءنا الأقدمين، أولى العقول والألباب ؟ !

أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ

---

وكذلك لايوجب قولك لنا :«أن نفعل فى أموالنا» ماقلت لنا ، من وفاء الكيل، والميزان ، وأداء الحقوق الواجبة فيها ، بل لانزال نفعل فيها ما شئنا ، لأنها أموالنا ، فليس لك فيها تصرف .

ولهذا قالوا فى تهكمهم : [ إنك لأنت الحليم الرشيد ] أى : إنك أنت الذى ، الحلم والوقار ، لك خلق ، والرشد لك سجية ، فلا يصدر عنك إلا رشد ، ولا تأمر إلا برشد ، ولا تنهى إلا عن غى ، أى : ليس الأمر كذلك .

وقصدهم ، أنه موصوف بعكس هذين الوصفين : بالسفه والغواية .

أى : أن المعنى : كيف تكون أنت الحليم الرشيد ، وآباؤنا هم السفهاء الغاوين ؟ ! !

وهذا القول الذى أخرجوه بصيغة التهكم ، وأن الأمر بعكسه ، ليس كما ظنوه .

بل الأمر كما قالوه . إن صلاته تأمره أن ينهاهم ، عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأى فحشاء ومنكر، أكبر من عبادة غير الله ، ومن منع حقوق عباد الله ، أوسرقتها ، بالمكاييل ، والموازين ، وهو ،عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد .

مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

---

[ قال ] لهم شعيب : [ ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ] أي : يقين وطمأنينة ، فى صحة ما جئت به .

[ ورزقنى منه رزقاً حسناً ] أى . أعطانى الله من أصناف المال ، ما أعطانى .

[ و ] أنا [ ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ] فلست أريد أن أنهاكم عن البخس ، فى المكيال ، والميزان ، وأفعله أنا ، حتى تتطرق إلى التهمة فى ذلك .

بل ما أنهاكم عن أمر ، إلا وأنا ، أول مبتدر[1] لتركه .

[ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ] أى : ليس لى من المقاصد ، إلا أن تصلح أحوالكم ، وتستقيم منافعكم ، وليس لى من المقاصد الخاصة لى وحدى ، شىء بحسب استطاعتى .

ولما كان هذا ، فيه نوع تزكية للنفس ، دفع هذا بقوله : [وما توفيقى إلا بالله ] أى : ما يحصل لى من التوفيق لفعل الخير ، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى ، لابحولى ، ولا بقوتى .

[ عليه توكلت ] أى : اعتمدت فى أمورى ، ووثقت فى كفايته .

[ وإليه أنيب ] فى أداء ما أمرنى به ، من أنواع العبادات .

وفى هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات .

---

(١) مبتدر . أى : مسارع إليه .

شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا

---

وبهذين الأمرين، تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال تعالى « فاعبدوه وتوكل عليه » وقال : « إياك نعبد وإياك نستعين ».

[ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق ] أى : لاتحملنكم مخالفتى ومشاقتى [ أن يصيبكم ] من العقوبات [ مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أوقوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد ] لا فى الدار، ولا فى الزمان

[ واستغفروا ربكم ] عما اقترفتم من الذنوب [ ثم توبوا إليه ] فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته.

[ إن ربى رحيم ودود ] لمن تاب وأناب، يرحمه، فيغفر له، ويتقبل توبته، ويحبه.

ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فهو « فعول » بمعنى « فاعل » ومعنى « مفعول ».

[ قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ] أى : تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا :« ما نفقه كثيراً مما تقول » وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه.

مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾
وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

---

[ وإنا لنراك فينا ضعيفا ] أى : فى نفسك ، لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين .

[ ولولا رهطك ] أى : جماعتك وقبيلتك [ لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ] .

أى : ليس لك قدر فى صدورنا ، ولا احترام فى أنفسنا ، وإنما احترمنا قبيلتك ، بتركنا إياك .

[ قال ] لهم مترفقا لهم ، [ ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ] .

أى : كيف تراعوننى لأجل رهطى ، ولاتراعوننى لله ، فصار رهطى أعز عليكم من الله .

[ واتخذتموه وراءكم ظهريا ] أى : نبذتم أمر الله ، وراء ظهوركم ، ولم تبالوا به ، ولاخفتم منه .

[ إن ربى بما تعملون محيط ] لايخفى عليه من أعمالكم ، مثقال ذرة ، فى الأرض ، ولا فى السماء ، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

[ و ] لما أعيوه وعجز عنهم قال : [ ياقوم اعملوا على مكانتكم ] أى . على حالتكم ودينكم .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

---

[ إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ] ويحل عليه عذاب مقيم [ ومن هو كاذب ] أنا أم أنتم ، وقد علموا بذلك ذلك حين وقع عليهم العذاب .

[ وارتقبوا ] ما يحل بى [ إنى معكم رقيب ] مايحل بكم .

[ ولما جاء أمرنا ] بإهلاك قوم شعيب [ نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ] لا تسمع لهم صوتا ، ولا ترى منهم حركة [ كأن لم يغنوا فيها ] أى: كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .

[ ألا بعداً لمدين ] إذ أهلكها الله وأخزاها [ كما بعدت ثمود ] أى : قد اشتركت هاتان القبيلتان ، فى السحق ، والبعد ، والهلاك .

وشعيب عليه السلام ، كان يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته لقومه .

وفى قصته من الفوائد والعبر ، شىء كثير .

منها : أن الكفار ، كما يعاقبون ، ويخاطبون ، بأصل الإسلام ، فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيال والميزان ، وجعل الوعيد ، مرتبا على مجموع ذلك .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : أن نقص المكاييل والموازين ، من كبائر الذنوب ، وتخشى العقوبة العاجلة ، على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك ، من سرقة أموال الناس .

وإذا كان سرقتهم فى المكاييل والموازين ، موجبة للوعيد ، فسرقتهم — على وجه القهر والغلبة — من باب أولى ، وأحرى .

ومنها : أن الجزاء عن جنس العمل .

فمن بخس أموال الناس ، يريد زيادة ماله ، عوقب بنقيض ذلك ، وكان سببا لزوال الخير ، الذى عنده ، من الرزق لقوله :

[ إنى أراكم بخير ] أى : فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد ، أن يقنع بما آتاه الله ، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة ، عن المكاسب المحرمة ، وأن ذلك خير له لقوله : [ بقية الله خير لكم ] .

ففى ذلك ، من البركة ، وزيادة الرزق ، ما ليس فى التكالب على الأسباب المحرمة ، من المحق ، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك ، من لوازم الإيمان ، وآثاره ، فإنه رتب العمل به ، على وجود الإيمان .

فدل ، على أنه إذا لم يوجد العمل ، فالإيمان ناقص ، أومعدوم .

ومنها : أن الصلاة ، لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين ، وأنها من أفضل الأعمال .

. . . . . . . . . . .

حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال ، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى ميزان للإيمان وشرائعه .

فبإقامتها على وجهها ، تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها ، تختل أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذى يرزقه الله الإنسان — وإن كان الله قد خوله إياه — فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم حق الله فيه ، بأداء ما فيه ، من الحقوق ، والامتناع من المكاسب ، التى حرمها الله ورسوله .

لا كما يزعمه الكفار ، ومن أشبههم ، أن أموالهم ، لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون ، ، سواء وافق حكم الله ، أو خالفه .

ومنها : أن من تكملة دعوة الداعى وتمامها ، أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به .

وأول منته ، عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام :

[ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ] ولقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » .

ومنها : أن وظيفة الرسل ، وسنتهم ، وملتهم ، إرادة الإصلاح ، بحسب القدرة والإمكان ، بتحصيل المصالح وتكميلها ، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها ، وبدفع المفاسد وتقليلها ، ويراعون المصالح الخاصة .

وحقيقة المصلحة ، هى التى تصلح بها أحوال العباد ، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية .

. . . . . . . . . . .

ومنها : أن من قام بما يقـدر عليه من الإصلاح ، لم يكن ملوماً ولا مذموماً ، فى عدم فعله ، مالا يقدر عليه .

فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح فى نفسه ، وفى غيره ، مايقدر عليه .

ومنها : أن العبد ، ينبغى له أن لا يتـكل على نفسه طرفة عين .

بل لايزال مستعينا بربه ، متوكلا عليه ، سائلا له التوفيق .

وإذا حصل له شىء من التوفيق ، فلينسبه لموليه ومسديه ، ولا يعجب بنفسه لقوله : [ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ] .

ومنها : الترهيب بأخذات الأمم ، وما جرى عليهم ، وأنه ينبغى أن تذكر القصص ، التى فيها إيقاع العقـوبات بالمجرمين ، فى سياق الوعظ والزجر .

كما أنه ينبغى ذكر ما أكرم الله به أهل التقوي ، عنـد الترغيب ، والحث على التقوى .

ومنها : أن التائب من الذنب كما يسمح له[1] عن ذنبه ، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده .

ولا عبرة بقول من يقول « إن التائب إذا تاب ، فحسبه أن يغفر له ، ويعود عليه بالعفو ، وأما عود الود الحب فإنه لا يعود .

فإن الله قال: « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ».

---

(١) قوله ( كما يسمح ) الأولى أن يقال: ( كما يتجاوز له عن ذنبه )

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة ، قد يعلمون بعضها ، وقد لا يعلمون شيئاً منها .

وربما دفع عنهم ، بسبب قبيلتهم ، وأهل وطنهم الكفار ، كما دفع الله عن شعيب ، رجم قومه ، بسبب رهطه . وأن هذه الروابط ، التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين ، لا بأس بالسعي فيها ، بل ربما تعين ذلك . لأن الإصلاح مطلوب ، على حسب القدرة والإمكان .

فعلى هذا ، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار ، وعملوا على جعل الولاية جمهورية ، يتمكن فيها الأفراد والشعوب ، من حقوقهم الدينية والدنيوية ، لكان أولى ، من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم ، الدينية والدنيوية ، وتحرص على إبادتها ، وجعلهم عَمَلَةً وَخَدَمًا لهم .

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين ، وهم الحكام ، فهو المتعين .

ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة ، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا ، مقدمة . والله أعلم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

---

* يقول تعالى : [ ولقد أرسلنا موسى ] بن عمران [ بآياتنا ] الدالة على صدق ما جاء به ، كالعصا ، واليد ونحوهما ، من الآيات التى أجراها الله على يدى موسى عليه السلام .

[ وسلطان مبين ] أى : حجة ظاهرة بينة ، ظهرت ظهور الشمس .

[ إلى فرعون وملإه ] أى : أشراف قومه ، لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم ، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات ، التى أراهم إياها ، كما تقدم بسطها فى سورة الأعراف

[ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ] بل هو ضال غاوٍ ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض .

لا جرم — لما اتبعه قومه — أرداهم وأهلكهم .

[ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا فى هذه ] أى : فى الدنيا [ لعنة ويوم القيامة ] أى : يلعنهم الله وملائكته ، والناس أجمعون فى الدنيا والآخرة .

[ بئس الرفد المرفود ] أى : بئس ما اجتمع لهم ، وترادف عليهم ، من عذاب الله ، ولعنة الدنيا والآخرة .

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم ، قال الله تعالى لرسوله :

وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾
ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾
وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ
غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

---

[ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ] لتنذر به ، ويكون آية على رسالتك ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

[ منها قائم ] لم يتلف ، بل بقي من آثار ديارهم ، ما يدل عليهم .

[ و ] منها [ حصيد ] قد تهدمت مساكنهم ، واضمحلت منازلهم ، فلم يبق لها أثر .

[ وما ظلمناهم ] بأخذهم بأنواع العقوبات [ ولكن ظلموا أنفسهم ] بالشرك والكفر ، والعناد .

[ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ] وهكذا كل من التجأ إلى غير الله ، لم ينفعه ذلك ، عند نزول الشدائد .

[ وما زادوهم غير تتبيب ] أي . خسار ودمار ، بالضد مما خطر ببالهم .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ

---

* أى : يقصمهم بالعذاب ويبيدهم ، ولا ينفعهم ، ما كانوا يدعون ، من دون الله من شىء .

* [ إن فى ذلك ] المذكور ، من أخذه للظالمين ، بأنواع العقوبات .

[ لآية لمن خاف عذاب الآخرة ] أى : لعبرة ودليلا ، على أن أهل الظلم والإجرام ، لهم العقوبة الدنيوية ، والعقوبة الأخروية .

ثم انتقل من هذا ، إلى وصف الآخرة فقال : [ ذلك يوم مجموع له الناس ] .

أى : جمعوا لأجل ذلك اليوم ، للمجازاة ، وليظهر لهم ، من عظمة الله وعدله العظيم ، ما به يعرفونه حق المعرفة .

[ وذلك يوم مشهود ] أى : يشهده الله وملائكته ، وجميع المخلوقين.

[ وما نؤخره ] أى : إتيان يوم القيامة [ إلا لأجل معدود ] إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق ، فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى ، ويجرى عليهم أحكامه الجزائية ، كما أجرى عليهم فى الدنيا ، أحكامه الشرعية .

إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ
وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا
مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا

---

[ يوم يأت ] ذلك اليوم ، ويجتمع الخلق [ لا تكلم نفس إلا بإذنه ] حتى الأنبياء ، والملائكة الكرام ، لا يشفعون إلا بإذنه .

[ فمنهم ] أى : الخلق [ شقى وسعيد ] .

فالأشقياء ، هم الذين كفروا بالله ، وكذبوا رسله ، وعصوا أمره .

والسعداء ، هم : المؤمنون المتقون .

وأما جزاؤهم [ فأما الذين شقوا ] أى : حصلت لهم الشقاوة ، والخزى والفضيحة .

[ ففى النار ] منغمسون فى عذابها ، مشتد عليه عقابها .

[ لهم فيها ] من شدة ما هم فيه [ زفير وشهيق ] وهو أشنع الأصوات وأقبحها .

[ خالدين فيها ] أى : فى النار ، التى هذا عذابها [ ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ] أى : خالدين فيها أبداً ، إلا المدة التى شاء الله ، أن لا يكونوا فيها ، كما قاله جمهور المفسرين .

فالاستثناء على هذا ، راجع إلى ما قبل دخولها ، فهم خالدون فيها جميع الأزمان ، سوى الزمن الذى قبل الدخول فيها .

[ إن ربك فعال لما يريد ] فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته ،

فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ

---

فعله ، تبارك وتعالى ، لا يرده أحد عن مراده .

[ وأما الذين سعدوا ] أى : حصلت لهم السعادة ، والفلاح ، والفوز [ ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ] ثم أكد ذلك بقوله .

[ عطاء غير مجذوذ ] أى : ما أعطاهم الله من النعيم المقيم ، واللذة العالية ، فإنه دائم مستمر ، غير منقطع بوقت من الأوقات .

نسأل الله الكريم من فضله أن يجعلنا منهم .

* يقول الله تعالى ، لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : [ فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ] المشركون ، أى : لا تشك فى حالهم ، وأن ما هم عليه باطل ، فليس لهم ، دليل شرعى ولا عقلى .

وإنما دليلهم وشبهتهم ، أنهم [ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ] .

ومن المعلوم أن هذا ، ليس بشبهة ، فضلا عن أن يكون دليلا ، لأن أقوال ما عدا الأنبياء ، يحتج بها .

خصوصا أمثال هؤلاء الضالين ، الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم ، فى أصول الدين .

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

---

فإن أقوالهم ، وإن اتفقوا عليها ، فإنها خطأ وضلال .

[ وإنا لموفون نصيبهم غير منقوص ] أى : لا بد أن ينالهم نصيب من الدنيا ، مما كتب لهم ، وإن كثر ذلك النصيب ، أو راق فى عينك ، فإنه لا يدل على صلاح حالهم .

فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان والدين الصحيح ، إلا من يحب .

والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين ، على قول الضالين من آبائهم الأقدمين .

ولا على ما خولهم الله ، وآتاهم من الدنيا .

* [ يخبر تعالى ، أنه آتى موسى الكتاب ، الذى هو التوراة ، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه ، والاجتماع ، ولكن ، مع هذا ، فإن المنتسبين إليه ، اختلفوا فيه اختلافا ، أضر بعقائدهم ، وبجامعتهم الدينية .

[ ولولا كلمة سبقت من ربك ] بتأخيرهم ، وعدم معاجلتهم بالعذاب [ لقضى بينهم ] بإحلال العقوبة بالظالم ، ولكنه تعالى ، اقتضت حكمته ، أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة ، وبقوا فى شك مريب .

مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ
وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ

---

وإذا كانت هذه حالهم ، مع كتابهم ، فعم القرآن الذى أوحاه الله إليك ، غير مستغرب ، من طائفة اليهود ، أن لا يؤمنوا به ، وأن يكونوا فى شك منه مريب .

[ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ] أى : لابد أن يقضى الله بينهم يوم القيامة ، بحكمه العدل ، فيجازى كلا بما يستحق .

[ إنه بما يعملون ] من خير وشر [ خبير ] فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم ، دقيقها وجليلها .

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم ، التى أوجبت اختلافهم وافتراقهم ، أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، من المؤمنين ، أن يستقيموا كما أمروا ، فيسلكوا ما شرعه الله ، من الشرائع ، ويعتقدوا ، ما أخبر الله من العقائد الصحيحة ، ولا يزيغوا عن ذلك ، يمنة ، ولا يسرة ، ويدوموا على ذلك ، ولا يطغوا ، بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة .

وقوله [ إنه بما تعملون بصير ] أى : لا يخفى عليه من أعمالكم شىء ، وسيجازيكم عليها .

ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة ، وترهيب من ضدها ، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال :

[ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ] فإنكم ، إذا ملتم إليهم ، ووافقتموهم

ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

---

على ظلمهم ، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم [ فتمسكم النار ] إن : فعلتم ذلك [وما لكم من دون الله من أولياء] يمنعونكم من عذاب الله ، ولا يحصلون لكم شيئاً ، من ثواب الله .

[ ثم لا تنصرون ] أى : لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم .

ففى هذه الآية : التحذير من الركون إلى كل ظالم .

والمراد بالركون ، الميل والانضمام إليه بظلمه ، وموافقته ، على ذلك ، والرضا بما هو عليه من الظلم .

* وإذا كان هذا الوعيد فى الركون إلى الظلمة ، فكيف حال الظلمة ؟!!
نسأل الله العافية من الظلم .

يأمر تعالى : بإقامة الصلاة كاملة [ طرفى النهار ] أى : أوله وآخره .

ويدخل فى هذا ، صلاة الفجر ، وصلاتا الظهر والعصر .

[ وزلفا من الليل ] ويدخل فى ذلك ، صلاة المغرب والعشاء .

ويتناول ذلك قيام الليل ، فإنها مما تزلف العبد ، وتقربه إلى الله تعالى.

[ إن الحسنات يذهبن السيئات ] أى : فهذه الصلوات الخمس ، وما ألحق بها من التطوعات ، من أكبر الحسنات .

وهى — مع أنها حسنات — تقرب إلى الله ، وتوجب الثواب ، فإنها تذهب السيئات وتمحوها .

والمراد بذلك : الصغائر ، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مثل قوله :

« والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »

بل كما قيدتها الآية التى فى سورة النساء ، وهى قوله عز وجل .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » .

ذلك ولعل الإشارة ، لكل ما تقدم ، من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم ، وعدم مجاوزته وتعديه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا .

ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

---

والأمر بإقامة الصلاة ، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات ، الجميع [ ذكرى للذاكرين ] يفهمون بها ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه ، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات ، الدافعة للشرور والسيئات.

ولكن تلك الأمور ، تحتاج إلى مجاهدة النفس ، والصبر عليها ، ولهذا قال :

[ واصبر ] أى : احبس نفسك على طاعة الله ، وعن معصيته ، وإلزامها لذلك ، واستمر ولا تضجر .

[ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ] بل يتقبل الله عنهم أحسن الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون .

وفى هذا ترغيب عظيم ، للزوم الصبر ، بتشويق النفس الضعيفة ، إلى ثواب الله ، كلما ونت وفترت .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى ، إهلاك الأمم المكذبة للرسل ، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية ، وذلك كله يقضى على الأديان بالذهاب والاضمحلال ، ذكر أنه ، لولا أنه جعل فى القرون الماضية بقايا ، من أهل الخير ، يدعون إلى الهدى ، وينهون عن الفساد والردى ، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان ، ولكنهم قليلون جداً .

وغاية الأمر ، أنهم نجوا ، باتباعهم المرسلين ، وقيامهم بما قاموا به من دينهم ، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

[و] لكن [ اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ] أى : اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف ، ولم يبغوا به بدلا .

[ وكانوا مجرمين ] أى : ظالمين ، باتباعهم ما أترفوا فيه ، فلذلك حق عليهم العقاب ، واستأصلهم العذاب .

وفى هذا ، حث لهذه الأمة ، أن يكون فيهم بقايا مصلحون ، لما أفسد

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

الناس ، قائمون بدين الله ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم ، على الأذى ، ويبصرونهم من العمى .

وفى هذه الحالة ، أعلى حالة يرغب فيها الراغبون ، وصاحبها يكون ، إماما فى الدين ، إذ جعل عمله خالصاً لرب العالمين .

* أى : وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم ، والحال أنهم مصلحون ، أى : مقيمون على الصلاح ، مستمرون عليه .

لما كان الله ليهلكهم ، إلا إذا ظلموا ، وقامت عليهم حجة الله .

ويحتمل ، أن المعنى : وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق ، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم ، فإن الله يعفو عنهم ، ويمحوا ما تقدم من ظلمهم .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامى، فإن مشيئته غير قاصرة ، ولا يمتنع عليه شيء .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار ، كل يرى الحق ، فيما قاله ، والضلال فى قول غيره .

[ إلا من رحم ربك ] فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به ، والاتفاق عليه.

فهؤلاء سبقت لهم ، سابقة السعادة ، وتداركتهم العناية الربانية ، والتوفيق الإلهى .

وأما من عداهم ، فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم .

وقوله : [ ولذلك خلقهم ] أى : اقتضت حكمته ، أنه خلقهم ، ليكون منهم السعداء والأشقياء ، والمتفقون والمختلفون ، والفريق الذى هدى الله ، والفريق الذى حقت عليهم الضلالة .

ليتبين للعباد ، عدله ، وحكمته ، وليظهر ، ما كمن فى الطباع البشرية ، من الخير والشر ، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات ، التى لا تتم ولا تستقيم ، إلا بالامتحان والابتلاء .

[ و ] لأنه [ تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين .

فلا بد أن ييسر للنار أهلا ، يعملون بأعمالها الموصلة إليها .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ
فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾

---

* لما ذكر فى هذه السورة من أخبار الأنبياء ، ما ذكر ، ذكر الحكمة فى ذكر ذلك ، فقال :

[ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ] أى ، قلبك ليطمئن ، ويثبت ، وتصبر ، كما صبر أولى العزم من الرسل .

فإن النفوس تأنس بالاقتداء وتنشط على الأعمال ، وتريد المنافسة لغيرها ، ويتأيد الحق بذكر شواهده ، وكثرة من قام به .

[ وجاءك فى هذه ] السورة [ الحق ] اليقين ، فلا شك فيه ، بوجه من الوجوه .

فالعلم بذلك ، من العلم بالحق ، الذى هو أكبر فضائل النفوس .

[ وموعظة وذكرى للمؤمنين ] أى : يتعظون به ، فيرتدعون عن الأمور المكروهة ، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله ، فيفعلونها .

وأما من ليس من أهل الإيمان ، فلاتنفعهم المواعظ ، وأنواع التذكير ، ولهذا قال :

[ وقل للذين لا يؤمنون ] بعد ما قامت عليهم الآيات .

[ اعملوا على مكانتكم ] أى : حالتكم التى أنتم عليها [ إنا عاملون ] على

وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

---

ما كنا عليه [ وانتظروا ] ما يحل بنا [ إنا منتظرون ] ما يحل بكم .

وقد فصل الله بين الفريقين ، وأرى عباده ، نصره لعباده المؤمنين ، وقمعه لأعداء الله المكذبين .

[ ولله غيب السموات والأرض ] أى : ما غاب فيهما ، من الخفايا ، والأمور الغيبية .

[ وإليه يرجع الأمر كله ] من الأعمال والعمال ، فيميز الخبيث من الطيب .

[ فاعبده وتوكل عليه ] أى : قم بعبادته ، وهى جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه ، وتوكل على الله فى ذلك .

[ وما ربك بغافل عما تعملون ] من الخير والشر ، بل قد أحاط علمه بذلك ، وجرى به قلمه ، وسيجرى عليه حكمه ، وجزاؤه .

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم

وكان الفراغ من نسخه فى يوم السبت فى ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧

إنتهى بعون الله وفضله وكرمه « الجزء الثالث » من كتاب :

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

بانتهاء تفسير سورة ( هود )

ويليه — إن شاء الله — « الجزء الرابع »

وأوله تفسير سورة ( يوسف )

# فهرس

## الجزء الثالث

صفحة

تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علَّامة القَصِيم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدى

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن

# في

# تفسير كلام المنان

### الجزء الرابع

من تفسير سورة يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء


مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة

المملكة العربية السعودية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تفسير

# سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ

---

* يخبر تعالى ، أن آيات القرآن هى [ آيات الكتاب المبين ] أى : البين الواضحة ألفاظه ، ومعانيه .

ومن بيانه وإيضاحه ، أنه أنزله باللسان العربى ، أشرف الألسنة ، وأبينها .

المبين ، لكل ما يحتاجه الناس ، من الحقائق النافعة .

وكل هذا الإيضاح والتبيين [ لعلكم تعقلون ] أى : لتعقلوا حدوده ، وأصوله ، وفروعه ، وأوامره ، ونواهيه .

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم ، واتصفت قلوبكم بمعرفتها ، أثمر ذلك ، عمل الجوارح ، والانقياد إليه .

و [ لعلكم تعقلون ] أى : تزداد عقولكم ، بتكرر المعانى الشريفة العالية ، على أذهانكم .

قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

---

فتنتقلون من حال إلى أحوال ، أعلى منها وأكمل .

[ نحن نقص عليك أحسن القصص ] وذلك لصدقه ، وسلاسة عبارته ، ورونق معانيه .

[ بما أوحينا إليك هذا القرآن ] أى : بما اشتمل عليه هذا القرآن ، الذي أوحيناه إليك ، وفضلناك به على سائر الأنبياء ، وذاك محض مِنَّةٍ من الله وإحسان .

[وإن كنت من قبله لمن الغافلين] أى: ما كنت تدرى، ما الكتاب، ولا الإيمان ، قبل أن يوحى الله إليك ، ولكن جعلناه نوراً ، نهدى به من نشاء ، من عبادنا .

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن ، من القصص ، وأنه أحسن القصص على الإطلاق ، فلا يوجد من القصص ، فى شيء من الكتب ، مثل هذا القرآن ، ذكر قصة يوسف ، وأبيه ، وإخوته ، القصة العجيبة الحسنة .

فقال : ( إذ قال يوسف ) إلى (إن ربك عليم حكيم ) .

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَـٰبُنَىَّ

---

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله ، أحسن القصص فى هذا الـكتاب .

ثم ذكر هذه القصة ، وبسطها ، وذكر ما جرى فيها ، فعلم بذلك ، أنها قصة تامة ، كاملة حسنة .

فمن أراد أن يكملها أو يحسنها ، بما يذكر فى الإسرائيليات ، التى لا يعرف لها سند ، ولا ناقل ، وأغلبها كذب ، فهو مستدرك على الله ، ومكمل لشىء ، يزعم أنه ناقص .

وحسبك بأمر ينتهى إلى هذا الحد قبحاً ، فإن تضاعيف هذه السورة ، قد ملئت فى كثير من التفاسير ، من الأكاذيب ، والأمور الشنيعة المناقضة ، لما قصه الله تعالى بشىء كثير .

فعلى العبد أن يفهم عن الله ، ما قصه ، ويدع ، ما سوى ذلك ، مما ليس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ينقل .

فقوله تعالى : [ إذ قال يوسف لأبيه ] يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، عليهم الصلاة والسلام :

[ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ] .

فكانت هذه الرؤيا ، مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام ، من الارتفاع فى الدنيا والآخرة .

لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ

---

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأصول العظام ، قدم بين يديه مقدمة ، توطئة له ، وتسهيلا لأمره ، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق ، ولطفاً بعبده ، وإحساناً إليه .

فأوَّلها يعقوب ، بأن الشمس : أمه ، والقمر أبوه ، والكواكب ، إخوته .

وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ، ويسجدون له ، إكراماً وإعظاماً .

وأن ذلك لا يكون ، إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له ، واصطفائه إياه ، وإتمام نعمته عليه ، بالعلم والعمل ، والتمكين فى الأرض .

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب ، الذين سجدوا له ، وصاروا تبعاً له فيها .

ولهذا قال : [ وكذلك يجتبيك ربك ] أى : يصطفيك ويختارك بما مَنَّ به عليك من الأوصاف الجليلة ، والمناقب الجميلة .

[ ويعلمك من تأويل الأحاديث ] أى : من تعبير الرؤيا ، وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة ، كالكتب السماوية ونحوها .

[ ويتم نعمته عليك ] فى الدنيا والآخرة ، بأن يؤتيك فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة .

أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

---

[ كما أتمها على أبويك من قبل ، إبراهيم ، وإسحق ] حيث أنعم الله عليهما ، بنِعَمٍ عظيمة واسعة ، دينية ، ودنيوية .

[ إن ربك عليم حكيم ] أى : علمه محيط بالأشياء ، وبما احتوت عليه ، ضمائر العباد ، من البر وغيره .

فيعطى كلاً ، ما تقتضيه حكمته وحمده ، فإنه حكيم ، يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

ولما تم تعبيرها ليوسف ، قال له أبوه : [ يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ] أى : حسداً من عند أنفسهم ، بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم .

[ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ] لا يفتر عنه ، ليلا ولا نهاراً ، ولا سراً ، ولا جهاراً .

فالبعد عن الأسباب ، التى يتسلط بها على العبد ، أولى .

فامتثل يوسف أمر أبيه ، ولم يخبر إخوته بذلك ، بل كتمها عنهم .

۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾
إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ

---

* يقول تعالى : [ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات ] أى عِبَرٌ وأدلة ، على كثير من المطالب الحسنة .

[للسائلين] أى : لكل من سأل عنها ، بلسان الحال ، أو بلسان المقال.

فإن السائلين ، هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر .

وأما المعرضون ، فلا ينتفعون بالآيات ، ولا بالقصص ، والبينات .

[ إذ قالوا ] فيما بينهم : [ ليوسف وأخوه ] بنيامين ، أى : شقيقه ، وإلا ، فكلهم إخوة .

[ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ] أى : جماعة ، فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة .

[ إن أبانا لفى ضلال مبين ] أى : لفى خطأ بَيِّنٍ ، حيث فضلهما علينا، من غير موجب نراه ، ولا أمر نشاهده .

[ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ] أى : غيبوه عن أبيه ، فى أرض بعيدة ، لا يتمكن من رؤيته فيها .

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين [ يخل لكم وجه أبيكم ] .
أى : يتفرغ لكم ، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة ، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف ، شغلا ، لا يتفرغ لكم .

وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

---

[ وتكونوا من بعده ] أى : من بعد هذا الصنيع [ قوما صالحين ] أى : تتوبون إلى الله ، وتستغفرونه من بعد ذنبكم .

فقدموا العزم على التوبة ، قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله ، وإزالة لشناعته ، وتنشيطاً من بعضهم لبعض .

* أى : [ قال قائل ] من إخوة يوسف ، الذين أرادوا قتله ، أو تبعيده : [ لا تقتلو يوسف ] فإن قتله أعظم إثماً ، وأشنع .

والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه ، من غير قتل ، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه [فى غيابة الجب] وتتوعدوه ، على أنه لايخبر بشأنكم ، بل على أنه عبد مملوك آبق ، لأجل أن [ يلتقطه بعض السيارة ] الذين يريدون مكاناً بعيداً ، فيحتفظوا فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأيا فى يوسف ، وأبرهم ، وأتقاهم فى هذه القضية .

فإن بعض الشر ، أهون من بعض ، والضرر الخفيف ، يدفع به الضرر الثقيل .

فلما اتفقوا على هذا الرأى (قالوا يا أبانا) إلى قوله ( إنا إذاً لخاسرون).

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ

---

* أى : قال إخوة يوسف ، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم :

[ ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ] أى : لأى شيء يدخلك الخوف منا ، على يوسف ، من غير سبب ، ولا موجب ؟

[و ] الحال [إنا له لناصحون] أى: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا.

وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام ، لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها .

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة ، لعدم إرساله معهم ، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه ، الذى يحبه أبوه له ، ما يقتضى أن يسمح بإرساله معهم ، فقالوا :

[ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ] أى : يتنزه فى البرية ويستأنس .

[ وإنا له لحافظون ] أى سنراعيه ، ونحفظه من كل أذى يريده .

فأجابهم بقوله : [ إنى ليحزننى أن تذهبوا به ] أى مجرد ذهابكم به ، يحزننى ، ويشق عَلَىَّ ، لأننى لا أقدر على فراقه ، ولو مدة يسيرة .

فهذا مانع من إرساله [ و ] مانع ثان ، وهو : أنى [ أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ] أى : فى حال غفلتكم عنه ، لأنه صغير ، لا يمتنع من الذئب .

ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

---

[ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة ] أى : جماعة ، حريصون على حفظه .

[إنا إذاً لخاسرون ] أى : لا خير فينا ، ولا نفع يرجى منا ، إن أكله الذئب ، وغلبنا عليه .

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله ، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم ، لأجل أنسه .

* أى : لما ذهب إخوة يوسف ، بعد ما أذن له أبوه ، وعزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، كما قال قائلهم ، السابق ذكره ، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه ، فنفذوا فيه قدرتهم ، وألقوه فى الجب .

ثم إن الله ، لطف به ، بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة .

[ لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لايشعرون ] أى : سيكون منك معاتبة لهم ، وإخبار عن أمرهم هذا ، وهم لايشعرون بذلك الأمر .

ففيه بشارة له ، بأنه سينجو مما وقع فيه ، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته ، على وجه العز والتمكين له ، فى الأرض .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ

---

[ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ] ليكون إتيانهم ، متأخراً عن عادتهم ، وبكاؤهم دليلاً لهم ، وقرينة على صدقهم .

فقالوا — معتذرين بعذر كاذب — [ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ] إما على الأقدام ، أو بالرمى والنضال .

[ وتركنا يوسف عند متاعنا ] توفيرا له وراحة .

[ فأكله الذئب ] فى حال غيابنا عنه واستباقنا .

[ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ] أى : اعتذرنا بهذا العذر ، والظاهر أنك لاتصدقنا ، لما فى قلبك من الحزن على يوسف ، والرقة الشديدة عليه .

ولكن عدم تصديقك إيانا ، لايمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقى ، وكل هذا ، تأكيد لعذرهم .

[ و ] مما أكدوا به قولهم ، أنهم [ جاءوا على قميصه بدم كذب ] زعموا ، أنه دم يوسف ، حين أكله الذئب ، فلم يصدقهم أبوهم بذلك .

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

---

و [ قال ] : [ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ] أى : زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحا فى التفريق بينى وبينه ، لأنه رأى من القرائن والأحوال ، ومن رؤيا يوسف ، التى قصها عليه ، ما دله على ما قال .

[ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ] أى : أما أنا ، فوظيفتى سأحرص على القيام بها ، وهى أنى أصبر على هذه المحنة ، صبرا جميلا ، سالماً من السخط والتّشكّى إلى الخلق ، وأستعين الله على ذلك ، لا على حولى وقوتى .

فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه فى قوله : [ إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله ] لأن الشكوى إلى الخالق ، لا تنافى الصبر الجميل ، لأن النبى ، إذا وعد ، وفى .

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ
قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ
مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

* أى : مكث يوسف فى الجب ، ما مكث ، حتى [ جاءت سيارة ] أى : قافلة تريد مصر .

[ فأرسلوا واردهم ] أى . فرطهم ومقدمهم ، الذى يعس لهم المياه ، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك .

[ فأدلى ] ذلك الوارد [دلوه] فتعلق فيه يوسف عليه السلام ، وخرج .

[ قال ، يا بشرى هذا غلام ] أى : استبشر وقال : هذا غلام نفيس .

[ وأسروه بضاعة ] وكان إخوته قريباً منه ، فاشتراه السيارة منهم .

[ بثمن بخس ] أى . قليل جداً ، فسره بقوله: [ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ] .

لأنه لم يكن لهم قصد ، إلا تغييبه ، وإبعاده عن أبيه ، ولم يكن لهم قصد فى أخذ ثمنه .

والمعنى فى هذا : أن السيارة ، لما وجدوه ، عزموا أن يُسِرُّوا أمره ، ويجعلوه من جملة بضائعهم ، التى معهم ، حتى جاءهم إخوته ، فزعموا أنه عبد أبق منهم .

فاشتروه منهم ، بذلك الثمن ، واستوثقوا منهم فيه ، لئلا يهرب .

والله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* أى لما ذهب به السيارة إلى مصر ، وباعوه بها ، فاشتراه عزيز مصر .

فلما اشتراه ، أعجب به ، ووصى عليه امرأته وقال :

[ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ] أى : إما ان ينفعنا كنفع العبيد ، بأنواع الخدم .

وإما أن نستمتع فيه ، استمتاعنا بأولادنا ، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد .

[وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض] أى: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر ، ويكرمه هذا الإكرام ، جعلنا هذا ، مقدمة لتمكينه فى الأرض ، من هذا الطريق .

[ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ] إذا بقى لا شغل له ولا همّ سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علما كثيراً ، من علم الأحكام ، وعلم التعبير ، وغير ذلك .

[ والله غالب على أمره ] أى : أمره تعالى نافذ ، لا يبطله مبطل ، ولا يغلبه مغالب .

[ ولكن أكثر الناس لايعلمون ] . فلذلك يجرى منهم ، ويصدر ، فى مغالبة أحكام الله القدرية ، وهم أعجز ، وأضعف من ذلك .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

---

* أى : [ لما بلغ ] يوسف [ أشده ] أى : كمال قوته المعنوية والحسية ، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة ، من النبوة ، والرسالة .

[ آتيناه حكما وعلما ] أى : جعلناه نبيا رسولا ، وعالما ربانيا .

[ وكذلك نجزى المحسنين ] فى عبادة الخالق ، ببذل الجهد والنصح فيها ، وإلى عباد الله ، ببذل النفع والإحسان إليهم ، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم ، علماً نافعا .

ودل هذا ، على أن يوسف فى مقام الإحسان ، فأعطاه الله الحكم بين الناس ، والعلم الكثير والنبوة .

* هذه المحنة العظيمة ، أعظم على يوسف ، من محنة إخوته ، وصبره عليها ، أعظم أجراً ، لأنه صبر اختيار ، مع وجود الدواعى الكثيرة ، لوقوع الفعل ، فقدم محبة الله عليها .

وأما محنته بإخوته ، فصبره صبر اضطرار ، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها ، طائعا أو كارها .

وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ، بقى مكرماً فى بيت العزيز .

وكان له من الجمال ، والكمال ، والبهاء ، ما أوجب ذلك ، أن [ راودته التى هو فى بيتها عن نفسه ] أى : هو غلامها ، وتدبيرها ، والمسكن واحد ، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه ، من غير شعور أحد ، ولا إحساس بشر .

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ

---

[ و ] زادت المصيبة ، بأن [ غلقت الأبواب ] وصار المحل خاليا ، وهما آمنان من دخول أحد عليهما ، بسبب تغليق الأبواب .

وقد دعته إلى نفسها [ وقالت : هيت لك ] أى : افعل الأمر المكروه وَأَقْبِلْ إِلَىَّ .

ومع هذا ، فهو غريب ، لايحتشم مثله ، مايحتشمه إذا كان فى وطنه ، وبين معارفه .

وهو أسير تحت يدها ، وهى سيدته ، وفيها من الجمال ، ما يدعو إلى ما هنالك .

وهو شاب عزب ، وقد توعدته ، إن لم يفعل ما تأمره به ، بالسجن ، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله ، مع وجود الداعى القوى فيه ، لأنه قد هم فيها هما ، تركه لله ، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء .

ورأى من برهان ربه — وهو مامعه من العلم والإيمان ، الموجب لترك كل ماحرم الله — ما [1] أوجب له البعد والانكفاف ، عن هذه المعصية الكبيرة .

[ قال . معاذ الله ] أى . أعوذ بالله ، أن أفعل هذا الفعل القبيح ، لأنه مما يسخط الله ، ويبعد عنه ، ولأنه خيانة فى حق سيدى ، الذى أكرم مثواى .

---

(١) قوله ( ما ) مفعول به لـ ( رأى ) .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا

---

فلا يليق بى ، أن أقابله فى أهله ، بأقبح مقابلة ، وهذا من أعظم الظلم والظالم لا يفلح .

والحاصل أنه جعل الموانع له من هـذا الفعل ، تقوى الله ، ومراعاة حق سيده ، الذى أكرمه ، وصيانة نفسه عن الظلم ، الذى لا يفلح من تعاطاه .

وكذلك ما من الله عليه ، من برهان الإيمان ، الذى فى قلبه ، يقتضى منه ، امتثال الأوامر ، واجتناب الزواجر .

والجامع لذلك كله . أن الله صرف عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباده المخلصين له ، فى عباداتهم ، الذين أخلصهم الله ، واختارهم ، واختصهم لنفسه ، وأسدى عليهم من النعم ، وصرف عنهم المكاره ، ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها ، بعد المراودة الشديدة ، وذهب ليهرب عنها ، ويبادر إلى الخروج من الباب ، ليتخلص ، ويهرب من الفتنة .

فبادرت إليه ، وتعلقت بثوبه ، فشقت قميصه .

فلما وصلا إلى الباب ، فى تلك الحال ، ألفيا سيدها ، أى . زوجها لدى الباب ، فرأى أمراً شق عليه .

فبادرت إلى الكذب ، وادعت أن المراودة ، قد كانت من يوسف ، وقالت :

سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ

---

[ ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ] ولم تقل « من فعل بأهلك سوءاً » تبرئة لها ، وتبرئة له أيضاً ، من الفعل .

وإنما النزاع عن الإرادة ، والمراوده .

[ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ] أى : أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه ، مما رمته به ، و قال : [ هى راودتنى عن نفسى ] فحينئذ احتملت الحال ، صدق كل واحد منهما ، ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى ، جعل للحق والصدق ، علامات ، وأمارات تدل عليه ، قد يعلمها العباد ، وقد لايعلمونها .

فمنّ الله فى هذه القضية ، بمعرفة الصادق منهما ، تبرئة لنبيه وصفيه ، يوسف عليه السلام .

فبعث شاهدا من أهل بيتها ، يشهد بقرينة من وجدت معه ، فهو الصادق ، فقال :

[ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ] لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها ، المراود لها ، المعالج ، وأنها أرادت أن تدفعه عنها ، فشقت قميصه من هذا الجانب .

مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ
وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن
كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا
وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

---

[ وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين ] لأن ذلك ، يدل على هروبه منها ، وأنها هى التى طلبته ، فشقت قميصه من هذا الجانب .

[ فلما رأي قميصه قد من دبر ] عرف بذلك صدق يوسف وبراءته ، وأنها هى الكاذبة .

فقال لها سيدها : [ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ] وهل أعظم من هذا الكيد ، الذى برأت به نفسها ، لما أرادت وفعلت ، ورمت به نبي الله ، يوسف عليه السلام .

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر ، قال ليوسف : [ يوسف أعرض عن هذا ] .

أي : اترك الكلام فيه ، وتناسه ، ولاتذكره لأحد ، طلباً للستر على أهله .

[ واستغفرى ] أيتها المرأة [ لذنبك إنك كنت من الخاطئين ] فأمر يوسف بالإعراض ، وأمرها بالاستغفار والتوبة .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ

---

يعنى : أن الخبر اشتهر وشاع فى البلد ، وتحدث به النسوة ، فجعلن يلمنها ، ويقلن :

[ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ] أى : هذا أمر مستقبح ، هى امرأة كبيرة القدر ، وزوجها كبير القدر ، ومع هذا ، لم تزل تراود فتاها ، الذى تحت يدها ، وفى خدمتها — عن نفسه .

ومع هذا فإن حبه ، قد بلغ من قلبها ، مبلغاً عظيما .

[ قد شغفها حباً ] ، أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو : باطنه وسويداؤه .

وهذا أعظم مايكون من الحب .

[إنا لنراها فى ضلال مبين] حيث وجدت منها هذه الحالة ، التى لا ينبغى منها ، وهى حالة تحط قدرها ، وتضعه عند الناس .

وكان هـذا القول منهن مكراً ، ليس المقصود به ، مجرد اللوم لها ، والقدح فيها .

وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام ، إلى رؤية يوسف ، الذى فتنت به امرأة العزيز ، لتحنق امرأة العزيز ، وتريهن إياه ، ليعذرنها ولهذا سماه : مكراً ، فقال :

[ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ] تدعوهن إلى منزلها للضيافة .

وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

---

[ وأعتدت لهن متكأ ] أى : محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد ، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة ، وكان فى جملة ما أتت به وأحضرته ، فى تلك الضيافة ، طعام يحتاج إلى سكين ، إما أترج ، أو غيره .

[ وآتت[1] كل واحدة منهن سكيناً ] ليقطعن بها ذلك الطعام [وقالت] ليوسف :

[ اخرج عليهن ] فى حالة جماله وبهائه .

[فلما رأينه أكبرنه] أى : أعظمنه فى صدورهن ، ورأين منظراً فائقاً ، لم يشاهدن مثله .

[ وقطعن ] من الدهش [ أيديهن ] بتلك السكاكين ، اللاتى معهن .

[وقلن: حاش لله] أى تنزيهاً لله [ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم].

وذلك أن يوسف ، أُعطِىَ من الجمال الفائق ، والنور ، والبهاء ، ما كان به آية للناظرين ، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر ، وأعجبهن غاية العجب ، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز ، شىء كثير — أرادت أن تريهن جماله الباطن ، بالعفة التامة — فقالت — معلنة لذلك ، ومبينة لحبه الشديد ، غير مبالية ، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة :

---

(١) أى : أعطت .

نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ
وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

---

[فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم] أى: امتنع وهى مقيمة على مراودته ، لم تزدها مرور الأوقات ، إلا قلقا ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقا .

ولهذا قالت له بحضرتهن : [ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ] .

لتلجئه بهذا الوعيد ، إلى حصول مقصودها منه .

فعند ذلك ، اعتصم يوسف بربه ، واستعان به على كيدهن و [ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ]وهذا يدل ، أن النسوة ، جعلن يشرن على يوسف فى مطاوعة سيدته ، وجعلن يكدنه فى ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوى ، على لذة حاضرة ، توجب العذاب الشديد .

[ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن ] أى : أمل إليهن ، فإنى ضعيف عاجز .

إن لم تدفع عنى السوء ، صبوت إليهن [ وأكن من الجاهلين ] فإن هذا جهل .

لأنه آثرلذة قليلة منغصة ، على لذات متتابعات ، وشهوات متنوعات ، فى جنات النعيم .

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ
حِينٍ ﴿٣٥﴾

---

ومن آثر هذا ، على هذا ، فمن أجهل منه ؟ ! ! فإن العلم والعقل ، يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين ، وأعظم اللذتين ، ويؤثر ، ما كان محمود العاقبة .

[ فاستجاب له ربه ] حين دعاه [ فصرف عنه كيدهن ] فلم تزل تراوده وتستعين عليه ، بما تقدر عليه من الوسائل ، حتى آيسها ، وصرف الله عنه كيدها .

[ إنه هو السميع ] لدعاء الداعى [ العليم ] بنيته الصالحة ، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه .

فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة ، والمحنة الشديدة .

وأما أسياده ، فإنه لما اشتهر الخبر وبان ، وصار الناس فيها ، بين عاذر ، ولائم ، وقادح .

[ بدا لهم ] أى : ظهر لهم [ من بعد ما رأوا الآيات ] الدالة على براءته .

[ ليسجننه حتى حين ] أى : لينقطع بذلك ، الخبر ، ويتناساه الناس .

فإن الشىء إذا شاع ، لم يزل يذكر ، ويشيع ، مع وجود أسبابه ، فإذا عدمت أسبابه نُسِىَ .

فرأوا أن هذا مصلحة لهم ، فأدخلوه فى السجن .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن

---

* أى [ و ] لما دخل يوسف السجن ، كان من جملة من [ دخل معه السجن فتيان ] أى : شابان ، فرأى كل واحد منهما رؤيا ، فقصها على يوسف ليعبرها .

[ قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا ] وذلك الخبز [ تأكل الطير منه ] .

[ نبئنا بتأويله ] أى : بتفسيره ، وما يئول إليه أمره .

وقولهما : [ إنا نراك من المحسنين ] أى : من أهل الإحسان إلى الخلق فأحسن إلينا فى تعبيرك لرؤيانا ، كما أحسنت إلى غيرنا ، فتوسلا ليوسف بإحسانه .

[ قال ] لهما مجيبا لطلبهما : [ لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما ] أى : فلتطمئن قلوبكما ، فإنى سأبادر إلى تعبير رؤياكما ، فلا يأتيكما غداؤكما ، أو عشاؤكما ، أول ما يجىء إليكما ، إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما .

ولعل يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، قصد أن يدعوهما إلى الإيمان فى هذه الحال ، التى بدت حاجتهما إليه ، ليكون أنجع لدعوته ، وأقبل لهما .

يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

---

ثم قال : [ ذلكما ] التعبير الذى سأعبره لكما [ مما علمني ربى ] .

أى : هذا من علم الله علمنيه ، وأحسن إلىّ به ، وذلك [ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ] .

والترك ، كما يكون للداخل فى شىء ثم ينتقل عنه ، يكون لمن لم يدخل فيه أصلا .

فلا يقال : إن يوسف ، كان من قبل ، على غير ملة إبراهيم .

( واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ) ثم فسر تلك الملة بقوله :

( ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ) بل نفرد الله بالتوحيد ، ونخلص له الدين والعبادة .

[ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ] أى : هذا من أفضل مِنَّتِه وإحسانه وفضله علينا ، وعلى من هداه الله كما هدانا ، فإنه لا أفضل من مِنَّة الله على العباد بالإسلام ، والدين القويم .

فمن قبله وانقاد له ، فهو حظه ، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل .

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ

---

[ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ] فلذلك تأتيهم المنة والإحسان ، فلا يقبلونها ، ولا يقومون لله بحق .

وفى هذا ، من الترغيب للطريق ، التى هو عليها ، مالا يخفى .

فإن الفتيين — لما تقرر عنده ، أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال ، وأنه محسن معلم — ذكر لهما أن هذه الحالة ، التى أنا عليها ، كلها من فضل الله وإحسانه ، حيث مَنَّ عَلَيَّ بترك الشرك ، وباتباع ملة آبائى ، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما ، فينبغى لكما أن تسلكا ما سلكت .

ثم صرح لهما بالدعوة فقال : [ ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ] أى : أرباب عاجزة ضعيفة ، لاتنفع ولاتضر ، ولاتعطى ولاتمنع ، وهى متفرقة ، مابين أشجار ، وأحجار ، وملائكة ، وأموات ، وغير ذلك من أنواع المعبودات ، التى يتخذها المشركون .

أذلك [ خير أم الله ] الذى له صفات الكمال ، [ الواحد ] فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله فلا شريك له فى شىء من ذلك .

[ القهار ] الذى انقادت الأشياء لقهره وسلطانه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

ومن المعلوم ، أن من هذا شأنه ووصفه ، خير من الآلهة المتفرقة ، التى هى مجرد أسماء ، لا كمال لها ، ولا فعال لديها .

ولهذا قال : [ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ]

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

أى : كسوتموها أسماء ، سميتموها آلهة ، وهى لاشىء ، ولا فيها من صفات الألوهية شىء .

[ما أنزل الله بها من سلطان] بل أنزل الله السلطان بالنهى عن عبادتها وبيان بطلانها .

وإذا لم ينزل الله بها سلطانا ، لم يكن طريق ، ولا وسيلة ، ولا دليل لها .

[ إن(١) الحكم إلا لله ] وحده ، فهو الذى يأمر وينهى ، ويشرع الشرائع ، ويسن الأحكام .

وهو الذى [ أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ] أى : المستقيم الموصل إلى كل خير ، وما سواه من الأديان ، فإنها غير مستقيمة ، بل معوجة ، توصل إلى كل شر .

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] حقائق الأشياء .

وإلا فإن الفرق بين عبادة الله ، وحده لاشريك له ، وبين الشرك به، من أظهر الأشياء وأبينها .

---

(١) « إن » حرف نفى . أى : لاحكم إلا لله .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

---

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك ، حصل منهم ما حصل ، من الشرك .

فيوسف عليه السلام ، دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له .

فيحتمل أنهما استجابا وانقادا ، فتمت عليهما النعمة .

ويحتمل أنهما ، لم يزالا على شركهما ، فقامت عليهما ـ بذلك ـ الحجة .

ثم إنه ، عليه السلام ، شرع يعبر رؤياهما ، بعد ما وعدهما ذلك .

فقال : [ يا صاحبي السجن ] إلى [ الأمر الذى فيه تستفنيان ] .

* [ ياصاحبي السجن أما أحدكما ] وهو : الذى رأى أنه يعصر خمراً ، فإنه يخرج من السجن [ فيسقى ربه خمراً ] أى : يسقى سيده ، الذى كان يخدمه خمراً ، وذلك مستلزم لخروجه من السجن .

[ وأما الآخر ] وهو : الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، تأكل الطير منه .

[ فيصلب فتأكل الطير من رأسه ] ، فإنه عبر عن الخبز ، الذى تأكله الطير ، بلحم رأسه وشحمه ، وما فيه من المخ ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور ، بل يصلب ، ويجعل فى محل ، تتمكن الطيور من أكله .

ثم أخبرهما بأن هذا التأويل ، الذى تأوله لهما ، أنه لا بد من وقوعه فقال : [قضى الأمر الذى فيه تستفتيان] أى : تسألان عن تعبيره وتفسيره .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

* أى : [وقال] يوسف عليه السلام [ للذى ظن أنه ناج منهما ] ، وهو : الذى رأى أنه يعصر خمراً : [ اذكرنى عند ربك ] أى : اذكر له شأنى وقصتى ، لعله يَرِقُّ لى ، فيخرجنى مما أنا فيه .

[فأنساه الشيطان ذكر ربه] أى : فأنسى الشيطان ذلك الناجى ، ذكر الله تعالى ، وذكر ما يقرب إليه ، ومن جملة ذلك نسيانه ، ذكر يوسف ، الذى يستحق أن يجازى بأتم الإحسان ، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه .

[ فلبث فى السجن بضع سنين ] والبضع : من الثلاث إلى التسع ، ولهذا قيل : إنه لبث سبع سنين .

ولما أراد الله أن يتم أمره ، ويأذن بإخراج يوسف من السجن ، قدر لذلك سبباً لإخراج يوسف ، وارتفاع شأنه ، وإعلاء قدره ، وهو رؤيا الملك .

۞ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ

---

* لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن ، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة ، التى تأويلها ، يتناول جميع الأمة ، ليكون تأويلها على يد يوسف ، فيظهر من فضله ، ويبين من علمه ، ما يكون له رفعة فى الدارين .

ومن التقادير المناسبة ، أن الملك الذى ترجع إليه أمور الرعية هو الذى رآها ، لارتباط مصالحها به .

وذلك أنه رأى رؤيا ، هالتـه ، فجمع علماء قومه ، وذوى الرأى منهم وقال :

[ إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع ] أى : سبع من البقرات [ عجاف ] .

وهذا من العجب ، أن السبع العجاف المهزيلات ، اللاتى سقطت قوتهن ، يأكلن السبع السمان ، التى كُنَّ نهاية فى القوة .

[ و ] رأيت [سبع سنبلات خضر وأخر] أى : يأكلهن سبع سنبلات أُخَر [ يابسات ] .

[ يا أَيها الملأ أفتونى فى رؤياى ] لأن تعبير الجميع واحد ، وتأويلهن شىء واحد .

[ إن كنتم للرؤيا تعبرون ] فتحيروا ، ولم يعرفوا لها وجها .

[ قالوا : أضغاث أَحلام ] أى أَحلام لا حاصل لها ، ولا لها تأويل .

أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا

وهذا جزم منهم ، بما لا يعلمون ، وتعذر منهم ، بما ليس بعذر .

ثم قالوا : [وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين] أى : لا نعبر إلا الرؤيا .

وأما الأحلام ، التى هى من الشيطان ، أو من حديث النفس ، فإنا لا نعبرها .

فجمعوا بين الجهل والجزم ، بأنها أضغاث أحلام ، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا : لا نعلم تأويلها ، وهذا من الأمور ، التى لا تنبغى لأهل الدين والحجا .

وهذا أيضاً ، من لطف الله ، بيوسف عليه السلام .

فإنه لو عبرها ابتداء — قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها — لم يكن لها ذلك الموقع .

ولكن لما عرضها عليهم ، فعجزوا عن الجواب ، وكان الملك مهتماً لها، غاية الاهتمام ، فعبرها يوسف — وقعت(١) عندهم موقعاً عظيما .

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة ، بالعلم ، بعد أن سألهم ، فلم يعلموا .

ثم سأل آدم ، فعلمهم أسماء كل شىء ، فحصل بذلك ، زيادة فضله .

وكما يظهر فضل ، أفضل خلقه ، محمد صلى الله عليه وسلم فى القيامة ، أن يلهم الله الخلق ، أن يتشفعوا بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام ، فيعتذرون عنها .

---

(١) قوله « وقعت » جواب لقوله « لما عرضها » .

مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾
يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى

---

ثم يأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها أنا لها » ، فيشفع في جميع الخلق ، وينال ذلك المقام المحمود ، الذى يغبطه به ، الأولون والآخرون .

فسبحان من خفيت ألطافه ، ودقّتْ فى إيصاله البر والإحسان ، إلى خواص أصفيائه ، وأوليائه .

[ وقال الذى نجا منهما ] أى : من الفتيين ، وهو : الذى رأى أنه يعصر خمراً ، وهو الذى أوصاه يوسف ، أن يذكره عند ربه [ وادّكر بعد أمة ] أى: وتذكر يوسف ، وما جرى له فى تعبيره لرؤياهما ، وما وصاه به ، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة ، من السنين فقال :

[ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ] إلى يوسف لأسأله عنها .

فأرسلوه ، فجاء إليه ، ولم يعنفه يوسف على نسيانه ، بل استمع ما يسأله عنه ، وأجابه عن ذلك فقال :

[ يوسف أيها الصديق ] أى : كثير الصدق فى أقواله وأفعاله .

[ أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ] فإنهم متشوفون لتعبيرها ، وقد أهمتهم .

ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي

---

فعبر يوسف، السبع البقرات السمان، والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات.

ولعل وجه ذلك — والله أعلم — أن الخصب والجدب — لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب، قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك.

وكانت البقر، هى التى تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث فى الغالب.

والسنبلات، هى أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك، لوجود المناسبة.

فجمع لهم فى تأويلها، بين التعبير، والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به، من التدابير فى سنى الخصب، إلى سنى الجدب فقال:

[ تزرعون سبع سنين دأبا ] أى: متتابعات.

[ فما حصدتم ] من تلك الزروع [ فذروه ] أى: اتركوه [ فى سنبله ] لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه(١) [ إلا قليلا مما تأكلون ] أى:

---

(١) قوله « وأبعد من الالتفات إليه » لا يخفى ما فى هذا التعبير من الإبهام، فلو قال: « وأبعد من تسرب ووصول التلف إليه » لكان أوضح وأولى.

=

مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

---

دبروا أكلكم فى هذه السنين الخصبة ، وليكن قليلا ، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه .

[ ثم يأتى من بعد ذلك ] أى : بعد تلك السنين السبع المخصبات .

[ سبع شداد ] أى : مجدبات [ يأكلن ما قدمتم لهن ] أى : يأكلن جميع ما ادخرتموه ، ولو كان كثيراً .

[ إلا قليلا مما تحصنون ] أى : تمنعونه من التقديم لهن .

[ ثم يأتى من بعد ذلك ] أى : السبع الشداد [ عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ] أي : فيه تكثر الأمطار والسيول ، وتكثر الغلات ، وتزيد على أقواتهم ، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه ، زيادة على أكلهم.

ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب ، مع أنه غير مصرح به فى رؤيا الملك .

---

= وقد علق الخبراء على هذه الآية بقولهم: « تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب فى سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات .

وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة وأن ذلك الإلهام كان لنبى من أنبياء الله ، وهو : يوسف عليه السلام .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ

---

لأنه فهم من التعبير ، بالسبع الشداد ، أن العام الذى يليها ، تزول به شدتها .

ومن المعلوم ، أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات ، إلا بعام مخصب جداً ، وإلا لما كان للتقدير فائدة .

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس ، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا ، عجبوا من ذلك ، وفرحوا بها أشد الفرح .

* يقول تعالى : [ وقال الملك ] لمن عنده [ ائتونى به ] أى : بيوسف عليه السلام ، بأن يخرجوه من السجن ، ويحضروه إليه .

[ فلما جاءه الرسول ] وأمره بالحضور عند الملك ، امتنع عن المبادرة إلى الخروج ،حتى تتبين براءته التامة ، وهذا من صبره ،وعقله ورأيه التام.

وحينئذ [ قال ] للرسول : [ ارجع إلى ربك ] يعنى به الملك .

[ فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ] أى : اسأله ، ما شأنهن وقصتهن ، فإن أمرهن ظاهر متضح [ إن ربى بكيدهن عليم ] .

فأحضرهن الملك ، وقال : [ ما خطبكن ] أى : شأنكن [ إذ راودتن يوسف عن نفسه ] فهل رأيتن منه ما يريب ؟ .

فبرَّأْنَه و [ قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ] أي : لا قليل ولا كثير .

عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ

---

فحينئذ زال السبب ، الذى تبنى عليه التهمة ، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز .

[ قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ] أى : تمحص وتبين ، بعد ما كنا ندخل عليه من السوء والتهمة ، ما أوجب له السجن .

[ أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ] فى أقواله وبراءته .

[ ذلك ] الإقرار ، الذى أقررت ، أنى راودت يوسف [ ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ] .

يحتمل أن مرادها بذلك ، زوجها أى : ليعلم أنى حين أقررت ، أنى راودت يوسف ، أنى لم أخنه بالغيب ،أى :لم يَجْرِ مِنِّى إلا مجرد المراودة ، ولم أفسد عليه فراشه .

ويحتمل أن المراد بذلك ، ليعلم يوسف ، حين أقررت أنى ، أنا الذى راودته ، وأنه صادق ، أنى لم أخنه فى حال غيبته ، عنى .

[ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ] فإن كل خائن ، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه ، ولا بد أن يتبين أمره .

ثم لما كان فى هذا الكلام ، نوع تزكية لنفسها ، وأنه لم يجر منها ذنب فى شأن يوسف ، استدركت فقالت :

ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ
أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

---

[ وما أبرىء نفسى ] أى : من المراودة والهم ، والحرص الشديد ، والكيد فى ذلك .

[ إن النفس لأمارة بالسوء ] أى : لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء ، أى: الفاحشة ، وسائر الذنوب ، فإنها مركب الشيطان ، ومنها يدخل على الإنسان [ إلا ما رحم ربى ] فنجاه من نفسه الأمارة ، حتى صارت نفسه ، مطمئنة إلى ربها ، منقادة لداعى الهدى ، متعاصية عن داعى الردى ، فذلك ليس من النفس ، بل من فضل الله ورحمته بعبده .

[ إن ربى غفور ] أى : هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصى ، إذا تاب وأناب .

[ رحيم ] بقبول توبته ، وتوفيقه للأعمال الصالحة .

وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز ، لا من قول يوسف.

فإن السياق فى كلامها ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر .

فلما تحقق الملك والناس ، براءة يوسف التامة ، أرسل إليه الملك وقال :

[ ائتونى به أستخلصه لنفسى ] أى : أجعله من خلصائى ، ومقرباً لدىَّ فأتوه به مكرما محترماً .

[ فلما كلمه ] أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له :

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ

---

[ إنك اليوم لدينا ] أى : عندنا [ مكين أمين ] أى : متمكن ، أمين على الأسرار .

[ قال ] يوسف طلباً للمصلحة العامة : [ اجعلنى على خزائن الأرض ] أى : على خزائن جبايات الأرض وغلالها ، وكيلا ، حافظاً ، مدبراً .

[ إنى حفيظ عليم ] أى : حفيظ للذى أتولاه ، فلا يضيع منه شىء فى غير محله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير ، والإعطاء ، والمنع ، والتصرف فى جميع أنواع التصرفات .

وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه ، فى النفع العام .

وقد عرف من نفسه من الكفاية ، والأمانة ، والحفظ ، ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك ، أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على خزائن الأرض ، وولاه إياها .

قال تعالى : [ وكذلك ] أى بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة .

[ مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ] فى عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاه عريض .

[ نصيب برحمتنا من نشاء ] أى : هذا من رحمة الله بيوسف ، التى أصابه بها ، وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾
وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ

---

[ ولا نضيع أجر المحسنين ] ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، ولهذا قال:

[ ولأجر الآخرة خير ] من أجر الدنيا [ للذين آمنوا وكانوا يتقون ] أى : لمن جمع بين التقوى والإيمان .

فبالتقوى ، تترك الأمور المحرمة ، من كبائر الذنوب وصغائرها .

وبالإيمان التام ، يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

* أى : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن تدبير .

فزرع فى أرض مصر جميعها ، فى السنين المخصبة ، زروعا هائلة ، واتخذ لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة ، شيئاً كثيراً ، وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً .

فلما دخلت السنون المجدبة ، وسرى الجدب ، حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه .

فأرسل يعقوب بنيه ، لأجل الميرة إلى مصر .

[ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ] أى : لم يعرفوه .

مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم
مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾
فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟

---

[ ولما جهزهم بجهازهم ] أى : كال لهم كما كان يكيل لغيرهم .

وكان من تدبيره الحسن ، أنه لا يكيل لكل واحد ، أكثر من حمل بعير .

وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه ، وهو بنيامين .

[ قال ] لهم : [ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ] ثم رغبهم فى الإتيان به فقال :

[ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ] فى الضيافة والإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : [ فإن لم تأتونى به ، فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ] .

وذلك ، لعلمه باضطرارهم ، إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

[ قالوا سنراود عنه أباه ] دل هذا على أن يعقوب عليه السلام ، كان مولعاً به ، لا يصبر عنه ، وكان يتسلى به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مراودة فى بعثه معهم [ وإنا لفاعلون ] لما امرتنا به .

[ وقال ] يوسف [ لفتيانه ] الذين فى خدمته : [ اجعلوا بضاعتهم ] أى : الثمن الذى اشتروا به من الميرة .

بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ
مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

---

[ فى رحالهم لعلهم يعرفونها ] أى : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك ، فى رحالهم .

[ لعلهم يرجعون ] لا لأجل التحرج من أخذها على ما قيل .

والظاهر ، أنه أراد أن يرغبهم فى إحسانه إليهم ، بالكيل لهم كيلا وافياً ثم إعادة بضاعتهم إليهم ، على وجه لا يحسون بها،ولا يشعرون لما يأتى ، فإن الإحسان ، يوجب للإنسان ، تمام الوفاء للمحسن .

[ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يأأبانا منع منا الكيل ] أى : إن لم ترسل معنا أخانا .

[ فأرسل معنا أخانا نكتل ] أى : ليكون ذلك سبباً لكيلنا .

ثم التزموا له بحفظه فقالوا : [ وإنا له لحافظون ] من أن يعرض له ما يكره .

[ قال ] لهم يعقوب عليه السلام : [ هل آمنكم عليه ، إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ] .

أى : تقدم منكم التزام ، أكثر من هذا ، فى حفظ يوسف ، ومع هذا ، فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أثق بالله تعالى .

قالَ هَلْ ءامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ

---

[ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ] أى : يعلم حالى ، وأرجو أن يرحمنى ، فيحفظه ويرده عَلَىَّ ، وكأنه فى هذا الكلام،قدلان لإرساله معهم .

ثم إنهم [ لما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ].

هذا دليل ، على أنه قد كان معلوماً عندهم ، أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد ، وأنه أراد أن يملكهم إياها .

[ قالوا ] لأبيهم - ترغيباً فى إرسال أخيهم معهم - : [ يا أبانا ما نبغى] أى : أى شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل ، حيث وفَّى لنا الكيل ، ورد علينا بضاعتنا ، على الوجه الحسن ، المتضمن للإخلاص ، ومكارم الأخلاق ؟

[ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ] أى : إذا ذهبنا بأخينا ، صار سبباً لكيله لنا ، فنمير أَهلنا ، ونأتى لهم ، بما هم مضطرون إليه من القوت.

[ ونحفظ أَخانا ونزداد كيل بعير ] بإرساله معنا ، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير .

[ ذلك كيل يسير ] أَى : سهل ، لا ينالك منه ضرر ، لأن المدة لا تطول ، والمصلحة قد تبينت .

يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ

---

[ قال ] لهم يعقوب : [ لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله ] أى : عهداً ثقيلا ، وتحلفون بالله [ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ] أى : إلا أن يأتيكم أمر ، لا قِبَلَ لكم به ، ولا تقدرون دفعه .

[ فلما آتوه موثقهم ] على ما قال وأراد [ قال : الله على ما نقول وكيل] أى تكفينا شهادته علينا ، وحفظه وكفالته .

ثم لما أرسله معهم ، وصاهم ، إذا هم قدموا مصر ، أن [ لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ] وذلك لأنه خاف عليهم العين ، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد ، وهذا سبب .

[و] إلا [ ما أغني عنكم من الله شيئاً ] فالمقدر ، لا بد أن يكون .

[ إن الحكم إلا لله ] أى القضاء ، قضاؤه ، والأمر أمره .

فما قضاه وحكم به ، لابد أن يقع .

[ عليه توكلت ] أى : اعتمدت على الله ، لا على ما وصيتكم به من السبب .

[ وعليه فليتوكل المتوكلون ] فإن بالتوكل ، يحصل كل مطلوب ، ويندفع كل مرهوب .

[ ولما ] ذهبوا و [دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان ] ذلك الفعل [يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ] وهو موجب الشفقة ، والمحبة للأولاد ، فحصل له فى ذلك ، نوع طمأنينة ، وقضاء لما فى خاطره .

وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾
وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ

---

وليس هذا قصوراً فى علمه ، فإنه من الرسل الكرام ، والعلماء الربانيين .

ولهذا قال عنه : [ وإنه لذو علم ] أى : لصاحب علم عظيم [ لما علمناه ] أى : لتعليمنا إياه ، لا بحوله وقوته أدركه ، بل بفضل الله وتعليمه .

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] عواقب الأمور ، ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم ، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ، ولوازمه شىء كثير .

* أى : لما دخل إخوة يوسف على يوسف [ آوى إليه أخاه ] أى : شقيقه وهو « بنيامين » الذى أمرهم بالإتيان به ، وضمه إليه ، واختصه من بين إخوته ، وأخبره بحقيقة الحال .

[ قال : إنى أنا أخوك فلا تبتئس ] أى: لا تحزن [ بما كانوا يعملون] فإن العاقبة خير لنا . ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهى الأمر .

أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ

---

[ فلما جهزهم بجهازهم ] أى : كال لكل واحد من إخوته ، ومن جملتهم أخوه هذا .

[ جعل السقاية ] وهو : الإناء الذى يشرب به ، ويكال فيه [ فى رحل أخيه ثم ] أوعوا متاعهم .

فلما انطلقوا ذاهبين ،[ أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ] .

ولعل هذا المؤذن ، لم يعلم بحقيقة الحال .

[ قالوا ]أى : إخوة يوسف [ وأقبلوا عليهم ] لإبعاد التهمة .

فإن السارق ، ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه ، لتسلم له سرقته .

وهؤلاء ، جاءوا مقبلين إليهم ، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة ، التى رموا بها عنهم .

فقالوا فى هذه الحال : [ ماذا تفقدون ] ولم يقولوا « ما الذى سرقنا » لجزمهم بأنهم برآء من السرقة .

[ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ] أى : أجرة له ، على وجدانه [ وأنا به زعيم ] أى : كفيل ، وهذا يقوله المتفقد .

زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن

---

[ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لتفسد فى الأرض ] بجميع أنواع المعاصى .

[وما كنا سارقين] فإن السرقة ، من أكبر أنواع الفساد فى الأرض .

وإنما أقسموا على علمهم ، أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين ، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم ، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم ، وهذا أبلغ فى نفى التهمة ، من أن لو قالوا : « تالله لم نفسد فى الأرض ولم نسرق » .

[ قالوا فما جزاؤه ] أى : جزاء هذا الفعل [ إن كنتم كاذبين ] بأن كان معكم ؟

[ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله ، فهو ] أى الموجود فى رحله [جزاؤه] بأن يتملكه صاحب السرقة .

وكان هذا فى دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة ، كان ملكا لصاحب المال المسروق ، ولهذا قالوا : [ كذلك نجزى الظالمين ] .

[ فبدأ ] المفتش [ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ] وذلك لتزول الريبة التى يظن أنها فعلت بالقصد .

[ ثم ] لما لم يجد فى أوعيتهم شيئاً [ استخرجها من وعاء أخيه ] ولم يقل « وجدها ، أو سرقها أخوه » مراعاة للحقيقة الواقعة .

وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ

---

فحينئـذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده ، على وجه لا يشعر به إخوته .

قال تعالى: [ كذلك كدنا ليوسف ] أى: يسَّرْنا له هذا الـكيد، الذى توصل به إلى أمر غير مذموم [ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ] لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق ، وإنما له عندهم ، جزاء آخر .

فلو ردت الحـكومة إلى دين الملك ، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده .

ولـكنه جعل الحـكم منهم ، ليتم له ما أراد .

قال تعالى [ نرفع درجات من نشاء ] بالعلم النـافع ، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها ، كما رفعنا درجات يوسف .

[ وفوق كل ذى علم عليم ] فـكل عالم ، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهى العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا [ قالوا إن يسرق ] هذا الأخ ، فليس هذا غريباً عنه .

[ فقد سرق أخ له من قبل ] يعنون : يوسف عليه السلام .

ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه ، وقد يصدر منهم ما يصدر من السرقة ، وهما ليسا شقيقين لنا .

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

---

وفى هذا من الغض عليهما ، ما فيه ، ولهذا : أسرها يوسف فى نفسه [ولم يبدها لهم] أى لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ، بل كظم الغيظ ، وأسرَّ الأمر فى نفسه .

و[قال] فى نفسه [أنتم شر مكاناً] حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه .

[والله أعلم بما تصفون] منا، من وصفنا بالسرقة ، يعلم الله أنا برآء منها.

ثم سلكوا معه ، مسلك التملق ، لعله يسمح لهم بأخيهم .

[قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً] أى : وإنه لا يصبر عنه ، وسيشق عليه فراقه .

[فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين] فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

[قال] يوسف [معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده] أى : هذا ظلم منا ، لو أخذنا البرىء ، بذنب من وجدنا متاعنا عنده ، ولم يقل « من سرق » كل هذا تحرز من الكذب .

[إنا إذاً] أى : إن أخذنا غير من وجد فى رحله [لظالمون] حيث وضعنا العقوبة فى غير موضعها .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا

---

أى : فلما استيأس[1] إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم [ خلصوا نجياً ] أى : اجتمعوا وحدهم ، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم .

[ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ] فى حفظه ، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم [ ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ] .

فاجتمع عليكم الأمران ، تفريطكم السابق فى يوسف ، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق ، فليس لى وجه أواجه به أبى .

[ فلن أبرح الأرض ] أى : سأقيم فى هذه الأرض ، ولا أزال بها [ حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ] أى : يقدر لى المجىء وحدى ، أو مع أخى [ وهو خير الحاكمين ] .

ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم فقال :

[ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق] أى : وأُخِذَ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به ، مع ما بذلنا من الجهد فى ذلك .

---

(١) أي : فلما انقطع منهم الأمل ، ويئسوا من قبول الرجاء

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ

---

والحال ، أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه ، وإنما شهدنا بما علمنا ، لأننا رأينا الصواع ، استخرج من رحله .

[ وما كنا للغيب حافظين ] أى : لو كنا نعلم الغيب ، لما حرصنا ، وبذلنا المجهود فى ذهابه معنا ، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا ، فلم نظن أن الأمر . سيبلغ ما بلغ .

[ واسئل ] إن شككت فى قولنا [ القرية التى كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ] فقد اطلعوا على ما أخبرناك به [ وإنا لصادقون ] لم نكذب ، ولم نغير ، ولم نبدل ، بل هذا الواقع .

فلما رجعوا إلى أبيهم ، وأخبروه بهذا الخبر ، اشتد حزنه ، وتضاعف كمده ، واتهمهم أيضاً فى هذه القضية ، كما اتهمهم فى الأولى .

و [قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل] أى : ألجأ فى ذلك ، إلى الصبر الجميل ، الذى لا يصحبه تسخط ، ولا جزع ، ولا شكوى للخلق .

ثم لجأ إلى حصول الفرج ، لما رأى أن الأمر اشتد ، والكربة انتهت فقال :

[عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ] أى : يوسف و «بنيامين» ، وأخوهم الكبير ، الذى أقام فى مصر .

ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

---

[ إنه هو العليم ] الذى يعلم حالى ، واحتياجى إلى تفريجه ومِنَّتِه ، واضطرارى إلى إحسانه .

[ الحكيم ] الذى جعل لكل شىء قدراً ، ولكل أمر منتهى ، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية .

* أى : وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده ، بعد ما أخبروه هذا الخبر ، واشتد به الأسف والأسى ، وابيضت عيناه من الحزن ، الذى فى قلبه ، والكمد الذى أوجب له كثرة البكاء ، حيث ابيضت عيناه من ذلك .

[ فهو كظيم ] أى : ممتلىء القلب من الحزن الشديد .

[ وقال يا أسفى على يوسف ] أى : ظهر منه ما كمن من الهم القديم ، والشوق المقيم ، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة ، بالنسبة للأولى ، المصيبة الأولى ، فقال له أولاده — متعجبين من حاله — :

[ تالله تفتأ تذكر يوسف ] أى : لا تزال تذكر يوسف فى جميع أحوالك .

[ حتى تكون حرضاً ] أى : فانياً لا حراك فيك ، ولا قدرة على الكلام .

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ

---

[ أو تكون من الهالكين ] أى : لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً .

[ قال ] يعقوب [ إنما أشكو بثى ] أى : ما أبت من الكلام [وحزنى] الذى فى قلبى [ إلى الله ] وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم [ وأعلم من الله ما لا تعلمون ] من أنه سيردهم عَلَىَّ ويقر عينى بالاجتماع بهم .

* أى : قال يعقوب عليه السلام لبنيه [ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ] .

أى: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما [ولا تيأسوا من روح الله].

فإن الرجاء ، يوجب للعبد ، السعى والاجتهاد ، فيما رجاه ، والإياس : يوجب له التثاقل والتباطؤ .

وأولى ما رجا العباد ، فضل الله وإحسانه ، ورحمته ، وروحه .

[ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ] .

فإنهم — لكفرهم — يستبعدون رحمته ، ورحمته بعيدة منهم ، فلا تتشبهوا بالكافرين .

مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ

---

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد، يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه.

فذهبوا [ فلما دخلوا عليه ] أى : على يوسف [ قالوا ] متضرعين إليه : [ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ] أى : قد اضطررنا نحن وأهلنا [ وجئنا ببضاعة مزجاة ] أى : مدفوعة مرغوب عنها، لقلتها، وعدم وقوعها الموقع.

[ فأوف لنا الكيل ] أى : مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب.

[ إن الله يجزى المتصدقين ] بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقَّ لهم يوسف رِقَّةً شديدة، وعرَّفَهُمْ بنفسه، وعاتبهم فقال :

[ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ] أما يوسف فظاهر فعلهم فيه.

وأما أخوه، فلعله — والله أعلم — قولهم : [ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ].

أو أن الحادث الذى فرَّق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له.

[ إذ أنتم جاهلون ] وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغى، ولا يليق منهم.

لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ
إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

---

فعرفوا أن الذى خاطبهم ، هو يوسف فقالوا :

[ أإنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا] بالإيمان والتقوى ، والتمكين فى الدنيا ، وذلك بسبب الصبر والتقوي .

[ إنه من يتق ويصبر ] أى : يتقى فعل ما حرم الله ، ويصبر على الآلام والمصائب ، وعلى الأوامر ، بامتثالها [ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ] فإن هذا ، من الإحسان ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

[قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ] أى : فضلك علينا ، بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وأسأنا إليك غاية الإساءة ، وحرصنا على إيصال الأذى إليك ، والتبعيد لك عن أبيك ، فآثرك الله تعالى ، ومكنك مما تريده [وإن كنا لخاطئين ] .

[قال] لهم يوسف عليه السلام ، كرما وجوداً : [ لاتثريب عليكم اليوم] أى : لا أثرب عليكم ولا ألومكم [ يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ] .

فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذى لا يتأتى إلا من خواص الخلق ، وخيار المصطفين .

۞ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ

---

أى : قال يوسف عليه السلام لإخوته : [ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ] لأن كل داء يداوى بضده .

فهذا القميص — لما كان فيه أثر ريح يوسف ، الذى أودع قلب أبيه من الحزن ، والشوق ، ما الله به عليم — أراد أن يشمه ، فترجع إليه روحه ، وتتراجع إليه نفسه ، ويرجع إليه بصره .

ولله فى ذلك حكم وأسرار ، لا يطلع عليها العباد ، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .

[ وأْتُونى بأهلكم أجمعين ] أى : أولادكم وعشيرتكم ، وتوابعكم كلهم ، ليحصل تمام اللقاء ، ويزول عنكم نكد المعيشة ، وضنك الرزق .

[ ولما فصلت العير ] عن أرض مصر ، مقبلة إلى أرض فلسطين ، شَمَّ يعقوب ريح القميص فقال :

[ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ] أى : تسخرون منى ، وتزعمون أن هذا الكلام ، صدر منى ، من غير شعور ، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ، ما أوجب له هذا القول .

فوقع ما ظنه بهم فقالوا : [تالله إنك لفى ضلالك القديم] أى: لا تزال تائهاً فى بحر لُجِّىٍّ لا تدرى ما تقول .

تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ
عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا
خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

---

[ فلما أن جاء البشير ] بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم .

[ ألقاه ] أى : القميص [ على وجهه ، فارتد بصيراً ] أى : رجع إلى حاله الأولى بصيراً ، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن .

فقال لمن حضره من أولاده وأهله ، الذين كانوا يفندون رأيه ، ويتعجبون منه منتصراً عليهم ، مغتبطا بنعمة الله عليه :

[ ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ] حيث كنت مترجياً للقاء يوسف ، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن .

فأقروا بذنبهم و [ قالوا : ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ] حيث فعلنا معك ما فعلنا .

[قال] مجيباً لطلبتهم ، ومسرعا لإجابتهم : [ سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم ] ورجائى به ، أن يغفر لكم ، ويرحمكم ، ويتغمدكم برحمته .

وقد قيل : إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ، ليكون أتمَّ للاستغفار ، وأقرب للإجابة .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن

---

أى : [ فلما ] تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون ، وارتحلوا من بلادهم ، قاصدين الوصول إلى يوسف فى مصر وسكناها .

فلما وصلوا إليه ، و[ دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ] أى : ضمهما إليه ، واختصهما بقربه ، وأبدى لهما من البر والإحسان ، والتبجيل والإعظام شيئاً عظيما .

[ وقال ] لجميع أهله : [ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ] من جميع المكاره والمخاوف .

فدخلوا فى هذه الحال السارة ، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة ، وحصل السرور والبهجة .

[ ورفع أبويه على العرش ] أى : على سرير الملك ، ومجلس العز .

[ وخروا له سجداً ] أى : أبوه ، وأمه ، وإخوته ، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام .

[وقال] لما رأى هذه الحال ، ورأى سجودهم له : [ يا أبت هذا تأويل رُءْيَىَ من قبل] حين رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر له ساجدين.

فهذا وقوعها ، الذى آلت إليه ووصلت [ قد جعلها ربى حقاً ] فلم يجعلها أضغاث أحلام .

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ

---

[ وقد أحسن بى ] إحساناً جسيما [ إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البَدْوِ ] .

وهذا من لطفه ، وحسن خطابه ، عليه السلام ، حيث ذكر حاله فى السجن ، ولم يذكر حاله فى الجب ، لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لايذكر ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البادية ، من إحسان الله .

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب .

ولا قال : « أُحْسَنَ بكم » بل قال « أحسن بى » .

جعل الإحسان ، عائداً إليه .

فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ، ويهب لهم من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب .

[ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ] فلم يقل « نزغ الشيطان إخوتى » بل كأن الذنب والجهل ، صدر من الطرفين .

فالحمد لله ، الذى أخزى الشيطان ودحره ، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة .

إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ
تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

---

[ إن ربى لطيف لما يشاء ] يوصل بره وإحسانه إلى العبد ، من حيث لا يشعر ، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها .

[ وإنه هو العليم ] الذى يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ، وسرائر العباد وضمائرهم .

[ الحكيم ] فى وضعه الأشياء مواضعها ، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها .

* لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين فى الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذى أعطاه الله إياه فقال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام [ رب قد آتيتنى من الملك ] وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك [ وعلمتنى من تأويل الأحاديث ] أى من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم [ فاطر السموات والأرض توفني مسلماً ] أى أدم عَلَىَّ الإسلام وثبتنى عليه حتى تتوفانى عليه ، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ، [ وألحقنى بالصالحين ] من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

---

لما قص الله هذه القصة على محمد صلى الله عليه وسلم قال الله له :

[ ذلك ] النبأ الذى أخبرناك به [ من أنباء الغيب نوحيه إليك ] ولولا إيحاؤنا إليك ، لما وصل إليك هذا الخبر الجليل .

[و] أنك [ ما كنت [ حاضراً ] لديهم [ إذ أجمعوا أمرهم ] أى : إخوة يوسف [ وهم يمكرون ] به ، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه ، فى حالة ، لا يطلع عليها إلا الله تعالى ، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها ، إلا بتعليم الله له إياها .

كما قال تعالى لما قص قصة موسى ، وما جرى له ، ذكر الحال التى لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فقال :

« وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين » الآيات ، فهذا أدل دليل ، على أن ما جاء بها رسول الله حق وصدق .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [وما أكثر الناس ولو حرصت] على إيمانهم [ بمؤمنين ] فإن مداركهم ومقاصدهم ، قد أصبحت فاسدة ،فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ، ولو عدمت الموانع ، بأنهم كانوا يعلمونهم ، ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ، ما أقاموا .

وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾
أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

---

ولهذا قال : [ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ] يتذكرون به ما ينفعهم ، ليفعلوه ، وما يضرهم ليتركوه .

[ وكأين ] أى : وكم [ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ] دالة لهم على توحيد الله [ وهم عنها معرضون ] .

ومع هذا [ و ] إن وجد منهم بعض الإيمان [ ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ] .

فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، فإنهم يشركون فى ألوهية الله وتوحيده .

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال ، لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب ، ويفاجئهم العقاب وهم آمنون ، ولهذا قال :

[ أفأمنوا ] أى : الفاعلون لتلك الأفعال ، المعرضون عن آيات الله [ أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ] أى : عذاب ، يغشاهم ويعمهم ، ويستأصلهم .

[ أو تأتيهم الساعة بغتة ] أى : فجأة [ وهم لا يشعرون ] أى : فإنهم قد استوجبوا ذلك ، فليتوبوا إلى الله وليتركوا ، ما يكون سبباً فى عقابهم .

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ قل ] للناس [ هذه سبيلى ] أى : طريقى ، التى أدعوا إليها ، وهى السبيل الموصلة إلى الله ، وإلى دار كرامته ، المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به ، وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له .

[ أدعو إلى الله ] أى : أَحُثُّ الخلق والعباد ، على الوصول إلى ربهم ، وأُرغِّبُهمْ فى ذلك ، وأَرَهِّبُهُمْ مما يبعدهم عنه .

ومع هذا ، فأنا [ على بصيرة ] من دينى ، أى : على علم ويقين ، من غير شك ولا امتراء ، ولا مرية .

[ أنا و ] كذلك [ من اتبعنى ] يدعو إلى الله ، كما أدعو ، على بصيرة من أمره .

[ وسبحان الله ] عما ينسب إليه ، مما لا يليق بجلاله ، أو ينافى كماله .

[وما أنا من المشركين] فى جميع أمورى ، بل أعبد الله ، مخلصاً له الدين .

ثم قال تعالى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ] أى: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق .

فلأى شىء يستغرب قومك رسالتك ، ويزعمون أنه ليس عليهم فضل.

فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة [ نوحى إليهم من أهل القرى ]

فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟
جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ

---

أى : لا من البادية ، بل من أهل القرى ، الذين هم أكمل عقولا ، وأصح آراء ، وليتبين أمرهم ، ويتضح شأنهم .

[ أفلم يسيروا فى الأرض ] إذا لم يصدقوا لقولك .

[ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ] كيف أهلكهم الله بتكذيبهم .

فاحذروا ، أن تقيموا على ما قاموا عليه ، فيصيبكم ما أصابهم .

[ ولدار الآخرة ] أي : الجنة وما فيها ، من النعيم المقيم .

[ خير للذين اتقوا ] الله ، فى امتثال أوامره ، وَاجتناب نواهيه .

فإن نعيم الدنيا ، منغص منكد ، منقطع .

ونعيم الآخرة ، تام كامل ، لا يفنى أبداً ، بل هو على الدوام ، فى تزايد وتواصل ، « عطاء غير مجذوذ » [ أفلا تعقلون ] أى : أفلا تكون لكم عقول ، تُؤْثِرُ الذى هو خير ، على الأدنى .

* يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام ، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام.

وأن الله تعالى يمهلهم ، ليرجعوا إلى الحق .

ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

---

حتى إن الرسل — على كمال يقينهم ، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده — ربما أنه يخطر بقلوبهم ، نوع من الإياس ، ونوع من ضعف العلم والتصديق .

فإذا بلغ الأمر هذه الحال [ جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ] وهم الرسل وأتباعهم .

[ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ] أى : ولا يرد عذابنا ، عمن اجترم ، وتجرأ على الله « فما لهم من قوة ولا ناصر » .

[ لقد كان فى قصصهم ] أى قصص الأنبياء والرسل مع قومهم .

[ عبرة لأولى الألباب ] أى : يعتبرون بها ، أهل الخير ، وأهل الشر .

وأن من فعل مثل فعلهم ، ناله ما نالهم ، من كرامة ، أو إهانة .

ويعتبرون بها أيضا ، ما لله ، من صفات الكمال والحكمة العظيمة ، وأنه الله ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

وقوله [ ما كان حديثاً يفترى ] أى : ما كان هذا القرآن ، الذى قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص ، من الأحاديث المفتراة المختلقة .

[ ولكن ] كان تصديق [ الذى بين يديه ] من الكتب السابقة ، يوافقها ، ويشهد لها بالصحة .

[ وتفصيل كل شىء ] يحتاج إليه العباد ، من أصول الدين وفروعه ، ومن الأدلة والبراهين .

. . . . . . . . . . .

[ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ] فإنهم — بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره — يحصل لهم الهدى ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل ، تحصل لهم الرحمة .

## فصل

فى ذكر شىء من العبر والفوائد التى اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التى قال الله فى أولها [ نحن نقص عليك أحسن القصص ] وقال [ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ] وقال فى آخرها [ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ] غير ما تقدم فى مطاويها من الفوائد .

فمن ذلك ، أن هذه القصة ، من أحسن القصص وأوضحها ، وأبينها ، لما فيها من أنواع التنقلات ، من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومِنَّةٍ ، ومن ذل إلى عز ومن رقٍّ إلى ملك ، ومن فرقة وشتات ، إلى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن إلى سرور ، ومن رخاء إلى جدب ، ومن جدب إلى رخاء ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن إنكار إلى قرار .

فتبارك من قصها ، فأحسنها ، ووضحها وبَيَّنها .

ومنها : أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا ، فإن علم التعبير ، من العلوم المهمة ، التى يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تبنى عليه ، المناسبة والمشابهة فى الاسم والصفة .

فإن رؤيا يوسف ، التي رأى فيها الشمس والقمر ، وأحد عشر كوكباً له ساجدين ، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار ، هى زينة السماء وجمالها ، وبها منافعها .

. . . . . . . . . . .

---

فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع.

فمن المناسب أن يكون الأصل، أعظم نوراً، وجرماً، لما هو فرع عنه.

فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس، لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب، مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته.

ومن المناسبة، أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود، معظم محترم.

فلذلك، دل ذلك، على أن يوسف يكون معظما محترماً، عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك، أن يكون مجتبى مفضلا، في العلم والفضائل، الموجبة لذلك.

ولذلك قال أبوه: «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث».

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أن الرؤيا الأولى، التي رأى صاحبها، أنه يعصر خمرا، أن الذي يعصر خمراً في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره.

فلذلك أَوَّلَهُ بما يئول إليه، أنه يسقى ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأوّل رؤيا الآخر، أي: أنه يحمل فوق رأسه خبزا، تأكل الطير

. . . . . . . . . . .

---

منه ، بأن جلدة رأسه ولحمه ، وما فى ذلك من المخ ، أنه هو الذى يحمل ، وأنه سيبرز للطيور ، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه .

فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه .

وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وَأوَّلَ رؤيا الملك ، للبقرات والسنبلات ، بالسنين المخصبة ، والسنين المجدبة .

ووجه المناسبة ، أن الملك ، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها ، وبصلاحه تصلح ، وبفساده تفسد .

وكذلك السنون ، بها صلاح أحوال الرعية ، واستقامة أمر المعاش ، أو عدمه .

وأما البقر ، فإنها تحرث الأرض عليها ، ويستقى عليها الماء .

وإذا أخصبت السنة ، سمنت ، وإذا أجدبت ، صارت عجافاً .

وكذلك السنابل فى الخصب ، تكثر وتخضر ، وفى الجدب ، تقل وتيبس وهى أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الأدلة ، على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ، ولا دارس أحداً .

يراه قومه ، بين أظهرهم ، صباحا ومساء ، وهو أُمِّىٌّ لا يخط ولا يقرأ .

وهى موافقة ، لما فى الكتب السابقة ، وما كان لديهم ، إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : أنه ينبغى البعد عن أسباب الشر ، وكتمان ما تخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف [ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ].

ومنها أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : [ فيكيدوا لك كيدا ] .

ومنها : أن نعمة الله على العبد ، نعمة على من يتعلق به ، من أهل بيته ، وأقاربه ، وأصحابه ، وأنه ربما شملهم ، وحصل لهم ما حصل له بسببه ، كما قال يعقوب فى تفسيره لرؤيا يوسف [ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ] .

ولما تمت النعمة على يوسف ، حصل لآل يعقوب ، من العز والتمكين فى الأرض ، والسرور والغبطة ، ما حصل بسبب يوسف .

ومنها : أن العدل مطلوب فى كل الأمور ، لا فى معاملة السلطان رعيته فقط ، ولا فيما دونه ، بل حتى فى معاملة الوالد لأولاده ، فى المحبة والإيثار ، وغيره ، وأن فى الإخلال بذلك ، يختل عليه الأمر ، وتفسد الأحوال .

ولهذا ، لما قدم يعقوب يوسف فى المحبة ، وآثره على إخوته ، جرى منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى أبيهم وأخيهم .

ومنها : الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد ، يستتبع ذنوباً متعددة ، ولا يتم لفاعله ، إلا بعد جرائم .

فإخوة يوسف ، لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه ، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا على أبيهم فى القميص

. . . . . . . . . . .

---

والدم ، الذى فيه ، وفى إتيانهم عشاء يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها ، فى تلك المدة ، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف .

وكلما صار البحث ، حصل من الإخبار بالكذب ، والافتراء ، ماحصل.

وهذا شؤم الذنب ، وآثاره التابعة ، والسابقة ، واللاحقة .

ومنها : أن العبرة فى حال العبد ، بكمال النهاية ، لا بنقص البداية .

فإن أولاد يعقوب ، عليه السلام ، جرى منهم ماجرى ، فى أول الأمر ، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والسماح التام ، من يوسف ، ومن أبيهم ، والدعاء بالمغفرة والرحمة .

وإذا سمح العبد عن حقه ، فالله خير الراحمين .

ولهذا — فى أصح الأقوال — أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى [وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ] .

والأسباط هم : أولاد يعقوب الاثنا عشر ، وذريتهم .

ومما يدل على ذلك ، أن فى رؤيا يوسف ، أنه رآهم كواكب نيرة ، والكواكب فيها النور والهداية ، وذلك من صفات الأنبياء ، فإن لم يكونوا أنبياء ، فإنهم علماء هداة .

ومنها : ما مَنَّ الله به على يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، من العلم ، والحلم ، ومكارم الأخلاق ، والدعوة إلى الله ، وإلى دينه ، وعفوه عن إخوته الخاطئين ، عفوًا بادرهم به ، وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم ، ولا يعيرهم به .

. . . . . . . . . . .

---

ثم بِرُّهُ العظيم بأبويه ، وإحسانه لإخوته ، بل لعموم الخلق .

ومنها : أن بعض الشر ، أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين ، أولى من ارتكاب أعظمهما .

فإن إخوة يوسف ، لما اتفقوا على قتل يوسف ، أو إلقائه أرضا وقال قائل منهم : [ لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب ] كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها : أن الشيء إذا تداولته الأيدى ، وصار من جملة الأموال ، ولم يعلم أنه كان على غير الشرع ، أنه لا إثم على من باشره ، ببيع ، أو شراء ، أو خدمة ، أو انتفاع ، أو استعمال .

فإن يوسف عليه السلام ، باعه إخوته بيعاً حراما ، لا يجوز .

ثم ذهبت به السيارة إلى مصر ، فباعوه بها ، وبقى عند سيده غلاما رقيقاً ، وسماه الله سيداً ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم .

ومنها : الحذر من الخلوة بالنساء ، اللائى يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً من المحبة ، التى يخشى ضررها .

فإن امرأة العزيز ، جرى منها ما جرى ، بسبب انفرادها بيوسف ، وحبها الشديد له ، الذى ما تركها ، حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه ، فسجن — بسببها — مدة طويلة .

ومنها : أن الهمّ الذى ، همّ به يوسف بالمرأة ، ثم تركه لله ، مما يرقيه إلى الله زلفى ، لأن الهمّ داع من دواعى النفس ، الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة لأغلب الخلق .

. . . . . . . . . . .

---

فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته ، غلبت محبة الله وخشيته ، داعى النفس والهوى .

فكان ممن « خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » .

ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظل عرشه ، يوم لاظل إلا ظله ، أحدهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله .

وإنما الهم الذى يلام عليه العبد ، الهم الذى يساكنه ، ويصير عزما ، ربما اقترن به الفعل .

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه ، وكان مخلصا لله ، فى جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه ، وصدق إخلاصه ، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصى ، ماهو جزاء لإيمانه واخلاصه لقوله . [ وهم بها لولا أن رآى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ] على قراءة من قراها بكسر اللام .

ومن قرأها بالفتح ، فإنه من إخلاص الله إياه ، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه .

فلما أخلص عمله لله ، أخلصه الله ، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها : أنه ينبغى للعبد ، إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية ، أن يفر منه ، ويهرب ، غاية مايمكنه ، ليتمكن من التخلص من المعصية .

لأن يوسف عليه السلام — لما راودته التى هو فى بيتها ـ فر هاربا ، يطلب الباب ، ليتخلص من شرها .

ومنها : أن القرائن يعمل بها ، عند الاشتباه .

. . . . . . . . . . .

---

فلو تخاصم رجل وامراته فى شىء ، من أوانى الدار ، فما يصلح للرجل ، فإنه للرجل ، وما يصلح للمرأة ، فهو لها ، هذا إذا لم يكن بينة .

وكذا لو تنازع نجار وحداد فى آلة حرفتهما ، من غير بينة .

والعمل بالقيافة ، فى الأشباه والأثر ، من هذا الباب .

فإن شاهد يوسف ، شهد بالقرينة ، وحكم بها فى قد القميص ، واستدل بِقَدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها .

ومما يدل على هذه القاعدة ، أنه استدل بوجود الصُّواع فى رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة ، من غير بينة شهادة ، ولا إقرار .

فعلى هذا ، إذا وجد المسروق فى يد السارق ، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة ، فإنه يحكم عليه بالسرقة ، وهذا أبلغ من الشهادة .

وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر ، أو وجود المرأة التى لا زوج لها ولا سيد ، حاملا ، فإنه يقام بذلك ، الحد ، مالم يقم مانع منه .

ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهداً فقال : [ وشهد شاهد من أهلها ] .

ومنها : ماعليه يوسف ، من الجمال الظاهر والباطن .

فإن جماله الظاهر ، أوجب للمرأة التى هو فى بيتها ، ما أوجب .

وللنساء اللاتى جمعتهن حين لُمْنَهَا على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن [ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ] .

وأما جماله الباطن ، فهو العفة العظيمة عن المعصية ، مع وجود الدواعى الكثيرة لوقوعها ، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ، ببراءته .

. . . . . . . . . . .

---

ولهذا قالت امرأة العزيز: [ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ] .

وقالت بعد ذلك : [ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ] .

وقالت النسوة : [ حاش لله ما علمنا عليه من سوء ] .

ومنها : أن يوسف عليه السلام ، اختار السجن على المعصية .

فهكذا ينبغى للعبد ، إذا ابتلى بين أمرين — إما فعل معصية ، وإما عقوبة دنيوية — أن يختار العقوبة الدنيوية ، على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة ، فى الدنيا والآخرة .

ولهذا من علامات الإيمان ، أن يكره العبد أن يعود فى الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار .

ومنها : أنه ينبغى للعبد ، أن يلتجىء إلى الله ، ويحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية ، ويتبرأ من حوله وقوته ، لقول يوسف عليه السلام [ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ] .

ومنها : أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير ، وينهيانه عن الشر .

وأن الجهل ، يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس ، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه .

ومنها : أنه كما على العبد عبودية لله فى الرخاء ، فعليه عبودية له فى الشدة .

. . . . . . . . . . . .

فـ « يوسف » عليه السلام ، لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن ، استمر على ذلك ، ودعا الفتيين إلى التوحيد ، ونهاهما عن الشرك .

ومن فطنته عليه السلام ، أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته ، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا : [ إنا نراك من المحسنين ] وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما ، فرآهما ، متشوقين لتعبيرها عنده — رأى ذلك فرصة ، فانتهزها ، فدعاهما إلى الله تعالى ، قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرب لحصول مطلوبه .

وبين لهما أولا ، أن الذى أوصله إلى الحال التى رأياه فيها ، من الكمال والعلم ، إيمانه ، وتوحيده ، وتركه ملة من لايؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بلسان الحال .

ثم دعاهما بالمقال ، وبين فساد الشرك ، وبرهن عليه ، وحقيقة التوحيد ، وبرهن عليه .

ومنها : أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سئل المفتى ، وكان السائل فى حاجة أشد لغير ما سأل عنه ، أنه ينبغى له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله .

فإن هذا ، علامة على نصح المعلم وفطنته ، وحسن إرشاده وتعليمه .

فإن يوسف ـ لما سأله الفتيان عن الرؤيا ـ قدم لهما قبل تعبيرها — دعوتهما إلى الله وحده لاشريك له .

ومنها : أن من وقع فى مكروه وشدة ، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه ، أو الإخبار بحاله ، وأن هذا ، لايكون شكوى للمخلوق

. . . . . . . . . . .

---

فإن هذا ، من الأمور العادية ، التى جرى العرف باستعانة الناس ، بعضهم ببعض .

ولهذا قال يوسف ، للذى ظن أنه ناج من الفتيين : [ اذكرنى عند ربك ] .

ومنها : أنه ينبغى ويتأكد على المعلم ، استعمال الإخلاص التام فى تعليمه وأن لايجعل تعليمه ، وسيلة لمعاوضة أحد فى مال ، أو جاه ، أو نفع ، وأن لايمتنع من التعليم ، أولا ينصح فيه ، إذا لم يفعل السائل ماكلفه به المعلم .

فإن يوسف عليه السلام قد قال ، ووصى أحد الفتيين ، أن يذكره عند ربه ، فلم يذكره ونسى .

فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف ، أرسلوا ذلك الفتى ، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا ، فلم يعنفه يوسف ، ولا وبخه ، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله ، جواباً تاماً من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغى للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه ، مما يتعلق بسؤاله ، ويرشده إلى الطريق ، التى ينتفع بها ، فى دينه ودنياه ، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته ، وحسن إرشاده .

فإن يوسف ، عليه السلام ، لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك .

بل دلهم — مع ذلك — على ما يصنعون فى تلك السنين المخصبات ، من كثرة الزرع ، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يلام الإنسان على السعى فى دفع التهمة عن نفسه ، وطلب

. . . . . . . . . . .

---

البراءة لها ، بل يحمد على ذلك ، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة ، اللاتى قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم ، علم الأحكام والشرع ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ، ولو بلغت فى الحسن جمال يوسف .

فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة ، والسجن ، وبسبب عمله ، حصل له العز والرفعة ، والتمكين فى الأرض .

فإن كل خير فى الدنيا والآخرة ، من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير ، من العلوم الشرعية ، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه ، وأن تعبير الرؤيا ، داخل فى الفتوى ، لقوله للفتيين :

[ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ] وقال الملك [ أفتونى فى رؤياى ] .

وقال الفتى ليوسف : [ أفتنا فى سبع بقرات ] الآيات .

فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا ، من غير علم .

ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما فى نفسه ، من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كان فى ذلك مصلحة ، ولم يقصد به العبد الرياء ، وسلم من الكذب .

لقول يوسف : [ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ] .

وكذلك لاتذم الولاية ، إذا كان المتولى فيها ، يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله ، وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءة من غيره .

. . . . . . . . . . .

وإنما الذى يذم ، إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجوداً غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله .

فبهذه الأمور ، ينهى عن طلبها ، والتعرض لها .

ومنها : أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده ، بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة ، له سببان : الإيمان ، والتقوى . وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها .

وأن العبد ينبغى له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن ، إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها ، وهى غير قادرة عليها ، بل يسليها بثواب الله الأخروى ، وفضله العظيم لقوله تعالى : [ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ] .

ومنها : أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس ، من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة ، فى السنين المخصبات ، للاستعداد للسنين المجدبة .

وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله ، بل يتوكل العبد على الله ، ويعمل الأسباب التى تنفعه ، فى دينه ودنياه .

ومنها : حسن تدبير يوسف ، لما تولى خزائن الأرض ، حتى كثرت عندهم الغلات جداً ، وحتى صار أهل الأقطار ، يقصدون مصر لطلب الميرة منها ، لعلمهم بوفورها فيها ، وحتى إنه كان لايكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لايزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنهـا من سنن المرسلين ، وإكرام

. . . . . . . . . . . .

---

الضيف لقول يوسف لإخوته [ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين] .

ومنها : أن سوء الظن — مع وجود القرائن الدالة عليه — غير ممنوع ولا محرم .

فإن يعقوب قال لأولاده — بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ، ثم قال لهم بعد ما أتوه ، وزعموا أن الذئب أكله [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] .

قال لهم فى الأخ الآخر : [هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل] .

ثم لما احتبسه يوسف عنده ، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] فهم فى الأخيرة — وأن لم يكونوا مفرطين ، فقد جرى منهم ، ما أوجب لأبيهم ، أن قال ما قال ، من غير إثم عليه ولا حرج .

ومنها : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره ، أو الرافعة لها بعد نزولها ، غير ممنوع ، بل جائز ، وإن كان لا يقع شىء إلا بقضاء وقدر .

فإن الأسباب أيضاً ، من القضاء والقدر لأمر يعقوب ، حيث قال لبنيه ، [يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة] .

ومنها : جواز استعمال المكايد ، التى يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها ، مما يحمد عليه العبد .

. . . . . . . . . . .

---

وإنما الممنوع ، التحيل على إسقاط واجب ، أو فعل محرم .

ومنها : أنه ينبغى لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لايحب أن يطلع عليه ، أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية ، المانعة من الكذب .

كما فعل يوسف ، حيث ألقى الصُّواع فى رحل أخيه ، ثم استخرجها منه ، موهما أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته .

وقال بعد ذلك : [ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ] ولم يقل « من سرق متاعنا » وكذلك لم يقل « إنا وجدنا متاعنا عنده » بل أتى بكلام عام ، يصلح له ولغيره .

وليس فى ذلك محذور ، وإنما فيه إيهام أنه سارق ، ليحصل المقصود الحاضر ، وأن يبقى عنده أخوه ، وقد زال عن الأخ هـذا الإيهام ، بعد ما تبينت الحال .

ومنها : أنه لايجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه ، وتحققه بمشاهدة ، أو خبر من يثق به ، وتطمئن إليه النفس لقولهم : [ وما شهدنا إلا بما علمنا ] .

ومنها : هذه المحنة العظيمة ، التى امتحن الله بها نبيه وصفيه ، يعقوب عليه السلام ، حيث قضى بالتفريق ، بينه وبين ابنه يوسف ، الذى لايقدر على فراقه ساعة واحدة ، ويحزنه ذلك أشد الحزن .

فحصل التفريق بينه وبينه ، مدة طويلة ، لاتقصر عن ثلاثين سنة .

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه فى هذه المدة [ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ] .

. . . . . . . . . . .

ثم ازداد به الأمر شدة ، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثانى ، شقيق يوسف .

هذا هو صابر لأمر الله ، محتسب الأجر من الله ، قد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا شك أنه وفى بما وعد به .

ولا ينافى ذلك ، قوله : [ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ] فإن الشكوى إلى الله ، لاتنافى الصبر .

وإنما الذى ينافيه ، الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها : أن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسراً .

فإنه لما طال الحزن على يعقوب ، واشتد به إلى أنهى[1] ما يكون ، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ، ومسهم الضر ، أذن الله حينئذ ، بالفرج .

فحصل التلاقى ، فى أشد[2] الأوقات إليه حاجة واضطراراً ، فتم بذلك الأجر ، وحصل السرور .

وعلم من ذلك ، أن الله يبتلى أولياءه بالشدة والرخاء ، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ، ويزداد — بذلك — إيمانهم ويقينهم وعرفانهم .

---

(١) أنهى . أى : بلغ أقصى ما يتصوره الإنسان .

(٢) قوله « فى أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً » فيه أنه لو قال فحصل التلاقى أحوج ما يكون إليه » لوضح المعنى وحصل المقصود مع الاختصار فى الكلام .

. . . . . . . . . . .

ومنها : جواز إخبار الإنسان بما يجد ، وما هو فيه ، من مرض ، أو فقر ونحوهما ، على غير وجه التسخط .

لأن إخوة يوسف قالوا : [ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ] ولم ينكر عليهم يوسف .

ومنها : فضيلة التقوى ، وأن كل خير فى الدنيا والآخرة ، فمن آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلهما ، أحسن العواقب لقوله :

[ قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ] .

ومنها : أنه ينبغى لمن أنعم الله عليه بنعمة ، بعد شدة ، وفقر ، وسوء حال ، أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن لايزال ذاكرا حاله الأولى ، ليحدث لذلك شكراً ، كلما ذكرها ، لقول يوسف عليه السلام :

[ وقد أحسن بى إذا أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ] .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف ، حيث نقله فى تلك الأحوال ، وأوصل إليه الشدائد والمحن ، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ، ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغى للعبد أن يتملق إلى الله دائما ، فى تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ، ويسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام :

. . . . . . . . . . .

---

[ ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليِّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ] .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر ، فى هذه القصة المباركة ، ولابد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .

فنسأله تعالى ، علماً نافعاً ، وعملا متقبلا ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

تفسـير

# سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى: أن هذا القرآن، هو آيات الكتاب الدالة، على كل مايحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذى أنزل إلى الرسول من ربه، هو الحق المبين.

لأن إخباره صدق، وأوامره، ونواهيه، عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة.

فمن أقبل عليه، وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق، الذى يوجب لهم علمهم به، العمل بما أوجب الله.

[ولكن أكثر الناس لايؤمنون] بهذا القرآن، إما جهلا، وإعراضاً عنه، وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً.

فلذلك أكثر الناس، غير منتفعين به، لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

---

* يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة والسلطان، الدال على أنه وحده المعبود، الذى لاتنبغى العبادة إلا له فقال:

[ الله الذى رفع السموات ] على عظمها واتساعها، بقدرته العظيمة.

[ بغير عمد ترونها ] أى ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد، لرأيتموها.

[ ثم ] بعد ما خلق السموات والأرض [ استوى على العرش ] العظيم الذى هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله، ويناسب كماله.

[ وسخر الشمس والقمر ] لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم.

[ كل ] من الشمس والقمر [ يجرى ] بتدبير العزيز العليم.

[ إلى أجل مسمى ] بسير منتظم، لايفتران، ولاينيان، حتى يجىء الأجل المسمى وهو طىُّ الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة، التى هى دار القرار.

فعند ذلك يطوى الله السموات، ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها.

فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان فى النار، ليرى من عبدها أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا، أنهم كانوا كاذبين.

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

---

وقوله [ يدبر الأمر يفصل الآيات ] هذا جمع بين الخلق والأمر .

أى : قد استوى الله العظيم على سرير الملك ، يدبر الأمور فى العالم العلوى والسفلى .

فيخلق ويرزق ، ويغنى ، ويفقر ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، ويقيل العثرات ، ويفرج الكربات ، وينفذ الأقدار فى أوقاتها ، التى سبق بها علمه ، وجرى بها قلمه .

ويرسل ملائكته الكرام ، لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

وينزل الكتب الإلهية على رسله ، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع ، والأوامر والنواهى ، ويفصلها غاية التفصيل، ببيانها ، وإيضاحها وتمييزها .

[ لعلكم ] بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية ، والآيات القرآنية .

[ بلقاء ربكم توقنون ] فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها ، من أسباب حصول اليقين ، فى جميع الأمور الإلهية ، خصوصاً فى العقائد الكبار ، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأيضاً ، فقد علم أن الله تعالى ، حكيم لايخلق الخلق سدى ، ولا يتركهم عبثاً .

فكما أنه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، لأمر العباد ونهيهم ، فلا بد أن ينقلهم إلى دار ، يحل فيها جزاؤه ، فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء ، ويجازى المسيئين بإساءتهم .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ

---

[ وهو الذى مد الأرض ] أى : خلقها للعباد ، ووسعها ، وبارك فيها ، ومدها للعباد ، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع .

[ وجعل فيها رواسى ] أى : جبالا عظاما ، لئلا تميد بالخلق .

فإنه لولا الجبال ، لمادت بأهلها ، لأنها على تيار ماء ، لا ثبوت لها ، ولا استقرار ، إلا بالجبال الرواسى ، التى جعلها الله أوتاداً لها .

[ و ] جعل فيها [ أنهاراً ] تسقى الآدميين وبهائمهم وحروثهم .

فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار ، خيرا كثيرا ولهذا قال :

[ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ] أى : صنفين ، مما يحتاج إليه العباد .

[ يغشى الليل النهار ] فتظلم الآفاق ، فيسكن كل حيوان إلى مأواه ، ويستريحون من التعب والنصب فى النهار .

ثم إذا قضوا مأربهم من النوم ، غشى النهار الليل، فإذاهم مصبحون ينتشرون فى مصالحهم وأعمالهم فى النهار .

« ومن رحمته ، جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » .

[ إن فى ذلك لآيات ] على المطالب الإلهية [ لقوم يتفكرون ] فيها ، وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذى خلقها ودبرها ، وصرفها ، هو الله الذى لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، وأنه عالم الغيب والشهادة ،

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ

---

الرحمن الرحيم ، وأنه القادر على كل شيء ، الحكيم فى كل شيء ، المحمود على ما خلقه وأمر به ، تبارك وتعالى .

[ و ] من الآيات على كمال قدرته ، وبديع صنعته .

[ فى الأرض قطع متجاورات وجنات ] فيها أنواع الأشجار [ من أعناب وزرع ونخيل ] وغير ذلك .

والنخيل التى بعضها [ صنوان ] أى : عدة أشجار فى أصل واحد .

[ وغير صنوان ] بأن كان كل شجرة على حدتها .

والجميع [ يسقى بماء واحد ] وأرضه واحدة [ ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ] لونا ، وطعما ، ونفعاً ، ولذة .

فهذه أرض طيبة ، تنبت الكلأ والعشب الكثير ، والأشجار والزروع .

وهذه أرض تلاصقها ، لاتنبت كلأ ، ولاتمسك ماء .

وهذه تمسك الماء ، ولاتنبت الكلأ .

وهذه تنبت الزرع والأشجار ، ولا تنبت الكلأ .

وهذه الثمرة حلوة ، وهذه مرة ، وهذه بين ذلك .

فهل هذا التنوع ، فى ذاتها وطبيعتها ؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم ؟

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى

---

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ] أى : لقوم لهم عقول تهديهم إلى ماينفعهم ، وتقودهم إلى مايرشدون به ويعقلون عن الله ، وصاياه وأوامره ونواهيه .

وأما أهل الإعراض ، وأهل البلادة ، فهم فى ظلماتهم يعمهون ، وفى غيهم يترددون .

لايهتدون إلى ربهم سبيلا ، ولا يعون له قيلا .

* يحتمل أن معنى قوله [ وإن تعجب ] من عظمة الله تعالى ، وكثرة أدلة التوحيد .

فإن العجب — مع هذا — إنكار المكذبين ، وتكذيبهم بالبعث .

وقولهم [ أإذا كنا ترابا أإنا لفى خاق جديد ] أى : هذا بعيد فى غاية الامتناع بزعمهم ، أنهم بعد ما كانوا ترابا ، أن الله يعيدهم .

فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق .

فلما رأوا هذا ممتنعا ، فى قدرة المخلوق ، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق .

ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ، ولم يكونوا شيئا .

خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن

---

ويحتمل أن معناه : وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث ، فإن ذلك من العجائب .

فإن الذى توضح له الآيات ، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ، ما لا يقبل الشك والريب ، ثم ينكر ذلك ، فإن قوله من العجائب .

ولكن ذلك لايستغرب على [ أولئك الذين كفروا بربهم ] وجحدوا وحدانيته ، وهى أظهر الأشياء وأجلاها .

[ وأولئك الأغلال ] المانعة لهم من الهدى [ فى أعناقهم ] حيث دعوا إلى الإيمان ، فلم يؤمنوا ، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا .

فقلبت قلوبهم وأفئدتهم ، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة .

[ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] لايخرجون منها أبداً .

* يخبر تعالى ، عن جهل المكذبين لرسوله ، المشركين به ، الذين وعظوا فلم يتعظوا ، وأقيمت عليهم الأدلة ، فلم ينقادوا لها .

بل جاهروا بالإنكار ، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم ، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ، أنهم على حق ، وجعلوا يتعجلون الرسول بالعذاب ، ويقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » .

قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

---

[ و ] الحال أنه [ قد خلت من قبلهم المثلات ] أى : وقائع الله وأيامه فى الأمم المكذبين ، أفلا يتفكرون فى حالهم ، ويتركون جهلهم .

[ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ] أى : لايزال خيره إليهم ، وإحسانه ، وبره ، وعفوه نازلا إلى العباد .

وهم لايزال شركهم ، وعصيانهم إليه صاعداً .

يعصونه فيدعوهم إلى بابه ، ويجرمون ، فلا يحرمهم خيره وإحسانه .

فإن تابوا إليه ، فهو حبيبهم ، لأنه يحب التوابين ، ويحب المتطهرين

وإن لم يتوبوا ، فهو طبيبهم ، يبتليهم بالمصائب ، ليطهرهم من المعايب

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

[ وإن ربك لشديد العقاب ] على من لم يزل مصرا على الذنوب ، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار .

فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم ، فإن أخذه أليم شديد .

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

* أى : ويقترح الكفار عليك من الآيات ، التى يعينون ويقولون :

[ لولا أنزل عليه آية من ربه ] ويجعلون هذا القول منهم . عذراً لهم فى عدم الإجابة إلى الرسول .

والحال ، أنه منذر ، ليس له من الأمر شىء ، والله هو الذي ينزل الآيات .

وقد أيده بالأدلة البينات ، التى لاتخفى على أولى الألباب ، وبها يهتدى من قصده الحق .

وأما الكافر ، الذى - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات ، فهذا اقتراح منه ، باطل وكذب وافتراء .

فإنه لو جاءته أى آية كانت ، لم يؤمن ولم ينقد ، لأنه لم يمتنع من الإيمان ، لعدم مايدله على صحته ، وإنما ذلك ، لهوى نفسه ، واتباع شهوته .

[ ولكل قوم هاد ] أى : داع يدعوهم إلى الهدى ، من الرسل وأتباعهم .

ومعهم من الأدلة والبراهين ، ما يدل على صحة ما معهم من الهدى .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ

---

* يخبر تعالى ، بعموم علمه ، وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل شيء فقال :

[ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ] من بنى آدم وغيرهم .

[ وما تغيض الأرحام ] أى : تنقص مما فيها ، إما أن يهلك الحمل ، أو يتضاءل أو يضمحل .

[ وما تزداد ] الأرحام وتكبر الأجنة التى فيها .

[ وكل شيء عنده بمقدار ] لا يتقدم عليه ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .

فإنه [ عالم الغيب والشهادة الكبير ] فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته [ المتعال ] على جميع خلقه ، بذاته وقدرته ، وقهره .

[ سواء منكم ] فى علمه وسمعه ، وبصره .

[ من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل ] أى : مستقر بمكان خفى فيه .

[ وسارب بالنهار ] أى : داخل سربه فى النهار ، والسرب هو : ما يستخفى فيه الإنسان ، إما جوف بيته ، أو غار ، أو مغارة ، أو نحو ذلك .

[له] أى للإنسان [معقبات] من الملائكة ، يتعاقبون فى الليل والنهار .

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

---

[ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ] أى : يحفظون بدنه وروحه ، من كل من يريده بسوء ، ويحفظون عليه أعماله ، وهم ملازمون له دائماً .

فكما أن علم الله محيط به ، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد ، بحيث لاتخفى أحوالهم ولا أعمالهم ، ولاينسى منها شيئاً .

[إن الله لايغير مابقوم] من النعمة والإحسان ، ورغد العيش[حتى يغيروا ما بأنفسهم ] بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ، ومن الطاعة إلىالمعصية.

أو من شكر نعم الله إلى البطر بها ، فيسلبهم الله إياها عند ذلك .

وكذلك إذا غير العباد ، ما بأنفسهم من المعصية ، فانتقلوا إلى طاعة الله ، غَيَّر الله عليهم ، ما كانوا فيه من الشقاء ، إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة .

[ وإذا أراد الله بقوم سوءاً ] أى : عذاباً وشدة ، وأمرا يكرهونه ، فإن إرادته ، لابد أن تنفذ فيهم .

[ فـ ] إنه [ لامرد له ] ولا أحد يمنعهم منه .

[ وما لهم من دونه من وال ] يتولى أمورهم ، فيجلب لهم المحبوب ، ويدفع عنهم المكروه .

فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله ، خشية أن يحل بهم من العقاب مالا يرد عن القوم المجرمين .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

---

* يقول تعالى : [ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ] أى : يخاف منه الصواعق والهدم ، وأنواع الضرر ، على بعض الثمار ونحوها ، ويطمع فى خيره ونفعه .

[ وينشىء السحاب الثقال ] بالمطر الغزير ، الذى به نفع العباد والبلاد .

[ ويسبح الرعد بحمده ] وهو الصوت ، الذى يسمع من السحاب المزعج للعباد ، فهو خاضع لربه ، مسبح بحمده .

[و] تسبح [الملائكة من خيفته] أي: خشعاً لربهم ، خائفين من سطوته .

[ ويرسل الصواعق ] وهى هذه النار ، التى تخرج من السحاب .

[ فيصيب بها من يشاء ] من عباده ، بحسب ماشاءه وأراده [ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ] أى : شديد الحول والقوة ، فلا يريد شيئا إلا فعله ، ولا يتعاصى عليه شىء ، ولا يفوته هارب .

فإذا كان هو وحده ، الذى يسوق للعباد الأمطار والسحب ، التى فيها مادة أرزاقهم ، وهو الذى يدبر الأمور ، وتخضع له المخلوقات العظام ، التى يخاف منها ، وتزعج العباد ، وهو شديد القوة — فهو الذى يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له .

ولهذا قال : [ له دعوة الحق ] إلى [ إلا فى ضلال ] .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ

---

* [ له ] أى : لله وحده [ دعوة الحق ] وهى : عبادته وحده لاشريك له وإخلاص دعاء العبادة ، ودعاء المسألة له تعالى .

أى : هو الذى ينبغى أن يصرف له الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والحب ، والرغبة ، والرهبة ، والإنابة ، لأن ألوهيته ، هى الحق ، وألوهية غيره ، باطلة .

[ والذين يدعون من دونه ] من الأوثان ، والأنداد ، التى جعلوها شركاء لله .

[ لا يستجيبون لهم ] أى : لمن يدعوها ويعبدها ، بشىء قليل ولا كثير ، لامن أمور الدنيا ، ولا من أمور الآخرة .

[ إلا كباسط كفيه إلى الماء ] الذى لاتناله كفاه لبعده .

[ ليبلغ ] ببسط كفيه إلى الماء [ فاه ] ، فإنه عطشان ، ومن شدة عطشه ، يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه ، فلا يصل إليه .

كذلك الكفار ، الذين يدعون مع الله آلهة ، لا يستجيبون لهم بشىء ، ولا ينفعونهم فى أشد الأوقات إليهم حاجة ، لأنهم فقراء ، كما أن من دعوهم فقراء ، لايملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ومالهم فيها من شرك ، وماله منهم من ظهير .

وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾

---

[ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ] لبطلان ما يدعون من دون الله .

فبطلت عبادتهم ودعاؤهم ، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها .

ولما كان الله تعالى ، هو الملك الحق المبين ، كانت عبادته حقا ، متصلة النفع بصاحبها فى الدنيا والآخرة .

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله ، بالذى يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة .

فإن ذلك تشبيه بأمر محال ، فكما أن هذا محال ، فالمشبه به محال .

والتعليق على المحال ، من أبلغ ما يكون فى نفى الشىء كما قال تعالى « إن الذين كفروا وكذبوا بآياتنا لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

* أى : جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها ، خاضعة لربها ، تسجد له [ طوعا وكرها ] .

فالطوع لمن يأتى بالسجود والخضوع ، اختياراً ، كالمؤمنين .

والكره ، لمن يستكبر عن عبادة ربه ، وحاله وفطرته ، تكذبه فى ذلك .

[ وظلالهم بالغدو والآصال ] أى : وتسجد له ظلال المخلوقات ، أول النهار وآخره ، وسجود كل شىء ، بحسب حاله كما قال تعالى :

« وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟

---

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها ، كان هو الإله حقا ، المعبود المحمود حقا ، والإلاهية غيره باطلة .

ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله : [ قل من رب السموات ] إلى [ الواحد القهار ] .

* أى : قل لهؤلاء المشركين به ، أوثانا وأنداداً ، يحبونها كما يحبون الله ، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات : أفتاهت عقولكم ، حتى اتخذتم من دونه أولياء ، تتولونهم بالعبادة ، وليسوا بأهل لذلك ؟

فإنهم [ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ] ، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات ، المالك للأحياء والأموات ، الذى بيده الخلق والتدبير ، والنفع والضر ؟

فما تستوى عبادة الله وحده ، وعبادة المشركين به .

[ قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ] ؟

فإن كان عندهم شك واشتباه ، وجعلوا له شركاء ، زعموا أنهم خلقوا كخلقه ، وفعلوا كفعله ، فَأَزِلْ عنهم هذا الاشتباه واللبس ، بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية .

فقل لهم : [ الله خالق كل شىء ] فإنه من المحال أن يخلق شىء من الأشياء نفسه .

لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ
كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا
فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ

---

ومن المحال أيضاً ، أن يوجد من دون خالق .

فتعين أن لها إلهاً خالقاً ، لا شريك له فى خلقه ، لأنه الواحد القهار .

فإنه لا توجد الوحدة والقهر ، إلا لله وحده .

فالمخلوقات وكل مخلوق ، فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر ، قاهر أعلى منه ، حتى ينتهى القهر للواحد القهار .

فالقهر والتوحيد ، متلازمان ، متعينان لله وحده .

فتبين بالدليل العقلى القاهر ، أن ما يُدْعَى من دون الله ، ليس له شيء من خلق المخلوقات ، وبذلك كانت عبادته باطلة .

* شبه تعالى الهدى ، الذى أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح ، بالماء الذى أنزله لحياة الأشباح .

وشبه ما فى الهدى من النفع العام الكثير ، الذى يضطر إليه العباد ، بما فى المطر من النفع العام الضرورى .

وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها ، بالأودية التى تسيل فيها السيول .

فَوادٍ كبير ، يسع ماء كثيرا ، كقلب كبير ، يسع علماً كثيرا .

ووَادٍ صغير ، يأخذ ماء قليلا ، كقلب صغير ، يسع علما قليلا ، وهكذا .

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ

---

وشبه ما يكون فى القلوب من الشهوات والشبهات ،عندوصول الحق إليها ، بالزبد الذى يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافى ، والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق ، وإيثاره ، والرغبة فيه .

فالباطل يذهب ويمحقه الحق [ إن الباطل كان زهوقاً ] .

وقال هنا : [ كذلك يضرب الله الأمثال ] ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال .

* لما بيَّنَ تعالى ، الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين :

مستجيب لربه ، فذكر ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال :

[للذين استجابوا لربهم] أى: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهى ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم .

فلهم [ الحسنى ] أى : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

---

فلهم من الصفات أجلُّها ، ومن المناقب أفضلها . ومن الثواب العاجل والآجل ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ والذين لم يستجيبوا له ] بعد ما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة .

و[ لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ] من ذهب وفضة وغيرها .

[ ومثله معه لافتدوا به ] من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وأنَّى لهم ذلك ؟!! .

[ أولئك لهم سوء الحساب ] ، وهو الحساب الذى يأتى على كل ما أسلفوه ، من عمل سىء ، وما ضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك ، وسطر عليهم ، وقالوا : « ياويلتنا مال هذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

[ و ] بعد هذا الحساب السىء [ مأواهم جهنم ] الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ،والزقوم،والزمهرير ، والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب .

[ وبئس المهاد ] أى : المقر ، والمسكن ، مسكنهم .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ

---

* يقول تعالى : مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم :

[ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ] ففهم ذلك ، وعمل به .

[ كمن هو أعمى ] لا يعلم الحق ، ولا يعمل به ، فبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض .

فحقيق بالعبد ، أن يتذكر ويتفكر ، أيُّ الفريقين ، أحسن حالا ، وخير مآلا ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها .

ولكن ما كل أحد ، يتذكر ما ينفعه ويضره .

[ إنما يتذكر أولو الألباب ] أى : أولو العقول الرزينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم ، لُبُّ العالم ، وصفوة بنى آدم .

فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

[ الذين يوفون بعهد الله ] الذى عهده إليهم ، والذى عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها ، توفيتها حقها ، من التنمية لها ، والنصح فيها .

[ و ] تمام الوفاء بها ، أنهم [ لا ينقضون الميثاق ] أى : العهد الذى عاهدوا الله عليه .

فدخل فى ذلك ، جميع المواثيق والعهود ، والأَيْمَانُ والنذور ، التى يعقدها العباد .

وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ
ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

---

فلا يكون العبد من أولى الألباب ، الذين لهم الثواب العظيم ، إلا بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

[ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ] وهذا عام فى كل ما أمر الله بوصله ، من الإيمان به ، وبرسوله ، ومحبته ، ومحبة رسوله ، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوقهم .

ويصلون الأقارب والأرحام ، بالإحسان إليهم ، قولا وفعلا .

ويصلون ما بينهم وبين الأزواج ، والأصحاب ، والمماليك ، بأداء حقهم ، كاملا موفراً ، من الحقوق الدينية والدنيوية .

والسبب الذى يجعل العبد واصلا ما أمر الله به ، أن يوصل خشية الله ، وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال :

[ ويخشون ربهم ] أى : يخافونه ، فيمنعهم خوفهم منه ، ومن القدوم عليه يوم الحساب ، أن يتجرأوا على معاصى الله ، أو يقصروا فى شىء مما أمر الله به ، خوفا من العقاب ، ورجاء للثواب .

[ والذين صبروا ] على المأمورات بامتثالها ، وعن المنهيات بالانكفاف عنها ، والبعد منها ، وعلى أقدار الله المؤلمة ، بعدم تسخطها .

وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

---

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر [ ابتغاء وجه ربهم ] لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة ، فإن هذا هو الصبر النافع ، الذى يحبس به العبد نفسه ، طلباً لمرضاة ربه ، ورجاء للقرب منه .

والحظوة بثوابه ، هو الصبر الذى من خصائص أهل الإيمان .

وأما الصبر المشترك ، الذى غايته التجلد ، ومنتهاه ، الفخر ،فهذا يصدر من البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فليس هو الممدوح ، على الحقيقة .

[ وأقاموا الصلاة ] بأركانها ، وشروطها ، ومكملاتها ، ظاهراً وباطناً .

[ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ] دخل فى ذلك ، النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، والنفقات المستحبة ، وأنهم ينفقون ، حيث دعت الحاجة إلى النفقة ، سرا وعلانية .

[ ويدرأون بالحسنة السيئة ] أى : من أساء إليهم ، بقول أو فعل ، لم يقابلوه بفعله ، بل قابلوه بالإحسان إليه .

فيعطون من حرمهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويصلون من قطعهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم .

وإذا كانوا يقابلون المسىء بالإحسان ، فما ظنك بغير المسىء ؟ !

[ أولئك ] الذين وصفت صفاتهم الجليلة ، ومناقبهم الجميلة [ لهم عقبى الدار ] .

فسرها بقوله : [ جنات عدن ] أى : إقامة ، لا يزولون منها ، ولا يبغون عنها حِوَلاً ، لأنهم يرون فوقها ، غاية لما اشتملت عليه من النعيم ، والسرور ، الذى تنتهى إليه المطالب والغايات .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

---

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم [ يدخلونها ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ] من الذكور والإناث وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب، والأحباب، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم.

[ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ] يهنئونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون :

[ سلام عليكم ] أي : حلَّتْ عليكم السلامة والتحية من الله، حصلت لكم.

وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

[ بما صبرتم ] أي : بسبب صبركم، وهو الذى أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية.

[ فنعم عقبى الدار ] فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب.

ولعلها تحظى بهذه الدار، التى هى منية النفوس، وسرور الأرواح، الجامعة لجميع اللذات والأفراح.

فلمثلها، فليعمل العاملون، وفيها، فليتنافس المتنافسون.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* لما ذكر حال أهل الجنة ، ذكر أن أهل النار ، بعكس ما وصفهم به فقال عنهم :

[ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ] أى : من بعد ما أكده عليهم على أيدى رسله ، وغلظ عليهم ، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم ، بل قابلوه بالإعراض والنقض .

[ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ] فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح ، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق ، بل أفسدوا فى الأرض ، بالكفر والمعاصى ، والصد عن سبيل الله ، وابتغائها عِوَجاً .

[ أولئك لهم اللعنة ] أى البعد والذم ، من الله وملائكته ، وعباده المؤمنين .

[ ولهم سوء الدار ] وهى : الجحيم ، بما فيها من العذاب الأليم .

۞ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ ۞
۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ

---

* أى : هو وحده ، يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ، ويقدره ويضيقه على من يشاء .

[ وفرحوا ] أى : الكفار [ بالحياة الدنيا ] فرحاً ، أوجب لهم أن يطمئنوا بها ، ويغفلوا عن الآخرة ، وذلك لنقصان عقولهم .

[ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ] أى : شىء حقير ، يتمتع به قليلا ، ويفارق أهله وأصحابه ، ويعقبهم ويلا طويلا .

* يخبر تعالى ، أن الذين كفروا بآيات الله ، يتعنتون على رسول الله ، ويقترحون ويقولون :

[ لولا أنزل عليه آية من ربه ] وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا ، فأجابهم الله بقوله :

[ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ] أى : طلب رضوانه .

فليست الهداية والضلال بأيديهم ، حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات.

ومع ذلك ، فهم كاذبون ، فلو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون .

ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ

ولا يلزم أن يأتى الرسول ، بالآية ، التى يعينونها ، ويقترحونها ، بل إذا جاءهم بآية ، وتبين ما جاء به من الحق ، كفى ذلك ، وحصل المقصود ، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التى يعينونها .

فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا بها ، لعاجلهم العذاب .

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال : [ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ] أى : يزول قلقها واضطرابها ، وتحضرها أفراحها ولذاتها .

[ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ] أى : حقيق بها ، وحَرِىٌ أن لا تطمئن لشىء سوى ذكره ، فإنه لا شىء ألذ للقلوب ولا أحلى ، من محبة خالقها ، والأنس به ومعرفته .

وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له ، يكون ذكرها له .

هذا على القول بأن ذكر الله ، هو ذكر العبد لربه ، من تسبيح ، وتهليل ، وتكبير وغير ذلك .

وقيل : إن المراد بذكر الله ، كتابه ، الذى أنزله ، ذكرى للمؤمنين .

فعلى هذا ، معنى طمأنينة القلب بذكر الله : أنها حين تعرف معانى القرآن وأحكامه ، تطمئن لها ، فإنها تدل على الحق المبين ، المؤيد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ، فإنها لا تطمئن القلوب ، إلا باليقين والعلم ، وذلك فى كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها .

وأما ما سواه من الكتب ، التي لا ترجع إليه ، فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة ، وتضاد الأحكام .

ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

---

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله ، وتدبره ، وتدبر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيما .

ثم قال تعالى : [ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أى : آمنوا بقلوبهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان ، بالأعمال الصالحة ، أعمال القلوب ، كمحبة الله ، وخشيته . ورجائه ، وأعمال الجوارح ، كالصلاة ونحوها .

[ طوبى لهم وحسن مآب ] أى : لهم حالة طيبة ، ومرجع حسن .

وذلك بما ينالون ، من رضوان الله وكرامته ، فى الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة ، وتمام الطمأنينة .

ومن جملة ذلك ، شجرة طوبى ، التي فى الجنة ، التي يسير الراكب فى ظلها ، مائة عام ما يقطعها ، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ كذلك أرسلناك ] إلى قومك تدعوهم إلى الهدى .

[ فى أمة قد خلت من قبلها أمم ] أرسلنا فيهم رسلنا .

فلست ببدع من الرسل ، حتى يستنكروا رسالتك .

ولست تقول من تلقاء نفسك .

بل تتلو عليهم آيات الله ، التى أوحاها الله إليك ، التى تطهر القلوب ، وتزكى النفوس .

والحال أن قومك ، يكفرون بالرحمن ، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه — التى أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا ، وأنزلنا عليك كتاباً — بالقبول والشكر ، بل قابلوها بالإنكار والرد .

فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم ، من القرون المكذبة ، كيف أخذهم الله بذنوبهم .

[ قل هو ربى لا إله إلا هو ] وهذا متضمن التوحيدين ؛ توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

فهو ربى ، الذى ربانى بنعمه ، منذ أوجدنى ، وهو إلهى الذى [ عليه توكلت ] فى جميع أمورى [ وإليه أنيب ] أى : أرجع فى جميع عباداتى ، وفى حاجاتى .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ
ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ
وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة —:
[ ولو أن قرآناً ] من الكتب الإلهية [ سيرت به الجبال ] عن أماكنها [ وقطعت به الأرض ] جناناً وأنهاراً [ وكلم به الموتى ] لكان هذا القرآن.

[ بل لله الأمر جميعاً ] فيأتى بالآيات ، التى تقتضيها حكمته .

فما بال المكذبين ، يقترحون من الآيات — ما يقترحون ؟

فهل لهم ولغيرهم من الأمر شىء ؟ .

[ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ] فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً ، ولكن لا يشاء ذلك ، بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

[ ولا يزال الذين كفروا ] على كفرهم ، لا يعتبرون ، ولا يتعظون .

والله تعالى يوالى عليهم القوارع ، التى تصيبهم فى ديارهم ، أو تحل قريباً منها ، وهم مصرون على كفرهم [ حتى يأتى وعد الله ] الذى وعدهم به ، لنزول العذاب المتصل ، الذى لا يمكن رفعه .

[ إن الله لا يخلف الميعاد ] وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم ، وعنادهم ، وظلمهم .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ

---

يقول تعالى لرسوله — مثبتاً له ، ومسلياً —

[ ولقد استهزىء برسل من قبلك ] فلست أول رسول ، كُذِّب وأُوذِي

[ فأمليت للذين كفروا ] برسلهم ، أى : أمهلتهم مدة ، حتى ظنوا أنهم غير معذبين .

[ ثم أخذتهم ] بأنواع العذاب [ فكيف كان عقاب ] كان عقابا شديداً ، وعذابا أليما .

فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك ، واستهزأوا بك ، بإمهالنا فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم ، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك .

* يقول تعالى : [ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ] بالجزاء العاجل والآجل ، بالعدل والقسط ، وهو : الله تبارك وتعالى ، كمن ليس كذلك ؟

ولهذا قال : [ وجعلوا لله شركاء ] وهو الله الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لا شريك له ، ولا نِدّ ولا نظير .

[ قل ] لهم ، إن كانوا صادقين : سموهم ] لنعلم حالهم .

[ أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ] فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة ، وهو لا يعلم له شريكا ، علم بذلك ، بطلان دعوى الشريك له وأنكم بمنزلة

مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

---

الذى يُعَلِّمُ الله أن له شريكا ، وهو لا يعلمه ، وهذا أبطل ما يكون ، ولهذا قال : [ أم بظاهر من القول ] أى : غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى ، أنه بظاهر أقوالكم .

وأما فى الحقيقة ، فلا إله إلا الله ، وليس أحد من الخلق ، يستحق شيئاً من العبادة .

[ بل زين للذين كفروا مكرهم ] الذى مكروه ، وهو كفرهم ، وشركهم ، وتكذيبهم لآيات الله .

[ وصدوا عن السبيل ] أى : عن الطريق المستقيمة ، الموصلة إلى الله ، وإلى دار كرامته .

[ ومن يضلل الله فما له من هاد ] لأنه ليس لأحد من الأمر شىء .

[ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ] من عذاب الدنيا ، لشدته ودوامه .

[ ومالهم من الله من واق ] يقيهم من عذابه ، فعذابه إذا وجهه إليهم ، لامانع منه .

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ

---

* يقول تعالى : [ مثل الجنة التى وعد المتقون ] الذين تركوا ما نهاهم الله عنه ، ولم يقصروا فيا أمرهم به ، أى صفتها وحقيقتها [ تجرى من تحتها الأنهار ] أنهار العسل ، وأنهار الخمر ، وأنهار اللبن ، وأنهار الماء التي تجرى فى غير أخدود .

فتسقى تلك البساتين ، والأشجار ، فتحمل جميع أنواع الثمار .

[ أكلها دائم وظلها ] دائم أيضاً .

[ تلك عقبى الذين اتقوا ] أى : مآلهم وعاقبتهم ، التى إليها يصيرون .

[ وعقبى الكافرين النار ] فكم بين الفريقين من الفرق المبين ؟ ! !

* يقول تعالى: [ والذين أتيناهم الكتاب ] أى : مننّا عليهم به وبمعرفته .

[ يفرحون بما أنزل إليك ] فيؤمنون به ، ويصدقونه ، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض ، وتصديق بعضها بعضاً ، وهذه حال من آمن من أهل الكتاب .

[ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ] أى : ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق ، من ينكر بعض هذا القرآن ، ولا يصدقه .

وَلَآ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

---

« فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » إنما أنت يامحمد منذر ، تدعوا إلى الله .

[ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ] أى : بإخلاص الدين لله وحده .

[ إليه أدعو وإليه مآب ] أى : مرجعى الذى أرجع به إليه، فيجازينى بما قمت به من الدعوة ، إلى دينه ، والقيام بما أمرت به .

* أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ، حكماً عربيا ، أى : محكماً متقنا ، بأوضح الألسنة ، وأفصح اللغات ، لئلا يقع فيه شك واشتباه ، وليوجب أن يتبع وحده ، ولا يداهن فيه ، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه ، من أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا توعد رسوله ـ مع أنه معصوم ـ ليمتن عليه بعصمته ، وليكون لأمته أسوة فى الأحكام ، فقال : [ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ] البين الذى ينهاك عن اتباع أهوائهم .

[ مالك من الله من ولى ] يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب .

[ ولا واق ] يقيك من الأمر المكروه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ

---

* أى : لست أول رسول أرسل إلى الناس ، حتى يستغربوا رسالتك .

[ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ] فلا يعيبك أعداؤك ، بأن يكون لك أزواج وذرية ، كما كان لإخوانك المرسلين .

فلأى شيء يقدحون فيك بذلك ؟ وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم .

وإن طلبوا منك آية اقترحوها ، فليس لك من الأمر شيء .

[ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ] والله لا يأذن فيها ، إلا فى وقتها الذى قدره وقضاه .

[ لكل أجل كتاب ] لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه .

فليس استعجالهم بالآيات أو العذاب ، موجبا ، لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر ، مع أنه تعالى فعال لما يريد .

[ يمحو الله ما يشاء ] من الأقدار [ ويثبت ] ما يشاء منها ، وهذا المحو والتغيير ، فى غير ماسبق به علمه ، وكتبه قلمه ، فإن هذا لايقع فيه تبديل ولاتغيير ، لأن ذلك محال على الله ، أن يقع فى علمه نقص ، أوخلل ، ولهذا قال :

أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

[ وعنده أم الكتاب ] أى : اللوح المحفوظ ، الذى ترجع إليه سائر الأشياء ، فهو أصلها ، وهى فروع وشعب .

فالتغيير والتبديل ، يقع فى الفروع والشعب ، كأعمال اليوم والليلة ، التى تكتبها الملائكة ، ويجعل الله لثبوتها أسباباً ، ولمحوها أسبابا ، لاتتعدى تلك الأسباب ، ما رسم فى اللوح المحفوظ .

كما جعل الله البر ، والصلة ، والإحسان ، من أسباب طول العمر ، وسعة الرزق .

وكما جعل المعاصى ، سببا لمحق بركة الرزق والعمر .

وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب ، سببا للسلامة .

وجعل التعرض لذلك ، سبباً للعطب .

فهو الذى يدبر الأمور ، بحسب قدرته وإرادته .

ومايدبره منها ، لايخالف ما قد علمه وكتبه ، فى اللوح المحفوظ .

* يقول تعالى ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لا تعجل عليهم ، بإصابة ما يوعدون من العذاب .

فهم ، إن استمروا على طغيانهم وكفرهم ، فلابد أن يصيبهم ما وعدوا به .

[ إما نرينك ] إياه فى الدنيا ، فتقر بذلك عينك .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد ، ولا سبيل إلى القدح فيها .

[ أو نتوفينك ] قبل إصابتهم ، فليس ذلك شغلا لك [ فإنما عليك البلاغ ] والتبيين للخلق .

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

---

[ وعلينا الحساب ] فنحاسب الخلق على ما قاموا به ، بما عليهم ، أو ضيعوه ، ونثيبهم أو نعاقبهم .

ثم قال — متوعداً للمكذبين — [ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ] : قيل بإهلاك المكذبين ، واستئصال الظالمين .

وقيل : بفتح بلدان المشركين ، ونقصهم فى أموالهم وأبدانهم ، وقيل غير ذلك من الأقوال .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بذلك ، أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله ، يفتحها ويجتاحها ، ويحل القوارع بأطرافها ، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص ، ويوقع الله بهم من القوارع ، مالا يرده أحد .

ولهذا قال : [ والله يحكم لا معقب لحكمه ] ويدخل فى هذا ، حكمه الشرعى ، والقدرى والجزائى .

فهذه الأحكام ، التى يحكم الله فيها ، توجد فى غاية الحكمة والإتقان ، لاخلل فيها ولا نقص .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد ، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها .

بخلاف حكم غيره ، فإنه قد يوافق الصواب ، وقد لا يوافقه .

[ وهو سريع الحساب ] أى : فلا يستعجلوا بالعذاب ، فإن كل ما هو آت ، فهو قريب .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى

---

* يقول تعالى : [ وقد مكر الذين من قبلهم ] برسلهم ، وبالحق الذى جاءت به الرسل ، فلم يغن عنهم مكرهم ، ولم يصنعوا شيئاً ، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه .

[ فلله المكر جميعاً ] أى : لايقدر أحد أن يمكر مكراً إلا بإذنه ، وتحت قضائه وقدره .

فإذا كانوا يمكرون بدينه ، فإن مكرهم ، سيعود عليهم بالخيبة والندم .

فإن الله [ يعلم ما تكسب كل نفس ] أى : هومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة .

والمكر ، لابد أن يكون من كسبها ، فلا يخفى على الله مكرهم .

فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ، ويفيدهم شيئاً .

[ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ] أى : ألهم أو لرسله ؟

ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين ، لا للكفر وأهله .

[ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ] أى : يكذبونك ، ويكذبون ما أرسلت به .

[ قل ] لهم — إن طلبوا على ذلك شهيداً : [ كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ] وشهادته بقوله وفعله وإقراره .

أما قوله ، فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه ، مما يثبت به رسالته .

وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وأما فعله ، فلأن الله تعالى أيد رسوله ، ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه ، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد .

وأما إقراره ، فإنه أخبر الرسول عنه ، أنه رسول ، وأنه أمر الناس باتباعه .

فمن اتبعه ، فله رضوان الله وكرامته .

ومن لم يتبعه ، فله النار والسخط ، وحل له ماله ودمه ، والله يقره على ذلك ، فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لعاجله بالعقوبة .

[ ومن عنده علم الكتاب ] وهـذا شامل لكل علماء أهل الكتابين .

فإنهم يشهد منهم للرسول ، من آمن ، واتبع الحق ، فصرح بتلك الشهادة التي عليه .

ومن كتم ذلك ، فإخبار الله عنه ، أن عنده شهادة ، أبلغ من خبره .

ولو لم يكن عنده شهادة ، لرد استشهاده بالبرهان .

فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب ، لأنهم أهل هذا الشأن .

وكل أمر ، إنما يستشهد فيه أهله ، ومن هم أعلم به من غيرهم .

بخلاف من هو أجنبي عنه ، كالأميين ، من مشركي العرب وغيرهم ، فلا فائدة في استشهادهم ، لعدم خبرتهم ومعرفتهم . والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد — والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ

---

* يخبر تعالى ، أنه أنزل كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، لنفع الخلق ، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة، وأنواع المعاصي ، إلى نور العلم والإيمان ، والأخلاق الحسنة .

وقوله [ بإذن ربهم ] أي : لايحصل منهم المراد المحبوب لله ، إلا بإرادة من الله ومعونة .

ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب ، فقال :

[ إلى صراط العزيز الحميد ] أي : الموصل إليه وإلى دار كرامته ، المشتمل على العلم بالحق والعمل به .

وفى ذكر « العزيز الحميد » بعد ذكر الصراط الموصل إليه ، إشارة إلى أن من سلكه ، فهو عزيز بعزة الله ، قوي ، ولو لم يكن له أنصار إلا الله ، محمود فى أموره ، حسن العاقبة .

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

---

وليدل ذلك على أن صراط الله ، من أكبر الأدلة على ما لله ، من صفات الكمال ، ونعوت الجلال .

وأن الذى نصبه لعباده ، عزيز السلطان ، حميد ، فى أقواله ، وأفعاله ، وأحكامه .

وأنه مألوه معبود بالعبادات ، التى هى منازل الصراط المستقيم .

وأنه كما أن له ملك السموات والأرض ، خلقا ورزقا ، وتدبيراً ، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية ، لأنهم ملكه ، ولا يليق به أن يتركهم سدى .

فلما بين الدليل والبرهان ، توعد من لم ينقد لذلك فقال :

[ وويل للكافرين من عذاب شديد ] لا يقدر قدره ، ولا يوصف أمره.

ثم وصفهم بأنهم [ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ] فرضوا بها ، واطمأنوا ، وغفلوا عن الدار الآخرة .

[ ويصدون ] الناس [ عن سبيل الله ] التى نصبها لعباده ، وبينها فى كتبه ، وعلى ألسنة رسله ، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة .

[ ويبغونها ] أي : سبيل الله [ عوجاً ] أى : يحرصون على تهجينها وتقبيحها ، للتنفير منها ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

---

[أولئك] الذين ذكر وصفهم [في ضلال بعيد] لأنهم ضلوا، وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهم. فأى ضلال أبعد من هذا؟!!.

وأما أهل الإيمان، فعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبغون استقامتها.

* وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا، إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به.

بخلاف مالو أتى على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى تلك اللغة، التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه.

فإذا بين الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله، فيضل الله من يشاء، ممن لم ينقد للهدى، ويهدى من يشاء، ممن اختصه برحمته.

وهو العزيز الحكيم، الذى — من عزته — أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء.

ومن حكمته، أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله، إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة، على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا

إلا إذا كان الناس فى حالة ، لايحتاجون إليها ، وذلك إذا تمرنوا على العربية ، ونشأ عليها صغيرهم ، وصارت طبيعة لهم ، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا الأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ، ابتداء ، كما تلقى الصحابة رضى الله عنهم .

* يخبر تعالى : أنه أرسل موسى بآياته العظيمة ، الدالة على صدق ما جاء به وصحته ، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم .

[ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ] أى : ظلمات الجهل والكفر وفروعه ، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه .

[ وذكرهم بأيام الله ] أى : بنعمه عليهم ، وإحسانه إليهم وبأيامه فى الأمم المكذبين ، ووقائعه بالكافرين ، ليشكروا نعمه ، وليحذروا عقابه .

[ إن فى ذلك ] أى : فى أيام الله على العباد [ لكل صبار شكور ] أى : صبار فى الضراء والعسر والضيق ، شكور على السراء والنعمة .

فإنه يستدل بأيامه ، على كمال قدرته ، وعميم إحسانه ، وتمام عدله وحكمته .

ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فذكرهم نعم الله فقال : [ اذكروا نعمة الله عليكم ] أى : بقلوبكم وألسنتكم .

نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ

---

[ إذا أنجاكم من آل فرعون يسومونكم ] أى : يولونكم[1] [ سوء العذاب ] أى أشده ، وفسر ذلك بقوله :

[ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ] أى : يبقونهن فلا يقتلونهن .

[ وفى ذلكم ] الإنجاء [ بلاء من ربكم عظيم ] أى : نعمة عظيمة .

أو فى ذلكم العذاب ، الذى ابتليتم به من فرعون وملأه ابتلاء من الله عظيم لكم ، لينظر هل تعتبرون أم لا ؟

وقال لهم — حاثا على شكر نعم الله — : [ وإذ تأذن ربكم ] أى أعلم ووعد .

[ لئن شكرتم لأزيدنكم ] من نعمى [ ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ] ومن ذلك ، أن يزيل عنهم النعمة ، التى أنعم بها عليهم .

والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله ، والثناء على الله بها ، وصرفها فى مرضاة الله تعالى ، وكفر النعمة ، ضد ذلك .

---

(١) قوله : ( يولونكم ) تعبير فيه إبهام ولو قال ( يذيقونكم أو يكلفونكم ) لكان أوضح ولأن الذين شرحوا معانى مفردات القرآن فسروا « يسومونكم » بـ « يذيقونكم » أو « يكلفونكم » .

إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

---

[ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً ] فلن تضروا الله شيئا .

[ فإن الله لغنى حميد ] فالطاعات لا تزيد فى ملكه ، والمعاصى ، لا تنقص .

وهو كامل الغنى ، حميد فى ذاته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله .

ليس له من الصفات ، إلا كل صفة حمد وكمال .

ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن .

ولا من الأفعال ، إلا كل فعل جميل .

* يقول تعالى — مخوفا عباده ، ما أحله بالأمم المكذبة ، حين جاءتهم الرسل ، فكذبوهم ، فعاقبهم بالعقاب العاجل ، الذى رآه الناس وسمعوه فقال: [ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ] .

وقد ذكر الله قصصهم فى كتابه ، وبسطها .

[ والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله ] من كثرتهم ، وكون أخبارهم اندرست .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ
أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن

---

فهؤلاء كلهم [ جاءتهم رسلهم بالبينات ] أى : بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به .

فلم يرسل الله رسولا ، إلا أتاه من الآيات ، ما يؤمن على مثله الشر .

فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها ، بل استكبروا عنها .

[ فردوا أيديهم فى أفواههم ] أي : لم يؤمنوا بما جاءوا به ، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله [ جعلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ] .

[ وقالوا ] صريحا لرسلهم : [ إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ] أى : موقع فى الريبة ، وقد كذبوا فى ذلك وظلموا .

ولهذا [ قالت ] لهم [ رسلهم أفى الله شك ] أى : فإنه أظهر الأشياء وأجلاها .

فمن شك فى الله [فاطر السموات والأرض] الذى وجود الأشياء مستند إلى وجوده ، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ، حتى الأمور المحسوسة .

ولهذا خاطبتهم الرسل ، خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه .

[ يدعوكم ] إلى منافعكم ومصالحكم [ ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ] أى : ليثيبكم على الاستجابة لدعوته ، بالثواب العاجل

ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ

---

والآجل ، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم ، بل النفع عائد إليكم .

فردوا على رسلهم ، رد السفهاء الجاهلين [ وقالوا ] لهم : [ إن أنتم إلا بشر مثلنا ] أى : فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة .

[ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ] فكيف نترك رأى الآباء وسيرتهم ، لرأيكم ؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا ؟

[ فأتونا بسلطان مبين ] أى : بحجة وبينة ظاهرة .

ومرادهم بينة يقترحونها هم ، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات .

[ قالت لهم رسلهم ] مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم : [ إن نحن إلا بشر مثلكم ] أى : صحيح وحقيقة ، إنَّا بشر مثلكم .

[ ولكن ] ليس فى ذلك ، مايدفع ما جئنا به من الحق ، فإن [ الله يمن على من يشاء من عباده ] فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته ، فذلك فضله وإحسانه ، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله .

فانظروا ما جئناكم به ، فإن كان حقاً ، فاقبلوه ، وإن كان غير ذلك ، فردوه ولا تجعلوا حالنا ، حجة لكم على رد ما جئناكم به .

وقولكم : « فائتونا بسلطان مبين » فإن هذا ليس بأيدينا ، وليس لنا من الأمر شىء .

ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ

---

[ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ] فهو الذى إن شاء جاءكم به وإن شاء ، لم يأتكم به ، وهو لا يفعل إلا ما هو متقضى حكمته ورحمته .

[ وعلى الله ] لا على غيره [ فليتوكل المؤمنون ] فيعتمدون عليه فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم ، لعلمهم بتمام كفايته ، وكمال قدرته ، وعميم إحسانه .

ويثقون به ، فى تيسير ذلك ، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم .

فعلم بهذا ، وجوب التوكل ، وأنه من لوازم الإيمان ، ومن العبادات الكبار ، التى يحبها الله ويرضاها ، لتوقف سائر العبادات عليه .

[ وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ] أى : أى شىء يمنعنا من التوكل على الله ، والحال ، أننا على الحق والهدى .

ومن كان على الحق والهدى ، فإن هداه ، يوجب له تمام التوكل .

وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدى وكفايته ، يدعو إلى ذلك .

بخلاف من لم يكن على الحق والهدى ، فإنه ليس ضامنا على الله ، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل .

أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

---

وفى هذا كالإشارة من الرسل ، عليهم الصلاة والسلام لقومهم ، بآية عظيمة .

وهو أن قومهم — فى الغالب — أن لهم القهر والغلبة عليهم .

فتحدتهم رسلهم ، بأنهم متوكلون على الله ، فى دفع كيدهم ومكرهم ، وجازمون بكفايته إياهم .

وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم ، وإطفاء مامعهم من الحق .

فيكون هذا ، كقول نوح لقومه : « ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون » الآيات .

وقول هود عليه السلام « إنى أشهد الله واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون » .

[ولنصبرن على ما آذيتمونا] أى : ولنستمرن على دعوتكم ، ووعظكم ، وتذكيركم ، ولا نبالى بما يأتينا منكم ، من الأذى ، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى ، احتسابا للأجر ، ونصحا لكم ، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير .

[ وعلى الله ] وحده لا على غيره [ فيتوكل المتوكلون ] فإن التوكل عليه ، مفتاح لكل خير .

واعلم أن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، توكلهم فى أعلى المطالب وأشرف المراتب ، وهو التوكل على الله ، فى إقامة دينه ونصره ، وهداية عبيده ، وإزالة الضلال عنهم ، وهذا أكمل ما يكون من التوكل .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

* لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال، مع قومهم فقال:

[ وقال الذين كفروا لرسلهم ] متوعدين لهم — [ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ] وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم، مطمع.

لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل، لاحق لهم فيها.

وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك، وخرج من التبعة.

ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصى، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له .

فعلم أن أعداء الرسل فى الحقيقة، ليس لهم شىء من الأرض، التى توعدوا الرسل بإخراجهم منها .

وإن رجعنا إلى مجرد العادة، فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم .

فلأى شىء يمنعونهم حقاً لهم، صريحا واضحا ؟!

هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية ؟

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ

---

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ، ما بقى حينئذ ، إلا أن يمضى الله أمره ، وينصر أولياءه .

[ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ] بأنواع العقوبات .

[ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك ] أى : العاقبة الحسنة التى جعلها الله للرسل ومن تبعهم ، جزاء [لمن خاف مقامى] عليه فى الدنيا ، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه .

[ وخاف وعيد ] أى : ما توعدت به من عصانى ، فأوجب له ذلك ، الانكفاف عما يكرهه الله ، والمبادرة إلى ما يحبه الله .

[ واستفتحوا ] أى : الكفار ، أى : هم الذين طلبوا ، واستعجلوا فتح الله وفرقانه ، بين أوليائه وأعدائه ، فجاءهم ما استفتحوا به ، وإلا فالله عليم حليم ، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

[ وخاب كل جبار عنيد ] أى : خسر فى الدنيا والآخرة ، من تجبر على الله وعلى الحق ، وعلى عباد الله ، واستكبر فى الأرض ، وعاند الرسل ، وشاقّهم .

[ من ورائه جهنم ] أى : جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد ، فلابد له من ورودها ، فيذاق حينئذ العذاب الشديد .

[ ويسقى من ماء صديد ] فى لونه ، وطعمه ، ورائحته الخبيثة ، وهو فى غاية الحرارة .

يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ

---

[ يتجرعه ] من العطش الشديد [ ولا يكاد يسيغه ] فإنه إذا قرب إلى وجهه ، شواه ، وإذا وصل إلى بطنه ، قطع ما أتى عليه من الأمعاء .

[ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ] أى : يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب ، وكل نوع منه ، من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى :

« لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * «وهم يصطرخون فيها » .

[ ومن ورائه ] أى : الجبار العنيد [ عذاب غليظ ] أى : قوى شديد ، لايعلم وصفه وشدته ، إلا الله تعالى .

* يخبر تعالى عن أعمال الكفار التى عملوها : إما أن المراد بها ، الأعمال التى عملوها لله ، بأنها فى ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد ، الذى هو أدق الأشياء وأخفها ، إذا اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل .

فكذلك أعمال الكفار [ لا يقدرون مما كسبوا على شيء ] ولا على مثقال ذرة منه ، لأنه مبنى على الكفر والتكذيب .

بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

[ ذلك هو الضلال البعيد ] حيث بطل سعيهم ، واضمحل عملهم .

وإما أن المراد بذلك ، أعمال الكفار التى عملوها ، ليكيدوا بها الحق .

فإنهم يسعون ويكدحون فى ذلك ، ومكرهم عائد عليهم ، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم ، من الحق شيئا .

* ينبه تعالى عباده بأن [الله خلق السموات والأرض بالحق] أى : ليعبده الخلق ويعرفوه ، ويأمرهم وينهاهم ، وليستدلوا بهما ، وما فيهما ، على ماله ، من صفات الكمال .

وليعلموا أن الذى خلق السموات والأرض — على عظمهما وسعتهما — قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً ، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم ، وأن قدرته ومشيئته ، لا تقصر عن ذلك ، ولهذا قال : [ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ] .

يحتمل أن المعنى : إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم ، يكونون أطوع لله منكم .

ويحتمل أن المراد : إن يشأ يفنيكم ، ثم يعيدكم بالبعث خلقاً جديداً .

ويدل على هذا الاحتمال ، ما ذكره بعده ، من أحوال يوم القيامة .

بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا
مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

---

[ وما ذلك على الله بعزيز ] أى : بممتنع بل هو سهل عليه جداً .
« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

[وبرزوا] أى : الخلائق [لله جميعاً] حين ينفخ فى الصور ، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم ، فيقفون فى أرض مستوية ، قاع صفصف ، لا ترى فيها عِوَجَا ولا أَمْتاً ويبرزون له ، لا يخفى عليه منهم خافية .

فإذا برزوا ، صاروا يتحاجون ، وكل يدفع عن نفسه ، ويدافع ما يقدر عليه ولكن أنى لهم ذلك ؟

[ فقال الضعفاء ] أى : التابعون والمقلدون [ للذين استكبروا ] وهم : المتبوعون ، الذين هم قادة فى الضلال :

[ إنا كنا لكم تبعاً ] أى : فى الدنيا ، أمرتمونا بالضلال ، وزينتموه لنا ، فأغويتمونا .

[ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ] أى: ولو مثقال ذرة .

[ قالوا ] أى : المتبوعون والرؤساء « أغوينا كم كما غوينا » و [لو هدانا الله لهدينا كم ] فلا يغنى أحد أحداً .

[ سواء علينا أجزعنا ] من العذاب [ أم صبرنا ] عليه .

[ما لنا من محيص] أى: لا ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ

---

✲ أى : [ وقال الشيطان ] الذى هو سبب لكل شر يقع ووقع فى العالم ، مخاطباً لأهل النار ، ومتبرئاً منهم [ لما قضى الأمر ] ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار :

[ إن الله وعدكم وعد الحق ] على ألسنة رسله ، فلم تطيعوه ، فلو أطعتموه ، لأدركتم الفوز العظيم .

[ ووعدتكم ] الخير [ فأخلفتكم ] أى : لم يحصل ، ولن يحصل لكم ما منيتكم به ، من الأمانى الباطلة .

[ وما كان لى عليكم من سلطان ] أى : من حجة على تأييد قولى .

[ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ] أى : هذه نهاية ما عندى ، أنِّى دعوتكم إلى مرادي ، وزينته لكم ، فاستجبتم لى ، اتِّباعا لأهوائكم وشهواتكم .

فإذا كانت الحال بهذه الصورة [ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ] فأنتم السبب ، وعليكم المدار فى موجب العقاب .

[ ما أنا بمصرخكم ] أى : بمغيثكم من الشدة التى أنتم بها [ وما أنتم بمصرخى ] كل له قسط من العذاب .

مِن قَبۡلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

[ إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل ] أى : تبرأت من جعلكم لى شريكا مع الله ، فلست شريكا لله ، ولا تجب طاعتى .

[ إن الظالمين ] لأنفسهم بطاعة الشيطان [ لهم عذاب أليم ] خالدين فيه أبداً .

وهذا من لطف الله بعباده ، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله ، التى يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه ، وأنه يقصد أن يدخله النيران .

وهنا بيّن لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده ، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ، ويكفر بشركهم « ولا ينبئك مثل خبير » .

واعلم أن الله ذكر فى هذه الآية ، أن الشيطان ليس له سلطان .

وقال فى آية أخرى « إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » .

فالسلطان الذى نفاه عنه ، هو سلطان الحجة والدليل .

فليس له حجة أصلا ، على ما يدعو إليه .

وإنما نهاية ذلك ، أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ، ما به يتجرأون على المعاصى .

وأما السلطان ، الذى أثبته ، فهو التسلط بالإغراء على المعاصى لأوليائه يَؤُزُّهُمْ إلى المعاصى أزًّا ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم ، بموالاته ، والالتحاق بحزبه .

ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

---

ولما ذكر عقاب الظالمين ، ذكر ثواب الطائعين فقال :

[ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أى : الذين قاموا بالدين ، قولا ، وعملا ، واعتقاداً .

[ جنات تجرى من تحتها الأنهار ] فيها من اللذات والشهوات ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ خالدين فيها بإذن ربهم ] أى : لا بحولهم وقوتهم ، بل بحول الله وقوته .

[ تحيتهم فيها سلام ] أى : يُحيىّ بعضهم بعضاً بالسلام ، والتحية ، والكلام الطيب .

* يقول تعالى : [ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة ] وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وفروعها .

[ كشجرة طيبة ] وهى النخلة [ أصلها ثابت ] فى الأرض [ وفرعها ] منتشر [ فى السماء ] وهى كثيرة النفع دائماً .

[ تؤتى أكلها ] أى ثمرتها [ كل حين بإذن ربها ] .

فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت فى قلب المؤمن ، علماً ، واعتقاداً .

بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ
مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

---

وفرعها من الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والأخلاق المرضية ، والآداب الحسنة ، فى السماء دائماً ، يصعد إلى الله منه ، من الأعمال والأقوال ، التى تخرجها شجرة الإيمان ، ما ينتفع به المؤمن ، وينتفع غيره .

[ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ] ماأمرهم به ونهاهم عنه. فإن فى ضرب الأمثال ، تقريباً للمعانى المعقولة ، من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذى أراده الله ، غاية البيان ، ويتضح ، غاية الوضوح ، وهذا من رحمته ، وحسن تعليمه . فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه .

فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها ، فى قلب المؤمن .

ثم ذكر ضدها وهى : كلمة الكفر ، وفرعها فقال :

[ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ] المأكل والمطعم ، وهى : شجرة الحنظل ونحوها .

[اجتثت] هذه الشجرة [ من فوق الأرض مالها من قرار ] أى: ثبوت فلا عروق تمسكها ، ولا ثمرة صالحة ، تنتجها ، بل إن وجد فيها ثمرة ، فهى ثمرة خبيثة .

كذلك كلمة الكفر والمعاصى ، ليس لها ثبوت نافع فى القلب ، ولا تثمر إلا كل قول خبيث ، وعمل خبيث ، يؤذى صاحبه ، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح ، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى : أنه يثبت عباده المؤمنين أى : الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام ، الذى يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها .

فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا ، عند ورود الشبهات ، بالهداية إلى اليقين.

وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة ، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها .

وفى الآخرة عند الموت ، بالثبات على الدين الإسلامى ،والخاتمة الحسنة.

وفى القبر عند سؤال الملكين ، للجواب الصحيح ، إذا قيل للميت « من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » هداهم للجواب الصحيح ، بأن يقول المؤمن : « الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبيي » .

[ ويضل الله الظالمين ] عن الصواب فى الدنيا والآخرة ،وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

وفى هذه الآية ، دلالة على فتنة القبر ، وعذابه ، ونعيمه ، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فى الفتنة وصفتها ، ونعيم القبر وعذابه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً حال المكذبين لرسوله ، من كفار قريش ، وما آل إليه أمرهم :

[ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ] ونعمة الله هى : إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة .

فبدلوا هذه النعمة ، بردها ، والكفر بها والصدّ عنها ، بأنفسهم .

[ و ] صدهم غيرهم حتى [ أحلوا قومهم دار البوار ] وهى : النار، حيث تسببوا لإضلالهم ، فصاروا وبالاً على قومهم ، من حيث يظن نفعهم .

ومن ذلك أنهم ، زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله.

فجرى عليهم ما جرى ، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم ، فى تلك الوقعة .

[جهنم يصلونها] أى: يحيط بهم حرها ، من جميع جوانبهم [ وبئس القرار ] [ وجعلوا لله أنداداً ] أى : نظراء وشركاء [ ليضلوا عن سبيله ] أى : ليضلوا العباد عن سبيل الله ، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد ، ودعوهم إلى عبادتها .

[قل] لهم متوعدا : [تمتعوا] بكفركم وضلالكم قليلا ، فليس ذلك بنافعكم .

[ فإن مصيركم إلى النار ] أى : مآلكم ومأواكم فيها ، وبئس المصير .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

---

* أى : [ قل لعبادى الذين آمنوا ] آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك :

[ يقيموا الصلاة ] ظاهرا وباطناً [ وينفقوا مما رزقناهم ] أى : من النعم التى أنعمنا بها عليهم، قليلا أو كثيرا [ سراً وعلانية ] .

وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة، ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة، كالصدقات ونحوها .

[ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ] أى : لا ينفع فيه شىء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق .

فكل امرىء له شأن يغنيه .

فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

---

۞ يخبر تعالى : أنه وحده [الذى خلق السموات والأرض] على اتساعهما وعظمهما .

[ وأنزل من السماء ماء ] وهو : المطر الذى ينزله الله من السحاب .

[ فأخرج به ] أى : بذلك الماء [ من الثمرات ] المختلفة الأنواع .

[رزقاً لكم] ورزقاً لأنعامكم [ وسخر لكم الفلك ] أى : السفن والمراكب .

[ لتجرى فى البحر بأمره] فهوالذى يسّر لكم صنعتها ، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء ، لتحملكم ، وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم ، إلى بلد تقصدونه .

[ وسخر لكم الأنهار ] لتسقى حروثكم وأشجاركم ، وتشربوا منها .

[وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ] لا يفتران ، ولا ينيان ، يسعيان لصالحكم ، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم ، وحيواناتكم ، وزروعكم ، وثماركم .

[ وسخر لكم الليل ] لتسكنوا فيه [ والنهار ] مبصراً ، لتبتغوا من فضله .

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي

---

[ وآتاكم من كل ما سألتموه ] أى : أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم ، مما تسألونه إياه . بلسان الحال ، أو بلسان المقال ، من أنعام ، وآلات ، وصناعات وغير ذلك .

[ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ] فضلا عن قيامكم بشكرها [ إن الإنسان لظلوم كفار ] أى : هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرىء على المعاصى ، مقصر فى حقوق ربه ، كفّار لنعم الله ، لا يشكرها ولا يعترف بها ، إلا من هداه الله ، فشكر نعمه ، وعرف حق ربه ، وقام به .

ففى هذه الآيات ، من أصناف نعم الله على العباد ، شىء عظيم ، مجمل ، ومفصل ، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره ، ويحثهم على ذلك ، ويرغبهم فى سؤاله ودعائه ، آناء الليل والنهار ، كما أن نعمته ، تتكرر عليهم ، فى جميع الأوقات .

* أى : [و] اذكر إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الحالة الجميلة .
[ إذ قال رب اجعل هذا البلد ] أى : الحرم [ آمنا ] .

فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدراً ، فحرمه الله فى الشرع ، ويسّر من أسباب حرمته ، قدرا ، ما هو معلوم .

حتى إنه لم يُرِدْهُ ظالم بسوء ، إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم .

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ

---

ولما دعا له بالأمن ، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: [ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ] .

أى : اجعلنى وإياهم ، جانباً بعيداً عن عبادتها ، والإلمام بها .

ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه ، بكثرة من افتتن وابتلى بعبادتها ، فقال :

[ ربى إنهن أضللن كثيراً من الناس ] أى : ضلوا بسببها .

[ فمن تبعنى ] على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين

[ فإنه منى ] لتمام الموافقة ومن أحب قوما واتبعهم ، التحق بهم .

[ومن عصانى فإنك غفور رحيم ] وهذا من شفقة الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله ، والله تبارك وتعالى ، أرحم منه بعباده ، لا يعذب إلا من تمرد عليه .

[ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ] وذلك أنه أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل وبابنها إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، وهو فى الرضاع ، من الشـــام ، حتى وضعهما فى مكة ، وهى — إذ ذاك — ليس فيها سكن ، ولا داع ، ولا مجيب .

فلما وضعهما ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فقال — متضرعا متوكلا على ربه:

رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ

---

[ ربنا إنى أسكنت من ذريتى ] أى : لا كل ذريتى ، لأن إسحق فى الشام ، وباقى بنيه كذلك ، وإنما أسكن فى مكة ، إسماعيل وذريته .

وقوله : [ بواد غير ذى ذرع ] أى : لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء .

[ ربنا ليقيموا الصلاة ] أى : اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ، لأن إقامة الصلاة من أخص ، وأفضل العبادات الدينية ، فمن أقامها ، كان مقيما لدينه .

[ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ] أى : تحبهم ، وتحب الموضع الذى هم ساكنون فيه .

فأجاب الله دعاءه ، فأخرج من ذرية إسماعيل ، محمدا صلى الله عليه وسلم ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامى ، وإلى ملة أبيهم إبراهيم ، فاستجابوا له وصاروا مقيمى الصلاة .

وافترض الله حج هذا البيت ، الذى أسكن به ذرية إبراهيم ، وجعل فيه سرا عجيبا ، جاذباً للقلوب ، فهى تحجه ، ولا تقضى منه وطرا على الدوام.

بل كلما أكثر العبد التردد إليه ، ازداد شوقه ، وعظم ولعه وتَوْقُه.

وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة .

[ وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ] فأجاب الله دعاءه .

فصار يجبى إليه ، ثمرات كل شىء .

فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت ، والثمار فيها متوفرة ، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب .

مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

[ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ] أى : أنت أعلم بنا منا .

فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا ، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها ، والتى لا نعلمها ، ما هو مقتضى علمك ورحمتك .

[ وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ] ومن ذلك ، هذا الدعاء الذى لم يقصد به الخليل إلا الخير ، وكثرة الشكر لله رب العالمين .

[ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ] فذلك من أكبر النعم .

وكونه على الكبر ، فى حال الإياس من الأولاد ، نعمة أخرى .

وكونهم أنبياء صالحين ، أجلّ وأفضل .

[ إن ربى لسميع الدعاء ] أى : لقريب الإجابة ، ممن دعاه ، وقد دعوته ، ولم يخيب رجائى .

ثم دعا لنفسه ولذريته فقال : [ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعائى . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ] .

فاستجاب الله له فى ذلك كله ، إلا أن دعاءه لأبيه، إنما كان عن موعدة

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

وعده إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه .

ثم قال تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا » إلى « وأفئدتهم هواء » .

* هذا وعيد شديد للظالمين ، وتسلية للمظلومين . يقول تعالى :

[ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ] حيث أمهلهم وأدَرَّ عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلبون فى البلاد ، آمنين مطمئنين .

فليس فى هذا ، ما يدل على حسن حالهم ، فإن الله يُملى للظالم ويمهله ، ليزداد إثماً ، حتى إذا أخذه ، لم يفلته « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

والظلم — ههنا — يشمل الظلم فيما بين العبد وربه ، وظلمه لعباد الله .

[ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ] أى : لا تَطْرُفُ من شدة ما ترى ، من الأهوال وما أزعجها من القلاقل .

[ مهطعين ] أى : مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوهم إلى الحضور بين يدى الله للحساب ، لا امتناع لهم ولا محيص ، ولا ملجأ .

[ مقنعى رءوسهم ] أى : رافعيها قد غُلّتْ أيديهم إلى الأذقان ، فارتفعت لذلك ، رءوسهم .

[ لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ] أى : أفئدتهم فارغة من قلوبهم ، قد صعدت إلى الحناجر ، لكنها مملوءة من كل هم وغم ، وحزن وقلق .

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ] أى : صِفْ لهم تلك الحال ، وحَذِّرْهُمْ من الأعمال الموجبة للعذاب، الذى حين يأتى فى شدائده وقلاقله .

[ فيقول الذين ظلموا ] بالكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصى ، نادمين على ما فعلوا ، سائلين للرجعة فى غير وقتها .

[ ربنا أخرنا إلى أجل قريب ] أى : رُدَّنا إلى الدنيا ،فإناقد أبصرنا.

[ نجب دعوتك ] والله يدعو إلى دار السلام [ ونتبع الرسل ] وهذا كله ، لأمل التخلص من العذاب الأليم ، وإلاَّ فهم كَذَبَةٌ فى هذا الوعد « فلو ردوا ، لعادوا لما نهوا عنه » .

ولهذا يوبخون ويقال لهم : [ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ] عن الدنيا ، وانتقال إلى الآخرة ، فها ، قد تبين لكم حِنْثُكُمْ فى إقسامكم ، وكذبكم فيما تدعون .

[ و ] ليس عملكم قاصراً فى الدنيا من أجل الآيات البينات .

بل [ سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ] من أنواع العقوبات ؟ وكيف أحلّ الله بهم العقوبات ، حين كذبوا بالآيات البينات ، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التى لا تدع أدنى شك فى القلب إلا أزالته .

فلم تنفع فيكم تلك الآيات ، بل أعرضتم ، ودمتم على باطلكم ، حتى

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

---

صار ما صار : ووصلتم إلى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه اعتذار ، من اعتذر بباطل .

[ وقد مكروا ] أي : المكذبون للرسل [ مكرهم ] الذى وصلت إليه إرادتهم ، وقدروا عليه .

[ وعندالله مكرهم ] أى : هو محيط به علما وقدرة ، وقد عاد مكرهم عليهم « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » [ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ] أى : ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل ، بالحق ، وبمن جاء به — من عظمه — لتزول الجبال الراسيات بسببه ، عن أماكنها .

أى : « مكروا مكراً كُبَّاراً » لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم .

ويدخل فى هذا ، كل مَنْ مكر من المخالفين للرسل ، لينصر باطلا ، أو يبطل حقا .

والقصد أن مكرهم ، لم يغن عنهم شيئاً ، ولم يضروا الله شيئاً ، وإنما ضروا أنفسهم .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

* يقول تعالى : [ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ] بنجاتهم ، ونجاة أتباعهم وسعادتهم ، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم فى الدنيا ، وعقابهم فى الآخرة .

فهذا لابد من وقوعه ، لأنه وعد به الصادق قولا ، على ألسنة أصدق خلقه ، وهم : الرسل ، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار .

خصوصا ، وهو مطابق للحكمة الإلهية ، والسنن الربانية ، وللعقول الصحيحة .

و [ إن الله ] لايعجزه شيء ، فإنه [ عزيز ذو انتقام ] .

أى : إذا أراد أن ينتقم من أحد ، فإنه لايفوته ولا يعجزه ، وذلك فى يوم القيامة .

[ «يوم تبدل الأرض غير الأض والسموات » ] تبدل غير السموات .

وهذا التبديل ، تبديل صفات ، لا تبـــديل ذات ، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم ، فتصير قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا .

وتـكون السماء ، كالمهل ، من شدة أهوال ذلك اليوم ، ثم يطويها الله تعالى بيمينه .

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

---

[ وبرزوا ] أى : الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ، ونشورهم فى محل لا يخفى منهم على الله شىء .

[ لله الواحد القهار ] أى : المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته ، وأفعاله العظيمة ، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدبيره ، فلا يتحرك منها متحرك ، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه .

[ وترى المجرمين ] أى : الذين وصفهم الإجرام ، وكثرة الذنوب .

[ يومئذ ] فى ذلك اليوم [ مقرنين فى الأصفاد ] أى : يسلسل كل أهل عمل من المجرمين ، بسلاسل من نار ، فيقادون إلى العذاب ، فى أذل صورة وأشنعها ، وأبشعها .

[ سرابيلهم ] أى : ثيابهم [ من قطران ] وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ، ونتن ريحها .

[ وتغشى وجوههم ] التى هى أشرف ما فى أبدانهم [ النار ] أى : تحيط بها ، وتصلاها من كل جانب ، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى.

وليس هذا ظلما من الله ، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا ، ولهذا قال تعالى :

[ ليجزى الله كل نفس ما كسبت ] من خير وشر ، بالعدل والقسط ، الذى لا جور فيه بوجه من الوجوه .

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

---

[ إن الله سريع الحساب ] كقوله تعالى :

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » .

ويحتمل أن معناه : سريع المحاسبة ، فيحاسب الخلق فى ساعة واحدة كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير ، فى لحظة واحدة ، لايشغله شأن عن شأن ، وليس ذلك بعسير عليه .

فلما بين البيان المبين فى هذا القرآن ، قال فى مدحه :

[ هذا بلاغ للناس ] أى : يتبلغون به ، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات ، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع ، وجميع العلوم التى يحتاجها العباد .

[ ولينذروا به ] لما فيه من الترهيب من أعمال الشر ، وما أعد الله لأهلها من العقاب .

[ وليعلموا أنما هو إله واحد ] حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين ، على ألوهيته ووحدانيته ، ما صار ذلك حق اليقين .

[ وليذكر أولو الألباب ] أى : العقول الكاملة ، ماينفعهم ، فيفعلونه وما يضرهم ، فيتركونه ، وبذلك صاروا أولى الألباب والبصائر .

. . . . . . . . . . .

---

إذ بالقرآن ، ازدادت معارفهم وآراؤهم ، وتنورت أفكارهم ، لما أخذوه غضاً طرياً ، فإنه لايدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها .

ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها .

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكى ، لم يزل فى صعود ورقى على الدوام فى كل خصلة حميدة . والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام .

تفســـير

# سُورَةُ الحِجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا

---

يقول تعالى — معظماً لكتابه ، ما دحاً له :

[ تلك آيات الكتاب ] أى : الآيات الدالة على أحسن المعانى ، وأفضل المطالب .

[ وقرآن مبين ] للحقائق ، بأحسن لفظ وأوضحه ، وأدله على المقصود .

وهذا مما يوجب على الخلق ، الانقياد إليه ، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول ، والفرح والسرور .

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها ، والكفر بها ، فإنه من المكذبين الضالين ، الذين سيأتى عليهم وقت ، يتمنون أنهم مسلمون ، أى : منقادون لأحكامه ، وذلك حين ينكشف الغطاء ، وتظهر أوائل الآخرة ، ومقدمات الموت

فإنهم فى أحوال الآخرة كلها ، يتمنون أنهم مسلمون ، وقد فات وقت الإمكان .

يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ

---

ولكنهم فى هذه الدنيا مغترون .

[ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ] بلذاتهم [ ويلهم الأمل ] أى : يؤملون البقاء فى الدنيا ، فيلهيهم عن الآخرة .

[ فسوف يعلمون ] أن ما هم عليه باطل ، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم ، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى ، فإن هذه ، سنته فى الأمم .

[ وما أهلكنا من قرية ] كانت مستحقة للعذاب [ إلا ولها كتاب معلوم ] مقدر لإهلاكها .

[ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ] وإلا ، فالذنوب لابد من وقوع أثرها ، وإن تأخر .

* أى : وقال المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، استهزاء وسخرية:

[ يا أيها الذى نزل عليه الذكر ] على زعمك [ إنك لمجنون ] إذ تظن أنا سنتبعك ، ونترك ما وجدنا عليه آباءنا ، لمجرد قولك :

لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

---

[ لو ما تأتينا بالملائكة ] يشهدون لك بصحة ما جئت به [ إن كنت من الصادقين ] فلما لم تأت بالملائكة ، فلست بصادق .

وهذا من أعظم الظلم والجهل .

أما الظلم ، فظاهر ، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات ، التى لم يختترها ، وحصل المقصود والبرهان بدونها ، من الآيات الكثيرة ، الدالة على صحة ما جاء به .

وأما الجهل ، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم .

فليس فى إنزال الملائكة ، خير لهم ، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذى لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له .

[ وما كانوا إذاً ] أى : حين تنزل الملائكة ، إن لم يؤمنوا ، ولن يؤمنوا [ منظرين ] أى : بممهلين .

فصار طلبهم لإنزال الملائكة ، تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار .

فإن الإيمان ليس فى أيديهم ، وإنما هو بيد الله .

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » ويكفيهم من الآيات ، إن كانوا صادقين ، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ

---

[ إنا نحن نزلنا الذكر ] أى : القرآن الذى فيه ذكرى لكل شىء ، من المسائل والدلائل الواضحة ، وفيه يتذكر من أراد التذكر.

[ وإنا له لحافظون ] أى : فى حال إنزاله ، وبعد إنزاله .

ففى حال إنزاله حافظون له ، من استراق كل شيطان رجيم .

وبعد إنزاله أودعه الله فى قلب رسوله ، واستودعه فى قلوب أمته ، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها ، والزيادة والنقص ، ومعانيه ، من التبديل .

فلا يحرف محرف معنى من معانيه ، إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين .

وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين .

ومن حفظه : أن الله يحفظ أهله من أعدائهم ، ولا يسلط عدوا يجتاحهم .

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون : لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية : [ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ] .

* أى ، فرقهم وجماعتهم ، رسلا .

[ وما يأتيهم من رسول ] يدعوهم إلى الحق والهدى [ إلا كانوا به يستهزئون ] .

نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

---

[ كذلك نسلكه ] أى : ندخل التكذيب [ فى قلوب المجرمين ] أى : الذين وصفهم الظلم والبهت ، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب ، وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ،ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان ، ولهذا قال :

[ لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ] أى : عادة الله فيهم ، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله .

* أى : ولو جاءتهم كل آية عظيمة ، لم يؤمنوا وكابروا .

[ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ] فصاروا يعرجون فيه ، ويشاهدونه ، عياناً بأنفسهم ، لقالوا — من ظلمهم وعنادهم ، منكرين لهذه الآية : —

[ إنما سكرت أبصارنا ] أى: أصابها سكر وغشاوة ، حتى رأينا ما لم نر

[ بل نحن قوم مسحورون ] أى : ليس هذا بحقيقة ، بل هذا سحر .

وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار ، فإنهم لامطمع فيهم ولارجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ماجاءت به الرسل من الحق فقال :

[ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً ] إلى [ برازقين ] .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ

---

* يقول تعالى — مبينا كمال اقتداره ورحمته بخلقه :

[ولقد جعلنا فى السماء بروجا] أى : نجوما كالأبراج ، والأعلام العظام يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

[وزيناها للناظرين] ، فإنه لولا النجوم ، لما كان للسماء هذا المنظر البهى ، والهيئة العجيبة .

وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها ، والنظر فى معانيها ، والاستدلال بها ، على باريها .

[وحفظناها من كل شيطان رجيم] إذا استرق السمع ، أتبعته الشهب الثواقب ، فبقيت السماء ، ظاهرها ، مجملا بالنجوم النيرات ، وباطنها ، محروسا ممنوعا ، من الآفات .

[إلا من استرق السمع] أى : فى بعض الأوقات ، قد يسترق بعض الشياطين السمع ، بخفية واختلاس .

[فأتبعه شهاب مبين] أى : بين منير ، يقتله ، أو يخبله .

فربما أدركه الشهاب ، قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه ، فينقطع خبر السماء عن الأرض .

وربما ألقاها إلى وليه ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيضمها ويكذب معها مائة كذبة .

وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

---

ويستدل بتلك الكلمة التى ، سمعت من السماء .

[ والأرض مددناها ] أى وسعناها سعة، يتمكن الآدميون والحيوانات كلها ، من الامتداد بأرجائها ، والتناول من أرزاقها ، والسكون فى نواحيها .

[ وألقينا فيها رواسى ] أى : جبالا عظاما ، تحفظ الأرض بإذن الله ، أن تميد ، وتثبتها أن تزول .

[ وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ] أى : نافع متقوم ، يضطر إليه العباد والبلاد ، ما بين نخيل ، وأعناب ، وأصناف الأشجار ، وأنواع النبات ، والمعادن .

[ وجعلنا لكم فيها معايش ] من الحرث ، ومن الماشية ، ومن أنواع المكاسب والحرف .

[ ومن لستم له برازقين ] أى : أنعمنا عليكم بعبيد وإماء ، وأنعام ، لنفعكم ، ومصالحكم ، وليس عليكم رزقها ، بل خولكم الله إياها ، وتكفل بأرزاقها .

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

---

* أى : جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لايملكها أحد إلا الله .

فخزائنها بيده، يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة .

[ وما ننزله ] أى : المقدر من كل شىء، من مطر وغيره .

[ إلا بقدر معلوم ] فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه .

* أى : وسخرنا الرياح، رياح الرحمة، تلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى .

فينشأ عن ذلك، الماء، بإذن الله، فيسقيه الله العباد، ومواشيهم، وأرضهم، ويبقى فى الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم، ما هو مقتضى قدرته ورحمته .

[ وما أنتم له بخازنين ] أى : لا قدرة لكم على خزنه وادخاره .

ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه ينابيع فى الأرض، رحمة بكم، وإحسانا إليكم .

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

---

* أى : هو وحده ، لاشريك له ، الذى يحيي الخلق من العدم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكوراً ويميتهم لآجالهم ، التى قدرها

[ ونحن الوارثون ] كقوله : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

وليس ذلك بعزيز ، ولا ممتنع على الله ، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، وما تفرق من أجزائهم .

وهو الذى ، قدرته لايعجزها معجز ، فيعيد عباده خلقا جديداً ، ويحشرهم إليه .

[ إنه حكيم عليم ] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، ويجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام ، وما جرى من عدوه إبليس ، وفى ضمن ذلك ، التحذير لنا من شره وفتنته ، فقال تعالى :

[ ولقد خلقنا الإنسان ] أى آدم عليه السلام [ من صلصال من حمإ مسنون] أى : من طين قد يبس ، بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت ، كصوت الفخار .

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

---

والحمأ المسنون ، الطين المتغير لونه وريحه ، من طول مكثه .

[ والجان ] وهو : أبو الجن أى : إبليس [ خلقناه من قبل ] خلق آدم [ من نار السموم ] أى : من النار الشديدة الحرارة .

فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة : [ إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ] جسداً تاماً [ ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ] فامتثلوا أمر ربهم [ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ] .

تأكيد بعد تأكيد ، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد ، وذلك ، تعظيما لأمر الله ، وإكراماً لآدم ، حيث علم ما لم يعلموا .

[ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ] وهذا أول عداوته لآدم وذريته .

قال الله : [ يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ] .

فاستكبر على أمر الله ، وأبدى العداوة لآدم وذريته ، وأعجب بعنصره وقال : أنا خير من آدم .

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

[ قال ] الله — معاقباً له على كفره واستكباره — [ فاخرج منها فإنك رجيم ] .

أى : مطرود ومبعد من كل خير .

[ وإن عليك اللعنة ] أى : الذم ، والعيب ، والبعد عن رحمة الله [ إلى يوم الدين ] .

ففيها ، وما أشبهها ، دليل على أنه سيستمر على كفره ، وبعده من الخير .

[ قال رب فأنظرنى ] أى : أمهلنى [ إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى الوقت المعلوم ] .

وليس إجابة الله لدعائه ، كرامة فى حقه ، وإنما ذلك ، امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ، ليتبين الصادق الذى يطيع مولاه دون عدوه ، ممن ليس كذلك .

ولذلك حذرنا منه ، غاية التحذير ، وشرح لنا ، مايريده منا .

[ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ] أى : أزين لهم الدنيا ، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى ، حتى يكونوا منقادين لكل معصية .

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾
قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

---

[ ولأغوينهم أجمعين ] أى : أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم .

[ إلا عبادك منهم المخلصين ] أى : الذين أخلصتهم واجتبيتهم ، لإخلاصهم ، وإيمانهم ، وتوكلهم .

قال الله تعالى : [ هذا صراط على مستقيم ] أى : معتدل موصل إلىّ ، وإلى دار كرامتى .

[ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ] تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات ، بسبب عبوديتهم لربهم ، وانقيادهم لأوامره ، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان .

[ إلا من اتبعك ] فرضى بولايتك وطاعتك ، بدلا من طاعة الرحمن .

[من الغاوين] والغاوى : ضد الراشد ، فهو: الذى عرف الحق وتركه .

والضال : الذى تركه من غير علم منه به .

[ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ] أى : إبليس وجنوده .

[ لها سبعة أبواب ] كل باب أسفل من الآخر .

[لـكل باب منهم] أى: من أتباع إبليس [جزء مقسوم] بحسب أعمالهم .

قال تعالى :« فـكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون ».

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه ، أتباع إبليس ، من النـكال والعذاب

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

---

الشديد ، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم ، والنعيم المقيم فقال : إن المتقين » إلى « هو العذاب الأليم » .

* يقول تعالى : [ إن المتقين ] الذين اتقوا طاعة الشيطان ، وما يدعوهم إليه ، من جميع الذنوب والعصيان [ فى جنات وعيون ] قد احتوت على جميع الأشجار ، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة ، فى جميع الأوقات .

ويقال لهم حال دخولها : [ ادخلوها بسلام آمنين ] من الموت ، والنوم والنصب ، واللغوب ، وانقطاع شيء من النعيم ، الذى هم فيه أو نقصانه ، ومن المرض ، والحزن ، والهم ، وسائر المكدرات .

[ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ] فتبقى قلوبهم سالمة ، من كل غل ، وحسد ، متصافية متحابة « إخوانا على سرر متقابلين » .

دل ذلك على تزاورهم ، واجتماعهم ، وحسن أدبهم فيما بينهم ، فى كون كل منهم مقابلا للآخر ، لا مستدبراً له ، متكئين على تلك السرر المزينة ، بالفرش واللؤلؤ ، وأنواع الجواهر [ لايمسهم فيها نصب(١) ] لا ظاهر ولا باطن .

وذلك ، لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة ، لاتقبل شيئا من الآفات .

[ وما هم منها بمخرجين ] على سائر الأوقات .

---

(١) نصب . أى : تعب وكدر .

نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

ولما ذكر مايوجب الرغبة والرهبة ، من مفعولات الله ، من الجنة ، والنار ، ذكر مايوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال :

[ نبيء عبادى ] أى : أخبرهم خبراً جازماً ، مؤيداً بالأدلة .

[ أنى أنا الغفور الرحيم ] فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته ، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته ، وأقلعوا عن الذنوب ، وتابوا منها ، لينالوا مغفرته .

ومع هــذا ، فلا ينبغى أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال (١) .

فنبئهم [ أن عذابى هو العذاب الأليم ] أى : لاعذاب فى الحقيقة ، إلا عـذاب الله ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، نعوذ به من عذابه .

فإنهم إذا عرفوا أنه «لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد» حذروا ، وبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب .

فالعبد ، ينبغى أن يكون قلبه دائما ، بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته ، وجوده وإحسانه ، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة .

وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره فى حقوق ربه ، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها .

(١) كذا فى الأصل والعبارة غير واضحة . أ . ه مصححه .

۞ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ] .

أى : عن تلك القصة العجيبة ، فإن فى قصك عليهم أنباء الرسل ، وما جرى لهم ، مايوجب لهم العبرة ، والاقتداء بهم .

خصوصاً ، إبراهيم الخليل ، الذى أمرنا الله أن نتبع ملته .

وضيفه هم : الملائكة الكرام ، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه .

[ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ] أى : سلموا عليه ، فرد عليهم [ قال : إنا منكم وجلون ] أى : خائفون .

لأنه لما دخلوا عليه ، وحسبهم ضيوفاً ، ذهب مسرعاً إلى بيته ، فأحضر لهم ضيافتهم ، عجلا حنيذاً (١) فقدمه إليهم .

فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ، خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم .

[ قالوا ] له : [ لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ] وهو : إسحق عليه الصلاة والسلام .

تضمنت هذه البشارة ، بأنه ذكر لا أنثى ، عليم ، أى : كثير العلم .

وفى الآية الأخرى « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ».

---

(١) حنيذا . أى : مشويا .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

---

قال لهم متعجبا من هذه البشارة : [ أبشرتمونى ] بالولد [ على أن مسنى الكبر ] وصار نوع إياس منه [ فبم تبشرون ] أى : على أى وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب ؟

[ قالوا بشرناك بالحق ] الذى لاشك فيه ، لأن الله على كل شىء قدير ، وأنتم بالخصوص — يا أهل هذا البيت — رحمة الله وبركاته عليكم ، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم .

[ فلا تكن من القانطين ] الذين يستبعدون وجود الخير ، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

فأجابهم إبراهيم بقوله : [ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ] الذين لا علم لهم بربهم ، وكمال اقتداره .

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم ، فلا سبيل إلى القنوط إليه ، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق ، لرحمة الله ، شيئا كثيراً .

ثم لما بشروه بهذه البشارة ، عرف أنهم مرسلون لأمر مُهِمّ .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾
قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ

---

* أى : [قال] الخليل عليه السلام للملائكة [فما خطبكم أيها المرسلون] .

أى : ما شأنكم ، ولأى شىء أرسلتم ؟

[ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ] أى : كثر فسادهم ، وعظم شرهم ، لنعذبهم ونعاقبهم .

[ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ] أى : إلا لوطا ، وأهله [ إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين ] أى : الباقين بالعذاب .

وأما لوط ، فلنخرجنه وأهله ، وننجيهم منها :

فجعل إبراهيم ، يجادل الرسل فى إهلاكهم ، ويراجعهم .

فقيل له : « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » فذهبوا عنه .

[ فلما جاء آل لوط المرسلون قال ] لهم لوط [ إنكم قوم منكرون ] أى : لا أعرفكم ولا أدرى من أنتم .

[ قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ] أى : جئناك بعذابهم الذى كانوا يشكون فيه ، ويكذبونك حين توعدهم به .

[ وأتيناك بالحق ] الذى ليس بالهزل [ وإنا لصادقون ] فيما قلنا لك .

وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى

---

[ فأسر بأهلك بقطع من الليل ] أى : فى أثنائه حين تنام العيون ، ولا يدرى أحد عن مسراك .

[ واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد ] أى : بادروا وأسرعوا .

[ وامضوا حيث تؤمرون ] كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون .

[ وقضينا إليه ذلك ] أى : أخبرناه خبرا لا مثنوية فيه .

[ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ] أى : سيصبحهم العذاب الذى يجتاحهم ويستأصلهم .

[ وجاء أهل المدينة ] أى : المدينة التى فيها قوم لوط [ يستبشرون ] أي . يبشر بعضهم بعضاً ، بأضياف لوط ،وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم ، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم .

فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط ، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه ، ولوط يستعيذ منهم ويقول :

[ إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون ] أى: راقبوا الله أول ذلك ، وإن كان ليس فيكم خوف من الله ، فلاتفضحون في أضيافى ، وتنتهكوا منهم حرمتهم بفعل الأمر الشنيع .

فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

---

و [قالوا] له جواباً عن قوله ولا تخزون فقط: [ أولم ننهك عن العالمين] أن تضيفهم ، فنحن قد أنذرناك ، ومن أنذر فقد أعذر .

[ قال ] لهم لوط من شدة الأمر الذى أصابه : [ هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ] .

فلم يبالوا بقوله ، ولهذا قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم [ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ] وهذه السكرة ، هى سكرة محبة الفاحشة ، التى لا يبالون معها بعذل ولا لوم .

فلما بينت له الرسل حالهم ، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب .

فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا ، فنجوا .

وأما أهل القرية [ فأخذتهم الصيحة مشرقين ] أى : وقت شروق الشمس ، حيث كانت العقوبة عليهم أشد .

[ فجعلنا عاليها سافلها ] أى : قلبنا عليهم مدينتهم .

[ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ] . تتبع فيها من شذ من البلد .

سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

---

[ إن فى ذلك لآية للمتوسمين ] أى : المتأملين المتفكرين ، الذين لهم فكر وروية وفراسة ، يفهمون بها ما أريد بذلك ، من أن من تجرأ على معاصى الله ، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة ، أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات ، كما تجرأوا على أشنع السيئات .

[ وإنها ] أى : مدينة قوم لوط [ لبسبيل مقيم ] للسالكين ، يعرفه كل من تردد فى تلك الديار [ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ] .

وفى هذه القصة من العبر : عنايته تعالى بخليله إبراهيم .

فإن لوطا عليه السلام ، من أتباعه ، ومن آمن به فكأنه تلميذ له .

فحين أراد الله إهلاك قوم لوط ، حين استحقوا ذلك ، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام ، كى يبشروه بالولد ، ويخبروه بما بعثوا له ، حتى إنه جادلهم عليه السلام فى إهلاكهم ، حتى أقنعوه ، فطابت نفسه .

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا أهل وطنه ، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم ، قدَّر الله من الأسباب ، ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم ، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

ومنها: أن الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك قرية ، زاد شرهم وطغيانهم .

فإذا انتهى ، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه .

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا
مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾
وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ

---

* وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو: البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس فى المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك على أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم فى حق الخالق، وفى حق الخلق، ولهذا، وصفهم، هنا، بالظلم.

[فانتقمنا منهم] فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

[وإنهما] أى: ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة [لبإمام مبين] أى: لبطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فيتبينُ من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولوا الألباب.

* يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم، قوم صالح، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف فى أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أى: كذبوا صالحا.

ومن كذب رسولا، فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم.

وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذى اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

[وآتيناهم آياتنا] الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، ومن جملتها: تلك الناقة، هى من آيات الله العظيمة.

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

---

[ فـكانوا عنها معرضين ] كبراً وتجبراً على الله .

[ وكانوا ] — من كثرة إنعام الله عليهم — [ ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ] من المخاوف مطمئنين فى ديارهم .

فلو شكروا النعمة ، وصدقوا نبيهم صالحا ، عليه السلام ، لَأَدَرَّ الله عليهم الأرزاق ، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل .

ولـكنهم — لما كذبوا ، وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : « ياصالح ائتنا بما تعدنا ، إن كنت من الصادقين » [ فأخذتهم الصيحة مصبحين ] .

فتقطعت قلوبهم فى أجوافهم ، وأصبحوا في دارهم جاثمين هَلْـكَى ، مع ما يتبع ذلك ، من الخزى واللعنة المستمرة .

[ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ] لأن أمر الله إذا جاء ، لا يرده كثرة جنود ، ولا قوة أنصار ، ولا غزارة أموال .

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

---

* أى : ما خلقناهما عبثاً باطلا ، كما يظن أعداء الله .

بل ما خلقناهما [ إلا بالحق ] الذى منه ، أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما ، واقتداره ، وسعة رحمته ، وحكمته ، وعلمه المحيط ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

[ وإن الساعة لآتية ] لا ريب فيها ، لأن خلق السموات والأرض ابتداء ، أكبر من خلق الناس مرة أخرى .

[ فاصفح الصفح الجميل ] وهو الصفح ، الذى لا أذية فيه ، بل قَابِلْ إساءة المسىء بالإحسان ، وذنبه بالغفران ، لتنال من ربك ، جزيل الأجر والثواب ، فإن كل ما هو آت فهو قريب .

وقد ظهر لى معنى أحسن مما ذكرت هنا .

وهو : أن المأمور به ، هو الصفح الجميل ، أى : الحسن الذى قد سلم من الحقد ، والأذية القولية والفعلية .

دون الصفح الذى ليس بجميل ، وهو : الصفح فى غير محله .

فلا يصفح ، حيث اقتضى المقام العقوبة ، كعقوبة المعتدين الظالمين ، الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة ، وهذا هو المعنى .

[إن ربك هو الخلاق] لكل مخلوق [العليم] بكل شىء ، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه ، وجرى عليه خلقه ، وذلك : سائر الموجودات .

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ

---

* يقول تعالى مُمْتَنًّا على رسوله : [ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى ] وهن — على الصحيح — السور السبع الطوال : « البقرة » « وآل عمران » ، و« النساء » و« المائدة » و« الأنعام » و « الأعراف » و« الأنفال » مع « التوبة » . أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات .

فيكون عطف [ والقرآن العظيم ] على ذلك ، من باب عطف العام على الخاص ، لكثرة ما فى المثانى من التوحيد ، وعلوم الغيب ، والأحكام الجليلة ، وتثنيتها فيها .

وعلى القول ، بأن « الفاتحة » هى السبع المثانى ، معناها : أنها سبع آيات ، تثنى فى كل ركعة .

وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثانى ، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون ، وأعظم ما فرح به المؤمنون .

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ولذلك قال بعده : [ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ] أى : لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك ، بشهوات الدنيا ، التى تمتع بها المترفون ، واغتر بها الجاهلون ، واسْتَغْنِ بما آتاك الله ، من المثانى والقرآن العظيم .

[ ولا تحزن عليهم ] فإنهم لا خير فيهم يُرْجَى ، ولا نفع يُرْتَقَبْ .

أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

---

فلك فى المؤمنين عنهم ، أحسن البدل ، وأفضل العوض .

[ واخفض جناحك للمؤمنين ] أى أَلِنْ لهم جانبك ، وحَسِّن لهم خلقك ، محبة ، وإكراماً ، وتَوَدُّداً .

[ وقل إنى أنا النذير المبين ] أى : قم بما عليك من النذارة ، وأداء الرسالة ، والتبليغ للقريب والبعيد ، والعدو ، والصديق .

فإنك إذا فعلت ذلك ، فليس عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء .

وقوله . [ كما أنزلنا على المقتسمين ] أى . كما أنزلنا العقوبة على بطلان ما جئت به ، الساعين لصد الناس عن سبيل الله .

[ الذين جعلوا القرآن عضين ] أى : أصنافا ، وأعضاءا ، وأجزاءا ، يصرفونه بحسب ما يهوونه .

فمنهم من يقول : سحر ، ومنهم من يقول : كهانة ومنهم من يقول مُفْتَرَى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به ، الذين جعلوا قدحهم فيه ، ليصدوا الناس عن الهدى .

[ فوربك لنسألنهم أجمعين ] أى : جميع من قدح فيه وعابه ، وحرّفه وبدّله [ عما كانوا يعملون ] .

وفى هذا أعظم ترهيب ، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ

---

* ثم أمر الله رسوله أن لا يبالى بهم ، ولا بغيرهم ، وأن يصدع بما أمر الله ، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يُعَوِّقَنَّهُ عن أمره عائق ولا تَصُدَّه أقوال المتهوكين .

[ وأعرض عن المشركين ] أى لا تبال بهم، واترك مشاتمتهم ومسابتهم، مقبلا على شأنك .

[ إنا كفيناك المستهزئين ] بك وبما جئت به ، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون ، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة .

وقد فعل تعالى ، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، إلا أهلكه الله ، وقتله شر قتلة .

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يارسول الله .

فإنهم أيضاً ، يؤذون الله [ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ] وهو ربهم وخالقهم ، ومنه برهم [ فسوف يعلمون ] غِبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة .

[ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ] لك من التكذيب والاستهزاء .

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب ، والتعجيل لهم بما يستحقونه ، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم .

[ ف ] أنت يامحمد [ سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ] أى : أكثر من ذكر الله ، وتسبيحه ، وتحميده ، والصلاة ، فإن ذلك يوسع الصدر ، ويشرحه ، ويعينك على أمورك .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ
رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

---

[ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ] أى : الموت ، أى : استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات .

فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، فلم يزل دائباً فى العبادة ، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم ، تسليما كثيراً .

تم تفسير سورة الحجر — والحمد لله رب العالمين آمين

تفسير

# سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

---

* يقول تعالى — مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه — ] أتى أمر الله فلا تستعجلوه ].

فإنه آت، وما هو آت، فإنه قريب.

[سبحانه وتعالى عما يشركون] من نسبة الشريك، والولد، والصاحبة، والكفء، وغير ذلك، مما نسبه إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه، مما يجب اتباعه، في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

[ ينزل الملائكة بالروح من أمره ] أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح

[ على من يشاء من عباده ] ممن يعلمه صالحا. لتحمل رسالته.

مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

---

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها ، على قوله : [ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ] .

أى : على معرفة الله تعالى وتوحده ، فى صفات العظمة ، التى هى صفات الألوهية ، وعبادته وحده لا شريك له ، فهى التى أنزل بها كتبه، وأرسل بها رسله ، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها ، وتحث وتجاهد من حاربها ، وقام بضدها .

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال :

[ خلق السموات ] إلى [ لهداكم أجمعين ] .

* هذه السورة ، تسمى سورة النعم ، فإن الله ذكر فى أولها ، أصول النعم وقواعدها ، وفى آخرها ، متمماتها ومكملاتها .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق ، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما ، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما سكنا لعباده الذين يعبدونه ، بما يأمرهم به ، فى الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله ، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال :

[ تعالى عما يشركون ] أى : تنزه وتعاظم عن شركهم ، فإنه الإله حقا ، الذى لا تنبغى العبادة ، والحب ، والذل ، إلا له تعالى .

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ

---

ولما ذكر خلق السموات والأرض ، ذكر خلق ما فيهما .

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال : [ خلق الإنسان من نطفة ] لم يزل يدبرها ، ويربيها ، وينميها ، حتى صارت بشراً تاماً ، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة .

قد غمره بنعمه الغزيرة ، حتى إذا استتم ، فخر بنفسه وأعجب بها [ فإذا هو خصيم مبين ] .

يحتمل أن المراد : فإذا هو خصيم لربه ، يكفر به ، ويجادل رسله ، ويكذب بآياته .

ونسى خلقه الأول ، وما أنعم الله عليه به ، من النعم ، فاستعان بها على معاصيه .

ويحتمل أن المعنى : أن الله أنشأ الآدمى من نطفة .

ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور ، حتى صار عاقلا متكلما ، ذا ذهن ورأى ، يخاصم ويجادل .

فليشكر العبد ربه الذى أوصله إلى هذه الحال ، التى ليس فى إمكانه القدرة على شىء منها .

[ والأنعام خلقها لكم ] أى لأجلكم ، ولأجل منافعكم ومصالحكم .

ومن جملة منافعها العظيمة [ لكم فيها دفء ] مما تتخذون من أصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، وجلودها ، من الثياب ، والفرش ، والبيوت .

أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

---

[ و ] لكم فيها [ منافع ] غير ذلك [ ومنها تأكلون ] .

[ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ] أى : فى وقت رواحها وسكونها ، ووقت حركتها وسرحها .

وذلك أن جمالها ، لايعود إليها منه شىء ، فإنكم ، أنتم الذين تتجملون بها ، بثيابكم ، وأولادكم ، وأموالكم ، وتعجبون بذلك .

[ وتحمل أثقالكم ] من الأحمال الثقيلة ، بل وتحملكم أنتم [ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ] ولكن الله ، ذللها لكم .

فمنها ما تركبونه ، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون ، من الأثقال ، إلى البلدان البعيدة ، والأقطار الشاسعة .

[ إن ربكم لرءوف رحيم ] إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه .

فله الحمد ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، وسعة جوده وبره .

[ والخيل والبغال والحمير ] سخرناها لكم [ لتركبوها وزينة ] .

أى : تارة تستعملونها للضرورة فى الركوب ، وتارة لأجل الجمال والزينة .

ولم يذكر الأكل ، لأن البغال والحمير ، محرم أكلها .

والخيل لاتستعمل — فى الغالب — للأكل ، بل ينهى عن ذبحها

وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ

لأجل الأكل ، خوفاً من انقطاعها ، وإلا فقد ثبت فى الصحيحين ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أذن فى لحوم الخيل .

[ ويخلق ما لا تعلمون ] مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء ، التى يركبها الخلق فى البر ، والبحر ، والجو ، ويستعملونها فى منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها ، لأن الله تعالى لم يذكر فى كتابه ، إلا مايعرفه العباد ، أو يعرفون نظيره .

وأما ما ليس له نظير فى زمانهم ، فإنه لو ذكر لم يعرفوه ، ولم يفهموا المراد به .

فيذكر أصلا جامعاً ، يدخل فيه ما يعلمون ، ومالا يعلمون .

كما ذكر نعيم الجنة ، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره ، كالنخل والأعناب والرمان .

وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله [ فيهما من كل فاكهة زوجان ] .

فكذلك هنا ، ذكر ما نعرفه ، من المراكب ، كالخيل ، والبغال ، والحمير ، والإبل ، والسفن .

وأجمل الباقى فى قوله [ ويخلق مالا تعلمون ] .

ولما ذكر تعالى ، الطريق الحسى ، وأن الله قد جعل للعباد ، ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ، ذكر الطريق المعنوى الموصل إليه فقال :

[ وعلى الله قصد السبيل ] أى : الصراط المستقيم ، الذى هو أقرب الطرق وأخصرها ، موصل إلى الله ، وإلى كرامته .

وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

---

وأما الطريق الجائر فى عقائده وأعماله ، وهو : كل ما خالف الصراط المستقيم ، فهو قاطع عن الله ، موصل إلى دار الشقاء .

فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم ، وضل الغاوون عنه ، وسلكوا الطرق الجائرة .

[ ولو شاء لهداكم أجمعين ] ولكنه هدى بعضاً ، كرماً وفضلا ، ولم يهد آخرين ، حكمة منه وعدلا .

* ينبه الله تعالى بهذه الآية الإنسان على عظمة قدرته وحثهم على التفكر حيث ختمها بقوله ( لقوم يتفكرون ) على كمال قدرة الله ، الذى أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ، ورحمته ، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه يشربون ، وتشرب مواشيهم ، ويسقون منه حروثهم ، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة ، والنعم الغزيرة .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* أي : سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم ، وأنواع مصالحكم ، بحيث لا تستغنون عنها أبداً .

فبالليل تسكنون وتنامون ، وتستريحون .

وبالنهار تنتشرون فى معايشكم ، ومنافع دينكم ودنياكم .

وبالشمس والقمر ، من الضياء ، والنور ، والإشراق ، وإصلاح الأشجار والثمار ، والنبات ، وتجفيف الرطوبات ، وإزالة البرودة الضارة للأرض ، وللأبدان ، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات ، التابعة لوجود الشمس والقمر .

وفيهما ، وفى النجوم ، من الزينة للسماء والهداية ، فى ظلمات البر والبحر ، ومعرفة الأوقات ، وحساب الأزمنة ، ما تتنوع دلالاتها ، وتتصرف آياتها .

ولهذا جمعها فى قوله [ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ] أى : لمن لهم عقول يستعملونها فى التدبر والتفكر ، فيما هى مهيأة له ، مستعدة ، تعقل ما تراه ، وتسمعه .

لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة ، حظ البهائم ، التى لا عقل لها .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟

---

* أى : فيما ذرأ الله ونشر للعباد ، من كل ما على وجه الأرض ، من حيوان ، وأشجار ، ونبات ، وغير ذلك ، مما تختلف ألوانه ، وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله ، وعميم إحسانه ، وسعة بره ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لاشريك له .

[ لقوم يذكرون ] أى : يستحضرون فى ذاكرتهم ، ما ينفعهم من العلم النافع ، ويتأملون مادعاهم الله إلى التأمل فيه ، حتى يتذكروا بذلك ، ما هو دليل عليه .

* أي : هو وحده لا شريك له [ الذى سخر البحر ] وهيأه لمنافعكم المتنوعة .

[ لتأكلوا منه لحما طرياً ] وهو ، السمك ، والحوت ، الذى تصطادونه منه .

[ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ] فتزيدكم جمالا وحسناً إلى حسنكم .

[ وترى الفلك ] أى : السفن والمراكب [ مواخر فيه ] أى تمخر في البحر العجاج الهائل ، بتقدمها ، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر ، تحمل

مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

---

المسافرين وأرزاقهم ، وأمتعتهم ، وتجاراتهم ، التى يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم .

[ ولعلكم تشكرون ] الذى يسر لكم هذه الأشياء وهيأها ، وتثنون على الله الذى مَنَّ بها .

فلله تعالى الحمد والشكر ، والثناء ، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم ، فوق ما يطلبون ، وأعلى ما يتمنون ، وآتاهم من كل ما سألوه، لانحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

* أى : [ وألقى ] الله تعالى لأجل عباده [ فى الأرض رواسى ] وهى : الجبال العظام لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق ، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء ، والسير عليها .

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً ، يسوقها من أرض بعيدة ، إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقى مواشيهم وحروثهم ، أنهاراً على وجه الأرض ، وأنهاراً فى بطنها يستخرجونها بحفرها ، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالى والآلات ونحوها .

ومن رحمته أن جعل فى الأرض سبلا أى : طرقاً توصل إلى الديار المتنائية .

[ لعلكم تهتدون ] السبيل إليها حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال ، مسلسلة فيها ، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

---

* لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة ، وما أنعم به من النعم العميمة ، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له ، فقال :

[ أفمن يخلق ] جميع المخلوقات ، وهو الفعال لما يريد [ كمن لا يخلق ] شيئاً ، لا قليلا ، ولا كثيراً .

[ أفلا تذكرون ] فتعرفون أن المنفرد بالخلق ، أحق بالعبادة كلها .

فكما أنه واحد فى خلقه وتدبيره ، فإنه واحد فى إلهيته وتوحيده ، وعبادته .

وكما أنه ليس له مشارك ، إذ أنشأكم وأنشأ غيركم ، فلا تجعلوا له أنداداً فى عبادته ، بل أخلصوا له الدين .

[ وإن تعدوا نعمة الله ] عدداً مجرداً عن الشكر [ لا تحصوها ] فضلا عن كونكم تشكرونها .

فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد ، بعدد الأنفاس واللحظات ، من جميع أصناف النعم ، مما يعرف العباد ، ومما لا يعرفون ، وما يدفع عنهم من النقم ، فأكثر من أن تحصى .

[ إن الله لغفور رحيم ] يرضى منكم باليسير من الشكر ، مع إنعامه الكثير .

دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ

---

وكما أن رحمته واسعة ، وجوده عميم ، ومغفرته شاملة للعباد ، فعلمه محيط بهم .

[ يعلم ماتسرون وما تعلنون ] بخلاف من عبد من دونه .

فإنهم [ لايخلقون شيئا ] قليلا ولا كثيراً [ وهم يخلقون ] .

فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم فى إيجادهم إلى الله تعالى ؟! !

ومع هذا ، ليس فيهم من أوصاف الكمال شىء ، لاعلم ، ولا غيره .

[ أموات غير أحياء ] فلا تسمع ، ولاتبصر ، ولاتعقل شيئا ، أفنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين .

فتبًا لعقول المشركين ، ما أضلها ، وأفسدها ، حيث ضلت فى أظهر الأشياء فساداً .

وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ، ولا شىء من الأفعال ، وبين الكامل من جميع الوجوه الذى له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها .

فله العلم المحيط بكل الأشياء ، والقدرة العامة ، والرحمة الواسعة ، التى ملأت جميع العوالم .

والحمد والمجد والكبرياء والعظمة ، التى لايقدر أحد من الخلق ، أن يحيط ببعض أوصافه ولهذا قال :

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

---

[ إن إلهكم إله واحد ] وهو : الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يكن له كفوراً أحد .

فأهل الإيمان والعقول ، أحلته قلوبهم وعظمته ، وأحبته حباً عظيما ، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية ، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته ، وأفعاله المقدسة .

[ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ] لهذا الأمر العظيم الذى لا ينكره إلا أعظم الخلق ، جهلا وعناداً ، وهو : توحيد الله [ وهم مستكبرون ] عن عبادته .

[ لاجرم ] أى : حقاً لابد [ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ] من الأعمال القبيحة [ إنه لا يحب المستكبرين ] بل يبغضهم أشد البغض ، وسيجازيهم من جنس عملهم « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ

---

* يقول تعالى - مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله :

[ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ] أى : إذا سئلوا عن القرآن والوحى، الذى هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد.

فماذا قولكم به ؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها، أم تكفرون وتعاندون ؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه : إنه [ أساطير الأولين ] أى : كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس، جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم، ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله : [ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ] أى : من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم، إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه.

وأما الذين يعلمون، فكُلٌّ مستقِلٌّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا.

[ ألا ساء مايزرون ] أى : بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم : من وزرهم، ووزر من أضلوه.

مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ

[ قد مكر الذين من قبلهم ] برسلهم ، واحتالوا بأنواع الحيل ، على رد ما جاءوهم به ، وبنوا من مكرهم ، قصوراً هائلة .

[ فأتى الله بنيانهم من القواعد ] أى : جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها .

[ نخر[1] عليهم السقف من فوقهم ] فصار ما بنوه عذاباً ، عذبوا به .

[ وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ] وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ، ويقيهم العذاب ، فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه .

وهذا من أحسن الأمثال ، فى إبطال الله مكر أعدائه .

فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم ، وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل ، يرجعون إليها ، ويردون بها ما جاءت به الرسل .

واحتالوا أيضاً ، على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم .

فصار مكرهم وَبَالاً عليهم ، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم .

وذلك لأن مكرهم سيء « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

هذا فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، ولهذا قال :

---

(١) نخر . أى : سقط ، ووقع .

ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟

---

[ ثم يوم القيامة يخزيهم ] أى يفضحهم على رءوس الخلائق ، ويبين لهم كذبهم ، وافتراءهم على الله .

[ ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ] أى : تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم ، وتزعمون أنهم شركاء لله .

فإذا سألهم هذا السؤال ، لم يكن لهم جواب ، إلا الإقرار بضلالهم ، والاعتراف بعنادهم فيقولون « ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

[ قال الذين أوتوا العلم ] أى : العلماء الربانيون [ إن الخزى اليوم ] أى : يوم القيامة [ والسوء ] أى : سوء العذاب [ على الكافرين ] .

وفى هذا فضيلة أهل العلم ، وأنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وأن لقولهم ، اعتباراً عند الله وعند خلقه .

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة ، وفى القيامة فقال :

[ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ] أى : تتوفاهم فى هذه الحال ، التي كثر فيها ظلمهم وغيهم ، وقد علم مايلقى الظلمة فى ذلك المقام ، من أنواع العذاب والخزى والإهانة .

ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

---

[ فألقوا السلم ] أى : استسلموا ، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا :

[ ما كنا نعمل من سوء ] .

فيقال لهم : [ بلى ] كنتم تعملون السوء ، و [ إن الله عليم بما كنتم تعملون ] فلا يفيدكم الجحود شيئاً .

وهذا فى بعض مواقف القيامة ، ينكرون ما كانوا عليه فى الدنيا ، ظنا منهم أنه ينفعهم .

فإذا شهدت عليهم جوارحهم ، وتبين ما كانوا عليه أقروا ، واعترفوا .

ولهذا لايدخلون النار ، حتى يعترفوا بذنوبهم .

فإذا دخلوا أبواب جهنم ، فكُلٌّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم .

[ فلبئس مثوى المتكبرين ] نار جهنم ، فإنها مثوى الحسرة والندم ، ومنزل الشقاء والألم ، ومحل الهموم والغموم ، وموضع السخط من الحى القيوم .

لا يُفتَّر عنهم من عذابها ، ولايرفع عنهم يوماً من أليم عقابها ، قد أعرض عنهم الرب الرحيم ، وأذاقهم العذاب العظيم .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

* لما ذكر الله قيل[١] المكذبين بما أنزل الله ، ذكر ما قاله المتقون ، وأنهم اعترفوا وأقروا ، بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة ، وخير عظيم امتن الله به على العباد ، فقبلوا تلك النعمة ، وتلقوها بالقبول والانقياد ، وشكروا الله عليها ، فعلموها ، وعملوا بها .

[ للذين أحسنوا ] فى عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله ، فلهم [ فى هذه الدنيا حسنة ] رزق واسع ، وعيشة هنية ، وطمأنينة قلب ، وأمن ، وسرور .

[ ولدار الآخرة خير ] من هذه الدار ، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات ، فإن هذه ، نعيمها قليل ، محشو بالآفات ، منقطع .

بخلاف نعيم الآخرة ، ولهذا قال : [ ولنعم دار المتقين ، جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون ] أى : مهما تمنت أنفسهم ، وتعلقت به إرادتهم ، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها .

فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم ، الذى فيه لذة القلوب ، وسرور الأرواح ، إلا وهو حاضر لديهم ، ولهذا يعطى الله أهل الجنة ، كل ما تمنوه عليه حتى إنه يُذَكِّرُهمْ أشياء من النعيم ، لم تخطر على قلوبهم .

فتبارك الذي ، لانهاية لكرمه ، ولا حد لجوده ، الذى ليس كمثله شىء

(١) قيل ، أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارىء .

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

---

فى صفات ذاته ، وصفات أفعاله ، وآثار تلك النعوت ، وعظمة الملك والملكوت .

[ كذلك يجزى الله المتقين ] لسخط الله وعذابه ، بأداء ما أوجبه عليهم ، من الفروض ، والواجبات ، المتعلقة بالقلب ، والبدن ، واللسان ، من حقه ، وحق عباده ، وترك ما نهاهم الله عنه .

[ الذين تتوفاهم الملائكة ] مستمرين على تقواهم [ طيبين ] أى : طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس ، يتطرق إليهم ، ويخل فى إيمانهم .

فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته ، وألسنتهم بذكره ، والثناء عليه ، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه .

[ يقولون سلام عليكم ] التحية الكاملة ، خاصة لكم ، والسلامة من كل آفة .

وقد سلمتم من كل ما تكرهون [ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ] من الإيمان بالله ، والانقياد لأمره .

فإن العمل هو السبب والمادة ، والأصل فى دخول الجنة ، والنجاة من النار .

وذلك العمل ، حصل لهم برحمة الله ومنته ، لا بحولهم وقوتهم .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ
أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات ، فلم يؤمنوا ، وَذُكِّرُوا ، فلم يتذكروا .

[ إلا أن تأتيهم الملائكة ] لقبض أرواحهم [ أو يأتى أمر ربك ] بالعذاب الذى سيحل بهم ، فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم .

[ كذلك فعل الذين من قبلهم ] كذبوا وكفروا ، ثم لم يؤمنوا ، حتى نزل بهم العذاب .

[ وما ظلمهم الله ] إذ عذبهم [ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] فإنها مخلوقة لعبادة الله ، ليكون مآلها إلى كرامة الله ، فظلموها ، وتركوا ما خلقت له ، وعرضوها للإهانة الدائمة ، والشقاء الملازم .

[ فأصابهم سيئات ما عملوا ] أى : عقوبات أعمالهم وآثارها .

[ وحاق بهم ] أى : نزل [ ما كانوا به يستهزئون ] فإنهم كانوا إذا أنذرتهم رسلهم بالعذاب ، استهزأوا به ، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذى سخروا منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾

* أى : احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء ، ما أشركوا ، ولا حرموا شيئا من الأنعام ، التى أحلها كالبحيرة ، والوصيلة والحام ، ونحوها ، من دونه .

وهذه حجة باطلة ، فإنها لو كانت حقاً ، ما عاقب الله الذين من قبلهم ، حيث أشركوا به ، فعاقبهم أشد العقاب . فلو كان يحب ذلك منهم ، لما عذبهم .

وليس قصدهم بذلك ، إلا رد الحق الذى جاءت به الرسل ، وإلا فعندهم علم ، أنه لا حجة لهم على الله .

فإن الله أمرهم ونهاهم ، ومكنهم من القيام بما كلفهم ، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم . فاحتجاجهم بالقضاء والقدر ، من أبطل الباطل.

هذا ، وكل أحد يعلم بالحس ، قدرة الإنسان على كل فعل يريده ، من غير أن ينازعه منازع .

فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله ، وتكذيب الأمور العقلية ، والحسية .

[ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ] أى : البين ، الظاهر ، الذى يصل إلى القلوب ، ولا يبقى لأحد على الله حجة .

فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه ، واحتجوا عليهم بالقدر ، فليس للرسل من الأمر شىء ، وإنما حسابهم على الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن
يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أن حجته قامت على جميع الأمم ، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة ، إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ، ودين واحد ، وهو : عبادة الله وحده لا شريك له [ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ] .

فانقسمت الأمم ، بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها ، قسمين .

[ فمنهم من هدى الله ] فاتبعوا المرسلين ، علما ، وعملا .

[ ومنهم من حقت عليه الضلالة ] فاتبع سبيل الغيّ .

[ فسيروا فى الأرض ] بأبدانكم وقلوبكم [ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ] فإنكم سترون من ذلك ، العجائب ، فلا تجد مكذبا ، إلا كان عاقبته الهلاك .

[ إن تحرص على هداهم ] وتبذل جهدك فى ذلك [ فإن الله لا يهدى من يضل ] ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله .

[ ومالهم من ناصرين ] ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ
بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

---

* يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله ، أنهم [ أقسموا بالله جهد أيمانهم ] أى : حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأنه لا يبعث الأموات ، ولا يقدر على إحيائهم ، بعد أن كانوا ترابا .

قال تعالى مكذبا لهم : [ بلى ] سيبعثهم ، ويجمعهم ، ليوم لا ريب فيه [ وعدا عليه حقا ] لا يخلفه ولا يغيره [ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] ومن جهلهم العظيم ، إنكارهم البعث والجزاء .

ثم ذكر الحكمة فى الجزاء والبعث فقال :

[ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ] من المسائل الكبار والصغار ، فيبين حقائقها ويوضحها .

[ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ] حتى يروا أعمالهم حسرات عليهم .

وما نفعتهم آلهتهم ، التى يدعون مع الله من شىء ، لما جاء أمر ربك وحين يرون ما يعبدون ، حطباً لجهنم ، وتكور الشمس والقمر ، وتتناثر النجوم ، ويتضح لمن يعبدها ، أنها عبيد مسخرات ، وأنهن مفتقرات

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

إلى الله فى جميع الحالات ، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد ، فإنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، من غير منازعة ولا امتناع ، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه .

* يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحنين [ الذين هاجروا فى الله ] أى : فى سبيله ، وابتغاء مرضاته [ من بعد ما ظلموا ] بالأذية والمحنة من قومهم ، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك ، فتركوا الأوطان والخلان ، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن .

فذكرلهم ثوابين ، ثوابا عاجلا فى الدنيا ، من الرزق الواسع ، والعيش الهنىء ، الذى رأوه عيانا ، بعد ما هاجروا ، وانتصروا على أعدائهم ، وافتتحوا البلدان ، وغنموا منها الغنائم العظيمة ، فتمولوا ، وآتاهم الله فى الدنيا حسنة .

[ ولأجر الآخرة ] الذى وعدهم الله على لسان رسوله خير، و[ أكبر ] من أجر الدنيا كما قال تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » .

وقوله : [ لوكانوا يعلمون ] أى : لوكان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجرفى سبيله ، لم يتخلف عن ذلك أحد .

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ

---

ثم ذكر وصف أوليائه فقال [ الذين صبروا ] على أوامر الله وعن نواهيه ، وعلى أقدار الله المؤلمة ، وعلى الأذية فيه ، والمحن [ وعلى ربهم يتوكلون ] أى : يعتمدون عليه فى تنفيذ محابّه ، لا على أنفسهم . وبذلك تنجح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فإن الصبر والتوكل ، ملاك الأمور كلها.

فما فات أحداً شىء من الخير ، إلا لعدم صبره ، وبذل جهده فيما أريد منه ، أو لعدم توكله واعتماده على الله .

* يقول تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم : [ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ] أى : لست ببدع من الرسل ، فلم نرسل قبلك ملائكة ، بل رجالا كاملين لا نساء .

[ نوحى إليهم ] من الشرائع والأحكام ، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد ، من غير أن يأتوا بشىء من قِبَل أنفسهم .

[ فاسألوا أهل الذكر ] أى : الكتب السابقة [ إن كنتم لا تعلمون ] نبأ الأولين ، وشككتم : هل بعث الله رجالا ؟

فاسألوا أهل العلم بذلك ، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات ، فعلموها وفهموها .

فإنهم كلهم ، قد تقرر عندهم ، أن الله ما بعث إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى .

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

---

وعموم هذه الآية ، فيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه ، العلم بكتاب الله المنزل .

فإن الله أمر من لا يعلم ، بالرجوع إليهم ، فى جميع الحوادث .

وفى ضمنه ، تعديل لأهل العلم ، وتزكية لهم ، حيث أمر بسؤالهم ، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة .

فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله ، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم ، والاتصاف بصفات الكمال .

وأفضل أهل الذكر ، أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر على الحقيقة ، وأولى من غيرهم بهذا الاسم ، ولهذا قال تعالى :

[ وأنزلنا إليك الذكر ] أى : القرآن الذى فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد ، من أمور دينهم ودنياهم ، الظاهرة والباطنة .

[ لتبين للناس ما نزل إليهم ] وهذا شامل لتبيين ألفاظه ، وتبيين معانيه .

[ ولعلهم يتفكرون ] فيه ، فيستخرجون من كنوزه وعلومه ، بحسب استعدادهم ، وإقبالهم عليه .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

* هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصى ، من أن يأخذهم بالعذاب على غِرَّة ، وهم لا يشعرون .

إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم ، أو من أسفل منهم ، بالخسف أو غيره

وإما فى حال تَقَلُّبِهم وشغلهم ، وعدم خطور العذاب ببالهم .

وإما فى حال تَخوّفهم من العذاب .

فليسوا بمعجزين الله ، فى حالة من هذه الأحوال ، بل هم تحت قبضته ، ونواصيهم بيده .

ولكنه رءوف رحيم ، لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ، ويؤذون أولياءه .

ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة ، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات ، التى تضرهم ، ويعدهم بذلك ، أفضل الكرامات ، ومغفرة ما صدر عنهم من الذنوب .

فَلْيَسْتَحِ المجرم من ربه ، أن تكون نعم الله عليه نازلة فى جميع الحالات ، ومعاصيه صاعدة إلى ربه فى كل الأوقات .

وَلْيَعلَمْ أن الله يمهل ولا يهمل ، وأنه إذا أخذ العاصى ، أخذه أخذ عزيز مقتدر .

فَلْيَتُبْ إليه ، وَلْيَرْجِعْ فى جميع أموره إليه ، فإنه رءوف رحيم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

---

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة ، وبره العميم ، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم ، ألا ، وهى تقواه ، والعمل بما يحبه ويرضاه .

* يقول تعالى : [ أولم يرو ] أى : الشاكون فى توحيد ربهم وعظمته وكماله .

[ إلى ما خلق الله من شىء ] أى : إلى جميع مخلوقاته ، وكيف تتفيأ أظلتها .

[ عن اليمين والشمائل سجداً لله ] أى : كلها ساجدة لربها ، خاضعة لعظمته وجلاله .

[ وهم داخرون ] أى : ذليلون تحت التسخير والتدبير ، والقهر .

ما منهم أحد ، إلا وناصيته بيد الله ، وتدبيره عنده .

[ ولله يسجد ما فى السموات ومافى الأوض من دابة ] من الحيوانات الناطقة والصامتة .

[ والملائكة ] الكرام ، خصهم بعد العموم ، لفضلهم ، وشرفهم ، وكثرة عبادتهم ، ولهذا قال :

[ وهم لا يستكبرون ] أى : عن عبادته ،على كثرتهم،وعظمة أخلاقهم

مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ

---

وقوتهم ، كما قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .

[ يخافون ربهم من فوقهم ] لما مدحهم بكثرة الطاعة ، والخضوع لله ، مدحهم بالخوف من الله الذى هو فوقهم بالذات والقهر ، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره .

[ ويفعلون ما يؤمرون ] أى : مهما أمرهم الله تعالى ، امتثلوا لأمره ، طوعا واختيارا .

وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان : سجود اضطرار ، ودلالة على ما له من صفات الكمال .

وهذا عام لكل مخلوق ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، وحيوان ناطق وغيره .

وسجود اختيار ، يختص بأوليائه وعباده المؤمنين ، الملائكة ، وغيرهم من المخلوقات .

* يأمر تعالى ، بعبادته وحده لا شريك له ، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فقال :

[ لا تتخذوا إلهين اثنين ] أى : تجعلون له شريكا فى إلهيته .

وهو [ إنما هو إله واحد ] متوحد فى الأوصاف العظيمة ، متفرد بالأفعال كلها .

وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ
ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ

---

فكما أنه الواحد فى ذاته ، وأسمائه ، ونعوته ، وأفعاله ، فَلْتُوَحِّدوه فى عبادته .

ولهذا قال : [ فإياى فارهبون ] أى : خافونى ، وامتثلوا أمرى ، واجتنبوا نهيي ، من غير أن تشركوا بى شيئاً من المخلوقات ، فإنها كلها لله تعالى مملوكة .

[ وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً ][(1)] أى : الدين ، والعبادة ، والذل فى جميع الأوقات ، لله وحده ، على الخلق أن يخلصوه لله ، وينصبغوا بعبوديته .

[ أفغير الله تتقون ] من أهل الأرض أو أهل السموات ، فإنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً ، والله المنفرد ، بالعطاء والإحسان .

[ وما بكم من نعمة ] ظاهرة وباطنة [ فمن الله ] لا أحد يشركه فيها .

[ ثم إذا مسكم الضر ] من فقر ، ومرض ، وشدة [ فإليه تجأرون ] أى : تضجون بالدعاء والتضرع ، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو .

فالذى انفرد بإعطائكم ما تحبون ، وصرف ما تكرهون ، هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده .

---

( ١ ) واصباً أى : دائماً .

عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ
لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُ

---

ولكن كثيراً من الناس ، يظلمون أنفسهم ، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة .

فإذا صاروا فى حال الرخاء ، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة ، ولهذا قال :

[ ليكفروا بما آتيناهم ] أى : أعطيناهم ، حيث نجيناهم من الشدة ، وخلصناهم من المشقة .

[ فتمتعوا ] فى دنياكم قليلا [ فسوف تعلمون ] عاقبة كفركم .

* يخبر تعالى ، عن جهل المشركين ، وظلمهم ، وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم ، التى لا تعلم ، ولا تنفع ، ولا تضر — نصيباً مما رزقهم الله ، وأنعم به عليهم .

فاستعانوا برزقه على الشرك به ، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة ، كما قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله » الآية ، وقال « تالله لتسألن عما كنتم تفترون » . وقال: « آلله أمركم بهذا أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة

وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ
أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

---

[ ويجعلون لله البنات سبحانه ] حيث قالوا عن الملائكة ، العباد المقربين : إنهم بنات الله .

[ولهم ما يشتهون] أى : لأنفسهم الذكور ، حتى إنهم يكرهون البنات ، كراهة شديدة .

فكان أحدهم [ إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً ] من الغم الذى أصابه [ وهو كظيم ] أى : كاظم على الحزن والأسف ، إذا بشِّرَ بأنثى ، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به .

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد ، فيما يصنع بتلك البنت التى بشر بها [ أيمسكه على هون ] أى : يتركها من غير قتل على إهانة وذل ؟

[أم يدسه فى التراب] أى : يدفنها وهى حية ، وهو الوأد الذى ذم الله به المشركين .

[ ألا ساء ما يحكمون ] إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله ، من نسبة الولد إليه .

ثم لم يكفهم هذا ، حتى نسبوا له أَرْدَأَ القسمين ، وهو : الإناث ، اللاتى يأنفون بأنفسهم عنها ، ويكرهونها ، فكيف ينسبونها لله تعالى ؟ ! فبئس الحكم حكمهم .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

---

ولما كان هذا من أمثال السوء ، التى نسبها إليه أعداؤه المشركون ، قال تعالى :

[ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ] أى : المثل الناقص والعيب التام .

[ ولله المثل الأعلى ] وهو كل صفة كمال ، وكل كمال فى الوجود ، فالله أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه من الوجوه .

وله المثل الأعلى فى قلوب أوليائه ، وهو : التعظيم والإجلال ، والمحبة والإنابة والمعرفة .

[ وهو العزيز ] الذى قهر جميع الأشياء ، وانقادت له المخلوقات بأسرها.

[ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها ، فلا يأمر ، ولا يفعل ، إلا ما يحمد عليه ، ويُثْنَى على كماله فيه .

* لما ذكر تعالى ، ما افتراه الظالمون عليه ، ذكر كمال حلمه وصبره فقال:

[ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ] من غير زيادة ولا نقص .

[ ما ترك على ظهرها من دابة ] أى: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات ، فإن شؤم المعاصى ، يهلك به الحرث والنسل.

لَا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

---

[ ولكن يؤخرهم ] عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة [ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ] فَلْيَحْذَرُوا ، ما داموا فى وقت الإمهال ، قبل أن يجىء الوقت الذى لا إمهال فيه .

* يخبر تعالى أن المشركين [ يجعلون لله ما يكرهون ] من البنات ، ومن الأوصاف القبيحة ، وهو : الشرك ، بصرف شىء من العبادات إلى بعض المخلوقات ، التى هى عبيد لله .

فكما أنهم يكرهون ، ولا يرضون أن يكون عبيدهم — وهم مخلوقون من جنسهم — شركاء لهم فيما رزقهم الله ، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده ؟ ! ! .

[و] هم — مع هذه الإساءة العظيمة — [ تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ] أى : أن لهم الحالة الحسنة فى الدنيا والآخرة .

فرد عليهم بقوله : [ لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ] مقدمون إليها ، ماكثون فيها ، غير خارجين منها أبداً .

بَيَّنَ تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ فقال تعالى :

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

---

[ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ] رسلا يدعونهم إلى التوحيد .

[ فزين لهم الشيطان أعمالهم ] فكذبوا الرسل ، وزعموا أن ما هم عليه ، هو الحق المنجى من كل مكروه ، وأن ما دعت إليه الرسل ، فهو بخلاف ذلك.

فلما زين لهم الشيطان أعمالهم . صار [ وليهم اليوم فى الدنيا ] ، فأطاعوه ، واتبعوه ، وتولوه .

« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » .

[ ولهم عذاب أليم ] فى الآخرة ، حيث تولوا ، عن ولاية الرحمن ، ورضوا بولاية الشيطان ، فاستحقوا لذلك ، عذاب الهوان .

☆ يقول تعالى : وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن ، إلا لتبين للناس الحق ، فيما كان موضع اختلافهم ، من التوحيد ، والقدر ، وأحكام الأفعال وأحوال المعاد ، وليكون هداية تامة ، ورحمة عامة ، لقوم يؤمنون بالله ، وبالكتاب الذى أنزله .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ

---

* يذكر الله تعالى فى هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره ، فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لأنه المنعم بإنزال المطر ، وإنبات جميع أصناف النبات ، وعلى أنه على كل شىء قدير ، وأن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الأموات ، وأن الذى نشر هذا الإحسان ، لذو رحمة واسعة ، وجود عظيم.

* أى : [ إن لكم فى الأنعام ] التى سخرها الله لمنافعكم [لعبرة] تستدلون بها على كمال قدرة الله ، وسعة إحسانه ، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم .

فأخرج من بين ذلك ، لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين ، للذته ، ولأنه يسقى ويغذى .

فهل هذه ، إلا قدرة إلهية ، لا أمور طبيعية .

فأى شىء فى الطبيعة ، يقلب العلف الذى تأكله البهيمة ، والشراب الذى تشربه من الماء العذب والملح ، لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب ، منافع للعباد ، ومصالح ، من أنواع الرزق الحسن ، الذى يأكله العباد ، طرياً ونضيجاً ،

ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

---

وحاضراً ، ومدخراً ، وطعاما وشرابا يتخذ من عصيرها ونبيذها ، ومن السكر الذى كان حلالا قبل ذلك .

ثم إن الله نسخ حِلَّ المسكرات ، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة . وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ولهذا قال من قال « إن المراد بالسكر هنا : الطعام والشراب اللذيذ » وهو أولى من القول الأول .

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ] عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب ، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة ، وعلى شمول رحمته ، حيث عم بها عباده ، ويسرها لهم ، وأنه الإله المعبود وحده ، حيث إنه المنفرد بذلك .

* فى خلق هذه النحلة الصغيرة ، التى هداها الله هذه الهداية العجيبة ، ويسر لها المراعى .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

ثم الرجوع إلى بيوتها ، التى أصلحتها ، بتعليم الله لها وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان ، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة .

فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى ، وتمام لطفه بعباده ، وأنه الذى لا ينبغى أن يحب غيره ويدعى سواه .

* يخبر تعالى ، أنه الذى خلق العباد ، ونقلهم فى الخلقية ،طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم ، يتوفاهم .

ومنهم من يعمره حتى [ يرد إلى أرذل العمر ] أى : أخسه الذى يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة ، حتى العقل ، الذى هو جوهر الإنسان ، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه ،ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال :

[ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير ] أى : قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ، ومن ذلك ، ما ينقل به الآدمى من أطوار الخلقة ، خلقا بعد خلق ، كما قال تعالى :

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

---

* هذا من أدلة توحيده ، وقبح الشرك به .

يقول تعالى : كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون ، إلا أنه تعالى [ فضل بعضكم على بعض فى الرزق ] فجعل منكم أحراراً ، لهم مال وثروة ، ومنكم أرقاء لهم ، لا يملكون شيئا من الدنيا .

فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا [ برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ] ويرون هذا من الأمور الممتنعة .

فكذلك من أشركتم بها مع الله ، فإنها عبيد ، ليس لها من الملك ، مثقال ذرة .

فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ ! .

هل هذا ، إلا من أعظم الظلم ، والجحود لنعم الله ؟!! ولهذا قال :

[ أفبنعمة الله يجحدون ] فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها ، لما أشركوا به أحدا .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن مِنَّتِهِ العظيمة على عباده ، حيث جعل لهم أزواجا ، ليسكنوا إليها ، وجعل لهم من أزواجهم ، أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم ، ويقضون حوائجهم ، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات ، من المآكل ، والمشارب ، والنعم الظاهرة ، التي لا يقدر العباد أن يحصوها .

[ أفباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ] أي : أيؤمنون بالباطل ، الذي لم يكن شيئا مذكورا ، ثم أوجده الله ، وليس له من وجوده سوى العدم ، فلا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدبر من الأمور شيئا .

وهذا عام لكل ما عبد من دون الله ، فإنها باطلة .

فكيف يتخذها المشركون من دون الله ؟!! .

[ وبنعمة الله هم يكفرون ] يجحدونها ، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به .

هل هذا إلا من أظلم الظلم ، وأفجر الفجور ، وأسفه السفه . ؟!!

* وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

---

* يخبر تعالى ، عن جهل المشركين وظلمهم ، أنهم يعبدون من دونه آلهة ، اتخذوها شركاء لله .

والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السموات والأرض .

فلا ينزلون مطرا ، ولا رزقاً ، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا ، ولا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض ، ولا يستطيعون لو أرادوا .

فإن غير المالك للشيء ، ربما كان له قوة واقتدار على ماينفع من يتصل به .

وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون .

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله ، وشبهوها بمالك الأرض والسموات ، الذى له الملك كله ، والحمد كله ، والقوة كلها ؟!! .

ولهذا قال : [ فلا تضربوا لله الأمثال ] المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه.

[ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم ، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال ، فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه .

أحدهما عبد مملوك ، أى : رقيق لا يملك نفسه ، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً .

والثانى حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسنا ، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان ، فهو ينفق منه سرا وجهراً ، هل يستوى هذا

عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ

---

وذاك ؟! لا يستويان ، مع أنهما مخلوقان ، وغير محال استواؤهما .

فإذا كانا لا يستويان ، فكيف يستوى المخلوق والعبد ، الذى ليس له ملك ولا قدرة ، ولا استطاعة بل هو فقير من جميع الوجوه ، بالرب المالك لجميع الممالك ، القادر على كل شيء ؟!!.

ولهذا حمد نفسه ، واختص بالحمد بأنواعه ، فقال : [ الحمد لله ] .

فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ سوَّى المشركون آلهتهم بالله ؟ قال :

[ بل أكثرهم لا يعلمون ] فلو علموا حقيقة العلم ، لم يتجرأوا على الشرك العظيم .

والمثل الثانى مثل [ رجلين أحدهما أبكم ] لا يسمع ولا ينطق [ لا يقدر على شيء ] لا قليل ولا كثير [ وهو كَلٌّ على مولاه ] أى يخدمه مولاه ، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه ، فهو ناقص من كل وجه .

هل يستوى هو ، ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ] فأقواله عدل ، وأفعاله مستقيمة .

فكما أنهما لا يستويان ، فلا يستوى من عُبِدَ من دون الله ، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه .

لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

---

فلولا قيام الله بها ، لم يستطع شيئاً منها .

ولا يكون كفواً ، ولا نداً ، لمن لا يقول إلا الحق ، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه .

* أى : هو تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض .

فلا يعلم الخفايا والبواطن ، والأسرار ، إلا هو .

ومن ذلك ، علم الساعة ، فلا يدرى أحد متى تأتى ، إلا الله .

فإذا جاءت وتجلت ، لم تكن « إلا كلمح البصر أو هو أقرب » من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال .

[ إن الله على كل شىء قدير ] فلا يستغرب على قدرته الشاملة ، إحياؤه للموتى .

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

---

* أى : هو المنفرد بهذه النعم حيث [ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ] ولا تقدرون على شىء ثم إنه [ جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ] .

خص هذه الأعضاء الثلاثة ، لشرفها ، وفضلها ، ولأنها مفتاح لكل علم .

فلا يصل للعبد علم ، إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة ، وإلاَّ فسائر الأعضاء ، والقوى الظاهرة والباطنة ، هو الذى أعطاهم إياها ، وجعل ينميها فيهم ، شيئا فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به .

وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح ، فى طاعة الله .

فمن استعملها فى غير ذلك ، كانت حجة عليه ، وقابل النعمة بأقبح المعاملة .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

---

أى : لأنهم المنتفعون بآيات الله ، المتفكرون فيما جعلت آية عليه .

وأما غيرهم ، فإن نظرهم نظر لَهْوٍ ، وغفلة .

ووجه الآية فيها ، أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران .

ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف .

ثم أودع فيها من قوة الحركة ، وما قدرت به على ذلك .

وذلك دليل على حكمته ، وعلمه الواسع ، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره ، تبارك الله رب العالمين.

يُذَكِّر تعالى عباده بنعمه ، ويستدعى منهم شكرها ، والاعتراف بها فقال :

* [ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ] فى الدور والقصور ونحوها ، تُسكِنُّكُمْ من الحر والبرد ، وتستركم ، أنتم وأولادكم ، وأمتعتكم ، وتتخذون فيها الغرف والبيوت ، التى هى لأنواع منافعكم ومصالحكم ، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم ، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة .

[ وجعل لكم من جلود الأنعام ] إما من الجلد نفسه ، أو مما نبت عليه ، من صوف وشعر ووبر .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا
وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ

---

[ بيوتا تستخفونها ] أى : تجدونها خفيفة الحمل ، تكون لكم [ يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ] أى: فى السفر والمنازل ، التى لا قصدلكم فى استيطانها فتقيكم من الحر ، والبرد ، والمطر ، وتقى متاعكم من المطر .

[ و ] جعل لكم [ من أصوافها ] أى : الأنعام [ وأوبارها وأشعارها أثاثاً ] وهذا شامل لكل ما يتخذ منها ، من الآنية ، والأوعية ،والفرش ، والألبسة ، والأجلة ، وغير ذلك .

[ ومتاعا إلى حين ] أى : تتمتعون بذلك فى هذه الدنيا ،وتنتفعون بها .

فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله .

[ والله جعل لكم مما خلق ] أى : من مخلوقاته التى لا صنعة لكم فيها.

[ ظلالا ] وذلك ، كأظلة الأشجار ، والجبال ، والآكام ونحوها .

[ وجعل لكم من الجبال أكنانا ] أى : مغارات ، تكنكم من الحر والبرد ، والأمطار ، والأعداء .

[ وجعل لكم سرابيل ] أى : ألبسة وثيابا [ تقيكم الحر ] .

ولم يذكر الله البرد ، لأنه قد تقدم أن هذه السورة ، أولها فى أصول النعم ، وآخرها فى مكملاتها ومتماتها .

ووقاية البرد ، من أصول النعم ، فإنه من الضرورة ، وقد ذكره فى أولها فى قوله « لكم فيها دفء ومنافع » .

يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

---

[ وسرابيل تقيكم بأسكم ] أى : وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب ، من السلاح ، وذلك ، كالدروع ، والزرود ، ونحوها .

[ كذلك يتم نعمته عليكم ] حيث أسبغ عليكم من نعمه ، مالا يدخل تحت الحصر .

[ لعلكم ] إذا ذكرتم نعمة الله ، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه [تسلمون] لعظمته ، وتنقادون لأمره ، وتصرفونها فى طاعة موليها ومسديها .

فكثرة النعم ، من الأسباب الجالبة من العباد ، مزيد الشكر ، والثناء بها على الله تعالى .

ولكن أبى الظالمون ، إلا تمردا وعنادا ، ولهذا قال الله عنهم :

[ فإن تولوا ] عن الله ، وعن طاعته ، بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته .

[ فإنما عليك البلاغ المبين ] ليس عليك من هدايتهم ، وتوفيقهم شىء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير ، والإنذار والتحذير .

فإذا أديت ما عليك ، فحسابهم على الله ، فإنهم يرون الإحسان ، ويعرفون نعمة الله ، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها .

[ وأكثرهم الكافرون ] لا خير فيهم ، وما ينفعهم توالى الآيات ، لفساد مشاعرهم ، وسوء قصودهم ، سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد ، كفور للنعم ، متمرد على الله ، وعلى رسله .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟

---

* يخبر تعالى ، عن حال هؤلاء الذين كفروا فى يوم القيامة ، وأنه لا يقبل لهم عذر ، ولا يرفع عنهم العقاب ، وأن شركاءهم تتبرأ منهم ، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله ، فقال :

[ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ] يشهد عليهم بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعى إلى الهدى ، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله ، أزكى الشهداء وأعدلهم ، وهم : الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم .

[ ثم لا يؤذن للذين كفروا ] فى الاعتذار ، لأن اعتذارهم بعد ما علموا يقينا ، بطلان ما هم عليه ، اعتذار كاذب ، لا يفيدهم شيئاً .

وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا ، ليستدركوا ، لم يجابوا ، ولم يعتبوا .

بل يبادرهم العذاب الشديد ، الذى ، لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال ، من حين يرونه ، لأنهم لا حسنات لهم ، وإنما تعد أعمالهم وتحصى ، ويوقفون عليها ويقرون بها ، ويفتضحون

[ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ] يوم القيامة وعلموا بطلانها ، ولم يمكنهم الإنكار .

شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن
دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ
يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

---

[ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ] ليس عندها نفع ولا شفيع .

فنوّهوا بأنفسهم ببطلانها ، وكفروا بها ، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها .

[ فألقوا إليهم القول ] أى : ردت عليهم شركاؤهم قولهم ، فقالت لهم: [ إنكم لكاذبون ] حيث جعلتمونا شركاء لله ، وعبدتمونا معه ، فلم نأمركم بذلك ، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية ، فاللوم عليكم .

فحينئذ ، استسلموا لله ، وخضعوا لحكمه ، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] فدخلوا النار ، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ، ومن حمد ربهم ، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا .

* يذكر الله تعالى فى هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا بأنفسهم ، وكذبوا بآيات الله ، وحاربوا رسله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وصاروا دعاة إلى الضلال ، فاستحقوا مضاعفة العذاب ، كما تضاعف جرمهم ، وكما أفسدوا فى أرض الله .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

* لما ذكر فيما تقدم، أنه يبعث [ في كل أمة شهيدا ] ذكر ذلك أيضا هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال:

[ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ] أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر.

وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعا من غيره، على أعمال أمته، وأعدل، وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

وقال تعالى: « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ».

وقوله [ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ] في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه، أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية.

حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه

. . . . . . . . . . .

---

كل وقت ، وإعادتها فى كل ساعة ، ويعيدها ، ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة ، لتستقر فى القلوب فتثمر من الخير والبر ، بحسب ثبوتها فى القلب .

وحتى إنه تعالى يجمع فى اللفظ القليل الواضح ، معانى كثيرة ، يكون اللفظ لها ، كالقاعدة والأساس .

واعتبر هذا ، بالآية التى بعد هذه الآية ، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهى ، التى لا تحصى .

فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شىء ، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين ، وانتفع به المسلمون ، فصار هدى لهم ، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ، ورحمة ينالون به كل خير فى الدنيا والآخرة .

فالهدى ، ما نالوا به ، من علم نافع ، وعمل صالح .

والرحمة ، ما ترتب على ذلك ، من ثواب الدنيا والآخرة ، كصلاح القلب وبره ، وطمأنينته .

وتمام العقل ، الذى لا يتم إلا بتربيته على معانيه ، التى هى أجل المعانى وأعلاها ، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة ، والرزق الواسع ، والنصر على الأعداء بالقول والفعل ، ونيل رضا الله تعالى ، وكرامته العظيمة ، التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم ، إلا الرب الرحيم .

* فالعدل الذى أمر الله به ، يشمل العدل فى حقه ، وفى حق عباده .

فالعدل فى ذلك ، أداء الحقوق كاملة موفورة ، بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية ، والمركبة منهما ، فى حقه ، وحق عباده .

ويعامل الخلق بالعدل التام ، فيؤدى كل وال ، ما عليه ، تحت ولايته ، سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى ، وولاية القضاء ، ونواب الخليفة ، ونواب القاضى .

والعدل هو : ما فرضه الله عليهم فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه .

ومن العدل فى المعاملات ، أن تعاملهم فى عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات ، بإيفاء جميع ما عليك ، فلا تبخس لهم حقاً ، ولا تغشهم ، ولا تخدعهم وتظلمهم .

فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحبة ، وذلك كنفع الناس ، بالمال والبدن ، والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع ، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول ، وغيره .

وخص الله إيتاء ذوى القربى — وإن كان داخلا فى العموم — لتأكد حقهم ، وتعين صلتهم وبرهم ، والحرص على ذلك .

ويدخل فى ذلك ، جميع الأقارب ، قريبهم ، وبعيدهم ، لكن كل من كان أقرب ، كان أحق بالبر .

وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

---

وقوله [ وينهى عن الفحشاء ] وهو : كل ذنب عظيم ، استفحشته الشرائع والفطر ، كالشرك بالله ، والقتل بغير حق ، والزنا ، والسرقة ، والعجب ، والكبر ، واحتقار الخلق ، وغير ذلك من الفواحش .

ويدخل فى المنكر ، كل ذنب ومعصية ، تتعلق بحق الله تعالى .

وبالبغى ، كل عدوان على الخلق ، فى الدماء ، والأموال ، والأعراض.

فصارت هذه الآية ، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، لم يبق شىء ، إلا دخل فيها .

فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات .

فكل مسألة مشتملة على عدل ، أو إحسان ، أو إيتاء ذى القربى ، فهى مما أمر الله به .

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر ، أو بغى ، فهى مما نهى الله عنه .

وبها يعلم حسن ما أمر الله به ، وقبح ما نهى عنه .

وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال ، وترد إليها سائر الأحوال .

فتبارك من جعل من كلامه ، الهدى ، والشفاء ، والنور ، والفرقان بين جميع الأشياء .

ولهذا قال : [ يعظكم ] أى : بما بينه لكم فى كتابه ، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم ، عما فيه مضرتكم .

[ لعلكم تذكرون ] ما يعظكم به ، فتفهمونه وتعقلونه .

۞ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ

---

فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه ، عملتم بمقتضاه ، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها .

فلما أمر بما هو واجب فى أصل الشرع ، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال « وأوفوا بعهد الله » إلى قوله « فيه تختلفون » .

* هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه ، من العبادات ، والنذور ، والأَيْمَانِ التى عقدها ، إذا كان بها براً .

ويشتمل أيضا ، ما تعاقد عليه هو وغيره ، كالعهود بين المتعاقدين ، وكالوعد الذى يعده العبد لغيره ، ويؤكده على نفسه .

فعليه فى جميع ذلك ، الوفاء وتتميمها مع القدرة .

ولهذا نهى الله عن نقضها فقال : [ ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها ] بعقدها على اسم الله تعالى [ وقد جعلتم الله عليكم ] أيها المتعاقدون [ كفيلا ] .

فلا يحل لكم أن لاتحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا ، فيكون فى ذلك ترك تعظيم الله ، واستهانة به ، وقد رضى الآخر منك باليمين ، والتوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلا .

فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك ، فَلْتَفِ له بما قلته وأكدته .

[ إن الله يعلم ما تفعلون ] فيجازى كل عامل بعمله ، على حسب نيته ومقصده .

أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ

[ ولا تكونوا ] فى نقضكم للعهود بأسوإ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها .

وذلك [ كالتى ] تغزل غزلا قوياً ، فإذا استحكم ، وتم ما أريد منه [ نقضت غزلها من بعد قوة ] فجعلته [ أنكاثاً ] فتعبت على الغزل ، ثم على النقض ، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء ، وسفاهة العقل ، ونقص الرأى .

فكذلك من نقض ما عاهد عليه ، فهو ظالم جاهل سفيه ، ناقص الدين والمروءة .

وقوله : [ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ] .

أى : لاتنبغى هذه الحالة منكم ، تعقدون الأيمان المؤكدة ، وتنتظرون فيها الفرص .

فإذا كان العاقد لها ضعيفا ، غير قادر على الآخر ، أتمها ، لا لتعظيم العقد واليمين ، بل لعجزه .

وإن كان قويا ، يرى مصلحته الدنيوية فى نقضها ، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه .

كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس ، وتقديما لها على مراد الله منكم ، وعلى المروءة الإنسانية ، والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى .

أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

---

وهذا [ إنما يبلوكم الله به ] امتحانا حيث قيض لعباده من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفى ، من الفاجر الشقى .

[ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ] فيجازى كلا بعمله ، ويخزى الغادر .

* أى : [ لو شاء الله ] لجمع الناس على الهدى ، و [ لجعلهم أمة واحدة ] .

ولكنه تعالى ، المنفرد بالهداية والإضلال — وهدايته وإضلاله ، من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته .

يعطى الهداية ، من يستحقها ، فضلا ، ويمنعها من لا يستحقها ، عدلا

[ ولتسألن عما كنتم تعملون ] من خير وشر ، فيجازيكم عليها ، أتم الجزاء ، وأعد له .

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ

---

* أى : [ ولا تتخذوا أيمانكم ] وعهودكم ومواثيقكم [ دخلا بينكم ] أى : تبعاً لأهوائكم ، متى شئتم وفيتم بها ، ومتى شئتم نقضتموها .

فإنكم إذا فعلتم ذلك ، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم.

[ وتذوقوا السوء ] أى : العذاب الذى يسوءكم ويحزنكم [ بما صددتم عن سبيل الله ] حيث ضللتم ، وأضللتم غيركم [ ولكم عذاب عظيم ] مضاعف .

* يحذر تعالى عباده ، من نقض العهود ، والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال :

[ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ] تنالونه بالنقض وعدم الوفاء .

[ إنما عند الله ] من الثواب العاجل والآجل ، لمن آثر رضاه ، وأوفى بما عاهد عليه الله [ هو خير لكم ] من حطام الدنيا الزائلة [ إن كنتم تعلمون ] .

فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن [ ما عندكم ] ولو كثر جداً ، لابد أن [ ينفد ] ويفنى .

[ وما عند الله باق ] ببقائه ، لا يفنى ولا يزول .

بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

---

فليس بعاقل ، من آثر الفانى الخسيس ، على الباقى النفيس ، وهذا كقوله تعالى :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * وما عند الله خير للأبرار » .

وفى هذا ، الحث والترغيب على الزهد فى الدنيا .

خصوصاً ، الزهد المتعين ، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد ، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه ، وتقديمه على حق الله ، فإن هذا الزهد واجب .

ومن الدواعى للزهد ، أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة .

فإنه يجد من الفرق والتفاوت ، ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين .

وليس الزهد الممدوح ، هو الانقطاع للعبادات القاصرة ، كالصلاة ، والصيام ، والذكر ونحوها .

بل لا يكون العبد زاهداً ، زهداً صحيحاً ، حتى يقوم بما يقدر عليه ، من الأوامر الشرعية ، الظاهرة والباطنة ، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل .

فالزهد الحقيقى ، هو : الزهد فيما لا ينفع فى الدين والدنيا ، والرغبة والسعى ، فى كل ما ينفع .

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[ ولنجزين الذين صبروا ] على طاعة الله ، وعن معصيته ، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية ، المضرة بدينهم [ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ] الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولهذا ذكر جزاء العاملين فى الدنيا والآخرة ، فقال :

[ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ] فإن الإيمان شرط فى صحة الأعمال الصالحة وقبولها ، بل لا تسمى أعمالا صالحة ، إلا بالإيمان ، والإيمان مقتض لها ، فإنه : التصديق الجازم ، المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات .

فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح [ فلنحيينه حياة طيبة ] وذلك بطمأنينة قلبه ، وسكون نفسه ، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ، ويرزقه الله رزقاً حلالا طيباً ، من حيث لا يحتسب .

[ ولنجزينهم ] فى الآخرة .

[ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ] من أصناف اللذات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فيؤتيه الله فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* أى : فإذا أردت القراءة لكتاب الله ، الذى هو أشرف الكتب وأجلها ، وفيه صلاح القلوب ، والعلوم الكثيرة ، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد ، عند شروعه فى الأمور الفاضلة ، فيسعى فى صرفه عن مقاصدها ومعانيها .

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله ، والاستعاذة من شره .

فيقول القارىء « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » متدبراً لمعناها ، معتمدا بقلبه على الله ، فى صرفه عنه ، مجتهداً فى دفع وسواسه وأفكاره الرديئة ، مجتهداً على السبب الأقوى فى دفعه ، وهو : التَّحلِّى بحلية الإيمان والتوكل .

فإن الشيطان [ ليس له سلطان ] أى : تسلط [ على الذين آمنوا وعلى ربهم ] وحده لا شريك له [ يتوكلون ] ، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه ، شر الشيطان ، ولا يبقى له عليهم ، سبيل .

[ إنما سلطانه ] أى تسلطه [ على الذين يتولونه ] أى : يجعلونه لهم وليا .

وذلك بتخليهم عن ولاية الله ، ودخولهم فى طاعة الشيطان ، وانضمامهم لحزبه .

فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم ، فأزَّهم إلى المعاصى أزًّا ، وقادهم إلى النار قَوْداً .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى ، أن المكذبين بهذا القرآن ، يتتبعون مايرونه حجة لهم .

وهو : أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم ، الذى يشرع الأحكام ، ويبدل حكما مكان آخر ، لحكمته ورحمته .

فإذا رأوه كذلك ، قدحوا فى الرسول ، وبما جاء به ، و [ قالوا إنما أنت مفتر ] .

قال الله تعالى : [ بل أكثرهم لايعلمون ] منهم جهال ، لاعلم لهم بربهم ولا بشرعه .

ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم ، لا عبرة به ، فإن القدح فى الشىء فرع عن العلم به ، وما يشتمل عليه ، مما يوجب المدح والقدح .

ولهذا ذكر تعالى حكمته فى ذلك فقال : [ قل نزله روح القدس ] وهو جبريل الرسول ، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة .

[ من ربك بالحق ] أى : نزوله من عند الله بالحق ، وهو مشتمل على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه ، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً ، لأنه إذا علم أنه الحق ، علم أن ما عارضه وناقضه ، باطل .

[ ليثبت الذين آمنوا ] عند نزول آياته وتواردها عليهم ، وقتاً بعد وقت .

. . . . . . . . . . .

فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً ، حتى يكون إيمانهم ، أثبت من الجبال الرواسى .

وأيضاً ، فإنهم يعلمون أنه الحق .

وإذا شرع حكما من الأحكام ، ثم نسخه ، علموا أنه أبدله ، بما هو مثله ، أو خير منه لهم ، وأن نسخه ، هو : المناسب للحكمة الربانية ، والمناسبة العقلية .

[ وهدى وبشرى للمسلمين ] أى : يهديهم إلى حقائق الأشياء ، ويبين لهم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً .

وأيضاً ، فإنه كلما نزل شيئا فشيئاً ، كان أعظم هداية وبشارة لهم ، مما لو أتاهم جملة واحدة ، وتفرق الفكر فيه ، بل ينزل الله حكما وبشارة ، أكثر .

فإذا فهموه وعقلوه ، وعرفوا المراد منه ، وترووا منه ، أنزل نظيره وهكذا .

ولذلك بلغ الصحابة رضى الله عنهم به مبلغاً عظيما ، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم ، وانتقلوا إلى أخلاق ، وعوائد ، وأعمال ، فاقوا بها الأولين والآخرين .

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم ، أن يتربوا بعلومه ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويستضيئوا بنوره فى ظلمات الغى والجهالات ، ويجعلوه إمامهم فى جميع الحالات .

فبذلك ، تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

* يخبر تعالى ، عن قيل(١) المشركين المكذبين لرسوله [ أنهم يقولون إنما يعلمه ] هذا الكتاب ، الذى جاء به [ بشر ] .

وذلك البشر ، الذى يشيرون إليه أعجمى اللسان [ وهذا ] القرآن [ لسان عربى مبين ] ، هل هذا القول ممكن ؟ أو له حظ من الاحتمال ؟

ولكن الكاذب ، يكذب ، ولا يفكر فيما يئول إليه كذبه .

فيكون فى قوله من التناقض والفساد ، ما يوجب رده ، بمجرد تصوره .

[ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ] الدالة دلالة صريحة على الحق المبين ، فيردونها ولا يقبلونها .

[ لا يهديهم الله ] حيث جاءهم الهدى ، فردوه ، فعوقبوا بحرمانه ، وخذلان الله لهم .

[ ولهم ] فى الآخرة [ عذاب أليم ] .

(١) قيل . أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارىء .

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟

---

[ إنما يفترى الكذب ] أى : إنما يصدر افتراء الكذب ، من [ الذين لا يؤمنون بآيات الله ] كالمعاندين لرسوله ، من بعد ما جاءتهم البينات .

[ وأولئك هم الكاذبون ] أى : الكذب منحصر فيهم ، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، المؤمن بآيات الله ، الخاضع لربه ، فمحال أن يكذب على الله ، ويتقول عليه ما لم يقل .

فأعداؤه رموه بالكذب ، الذى هو وصفهم فأظهر الله خزيهم ، وبين فضائحهم ، فله تعالى الحمد .

* يخبر تعالى عن شناعة حال [ من كفر بالله من بعد إيمانه ] فعمى بعد ما أبصر ، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى ، وشرح صدره بالكفر ، راضياً به ، مطمئنا ، أن لهم الغضب الشديد ، من الرب الرحيم ، الذى إذا غضب ، لم يقم لغضبه شىء ، وغضب عليهم كل شىء .

[ ولهم عذاب عظيم ] أى : فى غاية الشدة ، مع أنه دائم أبداً .

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

---

و [ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ] حيث ارتدوا على أدبارهم ، طمعاً فى شىء من حطام الدنيا ، ورغبة فيه ، وزهدا فى خير الآخرة .

فلما اختاروا الكفر على الإيمان ، منعهم الله الهداية ، فلم يهدهم ، لأن الكفر وصفهم .

فطبع على قلوبهم ، فلا يدخلها خير ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ، فلا ينفذ منها ما ينفعهم ، ويصل إلى قلوبهم .

فشملتهم الغفلة ، وأحاط بهم الخذلان ، وحرموا رحمة الله ، التى وسعت كل شىء .

وذلك أنها أتتهم ، فردوها ، وعرضت عليهم ، فلم يقبلوها .

[ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ] الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة ، وفاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على العذاب الأليم .

وهذا بخلاف من أكره على الكفر ، وأجبر عليه ، وقلبه مطمئن بالإيمان ؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم ، ويجوز له النطق بكلمة الكفر ، عند الإكراه عليها .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ

---

ودل ذلك ، على أن كلام المكره على الطلاق ، أو العتاق ، أو البيع ، أو الشراء ، أو سائر العقود ، أنه لاعبرة به ، ولا يترتب عليه حكم شرعى.

لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر ، إذا أكره عليها ، فغيرها من باب أولى وأحرى .

* أى : ثم إن ربك ، الذى ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ، لغفور رحيم ، لمن هاجر فى سبيله ، وخلى[1] دياره وأمواله ، طالبا لمرضاة الله ، وفُتِنَ على دينه ، ليرجع إلى الكفر ، فثبت على الإيمان ، وتخلص ما معه من اليقين .

ثم جاهد أعداء الله ، ليدخلهم فى دين الله ، بلسانه ، ويده ، وصبر على هذه العبادات الشاقة ، على أكثر الناس .

فهذه أكبر الأسباب ، التى ينال بها أعظم العطايا ، وأفضل المواهب ، وهى مغفرة الله للذنوب ، صغارها ، وكبارها ، المتضمن ذلك ، زوال كل أمر مكروه .

---

(١) خلى أى : ترك وطنه ومسقط رأسه وقصد أرضاً يتمكن فيها من إقامة شرائع دينه والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مستظلا بحكم حاكم مسلم لا يقف عقبة فى سبيل الدعاة إلى الله .

تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

---

ورحمته[1] العظيمة التى بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم .

فلهم الرحمة من الله فى يوم القيامة .

[ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ] كُلٌّ يقول نفسى ، لا يهمه سوى نفسه .

فنى ذلك اليوم ، يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير .

[ وتوفى كل نفس ما عملت ] من خير وشر [ وهم لا يظلمون ] فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم ] « فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون »

---

( ١ ) ورحمته . معطـوف على قوله « مغفرة الله » أى : ينال مغفرة الله ورحمته الخ .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ
فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

---

وهذه القرية هى : مكة المشرفة ، التى كانت آمنة مطمئنة ، لا يهاج ، فيها أحد ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم ، يجد فيها قاتل أبيه وأخيه ، فلا يهيجه[1] مع شدة الحمية فيهم، والنعرة[2] العربية فحصل لها فى مكة ، من الأمن التام ، ما لم يحصل فى سواها وكذلك الرزق الواسع .

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق ، يأتيها من كل مكان .

فجاءهم رسول منهم ، يعرفون أمانته وصدقه ،يدعوهم إلى أكمل الأمور ، وينهاهم عن الأمور السيئة .

فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ، ضد ما كانوا فيه ، وألبسهم لباس الجوع ، الذى هو ضد الرغد ، والخوف ، الذى هو ضد الأمن ، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم ، وعدم شكرهم « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

---

( ١ ) لا يهيجه . أى : لا يزعجه ولا يثيره .

( ٢ ) النعرة : بضم النون وفتح العين : الكبروالخيلاء . اه . القاموس

۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ

---

* يأمر تعالى عباده ، بأكل ما رزقهم الله ، من الحيوانات ، والحبوب ، والثمار ، وغيرها .

[ حلالا طيبا ] أى : حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله ، أو أثراً من غصب ونحوه .

فتمتعوا بما خلق الله لكم ، من غير إسراف ، ولا تعدٍّ .

[ واشكروا نعمة الله ] بالاعتراف بها ، بالقلب ، والثناء على الله بها ، وصرفها فى طاعة الله .

[إن كنتم إياه تعبدون] أى إن كنتم مخلصين له العبادة ، فلا تشكروا إلا إياه ، ولا تنسوا المنعم .

[ إنما حرم عليكم ] الأشياء المضرة ، تنزيها لكم .

ومن ذلك : [ الميتة ] ويدخل فى ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة[1] مشروعة .

---

( ١ ) ذكاة بالذال . أى : الذبح الشرعى ولا يتحقق الذبح الشرعى إلا بقطع الودجين وهما : العرقان الموجودان على يمين العنق وعلى يساره .

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

---

ويستثنى منه ، ميتة الجراد والسمك ، والدم المسفوح[1] ، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر .

[ ولحم الخنزير ] لقذارته وخبثه ، وذلك شامل للحمه وشحمه ، وجميع أجزائه .

[ وما أهل لغير الله به ] كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها ، لأنه مقصود به الشرك .

[ فمن اضطر ] إلى شيء من المحرمات — بأن حملته الضرورة ، وخاف إن لم يأكل أن يهلك — فلا جناح عليه إذا كان غير باغ ولا عاد ] .

أي : إذا لم يرد أكل المحرم ، وهو غير مضطر ، ولا متعد الحلال إلى الحرام ، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة .

---

( ١ ) في الأصل المطبوع « والدم المسفوح » وهو خطأ واضح ( ولم يقل أحد أن الدم المسفوح حلال أبداً بل هو محرم بنص القرآن القائل « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم على يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير الآية ) والدم الحلال أكله هو الكبد والطحال كما قال النبي صلى الله عليه والسلام « أحلت لكم ميتتان ودمان ، السمك والجراد والكبد والطحال » فالعبارة كما ترى قلقة وأمارات التحريف من الناسخ ظاهرة .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

---

فهذا الذى[1] حرمه الله من المباحات .

[ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ] أى : لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم ، كذبا ، وافتراء على الله وتقوُّلاً عليه .

[ لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

ولا بد أن يظهر الله خزيهم ، وإن تمتعوا فى الدنيا ، فإنه [متاع قليل] ومصيرهم إلى النار [ ولهم عذاب أليم ] .

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات ، تفضلا منه ، وصيانة عن كل مستقذر .

وأما الذين هادوا[2] فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم ، كما قصه فى سورة الأنعام فى قوله « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ] .

---

( ١ ) قوله « فهذا الذى حرمه الله الخ » خطأ واضح والصواب «فهذا الذى أباحه الله من المحرمات » .

( ٢ ) الذين هادوا . أى : اليهود .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

---

* وهذا حضٌّ منه لعباده على التوبة ، ودعوة لهم إلى الإنابة .

فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة ، بعاقبة ما تجنى عليه ، ولو كان متعمدا للذنب ، فإنه لا بد أن ينقص ما فى قلبه من العلم ، وقت مفارقة الذنب .

فإذا تاب وأصلح ، بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله ، فإن الله يغفر له ويرحمه ، ويتقبل توبته ، ويعيده إلى حالته الأولى ، أو أعلى منها .

* يخبر تعالى ، عما فضل به خليله ، عليه الصلاة والسلام ، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة ، فقال :

[ إن إبراهيم كان أمة ] أى : إماما ، جامعاً لخصال الخير ، هاديا مهتدياً .

[ قانتا لله ] أى : مديما لطاعة ربه ، مخلصا له الدين .

[ حنيفا ] مقبلا على الله ، بالمحبة ، والإنابة ، والعبودية ، معرضا عمن سواه .

[ ولم يك من المشركين ] فى قوله وعمله ، وجميع أحواله ، لأنه إمام الموحدين الحنفاء .

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

---

[ شاكراً لأنعمه ] أى : آتاه الله فى الدنيا حسنة ، وأنعم عليه بنعم ، ظاهرة وباطنة ، فقام بشكرها .

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن [ اجتباه ربه ] ، واختصه بخلته ، وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المقربين .

[ وهداه إلى صراط مستقيم ] في علمه وعمله ، فعلم[1] بالحق ، وآثره على غيره .

[ وآتيناه فى الدنيا حسنة ] رزقا واسعا ، وزوجة حسناء ، وذرية صالحين ، وأخلاقا مرضية .

[ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ] الذين لهم المنازل العالية ، والقرب العظيم من الله تعالى .

ومن أعظم فضائله ، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم ، أن يتبع ملة إبراهيم ، ويقتدى به ، هو ، وأمته .

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب « فعمل » والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

---

☆ يقول تعالى : [ إنما جعل السبت ] أى : فرضا [ على الذين اختلفوا فيه ] حين ضلوا عن يوم الجمعة ، وهم اليهود ، فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم فى السبت احترامه وتعظيمه ، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة ، الذى هدى الله هذه الأمة إليه .

[ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ] فيبين لهم المحق من المبطل ، والمستحق للثواب ، ممن استحق العذاب .

* أى : ليكن دعاؤك للخلق ، مسلمهم وكافرهم ، إلى سبيل ربك المستقيم ، المشتمل على العلم النافع ، والعمل الصالح .

[ بالحكمة ] أى : كل أحد على حسب حاله وفهمه ، وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة ، الدعوة بالعلم ، لا بالجهل ، وَالْبَدْأَةِ بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين .

فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو، الأمر ، والنهى المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهى من المضار وتعدادها .

وإما بذكر إكرام من قام بدين الله ، وإهانة من لم يقم به .

وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

---

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين ، من الثواب العاجل والآجل ، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل .

فإن كان المدعو ، يرى أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلى الباطل ، فيجادل بالتي هي أحسن ، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا .

ومن ذلك ، الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها ، فإنه أقرب إلى حصول المقصود ، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة ، تذهب بمقصودها ، ولا تحصل الفائدة منها ، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها .

وقوله : [ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ] أي : أعلم بالسبب ، الذي أداه إلى الضلال ، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته ، وسيجازيه عليها .

[ وهو أعلم بالمهتدين ] علم أنهم يصلحون للهداية ، فهداهم ، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيحاً للعدل ، ونادباً للفضل والإحسان — :

[ وإن عاقبتم ] من أساء إليكم بالقول والفعل [ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ] من غير زيادة منكم ، على ما أجراه معكم .

[ ولئن صبرتم ] عن المعاقبة ، وعفوتم عن جرمهم [ لهو خير للصابرين ] من الاستيفاء ، وما عند الله ، خير لكم ، وأحسن عاقبة كما قال تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله ، والاستعانة بالله على ذلك ، وعدم الاتكال على النفس فقال :

[ واصبر وما صبرك إلا بالله ] هو الذى يعينك عليه ويثبتك .

[ ولا تحزن عليهم ] إذا دعوتهم ، فلم تر منهم قبولا لدعوتك ، فإن الحزن لا يجدى عليك شيئاً .

[ ولا تك فى ضيق ] أى شدة وحرج [ مما يمكرون ] فإن مكرهم عائد إليهم ، وأنت من المتقين المحسنين .

. . . . . . . . . . .

---

والله مع المتقين المحسنين ، بعونه ، وتوفيقه ، وتسديده ، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصى ، وأحسنوا فى عبادة الله ، بأن عبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم.

والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه .

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين .

تم تفسير سورة النحل — ولله الحمد والمنة

# تفسـيـر

# سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

---

* ينزه تعالى نفسه المقدسة ، ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة ، التى من جملتها أنه [ أسرى بعبده ] ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، [ ليلا من المسجد الحرام ] الذى هو أجل المساجد على الإطلاق [ إلى المسجد الأقصى ] الذى هو من المساجد الفاضلة ، وهو محل الأنبياء .

فَأُسْرِىَ به فى ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدا ، ورجع فى ليلته .

وأراه الله من آياته ، ما ازداد به هدى وبصيرة ، وثباتا ، وفرقانا .

وهذا من اعتنائه تعالى به ، ولطفه ، حيث يسره لليسرى ، فى جميع أموره ، وخوَّله نعما ، فاق بها الأولين والآخرين .

وظاهر الآية ، أن الإسراء كان فى أول الليل ، وأنه من نفس المسجد الحرام .

لكن ثبت فى الصحيح ، أنه أُسْرِىَ به من بيت أم هانىء .

فعلى هذا ، تكون الفضيله فى المسجد الحرام ، لسائر الحرم .

إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

فكله تضاعف فيه العبادة، كتضاعفها فى نفس المسجد.

وأن الإسراء، بروحه، وجسده معاً، وإلا لم يكن فى ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم، فى الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسرى به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السموات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض عليه الصلوات خمسين.

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمسا فى الفعل، وخمسين فى الأجر والثواب.

وحاز من المفاخر تلك الليلة، هو وأمته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفى مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدى بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: [ الذى باركنا حوله ] أى: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة.

وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلا، لكثير من أنبيائه وأصفيائه

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ

---

* كثيراً ما يقرن البارى بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة موسى صلى الله عليه وسلم ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين .

ولهذا قال هنا : [ وآتينا موسى الكتاب ] الذى هو التوراة [ وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ] يهتدون به فى ظلمات الجهل إلى العلم بالحق .

[ ألا تتخذوا من دونى وكيلا ] أى : وقلنا لهم ذلك ، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ، ليعبدوا الله وحده ، وينيبوا إليه ، ويتخذوه وحده وكيلا ومدبراً لهم ، فى أمر دينهم ودنياهم ، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لايملكون شيئاً ، ولا ينفعونهم بشىء .

[ ذرية من حملنا مع نوح ] أى : يا ذرية من مننا عليهم ، وحملناهم مع نوح .

[ إنه كان عبداً شكوراً ] ففيه التنويه بالثناء على نوح ، عليه السلام ، بقيامه بشكر الله ، واتصافه بذلك ، والحث لذريته ، أن يقتدوا به فى شكره ويتابعوه عليه ، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، إذ أبقاهم واستخلفهم فى الأرض ، وأغرق غيرهم .

[ وقضينا إلى بنى إسرائيل ] أى تقدمنا وعهدنا إليهم ، وأخبرناهم

لَتُفسِدُنَّ فِي ٱلأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ أُولَٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ
خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ

---

فى كتابهم ، أنهم لابد أن يقع منهم إفساد فى الأرض مرتين بعمل المعاصى والبطر لنعم الله ، والعلو فى الأرض والتكبر فيها ، وأنه إذا وقع واحدة منهما ، سلط الله عليهم الأعداء ، وانتقم منهم ، وهذا تحذير لهم وإنذار ، لعلهم يرجعون فيتذكرون .

[ فإذا جاء وعد أولاهما ] أى : أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما .

أى : إذا وقع منهم ذلك الفساد [ بعثنا عليكم ] بعثاً قدريا ، وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا [ عباداً لنا أولى بأس شديد ] أى : ذوى شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم ، فقتلوكم وسبوا أولادكم ، ونهبوا أموالكم .

[ فجاسوا خلال الديار ] وهتكوا الدور ، ودخلوا المسجد الحرام ، وأفسدوه .

[ وكان وعداً مفعولا ] لابد من وقوعه ، لوجود سببه منهم .

واختلف المفسرون ، فى تعيين هؤلاء المسلطين ، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار .

إما من أهل العراق ، أو الجزيرة ، أو غيرها سلطهم الله على بنى إسرائيل ، لما كثرت فيهم المعاصى ، وتركوا كثيراً ، من شريعتهم ، وطغوا فى الأرض .

عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ
ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ

---

[ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ] أى : على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم .

[ وأمددناكم بأموال وبنين ] أى : أكثرنا أرزاقكم ، وكثرناكم، وقويناكم عليهم .

[ وجعلناكم أكثر نفيراً ] منهم ، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله .

[ وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ] لأن النفع عائد إليكم ، حتى فى الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم .

[ إن أسأتم فلها ] أى : فلأنفسكم ، يعود الضرر كما أراكم الله ، من تسليط الأعداء .

[ فإذا جاء وعد الآخرة ] أى : المرة الأخرى ، التى تفسدون فيها فى الأرض ، سلطنا عليكم الأعداء .

[ ليسوءوا وجوهكم ] بانتصارهم عليكم وسبيكم [ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ] والمراد بالمسجد ، مسجد بيت المقدس .

[ وليتبروا ] أى: يخربوا ويدمروا [ ما علوا ] عليه [ تتبيرا ] فيخربوا بيوتكم ، ومساجدكم ، وحروثكم .

وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

[ عسى ربكم أن يرحمكم ] فيديل[1] لكم الكرة عليهم .

فرحمهم ، وجعل لهم الدولة ، وتوعدهم على المعاصى فقال :

[ وإن عدتم ] إلى الإفساد فى الأرض [ عدنا ] إلى عقوبتكم .

فعادوا لذلك ، فسلط الله عليهم رسوله ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، فانتقم الله به منهم .

فهذا جزاء الدنيا ، وما عند الله من النكال ، وأعظم وأشنع ، ولهذا قال :

[وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ] يصلونها ، ويلازمونها ، لايخرجون منها أبداً .

وفى هذه الآيات التحذير لهذه الأمة ، من العمل بالمعاصى لئلا يصيبهم، ما أصاب بنى إسرائيل .

فسنة الله واحدة ، لاتبدل ولاتغير .

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك ، من أجل ذنوبهم ، عقوبة لهم ، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله ، وسنة رسوله ، مكّن لهم فى الأرض ، ونصرهم على أعدائهم .

---

(١) فيديل لكم . أى : ينصركم عليهم .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته ، وأنه [ يهدى للتى هى أقوم ] أى : أعدل وأعلى ، من العقائد ، والأعمال ، والأخلاق .

فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن ، كان أكمل الناس ، وأقومهم ، وأهداهم فى جميع الأمور .

[ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ] من الواجبات والسنن .

[ أن لهم أجراً كبيراً ] أعده الله لهم فى دار كرامته ، لا يعلم وصفه إلا هو .

[ وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما ] ، فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة ، وذكر الأسباب التى تنال بها البشارة ، وهو الإيمان ، والعمل الصالح ، والتى تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك .

* وهذا من جهل الإنسان وعجلته ، حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب ، ويبادر بذلك الدعاء ، كما يبادر بالدعاء فى الخير ، ولكن الله — من لطفه — يستجيب له فى الخير ، ولا يستجيب له بالشر .

« ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم » .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ
وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾
﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ

---

* يقول تعالى : [ وجعلنا الليل والنهار آيتين ] أى : دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته ، وأنه الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[ فمحونا آية الليل ] أى : جعلناه مظلما ، للسكون فيه ، والراحة .

[ وجعلنا آية النهار مبصرة ] أى : مضيئة [ لتبتغوا فضلا من ربكم ] فى معايشكم ، وصنائعكم ، وتجاراتكم ، وأسفاركم .

[ ولتعلموا ] بتوالى الليل والنهار واختلاف القمر [ عدد السنين والحساب ] فتبنون عليها ما تشاءون ، من مصالحكم .

[ وكل شىء فصلناه تفصيلا ] أى : بينا الآيات ، وصرفناه ، لتتميز الأشياء ، ويتبين الحق من الباطل ، كما قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

* وهذا إخبار عن كمال عدله ، أن كل إنسان يلزمه طائره فى عنقه ، أى : ما عمل من خير وشر ، يجعله الله ملازماً له ، لا يتعداه إلى غيره ، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله .

[ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ] فيه عمله ، من الخير

بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

---

والشر ، حاضراً ، صغيره وكبيره ، ويقال له : [ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ] .

وهذا من أعظم العدل والإنصاف ، أن يقال للعبد : حاسب نفسك ، ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب .

* أى : هداية كل أحد وضلاله لنفسه ، ولا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر .

والله تعالى ، أعدل العادلين ، لا يعذب أحداً ، حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، ثم يعاند الحجة .

وأما من انقاد للحجة ، أو لم تبلغه حجة الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يعذبه .

استدل بهذه الآية ، على أن أهل الفترات ، وأطفال المشركين ، لايعذبهم الله ، حتى يبعث إليهم رسولا ، لأنه منزه عن الظلم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا
مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن

---

* يخبر تعالى ، أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ، ويستأصلها بالعذاب ، أمر مترفيها ، أمراً قدريا ، ففسقوا فيها ، واشتد طغيانهم .

[ فحق عليها القول ] أى : كلمة العذاب التى لا مرد لها [ فدمرناها تدميراً ] .

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب ، من بعد قوم نوح ، كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم ، من عاقبهم الله ، لما كثر بغيهم ، واشتد كفرهم ، أنزل الله بهم عقابه العظيم .

[ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ] فلا يخافون منه ظلما ، وأنه يعاقبهم على ما عملوه .

* يخبر تعالى أن [ من كان يريد العاجلة ] أى : الدنيا المنقضية الزائلة ، فعمل لها ، وسعى ، ونسى المبتدأ أو المنتهى ، أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ، ما يشاؤه ويريده ، مما كتب الله له فى اللوح المحفوظ ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له .

نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْأَـٰخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم
مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ
وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ

---

ثم يجعل له فى الآخرة [ جهنم يصلاها ] أى يباشر عذابها [ مذموماً مدحورا ] أى : فى حالة الخزى والفضيحة والذم من الله ، ومن خلقه ، والبعد عن رحمة الله ، فيجمع له العذاب والفضيحة .

[ ومن أراد الآخرة ] فرضيها وآثرها على الدنيا [ وسعى لها سعيها ] الذى دعت إليه الكتب السماوية ، والآثار النبوية ، فعمل بذلك على قدر إمكانه [ وهو مؤمن ] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ] أى : مقبولا مُنَمًّى، مدخراً ، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم .

ومع هذا ، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا ، فكلا يمده الله منها ، لأنه عطاؤه وإحسانه

[وما كان عطاء ربك محظوراً ] أى : ممنوعاً من أحد ، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه .

[ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ] فى الدنيا ، بسعة الأرزاق وقلتها ، واليسر والعسر ، والعلم والجهل ، والعقل والسفه ، وغير ذلك من الأمور التى فضل الله العباد بعضهم على بعض بها .

بَعْضٍ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

---

[ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ] فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها ، إلى الآخرة ، بوجه من الوجوه .

فكم بين من هو فى الغرف العاليات ، واللذات المتنوعات ، والسرور والخيرات والأفراح ، ممن هو يتقلب فى الجحيم ، ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم ، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت مالا يمكن أحداً عده .

* أى : لاتعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ، ولا تشرك بالله أحدا منهم ، فإن ذلك داع للذم والخذلان .

فالله ، وملائكته ، ورسله ، قد نهوا عن الشرك ، وذموا من عمله أشد الذم ، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة ، والأوصاف المقبوحة ، ما كان به متعاطيه ، وأشنع الخلق وصفا ، وأقبحهم نعتا .

وله من الخذلان فى أمر دينه ودنياه ، بحسب ما تركه ، من التعلق بربه .

فمن تعلق بغيره ، فهو مخذول ، قد وكل إلى من تعلق به ، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً ، إلا بإذن الله .

كما أن من جعل مع الله إلها آخر ، له الذم والخذلان .

فمن وحده ، وأخلص دينه لله ، وتعلق به دون غيره ، فإنه محمود معان فى جميع أحواله .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ

---

* لما نهى تعالى عن الشرك به ، أمر بالتوحيد ، فقال : [ وقضى ربك ] قضاء دينيا ، وأمراً شرعياً .

[ أن لا تعبدوا ] أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات .

[ إلا إياه ] لأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له كل صفة كمال ، وله من كل صفة أعظمها ، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه ، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، الدافع لجميع النقم ، الخالق ، الرازق ، المدبر لجميع الأمور .

فهو المتفرد بذلك كله ، وغيره ليس له من ذلك شيء .

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال : [ وبالوالدين إحسانا ] .

أى : أحسنوا إليهما ، بجميع وجوه الإحسان ، القول والفعلى ، لأنهما سبب وجود العبد ، ولهما من المحبة للولد ، والإحسان إليه ، والقرب ، ما يقتضى تأكد الحق ، ووجوب البر .

[ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ] أى : إذا وصلا إلى هذا السن ، الذى تضعف فيه قواهما ، ويحتاجان من اللطف والإحسان ، ما هو معروف .

[ فلا تقل لهما أف ] وهذا أدنى مراتب الأذى ، نبه به على ما سواه .

لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

والمعنى ، لا تؤذهما أدنى أذية .

[ ولا تنهرهما ] أى : تزجرهما ، وتتكلم كلاماً خشناً .

[ وقل لهما قولا كريما ] بلفظ يحبانه ، وتأدب ، وتلطف معهما ، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما ، وتطمئن به نفوسهما . وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد ، والأزمان .

[ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ] أى : تواضع لهما ، ذلا لهما ، ورحمة ، واحتسابا للأجر ، لا لأجل الخوف منهما ، أو الرجاء لما لهما ، ونحو ذلك من المقاصد ، التى لا يؤجر عليها العبد .

[ وقل رب ارحمهما ] أى : ادع لهما بالرحمة أحياء ، وأمواتاً . جزاء على تربيتهما إياك ، صغيراً .

وفهم من هذا ، أنه كلما ازدادت التربية ، ازداد الحق .

وكذلك من تولى تربية الإنسان فى دينه ودنياه ، تربية صالحة غير الأبوين ، فإن له على من رباه ، حق التربية .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

---

* أى : ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم ، من خير وشر ، وهو لاينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

[ إن تكونوا صالحين ] بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم ، دائرة على مرضاة الله ، ورغبتكم فيما يقربكم إليه ، وليس فى قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله .

[ فإنه كان للأولين ] أى : الرجاعين إليه فى جميع الأوقات [ غفوراً ] .

فمن اطلع الله على قلبه ، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ، ومحبة ما يقرب إليه ، فإنه ، وإن جرى منه فى بعض الأوقات ، ما هو مقتضى الطبائع البشرية ، فإن الله يعفو عنه ، ويغفر له الأمور العارضة ، غير المستقرة .

* يقول تعالى : [ وآت ذا القربى حقه ] من البر والإكرام ، الواجب والمسنون ، وذلك الحق ، يتفاوت بتفاوت الأحوال ، والأقارب ، والحاجة وعدمها ، والأزمنة .

[ والمسكين ] آته حقه من الزكاة ومن غيرها ، لتزول مسكنته [ وابن السبيل ] وهو : الغريب المنقطع به عن بلده .

وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

---

[ ولا تبذر تبذيراً ] يعطى الجميع من المال ، على وجه لا يضر المعطى ، ولا يكون زائدا على المقدار اللائق ، فإن ذلك تبذير ، قد نهى الله عنه وأخبر :

[ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ] لأن الشيطان ، لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة ، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك ، فإذا عصاه ، دعاه إلى الإسراف والتبذير .

والله تعالى ، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ، ويمدح عليه ، كما فى قوله ، عن عباد الرحمن الأبرار « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وقال هنا : [ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ] كناية عن شدة الإمساك والبخل .

[ ولا تبسطها كل البسط ] فتنفق فيما لاينبغى ، وزيادة على ما ينبغى .

[ فتقعد ] إن فعلت ذلك [ ملوماً ] أى : تلام على مافعلت [ محسورا ] أى : حاسر اليد فارغها ، فلا بقى ما فى يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء .

مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

---

وهذا الأمر بإيتاء ذى القربى ، مع القدرة والغنى .

فأما مع العدم ، أو تعسر النفقة الحاضرة ، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا ردًّا جميلا فقال :

[ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ] أى : تعرضن عن إعطائهم إلى وقت آخر ، ترجو فيه من الله تيسير الأمر .

[ فقل لهم قولا ميسوراً ] أى : لطيفا برفق ، ووعد بالجميل ، عند سنوح الفرصة ، واعتذار بعدم الإمكان ، فى الوقت الحاضر ، لينقلبوا عنك ، مطمئنة خواطرهم ، كما قال تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذي » .

وهذا أيضاً ، من لطف الله تعالى بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لأن انتظار ذلك ، عبادة .

وكذلك وَعْدُهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة ، حسنة .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، وينوى فعل مالم يقدر عليه ، ليثاب على ذلك ، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه .

ثم قال تعالى : [ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ] من عباده [ ويقدر ] أى : يضيقه على من يشاء ، حكمة منه .

[ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ] فيجزيهم على ما يعلمه صالحا لهم ، ويدبرهم ، بلطفه وكرمه .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* وهذا من رحمته بعباده ، حيث كان أرحم بهم من والديهم .

فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم ، خوفا من الفقر والإملاق ، وتكفل برزق الجميع .

وأخبر أن قتلهم كان خطئا كبيراً ، أى من أعظم كبائر الذنوب ، لزوال الرحمة من القلب ، والعقوق العظيم والتجرى على قتل الأطفال ، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية .

* النهى عن قربان الزنى أبلغ من النهى عن مجرد فعله ، لأن ذلك يشمل النهى عن جميع مقدماته ودواعيه ، فإن « من حام حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه » .

خصوصاً هذا الأمر ، الذى فى كثير من النفوس ، أقوى داع إليه .

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه [ كان فاحشة ] أى : إنما يستفحش فى الشرع والعقل ، والفطر ، لتضمنه التجرى على الحرمة فى حق الله ، وحق المرأة ، وحق أهلها ، أو زوجها ، وإفساد الفراش ، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد .

وقوله [ وساء سبيلا ] أى : بئس السبيل ، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

وهذا شامل لكل نفس [ حرم الله قتلها ] من صغير ، وكبير ، وذكر وأنثى ، وحر ، وعبد ، ومسلم ، وكافر له عهد .

[ إلا بالحق ] كالنفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة ، والباغى فى حال بغيه ، إذا لم يندفع إلا بالقتل .

[ ومن قتل مظلوما ] أى بغير حق [ فقد جعلنا لوليه ] وهو ، أقرب عصباته وورثته إليه [ سلطانا ] أى : حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضاً تسلطا قدرياً على ذلك.

وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص ، كالعمد العدوان ، والمكافأة .

[ فلا يسرف ] الولى [ فى القتل إنه كان منصوراً ] .

والإسراف ، مجاوزة الحد ، إما أن يمثل بالقاتل ، أو يقتله بغير ما قتل به ، أو يقتل غير القاتل .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الحق فى القتل للوَلِى ، فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا ، سقط القصاص .

وأن وَلِىّ المقتول ، يعينه الله على القاتل ، ومن أعانه ، حتى يتمكن من قتله .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ

---

* وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم ، الذى فقد والده ، وهو صغير ، غير عارف بمصلحة نفسه ، ولا قائم بها ، أن أمر أولياءه بحفظه ، وحفظ ماله ، وإصلاحه ، وأن لا يقربوه [ إلا بالتى هى أحسن ] من التجارة فيه ، وعدم تعريضه للأخطار ، والحرص على تنميته .

وذلك ممتد إلى أن [ يبلغ اليتيم أشده ] أى : بلوغه ، وعقله ، ورشده .

فإذا بلغ أشده ، زالت عنه الولاية ، وصار ولى نفسه ، ودفع إليه ماله .

كما قال تعالى « فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » .

[ وأوفوا بالعهد ] الذى عاهدتم الله عليه ، والذى عاهدتم الخلق عليه .

[ إن العهد كان مسئولا ] أى : مسئولون عن الوفاء به .

فإن وفيتم ، فلكم الثواب الجزيل ، وإن لم تفعلوا ، فعليكم الإثم العظيم .

* وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط ، من غير بخس ولا نقص .

ويؤخذ من عموم المعنى ، النهى عن كل غش ، أو مثمن ، أو معقود عليه ، والأمر بالنصح ، والصدق فى المعاملة .

ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

---

[ ذلك خير ] من عدمه [ وأحسن تأويلا ] أى : أحسن عاقبة به ، يسلم العبد من التبعات ، وبه تنزل البركة .

* أى : ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تَثَبَّتْ فى كل ما تقوله وتفعله .

فلا تظن ذلك يذهب ، لا لك ولا عليك .

[ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ] لحقيق بالعبد الذى يعرف أنه مسئول ، عما قاله وفعله ، وعما استعمل به جوارحه التى خلقها الله لعبادته ، أن يُعِدَّ للسؤال جواباً .

وذلك لا يكون ، إلا باستعمالها ، بعبودية الله ، وإخلاص الدين له ، وكفها عما يكرهه الله تعالى .

* يقول تعالى : [ ولا تمش فى الأرض مرحاً ] أى : كبرا وتيها وبطرا ، متكبرا على الحق ، ومتعاظما فى تكبرك على الخلق .

[ إنك ] فى فعلك ذلك [ لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ] .

بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق ، مبغوضا ممقوتا ، قد اكتسبت شر الأخلاق ، واكتسيت بأرذلها ، من غير إدراك لبعض ما تروم .

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

---

[ كل ذلك ] المذكور الذى نهى الله عنه فيما تقدم من قوله «ولا تجعل مع الله إلها آخر » والنهى عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك [ كان سيئه عند ربك مكروها ] أى : كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه .

[ ذلك ] الذى بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة .

[ مما أوحى إليك ربك من الحكمة ] فإن الحكمة ، الأمر بمحاسن الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، والنهى عن أراذل الأخلاق ، وأسوإ الأعمال .

وهذه الأعمال المذكورة فى هذه الآيات ، من الحكمة العالية ، التى أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين ، فى أشرف الكتب ، ليأمر بها أفضل الأمم ، فهى من الحكمة ، التى من أوتيها ، فقد أوتى خيرا كثيرا .

ثم ختمها بالنهى عن عبادة غير الله ، كما افتتحها بذلك فقال :

[ ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ] أى : خالدا مخلدا ، فإنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار .

[ ملوما مدحورا ] أى : قد لحقتك اللائمة ، واللعنة ، والذم من الله ، وملائكته ، والناس أجمعين .

﴿ أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّـكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّـكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ

---

* وهذا إنكار شديد ، على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال : [ أفأصفاكم ربكم بالبنين ] أى : اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثا ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

[ إنكم لتقولون قولا عظيما ] فيه أعظم الجرأة على الله ، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته ، واستغناء بعض المخلوقات عنه ، وحكمتم له بأردأ القسمين ، وهو الإناث وهو الذى خلقكم ،واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

* يخبر تعالى ، أنه صرّف لعباده ، فى هذا القرآن ، أى نوّع الأحكام ، ووضحها ، وأكثر من الأدلة والبراهين ، على ما دعا إليه ، ووعظ وذكّر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه ، وما يضرهم فيدعوه .

ولكن أبى أكثر الناس ، إلا نفوراً عن آيات الله ، لبغضهم للحق ، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل ، حتى تعصبوا لباطلهم ، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً ، ولا ألقوا لها بالا .

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة ، التوحيد الذى هو أصل الأصول .

فأمر به ، ونهى عن ضده ، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية ، شيئاً كثيراً ، بحيث أن من أصغى إلى بعضها ، لا تدع فى قلبه،شكاولا ريبا.

إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْاْ
إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

---

ومن الأدلة على ذلك ، هذا الدليل العقلى الذى ذكره هنا فقال :

[ قل ] للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر :

[ لو كان معه آلهة كما يقولون ] أى : على موجب زعمهم وافترائهم [ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ] أى : لاتخذوا سبيلا إلى الله بعبادته ، والإنابة إليه ، والتقرب وابتغاء الوسيلة .

فكيف يجعل العبد الفقير ، الذى يرى شدة افتقاره لعبودية ربه ، إلها مع الله ؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه ؟!! .

فعلى هذا المعنى ، تكون هذه الآية كقوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » .

وكقوله تعالى: « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » .

ويحتمل أن المعنى فى قوله [ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ] أى : لطلبوا السبيل ، وسعوا فى مغالبة الله تعالى .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

---

فإما أن يعلوا عليه[1] فيكون من علا وقهر ، هو الرب الإله .

فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم ، التى يدعون من دون الله مقهورة مغلوبة ، ليس لها من الأمر شىء ، فلم اتخذوها وهى بهذه الحال ؟

فيكون هذا كقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

[ سبحانه وتعالى ] أى : تقدس وتنزه وعلت أوصافه [ عما يقولون ] من الشرك به ، واتخاذ الأنداد معه [ علوا كبيرا ] فعلا قدره ، وعظم ، وجلت كبرياؤه ، التى لا تقادر ، أن يكون معه آلهة ، فقد ضل من قال ذلك ، ضلالا مبينا ، وظلم ظلما كبيرا .

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة ، وصغرت لدى كبريائه ، السموات السبع ، ومن فيهن ، والأرضون السبع ، ومن فيهن « والأرض جميعاً ، قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » .

---

( ١ ) قوله ( فإما أن يعلوا عليه الخ ) فى العبادة إيهام .

والأوضح أن يقال : « فإما أن يعلوا عليه ، فيكون من علا وقهر هو الرب ، الإله .

وإما أن يقروا أن آلهتهم التي يدعون من دون الله ، مقهورة مغلوبة ، ليس لها من الأمر شىء ، وهم مقرون ومعترفون بذلك .

فلم اتخذوها آلهة ، وهى بهذه الحال » ؟ فبهذا تستقيم العبارة وتتضح .

. . . . . . . . . . .

---

وافتقر إليه ، العالم العلوى والسفلى ، فقرا ذاتيا ، لا ينفك عن أحد منهم فى وقت من الأوقات .

هذا الفقر بجميع وجوهه ، فقر من جهة الخلق ، والرزق ، والتدبير .

وفقر من جهة الاضطرار ، إلى أن يكون معبوده ومحبوبه ، الذى إليه يتقربون وإليه فى كل حال يفزعون . ولهذا قال :

[ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء ] من حيوان ناطق ، وغير ناطق ، ومن أشجار ، ونبات ، وجامد ، وحَىٍّ وميت [ إلا يسبح بحمده ] بلسان الحال ، ولسان المقال .

[ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ] أى : تسبيح باقى المخلوقات ، التى على غير لغتكم .

بل يحيط بها علام الغيوب .

[ إنه كان حليما غفورا ] حيث لم يعاجل بالعقوبة ، من قال فيه قولا ، تكاد السموات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال .

ولكنه أمهلهم ، وأنعم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم ، ودعاهم إلى بابه ، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ، ليعطيهم الثواب الجزيل ، ويغفرلهم ذنبهم .

فلولا حلمه ومغفرته ، لسقطت السموات على الأرض ، ولما ترك على ظهرها من دابة .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ
وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ

---

* يخبر تعالى ، عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه ، وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال :

[وإذا قرأت القرآن] الذى فيه الوعظ والتذكير ، والهدى والإيمان ، والخير ، والعلم الكثير .

[ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ] يسترهم عن فهمه حقيقة ، وعن التحقق بحقائقه ، والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير .

[ وجعلنا على قلوبهم أكنة ] أى : أغطية وأغشية ، لا يفقهون معها القرآن ، بل يسمعونه سماعاً تقوم به عليهم الحجة .

[ وفى آذانهم وقرا ] أى : صمما عن سماعه .

[ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ] داعيا لتوحيده ، ناهياً عن الشرك به .

[ ولوا على أدبارهم نفورا ] من شدة بغضهم له ، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل .

كما قال تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

---

[ نحن أعلم بما يستمعون به ] أى : إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن ، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة ، يريدون أن يعثروا على أقل شىء ، ليقدحوا به .

وليس استماعهم لأجل الاسترشاد ، وقبول الحق ، وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه .

ومن كان بهذه الحالة ، لم يفده الاستماع شيئا ، ولهذا قال :

[ إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى] أى :متناجين [ إذيقول الظالمون] فى مناجاتهم :

[ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ] فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم ، وقد بنوها على أنه مسحور ، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال ، وأنه يهذى ، لا يدرى ما يقول .

قال تعالى : [ انظر ] متعجبا [ كيف ضربوا لك الأمثال ] التى هى أضل الأمثال ، وأبعدها عن الصواب .

[ فضلوا ] فى ذلك ، أو صارت سبباً لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم ، والمبنى على فاسد ، أفسد منه .

[ فلا يستطيعون سبيلا ] أى : لا يهتدون أىّ اهتداء ، فنصيبهم الضلال المحض ، والظلم الصِّرف .

۞ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ

---

* يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث ، وتكذيبهم به،واستبعادهم بقولهم: [ أإذا كنا عظاما ورفاتا ] أى : أجسادا بالية [ أإنا لمبعوثون خلقاً جديدا ] أى : لا يكون ذلك ، وهو محال بزعمهم .

فجهلوا أشد الجهل ، حيث كذبوا رسول الله ، وجحدوا آيات الله ، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض ، بقدرهم الضعيفة العاجزة .

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم ، لا يقدرون عليه ، جعلوا قدرة الله كذلك .

فسبحان من جعل خلقا من خلقه ، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب ، مثالا فى جهل . أظهر الأشياء ، وأجلاها ، وأوضحها براهين ، وأعلاها ليرى عباده ، أنه ما ثَمَّ إلا توفيقه وإعانته ، أو الهلاك والضلال .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادا :

[ قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقا مما يكبر ] أى : يعظم [ فى صدوركم ] لتسلموا بذلك على زعمكم ، من أن تنالكم قدرة الله ، أو تنفذ فيكم مشيئته .

فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ

---

فإنكم غير معجزين الله ، فى أى حالة تكونون ، وعلى أى وصف تتحولون .

وليس فى أنفسكم ، تدبير فى حالة الحياة ، وبعد الممات .

فدعوا التدبير والتصريف ، لمن هو على كل شىء قدير ، وبكل شىء محيط .

[ فسيقولون ] حين تقيم عليهم الحجة فى البعث : [ من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ] فكما فطركم ، ولم تكونوا شيئاً مذكورا ، فإنه سيعيدكم خلقا جديدا « كما بدأنا أول خلق نعيده » .

[ فسينغضون إليك رءوسهم ] أى : يهزونها ، إنكارا وتعجبا ، مما قلت.

[ ويقولون متى هو ] أى : متى وقت البعث ، الذى تزعمه على قولك؟

[ ولا إقرار منهم لأصل البعث ، بل ذلك سَفَهٌ منهم ، وتعجيز .

[ قل عسى أن يكون قريبا ] فليس فى تعيين وقته فائدة .

وإنما الفائدة والمدار ، على تقريره ، والإقرار به ، وإثباته ، وإلا فكما هو آت ، فإنه قريب .

[ يوم يدعوكم ] للبعث والنشور ، وينفخ فى الصور

[ فتستجيبون بحمده ] أى : تنقادون لأمره ، ولا تستعصون عليه .

وقوله « بحمده » أى : هو المحمود تعالى ، على فعله ، ويجزى به العباد ، إذا جمعهم ليوم التناد .

إِلاَّ قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ

---

[ وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ] من سرعة وقوعه ، وأن الذى مر عليكم من النعيم ، كأنه ما كان .

فهذا الذى يقول عنه المنكرون: « متى هو » ؟ يندمون غاية الندم ، عند وروده ، ويقال لهم : « هذا الذى كنتم به تكذبون » .

* وهذا من لطفه بعباده ، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق ، والأعمال ، والأقوال ، الموجبة للسعادة ، فى الدنيا والآخرة فقال :

[ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ] وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله ، من قراءة ، وذكر ، وعلم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وكلام حسن لطيف ، مع الخلق ، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم .

وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنه يأمر بإيثار أحسنهما ، إن لم يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن ، داع لكل خلق جميل ، وعمل صالح ، فإن من ملك لسانه ، ملك جميع أمره .

وقوله : [ إن الشيطان ينزغ بينهم ] أى : يسعى بين العباد ، بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم .

فدواء هذا ، أن لا يطيعوه فى الأقوال غير الحسنة ، التى يدعوهم إليها .

أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

---

وأن يلينوا فيما بينهم ، لينقمع الشيطان ، الذى ينزغ بينهم ، فإنه عدوهم الحقيقى ، الذى ينبغى لهم أن يحاربوه ، فإنه يدعوهم « ليكونوا من أصحاب السعير » .

وأما إخوانهم ، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم ،وسعى فى العداوة، فإن الحزم كل الحزم ، السعى فى ضد عدوهم ، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء ، التى يدخل الشيطان من قِبَلِها ، فبذلك يطيعون ربهم ، ويستقيم أمرهم ، ويهدون لرشدهم .

[ ربكم أعلم بكم ] من أنفسكم ، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير ، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم ، وقد تريدون شيئا والخير فى عكسه .

[ إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ] فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ، ويخذل من شاء ، فيضل عنها ، فيستحق العذاب .

[ وما أرسلناك عليهم وكيلا ] تدبر أمرهم ، وتقوم بمجازاتهم ، وإنما الله ، هو الوكيل ، وأنت مبلغ هاد ، إلى صراط مستقيم .

[ وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ] من جميع أصناف الخلائق ، فيعطى كلا منهم ، ما يستحقه ، وتقتضيه حكمته ، ويفضل بعضهم على بعض ، فى جميع الخصال الحسية ، والمعنوية ، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه، على بعض ، بالفضائل ، والخصائص الراجعة الى مامَنَّ به عليهم ، من الأوصاف

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

الممدوحة ، والأخلاق المرضية ، والأعمال الصالحة ، وكثرة الأتباع ، ونزول الكتب على بعضهم ، المشتملة على الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

كما أنزل على داود زبورا ، وهو الكتاب المعروف .

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض ، وآتى بعضهم كتباً ، فلم ينكر المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب .

* يقول تعالى [ قل ] للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم ، كما يعبدون الله ، ويدعونهم كما يدعونه ، ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين .

[ ادعوا الذين زعمتم ] آلهة [ من دونه ] فانظروا هل ينفعونكم ، أو يدفعون عنكم الضر .

[ فلا يملكون كشف الضر عنكم ] من مرض ، أو فقر ، أو شدة ونحو ذلك ، فلا يدفعونه بالكلية .

[ و ] لا يملكون أيضا [ تحويلا ] له من شخص إلى آخر ، من شدة إلى ما دونها .

فإذا كانوا بهذه الصفة فلأى شىء تدعوهم من دون الله ؟ فإنهم لا كمال لهم ، ولا فعال نافعة . فاتخاذهم آلهة نقص فى الدين والعقل ، وسفه فى الرأى .

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

---

ومن العجب ، أن السفه عند الاعتياد والممارسة ، وتَلَقِّيه عن الآباء الضالين بالقبول ، يراه صاحبه ، هو الرأى السديد ، والعقل المفيد .

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة ، هو السفه ، والأمر المتعجب منه ، كما قال المشركون : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب » .

ثم أخبر أيضاً ، أن الذين يعبدونهم من دون الله ، فى شغل شاغل عنهم ، باهتمامهم بالافتقار إلى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه فقال :

[ أولئك الذين يدعون ] من الأنبياء والصالحين والملائكة [ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ] أى: يتنافسون فى القرب من ربهم ، ويبذلون ما يقدرون عليه ، من الأعمال الصالحة ، المقربة إلى الله تعالى :

[ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ] فيجتنبون كل مايوصل إلى العذاب.

[ إن عذاب ربك كان محذوراً ] أى : هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقِّى من أسبابه .

وهذه الأمور الثلاثة ، الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده ، هى الأصل ، والمادة فى كل خير .

فمن تمت له ، تمت له أموره ، وإذا خلا القلب منها ، ترحلت عنه الخيرات ، وأحاطت به الشرور .

وعلامة المحبة ، ما ذكره الله ، أن يجتهد العبد فى كل محل يقربه إلى الله

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

---

وينافس فى قربه بإخلاص الأعمال كلها لله ، والنصح فيها،وإيقاعها فى أكمل الوجوه المقدور عليها .

فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك ، فهو كاذب .

* أى : ما من قرية من القرى المكذبة للرسل ، إلا ، لا بد أن يصيبهم هلاك يوم القيامة ، أو عذاب شديد ، كتاب كتبه الله ، وقضاء أبرمه ، لا بد من وقوعه .

فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله ، وتصديق رسله ، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ، ويحق عليهم القول .

* يذكر تعالى رحمته ، بعدم إنزاله الآيات ، التى اقترحها[1] المكذبون ، وأنه ما منعه أن يرسلها ، إلا خوفا من تكذيبهم لها .

فإذا كذبوا بها ، عاجلهم العقاب ، وحل بهم من غير تأخير ، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يقترح بها » وهو خطأ لا يتمشى مع القواعد العربية فلذلك أبدلنا الكلمة بـ « اقترحها » .

ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا

---

ومن أعظم الآيات ، الآية التى أرسلها الله إلى ثمود ، وهى الناقة العظيمة الباهرة ، التى كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ، ومع ذلك ، كذبوا بها ، فأصابهم ما قص الله علينا فى كتابه .

وهؤلاء كذلك ، لو جاءتهم الآيات الكبار ، لم يؤمنوا .

فإنه ما منعهم من الإيمان ، خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه ، هل هو حق أو باطل ؟

فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة ، بما دل على صحة ماجاء به ، الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها ، فلا بد أن يسلكوا بها ، ما سلكوا بغيرها ، فترك إنزالها والحالة هذه ، خير لهم وأنفع .

وقوله : [ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ] أى : لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان ، الذى لا يحصل إلا بها .

بل المقصود منها ، التخويف والترهيب ، ليرتدعوا عن ماهم عليه .

[ وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ] علما وقدرة ، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه ، ولا ملاذ ، يلوذون به عنه .

وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذى أحاط بالناس .

ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾

---

[ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة ] أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء .

[ والشجرة الملعونة ] التى ذكرت [ فى القرآن ] وهى شجرة الزقوم ، التى تنبت فى أصل الجحيم .

والمعنى ، إذا كان هذان الأمران ، قد صارا فتنة للناس ، حتى استلج(١) الكفار بكفرهم ، وازداد شرهم ، وبعض من كان إيمانه ضعيفا ، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور، التى كانت ليلة الإسراء ، ومن الإسراء من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ، كان خارقاً للعادة .

والإخبار بوجود شجرة ، تنبت فى أصل الجحيم أيضاً ، من الخوارق فهذا الذى أوجب لهم التكذيب .

فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة ؟ ! !

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم ؟ ! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم .

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح فى الكتاب والسنة ، بذكر الأمور العظيمة ، التى حدثت فى الأزمنة المتأخرة ، أولى وأحسن .

---

(١) استلج . أى : ألح » قال فى القاموس « واستلجه » : ألح فى شربه » اهـ . والمراد هنا : ثبتوا على كفرهم وتمسكوا به أشد التمسك واستلذوه استلذاذ العطشان فى ابتلاع أعذب المياه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ

---

لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ، ربما لا تقبلها عقولهم ، فيكون ذلك ريبا فى قلوب بعض المؤمنين ، ومانعاً ، يمنع من لم يدخل الإسلام ، ومنفرا عنه .

بل ذكر الله ألفاظاً عامة ، تتناول جميع ما يكون ، والله أعلم .

[ ونخوفهم بالآيات فما يزيدهم ] التخويف [ إلا طغيانا كبيرا ] وهذا أبلغ ما يكون فى التحلى بالشر ومحبته ، وبغض الخير وعدم الانقياد له .

* ينبه تبارك وتعالى عباده ، على شدة عداوة الشيطان ، وحرصه على إضلالهم ، وأنه لما خلق الله آدم ، استكبر عن السجود له ، و[ قال ] متكبراً :

[ أأسجد لمن خلقت طينا ] أى من طين ، وبزعمه ، أنه خير منه ، لأنه خلق من نار .

وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل ، من عدة أوجه .

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم [ قال ] مخاطباً لله :

[ أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيمة لاحتنكن ذريته ] أى : لأستأصلنهم بالإضلال ، ولأغوينهم [ إلا قليلا ] عرف الخبيث ، أنه لابد أن يكون منهم من يعاديه ، ويعصيه .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ
جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ
عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ

---

فقال الله له : [ اذهب فمن تبعك منهم ] واختارك على ربه ووليه الحق .

[ فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ] أى : مدخرا لكم ، موفرا جزاء أعمالكم .

ثم أمره الله أن يفعل كل مايقدر عليه من إضلالهم فقال :

[ واستفزز[1] من استطعت منهم بصوتك ] ويدخل فى هذا كل داع إلى المعصية .

[ وأجلب[2] عليهم بخيلك ورجلك ] ويدخل فيه كل راكب وماش فى معصية الله ، فهو من خيل الشيطان ورجله .

---

(١) واستفزز . أى : أزعج ، واستخف حتى يتبعك طائشاً منجرفاً وراءك .

(٢) وأجلب عليهم . أى : صح بهم واستحثهم بخيلك ورجالك للسبق إلى متابعتك بقهر وإجبار قال الراغب فى معجم مفردات القرآن « وأجلبت عليه: صحت عليه بقهر قال الله تعالى: وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » اهـ .

وفى المختار من الصحاح وجلب على فرسه يجلبه جلباً بوزن يطلبه طلباً صاح به من خلفه واستحثه للسبق . وكذا أجلب عليه . اهـ .

وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين ، الداعى لهم إلى معصية الله ، بأقواله وأفعاله .

[ وشاركهم فى الأموال والأولاد ] وذلك شامل لكل معصية ، تعلقت بأموالهم وأولادهم ، من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد ، وتربيتهم على الخير ، وترك الشر ، وأخذ الأموال بغير حقها ، أو وضعها بغير حقها ، أو استعمال المكاسب الردية .

بل ذكر كثير من المفسرين ، أنه يدخل فى مشاركة الشيطان فىالأموال والأولاد ، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع .

وأنه إذا لم يسم الله فى ذلك ، شارك فيه الشيطان ، كما ورد فيه الحديث .

[ وعدهم ] الوعود المزخرفة التى لا حقيقة لها ، ولهذا قال :

[ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ] أى : باطلا مضمحلا ، كأن يزين لهم المعاصى والعقائد الفاسدة ، ويعدهم عليها الأجر ، لأنهم يظنون أنهم على الحق .

وقال تعالى : « الشيطان ، يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » .

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد ، وذكر ما يعتصم به من فتنته ، وهو عبودية الله ، والقيام بالإيمان والتوكل قال :

[ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ] أى : تسلط وإغواء ، بل الله

سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ

---

يدفع عنهم — بقيامهم بعبوديته — كل شر ، ويحفظهم من الشيطان الرجيم ، ويقوم بكفايتهم .

[ وكفى بربك وكيلا ] لمن توكل عليه ، وأدى ما أمر به .

* يذكر تعالى : نعمته على العباد ، بما سخر لهم من الفلك ، والسفن ، والمراكب ، وألهمهم كيفية صنعتها .

وسخر لها البحر الملتطم ، يحملها على ظهره ، لينتفع العباد بها فى الركوب والحمل للأمتعة ، والتجارة .

وهذا من رحمته بعباده ، فإنه لم يزل بهم رحيما رءوفاً ، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم .

ومن رحمته الدالة على أنه ، وحده المعبود ، دون ما سواه ، أنهم إذا مسهم الضر فى البحر ، نخافوا من الهلاك ، لتراكم الأمواج ، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله ، فى حال الرخاء من الأحياء ، والأموات ، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم فى وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء ، عاجزون عن كشف الضر ، وصرخوا[1] بدعوة فاطر الأرض والسموات ،

---

(١) قوله « وصرخوا الخ » أقول — والأسف يقطع نياط القلب — إن مشركى زماننا فاقوا مشركى الجاهلية لأن مشركى زماننا يدعون غير الله فى الرخاء والشدة .

=

ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

---

الذى يستغيث به فى شدائدها،جميع المخلوقات ، وأخلصوا له الدعاء والتضرع فى هذه الحال .

فلما كشف الله عنهم الضر ، ونجاهم إلى البر ، ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل ، أشركوا به ، من لا ينفع ، ولا يضر ، ولا يعطى ، ولا يمنع ، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم .

وهذا من جهل الإنسان وكفره ، فإن الإنسان كفور للنعم .

إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم ، واهتدى إلى الصراط المستقيم .

---

= إليك القصة الآتية . أقلعت باخرة من بيروت تحمل رجالا وبضائع واصطخب الموج وهاج البحر هيجاناً شديدا ، وصارت الأمواج تتلاعب بالباخرة وبلغت القلوب الحناجر فأخذ البعض يقول : يا رفاعى والبعض الآخر : يا جيلانى ، وآخرون : يابدوى وهناك كان رجل شامى يستمع لنداء المنادين واستغاثاتهم وهو صامت فلم يسمع من أحد يقول « يا الله » فقال : اللهم أغرق أغرق ما بقى أحد يعرفك فيذكرك » .

وهكذا اشتد الشرك فى هذا الزمان واستغلظ وتحقق قوله تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فتعلم التوحيد والتدقيق فيه وتعلم الشرك ووسائله والتدقيق قد أهمل فى جميع الأقطار ما عدا المملكة العربية السعودية صانها الله وزادها يقظة وتوفيقا .

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ
فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

---

فإنه يعلم ، أن الذى يكشف الشدائد ، وينجى من الأهوال ، هو الذى يستحق أن يفرد ، وتخلص له سائر الأعمال ، فى الشدة ، والرخاء ، واليسر والعسر .

وأما من خذل ، ووكل إلى عقله الضعيف ، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة ، وإنجاءه فى كل تلك الحال .

فلما حصلت له النجاة ، وزالت عنه المشقة ، ظن بجهله ، أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه ، شىء من العواقب الدنيوية ، فضلا عن أمور الآخرة .

ولهذا ذكرهم الله بقوله : [ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ] .

أى : فهو على كل شىء قدير ، إن شاء أنزل عليكم عذاباً ، من أسفل منكم بالخسف ، أو من فوقكم بالحاصب ، وهو : العذاب الذى يحصبهم ، فيصبحوا هالكين .

فلا تظنوا أن الهلاك لايكون إلا فى البحر .

وإن ظننتم ذلك ، فلستم آمنين من [ أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح ] أى : ريحا شديدة جداً تقصف ما أتت عليه .

[ فيغرقكم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً ] أى : تبعة ومطالبة ، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* وهذا من كرمه عليهم وإحسانه ، الذى لا يقادر قدره ، حيث كرم بنى آدم بجميع وجوه الإكرام .

فكرمهم بالعلم والعقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

وجعل منهم الأولياء والأصفياء ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

[ وحملناهم فى البر ] على الركاب ، من الإبل ، والبغال ، والحمير ، والمراكب البرية .

[ والبحر ] فى السفن والمراكب [ ورزقناهم من الطيبات ] من المآكل والمشارب ، والملابس ، والمناكح .

فما من طيب تتعلق به حوائجهم ، إلا وقد أكرمهم الله به ، ويسره لهم غاية التيسير .

[ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ] بما خصهم به من المناقب ، وفضلهم به من الفضائل ، التى ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات .

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ، ودفع النقم ، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم ، بل ربما استعانوا بها على معاصيه .

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُ
بِيَمِينِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن
كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة ، وأنه يدعو كل أناس ، ومعهم إمامهم وهاديهم ، إلى الرشد ، وهم : الرسل ونوابهم .

فتعرض كل أمة ، ويحضرها رسولهم الذى دعاهم .

وتعرض أعمالهم على الكتاب ، الذى يدعو إليه الرسول ، هل هى موافقة له أم لا ؟ فينقسمون بهذا قسمين .

[ فمن أوتى كتابه بيمينه ] لكونه اتبع إمامه ، الهادى إلى صراط مستقيم ، واهتدي بكتابه ، فكثرت حسناته ، وقلت سيئاته [ فأولئك يقرأون كتابهم ] قراءة سرور وبهجة ، على ما يرون فيها ، مما يفرحهم ويسرهم .

[ ولا يظلمون فتيلا ] مما عملوه من الحسنات .

[ ومن كان فى هذه ] الدنيا [ أعمى ] عن الحق ، فلم يقبله ، ولم ينقد له بل اتبع الضلال .

[ فهو فى الآخرة أعمى ] عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه فى الدنيا [ وأضل سبيلا ] فإن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان .

وفى هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها ، هل عملت به أم لا ؟

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ

---

وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبى ، لم يؤمروا باتباعه ، وأن الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد قيام الحجة عليه ، ومخالفته لها ، وأن أهل الخير ، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور ، شىء عظيم ، وأن أهل الشر بعكس ذلك ، لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم ، من شدة غمهم ، وحزنهم وثبورهم[1] .

* يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق ، فقال :

[ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ] أى : قد كادوا لك أمراً لم يدركوه ، وتحيلوا لك ، على أن تفترى على الله غير الذى أنزلنا إليك .

فتجىء بما يوافق أهواءهم ، وتدع ما أنزل الله إليك .

[ وإذاً ] لو فعلت ما يهوون [ لاتخذوك خليلا ] أى حبيباً صفياً ، أعز عليهم من أحبابهم ، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، المحببة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو .

---

(١) قال الراغب « الثبور » : الهلاك والفساد، وقال فى المختار من الصحاح : « الثبور : الهلاك والخسران.ا هـ .

فيكون المعنى : إن أهل الشر لا يقدرون على قراءة كتبهم من شدة حزنهم ومشاهدتهم لهلاكهم وخسرانهم .

لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟
لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ

---

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك ، وينابذوك العداوة ، إلا للحق الذى جئت به ، لا لذاتك ، كما قال الله تعالى « قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

[ و ] مع هذا [ لولا أن ثبتناك ] على الحق ، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم .

[ لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ] من كثرة المعالجة ، ومحبتك لهدايتهم .

[ إذاً ] لو ركنت إليهم بما يهوون [ لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ] .

أى : لأصبناك بعذاب مضاعف ، فى الدنيا والآخرة ، وذلك لكمال نعمة الله عليك ، وكمال معرفتك .

[ ثم لاتجد علينا نصيرا ] ينقذك مما يحل بك من العذاب ، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ، ومن الشر ، فثبتك وهداك الصراط المستقيم ، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه ، فله عليك ، أتم نعمة ، وأبلغ منحة .

[ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ] أى : من بغضهم لمقامك بين أظهرهم ، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ، ويجلوك عنها .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

---

ولو فعلوا ذلك ، لم يلبثوا بعدك إلا قليلا ، حتى تحل بهم العقوبة ، كما هى سنة الله التى لا تحول ولا تبدل فى جميع الأمم .

كل أمة كذبت رسولها ، وأخرجته ، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا ، وأخرجوه ، لم يلبثوا إلا قليلا ، حتى أوقع الله بهم بـ « بدر » وقتل صناديدهم ، وفض بيضتهم فله الحمد .

وفى هذه الآيات ، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه ، وأنه لايزال متملقاً لربه ، أن يثبته على الإيمان ، ساعياً فى كل سبب موصل إلى ذلك ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أكمل الخلق ، قال الله له :

[ ولولا أن ثبتناك قد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ] فكيف بغيره ؟!!

وفيها تذكير الله لرسوله مِنّتَهُ عليه ، وعصمته من الشر .

فدل ذلك ، على أن الله يحب من عباده ، أن يتفطنوا لإنعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه ، والثبات على الإيمان .

وفيها : أنه — بحسب علو مرتبة العبد ، وتواتر النعم عليه من الله يعظم ، إثمه ويتضاعف جرمه ، إذا فعل ما يلام عليه ، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل — وحاشاه من ذلك — بقوله :

[ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً ] .

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ

---

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة ، تضاعف جرمها ، وعظم وكبر ، فيحق عليها القول من الله ، فيوقع بها العقاب ، كما هى سنته فى الأمم ، إذا أخرجوا رسولهم .

* يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة تامة ، ظاهرا ، وباطنا فى أوقاتها .

[ لدلوك الشمس ] أى : ميلانها إلى الأفق الغربى بعد الزوال .

فيدخل فى ذلك ، صلاة الظهر ، وصلاة العصر .

[ إلى غسق الليل ] أى : ظلمته ، فدخل فى ذلك ، صلاة المغرب ، وصلاة العشاء .

[ وقرآن الفجر ] أى : صلاة الفجر ، وسميت قرآنا ، لمشروعية إطالة القرآن فيها ، أطول من غيرها ، ولفضل القراءة فيها ، حيث شهدها الله ، وملائكة الليل والنهار .

ففى هذه الآية ، ذكر الأوقات الخمسة ؛ للصلوات المكتوبات ، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض ، لتخصيصها بالأمر .

ومنها أن الوقت ، شرط لصحة الصلاة ، وأنه سبب لوجوبها لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات .

وأن الظهر والعصر ، يجمعان ، والمغرب والعشاء كذلك ، للعذر ، لأن الله جمع وقتهما جميعاً .

نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ

وفيه : فضيلة صلاة الفجر ، وفضيلة إطالة القراءة فيها ، وأن القراءة فيها ، ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها ، دل على فرضية ذلك .

وقوله [ ومن الليل فتهجد به ] أى : صل به فى سائر أوقاته .

[ نافلة لك ] أى : لتكون صلاة الليل ، زيادة لك فى علو القدر ، ورفع الدرجات .

بخلاف غيرك ، فإنها تكون كفارة لسيئاته .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن الصلوات الخمس فرض عليك ، وعلى المؤمنين .

بخلاف صلاة الليل ، فإنها فرض عليك بالخصوص ، ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك ، وليكثروا بك ، وتنال بذلك ، المقام المحمود ، وهو المقام الذى ، يحمدك فيه ، الأولون والآخرون ، مقام الشفاعة العظمى ، حين يتشفع الخلائق بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى .

وكلهم يعتذر ويتأخر عنها ، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ، ليرحمهم الله ، من هول الموقف ، وكربه .

فيشفع عند ربه ، فيشفعه ، ويقيمه مقاما ، يغبطه به ، الأولون والآخرون .

وتكون له المنة على جميع الخلق .

أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

---

وقوله : [ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ] أى : اجعل مداخلى ومخارجى كلها ، فى طاعتك ، وعلى مرضاتك ، وذلك لتضمنها الإخلاص ، وموافقتها الأمر .

[ واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا ] أى : حجة ظاهرة ، وبرهانا قاطعاً على جميع ما آتيه ، وما أذره .

وهذا أعلى حالة ، ينزلها الله العبد ، أن تكون أحواله كلها خيراً ، ومقربة له إلى ربه ، وأن يكون له — على كل حالة من أحواله — دليل ظاهر ، وذلك متضمن للعلم النافع ، والعمل الصالح ، للعلم بالمسائل والدلائل .

وقوله : [وقل جاء الحق وزهق الباطل ] والحق هو : ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله أن يقول ويعلن ، قد جاء الحق الذى لايقوم له شيء ، وزهق الباطل أى : اضمحل وتلاشى .

[ إن الباطل كان زهوقا ] أى : هذا وصف الباطل ، ولكنه قد يكون له صولة ورواج ، إذا لم يقابله الحق ، فعند مجيء الحق ، يضمحل الباطل ، فلا يبقى له حراك .

ولهذا لا يروج الباطل ، إلا فى الأزمان ، والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته وقوله : « وننزل من القرآن » إلى « إلا خساراً » .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

---

* أى : فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة .

وليس ذلك لكل أحد ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، المصدقين بآياته ، العاملين به .

وأما الظالمون بعدم التصديق به ، أو عدم العمل به ، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً .

إذ به تقوم عليهم الحجة .

فالشفاء الذى تضمنه القرآن ، عام لشفاء القلوب ، من الشبه ، والجهالة ، والآراء الفاسدة والانحراف السيء ، والقصود الرديئة .

فإنه مشتمل على العلم اليقين ، الذى تزول به كل شبهة وجهالة .

والوعظ والتذكير ، الذى يزول به كل شهوة ، تخالف أمر الله .

ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها .

وأما الرحمة ، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل ، التى يحث عليها ، متى فعلها العبد ، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية ، والثواب العاجل والآجل .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

هذه طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، إلا من هداه الله .

فإن الإنسان ــ عند إنعام الله عليه ــ يفرح بالنعم ، ويبطر بها ، ويعرض ، وينأى بجانبه عن ربه ، فلا يشكره ، ولا يذكره .

[ وإذا مسه الشر ] كالمرض ونحوه [ كان يئوساً ] من الخير ، قد قطع ربه رجاءه ، وظن أن ما هو فيه ، دائم أبداً .

وأما من هداه الله ، فإنه ــ عند النعم ــ يخضع لربه ، ويشكر نعمته ، وعند الضراء ، يتضرع ، ويرجو من الله عافيته ، وإزالة ما يقع فيه ، وبذلك يخف عليه البلاء .

* أي : [ قل كل ] من الناس [ يعمل على شاكلته ] أي : على ما يليق به من الأحوال .

إن كانوا من الصفوة الأبرار ، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين .

ومن كانوا من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم الا العمل للمخلوقين ، ولم يوافقهم الا ما وافق أغراضهم .

[ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ] فيعلم من يصلح للهداية ، فيهديه ، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

* وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل ، التى يقصد بها التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم ، فيسألون عن الروح ، التي هى من الأمور الخفية ، التى لا يتقن[1] وصفها وكيفيتها ، كل أحد ، وهم قاصرون فى العلم الذى يحتاج إليه العباد .

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يجيب سؤالهم بقوله:[قل الروح من أمر ربى] أى : من جملة مخلوقاته ، التى أمرها أن تكون فكانت .

فليس فى السؤال عنها ، كبير فائدة ، مع عدم علمكم بغيرها .

وفى هذه[2] الآية دليل ، على أن المسئول إذا سئل عن أمر ، الأولى به

( ١ ) « لا يتقن الخ » الصواب أن يقال : إن الروح من الأمور الخفيه التى لا يعلم حقيقتها ، ووصفها إلا الله » لأن قوله « لا يتقن وصفها كل أحد » يوهم أن بعض الناس يتقن وصفها ، والواقع أن جميع الخلق متساوون فى جهالتهم لحقيقة الروح ووصفها .

( ٢ ) فى الأصل المطبوع « وفى هذه الآية دليل على السؤال إذا سئل عن أمر ، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه ويدل على ما يحتاج إليه ويرشده إلى ما ينفعه » وهو تعبير لا يدل على المقصود . وفيه ركاكة فى التعبير وعدم انسجام فى الأسلوب ولذلك أصلحنا العبارة كما ترى ليكون المعنى واضحاً .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

---

أن يعرض عن إجابة السائل عما سأل عنه ، ويدله على ما يحتاج إليه ، ويرشده إلى ما ينفعه .

* يخبر تعالى أن القرآن والوحى ، الذى أوحاه إلى رسوله ، رحمة منه عليه ، وعلى عباده ، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله ، فإن فضل الله عليه كبير ، لا يقادر قدره .

فالذى تفضل به عليك ، قادر على أن يذهب به ، ثم لا تجد رادّاً يرده ، ولا وكيلا يتوجه عند الله فيه .

فَلْتَغْتَبِطْ به ، وَلْتَقَرَّ به عينك ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين ، ولا استهزاء الضالين .

فإنهم عرضت عليهم أجَلُّ النعم ، فردوها ، لهوانهم على الله ، وخذلانه (١) لهم .

---

(١) الصواب أن يقال وخذلانه إياهم لأن « خذل » يتعدى بنفسه لا باللام فيقال « خذل الله الكافر » ولا يقال « خذل الله للكافر » .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

---

* وهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه .

حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه .

ووقع كما أخبر الله ، فإن دواعى أعدائه المكذبين به ، متوفرة على رد ما جاء به ، بأى وجه كان ، وهم أهل اللسان والفصاحة .

فلو كان عندهم أدنى تأهل ، وتمكن من ذلك ، لفعلوه .

فعلم بذلك ، أنهم أذعنوا غاية الإذعان ، طوعا وكرها ، وعجزوا عن معارضته .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، الناقص من جميع الوجوه، الذى ليس له علم ، ولا قدرة ، ولا إرادة ، ولامشيئة ، ولا كلام ولا كمال ، إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسموات ، المطلع على سائر الخفيات ، الذى له الكمال المطلق ، والحمد المطلق ، والمجد العظيم ، الذى لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا ، والأشجار كلها أقلام ، لنفذ المداد ، وفنيت الأقلام ، ولم تنفد كلمات الله .

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ، مماثلا لله فى أوصافه ، فكلامه من أوصافه ، التى لا يماثله فيها أحد .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ

---

فليس كمثله شيء، فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله تبارك وتعالى .

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق ، وزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، افتراه على الله واختلقه من نفسه .

* يقول تعالى : [ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ] أى : نوعنا فيه المواعظ والأمثال ، وثنينا فيه المعانى ، التى يضطر إليها العباد ، لأجل أن يتذكروا ويتقوا .

فلم يتذكر إلا القليل منهم ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة ، وأعانهم الله بتوفيقه .

وأما أكثر الناس ، فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة ، التى هى أكبر من جميع النعم ، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات ، غير آياته ، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة .

فيقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية :

[ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ] أى أنهارا جارية .

[ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ] فتستغنى بها عن المشى فى الأسواق والذهاب والمجىء .

وَعنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ

---

[ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ] أي : قطعاً من العذاب .

[ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ] أى جميعاً ، أو مقابلة ومعاينة ، يشهدون لك بما جئت به .

[ أو يكون لك بيت من زخرف ] أى : مزخرف بالذهب وغيره .

[ أو ترقى فى السماء ] رقياً حسيا .

[ و ] مع هذا [ لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه ] .

ولما كانت هذه تعنتات ، وتعجيزات ، وكلام أسفه الناس وأظلمهم ، المتضمنة لرد الحق ، وسوء أدب مع الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذى يأتى بالآيات — أمره الله أن ينزهه فقال :

[ قل سبحان ربى ] عما تقولون علوا كبيرا ، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الضالة .

[ هل كنت إلا بشراً رسولا ] ليس بيده شىء من الأمر .

وهذا السبب ، الذى منع أكثر الناس من الإيمان ، حيث كانت الرسل ، التى ترسل إليهم من جنسهم بشراً .

ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

---

وهذا من رحمته بهم ، أن أرسل إليهم بشراً منهم ، فإنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة .

[ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ] يثبتون على رؤية الملائكة ، والتلقى عنهم [ لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ] ليمكنهم التلقى عنه .

[ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ] .

فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات ، وما أنزل عليه من الآيات ، ونصره على من عاداه وناوأه .

فلو تقوّل عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .

فإنه خبير بصير ، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية .

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ

---

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال .

فمن يهده ، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى ، فهو المهتدى على الحقيقة .

ومن يضلله ، فيخذله ، ويكله إلى نفسه ، فلا هادى له من دون الله .

وليس له ولى ينصره من عذاب الله ، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيا ، عميا ، وبكما ، لا يبصرون ، ولا ينطقون .

[ مأواهم ] أى مقرهم ودارهم [ جهنم ] التى جمعت كل هم ، وغم ، وعذاب .

[ كلما خبت ] أى : تهيأت للانطفاء [ زدناهم سعيراً ] أى: سعرناها[1] بهم لا يُفتَّر[2] عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولم يظلمهم الله تعالى بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذى أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته .

---

( ١ ) سعرناها أى : زدناها التهابا واشتعالا .

( ٢ ) لا يفتر : أى لا يضعف قوة العذاب ولا ينكسر حدة ألمه قال الراغب « الفتور : سكون بعد حدة ، ولين بعد شدة ، وضعف بعد قوة » وفى المختار من الصحاح « الفترة الانكسار والضعف » وفى القاموس « فَتَر يفتُر ويفتِر فُتورا وفُتَاراً : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة » .

جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

---

[ وقالوا أإذا كنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ] أى : لا يكون هذا لأنه فى غاية البعد عن عقولهم الفاسدة .

[ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ] وهى أكبر من خلق الناس .

[ قادر على أن يخلق مثلهم ] بلى ، إنه على ذلك قدير .

[ و ] لكنه قد [ جعل لهم أجلا لا ريب فيه ] ولا شك ، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة ، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث .

[ فأبى الظالمون إلا كفوراً ] ظلما منهم وافتراء .

[ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ] التى لا تنفد ولا تبيد .

[ إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ] أى : خشية أن ينفد ما تنفقون منه ، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله ، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ

---

* أى : لست أيها الرسول المؤيد بالآيات ، أول رسول كذبه الناس .

فلقد أرسلنا قبلك ، موسى بن عمران الكليم ، إلى فرعون وقومه ، وآتيناه [ تسع آيات بينات ] كل واحدة منها ، تكفى لمن قصده اتباع الحق كالحية ، والعصا ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، واليد ، وفلق البحر .

فإن شككت فى شىء من ذلك [ فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال فرعون ] مع هذه الآيات [ إنى لأظنك ياموسى مسحوراً ] .

[ قال ] له موسى [ لقد علمت ] يافرعون [ ما أنزل هؤلاء ] الآيات [ إلا رب السموات والأرض بصائر ] منه لعباده ، فليس قولك هذا ، بالحقيقة ، وإنما قلت ذلك ، ترويجاً على قومك ، واستخفافا لهم .

[ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا(١) ] أى ممقوتا ملقى فى العذاب لك والذم واللعنة .

---

( ١ ) قوله مثبوراً . أى : ناقص العقل قال الراغب : وقوله تعالى [ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى ناقص العقل ونقصان العقل أعظم هُلْك » اه .

أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا
مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

---

[فأراد] فرعون [ أن يستفزهم من الأرض] أى: يجليهم ويخرجهم منها.

[ فأغرقناه ومن معه جميعاً ] وأورثنا بنى إسرائيل أرضهم وديارهم .

ولهذا قال : [ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ] أى : جميعاً ، ليجازى كل عامل بعمله .

* أى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم ، لأمر العباد ، ونهيهم ، وثوابهم ، وعقابهم .

[ وبالحق نزل ] أى : بالصدق والعدل ، والحفظ من كل شيطان رجيم .

[ وما أرسلناك إلا مبشراً ] من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل .

[ ونذيراً ] لمن عصى الله ، بالعقاب العاجل والآجل .

ويلزم من ذلك ، بيان ما يبشر به وينذر .

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

---

* أى : وأنزلنا هذا القرآن مفرقاً ، فارقا بين الهدى والضلال ، والحق والباطل .

[ لتقرأه على الناس على مكث ] أى : على مهل ، ليتدبروه ، ويتفكروا فى معانيه ، ويستخرجوا علومه .

[ ونزلناه تنزيلا ] أى : شيئاً فشيئاً ، مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة .

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

فإذا تبين أنه الحق ، الذى لا شك فيه ولا ريب ، بوجه من الوجوه .

[ قل ] لمن كذب به ، وأعرض عنه : [ آمنوا به أو لا تؤمنوا ] .

فليس لله حاجة فيكم ، ولستم بضاريه شيئا ، وإنما ضرر ذلك عليكم .

فإن لله عبادا غيركم ، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع : [ إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ] أى : يتأثرون به غاية التأثر ، ويخضعون له .

[ ويقولون سبحان ربنا ] عما لا يليق بجلاله ، مما نسبه إليه المشركون.

[ إن كان وعد ربنا ] بالبعث والجزاء بالأعمال [ لمفعولا ] لا خُلْفَ فيه ولا شك .

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ

---

[ ويخرون للأذقان ] أى : على وجوههم [ يبكون ويزيدهم ] القرآن [ خشوعا ] .

وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مؤمنى أهل الكتاب كعبدالله ابن سلام وغيره ، ممن أسلم فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك .

* يقول تعالى لعباده : [ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ] أى: أيهما شئتم .

[ أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ] أى : ليس له اسم غير حسن ، أى : حتى ينهى عن دعائه به ، أى اسم دعوتموه به ، حصل به المقصود ، والذى ينبغى أن يدعى فى كل مطلوب ، مما يناسب ذلك الاسم .

[ ولا تجهر بصلاتك ] أى : قراءتك [ ولا تخافت بها ] فإن فى كل من الأمرين محذورا .

أما الجهر ، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه ، سبُّوه ، وسبُّوا من جاء به .

وأما المخافتة ، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء .

[ وابتغ بين ذلك ] أى : اتخذ بين الجهر والإخفات [ سبيلا ] أى : تتوسط فيما بينهما .

[ وقل الحمد لله ] الذى له الكمال ، والثناء ، والحمد ، والمجد من جميع الوجوه ، المنزه عن كل آفة ونقص .

يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

---

[ الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ] بل الملك كله لله الواحد القهار .

فالعالم العلوى والسفلى ، كلهم مملوكون لله ، ليس لأحد من الملك شىء .

[ ولم يكن له ولى من الذل ] أى : لا يتولى أحدا من خلقه ، ليتعزز به ويعاونه .

فإنه الغنى الحميد ، الذى لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات ، فى الأرض ولا فى السماوات ، ولكنه يتخذ — إحسانا منه إليهم ورحمة بهم « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

[ وكبره تكبيرا ] أى عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة ، وبالثناء عليه ، بأسمائه الحسنى ، وبتحميده بأفعاله المقدسة ، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده ، لا شريك له ، وإخلاص الدين كله له .

تم تفسير سورة الإسراء

. . . . . . . . . . .

وبلغ مقابلة على أصله ولله الحمد والمنة والثناء الحسن
على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدى
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين
وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا
وذلك فى ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤

ونقله من خط المؤلف الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين
وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه إن شاء الله الجزء الخامس
وأوله تفسير سورة الكهف

# فهرس

## الجزء الرابع

صفحة

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات
## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الخامس

فيه تفسير سورة الكهف إلى آخر تفسير سورة النمل

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه . أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه ، لكونه تنزيلا من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيانا لكل شيء وتفصيلا لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم ، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه ، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة ، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر ، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة فى غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذى لا مزيد عليه . وقد تكرر عليَّ السؤال من كثير من الأصحاب فى نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة ، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدا لأنه مبسوط ، وأيضا فى هذه الأوقات قلَّت رغبات الناس فى الكتب المطولة ، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير ، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل ، فما لا يحصل جميعه لا يترك

جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصا لوجهه ، نافعا لنا ولاخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته ، وتوفيقه ، إنه جواد كريم رءوف رحيم .

وأتبعته بكليات وأصول من كليات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارىء فى غير هذا الجزء ، فإن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات ، ويحصل بها من النفع والفائدة ـ على اختصارها ـ مالا يحصل فى الكلام الطويل ،وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

# تفسير

# سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ

---

الحمد هو الثناء عليه بصفاته ، التي هي كلها صفات كمال ، وبنعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية .

وأجل نعمه على الإطلاق ، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فحمد نفسه ، وفي ضمنه ، إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم ، وإنزال الكتاب عليهم .

ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين ، على أنه الكامل من جميع الوجوه .

وهما نفي العوج عنه ، وإثبات أنه مقيم مستقيم .

فنفي العوج ، يقتضي أنه ليس في أخباره كذب ، ولا في أوامره ونواهيه ، ظلم ولا عبث .

يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ

---

وإثبات الاستقامة ، يقتضى أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبارات وهى الأخبار ، التى تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا ، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة .

وأن أوامره ونواهيه ، تزكى النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها ، لاشتمالها على كمال العدل والقسط ، والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له .

وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر ، أن يحمد الله نفسه على إنزاله ، وأن يتمدح إلى عباده به .

وقوله [ لينذر بأسا شديدا من لدنه ] أى : لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذى عنده ، أى : قدره وقضاءه ، على من خالف أمره ، وهذا يشمل عقاب الدنيا ، وعقاب الآخرة .

وهذا أيضا ، من نعمه أن خوف عباده ، وأنذرهم ، مايضرهم ويهلكهم. كما قال تعالى — لما ذكر فى هذا القرآن وصف النار ، قال : « ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون » .

فمن رحمته بعباده ، أن قيض العقوبات الغليظة على من خالف أمره ، وبينها لهم ، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها .

[ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ] أى : وأنزل الله على عبده الكتاب ، ليبشر المؤمنين به ، وبرسله ، وكتبه ، الذين كمل إيمانهم .

فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ

---

فأوجب لهم عمل الصالحات ، وهى : الأعمال الصالحة ، من واجب ، ومستحب ، التى جمعت الإخلاص والمتابعة .

[ أن لهم أجرا حسنا ] وهو : الثواب الذى رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح .

وأعظمه وأجله ، الفوز برضا الله ودخول الجنة ، التى فيها ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفى وصفه بالحسن ، دلالة على أنه لا مكدر فيه ، ولا منغص ، بوجه من الوجوه .

إذ لو وجد فيه شىء من ذلك ، لم يكن حسنه تاما .

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن [ ماكثين فيه أبدا ] لا يزول عنهم ، ولا يزولون عنه ، بل نعيمهم فى كل وقت متزايد .

وفى ذكر التبشير ، ما يقتضى ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به .

وهو : أن هذا القرآن ، قد اشتمل على كل عمل صالح ، موصل لما تستبشر به النفوس ، وتفرح به الأرواح .

[وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ] من اليهود والنصارى ، والمشركين ، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة ، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين ، لا علم منهم ، ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم ، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

---

[ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ] أى : عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها .

وأى شناعة أعظم من وصفه ، بالاتخاذ للولد ، الذى يقتضى نقصه ، ومشاركة غيره له فى خصائص الربوبية ، والإلهية ، والكذب عليه ؟ !!

[ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ] .

ولهذا قال هنا : [ إن يقولون إلا كذبا ] أى : كذبا محضا ما فيه من الصدق شيء .

وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج ، والانتقال من شىء إلى أبطل منه .

فأخبر أولا : أنه [ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ] والقول على الله بلا علم ، لا شك فى منعه وبطلانه .

ثم أخبر ثانيا ، أنه قول قبيح شنيع فقال : [ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ] .

ثم ذكر ثالثا مرتبته من القبح ، وهو : الكذب المنافى للصدق .

ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، حريصا على هداية الخلق ، ساعيا فى ذلك أعظم السعى ، فكان صلى الله عليه وسلم ، يفرح ويسر بهداية المتدين ، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين ، شفقة منه صلى الله عليه وسلم ،

. . . . . . . . . . .

عليهم ورحمة بهم ، أرشده الله[1] أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء ، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، كما قال فى الأخرى .

« ولعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » .

وقال « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

وهنا قال [ فلعلك باخع نفسك ] أى : مهلكها ، غما وأسفا عليهم ، وذلك أن أجرك ، قد وجب على الله .

وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا ، لهداهم .

ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار ، فلذلك خذلهم ، فلم يهتدوا .

فإشغالك نفسك غما وأسفا عليهم ، ليس فيه فائدة لك . وفى هذه الآية ونحوها عبرة .

فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله ، عليه التبليغ ، والسعى بكل سبب يوصل إلى الهداية ، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه ، مع التوكل على الله فى ذلك ، فإن اهتدوا فَبِهَا ونِعْمَتْ ، وإلا فلا يحزن ولا يأسف .

فإن ذلك مُضْعِفٌ للنفس ، هادم للقوى ، ليس فيه فائدة ، بل يمضى على فعله ، الذى كُلِّفَ به وتوجه إليه .

وما عدا ذلك ، فهو خارج عن قدرته .

---

(١) قوله « أرشده الله » جواب « لما » فى قوله المتقدم «ولما كان الخ»

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

---

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله له : « إنك لا تهدى من أحببت » وموسى عليه السلام يقول : « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى » الآية ، فمن عداهم ، من باب أولى وأحرى ، قال تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر » .

* يخبر تعالى ، أنه جعل جميع ما على وجه الأرض ، من مآكل لذيذة ، ومشارب ، وملابس طيبة ، وأشجار ، وأنهار ، وزروع ، وثمار ، ومناظر بهيجة ، ورياض أنيقة ، وأصوات شجية ، وصور مليحة ، وذهب وفضة ، وخيل وإبل ونحوها ، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار ، فتنة واختبارا .

[ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ] أى : أخلصه وأصوبه ، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات ، فانية مضمحلة ، وزائلة منقضية .

وستعود الأرض ، صعيدا جرزا(١) قد ذهبت لذاتها ، وانقطعت أنهارها ، واندرست آثارها ، وزال نعيمها .

وهذه حقيقة الدنيا ، قد جلاها الله لنا كأنها رَأْىُ عين ، وحذرنا من الاغترار بها .

---

(١) جرز : أى الأرض التى لا نبات بها . قال فى المصباح : « وأرض جرز ، بضم الجيم والراء . قد انقطع الماء عنها ، فهى يابسة لا نبات فيها » اهـ.
وفى المختار من الصحاح: أرض جُرُزٌ وجُرْزٌ « كعُسُر وعُسْر : لا نبات بها وجَرْزٌ وجَرَزٌ كنَهْر ونَهَر . كله بمعنى » اهـ .

. . . . . . . . . . .

---

ورغبنا فى دار يدوم نعيمها ، ويسعد مقيمها ، كل ذلك رحمة بنا .

فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها ، من نظر إلى ظاهر الدنيا ، درن باطنها .

فصحبوا الدنيا ، صحبة البهائم ، وتمتعوا بها تَمتُّعُ السوائم،لا ينظرون فى حق ربهم ، ولا يهتمون لمعرفته .

بل همهم تناول الشهوات ، من أىٍّ وجه حصلت ، وعلى أىِّ حالة اتفقت .

فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت ، قلق لخراب ذاته ، وفوات لذاته ، لا لما قدمت يداه ، من التفريط والسيئات .

وأما من نظر إلى باطن الدنيا ، وعلم المقصود منها ومنه ، فإنه يتناول منها ، ما يستعين به على ما خلق له ، وانتهز الفرصة فى عمره الشريف .

فجعل الدنيا منزل عبور ، لا محل حبور ، وشُقَّةَ سفر ، لا منزل إقامة .

فبذل جهده فى معرفة ربه ، وتنفيذ أوامره ، وإحسان العمل .

فهذا بأحسن المنازل عند الله ، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم ، وسرور وتكريم .

فنظر إلى باطن الدنيا ، حين نظر المغتر إلى ظاهرها ، وعمل لآخرته ، حين عمل البطال لدنياه .

فشتان ما بين الفريقين ، وما أبعد الفرق بين الطائفتين ! !

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ

* وهذا الاستفهام بمعنى النفى ، والنهى .

أى : لا تظن أن قصة أصحاب الكهف ، وما جرى لهم ، غريبة على آيات الله ، وبديعة فى حكمته ، وأنه لا نظير لها ، ولا مجانس لها .

بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ، ما هو كثير ، من جنس آياته فى أصحاب الكهف ، وأعظم منها .

فلم يزل الله يُرِى عباده من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم ، ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال .

وليس المراد بهذا النفى(١) أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب ، بل هى من آيات الله العجيبة .

وإنما المراد ، أن جنسها كثير جدا ، فالوقوف معها وحدها ، فى مقام العجب والاستغراب ، نقص فى العلم والعقل .

بل وظيفة المؤمن ، التفكر بجميع آيات الله ، التى دعا الله العباد إلى التفكير فيها ، فإنها مفتاح الإيمان ، وطريق العلم والإيقان .

وإضافتهم إلى الكهف ، الذى هو الغار فى الجبل والرقيم ، أى: الكتاب الذى قد رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم ، لملازمتهم له دهرا طويلا .

---

(١) فى الأصل المطبوع « بهذا النفى عن أن تكون » والصواب حذف كلمة « عن » لذلك حذفناها ، لأن القواعد العربية تأباها .

ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ
ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

---

ثم ذكر قصتهم مجملة ، وفصلها بعد ذلك فقال : [ إذ أوى الفتية ] أى : الشباب .

[ إلى الكهف ] يريدون بذلك ، التحصن والتحرز ، من فتنة قومهم لهم .

[ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ] أى تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير [ وهيء لنا من أمرنا رشدا ] أى : يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد ، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا .

فجمعوا بين السعى والفرار من الفتنة ، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه ، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم ، وعدم اتكالهم على أنفسهم ، وعلى الخلق .

فلذلك استجاب الله دعاءهم ، وقيض لهم ، ما لم يكن فى حسابهم قال : [ فضربنا على آذانهم فى الكهف ] أى أنمناهم [ سنين عددا ] وهى : ثلثمائة سنة ، وتسع سنين ، وفى النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف ، وحفظ لهم من قومهم .

[ ثم بعثناهم ] أى : من نومهم [ لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ] أى : لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم ، كما قال تعالى :

[ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ] الآية ، وفى العلم بمقدار لبثهم ،

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا

---

ضبط للحساب ، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى ، وحكمته ، ورحمته .

فلو استمروا على نومهم ، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك ، من قصتهم .

* هذا شروع فى تفصيل قصتهم ، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق ، الذى ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه .

[ إنهم فتية آمنوا بربهم ] وهذا من جموع القلة ، يدل ذلك على أنهم دون العشرة .

[ آمنوا ] بالله وحده لا شريك له من دون قومهم .

فشكر الله لهم إيمانهم ، فزادهم هدى .

أى : بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان ، زادهم الله من الهدى ، الذى هو العلم النافع ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .

[ وربطنا على قلوبهم ] أى صبرّناهم وثبتناهم ، وجعلنا قلوبهم مطمئنة فى تلك الحالة المزعجة ، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره ، أن وفقهم للإيمان والهدى ، والصبر والثبات ، والطمأنينة .

[ إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض ] أى : الذى خلقنا ورزقنا ، ودبرنا وربانا ، هو خالق السموات والأرض ، المنفرد بخلق هذه

إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

---

المخلوقات العظيمة ، لا تلك الأوثان والأصنام ، التى لا تخلق ولا ترزق ، ولا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فاستدلوا بتوحيد الربوبية ، على توحيد الإلهية ، ولهذا قالوا :

[ لن ندعو من دونه إلها ] أى : من سائر المخلوقات [ لقد قلنا إذاً ] أى : إن دعونا معه آلهة ، بعد ما علمنا أنه الرب ، الإله الذى لا تجوز ، ولا تنبغى العبادة ، إلا له [ شططا ] أى : ميلا عظيما عن الحق ، وطريقا بعيدة عن الصواب .

فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، والتزام ذلك ، وبيان أنه الحق ، وما سواه باطل .

وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم ، وزيادة الهدى من الله لهم .

* لما ذكروا ما منَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى ، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم ، من اتخاذ الآلهة من دون الله ، فمقتوهم ، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم ، بل هم فى غاية الجهل والضلال فقالوا :

[ لو لا يأتون عليهم بسلطان بين ] أى : بحجة وبرهان ، على ما هم عليه من الباطل ، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك ، وإنما ذلك ، افتراء منهم على الله ، وكذب عليه .

وهذا أعظم الظلم ، ولهذا قال : [ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ]

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

---

* أى : قال بعضهم لبعض ، إذ حصل لكم اعتزال قومكم فى أجسامكم وأديانكم ، فلم يبق إلا النجاء من شرهم ، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك لأنه لاسبيل لهم إلى قتالهم، ولا إلى بقائهم بين أظهرهم ، وهم على غير دينهم .

[ فأووا إلى الكهف ] أى انضموا إليه واختفوا فيه [ ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ] .

وفيما تقدم ، أخبر أنهم دعوه بقولهم « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » ، فجمعوا بين التبرِّى من حولهم وقوتهم ، والالتجاء إلى الله ، فى صلاح أمرهم ، ودعائه بذلك ، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك .

لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته ، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا .

فحفظ أديانهم وأبدانهم ، وجعلهم من آياته على خلقه ، ونشر لهم من الثناء الحسن ، ما هو من رحمته بهم ، ويسر لهم كل سبب ، حتى المحل الذي ناموا فيه ، كان على غاية ما يمكن من الصيانة ، ولهذا قال : [ وترى الشمس ] إلى قوله [ منهم رعبا ] .

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ
ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ
مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ

---

* أى : حفظهم الله من الشمس ، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس ، تميل عنه يمينا ، وعند غروبها ، تميل عنه شمالا ، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها .

[ وهم فى فجوة منه ] أى : من الكهف أى : مكان متسع ، وذلك ليطرقهم الهواء ، والنسيم ، ويزول عنهم الوخم ، والتأذى بالمكان الضيق ، خصوصا مع طول المكث .

وذلك من آيات الله ، الدالة على قدرته ورحمته ، وإجابة دعائهم وهدايتهم ، حتى فى هذه الأمور ، ولهذا قال :

[ من يهد الله فهو المهتد ] أى : لا سبيل إلى نيل الهداية ، إلا من الله ، فهو الهادى المرشد لمصالح الدارين .

[ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ] أى: لا تجد من يتولاه ويدبره ، على ما فيه صلاحه ، ولا يرشده إلى الخير والفلاح ، لأن الله قد حكم عليه بالضلال ، ولا راد لحكمه .

[ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ] أى : تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ ، والحال أنهم نيام .

وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

---

قال المفسرون : وذلك لأن أعينهم منفتحة ، لئلا تفسد .

فالناظر إليهم ، يحسبهم أيقاظا ، وهم رقود .

[ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ] وهذا أيضا من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها ، أكل الأجسام المتصلة بها .

فكان من قدر الله ، أن قَلَّبَهم على جنوبهم ، يمينا وشمالا ، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم .

والله تعالى ، قادر على حفظهم من الأرض ، من غير تقليب .

ولكنه تعالى ، حكيم ، أراد أن تجرى سنته فى الكون ، ويربط الأسباب بمسبباتها .

[ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ] أى : الكلب الذى كان مع أصحاب الكهف ، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته ، فكان باسطا ذراعيه بالوصيد ، أى : الباب ، أو فنائه ، هذا حفظهم من الأرض .

وأما حفظهم من الآدميين ، فأخبر أنه حماهم بالرعب ، الذى نشره الله عليهم .

فلو اطلع عليهم أحد ، لامتلأ قلبه رعبا ، وولى منهم فرارا .

وهذا الذى أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة ، وهم لم يعثر عليهم

۞ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ

---

أحد ، مع قربهم من المدينة جدًّا .

والدليل على قربهم ، أنهم لما استيقظوا ، أرسلوا أحدهم ، يشترى لهم طعاما من المدينة ، وبقوا فى انتظاره ، فدل ذلك على شدة قربهم منها .

☆ يقول تعالى : وكذلك بعثناهم من نومهم الطويل ، ليتساءلوا بينهم ، أى : ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة ، من مدة لبثهم .

[ وقال قائل منهم : كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ] وهذا مبنى على ظن القائل .

وكأنهم وقع عندهم اشتباه . فى طول مدتهم ، فلهذا [ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ] .

فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شىء ، جملة وتفصيلا .

ولعل الله تعالى — بعد ذلك — أطلعهم على مدة لبثهم ، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم ، وأخبر أنهم تساءلوا ، وتكلموا بمبلغ ما عندهم ، وصار آخر أمرهم ، الاشتباه .

فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينا ، علمنا ذلك من حكمته فى بعثهم ، وأنه لا يفعل ذلك عبثا .

ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة فى الأمور المطلوب علمها ، وسعى

لذلك ما أمكنه ، فإن الله يوضح له ذلك ، وبما ذكر فيما بعده من قوله .

[ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها ] .

فلولا أنه حصل العلم بحالهم ، لم يكونوا دليلا على ما ذكر .

ثم إنهم لما تساءلوا بينهم ، وجرى منهم ما أخبر الله به ، أرسلوا أحدهم بورقهم ، أى : بالدراهم ، التى كانت معهم ، ليشترى لهم طعاما يأكلونه ، من المدينة ، التى خرجوا منها ، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه ، أى : أطيبه وألذه ، وأن يتلطف فى ذهابه وشرائه وإيابه ، وأن يختفى فى ذلك ، ويخفى حال إخوانه ، ولا يشعرن بهم أحداً .

وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم ، وظهورهم عليهم ، أنهم بين أمرين .

إما الرجم بالحجارة ، فيقتلونهم أشنع قتلة ، لحنقهم عليهم وعلى دينهم .

وإما أن يفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم فى ملتهم .

وفى هذه الحال ، لايفلحون أبدا ، بل يخسرون فى دينهم ودنياهم وأخراهم .

وقد دلت هاتان الآيتان ، على عدة فوائد .

منها : الحث على العلم ، وعلى المباحثة فيه ، لكون الله بعثهم لأجل ذلك .

أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

---

ومنها : الأدب فيمن اشتبه عليه العلم ، أن يرده إلى عالمه ، وأن يقف عند حده .

ومنها : صحة الوكالة فى البيع والشراء ، وصحة الشركة فى ذلك .

ومنها : جواز أكل الطيبات ، والمطاعم اللذيذة ، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهى عنه لقوله [ فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ] .

وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك .

ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين ، القائلين بأن هؤلاء ، أولاد ملوك لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة ، التى جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها .

ومنها : الحث على التحرز ، والاستخفاء ، والبعد عن مواقع الفتن فى الدين ، واستعمال الكتمان فى ذلك على الإنسان وعلى إخوانه فى الدين .

ومنها : شدة رغبة هؤلاء الفتية فى الدين ، وفرارهم من كل فتنة ، فى دينهم ، وتركهم أوطانهم فى الله .

ومنها : ذكر ما اشتمل عليه الشر ، من المضار والمفاسد ، الداعية لبغضه ، وتركه .

وأن هذه الطريقة ، هى طريقة المؤمنين المتقدمين ، والمتأخرين لقولهم : [ ولن تفلحوا إذا أبداً ] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ
عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ
عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف .

وذلك — والله أعلم — بعدما استيقظوا ، وبعثوا أحدهم ، يشترى لهم طعاما ، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء .

فأراد الله أمراً ، فيه صلاح للناس ، وزيادة أجر لهم ، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله ، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لاشك فيه ولا مرية ولا بُعْد ، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم .

فمن مثبت للوعد والجزاء ، ومن ناف لذلك .

فجعل قصتهم ، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين ، وحجة على الجاحدين ، وصار لهم أجر هذه القضية .

وشهر الله أمرهم ، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم .

[ قالوا ابنوا عليهم بنيانا ] الله أعلم بحالهم ومآلهم .

وقال من غلب على أمرهم — وهم الذين لهم الأمر :

[ لنتخذن عليهم مسجدا ] أى : نعبد الله تعالى فيه ، ونتذكر به أحوالهم ، وما جرى لهم .

وهذه الحالة محظورة ، نهى عنها النبى صلى الله عليه وسلم ، وذم فاعليها

۞ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

---

ولا يدل ذكرها هنا ، على عدم ذمها ، فإن السياق فى شأن أهل الكهف والثناء عليهم ، وأن هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن قالوا : ابنوا عليهم مسجدا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم ، وحذرهم من الاطلاع عليهم ، فوصلت الحال إلى ما ترى .

وفى هذه القصة ، دليل على أن من فرَّ بدينه من الفتن ، سلمه الله منها .

وأن من حرص على العافية ، عافاه الله .

ومن أوى إلى الله ، آواه الله ، وجعله هداية لغيره .

ومن تحمل الذل فى سبيله وابتغاء مرضاته ، كان آخر أمره وعاقبته ، العز العظيم ، من حيث لا يحتسب « وما عند الله خير للأبرار » » .

* يخبر تعالى ، عن اختلاف أهل الكتاب ، فى عدة أصحاب الكهف ، اختلافا ، صادرا عن رجمهم بالغيب ، وتقوُّلهم بما لا يعلمون ، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال :

منهم : من يقول : ثلاثة ، رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : خمسة ، سادسهم كلبهم .

وهذان القولان ، ذكر الله بعدها ، أن هذا رجم منهم بالغيب ، فدل على بطلانهما .

ومنهم من يقول : سبعة ، وثامنهم كلبهم .

وهذا — والله أعلم — هو الصواب ، لأن الله أبطل الأولين ، ولم يبطله ، فدل على صحته .

قُلْ رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

---

وهذا من الاختلاف ، الذى لا فائدة تحته ، ولا يحصل بمعرفة عددهم ، مصلحة للناس ، دينية ، ولا دنيوية ، ولهذا قال تعالى :

[ قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل ] وهم الذين، أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم .

[ فلا تمار ] تجادل وتحاج فيهم [ إلا مراء ظاهرا ] أى : مبنيا على العلم واليقين ، ويكون أيضاً فيه فائدة .

وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب ، أو التى لافائدة فيها .

إما أن يكون الخصم معاندا ، أو تكون المسئلة لا أهمية فيها ، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها ، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك ، فإن فى كثرة المناقشات فيها ، والبحوث المتسلسلة ، تضييعا للزمان ، وتأثيرا فى مودة القلوب بغير فائدة .

[ ولا تستفت فيهم ] أى : فى شأن أهل الكهف [ منهم ] أى : من أهل الكتاب [ أحداً ] وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن ، الذى لا يغنى من الحق شيئا .

ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى ، إما لقصوره فى الأمر المستفتى فيه ، أو لكونه لا يبالى بما تكلم به ، وليس عنده ورع يحجزه .

وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس ، فنهيه هو عن الفتوى ، من باب أولى وأحرى .

۞ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى

---

وفى الآية أيضاً ، دليل على أن الشخص ، قد يكون منهيا عن استفتائه فى شىء ، دون آخر .

فيستفتى فيما هو أهل له .

بخلاف غيره ، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقا ، إنما نهى عن استفتائهم فى قصة أصحاب الكهف ، وما أشبهها .

* هذا النهى كغيره ، وإن كان لسبب خاص وموجها للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الخطاب عام للمكلفين .

فنهى الله أن يقول العبد فى الأمور المستقبلة « إنى فاعل ذلك » من دون أن يقرنه بمشيئة الله ، وذلك لما فيه من المحذور ، وهو : الكلام على الغيوب المستقبلة ، التى لا يدرى ، هل يفعلها أم لا ؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالا .

وذلك محذور محظور ، لأن المشيئة كلها لله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ولما فى ذكر مشيئة الله ، من تيسير الأمر وتسهيله ، وحصول البركة فيه ، والاستعانة من العبد لربه ،

ولما كان العبد بشرا ، لابد أن يسهو عن ذكر المشيئة ، أمره الله أن يستثنى بعد ذلك ، إذا ذكر ، ليحصل المطلوب ، ويندفع المحذور .

ويؤخذ من عموم قوله [ واذكر ربك إذا نسيت ] الأمر بذكر الله عند النسيان ، فإنه يزيله ، ويذكّر العبد ما سها عنه .

لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ

---

وكذلك يؤمر الساهى الناسى لذكر الله ، أن يذكر ربه ، ولا يكونن من الغافلين .

ولما كان العبد مفتقرا إلى الله فى توفيقه للإصابة ، وعدم الخطأ ، فى أقواله وأفعاله ، أمره الله أن يقول : [ عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً ] .

فأمره أن يدعو الله ويرجوه ، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد .

وحَرِىٌّ بعبد ، تكون هذه حاله ، ثم يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه فى طلب الهدى والرشد ، أن يوفق لذلك ، وأن تأتيه المعونة من ربه ، وأن يسدده فى جميع أموره .

* لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب ، فى شأن أهل الكهف — لعدم علمهم بذلك ، وكان الله ، عالم الغيب والشهادة ، العالم بكل شىء — أخبره الله بمدة لبثهم ، وأن علم ذلك ، عنده وحده ، فإنه من غيب السموات والأرض ، وغيبها مختص به .

فما أخبر به عنها على ألسنة رسله ، فهو الحق اليقين ، الذى لا شك فيه .

وما لا يطلع رسله عليه ، فإن أحدا من الخلق ، لا يعلمه .

أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

---

وقوله : [ أبصر به وأسمع ] تعجب من كمال سمعه وبصره ، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات ، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات .

ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة ، فهو الولى الذى يتولى تدبير جميع الكون ، الولى لعباده المؤمنين ، يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى ، ويجنبهم العسرى ، ولهذا قال : [ ما لهم من دونه من ولى ] .

أى : هو الذى تولى أصحاب الكهف ، بلطفه وكرمه ، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق .

[ ولا يشرك فى حكمه أحدا ] وهذا يشمل الحكم الكونى القدرى ، والحكم الشرعى الدينى ، فإنه الحاكم فى خلقه ، قضاء وقدرا ، وخلقا وتدبيرا والحاكم فيهم ، بأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .

ولما أخبر أنه تعالى ، له غيب السموات والأرض ، فليس لمخلوق إليهما طريق ، إلا عن الطريق التى يخبر بها عباده ، وكان هذا القرآن ، قد اشتمل على كثير من الغيوب ، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال : « واتل » إلى قوله « ملتحدا » .

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

التلاوة ، هى الاتباع أى : اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها ، وتصديق أخباره ، وامتثال أوامره ونواهيه ، فإنه الكتاب الجليل ، الذى لا مبدل لكلماته ، أى : لاتغير ولاتبدل لصدقها وعدلها ، وبلوغها من الحسن ، فوق كل غاية « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » .

فلكمالها ، استحال عليها التغيير والتبديل .

فلو كانت ناقصة ، لعرض لها ذلك ، أو شيء منه .

وفى هذا ، تعظيم للقرآن ، فى ضمنه ، الترغيب على الإقبال عليه .

[ ولن تجد من دونه ملتحدا ] أى : لن تجد من دون ربك ، ملجأ تلجأ إليه ، ولا معاذا تعوذ به .

فإذا تعين أنه وحده ، الملجأ فى كل الأمور ، تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه ، فى السراء والضراء ، المفتقر إليه فى جميع الأحوال ، المسئول فى جميع المطالب .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا

---

* يأمر تعالى نبيه محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره أسوته ، فى الأوامر والنواهى — أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المنيبين [ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ] أى : أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله .

فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها .

ففيها الأمر ، بصحبة الأخيار ، ومجاهدة النفس على صحبتهم ، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن فى صحبتهم من الفوائد ، مالا يحصى .

[ ولا تعد عيناك عنهم ] أى : لا تجاوزهم بصرك ، وترفع عنهم نظرك .

[ تريد زينة الحياة الدنيا ] فإن هذا ضار غير نافع ، وقاطع عن المصالح الدينية .

فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا ، فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب ، الرغبة فى الآخرة ، فإن زينة الدنيا ، تروق للناظر ، وتسحر القلب ، فيغفل القلب عن ذكر الله ، ويُقْبِل على اللذات والشهوات فيضيع وقته ، وينفرط أمره ، فيخسر الخسارة الأبدية ، والندامة السرمدية ولهذا قال :

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

---

[ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ] غفل عن الله ، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره .

[ واتبع هواه ] أى : صار تبعا لهواه ، حيث ما اشتهت نفسه فعله ، وسعى فى إدراكه ، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه ، فهو قد اتخذ إلهه هواه كما قال تعالى: « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » الآية .

[ وكان أمره ] أى: مصالح دينه ودنياه [ فرطا ] أى : ضائعة معطلة .

فهذا قد نهى الله عن طاعته ، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به ، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به .

ودلت الآية ، على أن الذي ينبغى أن يطاع ، ويكون إماما للناس ، من امتلأ قلبه بمحبة الله ، وفاض ذلك على لسانه ، فلهج بذكر الله ، واتبع مراضى ربه ، فقدمها على هواه ، فحفظ بذلك ماحفظ من وقته ، وصلحت أحواله ، واستقامت أفعاله ، ودعا الناس إلى ما منّ الله به عليه .

فحقيق بذلك ، أن يتبع ويجعل إماماً .

والصبر ، المذكور فى هذه الآية ، هو الصبر على طاعة الله ، الذى هو أعلى أنواع الصبر ، وبتمامه يتم باقى الأقسام .

وفى الآية ، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرَفَى النهار ، لأن الله مدحهم بفعله .

وكل فعل مدح الله فاعله ، دل ذلك على أن الله يحبه ، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ، ويرغب فيه .

۞ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟

---

* أى : قل للناس يا محمد : هو الحق من ربكم .

أى : قد تبين الهدى من الضلال ، والرشد من الغى ، وصفات أهل السعادة ، وصفات أهل الشقاوة ، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله .

فإذا بان واتضح ، ولم يبق فيه شبهة .

[ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ] أى : لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين ، بحسب توفيق العبد ، وعدم توفيقه .

وقد أعطاه الله مشيئة ، بها يقدر على الإيمان والكفر ، والخير والشر

فمن آمن ، فقد وفق للصواب ، ومن كفر ، فقد قامت عليه الحجة ، وليس بمكره على الإيمان كما قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال : [ إنا اعتدنا للظالمين ] بالكفر والفسوق والعصيان [ نارا أحاط بهم سرادقها ] أى : سورها المحيط بها .

فليس لهم منفذ ، ولا طريق ، ولا مخلص منها ، تصلاهم النار الحامية .

[ وإن يستغيثوا ] أن يطلبوا الشراب ، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد .

يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ
مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا

---

[ يغاثوا بماء كالمهل ] أى : كالرصاص المذاب ، أو كعكر الزيت ، من شدة حرارته .

[ يشوى الوجوه ] أى : فكيف بالأمعاء والبطون ، كما قال تعالى « يصهر به مافى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد » .

[ بئس الشراب ] الذى يراد ليطفىء العطش ، ويدفع بعض العذاب ، فيكون زيادة فى عذابهم ، وشدة عقابهم .

[ وساءت ] النار [ مرتفقا ] وهذا ذم لحالة النار ، أنها ساءت المحل ، الذى يرتفق به .

فإنها ليس فيها ارتفاق ، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق ، الذى لا يُفَتَّر عنهم ساعة ، وهم فيه مبلسون(١) قد أيسوا من كل خير ، ونسيهم الرحيم فى العذاب ، كما نسوه .

---

(١) قوله : ( مبلسون ) أى شديدو الحزن مع اليأس من رحمة الله تعالى لانقطاع حجتهم عندما يحاسبهم الله عز وجل فيلزمون السكوت من شدة حزنهم .

مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

---

ثم ذكر الفريق الثانى فقال : [ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أى : جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والقدر ، خيره ، وشره ، وعمل الصالحات ، من الواجبات والمستحبات [ إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ] .

وإحسان العمل ، أن يريد العبد العمل لوجه الله ، متبعا فى ذلك شرع الله .

فهذا العمل لايضيعه الله ، ولا شيئا منه ، بل يحفظه للعاملين ، ويوفيهم من الأجر ، بحسب عملهم وفضله وإحسانه ، وذكر أجرهم بقوله :

[ أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك ] .

أى : أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح ، لهم الجنات العاليات التى قد كثرت أشجارها ، فأَجَنَّتْ من فيها ، وكثرت أنهارها ، فصارت تجرى من تحت تلك الأشجار الأنيقة ، والمنازل الرفيعة .

وحليتهم فيها ، الذهب ، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس ، وهو الغليظ من الديباج ، والإستبرق ، وهو : مارق منه .

متكئين فيها على الأرائك وهى : السرر المزينة ، المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لاتسمى أريكة ، حتى تكون كذلك .

. . . . . . . . . . .

---

وفى اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كال الراحة ، وزوال النصب والتعب ، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون ، وتمام ذلك ، الخلود الدائم والإقامة الأبدية .

فهذه الدار الجليلة [ نعم الثواب ] للعاملين [ وحسنت مرتفقا ] يرتفقون بها ، ويتمتعون بما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من الحبرة والسرور ، والفرح الدائم ، واللذات المتواترة ، والنعم المتوافرة .

وأى مرتفق ، أحسن من دار ، أدنى أهلها ، يسير فى ملكه ونعيمه ، وقصوره وبساتينه ، أَلْفَىْ سنة ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم .

قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه ، وزيد من المطالب ، ما قصرت عنه الأمانى .

ومع ذلك ، فنعيمهم على الدوام ، متزايد فى أوصافه وحسنه .

فنسأل الله الكريم ، أن لايحرمنا خير ماعنده ، من الإحسان ، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان .

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها ، على أن الحلية ، عامة للذكور والإناث ، كما ورد فى الأخبار الصحيحة لأنه أطلقها فى قوله [ يحلون ] وكذلك الحرير ونحوه .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وماصدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك، من العقاب العاجل، والآجل، والثواب ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما،

وليس معرفة أعيان الرجلين، وفى أى زمان أو مكان هما، فيه فائدة أو نتيجة.

فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف.

فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أى : بستانين حسنين، من أعناب.

[ وحففناهما بنخل ] أى : فى هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصا أشرف الأشجار، العنب، والنخل.

فالعنب، وسطها، والنخل، قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التى تكمل لها الثمار، وتنضج وتتجوهر.

ومع ذلك، جعل بين تلك الأشجار زرعاً.

فلم يبق عليهما إلا أن يقال : كيف ثمار هاتين الجنتين ؟ وهل لهما ماء يكفيهما ؟

ءاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ

فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا

---

فأخبر تعالى ، أن كلا من الجنتين آتت(١) أكلها أى : ثمرها وزرعها ضعفين أى : متضاعفا [ و ] أنها [ لم تظلم منه شيئا ] أى : لم تنقص من أكلها أدنى شيء .

ومع ذلك ، فالأنهار فى جوانبهما سارحة ، كثيرة غزيرة .

[ وكان له ] أى لذلك الرجل [ ثمر ] أى عظيم كما يفيده التنكير أى : قد استكملت جنتاه ثمارهما ، وارجحنت(٢) أشجارها ، ولم تعرض لهما آفة أو نقص .

فهذا غاية منتهى زينة الدنيا فى الحرث ، ولهذا اغتر هذا الرجل ، وتبجح وافتخر ، ونسى آخرته .

* أي : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن ، وهما يتحاوران ، أى يتراجعان الكلام بينهما فى بعض المجريات المعتادة ، مفتخرا عليه :

[ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ] فخر بكثرة ماله ، وعزة أنصاره ، من عبيد ، وخدم ، وأقارب ، وهذا جهل منه .

---

(١) آتت . أى : أعطت .

(٢) ارجحنت . أى : مالت أشجارها من كثرة ثمارها وثقلها وأصبحت الأغصان متدلية ، كادت تلامس الأرض من ثقل ثمارها .

وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

---

وإلا فأى افتخار بأمر خارجى ليس فيه فضيلة نفسية ، ولا صفة معنوية. وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى ، التى لا حقائق تحتها .

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه ، حتى حكم ، بجهله وظلمه ، وظن لما دخل جنته .

ف [ قال ما أظن أن تبيد ] أى : تنقطع وتضمحل [ هذه أبدا ] .

فاطمأن إلى هذه الدنيا ، ورضى بها ، وأنكر البعث ، فقال :

[ وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى ] على ضرب المثل [ لأجدن خيرا منها منقلبا ] أى ليعطينى خيرا من هاتين الجنتين ، وهذا لا يخلو من أمرين .

إما أن يكون عالما بحقيقة الحال ، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره .

وإما أن يكون هذا ظنه فى الحقيقة ، فيكون من أجهل الناس ، وأبخسهم حظًّا من العقل .

فأى تلازم بين عطاء الدنيا ، وعطاء الآخرة ، حتى يظن بجهله ، أن من أُعْطِىَ فى الدنيا ، أعطى فى الآخرة .

بل الغالب ، أن الله تعالى يَزْوِى الدنيا عن أوليائه وأصفيائه ، ويوسعها على أعدائه ، الذين ليس لهم فى الآخرة نصيب .

والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال ، ولكنه قال هذا الكلام ، على وجه التهكم والاستهزاء ، بدليل قوله : [ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ] .

۞ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ

---

فإثبات أن وصفه الظلم ، فى حال دخوله ، الذى جرى منه ، من القول ماجرى ، يدل على تمرده وعناده .

۞ أى : قال له صاحبه المؤمن — ناصحا له ، ومذكرا له حاله الأولى ، التى أوجده الله فيها فى الدنيا [من تراب ، ثم من نطفة ،ثم سواك رجلا ] .

فهو الذى أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد ، وواصل عليك النعم ، ونقلك من طور إلى طور ، حتى سواك رجلا ، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة ، والمعقولة .

وبذلك يسَّر لك الأسباب ، وهيأ لك ما هيأ ، من نعم الدنيا .

فلم تحصل لك الدنيـــا ، بحولك وقوتك ، بل بفضل الله تعالى عليك .

فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، وتجهل نعمته ، وتزعم أنه لا يبعثك ، وإن بعثك أنه يعطيك خيرا من جنتك ، هذا مما لاينبغى ولا يليق .

ولهذا لمـا رأى صاحبه المؤمن ، حاله واستمراره على كفره وطغيانه ، قال — مخبرا عن نفسه ، على وجه الشكر لربه ، والإعلان بدينه ، عند ورود المجادلات والشبه : [ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ] .

فأقر بربوبية ربه ، وانفراده فيها ، والتزام طاعته وعبادته ، وأنه لايشرك به أحداً من المخلوقين .

رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ
إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ
أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ

---

ثم أخبر أن نعمة الله عليه ، بالإيمان والإسلام ، ولو مع قلة ماله وولده ـ أنها ، هى النعمة الحقيقية ، وأن ماعداها، معرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال ، فقال : [ إن ترن أنا أقل ] إلى [ وخير عقبا ] .

* أى : قال للكافر صاحبه المؤمن : أنت — وإن فخرت علىَّ بكثرة مالك وولدك ، ورأيتنى أقل منك مالا وولدا — فإن ما عند الله ، خير وأبقى .

وما يرجى من خيره وإحسانه ، أفضل من جميع الدنيا ، التى يتنافس فيها المتنافسون .

[فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها ] أى : على جنتك التى طغيت بها وغرتك [ حسباناً من السماء ] أى : عذابا ، بمطر عظيم أو غيره .

[ فتصبح ] بسبب ذلك [ صعيدا زلقا ] أى : قد اقتلعت أشجارها ، وتلفت ثمارها ، وغرق زرعها ، وزال نفعها .

[ أو يصبح ماؤها] الذى مادتها منه [ غورا ] أى : غائرا فى الأرض

طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ

---

[ فلن تستطيع له طلبا ] أى : غائرا لايستطاع الوصول إليه ، بالمعاول ولا بغيرها .

وإنما دعا على جنته المؤمن ، غضبا لربه ، لكونها غرته وأطغته،واطمأن إليها ، لعله ينيب ، ويراجع رشده ، ويتبصر فى أمره .

فاستجاب الله دعاه [ وأحيط بثمره ] أى : أصابه عذاب ، أحاط به ، واستهلكه ، فلم يبق منه شىء .

والإحاطة بالثمر ، يستلزم تلف جميع أشجاره ، وثماره ، وزرعه .

فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه ،[فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ] أى على كثرة نفقاته الدنيوية عليها ، حيث اضمحلت وتلاشت ، فلم يبق لها عوض ، وندم أيضاً على شركه ، وشره ، ولهذا قال :

[ ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ] .

قال الله تعالى : [ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ] .

أى : لما نزل العذاب بجنته ، ذهب عنه ماكان يفتخر به من قوله لصاحبه : [ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ] فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا ، أشد ماكان إليهم حاجة ، وماكان بنفس منتصراً .

وكيف ينتصر ، أو يكون له انتصارا ، على قضاء الله وقدره ، الذى

مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

---

إذا أمضاه وقدره ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه ، لم يقدروا ؟ ! !

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه ، أن صاحب هذه الجنة ، التى أحيط بها ، تحسنت حاله ، ورزقه الله الإنابة إليه ، وراجع رشده ، وذهب تمرده وطغيانه ، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه ، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه ، وعاقبه فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا .

وفضل الله لاتحيط به الأوهام والعقول ، ولا ينكره إلا ظالم جهول .

[هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ] أى : فى تلك الحال التى أجرى الله فيها العقوبة على من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، والكرامة لمن آمن ، وعمل صالحاً ، وشكر الله ، ودعا غيره ، لذلك تبين وتوضح ، أن الولاية الحق ، لله وحده .

فمن كان مؤمنا به تقيا ، كان له وليا ، فأكرمه بأنواع الكرامات ، ودفع عنه الشرور والمثلات ، ومن لم يؤمن بربه ، ولا يتولاه ، خسر دينه ودنياه ، فثوابه الدنيوى والأخروى ، خير ثواب يرجى ويؤمل .

ففى هذه القصة العظيمة ، اعتبار بحال الذى أنعم الله عليه نعما دنيوية ، فألهته عن آخرته وأطغته ، وعصى الله فيها ، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال .

. . . . . . . . . .

وأنه وإن تمتع بها قليلا ، فإنه يحرمها طويلا .

وأن العبد ، ينبغى له — إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده — أن أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها ، وأن يقول : « ما شاء الله ، لاقوة إلا بالله » ليكون شاكرا ، متسببا لبقاء نعمته عليه ، لقوله :

[ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله ] .

وفيها ، الإرشاد إلى التسلى عن لذات الدنيا وشهواتها ، بما عند الله من الخير لقوله :

[ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ] .

وفيها أن المال والولد لا ينفعان ، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً » .

وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه .

خصوصا إن فضَّل نفسه بسببه ، على المؤمنين ، ونخر عليهم

وفيها ، أن ولاية الله وعدمها ، إنما تتضح نتيجتها ، إذا انجلى الغبار وحق الجزاء ، ووجد العاملون أجرهم فـ [ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ] أى : عاقبة ومآلا .

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، أصلا، ولمن قام بوراثته بعده تبعا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، أو تنبت من كل زوج بهيج.

فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين.

إذ أصبحت هشيما، تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهى.

فأصبحت الأرض غبراء ترابا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها، قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض فى الشهوات فى جميع أوقاته، وظن أنه لايزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله.

فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته، وماله، وانفرد بصالح، أو سيء أعماله.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

هنالك يعض الظالم على يديه ، حين يعلم حقيقة ما هو عليه ، ويتمنى العود إلى الدنيا ، لا ليستكمل الشهوات ، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات ، بالتوبة والأعمال الصالحات .

فالعاقل الجازم الموفق ، يعرض على نفسه هذه الحالة ، ويقول لنفسه : « قَدِّرِى أنك قد مِتِّ ، ولا بد أن تموتى ، فأى الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار ، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل ، لدار أكلها دائم وظلها ظليل ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه ، وربحه من خسرانه .

ولهذا أخبر تعالى ، أن المال والبنين ، زينة الحياة الدنيا ، أى : ليس وراء ذلك شىء .

وأن الذى يبقى للإنسان وينفعه ويسره ، الباقيات الصالحات .

وهذا يشمل جميع الطاعات ، الواجبة ، والمستحبة ، من حقوق الله ، وحقوق عباده ، من صلاة ، وزكاة ، وصدقة ، وحج ، وعمرة ، وتسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، وقراءة ، وطلب علم نافع ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وصلة رحم ، وبر والدين ، وقيام بحق الزوجات ، والمماليك ، والبهائم ، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق ، كل هذا من الباقيات الصالحات ، فهذه خير عند الله ثوابا ، وخير أملا .

فثوابها يبقى ، ويتضاعف على الآباد ، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها ، عند الحاجة .

۞ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

---

فهذه التى ينبغى أن يتنافس بها المتنافسون ، ويستبق إليها العاملون ، ويَجِدُّ فى تحصيلها المجتهدون .

وتأمل ، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ، ذكر أن الذى فيها نوعان .

نوع من زينتها ، يتمتع به قليلا ، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه ، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون .

ونوع يبقى لصاحبه على الدوام ، وهى : الباقيات الصالحات .

* يخبر تعالى عن حال يوم القيامة ، ومافيه من الأهوال المقلقة ، والشدائد المزعجة فقال :

[ ويوم نسير الجبال ] أى : يزيلها عن أماكنها ، يجعلها كثيبا ، ثم يجعلها كالعهن(١) المنفوش ثم تضمحل وتتلاشى ، وتكون هباء منبثا ، وتبرز الأرض ، فتصير قاعا صفصفاً ، لا عوج فيه ولا أمتا .

ويحشر الله جميع الخلق ، على تلك الأرض ، فلا يغادر منهم أحدا .

بل يجمع الأولين والآخرين ، من بطون الفلوات ، وقعور البحار ، ويجمعهم بعدما تفرقوا ، ويعيدهم ، بعد ما تمزقوا ، خلقا جديداً .

---

( ١ ) العهن . أى : الصوف ، أو المصبوغ ألواناً . اهـ . قاموس .

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

---

فيعرضون عليه صفاً ، ليستعرضهم ، وينظر فى أعمالهم ، ويحكم فيهم ، بحكمه العدل ، الذى لا جور فيه ولا ظلم ، ويقول لهم : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » أى ، بلا مال ، ولا أهل ، ولا عشيرة ، ما معهم إلا الأعمال ، التى عملوها ، والمكاسب فى الخير والشر ، التى كسبوها كما قال تعالى :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » .

وقال هنا ، مخاطباً للمنكرين للبعث ، وقد شاهدوه عيانا : [ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ] أى : أنكرتم الجزاء على الأعمال ، ووعد الله ، ووعيده فيها ، قد رأيتموه وذقتموه .

فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التى كتبها الملائكة الأبرار .

فتطير لها القلوب ، وتعظم من وقعها ، الكروب ، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب ، ويشفق منها المجرمون .

فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم ، مُحْصًى عليهم أقوالهم وأفعالهم ، قالوا : [ ياوليتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ] أى : لا يترك خطيئة ، صغيرة ولا كبيرة ، إلا وهى مكتوبة فيه ، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية ، ولا ليل ولا نهار .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

[ ووجدوا ما عملوا حاضرا ] لا يقدرون على إنكاره [ ولا يظلم ربك أحدا ] .

فحينئذ يجازون بها ، ويقررون بها ، ويخزون ، ويحق عليهم العذاب ، « ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد » بل هم غير خارجين عن عدله وفضله .

* يخبر تعالى ، عن عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، إكراما وتعظيما ، وامتثالا لأمر الله .

فامتثلوا ذلك [ إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ] وقال : « أأسجد لمن خلقت طينا » وقال : « أنا خير منه » .

فتبين بهذا ، عداوته لله ولأبيكم ، فكيف تتخذونه وذريته أى : الشياطين ( أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ) .

أى : بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان ، الذى لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن ،الذى كل السعادة والفلاح والسرور فى ولايته .

وفى هذه الآية ، الحث على اتخاذ الشيطان عدوا ، والإغراء بذلك ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم

وأى ظلم ، أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقى . ولياً ، وترك الولى الحميد ؟! ! .

مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ

قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ].

وقال تعالى : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله » .

* يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين ، خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم .

أى : ما أحضرتهم ذلك ، ولا شاورتهم عليه ، فكيف يكونون خالقين لشىء من ذلك ؟ !

بل المنفرد بالخلق والتدبير ، والحكمة والتقدير ، هو الله ، خالق الأشياء كلها ، المتصرف فيها بحكمته .

فكيف يجعل له شركاء من الشياطين ، يوالون ويطاعون ، كما يطاع الله ، وهم لم يخلقوا ، ولم يشهدوا خلقا ، ولم يعاونوا الله تعالى ؟! .

ولهذا قال : [ وما كنت متخذ المضلين عضدا ] أى : معاونين ، مظاهرين لله على شأن من الشئون .

أى : ما ينبغى ، ولا يليق بالله ، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير ، لأنهم ساعون فى إضلال الخلق والعداوة لربهم ، فاللائق ، أن يقصيهم ولا يدنيهم.

ولما ذكر حال من أشرك به فى الدنيا ، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال ، وحكم بجهل صاحبه وسفهه ، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم

نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

---

القيامة ، وأن الله يقول لهم : [ نادوا شركائى ] بزعمكم أى : على موجب زعمكم الفاسد .

وإلا ، فالحقيقة ، ليس لله شريك فى الأرض ولا فى السماء ، أى: نادوهم ، لينفعوكم ، ويخلصوكم من الشدائد .

( فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ) لأن الحكم والملك يومئذ لله ، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ، ولا لغيره .

(وجعلنا بينهم) أى : بين المشركين وشركائهم (موبقا )أى ، مهلكا ، يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم من بعض ، ويتبين حينئذ ، عداوة الشركاء لشركائهم ، وكفرهم بهم ، وتبرِّيهم منهم ، كما قال تعالى « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

* أى : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل ، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم ، وحقت كلمة العذاب على المجرمين ، فرأوا جهنم قبل دخولها ، فانزعجوا ، واشتد قلقهم ، لظنهم أنهم مواقعوها ، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين ، فأيقنوا أنهم داخلوها [ ولم يجدوا عنها مصرفا ) أى : معدلا يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه .

وفى هذا من التخويف والترهيب ، ما ترعد له الأفئدة والقلوب .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

* يخبر تعالى، عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه وأنه صرّف فيه من كل مَثَل.

أى: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك.

ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادا، وطمأنينة، ونورا.

وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له، فى أمر من الأمور.

ومع ذلك، كان كثير من الناس، يجادلون فى الحق، بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل [ ليدحضوا به الحق ] ولهذا قال:

[ وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ] أى: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم.

والذى أوجب له ذلك، وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور فى بيانه وحجته، وبرهانه.

وإلا، فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال: [ وما منع الناس] إلى [ قُبُلاً ].

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ

---

* أى : ما منع الناس من الإيمان ، والحال أن الهدى الذى يحصل به الفرق ، بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد وصل إليهم ، وقامت عليهم حجة الله .

فلم يمنعهم عدم البيان ، بل منعهم الظلم والعدوان ، عن الإيمان .

فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله ، وعادته فى الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا ، عوجلوا بالعذاب ، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ، ورأوه مقابلة ومعاينة .

أى : فَلْيَخَافوا من ذلك ، وَلْيَتُوبوا من كفرهم ، قبل أن يكون العذاب الذى لا مرد له .

* أى : لم نرسل الرسل عبثاً ، ولا ليتخذهم الناس أربابا ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم .

بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، وينهون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك ، بالثواب العاجل والآجل ، وينذرونهم على معصية ذلك ، بالعقاب العاجل والآجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد.

ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون ، إلا المجادلة بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ

---

فسعوا فى نصر الباطل ، مهما أمكنهم ، وفى إدحاض الحق وإبطاله .

واستهزءوا برسل الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويظهر الحق على الباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» .

ومن حكمة الله ورحمته ، أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل ، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته ، وتبين الباطل وفساده ، فبضدها تتبين الأشياء .

* يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، من عبد ذُكِّر بآيات الله وبُيِّن له الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب ، فأعرض عنها .

فلم يتذكر بما ذُكِّر به ، ولم يرجع عما كان عليه ، ونسى ما قدمت يداه من الذنوب ، ولم يراقب علام الغيوب .

فهذا أعظم ظلماً ، من المعرض الذى لم تأته آيات الله ، ولم يذكر بها ، وإن كان ظالما ، فإنه أشد ظلما من هذا ، لكون العاصى على بصيرة وعلم ، أعظم ممن ليس كذلك .

وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ

---

ولكن الله تعالى ، عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ، ونسيانه لذنوبه ، ورضاه لنفسه ، حالة الشر ، مع علمه بها أن سد عليه أبواب الهداية ، بأن جعل على قلبه أكنة ، أى: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها ، فليس فى إمكانه ، الفقه الذى يصل إلى القلب .

[وفى آذانهم وقرا] أى : صمما يمنعهم من وصول الآيات ، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإن كانوا بهذه الحالة ، فليس لهدايتهم سبيل .

[ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا ] لأن الذى يرجى أن يجيب الداعى للهدى ، من ليس عالما .

وأما هؤلاء ، الذين أبصروا ثم عموا ، ورأوا طريق الحق فتركوه ، وطريق الضلال فسلكوه ، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها . فليس فى هدايتهم حيلة ولا طريق .

وفى هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه ، أن يحال بينه وبينه ، ولا يتمكن منه بعد ذلك ، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته ، وأنه يغفر الذنوب ، ويتوب الله على من يتوب ، فيتغمده برحمته ، ويشمله بإحسانه ، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب ، لعجل لهم العذاب .

ولكنه تعالى ، حليم لا يعجل بالعقوبة ، بل يمهل ، ولا يهمل .

لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

---

والذنوب لا بد من وقوع آثارها ، وإن تأخرت عنها مدة طويلة ، ولهذا قال :

[ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ] أى : لهم موعد ، يجازون فيه بأعمالهم ، لا بد لهم منه ، ولا مندوحة لهم عنه ، ولا ملجأ ، ولا محيد عنه .

وهذه سنته فى الأولين والآخرين ، أن لا يعاجلهم بالعقاب ، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة .

فإن تابوا وأنابوا ، غفر لهم ورحمهم ، وأزال عنهم العقاب .

وإلا ، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم ، وجاء الوقت الذى جعله موعداً لهم ، أنزل بهم بأسه .

ولهذا قال : [ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ] أى : بظلمهم ، لا بظلم منا [ وجعلنا لمهلكهم موعدا ] أى : وقتاً مقدرا ، لا يتقدمون عنه ، ولا يتأخرون .

۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا

---

☆ يخبر تعالى ، عن نبيه ، موسى عليه السلام ، وشدة رغبته فى الخير وطلب العلم ، أنه قال لفتاه ، أى : خادمه الذى يلازمه فى حضره وسفره ، وهو « يوشع بن نون » الذى نبأه الله بعد ذلك :

[ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ] أى : لا أزال مسافرا وإن طالت علىّ الشقة ، ولحقتنى المشقة ، حتى أصل إلى مجمع البحرين ، وهو : المكان الذى أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ، ما ليس عندك .

[ أو أمضى حقبا ] أى : مسافة طويلة .

المعنى : أن الشوق والرغبة ، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة .

وهذا عزم منه جازم ، فلذلك أمضاه .

[ فلما بلغا ] أى : هو وفتاه [ مجمع بينهما نسيا حوتهما ] وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثَمَّ ذلك العبد ، الذى قصدته ، فاتخذ ذلك الحوت سبيله ، أى : طريقه فى البحر سربا وهذا من الآيات .

قال المفسرون إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه ، لما وصلا إلى ذلك المكان ، أصابه بلل البحر ، فانسرب بإذن الله فى البحر ، وصار مع حيواناته حيا .

غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا

---

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه :

[ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ] أى : لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط ، وإلا فالسفر الطويل ، الذى وصلا به إلى مجمع البحرين ، لم يجدا من التعب فيه ، وهذا من الآيات والعلامات ، الدالة لموسى ، على وجود مطالبه .

وأيضا ، فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان ، سهل لهما الطريق ، فلما تجاوزا غايتهما ، وجدا مس التعب .

فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة ، قال له فتاه :

[ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ] لأنه السبب فى ذلك [واتخذ سبيله فى البحر عجبا] أى : لما انسرب فى البحر ، ودخل فيه ، كان ذلك من العجائب .

قال المفسرون : كان ذلك المسلك للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا .

فلما قال له الفتى هذا القول ، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت ، وجد الخضر ، فقال موسى :

[ ذلك ما كنا نبغ ] أى : نطلب [ فارتدا ] أى : رجعا [ على آثارهما قصصا ] أى : رجعا يقصان أثرهما ، الذى نسيا فيه الحوت .

نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ

---

فلما صلا إليه ، وجدا عبدا من عبادنا ، وهو الخضر ، وكان عبدا صالحا ، لا نبيا على الصحيح[1] .

[ آتيناه رحمة من عندنا ] أى : أعطاه الله رحمة خاصة ، بها زادعلمه ، وحسن عمله [ وعلمناه من لدنا ] أى : من عندنا [ علما ] .

وكان قد أعطى من العلم ، مالم يعط موسى ، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء ، وخصوصا فى العلوم الإيمانية ، والأصولية ، لأنه من أولى العزم من المرسلين ، الذين فضلهم الله على سائر الخلق ، بالعلم ، والعمل ، وغير ذلك .

فلما اجتمع به موسى ، قال له ، على وجه الأدب والمشاورة ، والإخبار عن مطلبه :

[ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ] أى : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمك الله ، ما به أسترشد وأهتدى ، وأعرف به الحق فى تلك القضايا ؟

---

(١) بل الصحيح أنه نبى بدليل قوله [ وما فعلته عن أمرى ] يعنى . أنه أوحى إليه فعل مافعل ، من خرق السفينة ، وقتل الغلام وبناء الجدار ، والوحى لا ينزل إلا على نبى . هذا هو التحقيق فى هذه المسألة .

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ

---

وكان الخضر ، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ، ما به يحصل له الاطلاع ، على بواطن كثير من الأشياء ، التي خفيت ، حتى على موسى عليه السلام .

فقال الخضر لموسى : لا أمتنع من ذلك ، ولكنك [ لن تستطيع معى صبرا ] .

أي : لا تقدر على اتباعي وملازمتي ، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور ، التي ظاهرها المنكر ، وباطنها غير ذلك ، ولهذا قال :

[ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ] أى : كيف تصبر على أمر ، ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله ؟

فقال موسى : [ ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ] وهذا عزم منه ، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به .

والعزم شيء ، ووجود الصبر شيء آخر ، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر .

فحينئذ قال له الخضر : [ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ] أى : لا تبتدئنى بسؤال منك وإنكار ، حتى أكون أنا الذى أخبرك بحاله ، فى الوقت الذى ينبغى إخبارك به .

لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا
قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا

---

فنهاه عن سؤاله ، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر .

[ فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ] أى : اقتلع الخضر منها ، لوحا ، وكان له مقصود فى ذلك ، سيبينه .

فلم يصبر موسى عليه السلام ، لأن ظاهره أنه منكر ، لأنه عيب للسفينة ، وسبب لغرق أهلها ، ولهذا قال موسى :

[ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا ] أى : عظيما شنيعا ، وهذا من عدم صبره عليه السلام ، فقال له الخضر :

[ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ] أى : فوقع كما أخبرتك .

وكان هذا من موسي ، نسياناً فقال : [ لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ] أى : لا تعسر على الأمر ، واسمح لى ، فإن ذلك وقع على وجه النسيان ، فلا تؤاخذنى فى أول مرة .

فجمع بين الإقرار به والعذر منه ، وأنه ما ينبغى لك أيها الخضر ، الشدة على صاحبك ، فسمح عنه الخضر .

لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ
شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ
مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ
ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ
أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا

---

[ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً ] أى : صغيراً [ فقتله ] الخضر .

فاشتد بموسى الغضب ، وأخذته الحمية الدينية ، حين قتل غلاماً صغيراً، لم يذنب .

[ قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ] .

وأى نكر مثل قتل الصغير ، الذى ليس عليه ذنب ، ولم يقتل أحد ؟!

وكان الأول من موسي نسياناً ، وهذه غير نسيان ، ولكن عدم صبر .

فقال له الخضر ، معاتباً ومذكراً : [ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ] .

فقال له موسي : [ إن سألتك عن شي بعدها ] أى : بعد هذه المرة [ فلا تصاحبنى ] أي : فأنت معذور بذالك ، وبترك صحبتى [ قد بلغت من لدنى عذراً ] أى أعذرت منى ، ولم تقصر .

[ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ] أى : استضافاهم [ فأبوا أن يضيفوهما فوجدافيها جداراً يريد أن ينقض] أى : عاب واستهدم [ فأقامه ] الخضر أى : بناه وأعاده جديداً .

فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

---

فقال له موسي : [ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، أي : أهل هذه القرية ، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم ، وأنت تبنيه من دون أجرة ، وأنت تقدر عليها ؟.

فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال ، واستعذر الخضر منه ، فقال له :

[ هذا فراق بيني وبينك ] فإنك شرطت ذلك على نفسك ، فلم يبق الآن عذر ، ولا موضع للصحبة .

[ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ] أي : سأخبرك بما أنكرت عليّ ، وأنبئك بأن لي في ذلك من المآرب ، وما يئول إليه الأمر .

[ أما السفينة ] التي خرقتها [ فكانت لمساكين يعملون في البحر ] يقتضي ذلك الرقة عليهم ، والرأفة بهم .

[ فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ] أي : كان مرورهم على ذلك الملك الظالم ، فكل سفينة صالحة تمر عليه ، ما فيها عيب ، غصبها وأخذها ظلما ، فأردت أن أخرقها ، ليكون فيها عيب ، فتسلم من ذلك الظالم .

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ

---

[ وأما الغلام ] الذى قتلته [ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ] .

وكان ذلك الغلام ، قد قدر عليه ، أنه لو بلغ ، لأرهق أبويه طغياناً وكفراً .

أى : لحملهما على الطغيان والكفر ، إما لأجل محبتهما إياه ، أو للحاجة إليه يحملهما على ذلك .

أى : فقتلته ، لاطلاعى على ذلك ، سلامة لدين أبويه المؤمنين ، وأى فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة ؟ !!

وهو وإن كان فيه إساءة إليهما ، وقطع لذريتهما ، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ، ما هو خير منه ، ولهذا قال :

[ فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ] أى : ولداً صالحاً ، زكياً ، واصلاً لرحمه .

فإن الغلام الذى قتل ، لو بلغ لعقهما أشد العقوق ، بحملهما على الكفر والطغيان .

[ وأما الجدار ] الذى أقمته [ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً ] أى : حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما ،

تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

---

لكونهما صغيرين ، عدما أباهما ، وحفظهما الله أيضاً ، بصلاح والدهما .

[ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ] أى : فلهذا هدمت الجدار ، واستخرجت ما تحته من كنزهما ، ورددته ، وأعدته مجاناً .

[ رحمة من ربك ] أى : هذا الذى فعلته رحمة من الله ، آتاها الله عبده الخضر [ وما فعلته عن أمرى ] أى : ما أتيت شيئا من قبل نفسى ، ومجرد إرادتى ، وإنما[1] ذلك من رحمة الله وأمره .

[ ذلك ] الذى فسرته لك [ تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ] .

وفى هذه القصة العجيبة الجليلة ، من الفوائد ، والأحكام ، والقواعد ، شىء كثير ، ننبه على بعضه بعون الله .

فمنها فضيلة العلم ، والرحلة فى طلبه ، وأنه أهم الأمور .

فإن موسى عليه السلام ، رحل مسافة طويلة ، ولقى النصب فى طلبه ، وترك القعود عند بنى إسرائيل ، لتعليمهم وإرشادهم ، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك .

ومنها : البداءة بالأهم فالأهم ، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان ، أهم من

---

(١) قوله « إنما ذلك الخ » الصحيح أن يقال « وإنما ذلك وحى من الله أوحاه إلىّ » .

. . . . . . . . . . .

---

ترك ذلك ، والاشتغال بالتعليم ، من دون تزود من العلم ، والجمع بين الأمرين أكمل .

ومنها : جواز أخذ الخادم فى الحضر والسفر لكفاية المؤن ، وطلب الراحة ، كما فعل موسى .

ومنها : أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه ، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه ، وأين يريده ، فإنه أكمل من كتمه .

فإن فى إظهاره ، فوائد من الاستعداد له ، واتخاذ عدته ، وإتيان الأمر على بصيرة ، وإظهار الشوق لهـذه العبادة الجليلة ، كما قال موسى : [ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ] .

وكما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أصحابه حين غزا تبوك ، بوجهه ، مع أن عادته التورية ، وذلك تبع للمصلحة .

ومنها : إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، على وجه التسويل والتزيين ، وإن كان الـكل بقضاء الله وقدره ، لقـول فتى موسى : [ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ] .

ومنها : جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس ، من نصب وجوع ، أو عطش ، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا ، لقول موسى : [ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ] .

ومنها : استحباب كون خادم الإنسان ، ذكياً فطناً كيساً ، ليتم له أمره الذى يريده .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله ، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله :

[ آتنا غداءنا ] إضافة إلى الجميع ، أنه أكل هو ، وهو جميعاً .

ومنها : أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به ، وأن الموافق لأمر الله ، يعان ما لا يعان غيره لقوله : [ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ] والإشارة إلى السفر المجاوز ، لمجمع البحرين .

وأما الأول ، فلم يشتك منه التعب ، مع طوله ، لأنه هو السفر على الحقيقة .

وأما الأخير ، فالظاهر أنه بعض يوم ، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة .

فالظاهر أنهم باتوا عندها ، ثم ساروا من الغد .

حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه « آتنا غداءنا » ، فحينئذ تذكر أنه نسيه ، فى الموضع الذى إليه منتهى قصده .

ومنها : أن ذلك العبد الذى لقياه ، ليس نبيا ، بل عبداً صالحاً ، لأنه وصفه بالعبودية ، وذكر مِنَّة الله عليه بالرحمة والعلم ، ولم يذكر رسالته ولا نبوته ، ولو كان نبياً ، لذكر ذلك ، كما ذكره غيره .

وأما قوله فى آخر القصة [ وما فعلته عن أمرى ] فإنه لا يدل على أنه

. . . . . . . . . . .

---

نبي[1] وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، كما يكون لغير الأنبياء ، كما قال تعالى [ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ] ، [ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً .

ومنها : أن العلم الذى يعلمه الله لعباده نوعان .

علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده .

---

(١) قوله « فإنه لا يدل على أنه نبي الخ » سبق أن قلنا إن التحقيق أنه نبي . ونزيد هنا ما قاله أبو السعود فى تفسيره ( فوجدا عبداً من عبادنا ) التنكير للتفخيم ، والإضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان . وقيل : اليسع ، وقيل : إلياس عليهم الصلاة والسلام ، (آتيناه رحمة من عندنا ) وهى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء ( وعلمناه من لدنا علماً ) خاصاً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب اهـ .

ونزيد ثانياً أن الله قال ( عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ) فلما أظهر الخضر على علم الغيب دل على أنه رسول بنص الآية التى ذكرناها لأنه تعالى خصص إظهار علم الغيب وحصره فى المرسلين وغيرهم لا يطلعه على شيء من علم الغيب وتنظير المؤلف ما أوحاه الله إلى الخضر بالوحى إلى النحل وبالوحى إلى أم موسى بعيد كل البعد عن مسألة الخضر فإن الوحى إلى النحل وإلى أم موسى ليس من الأمور الغيبية حتى يستقيم التنظير .

. . . . . . . . . . .

---

ونوع علم لدنى ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله [ وعلمناه من لدنا علماً ] .

ومنها : التأدب مع المعلم ، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب ، لقول موسى عليه السلام :

[ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ] فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، وأنك هل تأذن لى فى ذلك أم لا ، وإقراره بأنه يتعلم منه.

بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه بل يدعون أنه يتعاونون هم وإياه ، بل ربما ظن أحدهم أنه يعلم معلمه ، وهو جاهل جداً .

فالذل للمعلم ، وإظهار الحاجة إلى تعليمه ، من أنفع شيء للمتعلم .

ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه فإن موسى — بلا شك — أفضل من الخضر .

ومنها : تعلم العالم الفاضل ، للعلم الذي لم يتمهر فيه ، ممن مهر فيه ، وإن كان دونه فى العلم بدرجات كثيرة .

فإن موسى عليه السلام من أولى العزم من المرسلين ، الذين منحهم الله ، وأعطاهم من العلم ، ما لم يعط سواهم ، ولكن فى هذا العلم الخاص ، كان عند الخضر ، ما ليس عنده ، فلهذا حرص على التعلم منه .

فعلى هذا ، لا ينبغى للفقيه المحدث ، إذا كان قاصراً فى علم النحو ، أو الصرف ، أو نحوهما من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه ، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : إضافة العلم وغيره من الفضائل ، لله تعالى ، والإقرار بذلك ، وشكر الله عليها لقوله :

[تعلمن مما علمت] أى : مما علمك الله تعالى .

ومنها : أن العلم النافع ، هو العلم المرشد إلى الخير ، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير ، وتحذير عن طريق الشر ، أو وسيلة لذلك ، فإنه من العلم النافع .

وما سوى ذلك ، فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة لقوله : [أن تعلمن مما علمت رشداً] .

ومنها : أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم ، وحسن الثبات على ذلك ، أنه ليس بأهل لتلقى العلم .

فمن لا صبر له ، لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه ، أدرك به كل أمر سعى فيه ، لقول الخضر — يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى فى الأخذ عنه : إنه لا يصبر معه .

ومنها : أن السبب الكبير لحصول الصبر ، إحاطة الإنسان علماً وخبرة ، بذلك الأمر ، الذى أمر بالصبر عليه .

وإلا فالذى لا يدريه ، أو لايدرى غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله : [وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً] .

فجعل الموجب لعدم صبره ، عدم إحاطته خبراً بالأمر .

ومنها : الأمر بالتأنى والتثبت ، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشىء ، حتى يعرف ما يراد منه ، وما هو المقصود .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : تعليق الأمور المستقبلة التى من أفعال العباد بالمشيئة ، وأن لا يقول الإنسان للشيء : إنى فاعل ذلك فى المستقبل ، إلا أن يقول « إن شاء الله » .

ومنها : أن العزم على فعل الشيء ، ليس بمنزلة فعله ، فإن موسى قال : [ ستجدنى إن شاء الله صابراً ] فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل .

ومنها : أن المعلم إذا رأى المصلحة فى إيزاعه للمتعلم ، أن يترك الابتداء فى السؤال عن بعض الأشياء ، حتى يكون المعلم هو الذى يوقفه عليها ، فإن المصلحة تتبع .

كما إذا كان فهمه قاصراً ، أو نهاه عن الدقيق فى سؤال الأشياء التى غيرها أهم منها ، أو لا يدركها ذهنه ، أو يسأل سؤالا ، لا يتعلق بموضع البحث .

ومنها : جواز ركوب البحر ، فى غير الحالة التى يخاف منها .

ومنها : أن الناسى غير مؤاخذ بنسيانه ، لا فى حق الله ، ولا فى حقوق العباد لقوله : [ لا تؤاخذنى بما نسيت ] .

ومنها : أنه ينبغى للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم ، العفو منها ، وما سمحت به أنفسهم ، ولا ينبغى له أن يكلفهم ما لا يطيقون ، أو يشق عليهم ، ويرهقهم ، فإن هذا ، مدعاة إلى النفور منه والسآمة ، بل يأخذ المتيسر ، ليتيسر له الأمر .

ومنها : أن الأمور تجرى أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام

. . . . . . . . . .

---

الدنيوية ، فى الأموال ، والدماء وغيرها .

فإن موسى عليه السلام ، أنكر على الخضر خرقه السفينة ، وقتل الغلام ، وأن هذه الأمور ظاهرها ، أنها من المنكر .

وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها ، فى غير هذه الحال ، التى صحب عليها الخضر .

فاستعجل عليه السلام ، وبادر إلى الحكم فى حالتها العامة ، ولم يلتفت إلى هذا العارض ، الذى يوجب عليه الصبر ، وعدم المبادرة إلى الإنكار .

ومنها : القاعدة[1] الكبيرة الجليلة وهو أنه « يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير » ويراعى أكبر المصلحتين ، بتفويت أدناها .

---

( ١ ) وردت هذه القاعدة فى مجلة القوانين الشرعية والأحكام العدلية فى المادة ( ٢٧ ) بالصيغة الآتية .

« الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف » وفى المادة ( ٢٨ ) .

« إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما » .

وساق الشراح لذلك أمثلة :

منها : لو أشرفت سفينة على الغرق وكان فى طرح المال سلامة النفوس ، يطرح فى البحر من المال قدر ما يسلمها من الغرق .

ومنها : حبس الأب ، لو امتنع عن الإنفاق على ولده غير المكتسب .

ومنها : لو ابتلعت دجاجة لؤلؤة ، ينظر إلى أكثرها قيمة ، فيضمن صاحب الأكثر قيمة الأقل .

. . . . . . . . . . .

---

فإن قتل الغلام شر ، ولـكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما ، أعظم شراً منه .

وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته ، وإن كان يظن أنه خير ، فالخير ببقاء دين أبويه ، وإيمانهما ، خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر .

وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ، ما لا يدخل تحت الحصر .

فتزاحم المصالح والمفاسد كلها ، داخل فى هذا .

ومنها القاعدة الـكبيرة أيضاً وهى أن « عمل الإنسان فى مال غيره ، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة ، أنه يجوز ، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله ، إتلاف بعض مال الغير ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب ، فتسلم من غصب الملك الظالم .

فعلى هذا لو وقع حرق ، أو غرق ، أو نحوهما ، فى دار إنسان أو ماله ، وكان إتلاف بعض المال ، أو هدم بعض الدار ، فيه سلامة للباقى ، جاز للإنسان بل شرع له ذلك ، حفظاً لمال الغير .

وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ، ودفع إليه إنسان بعض المال ، إفتداء للباقى ، جاز ولو من غير إذن .

ومنها : أن العمل يجوز فى البحر ، كما يجوز فى البر لقوله : [ يعملون فى البحر ] ولم ينـكر عليهم عملهم .

ومنها : أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته ، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة ، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين ، لهم سفينة .

. . . . . . . . . . .

ومنها : أن القتل من أكبر الذنوب لقوله فى قتل الغلام [ لقد جئت شيئاً نكراً ] .

ومنها : أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله [ بغير نفس ] .

ومنها : أن العبد الصالح يحفظه الله ، فى نفسه ، وفى ذريته .

ومنها : أن خدمة الصالحين ، أو من يتعلق بهم ، أفضل من غيرها ، لأنه علل استخراج كنزهما ، وإقامة جدارهما ، بأن أباهما صالح .

ومنها : استعمال الأدب مع الله تعالى فى الألفاظ .

فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله [ فأردت أن أعيبها ] .

وأما الخير ، فأضافه إلى الله تعالى لقوله : [ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ] .

كما قال إبراهيم عليه السلام [ وإذا مرضت فهو يشفين ] .

وقالت الجن : [ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ] مع أن الكل بقضاء الله وقدره .

ومنها : أنه ينبغى للصاحب أن لا يفارق صاحبه ، فى حالة من الأحوال ، ويترك صحبته ، حتى يعتبه ، ويعذر منه ، كما فعل الخضر مع موسى .

ومنها : أن موافقة الصاحب لصاحبه ، فى غير الأمور المحذورة ، مدعاة ، وسبب لبقاء الصحبة ، وتأكدها ، كما أن عدم الموافقة ، سبب لقطع المرافقة .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا

* كان أهل الكتاب أو المشركون، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة ذى القرنين.

فأمره الله أن يقول: [سأتلو عليكم منه ذكراً] فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب.

أى: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة.

وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم.

[إنا مكنا له فى الأرض] أى: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ فى أقطار الأرض، وانقيادهم له.

[وآتيناه من كل شىء سبباً، فأتبع سبباً] أى: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له، لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصى العمران.

وعمل بتلك الأسباب، التى أعطاه الله إياها، أى: استعملها على وجهها.

فليس كل من عنده شىء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب.

فإذا اجتمعت القدرة على السبب الحقيقى، والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما، أو أحدهما لم يحصل.

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ

---

وهـذه الأسباب التي أعطاه الله إياها ، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها ، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم ، فلهذا ، لايسعنا غير السكوت عنها ، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها .

ولـكننا نعلم بالجملة ، أنها أسباب قوية كثيرة ، داخلية وخارجيـة ، بها صار له جند عظيم ، ذو عَدَدٍ وعُدَدٍ ونظام .

وبه تمكن من قهر الأعداء ، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنحائها .

فأعطاه الله ، ما بلغ به مغرب الشمس ، حتى رأى الشمس فى مرأى العين ، كأنها تغرب فى عين حمئة ، أى : سوداء ، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربى ماء ، رآها تغرب فى نفس الماء وإن كانت فى غاية الارتفاع ، ووجد عندها ، أى : عند مغربها قوماً .

[ قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ] أى : إما أن تعذبهم ، بقتل ، أو ضرب ، أو أسر ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم فَخُيِّرَ بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم كفار، أو فساق ، أو فيهم شىء من ذلك .

لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم يُرَخَّص له فى تعذيبهم .

فـكان عند ذى القرنين من السياسة الشرعية ، ما استحق به المدح والثناء ، لتوفيق الله له لذلك ، فقال : سأجعلهم قسمين .

فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ
أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ

---

[ أما من ظلم ] بالكفر [ فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ] أى : تحصل له العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة الآخرة .

[ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ] أى : فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة .

[وسنقول له من أمرنا يسرا] أى : وسنحسن إليه ، و نلطف له بالقول ، و نيسر له المعاملة .

وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء ، العادلين العالمين ، حيث وافق مرضاة الله فى معاملة كل أحد ، بما يليق بحاله .

* أى لما وصل إلى مغرب الشمس كرَّ راجعا ، قاصدا مطلعها ، متبعا للأسباب ، التى أعطاه الله .

فوصل إلى مطلع الشمس فـ [ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ] أى : وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس .

إما لعدم استعدادهم فى المساكن ، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم ، وعدم تمدنهم .

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

---

وإما لسكون الشمس ، دائمة عندهم ، لاتغرب غروبا يذكر ، كما يوجد ذلك فى شرقى أفريقيا الجنوبى .

فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض ، فضلا عن وصولهم إليه بأبدانهم .

ومع هذا ، فكل هذا بتقدير الله له ، وعلمه به ، ولهذا قال [ كذلك وقد أحطنا ] بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه ، حيثما توجه وسار .

[ ثم أتبع سبباحتى إذا بلغ بين السدين] قال المفسرون : ذهب متوجها من المشرق ، قاصدا للشمال ، فوصل إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا معروفين فى ذلك الزمان .

سدان من سلاسل الجبال ، المتصلة يَمْنَةً ويَسْرَةً حتى تتصل بالبحار ، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس .

وجد من دون السدين قوما ، لايكادون يفقهون قولا ، لعجمة ألسنتهم ، واستعجام أذهانهم وقلوبهم .

وقد أعطى الله ذا القرنين ، من الأسباب العلمية ، مافقه به ألسنة أولئك القوم ، وفقههم ، وراجعهم ، وراجعوه .

قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

---

فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بنى آدم فقالوا :

[ إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ] بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك .

[ فهل نجعل لك خرجا ] أى جُعْلاً [ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ]

ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم ، على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذى القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ، ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعى ، وهو : إفسادهم فى الأرض .

فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة فى الدنيا ، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية .

[ بل قصده الإصلاح ، فلذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم أجرة ، وشكر ربه على تمكينه واقتداره ، فقال لهم :

[ ما مكني فيه ربى خير ] أى : مما تبذلون لى وتعطونى ، وإنما أطلب منكم أن تعينونى بقوة منكم بأيديكم [ أجعل بينكم وبينهم ردما ] أى : مانعا من عبورهم عليكم .

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ
بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ
نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ

---

[ آتونى زبر الحديد ] أى : قطع الحديد ، فأعطوه ذلك .

[ حتى إذا ساوى بين الصدفين ] أى : الجبلين اللذين بني بينهما السد

[ قال انفخوا ] أى : أو قدوها إيقادا عظيما ، واستعملوا لها المنافيخ ، لتشتد ، فتذيب النحاس .

فلما ذاب النحاس ، الذى يريد أن يلصقه بين زبر الحديد [ قال آتونى أفرغ عليه قطرا ] أى : نحاسا مذابا .

فأفرغ عليه القطر ، فاستحكم السد استحكاما هائلا ، وامتنع به مَنْ وراءه من الناس ، من ضرر يأجوج ومأجوج .

[ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ] أى : فما لهم استطاعة ، ولا قدرة على الصعود عليه ، لارتفاعه ، ولا على نقبه لإحكامه وقوته .

فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال :

[ هذا رحمة من ربى ] أى : من فضله وإحسانه علىّ .

وهذه حال الخلفاء والصالحين ، إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ، ازداد شكرهم وإقرارهم ، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ ، مع البعد العظيم قال : «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر »

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

---

بخلاف أهل التجبر والتكبر ، والعلو فى الأرض فإن النعم الكبار ، تزيدهم أشرا وبطرا .

كما قال قارون — لما آتاه الله من الكنوز ، ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة قال : « إنما أوتيته على علم عندى »

وقوله : [ فإذا جاء وعد ربى ] أى : لخروج يأجوج ومأجوج [جعله] أى : ذلك السد المحكم المتقن [ دكاء] أى : دكه فانهدم ، واستوى هو والأرض [ وكان وعد ربى حقا ] .

[ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ] يحتمل أن الضمير ، يعود إلى يأجوج ومأجوج .

وأنهم إذا خرجوا على الناس — من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها — يموج بعضهم ببعض ، كما قال تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة ، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض ، من الأهوال والزلازل العظام ، بدليل قوله : [ وتركنا بعضهم ] إلى [ لا يستطيعون سمعا ]

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

---

أى : إذا نفخ إسرافيل فى الصور ، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد ، ثم حشرهم ، وجمعهم لموقف القيامة،الأولين منهم والآخرين ، والكافرين والمؤمنين ، ليسألوا ويحاسبوا ويجزوا بأعمالهم .

فأما الكافرون — على اختلافهم — فإن جهنم جزاؤهم ، خالدين فيها أبدا .

ولهذا قال : [ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ] كما قال تعالى : « وإذا الجحيم برزت» أى : عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم ، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها ، وحميمها ، وزمهريرها ، وليذوقوا من العقاب ، ماتبكم له القلوب ، وتصم الآذان ، وهذا آثار أعمالهم ، وجزاء أفعالهم .

فإنهم فى الدنيا [ كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ] أى : معرضين عن الذكر الحكيم ، والقرآن الكريم ، وقالوا : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » .

وفى أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى : « وعلى أبصارهم غشاوة » .

[وكانوا لا يستطيعون سمعا] أى : لايقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان ، لبغضهم القرآن والرسول .

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

---

فإن المبغض ، لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه .

فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر ، ولا عقل نافع ، فقد كفروا بالله ، وجحدوا آياته ، وكذبوا رسله ، فاستحقوا جهنم ، وساءت مصيرا .

* وهذا برهان وبيان ، لبطلان دعوى المشركين الكافرين ، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء ، شركاء لله يعبدونهم ، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ، ينجونهم من عذاب الله ، وينيلونهم ثوابه ، وهم قد كفروا بالله وبرسوله .

يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه فى العقول : [ أفحسب الذين كفرا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ] أى : لا يكون ذلك ولا يوالى ولِىُّ الله ، معاديا لله أبدا .

فإن الأولياء موافقون لله ، فى محبته ، ورضاه ، وسخطه ، وبغضه .

فيكون على هذا المعنى ، مشابها لقوله تعالى « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم » .

فمن زعم أنه يتخذ وَلِىَّ الله وليًّا له ، وهو معاد لله ، فهو كاذب .

ويحتمل — وهو الظاهر — أن المعنى : أفحسب الكفار بالله ، المنابذون لرسله ، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم ، وينفعونهم من دون الله ، ويدفعون عنهم الأذى ؟ .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

---

هذا حسبان باطل ، وظن فاسد ، فإن جميع المخلوقين ، ليس بيدهم من النفع والضر ، شيء .

ويكون هذا ، كقوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » ، « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » .

ونحو ذلك من الآيات التى يذكر الله فيها ، أن المتخذ من دونه وليا ينصره ويواليه ، ضال خائب الرجاء ، غير نائل لبعض مقصوده .

[ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ] أى ضيافة وقرى فبئس النزل نزلهم ، وبئست جهنم ، ضيافتهم .

* أى : قل يامحمد ، للناس — على وجه التحذير والإنذار — : هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق ؟

[ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ] أى : بطل واضمحل كل ماعملوه، من عمل ، وهم يحسبون أنهم محسنون فى صنعه .

فكيف بأعمالهم ، التى يعلمون أنها باطلة ، وأنها محادة لله ورسله ، ومعاداة ؟ ! !

فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم ، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؟ ألا ذلك هو الخسران المبين .

صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

---

[ أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه ] أى: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية ، الدالة على وجوب الإيمان به ، وملائكته ، ورسله ، وكتبه ، واليوم الآخر .

[ فحبطت ] بسبب ذلك [ أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ] لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات ، والنظر فى الراجح منها والمرجوح

وهؤلاء ، لا حسنات لهم، لعدم شرطها ، وهو: الإيمان ، كما قال تعالى « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » .

لكن تعد أعمالهم ، وتحصى ، ويقررون بها ، ويخزون بها على رءوس الأشهاد ، ثم يعذبون عليها ، ولهذا قال : [ ذلك جزاؤهم ] أى : حبوط أعمالهم ، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ، وزْنٌ ، لحقارتهم وخستهم ، بكفرهم بآيات الله ، واتخاذهم آياته ورسله ، هزوا يستهزئون بها ، ويسخرون منهم .

مع أن الواجب فى آيات الله ورسله ، الإيمان التام بها ، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام .

وهؤلاء عكسوا القضية ، فانعكس أمرهم ، وتعسوا ، وانتكسوا فى العذاب .

ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم ، بيَّن أعمال المؤمنين ومآلهم فقال : [ إن الذين آمنوا ] إلى [ حولا ] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

* أى : إن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم .

وشمل هذا الوصف جميع الدين ، عقائده ، وأعماله ، أصوله ، وفروعه الظاهرة ، والباطنة .

فهؤلاء — على اختلاف طبقاتهم من الإيمان ، والعمل الصالح — لهم جنات الفردوس .

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس ، أعلى الجنة ، ووسطها ، وأفضلها ، وأن هذا الثواب ، لمن كمل فيه الإيمان ، والعمل الصالح ، وهم الأنبياء والمقربون .

ويحتمل أن يراد بها ، جميع منازل الجنان ، فيشمل هذا الثواب ، جميع طبقات أهل الإيمان ، من المقربين ، والأبرار ، والمقتصدين ، كلٌّ بحسب حاله .

وهذا أولى المعنيين ، لعمومه ، ولذكر الجنة ، بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس ، وأن الفردوس يطلق على البستان ، المحتوى على الكرم ، أو الأشجار الملتفة ، وهذا صادق على جميع الجنة .

فجنة الفردوس ، نُزُلٌ ، وضيافة لأهل الإيمان ، والعمل الصالح .

وأى ضيافة أجل ، وأكبر ، وأعظم ، من هذه الضيافة ، المحتوية على كل نعيم ، للقلوب ، والأرواح ، والأبدان ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من المنازل الأنيقة ، والرياض الناضرة ، والأشجار المثمرة ، والطيور

. . . . . . . . . . .

---

المغردة المشجية ، والمآكل اللذيذة ، والمشارب الشهية ، والنساء الحسان ، والخدم ، والولدان ، والأنهار السارحة ، والمناظر الرائقة ، والجمال الحسى والمعنوى ، والنعمة الدائمة .

وأعلى ذلك وأفضله وأجله ، التنعم بالقرب من الرحمن [ ونيل رضاه ، الذى هو أكبر نعيم الجنان ، والتمتع برؤية وجهه الكريم ، وسماع كلام الرءوف الرحيم .

فلله تلك الضيافة ، ما أجلها وأجملها ، وأدومها ، وأكملها !!

وهى أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق ، أو تخطر على القلوب .

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم ، علماً حقيقياً ، يصل إلى قلوبهم ، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق ، ولتقطعت أرواحهم ، من ألم الفراق ، ولساروا إليها زرافات ووحداناً .

ولم يؤثروا عليها دنيا فانية ، ولذات منغصة متلاشية .

ولم يفوتوا أوقاتاً ، تذهب ضائعة خاسرة ، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب . آلاف مؤلفة .

ولكن الغفلة شملت . والإيمان ضعف ، والعلم قلّ ، والإرادة وهَتْ فكان ما كان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقوله [ خالدين فيها ] هذا هو تمام النعيم ، إن فيها ، النعم الكامل ، ومن تمامه أنه لا ينقطع [ لا يبغون عنها حولا ] .

أى : تحولا ولا انتقالا ، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم ، ويسرهم ويفرحهم ، ولا يرون نعيما فوق ما هم فيه .

﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

---

* أى قل لهم — مخبراً عن عظمة البارى ، وسعة صفاته ، وأنها لا يحيط العباد بشىء منها : [ لو كان البحر ] أى هذه الأبحر الموجودة فى العالم .

[مداداً لكلمات ربى ] أى : وأشجار الدنيا ، من أولها إلى آخرها ، من أشجار البلدان والبرارى ، والبحار ، أقلام .

[ لنفد البحر ] وتكسرت الأقلام [ قبل أن تنفد كلمات ربى ] وهذا شىء عظيم ، لا يحيط به أحد .

وفى الآية الأخرى « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » .

وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات ، منقضية منتهية .

وأما كلام الله ، فإنه من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ، ولا لها حد ولا منتهى .

فأىُّ سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله فوق ذلك .

وهكذا سائر صفات الله تعالى ، كعلمه ، وحكمته ، وقدرته ، ورحمته .

فلو جمع علم الخلائق ، من الأولين والآخرين ، أهل السموات وأهل

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

---

الأرض ، لكان بالنسبة إلى علم العظيم ، أقل(١) من نسبة عصفور ، وقع على حافة البحر ، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته .

ذلك بأن الله ، له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة ، وأن إلى ربك المنتهى .

* أى : (قل) يا محمد للكفاو وغيرهم : [ إنما أنا بشر مثلكم ] أى : لست بإله ، ولا لى شركة فى الملك ، ولا علم بالغيب ، ولا عندى خزائن الله .

( إنما أنا بشر مثلكم ) عبد من عبيد ربى ، [ يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ] أى : فضلت عليكم بالوحى ، الذى يوحيه إلى ، الذى أَجَلُّهُ الإخبار لكم ، أنما إلهكم إله واحد ، أى : لا شريك له ، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة ، وأدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه ، وينيلكم ثوابه ، ويدفع عنكم عقابه . ولهذا قال :

[ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ] وهو الموافق لشرع الله ، من واجب ومستحب .

---

( ١ ) قوله « أقل من نسبة عصفور الخ » لا يخفى ما فى هذا التعبير من الخلل . ولو قال « أقل من نسبة نقطة إلى البحر أخذها عصفور منه بمنقاره » لكان أوجز وأوضح .

وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

[ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ] أى : لا يرائى بعمله ، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى .

فهذا الذى جمع بين الإخلاص والمتابعة ، هو الذى ينال ما يرجو ويطلب .

وأما من عدا ذلك ، فإنه خاسر فى دنياه وأخراه ، وقد فاته القرب من مولاه ، ونيل رضاه .

آخر تفسير سورة الكهف ، ولله الحمد .

تفسير

# سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾

---

أى : هذا ( ذكر رحمة ربك عبده زكريا ] سنقصه عليك ، ونفصله تفصيلا ، يعرف به حالة نبيه زكريا ، وآثاره الصالحة ، ومناقبه الجميلة .

فإن فى قصها عبرة للمعتبرين ، وأسوة للمقتدين .

ولأن فى تفصيل رحمته لأوليائه ، وبأى سبب حصلت لهم ، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته ، والسبب الموصل إليه .

وذلك أن الله تعالى، اجتبى واصطفى ، زكريا عليه السلام لرسالته ، وخصه بوحيه .

فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين ، ودعا العباد إلى ربه ، وعلمهم ما علمه الله ، ونصح لهم فى حياته وبعد مماته ، كإخوانه من المرسلين ، ومن اتبعهم .

فلما رأى من نفسه الضعف ، وخاف أن يموت ، ولم يكن أحد ينوب منابه فى دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم ، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ

---

والباطن ، وناداه نداء خفيا ، ليكون أكمل ، وأفضل ، وأتم إخلاصاً فقال :

[ رب إنى وهن العظم منى ] أى : وَهِىَ وضعف ، وإذا ضعف العظم ، الذى هو عماد البدن ، ضعف غيره .

[ واشتعل الرأس شيباً ] لأن الشيب دليل الضعف والكبر ، ورسول الموت ، ورائده ، ونذيره .

فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه ، وهذا من أحب الوسائل إلى الله ، لأنه يدل التَّبَرِّى من الحول والقوة ، وتعلق القلب بحول الله وقوته .

[ ولم أكن بدعائك رب شقيا ] أى : لم تكن يارب تردنى خائباً ولا محروماً من الإجابة .

بل لم تزل بى حفياً ، ولدعائى مجيباً .

ولم تزل ألطافك تتوالى علىّ ، وإحسانك واصلا إلىّ .

وهذا توسل إلى الله ، بإنعامه عليه ، وإجابة دعواته السابقة .

فسأل الذى أحسن سابقاً ، أن يتمم إحسانه لاحقاً .

[ وإنى خفت الموالى من ورائى ] أى : وإنى خفت من يتولى على بنى إسرائيل من بعد موتى ، أى : لا يقوموا بدينك حق القيام ، ولا يدعوا عبادك إليك .

مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾
يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

---

وظاهر هذا ، أنه لم ير فيهم أحداً ، فيه لياقة للإمامة فى الدين .

وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ، ونصحه . وأن طلبه للولد ، ليس كطلب غيره ، قصده مجرد المصلحة الدنيوية ، وإنما قصده ، مصلحة الدين ، والخوف من ضياعه ، ورأى غيره ، غير صالح لذلك .

وكان بيته من البيوت المشهورة فى الدين ، ومعدن الرسالة ، ومظنة للخير.

فدعا الله أن يرزقه ولداً ، يقوم بالدين من بعده .

واشتكى أن امرأته عاقر ، أى ليست تلد أصلا ، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً ، أى : عمرا يندر معه وجود الشهوة والولد .

[ فهب لى من لدنك ولياً ] وهذه الولاية ، ولاية الدين ، وميراث النبوة والعلم والعمل .

ولهذا قال : [ يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ] أى : عبدا صالحا ترضاه ، وتحببه إلى عبادك .

والحاصل أنه سأل الله ولدا ، ذكرا ، صالحا ، يبقى بعد موته ، ويكون وليا من بعده ، ويكون نبيا مرضيا عند الله وعند خلقه ، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد .

ومن رحمة الله بعبده ، أن يرزقه ولدا صالحا ، جامعا لمكارم الأخلاق ، ومحامد الشيم .

فرحمه ربه ، واستجاب دعوته فقال : [ يازكريا ] إلى [ وعشيا ] .

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ
مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى

---

أى : بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له « يحيى».

وكان اسماً موافقا لمسماه : يحيا حياة حسية ، فتتم به المنة ، ويحيا حياة معنوية ، وهى حياة القلب والروح ، بالوحى والعلم والدين .

[ لم نجعل له من قبل سمياً ] أى : لم يسم هذا الاسم قبله أحد .

ويحتمل أن المعنى : لم نجعل له من قبل مثيلا ومسامياً .

فيكون ، بشارة بكماله ، واتصافه بالصفات الحميدة ، وأنه فاق من قبله .

ولكن على هذا الاحتمال[1] هذا العموم ، لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم ، وموسى ، ونوح عليهم الصلاة والسلام ، ونحوهم ، ممن هو أفضل من يحيى قطعاً .

فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود ، الذى طلبه ، استغرب وتعجب وقال :

[ رب أنى يكون لى غلام ] والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بى وبزوجتي ؟

---

( ١ ) قوله ( ولكن على هذا الاحتمال هذا العموم الخ ) تعبير قلق . ولو قال « ولكن هذا الاحتمال عام لا بد أن يخصص لئلا يلزم المحذور لأنه يلزم أنه أفضل من نوح وإبراهيم وموسى، والواقع أنهم أفضل من يحيى» لكان أسلس أسلوبا وأوضح للمعنى .

عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ
هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ
ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

---

وكأنه وقت دعائه ، لم يستحضر هذا المانع ، لقوة الوارد فى قلبه ، وشدة الحرص العظيم على الولد .

وفى هذه الحال ، حين قبلت دعوته ، تعجب من ذلك ، فأجابه الله بقوله :

[ كذلك قال ربك هو على هين ] أى : الأمر مستغرب فى العادة ، وفى سنة الله فى الخليقة ، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها فذلك هين عليه ، ليس بأصعب من إيجاده قبلُ ، ولم يكن شيئاً .

[ قال رب اجعل لى آية ] أى : يطمئن بها قلبى .

وليس هذا شكا فى خبر الله ، وإنما هو ، كما قال الخليل عليه السلام «رب أرنى كيف تحيي الموت ، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى» فطلب زيادة العلم ، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين ، فأجابه الله إلى طلبته ، رحمة به .

[ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ] وفى الآية الأخرى « ثلاثة أيام إلا رمزا » .

والمعنى واحد ، لأنه تارة يعبر بالليالى ، وتارة بالأيام ومؤداها واحد .

وهذا من الآيات العجيبة ، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام ، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة ، بل كان سويا ، لا نقص فيه — من الأدلة

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ

---

على قدرة الله الخارقة للعوائد ، ومع هذا ، ممنوع من الكلام ، الذى يتعلق بالآدميين وخطابهم .

وأما التسبيح ، والذكر ونحوه ، فغير ممنوع منه .

ولهذا قال فى الآية الأخرى « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإشراق » .

فاطمأن قلبه ، واستبشر بهذه البشارة العظيمة ، وامتثل لأمر الله له ، بالشكر ، بعبادته وذكره .

فعكف فى محرابه ، وخرج على قومه منه ، فأوحى إليهم .

أى : بالإشارة والرمز [ أن سبحوا بكرة وعشيا ] لأن البشارة بـ «يحيى» فى حق الجميع ، مصلحة دينية .

* دل الكلام السابق ، على ولادة يحيى ، وشبابه ، وتربيته .

فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب ، أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة ، أى : بجد واجتهاد .

وذلك بالاجتهاد فى حفظ ألفاظه ، وفهم معانيه ، والعمل بأوامره ونواهيه .

هذا تمام أخذ الكتاب بقوة .

فامتثل أمر ربه ، وأقبل على الكتاب ، لحفظه وفهمه ، وجعل الله فيه

صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا
بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ
يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

---

من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد فى غيره ولهذا قال: [وآتيناه الحكم صبيا].

[و]آتيناه أيضا [حنانا من لدنا] أى: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

[وزكاة] أى: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه، وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال:

[وكان تقيا] أى: فاعلا للمأمور، تاركا المحظور.

ومن كان مؤمنا تقيا، كان لله وليا، وكان من أهل الجنة، التى أعدت للمتقين.

وحصل له من الثواب الدنيوى والأخروى، مارتبه الله على التقوى.

[و] كان أيضا [براً بوالديه] أى لم يكن عاقا، ولا مسيئا إلى أبويه، بل كان محسنا إليهما بالقول والفعل.

[ولم يكن جبارا عصيا] أى لم يكن متجبرا متكبرا عن عبادة الله، ولا مترفعا عل عباد الله، ولا على والديه.

فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، فى جميع أحواله، مبادئها وعواقبها.

۞ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا

---

فلذا قال : [وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا] وذلك يقتضى سلامته من الشيطان ، والشر ، والعقاب فى هذه الأحوال الثلاثة وما بينها ، وأنه سالم من النار والأهوال ، ومن أهل دار السلام .

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى والده ، وعلى سائر المرسلين ، وجعلنا من أتباعهم ، إنه جواد كريم .

* لما ذكر قصة زكريا ويحيى ، وكانت من الآيات العجيبة ، انتقل ، منها إلى ما هو أعجب منها ، تدريجا من الأدنى إلى الأعلى فقال :

[ واذكر فى الكتاب] الكريم [مريم ] عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها ، أن تذكر فى الكتاب العظيم ، الذى يتلوه المسلمون ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، تذكر فيه بأحسن الذكر ، وأفضل الثناء ، جزاء لعملها الفاضل ، وسعيها الكامل .

أى : واذكر فى الكتاب مريم ، فى حالها الحسنة ، حين [ انتبذت ] أى : تباعدت عن أهلها [ مكانا شرقيا ] أى : مما يلى الشرق عنهم .

[ فاتخذت من دونهم حجابا ] أى : سترا ومانعا .

وهذا التباعد منها ، واتخاذ الحجاب ، لتعتزل ، وتنفرد بعبادة ربها ، وتقنت له فى حالة الإخلاص والخضوع ، والذل لله تعالى ، وذلك امتثال منها لقوله تعالى :

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا

---

« وإذ قالت الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » .

[ فأرسلنا إليها روحنا ] وهو : جبريل عليه السلام [ فتمثل لها بشرا سويا ] أى : كاملا من الرجال ، فى صورة جميلة ، وهيئة حسنة ، لا عيب فيه ولا نقص ، لكونها لاتحتمل رؤيته على ماهو عليه .

فلما رأته فى هذه الحال ، وهى معتزلة عن أهلها ، منفردة عن الناس ، قد اتخذت الحجاب عن أعزالناس عليها ،وهم أهلها ، خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء ، وطمع فيها ، فاعتصمت بربها ، واستعاذت منه فقالت له :

[ إنى أعوذ بالرحمن منك ] أى . ألتجىء به وأعتصم برحمته ، أن تنالنى بسوء .

[ إن كنت تقيا ] أى : إن كنت تخاف الله ، وتعمل بتقواه ، فاترك التعرض لى .

فجمعت بين الاعتصام بربها ، وبين تخويفه وترهيبه ، وأمره بلزوم التقوى ، وهى فى تلك الحالة الخالية ، والشباب ، والبعد عن الناس .

وهو فى ذلك الجمال الباهر ، والبشرية الكاملة السوية ، ولم ينطق لها بسوء ، أو يتعرض لها .

وإنما ذلك خوف منها ، وهذا أبلغ ما يكون من العفة ، والبعد عن الشر وأسبابه .

زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً

---

وهذه العفة ـــ خصوصا مع اجتماع الدواعى ، وعدم المانع ـــ من أفضل الأعمال .

ولذلك أثنى الله عليها فقال : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ، « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

فأعاضها الله بعفتها ، ولدا من آيات الله ، ورسولا من رسله .

فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة ، قال : [ إنما أنا رسول ربك ] أى ، إنما وظيفتى وشغلى ، تنفيذ رسالة ربى فيك [ لأهب لك غلاما زكيا ] .

وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه ، فإن الزكاء ، يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة ، واتصافه بالخصال الحميدة .

فتعجبت من وجود الولد من غير أب فقالت : [ أنى يكون لى غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ] والولد لا يوجد إلا بذلك ؟ ! ! .

[قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس] تدل على قدرة الله تعالى ، وعلى أن الأسباب جميعها ، لا تستقل بالتأثير ، وإنما تأثيرها بتقدير الله .

فيرى عباده خرق العوائد فى بعض الأسباب العادية ، لئلا يقفوا مع الأسباب ، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها [ ورحمة منا ] ولنجعله رحمة منا به ، وبوالدته ، وبالناس .

لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ

---

أما رحمة الله به ، فلما خصه الله بوحيه ومَنَّ عليه بما منَّ به على أولى العزم .

وأما رحمته بوالدته ، فلما حصل لها من الفخر ، والثناء الحسن ، والمنافع العظيمة .

وأما رحمته بالناس ، فإن أكبر نعمه عليهم ، أن بعث فيهم رسولا ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فيؤمنون به ، ويطيعونه ، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة .

[ وكان ] أى:وجود عيسى عليه السلام على هذه الحاله [ أمرا مقضيا ] قضاء سابقا ، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضا، فنفخ جبريل عليه السلام فى جيبها .

* أى : لما حملت بعيسى عليه السلام ، خافت من الفضيحة ، فتباعدت عن الناس [ مكانا قصيا ] .

فلما قرب ولادها ، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة .

فلما آلمها وجع الولادة ، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب ، ووجع قلبها من قالة الناس ، وخافت عدم صبرها ، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث ، وكانت نسيا منسيا ، فلا تذكر .

نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

---

وهذا التمني بناء على ذلك المزعج ، وليس فى هذه الأمنية خير لها ، ولا مصلحة ،

وإنما الخير والمصلحة ، بتقدير ما حصل فحينئذ سكّن الملك روعها [١] وثبّت جأشها[٢] وناداها من تحتها ، لعله من مكان أنزَلَ من مكانها ، وقال لها : لا تحزنى ، أى : لا تجزعى ولا تهتمى ، فـ[ قد جعل ربك تحتك سريا ] أى : نهراً تشربين منه .

[ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيًّا ] أى : طريا لذيذا نافعا [ فكلى ] من التمر ، [ واشربى ] من النهر [ وقرى عينا بعيسى ] .

فهذا طمأ نينتها من جهة السلامة من ألم الولادة ، وحصول المأكل والمشرب الهنيّ .

---

(١) قوله : روعها . بضم الراء . أى : قلبها . وفى المصباح « الروع » بضم الراء ــ : الخاطر والقلب .

(٢) قوله « جأشها » أى : قلبها . قال فى النهاية : الجأش: القلب والنفس والجنان يقال : فلان رابط الجأش . أى ثابت القلب لا يرتاع للعظائم والشدائد « وفى المختار من الصحاح « الجأش: رواع القلب أى: خوفه ، إذا اضطرب عند الفزع ، ونفس الإنسان »

ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ

---

وأما من جهة قالة الناس ، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر ، أن تقول على وجه الإشارة : [ إنى نذرت للرحمن صوما ] أى سكوتا [ فلن أكلم اليوم إنسيا ] أى : لا تخاطبيهم بكلام ، لتستريحى من قولهم وكلامهم .

وكان معروفا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة .

وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم فى نفى ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها ، ولا فيه فائدة ، وليكون تبرئتها بكلام عيسى فى المهد ، أعظم شاهد على براءتها .

فإن إتيان المرأة بولد ، من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد ، من أكبر الدعاوى ، التى لو أقيم عليها عدة من الشهود ، لم تصدق بذلك .

فجعلت بينة هذا الخارق للعادة ، أمرا من جنسه ، وهو كلام عيسى فى حال صغره جدا ، ولهذا قال تعالى : [فأتت به] إلى [ أبعث حيا ]

* أى : فلما تعلت مريم من نفاسها ، أتت بعيسى قومها تحمله ، وذلك ، لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها ، فأتت غير مبالية ولا مكترثة .

فقالوا : [ لقد جئت شيئا فريا ] أى: عظيما وخيما وأرادوا بذلك : البغاء حاشاها من ذلك .

شَيْئًا فَرِيا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ
وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ

---

[ يا أخت هرون ] الظاهر، أنه أخ لها حقيقى، فنسبوها إليه.

[ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ] أى: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصا هذا الشر، الذى يشيرون إليه.

وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟.

وذلك أن الذرية — فى الغالب — بعضها من بعض، فى الصلاح وضده.

فتعجبوا — بحسب ما قام بقلوبهم — كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أى كلموه.

وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن، تقول: [ إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ].

فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: [ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ] لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد فى ذلك السن.

فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو فى المهد صبى: [إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ]

فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة، يستحق بها أن يكون إلها، أو ابنا للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى — فى قوله [ إنى عبد الله ] ومدعون موافقته

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

---

[ آتاني الكتاب ] أي : قضى أن يؤتيني الكتاب [ وجعلني نبيا ] فأخبرهم بأنه عبد الله ، وأن الله علمه الكتاب ، وجعله من جملة أنبيائه ، فهذا من كماله لنفسه .

ثم ذكر تكميله لغيره فقال : [وجعلني مباركا أينما كنت] أي : في أي مكان ، وأي زمان .

فالبركة جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه ، والنهي عن الشر ، والدَّعوة إلى الله في أقواله ، وأفعاله فكل من جالسه ، أو اجتمع به ، نالته بركته ، وسعد به مصاحبه .

[ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ] أي : أوصاني بالقيام بحقوقه ، التي من أعظمها الصلاة ، وحقوق عباده ، التي أجلها الزكاة ، مدة حياتي ، أي : فأنا ممتثل لوصية ربي ، عامل عليها ، منفذ لها .

وأوصاني أيضاً ، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان ، وأقوم بما ينبغي لها ، لشرفها وفضلها ، ولكونها والدة ، لها حق الولادة وتوابعها .

[ ولم يجعلني جبارا ] أي : متكبرا على الله ، مترفعا على عباده [ شقيا ] في دنياي وأخراي ، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعا له خاضعا خاشعا متذللا ، متواضعا لعباد الله ، سعيدا في الدنيا والآخرة ، أنا ومن اتبعني .

فلما تم له الكمال ، ومحامد الخصال قال : [ وسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ] أي : من فضل ربي وكرمه ، حصلت لي

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ

---

السلامة يوم ولادتى ، ويوم بعثى — من الشر ، والشيطان والعقوبة .

وذلك يقتضى سلامته من الأهوال ، ودار الفجار ، وأنه من أهل دار السلام .

فهذه معجزة عظيمة،وبرهان باهر،على أنه رسول الله،وعبد الله حقا .

* أى : ذلك الموصوف بتلك الصفات ، عيسى بن مريم ، من غيرشك ولامرية . بل قول الحق ، وكلام الله ، الذى لا أصدق منه قيلا ، ولا أحسن منه حديثا .

فهذا الخبر اليقينى ، عن عيسى عليه السلام ، وما قيل فيه مما يخالف هذا ، فإنه مقطوع ببطلانه .

وغايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به ، ولهذا قال : [ الذى فيه يمترون ] أى : يشكون فيمارون بشكهم ، ويجادلون بخرصهم

فمن قائل عنه : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم ، علوا كبيرا .

فـ [ ما كان لله أن يتخذ من ولد ] أى : ما ينبغى ولا يليق ، لأن ذلك من الأمور المستحيلة ، لأنه الغني الحميد ، المالك لجميع الممالك ، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ، ولدا ؟!!

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

[ سبحانه ] أى : تنزه وتقدس عن الولد والنقص .

[ إذا قضى أمرا ] أى من الأمور الصغار والكبار ، لم يمتنع ، عليه ولم يستصعب [ فإنما يقول له كن فيكون ] .

فإذا كان قدره ومشيئته نافذا فى العالم العلوى والسفلى ، فكيف يكون له ولد ؟ ! ! .

وإذا كان إذا أراد شيئا قال له: « كن ، فيكون » فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب ؟ ! ! .

ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره فقال : [وإن الله ربى وربكم] الذى خلقنا ، وصورنا ، ونفذ فينا تدبيره ، وصرفنا تقديره .

[ فاعبدوه ] أى : أخلصوا له العبادة ، واجتهدوا فى الإنابة .

وفى هذا ، الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، والاستدلال بالأول على الثانى .

ولهذا قال : [ هذا صراط مستقيم ] أى : طريق معتدل ، موصل إلى الله ، لكونه طريق الرسل وأتباعهم ، وما عدا هذا ، فإنه من طرق الغىّ والضلال .

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا
مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ

---

* لما بين تعالى حال عيسى بن مريم الذى لايُشَكُّ فيها ولايمترى ، أخبر أن الأحزاب ، أى : فرق الضلال ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، على اختلاف طبقاتهم — اختلفوا فى عيسى عليه السلام ، فمن غالٍ فيه وجافٍ .

فمنهم من قال : إنه الله ، ومنهم من قال : إنه ابن الله .

ومنهم من قال : إنه ثالث ثلاثة .

ومنهم من لم يجعله رسولا ، بل رماه بأنه ولد بَغِيٍّ كاليهود .

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة ، وآراؤهم فاسدة ، مبنية على الشك والعناد ، والأدلة الفاسدة ، والشبه الكاسدة ، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد ، ولهذا قال :

[ فويل للذين كفروا ] بالله ورسله ، وكتبه . ويدخل فيهم ، اليهود والنصارى ، القائلون بعيسى قول الكفر .

[ من مشهد يوم عظيم ] أى : مشهد يوم القيامة ، الذى يشهده الأولون والآخرون ، أهل السموات ، وأهل الأرض ، الخالق والمخلوق ، الممتلىء بالزلازل والأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال .

فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ، وما كانوا يكتمون .

[ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ] أى : ما أسمعهم وما أبصرهم فى ذلك اليوم ؟! .

فيقررون بكفرهم وشركهم ، وأقوالهم ويقولون : « ربنا أبصرنا وسمعنا

ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ

---

فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » فنى القيامة ، يستيقنون حقيقة ماهم عليه .

[لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين] وليس لهم عذر فى هذا الضلال ، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة ، عارف بالحق ، صادف عنه ، وبين ضال عن طريق الحق ، متمكن من معرفة الحق والصواب ، ولـكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله ، غير ساع فى معرفة الحق من الباطل .

وتأمل كيف قال : [ فويل للذين كفروا ] بعد قوله [ فاختلف الأحزاب من بينهم ] .

ولم يقل « فويل لهم » ليعود الضمير إلى الأحزاب ، لأن من الأحزاب المختلفين ، طائفة أصابت الصواب ، ووافقت الحق فقالت فى عيسى : « إنه عبدالله ورسوله » فآمنوا به ، واتبعوه .

فهؤلاء مؤمنون ، غير داخلين فى هذا الوعيد ، فلهذا خص الله بالوعيد الـكافرين .

* الإنذار هو : الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب ، والإخبار بصفاته ، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد،يوم الحسرة حين يقضى الأمر ، فيجمع الأولون والآخرون فى موقف واحد ، ويسألون عن أعمالهم .

فمن آمن بالله ، واتبع رسله ، سعد سعادة لا يشقى بعدها .

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

---

ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شَقِىَ شقـاء لايسعد بعدها ، وخسر نفسه وأهله .

فحينئذ يتحسر ويندم ندامة ، تنقطع منها القلوب ، وتتصدع منها الأفئدة .

وأى : حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته ، واستحقاق سخطه والنار ، على وجه لايتمكن الرجوع ، ليستأنف العمل ولاسبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا ؟ ! !

فهذا قدامهم ، والحال أنهم فى الدنيا فى غفلة عن هذا الأمر العظيم لايخطر بقلوبهم ، ولو خطر ، فعلى سبيل الغفـلة ، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكرة ، فهم لايؤمنون بالله ، ولا يتبعون رسله .

قد ألهتهم دنياهم ، وحالت بينهم وبين الإيمـان ، شهواتهم المنقضية الفانية .

فالدنيا وما فيها ، من أولها إلى آخرها ، ستذهب عن أهلها ، ويذهبون عنها ، وسيرث الله الأرض ومن عليها ، ويرجعهم إليه ، فيجازيهم بماعملوا فيها ، وما خسروا فيها أو ربحوا .

فمن عمل خيرا ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه .

## ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا ﴾

* أجل الكتب وأفضلها وأعلاها ، هذا الكتاب المبين ، والذكر الحكيم .

فإن ذُكِرَ فيه الأخبار ، كانت أصدق الأخبار ، وأحقها ، وأنفعها .

وإن ذُكِرَ فيه الأمر والنهى ، كانت أجل الأوامر والنواهى ، وأعدلها وأقسطها .

وإن ذكر فيه الجزاء ، والوعد والوعيد ، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة ، والعدل والفضل .

وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون ، كان المذكور فيه ، أكمل من غيره ، وأفضل .

ولهذا كثيرا مايبدىء ويعيد فى قصص الأنبياء ، الذين فضلهم على غيرهم ، ورفع قدرهم ، وأعلى أمرهم ، بسبب ماقاموا به ، من عبادة الله ومحبته ، والإنابة إليه ، والقيام بحقوقه ، وحقوق العباد ، ودعوة الخلق إلى الله ، والصبر على ذلك ، والمقامات الفاخرة ، والمنازل العالية .

فذكر الله فى هذه السورة ، جملة من الأنبياء ، يأمر الله رسوله أن يذكرهم .

لأن فى ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم ، وبيان فضله وإحسانه إليهم .

وفيه الحث على الإيمان بهم ، ومحبتهم ، والاقتداء بهم ، فقال :

[ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ] جمع الله له بين الصديقية والنبوة .

نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ
وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ

---

فالصديق : كثير الصدق ، فهو الصادق فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله المصدق بكل ما أمر بالتصديق به .

وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب ، المؤثر فيه ، الموجب لليقين ، والعمل الصالح الكامل .

وإبراهيم عليه السلام ، هو أفضل الأنبياء كلهم ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة .

وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب .

وهو الذى دعا الخلق إلى الله ، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم .

فدعا القريب والبعيد ، واجتهد فى دعوة أبيه ، مهما أمكنه .

وذكر الله مراجعته إياه فقال : [ إذ قال لأبيه ] مهجنا له عبادة الأوثان [ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا ] .

أى : لم تعبد أصناما ، ناقصة فى ذاتها ، وفى أفعالها ، فلا تسمع ، ولا تبصر ولا تملك لعابدها ، نفعا ولا ضرا ، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع ، ولا تقدر على شىء من الدفع .

فهذا برهان جلىّ دال ، على أن عبادة الناقص ، فى ذاته ، وأفعاله ، مستقبح ، عقلا وشرعا .

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ

---

ودل تنبيهه وإشارته ، أن الذى يجب ، ويحسن ، عبادة من له الكمال الذى ، لا ينال العباد نعمة إلا منه ، ولا يدفع عنهم نقمة ، إلا هو ، وهو الله تعالى .

[ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ] أى : يا أبت لا تحقرنى وتقول : إنى ابنك ، وإن عندك ماليس عندى ، بل قد أعطانى الله من العلم ، مالم يعطك .

والمقصود من هذا قوله : [ فاتبعنى أهدك صراطا سويا ] أى : مستقيما معتدلا ، وهو : عبادة الله وحده لاشريك له ، وطاعته فى جميع الأحوال .

وفى هذا من لطف الخطاب ولينه ، مالا يخفى ؛ فإنه لم يقل « يا أبت أنا عالم ، وأنت جاهل » أو « ليس عندك من العلم شىء » .

وإنما أتى بصيغة أن عندى وعندك علما ، وأن الذى وصل إلىَّ لم يصل إليك ، ولم يأتك .

فينبغى لك أن تتبع الحجة ، وتنقاد لها .

[ يا أبت لاتعبد الشيطان ] لأن من عبد غير الله ، فقد عبد الشيطان كما قال تعالى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

[ إن الشيطان كان للرحمن عصيا ] فمن اتبع خطواته ، فقد اتخذه ولياً وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان .

أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾
قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

---

وفى ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن ، إشارة إلى أن المعاصى ، تمنع العبد من رحمة الله ، وتغلق عليه أبوابها .

كما أن الطاعة ، أكبر الأسباب لنيل رحمته ، ولهذا قال :

[ يا أبت إنِّى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ] أى : بسبب إصرارك على الكفر ، وتماديك فى الطغيان [ فتكون للشيطان ولياً ] أى : فى الدنيا والآخرة ، فتنزل بمنازله الذميمة ، وترتع فى مراتعه الوخيمة .

فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه ، بالأسهل فالأسهل .

فأخبره بعلمه ، وأن ذلك ، موجب لاتباعك إياى وأنك إن أطعتنى ، اهتديت إلى صراط مستقيم .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، وأخبره بما فيها من المضار .

ثم حذره عقاب الله ونقمته ، إن أقام على حاله ، وأنه يكون ولياً للشيطان .

فلم ينجع هذا الدعاء ، بذلك الشقىّ ، فأجاب بجواب جاهل وقال :

[ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ] فتبجح بآلهته ، التى هى من الحجر والأصنام .

ولام إبراهيم عن رغبته عنها ، وهذا من الجهل المفرط ، والكفر الوخيم ، يتمدح بعبادة الأوثان ، ويدعو إليها .

وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

[ لئن لم تنته ] أى : عن شتم آلهتى ، ودعوتى إلى عبادة الله [ لأرجمنك ] أى : قتلا بالحجارة [ واهجرنى مليا ] أي : لا تكلمنى زماناً طويلا .

فأجابه الخليل ، جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين ، ولم يشتمه بل صبر ، ولم يقابل أباه بما يكره ، وقال : [ سلام عليك ] أى : ستسلم من خطابى إياك بالشتم والسب ، وبما تكره .

[ سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ] أى : لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة ، بأن يهديك للإسلام ، الذى به تحصل المغفرة .

فـ [ إنه كان بى حفيا ] أى : رحيما رءوفا بحالى ، معتنيا بى .

فلم يزل يستغفر الله له ، رجاء أن يهديه الله .

فلما تبين له أنه عدو لله ، وأنه لا يفيد فيه شيئا ، ترك الاستغفار له ، وتبرأ منه .

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم ، فمن اتباع ملته ، سلوك طريقه فى الدعوة إلى الله ، بطريق العلم والحكمة ، واللين والسهولة ، والانتقال من رتبة إلى رتبة ، والصبر على ذلك ، وعدم السآمة منه ، والصبر على ما ينال الداعى من أذى الخلق ، بالقول والفعل ، ومقابلة ذلك ، بالصفح والعفو ، بل بالإحسان القولى والفعلى .

فلما أيس من قومه وأبيه قال : [وأعتز لكم وما تدعون من دون الله]

وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

---

أى : أنتم وأصنامكم [ وأدعو ربى ] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسئلة [ عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ] أى : عسى الله أن يسعدنى ، بإجابة دعائى ، وقبول أعمالى .

وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم ، فاتبعوا أهواءهم ، فلم تنجع فيهم المواعظ ، فأصروا فى طغيانهم يعمهون .

« فمن وقع فى هذه الحال فعليه »(١) أن يشتغل بإصلاح نفسه ، ويرجو القبول من ربه ، ويعتزل الشر وأهله .

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه ، من أشق شىء على النفس ، لأمور كثيرة معروفة ، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر وكان من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه ، واعتزل إبراهيم قومه ، قال الله فى حقه :

[ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا ] من إسحق ويعقوب [ جعلنا نبيا ] فحصل له ولهؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس ، الذين خصهم الله بوحيه ، واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين .

[ ووهبنا لهم ] أى : لإبراهيم وابنيه ، إسحق ويعقوب [ من رحمتنا ] .

---

(١) مابين القوسين ، زيادة يقتضيها المقام ، لينتظم الكلام .

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة ، من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والذرية الكثيرة المنتشرة ، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون .

[ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ] وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم ، لأن الله وعد كل محسن ، أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه ، وهؤلاء من أئمة المحسنين ، فنشر الله الثناء الحسن الصادق ، غير الكاذب ، العالى[1] غير الخفى فذكرهم ملأ الخافقين ، والثناء عليهم ومحبتهم ، امتلأت بها القلوب ، وفاضت بها الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين ، وأئمة للمهتدين .

ولا تزال أذكارهم فى سائر العصور ، متجددة ، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) قوله « العالى » هكذا فى الأصل . ولو قال « الظاهر » بدل « العالى » لكان هو الصواب ، ولظهر جمال الطباق بين المتضادين وهما « الظاهر » و « الخفى » .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ

---

* أى : واذكر فى هذا القرآن العظيم ، موسى بن عمران ، على وجه التبجيل له و التعظيم ، والتعريف بمقامه الكريم ، وأخلاقه الكاملة .

[ إنه كان مخلصا ] وقرىء بفتح اللام ، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه ، واصطفاه على العالمين .

وقرىء بكسرها ، على معنى أنه كان مخلصا لله تعالى ، فى جميع أعماله ، وأقواله ، ونياته .

فوصفه الإخلاص فى جميع أحواله ، والمعنيان متلازمان .

فإن الله أخلصه ، لإخلاصه ، وإخلاصه ، موجب لاستخلاصه .

وأجل حالة يوصف بها العبد ، الإخلاص منه ، والاستخلاص من ربه .

[ وكان رسولا نبيا ] أى : جمع الله له بين الرسالة والنبوة ، فالرسالة تقتضى تبليغ كلام المرسل ، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع ، دقه وجله .

والنبوة ، تقتضى إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحى إليه .

فالنبوة ، بينه وبين ربه ، والرسالة ، بينه وبين الخلق ، بل خصه الله من أنواع الوحى ، بأجل أنواعه وأفضلها ، وهو : تكليمه تعالى وتقريبه مناجيا لله تعالى ، وبهذا اختص من بين الأنبياء ، بأنه كليم الرحمن ، ولهذا قال :

[ وناديناه من جانب الطور الأيمن ] أى : الأيمن من موسى فى وقت

نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

مسيره ، أو الأيمن أى : الأبرك من « الْيُمْنِ » والبركة .

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : « أن بورك من فى النار ومن حولها » .

[ وقربناه نجيا ] والفرق بين النداء والنجاء ، أن النداء هو : الصوت الرفيع ، والنجاء ، مادون ذلك .

وفى هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه ، من النداء ، والنجاء ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، خلافا لمن أنكر ذلك ، من الجهمية ، والمعتزلة ، ومن نحا نحوهم .

وقوله : [ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ] هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ، ونصحه لأخيه هرون ، أنه سأل ربه أن يشركه فى أمره ، وأن يجعله رسولا مثله .

فاستجاب الله له ذلك ، ووهب له من رحمته ، أخاه هرون نبياً .

فنبوة هرون ، تابعة لنبوة موسى عليهما السلام ، فساعده على أمره ، وأعانه عليه .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

* أى : واذكر فى القرآن الكريم ، هذا النبي العظيم ، الذى خرج منه الشعب العربى ، أفضل الشعوب وأجلها ، الذين منهم سيد ولد آدم .

[ إنه كان صادق الوعد ] أى : لايعد وعداً ، إلا وفى به .

وهذا شامل للوعد الذى يعقده مع الله أو مع العباد .

ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له قال « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وفّى بذلك ومكّن أباه من الذبح ، الذى هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان .

ثم وصفه بالرسالة والنبوة ، التى هى أكبر منن الله على عبده ، وجعله من الطبقة العليا من الخلق .

[ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ] أى : كان مقيما لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود ، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصا أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم .

[ وكان عند ربه مرضيا ] وذلك بسبب امتثاله لمراضى ربه واجتهاده فيما يرضيه ، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين ، فرضى الله عنه ، ورضى هو عن ربه .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ

---

* أى : اذكر فى الكتاب على وجه التعظيم والإجلال ، والوصف بصفات الكمال .

[ إدريس إنه كان صديقا نبيا ] جمع الله له بين الصديقية ، الجامعة للتصديق التام ، والعلم الكامل ، واليقين الثابت ، والعمل الصالح ، وبين اصطفائه لوحيه ، واختياره لرسالته .

[ ورفعناه مكانا عليا ] أى : رفع الله ذكره فى العالمين ، ومنزلته بين المقربين ، فكان عالى الذكر ، عالى المنزلة .

* لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين ، وخواص المرسلين ، وذكر فضائلهم ومراتبهم فقال : [ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ] .

أى : أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق ، ومِنَّة لا تسبق ، من النبوة والرسالة .

وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم ، وأن من أطاع الله ، كان « مع الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين » الآية.

وأن بعضهم [ من ذرية آدم ، ممن حملنا مع نوح ] أى : من ذريته [ ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ] ، فهذه خير بيوت العالم ، اصطفاهم الله ، واختارهم ، واجتباهم .

وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟

---

وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم ، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر ، والوعد والوعيد .

[ خروا سجدا وبكيا ] أى : خضعوا لآيات الله ، وخشعوا لها ، وأثرت فى قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ، ما أوجب لهم البكاء والإنابة ، والسجود لربهم .

ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله « خروا عليها صما وعميانا » .

وفى إضافة الآيات إلى اسمه « الرحمن » دلالة على أن آياته ، من رحمته بعباده ، وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق ، وبصرهم من العمى ، وأنقذهم من الضلالة ، وعلمهم من الجهالة .

* لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء وهم المخلصون المتبعون لمراضى ربهم ، المنيبون إليه .

ذكر من أتى بعدهم ، وبدّلوا ما أُمِرُوا به ، وأنه خلف من بعدهم خلف ، رجعوا إلى الخلف والوراء ، فأضاعوا الصلاة ، التى أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها ، فتهاونوا بها وضيعوها .

وإذا ضيعوا الصلاة التى هى عماد الدين ، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين ، التى هى آكد الأعمال ، وأفضل الخصال ، كانوا لما سواها من دينهم ، أضيع ، وله أرفض .

ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ

والسبب الداعى لذلك ، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإرادتها فصارت هممهم منصرفة إليها ، مقدمة لها على حقوق الله .

فنشأ من ذلك،التضييع لحقوقه ، والإقبال على شهوات أنفسهم ، مهما لاحت لهم ، حصلوها ، وعلى أى وجه اتفقت ، تناولوها .

[ فسوف يلقون غيا ] أى : عذابا مضاعفا شديداً .

ثم استثنى تعالى فقال : [ إلا من تاب ] عن الشرك والبدع والمعاصى ، فأقلع عنها وندم عليها ، وعزم عزما جازما أن لا يعاودها .

[ وآمن ] بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

[ وعمل صالحاً ] وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله ، إذا قصد به وجهه .

[ فأولئك ] الذى جمعوا بين التوبة والإيمان ، والعمل الصالح .

[ يدخلون الجنة ] المشتملة على النعيم المقيم ، والعيش السليم ، وجوار الرب الكريم .

[ ولا يظلمون شيئا ] من أعمالهم ، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها ، مضاعفا عددها .

ثم ذكر أن الجنة التى وعدهم بدخولها ، ليست كسائر الجنات .

وإنما هى [ جنات عدن ] أى : جنات إقامة ، لاظعن فيها ، ولاحِوَلَ ولا زوال .

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ

---

وذلك لسعتها ، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور ، والبهجة والحبور .

[ التى وعد الرحمن عباده بالغيب ] ، أى : التى وعدها الرحمن .

أضافها إلى اسمه « الرحمن » لأن فيها من الرحمة والإحسان ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وسماها تعالى رحمته فقال « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وأيضا ففى إضافتها إلى رحمته ، مايدل على استمرار سرورها ، وأنها باقية ، ببقاء رحمته التى هى أثرها وموجبها .

و «العباد» فى هذه الآية المراد ، عباد إلهيته ، الذين عبدوه ، والتزموا شرائعه ، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله « وعباد الرحمن » ونحوه .

بخلاف عباده المماليك فقط ، الذين لم يعبدوه .

فهؤلاء وإن كانوا عبيدا لربوبيه ، لأنه خلقهم ورزقهم ، ودبرهم ، فليسوا داخلين فى عبيد إلهيته ، العبودية الاختيارية ، التى يمدح صاحبها ، وإنما عبوديتهم ، عبودية اضطرار ، لامدح لهم فيها .

وقوله [ بالغيب ] يحتمل أن تكون متعلقة بـ « وعد الرحمن » .

مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا

فيكون المعنى على هذا ، أن الله وعدهم إياها ، وعدا غائبا ، لم يشاهدوه ولم يروه .

فآمنوا بها ، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها ، مع أنهم لم يروها .

فكيف لو رأوها ، لكانوا أشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، وأكثر لها سعيا .

ويكون فى هذا ، مدح لهم بإيمانهم بالغيب ، الذى هو الإيمان النافع .

ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده ، أى : الذين عبدوه فى حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه .

فهذه عبادتهم ولم يروه ، فلو رأوه ، لكانوا أشد له عبادة ، وأعظم إنابة ، وأكثر حبا ، وأجل شوقا .

ويحتمل أيضا ، أن المعنى : هذه الجنات التى وعدها الرحمن عباده ، من الأمور التى لا تدركها الأوصاف ، ولا يعلمها أحد إلا الله .

ففيه من التشويق لها ، والوصف المجمل ، ما يهيج النفوس ، ويزعج الساكن إلى طلبها .

فيكون هذا مثل قوله « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » والمعانى كلها صحيحة ثابتة .

ولكن الاحتمال الأول ، أولى بدليل قوله [ إنه كان وعده مأتيا ] لا بد من وقوعه ، فإنه لا يخلف الميعاد ، وهو أصدق القائلين .

[ لا يسمعون فيها لغوا ] أى : كلاما لاغيا ، لافائدة فيه ، ولا ما يؤثم .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

---

فلا يسمعون فيها شتما ، ولا عيبا ، ولا قولا فيه معصية لله ، أو قولا مكدراً .

[ إلا سلاما ] أى : الأقوال السالمة من كل عيب ، من ذكر لله ، وتحية ، وكلام سرور ، وبشارة ، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان وسماع خطاب الرحمن ، والأصوات الشجية ، من الحور ، والملائكة ، والولدان ، والنغمات المطربة ، والألفاظ الرخيمة ، لأن الدار ، دار السلام ، فليس فيها إلا السلام التام فى جميع الوجوه .

[ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ] أى : أرزاقهم من المآكل والمشارب ، وأنواع اللذات ، مستمرة حيثما طلبوا ، وفى أى وقت رغبوا .

ومن تمامها ، ولذتها ، وحسنها ، أن تكون فى أوقات معلومة .

[ بكرة وعشياً ] ليعظم وقعها ويتم نفعها .

فتلك الجنة التى وصفناها بما ذكر [ التى نورث من عبادنا من كان تقيا ] أى : نورثها المتقين ، ونجعلها منزلهم الدائم ، الذى لا يظعنون عنه ، ولا يبغون عنها حِوَلاً كما قال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

۞ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا
وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ

---

* استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة فى نزوله إليه فقال له : « لو تأتينا أكثر مما تأتينا » ، شوقا إليه ، وتوحشا لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله .

فأنزل الله تعالى على لسان جبريل [ وما نتنزل إلا بأمر ربك ] أى : ليس لنا من الأمر شىء ، إن أُمرْنَا ، ابتدرنا أمره ، ولم نعص له أمرا ، كما قال الله عنهم : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فنحن عبيد مأمورون .

[ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ] أى : له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة ، فى الزمان ، والمكان .

فإذا تبين أن الأمر كله لله ، وأننا عبيد مدبرون ، فيبقى الأمر دائراً بين « هل تقتضيه الحكمة الإلهية » ؟ فينفذه ، أم لا تقتضيه فيؤخره » ؟ ولهذا قال :

[ وما كان ربك نسياً ] أى : لم يكن لينساك ويهملك ، كما قال تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى » .

بل لم يزل معتنياً بأمورك ، مجربا لك على أحسن عوائده الجميلة ، وتدابيره الجليلة .

أى : فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد ، فلا يحزنك ذلك، ولا يهمك، واعلم أن الله ، هو الذى أراد ذلك ، لما له من الحكمة فيه .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

---

ثم علل إحاطة علمه ، وعدم نسيانه ، بأنه [ رب السموات والأرض ] فربوبيته للسموات والأرض ، وكونهما على أحسن نظام وأكمله ، ليس فيه غفلة ولا إهمال ، ولا سُدًى ، ولا باطل ، برهان قاطع على علمه الشامل .

فلا تشغل نفسك بذلك ، بل اشغلها بما ينفعك ، ويعود عليك طائله وهو : عبادته وحده ، لا شريك له .

[ واصطبر لعبادته ] أى : اصبر نفسك عليها ، وجاهدها ، وقم عليها أتم القيام وأكمله بحسب قدرتك .

وفى الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات ، كما قال تعالى : «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ] إلى أن قال « وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » الآية .

[ هل تعلم له سمياً ] أى : هل تعلم لله مساميا ، ومشابها ، ومماثلا من المخلوقين .

وهذا استفهام بمعنى النّفْى ، المعلوم بالعقل .

أى : لا تعلم له مسامياً ولا مشابها ، لأنه الرب ، وغيره مربوب ، الخالق ، وغيره مخلوق ، الغنى من جميع الوجوه ، وغيره فقير بالذات من كل وجه .

الكامل ، الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال ، إلا ما أعطاه الله تعالى .

فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية وأن عبادته حق ، وعبادة ما سواه باطل ، فلهذا أمر بعبادته وحده ، والاصطبار عليها ، وعلل بكماله وانفراده ، بالعظمة ، والأسماء الحسنى .

* المراد بالإنسان ههنا ، كل منكر للبعث ، مستبعد لوقوعه .

فيقول — مستفهما على وجه النفى والعناد والكفر — [ أإذا مت لسوف أخرج حيا ] .

أى : كيف يعيدنى الله حيا بعد الموت ، وبعد ما كنت رميما ؟!!

هذا لا يكون ولا يتصور .

وهذا بحسب عقله الفاسد ، ومقصده السيء ، وعناده لرسل الله وكتبه .

فلو نظر أدنى نظر ، وتأمل أدنى تأمل ، لرأى استبعاده للبعث ، فى غاية السخافة .

ولهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا ، ودليلا واضحا ، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال :

حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ
شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ

---

[ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ، ولم يك شيئا ] أى : أولا يلفت نظره ، ويستذكر حالته الأولى ، وأن الله خلقه أول مرة ، ولم يك شيئا .

فمن قدر على خلقه من العدم ، ولم يك شيئا مذكورا ، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق ، وجمعه بعد ما تفرق ؟

وهذا كقوله « وهو الذى يبدىء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

وفى قوله [ أولا يذكر الإنسان ] دعوة للنظر ،بالدليل العقلى ، بألطف خطاب ، وأن إنكار من أنكر ذلك ، مبنى على غفلة منه عن حاله الأولى.
وإلا فلو تذكرها وأحضرها فى ذهنه ، لم ينكر ذلك .

* أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين — بربوبيته ، ليحشرن[1] هؤلاء المنكرين للبعث ، هم و شياطينهم وليجمعنهم لميقات يوم معلوم .

[ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ] أى : جاثين على ركبهم من شدة الأهوال ، وكثرة الزلزال ، وفظاعة الأحوال ، منتظرين لحكم الكبير

---

( ١ ) فى الأصل المطبوع « ليحشر »و «فيجمعهم » فأصلحنا الكلمتين كما ترى لينتظم الكلام على حسب مقتضى الكلام .

جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

---

المتعال ، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال :

[ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ] أى : ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين فى الظلم والكفر ، والعُتُو(١) أشدهم عتوا ، وأعظمهم ظلما ، وأكبرهم كفراً فيقدمهم إلى العذاب ، ثم هكذا يقدم إلى العذاب ، الأغلظ إثما ، فالأغلظ ، وهم فى تلك الحال متلاعنون ، يلعن بعضهم بعضا .

ويقول أخراهم لأولاهم :

« ربنا هؤلاء الذين أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا فى النار * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل » .

وكل هذا ، تابع لعدله . وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال :

[ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ] أى : علمنا محيط بمن هو أولى صليا بالنار ، وقد علمناهم ، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها ، وقسطها من العذاب .

---

( ٢ ) قوله « والعتو » كانت فى الأصل « والعتق » وهو خطأ لا معنى له .

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

---

* وهذا خطاب لسائر الخلائق ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، أنه ما منهم من أحد ، إلا سيرد النار ، حكما حتمه الله على نفسه ، وأوعد به عباده ، فلا بد من نفوذه ، ولا محيد عن وقوعه .

واختلف فى معنى الورود فقيل : ورودها ، حضورها للخلائق كلهم ، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد ، ثم بَعْدُ ، ينجى الله المتقين .

وقيل : ورودها ، دخولها وحضورها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً .

وقيل : الورود ، هو المرور على الصراط ، الذى هو على متن جهنم .

فيمر الناس على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، وكأجاويد الركاب .

ومنهم من يسعى ، ومنهم من يمشى مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف فيلقى فى النار ، كُلٌّ بحسب تقواه ، ولهذا قال :

[ ثم ننجى الذين اتقوا ! ] الله تعالى بفعل المأمور ، واجتناب المحظور .

[ ونذر الظالمين ] أنفسهم بالكفر والمعاصى [ فيها جثياً ] وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم ، وجب لهم الخلود ، وحق عليهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات ، أى : واضحات الدلالة على وحدانية الله ، وصدق رسله ، توجب لمن سمعها ، صدق الإيمان ، وشدة الإيقان - قابلوها بضد ما يجب لها ، واستهزءوا بها ، وبمن آمن بها واستدلوا بحسن حالهم فى الدنيا ، على أنهم خير من المؤمنين فقالوا معارضين للحق :

[ أى الفريقين ] أي : نحن والمؤمنين [ خير مقاما ] أى : فى الدنيا ، من كثرة الأموال والأولاد ، وتفوق الشهوات [وأحسن نديا ] أى مجلسا .

أى : فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة ، بسبب أنهم أكثر مالا وأولادا وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا ، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة .

والمؤمنون بخلاف هذه الحال ، فهم خير من المؤمنين ، وهذا دليل فى غاية الفساد .

وهو من باب قلب الحقائق ، وإلا فكثرة الأموال والأولاد ، وحسن المنظر ، كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه ، وشقائه ، وشره ، ولهذا قال تعالى :

[ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ] أى: متاعا ، من أوان وفرش ، وبيوت ، وزخارف [ ورئياً ] أى : أحسن مرأى ومنظراً ،

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

---

من غضارة العيش ، وسرور اللذات ، وحسن الصور .

فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا ورئيا ، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم ، فكيف يكون هؤلاء ، وهم أقل منهم وأذل ، معتصمين من العذاب « أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزبر » ؟

وعلم من هذا ، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا ، من أفسد الأدلة ، وأنه من طرق الكفار .

* لما ذكر دليلهم الباطل ، الدال على شدة عنادهم ، وقوة ضلالهم ، أخبر هنا ، أن من كان فى الضلالة ، بأن رضيها لنفسه ، وسعى فيها ، فإن الله يمده منها ، ويزيده فيها حبا ، عقوبة له على اختيارها على الهدى قال تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

[ حتى إذا رأوا ] أى : القائلون « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا [ ما يوعدون إما العذاب ] بقتل أو غيره [ وإما الساعة ] التى هى باب الجزاء على الأعمال [ فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ] أى : فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم ، وأنها دعوى مضمحلة ، ويتيقنون أنهم أهل الشر .

[ وأضعف جنداً ] ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا ، لأنه لا يمكنهم

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

الرجوع إلى الدنيا ، فيعملون غير عملهم الأول .

* لما ذكر أنه يمد للظالمين فى ضلالهم ، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته .

والهدى يشمل العلم النافع ، والعمل الصالح .

فكل من سلك طريقاً فى العلم والإيمان ، والعمل الصالح ،زاده الله منه وسهله عليه ، ويسره له ، ووهب له أموراً أخر ، لا تدخل تحت كسبه .

وفى هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه ، كما قاله السلف الصالح .

ويدل عليه قوله تعالى«ليزداد الذين آمنوا إيمانا » « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » .

ويدل عليه أيضا ، الواقع ، فإن الإيمان قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، والمؤمنون متفاوتون فى هذه الأمور ، أعظم تفاوت .

ثم قال : [ والباقيات الصالحات ] أى الأعمال الباقية ، التى لا تنقطع إذا انقطع غيرها ، ولا تضمحل ، هى الصالحات منها ، من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ، وعمرة ، وقراءة ، وتسبيح ، وتكبير ، وتحميد ، وتهليل ، وإحسان إلى المخلوقين ، وأعمال قلبية وبدنية .

فهذه الأعمال [ خير عند ربك ثوابا وخير مرداً ] أى : خير عند الله ، ثوابها وأجرها ، وكثير للعاملين نفعها وردها ، وهذا من باب استعمال

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا

---

أفعل التفضيل فى غير بابه ، فإنه ما ثَمَّ غير الباقيات الصالحات ، عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ، ولا ينجع .

ومناسبة ، ذكر الباقيات الصالحات ، والله أعلم — أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد ، وحسن المقام ونحو ذلك ، علامة لحسن حال صاحبها ، أخبر هنا أن الأمر ، ليس كما زعموا .

بل العمل الذى هو عنوان السعادة ، ومنشور الفلاح ، بما يحبه الله ويرضاه .

* أى : أفلا تعجب من حالة هذا الكافر ، الذى جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة ، أنه سيؤتَى فى الآخرة مالا وولدا ، أى : يكون من أهل الجنة ، هذا من أعجب الأمور .

فلو كان مؤمنا بالله وادعى هذه الدعوى ، لسهل الأمر .

وهذه الآية وإن كانت نازلة فى كافر معين ، فإنها تشمل كل كافر ، معين ، فإنها تشمل كل كافر ، زعم أنه على الحق ، وأنه من أهل الجنة .

قال الله ، توبيخاً له وتكذيبا : [ أطلع الغيب ] أى : أحاط علمه بالغيب ، حتى علم ما يكون ، وأن من جملة ما يكون ، أنه يؤتَى يوم القيامة مالا وولدا ؟

[ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ] أنه نائل ما قاله ، أى : لم يكن شىء من ذلك ، فعلم أنه مُتَقَوِّلٌ ، قائل ما لا علم لديه .

وهذا التقسيم والترديد ، فى غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة .

سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

فإن الذى يزعم أنه حاصل له خير عندالله فى الآخرة ، لا يخلو .

إما أن يكون قوله صادرا عن علم بالغيوب المستقبلة ، وقد علم أن هذا ، لله وحده ، فلا أحد يعلم شيئا من المستقبلات الغيبية ، إلا من أطلعه الله عليه من رسله .

وإما أن يكون متخذا عهدا عندالله ، بالإيمان به ، واتباع رسله ، الذين عهد الله لأهله ، وأوزع أنهم أهل الآخرة ، والناجون الفائزون .

فإذا انتفى هذان الأمران ، علم بذلك ، بطلان الدعوى ، ولهذا قال تعالى :

[ كلا ] أى : ليس الأمر كما زعم ، فليس للقائل اطلاع على الغيب . لأنه كافر ، ليس عنده من علم الرسائل شىء ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا ، لكفره وعدم إيمانه .

ولكنه يستحق ضد ما تقوّل ، وأن قوله مكتوب ، محفوظ ، ليجازى عليه ويعاقب .

ولهذا قال : [ سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً ] أى : نزيده من أنواع العقوبات ، كما ازداد من الغى والضلال .

[ ونرثه ما يقول ] أى : نرثه ماله وولده ، فينتقل من الدنيا فردا ، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ، ولا أعوان [ ويأتينا فردا ] فيرى من وخيم العقاب ، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين .

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* وهذا من عقوبة الكافرين أنهم — لما لم يعتصموا بالله ،ولم يتمسكوا بحبل الله ، بل أشركوا به ووالوا أعداءه ، من الشياطين — سلطهم عليهم ، وقيضهم .

فجعلت الشياطين ، تؤزهم إل المعاصى أزا ، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجا ، فيوسوسون لهم ، ويوحون إليهم ، ويزينون لهم الباطل ، ويقبحون لهم الحق .

فيدخل حب الباطل في قلوبهم ، ويتشربها فيسعى فيه سعى المحق فى حقه فينصره بجده ، ويجاهد أهل الحق فى سبيل الباطل .

وهذا كله ، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه جعل له عليه سلطانه.

وإلا فلو آمن بالله ، وتوكل عليه ، لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى :

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » .

[ فلا تعجل عليهم ] أى على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب [ إنما نعد لهم عدا ] أى أن لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله ، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين ، المتقين ، والمجرمين .

وأن المتقين له ـ باتقاء الشرك والبدع والمعاصى ـ يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين ، مبجلين معظمين .

وأن مآلهم الرحمن ، وقصدهم المنان ، وفداً إليه .

والوافد ، لابد أن يكون فى قلبه ، من الرجاء ، وحسن الظن بالوافد إليه ، ما هو معلوم .

فالمتقون ، يفدون إلى الرحمن ، راجين من رحمته ، وعميم إحسانه ، والفوز بعطاياه فى دار رضوانه ، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه ، واتباع مراضيه ، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب ، على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به ، واثقين بفضله .

وأما المجرمون ، فإنهم يساقون إلى جهنم وردا ، أى : عطاشا .

وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار ، إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة ، وهو جهنم ، فى حال ظمأهم ونصبهم ، يستغيثون ، فلا يغاثون ، ويدعون ، فلا يستجاب لهم ، ويستشفعون ، فلا يشفع لهم ، ولهذا قال :

[ لايملكون الشفاعة ] أى : ليست الشفاعة ملكهم ، ولا لهم منها شىء ، وإنما هى لله تعالى « قل لله الشفاعة جميعا » .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا
إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ
ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ

---

وقد أخبر أنه ، لاتنفعهم شفاعة الشافعين ، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدابالإيمان به وبرسله .

وإلا ، فمن اتخذ عنده عهداً فآمن به وبرسله ، واتبعهم ، فإنه ممن ارتضاه الله ، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى:«ولا يشفعون إلالمن ارتضى»

وسمى الله الإيمان به ، واتباع رسله ، عهدا ، لأنه عهد فى كتبه ، وعلى ألسنة رسله ، بالجزاء الجميل ، لمن اتبعهم .

* وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين ، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا كقول النصارى « المسيح ابن الله » واليهود « عزير ابن الله » والمشركين « الملائـكة بنات الله » تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

[ لقد جئتم شيئا إدا ] أى : عظيما وخيما .

من عظيم أمره أنه [ تـكاد السموات ] على عظمتها وصلابتها [ يتفطرون منه ] أى : من هذا القول [ وتنشق الأرض ] منه ، تتصدع وتنفطر [ وتخر الجبال هدًّا ] أى : تندك الجبال .

[ أن دعوا للرحمن ولدا ] أي : من أجل هذه الدعوى القبيحة ، تـكاد هذه المخلوقات ، أن يكون منها ما ذكر .

والحال أنه : [ ما ينبغى ] أى : لا يليق ولا يكون [ للرحمن أن

أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

---

يتخذ ولدا ] وذلك لأن اتخاذه الولد ، يدل على نقصه واحتياجه ، وهو الغني الحميد .

والولد أيضا ، من جنس والده ، والله تعالى ، لا شبيه له ، ولا مثل ، ولا سَمِيّ .

[ إن كل من فى السموات والأرض ، إلا آتى الرحمن عبدا ] أى : ذليلا منقادا ، غير متعاص ولا ممتنع ، الملائكة ، والإنس ، والجن وغيرهم .

الجميع مماليك ، متصرف فيهم ليس لهم من الملك شىء ، ولا من التدبير شىء .

فكيف يكون له ولد ، وهذا شأنه وعظمة ملكه؟ ! ! .

[ لقد أحصاهم وعدهم عدا ] أى : لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم ، أهل السموات والأرض ، وأحصاهم ، وأحصى أعمالهم ، فلا يضل ولا ينسى ، ولا تخفى عليه خافية .

[وكلهم آتيه يوم القيمة فردا] أى : لا أولاد ، ولا مال ، ولاأنصار ، ليس معه ، إلا عمله ، فيجازيه الله ، ويوفيه حسابه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر كما قال تعال « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ

---

* هذا من نعمه على عباده ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، أن يجعل لهم ودا أى : محبة ووداداً فى قلوب أوليائه ، وأهل السماء والأرض .

وإذا كان لهم من الخيرات ، والدعوات ، والإرشاد ، والقبول ، والإمامة ، ما حصل ، ولهذا ورد فى الحديث الصحيح .

« إن الله إذا أحب عبداً ، نادى جبريل : إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل .

ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وإنما جعل الله لهم ودا ، لأنهم ودوه ، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه .

* يخبر تعالى عن نعمته ، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم :

يسر ألفاظه ومعانيه ، ليحصل المقصود منه ، والانتفاع به .

[ لتبشر به المتقين ] بالترغيب فى المبشر به من الثواب العاجل والآجل ، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة .

[ وتنذر به قوما لدا ] أى : شديدين فى باطلهم ، أقوياء فى كفرهم ، فتنذرهم .

قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

---

فتقوم عليهم الحجة ، وتتبين لهم المحجة ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة .

ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال :

[ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ] من قوم نوح ، وعاد، وثمود ، وغيرهم من المعاندين المكذبين ، لما استمروا فى طغيانهم ، أهلكهم الله فليس لهم من باقية .

[ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ] والركز : الصوت الخفى ، أى : لم يبق منهم عين ولا أثر ، بل بقيت أخبارهم ، عبرة للمعتبرين ، وأسمارهم ، عظة للمتعظين .

تم تفسير سورة مريم ، ولله الحمد والشكر

# تفســـير

# سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾

---

☆ [ طه ] من جملة الحروف المقطعة ، المفتتح بها كثير من السور ، وليست اسما للنبي ، صلى الله عليه وسلم .

[ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ] أى : ليس المقصود بالوحى ، وإنزال القرآن عليك ، وشرع الشريعة ، لتشقى بذلك ، ويكون فى الشريعة تكليف ، يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين .

وإنما الوحى ، والقرآن والشرع ، شرعه الرحيم الرحمن ، وجعله موصلا للسعادة ، والفلاح ، والفوز ، وسهله غاية التسهيل ، ويسر كل طرقه وأبوابه ، وجعله غذاء للقلوب والأرواح ، وراحة للأبدان .

فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، بالقبول ، والإذعان ، لعلمها بما احتوى عليه ، من الخير فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

[ إلا تذكرة لمن يخشى ] أى : إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى ، فيتذكر ما فيه من الترغيب ، لأجل المطالب ، فيعمل بذلك ، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران ، فيرهب منه ، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة ، التى كانت مستقرا فى عقله حسنها مجملا ، فوافق التفصيل مايجده فى فطرته وعقله ، ولهذا سماه الله « تذكرة » .

والتذكرة لشىء كان موجوداً ، إلا أن صاحبه غافل عنه ، أو غير مستحضر لتفصيله .

وخص بالتذكرة « من يخشى » لأن غيره لا ينتفع به .

وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ، ولا فى قلبه من خشية الله مثقال ذرة ؟ هذا ما لا يكون .

« سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى » .

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم ، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات ، المدبر لجميع المخلوقات .

أى : فاقبلوا تنزيله ، بغاية الإذعان ، والمحبة ، والتسليم ، وعظموه نهاية التعظيم .

وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر ، كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله : « ألا له الخلق والأمر » وفى قوله : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » وذلك أنه الخالق الآمر الناهى .

فكما أنه لا خالق سواه ، فليس على الخلق إلزام ، ولا أمر ، ولا نهى إلا من خالقهم .

ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ

---

وأيضاً ، فإن خلقه للخاق ، فيه من التدبير القدرى الكونى ، وأمره ، فيه التدبير الشرعى الدينى .

فكما أن الخلق لايخرج عن الحكمة ، فلم يخلق شيئاً عبثا ، فكذلك لا يأمر ولا ينهى ، إلا بما هو عدل ، وحكمة ، وإحسان .

فلما بين أنه الخالق المدبر ، الآمر الناهى ، أخبر عن عظمته وكبريائه ، فقال :

[الرحمن على العرش] الذى هو أرفع المخلوقات وأعظمها ، وأوسعها .

[ استوى ] استواء يليق بجلاله ، ويناسب عظمته وجماله ، فاستوى على العرش ، واحتوى على الملك .

[ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ] من مَلَكٍ وإنسى وجنى ، وحيوان ، وجماد ، ونبات .

[ وما تحت الثرى ] أى الأرض ، فالجميع ملك لله ، تعالى ، عبيد مدبرون مسخرون ، تحت قضائه وتدبيره ليس لهم من الملك شىء ، ولا يملكون لأنفسهم ، نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا .

[ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر ] الكلام الخفى [وأخفى] من السر ، الذى فى القلب ، ولم ينطق به ، أو السر : ما خطر على القلب « وأخفى » : ما لم يخطر ، يعلم تعالى أنه يخطر فى وقته ، وعلى صفته .

بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

---

المعنى : أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء ، دقيقها ، وجليها خفيها ، وظاهرها .

فسواء جهرت بقولك أو أسررته ، فالكل سواء ، بالنسبة لعلمه تعالى .

فلما قرر كماله المطلق ، بعموم خلقه ، وعموم أمره ونهيه ، وعموم رحمته ، وسعة عظمته ، وعلوه على عرشه ، وعموم ملكه ، وعموم علمه ، نتج من ذلك ، أنه المستحق للعبادة ، وأن عبادته هى الحق التى يوجبها الشرع ، والعقل ، والفطرة . وعبادة غيره باطلة ، فقال :

[ الله لا إله إلا هو ] أى : لا معبود بحق ، ولا مألوه بالحب والذل ، والخوف والرجاء ، والمحبة والإنابة والدعاء ، إلا هو .

[ له الأسماء الحسنى ] أى : له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى .

من حسنها ، أنها كلها ، أسماء دالة على المدح .

فليس فيها ، اسم لا يدل على المدح والحمد .

ومن حسنها ، أنها ليست أعلاما محضة ، وإنما هى أسماء وأوصاف .

ومن حسنها ، أنها دالة على الصفات الكاملة ، وأن له من كل صفة ، أكملها ، وأعمها ، وأجلها .

ومن حسنها ، أنه أمر العباد أن يدعوه بها ، لأنها وسيلة مقربة إليه ، يحبها ، ويحب من يحبها ، ويحب من يحفظها ، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها ، قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » .

وَهَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم على وجه الاستفهام التقريرى والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها : [وهل أتاك حديث موسى] فى حاله التى هى مبدأ سعادته ، ومنشأ نبوته ، أنه رأى نارا من بعيد ، وكان قد ضل الطريق ، وأصابه البرد ، ولم يكن عنده ، ما يتدفأ به فى سفره .

[ فقال لأهله إنى آنست ] أى : أبصرت [ نارا ] وكان ذلك فى جانب الطور الأيمن .

[لعلى آتيكم منها بقبس] تصطلون به [أو أوجد على النار هدى] . أى : من يهدينى الطريق . وكان مطلبه ، النور الحسى والهداية الحسية .

فوجد ثَمَّ النور المعنوى ، نور الوحى ، الذى تستنير به الأرواح والقلوب ، والهداية الحقيقية ، هداية الصراط المستقيم ، الموصلة إلى جنات النعيم .

فحصل له أمر ، لم يكن فى حسابه ، ولا خطر بباله .

[فلما أتاها] أى : النار التى آنسها من بعيد ، وكانت ـ فى الحقيقة ـ نورا ، وهى نار تحرق وتشرق ، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « حجابه النور أو النار لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره »

فلما وصل إليها نودى منها أى : ناداه الله كما قال : « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا »

أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

---

[إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى] أخبره أنه ربه ، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ، ويهتم لذلك ، ويلقى نعليه ، لأنه بالوادى المقدس المطهر المعظم .

ولو لم يكن من تقديسه ، إلا أنه اختار لمناجاته ، كليمه موسى ، لكفى .

وقد قال كثير من المفسرين: « إن الله أمره أن يلقى نعليه ، لأنهما من جلد حمار » ، فالله أعلم بذلك .

[ وأنا اخترتك ] أى : تخيرتك واصطفيتك من الناس .

وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه ، تقتضى من الشكر ، مايليق بها ، ولهذا قال :

[ فاستمع لما يوحى ] أى : ألق سمعك للذى أوحى إليك فإنه حقيق بذلك ، لأنه أصل الدين ومبدأه ، وعماد الدعوة الإسلامية .

ثم بين الذى يوحيه إليه بقوله : [ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ] أى : الله المستحق الألوهية المتصف بها ، لأنه الكامل فى أسمائه ، وصفاته ، المنفرد بأفعاله ، الذى لا شريك له ، ولا مثيل ، ولا كفو ولا سَمِيّ .

[ فاعبدنى ] بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها ، أصولها وفروعها .

ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة فى العبادة ، لفضلها وشرفها ، وتضمنها عبودية القلب ، واللسان ، والجوارح .

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾

وقوله : [ لذكرى ] اللام للتعليل أى: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياى .

لأن ذكره تعالى ، أجل المقاصد ، وبه عبودية القلب ، وبه سعادته .

فالقلب المعطل عن ذكر الله ، معطل عن كل خير ، وقد خرب كل الخراب .

فشرع الله للعباد ، أنواع العبادات ، التى ، المقصود منها ، إقامة ذكره وخصوصاً ، الصلاة .

قال تعالى : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » .

أى : ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وهذا النوع يقال له توحيد الإلهية ، وتوحيد ، العبادة فالألوهية ، وصفه تعالى ، والعبودية ، وصف عبده .

[ إن الساعة آتية ] أى : لا بد من وقوعها [ أكاد أخفيها ] .
أى : عن نفسى كما فى بعض القراآت ، كقوله تعالى « يسئلونك عن الساعة قل إنما علمها عند الله » وقال : « وعنده علم الساعة » .

فعلمها ، قد أخفاه عن الخلائق كلهم ، فلا يعلمها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

والحكمة فى إتيان الساعة [ لتجزى كل نفس بما تسعى ] من الخير والشر ، فهى الباب لدار الجزاء « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

* أى : فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة ، والجزاء ، والعمل لذلك ، من كان كافراً بها ، غير معتقد لوقوعها .

يسعى فى الشك فيها ، والتشكيك ، ويجادل فيها ، بالباطل ، ويقيم من الشبه ، ما يقدر عليه ، متبعا فى ذلك هواه ، ليس قصده الوصول إلى الحق ، وإنما قصاراه ، اتباع هواه .

فإياك أن تصغى إلى من هذه حاله ، أو تقبل شيئاً ، من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعى لها سعيها .

وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله ، لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن ، بوسوسته وتدجيله ، وكون النفوس مجبولة على التشبه ، والاقتداء بأبناء الجنس .

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير ، عن كل داع إلى باطل ، يصد عن الإيمان الواجب ، أو عن كماله ، أو يوقع الشبهة فى القلب .

وعن النظر فى الكتب ، المشتملة على ذلك .

وذكر فى هذا ، الإيمان به ، وعبادته ، والإيمان باليوم الآخر ، لأن هذه الأمور الثلاثة ، أصول الإيمان ، وركن الدين ، وإذاتمت تم أمر الدين ، ونقصه أو فقده بنقصها ، أو نقص شيء منها

وهذه نظير قوله تعالى فى الإخبار عن ميزان سعادة الفرق ، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

---

وقوله [ فتردى ] أى : تهلك وتشقى ، إن اتبعت طريق من يصد عنها

وقوله تعالى : [ وما تلك ] إلى [ من آياتنا الكبرى ] .

* لما بين الله لموسى أصل الإيمان ، أراد أن يبين له ، ويريه من آياته ، ما يطمئن به قلبه ، وتقر به عينه ، ويقوى إيمانه ، بتأييد الله له على عدوه فقال :

[ وما تلك بيمينك يا موسى ] هذا ، مع علمه تعالى ، ولكن لزيادة الاهتمام فى هذا الموضع ، أخرج الكلام بطريق الاستفهام .

فقال موسى : [ هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ] ذكر فيها ، هاتين المنفعتين ، منفعة لجنس الآدمى ، وهو أنه يعتمد عليها فى قيامه ومشيه ، فيحصل فيها معونة .

ومنفعة للبهائم ، وهو أنه كان يرعى الغنم ، فإذا رعاها فى شجر الخبط ونحوه ، هش بها ، أى : ضرب الشجر ، ليتساقط ورقه ، فيرعاه الغنم .

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام ، الذى من آثاره ، حسن رعاية الحيوان البهيم ، والإحسان إليه ، دل على عناية من الله له واصطفاء ، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته .

[ ولى فيها مآرب ] أي : مقاصد [ أخرى ] غير هذين الأمرين .

قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ

---

ومن أدب موسى عليه السلام ، أن الله لما سأله عما فى يمينه ، وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها ، أو منفعتها ـ أجابه بعينها ، ومنفعتها فقال الله له :

[ ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى ] انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيما .

فولى موسى هارباً خائفاً ، ولم يعقب .

وفى وصفها بأنها تسعى ، إزالة لوهم يمكن وجوده ، وهو أن يظن أنها تخييل ، لا حقيقة .

فكونها تسعى يزيل هذا الوهم .

فقال الله لموسى : [ خذها ولا تخف ] أى : ليس عليك منها بأس .

[ سنعيدها سيرتها الأولى ] أى هيئتها وصفتها ، إذ كانت عصا .

فامتثل موسى أمر الله ، إيماناً به ، وتسليما ، فأخذها ، فعادت عصاه التى كان يعرفها ، هذه آية .

ثم ذكر الآية الأخرى فقال : [ واضمم يدك إلى جناحك ] أى: أدخل يدك إلى جيبك ، وضم عليك عضدك ، الذى هو جناح الإنسان [ تخرج بيضاء من غير سوء ] أى : بياضا ساطعاً ، من غير عيب ولا برص [ آية أخرى ] .

تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى

---

قال الله : « فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

[ لنريك من آياتنا الكبرى ] أى : فعلنا ما ذكرنا ، من انقلاب العصا حية تسعى ، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين ، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى ، الدالة على صحة رسالتك ، وحقيقة ما جئت به ، فيطمئن قلبك ، ويزداد علمك ، وتثق بوعد الله لك ، بالحفظ والنصرة ، ولتكون حجة وبرهاناً ، لمن أرسلت إليهم .

* لما أوحى الله إلى موسى ، ونبأه ، وأراه الآيات الباهرات ، أرسله إلى فرعون ، ملك مصر فقال :

[ اذهب إلى فرعون إنه طغى ] أى : تمرد وزاد على الحد ، فى الكفر والفساد ، والعلو فى الأرض ، والقهر للضعفاء ، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية ، قبحه الله ، أى : وطغيانه سبب لهلاكه .

ولكن من رحمة الله ، وحكمته ، وعدله ، أنه لا يعذب أحداً ، إلا بعد قيام الحجة بالرسل .

فحينئذ علم موسى عليه السلام ، أنه تحمل حملا عظيما ، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد ، الذى ليس له منازع فى مصر من الخلق .

وموسى عليه السلام ، وحده ، وقد جرى منه ما جرى من القتل .

صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ

---

فامتثل أمر ربه ، وتلقاه بالانشراح والقبول ، وسأله المعونة ، وتيسير الأسباب ، التى هى من تمام الدعوة فقال :

[ رب اشرح لى صدرى ] أى : وسعه وأفسحه ، لأتحمل الأذى القولى والفعلى ، ولا يتكدر قلبى بذلك ، ولا يضيق صدرى ، فإن الصدر إذا ضاق ، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ، ودعوتهم .

قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم .

[ ويسر لى أمرى ] أى : سهل علىّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده فى سبيلك ، وهوِّنْ علىّ ما أمامى من الشدائد.

ومن تيسير الأمر ، أن ييسر للداعى ، أن يأتى جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له ، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله .

[ واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ] وكان فى لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام ، كما قال المفسرون ، وكما قال الله عنه أنه قال : [ وأخى هرون هو أفصح منى لساناً ] فسأل الله أن يحل منه عقدة ، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة ، والمراجعة ، والبيان عن المعانى .

[ واجعل لى وزيراً من أهلى ] أى : معينا يعاونني ، ويؤازرنى ، ويساعدنى على من أرسلت إليهم .

أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

---

وسأل أن يكون من أهله ، لأنه من باب البر ، وأحق ببر الإنسان ، قرابته .

ثم عينه بسؤاله فقال : [ هٰرون أخى * اشدد به أزرى ] أى : قونى به وشد به ظهرى .

قال الله « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً » .

[ وأشركه فى أمرى ] أى : فى النبوة ، بأن تجعله نبياً رسولا ، كما جعلتنى .

ثم ذكر الفائدة فى ذلك فقال : [ كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ] علم ، عليه الصلاة والسلام ، أن مدار العبادات كلها والدين ، على ذكر الله ، فسأل الله أن يجعل أخاه معه ، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى ، فيكثر منهما ذكر الله ، من التسبيح ، والتهليل ، وغيره من أنواع العبادات .

[ إنك كنت بنا بصيراً ] تعلم حالنا ، وضعفنا ، وعجزنا ، وافتقارنا إليك فى كل الأمور .

وأنت أبصر بنا ، من أنفسنا وأرحم ، فَمُنَّ علينا بما سألناك ، وأجب لنا فيما دعوناك .

فقال الله : [ قد أوتيت سؤلك ياموسى ] أى : أعطيت جميع ماطلبت .

فسنشرح صدرك ، ونيسر أمرك ، ونحل عقدة من لسانك ، يفقهوا

. . . . . . . . . . .

---

قولك ، ونشد عضدك بأخيك هرون ، « ونجعل لـكما سلطاناً ، فلا يصلون إليـكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

وهذا السؤال من موسى عليه السلام ، يدل على كمال معرفته بالله ، وكمال فطنته ومعرفته للأمور ، وكمال نصحه .

وذلك أن الداعى إلى الله ، المرشد للخلق ، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد ، والتـكبر ، والطغيان ، يحتاج إلى سعة صدر ، وحلم تام ، على ما يصيبه من الأذى ، ولسان فصيح ، يتمـكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده .

بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام ، من ألزم ما يكون ، لـكثرة المراجعات والمراوضات ، ولحاجته لتحسين الحق ، وتزيينه بما يقدر عليه ، ليحببه إلى النفوس ، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه ، لينفر عنه .

ويحتاج مع ذلك أيضاً ، أن يتيسر له أمره ، فيأتى البيوت من أبوابها ، ويدعو إلى سبيل الله ، بالحـكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، يعامل الناس كلا بحسب حاله .

وتمام ذلك ، أن يكون لمن هذه صفته ، أعوان ووزراء ، يساعدونه على مطلوبه .

لأن الأصوات إذا كثرت ، لا بد أن تؤثر ، فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور ، فأعطيها .

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق ، رأيتهم بهذه الحال ،

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ
إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ
فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

---

بحسب أحوالهم . خصوصاً ، خاتمهم وأفضلهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه فى الذروة العليا من كل صفة كمال .

وله من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وفصاحة اللسان ، وحسن التعبير والبيان ، والأعوان على الحق ، من الصحابة ، فمن بعدهم ، ما ليس لغيره .

* لما ذكر منته على عبده ورسوله ، موسى بن عمران ، فى الدين ، والوحى ، والرسالة ، وإجابة سؤله ، ذكر نعمته عليه ، وقت التربية ، والتنقلات فى أطواره فقال :

[ ولقد مننا عليك مرة أخرى ] حيث ألهمنا أمك ، أن تقذفك فى التابوت وقت الرضاع ، خوفاً من فرعون ، لأنه أمر بذبح أبناء بنى إسرائيل .

فأخفته أمه ، وخافت عليه خوفاً شديداً فقذفته فى التابوت ، ثم قذفته فى اليم ، أى : شط نيل مصر .

فأمر الله اليم ، أن يلقيه فى الساحل ، وقيض الله أن يأخذه ، أعدى الأعداء لله ولموسى ، ويتربى فى أولاده ، ويكون قرة عين لمن رآه : ولهذا قال :

[ وألقيت عليك محبة منى ] فكل من رآه أحبه [ ولتصنع على عينى ] أى : ولتربى على نظرى وفى حفظى وكلاءتى .

مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ

---

وأى نظر وكفالة ، أجل وأكمل ، من ولاية البر الرحيم ، القادر على إيصال مصالح عبده ، ودفع المضار عنه ؟ !

فلا ينتقل من حالة إلى حالة ، إلا ، والله تعالى هو الذى دبر ذلك لمصلحة موسى .

ومن حسن تدبيره ، أن موسى لما وقع فى يد عدوه ، قلقت أمه قلقاً شديداً ، وأصبح فؤادها فارغاً ، وكادت تخبر به ، لولا أن الله ثبتها ، وربط على قلبها .

ففى هذه الحالة ، حرم الله على موسى المراضع ، فلا يقبل ثدى امرأة قط ، ليكون مآله إلى أمه ، فترضعه ، ويكون عندها ، مطمئنة ساكنة ، قريرة العين .

فجعلوا يعرضون عليه المراضع ، فلا يقبل ثدياً .

فجاءت أخت موسى ، فقالت لهم « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » .

[ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا ] وهو القبطى ، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها ، وجد رجلين يقتتلان ، واحد من شيعة موسى ، والآخر من عدوه قبطى « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » .

سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

---

فدعا الله وسأله المغفرة ، فغفر له ، ثم فر هارباً ، لما سمع أن الملأ طلبوه ، يريدون قتله .

[ فنجيناك من الغم ] من عقوبة الذنب ، ومن القتل .

[ وفتناك فتوناً ] أى : اختبرناك ، وبلوناك ، فوجدناك مستقيما فى أحوالك .

أو نقلناك فى أحوالك ، وأطوارك ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

[فلبثت سنين فى أهل مدين ] حين فر هارباً من فرعون وملأه ، حين أرادو قتله .

فتوجه إلى مدين ، ووصل إليها ، وتزوج هناك ، ومكث عشر سنين ، أو ثمان سنين .

[ ثم جئت على قدر يا موسى ] أى : جئت مجيئا ، ليس اتفاقاً من غير قصد ، ولا تدبير منا ، بل بقدر ولطف منا .

وهذا يدل على كمال اعتناء الله ، بكليمه ، موسى عليه السلام ، ولهذا قال :

[ واصطنعتك لنفسى ] أى : أجريت عليك صنائعى ونعمى ، وحسن عوائدى ، وتربيتى ، لتكون لنفسى حبيباً مختصا ، وتبلغ فى ذلك ، مبلغاً لا يناله أحد من الخلق ، إلا النادر منهم .

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ

---

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين ، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له مايبلغ ، يبذل غاية جهده ، ويسعى نهاية مايمكنه في إيصاله لذلك .

فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم ، وما تحسبه يفعل ، بمن أراده لنفسه ، واصطفاه من خلقه ؟ ! !

* لما امتن الله على موسى بما امتن به ، من النعم الدينية والدنيوية قال له :

[ اذهب أنت وأخوك ] هرون [ بآياتى ] أى : الآيات التى منى ، الدالة على الحق وحسنه ، وقبح الباطل ، كاليد ، والعصا ونحوها ، فى تسع آيات إلى فرعون وملإه .

[ ولا تنيافى ذكرى ] أي : لاتفترا ، ولا تكسلا عن مداومة ذكرى بالاستمرار عليه ، والزماه كما وعدتما بذلك [ كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ] .

فإن ذكر الله ، فيه معونة على جميع الأمور ، يسهلها ، ويخفف حملها .

[ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ] أى : جاوز الحد ، فى كفره وطغيانه ، وظلمه وعدوانه .

[ فقولا له قولا لينا ] أى : سهلا لطيفا ، برفق ولين وأدب فى اللفظ من دون فحش ولا صلف ، ولا غلظة فى المقال ، أو فظاظة فى الأفعال .

[ لعله ] بسبب القول اللين [ يتذكر ] ما ينفعه فيأتيه .

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

[ أو يخشى ] ما يضره فيتركه ، فإن القول اللين ، داع لذلك ، والقول الغليظ ، منفر عن صاحبه .

وقد فسر القول اللين فى قوله : « فقل هل لك إلى أن تزكى ✲ وأهديك إلى ربك فتخشى » .

فإن فى هذا الكلام ، من لطف القول وسهولته ، وعدم بشاعته ، ما لا يخفى على المتأمل .

فإنه أتى بـ « هل » الدالة على العرض والمشاورة ، التى لا يشمئز منها أحد ، ودعاه إلى التزكى والتطهر من الأدناس ، التى أصلها ، التطهر من الشرك ، الذى يقبله كل عقل سليم ، ولم يقل « أزكيك » بل قال « تزكى » أنت بنفسك .

ثم دعاه إلى سبيل ربه ، الذى رباه ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التى ينبغى مقابلتها بشكرها ، وذكرها فقال :

[ وأهديك إلى ربك فتخشى ] فلما لم يقبل هذا الكلام اللين ، الذي يأخذ حسنه بالقلوب ، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر

[ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ] أى : يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا ، قبل أن نبلغه رسالاتك ، ونقيم عليه الحجة [ أو أن يطغى ] أى : يتمرد عن الحق ، ويطغى بملكه ، وسلطانه ، وجنده ، وأعوانه .

[ قال لا تخافا ] أن يفرط عليكما [ إننى معكما أسمع وأرى ] أى : أنتما بحفظى ورعايتى ، أسمع قولكما ، وأرى جميع أحوالكما ، فلا تخافا منه .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

فزال الخوف عنهما ، واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما .

* أى : فأتياه بهذين الأمرين ، دعوته إلى الإسلام ، وتخليص هذا الشعب الشريف ، بنى إسرائيل ، من قيده وتعبيده لهم ، ليتحرروا ويملكوا أمرهم ، ويقيم فيهم موسى ، شرع الله ودينه .

[ قد جئناك بآية ] تدل على صدقنا « فألقى موسى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » إلى آخر ماذكر الله عنهما .

[ والسلام على من اتبع الهدى ] أى : من اتبع الصراط المستقيم ، واهتدى بالشرع المبين ، حصلت له السلامة فى الدنيا والآخرة .

[ إنا قد أوحى إلينا ] أى : خبرنا من عند الله ، لا من عند أنفسنا [ أن العذاب على من كذب وتولى ] أى : كذب بأخبار الله ، وأخبار رسله ، وتولى عن الانقياد لهم ، واتباعهم .

وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما ، والترهيب من ضد ذلك .

ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير ، فأنكر ربه ، وكفر ، وجادل فى ذلك ، ظلما وعنادا .

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

---

* أى : قال فرعون لموسى على وجه الإنكار : [ فمن ربكما يا موسى ].

فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال : [ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ] أى : ربنا الذى خلق جميع المخلوقات ، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ، على حسن صنعه من خلقه ، من كبر الجسم وصغره ، وتوسطه ، وجميع صفاته .

« ثم هدى » كل مخلوق إلى ما خلقه له ، وهذه ، الهداية الكاملة المشاهدة فى جميع المخلوقات .

فكل مخلوق ، تجده يسعى لما خلق له من المنافع ، وفى دفع المضار عنه .

حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم ، من العقل ، ما يتمكن به به من ذلك .

وهذا كقوله تعالى : « الذى أحسن كل شيء خلقه » .

فالذى خاق المخلوقات ، وأعطاها خلقها الحسن ، الذى لا تقترح العقول فوق حسنه ، وهداها لمصالحها ، هو الرب على الحقيقة .

فإنكاره ، إنكار لأعظم الأشياء وجودا ، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب .

فلو قدر أن الإنسان ، أنكر من الأمور المعلومة ، ما أنكر ، كان إنكاره لرب العالمين ، أكبر من ذلك .

ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى
وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ

---

ولهذا لما لم يمكن فرعون ، أن يعاند هذا الدليل القاطع ، عدل إلى المشاغبة ، وحاد عن المقصود فقال لموسى : [ فما بال القرون الأولى ] .

أى : ماشأنهم ، وما خبرهم ؟ وكيف وصلت بهم الحال،وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر ، والظلم ، والعناد ، ولنا فيهم أسوة ؟

فقال موسى : [ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ] أى : قد أحصى أعمالهم من خير وشر ، وكتبه فى كتابه ، وهو اللوح المحفوظ ، وأحاط به علما وخُبْراً فلا يضل عن شىء منها ، ولا ينسى ما علمه منها .

ومضمون ذلك ، أنهم قدموا إلى ما قدموه ، ولاقوا أعمالهم ، وسيجازون عليها .

فلا معنى لسؤالك واستفهامك ، يافرعون ، عنهم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم .

فإن كان الدليل الذى أوردناه عليك ، والآيات التى أريناكها ، قد تحققت صدقها ويقينها ، وهو الواقع ، فانقد إلى الحق ، ودع عنك الكفر والظلم ، وكثرة الجدال بالباطل .

وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة ، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق فرد الدليل بالدليل ، والبرهان بالبرهان ، ولن تجد لذلك سبيلا ، مادام الملوان .

فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى

---

كيف وقد أخبر الله عنه ، أنه جحدها مع استيقانها ، كما قال تعالى « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

وقال موسى : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » .

فعلم أنه ظالم فى جداله ، قصده ، العلو فى الأرض .

ثم استطرد فى هذا الدليل القاطع ، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضرورى ، فقال :

[ الذى جعل لكم الأرض مهدا ] أى : فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها ، والقرار ، والبناء ، والغراس ، وإثارتها للازدراع وغيره ، وذللها لذلك ، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم .

[ وسلك لكم فيها سُبُلاً ] أى : نفذ لكم الطرق الموصلة ، من أرض ، إلى أرض ، ومن قطر إلى قطر ، حتى كان الآدميون ، يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون ، وينتفعون بأسفارهم ، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم .

[ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ] .

أي : أنزل المطر « فأحيا به الأرض بعد موتها » وأنبت بذلك جميع أصناف النباتات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها ، وتباين أحوالها.

فساقه ، وقدره ، ويسره ورزقا لنا ولأنعامنا ، ولولا ذلك ، لهلك من عليها من آدمى وحيوان .

ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

---

ولهذا قال : [ كلوا وارعوا أنعامكم ] وساقها على وجه الامتنان ، ليدل ذلك على أن الأصل فى جميع النباتات الإباحة ، فلا يحرم منهم ، إلا ما كان مضرا ، كالسموم ونحوه .

[ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ] أى : لذوى العقول الرزينة ، والأفكار المستقيمة على فضل الله ، وإحسانه ، ورحمته ، وسعة جوده ، وتمام عنايته ، وعلى أنه الرب المعبود ، المالك المحمود ، الذى لايستحق العبادة سواه ، ولا الحمد والمدح والثناء ، إلا من امتن بهذه النعم ، وعلى أنه على كل شىء قدير .

فكما أحيا الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى .

وخص الله أولى النهى بذلك ، لأنهم المنتفعون بها ، الناظرون إليها نظر اعتبار .

وأما من عداهم ، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة ، والأنعام السائمة ، لاينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها .

بل حظهم ، حظ البهائم ، يأكلون ويشربون ، وقلوبهم لاهية ، وأجسادهم معرضة .

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

ولما ذكر كرم الأرض ، وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر ،

۞ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ

---

وأنها بإذن ربها ، تخرج النبات المختلف الأنواع — أخبر أنه خلقنا منها ، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها ، ومنها يخرجنا تارة أخرى .

فكما أوجدنا منها من العدم ، وقد علمنا ذلك ، وتحققناه ، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا ، ليجازينا بأعمالنا ، التى عملناها عليها .

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان : إخراج النبات من الأرض بعد موتها ، وإخراج المكلفين منها فى إيجادهم .

* يخبر تعالى ، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع ، جميع أنواعها العيانية ، والأفقية والنفسية ، فما استقام ولا ارعوى ، وإنما كذب وتولى .

كذب الخبر ، وتولى عن الأمر والنهى ، وجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، وجادل بالباطل ، ليضل الناس فقال : [ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ] .

زعم أن هذه الآيات التى أراه إياها موسى ، سحر وتمويه ، المقصود منها ، إخراجهم من أرضهم ، والاستيلاء عليها ، ليكون كلامه مؤثراً فى قلوب قومه .

فإن الطباع ، تميل إلى أوطانها ، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها .

فأخبرهم أن موسى هذا قصده ، ليبغضوه ، ويسعوا فى محاربته ،

بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ

---

فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا ، واجعل لنا [ موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ] أى : مستو علمنا وعلمك به ، أو مكانا مستويا معتدلا لتتمكن من رؤية ما فيه .

فقال موسى : [ موعدكم يوم الزينة ] وهو عيدهم ، الذى يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم .

[ وأن يحشر الناس ضحى ] أى : يجمعون كلهم فى وقت الضحى .

وإنما سأل موسى ذلك ، لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل كثرة الاجتماع ، ورؤية الأشياء على حقائقها ، مالا يحصل فى غيره .

[ فتولى فرعون فجمع كيده ] أى : جميع ما يقدر عليه ، مما يكيد به موسى .

فأرسل فى مدائنه ، من يحشر السحرة الماهرين فى سحرهم .

وكان السحر إذ ذاك ، متوافرا ، وعلمه مرغوبا فيه .

فجمع خلقا كثيرا من السحرة ، ثم أتى كل منهما للموعد ، واجتمع الناس للموعد .

فكان الجمع حافلا ، حضره الرجال والنساء ، والملأ ، والأشراف ، والعوام ، والصغار ، والكبار ، وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس « هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » .

وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ
مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

---

[ فحين اجتمعوا من جميع البلدان ، وعظهم موسى عليه السلام ، وأقام الحجة عليهم ، وقال لهم :

[ ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ] أى : لاتنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ويخيب سعيكم وافتراؤكم ، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملإه ، ولا تسلموا من عذاب الله .

وكلام الحق لابد أن يؤثر فى القلوب ، لاجرم ، ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة ، لما سمعوا كلام موسى ، وارتبكوا .

ولعل من جملة نزاعهم ، الاشتباه فى موسى ، هل هو على الحق أم لا؟

ولكن هم إلى الآن ، ما تم أمرهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى ، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة ، لينجحوا فى مقالهم وفعالهم ، وليتمسك الناس بدينهم .

والنجوى التى أسروها وفسرها ، بقوله : « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما » كمقالة فرعون السابقة .

فإما أن يكون ذلك توافقا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد .

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ

---

وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته ، التى صمم عليها ، وأظهرها للناس.

وزادوا على قول فرعون أن قالوا :

[ ويذهبا بطريقتكم المثلى ] أى : طريقة السحر حسدكم عليها ، وأراد أن يظهر عليكم ، ليكون له الفخر والصيت والشهرة ، ويكون هو المقصود بهذا العلم ، الذى شغلتم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه ، وما يتبع ذلك من الرياسة .

وهذا حض من بعضهم على بعض ، على الاجتهاد فى مغالبته ، ولهذا قالوا :

[ فأجمعوا كيدكم ] أى : أظهروه دفعة واحدة ، متظاهرين متساعدين فيه ، متناصرين ، متفقا رأيكم وكلمتكم .

[ ثم ائتوا صفا ] ليكون أمكن لعملكم ، وأهيب لكم فى القلوب ، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل .

واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره ، فإنه المفلح الفائز ، فهذا يوم له ما بعده من الأيام .

فما أصلبهم فى باطلهم ، وأشدهم فيه ، حيث أتوا بكل سبب ، ووسيلة وممكن ، ومكيدة يكيدون بها الحق .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ويظهر الحق على الباطل .

فلما تمت مكيدتهم ، وانحصر قصدهم ، ولم يبق إلا العمل [ قالوا ياموسى إما أن تلقى ] عصاك [ وإما أن نكون أول من ألقى ] .

وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ
خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ
مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

---

خيروه ، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه ، بأى حالة كانت .

فقال لهم موسى : [ بل ألقوا ] فألقوا حبالهم وعصيهم .

[ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه ] أى : إلى موسى [ من سحرهم ] البليغ [ أنها تسعى ] فلما خيل إلى موسى ذلك .

[ أوجس فى نفسه خيفة موسى ] كما هو مقتضى الطبيعة البشرية ، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره .

[ قلنا ] له تثبيتا وتطمينا : [ لا تخف إنك أنت الأعلى ] عليهم ، أى : ستعلو عليهم وتقهرهم ، ويذلوا لك ويخضعوا .

[ وألق ما فى يمينك ] أى : عصاك [ تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ] أى : كيدهم ومكرهم ، ليس بمثمر لهم ، ولا ناجح فإنه من كيد السحرة ، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق .

فألقى موسى عصاه ، فتلقفت ما صنعوا كله ، وأكلته ، والناس ينظرون لذلك الصنيع .

ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم

---

فعلم السحرة علما يقينا ، أن هذا ليس بسحر ، وأنه من الله ، فبادروا للإيمان .

[ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا ] برب العالمين ، [ رب موسى وهرون ] .

فوقع الحق وظهر وسطع ، وبطل السحر والمكر والكيد ، فى ذلك الجمع العظيم .

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين ، وحجة على المعاندين فـ [ قال ] فرعون للسحرة : [ آمنتم له قبل أن آذن لكم ] أى : كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة منى ولا إذن ؟

استغرب ذلك منهم ، لأدبهم معه ، وذلهم ، وانقيادهم له فى كل أمر من أمورهم ، وجعل هذا من ذاك .

ثم استلج فرعون فى كفره وطغيانه بعد هذا البرهان ، واستخف بقوله قومه ، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ، ليس لأن الذى معه الحق ، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ، ومكروا ، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم .

فقبل قومه هذا المكر منه ، وظنوه صدقا « فاستخفف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى

---

مع أن هذه المقالة التى قالها ، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع .

فإن موسى ، أتى من مدين وحيداً .

وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم ، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه ، وأراهم الآيات .

فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى ، فسعى ما أمكنه ، وأرسل فى مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم .

فجاءوا إليه ، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة ، وهم حرصوا غاية الحرص ، وكادوا أشد الكيد ، على غلبتهم لموسى ، وكان منهم ما كان .

فهل يمكن ، أن يتصور مع هذا ، أن يكونوا دبروا ، هم وموسى ، واتفقوا على ما صدر ؟ هذا من أمحل المحال .

ثم توعد فرعون السحرة فقال: [ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ] كما يفعل بالمحارب الساعى بالفساد ، يقطع يده اليمنى ، ورجله اليسرى .

[ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ] أى : لأجل أن تشهروا وتختزوا .

[ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ] يعنى بزعمه هو وأمته ، وأنه أشد عذابا من الله ، وأبقى قلباً للحقائق ، وترهيباً لمن لا عقل له .

ولهذا لما عرف السحرة الحق ، ورزقهم الله من العقل ، ما يدركون به الحقائق ، أجابوا بقولهم :

فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾
إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ
وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

---

[ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ] الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده ، المعظم المبجل وحده ، وأن ما سواه باطل ، ونؤثرك على الذى فطرنا وخلقنا .

هذا لا يكون [ فاقض ما أنت قاض ] مما أوعدتنا به ، من القطع ، والصلب ، والعذاب .

[ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ] أى : إنما توعدنا به ، غاية ما يكون فى هذه الحياة الدنيا ، ينقضى ويزول ولا يضرنا .

بخلاف عذاب الله ، لمن استمر على كفره ، فإنه دائم عظيم .

وهذا كأنه جواب منهم لقوله : [ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ] .

وفى هذا الكلام ، من السحرة ، دليل على أنه ينبغى للعاقل، أن يوازن بين لذات الدنيا ، ولذات الآخرة ، وبين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة .

[ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ] أى : كفرنا ومعاصينا ،فإن الإيمان مكفر للسيئات ، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها .

وقولهم ، [ وما أكرهتنا عليه من السحر ] الذى عارضنا به الحق ، هذا دليل على أنهم غير مختارين فى عملهم المتقدم ، وإنما أكرههم فرعون إكراها .

. . . . . . . . . . .

---

والظاهر — والله أعلم — أن موسى لما وعظهم كما تقدم فى قوله [ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ] أثَّر معهم ، ووقع منهم موقعاً كبيراً ، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة .

ثم إن فرعون ألزمهم ذلك،وأكرههم على المكر الذى أجروه ،ولهذا تكلموا بكلامه السابق ، قبل إتيانهم ، حيث قالوا : [ إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ] فجروا على ما سَنَّهُ لهم ، وأكرههم عليه .

ولعل هذه النكتة ، التى قامت بقلوبهم ، من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ، ما فعلوا على وجه الإغماض ، هى التىأثرتمعهم، ورحمهم الله بسببها ، ووفقهم للإيمان والتوبة .

والله خير مما أوعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه ، وأبقى ثوابا وإحساناً لا ما يقول فرعون [ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ] يريد أنه أشد عذاباً وأبقى وجميع ما أتى من قصصموسى مع فرعون ، يذكر الله فيه إذا أتى على قصةالسحرة ، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ، ولم يذكر أنه فعل ذلك ، ولم يأت فى ذلك حديث صحيح .

والجزم بوقوعه ، أو عدمه ، يتوقف على الدليل ، والله أعلم بذلك وغيره .

﴿إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴿٧٤﴾ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك

---

* يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرما — أى: وصفه الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر — واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التى فيها من العقاب، ما يذيب الأكباد والقلوب.

ومن شدة ذلك، أن المعذب فيها، لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته، محشوة بعذاب القلب، والروح، والبدن، الذى لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل، يشوى الوجوه، وإذا دعا، أجيب بـ «أخسأوا فيها ولا تكلمون».

ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، متبعاً لكتبه [قد عمل الصالحات] الواجبة والمستحبة، [فأولئك لهم الدرجات العلى] أى: المنازل العاليات، فى الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

[وذلك] الثواب، [جزاء من تزكى] أى: تطهر من الشرك، والكفر، والفسوق، والعصيان.

إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها.

لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ

---

وزكى أيضاً نفسه ، ونماها بالإيمان والعمل الصالح .

فإن للتزكية معنيين ، التنقية ، وإزالة الخبث ، والزيادة بحصول الخير .

وسميت الزكاة زكاة ، لهذين الأمرين .

* لما ظهر موسى بالبراهين ، على فرعون وقومه ، مكث فى مصر ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويسعى فى تخليص بنى إسرائيل ، من فرعون ، وعذابه .

وفرعون فى عتو ونفور ، وأمره شديد على بنى إسرائيل ، ويريه الله من الآيات والعبر ، ما قصه الله علينا فى القرآن .

وبنو إسرائيل ، لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه ، قد اتخذوا بيوتهم مساجد ، وصبروا على فرعون وأذاه .

فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ، ويمكن لهم فى الأرض ، ليعبدوه جهراً ، ويقيموا أمره .

فأوحى إلى نبيه موسى ، أن يواعد بنى إسرائيل سرا ، ويسيروا أول الليل ، ليتمادوا فى الأرض ، وأخبره أن فرعون وقومه ، سيتبعونه .

فخرجوا أول الليل ، جميع بنى إسرائيل ، ونساؤهم ، وذريتهم .

فلما أصبح أهل مصر إذا هم ، ليس فيها منهم ، داع ولا مجيب .

لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

---

فحنق عليهم ، عدوهم فرعون ، وأرسل فى المدائن ، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج فى أثر بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين .

« فلما تراءى الجمعان، قال أصحاب موسى، إنا لمدركون »وقلقوا وخافوا . البحر أمامهم ، وفرعون من ورائهم ، قد امتلأ عليهم غيظا وحنقاً .

وموسى مطمئن القلب ، ساكن البال ، قد وثق بوعد ربه فقال :

[ كلا إن معى ربى سيهدين ] .

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه ، فانفرق اثنى عشر طريقا ، وصار الماء كالجبال العالية ، عن يمين الطرق ويسارها .

وأيبس الله طرقهم ، التى انفرق عنها الماء ، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون ، ولا يخشوا من الغرق فى البحر فسلكوا فى تلك الطرق .

فجاء فرعون وجنوده ، فسلكوا وراءهم ، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين ، أمر الله البحر ، فالتطم عليهم ، وغشيهم من اليم ما غشيهم ، وغرقوا كلهم ، ولم ينج منهم أحد ، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم ، قد أقر الله أعينهم بهلاكه .

وهذه عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدى الله ، ولهذا قال تعالى:

[ وأضل فرعون قومه ] بما زين لهم من الكفر ، وتهجين ما أتى به موسى ، واستخفافه إياهم ، وما هداهم فى وقت من الأوقات .

۞ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ

---

فأوردهم موارد الغى والضلال ، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال .

* يُذَكِّر تعالى بنى إسرائيل مِنَّتَهُ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ، ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن ، لينزل عليه الكتاب ، الذى فيه الأحكام الجليلة ، والأخبار الجميلة ، فتتم عليهم النعمة الدينية ، بعد النعمة الدنيوية .

ويذكر منته أيضا عليهم ، فى التيه ، بإنزال المن والسلوى ، والرزق الرغد الهنى ، الذى يحصل لهم بلا مشقة ، وأنه قال لهم :

[ كلوا من طيبات ما رزقناكم ] .

أي : واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم [ ولا تطغوا فيه ] .

أي : فى رزقه ، فتستعملوه فى معاصيه ، وتبطروا النعمة .

فإنكم إن فعلتم ذلك ، حل عليكم غضبى أى : غضبت عليكم ، ثم عذبتكم .

[ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ] أى : ردى وهلك ، وخاب وخسر ، لأنه عدم الرضا والإحسان ، وحل عليه الغضب والخسران .

ومع هذا ، فالتوبة معروضة ، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصى ، ولهذا قال : [ وإنى لغفار ] أى : كثير المغفرة والرحمة ، لمن تاب من الكفر ،

عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ

---

والبدعة ، والفسوق ، وآمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن ، وأقوال اللسان .

[ ثم اهتدى ] أى : سلك الصراط المستقيم ، وتابع الرسول الكريم ، واقتدى بالدين القويم .

فهذا يغفر الله أوزاره ، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره ، لأنه أتى بالسبب الأكبر ، للمغفرة والرحمة ، بل الأسباب كلها منحصرة فى هذه الأشياء فإن التوبة تَجُبُّ ما قبلها ، والإيمان والإسلام ،يهدم ما قبله، والعمل الصالح ، الذى هو الحسنات ، يذهب السيئات ، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها ، من تعلم علم ، وتدبر آية أو حديث ، حتى يتبين له معنى من المعانى يهتدى به ، ودعوة إلى دين الحق ، ورد بدعة ، أو كفر ، أو ضلالة ، وجهاد ، وهجرة ، وغير ذلك من جزئيات الهداية ، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب .

* كان الله تعالى ، قد واعد موسى ، أن يأتيه ، لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة ، فأتمها بعشر .

فلما تم الميقات ، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد ، شوقا لربه ، وحرصا على موعوده . فقال الله له : [ وما أعجلك عن قومك ياموسى ] أى : ما الذى قدمك عليهم ؟ ولِمَ لمْ تصبر حتى تقدم أنت وهم ؟

عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ

---

قال : [ هم أولاء على أثرى ] أى : قريبا منى . وسيصلون فى أثرى . والذى عجلنى إليك . يارب . الطلب لقربك . والمسارعة فى رضاك . والشوق إليك .

فقال الله له : [ فإنا قد فتنا قومك من بعدك ] أى : بعبادتهم للعجل ، ابتليناهم ، واختبرناهم ، فلم يصبروا . وحين وصلت إليهم المحنة ، كفروا [ وأضلهم السامرى ] .

[ فأخرج لهم عجلا جسداً ] وصاغه فصار [ له خوار فقالوا ] لهم [ هذا إلهكم وإله موسى ] فنسيه موسى ، فافتتن به بنو إسرائيل ،فعبدوه ،ونهاهم هرون فلم ينتهوا .

فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف ، أى ممتلىء غيظاً وحنقا وغما ، قال لهم موبخا ومقبحاً لفعلهم :

[ ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ] وذلك بإنزال التوراة .

[ أفطال عليكم العهد ] أى : المدة ، فتطاولتم غيبتى وهى مدة قصيرة ؟ هذا قول كثير من المفسرين .

ويحتمل أن معناه : أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة ، فلم يكن لكم علم ولا أثر ، واندرست آثارها ، فلم تقفوا منها على خبر ، فانمحت آثارها ،

فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ
أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

---

لبعد العهد بها ، فعبدتم غير الله ، لغلبة الجهل ، وعدم العلم بآثار الرسالة ؟

أى : ليس الأمر كذلك ، بل النبوة بين أظهركم ، والعلم قائم، والعذر غير مقبول ؟

أم أردتم بفعلكم ، أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ أى : فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه ، وهذا هو الواقع .

[ فأخلفتم موعدى ] حين أمرتكم بالاستقامة ، ووصيت بكم هرون ، فلم ترقبوا غائبا ، ولم تحترموا حاضراً .

* أى : قالوا له : ما فعلنا الذى فعلنا عن تعمد منا ، وملك منا لأنفسنا .

ولكن السبب الداعى لذلك ، أننا تأثمنا من زينة القوم التى عندنا .

وكانوا فيما يذكرون ، استعاروا حليا كثيرا من القبط ، فخرجوا وهو معهم .

وألقوه ، وجمعوه حين ذهب موسى ، ليراجعوه فيه ، إذا رجع .

وكان السامرى قد بَصُرَ يوم الغرق بأثر الرسول ، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره ، وأنه إذا ألقاها على شىء حَيِىَ ، فتنة وامتحانا .

فألقاها على ذلك العجل الذى صاغه بصورة عجل ، فتحرك العجل ، وصار له خوار وصوت ، وقالوا : إن موسى ذهب يطلب ربه ، وهو ههنا ، فنسيه .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ
مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ
لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾
وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ

---

وهذا من بلادتهم ، وسخافة عقولهم ، حيث رأوا هذا العجل الغريب الذى صار له خوار ، بعد أن كان جمادا ، فظنوه إله الأرض والسموات .

[ أفلا يرون ] أن العجل [ أن لا يرجع إليهم قولا ] أى : لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

فالعبادة للكمال والكلام والفعال ، لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه .

فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء ، من النفع والدفع ، بإقدار الله لهم .

☆ أى إنهم باتخاذهم العجل ، ليسوا معذورين فيه .

فإنه ، وإن كانت عرضت لهم الشبهة فى أصل عبادته ، فإن هرون قد نهاهم عنه ، وأخبرهم أنه فتنة ، وأن ربهم الرحمن ، الذى منه النعم الظاهرة والباطنة ، الدافع للنقم .

وأنه أمرهم أن يتبعوه ، ويعتزلوا العجل .

فأبوا وقالوا : [ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ] .

عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ
إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ
لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

---

فأقبل موسى على أخيه لائماً وقال: [ ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن ] فتخبرنى لأبادر للرجوع إليهم ؟

[ أفعصيت أمرى ] فى قولى [ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ] .

فأخذ موسى برأس هرون ولحيته ، يجره من الغضب والعتب عليه .

فقال هرون : [ ياابن أم ] ترقيق له ، وإلا فهو شقيقه [ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ] .

[ فإنك أمرتنى أن أخلفك فيهم ، فلو تبعتك ، لتركت ما أمرتنى بلزومه وخشيت لائمتك ، و [ أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ] حيث تركتهم ، وليس عندهم راع ولا خليفة ، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم .

فلا تجعلنى مع القوم الظالمين ، ولا تشمت فينا الأعداء .

فندم موسى على ما صنع بأخيه ، وهو غير مستحق لذلك فـ[ قال : رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ]

ثم أقبل على السامرى ، فـ[ قال : فما خطبك ياسامرى] إلى [ فى اليم نسفا ]

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ
وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾

---

* أى : ما شأنك ياسامرى ، حيث فعلت ما فعلت ؟ .

فقال : [ بصرت بما لم يبصروا به ] وهو جبريل عليه السلام ، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر ، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون .

فقضبت قبضة من أثر حافر فرسه ، فنبذتها على العجل .

[وكذلك سولت لى نفسى] أن أقبضها ، ثم أنبذها ، فكان ما كان .

فقال له موسى :

[ فاذهب ] أى تباعد عنى واستأخر مني [ فإنلك فى الحياة أن تقول لا مساس ] أى : تعاقب فى الحياة عقوبة ، لا يدنو منك أحد ، ولا يمسك أحد .

حتى إن من أراد القرب منك ، قلت : لا تمسني ، ولا تقرب مني ، عقوبة على ذلك ، حيث مس ما لم يمسه غيره ، وأجرى ما لم يُجْرِه أحد .

[ وإن لك موعدا لن تخلفه ] فتجازى بعملك ، من خير وشر .

[ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ] أى : العجل [ لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ] ففعل موسى ذلك .

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ

---

فلو كان إلها ، لامتنع ممن يريده بأذى ، ويسعى له بالإتلاف ، وكان قد أُشْرِبَ العجل فى قلوب بني إسرائيل .

فأراد موسى عليه السلام ، إتلافه — وهم ينظرون ، على وجه لا تمكن إعادته ـ وبالحراق والسحق ذَرْيِهِ فى اليم، ونَسْفِهِ ، ليزول مافى قلوبهم من حبه ، كما زال شخصه .

ولأن فى إبقائه ، محنة لأن فى النفوس ، أقوى داع إلى الباطل .

فلما تبين لهم بطلانه ، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له ، فقال : [ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ] .

* أى : لا معبود إلا وجهه الكريم، فلايؤله ، ولا يُحَبُّ ، ولا يُرْجَى ولا يُخَافُ ، ولا يُدْعَى إلا هو لأنه الكامل الذى له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، المحيط علمه ، بجميع الأشياء ، الذى ما من نعمة بالعباد ، إلا منه ، ولا يدفع السوء إلا هو .

فلا إله إلا هو ، ولا معبود سواه .

* يمتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، بما قصه عليه من أنباء السابقين ، وأخبار السالفين ، كهذه القصة العظيمة ، وما فيها من الأحكام وغيرها ، التى لا ينكرها أحد من أهل الكتاب .

فأنت لم تدرس أخبار الأولين ، ولم تتعلم ممن دراها .

ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم ، دليل على أنك رسول الله حقا ، وما جئت به صدق .

ولهذا قال : [ وقد آتيناك من لدنا ] أي : عطية نفسية ومنحة جزيلة من عندنا [ ذكرا ] وهو : وهذا القرآن الكريم ، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة ، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء ، والصفات الكاملة ، ويتذكر به أحكام الأمر والنهى ، وأحكام الجزاء .

وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام ، التى تشهد العقول والفطر ، بحسنها ، وكمالها ، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها .

وإذا كان القرآن ذكرا للرسول ولأمته ، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم ، والانقياد ، والتعظيم ، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم ، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم .

وأما مقابلته بالإعراض ، أو ما هو أعم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة ، ومن فعل ذلك ، فهو مستحق للعقوبة .

ولهذا قال : [ من أعرض عنه ] فلم يؤمن به ، أو تهاون بأوامره ونواهيه ، أو بتعلم معانيه الواجبة [فإنه يحمل يوم القيامة وزرا] وهو ذنبه ، الذى بسببه ، أعرض عن القرآن وأولاه الكفر والهجران .

وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

---

[ خالدين فيه ] أى : فى وزرهم ، لأن العذاب هو نفس الأعمال ، تنقلب عذابا على أصحابها ، بحسب صغرها وكبرها .

[وساء لهم يوم القيامة حملا] أى : بئس الحمل الذى يحملونه ، والعذاب الذى يعذبونه يوم القيامة ثم استطرد ، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال : [ يوم ينفخ فى الصور ] إلى [ إلا يوماً ] .

✡ أى : إذا نفخ فى الصور،وخرج الناس من قبورهم كلٌّ على حسب حاله .

فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا،والمجرمون يحشرون زُرْقاً ألوانهم من الخوف والقلق ، والعطش .

يتناجون بينهم ، ويتخافتون فى قصر مدة الدنيا ، وسرعة الآخرة .

فيقول بعضهم : مالبثتم إلا عشرة أيام ، ويقول بعضهم غير ذلك .

والله يعلم تخافتهم ، ويسمع ما يقولون [ إذ يقول أمثلهم طريقة ] .

أى : أعدلهم وأقربهم إلى التقدير [ إن لبثتم إلا يوماً ] .

المقصود من هذا،الندم العظيم ،كيف ضيعوا الأوقات القصيرة،وقطعوها ساهين لاهين ، معرضين عما ينفعهم ، مقبلين على مايضرهم .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾
يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ

---

فيها ، قد حضر الجزاء ، وحق الوعيد ، فلم يبق إلا الندم والدعاء ، بالويل والثبور .

كما قال تعالى « قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون » .

* يخبر تعالى عن أهوال القيامة ، وما فيها من الزلازل والقلاقل ، فقال :

[ ويسئلونك عن الجبال ] أى ماذا يصنع بها يوم القيامة ، وهل تبقى بحالها أم لا ؟

[ فقل ينسفها ربى نسفا ] أى : يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن ، وكالرمل ، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا .

فتضمحل وتتلاشى ، ويسويها بالأرض ، ويجعل الأرض قاعا صفصفا ، مستويا « لايرى فيها الناظر « عوجا » ، هذا من تمام استوائها «ولا أمتا» أى : أودية وأماكن منخفضة ، أو مرتفعة ، فتبرز الأرض ، وتتسع للخلائق ويمدها الله مدَّ الأديم ، فيكونون فى موقف واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، ولهذا قال :

[ يومئذ يتبعون الداعى ] وذلك حين يبعثون من قبورهم ، ويقومون منها ، يدعوهم الداعى إلى الحضور والاجتماع للموقف ، فيتبعون مهطعين إليه ، لا يلتفتون عنه ، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة .

وقوله [ لا عوج له ] أى : لا عوج لدعوة الداعى بل تكون دعوته حقا

فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ

---

وصدقا ، لجميع الخلق ، يسمعهم جميعهم ، ويصيح لهم أجمعين .

فيحضرون لموقف القيامة ، خاشعة أصواتهم للرحمن .

[ فلا تسمع إلا همسا ] أى : إلا وطء الأقدام ، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط ، يملكهم الخشوع والسكوت ، والإنصات ، انتظارا لحكم الرحمن فيهم ، وتعنو وجوههم أى : تذل وتخضع .

فترى فى ذلك الموقف العظيم ، الأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء ، والأحرار والأرقاء ، والملوك والسوقة ، ساكتين منصتين ، خاشعة أبصارهم ، خاضعة رقابهم ، جاثين على ركبهم ، عانية وجوههم .

لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ، ولا ماذا يفعل به .

قد اشتغل كُلٌّ بنفسه وشأنه ، عن أبيه وأخيه ، وصديقه وحبيبه « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

يحكم فيه الحاكم العدل الديان ، ويجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بالحرمان .

والأمل بالرب الكريم ، الرحمن الرحيم ، أن يرى الخلائق منه ، من الفضل والإحسان ، والعفو والصفح والغفران ، مالا تعبر عنه الألسنة ، ولا تتصوره الأفكار .

خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴿١١٢﴾

---

ويتطلع لرحمته إذ ذاك ، جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله ، بالرحمة .

فإن قيل : من أين لكم هذا الأمل ؟ وإن شئت قلت : من أين لكم هذا العلم بما ذكر ؟ .

قلنا : لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه ، ومن سعة جوده ، الذى عم جميع البرايا ، ومما نشاهده فى أنفسنا وفى غيرنا ، من النعم المتواترة فى هذه الدار ، وخصوصا فى فضل القيامة،فإن قوله [ وخشعت الأصوات للرحمن* إلا من أذن له الرحمن ] مع قوله [ الملك يومئذ الحق للرحمن ] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة ، بها يتراحمون ويتعاطفون ، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها ، خشية أن تطأه ، من الرحمة المودعة فى قلبها ، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة ، فرحم بها العباد .

مع قوله صلى الله عليه وسلم : « لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» .

فقل ماشئت عن رحمته ، فإنها فوق ماتقول ، وتصور فوق ماشئت ، فإنها فوق ذلك

فسبحان من رحم فى عدله وعقوبته ، كما رحم فى فضله وإحسانه ومثوبته .

وتعالى من وسعت رحمته كل شىء ، وعم كرمه كل حى وجَلَّ من غَنِيٍّ

. . . . . . . . . . .

---

عن عباده ، رحيم بهم ، وهم مفتقرون إليه على الدوام ، فى جميع أحولهم ، فلا غنى لهم عنه ، طرفة عين :

وقوله : [ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضىَ له قولا ] أى : لا يشفع أحد عنده من الخلق ، إلا من أذن له فى الشفاعة ، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله ، أى: شفاعته ، من الأنبياء والمرسلين ، وعباده المقربين ، فيمن ارتضى قوله ، وهو المؤمن المخلص .

فإذا اختل واحد من هذه الأمور ، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد .

وينقسم الناس فى ذلك الموقف قسمين .

ظالمين بكفرهم ، فهؤلاء ، لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان ، والعذاب الأليم فى جهنم ، وسخط الديان .

والقسم الثانى : من آمن الإيمان المأمور به ، وعمل صالحا ، من واجب ومسنون [ فلا يخاف ظلماً ] أى : زيادة فى سيئاته [ ولا هضما ] أى : نقصا من حسناته ، بل تغفر ذنوبه ، وتطهر عيوبه ، وتضاعف حسناته . « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

---

* أى : وكذلك أنزلنا هذا الكتاب ، باللسان الفاضل العربى ، الذى تفهمونه وتفقهونه ، ولا يخفى عليكم لفظه ، ولا معناه .

[ وصرفنا فيه من الوعيد ] أى نوّعناها أنواعا كثيرة .

تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام .

وتارة بذكر المثلات التى أحلها بالأمم السابقة ، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة .

وتارة بذكر آثار الذنوب ، وما تكسبه من العيوب .

وتارة بذكر أهوال القيامة ، وما فيها من المزعجات ، والمقلقات .

وتارة ، بذكر جهنم ، وما فيها من أنوع العقاب ، وأصناف العذاب .

كل هذا ، رحمة بالعباد ، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصى ، ما يضرهم .

[ أو يحدث لهم ذكرا ] فيعملون من الطاعات والخير ، ما ينفعهم .

فكونه عربيا ، وكونه مصرفا فيه من الوعيد ، أكبر سبب ، وأعظم داع للتقوى ، والعمل الصالح .

فلو كان غير عربى أو غير مصرف فيه ، لم يكن له هذا الأثر .

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى حكمه الجزئى فى عباده ، وحكمه الأمرى الديني ، الذى أنزل فى الكتاب وكان هذا من آثار ملكه قال :

[ فتعالى الله ] أى جَلَّ وارتفع ، وتقدس ، عن كل نقص وآفة .

[ الملك ] الذى الملك وصفه ، والخلق كلهم ، مماليك له .

وأحكام الملك القدرية والشرعية ، نافذة فيهم .

[ الحق ] أى وجوده ، وملكه ، وكماله ، حق .

فصفات الكمال ، لا تكون حقيقة ، إلا لذى الجلال ، ومن ذلك : الملك .

فإن غيره من الخلق ، وإن كان له ملك فى بعض الأوقات ، على بعض الأشياء ، فإنه ملك قاصر باطل ، يزول .

وأما الرب ، فلا يزال ولا يزول مَلِكاً حيًّا قيُّوماً جليلا .

[ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه] أى لاتبادر بِتَلَقُّفِ القرآن حين يتلوه عليك جبريل ، واصبر حتى يفرغ منه .

فإذا فرغ منه فاقرأه ، فإن الله قد ضمن لك جمعه فى صدرك ، وقراءتك إياه .

كما قال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه » .

ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم ، على تَلَقُّف الوحى ومبادرته

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

---

إليه ، تدل على محبته التامة للعلم ، وحرصه عليه ، أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم خير ، فإن العلم خير ، وكثرة الخير مطلوبة ، وهى من الله .

والطريق إليها ، الاجتهاد ، والشوق للعلم ، وسؤال الله ، والاستعانة به ، والافتقار إليه فى كل وقت .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، الأدب فى تلقى العلم ، وأن المستمع للعلم ، ينبغى له أن يتأنَّى ويصبر ، حتى يفرغ الملى والمعلم من كلامه ، المتصل بعضه ببعض .

فإذا فرغ منه ، سأل ، إن كان عنده سؤال .

ولا يبادر بالسؤال ، وقطع كلام مُلْقِي العلم فإنه سبب للحرمان .

وكذلك المسئول ، ينبغى له أن يستملى سؤال السائل ، ويعرف المقصود منه قبل الجواب ، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب .

* أى : ولقد وصينا آدم ، وأمرناه ، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به ، فالتزمه، وأذعن له ، وانقاد ، وعزم على القيام به ومع ذلك ، نسى ما أمر به ، وانتقضت عزيمته المحكمة ، فجرى عليه ما جرى ، فصار عبرة لذريته ، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم ، نسى فنسيت ذريته ، وخطىء فخطئوا ، ولم يثبت على العزم المؤكد ، وهم كذلك ، وبادر بالتوبة من خطيئته ، وأقرَّ بها واعترف ، فغفرت له ، ومن يشابه أباه فما ظلم .

ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال : [ وإذ قلنا ] إلى [ فتاب عليهوهدى ]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ
فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ

---

* أى : لما أكمل خلق آدم بيده ، وعلمه الأسماء ، وفضله ، وكرمه ، أمر الملائكة بالسجود له ، إكراماً ، وتعظيما ، وإجلالا ، فبادروا بالسجود ممتثلين .

وكان بينهم إبليس ، فاستكبر عن أمر ربه ، وامتنع من السجود لآدم وقال :

[ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ] فتبينت حينئذ،عداوته البليغة لآدم وزوجه ، لما كان عدو الله ، وظهر من حسده ، ما كان سبب العداوة .

فحذر الله آدم وزوجه منه ، وقال « لا يخرجنكما من الجنة فتشقى » إذا أخرجت منها .

فإن لك فيها الرزق الهنى والراحة التامة .

[ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ] أى : تصيبك الشمس بحرها .

فضمن له ، استمرار الطعام والشراب ، والكسوة ، والماء ، وعدم التعب والنصب .

إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

---

ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال : [ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ] .

فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ، ويزين أكل الشجرة ويقول : [ هل أدلك على شجرة الخلد ] أى : التى من أكل منها خُلِّد فى الجنة .

[ وملك لا يبلى ] أى : لا ينقطع ، إذا أكلت منها .

فأتاه بصورة ناصح ، وتلطف له فى الكلام ، فاغتر به آدم ، فأكلا من الشجرة فَسُقِطَ فى أيديهما ، وسقطت كسوتهما ، واتضحت معصيتهما ، وبدا لكل منهما سوأة الآخر ، بعد أن كانا مستورين .

وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ، ليسترا بذلك ، وأصابهما من الخجل ، ما الله به عليم .

[ وعصى آدم ربه فغوى ] فبادرا إلى التوبة والإنابة ، وقالا :

«ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .

فاجتباه ربه ، واختاره ، ويسر له التوبة [فتاب عليه وهدى] فكان بعد التوبة ، أحسن منه قبلها .

ورجع كيد العدو عليه ، وبطل مكره ، فتمت النعمة عليه ، وعلى

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

---

ذريته ، ووجب عليهم القيام بها ، والاعتراف ، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ، ليلا ونهاراً « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » أى : ينزع عنهما لباسهما ، ليريهما سوأتهما ، « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

* يخبر تعالى ، أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض ، وأن يتخذ آدم وبنوه . الشيطان عدواً لهم ، فيأخذوا الحذر منه ، ويُعِدُّوا له عُدَّتَه ويحاربوه .

وأنه سينزل عليهم كتباً ، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته ، ويحذرونهم من هذا العدو المبين .

وأنهم أى وقت جاءهم ذلك الهدى ، الذى هو : الكتب والرسل ، فإن من اتبعه ، اتبع ما أمر به ، واجتنب ما نهى عنه ، فإنه لا يضل فى الدنيا ،ولا فى الآخرة ، ولا يشقى فيهما،بل قد هُدِىَ إلى صراط مستقيم ، فى الدنيا والآخرة ، وله السعادة والأمن فى الآخرة .

وقد نفى عنه الخوف والحزن فى آية أخرى بقوله « فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

واتباع الهدى ، بتصديق الخبر ، وعدم معارضته بالشبه ، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

[ ومن أعرض عن ذكرى ] أى : كتابى الذى يتذكر به جميع المطالب العالية ، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه ، أو ما هو أعظم من ذلك ، بأن يكون على وجه الإنكار له ، والكفر به [ فإن له معيشة ضنكا ] أى : فإن جزاءه ، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة ، ولا يكون ذلك إلا عذاباً .

وفسرت المعيشة الضنك ، بعذاب القبر ، وأنه يضيق عليه قبره ، ويحصر فيه ، ويعذب ، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه ، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر .

والثانية قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم » الآية .

والثالثة قوله « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » .

والرابعة قوله عن آل فرعون « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » الآية .

والذى أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف ، وقصرها على ذلك — والله أعلم — آخر الآية ، وأن الله ذكر فى آخرها عذاب يوم القيامة .

وبعض المفسرين ، يرى أن المعيشة الضنك ، عامة فى دار الدنيا ، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه ، من الهموم ، والغموم ، والآلام ، التى هى عذاب معجل ، وفى دار البرزخ ، وفى الدار الآخرة ، لإطلاق المعيشة الضنك ، وعدم تقييدها .

[ ونحشره ] أى : هذا المعرض عن ذكر ربه [ يوم القيامة أعمى ] البصر

أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ
ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

---

على الصحيح ، كما قال تعالى « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما » .

قال على وجه الذل ، والمراجعة ، والتألم ، والضجر من هذه الحالة [ رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت ] فى دار الدنيا [ بصيراً ] فما الذى صيرنى إلى هذه الحالة البشعة .

[ قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها ] بإعراضك عنها [ وكذلك اليوم تنسى ] أى تترك فى العذاب .

فأجيب ، بأن هذا هو عين عملك ، والجزاء من جنس العمل .

فـكما عميت عن ذكر ربك ، وعشيت عنه ، ونسيته ، ونسيت حظك منه ، أعمى الله بصرك فى الآخرة ، فحشرت إلى النار أعمى ، أصم ، أبكم ، وأعرض عنك ، ونسيك فى العذاب .

[ وكذلك ] أى : هذا الجزاء [ نجزيه ] [ من أسرف ] بأن تعدى الحدود ، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له [ ولم يؤمن بآيات ربه ] الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة ، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة فى غير محلها وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه .

[ ولعذاب الآخرة أشد ] من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة [ وأبقى ]

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾﴾

---

لكونه لا ينقطع ، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع .

فالواجب ، الخوف والحذر من عذاب الآخرة .

* أى أفلم يهد لهؤلاء المكذبين المعرضين ، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد ، وتجنب طريق الغى والفساد ، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم ، من القرون الخالية ، والأمم المتتابعة ، الذين يعرفون قصصهم ، ويتناقلون أسمارهم ، وينظرون بأعينهم ، مساكنهم من بعدهم ، كقوم هود ، وصالح ، ولوط وغيرهم ، وأنهم لما كذبوا رسلنا ، وأعرضوا عن كتبنا ، أصبناهم بالعذاب الأليم ؟

فما الذى يؤمّن هؤلاء ، أن يحل بهم ، ما حل بأولئك ؟ « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر » .

لا شىء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار ، خيراً من أولئك ، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم ، بل هم شر منهم ، لأنهم كفروا بأشرف الرسل ، وخير الكتب .

وليس لهم براءة مزبورة ، وعهد عند الله .

وليسوا كما يقولون ، أن جمعهم ينفعهم ، ويدفع عنهم ، بل هم أذل وأحقر من ذلك .

فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم ، من أسباب الهداية ، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل ، الذين جاءوهم ، وبطلان ما هم عليه .

ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات ، إنما ينتفع بها ، أولو النهى ،

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

---

أى : العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والألباب التى تزجر أصحابها عما لا ينبغى .

* هذه تسلية للرسول ، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين ، المعرضين ، وأن كفرهم وتكذيبهم ، سبب صالح ، لحلول العذاب بهم ، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات ، سببا وناشئا عن الذنوب ، ملازما لها.

وهؤلاء قد أتوا بالسبب ، ولكن الذى أخره عنهم ، كلمة ربك ، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم ، وضرب الأجل المسمى .

فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله ، هو الذى أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها .

ولعلهم يراجعون أمر الله ، فيتوب عليهم ، ويرفع عنهم العقوبة ، إذا لم تحق عليهم الكلمة .

ولهذا أمر الله رسوله ، بالصبر على أذيتهم بالقول ، وأمره أن يتعوض عن ذلك ، ويستعين عليه ، بالتسبيح بحمد ربه ، فى هذه الأوقات الفاضلة ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وفى أطراف النهار ، أوله وآخره ، عموم بعد خصوص ، وأوقات الليل وساعاته .

ولعلك إن فعلت ذلك ، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

---

وليطمئن قلبك ، وتقر عينك بعبادة ربك ، وتتسلى بها عن أذيتهم ، فيخف حينئذ عليك الصبر .

* أى : ولا تمد عينيك معجبا ، ولا تكرر النظر مستحسنا — إلى أحوال الدنيا والمتعين بها ، من المآكل والمشارب اللذيذة ، والملابس الفاخرة ، والبيوت المزخرفة ، والنساء المجملة .

فإن ذلك كله ، زهرة الحياة الدنيا ، تبتهج بها نفوس المغترين ، وتأخذ إعجاباً ، بأبصار المعرضين ، ويتمتع بها — بقطع النظر عن الآخرة — القوم الظالمون .

ثم تذهب سريعاً ، وتمضى جميعاً ، وتقتل محبيها وعشاقها ، فيندمون حيث لا تنفع الندامة ، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة .

وإنما جعلها الله فتنة واختباراً ، ليعلم من يقف عندها ، ويغتر بها ، ومن هو أحسن عملا كما قال تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » .

[ ورزق ربك ] العاجل من العلم والإيمان ، وحقائق الأعمال الصالحة ، والآجل من النعيم المقيم ، والعيش السليم فى جوار الرب الرحيم [ خير ] مما متعنا به أزواجاً ، فى ذاته وصفاته [ وأبقى ] لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلها كما قال تعالى « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

وفى هذه الآية ، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه ، طموحا إلى زينة الدنيا ، وإقبالا عليها ، أن يذكر ما أمامها من رزق ربه ، وأن يوازن بين هذا وهذا .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

* أى : حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل .

والأمر بالشيء ، أمر بجميع ما لا يتم إلا به ، فيكون أمرا بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ، ويفسدها ، ويكملها .

[ واصطبر عليها ] أى : على الصلاة بإقامتها ، بحدودها ، وأركانها ، وخشوعها ، فإن ذلك ، مشق على النفس .

ولكن ينبغى إكراهها وجهادها على ذلك ، والصبر معها دائماً .

فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به ، كان لما سواها من دينه ، أحفظ وأقوم .

وإذا ضيعها ، كان لما سواها أضيع .

ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق ، وأن لا يشغله الاهتمام به ، عن إقامة دينه فقال :

[ نحن نرزقك ] أى : رزقك علينا ، قد تكفلنا به ، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم .

فكيف بمن قام بأمرنا ، واشتغل بذكرنا ؟ ! ! ورزق الله عام للمتقى وغيره .

فينبغى الاهتمام ، بما يجلب السعادة الأبدية ، وهو: التقوي ، ولهذا قال:

[ والعاقبة ] فى الدنيا والآخرة [ للتقوى ] التى هى فعل المأمور وترك المنهى .

فمن قام بها ، كان له العاقبة ، كما قال تعالى « والعاقبة للمتقين » .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ

---

* أى : قال المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم : هلا يأتينا بآية من ربه ؟

يعنون آيات الاقتراح كقولهم : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » .

وهذا تعنت منهم ، وعناد وظلم ، فإنهم ، هم والرسول ، بشر عبيدلله ، فلا يليق منهم الاقتراح ، بحسب أهوائهم ، وإنما الذى ينزلها ، ويختار منها ما يختار بحسب حكمته ، هو الله .

ولما كان قولهم : « لولا أنزل عليه آيات من ربه » يقتضى أنه لم يأتهم بآية على صدقه ، ولا بينة على حقه ، وهذا كذب وافتراء ، فإنه أتى من المعجزات الباهرات ، والآيات القاهرات ، ما يحصل ببعضه ، المقصود .

ولهذا قال: [ أو لم تأتهم ] إن كانوا صادقين فى قولهم ، وأنهم يطلبون الحق بدليله .

[ بينة ما فى الصحف الأولى ] أى : هـذا القرآن العظيم ، المصدق لما فى الصحف الأولى ، من التوراة ، والإنجيل ، والكتب السابقة المطابق لها ، المخبر بما أخبرت به .

لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ
أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

---

وتصـــديقه أيضا مذكور فيها ، ومبشر بالرسول بها ، وهذا كقوله تعالى :

« أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

فالآيات تنفع المؤمنين ، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم .

وأما المعرضون عنها المعارضون لها ، فلا يؤمنون بها ، ولا ينتفعون بها ، « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

وإنما الفائدة فى سوقها إليهم ومخاطبتهم بها ، لتقوم عليهم حجة الله ، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب : [ لولا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ] بالعقوبة ، فها قد جاءكم رسولى ومعـه آياتى وبراهينى .

فإن كنتم كما تقولون ، فصدقوه .

قل يا محمد مخاطباً للمـكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون [ قل كل متربص ] فتربصوا بى الموت ، وأنا أتربص بكم العذاب « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » أى : الظفر أو الشهادة « ونحن نتربص بكم أن يصيبـكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » .

أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

[ فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ] أى المستقيم .

[ ومن اهتدى ] بسلوكه ، أنا أم أنتم ؟ فإن صاحبه ، هو الفائز الراشد ، الناجى المفلح .

ومن حاد عنه فهو خاسر خائب معذب .

وقد علم أن الرسول هو الذى بهذه الحالة ، وأعداؤه ، بخلافه . والله أعلم .

تم تفسير سورة طه ولله الحمد

تفســـير

# سُورَةُ الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

هذا تعجب من حالة الناس ، وأنهم لا ينجع فيهم تذكير ، ولا يرعون إلى نذير ، وأنهم قد قرب حسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة ، والحال أنهم فى غفلة معرضون أى : غفلة عما خلقوا له ، وإعراض عما زجروا به .

كأنهم للدنيا خلقوا ، وللتمتع بها ولدوا ، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ ، ولا يزالون فى غفلتهم وإعراضهم ، ولهذا قال :

[ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ] يذكرهم ما ينفعهم ، ويحثهم عليه وما يضرهم،ويرهبهم منه [ إلا استمعوه ] سماعا ، تقوم عليهم به الحجة .

[ وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم ] أى : قلوبهم غافلة معرضة بمطالبها

. . . . . . . . . . .

---

الدنيوية وأبدانهم لاعبة ، قد اشتغلوا بتناول الشهوات ، والعمل بالباطل، والأقوال الردية .

مع أن الذى ينبغى لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة ، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه ، وتستمعه استماعا ، تفقه المراد منه ، وتسعى جوارحهم ، فى عبادة ربهم ، التى خلقوا لأجلها ، ويجعلون القيامة والحساب، والجزاء منهم على بال .

فبذلك يتم لهم أمرهم ، وتستقيم أحوالهم ، وتزكو أعمالهم .

وفى معنى قوله [ اقترب للناس حسابهم ] قولان .

أحدها أن هذه الأمة ، هى آخر الأمم ، ورسولها ، آخر الرسل ، وعلى أمته تقوم الساعة ، فقد قرب الحساب منها ، بالنسبة لما قبلها من الأمم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وقرن بين إصبعيه ، السبابة والتى تليها » .

والقول الثانى : أن المراد بقرب الحساب الموت ، وأن من مات ، قامت قيامته ، ودخل فى دار الجزاء على الأعمال ، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض ، لا يدرى متى يفجأه الموت ، صباحا أو مساء .

فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية ، فاستعد للموت وما بعده .

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون ، على وجه العناد ، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا ، وتواطأوا فيما بينهم ، أن يقولوا فى الرسول

مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾

---

صلى الله عليه وسلم ، إنه بشر مثلكم ، فما الذى فضله عليكم ، وخصه من بينكم .

فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه ، لكان قوله من جنس قوله .

ولكنه يريد أن يتفضل عليكم ، ويرأس فيكم ، فلا تطيعوه ، ولا تصدقوه .

وأنه ساحر ، وما جاء به من القرآن ، سحر ، فانفروا عنه ، ونفروا الناس ، وقولوا .

[ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ] هذا ، وهم يعلمون أنه رسول الله حقا بما يشاهدون من الآيات الباهرة ، مالم يشاهده غيرهم ، ولكن حملهم على ذلك ، الشقاء والظلم والعناد .

والله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به ، وسيجازيهم عليه ولهذا قال :

[ قال ربى يعلم القول ] الخفى والجلى [ فى السماء والأرض ] أي : فى جميع ما احتوت عليه أقطارها [ وهو السميع ] لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات [ العليم ] بما فى الضمائر ، وأكنته السرائر .

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقوّلوا فيه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة.

فتارة يقولون « أضغاث أحلام » بمنزلة كلام النائم الهاذى، الذى لايحس بما يقول.

وتارة يقولون « افتراه » واختلقه وتقوّله من عند نفسه.

وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر فى هذا الذى جاء به، جزم جزما لايقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحداً من البشر، لايقدر على الإتيان بمثل بعضه.

كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته، وعداوته فلم يقدروا على شىء من معارضته، وهم يعلمون ذلك.

وإلا، فما الذى أقامهم، وأقعدهم؟ وأقض مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذى لا يقوم له شىء؟

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه، حيث لم يؤمنوا به، تنفيرا عنه لمن لم يعرفه.

. . . . . . . . . . .

---

وهو أكبر الآيات المستمرة ، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدقه ، وهو كاف شاف .

فمن طلب دليلا غيره ، أو اقترح آية من الآيات سواه ، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه ، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ، ما هو أضر شيء عليهم .

وليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله ، فقد تبين دليله بدونها .

وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم ، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة — على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات — لا يؤمنون قطعا ، فلو جاءتهم كل آية ، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

ولهذا قال الله عنهم : [ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ] أى : كناقة صالح ، وعصا موسى ، ونحو ذلك .

قال الله : [ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ] أى : بهذه الآيات المقترحة .

وإنما سنته تقتضى أن من طلبها ، ثم حصلت له لم يأمن أن يعاجله بالعقوبة .

فالأولون ما آمنوا بها أفيؤمن هؤلاء بها ؟

ما الذى فضلهم على أولئك وما الخير الذى فيهم ، يقتضي الإيمان عند وجودها ؟

وهذا الاستفهام ، بمعنى النفى ، أى : لايكون ذلك منهم أبداً .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا

هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هَلاَّ كان مَلَكاً، لايحتاج إلى طعام وشراب، وتصرّف فى الأسواق؟ وهلاَّ كان خالداً؟

فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت فى قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا فى الكفر، فتشابهت أقوالهم.

فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، القرين بإثبات الرسل قبله.

ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذى قد أقر بنبوته جميع الطوائف.

والمشركون، يزعمون أنهم على دينه وملته — بأن[1] الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره.

وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم.

وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم، ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

---

(١) قوله «بأن الرسل الخ» متعلق بقوله السابق «فأجاب تعالى الخ».

لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

---

فما بال محمد صلى الله عليه وسلم ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته وهى موجودة فى إخوانه المرسلين ، الذين يُقِرُّ بهم المكذبون لمحمد ؟

فهذا إلزام لهم ، فى غاية الوضوح .

وأنهم إن أقروا برسول من البشر ، ولن يقروا برسول من غير البشر ،فإن شبههم باطلة ، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها ، وتناقضهم بها .

فلو قدر انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا ، وأنه لا يكون نبى إن لم يكن ملكا مُخَلَّداً ، لا يأكل الطعام ، فقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

وأن البشر لاطاقة لهم بتلقى الوحى من الملائكة [ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ] .

فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين « فاسألوا أهل الذكر » من الكتب السالفة ، كأهل التوراة والإنجيل ، يخبروكم بما عندهم من العلم ، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم .

وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر ، وهم أهل العلم ، فإنها عامة فى كل مسألة من مسائل الدين ، أصوله وفروعه ، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها ، أن يسأل من يعلمها .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم .

ولم يؤمر بسؤالهم ، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه .

وفى تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم ، نهى عن سؤال المعروف بالجهل ، وعدم العلم ، ونهى له أن يتصدى لذلك ، وفى هذه الآية ، دليل على أن النساء ليس منهن نبية ، لا مريم ولا غيرها ، لقوله [ إلا رجالا ] .

* أى : لقد أنزلنا إليكم — أيها المرسل إليهم ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب — كتابا جليلا ، وقرآنا مبينا [ فيه ذكركم ] أى شرفكم وفخركم ، وارتفاعكم ، إن تذكرتم به ، ما فيه من الأخبار الصادقة ، فاعتقدتموها ، وامتثلتم ما فيه من الأوامر ، واجتنبتم ما فيه من النواهى ، وارتفع قدركم ، وعظم أمركم .

[ أفلا تعقلون ] ماينفعكم وما يضركم ؟ كيف لا تعملون على ما فيه ذكركم ، وشرفكم فى الدنيا والآخرة ، فلو كان لكم عقل ، لسلكتم هذا السبيل .

فلما لم تسلكوه ، وسلكتم غيره ، من الطرق ، التى فيها ضَعَتُكُمْ وَخِسَّتُكُمْ فى الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما ، علم أنه ليس لكم معقول صحيح ، ولا رأى رجيح .

وهذه الآية ، مصداقها ما وقع .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

---

فإن المؤمنين بالرسول ، والذين تذكروا بالقرآن ، من الصحابة ، فمن بعدهم ، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر ، والصيت العظيم ، والشرف على الملوك ، ما هو أمر معلوم لكل أحد .

كما أنه معلوم ما حصل ، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسا ، ولم يهتد ، ولم يتزكّ به ، من المقت والضعة ، والتدسية ، والشقاوة ، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، إلا بالتذكر بهذا الكتاب .

* يقول تعالى — محذرا لهؤلاء الظالمين ، المكذبين للرسول ، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل — [ وكم قصمنا ] أى : أهلكنا بعذاب مستأصل [ من قرية ] تلفت عن آخرها [ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ] وأن هؤلاء المهلكين ، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه ، وباشرهم نزوله ، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ، ندما ، وقلقاً ، وتحسروا على ما فعلوا .

فقيل لهم على وجه التهكم بهم : [ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون ] أى : لا يفيدكم الركض والندم .

ولكن إن كان لكم اقتدار ، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه ، من اللذات ، والمشتهيات ، ومساكنكم المزخرفات ، ودنياكم التى غرتكم وألهتكم ، حتى جاءكم أمر الله .

فكونوا فيها متمكنين ، وللذاتها جانين ، وفى منازلكم مطمئنين

لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

---

معظمين ، لعلكم أن تكونوا مقصودين فى أموركم ، كما كنتم سابقاً ، مسئولين من مطالب الدنيا ، كحالتكم الأولى ، وهيهات ، أين الوصول إلى هذا ؟ وقد فات الوقت ، وحل بهم العقاب والمقت ، وذهب عنهم عزهم ، وشرفهم ودنياهم ، وحضرهم ندمهم وتحسرهم ؟

ولهذا [ قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم ].

أى : الدعاء بالويل والثبور ، والندم ، والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم .

[ حتى جعلناهم حصيدا خامدين ] أى : بمنزلة النبات الذى قد حصد وأُنيمَ .

قد خمدت منهم الحركات ، وسكنت منهم الأصوات .

فاحذروا — أيها المخاطبون — أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل ، فيحل بكم كما حل بأولئك .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

---

* يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثا ، ولا لعبامن غير فائدة بل خلقها بالحق وللحق ، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم ، المدبر الحكيم ، الرحمن الرحيم ، الذى له الكمال كله ، والحمد كله ، والعزة كلها .

الصادق فى قيله ، الصادقة رسله ، فيما تخبر عنه ، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما،قادر على إعادة الأجساد بعد موتها ، ليجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

[ لو أردنا أن نتخذ لهوا ] على الفرض والتقدير المحال [ لاتخذناه من لدنا ] أى : من عندنا [ إن كنا فاعلين ] ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء ، لا نحب أن نريه إياكم (١) .

فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام ، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو .

كل هذا تنزُّلٌ مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة .

فسبحان الحليم الرحيم ، الحكيم ،فى تنزيله الأشياء منازلها .

---

(١) قوله « على أن نريه إياكم » خطأ نحوى فالصواب أن يقال : « أن نريكموه » كما قال تعالى«ولو أراكهم كثيراً »الآية ، وقوله:« أنلزمكموها» الآية ، لأن مهما أمكن الاتصال فى الضمائر ، فلا يعدل عنه إلى الانفصال .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

* يخبر تعالى ، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل .

وإن كان باطل قيل وجودل به ، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ، ما يدمغه ، فيضمحل ، ويتبين لكل أحد بطلانه [ فإذا هو زاهق ].

أى : مضمحل ، فانٍ ، وهذا عام فى جميع المسائل الدينية ، لا يورد مبطل ، شبهة ، عقلية ولا نقلية ، فى إحقاق باطل ، أو رد حق ، إلا وفى أدلة الله ، من القواطع العقلية والنقلية ، ما يُذْهِبُ ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد .

وهذا يتبين باستقراء المسائل ، مسئلة مسئلة ، فإنك تجدها كذلك

ثم قال : [ ولكم ] أيها الواصفون الله ، بما لا يليق به ، من اتخاذ الولد والصاحبة ، ومن الأنداد والشركاء ، حظكم من ذلك ، ونصيبكم الذى تدركون به [ الويل ] والندامة والخسران .

ليس لكم مما قلتم فائدة ، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها ، وتعملون لأجلها ، وتسعون فى الوصول إليها ، إلا عكس مقصودكم ، وهو : الخيبة والحرمان .

ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما .

فالكل عبيده ومماليكه ، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك ، ولا معاونة عليه ، ولا يشفع إلا بإذن الله .

فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة وكيف يجعل لله منها ولد ؟ !

وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

---

فتعالى وتقدس ، المالك العظيم ، الذى خضعت له الرقاب ، وذلَّتْ له الصعاب ، وخشعت له الملائكة المقربون ، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة ، أجمعون .

ولهذا قال : [ ومن عنده ] أى الملائكة [ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرن ] أى : لا يملون ولا يسأمون ، لشدة رغبتهم ، وكمال محبتهم ، وقوة أبدانهم .

[ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ] أى : مستغرقين فى العبادة والتسبيح فى جميع أوقاتهم فليس فى أوقاتهم وقت فارغ ولا خال منها وهم على كثرتهم بهذه الصفة ، وفى هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته ، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو ، ولا تُصْرَفَ العبادة لغيره .

* لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته ، وخضوع كل شىء له ، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض ، فى غاية العجز وعدم القدرة [ هم ينشرون ] .

استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يقدرون على نشرهم وحشرهم ، يفسرها قوله تعالى :

« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً * واتخذوا من دون

الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » .

فالمشرك يعبد المخلوق ، الذى لا ينفع ولا يضر ، ويدع الإخلاص لله ، الذى له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر .

وهذا من عدم توفيقه ، وسوء حظه ، وتوَفُّر جهله ، وشدة ظلمه .

فإنه لا يصلح الوجود ، إلا على إله واحد ، كما أنه لم يوجد ، إلا برب واحد .

ولهذا قال : [ لو كان فيهما ] أى : فى السموات والأرض [ آلهة إلا الله لفسدتا ] فى ذاتهما ، وفسد من فيهما ، من المخلوقات .

وبيان ذلك : أن العالم العلوى والسفلى ، على ما يرى ، فى أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام ، الذى ما فيه خلل ولا عيب ، ولا ممانعة ، ولا معارضة .

فدل ذلك ، على أن مدبره واحد ، وربه واحد ، وإلهه واحد .

فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك ، لاختل نظامه ، وتقوضت أركانه ، فإنهما يتمانعان ويتعارضان .

وإذا أراد أحدهما تدبير شىء ، وأراد الآخر عدمه ، فإنه محال وجود مرادهما معاً .

ووجود مراد أحدهما دون الآخر ، يدل على عجز الآخر ، وعدم اقتداره

واتفاقهما على مراد واحد فى جميع الأمور ، غير ممكن .

فإذاً ، يتعين أن القاهر الذى يوجد مراده وحده ، من غير ممانع

يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ

---

ولا مدافع ، هو الله الواحد القهار ، ولهذا ذكر الله دليل التمانع فى قوله :

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وتعالى عما يصفون » .

ومنه — على أحد التأويلين — قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » .

ولهذا قال هنا : [ فسبحان الله ] أى : تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده .

[ رب العرش ] الذى هو سقف المخلوقات وأوسعها ، وأعظمها ، فربوبية ما دونه من باب أولى .

[عما يصفون] أى: الجاحدون الكافرون ، من اتخاذ الولد والصاحبة ، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه [ لا يسأل عما يفعل ] لعظمته وعزته ، وكمال قدرته ، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه ، لا بقول ، ولا بفعل .

ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها ، وإتقانها ، أحسن كل شىء يقدره العقل ، فلا يتوجه إليه سؤال ، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال .

[ وهم ] أى : المخلوقون كلهم [ يسألون ] عن أفعالهم وأقوالهم ، لعجزهم وفقرهم ، ولكونهم عبيدا ، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير فى أنفسهم ، ولا فى غيرهم ، مثقال ذرة .

مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

---

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين ، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعا [ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ] أى حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه ، ولن يجدوا لذلك سبيلا بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه ، ولهذا قال :

[ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ] أى : قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم ، من إبطال الشرك .

فهذا كتاب الله الذى فيه ذكر كل شىء ، بأدلته العقلية والنقلية .

وهذه الكتب السابقة كلها ، براهين وأدلة لما قلت .

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه ، علم أنه لا برهان لهم ، لأن البرهان القاطع ، يجزم أنه لا معارض له ، وإلا لم يكن قطعيا .

وإن وجد معارضات ، فإنها شُبَهٌ لا تغنى من الحق شيئا .

وقوله [ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ] أى : وإنما أقاموا على ما هم عليه ، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى .

وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه ، وإنما ذلك ، لإعراضهم عنه .

وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات ، لتبين لهم الحق من الباطل تبينا واضحا جليا ، ولهذا قال : [ فهم معرضون ] .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

---

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين ، وأمر بالرجوع إليهم فى بيان هذه المسئلة ، بينها أتم تبيين فى قوله «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

فكل الرسل ، الذين من قبلك مع كتبهم ، زبدة رسالتهم وأصلها ، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبيان أنه الإله الحق المعبود ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة .

* يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول ، وأنهم زعموا — قبحهم الله — أن الله اتخذ ولدا فقالوا : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم .

وأخبر عن وصف الملائكة ، بأنهم عبيد مربوبون مدبرون ، ليس لهم من الأمر شىء .

وإنما هم مكرمون عند الله ، قد ألزمهم الله ، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته ، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل ، وأنهم فى غاية الأدب مع الله ، والامتثال لأوامره .

[ لا يسبقونه بالقول ] أى : لا يقولون قولا مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله ، لكمال أدبهم ، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه .

[ وهم بأمره يعملون ] أى : مهما أمرهم ، امتثلوا لأمره ، ومهما دبرهم عليه ، فعلوه .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

---

فلا يعصونه طرفة عين ، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله ، ومع هذا ، فالله قد أحاط بهم علمه .

[ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ] أى : أمورهم الماضية والمستقبلة ، فلا خروج لهم عن علمه ، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره .

ومن جزئيات وصفهم ، بأنهم لا يسبقونه بالقول ، وأنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه ، فإذا أذن لهم ، وارتضى من يشفعون فيه ، شفعوا فيه .

ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل ، إلا ما كان خالصاً لوجهه ، متبعا فيه الرسول .

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة ، وأن الملائكة يشفعون .

[ وهم من خشيته مشفقون ] أى : خائفون وَجِلُون ، قد خضعوا لجلاله ، وعنت وجوههم لعزه وجماله .

فلما بين أنه لا حق لهم فى الألوهية ، ولا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك — ذكر أيضا أنه لا حظ لهم ،من الألوهية، ولا بمجرد الدعوى ، وأن من قال منهم : [ إنى إله من دونه ] على سبيل الفرض والتنزل [ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ] .

وأى : ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص ، الفقير إلى الله من جميع الوجوه ، مشاركته الله فى خصائص الإلهية والربوبية ؟!!

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

* أى : أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وجحدوا الإخلاص له فى العبودية ، ما يدلهم دلالة مشاهدة ، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود .

فيشاهدون السماء والأرض ، فيجدونهما رتقا : هذه ليس فيها سحاب ولا مطر .

وهذه هامدة ميتة ، لا نبات فيها ، ففتقناهما : السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

أليس الذى أوجد فى السماء السحاب ، بعد أن كان الجو صافياً لا قزعة فيه .

وأودع فيه الماء الغزير ، ثم ساقه إلى بلد ميت ؛ قد اغْبَرَّتْ أرجاؤه ، وقحط عنه ماؤه .

فأمطره فيها ، فاهتزت ، وتحركت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، مختلف الأنواع ، متعدد المنافع .

أليس ذلك دليلا على أنه الحق ، وما سواه باطل ، وأنه محيي الموتى ، وأنه الرحمن الرحيم ؟

ولهذا قال [ أفلا يؤمنون ] أى : إيمانا صحيحاً ، ما فيه شك ولا شرك .

۞ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا

---

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال : [ وجعلنا فى الأرض ] إلى [ فى فلك يسبحون ] .

* أى : ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته ، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال ، أرساها بها وأوتدها ، لئلا تميد بالعباد ، أى : لئلا تضطرب ، فلا يتمكن العباد من السكون فيها ، ولا حرثها ، ولا الاستقرار بها .

فأرساها بالجبال ، فحصل بسبب ذلك ، من المصالح والمنافع ، ما حصل .

ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض ، قد اتصلت اتصالا كثيرا جداً ، فلو بقيت بحالها ، جبالا شامخات ، وقللا باذخات ، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان .

فمن حكمة الله ورحمته ، أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا .

أى:طرقا سهلة لا حَزْنَةً(١) . لعلهم يهتدون إلى الوصول ، إلى مطالبهم من البلدان .

ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان .

[ وجعلنا السماء سقفا ] للأرض التى أنتم عليها [ محفوظا ] من السقوط

---

(١) حزنة ، أى : وعرة صعبة السلوك والمشى فيها .

وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

---

( إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ) محفوظا أيضا من استراق الشياطين للسمع .

[ وهم عن آياتها معرضون ] أى : غافلون لا هون ، وهذا عام فى جميع آيات السماء ، من علوها ، وسعتها ، وعظمتها ، ولونها الحسن ، وإتقانها العجيب ، وغير ذلك من المشاهد فيها ، من الكواكب الثوابت ، والسيارات ، وشمسها ، وقمرها النيرات ، المتولد عنهما ، الليل والنهار ، وكونهما دائما فى فلكهما سابحين ، وكذلك النجوم .

فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد ، والفصول ، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم ، ويستريحون فى ليلهم ، ويهدأون ويسكنون وينتشرون فى نهارهم ، ويسعون فى معايشهم .

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب ، وأمعن فيها النظر ، جزم حزما لاشك فيه ، أن الله جعلها مؤقتة فى وقت معلوم ، إلى أجل محتوم ، يقضى العباد منها مآربهم ، وتقوم بها منافعهم ، وليستمتعوا وينتفعوا .

ثم بعد هذا ، ستزول وتضمحل ، ويفنيها الذى أوجدها ، ويسكنها الذى حركها .

وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار ، يجدون فيها جزاء أعمالهم ، كاملاً موفَّرا ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار ، وأنها منزل سفر ، لامحل إقامة .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

* لما كان أعداء الرسول يقولون ( تربصوا به ريب المنون ) قال الله تعالى : هذا طريق مسلوك ومعبد ، منهوك ، فلم نجعل لبشر [ من قبلك ] يامحمد [ الخلد ] فى الدنيا .

فإذا مت ، فسبيل أمثالك ، من الرسل والأنبياء ، والأولياء .

[ أفإن مت فهم الخالدون ] أى : فهل إذا مت خُلِّدُوا بعدك .

فَلْيَهْنِهِمْ الخلود إذاً ، إن كان ، وليس الأمر كذلك ، بل كل من عليها فانٍ .

ولهذا قال : [ كل نفس ذائقة الموت ] وهـذا يشمل سائر نفوس الخلائق ، وإن هذا كأس لابد من شربه وإن طال بالعبد المدى ، وعمر سنين .

ولـكن الله تعالى ، أوجد عباده فى الدنيا ، وأمرهم ، ونهاهم ، وابتلاهم بالخير والشر ، وبالغنى والفقر ، والعز والذل ، والحياة والموت ، فتنة منه تعالى ( ليبلوهم أيهم أحسن عملا ) ومن يفتتن عنـد مواقع الفتن ومن ينجو .

[ ثم إلينا ترجعون ] فنجازيكم بأعمالـكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر « وما ربك بظلام للعبيد » .

وهذه الآية ، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر ، وأنه مخلد فى الدنيا .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

---

فهو قول ، لا دليل عليه ، ومناقض للأدلة الشرعية .

* وهذا من شدة كفرهم ، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استهزأوا به وقالوا : [ هذا الذى يذكر آلهتكم ] .

أى : هذا المحتقر بزعمهم ، الذى يسب آلهتكم ويذمها ، ويقع فيها ،

أى : فلا تبالوا به ، ولا تحتفلوا به .

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له ، بما هو من كماله ، فإنه الأكمل الأفضل الذى من فضائله ومكارمه ، إخلاص العبادة لله ، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه ، وذكر محله ومكانته .

ولكن محل الازدراء والاستهزاء ، هؤلاء الكفار ، الذين جمعوا كل خلق ذميم .

ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب ، وجحدهم لرسله فصاروا بذلك ، من أخساء الخلق وأراذلهم ، ومع هذا ، فذكرهم للرحمن ، الذى هو أعلى حالاتهم، كافرون به، لأنهم لايذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون فذكرهم كفر وشرك ، فكيف بأحوالهم بعد ذلك ؟

ولهذا قال : [ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ] وفى ذكر اسمه ( الرحمن ) هنا ، بيان لقباحة حالهم ، وأنهم كيف قابلوا الرحمن — مسدى النعم كلها ، ودافع النقم الذى ، ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع السوء

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

إلا هو — بالكفر والشرك .

[ خلق الإنسان من عجل ] أى : خلق عجولا ، يبادر الأشياء ، ويستعجل وقوعها .

فالمؤمنون ، يستعجلون عقوبة الله للكافرين ، ويستبطئونها .

والكافرون ، يتولون ويستعجلون بالعذاب ، تكذيبا وعنادا ، ويقولون :

[ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] والله تعالى ، يمهل ولا يهمل ويحلم ، ويجعل لهم أجلا مؤقتا ( إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) .

ولهذا قال : [ سأريكم آياتى ] أى : فى انتقامى ممن كفر بى وعصانى [ فلا تستعجلون ] ذلك .

وكذلك الذين كفروا يقولون : [ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] قالوا هذا القول ، اغترارا ، ولما يحق عليهم العقاب ، وينزل بهم العذاب .

ف [ لو يعلم الذين كفروا ] حالهم الشنيعة [ حين لا يكفون عن وجوههم العذاب ولا عن ظهورهم ] إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيهم من كل مكان [ ولاهم ينصرون ] أى : لا ينصرهم غيرهم ، فلا نصروا ولا انتصروا .

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

---

[ بل تأتيهم ] النار [ بغتة فتبهتهم ] من الانزعاج والذعر والخوف العظيم .

[ فلا يستطيعون ردها ] إذ هم أذل وأضعف ، من ذلك .

[ ولاهم ينظرون ] أى : يمهلون ، فيؤخر عنهم العذاب .

فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة ، لما استعجلوا بالعذاب ، ولخافوه أشد الخوف .

ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم ، قالوا ما قالوا .

ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم « أهذا الذى يذكر آلهتكم » سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال :

[ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ] .

أى : نزل بهم [ ما كانوا به يستهزئون ] أى : نزل بهم العذاب ، وتقطعت عنهم الأسباب .

فليحذر هؤلاء ، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين .

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا

---

* يقول تعالى - ذاكرا عجز هؤلاء ، الذين اتخذوا من دونه آلهة ، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن ، الذى رحمته ، شملت الْبَرَّ ، والفاجر ، فى ليلهم ونهارهم فقال :

[ قل من يكلؤكم ] أى : يحرسكم ويحفظكم [ بالليل ] إذا كنتم نائمين على فرشكم ، وذهبت حواسكم [ وبالنهار ] وقت انتشاركم وغفلتكم [ من الرحمن ] أى : بدله غيره .

أى: هل يحفظكم أحد غيره ؟ لا حافظ إلا هو .

[ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ] فلهذا أشركوا به ، وإلا فلو أقبلوا على ربهم ، وتلقوا نصائحه ، لَهُدُوا لرشدهم ، وَوُفِّقُوا فى أمرهم .

[ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ] أى : إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم ، من يقدر على منعهم من ذلك السوء ، والشر النازل بهم .

[ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون ] أى : لا يعانون على أمورهم من جهتنا .

وإذا لم يعانوا من الله ، فهم مخذولون فى أمورهم ، لايستطيعون جلب منفعة ، ولا دفع مضرة .

والذى أوجب لهم استمرارهم على كفرهم ، وشركهم قوله : [ بل متعنا

هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

---

هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ] أى : أمددناهم بالأموال والبنين ، وأطلنا أعمارهم ، فاشتغلوا بالتمتع بها ، ولَهَوْا بها ، عما له خلقوا ، وطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وعظم طغيانهم ، وتغلظ كفرانهم .

فلو لفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم ، وعن يسارهم من الأرض ، لم يجدوا إلا هالكا ، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية ، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك ، وقد نصب الموت فى كل طريق لاقتناص النفوس ، الأشراك[1] .

ولهذا قال : [ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ] أى : بموت أهلها وفنائهم ، شيئا فشيئا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

فلو رأوا هذه الحالة ، لم يغتروا ، ويستمروا على ماهم عليه .

[ أفهم الغالبون ] الذين بوسعهم ، الخروج عن قدر الله ؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت ؟

فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء ؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم ، أذعنوا ، وذلوا ، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة ؟

---

(١) الأشراك مفرده ( شرك ) بفتح الشين والراء، ومعناه : الفخ الذى يستعمله الصيادون .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

* أى : [ قل ] يامحمد ، للناس كلهم : [ إنما أنذركم بالوحى ] أى : إنما أنا رسول ، لا آتيكم بشيء من عندى ، ولا عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلىّ .

فإن استجبتم ، فقد استجبتم لله ، وسيثيبكم على ذلك .

وإن أعرضتم وعارضتم ، فليس بيدى من الأمر شيء ، وإنما الأمر لله ، والتقدير كله لله .

[ولا يسمع الصم الدعاء ] أى : الأصم لا يسمع صوتا ، لأن سمعه قد فسد وتعطل .

وشرط السماع مع الصوت ، أن يوجد محل قابل لذلك .

كذلك الوحى سبب لحياة القلوب والأرواح ، والفقه عن الله .

ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى ، كان بالنسبة للهدى والإيمان ، بمنزلة الأصم ، بالنسبة إلى الأصوات

فهؤلاء المشركون ، صم عن الهدى ، فلا يستغرب عدم اهتدائهم ، خصوصا فى هذه الحالة ، التى لم يأتهم العذاب ، ولا مسّهم ألمه .

[ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك] أى : ولو جزء يسير من عذابه .

[ ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ] أى : لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور ، والندم ، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب .

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حكمه العدل ، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة ، وأنه يضع لهم الموازين العادلة ، التي يبين فيها مثاقيل الذر ، الذى توزن به الحسنات والسيئات .

[ فلا تظلم نفس ] مسلمة ولا كافرة [ شيئا ] بأن تنقص من حسناتها ، أو يزاد فى سيئاتها .

[ وإن كان مثقال حبة من خردل ] التى هى أصغر الأشياء وأحقرها ، من خير أو شر [ أتينا بها ] وأحضرناها ، ليجازى بها صاحبها .

كقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« قالوا ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا » .

[ وكفى بنا حاسبين ] يعنى بذلك نفسه الكريمة ، فكفى بها حاسبا ، أى : عالما بأعمال العباد ، حافظا لها ، مثبتا لها فى الكتاب ، عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها واستحقاقها ، موصلا للعمال جزاءها .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ

---

✲ كثيرا ما يجمع تعالى ، بين هذين الكتابين الجليلين ، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ، ولا أعظم ذكرا ، ولا أبرك ، ولا أعظم هدى وبيانا ، وهما : التوراة والقرآن .

فأخبر أنه آتى موسى أصلا ، وهرون تبعا [ الفرقان ] وهى التوراة الفارقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأنها [ ضياء ] أى : نور يهتدى به المهتدون ، ويأتم به السالكون ، وتعرف به الأحكام ، ويميز به بين الحلال والحرام ، وينير فى ظلمة الجهل والبدع والغواية .

[ وذكراً للمتقين ] يتذكرون به ، ما ينفعهم ، وما يضرهم ، ويتذكر به الخير والشر .

وخص « المتقين » بالذكر ، لأنهم المنتفعون بذلك ، علما وعملا ، ثم فسر المتقين فقال :

[ الذين يخشون ربهم بالغيب ] أى : يخشونه فى حال غيبتهم ، وعدم مشاهدة الناس لهم ، فمع المشاهدة أولى ، فيتورعون عما حرم ، ويقومون بما ألزم .

[ وهم من الساعة مشفقون ] أى : خائفون وجلون ، لكمال معرفتهم بربهم .

فجمعوا بين الإحسان والخوف .

مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

والعطف ، هنا ، من باب عطف الصفات المتغايرات ، الواردة على شيء واحد ، وموصوف واحد .

[ وهذا ] أى : القرآن [ ذكر مبارك أنزلناه ] فوصفه بوصفين جليلين .

كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب ، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم ، ومن أحكام الجزاء ، والجنة ، والنار ، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية .

وسماه ذكرا ، لأنه يذكر ما ركزه الله فى العقول والفطر ، من التصديق بالأخبار الصادقة ، والأمر بالحسن عقلا ، والنهى عن القبيح عقلا .

وكونه « مباركا » يقتضي كثرة خيره ونماءه ، وزيادته .

ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن ، فإن كل خير ونعمة ، وزيادة دينية أو دنيوية ، أو أخروية ، فإنها بسببه ، وأثر عن العمل به .

فإذا كان ذكرا مباركا ، وجب تلقيه بالقبول والانقياد ، والتسليم ، وشكرا لله على هذه المنحة الجليلة ، والقيام بها ، واستخراج بركته ، بتعلم ألفاظه ومعانيه .

ومقابلته بضد هذه الحالة ، من الإعراض عنه ، والإضراب عنه ، صفحا وإنكاره ، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم .

ولهذا أنكر تعالى ، على من أنكره فقال : [ أفأنتم له منكرون ] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ

* لما ذكر تعالى موسي ومحمدا صلى الله عليه وسلم ، وكتابيهما قال : [ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ] أى : من قبل إرسال موسى ومحمد ، ونزول كتابيهما .

فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وأعطاه من الرشد ، الذى كمل به نفسه ، ودعا الناس إليه ، مالم يؤته أحداً من العالمين ، غير محمد .

وأضاف الرشد إليه ، لكونه رشدا ، بحسب حاله ، وعلو مرتبته .

وإلا ، فلا مؤمن ، له من الرشد ، بحسب ما معه فى الإيمان .

[ وكنا به عالمين ] أى : أعطيناه رشده ، واختصصناه بالرسالة والخلة ، واصطفيناه فى الدنيا والآخرة ، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفء له ، لزكائه(١) وذكائه(٢) .

ولهذا ذكر محاجته لقومه ، ونهيهم عن الشرك ، وتكسير الأصنام ، وإلزامهم بالحجة .

فقال : [ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ] التى مثلتموها ونحتُّموها بأيديكم ، على صور بعض المخلوقات [ التى أنتم لها عاكفون ] مقيمون على عبادتها ، ملازمون لذلك ، فما هى ؟ وأى فضيلة ثبتت لها ؟ وأين عقولكم ،

(١) قوله ( لزكائه ) أى : لطهارته قلباً ونفساً .

(٢) وقوله ( لذكائه ) أى : لفطنتة ، وتوقد ذكائه ، وسعة عقله .

كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

التى ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها ؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم ، فهذا من أكبر العجائب ، تعبدون ما تنحتون .

فأجابوا بغير حجة ، جواب العاجز ، الذى ليس بيده أدنى شبهة فقالوا: [ وجدنا آباءنا ] كذلك يفعلون ، فسلكنا سبيلهم ، واتبعناهم على عبادتها .

ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ، ليس بحجة ، ولا تجوز به القدوة : خصوصاً ، فى أصل الدين ، وتوحيد رب العالمين .

ولهذا قال لهم إبراهيم — مضللا للجميع : [ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ] أى : ضلال بين واضح .

وأى ضلال ، أبلغ من ضلالهم فى الشرك ، وترك التوحيد ؟!!

أى : فليس ما قلتم ، يصلح للتمسك به ، وقد اشتركتم وإياهم فى الضلال الواضح ، البيِّن لكل أحد .

[ قالوا ] على وجه الاستغراب لقوله ، والاستفهام لما قال ، وكيف بادأهم بتسفيههم ، وتسفيه آبائهم — : [ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ] أى . هذا القول الذى قلته ، والذى جئتنا به ، هل هو حق وجد ؟ أم كلامك لنا ، كلام لاعب مستهزىء ، لا يدرى ما يقول ؟ وهذا الذى أرادوا .

وإنما رددوا الكلام بين الأمرين ، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد ، أن الكلام الذى جاء به إبراهيم ، كلام سفيه لا يعقل ما يقول .

ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

---

فرد عليهم إبراهيم ردا يبين به وجه سفههم ، وقلة عقولهم فقال :

[ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ] فجمع لهم بين الدليل العقلى ، والدليل السمعى .

أما الدليل العقلى ، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم ، أن الله وحده ، الخالق لجميع المخلوقات ، من بنى آدم ، والملائكة ، والجن ، والبهائم . والسموات ، والأرض ، المدبر لهن ، بجميع أنواع التدبير .

فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبَّراً مُتَصرَّفاً فيه .

ودخل فى ذلك ، جميع ما عبد من دون الله .

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز ، أن يعبد مخلوقا متصرفاً فيه ، لا يملك نفعاً ، ولا ضراً ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر ؟

أما الدليل السمعى : فهو المنقول عن الرسل ، عليهم السلام ، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق ، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم [ وأنا على ذلكم ] أى أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل [ من الشاهدين ] وأى شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل ؟ خصوصاً أولى العزم منهم خصوصاً خليل الرحمن . ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شىء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال [ وتالله لأكيدن أصنامكم ]أى أكسرها على وجه

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ

---

الكيد [ بعد أن تولوا مدبرين ] عنها إلى عيد من أعيادهم ، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية [ فجعلهم جذاذاً ] أى كِسَراً وقِطَعاً ، وكانت مجموعة فى بيت واحد ، فكسرها كلها .

[ إلا كبيراً لهم ] أى إلا صنمهم الكبير ، فإنه تركه لمقصد سيبينه .

وتأمل هذا الاحتراز العجيب ، فإن كل ممقوت عند الله ، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم ، إلا على وجه إضافته لأصحابه ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» « إلى عظيم الروم » ونحو ذلك ، ولم يقل « إلى العظيم » .

وهنا قال تعالى : [ إلا كبيرا لهم ] ولم يقل « كبيراً من أصنامهم ».

فهذا ينبغى التنبه له ، والاحتراز من تعظيم ماحقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه .

وقوله : [ لعلهم إليه يرجعون ] أى ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه ، ويستملوا حجته ، ويلتفتوا إليها ، ولا يعرضوا عنها ولهذا قال فى آخرها : [ فرجعوا إلى أنفسهم ] .

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزى [ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ] فرموا إبراهيم بالظلم الذى هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده .

وإنما الظالم من اتخذها آلهة ، وقد رأى ما يفعل بها [ قالوا سمعنا فتى

إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ

---

يذكرهم ] أى يعيبهم ويذمهم ، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذى كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها [ يقال له إبراهيم ] فلما تحققوا أنه إبراهيم [قالوا فأتوا به] أى : بإبراهيم [ على أعين الناس ] أى بمرأى منهم ومسمع [ لعلهم يشهدون ] .

أى : يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم ، وهذا الذى أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة ، كما قال موسى حين واعد فرعون .

« موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » .

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له : [ أأنت فعلت هذا ] أى : التكسير [ بآلهتنا يا إبراهيم ] ؟

وهذا استفهام تقرير ، أى : فما الذى جرأك ، وما الذى أوجب لك الإقدام على هذا الأمر ؟ .

فقال إبراهيم والناس مشاهدون [ بل فعله كبيرهم هذا ] أى: كسرها غضباً عليها ، لما عبدت معه ، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده .

وهذا الكلام من إبراهيم المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه .

ولهذا قال : [ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ] وأراد : الأصنام المكسرة اسئلوها لم كسرت ؟ والصنم الذى لم يكسر ، اسألوه لأى شىء كسرها ، إن كان عندهم نطق ، فسيجيبونكم إلى ذلك ، وأنا وأنتم ، وكل أحد يدرى

كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن

---

أنها لا تنطق ولا تتكلم ، ولا تنفع ولا تضر ، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى .

[ فرجعوا إلى أنفسهم ] أى : ثابت إليهم عقولهم ، ورجعت إليهم أحلامهم ، وعلموا أنهم ضالون فى عبادتها ، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك .

[ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ] فحصل بذلك المقصود ، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم .

ولـكن لم يستمروا على هذه الحالة .

بل[1] [ نـكسوا على رءوسهم ] أى : انقلب الأمر عليهم ،وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم ، فقالوا لإبراهيم :

[ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ] فـكيف تتهـكم بنا وتستهزىء بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟

فقال إبراهيم — موبخا لهم ومعلناً بشركهم على رءوس الأشهاد ، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة ـ :[ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ] .

---

( ١ ) قوله « بل » فى الأصل للمطبوع « ولـكن » وهو خطأ لذلك أبدلناها بـ « بل » ليستقيم الـكلام .

دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ
ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا
عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

---

فلا نفع ولا دفع [ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ] أى : ما أضلكم وأخسر صفقتكم ، وما أخسكم ، أنتم وما عبدتم من دون الله .

[ أفلا تعقلون ] لتعرفوا هذه الحال .

فلما عدمتم العقل ، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة ، صارت البهائم ، أحسن حالا منكم .

فحينئذ لما أفحمهم ، ولم يبينوا حجة ، استعملوا قوتهم فى معاقبته .

و [ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ] أى : اقتلوه أشنع القتلات ، بالإحراق ، غضباً لآلهتكم ، ونصرة لها .

فتعساً لهم ثم تعساً ، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم ، واتخذوه إلها .

فانتصر الله لخليله لما ألقوه فى النار وقال لها : [ كونى بردا وسلاما على إبراهيم ] فكانت عليه بردا وسلاما ، لم ينله فيها أذى ، ولا أحس بمكروه .

[ وأرادوا به كيداً ] حيث عزموا على إحراقه .

[ فجعلناهم الأخسرين ] أى : فى الدنيا والآخرة ، كما جعل الله خليله وأتباعه ، هم الرابحين المفلحين .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

---

[ ونجيناه ولوطاً ] وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام قيل : إنه ابن أخيه ، فنجاه الله ، وهاجر [ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ] أى : الشام ، فغادر قومه فى « بابل » من أرض العراق .

[ وقال إنى ذاهب إلى ربى ] إنه هو العزيز الحكيم .

ومن بركة الشام ، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها ، وأن الله اختارها ، مهاجراً لخليله .

وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة ، وهو بيت المقدس .

[ ووهبنا له ] حين اعتزل قومه [ إسحاق ويعقوب ] ابن إسحق [ نافلة ] بعد ما كبر ، وكانت زوجته عاقراً ، فبشرته الملائكة بإسحق .

[ ومن وراء إسحق يعقوب ] ويعقوب ، هو إسرائيل ، الذى كانت منه الأمة العظيمة ، وإسماعيل بن ابراهيم ، الذى كانت منه الأمة الفاضلة العربية ، ومن ذريته ، سيد الأولين والآخرين .

[ وكلا ] من إبراهيم وإسحق ويعقوب [ جعلنا صالحين ] أى : قائمين بحقوقه ، وحقوق عباده .

ومن صلاحهم ، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدى به المهتدون ، ويمشى خلفه السالكون ، وذلك لما صبروا ، وكانوا بآيات الله يوقنون .

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

---

وقوله : [ يهدون بأمرنا ] أى : يهـدون الناس بديننا ، لا يأمرون بأهواء أنفسهم ، بل بأمر الله ودينه ، واتباع مرضاته ، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله .

[ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ] يفعلونها ويدعون الناس إليها .

وهذا شامل للخيرات كلها ، من حقوق الله ، وحقوق العباد .

[ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ] هذا من باب عطف الخاص على العام ، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ولأن من كملهما كما أمر ، كان قائماً بدينه ، ومن ضيعهما ، كان لما سواهما أضيع .

ولأن الصلاة أفضل الأعمال ، التى فيها حقه .

والزكاة أفضل الأعمال ، التى فيها الإحسان لخلقه .

[ وكانوا لنا ] أى : لا لغيرنا [ عابدين ] أى : مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية فى أكثر أوقاتهم .

فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم ، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق ، وخلقهم لأجله .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

هذا ثناء من الله على رسوله ( لوط ) عليه السلام بالعلم الشرعى، والحكم بين الناس ، بالصواب والسداد ، وأن الله أرسله إلى قومه ، يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش ، فلبث يدعوهم ، فلم يستجيبوا له .

فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم [ كانوا قوم سوء فاسقين ] .

كذبوا الداعى ، وتوعدوه بالإخراج ، ونجى الله لوطاً وأهله .

فأمره أن يسرى بهم ليلا ، ليبعدوا عن القرية ، فسروا ونجوا ، وذلك من فضل الله عليهم ومِنّته .

[ وأدخلناه فى رحمتنا ] التى من دخلها ، كان من الآمنين ، من جميع المخاوف ، النائلين كل خير وسعادة ، وبر ، وسرور ، وثناء .

وذلك لأنه من الصالحين ، الذين صلحت أعمالهم ، وزكت أحوالهم ، وأصلح الله فاسدهم .

والصلاح ، هو السبب لدخول العبد برحمة الله .

كما أن الفساد ، سبب لحرمانه الرحمة والخير .

وأعظم الناس صلاحاً ، الأنبياء عليهم السلام ولهذا يصفهم بالصلاح .

وقال سليمان عليه السلام « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، نوحاً عليه السلام ، مثنياً مادحاً ، حين أرسله الله إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة ، إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن الشرك به ، ويُبْدِى فيهم ويعِيدُ ، ويدعوهم سراً وجهاراً ، وليلا ونهاراً .

فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ، ولا يفيد لديهم الزجر ، نادى ربه وقال:

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » .

فاستجاب الله له ، فأغرقهم ، ولم يُبْقِ منهم أحدا .

ونجّى الله نوحا وأهله ، ومن معه من المؤمنين ، فى الفلك المشحون .

وجعل ذريته هم الباقين ، ونصرهم الله على قومه المستهزئين .

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ

---

* أى : واذكر هذين النبيين الكريمين « سليمان » و« داود » مثنياً مبجلا ، إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد ، بدليل قوله :

[ إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ] أى : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث ، نفشت فيه غنم القوم الأخرى ، أى . رعت ليلا ، فأكلت ما فى أشجاره ، ورعت زرعه .

فقضى فيه داود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث ، نظرا إلى تفريط أصحابها ، فعاقبهم بهذه العقوبة .

وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب ، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدَرِّها[1] وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث ، حتى يعود إلى حاله الأولى ، فإذا عاد إلى حاله ، ترادَّا[2] ورجع كل منهما بماله ، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام ولهذا قال :

[ ففهمناها سليمان ] أى فهمناه هذه القضية .

---

( ١ ) درها . أى . لبنها .

( ٢ ) ترادَّا أى : يرد كل من صاحب الحرث والغنم للآخر ما أخذه منه .

وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى

---

ولا يدل ذلك ، أن داود لم يفهمه الله فى غيرها ، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله [ وكلا ] من داود وسليمان [ آتينا حكما وعلماً ] .

وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطىء ذلك .

وليس بملوم إذا أخطأ ، مع بذل اجتهاده .

ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال : [ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ] .

وذكر أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحا ، وتمجيدا .

وكان قد أعطاه الله ، من حسن الصوت ورقته ورخامته ، ما لم يؤته أحدا من الخلق .

فكان إذا سبح وأثنى على الله ، جاوبته الصم والطيور الْبُهْم ، وهذا فضل الله عليه وإحسانه ولهذا قال : [ وكنا فاعلين ] .

[ وعلمناه صنعة لبوس لكم ] أى : علم الله داود عليه السلام ، صنعة الدروع .

فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده .

فَأَلاَنَ الله له الحديد ، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة .

[ لتحصنكم من بأسكم ] أى : هى وقاية لكم ، وحفظ عند الحرب ، واشتداد البأس .

بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

---

[ فهل أنتم شاكرون ] نعمة الله عليكم ، حيث أجراها على يد عبده داود .

كما قال تعالى : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وَإِلاَنتِهَا أمر خارق للعادة .

وأن يكون — كما قاله المفسرون — : إن الله أَلاَنَ له الحديد ، حتى كان يعمله كالعجين والطين ، من دون إذابة له على النار .

ويحتمل أن تعليم الله له ، على جارى العادة ، وأن إلانة الحديد له ، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن ، لإذابتها .

وهذا هو الظاهر ، لأن الله امْتَنَّ على العباد وأمرهم بشكرها .

ولولا أن صنعته من الأمور التى جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك ، ويذكر فائدتها ، لأن الدروع التى صنع داود عليه السلام ، متعذر أن يكون المراد أعينها ، وإنما الْمِنَّةُ بالجنس .

والاحتمال الذى ذكره المفسرون ، لا دليل عليه إلا قوله [ وألنا له الحديد ] .

وليس فيه أن الإلانة من دون سبب ، والله أعلم بذلك .

[ ولسليمان الريح ] أى : سخرناها [ عاصفة ] أى : سريعة فى مرورها .

[ تجرى بأمره ] حيث أُدِيرَتْ امتثلت أمره ، غدوها شهر ورواحها شهر [ إلى الأرض التى باركنا فيها ] وهى أرض الشام ، حيث كان مقره .

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

فيذهب على الريح شرقا وغربا ، ويكون مأواها ورجوعها ، إلى الأرض المباركة .

[ وكنا بكل شيء عالمين ] قد أحاط علمنا بجميع الأشياء ، وعلمنا داود وسليمان ، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا

[ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ] هذا أيضا من خصائص سليمان عليه السلام ، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت ، وسلطه على تسخيرهم فى الأعمال ، التى لا يقدر على كثير منها غيرهم .

فكان منهم ، من يغوص له فى البحر ، ويستخرج الدر ، واللؤلؤ ، وغير ذلك .

ومنهم من يعمل له [محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات] . وسخر طائفة منهم ، لبناء بيت المقدس ، ومات ، وهم على عمله ، وبقوا بعده سنة ، حتى علموا موته ، كما سيأتى ، إن شاء الله تعالى .

[ وكنا لهم حافظين] أى : لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه ، بل حفظهم الله له ، بقوته وعزته ، وسلطانه .

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، أيوب ، مثنيا معظما له ، رافعا لقدره ، حين ابتلاه ، ببلاء شديد ، فوجده صابرا راضيا عنه .

وذلك أن الشيطان سلط على جسده ، ابتلاء من الله ، وامتحاناً فنفخ فى جسده ، فتقرح قروحا عظيمة[1] ومكث مدة طويلة ، واشتد به البلاء ، ومات أهله ، وذهب ماله ، فنادى ربه قائلا رب [ إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ] .

فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه ، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ . وبرحمة ربه الواسعة العامة استجاب الله له ، وقال :

---

( ١ ) قوله فتقرح قروحاً عظيمة الخ هذه عبارة توهم أن أيوب صار بحالة يشمئز الناظر إليه والمقرر فى العقيدة الإسلامية فى باب النبوات أن الأنبياء يستحيل عليهم الأمراض المنفرة للناس كالبرص والتقرحات فى أبدانهم والعمى والصمم ، لأنهم مرشدون محتاجون إلى مخالطة الناس لإرشادهم ، والنبي إذا كان بحالة تتقزز منها النفوس ، لايستمع إليه أحد ، ولا يمكنه ـ والحالة هذه ـ أن يجالس الناس ويجتمع معهم وبالتالى لايقدر على القيام بواجب الدعوة لذلك كان من اللوازم الواجبة للرسل أن يكونوا على أحسن حالة وأجمل هيئة . نعم يجوز لهم الأعراض البشرية كالأمراض ولكن بشرط أن لا تكون منفرة ، وللكلام فى ذلك مجال آخر ، ليس هنا محل بسطه .

وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

( اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ) فركض برجله ، فخرجت من ركضته عين ماء باردة ، فاغتسل منها وشرب ، فأذهب الله عنه مابه من الأذى .

[ وآتيناه أهله ] أى : رددنا عليه أهله وماله .

[ومثلهم معهم] بأن منحه الله العافية،ومن الأهل والمال شيئا كثيرا .

[ رحمة من عندنا ] به ، حيث صبر ورضى ، فأثابه الله ثوابا عاجلا ، قبل ثواب الآخرة .

[ وذكرى للعابدين ] أى : جعلناه عبرة للعابدين ، الذين ينتفعون بالصبر .

فإذا رأوا ما أصاب أيوب عليه السلام من البلاء ، ثم ما أثابه الله بعد زواله ، ونظروا السبب ، وجدوه ، الصبر .

ولهذا أثنى الله عليه به فى قوله : [ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنهأ واب ] .

فجعلوه أسوة وقدوة ، عندما يصيبهم الضر .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

* أى : واذكر عبادنا المصطفين ، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر ، وأثنِ عليهم ، أبلغ الثناء ، إسمعيل بن إبراهيم ، وإدريس ، وذا الكفل ، نبيين من أنبياء بني إسرائيل [كل] من هؤلاء المذكورين [من الصابرين] .

والصبر هو : حبس النفس ومنعها ، مما تميل بطبعها إليه .

وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة :

الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصية الله ، والصبر على أقدار الله المؤلمة .

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام ، حتى يوفى هذه الثلاثة حقها .

فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام ، قد وصفهم الله بالصبر .

فدل أنهم وفوها حقها ، وقاموا بها ، كما ينبغى .

ووصفهم أيضا بالصلاح ، وهو يشمل صلاح القلب ، بمعرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه كل وقت .

وصلاح اللسان ، بأن يكون رطبا من ذكر الله .

وصلاح الجوارح ، باشتغالها بطاعة الله وكَفِّها عن المعاصى .

فبصبرهم وصلاحهم ، أدخلهم الله برحمته ، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين ، وأثابهم الثواب العاجل والآجل .

ولو لم يكن من ثوابهم ، إلا أن الله تعالى نَوَّهَ بذكرهم فى العالمين وجعل لهم لسان صدق فى الآخرين ، لكفى بذلك شرفا وفضلا .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو : يونس ، أى : صاحب النون ، وهى الحوت ، بالذكر الجميل ، والثناء الحسن .

فإن الله تعالى أرسله إلى قومه ، فدعاهم ، فلم يؤمنوا .
فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم .

فجاءهم العذاب ورأوه عيانا ، فعجُّوا إلى الله ، وضجوا وتابوا ، فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالى : [ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى ومتعناهم إلى حين ] .

وقال:[وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين].

وهذه الأمة العظيمة ، الذين آمنوا بدعوة يونس ، من أكبر فضائله .

ولكنه عليه الصلاة والسلام ، ذهب مغاضبا ، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب ، التى لم يذكرها الله لنا فى كتابه ، ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله.

[ إذ أبق إلى الفلك . . . وهو مليم ] أى : فاعل ما يلام عليه .
وظن أن الله ، لا يقدر عليه ، أى : يضيق عليه فى بطن الحوت .
أو ظن أنه سيفوت الله تعالى ، ولا مانع(١) من عروض هذا الظن

(١) قوله [ ولا مانع إلخ ] عجيب جدا أن يظن بنبى أنه يعرض له أنه سيفوت الله ويأوى إلى مكان خارج عن ملكه تعالى وقدرته . =

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

---

للـكل من الخلق على وجه لا يستقر ، ولا يستمر عليه ، فركب فى السفينة مع أناس .

فاقترعوا ، مَنْ يلقون منهم فى البحر ؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم .

فأصابت القرعة يونس ، فالتقمه الحوت ، وذهب فيه إلى ظلمات البحار.

فنادى فى تلك الظلمات : [ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ] .

فأقر لله تعالى بكمال الألوهية ، ونزهه عن كل نقص ، وعيب ، وآفة ، واعترف بظلم نفسه وجنايته .

قال الله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » .

ولهذا قال هنا : [ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ] أى : الشدة التى وقع فيها .

[ وكذلك ننجى المؤمنين ] وهذا وعد وبشارة ، لـكل مؤمن وقع فى شدة وغم ، أن الله تعالى سينجيه منها ، ويكشف عنه ويخفف ، لإيمانه كما فعل بـ « يونس» عليه السلام .

---

= ومعلوم أن هذا العروض مستحيل على الصالحين من عباد الله فـكيف بالأنبيـاء ؟ ! ! .

ولا شك أن هذا الظن بالأنبياء من أشد المستحيلات وأن ذلك لا يليق بمراتبهم العلية التى حباهم الله إياها .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، زكريا ، منوها بذكره ، ناشراً لمناقبه وفضائله ، التى من جملتها ، هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه الخلق ، ورحمة الله وإياه .

وأنه [ نادى ربه رب لا تذرنى فردا ] أى : « قال رب إنى وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا * ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » .

من هذه الآيات علمنا أن قوله [ رب لا تذرنى فردا ] أنه لما تقارب أجله . خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه فى الدعوة إلى الله ، والنصح لعباد الله ، وأن يكون فى وقته فردا ، ولا يخلف من يشفعه ويعينه ، على ما قام به .

[ وأنت خير الوارثين ] أى : خير الباقين ، وخير من خلفنى بخير ، وأنت أرحم بعبادك مني .

ولكني أريد مايطمئن به قلبي ، وتسكن له نفسى ، ويجرى فى موازيني ثوابه .

[ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ] النبي الكريم ، الذى لم يجعل الله له من قبل سميا .

زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

---

[ وأصلحنا له زوجه ] بعد ما كانت عاقراً ، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل ، لأجل نبيه زكريا .

وهذا من فوائد الجليس ، والقرين الصالح ، أنه مبارك على قرينه .

فصار يحيى مشتركا بين الوالدين .

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، كُلاً على انفراده ، أثنى عليهم عموما فقال :

[ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ] أى : يبادرون إليها ويفعلونها فى أوقاتها الفاضلة ، ويكملونها على الوجه اللائق ، الذى ينبغى ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها ، إلا انتهزوا الفرصة فيها .

[ ويدعوننا رغبا ورهبا ] أى يسألوننا الأمور المرغوب فيها ، من مصالح الدنيا والآخرة ، ويتعوذون بنا ، من الأمور المرهوب منها ، من مضار الدارين ، وهم راغبون لا غافلون ، لاهون ولا مدلون .

[ وكانوا لنا خاشعين ] أى خاضعين متذللين متضرعين ، وهذا لكمال معرفتهم بربهم .

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

---

* أى : واذكر مريم ، عليها السلام ، مثنيا عليها مبينا لقدرها ، شاهرا لشرفها .

فقال : [والتى أحصنت فرجها ] أى : حفظته من الحرام وقربانه ، بل ومن الحلال .

فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة ، واستغراق وقتها بالخدمة لربها .

وحين جاءها جبريل فى صورة بشر سَوِىٍّ تامِّ الخلق والحسن [ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ] فجازاها الله من جنس عملها ، ورزقها ولدا من غير أب ، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام ، فحملت بإذن الله .

[ وجعلناها وابنها آية للعالمين ] حيث حملت به ، ووضعته من دون مسيس أحد ، وحيث تكلم فى المهد ، وبرّأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه فى تلك الحالة ، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ، ما هو معلوم .

فكانت وابنها آية للعالمين ، يتحدث بها ، جيلا بعد جيل ، ويعتبر بها المعتبرون .

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام ، قال مخاطبا للناس : [ إن هذه أمتكم أمة واحدة ] .

أى : هؤلاء الرسل المذكورون . هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون ، وبهديهم تقتدون ، كلهم على دين واحد ، وصراط واحد ، والرب أيضاً واحد .

وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا

---

ولهذا قال : [ وأنا ربكم ] الذى خلقتكم ، وربيتكم بنعمتى ، في الدين والدنيا .

فإذا كان الرب واحدا ، والنبي واحدا ، والدين واحدا ، وهو : عبادة الله ، وحده لاشريك له ، بجميع أنواع العبادة — كان وظيفتكم ، والواجب عليكم ، القيام بها .

ولهذا قال : [ فاعبدون ] فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ، ترتيب المسبب على سببه .

وكان اللائق ، الاجتماع على هذا الأمر ، وعدم التفرق فيه .

ولكن البغى والاعتداء ، أبيا إلا الافتراق والتقطع .

ولهذا قال [ وتقطعوا أمرهم بينهم ] أى : تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فِرَقاً ، وتشتتوا ، كُلٌّ يدَّعِي أن الحق معه ، والباطل مع الفريق الآخر و« كل حزب بما لديهم فرحون » .

وقد علم أن المصيب منهم ، من كان سالكا للدين القويم ، والصراط المستقيم ، مؤتما بالأنبياء.

وسيظهر هذا ، إذا انكشف الغطاء ، وبرح الخفاء ، وحشر الله الناس لفصل القضاء .

فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب . ولهذا قال : [ كل ] من الفرق المتفرقة وغيرهم [ إلينا راجعون ] أى : فنجازيهم أتم الجزاء .

رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

---

ثم فصل جزاءه فيهم ، منطوقا ومفهوما ، فقال : [ فمن يعمل من الصالحات ] أى : الأعمال التى شرعتها الرسل ، وحثت عليها الكتب [ وهو مؤمن ] بالله وبرسله ، وما جاءوا به [ فلا كفران لسعيه ] .

أى : لا نضيع سعيه ولا نبطله ، بل نضاعفه له ، أضعافا كثيرة .

[ وإنا له كاتبون ] أى : مثبتون له فى اللوح المحفوظ ، وفى الصحف التى مع الحفظة .

أى : ومن يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم ، خاسر فى دينه ، ودنياه .

* أى : يمتنع على القرى المهلكة المعذبة ، الرجوع إلى الدنيا ، ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب .

فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على مايوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدارك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا

---

* هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصى ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان من بنى آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شُكِيَ إليه إفسادهم فى الأرض .

وفى آخر الزمان ، ينفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس وفى هذه الحالة والوصف ، الذى ذكره الله من كل مكان مرتفع ، وهو الحدب ينسلون أى : يسرعون .

فى هذا ، دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم فى الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التى تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب .

وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم فى الدنيا ، وأنه لا يد لأحد بقتالهم .

[ واقترب الوعد الحق ] أى يوم القيامة الذى وعد الله بإتيانه ، ووعده حق وصدق .

ففى ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة ، من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة ، والقلاقل المفظعة ، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور ، والندم والحسرة ، على ما فات ويقولون :

[ قد كنا فى غفلة عن هذا ] اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفى

ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

إِنَّـكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لماتوا .

[ بل كنا ظالمين ] اعترفوا بظلمهم ، وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

[ إنـكم وما تعبدون ] إلى [ توعدون ] .

* أى : وإنـكم ، أيها العابدون مع الله آلهة غيره [ حصب جهنم ] .

أى : وقودها وحطبها [ أنتم لها واردون ] وأصنامكم .

والحـكمة فى دخول الأصنام ، النار ، وهى جماد ، لا تعقل ، وليس عليها ذنب — بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلهذا قال :

[ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ] هذا كقوله تعالى « ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » .

وكل من العابدين والمعبودين فيها ، خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا ينقلون عنها .

[ لهم فيها زفير ] من شـدة العذاب [ وهم فيها لا يسمعون ] صم بكم عمى .

أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غليانها ، واشتداد زفيرها وتغيظها .

فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ

---

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عبد ، وهو راض بعبادته .

وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون فى قوله [ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ] أى : سبقت لهم سابقة السعادة فى علم الله ، وفى اللوح المحفوظ وفى تيسيرهم فى الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة .

[ أولئك عنها ] أى : عن النار [ مبعدون ] فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها ، غاية البعد ، حتى لا يسمعوا حسيسها ، ولا يروا شخصها .

[ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ] من المآكل ، والمشارب ، والمناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب .

[ لا يحزنهم الفزع الأكبر ] أى : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع .

وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم مما يخافون .

ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ

---

[ وتتلقاهم الملائكة ] إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفدا ، لنشورهم ، مهنئين لهم قائلين: [ هذا يومكم الذى كنتم توعدون ] فَلْيَهْنِكُمْ ما وعدكم الله .

وليعظم استبشاركم ، بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم ، بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

* يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوى السموات — على عظمها واتساعها — كما يطوى الكاتب للسجل أى : الورقة المكتوب فيها .

فتنتثر نجومها ، وتكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها [ كما بدأنا أول خلق نعيده ] أى إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم .

فكما ابتدأنا خلقهم ، ولم يكونوا شيئا ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

[ وعدا علينا إنا كنا فاعلين ] ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

[ ولقد كتبنا فى الزبور ] وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالتوراة ونحوها [ من بعد الذكر ] أى : كتبناه فى الكتب المنزلة ، بعد ما كتبنا فى الكتاب السابق ، الذى هو اللوح المحفوظ ،

ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

---

وأم الكتاب الذى توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب فى ذلك .

[ أن الأرض ] أى أرض الجنة [ يرثها عبادى الصالحون ] الذين قاموا بالمأمورات ، واجتنبوا المنهيات .

فهم الذين يورثهم الله الجنات ، كقول أهل الجنة : « الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » .

ويحتمل أن المراد : الاستخلاف فى الأرض ، وأن الصالحين يمكن الله لهم فى الأرض ، ويوليهم عليها كقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

* يثنى الله تعالى على كتابه العزيز « القرآن » ويبين كفايته التامة عن كل شيء ، وأنه لا يستغنى عنه فقال :

[ إن فى هـذا لبلاغا لقوم عابدين ] أى : يتبلغون به ، فى الوصول إلى ربهم ، وإلى دار كرامته ، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب .

وليس للعابدين ، الذين هم أشرف الخلق ، وراءه غاية ، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم ، بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالإخبار بالغيوب الصادقة ، وبالدعوة لحقائق الإيمان ، وشواهد الإيقان ، المبين للمأمورات كلها ، والمنهيات جميعاً ، المعرف بعيوب النفس والعمل ، والطرق التى ينبغى سلوكها فى دقيق الدين وجليله ، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان .

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ

---

فمن لم يغنه القرآن ، فلا أغناه الله ؛ ومن لا يكفيه ، فلا كفاه الله .

ثم أثنى على رسوله ، الذى جاء بالقرآن فقال : [ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ] .

فهو رحمته المهداة لعباده .

فالمؤمنون به ، قبلوا هذه الرحمة ، وشكروها ، وقاموا بها .

وغيرهم ، كفروها ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، وأبوا رحمة الله ونعمته .

[ قل ] يامحمد [ إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ] الذى لا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال : [ فهل أنتم مسلمون ] أى : منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته ، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم ، بهذه النعمة ، التى فاقت المنن .

[ فإن تولوا ] عن الانقياد لعبودية ربهم ، فحذرهم حلول المثلات ، ونزول العقوبة .

[ فقل آذنتكم ] أى : أعلمتكم بالعقوبة [ على سواء ] أى علمى وعلمكم بذلك مستو فلا تقولوا — إذا نزل بكم العذاب — « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

بل الآن ، استوى علمى وعلمكم ، لما أنذرتكم ، وحذرتكم ، وأعلمتكم بمآل الكفر ، ولم أكتم عنكم شيئاً .

سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ
فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

---

[ وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ] أى : من العذاب لأن علمه عند الله ، وهو بيده ، ليس لى من الأمر شىء .

[ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ] أى : لعل تأخير العذاب الذى استعجلتموه ، شر لكم ، وإن تتمتعوا فى الدنيا إلى حين ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم .

[ قال رب احكم بالحق ] أى : بيننا وبين القوم الكافرين .

فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم فى الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة « بدر » وغيرها .

[ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ] أى : نسأل ربنا الرحمن ، ونستعين به على ماتصفون ، من قولكم : سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم .

فنحن فى هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكل على حولنا وقوتنا .

وإنما نستعين بالرحمن ، الذى ناصية كل مخلوق بيده .

ونرجوه أن يتم ما استعنا به ، من رحمته ، وقد فعل ، ولله الحمد .

# سُورَةُ الحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ
عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

---

* يخاطب الله الناس كافة ، بأن يتقوا ربهم ، الذى رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

فحقيق بهم ، أن يتقوه ، بترك الشرك ، والفسوق ، والعصيان ، ويمتثلوا أوامره ، مهما استطاعوا .

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ، ويحذرهم من تركها ، وهو : الإخبار بأهوال القيامة ، فقال :

[ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ] لا يقدر قدره ، ولا يبلغ كنهه .

ذلك بأنها إذا وقعت الساعة ، رجفت الأرض ، وزلزلت زلزالها ، وتصدعت الجبال ، واندكت ، وكانت كثيبا مهيلا ، ثم كانت هباء منبثا .

ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج .

فهنالك تنفطر السماء ، وتكور الشمس والقمر ، وتنتثر النجوم ، ويكون من القلاقل والبلابل ، ما تنصدع له القلوب ، وتوجل منه الأفئدة ، وتشيب

كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

---

منه الولدان ، وتذوب له الصم الصلاب ، ولهذا قال :

[ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ] مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها ، خصوصا فى هذه الحال ، التى لا يعيش إلا بها .

[ وتضع كل ذات حمل حملها ] من شدة الفزع والهول .

[ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ] .

أى : تحسبهم — أيها الرائى لهم — سكارى من الخمر ، وليسوا سكارى .

[ ولكن عذاب الله شديد ] : فلذلك أذهب عقولهم ، وفرغ قلوبهم ، وملأها من الفزع ، وبلغت القلوب الحناجر ، وشخصت الأبصار .

فى ذلك اليوم ، لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا .

و « يومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * وفصيلته التى تؤويه * لكل امرىء منهم يومئذ ، شأن يغنيه » .

وهناك يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه .

وتنصب الموازين ، التى يوزن بها مثاقيل الذر ، من الخير والشر .

وتنشر صحائف الأعمال ، وما فيها من جميع الأعمال والأقوال ، والنيات ، من صغير وكبير ، وينصب الصراط على متن جهنم .

. . . . . . . . . . .

---

وتزلف الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين .

إذا رأتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظا وزفيرا .

وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ، دعوا هنالك ثبوراً .

ويقال لهم: « لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً ».

وإذا نادوا ربهم ، ليخرجهم منها ، قال « اخسأوا فيها ولا تكلمون» .

قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم ، وأيسوا من كل خير ، ووجدوا أعمالهم كلها ، لم يفقدوا منها نقيرا ولا قطميرا .

هذا ، والمتقون فى روضات الجنات يحبرون ، وفى أنواع اللذات يتفكهون ، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون .

لحقيق بالعاقل ، الذى يعرف أن كل هذا أمامه ، أن يُعدّ له عُدّتَهُ ، وأن لا يلهيه الأمل ، فيترك العمل ، وأن تكون تقوى الله شعاره ، وخوفه دثاره ، ومحبة الله ، وذكره ، روح أعماله .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

---

* أى : ومن الناس طائفة وفرقة ، سلكوا طريق الضلال ، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق ، يريدون إحقاق الباطل ، وإبطال الحق .

والحال ، أنهم فى غاية الجهل ما عندهم من العلم شىء .

وغاية ما عندهم ، تقليد أئمة الضلال ، من كل شيطان مريد ، متمرد على الله وعلى رسله ، معاند لهم ، قد شاقّ الله ورسوله ، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار .

[ كُتِبَ عليه ] أى : قدر على هذا الشيطان المريد [ أنه من تولاه ] أى : اتبعه [ فأنه يضله ] عن الحق ، ويجنبه الصراط المستقيم [ ويهديه إلى عذاب السعير ] .

وهذا نائب إبليس حقا ، فإن الله قال عنه « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

فهذا الذى يجادل فى الله ، قد جمع بين ضلاله بنفسه ، وتصديه إلى إضلال الناس .

وهو متبع ، ومقلد لكل شيطان مريد ، ظلمات بعضها فوق بعض .

ويدخل فى هذا ، جمهور أهل الكفر والبدع ، فإن أكثرهم مقلدة ، يجادلون بغير علم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

---

* يقول تعالى [ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ] أى : شك واشتباه ، وعدم علم بوقوعه ، مع أن الواجب عليكم ، أن تصدقوا ربكم ، وتصدقوا رسله فى ذلك .

ولكن إذا أبيتم إلا الريب ، فهاكم دليلين عقليين ، تشاهدونهما ، كل واحد منهما ، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه ، ويزيل عن قلوبكم الريب .

أحدهما : الاستدلال بابتداء خلق الإنسان ، وأن الذى ابتدأه ،سيعيده فقال فيه :

[ فإنا خلقناكم من تراب ] وذلك بخلق أبى البشر ، آدم عليه السلام .

[ ثم من نطفة ] أى : مَنِيٍّ ، وهذا ابتداء أول التخليق .

[ ثم من علقة ] أى : تنقلب تلك النطفة ، بإذن الله ، دما أحمر .

[ ثم من مضغة ] أى : ينتقل الدم مضغة ، أى : قطعة لحم ، بقدر ما يمضغ .

وتلك المضغة تارة تكون [ مخلقة ] أى : مصور منها خلق الآدمى .

[ وغير مخلقة ] تارة ، بأن تقذفها الأرحام ، قبل تخليقها .

[ لنبين لكم ] أصل نشأتكم ، مع قدرته تعالى ، على تكميل خلقه

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا

---

فى لحظة واحدة ، ولكن ليبين لنا ، كمال حكمته ، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

[ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ] ، ونقر . أى : نبقى فى الأرحام من الحمل ، الذى لم تقذفه الأرحام ، مانشاء إبقاءه إلى أجل مسمى وهو مدة الحمل .

[ ثم نخرجكم ] من بطون أمهاتكم [ طفلا ] لا تعلمون شيئاً ، وليس لكم قدرة .

وسخرنا لكم الأمهات ، وأجرينا لكم فى ثديها ، الرزق .

ثم تنقلون ، طورا بعد طور ، حتى تبلغوا أشدكم ، وهو كمال القوة والعقل .

[ ومنكم من يتوفى ] من قبل أن يبلغ سن الأشد .

ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر ، أى : أخسه وأرذله ، وهو : سن الهرم والتخريف ، الذى به يزول العقل ، ويضمحل ، كما زالت باقى القوة ، وضعفت .

[ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ] أى: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئا ، مما كان يعلمه قبل ذلك ، وذلك لضعف عقله .

فقوة الآدمى محفوفة بضعفين ، ضعف الطفولية ونقصها ، وضعف الهرم ونقصه .

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ

---

كما قال تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

والدليل الثانى ، إحياء الأرض بعد موتها ، فقال الله فيه :

[وترى الأرض هامدة] أى : خاشعة مغبرة لا نبات فيها ، ولا خضرة .

[ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ] أى : تحركت بالنبات [ وربت ] أى: ارتفعت بعد خشوعها[١] وذلك لزيادة نباتها .

[ وأنبتت من كل زوج ] أى : صنف من أصناف النبات [ بهيج ] أى : يبهج الناظرين ، ويسر المتأملين .

فهذان الدليلان القاطعان ، يدلان على هذه المطالب الخمسة ، وهى هذه .

[ ذلك ] الذى أنشأ الآدمى من ما وصف لكم ، وأحيا الأرض بعد موتها .

[ بأن الله هو الحق ] أى الرب المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

وعبادته هى الحق ، وعبادة غيره باطلة .

---

( ١ ) قوله « خشوعها » هكذا فى الأصل المطبوع والمناسب هنا أن يقال « خفوضها » لينتظم الكلام ويظهر جمال الطباق « خفوضها » و « ارتفعت » .

يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا

---

[ وأنه يحيي الموتى ] كما ابتدأ الخلق ، وكما أحيا الأرض بعد موتها.

[ وأنه على كل شيء قدير ] كما أشهدكم من بديع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم .

[ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ] فلا وجه لاستبعادها .

[ وأن الله يبعث من فى القبور ] فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها .

* المجادلة المتقدمة للمقلد ، وهذه المجادلة للشيطان المريد ، الداعى إلى البدع .

فأخبر أنه [ يجادل فى الله ] أى : يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق .

[ بغير علم ] صحيح [ ولا هدى ] أى : غير متبع فى جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد ، ولا متبوع مهتد .

[ ولا كتاب منير ] أى : واضح بين ، فلا له حجة عقلية ولا نقلية .

إن هى إلا شبهات ، يوحيها إليه الشيطان « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

مع هذا [ ثانى عطفه ] أى : لاوِىَ جانبه وعنقه ، وهذا كناية عن كبره عن الحق ، واحتقاره للخلق .

خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

---

فقد فرح بما معه من العلم الغير النافع . واحتقر أهل الحق ، وما معهم من الحق .

[ ليضل ] الناس أى : ليكون من دعاة الضلال .

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال .

ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال :

[ له فى الدنيا خزى ] أى : يفتضح هذا فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا من آيات الله العجيبة ، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر والضلال ، إلا وله من المقت بين العالمين ، واللعنة ، والبغض ، والذم ، ماهو حقيق به ، وكلٌّ بحسب حاله .

[ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ] أى نذيقه حرَّها الشديد ، وسعيرها البليغ ، وذلك بما قدمت يداه .

* [ ذلك ] ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروى .

وما فيه من معنى البعد ( وهو معنى اللام فى « ذلك » الموضوعة للدلالة على البعد ) للدلالة على كون الكافر فى الغاية القصوى من الهول والفظاعة.

[ بما قدمت يداك ] أى : بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى .

[ وأن الله ليس بظلام للعبيد ] أى : والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبيده بغير ذنب من قبَلَهمْ .

۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ

---

والمعنى الإجمالى : أنه يقال للكافر الموصوف بتلك الأوصاف فى الآيتين السابقتين :

ذلك الذى تلقاه من خزى وعذاب إنما كان بسبب افترائك وتكبرك لأن الله عادل لا يظلم ، ولا يسوى بين المؤمن والكافر ، والصالح والفاجر، بل يجازى كلا منهم بعمله .

* أى : ومن الناس من هو ضعيف الإيمان ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم تخالطه بشاشته .

بل دخل فيه ، إما خوفا ، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن .

[ فإن أصابه خير اطمئن به ] أي : إن استمر رزقه رغدا ، ولم يحصل له من المكاره شيء ، اطمأن بذلك الخير ، لا إيمانه .

فهذا ، ربما أن الله يعافيه ، ولا يقيض له من الفتن ، ما ينصرف به عن دينه .

[ وإن أصابته فتنة ] من حصول مكروه ، أو زوال محبوب [ انقلب على وجهه ] أى : ارتد عن دينه .

[ خسر الدنيا والآخرة ] أما فى الدنيا ، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذى جعل الردة رأساً لماله ، وعوضا عما يظن إدراكه نخاب سعيه ، ولم يحصل له ، إلا ما قسم له .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ
مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

---

وأما الآخرة ، فظاهر ، حرم الجنة التى عرضها السموات والأرض والأرض ، واستحق النار .

[ ذلك هو الخسران المبين ] أى : الواضح البيّن .

[ يدعو ] هذا الراجع على وجهه [ من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ] .

وهذا صفة كل مدعو ومعبود ، من دون الله ، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره ، نفعاً ولا ضراً .

[ ذلك هو الضلال البعيد ] الذى بلغ فى البعد إلى حد النهاية ، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار ، الغنى المغنى .

وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ، ليس بيده من الأمر شىء ، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب . ولهذا قال :

[ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ] فإن ضرره فى العقل والبدن ، والدنيا والآخرة ، معلوم [ لبئس المولى ] أى هذا العبود [ ولبئس العشير ] أى : القرين الملازم على صحبته .

فإن المقصود من المولى والعشير ، حصول النفع ، ودفع الضرر .

فإذا لم يحصل شىء من هذا ، فإنه مذموم ملوم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ

---

* لما ذكر تعالى المجادل بالباطل ، وأنه على قسمين ، مقلد ، وداع .

ذكر أن المتسمى بالإيمان أيضاً على قسمين ، قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم .

والقسم الثانى : المؤمن حقيقة،صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة

فأخبر تعالى أنه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وسميت الجنة جنة ، لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنباتات التى تُجِنُّ مَنْ فيها ، ويستتر بها ، من كثرتها .

[ إن الله يفعل ما يريد ] فمهما أراده تعالى ، فعله من غير ممانع ولا معارض .

ومن ذلك ، إيصال أهل الجنة إليها . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

* أي من كان يظن(١) أن الله لا ينصر رسوله ، وأن دينه سيضمحل ، فإن النصر ، من الله ينزل من السماء [ فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ] النصر عن الرسول .

---

( ١ ) الظن هنا . ليس على حقيقته الذى هو «إدراك الطرف الراجح» بل هو بمعنى اليقين . فيكون المعنى : « من كان يعتقد أن الله لا ينصر رسوله الخ » .

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

[ فلينظر هل يذهبن كيده ] أى : ما يكيد به الرسول ، ويعمله من محاربته ، والحرص على إبطال دينه ، ما يغيظه من ظهور دينه .

وهذا استفهام بمعنى النفى ، أى : إنه لا يقدر على شفاء غيظه ، بما يعمله من الأسباب .

ومعنى هذه الآية الكريمة : ياأيها المعادى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، الساعى فى إطفاء دينه ، الذى يظن بجهله ، أن سعيه سيفيده شيئا .

إعلم أنك ، مهما فعلت من الأسباب ، وسعيت فى كيد الرسول ، فإن ذلك لا يذهب غيظك ، ولا يشفى كمدك ، فليس لك قدرة فى ذلك .

ولكن سنشير عليك برأى ، تتمكن به من شفاء غيظك ، ومن قطع النصر عن الرسول ، إن كان ممكنا .

ائت الأمر من بابه ، وارتق إليه بأسبابه .

إعمد إلى حبل من ليف أو غيره ، ثم عَلِّقْهُ فى السماء ، ثم اصعد به ، حتى تصل إلى الأبواب التى ينزل منها النصر ، فَسُدَّها ، وأغلقها ، واقطعها ، فبهذه الحال تشفى غيظك .

فهذا هو الرأىُ والمكيدة ، وما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفى بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق .

وهذه الآية الكريمة ، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ، ولرسوله ، وعباده المؤمنين ، ما لا يخفى ، ومن تأييس الكافرين ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون أى : وسعوا مهما أمكنهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

* أى : وكذلك لما فصلنا فى هذا القرآن مافصلنا ، جعلناه آيات بينات ، واضحات ، دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة ، ولكن الهداية بيد الله .

فمن أراد الله هدايته ، اهتدى بهذا القرآن ، وجعله إماما له وقدوة ، واستضاء بنوره .

ومن لم يرد الله هدايته ، فلو جاءته كل آية ، ما آمن ، ولم ينفعه القرآن شيئاً ، بل يكون حجة عليه .

* يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض ، من الذين أوتوا الكتاب ، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، ومن المجوس ، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل ، ويجازيهم بأعمالهم ، التى حفظها وكتبها ، وشهدها ، ولهذا قال: [ إن الله على كل شىء شهيد ].

ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله : [ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ] كلٌّ يدعى أنه المحق .

[ فالذين كفروا ] يشمل كل كافر ، من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والصابئين ، والمشركين .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ
وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ
وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾
هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ
مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ

---

[ قطعت لهم ثياب من نار ] أى : يجعل لهم ثياب من قطران ، وتشعل فيها النار ، ليعمهم العذاب ، من جميع جوانبهم .

[ يصب من فوق رءوسهم الحميم ] الماء الحار جدا ، يصهر مافى بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء ، من شدة حره ، وعظيم أمره .

[ ولهم مقامع من حديد ] بيد الملائكة الغلاظ الشداد ، تضربهم فيها وتقمعهم .

[ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ] فلا يُفتَّرُ عنهم العذاب ، ولا هم ينظرون ، ويقال لهم توبيخا : [ ذوقوا عذاب الحريق ] أى : المحرق للقلوب والأبدان .

ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

---

* [ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ] .

ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين ، الذين آمنوا بجميع الكتب ، وجميع الرسل .

[ يحلون فيها من أساور من ذهب ] أى : يُسَوَّرُونَ فى أيديهم ، رجالهم ونساؤهم ، أساور الذهب .

[ ولباسهم فيها حرير ] فتم نعيمهم بذلك ، من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها ، لفظ الجنات ، وذكر الأنهار السارحات .

أنهار الماء واللبن والعسل والخمر ، وأنواع اللباس ، والحلى الفاخر .

وذلك بسبب أنهم [ هدوا إلى الطيب من القول ] الذى أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص ، ثم سائر الأقوال الطيبة ، التي فيها ، ذكر الله ، أو إحسان إلى عبادة الله .

[ وهدوا إلى صراط الحميد ] أى : الصراط المحمود .

وذلك ، لأن جميع الشرع كله ، محتو على الحكمة والحمد ، وحسن المأمور به ، وقبح المنهى ، وهو الدين الذى ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، المشتمل على

. . . . . . . . . . .

---

العلم النافع ، والعمل الصالح .

أو ، وهدوا إلى صراط الله الحميد ، لأن الله ، كثيرا ما يضيف الصراط إليه ، لأنه يوصل صاحبه إلى الله .

وفى ذكر « الحميد » هنا ، ليبين أنهم نالوا الهداية ، بحمد ربهم ، ومنته عليهم .

ولهذا يقولون فى الجنة « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

واعترض تعالى بين هذه الآيات ، بذكر سجود المخلوقات له ، جميع من فى السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، الذى يشمل الحيوانات كلها ، وكثير من الناس ، وهم المؤمنون .

[ وكثير حق عليه العذاب ] أي : وجب وكتب ، لكفره ، وعدم إيمانه ، فلم يوفقه للإيمان ، لأن الله أهانه .

[ ومن يهن الله فما له من مكرم ] ولا رادّ لما أراد ، ولا معارض لمشيئته .

فإذا كانت المخلوقات كلها ، ساجدة لربها ، خاضعة لعظمته ، مستكينة لعزته ، عانية لسلطانه ، دل على أنه وحده ، الرب المعبود ، والملك المحمود ، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه ، فقد ضل ضلالا بعيداً ، وخسر خسرانا مبينا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم ، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله ، وبين الصد عن سبيل الله ، ومنع الناس من الإيمان ، والصد أيضا ، عن المسجد الحرام ، الذى ليس ملكا لهم ولا لآبائهم ، بل الناس فيه سواء ، المقيم فيه ، والطارىء إليه .

بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه ، والحال أن المسجد الحرام ، من حرمته واحترامه وعظمته ، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم ، نذقه من عذاب أليم .

فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد فى الحرم ، موجب للعذاب ، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم .

فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم ، من الكفر والشرك ، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة ، فما ظنكم أن يفعل الله بهم ؟!!

وفى هذه الآية الكريمة ، وجوب احترام الحرم ، وشدة تعظيمه ، والتحذير من إرادة المعاصى فيه ، وفعلها .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

* يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه وهو خليل الرحمن فقال :

[ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ] أى : هيأناه له ، وأنزلنا إياه .

وجعل قسما من ذريته من سكانه ، وأمره الله ببنيانه .

فبناه على تقوى الله ، وأسسه على طاعة الله .

وبناه هو وابنه إسماعيل ، وأمره أن لا يشرك به شيئا ، بأن يخلص لله أعماله ، ويبنيه على اسم الله .

[ وطهر بيتى ] أى : من الشرك والمعاصى ، ومن الأنجاس والأدناس

وإضافة الرحمن إلى نفسه ، لشرفه ، وفضله ، ولتعظم محبته فى القلوب ، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب ، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه ، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر ، وقراءة وتعلم علم وتعليمه ، وغير ذلك من أنواع القرب .

[ والركع السجود ] أي : المصلين ، أى : طهره لهؤلاء الفضلاء ، الذين همهم ، طاعة مولاهم ، وخدمته والتقرب إليه عند بيته .

فهؤلاء ، لهم الحق ولهم الإكرام ، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم ويدخل فى تطهيره ، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التى تشوش المتعبدين ، بالصلاة والطواف .

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة ، لاختصاصه بهذا البيت .

وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ

---

ثم الاعتكاف ، لاختصاصه بجنس المساجد .

[ وأذن فى الناس بالحج ] أى : أعلمهم به ، وادعهم إليه ، وبَلِّغْ دانيهم وقاصيهم ، فرضه وفضيلته .

فإنك إذا دعوتهم ، أتوك حجاجا : وعُمَّاراً ، رجالا ، أى : مشاة على أرجلهم من الشوق .

[ وعلى كل ضامر ] أى : ناقة ضامر ، تقطع المهامه والمفاوز . وتواصل السير ، حتى تأتى إلى أشرف الأماكن .

[ من كل فج عميق ] أى : من كل بلد بعيد .

وقد فعل الخليل عليه السلام ، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم .

فدعيا إلى حج هذا البيت ، وأبديا فى ذلك وأعادا .

وقد حصل ما وعد الله به .

أتاه الناس ، رجالا وركبانا من مشارق الأرض ، ومغاربها .

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام ، مرغبا فيه فقال :

[ ليشهدوا منافع لهم ] أى : لينالوا ببيت الله ، منافع دينية ، من العبادات الفاضلة ، والعبادات التى لا تكون إلا فيه .

ومنافع دنيوية ، من التكسب ، وحصول الأرباح الدنيوية ، وكل هذا أمر مشاهد ، كُلٌّ يعرفه .

مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

---

[ ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ] وهذا من المنافع الدينية والدنيوية أى : ليذكروا اسم الله ، عند ذبح الهدايا ، شكرا لله على ما رزقهم منها ، ويسرها لهم .

فإذا ذبحتموها [ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ] .

أى : شديد الفقر .

[ ثم ليقضوا تفثهم ] أى : يقضوا نسكهم ، ويزيلوا الوسخ والأذى ، الذى لحقهم فى حال الإحرام

[ وليوفوا نذورهم ] التى أوجبوها على أنفسهم ، من الحج ، والعمرة والهدايا .

[ وليطوفوا بالبيت العتيق ] أى : القديم ، أفضل المساجد على الإطلاق .

والمعتق : من تسلط الجبابرة عليه .

وهذا أمر بالطواف ، خصوصا بعد الأمر بالمناسك له عموما ، لفضله ، وشرفه ، ولكونه المقصود ، وما قبله وسائل إليه .

ولعله — والله أعلم أيضا — لفائدة أخرى ، وهو : أن الطواف مشروع كل وقت ، وسواء كان تابعا لنسك ، أم مستقلا بنفسه .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ

---

* [ ذلك ] أى : ماذكرنا لكم من تلكم الأحكام ، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها ، وتكريمها ، لأن تعظيم حرمات الله ، من الأمور المحبوبة لله ، المقربة إليه ، التى من عظمها وأجلها ، أثابه الله ثواباً جزيلا ، وكانت خيراً له ، فى دينه ، ودنياه وأخراه ، عند ربه .

وحرمات الله : كل ماله حرمة ، وأمر باحترامه ، من عبادة أو غيرها ، كالمناسك كلها ، وكالحرم والإحرام ، وكالهدايا ، وكالعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها .

فتعظيمها يكون إجلالا بالقلب ، ومحبتها ، وتكميل العبودية فيها ، غير متهاون ، ولا متكاسل ، ولا متثاقل .

ثم ذكر منته وإحسانه ، بما أحله لعباده ، من بهيمة الأنعام ، من إبل وبقر ، وغنم ،وشرعها من جملة المناسك ، التى يتقرب بها إليه ،فعظمت منته فيها من الوجهين .

[ إلا ما يتلى عليكم ] فى القرآن تحريمه من قوله : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » الآية .

ولكن الذى من رحمته بعباده ، أن حرمه عليهم ، ومنعهم منه ، تزكية لهم ، وتطهيراً من الشرك به ، وقول الزور ، ولهذا قال :

[ فاجتنبوا الرجس ] أى الخبث القذر [ من الأوثان ] أى الأنداد ، التي جعلتموها آلهة مع الله ، فإنها أكبر أنواع الرجس .

مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ
بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

---

والظاهر أن « من » هنا ليست لبيان الجنس ، كما قاله كثير من المفسرين ، وإنما هى للتبعيض ، وأن الرجس عام فى جميع المنهيات المحرمات .

فيكون منهيا عنها عموماً ، وعن الأوثان التي هى بعضها خصوصا .

[ واجتنبوا قول الزور ] أى : جميع الأقوال المحرمات ، فإنها من قول الزور .

أمرهم أن يكونوا [ حنفاء الله ] مقبلين عليه ، وعلى عبادته ، معرضين عما سواه .

[ غير مشركين به ، ومن يشرك بالله ] فمثله [ فكأنما خر من السماء ] أى : سقط منها [ فتخطفه الطير ] بسرعة [ أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ] أى : بعيد ، كذلك المشركون .

فالإيمان بمنزلة السماء ، محفوظة مرفوعة .

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء ، عرضة للآفات والبليات .

فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء ، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب ، ومزقوه ، وأذهبوا عليه دينه ودنياه .

وإما أن تأخذه عاصفة شديدة من الريح فتعلو به فى طبقات الجو فتقذفه بعد أن تتقطع أعضاؤه فى مكان بعيد جداً .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

---

* أى : ذلك الذى ذكرناه لكم ، من تعظيم حرماته وشعائره .

والمراد بالشعائر : أعلام الدين الظاهرة ، ومنها المناسك كلها ، كما قال تعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .

ومنها الهدايا والقربان للبيت .

وتقدم أن معنى تعظيمها ، إجلالها ، والقيام بها ، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد .

ومنها الهدايا ، فتعظيمها ، باستحسانها واستسمانها ، وأن تكون مكملة من كل وجه .

فتعظيم شعائر الله ، صادر من تقوى القلوب .

فالمعظم لها ، يبرهن على تقواه ، وصحة إيمانه ، لأن تعظيمها ، تابع لتعظيم الله وإجلاله .

[ لكم فيها ] أى : فى الهدايا [ منافع إلى أجل مسمى ] هذا فى الهدايا المسوقة ، من البدن ونحوها ، ينتفع بها أربابها ، بالركوب ، والحلب ونحو ذلك ، مما لا يضرها [ إلى أجل مسمى ] مقدر ، موقت وهو ذبحها ، إذا وصلت [ محلها ] وهو [ البيت العتيق ] أى الحرم كله « منى » وغيرها .

فإذا ذبحت ، أكلوا منها ، وأهدوا ، وأطعموا البائس الفقير .

۞ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

---

* أى : ولكل أمة من الأمم السالفة ، جعلنا منسكا .

أى : فاستبقوا إلى الخيرات وسارعوا إليها ، ولننظر أيكم أحسن عملا .

والحكمة فى جعل الله لكل أمة منسكا ، إقامة ذكره ، والالتفات لشكره .

ولهذا قال : [ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد ] .

وإن اختلفت أجناس الشرائع ، فكلها متفقة على هذا الأصل ، وهو: ألوهية الله ، وإفراده بالعبودية ، وترك الشرك به .

ولهذا قال : [ فله أسلموا ] أى : انقادوا واستسلموا له لا لغيره ، فإن الإسلام له ، طريق الوصول إلى دار السلام .

[ وبشر المخبتين ] بخير الدنيا والآخرة .

والمخبت : الخاضع لربه ، المستسلم لأمره ، المتواضع لعباده .

ثم ذكر صفات المخبتين فقال : [ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ] أى : خوفا وتعظيما ، فتركوا لذلك ، المحرمات ، لخوفهم ووجلهم من الله وحده .

وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

---

[ والصابرين على ما أصابهم ] من البأساء والضراء ، وأنواع الأذى فلا يجرى منهم التسخط لشيء من ذلك ، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم ، محتسبين ثوابه ، مرتقبين أجره .

[ والمقيمى الصلاة ] أى : الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة ، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب ، وعبوديتها الظاهرة والباطنة .

[ ومما رزقناهم ينفقون ] وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة ، كالزكاة ، والكفارة ، والنفقة على الزوجات والمماليك ، والأقارب .

والنفقات المستحبة ، كالصدقات بجميع وجوهها .

وأتى بـ « من » المفيدة للتبعيض ، ليعلم سهولة ما أمر الله به ، ورغب فيه ، وأنه جزء يسير مما رزق الله ، ليس للعبد فى تحصيله قدرة ، لولا تيسير الله له ، ورزقه إياه .

فيا أيها المرزوق من فضل الله ، أنفق مما رزقك الله ، ينفق الله عليك ، ويزدك من فضله .

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

* هذا دليل على أن الشعائر عام ، فى جميع أعلام الدين الظاهرة .

وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره ، فإن ذلك من تقوى القلوب وهنا أخبر ، أن من جملة شعائره ، الْبُدْنُ ، أى : الإبل ، والبقر ، على أحد القولين ، فتعظم وتسمن ، وتستحسن .

[ لكم فيها خير ] أى : للمهدى وغيره ، من الأكل ، والصدقة ، والانتفاع ، والثواب ، والأجر .

[ فاذكروا اسم الله عليها ] أى : عند ذبحها قولوا « بسم الله » واذبحوها .

[ صواف ] أى : قائمات ، بأن تقام على قوائمها الأربع ، ثم تعقل يدها اليسرى ، ثم تنحر .

[ فإذا وجبت جنوبها ] أى: سقطت على[1] الأرض جنوبها ، حين تسلخ ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض ، فحينئذ قد استعدت، لأن يؤكل منها .

[ فكلوا منها ] وهذا خطاب للمهدى ، فيجوز له الأكل من هديه .

[ وأطعموا القانع والمعتر ] أى : الفقير الذى لا يسأل ، تقنعاً ، وتعففاً ، والفقير الذى يسأل ، فكل منهما ، له حق فيهما .

---

(١) قوله « أى سقطت » إلى « لأن يؤكل منها » العبارة قلقة كما ترى : والصواب أن يقال « أى: سقطت جنوبها على الأرض ، فإذا سلخها الجزار، تكون قد صلحت لأن يؤكل منها » وبهذا يتضح المعنى بأوجز عبارة .

تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

---

[ كذلك سخرناها لكم ] أى : البدن [ لعلكم تشكرون ] الله على تسخيرها .

فإنه ، لولا تسخيره لها ، لم يكن لكم بها طاقة ، ولكنه ذللها لكم ، وسخرها ، رحمة بكم وإحسانا إليكم ، فاحمدوه .

وقوله [ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ] أى : ليس المقصود منها ، ذبحها فقط .

ولا ينال الله من لحومها ، ولا دمائها شىء ، لكونه الغنى الحميد .

وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : [ ولكن يناله التقوى منكم ] .

ففى هذا ، حَثٌّ وترغيب على الإخلاص فى النحر ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة .

وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقترن بها الإخلاص ، وتقوى الله ، كانت كالقشر الذى لا لُبَّ فيه ، والجسد ، الذى لا روح فيه .

[ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله ] أى : تعظموه وتجلوه .

[ على ما هداكم ] أى : مقابلة لهدايته إياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم .

[ وبشر المحسنين ] بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة ، فليعبدوه ، معتقدين وقت عبادتهم ، اطِّلاعَه عليهم ، ورؤيته إياهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

والمحسنين لعباد الله، بجميع وجوه الإحسان، من نفع مال، أو علم، أو جاه. أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.

فالمحسنون، لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا فى عبادته ولعباده «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة».

* هذا إخبار، ووعد، وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدفع عنهم كل مكروه.

ويدفع عنهم — بسبب إيمانهم — كل شر من شرور الكفار، وشرور وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف.

كل مؤمن، له من هذه المدافعة والفضيلة، بحسب إيمانه، فمستقل، ومستكثر.

[ إن الله لا يحب كل خوان ] أى: خائن فى أمانته، التى حمله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه، ويخونها، ويخون الخلق.

[ كفور ] لنعم الله، يوالى الله عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان.

فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيانته.

ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

---

* كان المسلمون فى أول الإسلام ، ممنوعين من قتال الكفار ، ومأمورين بالصبر عليهم ، لحكمة إلهية .

فلما هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ، كما قال تعالى [ أذن للذين يقاتلون ] يفهم منه أنهم كانوا قبل ، ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم .

وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

[ وإن الله على نصرهم لقدير ] فليستنصروه ، وليستعينوا به .

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : [ الذين أخرجوا من ديارهم ] أى : ألجئوا إلى الخروج ، بالأذية والفتنة [ بغير حق إلا ] أن ذنبهم الذى نقم منهم أعداؤهم [ أن يقولوا ربنا الله ] أى : إلا لأنهم وحّدوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين .

فإن كان هذا ذنبا ، فهو ذنبهم كقوله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وهذا يدل على حكمة الجهاد ، فإن المقصود منه ، إقامة دين الله ، أو ذَبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن ظلمهم ، واعتدائهم ، والتمكن من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة .

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ

---

ولهذا قال : [ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ] فيدفع الله بالمجاهدين فى سبيله ، ضرر الكافرين .

[ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد ] أى : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود ، والنصارى ، والمساجد للمسلمين

[ يذكر فيها ] أى : فى هذه المعابد [ اسم الله كثيراً ] تقام فيها الصلوات ، وتتلى فيها كتب الله ، ويذكر فيها ، اسم الله ، بأنواع الذكر .

فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخربوا معابدهم ، وفتنوهم عن دينهم .

فدل هـذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذى ، ومقصود لغيره .

ودل ذلك ، على أن البلدان ، التى حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، فبذلك دفع الله عنها الكافرين قال الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

فإن قلت نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا بد لهم بقتال من جاورهم من الأفرنج .

بل نرى المساجد التى تحت ولايتهم وسيطرتهم ، عامرة ، وأهلها آمنون

. . . . . . . . . . .

مطمئنون ، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعا .

أجيب ، بأن جواب هذا السؤال والاستشكال ، داخل فى عموم هذه الآية ، وفرد من أفرادها .

فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس ، تحت ولايتها ، وداخل فى حكمها ، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة ، وجزءا من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بِعَدَدِها أو عُدَدِها ، أو مالها ، أو علمها ، أو خدمتها .

فتراعى الحكومات ، مصالح ذلك الشعب ، الدينية والدينوية ، وتخشى إن لم تفعل ذلك ، أن يختل نظامها ، وتفقد بعض أركانها ، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم ، خصوصا المساجد ، فإنها — ولله الحمد — فى غاية الانتظام ، حتى فى عواصم الدول الكبار .

وتراعى تلك الدول ، الحكومات المستقلة ، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى ، الذى أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة .

فتبقى الحكومة المسلمة ، التى لا تقدر على أن تدافع عن نفسها ، سالمة من كثير ضررهم ، لقيام الحسد عندهم ، وفيما بينهم .

فلا يقدر أحدهم ، أن يمد يده عليها ، خوفاً من احتمائها بالآخر مع أن الله تعالى ، لا بد أن يُرِىَ عباده من نصر الإسلام والمسلمين ، ما قد وعد به فى كتابه .

مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

وقد ظهرت ولله الحمد ، أسبابه ، بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم ، والشعور مبدأ العمل فنحمده ، ونسأله أن يتم نعمته .

ولهذا قال فى وعده الصادق المطابق للواقع : [ ولينصرن الله من ينصره ] .
أى : يقوم بنصر دينه ، مخلصاً له فى ذلك ، يقاتل فى سبيله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

[ إن الله لقوى عزيز ] أى : كامل القوة ، عزيز لا يرام ، قد قهر الخلائق ، وأخذ بنواصيهم .

فأبشروا ، يامعشر المسلمين ، فإنكم ، وإن ضعف عَددُكُمْ ، وعُدَدُكُمْ وقَوِىَ عدد عدوكم ، فإن ركنكم القوى العزيز ، ومعتمدكم على من خلقكم وخالق ما تعملون .

فاعملوا بالأسباب المأمور بها ، ثم اطلبوا منه نصركم ، فلا بد أن ينصركم .

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وقوموا ، أيها المسلمون ، بحق الإيمان والعمل الصالح فقد « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » .

ثم ذكر علامة من ينصره ، وبها يعرف ، أن من ادعى أنه ينصر الله ، وينصر دينه ، ولم يتصف بهذا الوصف ، فهو كاذب فقال :

[الذين إن مكناهم فى الأرض] أى ملكناهم إياها ، وجعلناهم المتسلطين

أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

---

عليها ، من غير منازع ينازعهم ، ولا معارض .

[ أقاموا الصلاة ] فى أوقاتها ، وحدودها ، وأركانها ، وشروطها ، فى الجمعة والجماعات .

[ وآتوا الزكاة ] التى عليهم ، خصوصاً ، وعلى رعيتهم عموماً ، آتوها أهلها ، الذين هم أهلها .

[ وأمروا بالمعروف ] وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

[ ونهوا عن المنكر ] كل منكر شرعا وعقلا ، معروف قبحه .

والأمر بالشىء والنهى عنه ، يدخل فيه ، ما لا يتم إلا به .

فإذا كان المعروف والمنكر ، يتوقف على تعلم وتعليم ، أجبروا الناس على التعلم والتعليم .

وإذا كان يتوقف ، على تأديب مقدر شرعا ، أو غير مقدر ، كأنواع التعزير ، قاموا بذلك .

وإذا كان يتوقف على جعل أناس ، متصدين له ، لزم ذلك ، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إلا به .

[ ولله عاقبة الأمور ] أى : جميع الأمور ، ترجع إلى الله ، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

---

فمن سلطه أى : على العباد ، من الملوك ، وقام بأمر الله ، كانت له العاقبة الحميدة ، والحالة الرشيدة .

ومن تسلط عليهم ، بالجبروت ، وأقام فيهم هوى نفسه ، فإنه ، وإن حصل له ملك موقت ، فإن عاقبته غير حميدة ، فولايته مشئومة ، وعاقبته مذمومة .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب ، وليسوا بأول أمة ، كذبت رسولها .

[ فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين ] أى قوم شعيب .

[ وكذب موسى فأمليت للكافرين ] المكذبين ، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم ، حتى استمروا فى طغيانهم يعمهون ، وفى كفرهم وشرهم يزدادون .

[ ثم أخذتهم ] بالعذاب أخذ عزيز مقتدر [ فكيف كان نكير ] . أى : إنكارى عليهم كفرهم ، وتكذيبهم كيف حاله ، كان أشد العقوبات ، وأفظع المثلات .

فمنهم من أغرقه ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أهلكَ بالريح العقيم .

نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا

---

ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة .

فليعتبر بهم ، هؤلاء المكذبون ، أن يصيبهم ما أصابهم ، فإنهم ليسوا خيراً منهم ، ولا كتب لهم براءة فى الكتب المنزلة من الله .

وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير ، ولهذا قال :

[ فكأين من قرية ] أى : وكم[1] من قرية [ أهلكناها ] بالعذاب الشديد ، والخزى الدنيوى .

[ وهى ظالمة ] بكفرها بالله وتكذيبها لرسله ، لم يكن عقوبتنا لها ، ظلما منا .

[ فهى خاوية على عروشها ] أى : فديارهم متهدمة ، قصورها ، وجدرانها ، قد سقطت على عروشها .

فأصبحت خراباً ، بعد أن كانت عامرة ، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة .

[ وبئر معطلة وقصر مشيد ] أى : وكم من بئر ، قد كان يزدحم عليها الخلق ، لشربهم ، وشرب مواشيهم .

ففقد أهلها ، وعدم منها الوارد والصادر .

---

( ١ ) « كم » هنا ، خبرية بمعنى « كثير » والمعنى : كثير من القرى ، أهلكناها .

فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

---

وكم من قصر ، تعب عليه أهله ، فشيدوه ، ورفعوه ، وحصنوه ، وزخرفوه .

فحين جاءهم أمر الله ، لم يغن عنهم شيئا ، وأصبح خالياً من أهله ، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ، ومثالا لمن فكر ونظر .

ولهذا دعا الله عباده إلى السير فى الأرض ، لينظروا ، ويعتبروا فقال :

[ أفلم يسيروا فى الأرض ] بأبدانهم وقلوبهم [ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ] آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره .

[ أو آذان يسمعون بها ] أخبار الأمم الماضين ، وأنباء القرون المعذبين

وإلا فمجرد نظر العين ، وسماع الأذن ، وسير البدن الخالى من التفكر والاعتبار ، غير مفيد ، ولا موصل إلى المطلوب .

ولهذا قال : [ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ] .

أى : هذا العمى الضار فى الدين ، عمى القلب عن الحق ، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات ، وأما عمى البصر ، فغايته بلغة ، ومنفعة دنيوية .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

* أى : يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب ، لجهلهم ، وظلمهم ، وعنادهم وتعجيزاً لله ، وتكذيبا لرسله ، ولن يخلف الله وعده .

فما وعدهم به من العذاب ، لابد من وقوعه ، ولا يمنعهم منه مانع .

وأما عجلته ، والمبادرة فيه ، فليس ذلك إليك يا محمد ، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا .

فإن أمامهم ، يوم القيامة ، الذى يجمع فيه أولهم وآخرهم ، ويجازون بأعمالهم ، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم ، ولهذا قال : [ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ] من طوله ، وشدته ، وهوله .

فسواء أصابهم عذاب فى الدنيا ، أم تأخر عنهم العذاب ، فإن هذا اليوم ، لا بد أن يدركهم .

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم ، ولو استعجلوا العذاب ، فإن يوماً عنده ، كألف سنة مما تعدون .

فالمدة ، وإن تطاولتموها ، واستبطأتم فيها نزول العذاب ، فإن الله يمهل المدد الطويلة ، ولا يهمل ، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه ، لم يفلتهم .

[ وكأين من قرية أمليت لها ] أى : أمهلتها مدة طويلة [ وهى ظالمة ] أى : مع ظلمهم ، فلم يكن مبادرتهم بالظلم ، موجبا لمبادرتنا بالعقوبة .

[ ثم أخذتها ] بالعذاب [ وإلى المصير ] أى : مع عذابها فى الدنيا ، سترجع إلى الله ، فيعذبها بذنوبها .

فَلْيَحْذَرْ هؤلاء الظالمون ، من حلول عقاب الله ، ولا يغتروا بالإمهال .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس جميعا ، بأنه رسول الله حقا ، مبشراً للمؤمنين بثواب الله ، منذرا للكافرين والظالمين ، من عقابه .

وقوله [مبين] أى : بين الإنذار، وهو التخويف ، مع الإعلام بالخوف .

وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة ، على صدق ما أنذرهم به .

ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال :

[ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ] لما حصل منهم من الذنوب .

[ ورزق كريم ] هى الجنة . والكريم من كل نوع : ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته .

وحاصل معنى الآية . فالذين آمنوا بالله ورسوله واستقر ذلك الإيمان بقلوبهم حتى أصبح إيماناً صادقاً وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله لذنوبهم التى وقعوا فيها ، كما أن لهم رزقاً كريما فى الجنة ، جمع هذا الرزق جميع الفضائل والكمالات .

[ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ] أى : سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم [ أولئك ] الموصوفون بماذكر من السعى والمعاجزة [ أصحاب الجحيم ] أى : ملازمون للنار الموقدة

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ

---

المصاحبون لها فى كل أوقاتهم ، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يُفَتَّرُ عنهم لحظة من أليم عقابها .

وحاصل المعنى . والذين أجهدوا أنفسهم فى محاربة القرآن ، مسابقين المؤمنين فى زعمهم ، معارضين لهم ، شاقين ، زاعمين — خطأ — أنهم بذلك يبلغون ما يريدون ، أولئك يخلدون فى عذاب الجحيم .

* يخبر تعالى بحكمته البالغة ، واختياره لعباده ، وأن الله ما أرسل قبل محمد [ من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ] أى : قرأ قراءته ، التى يذكر بها الناس ، ويأمرهم وينهاهم .

[ ألقى الشيطان فى أمنيته ] أى : فى قراءته ، من طرقه ، ومكايده ، ما هو مناقض لتلك القراءة .

مع أن الله تعالى ، قد عصم الرسل ، بما يبلغون عن الله ، وحفظ وحيه ، أن يشتبه ، أو يختلط بغيره .

ولكن هذا إلقاء من الشيطان ، غير مستقر ، ولا مستمر ، وإنما هو عارض ، يعرض ، ثم يزول ، وللعوارض أحكام ، ولهذا قال :

[ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ] أى : يزيله ويذهبه ، ويبطله ، ويبين أنه ليس من آياته .

[ ثم يحكم الله آياته ] أى : يتقنها ، ويحررها ، ويحفظها ، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان .

فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

---

[ والله عزيز ] أى : كامل القوة والاقتدار .

فبكمال قوته ، يحفظ وحيه ، ويزيل ما تلقيه الشياطين .

[ حكيم ] يضع الأشياء مواضعها .

فمن كمال حكمته ، مكّن الشياطين من الإلقاء المذكور ، ليحصل ما ذكره بقوله :

[ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة ] لطائفتين من الناس ، لا يبالى الله بهم .

[ للذين فى قلوبهم مرض ] أى : ضعف وعدم إيمان تام ، وتصديق جازم ، فيؤثر فى قلوبهم ، أدنى شبهة تطرأ عليها ، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان ، داخلهم الريب والشك ، فصار فتنة لهم .

[ والقاسية قلوبهم ] أى : الغليظة ، التى لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها .

فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان ، جعلوه حجة لهم على باطلهم ، وجادلوا به وشاقّوا الله ورسوله ، ولهذا قال :

[ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ] أى : مشاقة لله ، ومعاندة للحق ، ومخالفة له ، بعيد من الصواب .

فما يلقيه الشيطان ، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين ، فيظهر به ما فى قلوبهم ، من الخبث الكامن فيها .

وأما الطائفة الثالثة ، فإنه يكون رحمة فى حقها ، وهم المذكورون بقوله:

* [ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ] وأن الله منحهم من

فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

---

العلم ، ما به يعرفون الحق من الباطل ، والرشد من الغى .

فيفرقون بين الأمرين، الحق المستقر ، الذى يحكمه الله ، والباطل العارض الذى ينسخه الله ، بما على كل منهما من الشواهد ، وليعلموا أن الله حكيم ، يقيض بعض أنواع الابتلاء ، ليظهر بذلك كأمن النفوس الخيرة والشريرة .

[فيؤمنوا به] بسبب ذلك ، ويزداد إيمانهم ، عند دفع العارض والشبهة .

[ فتخبت له قلوبهم ] أى : تخشع وتخضع ، وتسلم لحكمته ، وهذا من هدايته إياهم .

[ وإن الله لهادى الذين آمنوا ] بسبب إيمانهم [ إلى صراط مستقيم ] علم بالحق ، وعمل بمقتضاه ، فيثبت الله الذين آمنوا ، بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وهذا النوع ، من تثبيت الله لعبده .

وهذه الآيات ، فيها بيان أن للرسول صلى الله عليه وسلم ، أسوة بإخوانه المرسلين ، لما وقع منه[1] عند قراءته صلى الله عليه وسلم « والنجم » فلما بلغ

---

( ١ ) قوله « لما وقع منه الخ » أقول إن حديث الغرانيق موضوع باطل قد بين بطلانه سنداً ومتنا ، محدث هذا العصر « الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى » فى رسالة خاصة بهذا الحديث أسماها « نصب المجانيق فى نسف حديث الغرانيق » ومن قبله أيضاً « الشيخ محمد عبده » والمقام هنا لا يتسع لبسط الكلام ، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليرجع إلى رسالة «الألبانى» فإنه لم يدع قولا لقائل .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ

---

« أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان فى قراءته « تلك الغرانيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى » فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة ، كما ذكر الله ، فأنزل الله هذه الآيات .

* يخبر تعالى عن حالة الكفار ، وأنهم لا يزالون فى شك ، مما جئتهم به ، يامحمد ، لعنادهم ، وإعراضهم ، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال [ حتى تأتيهم الساعة بغتة ] أى : مفاجأة [ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ] أي : لا خير فيه ، وهو يوم القيامة .

فإذا جاءتهم الساعة ، أو أتاهم ذلك اليوم ، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، وندموا ، حيث لا ينفعهم الندم ، وأبلسوا ، وأيسوا من كل خير ، وودوا ، لو آمنوا بالرسول ، واتخذوا معه سبيلا .

ففى هذا ، تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم .

[ الملك يومئذ ] أى : يوم القيامة [ لله ] تعالى ، لا لغيره .

[ يحكم بينهم ] بحكمه العدل ، وقضائه الفصل .

[ فالذين آمنوا ] بالله ورسوله ، وما جاءوا به [ وعملوا الصالحات ] ليصدقوا بذلك إيمانهم [ فى جنات النعيم ] نعيم القلب ، والروح ، والبدن ، مما لا يصفه الواصفون ، ولا تدركه العقول .

ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾

---

[والذين كفروا] بالله ورسله [وكذبوا بآياتنا] الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها.

[فأولئك لهم عذاب مهين] لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

* هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله.

فخرج من داره، ووطنه، وأولاده، وماله ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله.

فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله.

[ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً] في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة، للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن.

أو يحتمل أن المراد: أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل الله برزقه في الدنيا، رزقاً واسعا حسنا، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق.

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله ، سيفتقر ويحتاج ، فإن رازقه هو خير الرازقين .

وقد وقع كما أخبر ، فإن المهاجرين السابقين ، تركوا ديارهم ، وأبناءهم وأموالهم ، نصرة لدين الله .

فلم يلبثوا إلا يسيراً ، حتى فتح الله عليهم البلاد ، ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها ، ما كانوا به من أغنى الناس .

ويكون على هذا القول ، قوله : [ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ] .

إما ما يفتح الله عليهم من البلدان ، خصوصا فتح مكة المشرفة ، فإنهم دخلوها فى حالة الرضا والسرور .

وإما المراد به ، رزق الآخرة ، وأن ذلك ، دخول الجنة .

فتكون الآية جمعت بين الرزقين ، رزق الدنيا ، ورزق الآخرة ، واللفظ صالح لذلك كله ، والمعنى صحيح ، فلا مانع من إرادة الجميع .

[ وإن الله لعليم ] بالأمور ، ظاهرها ، وباطنها ، متقدمها ، ومتأخرها .

[ حليم ] يعصيه الخلائق ، ويبارزونه بالعظائم ، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره ، بل يواصل لهم رزقه ، ويسدى إليهم ، فضله .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

* ذلك بأن من جُنِيَ عليه وظُلِمَ ،فإنه يجوز لهمقابلة الجانى،بمثل جنايته.

فإن فعل ذلك ، فليس عليه سبيل ، وليس بملوم .

فإن بُغِيَ عليه بعد هذا ، فإن الله ينصره ، لأنه مظلوم .

فلا يجوز أن يُبْغَى عليه ، بسبب أنه استوفى حقه .

وإذا كان المجازى غيره ، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك ، نصره الله .

فالذي بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم ، وجنى عليه،فالنصر إليه أقرب.

[ إن الله لعفو غفور ] أى : يعفو عن المذنبين ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ، ويغفر ذنوبهم ، فيزيلها ، ويزيل آثارها عنهم .

فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتى ، ومعاملته لعباده فى جميع الأوقات بالعفو ، والمغفرة .

فينبغى لكم أيها المظلومون المجنى عليهم ، أن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ليعاملكم الله ، كما تعاملون عباده « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

* ذلك الذى شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة ، هو حسن التصرف ، فى تقديره ، وتدبيره ، الذى [ يولج الليل فى النهار ] أى : يدخل هذا على هذا ، وهذا على هذا .

فيأتى بالليل بعد النهار ، وبالنهار بعد الليل ، ويزيد فى أحدهما ، ما ينقصه من الآخر ، ثم بالعكس .

فيترتب على ذلك ، قيام الفصول ، ومصالح الليل والنهار ، والشمس والقمر ، التى هى من أجل نعمه على العباد ، وهى من الضروريات لهم .

[ وإن الله سميع ] يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[ بصير ] يرى دبيب النملة السوداء ، تحت الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء « سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

* [ذلك] صاحب الحكم والأحكام ، [بأن الله هو الحق] أى : الثابت ، الذى لا يزال ولا يزول ، الأول ، الذى ليس قبله شىء ، الآخر ، الذى ليس بعده شىء ، كامل الأسماء والصفات ، صادق الوعد ، الذى وعده حق ولقاؤه حق ، ودينه حق ، وعبادته هى الحق النافعة الباقية على الدوام .

ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

---

[ وأن ما يدعون من دونه ] من الأصنام والأنداد ، من الحيوانات والجمادات .

[ هو الباطل ] الذى ، هو باطل فى نفسه ، وعبادته باطلة ، لأنها متعلقة بمضمحل فانٍ ، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها .

[ وإن الله هو العلى الكبير ] العلى فى ذاته ، فهو عال على جميع المخلوقات وفى قدره ، فهو كامل الصفات ، وفى قهره لجميع المخلوقات ، الكبير فى ذاته ، وفى أسمائه ، وفى صفاته ، الذى من عظمته وكبريائه ، أن الأرض قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه .

ومن كبريائه ، أن كرسيه ، وسع السموات والأرض .

ومن عظمته وكبريائه ، أن نواصى العباد بيده .

فلا يتصرفون إلا بمشيئته ، ولا يتحركون ويسكنون ، إلا بإرادته .

وحقيقة الكبرياء ، التى لا يعلمها إلا هو ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، أنها كل صفة كمال وجلال ، وكبرياء ، وعظمة ، فهى ثابتة له ، وله من تلك الصفة ، أجلها وأكملها .

ومن كبريائه ، أن العبادات كلها ، الصادرة من أهل السموات والأرض ، كلها المقصود منها ، تكبيره وتعظيمه ، وإجلاله وإكرامه .

ولهذا كان التكبير ، شعاراً للعبادات الكبار ، كالصلاة وغيرها .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

* هذا ، حث منه تعالى ، وترغيب فى النظر بآياته الدالة على وحدانيته ، وكماله ، فقال :

[ ألم تر ] أى : ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك [ أن الله أنزل من السماء ماء ] وهو : المطر ، فينزل على أرض خاشعة مجدبة ، قد اغبرت أرجاؤها ، ويبس ما فيها ، من شجر ، ونبات .

[ فتصبح الأرض مخضرة ] قد اكتست من كل زوج كريم ، وصار لها بذلك ، منظر بهيج .

إن الذى أحياها بعد موتها وهمودها ، لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميما .

[ إن الله لطيف خبير ] اللطيف الذى يدرك بواطن الأشياء ، وخفياتها ، وسرائرها .

الذى يسوق إلى عباده الخير ، ويدفع عنهم الشر ، بطرق لطيفة تخفى على العباد .

ومن لطفه ، أنه يرى عبده ، عزته فى انتقامه وكمال اقتداره ، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك .

ومن لطفه ، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض ، وبذور الأرض فى بواطنها .

فيسوق ذلك الماء ، إلى ذلك البذر ، الذى خفى على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات .

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

[ خبير ] بسرائر الأمور ، وخبايا الصدور ، وخفايا الأمور .

[ له ما فى السموات والأرض ] خلقا وعبيداً ، يتصرف فيهم بملكه وحكمته ، وكمال اقتداره ، ليس لأحد غيره من الأمر شىء .

[ وإن الله لهو الغنى ] بذاته الذى له الغنى المطلق التام ، من جميع الوجوه .

ومن غناه ، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، ولا يواليهم من ذلة ، ولا يتكثر بهم من قلة .

ومن غناه ، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدا .

ومن غناه ، أنه صمد ، لا يأكل ولا يشرب ، ولا يحتاج إلى مايحتاج إليه الخلق ، بوجه من الوجوه ، فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ .

ومن غناه ، أن الخلق كلهم ، مفتقرون إليه ، فى إيجادهم ، وإعدادهم ، وإمدادهم ، وفى دينهم ودنياهم .

ومن غناه ، أنه لو اجتمع من فى السموات ومن فى الأرض ، الأحياء منهم والأموات ، فى صعيد واحد ، فسأل كل منهم مابلغت أمنيته ، فأعطاهم فوق أمانيهم ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

ومن غناه أن يده سحّاء بالخير والبركات ، الليل والنهار ، لم يزل إفضاله على الأنفاس .

ومن غناه وكرمه ، ما أودعه فى دار كرامته ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ الحميد ] أى : المحمود فى ذاته ، وفى أسمائه ، لكونها حسنى .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

---

وفى صفاته ، لكونها كلها صفات كمال .

وفى أفعاله ، لكونها دائرة بين العدل والإحسان ، والرحمة ، والحكمة

وفى شرعه ، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة ، أو راجحة ، ولا ينهى إلا عما فيه ، مفسدة خالصة أو راجحة ، الذى له الحمد ، الذى يملأ ما فى السموات والأرض ، وما بينهما ، وما شاء بعدهما ، الذى لا يحصى العباد ثناء على حمده ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه ، وخذلان من يخذله ، وهو الغنى فى حمده ، الحميد فى غناه .

* أى: ألم تشاهد ببصرك وقلبك ، نعمة ربك السابغة ، وأياديه الواسعة .

[ أن الله سخر لكم ما فى الأرض ] من حيوانات ، ونبات، وجمادات.

فجميع ما فى الأرض ، مسخر لبنى آدم ، حيواناتها ، لركوبه ، وحمله ، وأعماله ، وأكله ، وأنواع انتفاعه ، وأشجارها ، وثمارها ، يقتاتها .

وقد سلط على غرسها واستغلالها ، ومعادنها ، يستخرجها ، وينتفع بها .

[والفلك] أى: وسخر لكم الفلك ، وهى السفن [ تجرى فى البحر بأمره ] تحملكم ، وتحمل تجاراتكم ، وتوصلكم من محل إلى محل .

وتستخرجون من البحر ، حلية تلبسونها .

ومن رحمته بكم أنه [ يمسك السماء أن تقع على الأرض ] فلولا رحمته وقدرته ، لسقطت السماء على الأرض ، فتلف ما عليها ، وهلك من فيها

بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ

---

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إن الله كان حليما غفوراً » .

[ إن الله بالناس لرؤف رحيم ] أرحم بهم من والديهم ، ومن أنفسهم . ولهذا يريد لهم الخير ، ويريدون لها الشر والضر .

ومن رحمته ، أن سخر لهم ، ما سخر من هذه الأشياء .

[ وهو الذى أحياكم ] وأوجدكم من العدم [ ثم يميتكم ] بعد أن أحياكم .

[ ثم يحييكم ] بعد موتكم ، ليجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

[ إن الإنسان ] أى : جنسه ، إلا من عصمه الله [ لكفور ] لنعم الله ، كفور بالله ، لا يعترف بإحسانه ، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه .

* يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة [ منسكا ] أى : معبدا وعبادة ، قد تختلف فى بعض الأمور ، مع اتفاقها على العدل والحكمة ، كما قال تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » الآية .

[ هم ناسكوه ] أى : عاملون عليه ، بحسب أحوالهم ، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع ، خصوصا من الأميين ، أهل الشرك ، والجهل المبين .

فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها ، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم ، وترك الاعتراض ، ولهذا قال :

[ فلا ينازعنك فى الأمر ] أى : لا ينازعك المكذبون لك ،ويعترضوا على بعض ما جئتهم به ، بعقولهم الفاسدة ، مثل منازعتهم فى حل الميتة ، بقياسهم الفاسد يقولون « تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله » .

وكقولهم « إنما البيع مثل الربا » ونحو ذلك من اعتراضاتهم ، التى لا يلزم الجواب عن أعيانها ، وهم منكرون لأصل الرسالة ، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها ، بل لكل مقام مقال .

فصاحب هذا الاعتراض ، المنكر لرسالة الرسول ، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد ، يقال له : الكلام معك فى إثبات الرسالة وعدمها ، وإلا ، فالاقتصار على هذه ، دليل على أن مقصوده ، العنت والتعجيز .

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويمضى على ذلك .

سواء اعترض المعترضون أم لا .

وأنه لا ينبغى أن يثنيك عن الدعوة شىء لأنك [ على هدى مستقيم ] أى : معتدل موصل للمقصود ، متضمن علم الحق والعمل به .

فأنت على ثقة من أمرك ، ويقين من دينك ، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضى لما أمرك به ربك .

ولست على أمر مشكوك فيه ، أو حديث مفترى ، فتقف مع الناس ، ومع أهوائهم ، وآرائهم ، ويوقفك اعتراضهم .

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ

---

ونظير هذا قوله تعالى : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » .

مع أن فى قوله [ إنك لعلى هدى مستقيم ] إرشاداً لأجوبة المعترضين ، على جزئيات الشرع ، بالعقل الصحيح ، فإن الهدى ، وصف لكل ما جاء به الرسول .

والهدى : ما تحصل به الهداية ، فى مسائل الأصول والفروع ، وهى المسائل التى يعرف حسنها ، وعدلها ، وحكمتها ، بالعقل ، والفطرة السليمة ، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات .

ولهذه أمره الله بالعدول عن جدالهم فى هذه الحالة فقال : [ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ] أى : هو عالم بمقاصدكم ، ونياتكم ، فمجازيكم عليها وهو [ يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ] .

فمن وافق الصراط المستقيم ، فهو من أهل النعيم ، ومن زاغ عنه ، فهو من أهل الجحيم .

ومن تمام حكمه ، أن يكون حكما بعلم ، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال :

[ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ] لا يخفى عليه منها خافية ، من ظواهر الأمور ، وبواطنها ، خفيها ، وجليها ، متقدمها ، ومتأخرها .

ذلك العلم المحيط بما فى السماء والأرض قد أثبته الله فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، حين خلق الله القلم قال له « اكتب » قال : ما أكتب ؟

يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

---

قال : « اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

[ إن ذلك على الله يسير ] وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به ، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علما بجميع الأشياء ، وأن يكتب ذلك فى كتاب مطابق للواقع .

* يذكر تعالى حالة المشركين به ، العادلين به غيره ، وأن حالهم أقبح الحالات .

وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه ، فليس لهم به علم ، وإنما هو تقليد ، تلقوه عن آبائهم الضالين .

وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله ، وهو — فى نفس الأمر — له حجة ما علمها .

فأخبر هنا ، أن الله لم ينزل فى ذلك سلطاناً ، أى : حجة تدل عليه ، ويجوزه ، بل قد أنزل البراهين القاطعة ، على فساده ، وبطلانه .

ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال : [ وما للظالمين من نصير ] ينصرهم من عذاب الله ، إذا نزل بهم وحل .

وهل لهؤلاء ، الذين لا علم لهم بما هم عليه ، قصدٌ فى اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم ؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل ؟

وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ
ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

---

ذكر ذلك بقوله : [ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ] التى هى آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل ، لم يلتفتوا إليها ، ولم يرفعوا بها رأساً .

بل [ تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ] من بغضها وكراهتها ، ترى وجوههم مُعبَّسة ، وأبشارهم مكفهرة .

[ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ] أى : يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ ، من شدة بغضهم ، وبغض الحق وعداوته .

فهذه الحالة من الكفار بئست الحالة ، وشرها بئس الشر .

ولكن ثَمَّ ما هو شر منها ، حالتهم التى يئولون إليها ، فلهذا قال : [قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ،النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ] فهذه شرها طويل عريض ، ومكروهها وآلامها ، تزداد على الدوام .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

---

* هذا مثل ضربه الله ، لقبح عبادة الأوثان ، وبيان نقصان عقول من عبدها ، وضعف الجميع فقال :

[ ياأيها الناس ] هذا خطاب للمؤمنين والكفار ، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة ، والكافرون ، تقوم عليهم الحجة .

[ ضرب مثل فاستمعوا له ] أى : ألقوا إليه أسماعكم ، وافهموا ما احتوى عليه ، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية ، وأسماعا معرضة ، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع ، وهو هذا .

[ إن الذين تدعون من دون الله ] شمل ما يُدْعَى من دون الله .

[ لن يخلقوا ذبابا ] الذى هو من أحقر المخلوقات وأخسها .

فليس فى قدرتهم ، خلق هذا المخلوق الضعيف ، فما فوقه من باب أولى .

[ ولو اجتمعوا له ] بل أبلغ من ذلك [ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ] وهذا غاية ما يصير من العجز .

[ ضعف الطالب ] الذى هو المعبود من دون الله [ والمطلوب ] الذى هو الذباب ، فكل منهما ضعيف .

وأضعف منهما ، من يتعلقون بهذا الضعيف ، وينزلونه منزلة رب العالمين .

مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

فهؤلاء [ ما قدروا الله حق قدره ] حيث سووا الفقير العاجز من جميع الوجوه ، بالغنى القوى من جميع الوجوه .

سووا من لا يملك لنفسه ، ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بمن هو النافع الضار ، المعطى المانع ، مالك الملك ، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف .

[ إن الله لقوى عزيز ] أى : كامل القوة ، كامل العزة .

ومن كمال قوته وعزته ، أن نواصى الخلق بيديه ، وأنه لا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بإرادته ومشيئته ، فما شاء الله كان ، ومالم لم يشأ لم يكن .

ومن كمال قوته ، أن يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ومن كمال قوته ، أنه يبعث الخلق كلهم ، أولهم وآخرهم ، بصيحة واحدة .

ومن كمال قوته ، أنه أهلك الجبابرة ، والأمم العاتية ، بشىء يسير ، وسوط من عذابه .

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

* لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام ، وأنه المعبود حقاً ، بين حالة الرسل ، وتميزهم عن الخلق ، بما تميزوا به ، من الفضائل فقال :

[ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ] أى : يختار ويجتبى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، يكونون أزكى ذلك النوع ، وأجمعه لصفات المجد ، وأحقه بالاصطفاء .

فالرسل ، لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق .

والذى اختارهم ، واجتباهم ، ليس جاهلا بحقائق الأشياء ، أو يعلم شيئاً دون شىء وأن الْمُصْطَفِى لهم ، السميع ، البصير ، الذى قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء .

فاختياره إياهم ، عن علم منه ، أنهم أهل لذلك ، وأن الوحى يصلح فيهم كما قال تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

[ وإلى الله ترجع الأمور ] أى : هو يرسل الرسل ، يدعون الناس إلى الله .

فمنهم المجيب ، ومنهم الراد لدعوتهم ، ومنهم العامل ، ومنهم الناكل فهذا وظيفة الرسل .

وأما الجزاء على تلك الأعمال ، فمصيرها إلى الله ، فلا تعدم منه ، فضلا وعدلا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ

---

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين بالصلاة ، وخص منها الركوع والسجود ، لفضلهما وركنيتهما ، وعبادته التى هى قرة العيون ، وسلوة القلب المحزون ، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد ، يقتضى منهم أن يخلصوا له العبادة ، ويأمرهم بفعل الخير عموما .

وعلق تعالى ، الفلاح على هذه الأمور فقال : [ لعلكم تفلحون ] . أى : تفوزون بالمطلوب المرغوب ، وتنجون من المكروه المرهوب .

فلا طريق للفلاح ، سوى الإخلاص فى عبادة الخالق ، والسعى فى نفع عبيده .

فمن وفق لذلك ، فله القدح المُعَلَّى ، من السعادة ، والنجاح والفلاح .

[ وجاهدوا فى الله حق جهاده ] والجهاد بذل الوسع،فى حصول الغرض المطلوب .

فالجهاد فى الله حق جهاده ، هو القيام التام بأمر الله ، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك ، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ، ووعظ ، وغير ذلك .

[ هو اجتباكم ] أى : اختاركم — يامعشر المسلمين — من بين الناس، واختار لكم الدين ، ورضيه لكم ، واختار لكم أفضل الكتب ، وأفضل الرسل .

فقابلوا هذه المنحة العظيمة ، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام .

ولما كان قوله : [ وجاهدوا فى الله حق جهاده ] ربما توهم متوهم أن هذا ، من باب تكليف ما لا يطاق ، أو تكليف ما يشق ، احترز منه بقوله:

[ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ] أى : مشقة وعسر ، بل يسره غاية التيسير ، وسهله بغاية السهولة .

فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس ، لا يثقلها ، ولا يؤودها .

ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف ، خفف ما أمر به .

إما بإسقاطه ، أو إسقاط بعضه .

ويؤخذ من هذه الآية ، قاعدة شرعية وهى أن «المشقة تجلب التيسير » و« الضرورات تبيح المحظورات » .

فيدخل فى ذلك من الأحكام الفروعية ، شيء كثير معروف فى كتب الأحكام .

[ ملة أبيكم إبراهيم ] أى : هذه الملة المذكورة ، والأوامر المزبورة ، ملة أبيكم إبراهيم ، التى مازال عليها ، فالزموها واستمسكوا بها .

[ هو سماكم المسلمين من قبل ] أى : فى الكتب السابقة ، أنتم مذكورون ومشهورون [ أى : بأن إبراهيم سمّاكم : مسلمين ] .

[ وفى هذا ] أى : هذا الكتاب ، وهذا الشرع أى : ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثاً .

ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

---

[ ليكون الرسول شهيدا عليكم ] بأعمالكم خيرها وشرها [ وتكونوا شهداء على الناس ] لكونكم خير أمة أخرجت للناس ، أمة وسطا عدلا خيارا .

تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم ، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به فى كتابه .

[ فأقيموا الصلاة ] بأركانها وشروطها ، وحدودها ، وجميع لوازمها .

[ وآتوا الزكاة ] المفروضة لمستحقيها شكراً لله ، على ما أولاكم .

[واعتصموا بالله] أى: امتنعوا به وتوكلوا عليه فى ذلك ، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم .

[ هو مولاكم ] الذى يتولى أموركم ، فيدبركم بحسن تدبيره ، ويصرفكم على أحسن تقديره .

[ فنعم المولى ونعم النصير ] أى : نعم المولى لمن تولاه ، فحصل له مطلوبه (ونعم النصير ) لمن استنصره فدفع عنه المكروه .

تم تفسير سورة الحج ، والحمد لله رب العالمين

# سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

# بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

* قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ
خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ

---

* هذا تنويه من الله ، بذكر عباده المؤمنين ،وذكرفلاحهم وسعادتهم، وبأى شىء وصلوا إلى ذلك .

وفى ضمن ذلك ، الحث على الاتصاف بصفاتهم ، والترغيب فيها .

فَلْيَزِنِ العبد نفسه وغيره ، على هذه الآيات ، يعرف بذلك ، ما معه ، وما مع غيره من الإيمان ، زيادة ونقصاً ، كثرة وقلة .

فقوله [ قد أفلح المؤمنون ] أى : قد فازوا وسعدوا ونجحوا،وأدركوا كل ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم [ فى صلاتهم خاشعون ] .

والخشوع فى الصلاة هو : حضور القلب بين يدى الله تعالى ، مستحضرا لقربه .

فيسكن لذلك قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتسكن حركاته ويقل التفاته ، متأدبا

لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ

بين يدى ربه ، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله فى صلاته ، من أول صلاته إلى آخرها ، فتنتفى بذلك ، الوساوس والأفكار الردية .

وهذا روح الصلاة ، والمقصود منها ، وهو الذى يكتب للعبد .

فالصلاة التى لا خشوع فيها ولا حضور قلب ، وإن كانت مجزية مثابا عليها ، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها .

[ والذين هم عن اللغو ] وهو الكلام الذى لا خير فيه ، ولا فائدة .

[ معرضون ] رغبة عنه ، وتنزيها لأنفسهم ، وترفعاً عنه .

وإذا مروا باللغو ، مروا كراما ، وإذا كانوا معرضين عن اللغو ، فإعراضهم عن المحرم ، من باب أولى ، وأحرى .

وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -- إلا فى الخير -- كان مالكا لأمره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال :

« ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت: بلى يارسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : كُفَّ عليك هذا » .

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة ، كَفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات .

[ والذين هم للزكاة فاعلون ] أى : مؤدون لزكاة أموالهم ، على اختلاف أجناس الأموال ، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوىء الأعمال التى تزكو النفوس بتركها وتَجَنُّبِهَا .

فأحسنوا فى عبادة الخالق ، فى الخشوع فى الصلاة ، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة .

[ والذين هم لفروجهم حافظون ] عن الزنا ، ومن تمام حفظها تَجَنُّبُ

أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ

---

ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوها .

فحفظوا فروجهم عن كل أحد [ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ] من الإماء المملوكات [ فإنهم غير ملومين ] بقربهما ، لأن الله تعالى أحلهما .

[ فمن ابتغى وراء ذلك ] غير الزوجة والسرية [ فأولئك هم العادون ] الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه ، المتجرئون على محارم الله .

وعموم هذه الآية ، يدل على تحريم المتعة ، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها ، ولا مملوكة ، وتحريم نكاح المحلل لذلك .

ويدل قوله [ أوما ملكت أيمانهم ] أنه يشترط فى حل المملوكة ، أن تكون كلها فى ملكه ، فلو كان له بعضها لم تحل ، لأنها ليست مما ملكت يمينه ، بل هى ملك له ولغيره .

فكما أنه لا يجوز أن يشترك فى المرأة الحرة زوجان ، فلا يجوز أن يشترك[1] فى الأمة المملوكة سيدان .

[ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ] .

---

( ١ ) قوله « فلا يجوز أن يشترك فى الأمة سيدان » يريد أنه لا يجوز أن يشترك فى التمتع بوطء الأمة سيدان ، وأما الاشتراك فى الملكية المجردة عن الوطء ، فلا مانع منه .

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

أى : مراعون لها ، ضابطون ، حافظون ، حريصون على القيام بها وتنفيذها .

وهذا عام فى جميع الأمانات ، التى هى حق لله ، والتى هى حق للعباد .

قال تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »

فجميع ما أوجبه الله على عبده ، أمانة ، على العبد حفظها بالقيام التام بها.

وكذلك يدخل فى ذلك ، أمانات الآدميين ، كأمانات الأموال ، والأسرار ، ونحوها .

فعلى العبد ، مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

وكذلك العهد ، يشمل العهد الذى بينهم وبين العباد، وهى الالتزامات والعقود ، التى يعقدها العبد ، فعليه مراعاتها والوفاء بها ، ويحرم عليه ، التفريط فيها ، وإهمالها .

[ والذين هم على صلواتهم يحافظون ] أى : يداومون عليها فى أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها .

فمدحهم بالخشوع فى الصلاة ، وبالمحافظة عليها ، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين :

فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع ، أو على الخشوع من دون محافظة عليها ، فإنه مذموم ناقص .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

---

[ أولئك ] الموصوفون بتلك الصفات [هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ] الذى هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها ، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها .

أو المراد بذلك ، جميع الجنة ، ليدخل بذلك،عموم المؤمنين،على درجاتهم فى مراتبهم ، كل بحسب حاله .

[ هم فيها خالدون] لا يظعنون عنها ، ولا يبغون عنها حِوَلاً ، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله ، وأتمه ، من غير مكدر ولا منغص .

* ذكر الله فى هذه الآيات أطوار الآدمى وتنقلاته ، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه .

فذكر ابتداء خلق أبى النوع البشرى آدم عليه السلام ، وأنه [من سلالة من طين] أى : قد سلت ، وأخذت من جميع الأرض .

ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض : منهم الطيب والخبيث،وبين ذلك . والسهل ، والْحَزْنُ ، وبين ذلك .

[ ثم جعلناه ] أى : جنس الآدميين [ نطفة ] تخرج من بين الصلب والترائب ، فتستقر [فى قرار مكين] وهو : الرحم محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ

---

[ ثم خلقنا النطفة ] التى قد استقرت قَبْلُ [ علقة ] أى : دما أحمر ، بعد مضى أربعين يوما من النطفة .

[ ثم خلقنا العلقة ] بعد أربعين يوما [ مضغة ] أى : قطعة لحم صغيرة ، بقدر ما يمضغ من صغرها .

[ فخلقنا المضغة ] اللينة [ عظاما ] صلبة ، قد تخللت اللحم ، بحسب حاجة البدن إليها .

[ فكسونا العظام لحما ] أى : جعلنا اللحم ، كسوة للعظام ، كما جعلنا العظام ، عمادا للحم ، وذلك فى الأربعين الثالثة .

[ ثم أنشأناه خلقاً آخر ] نفخ فيه الروح ، فانتقل من كونه جماداً ، إلى أن صار حيواناً .

[ فتبارك الله ] أى : تعالى ، وتعاظم ، وكثر خيره [ أحسن الخالقين ] الذى [ أحسن كل شىء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين وجعل نَسْله من سلالة من ماء مهين .

ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ] فَخَلْقُهُ كله حَسَنٌ ، والإنسان من أحسن مخلوقاته ، بل هو أحسنها على الإطلاق كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ولهذا كان خواصه ، أفضل المخلوقات وأكملها .

[ ثم إنكم بعد ذلك ] الخلق ، ونفخ الروح [ لميتون ] فى أحد أطواركم وتنقلاتكم .

لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ
ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ

---

[ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ] فتجازون بأعمالكم ، حسنها وسيئها .

قال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » .

* لما ذكر تعالى خلق الآدمى ، ذكر مسكنه ، وتَوَفُّرَ النعم عليه ، من كل وجه فقال :

[ ولقد خلقنا فوقكم ] سقفاً للبلاد ، ومصلحة للعباد [ سبع طرائق ] أى : سبع سموات طباقا ، كل طبقة فوق الأخرى ، قد زينت بالنجوم ، والشمس ، والقمر ، وأودع فيها من مصالح الخلق ، ما أودع .

[ وما كنا عن الخلق غافلين ] فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق ، فعلمنا أيضا ، محيط بما خلقنا ، فلا نغفل مخلوقا ، ولا ننساه ، ولا نخلق خلقا فنضيعه ، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض ، ولا ننسى ذرة فى لجج البحار ، وجوانب الفلوات ، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقاً « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » .

وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير * بلى وهو الخلاق العليم » لأن خلق المخلوقات ، من أقوى الأدلة العقلية ، على علم خالقها وحكمته .

[ وأنزلنا من السماء ماء ] يكون رزقا لكم ولأنعامكم ، بقدر ما يكفيكم .

فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ

---

فلا ينقصه ، بحيث يتلف المساكن ، ولا تعيش منه النباتات والأشجار.

بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ، ثم صرفه ، عند التضرر من دوامه .

[ فأسكناه فى الأرض ] أى : أنزلناه عليها ، فسكن واستقر ، وأخرج بقدرة منزله ، جميع الأزواج النباتية ، وأسكنه أيضاً معداً ، فى خزائن الأرض ، بحيث لم يذهب نازلا ، حتى لا يوصل إليه ، ولا يبلغ قعره .

[ وإنا على ذهاب به لقادرون ] إما بأن لا ننزله ، أو ننزله ، فيذهب نازلا ، لا يوصل إليه ، أو لا يوجد منه المقصود منه .

وهذا تنبيه منه لعباده ، أن يشكروه على نعمته ، ويقدروا عدمها ،ماذا يحصل به من الضرر ، كقوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » [ فأنشأنا لكم به ] أى : بذلك الماء [ جنات ] أى : بساتين [ من نخيل وأعناب ] .

خص تعالى ، هذين النوعين ، مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار ، لفضلهما ، ومنافعهما ، التى فاقت بها الأشجار ، ولهذا ذكر العام فى قوله :

[ لكم ] أى : فى تلك الجنات [ فواكه كثيرة ومنها تأكلون ] من تين ، وأترج ، ورمان ، وتفاح وغيرها .

[ وشجرة تخرج من طور سيناء ] وهى شجرة الزيتون ، أى : جنسها .

وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

---

خصت بالذكر ، لأن مكانها خاص ، فى أرض الشام ، ولمنافعها ، التى ذكر بعضها فى قوله :

[ تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ] أى : فيها الزيت ، الذى هو دهن ، يكثر استعماله من الاستصباح به ، واصطباغ للآكلين ، أى : يجعل إداما للآكلين ، وغير ذلك من المنافع .

* أى : ومن نعمه عليكم ، أن سخر لكم الأنعام من الإبل ، والبقر ، والغنم ، فيها عبرة للمعتبرين ، ومنافع للمنتفعين .

[ نسقيكم مما فى بطونها ] من لبن ، يخرج من بين فرث ودم ، لبن ، خالص ، سائغ للشاربين .

[ ولكم فيها منافع كثيرة ] من أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ، تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم [ ومنها تأكلون ] أفضل المآكل من لحم وشحم .

[ وعليها وعلى الفلك تحملون ] أى : جعلها لكم فى البر ، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد ، لم تكونوا بالغيه ، إلا بشق الأنفس .

كما جعل لكم السفن فى البحر ، تحملكم ، وتحمل متاعكم ، قليلا كان ، أو كثيرا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ

---

فالذى أنعم بهذه النعم ، وصنف أنواع الإحسان ، وأدر علينا من خيره المدرار ، هو الذى يستحق كمال الشكر ، وكمال الثناء ، والاجتهاد فى عبوديته وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه .

* يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله ، نوح عليه السلام ، أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه ، وهم يعبدون الأصنام ، فأمرهم بعبادة الله وحده فقال :

[ يا قوم اعبدوا الله ] أى : أخلصوا له العبادة ، لأن العبادة ، لا تصح إلا بإخلاصها .

[ ما لكم من إله غيره ] فيه إبطال ألوهية غير الله ، وإثبات الإلهية لله تعالى ، لأنه الخالق الرازق ، الذى له الكمال كله ، وغيره بخلاف ذلك .

[ أفلا تتقون ] ما أنتم عليه من عبادة الأوثان ، والأصنام ، التى صورت على صور قوم صالحين ، فعبدوها مع الله .

فاستمر على ذلك ، يدعوهم سرا وجهارا ، وليلا ونهارا ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهم لا يزدادون إلا عتوا ونفورا .

[ فقال الملأ ] من قومه الأشراف والسادة المتبوعون — على وجه المعارضة لنبيهم نوح ، والتحذير من اتباعه — :

[ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ] أى : ما هذا إلا بشر

مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ، ليكون متبوعا ، وإلا فما الذى يفضله عليكم ، وهو من جنسكم ؟ .

وهذه المعارضة ، لا زالت موجودة ، فى مكذبى الرسل .

وقد أجاب الله عنها بجواب شاف ، على ألسنة رسله كما فى « قالوا » أى : لرسلهم إن إنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين* قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته ، فليس لكم أن تحجروا على الله ، وتمنعوه من إيصال فضله علينا .

وقالوا أيضاً : ولو شاء الله لأنزل ملائكة .

وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة باطلة ، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة ، فإنه حكيم رحيم ، حكمته ورحمته ، تقتضى أن يكون الرسول من جنس الآدميين لأن الملائكة ، لاقدرة لهم على مخاطبته ، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان .

وقولهم: [ ما سمعنا بهذا ] أى بإرسال الرسول [ فى آبائنا الأولين ] .

وأى حجة فى عدم سماعهم إرسال رسول فى آبائهم الأولين ؟ لأنهم لم يحيطوا علما ، بما تقدم ، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم .

وعلى تقدير أنه لم يرسل منهم رسولا ، فإما أن يكونوا على الهدى ، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك .

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ

---

وإما أن يكونوا على غيره ، فليحمدوا ربهم ، ويشكروه أن خصهم بنعمة ، لم تأت آباءهم ، ولا شعروا بها .

ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم ، سببا لكفرهم للإحسان إليهم .

[ إن هو إلا رجل به جنة ] أى : مجنون [ فتربصوا به ] أى: انتظروا به [ حتى حين ] إلى أن يأتيه الموت .

وهذه الشُّبَهُ التى أوردوها ، معارضة لنبوة نبيهم ، دالة على شدة كفرهم وعنادهم ، وعلى أنهم فى غاية الجهل والضلال ، فإنها لا تصلح للمعارضة ، بوجه من الوجوه ، كما ذكرنا ، بل هى فى نفسها متناقضة متعارضة .

فقولهم : [ما هذا إلا رجل مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ] أثبتوا أن له عقلا يكيدهم به ، ليعلوهم ، ويسودهم ، ويحتاج — مع هذا — أن يحذر منه لئلا يغتر به .

فكيف يلتئم مع قولهم : [ إن هو إلا رجل به جنة ] وهل هذا إلا من مشبه ضال ، منقلب عليه الأمر ، قصده : الدفع بأى طريق اتفق له ، غير عالم بما يقول ؟ ! ! .

ويأبى الله إلا أن يظهر خزى من عاداه وعادى رسله .

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارا [ قال رب انصرنى بما كذبون ] فاستنصر ربه عليهم ، غضبا ، حيث ضيعوا أمره ، وكذبوا رسله وقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً » .

ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ

---

قال تعالى : [ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ] .

[ فأوحينا إليه] عند استجابتنا له ، سببا ، ووسيلة للنجاة ، قبل وقوع أسبابه .

[ أن اصنع الفلك] أى : السفينة [بأعيننا ، ووحينا] أى : بأمر نالك ، ومعونتنا ، وأنت فى حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك .

[فإذا جاء أمرنا] بإرسال الطوفان الذى عذبوا به [ وفار التَّنُور ] . أى : فارت الأرض ، وتفجرت عيونا ، حتى محل النار ، الذى لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء .

[ فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ] أى : أدخل فى الفلك من كل جنس من الحيوانات ، ذكرا وأنثى ، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات ، التى اقتضت الحكمة الربانية إيجادها فى الأرض .

[ وأهلك ] أى : أدخلهم [ إلا من سبق عليه القول ] كابنه .

[ولا تخاطبني فى الذين ظلموا ] أى : لا تدعني أن أنجيهم ، فإن القضاء والقدر ، قد حتم أنهم مغرقون .

[ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ] أي : علوتم عليها ، واستقلت بكم فى تيار الأمواج ، ولجج اليم ، فاحمدوا الله على النجاة والسلامة .

أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

---

فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، وهذا تعليم منه له ، ولمن معه ، أن يقولوا هذا شكراً له ، وحمداً على نجاتهم من القوم الظالمين فى عملهم وعذابهم .

[ وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ] أى : وبقيت عليكم نعمة أخرى ، فادعوا الله فيها ، وهى أن ييسر الله لكم منزلا مباركا .

فاستجاب الله دعاءه ، قال الله : [ وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ] إلى أن قال :

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » الآية .

[ إن فى ذلك ] أى : فى هذه القصة [ لآيات ] تدل على أن الله وحده المعبود ، وعلى أن رسوله نوحا ، صادق ، وأن قومه كاذبون ، وعلى رحمة الله بعباده ، حيث حملهم فى صلب أبيهم نوح ، فى الفلك لما غرق أهل الأرض .

والفلك أيضا من آيات الله قال تعالى : « ولقد تركناها آية ، فهل من مدكر » ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب .

[ وإن كنا لمبتلين ] .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ

---

* لما ذكر نوحا وقومه ، وكيف أهلكهم قال : [ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ] .

الظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح ، عليه السلام لأن هذه القصة ، تشبه قصتهم .

[ فأرسلنا فيهم رسولا منهم ] من جنسهم ، يعرفون نسبه وحسبه ، وصدقه ، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم ، إذا كان منهم ، وأبعد عن اشمئزازهم .

فدعا إلى مادعت إليه الرسل أممهم [ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ] .

فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة ، وهى أول دعوة يدعون بها أممهم ، الأمر بعبادة الله ، والإخبار أنه المستحق لذلك ، والنهى عن عبادة ماسواه ، والإخبار ببطلان ذلك وفساده .

ولهذا قال : [ أفلا تتقون ] ربكم ، فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام .

[ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ] أى : قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة ، وإنكار البعث والجزاء ، وأطغاهم ترفهم فى الحياة الدنيا ، معارضة لنبيهم ، وتكذيبا ، وتحذيرا منه :

وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ

---

[ ما هذا إلا بشر مثلكم ] أى : من جنسكم [ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ] .

فما الذى يفضله عليكم ؟ فهلا كان ملكا ، لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

[ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ] أى : إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسا ، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل ، نادمون على ما فعلتم .

وهذا من العجب ، فإن الخسارة والندامة حقيقة ، لمن لم يتابعه ، ولم ينقد له .

والجهل والسفه العظيم ، لمن تكبر عن الانقياد لبشر ، خصه الله بوحيه ، وفضله برسالته ، وابتلى بعبادة الشجر والحجر .

وهذا نظير قولهم : « قالوا أبشراً منا واحدا نتبعه ، إنا إذا لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » .

فلما أنكروا رسالته وردوها ، أنكروا ماجاء به من البعث بعد الموت ، والمجازاة على الأعمال فقالوا :

[ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات

وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

---

هيهات لما توعدون ] أى : بعيد بعيد ما يعدكم به ، من البعث ، بعد أن تمزقتم ، وكنتم ترابا وعظاما .

فنظروا نظرا قاصرا ، ورأوا هذا ، بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن .

فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم ، تعالى الله عن ذلك .

فأنكروا قدرته على إحياء الموتى وعجزوه غاية التعجيز ،ونسوا خلقهم أول مرة ، وأن الذى أنشأهم من العدم ، فإعادته لهم بعد البلى ، أهون عليه وكلاهما هين لديه .

فلم لا ينكرون أول خلقهم ،ويكابرون المحسوسات ، ويقولون : إننا ، لم نزل موجودين ، حتى يسلم لهم إنكارهم البعث ، وينتقلو معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم ؟ .

وهنا دليل آخر ، وهو : أن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحي لموتى ، إنه على كل شىء قدير .

وثمّ دليل آخر ، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث فى قوله :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » فقال فى جوابهم : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » أى فى البلى .

« وعندنا كتاب حفيظ » .

[ إن هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ] أى : يموت أناس ، ويحيا أناس [ ومانحن بمبعوثين ] .

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً

---

[ إن هو إلا رجل به جنة ] فلهذا أتى بما أتى به ، من توحيد الله ، وإثبات المعاد « فتربصوا به حتى حين » أى : ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره ، احتراما له ، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به .

أى : فلم يبق بزعمهم الباطل ، مجادلة معه ، لصحة ماجاء به ، فإنهم قد زعموا بطلانه .

وإنما بقى الكلام ، هل يوقعون به أم لا ؟ .

فبزعمهم أن عقولهم الرزينة ، اقتضت الإبقاء عليه ، وترك الإيقاع به ، مع قيام الموجب .

فهل فوق هذا العناد والكفر غاية ؟ ! ! .

ولهذا لما اشتد كفرهم ، ولم ينفع فيهم الإنذار ، دعا عليهم نبيهم فقال : [ رب انصرنى بما كذبون ] أى . بإهلاكهم ، وخزيهم الدنيوى ، قبل الآخرة .

فـ [ قال ] الله مجيبا لدعوته : [ عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق ] لا بالظلم والجور ، بل بالعدل وظلمهم ، أخذتهم الصيحة ، فأهلكتهم عن آخرهم .

[ فجعلناهم غثاء ] أى هشيما يبسا بمنزلة غثاء السيل الملقى فى جنبات

فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

الوادى ، وقال فى الآية الأخرى « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتضر » .

[ فبعدا للقوم الظالمين ] أى : أُتبعوا مع عذابهم ، البعد واللعنة والذم من العالمين .

[ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ] .

هذا التعبير مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم .

وفيه تهكم بهم ، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فَقْدُه ، فيقال عنه : « بكت عليه السماء والأرض » .

ومنه ماروى « أن المؤمن إذا مات ، ليَبْكِى عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه ، وآثاره فى الأرض .

وعن الحسن يبكى عليه أهل السماء والأرض .

[ وما كانوا ] لما جاءهم وقت هلاكهم [ منظرين ] أى : ممهلين إلى وقت آخر ، بل عجل لهم العذاب فى الدنيا .

والمعنى الإجمالى : فما حزنت عليهم السماء والأرض عندما أخذهم العذاب، لهوان شأنهم ، لأنهم ماتوا كُفاراً ، ولم يُنْظَرُوا لتوبة ، ولم يُمْهَلُوا لتدارك تقصيرهم احتقاراً لهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ
مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ
مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ
فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

☆ أى : ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين ، قرونا آخرين ، كل أمة فى وقت مسمى ، وأجل محدود ، لا تتقدم عنه ولا تتأخر .

وأرسلنا إليهم رسلا متتابعة ، لعلهم يؤمنون وينيبون .

فلم يزل الكفر والتكذيب ، دأب الأمم العصاة ، والكفرة البغاة كلما جاء أمة رسولها ، كذبوه ، مع أن كل رسول يأتى من الآيات ، ما يؤمن على مثله البشر .

بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم ، يدل على حقية ما جاءوا به .

[فأتبعنا بعضهم بعضا] بالهلاك ، فلم يبق منهم باقية ، وتعطلت مساكنهم من بعدهم .

[وجعلناهم أحاديث] يتحدث بهم من بعدهم ، ويكونون عبرة للمتقين ، ونكالا للمكذبين ، وخزيا عليهم مقرونا بعذابهم .

[فبعداً لقوم لا يؤمنون] ما أشقاهم ! ! . وتعسا لهم ، ما أخسر صفقتهم ! ! .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

---

مر عَلَيَّ منذ زمان طويل ، كلام لبعض العلماء لايحضرنى الآن اسمه ، وهو أنه بعد موسى و نزول التوراة ، رفع الله العذاب عن الأمم ، أى : عذاب الاستئصال ، وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد ، ولم أدر من أين أخذه .

فلما تدبرت هذه الآيات ، مع الآيات التى فى سورة القصص ، تبين لى وجهه .

أما هذه الآيات ، فلأن الله ، ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك .

ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم ، وأنزل عليه التوراة ، فيها الهداية للناس .

ولا يرد على هذا ، إهلاك فرعون ، فإنه قبل نزول التوراة .

وأما الآيات التى فى سورة القصص ، فهى صريحة جدا .

فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال :

[ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون] فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية .

. . . . . . . . . . .

وأخبر أنه أنزله بصائر للناس ، وهدى ورحمة .

ولعل من هذا ، ما ذكر الله فى سورة « يونس » من قوله « ثم بعثنا من بعده » أى من بعد نوح « رسلا إلى قومهم فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين * ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون » الآيات والله أعلم .

فقوله [ ثم أرسلنا موسى ] بن عمران ، كليم الرحمن [ وأخاه هرون ] حين سأل ربه أن يشركه فى أمره فأجاب سؤله .

[ بآياتنا ] الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به [ وسلطان مبين ] أي : حجة بينة .

من قوتها ، أن تقهر القلوب ، وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين ، وتقوم الحجة البينة على المعاندين .

وهذا كقوله « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم » بتلك الآيات البينات [ فقال ] له [ فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ] .

وقال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

وقال هنا [ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملأه ] كـ « هامان » وغيره من رؤسائهم .

. . . . . . . . . . .

---

[فاستكبروا] أى: تكبروا عن الإيمان بالله ، واستكبروا على أنبيائه .

[ وكانوا قوما عالين ] أى : وصفهم العلو ، والقهر ، والفساد فى الأرض ، فلهذا صدر منهم الاستكبار ، ذلك غير مستكثر منهم .

[ فقالوا ] كبرا وتيها ، وتحذيراً لضعفاء العقول ، وتمويها : [ أنؤمن لبشرين مثلنا ] كما قاله من قبلهم سواء بسواء ، وتشابهت قلوبهم فى الكفر ، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم ، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة .

[ وقومهما ] أى : بنو إسرائيل [ لنا عابدون ] أى معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة كما قال تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين ؟ ! !

وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا ؟ ! !

ونظير قولهم ، قول قوم نوح : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى » .

من المعلوم أن هذا ، لا يصلح لدفع الحق ، وأنه تكذيب ومعاندة .

ولهذا قال : [ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ] فى الغرق فى البحر ، وبنو إسرائيل ينظرون .

[ولقد آتينا موسى] بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلى مع موسى ، وتمكن حينئذ ، من إقامة أمر الله فيهم ، وإظهار شعائره ، وعده الله أن ينزل عليه التوراة ، أربعين ليلة ، فذهب لميقات ربه ، قال الله تعالى « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا

---

ولهذا قال هنا : [ لعلهم يهتدون ] أى : بمعرفة تفاصيل الأمر والنهى، والثواب والعقاب ، ويعرفون ربهم ، بأسمائه وصفاته .

* أى : وامْتننَّا على عيسى بن مريم ، وجعلناه وأمه ، من آيات الله العجيبة ، حيث حملته ، وولدته ، من غير أب ، وتكلم فى المهد صبيا ، وأجرى الله على يديه من الآيات ، ما أجرى .

[ وآويناهما إلى ربوة ] أى : مكان مرتفع ، وهذا — والله أعلم — وقت وضعها .

[ ذات قرار ] أى مستقر وراحة [ ومعين ] أى : ماء جار .

بدليل قوله : « قد جعل ربك تحتك » أى : تحت المكان الذى أنت فيه ، لارتفاعه .

« سرياً » أى : نهراً وهو الماء المعين « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى واشربى وقرى عينا » .

* هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات ، التى هى الرزق ، والطيب الحلال .

والشكر لله ، بالعمل الصالح ، الذى به يصلح القلب والبدن ، والدنيا والآخرة .

ويخبرهم أنه بما يعملون عليم ، فكل عمل عملوه ، وكل سعى اكتسبوه ، فإن الله يعلمه ، وسيجازيهم عليه ، أتم الجزاء وأفضله .

إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ

فدل هذا على أن الرسل كلهم ، متفقون على إباحة الطيبات ، من المآكل وتحريم الخبائث منها ، وأنهم متفقون على كل عمل صالح .

وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات ، واختلفت بها الشرائع ، فإنها كلها عمل صالح ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة .

ولهذا ، الأعمال الصالحة ، التى هى صلاح فى جميع الأزمنة ، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع ، كالأمر بتوحيد الله ، وإخلاص الدين له ، ومحبته ، وخوفه ، ورجائه ، والبر ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين ، واليتامى ، والْحُنُوِّ والإحسان إلى الخلق ، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة .

ولهذا كان أهل العلم ، والكتب السابقة ، والعقل ، حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به ، وينهى عنه.

كما جرى لهرقل وغيره ، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء ، الذين من قبله ، ونهى عما نهوا عنه ، دل على أنه من جنسهم .

بخلاف الكذاب ، فلا بد أن يأمر بالشر ، وينهى عن الخير .

ولهذا قال تعالى للرسل : [ وإن هذه أمتكم ] أى : جماعتكم — يامعشر الرسل — [ أمة واحدة ] متفقة على دين واحد ، وربكم واحد .

[ فاتقون ] بامتثال أوامرى ، واجتناب زواجرى .

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

وقد أمر الله المؤمنين ، بما أمر به المرسلين ، لأنهم بهم يقتدون ، وخلفهم يسلكون .

فقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » فالواجب على كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم ، أن يمتثلوا هذا ، ويعملوا به .

ولكن أبى الظالمون الجاحدون ، إلا عصياناً ، ولهذا قال :

* [ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ] أى : تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء [ أمرهم ] أى : دينهم [ بينهم زبراً ] أى قطعا [ كل حزب بما لديهم ] أى : بما عندهم من العلم والدين .

[ فرحون ] يزعمون أنهم المحقون ، وغيرهم على غير الحق .

مع أن المحق منهم ، من كان على طريق الرسل ، من أكل الطيبات ، والعمل الصالح ، وما عداهم ، فإنهم مبطلون .

[ فذرهم فى غمرتهم ] أى : فى وسط جهلهم بالحق ، ودعواهم : أنهم هم المحقون .

[ حتى حين ] أى : إلى أن ينزل العذاب بهم ، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ ، ولا يفيدهم زجر .

فكيف يفيد بمن يزعم أنه على الحق ، ويطمع فى دعوة غيره إلى ما هو عليه ؟

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ

---

* [ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات ] .

أى : أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد ، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة ، وأن لهم خير الدنيا والآخرة ؟

وهذا مقدم لهم ، ليس الأمر كذلك .

[ بل لا يشعرون ] أنما نملى لهم ، ونمهلهم ، ونمدهم بالنعم ، ليزدادوا إثما ، وليتوفر عقابهم فى الآخرة ، وليغتبطوا بما أوتوا « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » .

* لما ذكر تعالى ، الذين جمعوا بين الإساءة والأمن ، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم فى الدنيا ، دليل على خيرهم وفضلهم ، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف فقال :

[ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ] أى : وجلون ، مشفقة قلوبهم كل ذلك ، من خشية ربهم ، خوفا أن يضع عليهم عدله ، فلا يبقى لهم حسنة ، وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى ، وخوفا على إيمانهم من الزوال ، ومعرفة منهم بربهم ، وما يستحقه من الإجلال والإكرام ، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب ، والتقصير فى الواجبات .

هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

---

[ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ] أى : إذا تليت عليهم آياته ، زادتهم إيماناً .

ويتفكرون أيضاً فى الآيات القرآنية ، ويتدبرونها ، فيبين لهم من معانى القرآن وجلالته واتفاقه ، وعدم اختلافه ، وتناقضه ، وما يدعو إليه من معرفة الله ، وخوفه ، ورجائه وأحوال الجزاء ، فيحدث لهم بذلك ، من تفاصيل الإيمان ، ما لا يعبر عنه اللسان .

ويتفكرون أيضا فى الآيات الأفقية ، كما فى قوله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » إلى آخر الآيات .

* [ والذين هم بربهم لا يشركون ] أى : لا شركا جليا ، كاتخاذ غير الله معبوداً ، يدعونه ، ويرجونه ، ولا شركا خفيا كالرياء ونحوه .

بل هم مخلصون لله ، فى أقوالهم ، وأعمالهم ، وسائر أحوالهم .

* [ والذين يؤتون ما آتوا ] أى : يعطون من أنفسهم ، مما أمروا به ، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه ، من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصدقة ، وغير ذلك .

[و] مع هذا [ قلوبهم وجلة ] أى : خائفة [ أنهم إلى ربهم راجعون ] .

أى : خائفة عند عرض أعمالها عليه ، والوقوف بين يديه ، أن تكون

أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ

---

أعمالهم غير منجية من عذاب الله ، لعلمهم بربهم ، وما يستحقه من أصناف العبادات .

* [أولئك يسارعون فى الخيرات] أى : فى ميدان التسارع فى أفعال الخير.

همهم ما يقربهم إلى الله ، وإرادتهم مصروفة فيما ينجى من عذابه .

فكل خير سمعوا به ، أو سنحت لهم الفرصة ، انتهزوه وبادروه .

قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه ، أمامهم ، ويمنة ، ويسرة ، يسارعون فى كل خير ، وينافسون فى الزلفى عند ربهم ، فنافسوهم .

ولما كان السابق لغيره المسارع ، قد يسبق لجده وتشميره ، وقد لا يسبق لتقصيره ، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال :

[ وهم لها ] أى : للخيرات [ سابقون ] قد بلغوا ذروتها ، وتباروا ، هم والرعيل الأول .

ومع هذا ، قد سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة ، أنهم سابقون .

ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات ، وسبقهم إليها ، ربما وهم واهم ، أن المطلوب منهم ومن غيرهم ، أمر غير مقدور ، أو متعسر ، قال تعالى :

* [ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ] أى : بقدر ما تسعه ، ويفضل من قوتها عنه .

ليس مما يستوعب قوتها ، رحمة منه وحكمة ، لتيسير طريق الوصول إليه ، ولتعمر جادة السالكين فى كل وقت إليه .

[ ولدينا كتاب ينطق بالحق ] وهو الكتاب الأول ، الذى فيه كل

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ

---

شيء ، وهو يطابق كل واقع يكون ، فلذلك كان حقا .

[وهم لا يظلمون] أى لا ينقص من إحسانهم ، ولا يزداد فى عقوبتهم وعصيانهم .

* يخبر تعالى أن هؤلاء المكذبين ، فى غمرة من هذا ، أى : وسط غمرة من الجهل والظلم ، والغفلة والإعراض ، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن ، فلا يهتدون به ، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء .

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذنهم وقراً » .

فلما كانت قلوبهم فى غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال ، من الأعمال الكفرية ، والمعاندة للشرع ، ما هو موجب لعقابهم .

[و] لكن [لهم أعمال من دون ذلك] هذه الأعمال [هم لها عاملون] .

أى : فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم ، فإن الله يمهلهم ، ليعملوا هذه الأعمال ، التى بقيت عليهم ، مما كتب عليهم ، فإذا عملوها ، واستوفوها انتقلوا بشر حالة ، إلى غضب الله وعقابه .

[حتى إذا أخذنا مترفيهم] أى : متنعميهم ، الذين ما اعتادوا إلا الترف ، والرفاهية ، والنعيم ، ولم تحصل لهم المكاره .

إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟

---

فإذا أخذناهم [ بالعذاب ] ووجدوا مسّه [ إذا هم يجأرون ] يصرخون ، ويتوجعون ، لأنه أصابهم أمر ، خالف ما هم عليه .

ويستغيثون ، فيقال لهم : [ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ] .

وإذا لم تأتهم النصرة من الله ، وانقطع عنهم الغوث من جانبه ، لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم أحد .

فكأنه قيل : ما السبب الذى أوصلهم إلى هذه الحال ؟ قال : [ قد كانت آياتى تتلى عليهم ] لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها ، فلم تفعلوا ذلك ، بل [ فكنتم على أعقابكم تنكصون ] أى : راجعين القهقرى إلى الخلف .

وذلك لأن باتباعهم القرآن ، يتقدمون ، وبالإعراض عنه ، يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين .

[مستكبرين به سامرا تهجرون] قال المفسرون معناه : مستكبرين به .

الضمير يعود إلى البيت ، المعهود عند المخاطبين ، أو الحرم .

أى : متكبرين على الناس بسببه ، تقولون : نحن أهل الحرم ، فنحن أفضل من غيرنا ، وأعلى [سامرا ] أى : جماعة يتحدثون بالليل حول البيت [تهجرون] أى : تقولون الكلام الهُجْرَ ، الذى هو القبيح فى هذا القرآن .

فالمكذبون كانت طريقتهم فى القرآن ، الاعراض عنه ، ويوصى بعضهم

ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ

---

بعضا بذلك « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القول والغوا فيه لعلكم تغلبون » وقال الله عنهم « أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون * أم يقولون تقوله » .

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل ، لا جرم حقت عليهم العقوبة .

ولما وقعوا فيها ، لم يكن لهم ناصر ينصرهم ، ولامغيث ينقذهم ، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة [ أفلم يدبروا القول ] . أي : أفلا يتفكرن فى القرآن ، ويتأملونه ويتدبرونه .

أى : فإنهم لوتدبروه ، لأوجب لهم الإيمان ، ولمنعهم من الكفر ، ولكن المصيبة ، التى أصابتهم ، بسبب إعراضهم عنه .

ودل هذا ، على أن تدبر القرآن ، يدعو إلى كل خير ، ويعصم من كل شر .

والذى منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها .

[ أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ] أى : أومنعهم من الإيمان ، أنه جاءهم رسول ، وكتاب ،ما جاء آباءهم الأولين .

فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين ، وعارضوا كل ما خالف ذلك . ولهذا قالوا ، هم ومن أشبههم من الكفار ، ما أخبر الله عنهم : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

فأجابهم بقوله : ( قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ) . فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق .

رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم
بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ

---

فأجابوا بحقيقة أمرهم ( قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ) .

☆ وقوله [ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ] أى : أو منعهم من اتباع الحق ، أن رسولهم محمداً صل الله عليه وسلم ، غير معروف عندهم ، فهم منكرون له ؟

يقولون : لا نعرفه ، ولا نعرف صدقه ، دعونا ننظر حاله ، ونسأل عنه ، مَنْ لديه خبره .

أى : لم يكن الأمر كذلك ، فإنهم يعرفون الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرفة تامة ، صغيرهم ، وكبيرهم .

يعرفون منه كل خلق جميل ، ويعرفون صدقه ، وأمانته ، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة « الأمين » فلم لا يصدقونه ، حين جاءهم بالحق العظيم ، والصدق المبين ؟ .

[ أم يقولون به جنة ] أى : جنون ، فلهذا قال ما قال ، والمجنون ، غير مسموع منه ، ولا عبرة بكلامه ، لأنه يهذى بالباطل ، والكلام السخيف .

قال الله فى الرد عليهم فى هذه المقالة : [ بل جاءهم بالحق ] أي : بالأمر الثابت ، الذى هو صدق وعدل ، لا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، فكيف يكون من جاء به ، به جنة ؟ ! وهلا يكون إلا فى أعلى درجات الكمال ، من العلم والعقل ، ومكارم الأخلاق .

لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ

وأيضاً ، فإن فى هذا ، الانتقال ، مما تقدم .

أى : بل الحقيقة التى منعتهم من الإيمان ، أنه [جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون] .

وأعظم الحق الذى جاءهم به ، إخلاص العبادة لله وحده ، وترك مايعبد من دون الله .

وقد علم كراهتهم لهذا الأمر ، وتعجبهم منه .

فكون الرسول أتى بالحق ، وكونهم كارهين للحق بالأصل ، هو الذى أوجب لهم التكذيب بالحق ، لا شكاً ولا تكذيبا للرسول ، كما قال تعالى :

« فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ، أو يسرعوا الانقياد ؟

أجاب تعالى بقوله : [ولو اتبع الحق أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض] .

ووجه ذلك ، أن أهواءهم ، متعلقة بالظلم ، والكفر ، والفساد ، من الأخلاق ، والأعمال .

فلو اتبع الحق أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض ، لفساد التصرف والتدبير ، المبنى على الظلم وعدم العدل .

فالسموات والأرض ، ما استقامتا إلا بالحق والعدل .

[بل أتيناهم] أى : بهذا القرآن المذكر لهم ، بكل خير ، الذى به فخرهم

عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

---

وشرفهم ، حين يقومون به ، ويكونون به سادة الناس.

[فهم عن ذكرهم معرضون] شقاوة منهم ، وعدم توفيق « نسوا الله فنسيهم * نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

فالقرآن ومن جاء به ، أعظم نعمة ساقها الله إليهم ، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض ، فهل بعد هذا الإيمان حرمان ؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران ؟ .

* أى : أو منعهم من اتباعك يامحمد ، أنك تسألهم على الإجابة أجرا [فهم من مغرم مثقلون] يتكلفون من اتباعك ، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج .

ليس الأمر كذلك [فخراج ربك خير وهو خير الرازقين] .

وهذا كما قال الأنبياء لأممهم « ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الله » .

أى : ليسوا يدعون الخلق ، طمعا فيما يصيبهم منهم ، من الأموال .

وإنما يدعونهم ، نصحا لهم ، وتحصيلا لمصالحهم ، بل كان الرسل ، أنصح للخلق من أنفسهم .

فجزاهم الله عن أممهم ، خير الجزاء ، ورزقنا الاقتداء بهم ، فى جميع الأحوال .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الكريمات ، كل سبب موجب للإيمان ، وذكر الموانع ، وبين فسادها ، واحدا بعد واحد .

فذكر من الموانع أن قلوبهم فى غمرة ، وأنهم لم يدبروا القول ، وأنهم اقتدوا بآبائهم ، وأنهم قالوا : برسولهم جنة ، كما تقدم الكلام عليها .

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم ، تدبر القرآن ، وتَلَقِّى نعمة الله بالقبول ، ومعرفة حال محمد صلى الله عليه وسلم ، وكمال صدقه وأمانته ، وأنه لا يسألهم عليه أجرا ، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم ، وأن الذى يدعوهم إليه ، صراط مستقيم .

وسهل على العاملين لاستقامته ، موصل إلى المقصود ، من قرب ، حنيفية سمحة ، حنيفية فى التوحيد ، سمحة فى العمل .

فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم ، توجب لمن يريد الحق أن يتبعك .

لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه ، وموافقته للمصالح .

فأين يذهبون إن لم يتابعوك ؟ فإنهم ليس عندهم ، ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك ، لأنهم .

[ عن الصراط لناكبون ] متجنبون منحرفون ، عن الطريق الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته ، ليس فى أيديهم إلا ضلالات وجهالات .

وهكذا كل من خالف الحق ، لا بد أن يكون منحرفا فى جميع أموره .

قال تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ».

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

---

* هذا بيان لشدة تمردهم ، وأنهم إذا أصابهم الضر ، دعوا الله أن يكشف عنهم ، ليؤمنوا ، أو ابتلاهم بذلك ، ليرجعوا إليه .

إن الله إذا كشف الضر عنهم ، لجّوا ، أى : استمروا فى طغيانهم يعمهون ، أى : يجولون فى كفرهم ، حائرين مترددين .

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك ، وأنهم يدعون مخلصين له الدين ، وينسون ما يشركون به .

فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بالشرك وغيره .

[ ولقد أخذناهم بالعذاب ] قال المفسرون : المراد بذلك : الجوع الذى أصابهم سبع سنين ، وأن الله ابتلاهم بذلك ، ليرجعوا إليه ، بالذل والاستسلام .

فلم ينجع فيهم ، ولا نجح منهم أحد .

[ فما استكانوا لربهم ] أى : خضعوا وذلوا [ وما يتضرعون ] إليه ويفتقرون ، بل مرّ عليهم ذلك ، ثم زال ، كأنه لم يصبهم ، لم يزالو فى غيهم وكفرهم .

ولكن وراءهم ، العذاب الذى لا يرد ، وهو قوله :

* [ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ] كالقتل يوم بدر وغيره .

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ

---

[ إذا هم فيه مبلسون ] آيسون من كل خير ، قد حضرهم الشر وأسبابه . فَلْيَحْذَرُوا قبل نزول عذاب الله الشديد ، الذى لا يرد .

بخلاف مجرد العذاب ، فإنه ربما أقلع عنهم ، كالعقوبات الدنيوية ، التى يؤدب الله بها عباده .

قال تعالى فيها : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

* يخبر تعالى، بمنته على عباده الداعين[1] لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال:

[ وهو الذي أنشأ لكم السمع ] لتدركوا به المسموعات ، فتنتفعوا فى دينكم ودنياكم .

[ والأبصار ] لتدركوا بها المبصرات ، فتنتفعوا بها فى مصالحكم .

[ والأفئدة ] أى : العقول التى تدركون بها الأشياء ، وتتميزون بها عن البهائم .

فلو عدمتم السمع ، والأبصار ، والعقول ، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم ؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم ؟ .

أفلا تشكرون الذى مَنَّ عليكم بهذه النعم ، فتقومون بتوحيده وطاعته ؟ .

---

(١) قوله « الداعين الخ » هكذا فى الأصل ، وهو خطأ واضح والصواب أن يقال « الداعية لهم إلى شكره » .

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

---

ولكنكم ، قليل شكركم ، مع توالى النعم عليكم .

[ وهو ] تعالى [ الذى ذرأكم فى الأرض ] أى : بثكم فى أقطارها ، وجهاتها ، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها ، وجعلها كافية لمعايشكم ، ومساكنكم .

[ وإليه تحشرون ] بعد موتكم ، فيجازيكم بما عملتم فى الأرض ، من خير وشر .

وتحدث الأرض التى كنتم فيها ، بأخبارها .

[ وهو ] تعالى وحده [ الذى يحيي ويميت ] أى : المتصرف فى الحياة والموت ، هو الله وحده .

[ وله اختلاف الليل والنهار ] أى : تعاقبهما وتناوبهما .

فلو شاء أن يجعل النهار سرمدا ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟

ولو شاء أن يجعل الليل سرمدا ، مَنْ إله غير الله ، يأتيكم بضياء أفلا تبصرون ؟ .

ومن رحمته ، جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

---

ولهذا قال هنا : [ أفلا تعقلون ] فتعرفون أن الذى وهب لكم ، من النعم ، السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، والذى نشركم فى الأرض ، وحده ، والذى يحيي ويميت وحده ، والذى يتصرف بالليل والنهار ، وحده ، أن ذلك موجب لكم ، أن تخلصوا له العبادة ، وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر ، ولا يتصرف بشىء ، بل هو عاجز من كل وجه ، فلو كان لكم عقل ، لم تفعلوا ذلك .

* أى : بل سلك هؤلاء المكذبون ، مسلك الأولين ، من المكذبين بالبعث ، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا : [ أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعثون] أى : هذا لا يتصور ، ولا يدخل العقل ، بزعمهم .

[ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ] أى : مازلنا نوعد بأن البعث كائن ، نحن وآباؤنا ، ولم نره ، ولم يأت بعد .

[ إن هذا إلا أساطير الأولين ] أى : قصصهم وأسمارهم ، التى يتحدث بها وتلهى ، وإلا فليس لها حقيقة .

وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم ، من آياته أكبر من البعث .

ومثله ، ماقاله الله تعالى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم » الآيات

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » الآيات .

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾٨٤﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾٨٥﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

---

* أى : قل لهؤلاء المكذبين بالبعث ، العادلين بالله غيره ، محتجا عليهم بما أثبتوه ، وأقروا به ، من توحيد الربوبية ، وانفراد الله بها — على ما أنكروه ، من توحيد الإلهية والعبادة ، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة ، على ما أنكروه من إعادة الموتى ، الذى هو أسهل من ذلك :

[ لمن الأرض ومن فيها ] أى : من هو الخالق للأرض ، ومن عليها ، من حيوان ، ونبات ، وجماد ، وبحار ، وأنهار ، وجبال ، ومن المالك لذلك ، المدبر له ؟ .

فإنك إذا سألتهم عن ذلك ، لا بد أن يقولوا : الله وحده .

فقل لهم إذا أقروا بذلك :

[ أفلا تذكرون ] أى : أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به ، مما هو معلوم عندكم ، مستقر فى فطركم ، قد يغيبه الإعراض فى بعض الأوقات .

الحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم ، بمجرد التأمل ، علمتم أن مالك ذلك ، هو المعبود وحده ، وأن إلهية من هو مملوك ، أبطل الباطل .

ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك ، فقال :

* [ قل من رب السموات السبع ] وما فيها من النيرات ، والكواكب السيارات ، والثوابت [ ورب العرش العظيم ] الذى هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها ؟ .

وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

---

فمن الذى خلق ذلك ، ودبره ، وصرفه بأنواع التدبير ؟ [سيقولون لله] أى : سيقرون بأن الله رب ذلك كله .

قل لهم حين يقرون بذلك : [ أفلا تتقون ] عبادة المخلوقات العاجزة ، وتتقون الرب العظيم ، كامل القدرة ، عظيم السلطان ؟ .

وفى هذا من لطف الخطاب ، من قوله « أفلا تتقون » والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ، ما لا يخفى .

ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال :

[ قل من بيده ملكوت كل شىء ] أى : ملك كل شى ، من العالم العلوى ، والعالم السفلى ، ما نبصره ، وما لا نبصره ؟ .

و « الملكوت » صيغة مبالغة ، بمعنى الملك .

[ وهو يجير ] عباده من الشر ، ويدفع عنهم المكاره ، ويحفظهم مما يضرهم .

[ ولا يجار عليه ] أى : لا يقدر أحد أن يجير على الله ، ولا يدفع الشر الذى قدره الله .

بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ

---

* [ سيقولون لله ] أى : سيقرون أن الله المالك لكل شىء ، المجير ، الذى لا يجار عليه .

[ قل ] لهم حين يقرون بذلك ، ملزما لهم ، [ فأنى تسحرون ] أى : فأين تذهب عقولكم ، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ، ولا قسط من الملك ، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه ، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور .

فالعقول التى دلتكم على هذا ، لا تكون إلا مسحورة .

وهى — بلا شك — قد سحرها الشيطان ، بما زين لهم ، وحسّن لهم ، وقلب الحقائق لهم ، فسحر عقولهم ، كما سحرت السحرة ، أعين الناس .

* يقول تعالى : بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق ، المتضمن للصدق فى الأخبار ، العدل فى الأمر والنهى .

فما بالهم لا يعترفون به ، وهو أحق أن يتبع ؟ وليس عندهم ، ما يعوضهم عنه ، إلا الكذب والظلم ولهذا قال : [ وإنهم لكاذبون ] .

* [ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ] كذب يعرف بخبر الله ، وخبر رسله ، ويعرف بالعقل الصحيح .

ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلى ، على امتناع إلهين فقال :

[ إذاً ] أى لو كان معه آلهة كما يقولون [ لذهب كل إله بما خلق ]

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

---

أى : لانفرد كل واحد من الإلهين ، بمخلوقاته ، واستقل بها ، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته .

[ ولعلا بعضهم على بعض ] فالغالب ، يكون هو الإله .

فمن التمانع ، لا يمكن وجود العالم ، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول .

واعتبر ذلك بالشمس والقمر ، والكواكب الثابتة ، والسيارة .

فإنها منذ خلقت ، وهى تجرى على نظام واحد ، وترتيب واحد ، كلها مسخرة بالقدرة ، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم ، ليست مقصورة على أحد دون أحد ، ولن ترى فيها خللا ، ولا تناقضاً ، ولا معارضة فى أدنى تصرف .

فهل يتصور أن يكون ذلك ، تقدير إلهين رَبَّيْنِ ؟ ! !

[ سبحان الله عما يصفون ] قد نطقت بلسان حالها ، وأفهمت ببديع أشكالها ، أن المدبر لها ، إله واحد ، كامل الأسماء والصفات ، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات ، فى ربوبيته لها ، وفى إلهيته لها .

فكما لا وجود لها ولا دوام ، إلا بربوبيته ، كذلك ، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة .

ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك ، وهو علمه المحيط فقال :

[ عالم الغيب ] أى : الذى غاب عن أبصارنا ، وعلمنا ، من الواجبات ، والمستحيلات ، والممكنات .

وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾

---

[ والشهادة ] وهو ما نشاهد من ذلك [ فتعالى ] أى : ارتفع وعظم .

[ عما يشركون ] به ، ولا علم عندهم ، إلا ما علمه الله .

* لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة ، فلم يلتفتوا إليها ، ولم يذعنوا لها ، حق عليهم العذاب ، ووعدوا بنزوله ، وأرشد الله رسوله أن يقول :

[ قل رب إما تريني ما يوعدون ] أى : أىّ وقت أريتنى عذابهم ، وأحضرتنى ذلك .

[ رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ] أى: اعصمنى وارحمنى، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنعم ، وارحمنى أيضا من العذاب الذى ينزل بهم ، لأن العقوبة العامة ، تعم - عند نزولها - العاصى وغيره .

قال الله في تقريب عذابهم : [وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون]

ولكن إن أخرناه فلحكمة ، وإلا ، فقدرتنا صالحة لإيقاعه .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾

* هذا من مكارم الأخلاق ، التى أمر الله رسوله بها فقال :

[ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ] أى : إذا أساء إليك أعداؤك ، بالقول والفعل ، فلا تقابلهم بالإساءة ، مع أنه يجوز معاقبة المسىء بمثل إساءته .

ولـكن ادفع إساءتهم إليك، بالإحسان منك إليهم ، فإن ذلك فضل منك على المسىء .

ومن مصالح ذلك ، أنه تخف الإساءة عنك ، فى الحال ، وفى المستقبل ، وأنه أدعى لجلب المسىء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه ، ورجوعه بالتوبة عما فعل .

ويتصف العافى بصـفة الإحسان ، ويقهر بذلك عدوه الشيطان ، ويستوجب الثواب من الرب قال تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» وقال تعالى « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة ، كأنه ولى حميم * وما يلقاها » أى ما يوفق لهذا الخلق الجميل « إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وقوله [ نحن أعلم بما يصفون ] أى : بما يقولون من الأقوال المتضمنة ، للـكفر ، والتـكذيب بالحق .

قد أحاط علمنا بذلك ، وقد حلمنا عنهم ، وأمهلناهم ، وصبرنا عليهم ، والحق لنا ، وتـكذيبهم لنا .

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

فأنت — يامحمد — ينبغى لك أن تصبر على ما يقولون ، وتقابلهم بالإحسان ؛ هذه وظيفة العبد فى مقابلة المسىء من البشر .

وأما المسىء من الشياطين ، فإنه لا يفيد فيه الإحسان . ولا يدعو حزبه ، إلا ليكونوا من أصحاب السعير .

فالوظيفة فى مقابلته ، أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال :

[وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ] .

أى : أعوذ بك من الشر ، الذى يصيبنى بسبب مباشرتهم ، وهمزهم ومسّهم .

ومن الشر ، الذى بسبب حضورهم ، ووسوستهم .

وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله .

ويدخل فيها ، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ، ومن مَسّه ووسوسته .

فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر ، وأجاب دعاءه ، سلم من كل شر ، ووفق لكل خير .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا
وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حال من حضره الموت ، من المفرطين الظالمين ، أنه يندم فى تلك الحال ، إذا رأى مآله ، وشاهد قبح أعماله .

فيطلب الرجعة إلى الدنيا ، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك ليقول :

[ لعلى أعمل صالحا فيما تركت ] من العمل ، وفرطت فى جنب الله .

[ كلا ] أى : لا رجعة له ولا إمهال ، قدقضى الله أنهم إليها لا يرجعون

[ إنها ] أى مقالته التى تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا [ كلمة هو قائلها ] أى : مجرد قول اللسان ، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم .

وهو أيضا غير صادق فى ذلك ، فإنه لو رُدَّ لَعَادَ لما نُهِيَ عنه .

[ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ] أى : من أمامهم وبين أيديهم ، برزخ ، وهو الحاجز بين الشيئين ، فهو هنا : الحاجز بين الدنيا والآخرة .

وفى هذا البرزخ ، يتنعم المطيعون ، ويعذب العاصون ، من ابتداء موتهم ، واستقرارهم فى قبورهم ، إلى يوم يبعثون .

أى : فَلْيُعِدوا له عُدَّته ، وليأخذوا له أُهْبَتَهُ .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ

---

* يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما فى ذلك ، من المزعجات ، والمقلقات .

وأنه إذا نفخ فى الصور ، نفخة البعث ، فحشر الناس أجمعون ، لميقات يوم معلوم ، أنه يصيبهم من الهول ، ما ينسيهم أنسابهم ، التى هى أقوى الأسباب ، فغير الأنساب ، من باب أولى .

وأنه لا يسأل أحد أحداً ، عن حاله ، لاشتغاله بنفسه .

فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها ؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها ؟ قال تعالى « يومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وفصيلته التى تؤويه » .

« فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وفى القيامة مواضع ، يشتد كربها ، ويعظم وقعها ، كالميزان الذى يميز به أعمال العبد ، وينظر فيه بالعدل ، ماله ، وما عليه ، وتبين فيه مثاقيل الذر ، من الخير والشر .

[ فمن ثقلت موازينه ] بأن رجحت حسناته على سيئاته [ فأولئك هم المفلحون ] لنجاتهم من النار ، واستحقاقهم الجنة ، وفوزهم بالثناء الجميل .

[ ومن خفت موازينه ] بأن رجحت سيئاته على حسناته ، وأحاطت بها خطيئاته .

أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا

---

[ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ] كل خسارة ، غير هذه الخسار ، فإنها — بالنسبة إليها — سهلة .

ولكن هذه خسارة صعبة ، لا يجبر مصابها ، ولا يستدرك فائتها .

خسارة أبدية ، وشقاوة سرمدية ، قد خسر نفسه الشريفة ، التى يتمكن بها من السعادة الأبدية ، ففوتها هذا النعيم المقيم ، فى جوار الرب الكريم.

[ فى جهنم خالدون ] لا يخرجون منها أبد الآبدين .

وهذا الوعيد ، إنما هو كما ذكرنا ، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته ، ولا يكون ذلك ، إلا كافرا .

فعلى هذا ، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ، فإنهم لا حسنات لهم .

ولكن تُعَدُّ أعمالهم ، وتحصى ، فيوقفون عليها ، ويقررون بها ، ويخزون بها .

وأما من معه أصل الإيمان ، ولكن عظمت سيئاته ، فرجحت على حسناته ، فإنه ، وإن دخل النار ، لا يخلد فيها ، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة .

ثم ذكر تعالى ، سوء مصير الكافرين فقال : [ تلفح وجوههم النار ] أى : تغشاهم من جميع جوانبهم ، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة ، ويتقطع لهبها عن وجوههم .

كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا
ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

---

[ وهم فيها كالحون ] قد عبست وجوههم ، وقلصت شفاههم ، من شدة ماهم فيه ، وعظيم ما يلقونه .

فيقال لهم — توبيخاولوماً :ـ [ ألم تكن آياتى تتلى عليكم ] تدعون بها ، لتؤمنوا ، وتعرض عليكم لتنظاروا .

[ فكنتم بها تكذبون ] ظلما منكم ، وعناداً ، وهى آيات بينات ، دالات على الحق والباطل ، مبينات للمحق والمبطل .

فحينئذ أقروا بظلمهم ، حيث لا ينفع الإقرار و[ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ] أى : غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق ، والإقبال على ما يضر ، وترك ما ينفع .

[ وكنا قوما ضالين ] فى عملهم ، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون .

أى فعلنا فى الدنيا ، فعل التائه ، الضال السفيه ، كما قالوا فى الآية الأخرى .

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

[ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ] وهم كاذبون فى وعدهم هذا ، فإنهم كما قال تعال « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ] .

ولم يُبْقِ الله لهم حجة ، بل قطع أعذارهم ، وعَمَّرَهُمْ فى الدنيا ، ما يتذكر فيه من تذكر ، ويرتدع فيه المجرم ، فقال الله جوابا لسؤالهم .

قَالَ ٱخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى
يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ

---

[ اخسأوا فيها ولا تكلمون ] وهذا القول — نسأله تعالى العافية — أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون فى التخييب ، والتوبيخ ، والذل ، والخسار ، والتأييس من كل خير ، والبشرى بكل شر .

وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم ، أشدعليهم وأبلغ فى نكايتهم من عذاب الجحيم .

ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب ، وقطعت عنهم الرحمة فقال :

[ إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ] فجمعوا بين الإيمان المقتضى لأعماله الصالحة ، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة ، والتوسل إليه بربوبيته ، ومنته عليهم بالإيمان ، والإخبار بسعة رحمته ، وعموم إحسانه .

وفى ضمنه ، ما يدل عل خضوعهم ، وخشوعهم ، وانكسارهم لربهم ، وخوفهم ورجائهم .

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم [ فاتخذتموهم ] أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام [ سخريا ] تهزءون بهم ، وتحتقرونهم ، حتى اشتغلتم بذكر السفه .

[ حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ] وهذا الذى أوجب لهم نسيان الذكر ، اشتغالهم بالاستهزاء بهم ، كما أن نسيانهم للذكر ، يحثهم على الاستهزاء .

تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾
قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

---

فكل من الأمرين يمد الآخر ، فهل فوق هذه الجرأة جرأة ؟!

[ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا ] على طاعتي ، وعلى أذاكم ، حتى وصلوا إلى .

[ أنهم هم الفائزون ] بالنعيم المقيم ، والنجاة من الجحيم ، كما قال فى الآية الأخرى « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » الآيات .

[ قال ] لهم على وجه اللوم ، وأنهم سفهاء الأحلام ، حيث اكتسبوا فى هذه المدة اليسيرة ، كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته ، ولم يكتسبوا ، ما اكتسبه المؤمنون من الخير ، الذى يوصلهم إلى السعادة الدائمة ، ورضوان ربهم .

[ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ] .

كلامهم هذا ، مبنىٌّ على استقصارهم جداً ، لمدة مكثهم فى الدنيا وأفاد ذلك ، لكنه لا يفيد مقداره ، ولا يعينه ، فلهذا قالوا : [ فاسأل العادين ] أى : الضابطين لعدده .

وأما هم ، فنى شغل شاغل ، وعذاب مذهل عن معرفة عدده ، فقال لهم [ إن لبثتم إلا قليلا ] سواء عينتم عدده ، أم لا [ لو أنكم كنتم تعلمون ]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

---

* أى [ أفحسبتم ] أيها الخلق [ أنما خلقناكم عبثا ] أى : سدى وباطلا ، تأكلون وتشربون ، وتمرحون ، وتتمتعون بلذات الدنيا ، ونترككم ، لا نأمركم ، ولا ننهاكم ، ولا نثيبكم ، ولا نعاقبكم ؟ ولهذا قال :

[ وأنكم إلينا لا ترجعون ] لا يخطر هذا ببالكم .

[ فتعالى الله ] أى : تعاظم ، وا تفع عن هذا الظن الباطل ، الذى يرجع إلى القدح فى حكمته .

[ الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم ] فكونه مَلِكاً للخلق كلهم حقًّا ، فى صدقه، ووعده ، ووعيده ، مألوفا معبوداً ، لما له من الكمال [ رب العرش العظيم ] فما دونه من باب أولى ، يمنع أن يخلقكم عبثاً .

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

---

* أى : ومن دعا مع الله آلهة غيره ، بلا بينة من أمره ، ولا برهان على ذلك ، يدل على ما ذهب إليه ، وهذا قيد ملازم .

فكل من دعا غير الله ، فليس له برهان على ذلك ، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه ، فأعرض عنها ظلما وعناداً .

فهذا سيقدم على ربه ، فيجازيه بأعماله ، ولا ينيله من الفلاح شيئاً ، لأنه كافر .

[ إنه لا يفلح الكافرون ] فكفرهم ، منعهم من الفلاح .

[ وقل ] داعياً لربك مخلصاً له الدين [ رب اغفر ] لنا حتى تنجينا من المكروه ، وارحمنا ، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير .

[ وأنت خير الراحمين ] فكل راحم للعبد ، فالله خير له منه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأرحم به من نفسه .

تم تفسير سورة المؤمنين ، بفضل الله وإحسانه

# تفسير

# سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾

---

* أى : هذه [ سورة ] عظيمة القدر [ أنزلناها ] رحمة منا بالعباد. وحفظناها من كل شيطان [ وفرضناها ] أى : قدرنا فيها ما قدرنا ، من الحدود والشهادات وغيرها .

[ وأنزلنا فيها آيات بينات ] أى : أحكاما جليلة ، وأوامر ، وزواجر وحكما عظيمة [ لعلكم تذكرون ] حين نبين لكم ، ونعلمكم مالم تكونوا تعلمون .

ثم شرع فى بيان تلك الأحكام ، المشار إليها ، فقال: [ الزانية والزانى] إلى [ من المؤمنين ] .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

---

* هذا الحكم ، فى الزانى والزانية البكرين ، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة .

وأما الثيب ، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة ، أن حده الرجم .

ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما ، فى دين الله ، تمنعنا من إقامة الحد عليهما ، سواء رأفة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك ، وأن الإيمان ، موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة ، من إقامة أمر الله .

فرحمته حقيقة ، بإقامة الحد عليه .

فنحن وإن رحمناه ، لجريان القدر عليه ، فلا نرحمه من هذا الجانب .

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين ، طائفة ، أو جماعة من المؤمنين ليشتهر ، ويحصل بذلك ، الخزى والارتداع ، وليشاهدوا الحد فعلا ، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل ، مما يقوى به العلم ، ويستقر به الفهم ، ويكون أقرب لإصابة الصواب ، فلا يزاد فيه ، ولا ينقص . والله أعلم .

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

* هذا بيان لرذيلة الزنا ، وأنه يدنس عرض صاحبه ، وعرض من قارنه ومازجه ، مالا يفعله بقية الذنوب .

فأخبر أن الزانى لا يقدم على نكاحه من النساء ، إلا أنثى زانية ، تناسب حاله حالها ، أو مشركة بالله ، لا تؤمن ببعث ولا جزاء ، ولا تلتزم أمر الله .

والزانية كذلك ، لا ينكحها إلا زان أو مشرك [ وحرم ذلك على المؤمنين ] أى : حرم عليهم أن ينكحوا زانيا ، أو ينكحوا زانية .

ومعنى الآية : أن من اتصف بالزنا ، من رجل أو امرأة ، ولم يتب من ذلك ، أن المقدم على نكاحه ، مع تحريم الله لذلك ، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزما لحكم الله ورسوله ، فذاك لا يكون إلا مشركا .

وإما أن يكون ملتزما لحكم الله ورسوله ، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه ، فإن هذا النكاح زنا ، والناكح زان مسافح .

فلو كان مؤمنا بالله حقا ، لم يقدم على ذلك .

وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية ، حتى تتوب ، وكذلك نكاح الزانى حتى يتوب .

فإن مقارنة الزوج لزوجته ، والزوجة لزوجها ، أشد الاقترانات ، والازدواجات .

وقد قال تعالى : « أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أى : قرناءهم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

فحرم الله ذلك ، لما فيه من الشر العظيم .

وفيه من قلة الغيرة ، وإلحاق الأولاد ، الذين ليسوا من الزوج ، وكون الزانى لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها ، مما بعضه كاف فى التحريم .

وفى هذا دليل،على أن الزانى ليس مؤمنا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فهو وإن لم يكن مشركا ، فلا يطلق عليه اسم المدح ، الذى هو الإيمان المطلق .

* لما عظم تعالى أمر الزانى بوجوب جلده وكذارجمه ، إن كان محصنا ، وأنه لا تجوز مقارنته ، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر ، بين تعالى ، تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمى بالزنا فقال :

[ والذين يرمون المحصنات ] أى : النساء الحرائر العفائف ، وكذلك الرجال ، لا فرق بين الأمرين .

والمراد بالرَّمْيِ الرَّمْيُ بالزنا ، بدليل السياق .

[ ثم لم يأتوا ] على ما رموا به [ بأربعة شهداء ] أى : رجال عدول ، يشهدون بذلك صريحاً .

[ فاجلدوهم ثمانين جلدة ] بسوط متوسط ، يؤلم فيه ، ولا يبالغ بذلك ، حتى يتلفه ، لأن القصد ، التأديب ، لا الإتلاف .

وفى هذا تقرير حد القذف .

ولكن بشرط ، أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنا مؤمنا .

هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

وأما قذف غير المحصن ، فإنه يوجب التعزير .

[ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ] أى : لهم عقوبة أخرى ، وهو أن شهادة القاذف ، غير مقبولة ، ولو حُدَّ على القذف ، حتى يتوب كما يأتى .

[ وأولئك هم الفاسقون ] أى : الخارجون عن طاعة الله ، الذين قد كثر شرهم .

وذلك لانتهاك ما حرم الله ، وانتهاك عرض أخيه ، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة الأخوة التى عقدها الله بين أهل الإيمان ، ومحبة أن تشيع الفاحشة ، فى الذين آمنوا .

وهذا دليل ، على أن القذف من كبائر الذنوب .

وقوله [ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ] فالتوبة فى هذا الموضع ، أن يكذب القاذف نفسه ، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه ، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه ، حيث لم يأت بأربعة شهداء .

فإذا تاب القاذف وأصلح عمله ، وبدل إساءته إحسانا ، زال عنه الفسق ، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح .

فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً ، لمن تاب وأناب .

وإنما يجلد القاذف ، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً .

فإن كان زوجاً ، فقد ذكر بقوله : [ والذين يرمون أزواجهم ] إلى [ تواب حكيم ] .

۞ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟

---

* وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته ، دارئة عنه الحد ، لأن الغالب ، أن الزوج لا يقدم على رَمْىِ زوجته ، التى يدنسه مايدنسها إلا إذا كان صادقا .

ولأن له فى ذلك حقا ، وخوفا من إلحاق أولاد ، ليسوا منه به ، ولغير ذلك من الحكم المفقودة فى غيره فقال :

[ والذين يرمون أزواجهم ] أى الحرائر لا المملوكات .

[ ولم يكن لهم ] على رميهم بذلك [ شهداء إلا أنفسهم ] بأن لم يقيموا شهداء ، على ما رموهن به [ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ] .

سماها شهادة ، لأنها نائبة مناب الشهود ، بأن يقول « أشهد بالله ، إنى لمن الصادقين ، فيما رميتها به » .

[ والخامسة أن لعنة الله عليه ، إن كان من الكاذبين ] أى : يزيد فى الخامسة مع الشهادة المذكورة ، مؤكداً تلك الشهادات ، بأن يدعو على نفسه ، باللعنة إن كان كاذباً .

فإذا تم لعانه ، سقط عنه حد القذف .

وظاهر الآيات ، ولو سمى الرجل الذى رماها به ، فإنه يسقط حقه ، تبعاً لها .

عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾
وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

---

وهل يقام عليها الحد ، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس ؟ فيه قولان للعلماء .

الذى يدل عليه الدليل ، أنه يقام عليه الحد بدليل قوله [ ويدرأ عنها العذاب أن تشهد ] إلى آخره .

فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه ، لم يكن لعانها دارئا له .

ويدرأ عنها ، أى : يدفع عنها العذاب ، إذا قابلت شهادات الزوج ، بشهادات من جنسها .

[ أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ] وتزيد فى الخامسة ، مؤكدة لذلك ، أن تدعو على نفسها بالغضب .

فإذا تم اللعان بينهما ، فرق بينهما إلى الأبد ، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان ، منه ومنها .

واشتراط الترتيب فيها ، وأن لا ينقص منها شىء ، ولا يبدل شىء بشىء .

وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته ، لا بالعكس وأن الشبه فى الولد مع اللعان لاعبرة به ، كما لا يعتبر مع الفراش .

وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح ، إلا هو .

[ ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ] وجواب

الشرط محذوف ، يدل عليه سياق الكلام أى : لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ، ما دعا به على نفسه .

ومن رحمته وفضله ، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين ، لشدة الحاجة إليه ، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته ، وفظاعة القذف به ، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها .

* لما ذكر فيما تقدم تعظيم ، الرَّمْى بالزنا عموما ، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة ، التى وقعت على أشرف النساء ، أم المؤمنين رضى الله عنها .

وهذه الآيات ، نزلت فى قصة الإفك المشهورة ، الثابتة فى الصحاح والسنن والمسانيد .

وحاصلها أن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بعض غزواته ،ومعه زوجته عائشة الصديقة ، بنت الصديق .

فانقطع عقدها فانحبست فى طلبه ورحلوا جملها وهودجها ، فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلا ، وجاءت مكانهم ، وعلمت أنهم إذا فقدوها ، رجعوا إليها فاستمروا فى مسيرهم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى ، من أفاضل الصحابة رضى الله عنه ، قد عَرَّس فى أخريات القوم ، ونام .

فرأى عائشة رضى الله عنها ، فعرفها ، فأناخ راحلته ،فركبتهامن دون أن يكلمها أو تكلمه ، ثم جاء يقود بها ، بعد ما نزل الجيش فى الظهيرة .

فلما رأى بعض المنافقين ، الذين فى صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك السفر ، مجىء صفوان بها فى هذه الحال أشاع ما أشاع ، وفشا

شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ

الحديث ، وتلقفته الألسن ، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين ، وصاروا يتناقلون هذا الكلام ، وانحبس الوحى مدة طويلة عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة ، فحزنت حزنا شديدا .

فأنزل الله براءتها فى هذه الآيات .

ووعظ الله المؤمنين ، وأعظم ذلك ، ووصاهم بالوصايا النافعة

فقوله تعالى : [ إن الذين جاءوا بالإفك ] أى : الكذب الشنيع ، وهو رَمْىُ أم المؤمنين [ عصبة منكم ] أى : جماعة منتسبون إليكم يامعشر المؤمنين ، منهم المؤمن الصادق فى إيمانه ، لكنه اغتر بترويج المنافقين ، ومنهم المنافق .

[ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ] لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها ، والتنويه بذكرها ، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد ، التى ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم ، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك .

وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً ، ولذلك جعل الخطاب عاما مع المؤمنين كلهم .

وأخبر أن قدح بعضهم ببعض ، كقدح فى أنفسهم .

مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ

---

ففيه أن المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، واجتماعهم على مصالحهم ، كالجسد الواحد ، والمؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

فكما أنه يكره أن يقدح أحد فى عرضه ، فليكره من كل أحد ، أن يقدح فى أخيه المؤمن ، الذى بمنزلة نفسه ، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة ، فإنه من نقص إيمانه ، وعدم نصحه .

[ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ] وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك ، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك ، وقدحد النبى صلى الله عليه وسلم منهم جماعة .

[ والذى تولى كبره ] أى : معظم الإفك ، وهو المنافق الخبيث ، عبدالله بن أُبَىٍّ ، ابن سلول ، لعنه الله [ له عذاب عظيم ] ألا وهو الخلود فى الدرك الأسفل من النار .

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال :

[ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ] أى : ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً ، وهو السلام مما رموا به ، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم ، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل .

[ وقالوا ] بسبب ذلك الظن [ سبحانك ] أى : تنزيها لك من كل سوء ، وعن أن تبتلى أصفياءك بالأمور الشنيعة .

إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟
بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم

---

[ هذا إفك مبين ] أى : كذب وبهت ، من أعظم الأشياء ، وأبينها.

فهذا من الظن الواجب ، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن ، مثل هذا الكلام ، أن يبرئه بلسانه ، ويكذب القائل لذلك .

[ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ] أى : هلا جاء الرامون على ما رموا به ، بأربعة شهداء أى : عدول مرضيين .

[ فإذ لم يؤتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ] وإن كانوا فى أنفسهم قد تيقنوا ذلك ، فإنهم كاذبون فى حكم الله ، لأنه حرم عليهم التكلم بذلك ، من دون أربعة شهود .

ولهذا قال : [ فأولئك عندالله هم الكاذبون ] ، ولم يقل « فأولئك هم الكاذبون » .

وهذا كله ، من تعظيم حرمة عرض المسلم ، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه ، من دون نصاب الشهادة بالصدق .

[ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ] بحيث شملكم إحسانه فيهما ، فى أمر دينكم ودنياكم .

[ لمسكم فيما أفضتم ] أى : خضتم [ فيه ] من شأن الإفك [ عذاب عظيم ] لاستحقاقكم ذلك بما قلتم .

مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ

---

ولكن من فضل الله عليكم ورحمته ، أن شرع لكم التوبة ، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب .

[ إذ تلقونه بألسنتكم ] أى : تتلقفونه ، ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه ، وهو قول باطل .

[ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ] والأمران محظوران ، التكلم بالباطل ، والقول بلا علم .

[ وتحسبونه هينا ] فلذلك أقدم عليه ، من أقدم ، من المؤمنين ، الذين تابوا منه ، وتطهروا بعد ذلك .

[وهو عند الله عظيم ] وهذا فيه الزجر البليغ ، عن تعاطى بعض الذنوب على وجه التهاون بها .

فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئا ، ولا يخفف من عقوبته ، الذنب .

بل يضاعف الذنب ، ويسهل عليه مواقعته ، مرة أخرى .

[ لولا إذ سمعتموه ] أى : وهلا إذ سمعتم — أيها المؤمنون — كلام أهل الإفك .

[ قلتم ] منكرين لذلك ، معظمين لأمره : [ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ] أى : ما ينبغى لنا ، وما يليق بنا الكلام ، بهذا الإفك المبين ،

هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

---

لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح [ هذا بهتان ] أي كذب عظيم(١) .

[ يعظكم الله أن تعودوا لمثله ] أى : لنظيره ، من رَمْيِ المؤمنين بالفجور .

فالله يعظكم ، وينصحكم عن ذلك ، ونعم المواعظ والنصائح ، من ربنا فيجب علينا مقابلتها ، بالقبول والإذعان ، والتسليم والشكر له ، على ما بَيَّن لنا « إن الله نعما يعظكم به » .

[ إن كنتم مؤمنين ] دل ذلك على أن الإيمان الصادق ، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات .

[ ويبين الله لكم الآيات ] المشتملة ، على بيان الأحكام ، والوعظ ،

---

( ١ ) أى لما يترتب عليه من إلحاق الأذى بالناس ، الذى يفضى إلى إفساد المجتمع .

والله نهى المؤمنين أن يؤذوا ، بعضهم بعضاً .

فإذا عمد المرء فى إلحاق الأذى بالناس ، يكون قد خالف ربه ، وهذه المخالفة عليها عقاب مخالفة الأمر الإلهى ، وعقاب آخر وهو أذى الناس .

فيكون عذابه مزدوجا ، ولذلك وصف الله هذه الجريمة بأنها عظيمة فى قوله (وهو عند الله عظيم) وحذرنا من ارتكابها بقوله [ يعظكم الله أن تعودوا لمثله إن كنتم مؤمنين ] ومفهوم هذا الكلام أن مخالفه ، خرج من الإيمان

حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ

---

والزجر ، والترغيب ، والترهيب ، يوضحها لكم توضيحا جليا .

[ والله عليم ] أى : كامل العلم [ حكيم ] عام الحكمة .

فمن علمه وحكمته ، أن علمكم من علمه ، وإن كان ذلك ، راجعاً لمصالحكم فى كل وقت .

[ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ] أى : الأمور الشنيعة المستقبحة ، فيحبون أن تشتهر الفاحشة [ فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ] أى : موجع للقلب والبدن ، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين ، ومحبة الشر لهم ، وجراءته على أعراضهم .

فإذا كان هذا الوعيد ، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة ، واستحلاء ذلك بالقلب ، فكيف بما هو أعظم من ذلك ، من إظهاره ، ونقله ؟!! وسواء كانت الفاحشة ، صادرة ، أو غير صادرة .

وكل هذا ، من رحمة الله لعباده المؤمنين ، وصيانة أعراضهم ، كما صان دماءهم وأموالهم ، وأمرهم بما يقتضى المصافاة ، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ، ما يكره لنفسه .

[ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ] فلذلك علمكم ، وبيّن لكم ما تجهلونه .

[ ولولا فضل الله عليكم ] قد أحاط بكم من كل جانب [ ورحمته

رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا

---

وأن الله رءوف رحيم ] لَمَا بين لكم هذه الأحكام والمواعظ ، والحكم الجليلة ، ولما أمهل من خالف أمره .

ولكن فضله ورحمته ، وأن ذلك وصفه اللازم آثر لكم من الخير الدنيوى والأخروى ، ما لن تحصوه ، أو تعدوه .

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه ، نهى عن الذنوب عموما فقال :

[ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ] أى طرقه ووساوسه .

وخطوات الشيطان ، يدخل فيها سائر المعاصى المتعلقة بالقلب ، واللسان والبدن .

ومن حكمته تعالى ، أن بين الحكم ، وهو : النَّهْىُ عن اتباع خطوات الشيطان .

والحكمة وهو بيان ما فى المنهى عنه ، من الشر المقتضى ، والداعى لتركه فقال : [ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه ] أى : الشيطان [ يأمر بالفحشاء ] أى : ما تستفحشه العقول والشرائع ، من الذنوب العظيمة ، مع ميل بعض النفوس إليه .

[ والمنكر ] وهو : ما تنكره العقول ولا تعرفه .

فالمعاصى التى هى خطوات الشيطان ، لا تخرج عن ذلك .

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ

---

فنهى الله عنها العباد ، نعمة منه عليهم ، أن يشكروه ويذكروه ، لأن ذلك ، صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح .

فمن إحسانه عليهم ، أن نهاهم عنها ، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها .

[ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ] أى : ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان ، لأن الشيطان يسعى ، هو وجنده ، فى الدعوة إليها وتحسينها ، والنفس ميالة إلى السوء ، أمارة به ، والنقص مُسْتَوْل على العبد ، من جميع جهاته ، والإيمان غير قوى .

فلو خُلِّيَ وهذه الدواعى ، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب ، والسيئات ، والنماء بفعل الحسنات ، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء .

ولكن فضله ورحمته أوجبا ، أن يتزكى منكم ، من تزكى .

وكان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » ولهذا قال :

[ ولكن الله نزكى من يشاء ] من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية ، ولهذا قال : [ والله سميع عليم ] .

[ ولا يأتل ] أى : لا يحلف [ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ] .

كان من جملة الخائضين فى الإفك « مِسْطح بن أثاثة » وهو قريب

أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ

---

لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان مسطح فقيرا من المهاجرين فى سبيل الله .

فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، لقوله الذى قال .

فنزلت هذه الآية ، ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه ، ويحثه على العفو والصفح ، ويعده بمغفرة الله ، إن غفر له فقال :

[ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ] إذا عاملتم عبيده ، بالعفو والصفح ، عاملكم بذلك ، فقال أبو بكر — لما سمع هذه الآية — : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع النفقة إلى مسطح .

وفى هذه الآية دليل على النفقة على القريب ، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان ، والحث على العفو والصفح ، ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم .

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمى المحصنات فقال :

[ إن الذين يرمون المحصنات ] أى : العفائف عن الفجور [الغافلات] اللاتى لم يخطر ذلك بقلوبهن [ المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ] واللعنة ، لا تكون إلا على ذنب كبير.

ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ

---

وأكد[1] اللعنة بأنها متواصلة عليهم فى الدارين .

[ولهم عذاب عظيم] وهذا زيادة على اللعنة ، أبعدهم عن رحمته ، وأحل بهم شدة نقمته .

وذلك العذاب يوم القيامة [ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ] فكل جارحة تشهد عليه بما عملته ، ينطقها الذى أنطق كل شىء ، فلا يمكنه الإنكار .

ولقد عدل فى العباد ، من جعل شهودهم من أنفسهم .

[ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ] أى : جزاءهم على أعمالهم ، الجزاء الحق ، الذي بالعدل والقسط ، يجدون جزاءها موفراً ، لم يفقدوا منها شيئاً .

« ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

ويعلمون فى ذلك الموقف العظيم ، أن الله هو الحق المبين فيعلمون انحصار الحق المبين فى الله تعالى .

---

(١) قوله « وأكد . إلخ » توضيحه أن يقال : إن اللعنة من الناس متواصلة على القاذفين للمحصنات الموصوفات بالآية . وبإقامة الحد عليهم فى الدنيا ، وبالعذاب العظيم فى الآخرة .

أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ

---

فأوصافه العظيمة حق ، وأفعاله هى الحق ، وعبادته هى الحق ، ولقاؤه حق ،ووعيده حق ، وحكمه الدينى والجزائى حق ، ورسله حق ،فلا ثمَّ حق، إلا فى الله ، وما من الله .

[ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ] أى : كل خبيث من الرجال والنساء ، والكلمات والأفعال ، مناسب للخبيث ، وموافق له ، ومقترن به ، ومشاكل له .

وكل طيب من الرجال والنساء ، والكلمات ، والأفعال ، مناسب للطيب ، وموافق له ، ومقترن به ، ومشاكل له .

فهذه كلمة عامة وحصر ، لا يخرج منه شىء ، من أعظم مفرداته ، أن الأنبياء ، خصوصا أولى العزم منهم ، خصوصا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أفضل الطيبين من الخلق ، على الإطلاق ،لايناسبهم إلا كل طيب من النساء .

فالقدح فى عائشة رضى الله عنها بهذا الأمر ، قدح فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو المقصود بهذا الإفك ، من قصد المنافقين .

فمجرد كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة ، من هذا الأمر القبيح .

فكيف وهى ما هى ؟ ! ! صِدِّيقَةُ النساء ، وأفضلهن ، وأعلمهن ، وأطيبهن ، حبيبة رسول رب العالمين ، التى لم ينزل الوحى عليه ، وهو فى لحاف زوجة من زوجاته ، غيرها ؟!! .

مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ
حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا فقال:

[ أولئك مبرءون مما يقولون ] والإشارة إلى عائشة رضى الله عنها أصلا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات، تبعاً لها.

[ لهم مغفرة ] تستغرق الذنوب [ ورزق كريم ] فى الجنة صادر من الرب الكريم.

* يرشد البارى عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان.

فإن فى ذلك عدة مفاسد:

منها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر ».

فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات، التى داخل البيوت. فإن البيت للإنسان، فى ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب فى ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك، يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر، سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر.

ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم [ حتى تستأنسوا ] أى: تستأذنوا.

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ
لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ

---

سمى الاستئذان استئناساً ، لأن به يحصل الاستئناس ، وبعدمه تحصل الوحشة .

[ وتسلموا على أهلها ] .

وصفة ذلك ، ما جاء فى الحديث « السلام عليكم ، أأدخل » ؟ .

[ذلكم] أى الاستئذان المذكور [خير لكم لعلكم تذكرون » لاشتماله على عدة مصالح ، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة ، فإن أذن ، دخل المستأذن .

[ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ] أى : فلا تمتنعوا من الرجوع ، ولا تغضبوا منه .

فإن صاحب المنزل ، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم ، وإنما هو متبرع ، فإن شاء أذن ، أو منع .

فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز ، من هذه الحال .

[ هو أزكى لكم ] أى : أشد لتطهيركم من السيئات ، وتنميتكم بالحسنات .

[ والله بما تعملون عليم ] فيجازى كل عامل بعمله ، من كثرة وقلة ، وحسن ، وعدمه .

هذا الحكم ، فى البيوت المسكونة ، سواء كان فيها متاع للإنسان ،

بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

---

أم لا ، وفى البيوت غير المسكونة ، التى لا متاع فيها للإنسان .

وأما البيوت التى ليس فيها أهلها ، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه ، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه ، وذلك كبيوت الكراء وغيرها ، فقد ذكرها بقوله :

[ ليس عليكم جناح ] أى : حرج وإثم ، دل على أن الدخول من غير استئذان فى البيوت السابقة ، أنه محرم ، وفيه حرج [ أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ] وهذا من احترازات القرآن العجيبة ، فإن قوله [ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ] لفظ عام فى كل بيت ليس ملكا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التى ليست ملكه ، وفيها متاعه ، وليس فيها مساكن ، فأسقط الحرج فى الدخول إليها .

[ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ] أحوالكم الظاهرة والخفية ، وعلم مصالحكم ، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية .

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

* أى: أرْشِدِ المؤمنين، وقل لهم، الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: [ يغضوا من أبصارهم ] عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيات، وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التى تفتن، وتوقع فى المحذور.

[ ويحفظوا فروجهم ] عن الوطء الحرام، فى قُبُلٍ أو دُبُرٍ، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها.

[ ذلك ] الحفظ للأبصار والفروج [ أزكى لهم ] أطهر، وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذى يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذى تطمع إليه النفس وتدعو إليه.

فمن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيرا منه، ومن غض بصره، أنار الله بصيرته

ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع دواعى الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظا.

فالشىء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه فى مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ.

كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد فى حفظهما، أوقعاه فى بلايا ومحن.

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ

---

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقا ، لأنه لا يباح فى حالة من الأحوال وأما البصر فقال : [ يغضوا من أبصارهم ] بأداة « من » الدالة على التبعيض .

فإنه يجوز النظر فى بعض الأحوال ، لحاجة كنظر الشاهد والعامل والخاطب ، ونحو ذلك .

ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ، ليجتهدوا فى حفظ أنفسهم من المحرمات .

* لما أمر المؤمنين بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، أمر المؤمنات بذلك فقال :

[ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ] عن النظر إلى العورات والرجال ، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع .

[ ويحفظن فروجهن ] من التمكين من جماعهن ، أو مسهن ، أو النظر المحرم إليهن .

[ ولا يبدين زينتهن ] كالثياب الجميلة والحلى ، وجميع البدن كله من الزينة .

ولما كانت الثياب الظاهرة ، لا بد لها منها قال : [ إلا ما ظهر منها ] أى الثياب الظاهرة ، التى جرت العادة بلبسها إذا لم يكن فى ذلك ، مايدعو إلى الفتنة بها .

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ
غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ

---

[ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ] وهذا لكمال الاستتار .

ويدل ذلك ، على أن الزينة التي يحرم إبداؤها ، يدخل فيها جميع البدن ، كما ذكرنا .

ثم كرر النهى عن إبداء زينتهن ، ليستثنى منه قوله : [ إلا لبعولتهن ] أى : أزواجهن [ أو آبائهن أو آباء بعولتهن ] يشمل الأب بنفسه ، والجد ، وإن علا .

[ أو إخوانهن أو بنى إخوانهن ] أشقاء ، أو لأب ، أو لأم .

[ أو بنى أخواتهن أو نسائهن ] أى : يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقا .

ويحتمل أن الإضافة ، تقتضى الجنسية ، أى : النساء المسلمات ، اللاتى من جنسكن .

ففيه دليل لمن قال : إن المسلمة ، لا يجوز أن تنظر إليها الذمية .

[ أو ما ملكت أيمانهن ] فيجوز للمملوك ، إذا كان كله للأنثى ، أن ينظر لسيدته ، ما دامت مالكة له كله ، فإذا زال الملك أو بعضه ، لم يجز النظر .

[ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ] أى : والذين يتبعونكم ، ويتعلقون بكم ، من الرجال ، الذين لا إربة لهم ، فى هذه الشهوة

عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ

كالمعتوه[1] الذى لا يدرى ما هنالك ، كالعِنِّين[2] الذى لم يبق له شهوة ، لا فى فرجه ، ولا فى قلبه ، فإن هذا ، لا محذور من نظره .

[ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ] أى : الأطفال الذين دون التمييز ، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب .

وعلل تعالى ذلك ، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء ، أى : ليس لهم علم بذلك ، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد .

ودل هذا ، أن المميز تستتر منه المرأة ، لأنه يظهر على عورات النساء .

[ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ] أى : لا يضربن الأرض بأرجلهن ، لِيُصوِّت ما عليهن من حُلِيٍّ ، كخلاخل وغيرها ، فتعلم زينتها بسببه ، فيكون وسيلة إلى الفتنة .

---

( ١ ) المعتوه : الناقص العقل . اهـ . من المختار من الصحاح .
وقال فى المصباح : عَتِهَ عَتَهاً من باب « تعب » نقص عقله من غير جنون وفى التهذيب « المعتوه : المدهوش من غير مس أو جنون . ا هـ » .

( ٢ ) العِنّين : هو الذى لا يقدر على إتيان النساء ، أو لا يشتهى النساء ، وامرأة عنينة : لا تشتهى الرجال اهـ مصباح .

وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

ويؤخذ من هذا ونحوه ، قاعدة سد الوسائل (١) وأن الأمر إذا كان مباحاً ، ولكنه يفضى إلى محرم ، أو يخاف من وقوعه ، فإنه يمنع منه .

فالضرب بالرجل فى الأرض ، الأصل أنه مباح ، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة ، منع منه .

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة ، ووصى بالوصايا المستحسنة ، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك — أمر الله تعالى بالتوبة فقال :

[ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون ] ثم علق على ذلك ، الفلاح فقال :

[ لعلكم تفلحون ] فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة ، وهى الرجوع مما يكرهه الله ، ظاهراً وباطنا ، إلى : ما يحبه ظاهراً وباطنا .

ودل هذا ، أن كل مؤمن ، محتاج إلى التوبة ، لأن الله خاطب المؤمنين جميعا .

وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة ، فى قوله [ وتوبوا إلى الله ] .

أى : لا لمقصد غير وجهه ، من سلامة ، من آفات الدنيا ، أو رياء ، وسمعة ، أو نحو ذلك ، من المقاصد الفاسدة .

---

( ١ ) قوله : « سد الوسائل » الصواب أن يقال « سد الذرائع » كما هو المشهور على ألسنة العلماء .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

---

* يأمر تعالى الأولياء والأسياد ، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم : من لا أزواج لهم ، من رجال ، ونساء ثيبات ، وأبكار .

فيجب على القريب ، وولى اليتيم ، أن يزوج من يحتاج للزواج ، ممن تجب نفقته عليه .

وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم ، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم ، من باب أولى .

[ والصالحين من عبادكم وإمائكم ] يحتمل أن المراد بالصالحين ، صلاح الدين ، وأن الصالح من العبيد والإماء ، وهو الذى لا يكون فاجراً زانيا ، مأمور سيده بإنكاحه ، جزاء له على صلاحه ، وترغيبا له فيه .

ولأن الفاسد بالزنا ، منهىٌّ عن تزوجه ، فيكون مؤيدا للمذكور فى أول السورة ، أن نكاح الزانى والزانية ، محرم ، حتى يتوب .

ويكون التخصيص بالصلاح فى العبيد والإماء ، دون الأحرار ، لكثرة وجود ذلك فى العبيد عادة .

ويحتمل أن المراد بالصالحين ، الصالحون للتزوج المحتاجون إليه ، من العبيد والإماء .

يؤيد هذا المعنى ، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه ، قبل حاجته إلى الزواج .

ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما ، والله أعلم .

وقوله : [ إن يكونوا فقراء ] أى : الأزواج والمتزوجين [ يغنهم الله

عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ

من فضله ] فلا يمنعكم ما تتوهمون ، من أنه إذا تزوج ، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه .

وفيه حث على التزوج ، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر .

[ والله واسع ] كثير الخير عظيم الفضل [ عليم ] بمن يستحق فضله الدينى والدنيوى ، أو أحدهما ، ممن لا يستحق ، فيعطى كُلاًّ ، ما علمه واقتضاه حكمه .

[ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ] هذا حكم العاجز عن النكاح ، أمره الله أن يستعفف ، أى : أن يكف عن المحرم ، ويفعل الأسباب التى تكفه عنه ، من صرف دواعى قلبه ، بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه .

ويفعل أيضا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وقوله [ الذين لا يجدون نكاحا ] أى : لا يقدرون نكاحا[1] إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم ، أو امتناعهم من تزويجهم ، وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك .

وهذا التقدير ، أحسن من تقدير من قد « لا يجدون مهر نكاح » .

---

( ١ ) قوله « لا يقدرون نكاحا » الصواب أن يقال « لا يقدرون على النكاح لأن فعل « قدر » لا يتعدى بنفسه بل بحرف الجر « على » فيقال « قدر عليه » ولا يقال « قدره » .

مِن فَضْلِهِ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

---

وجعلوا المضاف إليه نائبا مناب المضاف ، فإن في ذلك محذورين .

أحدهما : الحذف فى الكلام ، والأصل ، عدم الحذف .

والثانى كون المعنى قاصراً على من له حالتان ، حالة غنى بماله ، وحالة عدم .

فيخرج العبيد والإماء ، ومن إنكاحه على وليه ، كما ذكرنا .

[حتى يغنيهم الله من فضله] وعد للمستعفف أن الله سيغنيه ، وييسر له أمره ، وأمر له بانتظار الفرج ، لئلا يشق عليه ما هو فيه .

وقوله [ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً ] .

أى : من ابتغى وطلب منكم الكتابة ، وأن يشترى نفسه ، من عبيد وإماء ، فأجيبوه إلى ما طلب ، وكاتبوه .

[ إن علمتم فيهم ] أى فى الطالبين للكتابة [ خيرا ] أى : قدرة على التكسب ، وصلاحا فى دينه .

لأن فى الكتابة ، تحصيل المصلحتين ، مصلحة العتق والحرية ، ومصلحة العوض ، الذى يبذله في فداء نفسه .

وربما جد واجتهد ، وأدرك لسيده فى مدة الكتابة من المال ، ما لا يحصل عليه فى رقه .

ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

فلا يكون ضرر على السيد فى كتابته ، مع حصول عظيم المنفعة للعبد .

فلذلك أمر الله بالكتابة ، على هذا الوجه ، أمر إيجاب ، كما هو الظاهر ، أو أمر استحباب على القول الآخر .

وأمر بمعاونتهم على كتابتهم ، لكونهم محتاجين لذلك ، بسبب أنهم لا مال لهم فقال :

[ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ] يدخل فى ذلك أمر سيده ، الذى كاتبه ، أن يعطيه من كتابته ، أو يسقط عنه منها ، وأمر الناس بمعونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطا من الزكاة ، ورغب فى إعطائه بقوله : [ من مال الله الذى آتاكم ] أى : فكما أن المال مال الله ، وإنما الذى بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه ، فأحسنوا لعباد الله ، كما أحسن الله إليكم .

ومفهوم الآية الكريمة ، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة ، لا يؤمر سيده ، أن يبتدىء بكتابته ، وأنه إذا لم يعلم منه خيرا ، بأن علم منه عكسه ، إما أنه يعلم أنه لا كسب له ، فيكون بسبب ذلك كَلاًّ على الناس ، ضائعا .

وإما أن يخاف إذا أعتق ، وصار فى حرية نفسه ، أن يتمكن من الفساد ، فهذا لا يؤمر بكتابته ، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور .

ثم قال تعالى : [ ولا تكرهوا فتياتكم ] أى : إماءكم [ على البغاء ] أى : أن تكون زانية [ إن أردن تحصنا ] لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال .

لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

---

وأما إذا لم ترد تحصنا فإنها تكون بغياً ، يجب على سيدها ، منعها من ذلك .

وإنما نهى عن هذا لما كانوا يستعملونه فى الجاهلية ، من كون السيد يجبر أمته على البغاء ، ليأخذ منها أجرة ذلك ، ولهذا قال :

[ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ] فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم ، خيراً منكم ، وأعف عن الزنا ، وأنتم تفعلون بهن ذلك ، لأجل عرض الحياة ، متاع قليل يعرض ، ثم يزول .

فكسبكم النزاهة ، والنظافة ، والمروءة — بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها — أفضل من كسبكم العرض القليل ، الذى يكسبكم الرذالة والخسة .

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال : [ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ] فَلْيَتُبْ إلى الله ولْيُقْلِعْ عما صدر منه ، مما يغضبه .

فإذا فعل ذلك ، غفر الله ذنوبه ، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب ، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ

---

هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات ، تلاها على عباده ، ليعرفوا قدرها ، ويقوموا بحقها فقال : [ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ] .

أى : واضحات الدلالة ، على كل أمر تحتاجون إليه ، من الأصول والفروع ، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولاشبهة .

[ و ] أنزلنا إليكم أيضاً [ مثلا من الذين خلوا من قبلكم ] من أخبار الأولين ، الصالح منهم والطالح ، وصفة أعمالهم ، وماجرى لهم ، وجرى عليهم تعتبرونه مثالا ومعتبرا ، لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا .

[ وموعظة للمتقين ] أى : وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين ، من الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، يتعظ بها المتقون ، فيكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله .

* [ الله نور السموات والأرض ] الحسى والمعنوى .

وذلك أنه تعالى بذاته ، نور ، وحجابه نور ، الذى لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وبه استنار العرش ، والكرسى ، والشمس ، والقمر والنور ، وبه استنارت الجنة .

وكذلك المنوى ، يرجع إلى الله ، فكتابه نور ، وشرعه نور ، والإيمان

فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

---

والمعرفة فى قلوب رسله وعباده المؤمنين ، نور .

فلولا نوره تعالى ، لتراكمت الظلمات ، ولهذا ، كل محل ، يفقد نوره فَثَمّ الظلمة والحصر

[ مثل نوره ] الذى يهدى إليه ، وهو نور الإيمان والقرآن فى قلوب المؤمنين .

[ كمشكاة ] أى : كوة [ فيها مصباح ] لأن الكوة ، تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق .

ذلك [ المصباح فى زجاجة الزجاجة ] من صفائها وبهائها [ كأنها كوكب دري ] أى : مضىء إضاءة الدر .

[ يوقد ] ذلك المصباح ، الذى فى تلك الزجاجة الدرية [ من شجرة مباركة زيتونة ] أى : يوقد من زيت الزيتون الذى ناره ، من أنور ما يكون .

[ لاشرقية ] فقط ، فلا تصيبها الشمس ، آخر النهار .

[ ولا غربية ] فقط ، فلا تصيبها الشمس ، أول النهار .

وإذا انتفى عنها الأمران ، كانت متوسطة من الأرض .
كزيتون الشام ، تصيبه الشمس أول النهار وآخره ، فيحسن ويطيب ، ويكون أصفى لزيتها ، ولهذا قال :

زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

---

[ يكاد زيتها ] من صفائه [ يضىء ولو لم تمسسه نار ] فإذا مسته النار ، أضاء إضاءة بليغة [ نور على نور ] أى : نور النار ، ونور الزيت .

ووجه هذا المثل ، الذى ضرب به الله ، وتطبيقه على حالة المؤمن ، ونور الله فى قلبه ، أن فطرته التى فطر عليها ، بمنزلة الزيت الصافى .

ففطرته صافية ، مستعدة للتعاليم الإلهية ، والعمل المشروع .

فإذا وصل إليه العلم والإيمان ، اشتعل ذلك النور فى قلبه ، بمنزلة إشعال النار ، فتيلة ذلك المصباح ، وهو صافى القلب ، من سوء القصد ، وسوء الفهم عن الله .

إذا وصل إليه الإيمان ، أضاء إضاءة عظيمة ، لصفائه من الكدورات .

وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية ، فيجتمع له ، نور الفطرة ، ونور الإيمان ، ونور العلم ، وصفاء المعرفة ، نور على نوره .

ولما كان هذا من نور الله تعالى ، وليس كل أحد يصلح له ذلك قال :

[ يهدى الله لنوره من يشاء ] ممن يعلم زكاءه وطهارته ، وأنه يزكى معه ، وينمى .

[ ويضرب الله الأمثال للناس ] ليعقلوا عنه ، ويفهموا ، لطفا منه

عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ

---

بهم ، وإحسانا إليهم وليتضح الحق من الباطل ، فإن الأمثال تقرب المعانى المعقولة من المحسوسة ، فيعلمها العباد علما واضحا .

[ والله بكل شيء عليم ] فعلمه محيط بجميع الأشياء .

فَلْتَعْلَمُوا أن ضَرْبَه الأمثال، ضَرْبُ من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد .

فَلْيَكُنِ اشتغالكم بِتَدَبُّرِها وتعقُّلها ، لابالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها فإنه يعلم ، وأنتم لا تعلمون .

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه فى المساجد ، ذكرها منوها بها فقال : [ فى بيوت أذن الله ] إلى [ بغير حساب ] .

* أى : يتعبد لله [ في بيوت ] عظيمة فاضلة ، هى أحب البقاع إليه ، وهى : المساجد .

[ أذن الله ] أى : أمر ووصى [ أن ترفع ويذكر فيها اسمه ] هذان مجموع أحكام المساجد .

فيدخل فى رفعها ، بناؤها ، وكنسها وتنظيفها من النجاسات والأذى وصونها من المجانين والصبيان ، الذين لايتحرزون عن النجاسات ، وعن الكافر ، وأن تصان عن اللغو فيها ، ورفع الأصوات بغير ذكر الله .

[ ويذكر فيها اسمه ] يدخل فى ذلك ، الصلاة كلها ، فرضها ، ونفلها ، وقراءة القرآن ، والتسبيح، والتهليل ، وغيره من أنواع الذكر ، وتعلُّم العلم

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ

---

وتعليمه ، والمذاكرة فيها ، والاعتكاف ، وغير ذلك من العبادات ، التى تفعل فى المساجد ، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين :

عمارة بنيان ، وصيانة لها ، وعمارة بذكر اسم الله ، من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين .

ولهذا شرعت الصلوات الخمس ، والجمعة ، فى المساجد ، وجوباً عند أكثر العلماء ، واستحبابا عند آخرين .

ثم مدح تعالى، عُمَّارَهَا بالعبادة فقال : [ يسبح له فيها ] إخلاصاً [بالغدو] أول النهار [ والآصال ] آخره [ رجال ] .

خص هذين الوقتين ، لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله ، وسهولته .

ويدخل فى ذلك ، التسبيح فى الصلاة وغيرها ، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء ، وأورادهما عند الصباح والمساء .

أى : يسبح فيها الله ، رجال ، وأى رجال ، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ، ذات لذات ، ولا تجارة ومكاسب ، مشغلة عنه .

[ لا تلهيهم تجارة ] وهذا يشمل كل تكسُّب يقصده به العوض ، فيكون قوله :

أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ

---

[ ولا بيع ] من باب عطف الخاص على العام ، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره .

فهؤلاء الرجال ، وإن اتجروا ، وباعوا ، واشتروا ، فإن ذلك ، لا محذور فيه .

لكنه لاتلهيم تلك ، بأن يقدموها ويؤثروها على [ ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ] بل جعلوا طاعة الله وعبادته ، غاية مرادهم ، ونهاية مقصدهم .

فما حال بينهم وبينها ، رفضوه .

ولما كان ترك الدنيا ، شديداً على أكثر النفوس ، وحب المكاسب بأنواع التجارات ، محبوباً لها ، ويشق عليها تركه فى الغالب ، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك ، ذكر مايدعوها إلى ذلك ، ترغيبا وترهيبا — فقال :

[ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ] من شدة هوله وإزعاجه القلوب والأبدان ، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل ، وترك ما يشغل عنه .

[ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ] والمراد بأحسن ما عملوا : أعمالهم الحسنة الصالحة ، لأنها أحسن ما عملوا ، لأنهم يعملون المباحات وغيرها .

فالثواب لايكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى : « ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ

---

[ ويزيدهم من فضله ] زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم .

[ والله يرزق من يشاء بغير حساب ] بل يعطيه من الأجر ، مالا يبلغه عمله ، بل ولا تبلغه أمنيته .

ويعطيه من الأجر ، بلا عدّ ؛ ولا كيل ؛ وهذا كناية عن كثرته جداً .

* هذان مثلان ، ضربهما الله لأعمال الكفار ؛ فى بطلانها وذهابها سدى ؛ وتحسر عامليها منها فقال :

[ والذين كفروا ] بربهم وكذبوا رسله [ أعمالهم كسراب بقيعة ] أى : بقاع ؛ لا شجر فيه ولا نبات .

[ يحسبه الظمآن ماء ] شديد العطش ، الذى يتوهم ، مالا يتوهم غيره ، بسبب ما معه من العطش ، وهذا حسبان باطل ، فيقصده ليزيل ظمأه .

[ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ] فندم ندما شديدا ، وازداد ما به من الظمأ ، بسبب انقطاع رجائه .

كذلك أعمال الكفار ، بمنزلة السراب ، تُرى ويظنها الجاهل الذى لا يدرى الأمور ، أعمالا نافعة ، فتغره صورتها ، ويخلبه خيالها ، ويحسبها هو أيضاً أعمالا نافعة لهواه ، وهو أيضاً محتاج إليها ، كاحتياج الظمآن للماء .

فَوَفَّٰهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا

---

حتى إذ قدم على أعماله ، يوم الجزاء ، وجدها ضائعة ، ولم يجدها شيئاً .

والحال إنه لم يذهب ، لا له ولا عليه .

بل [ وجد الله عنده فوفاه حسابه ] .

لم يَخفَ عليه من عمله ، نقير[1] ولا قطمير[2] ولن يعدم منه قليلا ولا كثيراً .

[ والله سريع الحساب ] فلا يستبطىء الجاهلون ذلك الوعد ، فإنه لا بد من إتيانه .

ومَثَّلها الله بالسراب ، الذى بقيعة ، أى : لاشجر فيه ولا نبات ، وهذا مثال لقلوبهم ، لا خير فيها ولا بر ، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع ، وهو الكفر .

والمثل الثانى ، لبطلان أعمال الكفار [ كظلمات فى بحر لجى ] بعيد قعره ، طويل مداه [ يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ] ظلمة البحر اللجى ، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة ، ثم فوق ذلك ، ظلمة السحب المدلهمة ، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم .

---

( ١ ) النقير : النقرة التى فى ظهر نواة التمر . اهـ . من المختار من الصحاح وفى المصباح « النقير » النكتة فى ظهر النواة .

( ٢ ) قال الراغب فى معجم مفردات ألفاظ القرآن : « قطمير » أي : الأثر فى ظهر النواة وذلك مَثَلٌ للشىء الطفيف [ أى : القليل ] جداً .

فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

---

فاشتدت الظلمة جدا ، بحيث أن الكائن فى تلك الحال [ إذا أخرج يده لم يكد يراها ] مع قربها إليه ، فكيف بغيرها .

كذلك الكفار ، تراكمت على قلوبهم الظلمات ، ظلمة الطبيعة ، التى لاخير فيها ، وفوقها ظلمة الكفر ، وفوق ذلك ، ظلمة الجهل ، وفوق ذلك ، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر .

فبقوا فى الظلمة متحيرين ، وفى غمرتهم يعمهون ، وعن الصراط المستقيم مدبرون ، وفى طرق الغى والضلال ، يترددون

وهذا لأن الله خذلهم ، فلم يعطهم من نوره .

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » لأن نفسه ظالمة جاهلة ، فليس فيها من الخير والنور ، إلا ما أعطاها مولاها ، ومنحها ربها .

يحتمل أن هذين المثالين ، لأعمال جميع الكفار ، كل منهما ، منطبق عليها ، وعَدَّدَهُمَا لتعدد الأوصاف .

ويحتمل أن كل مثال ، لطائفة وفرقة .

فالأول . للمتبوعين ، والثانى ، للتابعين . والله أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُ

---

* نبه تعالى عباده على عظمته ، وكمال سلطانه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فى ربوبيتها ، وعبادتها فقال : [ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ] من حيوان وجماد [ والطير صافات ] أى : صافات أجنحتها ، فى السماء ، تسبح ربها .

[ كل ] من هذه المخلوقات [ قد علم صلاته وتسبيحه ] أى : كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به .

وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح ، إما بواسطة الرسل ، كالجن والإنس ، والملائكة .

وإما بإلهام منه تعالى ، كسائر المخلوقات غير ذلك .

وهذا الاحتمال ، أرجح ، بدليل قوله [ والله عليم بما يفعلون ] .

أى : علم جميع أفعالهم ، فلم يخف عليه منها شىء ، وسيجازيهم بذلك .

فيكون على هذا ، قد جمع بين علمه بأعمالهم ، وذلك بتعليمه ، وبين علمه بمقاصدهم المتضمن للجزاء .

ويحتمل أن الضمير فى قوله : « قد علم صلاته وتسبيحه » يعود إلى الله ، وأن الله تعالى ، قد علم عبادتهم ، وإن لم تعلموا — أيها العباد — منها ، إلا ما أطلعكم الله عليه .

وهذه الآية كقوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » .

بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ

---

فلما بيّن عبوديتهم وافتقارهم إليه — من جهة العبادة والتوحيد — بيّن افتقارهم إليه، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال:

[ولله ملك السموات والأرض] خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي والقدري، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار بدليل قوله [وإلى الله المصير] أي: مرجع: الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

* أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف [يزجى].

أي: يسوق [سحابا] قطعاً متفرقة [ثم يؤلف] بين تلك القطع، فيجعله سحابا متراكما، مثل الجبال.

[فترى الودق] أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحابة، نقطا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع، من دون ضرر، فتمتلىء بذلك، الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم.

وتارة ينزل الله من ذلك السحاب، برَداً يُتْلِفُ ما يصيبه.

[فيصيب به من يشاء. ويصرفه عن من يشاء] أي: بحسب اقتضاء حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها.

سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ

---

[ يكاد سنا برقه ] أى : يكاد ضوء برق ذلك السحاب ، من شدته [ يذهب بالأبصار ] .

أليس الذى أنشأها وساقها لعباده المفتقرين ، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفى به الضرر ، كامل القدرة ، نافذ المشيئة ، واسع الرحمة ؟ .

[ يقلب الله الليل والنهار ] من حر إلى برد ، ومن برد إلى حر ، ومن ليل إلى نهار ، ومن نهار إلى ليل ، ويُدِيلُ الأيام بين عباده .

[ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ] أى : لذوى البصائر ، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها ، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية .

فالبصير ، ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكير ، وتَدبُّر لما أريد بها ومنها .

والمعرض الجاهل ، نظره إليها نظر غفلة ، بمنزلة نظر البهائم .

* ينبه عباده على ما يشاهدونه ، أنه خلق جميع الدواب ، التى على وجه الأرض .

[ من ماء ] أى : مادتها كلها ، الماء ، كما قال تعالى: « وجعلنا من ا ء كل شىء حى ».

فالحيوانات التى تتوالد ، مادتها ، ماء النطفة ، حين يلقح الذكر الأنثى .

بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

---

والحيوانات التى تتولد من الأرض، لاتتولد إلا من الرطوبات المائية ، كالحشرات لا يوجد منها شىء ، يتولد من غير ماء أبدا .

فالمادة واحدة ، ولـكن الخلقة مختلفة ، من وجوه كثيرة .

[ فمنهم من يمشى على بطنه ] كالحية ونحوها .

[ ومنهم من يمشى على رجلين ] كالآدميين ، وكثير من الطيور .

[ ومنهم من يمشى على أربع ] كبهيمة الأنعام ونحوها .

فاختلافها — مع أن الأصل واحد — يدل على نفود مشيئة الله ، وعموم قدرته ، ولهذا قال :

[ يخلق الله ما يشاء ] أى : من المخلوقات ، على ما يشاؤه من الصفات .

[ إن الله على كل شىء قدير ] كما أنزل المطر على الأرض ، وهو لقاح واحد ، والأم واحدة ، وهى الأرض ، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف « وفى والأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

أى : لقد رحمنا عبادنا ، وأنزلنا إليهم آيات بينات ، أى : واضحات الدلالة ، على جميع المقاصد الشرعية ، والآداب المحمودة ، والمعارف الرشيدة .

فاتضحت بذلك السبيل ، وتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال .

فلم يبق أدنى شبهة لمبطل ، يتعلق بها ، ولا أدنى إشكال ، لمريد الصواب، لأنها تنزيل مَنْ كَمُلَ علمه، وكملت رحمته ، وكمل بيانه ، فليس بعد بيانه بيان « ليهلك » بعد ذلك « من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة » .

[ والله يهدى من يشاء ] ممن سبقت لهم سابقة الحسنى ، وقدم الصدق.

[ إلى صراط مستقيم ] أى : طريق واضح مختصر ، موصل إليه ، وإلى دار كرامته ، متضمن العلم بالحق وإيثاره ، والعمل به .

عمم البيان التام لجميع الخلق ، وخصص بالهداية من يشاء ، فهذا فضله وإحسانه .

وما فضل الكريم بممنون[1] وذاك عدله ، وقطع الحجة للمحتج والله أعلم حيث يجعل مع مواقع إحسانه .

---

( ١ ) ممنون . أى : مقطوع . والمراد : أن إكرم الله لعباده فى الجنة وما يتمتعون من أنواع النعيم مستمر دائم لا ينقطع عنهم أبداً .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

* يخبر تعالى عن حالة الظالمين ، ممن فى قلبه مرض وضعف إيمان ، أو نفاق ، وريب ، وضعف علم ، أنهم يقولون بألسنتهم ، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة ، ثم لا يقومون بما قالوا ، ويتولى فريق منهم عن الطاعة ، توَلِّياً عظيما ، بدليل قوله :

[ وهم معرضون ] فإن المتولِّى ، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولَّى عنه .

وهذا المتولى ، معرض ، لا التفات له ، ولا نظر لما تولى عنه .

وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدَّعِى الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان .

وتجده لا يقوم بكثير من العبادات ، خصوصا : العبادات ، التى تشق على كثير من النفوس ، كالزكاة ، والنفقات الواجبة والمستحبة ، والجهاد فى سبيل الله ونحو ذلك .

* [ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ] أى : إذا صار بينهم ، وبين أحد ، حكومة ، ودعوا إلى الله ورسوله [ إذا فريق منهم معرضون ] يريدون أحكام الجاهلية ، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية ، لعلمهم أن الحق عليهم ، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع .

وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

* [ وإن يكن لهم الحق،يأتوا إليه ] أى : إلى حكم الشرع [ مذعنين(١) ] وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعى،وإنما ذلك ، لأجل موافقة أهوائهم .

فليسوا ممدوحين فى هذه الحال ، ولو أتوا إليه مذعنين ، لأن العبد حقيقة ، من يتبع الحق ، فيما يحب ويكره ، وفيما يسره ويحزنه .

وأما الذى يتبع الشرع ، عند موافقة هواه ، وينبذه عند مخالفته ، ويقدم الهوى على الشرع ، فليس بعبد لله على الحقيقة .

قال الله فى لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعى : [ أفى قلوبهم مرض ] أى : علة ، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته ، فصار بمنزلة المريض ، الذى يعرض عما ينفعه ، ويقبل على ما يضره .

[ أم ارتابوا ] أى : شكوا ، أو قلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله ، واتهموه أنه لا يحكم بالحق .

[أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ] أى : يحكم عليهم حكما ظالما جائراً ، وإنما هذا وصفهم [ بل أولئك هم الظالمون ] .

---

(١) مذعنين . أى:خاضعين ذليلين ، كما يستفاد من المختار من الصحاح . وفى المصباح « أذعن إذعاناً » انقاد ولم يستعص ، وناقة مذعانة : منقادة . ا هـ .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

وأما حكم الله ورسوله ، فنى غاية العدالة والقسط ، وموافقة الحكمة .

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن الإيمان ، ليس هو مجرد القول ، حتى يقترن به العمل .

ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة ، ووجوب الانقياد لحكم الله ، ورسوله فى كل حال .

وإن لم ينقَدْ له ، دل على مرض فى قلبه . وريب فى إيمانه .

وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام ، الشريعة ، وأن يظن بها ، خلاف العدل والحكمة .

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعى ، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين . فقال :

[ إنما كان قول المؤمنين ] إلى [ الفائزون ] .

* أى : [ إنما كان قول المؤمنين ] حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم [ إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ] سواء وافق أهواءهم ، أو خالفها .

[ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ] أى : سمعنا حكم الله ورسوله ، وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة ، سالمة من الحرج .

[ وأولئك هم المفلحون ] .

حصر الفلاح فيهم،لأن الفلاح:الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المكروه .

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

---

ولا يفلح إلا من حكّم الله ورسوله ، وأطاع الله ورسوله .

ولما ذكر فضل الطاعة فى الحكم خصوصا ، ذكر فضلها عموما ، فى جميع الأحوال . فقال :

[ ومن يطع الله ورسوله ] فيصدق خبرها ويمتثل أمرها .

[ ويخش الله ] أى : يخافه ، خوفا مقرونا بمعرفة ، فيترك ما نهى عنه ، ويكف نفسه عما تهوى .

ولهذا قال : [ ويتقه ] بترك المحظور ، لأن التقوى — عند الإطلاق — يدخل فيها ، فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه .

وعند اقترانها بالبر أو الطاعة — كما فى هذا الموضع — تفسر بتوقّى عذاب الله ، بترك معاصيه .

[ فأولئك ] الذين جمعوا ، بين طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وخشية الله وتقواه ، [ هم الفائزون ] بنجاتهم من العذاب ، لتركهم أسبابه ، ووصولهم إلى الثواب ، لفعلهم أسبابه ، فالفوز محصور فيهم .

وأما من لم يتصف بوصفهم ، فإنه يفوته من الفوز ، بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة .

واشتملت هذه الآية ، على الحق المشترك ، بين الله وبين رسوله ، وهو : الطاعة المستلزمة للإيمان ، والحق المختص بالله ، وهو : الخشية والتقوى .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ

---

وبقى الحق الثالث المختص بالرسول ، وهو التعزير والتوقير .

كما جمع بين الحقوق الثلاثة فى سورة الفتح فى قوله : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » .

* يخبر تعالى ، عن حالة المتخلفين عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فى الجهاد من المنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله .

[ لئن أمرتهم ] فيما يستقبل ، أو لئن نصصت عليهم ، حين خرجت [ ليخرجن ] والمعنى الأول ، أولى .

قال الله — رادًّا عليهم — : [ قل لا تقسموا ] أى : لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعذاركم ، فإن الله قد نبأنا من أخباركم .

وطاعتكم معروفة ، لا تخفى علينا ، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل ، من غير عذر ، فلا وجه لعذركم وقسمكم .

إنما يحتاج إلى ذلك ، من كان أمره محتملا ، وحاله مشتبهة ، فهذا ربما يفيده العذر براءة .

وأما أنتم ، فكلا ولما .

وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم ، حلول بأس الله ونقمته ، ولهذا توعدهم بقوله :

[ إن الله خبير بما تعملون ] فيجازيكم عليها أتم الجزاء .

هذه حالهم فى نفس الأمر .

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

---

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام ، فوظيفته ، أن يأمركم وينهاكم ، ولهذا قال :

[قل أطيعوا الله والرسول فإن ] امتثلوا ، كان حظهم وسعادتهم، وإن [ تولوا فإنما عليه ما حمل ] من الرسالة ، وقد أداها .

[ وعليكم ما حملتم ] من الطاعة ، وقد بانت حالكم ، وظهرت .

فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب .

[ وإن تطيعوه تهتدوا ] إلى الصراط المستقيم ، قولا وعملا .

فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته ، وبدون ذلك ، لايمكن ، بل هو محال .

[وما على الرسول إلا البلاغ المبين] أى : تبليغكم البين الذى لا يُبقِي لأحد ، شكا ولاشبهة ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، بلغ البلاغ المبين .

وإنما الذى يحاسبكم ، ويجازيكم ، هو الله تعالى .

فالرسول ، ليس له من الأمر شىء ، وقد قام بوظيفته .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

* هذا من وعوده الصادقة ، التى شوهد تأويلها ومخبرها .

فإنه وعد من قام ، بالإيمان والعمل الصالح ، من هذه الأمة ، أن يستخلفهم فى الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفين فى تدبيرها .

وأن يُمكِّنَ لهم دينهم ، الذى ارتضى لهم ، وهو دين الإسلام ، الذى فاق الأديان كلها .

ارتضاه لهذه الأمة ، لفضلها وشرفها ونعمته عليها ، بأن يتمكنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ، فى أنفسهم وفى غيرهم ، لكون غيرهم من أهل الأديان ، وسائر الكفار ، مغلوبين ذليلين .

وأنه يبدلهم أمنا من بعد خوفهم ، حيث كان الواحد منهم ، لا يتمكن من إظهار دينه ، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار ، وكون جماعة المسلمين قليلين جدا ، بالنسبة إلى غيرهم ، وقد رماهم أهل الأرض ، عن قوس واحدة ، وبغوا لهم الغوائل .

فوعدهم الله هذه الأمور ، وقت نزول الآية ، وهى لم تشاهد الاستخلاف فى الأرض ، والتمكين فيها ، والتمكين من إقامة الدين الإسلامى ، والأمن التام ، بحيث يعبدون الله ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يخافون أحداً إلا الله .

فقام صدر هذه الأمة ، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق على غيرهم .

فمكنهم من البلاد والعباد ، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحصل الأمن التام ، والتمكين التام ، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة .

ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة ، مهما قاموا بالإيمان ، والعمل الصالح

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ
لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

---

فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله .

وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ، ويُديلُهمْ فى بعض الأحيان ، بسبب إخلال المسلمين ، بالإيمان والعمل الصالح .

( ومن كفر بعد ذلك ) التمكين والسلطنة التامة لكم ، يامعشر المسلمين .

[ فأولئك هم الفاسقون ] الذين خرجوا عن طاعة الله ، وفسدوا ، فلم يصلحوا لصالح ، ولم يكن فيهم أهلية للخير ، لأن الذى يترك الإيمان فى حال عزه وقهره ، وعدم وجود الأسباب المانعة منه ، يدل على فساد نيته، وخبث طويته ، لأنه لا داعى له لترك الدين ، إلا ذلك .

ودلت هذه الآية ، أن الله قد مكن من قبلنا ، واستخلفهم فى الأرض .

كما قال موسى لقومه « ليستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون »

وقال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » .

« ونمكن لهم فى الأرض » .

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى بإقامة الصلاة ، بأركانها ، وشروطها ، وآدابها ، ظاهرا وباطناً .

وبإيتاء الزكاة من الأموال ، التى استخلف الله عليها العباد ،وأعطاهم إياها ، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ، ممن ذكرهم الله ، لمصرف الزكاة .

فهذان أكبر الطاعات وأجلها ، جامعتان لحقه ، وحق خلقه للإخلاص للمعبود ، وللإحسان إلى العبيد .

ثم عطف عليهما الأمر العام ، **فقال** :

[ وأطيعوا الرسول ] وذلك بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

[ لعلكم ] حين تقومون بذلك [ ترحمون ] فمن أراد الرحمة ، فهذا طريقها ، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإطاعة الرسول ، فهو متمَنٍّ كاذب .

وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة .

* [ لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ] فلا يغررك ما مُتِّعُوا به فى الحياة الدنيا ، فإن الله ، وإن أمهلهم ، فإنه لا يهملهم « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

ولهذا قال هنا : [ ومأواهم النار ولبئس المصير ] أى : بئس المآل ، مآل الكافرين ، مآل الشر والحسرة ، والعقوبة الأبدية .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنـكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُـكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَـكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّـكُمْ لَيْسَ عَلَيْـكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ

---

* أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليـكهم ، والذين لم يبلغوا الحلم منهم .

قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم ، وقت نومهم بالليل بعد العشاء ، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر .

فهذا — فى الغالب — أن النائم يستعمل للنوم فى الليل ، ثوبا غير ثوبه المعتاد .

وأما نوم النهار ، فلو كان فى الغالب قليلا ، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة .

قيده بقوله : [ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ] أى : للقائلة ، وسط النهار .

فنى هذه الأحوال الثلاثة ، يكون المماليك والأولاد الصغار ، كغيرهم ، لا يُمَـكَّنُونَ من الدخول إلا بإذن .

وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: [ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ] .

أى : ليسوا كغيرهم : فإنهم يحتاج إليهم دائماً ، فيشق الاستئذان منهم فى كل وقت .

ولهذا قال : [ طوافون عليكم بعضكم على بعض ] أى : يترددون عليكم فى قضاء أشغالـكم وحوائجكم .

طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ
فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ

---

[كذلك يبين الله لكم الآيات] بيانا مقرونا بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته.

ولهذا قال: [والله عليم حكيم] له العلم المحيط، بالواجبات، والمستحبات، والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه.

فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به. وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به

ومنه هذه الأحكام، التي بيَّنها وبيَّن مآخذها وحسنها.

[وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم] وهو إنزال المني يقظة أو مناما.

[فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم] أي: في سائر الأوقات.

والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: «يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا» الآية.

[كذلك يبين الله لكم آياته] ويوضحها، ويفصل أحكامها [والله عليم حكيم].

وفي هاتين الآيتين فوائد.

منها: أن السيد، وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم، ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: [يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم] الآية.

فلا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب.

ولقوله: [ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن].

ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

ومنها : الأمر بحفظ العورات ، والاحتياط لذلك من كل وجه ، وأن المحل والمكان ، الذى هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهىٌّ عن الاغتسال فيه ، والاستنجاء ، ونحو ذلك .

ومنها : جواز كشف العورة لحاجة ، كالحاجة عند النوم ، وعند البول والغائط ، ونحو ذلك .

ومنها : أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار ، كما اعتادوا نوم الليل ، لأن الله خاطبهم ، ببيان حالهم الموجودة .

ومنها : أن الصغير الذى دون البلوغ ، لا يجوز أن يُمكَّن من رؤية العورة ، ولا يجوز أن تُرَى عورته ، لأن الله لم يأمر باستئذانهم ، إلا عن أمر ما يجوز .

ومنها : أن المملوك أيضا ، لا يجوز أن يرى عورة سيده ، كما أن سيده، لا يجوز أن يرى عورته ، كما ذكرنا فى الصغير .

ومنها أنه ينبغى للواعظ والمعلم ونحوهما ، ممن يتكلم فى مسائل العلم الشرعى ، أن يقرن بالحكم ، بيان مأخذه ووجهه ، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل ، لأن الله — لما بيَّن الحكم المذكور — علله بقوله : [ ثلاث عورات لكم ].

ومنها : أن الصغير والعبد ، مخاطبان ، كما أن وليهما مخاطب لقوله : [ ليس عليكم ولا عليهن جناح بعدهن ] .

ومنها : أن ريق الصبى طاهر ، ولو كان بعد نجاسة ، كالقىء لقوله تعالى : [ طوافون عليكم ] مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ، حين سئل

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن

عن الهرة « إنها ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات ».

ومنها : جواز استخدام الإنسان مَنْ تحت يده ، من الأطفال على وجه معتاد ، لا يشق على الطفل لقوله : [ طوافون عليكم ] .

ومنها : أن الحكم المذكور المفصل ، إنما هو لما دون البلوغ ، وأما ما بعد البلوغ ، فليس إلا الاستئذان .

ومنها : أن البلوغ يحصل بالإنزال ، فكل حكم شرعى رتب على البلوغ ، حصل بالإنزال ، وهذا مجمع عليه .

وإنما الخلاف ، هل يحصل البلوغ بالسن ، أو الإنبات للعانة ، والله أعلم .

* [ والقواعد من النساء ] اللاتى قعدن عن الاستمتاع والشهوة [ اللاتى لا يرجون نكاحاً ] أى : لا يطمعن فى النكاح ، ولا يُطْمَعُ فيهن ، وذلك ، لكونها عجوزا لا تُشْتَهَى ولا تَشْتَهِي ، أو دميمة الخلقة ، لا تُشْتَهَى

[ فليس عليهن جناح ] أى : حرج وإثم [ أن يضعن ثيابهن ] .

أى : الثياب الظاهرة ، كالخمار ونحوه ، الذى قال الله فيه للنساء : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » .

فهؤلاء ، يجوز لهن ، أن يكشفن وجوههن ، لِأَمْنِ المحذور منها وعليها .

ولما كان نَفْيُ الحرج عنهن ، فى وضع الثياب ، ربما توهم منه جواز

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ

---

استعمالها لكل شيء ، دفع هذا الاحتراز بقوله : [ غير متبرجات بزينة ] أى : غير مظهرات للناس ، زينة من تجمل بثياب ظاهرة ، وتستر وجهها ، ومن ضرب الأرض ، ليعلم ما تخفى من زينتها ، لأن مجرد الزينة على الأنثى ، ولو مع تسترها ، ولو كانت لا تشتهى — يُفْتَتَنُ فيها ، ويوقع الناظر إليها فى الحرج [ وأن يستعففن خير لهن ] .

والاستعفاف : طلب العفة ، بفعل الأسباب المقتضية لذلك ، من تزوج وتَرْكٍ لما يُخْشَى منه الفتنة .

[ والله سميع ] لجميع الأصوات [ عليم ] بالنيات والمقاصد .

فَلْيَحْذَرْنَ من كل قول وقصد فاسد ولَيَعْلَمْنَ أن الله يجازى على ذلك .

* يخبر تعالى ، عن مِنَّتِهِ على عباده ، وأنه لم يجعل عليهم فى الدين من حرج بل يسَّره غاية التيسير فقال :

[ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ] .

أى : ليس على هؤلاء جناح ، فى ترك الأمور الواجبة ، التى تتوقف على واحد منها .

وذلك كالجهاد ونحوه ، مما يتوقف على بصر الأعمى ، أو سلامة الأعرج أو صحة المريض ، ولهذا المعنى العام ، الذى ذكرناه ، أطلق الكلام فى ذلك ، ولم يقيد ، كما قيد قوله .

أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ

---

[ ولا على أنفسكم ] أي : حرج [ أن تأكلوا من بيوتكم ] أي : بيوت أولادكم .

وهذا موافق للحديث الثابت « أنت ومالك لأبيك » والحديث الآخر « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم » .

وليس المراد من قوله : [ من بيوتكم ] بيت الإنسان نفسه ، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، الذى ينزه عنه كلام الله .

ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم ، من هؤلاء المذكورين .

وأما بيت الإنسان نفسه ، فليس فيه أدنى توهم .

[ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ] وهؤلاء معروفون .

[ أو ما ملكتم مفاتحه ] أي : البيوت التى أنتم متصرفون فيها بوكالة ، أو ولاية ونحو ذلك .

وأما تفسيرها بالمملوك ، فليس بوجيه ، لوجهين :

أحدها : أن المملوك ، لا يقال فيه « ملكت مفاتحه » .

أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ

بل يقال : « ما ملكتموه » أو « ما ملكت أيمانكم » لأنهم مالكون له جملة ، لا لمفاتحه فقط .

والثانى : أن بيوت المماليك ، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه ، لأن المملوك ، وما ملكه ، لسيده ، فلا وجه لنفى الحرج عنه .

[ أو صديقكم ] وهذا الحرج المنفى من الأكل ، من هذه البيوت كل ذلك ، إذا كان بدون إذن ، والحكمة فيه ، معلومة من السياق .

فبيوت هؤلاء المسمين ، قد جرت العادة والعرف ، بالمسامحة فى الأكل منها ، لأجل القرابة القريبة ، أو التصرف التام ، أو الصداقة .

فلو قُدِّر فى أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح فى الأكل المذكور ، لم يجز الأكل ، ولم يرتفع الحرج ، نظراً للحكمة والمعنى .

وقوله [ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتا ] فكل ذلك جائز .

أكل أهل البيت الواحد جميعاً ، أو أكل كل واحد منهم وحده .

وهذا نَفْىٌ للحرج ، لا نَفْىٌ للفضيلة ، وإلا ، فالأفضل ، الاجتماع على الطعام .

[ فإذا دخلتم بيوتا ] نكرة فى سياق الشرط ، يشمل بيت الإنسان ، وبيت غيره ، سواء كان فى البيت ، ساكن أم لا .

فإذا دخلها الإنسان[1] [ فسلموا على أنفسكم ] أى : فَلْيُسلِّم بعضكم على

(١) قوله « فإذا دخلها الإنسان » هكذا فى الأصل وهو خطأ والصواب أن يقال « فإذا دخلتموها » ليتناسب مع مابعده .

مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

بعض ، لأن المسلمين ، كأنهم شخص واحد ، من توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم .

فالسلام مشروع ، لدخول سائر البيوت ، من غير فرق ، بين بيت وبيت .

والاستئذان ، تقدم أن فيه تفصيلا فى أحكامه .

ثم مدح هذا السلام فقال : [ تحية من عند الله مباركة طيبة ] .

أى : سلامكم بقولكم « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أو « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » إذ تدخلون البيوت .

[ تحية من عند الله ] أى : قد شرعها لكم ، وجعلها تحيتكم .

[ مباركة ] لاشتمالها على السلامة من النقص ، وحصول الرحمة ، والبركة ، والنماء ، والزيادة .

[ طيبة ] لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله ، الذى فيه طيب نفس للمحيا ، ومحبة ، وجلب مودة .

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال :

[ كذلك يبين الله لكم آياته ] الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها .

[ لعلكم تعقلون ] عنه ، فتفهمونها ، وتعقلونها بقلوبكم ، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة .

فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها ، يزيد فى العقل ، وينمو به اللب .

. . . . . . . . . . .

---

لكون معانيها ، أجل المعانى ، وآدابها أجل الآداب،ولأن الجزاء ، من جنس العمل .

فكما استعمل عقله ، للعقل عن ربه ، وللتفكر فى آياته ، التى دعاه إليها ، زاده من ذلك .

وفى هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهى : أن « العرف والعادة مخصص للألفاظ ، كتخصيص اللفظ للفظ » .

فإن الأصل ، أن الإنسان ، ممنوع من تناول طعام غيره ، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء ، للعرف والعادة .

فكل مسألة ، تتوقف على الإذن من مالك الشىء ، إذا علم إذنه بالقول ، أو العرف ، جاز الإقدام عليه .

وفيها دليل ، على أن الأب ، يجوز له أن يأخذ ويتملك ، من مال ولده ، مالا يضره ، لأن الله سمى بيته ، بيتا للإنسان .

وفيها دليل على أن المتصرف فى بيت الإنسان ، كزوجته ، وأخته ونحوهما ، يجوز لهما ، الأكل عادة ، وإطعام السائل المعتاد .

وفيها دليل ، على جواز المشاركة فى الطعام ، سواء أكانوا مجتمعين ، أو متفرقين ، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ

---

* هذا إرشاد من الله ، لعباده المؤمنين ، أنهم إذا كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أمر جامع ، أي : من ضرورته أو مصلحته ، أن يكونوا فيه جميعا ، كالجهاد ، والمشاورة ، ونحو ذلك من الأمور ، التى يشترك فيها المؤمنون ، فإن المصلحة ، تقتضى اجتماعهم عليه ، وعدم تفرقهم .

فالمؤمن بالله ورسوله حقاً ، لا يذهب لأمر من الأمور ، لا يرجع لأهله ، ولا يذهب لبعض الحوائج ، التى يشذ بها عنهم ، إلا بإذن من الرسول ، أو نائبه من بعده .

فجعل موجب الإيمان ، عدم الذهاب إلا بإذن ، ومدحهم على فعلهم هذا ، وأدبهم مع رسوله ، وولى الأمر منهم فقال : [ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ] .

ولكن هل يأذن لهم أم لا ؟ ذكر لإذنه شرطين :

أحدهما : أن يكون لشأن من شئونهم ، وشغل من أشغالهم .

فأما من يستأذن من غير عذر ، فلا يؤذن له .

والثانى : أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة ، من دون مضرة بالآذن فلذلك قال :

[ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ] .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا

---

فإذا كان له عذر واستأذن ، فإن كان فى قعوده وعدم ذهابه ، مصلحة برأيه ، أو شجاعته ، ونحو ذلك ، لم يأذن له .

ومع هذا إذا استأذن ، وأذن له بشرطيه ، أمر الله رسوله ، أن يستغفر له ، لما عسى أن يكون مقصراً فى الاستئذان ، ولهذا قال :

[ فاستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ] يغفر لهم الذنوب ، ويرحمهم ، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر .

* [ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ] فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبا .

حتى إنه تجب إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حال الصلاة .

وليس أحد إذا قال قولا ، يجب على الأمة قبول قوله ، والعمل به ، إلا الرسول ، لعصمته ، وكونتا مخاطبين باتباعه ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا .

فلا تقولوا « يامحمد » عند ندائكم ، أو « يامحمد بن عبد الله » كما يقول ذلك بعضكم لبعض .

بل من شرفه وفضله وتميزه صلى الله عليه وسلم عن غيره ، أن يقال : يا رسول الله ، يا نبى الله .

فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ

---

[ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ] لما مدح المؤمنين بالله ورسوله ، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع ، لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، توعد من لم يفعل ذلك ، وذهب من غير استئذان .

فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي وهو المراد بقوله [ يتسللون منكم لواذاً ] أي : يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم . بشيء يحجبهم عن العيون .

فالله يعلمهم[1] وسيجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء ، ولهذا توعدهم بقوله:

[ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ] أي : يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله ، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه ؟ ! ! وإنما ترك أمر الله ، من دون شغل له .

[ أن تصيبهم فتنة ] أي : شرك وشر [ أو يصيبهم عذاب أليم ] .

* [ ألا إن لله ما في السموات والأرض ] ملكا وعبيداً ، يتصرف فيهم بحكمه القدري ، وحكمه الشرعي .

[ قد يعلم ما أنتم عليه ] أي : قد أحاط علمه ، بما أنتم عليه ، من خير ، وشر ، وعلم جميع أعمالكم ، أحصاها علمه ، وجرى بها قلمه ، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون .

---

( ١ ) قوله « فالله يعلمهم » جواب شرط لقوله « وإن خفي الخ » .

مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

---

[ ويوم يرجعون إليه ] أى : يوم القيامة [ فينبئهم بما عملوا ] يخبرهم بجميع أعمالهم ، دقيقها ، وجليلها ، إخباراً مطابقاً ، لما وقع منهم ويستشهد عليهم ، أعضاءهم ، فلا يعدمون منه فضلا ، أو عدلا .

ولما قيد علمه بأعمالهم ، ذكر العموم بعد الخصوص ، فقال :

[ والله بكل شيء عليم ] .

تم تفسير سورة النور ولله الحمد والشكر

تفسير

# سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ

---

هذا بيان لعظمته الكاملة ، وتفرده بالوحدانية من كل وجه ، وكثرة خيراته وإحسانه ،فقال : [تبارك ] أى : تعاظم ، وكملت أوصافه ،وكثرت خيراته ، الذى من أعظم خيراته ونعمه ، أن [ نزل هذا القرآن ] الفارق بين الحلال والحرام ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة .

[ على عبده ] محمد صلى الله عليه وسلم الذى كمل مراتب العبودية ، وفاق جميع المرسلين .

[ ليكون ] ذلك الإنزال للفرقان على عبده [ للعالمين نذيراً ] .

ينذرهم بأس الله ونقمه ، ويبين لهم ، مواقع رضا الله من سخطه .

حتى إن من قبل نذارته ، وعمل بها ، كان من الناجين فى الدنيا والآخرة ، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية ، والملك السرمدى .

لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

---

فهل فوق هذه النعمة ، وهذا الفضل والإحسان ، شيء ؟

فتبارك الذى هذا بعض إحسانه وبركاته .

[ الذى له ملك السموات والأرض ] أى : له التصرف فيهما وحده ، وجميع من فيهما، مماليك وعبيد له ، مذعنون لعظمته ، خاضعون لربوبيته ، فقراء إلى رحمته ، الذى [ لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ] .

وكيف يكون له ولد ، أو شريك ، وهو المالك ، وغيره مملوك ، وهو القاهر ، وغيره مقهور ، وهو الغنى بذاته ، من جميع الوجوه ، والمخلوقون ، مفتقرون إليه ، فقراء من جميع الوجوه ؟ ! !

وكيف يكون له شريك فى الملك ، ونواصى العباد كلهم بيديه ، فلا يتحركون أو يسكنون ، ولا يتصرفون ، إلا بإذنه ، فتعالى الله عن ذلك ، علواً كبيراً .

فلم يقدره حق قدره ، من قال فيه ذلك ، ولهذا قال :

[ وخلق كل شيء ] شمل العالم العلوى ، والعالم السفلى ، من حيواناته ، ونباتاته ، وجماداته .

[ فقدره تقديراً ] أى : أعطى كل مخلوق منها ، ما يليق به ، ويناسبه من الخلق ، وما تقتضيه حكمته من ذلك ، بحيث صار كل مخلوق ، لا يتصور العقل الصحيح ، أن يكون بخلاف شكله ، وصورته المشاهدة .

﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

---

بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد ، لا يناسبه غير محله ، الذى هو فيه .

قال تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى » .

وقال تعالى : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

ولما بين كماله وعظمته ، وكثرة إحسانه ، كان ذلك مقتضيا لأن يكون وحده ، المحبوب المألوه ، المعظم ، المفرد بالإخلاص وحده ، لا شريك له — ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال : [ واتخذوا ] إلى قوله [ ولا نشوراً ] .

* أى : من أعجب العجائب ، وأول الدليل على سفههم ، ونقص عقولهم . بل أدل على ظلمهم ، وجراءتهم على ربهم ، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة وبلغ من عجزها ، أنها لا تقدر على خلق شىء ، بل هم مخلوقون ، بل بعضهم مما عملته أيديهم .

[ ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ] أى : لا قليلا ولا كثيراً ، لأنه نكرة فى سياق النفى فتعم .

[ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً ] أى : بعثا بعد الموت . فأعظم أحكام العقل ، بطلان إلهيتها ، وفسادها ، وفساد عقل من

اتخذها آلهة ، وشركاء للخالق لسائر المخلوقات ، من غير مشاركة له، فى ذلك الذي بيده النفع والضر ، والعطاء والمنع ، الذى يحيي ويميت ، ويبعث من فى القبور ، ويجمعهم يوم النشور .

وقد جعل لهم دارين ، دار الشقاء ، والخزى ، والنكال ، لمن اتخذ معه آلهة أخرى .

ودار الفوز والسعادة ، والنعيم المقيم ، لمن اتخذه وحده ، معبوداً .

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح ، صحة التوحيد وبطلان ضده ، قرر صحة الرسالة ، وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال : [ والذين كفروا ] إلى [ إنه كان غفوراً رحيما ] .

* أى : وقال الكافرون بالله ، الذى أوجب لهم كفرهم ، أن قالوا فى القرآن والرسول : إن هذا القرآن كذب ، كذبه محمد ، وإفك ، افتراه على الله ، وأعانه على ذلك قوم آخرون .

فرد الله عليهم ذلك ، بأن هذا مكابرة منهم ، وإقدام على الظلم والزور ، الذى لا يمكن ، أن يدخل عقل أحد ، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكمال صدقه ، وأمانته ، وبره التام ، وأنه لا يمكنه ، لا هو ، ولا سائر الخلق ، أن يأتوا بهذا القرآن ، الذى هو أجل الكلام وأعلاه ، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه ، على ذلك ، فقد جاءوا بهذا القول ظلماً وزوراً .

ومن جملة أقاويلهم فيه ، أن قالوا : هذا الذى جاء به محمد [ أساطير الأولين اكتتبها ] أي : هذا قصص الأولين وأساطيرهم ، التى تتلقاها

وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾
قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا

---

الأفواه ، وينقلها كل أحد ، استنسخها محمد [ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ]

وهذا القول منهم ، فيه عدة عظائم :

منها : رميهم الرسول ، الذى هو أبر الناس وأصدقهم ، بالكذب ، والجرأة العظيمة .

ومنها : إخبارهم عن هذا القرآن ، الذى هو أصدق الكلام وأعظمه ، وأجله ، بأنه كذب وافتراء .

ومنها : أن فى ضمن ذلك ، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله ، وأن يضاهى المخلوق الناقص من كل وجه ، للخالق الكامل من كل وجه ، بصفة من صفاته ، وهى الكلام .

ومنها : أن الرسول ، قد علمت حاله ، وهم أشد الناس علماً بها ، أنه لا يكتب ، ولا يجتمع بمن يكتب له ، وهم قد زعموا ذلك .

* فلذلك رد عليهم ذلك بقوله [ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ] أى : أنزله من أحاط علمه بما فى السموات ، وما فى الأرض ، من الغيب والشهادة ، والجهر والسر ، لقوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين » .

ووجه إقامة الحجة عليهم ، أن الذى أنزله ، هو المحيط علمه بكل شىء

رَّحِيمًا ﴿٦﴾

فيستحيل ويمتنع ، أن يقول مخلوق ، ويتقول عليه ، هذا القرآن ، ويقول : هو من عند الله ، وما هو من عنده ، ويستحل دماء من خالفه ، وأموالهم ، ويزعم أن الله قال له ذلك .

والله يعلم كل شيء ، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه ، ويمكنه من رقابهم وبلادهم ، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن ، إلا بعد إنكار علم الله .

وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم ، سوى الفلاسفة الدهرية .

وأيضاً ، فإن ذكر علمه تعالى العام ، ينبههم ، ويحضهم على تدبر القرآن ، وأنهم لو تدبروا ، لرأوا فيه ، من علمه وأحكامه ، ما يدل دلالة قاطعة ، على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة .

ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم ، أنه لم يَدَعْهُمْ وظلمهم ، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه ، ووعدهم بالمغفرة والرحمة ، إن هم تابوا ، ورجعوا فقال :

[ إنه كان غفوراً ] أي : وصفه المغفرة ، لأهل الجرائم والذنوب ، إذا فعلوا أسباب المغفرة ، وهي : الرجوع عن معاصيه ، والتوبة منها .

[ رحيما ] بهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وقد فعلوا مقتضاها .

وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي ، وحيث محا ، ما سلف من سيئاتهم ، وحيث قبل حسناتهم ، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده ، والمقبل عليه بعد إعراضه ، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه .

۞ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي
فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ

---

* هذا من مقالة المكذبين للرسول ، الذين قدحوا فى رسالته .

وهو : أنهم اعترضوا بأنه ، هلا كان مَلَكاً أو مَلِكاً ، أو يساعده مَلَكٌ ، فقالوا :

[ ما لهـذا الرسول ] أى : ما لهـذا الذى ادعى الرسالة ؟ تهكما منهم واستهزاء .

[ يأكل الطعام ] وهذا من خصائص البشر ، فهلا كان مَلَكاً ، لا يأكل الطعام ، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر .

[ ويمشى فى الأسواق ] للبيع والشراء ، وهذا — بزعمهم — لا يليق بمن يكون رسولا .

مع أن الله قال : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » .

[ لولا أنزل إليه ملك ] أى : هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه .

[ فيكون معه نذيراً ] وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة ، ولا بطوقه[1] وقدرته القيام بها .

---

( ١ ) قوله « ولا بطوقه » أى : لا بوسعه ولا بقدرته .

قال فى المختار من الصحاح : أطاق الشىء إطاقة وهو فى طوقه ، أى : فى وسعه . اهـ .

إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

---

[ أو يلقى إليه كنز ] أى : مال مجموع من غير تعب .

[ أو تكون له جنة يأكل منها ] فيستغنى بذلك عن مشيه فى الأسواق لطلب الرزق .

[ وقال الظالمون ] حملهم على القول ، ظلمهم لا اشتباه منهم .

[ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ] هذا ، وقد علموا كمال عقله ، وحسن حديثه ، وسلامته من جميع المطاعن .

ولما كانت هذه الأقوال منهم ، عجيبة جداً ، قال تعالى :

[ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ] وهى : هل كان مَلَكاً ، وزالت عنه خصائص البشر ؟

أو معه ملك ، لأنه غير قادر على ما قال ، أو أنزل عليه كنز ، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشى فى الأسواق ، أو أنه كان مسحوراً .

[ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ] قالوا : أقوالا متناقضة ، كلها جهل ، وضلال ، وسفه ، ليس فى شىء منها هداية ، بل ولا فى شىء منها أدنى شبهة ، تقدح فى الرسالة .

فبمجرد النظر إليها وتصورها ، يجزم العاقل ببطلانها ، ويكفيه عن ردها .

ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها ، وتدبرها ، والنظر : هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق ؟

مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾
بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا

---

ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيه خيراً كثيراً فى الدنيا فقال :

* [ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ] أى : خيراً مما قالوا .

ثم فسره بقوله : [ جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ] مرتفعة مزخرفة .

فقدرته ومشيئته ، لا تقصر عن ذلك ، ولكنه تعالى — لما كانت الدنيا عنده فى غاية البعد والحقارة — أعطى منها أولياءه ورسله ،ما اقتضته حكمته منها .

واقتراح أعدائهم بأنهم ، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً ، ظلم وجراءة .

ولما كانت تلك الأقوال ، التى قالوها ، معلومة الفساد ، وأخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق ، ولا لاتباع البرهان ، وإنما صدرت منهم تعنتا وظلما ، وتكذيباً بالحق ، قالوا ما في قلوبهم من ذلك ، ولهذا قال : [ بل كذبوا بالساعة ] .

والمكذب المتعنت ، الذى ليس له قصد فى اتباع الحق ، لا سبيل إلى هدايته ، ولا حيلة فى مجادلته وإنما له حيلة واحدة ، وهى نزول العذاب به ، فلهذا قال :

[ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ] أى : ناراً عظيمة ، قد اشتد سعيرها ، وتغيظت على أهلها ، واشتد زفيرها .

رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ
مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ
ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

---

* [ إذا رأتهم من مكان بعيد ] أى : قبل وصولهم ، ووصولها إليهم [ سمعوا لها تغيظا ] عليهم [ وزفيراً ] تقلق منهم الأفئدة ، وتتصدع القلوب ، ويكاد الواحد منهم ، يموت خوفاً منها ، وذعراً ، قد غضبت عليهم ،لغضب خالقها ، وقد زاد لهبها ، لزيادة كفرهم وشرهم .

* [ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ] أى : وقت عذابهم ، وهم فى وسطها ، جمع فى مكان بين ضيق المكان ، وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال .

فإذا وصلوا لذلك المكان النحس ، وحبسوا فى أشر حبس [ دعوا هنالك ثبوراً (١) ] دعوا على أنفسهم بالثبور، والخزى والفضيحة ، وعلموا أنهم ظالمون معتدون ، قد عدل فيهم الخالق ، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل ، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ، ولا مغنية من عذاب الله .

بل يقال لهم : [ لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبورا كثيراً ] أى : لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ، ما أفادكم إلا الهم ، والغم ، والحزن .

لما بين جزاء الظالمين ، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال : [قل أذلك خير ] إلى [ وعدا مسئولا ] .

---

( ١ ) الثبور : الهلاك والخسران اهـ . من المختار من الصحاح .

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ
كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

---

* أى : قل لهم — مبيناً لسفاهة رأيهم ، واختيارهم الضار على النافع — [ أذلك ] الذى وضعت لكم من العذاب [ خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ] التى زادها تقوى الله ، فمن قام بالتقوى ، فالله قد وعده إياها .

[ كانت لهم جزاء ] على تقواهم [ ومصيراً ] موئلا يرجعون إليها ، ويستقرون فيها ، ويخلدون دائما أبداً .

[ لهم فيها ما يشاءون ] أى ما يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم ، من المطاعم ، والمشارب اللذيذة ، والملابس الفاخرة ، والنساء الجميلات ، والقصور العاليات ، والجنات ، والحدائق المرجحنة[1] والفواكه ، التى تسر ناظريها وآكليها ، من حسنها ، وتنوعها ، وكثرة أصنافها ،والأنهار التى تجرى فى رياض الجنة ، وبساتينها ، حيث شاءوا يصرفونها ، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن ، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين وأنهاراً من عسل مصفى ، وروائح طيبة ، ومساكن مزخرفة ، وأصوات شجية ، تأخذ من حسنها ، بالقلوب ، ومزاورة الإخوان ، والتمتع بلقاء الأحباب .

---

(١) المرجحنة : المتمايلة الأشجار المثقلة بالفواكه والثمار المتنوعة المتدلية تكاد من ثقلها تلامس الأرض .

. . . . . . . . . . .

---

وأعلى من ذلك كله ، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم ، وسماع كلامه ، والحظوة بقربه ، والسعادة برضاه ، والأمن من سخطه ، واستمرار هذا النعيم ودوامه ، وزيادته على ممر الأوقات ، وتعاقب الآنات[1] [ كان ] دخولها والوصول إليها [ على ربك وعدا مسئولا ] يسأله إياها ، عباده المتقون بلسان حالهم ، ولسان مقالهم .

فأى الدارين المذكورتين ، خير وأولى بالإيثار ؟

وأى العاملين ، عمال دار الشقاء ، أو عمال دار السعادة ، أولى بالفضل والعقل ، والفخر ، يا أولى الألباب ؟

لقد وضح الحق ، واستنار السبيل ، فلم يبق للمفرط عذر ، فى تركه الدليل.

فنرجوك يامن قضيت على أقوام بالشقاء ، وأقوام بالسعادة ، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة .

ونستعيذ بك اللهم ، من حالة الأشقياء ، ونسألك المعافاة منها .

---

(١) الآنات ، أى : الأوقات والأزمان .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ

---

* يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة ، وتبرِّيهم منهم ، وبطلان سعيهم فقال :

[ ويوم يحشرهم ] أى : المكذبين المشركين [ وما يعبدون من دون الله فيقول ] الله مخاطبا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم :

[ أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ] هل أمرتموهم بعبادتكم ، وزينتم لهم ذلك ، أم ذلك من تلقاء أنفسهم ؟

[ قالوا سبحانك ] نزهوا الله عن شرك المشركين به ، وبرأوا أنفسهم من ذلك .

[ ما كان ينبغى لنا ] أى : لا يليق بنا ، ولا يحسن منا ، أن نتخذ من دونك من أولياء ، نتولاهم ، ونعبدهم ، وندعوهم .

فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ، ومُتَبرِّين من عبادة غيرك ، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا ؟ هذا لا يكون .

أو ، سبحانك [ أن نتخذ من دونك من أولياء ] وهذا كقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى

وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا

ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » الآية .

وقال تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائـكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

فلما نزهوا أنفسهم ، أن يدعوا لعبادة غير الله ، أو يكونوا أضلوهم ، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا :

[ ولـكن متعتهم وآباءهم ] فى لذات الدنيا وشهواتها ، ومطالبها النفسية.

[حتى نسوا الذكر ] اشتغالا فى لذات الدنيا ، وانـكباباً على شهواتها ، فحافظوا على دنياهم ، وضيعوا دينهم [ وكانوا قوما بورا ] أى : بائرين[1] لا خير فيهم ، ولا يصلحون لصالح ، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار .

فذكروا المانع من اتباعهم الهدى ، وهو التمتع فى الدنيا ، الذى صرفهم عن الهدى .

وعَدَمَ المقتضى[2] للهدى ، وهو : أنهم لا خير فيهم .

فإذا عدموا المقتضى ، ووجـد المانع ، فلا تشاء من شر وهلاك ، إلا وجدته فيهم .

---

( ١ ) بائرين . أى : هالـكين ، قال فى المختار من الصحاح : وقوم بور : هلـكى قال الله تعالى : « وكنتم قوما بوراً » وهو جمع « بائر » مثل « حائل » و« حول » اهـ . (٢) قوله « وعدم » معطوف على قوله « المانع » .

بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

---

فلما تبرأوا منهم ، قال الله توبيخا وتقريعا للمعاندين :

[ فقد كذبوكم بما تقولون ] إنهم أمروكم بعبادتهم ، ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم .

كذبوكم فى ذلك الزعم ، وصاروا من أكبر أعدائكم ، فحق عليكم العذاب .

[فما تستطيعون صرفاً] للعذاب عنكم بفعلكم ، أو بفداء ، أو غير ذلك .

[ ولا نصراً ] لعجزكم ، وعدم ناصركم .

هـذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين ، كما رأيت ، أسوأ حكم ، وشر مصير .

وأما المعاند منهم ، الذي عرف الحق وصدف عنه ، فقال فى حقه :

[ ومن يظلم منكم ] بترك الحق ظلما وعناداً [ نذقه عذاباً كبيراً ] لا يقادر قدره ، ولا يبلغ أمره .

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » .

فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما جعلناهم ملائكة ، فلك فيهم أسوة .

فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا

---

وأما الغنى والفقر ، فهو فتنة ، وحكمة من الله تعالى ، كما قال : [وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ] الرسول فتنة للمرسل إليهم ، واختبار للمطيعين من العاصين ، والرسل فتناهم بدعوة الخلق ، والغنى فتنة للفقير ، والفقر فتنة للغنى .

وهكذا سائر أصناف الخلق فى هـذه الدار ، دار الفتن والابتلاء والاختبار .

والقصد من تلك الفتنة [ أتصبرون ] فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة ، فيثيبكم مولاكم ، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة ؟

[ وكان ربك بصيراً ] يرى ويعلم أحوالكم ويصطفى من يعلمه يصلح لرسالته ، ويختصه بتفضيله ، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* أى : قال المكذبون للرسول ، المكذبون بوعد الله ووعيده ، الذين ليس فى قلوبهم خوف الوعيد ، ولا رجاء لقاء الخالق .

[ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ] أى : هلا نزلت الملائكة ، تشهد لك بالرسالة ، وتؤيدك عليها ، أو تنزل رسلا مستقلين ، أو نرى ربنا ، فيكلمنا ، ويقول : هذا رسولى فاتبعوه ؟

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ

---

وهذا معارضة للرسول ، بما ليس بمعارض ، بل بالتكبر والعلو والعتو .

[ لقد استكبروا فى أنفسهم ] حيث اقترحوا هذا الاقتراح ، وتجرأوا هذه الجرأة .

فمن أنتم يافقراء ، ويامساكين ، حتى تطلبوا رؤية الله ، وتزعموا أن الرسالة ، متوقف ثبوتها على ذلك ؟ وأى كبر أعظم من هذا ؟ .

[وعتوا عتوا كبيراً ] أى : قسوا[1] وصلبوا عن الحق ، قساوةعظيمة .

فقلوبهم أشد من الأحجار ، وأصلب من الحديد ، لا تلين للحق ، ولا تصغى للناصحين . فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير ، ولا اتبعوا الحق ، حين جاءهم النذير .

بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم ، وآيات الله البينات ، بالإعراض والتكذيب .

فأى عتو أكبرمن هذا العتو ؟ ! ! ولذلك ، بطلت أعمالهم ،واضمحلت ، وخسروا أشد الخسران .

* [ يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذللمجرمين ] وذلك أنهم لا يرونها ، مع استمرارهم ، على جرمهم وعنادهم ، إلا لعقوبتهم ، وحلول البأس بهم .

فأول ذلك عند الموت ، إذا تنزلت عليهم الملائكة ، قال الله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكةباسطو أيديهم ، أخرجوا

---

(١) قوله « أى : قسوا وصلبوا » تعبير كلماته مفككة غير مترابطة ولو قال « أى : قسوا قساوة عظيمة وصلبوا فى عنادهم وإعراضهم عن الحق» لظهر التناسق والارتباط بين الكلمات ، وحصل التناسب مع ما بعده

وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

---

أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون » .

ثم فى القبر ، حيث يأتيهم منكر ونكير ، فيسألانهم ، عن ربهم ، ونبيهم ، ودينهم ، فلا يجيبون جواباً ينجيهم ، فيحلون بهم النقمة ، وتزول عنهم بهم الرحمة .

ثم يوم القيامة ، حين تسوقهم الملائكة إلى النار ، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم ، الذين يتولون عذابهم ، ويباشرون عقابهم .

فهذا الذى اقترحوه ، وهذا الذى طلبوه ، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه .

وحينئذ يتعوذون من الملائكة ، ويفرون ، ولكن لا مفر لهم .

[ ويقولون حجرا محجورا ] « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

* [ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ] أى : أعمالهم التى رجوا أن تكون خيراً لهم ، وتعبوا فيها .

[ فجعلناه هباء منثوراً ] أى : باطلا مضمحلا ، قد خسروه ، وحرموا أجره ، وعوقبوا عليه ، وذلك لفقده الإيمان ، وصدوره عن مكذب لله ورسله .

فالعمل الذى يقبله الله ، هو ماصدر من المؤمن المخلص ، المصدق للرسل ، المتبع لهم فيه .

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

* أى : فى ذلك اليوم الهائل ، كثير البلابل [ أصحاب الجنة ] الذين آمنوا بالله ، وعملوا صالحاً ، واتقوا ربهم [ خير مستقراً ] من أهل النار [ وأحسن مقيلا[1] ] أى : مستقرهم فى الجنة ، وراحتهم التى هى القيلولة ، هو المستقر النافع ، والراحة التامة ، لاشتمال ذلك ، على تمام النعيم ، الذى لا يشوبه كدر .

بخلاف أصحاب النار ، فإن جهنم مستقرهم « ساءت مستقراً ومقيلا » وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل ، فيما ليس فى الطرف الآخر منه شىء ، لأنه لاخير فى مقيل أهل النار ومستقرهم ، كقوله « الله خير أما يشركون » .

* يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة ، وما فيه من الشدة والكروب ، ومزعجات القلوب فقال : [ ويوم تشقق السماء بالغمام ] وذلك الغمام الذى ينزل الله فيه ، من فوق السموات ، فتنفطر له السموات ، وتشقق ، وتنزل الملائكة كل سماء ، فيقفون صفاً صفا ، إما صفا واحداً محيطا بالخلائق ، وإما كل سماء ، يكونون صفا ، ثم السماء التى تليها صفا وهكذا .

القصد أن الملائكة — على كثرتهم وقوتهم — ينزلون محيطين بالخلق ، مذعنين لأمر ربهم ، لا يتكلم منهم أحد ، إلا بإذن من الله .

فما ظنك بالآدمى الضعيف ، خصوصاً ، الذى بارز مالكه بالعظائم ، وأقدم على مساخطه ، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا ، لم يتب منها ، فيحكم

---

(١) مقيلا . أى : موضع استراحة .

تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

---

فيه الملك الخلاق ، بالحكم الذى لا يجور ، ولا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال:

[ وكان يوما على الكافرين عسيراً ] لصعوبته الشديدة ، وتعسر أموره عليه .

بخلاف المؤمن ، فإنه يسير عليه ، خفيف الحمل .

« يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » .

وقوله [ الملك يومئذ ] أى : يوم القيامة [ الحق للرحمن ] لا يبقى لأحد من المخلوقين ، مَلِكٌ ولا صورة مَلِكٍ ، كما كانوا فى الدنيا .

بل قد تساوت الملوك ورعاياهم ، والأحرار ، والعبيد ، والأشراف وغيرهم .

ومما يرتاح له القلب ، وتطمئن به النفس ، وينشرح له الصدر ، أنه أضاف الملك فى يوم القيامة ، لاسمه « الرحمن » الذى وسعت رحمته كل شىء ، وعمت كل حى ، وملأت الكائنات ، وعمرت بها الدنيا والآخرة ، وتم بها كل ناقص ، وزال بها كل نقص .

وغلبت الأسماء الدالة عليه ، الأسماء الدالة على الغضب ، وسبقت رحمته غضبه وغلبته ، فلها السبق والغلبة .

وخلق هذا الآدمى الضعيف ، وشرفه ، وكرمه ، ليتم عليه نعمته ، وليتغمده برحمته .

وقد حضروا فى موقف الذل ، والخضوع ، والاستكانة بين يديه ، ينتظرون ما يحكم فيهم ، وما يجرى عليهم ، وهو أرحم بهم من أنفسهم ، ووالديهم ، فما ظنك بما يعاملهم به .

عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

---

ولا يهلك على الله ، إلا هالك ، ولا يخرج من رحمته ، إلا من غلبت عليه الشقاوة ، وحقت عليه كلمة العذاب .

* [ ويوم يعض الظالم ] بشركه وكفره ، وتكذيبه للرسل [ على يديه ] تأسفا ، وتحسرا ، وحزنا ، وأسفا .

[ يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ] أى طريقا بالإيمان به ، وتصديقه واتباعه .

* [ يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا ] وهو الشيطان الإنسى ، أو الجنى .

[ خليلا ] أى ، حبيبا مصافيا ، عاديت أنصح الناس لى ، وأبرهم بى ، وأرفقهم بى .

[ وواليت أعدى عدو لى، الذى لم تفدنى ولايته ، إلا الشقاء والخسار والخزى ، والبوار .

* [ لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ] حيث زين له ، ما هو عليه من الضلال ، بخدعه وتسويله .

[ وكان الشيطان للانسان خذولا ] يزين له الباطل ، ويقبح له الحق ، ويعده الأمانى ، ثم يتخلى عنه ، ويتبرأ منه ، كما قال لجميع أتباعه ، حين قضى الأمر ، وفرغ الله من حساب الخلق « وقال الشيطان إن الله وعدكم وعد

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ

---

الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل » الآية .

فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان ، وَلْيَتَدَارَكِ الممكن قبل أن لا يمكن .

وَلْيُوَالِ مَنْ ولايته ، فيها سعادته ، وَلْيُعَادِ مَنْ تنفعه عداوته ، وتضره صداقته . والله الموفق .

* [ وقال الرسول ] مناديا لربه ، وشاكيا له إعراض قومه عما جاء به ، ومتأسفا على ذلك منهم : [ يا رب إن قومى ] الذى أرسلتنى لهدايتهم وتبليغهم .

[ اتخذوا هذا القرآن مهجورا ] أى قد أعرضوا عنه ، وهجروه ، وتركوه ، مع أن الواجب عليهم ، الانقياد لحكمه ، والإقبال على أحكامه، والمشى خلفه .

قال الله مسليا لرسوله ، ومخبرا ، أن هؤلاء الخلق ، لهم سلف ، صنعوا كصنيعهم ، فقال :

* [ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ] أى من الذين لا يصلحون للخير ، ولا يزكون عليه ، يعارضونهم ، ويردون عليهم ، ويجادلونهم بالباطل .

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

---

من بعض فوائد ذلك ، أن يعلو الحق على الباطل ، وأن يتبين الحق ، ويتضح اتضاحا عظيما لأن معارضة الباطل للحق ، مما تزيده وضوحا وبيانا ، وكمال استدلال ، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة ، وبأهل الباطل من العقوبة . فلا تحزن عليهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

[ وكفى بربك هاديا ] يهديك ، فيحصل لك المطلوب ، ومصالح دينك ودنياك .

[ ونصيرا ] ينصرك على أعدائك ، ويدفع عنك كل مكروه ، فى أمر الدين والدنيا ، فاكْتَفِ به ، وتوكل عليه .

*هذا من جملة مقترحات الكفار ، الذى توحيه إليهم أنفسهم فقالوا :

[ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ] وأى محذور من نزوله على هذا الوجه ؟ ، بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن .

ولهذا قال : [ كذلك ] أنزلناه متفرقا [ لنثبت به فؤادك ] لأنه كلما نزل عليه شىء من القرآن ، ازداد طمأنينة وثباتا ، وخصوصا عند ورود أسباب القلق ، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب ، يكون له موقع عظيم ، وتثبيت كثير ، أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ، ثم تذكره عند حلول سببه .

[ ورتلناه[1] ترتيلا ] أى مهلناه ، ودرجناك فيه تدريجا .

---

(١) رتلناه . أى : أنزلناه وفرقناه ، آية بعد آية .

وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن ، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل إنزال كتابه ، جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية .

ولهذا قال : [ ولا يأتونك بمثل ] يعارضون به الحق ، ويدفعون به رسالتك .

[ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ] أى : أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق فى معانيه ، والوضوح ، والبيان التام فى ألفاظه .

فمعانيه كلها ، حق وصدق ، لا يشوبها باطل ولا شبهة ، بوجه من الوجوه .

وألفاظه وحدوده للأشياء ، أوضح ألفاظا ، وأحسن تفسيرا ، مبين للمعانى بيانا كاملا .

وفى هذه الآية ، دليل على أنه ينبغى للمتكلم فى العلم ، من محدث، ومعلم، وواعظ ، أن يقتدى بربه ، فى تدبيره ، حال رسوله .

كذلك العالم ، يدبر أمر الخلق ، وكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك ، من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمواعظ الموافقة لذلك .

وفيه رد على المتكلفين ، من الجهمية ونحوهم ، ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ، ولها معان غير ما يفهم منها .

فإذاً ـ على قولهم ـ لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره .

وإنما التفسير الأحسن ـ على زعمهم ـ تفسيرهم الذى حرفوا له المعانى تحريفا .

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ

---

* يخبر تعالى ، عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله ، وسوء مآلهم وأنهم [ يحشرون على وجوههم ] فى أشنع مرأى ، وأفظع منظر ، تسحبهم ملائكة العذاب ، ويجرونهم [ إلى جهنم ] الجامعة لكل عذاب وعقوبة .

[ أولئك ] الذين بهذه الحال [ شر مكانا ] ممن آمن بالله وصدق رسله .

[ وأضل سبيلا ] وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل ، فيما ليس فى الطرف الآخر منه شىء ، فإن المؤمنين ، حسن مكانهم ، ومستقرهم ، واهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، وفى الآخرة إلى الوصول ، إلى جنات النعيم .

* أشار تعالى إلى هذه القصص ، وقد بسطها فى آيات أخر ، لِيُحَذِّرَ المخاطبين ، من استمرارهم على تكذيب رسولهم ، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم ، الذين كانوا قريبا منهم ، ويعرفون قصصهم ، بما استفاض واشتهر عنهم .

ومنهم من يرون آثارهم ، عيانا ، كقوم صالح فى الْحِجْرِ ، وكالقرية التى أُمْطِرَتْ مطر السَّوْء ، بحجارة من سجيل ، يمرون عليهم ، مصبحين ، وبالليل فى أسفارهم .

فإن أولئك الأمم ، ليسوا شرا منهم ، ورسلهم ، ليسوا خيرا من

وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ
وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا
وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا
ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

---

رسول هؤلاء[1] .

« أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » .

ولكن الذى منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثا ولا نشورا .

فلا يرجون لقاء ربهم ، ولا يخشون نكاله ، فلذلك استمروا على عنادهم .

وإلا ، فقد جاءهم من الآيات ، مالا يبقى معه شك ولا شبهة ، ولا إشكال ، ولا ارتياب .

---

(١) قوله « فإن أولئك الأمم الخ » تعبير يشعر أن لا تفاضل بين الرسل مع أن الله تعالى أثبت التفاضل بينهم بقوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فلو قال ( فإن دعوة رسلكم أيها المكذبون للنبى ليست خيراً من دعوة رسل الأمم التى قبلكم كما أن شرارهم ليسوا شراً منكم ) لانتظم الكلام وحصل التناسب مع ما بعده .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

* [ وإذا رأوك ] يا محمد ، أى : هؤلاء المكذبون لك ، المعاندون لآيات الله ، المستكبرون فى الأرض ، استهزءوا بك ، واحتقروك ، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار - : [ أهذا الذى بعث الله رسولا ] أى غير مناسب ، ولا لائق ، أن يبعث الله هذا الرجل .

وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم ، وقلبهم الحقائق ، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - فى غاية الخسة والحقارة ، وأنه لو كانت الرسالة لغيره ، لكان أنسب .

« وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

فهذا الكلام ، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم ، أو من أعظمهم عنادا ، وهو متجاهل .

قصده ، ترويج ما معه من الباطل ، بالقدح بالحق ، وبمن جاء به .

وإلا ، فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وجده رجل العالم ، وهامهم ، ومقدمهم فى العقل ، والعلم ، واللب ، والرزانة ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، والعفة ، والشجاعة ، وكل خُلُقٍ فاضل .

وأن المحتقر له ، والشانىء له ، قد جمع من السفه والجهل ، والضلال ، والتناقض ، والظلم ، والعدوان ، ما لا يجمعه غيره .

وحسبه جهلا وضلالا ، أن يقدح بهذا الرسول العظيم ، والهام الكريم .

عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾
أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

---

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به ، تَصلُّبُهُمْ على باطلهم ، وتغرير ضعفاء العقول .

ولهذا قالوا : [ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ] بأن يجعل الآلهة إلها واحدا [ لولا أن صبرنا عليها ] لأضلنا ، .

فزعموا ـ قبحهم الله ـ أن الضلال هو التوحيد ، وأن الهدى ، ما هم عليه من الشرك ، فلهذا تواصوا بالصبر عليه .

« وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم »

وهنا قالوا : [ لو لا أن صبرنا عليها ] والصبر يحمد فى المواضع كلها ، إلا فى هذا الموضع ، فإنه صبر على أسباب الغضب ، وعلى الاستكثار من حطب جهنم .

وأما المؤمنون ، فهم كما قال الله عنهم « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ولما كان هذا ، حكما منهم ، بأنهم المهتدون ، والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم ، توعدهم بالعذاب ، وأخبر أنهم فى ذلك الوقت [ حين يرون العذاب ] يعلمون علما حقيقياً [ من أضل سبيلا ] « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » الآيات .

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده ، فما هويه ، فعله ، فلهذا قال : [ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ] ألا تعجب من حاله ، وتنظر ما هو فيه من الضلال ؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة ؟ .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ

---

[ أفأنت تكون عليه وكيلا ] أى : لست عليه بمسيطر مسلط ، بل إنما أنت منذر .

قد قمت بوظيفتك ، وحسابه على الله .

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ ، بأن سلبهم العقول والأسماع،وشبههم فى ضلالهم بالأنعام السائمة ، التى لا تسمع ، إلا دعاء ونداء ، صم ، بكم ، عمى فهم لا يعقلون ، بل هم أضل من الأنعام ، فإن الأنعام يهديها راعيها فتهتدى ، وتعرف طريق هلاكها ، فتجتنبه ، وهى أيضا أسلم عاقبة من هؤلاء .

فتبين بهذا ، أن الرامى للرسول بالضلال ، أحق بهذا الوصف ، وأن كل حيوان بهيم ، فهو أهدى منه .

* أى : ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ، كمال قدرة ربك ، وسعة رحمته ، أنه مدَّ على العباد ، الظل ، وذلك قبل طلوع الشمس [ ثم جعلنا الشمس عليه ] أى : على الظل [ دليلا ] .

فلولا وجود الشمس ، لما عرف الظل ، فإن الضد يعرف بضده .

[ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ] فكلما ارتفعت الشمس ، تقلص الظل ، شيئا فشيئا ، حتى يذهب بالكلية .

فتوالى الظل والشمس على الخلق ، الذى يشاهدونه عيانا ، وما يترتب

سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

---

على ذلك،من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وتعاقب الفصول،وحصول المصالح الكثيرة ، بسبب ذلك ـ من أدل دليل ، على قدرة الله وعظمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بعباده ، وأنه وحده ، المعبود المحمود ، المحبوب المعظم ، ذو الجلال والإكرام .

٭ أى : من رحمته بكم ولطفه ، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس ، الذى يغشاكم ، حتى تستقروا فيه ، وتهدأوا بالنوم ، وتسبت حركاتكم ، أى : تنقطع عند النوم .

فلولا الليل ، لما سكن العباد ، ولا استمروا فى تصرفهم ، فضرهم ذلك غاية الضرر .

ولو استمر أيضا الظلام لتعطلت عليهم ، معايشهم ، ومصالحهم .

ولكنه جعل النهار نشورا ينتشرون فيه ، لتجاراتهم ، وأسفارهم ، وأعمالهم ، فيقوم بذلك ، ما يقوم من المصالح .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

* أى : هو وحده ، الذى رحم عباده ، وأدرّ عليهم رزقه ، بأن أرسل الرياح مبشرات ، بين يدى رحمته ، وهو : المطر .

فثار بها السحاب ، وتألف ، وصار كسفا ، وألقحته ، وأدرته بإذن ربها ، والمتصرف فيها ، ليقع استبشار العباد بالمطر ، قبل نزوله ، وليستعدوا له ، قبل أن يفجأهم دفعة واحدة .

[ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ] يطهر من الحدث ، والخبث ، ويطهر من الغش والأدناس .

وفيه بركة من بركته ، أنه أنزله ليحيي به ، بلدة ميتا ، فتختلف أصناف النباتات ، والأشجار فيها ، مما يأكل الناس والأنعام .

[ ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ] أى : نسقيكموه ، أنتم وأنعامكم .

أليس الذى أرسل الرياح المبشرات ، وجعلها ، فى عملها متنوعات ، وأنزل من السماء ، ماء طهورا مباركا ، فيه رزق العباد ، ورزق بهائمهم ، هو الذى يستحق أن يعبد ، وحده ، ولا يشرك معه غيره ؟

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة ، وصرفها للعباد ، ليعرفوه ، ويشكروه ، ويذكروه مع ذلك [ فأبى أكثر الخلق إلا كفورا ] لفساد أخلاقهم وطبائعهم .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن نفوذ مشيئته ، وأنه لو شاء ، لبعث فى كل قرية نذيرا ، أى : رسولا ، ينذرهم ، ويحذرهم فمشيئته ، غير قاصرة عن ذلك .

ولكن اقتضت حكمته ، ورحمته بك ، وبالعباد ، يا محمد ـ أن أرسلك إلى جميعهم ، أحمرهم ، وأسودهم ، عربيهم ، وعجميهم ، إنسهم وجنهم .

[ فلا تطع الكافرين ] فى ترك شىء مما أرسلت به ، بل ابذل جهدك ، فى تبليغ ما أرسلت به .

[ وجاهدهم ] بالقرآن [ جهادا كبيرا ] أى : لا تبق من مجهودك فى نصر الحق ، وقمع الباطل ، إلا بذلته ، ولو رأيت منهم ، من التكذيب والجراءة ، ما رأيت ، فابذل جهدك ، واستفرغ وسعك ، ولا تيأس من هدايتهم ، ولا تترك إبلاغهم ، لأهوائهم .

* أى : وهو وحده الذى مرج البحرين يلتقيان ، البحر العذب ، وهى الأنهار السارحة على وجه الأرض ، والبحر الملح ، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد .

[ وجعل بينهما برزخا ] أى : حاجزا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر ، فيذهب المنفعة المقصودة منها [ وحجرا محجورا ] أى : حاجزا حصينا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

* أى : وهو الله وحده لا شريك له ، الذى خلق الآدمى ، من ماء مهين ثم نشر منه ذرية كثيرة ، وجعلهم أنسابا وأصهارا ، متفرقين ومجتمعين ، والمادة كلها من ذلك الماء المهين ، .

فهذا يدل على كمال اقتداره ، لقوله : [ وكان ربك قديرا ] ويدل على أن عبادته ، هى الحق ، وعبادة غيره ، باطلة لقوله : [ ويعبدون من دون الله ] إلى [ ظهيراً ] .

* أى : يعبدون أصناما وأمواتا ، لا تضر ولا تنفع ، ويجعلونها أندادا لمالك النفع والضرر ، والعطاء والمنع مع أن الواجب عليهم ، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم ، ذابين(١) عن دينه .

ولكنهم عكسوا القضية .

[ وكان الكافر على ربه ظهيراً ] فالباطل الذى هو الأوثان والأنداد ، أعداء لله .

فالكافر عاونها ، وظاهرها على ربها ، وصار عدوا لربه ، مبارزاً له فى العداوة والحرب .

وهذا ، وهو الذى خلقه ورزقه ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة ،

---

(١) ذابين . أى : ناصرين دين الله ومدافعين عنه .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

---

وليس يخرج عن ملكه ،وسلطانه ، وقبضته والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو — بجهله — مستمر على هذه المعاداة والمبارزة .

* يخبر تعالى : أنه ما أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، مسيطراً على الخلق ، ولا جعله ملكا ، ولا عنده خزائن الأشياء .

وإنما أرسله [ مبشرا ] يبشر من أطاع الله ، بالثواب العاجل ، والآجل .

[ ونذيرا ] ينذر من عصى الله ، بالعقاب العاجل ، والآجل ، وذلك مستلزم ، لتبيين ما به البشارة ، وما تحصل به النذارة ، من الأوامر والنواهى .

وإنك ، يا محمد ، لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى ، أجرا ، حتى يمنعهم ذلك ، من اتباعك ، ويتكلفون من الغرامة .

[ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ] أى : إلا من شاء ، أن ينفق نفقة فى مرضاة ربه وسبيله ، فهذا وإن رغبتكم فيه ، فلست أجبركم عليه ، وليس أيضاً أجراً لى عليكم ، وإنما هو راجع لمصلحتكم ، وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم .

ثم أمره أن يتوكل عليه ، ويستعين به فقال :

[ وتوكل على الحى ] الذى له الحياة الكاملة المطلقة [ الذى لا يموت

خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ

---

وسبح بحمده ] أى : اعبده ، وتوكل عليه فى الأمور المتعلقة بك ، والمتعلقة بالخلق .

[ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ] يعلمها ، ويجازى عليها .

فأنت ، ليس عليك من هداهم شيء ، وليس عليك حفظ أعمالهم .

وإنما ذلك كله ، بيد الله [ الذى خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى ] بعد ذلك [على العرش] الذى هو سقف المخلوقات ، وأعلاها ، وأوسعها ، وأجملها [ الرحمن ] استوى على عرشه ، الذى وسع السموات والأرض ، باسمه الرحمن ، الذى وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات ، بأوسع الصفات .

وأثبت بهذه الآية ، خلقه للمخلوقات ، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم ، وعلوه فوق العرش ، ومباينته إياهم .

[ فاسأل به خبيرا ] يعنى بذلك،نفسه الكريمة ، فهو الذى يعلم أوصافه، وعظمته ، وجلاله .

وقد أخبركم بذلك ، وأبان لكم من عظمته ، ما تستعدون به من معرفته ، فعرفه العارفون ، وخضعوا لجلاله .

واستكبر عن عبادته الكافرون ، واستنكفوا عن ذلك ، ولهذا قال:

[ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ] أى : وحده ، الذى أنعم عليكم بسائر النعم ، ودفع عنكم جميع النقم .

لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

[ قالوا ] جحدا وكفرا [ وما الرحمن ] بزعمهم الفاسد،أنهم لا يعرفون الرحمن .

وجعلوا من جملة قوادحهم فى الرسول ، أن قالوا : ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله ، وهو يدعو معه إلها آخر ، يقول « يا رحمن » ونحو ذلك ، كما قال تعالى .

« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

فأسماؤه تعالى كثيرة ، لكثرة أوصافه ، وتعدد كماله ، فكل واحد منها ، دل على صفة كمال .

[ أنسجد لما تأمرنا ] أى : لمجرد أمرك إيانا ، .

وهذا مبنى منهم على التكذيب بالرسول ، واستكبارهم عن طاعته .

[ وزادهم ] دعوتهم إلى السجود للرحمن [ نفورا ] هربا من الحق إلى الباطل ، وزيادة كفر وشقاء .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ

* كرر تعالى فى هذه السورة الكريمة قوله [ تبارك ] ثلاث مرات ، لأن معناها كما تقدم ، أنها تدل على عظمة البارى ، وكثرة أوصافه ، وكثرة خيراته وإحسانه .

وهذه السورة ، فيها من الاستدلال على عظمته ، وسعة سلطانه ، ونفوذ مشيئته ، وعموم علمه وقدرته ، وإحاطة ملكه فى الأحكام الأمرية الجزائية وكمال حكمته .

وفيها ، ما يدل على سعة رحمته ، وواسع جوده ، وكثرة خيراته ، الدينية والدنيوية ، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال :

[ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ] وهى : النجوم،عمومها أومنازل الشمس والقمر التى تنزل منزلة منزلة ، وهى بمنزلة البروج ، والقلاع للمدن فى حفظها .

كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين .

[ وجعل فيها سراجا ] فيه النور والحرارة ، وهى : الشمس .

[ وقمرا منيرا ] فيه النور ، لا الحرارة ، وهذا من أدلة عظمته ، وكثرة إحسانه .

فإن ما فيها من الخلق الباهر ، والتدبير المنتظم ، والجمال العظيم ، دال على عظمة خالقها فى أوصافه كلها .

وما فيها من المصالح للخلق ، والمنافع ، دليل على كثرة خيراته .

أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

[ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ] أى : يذهب أحدهما ، فيخلفه الآخر .

وهكذا أبدا ، لا يجتمعان ، ولا يرتفعان .

[ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ] أى : لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ، ويشكر الله على ذلك .

ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره ، ورْدٌ من الليل أو النهار .

فمن فاته وِرْدُهُ من أحدهما ، أدركه فى الآخر .

وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل ، فى ساعات الليل والنهار ، فيحدث لها النشاط والكسل ، والذكر والغفلة ، والقبض والبسط ، والإقبال والإعراض .

فجعل الله الليل والنهار ، يتوالى كل منهما على العباد ، ويتكرران ، ليحدث لهم الذكر والنشاط ، والشكر لله فى وقت آخر .

ولأن أوقات العبادات ، تتكرر بتكرر الليل والنهار .

فكلما تكررت الأوقات ، أحدث للعبد همة غير همته ، التى كسلت عنه ، فى الوقت المتقدم ، فزاد فى تذكرها وشكرها .

فوظائف الطاعات ، بمنزلة سَقْيِ الإيمان ، الذى يمده ، فلولا ذلك ، لذوى[1] غرس الإيمان ، ويبس .

فلله أتم حمد ، وأجمله على ذلك .

(١) ذوى . أى : ذبل .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا

---

ثم ذكر من جملة كثرة خيره ، منته على عباده الصالحين ، وتوفيقهم للأعمال الصالحات ، التى أكسبتهم المنازل العاليات ، فى غرف الجنات فقال : [ وعباد الرحمن ] إلى [ فسوف يكون لزاماً ] .

* العبودية لله نوعان :

عبودية لربوبيته ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم .

فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » .

وعبودية لألوهيته ، وعبادته ، ورحمته ، وهى : عبودية أنبيائه ، وأوليائه ، وهى المراد هنا ، ولهذا أضافها إلى اسمه « الرحمن » إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال ، بسبب رحمته .

فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل النعوت .

فوصفهم بأنهم [ يمشون على الأرض هونا ] أى : ساكنين متواضعين لله ، وللخلق ، فهذا وصف لهم ، بالوقار ، والسكينة ، والتواضع لله ، ولعباده .

[ وإذا خاطبهم الجاهلون ] أى : خطاب جهل ، بدليل إضافة الفعل ، وإسناده لهذا الوصف .

[ قالوا سلاما ] أى : خاطبوهم خطابا يسلمون فيه ، من الإثم ، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله .

وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ

---

وهذا مدح لهم ، بالحلم الكثير ، ومقابلة المسيء بالإحسان ، والعفو عن الجاهل ، ورزانة العقل الذى أوصلهم إلى هذه الحال .

[ والذى يبيتون لربهم سجدا وقياما ] أى : يكثرون من صلاة الليل ، مخلصين فيها لربهم ، متذللين له ، كما قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

[ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ] أى : ادفعه عنا ، بالعصمة من أسبابه ، ومغفرة ما وقع منا ، مما هو مقتض للعذاب .

[ إن عذابها كان غراما ] أى : ملازما لأهلها ، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه(١) .

[ إنها ساءت مستقرا ومقاما ] وهذا منهم ، على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم إليه ، وأنهم ليس فى طاقتهم احتمال هذا العذاب .

وليتذكروا مِنَّةَ الله عليهم .

فإن صرف الشدة ، بحسب شدتها وفظاعتها ، يعظم وَقْعُهَا ويشتد الفرح بصرفها .

---

(١) قوله « ملازمة الغريم لغريمه » أى : ملازمة الدائن للمديون حيث لا يفارقه بإلحاحه فى مطالبته بأداء ما استدانه حتى يؤديه حقه .

إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

---

[ والذين إذا أنفقوا ] النفقات الواجبة والمستحبة [ لم يسرفوا ] بأن يزيدوا على الحد ، فيدخلوا فى قسم التبذير ، وإهمال الحقوق الواجبة .

[ ولم يقتروا ] فيدخلوا فى باب البخل والشح [ وكان ] إنفاقهم [ بين ذلك ] بين الإسراف والتقتير [ قواما ] يبذلون فى الواجبات من الزكوات، والكفارات ، والنفقات الواجبة ، وفيما ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى ، من غير ضرر ولا ضرار ، وهذا من عدلهم واقتصادهم .

[ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ] بل يعبدونه وحده ، مخلصين له الدين ، حنفاء ، مقبلين عليه ، معرضين عما سواه .

[ ولا يقتلون النفس التى حرم الله ] وهو نفس المسلم ، والكافر المُعَاهَد .

[ إلا بالحق ] كقتل النفس بالنفس ، وقتل الزانى المحصن ، والكافر الذى يحل قتله .

[ ولا يزنون ] بل يحفظون فروجهم « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » .

[ ومن يفعل ذلك ] أى : الشرك بالله ، أو قتل النفس ، التى حرم الله بغير حق ، أو الزنا .

فسوف [ يلق أثاما ] ثم فسره بقوله [ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه ] أي : فى العذاب [ مهانا ] .

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

---

فالوعيد بالخلود ، لمن فعلها كلها ، ثابت لا شك فيه ، وكذا لمن أشرك بالله .

وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد ، على كل واحد من هذه الثلاثة ، لكونها ، إما شرك ، وإما من أكبر الكبائر .

وأما خلود القاتل والزانى فى العذاب ، فإنه لا يتناوله الخلود ، لأنه قد دلت النصوص القرآنية ، والسنة النبوية ، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ، ولا يخلد فيها مؤمن ، ولو فعل من المعاصى ما فعل .

ونص تعالى على هذه الثلاثة ، لأنها أكبر الكبائر :

فالشرك ، فيه فساد الأديان .

والقتل ، فيه فساد الأبدان ، والزنا ، فيه فساد الأعراض .

[ إلا من تاب ] عن هذه المعاصى وغيرها ، بأن أقلع عنها فى الحال ، وندم على ما مضى له من فعلها ، وعزم عزما حازما أن لا يعود .

[ وآمن ] بالله إيمانا صحيحا ، يقتضى ترك المعاصى ، وفعل الطاعات .

[ وعمل عملا صالحا ] مما أمر به الشارع ، إذا قصد به وجه الله .

[ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ] أى: تتبدل أفعالهم ، التى كانت مستعدة لعمل السيئات ، تتبدل حسنات .

فيتبدل شركهم إيمانا ، ومعصيتهم طاعة ، وتتبدل نفس السيئات ،

حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟

---

التى عملوها ، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة ، وإنابة ، وطاعة ، تبدل حسنات ، كما هو ظاهر الآية .

وورد فى ذلك، حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه ، فَعَدَّدَها عليه ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال : « يارب إن لى سيئات لا أراها ههنا » والله أعلم .

[ وكان الله غفورا ] لمن تاب ، يغفر الذنوب العظيمة [ رحيما ] بعباده ، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ، ثم وفقهم لها ، ثم قبلها منهم .

[ ومن تاب وعمل صالحا ، فإنه يتوب إلى الله متابا ] أى : فَلْيَعْلَمْ أن توبته ، فى غاية الكمال ، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذى هو عين سعادة العبد وفلاحه ، فَلْيُخْلِصْ فيها ، ولْيُخَلِّصْهَا من شوائب الأغراض الفاسدة .

فالمقصود من هذا ، الحث على تكميل التوبة ، واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها ، ليقدم على من تاب إليه ، فيوفيه أجره ، بحسب كمالها .

[ والذين لا يشهدون الزور ] أى : لا يحضرون الزور ، أى : القول والفعل المحرم .

فيجتنبون جميع المجالس ، المشتملة على الأقوال المحرمة ، أو الأفعال المحرمة .

بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

---

كالخوض فى آيات الله ، والجدال الباطل ، والغيبة ، والنميمة ، والسب ، والقذف ، والاستهزاء ، والغناء المحرم ، وشرب الخمر ، وفرش الحرير ، والصور ، ونحو ذلك .

وإذا كانوا لا يشهدون الزور ، فمن باب أولى وأحرى ، أن لا يقولوه ويفعلوه .

وشهادة الزور داخلة فى قول الزور ، تدخل فى هذه الآية بالأولوية .

[ وإذا مروا باللغو ] وهو الكلام الذى لا خير فيه ، ولا فيه فائدة دينية ، ولا دنيوية ، ككلام السفهاء ونحوهم [ مروا كراما ] أى : نزهوا أنفسهم ، وأكرموها عن الخوض فيه ، ورأوا أن الخوض فيه ، وإن كان لا إثم فيه ، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة ، فربأوا بأنفسهم عنه .

وفى قوله [ وإذا مروا باللغو ] إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ، ولا سماعه .

ولكن عند المصادفة ، التى من غير قصد ، يكرمون أنفسهم عنه .

[ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ] التى أمرهم باستماعها ، والاهتداء بها .

[ لم يخروا عليها صما وعميانا ] أى لم يقابلوها بالإعراض عنها ، والصمم عن سماعها ، وصرف النظر والقلوب عنها ، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق .

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ

---

وإنما حالهم فيها ، وعند سماعها ، كما قال تعالى : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون » .

يقابلونها بالقبول والافتقار إليها ، والانقياد ، والتسليم لها .

وتجد عندهم آذانا سامعة ، وقلوبا واعية ، فيزداد بها إيمانهم،ويتم بها، إيقانهم ، وتحدث لهم نشاطا ، ويفرحون بها سرورا واغتباطا .

[ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا ] أى:قرنائنا من أصحاب وأقران ، وزوجات .

[ وذرياتنا قرة أعين ] أى : تَقَرُّبهم أعيننا .

[ وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم ، عرفنا من هممهم ، وعلو مرتبتهم ، أن دعاءهم لذرياتهم ، فى صلاحهم ، فإنه دعاء لأنفسهم ، لأن نفعه يعود عليهم ، ولهذا جعلوا ذلك ، هبة لهم فقالوا : [ هب لنا ] بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين ، لأن صلاح من ذكر ، يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم ، وينتفع بهم .

[ واجعلنا للمتقين إماما ] أى : أوصلنا ياربنا ، إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين ، والكمل من عباد الله الصالحين ، وهى درجة الإمامة فى الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين ، فى أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ، ويسير أهل الخير خلفهم ، فيهدون ، ويهتدون .

ومن المعلوم ، أن الدعاء ببلوغ شيء ، دعاء بما لا يتم إلا به .

وهذه الدرجة ـ درجة الإمامة فى الدين ـ لا تتم إلا بالصبر واليقين ، كما قال تعالى :

يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

فهذا الدعاء ، يستلزم من الأعمال ، والصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وأقداره المؤلمة ، ومن العلم التام ، الذى يوصل صاحبه إلى درجة اليقين ـ خيراً كثيراً ، وعطاء جزيلا ، وأن يكونوا فى أعلى ، مايمكن من درجات الخلق بعد الرسل .

ولهذا ـ لما كانت هممهم ومطالبهم عالية ـ كان الجزاء من جنس العمل ، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال :

[ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ] أى : المنازل الرفيعة ، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل مايشتهى ، وتلذه الأعين ، وذلك بسبب صبرهم ، نالوا ما نالوا ، كما قال تعالى :

« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ولهذا قال هنا : [ويلقون فيها تحية وسلاما ] من ربهم ، ومن ملائكته الكرام ، ومن بعض على بعض ، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات .

والحاصل : أن الله وصفهم بالوقار والسكينة ، والتواضع له ولعباده ، وحسن الأدب ، والحلم ، وسعة الخلق ، والعفو عن الجاهلين ، والإعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان ، وقيام الليل ، والإخلاص فيه ، والخوف من النار ، والتضرع لربهم ، أن ينجيهم منها ، وإخراج الواجب والمستحب فى النفقات ، والاقتصاد فى ذلك .

. . . . . . . . . .

---

وإذا كانوا مقتصدين فى الإنفاق ، الذى جرت العادة ، بالتفريط فيه ، أو الإفراط .

فاقتصادهم ، وتوسطهم فى غيره ، من باب أولى .

والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله فى عبادته ، والعفة عن الدماء والأعراض ، والتوبة عند صدور شىء من ذلك ، وأنهم لايحضرون مجالس المنكر ، والفسوق القولية والفعلية ، ولا يفعلونها بأنفسهم ، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية ، التى لا خير فيها ، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم ، وكمالهم ، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس ، قولى وفعلى .

وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها ، والتفهم لمعانيها ، والعمل بها ، والاجتهاد فى تنفيذ أحكامها .

وأنهم يدعون الله تعالى ، بأكمل الدعاء فى الدعاء ، الذى ينتفعون به وينتفع به من يتعلق بهم ، وينتفع به المسلمون ، من صلاح أزواجهم وذريتهم .

ومن لوازم ذلك، سعيهم فى تعليمهم ، ووعظهم ، ونصحهم ، لأن من حرص على شىء ودعا الله فيه ، لا بد أن يكون متسببا فيه .

وأنهم دعوا الله يبلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم ، وهى : درجة الإمامة والصديقية .

فلله ، ما أعلى هذه الصفات ، وأرفع هذه الهمم ، وأجل هذه المطالب ، وأزكى تلك النفوس ، وأطهر تيك القلوب ، وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة ! ! .

. . . . . . . . . . .

---

ولله ، فضل الله عليهم ، و نعمته ، ورحمته ، التي جللتهم ولطفه الذى أوصلهم إلى هذه المنازل .

ولله ، مِنّة الله على عباده ، أن بين لهم أوصافهم ، ونعت لهم هيئاتهم ، وبين لهم هممهم ، وأوضح لهم أجورهم ، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم ، ويبذلوا جهدهم فى ذلك ، ويسألوا الذى مَنّ عليهم ، وأكرمهم ، الذى فضله فى كل زمان ومكان ، وفى كل وقت وأوان ، أن يهديهم كما هداهم ، ويتولاهم بتربيته الخاصة ، كما تولاهم .

فاللهم ، لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة ، إلا بك .

لا نملك لأنفسنا ، نفعا ولا ضرا ، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير ، إن لم تيسر ذلك لنا .

فإنا ضعفاء ، عاجزون من كل وجه .

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وكلتنا إلى ضعف ، وعجز وخطية .

فلا نثق ، ياربنا ، إلا برحمتك التى بها خلقتنا ورزقتنا ، وأنعمت علينا ، بما أنعمت ، من النعم الظاهرة والباطنة ، وصرفت عنا من النقم .

فارحمنا رحمة ، تغنينا بها عن رحمة من سواك ، فلا خاب من سألك ورجاك .

ولما كان الله تعالى ، قد أضاف هؤلاء العباد ، إلى رحمته ، واختصهم

فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

---

بعبوديته ، لشرفهم وفضلهم ، ربما توهم متوهم ، أنه ، وأيضا غيرهم ، فلم لا يدخل فى العبودية ؟ .

فأخبر تعالى ، أنه لا يبالى ، ولا يعبأ بغير هؤلاء ، وأنه لولا دعاؤكم إياه ، دعاء العبادة ، ودعاء المسئلة ، ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال :

[ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ] أى : عذاباً يلزمكم ، لزوم الغريم لغريمه ، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين .

تم تفسير سورة الفرقان ، فلله الحمد والثناء والشكر أبدا .

# تفسـير

# سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم

---

* يشير البارى تعالى إشارة ، تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح ، الدال على جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية ، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه ، شك ولا شبهة فيما أخبر به ، أو حكم به ، لوضوحه ، ودلالته على أشرف المعانى ، وارتباط الأحكام بحكمها ، وتعليقها بمناسبها .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينذر به الناس ، ويهدى به الصراط المستقيم .

فيهتدى بذلك عباد الله المتقون ، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء .

فكان يحزن حزناً شديداً ، على عدم إيمانهم ، حرصاً منه على الخير ، ونصحا لهم .

فلهذا قال تعالى لنبيه [لعلك باخع نفسك] أى : مهلكها وشاقا عليها .

[ أن لا يكونوا مؤمنين ] أى : فلا تفعل ، ولا تذهب نفسك عليهم

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ

---

حسرات ، فإن الهداية بيد الله ، وقد أديت ما عليك من التبليغ .

وليس فوق هذا القرآن المبين ، آية ، حتى نتزلها ، ليؤمنوا بها ، فإنه كاف شاف ، لمن يريد الهداية ، ولهذا قال :

[ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية ] أى : من آيات الاقتراح .

[ فظلت أعناقهم ] أى : أعناق المكذبين [ لها خاضعين ] ولكن لا حاجة إلى ذلك ، ولا مصلحة فيه ، فإنه إذ ذاك الوقت ، يكون الإيمان غير نافع .

وإنما الإيمان النافع ، هو الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها » الآية .

[ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ] يأمرهم وينهاهم ، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم .

[ إلا كانوا عنه معرضين ] بقلوبهم وأبدانهم .

هذا إعراضهم عن الذكر المحدث ، الذى جرت العادة ، أنه يكون موقعه ، أبلغ من غيره ، فكيف بإعراضهم عن غيره .

وهذا ، لأنهم لا خير فيهم ، ولا تنجع فيهم المواعظ ، ولهذا قال :

كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

---

[ فقد كذبوا ] أى : بالحق ، وصار التكذيب لهم سجية ، لا تتغير ولا تتبدل .

[ فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ] أى : سيقع بهم العذاب ، ويحل بهم ، ما كذبوا به ، فإنهم قد حقت عليهم ، كلمة العذاب .

قال الله منبها على التفكر ، الذى ينفع صاحبه :

[ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ] من جميع أصناف النباتات ، حسنة المنظر ، كريمة فى نفعها .

[ إن فى ذلك لآية ] على إحياء الله الموتى بعد موتهم ، كما أحيا الأرض بعد موتها [ وما كان أكثرهم مؤمنين ] كما قال تعالى « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[ وإن ربك لهو العزيز ] الذى قد قهر كل مخلوق ، ودان له العالم العلوى والسفلى .

[ الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووصل جوده إلى كل حى ، العزيز الذى أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات ، الرحيم بالسعداء ، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿١٠﴾
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴿١١﴾قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴿١٢﴾

---

* أعاد البارى تعالى ، قصة موسى وثناها فى القرآن ، ما لم يثن غيرها ، لكونها مشتملة على حكم عظيمة ، وعبر ،وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين .

وهو صاحب الشريعة الكبرى ، وصاحب التوراة ، أفضل الكتب بعد القرآن فقال :

واذكر حالة موسى الفاضلة ، وقت نداء الله إياه ، حين كلمه ، ونبأه وأرسله فقال :

[ أن ائت القوم الظالمين ] الذين تكبروا فى الأرض ، وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية .

[ قوم فرعون ألا يتقون ] أى : قل لهم ، بلين قول ، ولطف عبارة [ ألا تتقون ] الله الذى خلقكم ورزقكم ، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر .

فقال موسى عليه السلام ، معتذراً من ربه ، ومبينا لعذره ، وسائلا له المعونة على هذا الحمل الثقيل : [ قال رب إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لسانى ] .

وقال [ « رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى » .

[ فأرسل إلى هرون ] .

فأجاب الله طلبته ، ونبأ أخاه ، كما نبأه [ فأرسله معى رداء ] .
أى : معاونا لى على أمرى .

وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَا إِنَّا
مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ

---

[ ولهم على ذنب ] أى : فى قتل القبطى [ فأخاف أن يقتلون ] .

[ قال كلا ] أى : لا يتمكنون من قتلك ، فإنا سنجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون إليكما أنتما ، ومن اتبعكما الغالبون .

ولهذا لم يتمكن فرعون ، من قتل موسى ، مع منابذته له غاية المنابذ ، وتسفيه رأيه ، وتضليله وقومه .

[ فاذهبا بآياتنا ] الدالة على صدقكما ، وصحة ما جئتما به .

[ إنا معكم مستمعون ] أحفظكما وأكلؤكما .

[ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ] أى : أرسلنا إليك ، لتؤمن به وبنا ، وتنقاد لعبادته ، وتذعن لتوحيده .

[ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ] فكف عنهم عذابك ، وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ، ويقيموا أمر دينهم .

فلما جاء فرعون ، وقالا له ، ما قال الله لهما ، لم يؤمن فرعون ، ولم يلن ، وجعل يعارض موسى بقوله [ قال ألم نربك فينا وليدا ] أى : ألم ننعم عليك ، ونقم بتربيتك ، منذ كنت وليدا فى مهدك ، ولم تزل كذلك .

فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ
ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ

---

[ ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت ] وهى قتل موسى للقبطى ، حين استغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوه « فوكزه موسى فقضى عليه » الآية .

[ وأنت من الكافرين ] أى : وأنت ، إذ ذاك طريقك طريقنا(١) ، وسبيلك سبيلنا ، فى الكفر ، فأقر على نفسه بالكفر ، من حيث لا يدرى .

فقال : موسى [ فعلتها إذا وأنا من الضالين ] أى : عن غير كفر ،

---

(١) « وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا الخ » .

هذا القول يوهم أن موسى كان على ملة فرعون قبل الرسالة .

وهذا غير صحيح ، لأن الأنبياء معصومون من الكفر ووسائله .

والصواب ـ كما قاله أبو السعود فى تفسيره ، وكذا الجلالين ـ أن معنى « وأنت من الكافرين » أى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد .

ولأن موسى كان يعايشهم بالتقية ، لا أنه كان يشاركهم فى الدين .

وكيف يكون ذلك والأنبياء معصومون ويعلم مما قررناه أن فى تعبير المؤلف قصوراً وإيهاماً للقارىء بأن موسى كان مشاركاً لهم فى الدين .

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

وإنما كان عن ضلال وسفه[1] ، فاستغفرت ربى فغفر لى .

[ ففررت منكم لما خفتكم ] حين تراجعتم بقتلى ، فهربت إلى مدين ، ومكثت سنين ، ثم جئتكم .

[ فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ] .

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى ، اعتراض جاهل أو متجاهل .

فإنه جعل المانع من كونه رسولا ، أن جرى منه القتل .

فبين له موسى ، أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ[2] ، الذى لم يقصد نفس القتل .

وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد ، فلم منعتم ما منحنى الله ، من الحكم والرسالة ؟ .

---

(١) قوله : « عن ضلال وسفه » إطلاق « السفه » و « الضلال » على الأنبياء غير جائز ولا لائق بمراتبهم العلية فهم معصومون عن ذلك .

والصواب ـ كما قال أبو السعود فى تفسيره ـ الضالين . أى الجاهلين ، وقد قرىء كذلك ، أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله ، بل أراد تأديبه ، أو الناسين عما يؤدى إليه الوكز .

(٢) قوله : « على وجه الضلال الخ » الأولى أن يقال إن موسى لم يعلم أن وكزه يؤدى إلى الموت ، ولم يتعمد قتل القبطى ، بل حصل القتل خطأ فقط

وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ

---

بقى عليك يافرعون ، إدلاؤك بقولك : [ ألم نربك فينا وليدا ] وعند التحقيق ، يتبين أن لامنة لك فيها ، ولهذا قال موسى :

[ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ] أى : تدلى علىّ بهذه المنة لأنك سخرت بنى إسرائيل ، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد .

وأنا قد أسلمتنى من تعبيدك وتسخيرك ، وجعلتها علىّ نعمة .

فعند التصور ، يتبين أن الحقيقة ، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل ، وعذبتهم ، وسخرتهم بأعمالك .

وأنا ، قد سلمنى الله من أذاك ، مع وصول أذاك لقومى .

فما هذه المنة ، التى تمن بها ، وتدلى بها . ؟

[ قال فرعون ومارب العالمين ] وهذا إنكار منه لربه ، ظلما وعلوا مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى فقال : [رب السموات والأرض وما بينهما ] أى : الذى خلق العالم العلوى والسفلى ، ودبره بأنواع التدبير ، ورباه بأنواع التربية .

ومن جملة ذلك ، أنتم أيها المخاطبون ، فكيف تنكرون خالق المخلوقات ، وفاطر الأرض والسموات [ إن كنتم موقنين ] .

فقال فرعون متجرها ، ومعجبا بقوله : [ ألا تستمعون ] ما يقول هذا الرجل .

حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ
ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ

---

فقال موسى [ ربكم ورب آبائكم الأولين ] تعجبتم أم لا ، استكبرتم ، أم أذعنتم .

فقال فرعون معاندا للحق ، قادحا بمن جاء به : [ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ] حيث قال خلاف ما نحن عليه ، وخالفنا فيما ذهبنا إليه .

فالعقل عنده وأهل العقل ، من زعموا أنهم لم يخلقوا ، أو أن السموات والأرض ، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم ، بأنفسهم ، خلقوا من غير خالق .

والعقل عنده ، أن يعبد المخلوق الناقص ، من جميع الوجوه .

والجنون عنده ، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوى والسفلى ، للنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، ويدعى إلى عبادته .

وزين لقومه هذا القول ، وكانوا سفهاء الأحلام ، خفيفى العقول « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

فقال موسى عليه السلام ، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين : [ رب المشرق والمغرب وما بينهما ] من سائر المخلوقات [ إن كنتم تعقلون ] .

أَتَّخَذتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

---

فقد أديت لكم من البيان والتبيين ، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل .

فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به ؟ .

وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذى رميتم به موسى من الجنون ، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا ، وأكملهم علماً .

والحال أنكم ، أنتم المجانين ، حيث ذهبت عقولكم إلى إنكار أظهر الموجودات ، خالق الأرض والسموات وما بينهما ، فإذا جحدتموه ، فأى شىء تثبتون ؟ .

وإذا جهلتموه ، فأى شىء تعلمون ؟ .

وإذا لم تؤمنوا به وبآياته ، فبأى شىء ـ بعد الله وآياته ـ تؤمنون ؟ .

تالله ، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم ، أعقل منكم ، وإن الأنعام السارحة ، أهدى منكم .

فلما خنقت فرعون الحجة ، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة [ قال ] متوعداً لموسى بسلطانه [ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ] .

زعم ـ قبحه الله ـ أنه قد طمع فى إضلال موسى ، وأن لا يتخذ إلها غيره ، وإلا فقد تقرر أنه ، هو ومن معه ، على بصيرة من أمرهم .

فقال له موسى : [ أو لو جئتك بشىء مبين ] أى : آية ظاهرة جلية ، على صحة ما جئت به ، من خوارق العادات .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ

---

[ قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان ] أى : ذكر الحيات .

[ مبين ] ظاهر لكل أحد ، لا خيال ، ولا تشبيه .

[ ونزع يده ] من جيبه [ فإذا هى بيضاء للناظرين ] أى : لها نور عظيم ، لا نقص فيه لمن نظر إليها .

[ قال ] فرعون [ للملأ حوله ] معارضاً للحق ، ومن جاء به .

[ إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم ] موّهَ عليهم لعلمه بضعف عقولهم ، أن هذا من جنس ما يأتى به السحرة ، لأنه من المتقرر عندهم ، أن السحرة يأتون من العجائب ، بما لا يقدر عليه الناس ، وخَوَّفَهُمْ أن قصده بهذا السحر ، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم ، ليجدوا ويجتهدوا فى معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم .

[ فماذا تأمرون ] أن نفعل به ؟

[ قالوا أرجه وأخاه ] أى : أخرهما [ وابعث فى المدائن حاشرين ] جامعين للناس [ يأتوك بكل سحار عليم ] أى : ابعث فى جميع مدنك ، التى هى مقر العلم ، ومعدن السحر ، من يجمع لك كل ساحر ماهر ، عليم فى سحره فإن الساحر يُقَاتَلُ بسحرٍ من جنس سحره .

وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ

---

وهذا من لطف الله أن يرى العباد ، بطلان ما موه به فرعون الجاهل ، الضال ، المضل أن ما جاء به موسى سحر ، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر ، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم ، فيظهر الحق على الباطل ، ويقر أهـل العلم وأهل الصناعة ، بصحة ما جاء به موسى ، وأنه ليس بسحر .

فعمل فرعون برأيهم ، فأرسل فى المدائن ، من يجمع السحرة ، واجتهد فى ذلك ، وجد .

[ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ] قد واعدهم إياه موسى ، وهو يوم الزينة ، الذى يتفرغون فيه من أشغالهم .

[ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ] أى : نودى بعموم الناس بالاجتماع فى ذلك اليوم الموعود .

[ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ] أى : قالوا للناس : اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى ، وأنهم ماهرون فى صناعتهم ، فنتبعهم ، ونعظمهم ، ونعرف فضيلة علم السحر .

فلو وفقوا للحق ، لقالوا ، لعلنا نتبع المحق منهم ، ولنعرف الصواب .

فلذلك ما أفاد فيهم ذلك ، إلا قيام الحجة عليهم .

ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴿٤١﴾قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴿٤٢﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

---

[ فلما جاء السحرة ] ووصلوا لفرعون قالوا له : [ أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ] لموسى ؟

[ قال نعم ] حكم أجر ، وثواب [ وإنكم إذن لمن المقربين ] عندى .

وعدهم الأجر والقربة منه ، ليزداد نشاطهم ، ويأتوا بكل مقدورهم ، فى معارضة ما جاء به موسى .

فلما اجتمعوا للموعد ، هم وموسى ، وأهل مصر ، وعظهم موسى وذكرهم وقال :

[ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم[1] بعذاب وقد خاب من افترى ] فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون ، وشجع بعضهم بعضا .

[ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ] أى : ألقوا كل ما فى خواطركم إلقاؤه . ولم يقيدهم بشىء دون شىء ، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق .

[ فألقوا حبالهم وعصيهم ] فإذا هى حيات تسعى ، وسحروا بذلك أعين الناس .

---

(١) فيسحتكم . أى : يهلككم ، ويستأصلكم . قال الراغب فى « معجم مفردات ألفاظ القرآن » : فَيُسْحِتَكُم ، وقرىء فيَسْحَتَكُمْ ، يقال « سحته وأسحته » ، ومنه : السحت للمحظور الذى يلزم صاحبَه العارُ . كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته ، أكالون للسحت . أى : يسحت دينهم . ا هـ . أى : يستأصل دينهم . وفى القاموس « أسحت الشىءَ وسحَّته » اكتسبه واستأصله . ا هـ .

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾

---

[ وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ] فاستعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه ، إلا أنه قد تجبر ، وحصل له صورة ملك وجنود .

فغرتهم تلك الأبهة ، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر .

أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة فرعون والمقسم عليه ، أنهم غالبون .

[ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ] تبتلع وتأخذ [ ما يأفكون ] فالتقفت ، جميع ما ألقوا ، من الحبال والعصى ، لأنها إفك ، وكذب ، وزور وذلك كله ، باطل لا يقوم للحق ، ولا يقاومه .

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة ، تيقنوا — لعلمهم — أن هذا ليس بسحر ، وإنما هو آية من آيات الله ، ومعجزة تنبىء بصدق موسى ، وصحة ما جاء به .

[ فألقى السحرة ساجدين ] لربهم [ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون ] .

وانقمع الباطل ، فى ذلك المجمع ، وأقر رؤساؤه ، ببطلانه ، ووضح الحق ، وظهر حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم .

ولكن أبى فرعون ، إلا عتوا وضلالا ، وتماديا فى غيه وعنادا .

فقال للسحرة : [ أآمنتم له قبل أن آذن لكم ] يتعجب ، ويعجب قومه من جراءتهم عليه ، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

---

[ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ] .

هذا ، وهو الذى جمع السحرة ، وملأه ، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم .

وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك ، وأنهم جاءوا من السحر ، بما يحير الناظرين ، ويهيلهم ، ومع ذلك ، فراج عليهم هذا القول ، الذى هم بأنفسهم ، وقفوا على بطلانه .

فلا يستنكر على أهل هذه العقول ، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح ، والآيات الباهرة ، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أى شىء كان ، إنه على خلاف حقيقته ، صدقوه .

ثم توعد السحرة فقال : [ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ] أى : اليد اليمنى ، والرجل اليسرى ، كما يفعل بالمفسد فى الأرض .

[ ولأصلبنكم أجمعين ] لتخنزوا ، وتذلوا .

فقال السحرة — حين وجدوا حلاوة الإيمان ، وذاقو لذته — :

[ لا ضير ] أى : لا نبالى بما توعدتنا به [ إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ] من الكفر والسحر ، وغيرها [ أن كنا أول المؤمنين ] بموسى ، من هؤلاء الجنود .

فثبتهم الله وصبرهم .

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ
فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾

---

فيحتمل أن فرعون ، فعل ما توعدهم به ، لسلطانه ، واقتداره إذ ذاك ويحتمل ، أن الله منعه منهم .

ثم لم يزل فرعون وقومه ، مستمرين على كفرهم ، يأتيهم موسى بالآيات البينات .

وكلما جاءتهم آية ، وبلغت منهم كل مبلغ ، وعدوا موسى ، وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ، ليؤمنن به ، وليرسلن معه بنى إسرائيل ، فيكشفه الله ، ثم ينكثون .

فلما يئس موسى من إيمانهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وآن لبنى إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم ، ويمكن لهم فى الأرض ، أوحى الله إلى موسى :

[ أن أسر بعبادى ] أى : اخرج ببنى إسرائيل أول الليل ، ليتمادوا ، ويتمهلوا فى ذهابهم .

[ إنكم متبعون ] أى : سيتبعكم فرعون وجنوده .

ووقع كما أخبر ، فإنهم لما أصبحوا ، إذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى .

[ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ] يجمعون الناس ، ليوقع ببنى إسرائيل ، ويقول مشجعا لقومه [ إن هؤلاء ] أى : بنى إسرائيل [ لشرذمة قليلون ] .

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم
مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا

---

[ وإنهم لنا لغائظون ] فلا بد أن ننفذ غيظنا فى هؤلاء العبيد ، الذين أبِقُوا منا .

[ وإنا لجميع حاذرون ] أى : الحذر على الجميع منهم ، وهم أعداء للجميع ، والمصلحة مشتركة .

فخرج فرعون وجنوده ، فى جيش عظيم ، ونفير عام ، لم يتخلف منهم ، سوى أهل الأعذار ، الذين منعهم العجز .

قال الله تعالى : [ فأخرجناهم من جنات وعيون ] أى : بساتين مصر وجناتها الفائقة ، وعيونها المتدفقة ، وزروع ، قد ملأت أراضيهم ، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم .

[ وكنوز ومقام كريم ] يعجب الناظرين ، ويلهى المتأملين .

تمتعوا به دهراً طويلا ، وقضوا بلذته وشهواته ، عمراً مديداً ، على الكفر والفساد ، والتكبر على العباد والتيه العظيم .

[ كذلك وأورثناها ] أى : هذه البساتين والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم .

[ بنى إسرائيل ] الذين جعلوهم من قبل عبيدهم ، وسخروا فى أعمالهم الشاقة .

ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

---

فسبحان من يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه عمن يشاء ، ويعز من يشاء بطاعته ، ويذل من يشاء بمعصيته .

[ فأتبعوهم مشرقين ] أى : اتبع قوم فرعون ، قوم موسى ، وقت شروق الشمس ، وساقوا خلفهم محثين ، على غيظ وحنق قادرين .

[ فلما تراءى الجمعان ] أى رأى كل منهما صاحبه .

[ قال أصحاب موسى ] شاكين لموسى وحزنين [ إنا لمدركون ] .

ف [ قال ] موسى ، مثبتاً لهم ، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق : [ كلا ] أى : ليس الأمر كما ذكرتم ، أنكم مدركون .

[ إن معى ربى سيهدين ] لما فيه نجاتى ونجاتكم .

[ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ] فضربه [ فانفلق ] اثنى عشر طريقاً [ فكان كل فرق كالطود ] أى : الجبل [ العظيم ] فدخله موسى وقومه .

[ وأزلفنا ثم ] فى ذلك المكان [ الآخرين ] أى فرعون وقومه ، وقربناهم ، وأدخلناهم فى ذلك الطريق ، الذى سلك منه موسى وقومه .

[ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ] استكملوا خارجين ، لم يتخلف منهم أحد .

ٱلْأَخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾
وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ

---

[ ثم أغرقنا الآخرين ] لم يتخلف منهم عن الغرق أحد .

[ إن فى ذلك لآية ] عظيمة ، على صدق ما جاء به موسى عليه السلام ، وبطلان ما عليه فرعون وقومه .

[ وما كان أكثرهم مؤمنين ] مع هذه الآيات ، المقتضية للإيمان ، لفساد قلوبهم .

[ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ] بعزته أهلك الكافرين المكذبين . وبرحمته نجى موسى ، ومن معه أجمعين .

* أى : واتل يا محمد على الناس ، نبأ إبراهيم الخليل ، وخبره الجليل ، فى هذه الحالة بخصوصها ، وإلا ، فله أنباء كثيرة .

ولكن من أعجب أنبائه ، وأفضلها ، هذا النبأ المتضمن لرسالته ، ودعوته قومه ، ومحاجته إياهم ، وإبطاله ما هم عليه ، ولذلك قيده بالظرف فقال :

[ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا ] متبجحين بعبادتهم .

[ نعبد أصناماً ] ننحتها ونعملها بأيدينا .

[ فنظل لها عاكفين ] أى : مقيمين على عبادتها فى كثير من أوقاتنا .

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾
قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم
مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ

---

فقال لهم إبراهيم ، مبيناً عدم استحقاقها للعبادة : [ هل يسمعونكم إذ تدعون ] .

فيستجيبون دعاءكم ، ويفرجون كربكم ، ويزيلون عنكم كل مكروه ؟

[ أو ينفعونكم أو يضرون ] فأقروا أن ذلك كله ، غير موجود فيها ، فلا تسمع دعاء ، ولا تنفع ، ولا تضر .

ولهذا لما كسرها قال : « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

قالوا له : [ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ] أى : هذا أمر متقرر من حالها ، لا يقبل الإشكال والشك .

فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين ، فقالوا : [ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ] .

فتبعناهم على ذلك ، وسلكنا سبيلهم ، وحافظنا على عاداتهم .

فقال لهم إبراهيم : أنتم وآباؤكم ، كلكم خصوم فى الأمر ، والكلام مع الجميع واحد .

[ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى] فليضرونى بأدنى شيء من الضرر ، وليكيدونى ، فلا يقدرون .

عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي
يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

---

[ إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ] هو المتفرد بنعمة الخلق ، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية .

ثم خصص منها بعض الضروريات فقال :

[ والذى هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ] .

فهذا هو وحده المنفرد بذلك ، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة ، وتترك هذه الأصنام ، التى لا تخلق ، ولا تهدى ، ولا تمرض ، ولا تشفى ، ولا تطعم ولا تسقى ، ولا تميت ، ولا تحيي ، ولا تنفع عابديها ، بكشف الكروب ، ولا مغفرة الذنوب .

فهذا دليل قاطع ، وحجة باهرة ، لا تقدرون أنتم وآباءكم على معارضتها .

فدل على اشتراككم فى الضلال ، وترككم طريق الهدى والرشد .

قال الله تعالى : « وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانى » الآيات .

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: [ رب هب لى حكما ] أى : علماً كثيراً ، أعرف به الأحكام ، والحلال والحرام ، وأحكم به بين الأنام .

[ وألحقني بالصالحين ] من إخوانه الأنبيا، والمرسلين .

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾

---

[ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ] أى : اجعل لى ثناء صدق ، مستمر إلى آخر الدهر .

فاستجاب الله دعاءه ، فوهب له من العلم والحكم ، ما كان به من أفضل المرسلين ، وألحق بإخوانه المرسلين ، وجعله محبوباً مقبولا ، معظما مثنيا عليه ، فى جميع الملل ، فى كل الأوقات .

قال تعالى : « وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين » .

[ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ] أي : من أهل الجنة ، التى يورثهم الله إياها .

فأجاب الله دعاءه ، فرفع منزلته فى جنات النعيم .

[ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ] وهذا الدعاء ، بسبب الوعد الذى قال لأبيه « لأستغفرن لك ربى إنه كان بى حفيا » .

قال تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه إن إبراهيم لحليم أواه منيب » .

[ ولا تخزنى يوم يبعثون ] أى : بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها ، والفضيحة .

بل أسعدنى فى ذلك اليوم الذى فيه [ لا ينفع مال ولا بنون إلا من

إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾

---

أتى الله بقلب سليم ] فهذا الذى ينفعه عندك ، وهذا الذى ينجو به من العقاب ، ويستحق جزيل الثواب .

والقلب السليم ، معناه : الذى سلم من الشرك والشك ، ومحبة الشر ، والإصرار على البدعة والذنوب .

ويلزم من سلامته مما ذكر ، اتصافه بأضدادها ، من الإخلاص ، والعلم ، واليقين ، ومحبة الخير ، وتزيينه فى قلبه .

وأن تكون إرادته ومحبته ، تابعة لمحبة الله ، وهواه ، تابعاً لما جاء عن الله .

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم ، وما فيه من الثواب والعقاب فقال :

[ وأزلفت الجنة ] أى قربت [ للمتقين ] ربهم ، الذى امتثلو أوامره ، واجتنبوا زواجره ، واتقوا سخطه وعقابه .

[ وبرزت الجحيم ] أى : برزت ، واستعدت بجميع مافيها من العذاب .

[ للغاوين ] الذين أوضعوا فى معاصى الله ، وتجرأوا على محارمه ، وكذبوا رسله ، وردوا ما جاءوهم به من الحق [ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون] بأنفسهم أى : فلم يكن

فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾
قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾

---

من ذلك من شيء .

وظهر كذبهم وخزيهم ، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم ، وبان ندمهم ، وضل سعيهم .

[ فكبكبوا فيها ] أى : ألقوا فى النار [ هم ] أى : ما كانوا يعبدون .

[ والغاوون ] العابدون لها .

[ وجنود إبليس أجمعون ] من الإنس والجن ، الذين أزَّهم إلى المعاصى أزًّا ، وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم ، فصاروا من دعاته ، والساعين فى مرضاته .

وهم ما بين داع لطاعته ، ومجيب لهم ، ومقلد لهم على شركهم .

[ قالوا ] أى : جنود إبليس الغاوون ، لأصنامهم ، وأوثانهم التى عبدوها : [ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين ] فى العبادة والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، وندعوكم كما ندعوه .

فتبين لهم حينئذ ، ضلالهم ، وأقروا بعدل الله فى عقوبتهم ، وأنها فى محلها .

وهم لم يسووهم برب العالمين ، إلا فى العبادة ، لا فى الخلق بدليل قولهم « برب العالمين » إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم ، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم .

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾
فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

---

[ وما أضلنا ] عن طريق الهدى والرشد ، ودعانا إلى طريق الغى والفسق ، [ إلا المجرمون ] وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

[ فمالنا ] حينئذ [ من شافعين ] يشفعون لنا ، لينقذونا من عذابه .

[ ولا صديق حميم ] أى : قريب مصاف ، ينفعنا بأدنى نفع ، كما جرت العادة بذلك فى الدنيا .

فأيسوا من كل خير ، وأبلوا بما كسبوا ، وتمنوا العودة إلى الدنيا ، ليعملوا صالحاً .

[ فلو أن لنا كرة ] أى : رجعة إلى الدنيا ، وإعادة إليها [ فنكون من المؤمنين ] لنسلم من العقاب ، ونستحق الثواب .

هيهات هيهات ، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وقد غلقت منهم الرهون .

[ إن فى ذلك ] الذى ذكرنا لكم ووصفنا [ لآية ] لكم [ وما كان أكثرهم مؤمنين ] مع نزول الآيات .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾

* يذكر تعالى ، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح ، وما رد عليهم وردوا عليه ، وعاقبة الجميع فقال :

[ كذبت قوم نوح المرسلين ] جميعهم ، لأن تكذيب نوح، كتكذيب جميع المرسلين .

لأنهم كلهم ، اتفقوا على دعوة واحدة ، وأخبار واحدة .

فتكذيب أحدهم ، كتكذيب ، بجميع ما جاءوا به من الحق .

كذبوه [ إذ قال لهم أخوهم ] فى النسب [ نوح ] .

وإنما ابتعث الله الرسل ، من نسب من أرسل إليهم ، لئلا يشمئزوا من الانقياد له ، ولأنهم يعرفون حقيقته ، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه .

فقال لهم مخاطبا ، بألطف خطاب ، كما هى طريقة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

[ ألا تتقون ] الله تعالى ، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه ، من عبادة الأوثان ، وتخلصون العبادة لله وحده .

[ إنى لكم رسول أمين ] فكونه رسولا إليهم بالخصوص ، يوجب لهم تلقى ما أرسل به إليهم ، والإيمان به ، وأن يشكروا الله تعالى ، على أن خصهم بهذا الرسول الكريم .

وكونه أميناً ، يقتضى أنه لا يقول على الله ، ولا يزيد فى وحيه ، ولا ينقص .

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا

---

وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره .

[ فاتقوا الله وأطيعون ] فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فإن هذا ، هو الذى يترتب على كونه رسولا إليهم ، أمينا ، فلذلك رتبه بالفاء ، الدالة على السبب .

فذكر السبب الموجب ، ثم ذكر انتفاء المانع فقال :

[ وما أسألكم عليه من أجر ] فتتكلفون من المغرم الثقيل .

[ إن أجرى إلا على رب العالمين ] أرجو بذلك ،القرب منه ، والثواب الجزيل .

وأما أنتم فنيتى ، ومنتهى إرادتى منكم ، النصح لكم ، وسلوككم الصراط المستقيم .

[فاتقوا الله وأطيعون] كرر ذلك عليه السلام ، لتكريره دعوة قومه ، وطول مكثه فى ذلك ، كما قال تعالى « فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما » .

وقال « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » الآيات .

فقالوا ردًّا لدعوته ، ومعارضةً له بما ليس يصلح للمعارضة .

[ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ] أى : كيف نتبعك ونحن لا نرى

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾

---

أتباعك إلا أسافل الناس ، وأراذلهم ، وسقطهم .

بهذا يعرف عن تكبرهم عن الحق ، وجهلهم بالحقائق ، فإنهم لو كان قصدهم الحق ، لقالوا — إن كان عندهم إشكال وشك فى دعوته — بَيِّنْ لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك .

ولو تأملوا حق التأمل ، لعلموا أن أتباعه ، هم الأعلون ، خيار الخلق ، أهل العقول الرزينة ، والأخلاق الفاضلة ، وأن الأرذل ، من سلب خاصية عقله ، فاستحسن عبادة الأحجار ، ورضى أن يسجد لها ، ويدعوها ، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل .

وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين فى الكلام الباطل ، يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه .

فقوم نوح ، لما سمعنا عنهم ، أنهم قالوا فى ردهم دعوة نوح : [ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ] فبنوا على هذا الأصل ، الذى كل أحد يعرف فساده ، رد دعوته — عرفنا[1] أنهم ضالون مخطئون ، ولولم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ، ما يفيد الجزم واليقين ، بصدقه وصحة ما جاء به .

فقال نوح عليه السلام : [ وما على بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ] أى : أعمالهم وحسابهم على الله ، إنما عَلَىَّ التبليغ ، وأنتم دعوهم عنكم ، إن كان ما جئتكم به الحق ، فانقادوا له ، وكُلٌّ له عمله .

---

( ١ ) قوله « عرفنا » جواب « لما » فى قوله المتقدم « لما سمعنا » .

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ

---

[ وما أنا بطارد المؤمنين ] كأنهم — قبحهم الله — طلبوا منه أن يطردهم عنه ، تكبراً ، وتجبراً ، ليؤمنوا . فقال « وما أنا بطارد المؤمنين » فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة ، وإنما يستحقون الإكرام القولى ، والفعلىّ ، كما قال تعالى « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

[ إن أنا إلا نذير مبين ] أى : ما أنا إلا منذر ، ومبلغ عن الله ، ومجتهد فى نصح العباد ، وليس لى من الأمر شىء ، إن الأمر إلا لله .

فاستمر نوح ، عليه الصلاة والسلام ، على دعوتهم ليلا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، فلم يزدادوا إلا نفورا ، و[ قالوا لئن لم تنته يانوح ] من دعوتك إيانا ، إلى الله وحده [ لتكونن من المرجومين ] أى لنقتلك شر قتلة ، بالرمى بالحجارة ، كما يقتل الكلب .

فتباً لهم ، ما أقبح هذه المقابلة ، يقابلون الناصح الأمين الذى هو أشفق عليهم من أنفسهم ، بشر مقابلة .

لا جرم لما انتهى ظلمهم ، واشتد كفرهم ، دعا عليهم نبيهم ، بدعوة أحاطت بهم فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الآيات .

وهنا [ قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحاً ] .

أى : أهلك الباغى منا ، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة ، ولهذا قال : [ ونجنى ومن معى من المؤمنين ] .

إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي
وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

---

فأنجيناه ومن معه فى الفلك ] أى : السفينة [ المشحون ] من الخلق والحيوانات .

[ ثم أغرقنا بعد ] أى : بعد نوح ؛ ومن معه من المؤمنين [ الباقين ] أى : جميع قومه .

[ إن فى ذلك ] أى : نجاة نوح وأتباعه ، وإهلاك من كذبه [ لآية ] دالة على صدق رسلنا ، وصحة ما جاءوا به ، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم .

[ وإن ربك لهو العزيز ] الذى قهر بعزه أعداءه ، فأغرقهم بالطوفان .

[ الرحيم ] بأوليائه ، حيث نجى نوحاً ومن معه ، من أهل الإيمان .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

---

* أى : كذبت القبيلة المسماة عادا ، رسولهم هودا .

وتكذيبهم له ، تكذيب لغيره ، لاتفاق الدعوة .

[ إذ قال لهم أخوهم ] فى النسب [ هود ] بلطف وحسن خطاب :

[ ألا تتقون ] الله ، فتتركون الشرك وعبادة غيره .

[ إنى لكم رسول أمين ] أى : أرسلنى الله إليكم ، رحمة بكم ، واعتناء بكم .

وأنا أمين ، تعرفون ذلك منى ، رتب على ذلك قوله : [ فاتقوا الله وأطيعون ] أى : أدوا حق الله تعالى ، وهو : التقوى ، وأدوا حقى ، بطاعتى فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه ، فهذا موجب ، لأن تتبعونى وتطيعونى وليس ثمّ مانع يمنعكم من الإيمان .

فلست أسألكم على تبليغى إياكم ، ونصحى لكم ، أجراً ، حتى تستثقلوا ذلك المغرم .

[ إن أجرى إلا على رب العالمين ] الذى رباهم بنعمه ، وأدرّ عليهم فضله وكرمه ، خصوصاً ما ربّى به أولياءه وأنبياءه .

[ أتبنون بكل ريع ] أى : مدخل بين الجبال [ آية ] أى : علامة [ تعبثون ] أى : تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم .

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ
جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم
بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

---

[ وتتخذون مصانع ] أى : بركا ومجابى للحياة [ لعلكم تخلدون ] والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد .

[ وإذا بطشتم ] بالخلق [ بطشتم جبارين ] قتلا وضرباً ،وأخذ أموال.

وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة ، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله ، ولكنهم نخروا ، واستكبروا ، وقالوا « من أشد منا قوة » واستعملوا قوتهم فى معاصى الله ، وفى العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك .

[ فاتقوا الله ] واتركوا شرككم وبطركم [ وأطيعون ] حيث علمتم أنى رسول الله إليكم ، أمين ناصح .

[ واتقوا الذى أمدكم ] أى : أعطاكم [ بما تعلمون ] أى : أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام .

[ أمدكم بأنعام ] من إبل ، وبقر ، وغنم [ وبنين ] أى :وكثرة نسل. كثّر أموالكم ، وكثّر أولادكم ، خصوصاً الذكور ، أفضل القسمين .

هذا تذكيرهم بالنعم ، ثم ذكرهم حلول عذاب الله فقال :

[ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ] أى : أى إنى - من شفقتى عليكم

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

---

وبرى بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم ، إذا نزل لا يرد ، إن استمررتم على كفركم وبغيكم .

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم : [سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ] أى : الجميع على حد سواء .

وهذا غاية العتو ، فإن أقواماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله ، التى تذيب الجبال الصم الصلاب ، وتتصدع لها أفئدة أولى الألباب ، وجودها وعدمها — عندهم — على حد سواء — لقوم انتهى ظلمهم ، واشتد شقاؤهم ، وانقطع الرجاء من هدايتهم .

ولهذا قالوا [ إن هذا إلا خلق الأولين ] أى : هذه الأحوال والنعم ، ونحو ذلك ، عادة الأولين ، تارة يستغنون ، وتارة يفتقرون .

وهذه أحوال الدهر ، لأن هذه محن ومنح من الله تعالى ، وابتلاء لعباده .

[ وما نحن بمعذبين ] وهذا إنكار منهم للبعث أو تنزل مع نبيهم وتهكم به .

إننا على فرض أننا نبعث ، فإننا كما أدرّت علينا النعم فى الدنيا ، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا .

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾

---

[ فكذبوه ] أى : صار التكذيب سجية لهم وخلقاً ، لا يردعهم عنه رادع .

[ فأهلكناهم ] « بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

[ إن فى ذلك لآية ] على صدق نبينا ، هود عليه السلام ، وصحة ما جاء به ، وبطلان ما عليه قومه ، من الشرك والجبروت .

[ وما كان أكثرهم مؤمنين ] مع وجود الآيات المقتضية للإيمان .

[ وإن ربك لهو العزيز ] الذى أهلك بقدرته قوم هود ، على قوتهم وبطشهم .

[ الرحيم ] بنبيه هود ، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين .

* [ كذبت ثمود ] القبيلة المعروفة فى مدائن الحجر [ المرسلين ] كذبوا صالحاً عليه السلام ، الذى جاء بالتوحيد، الذى دعت إليه المرسلون ، فكان تكذيبهم له ، تكذيباً للجميع .

[ إذ قال لهم أخوهم صالح ] فى النسب ، برفق ولين : [ ألا تتقون ] الله تعالى ، وتدعون الشرك والمعاصى .

[ إنى لكم رسول ] من الله ربكم ، أرسلنى إليكم ، لطفاً بكم ورحمة ،

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

---

فتلقوا رحمته بالقبول ، وقابلوها بالإذعان .

[ أمين ] تعرفون ذلك منى ، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بى ، وبما جئت به .

[ وما أسألكم عليه من أجر ] فتقولون : يمنعنا من اتباعك ، أنك تريد أخذ أموالنا .

[ إن أجرى إلا على رب العالمين ] أى : لا أطلب الثواب إلا منه .

[ أتتركون فى ما ههنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ] أى : نضيد كثير .

أى : أتحسبون أنكم تتركون فى هذه الخيرات والنعم سُدًى ، تنعمون وتتمتعون ، كما تتمتع الأنعام ، وتتركون سدى ، لا تؤمرون ، ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصى الله .

[ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ] أى : بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصم الصلاب .

[ فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ] الذين تجاوزوا الحد .

وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ

---

[ الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ] أى: الذين وصفهم وداؤهم، الإفساد فى الأرض ، بعمل المعاصى ، والدعوة إليها ، إفسادا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض .

وكان أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم ، موضعون فى الدعوة لسبيل الغى . فنهاهم صالح ، عن الاغترار بهم .

ولعلهم الذين قال الله فيهم : « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

فلم يفد فيهم هذا النهى والوعظ شيئا ، فقالوا لصالح : [ إنما أنت من المسحرين ] .

أى : قد سحرت ، فأنت تهذى ، بما لا معنى له .

[ ما أنت إلا بشر مثلنا ] فأى : فضيلة فقتنا بها ، حتى تدعونا إلى اتباعك ؟

[ فأت بآية إن كنت من الصادقين ] هذا ، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه ، من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه ، ولكنهم من قسوتهم ، سألوا آيات الاقتراح ، التى فى الغالب ، لا يفلح من طلبها ، لكون طلبه مبنيا على التعنت ، لا على الاسترشاد .

يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

---

فقال صالح : [ هذه ناقة ] تخرج من صخرة صماء ملساء — تابعنافى هذا كثيراً من المفسرين ، ولا مانع فى ذلك — ترونها وتشاهدونها بأجمعكم .

[ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ] أى : تشرب ماء البئر يوماً ، وأنتم تشربون لبنها ، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر،وتشربون أنتم ماء البئر.

[ ولا تمسوها بسوء ] بعقر أو غيره [ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ] .

فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال ، فلم يؤمنوا ، واستمروا على طغيانهم .

[ فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب ] وهى صيحة نزلت عليهم ، فدمرتهم أجمعين .

[ إن فى ذلك لآية ] على صدق ما جاءت به رسلنا ، وبطلان قول معارضيهم .

[ وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾

---

* قال لهم وقالوا ، كما قال من قبلهم ، تشابهت قلوبهم فى الكفر ، فتشابهت أقوالهم .

وكانوا — مع شركهم — يأتون فاحشة ، لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

يختارون نكاح الذكران ، المستقذر الخبيث ، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم لإسرافهم وعدوانهم فلم يزل ينهاهم حتى [ قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ] أى : من البلد .

فلما رأى استمرارهم عليه [قال إنى لعملكم من القالين] أى : المبغضين الناهين عنه المحذرين منه .

قال [ رب نجنى وأهلى مما يعملون ] من فعله وعقوبته فاستجاب الله له .

إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

[ فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ] أى : الباقين فى العذاب ، وهى امرأته .

[ ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً ] أى : حجارة من سجيل [ فساء مطر المنذرين ] أهلكهم الله عن آخرهم .

[ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ] .

* أصحاب الأيكة : أى : البساتين الملتفة الأشجار ، وهم أصحاب مدين ، فكذبوا نبيهم شعيبا ، الذى جاء بما جاء به المرسلون .

[ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ] الله تعالى ، فتتركون ما يسخطه ويغضبه ، من الكفر والمعاصى .

[ إنى لكم رسول أمين ] يترتب على ذلك ، أن تتقوا الله وتطيعونى .

وكانوا — مع شركهم — يبخسون المكاييل والموازين ، فلذلك قال لهم :

وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ
ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ

---

[ أوفوا الكيل ] أى : أتموه وأكملوه [ ولا تكونوا من المخسرين ] الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ، ببخس المكيال والميزان .

[ وزنوا بالقسطاس المستقيم ] أى : بالميزان العادل ، الذى لا يميل [ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ] أى : الخليقة الأولين .

فكما انفرد بخلقكم ، وخلق من قبلكم من غير مشاركة له فى ذلك ، فأفردوه بالعبادة والتوحيد .

وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم ، فقابلوه بشكره .

قالوا له ، مكذبين له ، رادين لقوله : [ إنما أنت من المسحرين ] فأنت تهذى وتتكلم كلام المسحور ، الذى غايته ، أن لا يؤاخذ به .

[ وما أنت إلا بشر مثلنا ] فليس فيك فضيلة ، اختصصت بها علينا ، حتى تدعونا إلى اتباعك .

وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم ، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة

ٱلْـكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ

---

التى لم يزالوا ، يدلون بها ويصولون ، ويتفقون عليها ، لاتفاقهم على الكفر ، وتشابه قلوبهم .

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: « إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

[ وإن نظنك لمن الكاذبين ] وهذا جراءة منهم وظلم ، وقول زور ، قد انطووا على خلافه .

فإنه ما من رسول من الرسل ، واجه قومه ودعاهم ، وجادلهم وجادلوه ، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ، ما به يتيقنون صدقه وأمانته ، خصوصاً شعيباً عليه السلام ، الذى يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن .

فإن قومه قد تيقنوا صدقه ، وأن ما جاء به حق ، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه ، كذب منهم .

[ فأسقط علينا كسفاً من السماء ] أى : قطع عذاب تستأصلنا .

[ إن كنت من الصادقين ] كقول إخوانهم « وإذ قالوا اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح ، التى لا يلزم تتميم مطلوب من سألها .

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ

---

[ قال ] شعيب عليه السلام : [ ربى أعلم بما تعملون ] أى : نزول العذاب ، ووقوع آيات الاقتراح ، لست أنا الذى آتى بها وأنزلها بكم ، وليس علىّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت .

وإنما الذى يأتى بها ، ربّى العالم بأعمالكم وأحوالكم ، الذى يجازيكم ويحاسبكم .

[ فكذبوه ] أى : صار التكذيب لهم ، وصفاً والكفر لهم ديدنا ، بحيث لا تفيدهم الآيات ، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب .

[ فأخذهم عذاب يوم الظلة ] أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين ، لظلها غير الظليل ، فأحرقهم بالعذاب ، فظلوا تحتها خامدين ، ولديارهم مفارقين ، وبدار الشقاء والعذاب نازلين .

[ إنه كان عذاب يوم عظيم ] لا كرة لهم إلى الدنيا ، فيستأنفوا العمل ولا يُفَتَّر عنهم العذاب ساعة ، ولاهم ينظرون .

[إن فى ذلك لآية] دالةعلى صدق شعيب ، وصحة ما دعا إليه ، وبطلان رد قومه عليه .

[ وما كان أكثرهم مؤمنين ] مع رؤيتهم الآيات ، لأنهم لا زكاء فيهم ، ولا خير لديهم « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[ وإن ربك لهو العزيز ] الذى امتنع بقدرته ، عن إدراك أحد ، وقهر كل مخلوق .

لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

[ الرحيم ] الذى ، الرحمة وصفه ومن آثارها ، جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له .

ومن عزته ، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله .

ومن رحمته ، أن نجَّى أولياءه ومن معهم من المؤمنين .

* لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم ، وكيف دعوهم ، وما ردوا عليهم به ؛ وكيف أهلك الله أعداءهم ، وصارت لهم العاقبة .

ذكر هذا الرسول الكريم ، والنبى المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب ، الذى فيه هداية لأولى الألباب فقال :

[ وإنه لتنزيل رب العالمين ] فالذى أنزله ، فاطر الأرض والسموات ، الْمُرَبِّى جميع العالم ، العلوى والسفلى .

وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم ، فإنه يربيهم أيضاً ، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم .

ومن أعظم مارباهم به ، إنزال هذا الكتاب الكريم ، الذى اشتمل على الخير الكثير ، والبر الغزير .

وفيه من الهداية ، لمصالح الدارين ، والأخلاق الفاضلة ، ما ليس فى غيره فى قوله : [ وإنه لتنزيل رب العالمين ] من تعظيمه وشدة الاهتمام به ، من كونه نزل من الله ، لا من غيره ، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم .

ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ

---

[ نزل به الروح الأمين ] وهو : جبريل عليه السلام ، الذى هو أفضل الملائكة وأقواهم ، [ الأمين ] الذى قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص .

[ على قلبك ] يامحمد [ لتكون من المنذرين ] تهدى به إلى طريق الرشاد ، وتنذر به عن طريق الغى .

[ بلسان عربى ] وهو أفضل الألسنة ، بلغة من بُعِثَ إليهم ، وباشر دعوتهم أصلا ، اللسان البَيِّن الواضح .

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة فى هذا الكتاب الكريم .

فإنه أفضل الكتب ، نزل به أفضل الملائكة ، على أفضل الخلق ، على أفضل أمة أخرجت للناس ، بأفضل الألسنة وأفصحها ، وأوسعها ، وهو : اللسان العربى المبين .

[ وإنه لفى زبر الأولين ] أى : قد بشرت به كتب الأولين وصدقته .

وهو لما نزل ، طِبْقَ ما أخبرت به ، صدقها ، بل جاء بالحق ، وصدق المرسلين .

[ أو لم يكن لهم آية ] على صحته ، وأنه من الله [ أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ] الذين قد انتهى إليهم العلم ، وصاروا أعلم الناس ، وهم أهل الصنف[1] .

---

( ١ ) قوله « وهم أهل الصنف » لعل الصواب « وهم أهل النصف » أى : الإنصاف ، كما يدل عليه سياق الكلام وسباقه .

بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾
كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ

---

فإن كل شيء يحصل به اشتباه ، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية ، فيكون قولهم حجة على غيرهم .

كما عرف السحرة الذين مهروا فى علم السحر ، صدق معجزة موسى ، وأنه ليس بسحر .

فقول الجاهلين بعد هذا ، لا يؤبه به .

[ولو نزلناه على بعض الأعجمين] الذين لا يفقهون لسانهم ، ولا يقدرون على التعبير كما ينبغى [ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ] يقولون : ما نفقه ما يقول ، ولا ندرى ما يدعو إليه .

فَلْيَحْمَدُوا ربهم ، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق ، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد ، بالعبارات الواضحة ، وأنصحهم .

وَلْيُبَادِرُوا إلى التصديق به ، وتَلَقِّيه بالتسليم والقبول .

ولكن تكذيبهم له من غير شبهة ، إن هو إلا محض الكفر والعناد ، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة ، فلهذا قال :

[كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين] أى : أدخلنا التكذيب ، ونظمناه فى قلوب أهل الإجرام ، كما يدخل السلك فى الإبرة ، فتشربته ، وصار وصفا لها .

وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم ، فلذلك [لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم] على تكذيبهم .

يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ

---

[ فيأتيهم بغته وهم لا يشعرون ] أى : يأتيهم على حين غفلة ، وعدم إحساس منهم ، ولا استشعار بنزوله ، ليكون أبلغ فى عقوبتهم والنكال بهم .

[ فيقولوا ] إذ ذاك : [ هل نحن منظرون ] أى : يطلبون أن يُنْظَرُوا ويمهلوا .

والحال إنه قد فات الوقت ، وحل بهم العذاب ، الذى لا يرفع عنهم ، ولا يُفَتَّر ساعة .

* يقول تعالى : [ أفبعذابنا ] وهو العذاب الأليم العظيم ، الذى لا يستهان به ، ولا يحتقر .

[ يستعجلون ] فما الذى غرهم ؟ هل فيهم قوة وطاقة ، للصبر عليه ؟.

أم عندهم قوة يقدرون بها على دفعه ، أو رفعه ، إذا نزل ؟ .

أم يُعْجِزُوننا ، ويظنون أننا ، لا نقدر على ذلك ؟ .

[ أفرأيت إن متعناهم سنين ] .

أى : أفرأيت إذا لم نستعجلْ عليهم ، بإنزال العذاب ، وأمهلناهم عدة سنين ، يتمتعون فى الدنيا [ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ] من العذاب .

سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾

---

[ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ] من اللذات ، والشهوات .

أى : أى شىء يغنى عنهم ، ويفيدهم ، وقد مضت اللذات وبطلت ، واضمحلت ، وأعقبت تبعاً لها ، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة .

القصد أن الحذر ، من وقوع العذاب ، واستحقاقهم له .

وأما تعجيله وتأخيره ، فلا أهمية تحته ، ولا جدوى عنده .

* يخبر تعالى عن كمال عدله ، فى إهلاك المكذبين ، وأنه ما أوقع بقرية ، هلاكا وعذاباً ، إلا بعد أن يعذر منهم ، ويبعث فيهم النُّذُرَ بالآيات البينات ، فيدعونهم إلى الهدى ، وينهونهم عن الردى ، ويذكرونهم بآيات الله ، وينهونهم على أيامه فى نعمه ونقمه .

[ ذكرى ] لهم وإقامة حجة عليهم .

[ وما كنا ظالمين ] فنهلك القرى ، قبل أن ننذرهم ، ونأخذهم ، وهم غافلون عن النذر ، كما قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ولما بين تعالى ، كمال القرآن وجلالته ، نزهه عن كل صفة نقص ، وحماه — وقت نزوله ، وبعد نزوله — من شياطين الجن والإنس فقال :

[ وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم ] أى : لا يليق بحالهم

وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ

---

ولا يناسبهم [ وما يستطيعون ] ذلك .

[ إنهم عن السمع لمعزولون ] قد : أُبْعِدُوا عنه ، وأعدت لهم الرجوم لحفظه ، ونزل به جبريل ، أقوى الملائكة ، الذى لا يقدر شيطان أن يقربه ، أو يحوم حول ساحته .

وهذا كقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

* ينهى تعالى رسوله أصلا ، وأمته أسوة له فى ذلك ، عن دعاء غير الله ، من جميع المخلوقين ، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم ، والعقاب السرمدى ، لكونه شركا .

« ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » .

والنَّهْىُ عن الشىء ، أَمْرٌ بضده .

فالنهى عن الشرك ، أمر بإخلاص العبادة وحده لا شريك له ، محبة ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلا ، وإنابة إليه فى جميع الأوقات .

ولما أمره بما فيه كمال نفسه ، أمره بتكميل غيره فقال :

[ وأنذر عشيرتك الأقربين ] الذين هم أقرب الناس إليك ، وأحقهم بإحسانك الدينى والدنيوى ، وهذا لا ينافى أمره بإنذار جميع الناس .

جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

---

كما إذا أُمِرَ الإنسان بعموم الإحسان ، ثم قيل له « أحسن إلى قرابتك » . فيكون هذا الخصوص ، دالا على التأكيد ، وزيادة الحث .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، هذا الأمر الإلهى ، فدعا سائر بطون قريش ، فعمم وخصص ، وذكرهم ووعظهم ، ولم يُبْقِ صلى الله عليه وسلم ، من مقدوره شيئا ، من نصحهم ، وهدايتهم ، إلا فعله ، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض .

[ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ] بابين جانبك ، ولطف خطابك لهم ، وتوددك ، وتحببك إليهم ، وحسن خلقك والإحسان التام بهم .

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، ذلك كما قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم، أكمل الأخلاق ، التى يحصل بها من المصالح العظيمة ، ودفع المضار ، ماهو مشاهد .

فهل يليق بمؤمن بالله روسوله ، ويَدَّعِى اتباعه والاقتداء به ، أن يكون كَلاًّ على المسلمين ، شَرِسَ الأخلاق ، شديد الشكيمة ، غليظ القلب ، فَظَّ القول ، فظيعه ؟ .

. . . . . . . . . . .

---

وإن رأى منهم معصية ، أو سوء أدب ، هجرهم ، ومقتهم ، وأبغضهم .

لا لين عنده ، ولا أدب لديه ، ولا توفيق .

قد حصل من هذه المعاملة ، من المفاسد ، وتعطيل ، المصالح ، ما حصل ،

ومع ذلك تجده محتقرا ، لمن اتصف بصفات الرسول الكريم ، وقد رماه بالنفاق والمداهنة ، وذكر نفسه ورفعها ، وأُعْجِبَ بعمله .

فهل يُعَدُّ هذا ، إلا من جهله ، وتزيين الشيطان ، وخدعه له .

ولهذا قال الله لرسوله : [ فإن عصوك ] فى أمر من الأمور ، فلا تتبرأ منهم ، ولا تترك معاملتهم ، بخفض الجناح ، ولين الجانب .

بل تبرأ من عملهم ، فعظهم عليه ، وانصحهم ، وابذل قدرتك فى ردهم عنه ، وتوبتهم منه .

وهذا الدفع ، احتراز وهم من يتوهم ، أن قوله [ واخفض جناحك ] للمؤمنين ، يقتضى الرضاء بجميع ما يصدر منهم ، ما داموا مؤمنين ، فدفع هذا ، والله أعلم .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

---

* أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به ، **الاعتماد على ربه** ، والاستعانة بمولاه ، على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: [ وتوكل على العزيز الرحيم ] **والتوكل هو** : اعتماد القلب على الله تعالى ، فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، مع ثقته به ، وحسن ظنه بحصول مطلوبه ، فإنه عزيز رحيم ، بعزته يقدر على إيصال الخير ، ودفع الشر عن عبده ، وبرحمته به ، يفعل ذلك .

ثم نبهه على الاستعانة ، باستحضار قرب الله ، والنزول فى منزل الإحسان فقال :

[ الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ] أى : يراك فى هذه العبادة العظيمة ، التى هى الصلاة ، وقت قيامك ، وتقلبك راكعاً وساجداً .

خصها بالذكر ، لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه ، خشع وذل ، وأكملها ، وبتكميلها ، يكمل سائر عمله ، ويستعين بها على جميع أموره .

[إنه هو السميع] لسائر الأصوات ، على اختلافها ، وتشتتها ، وتنوعها.

[ العليم ] الذى ] أحاط بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة .

فاستحضار العبد رؤية الله له فى جميع أحواله ، وسمعه لكل ما ينطق به ، وعلمه بما ينطوى عليه قلبه ، من الهم ، والعزم ، والنيات ، يعينه على منزلة الإحسان .

* هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾
تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ
كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ

---

* هذا جواب لمن قال من مكذبى الرسول : إن محمدا ينزل عليه شيطان .

وقول من قال : إنه شاعر فقال : [ هل أنبئكم ] أى : أخبركم الخبر الحقيق ، الذى لا شك فيه ، ولا شبهة ، عن من تنزل الشياطين عليه ، أى: بصفة الأشخاص ، الذين تنزل عليهم الشياطين .

[ تنزل على كل أفاك ] أى : كذاب ، كثير القول للزور ، والإفك بالباطل .

[ أثيم ] فى فعله ، كثير المعاصى . هذا الذى تنزل عليه الشياطين ، وتناسب حاله حالهم .

[ يلقون ] عليه [ السمع ] الذى يسترقونه من السماء .

[ وأكثرهم كاذبون ] أى : أكثر ما يلقون إليه ، كذب ، فيصدق واحدة ، ويكذب معها مائة ، فيختلط الحق بالباطل ، ويضمحل الحق بسبب قلته ، وعدم علمه .

فهذه صفة الأشخاص . الذين تنزل عليهم الشياطين ، وهذه صفة وحيهم له .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فحاله مباينة لهذه الأحوال ، أعظم مباينة ، لأنه الصادق الأمين ، البار ، الراشد ، الذى جمع بين برّ القلب ، وصدق اللهجة ، ونزاهة الأفعال ، من المحرم .

فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

والوحى الذى ينزل عليه من عند الله ، ينزل محروسا محفوظا ، مشتملا على الصدق العظيم ، الذى لا شك فيه ولا ريب .

فهل يستوى — يا أهل العقول — هديه وإفكهم ؟ .

وهل يشتبهان ، إلا على مجنون ، لا يميز ، ولا يفرق بين الأشياء ؟ .

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه ، برّأه أيضاً من الشعر فقال :

[ والشعراء ] أى : هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء ، ووصفهم الثابت .

فإنهم [ يتبعهم الغاوون ] عن طريق الهدى ، المقبلون على طريق الغى والردى .

فهم فى أنفسهم غاوون ، وتجد أتباعهم كل غاو ، ضال فاسد .

[ ألم تر ] غوايتهم وشدة ضلالهم [ أنهم فى كل واد ] من أودية الشعر . [ يهيمون ] فتارة ، فى مدح ، وتارة ، فى قدح ، وتارة ، يتغزلون ، وأخرى يسخرون ، ومرة يمرحون ، وآونة يحزنون ، فلايستقر لهم قرار ، ولا يثبتون على حال من الأحوال .

[ وأنهم يقولون مالا يفعلون ] أى : هذا وصف الشعراء ، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم .

فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق ، قلت هذا أشد الناس غراما ، وقلبه فارغ من ذاك .

وإذا سمعته يمدح أو يذم ، قلت : هذا صدق ، وهو كذب .

. . . . . . . . . . .

---

وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها ، وتروك لم يتركها ، وكرم لم يحم حول ساحته ، وشجاعة يعلو بها على الفرسان ، وتراه أَجْبَنَ من كل جبان . هذا وصفهم .

فانظر ، هل يطابق حالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، الراشد البار ، الذي يتبعه كل راشد ومهتد ، الذى قد استقام على الهدى ، وجانب الردى ، ولم تتناقض أفعاله ؟ .

فهو لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر .

ولا أخبر بشيء إلا صدق ، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له ، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له .

فهل تناسب حاله ، حالة الشعراء ، ويقاربهم ؟ .

أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه ؟

فصلوات الله وسلامه ، على هذا الرسول الأكمل ، والهمام الأفضل ، أبد الأبدين ، ودهر الداهرين ، الذي ليس بشاعر ، ولا ساحر ، ولا مجنون ، لا يليق به إلا كمال .

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به ، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله ، وعمل صالحا ، وأكثر من ذكر الله ، وانتصر من أعدائه المشركين ، من بعد ما ظلموهم .

فصار شعرهم ، من أعمالهم الصالحة ، وآثار إيمانهم ، لاشتماله على مدح أهل الإيمان ، والانتصار من أهل الشرك والكفر ، والذَّبِّ عن دين الله ، وتبيين العلوم النافعة ، والحث على الأخلاق الفاضلة فقال .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ
يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

---

[ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ] إلى موقف وحساب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ، ولا حقا إلا استوفاه . والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة الشعراء

تفسـير

# سُورَةُ النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى

---

* ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال :

[ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ] أى هى أعلى الآيات ، وأقوى البينات ، وأوضح الدلالات ، وأبينها على أجل المطالب ، وأفضل المقاصد ، وخير الأعمال ، وأزكى الأخلاق .

آيات تدل على الأخبار الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهى عن كل عمل وخيم ، وخلق ذميم .

آيات بلغت فى وضوحها وبيانها للبصائر النيرة ، مبلغ الشمس للأبصار .

آيات دلت على الإيمان ، ودعت للوصول إلى الإيمان ، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، طِبْقَ ما كان ويكون .

وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

---

آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأفعاله الكاملة .

آيات عرفتنا برسله وأوليائه،ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا.

ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين ، ولم يهتد بها جميع المعاندين ، صونا لها ، عن من لا خير فيه ولا صلاح ، ولا زكاء فى قلبه .

وإنما اهتدى بها ، من خصهم الله بالإيمان ، واستنارت بذلك قلوبهم ، وصفت سرائرهم .

فلهذا قال : [ هدى وبشرى للمؤمنين ] أى:تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم ، وتبين لهم ، ما ينبغى أن يسلكوه أو يتركوه .

وتبشرهم بثواب الله ، المرتب على الهداية لهذا الطريق .

ربما قيل : لعله يكثر مدعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادّعى أنه مؤمن ذلك ؟ أم لابد لذلك من دليل ؟ وهو الحق ، فلذلك بيّن تعالى صفة المؤمنين فقال :

[ الذين يقيمون الصلاة ] فرضها ، ونفلها ، فيأتون بأفعالها الظاهرة ، من أركانها ، وشروطها ، وواجباتها ، ومستحباتها .

وأفعالها الباطنة ، وهو : الخشوع الذى روحها ولبها ، باستحضار قرب الله ، وتدبر ما يقوله المصلى ويفعله .

[ ويؤتون الزكاة ] المفروضة لمستحقيها .

وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ
زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ
مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

---

[ وهم بالآخرة هم يوقنون ] أى : قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين ، وهو : العلم التام ، والواصل إلى القلب ، الداعى إلى العمل .

ويقينهم بالآخرة ، يقتضى كمال سعيهم لها ، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب ، وهذا أصل كل خير .

[ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ] ويكذبون بها ، ويكذبون من جاء بإثباتها .

[ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ] حائرين مترددين ، مؤثرين سخط الله على رضاه .

قد انقلبت عليهم الحقائق ، فرأوا الباطل حقا ، والحق باطلا .

[ أولئك الذين لهم سوء العذاب ] أى : أشده ، وأسوأه ، وأعظمه .

[ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ] حصر الخسار فيهم ، بكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وخسروا الإيمان الذى دعتهم إليه الرسل .

[ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ] أى : وإن هذا القرآن الذى ينزل عليك ، وتتلقفه ، ينزل من عند [حكيم] يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ

---

[ عليم ] بأسرار الأحوال ، وبواطنها كظواهرها .

وإذا كان من عند [ حكيم عليم ] علم كله حكمة ومصالح للعباد ، من الذى هو أعلم بمصالحهم منهم ؟

* [ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا ] إلى آخر قصته .

يعنى : اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران ، وابتداء الوحى إليه واصطفاءه برسالته ، وتكليم الله إياه .

وذلك أنه لما مكث فى مدين عدة سنين ، وسار بأهله من مدين ، متوجها إلى مصر .

فلما كان فى أثناء الطريق ، ضل ، وكان فى ليلة مظلمة باردة ، فقال لهم :

[ إنى آنست نارا ] أى : أبصرت نارا من بعيد [ سآتيكم منها بخبر ] عن الطريق .

[ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ] أى : تستدفئون .

وهذا دليل على أنه تائه ، ومشتد برده ، هو وأهله .

[ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ] أى : ناداه الله تعالى وأخبره ، أن هذا محل مقدس مبارك .

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ
عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

---

ومن بركته ، أن جعله الله موضعا لتكليم الله لموسى وإرساله .

[ وسبحان الله رب العالمين ] على أن يظن به نقص ، أو سوء ، بل هو الكامل ، فى وصفه ، وفعله .

[ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ] أى:أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة ، وحده لا شريك له ، كما فى الآية الأخرى « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

[ العزيز ] الذى قهر جميع الأشياء ، وأذعنت له كل المخلوقات .

[ الحكيم ] فى أمره وخلقه .

ومن حكمته ، أن أرسل عبده ، موسى بن عمران ، الذى علم الله منه ، أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه

ومن عزته ، أن تعتمد عليه ، ولا تستوحش من انفرادك ، وكثرة أعدائك ، وجبروتهم .

فإن نواصيهم ، بيد الله ، وحركاتهم وسكونهم ، بتدبيره .

[ وألق عصاك ] فألقاها [ فلما رآها تهتز كأنها جان ] وهو ذكَرُ الحيات ، سريع الحركة .

[ ولى مدبرا ولم يعقب ] ذعرا من الحية ، التى رأى على مقتضى الطبائع البشرية .

يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ
فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

---

فقال الله له : [ يا موسى لا تخف ] وقال فى الآية الأخرى « أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » .

[ إنى لا يخاف لدى المرسلون ] لأن جميع المخاوف مندرجة فى قضائه وقدره ، وتصريفه ، وأمره .

فالذين اختصهم الله برسالته ، واصطفاهم لوحيه ، لا ينبغى لهم أن يخافوا غير الله ، خصوصا عند زيادة القرب منه ، والحظوة بتكليمه .

[ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ] أى : فهذا الذى هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم ، وما تقدم له من الجرم .

وأما المرسلون ، فما لهم وللوحشة ، والخوف ؟

ومع هذا ، من ظلم نفسه بمعاصى الله ، وتاب وأناب ، فبدل سيئاته حسنات ، ومعاصيه طاعات ، فإن الله غفور رحيم .

فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته ، فإنه يغفر الذنوب جميعا،وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

[ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ] لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه .

[ فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ] أى : هاتان الآيتان ، انقلاب

وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

---

العصا حية تسعى ، وإخراج اليد من الجيب ، فتخرج بيضاء فى جملة تسع آيات ، تذهب بها ، وتدعو فرعون وقومه [ إنهم كانوا قوما فاسقين ] .

فسقوا بشركهم ، وعتوهم ، وعلوهم على عباد الله ، واستكبارهم فى الأرض ، بغير الحق .

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملأه ، ودعاهم إلى الله تعالى ، وأراهم الآيات .

[ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ] مضيئة ، تدل على الحق ، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس .

[ قالوا هذا سحر مبين ] لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر ، بل قالوا : « مبين » ظاهر لكل أحد .

وهذا من أعجب العجائب ، الآيات المبصرات ، والأنوار الساطعات تجعل من بين الخزعبلات ، وأظهر السحر .

هل هذا ، إلا من أعظم المكابرة ، وأوقح السفسطة .

[ وجحدوا بها ] أى كفروا بآيات الله ، جاحدين لها .

[ واستيقنتها أنفسهم ] أى : ليس جحدهم ، مستندا إلى الشك والريب .

وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ

---

وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها [ ظلما ] منهم لحق ربهم ولأنفسهم .

[ وعلوا ] على الحق وعلى العباد ، وعلى الانقياد للرسل .

[ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ] أسوأ عاقبة ، دمرهم الله وأغرقهم فى البحر ، وأخزاهم ، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده .

* يذكر فى هذا القرآن،وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه ، بالعلم الواسع الكثير ، بدليل التنكير ، كما قال تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » الآية .

[ وقالا ] شاكرين لربهما منته ، الكبرى بتعليمهما : [ الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ] .

فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين ، أهل السعادة ، وأنهما كانا من خواصهم .

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات :

الصالحون ، ثم فوقهم : الشهداء ، ثم فوقهم : الصديقون ، ثم فوقهم : الأنبياء .

وداود وسليمان ، من خواص الرسل ، وإن كانا دون درجة أولى العزم الخمسة .

لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام ، الذين نوه الله بذكرهم ، ومدحهم فى كتابه ، مدحاً عظيما ، فحمدا الله على بلوغ هذه المنزلة .

وهذا عنوان سعادة العبد ، أن يكون شاكراً لله على نعمه ، الدينية والدنيوية ، وأن يرى جميع النعم من ربه .

فلا يفخر بها ولا يعجب بها ، بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا .

فلما مدحهما مشتركين ، خص سليمان ، بما خصه به ، لكون الله أعطاه ملكا عظيما ، وصار له من المجريات ، ما لم يكن لأبيه ، صلى الله عليهما وسلم ، فقال :

[ وورث سليمان داود ] أى : ورث علمه ونبوته ، فانضم علم أبيه إلى علمه ، فلعله تعلم من أبيه ما عنده ، من العلم ، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه ، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان .

وقال شكرا لله ، وتبجحا بإحسانه ، وتحدثا بنعمته :

[ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ] .

فكان عليه الصلاة والسلام ، يفقه ما تقول ، وتتكلم به ، كما راجع الهدهد ، وراجعه ، وكما فهم قول النملة للنمل ، كما يأتى ، وهذا ، لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام .

[ وأوتينا من كل شيء ] أى : أعطانا الله من النعم ، ومن أسباب الملك ، ومن السلطنة والقهر ، ما لم يؤت أحداً من الآدميين .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

ولهذا دعا ربه فقال : [ رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ] فسخر الله له الشياطين ، يعملون له كل ما شاء ، من الأعمال ، التى يعجز عنها غيرهم ، وسخر له الريح ، غدوها شهر ، ورواحها شهر .

[ إن هذا ] الذى أعطانا الله ، وفضلنا ، واختصنا به [ لهو الفضل المبين ] الواضح الجلى ، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى .

[وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون] أى : جمع له جنوده الكثيرة ، الهائلة ، المتنوعة ، من بنى آدم ، ومن الجن ، والشياطين ، ومن الطيور فهم يوزعون ، يدبرون ، ويرد أولهم على آخرهم ، وينظمون غاية التنظيم ، فى سيرهم ونزولهم ، وحلهم ، وترحالهم قد استعد لذلك ، وأعد له عدته .

وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره ، لا تقدر على عصيانه ، ولا تتمرد عليه ، كما قال تعالى :

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك » أى : أعط بغير حساب .

فسار بهذه الجنود الضخمة فى بعض أسفاره .

[ حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة ] منبهة لرفقتها، وبنى جنسها : [يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون] .

سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

---

فنصحت هذه النملة ، وأسمعت النمل ، إما بنفسها ، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة ، لأن التنبيه للنمل ، الذى قد ملأ الوادى بصوت نملة واحدة ، من أعجب العجائب .

وإما بأنها أخبرت مَنْ حولها من النمل ، ثم سري الخبر من بعضهن لبعض ، حتى بلغ الجميع ، وأمرتهن بالحذر ، والطريق فى ذلك ، وهو دخول مساكنهن .

وعرفت حالة سليمان وجنوده ، وعظمة سلطانه،واعتذرت عنهم ، أنهم إن حطموكم ، فليس عن قصد منهم ، ولا شعور .

فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها ، وفهمه .

[ فتبسم ضاحكا من قولها ] إعجابا منه ، بنصح أمتها ،ونصحها ، وحسن تعبيرها .

وهذا حال الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، الأدب الكامل ، والتعجب فى موضعه ، وأن لا يبلغ بهم الضحك ، إلا إلى التبسم .

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، جُلُّ ضحكه ، التبسم .

فإن القهقهة ، تدل على خفة العقل ، وسوء الأدب .

وعدم التبسم والعجب ، مما يتعجب منه ، يدل على شراسة الخلق ، والجبروت .

والرسل منزهون عن ذلك .

وقال شاكراً لله ، الذى أوصله إلى هذه الحال : [ رب أوزعنى ]

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ

---

أى : ألهمنى ووفقنى [ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدي ] .

فإن النعمة على الوالدين ، نعمة على الولد .

فسأل ربه ، التوفيق للقيام بشكر نعمته ، الدينية ، والدنيوية ، عليه وعلى والديه .

[ وأن أعمل صالحا ترضاه ] أى : ووفقنى أن أعمل صالحا ترضاه ، لكونه موافقا لأمرك ، مخلصا فيه ، سالما من المفسدات والمنقصات .

[ وأدخلنى برحمتك ] التى منها الجنة [ فى ] جملة [ عبادك الصالحين ] .

فإن الرحمة مجعولة للصالحين ، على اختلاف درجاتهم ومنازلهم .

فهذا نموذج ، ذكره الله من حالة سليمان ، عند سماعه خطاب النملة ونداءها .

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير فقال :

[ وتفقد الطير ] دل هذا ، على كمال عزمه وحزمه ، وحسن تنظيمه لجنوده ، وتدبيره بنفسه ، للأمور الصغار والكبار .

حتى إنه لم يهمل هذا الأمر ، وهو : تفقد الطيور ، والنظر ، هل هى موجودة كلها ، أم مفقود منها شىء ؟ وهذا هو المعنى للآية .

. . . . . . . . . . .

---

ولم يصنع شيئاً من قال : إنه تفقد الطير ، لينظر أين الهدهد منه ، ليدله على بعد الماء وقربه

كما زعموا عن الهدهد ، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة .

فإن هذا القول ، لا يدل عليه دليل ، بل الدليل العقلي واللفظي ، دال على بطلانه .

أما العقلي ، فإنه قد عرف بالعادة ، والتجارب ، والمشاهدات ، أن هذه الحيوانات كلها ، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة ، وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة .

ولو كان كذلك ، لذكره الله ، لأنه من أكبر الآيات .

وأما الدليل اللفظي ، فلو أريد هذا المعنى ، لقال « وطلب الهدهد لينظر له الماء ، فلما فقده قال ما قال » أو « فتش عن الهدهد ، أو بحث عنه » ونحو ذلك من العبارات .

وإنما تفقد الطير ، لينظر الحاضر منها والغائب ، ولزومها للمراكز والمواضع ، التي عينها لها .

وأيضاً فإن سليمان عليه السلام ، لا يحتاج ، ولا يضطر إلى الماء ، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد .

فإن عنده من الشياطين ، والعفاريت ، ما يحفرون له الماء ، ولو بلغ في العمق ما بلغ .

وسخر الله له الريح ، غدوها شهر ، ورواحها شهر .

فكيف — مع ذلك — يحتاج إلى الهدهد ؟!! .

. . . . . . . . . . .

وهذه التفاسير ، التى توجد ، وتشتهر بها أقوال ، لا يعرف غيرها ، تنقل هذه الأقوال عن بنى إسرائيل ، مجردة ، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعانى الصحيحة ، وتطبيقها على الأقوال .

ثم لا تزال تتناقل ، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم ، حتى يظن أنها الحق.

فيقع من الأقوال الردية فى التفاسير ، ما يقع .

واللبيب الفطن ، يعرف أن هذا القرآن الكريم ، العربى المبين ، الذى خاطب الله به الخلق كلهم ، عالمهم ، وجاهلهم ، وأمرهم بالتفكر فى معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعانى ، التي لا تجهلها العرب العرباء .

وإذا وجد أقوالا منقولة عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ردها إلى هذا الأصل .

فإن وافقه ، قبلها ، لكون اللفظ دالا عليها .

وإن خالفته لفظاً ومعنى ، أو لفظاً أو معنى ، ردها ، وجزم ببطلانها ، لأن عنده أصلا معلوماً ، مناقضاً لها ، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته .

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير ، وفقده الهدهد ، يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه ، وكمال فطنته ، حتى تفقد هذا الطائر الصغير [ فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ] أى : هل عدم رؤيتي إياه ، لقلة فطنتي به ، لكونه خفيا بين هذه الأمم الكثيرة ؟ .

أم على بابها ، بأن كان غائباً من غير إذنى ، ولا أمرى ؟ .

مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

---

فحينئذ تغيظ عليه ، وتوعده فقال [ لأعذبنه عذابا شديداً ] دون القتل .

[ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ] أى : حجة واضحة على تخلفه .

وهذا من كمال ورعه وإنصافه ، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته ،بالعذاب أو القتل ، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب .

وغيبته ، قد تحتمل أنها لعذر واضح ، فلذلك استثناه ، لورعه وفطنته .

[ فمكث غير بعيد ] ثم جاء ، وهذا يدل على هيبة جنوده منه ، وشدة ائتمارهم لأمره .

حتى إن هذا الهدهد ، الذى خلفه العذر الواضح ، لم يقدر على التخلف زمنا كثيرا .

[ فقال ] لسليمان : [ أحطت بما لم تحط به ] عندى من العلم ، علم ما ما أحطت به ، على علمك الواسع ، وعلو درجتك فيه .

[ وجئتك من سبأ ] القبيلة ، المعروفة فى اليمن [ بنبأ يقين ] أى : خبر متيقن .

ثم فسر هذا النبأ فقال : [ إنى وجدت امرأة تملكهم ] أى : تملك قبيلة سبأ ، وهى امرأة [ وأوتيت من كل شىء ] يؤتاه الملوك ، من الأموال ، والسلاح ، والجنود ، والحصون ، والقلاع ونحو ذلك .

وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى

---

[ ولها عرش عظيم ] أى : كرسى ملكها ، الذى تجلس عليه ، عرش هائل .

وعظم العروش ، تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى .

[ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ] أى : هم مشركون يعبدون الشمس .

[ وزين لهم الشيطان أعمالهم ] فرأوا ما هم عليه هو الحق .

[ فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ] لأن الذى يرى أن الذى عليه حق ، لا مطمع فى هدايته حتى تتغير عقيدته .

ثم قال : [ ألا ] أى هلا [ يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ] أى : يعلم الخفى الخبيء ، فى أقطار السموات ، وأنحاء الأرض ، من صغار المخلوقات ، وبذور النباتات ، وخفايا الصدور .

ويخرج خبء الأرض والسماء ، بإنزال المطر ، وإنبات النباتات .

ويخرج خبء الأرض عند النفخ فى الصور وإخراج الأموات من الأرض ، ليجازيهم بأعمالهم [ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ] .

يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب

---

[ الله لا إله إلا هو ] أى : لا تنبغى العبادة ، والإنابة ، والذل ، والحب ، إلا له ، لأنه المألوه ، لما له من الصفات الكاملة ، والنعم الموجبة لذلك .

[ رب العرش العظيم ] الذى هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسموات .

فهذا الملك ، عظيم السلطان ، كبير الشأن ، هو الذى يذل له، ويخضع ، ويسجد له ، ويركع .

فسلم الهدهد ، حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم ، وتعجب سليمان كيف خفى عليه .

وقال مثبتا لكمال عقله ورزانته : [ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابى هذا ] وسيأتى نصه [ فألقه إليهم ثم تول عنهم ] أى : استأخر غير بعيد [ فانظر ماذا يرجعون ] إليك ومايتراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها ، فقالت لقومها : [ إنى ألقى إلى كتاب كريم ] . أى : جليل المقدار ، من أكبر ملوك الأرض .

ثم بينت مضمونه فقالت : [ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين ] أى : لا تكونوا فوقى ، بل اخضعوا تحت سلطانى ، وانقادوا لأوامرى ، وأقبلوا إلىّ مسلمين .

بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾
قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ
وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى
مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ

---

وهذا فى غاية الوجازة ، مع البيان التام ، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه ، والبقاء على حالهم ، التى هم عليها والانقياد لأمره ، والدخول تحت طاعته ، ومجيئهم إليه ، ودعوتهم إلى الإسلام .

وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة ، وتقديم الاسم فى أول عنوان الكتاب .

فمن حزمها وعقلها ، أن جمعت كبار دولتها ، ورجال مملكتها وقالت :

[ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ] أى : أخبرونى ، ماذا نجيبه به ؟ وهل ندخل تحت طاعته ، وننقاد ؟ أم ماذا نفعل ؟

[ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ] أى : ما كنت مستبدة بأمر ، دون رأيكم ومشورتكم .

[قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد] أى : إن رددت عليه قوله ، ولم تدخلى فى طاعته ، فإنا أقوياء على القتال .

فكأنهم مالوا إلى هذا الرأى ، الذى لو تم ، لكان فيه دمارهم .

وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ
أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ

---

ولـكنهم أيضاً ، لم يستقروا عليه ،بل قالوا : [الأمر إليك] أى : الرأى ما رأيت ،لعلمهم بعقلها ، وحزمها ، ونصحها لهم [ فانظرى ] نظر فكر وتدبر [ ماذا تأمرين ] .

فقالت لهم — مقنعة لهم بالعدول عن رأيهم ، ومبينةسوءمغبةالقتال — [ إن الملوك إذا دخلو قرية أفسدوها ] قتلا ، وأسراً ، ونهبا لأموالها ، وتخريباً لديارها .

[ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ] أى : جعل الرؤساءالسادة ، أشراف الناس من الأرذلين .

أى : فهذا رأى غير سديد .

وأيضا فلست بمطيعة له ، قبل الاحتيال ، وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها .

وحينئذ نـكون على بصيرة من أمرنا .

فقالت : [ وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ] منه .

هل يستمر على رأيه وقوله ؟ أم تخدعه الهدية ،وتتبدل فـكرته، وكيف أحواله وجنوده ؟

فأرسلت إليه بهدية ، مع رسل من عقلاء قومها ، وذوى الرأى منهم .

بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ
فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾
ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ
أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ

---

[ فلما جاء سليمان ] أى : جاءه الرسل بالهدية [ قال ] منكراً عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم :

[ أتمدونن بمال فما آتانىَ الله خير مما آتاكم ] فليست تقع عندى موقعاً، ولا أفرح بها ، قد أغنانى الله عنها ، وأكثر علىَّ النعم .

[ بل أنتم بهديتكم تفرحون ] لحبكم للدنيا ، وقلة ما بأيديكم ، بالنسبة لما أعطانى الله .

ثم أوصى الرسول من غير كتاب ، لما رأى من عقله ، وأنه سينقل كلامه على وجهه فقال :

[ ارجع اليهم ] أى : بهديتك [ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ] .

أى : لاطاقة لهم [ بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ] .

فرجع إليهم ، وأبلغهم ما قال سليمان ، وتجهزوا للمسير إلى سليمان .

وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه ، فقال لمن حضره من الجن والإنس :

[ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين] أى : لأجل أن نتصرف

أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ

فيه ، قبل أن يسلموا ، فتكون أموالهم محترمة [ قال عفريت من الجن ]
والعفريت هو : القوى النشيط جدا :

[ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ] .

والظاهر أن سليمان إذ ذاك ، فى الشام ، فيكون بينه وبين سبأ ، نحو مسيرة أربعة أشهر ، شهران ذهابا ، وشهران إيابا .

ومع ذلك ، يقول هذا العفريت : أنا ألتزم بالمجىء به ، على كِبَره وثقله. وبُعْدِه ، قبل أن تقوم من مجلسك ، الذى أنت فيه .

والمعتاد من المجالس الطويلة ، أن تكون معظم الضحى ، نحو ثلث يوم ، هذا نهاية المعتاد .

وقد يكون دون ذلك ، أو أكثر

وهذا الملك العظيم ، الذى عند آحاد رعيته ، هذه القوة ، والقدرة ، وأبلغ من ذلك أن [ قال الذى عنده علم من الكتاب ] :

قال المفسرون : هو رجل عالم ، صالح ، عند سليمان يقال له « آصف بن برخيا » كان يعرف اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعا الله به أجاب ، وإذا سأل به أعطى[1] .

---

( ١ ) نقل الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين بعد أن استعرض الأقوال فى الذى عنده علم من الكتاب ، أنه سليمان عليه السلام نفسه .

فتكون هذه الرواية هى الراجحة على غيرها ، وذلك ليبين سليمان للملأ أن معجزة الأنبياء فوق خوارق العادات التى تظهر على أيدى الرجال الصالحين ، فلذلك عول المحققون على هذه الرواية .

أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ
أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

---

[أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك] بأن يدعو الله بذلك الاسم ، فيحضر حالا ، وأنه دعا الله فحضر .

فالله أعلم ، هل هذا هو المراد ، أم أن عنده علما من الكتاب ، يقتدر به على جلب البعيد ، وتحصيل الشديد ؟ .

[فلما رآه مستقرا عنده] حمد الله تعالى على إقداره وملكه ، وتيسير الأمور له ، و[قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر] أى : ليختبرنى بذلك .

فلم يغتر عليه السلام ، بملكه ، وسلطانه ، وقدرته ، كما هو دأب الملوك الجاهلين .

بل علم أن ذلك اختبار من ربه ، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة .

ثم بيّن أن هذا الشكر ، لا ينتفع الله به ، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه ، فقال :

[ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم] غنى عن أعماله ، كريم ، كثير الخير ، يعم به الشاكر والكافر .

إلا أن شكر نعمه ، داع للمزيد منها ، وكفرها ، داع لزوالها .

ثم قال لمن عنده [نكروا لها عرشها] أى : غيروه بزيادة ونقص .

ونحن فى ذلك [ننظر] مختبرين لعقلها [أتهتدى] للصواب ، ويكون

لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا
عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن
قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها [ أم تكون من الذين لا يهتدون ].

[ فلما جاءت ] قادمة على سليمان ، عرض عليها عرشها ، وكان عهدها به ، قد خلفته فى بلدها .

و[ قيل لها أهكذا عرشك ] أى : أنه استقر عندنا ، أن لك عرشاً عظيما ، فهل هو كهذا العرش ، الذى أحضرناه لك ؟

[ قالت كأنه هو ] وهذا من ذكائها وفطنتها ، لم تقل « هو » لوجود التغيير فيه والتنكير ، ولم تنف أنه هو ، لأنها عرفته .

فأتت بلفظ محتمل للأمرين ، صادق على الحالين .

فقال سليمن متعجبا من هدايتها وعقلها ، وشاكراً لله ، أن أعطاه أعظم منها .

[ وأوتينا العلم من قبلها ] أى : الهداية ، والعقل ، والحزم ، من قبل هذه الملكة .

[ وكنا مسلمين ] وهى الهداية النافعة الأصلية .

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ « وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه ، فزيادة اقتداره ، من قبل هذه الحالة ، التى رأينا فيها قدرته ، على

إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن

---

إحضار العرش ، من المسافة البعيدة ، فأذعنا له ، وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه » .

قال الله تعالى: [وصدها ما كانت تعبد من دون الله] أى عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ، ما به تعرف الحق من الباطل ، ولكن العقائد الباطلة ، تذهب بصيرة القلب [ إنها كانت من قوم كافرين ] فاستمرت على دينهم .

وانفراد الواحد عن أهل الدين ، والعادة المستمرة بأمر ، يراه بعقله من ضلالهم وخطأهم ، من أندر ما يكون ، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر .

ثم إن سليمان أراد ، أن ترى من سلطانه ، ما يبهر العقول ، فأمرها أن تدخل الصرح ، وهو المجلس المرتفع المتسع ، وكان مجلساً من قوارير ، تجرى تحته الأنهار .

[ قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ] ماء ، لأن القوارير شفافة ، يرى الماء الذى تحتها ، كأنه بذاته ، يجرى ، ليس دونه شيء .

[ وكشفت عن ساقيها ] لتخوضه ، وهذا أيضاً من عقلها ، وأدبها .

فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل ، الذى أمرت بدخوله ، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام وأن ملك سليمان وتنظيمه ، قد بناه على الحكمة ، ولم يكن فى قلبها أدنى شك ، من حالة السوء بعد ما رأت ، ما رأت .

قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ

---

فلما استعدت للخوض قيل لها [ إنه صرح ممرد ] أى : مجلس [ من قوارير ] فلا حاجة منك لكشف الساقين .

فحينئذ لما وصلت إلى سليمان ، وشاهدت ما شاهدت ، وعلمت نبوته ورسالته ، ثابت ورجعت عن كفرها ، و [ قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ] .

فهذا ما قصه الله علينا ، من قصة ملكة سبأ ، وما جرى لها مع سليمان .

وما عدا ذلك من الفروع المولدة ، والقصص الإسرائيلية ، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله ، وهو من الأمور ، التى يتوقف الجزم بها ، على الدليل المعلوم عن المعصوم .

والمنقولات فى هذا الباب كلها ، أو أكثرها ، ليس كذلك .

فالحزم كل الحزم ، الإعراض عنها ، وعدم إدخالها فى التفاسير . والله أعلم .

* يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود ، القبيلة المعروفة ، أخاهم فى النسب ، صالحا ، وأنه أمرهم ، أن يعبدوا الله وحده ، ويتركوا الأنداد والأوثان .

[ فإذا هم فريقان ، يختصمون ] منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، وهم معظمهم .

[ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ] أى : لم تبادرون فعل

قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

السيئات ، وتحرصون عليها ، قبل فعل الحسنات ، التى بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية ؟ والحال أنه لا موجب لكم ، إلى الذهاب لفعل السيئات ؟ .

[ لولا تستغفرون الله ] بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم ، وتدعوا أن يغفر لكم .

[ لعلكم تُرحمون ] فإن رحمة الله قريب من المحسنين ، والتائب من الذنوب ، هو من المحسنين .

[ قالوا ] لنبيهم صالح ، مكذبين ومعارضين : [ اطيرنا بك وبمن معك ] .

زعموا ـــ قبحهم الله ـــ أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً ، وأنه ، هو ومن معه ، من المؤمنين ، صاروا سببا لمنع مطالبهم الدنيوية .

فقال لهم صالح : [ طائركم عندالله ] أى : ما أصابكم الله ، بذنوبكم .

[ بل أنتم قوم تفتنون ] بالسراء والضراء ، والخير والشر ، لينظر هل تقلعون وتتوبون ، أم لا ؟

فهذا دأبهم فى تكذيب نبيهم ، وما قابلوه به .

[ وكان فى المدينة ] التى فيها صالح ، الجامعة لمعظم قومه [ تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ] أى : وصفهم الإفساد فى الأرض ،

وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

ولا لهم قصد، ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح، والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى:

« فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ».

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم [ تقاسموا ] فيما بينهم، كل واحد، أقسم للآخر [ لنبيتنه وأهله ] أي: لنأتينهم ليلا، هو وأهله، فلنقتلنهم.

[ ثم لنقولن لوليه ] إذا قام علينا، وادّعى علينا، أنا قتلناهم، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف.

[ ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ] فتواطئوا على ذلك.

[ ومكروا مكراً ] دبروا أمرهم، على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى من قومهم، خوفاً من أوليائه.

[ ومكرنا مكرا ] بنصر نبينا صالح، عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين [ وهم لا يشعرون ].

[ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ] هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر.

مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً
بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

---

ولهذا قال : [ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ] أهلكناهم ، واستأصلنا شأفتهم .

فجاءتهم صيحة عذاب ، فأهلكوا عن آخرهم .

[ فتلك بيوتهم خاوية ] قد تهدمت جدرانها على سقوفها ، وأوحشت من ساكنيها ، وعطلت من نازليها .

[ بما ظلموا ] أى : هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله ، وبغيهم فى الأرض .

[ إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ] الحقائق ، ويتدبرون وقائع الله ، فى أوليائه وأعدائه فيعتبرون بذلك ، ويعلمون أن عاقبة الظلم ، الدمار والهلاك ، وأن عاقبة الإيمان والعدل ، النجاة والفوز .

ولهذا قال : [ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ] أى : أنجينا المؤمنين بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره ، وشره ، وكانوا يتقون الشرك بالله ، والمعاصى ، ويعملون بطاعته ، وطاعة رسله .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

---

* أى : واذكر عبدنا، ورسولنا، لوطا، ونبأه الفاضل، حين قال لقومه ـ داعيا إلى الله، وناصحاً ـ :

[ أتأتون الفاحشة ] أى : الفعلة الشنعاء، التى تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع [ وأنتم تبصرون ] ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندتم، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم، وجرأة على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة فقال : [ أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ].

أى : كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم، محل الغائط والنجْو، والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم، من النساء، من المحال الطيبة، التى جبلت النفوس على الميل إليها.

وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن.

[ بل أنتم قوم تجهلون ] متجاوزون لحدود الله، متجرئون على محارمه.

[ فما كان جواب قومه ] قبول ولا انزجار، ولا تذكر، وادكار.

إنما كان جوابهم، المعارضة، والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح، ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده.

أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا

---

فما كان جواب قومه [ إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ] .

فكأنه قيل : مانقمتم منهم ، وما ذنبهم الذى أوجب لهم الإخراج .

فقالوا : [ إنهم أناس يتطهرون ] أى : يتنزهون عن اللواط ، وأدبار الذكور .

فقبحهم الله ، جعلوا أفضل الحسنات ، بمنزلة أقبح السيئات .

ولم يكتفوا بمعصيتهم نبيهم ، وفيما وعظهم به ، حتى وصلوا إلى إخراجه والبلاء موكل بالمنطق ، فهم قالوا : « أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » .

ومفهوم هذا الكلام « وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة ، المقتضى لنزول العقوبة بقريتكم ، ونجاة من خرج منها » .

ولهذا قال تعالى : [ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ] .

وذلك لما جاءته الملائكة فى صورة أضياف ، وسمع بهم قومه ، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر ، وأغلق الباب دونهم ، واشتد الأمر عليه .

ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال ، وأنهم جاءوا لاستنقاذه ، من بين أظهرهم ، وأنهم يريدون إهلاكهم ، وأن موعدهم الصبح .

وأمروه أن يسرى بأهله ليلا ، إلا امرأته ، فإنه سيصيبها ما أصابهم فخرج بأهله ليلا ، فنجوا ، وصبّحهم العذاب .

عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

---

فقلب الله عليهم ديارهم ، وجعل أعلاها أسفلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك .

ولهذا قال هنا : [ وأمطرنا عليهم مطرا فساد مطر المنذرين ] .

أى : بئس المطر مطرهم ، وبئس العذاب عذابهم ، لأنهم أنذروا وخوفوا ، فلم ينزجروا ، ولم يرتدعوا ، فأحل الله بهم ، عقابه الشديد .

* أى : قل « الحمد لله الذى يستحق كال الحمد ، والمدح والثناء ، لكمال أوصافه ، وجميل معروفه ، وهباته ، وعدله ، وحكمته فى عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين .

وسلَّم أيضا على عباده ، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين ، من الأنبياء والمرسلين ، وصفوة الله رب العالمين .

وذلك لرفع ذكرهم ، وتنويها بقدرهم ، وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه فى ربهم ، من النقائص والعيوب .

[ والله خير أ ما يشركون ] وهذا استفهام قد تقرر وعرف .

أى : الله الرب العظيم ، كامل الأوصاف ، عظيم الألطاف ، خير أم الأصنام والأوثان ، التي عبدوها معه ، وهى ناقصة من وجه كل ، لاتنفع ولا تضر ، ولاتملك لأنفسها ، ولا لعابديها ، مثقال ذرة من الخير فالله خير مما يشركون .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف، ويتبين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هى الحق، وعبادة ما سواه، هى الباطل فقال: [ أم من خلق السموات ] إلى [ يعدلون ].

* أى: أمن خلق السموات، وما فيها، من الشمس والقمر، والنجوم، والملائكة، والأرض، وما فيها من جبال، وبحار، وأنهار، وأشجار، وغير ذلك.

[ وأنزل لكم ] أى: لأجلكم [ من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ] أى: بساتين [ ذات بهجة ] أى: حسن منظر، من كثرة أشجارها، وتنوعها، وحسن ثمارها.

[ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ] لولا مِنَّة الله عليكم، بإنزال المطر.

[ أإله مع الله ] فعل هذا الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به ؟.

[ بل هم قوم يعدلون ] به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده، خالق العالم العلوى والسفلى، ومنزل الرزق.

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

---

☆ أى : هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه ، التى لا فعل منها ولا رزق ولا نفع ، خير ؟ أم الله الذى [ جعل الأرض قرارا ] يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى ، والحرث ، والبناء ، والذهاب ، والأياب .

[ وجعل خلالها أنهارا ] أى : جعل فى خلال الأرض ، أنهارا ينتفع بها العباد ، فى زروعهم وأشجارهم ، وشربهم ، وشرب مواشيهم .

[ وجعل لها رواسى ] أى : جبالا ترسيها وتثبتها ، لئلا تميد ، وتكون أوتادا لها ، لئلا تضطرب .

[ وجعل بين البحرين ] البحر المالح والبحر العذب [ حاجزا ] يمنع من اختلاطهما ، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما ، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض .

جعل مجرى الأنهار فى الأرض ، مبعدة عن البحار ، فتحصل منها مقاصدها ومصالحها .

[ أإله مع الله ] فعل ذلك ، حتى يعدل به الله [1] ويشرك به معه .

[ بل أكثرهم لا يعلمون ] فيشركون بالله ، تقليدا لرؤسائهم وإلا ، فلو علموا حق العلم ، لم يشركوا به شيئا .

---

( ١ ) قوله « حتى يعدل به الله » يريد « حتى يسوى بالله غيره » أو « حتى يسوى الله بغيره » ولو قال : « حتى يعدل بالله غيره » لكان هو الصواب .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

* أى : هل يجيب المضطرب ، الذى أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب ، واضطر للخلاص ، مما هو فيه ، إلا الله وحده ؟ .

ومن يكشف السوء ، أى : البلاء ، والشر ، والنقمة ، إلا الله وحده ؟ .

ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها ، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه ، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ، ويأتى بقوم بعدكم ، أإله مع الله ، يفعل هذه الأفعال ؟ .

لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك ، حتى بإقراركم أيها المشركون . ولهذا كانوا إذا مسهم الضر ، دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده ، المقتدر على دفعه وإزالته .

[ قليلا ما تذكرون ] أى : قليل تذكركم وتدبركم للأمور ، التى إذا تذكرتموها ، ادكرتم ، ورجعتم إلى الهدى .

ولكن الغفلة والإعراض ، شامل لكم ، فلذلك ما أرعويتم ، ولا اهتديتم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

---

* أى : من هو الذى يهديكم ، حين تكونون فى ظلمات البر والبحر ، حيث لا دليل ، ولا معلم يرى ، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم ، وتيسيره الطريق ، وجعل ما جعل لكم من الأسباب ، التى تهتدون بها .

[ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ] أى : بين يدى المطر .

فيرسلها ، فتثير السحاب ، ثم تؤلفه ، ثم تجمعه ، ثم تلقحه ، ثم تدره ، فيستبشر بذلك العباد ، قبل نزول المطر .

[ أإله مع الله] فعل ذلك ؟ أم هو وحده ، الذى انفرد به ؟ فلم أشركتم معه غيره ، وعبدتم سواه ؟ .

[ تعالى الله عما يشركون ] تعاظم ، وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

* أى : من هو الذى يبدأ الخلق ، وينشىء المخلوقات ، ويبتدى خلقها ، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ، بالمطر والنبات ؟.

[ أإله مع الله ] يفعل ذلك ، ويقدر عليه ؟ .

[ قل هاتوا برهانكم ] أى : حجتكم ودليلكم على ما قلتم [ إن كنتم صادقين ] وإلا ، فبتقدير أنكم تقولون : إن الأصنام لها مشاركة له ، فى شىء من ذلك ، فذلك مجرد دعوى ، صدقتموها بلا برهان .

وإلا ، فاعرفوا أنكم مبطلون ، لا حجة لكم .

فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله ، هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يصرف له جميع أنواع العبادات .

* يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض ، كقوله تعالى :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وكقوله « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام » إلى آخر السورة .

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا

---

فهذه الغيوب ونحوها ، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك ، المحيط علمه بالسرائر ، والبواطن ، والخفايا ، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة ، منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال :

[ وما يشعرون ] أي وما يدرون [ أيان يبعثون ] أي : متى البعث والنشور ، والقيام من القبور ، أي : فلذلك لم يستعدوا .

[ بل ادّارك علمهم فى الآخرة ] أي : بل ضعف ، ولم يكن يقينا ، ولا علما واصلا إلى القلب ، وهذا أقل ، وأدنى درجة للعلم ، ضعفه ووهاؤه .

بل ليس عندهم علم قوى ، ولا ضعيف ، وإنما [ هم فى شك منها ] . أى : من الأخرة .

والشك زال به العلم ، لأن العلم بجميع مراتبه ، لا يجامع الشك .

[ بل هم منها ] أى من الآخرة [ عمون ] قد عميت عنها بصائرهم .

ولم يكن فى قلوبهم علم من وقوعها ، ولا احتمال ، بل أنكروها واستبعدوها .

ولهذا قال : [وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإننا لمخرجون]

نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

---

أى : هذا بعيد ، غير ممكن ، قاسوا قدرة كامل القدرة ، بقدرهم الضعيفة .

[ لقد وعدنا هذا ] أى : البعث [ نحن وآباؤنا من قبل ] أى : فلم يجئنا ، ولا رأينا منه شيئا .

[ إن هذا إلا أساطير الأولين ] أى : قصصهم وأخبارهم ، التى تقطع بها الأوقات ، وليس لها أصل ، ولا صدق فيها .

فانتقل فى الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة ، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها ، ثم الإخبار بأنه شك ، ثم الإخبار بأنهم عُمْىٌ ، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك ، واستبعادهم وقوعه .

أى : وبسبب هذه الأحوال ترحَّل خوف الآخرة من قلوبهم ، فأقدموا على معاصى الله ، وسهل عليهم تكذيب الحق ، والتصديق بالباطل ، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات ، فخسروا دنياهم وأخرهم .

نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل فقال : [ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ] فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه . إلا وعاقبته شَرُّ عاقبة ، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ، ما يليق بحاله .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾
قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

---

* أى : لا تحزن يا محمد ، على هؤلاء المكذبين ، وعدم إيمانهم .

فإنك لو علمت ما فيهم من الشر ، وأنهم لا يصلحون للخير ، لم تأس ولم تحزن .

ولا يضق صدرك ، ولا تقلق نفسك بمكرهم ، فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ويقول المكذبون بالمعاد ، وبالحق الذى جاء به الرسول ، مستعجلين للعذاب :

[ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم ، فإن وقوعه ووقته ، قد أجله الله بأجله ، وقدره بقدره .

فلا يدل عدم استعجاله ، على بعض مطلوبهم .

ولكن — مع هذا — قال تعالى ، محذراً لهم وقوع ما يستعجلون : [ قل عسى أن يكون ردف لكم ] أى : قرب منكم ، وأوشك أن يقع بكم [ بعض الذى تستعجلون ] من العذاب .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

---

* ينبه عباده ، على سعة جوده ، وكثرة أفضاله ، ويحثهم على شكرها .

ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر ، واشتغلوا بالنعم عن المنعم .

[وإن ربك ليعلم ما تكن] أى : تنطوى عليه [صدورهم وما يعلنون] .

فليحذروا من عالم السرائر والظواهر ، وليراقبوه .

[ وما من غائبة فى السماء والأرض ] أى : خفية ، وسر من أسرار العالم ، العلوى والسفلى .

[ إلا فى كتاب مبين] قد أحاط ذلك الكتاب ، بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة .

فكل حادث جلىٍّ أو خفىٍّ إلا وهو مطابق ، لما كتب فى اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

* وهذا خبر عن هيمنة القرآن ، على الكتب السابقة ، وتفصيله ، وتوضيحه :

لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بنى إسرائيل ، قصّه هذا القرآن قصا ، زال به الإشكال واستبان به الصواب من المسائل المختلف فيها .

وإذا كان بهذه المثابة ، من الجلالة والوضوح ، وإزالة كل خلاف ، وفصل كل مشكل ، كان أعظم نعم الله على العباد ، ولكن ما كل أحد ، يقابل النعمة بالشكر .

ولهذا بيّن أن نفعه ، ونوره ، وهداه ، مختص بالمؤمنين فقال :

[ وإنه لهدى ] من الضلالة والغىّ والشُّبَه [ ورحمة ] تثلج له صدورهم ، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية [ للمؤمنين ] به المصدقين له ، المتلقين له بالقبول ، المقبلين على تدبره ، المتفكرين فى معانيه .

فهؤلاء ، تحصل لهم به ، الهداية إلى الصراط المستقيم ، والرحمة المتضمنة للسعادة ، والفوز والفلاح .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ

---

* أى إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين ، وسيحكم بين المختلفين ، بحكمه العدل ، وقضائه القسط .

فالأمور وإن حصل فيها اشتباه فى الدنيا بين المختلفين ، لخفاء الدليل ، ولبعض المقاصد ، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع ، حين يحكم الله فيها .

[ وهو العزيز ] الذى قهر الخلائق ، فأذعنوا له .

[ العليم ] بجميع الأشياء [ العليم ] بأقوال المختلفين ، وعما ذا صدرت ، وعن غاياتها ومقاصدها ، وسيجازى كُلاً بما علمه فيه .

* أى : اعتمد على ربك ، فى جلب المصالح ، ودفع المضار ، وفى تبليغ الرسالة ، وإقامة الدين ، وجهاد الأعداء .

[ إنك على الحق المبين ] الواضح ، والذى على الحق ، يدعو إليه ، ويقوم بنصرته ، أحق من غيره بالتوكل ، فإنه يسعى إلى أمر مجزوم به ، معلوم صدقه ، لا شك فيه ، ولا مرية .

وأيضاً ، فهو حق ، فى غاية البيان ، لا خفاء به ، ولا اشتباه .

وإذا قمت بما حملت ، وتوكلت على الله فى ذلك ، فلايضرك ضلال من ضل ، وليس عليك هداهم ، فلهذا قال :

لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

---

[ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ] أى ، حين تدعوهم وتناديهم ، وخصوصا [ إذا ولوا مدبرين ] فإنه يكون أبلغ فى عدم إسماعهم .

[ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ] كما قال تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء » .

[ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ] أى : هؤلاء الذين ينقادون لك ، هم الذين يؤمنون بآيات الله ، وينقادون لها بأعمالهم ، واستسلامهم كما قال تعالى : «إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » .

* أى : إذا وقع على الناس ، القول الذى حتّمه الله ، وفرض وقته .

[ أخرجنا لهم دابة] خارجة [من الأرض] أو دابة من دواب الأرض ، ليست من السماء .

وهذه الدابة [ تـكلمهم ] أى : تـكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ] أى : لأجل أن الناس ، ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ

---

فإظهار الله هذه الدابة ، من آيات الله العجيبة ، ليبين للناس ، ما كانوا فيه يمترون .

وهذه الدابة ، هى الدابة المشهورة ، التى تخرج فى آخر الزمان ، وتكون من أشراط الساعة ، كما تكاثرت بذلك الأحاديث ، لم يذكر الله ورسوله ، كيفية هذه الدابة.

وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها من آيات الله ، تكلم الناس كلاما خارقا للعادة ، حين يقع القول على الناس ، وحين يمترون بآيات الله .

فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين ، وحجة على المعاندين .

* يخبر تعالى عن حالة المكذبين فى موقف القيامة ، وأن الله يجمعهم ، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجا وطائفة [ ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ] .

يجمع أولهم على آخرهم ، وآخرهم على أولهم ، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم .

[ حتى إذا جاءوا ] وحضروا ، قال لهم ، موبخا ومقرعا :

أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها] العلم ، أى : الواجب عليكم التوقف ، حتى ينكشف لكم الحق ، وأن لا تتكلموا إلا بعلم .

فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علماً ؟ [ أم ماذا كنتم تعملون ] .

تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم
بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

---

أى : يسألهم عن علمهم ، وعن عملهم ، فيجد علمهم ، تكذيبا بالحق ، وعملهم لغير الله ، أو على غير سنة رسولهم .

[ ووقع القول عليهم بما ظلموا ] أى : حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم ، الذى استمروا عليه ، وتوجهت عليهم الحجة .

[ فهم لا ينطقون ] لأنه لا حجة لهم .

* أى : ألم يشاهدوا الآية العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار .

هذا بظلمته ، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ، ويستعدوا للعمل .

وهذا بضيائه ، لينتشروا فيه فى معاشهم وتصرفاتهم .

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ] بكمال وحدانية الله وسبوغ نعمته .

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ

---

☆ يخوف الله عباده ، ما أمامهم من يوم القيامة ، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب ، فقال :

[ ويوم ينفخ فى الصور ففزع ] بسبب النفخ فيه [ من فى السموات ومن فى الأرض ] أى : انزعجوا وارتاعوا ، وماج بعضهم ببعض، خوفا مما هو مقدمة له .

[ إلا من شاء الله ] ممن أكرمه الله ، وثبته ، وحفظه من الفزع .

[ وكل ] من الخلق عند النفخ فى الصور [ أتوه داخرين ] صاغرين ذليلين .

كما قال تعالى « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

ففى ذلك اليوم ، يتساوى الرؤساء والمرءوسون، فى الذل والخضوع ، لمالك الملك .

ومن هَوْلِه أنك [ ترى الجبال تحسبها جامدة ] لا تفقد شيئاً منها ، وتظنها باقية على الحال المعهودة ، وهى قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ ، وقد تفتتت ، ثم تضمحل ، وتكون هباء منبثاً . ولهذا قال :

[ وهى تمر مر السحاب ] من خفتها ، وشدة ذلك الخوف وذلك [ صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون ] فيجازيكم بأعمالكم .

أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ
فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ

---

ثم بين كيفية جزائه فقال : [ من جاء بالحسنة ] يعم جنس الحسنات ، قولية ، أو فعلية ، أو قلبية [ فله خير منها ] هذا أقل التفضيل .

[وهم من فزع يومئذ آمنون ] أى : من الأمر الذى فزع الخلق لأجله آمنون ، وإن كانوا يفزعون معهم .

[ ومن جاء بالسيئة ] اسم جنس ، يشمل كل سيئة [ فكبت وجوههم فى النار] أى : ألقوا فى النار على وجوههم ، ويقال لهم [ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ] .

* أى قل لهم يامحمد [ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ] أى : مكة المكرمة [ التى حرمها ] وأنعم على أهلها ، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول .

[وله كل شىء] من العلويات والسفليات ، أتى به ، لئلايتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده .

[ وأمرت أن أكون من المسلمين ] أى : أبادر إلى الإسلام .

أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

---

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، فإنه أول هذه الأمة إسلاما ، وأعظمها استسلاما .

[ و ] أمرت أيضاً [ أن أتلو ] عليكم [ القرآن ] لتهتدوا به ، وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه ، فهذا الذى علىّ ، وقد أديته .

[ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ] نفعه يعود عليه ، وثمرته عائدة إليه

[ ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ] وليس بيدى من الهداية شيء .

[ وقل الحمد لله ] الذى له الحمد فى الأولى والآخرة ، ومن جميع الخلق. خصوصا أهل الاختصاص والصفوة من عباده .

فإن الذى وقع ، والذى ينبغى ، أن يقع منهم ، من الحمد والثناء على ربهم ، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم ، وكمال قربهم منه ، وكثرة خيراته عليهم .

[ سيريكم آياته فتعرفونها ] معرفة ، تدلكم على الحق والباطل .

فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به فى الظلمات .

« ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة » .

[ وما ربك بغافل عما تعملون ] بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال

. . . . . . . . . . .

والأحوال ، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال ، وسيحكم بينكم حكما ، تحمدونه عليه ، ولا يكون لكم حجه ، بوجه من الوجوه عليه .

* * *

تم تفسير سورة النحل بفضل الله وإعانته وتيسيره .

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته ، مستمرة علينا ، وواصلة منه إلينا .

فهو أكرم الأكرمين ، وخير الراحمين ، وموصل المنقطعين ، ومجيب السائلين .

ميسر الأمور العسيرة ، وفاتح أبواب بركاته ، والمجزل فى جميع الأوقات ، هباته .

ميسر القرآن للمتذكرين ، ومسهل طرقه وأبوابه ، للمقبلين ، ويمد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

على يد جامعه وممليه ، عبد الرحمن بن ناصر ، بن عبد الله السعدى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . وذلك فى ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ .

وتم تحريره من خط مؤلفه ، فى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٦ .

. . . . . . . . . .

---

تم الجزء الخامس من ( تيسير الكريم الرحمن ، فى تفسير كلام المنان ) ويليه — إن شاء الله — الجزء السادس ، وأوله تفسير « سورة القصص » .

ويليه فى النشر عقب هذا ، أصول من أصول التفسير ، وتفسير ألفاظ عامة ، يكثر فى القرآن مرورها ، ويحتاج الناس إلى معرفتها .

—O—O—

بسم الله الرحمن الرحيم

# أصول وكليات

### من أصول التفسير وكلياته ـ لا يستغنى عنها المفسر للقرآن

النكرة فى سياق النفى ، أو سياق النهى ، والاستفهام ، أو سياق الشرط ، تعم ، وكذلك المفرد المضاف ، يعم . وأمثلة ذلك كثيرة .

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات ، أو وجدت مفردة مضافة إلى معرفة ، فأثبت جميع ما دخل فى ذلك اللفظ ، ولا تعتبر سبب النزول وحده ، فإن « العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب » .

وينبغى أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة ، والتى لا تزال تحدث ، على العمومات القرآنية ، فبذلك تعرف أن القرآن ، تبيان لكل شىء ، وأنه لا يحدث حادث ، ولا يستجد أمر من الأمور ، إلا وفى القرآن بيانه وتوضيحه .

ومن أصوله أن الألف واللام ، الداخلة على الأوصاف[1] ، وعلى أسماء الأجناس ، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعانى .

---

(١) قوله « الأوصاف » المراد منها الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول ، ونحوهما .

ومن كليات القرآن ، أن تدعو إلى توحيد الله ، ومعرفته ، بذكر أسماء الله ، وأوصافه ، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية ، وأوصاف الكمال ، وإلى أنه الحق ، وعبادته هى الحق ، وأن مايدعون من دونه ، هو الباطل . ويبين نقص كل ماعبد من دون الله من جميع الوجوه .

ويدعو إلى صحة ماجاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه، ببيان إحكامه ، وتمامه ، وصدق إخباراته كلها ، وحسن أحكامه .

ويبين ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الكمال البشرى، الذى لا يلحقه فيه أحد ، من الأولين والآخرين .

ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين .

ويقرر ذلك بشهادته تعالى ، بقوله ، وفعله ، وإقراره إياه ، وتصديقه له ، بالحجة والبرهان ، وبالنصر والظهور ، وبشهادة أهل العلم المنصفين .

ويقابل بين ما جاء به من الحق ، فى أخباره ، وأحكامه ، وبين ما كان عليه أعداؤه ، والمكذبون به . من الكذب فى أخبارهم ، والباطل فى أحكامهم ، كما يقرر ذلك ، بالمعجزات المتنوعة .

ويقرر الله المعاد ، بذكر كال قدرته ، وخلقه للسموات والأرض ، اللتين هما أكبر من خلق الناس ، وبأن الذى بدأ الخلق ، قادر على إعادته ، من باب أولى ، وبأن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الموتى .

ويذكر أيضاً أيامه فى الأمم ، ووقوع المثلات ، التى شاهدها الناس فى الدنيا ، وأنها نموذج من جزاء الآخرة .

ويدعو جميع المبطلين ، من الكفار ، والمشركين ، والملحدين ، بذكر

محاسن الدين ، وأنه يهدى للتى هى أقوم ، فى عقائده ، وأخلاقه ، وأعماله ، وبيان ما لله من العظمة والربوبية ، والنعم العظيمة .

وأن من تفرد بالكمال المطلق ، والنعم كلها ، هو الذى لا تصلح العبادة إلا له .

وأن ما عليه المبطلون ، إذا ميز وحقق ، وجد شراً وباطلا ، وعواقبه وخيمة .

ومن أصول التفسير ، إذا فهمت مادلت عليه الآيات الكريمة ، من المعانى ، مطابقة ، وتضمنا . فاعلم أن لوازم هذه المعانى ، وما لاتتم إلا به ، وشروطها وتوابعها ، تابعة لذلك المعنى .

فما لايتم الخبر إلا به ، فهو تابع للخبر ، وما لا يتم الحكم إلا به ، فهو تابع للحكم .

وأن الآيات التى يفهم منها التعارض والتناقض ، ليس فيها تناقض ولا تعارض .

بل يجب حمل كل منها ، على الحالة المناسبة اللائقة بها .

وأن حذف المتعلقات ؛ من مفعولات وغيرها ، يدل على تعميم المعنى ، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف ، وأنه لايجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظى ، والقرينة الحالية .

كما أن الأحكام المقيدة ، بشروط أو صفات ، تدل على أن تلك القيود لابد منها فى ثبوت الحكم .

إذا أمر الله بشىء ، كان ناهيا عن ضده ، وإذا نهى عن شىء ، كان آمرا بضده .

وإذا أثنى على نفسه ؛ بنفى شىء من النقائص ؛ كان إثباتا للـكمال المنافى لذلك النقص .

وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ؛ ونزههم عن شىء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص .

ومثله ؛ نفى النقائص ؛ عن دار النعيم ؛ يدل على إثبات ضد ذلك .

ومن الـكليات ؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورا جليا ؛ لم يبق للمجادلات العلمية ؛ والمعارضات العملية محل ؛ بل تبطل المعارضات ؛ وتضمحل المجادلات .

ما نفاه القرآن ؛ فإما أن يكون غير موجود ؛ أو أنه موجود ؛ ولـكنه غير مفيد ولا نافع .

الموهوم ؛ لايدفع المعلوم ؛ والمجهول ؛ لا يعارض المحقق ؛ وما بعد الحق إلا الضلال .

ذكر الله فى القرآن ؛ الإيمان والعمل الصالح فى مواضع كثيرة ؛ ورتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل ، والآثار الحميدة ، شيئاً كثيرا .

فالإيمان هو : التصديق الجازم ، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به ، المتضمن لأعمال الجوارح .

والعمل الصالح هو : القيام بحقوق الله ، وحقوق عباده .

وكذلك أمر الله بالتقوى ، ومدح المتقين ، ورتب على التقوى حصول الخيرات ، وزوال المـكروهات .

والتقوى الـكاملة ، امتثال أمر الله ، وأمر رسوله ، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما .

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه ؛ كانت التقوى اسماً لتوقى جميع المعاصى ، والبر ، اسما لفعل الخيرات .

وإذا أفرد أحدهما ، دخل فيه الآخر .

وذكر الله الهدى المطلوب فى مواضع كثيرة ، وأثنى على المهتدى وأخبر أن الهدى بيده ، وأمرنا بطلبه منه ، وبالسعى فى كل سبب يحصل الهدى .

وذلك شامل لهداية العلم والعمل .

فالمهتدى ، من عرف الحق ، وعمل به ، وضده الغى والضلال .

فمن عرف الحق ولم يعمل به ، فهو الغاوى ، ومن جهل الحق ، فهو الضال .

أمر الله بالإحسان ، وأثنى على المحسنين ، وذكر ثوابهم المتنوع ، فى آيات كثيرة .

وحقيقة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالى ، والبدنى ، والقولى ، إلى المخلوقين :

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو : أن تسعى فى إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم ، وجميع أحوالهم ، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح .

وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية ، والأمور الدنيوية ، وإصلاح الأفراد والجماعات . وضد هذا ، الفساد .

والإفساد ، قد نهى عنه ، وذم المفسدين ، وذكر عقوباتهم المتعددة ، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية .

أثني الله على اليقين ، وعلى الموقنين ، وأنهم ، هم المنتفعون بالآيات القرآنية ، والآيات الأفقية .

واليقين أخص من العلم ، فهو : العلم الراسخ ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر ، وأثنى على الصابرين ، وذكر جزاءهم العاجل والآجل فى عدة آيات ، نحو تسعين موضعاً ، وهو يشمل أنواعه الثلاثة ·

الصبر على طاعة الله ، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه .

والصبر على محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها .

والصبر على أقوال الله المؤلمة ، فيتلقاها بصبر وتسليم ، غير متسخط فى قلبه ، ولا بدنه ، ولا لسانه .

وكذلك أثنى الله على الشكر ، وذكر ثواب الشاكرين ،وأخبر أنهم أرفع الخلق فى الدنيا والآخرة .

وحقيقة الشكر هو : الاعتراف بجميع نعم الله ، والثناء على الله بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم .

وذكر الله الخوف والخشية ، فى مواضع كثيرة .

أمر به ، وأثنى على أهله ، وذكر ثوابهم ، وأنهم المنتفعون بالآيات ، التاركون للمحرمات .

وحقيقة الخوف والخشية ، أن يخاف العبد مقامه بين يدى الله ، ومقامه عليه .

فينهى نفسه بهذا الخوف ، عن كل ما حرم الله .

والرجاء : أن يرجو العبد رحمة الله العامة ، ورحمته الخاصة به .

فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات ، وغفران ما تاب منه من الزلات .

ويعلق رجاءه بربه ، فى كل حالة من أحواله .

وذكر الله الإنابة فى مواضع كثيرة ، وأثنى على المنيبين ، وأمر بالإنابة إليه .

وحقيقة الإنابة ، انجذاب القلب إلى الله ، فى كل حالة من أحواله .

ينيب إلى ربه ، عند النعماء بشكره ، وعند الضراء ، بالتضرع إليه ، وعند مطالب النفوس الكثيرة ، بكثرة دعائه فى جميع مهماته .

وينيب إلى ربه ، باللهج بذكره فى كل وقت .

والإنابة أيضاً : الرجوع إلى الله ، بالتوبة من جميع المعاصى ، والرجوع إليه فى جميع أعماله ، وأقواله ، فيعرضها على كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فتكون الأعمال والأقوال ، موزونة بميزان الشرع .

أمر تعالى بالإخلاص ، وأثنى على المخلصين ، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص .

وحقيقة الإخلاص : أن يقصد العامل بعمله ، وجه الله وحده وثوابه .

وضده ، الرياء ، والعمل للأغراض النفسية .

نهى الله عن التكبر ، وذم الكبر والمتكبرين ، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة .

والتكبر هو : رد الحق ، واحتقار الخلق .

وضد ذلك ، التواضع ، فقد أمر به ، وأثنى على أهله ، وذكر ثوابهم .

فهو قبول الحق ممن قاله ، وأن لا يحتقر الخلق ، بل يرى فضلهم ، ويحب لهم ما يحب لنفسه .

العدل ، هو : أداء حقوق الله ، وحقوق العباد .

والظلم : عكسه ، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصى ، والشرك ، وظلم العباد فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

الصدق ، وهو : استواء الظاهر والباطن فى الاستقامة على الصراط المستقيم ، والكذب بخلاف ذلك .

حدود الله ، هى محارمه ، وهى التى يقول فيها [ تلك حدود الله فلا تقربوها ] .

ويراد بها ما أباحه الله وحلله ، وقدره ، وفرضه ، فيقول فيها [ تلك حدود الله فلا تعتدوها ] .

الأمانة هى : الأمور التى يؤتمن عليها العبد .

فيشمل ذلك ، أداء حقوق الله ، وخصوصا ، الخفية ، وحقوق خلقه كذلك .

العهود والعقود ، ويدخل فيها ، التى بينه وبين الله وهو : القيام بعبادة الله ، مخلصا له الدين ، والتى بينه وبين العباد ، من المعاملات ونحوها .

الحكمة والقوام ، فعل ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى .

والإسراف والتبذير ، مجاوزة الحد فى الإنفاق . والتقتير والبخل عكسه ، وهو : التقصير فى النفقات الواجبة .

و « المعروف » اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه ، شرعا ، وعقلا و « المنكر » عكسه .

الاستقامة : لزوم طاعة الله ، وطاعة رسوله على الدوام .

مرض القلب ، هو اعتلاله ، وهو نوعان : مرض شكوك فى الحق ، ومرض شهوة للأمور المحرمة .

النفاق : إظهار الخير ، وإبطان الشر ، فيدخل فيه ، النفاق الاعتقادى والنفاق العملى .

القرآن ، كله محكم ، وأحكمت آياته ، من جهة موافقتها للحكمة ، وأن أخباره على درجات الصدق ، وأحكامه في غاية الحسن .

وكله ، متشابه د من جهة اتفاقه فى البلاغة ، والحسن ، وتصديق بعضه لبعض وكمل اتفاقه .

ومنه محكم ومتشابه ، من جهة أن متشابهه : ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعانى .

ومحكمه ، واضح مبين صريح فى معناه ، إذا رد إليه المتشابه ، اتفق الجميع ، واستقامت معانيه .

معية الله التى ذكرها فى كتابه ، نوعان :

معية العلم والإحاطة ، وهى : المعية العامة ، فإنه مع عباده أينما كانوا .

ومعية خاصة ، وهى : معيته مع خواص خلقه ، بالنصرة ، واللطف ، والتأييد .

الدعاء والدعوة ، يشمل دعاء العبادة ، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .

ودعاء المسألة ، وهو : سؤال الله جلب المنافع ، ودفع المضار .

الطيبات : اسم جامع لكل طيب نافع ، من العقائد ، والأخلاق ، والأعمال ، والمآكل ، والمشارب والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث : الردىء ، وبالطيب : الخيار كقوله تعالى :

[ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما رزقناكم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ] .

النفقة ، تشمل النفقة الواجبة ، كالزكاة ، والكفارة ، ونفقة النفس ، والعائلة ، والمماليك ، والنفقة المستحبة ، كالنفقة فى جميع طرق الخير .

التوكل على الله ، والاستعانة به ، قد أمر الله بها ، وأثنى على المتوكلين فى آيات كثيرة .

وحقيقة ذلك ، قوة اعتماد القلب على الله ، فى جلب المصالح ، ودفع المضار ، الدينية ، والدنيوية ، مع الثقة به فى حصول ذلك .

العقل الذى مدحه الله وأثنى على أهله ، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات .

هو : الذى يفهم ، ويعقل الحقائق النافعة ، ويعمل بها ، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة ، ولذلك قيل له ، حجر ، ولب ، ونُهى ، لأنه يحجر صاحبه ، وينهاه عما يضره .

العلم ، هو معرفة الهدى بدليله ، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة ، ومعرفة أدلتها ، وطرقها ، التى تهدي إليها .

والعلم النافع ، هو : العلم بالحق والعمل به ، وضده الجهل .

لفظ « الأمة » فى القرآن على أربعة أوجه ، يراد به « الطائفة من الناس » وهو الغالب .

ويراد به « المدة » ، ويراد به « الدين » و « الملة » ، ويراد به « الإمام » فى الخير .

لفظ « استوى » فى القرآن على ثلاثة أوجه : إن عُدِّىَ بـ « على » كان معناه العلو والارتفاع كقوله تعالى [ ثم استوى على العرش ] .

وإن عدى بـ « إلى » فمعناه قصد كقوله [ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ] .

وإن لم يُعَدَّ بشيء ، فمعناه « كمل » كقوله تعالى [ ولما بلغ أشده واستوى ] .

« التوبة » ورد فى آيات كثيرة ، الأمر بها ، ومدح التائبين وثوابهم

وهى : الرجوع عما يكرهه الله ، ظاهراً ، وباطناً ، إلى ما يحبه الله ، ظاهراً وباطناً .

الصراط المستقيم ، الذى أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو : الطريق المعتدل ، الموصل إلى رضوان الله وثوابه ، وهو متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى أقواله وأفعاله ، وكل أحواله

الذكر لله ، الذى أمر به ، وأثنى على الذاكرين ، وذكر جزاءهم العاجل والآجل .

هو : عند الإطلاق ، يشمل جميع مايقرب إلى الله ، من عقيدة ، أو فكر نافع ، أو خلق جميل ، أو عمل قلبى أو بدنى ، أو ثناء على الله ، أو تسبيح ، ونحوه ، أو تعلم أحكام الشرع ، الأصولية والفروعية ، أو مايعين على ذلك فكله داخل فى ذكر الله .

# فصـــل

## ﴿ فى شرح أسماء الله الحسنى ﴾

قد تـكرر كثير من أسماء الله الحسنى فى القرآن بحسب المناسبات ، والحاجة داعـية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول :

قد تـكرر اسم [ الرب ] فى آيات كثيرة .

و « الرب » هو : المربى جميع عباده ، بالتدبير ، وأصناف النعم .

وأخص من هـذا ، تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم ، وأرواحهم ، وأخلاقهم .

ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل ، لأنهم يطلبون منه هـذه التربية الخاصة .

( الله ) هو المألوه المعبود ، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، لما اتصف به من صفات الألوهية التى هى صفات الـكمال .

[ الملك ، المالك ، الذى له الملك ] فهو الموصوف ، بصفة الملك .

وهى صفات العظمة والـكبرياء ، والقهر والتدبير ، الذى له التصرف المطلق ، فى الخلق ، والأمر ، والجزاء .

وله جميع العالم ، العلوى والسفلى ، كلهم عبيد ومماليك ، ومضطرون إليـه .

[ الواحد الأحد ] ، وهو الذي توحد بجميع الـكمالات ، بحيث لا يشاركه فيها مشارك .

ويجب على العبيد توحيده ، عقدا ، وقولا ، وعملا ، بأن يعترفوا بكماله المطلق ، وتفرده بالوحدانية ، ويفردوه بأنواع العبادة .

(الصمد) وهو الذى تقصده الخلائق كلها ، فى جميع حاجاتها ، وأحوالها وضروراتها ، وأحوالها ، لما له من الكمال المطلق ، فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

( العليم الخبير ) وهو الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والإسرار والإعلان ، وبالواجبات ، والمستحيلات ، والممكنات ، وبالعالم العلوى ، والسفلى ، وبالماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء .

( الحكيم ) وهو الذى له الحكمة العليا ، فى خلقه ، وأمره ، الذى أحسن كل شىء خلقه [ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ] .

فلا يخلق شيئا عبثاً ، ولا يشرع شيئا سدى ، الذى له الحكم فى الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك :

فيحكم بين عباده ، فى شرعه ، وفى قدره ، وجزائه .

والحكمة : وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها .

( الرحمن الرحيم والبر الكريم ، الجواد ، الرءوف ، الوهاب ) .

هذه الأسماء ، تتقارب معانيها ، وتدل كلها على اتصاف الرب ، بالرحمة ، والبر ، والجود ، والكرم ، وعلى سعة رحمته ومواهبه ، التى عم بها جميع الوجود ، بحسب ما تقتضيه حكمته .

وخص للمؤمنين منها ، بالنصيب الأوفر ، والحظ الأكمل ، قال تعالى : [ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ] الآية .

والنعم والإحسان ، كله من آثار رحمته ، وجوده ، وكرمه .

وخيرات الدنيا والآخرة ، كلها من آثار رحمته .

( السميع ) لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

( البصير ) الذى يبصر كل شىء وإن دق وصغر ، فيبصر دبيب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء .

ويبصر ما تحت الأرضين السبع ، كما يبصر ما فوق السموات السبع .

وأيضا سميع بصير ، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته ، والمعنى الأخير ، يرجع إلى الحكمة .

( الحميد ) فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

فله من الأسماء ، أحسنها ، ومن الصفات أكملها ، ومن الأفعال ، أتمها وأحسنها .

فإن أفعاله تعالى ، دائرة بين الفضل والعدل .

( المجيد الكبير العظيم الجليل ) وهو الموصوف بصفات المجد ، والكبرياء ، والعظمة ، والجلال ، الذى هو أكبر من كل شىء ، وأعظم من كل شىء ، وأجل وأعلى .

وله التعظيم والإجلال ، فى قلوب أوليائه وأصفيائه .

قد ملئت قلوبهم من تعظيمه ، وإجلاله ، والخضوع له ، والتذلل لكبريائه .

( العفو الغفور الغفار ) الذى لم يزل ، ولا يزال بالعفو معروفاً ، وبالغفران والصفح عن عباده ، موصوفاً .

كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته ، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه .

وقد وعد بالمغفرة والعفو ، لمن أتى بأسبابها ، قال تعالى :

[ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ] .

( التواب ) الذى لم يزل يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين .

فكل من تاب إلى الله توبة نصوحا ، تاب الله عليه .

فهو التائب على التائبين : أولا بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه .

وهو التائب عليهم بعد توبتهم ، قبولا لها ، وعفواً عن خطاياهم .

( القدوس ، السلام ) أى : المعظم المنزه عن صفات النقص كلها ، وأن يماثله أحد من الخلق ، فهو المتنزه عن جميع العيوب ، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله ، أحد فى شىء من الكمال [ ليس كمثله شىء ] [ ولم يكن له كفواً أحد ] [ هل تعلم له سميا ] [ فلا تجعلوا لله أنداداً ] .

فالقدوس كالسلام ، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه ، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه ، لأن النقص إذا انتفى ، ثبت الكمال كله.

( العلى الأعلى ) وهو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه .

علو الذات ، وعلو القدر والصفات ، وعلو القهر .

فهو الذى على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى .

وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهى .

( العزيز ) الذى له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع .

فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة ، وخضعت لعظمته .

( القوى المتين ) هو فى معنى العزيز .

( الجبار ) هو بمعنى العلى الأعلى ، وبمعنى القهار ، وبمعنى « الرءوف » الجابر للقلوب المنكسرة ، وللضعيف العاجز ، ولمن لاذ به ، ولجأ إليه .

( المتكبر ) عن السوء ، والنقص والعيوب ، لعظمته وكبريائه .

( الخالق البارىء المصور ) الذى خلق جميع الموجودات وبرأها ، وسواها بحكمته ، وصورها بحمده وحكمته ، وهو لم يزل ، ولا يزال على هذا الوصف العظيم .

(المؤمن) الذى أثنى على نفسه بصفات الكمال ، وبكمال الجلال والجمال.

الذى أرسل رسله ، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين .

وصدق رسله بكل آية وبرهان ، يدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به .

( المهيمن ) المطلع على خفايا الأمور ، وخبايا الصدور ، الذى أحاط بكل شىء علماً .

( القدير ) كامل القدرة .

بقدرته أوجد الموجودات ، وبقدرته دبرها ، وبقدرته سواها وأحكمها.

وبقدرته ، يحيي ويميت ، ويبعث العباد للجزاء ، ويجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الذى إذا أراد شيئاً قال له « كن فيكون » .

وبقدرته يقلب القلوب ، ويصرفها على ما يشاء ويريد .

( اللطيف ) الذى أحاط علمه بالسرائر والخفايا ، وأدرك الخبايا والبواطن ، والأمور الدقيقة ، اللطيف بعباده المؤمنين ، الموصل إليهم مصالحهم ، بلطفه وإحسانه ، من طرق لا يشعرون بها ، فهو بمعنى « الخبير » وبمعنى « الرءوف » .

[ الحسيب ] هو العليم بعباده ، كافى المتوكلين ، المجازى لعباده بالخير والشر ، بحسب حكمته ، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها .

[ الرقيب ] المطلع على ما أكنته الصدور ، القائم على كل نفس بما كسبت .

الذى حفظ المخلوقات وأجراها ، على أحسن نظام وأكمل تدبير .

[ الحفيظ ] الذى حفظ ما خلقه ، وأحاط علمه بما أوجده ، وحفظ أولياءه ، من وقوعهم فى الذنوب والهلكات .

ولطف بهم فى الحركات والسكنات ، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها .

[ المحيط ] بكل شيء علما ، وقدرة ، ورحمة ، وقهراً .

[ القهار ] لكل شيء ، الذى خضعت له المخلوقات ، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره .

[ المقيت ] الذى أوصل إلى كل موجود ما به يقتات .

وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء ، بحكمته وحمده .

[ الوكيل ] المتولى لتدبير خلقه ، بعلمه ، وكمال قدرته ،وشمول حكمته .

الذى تولى أوليائه، فيسرهم لليسرى ، وجنبهم العسرى ، وكفاهم الأمور .

فمن اتخذه وكيلا كفاه [ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ] .

[ ذو الجلال والإكرام ] أى : ذو العظمة والكبرياء ، وذو الرحمة ، والجود ، والإحسان العام والخاص .

المكرم لأوليائه وأصفيائه ، الذى يجلونه ، ويعظمونه ، ويحبونه .

[ الودود ] الذى يحب أنبياءه ورسله ، وأتباعهم ، ويحبونه .

فهو أحب إليهم ، من كل شىء .

قد امتلأت قلوبهم من محبته ، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وانجذبت أفئدتهم إليه ، وداً ، وإخلاصا ، وإنابة من جميع الوجوه .

[ الفتاح ] الذى يحكم بين عباده ، بأحكامه الشرعية ، وأحكامه القدرية ، وأحكام الجزاء .

الذى فتح بلطفه بصائر الصادقين .

وفتح قلوبهم لمعرفته ، ومحبته ، والإنابة إليه .

وفتح لعباده ، أبواب الرحمة ، والأرزاق المتنوعة .

وسبب لهم الأسباب ، التى ينالون بها خير الدنيا والآخرة [ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ] .

[ الرزاق ] لجميع عباده ، فما من دابة فى الأرض ، إلا على الله رزقها .

ورزقه لعباده نوعان :

رزق عام ، شمل البر والفاجر ، والأولين ، والآخرين ، وهو رزق الأبدان .

ورزق خاص وهو القلوب ، وتغذيتها بالعلم والإيمان .

والرزق الحلال الذى يعين على صلاح الدين ، وهذا خاص بالمؤمنين ، على مراتبهم منه ، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته .

[ الحكم العدل ] الذى يحكم بين عباده فى الدنيا والآخرة ، بعدله وقسطه .

فلا يظلم مثقال ذرة ، ولا يحمل أحدا وزر أحد ، ولا يجازى العبد بأكثر من ذنبه ، ويؤدى الحقوق إلى أهلها .

فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه .

وهو العدل فى تدبيره وتقديره [ إن ربى على صراط مستقيم ] .

( جامع الناس ) ليوم لاريب فيه ، وجامع أعمالهم وأرزاقهم ، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين ، بكمال قدرته ، وسعة علمه .

( الحى القيوم ) كامل الحياة والقائم بنفسه .

القيوم لأهل السموات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم ، وجميع أحوالهم فـ « الحىّ » : الجامع لصفات الذات ، و « القيوم » الجامع لصفات الأفعال .

( النور ) نور السموات والأرض .

الذى نَوَّر قلوب العارفين بمعرفته ، والإيمان به ، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته .

وهو الذى أنار السموات والأرض ، بالأنوار التى وضعها .

وحجابه ، النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

( بديع السموات والأرض ) أى : خالقهما ومبدعهما ، فى غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع ، والنظام العجيب المحكم .

( القابض ، الباسط ) يقبض الأرزاق والأرواح ، ويبسط الأرزاق والقلوب ، وذلك تبع لحكمته ورحمته .

( المعطى ، المانع ) لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

فجميع المصالح والمنافع ، منه تطلب ، وإليه يرغب فيها .

وهو الذى يعطيها لمن يشاء ، ويمنعها من يشاء ، بحكمته ورحمته .

( الشهيد ) أى : المطلع على جميع الأشياء .

سمع جميع الأصوات ، خفيها وجليها .

وأبصر جميع الموجودات ، دقيقها وجليلها ، صغيرها وكبيرها .

وأحاط علمه بكل شىء ، الذى شهد لعباده ، وعلى عباده ، بما عملوه .

( المبدىء ، المعيد ) قال تعالى [ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ] .

ابتدأ خلقهم ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، ثم يعيدهم ، ليجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجزى المسيئين بإساءتهم .

وكذلك ، هو الذى يبدأ إيجاد المخلوقات شيئا فشيئا ، ثم يعيدها كل وقت .

( الفعال لما يريد ) وهذا من كمال قوته ، ونفوذ مشيئته وقدرته ، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ، ولا معارض .

وليس له ظهير ولا عوين ، على أىّ أمر يكون .

بل إذا أراد شيئا قال له « كن فيكون » .

ومع أنه الفعال لما يريد ، فإرادته ، تابعة لحكمته وحمده .

فهو موصوف بكمال القدرة ، ونفوذ المشيئة .

وموصوف بشمول الحكمة ، لكل ما فعله ويفعله .

( الغنى ، المغنى ) فهو الغنى بذاته ، الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته .

فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنيا .

لأن غناه ، من لوازم ذاته .

كما لا يكون إلا خالقا ، قادرا ، رازقا ،محسنا ، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه .

فهو الغنى ، الذى بيده خزائن السموات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة .

المغنى جميع خلقه،غنى عاما ، والمغنى لخواص خلقه ، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية .

( الحليم ) الذى يَدِرُّ على خلقه، النعم الظاهرة والباطنة ، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم .

ويستعتبهم كى يتوبوا ، ويمهلهم كى ينيبوا .

( الشاكر ، الشكور ) الذى يشكر القليل من العمل ، ويغفر الكثير من الزلل .

ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب .

ويشكر الشاكرين ، ويذكر من ذكره .

ومن تقرب إليه بشىء من الأعمال الصالحة ، تقرب الله منه أكثر .

( القريب ، المجيب ) أى : هو تعالى ، القريب من كل أحد . وقربه تعالى نوعان :

قرب عام من كل أحد ، بعلمه ، وخبرته ، ومراقبته ، ومشاهدته ، وإحاطته .

وقرب خاص ، من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه .

وهو قرب لا تدرك له حقيقة ، وإنما تعلم آثاره ، من لطفه بعبده ، وعنايته ، به ، وتوفيقه وتسديده .

ومن آثاره ، الإجابة للداعين ، والإنابة للعابدين .

فهو المجيب إجابة عامة ، للداعين ، مهما كانوا ، وأين كانوا ، وعلى أىِّ حال كانوا كما وعدهم بهذا ، الوعد المطلق .

وهو المجيب إجابة خاصة ، للمستجيبين له ، المنقادين لشرعه .

وهو المجيب أيضا ، للمضطرين ، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين ، وقوى تعلقهم به ، طمعا ، ورجاء ، وخوفا .

( الـكافى ) عباده جميع ما يحتاجون ، ويضطرون إليه .

الـكافى كفاية خاصة ، من آمن به ، وتوكل عليه ، واستمد منه حوائج دينه ودنياه .

( الأول والآخر والظاهر والباطن ) .

قد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم ، تفسيرا جامعا ، واضحا فقال يخاطب ربه .

« أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » .

( الواسع ) الصفات ، والنعوت ، ومتعلقاتها ، بحيث لا يُحْصِى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

واسع العظمة ، والسلطان ، والملك ، واسع الفضل ، والإحسان . عظيم الجود والـكرم .

[ الهادى ، الرشيد] أى : الذى يهدى ويرشد عباده إلى جميع المنافع ، وإلى دفع المضار ، ويعلمهم مالا يعلمون ، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمم التقوى ، ويجعل قلوبهم منيبة إليه ، منقادة لأمره .

وللرشيد معنى ، بمعنى الحـكيم ، فهو:الرشيد فى أقواله وأفعاله،وشرائعه كلها خير ، ورشد وحكمة ، ومخلوقاته مشتملة على الرشد .

( الحق ) فى ذاته وصفاته .

فهو واجب الوجود ، كامل الصفات والنعوت ، وجوده ، من لوازم ذاته .

ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به .

فهو الذى لم يزل ، ولا يزال ، بالجلال ، والجمال ، والكمال ، موصوفا .

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا .

فقوله ، حق ، وفعله ، حق ، ولقاؤه ، ورسله ، حق ، وكتبه ، حق ، ودينه ، هو الحق ، وعبادته وحده لاشريك له ، هى الحق ، وكل شىء ينسب إليه ، فهو حق .

ذلك بأن الله ، هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

[ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ] .

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » [ قل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ] .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم على محمد ، وعلى آله ، وأصحابه ، ومن تبعهم ، إلى يوم الدين .

قال ذلك ، وكتبه ، العبد الفقير إلى ربه « عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدى » .

غفر الله له ، ولوالديه ، ومشايخه ، وأحبابه ، وجميع المسلمين . آمين .

# فهرس

## الجزء الخامس

صفحة

١ التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات
## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء السادس

من تفسير من أول سورة القصص إلى آخر تفسير سورة الزخرف

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

# تفسير

# سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟
عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

---

* [ تلك ] الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم [ آيات الكتاب المبين ] لكل أمر يحتاج إليه العباد ، من معرفة ربهم ، ومعرفة حقوقه ، ومعرفة أوليائه وأعدائه ، ومعرفة وقائعه وأيامه ، ومعرفة ثواب الأعمال ، وجزاء العمال .

فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين ، وجلاَّها للعباد ، ووضحها .

ومن جملة ما أبان ، قصة موسى وفرعون ، فإنه أبداها ، وأعادها فى عدة مواضع .

وبسطها فى هذا الموضع فقال : [ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ] .

فإن نبأهما غريب ، وخبرهما عجيب .

[ لقوم يؤمنون ] فإليهم يساق الخطاب ، ويوجه الكلام .

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

---

حيث إن معهم من الإيمان ، ما يقبلون به ، على تدبرُّ ذلك ، وتلقّيه بالقبول والاهتداء ، بمواقع العبر ، ويزدادون به إيماناً ، ويقينا ، وخيرا إلى خيرهم .

وأما من عداهم ، فلا يستفيدون منه ، إلا إقامة الحجة عليهم ، وصانه الله عنهم ، وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه .

فأول هذه القصة [ إن فرعون علا فى الأرض ] فى ملكه وسلطانه ، وجنوده ،وجبروته، فصار من أهل العلو فيها ، لا من الأعلين فيها .

[ وجعل أهلها شيعا ] أي : طوائف متفرقة ، يتصرف فيهم بشهوته ، وينفذ فيهم ما أراد من قهره ، وسطوته .

[ يستضعف طائفة منهم ] وتلك الطائفة ، هم : بنو إسرائيل ، الذين فضلهم الله على العالمين ، الذين ينبغى له أن يكرمهم ويجلهم .

ولكنه استضعفهم ، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم .

فصار لا يبالى بهم ولا يهتم بشأنهم ، وبلغت به الحال ، إلى أنه [ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ] خوفاً من أن يكثروا ، فيغمروه فى بلاده ، ويصير لهم الملك .

[ إنه كان من المفسدين ] الذين لا قصد لهم فى صلاح الدين ،ولاصلاح الدنيا ، وهذا من إفساده فى الأرض .

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

* [ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ] بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ، ونهلك من قاومهم ، ونخذل من ناوأهم .

[ ونجعلهم أئمة ] فى الدين ، وذلك لا يحصل مع استضعاف ، بل لا بد من تمكين فى الأرض ، وقدرة تامة .

[ ونجعلهم الوارثين ] للأرض ، الذين لهم العاقبة فى الدنيا قبل الآخرة.

[ ونمكن لهم فى الأرض ] فهذه الأمور كلها ، قد تعلقت بها إرادة الله ، وجرت بها مشيئته .

[ و ] كذلك نريد أن [ نرى فرعون وهامان ] وزيره [ وجنودهما ] الذين بهم(١) صالوا وجالوا ، وعلوا وبغوا [ منهم ] أى : من هذه الطائفة المستضعفة .

[ ما كانوا يحذرون ] من إخراجهم من ديارهم ، ولذلك كانوا يسعون

---

( ١ ) فى الأصل المطبوع « التى الخ » والصواب أن يقال « الذين بهم صالوا الخ » لأن ضمير جمع التكسير لا يؤنث إلا لما لا يعقل ، وأما جمع تكسير العقلاء فيعود الضمير إليهم مذكراً ، كما قال تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة الآية » ولم يقل « لاتلهيها » كما فعل المؤلف هنا ولذلك أصلحنا العبارة هكذا « الذين بهم صالوا » .

أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُ

---

فى قمعهم ، وكسر شوكتهم ، وتقتيل أبنائهم ، الذين هم محل ذلك .

فكل هذا قد أراده الله ، وإذا أراد أمراً ، سهل أسبابه، ونهج طرقه .

وهذا الأمر كذلك ، فإنه قدر وأجرى من الأسباب — التى لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه — ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود .

فأول ذلك ، لما أوجد الله رسوله موسى ، الذى جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلى على يديه وبسببه ، وكان فى وقت تلك المخافة العظيمة ، التى يذبحون بها الأبناء ، أوحى إلى أمه ، أن ترضعه ، ويمكث عندها .

[ فإذا خفت عليه ] بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم .

[ فألقيه فى اليم ] أى نيل مصر ، فى وسط تابوت مغلق .

[ ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ] .

فبشرها بأنه سيرده إليها ، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ، ويجعله الله رسولا .

وهذا من أعظم البشائر الجليلة ، وتقديم هذه البشارة لأم موسى ، ليطمئن قلبها ، ويسكن روعها ، فكأنها خافت عليه ، وفعلت ما أمرت به ، ألقته فى اليم ، وساقه الله تعالى .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ

---

[ فالتقطه آل فرعون ] فصار من لقطهم ، وهم الذين باشروا وجدانه .

[ ليكون لهم عدوا وحزنا ] أى : لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط ، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم ، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر ، وأن الذى خافوا منه من بنى إسرائيل ، قيض الله أن يكون زعيمهم ، يتربى تحت أيديهم ، وعلى نظرهم ، وبكفالتهم .

وعند التدبر والتأمل ، تجد فى طى ذلك من المصالح لبنى إسرائيل ، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته بحيث إنه صار من كبار المملكة .

وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا ، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة .

ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف — الذى بلغ بهم الذل والإهانة ، إلى ما قص الله علينا بعضه — أن صار بعض أفراده ، ينازع ذلك الشعب القاهر العالى فى الأرض : كما سيأتى بيانه .

وهذا مقدمة للظهور ، فإن الله تعالى من سنته الجارية ، أن جعل الأمور تمشى على التدريج ، شيئا فشيئا ، ولا تأتى دفعة واحدة .

وقوله [ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ] أى : مجرمين ، فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم ، ونكيد لهم ، جزاء على مكرهم وكيدهم .

لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ

فلما التقطه آل فرعون ، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة ، المؤمنة « آسية » بنت مزاحم [ وقالت ] : هذا الولد [ قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ] .

أى أبقه لنا ، لِتقرّ به أعيننا ، ونسر به فى حياتنا .

[ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ] أى : لا يخلو ، إما أن يكون بمنزلة الخدم ، الذين يسعون فى نفعنا وخدمتنا أو نرقيه درجة أعلى من ذلك ، نجعله ولدا لنا ، ونكرمه ، ونجله .

فقدّر الله تعالى ، أنه نفع امرأة فرعون ، التى قالت تلك المقالة .

فإنه لما صار قرة عين لها ، وأحبته حبا شديداً ، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشقيق ، حتى كبر ، ونبأه الله وأرسله ، بادرت[1] إلى الإسلام والإيمان به ، رضى الله عنها ، وأرضاها .

قال الله تعالى هذه المراجعات والمقاولات ، فى شأن موسى : [ وهم لا يشعرون ] ما جرى به القلم ، ومضى به القدر ، من وصوله إلى ما وصل إليه .

وهذا من لطفه تعالى ، فإنهم لو شعروا ، لكان لهم وله ، شأن آخر .

---

( ١ ) قوله « وبادرت » كان فى الأصل « فبادرت » فأصلحنا الكلمة بـ « بادرت » لأنه جواب « لما » فى قوله « فإنه لما صار الخ » وجواب « لما » لا يقترف بالفاء بدليل قوله تعالى « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » ولم يقل « فألقاه » .

لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ

---

ولما فقدت موسى أمه ، حزنت حزنا شديدا ، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق ، الذى أزعجها ، على مقتضى الحالة البشرية ، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف ، ووعدها برده .

[ إن كادت لتبدى به ] أى : بما فى قلبها [ لولا أن ربطنا على قلبها ] فثبتناها ، فصبرت ، ولم تبد به .

[ لتكون ] بذكر الصبر والثبات [ من المؤمنين ] فإن العبد إذا أصابته مصيبة ، فصبر وثبت ، ازداد بذلك إيمانه ، ودل ذلك ، على أن استمرار الجزع مع العبد ، دليل على ضعف إيمانه .

[ وقالت ] أم موسى [ لأخته قصيه ] أى : اذهبى فقصى الأثر عن أخيك ، وابحثى عنه ، من غير أن يحس بك أحد ، أو يشعروا بمقصودك .

فذهبت تقصه [ فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ] أى : أبصرته على وجه ، كأنها مارة لا قصد لها فيه .

وهذا من تمام الحزم والحذر ، فإنها لو أبصرته ، وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها ، أنها هى التى ألقته ، فربما عزموا على ذبحه ، عقوبة لأهله .

ومن لطف الله بموسى وأمه ، أن منعه من قبول ثدى امرأة ، فأخرجوه إلى السوق ، رحمة به ، ولعل أحدا يطلبه .

فجاءت أخته ، وهو بتلك الحال [ فقالت هل أدلكم على أهل بيت

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

---

يكفلونه لكم وهم له ناصحون ] .

وهذا جُلُّ غرضهم ، فإنهم أحبوه حبا شديدا ، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت .

فلما قالت لهم أخته ، تلك المقالة المشتملة على الترغيب ، فى أهل هذا البيت ، بتمام حفظه وكفالته ، والنصح له ، بادروا إلى إجابتها ، فأعلمتهم ، ودلتهم على أهل هذا البيت .

[ فرددناه إلى أمه ] كما وعدناها بذلك [ كى تقر عينها ولا تحزن ] بحيث أنه تربى عندها ، على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة ، تفرح به ، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك .

[ ولتعلم أن وعد الله حق ] فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ، ليطمئن بذلك قلبها ، ويزداد إيمانها ، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله ، فى حفظه ، ورسالته .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] فإذا رأوا السبب متشوشا ، شوش ذلك إيمانهم ، لعدم علمهم الكامل ، أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة ، بين يدى الأمور العالية ، والمطالب الفاضلة .

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون ، يتربى فى سلطانهم ، ويركب مراكبهم ، ويلبس ملابسهم .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ

---

وأمه بذلك مطمئنة ، قد استقر أنها أمه من الرضاع ، ولم يستنكر ملازمته إياها ، وحنوه عليها .

وتأمل هذا اللطف من الله ، وصيانة نبيه موسى من الكذب فى منطقه ، وتيسير الأمر ، الذى صار به التعلق ، بينه وبينها ، الذى بان للناس ، أنه هو الرضاع ، الذى بسببه يسميها أماً ، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره فى ذلك كله ، صدقا وحقاً .

[ ولما بلغ أشده ] من القوة والعقل واللب ، وذلك نحو أربعين سنة فى الغالب .

[ واستوى ] فكملت فيه تلك الأمور [ آتيناه حكما وعلماً ] أى : حكما يعرف به الأحكام الشرعية ، ويحكم به بين الناس ، وعلماً كثيراً .

[ وكذلك نجزى المحسنين ] فى عبادة الله المحسنين ، لخلق الله ، يعطيهم علماً وحكما ، بحسب إحسانهم ، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام .

[ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ] إما وقت القائلة ، أو غير ذلك من الأوقات ، التى بها يغفلون عن الانتشار .

[ فوجد فيها رجلين يقتتلان ] يتخاصمان ويتضاربان [ هذا من شيعته ] أى من بنى إسرائيل [ وهذا من عدوه ] كالقبط .

عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

---

[ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ] لأنه قد اشتهر ، وعلم الناس أنه من بنى إسرائيل ، واستغاثته لموسى ، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا ، يخاف منه ، ويرجى من بيت المملكة والسلطان .

[ فوكزه موسى ] أى : وكز الذى من عدوه ، استجابة لاستغاثة الإسرائيلى .

[ فقضى عليه ] أى : أماته من تلك الوكزة ، لشدتها ، وقوة موسى .

فندم موسى عليه السلام على ماجرى منه ، و [ قال هذا من عمل الشيطان ] أى: من تزيينه ، ووسوسته [ إنه عدو مضل مبين ] فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة ، وحرصه على الإضلال .

ثم استغفر ربه [ قال رب إنى ظلمت نفسي فاغفر لى فغفر ، له إنه هو الغفور الرحيم ] خصوصاً للمخبتين إليه ، المبادرين للإنابة والتوبة ، كما جرى من موسى عليه السلام .

[ قال ] موسى [ رب بما أنعمت على ] بالتوبة والمغفرة ، والنعم الكثيرة [ فلن أكون ظهيراً ] أى : معينا ومساعدا [ للمجرمين ] أى: لا أعين أحدا على معصية .

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ

---

وهذا وعد من موسى عليه السلام ، بسبب منة الله عليه ، أن لا يعين مجرما ، كما فعل فى قتل القبطى .

وهذا يفيد أن النعم ، تقتضى من العبد فعل الخير ، وترك الشر .

[ فـ ] لما جرى منه قتل الذى هو من عدوه [ أصبح فى المدينة خائفا يترقب ] هل يشعر به آل فرعون ، أم لا ؟

وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال ، سوى موسى ، من بنى إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال [ فإذا الذى استنصره بالأمس على عدوه يستصرخه ] على قبطى آخر .

[ قال له موسى ] موبخا على حاله [ إنك لغوى مبين ] أى : بين الغواية ، ظاهر الجراءة .

[ فلما أن أراد أن يبطش ] موسى [ بالذى هو عدو لهما ] أى : له وللمخاصم المستصرخ لموسى ، أى : لم يزل اللجاج بين القبطى والإسرائيلى ، وهو يستغيث بموسى ، فأخذته الحمية ، حتى هم أن يبطش بالقبطى .

[ قال ] له القبطى زاجرا له عن قتله : [ ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ] لأن من أعظم آثار الجبار فى الأرض ، قتل النفس بغير حق .

يَمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

---

[ وما تريد أن تكون من المصلحين ] وإلا ، فلو أردت الإصلاح ، لحلت بيني وبينه ، من غير قتل أحد .

فانكف موسى عن قتله ، وارعوى ، لوعظه وزجره.

وشاع الخبر بما جرى من موسى فى هاتين القضيتين ، حتى تراود ملأ فرعون ، وفرعون على قتله ، وتشاوروا على ذلك .

فقيض الله ، ذلك الرجل الناصح ، وبادر إلى الإخبار[1] لموسى بما اجتمع عليه رَأْيُ ملإهم .

فقال : [ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ] أى : ركضا على قدميه ، من نصحه لموسى ، وخوفه أن يوقعوا به ، قبل أن يشعر .

[ قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ] أى : يتشاورون فيك [ ليقتلوك فاخرج ] عن المدينة [ إنى لك من الناصحين ] .

فامتثل نصحه [ فخرج منها خائفا يترقب ] أن يوقع به القتل ، ودعا الله .

---

( ١ ) قوله « إلى الإخبار لموسى » لو قال « إلى إخبار موسى » لكان أصح وأفصح .

فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

---

[ قال رب نجنى من القوم الظالمين ] فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا، من غير قصد منه للقتل، فتوعُّدُهُمْ له، ظلم منهم وجراءة .

[ ولما توجه تلقاء مدين ] أى : قاصداً بوجهه مدين ، وهو جنوبى فلسطين، حيث لا ملك فيه لفرعون .

[قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل] أى : وسط الطريق المختصر ، الموصل إليها ، بسهولة ورفق ، فهداه الله سواء السبيل ، فوصل إلى مدين .

[ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ] مواشيهم ، وكانوا أهل ماشية كثيرة [ ووجد من دونهم ] أى : دون تلك الأمة [ امرأتين تذودان ] غنمهما ، عن حياض الناس ، لعجزهما عن مزاحمة الرجال ، وبخلهم ، وعدم مروءتهم ، عن السقى لهما .

[ قال ] لهما موسى [ ما خطبكما ] أى : ما شأنكما بهذه الحالة .

[قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ] أى : قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، فإذا خلا لنا الجو ، سقينا .

[ وأبونا شيخ كبير ] أى : لا قوة له على السقى ، فليس فينا قوة، نقتدر

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى

---

بها ، ولا لنا رجال ، يزاحمون الرعاء .

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما [ فسقى لهما ] غير طالب منهما الأجر ، ولا له قصد ، غير وجه الله تعالى .

فلما سقى لهما ، وكان ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ، بدليل قوله :

[ ثم تولى إلى الظل ] مستريحا لتلك الظلال بعد التعب .

[ فقال ] فى تلك الحالة ، مسترزقا ربه [ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ] .

أى : إنى مفتقر للخير ، الذى تسوقه إلىّ ، وتيسره لى .

وهذا سؤال منه بحاله ، والسؤال بالحال ، أبلغ من السؤال بلسان المقال.

فلم يزل فى هذه الحالة ، داعيا ربه متملقا .

وأما المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، وأخبرتاه بما جرى .

فأرسل أبوهما ، إحداهما إلى موسى ، فجاءته [ تمشى على استحياء ] .

وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة ، وخصوصاً فى النساء .

ويدل على أن موسى عليه السلام ، لم يكن فيما فعله من السقى ، بمنزلة الأجير والخادم ، الذى لا يستحى منه عادة ، وإنما هو عزيز النفس ، رأت من حسن خلقه ، ومكارم أخلاقه ، ما أوجب لها الحياء منه .

يدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ
قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

---

[ قالت ] له : [ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ] أى : لا لِمَنٍّ عليك ، بل أنت الذى ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك .

فأجابها موسى .

[ فلما جاءه وقص عليه القصص ] من ابتداء السبب الموجب لهربه ، إلى أن وصل إليه [ قال ] مسكنا روعه ، جابراً قلبه : [ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ]

أى : ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم ، حيث وصلت إلى هذا المحل ، الذى ليس لهم عليه سلطان .

[ قالت إحداهما ] أى : إحدى ابنتيه [ يا أبت استأجره ] أى : اجعله أجيراً عندك ، يرعى الغنم ويسقيها .

[ إن خير من استأجرت القوى الأمين ] أى : إن موسى ، أولى من استؤجر ، فإنه جمع القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر ، من جمعهما ، القوة ، والقدرة ، على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم الخيانة .

وهذان الوصفان ، ينبغى اعتبارهما فى كل من يتولى للإنسان عملا ، بإجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما ، أو فقد إحداهما .

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي

---

وأما باجتماعهما ، فإن العمل يتم ويكمل .

وإنما قالت ذلك ، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ، ونشاطه ، ما عرفت به قوته ، وشاهدت من أمانته وديانته ، وأنه رحمهما في حالة ، لا يرجى نفعهما ، وإنما قصده بذلك ، وجه الله تعالى .

[ قال ] صاحب مدين لموسى [ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ] أي تصير أجيراً عندي [ ثماني حجج ] .
أي : ثماني سنين .

[ فإن أتممت عشرا فمن عندك ] تبرع منك ، لا شيء واجب عليك .

[وما أريد أن أشق عليك] فأحتم عشر السنين ، وما أريد أن أستأجرك ، لأكلفك أعمالا شاقة ، وإنما استأجرتك ، لعمل سهل يسير ، لا مشقة فيه [ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ] فرغبه في سهولة العمل ، وفي حسن المعاملة .

وهذا يدل على أن الرجل الصالح ، ينبغي له أن يحسن خلقه ، مهما أمكنه ، وأن الذي يطلب منه ، أبلغ من غيره .

[ قال ] موسى عليه السلام — مجيبا له فيما طلبه منه — : [ ذلك بيني وبينك ] أي هذا الشرط ، الذي أنت ذكرت ، رضيت به ، وقد تم فيما بيني وبينك .

وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ

---

[ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ] سواء قضيت الثمانى الواجبة ، أم تبرعت بالزائد عليها [ والله على ما نقول وكيل ] حافظ يراقبنا ، ويعلم ما تعاقدنا عليه .

وهذا الرجل ، أبو المرأتين ، صاحب مدين ، ليس بشعيب النبي المعروف ، كما اشتهر عند كثير من الناس ، فإن هـذا ، قول لم يدل عليه دليل

وغاية ما يكون ، أن شعيبا عليه السلام ، قد كانت بلده مدين ، وهذه القضية ، جرت فى مدين ، فأين الملازمة بين الأمرين ؟

وأيضا ، فإنه غير معلوم ، أن موسى أدرك زمان شعيب ، فكيف بشخصه ؟ ! !

ولو كان ذلك الرجل شعيبا ، لذكره الله تعالى ، ولسمته المرأتان .

وأيضا فإن شعيبا ، عليه الصلاة والسلام ، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه . ولم يبق إلا من آمن به .

وقد أعاذ الله المؤمنين به ، أن يرضوا لبنتى نبيهم ، بمنعهما عن الماء ، وصد ماشيتهما ، حتى يأتيهما رجل غريب ، فيحسن إليهما ، ويسقى ماشيتهما.

وما كان شعيب ، ليرضى أن يرعى موسى عنده ، ويكون خادماً له ، وهو أفضل منه ، وأعلى درجة ، إلا أن يقال : هذا قبل نبوة موسى ، فلا منافاة .

وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا
نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ

---

وعلى كل حال ، لا يعتمد على أنه شعيب النبى ، بغير نقل صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

[ فلما قضى موسى الأجل ] يحتمل أنه قضى الأجل الواجب ،أو الزائد عليه ، كما هو الظن بموسى ، ووفائه ، اشتاق إلى الوصول إلى أهله، ووالدته ، وعشيرته ، ووطنه .

وظن من طول المدة ، أنهم قد تناسوا ما صدر منه .

[ سار بأهله ] قاصداً مصر [ آنس ] أى : أبصر [ من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ] وكان قد أصابهم البرد ، وتاهوا الطريق .

[ فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ] فأخبر بألوهيته ، وربوبيته .

ويلزم من ذلك ، أن يأمره بعبادته ، وتألهه ، كما صرح به فى الآية الأخرى « فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا
رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ
وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ

---

[ وأن ألق عصاك ] فألقاها [ فلما رآها تهتز ] تسعى سعياً شديدا ، ولها صورة مُهيلة [ كأنها جان ] ذَكَرُ الحيات العظيم .

[ ولى مدبرا ولم يعقب ] أى : يرجع ، لاستيلاء الروع على قلبه .

فقال الله له : [ ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ] وهذا أبلغ ما يكون فى التأمين ، وعدم الخوف .

فإن قوله : [ أقبل ] يقتضى الأمر بإقباله ، ويجب عليه الامتثال .

ولكن قد يكون إقباله ، وهو لم يزل فى الأمر المخوف ، فقال : [ ولا تخف ] أمر له بشيئين ، إقباله ، وأن لا يكون فى قلبه خوف .

ولكن يبقى احتمال ، وهو أنه ، قد يقبل وهو غير خائف ، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه ، فلذلك قال : [إنك من الآمنين] فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه .

فأقبل موسى عليه السلام ، غير خائف ، ولا مرعوب ، بل مطمئناً ، واثقاً بخبر ربه ، قد ازداد إيمانه ، وتم يقينه .

فهذه آية ، أراه الله إياها ، قبل ذهابه إلى فرعون ، ليكون على يقين تام ، فيكون أجراً له ، وأقوى وأصلب .

ثم أراه الآية الأخرى فقال : [ أسلك يدك ] أى : أدخلها [ فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ] فسلكها وأخرجها ، كما ذكر الله تعالى .

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ
بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى
هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ

---

[ واضمم إليك جناحك من الرهب ] أى ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف .

[ فذانك ] أى : انقلاب العصا حية ، وخروج اليد بيضاء من غير سوء .

[ برهانان من ربك ] أى : حجتان قاطعتان من الله .

[ إلى فرعون وملإه ، إنهم كانوا قوما فاسقين] فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إيام ، بل لا بد من الآيات الباهرة ، إن نفعت .

[ قال ] موسى عليه السلام ، معتذرا من ربه ، وسائلا له المعونة على ما حمله ، وذاكرا له الموانع ، التى فيه ، ليزيل ربه ما يحذره منها .

[ رب إنى قتلت منهم نفسا ] أى : [ فأخاف أن يقتلون * وأخى هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معى ردءاً ] أى : معاونا ومساعدا [يصدقنى] فإنه مع تضافر الأخبار ، يقوى الحق [ إنى أخاف أن يكذبون].

فأجابه الله إلى سؤاله فقال : [ سنشد عضدك بأخيك ] أى : نعاونك به ونقويك .

ثم أزال عنه محذور القتل ، فقال : [ ونجعل لكما سلطانا ] أى: تسلطاً ،

أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ

---

وتمكُّناً من الدعوة ، بالحجة ، والهيبة الإلهية من عدوهما [ فلا يصلون إليكما ] .

وذلك بسبب آياتنا ، وما دلت عليه من الحق ، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها .

فهى التى بها حصل لكما السلطان ، واندفع بها عنكم ، كيدُ عدوكم ، وصارت لكم أبلغ من الجنود ، أولى الْعَدَدِ والْعُدَدِ .

[ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ] وهذا وعد لموسى فى ذلك الوقت ، وهو وحده فريد ، وقد رجع إلى بلده ، بعد ما كان شريدا .

فلم تزل الأحوال تتطور ، والأمور تنتقل ، حتى أنجز له موعوده ، ومكنه من العباد والبلاد ، وصار له ولأتباعه ، الغلبة والظهور .

فذهب موسى برسالة ربه [ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ] واضحات الدلالة على ما قال لهم ، ليس فيها قصور ، ولا خفاء .

[ قالوا ] على وجه الظلم ، والعلو ، والعناد [ ما هذا إلا سحر مفترى ] كما قال فرعون فى تلك الحال ، التى ظهر فيها الحق ، واستعلى على الباطل ، واضمحل الباطل ، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » ( هذا ، وهو الذكى غير الزكى الذى بلغ من المكر والخداع والكيد ، ما قصه الله علينا وقد علم « ما أنزل هؤلاء إلا رب

إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا

---

السموات والأرض » ولكن الشقاء غالب .

[ وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ] وقد كذبوا فى ذلك ، فإن الله أرسل يوسف ، قبل موسى كما قال تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب » .

[ وقال موسى ] حين زعموا أن الذى جاءهم به سحر وضلال ، وأن ما هم عليه هو الهدى :

[ ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ] .

أى : إذا لم تفد المقابلة معكم ، وتبيين الآيات البينات ، وأبيتم إلا التمادى فى غيكم ، واللجاج على كفركم ، فالله تعالى العالم بالمهتدى وغيره ، ومن تكون له عاقبة الدار ، نحن أم أنتم [ إنه لا يفلح الظالمون ] .

فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه ، والفلاح ، والفوز .

وصار لأولئك ، الخسار ، وسوء العاقبة والهلاك .

[ وقال فرعون ] متجرئا على ربه ، ومموها على قومه السفهاء ، ضعفاء العقول :

ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ
فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ

---

[ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ] أى : أنا وحدى ، إلهكم ومعبودكم .

ولو كان ثمّ إله غيرى ، لعلمته .

فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون ، حيث لم يقل « مالكم من إله غيرى » .

وهذا ، لأنه عندهم ، العالم الفاضل ، الذى مهما قال ، فهو الحق، ومهما أمر ، أطاعوه .

فلما قال هذه المقالة ، التي قد تحتمل أن ثمّ إلها غيره ، أراد أن يحقق النفى ، الذى جعل فيه ذلك الاحتمال ، فقال لـ « هامان » :

[ فأوقد لى يا هامان على الطين ] ليجعل له لبنا من فخار .

[ فاجعل لى صرحا ] أى : بناء عاليا [ لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ] .

ولكن سنحقق هذا الظن ، ونريكم كذب موسى .

فانظر هذه الجراءة العظيمة ، على الله ، التي ما بلغها آدمى .

كذب موسى ، وادّعى أنه الله ، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق ، وفعل الأسباب ، ليتوصل إلى إله موسى ، وكل هذا ترويج .

ولكن العجب من هؤلاء الملأ ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة ، المدبرون لشئونها ، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم ، واستخف أحلامهم ،

ٱلْـكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَـكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَـٱنظُرْ كَـيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً

---

وهذا لفسقهم ، الذى صار صفة راسخة فيهم .

فسد دينهم ، ثم تبع ذلك ، فساد عقولهم ، فنسألك اللهم ، الثبات على الإيمان ، وأن لا تزيغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وأن تهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

قال تعالى : [ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ] استكبروا على عباد الله ، وساموهم سوء العذاب ، واستكبروا على رسل الله ، وما جاءوهم به من الآيات .

فكذبوها ، وزعموا أن ما هم عليه ، أعلى منها وأفضل .

[ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ] فلذلك تجرأوا .

وإلا فلو علموا ، وظنوا أنهم يرجعون إلى الله ، لما كان منهم ما كان .

[ فأخذناه وجنوده ] عندما استمر عنادهم وبغيهم [ فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ] كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة ، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة ، المتصلة بالعقوبة الأخروية .

[ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار أى جعلنا فرعون وملأه ، من الأئمة ، الذين يقتدى بهم ، ويمشى خلفهم إلى دار الخزى والشقاء .

يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ

---

[ ويوم القيامة لا ينصرون ] من عذاب الله ، فهم أضعف شىء ، عن دفعه عن أنفسهم ، وليس لهم من دون الله ، من ولى ولا نصير .

[ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ] أى : وأتبعناهم ، زيادة فى عقوبتهم وخزيهم ، فى الدنيا لعنة ، يلعنون ، ولهم عند الخلق ، الثناء القبيح ، والمقت والذم .

وهذا أمر مشاهد ، فهم أئمة الملعونين فى الدنيا ، ومقدمتهم .

[ ويوم القيامة هم من المقبوحين ] المبعدين ، المستقذرة أفعالهم . الذين اجتمع عليهم مقت الله ، ومقت خلقه ، ومقت أنفسهم .

[ ولقد آتينا موسى الكتاب ] وهو التوراة [ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ] الذين كان خاتمتهم ، فى الإهلاك العام ، فرعون وجنوده.

وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة ، انقطع الهلاك العام ، وشرع جهاد الكفار بالسيف .

[ بصائر للناس ] أى : كتاب الله ، الذى أنزله على موسى ، فيه بصائر للناس ، أى : أمور يبصرون بها ، ما ينفعهم ، وما يضرهم ، فتقوم الحجة على العاصى ، وينتفع بها المؤمن ، فتكون رحمة فى حقه ، وهداية إلى الصراط المستقيم ، ولهذا قال :

لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا
فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

---

[ وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ] .

ولما قص الله على رسوله ، ما قص من هذه الأخبار الغيبية ، نبه العباد ، على أن هذا خبر إلهى محض ، ليس للرسول ، طريق إلى علمه ، إلا من جهة الوحى ، ولهذا قال :

[ وما كنت بجانب الغربى ] أى : بجانب الطور الغربى [ إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ] على ذلك ، حتى يقال : إنه وصل إليك من هذا الطريق .

[ ولكنا أنشأنا قرونا ، فتطاول عليهم العمر ] فاندرس العلم ، ونسيت آياته .

فبعثناك فى وقت اشتدت الحاجة اليك ، وإلى ما علمناك ، وأوحينا إليك .

[ وما كنت ثاويا ] أى : مقيما [ فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ] أى: تعلمهم ، وتتعلم منهم ، حتى أخبرت بما أخبرت ، من شأن موسى فى مدين .

[ ولكنا كنا مرسلين ] أى : ولكن ذلك الخبر ، الذى جئت به عن موسى ، أثر من آثار إرسالنا إياك ، وَوَحْىٌ لا سبيل لك إلى علمه ، بدون إرسالنا .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

---

[ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ] موسى ، وأمرناه أن يأتى القوم الظالمين ، ويبلغهم رسالتنا ، ويريهم من آياتنا وعجائبنا ، ما قصصنا عليك .

والمقصود ، أن الماجريات ، التى جرت لموسى ، عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الأماكن ، فقصصتها كما هى ، من غير زيادة ولا نقص ، لا يخلو من أحد أمرين .

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها ، أو ذهبت إلى محالّها ، فتعلمتها من أهلها .

فحينئذ قد لا يدل ذلك ، على أنك رسول الله ، إذ الأمور التى يخبر بها عن شهادة ودراسة ، من الأمور المشتركة ، غير المختصة بالأنبياء .

ولكن هذا قد عُلِمَ وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار .

فأولياؤك وأعداؤك ، يعلمون عدم ذلك .

فتعين الأمر الثانى ، وهو : أن هذا جاءك من قِبَلِ الله ووحيه وإرساله .

فثبت بالدليل القطعى ، صحة رسالتك ، ورحمة الله بك للعباد ، ولهذا قال :

[ ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ]

أى : العرب ، وقريش ، فإن الرسالة عندهم ، لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة .

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ

---

[ لعلهم يتذكرون ] تفصيل الخير ، فيفعلونه ، والشر فيتركونه .

فإذا كنت بهذه المنزلة ، كان الواجب عليهم ، المبادرة إلى الإيمان بك ، وشكر هذه النعمة ، التي لا يقادر قدرها ، ولا يدرك شكرها .

وإنذاره للعرب ، لا ينفي ، أن يكون مرسلا لغيرهم ، فإنه عربي ، والقرآن الذي نزل عليه ، عربي ، وأول من باشر بدعوته ، العرب .

فكانت رسالته لهم أصلا ، ولغيرهم تبعاً ، كما قال تعالى « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس * قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً » .

[ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ] من الكفر والمعاصي [فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين]

أي : فأرسلناك يا محمد ، لدفع حجتهم ، وقطع مقالتهم .

[ فلما جاءهم الحق ] الذي لا شك فيه [ من عندنا ] وهو القرآن ، الذي أوحيناه إليك [ قالوا ] مكذبين له ، ومعترضين بما ليس يعترض به :

[ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ] أي أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة .

أي : فأما ما دام ينزل متفرقاً ، فإنه ليس من عندالله .

أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ

---

وأى دليل فى هذا ؟ وأى شبهة أنه ليس من عندالله ، حين نزل مفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن ، واعتناء الله بمن أنزل عليه ، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله ، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين .

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .

وأيضاً ، فإن قياسهم على كتاب موسى ، قياس قد نقضوه ، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ، ولم يؤمنوا ؟

ولهذا قال [ أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ، قالوا سحران تظاهرا ] أى : القرآن والتوراة ، تعاونا فى سحرهما ، وإضلال الناس [ وقالوا إنا بكل كافرون ] .

فثبت بهذا ، أن القوم يريدون إبطال الحق ، بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض ، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة ، وهذا شأن كل كافر .

ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين [ وقالوا إنا بكل كافرون ] .

ولكن هل كفرهم بهما ، كان طلبا للحق ، واتباعا لأمر عندهم ، خير منهما ، أم مجرد هوى ؟

قال تعالى ملزما لهم بذلك : [ قل فأتوا بكتاب من عندالله هو أهدى منهما ] أى من التوراة والقرآن [ أتبعه إن كنتم صادقين ] ولا سبيل لهم ،

لَكَ فَاعْلَمْ أَنما يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ

---

ولا لغيرهم ، أن يأتوا بمثلهما ، فإنه ما طرق العالم ، منذ خلقه الله ، مثل هذين الكتابين ، علماً ، وهدي ، وبيانا ، ورحمة للخلق .

وهذا من كمال الإنصاف من الداعى أن قال : مقصودى ، الحق والهدى والرشد .

وقد جئتكم بهذا الكتاب ، المشتمل على ذلك ، الموافق لكتاب موسى .

فيجب علينا جميعا الإذعان لهما ، واتباعهما ، من حيث كونهما هدى وحقا .

فإن جئتمونى بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما ، اتبعته .

وإلا ، فلا أترك هدى وحقا قد علمته لغير هدى وحق .

[ فإن لم يستجيبوا لك ] فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما [ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ] أي : فاعلم أن تركهم اتباعك ، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ، ولا إلى هدى ، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم .

[ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ] فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى ، والصراط المستقيم ، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ، فلم يلتفت إليه ، ولم يقبل عليه .

ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء ، فاتبعه ، وترك الهدى .

فهل أحد أضل ممن هذا وصفه ؟!! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذى أوجب له : أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله ، فلهذا قال :

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا
لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

---

[ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ] أى: الذى صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتاً ، جاءهم الهدى فرفضوه ، وعرض لهم الهوى ، فتبعوه .

سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها ، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها .

فهم فى غيهم وظلمهم يعمهون ، وفى شقائهم وهلاكهم ، يترددون .

وفى قوله : [ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ] دليل على أن كل من لم يستجب للرسول ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى ، وإنما ذهب إلى هوى .

[ ولقد وصلنا لهم القول ] أى : تابعناه وواصلناه ، وأنزلناه شيئاً فشيئاً ، رحمة بهم ولطفا [ لعلهم يتذكرون ] حين تتكرر عليهم آياته ، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها .

فصار نزوله متفرقاً ، رحمة بهم ، فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم ؟

. . . . . . . . . . .

## فصل

في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فنها أن آيات الله وعبره ، وأيامه فى الأمم السابقة ، إنما يستفيد بها ويستنير ، المؤمنون ، فعلى حسب إيمان العبد ، تكون عبرته .

وإن الله تعالى إنما يسوق القصص ، لأجلهم .

وأما غيرهم ، فلا يعبأ الله بهم ، وليس لهم منها نور وهدى .

ومنها : أن الله تعالى ، إذا أراد أمراً ، هيأ أسبابه ، وأتى بها شيئا فشيئا بالتدريج ، لا دفعة واحدة .

ومنها : أن الأمة المستضعفة ، ولو بلغت فى الضعف ما بلغت ، لا ينبغى لها أن يستولى عليها الكسل ، عن طلب حقها ، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور ، خصوصا إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله ، أمة بنى إسرائيل ، الأمة الضعيفة ، من أسر فرعون وملإه ، ومكنهم فى الأرض ، وملكهم بلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة ، لا تأخذ حقها ، ولا تتكلم به ، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ، ولا يكون لها إمامة فيه .

ومنها : لطف الله بأم موسى ، وتهوينه عليها المصيبة ، بالبشارة ، بأن الله سيرد إليها ابنها ، ويجعله من المرسلين .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : أن الله يقدِّر على عبده بعض المشاق ، لينيله سرورا أعظم من ذلك ، أو يدفع عنه شراً أكثر منه .

كما قدر على أم موسى ، ذلك الحزن الشديد ، والهم البليغ ، الذى هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها ، على وجه تطمئن به نفسها ، وتقر به عينها ، وتزداد به غبطة وسرورا .

ومنها : أن الخوف الطبيعى من الخلق ، لا ينافى الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ، ولموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص . وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين ، الصبر عند المزعجات ، والتثبيت من الله ، عند المقلقات ، كما قال تعالى .

[ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ] أى : ليزداد إيمانها بذلك ، ويطمئن قلبها .

ومنها : أن من أعظم نعم الله عبده ، وأعظم معونة للعبد على أموره ، تثبيت الله إياه ، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف ، وعند الأمور المذهلة ، فإنه بذلك ، يتمكن من القول الصواب ، والفعل الصواب .

بخلاف من استمر قلقه وروعه ، وانزعاجه ، فإنه يضيع فكره ، ويذهل عقله ، فلا ينتفع بنفسه فى تلك الحال .

ومنها : أن العبد ـ ولو عرف أن القضاء والقدر، ووعد الله نافذ لابد منه ـ

. . . . . . . . . . .

فإنه لا يهمل فعل الأسباب ، التي أمر بها ، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر الله .

فإن الله قد وعد أم موسى ، أن يرده عليها ، ومع ذلك ، اجتهدت فى رده ، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه .

ومنها : جواز خروج المرأة فى حوائجها ، وتكليمها للرجال ، من غير محذور ، كما جرى لأخت موسى ، وابنتى صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، والدلالة على من يفعل ذلك .

ومنها : أن الله من رحمته بعبده الضعيف ، الذى يريد إكرامه ، أن يريه من آياته ، ويشهده من بيناته ، ما يزيد به إيمانه ، كما رد الله موسى إلى أمه ، لتعلم أن وعد الله حق .

ومنها : أن قتل الكافر ، الذى له عهد بعقد أو عرف ، لا يجوز .

فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطى الكافر ، ذنبا ، واستغفر الله منه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق ، يعد من الجبارين ، الذين يفسدون فى الأرض .

ومنها : أن من قتل النفوس بغير حق ، وزعم أنه يريد الإصلاح فى الأرض، وتهييب أهل المعاصى ، فإنه كاذب فى ذلك ، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطى [ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن

. . . . . . . . . . .

---

تـكون من المصلحين ] على وجه التقرير له ، لا الإنـكار .

ومنها : أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه ، على وجه التحذير له ، من شر ، يقع ، فيه ، لا يكون ذلك نميمة ـ بل قد يكون واجبا ـ كما أخبر ذلك الرجل موسى ، ناصحا له ومحذرا .

ومنها : أنه إذا خاف القتل والتلف فى الإقامة ، فإنه لا يلقى بيده إلى التهلـكة ، ولا يستسلم لذلك ، بل يذهب عنه ، كما فعل موسى .

ومنها : أنه عند تزاحم المفسدتين ، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما فإنه يرتـكب الأخف منهما ، والأسلم .

كما أن موسى ، لما دار الأمر بين بقائه فى مصر ، ولـكنه يقتل ، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة ، التى لا يعرف الطريق إليها ، وليس معه دليل يدله غير ربه ، ولـكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى ، فتبعها موسى .

ومنها : أن الناظر فى العلم عند الحاجة إلى التـكلم فيه ، إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فإنه يستهدى ربه ، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين ، بعد أن يقصد بقلبه الحق ، ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله .

كما خرج موسى تلقاء مدين فقال : [ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ] .

ومنها : أن الرحمة بالخلق ، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف ،

. . . . . . . . . . .

من أخلاق الأنبياء ، وأن من الإحسان سقى الماشية الماء ، وإعانة العاجز .

ومنها استحباب الدعاء ، بتبيين الحال وشرحها ، ولو كان الله عالما لها . لأنه تعالى ، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته ، كما قال موسى : [ رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ] .

ومنها أن الحياء ـ خصوصا من الكرام ـ من الأخلاق الممدوحة .

ومنها : المكافأة على الإحسان ، لم يزل دأب الأمم السابقين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله تعالى ، ثم حصل له مكافأة عليه ، من غير قصد بالقصد الأول ، فإنه لا يلام على ذلك ، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين ، عن معروفه الذى لم يبتغ له ، ولم يستشرف بقلبه على عوض .

ومنها مشروعية الإجارة ، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها ، مما لا يقدر به العمل ، وإنما مرده ، العرف .

ومنها أنه تجوز الإجارة بالمنفعة ، ولو كانت المنفعة بضعا .

ومنها أن خطبة الرجل لابنته الذى يتخيره ، لا يلام عليه .

ومنها : أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان ، أن يكون قويا أمينا .

ومنها : أن من مكارم الأخلاق ، أن يُحَسِّن خلقه ، لأجيره ، وخادمه ، ولا يشق عليه بالعمل لقوله: [ وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ] .

. . . . . . . . . . .

ومنها : جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود ، من دون إشهاد لقوله : [ والله على ما نقول وكيل ] .

ومنها : ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات ، والمعجزات الظاهرة ، من الحية ، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ، ومن عصمة الله لموسى وهرون ، من فرعون ، ومن الغرق .

ومنها : أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما فى الشر ، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته .

كما أن من أعظم نعمة ، أنعم الله بها على عبده ، أن يجعله إماما في الخير هاديا مهديا .

ومنها : ما فيها من الدلالة ، على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أخبر بذلك تفصيلا ، وتأصيلا موافقا ، قصه قصا ، صدق به المرسلين ؛ وأيد به الحق المبين ، من غير حضور شيء من تلك الوقائع ؛ ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع ؛ ولا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور ؛ ولا مجالسة أحد من أهل العلم ؛ إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ؛ ووحى أنزله عليه الكريم المنان ؛ لينذر به قوما جاهلين ؛ وعن النذر والرسل غافلين .

فصلوات الله وسلامه ؛ على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله ؛ ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة ؛ أنه من عند الله .

كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به ؛ وصدقه خبر الأولين والآخرين .

. . . . . . . . . . .

---

والشرع الذى جاء به من رب العالمين ، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة ؛ التى لا تناسب ؛ ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة ؛ والنصر المبين لدينه وأمته .

حتى بلغ دينه ؛ مبلغ الليل والنهار ؛وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار؛ بالسيف والسنان ، وقلوبهم بالعلم والإيمان .

ولم تزل الأمم المعاندة ؛ والملوك الكفرة ؛ ترميه بقوس واحدة ؛ وتكيد له المكايد ؛ وتمكن لإطفائه ؛ وإخفائه ؛ وإخماده من الأرض وهو قد بهرها وعلاها .

لا يزداد إلا نموا ، ولا آياته وبراهينه ، إلا ظهورا .

وكل وقت من الأوقات ، يظهر من آياته ، ما هو عبرة لِلْعَالَمِينَ ، وهداية لِلْعَالَمِينَ ، ونور وبصيرة للمتوسمين . والحمد لله وحده .

۞ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟

---

* يذكر تعالى ، عظمة القرآن ، وصدقه ، وحقه ، وأن أهل العلم بالحقيقة ، يعرفونه ، ويؤمنون به ، ويقرون بأنه الحق :

[ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ] وهم أهل التوراة ، والإنجيل ، الذين لم يغيروا ، ولم يبدلوا [ هم به ] أي : بهذا القرآن ، ومن جاء به [ يؤمنون ] .

[ وإذا يتلى عليهم ] استمعوا له ، وأذعنوا و [ قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ] لموافقته ما جاءت به الرسل ، ومطابقته لما ذكر في الكتب ، واشتماله على الأخبار الصادقة ، والأوامر والنواهي الموافقة ، لغاية الحكمة .

وهؤلاء ، الذين تفيد شهادتهم ، وينفع قولهم ، لأنهم لا يقولون ما يقولون ، إلا عن علم وبصيرة ، لأنهم أهل الخبرة ، وأهل الكتب .

وغيرهم لا يدل ردهم ، ومعارضتهم للحق ، على شبهة ، فضلا عن الحجة ، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق .

قال تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » الآيات .

وقوله [ إنا كنا من قبله مسلمين ] فلذلك ثبتنا على ما منّ الله به علينا من الإيمان والإسلام ، فصدقنا بهذا القرآن ، آمنا بالكتاب الأول ، والكتاب الآخر .

وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ

---

وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب ، إيمانه بالكتاب الأول .

[ أولئك ] الذين آمنوا بالكتابين [ يؤتون أجرهم مرتين ] أجراً على الإيمان الأول ، وأجرا على الإيمان الثانى .

[ بما صبروا ] على الإيمان ، وثبتوا على العمل ، فلم تزعزعهم عن ذلك، شبهة ، ولا ثناهم عن الإيمان ، رياسة ولا شهوة .

[ و ] من خصالهم الفاضلة ، التى هى من آثار إيمانهم الصحيح ، أنهم [ يدرءون بالحسنة السيئة ] أى : دأبهم وطريقتهم ، الإحسان لكل أحد ، حتى للمسىء إليهم ، بالقول والفعل ، يقابلونه بالقول الحميد ، والفعل الجميل ، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم ، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم .

[ وإذا سمعوا اللغو ] من جاهل خاطبهم به ، أعرضوا عنه ، و [ قالوا ] مقالة عباد الرحمن أولى الألباب : [ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ] .

أى : كُلٌّ سَيُجازَى بعمله ، الذى عمله وحده ، ليس عليه من وزر غيره شىء .

ولزم من ذلك ، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون ، من اللغو والباطل، والكلام الذى لا فائدة فيه .

[ سلام عليكم ] أى لا تسمعون منا إلا الخير ، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم .

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

---

فإياكم ، وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم ، فإننا ننزه أنفسنا عنه ، ونصونها عن الخوض فيه .

[ لا نبتغى الجاهلين ] من كل وجه .

* يخبر تعالى أنك يا محمد ـ وغيرك من باب أولى ـ لا تقدر على هداية أحد ، ولو كان من أحب الناس إليك ، فإن هذا ، أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق ، وخلق الإيمان فى القلب ، وإنما ذلك بيد الله تعالى ، يهدى من يشاء ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ، ممن لا يصلح لها ، فيبقيه على ضلاله .

وأما إثبات الهداية للرسول فى قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » فتلك هداية البيان والإرشاد .

فالرسول يبين الصراط المستقيم ، ويرغب فيه ، ويبذل جهده فى سلوك الخلق له .

وأما كونه يخلق فى قلوبهم الإيمان ، ويوفقهم بالفعل ، فحاشا وكلا .

ولهذا لو كان قادرا عليها ، لهدى من وصل إليه إحسانه ، ونصره ، ومنعه من قومه ، عمه أبا طالب ، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ، ما هو أعظم مما فعله معه عمه ، ولكن الهداية بيد الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا

---

* يخبر تعالى أن المكذبين من قريش ، وأهل مكة ، يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم :

[ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ] بالقتل والأسر ، ونهب الأموال .

فإن الناس قد عادوك وخالفوك ، فلو تابعناك ، لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم ، ولم يكن لنا بهم طاقة .

وهذا الكلام منهم ، يدل على سوء الظن بالله تعالى ، وأنه لا ينصر دينه ، ولا يعلى كلمته .

بل يمكن الناس من أهل دينه ، فيسومونهم سوء العذاب ، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق .

قال الله ـ مبينا لهم حالة ، هم بها دون الناس ، وأن الله اختصهم بها فقال :

[ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ] .

أى : أو لم نجعلهم متمكنين ، ممكنين فى حرم ، يكثر المنتابون إليه ، ويقصده الزائرون ، قد احترمه القريب والبعيد ، فلا يهاج أهله ، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير .

مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ

---

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن ، قدحف بها الخوف من كل جانب ، وأهلها غير آمنين ولا مطئنين .

فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام ، الذى ليس فيه غيرهم ، وعلى الرزق الكثير ، الذى يجىء إليهم من كل مكان ، من الثمرات ، والأطعمة ، والبضائع ، ما به يرتزقون ويتوسعون .

ولْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم ، ليتم لهم الأمن والرغد .

وإياهم وتكذيبه ، والبطر بنعمته ، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفا ، وبعد عزهم ذلا ، وبعد غناهم فقرا ، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم ، فقال :

[ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ] أى : نخرت بها ، وألهتها ، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل ، فأهلكهم الله ، وأزال عنهم النعمة ، وأحل بهم النقمة .

[ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ] لتوالى الهلاك والتلف عليهم ، وإيحاشها من بعدهم .

[ وكنا نحن الوارثين ] للعباد ، نميتهم ، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم ، ثم نعيدهم إلينا ، فنجازيهم بأعمالهم .

حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

---

ومن حكمته ورحمته ، أن لا يعذب الأمم ، بمجرد كفرهم ، قبل إقامة الحجة عليهم ، بإرسال الرسل إليهم ، ولهذا قال :

[ وما كان ربك مُهْلِكَ القرى ] أى بكفرهم وظلمهم [ حتى يبعث فى أمها ] أى : فى القرية والمدينة التى إليها يرجعون ، ونحوها يترددون ،وكل ما حولها ينتجعها ، ولا تخفى عليهم أخبارها .

[ رسولا يتلو عليهم آياتنا ] الدالة على صحة ما جاء به ، وصدق ما دعاهم إليه .

فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم .

بخلاف بعث الرسل فى القرى البعيدة ، والأطراف النائية ، فإن ذلك ، مظنة الخفاء والجفاء ، والمدن الأمهات ، مظنة الظهور والانتشار ، وفى الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم .

[ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ] بالكفر والمعاصى ، مستحقون للعقوبة .

والحاصل ، أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه ، وإقامة الحجة عليه .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا

---

* هذا حض منه تعالى لعباده ، على الزهد فى الدنيا ، وعدم الاغترار بها ، وعلى الرغبة فى الأخرى ، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه .

ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق ، من الذهب ، والفضة ، والحيوانات والأمتعة ، والنساء ، والبنين ، والمآكل ، والمشارب ، واللذات ، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها .

أى : يتمتع به وقتا قصيراً ، متاعاً قاصرا ، محشوا بالمنغصات ، ممزوجا بالغصص .

ويتزين به زمانا يسيرا ، للفخر والرياء ، ثم يزول ذلك سريعاً ، وينقضى جميعاً ، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم ، والخيبة والحرمان .

[ وما عند الله ] من النعيم المقيم ، والعيش السليم [ خير وأبقى ] أى : أفضل فى وصفه وكميته ، وهو دائم أبداً ، ومستمر سرمدا .

[ أفلا تعقلون ] أى : أفلا تكون لكم عقول ، بها تزنون أى الأمرين أولى بالإيثار ، وأى الدارين أحق للعمل لها .

فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد ، يؤثر الأخرى على الدنيا ، وأنه ما آثر أحد الدنيا ، إلا لنقص فى عقله .

ولهذا نبه العقول على الموازنة ، بين عاقبة مؤثر الدنيا ، ومؤثر الآخرة فقال :

حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

---

[ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ] أى : هل يستوى مؤمن ، ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له ، بالثواب الحسن ، الذى هو الجنة ، وما فيها من النعيم العظيم ، فهو لاقيه ، من غير شك ، ولا ارتياب لأنه وعد من كريم ، صادق الوعد ، لايخلف الميعاد ، لعبد قام بمرضاته ، وجانب سخطه .

[ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ] فهو يأخذ فيها ، ويعطى ، ويأكل ويشرب ، ويتمتع كما تتمتع البهائم .

قد اشتغل بدنياه عن آخرته ، ولم يرفع بهدى الله رأسا ، ولم ينقد للمرسلين .

فهو لايزال كذلك ، لايتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك .

[ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ] للحساب وقد علم أنه لم يقدم خيرا لنفسه ، وإنما قدم جميع ما يضره ، وانتقل إلى دار الأعمال .

فما ظنكم بما يصير إليه ؟ وماتحسبون ما يصنع به ؟.

فليختر العاقل لنفسه ، ما هو أولى بالاختيار ، وأحق الأمرين بالإيثار .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا

---

* هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، عن عبادة الله، وإجابة رسله فقال :

[ ويوم يناديهم ] أى : ينادى من أشركوا به شركاء، يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها، وضلالهم.

[ فيقول أين شركائى ]، وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم.

ولهذا قال : [ الذين كنتم تزعمون ] فأين هم، بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم ؟

ومن المعلوم أنهم يتبين لهم فى تلك الحال، أن الذى عبدوه، ورجوه باطل، مضمحل فى ذاته، وما رجوا منه، فيقولون [ أى : يحكمون ] على أنفسهم بالضلالة والغواية.

ولهذا [ قال الذين حق عليهم القول ] من الرؤساء والقادة، فى الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم : [ ربنا هؤلاء ] التابعون [ الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ].

أى : كلنا قد اشترك فى الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

[ تبرأنا إليك ] من عبادتهم، أى : نحن برآء منهم، ومن عملهم.

يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

---

[ ما كانوا إيانا يعبدون ] وإنما كانوا يعبدون الشياطين .

[ وقيل ] لهم : [ ادعوا شركاءكم ] على ما أملتم فيهم ، من النفع .

فأمروا بدعائهم فى ذلك الوقت الحرج ، الذى يضطر فيه العابد إلى من عبده .

[ فدعوهم ] لينفعوهم ، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شىء .

[ فلم يستجيبوا لهم ] فعلم الذين كفروا ، أنهم كانوا كاذبين ، مستحقين للعقوبة .

[ ورأوا العذاب ] الذى سيحل بهم عيانا ، بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به ، منكرين له .

[ لو أنهم كانوا يهتدون ] أى : لما حصل عليهم ما حصل ، ولهدوا إلى صراط الجنة ، كما اهتدوا فى الدنيا ، ولكن لم يهتدوا ، فلم يهتدوا .

[ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين] ، هل صدقتموهم، واتبعتموهم أم كذبتموهم وخالفتموهم ؟

[ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ] أى : لم يحيروا عن هذا السؤال جوابا ، ولم يهتدوا إلى الصواب .

ومن المعلوم ؛ أنه لاينجى فى هذا الموضع ؛ إلا التصريح بالجواب الصحيح ؛ المطابق لأحوالهم ؛ من أننا أجبناهم بالإيمان ؛ والانقياد .

فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

---

ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم ؛ لم ينطقوا بشيء .

ولا يمكن أن يتساءلوا ؛ ويتراجعوا بينهم ؛ فيماذا يجيبون به ؛ ولو كان كذبا .

* لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم ؛ وعن رسلهم ؛ ذكر الطريق ، الذي ينجو به العبد ، من عقاب الله تعالى ، وأنه لانجاة إلا لمن اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصي ، وآمن بالله فعبده ، وآمن برسله ، فصدقهم ، وعمل صالحاً ؛ متبعا فيه للرسل .

[ فعسى أن يكون ] من جمع هذه الخصال [ من المفلحين ] الناجحين بالمطلوب ؛ الناجين من المرهوب .

فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* هذه الآيات ؛ فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ؛ ونفوذ مشيئته بجميع البريات ؛ وانفراده باختيار من يختاره ويختصه ؛ من الأشخاص؛ والأوامر والأزمان ؛ والأماكن .

وأن أحداً ؛ ليس له من الأمر والاختيار شيء .

وأنه تعالى ؛ منزه عن كل ما يشركون به ؛ من الشريك ؛ والظهير والعوين ؛ والولد ؛ والصاحبة ؛ ونحو ذلك ؛ مما أشرك به المشركون .

وأنه العالم بما أكنته الصدور ، وما أعلنوه .

وأنه وحده ، المعبود المحمود ؛ فى الدنيا والآخرة ؛ على ماله من صفات الجلال والجمال ؛ وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال .

وأنه هو الحاكم فى الدارين : فى الدنيا ؛ بالحكم القدرى ؛ الذى أثره جميع ما خلق وذرأ ، والحكم الدينى ، الذى أثره جميع الشرائع ، والأوامر والنواهى .

وفى الآخرة يحكم بحكمه القدرى والجزائى ، ولهذا قال : [ وإليه ترجعون] فيجازى كلا منكم بعمله ، من خير وشر .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

* هذا امتنان من الله على عباده ، يدعوهم به إلى شكره ، والقيام بعبوديته وحقه ، أن جعل لهم من رحمته ، النهار ليبتغوا من فضل الله ، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم ، فى ضيائه ، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا ، وتستريح أبدانهم وأنفسهم ، من تعب التصرف فى النهار ، فهذا من فضله ورحمته بعباده .

فهل أحد يقدر على شىء من ذلك ؟

و [ إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ] مواعظ الله وآياته ، سماع فهم وقبول ، وانقياد .

و [ إن جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ] مواقع العبر ؛ ومواضع الآيات فتستنير فى بصائركم ، وتسلكوا الطريق المستقيم .

وقال فى الليل [ أفلا تسمعون ] وفى النهار [ أفلا تبصرون ] .

لأن سلطان السمع فى الليل ، أبلغ من سلطان البصر ، وعكسه النهار .

وفى هذه الآيات ، تنبيه إلى أن العبد ينبغى له أن يتدبر نعم الله عليه ، ويستبصر فيها ؛ ويقيسها بحال عدمها .

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾
وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ

---

فإنه إذا وازن بين حالة وجودها ، وبين حالة عدمها ؛ تنبه عقله لموضع المنة .

بخلاف من جرى مع العوائد ، ورأى أن هذا أمر ، لم يزل مستمراً ، ولا يزال .

وعمى قلبه عن الثناء على الله ، بنعمه ، ورؤية افتقاره إليها فى كل وقت .

فإن هذا ، لايحدث له فكرة شكر ، ولا ذكر .

* أى : ويوم ينادى الله المشركين به ، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء ، يستحقون أن يعبدوا ، وينفعون ويضرون .

فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم فى زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم [ يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ] .

أى : بزعمهم ، لا بنفس الأمر كما قال : « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » .

فإذا حضروا ، هم وإياهم ، نزع الله [ من كل أمة ] من الأمم المكذبة

فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

---

[ شهيدا ] يشهد على ماجرى فى الدنيا ، من شركهم واعتقادهم ، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين .

**أى** : انتخبنا من رؤساء المكذبين ، من يتصدى للخصومة عنهم ، والمجادلة عن إخوانهم ، وهم على طريق واحد .

فإذا برزوا للمحاكمة [ فقلنا هاتوا برهانكم ] أى : حجتكم ودليلكم، على صحة شرككم .

هل أمرناكم بذلك ؟ هل أمرتكم رسلى ؟ هل وجدتم ذلك فى شىء من كتبى ؟

هل فيهم أحد يستحق شيئا من الإلهية ؟

هل ينفعونكم ، أو يدفعون عنكم من عذاب الله ، أو يغنون عنكم ؟

فليفعلوا ، إذا كان فيهم أهلية ، وليروكم ، إن كان لهم قدرة .

[ فعلموا ] حينئذ ، بطلان قولهم وفساده ، و [ أن الحق لله ] تعالى :

قد توجهت عليهم الخصومة ، وانقطعت حجتهم ، وأفلجت[1] حجة الله .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] من الكذب ، والإفك ، واضمحل ، وتلاشى ، وعدم .

وعلموا أن الله قد عدل فيهم ، حيث لم يضع العقوبة ، إلا بمن استحقها ، واستأهلها

---

(١) وأفلجت . أى : غلبت حجة الله حجتهم .

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ

---

* يخبر تعالى ، عن حالة قارون ، وما فعل ، وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ ، فقال :

[ إن قارون من قوم موسى ] أى : من بنى إسرائيل ، الذين فُضِّلوا على العالمين ، وفاقوهم فى زمانهم ، وامتن الله عليهم بما امتن به ، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة .

ولكن قارون هذا ، انحرف عن سبيل قومه [ فبغى عليهم ] وطغى ، بما أوتيه من الأمور العظيمة المطغية .

[ وآتيناه من الكنوز ] أى : كنوز الأموال شيئاً كثيرا

[ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ] والعصبة ، من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ، ونحو ذلك .

أى : حتى إن مفاتح خزائن أمواله ، تثقل الجماعة القوية عن حملها ، هذه المفاتيح ، فماظنك بالخزائن ؟

[إذ قال له قومه] ناصحين له محذرين له عن الطغيان : [ لاتفرح إن الله لايحب الفرحين ] أى : لاتفرح بهذه الدنيا العظيمة ، وتفتخر بها ، وتلهيك عن الآخرة ، فإن الله لا يحب الفرحين بها ، المنكبين على محبتها .

[ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ] أى : قد حصل عندك من وسائل

ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ

---

الآخرة ، ما ليس عند غيرك من الأموال ، فابتغ بها ، ما عند الله ، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات ، وتحصيل اللذات .

[ ولاتنس نصيبك من الدنيا ] أى : لانأمرك أن تتصدق بجميع مالك ، وتبقى ضائعا ، بل أنفق لآخرتك ، واستمتع بدنياك ، استمتاعا ، لا يثلم دينك ، ولايضر بآخرتك .

[ وأحسن ] إلى عباد الله [ كما أحسن الله إليك ] بهذه الأموال .

[ ولاتبغ الفساد فى الأرض ] بالتكبر ، والعمل بمعاصى الله والاشتغال بالنعم عن المنعم .

[ إن الله لايحب المفسدين ] بلى يعاقبهم على ذلك ، أشد العقوبة .

[ قال ] قارون — راداً لنصيحتهم ، كافرا بنعمة ربه ـ : [ إنما أوتيته على علم عندى ] .

أى : إنما أدركت هـذه الأموال ، بكسبى ، ومعرفتى بوجوه المكاسب ، وحذقى .

أو على علم من الله بحالى ، يعلم أنى أهل لذلك ، فلم تنصحونى على ما أعطانى الله ؟

قال تعالى — مبيناً أن عطاءه ، ليس دليلا على حسن حالة المعطى .

أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ

---

أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ] فما المانع من إهلاك قرون أخرى ، مع مُضِيٍّ عادتنا ، وسنتنا بإهلاك من هو مثله . وأعظم منه ، إذا فعل ما يوجب الهلاك ؟ .

[ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ] بل يعاقبهم الله ، ويعذبهم على ما يعلمه منهم .

فهم ، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس قولهم مقبولا ، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً ، لأن ذنوبهم غير خفية ، فإنكارهم لا محل له .

فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه ، وعدم قبول نصيحة قومه ، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه ، وغره ما أوتيه من الأموال .

[ فخرج ] ذات يوم [ على قومه فى زينته ] أى بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه ، قد كان له من الأموال ما كان ، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه .

وتلك الزينة فى العادة ، من مثله ، تكون هائلة ، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها .

فرمقته فى تلك الحالة العيون ، وملأت بِزَّتُهُ القلوب ، واختلبت زينته ، النفوس .

مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ

---

فانقسم فيه الناظرون قسمين ، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة .

[ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ] أى : الذين تعلقت إرادتهم فيها ، وصارت منتهى رغبتهم ، ليس لهم إرادة فى سو ها .

[ ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من الدنيا ومتاعها وزهرتها [ إنه لذو حظ عظيم ] .

وصدقوا إنه لذو حظ عظيم ، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم ، وأنه ليس وراء الدنيا ، دار أخرى ، فإنه قد أعطى منها ، ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا ، واقتدر بذلك على جميع مطالبه ، فصار هذا الحظ العظيم ، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ، ومنتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم، وأسفلها ، وأدناها ، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية ، والمطالب الغالية .

[ وقال الذين أوتوا العلم ] الذين عرفوا حقائق الأشياء ، ونظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر أولئك إلى ظاهرها :

[ ويلكم ] متوجعين مما تمنوا لأنفسهم ، راثين لحالهم ، منكرين لمقالهم .

[ ثواب الله ] العاجل ، من لذة العبادة ومحبته ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه .

إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

---

والآجل من الجنة ، وما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين [ خير لمن آمن وعمل صالحا ] من هذا الذى تمنيتم ورغبتم فيه ، فهذه حقيقة الأمر .

ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه ، فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له [ إلا الصابرون ] الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة ، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها ، أن تشغلهم عن ربهم ، وأن تحول بينهم ، وبين ما خلقوا له .

فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية

فلما انتهت بقارون حالة البغى والفخر ، وازَّيَّنَتْ الدنيا عنده ، وكثر بها إعجابه ، بغته العذاب [فخسفنا به وبداره الأرض] جزاء من جنس عمله .

فكما رفع نفسه على عباد الله ، أنزله الله أسفل سافلين ، هو وما اغتر به ، من داره ، وأثاثه ، ومتاعه .

[ فما كان له من فئة ] أى : جماعة ، وعصبة ، وخدم ، وجنود [ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ] أى : جاءه العذاب ، فما نصر ، ولا انتصر .

[ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ] أى : الذين يريدون الحياة الدنيا ، الذين قالوا : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » .

[ يقولون ] متوجعين ومعتبرين ، وخائفين من وقوع العذاب بهم :

لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا
وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

---

[ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ] أى : يضيق الرزق على من يشاء ، فعلمنا حينئذ ، أن بسطه لقارون ، ليس دليلا على خير فيه ، وأننا غالطون فى قولنا : « إنه لذو حظ عظيم » .

و [ لولا أن من الله علينا ] فلم يعاقبنا على ما قلنا ، فلولا فضله ومنته [ لخسف بنا ] .

فصار هلاك قارون ، عقوبة له ، وعبرة وموعظة لغيره ، حتى إن الذين غبطوه ، سمعت كيف ندموا ، وتغير فكرهم الأول .

[ ويكأنه لا يفلح الكافرون ] أى : لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

* لما ذكر تعالى ، قارون وما أوتيه من الدنيا ، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا : « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً رغب » تعالى فى الدار الآخرة ، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال :

[ تلك الدار الآخرة ] التى أخبر الله بها فى كتبه وأخبرت بها رسله ، التى جمعت كل نعيم ، واندفع عنها كل مكدر ومنغص

[ نجعلها ] دارا وقرارا [ للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ] أى : ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو فى الأرض، على عباد الله ، والتكبر عليهم وعلى الحق [ ولا فساداً ] وهذا شامل لجميع المعاصى .

فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ

فإذا كانوا لا إرادة لهم فى العلو فى الأرض ، ولا الفساد ، لزم من ذلك ، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله ، وقصدهم الدار الآخرة ، وحالهم ، التواضع لعباد الله ، والانقياد للحق والعمل الصالح .

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى ، ولهذا قال : [ والعاقبة ] أى حالة الفلاح والنجاح ، التى تستقر وتستمر ، لمن اتقى الله تعالى .

وغيرهم — وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة — فإنه لا يطول وقته ، ويزول عن قريب .

وعلم من هذا الحصر فى الآية الكريمة ، أن الذين يريدون العلو فى الأرض ، أو الفساد ، ليس لهم فى الدار الآخرة ، نصيب ، ولا لهم منها ، حظ .

* يخبر تعالى عن مضاعفة فضله ، وتمام عدله فقال :

[ من جاء بالحسنة ] شرط فيها أن يأتى بها العامل ، لأنه قد يعملها ، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه ، أو يبطلها ، فهذا لم يجيء بالحسنة .

والحسنة ، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله ، من الأقوال ، والأعمال الظاهرة ، والباطنة ، المتعلقة بحقه تعالى ، وحقوق العباد [ فله خير منها ] أى : أعظم وأجل ، وفى الآية الأخرى « فله عشر أمثالها » .

هذا التضعيف للحسنة ، لا بد منه ، وقد يقترن بذلك من الأسباب ، ما تزيد به المضاعفة كما قال تعالى : « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » بحسب حال العامل وعمله ، ونفعه ، ومحله ، ومكانه .

[ ومن جاء بالسيئة ] وهى كل ما نهى الشارع عنه ، نَهْىَ تحريم .

فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

---

[ فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ] كقوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » :

* يقول تعالى [ إن الذى فرض عليك القرآن ] أى : نزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكامه، جميع المكلفين.

لا يليق بحكمته، أن تكون هى الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا.

بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج.

فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم.

وإن أبوا إلا عصيانك، والقدح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل.

ولهذا قال : [ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ] وقد علم أن رسوله هو المهتدى الهادى، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

[ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ] أى : لم تكن متحريا لنزول هذا الكتاب عليك ، ولا مستعداً له ، ولا متصديا .

[ إلا رحمة من ربك ] وبالعباد ، فأرسلك بهذا الكتاب ، الذى رحم به العالمين ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وزكاهم ، وعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل ، لفى ضلال مبين .

فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه ، علمت ، أن جميع ما أمر به ، ونهى عنه ، رحمة ، وفضل من الله .

فلا يكن فى صدرك حرج من شىء منه ، وتظن أن مخالفه ، أصلح وأنفع .

[ فلا تكونن ظهيراً للكافرين ] أى : معينا لهم على ما هو ، من شعب كفرهم .

ومن جملة مظاهرتهم ، أن يقال فى شىء منه ، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة .

[ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ] بل أبلغها وأنفذها ، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها ، ولا تتبع أهواءهم .

[ وادع إلى ربك ] أى اجعل الدعوة إلى ربك ، منتهى قصدك وغاية عملك .

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

---

فكل ما خالف ذلك ، فارفضه ، من رياء ، أو سمعة ، أو موافقة أغراض أهل الباطل ، فإن ذلك داع إلى السكون معهم ، ومساعدتهم على أمرهم ولهذا قال :

[ ولا تكونن من المشركين ] لا فى شركهم ، ولا فى فروعه وشعبه ، التى هى جميع المعاصى .

[ ولا تدع مع الله إلها آخر ] بل أخلص لله عبادتك ، فإنه [ لا إله إلا هو ] فلا أحد يستحق أن يؤله ، ويحب ، ويعبد ، إلا الله الكامل الباقى الذى [ كل شىء هالك إلا وجهه ] وإذا كان كل شىء سواه هالكاً مضمحلا ، فعبادة الهالك الباطل باطلة ، ببطلان غايتها ، وفساد نهايتها .

[ له الحكم فى الدنيا والآخرة [ وإليه ] لا إلى غيره [ ترجعون ] .

فإذا كان ما سوى الله ، باطلا هالكا ، والله هو الباقى ، الذى لا إله إلا هو ، وله الحكم فى الدنيا والآخرة ، وإليه مرجع الخلائق كلهم ، ليجازيهم بأعمالهم ، تعيَّن على من له عقل ، أن يعبد الله وحده لا شريك ، ويعمل لما يقربه ويدنيه ، ويحذر من سخطه وعقابه ، وأن يقدم على ربه غير تائب ، ولا مقلع عن خطاه وذنوبه .

تم تفسير سورة القصص ـ ولله الحمد والثناء والمجد دائما أبدا .

تفســـير

# سُورَةُ العَنكَبُوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ

---

* يخبر تعالى، عن تمام حكمته، وأن حكمته، لا تقتضي أن كل من قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا فى حالة، يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم، مايشوش عليهم إيمانهم وفروعه.

فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل،

ولكن سنته تعالى وعادته فى الأولين، وفى هذه الأمه، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم فى بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن، التى ترجع كلها، إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمن كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق.

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

---

وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصى والذنوب ، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله ، يعمل بمقتضى الإيمان ، ويجاهد شهوته ، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته .

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر فى قلبه ، شكا وريبا ، وعند اعتراض الشهوات ، تصرفه إلى المعاصى أو تصدفه عن الواجبات ، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه .

والناس فى هذا المقام : درجات ، لايحصيها إلا الله ، فمستقل ومستكثر .

فنسأل الله تعالى ، أن يثبتنا بالقول الثابت ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه .

فالا بتلاء والإمتحان للنفوس ، بمنزلة الكير ، يخرج خبثها ، وطيبها .

* أى : أحسب الذين همهم ، فعل السيئات ، وارتكاب الجنايات ، أن أعمالهم ستهمل ، وأن الله سيغفل عنهم ، أو يفوتونه ، فلذلك أقدموا عليها ، وسهل عليهم عملها ؟ .

[ساء ما يحكمون] أى : ساء حكمهم ، فإنه حكم جائر ، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته ، وأن لديهم قدرة ، يمتنعون بها من عقاب الله ، وهم أضعف شىء وأعجزه .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* يعنى : يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه ، المسارع فى مرضاته ، أبشر بقرب لقاء الحبيب ، فإنه آت ، وكل ما هو آت ، قريب .

فتزود للقائه ، وسر نحوه ، مستصحبا الرجاء ، مؤملا الوصول إليه .

ولكن ، ما كل من يَدّعِى يُعْطَى بدعواه ، ولا كل من تمنى ، يعطى ما تمناه ، فإن الله سميع للأصوات ، عليم بالنيات .

فمن كان صادقا فى ذلك ، أناله ما يرجو ، ومن كان كاذبا ، لم تنفعه دعـواه .

وهو العليم بمن يصلح لحبه ، ومن لا يصلح .

[ ومن جاهد ] نفسه وشيطانه ، وعدوه الكافر ، [ فإنما يجاهد لنفسه ] لأن نفعه ، راجع إليه ، وثمرته ، عائدة إليه .

و [ إن الله لغنى عن العالمين ] لم يأمرهم به ، لينتفع به ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه ، بُخْلاً منه عليهم .

وقد علم أن الأوامر والنواهى ، يحتاج المكلف فيها ، إلى جهاد ، لأن نفسه ، تتثاقل بطبعها ، عن الخير ، وشيطانه ينهاه عنه ، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه ، كما ينبغى .

وكل هذه ، معارضات ، تحتاج إلى مجاهدات وسعى شديد .

۞ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ۞

۞ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ۞

---

* يعنى أن الذين منّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، سيكفر الله عنهم سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

[ ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ] وهى أعمال الخير ، من واجبات ، ومستحبات ، فهى أحسن ما يعمل العبد ، لأنه يعمل المباحات أيضاً ، وغيرها .

* أى : وأمرنا الإنسان ، ووصيناه بوالديه حسنا ، أى : ببرهما ، والإحسان إليهما ، بالقول والعمل ، وأن يحافظ على ذلك ، ولا يعقهما ، ويسىء إليهما ، فى قوله وعمله .

[وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم ] ، وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله ، وهذا تعظيم لأمر الشرك .

[ فلا تطعمها إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ] فأجازيكم بأعمالكم .

فبروا والديكم وقدموا طاعتهما ، إلا على طاعة الله ورسوله ، فإنها مقدمة على كل شىء .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ

---

* أى : من آمن بالله ، عمل صالحا ، فإن الله وعده ، أن يدخله الجنة فى جملة عباد الله الصالحين ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، كل على حسب درجته ، ومرتبته عند الله .

فالإيمان الصحيح ، والعمل الصالح ، عنوان على سعادة صاحبه ، وأنه من أهل الرحمن ، ومن الصالحين من عباد الله .

* لما ذكر تعالى ، أنه لا بد أن يمتحن من ادّعى الإيمان ، ليظهر الصادق من الكاذب ، بيّن تعالى ، أن من الناس فريقا ، لا صبر لهم على المحن ، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال :

[ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله ] بضرب،أو أخذ مال ، أو تعيير ، ليرتد عن دينه ، وليراجع الباطل .

[ جعل فتنة الناس كعذاب الله ] أى : يجعلها صادّة له عن الإيمان ، والثبات عليه ، كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه .

[ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ] ، لأنه موافق للهوى ، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم ، :«ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وأن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ

---

[أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين] حيث أخبركم بهذا الفريق، الذى حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك، كمال علمه، وسعة حكمته.

[وليعلمن الله الذين آمنو وليعلمن المنافقين] أى: فلذلك قَدَّرَ مِحَناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتُلُوا، لَثبتوا.

* يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفى ضمن ذلك، تحذير المؤمنين، من الاغترار بهم، والوقوع فى مكرهم فقال:

[وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا] فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا فى ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر [ولنحمل خطاياكم].
وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: [وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء] لا قليل ولا كثير.

فهذا التحمل، ولو رضى به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله والله تعالى، لم يمكن العبد من التصرف فى حقه، إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله [وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء] قد يتوهم منه

لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

---

أيضاً ، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم ، الذى ارتكبوه ، دون الذنب الذى فعله غيرهم ، ولو كانوا متسببين فيه ، قال محترزا عن هذا الوهم :

[ وليحملن أثقالهم ] أى : أثقال ذنوبهم التى عملوها [ وأثقالا مع أثقالهم ] وهى الذنوب التى حصلت بسببهم ، ومن جرائهم .

فالذنب الذى فعله التابع ، لكل من التابع والمتبوع ، حصة منه حصلت هذا لأنه فعله وباشره .

والمتبوع ، لأنه تسبب فى فعله ودعا إليه .

كما أن الحسنة إذا فعلها التابع ، له أجرها بالمباشرة وللداعى ، أجره بالتسبب .

[ وليسألن يوم اليقامة عما كانوا يفترون ] من الشر وتزيينه ، وقولهم « ولنحمل خطاياكم » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن حكمه وحكمته ، فى عقوبات الأمم المكذبة ، وأن الله أرسل عبده ورسوله ، نوحا عليه السلام ، إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة ، والنهى عن الانداد ، والأصنام .

[ فلبث فيهم ] نبياً داعياً [ ألف سنة إلا خمسين عاما ] ، وهو لا يَنِى بدعوتهم ، ولا يفتر فى نصحهم ، يدعوهم ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ، فلم يرشدوا ، ولا اهتدوا .

بلى استمروا على كفرهم وطغيانهم ، حتى دعا عليهم نبيهم نوح ، عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره ، وحلمه ، واحتماله فقال :

« رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً » .

[ فأخذهم الطوفان ] أى : الماء الذى نزل من السماء بكثرة ، ونبع من الأرض بشدة [ وهم ظالمون ] مستحقون للعذاب .

[ فأنجيناه وأصحاب السفينة ] الذين ركبوا معه ، أهله ومن آمن به .

[ وجعلناها ] أى : السفينة ، أوقصة نوح [ آية للعالمين ] يعتبرون بها ، على أن من كذب الرسل ، آخر أمره ، الهلاك ، وأن المؤمنين ، سيجعل الله لهم ، من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق ، مخرجا .

وجعل الله أيضاً السفينة ، أى : جنسها آية للعالمين ، يعتبرون بها رحمة ربهم ، الذى قيض لهم أسبابها ، ويسر لهم أمرها ، وجعلها تحملهم ، وتحمل متاعهم ، من محل إلى محل ، ومن قطر إلى قطر .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

* يذكر تعالى ، أنه أرسل خليله ، إبراهيم عليه السلام إلى قومه ، يدعوهم إلى الله .

فقال لهم : [ اعبدوا الله ] أى : وحِّدوه ، وأخلصوا له العبادة ، وامتثلوا ما أمركم به .

[ واتقوه ] أن يغضب عليكم ، فيعذبكم ، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصى .

[ ذلكم ] أى : عبادة الله وتقواه [ خير لكم ] من ترك ذلك .

وهذا من باب إطلاق « أفعل التفضيل » بما ليس فى الطرف الآخر منه شىء .

فإن ترك عبادة الله ، وترك تقواه ، لا خير فيه بوجه ، وإنما كانت عبادة الله وتقواه ، خيراً للناس ، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته ، فى الدنيا والآخرة ، إلا بذلك .

وكل خير يوجد فى الدنيا والآخرة ، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه .

[ إن كنتم تعلمون ] ذلك ، فاعلموا الأمور ، وانظروا ، ما هو أولى بالإيثار .

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه ، نهاهم عن عبادة الأصنام ، وبيَّن لهم نقصها ، وعدم استحقاقها للعبودية فقال :

أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ

---

[ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ] تنحتونها، وتخلقونها بأيديكم ، وتخلقون لها أسماء الآلهة ، وتختلقون الكذب ، بالأمر بعبادتها ، والتمسك بذلك .

[ إن الذين تدعون من دون الله ] فى نقصه ، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته .

[ لا يملكون لكم رزقا ] فكأنه قيل : قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة ، لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأن من هذا وصفه ، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة ، من العبادة والتأله .

والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تألهه ، وتسأله حوائجها .

فقال ـ حاثا لهم على من يستحق العبادة ـ [ فابتغوا عند الله الرزق] فإنه هو الميسر له ، المقدر ، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه .

[ واعبدوه ] وحده، لا شريك له ، لكونه الكامل النافع ، الضار ، المتفرد بالتدبير .

[ واشكروا له ] وحده ، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق في من النعم ، فمنه .

وجميع ما اندفع ، ويندفع من النقم عنهم ، فهو الدافع لها .

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ
وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ
يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ

---

[إليه ترجعون] فيجازيكم على ما عملتم ، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم .

فاحذروا القدوم عليه ، وأنتم على شرككم ، وارغبوا فيما يقربكم إليه ، ويثيبكم — عند القدوم — عليه .

[ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ] يوم القيامة [ إن ذلك على الله يسير ] .

كما قال تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

[ قل ] لهم ، إن حصل معهم ريب وشك فى الابتداء : [ سيروا فى الأرض ] بأبدانكم وقلوبكم [ فانظروا كيف بدأ الخلق ] فإنكم ستجدون أمما من الآدميين ، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً ، وتجدون النبات والأشجار ، كيف تحدث ، وقتا بعد وقت ، وتجدون السحاب والرياح ونحوها ، مستمرة فى تجددها .

بل الخلق دائما ، فى بدء وإعادة .

فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى — النوم — وقد هجم عليهم الليل بظلامه ، فسكنت منهم الحركات ، وانقطعت منهم الأصوات ، وصاروا فى فرشهم ومأواهم ، كالميتين .

ثم إنهم لم يزالوا على ذلك ، طول ليلهم ، حتى تنفلق الأصباح ،

فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ

---

فانتبهوا من رقدتهم ، وبعثوا من موتهم ، قائلين « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

ولهذا قال : [ثم الله] بعد الإعادة [ ينشىء النشأة الآخرة ] وهى النشأة لاتقبل موتا ، ولا نوماً ، وإنما هو الخلود والدوام ، فى إحدى الدارين .

[ إن الله على كل شىء قدير] فقدرته تعالى ، لا يعجزها شىء ، وكما قدر بها على ابتداء الخلق ، فقدرته على الإعادة ، من باب أولى وأحرى .

[يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ] أى : هو المنفرد بالحكم الجزائى ، وهو : إثابة الطائعين ، ورحمتهم ، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم .

[ وإليه تقلبون ] أى : ترجعون إلى الدار ، التى بها تجرى عليكم أحكام عذابه ورحمته .

فاكتسبوا فى هذ الدار ، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات .

وابتعدوا عن أسباب عذابه ، وهى المعاصى .

[وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء] أى : ياهؤلاء المكذبين ، المتجرئين على المعاصى ، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم ، أو أنكم معجزون لله فى الأرض ، ولا فى السماء .

وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

---

فلا تغرنكم قدرتكم ، وما زينت لكم أنفسكم ، وخدعتكم ، من النجاة من عذاب الله فلستم بمعجزين الله ، فى جميع أقطار العالم .

[ وما لكم من دون الله من ولى ] يتولاكم ، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم .

[ ولا نصير ] ينصركم ، فيدفع عنكم المكاره .

* يخبر تعالى ، من هم الذين زال عنهم الخير ، وحصل لهم الشر .

وأنهم الذين كفروا به وبرسله ، وبما جاءوهم به ، وكذبوا بلقاء الله .

فليس عندهم ، إلا الدنيا ، فلذلك أقدموا ، على ما أقدموا عليه ، من الشرك والمعاصى ، لأنه ليس فى قلوبهم ، ما يخوفهم من عاقبة ذلك ، ولهذا قال :

[ أولئك يئسوا من رحمتى ] أى : فلذلك لم يعلموا سببا واحداً ، يحصلون به الرحمة .

وإلا ، فلو طمعوا فى رحمته ، لعملوا لذلك أعمالا .

والإياس من رحمة الله ، من أعظم المحاذير ، وهو نوعان .

إياس الكفار منها ، وتركهم كل سبب يقربهم منها .

وإياس العصاة ، بسبب كثرة جناياتهم ، أو حشتهم ، فملكت قلوبهم ، فأحدث لها الإياس .

[ وأولئك لهم عذاب أليم ] أى : مؤلم موجع .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

وكأن هذه الآيات ، معترضات ، بين كلام إبراهيم لقومه ، وردهم عليه ، والله أعلم بذلك .

* أى : فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم ، حين دعاهم إلى ربه ، قبول دعوته ، والاهتداء بنصحه ، ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم .

وإنما كان مجاوبتهم له ، شر مجاوبة .

[ قالوا اقتلوه أو حرقوه ] أشنع القتلات ، وهم أناس مقتدرون ، لهم السلطان ، فألقوه فى النار [ فأنجاه الله ] منها .

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ] فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل ، وبِرَّهُمْ ونصحهم ، وبطلان قول من خالفهم ، وناقضهم ، وأن للمعارضين للرسل ، كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضا ، على التكذيب .

[ وقال ] لهم إبراهيم في جملة ما قاله ، من نصحه : [ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ] .

أى : غاية ذلك ، مودة فى الدنيا ستنقطع وتضمحل .

[ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ] أى : يتبرأ كل من العابدين والمعبودين ، من الآخر « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾
فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

---

فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ ، من عابديه ، ويلعنهم ؟ .

[ و ] أن [ مأواكم ] جميعا ، العابدين والمعبودين [ النار ] .

وليس أحد ، ينصرهم من عذاب الله ، ولا يدفع عنهم عقابه .

* أى لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يدعو قومه ، وهم مستمرون على عنادهم .

إلا أنه آمن له بدعوته ، لوط ، الذى نبأه الله ، وأرسله إلى قومه كما سيأتى ذكره .

[ وقال ] إبراهيم ، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا :

[إنى مهاجر إلى ربى] أى : هاجر أرض السوء ، ومهاجر إلى الأرض المباركة ، وهى الشام .

[ إنه هو العزيز ] أى : الذى له القوة ، وهو يقدر على هدايتكم .

ولكنه [ حكيم ] ما اقتضت حكمته ذلك .

ولما اعتزلهم وفارقهم ، وهم بحالهم ، لم يذكر الله عنهم ، أنه أهلكهم بعذاب .

بل ذكر اعتزاله إياهم ، وهجرته من بين أظهرهم .

فأما ما يذكر فى الإسرائيليات ، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض ، فشرب دماءهم ، وأكل لحومهم ، وأتلفهم عن آخرهم ، فهذا يتوقف الجزم به ، على الدليل الشرعى ، ولم يوجد .

فلو كان الله استأصلهم بالعذاب ، لذكره ، كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة .

ولكن هل من أسرار ذلك ، أن الخليل عليه السلام ، من أرحم الخلق ، وأفضلهم ، وأحلمهم ، وأجلهم ، فلم يدع على قومه ، كما دعا غيره ، ولم يكن الله ايجرى عليهم بسببه ، عذابا عاما ؟ .

ومما يدل على ذلك ، أنه راجع الملائكة فى إهلاك قوم لوط ، وجادلهم ، ودافع عنهم ، وهم ليسوا قومه ، والله أعلم بالحال .

[ ووهبنا له إسحق ويعقوب ] أى : بعد ما هاجر إلى الشام [ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ] .

فلم يأت بعده نبى ، إلا من ذريته ، ولا نزل كتاب ، إلا على ذريته ، حتى ختموا بابنه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليهم أجمعين .

وهذا من أعظم المناقب والمفاخر ، أن تكون مواد الهداية والرحمة ، والسعادة ، والفلاح ، والفوز ، فى ذريته ، وعلى أيديهم ، اهتدى المهتدون ، وآمن المؤمنون ، وصلح الصالحون :

وآتيناه أجره فى الدنيا ] من الزوجة الجميلة ، فائقة الجمال ، والرزق

فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

---

الواسع ، والأولاد ، الذين بهم قرت عينه ، ومعرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه .

[ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ] بل وهو ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الصالحين على الإطلاق ، وأعلاهم منزلة ، لجمع الله له ، بين سعادة الدنيا والآخرة .

* تقدم أن لوطا عليه السلام ، آمن لإبراهيم ، وصار من المهتدين به .

وقد ذكروا ، أنه ليس من ذرية إبراهيم ، وإنما هو ابن أخى إبراهيم .

فقوله تعالى : [ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ] وإن كان عاما ، فلا يناقض كون لوط ، نبيا رسولا ، وهو ليس من ذريته ، لأن الآية ، جىء بها ، لسياق المدح والثناء ، على الخليل ،

وقد أخبر أن لوطاً ، اهتدى على يديه ، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادى ، والله أعلم .

فأرسل الله لوطا إلى قومه ، وكانوا مع شركهم ، قد جمعوا بين فعل

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا
كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن

---

الفاحشة فى الذكور ، وقطع السبيل ، وفشو المنكرات ، فى مجالسهم .

فنصحهم لوط ، عن هذه الأمور ، وبيّن لهم ، قبائحها فى نفسها ، وما تئول إليه من العقوبة البليغة ، فلم يرعووا ، ولم يذكروا .

[ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ] .

فأيس منهم نبيهم ، وعلم استحقاقهم العذاب ، وجزع من شدة تكذيبهم له ، فدعا عليهم و( قال رب انصرنى على القوم المفسدين ] فاستجاب الله دعاءه ، فأرسل الملائكة لإهلاكهم .

فمروا بإبراهيم قبل ذلك ، وبشروه بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون ؟

فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط .

فجعل يراجعهم ، ويقول [ إن فيها لوطا ] .

فقالوا له : [ لننجينه وأهله. إلا امرأته كانت من الغابرين ] ثم مضوا حتى أتوا لوطا .

جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

---

فساءه مجيئهم ، وضاق بهم ذرعا ، بحيث إنه لم يعرفهم ، وظن أنهم من جملة الضيوف ، أبناء السبيل ، نخاف عليهم من قومه ، فقالوا له :

[ لا تخف ولا تحزن ] وأخبروه أنهم رسل الله .

[ إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا ] أى : عذابا [ من السماء بما كانوا يفسقون ] فأمروه أن يسرى بأهله ليلا .

فلما أصبحوا ، قلب الله عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم ، فصاروا سَمَراً من الأسمار ، وعبرة من العبر .

[ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ] أى : تركنا من ديار قوم لوط ، آثارا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم ، ، فينتفعون بها .

كما قال تعالى : « وإنكم لتمرون عليه مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

---

* أى [ و ] أرسلنا [ إلى مدين ] القبيلة المعروفة المشهورة [ أخاهم شعيبا ] الذى أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالبعث ورجائه ، والعمل له ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، ببخس المكاييل والموازين ، والسعى بقطع الطرق .

[ فكذبوه فأخذتهم الرجفة ] أى عذاب الله [ فأصبحوا فى دارهم جاثمين[1] .

* أى : وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود ، وقد علمت قصتهم ، وتبين لكم بشىء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم ، وآثارهم ، التي بانوا عنها .

وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات ، المفيدة للبصيرة فكذبوهم ، وجادلوهم .

---

( ١ ) قوله « جاثمين » المراد : ميتين قعودا » وفى المختار من الصحاح جثم الطائر : تلبد بالأرض وبابه « دخل » و« جلس » وكذا الإنسان » اهـ . أى : تلبد بالأرض .

وقال الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن « جاثمين : استعارة للمقيمين . من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض اهـ . أى : لصق بالأرض .

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

[ وزين لهم الشيطان أعمالهم ] حتى ظنوا أنها أفضل ، مما جاءتهم به الرسل .

وكذلك قارون ، وفرعون ، وهامان ، حين بعث الله إليهم موسى ابن عمران ؛ بالآيات البينات ؛ والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا فى الأرض ، على عباد الله ، فأذلوهم ، وعلى الحق ، فردوه ، فلم يقدروا على النجاء ، حين نزلت بهم العقوبة .

[ وما كانوا سابقين ] الله ، ولا فائتين ، بل سلموا واستسلموا .

[ فكلا ] من هؤلاء الأمم المكذبة [ أخذنا بذنبه ] على قدره ، وبعقوبة مناسبة له .

[ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ] أى : عذابا يحصبهم ، كقوم عاد ، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم ، و« سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

[ ومنهم من أخذته الصيحة ] كقوم صالح ، [ ومنهم من خسفنا به الأرض ] كقارون .

[ ومنهم من أغرقنا ] كفرعون وهامان ، وجنودهما .

[ وما كان الله ] أى : ما ينبغى ولا يليق به [ أن يظلمهم ] لكمال

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ

---

عدله ، وغناه التام ، عن جميع الخلق

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] منعوها حقها ، الذى هى بصدده ، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده .

فهؤلاء ، وصموها فى غير موصمها ، وشغلوها بالشهوات والمعاصى ، فضروها غاية الضرر ، من حيث ظنوا ، أنهم ينفعونها .

* هذا مثل ضربه الله ، لمن عبد معه غيره ، يقصد به التعزز والتَّقَوِّى ؛ والنفع ؛ وأن الأمر بخلاف مقصوده ؛ فإن مثله ؛ كمثل العنكبوت ؛ اتخذت بيتا ، يقيها من الحر ، والبرد ، والآفات .

[ وإن أوهن البيوت ] أى : أضعفها وأوهاها [ لبيت العنكبوت ] .

فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها ، من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه ، إلا ضعفا .

كذلك هؤلاء ، الذين يتخذون من دونه أولياء ، فقراء ، عاجزون ، من جميع الوجوه .

وحين اتخذوا الأولياء من دونه ، يتعززون بهم ، ويستنصرو بهم ، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ، ووهناً إلى وهنهم .

فإن اتكلوا عليهم ، فى كثير من مصالحهم ، وألقوها عليهم ، تخلوا هم عنها .

لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

---

على أن أولئك سيقومون بها .

تخذلوهم ، فلم يحصلوا منهم على طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم ، أقل نائل .

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم ، حالهم ، وحال من اتخذوهم،لم يتخذوهم ، ولتبرأوا منهم ، ولتولوا الرب القادر الرحيم ، الذى إذا تولاه عبده،وتوكل عليه ، كفاه مئونة دينه ودنياه ، وازداد قوة إلى قوته ، فى قلبه وبدنه وحاله وأعماله .

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ، ارتقى من هذا ، إلى ما هو أبلغ منه ، وأنها ليست بشىء ، بل هى مجرد أسماء سموها ، وظنون اعتقدوها .

وعند التحقيق ، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها ، ولهذا قال :

[ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ] أى : إنه تعالى يعلم — وهو عالم الغيب والشهادة — أنهم ما يدعون من دون الله شيئا موجودا ، ولا إلها له حقيقة ، كقوله تعالى « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » .

[ وهو العزيز ] الذى له القوة جميعاً ، الذى قهر بها جميع الخلق .

وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

[ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأتقن ما أمره .

[ وتلك الأمثال نضربها للناس ] أى : لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم ، لأنها تقرب الأمور المعقولة ، بالأمور المحسوسة ، فيتضح المعنى المطلوب بسببها ، فهى مصلحة لعموم الناس .

[ و ] لكن [ ما يعقلها ] بفهمها وتدبرها ، وتطبيقها على ما ضربت له ، وعقلها فى القلب .

[ إلا العالمون ] أى : إلا أهل العلم الحقيق ، الذين وصل العلم إلى قلوبهم .

وهذا مدح للأمثال ، التى يضربها ، وحثٌ على تدبرها وتعقلها ، ومدح لمن يعقلها .

وأنه عنوان ، على أنه من أهل العلم ، فعلم أن من لم يعقلها ، ليس من العالمين .

والسبب فى ذلك ، أن الأمثال التى يضربها الله فى القرآن ، إنما هى للأمور الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجليلة .

فأهل العلم ، يعرفون أنها أهم من غيرها ، لاعتناء الله بها ، وحثه عباده على تعقلها ، وتدبرها . فيبذلون جهدهم فى معرفتها .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

وأما من لم يعقلها ، مع أهميتها ، فإن ذلك ، دليل على أنه ليس من أهل العلم ، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة ، فعدم معرفته غيرها ، من باب أولى وأحرى .

ولهذا ، أكثر ما يضرب الله الأمثال فى أصول الدين ، ونحوها .

* أى : هو تعالى ، المنفرد بخلق السموات ، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة .

والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبرارى والقفار ، والأشجار ونحوها .

وكل ذلك خلقه بالحق ، أى لم يخلقها عبثا ، ولا سدى ، ولا لغير فائدة .

وإنما خلقها ، ليقوم أمره وشرعه ، ولتتم نعمته على عباده ، وليروا من حكمته ، وقهره وتدبيره ، ما يدلهم على أنه وحده ، معبودهم ، ومحبوبهم ، وإلههم .

[ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ] على كثير من المطالب الإيمانية ، إذا تدبرها المؤمن ، رأى ذلك فيها عياناً .

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

---

* يأمر تعالى بتلاوة وحيه، وتنزيله، وهو: هذا الكتاب العظيم.

ومعنى تلاوته، اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى، وبعضه.

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كلها، داخلة فى تلاوة الكتاب.

فيكون قوله [ وأقم الصلاة ] من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهى [ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ].

فالفحشاء، كل ما استعظم، واستفحش من المعاصى، التى تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته فى الخير، وتقل أو تنعدم، رغبته فى الشر.

فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فهذا من أعظم مقاصد الصلاة، وثمراتها.

وثَمَّ فى الصلاة، مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو: ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب، واللسان، والبدن.

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ

---

فإن الله تعالى ، إنما خلق العباد ، لعبادته ، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة .

وفيها من عبوديات الجوارح كلها ، ما ليس فى غيرها ، ولهذا قال : [ ولذكر الله أكبر ] .

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها ، أخبر أن ذكره تعالى ، خارج الصلاة ، أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين .

لكن الأول ، أولى ، لأن الصلاة ، أفضل من الذكر خارجها ، ولأنها — كما تقدم — بنفسها من أكبر الذكر .

[ والله يعلم ما تصنعون ] من خير وشر ، فيجازيكم على ذلك ، أكمل الجزاء ، وأوفاه .

* ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب ، إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل ، أو بغير قاعدة مرضية ، وأن لا يجادلوا ، إلا بالتي هى أحسن ، بحسن خلق ولطف ولين كلام ، ودعوة إلى الحق ، وتحسينه ، ورد الباطل وتهجينه ، بأقرب طريق موصل لذلك .

وأن لا يكون القصد منها ، مجرد المجادلة والمغالبة ، وحب العلو ، بل يكون القصد ، بيان الحق ، وهداية الخلق .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

[ إلا الذين ظلموا ] من أهل الكتاب ، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله ، أنه لا إرادة له فى الحق ، وإنما يجادل ، على وجه المشاغبة والمغالبة.

فهذا ، لا فائدة فى جداله ، لأن المقصود منها ضائع .

[ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ] أى : ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم ، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم ، وعلى أن الإله واحد .

ولا تكن مناظرتكم إياهم ، على وجه يحصل به القدح ، فى شىء من الكتب الإلهية ، أو بأحد من الرسل ، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم ، يقدح بجميع ما معهم ، من حق وباطل ، فهذا ظلم ، وخروج عن الواجب ، وآداب النظر .

فإن الواجب ، أن يرد ما مع الخصم من الباطل ، ويقبل ما معه من الحق .

ولا يرد الحق ، لأجل قوله ، ولو كان كافراً .

وأيضا فإن بناء مناظرة أهل الكتاب ، على هذا الطريق ، فيه إلزام لهم ، بالإقرار بالقرآن ، وبالرسول ، الذى جاء به .

فإنه إذا تكلم فى الأصول الدينية ، والتى اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين ، وثبتت حقائقها عندهما ، وكانت الكتب السابقة، والمرسلون ، مع القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم ، قد بينتها ، ودلت، وأخبرت

وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

بها ، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها ، والرسل كلهم ،وهذامن خصائص الإسلام .

فأما أن يقال : نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلانى ، دون الكتاب الفلانى ، وهو الحق الذى صدق ما قبله ، فهذا ظلم وهوى .

وهو يرجع إلى قومه بالتكذيب ، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه ، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن .

وأيضا فإن كل طريق تثبت بها نبوة أى نبى كان ، فإن مثلها . وأعظم منها ، دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكل شبهة يقدح بها فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن مثلها ، أو أعظم منها ، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره .

فإذا ثبت بطلانها فى غيره ، فثبوت بطلانها فى حقه صلى الله عليه وسلم، أظهر وأظهر .

وقوله [ ونحن له مسلمون ] أى : منقادون مستسلمون لأمره .

ومن آمن به ، واتخذه إلها ، وآمن بجميع كتبه ، ورسله ، وانقاد لله واتبع رسله ، فهو السعيد .

ومن انحرف عن هذا الطريق ، فهو الشقى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ

---

* أى . [ وكذلك أنزلنا إليك ] يامحمد ، هذا [ الكتاب ] الكريم ، المبين كل نبأ عظيم .

الداعى إلى كل خلق فاضل ، وأمر كامل ، المصدق للكتب السابقة ، المخبر به الأنبياء الأقدمون .

[ فالذين آتيناهم الكتاب ] فعرفوه حق معرفته ، ولم يداخلهم حسد وهوى .

[ يؤمنون به ] لأنهم تيقنوا صدقه ، بما لديهم من الموافقات ، وبما عندهم من البشارات ، وبما تميزوا به ، من معرفة الحسن والقبيح ، والصدق والكذب .

[ ومن هؤلاء ] الموجودين [ من يؤمن به ] إيمانا عن بصيرة ، لا عن رغبة ولا رهبة .

[ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ] الذين دأبهم الجحود للحق ، والعناد له .

وهذا حصر لمن كفر به ، أنه لا يكون من أحد ، قصده متابعة الحق .

وإلا ، فكل من له قصد صحيح ، فإنه لا بد أن يؤمن به ، لما اشتمل عليه من البينات ، لكل من له عقل ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومما يدل على صحته ، أنه جاء به هذا النبي الأمين ، الذى عرف

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن
كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

قومه صدقه، وأمانته، ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطا، بل ولا يقرأ خطا مكتوباً.

فإتيانه به فى هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التى لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال:

[ وما كنت تتلو ] أى تقرأ [ من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا ] لو كنت بهذه الحال [ لارتاب المبطلون ] فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

فأما وقد نزل على قلبك، كتابا جليلا، تحديت به الفصحاء البلغاء، الأعداء، الألداء أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجاريا له أو على منواله، ولهذا قال:

[ بل هو آيات مبينات ] إلى [ الظالمون ].

* [ بل هو ] أى: هذا القرآن [ آيات بينات ] لا خفيات.

[ فى صدور الذين أوتوا العلم ] وهم: سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات، فى صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم.

وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

---

وإنكار غيرهم ، لا يضر ، ولا يكون ذلك إلا ظلما ، ولهذا قال :

[ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ] لأنه لا يجحدها إلا جاهل ، تكلم بغير علم ، ولم يقتد بأهل العلم ، ومن هو التمكن من معرفته على حقيقته ، أو متجاهل ، عرف أنه حق فعانده ، وعرف صدقه ، فخالفه .

* أى : واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ، ولما جاء به ، واقترحوا عليه ، نزول آيات ، عينوها كما قال الله عنهم :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات .

فتعيين الآيات ، ليس عندهم ، ولا عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن فى ذلك تدابير ، مع الله ، وأنه لو كان كذا ، وينبغى أن يكون كذا ، وليس لأحد من الأمر شىء .

ولهذا قال : [ قل إنما الآيات عند الله ] إن شاء أنزلها ، أو منعها [ وإنما أنا نذير مبين ] وليس لى مرتبة ، فوق هذه المرتبة .

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل ، فإذا حصل المقصود ـ بأى طريق ـ كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ، ظلما وجورا ، وتكبرا على الله ، وعلى الحق .

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ، ويكون فى قلوبهم ، أنهم لا يؤمنون

. . . . . . . . . . .

بالحق إلا بها كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك، شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت، في إنزالها على التقدير الفرضي ؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال :

[ أو لم يكفهم ] في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به [ أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ].

وهذا كلام مختصر، جامع فيه، من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير.

فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده، وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديهم إياه، آية أخرى.

ثم ظهوره، وبروزه جهرا علانية، يتلى عليهم، ويقال : هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه.

بل خرج به على رءوس الأشهاد، ونادى به، بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته[1] أو يستطيع مجاراته.

---

(١) قوله : أو ينطق بمباراته الأولى أن يقال أو « ينطق بعباراته » أو « يبرز ويتحدي بمباراته » حتى يكون الكلام واضحاً بعيداً عن ارتكاب المجازات والتأويلات فإن المباراة لا تكون بالنطق بل بالفعل.

أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

---

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة ، وتصحيحه للصحيح ، ونَفْيُ ما أدخل فيها من التحريف ، والتبديل .

ثم هدايته لسواء السبيل ، فى أمره ونهيه .

فما أمر بشيء ، فقال العقل « ليته لم يأمر به » ، ولا نهى عن شيء فقال العقل « ليته لم ينه عنه » .

بل هو مطابق للعدل والميزان ، والحكمة المعقولة لذوى البصائر ، والعقول .

ثم مسايرة إرشاداته ، وهدايته ، وأحكامه ، لكل حال ، وكل زمان ، بحيث لا تصلح الأمور إلا به .

فجميع ذلك ، يكفى من أراد تصديق الحق ، وعمل على طلب الحق .

فلا كفى الله ، من لم يكفه القرآن ، ولا شفى الله ، من لم يشفه الفرقان .

ومن اهتدى به واكتفى ، فإنه رحمة له وخير ، فلذلك قال :

[ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ] وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير ، والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح ، وتطهير العقائد ، وتكميل الأخلاق ، والفتوحات الإلهية ، والأسرار الربانية .

[ قل كفى الله بينى وبينكم شهيدا ] فأنا قد استشهدته .

فإن كنت كاذبا ، أحلّ بى ما به تعتبرون .

يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

---

وإن كان إنما يؤيدني ، وينصرني ، وييسر لي الأمور ، فلتكفكم ، هذه الشهادة الجليلة من الله .

فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعوه ، ولم تروه - لاتكفي دليلا ، فإنه [ يعلم ما في السموات والأرض ] .

ومن جملة معلوماته ، حالي وحالكم ، ومقالي لكم .

فلو كنت متقولا عليه ، مع علمه بذلك ، وقدرته على عقوبتي - لكان قدحا ، في علمه ، وقدرته ، وحكمته كما قال تعالى « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » .

[ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ] حيث خسروا الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وحيث فاتهم النعيم المقيم ، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح ، كل باطل قبيح ، وفي مقابلة النعيم ، كل عذاب أليم ، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

۞ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ

---

* يخبر تعالى، عن جهل المكذبين للرسول، وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالا للعذاب، وزيادة تكذيب: [ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] ؟

يقول تعالى [ ولولا أجل مسمى ] مضروب لنزوله، ولم يأت بعد [ لجاءهم العذاب ] بسبب تعجيزهم لنا، وتكذيبهم الحق.

فلو آخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم، أسرع لبلائهم وعقوبتهم.

ولكن — مع ذلك — فلا يستبطئوا نزوله [ وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ].

فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ«بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون على مقصودهم.

فأذلهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت، إلا أصابته تلك المصيبة.

فأتاهم العذاب، من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم، وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوى، فإن أمامهم العذاب الأخروى، الذى لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا، أو أمهل.

بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ
ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ
فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

---

[ وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين ] ليس لهم عنها ، معدل ولا منصرف . قد أحاطت بهم من كل جانب ، كما أحاطت بهم ذنوبهم ، وسيئاتهم ، وكفرهم .

وذلك العذاب ، هو العذاب الشديد .

* [ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ] فإن أعمالـكم انقلبت عليكم عذابا ، وشملـكم العذاب ، كما شملـكم الـكفر والذنوب .

* يقول تعالى : [ يا عبادى الذين آمنوا ] وصدقوا رسولي [ إن أرضى واسعة فاياى فإعبدون ] فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم فى أرض ، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى ، حيث كانت العبادة لله وحده .

فأما كن العبادة ، ومواضعها ، واسعة ، والمعبود واحد ، والموت لابد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم ، فيجازى من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية ، والمنازل الأنيقة الجامعة ، لما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾
وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ

---

ف[ نعم ] تلك المنازل ، فى جنات النعيم [ أجر العاملين ] لله .

[ الذين صبروا ] على عبادة الله [ وعلى ربهم يتوكلون ] فى ذلك .

فصبرهم على عبادة الله ، يقتضى بذل الجهد والطاقة فى ذلك ، والمحاربة العظيمة للشيطان ، الذى يدعوهم إلى الإخلال بشىء من ذلك .

وتوكلهم ، يقتضى شدة اعتمادهم على الله ، وحسن ظنهم به ، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ، ويكملها .

ونص على التوكل ، وإن كان داخلا فى الصبر ، لأنه يحتاج إليه فى كل فعل ، وترك مأمور به ، ولا يتم إلا به .

* أى : البارى تبارك وتعالى ، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم ، قويهم ، وعاجزهم .

فكم [ من دابة ] فى الأرض ، ضعيفة القوى ، ضعيفة العقل .

[ لا تحمل رزقها ] ولا تدخره ، بل لم تزل ، لا شىء معها من الرزق ، ولا يزال الله يسخر لها الرزق ، فى كل وقت بوقته .

[ الله يرزقها وإياكم ] فكلكم عيال الله القائم برزقكم ، كما قام بخلقكم وتدبيركم .

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ

---

[ وهو السميع العليم ] فلا تخفى عليه خافية ، ولا تهلك دابة من عدم الرزق ، بسبب أنها خافية عليه .

كما قال تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » :

* هذا استدلال على المشركين ، المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة ، وإلزام لهم ، بما أثبتوه من توحيد الربوبية .

فأنت لو سألتهم من خلق السموات والأرض ، ومن نزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، ومن بيده تدبير جميع الأشياء ؟

« ليقولن الله » وحده ، ولاَعْتَرَفوا بعجز الأوثان ، ومن عبدوه مع الله ، عن شيء من ذلك .

فاعجب لإفكهم ، وكذبهم ، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه ، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئا .

وسَجِّلْ عليهم عدم العقل ، وأنهم السفهاء ، ضعفاء الأحلام .

فهل تجد أضعف عقلا ، وأقل بصيرة ، ممن أتى إلى حجر ، أو قبر ونحوه وهو يدرى أنه لا ينفع ولا يضر ، ولا يخلق ولا يرزق - ثم صرف له خالص الإخلاص ، وصافى العبادية ، وأشركه مع الرب ، الخالق الرازق ، النافع الضار .

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ
ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ

---

وقل : الحمد لله الذى بين الهدى من الضلال ، وأوضح بطلان ما عليه المشركون ، ليحذره الموفقون .

وقل : الحمد لله ، الذى خلق العالم العلوى والسفلى ، وقام بتدبيرهم ، ورزقهم ، وبسط الرزق على من يشاء ، وضيقه عمن يشاء ، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده ، وما ينبغى لهم .

* يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة ، وفى ضمن ذلك ، التزهيد فى الدنيا والتشويق للأخرى فقال :

[ وما هذه الحياة الدنيا ] فى الحقيقة [ إلا لهو ولعب ] تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان ، بسببما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة ، الباهجة للعيون الغافلة ، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة .

ثم تزول سريعا ، وتنقضى جميعا ، ولم يحصل منها محبها ، إلا على الندم والخسران .

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ

---

[ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ] أى : الحياة الكاملة ، التى من لوازمها ، أن تكون أبدان أهلها ، فى غاية القوة ، وقواهم فى غاية الشدة ، لأنها أبدان وقوى ، خلقت للحياة ، وأن يكون موجودا فيها ، كل ماتكمل به الحياة ، وتتم به اللذة ، من مفرحات القلوب ، وشهوات الأبدان ، من المآكل ، والمشارب ، والمناكح ؛ وغير ذلك ، مما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ لو كانوا يعلمون ] لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان ، ورغبوا فى دار اللهو واللعب .

فدل ذلك ، أن الذين يعلمون ، لابد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا ، لما يعلمونه من حالة الدارين .

ثم ألزم تعالى ، المشركين بإخلاصهم لله ، فى حال الشدة ، عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم الهلاك ، يتركون وقتذاك ، أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له .

فلما زالت عنهم الشدة ، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به ، من لا نجاهم من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة .

فهلا أخلصوا لله الدعاء ، فى حال الرخاء والشدة ، واليسر والعسر ، ليكونوا مؤمنين حقا ، مستحقين ثوابه ، مندفعا عنهم عقابه .

مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ

---

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم ، بالنجاة من البحر ، ليكون عاقبته الكفر ، بما آتيناهم ، ومقابلة النعمة بالإساءة ، وليكملوا تمتعهم فى الدنيا ، الذى هو كتمتع الأنعام ، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم .

[ فسوف يعلمون ] حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ، شدة الأسف ، وأليم العقوبة .

ثم امتن عليهم بحرمه الآمن ، وأنهم أهله ، فى أمن ، وسعة ورزق ، والناس من حولهم ، يتخطفون ويخافون . فلا يعبدون الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .

[ أفبالباطل يؤمنون ] وهو ما هم عليه ، من الشرك ، والأقوال ، والأفعال الباطلة .

[ وبنعمة الله ] هم [ يكفرون ] فأين ذهبت عقولهم ، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى ، والباطل على الحق ، والشقاء على السعادة ، وحيث كانوا أظلم الخلق .

[ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ] فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل ، إلى الله .

[ وكذب بالحق لما جاءه ] على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هذا الظالم العنيد ، أمامه جهنم [ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ] يؤخذ بها منهم الحق ، ويخزون بها ، وتكون منزلهم الدائم ،

فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

---

الذى لا يخرجون منه .

[ والذين جاهدو فينا ] وهم الذين هاجروا فى سبيل الله ، وجاهدوا أعداءهم ، وبذلوا مجهودهم فى اتباع مرضاته .

[ لنهدينهم سبلنا ] أى : الطرق الموصلة إلينا ، وذلك ، لأنهم محسنون[1].

[ وإن الله لمع المحسنين ] بالعون ، والنصر ، والهداية .

دل هذا ، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب ، أهل الجهاد .

وعلى أن من أحسن فيما أمر به ، أعانه الله ، ويسر له أسباب الهداية .

وعلى أن من جد واجتهد فى طلب العلم الشرعى ، فإنه يحصل له من الهداية ، والمعونة على تحصيل مطلوبه ، أمور إلهية ، خارجة عن مدرك اجتهاده ، وتيسر له أمر العلم .

فإن طلب العلم الشرعى ، من الجهاد فى سبيل الله ، بل هو أحد نوعى الجهاد ، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق ، وهو الجهاد بالقول ، واللسان، للكفار ، والمنافقين .

والجهاد على تعليم أمور الدين ، وعلى رد نزاع المخالفين للحق ، ولو كانوا من المسلمين .

تم تفسير سورة العنكبوت ـ بحمد الله وعونه

تفسير

# سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم

---

كانت الفرس والروم ، فى ذلك الوقت ، من أقوى دول الأرض .

وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ، ما يكون بين الدول المتوازنة .

وكانت الفرس مشركين ، يعبدون النار .

وكانت الروم ، أهل كتاب ، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل ، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس ، فكان المسلمون يحبون غلبتهم ، وظهورهم على الفرس .

وكان المشركون ، لاشتراكهم والفرس فى الشرك ، يحبون ظهور الفرس على الروم .

فظهر الفرس على الروم ، وغلبوهم غلبا لم يحط بملكهم ، بل أدنى أرضهم .

ففرح بذلك مشركو مكة ، وحزن المسلمون .

فأخبرهم الله ، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس .

مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ

---

[ فى بضع سنين ] تسع ، أو ثمان ، ونحو ذلك ، مما لا يزيد على العشر ، ولا ينقص عن الثلاث .

وأن غلبة الفرس للروم ، ثم غلبة الروم للفرس ، كل ذلك بمشيئته وقدره ولهذا قال :

[ لله الأمر من قبل ومن بعد ] فليس الغلبة والنصر ، لمجرد وجود الأسباب .

وإنما هى ، لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر .

[ ويومئذ ] أى : يوم يغلب الروم الفرس ، ويقهرونهم [ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ] .

أى : يفرحون بانتصارهم على الفرس ، وإن كان الجميع كفاراً ، ولكن بعض الشر أهون من بعض ، ويحزن يومئذ ، المشركون .

[ وهو العزيز ] الذى له العزة ، التى قهر بها الخلائق أجمعين « يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء » .

[ الرحيم ] بعباده المؤمنين ، حيث قيض لهم من الأسباب التى تسعدهم وتنصرهم ، ما لا يدخل فى الحساب .

[ وعد الله لا يخلف الله وعده ] فتيقنوا ذلك ، واجزموا به ، واعلموا أنه لا بد من وقوعه .

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

---

فلما نزلت هذه الآيات ، التى فيها هذا الوعد ، صدق بها المسلمون ، وكفر بها المشركون ، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين ، على مدة سنين عينوها .

فلما جاء الأجل ، الذى ضربه الله ، انتصر الروم على الفرس ، وأجلوهم عن البلاد التى أخذوها منهم ، وتحقق وعد الله .

وهذا من الأمور الغيبية ، التى أخبر بها الله ، قبل وقوعها ، ووجدت فى زمان من أخبرهم الله بها ، من المسلمين والمشركين .

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] أن ما وعد الله به حق ، فلذلك يوجد فريق منهم ، يكذبون بوعده ، ويكذبون آياته .

وهؤلاء الذين لا يعلمون ، أى : لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها .

وإنما [ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ] فينظرون إلى الأسباب ، ويجزمون بوقوع الأمر ، الذى فى رأيهم ، انعقدت أسباب وجوده ، ويتيقنون عدم الأمر الذى لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده ، شيئا .

فهم واقفون مع الأسباب ، غير ناظرين إلى مسببها ، المتصرف فيها .

[ وهم عن الآخرة هم غافلون ] قد توجهت قلوبهم ، وأهواؤهم ، وإراداتهم ، إلى الدنيا وشهواتها ، وحطامها ، فعملت لها ، وسعت ، وأقبلت بها ، وأدبرت ، وغفلت عن الآخرة .

. . . . . . . . . . .

---

فلا الجنة تشتاق إليها ، ولا النار تخافها وتخشاها ، ولا المقام بين يدى الله ولقائه ، يروعها ويزعجها ، وهذا علامة الشقاء ، وعنوان الغفلة عن الآخرة .

ومن العجب أن هذا القسم من الناس ، قد بلغت بكثير منهم ، الفطنة والذكاء ، فى ظاهر الدنيا ، إلى أمر يحير العقول ، ويدهش الألباب .

وأظهروا من العجائب الذرية ، والكهربائية ، والمراكب البرية والبحرية ، والهوائية ، ما فاقوا به وبرزوا ، وأعجبوا بعقولهم ، ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه .

فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء ، وهم مع ذلك ، أبلد الناس فى أمر دينهم ، وأشدهم غفلة عن آخرتهم ، وأقلهم معرفة بالعواقب .

قد رآهم أهل البصائر النافذة ، فى جهلهم يتخبطون ، وفى ضلالهم يعمهون ، وفى باطلهم يترددون .

نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون .

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه ، من الأفكار الدقيقة فى الدنيا وظاهرها ، وما حرموا من العقل العالى ، لعرفوا أن الأمر لله ، والحكم له فى عباده ، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه ، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم ، من نور العقول والإيمان ، حتى يصلوا إليه ، ويحلوا بساحته .

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان ، وبنيت عليه ، لأثمرت الرُّقِىَّ العالى ، والحياة الطيبة .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

---

ولكنها لما بنى كثير منها على الإلحاد ، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق ، وأسباب الفناء والتدبير . .

* أى : أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه [ فى أنفسهم ] .

فإن فى أنفسهم ، آيات يعرفون بها ، أن الذى أوجدهم من العدم ، سيعيدهم بعد ذلك ، وأن الذى نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة إلى آدمى ، قد نفخ فيه الروح ، إلى طفل إلى شاب ، إلى شيخ ، إلى هرم ، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين ، لا ينهون ولا يؤمرون ، ولا يثابون ولا يعاقبون .

[ ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق ] أى : ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

[ وأجل مسمى ] أى : مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضى به الدنيا ، وتقوم القيامة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات .

[ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ] فلذلك لم يستعدوا للقائه ، ولم يصدقوا رسله ، التى أخبرت به ، وهذا الكفر عن غير دليل .

بل الأدلة القاطعة ، دلت على البعث والجزاء .

ولهذا نبههم على السير فى الأرض ، والنظر فى عاقبة الذين كذبوا

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

---

رسلهم ، وخالفوا أمرهم ، ممن هم أشد من هؤلاء قوة ، وأكثر آثارا فى الأرض، من بناء قصور ، ومصانع ، ومن غرس أشجار ، ومن زرع ، وإجراء أنهار .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا نفعتهم آثارهم ، حين كذبوا رسلهم ، الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق ، وصحة ما جاءوهم به .

فإنهم حين ينظرون فى آثار أولئك ، لم يجدوا إلا أمما بائدة ، وخلقا مهلكين ، ومنازل بعدهم موحشة ، وذم من الخلق عليهم متتابع .

وهذا جزاء معجل ، توطئة للجزاء الأخروى ، ومبتدأ له .

وكل هذه الأمم المهلكة ، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك ، وإنما ظلموا أنفسهم ، وتسببوا فى هلاكها .

[ ثم كان عاقبة الذين أساءوا ] أى : المسيئين [ السو ى ] أى : الحالة السيئة الشنيعة .

وصار ذلك داعيا لهم إلى[ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون].

فهذا عقوبة إساءتهم وذنوبهم .

۞ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

---

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب ، يكون سببا لأعظم العقوبات ، وأعضل المثلات .

* يخبر تعالى ، أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ، ثم يعيدهم ، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ، ليجازيهم بأعمالهم .

ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ، ثم جزاء أهل الخير ، فقال :

[ويوم تقوم الساعة] ويقوم الناس لرب العالمين ، ويردون القيامة عيانا .

يومئذ [ يبلس المجرمون ] أى : بيأسون من كل خير .

وذلك لأنهم ، ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام ، وهى الذنوب ، من كفر ، وشرك ، ومعاصى .

فلما قدموا أسباب العقاب ، ولم يخلطوها بشىء من أسباب الثواب ، أيسوا ، وأبلسوا ، وأفلسوا ، وضل عنهم ما كانوا يفترونه ، من نفع شركائهم ، وأنهم يشفعون لهم .

ولهذا قال : [ ولم يكن لهم من شركائهم ] التي عبدوها مع الله [ شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ] .

تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله ، وتبرأ المعبودون ، وقالوا « تبرأنا إليك ، ما كانوا إيانا يعبدون » ، والتعنوا ، وابتعدوا .

ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآىِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

---

وفى ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر ، كما افترقت أعمالهم فى الدنيا .

[ فأما الذين آمنو وعملوا الصالحات ] وآمنوا بقلوبهم ، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة [ فهم فى روضة ] فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات .

[ يحبرون ] أى : يسرون ، وينعمون بالمآ كل اللذيذة ، والأشربة ، والحور الحسان ، والخدم ، والولدان ، والأصوات المطربات ، والسماع المبهج ، والمناظر العجيبة ، والروائح الطيبة ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور ، مما لا يقدر أحد أن يصفه .

[ وأما الذين كفروا ] وجحدوا نعمه ، وقابلوها بالكفر [ وكذبوا بآياتنا ] التى جاءتهم بها رسلنا [ فأولئك فى العذاب محضرون ] فيه .

قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم ، واطّلع العذاب الأليم على أفئدتهم ، وشوى الحميم وجوههم ، وقطّع أمعاءهم .

فأين الفرق بين الفريقين ، وأين التساوى بين المنعمين والمعذبين ؟!!

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾
وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾
يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

---

* هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص ، وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق ، وأمر للعباد أن يسبحوه ، حين يمسون ، وحين يصبحون ، ووقت العشى ، ووقت الظهيرة .

فهذه الأوقات الخمسة ، أوقات الصلوات الخمس ، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد .

ويدخل فى ذلك ، الواجب منه ، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس .

والمستحب كأذكار الصباح والمساء ، وأدبار الصلوات ، وما يقترن بها من النوافل .

لأن هذه الأوقات التى اختارها الله لأوقات المفروضات ، هى أفضل الأوقات .

فالتسبيح والتحميد فيها ، والعبادة فيها ، أفضل من غيرها .

بل العبادة ، وإن لم تشتمل على قول « سبحان الله » فإن الإخلاص فيها ، تنزيه لله بالفعل ، أن يكون له شريك فى العبادة ، أو أن يستحق أحد من الخلق ، ما يستحقه من الإخلاص والإنابة .

[ يخرج الحى من الميت ] كما يخرج النبات من الأرض الميتة ، والسنبلة

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

---

من الحبة ، والشجرة من النواة ، والفرخ من البيضة ، والمؤمن من الكافر ، ونحو ذلك .

[ ويخرج الميت من الحى ] بعكس المذكور [ ويحيي الأرض بعد موتها ] .

فينزل عليها المطر ، وهى ميتة هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء ، اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج [ وكذلك تخرجون ] من قبوركم .

فهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، أن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، يحيي الأموات .

فلا فرق فى نظر العقل ، بين الأمرين ، ولا موجب لاستبعاد أحدهما ، مع مشاهدة الآخر .

* هذا شروع فى تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية ، وكمال عظمته . ونفوذ مشيئته ، وقوة اقتداره ، وجميل صنعه ، وسعه رحمته وإحسانه فقال :

[ ومن آياته أن خلقكم من تراب ] وذلك بخلق أصل النسل ، آدم عليه السلام [ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ] وبثكم فى أقطار الأرض وأرجائها .

ففى ذلك ، آيات على أن الذى أنشأكم من هذا الأصل ، وبثكم فى أقطار الأرض ، هو الرب المعبود ، الملك المحمود ، والرحيم الودود ، الذى سيعيدكم بالبعث بعد الموت .

لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

---

[ ومن آياته ] الدالة على رحمته ، وعنايته بعباده ، وحكمته العظيمة ، وعلمه المحيط .

[ أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ] تناسبكم وتناسبونهن ، وتشاكلكم وتشاكلونهن .

[ لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ] بما رتب على الزواج ، من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة .

فحصل بالزوجة ، الاستمتاع واللذة ، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم ، والسكون إليها .

فلا تجد بين اثنين فى الغالب ، مثل ما بين الزوجين ، من المودة والرحمة.

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ] يُعْمِلُون أفكارهم ، ويتدبرون آيات الله ، وينتقلون من شيء إلى شيء .

* والعالِمُون ، هم أهل العلم ، الذين يفهمون العبر ، ويتدبرون الآيات .

وآيات الله فى ذلك كثيرة :

[ ومن آياته خلق السموات والأرض ] وما فيهما ، فإن ذلك ، دال على عظمة سلطان الله ، وكمال اقتداره ، الذى أوجد هذه المخلوقات العظيمة وكمال حكمته ، لما فيها من الإتقان ، وسعة علمه — لأن الخالق ، لا بد أن

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾

يعلم ما خلقه « ألا يعلم من خلق » — وعموم رحمته وفضله ، لما فى ذلك من المنافع الجليلة .

وأنه المريد ، الذى يختار ما يشاء ، لما فيها من التخصيصات والمزايا .

وأنه وحده ، الذى يستحق أن يعبد ويوحد ، لأنه المنفرد بالخلق ، فيجب أن يفرد بالعبادة .

فكل هذه ، أدلة عقلية ، نبه الله العقول إليها ، وأمرها بالتفكر ، واستخراج العبرة منها .

[ و ] كذلك فى [ اختلاف ألسنتكم وألوانكم ] على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ، ومخارج الحروف واحدة .

ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ، ولا لونين متشابهين من كل وجه ، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ، ما به يحصل التمييز .

[ إن فى ذلك لآيات للعالمين ] أى : إن هذا دال على كمال قدرته ، ونفوذ مشيئته .

ومن عنايته بعباده ، ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف ، لئلا يقع التشابه ، فيحصل الاضطراب ، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

* أى : سماع تدبر ، وتعقل للمعانى والآيات فى ذلك .

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى ، كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وعلى تمام حكمته ، إذ حكمته ، اقتضت سكون الخلق فى وقت ، ليستريحوا ويستجموا .

وانتشارهم فى وقت ، لمصالحهم الدينية والدنيوية ، ولا يتم ذلك ، إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم ، والمنفرد بذلك ، هو المستحق للعبادة .

* أى : ومن آياته ، أن ينزل عليكم المطر ، الذى تحيا به البلاد والعباد ، ويريكم قبل نزوله ، مقدماته ، من الرعد ، والبرق ، الذى يُخاف ويُطمع فيه .

[ إن فى ذلك لآيات ] دالة على عموم إحسانه ، وسعة علمه ، وكمال إتقانه ، وعظيم حكمته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها .

[ لقوم يعقلون ] أى : لهم عقول ، تعقل بها ماتسمعه ، وتراه ، وتحفظه ، وتستدل به ، عل ما جعل دليلاً عليه .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا
دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* أى : ومن آياته العظيمة ، أن قامت السموات والأرض ، واستقرتا ، وثبتتا بأمره ، فلم تتزلزلا ، ولم تسقط السماء على الأرض .

فقدرته العظيمة ، التى بها أمسك السموات والأرض أن تزولا ، يقدر بها ، على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

[ وله من فى السموات والأرض ] لكل خلقه ومماليكه ، والمتصرف فيهم من غير منازع ، ولا معاون ، ولا معارض ، وكلهم قانتون لجلاله ، خاضعون لكماله .

[ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو ] أى إعادة الخلق بعد موتهم [ أهون عليه ] من ابتداء خلقهم ، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول .

فإذا كان قادراً على الابتداء ، الذى تقرون به ، كانت قدرته على الإعادة ، التى هى أهون ، أولى وأولى .

ولما ذكر من الآيات العظيمة ، مابه يعتبر المعتبرون ، ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ، ذكر الأمر العظيم ، والمطلب الكبير فقال :

[ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ] وهو كل صفة كمال .

وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ

---

والكمال من تلك الصفة ، والمحبة ، والإنابة التامة الكاملة ، فى قلوب عباده المخلصين ، والذكر الجليل ، والعبادة منهم .

فالمثل الأعلى ، هو وصفه الأعلى ، وما ترتب عليه .

ولهذا كان أهل العلم ، يستعملون فى حق البارى ، قياس الأولى ، فيقولون :

كل صفة كمال فى المخلوقات ، فخالقها أحق بالاتصاف بها ، على وجه لا يشاركه فيها أحد .

وكل نقص فى المخلوق ، ينزه عنه ، فتنزيه الخالق عنه ، من باب أولى وأحرى .

[ وهو العزيز ] أى : له العزة الكاملة ، والحكمة الواسعة .

فبعزته أوجد المخلوقات ، وأظهر المأمورات .

وبحكمته ، أتقن ما صنعه ، وأحسن فيها ما شرعه .

* هذا مثل ضربه الله ، لقبح الشرك وتهجينه ، مثلا من أنفسكم ، لا يحتاج إلى حل وترحال ، وإعمال الجمال .

[ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ] أى : هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء ، يشارككم فى رزقكم ، وترون أنكم وهم فيه ، على حد سواء .

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ

[ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ] أى : كالأحرار الشركاء فى الحقيقة ، الذين يخاف من قسمه ، واختصاص كل شىء بماله ؟

ليس الأمر كذلك ، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم ، شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى .

هذا ، ولستم الذين خلقتموهم ، ورزقتموهم ، وهم أيضا ، مماليك مثلكم .

فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكا من خلقه ، وتجعلونه بمنزلته ، وعديلا له فى العبادة ، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم ؟

هذا من أعجب الأشياء ، ومن أدل شىء على سفه من اتخذ شريكا مع الله ، وأن ما اتخذه باطل مضمحل ، ليس مساوياً لله ، ولا له من العبادة شىء .

[ كذلك نفصل الآيات ] بتوضيحها بأمثلتها [ لقوم يعقلون ] الحقائق ويعرفون .

وأما من لا يعقل ، فلو فُصِّلَتْ له الآيات ، وبينت له البينات ، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ، ولا لُبٌّ يعقل به ما توضح .

فأهل العقول والألباب ، هم الذين يساق إليهم الكلام ، ويوجه الخطاب .

وإذا علم من هذا المثال ، أن من اتخذ من دون الله شريكا ، يعبده ويتوكل عليه فى أموره ، ليس معه من الحق شىء ، فما الذى أوجب لهم الإقدام ، على أمر باطل ، توضح بطلانه ، وظهر برهانه ؟ لقد أوجب لهم ذلك ، اتباع الهوى ، فلهذا قال :

يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

---

[ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ] هويت أنفسهم الناقصة ، التى ظهر من نقصها ، ما تعلق به هواها ، أمراً[1] يجزم العقل بفساده ، والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادهم إليه .

[ فمن يهدى من أضل الله ] أى : لا تعجبوا من عدم هدايتهم ، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ، ولا طريق لهداية من أضل الله ، لأنه ليس أحد معارضاً لله ، أو منازعاً له فى ملكه .

[ وما لهم من ناصرين ] ينصرونهم ، حين تحق عليهم كلمة العذاب ، وتنقطع بهم الوصل والأسباب .

* يأمر تعالى بالإخلاص له فى جميع الأحوال ، وإقامة دينه فقال :

[ فأقم وجهك ] أى : انصبه ووجهه [ للدين ] الذى هو الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، بأن تتوجه بقلبك ، وقصدك ، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ونحوها .

وشرائعه الباطنة ، كالمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والإنابة .

والإحسان فى الشرائع الظاهرة والباطنة ، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وخص الله إقامة الوجه ، لأن إقبال الوجه ، تبع لإقبال القلب ، ويترتب على الأمرين ، سعْىُ البدن ، ولهذا قال :

---

( ١ ) قوله « أمر » مفعول به لقوله « هويت أنفسهم » .

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

[ حنيفا ] أي : مقبلا على الله فى ذلك ، معرضاً عما سواه .

وهذا الأمر الذى أمرناك به ، هو [ فطرة الله التى فطر الناس عليها ] ووضع فى عقولهم حسنها ، واستقباح غيرها .

فإن جميع أحكام الشرع ، الظاهرة والباطنة ، قد وضع الله فى قلوب الخلق كلهم . الميل إليها .

فوضع فى قلوبهم ، محبة الحق ، وإيثار الحق ، وهذا حقيقة الفطرة .

ومن خرج عن هذا الأصل ، فلمارض عرض لفطرته ، أفسدها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه » .

[ لا تبديل لخلق الله ] أى : لا أحد يبدل خلق الله ، فيجعل المخلوق على غير الوضع ، الذى وضعه الله .

[ ذلك ] الذى أمرناك به [ الدين القيم ] أى : الطريق المستقيم الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته ، فإن من أقام وجهه للدين حنيفا فإنه سالك الصراط المستقيم ، فى جميع شرائعه وطرقه .

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] فلا يتعرفون الدين القيم ، وإن عرفوه ، لم يسلكوه .

[ منيبين إليه واتقوه ] وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين .

فإن الإنابة ، إنابة القلب ، وانجذاب دواعيه ، لمراضى الله تعالى .

وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

---

ويلزم من ذلك ، عمل البدن ، بمقتضى ما فى القلب ، فشمل ذلك ، العبادات الظاهرة والباطنة .

ولا يتم ذلك ، إلا بترك المعاصى ، الظاهرة والباطنة ، فلذلك قال :

[ واتقوه ] فهذا يشمل فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

وخص من المأمورات الصلاة بقوله [ وأقيموا الصلاة ] لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى ، كما قال تعالى فى سورة العنكبوت « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فهذا إعانتها على التقوى .

ثم قال [ ولذكر الله أكبر ] فهذا حثها على الإنابة .

وخص من المنهيات أصلها ، والذى لا يقبل معه عمل ، وهو الشرك فقال :

[ ولا تكونوا من المشركين ] لكون الشرك مضادا للإنابة ، التى روحها ، الإخلاص من كل وجه .

ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها ، ومقبحا فقال :

[ من الذين فرقوا دينهم ] مع أن الدين واحد ، وهو إخلاص العبادة لله وحده وهؤلاء المشركون ، فرقوه :

منهم من يعبد الأوثان والأصنام .

ومنهم من يعبد الشمس والقمر .

ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ، ومنهم يهود ، ومنهم نصارى .

. . . . . . . . . .

---

ولهذا قال :

[ وكانوا شيعا ] أى : كل فرقة ، تحزبت وتعصبت ، على نصر ما معها ، من الباطل ، ومنابذة غيرهم ومحاربتهم .

[ كل حزب بما لديهم ] من العلوم المخالفة لعلوم الرسل [ فرحون ] به ، يحكمون لأنفسهم ، بأنه الحق ، وأن غيرهم على باطل .

وفى هذا تحذير للمسلمين ، من تشتتهم وتفرقهم فرقا ، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل ، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين ، فى التفرق بل الدين واحد ، والرسول واحد ، والإله واحد .

وأكثر الأمور الدينية ، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة .

والأخوة الإيمانية ، قد عقدها الله وربطها ، أتم ربط .

فما بال ذلك كله ، يُلْغَى ويُبْنَى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية ، أو فروع خلافية ، يضلل بها بعضهم بعضا ، ويتميز بها بعضهم على بعض ؟

فهل هذا إلا من أكبر نزعات الشيطان ، وأعظم مقاصده ، التى كاد بها المسلمين ؟

وهل السعى فى جمع كلمتهم ، وإزالة ما بينهم من الشقاق ، المبنى على ذلك الأصل الباطل ، إلا من أفضل الجهاد فى سبيل الله ، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله ؟

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟

---

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه — والإنابة المأمور بها ، هى الإنابة الاختيارية ، التى تكون فى حالَىِ العسر واليسر ، والسعة والضيق — ذكر الإنابة الاضطرارية ، التى لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه .

فإذا زال عنه الضيق ، نبذها وراء ظهره ، وهذه غير نافعة فقال : [ وإذا مس الناس ضر ] إلى [ يشركون ] .

* [ وإذا مس الناس ضر ] مرض ، أو خوف من هلاك ونحوه .

[ دعوا ربهم منيبين إليه ] ونسوا ما كانوا به يشركون فى تلك الحال ، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله .

[ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ] فشفاهم من مرضهم ، وآمنهم من خوفهم .

[ إذا فريق منهم ] ينقضون تلك الإنابة ، التى صدرت منهم ، ويشركون به من لا أسعدهم ولا أشقى ، ولا أفقرهم ولا أغنى .

وكل هذا ، كفر بما آتاهم الله ، ومَنّ به عليهم ، حيث أنجاهم ، وأنقذهم من الشدة ، وأزال عنهم المشقة .

فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة ، بالشكر والدوام على الإخلاص له ، في جميع الأحوال ؟ .

بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

---

[ أم أنزلنا عليهم سلطانا أى : حجة ظاهرة [ فهو ] أى : ذلك السلطان .

[ يتكلم بما كانوا به يشركون ] ويقول لهم : اثبتوا على شرككم ، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه ، هو الحق ، وما دعتكم الرسل إليه ، باطل .

فهل ذلك السلطان ، موجود عندهم ، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك .

أم البراهين العقلية والسمعية ، والكتب السماوية ، والرسل الكرام ، وسادات الأنام ، قد نهوا أشد النهى عن ذلك ، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه ، وحكموا بفساد عقل ودين ، من ارتكبه ؟ .

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان ، وإنما هو ، أهواء ، النفوس ، ونزغات الشيطان .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

---

* يخبر تعالى ، عن طبيعة أكثر الناس ، فى حالى الرخاء والشدة ، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة ، من صحة ، وغنى ، ونصر ونحو ذلك ، فرحوا بذلك ، فرح بطر ، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله .

[ وإن تصبهم سيئة ] أى : حال تسوؤهم وذلك [ بما قدمت أيديهم ] من المعاصى .

[ إذا هم يقنطون ] ييأسون من زوال ذلك الفقر ، والمرض ، ونحوه .

وهذا جهل منهم وعدم معرفة .

[ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ] .

فالقنوط بعد ماعلم ، أن الخير والشر من الله ، والرزق ، سعته وضيقه ، من تقديره ، ضائع ، ليس له محل .

فلا تنظر أيها العاقل ، لمجرد الأسباب ، بل اجعل نظرك لمسببها ، ولهذا قال :

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ] فهم الذين يعتبرون بيسط الله الرزق لمن يشاء ، وقبضه .

ويعرفون بذلك ، حكمة الله ورحمته ، وجوده ، وجذب القلوب لسؤاله ، فى جميع مطالب الرزق .

﴿ فَئَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ

* أى : فأعط القريب منك ـ على حسب قربه وحاجته ـ حقه الذى أوجبه الشارع ، أو حض عليه ، من النفقة الواجبة ، والصدقة ، والهداية ، والبر ، والسلام ، والإكرام ، والعفو عن زلته ، والمسامحة عن هفوته .

وكذلك ، آت المسكين ، الذي أسكنه الفقر والحاجة ، ما تزيل حاجته ، وتدفع به ضرورته ، من إطعامه ، وسقيه وكسوته .

[ وابن السبيل ] الغريب المنقطع ، فى غير بلد ، الذى هو مظنة شدة الحاجة ، وأنه لا مال معه ، ولا كسب يدبر نفسه به ، فى سفره .

بخلاف الذى فى بلده ، فإنه حتى لو لم يكن له مال ، فإنه لا بد — فى الغالب — أن يكون فى حرفة ، أو صناعة ونحوها تسد حاجته .

ولهذا جعل الله فى الزكاة ، حصة للمسكين ، وابن السبيل .

[ ذلك ] أى : إيتاء ذى القربى والمسكين ، وابن السبيل [ خير للذين يريدون ] بذلك العمل [ وجه الله ] أى : خير غزير ، وثواب كثير ، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة ، والنفع المتعدى ، الذى وافق محله ، المقرون به الإخلاص .

فإن لم يرد به وجه الله ، لم يكن خيراً لِلْمُعْطِي ، وإن كان خيراً ونفعا لِلْمُعْطَى كما قال تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

مفهومها ، أن هذه الأمور خير ، لنفعها المتعدى ، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما .

خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ

---

وقوله [ وأولئك ] الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله [ هم المفلحون ] الفائزون بثواب الله ، الناجون من عقابه .

ولما ذكر العمل ، الذى يقصد به وجهه ، من النفقات ، ذكر العمل الذى يقصد به مقصد دنيوى فقال :

[ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس ] أى : ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم ، وقصدكم بذلك ، أن يربو أى : يزيد فى أموالكم ، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها ، فهذا العمل ، لا يربو أجره عند الله ، لكونه معدوم الشرط ، الذى هو الإخلاص .

ومثل ذلك العمل ، الذى يراد به الزيادة ، فى الجاه والرياء عند الناس ، فهذا كله لا يربو عند الله .

[ وما آتيتم من زكاة ] أى : مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة ، ويطهر أموالكم من البخل بها ، ويزيد فى دفع حاجة الْمُعْطَى .

[ تريدون ] بذلك [ وجه الله فألئك هم المضعفون ] أى : المضاعف لهم الأجر ، الذى تربو نفقاتهم عند الله ، ويربيها الله لهم ، حتى تكون شيئاً كثيراً .

ودل قوله [ وما أتيتم من زكاة ] أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق ، أو مع دَيْنٍ عليه ، لم يقضِه ، ويقدم عليه الصدقة ، أن ذلك ليس

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

---

بزكاة ، يؤجر عليه العبد ، ويرد تصرفه شرعاً ، كما قال تعالى فى الذى يمدح « الذى يؤتى ماله يتزكى » .

فليس مجرد إيتاء المال ، خيراً ، حتى يكون بهذه الصفة ، وهو : أن يكون على وجه ، يتزكى به صاحبه .

* يخبر تعالى أنه وحده ، المنفرد بخلقكم ورزقكم ، وإماتتكم وإحيائكم ، وأنه ليس أحد من الشركاء ، التي يدعوها المشركون ، من يشارك الله فى شيء من هذه الأشياء .

فكيف يشركون ، بمن انفرد بهذه الأمور ، من ليس له تصرف فيها ، بوجه من الوجوه ؟ !

فسبحانه وتعالى ، وتقدس ، وتنزه ، وعلا عن شركهم .

فلا يضره ذلك ، وإنما وباله عليهم .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

أى : استعلن الفساد ، فى البر والبحر ، أى: فساد معايشهم ونقصها ، وحلول الآفات بها .

وفى أنفسهم من الأمراض والوباء ، وغير ذلك .

وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، من الأعمال الفاسدة ، المفسدة ، بطبعها .

هذه المذكورة [ ليذيقهم بعض الذى عملوا ] أى : ليعلموا أنه المجازى على الأعمال ، فعجل لهم نموذجا ، من جزاء أعمالهم فى الدنيا .

[ لعلهم يرجعون ] عن أعمالهم ، التى أثرت لهم من الفساد ، ما أثرت .

فتصلح أحوالهم ، ويستقيم أمرهم .

فسبحان من أنعم ببلائه ، وتفضل بعقوبته ، وإلا ، فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة

* والأمر بالسير فى الأرض ، يدخل فيه السير بالأبدان ، والسير فى القلوب ، للنظر والتأمل ، بعواقب المتقدمين .

[كان أكثرهم مشركين ] تجدون عاقبتهم شر العواقب ، ومآلهم شر مآل .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

عذاب استأصلهم ، وذم ، ولعن من خلق الله يتبعهم ، وخزى متواصل .

فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم ، لئلا يُحْذَى بـكم حذوهم ، فإن عدل الله وحكمته فى كل زمان ومكان .

* أى : أقبل بقلبك ، وتوجه بوجهك ، واسع ببدنك ، لإقامة الدين القيم المستقيم .

فنفذ أوامره ونواهيه ، بجد واجتهاد ، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة .

وبادر زمانك ، وحياتك ، وشبابك ، [ من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ] وهو يوم القيامة ، الذى إذا جاء ، لا يمكن رده ، ولا يرجأ العاملون ، ليستأنفوا العمل ، بل فرغ من الأعمال ، لم يبق إلا جزاء العمال .

[ يومئذ يصدعون ] أى : يتفرقون عن ذلك اليوم ، ويصدرون أشتاتا متفاوتين ، لِيُرَوْا أعمالهم .

[ من كفر ] منهم [ فعليه كفره ] ويعاقب هو بنفسه ، لا تزر وازرة وزر أخرى .

[ ومن عمل صالحاً ] من الحقوق ، التى لله ، والتى للعباد ، الواجبة والمستحبة .

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم

---

[ فلأنفسهم ] لا لغيرهم [ يمهدون ] أى : يهيئون ، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها .

ومع ذلك ، جزاؤهم ليس مقصورا على أعمالهم ، بل يجزيهم الله من فضله الممدود ، وكرمه غير المحدود ، ما لا تبلغه أعمالهم .

وذلك لأنه أحبهم ، وإذا أحب الله عبداً ، صب عليه الإحسان صبا ، وأجزل له العطايا الفاخرة ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة .

وهذا بخلاف الكافرين ، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم ، عاقبهم وعذبهم ، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم ، فلهذا قال : [ إنه لا يحب الكافرين ] .

* أى : ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى ، وأنه الإله المعبود ، والملك المحمود .

[ أن يرسل الرياح ] أمام المطر [ مبشرات ] بإثارتها للسحاب ، ثم جمعها ، فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله .

[ وليذيقكم من رحمته ] فينزل عليكم مطراً ، تحيا به البلاد والعباد ، وتذوقون من رحمته ، ما تعرفون أن رحمته ، هى المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة ، الفاتحة لخزائن الرحمة

مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

---

[ ولتجرى الفلك ] فى البحر [ بأمره ] القدرى [ ولتبتغوا من فضله ] بالتصرف فى معايشكم ومصالحكم .

[ ولعلكم تشكرون ] من سخر لكم الأسباب ، وسير لكم الأمور .

فهذا المقصود من النعم ، أن تقابل بشكر الله تعالى ، ليزيدكم الله منها ، ويبقيها عليكم .

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصى ، فهذه حال من بدّل نعمة الله كفرا ، ومنحته محنة ، وهو معرض لها للزوال ، والانتقال منه إلى غيره .

* أى [ ولقد أرسلنا من قبلك ] فى الأمم السالفين [ رسلا إلى قومهم ] حين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بالحق ، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص ، والتصديق بالحق ، وبطلان ماهم عليه ، من الكفر والضلال .

وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك ، فلم يؤمنوا ، ولم يزولوا عن غيهم .

[ فانتقمنا من الذين أجرموا ] ونصرنا المؤمنين ، أتباع الرسل .

[ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ] أى : أوجبنا ذلك على أنفسنا ،

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ

---

وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به ، فلا بد من وقوعه .

فأنتم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إن بقيتم على تكذيبكم ، حلّت بكم العقوبة ، ونصرناه عليكم .

* يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وتمام نعمته ، أنه [ يرسل الرياح فتثير سحابا ] من الأرض .

[ فيبسطه فى السماء ] أى : يمده ويوسعه [ كيف يشاء ] أى : على أى حالة أرادها من ذلك .

[ ثم يجعله ] أى : ذلك السحاب الواسع [ كسفا ] أى : سحابا ثخينا ، قد طبق بعضه فوق بعض .

[ فترى الودق يخرج من خلاله ] أى : السحاب ، نقطا صغارا متفرقة ، لا تنزل جميعا ، فتفسد ما أتت عليه .

[ فإذا أصاب به ] بذلك المطر [ من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ] يبشر بعضهم بعضا بنزوله ، وذلك لشدة حاجتهم ، واضطرارهم إليه ، فلهذا قال : [ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ] أى : آيسين

إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾

وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ

---

قانطين ، لتأخر وقت مجيئه .

أى : فلما نزل فى تلك الحال ، صار له موقع عظيم عندهم ، وفرح واستبشار .

[ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها ] فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج كريم .

[ إن ذلك ] الذى أحيا الأرض بعد موتها [ لمحيي الموتى ، وهو على كل شىء قدير ] فقدرته تعالى ، لا يتعاصى عليها شىء ، وإن تعاصى على قدر خلقه ، ودق عن أفهامهم ، وحارت فيه عقولهم .

* يخبر تعالى عن حالة الخلق ، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ، ونشر رحمة الله تعالى ، لو أرسلنا على هذا النبات الناشىء عن المطر ، وعلى زروعهم ، ريحا مضرة متلفة ، أو منقصة .

[ فرأوه مصفرا [ قد تداعى إلى التلف [ لظلوا من بعده يكفرون ] .

فينسون النعم الماضية ، ويبادرون إلى الكفر .

وهؤلاء ، لا ينفع فيهم وعظ ولازجر [ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع

إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

---

الصم الدعاء ] وبالأولى [ إذا ولوا مدبرين] فإن الموانع قد توفرت فيهم(١) عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة ، عن سماع الصوت الحسى .

[ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ] لانهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس فيهم قابلية له .

[ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ] فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى ، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم ، المنقادون لأوامرنا ، المسلمون لنا .

لأن معهم الداعى القوى لقبول النصائح والمواعظ ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله ، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله .

---

(١) قوله : « فإن الموانع الخ » تعبير قلق وفيه تعقيد فلو قال « فإن الموانع عن الانقياد والسماع النافع قد توفرت فيهم كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسى » لكان أسس أسلوبا ، وأوضح فهما للقارىء .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن سعة علمه ، وعظيم اقتداره ، وكمال حكمته ، أنه ابتدأ خلق الآدميين من ضعف ، وهو الأطوار الأولى من خلقه ، من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى أن صار حيوانا فى الأرحام ، إلى أن ولد ، وهو فى سن الطفولية ، وهو إذ ذاك فى غاية الضعف ، وعدم القوة والقدرة .

ثم ما زال الله يزيد فى قوته ، شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الشباب ، واستوت قوته ، وكملت قواه ، الظاهرة والباطنة .

ثم انتقل من هذا الطور ، ورجع إلى الضعف ، والشيبة والهرم .

[ يخلق ما يشاء ] بحسب حكمته .

ومن حكمته ، أن يرى العبد ضعفه ، وأن قوته محفوفة بضعفين ، وأنه ليس له من نفسه ، إلا النقص .

ولولا تقوية الله له ، لما وصل إلى قوة وقدرة ، ولو استمرت قوته فى الزيادة ، لطغى ، وبغى ، وعتا .

وليعلم العباد ، كمال قدرة الله ، التى لا تزال مستمرة ، يخلق بها الأشياء ، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ، ولا ضعف ، ولا نقص ، بوجه من الوجوه .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ

---

* يخبر تعالى عن يوم القيامة ، وسرعة مجيئه ، وأنه إذا قامت الساعة .

[ يقسم المجرمون ] بالله أنهم [ ما لبثوا ] فى الدنيا [ إلا ساعة ] .

وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر ، واستقصار لمدة الدنيا .

ولما كان قولهم كذبا لا حقيقة له ، قال تعالى : [ كذلك كانوا يؤفكون ] .

أى : ما زالوا ـ وهم فى الدنيا ـ يؤفكون عن الحقائق ، ويأتفكون الكذب .

ففى الدنيا ، كذّبوا الحق الذى جاء به المرسلون .

وفى الآخرة ، أنكروا الأمر المحسوس ، وهو اللبث الطويل فى الدنيا .

فهذا خلقهم القبيح ، والعبد ، يبعث على ما مات عليه .

[ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ] أى : مَنّ الله عليهم بهما ، وصار وصفا لهم ، العلم بالحق ، والإيمان المستلزم ، إيثار الحق .

وإذا كانوا عالمين بالحق ، مؤثرين له ، لزم أن يكون قولهم مطابقا للواقع ، مناسبا لأحوالهم .

فلهذا قالوا الحق : [ لقد لبثتم فى كتاب الله ] أى : فى قضائه وقدره ،

وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

---

الذى كتبه الله عليكم ، وفى حكمه [ إلى يوم البعث ] أى : عُمْراً ، يتذكر فيه المتذكر ، ويتدبر فيه المتدبر ، ويعتبر فيه المعتبر ، حتى صار البعث ، ووصلتم إلى هذه الحال .

[ فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ] فلذلك أنكرتموه فى الدنيا ، وأنكرتم إقامتكم فى الدنيا وقتا ، تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة .

فلم يزل الجهل شعاركم ، وآثاره من التكذيب ، والخسار دثاركم .

[ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ] فإن كذبوا ، وزعموا أنهم ، ما قامت عليهم الحجة ، أو ما تمكنوا من الإيمان ، ظهر كذبهم ، بشهادة أهل العلم والإيمان ، وشهادة جلودهم ، وأيديهم ، وأرجلهم .

وإن طلبوا الإعذار وأن يردون فلا يعودون ، لما نُهُوا عنه ، لم يُمَكَّنُوا ، فإنه فات وقت الإعذار ، فلا تقبل معذرتهم .

[ ولا هم يستعتبون[١] ] أى لا : يزال عتبهم ، والعتاب عنهم .

---

( ١ ) يستعتبون . أى : لا يطلب منهم إرضاؤه تعالى والرجوع إلى ما يرضيه من التوبة والطاعة ، كما دعوا إليه فى الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٥٨)

---

أى : [ ولقد ضربنا ] لأجل عنايتنا ، ورحمتنا ، ولطفنا ، وحسن تعليمنا .

[ للناس فى هذا القرآن من كل مثل ] تتضح به الحقائق ، وتعرف به الأمور ، وتنقطع به الحجة .

وهذا عام فى الأمثال ، التى يضربها الله ، فى تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة .

وفى الإخبار ، بما سيكون ، وجلاء حقيقته ، حتى كأنه وقع .

ومنه فى هذا الموضع ، ذكر الله تعالى ، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه ، وشدة أسفهم ، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب .

ولكن أبى الظالمون الكافرون ، إلا معاندة الحق الواضح ، ولهذا ، قال :

[ ولئن جئتهم بآية ] أى : أى آية ، تدل على صحة ما جئت به [ ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطولون ] أى : قالوا للحق : إنه باطل .

وهذا من كفرهم وجراءتهم ، وطَبْعِ الله على قلوبهم ، وجهلهم المفرط ، ولهذا قال :

[ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ] فلا يدخلها خير ، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها ، بل ترى الحق باطلا ، والباطل حقاً .

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

---

* [ فاصبر ] على ما أمرت به ، وعلى دعوتهم إلى الله .

ولو رأيت منهم إعراضا ، فلا يصدنك ذلك .

[ إن وعد الله حق ] أى : لاشك فيه، وهذا مما يعين على الصبر ، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع ، بل سيجده كاملا ، هان عليه ما يلقاه من المكاره ، وتيسر عليه كل عسير ، واستقل من عمله كل كثير .

[ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ] أى : قد ضعف إيمانهم ، وقل يقينهم ، فخفت لذلك أحلامهم ، وقل صبرهم .

فإياك أن يستخفك هؤلاء ، فإنك إن تجعلهم منك على بال ، وتحذر منهم ، وإلا ، استخفوك ، وحملوك على عدم الثبات ، على الأوامر والنواهى .

والنفس تساعدهم على هذا ، وتطلب التشبه والموافقة .

وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن ، رزين العقل ، يسهل عليه الصبر .

وكل ضعيف اليقين ، ضعيف العقل خفيفه .

فالأول ، بمنزلة اللب ، والآخر بمنزلة القشور . فالله المستعان .

تم تفسير سورة الروم — ولله الحمد والمنة .

تفسير

# سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

---

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى [ آيات الكتاب الحكيم ] أى : إن آياته محكمة ، صدرت من حكيم خبير .

ومن إحكامها ، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها ، وأبينها ، الدالة على أجل المعانى وأحسنها .

ومن إحكامها ، أنها محفوظة من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، والتحريف .

ومن إحكامها : أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة ، والأمور الغيبية كلها ، مطابقة للواقع ، مطابق لها الواقع ، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية ، ولم يخبر بخلافها ، نبي من الأنبياء ، ولم يأت ، ولن يأت علم محسوس ولا معقول صحيح ، يناقض مادلت عليه .

ومن إحكامها : أنها ما أمرت بشىء ، إلا هو خالص المصلحة ، أو راجحها .

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

ولانهت عن شيء ، إلا وهو خالص المفسدة ، أو راجحها .

وكثيراً مايجمع بين الأمر بالشيء ، مع ذكر حكمته وفائدته ، والنهى عن الشيء ، مع ذكر مضرته .

ومن إحكامها : أنها جمعت بين الترغيب والترهيب ، والوعظ البليغ ، الذى تعتدل به النفوس الخيرة ، وتحتكم ، فتعمل بالحزم .

ومن إحكامها : أنك تجد آياتها المتكررة ، كالقصص ، والأحكام ونحوها ، قد اتفقت كلها وتواطأت ، فليس فيها تناقض ، ولا اختلاف .

فكلما ازداد بها البصير تدبرا ، وأعمل فيها العقل تفكراً ، انبهر عقله ، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ ، وجزم جزما ، لايمترى فيه ، أنه تنزيل من حكيم حميد .

ولكن — مع أنه حكيم — يدعو إلى كل خلق كريم ، وينهى عن كل خلق لئيم .

أكثر الناس محرومون من الاهتداء به ، معرضون عن الإيمان والعمل به ، إلا من وفقه الله تعالى ، وعصمه ، وهم المحسنون فى عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق .

فإنه [ هدى ] لهم ، يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحذرهم من طرق الجحيم .

[ ورحمة ] لهم ، تحصل لهم به ، السعادة فى الدنيا والآخرة ، والخير الكثير ، والثواب الجزيل ، والفرح ، ويندفع عنهم الضلال والشقاء .

ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

---

ثم وصف المحسنين ، بالعلم التام ، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله ، فيتركون معاصيه .

ووصفهم بالعمل ، وخص من العمل ، عملين فاضلين .

[ يقيمون الصلاة ] المشتملة على الإخلاص ، ومناجاة الله تعالى ، والتعبد العام للقلب واللسان ، والجوارح المعينة ، على سائر الأعمال .

[ ويؤتون الزكاة ] التى تزكى صاحبها ؛ من الصفات الرذيلة ، وتنفع أخاه المسلم ، وتسد حاجته ، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال ، فيخرج محبوبه من المال ، لما هو أحب إليه ، وهو طلب مرضاة الله .

[ أولئك ] المحسنون ، الجامعون بين العلم التام ، والعمل [ على هدى ] أى : عظيم ، كما يفيده التنكير .

وذلك الهدي حاصل لهم ، وواصل إليهم [ من ربهم ] الذى لم يزل يربيهم بالنعم ؛ ويدفع عنهم النقم .

وهذا الهدى الذى أوصله إليهم ، من تربيته الخاصة بأوليائه ، وهو أفضل أنواع التربية .

[ وأولئك هم المفلحون ] الذين أدركوا رضا ربهم ، وثوابه الدنيوى والأخروى ، وسلموا من سخطه وعقابه .

وذلك لسلوكهم طريق الفلاح ، الذى لاطريق له غيرها .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن ، المقبلين عليه ، ذكر من أعرض عنه ، ولم يرفع به رأساً ، وأنه عوقب على ذلك ، بأن تعوض عنه كل باطل من القول ، فترك أعلى الأقوال ، وأحسن الحديث ، واستبدل به أسفل قول وأقبحه ، فلذلك قال :

[ ومن الناس ] إلى [ وهو العزيز الحكيم ] .

* أى : [ ومن الناس من ] هو محروم مخذول [ يشترى ] .

أى : يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن فى الشىء .

[ لهو الحديث ] أى : الأحاديث الملهية للقلوب ، الصادّة لها عن أجلّ مطلوب .

فدخل في هذا ، كل كلام محرم ، وكل لغو ، وباطل ، وهذيان من الأقوال المرغبة فى الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، ومن أقوال الرادين على الحق ، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ، ومن غيبة ، ونميمة ، وكذب ، وشتم ، وسب ، ومن غناء ومزامير شيطان ، ومن الماجريات الملهية ، التى لا نفع فيها ، فى دين ولا دنيا .

فهذا الصنف من الناس ، يشترى لهو الحديث ، عن هدى الحديث [ ليضل ] الناس [ عن سبيل الله بغير علم ] أى : بعد ما ضل هو فى فعله ، أضل غيره ، لأن الإضلال ، ناشىء عن الضلال .

وإضلاله فى هذا الحديث ؛ صده عن الحديث النافع ، والعمل النافع ، والحق المبين ، والصراط المستقيم .

مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

ولا يتم له هذا ، حتى يقدح فى الهدى والحق ، الذى جاءت به آيات الله .

[ ويتخذها هزوا ] يسخر بها ، وبمن جاء بها .

فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه ، والقدح فى الحق ، والاستهزاء به وبأهله ، أضل من لاعلم عنده وخدعه بما يوحيه إليه ، من القول الذى لايميزه ذلك الضال ، ولايعرف حقيقته .

[ أولئك لهم عذاب مهين ] بما ضلوا ، واستهزأوا بآيات الله ، وكذبوا الحق الواضح ، ولهذا قال [ وإذا تتلى عليه آياتنا ] ليؤمن بها وينقاد لها .

[ ولى مستكبراً ] أى: أدبر إدبار مستكبر عنها ، رادّ لها ، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه ، بل أدبر عنها [ كأن لم يسمعها ] بل [ كأن فى أذنيه وقراً ] أى : صمما لا تصل إليها الأصوات ؛ فهذا لاحيلة فى هدايته .

[ فبشره ] بشارة تؤثر فى قلبه الحزن والغم ؛ وفى بشرته السوء ؛ والظلمة ؛ والغبرة .

[ بعذاب أليم ] مؤلم لقلبه ؛ ولبدنه ؛ لا يقادر قدره ؛ ولايدرى بعظيم أمره .

فهذه بشارة أهل الشر ، فلا نِعْمَتِ البشارة .

وأما بشارة أهل الخير فقال : [ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ]

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

---

جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان ، والظاهر بالإسلام ، والعمل الصالح .

[ لهم جنات النعيم ] بشارة لهم بما قدموه ، وقِرًى لهم بما أسلفوه .

[ خالدين فيها ] أى ، فى جنات النعيم ، نعيم الروح ، والبدن .

[ وعد الله حقا ] لا يمكن أن يخلف ، ولا يغير ، ولا يتبدل .

[ وهو العزيز الحكيم ] كامل العزة ، كامل الحكمة .

من عزته وحكمته ، أن وفق من وفق ، وخذل من خذل ، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم ، وحكمته .

* يتلو تعالى على عباده ، آثاراً من آثار قدرته ، وبدائع من بدائع حكمته ، ونعما من آثار رحمته ، فقال :

[ خلق السموات ] السبع ، على عظمها ، وسعتها ، وكثافتها ، وارتفاعها الهائل .

[ بغير عمد ترونها ] أى : ليس لها عمد ، ولو كان لها عمد لرؤيت وإنما استقرت واستمسكت ، بقدرة الله تعالى .

[ وألقى فى الأرض رواسى ] أى : جبالا عظيمة ، ركزها فى أرجائها وأنحائها ، لئلا [ تميد بكم ] فلولا الجبال الراسيات ، لمادت الأرض ، ولما استقرت بساكنها .

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ
فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿١١﴾

---

[ وبث فيها من كل دابة ] أى : نشر فى الأرض الواسعة ، من جميع أصناف الدواب ، التى هى مسخرة لبنى آدم ، ولمصالحهم ، ومنافعهم .

ولما بثها فى الأرض ، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به ، فأنزل من السماء ماء مباركا .

[ فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ] المنظر ، نافع مبارك ، فرتعت فيه الدواب المنبثة ، وسكن إليه كل حيوان .

[ هذا ] أى : خلق العالم العلوى والسفلى ، من جماد ، وحيوان ، وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم [ خلق الله ] وحده لاشريك له ، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين .

[ فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ] أى : الذين جعلتموهم له شركاء ، تدعونهم وتعبدونهم ، يلزم على هذا ، أن يكون لهم خلق كخلقه ، ورزق كرزقه .

فإن كان لهم شىء من ذلك ، فأرونيه ، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة .

ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئا من الخلق لها ، لأن جميع المذكورات ، قد أقروا أنها خلق الله وحده ، ولا ثَمَّ شىء يعلم غيرها .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ ﴿١٢﴾

---

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به ، أن تعبد .

ولكن عبادتهم إياها ، عن غير علم وبصيرة ، بل عن جهل وضلال ، ولهذا قال : [ بل الظالمون فى ضلال مبين ] .

أى : جَلِىٍّ واضح حيث عبدوا من لايملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياةولا نشورا،وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور .

* يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل ، لقمان ، بالحكمة ، وهى العلم بالحق ، على وجهه وحكمته ، فهى العلم بالأحكام ، ومعرفة ما فيها ، من الأسرار والإحكام .

فقد يكون الإنسان عالما ، ولا يكون حكيما .

وأما الحكمة ، فهى مستلزمة للعلم ، بل وللعمل ، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة ، أمره أن يشكره على ما أعطاه ، ليبارك له فيه ، وليزيده من فضله ، وأخبره أن شكر الشاكرين ، يعود نفعه عليهم ، وأن من كفر فلم يشكر الله ، عاد وبال ذلك عليه .

[ والله غنى عنه حميد ] فيما يقدره ويقضيه ، على من خالف أمره ] .

فغناه تعالى ، من لوازم ذاته ، وكونه حميداً فى صفات كماله ؛ حميداً فى جميل صنعه ، من لوازم ذاته ، وكل واحد من الوصفين ، صفة كمال ، واجتماع أحدهما إلى الآخر ، زيادة كمال إلى كمال .

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحا؟

والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض مايدل على حكمته، فى وعظه لابنه.

فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال: [ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ].

وقال له قولا يعظه به، والوعظ: الأمر، والنهى، المقرون بالترغيب والترهيب.

فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيّن له السبب فى ذلك فقال:

[ إن الشرك لظلم عظيم ] ووجه كونه ظلما عظيما، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوّى المخلوق من تراب، بمالك الرقاب.

وسوّى الذى لايملك من الأمر شيئاً، بمالك الأمر كله.

وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغنى من جميع الوجوه.

وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم، بالذى ما بالخلق من نعمة فى دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو.

فهل أعظم من هذا الظلم شىء؟؟!

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

---

وهل أعظم ظلما ، ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده ، فذهب بنفسه الشريفة ، فجعلها فى أخس المراتب ؟ !

جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئا ، فظلم نفسه ظلما كبيرا .

ولما أمر بالقيام بحقه ، بترك الشرك الذى من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال :

[ ووصينا الإنسان ] أى : عهدنا إليه ، وجعلناه وصية عنده ، سنسأله عن القيام بها ، وهل حفظها أم لا ؟

فوصيناه [ بوالديه ] وقلنا له : [ اشكر لى ] بالقيام بعبوديتى ، وأداء حقوق ، وأن لاتستعين بنعمى على معصيتى .

[ ولوالديك ] بالإحسان إليهما بالقول اللين ، والكلام اللطيف ، والفعل الجميل ، والتواضع لهما ، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه ، بالقول والفعل .

فوصيناه بهذه الوصية ، وأخبرناه أن [ إلى المصير ] أى : سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك ، وكلفك بهذه الحقوق ، فيسألك :

هل قمت بها ، فيثيبك الثواب الجزيل ؟ أم ضيعتها ، فيعاقبك العقاب الوبيل ؟ .

وذكر السبب الموجب لبر الوالدين فى الأم فقال : [ حملته ، أمه وهنا على وهن ] أى : مشقة على مشقة ، فلا تزال تلاقى المشاق ، من حين يكون نطفة ، من الوحم ، والمرض ، والضعف ، والثقل ، وتغير الحال ، ثم وجع الولادة ، ذلك الوجع الشديد .

وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ

---

[ وفصاله فى عامين ] وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ، ورضاعها .

أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد ، مع شدة الحب ، أن يؤكد على ولده ، ويوصى إليه بتمام الإحسان إليه ؟

[ وإن جاهداك ] أى : اجتهد والداك [ على أن تشرك بى ، ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ] ولاتظن أن هذا داخل فى الإحسان إليهما ، لأن حق الله ، مقدم على حق كل أحد ، و « لا طاعة لمخلوق ، فى معصية الخالق » .

ولم يقل « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فعقهما » .

بل قال : [ فلا تطعهما ] أى : فى الشرك ، وأما برهما ، فاستمر عليه .

ولهذا قال : [ وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ] أى : صحبة إحسان إليهما بالمعروف .

وأما اتباعهما ، وهما بحالة الكفر والمعاصى ، فلا تتبعهما .

[ واتبع سبيل من أناب إلىَّ ] وهم المؤمنون بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، المستسلمون لربهم ، المنيبون إليه .

واتباع سبيلهم ، أن يسلك مسلكهم فى الإنابة إلى الله ، التى هى

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ
إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ

---

انجذاب دواعى القلب وإراداته، إلى الله، ثم يتبعها سعى البدن، فيما يرضى الله، ويقرب منه.

[ ثم إلى مرجعكم ] الطائع والعاصى، والمنيب، وغيره [ فأنبئكم بما كنتم تعملون ]، فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما، ثم أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

[ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ] التى هى أصغر الأشياء وأحقرها.

[ فتكن فى صخرة ] أى فى وسطها [ أو فى السموات أو فى الأرض ].

فى أى : جهة من جهاتهما [ يأت بها الله ] سعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته.

ولهذا قال : [ إن الله لطيف خبير ] أى : لطف فى علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

---

[ يابنى أقم الصلاة ] حثه عليها ، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية .

[ وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر ] وذلك يستلزم العلم بالمعروف ، وذلك يستلزم العلم بالمعروف ،ليأمر به ، والعلم بالمنكر ، لينهى عنه .

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر إلا به ، من الرفق ، والصبر ، وقد صرح به فى قوله [ واصبر على ما أصابك ]ومن كونه فاعلا لما يأمر به ، كافًا لما ينهى عنه .

فتضمن هذا ، تكميل نفسه، بفعل الخير وترك الشر،وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه .

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن فى الأمر والنهى مشقة على النفوس ، أمره بالصبر على ذلك فقال : [ واصبر على ما أصابك إن ذلك ] الذى وعظ به لقمان ابنه [ من عزم الأمور ] أى : من الأمور ، التى يعزم عليها ، ويهتم بها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم .

[ ولا تصعر خدك للناس ] أى : لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك للناس ، تكبُّراً عليهم ، وتعاظما .

[ ولا تمش فى الأرض مرحاً ] أى : بطرا ، فخرا بالنعم ، ناسيا المنعم ، معجبا بنفسك .

[ إن الله لا يحب كل مختال ] فى نفسه وهيئته وتعاظمه [ فخور ] بقوله.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[ واقصد فى مشيك ] أى : امش متواضعاً مستكينا ، لا مَشْىَ البطر والتكبر ، ولا مشى التماوت .

[ واغضض من صوتك ] أدبا مع الناس ومع الله .

[ إن أنكر الأصوات ] أى أفظعها وأبشعها [ لصوت الحمير ] .

فلو كان فى رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة ، لما اختص بذلك الحمار الذى قد علمت خسته وبلادته .

وهذه الوصايا ، التى وصى بها لقمان ابنه ، تجمع أمهات الحكم ، وتستلزم ما لم يذكر منها .

وكل وصية يقرن بها ، ما يدعو إلى فعلها ، إن كانت أمرا ، وإلى تركها ، إن كانت نهياً .

وهذا يدل على ما ذكرنا فى تفسير الحكمة ، أنها العلم بالأحكام ، وحِكَمِها ومناسباتها .

فأمره بأصل الدين ، وهو التوحيد ، ونهاه عن الشرك ، وبيَّن له الموجب لتركه .

وأمره ببر الوالدين ، وبين له السبب الموجب لبرهما ، وأمره بشكره وشكرهما .

ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ، ما لم يأمرا بمعصية ، ومع ذلك ، فلا يعقهما ، بل يحسن إليهما ، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

وأمره بمراقبة الله ، وخوّفه القدوم عليه .

وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر ، إلا أتى بها .

ونهاه عن التكبر ، وأمره بالتواضع ، ونهاه عن البطر والأشر ، والمرح ،

وأمره بالسكون فى الحركات والأصوات ، ونهاه عن ضد ذلك .

وأمره بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر ، كما قال تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا ، أن يكون مخصوصاً بالحكمة ، مشهورا بها .

ولهذا من منة الله على عباده ، أن قص عليهم من حكمته ، ما يكون لهم به أسوة حسنة .

* يمتن تعالى على عباده بنعمه ، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها ؛ وعدم الغفلة عنها فقال :

[ ألم تروا ] أى : تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم ؛ وقلوبكم .

[ أن الله سخر لكم ما فى السموات ] من الشمس والقمر والنجوم ، كلها مسخرات لنفع العباد .

[ وما فى الأرض ] من الحيوانات والأشجار والزروع ، والأنهار

يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ

والمعادن ونحوها كما قال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .

[ وأسبغ عليكم ] أى عمكم وغمركم بوافر [ نعمه ظاهرة وباطنة ] التي نعلم بها ؛ والتى تخفى علينا ، نعم الدنيا ، ونعم الدين ، حصول المنافع ، ودفع المضار .

فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم ؛ بمحبة المنعم والخضوع له ؛ وصرفها فى الاستعانة على طاعته ، وأن لا يستعان بشىء منها على معصيته .

[ و ] لكن مع توالى هذه النعم ؛ فإن [ من الناس من ] لم يشكرها ؛ بل كفرها ؛ وكفر بمن أنعم بها ؛ وجحد الحق الذى أنزل به كتبه؛ وأرسل به رسله .

فجعل [ يجادل فى الله ] أى : يجادل عن الباطل ؛ ليدحض به الحق ؛ ويدفع به ما جاء به الرسول ؛ من الأمر بعبادة الله وحده .

وهذا المجادل يجادل [ بغير علم ] وعلى غير بصيرة .

فليس جداله عن علم ، فيترك وشأنه ، ويسمح له فى الكلام [ولا هدى] يقتدى به بالمهتدين [ ولا كتاب منير ] أى نيِّر مُبَيِّنٍ للحق ، فلا معقول ، ولا منقول ، ولا اقتداء بالمهتدين .

وإنما جداله فى الله ، مبنى على تقليد آباء غير مهتدين ، بل ضالين مضلين .

لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

---

ولهذا قال : [ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ] على أيدى رسله ، فإنه الحق ، وبينت لهم أدلته الظاهرة [ قالوا ] معارضين ذلك :

[ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ] فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد ، كائنا من كان .

قال تعالى فى الرد عليهم وعلى آبائهم : [ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ] .

فاستجاب له آباؤهم ، ومشوا خلفه ، وصاروا من تلاميذ الشيطان ، واستولت عليهم الحيرة .

فهل هذا ، موجب لاتباعهم ومشيهم على طريقتهم ، أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم ، وينادى على ضلالهم ، وضلال من تبعهم .

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم ، محبة لهم ومودة ، وإنما ذلك ، عداوة لهم ومكر لهم ، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه ، الذين تمكن منهم ، وظفر بهم ، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير ، بقبول دعوته .

* [ ومن يسلم وجهه إلى الله ] أى : يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصا له دينه .

[ وهو محسن ] فى ذلك الإسلام بأن كان علمه مشروعا ، قد اتبع فيه الرسول .

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ

---

أو من يسلم وجهه إلى الله ، بفعل جميع العبادات ، وهو محسن فيها ، بأن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

أو ومن يسلم وجهه إلى الله ، بالقيام بحقوقه ، وهو محسن إلى عباد الله ، قائم بحقوقهم .

والمعانى متلازمة ، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظين .

وإلا فكلها منفعة على القيام بجميع شرائع الدين ، على وجه تقبل به وتكمل .

فمن فعل ذلك ، [ فقد استمسك بالعروة الوثقى ] أى : بالعروة التى من تمسك بها ، توثق ونجا ، وسلم من الهلاك ، وفاز بكل خير .

ومن لم يسلم وجهه لله ، أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وإذا لم يستمسك لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار .

[ وإلى الله عاقبة الأمور ] أى : رجوعها ، وموئلها ، ومنتهاها .

فيحكم فى عباده ، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم ، ووصلت إليه عواقبهم ، فليستعدوا لذلك الامر .

[ ومن كفر فلا يحزنك كفره ] لأنك أديت ما عليك ، من الدعوة والبلاغ .

فإذا لم يهتد ، فقد وجب أجرك على الله ، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه ، لأنه لو كان فيه خير ، لهداه الله .

عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى

---

ولا تحزن أيضا ، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة ، ونابذوك المحاربة ، واستمروا على غيهم وكفرهم ، ولا تتحرق عليهم ، بسبب أنهم ما بودروا(١) بالعذاب .

[ إن إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ] من كفرهم وعداوتهم،وسعيهم فى إطفاء نور الله ، وأذى رسله .

[ إن الله عليم بذات الصدور ] التى ما نطق بها الناطقون ، فكيف بما ظهر ، وكان شهادة ؟ ! !

[ نمتعهم قليلا ] فى الدنيا ، ليزداد إثمهم ، ويتوفر عذابهم .

[ ثم نضطرهم ] أى نلجئهم [ إلى عذاب غليظ ] أى انتهى فى عظمه ، وكبره ، وفظاعته ، وألمه ، وشدته .

* [ ولئن سألتهم ] أى : سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق .

[ من خلق السموات والأرض ] لعلموا أن أصنامهم ، ما خلقت شيئا من ذلك [ ليقولن الله ] الذى خلقهما وحده .

[ قل ] لهم ، ملزما لهم ، ومحتجا عليهم بما أقروا به ، على ما أنكروا :

[ الحمد لله ] الذى بيّن النور ، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم .

---

(١) ما بودروا . أى : لم يعجل الله عليهم العذاب .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا
فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ

---

فلو كانوا يعلمون ، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير ، هو الذى يفرد بالعبادة والتوحيد .

[ بل أكثرهم لا يعلمون ] فلذلك أشركوا به غيره ، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه ، على وجه الحيرة والشك ، لا على وجه البصيرة .

ثم ذكر هاتين الآيتين ، نموذجا من سعة أوصاف الله سبحانه، ليدعو عباده إلى معرفته ، ومحبته ، وإخلاص الدين له .

فذكر عموم ملكه ، وأن جميع ما فى السموات والأرض- وهذا شامل لجميع العالم العلوى والسفلى-أنه ملكه ، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية، وأحكامه الأمرية ، وأحكامه الجزائية .

فكلهم عبيد مماليك ، مدبرون مسخرون ، ليس لهم من الملك شىء .

وأنه واسع الغنى ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق .

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » .

وأن أعمال النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، لا تنفع الله شيئا وإنما تنفع عامليها ، والله غنى عنهم ، وعن أعمالهم .

ومن غناه ، أن أغناهم وأقناهم(١) فى دنياهم وأخراهم .

---

(١) أقناه . أى : أعطاه ما يقتنى من القنية والنشب . واقتناه أيضا ، رضّاه . ا هـ . من المختار من الصحاح ، ومثله فى المصباح .

وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدا من جميع الوجوه، فهو حميد فى ذاته، وهو حميد فى صفاته.

فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال.

وجميع ما فعله وخلقه، يحمد عليه، وجميع ما أمر به، ونهى عنه، يحمد عليه.

وجميع ما حكم به فى العباد، وبين العباد، فى هذه الحياة الدنيا، وفى الآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه عز وجل، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتتحير فيه الأفئدة، وتسيح فى معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال:

[ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ] يكتب بها [ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ] مدادا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفنى ذلك المداد، و [ ما نفدت كلمات الله ].

وهذا ليس مبالغة، لا حقيقة له.

بل لما علم تبارك وتعالى، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى، أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة[1] حصلوها، وهى لا تمكن على وجهها، ولكن مالا يدرك كله، لا يترك كله.

(١) منقبة. أى: الشرف والمفخرة. وفى المختار من الصحاح «المنقبة» بون المتربة: ضد المثلبة ( أى العيب ).

. . . . . . . . . . .

---

فنبههم تعالى على بعضها تنبيها تستنير به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه ، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه : « لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

[ وإلا ، فالأمر أجل من ذلك ، وأعظم .

وهذا التمثيل ، من باب تقريب المعنى ، الذى لا يطاق الوصول به إلى الأفهام والأذهان .

وإلا ، فالأشجار ، وإن تضاعفت على ما ذكر ، أضعافا كثيرة ، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة ، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها ، لكونها مخلوقة .

وأما كلام الله تعالى ، فلا يتصور نفاده ، بل دلنا الدليل الشرعى والعقلى ، على أنه لا نفاد له ولا منتهى ، فكل شىء ينتهى إلا البارى وصفاته « وإن إلى ربك المنتهى » .

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته ، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة ، مهما تسلسل الفرض والتقدير ، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية .

وأنه مهما فرض الذهن والعقل ، من الأزمان المتأخرة ، وتسلسل الفرض والتقدير ، وساعد على ذلك من ساعد ، بقلبه ولسانه ، فالله تعالى ، بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية .

والله فى جميع الأوقات ، يحكم ، ويتكلم ، ويقول ، ويفعل كيف أراد ، وإذا أراد ، لا مانع له من شىء ، من أقواله وأفعاله .

. . . . . . . . . . .

---

فإذا تصور العقل ذلك ، عرف أن المثل الذى ضربه الله لكلامه ، ليدرك العباد شيئا منه ، وإلا ، فالأمر أعظم وأجل .

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال :

[ إن الله عزيز حكيم ] أى : له العزة جميعا ، الذى ما فى العالم العلوى والسفلى من القوة ، إلا هى منه ، هو الذى أعطاها للخلق ، فلا حول ولا قوة إلا به .

وبعزته قهر الخلق كلهم ، وتصرف فيهم ، ودبرهم .

وبحكمته خلق الخلق ، وابتدأه بالحكمة ، وجعل غايته ، والمقصود منه ، الحكمة .

وكذلك الأمر والنهى ، وجد بالحكمة ، وكانت غايته المقصودة ، الحكمة ، فهو الحكيم فى خلقه وأمره .

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال :

[ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ] وهذا شىء يحير العقول .

إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم ، بعد تفرقهم فى لمحة واحدة - كخلقه نفسا واحدة .

فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور ، والجزاء على الأعمال ، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته .

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات ، وبصره لجميع المبصرات فقال :

[ إن الله سميع بصير ] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

* وهذ فيه أيضا ، انفراده بالتصرف والتدبير ،وسعة تصرفه بإيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل ، أى : إدخال أحدهما على الآخر ، فإذا دخل أحدهما ، ذهب الآخر .

وتسخيره للشمس والقمر ، يجريان بتدبير ونظام ، لم يختل منذ خلقهما ، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم ،فى دينهم ودنياهم ، ما به يعتبرون وينتفعون .

و [ كل ] منهما [ يجرى إلى أجل مسمى ] إذا جاء ذلك الأجل ،انقطع جريانها ، وتعطّل سلطانهما ، وذلك فى يوم القيامة ، حين تكور الشمس ، ويخسف القمر ، وتنتهى دار الدنيا ، وتبتدىء الدار الآخرة .

[ وأن الله بما تعملون ] من خير وشر [ خبير ] لا يخفى عليه شىء من ذلك ، وسيجازيكم على تلك الأعمال ، بالثواب للمطيعين ، والعقاب للعاصين .

[ ذلك ] الذى بين لكم من عظمته وصفاته ،ما بيّن [بأن الله هو الحق] فى ذاته وفى صفاته ، ودينه حق ، ورسله حق، ووعده حق ، ووعيده حق ، وعبادته هى الحق .

ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

---

[ وأن ما يدعون من دونه الباطل ] فى ذاته وصفاته .
فلولا إيجاد الله له ، لما وجد ، ولولا إمداده ، لمَا بَقِىَ .
فإذا كان باطلا ، كانت عبادته أبطل وأبطل .

[ وأن الله هو العلى ] بذاته ، فوق جميع مخلوقاته ، الذى علت صفاته ، عن أن يقاس بها صفات ، وعلا على الخلق فقهرهم [ الكبير ] الذى له الكبرياء فى ذاته وصفاته ، وله الكبرياء فى قلوب أهل السماء والأرض .

* أى : ألم تر من آثار قدرته ورحمته ، وعنايته بعباده ، أن سخر البحر ، تجرى فيه الفلك ، بأمره القدرى ، ولطفه وإحسانه .

[ ليريكم من آياته ] ففيها الانتفاع والاعتبار .

[ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ] . المنتفعون بالآيات ، كل صبار على الضراء ، شكور على السراء ، صبار على طاعة الله وعن معصيته ، وعلى أقداره ، شكور لله ، على نعمه الدينية والدنيوية .

وذكر تعالى حال الناس ، عند ركوبهم البحر ، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم ، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة فقال :

[ فلما نجاهم إلى البر ] انقسموا فريقين :

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا

---

[ فمنهم ] فريق [ مقتصد ] ، أى : لم يقم بشكر الله على وجه الكمال ، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم .

وفريق كافر بنعمة الله ، جاحد لها ، ولهذا قال : [ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار ] أى غدار ، ومن غدره ، أنه عاهد ربه ، لئن أنجيتنا من البحر وشدته ، لنكونن من الشاكرين .

فغدر هذا الفريق، ولم يف بذلك ، وهو ومع ذلك [ كفور ] بنعم الله.

فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة ، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

* يأمر تعالى الناس بتقواه ، التي هى : امتثال أوامره ، وترك زواجره .

ويستلفتهم لخشية يوم القيامة ، اليوم الشديد ، الذى فيه كل أحد ، لا يهمه إلا نفسه [ واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ] يزيد فى حسناته ولا ينقص من سيئاته ، قد تم على كل عبد ، عمله ، وتحقق عليه جزاؤه .

فلفت النظر لهذا اليوم المهول ، مما يقوى العبد ، ويسهل عليه تقوى الله .

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

---

وهذا من رحمة الله بالعباد ، يأمرهم بتقواه التى فيها سعادتهم ، ويعدهم عليها الثواب ، ويحذرهم من العقاب ، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات . فلك الحمد يارب العالمين .

[ إن وعد الله حق ] فلا تمتروا فيه ، ولا تعملوا عمل غير المصدق ، فلهذا قال :

[ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ] بزينتها وزخارفها ، وما فيها ، من الفتن والمحن .

[ ولا يغرنكم بالله الغرور ] الذى هو الشيطان ، ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه فى جميع الأوقات .

فإن لله على عباده حقا ، وقد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم ، وهل وفوا حقه ، أم قصروا فيه .

وهذا أمر يجب الاهتمام به ، وأن يجعله العبد نصب عينيه ، ورأس مال تجارته ، التى يسعى إليها .

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه ، الدنيا الفتانة ، والشيطان الموسوس المُسَوِّل .

فنهى تعالى عباده ، أن تغرهم الدنيا ، أو يغرهم بالله الغرور « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

---

* قد تقرر أن الله تعالى ، أحاط علمه بالغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية .

وهذه الأمور الخمسة ، من الأمور التى طوى علمها عن جميع الخلق ، فلا يعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، فضلا عن غيرهما ، فقال :

[ إن الله عنده علم الساعة ] أى : يعلم متى مرساها ، كما قال تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها * قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، لا تأتيكم إلا بغتة » الآية .

[ وينزل الغيث ] أى : هو المنفرد بإنزاله ، وعلم وقت نزوله .

[ ويعلم ما فى الأرحام ] فهو الذى أنشأ ما فيها ، وعلم ما هو ، هل هو ذكر أم أنثى .

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله ما يشاء .

[ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ] من كسب دينها ودنياها .

[ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ] بل الله تعالى ، هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء ، عمم علمه بجميع الأشياء فقال :

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

---

[ إن الله عليم خبير ] محيط بالظواهر والبواطن ، والخفايا والخبايا ، والسرائر .

ومن حكمته التامة ، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد ، لأن في ذلك من المصالح ، مالا يخفى على من تدبر ذلك .

تم تفسير سورة لقمان ـ بفضل الله وعونه ، والحمد لله

تفســــير

# سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ

---

* يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم ، تنزيل من رب العالمين ، الذى رباهم بنعمته .

ومن أعظم ما رباهم به ، هذا الكتاب ، الذى فيه كل مايصلح أحوالهم ، ويتمم أخلاقهم .

وأنه لا ريب فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون فى ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه .

وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمى محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الكذب ، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق .

وكل واحد من هذه من الأمور العظائم ، قال الله — راداً على من قال : افتراه : —

[ بل هو الحق ] الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ

---

[ من ربك ] أنزله رحمة للعباد [ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ] أى فى حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، لعدم النذير.

بل هم فى جهلهم يعمهون ، وفى ظلمة ضلالهم يترددون .

فأنزلنا الكتاب عليك [ لعلهم يهتدون ] من ضلالهم ، فيعرفون الحق ويؤثرونه .

وهذه الأشياء التى ذكرها الله كلها ، مناقضة لتكذيبهم له : وإنها تقتضى منهم الإيمان والتصديق التام به ، وهو كونه [ من رب العالمين ] وأنه [ الحق ] .

والحق مقبول على كل حال ، وأنه [ لا ريب فيه ] بوجه من الوجوه .

فليس فيه ، ما يوجب الريبة ، لا بخبر غير مطابق للواقع ، ولا بخفاء واشتباه معانيه .

وأنهم فى ضرورة وحاجة إلى الرسالة ، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان .

* يخبر تعالى عن كمال قدرته بأنه [ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ] أولها ، يوم الأحد ، وآخرها الجمعة ، مع قدرته على خلقها بلحظة ، ولكنه تعالى رفيق حكيم .

[ ثم استوى على العرش ] الذى هو سقف المخلوقات ، استواء يليق بجلاله .

وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ
ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ

---

[ ما لكم من دونه من ولى] يتولاكم ، فى أموركم ، فينفعكم [ولا شفيع] يشفع لكم ، إن توجه عليكم العقاب .

[ أفلا تتذكرون ] فتعلمون أن خالق الأرض والسموات ، المستوى على العرش العظيم ، الذى انفرد بتدبيركم ، وتوليكم ، وله الشفاعة كلها ، هو المستحق لجميع أنواع العبادة .

[ يدبر الأمر ] القدرى والأمر الشرعى ، الجميع هو المتفرد بتدبيره ، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير [من السماء إلى الأرض] فَيُسْعِدُ بها ويُشْقِي ، ويُغْنِي ويُفْقِرُ ، ويُعِزُّ ، ويُذِلُّ ، ويُكرِمُ ، ويُهِينُ ، ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ، ويُنزِّل الأرزاق .

[ ثم يعرج إليه ] أى : الأمر ينزل من عنده ، ويعرج إليه [ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ] وهو يعرج إليه ، ويصله فى لحظة .

[ ذلك ] الذى خلق تلك المخلوقات العظيمة ، الذى استوى على العرش العظيم ، وانفرد بالتدابير فى المملكة [ عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ] .

فبسعة علمه ، وكمال عزته ، وعموم رحمته ، أوجدها ، وأودع فيها ، من المنافع ما أودع ، ولم يعسر عليه تدبيرها .

[ الذى أحسن كل شىء خلقه ] أى : كل مخلوق خلقه الله ، فإن الله أحسن خلقه ، وخلقه خلقا يليق به ، ويوافقه — فهذا عام .

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

---

ثم خص الآدمى لشرفه وفضله فقال .

[ وبدأ خلق الإنسان من طين ] وذلك بخلق آدم عليه السلام ، أبى البشر .

[ ثم جعل نسله ] أى : ذرية آدم ناشئة [ من سلالة من ماء مهين ] وهو النطفة المستقذرة الضعيفة .

[ ثم سواه ] بلحمه ، وأعضائه ، وأعصابه ، وعروقه ، وأحسن خلقته ، ووضع كل عضو منه ، بالمحل الذى لا يليق به غيره .

[ ونفخ فيه من روحه ] بأن أرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، فيعود بإذن الله ، حيوانا ، بعد أن كان جمادا .

[ وجعل لكم السمع والأبصار ] أى : ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً ، حتى أعطاكم السمع والأبصار [ والأفئدة قليلا ما تشكرون ] الذى خلقكم وصوركم .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* أى : قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد : [ أإذا ضللنا فى الأرض ] أى : بَلِينا وتمزقنا ، وتفرقنا فى المواضع التى لا تُعْلَمُ .

[ أإنا لفى خلق جديد ] أى : لمبعوثون بعثا جديداً .

بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء ، وذلك بقياسهم قدرة الخالق ، على قُدَرِهِمْ .

وكلامهم هذا ، ليس لطلب الحقيقة ، وإنما هو ظلم ، وعناد ، وكفر بلقاء ربهم وجحد ، ولهذا قال :

[ بل هم بلقاء ربهم كافرون ] فكلامهم علم مصدره وغايته .

وإلا ، فلو كان قصدهم بيان الحق ، لَبَيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ، ما يجعله مشاهدا للبصيرة ، بمنزلة الشمس للبصر .

ويكفيهم ، علمهم أنهم قد ابْتُدِئُوا من العدم ، فالإعادة أسهل من الابتداء .

وكذلك الأرض الميتة ، ينزل الله عليها المطر ، فتحيا بعد موتها ، وينبت به متفرق بذورها .

[ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ] أى : جعله الله وكيلا على قبض الأرواح ، وله أعوان .

[ ثم إلى ربكم ترجعون ] فيجازيكم بأعمالكم ، وقد أنكرتم البعث ، فانظروا ماذا يفعل الله بكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ

* لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم فى مقامه بين يديه، فقال:

[ ولو ترى إذ المجرمون ] الذين أصروا على الذنوب العظيمة.

[ناكسو رءوسهم عند ربهم] خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: [ ربنا أبصرنا وسمعنا ] أى: بان لنا الأمر، ورأيناه عيانا، فصار عين يقين.

[ فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ] أى: صار عندنا الآن، يقين بما كنا نكذب به.

أى: لرأيت أمراً فظيعا، وحالا مزعجة، أقواما خاسرين، وسؤالا غير مجاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصى، فلهذا قال:

[ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ] أى: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى.

فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال.

[ ولكن حق القول منى ] أى: وجب، وثبت ثبوتا لا تغير فيه.

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

---

[ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ] فهذا الوعد ، لا بد منه ، ولا محيد عنه .

فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصى .

[ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ] أى : يقال للمجرمين ، الذين ملكهم الذل ، وسألوا الرجعة إلى الدنيا ، ليستدركوا ما فاتهم : قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب ، فذوقوا العذاب الأليم ، بما نسيتم لقاء يومكم هذا .

وهذا النسيان نسيان ترك ، أى: بما أعرضتم عنه ، وتركتم العمل له ، وكأنكم غير قادمين عليه ، ولا ملاقيه .

[ إنا نسيناكم ] أى : تركناكم بالعذاب ، جزاء من جنس عملكم ، فكما نَسِيتُمْ نُسِيتُمْ .

[ وذوقوا عذاب الخلد ] أى : العذاب غير المنقطع .

فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية ، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف

وأما عذاب جهنم — أعاذنا الله منه — فليس فيه روح راحة ، ولا انقطاع لعذابهم فيها .

[ بما كنتم تعملون ] من الكفر والفسوق والمعاصى .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

---

* لما ذكر الكافرين بآياته ، وما أعد لهم من العذاب ، ذكر المؤمنون بها ، ووصفهم ، وما أعد لهم من الثواب فقال :

[ إنما يؤمن بآياتنا ] أى : إيماناً حقيقيا ، من يوجد منه شواهد الإيمان .

وهم : [ الذين إذا ذكروا بها ] فتليت عليهم آيات القرآن ، وأتتهم النصائح على أيدى رسل الله ، وَدُعُوا إلى التذكر ، سمعوها فقبلوها ، وانقادوا ، و [ خروا سجدا ] أى : خاضعين لها ، خضوع ذكر لله ، وفرح بمعرفته .

[ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ] لا بقلوبهم ، ولا بأبدانهم ، فيمتنعون من الانقياد لها ، بل متواضعون لها ، قد تلقوها بالقبول ، وقابلوها بالانشراح والتسليم ، وتوصلوا بها ، إلى مرضاة الرب الرحيم ، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

[ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ] أى : ترتفع جنوبهم ، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة ، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم ، وهو : الصلاة فى الليل ، ومناجاة الله تعالى .

ولهذا قال : [ يدعون ربهم ] أى : فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ، ودفع مضارها .

[ خوفا وطمعاً ] أى : جامعين بين الوصفين ، خوفا أن ترد أعمالهم ، وطمعا فى قبولها .

يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

---

خوفا من عذاب الله ، وطمعا فى ثوابه .

[ ومما رزقناهم ] من الرزق ، قليلا أو كثيرا [ ينفقون ] ولم يذكر قيد النفقة ، ولا المنفق عليه ، ليدل على العموم .

فإنه يدخل فيه ، النفقة الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، ونفقة الزوجات والأقارب .

والنفقة المستحبة فى وجوه الخير ، والنفقة والإحسان المالى ، خير مطلقا ، سواء وافق فقيرا ، أو غنيا ، قريبا ، أو بعيدا ، ولكن الأجر يتفاوت ، بتفاوت النفع ، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم ، فقال : [ فلا تعلم نفس ] يدخل فيه جميع نفوس الخلق ، لكونه نكرة فى سياق النفى .

أى : فلا يعلم أحد [ ما أخفى لهم من قرة أعين ] من الخير الكثير ، والنعيم الغزير ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور .

كما قال تعالى على لسان رسوله « أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فكما صلوا فى الليل ، ودعوا ، وأخفوا العمل ، جازاهم من جنس عملهم ، فأخفى أجرهم ، ولهذا قال : [ جزاء بما كانوا يعملون ] .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا

---

* ينبه تعالى ، العقـول على ما تقرر فيها ، من عدم تساوى المتفاوتين المتباينين ، وأن حكمته تقتضى عدم تساويهما فقال :

[ أفمن كان مؤمنا ] قد عمر قلبه الإيمان ، وانقادت جوارحه لشرائعه ، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته ، من ترك مساخط الله ، التي يضر وجودها بالإيمان .

[ كمن كان فاسقا ] قد خرب قلبه ، وتعطل من الإيمان ، فلم يكن فيه وازع دينى ، فأسرعت عنه جوارحه بموجبات الجهل والظلم ، فى كل إثم ومعصية ، وخرج بفسقه عن طاعة ربه .

أفيستوى هذان الشخصان ؟ .

[ لا يستون ] عقلا وشرعا ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء ، والظلمة ، وكذلك لا يستوى ثوابهما فى الآخرة .

[ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] من فروض ونوافل [ فلهم جنات المأوى ] أى : الجنات التى هى مأوى اللذات ، ومعدن الخيرات ، ومحل الأفراح ، ونعيم القلوب ، والنفوس ، والأرواح ، ومحل الخلود ، وجوار الملك المعبود ، والتمتع بقربه ، والنظر إلى وجهه ، وسماع خطابه .

[ نزلا ] لهم أى : ضيافة ، وقِرًى [ بما كانوا يعملون ] .

فأعمالهم التى تفضل الله بها عليهم ، هى التى أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية ، التى لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال ، ولا بالجنود

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

---

والخدم ، ولا بالأولاد ، بل ولا بالنفوس والأرواح ، ولا يتقرب إليها بشيء أصلا ، سوى الإيمان والعمل الصالح .

[ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ] أي : مقرهم ومحل خلودهم ، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء ، ولا يُفَتَّرُ عنهم العقاب ساعة .

[ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ] فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج ، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ ، ردوا إليها ، فذهب عنهم روح ذلك الفرج ، واشتد عليهم الكرب .

[ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ] فهذا عذاب النار ، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم .

وأما العذاب الذي قبل ذلك ، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ ، فقد ذكر بقوله :

[ ولنذيقنهم ] إلى [ يرجعون ] .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢١)

---

* أى : ولنذيقن الفاسقين المكذبين ، نموذجا من العذاب الأدنى ، وهو عذاب البرزخ ، فنذيقهم طرفا منه ، قبل أن يموتوا .

إما بعذاب بالقتل ونحوه ، كما جرى لأهل بدر من المشركين .

وإما عند الموت ، كما فى قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون » ثم يكمل لهم العذاب الأدنى فى برزخهم .

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ، ودلالتها ظاهرة ، فإنه قال :

[ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ] أى : بعض وجزء منه .

فدل على أن ثمّ عذابا أدنى قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب النار .

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى فى الدنيا ، قد لا يتصل بها الموت ، أخبر تعالى ، أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

* أى : لا أحد أظلم ، وأزيد تعديا ، ممن ذكر بآيات ربه ، التى أوصلها إليه ربه، الذى يريد تربيته،وتكميل نعمته على أيدى رسله، تأمره ، وتذكره بمصالحه الدينية والدنيوية ، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية ،التى تقتضى أن يقابلها بالإيمان والتسليم ، والانقياد والشكر .

فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغى ، فلم يؤمن بها ، ولا اتبعها،بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره ، فهذا من أكبر المجرمين ، الذين يستحقون شديد النقمة .

ولهذا قال : [ إنا من المجرمين منتقمون ] .

* لمـا ذكر تعالى ، آياته التى ذكر بها عباده ، وهو : القرآن ، الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكَّر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به ، بغريب من الرسل .

[ ولقد آتينا موسى الكتاب ] الذى هو التوراة المصدقة للقرآن ، والتى قد صدقها القرآن ، فتطابق حقهما ، وثبت برهانهما .

[ فلا تكن فى مرية من لقائه ] لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته ، فلم يبق للشك والمرية ، محل .

[ وجعلناه ] أى : الكتاب الذى آتيناه موسى [ هدى لبنى إسرائيل ]

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

يهتدون به فى أصول دينهم ، وفروعه ، وشرائعه موافقة لذلك الزمان ، فى بنى إسرائيل .

وأما هذا القرآن الكريم ، فجعله الله هداية للناس كلهم ، لأنه هداية للخلق ، فى أمر دينهم ودنياهم ، إلى يوم القيامة ، وذلك لكماله وعلوه « وأنه فى أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حكيم » .

[ وجعلنا منهم ] أى : من بنى إسرائيل [ أئمة يهدون بأمرنا ] .

أى : علماء بالشرع ، وطرق الهداية ، مهتدين فى أنفسهم ، يهدون غيرهم بذلك الهدى .

فالكتاب الذى أنزل إليهم ، هدى ، والمؤمنون به منهم ، على قسمين :

أئمة يهدون بأمر الله ، وأتباع مهتدون بهم .

والقسم الأول ، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة ، وهى درجة الصديقين .

وإنما نالوا هذه الدرجة العالية [ بما صبروا ] على التعلم والتعليم ، والدعوة إلى الله ، والأذى فى سبيله ، وكفوا نفوسهم عن جماحها فى المعاصى ، واسترسالها فى الشهوات .

[ وكانوا بآياتنا يوقنون ] أى : وصلوا فى الإيمان بآيات الله ، إلى درجة اليقين ، وهو العلم التام ، الموجب للعمل .

وإنما وصلوا إلى درجة اليقين ، لأنهم تعلموا تعلما صحيحا ، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين .

يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ

---

فما زالوا يتعلمون المسائل ، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل ، حتى وصلوا لذاك .

فبالصبر واليقين ، تُنَالُ الإمامة فى الدين .

وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل ، منهم من أصاب فيها الحق ، ومنهم من أخطأه خطأ ، أو عمداً ، والله تعالى [ يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانون فيه يختلفون ] وهذا القرآن يقص على بنى إسرائيل ، بعض الذى يختلفون فيه .

فكل خلاف وقع بينهم ، ووجد فى القرآن تصديق لأحد القولين ، فهو الحق ، وما عداه مما خالفه ، باطل .

* يعنى : أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ، ويهدهم إلى الصواب .

[ كم أهلكنا قبلهم من القرون ] الذين سلكوا مسلكهم .

[ يمشون فى مساكنهم ] فيشاهدونها عيانا ، كقوم هود ، وصالح ، وقوم لوط .

[ إن فى ذلك لآيات ] يستدل بها ، على صدق الرسل ، التى جاءتهم ، وبطلان ما هم عليه ، من الشرك والشر ، وعلى أن من فعل مثل فعلهم ، فُعِلَ به ، كما فُعِلَ بأشياعه من قبل .

يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

وعلى أن الله تعالى مجازى العباد، وباعثهم للحشر والتناد.

[أفلا يسمعون] آيات الله، فيعونها، فينتفعون بها.

فلو كان لهم سمع صحيح، وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة، يجزم بها، بالهلاك

[أولم يروا] بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا [أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز] التى لا نبات فيها، فيسوق الله المطر، الذى لم يكن قبل موجودا فيها، فيفرغه فيها، من السحاب، أو من الأنهار.

[فنخرج به زرعا] أى نباتا، مختلف الأنواع [تأكل منه أنعامهم] وهو نبات البهائم [وأنفسهم] وهو طعام الآدميين.

[أفلا يبصرون] تلك المنة، التى أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر، وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم.

ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا فى ذلك، بصر الرجال.

وإنما نظروا إلى ذلك، نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى : يستعجل المجرمون بالعذاب ، الذى وعدوا به على التكذيب ، جهلا منهم ومعاندة .

[ ويقولون متى هذا الفتح ] الذى يفتح بيننا وبينكم ، بتعذيبنا على زعمكم [ إن كنتم صادقين ] فى دعواكم .

[ قل يوم الفتح ] الذى يحصل به عقابكم ، لا تستفيدون به شيئا .

فلو كان إذا حصل ، حصل إمهالكم ، لتستدركوا ما فاتكم ، حين صار الأمر عندكم يقينا ، لكان لذلك وجه .

ولكن إذا جاء يوم الفتح ، انقضى الأمر ، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل إذ [ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ] لأنه صار إيمان ضرورة .

[ ولا هم ينظرون ] أى : يمهلون ، فيؤخر عنهم العذاب ، فيستدركون أمرهم .

[ فأعرض عنهم ] لما وصل خطابهم لك ، وظلمهم إلى حالة الجهل ، واستعجال العذاب .

[ وانتظر ] الأمر الذى يحل بهم ، فإنه لا بد منه ، ولكن له أجل ، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر .

[ إنهم منتظرون ] بك ريب المنون ، ومتربصون بكم دوائر السوء ، والعاقبة للتقوى .

تم تفسير سورة السجدة — بحول الله ومنه

تفسير

# سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

---

أى : يا أيها الذى ، منّ الله عليه بالنبوة ، واختصه بوحيه ، وفضله على سائر الخلق .

أشكر نعمة ربك عليك ، باستعمال تقواه ، التى أنت أولى بها من غيرك ، والتى يجب عليك منها ، أعظم من سواك .

فامتثل أوامره ونواهيه ، وبلغ رسالاته ، وأدّ إلى عباده وحيه ، وابذل النصيحة للخلق .

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد ، ولا يردك عنه راد .

فلا تطع كل كافر ، قد أظهر العداوة لله ولرسوله ، ولا منافق ، قد استبطن التكذيب والكفر ، وأظهر ضده .

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة ، فلا تطعهم فى بعض الأمور ، التى تنقض التقوى ، وتناقضها ، ولا تتبع أهواءهم ، فيضلوك عن الصواب .

وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَـكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

---

[ و ] لكن [ اتبع ما أوحى إليك من ربك ] فإنه هو الهدى والرحمة.

وَارْجُ بذلك ثواب ربك [ إنه كان بما تعملون خبيراً ] يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم ، من الخير والشر .

فإن وقع فى قلبك ، أنك إن لم تطعهم فى أهوائهم المضلة ، حصل عليك منهم ضرر ، أو حصل نقص فى هداية الخلق ، فادفع ذلك عن نفسك ، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره ، وهو التوكل على الله ، بأن تعتمد على ربك ، اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً ، فى سلامتك من شرهم ، وفى إقامة الدين ، الذى أمرت به ، وثق بالله فى حصول ذلك الأمر على أى حال كان .

[ وكفى بالله وكيلا ] توكل إليه الأمور ، فيقوم بها ، وبما هو أصلح للعبد .

وذلك لعلمه بمصالح عبده ، من حيث لا يعلم العبد ، وقدرته على إيصالها إليه ، من حيث لا يقدر عليها العبد ، وأنه أرحم بعبده من نفسه ، ومن والديه ، وأرأف به من كل أحد ، خصوصاً خواص عبيده ، الذين لم يزل يربيهم ببره ، ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة .

خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ، ووعده أن يقوم بها .

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر ، وصعب يتسهل ، وخطوب تهون

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ

---

وكروب تزول ، وأحوال وحوائج تقضى ، وبركات تنزل ، ونقم تدفع وشرور ترفع .

وهناك ترى العبد الضعيف ، الذى يفوض أمره لسيده ، قد قام بأمور ، لا تقوم بها أمة من الناس ، وقد سهل الله عليه ، ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان .

* يعاتب تعالى عباده ، عن التكلم بما لا حقيقة له ، من الأقوال ، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا ، فإن ذلك القول منهم ، كذب وزور ، يترتب عليه منكرات من الشرع .

وهذه قاعدة عامة في التكلم فى كل شىء ، والإخبار بوقوع ووجود ، ما لم يجعله الله تعالى .

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة ، لوقوعها ، وشدة الحاجة إلى بيانها فقال :

[ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ] هذا لا يوجد .

فإياكم أن تقولوا عن أحد : إن له قلبين فى جوفه ، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية .

[ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن ] بأن يقول أحدكم لزوجته « أنت عَلَّى كظهر أمى أو كأمى » ، فما جعلهن الله [ أمهاتكم ] ، أمك من ولدتك ، وصارت أعظم النساء عليك ، حرمة وتحريما .

أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ

وزوجتك أحل النساء لك ، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر ؟

هذا أمر لا يجوز ، كما قال تعالى « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » .

[ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ] والأدعياء ، جمع «دَعِيّ» وهو : الولد الذى كان الرجل يدعيه ، وهو ليس له ، أو يُدْعَى إليه ، بسبب تبنيه إياه ، كما كان الأمر فى الجاهلية ، وأول الإسلام .

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله ، فقدم بين يدى ذلك بيان قبحه ، وأنه باطل وكذب .

وكل باطل وكذب ، لا يوجد فى شرع الله ، ولا يتصف به عباد الله .

يقول تعالى : فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم ، أو يدعون إليكم ، أبناءكم .

فإن أبناءكم فى الحقيقة ، من ولدتموهم ، وكانوا منكم .

وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم ، فلا جعل الله هذا كهذا .

[ ذالكم ] القول ، الذى تقولون فى الدعى : إنه ابن فلان ، الذى ادعاه ، أو والده فلان [ قولكم بأفواهكم ] أي : قول لا حقيقة له ولا معنى له .

[ والله يقول الحق ] أي : اليقين والصدق ، فلذلك أمركم باتباعه ، على قوله وشرعه .

يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

فقوله ، حق ، وشرعه حق ، والأقوال والأفعال الباطلة ، لا تنسب إليه بوجه من الوجوه وليست من هدايته ، لأنه لا يهدى إلا إلى السبيل المستقيمة ، والطرق الصادقة

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته ، فمشيئته عامة ، لكل ما وجد من خير وشر .

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى ، المتضمنة للقول الباطل فقال : [ادعوهم] أى الأدعياء [ لآبائهم ] الذين ولدوهم [ هو أقسط عند الله ] أى : أعدل ، وأقوم ، وأهدى .

[ فإن لم تعلموا آباءهم ] الحقيقيين [ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ] أى : إخوتكم فى دين الله ، ومواليكم فى ذلك ، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة ، والموالاة على ذلك ، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم ، لا يجوز فعلها .

وأما دعاؤهم لآبائهم ، فإن علموا ، دعوا إليهم ، وإن لم يعلموا ، اقتصر على ما يعلم منهم ، وهو أخوة الدين والموالاة .

فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم ، عذر فى دعوتهم إلى من تبناهم ، لأن المحذور لا يزول بذلك .

جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ

---

[ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ] بأن سبق على لسان أحدكم ، دعوته إلى من تبناه ، فهذا غير مؤاخذ به ، أو علم أبوه ظاهراً ، فدعوتموه إليه وهو فى الباطن ، غير أبيه ، فليس فى ذلك حرج ، إذا كان خطأ .

[ ولكن ] يؤاخذكم فى [ ما تعمدت قلوبكم ] من الكلام ، بما لا يجوز .

[ وكان الله غفورا رحيما ] غفر لكم ، ورحمكم ، حيث لم يعاقبكم بما سلف ، وسمح لكم بما أخطأتم به ، ورحمكم حيث بيّن لكم أحكامه ، التى تصلح دينكم ودنياكم ، فله الحمد تعالى .

* يخبر تعالى المؤمنين ، خبرا يعرفون به حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرتبته ، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة فقال :

[ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ] أقرب ما للإنسان ، وأولى ماله نفسه .

فالرسول ، أولى بالمؤمن من نفسه ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، بذل لهم من النصح ، والشفقة ، والرأفة ، ما كان به أرحم الخلق ، وأرأفهم .

فرسول الله ، أعظم الخلق مِنّةً عليهم ، من كل احد ، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على يديه وبسببه .

. . . . . . . . . . .

فلذلك ، وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس ، أو مراد أحد من الناس ، مع مراد الرسول ، أن يقدم مراد الرسول ، وأن لا يعارض قول الرسول ، بقول أحد ، كائنا من كان ، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ويقدموا محبته على الخلق كلهم ، وألا يقولوا حتى يقول ، ولا يتقدموا بين يديه .

وهو صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين ، كما فى قراءة بعض الصحابة ، يربيهم كما يربى الوالد أولاده .

فترتب على هذه الأبوة ، أن كان نساؤه أمهاتهم ، أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام ، لا فى الخلوة والمحرمية ، وكأن هذا مقدمة ، لما سيأتى فى قصة زيد بن حارثة ، الذى كان يُدْعَى قَبْلُ « زيد بن محمد » حتى أنزل الله [ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ] .

فقطع نسبه ، وانتسابه منه .

فأخبر فى هذه الآية ، أن المؤمنين كلهم ، أولاد للرسول ، فلا مزية لأحد عن أحد .

وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة ، فإن النسب الإيمانى لم ينقطع عنه ، فلا يحزن ولا يأسف .

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين ، أنهن لا يحللن لأحد من بعده ، كما صرح بذلك فى قوله : [ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ] .

وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

---

[ وأولو الأرحام ] أى الأقارب ، قربوا أو بعدوا [ بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ] أى : فى حكمه ، فيرث بعضهم بعضا ، ويبر بعضهم بعضا ، فهم أولى من الحلف والنصرة .

والأدعياء الذين كانوا من قبل ، يرثون بهذه الأسباب ، دون ذوى الأرحام .

فقطع تعالى ، التوارث بذلك ، وجعله للأقارب ، لطفا منه وحكمة ، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة ، لحصل من الفساد والشر ، والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث ، شىء كثير .

[ من المؤمنين والمهاجرين ] أى : سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين ، أو غير مهاجرين ، فإن ذوى الأرحام مقدمون فى ذلك .

وهذه الآية حجة على ولاية ذوى الأرحام ، فى جميع الولايات ، كولاية النكاح ، والمال ، وغير ذلك .

[ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ] أى : ليس لهم حق مفروض ، وإنما هو بإرادتكم .

إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعا ، وتعطوهم معروفا منكم ، [ كان ] ذلك الحكم المذكور [ فى الكتاب مسطورا ] أى : قد سطر ، وكتب ، وقدره الله ، فلا بد من نفوذه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ
وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

---

* يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ، ومن أولى العزم — وهم هؤلاء الخمسة المذكورون — خصوصاً ، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد ، على القيام بدين الله والجهاد فى سبيله ، وأن هـذا سبيل ، قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون ، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر الناس بالاقتداء بهم .

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم ، عن هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه ، وصدقوا ؟ فيثيبهم جنات النعيم ؟ أم كفروا ، فيعذبهم العذاب الأليم ؟ قال تعالى : [ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ] .

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، نعمته عليهم ، ويحثهم على شكرها ، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز ، من فوقهم ، وأهل نجد ، من أسفل منهم ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة ، وذلك فى وقعة الخندق .

ومالأتهم طوائف اليهود ، الذين حوالى المدينة ، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة .

إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

---

وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على المدينة ، فحصروا المدينة ، واشتد الأمر ، وبلغت القلوب الحناجر ، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة ، والشدائد الشديدة ، فلم يزل الحصار على المدينة ، مدة طويلة ، والأمر كما وصف الله فى قوله :

[ وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ].

أى : الظنون السيئة ، أن الله لا ينصر دينه ، ولا يتم كلمته .

[ هنالك ابتلى المؤمنون ] بهذه الفتنة العظيمة [ وزلزلوا زلزالا شديدا ] بالخوف والقلق ، والجوع ، ليتبين إيمانهم ، ويزيد إيقانهم .

فظهر — ولله الحمد — من إيمانهم ، وشدة يقينهم ، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين .

وعندما اشتد الكرب ، وتفاقمت الشدائد ، صار إيمانهم عين اليقين .

« فلما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

وهنالك تبين نفاق المنافقين ، وظهر ما كانوا يضمرون قال تعالى :

[ وإذ يقول المنافقون ] إلى [ إلا غروراً ].

۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

---

* وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة ، لا يثبت إيمانه ، وينظر بعقله القاصر ، إلى الحالة الحاضرة ، ويصدق ظنه .

[ وإذ قالت طائفة منهم ] أى : من المنافقين ، بعد ما جزعوا وقلّ صبرهم ، وصاروا أيضا من المخذولين ، فلا صبروا بأنفسهم ، ولا تركوا الناس من شرهم .

فقالت هذه الطائفة : [ يا أهل يثرب ] يريدون « يا أهل المدينة » .

فنادوهم باسم الوطن المنبىء عن التسمية فيه ، إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ، ليس لهما فى قلوبهم قدر ، وأن الذى حملهم على ذلك ، مجرد الخور الطبيعى .

[ يا أهل يثرب لا مقام لكم ] أى : فى موضعكم الذى خرجتم إليه خارج المدينة .

وكانوا عسكروا دون الخندق ، وخارج المدينة [ فارجعوا ] إلى المدينة .

فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد ، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ، ويأمرونهم بترك القتال .

فهذه الطائفة ، شر الطوائف وأضرها .

وطائفة أخرى دونهم ، أصابهم الجبن والجزع ، وأحبوا أن ينخذلوا عن الصفوف

ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ

---

فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة ، وهم الذين قال الله فيهم :[ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة ] أى : عليها الخطر ، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ، ونحن غُيَّبٌ عنها ، فَأْذَنْ لنا نرجع إليها ، فنحرسها ، وهم كذبة فى ذلك .

[ وما هى بعورة ، إن يريدون ] أي : ما قصدهم [ إلا فراراً ] ولكن جعلوا هذا الكلام ، وسيلة وعذرا لهم .

فهؤلاء قل إيمانهم ، وليس لهم ثبوت عند اشتداد المحن .

[ ولو دخلت عليهم ] المدينة [ من أقطارها ] أى : لو دخل الكفار إليها من نواحيها ،واستولوا عليها [ثم] سئل هؤلاء [الفتنة] أى :الانقلاب عن دينهم ، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين [ لأتوها ] أى : لأعطوها مبادرين .

[ وما تلبثوا بها إلا يسيرا ] أى : ليس لهم منعة ولا تَصلُّبٌ على الدين ، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء ، يعطونهم ما طلبوا ، ويوافقونهم على كفرهم ، هذه حالهم .

والحال أنهم [ كانوا عاهدوا الله من قبل ، لا يولون الأدبار ،وكان عهد الله مسئولا ] سيسألهم عن ذلك العهد ، فيجدهم قد نقضوه ، فما ظنهم إذاً ، بربهم ؟

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن
يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

---

[ قل ] لهم — لائما على فرارهم ، ومخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً : [ لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ] فلو كنتم فى بيوتكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعكم .

والأسباب تنفع ، إذا لم يعارضها القضاء والقدر ، فإذا جاء القضاء والقدر ، تلاشى كل سبب ، وبطلت كل وسيلة ، ظنها الإنسان تنجيه .

[ وإذاً ] حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل ، ولتنعموا فى الدنيا فإنكم [ لا تمتعون إلا قليلا ] متاعا ، لا يسوى فراركم ، وترككم أمر الله ، وتفويتكم على أنفسكم ، التمتع الأبدى ، فى النعيم السرمدى .

ثم بين أن الأسباب كلها ، لا تغنى عن العبد شيئاً ، إذا أراده الله بسوء فقال :

[ قل من ذا الذى يعصمكم ] أى : يمنعكم من [ الله إن أراد بكم سوءاً ] أى : شرا .

[ أو أراد بكم رحمة ] فإنه هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذى لا يأتى بالخير إلا هو ، ولا يدفع السوء إلا هو .

[ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ] يتولاهم ، فيجلب لهم المنافع [ ولا نصيرا ] ينصرهم ، فيدفع عنهم المضار .

سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى

---

فَلْيَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها ، الذى نفذت مشيئته ، ومضى قدره ، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ، وَلِيٌّ ولا ناصر .

ثم توعّد تعالى المخذلين المعوقين ، وتهددهم فقال :

[ قد يعلم الله المعوقين منكم ] عن الخروج ، لمن لم يخرجوا [ والقائلين لإخوانهم ] الذين خرجوا [ هلم إلينا ] أى : ارجعوا ، كما تقدم من قولهم « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » .

وهم مع تعويقهم وتخذيلهم [ لا يأتون البأس ] أى : القتال والجهاد ، بأنفسهم [ إلا قليلا ] فهم أشد الناس حرصا على التخلف ، لعدم الداعى لذلك ، من الإيمان والصبر .

ولوجود المقتضى للجبن ، من النفاق ، وعدم الإيمان .

[ أشحة عليكم ] بأبدانهم عند القتال ، وبأموالهم عند النفقة فيه ، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

[ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه ] أى : نظر المغشى عليه [ من الموت ] من شدة الجبن ، الذى خلع قلوبهم ، والقلق الذي أذهلهم ، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون ، من القتال .

يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ
أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ

---

[ فإذا ذهب الخوف ] وصاروا فى حال الأمن والطمأنينة .

[ سلقوكم بألسنة حداد ] أى : خاطبوكم ، وتكلموا معكم ، بكلام حديد ، ودعاوى غير صحيحة .

وحين تسمعهم ، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ، [ أشحة على الخير ] الذى يراد منهم .

وهذا شر ما فى الإنسان ، أن يكون شحيحا بما أمر به ، شحيحا بماله أن ينفقه فى وجهه ، شحيحا فى بدنه أن يجاهد أعداءالله ، أو يدعوإلىسبيل الله ، شحيحا بجاهه ، شحيحا بعلمه ، ونصيحته ، ورأيه .

[ أولئك ] الذين بتلك الحالة [ لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ] بسبب عدم إيمانهم ، [ وكان ذلك على الله يسيرا ] .

وأما المؤمنون ، فقد وقاهم الله ، شح أنفسهم ، ووفقهم لبذل ماأمروا به ، من بذل أبدانهم فى القتال فى سبيله ، وإعلاء كلمته ، وأموالهم ، للنفقة فى طرق الخير ، وجاههم وعلمهم .

[ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ] أى : يظنون أن هؤلاء الأحزاب ، الذين تحزبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه، لميذهبوا حتى يستأصلوهم ، نخاب ظنهم ، وبطل حسبانهم .

ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ

---

[ وإن يأت الأحزاب ] مرة أخرى [ يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أبنائكم ] أى : لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة ، ودَّ هؤلاء المنافقون ، أنهم ليسوا فى المدينة ، ولا فى القرب منها ، وأنهم مع الأعراب فى البادية ، يستخبرون عن أخباركم ، ويسألون عن أنبائكم ، ماذا حصل عليكم ؟

فتباً لهم . وبعدا ، فليسوا ممن يغالى بحضورهم [ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ] فلا تبالوهم ، ولا تأسوا عليهم .

* [ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ] حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة ، وباشر موقف الحرب ، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل . فكيف تشحون بأنفسكم ، عن أمر جاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنفسه فيه ؟!!

فَتَأَسَّوْا به فى هذا الأمر وغيره .

واستدل الأصوليون فى هذه الآية ، على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن الأصل ، أن أمته أسوته فى الأحكام ، إلا ما دل الدليل الشرعى على الاختصاص به .

فالأسوة نوعان : أسوة حسنة ، وأسوة سيئة .

فالأسوة الحسنة ، فى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا

---

فإن المتأسِّى به ، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله ، وهو الصراط المستقيم .

وأما الأسوة بغيره ، إذا خالفه ، فهو الأسوة السيئة ، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسِّى بهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وهذه الأسوة الحسنة ، إنما يسلكها ويوفق لها ، من كان يرجو الله ، واليوم الآخر .

فإن ما معه من الإيمان ، وخوف الله ، ورجاء ثوابه ، وخوف عقابه ، يحثه على التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم .

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ، ذكر حال المؤمنين فقال :

[ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ] الذين تحزبوا ، ونزلوا منازلهم ، وانتهى الخوف .

[ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ] فى قوله « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

[ وصدق الله ورسوله ] ، فإنا رأينا ، ما أخبرنا به [ وما زادهم ] ذلك

وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ

---

الأمر [ إلا إيمانا ] فى قلوبهم [ وتسليما ] فى جوارحهم ، وانقياداً لأمر الله .

ولما ذكر أن المنافقين ، عاهدوا الله ، لا يولون الأدبار ، ونقضوا ذلك العهد ، ذكر وفاء المؤمنين به ، فقال :

[ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله ] أى : وفوا به ، وأتموه ، وأكملوه .

فبذلوا مهجهم فى مرضاته ، وسبّلوا نفوسهم فى طاعته .

[ فمنهم من قضى نحبه ] أى : إرادته ومطلوبه ، وما عليه من الحق ، فقتل فى سبيل الله ، أو مات مؤديا لحقه ، لم ينقصه شيئا .

[ ومنهم من ينتظر ] تكميل ما عليه ، فهو شارع فى قضاء ما عليه ، ووفاء نحبه ولما يكمله ، وهو فى رجاء تكميله ، ساع فى ذلك ، مجد .

[ وما بدلوا تبديلا ] كما بدل غيرهم ، بل لم يزالوا على العهد ، لا يلوون ، ولا يتغيرون .

فهؤلاء ، هم الرجال على الحقيقة ، ومن عداهم ، فصورهم صور رجال ، وأما الصفات ، فقد قصرت عن صفات الرجال .

[ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ] أى : بسبب صدقهم ، فى أقوالهم ،

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

وأحوالهم ، ومعاملتهم مع الله ، واستواء ظاهرهم وباطنهم ، قال الله تعالى :

« هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » الآية .

أى : قدرنا ما قدرنا ، من هذه الفتن والمحن ، والزلازل ، ليتبين الصادق من الكاذب .

فيجزى الله الصادقين بصدقهم [ ويعذب المنافقين ] الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم ، عند حلول الفتن ، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه .

[ إن شاء ] تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم ، فلم يوفقهم .

[ أو يتوب عليهم ] بأن يوفقهم للتوبة والإنابة .

وهذ هو الغالب ، على كرم الكريم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة ، والفضل ، والإحسان فقال :

[ إن الله كان غفورا ] لذنوب المسرفين على أنفسهم ، ولو أكثروا من العصيان ، إذا أتوا بالمتاب .

[ رحيما ] بهم ، حيث وفقهم للتوبة ، ثم قبلها منهم ، وستر عليهم ما اجترحوه .

[ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ] أى : ردهم خائبين ، لم يحصل لهم الأمر الذى كانوا حريصين عليه ، مغتاظين قادرين عليه جازمين ،

كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ

---

بأن لهم الدائرة ، قد غرتهم جموعهم ، وأعجبوا بتحزبهم ، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ .

فأرسل الله عليهم ، ريحا عظيمة ، وهى ريح الصبا ، فزعزعت مراكزهم ، وقوّضت خيامهم ، وكفأت قدورهم وأزعجتهم ، وضربهم الله بالرعب ، فانصرفوا بغيظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

[ وكفى الله المؤمنين القتال ] بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية .

[ وكان الله قويا عزيزا ] لا يغالبه أحد . إلا غُلِبَ ، ولا يستنصره أحد ، إلا غَلَبَ ، ولا يعجزه أمر أراده ، ولا ينفع أهل القوة والعزة ، قوتهم وعزتهم ، إن لم يعنهم الله بقوته وعزته .

[ وأنزل الذين ظاهروهم ] أى عاونوهم [ من أهل الكتاب ] .

أى : من اليهود [ من صاصيهم ] أى : أنزلهم من حصونهم ، نزولا مظفورا بهم ، مجعولين تحت حكم الإسلام .

[ وقذف فى قلوبهم الرعب ] فلم يقووا على القتال ، بل استسلموا وخضعوا وذلوا .

[ فريقا تقتلون ] وهم الرجال المقاتلون [ وتأسرون فريقا ] مَنْ عدام من النساء والصبيان .

وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

---

[ وأورثكم ] أى : غنَّمكم [ أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ] .

أى : أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها .

فمكنكم الله منها ، ومن أهلها ، وخذلهم ، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم .

[ وكان الله على كل شيء قديرا ] لا يعجزه شيء ، ومن قدرته ، قدَّر لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ، فى قرية خارج المدينة ، غير بعيدة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، حين هاجر إلى المدينة ، وادعهم ، وهادنهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير عليهم شيئا .

فلما رأوا يوم الخندق ، الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم ، وقلة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ، وساعد على ذلك ، تدجيل بعض رؤسائهم عليهم ، نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومالأوا المشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقتالهم، فحاصرهم فى حصنهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

---

فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم .

فأتم الله لرسوله والمؤمنين ، المنة ، وأسبغ عليهم النعمة ، وأقرَّ أعينهم ، بخذلان من انخذل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرا .

* لما اجتمع نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغيرة،وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه فى كل وقت ، ولم يزلن فى طلبهن متفقات ، وفى مرادهن متعنتات ، شقَّ ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه ، آلى منهن شهرا .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويُذْهِبَ عنهن كل أمر ينقص أجرهن ، فأمر رسوله أن يخيرهن فقال :

[ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ] أى : ليس لكن فى غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ، وتغضبن لفقدها ، فليس لى فيكن أرب وحاجة ، وأنتن بهذه الحال .

[ فتعالين أمتعكن ] شيئا مما عندى ، من الدنيا [ وأسرحكن ] .

أى : أفارقكن [ سراحا جميلا ] من دون مغاضبة ولا مشاتمة ، بل بسعة صدر ، وانشراح بال ، قبل أن تبلغ الحال إلى مالا ينبغى .

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

---

[ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ] أى : هذه الأشياء مرادكن ، وغاية مقصودكن ، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة ، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ، ويسرها وعسرها ، وقنعتن من رسول الله بما تيسر ، ولم تطلبن منه ما يشق عليه .

[ فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ] رتب الأجر على وصفهن بالإحسان ، لأنه السبب الموجب لذلك ، لا لكونهن زوجات الرسول فإن مجرد ذلك ، لا يكفى ، بل لا يفيد شيئا ، مع عدم الإحسان .

فخيَّرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فاخترن كلهن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، لم يتخلف منهن واحدة ، رضى الله عنهن .

وفى هذا التخيير فوائد عديدة :

منها : الاعتناء برسوله ، والغيرة عليه ، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية .

ومنها : سلامته صلى الله عليه وسلم ، بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى فى حرية نفسه ، إن شاء أعطى، وإن شاء منع «ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له » .

ومنها : تنزيهه عما لو كان فيهن ، من تؤثر الدنيا على الله ورسوله ، والدار الآخرة ، وعن مقارنتها .

ومنها : سلامة زوجاته ، رضى الله عنهن ، عن الإثم ، والتعرض لسخط الله ورسوله .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ

---

فحسم الله بهذا التخيير عنهن ، التسخط على الرسول ، الموجب لسخطه ، المسخط لربه ، الموجب لعقابه .

ومنها : إظهار رفعتهن ، وعلو درجتهن ، وبيان علو هممهن ، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة ، مرادهن ومقصودهن ، دون الدنيا وحطامها .

ومنها : استعدادهن بهذا الاختيار ، للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة ، وأن يَكُنَّ زوجاته فى الدنيا والآخرة .

ومنها : ظهور المناسبة بينه وبينهن ، فإنه أكمل،وأراد الله أن تكون نساؤه ، كاملات مكملات ، طيبات مطيبات « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » .

ومنها : أن هذا التخيير داع ، وموجب للقناعة ، التى يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر ، ويزول عنهن جشع الحرص ، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه ، وهمه وغمه .

ومنها : أن يكون اختيارهن هذا ، سببا لزيادة أجرهن ومضاعفته ، وأن يَكُنَّ بمرتبة ، ليس فيها أحد من النساء ، ولهذا قال : [ يا نساء النبى ] إلى [ رزقاً كريما ] .

*لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ذكر مضاعفة أجرهن ، ومضاعفة وزرهن وإثمهن ، لو جرى منهن ، ليزداد حذرهن ، وشكرهن الله تعالى ، فجعل لمن أتى منهن بفاحشة ظاهرة ، العذاب ضعفين .

مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

---

[ ومن يقنت منكن ] أى : تطيع [ لله ورسوله وتعمل صالحا ] قليلا أو كثيرا .

[ نؤتها أجرها مرتين ] أى : مثل ما نعطى غيرها مرتين [ وأعتدنا لها رزقا كريما ] وهى الجنة .

فقنتن لله ورسوله ، وعملن صالحا ، فعلم بذلك أجرهن .

* يقول تعالى : [ يا نساء النبى ] خطاب لهن كلهن [ لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ] الله ، فإنكن بذلك ، تفقن النساء ، ولا يلحقكن أحد من النساء ، فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها .

فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم فقال : [ فلا تخضعن بالقول ] أى : فى مخاطبة الرجال ، أو بحيث يسمعون فتلِنَّ فى ذلك ، وتتكلمن بكلام رقيق .

[ فيطمع الذى فى قلبه مرض ] أى : مرض شهوة الحرام،فإنه مستعد ، ينتظر أدنى محرك يحركه ، لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ، ليس فيه شهوة لما حرم الله ، فإن ذلك لا تكاد تُمِيلُه ولا تحركه الأسباب ، لصحة قلبه ، وسلامته من المرض .

. . . . . . . . . . .

بخلاف مريض القلب ، الذى لا يتحمل ما يتحمل الصحيح ، ولا يصبر على ما يصبر عليه .

فأدنى سبب يوجد ، ويدعوه إلى الحرام ، يجيب دعوته ، ولا يتعاصى عليه .

فهذا دليل على أن الوسائل ، لها أحكام المقاصد .

فإن الخضوع بالقول ، واللين فيه ، فى الأصل مباح .

ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم ، منع منه .

ولهذا ينبغى للمرأة فى مخاطبة الرجال ، أن لا تَلِينَ لهم القول .

ولما نهاهن عن الخضوع فى القول ، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول ، دفع هذا بقوله : [ وقلن قولا معروفا ] أى : غير غليظ ، ولا جاف كما أنه ليس بِلَيِّنٍ خاضع .

وتأمل كيف قال : [ فلا تخضعن بالقول ] ولم يقل « فلا تَلِنَّ بالقول » وذلك لأن المنهى عنه ، القول اللين ، الذى فيه خضوع المرأة للرجل ، وانكسارها عنده .

والخاضع ، هو الذى يطمع فيه .

بخلاف من تكلم كلاما لينا ، ليس فيه خضوع ، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم ، فإن هذا ، لا يطمع فيه خصمه .

ولهذا مدح الله رسوله باللين فقال : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وقال لموسى وهرون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

ودل قوله [ فيطمع الذى فى قلبه مرضى ] مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم ، والحافظات ، ونهيه عن قربان الزنا ، أنه ينبغى للعبد ، إذا رأى من نفسه هذه الحالة ، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى ، أو يسمع كلام من يهواه ، ويجد دواعى طمعه قد انصرفت إلى الحرام .

فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض .

فَلْيَجْتَهِدْ فى إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية ،ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر،وسؤال الله العصمة والتوفيق،وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به .

[ وقرن فى بيوتكن ] أى : اقررن فيها ، لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ .

[ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ] أى:لاتكثرن الخروج متجملات أو متطيبات ، كعادة أهل الجاهلية الأولى ، الذين لا علم عندهم ولا دين ، فكل هذا دفع للشر وأسبابه .

ولما أمرهن بالتقوى عموماً ، وبجزئيات من التقوى ، نص عليها لحاجة النساء إليها كذلك ، أمرهن بالطاعة ، خصوصا الصلاة والزكاة ، اللتان يحتاجهما ، ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات ، وأجل الطاعات .

وفى الصلاة ، الإخلاص للمعبود ، وفى الزكاة ، الإحسان إلى العبيد .

ثم أمرهن بالطاعة عموما ، فقال : [ وأطعن الله ورسوله ] يدخل فى طاعة الله ورسوله ، كل أمر ، أمِرَا به أمر إيجاب أو استحباب .

[ إنما يريد الله ] بأمركن بماأَمَرَكُنَّ به ، ونهيكن عما نهاكُنَّ عنه .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

---

[ ليذهب عنكم الرجس ] أى : الأذى ، والشر ، والخبث ، يا [ أهل البيت ويطهركم تطهيرا ] حتى تكونوا طاهرين مطهرين .

أى : فاحمدوا ربكم ، واشكروه على هذه الأوامر والنواهى ، التى أخبركم بمصلحتها ، وأنها محض مصلحتكم ، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجا ولا مشقة ، بل لتتزكى نفوسكم ، وتتطهر أخلاقكم ، وتحسن أعمالكم ويعظم بذلك أجركم .

ولما أمرهن بالعمل ، الذى هو فعل وترك ، أمرهن بالعلم ، وبين لهن طريقه فقال :

[ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ] والمراد بآيات الله ، القرآن ، والحكمة : أسراره ، وسنة رسوله .

وأمرهن بذكره ، يشمل ذكر لفظه ، بتلاوته ، وذكر معناه ، بتدبره والتفكر فيه ، واستخراج أحكامه وحكمه ، وذكر العمل به وتأويله .

[ إن الله كان لطيفا خبيرا ] يدرك سرائر الأمور ، وخفايا الصدور ، وخبايا السموات والأرض ، والأعمال التى تبين وتسر .

فلطفه وخبرته ، يقتضى حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال ، ومجازاة الله على تلك الأعمال .

ومن معانى « اللطيف » الذى يسوق عبده إلى الخير ، ويعصمه من

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

---

الشر ، بطرق خفية لا يشعر بها ، ويسوق إليه من الرزق ، مالا يدريه ، ويريه من الأسباب ، التى تكرهها النفوس : ما يكون ذلك طريقا له ، إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المنازل .

* لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعقابهن لو قدر عدم الامتثال ، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء ، ذكر بقية النساء غيرهن .

ولما كان حكمهن وحكم الرجال واحد ، جعل الحكم مشتركا فقال :

[ إن المسلمين والمسلمات ] وهذا فى الشرائع الظاهرة ، إذا كانوا قائمين بها .

[ والمؤمنين والمؤمنات ] وهذا فى الأمور الباطنة ، من عقائد القلب وأعماله .

[ والقانتين ] أى : المطيعين لله ولرسوله [ والقانتات والصادقين ] فى مقالهم وفعالهم [ والصادقات ] .

[ والصابرين ] على الشدائد والمصائب [ والصابرات والخاشعين ] فى جميع أحوالهم ، خصوصا فى عباداتهم ، ولا سيما فى صلواتهم [ والخاشعات ] .

[ والمتصدقين ] فرضا ونفلا [ والمتصدقات والصائمين والصائمات ] شمل ذلك ، الفرض والنفل .

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ

---

[ والحافظين فروجهم ] عن الزنا ومقدماته ، [ والحافظات ] .

[ والذاكرين الله كثيرا ] أى : فى أكثر الأوقات ، خصوصا أوقات الأوراد المقيدة ، كالصباح والمساء ، أو بالصلوات المكتوبات [والذاكرات].

[ أعد الله لهم ] أى : لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة ، والمناقب الجليلة ، التى هى ، ما بين اعتقادات ، وأعمال قلوب ، وأعمال جوارح ، وأقوال لسان ، ونفع متعد وقاصر ، وما بين أفعال الخير ، وترك الشر ، الذى من قام بهن ، فقد قام بالدين كله ، ظاهره وباطنه ، بالإسلام والإيمان والإحسان .

فجازاهم على عملهم [ مغفرة ] لذنوبهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

[ وأجرا عظيما ] لا يقدر قدره ، إلا الذى أعطاه ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

* [ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ] أى : لا ينبغى ولا يليق ، من اتصف بالإيمان ، إلا الإسراع فى مرضاة الله ورسوله ، والهرب من سخط الله ورسوله ، وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما :

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة [إذا قضى الله ورسوله أمرا] من الأمور ،

أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ

---

وحتّما به وألزما به [ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ] أى : الخيار ، هل يفعلو به أم لا ؟

بل يعلم المؤمن والمؤمنة ، أن الرسول أولى به من نفسه .

فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله .

[ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ] أى : بيّناً ، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله ، إلى غيرها ، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم .

فذكر أولا ، السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله ، وهو الإيمان .

ثم ذكر المانع من ذلك ، وهو التخويف بالضلال ، الدال على العقوبة والنكال .

* وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن الله تعالى ، أراد أن يشرع شرعا عاما للمؤمنين ، أن الأدعياء ليسوا فى حكم الأبناء حقيقة ، من جميع الوجوه وأن أزواجهم ، لا جناح على من تبناهم ، فى نكاحهن .

وكان هذا من الأمور المعتادة ، التى لا تكاد تزول إلا بحادث كبير ، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله ، وفعلا ، وإذا أراد الله أمرا ، جعل له سببا .

فكان زيد بن حارثة يدعى « زيد بن محمد » قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار يدعى إليه حتى نزل [ ادعوهم لآبائهم ] فقيل له « زيد ابن حارثة » .

وكانت تحته ، زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد وقع فى قلب الرسول ، لو طلقها زيد ، لتزوّجها .

فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة ، يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى فراقها .

قال الله :

[ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ] أى : بالإسلام [ وأنعمت عليه ] بالعتق والإرشاد ، والتعليم ، حين جاءك مشاورا فى فراقها :

فقلت له ـ ناصحا له ومخبرا بمصلحته ، مقدما لها على رغبتك ، مع وقوعها فى قلبك :

[ أمسك عليك زوجك ] أى : لا تفارقها ، واصبر على ما جاءك منها

[ واتق الله ] تعالى فى أمورك عامة ، وفى أمر زوجك خاصة فإن التقوى ، تحث على الصبر ، وتأمر به .

[ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ] والذى أخفاه ، أنه لو طلقها زيد ، لتزوجها صلى الله عليه وسلم .

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

---

[ وتخشى الناس ] فى عدم إبداء ما فى نفسك [ والله أحق أن تخشاه ] .

فإن خشيته ، جالبة لكل خير ، مانعة من كل شر .

[ فلما قضى زيد منها وطرا ] أى : طابت نفسه ، ورغب عنها ، وفارقها .

[ زوجنا كها ] وإنما فعلنا ذلك ، لفائدة عظيمة ، وهى :

[ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ] حيث رأوك تزوجت ، زوج زيد بن حارثة ، الذى كان من قبل ، ينتسب إليك .

ولما كان قوله [ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ] عاما فى جميع الأحوال ، وكان من الأحوال ، مالا يجوز ذلك ، وهى قبل انقضاء وطره منها ، قيد ذلك بقوله : [ إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ] أى : لابد من فعله ، ولا عائق له ولا مانع .

وفى هذه الآيات المشتملات على هذه القصة ، فوائد :

منها : الثناء على زيد ابن حارثة ، وذلك من وجهين :

أحدها : أن الله سماه فى القرآن ، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره .

والثانى : أن الله أخبر أنه أنعم عليه ، أى : بنعمة الإسلام والإيمان .

وهذه شهادة من الله له ، أنه مسلم مؤمن ، ظاهرا وباطنا ، وإلا ، فلا وجه

. . . . . . . . . . .

لتخصيصه بالنعمة ، إلا أن المراد بها ، النعمة الخاصة .

ومنها : أن الْمُعتَق فى نعمة الْمُعْتِق .

ومنها : جواز تزوج زوجة الدَّعِىّ ، كما صرح به .

ومنها : أن التعليم الفعلى ، أبلغ من القولى ، خصوصا ، إذا اقترن بالقول ، فإن ذلك ، نور على نور .

ومنها : أن المحبة فى قلب العبد ، لغير زوجته ومملوكته ، ومحارمه ، إذا لم يقترن بها محذور ، لا يأثم عليها العبد ، ولو اقترن بذلك أمنيته ، أن لو طلقها زوجها ، لتزوجها من غير أن يسعى فى فرقة بينهما ، أو يتسبب بأى سبب كان .

لأن الله أخبر ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه أخفى ذلك فى نفسه .

ومنها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ البلاغ المبين ، فلم يدع شيئا مما أوحى إليه ، إلا وبلغه ، حتى هذا الأمر ، الذى فيه عتابه .

وهذا يدل ، على أنه رسول الله ، ولا يقول إلا ما أوحى إليه ، ولا يريد تعظيم نفسه .

ومنها : أن المستشار مؤتمن ، يجب عليه — إذا استشير فى أمر من الأمور — أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ، ولو لم يكن للمستشار حظ نفس ، بتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه .

ومنها : أن الرأى الحسن لمن استشار فى فراق زوجة أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال ، فهو أحسن من الفرقة .

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

---

ومنها : أنه يتعين ، أن يقدم العبد خشية الله ، على خشية الناس ، وأنها أحق منها وأولى .

ومنها : فضيلة أم المؤمنين ، زينب رضى الله عنها ، حيث تولى الله تزويجها ، من رسوله صلى الله عليه وسلم ، دون خطبة ولاشهود ، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

ومنها : أن المرأة ، إذا كانت ذات زوج ، لايجوز نكاحها ، ولا السعى فيه وفى أسبابه ، حتى يقضى زوجها وطره منها ، ولا يقضى وطره ، حتى تنقضى عدتها ، لأنها قبل انقضاء عدتها ، هى فى عصمته ، أو فى حقه الذى له وطر إليها ، ولو من بعض الوجوه .

* هذا دفع لطعن من طعن فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كثرة أزواجه ، وأنه طعن ، بما لا مطعن فيه فقال : [ ما كان على النبى من حرج ] أى : إثم وذنب .

[ فيما فرض الله له ] أى : قدر له من الزوجات ، فإن هذا ، قد أباحه الله له ، كما أباحه للأنبياء قبله ، ولهذا قال : [ سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدوراً ] أى : لا بد من وقوعه .

ثم ذكر من هم الذين قد خلوا من قبل ، وهذه سنتهم وعادتهم ، وأنهم .

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾
مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن

---

[ الذين يبلغون رسالات الله ] فيتلون على العباد آيات الله ، وحججه وبراهينه ، ويدعونهم إلى الله [ ويخشونه ]وحده لاشريك له [ولا يخشون أحداً ] إلا الله .

فإذا كان هذا ، سنة فى الأنبياء المعصومين ، الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها ، أتم القيام ، وهو : دعوة الخلق إلى الله ، والخشية منه وحده التى تقتضى فعل كل مأمور ، وترك كل محظور .

[ وكفى بالله حسيبا ] محاسبا عباده ، مراقبا أعمالهم .

وعلم من هذا ، أن النكاح ، من سنن المرسلين .

* أى : [ ما كان ] الرسول [ محمد ] صلى الله عليه وسلم [ أبا أحد من رجالكم ] أيها الأمة .

فقطع انتساب زيد بن حارثة منه ، من هذا الباب .

ولما كان هذا النفى عاما فى جميع الأحوال ، إن ظاهر اللفظ على ظاهره ، أى : أى لا أبوة نسب ، ولا أبوة ادعاء ، وكان قد تقرر فيما تقدم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين كلهم ، وأزواجه أمهاتهم احترز أن يدخل هذا النوع ، بعموم النهى المذكور فقال :

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ

---

[ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ] أى : هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع ، المهتدى به ، المؤمن له الذى يجب تقديم محبته ، على محبة كل كل أحد ، الناصح الذى لهم ، أى : للمؤمنين ، من بره ونصحه ، كأنه أب لهم .

[ وكان الله بكل شىء عليما ] أى : قد أحاط علمه بجميع الأشياء ، ويعلم حيث يجعل رسالاته ، ومن يصلح لفضله ، ومن لا يصلح .

* يأمر تعالى المؤمنين ، بذكره ذكرا كثيراً ، من تهليل ، وتحميد ، وتسبيح ، وتكبير وغير ذلك ، من كل قول فيه قربة إلى الله .

وأقل ذلك ، أن يلازم الإنسان ، أوراد الصباح ، والمساء ، وأدبار الصلوات الخمس ، وعند العوارض والأسباب .

وينبغى مداومة ذلك ، فى جميع الأوقات ، على جميع الأحوال .

فإن ذلك ، عبادة يسبق بها العامل ، وهو مستريح ، وداع إلى محبة الله ومعرفته ، وعون على الخير ، وكف اللسان عن الكلام القبيح .

[ وسبحوه بكرة وأصيلا ] أى : أول النهار وآخره ، لفضلهما ، وشرفهما ، وسهولة العمل فيهما .

[ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور

وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

---

وكان بالمؤمنين رحيما ] .

أى : من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم ، أن جعل من صلاته عليهم ، وثنائه ، وصلاة ملائكته ودعائهم ، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل ، إلى نور الإيمان ، والتوفيق ، والعلم ، والعمل .

فهذه أعظم نعمة ، أنعم بها على العباد الطائعين ، تستدعى منهم شكرها ، والإكثار من ذكر الله ، الذى لطف بهم ورحمهم .

وجعل حملة عرشه ، أفضل الملائكة ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك . وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك الفوز العظيم » .

فهذه رحمته ونعمته عليهم فى الدنيا .

وأما رحمته بهم فى الآخرة ، فأجل رحمة ، وأفضل ثواب ، وهو الفوز برضا ربهم ، وتحيته ، واستماع كلامه الجليل ، ورؤية وجهه الجميل ، وحصول الأجر الكبير ، الذى لا يدريه ولا يعرف كنهه ، إلا من أعطاهم إياه ، ولهذا قال : [ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريماً ] .

## يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

* هذه الأشياء ، التى وصف بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، هى المقصود من رسالته ، وزبدتها وأصولها ، التى اختص بها وهى خمسة أشياء :

أحدها كونه [ شاهدا ] أى : شاهدا على أمته بما عملوه ، من خير وشر ، كما قال تعالى « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا * وجئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

فهو صلى الله عليه وسلم شاهد عدل مقبول .

الثانى ، والثالث : كونه [ مبشراً ونذيراً ] وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر ، وما يبشر به وينذر ، والأعمال الموجبة لذلك .

فالمبشَّرون : المؤمنون المتقون ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وترك المعاصى .

لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، بكل ثواب دنيوى ودينى ، رتب على الإيمان والتقوى .

وفى الأخرى بالنعيم المقيم .

وذلك كله يستلزم ، ذكر تفصيل المذكور ، من تفاصيل الأعمال ، وخصال التقوى ، وأنواع الثواب .

والمُنْذَرون ، هم : المجرمون الظالمون ، أهل الظلم والجهل .

لهم النذارة فى الدنيا ، من العقوبات الدنيوية والدينية ، المترتبة على الجهل والظلم .

وفى الأخرى ، بالعقاب الوبيل ، والعذاب الطويل .

وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ

---

وهذه الجملة تفصيلها ، ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، من الكتاب والسنة ، المشتمل على ذلك .

الرابع : كونه [داعيا إلى الله] أى : أرسله الله ، يدعو الخلق إلى ربهم ، ويشوقهم لكرامته ، ويأمرهم بعبادته ، التى خلقوا لها .

وذلك يستلزم استقامته ، على ما يدعو إليه ، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه ، بتعريفهم لربهم ، بصفاته المقدسة ، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله ، وذكر أنواع العبودية ، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وإخلاص الدعوة إلى الله ، لا إلى نفسه وتعظيمها ، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس فى هذا المقام .

وذلك كله [ بإذنه ] تعالى له فى الدعوة وأمره وإرادته وقدره .

الخامس : كونه [ سراجاً منيراً ] ، وذلك يقتضى أن الخلق فى ظلمة عظيمة ، لا نور ، يهتدى به فى ظلماتها ، ولا علم ، يستدل به فى جهالتها .

حتى جاء الله بهذا النبى الكريم ، فأضاء الله به تلك الظلمات ، وعلم به من الجهالات ، وهدى به ضُلَّالاً إلى الصراط المستقيم .

فأصبح أهل الاستقامة ، قد وضح لهم الطريق ، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، واستناروا به ، لمعرفة معبودهم ، وعرفوه بأوصافه الحميدة ، وأفعاله السديدة ، وأحكامه الرشيدة .

وقوله [ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ] ذكر فى هذه

الجملة ، المبشَّرين ، وهم المؤمنون ، وعند ذكر الإيمان بمفرده ، تدخل فيه الأعمال الصالحة .

وذكر المبشَّر به ، وهو الفضل الكبير ، أى : العظيم الجليل ، الذى لا يقادر قدره ، من النصر فى الدنيا ، وهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وكشف الكروب ، وكثرة الأرزاق الدَّارَّة ، وحصول النعم السارة ، والفوز برضا ربهم وثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا مما ينشط العاملين ، أن يذكر لهم ، من ثواب الله على أعمالهم ، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم .

وهذا من جملة حكم المشرع ، كما أن من حكمه ، أن يذكر فى مقام الترهيب ، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه ، ليكون عوناً على الكف ، عما حرم الله .

ولما كان ثَمَّ طائفة من الناس ، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله ، من الرسل وأتباعهم ، وهم المنافقون ، الذين أظهروا الموافقة فى الإيمان ، وهم كفرة فجرة فى الباطن ، والكفار ظاهرا وباطناً ، نهى الله رسوله عن طاعتهم ، وحذره ذلك فقال :

[ ولا تطع الكافرين والمنافقين ] أى : فى كل أمر يصدعن سبيل الله.

ولكن لا يقتضى هذا أذاهم ، بل لا تطعهم [ ودع أذاهم ] فإن ذلك ، جالب لهم ، وداع إلى قبول الإسلام ، وإلى كف كثير من أذيتهم له ، ولأهله .

[ وتوكل على الله ] فى إتمام أمرك ، وخذلان عدوك .

وَكِيلاً ﴿٤٨﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ

---

[ وكفى بالله وكيلا ] تُوكَلُ إليه الأمور المهمة ، فيقوم بها ، ويسهلها على عبده .

* يخبر تعالى المؤمنين ، أنهم إذا نكحوا المؤمنات ، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن ، فليس عليهن فى ذلك ، عدة تعتدها أزواجهن عليهن .

وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة ، بشىء من متاع الدنيا ، الذى يكون فيه جبر لخواطرهن ، لأجل فراقهن ، وأن يفارقوهن فراقاً جميلا ، من غير مخاصمة ، ولا مشاتمة ، ولا مطالبة ، ولا غير ذلك .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الطلاق ، لا يكون إلا بعد النكاح .

فلو طلقها قبل أن ينكحها ، أو علق طلاقها على نكاحها ، لم يقع ، لقوله : [ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ] فجعل الطلاق بعد النكاح .

فدل على أنه قبل ذلك ، لا محل له .

وإذا كان الطلاق الذى هو فرقة تامة ، وتحريم تام ، لا يقع قبل النكاح ، فالتحريم الناقص ، لظهار ، أو إيلاء ونحوه ، من باب أولى وأحرى ، أن لا يقع قبل النكاح ، كما هو أصح قَوْلِىَ العلماء .

وعلى جواز الطلاق ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، على وجه لم يلمهم عليه ، ولم يؤنبهم ، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين .

تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ

---

وعلى جوازه قبل المسيس ، كما قال فى الآية الأخرى « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء من قبل أن تمسوهن » .

وعلى أن المطلقة قبل الدخول ، لا عدة لها ، بل بمجرد طلاقها ، يجوز لها التزوج ، حيث لا مانع .

وعلى أن عليها العدة ، بعد الدخول .

وهل المراد بالدخول والمسيس ، الوطء كما هو مجمع عليه ؟

أو ، وكذلك الخلوة ، ولو لم يحصل معها وطء ، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون ، وهو الصحيح .

فمتى دخل عليها ، وطئها ، أم لا ، إذا خلا بها ، وجب عليها العدة .

وعلى أن المطلقة قبل المسيس ، تمتع على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره .

ولكن هذا ، إذا لم يفرض لها مهر ، فإن كان لها مهر مفروض ، فإنه إذا طلق قبل الدخول ، تَنَصَّف المهر ، وكفى عن المتعة .

وعلى أنه ينبغى لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده ، أن يكون الفراق جميلا ، يحمد فيه كل منهما الآخر .

ولا يكون غير جميل ، فإن فى ذلك ، من الشر المترتب عليه ، من قدح كل منهما بالآخر ، شىء كثير .

وعلى أن العدة حق للزوج .

إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَـكَتْ يَمِينُكَ مِمَّـآ أَفَـآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً

---

فقوله [ فما لـكم عليهن من عدة ] دل مفهومه ، أن لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة .

وعلى أن المفارقة بالوفاة ، تعتد مطلقا ، لقوله [ ثم طلقتموهن ] الآية .

وعلى أن من عدا غير المدخول بها ، من المفارقات من الزوجات ، بموت أو حياة ، عليهن العدة .

* يقول تعالى ، ممتنا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك فيه ، هو والمؤمنون ، وما ينفرد به ، ويختص : [ يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ] أى : أعطيتهن مهورهن ، من الزوجات .

وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين ، فإن المؤمنين كذلك ، يباح لهم من آتوهن أجورهن ، من الأزواج .

[ و ] كذلك أحللنا لك [ ما ملـكت يمينك ] أى الإماء التى ملـكت [ مما أفاء الله عليك ] من غنيمة الـكفار من عبيدهم ، والأحرار من لهن زوج منهم ، ومن لا زوج لهن ، وهذا أيضا مشترك .

وكذلك من المشترك ، قوله [ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ] شمل العم والعمة ، والخال والخالة ، القريبين والبعدين ، وهذا حصر المحللات .

إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ

---

يؤخذ من مفهومه ، أن ما عداهن من الأقارب ، غير محلل ، كما تقدم فى سورة النساء .

فإنه لا يباح من الأقارب من النساء ، غير هؤلاء الأربع ، وما عداهن من الفروع مطلقا ، والأصول مطلقا ، إلا فروع الأب والأم ، وإن نزلوا ، وفروع من فوقهم لصلبه ، فإنه لا يباح .

وقوله [ اللاتى هاجرن ] قيد لحل هؤلاء للرسول ، كما هو الصواب من القولين ، فى تفسير هذه الآية .

وأما غيره عليه الصلاة والسلام ، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة .

[ و ] أحللنا لك [ امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ] بمجرد هبتها نفسها .

[ إن أراد النبى أن يستنكحها ] أى : هذا تحت الإرادة والرغبة .

[ خالصة لك من دون المؤمنين ] يعنى : إباحة الموهوبة .

وأما المؤمنون ، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة ، بمجرد هبتها نفسها لهم .

[ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم ] أى : قد علمنا ما على المؤمنين ، وما يحل لهم ، وما لا يحل ، من الزوجات وملك اليمين .

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ

---

وقد أعلمناهم بذلك ، وبينا فرائضه .

فما فى هذه الآية ، مما يخالف ذلك ، فإنه خاص ، لكون الله جعله خطابا للرسول وحده بقوله [ يا أيها النبى إنا أحللنا لك ] إلى آخر الآية .

وقوله [ خالصة لك من دون المؤمنين ] أى : وأبحنا لك يا أيها النبى ما لم نبح لهم ، ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك .

[ لكيلا يكون عليك حرج ] وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم .

[ وكان الله غفوراً رحيما ] أى : لم يزل متصفا بالمغفرة والرحمة ، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته ، وجوده وإحسانه ، مااقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه .

* وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به ، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته ، على وجه الوجوب ، وأنه إن فعل ذلك ، فهو تبرع منه.

ومع ذلك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد فى القسم بينهن فى كل شىء ، ويقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك » .

فقال هنا : [ ترجى من تشاء منهن ] أى : تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك ، ولا تبيت عندها .

[ وتؤوى إليك من تشاء ] أى : تضمها وتبيت عندها .

وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾

---

[ و ] مع ذلك لا يتعين هذا الأمر [من ابتغيت ] أى : أن تؤويها [ ممن عزلت فلا جناح عليك ] .

والمعنى أن الخيرة بيدك فى ذلك كله .

وقال كثير من المفسرين : إن هذا خاص بالواهبات ، له أن يرجى من يشاء ، ويؤوى من يشاء .

أى : إن شاء قبل من وهبت نفسها له ، وإن شاء لم يقبلها ،والله أعلم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال [ ذلك ] أى : التوسعة عليك ، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك ، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك [ أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ] لعلمهن أنك لم تترك واجباً ، ولم تفرط فى حق لازم .

[ والله يعلم ما فى قلوبكم ] أى : ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة ، وعند المزاحمة فى الحقوق ، فلذلك شرع لك التوسعة يارسول الله ، لتطمئن قلوب زوجاتك .

[ وكان الله عليما حكيما ] أى : واسع العلم ، كثير الحلم .

ومن علمه ، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم ، وأكثر لأجوركم .

ومن حلمه ، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم ، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر .

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ

---

* وهذا شكر من الله ، الذى لم يزل شكوراً ، لزوجات رسوله ، رضى الله عنهن ، حيث اخترن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، أن رحمهن ، وقصر رسوله عليهن فقال :

[ لا يحل لك النساء من بعد ] زوجاتك الموجودات [ ولا أن تبدل بهن من أزواج ] أى : ولا أن تطلق بعضهن ، فتأخذ بدلها .

فحصل بهذا ، أمنهن من الضرائر ، ومن الطلاق ، لأن الله قضى أنهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، لا يكون بينه وبينهن فرقة .

[ ولو أعجبك حسنهن ] أى : حسن غيرهن ، فلا يحللن لك [ إلا ما ملكت يمينك ] أى السرارى ، فذلك جائز لك ، لأن المملوكات ، فى كراهة الزوجات ، لسن بمنزلة الزوجات ، فى الإضرار للزوجات .

[ وكان الله على كل شىء رقيباً ] أى : مراقباً للأمور ، وعالما بما إليه تئول ، وقائما بتدبيرها على أكمل نظام ، وأحسن أحكام .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى دخول بيوته فقال :

[ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ] .

أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا

---

أى : لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها ، لأجل الطعام .

وأيضاً [ غير : ناظرين إياه ] أى : منتظرين استواءه ، ومتحينين نضجه ، أوسعة صدر بعد الفراغ منه .

والمعنى : إنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين :

الإذن لكم بالدخول ، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة ، ولهذا قال:

[ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ] أى : قبل الطعام وبعده .

ثم بين حكمة النهى وفائدته فقال : [ إن ذلكم ] أى : انتظاركم الزائد على الحاجة .

[ كان يؤذى النبى ] أى : يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته ، وإشغاله فيه [ فيستحى منكم ] أن يقول لكم « اخرجوا » كما هو جارى العادة ، أن الناس ـ وخصوصاً أهل الكرم منهم ـ يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم .

[ و ] لكن [ الله لا يستحى من الحق ] .

فالأمر الشرعى ، ولو كان يتوهم أن فى تركه أدبا وحياء ، فإن الحزم

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن

---

كل الحزم ، اتباع الأمر الشرعى ، وأن يجزم أن ما خالفه ، ليس من الأدب فى شىء .

والله تعالى لا يستحى أن يأمركم ، بما فيه الخير لكم ، والرفق لرسوله كائنا ما كان .

فهذا أدبهم فى الدخول فى بيوته .

وأما أدبهم معه فى خطاب زوجاته ، فإنه ، إما أن يحتاج إلى ذلك ، أو لا يحتج إليه .

فإن لم يحتج إليه ، فلا حاجة إليه ، والأدب تركه .

وإن احتيج إليه ، كأن يسألهن متاعا ، أو غيره من أوانى البيت أو نحوها ، فإنهن يسألن [ من وراء حجاب ] أى : يكون بينكم وبينهن ستر ، يستر عن النظر ، لعدم الحاجة إليه .

فصار النظر إليهن ممنوعا بكل حال ، وكلا مهن فيه التفصيل ، الذى ذكره الله .

ثم ذكر حكمة ذلك بقوله : [ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ] لأنه أبعد عن الريبة .

وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر ، فإنه أسلم له ، وأطهر لقلبه .

تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

---

فلهذا ، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها ، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ، ممنوعة ، وأنه مشروع ، البعد عنها ، بكل طريق .

ثم قال كلة جامعة وقاعدة عامة : [ وما كان لكم ] يامعشر المؤمنين ، أى : غير لائق ولا مستحسن منكم ، بل هو أقبح شىء .

[أن تؤذوا رسول الله] أى : أذية قولية أو فعلية ، بجميع مايتعلق به .

[ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ] هذا من جملة ما يؤذيه ، فإنه صلى الله عليه وسلم ، له مقام التعظيم ، والرفعة والإكرام ، وتزوج زوجاته بعده ، مخل بهذا المقام .

وأيضاً ، فإنهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، والزوجية باقية بعد موته ، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده ، لأحد من أمته .

[ إن ذلكم كان عند الله عظيما ] وقد امتثلت هذه الأمة، هذا الأمر ، واجتنبت ما نهى الله عنه منه ، ولله الحمد والشكر .

ثم قال تعالى [ إن تبدوا شيئاً أى تظهروه [ أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما ] يعلم ما فى قلوبكم ، وما أظهرتموه ، فيجازيكم عليه .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

لما ذكر أنهن لا يسألن متاعا إلا من وراء حجاب ، وكان اللفظ عاما لكل أحد ، احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون ، من المحارم ، وأنه [ لا جناح عليهن ] فى عدم الاحتجاب عنهم .

ولم يذكر فيها الأعمام ، والأخوال ، لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته وخالاته ، من أبناء الإخوة والأخوات ، مع رفعتهن عليهم ، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن ، من باب أولى ، ولأن منطوق الآية الأخرى ، المصرحة بذكر العم والخال ، مقدمة ، على مايفهم من هذه الآية .

وقوله [ ولا نسائهن ] أى اللاتى .ن جنسهن فى الدين ، فيكون ذلك مخرجا لنساء الكفار .

ويحتمل أن المراد جنس النساء ، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة .

[ ولا ما ملكت إيمانهن ] ما دام العبد فى ملكها جميعه .

ولما رفع الجناح عن هؤلاء ، شرط فيه وفى غيره ، لزوم تقوى الله ، وأن لا يكون فى ذلك محذور شرعى فقال :

[ واتقين الله ] أى : استعملن تقواه فى جميع الأحوال [ إن الله كان على كل شىء شهيدا ] يشهد أعمال العباد ، ظاهرها وباطنها ، ويسمع أقوالهم ، ويرى حركاتهم ، ثم يجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفعة درجته ، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ، ورفع ذكره .

و [إن الله] تعالى [ وملائكته يصلون على النبي ] أى : يثنى الله عليه بين الملائكة ، وفى الملأ الأعلى ، لمحبته تعالى إياه .

ويثنى عليه الملائكة المقربون . ويدعون له يتضرعون .

[يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما] اقتداء بالله وملائكته ، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم ، وتكميلا لإيمانكم ، وتعظيما له صلى الله عليه وسلم ، ومحبة وإكراما ، وزيادة فى حسناتكم ، وتكفيراً عن سيئاتكم .

وأفضل هيئات الصلاة عليه[1] عليه الصلاة والسلام ، ما علمه أصحابه « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع فى جميع الأوقات وأوجبة كثير من العلماء فى الصلاة .

---

( ١ ) قوله « وأفضل هيئات الصلاة عليه الخ . » يعنى : كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ولكن الرواية التى ذكرها مبتورة والكيفية التى ذكرها البخارى فى صحيحه هى « اللهم صلى على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

---

لما أمر تعالى بتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالصلاة والسلام عليه ، نهى عن أذيته ، وتوعد عليها فقال :

[ إن الذين يؤذون الله ورسوله ] وهذا يشمل كل أذية ، قولية أوفعلية ، من سب وشتم ، أوتنقص له ، أو لدينه ، أو ما يعود إليه بالأذى .

[ لعنهم الله فى الدنيا ] أى : أبعدهم وطردهم ، ومن لعنهم فى الدنيا ، أنه يتحتم قتل من شتم الرسول ، وآذاه .

[والآخرة وأعد لهم عذابا أليما ] جزاء له على أذاه ، أن يؤذى بالعذاب الأليم .

فأذية الرسول ، ليست كأذية غيره ، لأنه لا يؤمن العبد بالله ، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم .

وله من التعظيم ، الذى هو من لوازم الإيمان ، ما يقتضى ذلك ، أن لا يكون مثل غيره .

وإن كان أذية المؤمنين عظيمة ، وإثمها عظيما ، ولهذا قال فيها :

[ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغيرما اكتسبوا ] أى : بغير جناية منهم موجبة للأذى [ فقد احتملوا ] على ظهورهم [ بهتانا ] حيث آذوهم بغير سبب [ وإثما مبينا ] حيث تعدوا عليهم ، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ

---

ولهذا كان سب آحاد المؤمنين ، موجبا للتعزيز ، بحسب حالته وعلو مرتبته .

فتعزير من سب الصحابة أبلغ ، وتعزير من سب العلماء ، وأهل الدين ، أعظم من غيرهم .

* هذه الآية ، هى التي تسمى آية الحجاب ، فأمر الله نبيه ، أن يأمر النساء عموماً ، ويبدأ بزوجاته وبناته ، لأنهن آكد من غيرهن ، ولأن الآمر لغيره ، ينبغى أن يبدأ بأهله ، قبل غيرهم كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

أن [ يدنين عليهن من جلابيبهن ] وهن اللاتى[1] يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه ، أى : يغطين بها ، وجوههن وصدورهن .

ثم ذكر حكمة ذلك فقال : [ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ] دل على وجود أذية ، إن لم يحتجبن ، وذلك ، لأنهن إذا لم يحتجبن ، ربما ظن أنهن غير عفيفات ، فيتعرض لهن من فى قلبه مرض ، فيؤذيهن .

---

( ١ ) قوله « وهن اللاتى الخ » الصواب أن يقال « وهى التى تكون فوق الثياب الخ » لأن كلمة « هن » لا تستعمل إلا فى العقلاء ، فلا يقال « الثياب اللاتى اشتريتهن والكتب اللاتى بعتهن » بل يقال : « الثياب التى اشتريتها والكتب التى بعتها » .

فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

---

وربما استهين بهن ، وظن أنهن إماء ، فتهاون بهن من يريد الشر .

فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن .

[ وكان الله غفوراً رحيما ] حيث غفر لكم ما سلف ، ورحمكم ، بأن بين لكم الأحكام ، وأوضح الحلال والحرام ، فهذا سد للباب من جهتهن .

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله [ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ] أى : مرض شك أو شهوة [ والمرجفون فى المدينة ] أى : المخوفون المرهبون الأعداء ، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم ، وضعف المسلمين .

ولم يذكر المعمول الذى ينتهون عنه ، ليعم ذلك ، كل ما توحى به أنفسهم إليهم ، وتوسوس به ، وتدعو إليه من الشر ، من التعريض بسب الإسلام وأهله ، والإرجاف بالمسلمين ، وتوهين قواهم ، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة ، وغير ذلك من المعاصى الصادرة ، من أمثال هؤلاء .

[ لنغرينك بهم ] أى : نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ، ونسلطك عليهم .

ثم إذا فعلنا ذلك ، لا طاقة لهم بك ، وليس لهم قوة ولا امتناع .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ

---

ولهذا قال : [ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ] أى : لا يجاورونك فى المدينة إلا قليلا ، بأن تقتلهم أو تنفيهم .

وهذا فيه دليل ، لنفى أهل الشر ، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين ، فإن ذلك أحسم للشر ، وأبعد منه ، ويكونون [ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ] .

أى مبعدين ، حيث وجدوا ، لا يحصل لهم أمن ، ولا يقر لهم قرار ، يخشون أن يقتلوا ، أن يحبسوا ، أو يعاقبوا .

[ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ] أن من تمادى فى العصيان ، وتجرأ على الأذى ، ولم ينته منه ، فإنه يعاقب عقوبة بليغة .

[ ولن تجد لسنة الله تبديلا ] أى تغييراً ، بل سنته تعالى وعادته ، جارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها .

* أى يستخبرك الناس عن الساعة ، استعجالا لها ، وبعضهم ، تكذيبا لوقوعها ، وتعجيزا للذى أخبر بها .

[ قل ] لهم : [ إنما علمها عند الله ] أى : لا يعلمها إلا الله ، فليس لى ، ولا لغيرى بها علم .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ

---

ومع هذا ، فلا تستبطئوها .

[ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ] ومجرد مجىء الساعة ، قرباً وبعداً ، ليس تحته نتيجة ولا فائدة ، وإنما النتيجة والخسار ، والربح ، والشقاوة والسعادة ، هل يستحق العبد العذاب ، أو يستحق الثواب ؟ فهذه سأخبركم بها ، وأصف لكم مستحقها .

فوصف مستحق العذاب ، ووصف العذاب ، لأن الوصف المذكور ، منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة فقال :

[ إن الله لعن الكافرين ] أى : الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، فأبعدهم الله فى الدنيا والآخرة من رحمته ، وكفى بذلك عقاباً .

[ وأعد لهم سعيرا ] أى : نارا موقدة ، تسعر فى أجسامهم ، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم ، ويخلدون فى ذلك العذاب الشديد ، فلايخرجون منه ، ولا يُفتَّر عنهم ساعة .

[ولايجدون لهم وليا] فيعطيهم ما طلبوه [ولا نصيرا ] يدفع عنهم العذاب.

بل قد تخلى عنهم إلى النصير ، وأحاط بهم عذاب السعير ، وبلغ منهم مبلغاً عظيما .

ولهذا قال : [ يوم تقلب وجوههم فى النار ] فيذوقون حرها ، ويشتد

يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

---

عليهم أمرها ، ويتحسرون على ما أسلفوا .

[ يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ] فسلمنا من هذا العذاب ، واستحققنا ، كالمطيعين ، جزيل الثواب .

ولكن أمنية فات وقتها ، فلم تفدهم إلا حسرة وندما ، وهما ، وغما ، وألما .

[ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ] وقلدناهم على ضلالهم .

[ فأضلونا السبيلا ] .

كقوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر » الآية .

ولما علموا أنهم ، وكبراءهم ، مستحقون للعقاب ، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم ، فقالوا :

[ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ] فيقول الله لكل ضعف ، فكلكم اشتركتم فى الكفر والمعاصى ، فتشتركون فى العقاب ، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

---

* يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، النبي الكريم ، الرءوف الرحيم ، لئلا يقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام ، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران ، كليم الرحمن ، فبرأه الله مما قالوا من الأذية ، أى أظهر الله لهم براءته .

والحال أنه عليه الصلاة والسلام ، ليس محل التهمة والأذية ، فإنه كان وجيها عند الله ، مقربا لديه ، من خواص المرسلين ، ومن عباد الله المخلصين .

فلم يزجرهم ماله ، من الفضائل ، عن أذيته ، والتعرض له بما يكره .

فاحذروا أيها المؤمنون ، أن تتشبهوا بهم فى ذلك .

والأذية المشار إليها هى قول بنى إسرائيل عن موسى ، لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم : « إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر » أى كبير الخصيتين ، واشتهر ذلك عندهم .

فأراد أن يبرئه منهم ، فاغتسل يوما ، ووضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فأهوى موسى عليه السلام فى طلبه ، فمر به على مجالس بنى إسرائيل ، فرأوه أحسن خلق الله ، فزال عنه ما رموه به .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

---

* يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ، فى جميع أحوالهم ، فى السر والعلانية ، ويخص منها ، ويندب للقول السديد ، وهو القول الموافق للصواب ، أو المقارب له ، عند تعذر اليقين ، من قراءة ، وذكر ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وتعلم علم وتعليمه ، والحرص على إصابة الصواب ، فى المسائل العلمية ، وسلوك كل طريق يوصل لذلك ، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد ، لين الكلام ولطفه ، فى مخاطبة الأنام ، والقول المتضمن للنصح والإشارة ، بما هو الأصلح .

ثم ذكر ما يترتب على تقواه ، وقول القول السديد فقال :

[ يصلح لكم أعمالكم ] أى يكون ذلك سببا لصلاحها ، وطريقا لقبولها ، لأن استعمال التقوى ، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح ، ويصلح الله الأعمال أيضا ، بحفظها عما يفسدها ، وحفظ ثوابها ومضاعفته .

كما أن الإخلال بالتقوى ، والقول السديد سبب لفساد الأعمال ، وعدم قبولها ، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها .

[ ويغفر لكم ] أيضاً [ ذنوبكم ] التى هى السبب فى هلاككم .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

---

فبالتقوى تستقيم الأمور ، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال : [ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ] .

* يعظم تعالى شأن الأمانة ، التي ائتمن الله عليها المكلفين ، التي هي امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، في حال السر والخفية ، كحال العلانية .

وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة ،السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم ، وأنك إن قمت بها وأديتها . على وجهها ، فلك الثواب ، وإن لم تقومي بها ، ولم تؤديها ، فعليك العقاب .

[ فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ] أي : خوفا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ ، لا عصيانا لربهن ، ولا زهدا في ثوابه .

وعرضها الله على الإنسان ، على ذلك الشرط المذكور ، فقبلها ، وحملها مع ظلمه وجهله ، وحمل هذا الحمل الثقيل .

فانقسم الناس ــ بحسب قيامهم بها وعدمه ــ إلى ثلاثة أقسام .

منافقون ، قاموا بها ظاهراً لا باطنا ، ومشركون ، تركوها ظاهرا وباطنا .

وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

---

ومؤمنون ، قائمون بها ظاهرا وباطنا .

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة ، وما لهم من الثواب والعقاب فقال :

[ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ] .

فله تعالى الحمد ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ، الدالين على تمام مغفرة الله ، وسعة رحمته ، وعموم جوده .

مع أن المحكوم عليهم ، كثير منهم ، لم يستحق المغفرة والرحمة ،لنفاقه وشركه .

تم تفسير سورة الأحزاب ــ بحمد الله وعونه

تفســـير

# سُورَةُ سَبَأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ

---

* الحمد : الثناء بالصفات الحميدة ، والأفعال الحسنة ، فلله تعالى الحمد ، لأن جميع صفاته ، يحمد عليها ، لكونها صفات كمال ، وأفعاله ، يحمد عليها ، لأنها دائرة بين الفضل الذى يحمد عليه ويشكر ، والحمد الذى يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه .

وحمد نفسه هنا ، على أن [ له ما فى السموات وما فى الأرض ] ملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم بحمده .

[ وله الحمد فى الآخرة ] لأن فى الآخرة ، يظهر من حمده ، والثناء عليه ، ما لا يكون فى الدنيا .

فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ، ورأى الناس والخلق كلهم ، ما حكم به ، وكمال عدله وقسطه ، وحكمته فيه ، حمدوه كلهم على ذلك .

. . . . . . . . . . .

حتى أهل العقاب ما دخلوا النار ، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده ، وأن عذابهم من جراء أعمالهم ، وأنه عادل فى حكمه بعقابهم .

وأما ظهور حمده فى دار النعيم والثواب ، فذلك شيء ، قد تواردت وتواترت به الأخبار ، وتوافق عليه الدليل السمعى والعقلى .

فإنهم فى الجنة ، يرون من توالى نعم الله ، وإدرار خيره ، وكثرة بركاته ، وسعة عطاياه ، التى لا يبقى فى قلوب أهل الجنة أمنية ، ولا إرادة ، إلا وقد أعطى منها كل واحد منهم ، فوق ما تمنى وأراد .

بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيهم ، ولم يخطر بقلوبهم .

فما ظنك بحمدهم لربهم فى هذه الحال ، مع أن فى الجنـــة ، تضمحل العوارض والقواطع ، التى تقطع عن معرفة الله ، ومحبته ، والثناء عليه ، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم ، وألذ عليهم من كل لذة .

ولهذا إذا رأوا الله تعالى ، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم ، أذهلهم ذلك عن كل نعيم ، ويكون الذكر لهم فى الجنة ، كالنَّفَس ، متواصلا فى جميع الأوقات .

هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة ، في الجنة ، كل وقت ، من عظمة ربهم ، وجلاله ، وجماله ، وسعة كماله ، ما يوجب لهم كمال الحمد ، والثناء عليه .

[ وهو الحكيم ] فى ملكه وتدبيره ، الحكيم فى أمره ونهيه .

[ الخبير ] المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله .

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

---

[ يعلم ما يلج فى الأرض ] أى : من مطر ، وبذر ، وحيوان [ ومايخرج منها ] من أنواع النباتات ، وأصناف الحيوانات [ وما ينزل من السماء ] من الأملاك والأرزاق ، والأقدار [ وما يعرج فيها ] من الملائكة والأرواح وغير ذلك .

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها ، وعلمه بأحوالها ، ذكر مغفرته ورحمته لها ، فقال :

[ وهو الرحيم الغفور ] أى : الذى الرحمة والمغفرة وصفه ، ولم تزل آثارها تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به ، من مقتضياتهما .

* لما بين تعالى ، عظمته ، بما وصف به نفسه ، وكان هذا موجبا لتعظيمه وتقديسه ، والإيمان به ، ذكر أن من أصناف الناس ، طائفة لم تقدر ربها حق قدره ، ولم تعظمه حق عظمته ، بل كفروا به ، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات ، وقيام الساعة ، وعارضوا بذلك رسله فقال :

[ وقال الذين كفروا ] أى بالله ورسله ، وبما جاءوا به .

فقالوا بسبب كفرهم : [ لا تأتينا الساعة ] أى : ما هى ، إلا هذه الحياة الدنيا ، نموت ونحيا .

فأمر الله رسوله ، أن يرد قوله ويبطله ، ويقسم على البعث ، وأنه سيأتيهم فقال :

لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم

---

[ قل بلى وربى لتأتينكم ] ، واستدل على ذلك بدليل من أقرّ به ، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة ، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال :

[ عالم الغيب ] أى : الأمور الغائبة عن أبصارنا ، وعن علمنا، فكيف بالشهادة ؟!! .

ثم أكد علمه فقال : [ لا يعزب عنه ] أى : لا يغيب عن علمه [مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ] أى : جميع الأشياء بذواتها وأجزائها ، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء ، وهى المثاقيل منها .

[ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ] أى : قد أحاط به علمه ، وجرى به قلمه ، وتضمنه الكتاب المبين ، الذى هو اللوح المحفوظ.

فالذى لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه ، فى جميع الأوقات ، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات ، وما يبقى من أجسادهم ، قادر على بعثهم ، من باب أولى ، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط .

ثم ذكر المقصود من البعث فقال :

[ ليجزى الذين آمنوا ] بقلوبهم ، وصدقوا الله،وصدقوا رسله تصديقاً جازماً [ وعملوا الصالحات ] تصديقاً لإيمانهم .

[ أولئك لهم مغفرة ] لذنوبهم ، بسبب إيمانهم وعملهم ، يندفع بها كل شر وعقاب .

مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

---

[ ورزق كريم ] بإحسانهم ، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب ، وأمنية .

[ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ] أى : سعوا فيها كفراً بها ، وتعجيزا لمن جاء بها ، وتعجيزا لمن أنزلها ، كما عجزوه فى الإعادة بعد الموت.

[ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ] أى مؤلم لأبدانهم ، وقلوبهم .

* لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث ، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق .

ذكر حالة الموفقين من العباد ، وهم أهل العلم ، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله ، من الكتاب ، وما اشتمل عليه من الأخبار ، هو الحق ، منحصر فيه ، وما خالفه وناقضه ، فإنه باطل ، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين

ويرون أيضاً أنه فى أوامره ونواهيه [ يهدى إلى صراط العزيز الحميد ] وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة .

من جهة علمهم ، بصدق من أخبر به .

ومن جهة موافقته للأمور الواقعة ، والكتب السابقة .

. . . . . . . . . . .

---

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها ، التي تقع عياناً .

ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها فى الآفاق ، وفى أنفسهم .

ومن جهة موافقتها ، لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه .

ويرون فى الأوامر والنواهى ، أنها تهدى إلى الصراط المستقيم ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ونحو ذلك .

وتنهى عن كل صفة قبيحة ، تدنس النفس ، وتحبط الأجر ، وتوجب الإثم والوزر ، من الشرك ، والزنا ، والربا ، والظلم في الدماء والأموال ، والأعراض .

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة ، وعلامة لهم ، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول ، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه ، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول ، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين ، كما في هذه الآية وغيرها .

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

---

* أى : [ وقال الذين كفروا ] على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد .

أى : قال بعضهم لبعض : [ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ] يعنون بذلك الرجل ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه ، حتى صار — بزعمهم — فرجة يتفرجون عليه ، وأعجوبة يسخرون منه .

وأنه كيف يقول « إنكم مبعوثون » بعد ما مزقكم البلى ، وتفرقت أوصالكم ، واضمحلت أعضاؤكم ؟! .

فهذا الرجل الذى أتى بذلك، هل [ افترى على الله كذباً ] فتجرأ عليه وقال ما قال ، [ أم به جنة ] ؟ فلا يستغرب منه ، فإن الجنون فنون .

وكل هذا منهم ، على وجه العناد والظلم ، ولقد علموا ، أنه أصدق خلق الله وأعقلهم ، ومن علمهم ، أنهم أبدأوا وأعادوا فى معاداتهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم ، فى صد الناس عنه .

فلو كان كاذباً مجنونا — يا أهل العقول غير الزاكية — لم ينبغ أن تصغوا لما قال ، ولا أن تحتفلوا بدعوته .

فإن المجنون ، لا ينبغى للعاقل أن يلفت إليه نظره ، أو يبلغ قوله منه ، كل مبلغ .

ولولا عنادكم وظلمكم ، لبادرتم لإجابته ، ولبيتم دعوته ، ولكن « ما

كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ

---

تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ولهذا قال تعالى :

[ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة ] ومنهم الذين قالوا تلك المقالة .

[ فى العذاب والضلال البعيد ] أى : فى الشقاء العظيم،والضلال البعيد، الذى ليس بقريب من الصواب .

وأى شقاء وضلال ، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث،وتكذيبهم لرسوله ، الذى جاء به ، واستهزائهم به ، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق ، فرأوا الحق باطلا ، والباطل والضلال ، حقا وهدى .

ثم نبههم على الدليل العقلى ، الدال على عدم استبعاد البعث ، الذى استبعدوه ، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، من السماء والأرض لرأوا من قدرة الله فيهما ، ما يبهر العقول ، ومن عظمته ما يذهل العلماء الفحول ، وأن خلقهما وعظمتهما ، وما فيهما من المخلوقات ، أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم .

فما الحامل لهم ، على ذلك التكذيب مع التصديق ، بما هو أكبر منه؟

نعم ذاك خبر غيبى إلى الآن ، ما شاهدوه ، فلذلك كذبوا به .

قال الله :[إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء].

أى : من العذاب ، لأن الأرض والسماء ، تحت تدبيرنا ، فإن أمرناهما ، لم يستعصيا .

فاحذروا إصراركم على تكذيبكم ، فنعاقبكم أشد العقوبة .

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ

---

[ إن فى ذلك ] أى : خلق السموات والأرض ، ومافيهما من المخلوقات [ لآية لكل عبد منيب ] راجع إلى ربه ، مطيع له ، فيجزم بأن الله قادر على البعث .

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله ، كان انتفاعه بالآيات أعظم ، لأن المنيب مقبل إلى ربه ، قد توجهت إراداته وهماته لربه ، ورجع إليه فى كل أمر من أموره ، فصار قريبا من ربه ، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته .

فيكون نظره للمخلوقات ، نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة غير نافعة .

* أى ولقد مننا على عبدنا ورسولنا ، داود عليه الصلاة والسلام ، وآتيناه فضلا من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والنعم الدينية والدنيوية .

ومن نعمه عليه ، ما خصه من أمره تعالى الجمادات ، كالجبال والحيوانات ، من الطيور ، أن تُؤَوِّب معه ، وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها ، مجاوبة له .

وفى هذا من النعمة عليه ، أن كان ذلك من خصائصه التى لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وأن ذلك يكون منهضا له ولغيره ، على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات ، تتجاوب بتسبيح ربها ، وتمجيده ، وتكبيره ، وتحميده ، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى .

ومنها : أن ذلك - كما قال كثير من العلماء ، أنه طرب لصوت داود .

وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

---

فإن الله تعالى ، قد أعطاه من حسن الصوت ، ما فاق به غيره ، وكان إذا رجّع التسبيح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجيّ المطرب ، طرب كل من سمعه ، من الإنس ، والجن ، حتى الطيور والجبال ، وسبحت بحمد ربها .

ومنها : أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها ، لأنه سبب ذلك ، وتسبح تبعاً له .

ومن فضله عليه ، أن ألان له الحديد ، ليعمل الدروع السابغات ، وعلمه تعالى كيفية صنعته ، بأن يقدره فى السرد ، أي : يقدره حلقا ، ويصنعه كذلك ، ثم يدخل بعضها ببعض .

قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » .

ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله ، أمره بشكره ، وأن يعملوا صالحا ، ويراقبوا الله تعالى فيه ، بإصلاحه وحفظه من المفسدات ، فإنه بصير بأعمالهم ، مطلع عليهم ، لا يخفى عليه منها شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟

---

* لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان، عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجرى بأمره، وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جدا، فى مدة يسيرة، فتسير فى اليوم، مسيرة شهرين.

[ غدوها شهر ] أى: أول النهار إلى الزوال [ ورواحها شهر ] من الزوال، إلى آخر النهار [ وأسلنا له عين القطر ] أى: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب، فى استخراج ما يستخرج منها من الأوانى وغيرها.

وسخر الله له أيضا، الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، « ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » وأعمالهم، كل ما شاء سليمان، عملوه.

[ من محاريب ] وهو: كل بناء يعقد، وتحكم به الأبنية، فهذا فيه، ذكر الأبنية الفخمة.

[ وتماثيل ] أى: صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك.

[ وجفان كالجواب ] أى: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام،

ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا

لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره .

[ و ] يعملون له من [ قدور راسيات ] لا تزول عن أماكنها ، من عظمها .

فلما ذكر منته عليهم ، أمرهم بشكرها فقال : [ اعملوا آل داود ] وهم داود ، وأولاده ، وأهله ، لأن المنة على الجميع ، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم .

[ شكراً ] لله على ما أعطاهم ، ومقابلة لما أولاهم .

[ وقليل من عبادى الشكور ] فأكثرهم ، لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم ، من النعم ، ودفع عنهم من النقم .

والشكر : اعتراف القلب بمنة الله تعالى ، وتلقيها افتقارا،إليها،وصرفها فى طاعة الله تعالى ، وصونها عن صرفها فى المعصية .

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان ، عليه الصلاة والسلام ، كل بناء .

وكانوا قد موهوا على الإنس ، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ، ويطلعون على المكنونات .

فأراد الله تعالى أن يُرِيَ العباد كذبهم فى هذه الدعوى،فمكثوا يعملون على عملهم .

وقضى الله بالموت على سليمان عليه السلام ، واتكأ على عصاه ، وهى المنسأة .

فصاروا إذا مروا به وهو متكىء عليها ، ظنوه حيا ، وهابوه .

عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

---

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل ، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه ، فلم تزل ترعاها ، حتى بادت ، وسقطت ، فيسقط سليمان وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن [ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ] وهو العمل الشاق عليهم .

فلو علموا الغيب ، لعلموا موت سليمان ، الذى هم أحرص شىء عليه ، ليسلموا مما هم فيه .

* سبأ قبيلة معروفة فى أدانى اليمن ، ومسكنهم بلدة يقال لها « مأرب » .

ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً ، وبالعرب خصوصا ، أنه قص فى القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ، ممن كان يجاور العرب ، ويشاهد آثارهم ، ويتناقل الناس أخبارهم ، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق ، وأقرب للموعظة فقال :

[ لقد كان لسبأ فى مسكنهم ] أى : محلهم الذى يسكنون فيه [ آية ] .

والآية هنا : ما أدرّ الله عليهم من النعم ، وصرف عنهم من النقم ، الذى يقتضى ذلك منهم ، أن يعبدوا الله ويشكروه .

ثم فسر الآية بقوله [ جنتان عن يمين وشمال ] وكان لهم واد عظيم ، تأتيه سيول كثيرة ، وكانوا بنوا سدا محكما ، يكون مجمعا للماء .

وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ

---

فكانت السيول تأتيه ، فيجتمع هناك ماء عظيم ،فيفرقونه على بساتينهم ، التى عن يمين ذلك الوادى وشماله .

وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان ، من الثمار ، ما يكفيهم ، ويحصل لهم الغبطة والسرور .

فأمرهم الله بشكر نعمه ، التي أدرّها عليهم من وجوه كثيرة .

منها : هاتان الجنتان ، اللتان غالب أقواتهم منهما .

ومنها : أن الله جعل بلدهم ، بلدة طيبة ، لحسن هوائها ، وقلة وخمها ، وحصول الرزق الرغد فيها .

ومنها : أن الله تعالى وعدهم — إن شكروه — أن يغفر لهم ويرحمهم ، ولهذا قال : [ بلدة طيبة ورب غفور ] .

ومنها : أن الله لما علم احتياجهم فى تجارتهم ومكاسبهم ، إلى الأرض المباركة ، الظاهر أنها : قرى صنعاء ، كما قاله غير واحد من السلف ، وقيل: إنها الشام ، هيأ لهم(١) من الأسباب ، ما به يتيسر وصولهم إليها ، بغاية السهولة ، من الأمن ، وعدم الخوف ، وتواصل القري بينهم وبينها ، بحيث لا يكون عليهم مشقة ، بحمل الزاد والمزاد .

---

( ١ ) قوله « هيأ لهم » جملة فعلية فى محل رفع خبر « أن » فى قوله « أن الله لما علم الخ » .

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا
ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ

---

ولهذا قال : [ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ] أى : سيراً مقدراً يعرفونه ، ويحكمون عليه ، بحيث لا يتيهون عنه [ سيروا فيها ليالى وأياماً [ آمنين ] أى : مطمئنين فى السير، فى تلك الليالى والأيام ، غير خائفين .

وهذا من تمام نعمة الله عليهم ، أن أمنهم من الخوف .

فأعرضوا عن المنعم ، وعن عبادته ، وبطروا النعمة ، وملوها .

حتى إنهم طلبوا وتمنوا ، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى ، التى كان السير فيها متيسراً .

[ وظلموا أنفسهم ] بكفرهم بالله وبنعمته ، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التى أطغتهم ، فأبادها عليهم ، فأرسل عليها سيل العرم ، أى : السيل المتوعر، الذى خرب سدهم ، وأتلف جناتهم ، وخرب بساتينهم .

فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة ، والأشجار المثمرة ، وصار بدلها ، أشجار لا نفع فيها ، ولهذا قال :

[ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أ كل ] أى : شىء قليل من الأ كل

أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

الذى لا يقع منهم موقعا [ خمط[١] وأثل[٢] وشيء من سدر[٣] قليل ] وهذا

( ١ ) خمط : أى : ثمر بشع ، مر ، أو حامض ، لا يمكن أكله . وقيل : هو ثمرة شجرة يقال لها « فسوة الضبع » على صورة الخشخاش ، لا ينتفع بها ، أو كل شجر ذى شوك ، مر ، بشع ، وقيل : شجر الأراك .

( ٢ ) أثل ، أى : شجر لا ثمر له ، شبيه بالطرفاء .

( ٣ ) سدر ، أى : شجر قليل الغناء عند الأكل وهو نوع من الضال ( نوع من الشجر ) لا ينتفع به .

وفى المصباح : « قال الحجة فى التفسير: والسدر نوعان ، أحدهما : ينبت فى الأرياف : فينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته طيبة .

والآخر ، ينبت فى البر ، ولا ينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته عفصة » اهـ .

وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا بدليل ما قال أبو السعود فى تفسيره « قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه [ أى : ثمرته ] وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس فى البساتين .

والصحيح أن السدر صنفان ، صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد ، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ، ولا ينتفع بورقه ، وهو الضال، والمراد ههنا : هو الثانى حتما .

وقال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم ، وتسمية البدل« جنتين » للمشاكلة والتهكم » اهـ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

---

كله شجر معروف ، وهذا من جنس عملهم .

فكما بدلوا الشكر الحسن ، بالكفر القبيح ، بدلوا تلك النعمة بما ذكر ، ولهذا قال :

[ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ] أى: وهل نجازى جزاء العقوبة — بدليل السياق — إلا من كفر بالله وبطر النعمة ؟

فلما أصابهم ما أصابهم ، تفرقوا وتمزقوا ، بعد ما كانوا مجتمعين ، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم ، وأسماراً للناس ، وكان يضرب بهم المثل فيقال « تفرقوا أيدى سبا » فكل أحد ، يتحدث بما جرى لهم .

ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيهم [ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ] صبار على المكاره والشدائد ، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها .

شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ، ويعترف ، ويثنى على من أولاها ، ويصرفها فى طاعته .

فهذا إذا سمع بقصتهم ، وما جرى منهم وعليهم ، عرف بذلك أن تلك العقوبة ، جزاء لكفرهم نعمة الله ، وأن من فعل مثلهم ، فُعِلَ به ، كما فعل بهم .

وأن شكر الله تعالى ، حافظ للنعمة ، دافع للنقمة .

وأن رسل الله ، صادقون فيما أخبروا به .

وأن الجزاء حق ، كما رأى أنموذجه فى دار الدنيا .

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا

---

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدّق عليهم إبليس ظنه ، حيث قال لربه : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين » .

وهذا ظن من إبليس ، لا يقين ، لأنه لا يعلم الغيب ، ولم يأته خبر من الله ، أنه سيغويهم أجمعين ، إلا من استثنى .

فهولاء وأمثالهم ، ممن صدق عليه إبليس ظنه ، ودعاهم وأغواهم [ فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ] ممن لم يكفر بنعمة الله ، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس .

ويحتمل أن قصة سبأ ، انتهت عند قوله [ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ] .

ثم ابتدأ فقال : [ ولقد صدق عليهم ] أى على جنس الناس ، فتكون الآية عامة ، فى كل من اتبعه .

ثم قال تعالى : [ وما كان له ] أى : لإبليس [ عليهم من سلطان ] أى : تسلط ، وقهر ، وقسر على ما يريده منهم ، ولكن حكمة الله تعالى ، اقتضت تسليطه ، وتسويله لبنى آدم .

[ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ] أى : ليقوم سوق الامتحان ، ويعلم به الصادق من الكاذب ، ويعرف من كان إيمانه صحيحا ، يثبت عند الامتحان والاختبار ، وإلقاء الشبه الشيطانية ، ممن إيمانه غير

فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ

---

ثابت ، يتزلزل بأدنى شبهة ، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده .

فالله تعالى جعله امتحاناً ، يمتحن به عباده ، ويظهر الخبيث من الطيب .

[ وربك على كل شيء حفيظ ] يحفظ العباد ، ويحفظ عليهم أعمالهم ، ويحفظ تعالى جزاءها ، فيوفيهم إياها ، كاملة موفرة .

* أى : [ قل ] ياأيها الرسول ، للمشركين بالله غيره من المخلوقات ، التى لا تنفع ولا تضر ، ملزما لهم بعجزها ، ومبينا بطلان عبادتها :

[ ادعوا الذين زعمتم من دون الله ] أى : زعمتموهم شركاء لله ، إن كان دعاؤكم ينفع .

فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز ، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه .

فإنهم ليس لهم أدنى ملك [ لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض ] على وجه الاستقلال ، ولا على وجه الاشتراك ، ولهذا قال :

[ وما لهم ] أى : لتلك الآلهة الذين زعمتم [ فيهما ] أى : فى السموات والأرض .

[ من شرك ] أى : لا شرك قليل ولا كثير ، فليس لهم ملك ، ولا شركة ملك .

وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ

---

بقى أن يقال : ومع ذلك ، فقد يكونون أعواناً للمالك ، ووزراء له ، فدعاؤهم يكون نافعاً ، لأنهم — بسبب حاجة الملك إليهم — يقضون حوائج من تعلق بهم .

فنفى تعالى هذه المرتبة فقال : [ وماله ] أى : لله تعالى الواحد القهار [ منهم ] أى : من هؤلاء المعبودين [ من ظهير ] أى : معاون ووزير ، يساعده على الملك والتدبير .

فلم يبق إلا الشفاعة ، فنفاها بقوله : [ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ] .

فهذه أنواع التعلقات ، التى يتعلق بها المشركون بأندادهم ، وأوثانهم ، من البشر ، والشجر ، وغيرهم ، قطعها الله وبين بطلانها ، تبيينا حاسماً لمواد الشرك ، قاطعاً لأصوله .

لأن المشرك ، إنما يدعو ويعبد غير الله ، لما يرجو منه من النفع ، فهذا الرجاء ، هو الذى أوجب له الشرك .

فإذا كان من يدعوه غير الله ، لا مالكا للنفع والضر ، ولا شريكا للمالك ، ولا عونا وظهيرا للمالك ، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك ، كان هذا الدعاء ، وهذه العبادة ، ضلالا فى العقل ، باطلة فى الشرع .

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ، ومقصوده ، فإنه يريد منها النفع .

فبيَّن الله بطلانه ، وعدمه ، وبين فى آيات أخر ، ضررها على عابديها ، وأنه يوم القيامة ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ومأواهم

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

---

النار « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

والعجب ، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل ، بزعمه أنهم بشر ، ورضى أن يعبد ويدعو الشجر ، والحجر ، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان ، ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه ، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان .

وقوله [ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ] .

يحتمل أن الضمير فى هذا الموضع ، يعود إلى المشركين ، لأنهم مذكورون فى اللفظ .

والقاعدة فى الضمائر ، أن تعود إلى أقرب مذكور .

ويكون المعنى « إذا كان يوم القيامة ، وفزع عن قلوب المشركين ، أى : زال الفزع ، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم ، عن حالهم فى الدنيا ، وتكذيبهم للحق الذى جاءت به الرسل ، أنهم يقرون ، أن ما هم عليه من الكفر والشرك ، باطل ، وأن ما قال الله ، وأخبرت به عنه رسله ، هو الحق « فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » وعلموا أن الحق لله ، واعترفوا بذنوبهم .

[ وهو العلى ] بذاته ، فوق جميع المخلوقات ، وقهره لهم ، وعلو قدره ، بما له من الصفات العظيمة ، الجليلة المقدار [ الكبير ] فى ذاته وصفاته .

. . . . . . . . . . .

ومن علوه ، أن حكمه تعالى ، يعلو ، وتذعن له النفوس ، حتى نفوس المتكبرين والمشركين .

وهذا المعنى ، أظهر ، وهو الذى يدل عليه السياق .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة ، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمعته الملائكة ، فصعقوا ، وخروا لله سجدا .

فيكون أول من يرفع رأسه ، جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد .

فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة ، وزال الفزع ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام ، الذى صعقوا منه : ماذا قال ربكم ؟

فيقول بعضهم لبعض : قال الحق ، إما إجمالا ، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا .

وإما أن يقولوا : قال كذا وكذا ، للكلام الذى سمعوه منه ، وذلك من الحق .

فيكون المعنى على هذا : أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة ، التى وصفنا لكم عجزها ونقصها ، وعدم نفعها بوجه من الوجوه ، كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم ، العلى الكبير ، الذى — من عظمته وجلاله — أن الملائكة الكرام ، والمقربين من الخلق ، يبلغ بهم الخضوع والصعق ، عند سماع كلامه هذا المبلغ ، ويقرون كلهم لله ، أنه لا يقول إلا الحق .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ

---

فما بال هؤلاء المشركين ، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه ، وعظمة ملكه وسلطانه .

فتعالى العلى الكبير ، عن شرك المشركين ، وإفكهم ، وكذبهم .

* يأمر تعالى ، نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحة شركه :

[ قل من يرزقكم من السموات والأرض ] فإنهم ، لا بد أن يقروا أنه الله .

ولئن لم يقروا [ قل الله ] فإنك لا تجد من يدفع هذا القول .

فإذا تبين أن الله وحده ، الذى يرزقكم من السموات والأرض ، وينزل لكم المطر ، وينبت لكم النبات ، ويفجر لكم الأنهار ، ويطلع لكم من ثمار الأشجار ، وجعل لكم الحيوانات جميعها ، لنفعكم ورزقكم ، فلم تعبدون من لا يرزقكم شيئاً ، ولا يفيدكم نفعا ؟

وقوله [ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ] أى : إحدى الطائفتين ، منا ومنكم ، على الهدى ، مستعلية عليه ، أو فى ضلال بَيِّن ، منغمرة فيه .

وهذا الكلام ، يقوله من تبين له الحق ، واتضح له الصواب ، وجزم بالحق الذى هو عليه ، وبطلان ما عليه خصمه .

أى : قد شرحنا من الأدلة الواضحة ، عندنا وعندكم ، ما به يعلم علماً

. . . . . . . . . . .

---

يقينيا لاشك فيه ، من المحق منا ، ومن المبطل ، ومن المهتدى ومن الضال ؟ حتى إنه يصير اليقين بعد ذلك ، لا فائدة فيه .

فإنك إذا وازنت[1] بين من يدعو إلى عبادة الخالق ، بسائر المخلوقات المتصرف فيها ، بجميع أنواع التصرفات ، المسدى جميع النعم ، الذى رزقهم ، وأوصل إليهم كل نعمة ، ودفع عنهم كل نقمة ، الذى له الحمد كله ، والملك كله ، وكل أحد من الملائكة فمن دونهم ، خاضعون لهيبته ، متذللون لعظمته ، وكل الشفعاء تخافه ، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه .

العلى الكبير ، فى ذاته ، وأوصافه ، وأفعاله ، الذى له كل كمال ، وكل جلال ، وكل جمال ، وكل حمد وثناء ومجد .

يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه ، وإخلاص العمل له ، وينهى عن عبادة من سواه ، وبين[2] من يتقرب إلى أوثان ، وأصنام ، وقبور ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك لأنفسها ، ولا لمن عبدها ، نفعاً ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا .

بل هى جمادات ، لا تعقل ، ولا تسمع دعاء عابديها ، ولو سمعته ، ما استجابت لهم .

ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، ويتبرأون منهم ، ويتلاعنون بينهم . ليس لهم قسط من الملك ، ولا شركة فيه ، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله .

---

(١) فعل الشرط لـ « إذا » .

(٢) قوله «وبين» معطوف على قوله السابق «فإذا وازنت بين الخ» .

عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ

---

فهو يدعو ، مَنْ هذا وصفه ، ويتقرب إليه مهما أمكنه ، ويعادى من أخلص الدين لله ، ويحاربه ، ويكذب رسل الله ، الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده .

تبين لك[1] أى الفريقين ، المهتدى من الضال ، والشقى من السعيد؟ .

ولم يحتج[2] إلى أن يعين لك ذلك ، لأن وصف الحال ، أوضح من لسان المقال .

[ قل ] لهم [ لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ] أى : كل منا ومنكم ، له عمله .

أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ، ونحن لا نسأل عن أعمالكم .

فليكن المقصود مناومنكم ، طلب الحق[3] ، وسلوك طريق الإنصاف.

ودعوا ما كنا نعمل ، ولا يكون مانعا لكم من اتباع الحق .

فإن أحكام الدنيا ، تجرى على الظواهر ، ويتبع فيها الحق ، ويجتنب الباطل

---

( ١ ) جواب الشرط . لـ « إذا » فى قوله المتقدم « فإذا وازنت الخ » .

( ٢ ) قوله « ولم يحتج الخ » الأرشق فى الأسلوب أن يقال « ولم يحتج إلى أن يبين لك بلسانه ذلك لأن لسان الحال أفصح وأوضح من لسان المقال »

( ٣ ) فى الأصل « الحقائق » وهو غير متلائم بما بعده فلذا أبدلناها بـ « الحق » .

يَفتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

---

وأما الأعمال، فلها دار أخرى ، يحكم فيها أحكم الحاكمين ، ويفصل بين المختصين ، أعدل العادلين .

ولهذا قال : [ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ] أى : يحكم بيننا حكما ، يتبين به الصادق من الكاذب ، والمستحق للثواب ، من المستحق للعقاب [ وهو الفتاح ] أى : الحاكم فى القضايا المنغلقة [ العليم ] . بما ينبغى أن يقضى به .

[ قل ] لهم يا أيها الرسول ، ومن ناب منابك : [ أرونى الذين ألحقتم به شركاء ] أى : أين هم ؟ وأين السبيل إلى معرفتهم ؟ وهل هم فى الأرض ، أم فى السماء ؟

فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس فى الوجود له شريك .

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم » الآية « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

وكذلك خواص خلقه ، من الأنبياء والمرسلين ، لا يعلمون له شريكا .

فيا أيها المشركون .

أرونى الذين ألحقتم بزعمكم الباطل [ به ] أى : بالله [ شركاء ] .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه ، ولهذا قال :

[ كلا ] أى ليس لله شريك ، ولا ند ، ولا ضد .

[ بل هو الله ] الذى لا يستحق التأله والتعبد، إلا هو

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ

---

[ العزيز ] الذى قهر كل شىء فكل ما سواه ، فهو مقهور له ، مسخر مدبر .

[ الحكيم ] الذى أتقن ما خلقه ، وأحسن ما شرعه .

ولو لم يكن فى حكمته فى شرعه إلا أنه أمر بتوحيده ، وإخلاص الدين له ، وأحب ذلك ، وجعله طريقاً للنجاة ، ونهى عن الشرك به ، واتخاذ الأنداد من دونه ، وجعل ذلك طريقا للشقاء والهلاك ، لكفى بذلك برهانا على كمال حكمته .

فكيف ، وجميع ما أمر به ونهى عنه ، مشتمل على الحكمة ؟ ! !

* يخبر تعالى ، أنه ما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك .

وينذرهم عقاب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ، فليس لك من الأمر شىء .

وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد ، فليس من وظيفتك ، إنما ذلك بيد الله تعالى .

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] أى : ليس لهم علم صحيح ، بل إما جهال ، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم ، فكأنهم لا علم لهم .

ومن عدم علمهم ، جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول ، موجبا لرد دعوته .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

---

فما اقترحوه ، استعجالهم العذاب ، الذى أنذرهم به فقال : [ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] وهذا ظلم منهم .

فأى ملازمة بين صدقه ، وبين الإخبار بوقت وقوعه ؟

وهل هذا ، إلا رد للحق ، وسفه فى العقل ؟

أليس النذير فى أمر من أحوال الدنيا ، لو جاء قوماً ، يعلمون صدقه ونصحه ، ولهم عدو ، ينتهز الفرصة منهم ويُعِدُّ لهم فقال لهم : تركت عدوكم قد سار ، يريد اجتياحكم واستئصالكم .

فلو قال بعضهم : إن كنت صادقاً ، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا ، وأين مكانه الآن ؟

فهل يعد هذا القائل عاقلا ، أم يحكم بسفهه وجنونه ؟

هذا ، والمخبر يمكن صدقه وكذبه ، والعدو ، قد يبدو له غيرهم ، وقد تنحل عزيمته .

وهم قد يكون بهم منعة ، يدافعون بها عن أنفسهم .

فكيف بمن كذب أصدق الخلق ، المعصوم فى خبره ، الذى لا ينطق عن الهوى ، بالعذاب اليقين ، الذى لا مدفع له ، ولا ناصر منه ؟ ! !

أليس رد خبره ، بحجة عدم بيان وقت وقوعه ، من أسفه السفه ؟ !!

[ قل ] لهم ـ مخبرا بوقت وقوعه ، الذى لا شك فيه ـ : [ لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ولا تستقدمون ] فاحذروا ذلك اليوم ، وأعدوا له عدته .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم

---

* لما ذكر تعالى ، أن ميعاد المستعجلين بالعذاب ، لا بد من وقوعه عند حلول أجله .

ذكر هنا ، حالهم فى ذلك اليوم ، وأنك لو رأيت حالهم ، إذ وقفوا عند ربهم ، واجتمع الرؤساء والأتباع فى الكفر والضلال ، لرأيت أمرا عظيما وهولا جسيما .

ورأيت كيف يتراجعون ، ويرجع بعضهم الى بعض ، القول .

[ يقول الذين استضعفوا ] وهم الأتباع [ للذين استكبروا ] وهم القادة .

[ لولا أنتم لكنا مؤمنين ] ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان ، وزينتم لنا الكفران ، فتبعناكم على ذلك .

ومقصودهم بذلك ، أن يكون العذاب على الرؤساء ، دونهم .

[ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا ] مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون فى الجزم :

[ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ] أى : بقوتنا وقهرنا إياكم .

بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ
بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ

---

[ بل كنتم مجرمين ] أى : مختارين للإجرام ، لستم مقهورين عليه ، وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان .

[ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ] أى : بل الذى دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر ، فى الليل والنهار ، إذ تُحَسِّنون لنا الكفر ، وتدعوننا إليه ، وتقولون : إنه الحق ، وتقدحون فى الحق ، وتهجنونه ، وتزعمون أنه الباطل .

فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا ، حتى أغويتمونا وفتنتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئا إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة ، ولهذا قال :

[ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ] أى : زال عنهم ذلك الاحتجاج الذى احتج به بعضهم ، لينجو من العذاب ، وعلم أنه ظالم مستحق له .

فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذى أوصله إلى هذا العذاب ، سرا فى أنفسهم ، لخوفهم من الفضيحة فى إقرارهم على أنفسهم .

وفى بعض مواقف القيامة ، وعند دخولهم النار ، يظهرون ذلك الندم جهرا .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً

---

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » الأيات « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

[ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ] يغلون كما يغل المسجون ، الذى سيهان فى سجنه كما قال تعالى « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون » الآيات .

[ هل يجزون ] فى هذا العذاب والنكل ، وتلك الأغلال الثقال [ إلاما كانوا يعملون ] من الكفر والفسوق والعصيان .

* يخبر تعالى . عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل ، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله إذا أرسل رسولا فى قرية من القرى ، كفر به مترفوها ، وأبطرتهم نعمتهم ، ونخروا بها .

[ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ] أى : ممن اتبع الحق [ وما نحن بمعذبين ] .

أى: أولا ، لسنا بمبعوثين ، فإن بعثنا، فالذى أعطانا الأموال والأولاد فى الدنيا ، سيعطينا أكثر من ذلك فى الآخرة ولا يعذبنا .

وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ

---

فأجابهم الله تعالى ، بأن بسط الرزق وتضييقه ، ليس دليلا على مازعمتم.

فإن الرزق تحت مشيئة الله ، إن شاء بسطه لعبده ، وإن شاء ضيقه .

[ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم إلى الله زلفى ] وتدنى إليه .

وإنما الذى يقرب منه زلفى ، الإيمان بما جاء به المرسلون ، والعمل الصالح الذى هو من لوازم الإيمان ، فإن أولئك ، لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، لا يعلمها إلا الله .

[ وهم فى الغرفات آمنون ] أى : فى المنازل العاليات المرتفعات جدا ، ساكنين فيها ، مطمئنين ، آمنين من المكدرات والمنغصات ، لما فيه من اللذات ، وأنواع المشتهيات ، وآمنين من الخروج منها ، او الحزن فيها .

[ والذين يسعون فى آياتنا معجزين ] أى : على وجه التعجيز لنا ، ولرسلنا ، والتكذيب .

فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ
إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

---

[ أولئك فى العذاب محضرون ] تحضرهم الزبانية فلا يجديهم ما عولوا عليه نفعاً .

ثم أعاد تعالى أنه [ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ] ليرتب عليه قوله :

[ وما أنفقتم من شيء ] نفقة واجبة ، أو مستحبة ، على قريب ، أوجار ، أو مسكين ، أو يتيم ، أو غير ذلك .

[ فهو ] تعالى [ يخلفه ] فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق ، بل وعد بالخلف للمنفق ، الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر [وهو خير الرازقين] فاطلبوا الرزق منه ، واسعوا فى الأسباب التى أمركم بها .

[ ويوم يحشرهم جميعاً ] أى : العابدين لغير الله والمعبودين ، من دونه ، من الملائكة .

[ ثم يقول ] الله [ للملائكة ] على وجه التوبيخ لمن عبدهم .

[ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ] فتبرأوا من عبادتهم .

و [قالوا سبحانك] أى: تنزيها لك وتقديسا، أن يكون لك شريك ، أوند [ أنت ولينا من دونهم ] أى: أنت الذى نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم .

بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

---

فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟!!

[ بل ] هؤلاء المشركون [ كانوا يعبدون الجن ] أى : الشياطين، يأمرونهم بعبادتنا[1] أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك.

وطاعتهم، هى عبادتهم، لأن العبادة، الطاعة، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ».

[ أكثرهم بهم مؤمنون ] أى : مصدقون للجن، منقادون لهم، لأن الإيمان هو : التصديق الموجب للانقياد.

فلما تبرأوا منهم، قال تعالى مخاطبا لهم : [ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ] تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض.

[ ونقول للذين ظلموا ] بالكفر والمعاصى - بعد ما ندخلهم النار -

---

( ١ ) قوله « بعبادتنا أو عبادة غيرنا » تعبير غامض غير واضح. والأصح الأوضح أن يقال « يأمرونهم بأن يعبدونا أو يعبدوا غيرنا » حتى ينجلى المعنى للقراء على اختلاف طبقاتهم العلمية.

۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ

---

[ ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ]فاليوم عاينتموها،ودخلتموها ، جزاء لتكذيبكم ، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب ، من عدم الهرب من أسبابها .

* يخبر تعالى عن حالة المشركين ، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات ، وحججه الظاهرات ، وبراهينه القاطعات ، الدالة على كل خير ، الناهية عن كل شر ، التى هى أعظم نعمة جاءتهم ، ومِنَّةٍ وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق ، والانقياد ، والتسليم ، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغى ، ويكذبون من جاءهم بها ويقولون :

[ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ] أى : هذا قصده ، حين يأمركم بالإخلاص لله ، لتتركوا عوائد آبائكم ، الذين تعظمونهم، وتمشون خلفهم .

فردوا الحق ، بقوة الضالين ، ولم يوردوا برهانا ، ولا شبهة .

فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين ، باتباع الحق ، فادّعوا أن إخوانهم ، الذين على طريقتهم ، لم يزالوا عليه ؟ .

وهذه السفاهة ، ورد الحق ، بأقوال الضالين ، إذا تأملت كل حق رد ، فإذا هذا ، مآله لا يرد ، إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة ، والصابئين ، والملحدين فى دين الله ، المارقين ، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة .

إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ

---

ولما احتجوا بفعل آبائهم ، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا ، بالحق .

[ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ] أى : كذب افتراه هذا الرجل ، الذى جاء به .

[ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ] أى : سحر ظاهر لكل أحد ، تكذيباً بالحق ، وترويجا على السفهاء .

ولما بين ما ردوا به الحق ، وأنها أقوال ، دون مرتبة الشبهة ، فضلا عن أن تكون حجة ، ذكر أنهم ، وإن أراد أحد أن يحتج لهم ، فإنهم لا مستند لهم ، ولا لهم شىء يعتمد عليه أصلا ، فقال :

[ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ] حتى تكون عمدة لهم [ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ] حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ، ما يدفعون به ، ما جئتهم به .

فليس عندهم علم ، ولا أثارة من علم .

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم فقال : [ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا ] .

أى : ما بلغ هؤلاء المخاطبون [ معشار ما آتيناهم ] أى : الأمم الذين من قبلهم .

مَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

---

[ فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ] أى : إنكارى عليهم ، وعقوبتي إياهم .

وقد أعلمنا ما فعل بهم من النكال ، وأن منهم ، من أغرقه ، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم ، وبالصيحة ، وبالرجفة ،وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء .

فاحذروا ياهؤلاء المكذبون ، أن تدوموا على التكذيب ، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ، ويصيبكم ما أصابهم .

* أى [ قل ] يأيها الرسول ، لهؤلاء المكذبين المعاندين ، المتصدين لرد الحق وتكذيبه ، والقدح بمن جاء به :

[ إنما أعظكم بواحدة ] أى : بخصلة واحدة ، أشير عليكم بها، وأنصح لكم فى سلوكها .

وهى طريق نصف ، لست أدعوكم بها ، إلى اتباع قولى ، ولا إلى ترك قولكم ، من دون موجب لذلك ، وهى :

[ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ] أى : تنهضوا بهمة ، ونشاط ، وقصد لاتباع الصواب ، وإخلاص لله ، مجتمعين ، ومتباحثين فى ذلك، ومتناظرين، وفرادى ، كل واحد يخاطب نفسه بذلك .

. . . . . . . . . . .

---

فإذا قمتم لله ، مثنى وفرادى ، استعملتم فكركم ، وأجلتموه ، وتدبرتم أحوال رسولكم : هل هو مجنون ، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته ؟.

أم هو نبي صادق ، منذر لكم ما يضركم ، مما أمامكم من العذاب الشديد ؟

فلو قبلوا هذه الموعظة ، واستعملوها ، لتبين لهم أكثر من غيرهم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمجنون ، لأن هيئته ، ليست كهيئة المجانين ، فى خنقهم ، واختلاجهم ، ونظرهم .

بل هيئته أحسن الهيئات ، وحركاته ، أجل الحركات ، وهو أكمل الخلق ، أدباً ، وسكينة ، وتواضعاً ، ووقارا ، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلا .

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ، ولفظه المليح ، وكلماته التى تملأ القلوب ، أمنا ، وإيمانا ، وتزكى النفوس ، وتطهر القلوب،وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم ، وتزجر عن مساوىء الأخلاق ورذائلها .

إذا تكلم ، رمقته العيون ، هيبة وإجلالا ، وتعظيما .

فهل هذا يشبه هذيان المجانين ، وعربدتهم ، وكلامهم الذى يشبه أحوالهم ؟!!

فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا ؟ سواء تفكر وحده ، أم معه غيره ، جزم بأنه رسول الله حقًّا ، ونبيه صدقا ، خصوصاً المخاطبين ، وهو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره .

لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

---

وثمّ مانع للنفوس آخر، عن اتباع الداعى إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجره على دعوته.

فبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر فقال: [قل ما سألتكم من أجر] أى: على اتباعكم للحق [فهو لكم] أى: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم.

[إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد] أى: محيط علمه مما أدعو اليه.

فلو كنت كاذباً، لأخذنى بعقوبته.

وشهيد أيضا على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

* ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق، وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن [يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق]، لأنه بين من الحق فى هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع.

وذلك بسبب بيان [علام الغيوب] الذى يعلم ما تنطوى عليه القلوب، من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك، ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، ويبينها لهم، ولهذا قال:

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

---

[ قل جاء الحق ] أى : ظهر وبان ، وصار بمنزلة الشمس ، وظهر سلطانه .

[ وما يبدىء الباطل وما يعيد ] أى : اضمحل وبطل أمره ، وذهب سلطانه ، فلا يبدىء ولا يعيد .

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول ، وكان المكذبون له ، يرمونه بالضلال ، أخبرهم بالحق ، ووضحه لهم ، وبين لهم عجزهم عن مقاومته ، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ، ليس بضائر الحق شيئا ، ولا دافع ما جاء به .

وأنه إن ضل ـ وحاشاه من ذلك ، لكن على سبيل التنزل فى المجادلة ـ فإنما يضل على نفسه ، أى : ضلاله قاصر على نفسه ، غير متعد إلى غيره .

[ وإن اهتديت ] فليس ذلك من نفسى ، وحولى ، وقوتى ، وإنما هدايتى بما [ يوحى إلى ربى ] فهو مادة هدايتي ، كما هو مادة هداية غيرى .

إن ربى [ سميع ] للأقوال والأصوات كلها [ قريب ] ممن دعاه ، وسأله ، وعبده .

۞ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ

---

* يقول تعالى [ ولو ترى ] أيها الرسول ، ومن قام مقامك ، حال هؤلاء المكذبين .

[ إذ فزعوا ] حين رأوا العذاب ، وما أخبرتهم به الرسل ، وما كذبوا به ، لرأيت أمرا هائلا ، ومنظرا مفظعا ، وحالة منكرة ، وشدة شديدة ، وذلك حين يحق عليهم العذاب .

[ فلا فوت ] لهم وليس لهم عنه مهرب .

[ وأخذوا من مكان قريب ] أى : ليس بعيدا عن محل العذاب ، بل يؤخذون ، ثم يقذفون فى النار .

[ وقالوا ] فى تلك الحال : [ آمنا بالله ] وصدقنا ، ما به كذبنا [ و ] لكن [ أنى لهم التناوش ] أى: تناول الإيمان [ من مكان بعيد ] قد حيل بينهم وبينه ، وصار من الأمور المحالة فى هذه الحالة .

فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان ، لكان إيمانهم مقبولا .

ولكنهم [ كفروا به من قبل ويقذفون ] أى : يرمون [ بالغيب من مكان بعيد ] بقذفهم الباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولكن لا سبيل إلى ذلك ، كما لا سبيل للرامى ، من مكان بعيد إلى إصابة الغرض .

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

---

فكذلك الباطل ، من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه ، وإنما يكون له صولة ، وقت غفلة الحق عنه ، فإذا برز الحق ، وقاوم الباطل ، قمعه .

[ وحيل بينهم وبين ما يشتهون] من الشهوات واللذات ، والأولاد ، والأموال ، والخدم ، والجنود .

وقد انفردوا بأعمالهم،وجاءوا فرادى ، كما خلقوا ، وتركوا ما خولوا ، وراء ظهورهم .

[ كما فعل بأشياعهم من قبل ] أى : من الأمم السابقين ، حين جاءهم الهلاك ، حيل بينهم وبين ما يشتهون .

[ إنهم كانوا فى شك مريب ] أى : يحدث الريبة وقلق القلب،فلذلك، لم يؤمنوا ، ولم يعقبوا حين استعتبوا .

تم تفسير سورة سبأ ـ ولله الحمد والمنة ، والفضل ، ومنه العون ، وعليه التوكل ، وبه الثقة .

# تفسير

# سورة فاطر

## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

---

يمدح تعالى نفسه الكريمة المقدسة ، على خلقه السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه ، من المخلوقات ، لأن ذلك ، دليل على كمال قدرته ، وسعة ملكه ، وعموم رحمته ، وبديع حكمته ، وإحاطة علمه .

ولما ذكر الخلق ، ذكر بعده ، ما يتضمن الأمر،وهو : أنه [ جاعل الملائكة رسلا ] فى تدبير أوامره القدرية ، ووسائط بينه وبين خلقه ، فى تبليغ أوامره الدينية .

وفى ذكره أنه جعل الملائكة رسلا ، ولم يستثن منهم أحدا ، دليل على كمال طاعتهم لربهم ، وانقيادهم لأمره ، كما قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ولما كانت الملائكة مدبرات ، بإذن الله ، ما جعلهم الله موكلين فيه،

رُسُلاً أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ
فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

---

ذكر قوتهم على ذلك ، وسرعة سيرهم ، بأن جعلهم [ أولى أجنحة ] تطير بها ، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به .

[ مثنى وثلاث ورباع ] أى : منهم من له جناحان ، وثلاثة ، وأربعة ، بحسب ما اقتضته حكمته .

[ يزيد فى الخلق ما يشاء ] أى : يزيد بعض مخلوقاته على بعض ، فى صفة خلقها ، وفى القوة ، وفى الحسن ، وفى زيادة الأعضاء المعهودة ، وفى حسن الأصوات ، ولذة النغمات .

[ إن الله على كل شىء قدير ] فقدرته تعالى ، تأتى على ما يشاؤه ، ولا يستعصى عليها شىء ، ومن ذلك ، زيادة مخلوقاته ، بعضها على بعض .

ثم ذكر انفراده تعالى ، بالتدبير ، والعطاء ، والمنع فقال :

[ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك ] من رحمته عنهم [ فلا مرسل له من بعده ] فهذا يوجب التعلق بالله تعالى ، والافتقار إليه من جميع الوجوه ، وأن لا يدعى إلا هو ، ولا يخاف ويرجى ، إلا هو .

[ وهو العزيز ] الذى قهر الأشياء كلها [ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى ، جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم .

وهذا شامل لذكرها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ثناء ، وبالجوارح انقيادا ، فإن ذكر نعمه تعالى ، داع لشكره .

ثم نبههم على أصول النعم ، وهى : الخلق ، والرزق فقال : [ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ] .

ولما كان من المعلوم ، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله ، نتج من ذلك ، أن كان ذلك ، دليلا على ألوهيته وعبوديته ، ولهذا قال :

[ لا إله إلا هو فأنَّى تؤفكون ] أى : تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق .

[ وإن يكذبوك ] يا أيها الرسول ، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين .

[ فقد كذبت رسل من قبلك ] فأهلك المكذبون ، ونجى الله الرسل وأتباعهم .

[ وإلى الله ترجع الأمور ] فى الآخرة ، فيجازى المكذبين ، وينصر المرسلين وأتباعهم .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

* يقول تعالى : [ يا أيها الناس إن وعد الله ] بالبعث ، والجزاء على الأعمال [ حق ] أى : لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا تردد،قد دلت على ذلك الأدلة السمعية ، والبراهين العقلية .

فإذا كان وعده حقا ، فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة ، بالأعمال الصالحة ، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع .

[ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ] بلذاتها وشهواتها ، ومطالبها النفسية ، فتلهيكم عما خلقتم له .

[ ولا يغرنكم بالله الغرور ] الذى هو : [ الشيطان ] وهو [لكم عدو] فى الحقيقة [ فاتخذوه عدوا ] أى : لتكن منكم عداوته ،ولا تهملوا محاربته كل وقت ، فإنه يراكم ، وأنتم لا ترونه ، وهو دائما لكم بالمرصاد .

[ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير]هذا غايته ومقصوده، ممن تبعه ، أن يهان غاية الإهانة ، بالعذاب الشديد .

ثم ذكر أن الناس ، انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها ، إلى قسمين ، وذكر جزاء كل منهما فقال : [ الذين كفروا ] أى : جحدوا ما جاءت به الرسل ، ودلت عليه الكتب [ لهم عذاب شديد ] فى نار جهنم ،

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

---

شديد فى ذاته، ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبدا .

[ والذين آمنوا ] بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به [وعملوا] بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم، الأعمال [ الصالحات لهم مغفرة ] لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه [ وأجر كبير ] يحصل به المطلوب .

* يقول تعالى : [ أفمن زين له سوء عمله ] القبيح، زينه له الشيطان، وحسنه فى عينه .

[ فرآه حسنا ] أى : كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، فهل يستوى هذا وهذا ؟

فالأول : عمل السيء ورأى الحق باطلا، والباطل حقا .

والثانى : عمل الحسن، ورأى الحق حقا، والباطل باطلا .

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى .

[ فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم ] أى على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصدهم الشيطان عن الحق [ حسرات ] أى : فلا تهلك نفسك حزنا على الضالين وحسرة عليهم .

فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم، من شىء، والله هو الذى يجازيهم بأعمالهم [ إن الله عليم بما يصنعون ] فيجازيهم عليها .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ

---

* يخبر تعالى عن كمال اقتداره ، وسعة جوده ، وأنه الذى [ أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ] فأنزله الله عليها [ فأحيينا به الأرض بعد موتها ] .

فحييت البلاد والعباد ، وارتزقت الحيوانات ، ورتعت فى تلك الخيرات .

[ كذلك ] الذى أحيا الأرض بعد موتها ، ينشر الأموات من قبورهم ، بعد ما مزقهم البلاء ، فيسوق إليهم مطرا ، كما ساقه إلى الأرض الميتة ، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ، ويكون [النشور] فيأتون للقيام بين يدى الله ليحكم بينهم ، ويفصل بحكمه العدل .

* أى : يا من يريد العزة ، اطلبها ممن هى بيده ، فإن العزة بيد الله ، ولا تنال إلا بطاعته .

وقد ذكرها بقوله : [ إليه يصعد الكلم الطيب ] من قراءة ، وتسبيح، وتحميد ، وتهليل ، وكل كلام حسن طيب ، فيرفع إلى الله ، ويعرض عليه ، ويثنى الله على صاحبه، بين الملأ الأعلى ، [ والعمل الصالح ] من أعمال القلوب وأعمال الجوارح [ يرفعه ] الله تعالى إليه أيضا ، كالكلم الطيب .

وقيل : العمل الصالح ، يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة ، فهى التى ترفع كلمه الطيب .

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ

---

فإذا لم يكن له عمل صالح ، لم يرفع له قول إلى الله تعالى .

فهذه الأعمال ، التى ترفع إلى الله تعالى ، ويرفع الله صاحبها ويعزه .

وأما السيئات ، فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها ، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه ، ولا يزداد إلا هواناً ، ونزولا ، ولهذا قال : [ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ] يهانون فيه غاية الإهانة .

[ ومكر أولئك هو يبور ] أى : يهلك ويضمحل ، ولا يفيدهم شيئا ، لأنه مكر بالباطل ، لأجل الباطل .

يذكر تعالى خلقه الآدمى، وتنقله فى هذه الأوطار ، من تراب إلى نطفة وما بعدها .

* [ ثم جعلكم أزواجا ] أى : لم يزل ينقلكم ، طورا بعد طور ، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجا ، ذكر يتزوج أنثى ، ويراد بالزواج ، الذرية والأولاد .

فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه ، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره ، وعلمه .

[ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ] وكذلك أطوار الآدمى ، كلها ، بعلمه وقضائه .

مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

[ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ] أى : عمر الذى كان معمرا ، عمرا طويلا [ إلا ] بعلمه تعالى ، أو ما ينقص من عمر الإنسان الذى هو بصدد أن يصل إليه ، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر ، كالزنا ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام ، ونحو ذلك ، مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر .

والمعنى : أن طول العمر وقصره ، بسبب ، وبغير سبب ، كله بعلمه تعالى ، وقد أثبت ذلك [ فى كتاب ] حوى ما يجرى على العبد ، فى جميع أوقاته ، وأيام حياته .

[ إن ذلك على الله يسير ] أى : إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة ، وإحاطة كتابه بها .

فهذه ثلاثة أدلة ، من أدلة البعث والنشور ، كلها عقلية ، نبه الله عليها فى هذه الآيات : إحياء الأرض بعد موتها ، وأن الذى أحياها سيحيى الموتى وتنقل الآدمى فى تلك الأطوار .

فالذى أوجده ونقله ، طبقا بعد طبق ، وحالا بعد حال ، حتى بلغ ما قدر له ، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى ، أقدر ، وهو أهون عليه ، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم ، العلوى ، والسفلى ، دقيقها ، وجليلها ، الذى فى القلوب ، والأجنة ، التى فى البطون ، وزيادة الأعمار ونقصها ، وإثبات ذلك كله فى كتاب .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ

---

فالذى كان هذا يسيرا عليه ، فإعادته للأموات ، أيسر وأيسر .

فتبارك من كثر خيره ، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم ، فى معاشهم ، ومعادهم .

* هذا إخبار عن قدرته ، وتوالى حكمته ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضى كلهم ، وأنه لم يسوِّ بينهما ، لأن المصلحة تقتضى أن تكون الأنهار ، عذبة فراتا ، سائغا شرابها ، لينتفع بها الشاربون ، والغارسون ، والزارعون .

وأن يكون البحر ، ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض ، بروائح ما يموت فى البحر ، من الحيوانات ، ولأنه ساكن لا يجرى ، فملوحته ، تمنعه من التغير ، ولتكون حيواناته ، أحسن وألذ ، ولهذا قال :

[ ومن كل ] من البحر الملح والعذب [ تأكلون لحما طريا ] وهو السمك المتيسر صيده فى البحر .

[ وتستخرجون حلية تلبسونها ] من لؤلؤ ، ومرجان ، وغيره ، مما يوجد فى البحر .

فهذه مصالح عظيمة للعباد .

ومن المصالح أيضا والمنافع فى البحر ، أن سخره الله تعالى لحمل الفلك ،

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ
فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

---

من السفن، والمراكب،فتراها تمخر البحر وتشقه،فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم، وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه، شيء كثير، ولهذا قال :

[ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ] على النعم المتقدم ذكرها .

ومن ذلك أيضا إيلاجه تعالى، الليل بالنهار، والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، كلما أتى أحدهما، ذهب الآخر،ويزيد أحدهما، وينقص الآخر، ويتساويان فيقوم بذلك، ما يقوم من مصالح العباد فى أبدانهم،وحيواناتهم وأشجارهم، وزروعهم .

وكذلك ماجعل الله فى تسخير الشمس والقمر،من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون، وانتشار العباد فى طلب فضله، وما فيهما من إنضاج الثمار وتجفيف ما يجفف، وغير ذلك، مما هو من الضروريات، التى لو فقدت لَلَحِقَ الناس الضرر .

وقوله [ كل يجرى لأجل مسمى ] أى : كل من الشمس والقمر، يسيران فى فلكهما، ما شاء الله أن يسيرا .

فإذا جاء الأجل،وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما،وتعطل سلطانهما وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتثرت النجوم .

فلما بين تعالى؛ ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال:

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ
وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

---

[ ذلكم الله ربكم له الملك ] أى : الذى انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها ، هو الرب المألوه المعبود ، الذى له الملك كله .

[ والذين تدعون من دونه ] من الأوثان والأصنام [ لا يملكون من قطميرا[1] ] أى لا يملكون شيئا ، لا قليلا ، ولا كثيرا ؛ حتى ولا القطمير الذى هو أحقر الأشياء .

وهذا من تنصص النفى وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ ، وهم غير مالكين لشىء ، من ملك السموات والأرض ؟

ومع هذا [ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ] لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم .

[ ولو سمعوا ] على وجه الفرض والتقدير [ ما استجابوا لكم ] لأنهم لا يملكون شيئا ، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ، ولهذا قال :

[ ويوم القيامة يكفرون بشركـكم ] أى : يتبرأون منكم ؛ ويقولون « سبحانك أنت ولينا من دونهم » .

---

(١) القطمير : القشرة الرقيقة على نواة التمر : أو بتعبير آخر : « لفافة نواة التمر » .

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

---

[ ولا ينبئك مثل خبير ] أى : لا أحد ينبئك ؛ أصدق من الله العليم الخبير .

فاجزم بأن هذا الأمر ، الذى نبأ به ؛ كأنه رَأْىُ عين ؛ فلا تشك ولا تمتر .

فتضمنت هذه الآيات ؛ الأدلة والبراهين الساطعة ، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود ؛ الذى لا يستحق شيئا من العبادة سواه،وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل ؛ لا تفيد عابده شيئا .

* يخاطب تعالى ؛ جميع الناس ؛ ويخبرهم بحالهم ووصفهم ؛ وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه :

فقراء فى إيجادهم ، فلولا إيجاده إياهم ؛ لم يوجدوا .

فقراء في إعدادهم ؛ بالقوى ؛ والأعضاء ؛ والجوارح ؛ التى لولا إعداده إياهم بها ؛ لما استعدوا لأى عمل كان .

فقراء فى إمدادهم ؛ بالأقوات ؛ والأرزاق والنعم ؛ الظاهرة والباطنة .

فلولا فضله وإحسانه ، وتيسيره الأمور ، لما حصل لهم من الرزق والنعم ، شىء .

فقراء فى صرف النقم عنهم ، ودفع المكاره ، وإزالة الكروب والشدائد .

فلولا دفعه عنهم ، وتفريجه لكرباتهم ، وإزالته لعسرهم ، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد .

ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ

فقراء إليه فى تربيتهم بأنواع التربية ، وأجناس التدبير .

فقراء إليه ، فى تألههم له وحبهم له ، وتعبدهم ، وإخلاص العبادة له تعالى .

فلو لم يوفقهم لذلك ، لهلكوا ، وفسدت أرواحهم ، وقلوبهم ، وأحوالهم .

فقراء إليه ، فى تعليمهم مالا يعلمون ، وعملهم بما يصلحهم .

فلولا تعليمه ، لم يتعلموا ، ولولا توفيقه ، لم يصلحوا .

فهم فقراء بالذات إليه ، بكل معنى ، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر ، أم لم يشعروا .

ولكن الموفق منهم ، الذى لا يزال يشاهد فقره فى كل حال من أمور دينه ودنياه ، ويتضرع له ، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين ، وأن يعينه على جميع أموره ، ويستصحب هذا المعنى فى كل وقت ، فهذا حَرِىٌّ بالإعانة التامة من ربه وإلهه ، الذى هو أرحم به من الوالدة بوالدها .

[ والله هو الغنى الحميد ] أى : الذى له الغنى التام ، من جميع الوجوه ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه ، ولا يفتقر إلى شىء مما يفتقر إليه الخلق ، وذلك لكمال صفاته ، وكونها كلها ، صفات كمال ؛ ونعوت جلال .

ومن غناه تعالى ، أن قد أغنى الخلق فى الدنيا والآخرة .

فهو الحميد فى ذاته ، وأسمائه ، لأنها حسنى ، وأوصافه ، لكونها عليا وأفعاله ، لأنها فضل وإحسان ، وعدل ، وحكمة ، ورحمة .

عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ

وفى أوامره ونواهيه ، فهو الحميد على ما فيه من الصفات ،وعلى مامنه من الفضل والإنعام ، وعلى الجزاء بالعدل ، وهو الحميد فى غناه ، الغنى فى حمده .

[ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ] يحتمل أن المراد : إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بغيركم من الناس ، أطوع لله منكم .

ويكون فى هذا ، تهديد لهم بالهلاك والإبادة ، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك،إثبات البعث والنشور ، وأن مشيئة الله تعالى ، نافذة فى كل شىء ، وفى إعادتكم بعدموتكم ، خلقا جديدا ، ولكن لذلك الوقت أجل ، قدره الله ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

[ وما ذلك على الله بعزيز ] أى : بممتنع ، ولا معجز له

ويدل على المعنى الأخير ، ما ذكره بعده فى قوله : [ ولا تزر وازرة وزو أخرى ] أى : فى يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله ، ولا يحمل أحد ذنب أحد .

[ وإن تدع مثقلة ] أى : نفس مثقلة بالخطايا والذنوب [ إلى حملها ] أى : تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها [ لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ] فإنه لا يحمل قريب عن قريب .

فليست حال الآخرة ، بمنزلة حال الدنيا ، يساعد الحميم حميمه ، والصديق صديقه .

إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

---

بل يوم القيامة ، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ، ولو على والديه وأقاربه .

[ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ] أى : هؤلاء الذين يقبلون النذارة ، وينتفعون بها ، هم أهل الخشية لله بالغيب ، الذين يخشونه فى حال السر والعلانية ، والمشهد والمغيب ، وأهل إقامة الصلاة ، بحدودها ، وشروطها ، وأركانها ، وواجباتها ، وخشوعها .

لأن الخشية لله ، تستدعى من العبد ، العمل بما يخشى من تضييعه العقاب والهرب ، مما يخشى من ارتكابه العذاب .

والصلاة تدعو إلى الخير ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

[ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ] أى : ومن زكى نفسه بالتنقِّى من العيوب ، كالرياء والكبر ، والكذب والغش ، والمكر والخداع ، والنفاق ، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة ، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة ، من الصدق ، والإخلاص والتواضع ، ولين الجانب ، والنصح للعباد ، وسلامة الصدر ، من الحقد والحسد ، وغيرهما من مساوىء الأخلاق ، فإن تزكيته ، يعود نفعها إليه ، ويصل مقصودها إليه ، ليس يضيع من عمله شيء .

[ وإلى الله المصير ] فيجازى الخلائق على ما أسلفوه ، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها .

۞ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ

---

* يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد فى حكمة الله ، وفيما أودعه فى فطر عباده .

[ وما يستوى الأعمى ] فاقد البصر [ والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ] .

فكما أنه من المتقرر عندكم ، الذى لا يقبل الشك ، أن هذه المذكورات لا تتساوى ، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوى المتضادات المعنوية ، أولى وأولى .

فلا يستوى المؤمن والكافر ، ولا المهتدى والضال ، ولا العالم والجاهل ، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ولا أحياء القلوب وأمواتها ، فإن بين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ، ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

فإذا علمت المراتب ، وميزت الأشياء ، وبان الذى ينبغى أن يتنافس فى تحصيله من ضده ، فليختر الحازم لنفسه ، ما هو أولى به ، وأحق بالإيثار .

[ إن الله يسمع من يشاء ] سماع فهم وقبول ، لأنه تعالى هو الهادى للوفق .

[ وما أنت بمسمع من فى القبور ] أى : أموات القلوب .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً ، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً .

ولكن وظيفتك النذارة ، وإبلاغ ما أرسلت به ، قبل منك ، أم لا .

ولهذا قال : [ إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق ] أى : مجرد إرسالنا إياك بالحق ، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل ، واندراس من العلم ، وضرورة عظيمة إلى بعثك ، فبعثك الله رحمة للعالمين .

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم . والصراط المستقيم ، حق لا باطل .

وكذلك ما أرسلناك به ، من هذا القرآن العظيم ، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم ، حق وصدق .

[ بشيرا ] لمن أطاعك بثواب الله ، العاجل والآجل .

[ ونذيراً ] لمن عصاك ، بعقاب الله العاجل والآجل ، ولست ببدع من الرسل .

[وإن من أمة ] من الأمم الماضية والقرون الخالية [إلا خلا فيها نذير[1]] يقيم عليهم حجة الله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

(١) أى : وما من أمة من الأمم فيما سلف ومضى إلا جاءها من قبل الله من يحذرها عقابه ، ويخوفها وخامة الطغيان ، وسوء عاقبة الكفران .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* أى وإن يكذبك أيها الرسول ، هؤلاء المشركون ، فلست أول رسول كذب .

[ فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ] على الحق ، وعلى صدقهم ، فيما أخبروهم به [ والزبر ] أى الكتب المكتوبة ، المجموع فيها كثير من الأحكام .

[ والكتاب المنير ] أى : المضىء فى أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة .

فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه ، أو قصور بما جاءتهم به الرسل ، بل بسبب ظلمهم وعنادهم .

[ ثم أخذت الذين كفروا ] بأنواع العقوبات [فكيف كان نكير[1]] عليهم ؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل .

فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم ، فيصيبكم كما أصاب أولئك ، من العذاب الأليم ، والخزى الوخيم .

---

(١) أى : فانظر كيف كان إنكارى لعملهم ، وغضبى عليهم وتعذيبى إياهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

* يذكر تعالى خلقه للأشياء والمتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق، ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد، على كمال قدرته، وبديع حكمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك، الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبالا مشتبكة، بل جبلا واحدا.

وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب سود أي: شديدة السواد جدا.

ومن ذلك، الناس والدواب، والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف، والأصوات، والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل، من أصل واحد، ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف، وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضا، ما هو معلوم.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

---

وذلك أيضاً ، دليل على سعة علم الله تعالى ، وأنه يبعث من فى القبور .

ولكن الغافل ، ينظر فى هذه الأشياء وغيرها ، نظر غفلة ، لا تحدث له تذكرا .

وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ، ويعلم بفكره الصائب ، وجه الحكمة فيها .

ولهذا قال : [ إنما يخشى الله من عباده العلماء ] فكل من كان بالله أعلم ، كان أكثر له خشية .

وأوجبت له خشية الله ، الانكفاف عن المعاصى ، والاستعداد للقاء من يخشاه .

وهذا دليل على فضيلة العلم ، فإنه داع إلى خشية الله .

وأهل خشيته هم أهل كرامته كما قال تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

[ إن الله عزيز ] كامل العزة ، ومن عزته ، خلق هذه المخلوقات المتضادات .

[ غفور ] لذنوب التائبين .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

---

* إن الذين يتلون كتاب الله ] أى : يتبعونه فى أوامره ، فيمتثلونها ، وفى نواهيه ، فيتركونها،وفى أخباره ، فيصدقونها ويعتقدونها،ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال .

ويتلون أيضا ألفاظه ، بدراسته ، ومعانيه ، بتتبعها واستخراجها .

ثم خص من التلاوة بعد ما عم ، الصلاة التى هى عماد الدين ، ونور المسلمين ، وميزان الإيمان ، وعلامة صدق الإسلام ، والنفقة على الأقارب والمساكين ، واليتامى ، وغيرهم ، من الزكاة والكفارات ، والنذور والصدقات [ سرا وعلانية ] فى جميع الأوقات .

[ يرجون ] بذلك [ تجارة لن تبور ] أى : لن تكسد وتفسد . بل تجارة هى أجل التجارات ، وأعلاها ، وأفضلها ، ألا وهى رضا ربهم ، والفوز بجزيل ثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا فيه الإخلاص بأعمالهم ، وأنهم لا يرجون بها ، من المقاصد السيئة ، والنيات الفاسدة ، شيئا .

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال :[ ليوفيهم أجورهم ] أى : أجور أعمالهم ، وعلى حسب قلتها ، وكثرتها ، وحسنها ، وعدمه[ ويزيدهم من فضله ] زيادة عن أجورهم .

[ إنه غفور شكور ] غفر لهم السيئات ، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا

---

* يذكر تعالى أن الكتاب الذى أوحاه إلى رسوله [هو الحق] من كثرة ما اشتمل عليه ، من الحق ، وإحاطته بأصوله ، كأن الحق منحصر فيه ، فلا يكن فى قلوبكم حرج منه ، ولا تتبرموا منه ، ولا تستهينوا به .

فإذا كان هو الحق ، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية ، والغيبية وغيرها ، مطابق لما فى الواقع ، فلا يجوز أن يراد به ، ما يخالف ظاهره ، وما دل عليه .

[ مصدقا لما بين يديه ] من الكتب والرسل ، لأنها أخبرت به ، فلما وجد وظهر ، ظهر به صدقها .

فهى بشرت به وأخبرت ، وهو مصدقها ، ولهذا لا يمكن أحدا ، أن يؤمن بالكتب السابقة ، وهو كافر بالقرآن أبدا .

لأن كفره به ، ينقض إيمانه بها ، لأن من جملة أخبارها ، الخبر عن القرآن ، ولأن أخبارها ، مطابقة لأخبار القرآن .

[ إن الله بعباده لخبير بصير ] فيعطى كل أمة ، وكل شخص ، ما هو اللائق بحاله .

ومن ذلك ، أن الشرائع السابقة ، لا تليق إلا بوقتها وزمانها .

ولهذا ، ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول ، حتى ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فجاء بهذا الشرع ، الذى يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة ويتكفل بما هو الخير فى كل وقت .

ٱلْـكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

---

ولهذا لما كانت هذه الأمة ، أكمل عقولا ، وأحسنهم أفكارا ، وأرقهم قلوباً ، وأزكاهم أنفساً .

اصطفاهم تعالى ، واصطفى لهم دين الإسلام ، وأورثهم الـكتاب المهيمن على سائر الـكتب ، ولهذا قال :

[ ثم أورثنا الـكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ] وهم هذه الأمة .

[ فمنهم ظالم لنفسه ] بالمعاصى ، التي هى دون الـكفر .

[ ومنهم مقتصد ] مقتصر على ما يجب عليه ، تارك للمحرم .

[ ومنهم سابق بالخيرات ] أى : سارع فيها واجتهد ؛ فسبق غيره ؛ وهو المؤدى للفرائض ، المـكثر من النوافل ، التارك للمحرم والمـكروه .

فـكلهم اصطفاه الله تعالى ، لوراثة هذا الـكتاب ، وإن تفاوتت مراتبهم ، وتميزت أحوالهم .

فلـكل منهم ، قسط من وراثته ، حتى الظالم لنفسه ، فإن مامعه من أصل الإيمان ، وعلوم الإيمان ، وأعمال الإيمان ، من وراثة الـكتاب .

لأن المراد بوراثة الـكتاب ، وراثة علمه وعمله ، ودراسة ألفاظه ، واستخراج معانيه .

وقوله [ بإذن الله ] راجع إلى السابق إلى الخيرات ، لئلا يغتر بعمله ، بل ما سبق إلى الخيرات ، إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته ، فينبغى له أن يشتغل بشكر الله تعالى ، على ما أنعم به عليه .

ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

---

[ وذلك هو الفضل الكبير ] أى : وراثة الكتاب الجليل،لمن اصطفى تعالى من عباده ، هو الفضل الكبير ، الذى جميع النعم بالنسبة إليه ، كالعدم .

فأجل النعم على الإطلاق ، وأكبر الفضل ، وراثة هذا الكتاب .

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال : [ جنات عدن يدخلونها ] أى : جنات مشتملات ، على الأشجار ، والظل ، والظليل ، والحدائق الحسنة ، والأنهار المتدفقة ، والقصور العالية ، والمنازل المزخرفة ، فى أبد لا يزول ، وعيش لا ينفد .

والعدن « الإقامة » فجنات عدن أى : جنات إقامة ، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود ، وصفها ووصف أهلها .

[ يحلون فيها من أساور من ذهب ] وهو الحلى الذى يجعل فى اليدين ، على ما يحبون ، ويرون أنه أحسن من غيره ، الرجال والنساء فى الحلية فى الجنة سواء .

[ و ] يحلون فيها [ لؤلؤا ] ينظم فى ثيابهم وأجسادهم .

[ ولباسهم فيها حرير ] من سندس ، ومن إستبرق أخضر .

[ و ] لما تم نعيمهم ، وكملت لذتهم [ قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ] وهذا يشمل كل حزن ، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص فى جمالهم ،

ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

---

ولا في طعامهم وشرابهم ، ولا في لذاتهم ولا فى أجسادهم ، ولا في دوام لبثهم .

فهم فى نعيم ، ما يرون عليه مزيدا ، وهو فى تزايد أبد الآباد .

[ إن ربنا لغفور ] حيث غفر لنا الزلات [ شكور ] حيث قبل منا الحسنات ، وضاعفها ، وأعطانا من فضله ، ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا .

فبمغفرته نجوا ، من كل مكروه ومرهوب .

وبشكره وفضله . حصل لهم كل مرغوب محبوب .

[ الذى أحلنا ] أى : أنزلنا نزول حلول واستقرار ، لا نزول معبر واعتبار .

[ دار المقامة ] أى : الدار التى تدوم فيها الإقامة ، والدار التى يرغب فى المقام فيها ، لكثرة خيراتها ، وتوالى مسراتها ؛ وزوال كدوراتها .

وذلك الإحلال [ من فضله ] علينا ، وكرمه ؛ لا بأعمالنا .

فلولا فضله ؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

[ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ] أى : لا تعب فى الأبدان ولا فى القلب والقوى ؛ ولا فى كثرة التمتع .

وهذا يدل ؛ على أن الله تعالى يجعل أبدانهم ؛ فى نشأة كاملة ؛ ويهيء

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

لهم من أسباب الراحة على الدوام ، ما يكونون بهذه الصفة ، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب ؛ ولا هم ولا حزن .

ويدل على أنهم ؛ لا ينامون فى الجنة ؛ لأن النوم فائدته؛زوال التعب ؛ وحصول الراحة به .

وأهل الجنة ؛ بخلاف ذلك .

ولأنه موت أصغر ؛ وأهل الجنة لا يموتون ؛ جعلنا الله منهم ؛ بمنه وكرمه .

* لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم ، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال :

[ والذين كفروا ] أى : جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات ؛ وأنكروا لقاء ربهم .

[ لهم نار جهنم ] يعذبون فيها أشد العذاب ؛ وأبلغ العقاب .

[ لا يقضى عليهم ] بالموت [ فيموتوا ] فيستريحوا .

[ ولا يخفف عنهم من عذابها ] فشدة العذاب وعظمه ؛ مستمر عليهم فى جميع الآناء واللحظات .

[ كذلك نجزى كل كفور ] أى : كذلك نجزى به كل متمادٍ فى الكفر ، مصر عليه [ وهم يصطرخون فيها ] أى يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون : [ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ] .

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

---

فاعترفوا بذنبهم ، وعرفوا أن الله عدل فيهم ، ولكن سألوا الرجعة فى غير وقتها .

فيقال لهم : [ أولم نعمركم ما ] أى : دهراً وعمراً [ يتذكر فيه من تذكر ] أى : يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل ؛ متعناكم فى الدنيا ؛ وأدررنا عليكم الأرزاق ؛ وقيضنا لكم أسباب الراحة ؛ ومددنا لكم فى العمر ؛ وتابعنا عليكم الآيات [ وجاءكم النذير ] وواصلنا إليكم النذر؛ وابتليناكم بالسراء والضراء ، لتنيبوا إلينا ، وترجعوا إلينا .

فلم ينجع فيكم إنذار ، ولم تفد فيكم موعظة ، وأخرنا عنكم العقوبة ، حتى إذا انقضت آجالكم ، وتمت أعماركم ، ورحلتم عن دار الإمكان ، بأشر الحالات ، ووصلتم إلى هذه الدار ، دار الجزاء على الأعمال ، سألتم الرجعة .

هيهات هيهات ، فات وقت الإمكان ، وغضب عليكم الرحيم الرحمن ، واشتد عليكم عذاب النار ، ونسيكم أهل الجنة ، فامكثوا فى جهنم ، خالدين مخلدين ، وفى العذاب مهانين ، ولهذا قال :

[ فذوقوا فما للظالمين من نصير ] ينصرهم ، فيخرجهم منها ، أو يخفف عنهم من عذابها .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

---

* لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين ، وذكر أعمال الفريقين ، أخبر عن سعة علمه تعالى ، واطلاعه على غيب السموات والأرض ، التى غابت عن أبصار الخلق ، وعن علمهم ، وأنه عالم بالسرائر ، وما تنطوى عليه الصدور ، من الخير والشر ، والزكاء وغيره ،فيعطى كلا ،مايستحقه، وينزل كل أحد منزلته .

* يخبر تعالى عن كمال حكمته ، ورحمته بعباده ، أنه قدر بقضائه السابق ، أن يجعل بعضهم ، يخلف بعضاً فى الأرض ، ويرسل لكل أمة من الأمم ، النذر ، فينظر كيف يعملون .

فمن كفر بالله ، وبما جاءت به رسله ، فإن كفره عليه ، وعليه إثمه وعقوبته .

ولا يحمل عنه أحد ، ولا يزداد الكافر بكفره ، إلا مقت ربه له ، وبغضه إياه .

وأى عقوبة ، أعظم من مقت الرب الكريم ؟!

[ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ] أى : يخسرن أنفسهم ، وأهليهم ، وأعمالهم ، ومنازلهم فى الجنة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

فالكافر لا يزال فى زيادة من الشقاء والخسران ، والخزى عندالله ، وعند خلقه والحرمان .

* يقول تعالى ، مُعجِّزاً لآلهة المشركين ، ومبينا نقصها ، وبطلان شركهم من جميع الوجوه .

[قل] يا أيها الرسول لهم : [ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله] أى : أخبرونى عنهم ، هل هم مستحقون للدعاء والعبادة .

[ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ] هل خلقوا بحراً ، أم خلقوا جبالا ، أو خلقوا حيوانا ، أو خلقوا جماداً ؟ .

سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء ، هو الله تعالى .

[ أم لهم ] أى : لشركائكم [ شرك فى السموات ] أى : مشاركة فى خلقها وتدبيرها ؟ .

سيقولون : ليس لهم شركة فى ذلك .

فإذا لم يخلق شيئا ، ولم يشركوا الخالق فى خلقه ، فلم عبدتموهم ، ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم ؟

فانتفى الدليل العقلى ، على صحة عبادتهم ، ودل على بطلانها .

ثم ذكر الدليل السمعى ، وأنه أيضا منتف ، فلهذا قال :

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

---

[ أم آتيناهم كتابا ] يتكلم بما كانوا به يشركون ، يأمرهم بالشرك ، وعبادة الأوثان .

[ فهم ] فى شركهم [ على بينة منه ] أى : من ذلك الكتاب الذى نزل عليهم فى صحة الشرك ؟ .

ليس الأمر كذلك ؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن ، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله ، محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر نزول كتاب إليهم ، وإرسال رسول إليهم ، وزعموا أنه أمرهم بشركهم ، فإنا نجزم بكذبهم ، لأن الله قال :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

فالرسل والكتب ، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[ فإن قيل : إذا كان الدليل العقلى ، والدليل النقلى ، قد دلا على بطلان الشرك ، فما الذى حمل المشركين على الشرك ، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة ؟ .

أجاب تعالى بقوله : [ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا ]

أي : ذلك الذى مشوا عليه ، ليس لهم فيه حجة ، وإنما ذلك ، توصية بعضهم لبعض به ، وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال ، وأمانى مَنَّاها الشياطين ، وزينت لهم سوء أعمالهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

---

فنشأت فى قلوبهم ، وصارت صفة من صفاتها ، فعسر زوالها ، وتعسر انفصالها ، فحصل ما حصل ، من الإقامة على الكفر ، والشرك الباطل المضمحل .

* يخبر تعالى ، عن كمال قدرته ، وتمام رحمته ، وسعة حلمه ومغفرته ، وأنه تعالى ، يمسك السموات والأرض ، عن الزوال ، فإنهما لو زالتا ، ما أمسكهما أحد من الخلق ، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما .

ولكنه تعالى ، قضى أن يكونا كما وجدا ، ليحصل للخلق القرار ، والنفع ، والاعتبار .

وليعلموا من عظيم سلطانه ، وقوة قدرته ، مابه تمتلىء قلوبهم له ، إجلالا وتعظيما ، ومحبة ، وتكريما .

وليعلموا كمال حلمه ومغفرته ، بإمهال المذنبين ، وعدم معاجلته للعاصين .

مع أنه لو أمر السماء ، لحصبتهم ، ولو أذن للأرض ، لابتلعتهم .

ولكن وسعتهم مغفرته ، وحلمه ، وكرمه [ إنه كان حليما ] فى تأخير عقاب الكفار ، [ غفوراً ] لمن تاب .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن

---

* أى وأقسم هؤلاء ، الذين كذبوك يا رسول الله ، قسما اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة .

[ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ] أى : أهدى من اليهود والنصارى ، أهل الكتب ، فلم يفوا بتلك الأقسام والعهود .

[ فلما جاءهم نذير ] لم يهتدوا ، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم ، بل لم يدوموا على ضلالهم الذى كان .

بل [ ما زادهم ] ذلك [ إلا نفوراً ] وزيادة ضلال ، وبغى ، وعناد .

وليس إقسامهم المذكور ، لقصد حسن ، وطلب للحق ، وإلا لوفقوا له.

ولكنه صادر عن استكبار فى الأرض على الخلق ، وعلى الحق ، وبهرجة فى كلامهم هذا ، يريدون به المكر والخداع ، وأنهم أهل الحق ، الحريصون على طلبه ، فيغتر بهم المغترون ، ويمشى خلفهم المقتدون .

[ ولا يحيق المكر السيىء ] الذى مقصوده ، مقصود سيىء ، ومآله وما يرمى إليه ، سيىء باطل [ إلا بأهله ] ، فمكرهم إنما يعود عليهم .

وقد أبان الله لعباده فى هذه المقالات ، وتلك الأقسام ، أنهم كذبة فى ذلك ومزورون .

تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

---

فاستبان خزيهم ، وظهرت فضيحتهم ، وتبين قصدهم السيء .

فعاد مكرهم فى نحورهم ، ورد الله كيدهم فى صدورهم .

فلم يبق لهم ، إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ، الذى هو سنة الله فى الأولين ، التى لا تبدل ولا تغير ، أن كل من سار فى الظلم ، والعناد ، والاستكبار على العباد ، أن تحل به نقمته ، وتسلب عنه نعمته ، فَلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء ، ما فعل بأولئك .

* يحض تعالى الناس ، على السير فى الأرض ، بالقلوب والأبدان ، للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة ، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ، ممن كذبوا الرسل ، وكانوا أكثر منهم أموالا وأولادا ، وأشد قوة ، وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء .

فلما جاءهم العذاب ، لم تنفعهم قوتهم ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته .

[ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ] لكمال علمه وقدرته [ إنه كان عليما ] بالأشياء كلها [ قديراً ] عليها .

ثم ذكر تعالى ، كمال حلمه ، وشدة إمهاله وإنظاره ، أرباب الجرائم

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

---

والذنوب فقال :

[ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ] من الذنوب [ ما ترك على ظهرها من دابة ] أي : لاستوعبت العقوبة ، حتى الحيوانات غير المكلفة .

[ ولكن ] يمهلهم تعالى ولا يهملهم [ ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ] فيجازيهم بحسب ما علمه منهم ، من خير وشر .

تم تفسير سورة فاطر — والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

---

* هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم ، الذى وصفه الحكمة ، وهى وضع كل شىء موضعه : وضع الأمر والنهى ، فى المحل اللائق بهما .

فأحكامه الشرعية والجزائية ، كلها ، مشتملة على غاية الحكمة .

ومن حكمة هذا القرآن ، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته ، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها .

[ إنك لمن المرسلين ] هذا هو المقسم عليه ، وهو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنك يا محمد ، من جملة المرسلين ، فلست ببدع من الرسل .

وأيضا فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية .

وأيضا فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم ، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم ، عرف أنك من خيار المرسلين ، بما فيك من الصفات الكاملة ، والأخلاق الفاضلة .

. . . . . . . . . .

---

ولا يخفى ما بين المقسم به ، وهو القرآن الحكيم ، وبين المقسم عليه ، وهو رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، من الاتصال ، وأنه لو لم يكن لرسالته ، دليل ولاشاهد ، إلا هذا القرآن الحكيم ، لكفى به دليلا وشاهدا ، على رسالة محمد .

بل القرآن العظيم ، أقوى الأدلة المتصلة المستمرة ، على رسالة الرسول .

فأدلة القرآن كلها ، أدلة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم ، الدالة على رسالته ، وهو أنه [ على صراط مستقيم ] معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته .

وذلك الصراط المستقيم ، مشتمل على أعمال ، وهى الأعمال الصالحة ، المصلحة للقلب والبدن ، والدنيا والآخرة ، والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب ، المنمية للأجر .

فهذا الصراط المستقيم ، الذى هو وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصف دينه الذى جاء به .

فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم ، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام ، على أجل مقسم عليه .

وخبر الله وحده ، كاف ، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة فى هذا الموضع ، على صحة ما أقسم عليه ، من رسالة رسوله ، وما نبهنا عليه ، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه .

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ

---

وهذا الصراط المستقيم [ تنزيل العزيز الرحيم ] فهو الذى أنزل به كتابه ، وأنزله طريقاً لعباده ، موصلا لهم إليه .

لحماه بعزته ، عن التغيير والتبديل ، ورحم به عباده ، رحمة اتصلت بهم ، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته .

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين ، العزيز ، الرحيم .

فلما أقسم تعالى على رسالته ، وأقام الأدلة عليها ، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال :

[ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ] وهم العرب الأميون ، الذين لم يزالوا خالين من الكتب ، عادمين الرسل ، قد عمتهم الجهالة ، وغمرتهم الضلالة .

فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم ، يزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

فينذر العرب الأميين ، ومن لحق بهم من كل أمى .

ويذكر أهل الكتب ، بما عندهم من الكتب ، فنعمة الله به على العرب خصوصا ، وعلى غيرهم عموماً .

ولكن هؤلاء الذين بعثت لإنذارهم ، بعدما أنذرتهم ، انقسموا قسمين .

قسم رد لما جئت به ، ولم يقبل النذارة ، وهم الذين قال الله فيهم [ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ] أى : نفذ فيهم القضاء والمشيئة ، أنهم لا يزالون فى كفرهم وشركهم .

عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ

---

وإنما حق عليهم القول ، بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه ، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم .

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال :

[ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ] هى جمع « غل » و « الغل » ما يغل به العنق ، فهو للعنق ، بمنزلة القيد للرجل .

وهذه الأغلال ، التى فى الأعناق ، عظيمة [ فهى ] قد وصلت [ إلى الأذقان ] قد رفعت رءوسهم ، إلى فوق [ فهم مقمحون ] أى رافعوا رءوسهم من شدة الغل الذى فى أعناقهم ، فلا يستطيعون أن يخفضوها .

[ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ] أى : حاجزا يحجزهم عن الإيمان .

[ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ] قد غمرهم الجهل والشقاء ، من جميع جوانبهم ، فلم تفد فيهم النذارة .

[ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ] وكيف يؤمن من طبع على قلبه ، ورأى الحق باطلا ، والباطل حقاً ؟!

والقسم الثانى : الذين قبلوا النذارة ، وقد ذكرهم بقوله :

ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ

---

[ إنما تنذر ] أى : إنما تنفع نذارتك ، ويتعظ بنصحك [ من اتبع الذكر[1] ] أى : من قصده اتباع الحق ، وما ذكر به [ وخشى الرحمن بالغيب ] أى : من اتصف بهذين الأمرين ، القصد الحسن فى طلب الحق ، وخشية الله تعالى ، فهم الذين ينتفعون برسالتك ، ويزكون بتعليمك .

ومن وفق لهذين الأمرين [ فبشره بمغفرة ] لذنوبه [ وأجر كريم ] لأعماله الصالحة ، ونيته الحسنة

[ إنا نحن نحيي الموتى ] أى : نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال .

[ ونكتب ما قدموا ] من الخير والشر ، وهو : أعمالهم التى عملوها وباشروها ، فى حال حياتهم .

[ وآثارهم ] وهى : آثار الخير ، وآثار الشر ، التى كانوا هم السبب فى إيجادها ، فى حال حياتهم ، وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التى نشأت من أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

فكل خير عمل به أحد من الناس ، بسبب علم العبد ، وتعليمه ، أو نصحه ، أو أمره بالمعروف ، أو نهيه عن المنكر ، أو علم أودعه عند المتعلمين ، أو فى كتب ينتفع بها فى حياته وبعد موته ، أو عمل خيرا ، من

---

( ١ ] والمراد بالذكر هنا : القرآن .

أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾
وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا

صلاة، أو زكاة، أو صدقة، أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلا من المحال، التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره، التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا[1] «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة، وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرما، وأعظمهم إثما.

[ وكل شيء ] من الأعمال والنيات وغيرها [ أحصيناه في إمام مبين ] أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

* أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلا يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير.

وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك،

(١) قوله «ولهذا» أي: ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾

---

وما أشبهه من باب التكلف، والتكلم بلا علم .

ولهذا إذا تكلم أحد فى مثل هذا الأمر ، تجد عنده من الخبط والخلط.

والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ، ما تعرف به ، أن طريق العلم الصحيح ، الوقوف مع الحقائق ، وترك التعرض لما لا فائدة فيه .

وبذلك تزكو النفس ، ويزيد العلم ، من حيث يظن الجاهل ، أن زيادته ، بذكر الأقوال التى لا دليل عليها ، ولا حجة عليها ، ولا يحصل منها من الفائدة ، إلا تشويش الذهن ، واعتياد الأمور المشكوك فيها .

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله ، مثلا للمخاطبين .

[ إذ جاءها المرسلون ] من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وينهونهم عن الشرك والمعاصى .

[ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ] أى قويناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل ، اعتناء من الله بهم ، وإقامة للحجة ؛ بتوالى الرسل إليهم.

[ فقالوا ] لهم : [ إنا إليكم مرسلون ] فأجابوهم بالجواب ، الذى ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل .

[ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ] أى : فما الذى فضلكم علينا ، وخصكم من دوننا ؟

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ

---

قالت الرسل لأممهم « إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

[ وما أنزل الرحمن من شيء ] أي : أنكروا عموم الرسالة .

ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم فقالوا : [ إن أنتم إلا تكذبون ] .

فقال هؤلاء الرسل الثلاثة : [ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ] فلو كنا كاذبين ، لأظهر الله خزينا ، ولبادرنا بالعقوبة .

[ وما علينا إلا البلاغ المبين ] أي : البلاغ المبين الذى يحصل به ، توضيح الأمور المطلوب بيانها .

وما عدا هذا من آيات الاقتراح ، أو من سرعة العذاب ، فليس إلينا .

وإنما وظيفتنا ، التي هى البلاغ المبين ، قمنا بها ، وبيناها لكم .

فإن اهتديتم ، فهو حظكم وتوفيقكم ، وإن ضللتم ، فليس لنا من الأمر شيء .

فقال أصحاب القرية لرسلهم : [ إنا تطيرنا بكم ] أي : لم نر على قدومكم علينا ، واتصالكم بنا ، إلا الشر .

وهذا من أعجب العجائب ، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد ، وأجل كرامة يكرمهم بها ، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة ، قد قدم بحالة شر ، زادت على الشر الذى هم عليه ، واستشأموا بها .

وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن

---

ولكن الخذلان ، وعدم التوفيق ، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه .

ثم توعدوهم فقالوا : [ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ] أى : لنقتلنكم رجما بالحجارة ، أشنع القتلات [ وليمسنكم منا عذاب أليم ] .

فقالت لهم رسلهم [ طائركم معكم ] وهو : ما معهم من الشرك والشر ، المقتضى لوقوع المكروه والنقمة ، وارتفاع المحبوب والنعمة .

[ أإن ذكرتم ] أى : بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم ، قلتم لنا ما قلتم .

[ بل أنتم قوم مسرفون ] متجاوزون للحد ، متجرهمون[1] فى قولكم ، فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورا واستكبارا .

[ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ] حرصا على نصح قومه ، حين سمع ما دعت إليه الرسل ، وآمن به وعلم ، ما رد به قومه عليهم فقال :

[ يا قوم اتبعوا المرسلين ] فأمرهم باتباعهم ، ونصحهم على ذلك ، وشهد لهم بالرسالة .

ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه ، فقال :

---

( ١ ) متجرهمون . أى : أخذتكم الحدة فى ردكم قولنا .

لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

[ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ] أى : اتبعوا من نصحكم نصحا ، يعود عليكم بالخير ، وليس يريد منكم أموالكم ، ولا أجراً على نصحه لكم ، وإرشاده إياكم ، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه .

بقى أن يقال : فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ، ولكنه ليس على الحق .

فدفع هذا الاحتراز بقوله : [ وهم مهتدون ] لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ، ولا ينهون إلا عما يشهد العقل الصحيح بقبحه .

فكأن قومه لم يقبلوا نصحه ، بل عادوا لائمين له ، على اتباع الرسل ، وإخلاص الدين لله وحده فقال : [ ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ] .

أى : وما المانع لى ، من عبادة من هو المستحق للعبادة ، لأنه الذى فطرنى ، وخلقنى ، ورزقنى ، وإليه مآل جميع الخلق ، فيجازيهم بأعمالهم .

فالذى بيده الخلق والرزق ، والحكم بين العباد ، فى الدنيا والآخرة ، هو الذى يستحق أن يعبد ، ويثنى عليه ويمجد ، دون من لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا عطاء ولا منعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشوراً ، ولهذا قال :

[ أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ] لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ، فلا تغنى شفاعتهم عنى شيئاً [ ولا هم ينقذون ] من الضر الذى أراده الله بى .

بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ

---

[ إنى إذا ] أى : إن عبدت آلهة هذا وصفها [ لفى ضلال مبين ] فجمع فى هذا الكلام ، بين نصحهم ، والشهادة للرسل بالرسالة ، والاهتداء والإخبار ، بتعين عبادة الله وحده .

وذكر الأدلة عليها ، وأن عبادة غيره باطلة ، وذكر البراهين عليها ، والإخبار بضلال من عبدها ، والإعلان بإيمانه جهراً ، مع خوفه الشديد من قتلهم فقال :

[ إنى آمنت بربكم فاسمعون ] فقتله قومه ، لما سمعوا منه ، وراجعهم بما راجعهم به .

[ قيل ] له فى الحال [ ادخل الجنة ، قال ] مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده ، وإخلاصه ، وناصحا لقومه بعد وفاته ، كما نصح لهم فى حياته .

[ ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى ] أى : بأي شيء غفر لى ، فأزال عنى أنواع العقوبات .

[ وجعلنى من المكرمين ] بأنواع المثوبات والمسرات .

أى : لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم ، لم يقيموا على شركهم .

ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

---

قال الله فى عقوبة قومه : [ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ] أى : ما احتجنا أن نتكلف فى عقوبتهم ، فننزل جندا من السماء لإتلافهم

[ وما كنا منزلين ] لعدم الحاجة إلى ذلك ، وعظمة اقتدار الله تعالى ، وشدة ضعف بنى آدم ، وأنهم أدنى شىء يصيبهم من عذاب الله ، يكفيهم .

[ إن كانت ] أى ما كانت عقوبتهم [ إلا صيحة واحدة ] أى : صوتا واحدا ، تكلم به بعض ملائكة الله [ فإذا هم خامدون ] قد تقطعت قلوبهم فى أجوافهم ، وانزعجوا لتلك الصيحة ، فأصبحوا خامدين ، لا صوت ولا حركة ، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ، ومقابلة أشرف الخلق، بذلك الكلام القبيح ، وتجبرهم عليهم .

قال الله مترحما للعباد [ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ] أى : ما أعظم شقاءهم ، وأطول عنادهم ، وأشد جهلهم ، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة ، التى هى سبب لكل شقاء ، وعذاب ، ونكال ! !

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا

---

* يقول تعالى : ألم ير هؤلاء ، ويعتبروا بمن قبلهم ، من القرون المكذبة ، التى أهلكها تعالى ، وأوقع بها عقابه ، وأن جميعهم قد باد وهلك ، فلم يرجع إلى الدنيا ، ولن يرجع إليها .

وسيعيد الله الجميع ، خلقا جديدا ، ويبعثهم بعد موتهم ، ويحضرون بين يديه تعالى ، ليحكم بينهم بحكمه العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة « وإن تلك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

* أى [ وآية لهم ] على البعث والنشور ، والقيام بين يدى الله تعالى ، للجزاء على الأعمال ، هذه [ الأرض الميتة ] التى أنزل الله عليها المطر ، فأحياها بعد موتها .

[ وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ] من جميع أصناف الزروع ، ومن جميع أصناف النبات ، التى تأكله أنعامهم [ وجعلنا فيها ] أى : فى تلك الأرض الميتة .

[ جنات ] أى : بساتين ، فيها أشجار كثيرة ، وخصوصا النخيل والأعناب ، اللذان هما أشرف الأشجار [ وفجرنا فيها ] أى : فى الأرض [ من العيون ] .

فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ
ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

---

جعلنا فى الأرض تلك الأشجار ، والنخيل ، والأعناب [ ليأ كلوا من ثمره ] قوتا وفاكهة ، وأُدْماً ، ولذة .

[ و ] الحال أن ذلك الثمر [ ما عملته أيديهم ] وليس لهم فيه صنع ولا عمل ، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين ، وخير الرازقين .

وأيضاً فلم تعمله أيديهم ، بطبخ ولا غيره ، بل أوجد الله هذه الثمار ، غير محتاجة لطبخ ، ولا شيٍّ ، تؤخذ من أشجارها ، فتؤكل فى الحال .

[ أفلا يشكرون ] من ساق لهم هذه النعم ، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه ، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم .

أليس الذى أحيا الأرض بعد موتها ، فأنبت فيها الزروع والأشجار ، وأودع فيها لذيذ الثمار ، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون ، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ، إنه على كل شيء قدير .

[ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ] أى : الأصناف كلها [ مما تنبت الأرض ] فنوع فيها من الأصناف ، ما يعسر تعداده .

[ ومن أنفسهم ] فنوعهم إلى ذكر وأنثى ، وفاوت بين خلقهم وخُلُقِهِمْ ، وأوصافهم الظاهرة والباطنة .

[ ومما لا يعلمون ] من المخلوقات ، التى قد خلقت ، وغابت عن علمنا ، والتى لم تخلق بعد .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

---

فسبحانه وتعالى ، أن يكون له شريك ، أو ظهير ، أو عوين ، أو وزير ، أو صاحبة ، أو ولد ، أو سَمِيٌّ ، أو شبيه ، أو مثيل فى صفات كماله ، ونعوت جلاله ، أو يعجزه شىء يريده .

• أى [ وآية لهم ] على نفوذ مشيئة الله ، وكمال قدرته ، وإحيائه الموتى بعد موتهم .

[ الليل نسلخ منه النهار ] أى : نزيل منه الضياء العظيم ، الذى طبق الأرض ، فنبدله بالظلمة ، ونحلها محله [ فإذا هم مظلمون ] .

وكذلك نزيل هذه الظلمة ، التى عمتهم وشملتهم ، فنطلع الشمس ، فتضىء الأقطار ، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم ، ولهذا قال :

[ والشمس تجرى لمستقر لها ] أى : دائما تجرى لمستقر لها ، قدره الله لها ، لا تتعداه ، ولا تقصر عنه ، وليس لها تصرف فى نفسها ، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى .

[ ذلك تقدير العزيز ] الذى بعزته ، دبر هذه المخلوقات العظيمة ، بأكمل تدبير ، وأحسن نظام .

[ العليم ] الذى بعلمه ، جعلها مصالح لعباده ، ومنافع فى دينهم ودنياهم .

[ والقمر قدرناه منازل ] ينزلها ، كل ليلة ، ينزل منها واحدة ، [ حتى ] صغر جدا و [ عاد كالعرجون القديم ] أى : عرجون النخلة ، الذى من

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

---

قدمه ، نش ، وصغر حجمه ، وانحنى ، ثم بعد ذلك ، ما زال يزيد شيئا فشيئا ، حتى يتم نوره ، ويتسق ضياؤه .

[ وكل ] من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، قدره الله تقديرا لا يتعداه ، وكل له سلطان ووقت ، إذا وجد ، عدم الآخر ، ولهذا قال [ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ] أى : فى سلطانه الذى هو الليل ، فلا يمكن أن توجد الشمس فى الليل .

[ ولا الليل سابق النهار ] فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه .

[ وكل من ] الشمس والقمر والنجوم [ فى فلك يسبحون ] أى : يترددون على الدوام .

فكل هذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على عظمة الخالق ، وعظمة أوصافه .

خصوصا ، وصف القدرة والحكمة ، والعلم فى هذا الموضع .

۞ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ

---

* أى : ودليل لهم وبرهان ، على أن الله وحده المعبود ، لأنه المنعم بالنعم ، الصارف للنقم ، الذى من جملة نعمه [ أنا حملنا ذريتهم ] قال كثير من المفسرين : المراد بذلك : آباؤهم .

[ وخلقنا لهم ] أى : للموجودين من بعدهم [ من مثله ] أى : من مثل ذلك ، أى : جنسه [ ما يركبون ] به .

فذكر نعمته على الآباء ، بحملهم فى السفن ، لأن النعمة عليهم ، نعمة على الذرية .

وهذا الموضع من أشكل المواضع علىّ فى التفسير .

فإن ما ذكره كثير من المفسرين ، من أن المراد بالذرية الآباء ، مما لا يعهد فى القرآن إطلاق الذرية على الآباء .

بل فيه من الإبهام ، وإخراج الكلام عن موضوعه ، ما يأباه كلام رب العالمين ، وإرادته البيان والتوضيح لعباده .

وثَمَّ احتمال أحسن من هذا ، وهو أن المراد بالذرية ، الجنس ، وأنهم هم بأنفسهم ، لأنهم هم ، من ذرية بنى آدم .

ولكن ينقض هذا المعنى قوله [ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ] إن أريد : وخلقنا من مثل ذلك الفلك ، أى لهؤلاء المخاطبين ، ما يركبون من أنواع الفلك ، فيكون ذلك تكريراً للمعنى ، تأباه فصاحة القرآن .

فإن أريد بقوله [ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ] الإبل ، التى هى سفن البر ، استقام المعنى واتضح .

. . . . . . . . . . .

---

إلا أنه يبقى أيضاً ، أن يكون الكلام فيه تشويش ، فإنه لو أريد هذا المعنى ، لقال: « وآية لهم أنا حملناهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

فأما أن يقال فى الأول : حملنا ذريتهم ، وفى الثانى : حملناهم ، فإنه لا يظهر المعنى .

إلا أن يقال : الضمير عائد إلى الذرية ، والله أعلم بحقيقة الحال .

فلما وصلت فى الكتابة إلى هذا الموضع ، ظهر لى معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى .

وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله ، وبيانه التام من كل وجه ، للأمور الحاضرة والماضية ، والمستقبلة ، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله ، وكانت الفلك من آياته تعالى ، ونعمه على عباده ، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة ، ولم تزل موجودة فى كل زمان ، إلى زمان المواجهين بالقرآن .

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن ، وذكر حالة الفلك ، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك ، فى غير وقتهم ، وفى غير زمانهم ، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية ، الشراعية منها والبخارية ، والجوية السابحة فى الجو ، كالطيور ونحوها ، والمراكب البرية ، مما كانت الآية العظمى فيه لا توجد إلا فى الذرية ، نبّه فى الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال : [ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ] أى المملوء ركبانا وأمتعة .

لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

---

فحملهم الله تعالى ، ونجاهم بالأسباب التى علمهم الله إياها ، من الغرق .

ولهذا نبههم على نعمته عليهم ، حيث أنجاهم من الغرق ، مع قدرته على ذلك فقال :

[ وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ] أى : لاأحد يصرخ لهم ، فيعاونهم على الشدة ، ولا يزيل عنهم المشقة [ ولا هم ينقذون ] مما هم فيه .

[ إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ] حيث لم نغرقهم ، لطفا بهم ، وتمتيعا لهم ، إلى حين ، لعلهم يرجعون ، أو يستدركون ما فرط منهم .

[ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ] أى : من أحوال البرزخ والقيامة ، وما فى الدنيا من العقوبات [ لعلكم ترحمون ] .

أعرضوا عن ذلك ، فلم يرفعوا به رأسا ، ولو جاءتهم كل آية ، ولهذا قال :

[ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ] .

وفى إضافة الآيات إلى ربهم ، دليل على كمالها ووضوحها ، لأنه ما أبين من آيات الله ، ولا أعظم بيانا .

وإن من جملة تربية الله لعباده ، أن أوصل إليهم الآيات التى يستدلون بها على ما ينفعهم ، فى دينهم ودنياهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

---

[ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ] أى : من الرزق الذى منّ به الله عليكم ، ولو شاء لسلبكم إياه .

[ قال الذين كفروا للذين آمنوا ] معارضين للحق ، محتجين بالمشيئة : [ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم ] أيها المؤمنون [ إلا فى ضلال مبين ] حيث تأمرو ننا بذلك .

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم ، أو تجاهلهم الوخيم ، فإن المشيئة ، ليست حجة لعاص أبدا .

فإنه وإن كان ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإنه تعالى مكّن العباد ، وأعطاهم من القوة ، ما يقدرون على فعل الأمر ، واجتناب النهى .

فإذ تركوا ما أمروا به ، كان ذلك اختيارا منهم ، لا جبرا لهم ولا قهرا .

[ ويقولون ] على وجه التكذيب والاستعجال : [ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] .

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

---

قال الله تعالى : لايستبعدوا ذلك ، فإنه عن قريب [ماينظرون إلاصيحة واحدة] وهى نفخة الصور [تأخذهم] أى : تصيبهم [وهم يخصمون] أى : وهم لاهون عنها ، لم تخطر على قلوبهم فى حال خصومتهم ، وتشاجرهم فيما بينهم ، الذى لايوجد فى الغالب ، إلا وقت الغفلة .

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم،فإنهم لاينظرون ولايمهلون [فلا يستطيعون توصية] أى : لاقليلة ولا كثيرة [ولا إلى أهلهم يرجعون (١)] .

* النفخة الأولى ، نفخة الفزع والموت ، وهذه نفخة البعث والنشور .

فإذا نفخ فى الصور ، خرجوا من الأجداث والقبور ، ينسلون إلى ربهم أى يسرعون للحضور بين يديه ، لايتمكنون من التأنِّى والتأخر .

وفى تلك الحال ، يحزن المكذبون ، ويظهرون الحسرة والندم ، ويقولون :

[ياويلنا من بعثنا من مرقدنا] أي : من رقدتنا فى القبور ، لأنه ورد

---

(١) قوله « ولا إلى أهلهم يرجعون » أى : من أسواقهم وأشغالهم ، بلى يموتون فيها .

ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا
هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا
وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

---

فى بعض الأحاديث ، أن لأهل القبور رقدة ، قبيل النفخ فى الصور .

فيجابون ، ويقال لهم : [ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ] .

أى : هذا الذى الذى وعدكم الله به ، ووعدتكم به الرسل ، فظهر صدقهم ، رأىَ العين .

ولاتحسب أن ذكر الرحمن فى هذا الموضع ، لمجرد الخبر عن وعده ، وإنما ذلك للإخبار ، بأنه فى ذلك اليوم العظيم ،سيرون من رحمته ، مالا يخطر فى الظنون ، ولا حسب الحاسبون ، كقوله « الملك يومئذ الحق للرحمن » ، « وخشعت الأصوات للرحمن » ونحو ذلك ، مما يذكر اسمه الرحمن ، فى هذا .

[ إن كانت ] أى :ما كانت البعثة من القبور [إلا صيحة واحدة ] ينفخ إسرافيل فى الصور ، فتحيا الأجساد .

[ فإذا هم جميع لدينا محضرون ] الأولون والآخرون ، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم .

[ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ] لاينقص من حسناتها ، ولا يزاد فى سيئاتها .

[ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ] من خير أو شر .

فمن وجد خيرا ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

---

* لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله ، ذكر جزاء الفريقين .

فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم [ فى شغل فاكهون ] .

أى : فى شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها ، من كل ماتهواه النفوس ، وتلذه العيون ، ويتمناه المتمنون .

ومن ذلك لقاء العذارى الجميلات ، كما قال : [ هم وأزواجهم ] من الحور العين ، اللاتى قد جمعن حسن الوجوه والأبدان ، وحسن الأخلاق .

[ فى ظلال على الأرائك ] أى : السرر المزينة ، باللباس المزخرف الحسن .

[ متكئون ] عليها ، اتكاء دالا على كمال الراحة ، والطمأنينة ، واللذة .

[ لهم فيها فاكهة ] كثيرة ، من جميع أنواع الثمار اللذيذة ، من عنب وتين ، ورمان ، وغيرها .

[ ولهم ما يدعون ] أى : يطلبون ، فمهما طلبوه وتمنوه ، أدركوه .

ولهم أيضاً [ سلام ] حاصل لهم [ قولا من رب رحيم ] .

ففى هذا ، كلام الرب تعالى لأهل الجنة ، وسلامه عليهم ، وأكده بقوله :

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾
وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ
إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

[ قولا ] وإذا سلم عليهم الرب الرحيم ، حصلت لهم السلامة التامة ، من جميع الوجوه ، وحصلت لهم التحية ، التى لا تحية أعلى منها ، ولا نعيم مثلها .

فما ظنك بتحية ملك الملوك ، الرب العظيم ، الرءوف الرحيم ، لأهل دار كرامته ، الذين أحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبدا .

فلولا أن الله تعالى ، قدر أن يموتوا ، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح ، والبهجة ، والسرور ، لحصل ذلك .

فنرجو ربنا ، أن لا يحرمنا ذلك النعيم ، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

* لما ذكر تعالى جزاء المتقين ، ذكر جزاء المجرمين [ و ] أنهم يقال لهم يوم القيامة :

[ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ] أى : تميزوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة ، ليوبخهم ، ويقرعهم على رءوس الإشهاد ، قبل أن يدخلهم النار ، فيقول لهم :

[ ألم أعهد إليكم ] أى : ألم آمركم وأوصيكم ، على ألسنة رسلى ، وأقول لكم :

[ يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ] أى : لا تطيعوه ؟

مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ

---

وهذا التوبيخ ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصى ، لأنها كلها ، طاعة للشيطان ، وعبادة له .

[ إنه لكم عدو مبين ] فحذرتكم منه ، غاية التحذير ، وأنذرتكم عن طاعته ، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه ، [ و ] أمرتكم [ أن اعبدونى ] بامتثال أوامرى وترك زواجرى .

[ هذا ] أى : عبادتى وطاعتى ، ومعصية الشيطان [ صراط مستقيم ] .

فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ، ترجع إلى هذين الأمرين .

أى : فلم تحفظوا عهدى ، ولم تعملوا بوصيتى ، [ ولقد ] واليتم عدوكم ، وهو الشيطان ، الذى [ أضل منكم جبلا كثيرا ] أى : خلقا كثيرا .

[ أفلم تكونوا تعقلون ] .

أى : فلا كان لكم عقل ، يأمركم بموالاة ربكم ، ووليكم الحق ، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ، وليا ، فلو كان لكم عقل صحيح ، لما فعلتم ذلك .

فإذا أطعتم الشيطان ، وعاديتم الرحمن ، وكذبتم بلقائه ، ووردتم القيامة دار الجزاء ، وحق عليكم القول بالعذاب [ هذه جهنم التى كنتم توعدون ] وتكذبون بها ، فانظروا إليها عيانا ، فهناك تنزعج منهم القلوب ، وتزوغ الأبصار ، ويحصل الفزع الأكبر .

ثم يكمل ذلك ، بأن يؤمر بهم إلى النار ، ويقال لهم :

مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ

---

[ اصلوها[1] اليوم بما كنتم تكفرون ] أى : ادخلوها على وجه تصلاكم ، ويحيط بكم حرها ، ويبلغ منكم كل مبلغ ، بسبب كفركم بآيات الله ، وتكذيبكم لرسل الله .

قال تعالى فى بيان وصفهم الفظيع، فى دار الشقاء [اليوم نختم على أفواههم] بأن نجعلهم خرسا ، فلا يتكلمون ، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه ، من الكفر ، والتكذيب .

[ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ] أى : تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه ، وينطقها الذى أنطق كل شىء .

[ فلو نشاء لطمسنا على أعينهم ] بأن نُذْهِبَ أبصارهم ، كما طمسنا على نطقهم .

[ فاستبقوا الصراط ] أى : فبادروا إليه ، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة [ فأنى يبصرون ] وقد طمست أبصارهم .

[ولو نشاء لمسخناهم[2] على مكانتهم ]أى لأذهبنا حركتهم [ فما استطاعوا مضيا ] إلى الأمام [ ولا يرجعون ] إلى ورائهم ، ليبعدوا عن النار .

---

(١) اصلوها . أى : قاسوا وذوقوا حرها الشديد .

(٢) قوله « لمسخناهم » أى : لغيّرنا صورهم إلى صوز قبيحة ، كالقردة والخنازير ونحوها من الصور القبيحة .

وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

---

والمعنى : أن هؤلاء الكفار ، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم .

وفى ذلك الموطن ، ما ثَمَّ إلا النار ، قد برزت ، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط .

وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان ، الذين يمشون فى نورهم .

وأما هؤلاء ، فليس لهم عند الله فى عهد فى النجاة من النار .

فإن شاء طمس أعينهم ، وأبقى حركتهم ، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه .

وإن شاء ، أذهب حراكهم ، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر .

والمقصود : أنهم لا يعبرونه ، ولا تحصل لهم النجاة .

* يقول تعالى : [ ومن نعمره ] من بنى آدم [ ننكسه فى الخلق ] .

أى : يعود إلى الحالة التى ابتدأ منها ، حالة الضعف ، ضعف العقل ، وضعف القوة .

[ أفلا يعقلون ] أن الآدمى ناقص من كل وجه ، فيتداركوا قولهم وعقولهم ، فيستعملوها فى طاعة ربهم .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* ينزه تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، عما رماه به المشركون ، من أنه شاعر ، وأن الذى جاء به شعر فقال :

[ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ] أن : يكون شاعرا ، أى : هذا من جنس المحال ، أن يكون شاعرا ، لأنه رشيد مهتد ، والشعراء غاوون ، يتبعهم الغاوون .

ولأن الله تعالى ، حسم جميع الشبه ، التى يتعلق بها الضالون ، عن رسوله .

فحسم أن يكون ، يكتب أو يقرأ ، وأخبر أنه ، ما علمه الشعر ، وما ينبغى له(١) [ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ] أي : ما هذا الذى جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب ، جميع المطالب الدينية ، فهو مشتمل عليها ، أتم اشتمال وهو يذكر العقول ، ما ركز الله فى فطرها من الأمر ، بكل حسن ، والنهى عن كل قبيح .

[ وقرآن مبين ] أى مبين لما يطلب بيانه ، ولهذا حذف المعمول ،ليدل على أنه مبين لجميع الحق ، بأدلته التفصيلية ، والإجمالية ، والباطل وأدلة بطلانه ، أنزله الله كذلك على رسوله .

---

(١) أى : لا يصح ولا يليق ـ لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة ـ أن يكون شاعراً ، لأن الشعراء من الطبقة المنحطة الغاوية .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ
لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

---

[ لينذر من كان حيا ] أى : حى القلب واعيه ، فهو الذى يزكو على هذا القرآن ، وهو الذى يزداد من العلم منه والعمل ، ويكون القرآن لقلبه، بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية .

[ويحق القول على الكافرين] لأنهم قامت عليهم به حجة الله ، وانقطع احتجاجهم ، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها .

* يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها ، وجعلهم مالكين لها ، مطاوعة لهم فى كل أمر يريدونه منها ، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم ، وحمل أثقالهم ، ومحاملهم ، وأمتعتهم ، من محل إلى محل ، ومن أكلهم منها ، وفيها دفء ، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين .

وفيها زينة وجمال ، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها .

[أفلا يشكرون] الله تعالى الذى أنعم بهذه النعم ، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة .

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

---

* هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التى اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها «أى: شفاعتها ووساطتها بينهم وبين الله».

فإنها فى غاية العجز [لا يستطيعون نصرهم] ولا أنفسهم ينصرون.

فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟

والنصر له شرطان: الاستطاعة، والقدرة.

فإذا استطاع، يبقى؛ هل يريد نصرة من عبده أم لا؟

فَنَفْىُ الاستطاعة، ينفى الأمرين كليهما.

[وهم لهم جند محضرون] أى: محضرون، هم وهم فى العذاب، ومتبرئ، بعضهم من بعض.

أفلا تبرأوا فى الدنيا، من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة، للذى بيده الملك والنفع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولى النصير؟

* أى فلا يحزنك، يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون به فى الرسول، أو فيما جاء به.

أى: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم [إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون] فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئًا.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ

---

* وهذه الآيات الكريمات ، فيها ، ذكر شبهة منكرى البعث، والجواب عنها ، بأتم جواب ، وأحسنه ، وأوضحه ، فقال تعالى :

[ أو لم ير الإنسان ] المنكر للبعث أو الشاك فيه ، أمرا يفيده اليقين التام بوقوعه وهو : [ أنا خلقناه ] ابتداء [ من نطفة ] ثم تنقله فى الأطوار شيئا فشيئا ، حتى كبر وشب ، وتم عقله ، واستتب .

[ فإذا هو خصيم مبين ] بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة .

فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين ، وليعلم أن الذى أنشأه من العدم ، قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق ، من باب أولى .

[ وضرب لنا مثلا ] لا ينبغى لأحد أن يضربه ، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق ، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق ، مستبعد على قدرة الخالق .

فسر هذا المثل بقوله [ قال ] ذلك الإنسان [ من يحيي العظام وهى رميم ] .

أى : هل أحد يحييها ؟ استفهام إنكار ، أى : لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت .

هذا وجه الشبهة والمثل ، وهو أن هذا أمر ، فى غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر .

وهذا القول الذى صدر من هذا الإنسان ، غفلة منه ، ونسيان لابتداء خلقه .

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

فلو فطن لخلقه ، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ، فوجد عيانا،لم يضرب هذا المثل .

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد ، بجواب شاف كاف فقال :

[ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ] وهذا بمجرد تصوره ، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه ، أن الذى أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ، ثانى مرة، وهو أهون على القدرة ، إذا تصوره المتصور [ وهو بكل خلق عليم ] .

هذا أيضا دليل ثان من صفات الله تعالى ، وهو أن علمه تعالى ، محيط بجميع مخلوقاته فى جميع أحوالها ، فى جميع الأوقات .

ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات ، وما يبقى ، ويعلم الغيب والشهادة

فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم ، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم .

ثم ذكر دليلا ثالثا فقال : [ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ] فإذا أخرج النار اليابسة ، من الشجر الأخضر ، الذي هو غاية الرطوبة ، مع تضادهما ، وشدة تخالفهما ، فإخراجه الموتى من قبورهم ، مثل ذلك .

ثم ذكر دليلا رابعا فقال : [ أوليس الذى خلق السموات والأرض ] على سعتهما وعظمهما [ بقادر على أن يخلق مثلهم ] أى : أن يعيدهم بأعيانهم .

عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى

---

[ بلى ] قادر على ذلك ، فإن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس .

[ وهو الخلاق العليم ] وهذا دليل خاص ، فإنه تعالى الخلاق،الذى جميع المخلوقات ، متقدمها ، ومتأخرها ، صغيرها ، وكبيرها ـ كلها أثر من آثار خلقه وقدرته ، وأنه لا يستعصى عليه مخلوق أراد خلقه .

فإعادته للأموات ، فرد من أفراد آثار خلقه ، ولهذا قال :

[ إنما أمره إذا أراد شيئا ] نكرة فى سياق الشرط ، فتعم كل شىء .

[ أن يقول له كن فيكون ] أى : فى الحال من غير تمانع .

[ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ] وهذا دليل سادس ، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شىء،الذى جميع ما سكن فى العالم العلوى والسفلى ملك له ، وعبيد مسخرون مدبرون ، يتصرف فيهم بأقداره الحكيمة ، وأحكامه الشرعية ، وأحكامه الجزائية .

فإعادته إياهم بعد موتهم ، لينفذ فيهم حكم الجزاء ، من تمام ملكه ، ولهذا قال :

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[ وإليه ترجعون ] من غير امتراء ولا شك ، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة ، على ذلك .

فتبارك الذى جعل فى كلامه ، الهدى والشفاء ، والنور .

تم تفسير سورة « يس » فلله تعالى الحمد كما ينبغى لجلاله

وله الثناء كما يليق بكماله ، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه

وصلى الله على محمد وآله وسلم

تفسير

# سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* هذا قسم منه تعالى ، بالملائكة الكرام ، فى حال عباداتها ، وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها ، على ألوهيته تعالى ، وربوبيته فقال :

[ والصافات صفا ] أى : صفوفا فى خدمة ربهم ، وهم الملائكة .

[ فالزاجرات زجرا ] وهم الملائكة ، يزجرون السحاب وغيره ، بأمر الله .

[ فالتاليات ذكرا ] وهم : الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى .

فلما كانوا متألهين لربهم ، ومتعبدين فى خدمته ، ولا يعصونه طرفة عين ، أقسم بهم على ألوهيته فقال :

[ إن إلهكم لواحد ] ليس له شريك فى الإلهية ، فأخلصوا له الحب ، والخوف ، والرجاء ، وسائر أنواع العبادة .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ
ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ
إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ

---

[ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ] أى : هو الخالق لهذه المخلوقات ، الرازق لها ، المدبر لها .

فكما أنه لا شريك له فى ربوبيته إياها ، فكذلك لا شريك له فى ألوهيته .

وكثيرا ما يقرن تعالى ، توحيد الإلهية ، بتوحيد الربوبية ، لأنه دال عليه .

وقد أقر به أيضا المشركون فى العبادة ، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه .

وخص الله المشارق بالذكر ، لدلالتها على المغارب ، أو لأنها مشارق النجوم ، التى سيذكرها ، فلهذا قال :

[ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب*وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ] .

ذكر الله فى الكواكب ، هاتين الفائدتين العظيمتين :

إحداهما : كونها زينة للسماء ، إذ لولاها ، لكانت السماء مظلمة ، لاضوء فيها .

ولكن زينها بها لتستنير أرجاؤها ، وتحسن صورتها ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل .

عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن

---

والثانية : حراسة السماء ، عن كل شيطان مارد ، يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى ، وهم : الملائكة .

فإذا استمعوا [ يقذفون ] بالشهب الثواقب [ من كل جانب ] طردا لهم ، وإبعادا إياهم ، عن استماع ما يقول الملأ الأعلى .

[ ولهم عذاب واصب ] أى : دائم ، معد لهم ، لتمردهم عن طاعة ربهم .

ولولا أنه تعالى استثنى ، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئا أصلا ، ولكن قال :

[ إلا من خطف الخطفة ] أى : إلا من تلقف من الشياطين المردة ، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة [ فأتبعه شهاب ثاقب ] تارة ، يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه ، فينقطع خبر السماء .

وتارة يخبر بها ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيكذبون معها مائة كذبة ، يروجونها بسبب الكلمة ، التى سمعت من السماء .

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال : [ فاستفتهم ] أى : اسأل منكرى خلقهم بعد موتهم .

[ أهم أشد خلقا ] أى : إيجادهم بعد موتهم ، أشد خلقا وأشق ؟ .

[ أم من خلقنا ] من هذه المخلوقات ؟

فلا بد أن يقروا أن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس .

فيلزمهم إذاً ، الإقرار بالبعث ، بل لو رجعوا إلى أنفسهم ، وفكروا

طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا
لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ

---

فيها ، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب ، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم ، ولهذا قال :

[ إنا خلقناهم من طين لازب[1] ] أى : قوى شديد كقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » .

* [ بل عجبت ] أيها الرسول ، أو أيها الإنسان ، من تكذيب من كذب بالبعث ، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة ، والأدلة المستقيمة .

وهو حقيقة ، محل عجب واستغراب ، لأنه مما لا يقبل الإنكار .

[ و ] أعجب من إنكارهم وأبلغ منه ، أنهم [ يسخرون ] ممن جاء بالخبر عن البعث .

فلم يكفهم مجرد الإنكار ، حتى زادوا السخرية ، بالقول الحق .

[ و ] من العجب أيضاً أنهم [ إذا ذكروا ] ما يعرفون فى فطرهم وعقولهم ، وفطنوا له ، ولفت نظرهم إليه [ لا يذكرون ] ذلك .

فإن كان جهلا ، فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة حيث ذكروا ما هو مستقر فى الفطرة ، معلوم بالعقل ، لا يقبل الإشكال

---

(١) لازب . أى : ملتزق بعض ببعضه ويلتزق باليد ، لاشتداده .

هَٰذَآ إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

---

وإن كان تجاهلا وعناداً ، فهو أعجب وأغرب .

ومن العجب أيضاً ، أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة . وذكروا الآيات التى يخضع لها فحول الرجال ، وألباب الألباء ، يسخرون منها ويعجبون .

ومن العجب أيضاً ، قولهم للحق لما جاءهم : [ إن هذا إلا سحر مبين ] .

فجعلوا أعلى الأشياء ، وأجلها ، وهو الحق ، فى رتبة أخس الأشياء وأحقرها .

ومن العجب أيضاً ، قياسهم قدرة رب الأرض والسموات ، على قدرة الآدمى الناقص من جميع الوجوه ، فقالوا استبعاداً وإنكارا :

[ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون ] .

ولما كان هذا منتهى ما عندهم ، وغاية ما لديهم ، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم فقال :

[ قل نعم ] ستبعثون ، أنتم وآباؤكم الأولون [ وأنتم داخرون ] ذليلون صاغرون ، لا تمتنعون ، ولا تستعصون على قدرة الله .

[ فإنما هى زجرة واحدة ] ينفخ إسرافيل فيها فى الصور [ فإذا هم ] مبعوثون من قبورهم [ ينظرون ] كما ابتدىء خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم ، حفاة عراة غرلا .

وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

---

وفى تلك الحال، يظهرون الندم، والخزى، والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

[ وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ] « أى : هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال » فقد أقروا بما كانوا فى الدنيا به يهزأون.

فيقال لهم [ هذا يوم الفصل ] بين العباد فيما بينهم، وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم، وبين غيرهم من الخلق.

* أى إذا حضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار؛ التى بها كانوا يكذبون؛ فيقال :

[ احشروا الذين ظلموا ] أنفسهم بالكفر والشرك؛ والمعاصى [ وأزواجهم ] الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه فى العمل.

[ وما كانوا يعبدون من دون الله ] من الأصنام والأنداد. التى زعموها.

اجمعوهم جميعاً [ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ] أى : سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم.

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ

---

[ و ] بعد ما يتعين أمرهم إلى النار ، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار ، يقال : [ وقفوهم ] قبل أن توصلوهم إلى جهنم [ إنهم مسئولون ] عما كانوا يفترونه فى الدنيا ، ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم .

فيقال لهم : [ مالكم لا تناصرون ] أى : ما الذى جرى عليكم اليوم ؟ وما الذى طرقكم حتى لا ينصر بعضكم بعضا ، ولا يغيث بعضكم بعضا ، بعد ما كنتم تزعمون فى الدنيا ، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب ، وتغيثكم ، أو تشفع لكم عند الله .

فكأنهم لا يجيبون على هذا السؤال ، لأنهم قد علاهم الذل والصغار ، واستسلموا لعذاب النار ، وخشعوا وخضعوا ، وأبلسوا ، فلم ينطقوا .

ولهذا قال : [ بل هم اليوم مستسلمون ] « أى: منقادون أذلاء ، فكلهم مستسلم غير منتصر » .

* لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم ، وهدوا إلى صراط الجحيم ، ووقفوا ، فسئلوا ، فلم يجيبوا ، وأقبلوا فيما بينهم ، يلوم بعضهم بعضا ، على إضلالهم وضلالهم .

فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء : [ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ] أى : بالقوة والغلبة ، فتضلوننا[1] ، ولو لا أنتم لكنا مؤمنين .

---

(١) يعنى أنكم كنتم تحملوننا على الضلال وتجبروننا ـ بالقوة ـ عليه .

إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ
إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

---

[ قالوا ] لهم [ بل لم تكونوا مؤمنين ] أى : ما زلتم مشركين ، كما نحن مشركون .

فأى شيء فضلكم علينا ؟ وأى شيء يوجب لومنا [ و ] الحال أنه [ ما كان عليكم من سلطان ] أى قهر لكم على اختيار الكفر [ بل كنتم قوما طاغين ] متجاوزين للحق .

[ فحق علينا ] « فلزمنا جميعا » نحن وإياكم [ قول ربنا إنا لذائقون ] العذاب .

أى : حق علينا قدر ربنا ، وقضاؤه ، أنا وإياكم سنذوق العذاب ، ونشترك فى العقاب .

[ ف ] لذلك [ أغويناكم إنا كنا غاوين ] أى : دعوناكم إلى طريقتنا التى نحن عليها ، وهى الغواية ، فاستجبتم لنا ، فلا تلومونا ، ولوموا أنفسكم .

قال تعالى : [ فإنهم يومئذ ] أى يوم القيامة [ فى العذاب مشتركون ] وإن تفاوتت مقادير عذابهم ، بحسب جرمهم .

كما اشتركوا فى الدنيا على الكفر ، اشتركوا فى الآخرة بجزائه ، ولهذا قال :

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ
ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

---

[ إنا كذلك نفعل بالمجرمين(١) ] ثم ذكر أن إجرامهم ، قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال :

[ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله ] فدعوا إليها ، وأمروا بترك إلهية ما سواه [ يستكبرون ] عنها ، وعلى من جاء بها .

[ ويقولون ] معارضة لها [ أإنا لتاركو آلهتنا ] التى لم نزل نعبدها ، نحن وآباؤنا [ لقول شاعر مجنون ] يعنون : محمد صلى الله عليه وسلم .

فلم يكفهم قبحهم الله ، الإعراض عنه ، ولا مجرد تكذيبه ، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام ، وجعلوه شاعرا مجنونا ، وهم يعلمون ، أنه لا يعرف الشعر والشعراء ، ولا وصفه وصفهم ، وأنه أعقل خلق الله ، وأعظمهم رأيا .

ولهذا قال تعالى ، ناقضا لقولهم : [ بل جاء ] محمد [بالحق ] أى : مجيئه حقا ، وما جاء به من الشرع والكتاب حق .

[ وصدّق المرسلين ] أى : ومجيئه صدق المرسلين ، فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين ، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا ، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق ، لئن جاءهم ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأخذوا ذلك على أممهم .

---

(١) أى : إن مثل ذلك العذاب نفعل بالذين أجرموا فى حق الله بالشرك وفعل المعاصى .

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

---

فلما جاء ، ظهر صدق الرسل الذين قبله ، وتبين كذب من خالفهم .

فلو قدر عدم مجيئه ، وهم قد أخبروا به ، لكان ذلك قادحا فى صدقهم .

وصدق أيضاً المرسلين ، بأن جاء بما جاءوا به ، ودعا إلى ما دعو إليه ، وآمن بهم ، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم ، وشرعهم .

ولما كان قولهم السابق [ إنا لذائقون ] قولا صادراً منهم ، يحتمل أن يكون صدقا أو غيره ، أخبر تعالى بالقول الفصل الذى لا يحتمل غير الصدق واليقين ، وهو الخبر الصادق منه تعالى فقال :

[ إنكم لذائقو العذاب الأليم ] أى المؤلم الموجع [ وما تجزون ] فى إذاقة العذاب الأليم [ إلا ما كنتم تعملون ] فلم نظلمكم ، وإنما عدلنا فيكم ؟

ولما كان هذا الخطاب ، لفظه عاما ، والمراد به : المشركون ؛ استثنى تعالى المؤمنين فقال :

[ إلا عباد الله المخلصين ] إلى [ مكنون ] .

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

---

* يقول تعالى : [ إلا عباد الله المخلصين ] فإنهم غير ذائقى العذاب الأليم ، لأنهم أخلصوا لله الأعمال ، فأخلصهم ، واختصهم برحمته ، وجاد عليهم بلطفه .

[ أولئك لهم رزق معلوم ] أى : غير مجهول ، وإنما هو رزق عظيم جليل ، لايجهل أمره ، ولا يبلغ كنهه .

فسره بقوله : [ فواكه ] من جميع أنواع الفواكه ، التى تتفكه بها النفس ، للذتها فى لونها وطعمها .

[ وهم مكرمون ] لا مهانون محتقرون ، بل معظمون مبجلون موقرون .

قد أكرم بعضهم بعضاً ، وأكرمتهم الملائكة الكرام ، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب ، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب .

وأكرمهم أكرم الأكرمين ، وجاد عليهم بأنواع الكرامات ، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان .

[ فى جنات النعيم ] أى : الجنات ، التى النعيم وصفها ، والسرور نعتها .

وذلك لما جمعته ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وسلمت من كل مايخل بنعيمها ، من جميع المكدرات والمنغصات .

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ

---

ومن كرامتهم عند ربهم ، وإكرام بعضهم بعضا ، أنهم على [ سرور ] وهى المجالس المرتفعة ، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة ، المزخرفة المجملة ، فهم متكئون عليها ، على وجه الراحة والطمأنينة ، والفرح .

[ متقابلين ] فيما بينهم .

قد صفت قلوبهم ، ومحبتهم فيما بينهم ، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض .

فإن مقابلة وجوههم ، تدل على تقابل قلوبهم ، وتأدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره ، أو يجعله إلى جانبه .

بل من كمال السرور والأدب ، ما دل عليه ذلك التقابل .

[ يطاف عليهم بكأس من معين ] أى : يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم ، بالأشربة اللذيذة ، بالكاسات الجميلة المنظر ، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك ، وهى كاسات الخمر .

وتلك الخمر ، تخالف خمر الدنيا من كل وجه ، فإنها فى لونها [ بيضاء ] من أحسن الألوان ، وفى طعمها [ لذة للشاربين ] يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده .

وأنها سالمة [ لا فيها غول ] العقل وذهابه ، ونزفه ، ونزف مال صاحبها ، وليس فيها صداع ولا كدر .

فلما ذكر طعامهم وشربهم ، ومجالسهم ، وعموم النعيم وتفاصيله ، داخلة فى قوله « جنات النعيم » .

لـكن فصل هذه الأشياء ، لتعـلم ، فتشتاق النفوس إليها ، ذكر أزواجهم فقال :

[ وعندهم قاصرات الطرف عين ] أى : وعند أهل دار النعيم ، فى محلاتهم القريبة ، حور حسان ، كاملات الأوصاف ، قاصرات الطرف .

إما أنها قصرت طرفها على زوجها ، لعفتها ، وعدم مجاوزته لغيره ، ولجمال زوجها وكماله ، بحيث لا تطلب فى الجنـة سواه ، ولا ترغب إلا به .

وإما ، لأنها قصرت طرف زوجها عليها ، وذلك يدل على كمالها ، وجمالها الفائق ، الذى أوجب لزوجها ، أن يقصر طرفه عليها .

وقصر الطرف أيضا ، يدل على قصر النفس والمحبة عليها .

وكلا المعنيين محتمل ، وكلاهما صحيح .

وكل هذا ، يدل على جمال الرجال والنساء فى الجنة ، ومحبة بعضهم بعضاً ، محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره .

ويدل على شدة عفتهم كلهم ، وأنه لاحسد فيها ولا تباغض ، ولا تشاحن وذلك لانتفاء أسبابه .

[ عين ] أى : حسان الأعين جميلاتها ، ملاح الحدق .

[ كأنهن ] أى : الحور [ بيض مكنون ] أى : مستور ، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها ، ليس فيه كدر ولا شين .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم

---

* لما ذكر تعالى نعيمهم ، وتمام سرورهم ، بالمآكل والمشارب ، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، وصف تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث ، عن الأمور الماضية ، وأنهم ما زالوا فى المحادثة والتساؤل ، حتى أفضى ذلك بهم ، إلى أن قال قائل منهم :

[ إنى كان لى قرين ] فى الدنيا ، ينكر البعث ، ويلومنى على تصديقى به و [ يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون ] أى : مجازون بأعمالنا ؟

أى : كيف تصدق بهذا الأمر البعيد ، الذى فى غاية الاستغراب ، وهو أننا ، إذا تمزقنا ، فصرنا ترابا وعظاما ، أننا نبعث ونعاد ، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا ؟!! .

أى : يقول صاحب الجنة لإخوانه : هذه قصتى ، وهذا خبرى ، أنا وقرينى .

مازلت أنا مؤمنا مصدقا ، وهو ما زال مكذبا منكرا للبعث ، حتى متنا ، ثم بعثنا .

فوصلت أنا إلى ما ترون ، من النعيم ، الذى أخبرتنا به الرسل ، وهو لا شك ، أنه قد وصل إلى العذاب .

مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ
إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ
ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ

---

[ قال هل أنتم مطلعون ] لننظر إليه ، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه ، ويكون ذلك رَأْيَ عين ؟

والظاهر من حال أهل الجنة ، وسرور بعضهم ببعض ، وموافقة بعضهم بعضاً ، أنهم أجابوه لما قال ، وذهبوا تبعاً له ، للاطلاع على قرينه .

[ فاطلع فرآه ] أى : رأى قرينه [ فى سواء الجحيم ] ، أى : فى وسط العذاب وغمراته ، والعذاب قد أحاط به .

[ قال ] له ، لائماً على حاله وشاكراً لله ، على أن نجاه من كيده .

[ تالله إن كدت لتردينى ] أى : تهلكنى بسبب ما أدخلت علىّ من الشُّبَه بزعمك .

[ ولولا نعمة ربى ] على أن ثبتنى على الإسلام [ لكنت من المحضرين ] فى العذاب معك [ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ] .
أى : يقوله المؤمن ، مبتهجا بنعمة الله ؛ على أهل الجنة ؛ بالخلود الدائم فيها ؛ والسلامة من العذاب : استفهام بمعنى الإثبات والتقرير .

وقوله [ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ] وحذف المعمول ؛ والمقام مقام لذة وسرور ؛ يدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به ؛ والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال .

بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

---

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم ، والبحث عنه ، فوق اللذات الجارية فى أحاديث الدنيا ؛ فلهم من هذا النوع ، النصيب الوافر.

ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية فى الجنة ، مالا يمكن التعبير عنه .

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة ، مدحه ، وشوّق العاملين ، وحثّهم على العمل له فقال :

[ إن هذا لهو الفوز العظيم ] الذى حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهى ، واندفع عنهم به ، كل محذور ومكروه .

فهل فوز يطلب فوقه ؟ أم هو غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات ، وفرحوا بقربه ، وتنعموا بمعرفته وسروا برؤيته ، وطربوا لكلامه ؟ .

[ لمثل هذا فليعمل العاملون ] فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس .

والحسرة كل الحسرة ، أن يمضى على الحازم ، وقت من أوقاته ، وهو غير مشتغل بالعمل ، الذى يقرب لهذه الدار ، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار ؟!! .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ

---

* [ أذلك خير نزلا ] أى : ذلك النعيم الذى وصفناه لأهل الجنة ،خير ، أم العذاب الذى يكون فى الجحيم ، من جميع أصناف العذاب ؟ .

فأى الطعامين أولى ؟ الطعام الذى وصف فى الجنة [ أم ] طعام أهل النار ؟ وهو [ شجرة الزقوم . إنا جعلنا فتنة ] أى عذابا ونكالا [للظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى .

[ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ] أى : وسطه فهذا مخرجها ، ومعدنها شر المعادن وأسوأها .

وشر المغرس ، يدل على شر الغراس وخسته ، ولهذا نبهنا الله على شرها، بما ذكر أين تنبت به ، وبما ذكر من صفة ثمرتها .

وأن [ طلعها كأنه رءوس الشياطين ] فلا تسأل بعد هذا ، عن طعمها، وما تفعل فى أجوافهم وبطونهم ، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل .

ولهذا قال : [ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ] فهذا طعام أهل النار ، فبئس الطعام طعامهم ، ثم ذكر شرابهم فقال :

[ ثم إن لهم عليها ] أى : على أثر هذا الطعام [ لشوبا من حميم ] .
أى : ماء حارا ، قد تناهى حره ، كما قال تعالى « وإن يستغيثوا يغاثوا

مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ

---

بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » وكما قال تعالى « وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم » .

[ ثم إن مرجعهم ] أى مآلهم ومقرهم ومأواهم [ لإلى الجحيم ] ، ليذوقوا من عذابه الشديد ، وحره العظيم ، ما ليس عليه مزيد من الشقاء .

وكأنه قيل : ما الذى أوصلهم إلى هذه الدار ؟ فقال :

[ إنهم ألفوا ] أى وجدوا [ آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون ] أى . يسرعون فى الضلال .

فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين .

بل عارضوهم بأن قالوا « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

[ ولقد ضل قبلهم ] أى:قبل هؤلاء المخاطبين [ أكثر الأولين ] وقليل منهم ، من آمن واهتدى .

و[ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ] ينذرونهم من غيهم وضلالهم [ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ] كانت عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم ، فيصيبهم مثل ما أصابهم .

عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

---

ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين . بل منهم من آمن ، وأخلص الدين لله ، استثناهم الله من الهلاك فقال :

[ إلا عباد الله المخلصين ] أى : الذين أخلصهم الله ، وخصهم برحمته لإخلاصهم ، فإن عواقبهم صارت حميدة .

ثم ذكر نموذجا من عواقب الأمم المكذبين فقال : [ ولقد نادانا نوح] إلى [ ثم أغرقنا الآخرين ] .

* يخبر تعالى عن عبده ورسوله ، نوح عليه السلام ، أول الرسل . أنه لما دعا قومه إلى الله ، تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه ، إلا فرارا ، أنه نادى ربه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » الآية .

وقال [ رب انصرنى على القوم المفسدين ] .

فاستجاب الله له ، ومدح تعالى نفسه فقال [ فلنعم المجيبون ] لدعاء الداعين ، وسماع تبتلهم وتضرعهم .

أجابه إجابة ، طابقت ما سأل ، فنجاه وأهله من الكرب العظيم ، وأغرق جميع الكافرين ، وأبقى نسله وذريته متسلسلين ، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام .

وجعل له ثناء حسنا مستمراً إلى وقت الآخرين ، وذلك لأنه محسن فى عبادة الخالق ، محسن إلى الخلق .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾
وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً

---

وهذه سنته تعالى فى المحسنين ، أن ينشر لهم من الثناء ، على حسب إحسانهم .

ودل قوله : [ إنه من عبادنا المؤمنين ] أن الإيمان أرفع منازل العباد وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين ، وأصوله ، وفروعه ، لأن الله مدح به خواص خلقه .

* أي : وإن من شيعة نوح عليه السلام ، ومن هو على طريقته فى النبوة والرسالة ، ودعوة الخلق إلى الله ، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام [ إذ جاء ربه بقلب سليم ] من الشرك والشبه ، والشهوات المانعة من تصور الحق ، والعمل به .

وإذا كان قلب العبد سليما ، سلم من كل شر ، وحصل له كل خير .

ومن سلامته ، أنه سليم من غش الخلق وحسدهم ، وغير ذلك من مساوىء الأخلاق ، ولهذا نصح الخلق فى الله ، وبدأ بأبيه وقومه فقال:

[ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ] هذا استفهام على وجه الإنكار ، وإلزام لهم بالحجة .

دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً
فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾
فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾

---

[ أإفكا آلهة دون الله تريدون ] أى : أتعبدون من دون الله آلهة كذباً ، ليست بآلهة ، ولا تصلح للعبادة ، فما ظنكم برب العالمين ، أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره ؟

وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب ، على الإقامة على شركهم .

[فما ظنكم برب العالمين] أى : وما الذى ظننتم برب العالمين ، من النقص حتى جعلتم له أندادا وشركاء .

فأراد عليه السلام ، أن يكسر أصنامهم ، ويتمكن من ذلك ، فانتهز الفرصة ، فى حين غفلة منهم ، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم ، فخرج معهم [ فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم ] .

فى الحديث الصحيح «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات : قوله« إنى سقيم » وقوله «بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله عن زوجته « إنها أختى» .

والقصد أنه تخلف عنهم ، ليتم له الكيد بآلهتهم [ ف ] لهذا [ تولوا عنه مدبرين ] فوجد الفرصة .

[ فراغ إلى آلهتهم ] أى : أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة .

[فقال] متهكما بها [ ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون] أى : فكيف

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا

---

يليق أن تعبد ، وهى أنقص من الحيوانات ، التى تأكل وتتكلم ؟ وهذه جمادات لا تأكل ولا تتكلم .

[ فراغ[1] عليهم ضربا باليمين ] أى : جعل يضربها بقوته ونشاطه ، حتى جعلها جذاذا ، إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون .

[فأقبلوا إليه يزفون] أى: يسرعون ويهرعون ، ويريدون أن يوقعوا به ، بعد ما بحثوا وقالوا : « من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » .

وقيل لهم « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » يقول « تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فوبخوه ولاموه ، فقال « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم » الآية .

و[ قال ] هنا : [ أتعبدون ما تنحتون ] أى : تنحتونه بأيديكم وتصنعونه ؟

فكيف تعبدونهم ، وأنتم الذين صنعتموهم ، وتتركون الإخلاص لله؟.

[ والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنيانا ] أى . عاليا مرتفعاً ،

---

( ١ ) فراغ . أى : مال إليها خفية ليحطمها .

فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾
رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

---

وأوقدوا فيه النار [ فألقوه فى الجحيم ] جزاء على ما فعل ، من تكسير آلهتهم .

[ فأرادوا به كيدا ] ليقتلوه ، أشنع قتلة [ فجعلناهم الأسفلين ] رد الله كيدهم فى نحورهم ، وجعل النار على إبراهيم بردا وسلاما .

[ و ] لما فعلوا فيه هذا الفعل ، وأقام عليهم الحجة ، وأعذر منهم [ قال إنى ذاهب إلى ربى ] أى : مهاجر إليه ، قاصد إلى الأرض المباركة ، أرض الشام .

[ سيهدين ] يدلنى على ما فيه الخير لى ، من أمر دينى ودنياي .

وقال فى الآية الأخرى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا » .

[ رب هب لى ] ولدا يكون [ من الصالحين ] وذلك ، عند ما أيس من قومه ، ولم يرفيهم خيراً ، دعا الله أن يهب له غلاما صالحا ، ينفع الله به فى حياته ، وبعد مماته .

فاستجاب الله له وقال : [ فبشرناه بغلام حليم ] وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك ، فإنه ذكر بعده البشارة ، وبإسحق ، ولأن الله تعالى قال فى بشراه بإسحق « فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب » .

فدل على أن إسحق غير الذبيح .

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم ، وهو يتضمن الصبر ، وحسن

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ

---

الخلق ، وسعة الصدر والعفو ، عمن جنى .

[ فلما بلغ ] الغلام [ معة السعى ] أى : أدرك أن يسعى معه ، وبلغ سنا يكون فى الغالب ، أحب ما يكون لوالديه ، قد ذهبت مشقته ، وأقبلت منفعته .

فقال له إبراهيم عليه السلام : [ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ] .

أى : قد رأيت فى النوم.والرؤيا ،أن الله يأمرنى بذبحك،ورؤيا الأنبياء وحى [ فانظر ماذا ترى ] فإن أمر الله تعالى ، لا بد من تنفيذه .

[ قال ] إسمعيل صابرا محتسبا ، مرضيا لربه ، وبارا بولده :

[ يا أبت افعل ما تؤمر ] أى : امض لما أمرك الله [ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ] .

أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر ، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى ، لأنه لا يكون شىء بدون مشيئة الله .

[ فلما أسلما ] أى : إبراهيم وابنه إسماعيل : إبراهيم جازما بقتل ابنه وثمرة فؤاده ، امتثالا لأمر ربه ، وخوفا من عتابه .

والابن قد وطَّن نفسه على الصبر ، وهانت عليه فى طاعة ربه ، ورضا والده .

أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ

---

[ وتله[1] للجبين ] أى : تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ، ليضجعه فيذبحه ، وقد انكب لوجهه ، لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه .

[ وناديناه ] فى تلك الحال المزعجة ، والأمر المدهش [ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ] أى قد فعلت ما أمرت به ، فإنك وطّنت نفسك على ذلك ، وفعلت كل سبب ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه [ إنا كذلك نجزى المحسنين ] فى عبادتنا ، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم .

[ إن هذا ] الذى امتحنا به إبراهيم عليه السلام [ لهو البلاء المبين ] أى : الواضح ، الذى تبين به صفاء إبراهيم ، وكمال محبته لربه ، وخلته .

فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم ، أحبه حبا شديداً ، وهو خليل الرحمن ، والخلة أعلى أنواع المحبة ، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضى أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب .

فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه ، بابنه إسماعيل ، أراد تعالى أن يصفى وُدَّه ويختبر خلته .

فأمره أن يذبح ، من زاحم حبه ، حب ربه .

فلما قدم حب الله ، وآثره على هواه ، وعزم على ذبحه ، وزال ما فى القلب من المزاحم ، بقى الذبح لا فائدة فيه ، فلهذا قال : [ إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم ] أى : صار بدله ذبح من الغنم عظيم ، ذبحه إبراهيم .

---

(١) تله . أى : صرعه وألقاه على إحدى جبينيه . ولكل إنسان جبينان ، بينهما الجبهة .

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

---

فكان عظيما من جهة أنه كان فداء لإسماعيل .

ومن جهة أنه ، من جملة العبادات الجليلة .

ومن جهة أنه كان قربانا وسنة إلى يوم القيامة .

[ وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم ] أى : وأبقينا عليه ثناء صادقا فى الآخرين ، كما كان فى الأولين .

فكل (١) وقت بعد إبراهيم عليه السلام ، فإنه فيه محبوب معظم مَثْنِىٌّ عليه .

[ سلام على إبراهيم ] أى : تحية عليه كقوله : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » .

[ إنا كذلك نجزى المحسنين ] فى عبادة الله ، ومعاملة خلقه ، أن نفرج عنهم الشدائد ، ونجعل لهم العاقبة ، والثناء الحسن .

[ إنه من عبادنا المؤمنين ] بما أمر الله بالإيمان به ، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين ، كما قال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

---

(١) قوله « فكل وقت الخ » تعبير فيه ارتباك ، ولو قال « فكل وقت يذكر فيه إبراهيم عليه السلام ، يذكر بالتعظيم والثناء الجميل لأنه محبوب ومعظم عند جميع الناس على اختلاف أديانهم وشرائهم » لكان أوضح للقراء ، على اختلاف طبقاتهم .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَبَٰرَكْنَا عَلَيْـهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ
مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

---

[ وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين ] هذه البشارة الثانية بإسحاق ، الذى من ورائه يعقوب .

فبشر بوجوده وبقائه ، ووجود ذريته ، وكونه نبيا من الصالحين .

فهى بشارات متعددة .

[ وباركنا عليه وعلى إسحق ] أى : أنزلنا عليهما البركة ، التى هى النمو والزيادة فى علمهما ، وعملهما وذريتهما ، فنشر الله من ذريتهما ، ثلاث أمم عظيمة .

أمه العرب من ذرية إسمعيل ، وأمة بنى إسرائيل ، وأمة الروم من ذرية إسحق .

[ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ] أى : منهم الصالح والطالح ، والعادل والظالم الذى تبين ظلمه ، بكفره وشركه .

ولعل هذا من باب دفع الإيهام ، فإنه لما قال « وباركنا عليهما » اقتضى ذلك ، البركة فى ذريتهما ، وأن من تمام البركة ، أن تكون الذرية كلهم محسنين .

فأخبر الله تعالى أن منهم محسنا ، وظالما . والله أعلم .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا
وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

---

* يذكر تعالى مِنَّتَهُ على عبديه ، ورسوليه ، موسى ، وهرون ابنى عمران ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله تعالى ، ونجاتهما وقومهما من عدوهما ، فرعون ، ونصرهما عليه ، حتى أغرقه الله ، وهم ينظرون ، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين ، وهو التوراة التى فيها الأحكام ، والمواعظ ، وتفصيل كل شىء ، وأن الله هداهما الصراط المستقيم ، بأن شرع لهما دينا ، ذا أحكام وشرائع مستقيمة ، موصلة إلى الله ، ومَنَّ عليهما بسلوكه .

[ وتركنا عليهما فى الآخرين * وسلام على موسى وهرون ] أى أبقى عليهما ، ثناء حسنا ، وتحية فى الآخرين ، ومن باب أولى وأحرى ، فى الأولين [ إنا كذلك نجزى المحسنين (١) إنهما من عباد نا المؤمنين (٢) ] .

---

(١) المحسنين . أى : لأنفسهم ، اللذين هما من جملتهم ، لا جزاء قاصراً عنه .

(٢) أى : الراسخين فى الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان .

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾
اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي

---

* يمدح تعالى ، عبده ورسوله ، إلياس عليه الصلاة والسلام ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله .

وأنه أمر قومه بالتقوى ، وعبادة الله وحده ، ونهاهم عن عبادتهم ،صنما لهم يقال له « بعل » وتركهم عبادة الله ، الذى خلق الخلق ، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم ، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة .

وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة صنم ، لا يضر ، ولا ينفع ، ولا يخلق ، ولا يرزق ، بل لا يأكل ولا يتكلم ؟ ! ! وهل هذا إلا من أعظم الضلال ، والسفه ، والغى ؟ !!

[ فكذبوه ] فيما دعاهم إليه ، فلم ينقادوا له ، قال الله متوعدا له :

[ فإنهم لمحضرون ] أى يوم القيامة فى العذاب ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية .

[ إلا عباد الله المخلصين ] أى : الذين أخلصهم الله ، ومنّ عليهم باتباع نبيهم ، فإنهم غير محضرين فى العذاب ، وإنما لهم من الله ، جزيل الثواب.

[ وتركنا عليه ] أى : على إلياس [ فى الآخرين ] ثناء حسنا .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

---

[ سلام على إلياسين ] أى: تحية من الله، ومن عباده عليه .

[ إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ] فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله ، لوط بالنبوة والرسالة ، ودعوته إلى الله قومه ، ونهيهم عن الشرك ، وفعل الفاحشة .

فلما لم ينتهوا ، نجاه الله وأهله أجمعين ، فسروا ليلا فنجوا .

[ إلا عجوزا فى الغابرين ] أى : الباقين المعذبين ، وهى زوجة لوط لم تكن على دينه .

[ ثم دمرنا الآخرين ] بأن قلبنا عليهم ديارهم « فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » حتى همدوا وخمدوا .

[ إنكم لتمرون عليهم ] أى : على ديار قوم لوط [ مصبحين وبالليل ] أى : فى هذه الأوقات ، يكثر ترددكم إليها ومروركم بها ، فلم تقبل الشك والمرية [ أفلا تعقلون ] الآيات والعبر ، وتنزجرون عما يوجب الهلاك ؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى

* وهذا ثناء منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله.

وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها، بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال:

[ إذ أبق[1] ] أى: من ربه مغاضبا له ظانا أنه لا يقدر عليه، ويحبسه فى بطن الحوت.

(١) قوله « إذ أبق » أى « من ربه مغاضبا له » إلى قوله « وهو مغاضبته لربه ».

أقول: ذكر المؤلف هنا كلاما، خلاف ما ذكره المفسرون.

فأوهم كلامه أن يونس عليه السلام هرب من ربه مغاضبا له، ظانا أن الله لا يقدر أن يدركه ولا يستطيع حبسه فى بطن الحوت، وأنه ارتكب ذنبا.

ومعلوم أن الإجماع قد انعقد على أن الأنبياء معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها.

والمؤلف هنا جعله مرتكبا ذنبا، مستندا إلى قوله تعالى (أبق) مع أن إباقه لم يكن عن قصد مخالفته الله بل كان لتأخر نزول العذاب الذى كان وعد قومه بنزوله عليهم، فلما تأخر نزول العذاب، أداه اجتهاده أن يهجر قومه ويعيش بعيدا عنهم، متيقنا أن الله لا يضيق عليهم فى حياته المعيشية.

وهذا من اجتهادات الأنبياء التى تحتمل الخطأ والصواب. =

. . . . . . . . . . .

---

ولم يذكر الله ما غاضب عليه ، ولا ذنبه الذى ارتكبه ، لعدم فائدتنا بذكره .

---

= مع العلم بأن الوحى ينزل عليهم فورا ويردون إلى الصواب،ولا يقرون على الخطأ .

ومثاله : اجتهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أمر أسرى « بدر » واجتهاده فى النهى عن تلقيح النخل .

فما قررنا يتضح أن يونس اجتهد فى هجران قومه ، لا أنه عمد إلى مخالفة أمر ربه حتى نقول : إنه ارتكب ذنبا كما صرح المؤلف هنا .

كما أنه فسر « الظن » فى قوله تعالى : ( فظن أن لن نقدر عليه ) على حقيقته وهو إدراك الطرف الراجح ، مع أن الظن هنا بمعنى اليقين .

ونظيره قوله تعالى ( الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ) أى : يعتقدون ويتيقنون .

وأيضاً فسر القدرة فى قوله تعالى ( لن نقدر عليه ) على حقيقته الذى هو ضد العجز .

مع أن معنى « لن نقدر » لن نضيق ، ونظيره قوله تعالى « ومن قدر عليه رزقه فل فَلْيُنْفِقْ مما آتاه الله » أى : من نضيق عليه رزقه .

وكذا فسر « مغاضبا » بقوله « مغاضبا له » ( أى لربه ) .

مع أن المعنى : مغاضبا لقومه أى : غضبان عليهم ، مما قاسى منهم ، من معاندتهم وعدم استجابتهم لدعوته . =

ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

وإنما فائدتنا بما ذكر لنا عنه ، أنه أذنب ، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام ، وأنه نجاه بعد ذلك ، وأزال عنه الملام ، وقيض له ما هو سبب صلاحه .

فلما أبق لجأ [ إلى الفلك المشحون ] بالركاب والأمتعة ، فلما ركب مع غيره ، والفلك شاحن ، ثقلت السفينة فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب ، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية فى ذلك ، فاقترعوا على أن من قرع وغلب ، ألقى فى البحر عدلا من أهل السفينة ، وإذا أراد الله أمرا ، هيأ أسبابه .

فلما اقترعوا ، أصابت القرعة يونس [ فكان من المدحضين ] .

أى : المغلوبين ، فألقى فى البحر [ فالتقمه الحوت وهو ] وقت التقامه [ مليم ] .

أى : فاعل ما يلام عليه ، وهو مغاضبته لربه .

[ فلولا أنه كان من المسبحين ] أى : فى وقته السابق[1] بكثرة عبادته

---

= ومن أراد الاستقصاء والوقوف على الحقيقة ، فليرجع إلى كتاب « عصمة الأنبياء » للرازى ، وإلى المفسرين ، كأبى السعود ، والنسفى ، وابن كثير . يجد ما يؤيد كلامنا وتعقيبنا هذا . وكم كنت أود أن أذكر خلاصة ما قاله المفسرون فى هذه الآية ، ولكن وجدت نفسى أمام كلام طويل وروايات شتى ، مما لا يتسع المقام هنا لاستيعابه واستقصائه .

(١) قوله فى وقته السابق . أى : قبل وقوعه فى بطن الحوت ، لأنه عليه السلام ، كان كثير الصلاة فى الرخاء .

ولا شك أن من أقبل على ربه فى السراء ، أخذ بيده عند الضراء .

وهذا ما يؤيده قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « تعرف إلى الله فى الرخاء ، يعرفك فى الشدة » .

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

---

لربه ، وتسبيحه ، وتحميده ، وفى بطن الحوت حيث قال « لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

[ للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ] أى : لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله ، نجاه الله تعالى .

وكذلك ينجى الله المؤمنين ، عند وقوعهم فى الشدائد .

[ فنبذناه بالعراء ] بأن : قذفه الحوت من بطنه بالعراء ، وهى الأرض الخالية العارية من كل أحد ، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال [ وهو سقيم ] أى قد سقم ومرض ، بسبب حبسه فى بطن الحوت ، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البيضة .

[ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين[1] تظله بظلها الظليل ، لأنها باردة الظلال ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهذا من لطفه به ، وبره .

---

( ١ ) يقطين . أى: القرع كما ذهب إليه الجمهور . وفائدته ، أن الذباب لا يجتمع عنده . وأنه أسرع الأشجار نباتا وامتداداً ، وارتفاعاً ، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال : « أجل: هى شجرة أخى يونس » اهـ . تفسير النسفى .

وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

---

ثم لطف به لطفا آخر ، وامْتَنّ عليه مِنَّةً عظمى ، وهو أنه أرسله [ إلى مائة ألف ] من الناس [ أو يزيدون ] عنها .

والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها ، لم ينقصوا ، فدعاهم إلى الله تعالى [فآمنوا] فصاروا فى موازينه ، لأنه الداعى لهم .

[ فمتعناهم إلى حين ] بأن صرف الله عنهم العذاب ، بعد ما انعقدت أسبابه .

قال تعالى . « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين».

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.[ فاستفتهم ] أى: اسأل المشركين بالله غيره ، الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنها بنات الله ، فجمعوا بين الشرك بالله ، ووصفه بما لا يليق بجلاله .

[ ألربك البنات ولهم البنون ] أى : هذه قسمة ضيزى . وقول جائر ، من جهة جعلهم الولد لله تعالى ، ومن جهة جعلهم ،أردأ القسمين وأخسهما ،له وهو البنات اللاتى لا يرضونهن لأنفسهم ، كما قال فى الآية الأخرى «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » .

ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله ، وحكمهم بذلك .

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ
إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾
أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

---

قال تعالى فى بيان كذبهم : [ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ] خلقهم ؟ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنهم ما شهدوا خلقهم .

فدل على أنهم قالوا هذا القول ، بلا علم ، بل افتراء على الله ، ولهذا قال تعالى :

[ ألا إنهم من إفكهم ] أى : كذبهم الواضح [ ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ] « فى قولهم ذلك كذبا بيناً لا ريب فيه » .

[ أصطفى ] أى : اختار [ البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون ] هذا الحكم الجائر [ أفلا تذكرون ] وتميزون هذا القول الباطل الجائر .

[ فإنكم لو تذكرتم ، لم تقولوا هذا القول .

[ أم لكم سلطان مبين ] أى : حجة ظاهرة على قولكم ، من كتاب ، أو رسول .

وكل هذا غير واقع ولهذا قال : [ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ] فإن من يقول قولا ، لا يقيم عليه حجة شرعية ، فإنه كاذب متعمد ، أو قائل على الله ، بلا علم .

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

---

* أى : جعل هؤلاء المشركون بالله ، بين الله وبين الجنة نسباً ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن أمهاتهم سروات الجن .

والحال أن الجنة ، قد علمت أنهم محضرون بين يدى الله ، ليجازيهم ، فهم عباد أذلاء فلو كان بينهم وبينه نسب ، لم يكونوا كذلك .

[ سبحان الله ] الملك العظيم ، والكامل الحليم [ عما يصفون ] به ربهم من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم .

[ إلا عباد الله المخلصين ] فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به ، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله ، وبذلك كانوا مخلصين .

* أى : إنكم أيها المشركون ، ومن عبدتموه مع الله ، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم ، فنفذ فيه القضاء الإلهى .

والمقصود من هذا ، بيان عجزهم وعجز آلهتهم ، عن إضلال أحد ، وبيان كمال قدرة الله تعالى .

أى : فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين .

وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِ

---

* هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام، عما قاله فيهم المشركون. وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين.

فما منهم من أحد، إلا وله مقام وتدبير، قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء.

[وإنا لنحن الصافون[1]] في طاعة الله وخدمته [و[إنا لنحن المسبحون] « أي: والمقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه ».

فكيف ـ مع هذا ـ يصلحون أن يكونوا شركاء ؟! « تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً ».

* يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين، يظهرون التمنى، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب، ما جاء الأولين، لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب، فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق [فسوف يعلمون] العذاب، حين يقع بهم.

ولا يحسبوا أيضا أنهم فى الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله، التى لا مرد لها ولا مخالف لها، لعباده المرسلين، وجنده المفلحين، أنهم الغالبون

---

(١) أى: نصطف فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة. أو نصفُّ حول العرش، داعين للمؤمنين.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ
فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ

---

لغيرهم ، المنصورون من ربهم ، نصرا عزيزا ، يتمكنون فيه من إقامة دينهم .

وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله ، بأن كانت أحواله مستقيمة ، وقاتل من أمر بقتالهم ، أنه غالب منصور .

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ، ولم يقبلوا الحق ، وأنه مابقى إلا انتظار مايحل بهم من العذاب ، ولهذا ، قال :

[ وأبصرهم فسوف يبصرون] من يحل به النكال ، فإنه سيحل بهم .
[فإذا نزل بساحتهم ] أى : نزل عليهم ، وقريبا منهم [فساء صباح المنذرين].
لأنه صباح الشر ، والعقوبة ، والاستئصال .

ثم كرر الأمر بالتولِّى عنهم ، وتهديدهم بوقوع العذاب .

ولما ذكر فى هذه السورة ، كثيرا من أقوالهم الشنيعة ، التى وصفوه بها ، نزه نفسه عنها فقال :

[ سبحان ربك ] أى : تنزه وتعالى [ رب العزة] أى : الذى عز ، فقهر

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

---

كل شيء ، واعتز عن كل سوء يصفونه به .

[ وسلام على المرسلين ] لسلامتهم من الذنوب والآفات ، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات .

[ والحمد لله رب العالمين ] الألف واللام ، للاستغراق ، لجميع أنواع الحمد ، من الصفات الكاملة العظيمة ، والأفعال التي ربى بها العالمين ، وأدرّ عليهم فيها النعم ، وصرف عنهم بها النقم ، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم ، وفي جميع أحوالهم ، كلها لله تعالى .

فهو المقدس عن النقص ، المحمود بكل كمال ، المحبوب المعظم .

ورسله سالمون مسلم عليهم ، ومن اتبعهم في ذلك ، له السلامة في الدنيا والآخرة .

وأعداؤه ، لهم الهلاك والعطب ، في الدنيا والآخرة .

تم تفسير سورة الصفات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣

على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدى

وصلى الله على محمد وسلم تسليما ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

تفســـــير

# سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

ص وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

☆ هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن ، وحال المكذبين به معه ، ومع من جاء به فقال :

[ ص ، والقرآن ذى الذكر ] أى : ذى القدر العظيم ، والشرف ، المُذَكِّرِ للعباد ، كل ما يحتاجون إليه من العلم ، بأسماء الله وأفعاله ، ومن العلم ، بأحكام الله الشرعية ، ومن العلم ، بأحكام المعاد والجزاء .

فهو مذكر لهم ، فى أصول دينهم وفروعه .

وهنا لايحتاج إلى ذكر المقسم عليه ، فإن حقيقة الأمر ، أن المقسم به وعليه ، شىء واحد ، وهو : هذا القرآن ، الموصوف بهذا الوصف الجليل .

فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ
حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ

---

فإذا كان القرآن بهذا الوصف ، علم أن ضرورة العباد إليه ، فوق كل ضرورة .

وكان الواجب عليهم ، تلقّيه بالإيمان ، والتصديق ، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه .

فهدي الله من هدى لهذا ، وأبى الكافرون به ، وبمن أنزله ، وصار معهم [ فى عزة وشقاق ] عزة وامتناع عن الإيمان به ، واستكبار وشقاق له ، أي : مشاقة ومخاصمة فى رده وإبطاله ، وفى القدح بمن جاء به .

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية ، المكذبة بالرسل ، وأنهم حين جاءهم الهلاك ، نادوا ، واستغاثوا فى صرف العذاب عنهم .

ولكن [ لات حين مناص ] أى : وليس الوقت ، وقت خلاص ، مما وقعوا فيه ، ولا فرج لما أصابهم .

فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم ، فيصيبهم ما أصابهم .

[ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ] أى : عجب هؤلاء المكذبون فى أمر ، ليس محل عجب ، أن جاءهم منذر منهم ، ليتمكنوا من التلقى عنه ، وليعرفوه حق المعرفة .

ولأنه من قومهم ، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه .

فهذا ، مما يوجب الشكر عليهم ، وتمام الانقياد له .

هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ
إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ

---

ولـكنهم عكسوا القضية ، فتعجبوا تعجب إنـكار [ وقالوا ] من كفرهم وظلمهم : [ هذا ساحر كذاب ] .

وذنبه ـ عندهم ـ أنه [ جعل الآلهة إلها واحداً ] أى : كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده .

[ إن هذا ] الذى جاء به [ لشىء عجاب ] أى : يقضى منه العجب ، لبطلانه وفساده عندهم .

[ وانطلق الملأ منهم ] المقبول قولهم ، محرضين قومهم على التمسك ، بما هم عليه من الشرك .

[ أن امشوا واصبروا على آلهتكم ] أى : استمروا عليها ، وجاهدوا نفوسكم فى الصبر عليها ، وعلى عبادتها ، ولا يردكم عنها راد ، ولا يصدنكم عن عبادتها ، صاد .

[ إن هذا ] الذى جاء به محمد ، من النهى عن عبادتها [ لشىء يراد ] أى : يقصد ، أى : له قصد ، ونية غير صالحة فى ذلك ، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء .

فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق ، لايرد قوله بالقدح فى نيته ، فنيته وعمله ، له .

إِلاَّ ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

وإنما يرد بمقابلته ، بما يبطله ويفسده ، من الحجج والبراهين .

وهم قصدهم ، أن محمداً ، ما دعاكم إلى ما دعاكم ، إلا ليرأس فيكم ، ويكون معظما عندكم ، ومتبوعا .

[ ماسمعنا بهذا ] القول الذى قاله،والدين الذى دعا إليه [ فى الملة الآخرة ] أى : فى الوقت الأخير ، فلا أدركنا عليه آباءنا ، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه .

فامضوا على الذى مضى عليه آباؤكم ، فإنه الحق .

وما هذا الذى دعا إليه محمد ، إلا اختلاق اختلقه ، وكذب افتراه .

وهذه أيضاً شبهة ، من جنس شبهتهم الأولى ، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول ، وهو أنه ، قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون .

فأين فى هذا ؛ مايدل على بطلانه ؟ .

[ أأنزل عليه الذكر من بيننا ] أى : ما الذى فضله علينا ، حتى ينزل الذكر عليه ، من دوننا ، ويخصه الله به ؟

وهذه أيضاً شبهة ، أين البرهان فيها على رد ما قاله ؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف ، يَمُنُّ الله عليهم برسالته ، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله .

ولهذا ، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم ، لا يصلح شىء منها لرد ما جاء به الرسول ؛ أخبر تعالى ، من أين صدرت ، وأنهم [ فى شك من ذكرى ] ليس عندهم علم ولا بينة .

مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ

---

فلما وقعوا فى الشك ، وارتضوا به ، وجاءهم الحق الواضح ، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم ، قالوا ماقالوا ، من تلك الأقوال ، لدفع الحق لا عن بينة من أمرهم ، وإنما ذلك ، من باب الائتفاك منهم .

ومن المعلوم ، أن من هو بهذه الصفة ، يتكلم عن شك وعناد .

فإن قوله ، غير مقبول ، ولا قادح أدنى قدح فى الحق ، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم ، بمجرد كلامه ، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال :

[ بل لما يذوقوا عذاب ] أى : قالوا هذه الأقوال ، وتجرأوا عليها ، حيث كانوا ممتعين فى الدنيا ، لم يصبهم من عذاب الله شيء ، فلو ذاقوا عذابه ، لم يتجرأوا .

[ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ] فيعطون منها من شاءوا ، ويمنعون منها ، من شاءوا حيث قالوا : [ أأنزل عليه الذكر من بيننا ] أى : هذا فضله تعالى ورحمته ، وليس ذلك بأيديهم ، حتى يتجرأوا على الله .

[ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ] بحيث يكونون قادرين على ما يريدون .

[ فليرتقوا فى الأسباب ] الموصلة لهم إلى السماء ، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله .

مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

---

فكيف يتكلمون ، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم ، بما تكلموا به .؟!

أم قصدهم التحزب ، والتجند ، والتعاون على نصر الباطل ، وخذلان الحق ؟ وهو الواقع .

فإن هذا المقصود ، لا يتم لهم ، بل سعيهم خائب ، وجندهم مهزوم ولهذا قال :

[ جند ما هنا لك مهزوم من الأحزاب ] «أى : كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك ، وأولئك قد قهروا ، وأهلكوا ، فكذلك نهلك هؤلاء » .

* يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ، ما فعل بالأمم من قبلهم ، الذين كانوا أعظم قوة منهم ، وتحزبا على الباطل [ قوم نوح وعاد ] قوم هود [ وفرعون ذو الأوتاد ] أى : الجنود العظيمة ، والقوة الهائلة .

[ وثمود ] قوم صالح .

[ وقوم لوط وأصحاب الأيكة ] أى : الأشجار ، والبساتين الملتفة ، وهم قوم شعيب .

[ أولئك الأحزاب ] الذين اجتمعوا بقوتهم ، وعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ على رد الحق ، فلم تغن عنهم شيئا .

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

---

[ إن كل ] من هؤلاء [ إلا كذب الرسل فحق عليها عقاب ] الله .

وهؤلاء ، ماالذى يطهرهم ويزكيهم ، أن لا يصيبهم ، ماأصاب أولئك.

فلينتظروا [ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ] .

أى: من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم ، إن أقاموا على ما هم عليه.

* أى : قال هؤلاء المكذبون ، من جهلهم ، ومعاندتهم الحق ، مستعجلين للعذاب :

[ ربنا عجل لنا قطنا ] أى : قسطنا ، وما قسم لنا من العذاب عاجلا [ قبل يوم الحساب ] ولجوا فى هذا القول، وزعموا أنك يا محمد ، إن كنت صادقاً ، فعلامة صدقك ، أن تأتيهم بالعذاب ، فقال الله لرسوله :

[ اصبر على ما يقولون ] كما صبر مَنْ قبلك من الرسل ، فإن قولهم لا يضر الحق شيئا ، ولا يضرونك فى شىء ، وإنما يضرون أنفسهم .

* لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، كما قال فى الآية الأخرى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

---

ومن أعظم العابدين ، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام [ ذا الأيد ] أى : القوة العظيمة على عبادة الله تعالى ،فى بدنه وقلبه .

[ إنه أواب ] أى : رجّاع إلى الله فى جميع الأمور بالإنابة إليه ، بالحب والتأله ، والخوف ، والرجاء ، وكثرة التضرع ، والدعاء .

رجاع إليه ، عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع ، والتوبة النصوح .

ومن شدة إنابته لربه وعبادته ، أن سخر الله الجبال معه ، تسبح معه بحمد ربها .

[ بالعشى والإشراق ] أول النهار وآخره .

[ و ] سخر [ الطير محشورة ] معه مجموعة [ كل ] من الجبال والطير [ له ] تعالى [ أواب ] امتثالا لقوله تعالى: «يا جبال أوبى معه والطير » فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة .

ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال : [ وشددنا ملكه ] أى :قويناه بما أعطيناه من الأسباب، وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التى بها قوّى الله ملكه .

ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال : [ وآتيناه الحكمة ] أى : النبوة والعلم العظيم [ وفصل الخطاب ] أى : الخصومات بين الناس .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾
إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ

---

* لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل فى الخطاب بين الناس ، وكان معروفاً بذلك ، مقصوداً ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده ، فى قضية جعلها الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه ، وغفر له ، وقيض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

[ وهل أتاك نبأ الخصم ] فإنه نبأ عجيب [ إذ تسوروا ] على داود [ المحراب ] أى : محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ، ولم يدخلوا عليه من باب فلما دخلوا عليه بهذه الصورة ، فزع منهم وخاف فقالوا له : نحن [ خصمان ] فلا تخف [ بغى بعضنا على بعض ] بالظلم [ فاحكم بيننا بالحق ] أى : بالعدل ، ولا تمل مع أحدنا [ ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ] .

والمقصود (١) من هذا ، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف وإذا كان ذلك كذلك ، فسيقصان عليه نبأهما بالحق ، فلم يشمئز نبى الله داود من وعظهما له ، ولم يؤنبهما .

فقال أحدهما : [ إن هذا أخى ] نص على الأخوة فى الدين أو النسب ، أو الصداقة ، لاقتضائها عدم البغى ، وأن بغيه الصادر منه ، أعظم من غيره .

---

(١) قوله « والمقصود » إلى « الصرف » تعبير غير منسجم مع المعنى المراد ولو قال « والمقصود أن داود عليه السلام قد عرف من حال الخصمين أنهما إنما يقصدان الحق الواضح الصرف » لكان أوضح للقارىء .

ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ

---

[ له تسع وتسعون نعجة ] أى : زوجة ، وذلك خير كثير ، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله .

[ ولى نعجة واحدة ] فطمع فيها [ فقال أكفلنيها ] أى : دعها لى ، وخلها فى كفالتى .

[ وعزنى فى الخطاب ] أى : غلبنى فى القول ، فلم يزل بى ، حتى أدركها أو كاد .

فقال داود ـــ لما سمع كلامه ـــ ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما ، أن هذا هو الواقع ، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر ، فلا وجه للاعتراض بقول القائل « لم حكم داود ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر » ؟

[ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ] وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم .

فقال : [ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ] لأن الظلم من صفة النفوس .

[ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح ، يمنعهم من الظلم .

[ وقليل ما هم ] كما قال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » .

دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ
ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ

---

[ وظن[1] داود ] حين حكم بينهما [ أنما فتناه ] أى : اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه .

[ فاستغفر ربه ] لما صدر منه [ وخر راكعا ] أى ساجدا [ وأناب ] لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة .

[ فغفرنا له ذلك ] الذى صدر منه ، وأكرمه الله بأنواع الكرامات فقال :

[ وإن له عندنا لزلفى ] أى : منزلة عالية ، وقربة منا [ وحسن مآب ] أى : مرجع .

وهذا الذنب الذى صدر من داود عليه السلام ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره ، فالتعرض له ، من باب التكلف .

وإنما الفائدة ، ما قصه الله علينا ، من لطفه به ، وتوبته ، وإنابته ، وأنه ارتفع محله ، فكان بعد التوبة ، أحسن منه قبلها .

[ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ] تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية .

[ فاحكم بين الناس بالحق ] أى : العدل .

وهذا لا يتمكن منه ، إلا بعلم بالواجب ، وعلم بالواقع ، وقدرة على تنفيذ الحق .

---

( ١ ) وظن . أى : علم وتيقن .

فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ

---

[ ولا تتبع الهوى ] فتميل مع أحد ، لقرابة ، أو صداقة ، أو محبة ، أو بغض للآخر [ فيضلك ] الهوى [ عن سبيل الله ] ويخرجك عن الصراط المستقيم .

[ إن الذين يضلون عن سبيل الله ] خصوصا المتعمدين منهم .

[ لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ] « أى : بغفلتهم عن يوم الجزاء » .

فلو ذكروه ، ووقع خوفه فى قلوبهم ، لم يميلوا مع الهوى الفاتن .

* يخبر تعالى عن تمام حكمته ، فى خلقه السموات والأرض ، وأنه لم يخلقهما باطلا ، أى : عبثا ولعبا ، من غير فائدة ولا مصلحة .

[ ذلك ظن الذين كفروا ] بربهم ، حيث ظنوا مالا يليق بجلاله .

[ فويل للذين كفروا من النار ] فإنها التى تأخذ الحق منهم ، وتبلغ منهم كل مبلغ .

وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق ، فخلقهما ، ليعلم العباد كمال علمه وقدرته ، وسعة سلطانه ، وأنه تعالى وحده ، المعبود ، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السموات والأرض ، وأن البعث حق ، وسيفصل

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ
ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ
ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

---

الله بين أهل الخير والشر .

ولا يظن الجاهل بحكمة الله ، أن يسوى الله بينهما فى حكمه ، ولهذا قال :

[ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ] هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا .

* [ كتاب أنزلناه إليك مبارك ] فيه خير كثير ، وعلم غزير .

فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ، ونور يستضاء به فى الظلمات .

وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون ، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ، ما كان به أجل كتاب طرق العالم ، منذ أنشأه الله .

[ ليدبروا آياته ] أى : هذه الحكمة من إنزاله ، ليتدبر الناس آياته ، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها .

فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه ، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة ، تدرك بركته وخيره .

وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأن القراءة المشتملة على التدبر ، أفضل من سرعة التلاوة ، التى لا يحصل بها ، هذا المقصود .

[ وليتذكر أولو الألباب ] أى : أولو العقول الصحيحة ، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾

فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله ، يحصل له التذكر والانتفاع ، بهذا الكتاب .

* لما أثنى الله تعالى على داود ، وذكر ما جرى له ومنه ، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال : [ ووهبنا لداود سليمان ] أى : أنعمنا به عليه ، وأقررنا به عينه .

[ نعم العبد ] سليمان عليه السلام ، فإنه اتصف بما يوجب المدح ، وهو [ أنه أواب ] أى : رجَّاع إلى الله فى جميع أحواله ، بالتأله والإنابة ، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع ، والاجتهاد فى مرضاة الله ، وتقديمها على كل شىء .

ولهذا ، لما عرضت الخيل الجياد الصافنات أى : التى وصفها الصفون ، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف ، وكان لها منظر رائق ، وجمال معجب ، خصوصا للمحتاج إليها كالملوك .

فما زالت تعرض عليه ، حتى غابت الشمس فى الحجاب ، فألهته عن صلاة المساء وذكره .

فقال — ندما على ما مضى منه ، وتقربا إلى الله بما ألهاه عن ذكره ، وتقديما لحب الله على حب غيره — [ إنى أحببت حب الخير ] وضمن « أحببت » معنى « آثرت » .

أى : آثرت حب الخير ، الذى هو المال عموما ، وفى هذا الموضع المراد : الخيل [ عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ] « أى : غابت عن عينيه » .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ
حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ
فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

---

* [ ردوها على ] فردوها [ فطفق ] أى : « شرع » فيها [ مسحا بالسوق والأعناق ] أى جعل[1] يعقرها بسيفه ، فى سوقها وأعناقها .

[ ولقد فتنا سليمان ] أى : ابتليناه واختبرناه ، بذهاب ملكه وانفصاله عنه ، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية [ وألقينا على كرسيه جسدا ] أى: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسى ملكه ، ويتصرف فى الملك فى مدة فتنة سليمان [ ثم أناب ] سليمان إلى الله تعالى وتاب .

---

( ١ ) قوله « أى جعل الخ » كلام فيه ما فيه من المؤاخذات فإن التاريخ حفظ لنا أحوال الصالحين من هذه الأمة وشدة حرصهم على امتثال الأوامر الإلهية وعدم انحرافهم فى تيار الخواطر الدنيوية حينما تحين أوقات العبادة، فإذا كان هذا شأن الصالحين فما بالك بالأنبياء الذين هم أعلى درجة من الصالحين ولا شك أن تلك الروايات الملصقة بسليمان لا تليق بعصمة الأنبياء ثم ما ذنب الخيل حتى تعرقب أرجلها وتقطع أيديها ولقد فطن لهذا الإمام الرازى ففند هذه المزاعم كلها فى تفسيره وفى كتابه « عصمة الأنبياء » وذكر أن معنى « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » أنه لما أجرى السباق وردت إليه الخيل جعل يمسح أعناقها وسوقها متحببا إليها ، لأنها أهم عدة للجهاد .

مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى
ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾
وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

---

[ قال ربى اغفرلى وهب لى ملسكا لا ينبغى لأحد من بعدى، إنك أنت الوهاب ] .

فاستجاب الله له وغفر له ، ورد عايه ملسكه ، وزاده ملسكا لم يحصل لأحد من بعده ، وهو تسخير الشياطين له ، يبنون ما يريد ، ويغوصون له فى البحر ، يستخرجون الدر والحلى ، ومن عصاه منهم ، قرنه فى الأصفاد وأوثقه .

وقلنا له . [ هذا عطاؤنا ] فقرَّ به عيناً [ فامنن ] على من شئت .

[ أو أمسك ] من شئت [ بغير حساب ] أى : لا حرج عليك فى ذلك ولا حساب ، لعلمه تعالى بكمال عدله ، وحسن أحكامه .

ولا تحسبن هذا لسليمان فى الدنيا دون الآخرة ، بل له فى الآخرة خير عظيم .

ولهذا قال : [ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ] أى : هو من المقربين عندالله المكرمين بأنواع الكرامات لله .

. . . . . . . . . . .

---

# فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم فى قصة داود وسليمان عليهما السلام .

فمنها : أن الله تعالى ، يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أخبار من قبله ، ليثبت فؤاده ، وتطمئن نفسه .

ويذكر من عبادتهم وشدة صبرهم ، وإنابتهم ، ما يشوقه إلى منافستهم ، والتقرب إلى الله ، الذى تقربوا له ، والصبر على أذى قومه .

ولهذا — في هذا الموضع — لما ذكر الله ما ذكر ، من أذية قومه وكلامهم فيه ، وفيما جاء به ، أمره بالصبر ، وأن يذكر عبده داود ، فيتأسّى به .

ومنها : أن الله تعالى ، يمدح ، ويحب القوة فى طاعته ، قوة القلب والبدن .

فإنه يحصل منها ، من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة .

وأن العبد ، ينبغى له ، تعاطى أسبابها ، وعدم الركون إلى الكسل ، والبطالة المخلة بالقوة ، المضعفة للنفس .

ومنها : أن الرجوع إلى الله فى جميع الأمور ، من أوصاف أنبياء الله ، وخواص خلقه ، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك .

فليقتد بهما المقتدون ، وليهتد بهداهم السالكون « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : ما أكرم الله به نبيه داود ، عليه السلام ، من حسن الصوت العظيم ، الذى جعل الله بسببه ، الجبال الصم ، والطيور البهم ، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح ، ويسبحن معه بالعشى والإشراق .

ومنها : أن من أكبر نعم الله على عبده ، أن يرزقه العلم النافع ، ويعرف الحكم والفصل بين الناس ، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام .

ومنها : اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه ، عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم ، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور .

ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى ، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام .

ومنها : أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، معصومون من الخطأ[1] فيما يبلغون عن الله تعالى ، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك.

---

( ١ ) قوله « معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى » .

أقول : ومعصومون أيضا من كبائر الذنوب وصغائرها كما انعقد الإجماع على ذلك . إلا فى المسائل الاجتهادية . فيجوز عليهم الخطأ ولكن لا يقرون عليه ، بل ينزل الوحى فوراً ، ويردهم الله إلى الصواب ، كما حصل للنبي فى أسرى « بدر » .

. . . . . . . . . . .

وأنه قد يجرى[1] منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصى، ولكن الله، يتداركهم ويبادرهم بلطفه .

ومنها : أن داود عليه السلام ، كان فى أغلب أحواله ملازماً محرابه ، لخدمة ربه ، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب ، لأنه كان ، إذا خلا فى محرابه ، لا يأتيه أحد .

فلم يجعل كل وقته للناس ، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام .

بل جعل له وقتا ، يخلو فيه بربه ، وتقر عينه بعبادته ، وتعينه على الإخلاص فى جميع أموره .

ومنها : أنه ينبغى استعمال الأدب ، فى الدخول على الحكام وغيرهم .

فإن الخصمين — لما دخلا على داود ، فى حالة غير معتادة ، ومن غير الباب المعهود ، فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ، ورآه غير لائق بالحال .

ومنها : أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق ، سوء أدب الخصم ، وفعله ما لا ينبغى .

ومنها : كمال حلم داود عليه السلام ، فإنه ما غضب عليهما ، حين جاءاه بغير استئذان ، وهو الملك ، ولا انتهرهما ، ولا وبخهما .

---

(١) قوله : وأنه قد يجرى منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصى الخ » غير صحيح لأن الأنبياء معصومون بعد النبوة من كافة الذنوب صغائرها وكبائرها كما أجمع على ذلك علماء التوحيد .

. . . . . . . . . . .

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتنى» أو «ياظالم» أو «باغ على» ونحو ذلك لقولهما: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر.

فإن الخصمين، نصحا داود، فلم يشمئز، ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادى بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يردع عن ذلك، إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شىء فى الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، مكفرات للذنوب، فإن الله، رتب مغفرة ذنب داود، على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما، منقص لدرجتهما عند الله تعالى.

وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم، وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع فى قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع فى قلوبهم، نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ، وخواص خلقه .

وأن وظيفة القائم بها ، الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى .

فالحكم بالحق ، يقتضى العلم بالأمور الشرعية ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى .

فالجاهل بأحد الأمرين ، لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الإقدام عليه .

ومنها : أنه ينبغى للحاكم أن يحذر الهوى ، ويجعله منه على بال ، فإن النفوس لا تخلو منه .

بل يجاهد نفسه ، بأن يكون الحق مقصوده ، وأن يلقى عنه وقت الحكم ، كل محبة أو بغض لأحد الخصمين .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، من فضائل داود ، ومن منن الله عليه . حيث وهبه له .

وأن من أكبر نعم الله على عبده ، أن يهب له ولداً صالحا ، فإن كان عالما ، كان نورا على نور .

ومنها : ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه فى قوله [ نعم العبد إنه أواب ] .

ومنها : كثرة خير الله وبره بعبيده ، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، ثم يثنى عليهم بها ، وهو المتفضل الوهاب .

ومنها : تقديم سليمان ، محبة الله تعالى على محبة كل شىء .

ومنها : أن كل ما شغل العبد عن الله ، فإنه مشئوم مذموم ، فَلْيُفَارِقْ

. . . . . . . . . . .

---

ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له .

ومنها : القاعدة المشهورة « من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيرا منه ».

فسليمان عليه السلام عقر الجياد[1] الصافنات المحبوبة للنفوس ، تقديما لمحبة الله ، فعوضه الله خيراً من ذلك ، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة ، التى تجرى بأمره إلى حيث أراد وقصد ، غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وسخر له الشياطين ، أهل الاقتدار على الأعمال ، التى لا يقدر عليها الآدميون .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، كان ملكا نبيا ، يفعل ما أراد ، ولكنه لا يريد إلا العدل .

بخلاف النبي العبد ، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله ، فلا يفعل ولا يترك ، إلا بالأمر ، كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الحال أكمل .

---

( ١ ) « عقر الجياد الخ » هذا إنما يتمشى على الرواية غير الصحيحة كما قدمنا .

۞ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ

* أى : [ واذكر ] فى هذا الكتاب [ عبدنا أيوب ] بأحسن الذكر ، وأثن عليه بأحسن الثناء ، حين أصابه الضر ، فصبر على ضره ، فلم يشتك لغير ربه ، ولا لجأ إلا إليه .

[ إذ نادى ربه ] داعيا شاكيا إليه لا إلى غيره فقال : رب [ أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ] أى بأمر مشق متعب معذب، وكان سلط على جسده فنفخ فيه ، حتى تقرح ، ثم تقيح[1] بعد ذلك ، واشتد به الأمر ، وكذلك هلك أهله وماله .

فقيل : [ اركض برجلك ] أى : اضرب الأرض بها ، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب ، فيذهب عنك الضر والأذى .

ففعل ذلك ، فذهب عنه الضر ، وشفاه الله تعالى .

[ ووهبنا له أهله ] قيل : إن الله تعالى أحياهم له [ ومثلهم معهم ] فى الدنيا ، وأغناه الله ، وأعطاه مالا عظيما .

---

( ١ ) قوله « حتى تقرح وتقيح » كلام غير صحيح فإن الأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة بإجماع علماء التوحيد .
وما نسب إلى أيوب من تلك الأمراض المنفرة إنما سرت إلى بعض المفسرين الذين تجردوا من التحقيق العلمى ، من الأخبار الإسرائيلية وقد سبق تفنيدنا لهذا الكلام بما يكفى ويشفى فى الجزء الخامس فى صحيفة ٢٥٣ .

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

---

[ رحمة منا ] بعبدنا أيوب ، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ، ثواباً عاجلا وآجلا .

[وذكرى لأولى الألباب ] أى : وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ، ويعتبروا ، فيعلموا أن من صبر على الضر ، فإن الله تعالى يثيبه ثوابا عاجلا وآجلا ، ويستجيب دعاءه إذا دعاه .

[ وخذ بيدك ضغثاً ] أى حزمة شماريخ [ فاضرب به ولا تحنث ] .

قال المفسرون : وكان فى مرضه وضره ، قد غضب على زوجته فى بعض الأمور .

فحلف : لئن شفاه الله ، ليضربنها مائة جلدة .

فلما شفاه الله ، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه ، رحمها الله ورحمه ، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ، ضربة واحدة ، فيبر فى يمينه .

[ إنا وجدناه ] أى : أيوب [ صابراً ] أى ابتليناه بالضر العظيم ، فصبر لوجه الله تعالى .

[ نعم العبد ] الذى كمل مراتب العبودية ، فى حال السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

[ إنه أواب ] أى : كثير الرجوع إلى الله ، فى مطالبه الدينية والدنيوية ، كثير الذكر لربه ، والدعاء . والمحبة ، والتأله .

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

---

* يقول تعالى [ واذكر عبادنا ] الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسنا . [ إبراهيم ] الخليل [ و ] ابنه [ إسحق و ] ابنه [ يعقوب أولى الأيدى ] أى : القوة على عبادة الله تعالى [ والأبصار ] أى : البصيرة فى دين الله .

فوصفهم بالعلم النافع ، والعمل الصالح الكثير .

[ إنا أخلصناهم بخالصة ] عظيمة ، وخصيصة جسيمة وهى : [ ذكرى الدار ] جعلنا ذكرى الدار الآخرة فى قلوبهم ، والعمل لها صفوة وقتهم ، والإخلاص والمراقبة لله ، وصفهم الدائم ، وجعلناهم ذكرى الدار ، يتذكر بأحوالهم المتذكر ، ويعتبر بهم المعتبر ، ويذكرون بأحسن الذكر .

[ وإنهم عندنا لمن المصطفين ] الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه .

[ الأخيار ] الذين لهم خلق كريم ، وعمل مستقيم .

* أى: واذكرهؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء .

فإن كلا منهم ، من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق ، واختار لهم أكمل الأحوال ، من الأعمال ، والأخلاق والصفات الحميدة، والخصال السديدة .

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ

---

[ هذا ذكر ] أى ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ، ذكر فى هذا القرآن ذى الذكر ، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة ، المقتدون ، ويعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزكية ، وما نشر لهم من الثناء بين البرية .

فهذا نوع من أنواع الذكر ، وهو ذكر أهل الخير ، ومن أنواع الذكر ، ذكر جزاء أهل الخير ، وأهل الشر ، ولهذا قال :

* أى : [ وإن للمتقين ] ربهم ، بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، من كل مؤمن ومؤمنة .

[ لحسن مآب ] أى : لمآبا حسنا ، ومرجعاً مستحسناً .

ثم فسره وفصله فقال : [ جنات عدن ] أى : جنات إقامة ، لا يبغى صاحبها بدلا منها ، من كمالها ، وتمام نعيمها ، وليسوا بخارجين منها ، ولا بمخرجين .

[ مفتحة لهم الأبواب ] أى : مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها ، بل هم مخدومون .

وهذا دليل أيضاً ، على الأمان التام ، وأنه ليس فى جنات عدن ، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها .

[ متكئين فيها ] على الأرائك المزينات ، والمجالس المزخرفات .

[ يدعون فيها ] أى : يأمرون خدامهم ، أن يأتوا [ بفاكهة كثيرة وشراب ] من كل ما تشتهيه نفوسهم ، وتلذه أعينهم :

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾
هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُۥ
مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

---

وهذا يدل على كمال النعيم ، وكمال الراحة والطمأنينة ، وتمام اللذة .

[ وعندهم ] من أزواجهم ، الحور العين [ قاصرات الطرف ] على أزواجهن ، وطرف أزواجهن عليهن ، لجمالهم كلهم ، ومحبة كل منهما للآخر ، وعدم طموحه لغيره ، وأنه لا يبغى بصاحبه بدلا ، وعنه عوضاً .

[ أتراب ] أى :على سن واحد ، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه .

[ هذا ماتوعدون ] أيها المتقون [ ليوم الحساب ] جزاء على أعمالكم الصالحة .

[ إن هذا لرزقنا ] الذى أوردناه على أهل النعيم [ ماله من نفاد ] أى : انقطاع ، بل هو دائم مستقر فى جميع الأوقات ، متزايد فى جميع الآنات .

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم ، الرءوف الرحيم ، البر الجواد ، الواسع الغنى ، الحميد اللطيف الرحمن ، الملك الديان ، الجليل الجميل المنان ، ذى الفضل الباهر ، والكرم المتواتر ، الذي لاتحصى نعمه ، ولا يحاط ببعض بره .

﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ

* [ هذا ] الجزاء للمتقين ، ما وصفناه [ وإن للطاغين ] أى : للمتجاوزين للحد فى الكفر والمعاصى [لشر مآب] أى: لشر مرجع و منقلب، ثم فصله فقال:

[ جهنم ] التى جمع فيها كل عذاب واشتد حرها ، وانتهى قرها[1]

[ يصلونها ] أى : يعذبون فيها عذاباً ، يحيط بهم من كل وجه ، لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل .

[ فبئس المهاد ] المعد لهم مسكناً ومستقراً [ هذا ] المهاد ، وهذا العذاب الشديد ، والخزى ؛ والفضيحة ، والنكال .

[ فليذوقوه حميم ] ماء حار ، قد اشتد حره ، يشربونه ، فَقَطَعُ أمعاءهم .

[ وغساق ] وهو أكره ما يكون من الشراب ، من قيح وصديد ، مر المذاق ، كريه الرائحة .

[ وآخر من شكله ] أى : من نوعه [ أزواج ] أى : عدة أصناف ، من أصناف العذاب ، يعذبون بها ، ويخزون بها .

وعند تواردهم على النار ، يشتم بعضهم بعضاً ، ويقول بعضهم لبعض :

(١) قوله « وانتهى قرها » أى : بردها بلغ النهاية فى الشدة .

إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ
لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾

---

[ وهذا فوج مقتحم معكم ] النار [ لا مرحبا بهم إنهم صالو النار ] .

[ قالوا ] أى : الفوج المقبل المقتحم : [ بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدمتموه ] أى : العذاب [ لنا ] بدعوتكم لنا ، وفتنتكم ، وإضلالكم ، وتسببكم .

[ فبئس القرار ] قرار الجميع ، قرار السوء والشر .

ثم دعوا على المغوين لهم ، و [ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار ] .

وقال فى الآية الأخرى « قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

[ وقالوا ] وهم فى النار [ مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ] أى : كنا نزعم أنهم من الأشرار ، المستحقين لعذاب النار ، وهم المؤمنون تفقدهم أهل النار ، قبحهم الله ، هل يرونهم فى النار ؟

[ اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ] أى : عدم رؤيتنا لهم ، دائر بين أمرين .

إما أننا غالطون فى عدنا إياهم من الأشرار ، بل هم من الأخيار ، وإنما كلامنا لهم ، من باب السخرية والاستهزاء بهم .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

وهذا هو الواقع ، كما قال تعالى لأهل النار « إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون » .

والأمر الثانى : أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا فى العذاب ، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا .

فيحتمل أن هذا الذى فى قلوبهم ، فتكون العقائد ؛ التى اعتقدوها فى الدنيا ، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار ، تمكنت من قلوبهم ، وصارت صبغة لها ، فدخلوا النار ، وهم بهذه الحالة ، فقالوا ما قالوا .

ويحتمل أن كلامهم هذا ، كلام تمويه ، كما موهوا فى الدنيا ، موهوا حتى فى النار .

ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

قال تعالى مؤكداً ما أخبره به ، وهو أصدق القائلين .

[ إن ذلك ] الذى ذكرت لكم [ لحق ] ما فيه شك ولا مريه [ تخاصم أهل النار ] أى : « هو تخاصم ونزاع أهل النار بعضهم مع بعض » .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

---

[قل] يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك، ما ليس لك، ولا بيدك:

[إنما أنا منذر] هذا نهاية ما عندى، وأما الأمر، فلله تعالى، ولكنى آمركم، وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأزجركم عن الشر «فمن اهتدى، فلنفسه ومن ضل، فعليها».

[وما من إله إلا الله] أى: ما أحد يؤله ويعبد بحق، إلا الله [الواحد القهار].

هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شىء.

فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهاران، متساويين فى قهرهما أبداً.

فالذى يقهر جميع الأشياء، هو الواحد، الذى لانظير له، وهو الذى يستحق أن يعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك بتوحيد الربوبية فقال:

[رب السموات والأرض وما بينهما] أى: خالقهما، ومربيهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدابير.

[العزيز] الذي له القوة، التى بها خلق المخلوقات العظيمة.

[الغفار] لجميع الذنوب؛ صغيرها؛ وكبيرها، لمن تاب إليه، وأقلع منها.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا

---

فهذا الذى يحب ويستحق أن يعبد ، دون من لايخلق ، ولا يرزق ، ولا يضر ؛ ولاينفع ، ولايملك من الأمر شيئاً ، وليس له قوة الاقتدار ، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار .

[ قل ] لهم ، محذرا ؛ ومخوفا ، ومنهضا لهم ومنذرا : [هو نبأ عظيم ] أى : ما أنبأتكم به من البعث ، والنشور ، والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم ينبغى الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغى إغفاله .

ولكن [ أنتم عنه معرضون ] كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ، ولا ثواب .

فإن شككتم فى قولى ، وامتريتم فى خبرى ، فإنى أخبركم بأخبار ، لا علم لى بها ، ولا درستها فى كتاب .

فإخبارى بها على وجهها ، من غير زيادة ولا نقص ، أكبر شاهد لصدق ، وأدل دليل على حقية ما جئتكم به ، ولهذا قال :

[ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى ] أى : الملائكة [ إذ يختصمون ] لولا تعليم الله إياى ، وإيحاؤه إلى ، ولهذا قال :

[ إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ] أي : ظاهر النذارة ، جليها ، فلا نذير أبلغ من نذارته صلى الله عليه وسلم .

مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴿٧٥﴾

---

ثم ذكر اختصام الملأ الأعلى فقال :

[ إذ قال ربك للملائكة ] على وجه الإخبار [ إنى خالق بشراً من طين ] أى : مادته من طين [ فإذا سويته ] أى: سويت جسمه ، وتمّ [ ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ] .

فوطّن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك ، حين يتم خلقه ، ونفخ الروح فيه ، امتثالا لربهم ، وإكراما لآدم عليه السلام .

فلما تم خلقه ، فى بدنه وروحه ، وامتحن الله آدم والملائكة فى العلم ، وظهر فضله عليهم ، أمرهم الله بالسجود .

[ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس ] لم يسجد [ استكبر ] عن أمر ربه ، واستكبر على آدم [ وكان من الكافرين ] فى علم الله تعالى.

[ قال ] الله موبخا ومعاتبا : [ يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ] أى : شرفته ، وكرمته ، واختصصته بهذه الخصيصة ، التى اختص بها عن سائر الخلق ، وذلك يقتضى عدم التكبر عليه .

[ استكبرت ] فى امتناعك [ أم كنت من العالين ]. « أى ممن علوت على العالمين » .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

---

[ قال ] إبليس معارضا لربه ، ومناقضاً : [ أنا خير مه ، خلقتني من نار وخلقته من طين ] .

وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين ، وهذا من القياس الفاسد ، فإن عنصر النار ، مادة الشر والفساد ، والعلو والطيش ، والخفة .

وعنصر الطين ، مادة الرزانة ، والتواضع ، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات ، وهو يغلب النار ، ويطفئها .

والنار ، تحتاج إلى مادة تقوم بها ، والطين قائم بنفسه .

فهذا قياس شيخ القوم ، الذى عارض به الأمر الشفاهى من الله ، قد تبين غاية بطلانه وفساده .

فما بالك بأقيسة التلاميذ ، الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟! فإنها كلها ، أعظم بطلاناً ، من هذا القياس .

[ قال ] الله له : [ فاخرج منها ] أى : من السماء والمحل الكريم .

[ فإنك رجيم ] أى : مبعد مدحور .

[ وإن عليك لعنتى ] أى : طردى وإبعادى [ إلى يوم الدين ] دائماً أبدا .

[ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ] لشدة عداوته لآدم وذريته ، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه .

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ

---

( قال ) الله مجيبا لدعوته ، حيث اقتضت حكمته ذلك : [ إنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم] حين تستكمل الذرية ، يتم الامتحان .

فلما علم أنه منظر ، بادى ربه ، من خبثه ، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته ، فقال :

[ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ] .« أى : بعظمتك وجلالك » .

يحتمل أن الباء للقسم ، وأنه أقسم بعز الله ، ليغوينهم كلهم أجمعين .

[ إلا عبادك منهم المخلصين ] .

« أى : هم الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الغواية لكمال إيمانهم ، وبذلهم أقصى مافى وسعهم فى طاعة ربهم »(١) .

علم « إبليس » أن الله سيحفظهم من كيده .

ويحتمل أن الباء للاستعانة ، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه ، وأنه لا يضل أحدا إلا بمشيئة الله تعالى،استعان بعزة الله ، على إغواء ذرية آدم ، هذا ، وهو عدو الله حقا .

ونحن ياربنا العاجزون المقصرون ، المقرون لك بكل نعمة ، ذرية من شرفته وكرمته .

---

( ١ ) ما بين القوسين من زيادتنا ، لأن المقام يقتضى ذلك حتى ،يكون معنى « المخلصين » واضحاً للقارىء .

وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

فنستعين بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التى أوصلت إلينا بها، ما عنا صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته، والسلامة من شره، وشركه.

ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذى قلت لنا: «وقال ربكم ادعونى استجب لكم» فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. «إنك لا تخلف الميعاد».

[ قال ] الله تعالى [ فالحق والحق أقول ] أى: الحق وصفى، والحق قولى [ لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ] «من ذرية آدم».

[ قل ما أسألكم عليه ] أى: على دعائى إياكم ( من أجر وما أنا من المتكلفين[1] ) أدعى أمرا، ليس لى، وأقفوا ما ليس لى به علم،

---

( ١ ) من المتكلفين. أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن اهـ. أبو السعود.

وقال النسفى: «وما أنا من المتكلفين» أى: لست من الذين يتصنعون، ويتحلّون بما ليسوا من أهله.

وما عرفتمونى قط متصنعاً ولا مدعيا بما ليس عندى حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال. للمتكلف ثلاث علامات، ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول مالا يعلم اهـ. بتصرف يسير.

ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

---

لا أتبع إلا ما يوحى إليّ .

[ إن هو ] أى: ماهذا الوحى والقرآن [ إلا ذكر للعالمين ] يتذكرون به كل ما ينفعهم ، من مصالح دينهم ودنياهم ، فيكون شرفا ورفعة . للعالمين به ، وإقامة حجة على المعاندين .

فهذه السورة العظيمة ، مشتملة على الذكر الحكيم ، والنبأ العظيم ، وإقامة الحجج والبراهين ، على من كذب بالقرآن وعارضه ، وكذب من جاء به ، والإخبار عن عباد الله المخلصين ، وجزاء المتقين والطاغين .

فلهذا أقسم فى أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه فى آخرها ، بأنه ذكر للعالمين .

وأكثر التذكير بها ، فيما بين ذلك كقوله [ واذكر عبدنا ـ واذكر عبادنا ـ رحمة من عندنا وذكرى ـ هذا ذكر ] .

اللهم علمنا منه ما جهلنا ، وذكرنا منه ما نسينا ، نسيان غفلة ، ونسيان ترك .

[ ولتعلمن نباه ] أى: أخبره [ بعد حين ] وذلك حين يقع عليهم العذاب وتنقطع عنهم الأسباب .

تم تفسير سورة ص ـ بمنه تعالى وعونه

تفسير

# سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

* يخبر تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالة من تكلم به ، ونزل منه .

وأنه نزل من الله العزيز الحكيم . أي الذى وصفه الألوهية للخلق ، وذلك لعظمته وكماله والعزة التى قهر بها كل مخلوق ، وذل له كل شىء ، والحكمة فى خلقه وأمره .

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه ، والكلام ، وصف للمتكلم ، والوصف يتبع الموصوف .

فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه ، الذى لا مثيل له ، فكذلك كلامه ، كامل من كل وجه ، لا مثيل له ، فهذا وحده ، كاف فى وصف القرآن ، دال على مرتبته .

ولكنه — مع هذا — زاد بيانا ، لكماله ، بمن نزل عليه ، وهو

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

---

محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب ، وبما نزل به ، وهو الحق .

فنزل بالحق ، الذى لا مرية فيه ، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور .

ونزل مشتملا على الحق فى أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة .

فكل ما دل عليه ، فهو أعظم أنواع الحق ، من جميع المطالب العلمية ، وما بعد الحق إلا الضلال .

ولما كان نازلا من الحق ، مشتملا على الحق لهداية الخلق ، على أشرف الخلق ، عظمت فيه النعمة ، وجلّت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص الدين لله ، فلهذا قال :

[ فاعبد الله مخلصا له الدين ] أى : أخلص لله تعالى جميع دينك ، من الشرائع الظاهرة ، والشرائع الباطنة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان — بأن تفرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه ، لا غير ذلك من المقاصد .

[ ألا لله الدين الخالص ] هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص ، الصافى من جميع الشوائب .

فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به ، لأنه متضمن للتأله لله فى حبه ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، فى تحصيل مطالب عباده .

وذلك الذى يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها ، دون الشرك به فى شىء من العبادة .

فإن الله برىء منه ، وليس لله فيه شىء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك .

وهو مفسد للقلوب والأرواح، والدنيا والآخرة مُشْقٍ ، للنفوس غاية الشقاء .

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به ، وأخبر بذم من أشرك به فقال :

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] أى : يتولونهم بعبادتهم ودعائهم ، معتذرين عن أنفسهم وقائلين :

[ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ] أى : لترفع حوائجنا لله ، وتشفع لنا عنده .

وإلا ، فنحن نعلم أنها ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك من الأمر شيئاً .

أى : فهؤلاء ، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص ، وتجرأوا على أعاظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذى ليس كمثله شىء ، الملك العظيم ، بالملوك .

وزعموا — بعقولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء ، وشفعاء ، ووزراء يرفعون إليهم حوائج

. . . . . . . . . . .

رعاياهم ، ويستعطفونهم عليهم ، ويمهدون لهم الأمر فى ذلك ـ أن الله تعالى كـذلك .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلا ، ونقلاً ، وفطرة .

فإن الملوك ، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم ،لأنهم لا يعلمون أحوالهم .

فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم ، وربما لا يـكون فى قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة .

فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمه لهم ، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ، ويخافون منهم ، فيقضون حوائج من توسطوا لهم ، مراعاة لهم ، ومداراة لخواطرهم .

وهم أيضاً فقراء ، قد يمنعون ، لما يخشون من الفقر .

وأما الرب تعالى ، فهو الذى أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ، الذى لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده .

وهو تعالى ، أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، يجعله راحما لعباده ، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم وهو الذى يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب ، التى ينالون بها رحمته .

وهو يريد من مصالحهم ، مالا يريدونه لأنفسهم .

وهو الغنى ، الذى له الغنى التام المطلق ، الذى لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم فى صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى ،

فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

---

لم ينقصوا من غناه شيئاً ، ولم ينقصوا مما عنده ، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط[1] .

وجميع الشفعاء يخافونه ، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه ، وله الشفاعة كلها .

فهذه الفروق ، يعلم جهل المشركين به ، وسفههم العظيم ، وشدة جراءتهم عليه .

ويعلم أيضاً ، الحكمة فى كون الشرك لا يغفره الله تعالى ، لأنه يتضمن القدح فى الله تعالى .

ولهذا قال — حاكما بين الفريقين ، المخلصين والمشركين ، وفى ضمنه التهديد للمشركين — : [ إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ] .

وقد علم أن حكمة أن المؤمنين المخلصين فى جنات النعيم ، أن من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنه ، ومأواه النار .

[ إن الله لا يهدى ] أى : لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم .

[ من هو كاذب كفار ] أى : وصفه الكذب أو الكفر ، بحيث تأتيه المواعظ والآيات ، ولا يزول عنه ، ما اتصف به ، ويريه الله الآيات ، فيجحدها ، ويكفر بها ، ويكذب .

فهذا أنَّى له الهدى ، وقد سد على نفسه الباب ، وعوقب بأن طبع الله على قلبه ، فهو لا يؤمن ؟ ! ! .

---

(١) المخيط . أى . الإبرة .

﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

* أى : [ لو أراد الله أن يتخذ ولدا ] كما زعم ذلك من زعمه ، من سفهاء الخلق .

[ لّاصطفى مما يخلق ما يشاء ] أى : لاصطفى من مخلوقاته ، الذى يشاء اصطفاءه ، واختصه لنفسه ، وجعله بمنزلة الولد ، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة .

[ سبحانه ] أى : تنزه عما ظن به الكافرون ، أو نسبه إليه الملحدون .

[ هو الله الواحد القهار ] أى : الواحد فى ذاته ، وفى أسمائه ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

فلا شبيه له فى شىء من ذلك ، ولا مماثل .

فلو كان له ولد ، لاقتضى أن يكون شبيها له ، فى وحدته ، لأنه بعضه ، وجزء منه .

القهار لجميع العالم ، العلوى والسفلى .

فلو كان له ولد ، لم يكن مقهورا ، ولكان له إدلال على أبيه ، ومناسبة منه .

ووحدته تعالى ، وقهره متلازمان .

فالواحد لا يكون إلا قهارا ، والقهار لا يكون إلا واحدا ، وذلك ينفى الشركة له من كل وجه .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

* يخبر تعالى أنه [ خلق السموات والأرض بالحق ] أى . بالحكمة والمصلحة . وليأمر العباد وينهاهم ، ويثيبهم ويعاقبهم .

[ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ] أى: يدخل كلا منهما على الآخر ، ويحل محله فلا يجتمع هذا وهذا ، بل إذا أتى أحدهما ، انعزل الآخر عن سلطانه .

[ وسخر الشمس والقمر ] بتسخير منظم ، وسير مقنن .

[ كل ] من الشمس والقمر [ يجرى ] متأثراً عن تسخيره تعالى [ لأجل مسمى ] وهو انقضاء هذه الدار وخرابها ، فيخرب الله آلاتها ، وشمسها ، وقمرها ، وينشىء الخلق نشأة جديدة ، ليستقروا فى دار القرار ، الجنة ، أو النار .

[ ألا هو العزيز ] الذى لا يغالب ، القاهر لكل شىء ، الذى لا يستعصى عليه شىء .

الذى من عزته ، أوجد هذه المخلوقات العظيمة ، وسخرها تجرى بأمره .

[ الغفار ] لذنوب عباده التوابين المؤمنين ، كما قال تعالى « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

الغفار لمن أشرك به ، بعد ما رأى من آياته العظيمة ، ثم تاب وأناب .

وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ

---

ومن عزته أن [ خلقكم من نفس واحدة ] على كثرتكم وانتشاركم ، فى أنحاء الأرض .

[ ثم جعل منها زوجها ] وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه ، وتتم بذلك النعمة .

[ وأنزل لكم من الأنعام ] أى : خلقها بقدر نازل منه ، رحمة بكم .

[ ثمانية أزواج ] وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » .

وخصها بالذكر ، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم ، غيرها ، لكثرة نفعها ، وعموم مصالحها ، ولشرفها ، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها ، كالأضحية والهدى ، والعقيقة ، ووجوب الزكاة فيها ، واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أبينا وأمنا ، ذكر ابتداء خلقنا فقال :

[ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ] أى : طورا بعد طور ، وأنتم فى حال لا يد مخلوق تمسكم ، ولا عين تنظر إليكم .

وهو قد رباكم فى ذلك المكان الضيق [ فى ظلمات ثلاث ] ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم ، ثم ظلمة المشيمة .

[ ذلكم ] الذى خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ،

تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

---

وخلقكم، وخلق لكم الأنعام والنعم [ الله ربكم ] أى : المألوه المعبود، الذى رباكم، ودبركم .

فكما أنه الواحد فى خلقه وتربيته لا شريك له فى ذلك، فهو الواحد فى ألوهيته، لا شريك له .

ولهذا قال : [ له الملك لا إله إلا هو، فأنى تصرفون ] . بعد هذا البيان أتبعه ببيان استحقاقه تعالى لإخلاص العبادة له دون عبادة الأوثان، التى لا تدبر شيئا، وليس لها من الأمر شىء فقال :

* [ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ] لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم .

ولكن أمره ونهيه لكم، محض فضله وإحسانه عليكم .

[ ولا يرضى لعباده الكفر ] لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة، لا يسعدون بعدها .

ولأنه خلقهم لعبادته، فهى الغاية التى خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله .

[ وإن تشكروا ] لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له [ يرضه لكم ] لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله .

وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا

---

[ثم إلى ربكم مرجعكم] فى يوم القيامة [فينبئكم بما كنتم تعملون] .

إخباراً أحاط به علمه ، وجرى عليه قلمه ، وكتبته عليكم الحفظة الكرام ، وشهدت به عليكم الجوارح ، فيجازى كلا منكم بما يستحقه .

[إنه عليم بذات الصدور] أى : بنفس الصدور ، وما فيها من وصف بِرٍ أو فجور .

والمقصود من هذا ، الإخبار بالجزاء ، بالعدل التام .

* يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره ، وقلة شكر عبده ، وأنه حين يمسه الضر ، من مرض ، أو فقر ، أو وقوع فى كربة بَحْرٍ أو غيره ، أنه يعلم أنه لا ينجيه فى هذه الحال ، إلا الله .

فيدعوه متضرعا منيبا[1] ، ويستغيث به فى كشف ما نزل به ويلح فى ذلك .

---

(١) منيبا . أى : راجعا إلى الله بالدعاء ولا يدعو غيره اهـ . نسفى .

وقال أبو السعود : راجعاً إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء ، لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره : اهـ

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

[ ثم إذا خوله[1] ] الله [ نعمة منه ] بأن كشف ما به من الضر والكربة .

[ نسى ما كان يدعو إليه من قبل ] أى : نسى ذلك الضر ، الذى دعا الله لأجله ، ومر ، كأنه ما أصابه ضر ، واستمر على شركه .

[ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ] .

أى : ليضل بنفسه ، ويضل غيره ، لأن الإضلال ، فرع عن الضلال ، فأتى بالملزوم ، ليدل على اللازم .

[ قل ] لهذا العاتى ، الذى بدل نعمة الله كفرا : [ تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار ] فلا يغنيك ، ما تتمتع به إذا كان المآل النار .

« أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » .

---

( ١ ) خوله . أى : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ، من التخول وهو التعهد .

أى : جعله خائل مال ، من قولهم « فلان خائل مال » إذا كان متعهداً له ، حسن القيام به .

أو من « الخول » وهو الافتخار . أى : جعله يخول ، أى : يختال ويفتخر . اهـ أبو السعود .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

* هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره ، وبين العالم والجاهل ، وأن هذا من الأمور ، التى تقرر فى العقول ، تباينها ، وعلم علما يقينا تفاوتها .

فليس المعرض عن طاعة ربه ، المتبع لهواه ، كمن هو قانت أى : مطيع لله ، بأفضل العبادات ، وهى الصلاة ، وأفضل الأوقات ، وهى أوقات الليل

فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء .

وذكر أن متعلق الخوف ، عذاب الآخرة ، على ما سلف من الذنوب وأن متعلق الرجاء ، رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن .

[ قل هل يستوى الذين يعلمون ] ربهم ويعلمون دينه الشرعى ، ودينه الجزائى ، وما له فى ذلك من الأسرار والحكم [ والذين لا يعلمون ] شيئا من ذلك ؟

لا يستوى هؤلاء ، ولا هؤلاء ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء والظلام ، والماء والنار .

[ إنما يتذكر ] إذا ذكروا [ أولو الألباب ] أى : أهـل العقول الزكية الذكية .

فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى ، فيؤثرون العلم على الجهل ، وطاعة الله على مخالفته ، لأن لهم عقولا ، ترشدهم للنظر فى العواقب .

بخلاف من لا لب له ولا عقل ، فإنه يتخذ إلهه هواه .

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّـكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

---

☆ أى : قل مناديا لأشرف الخلق ، وهم المؤمنون ، آمراً لهم بأفضل الأوامر ، وهى : التقوى ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ، ومن ذلك ما منّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى .

كما تقول : أيها الكريم تصدق ، وأيها الشجاع ، قاتل .

وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا فقال : [ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا ] بعبادة ربهم [ حسنة ] ولهم رزق واسع ، ونفس مطمئنة ، وقلب منشرح .

كما قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .

[ وأرض الله واسعة ] إذا منعتم من عبادته فى أرض ، فهاجروا إلى غيرها ، تعبدون فيها ربكم ، وتتمكنون من إقامة دينكم .

ولما قال [ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ] كان لبعض النفوس مجال فى هذا الموضع وهو أن النص عام ، أنه كل من أحسن ، فله فى الدنيا حسنة ، فما بال من آمن فى أرض يضطهد فيها ويمتهن ، لا يحصل له ذلك ؟

دفع هذا الظن بقوله : [ وأرض الله واسعة ] وهنا بشارة ، نص عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، بقوله « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ

---

تشير إليه هذه الآية ، وترمى إليه من قريب ، وهو أنه تعالى ، أخبر أن أرضه واسعة .

فمهما منعتم من عبادته فى موضع ، فهاجروا إلى غيرها .

وهذا عام في كل زمان ومكان ، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه ، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه .

[ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ] وهـــذا عام فى جميع أنواع الصبر :

الصبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها .

والصبر عن معاصيه ، فلا يرتكبها ، والصبر على طاعته ، حتى يؤديها .

فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب ، أى : بغير حد ، ولا عد ، ولا مقدار .

وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله ، وأنه معين على كل الأمور.

* أى [ قل ] يا أيها الرسول للناس :

إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين فى قوله فى أول السورة «فاعبد الله مخلصا له الدين » .

[ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ] لأنى الداعى الهادى للخلق ، إلى ربهم ،فيقتضى أنى أول من ائتمر بما أمر به ، وأول من أسلم ، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وممن زعم أنه من أتباعه .

رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾
فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم
مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ

---

فلا بد من الإسلام فى الأعمال الظاهرة ، والإخلاص لله فى الأعمال الظاهرة والباطنة .

[ قل إنى أخاف إن عصيت ربى ] فيما أمرنى به من الإخلاص والإسلام .

[ عذاب يوم عظيم ] يخلد فيه من أشرك ، ويعاقب فيه من عصى .

[ قل الله أعبد مخلصا له دينى * فاعبدوا ما شئتم من دونه ] كما قال تعالى « قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ] .

[ قل إن الخاسرين ] حقيقة هم [ الذين خسروا أنفسهم ] حيث حرموها الثواب ، واستحقت بسببهم ، وخيم العقاب [ وأهليهم يوم القيامة ] أى : فرق بينهم وبينهم ، واشتد عليهم الحزن ، وعظم الخسران .

[ ألا ذلك هو الخسران المبين ] الذى ليس مثله خسران ، وهو خسران مستمر ، لا ربح بعده ، بل ولا سلامة .

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال :

[ لهم من فوقهم ظلل من النار ] أى : قطع عذاب كالسحاب العظيم

عِبَادَهُ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟

---

[ ومن تحتهم ظلل ] .

[ ذلك ] الوصف الذى وصفنا به عذاب أهل النار ، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته .

[ يخوف الله به عباده ، ياعباد فاتقون] أى : جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب ، داعيا يدعو عباده إلى التقوى ، وزجرا عما يوجب العذاب .

فسبحان من رحم عباده فى كل شىء ، وسهل لهم الطرق الموصلة لله ، وحثهم على سلوكها ، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس ، وتطمئن له القلوب .

وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير ، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه .

* ذكر تعالى هنا حال المنيبين وثوابهم فقال [ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ] .

والمراد بالطاغوت فى هذا الموضع ، عبادة غير الله ، فاجتنبوها فى عبادتها.

وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم ، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها فى عبادتها .

[ وأنابوا إلى الله ] بعبادته وإخلاص الدين له ، فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، ومن الشرك والمعاصى ، إلى التوحيد والطاعات .

إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

[ لهم البشرى ] التى لا يقادر قدرها ، ولا يعلم وصفها ، إلا من أكرمهم بها .

وهذا شامل للبشرى فى الحياة الدنيا بالثناء الحسن ، والرؤيا الصالحة ، والعناية الربانية من الله ، التى يرون فى خلالها ، أنه مريد لإكرامهم فى الدنيا والآخرة .

ولهم البشرى فى الآخرة عند الموت ، وفى القبر ، وفى القيامة .

وخاتمة البشرى ، ما يبشرهم به الرب الكريم ، من دوام رضوانه ، وبره ، وإحسانه ، وحلول أمانه فى الجنة .

ولما أخبر أن لهم البشرى ، أمره الله ببشارتهم ، وذكر الوصف الذى استحقوا به البشارة فقال : [ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ] .

وهذا جنس ، يشمل كل قول ، فهم يستمعون جنس القول ، ليميزوا بين ما ينبغى إيثاره ، مما ينبغى اجتنابه ، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم ، أنهم يتبعون أحسنه .

وأحسنه على الإطلاق ، كلام الله ، وكلام رسوله كما قال فى هذه السورة : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » الآية .

وفى هذه الآية ، نكتة ، وهى : أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين ، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كأنه قيل : هل من طريق إلى معرفة أحسنه ، حتى نتصف بصفات أولى الألباب ، وحتى نعرف أن من أثره فهو من أولى الألباب ؟

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن

---

قيل : نعم ، أحسنه ما نص الله عليه بقوله « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » الآية .

[ أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ] لأحسن الأخلاق والأعمال [ وأولئك هم أولو الألباب ] أى العقول الزاكية .

ومن لبهم وحزمهم ، أنهم عرفوا الحسن وغيره ، وآثروا ما ينبغى إيثاره ، على ما سواه .

وهـذا علامة العقل ، بل لا علامة للعقل ، سوى ذلك ، فإن الذى لا يميز بين الأقوال ، حسنها ، وقبيحها ، ليس من أهل العقول الصحيحة ، أو الذى يميز .

لـكن لما غلبت شهوته على عقله ، فبقى عقله تابعاً لشهوته ، فلم يؤثر الأحسن ، كان ناقص العقل .

* أى : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه ، وعناده ، وكفره ، فإنه لا حيلة لك فى هدايته ، ولا تقدر أن تنقذ من فى النار لا محالة .

لـكن الغنى ، والفوز كل الفوز ، للمتقين الذين أعد لهم من الـكرامة وأنواع النعيم ، ما لا يقادر قدره .

فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

---

[ لهم غرف ] أى : منازل عالية مزخرفة ، من حسنها ، وبهائها ، وصفائها ، أنه يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

ومن علوها وارتفاعها ، أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر ، فى الأفق الشرقى أو الغربى .

ولهذا قال : [ من فوقها غرف ] أى : بعضها فوق بعض [ مبنية ] بذهب وفضة ، وملاطها المسك الأذفر .

[ تجرى من تحتها الأنهار ] المتدفقة ، التى تسقى البساتين الزاهرة ، والأشجار الطاهرة .

فتغل أنواع الثمار اللذيذة ، والفاكهة النضيجة .

[ وعد الله لا يخلف الله الميعاد ] وقد وعد المتقين هذا الثواب ، فلا بد من الوفاء به ، فليوفوا بخصال التقوى ، ليوفيهم أجورهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

* يذكر تعالى أولى الألباب ، ما أنزله من السماء من الماء ، وأنه سلكه ينابيع فى الأرض ، أى : أودعه فيها ينبوعا ، يستخرج بسهولة ويسر .

[ ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ] من بر[1] وذرة ، وشعير ، وأرز ، وغير ذلك .

[ ثم يهيج ] عند استكماله ، أو عند حدوث آفة فيه [ فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ] متكسراً [ إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ] يذكرون بها عناية ربهم ، ورحمته بعباده ، حيث يسر لهم هذا الماء ، وخزنه بخزائن الأرض ، تبعا لمصالحهم .

ويذكرون به كمال قدرته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها .

ويذكرون به أن الفاعل لذلك ، هو المستحق للعبادة .

اللهم اجعلنا من أولى الألباب ، الذين نوهت بذكرهم ، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول ، وأريتهم من أسرار كتابك ، وبديع آياتك ، ما لم يصل إليه غيرهم ، إنك أنت الوهاب .

---

( ١ ) بر . أى : القمح .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ

---

* أى : أفيستوى من شرح الله صدره للإسلام ، فاتسع لتلقى أحكام الله ، والعمل بها ، منشرحا ، قرير العين ، على بصيرة من أمره ، وهو المراد بقوله [ فهو على نور من ربه ] .

كمن ليس كذلك ، بدليل قوله [ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ] .

أى : لا تلين لكتابه ، ولا تتذكر آياته ، ولا تطمئن بذكره ، بل هى معرضة عن ربها ، ملتفتة إلى غيره ، فهؤلاء لهم الويل الشديد ، والشر الكبير .

[ أولئك فى ضلال مبين ] وأى ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه ؟ ومن كل السعادة فى الإقبال عليه ، وقسا قلبه عن ذكره ، وأقبل على كل ما يضره ؟ ! !

* يخبر تعالى عن كتابه الذى نزله أنه [ أحسن الحديث ] على الإطلاق .

فأحسن الحديث ، كلام الله ، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله ، هذا القرآن .

وإذا كان هو الأحسن ، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ ، وأوضحها ، وأن معانيه ، أجل المعانى ، لأنه أحسن الحديث ، فى لفظه ومعناه ، متشابها

. . . . . . . . . .

---

فى الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه .

حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر ، رأى من اتفاقه ، حتى فى معانيه الغامضة ، ما يبهر الناظرين ، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم ، هذا هو المراد بالتشابه فى هذا الوضع .

وأما فى قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » .

فالمراد بها ، التى تشتبه على فهوم كثير من الناس ، ولا يزول هذا الاشتباه ، إلا بردها إلى المحكم ، ولهذا قال : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » فجعل التشابه لبعضه .

وهنا جعله كله متشابها ، أى : فى حسنه ، لأنه قال : [ أحسن الحديث] وهو سور وآيات ، والجميع يشبه بعضه بعضا ، كما ذكرنا .

[ مثانى ] أى : تثنى فيه القصص والأحكام ، والوعد والوعيد ، وصفات أهل الخير ، وصفات أهل الشر ، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته .

وهذا من جلالته ، وحسنه ، فإنه تعالى ، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب ، المكملة للأخلاق ، وأن تلك[1] المعانى للقلوب ، بمنزلة الماء لسقى الأشجار .

---

(١) قوله « وأن تلك المعانى الخ » المقام يقتضى أن يقال « جعل تلك المعانى للقلوب بمنزلة الماء لسقى الأشجار » حتى يتسق الكلام ويفهم جواب « لما » فى قوله « لما علم احتياج الخلق الخ » .

فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقى الماء ، نقصت ، بل ربما تلفت ، وكلما تكرر سقيها ، حسنت ، وأثمرت أنواع الثمار النافعة .

فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معانى كلام الله تعالى عليه ، وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة فى جميع القرآن ، لم يقع منه موقعا ، ولم تحصل النتيجة منه .

ولهذا سلكت فى هذا التفسير هذا المسلك الكريم ، اقتداء بما هو تفسير له .

فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع .

بل كل موضع تجد تفسيره ، كامل المعنى ، غير مراع لما مضى ، مما يشبهه .

وإن كان بعض المواضع ، يكون أبسط من بعض ، وأكثر فائدة .

وهكذا ينبغى للقارىء للقرآن ، المتدبر لمعانيه ، أن لا يدع التدبر فى جميع المواضع منه .

فإنه يحصل له بسبب ذلك ، خير كثير ، ونفع غزير .

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة ، أثَّر فى قلوب أولى الألباب المهتدين فلهذا قال تعالى : [ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ] لما فيه من التخويف والترهيب المزعج .

[ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ] أى : عند ذكر الرجاء والترغيب .

ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

---

فهو تارة يرغبهم لعمل الخير ، وتارة يرهبهم من عمل الشر .

[ ذلك ] الذى ذكره الله من تأثير القرآن فيهم .

[هدى لله] أى: هداية منه لعباده ، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم

[ يهدى به ] أى : بسبب ذلك [ من يشاء من عباده ] .

ويحتمل أن المراد بقوله [ ذلك ] أى : القرآن الذى وصفناه لكم .

[ هدى الله ] الذى لا طريق يوصل إلى الله إلا منه [ يهدى به من يشاء من عباده ] ممن حسن قصده ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » .

[ ومن يضلل الله فما له من هاد ] لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه .

فإذا لم يحصل هذا ، فلا سبيل إلى الهدى ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين .

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

---

* أى : هل يستوى هذا الذى هداه الله ، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته .

ومن كان فى الضلال ، واستمر على عناده ، حتى قدم القيامة ، فجاءه العذاب العظيم .

فجعل يتقى بوجهه الذى هو أشرف الأعضاء ، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه .

فهو يتقى فيه ، سوء العذاب لأنه قد غلت يداه ورجلاه .

[ وقيل للظالمين ] أنفسهم ، بالكفر والمعاصى ، توبيخا وتقريعا : [ ذوقوا ما كنتم تكسبون ] .

[ كذب الذين من قبلهم ] من الأمم كما كذب هؤلاء .

[ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ] جاءهم فى غفلة ، أو نهار ، أو هم قائلون .

[ فأذاقهم الله ] بذلك العذاب [ الخزى فى الحياة الدنيا ] فافتضحوا عند الله ، وعند خلقه .

[ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ] فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب ، فيصيبهم ما أصاب أولئك ، من التعذيب .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

---

* يخبر تعالى ، أنه ضرب فى القرآن من جميع الأمثال ، أمثال أهل الخير ، وأمثال أهل الشر ، وأمثال التوحيد والشرك ، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة فى ذلك [ لعلهم يتذكرون ] عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ، ويعملون .

[ قرآنا عربيا غير ذى عوج ] أى : جعلناه قرآنا عربيا ، واضح الألفاظ ، سهل المعانى ، خصوصا على العرب .

[ غير ذي عوج ] أى ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه ، لا فى ألفاظه ، ولا فى معانيه ، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما » .

[ لعلهم يتقون ] الله تعالى ، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى ، العلمية والعملية ، بهذا القرآن العربى المستقيم ، الذى ضرب الله فيه من كل مثل .

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال :

[ ضرب الله مثلا رجلا ] أى : عبدا [ فيه شركاء متشاكسون ] فهم كثيرون ، وليسوا متفقين على أمر من الأمور ، وحالة من الحالات ، حتى تمكن راحته ، بل هم متشاكسون متنازعون فيه ، كل له مطلب ، يريد تنفيذه ، ويريد الآخر غيره .

فما تظن حال هذا الرجل ، مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين ؟

وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

---

[ ورجلا سلما لرجل ] أى : خالصا له ، قد عرف مقصود سيده ، وحصلت له الراحه التامة .

[ هل يستويان ] أى : هذان الرجلان [ مثلا ] ؟ لا يستويان .

كذلك المشرك ، فيه شركاء متشاكسون ، يدعو هذا ، ثم يدعو هذا .

فتراه لا يستقر له قرار ، ولا يطمئن قلبه فى موضع .

والموحد مخلص لربه ، قد خلصه الله من الشركة لغيره ، فهو فى أتم راحة ، وأكمل طمأنينة .

[ هل يستويان مثلا ، الحمد لله ] على تبيين الحق من الباطل ، وإرشاد الجهال .

[ بل أكثرهم لا يعلمون ] « ما يصيرون إليه من العذاب من جراء شركهم »

[ إنك ميت وإنهم ميتون ] أى : كلكم لا بد أن يموت « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » .

[ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ] فيما تنازعتم فيه ، فيفصل بينكم بحكمه العادل ، ويجازى كُلاً ما عمله « أحصاه الله ونسوه » .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

* يقول تعالى ، محذراً ، ومخبراً : إنه لا أظلم وأشد ظلماً [ ممن كذب على الله ] إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله ، أو بادعاء النبوة ، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا ، أو أخبر بكذا ، وهو كاذب .

فهذا داخل فى قوله تعالى « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » إن كان جاهلا ، وإلا فهو أشنع وأشنع .

[ وكذب بالصدق لما جاءه ] أى : ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات ، فكذبه .

فتكذيبه ، ظلم عظيم منه ، لأنه رد الحق بعد ما تبين له .

فإن كان جامعا بين الكذب على الله ، والتكذيب بالصدق ، كان ظلما على ظلم .

[ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ] يحصل بها الاشتفاء منهم ، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر :

« إن الشرك لظلم عظيم » .

ولما ذكر الكاذب المكذب ، وجنايته وعقوبته ، ذكر الصادق المصدق ، وثوابه .

فقال : [ والذى جاء بالصدق ] فى قوله وعمله ، فدخل فى ذلك ، الأنبياء

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

---

ومن مقامهم ، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه ، وفيما فعله من خصال الصدق .

[ وصدق به ] أي : بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق ، ولكن لا يصدق به ، بسبب استكباره ، أو احتقاره لمن قاله ، وأتى به ، فلا بد فى المدح من الصدق والتصديق .

فصدقه ، يدل على علمه . وعدله وتصديقه ، يدل على تواضعه ، وعدم استكباره .

[ أولئك ] أي : الذين وفقوا للجمع بين الأمرين [ هم المتقون ] ، فإن جميع خصال التقوى ، ترجع إلى الصدق بالحق ، والتصديق به .

[ لهم ما يشاءون عند ربهم ] من الثواب ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر عل قلب بشر .

فكل ماتعلقت به إرادتهم ومشيئتهم ، من أصناف اللذات والمشتهيات ، فإنه حاصل لهم ، معد مهيأ .

[ ذلك جزاء المحسنين ] الذين يعبدون الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم [ المحسنين ] إلى عباد الله .

[ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ] .

وعمل الإنسان ، له ثلاث حالات :

إما أسوأ ، أو أحسن ، أولا أسوأ ، ولا أحسن .

أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن

---

والقسم الأخير ، قسم المباحات ، ومالا يتعلق به ثواب ولا عقاب .

والأسوأ ، المعاصى كلها ، والأحسن ، الطاعات كلها .

فبهذا التفصيل، يتبين معنى الآية ، وأن قوله : [ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ] .

أى : ذنوبهم الصغار ، بسبب إحسانهم وتقواهم ، .

[ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ] أى : بحسناتهم وتقواهم .

[ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ] أى : بحسناتهم كلها .

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما » .

* [ أليس الله بكاف عبده ] أى : أليس من كرمه وجوده ، وعنايته بعبده ، الذى قام بعبوديته ، وامتثل أمره ، واجتنب ما نهى عنه ، خصوصا ، أكمل الخلق عبودية لربه ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى ، سيكفيه فى أمر دينه ودنياه ، ويدفع عنه من ناوأه بسوء .

[ ويخوفونك بالذين من دونه ] من الأصنام والأنداد ، أن تنالك بسوء ، وهذا من غيهم وضلالهم .

دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ

---

[ ومن يضلل الله فماله من هاد[1] . ومن يهد الله فماله من مضل ] لأنه تعالى ، الذى بيده الهداية والإضلال ، وهو الذى ما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن

[ أليس الله بعزيز ] له العزة الكاملة ، التى قهر بها كل شىء ، وبعزته ، يكفى عبده ، ويدفع عنه مكرهم .

[ ذي انتقام ] ممن عصاه ، فاحذروا موجبات نقمته .

* أى ولئن سألت هؤلاء الضلال ، الذين يخوفونك بالذين من دونه ، وأقمت عليهم ، دليلا من أنفسهم ، فقلت : [من خلق السموات والأرض] لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا .

[ ليقولن الله ] وحده ، الذى خلقها .

[ قل ] لهم مقررا عجز آلهتهم ، بعد ما تبينت قدرة الله :

[ أفرأيتم ] أى : أخبرونى [ ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر ] أىّ ضر كان .

---

( ١ ) أى : ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره [ فماله من هاد ] من مؤثر فيه بشىء قط .

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ

---

[ هل هن كاشفات ضره ] بإزالته بالكلية ، أو بتخفيفه من حال إلى حال ؟ .

[ أو أرادنى برحمة ] يوصل إلىّ بها منفعة فى دينى أو دنياى .

[ هل هن ممسكات رحمته ] ومانعاتها عنى ؟ .

سيقولون : لا يكشفون الضر ، ولا يمسكون الرحمة .

قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع ، على أنه وحده ، المعبود ، وأنه الخالق للمخلوقات ، النافع الضار وحده ، وأن غيره عاجز من كل وجه . عن الخلق ، والضر ، مستجلبا كفايته ، مستدفعا مكرهم وكيدهم :

[ قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون ] أى : عليه يعتمد المعتمدون فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم .

فالذى بيده — وحده — الكفاية ، هو حسبى ، سيكفينى كل ما أهمنى ، وما لا أهتم به .

* أى [ قل ] لهم يا أيها الرسول [ ياقوم اعملوا على مكانتكم ] أى : على حالتكم التى رضيتموها لأنفسكم ، من عبادة من لا يستحق العبادة ، ولا له من الأمر شىء .

[ إنى عامل ] على ما دعوتكم إليه ، من إخلاص الدين لله تعالى وحده .

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

---

[ فسوف تعلمون ] لمن العاقبة و [ من يأتيه عذاب يخزيه ] فى الدنيا .

[ ويحل عليه ] فى الأخرى [ عذاب مقيم ] لا يحول عنه ، ولا يزول .

وهذا تهديد عظيم لهم ، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم ، ولكن الظلم والعناد ، حال بينهم وبين الإيمان .

* يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه ، الذى هو مادة الهداية ، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ، وأنه قامت به الحجة على العالمين .

[ فمن اهتدى ] بنوره واتبع أوامره [ ف ] إن نفع ذلك ، يعود [ لنفسه ، ومن ضل ] بعدما تبين له الهدى [ فإنما يضل عليها ] لا يضر الله شيئاً .

[ وما أنت عليهم بوكيل ] تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ، وتجبرهم على ما تشاء .

وإنما أنت مبلغ ، تؤدى إليهم ما أمرت به .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أنه المنفرد بالتصرف بالعباد ، فى حال يقظتهم ونومهم ، وفى حال حياتهم وموتهم .

فقال : [ الله يتوفي الأنفس حين موتها ] وهذه الوفاة ، الكبرى ، وفاة الموت .

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه ، لا ينافى أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه ، كما قال تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم*حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه ، باعتبار أنه الخالق المدبر .

ويضيفها إلى أسبابها ، باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته ، أن جعل لكل أمر من الأمور سببا .

وقوله : [ والتى لم تمت فى منامها ] وهذه هى الموتة الصغرى ، أى : ويمسك النفس ، التى لم تمت فى منامها .

[ فيمسك ] من هاتين النفسين النفس [ التى قضى عليها الموت ] وهى نفس من كان مات ، أو قضى أن يموت فى منامه .

[ ويرسل ] النفس [ الأخرى إلى أجل مسمى ] أى : إلى استكمال رزقها وأجلها .

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ] على كمال اقتداره ، وإحيائه الموتى ، بعد موتهم .

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ

---

وفى هذه الآية ، دليل على أن الروح والنفس ، جسم قائم بنفسه ، مخالف جوهره ، جوهر البدن .

وأنها مخلوقة مدبرة ، يتصرف الله فيها ، بالوفاة ، والإمساك ، والإرسال .

وأن أرواح الأحياء ، تتلاقى فى البرزخ ، فتجتمع ، فتتحادث .

فيرسل الله أرواح الأحياء ، ويمسك أرواح الأموات .

* ينكر تعالى ، على من اتخذ من دونه شفعاء ، يتعلق بهم ، ويسألهم ويعبدهم .

[ قل ] لهم — مبيناً جهلهم ، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة — :

[ أو لو كانوا ] أى : من اتخذتم من الشفعاء [ لا يملكون شيئاً ] .

أى : لا مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

بل [ ولا يعقلون ] أى : وليس لهم عقل ، يستحقون أن يمدحوا به ، لأنها جمادات ، من أحجار ، وأشجار ، وصور ، وأموات .

فهل يقال : إن لمن اتخذها عقلا ؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما ؟ .

[ قل ] لهم : [ لله الشفاعة جميعا ] لأن الأمر كله لله .

وكل شفيع ، فهو يخافه ، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ

---

فإذا أراد رحمة عبده ، أذن للشفيع الكريم عنده ، أن يشفع ، رحمة بالاثنين .

ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله [ له ملك السموات والأرض ] .
أى : جميع ما فيها من الذوات ، والأفعال ، والصفات .

فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها ، وتخلص له العبادة .

[ ثم إليه ترجعون ] فيجازى المخلص له بالثواب الجزيل ، ومن أشرك به ، بالعذاب الوبيل .

* يذكر تعالى حالة المشركين ، وما اقتضاه شركهم ( و ) أنهم [ إذا اذكر الله وحده ] توحيداً له ، وعملا بإخلاص الدين له ، وترك ما يعبدون من دونه ، يشمئزون ، وينفرون ، ويكرهون ذلك أشد الكراهة .

[ وإذا ذكر الذين من دونه ] من الأصنام والأنداد ، ودعا الداعى إلى عبادتها ومدحها [إذا هم يستبشرون] بذلك ، فرحا بذكر معبوداتهم ، ولكون الشرك موافقا لأهوائهم ، وهذه الحال ، شر الحالات وأشنعها ، ولكن موعدهم يوم الجزاء .

فهناك يؤخذ الحق منهم ، وينظر : هل تنفعهم آلتهم ، التى كانوا يدعون من دون الله شيئا ؟ .

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

---

ولهذا قال [ قل اللهم فاطر السموات والأرض ] أى : خالقهما ومدبرهما .

[ عالم الغيب ] الذى غاب عن أبصارنا وعلمنا [ والشهادة ] الذى نشاهده .

[ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ] وإن من أعظم الاختلاف ، اختلاف الموحدين المخلصين ، القائلين : إن ماهم عليه هو الحق ، وإن لهم الحسنى فى الآخرة دون غيرهم ، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان ، وسووا بك من لا يسوى شيئا ، وتنقصوك غاية التنقص ، واستبشروا عند ذكر آلهتهم ، واشمئزوا عند ذكرك ، وزعموا مع هذا ، أنهم على الحق ، وغيرهم على الباطل ، وأن لهم الحسنى .

قال تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيمة إن الله على كل شىء شهيد » .

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد » إلى أن قال : [ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ

---

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ] .

وقال تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار »

ففى هذه الآية ، بيان عموم خلقه تعالى ، وعموم علمه ، وعموم حكمه بين عباده .

فقدرته التى نشأت عنها المخلوقات ، وعلمه المحيط بكل شىء ، دال على حكمه بين عباده ، وبعثهم ، وعلمه بأعمالهم ، خيرها وشرها ، وبمقادير جزائها ، وخلقه دال على علمه « ألا يعلم من خلق » .

* لما ذكر تعالى ، أنه الحاكم بين عباده ، وذكر مقالة المشركين وشناعتها ، كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة ، أخبر أن لهم [ سوء العذاب ] أى : أشده وأفظعه ، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه .

وأنهم على ـ الفرض والتقدير ـ لو كان لهم ما فى الأرض جميعاً ، من ذهبها ، وفضتها ، ولؤلؤها ، وحيواناتها ، وأشجارها ، وزروعها ، وجميع أوانيها ، وأثاثها ، ومثله معه ، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب ، وينجوا منه ، ما قبل منهم ، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئا ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم » .

[ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ] أى : يظنون من السخط

يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا

---

العظيم ، والمقت الكبير ، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك .

[ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ] أى : الأمور التى تسوؤهم ، بسبب صنيعهم وكسبهم .

[ وحاق(١) بهم ما كانوا به يستهزئون ] من الوعيد والعذاب ، الذى نزل بهم ، وما حل عليهم ، من العقاب .

* يخبر تعالى ، عن حالة الإنسان وطبيعته ، أنه حين يمسه ضر ، من مرض ، أو شدة ، أو كرب .

[ دعانا ] ملحا فى تفريج ما نزل به [ ثم إذا خولناه ] « أى : أعطيناه » [ نعمة منا ] فكشفنا ضره وأزلنا مشقته ، عاد بربه كافرا ، ولمعروفه منكرا .

و [ قال إنما أوتيته على علم ] أى : علم من الله ، أنى له أهل ، وأنى مستحق له ، لأنى كريم عليه ، أو على علم منى ، بطرق تحصيله .

قال تعالى : [ بل هى فتنة ] يبتلى الله به عباده ، لينظر من يشكره ممن يكفره .

---

(١) حاق ، أى : نزل وأحاط .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ

---

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] فلذلك يعدون الفتنة منحة .

ويشتبه عليهم الخير المحض ، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر .

قال تعالى : [ قد قالها الذين من قبلهم ] أى : قولهم [ إنما أوتيته على علم ] .

فما زالت متوارثة عند المكذبين ، لا يقرون بنعمة ربهم ، ولا يرون له حقا .

فلم يزل دأبهم ، حتى أهلكوا ، [ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ] حين جاءهم العذاب .

* [ فأصابهم سيئات ما كسبوا ] والسيئات فى هذا الموضع : العقوبات ، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه .

والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا ] فليسوا خيرا من أولئك ولم يكتب لهم براءة فى الزبر .

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال ، وزعموا بجهلهم ، أنه يدل على حسن حال صاحبه .

أخبرهم تعالى ، أن رزقه ، لا يدل على ذلك ، و [ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ] من عباده ، سواء كان صالحا أو طالحاً [ ويقدر ] الرزق .

أى : يضيقه ، على من يشاء ، صالحا أو طالحا ، فرزقه مشترك بين البرية .

هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

والإيمان والعمل الصالح يخص به ، خير البرية .

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ] أى : بسط الرزق وقبضه ، لعلمهم أن مرجع ذلك ، عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبيده .

فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه ، لبغوا فى الأرض ، فيكون تعالى مراعياً فى ذلك ، صلاح دينهم الذى هو مادة سعادتهم وفلاحهم ، والله أعلم .

* يخبر تعالى عباده المسرفين « أى : المكثرين من الذنوب » بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة ، قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال :

[ قل ] يا أيها الرسول ومن قام مقامه ، من الدعاة لدين الله ، مخبرا للعباد عن ربهم :

[ ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ] باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب ، والسعى فى مساخط علام الغيوب .

[ لا تقنطوا من رحمة الله ] أى : لا تيأسوا منها ، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا ، وتراكمت عيوبنا ، فليس لها

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

طريق يزيلها ، ولا سبيل يصرفها ، فتبقون بسبب ذلك ، مصرين على العصيان ، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن .

ولكن اعرفوا ربكم ، بأسمائه الدالة على كرمه وجوده .

واعلموا [ أن الله يغفر الذنوب جميعاً ] من الشرك ، والقتل ، والزنا ، والربا ، والظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار .

[ إنه هو الغفور الرحيم ] أى ، وصفه المغفرة والرحمة ، وصفان لازمان ، ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما ، ولم تزل آثارهما ، سارية فى الوجود ، مالئة للموجود .

تسح يداه من الخيرات ، آناء الليل والنهار ، ويوالى النعم والفواضل على العباد فى السر والجهار ، والعطاء أحب إليه من المنع ، والرحمة ، سبقت الغضب وغلبته .

ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما ، أسباب إن لم يأت بها العبد ، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة ، أعظمها وأجلها .

بل لا سبب لها غيره ، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، والدعاء ، والتضرع ، والتأله ، والتعبد .

فهلم إلى هذا السبب الأجل ، والطريق الأعظم .

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه ، والمبادرة إليها فقال :

[ وأنيبوا إلى ربكم ] بقلوبكم [ وأسلموا له ] بجوارحكم .

إذا أفردت الإنابة ، دخلت فيها أعمال الجوارح ، وإذا جمع بينهما ، كما فى هذا الموضع ، كان المعنى ما ذكرنا .

ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

---

وفى قوله [ إلى ربكم وأسلموا له ] دليل على الإخلاص ، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة ، شيئاً .

[ من قبل أن يأتيكم العذاب ] مجيئا لا يدفع [ ثم لا تنصرون[1] ] .

فكأنه قيل : ما هى الإنابة والإسلام ؟ وما جزئياتهما وأعمالهما ؟

فأجاب تعالى بقوله:[ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ] مما أمركم من الأعمال الباطنة ، كمحبة الله ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضاد ذلك .

ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج،والصدقة، وأنواع الإحسان ، ونحو ذلك ، مما أمر الله به ، وهو : أحسن ما أنزل إلينا من ربنا .

فالمتبع لأوامر ربه فى هذه الأمور ونحوها ، هو المنيب المسلم .

[ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون[2] ] ، وكل هذا حثٌّ على المبادرة ، وانتهاز الفرصة .

ثم حذرهم « ونصحهم » [ أن ] لا يستمروا على غفلتهم ، حتى يأتيهم يوم ، يندمون فيه ، ولا تنفع الندامة .

---

( ١ ) أى : بمنع نزول العذاب ، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

(٢) أى : لا تشعرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له بل يفجأكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً ، لمزيد غفلتكم .

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ

---

« ولئلا » [ تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت[1] فى جنب الله ] أى : فى جانب حقه .

[ وإن كنت ] فى الدنيا [ لمن الساخرين ] فى إتيان الجزاء ، حتى رأيته عيانا .

[ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين[2] ] و « لو » فى هذا الموضع للتمنى .

أى : ليت أن الله هدانى ، فأكون متقيا له ، فأسلم من العقاب ، وأستحق الثواب .

وليست « لو » هنا ، شرطية ، لأنها لو كانت شرطية ، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم ، وهى حجة باطلة ، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة .

[ أو تقول حين ترى العذاب ] وتجزم بوروده [ لو أن لى كرة ] .

أى : رجعة إلى الدنيا [ فأكون من المحسنين[3] ] .

قال تعالى : إن ذلك غير ممكن ولا مفيد ، وأن هذه أمانى باطلة ،

---

(١) فرطت أى : قصرت « فى جنب الله » فى طاعته وحقه تعالى .

(٢) أى : الشرك والمعاصى .

(٣) أى : فى العقيدة والعمل .

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم

---

لا حقيقة لها ، إذ لا يتجدد للعبد لو رُدَّ ، بيان بعد البيان الأول .

[ بل قد جاءتك آياتى ] الدالة على الحق ، دلالة لا يمترى فيها .

[ فكذبت بها واستكبرت ] عن اتباعها [ وكنت من الكافرين ] .

فسؤال الرد إلى الدنيا ، نوع عبث ، « فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

* يخبر تعالى ، عن خزى الذين كذبوا عليه ، وأن وجوههم تكون يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم ، يعرفهم بذلك أهل الموقف ، فالحق أبلج واضح ، كأنه الصبح .

فكما سوّدوا وجه الحق بالكذب ، سود الله وجوههم ، جزاء من جنس عملهم .

فلهم سواد الوجوه ، ولهم العذاب الشديد فى جهنم ، ولهذا قال :

[ أليس فى جهنم مثوى[1] للمتكبرين ] عن الحق ، وعن عبادة ربهم ، المفترين عليه ؟

بلى ، والله ، إن فيها لعقوبة وخزيا وسخطا ، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ ، ويؤخذ الحق منهم بهما .

---

(١) مثوى . أى : مقام ومنزل يكون لهم مأوى .

مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

---

والكذب على الله ، يشمل الكذب عليه ، باتخاذ الشريك والولد والصاحبة ، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله ، أو ادعاء النبوة ، أو القول فى شرعه بما لم يقله ، والإخبار بأنه قاله وشرعه .

ولما ذكر حالة المتكبرين ، ذكر حالة المتقين فقال : [ وينجى الله(١) الذين اتقوا بمفازتهم(٢) ] أى بنجاتهم ، وذلك لأن معهم آلة النجاة ، وهى تقوى الله تعالى ، التى هى العدة ، عند كل هول وشدة .

[ لا يمسهم السوء ] أى : العذاب الذى يسوؤهم [ ولا هم يحزنون ] فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه ، وهذا غاية الأمان .

فلهم الأمن التام ، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام .

فحينئذ ، يأمنون من كل سوء ومكروه ، وتجرى عليهم نضرة النعيم .

ويقولون « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

---

( ١ ) أى : من جهنم .

( ٢ ) بمفازتهم . أى : بفوزهم وحصول أمنيتهم وهى الظفر بالجنة و« المفازة » مصدر ميمى . بمعنى الفوز يقال : فاز بكذا ، إذ أفلح به وظفر بمراده منه : وتفسير المفازة هو : أنه لا تمسهم النار التى تسوؤهم .

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

* يخبر تعالى عن عظمته وكماله ، الموجب لخسران من كفر به فقال :

[ الله خالق كل شيء] هذه العبارة وما أشبهها ، مما هو كثير فى القرآن ، تدل على أن جميع الأشياء ـ غير الله وأسمائه وصفاته ـ مخلوقة .

ففيها رد على كل من قال ، بقدم بعض المخلوقات ، كالفلاسفة القائلين ، بقدم الأرض والسموات .

وكالقائلين بقدم الأرواح ، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل ، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه .

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة ، لأن الكلام صفة المتكلم .

والله ، تعالى بأسمائه وصفاته ، أول ، ليس قبله شيء .

فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها ، أن كلام الله مخلوق ، من أعظم الجهل .

فإنه تعالى ، لم يزل بأسمائه وصفاته ، ولم يحدث صفة من صفاته ، ولم يكن معطلا عنها ، بوقت من الأوقات .

والشاهد من هذا ، أن الله تعالى ، أخبر عن نفسه الكريمة ، أنه خالق لجميع العلوى والسفلى ، وأنه على كل شيء وكيل .

والوكالة التامة ، لا بد فيها من علم الوكيل ، بما كان وكيلا عليه ، وإحاطته بتفاصيله .

ومن قدرة تامة على ماهو وكيل عليه ، ليتمكن من التصرف فيه ، ومن حفظٍ ، لما هو وكيل عليه ، ومن حكمة ، ومعرفة ، بوجوه التصرفات ،

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

---

ليصرفها ويدبرها ، على ما هو الأليق ، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله ، فما نقص من ذلك ، فهو نقص فيها .

ومن المعلوم المتقرر ، أن الله تعالى منزه عن كل نقص ، فى أى صفة من صفاته .

فإخباره بأنه على كل شىء وكيل ، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وكمال قدرته على تدبيرها ، وكمال تدبيره ، وكمال حكمته ، التى يضع بها الأشياء مواضعها .

[ له مقاليد السموات والأرض ] أى : مفاتيحها ، علماً وتدبيرا ، فـ « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

فلما بين من عظمته ، ما يقتضى أن تمتلىء القلوب له إجلالا وإكراما ، ذكر حال من عكس القضية ، فلم يقدره حق قدره فقال :

[ والذين كفروا بآيات الله ] الدالة على الحق اليقين ، والصراط المستقيم .

[ أولئك هم الخاسرون ] خسروا ، ما به تصلح القلوب ، من التأله والإخلاص لله .

وما به تصلح الألسن ، من إشغالها بذكر الله ، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ

---

وتعوضوا عن ذلك ، كل مفسد للقلوب والأبدان ، وخسروا جنات النعيم ، وتعوضوا عنها ، بالعذاب الأليم .

* [ قل ] يا أيها الرسول ، لهؤلاء الجاهلين ، الذين دعوك إلى عبادة غير الله :

[ أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ] أى : هذا الأمر صدر من جهلكم ، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى ، الكامل من جميع الوجوه ، مسدى جميع النعم ، هو المستحق للعبادة ، دون من كان ناقصا من كل وجه ، لا ينفع ، ولا يضر ، لم تأمرونى بذلك ؟ .

وذلك لأن الشرك بالله، محبط للأعمال ، مفسد للأحوال ، ولهذا قال :

[ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ] من جميع الأنبياء .

[ لئن أشركت ليحبطن عملك ] ، هذا مفرد مضاف ، يعم كل عمل .

ففى نبوة جميع الأنبياء ، أن الشرك محبط لجميع الأعمال ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام ـ لما عد كثيرا من أنبيائه ورسله قال عنهم :

« ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » .

[ ولتكونن من الخاسرين ] دينك وآخرتك .

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ

فبالشرك تحبط الأعمال ، ويستحق العقاب والنكال .

ثم قال : [ بل الله فاعبد ] لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك ، وأخبر عن شناعته ، أمره بالإخلاص فقال :

[ بل الله فاعبد ] أى : أخلص له العبادة ، وحده لا شريك له .

[ وكن من الشاكرين ] الله ، على توفيق الله تعالى .

فكما أنه يشكر على النعم الدنيوية ، كصحة الجسم وعافيته ، وحصول الرزق وغير ذلك .

كذلك يشكر ويثنى عليه ، بالنعم الدينية ، كالتوفيق للإخلاص ، والتقوى ، بل نعم الدين ، هى النعم على الحقيقة .

وفى تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها ، سلامة من آفة العجب ، التى تعرض لكثير من العاملين ، بسبب جهلهم .

وإلا ، فلو عرف العبد حقيقة الحال ، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر .

* يقول تعالى : وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدرة ، ولا عظموه حق تعظيمه ، بل فعلوا ما يناقض ذلك ، من إشراكهم به ، من هو ناقص فى أوصافه وأفعاله .

فأوصافه ناقصة من كل وجه ، وأفعاله ، ليس عنده نفع ولا ضر ، ولا عطاء ، ولا منع ، ولا يملك من الأمر شيئا .

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

---

فسووا هذا المخلوق الناقص ، بالخالق الرب العظيم ، الذى — من عظمته الباهرة ، وقدرته القاهرة — أن جميع الأرض يوم القيامة ، قبضة للرحمن ، وأن السموات — على سعتها وعظمها — مطويات بيمينه .

فلم يعظمه حق تعظيمه ، من سوّى به غيره ، وهل أظلم ممن فعل ذلك ؟.

[ سبحانه وتعالى عما يشركون ] أى : تنزه ، وتعاظم عن شركهم به .

✡ لما خوفهم تعالى من عظمته ، خوفهم بأحوال يوم القيامة ، ورغّبهم ورهّبهم فقال :

[ ونفخ فى الصور ] وهو قرن عظيم ، لا يعلم عظمته إلا خالقه ، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه .

فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . أحد الملائكة المقربين ، وأحد حملة عرش الرحمن .

[ فصعق ] أى : غشى عليه أو مات ، على اختلاف القولين .

[ من فى السموات ومن فى الأرض ] أى : كلهم ، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها ، وما يعلمون أنها مقدمة له .

[ إلا من شاء الله ] ممن ثبته الله عند النفخة ، فلم يصعق ، كالشهداء أو بعضهم ، وغيرهم .

يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ

وهذه النفخة الأولى ، نفخة الصعق ، و نفخة الفزع .

[ ثم نفخ فيه ] نفخة [ أخرى ] نفخة البعث [ فإذا هم قيام ] أى : قد قاموا من قبورهم ، لبعثهم وحسابهم ، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح ، وشخصت أبصارهم [ ينظرون ] ماذا يفعل الله بهم .

[ وأشرقت الأرض بنور ربها ] علم من هذا ، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضحمل ، وهو كذلك .

فإن الله أخبر أن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، والنجوم تنتثر ، ويكون الناس فى ظلمة ، فتشرق الأرض عند ذلك ، بنور ربها ، عندما يتجلى ، وينزل للفصل بينهم .

وفى ذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة . وينشئهم نشأة ، يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره ، ويتمكنون أيضا من رؤيته .

وإلا ، فنوره تعالى عظيم ، لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

[ ووضع الكتاب ] أى : كتاب الأعمال وديوانه ، وضع ونشر ، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات ، كما قال تعالى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً » .

وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

[ وجيء بالنبين ] ليسألوا عن التبليغ ، وعن أممهم ، ويشهدوا عليهم .

[ والشهداء ] من الملائكة ، وأعضاء الإنسان والأرض .

[ وقضى بينهم بالحق ] أى : العدل التام والقسط العظيم ، لأنه حساب صادر ، ممن لا يظلم مثقال ذرة ، ومن هو محيط بكل شيء .

وكتابه الذى ، هو اللوح المحفوظ ، محيط بكل ما عملوه .

والحفظة الكرام ، والذين لا يعصون ربهم ، قد كتبت عليهم ما عملوه .

وأعدل الشهداء ، قد شهدوا على ذلك الحكم .

فحكم بذلك ، من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب .

فيحصل حكم يقر به الخلق ، ويعترفون لله بالحمد والعدل ، ويعرفون به من عظمته ، وعلمه ، وحكمته ورحمته ، ما لم يخطر بقلوبهم ، ولا تعبر عنه ألسنتهم ، ولهذا قال :

[ ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١) ] .

(١) لا يظلمون . أى : بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب ، على ما جرى به الوعد . اهـ . أبو السعود .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

* لما ذكر تعالى حكمه بين عباده ، الذين جمعهم فى خلقه ، ورزقه ، وتدبيره ، واجتماعهم فى الدنيا ، واجتماعهم فى موقف القيامة ، فرقهم تعالى عند جزائهم ، كما افترقوا فى الدنيا بالإيمان والكفر ، والتقوى والفجور ، فقال :

[ وسيق الذين كفروا إلى جهنم ] أى : سوقا عنيفا ، يضربون بالسياط الموجعة ، من الزبانية الغلاظ الشداد ، إلى شر محبس ، وأفظع موضع ، وهى : جهنم التى قد جمعت كل عذاب ، وحضرها كل شقاء ، وزال عنها كل سرور ، كما قال تعالى :

« يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » أى : يدفعون إليها دفعاً ، وذلك لامتناعهم من دخولها .

ويساقون إليها [ زمراً ] أى : فرقاً متفرقة ، كل زمرة مع الزمرة ، التى تناسب عملها ، وتشاكل سعيها ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويبرأ بعضهم من بعض .

[ حتى إذا جاءوها ] أى: وصلوا إلى ساحتها [ فتحت ] لهم أى لأجلهم [ أبوابها ] لقدومهم وقِرًى لنزولهم .

[ وقال لهم خزنتها ] مهنئين لهم بالشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى ، وموبخين لهم على الأعمال ، التى أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع :

[ ألم يأتكم رسل منكم ] أى : من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم ،

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

---

وتتمكنون من التلقى عنهم ؟.

[ يتلون عليكم آيات ربكم ] التى أرسلهم الله بها ، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

[ وينذرونكم[1] لقاء يومكم هذا ] أى : وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم ، باستعمال تقواه ، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال ؟

[ قالوا ] مقرين بذنبهم ، وأن حجة الله قامت عليهم : [ بلى ] قد جاءتنا رسل ربنا ، بآياته وبيناته ، وبينوا لنا غاية التبيين وحذرونا من هذا اليوم.

[ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ] أى : بسبب كفرهم ، وجبت عليهم كلمة العذاب ، التى هى ، لكل من كفر بآيات الله ، وجحد ما جاء به المرسلون ، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

[ قيل ] لهم على وجه الإهانة والإذلال : [ ادخلوا أبواب جهنم ] كل طائفة ، تدخل من الباب الذى يناسبها ، ويوافق عملها.

---

(١) ينذرونكم . أى : يخوفونكم من لقاء هذا اليوم المهول الذى يجعل الولدان شيباً.

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

---

[خالدين فيها] أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا ينظرون.

[فبئس مثوى المتكبرين] أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة، والذل، والخزى.

ثم قال عن أهل الجنة: [وسيق الذين اتقوا ربهم] بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدا على النجائب.

[إلى الجنة زمراً] فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التى تناسب عملها، وتشاكله.

[حتى إذا جاءوها] أى: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة، والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها.

[وفتحت] لهم [أبوابها] فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

[وقال لهم خزنتها] تهنئة لهم وترحيباً: [سلام عليكم] أى: سلام عليكم من كل آفة، وشر حال.

[طبتم] أى: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته، وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته.

«فـ» بسبب طيبكم [ادخلوها خالدين] لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها، إلا الطيبون.

. . . . . . . . . . . .

---

وقال فى النار [ فتحت أبوابها ] وفى الجنة [ وفتحت ] بالواو ، إشارة إلى أن أهل النار ، بمجرد وصولهم إليها ، فتحت لهم أبوابها ، من غير إنظار ولا إمهال .

وليكون[1] فتحها فى وجوههم ، وعلى وصولهم ، لحرها ، وأشد لعذابها.

وأما الجنة ، فإنها الدار العالية الغالية ، التى لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد ، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها ، ومع ذلك ، فيحتاجون لدخولها إلى الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه ،فلم تفتح لهم بمجرد ماوصلوا إليها.

بل يستشفعون إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يشفع ، فيشفعه الله تعالى .

وفى الآيات ، دليل على أن النار والجنة ، لهما أبواب ، تفتح وتغلق ، وأن لكل منهما خزنة .

---

( ١ ) قوله « وليكون فتحها » إلى « وأشد لعذابها » كلام غير مفهوم ولعل فى الأصل سقطا وأحسن ما يقال فى سبب الإتيان بالواو فى أهل الجنة « وفتحت أبوابها » وفى أهل النار « فتحت أبوابها » بدون الواو ، ما ذكره النسفى فى تفسيره بقوله « أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها لقوله تعالى « جنات عدن مفتحة لها الأبواب » فلذلك جىء بالواو ، كأنه قال [ حتى إذا جاءوها ] [ و ] قد [ قد فتحت أبوابها ] اهـ. فتكون الواو للحال أى : والحال كانت أبواب الجنة مفتوحة .

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ

---

وهما الداران الخالصتان ، اللتان لا يدخل فيهما ، إلا من استحقهما ، بخلاف سائر الأمكنه والدور .

[ وقالوا ] عند دخولهم فيها ، واستقرارهم ، حامدين ربهم على ما أولاهم ، ومنّ عليهم ، وهداهم :

[ الحمد لله الذى صدقنا وعده ] أى : وعدنا الجنة على ألسنة رسله ، إن امنا وصلحنا ، فوفّى لنا بما وعدنا ، وأنجز لنا ما منّانا .

[ وأورثنا الأرض ] أى : أرض الجنة [ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ] أى ننزل منها أى مكان شئنا ، ونتناول منها ، أى نعيم أردنا ، ليس ممنوعا عنا شيء نريده .

[ فنعم أجر العاملين ] الذين اجتهدوا بطاعة ربهم ، فى زمن قليل منقطع ، فنالوا بذلك خيراً عظيما باقيا مستمراً .

وهذه الدار ، التى تستحق المدح على الحقيقة ، التى يكرم الله فيها خواص خلقه .

ورضيها الجواد الكريم لهم نزلا ، وبنى أعلاها وأحسنها ، وغرسها بيده ، وحشاها من رحمته وكرامته ، ما ببعضه ، يفرح الحزين ، ويزول الكدر ، ويتم الصفاء .

[ وترى الملائكة ] أيها الرائي ذلك اليوم العظيم [ حافين من حول العرش ] .

مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

---

أى : قد قاموا فى خدمة ربهم ، واجتمعوا حول عرشه ، خاضعين لجلاله ، معترفين بكماله ، مستغرقين بجماله .

[ يسبحون بحمد ربهم ] أى : ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله ، مما نسب إليه المشركون ، وما لم ينسبوا .

[ وقضى بينهم ] أى : بين الأولين والآخرين من الخلق [ بالحق ] الذى لا اشتباه فيه ولا إنـكار ، ممن عليه الحق .

[ وقيل الحمد لله رب العالمين ] لم يذكر القائل من هو ، ليدل ذلك على أن جميع الخلق ، نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة ، وأهل النار ، حمد فضل وإحسان ، وحمد عدل وحكمة .

تم تفسير سورة الزمر — بحمد الله وعونه

# تفسير

# سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾
غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ

---

* يخبر تعالى عن كتابه العظيم ، وأنه صادر ومنزل من الله ، المألوه المعبود، لكماله ، وانفراده بأفعاله .

[ العزيز ] الذى قهر بعزته كل مخلوق [ العليم ] بكل شىء .

[ غافر الذنب ] للمذنبين [ وقابل التوب ] من التائبين .

[ شديد العقاب ] على من تجرأ على الذنوب ، ولم يتب منها [ذى الطول] أى : التفضل والإحسان الشامل .

فلما قرر ما قرر من كماله ، وكان ذلك موجبا لأن يكون وحده ،المألوه، الذى تخلص له الأعمال قال : [ لا إله إلا هو إليه المصير ] .

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله ، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف ، مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن ، من المعانى .

إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

فإن القرآن : إما إخبار عن أسماء الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وهذه أسماء ، وأوصاف ، وأفعال .

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، فهى من تعليم العليم لعباده .

وإما إخبار عن نعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، ومايوصل إلى ذلك ، من الأوامر .

فذلك يدل عليه قوله [ ذى الطول ] .

وإما إخبار عن نقمه الشديدة ، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصى ، فذلك يدل عليه [ شديد العقاب ] .

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة ، والاستغفار فذلك يدل عليه قوله : [ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ] .

وإما إخبار بأنه وحده ، المألوه المعبود ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك ، والحث عليه ، والنهى عن عبادة ما سوى الله ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها ، والترهيب منها ، فذلك يدل عليه قوله تعالى : [ لا إله إلا هو ] .

وإما إخبار عن حكمه الجزائى العدل ، وثواب المحسنين ، وعقاب العاصين ، فهذا يدل عليه قوله [ إليه المصير ] ، فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات .

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ

---

* يخبر تبارك وتعالى أنه [ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ] والمراد بالمجادلة هنا ، المجادلة لرد آيات الله ، ومقابلتها بالباطل فهذا من صنيع الكفار .

وأما المؤمنون ، فيخضعون للحق ، ليدحضوا به الباطل .

ولا ينبغى للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ، ويظن أن إعطاء الله إياه فى الدنيا ، دليل على محبته له ، وأنه على الحق ، ولهذا قال : [ فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ] أى : ترددهم فيها ، بأنواع التجارات والمكاسب.

بل الواجب على العبد ، أن يعتبر الناس بالحق ، وينظر إلى الحقائق الشرعية ، ويزن بها الناس ، ولا يزن الحق بالناس ، كما عليه ، من لا علم ولا عقل له .

ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها ، كما فعل من قبله من الأمم من [ قوم نوح ] وعاد [ والأحزاب من بعدهم ] الذين تحزبوا ، وتجمعوا على الحق ليبطلوه ، وعلى الباطل لينصروه .

[ و ] أنه بلغت بهم الحال ، وآل بهم التحزب إلى أنه [ همت كل أمة ] من الأمم [ برسولهم ليأخذوه ] أى : يقتلوه .

وهذا أبلغ ما يكون للرسل ، الذين هم قادة أهل الخير ، الذين معهم الحق الصرف ، الذى لا شك فيه ، ولا اشتباه ، هموا بقتلهم .

لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

---

فهل بعد هذا البغى والضلال والشقاء ، إلا العذاب العظيم ، الذى لا يخرجون منه ؟

ولهذا قال فى عقوبتهم الدنيوية والأخروية : [ فأخذتهم ] أى : بسبب تكذيبهم وتحزبهم [ فكيف كان عقاب ] كان أشد العقاب وأفظعه ، إن هو إلا صيحة ، أو حاصب ينزل عليهم ، أو يأمر الأرض أن تأخذهم ، أو البحر أن يغرقهم ، فإذا هم خامدون .

[ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا ] أى : كما حقت على أولئك ، حقت عليهم كلمة الضلال ، التى نشأت عنها كلمة العذاب ، ولهذا قال : [ إنهم أصحاب النار ] .

* يخبر تعالى ، عن كمال لطفه بعباده المؤمنين ، وماقيض لأسباب سعادتهم ، من الأسباب الخارجة عن قدرهم ، من استغفار الملائكة المقربين لهم ، ودعائهم لهم ، بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم .

وفى ضمن ذلك ، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله ، وقربهم من ربهم ، وكثرة عبادتهم ، ونصحهم لعباد الله ، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال :

[ الذين يحملون العرش ] أى : عرش الرحمن ، الذى هو سقف المخلوقات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحسنها ، وأقربها من الله تعالى ، الذى وسع

الأرض والسموات ، والكرسي .

وهؤلاء الملائكة ، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم ، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة ، وأعظمهم ، وأقواهم .

واختيار الله إياهم ، لحمل عرشه ، وتقديمهم فى الذكر ، وقربهم منه ، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة ، عليهم السلام ، قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

[ ومن حوله ] من الملائكة المقربين فى المنزلة والفضيلة [ يسبحون بحمد ربهم ] هذا مدح لهم ، بكثرة عبادتهم لله تعالى ، وخصوصا ، التسبيح والتحميد .

وسائر العبادات، تدخل فى تسبيح الله وتحميده ، لأنها تنزيه له ، عن كون العبد يصرفها لغيره ، وحمد له تعالى ، بل الحمد ، هو العبادة لله تعالى .

وأما قول العبد « سبحان الله وبحمده » فهو داخل فى ذلك ، وهو من جملة العبادات .

[ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ] وهذا من جملة فوائد الإيمان، وفضائله الكثيرة جدا ، أن الملائكة الذين يؤمنون بالله ، ولا ذنوب عليهم ، يستغفرون لأهل الإيمان ، فالمؤمن بإيمانه ، تسبب لهذا الفضل العظيم .

ولما كانت المغفرة ، لها لوازم ، لا تتم إلا بها — غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان ، أن سؤالها وطلبها ، غايته مجرد مغفرة الذنوب — ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة ، بذكر ما لا تتم إلا به فقال :

كَلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

[ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ] فعلمك قد أحاط بكل شيء ، لا يخفى عليك منه خافية ، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ورحمتك وسعت كل شيء .

فالكون علويه وسفليه ، قد امتلأ برحمة الله تعالى ، ووسعتهم ، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه .

[ فاغفر للذين تابوا ] من الشرك والمعاصى [ واتبعوا سبيلك ] باتباع رسلك ، بتوحيدك وطاعتك .

[ وقهم عذاب الجحيم ] أى قهم العذاب نفسه ، وقهم أسباب العذاب.

[ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ] على ألسنة رسلك [ ومن صلح ] أى : صلح بالإيمان ، والعمل الصالح [ من آبائهم وأزواجهم ] زوجاتهم وأزواجهن ، وأصحابهم ، ورفقائهم [ وذرياتهم ] .

[ إنك أنت العزيز ] القاهر لكل شيء ، فبعزتك تغفر ذنوبهم ، وتكشف عنهم المحذور ، وتوصلهم بها إلى كل خير [ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فلا نسئلك ، ياربنا ، أمراً تقتضى حكمتك خلافه .

بل من حكمتك ، التى أخبرت بها ، على ألسنة رسلك ، واقتضاها فضلك ، المغفرة للمؤمنين .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

[ وقهم السيئات ] أى : جنبهم الأعمال السيئة وجزاءها ، لأنها تسوء صاحبها .

[ ومن تق السيئات يومئذ ] أى : يوم القيامة [ فقد رحمته ] لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد ، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم ، فمن وقيته السيئات فقد وفقته للحسنات ، وجزائها الحسن .

[ وذلك ] أى : زوال المحذور ، بوقاية السيئات ، وحصول المحبوب ، بحصول الرحمة .

[ هو الفوز العظيم ] الذى لا فوز مثله ، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه .

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة ، كمال معرفتهم بربهم ، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى ، التى يحب من عباده ، التوسل بها إليه ، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه .

فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة ، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية ، التى علم الله نقصها ، واقتضاءها لما اقتضته من المعاصى ، ونحو ذلك من المبادىء والأسباب ، التى قد أحاط الله بها علماً ، توسلوا بالرحيم العليم .

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم ، الربوبية العامة والخاصة ، وأنه ليس لهم من الأمر شىء ، وإنما دعاؤهم لربهم ، صدر من فقير بالذات ، من جميع الوجوه ، لا يُدْلِى على ربه ، بحالة من الأحوال ،

. . . . . . . . . . .

---

إن هو إلا فضل الله ، وكرمه وإحسانه .

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة ، بمحبة ما يحبه ، من الأعمال ، التى هى العبادات ، التى قاموا بها ، واجتهدوا ، اجتهاد المحبين ، ومن العمال ، الذين هم المؤمنون ، الذين يحبهم الله تعالى ، من بين خلقه .

فسائر الخلق المكلفين ، يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم .

فمن محبة الملائكة لهم ، دعوا الله ، واجتهدوا فى صلاح أحوالهم ، لأن الدعاء للشخص ، من أدل الدلائل على محبته ، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه .

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله [ ويستغفرون للذين آمنوا ] التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه ، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده .

بل ينبغى له أن يتدبر معنى اللفظ ، فإذا فهمه فهما صحيحا على وجهه ، نظر بعقله إلى ذلك الأمر ، والطرق الموصلة إليه ، وما لا يتم إلا به ، وما يتوقف عليه .

وجزم بأن الله أراده ، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص ، الدال عليه اللفظ .

والذى يوجب الجزم له ، بأن الله أراده أمران :

أحدهما : معرفته وجزمه ، بأنه من توابع المعنى ، والمتوقف عليه .

والثانى : علمه بأن الله بكل شىء عليم ، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر فى كتابه .

. . . . . . . . . . .

---

وقد علم تعالى ، ما يلزم من تلك المعانى ، وهو المخبر بأن كتابه هدى ، ونور ، وتبيان لكل شيء ، وأنه أفصح الكلام ، وأجله إيضاحاً .

فبذلك يحصل للعبد ، من العلم العظيم ، والخير الكثير ، بحسب ما وفقه الله له .

وقد كان في تفسيرنا هذا ، كثير مَنَّ هذا من به الله علينا .

وقد يخفى فى بعض الآيات ، مأخذه على غير المتأمل ، صحيح الفكرة .

ونسأله تعالى ، أن يفتح علينا من خزائن رحمته ، ما يكون سببا لصلاح أحوالنا ، وأحوال المسلمين .

فليس لنا ، إلا التعلق بكرمه ، والتوسل بإحسانه ، الذى لانزال نتقلب فيه ، فى كل الآنات ، وفي جميع اللحظات .

ونسأله من فضله ، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق ، لوصول رحمته ، إنه الكريم الوهاب ، الذى تفضل بالأسباب ومسبباتها .

وتضمن ذلك ، أن المقارن ، من زوج ، وولد ، وصاحب ، يسعد بقرينه ، ويكون اتصاله به ، سببا لخير يحصل له ، خارج عن عمله ، وسبب عمله ، كما كانت الملائكة ، تدعو للمؤمنين ، ولمن صلح من آبائهم ، وأزواجهم ، وذرياتهم .

وقد يقال : إنه لا بدّ من وجود صلاحهم لقوله : [ ومن صلح ] فحينئذ يكون ذلك ، من نتيجة عملهم ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

* يخبر تعالى ، عن الفضيحة والخزى ، الذى يصيب الكافرين ، وسؤالهم الرجعة ، والخروج من النار ، وامتناع ذلك عليهم ، وتوبيخهم ، فقال :

[ إن الذين كفروا ] أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها ، من الكفر بالله ، أو بكتبه ، أو برسله ، أو باليوم الآخر ، حين يدخلون النار ، ويقرون أنهم يستحقونها ، لما فعلوه من الذنوب والأوزار ، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ، ويغضبون عليها غاية الغضب ، فينادون عند ذلك .

ويقال لهم [ لمقت الله ] أى : إياكم [ إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ] أى : حين دعتكم الرسل وأتباعهم ، إلى الإيمان ، وأقاموا لكم من البينات ، ما تبين به الحق ، فكفرتم ، وزهدتم فى الإيمان ، الذى خلقكم الله له ، وخرجتم من رحمته الواسعة ، فمقتكم وأبغضكم .

فهذا [ أكبر من مقتكم أنفسكم ] أى : فلم يزل هذا المقت ، مستمراً عليكم ، والسخط من الكريم ، حالاً بكم ، حتى آلت بكم الحال، إلى ما آلت.

فاليوم حلّ عليكم غضب الله وعقابه ، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه .

فتمنوا الرجوع ، و[ قالوا ربنا أمتنا اثنتين] يريدون الموتة الأولى ، وما بين النفختين على ماقيل ، أو العدم المحض قبل إيجادهم ، ثم أماتهم بعد ما أوجدهم .

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

---

[ وأحييتنا اثنتين ] الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى .

[ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ] أى : تحسروا وقالوا ذلك ، فلم يفد ولم ينجع ، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة ، فقيل لهم :

[ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده ] أى: إذا دعى لتوحيده ، وإخلاص العمل له ، ونهى عن الشرك به [ كفرتم ] به ، واشمأزت لذلك قلوبكم ، ونفرتم غاية النفور .

[ وإن يشرك به تؤمنوا ] أى : هذا الذى أنزلكم هذ المنزل وبوأكم ، هذا المقيل والمحل ، أنكم تكفرون بالإيمان ، وتؤمنون بالكفر .

ترضون بما هو شر وفساد فى الدنيا والآخرة ، وتكرهون ما هو خير وصلاح ، فى الدنيا والآخرة .

تؤثرون سبب الشقاوة ، والذل ، والغضب ، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر « وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » .

[ فالحكم لله العلى الكبير ] العلى : الذى له العلو المطلق ، من جميع الوجوه ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر .

ومن علو قدره ، كمال عدله تعالى ، وأنه يضع الأشياء مواضعها ، ولا يساوى بين المتقين والفجار .

[ الكبير ] الذى له الكبرياء والعظمة والمجد ، فى أسمائه ، وصفاته ،

وأفعاله ، المتنزه عن كل آفة ، وعيب ، ونقص .

فإذا كان الحكم له تعالى ، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم ، فحكمه لا يغير ولا يبدل .

* يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده ، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِى عباده من آياته النفسية ، والآفاقية ، والقرآنية ، الدالة على كل مطلوب مقصود ، الموضحة للهدى من الضلال ، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها ، والمتأمل لها ، أدنى شك فى معرفة الحقائق .

وهذا من أكبر نعمه على عباده ، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبها ، ولا الصواب ملتبسا .

بل نوّع الدلالات ، ووضح الآيات ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

وكلما كانت المسائل أجل وأكبر ، كانت الدلائل عليها، أكثر وأيسر .

فانظر إلى التوحيد ، لما كانت مسألته من أكبر المسائل ، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية ، وتنوعت ، وضرب الله لها الأمثال ، وأكثر لها من الاستدلال .

ولهذا ذكرها فى هذا الموضع ، ونبه على جملة من أدلتها فقال :

[ فادعوا الله مخلصين له الدين ] .

ولما ذكر أنه يُرِى عباده آياته ، نبه على آية عظيمة فقال :

[ وينزل عليكم من السماء رزقاً ] أى : مطراً ، به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم ، وذلك يدل على أن النعم كلها منه .

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

---

فمنه نعم الدين ، وهى المسائل الدينية ، والأدلة عليها ، وما يتبع ذلك ، من العمل بها .

والنعم الدنيوية كلها ، كالنعم الناشئة عن الغيث ، الذى تحيا به البلاد والعباد .

وهذا يدل دلالة قاطعة ، أنه وحده ، هو المعبود ، الذى يتعين إخلاص الدين له ، كما أنه ـ وحده ـ المنعم .

[ وما يتذكر ] بالآيات ، حين يذكر بها [ إلا من ينيب ] إلى الله تعالى ، بالإقبال على محبته ، وخشيته ، وطاعته ، والتضرع إليه .

فهذا الذى ينتفع بالآيات ، وتصير رحمة فى حقه ، ويزداد بها بصيرة .

ولما كانت الآيات ، تثمر التذكر ، والتذكر يوجب الإخلاص لله ، رتب الأمر على ذلك بالفاء ، الدالة على السببية فقال : [ فادعوا الله مخلصين له الدين ] .

وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

والإخلاص ، معناه : تخليص القصد لله تعالى ، فى جميع العبادات ، الواجبة والمستحبة ، حقوق الله ، وحقوق عباده .

أى : أخلصوا لله تعالى ، فى كل ما تدينونه به ، وتتقربون به إليه .

[ ولو كره الكافرون ] لذلك ، فلا تبالوا بهم ، ولا يثنكم ذلك عن دينكم ، ولا تأخذكم بالله لومة لائم ، فإن الكافرين ، يكرهون الإخلاص

مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم

---

وحده ، غاية الكراهة كما قال تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

ثم ذكر من جلاله وكماله ، ما يقتضى إخلاص العبادة له فقال :

[ رفيع الدرجات ذو العرش ] أى : العلى الأعلى ، الذى استوى على العرش ، واختص به ، وارتفعت درجاته ارتفاعا ، باين به مخلوقاته ، وارتفع به قدره ، وجلت أوصافه ، وتعالت ذاته ، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكى الطاهر المطهر ، وهو الإخلاص ، الذى يرفع درجات أصحابه ، ويقربهم إليه ، ويجعلهم فوق خلقه .

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحى فقال :

[ يلقى الروح ] أى : الوحى الذى للأرواح والقلوب ، بمنزلة الأرواح للأجساد .

فكما أن الجسد بدون الروح ، لا يحيا ولا يعيش ، فالروح والقلب ، بدون روح الوحى ، لا يصلح ولا يفلح ، فهو تعالى [ يلقى الروح من أمره ] الذى فيه نفع العباد ومصلحتهم .

[ على من يشاء من عباده ] وهم الرسل ، الذين فضلهم ، واختصهم لوحيه ، ودعوة عباده .

والفائدة فى إرسال الرسل ، هو تحصيل سعادة العباد ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، وإزالة الشقاوة عنهم ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، ولهذا قال :

[ لينذر ] من ألقى إليه الوحى [ يوم التلاق ] أى : يخوف العباد بذلك،

بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ

---

ويحثهم على الاستعداد له ، بالأسباب المنجية مما يكون فيه .

وسماه « يوم التلاق » لأنه يلتقى فيه الخالق والمخلوق ، والمخلوقون بعضهم مع بعض ، والعاملون ، وأعمالهم وجزاؤهم .

[ يوم هم بارزون ] أى : ظاهرون على الأرض ، وقد اجتمعوا فى صعيد واحد ، لا عوج ولا أمت فيه ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر .

[ لا يخفى على الله منهم شىء ] لا من ذواتهم ، ولا من أعمالهم ، ولا من جزاء تلك الأعمال.

[ لمن[1] الملك اليوم ] أى : من هو المالك لذلك اليوم العظيم ، الجامع للأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض الذى انقطعت فيه الشركة فى الملك ، وتقطعت الأسباب ، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة ؟

الملك [ لله الواحد القهار ] أى : المنفرد فى ذاته وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، فلا شريك له فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

[ القهار ] لجميع المخلوقات ، الذى دانت له المخلوقات ، وذلت وخضعت، خصوصا فى ذلك اليوم ، الذى عنت فيه الوجوه ، للحى القيوم ، يومئذ لا تَـكَلَّمُ نفس إلا بإذنه .

[ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ] فى الدنيا ، من خير وشر ، قليل وكثير .

[ لا ظلم اليوم ] على أحد ، بزيادة فى سيئاته ، أو نقص من حسناته .

---

( ١ ) قوله « لمن الملك اليوم » يقوله تعالى ويجيب نفسه بقوله : « لله الواحد القهار » .

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ

---

[ إن الله سريع الحساب ] أى : لا تستبطوا ذلك اليوم ، فإنه آت ، وكل آت قريب .

وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده ، يوم القيامة لإحاطة علمه ، وكمال قدرته .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ وأنذرهم يوم الآزفة ] أى يوم القيامة التى قد أزفت وقربت ، وآن الوصول إلى أهوالها ، وقلاقلها ، وزلازلها .

[ إذ القلوب لدى الحناجر ] أى : قد ارتفعت ، وبقيت أفئدتهم هواء ، ووصلت القلوب ، من الروع والكرب ، إلى الحناجر ، شاخصة أبصارهم .

[ كاظمين ] لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، وكاظمين على ما فى قلوبهم ، من الروع الشديد ، والمزعجات الهائلة .

[ ما للظالمين من حميم ] أى : قريب ولا صاحب [ ولا شفيع يطاع ] .

لأن الشفعاء لا يشفعون فى الظالم نفسه بالشرك ، ولو قدرت شفاعتهم ، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم ، فلا يقبلها .

[ يعلم خائنة الأعين ] وهو النظر الذى يخفيه العبد عن جليسه ، ومقارنه ، وهو نظر المسارقة .

ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

---

[ وما تخفى الصدور ] مما لم يبينه العبد لغيره ، فالله تعالى ، يعلم ذلك الخفى ، فغيره من الأمور الظاهرة ، من باب أولى وأحرى .

[ والله يقضى بالحق ] لأن قوله حق ، وحكمه الشرعى حق ، وحكمه الجزائى حق .

وهو المحيط علماً ، وكتابة ، وحفظاً بجميع الأشياء .

وهو المنزه عن الظلم والنقص ، وسائر العيوب .

وهو الذى يقضى قضاءه القدرى ، الذى إذا شاء شيئاً ، كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وهو الذى يقضى بين عباده المؤمنين والكافرين ، في الدنيا ، ويفصل بينهم ، بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه .

[ والذين يدعون من دونه ] وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله

[ لا يقضون بشىء ] لعجزهم ، وعدم إرادتهم للخير ، وعدم استطاعتهم لفعله .

[ إن الله هو السميع ] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[ البصير ] بما كان وما يكون ، وما يبصر ، وما لا يبصر ، وما يعلم العباد ، وما لا يعلمون .

قال فى أول هاتين الآيتين [ وأنذرهم يوم الآزفة ] ثم وصفها بهذه

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

الأوصاف ، المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم ، لاشتمالها على الترغيب والترهيب .

* يقول تعالى : [ أو لم يسيروا فى الأرض ] أى : بقلوبهم وأبدانهم ، سير نظر واعتبار ، وتفكر فى الآثار .

[ فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ] من المكذبين ، فسيجدونها ، شر العواقب ح عاقبة الهلاك والدمار ، والخزى والفضيحة .

وقد [ كانوا أشد منهم قوة ] فى العَدَد والعُدَد وكبر الأجسام .

[ و ] أشد [ آثارا فى الأرض ] من البناء والغرس .

وقوة الآثار ، تدل على قوة المؤثر فيها ، وعلى تمنعه بها .

[ فأخذهم الله ] بعقوبته [ بذنوبهم ] حين أصروا ، واستمروا عليها .

[ إنه قوى شديد العقاب ] فلم تغن قوتهم ، عند قوة الله ، شيئا .

بل من أعظم الأمم قوة ، قوم عاد الذين قالوا « من أشد منا قوة » أرسل الله إليهم ريحاً ، أضعفت قواهم ، ودمرتهم كل تدمير .

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسل ، وهو فرعون وجنوده فقال :

[ ولقد أرسلنا موسى ] إلى قوله [ أشد العذاب ] .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا

---

* أى [ ولقد أرسلنا ] إلى جنس هؤلاء المكذبين [ موسى ] ابن عمران .

[ بآياتنا ] العظيمة ، الدالة دلالة قطعية ، على حقيقة ما أرسل به ، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم ، من الشرك ، وما يتبعه .

[ وسلطان مبين ] أى ، حجة بينة ، تتسلط على القلوب ، فتذعن لها ، كالحية ، والعصا ، ونحوها من الآيات البينات ، التى أيد الله بها موسى ، ومكنه مما دعا إليه من الحق .

إلى المبعوث إليهم [ فرعون وهامان ] وزيره [ وقارون ] الذى كان من قوم موسى ، فبغى عليهم بماله .

وكلهم ردوا عليه ، أشد الرد [ فقالوا ساحر كذاب ] .

[ فلما جاءهم بالحق من عندنا ] وأيده الله بالمعجزات الباهرة ، الموجبة لتمام الإذعان ، لم يقابلوها بذلك ، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض ، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم .

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن [ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين ] حيث كادوا هذه المكيدة ، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم ، لم يقووا ، وبقوا فى رقهم ، وتحت عبوديتهم .

نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ

---

[ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ] حيث لم يتم لهم ما قصدوا ، بل أصابهم ضد ما قصدوا ، أهلكهم الله ، وأبادهم عن آخرهم .

## ﴿ قاعدة ﴾

وتدبر هذه النكتة ، التى يكثر مرورها بكتاب الله تعالى ، إذا كان السياق فى قصة معينة ، أو على شىء معين ، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم ، لا يختص به ذكر الحكم ، وعلقه على الوصف العام ، ليكون أعم ، وتندرج فيه الصورة ، التى سيق الكلام لأجلها ، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين .

فلهذا لم يقل « وما كيدهم إلا فى ضلال » بل قال : [ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ] .

و [ قال فرعون ] متكبراً متجبرا ، مغررا لقومه السفهاء : [ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ] أى : زعم — قبحه الله — أنه لولا مراعاة خواطر قومه ، لقتله ، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه .

ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله ، وأنه نصح لقومه ، وإزالة للشر فى الأرض فقال :

[ إنى أخاف أن يبدل دينكم ] الذى أنتم عليه [ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ] .

أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ

---

وهذا من أعجب ما يكون ، أن يكون شر الخلق ، ينصح الناس عن اتباع خير الخلق .

هذا من التمويه والترويج ، الذى لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم « فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

[ وقال موسى ] حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة ، التى أوجبها له طغيانه ، واستعان فيها بقوته واقتداره ، مستعينا موسى بربه :

[ إنى عذت بربى وربكم ] أى : امتنعت بربوبيته ، التى دبر بها جميع الأمور .

[ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ] أى : يحمله تكبره ، وعدم إيمانه بيوم الحساب ، على الشر والفساد .

يدخل فيه فرعون وغيره ، كما تقدم قريبا فى القاعدة .

فمنعه الله تعالى بلطفه ، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وقيض له من الأسباب ، ما اندفع به عنه شر فرعون وملإه .

ومن جملة الأسباب ، هذا الرجل المؤمن ، الذى من آل فرعون ، من بيت المملكة ، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة ، وخصوصا إذا كان يظهر موافقتهم ، ويكتم إيمانه ، فإنهم يراعونه فى الغالب ، ما لا يراعونه لو خالفهم فى الظاهر .

كما منع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعمه أبى طالب من قريش

مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ

---

حيث كان أبو طالب ، كبيرا عندهم ، موافقا لهم على دينهم ، ولو كان مسلما ، لم يحصل منه ذلك المنع .

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم ، مقبحا فعل قومه ، وشناعة ما عزموا عليه :

[ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ] أى : كيف تستحلون قتله ، وهذا ذنبه وجرمه ، أن يقول ربى الله ، ولم يكن أيضاً قولا مجردا عن البينات ، ولهذا قال :

[ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ] لأن بينته ، اشتهرت عندهم اشتهارا ، علم به الصغير والكبير ، أى : فهذا لا يوجب قتله .

فهلا أبطلتم قبل ذلك ، ما جاء به من الحق ، وقابلتم البرهان ببرهان يرده ، ثم بعد ذلك نظرتم ، هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا ؟

فأما وقد ظهرت حجته ، واستعلى برهانه ، فبينكم وبين حل قتله ، مفاوز تنقطع بها أعناق المطى .

ثم قال لهم مقالة عقلية ، تقنع كل عاقل ، بأى حالة قدرت فقال :

[ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ].

أى : موسى بين أمرين ، إما كاذب فى دعواه ، أو صادق فيها .

لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ

فإن كان كاذبا ، فكذبه عليه ، وضرره مختص به ، وليس عليكم في ذلك ضرر ، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه .

وإن كان صادقا ، وقد جاءكم بالبينات ، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه ، عذبكم الله عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى الآخرة ، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذى يعدكم ، وهو عذاب الدنيا .

وهذا من حسن عقله ، ولطف دفعه عن موسى ، حيث أتى بهذا الجواب الذى لا تشويش فيه عليهم ، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين وعلى كل تقدير ، فقتله سفه وجهل منكم .

ثم انتقل — رضى الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه — إلى أمر أعلى من ذلك ، وبيان قرب موسى من الحق فقال :

[ إن الله لا يهدى من هو مسرف ] أى : متجاوز الحد ، بترك الحق والإقبال على الباطل .

[ كذاب] بنسبته ما أسرف فيه إلى الله ، فهذا لايهديه الله إلى طريق الصواب ، لا فى مدلوله ، ولا فى دليله ، ولا يوفقه للصراط المستقيم .

أى : وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق ، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية ، والخوارق السماوية .

فالذى اهتدى هذا الهدى ، لا يمكن أن يكون مسرفا ، ولا كاذباً .

وهذا دليل على كمال علمه وعقله ، ومعرفته بربه .

ثم حذر قومه ، ونصحهم ، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر فقال :

ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

---

[ يا قوم لكم الملك اليوم ] أى : فى الدنيا [ ظاهرين فى الأرض ] على رعيتكم ، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير .

فهبكم حصل لكم ذلك وتم ، ولن يتم ، [ فمن ينصرنا من بأس الله ] أى : عذابه [ إن جاءنا ] ؟ .

وهذا من حسن دعوته ، حيث جعل الأمر مشتركا ، بينه وبينهم بقوله: [ فمن ينصرنا ] وقوله: [ إن جاءنا ] ليفهمهم أنه ينصح لهم ، كما ينصح لنفسه ، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه .

[ قال فرعون ] معارضا له فى ذلك ، ومغررا لقومه أن يتبعوا موسى :

[ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ] وصدق فى قوله « ما أريكم إلا ما أرى » ، ولكن ما الذى رأى ؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ، ليقيم بهم رياسته ، ولم ير الحق معه ، بل رأى الحق مع موسى ، وجحد به ، مستيقنا له .

وكذب فى قوله : [ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ] فإن هذا ، قلب للحق .

فلو أمرهم باتباعه ، اتباعا مجردا على كفره وضلاله ، لكان الشر أهون .

ولكنه أمرهم باتباعه ، وزعم أن فى اتباعه ، اتباع الحق ، وفى اتباع الحق ، اتباع الضلال .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

---

[ وقال الذى آمن ] مكررا دعوة قومه ، غير آيس من هدايتهم ، كما هى حالة الدعاة إلى الله تعالى ، لا يزالون يدعون إلى ربهم ، ولا يردهم عن ذلك راد ، ولا يثنيهم عتو من دعوه ، عن تكرار الدعوة ، فقال لهم :

[ ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ] يعنى الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم ، واجتمعوا على معارضتهم ، ثم بينهم فقال :

[ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ] أى : مثل عادتهم فى الكفر والتكذيب ، وعادة الله فيهم ، بالعقوبة العاجلة فى الدنيا، قبل الآخرة .

[ وما الله يريد ظلما للعباد ] فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ، ولا جرم أسلفوه .

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية ، خوفهم العقوبات الأخروية ، فقال :

[ ياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ] أى : يوم القيامة ، حين ينادى أهل الجنة أهل النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » إلى آخر الآيات .

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » .

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

وحين ينادى أهل النار مالكا ليقض علينا ربك ، فيقول : « إنكم ماكثون » .

وحين ينادون ربهم « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » .

فيجيبهم « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

وحين يقال للمشركين: « ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » .

نخوفهم رضى الله عنه ، هذا اليوم المهول ، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك .

ولهذا قال : [ يوم تولون مدبرين ] أى : قد ذهب بكم إلى النار [ مالكم من الله من عاصم ] لا من أنفسكم قوة ، تدفعون بها عذاب الله ، ولا ينصركم من دونه من أحد « يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر » .

[ ومن يضلل الله فما له من هاد ] لأن الهدى بيد الله تعالى .

فإذا منع عبده الهدى ، لعلمه أنه غير لائق به ، لخبثه ، فلا سبيل إلى هدايته .

[ ولقد جاءكم يوسف ] بن يعقوب عليهما السلام [ من قبل ] إتيان موسى ، بالبينات الدالة على صدقه ، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له .

فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

---

[ فما زلتم فى شك مما جاءكم به ] فى حياته [ حتى إذا هلك ] ازداد شككم وشرككم .

و [ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ] أى : ظنكم الباطل ، وحسبانكم الذى لا يليق بالله تعالى ، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى ، لا يأمرهم وينهاهم ، بل يرسل إليهم رسله .

والظن بأن الله لا يرسل رسولا ، ظن ضلال ، ولهذا قال :

[ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ] وهذا هو وصفهم الحقيقى ، الذى وصفوا به موسى ، ظلما وعلوا .

فهم المسرفون ، بتجاوزهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الضلال .

وهم الكذبة ، حيث نسبوا ذلك إلى الله ، وكذبوا رسوله .

فالذى وصفه السرف والكذب ، لا ينفك عنهما ، لا يهديه الله ، ولا يوفقه للخير ، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه .

فجزاؤه أن يعاقبه ، بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * والله لا يهدى القوم الظالمين » .

ثم ذكر وصف المسرف المرتاب فقال : [ الذين يجادلون فى آيات الله ] التى بينت الحق من الباطل ، وصارت — من ظهورها — بمنزلة الشمس للبصر .

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ
جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ

---

فهم يجادلون فيها على وضوحها ، ليدفعوها ويبطلوها [ بغير سلطان أتاهم ] أى : بغير حجة وبرهان ، وهذا وصف لازم ، لكل من جادل فى آيات الله ، فإنه من المحال ، أن يجادل بسلطان ، لأن الحق لا يعارضه معارض ، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعى(١) أو عقلى أصلا .

[ كبر ] ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل [ مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ] .

فالله أشد بغضاً لصاحبه ، لأنه تضمن التكذيب بالحق ، والتصديق بالباطل ، ونسبته إليه .

وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها ، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم ، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ، [ كذلك ] أى : كما طبع على قلوب آل فرعون [ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ] متكبر فى نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم ، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه .

[ وقال فرعون ] معارضا لموسى ، ومكذبا له فى دعوته إلى الإقرار

---

( ١ ) قوله « بدليل شرعى الخ » أقول : لعل فى الأصل تحريفاً لأن الدليل الشرعى لا يكون خلاف الحق بل هو الحق نفسه وإلا فلا يكون شرعياً فكيف يتأتى أن يعارض الحق ، الدليل الشرعى وهو عين الحق ؟

ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ

---

برب العالمين ، الذى على العرش استوى ، وعلى الخلق اعتلى :

[ يا هامان ابن لى صرحا ] أى : بناء عظيما مرتفعا .

والقصد منه [ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه[1] كاذباً ] فى دعواه أن لنا رباً ، وأنه فوق السموات .

ولـكنه يريد أن يحتاط فرعون ، ويختبر الأمر بنفسه ، قال الله تعالى فى بيان الذى حمله على هذا القول :

[ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ] فزين له العمل السيء ، فلم يزل الشيطان يزينه ، وهو يدعو إليه ويحسنه ، حتى رآه حسنا ، ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين ، وهو من أعظم المفسدين .

[ وصد عن السبيل ] الحق ، بسبب الباطل الذى زين له .

[ وما كيد فرعون ] الذي أراد أن يكيد به الحق ، ويوهم به الناس أنه محق ، وأن موسى مبطل [ إلا فى تباب ] أى : خسار وبوار ، لا يفيده إلا الشقاء ، فى الدنيا والآخرة .

[ وقال الذى آمن ] معيدا نصيحته لقومه : [ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ] لا كما يقول لـكم فرعون ، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغى والفساد.

---

( ٢ ) قوله « لأظنه كاذباً » أى : أنا متيقن أنه كاذب فالظن هنا بمعنى اليقين لا على حقيقته الذى هو إدراك الطرف الراجح .

ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَالِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ

---

[ ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ] يتمتع بها ويتنعم قليلا ، ثم تنقطع وتضمحل .

فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له [ وإن الآخرة هى دار القرار ] التى هى محل الإقامة ، ومنزل السكون والاستقرار ، فينبغى لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها .

[ من عمل سيئة ] من شرك أو فسوق أو عصيان [ فلا يجزى إلا مثلها ] أى : لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه ، بقدر إساءته ، وما تستحقه ، لأن جزاء السيئة ، السوء .

[ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ] من أعمال القلوب والجوارح ، وأقوال اللسان [ وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ] أى : يعطون أجرهم بلا حد ولا عد ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم .

[ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة ] بما قلت لكم [ وتدعوننى إلى النار ] بترك اتباع نبى الله موسى عليه السلام . ثم فسر ذلك فقال :

[ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ] أنه يستحق أن

بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ

---

يعبد من دون الله ، والقول على الله بلا علم ، من أكبر الذنوب وأقبحها .

[ وأنا أدعوكم إلى العزيز ] الذى له القوة كلها ، وغيره ليس بيده من الأمر شيء .

[ الغفار ] الذى يسرف العباد على أنفسهم ويتجرأون على مساخطه .

ثم إذا تابوا ، وأنابوا إليه ، كفر عنهم السيئات والذنوب ، ودفع موجباتها ، من العقوبات الدنيوية والأخروية .

[ لا جرم ] أى : حقاً يقيناً [ أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ] أى : لا يستحق الدعوة إليه ، والحث على اللجأ إليه ، في الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لعجزه ونقصه ، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً .

[ وأن مردنا إلى الله ] تعالى فسيجازى كل عامل بعمله .

[ وأن المسرفين هم أصحاب النار ] وهم الذين أسرفوا على أنفسهم ، بالتجرى على ربهم ، بمعاصيه ، والكفر به ، دون غيرهم .

فلما نصحهم وحذرهم ، وأنذرهم ، ولم يطيعوه ، ولا وافقوه ، قال لهم :

[ فستذكرون ما أقول لكم ] من هذه النصيحة ، وسترون مغبة عدم قبولها ، حين يحل بكم العقاب ، وتحرمون جزيل الثواب .

إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

---

[ وأفوض أمرى إلى الله ] أى : ألجأ إليه وأعتصم ، وألقى أمورى كلها لديه ، وأتوكل عليه فى مصالحى ، ودفع الضرر الذى يصيبنى منكم ، أو من غيركم .

[ إن الله بصير بالعباد ] يعلم أحوالهم وما يستحقون : يعلم حالى وضعفى فيمنعنى منكم ، ويكفينى شركم ، ويعلم أحوالكم ، فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته .

فإن سلطكم علىّ ، فبحكمة منه تعالى ، وعن إرادته ومشيئته ، صدر ذلك .

[ فوقاه الله سيئات ما مكروا ] أي : وقى الله القوىّ ، ذلك الرجل المؤمن الموفق ، عقوبات مامكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ، لأنه بادأهم بما يكرهون .

وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى .

وهذا أمر لايحتملونه ، وهم الذين لهم القدرة ، إذ ذاك ، وقد أغضبهم ، واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيدا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، وانقلب كيدهم ومكرهم ، على أنفسهم .

[وحاق بآل فرعون سوء العذاب] أغرقهم الله تعالى ، فى صيحة واحدة عن آخرهم :

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ

---

وفى البرزخ [ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ] فهذه العقوبات الشنيعة ، التى تحل بالمكذبين لرسل الله ، المعاندين لأمره .

* يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار ، وعتاب بعضهم بعضاً ، واستغاثتهم بخزنة النار ، وعدم الفائدة فى ذلك فقال :

[ وإذ يتحاجون فى النار ] يحتج التابعون بإغواء المتبوعين ، ويتبرأ المتبوعون من التابعين .

[ فيقول الضعفاء ] أى : الأتباع [ للذين استكبروا ] على الحق ، من القادة الذين دعوهم إلى ما استكبروا لأجله .

[ إنا كنا لكم تبعا ] أنتم أغويتمونا ، وأضللتمونا ، وزينتم لنا الشرك والشر .

[ فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ] أى : ولو قليلا .

[ قال الذين استكبروا ] مبينين لعجزهم ، ونفوذ الحكم الإلهى فى الجميع :

[ إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ] وجعل لكل قسطه من

بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

---

من العذاب ، فلا يزاد فى ذلك ، ولا ينقص منه ، ولا يغير ما حكم به الحكيم .

[ وقال الذين فى النار ] من المستكبرين والضعفاء [ لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ] لعله تحصل بعض الراحة .

[ قالوا ] لهم موبخين ، ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ، ودعاءهم لا يفيدهم شيئا :

[ أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات ] التى تبينتم بها الحق ، والصراط المستقيم ، وما يقرب من الله ، وما يبعد منه ؟

[ قالوا بلى ] قد جاءونا بالبينات ، وقامت علينا حجة الله البالغة ، فظلمنا ، وعاندنا الحق بعد ما تبين .

[ قالوا ] أى الخزنة ، لأهل النار ، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة :

[ فادعوا ] أنتم ولكن هذا الدعاء ، هل يغنى شيئا أم لا ؟

قال تعالى : [ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ] أى : باطل لاغ ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال ، صادّ لإجابة الدعاء .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

* أى : جهنم لما ذكر عقوبة آل فرعون فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ، وذكر حالة أهل النار الفظيعة ، الذين نابذوا رسله ، وحاربوهم، قال:

[ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ] أى : بالحجة والبرهان ، والنصر .

[ ويوم يقوم الأشهاد ] أى : فى الآخرة بالحكم ، ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العذاب .

[ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ] حين يعتذرون [ ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ] أى : الدار السيئة ، التى تسوء نازلها .

* لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون ، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ، ولأهل النار ، ذكر أنه أعطى موسى [ الهدى ] أى : الآيات ، والعلم ، الذى يهتدى به المهتدون .

[ وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ] أى : جعلناه متوارثا بينهم ، من قرن إلى آخر ، وهو التوراة .

وذلك الكتاب مشتمل على [ هدى ] وهو : العلم بالأحكام الشرعية وغيرها .

ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ

---

[ وذكرى ] أى : التذكر للخير ، بالترغيب فيه ، وعن الشر ، بالترهيب عنه .

وليس ذلك لكل أحد ، وإنما هو [ لأولى الألباب[1] ] .

[ فاصبر ] يا أيها الرسول ، كما صبر من قبلك ، من المرسلين أولى العزم .

[ إن وعد الله حق ] أى : ليس مشكوكا فيه ، أو فيه ريب أو كذب ، حتى يعسر عليك الصبر .

وإنما هو الحق المحض ، والهدف الصرف ، الذى يصبر عليه الصابرون ، ويجتهد فى التمسك به ، أهل البصائر .

فقوله : [ إن وعد الله حق ] من الأسباب التى تحث على الصبر ، على طاعة الله ، والكف عن ما يكره الله .

[ واستغفر لذنبك[2] ] المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك .

---

( ١ ) أى : لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه من الدفع إلى الأعمال الصالحة .

( ٢ ) تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين اهـ . أبو السعود .

وفى الجلالين « ليستن بك » أى : لتقتدى أمتك بك .

وفى النسفى « لذنب أمتك » .

وفى «المنتخب فى تفسير القرآن» واطلب المغفرة من ربك لما قد يعد ذنبا بالنسبة إليك .

وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

---

فأمره بالصبر الذى فيه يحصل المحبوب ، وبالاستغفار ، الذى فيه دفع المحذور .

[ وسبح بحمد ربك ] خصوصا [ بالعشى والإبكار ] اللذين هما أفضل الأوقات ، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيها لأن فى ذلك عونا على جميع الأمور .

* يخبر تعالى أن من جادل فى آياته ليبطلها بالباطل ، بغير بينة من أمره ، ولا حجة ، إن هذا صادر ، من كبر فى صدورهم على الحق ، وعلى من جاء به ، يريدون الاستعلاء عليه ، بما معهم من الباطل ، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا ، لا يتم لهم ، وليسوا ببالغيه .

فهذا نص صريح ، وبشارة ، بأن كل من جادل الحق ، مغلوب ، وكل من تكبر عليه ، فهو فى نهايته ذليل .

[ فاستعذ ] أى : الجأ واعتصم [ بالله ] ولم يذكر ما يستعيذ منه ، إرادة للعموم .

أى : استعذ بالله ، من الكبر الذى يوجب التكبر على الحق .

واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن ، واستعذ بالله من جميع الشرور.

[ إنه هو السميع ] لجميع الأصوات على اختلافها .

[ البصير ] بجميع المرئيات ، بأى محل ، وموضع ، وزمان ، كانت .

۞ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا

---

* يخبر تعالى بما تقرر فى العقول ، أن خلق السموات والأرض — على عظمهما وسعتهما — أعظم وأكبر ، من خلق الناس ، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السموات والأرض — من أصغر ما يكون .

فالذى خلق الأجرام العظيمة وأتقنها ، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى .

وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث ، دلالة قاطعة ، بمجرد نظر العاقل إليها ، يستدل بها استدلالا ، لا يقبل الشك والشبهة ، بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث .

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك ، ويقبل على تدبره ، ولهذا قال :

[ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] ولذلك لا يعتبرون بذلك ، ولا يجعلونه منهم على بال ثم قال تعالى :

[ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ] .

أى : كما لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى من آمن بالله ، وعمل الصالحات ، ومن كان مستكبرا على عبادة ربه ، مقدما على معاصيه، ساعيا فى مساخطه .

مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

---

[ قليلا ماتتذكرون ] أى : تذكركم قليل ، وإلا ، فلو تذكرتم مراتب الأمور ، ومنازل الخير والشر ، والفرق بين الأبرار والفجار ، وكانت لكم همة عليه ، لآثرتم النافع على الضار ، والهدى على الضلال ، والسعادة الدائمة ، على الدنيا الفانية .

[ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ] قد أخبرت بها الرسل ، الذين هم أصدق الخلق .

ونطقت بها الكتب السماوية ، التى جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق ، وقامت عليها ، الشواهد المرئية ، والآيات الأفقية .

[ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ] مع هذه الأمور ، التى توجب كمال التصديق ، والإذعان .

* هذا من لطفه بعباده ، ونعمته العظيمة ، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

وأمرهم بدعائه ، دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، ووعدهم أن يستجيب لهم

وتوعد من استكبر عنها فقال : [ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ] أى : ذليلين حقيرين ، يجتمع عليهم العذاب والإهانة ، جزاء على استكبارهم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ

* تدبر هذه الآيات الكريمات ، الدالة على سعة رحمة الله ، وجزيل فضله ، ووجوب شكره ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وسعة ملكه ، وعموم خلقه لجميع الأشياء ، وكمال حياته ، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به ، من الصفات الكاملة ، وما فعله من الأفعال الحسنة .

وتمام ربوبيته ، وانفراده فيها وأن جميع التدبير فى العالم العلوى والسفلى فى ماضى الأوقات وحاضرها ، ومستقبلها ، بيد الله تعالى ، ليس لأحد من الأمر شىء ، ولا من القدرة شىء .

فينتج من ذلك ، أنه تعالى ، المألوه المعبود وحده ، الذى لا يستحق أحد غيره ، من العبودية شيئا ، كما لم يستحق من الربوبية شيئا .

وينتج من ذلك ، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ، ومحبته ، وخوفه ، ورجائه .

وهذان الأمران — وهما معرفته وعبادته — هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما .

وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده .

وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح ، وسعادة دنيوية وأخروية .

وهما أشرف عطايا الكريم لعباده .

وهما أشرف اللذات على الإطلاق .

وهما اللذان إن فاتا ، فات كل خير ، وحضر كل شر .

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته ، وأن يجعل حركاتنا الباطنة

مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

---

والظاهرة ، خالصة لوجهه ، تابعة لأمره ، إنه لا يتعاظمه سؤال ، ولا يحفيه نوال .

فقوله تعالى : [ الله الذى جعل لكم الليل ] أى : لأجلكم جعل الله الليل مظلماً .

[ لتسكنوا فيه ] من حركاتكم ، التى لو استمرت لضرت ، فتأوون إلى فرشكم .

ويلقى الله عليكم النوم ، الذى يستريح به القلب والبدن وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه .

ويسكن فيه أيضا ، كل حبيب إلى حبيبه ، ويجتمع الفكر ، وتقل الشواغل .

[ و ] جعل تعالى [ النهار مبصراً ] منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك .

فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية .

هذا لذكره وقراءته ، وهذا لصلاته ، وهذا لطلبة العلم ودراسته ، وهذا لبيعه وشرائه .

وهذا لبنائه أو حدادته ، أو نحوها من الصناعات .

وهذا لسفره برا وبحرا ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح(١) حيواناته .

---

( ١ ) قوله « لتصليح حيواناته » لو عبر بـ « القيام بمصالح حيواناته ورعايتها » لكان أسلم من الانتقاد وأوضح للقارىء

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟

---

[ إن الله لذو فضل ] أى : عظيم ، كما يدل عليه التنكير [ على الناس ] .

حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النقم ، وهذا . يوجب عليهم ، تمام شكره وذكره.

[ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ] بسبب جهلهم وظلمهم .

[ وقليل من عبادى الشكور ] الذين يقرون بنعمة ربهم ، ويخضعون لله ، ويحبونه ، ويصرفونها فى طاعة مولاهم ورضاه .

[ ذلكم ] الذى فعل ما فعل [ الله ربكم ] أى : المنفرد بالإلهية ، والمنفرد بالربوبية .

لأن انفراده بهذه النعم ، من ربوبيته ، وإيجابها للشكر ، من ألوهيته .

[ خالق كل شىء ] تقرير لربوبيته .

[ لا إله إلا هو ] تقرير أنه المستحق للعبادة وحده ، لا شريك له .

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال : [ فأنى تؤفكون ] أى : كيف تصرفون عن عبادته ، وحده لا شريك له ، بعد ما أبان لكم الدليل ، وأنار لكم السبيل ؟ ! !

[ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ] أى : عقوبة على جحدهم لآيات الله ، وتعديهم على رسله ، صرفوا عن التوحيد والإخلاص كما قال تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ

---

أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » .

[ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ] أى : قارة ساكنة ، مهيأة لكل مصالحكم ، تتمكنون من حرثها وغرسها ، والبناء عليها ، والسفر ، والإقامة فيها .

[ والسماء بناء ] سقفا للأرض ، التى أنتم فيها ، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات ، التى يهتدىء بها فى ظلمات البر والبحر .

[ وصوركم فأحسن صوركم ] فليس فى جنس الحيوانات، أحسن صورة من بنى آدم .

كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمى وكمال حكمة الله تعالى فيه ، فانظر إليه ، عضواً عضواً ، هل تجد عضواً من أعضائه ، يليق به ، ويصلح أن يكون فى غير محله ؟

وانظر أيضاً ، إلى الميل الذى فى القلوب ، بعضهم لبعض ، هل تجد ذلك فى غير الآدمين ؟

وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان ، والمحبة والمعرفة ، التى هى أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور .

[ ورزقكم من الطيبات ] وهذا شامل لكل طيب ، من مأكل ،

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

---

ومشرب ، ومنكح ، وملبس ، ومنظر ، ومسمع وغير ذلك ، من الطيبات التى يسرها الله لعباده ، ويسر لهم أسبابها .

ومنعهم من الخبائث ، التى تضادها ، وتضر أبدانهم ، وقلوبهم ، وأديانهم .

[ ذلكم ] الذى دبر الأمور ، وأنعم عليكم بهذه النعم [ الله ربكم ] .

[ فتبارك الله رب العالمين ] أى : تعاظم ، وكثر خيره وإحسانه ، المربى جميع العالمين بنعمه .

[ هو الحى ] الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية ، التي لا تتم حياته إلا بها ، كالسمع ، والبصر ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، وغير ذلك ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله .

[ لا إله إلا هو ] أى : لا معبود بحق ، إلا وجهه الكريم .

[ فادعوه ] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة [ مخلصين له الدين ] .

أى : اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل ، وجه الله تعالى .

فإن الإخلاص ، هو المأمور به كما قال تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[ الحمد لله رب العالمين ] أى جميع المحامد والمدائح والثناء ، بالقول كنطق الخلق بذكره .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

---

والفعل ، كعبادتهم له ، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له ، لكماله فى أوصافه وأفعاله ، وتمام نعمه .

* لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، وذكر الأدلة على ذلك والبينات ، صرح بالنهى عن عبادة ما سواه فقال :

[ قل ] يا أيها النبى [ إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ] من الأوثان والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله .

ولست على شك من أمرى ، بل على يقين وبصيرة ، ولهذا قال :

[ لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين ] بقلبى ولسانى ، وجوارحى ، بحيث تكون منقادة لطاعته ، مستسلمة لأمره ، وهذا أعظم مأمور به ، على الإطلاق .

كما أن النهى عن عبادة ما سواه ، أعظم مَنْهِىٍّ عنه ، على الإطلاق .

ثم قرر هذا التوحيد ، بأنه الخالق لكم ، والمطور لخلقتكم .

فكما خلقكم وحده ، فاعبدوه وحده فقال :

[ هو الذى خلقكم من تراب ] وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم ، آدم ، عليه السلام .

[ ثم من نطفة ] وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنسانى ، ما دام فى بطن أمه .

يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

---

فنبه بالابتداء، على بقية الأطوار ، من العلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فنفخ الروح .

[ ثم يخرجكم طفلا ثم ] هكذا تنتقلون فى الخلقة الإلهية .

[ لتبلغوا أشدكم ] من قوة العقل والبدن ، وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

[ ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ] بلوغ الأشد [ ولتبلغوا ] بهذه الأطوار المقدرة [ أجلا مسمى ] تنتهى عنده أعماركم .

[ ولعلكم تعقلون ] أحوالكم ، فتعلمون أن المطور لكم فى هذه الأطوار ، كامل الاقتدار ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وأنكم ناقصون من كل وجه .

[ هو الذى يحيي ويميت ] أى هو المنفرد بالإحياء والإماتة ، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب ، إلا بإذنه .

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير » .

[ فإذا قضى أمرا ] جليلا أو حقيراً [ فإنما يقول له كن فيكون ] لا رد فى ذلك ، ولا مثنوية ، ولا تمنع .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ

* [ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله ] الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة .

[ أنى يصرفون ] أى : كيف ينعدلون عنها ؟ وإلى أى شىء يذهبون بعد البيان التام ؟

هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله ؟ لا والله .

أم يجدون شبها توافق أهواءهم ، ويصولون بها ، لأجل باطلهم ؟

فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم ، بتكذيبهم بالكتاب ، الذى جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولا .

فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال :

[ فسوف يعلمون[1] إذ الأغلال فى أعناقهم ] التى لا يستطيعون معها حركة .

[ والسلاسل ] التى يقرنون بها ، هم وشياطينهم [ يسحبون[2] فى الحميم ] أى : الماء الذى اشتد غليانه وحره .

---

( ١ ) أى : عقوبة تكذيبهم .

( ٢ ) يسحبون . أى : يجرون فى الماء الحار . اهـ . نسفى .

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ

---

[ ثم فى النار يسجرون ] يوقد عليهم اللهب العظيم ، فيصلون بها ، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم .

[ وقيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ] هل نفعوكم ، أو دفعوا عنكم بعض العذاب ؟ .

[ قالوا ضلوا عنا ] أي : غابوا ولم يحضروا ، ولو حضروا ، لم ينفعوا .

ثم إنهم أنكروا فقالوا : [ بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ] يحتمل أن مرادهم بذلك ، الإنكار ، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم .

ويحتمل — وهو الأظهر — أن مرادهم بذلك ، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون ، وأنه ليس لله شريك فى الحقيقة ، وإنما هم ضالون مخطئون ، بعبادة معدوم الإلهية .

ويدل على هذا قوله تعالى « كذلك يضل الله الكافرين » .

أى : كذلك الضلال ، الذى كانوا عليه فى الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم ، يقرون ببطلانه يوم القيامة .

ويتبين لهم معنى قوله تعالى « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » ويدل عليه قوله تعالى :

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » الآيات .

نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

---

ويقال لأهل النار [ ذلكم ] العذاب ، الذى نوع عليكم [ بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ] أى : تفرحون بالباطل الذى أنتم عليه ، وبالعلوم التى خالفتم بها علوم الرسل .

وتمرحون على عباد الله ، بغيا ، وعدوانا ، وظلما ، وعصيانا ، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة .

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » .

وكما قال قوم قارون له « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب .

بخلاف الفرح الممدوح الذى قال الله فيه « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » .

وهو الفرح بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

[ ادخلوا أبواب جهنم ] كل بطبقة من طبقاتها ، على قدر عمله .

[ خالدين فيها ] لا يخرجون منها أبداً [ فبئس مثوى المتكبرين ] .

مثوى يخزون فيه ، ويهانون ، ويحبسون ، ويعذبون ، ويترددون بين حرها وزمهريرها .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا

---

أى [ فاصبر ] يا أيها الرسول ، على دعوة قومك ، وما ينالك منهم ، من أذى .

واستعن على صبرك بإيمانك [ إن وعد الله حق ] سينصر دينه ، ويُعْلِي كلمته ، وينصر رسله فى الدنيا والآخرة .

واستعن على ذلك أيضا ، بتوقيع العقوبة بأعدائك فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

[ فإما نرينك بعض الذى نعدهم ] فى الدنيا فذاك [ أو نتوفينك ] قبل عقوبتهم [ فإلينا يرجعون ] فنجازيهم بأعمالهم ، « فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

ثم سلاَّه وصبَّره ، بذكر إخوانه المرسلين فقال : [ ولقد أرسلنا رسلا ] إلى [ المبطلون ] .

* أى : [ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ] كثيرين إلى قومهم ، يدعونهم ويصبرون على أذاهم .

[ منهم من قصصنا عليك ] خبرهم [ ومنهم من لم نقصص عليك ] .

وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شىء من الأمر .

عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

[ وما كان لرسول] منهم[ أن يأتى بآية ] من الآيات السمعية والعقلية [ إلا بإذن الله ]أى : بمشيئته وأمره .

فاقتراح المقترحين على الرسل ، الإتيان بالآيات ، ظلم منهم ، وتعنت ، وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم ، وصحة ما جاءوا به .

[ فإذا جاء أمر الله ] بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح .

[ قضى ] بينهم [ بالحق ] الذى يقع الموقع(١) ، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك المكذبين ، ولهذا قال :

[ وخسر هنالك ] أى : وقت القضاء المذكور [ المبطلون ] الذين وصفهم الباطل ، وما جاءوا به من العلم والعمل ، باطل ، وغايتهم المقصودة لهم ، باطلة .

فَلْيَحْذَر هؤلاء المخاطبون ، أن يستمروا على باطلهم ، فيخسروا ، كما خسر أولئك .

فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة فى الكتب بالنجاة .

---

(١) قوله: يقع الموقع . أى : الصحيح ، الفاصل بين الحق والباطل .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

---

* يمتن تعالى على عباده ، بما جعل لهم من الأنعام ، التى بها ، جملة من المنافع .

منها : منافع الركوب عليها ، والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها ، والشرب من ألبانها .

ومنها : الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة ، من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

[ ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ] من الوصول إلى الأقطار البعيدة، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها .

[ وعليها وعلى الفلك تحملون ] أى : على الرواحل البرية ، والفلك البحرية ، يحملكم الله الذى سخرها ، وهيأ لها ما هيأ ، من الأسباب ، التى لا تتم إلا بها .

[ ويريكم آياته ] الدالة على وحدانيته ، وأسمائه ، وصفاته .

وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده ، آياته النفسية ، وآياته الأفقية ، ونعمه الباهرة ، وعدَّدها عليهم ، ليعرفوه ، ويشكروه ، ويذكروه .

[ فأى آيات الله تنكرون ] أى : أى آية من آياته ، لا تعترفون بها ؟

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

---

فإنكم ، قد تقرر عندكم ، أن جميع الآيات والنعم ، منه تعالى .

فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع .

بل أوجبت لذوى الألباب ، بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهاد فى طاعته ، والتبتل فى خدمته ، والانقطاع إليه .

* يحث تعالى ، المكذبين لرسولهم ، على السير فى الأرض ، بأبدانهم ، وقلوبهم : وسؤال العالمين .

[ فينظروا ] نظر فكر واستدلال ، لا نظر غفلة وإهمال .

[ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ] من الأمم السالفة ، كعاد ، وثمود وغيرهم ، ممن [ كانوا أكثر منهم وأشدة قوة وآثاراً فى الأرض ] من الأبنية الحصينة ، والغراس الأنيقة ، والزروع الكثيرة [ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ] حين جاءهم أمر الله .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا افتدوا بأموالهم ، ولا تحصنوا بحصونهم .

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال : [ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ] من الكتب الإلهية ، والخوارق العظيمة ، والعلم النافع المبين ، الهادى من الضلال ، والحق من الباطل [ فرحوا بما عندهم من العلم ] المناقض لدين الرسل .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟

---

ومن المعلوم ، أن فرحهم به ، يدل على شدة رضاهم به ، وتمسكهم ، ومعاداة الحق ، الذى جاءت به الرسل ، وجعل باطلهم حقا، وهذا عام لجميع العلوم ، التى نوقض بها ، ما جاءت به الرسل .

ومن أحقها بالدخول فى هذا ، علوم الفلسفة ، والمنطق اليونانى ، الذى رُدّت به كثير من آيات القرآن ، ونقصت قدره فى القلوب ، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة ، أدلة لفظية ، لا تفيد شيئا من اليقين ، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل .

وهذا من أعظم الإلحاد فى آيات الله ، والمعارضة لها ، والمناقضة ، فالله المستعان .

[ وحاق بهم ] أى : نزل وأحاط بهم [ ما كانوا به يستهزئون ] من العذاب .

[ فلما رأوا بأسنا ] أى : عذابنا ، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار [قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين] من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل ، من علم أو عمل .

[ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ] أى : فى تلك الحال ، وهذه [ سنة الله ] وعادته [ التى خلت فى عباده ] أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا ، كان إيمانهم غير صحيح ، ولا منجيا لهم من العذاب .

بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

وذلك لأنه إيمان ضرورة ، قد اضطروا إليه وإيمان مشاهدة .

وإنما الإيمان الذى ينجى صاحبه ، هو الإيمان الاختيارى ، الذى يكون إيمانا بالغيب ، وذلك قبل وجود قرائن العذاب .

[ وخسر هنالك ] أى : وقت الإهلاك ، وإذاقة البأس [ الكافرون ] دينهم ودنياهم وأخراهم .

ولا يكفى مجرد الخسارة ، فى تلك الدار ، بل لا بد من خسران يشقى فى العذاب الشديد ، والخلود فيه ، دائما أبداً .

تم تفسير سورة غافر ( المؤمن )

بحمد الله ولطفه ومعونته ، لا بحولنا وقوتنا ، فله الشكر والثناء

تفسير

# سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

---

يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل [ تنزيل ] صادر [ من الرحمن الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شىء ، الذى من أعظم رحمته وأجلها ، إنزال هذا الكتاب ، الذى حصل به ، من العلم والهدى ، والنور ، والشفاء ، والرحمة ، والخير الكثير ، ما هو من أجل نعمه على العباد ، وهو الطريق للسعادة فى الدارين .

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال : [ فصلت آياته ] أى : فصل كل شىء من أنواعه على حدته ، وهذا يستلزم البيان التام ، والتفريق بين كل شىء ، وتمييز الحقائق .

[ قرآناً عربياً ] أى : باللغة الفصحى أكمل اللغات ، فصلت آياته وجعل عربياً .

فاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

[ لقوم يعلمون ] أى : لأجل أن يتبين لهم معناه ، كما يتبين لفظه . ويتضح لهم الهدى من الضلال ، والْغَىِّ من الرشاد .

وأما الجاهلون ، الذين لا يزيدهم الهدي إلا ضلالا، ولا البيان إلا عَمًى فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم ، « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

[ بشيراً ونذيراً ] أى : بشيرا بالثواب العاجل والآجل ، ونذيرا بالعقاب العاجل والآجل وذكر تفصيلهما ، وذكر الأسباب والأوصاف التى تحصل بها البشارة والنذارة .

وهذه الأوصاف للكتاب ، مما يوجب أو يُتَلَقَّى بالقبول ، والإذعان ، والإيمان به ، والعمل به .

ولكن أعرض أكثر الخلق إعراض المستكبرين ، [ فهم لا يسمعون] له سماع قبول وإجابة ، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً ، تقوم عليهم به الحجة الشرعية .

[ وقالوا ] أى : هؤلاء المعرضون عنه ، مبينين عدم انتفاعهم به ، بسد الأبواب الموصلة إليه :

[ قلوبنا فى أكنة ] أى : أغطية مغشاة [ مما تدعونا إليه وفى آذننا وقر ] أى : صمم فلا نسمع [ ومن بيننا وبينك حجاب] فلا نراك .

القصد من ذلك ، أنهم أظهروا الإعراض عنه ، ومن كل وجه ، وأظهروا بغضه ، والرضا بما هم عليه ، ولهذا قالوا :

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ

---

[ فاعمل إننا عاملون ] أى : كما رضيت بالعمل بدينك ، فإننا راضون كل الرضا ، بالعمل فى ديننا .

وهذا من أعظم الخذلان ، حيث رضوا بالضلال عن الهدى ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، وباعوا الآخرة بالدنيا .

[ قل ] لهم ، يا أيها النبى : [ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ] .

أى : هذه صفتى ووظيفتى ، أنى بشر مثلكم ، ليس بيدى من الأمر شىء ، ولا عندى ما تستعجلون به .

وإنما فضلنى الله عليكم ، وميزنى ، وخصنى ، بالوحى الذى أوحاه إلىَّ وأمرنى باتباعه ، ودعوتكم إليه .

[ فاستقيموا إليه ] أى . اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى ، بتصديق الخبر الذى أخبر به ، واتباع الأمر ، واجتناب النهى ، هذه حقيقة الاستقامة ، ثم الدوام على ذلك .

وفى قوله [ إليه ] تنبيه على الإخلاص ، وأن العامل ينبغى له أن يجعل مقصوده وغايته ، التى يعمل لأجلها ، الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعا ، وبفواته ، يكون عمله باطلا .

ولما كان العبد ، ولو حرص على الاستقامة ، لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور ، أو ارتكاب منهى ، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال :

[ واستغفروه ] ثم توعد من ترك الاستقامة فقال : [ وويل للمشركين

لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

---

الذين لا يؤتون الزكاة ] أى : الذين عبدوا من دونه ، من لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً .

ودسوا أنفسهم ، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ، ولم يصلوا ولا زكوا ، فلا إخلاص منهم للخالق بالتوحيد والصلاة ، ولا نفع للخلق منهم بالزكاة وغيرها .

[ وهم بالآخرة هم كافرون ] أى : لا يؤمنون بالبعث ، ولا بالجنة والنار .

فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم ، أقدموا على ما أقدموا عليه ، مما يضرهم فى الآخرة .

ولما ذكر الكافرين ، ذكر المؤمنين ، ووصفهم وجزاءهم ، فقال :

[ إن الذين آمنوا ] بهذا الكتاب ، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان ، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص ، والمتابعة .

[ لهم أجر ] أى : عظيم [ غير ممنون ] أى : غير مقطوع ولا نافد ، بل هو مستمر مدى الأوقات ، متزايد على الساعات ، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات .

۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ
فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ

---

* ينكر تعالى ويعجِّب، من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أندادا يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاءون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة، فى يومين، ثم دحاها فى يومين، بأن جعل فيها رواسى من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار.

فكمل خلقها، ودحاها، وأخرج أقواتها، وتوابع ذلك [ فى أربعة أيام سواء للسائلين ] عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير.

فهذا هو الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص.

[ ثم ] بعد أن خلق الأرض [ استوى ] أى: قصد [ إلى ] خلق [ السماء وهى دخان ] قد ثار على وجه الماء.

[ فقال لها ] ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله [ وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ] أى: انقادا لأمرى، طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه.

[ قالتا أتينا طائعين ] أى: ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ

[ فقضاهن سبع سموات فى يومين ] فَتَمَّ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، مع أن قدرة الله ومشيئته ، صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة .

ولكن مع أنه قدير ، فهو حكيم رفيق .

فمن حكمته ورفقه ، أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة .

واعلم أن ظاهر هذه الآية ، مع قوله تعالى فى النازعات ، لما ذكر خلق السموات قال : « والأرض بعد ذلك دحاها » يظهر منهما التعارض ، مع أن كتاب الله ، لا تعارض فيه ولا اختلاف .

والجواب عن ذلك ، ما قاله كثير من السلف ، أن خلق الأرض وصورتها ، متقدم على خلق السموات كما هنا ، ودحى الأرض بأن « أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها » متأخر عن خلق السموات كما فى سورة النازعات ، ولهذا قال : « والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها » إلى آخره ولم يقل « والأرض بعد ذلك خلقها » .

وقوله [ وأوحى فى كل سماء أمرها ] أى : الأمر والتدبير اللائق بها ، الذى اقتضته حكمة أحكم الحاكمين .

[ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ] هى : النجوم ، يستنار ، بها ، ويهتدى ، وتكون زينة وجمالا ، للسماء ظاهرا .

ٱلدُّنيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾

[ وحفظا ] لها ، باطنا ، يجعلها رجوما للشياطين ، لئلا يسترق السمع فيها .

[ ذلك ] المذكور ، من الأرض ، وما فيها ، والسماء وما فيها [ تقدير العزيز ] الذى عزته ، قهر بها الأشياء ودبرها ، وخلق بها المخلوقات .

[ العليم ] الذى أحاط علمه بالمخلوقات ، الغائب والشاهد .

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار ، الذى انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره ، من أعجب الأشياء .

واتخاذهم له أندادا يسوونهم به ، وهم ناقصون فى أوصافهم وأفعالهم ، أعجب ، وأعجب .

ولا دواء لهؤلاء ، إن استمر إعراضهم ، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية .

فلهذا خوفهم بقوله :

[ فإن أعرضوا ] إلى قوله [ كافرون ] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

أى : فإن أعرض هؤلاء المكذبون ، بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ، ومن صفات الإله العظيم [ فقل أنذرتكم صاعقة ].

أى : عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم .

[ مثل صاعقة عاد وثمود ] القبيلتين المعروفتين ، حيث اجتاحهم العذاب ، وحل عليهم ، وبيل العقاب ، وذلك بظلمهم وكفرهم .

[ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ] أى : يتبع بعضهم بعضا متوالين ، ودعوتهم جميعا واحدة .

[ أن لا تعبدوا إلا الله ] أى : يأمرونهم بالإخلاص لله ، وينهونهم عن الشرك .

فردوا رسالتهم وكذبوهم [ وقالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ] أى : وأما أنتم فبشر مثلنا [ فإنا بما أرسلتم به كافرون ] وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين ، من الأمم ، وهى من أوهى الشُّبَه .

فإنه ليس من شرط الإرسال ، أن يكون المرسل مَلَكاً .

وإنما شرط الرسالة ، أن يأتى الرسول بما يدل على صدقه .

فَلْيَقْدَحُوا ، إن استطاعوا بصدقهم ، بقادح عقلى أو شرعى ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

---

* هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين ، عاد ، وثمود .

[فأما عاد] فكانوا — مع كفرهم بالله ، وجحودهم بآيات الله ، وكفرهم برسله — مستكبرين فى الأرض ، قاهرين لمن حولهم من العباد ، ظالمين لهم ، قد أعجبتهم قوتهم .

[وقالوا من أشد منا قوة] قال تعالى رداً عليهم ، بما يعرفه كل أحد :

[ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ] فلولا خلقه إياهم ، لم يوجدوا .

فلو نظروا إلى هذه الحال نظرا صحيحا ، لم يغتروا بقوتهم .

فعاقبهم الله عقوبة ، تناسب قوتهم ، التي اغتروا بها .

[فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا] أى : ريحا عظيمة ، من قوتها وشدتها ، لها صوت مزعج ، كالرعد القاصف .

فسخرها الله عليهم [ فى أيام نحسات ] « سبع ليالى وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

فدمرتهم وأهلكتهم ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا

---

وقال هنا : [ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ] الذى اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة .

[ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ] أى : لا يمنعون من عذاب الله ، ولا ينفعون أنفسهم .

* وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه ، الذين أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام ، يدعوهم إلى توحيد ربهم ، وينهاهم عن الشرك .

وآتاهم الله الناقة ، آية عظيمة ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، يشربون لبنها يوما ، ويشربون من الماء يوما ، وليسوا ينفقون عليها ، بل تأكل من أرض الله .

ولهذا قال هنا : [ وأما ثمود فهديناهم ] أى : هداية بيان .

وإنما نص عليهم ، وإن كان جميع الأمم المهلكة ، قد قامت عليهم الحجة ، وحصل لهم البيان ، لأن آية ثمود ، آية باهرة ، قد رآها صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، وكانت آية مبصرة ، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى .

ولكنهم — من ظلمهم وشرهم — استحبوا العمى — الذى هو الكفر والضلال — على الهدى ، الذى هو : العلم والإيمان .

[ فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون ] لا ظلما من الله لهم .

ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا

---

[ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون] أي نجى الله صالحا عليه السلام ، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك ، والمعاصى .

* يخبر تعالى عن أعدائه ، الذين بارزوه بالكفر ، وبآياته ، وتكذيب رسله ، ومعاداتهم ، ومحاربتهم ، وحالهم الشنيعة ، حين يحشرون ، أى : يجمعون .

[ إلى النار فهم يوزعون ] أى : يرد أولهم على آخرهم ، ويتبع آخرهم أولهم ، ويساقون إليها سوقا عنيفا ، لا يستطيعون امتناعا ، ولا ينصرون أنفسهم ، ولا هم ينصرون .

[ حتى إذا ما جاءوها ] أى : حتى إذا وردوا على النار ، وأرادوا الإنكار ، أو أنكروا ما عملوه من المعاصى .

[ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ] عموم بعد خصوص .

[ بما كانوا يعملون ] أى يشهد عليهم كل عضو من أعضائهم .

فكل عضو يقول : أنا فعلت كذا وكذا ، يوم كذا وكذا .

وخص هذه الأعضاء الثلاثة ، لأن أكثر الذنوب ، إنما تقع بها ، أو بسببها .

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ

---

فإذا شهدت عليهم ، عاتبوها [ وقالوا لجلودهم ] هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا :

[ لم شهدتم علينا ] ونحن ندافع عنكن ؟ [ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ] .

فليس فى إمكاننا ، الامتناع عن الشهادة، حين أنطقنا الذى لا يستعصى شىء عن مشيئته .

[ وهو خلقكم أول مرة ] فكما خلقكم بذواتكم ، وأجسامكم ، خلق أيضا صفاتكم ، ومن ذلك ، الإنطاق .

[ وإليه ترجعون ] فى الآخرة ، فيجزيكم بما عملتم .

ويحتمل أن المراد بذلك ، الاستدلال على البعث ، بالخلق الأول ، كما هو طريقة القرآن .

[ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ] أى : وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ، ولا تحاذرون من ذلك .

[ ولكن ظننتم ] بإقدامكم على المعاصى [ أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ] فلذلك صدر منكم ما صدر ، وهذا الظن ، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال :

كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى

---

[ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ] الظن السيء ، حيث ظننتم به ، مالا يليق بجلاله .

[ أرداكم ] أى : أهلككم [ فأصبحتم من الخاسرين ] لأنفسهم ، وأهلهم ، وأديانهم[1] بسبب الأعمال التى أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم .

فحقت عليكم ، كلمة العقاب والشقاء ، ووجب عليكم الخلود الدائم ، فى العذاب ، الذى لا يفتر عنهم[2] ساعة .

[ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ] فلا جَلَدَ عليها ، ولا صبر .

وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها ، فالنار لا يمكن الصبر عليها .

وكيف الصبر على نار ، قد اشتد حرها ، وزادت على نار الدنيا ، بسبعين ضعفا ، وعظم غليان حميمها ، وزاد نتن صديدها ، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها ، وكبرت مقامعها ، وغلظ خُزَّانها ، وزال ما فى قلوبهم من رحمتهم .

وختام ذلك سخط الجبار ، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

---

(١) قوله : « لأنفسهم وأهليهم ، وأديانهم » فالأنسب أن يقال « لأنفسكم ، وأهليكم ، وأديانكم » ليتلاءم مع ما بعده .

(٢) قوله « عنهم « الصواب أن يقال « عنكم » ليتناسب مع ما قبله .

لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

[ وإن يستعتبوا ] أى : يطلبوا أن يزال عنهم العتب ، فيرجعوا إلى الدنيا ، ليستأنفوا العمل .

[ فما هم من المعتبين ] لأنه ذهب وقته ، وعمروا ، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير .

وانقطعت حجتهم ، مع أن استعتابهم ، كذب منهم «فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

* [ وقيضنا لهم[1] ] أى : لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق [ قرناء ] من الشياطين كما قال تعالى : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » أى تزعجهم إلى المعاصى ، وتحثهم عليها .

[ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ] : فالدنيا زخرفوها بأعينهم ، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة ، حتى افتتنوا ، فأقدموا على معاصى الله ، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله والآخرة بَعَّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها .

وربما أوقعوا عليهم الشُّبه ، بعدم وقوعها ، فترحَّل خوفها من قلوبهم فقادوهم إلى الكفر ، والبدع ، والمعاصى .

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين ، بسبب إعراضهم

---

(١) قوله : وقيضنا . أى : هيأنا لهم قرناء فاسدين يوسوسون لهم ويستولون عليهم .

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟

---

عن ذكر الله وآياته ، وحجودهم الحق كما قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

[ وحق عليهم القول ] أى : وجب عليهم ، ونزل القضاء والقدر ، بعذابهم .

[ فى ] جملة [ أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ] لأديانهم وآخرتهم ، ومن خسر ، فلا بد أن يذل ، ويشقى ، ويعذب .

* يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن ، وتواصيهم بذلك فقال :

[ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ] أى : أعرضوا عنه بأسماعكم ، وإياكم أن تلتفتوا ، أو تصغوا إليه وإلى من جاء به .

فإن اتفق أنكم سمعتموه ، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه ، عارضوه .

[ والغوا فيه ] أى : تكلموا بالكلام الذى لا فائدة فيه ، بل فيه المضرة ، ولا تمكنوا ـ مع قدرتكم ـ أحداً يملك عليكم الكلام به ، وتلاوة ألفاظه ومعانيه .

هذا لسان حالهم ، ولسان مقالهم ، فى الإعراض عن هذا القرآن .

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ
ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

---

[ لعلكم ] إن فعلتم ذلك [ تغلبون[1] ] وهذه شهادة من الأعداء ، وأوضح الحق ، ما شهدت به الأعداء ، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا فى حال الإعراض عنه والتواصى بذلك .

ومفهوم كلامهم ، أنهم إن لم يلغوا فيه ، بل استمعوا إليه ، وألقوا أذهانهم ، أنهم لا يغلبون ، فإن الحق ، غالب غير مغلوب ، يعرف هذا ، أصحاب الحق وأعداؤه .

ولما كان هذا ظلما منهم وعناداً ، لم يبق فيهم مطمع للهداية ، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، ولهذا قال : [ فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديداً ولنجزيهم أسوأ الذى كان يعملون ] .

وهو الكفر والمعاصى ، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون ، لكونهم يعملون المعاصى وغيرها .

فالجزاء بالعقوبة ، إنما هو على عمل الشرك ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

[ ذلك جزاء أعداء الله ] الذين حاربوه ، وحاربوا أولياءه ، جزاؤهم [ النار ] بالكفر والتكذيب ، والمجادلة والمجالدة .

[ لهم فيها دار الخلد ] أى : الخلود الدائم ، الذى لا يفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا هم ينصرون .

---

(١) أى : فيسكت محمد صلى الله عليه وسلم عن القراءة ، بسبب تشويشكم عليه .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

---

وذلك [ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ] فإنها آيات واضحة ، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين ، فأعظم الظلم وأكبر العناد ، جحدها ، والكفر بها .

[ وقال الذين كفروا ] أي : الأتباع منهم ، بدليل ما بعده ، على وجه الحنق ، على من أضلهم .

[ ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ] أي : الصنفين اللذين ، قادانا إلى الضلال والعذاب ، من شياطين الجن ، وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم .

[ نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ] أي : الأذلين المهانين كما أضلونا ، وفتنونا ، وصاروا سبباً لنزولنا .

فني هذا ، بيان حنق بعضهم على بعض ، وتبرِّي بعضهم من بعض .

* يخبر تعالى عن أوليائه ، وفي ضمن ذلك ، تنشيطهم ، والحث على الاقتداء بهم ، فقال :

[ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ] أي : اعترفوا ، ونطقوا ، ورضوا بربوبية الله تعالى ، واستسلموا لأمره ، ثم استقاموا على الصراط المستقيم ، علما وعملا ، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

[ تتنزل عليهم الملائكة ] الكرام ، أي : يتكرر نزولهم عليهم ، مبشرين لهم عند الاحتضار .

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا

---

[أن لا تخافوا] على ما يستقبل منه أمركم، [ولا تحزنوا] على ما مضى.

فنفوا عنهم المكروه الماضى والمستقبل.

[وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون] فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولا.

ويقولون لهم أيضا – مثبتين لهم، ومبشرين –: [نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة] يحثونهم فى الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه فى قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفى القيامة وأهوالها على الصراط، وفى الجنة، يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ».

ويقولون لهم أيضا: [ولكم فيها] أى: فى الجنة [ما تشتهى أنفسكم] قد أعد وهيىء.

[ولكم فيها ما تدعون] أى: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

---

[ نزلا من غفور رحيم ] أى: هذا الثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ، نُزُلٌ وضيافة [ من غفور ] غفر لكم السيئات .

[ رحيم ] حيث وفقكم لفعل الحسنات ، ثم قبلها منكم .

فبمغفرته ، أزال عنكم المحذور ، وبرحمته ، أنا لكم المطلوب .

* هذا استفهام بمعنى النفى المتقرر أى : لا أحد أحسن قولا .

أى : كلاما وطريقة ، وحالة [ ممن دعا إلى الله ] بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين ، ومجادلة المبطلين ، بالأمر بعبادة الله ، بجميع أنواعها ، والحث عليها ، وتحسينها مهما أمكن ، والزجر عما نهى الله عنه ، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه .

خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ، ومجادلة أعدائه بالتى هى أحسن ، والنهى عما يضاده من الكفر والشرك ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ومن الدعوة إلى الله ، تحبيبه إلى عباده ، بذكر تفاصيل نعمه ، وسعة جوده ، وكمال رحمته ، وذكر أوصاف كماله ، ونعوت جلاله .

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب فى اقتباس العلم والهدى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، والحث على ذلك ، بكل طريق موصل إليه .

ومن ذلك ، الحث على مكارم الأخلاق ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ومقابلة المسىء بالإحسان ، والأمر بصلة الأرحام ، وبر الوالدين .

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

ومن ذلك ، الوعظ لعموم الناس ، فى أوقات المواسم ، والعوارض ، والمصائب ، بما يناسب ذلك الحال ، إلى غير ذلك ، مما لا تنحصر أفراده ، بما تشمله الدعوة إلى الخير كله ، والترهيب من جميع الشر .

ثم قال تعالى : [ وعمل صالحا ] أى : مع دعوته الخلق إلى الله ، بادر هو بنفسه ، إلى امتثال أمر الله ، بالعمل الصالح ، الذى يُرْضِى ربه .

[وقال إننى من المسلمين] أى : المنقادين لأمره ، السالكين فى طريقه .

وهذه المرتبة ، تمامها للصديقين ، الذين عملوا على تكميل أنفسهم ، وتكميل غيرهم ، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل .

كما أن من أشر الناس ، قولا ، من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله .

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين ، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين ، ونزلت الأخرى ، إلى أسفل سافلين ، مراتب ، لا يعلمها إلا الله ، وكلها معمورة بالخلق « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » .

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ

* يقول تعالى : [ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ] أى : لا يستوى فعل الحسنات والطاعات ، لأجل رضا الله تعالى ، وفعل السيئات والمعاصى ، التى تسخطه ولا ترضيه .

ولا يستوى الإحسان إلى الخلق ، ولا الإساءة إليهم ، لا فى ذاتها ، ولا فى وصفها ، ولا فى جزائها « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ثم أمر بإحسان خاص ، له موقع كبير ، وهو : الإحسان إلى من أساء إليك فقال :

[ ادفع بالتى هى أحسن ] أى : فإذا أساء إليك مسيء من الخلق ، خصوصا من له حق كبير عليك ، كالأقارب ، والأصحاب ، ونحوهم ، إساءة بالقول أو بالفعل ، فقابله بالإحسان إليه .

فإن قطعك فَصِلْهُ ، وإن ظلمك ، فاعف عنه ، وإن تكلم فيك ، غائبا أو حاضرا ، فلا تقابله ، بل اعف عنه ، وعامله بالقول اللين .

وإن هجرك ، وترك خطابك ، فَطيِّبْ له الكلام ، وابذل له السلام .

فإذا قابلت الإساءة بالإحسان ، حصل فائدة عظيمة .

[فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم] أى: كأنه قريب شفيق .

[ وما يلقاها ] أى : وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة [ إلا الذين صبروا ] نفوسهم على ما تكره ، وأجبروها على ما يحبه الله .

عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ

---

فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه ، فكيف بالإحسان ؟!! .

فإذا صبر الإنسان نفسه ، وامتثل أمر ربه ، وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله ، لا تفيده شيئا ، ولا تزيد العداوة إلا شدة ، وأن إحسانه إليه ، ليس بواضع قدره ، بل من تواضع لله رفعه ، هان عليه الأمر ، وفعل ذلك ، متلذذا مستحليا له .

[ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ] لكونها من خصال خواص الخلق ، التي ينال بها العبد ، الرفعة في الدنيا والآخرة ، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق .

* لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس ، وهو مقابلة إساءته بالإحسان ، ذكر ما يدفع به العدو الجني ، وهو الاستعاذة بالله ، والاحتماء من شره فقال :

[ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ] أي : أي وقت من الأوقات ، أحسست بشيء من نزغات الشيطان ، أي : من وساوسه ، وتزيينه للشر ، وتكسيله عن الخير ، وإصابة ببعض الذنوب ، وإطاعة له ببعض ما يأمر به [ فاستعذ بالله ] أي : اسأله ، مفتقراً إليه ، أن يعيذك ويعصمك منه .

[ إنه هو السميع العليم ] فإنه يسمع قولك وتضرعك ، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته .

وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ

---

ثم ذكر تعالى أن [من آياته] الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه ، ورحمته بعباده ، وأنه الله وحده لا شريك له [ الليل والنهار ] : هذا بمنفعة ضيائه ، وتصرف العباد فيه ، وهذا بمنفعه ظلمته ، وسكون الخلق فيه .

[ والشمس والقمر ] اللذان لا تستقيم معايش العباد ، ولا أبدانهم ، ولا أبدان حيواناتهم ، إلا بهما ، وبهما من المصالح ، ما لا يحصى عدده .

[ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ] فإنهما مدبران مسخران مخلوقان .

[ واسجدوا لله ] الذى خلقهن ، أى : اعبدوه وحده ، لأنه الخالق العظيم ، ودعوا عبادة ما سواه ، من المخلوقات ، وإن كبر ، جرمها وكثرت مصالحها ، فإن ذلك ليس منها ، وإنما هو من خالقها ، تبارك وتعالى .

[ إن كنتم إياه تعبدون ] نخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له .

[ فإن استكبروا ] عن عبادة الله تعالى ، ولم ينقادوا لها ، فإنهم لن يضروا الله شيئا ، والله غنى عنهم ، وله عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ولهذا قال : [ فالذين عند ربك ] يعنى : الملائكة المقربين [ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ] أى : لا يملون من عبادته ، لقوتهم ، وشدة الداعى القوى منهم إلى ذلك .

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

---

[ ومن آياته ] الدالة على كمال قدرته ، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية .

[ أنك ترى الأرض خاشعة ] لا نبات فيها [ فإذا أنزلنا عليها الماء ] أي : المطر [ اهتزت ] أي : تحركت بالنبات [ وربت[1] ] ثم : أنبتت من كل زوج بهيج ، تحيي بها العباد والبلاد .

[ إن الذى أحياها ] بعد موتها وهمودها ، [ لمحيي الموتى ] من قبورهم إلى يوم بعثهم ، فنشورهم [ إنه على كل شيء قدير ] فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها ، لا تعجز عن إحياء الموتى .

---

( ١ ) ربت : أى : انتفخت وزادت قال : أبو السعود فى تفسيره « أى : تحركت بالنبات وانتفخت ، لأن النبت إذا دنا أن يظهر ، ارتفعت له الأرض ، وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات » .

وقيل تزخرفت بالنبات . وقرىء « ربأت » أى : ارتفعت .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ

---

* الإلحاد فى آيات ألله : الميل بها عن الصواب ، بأى وجه كان :

إما بإنكارها وجحودها ، وتكذيب من جاءبها .

وإما بتحريفها عن معناها الحقيقى ، وإثبات معان لها ، ما أرادها الله منها .

فتوعَّد تعالى ، من ألحد فيها ، بأنه لا يخفى عليه ، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه ، وسيجازبه على إلحاده بما كان يعمل ، ولهذا قال :

[ أفمن يلقى فى النار ] مثل الملحد بآيات الله [ خير أم من يأتى آمنا يوم القيمة ] من عذاب الله مستحقا لثوابه ؟ من المعلوم أن هذا خير .

لما تبين الحق من الباطل ، والطريق المنجى من عذابه من الطريق المهلك قال :

[ اعملوا ما شئتم ] ، إن شئتم ، فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته .

وإن شئتم ، فاسلكوا طريق الغىّ المسخطة لربكم ، الموصلة إلى دار الشقاء .

[ إنه بما تعملون بصير ] يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم ، كقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ثم قال تعالى:[ إن الذين كفروا بالذكر ] أى يجحدون القرآن الكريم

لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

---

الذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية ، المُعلِى لقدر من اتبعه .

[ لما جاءهم ] نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم .

[ و ] الحال [ إنه لكتاب ] جامع لأوصاف الكمال [ عزيز ] .

أى : منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء . ولهذا قال :

[لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ] أى : لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن ، لا بسرقة ، ولا بإدخال ما ليس منه به ، ولا بزيادة ولا نقص .

فهو محفوظ فى تنزيله ، محفوظة ألفاظه ومعانيه ، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

[ تنزيل من حكيم ] فى خلقه وأمره ، يضع كل شىء موضعه ، وينزله منازله .

[ حميد ] على ماله من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وعلى ماله من العدل والإفضال ، فلهذا كان كتابه ، مشتملا على تمام الحكمة ، وعلى تحصيل المصالح والمنافع ، ودفع المفاسد والمضار ، التى يحمد عليها .

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

* أى : [ ما يقال لك ] أيها الرسول من الأقوال الصادرة ، ممن كذبك وعاندك .

[ إلا ما قيل للرسل من قبلك ] أى : من جنسها .

بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد ، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل ، من دعوتهم إلى الإخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، وردهم هذا ، بكل طريق يقدرون عليه ، وقولهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » .

واقتراحهم على رسلهم الآيات،التى لا يلزمهم الإتيان بها ، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب ، لما تشابهت قلوبهم فى الكفر ، تشابهت أقوالهم .

وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم ، وتكذيبهم ، فاصبر كما صبر من قبلك .

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة ، وحذرهم من الاستمرار على الغىّ فقال :

[ إن ربك لذو مغفرة ] أى : عظيمة ، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب [ وذو عقاب أليم ] لمن : أصر واستكبر .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ

---

* يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، حيث أنزل كتابا عربيا ، على الرسول العربى ، بلسان قومه ، ليبين لهم .

وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به ، والتلقى له والتسليم .

وأنه لو جعله قرآنا أعجميا ، بلغة غير العرب ، لاعترض ، المكذبون وقالوا :

[ لولا فصلت آياته ] أى : هلا بينت آياته ، ووضحت وفسرت .

[ أأعجمى وعربى ] أى : كيف يكون محمد عربيا، والكتاب أعجمى ؟ هذا لا يكون .

فنفى الله تعالى كل أمر ، يكون فيه شبهة لأهل الباطل ، عن كتابه ، ووصفه بكل وصف ، يوجب لهم الانقياد .

ولكن المؤمنون الموفقون ، انتفعوا به ، وارتفعوا ، وغيرهم بالعكس من أحوالهم .

ولهذا قال : [ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ] أى : يهديهم لطريق الرشد ، والصراط المستقيم ويعلمهم من العلوم النافعة ، ما به تحصل الهداية التامة .

وشفاء لهم من الأسقام البدنية ، والأسقام القلبية ، لأنه يزجر عن مساوى الأخلاق ، وأقبح الأعمال ، ويحث على التوبة النصوح ، التى تغسل الذنوب ، وتشفى القلب .

لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا

---

[ والذين لا يؤمنون ] بالقرآن [ فى آذانهم وقر ] أى : صمم عن استماعه وإعراض ، [ وهو عليهم عمى ] أى : لا يبصرون به رشدا ، ولا يهتدون به ، ولا يزيدهم إلا ضلالا .

فإنهم إذا ردوا الحق ، ازدادوا عمى إلى عماهم ، وغياً إلى غيهم .

[أولئك ينادون من مكان بعيد] أى : ينادون إلى الإيمان ، ويدعون إليه ، فلا يستجيبون .

بمنزلة الذى ينادى ، وهو فى مكان بعيد ، لا يسمع داعيا ولا يجيب منادياً .

والمقصود : أن الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لا ينتفعون بهداه ، ولا يبصرون بنوره ، ولا يستفيدون منه خيراً ، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى ، بإعراضهم وكفرهم .

* يقول تعالى : [ ولقد آتينا موسى الكتاب ] كما آتيناك الكتاب ، فصنع به الناس ما صنعوا معك ، اختلفوا فيه :

فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع ، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به .

وإن الله تعالى ، لولا حلمه وكلمته السابقة ، بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر [ لقضى بينهم ] بمجرد ما يتميز المؤمنون من

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ

---

الكافرين ، بإهلاك الكافرين فى الحال ، لأن سبب الهلاك ، قد وجب وحق .

[ وإنهم لفى شك منه مريب ] أى : قد بلغ بهم إلى الريب الذى يقلقهم ، فلذلك كذبوه وجحدوه .

[ من عمل صالحا ] وهو العمل الذى أمر الله به ، ورسوله [ فلنفسه ] نفعه وثوابه فى الدنيا والآخرة [ ومن أساء فعليها ] ضرره وعقابه ، فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا ، حثٌّ على فعل الخير ، وترك الشر ، وانتفاع العاملين ، بأعمالهم الحسنة ، وضررهم بأعمالهم السيئة ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

[ وما ربك بظلام للعبيد ] فَيُحَمِّل أحدا فوق سيئاته .

* هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذى ، لا يطلع عليه سواه فقال :

[ إليه يرد علم الساعة ] أى : جميع الخلق يرد علمهم إلى الله تعالى ، ويقرون بالعجز عنه ، الرسل ، والملائكة ، وغيرهم .

[ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ] أى : وعائها الذى تخرج منه .

أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التى فى البلدان والبرارى ، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار ، إلا وهو يعلمها تفصيليا .

[ وما تحمل من أنثى ] من بنى آدم وغيرهم ، من أنواع الحيوانات ، إلا بعلمه [ ولا تضع إلا بعلمه ] .

فكيف سوّى المشركون به تعالى ، من لا علم عنده ، ولا سمع ولا بصر ؟ .

[ ويوم يناديهم ] أى : المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم فيقول لهم :

[ أين شركائى ] الذين زعمتم أنهم شركائى ، فعبدتموهم ، وجادلتم على ذلك ، وعاديتم الرسل لأجلهم ؟ .

[ قالوا ] مقرين ببطلان إلهيتهم ، وشركتهم مع الله :

[ آذناك ما منا من شهيد ] أى : أعلمناك يا ربنا ، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم ، فكلنا الآن ، رجعنا إلى بطلان عبادتها ، وتبرأنا منها ، ولهذا قال :

[ وضل عنهم ما كانوا يدعون ] من دون الله ، أى : ذهبت عقائدهم وأعمالهم ، التى أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله ، وظنوا أنها تفيدهم ، وتدفع عنهم العذاب ، وتشفع لهم عند الله .

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ

---

فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئا [وظنوا] أى : أيقنوا فى تلك الحال [ما لهم من محيص] أى : منقذ ينقذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ.

فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بينها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

* هذا إخبار عن طبيعة الإنسان، من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير، ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال، إلى حال الكمال، فقال :

[لا يسأم الإنسان من دعاء الخير] أى : لا يمل دائما، من دعاء الله، بالفوز، والمال، والولد، وغير ذلك، من مطالب الدنيا.

ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل، ولا بكثير منها.

فلو حصل له من الدنيا، ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

[وإن مسه الشر] أى : المكروه، كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا [فيئوس قنوط] أى : ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء، هو القاضى عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب، على غير ما يحب ويطلب.

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم، استدراجا وإمهالا.

لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ

---

وإن أصابتهم مصيبة ، فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، صبروا ، ورجوا فضل ربهم ، فلم ييأسوا .

ثم قال تعالى : [ ولئن أذقناه ] أى : الإنسان الذى يسأم من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس [ رحمة منا ] أى : بعد ذلك الشر الذى أصابه ، بأن عافاه الله من مرضه ، أو أغناه من فقره ، فإنه لا يشكر الله تعالى ، بل يبغى ، ويطغى ، ويقول :

[ هذا لى ] أى : أتانى ، لأنى له أهل ، وأنا مستحق له [ وما أظن الساعه قائمة ] ، وهذا إنكار منه للبعث ، وكفر للنعمة والرحمة ، التى أذاقها الله له .

[ ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ] أى : على تقدير إتيان الساعة ، وأنى سأرجع إلى ربى ، إن لى عنده ، للحسنى .

فكما حصلت لى النعمة فى الدنيا ، فإنها ستحصل لى فى الآخرة .

وهذا من أعظم الجرأة والقول على الله ، بلا علم ، فلهذا توعده بقوله :

[ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ] أى : شديد جداً .

[ وإذا أنعمنا على الإنسان ] بصحة ، أو رزق ، أو غيرها [ أعرض ] عن ربه وعن شكره [ ونأى ] ترفع [ بجانبه ] عجبا وتكبراً .

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ

---

[ وإن مسه الشر ] أى : المرض ، أو الفقر ، أو غيرهما [ فذو دعاء عريض ] أى : كثير جدا ، لعدم صبره .

فلا صبر فى الضراء ، ولا شكر فى الرخاء ، إلا من هداه الله ومنّ عليه .

☼ أي [ قل ] لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران :

[ أرأيتم إن كان ] هذا القرآن [ من عند الله ] من غير شك ولا ارتياب .

[ ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ] أى : معاندة لله ولرسوله ، لأنه تبين لكم الحق والصواب ، ثم عدلتم عنه ، لا إلى حق ، بل إلى باطل وجهل .

فإذاً تكونون أضل الناس وأظلمهم .

فإن قلتم ، أو شككتم بصحته وحقيقته ، فسيقيم الله لكم ، ويريكم من آياته ، حيث قال تعالى : [ سنريهم آياتنا فى الآفاق ] كالآيات التى فى السماء وفى الأرض ، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة ، الدالة للمستبصر على الحق .

وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

---

[ وفى أنفسهم ] مما اشتملت عليه أبدانهم ، من بديع آيات الله ، وعجائب صنعته ، وباهر قدرته ، وفى حلول العقوبات والمثلات فى المكذبين، ونصر المؤمنين .

[ حتى يتبين لهم ] من تلك الآيات ، بيانا لا يقبل الشك [ أنه الحق ] وما اشتمل عليه حق .

وقد فعل تعالى ، فإنه أرى عباده من الآيات ، ما به تبين أنه الحق ، ولـكن الله هو الموفق للإيمان من شاء ، والخاذل لمن يشاء .

[ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ] أى: أو لم يكفهم على أن القرآن حق ، ومن جاء به صادق ، بشهادة الله تعالى ، فإنه قد شهد له بالتصديق ، وهو أصدق الشاهدين ، وأيده ، ونصره نصراً متضمنا لشهادته القولية ، عند من شك فيها .

[ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ] أى: فى شك من البعث والقيامة ، وليس عندهم دار ، سوى الدار الدنيا ، فلذلك لم يعملوا للآخرة ، ولم يلتفتوا لها .

[ ألا إنه بكل شىء محيط ] علما وقدرة وعزة .

تم تفسير سورة « فصلت » ( السجدة ) — بمنه تعالى

# تفسير

## سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ

---

* يخبر تعالى ، أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم ، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين .

ففيه بيان فضله ، بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، سابقا ولاحقا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل .

وأن طريقته ، طريقة من قبله ، وأحواله تناسب أحوال من قبله ، من المرسلين .

وما جاء به ، يشابه ما جاءوا به ، لأن الجميع حق وصدق ، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية ، والعزة العظيمة ، والحكمة البالغة .

وأن جميع العالم ، العلوى والسفلى ، ملكه ، وتحت تدبيره القدرى والشرعى .

مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن
فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن
فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟

---

وأنه [ العلى ] بذاته ، وقدره ، وقهره .

[ العظيم ] الذى من عظمته [ تكاد السموات يتفطرن[1] من فوقهن ] على عظمها وكونها جماداً .

[ والملائكة ] الكرام المقربون ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزته ، مذعنون بربوبيته .

[ يسبحون بحمد ربهم ] ويعظمونه وينزهونه عن كل نقص ، ويصفونه بكل كمال .

[ ويستغفرون لمن فى الأرض ] عما يصدر منهم ، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه .

مع أنه تعالى [ هو الغفور الرحيم ] الذى لولا مغفرته ورحمته ، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة .

وفى وصفه تعالى بهذه الأوصاف ، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل عموما ، وإلى محمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — خصوصا ،

---

( ١ ) يتفطرن . أى : تنشق كل واحدة فوق التى تليها من عظمة الله .

مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

---

إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم ، فيه الأدلة والبراهين ، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى ، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب ، من معرفته ، ومحبته ، وتعظيمه ، وإجلاله ، وإكرامه ، وصرف جميع أنواع العبودية ، الظاهرة ، والباطنة ، له تعالى .

وأن من أكبر الظلم ، وأفحش القول ، اتخاذ أنداد لله من دونه ، ليس بيدهم نفع ولا ضر .

بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله فى جميع أحوالهم ، ولهذا عقبه بقوله :

[ والذين اتخذوا من دونه أولياء ] يتولونهم بالعبادة والطاعة ، كما يعبدون الله ويطيعونه ، فإنما اتخذوا الباطل ، وليسوا بأولياء على الحقيقة .

[ الله حفيظ عليهم ] يحفظ عليهم أعمالهم ، فيجازيهم بخيرها وشرها .

[ وما أنت عليهم بوكيل ] فتسأل عن أعمالهم ، وإنما أنت مبلغ ، أديت وظيفتك .

ثم ذكر منته على رسوله ، وعلى الناس ، حيث أنزل الله [ قرآناً عربياً ] بين الألفاظ والمعانى [ لتنذر أم القرى ] وهى مكة المكرمة [ ومن حولها ] من قرى العرب ثم يسرى هذا الإنذار ، إلى سائر الخلق .

[ وتنذر ] الناس [ يوم الجمع ] الذى يجمع الله به الأولين والآخرين ،

فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُدْخِلُ
مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ

---

وتخبرهم أنه [ لا ريب فيه ] وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين [ فريق فى الجنة ] وهم الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، [ وفريق فى السعير ] وهم أصناف الكفرة المكذبين .

[ و ] مع هذا [ لو شاء الله لجعلهم ] أى : جعل الناس كلهم [ أمة واحدة ] على الهدى ، لأنه القادر ، الذى لا يمتنع عليه شيء ، ولكن أراد أن يدخل فى رحمته من شاء ، من خواص خلقه .

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح ، فإنهم محرومون من الرحمة ، فـ [ ما لهم ] من دون الله [ من ولى ] يتولاهم ، فيحصل لهم المحبوب [ ولا نصير ] يدفع عنهم المكروه .

[ والذين اتخذوا من دونه أولياء ] يتولونهم بعبادتهم إياهم ، فقد غلطوا أقبح غلط .

فالله ، هو الولى الذى يتولاه عبده بعبادته وطاعته ، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات ، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ، ونفوذ القدر فيهم .

ويتولى عباده المؤمنين خصوصا ، بإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتربيتهم بلطفه ، وإعانتهم فى جميع أمورهم .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

[ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ] أى : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، ونفوذ المشيئة والقدرة ، فهو الذى يستحق أن يعبد وحده، لا شريك له .

* يقول تعالى : [ وما اختلفتم فيه من شيء ] من أصول دينكم وفروعه ، مما لم تتفقوا عليه [ فحكمه إلى الله ] يرد إلى كتابه ، وإلى سنة رسوله ، فما حكما به ، فهو الحق ، وما خالف ذلك ، فباطل .

[ ذلكم الله ربى ] أى : فكما أنه تعالى ، الرب الخالق الرازق المدبر ، فهو تعالى الحاكم بين عباده ، بشرعه فى جميع أمورهم .

ومفهوم الآية الكريمة ، أن اتفاق الأمة ، حجة قاطعة ، لأن الله تعالى، لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه .

فما اتفقنا عليه ، يكفى اتفاق الأمة عليه ، لأنها معصومة عن الخطأ .

ولا بد أن يكون اتفاقها ، موافقا لما فى كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : [ عليه توكلت ] أى : اعتمدت بقلبى عليه ، فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، واثقا به تعالى فى الإسعاف بذلك .

[ وإليه أنيب ] أى : أتوجه بقلبى وبدنى إليه ، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان ، كثيراً ما يذكرهما الله فى كتابه ، لأنهما يحصل

وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ

---

بمجموعهما ، كمال العبد ، ويفوته الكمال بفوتهما ، أو فوت أحدهما ، كقوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله « فاعبده وتوكل عليه » .

[ فاطر السموات والأرض ] أى : خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته .

[ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ] لتسكنوا إليها ، وتنتشر منكم الذرية ، ويحصل لكم من النفع ، ما يحصل .

[ ومن الأنعام أزواجاً ] أى : ومن جميع أصنافها ، نوعين ، ذكر ، وأنثى ، لتبقى ، وتنمو لمنافعكم الكثيرة ، ولهذا عداها باللام ، الدالة على التعليل : أى : جعل لكم من أنفسكم ، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً .

[ ليس كمثله شىء ] أى : ليس يشبهه تعالى ولا يماثله ، شىء ، من مخلوقاته ، لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، لأن أسماءه ، كلها حسنى ، وصفاته ، صفات كمال وعظمة ، وأفعاله تعالى، أوجد بها المخلوقات العظيمة ، من غير مشارك .

فليس كمثله شىء ، لانفراده ، وتوحده بالكمال ، من كل وجه .

[وهو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[ البصير ] يرى دبيب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء .

مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

---

ويرى سريان القوت فى أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا ، وسريان الماء فى الأغصان الدقيقة .

وهذه الآية ونحوها ، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة ، من إثبات الصفات ، ونفى مماثلة المخلوقات .

وفيها رد ، على المشبهة فى قوله [ ليس كمثله شىء ] وعلى المعطلة فى قوله [ وهو السميع البصير ] .

وقوله [ لهمقاليد السموات والأرض ] أى : له ملك السموات والأرض وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ، والنعم الظاهرة والباطنة .

فكل الخلق مفتقرون إلى الله ، فى جلب مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، فى كل الأحوال ليس بيد أحد ، من الأمر ، شىء .

والله تعالى هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذى ما بالعباد من نعمة ، إلا منه ، ولا يدفع الشر ، إلا هو و « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

ولهذا قال هنا : [ يبسط الرزق لمن يشاء ] أى : يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ، ما شاء [ ويقدر ] أى : يضيق على من يشاء ، حتى يكون بقدر حاجته ، لا يزيد عنها ، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ، فلهذا قال :

[ إنه بكل شىء عليم ] فيعلم أحوال عباده ، فيعطى كلا ، ما يليق بحكمته ، وتقتضيه مشيئته .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ

---

* هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده ، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها ، وأزكاها وأطهرها .

دين الإسلام ، الذى شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده .

بل شرعه الله لخيار الخيار ، وصفوة الصفوة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون فى هذه الآية أعلى الخلق درجة ، وأكملهم من كل وجه .

فالدين الذى شرعه الله لهم ، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم ، موافقاً لكمالهم ، بل إنما كملهم الله واصطفاهم ، بسبب قيامهم به .

فلولا الدين الإسلامى ، ما ارتفع أحد من الخلق ، فهو روح السعادة ، وقطب رحى الكمال ، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ، ودعا إليه من التوحيد والأعمال ، والأخلاق ، والآداب .

قال : [ أن أقيموا الدين ] أى : أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه ، تقيمونه بأنفسكم ، وتجتهدون فى إقامته على غيركم ، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان .

[ ولا تتفرقوا فيه ] أى : ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه .

واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل ، وتحزبكم أحزاباً وشيعاً ، يعادى بعضكم بعضا ، مع اتفاقكم على أصل دينكم .

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة ، كاجتماع الحج والأعياد ، والجمع ، والصلوات الخمس ، والجهاد ، وغير ذلك ، من العبادات ، التى لا تتم ، ولا تكمل إلا بالاجتماع لها ، وعدم التفرق .

[ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ] أى : شق عليهم غاية المشقة ، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ، كما قال عنهم « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » وقولهم « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب » .

[ الله يجتبى إليه من يشاء ] أى : يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته .

ومنه ، أن اجتبى هذه الأمة ، وفضلها على سائر الأمم ، واختار لها أفضل الأديان وخيرها .

[ ويهدى إليه من ينيب ] هذا السبب الذى من العبد ، يتوصل به إلى هداية الله تعالى وهو : إنابته لربه ، وانجذاب دواعى قلبه إليه ، وكونه قاصدا وجهه .

فحسن مقصد العبد ، مع اجتهاده فى طلب الهداية ، من أسباب التيسير لها ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » .

وفى هذه الآية ، أن الله [ يهدى إليه من ينيب ] مع قوله « واتبع سبيل من أناب إلىّ » مع العلم بأحوال الصحابة رضى الله عنهم ، وأن شدة

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾

---

إنابتهم ، دليل على أن قولهم حجة ، خصوصا الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين .

* لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم ، ونهاهم عن التفرق ، أخبرهم أنهم ، ينبغى لهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب .

فإن أهل الكتاب ، لم يتفرقوا ، حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع ، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم ، وذلك كله ، بغيا وعدوانا منهم.

فإنهم تباغضوا وتحاسدوا ، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة ، فوقع الاختلاف .

فاحذروا ، أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم .

[ ولولا كلمة سبقت من ربك ] أى : بتأخير العذاب القاضى ، إلى أجل مسمى [ لقضى بينهم ] ولكن حكمته وحلمه ، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

[ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ] أى : الذين ورثوهم ، وصاروا خلفاً لهم ، ممن ينتسب إلى العلم منهم .

[ لفى شك منه مريب ] أى : لفى اشتباه كثير ، يوقع فى الاختلاف ، حيث اختلف سلفهم ، بغياً وعناداً ، فإن خلفهم ، اختلفوا شكا وارتياباً ، والجميع ، مشتركون فى الاختلاف المذموم .

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ

---

[ فلذلك فادع ] أى : فللدين القويم ، والصراط المستقيم ، الذى أنزل الله به كتبه ، وأرسل رسله ، فادع إليك أمتك ، وحضهم عليه ، وجاهد عليه ، من لم يقبله .

[ واستقم ] بنفسك [ كما أمرت ] أى : استقامة موافقة لأمر الله ، لا تفريط ولا إفراط ، بل امتثالا لأوامر الله ، واجتناباً لنواهيه ، على وجه الاستمرار على ذلك .

فأمره بتكميل نفسه ، بلزوم الاستقامة ، وبتكميل غيره ، بالدعوة إلى ذلك .

ومن المعلوم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمر لأمته ، إذا لم يرد تخصيص له .

[ ولا تتبع أهواءهم ] أى : أهواء المنحرفين عن الدين ، من الكفرة والمنافقين .

إما باتباعهم على بعض دينهم ، أو بترك الدعوة إلى الله ، أو بترك الاستقامة .

فإنك إن اتبعت أهواءهم ، من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذاً لمن الظالمين .

ولم يقل « ولا تتبع دينهم » لأن حقيقة دينهم ، الذى شرعه الله لهم ، هو دين الرسل كلهم ، ولكنهم لم يتبعوه ، بل اتبعوا أهواءهم ، واتخذوا دينهم ، لهوا ولعبا .

ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا

---

[ وقل ] لهم ، عند جدالهم ومناظرتهم : [ آمنت بما أنزل الله من كتاب ] أى : لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم ، الدال على شرف الإسلام وجلالته ، وهيمنته على سائر الأديان ، وأن الدين الذى يزعم أهل الكتاب ، أنهم عليه ، جزء من الإسلام .

وفى هذا ، إرشاد إلى أن أهل الكتاب ، إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ، ببعض الكتب ، أو ببعض الرسل دون غيره ، فلا يسلم لهم ذلك .

لأن الكتاب الذى يدعون إليه ، والرسول الذى ينتسبون إليه ، من شرطه ، أن يكون مصدقاً بهذا القرآن ، وبمن جاء به .

فكتابنا ، ورسولنا ، لم يأمرانا ، إلا بالإيمان بموسى ، وعيسى ، والتوراة ، والإنجيل ، التى أخبر بها ، وصدق بها ، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته .

وأما مجرد التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى ، الذين لم يوصفوا لنا ، ولم يوافقوا لكتابنا ، فلم يأمرنا بالإيمان بهم .

وقوله [ وأمرت لأعدل بينكم ] أى : فى الحكم فيما اختلفتم فيه ، فلا تمنعنى عداوتكم وبغضكم ، يا أهل الكتاب ، من العدل بينكم ، ومن العدل فى الحكم ، بين أهل الأقوال المختلفة ، من أهل الكتاب وغيرهم ، أن يقبل ما معهم من الحق ، ويرد ما معهم من الباطل .

[ الله ربنا وربكم ] أى : هو رب الجميع ، لستم بأحق به منا .

وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ

---

[ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ] من خير وشر [ لا حجة بيننا وبينكم ] أى : بعد ما تبينت الحقائق ، واتضح الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، لم يبق للجدل والمنازعة محل .

لأن المقصود من الجدال ، إنما هو بيان الحق من الباطل ، ليهتدى الراشد ، ولتقوم الحجة على الغاوى .

وليس المراد بهذا ، أن أهل الكتاب لا يجادلون ، كيف والله يقول: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وإنما المراد، ماذكرنا.

[ الله يجمع بيننا وإليه المصير ] يوم القيامة ، فيجزى كلا بعمله ، ويتبين حينئذ ، الصادق من الكاذب .

* وهذا تقرير لقوله [ لا حجة بيننا وبينكم ] .

فأخبر هنا أن [ الذين يحاجون فى الله ] بالحجج الباطلة ، والشبه المتناقضة [ من بعد ما استجيب له ] أى : من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول ، لما بين لهم من الآيات القاطعة ، والبراهين الساطعة .

فهؤلاء المجادلون للحق ، من بعد ما تبين [ حجتهم داحضة ] .

أى : باطلة مدفوعة [ عند ربهم ] لأنها مشتملة على رد الحق ، وكل ما خالف الحق ، فهو باطل .

حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ

---

[وعليهم غضب] لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها .

[ ولهم عذاب شديد ] هو أثر غضب الله عليهم ، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل .

* لما ذكر تعالى ، أن حججه واضحة بينة ، بحيث استجاب لها كل من فيه خير ، ذكر أصلها وقاعدتها ، بل جميع الحجج التى أوصلها إلى العباد ، ترجع إليه فقال :

[ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ] فالكتاب ، هو هذا القرآن العظيم ، نزل بالحق ، واشتمل على الحق ، والصدق ، واليقين .

وكله آيات بينات ، وأدلة واضحات ، على جميع المطالب الإلهية، والعقائد الدينية ، فجاء بأحسن المسائل ، وأوضح الدلائل .

وأما الميزان ، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح ، والعقل الرجيح.

فكل الدلائل العقلية ، من الآيات الأفقية والنفسية ، والاعتبارات الشرعية ، والمناسبات ، والعلل ، والأحكام ، والحكم ، داخلة فى الميزان ، الذى أنزله الله تعالى ، ووضعه بين عباده ، ليزنوا به ما أثبته ، وما نفاه ، من الأمور ، ويعرفوا به صدق ما أخبر به ، وأخبرت به رسله ، مما خرج عن هذين الأمرين — عن الكتاب والميزان — مما قيل : إنه حجة

لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

أو برهان ، أو دليل ، أو نحو ذلك من العبارات ، فإنه باطل متناقض ، قد فسدت أصوله ، وانهدمت مبانيه وفروعه .

يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها ، وعرف التمييز بين راجح الأدلة ومرجوحها ، والفرق بين الحجج والشبه .

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة ، والألفاظ المموهة ، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد ، فإنه ليس من أهل هذا الشأن ، ولا من فرسان هذا الميدان ، فوفاقه وخلافه ، سيان .

ثم قال تعالى — مخوفا للمستعجلين لقيام الساعة ، المنكرين لها : [ وما يدريك لعل الساعة قريب ] أى : ليس بمعلوم وقتها وبعدها ، ولا متى تقوم ، فهى فى كل وقت ، متوقع وقوعها ، مخوف وجبتها .

[يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ] عناداً وتكذيبا ، وتعجيزاً لربهم .

[ والذين آمنوا مشفقون منها ] أى : خائفون ، لإيمانهم بها ، وعلمهم بما اشتمل عليه من الجزاء بالأعمال .

وخوفهم ، لمعرفتهم بربهم ، أن لا تكون أعمالهم منجية ولا مسعدة ، ولهذا قال :

[ ويعلمون أنها الحق ] الذى لا مرية فيه ، ولا شك يعتريه .

يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ

[ ألا أن الذين يمارون فى الساعة ] أى : بعد ما امتروا فيها ، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها [ لفى ضلال بعيد ] فى غاية البعد عن الحق .

وأىُّ بعد ، أبعد ممن كذب بالدار ، التى هى الدار على الحقيقة ، وهى الدار التى خلقت للبقاء الدائم ، والخلود السرمد ، وهى دار الجزاء ، التى يظهر الله فيها عدله وفضله ؟ .

وإنما هذه الدار بالنسبة إليها ، كراكب قال[1] فى ظل شجرة ، ثم رحل وتركها ، وهى دار عبور وممر ، لا محل استقرار .

فصدقوا فى الدار المضمحلة الفانيـة ، حيث رأوها وشاهدوها ، وكذبوا بالدار الآخرة ، التى تواترت بالإخبار عنها ، الـكتب الإلهية ، والرسل الـكرام وأتباعهم ، الذين هم أكمل الخلق عقولا ، وأغزرهم علما ، وأعظمهم فطنة ، وفهما .

* يخبر تعالى أنه [ لطيف بعباده ] ليعرفوه ويحبوه ، ويتعرضوا للطفه وكرمه .

واللطف ، من أوصافه تعالى ، معناه : الذي يدرك الضمائر والسرائر ، الذى يوصل عباده ــ وخصوصا المؤمنين ــ إلى ما فيه الخير لهم ، من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون .

( ١ ) قال . أى : استراح ونام فى ظل شجرة وقت القيلولة وهو قبيل الظهر . وفعله من الباب الثانى . يعنى « قال يقيل » .

ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

---

فمن لطفه بعبده المؤمن ، أن هداه إلى الخير ، هداية لا تخطر بباله ، بما يسر له من الأسباب . الداعية إلى ذلك من فطرته ، على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى للملائكة الكرام ، أن يثبتوا عباده المؤمنين ، ويحثوهم على الخير ، ويلقوا فى قلوبهم ، من تزيين الحق ، ما يكون داعيا لاتباعه .

ومن لطفه أن أمر المؤمنين ، بالعبادات الاجتماعية ، التى بها ، تقوى عزائمهم ، وتنبعث هممهم ، ويحصل منهم التنافس على الخير ، والرغبة فيه ، واقتداء بعضهم ببعض .

ومن لطفه ، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصى .

حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها ، مما يتنافس فيه أهل الدنيا ، تقطع عبده عن طاعته ، أو تحمله على الغفلة عنه ، أو على معصيته ، صرفها عنه ، وقدر عليه رزقه ، ولهذا قال هنا :

[ يرزق من يشاء ] بحسب اقتضاء حكمته ولطفه [ وهو القوى العزيز ] الذى له القوة كلها ، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين ، إلا به ، الذى دانت له جميع الأشياء .

ثم قال تعالى : [ من كان يريد حرث الآخرة ] أى : أجرها وثوابها ، فآمن بها وصدق ، وسعى لها سعيها [ نزد له فى حرثه ] بأن نضاعف عمله وجزاءه ، أضعافا كثيرة .

كما قال تعالى: « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ومع ذلك ، فنصيبه من الدنيا ، لابد أن يأتيه .

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن

---

[ ومن كان يريد حرث الدنيا ] بأن : كانت الدنيا ، هى مقصوده ، وغاية مطلوبه ، فلم يقدم لآخرته ، ولا رجا ثوابها ، ولم يخش عقابها .

[ نؤته منها ] نصيبه الذي قسم له .

[ وما له فى الآخرة من نصيب ] قد حرم الجنة ونعيمها ، واستحق النار وجحيمها .

وهذه الآية ، شبيهة بقوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

* يخبر تعالى ، أن المشركين اتخذوا شركاء ، يوالونهم ويشتركون ، هم وإياهم ، فى الكفر وأعماله ، من شياطين الإنس ، الدعاة إلى الكفر [ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ] من الشرك والبدع ، وتحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك ، مما اقتضته أهواؤهم .

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى ، ليدين به العباد ، ويتقربوا به إليه .

فالأصل ، الحجر على كل أحد ، أن يشرع شيئا ، ما جاء عن الله ولا عن رسوله .

فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وهم ، على الكفر .

بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

---

[ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم] أى : لولا الأجل المسمى ، الذى ضربه الله فاصلا ، بين الطوائف المختلفة ، وأنه سيؤخرهم إليه ، لقضى بينهم فى الوقت الحاضر ، بسعادة المحق ، وإهلاك المبطل ، لأن المقتضى للإهلاك ، موجود ، ولكن أمامهم ، العذاب الأليم فى الآخرة ، هؤلاء وكل ظالم .

وفى ذلك اليوم [ ترى الظالمين ] أنفسهم بالكفر والمعاصى [ مشفقين ] أى : خائفين وجلين [ مما كسبوا ] أن يعاقبوا عليه .

ولما كان الخائف قد يقع به ، ما أشفق منه وخافه ، وقد لا يقع، أخبر أنه [ واقع بهم ] العقاب ، الذى خافوه ، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب ، من غير معارض ، من توبة ولا غيرها ، ووصلوا موضعا ، فاته فيه الإنظار والإمهال .

[ والذين آمنوا ] بقلوبهم ، بالله ، وبكتبه ، ورسله وجاءوا به .

[ وعملوا الصالحات ] يشمل فيه ، كل عمل صالح من أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح من الواجبات ، والمستحبات .

فهؤلاء [ فى روضات الجنات ] أى : الروضات المضافة إلى الجنات ، والمضاف يكون ، بحسب المضاف إليه .

فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة ، وما فيها من الأنهار المتدفقة ،

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

---

والغياض المعشبة ، والمناظر الحسنة ، والأشجار المثمرة ، والطيور المغردة ، والأصوات الشجية المطربة ، والاجتماع بكل حبيب ، والأخذ من المعاشرة والمنادمة ، بأكمل نصيب .

رياض لا تزداد على طول المدى ، إلا حسنا وبهاء ، ولا يزداد أهلها ، إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً .

[ لهم ما يشاءون ] فيها أى : فى الجنات [ عند ربهم ] .

فمهما أرادوا ، فهو حاصل ، ومهما طلبوا ، حصل ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ ذلك هو الفضل الكبير ] وهل فضل أكبر من الفوز برضا الله تعالى ، والتنعم بقربه فى دار كرامته ؟ .

[ ذلك الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] .

أى : هذه البشارة العظيمة ، التى هى أكبر البشائر على الإطلاق ، بشر بها الرحيم الرحمن ، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح ، فهى أجل الغايات ، والوسيلة الموصلة إليها ، أفضل الوسائل .

[ قل لا أسألكم عليه ] أى : على تبليغى إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه .

[ أجرا ] فلست أريد أخذ أموالكم ، ولا التولى عليكم والترأس ، ولا غير ذلك من الأغراض [ إلا المودة فى القربى ] .

إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا

يحتمل أن المراد : لا أسألكم عليه أجراً واحداً هو لكم ، وعائد نفعه إليكم ، وهو . أن تودونى وتحبونى فى القرابة ، أى لأجل القرابة .

ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان ، فإن مودة الإيمان بالرسول ، وتقديم محبته على جميع المحاب ، بعد محبة الله ، فرض على كل مسلم .

وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك ، أن يحبوه ، لأجل القرابة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه .

حتى إنه قيل : إنه ليس فى بطون قريش أحد ، إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه قرابة

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى ، الصادقة ، وهى التى يصحبها التقرب إلى الله ، والتوسل بطاعته ، الدالة على صحتها وصدقها ، ولهذا قال : [ إلا المودة فى القربى ] أى : فى التقرب إلى الله .

وعلى كلا القولين ، فهذا الاستثناء ، دليل على أنه لا يسألكم عليه أجراً بالكلية ، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم .

فهذا ليس من الأجر فى شىء ، بل هو من الأجر منه لهم صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » وقولهم « مالفلان عندك ذنب ، إلا أنه محسن إليك » .

[ ومن يقترف حسنة ] من صلاة ، أو صوم ، أو حج ، أو إحسان إلى الخلق [ نزد له فيها حسناً ] بأن يشرح الله صدره ، وييسر أمره ، ويكون

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ

---

سبباً للتوفيق لعمل آخر ، ويزداد بها عمل المؤمن ، ويرتفع عند الله ، وعند خلقه ، ويحصل له الثواب ، العاجل والآجل .

[ إن الله غفور شكور ] يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت ، عند التوبة منها ، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير .

فبمغفرته ، يغفر الذنوب ، ويستر العيوب ، وبشكره يتقبل الحسنات ، ويضاعفها ، أضعافاً كثيرة .

* يعنى أم يقول المكذبون للرسول صل الله عليه وسلم ، جرأة منهم وكذباً : [ افترى على الله كذباً ] فرموك بأشنع الأمور وأقبحها ، وهو : الافتراء على الله ، بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ، ما هو برىء منه ، وهم يعلمون صدقك وأمانتك .

فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح ؟ .

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى ، فإنه قدح فى الله ، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة ، المتضمنة — على موجب زعمهم — أكبر الفساد فى الأرض ، حيث مكنه الله ، من التصريح بالدعوة ، ثم بنسبتها إليه ، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات ، والأدلة القاهرات ، والنصر المبين ، والاستيلاء على من خالفه .

وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها ، وهو أن يختم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل إليه خير .

عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

وإذا ختم على قلبه ، انحسم الأمر كله ، وانقطع .

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول ، وأقوى شهادة من الله له على ما قال ، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر .

ولهذا ، من حكمته ورحمته ، وسنته الجارية ، أنه يمحو الباطل ويزيله ، وإن كان له صولة فى بعض الأوقات ، فإن عاقبته الاضمحلال .

[ويحق الحق بكلماته] الكونية ، التى لا تبدل ولا تغير ، ووعده الصادق ، وكلماته الدينية التى تحقق ما شرعه من الحق ، وتثبته فى القلوب، وتبصر أولى الألباب .

حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق ، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه .

فإذا قاومه ، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته ، فظهر من نوره وهداه، ما به يضمحل الباطل ، وينقمع ، ويتبين بطلانه لكل أحد ، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد .

[ إنه عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها ، وما اتصفت به ، من خير وشر ، وما أكنته ، ولم تبده .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

---

* هذا بيان لكمال كرم الله تعالى ، وسعة جوده ، وتمام لطفه ، إذ [ يقبل التوبة ] الصادرة [ عن عباده ] حين يقلعون عن ذنوبهم ، ويندمون عليها ، ويعزمون على أن لا يعاودوها ، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم ، فإن الله يقبلها ، بعد ما انعقدت سببا للهلاك ، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية .

[ ويعفو عن السيئات ] ويمحوها ، ويمحو أثرها من العيوب ، وما اقتضته من العقوبات .

ويعو التائب عنده ، كريما ، كأنه ما عمل سوءاً قط ، ويحبه ، ويوفقه ، لما يقر به إليه .

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة ، التى قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها ، وقد تكون ناقصة عند نقصهما ، وقد تكون فاسدة ، إذا كان القصد منها ، بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية ، وكان محل ذلك ، القلب الذى لا يعلمه إلا الله ، ختم هذه الآية بقوله [ ويعلم ما تفعلون ]

فالله تعالى ، دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه ، والتوبة من التقصير ، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين :

مستجيبين وصفهم بقوله [ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ]

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ

---

أى : يستجيبون لربهم ، لما دعاهم إليه وينقادون له ، ويلبون دعوته ، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح ، يحملهم على ذلك .

فإذا استجابوا له ، شكر الله لهم ، وهو الغفور الشكور .

[ ويزيدهم من فضله ] توفيقا ونشاطاً على العمل ، وزادهم مضاعفة فى فى الأجر ، زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم .

وأما غير المستجيبين لله [ و ] هم المعاندون [ الكافرون ] به وبرسله ، فإنهم [ لهم عذاب شديد ] فى الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ، من لطفه بعباده ، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة ، تضر بأديانهم فقال :

[ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ] أى : لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا ، فأوجبت لهم الانكباب على ماتشتهيه نفوسهم ، ولو كان معصية وظلما .

[ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ] بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته [ إنه بعباده خبير بصير ] كما فى بعض الآثار أن الله تعالى يقول « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أمرضته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك ، إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم ، إنى خبير بصير » .

مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

---

[ وهو الذى ينزل الغيث ] أى : المطر الغزير الذى به يغيث البلاد والعباد .

[ من بعد ما قنطوا ] وانقطع عنهم مدة ، ظنوا أنه لا يأتيهم،وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالا ، فينزل الله الغيث [ وينشر ] به [ رحمته ] من إخراج الأقوات للآدميين،وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيما،ويستبشرون بذلك ويفرحون .

[ وهو الولى ] الذى يتولى عباده ، بأنواع التدبير ، ويتولى القيام ، بمصالح دينهم ودنياهم .

[ الحميد ] فى ولايته وتدبيره ، الحميد على ما له من الكمال ، وما أوصله إلى خلقه ، من أنواع الأفضال .

* [ ومن آياته ] أى : ومن أدلة قدرته العظيمة ، وأنه سيحيى الموتى بعد موتهم .

[ خلق ] هذه [ السموات والأرض ] على عظمهما وسعتهما ، الدال على قدرته ، وسعة سلطانه ، وما فيهما ، من الإتقان والإحكام ، دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح ، دال على رحمته ، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها ، وأن إلهية ما سواه باطلة .

[ وما بث فيهما من دابة ] أى : ما نشر فى السموات والأرض من أصناف الدواب التى جعلها الله مصالح ومنافع لعباده .

مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ
وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

---

[ وهو على جمعهم ] أى : جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة [ إذا يشاء قدير ] .

فقدرته ومشيئته ، صالحان لذلك ، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق .

وقد علم ، أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم ، بوقوعه .

* يخبر تعالى ، أنه ما أصاب العباد من مصيبة ، فى أبدانهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وفيما يحبون ، ويكون عزيزاً عليهم ، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات ، وأن ما يعفو الله عنه ، أكثر ، فإن الله لا يظلم العباد ، ولكن أنفسهم يظلمون « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وليس إهمالا منه تعالى ، تأخير العقوبات ، ولا عجزا .

[ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ] .

أى : معجزين قدرة الله عليكم ، بل أنتم عاجزون فى الأرض ، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم .

[ وما لكم من دون الله من ولى ] يتولاكم ، فيحصل لكم المنافع [ ولا نصير ] يدفع عنكم المضار .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

---

* أى : ومن أدلة رحمته ، وعنايته بعباده [ الجوارى فى البحر ] من السفن ، والمراكب البخارية ، والشراعية ، التى هى من عظمها [ كالأعلام ] وهى الجبال الكبار ، التي سخر لها البحر العجاج ، وحفظها من التطام الأمواج ، وجعلها تحملكم ، وتحمل أمتعتكم الكثيرة ، إلى البلدان والأقطار البعيدة ، وسخر لها من الأسباب ، ما كان معونة على ذلك .

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله [ إن يشأ يسكن الريح ] التى جعلها الله سببا لسيرها .

[ فيظللن ] أى : الجوارى « أى : السفن على اختلاف أنواعها » [ رواكد ] على ظهر البحر،لا تتقدم ولا تتأخر ولا ينتقض هذا ، بالمراكب البخارية ، فإن من شرط مشيها ، وجود الريح .

وإن شاء الله تعالى ، أوبق الجوارى ، بما كسب أهلها ، أى : أغرقها في البحر ، وأتلفها ، ولكنه يحلم ، ويعفو عن كثير .

[ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ] أى : كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها ، فيكرهها عليه ، من مشقة طاعة ، أو ردع داع إلى معصية ، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط ، [ شكور ] . فى الرخاء وعند النعم ، يعترف بنعمة ربه ويخضع له ، ويصرفها فى مرضاته .

فهذا الذى ينتفع بآيات الله .

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ

---

وأما الذى لا صبر عنده ، ولا شكر له عند نعم الله ، فإنه معرض أو معاند ، لا ينتفع بالآيات .

ثم قال تعالى : [ ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ] ليبطلوها بباطلهم .

[مالهم من محيص ] أى : لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة .

* هذا تزهيد فى الدنيا ، وترغيب فى الآخرة ، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال :

[ فما أوتيتم من شىء ] من ملك ورياسة ، وأموال ، وبنين ، وصحة ، وعافية بدنية .

[ فمتاع الحياة الدنيا ] لذة منغصة منقطعة .

[ وما عند الله ] من الثواب الجزيل ، والأجر الجليل ، والنعيم المقيم [ خير ] من لذات الدنيا ، خيرية لا نسبة بينهما [وأبقى ] لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ، ولا انتقال .

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال : [ للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ] أى : جمعوا بين الإيمان الصحيح ، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة وبين التوكل ، الذى هو الآلة لكل عمل .

فكل عمل لا يصحبه التوكل ، فغير تام ، وهو « أى : التوكل » الاعتماد بالقلب على الله .

يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ

---

فى جلب ما يحبه العبد ، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى .

[ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ] والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هى : الذنوب الكبار التى فى النفوس داع إليها ، كالزنا ونحوه ، والكبائر ، ما ليس كذلك ، هذا عند الاقتران .

وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر يدخل فيه .

[ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ] أى : قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، فصار الحلم لهم ، سجية ، وحسن الخلق لهم ، طبيعة .

حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله ، أو فعاله ، كظموا ذلك الغضب ، فلم ينفذوه ، بلى غفروه ، ولم يقابلوا المسىء إلا بالإحسان والعفو والصفح .

فترتب على هذا العفو والصفح ، من المصالح ، ودفع المفاسد فى أنفسهم وغيرهم ، شىء كثير ، كما قال تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

[ والذين استجابوا لربهم ] أى : انقادوا لطاعته ، ولبّوْا دعوته ، وصار قصدهم ، رضوانه ، وغايتهم ، الفوز بقربه .

ومن الاستجابة لله ، إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

فلذلك عطفها على ذلك ، من باب عطف العام على الخاص ، الدال على شرفه وفضله فقال :

شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

---

[ وأقاموا الصلاة ] أى : ظاهرها وباطنها ، فرضها ونفلها .

[ ومما رزقناهم ينفقون ] من النفقات الواجبة ، كالزكاة ، والنفقة على الأقارب ونحوهم ، والمستحبة ، كالصدقات على عموم الخلق .

[ وأمرهم ] الدينى والدنيوى [ شورى بينهم ] أى: لا يستبد أحدمنهم برأيه ، فى أمر من الأمور المشتركة بينهم ، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم ، وتوالفهم ، وتوادهم ، وتحابهم .

فمن كمال عقولهم ، أنهم إذا أرادا أمرا من الأمور ، التى تحتاج إلى إعمال الفكر والرأى فيها ، اجتمعوا لها ، وتشاوروا ، وبحثوا فيها ، حتى إذا تبينت لهم المصلحة ، انتهزوها وبادروها .

وذلك ، كالرأى فى الغزو ، والجهاد ، وتولية الموظفين ، لإمارة ، أو قضاء ، أو غيرها .

وكالبحث فى المسائل الدينية عموماً ، فإنها من الأمور المشتركة ، والبحث فيها ، لبيان الصواب ، مما يحبه الله ، وهو داخل فى هذه الآية .

[ والذين إذا أصابهم البغى(١) ] أى : وصل إليهم من أعدائهم [ هم ينتصرون ] لقوتهم وعزتهم ، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار .

---

(١) البغى . أى : الظلم . يعنى : ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه . كما قال تعالى : [ وجزاء سيئة مثلها ] .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ

---

فوصفهم بالإيمان ، والتوكل على الله ، واجتناب الكبائر والفواحش الذى تكفر به الصغائر ، والانقياد التام ، والاستجابة لربهم ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى وجوه الإحسان ، والمشاورة فى أمورهم ، والقوة والانتصار على أعدائهم .

فهذه خصال الكمال قد جمعوها ، ويلزم من قيامها فيهم ، فعل ما هو دونها ، وانتفاء ضدها .

* ذكر الله فى هذه الآية ، مراتب العقوبات ، وأنها على ثلاث مراتب : عدل ، وفضل ، وظلم .

فمرتبة العدل ، جزاء السيئة بسيئة مثلها ، لا زيادة ولا نقص .

فالنفس بالنفس ، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها ، والمال يضمن بمثله .

ومرتبة الفضل : العفو والإصلاح عن المسيء ، ولهذا قال :

[ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ] يجزيه أجراً عظيما ، وثوابا كثيراً .

وشرط الله فى العفو والإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجانى لا يليق بالعفو عنه ، وكانت المصلحة الشرعية تقتضى عقوبته ، فإنه فى ـ هذه الحال ـ لا يكون مأمورا به .

وفى جعل أجر العافى على الله ، مما يهيج على العفو ، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به .

فكما يحب أن يعفو الله عنه ، فليعف عنهم ، وكما يحب أن يسامحه الله،

فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

فليسامحهم ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله : [ إنه لا يحب الظالمين ] الذين يجنون على غيرهم ابتداء ، أو يقابلون الجانى بأكثر من جنايته ، فالزيادة ظلم .

[ ولمن انتصر بعد ظلمه ] أى : انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه [ فأولئك ما عليهم من سبيل ] أى : لا حرج عليهم فى ذلك .

ودل قوله: [ والذين إذا أصابهم البغى ] وقوله:[ ولمن انتصر من بعد ظلمه ] أنه لا بد من إصابة البغى والظلم ووقوعه .

وأما إرادة البغى على الغير ، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شىء ، فهذا لا يجازى بمثله ، وإنما يؤدب تأديباً ، يردعه عن قول ، أو فعل صدر منه .

[ إنما السبيل ] أى : إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية [ على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ] وهذا شامل للظلم والبغى على الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

[ أولئك لهم عذاب أليم ] أى : موجع للقلوب والأبدان ، بحسب ظلمهم وبغيهم .

أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

[ ولمن صبر ] على ما يناله من أذى الخلق [ وغفر ] لهم ، بأن سمح لهم عما صدر منهم .

[ إن ذلك لمن عزم الأمور ] أى : الأمور التى حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة ، ومن الأمور التى لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم ، وذوو الألباب والبصائر .

فإن ترك الانتصار للنفس ، بالقول أو الفعل ، من أشق شىء عليها .

والصبر على الأذى ، والصفح عنه ، ومغفرته ، ومقابلته بالإحسان ، أشق وأشق .

ولـكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به ، واستعان الله على ذلك .

ثم إذا ذاق العبد حلاوته ، ووجد آثاره ، تلقاه برحب الصدر ، وسعة الخلق ، والتلذذ فيه .

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾

---

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإصلاح، وأنه [من يضلل الله] بسبب ظلمه [فما له من ولى بعده] يتولى أمره ويهديه .

[وترى الظالمين لما رأوا العذاب] مرأى ومنظراً فظيعاً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم [يقولون هل إلى مرد من سبيل] أى : هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذى كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال، الذى لا يمكن .

[وتراهم يعرضون عليها] أى : على النار [خاشعين من الذل] .
أى : ترى أجسامهم خاشعة للذل، الذى فى قلوبهم .

[ينظرون من طرف خفى] أى : ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها .

[وقال الذين آمنوا] حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم :

[إن الخاسرين] على الحقيقة [الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة] حيث فوتوا على أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم .

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾
ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ

---

[ ألا إن الظالمين ] أنفسهم بالكفر والمعاصى [ فى عذاب أليم ] .

أى : فى سوائه ووسطه ، منغمرون لا يخرجون منه أبدا ، ولا يفتر عنهم ، وهم فيه مبلسون .

[ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ] كما كانوا فى الدنيا يمنون أنفسهم بذلك .

ففى القيامة يتبين لهم ولغيرهم ، أن أسبابهم التى أملوها ، تقطعت ، وأنه حين جاءهم عذاب الله ، لم يدفع عنهم .

[ ومن يضلل الله فما له من سبيل ] تحصل به هدايته ، فهؤلاء ضلوا حين زعموا فى شركائهم النفع ، ودفع الضر ، فتبين حينئذ ، ضلالهم .

* يأمر تعالى عباده بالاستجابة له ، بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، وبالمبادرة بذلك ، وعدم التسويف .

[ من قبل أن يأتى يوم ] القيامة الذى إذا جاء ، لا يمكن رده ، واستدراك الفائت .

وليس للعبد فى ذلك اليوم ، ملجأ يلجأ إليه ، فيفوت ربه ، ويهرب منه .

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾
فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

---

بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة ، من خلفهم ، ونودوا « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وليس للعبد فى ذلك اليوم ، نكير لما اقترفه وأجرمه ، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه .

وهذه الآية ونحوها ، فيها ذم الأمل ، والأمر بانتهاز الفرصة فى كل عمل يعرض للعبد .

فإن للتأخير ، آفات .

[ فإن أعرضوا ] عما جئتم به بعد البيان التام [فما أرسلناك عليهم حفيظا] تحفظ أعمالهم ، وتسأل عنها .

[ إن عليك إلا البلاغ ] فإذا أديت ما عليك ، فقد وجب أجرك على الله ، سواء استجابوا ، أم أعرضوا ، وحسابهم على الله الذى يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها ، وظاهرها وباطنها .

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان ، وأنه إذا أذاقه رحمة ، من صحة بدن ، ورزق رغد ، وجاه ونحوه [ فرح بها ] أى : فرح فرحاً مقصوراً عليها ، لا يتعداها ، ويلزم من ذلك ، طمأنينته بها ، وإعراضه عن المنعم .

[ وإن تصبهم سيئة ] أى : مرض ، أو فقر ، أو نحوها [ بما قدمت

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

---

أيديهم فإن الإنسان كفور ] أى : طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه ، من السيئة .

* هذه الآية ، فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ، ونفوذ تصرفه فى الملك فى الخلق لما يشاء ، والتدبير لجميع الأمور .

حتى أن تدبيره تعالى ، من عمومه ، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب لولادة الأولاد ، فالله تعالى هو الذى يعطيهم من الأولاد ، ما يشاء .

فمن الخلق من يهب له إناثاً ، ومنهم من يهب له ذكوراً .

ومنهم من يزوجه ، أى يجمع له ذكوراً وإناثاً .

ومنهم من يجعله عقيما ، لا يولد له .

[ إنه عليم ] بكل شىء [ قدير ] على كل شىء ، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء ، بقدرته فى مخلوقاته .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ

---

* لما قال المكذبون لرسل الله ، الكافرون بالله : [ لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ] من كبرهم وتجبرهم ، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة ، وبين أن تكليمه تعالى ، لا يكون إلا لخواص خلقه ، للأنبياء والمرسلين ، وصفوته من العالمين ، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه .

إما [ أن يكلمه الله وحيا ] بأن يلقى الوحى فى قلب الرسول ، من غير إرسال ملك ، ولا مخاطبة منه شفاها .

[ أو ] يكلمه منه شفاها لكن [ من وراء حجاب ] كما حصل لموسى ابن عمران ، كليم الرحمن .

[ أو ] يكلمه الله بواسطة الرسول الملكى [ يرسل رسولا ] كجبريل أو غيره من الملائكة .

[ فيوحى بإذنه ] أى : بإذن ربه ، لا بمجرد هواه [ ما يشاء ] .

[ إنه ] تعالى [ علىّ ] الذات على الأوصاف ، عظيمها على الأفعال ، قد قهر كل شىء ، ودانت له المخلوقات .

[ حكيم ] فى وضعه كل شىء موضعه ، من المخلوقات والشرائع .

[ وكذلك ] حين أوحينا إلى الرسل قبلك [ أوحينا روحا من أمرنا ] وهو : هذا القرآن الكريم ، سماه روحا ، لأن الروح يحيا به الجسد والقرآن

تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ
مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ
تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

---

تحيا به القلوب والأرواح ، وتحيا به مصالح الدنيا والدين ، لما فيه من الخير الكثير ، والعلم الغزير .

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين ، من غير سبب منهم ، ولهذا قال :

[ ما كنت تدرى ] أى : قبل نزوله عليك [ ما الكتاب ولا الايمان ] أى : ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة ، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية ، بل كنت أميا ، لاتخط ولاتقرأ .

فجاءك هذا الكتاب الذي [ جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ] يستضيئون به فى ظلمات الكفر والبدع ، والأهواء المردية ، ويعرفون به الحقائق ، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم .

وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ] أي : تبينه لهم وتوضحه ، وترغبهم فيه ، وتنهاهم عن ضده ، وترهبهم منه ثم فسر الصراط المستقيم فقال :

[ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ] أى : الصراط الذى نصبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته .

[ ألا إلى الله تصير الأمور ] أى : ترجع جميع أمو الخير والشر ، فيجازى كُلاًّ بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

تم تفسير سورة الشورى ـ والحمد لله أولا وآخرا

# تفســير

## سُورَةُ الزُّخْرُف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ

---

* هذا قسم بالقرآن ، فأقسم بالكتاب المبين ، وأطلق ، ولم يذكر المتعلق ، ليدل على أنه مبين لكل مايحتاج إليه العباد ، من أمور الدنيا والدين والآخرة .

[ إنا جعلناه قرآنا عربيا ] هذا هو المقسم عليه ، أنه جعل بأفصح اللغات رأوضحها ، وأبينها ، وهذا من بيانه .

وذكر الحكمة فى ذلك فقال : [ لعلكم تعقلون ] ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان .

[ وإنه ] أى : هذا الكتاب [ فى أم الكتاب لدينا ] أى : فى الملأ الأعلى فى أعلى الرتب وأفضلها [ لعلى حكيم ] أى : لعلى فى قدره ، وشرفه ، ومحله ، حكيم فيما يشتمل عليه ، من الأوامر ، والنواهى ،

حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم

---

والأخبار ، فليس فيه حكم مخالف للحكمة ، والعدل ، والميزان .

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله ، تقتضى أن لا يترك عباده هملا ، لا يرسل إليهم رسولا ، ولا ينزل عليهم كتابا ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال :

[ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ] أى : أفنعرض عنكم ، ونترك إنزال الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحا ، لأجل إعراضكم ، وعدم انقيادكم ؟ بل ننزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شىء .

فإن آمنتم به واهتديتم ، فهو من توفيقكم ، وإلا ، فقد قامت عليكم الحجة وكنتم على بينة من أمركم .

* يقول تعالى : إن هذه سنتنا فى الخلق ، أن لا نتركهم هملا .

[ كم أرسلنا من نبيٍ فى الأولين ] يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

ولم يزل التكذيب موجودا فى الأمم .

[ وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ] جحدا لما جاء به ، وتكبرا على الحق .

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

---

[ فأهلكنا أشد منهم ] أى : من هؤلاء [ بطشا ] أى : قوة ، وأفعالاً وآثارا فى الأرض .

[ ومضى مثل الأولين ] أى : مضت أمثالهم ، وأخبارهم ، وبينا لكم منها ، مافيه عبرة ، ومزدجر عن التكذيب .

* يخبر تعالى عن المشركين ، إنك [ لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ] أى : الله وحده لاشريك له ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات ، بظواهر الأمور ، وبواطنها ، وأوائلها ، وأواخرها .

فإذا كانوا مقرين بذلك ، فكيف يجعلون له الولد ، والصاحبة ، والشريك ؟! .

وكيف يشركون به ، من لايخلق ، ولا يرزق ، ولا يميت ، ولايحى ؟! .

ثم ذكر أيضا ، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره ، بما خلقه لعباده من الأرض ، التى مهدها ، وجعلها قرارا للعباد ، يتمكنون فيها من كل ما يريدون .

[ وجعل لكم فيها سبلا ] أى : جعل منافذ ، بين سلاسل الجبال المتصلة ، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار .

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

---

[ لعلكم تهتدون ] فى السير فى الطرق ولا تضيعون ، ولعلكم أيضا ، تهتدون فى الاعتبار بذلك ، والادكار فيه .

[ والذى نزل من ماء بقدر ] لايزيد ولا ينقص ، ويكون أيضا ، بمقدار الحاجة ، لاينقص ، بحيث لا يكون فيه نفع ولايزيد ، بحيث يضر العباد والبلاد .

بل أغاث به العباد ، وأنقذ به البلاد من الشدة ، ولهذا قال :

[ فأنشرنا به بلدة ميتا ] أى : أحييناها بعد موتها [ كذلك تخرجون ] أى : فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء ، كذلك يحييكم ، بعد ما تستكملون فى البرزخ ، ليجازيكم بأعمالكم .

[ والذى خلق الأزواج كلها ] أى : الأصناف جميعها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ، من ليل ، ونهار ، وحر ، وبرد وذكر ، وأنثى ، وغير ذلك .

[ وجعل لكم من الفلك ] أى : السفن البحرية ، الشراعية والبخارية [ و ] من [ الأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ] وهذا شامل لظهور الأنعام ، أى : لتستقروا عليها .

لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾
وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

[ ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ] بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها ، والثناء عليه تعالى بذلك ولهذا قال :

[ وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ] أى : لولا تسخيره لنا ما سخر ، من الفلك ، والأنعام ، ما كنا مطيقين لذلك ، وقادرين عليه .

ولكن من لطفه وكرمه تعالى ، سخرها ، وذللها ، ويسر أسبابها .

والمقصود من هذا ، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره ، من إفاضة النعم على العباد ، هو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد[1] .

---

(١) [ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ] أى : وإنا إلى خالقنا لراجعون بعد هذه الحياة ليحاسب كلا بما قدمت يداه .

وفيه إيذان وإعلام ، بأن حق الراكب ، أن يتأمل فيما يلابسه ، من المسير ، ويتذكر منه المسافرة العظمى ، التى هى الانقلاب والرجوع إلى الله تعالى :

فيبنى أموره فى مسيره ذلك ، على تلك الملاحظة

ولا يخطر بباله في شيء ، مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ، ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾

---

* يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين ، الذى جعلوا لله تعالى ولداً ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له كفواً أحد . وإن ذلك باطل من عدة أوجه .

منها : أن الخلق كلهم عباده ، والعبودية ، تنافى الولادة .

ومنها : أن الولد جزء من والده ، والله تعالى بائن من خلقه ، مباين لهم فى صفاته ، ونعوت جلاله ، والولد جزء من الوالد ، فمحال أن يكون لله تعالى ولد .

ومنها : أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين .

فكيف يكون لله البنات ، ويصطفيهم بالبنين ، ويفضلهم بها ؟! .

فإذاً يكونون أفضل من الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنها : أن الصنف الذى نسبوه لله ، وهو البنات ، أدون الصنفين ، وأكرهها لهم ، حتى إنهم من كراهتهم لذلك « إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً » من كراهته وشدة بغضه ، فكيف يجعلون لله ما يكرهون ؟

ومنها : أن الأنثى ناقصة فى وصفها ، وفى منطقها وبيانها ، ولهذا قال تعالى :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ

---

[ أو من ينشأ فى الحلية ] أى : يجمل فيها ، لنقص جماله ، فيجمل بأمر خارج منه ؟ .

[ وهو فى الخصام ] أى : عند الخصام، الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام [ غير مبين ] أى : غير مبين لحجته ، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره ، فكيف ينسبونهن لله تعالى ؟

ومنها : أنهم [ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ] فتجرأوا على الملائكة ، العباد المقربين ، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل ، إلى مرتبة المشاركة لله ، فى شىء من خواصه ، ثم نزلوا بهم ، عن مرتبة الذكورية ، إلى مرتبة الأنوثية .

فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه ، وعاند رسله .

ومنها : أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله للملائكته .

فكيف يتكلمون بأمر ، من المعلوم عند كل أحد ، أنه ليس لهم به علم ؟ ! !

ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة ، وستكتب عليهم ، ويعاقبون عليها .

وقوله تعالى: [ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ] فاحتجوا على عبادتهم

سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ
مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ

---

الملائكة بالمشيئة ، وهى حجة ، لم يزل المشركون يطرقونها ، وهى حجة باطلة فى نفسها ، عقلا ، وشرعا .

فكل عاقل ، لا يقبل الاحتجاج بالقدر ، ولو سلكه فى حالة من أحواله، لم يثبت عليها قدمه .

وأما شرعا ، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به ، ولم يذكره عن غير المشركين به ، المكذبين لرسله ، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد ، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ، ولهذا قال هنا :

[ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ] أي : يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه ، ويتخبطون خبط عشواء .

ثم قال : [ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ] يخبرهم بصحة أفعالهم ، وصدق أقوالهم ؟ .

ليس الأمر كذلك ، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم ، وهم لم يأتهم نذير غيره .

أى : فلا عقل ، ولا نقل ، وإذا انتفى الأمران ، فلا ثَمَّ إلا الباطل.

نعم لهم شبهة ، من أوهى الشُّبَه ، وهى : تقليد آبائهم الضالين ، الذين ما زال الكفرة ، يردون بتقليدهم ، دعوة الرسل ، ولهذا قال هنا :

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

---

[ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ] أى : على دين وملة [ وإنا على آثارهم مهتدون ] أي : فلا نتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

[ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ] أى : منعموها ، وملأها الذين أطغتهم الدنيا ، وغرتهم الأموال ، واستكبروا على الحق .

[ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ] أى : فهؤلاء ليسوا ببدع منهم ، وليس بأول من قال هذه المقالة .

وهذا الاحتجاج ، من هؤلاء المشركين الضالين ، بتقليدهم لآبائهم الضالين ، ليس المقصود به ، اتباع الحق والهدي ، وإنما هو تعصب محض ، يراد به نصرة ما معهم من الباطل .

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة [ أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ] أى : أفتتبعونى لأجل الهدى .

[ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ] يعلم بهذا ، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى .

وإنما قصدهم ، اتباع الباطل والهوى .

أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً

---

[ فانتقمنا منهم ] بتكذيبهم الحق ، وردهم إياه ، بهذه الشبهة الباطلة .

[ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ] فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيصيبهم ما أصابهم .

* يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذى ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون ، وكلهم يزعم أنه على طريقته

فأخبر عن دينه الذى ورثه فى ذريته فقال : [ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ] الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ، ويتقربون إليهم :

[ إننى براء مما تعبدون ] أى : مبغض له، مجتنب معادٍ لأهله [ إلا الذى فطرنى[1] ] فإنى أتولاه ، وأرجو أن يهدينى للعلم بالحق ، والعمل بالحق .

فكما فطرنى ودبرنى بما يصلح بدنى ودنياى [ فإنه سيهدين ] لما يصلح دينى وآخرتى .

[ وجعلها ] أى : هذه الخصلة الحميدة ، التى هى أم الخصال وأساسها ، وهى إخلاص العبادة لله وحده ، والتبرِّى من عبادة ما سواه .

---

( ١ ) فطرنى . أى : خلقنى ، وأبدعنى .

بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا

---

[ كلمة باقية فى عقبه ] أى : فى ذريته [ لعلهم ] إليها [ يرجعون ] لشهرتها عنه ، وتوصيته لذريته ، وتوصية بعض بنيه ، كإسحاق ، ويعقوب لبعض ، كما قال تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » إلى آخر الآيات .

فلم تزل هذه الكلمة موجودة فى ذريته عليه السلام ، حتى دخلهم الترف والطغيان .

فقال تعالى : [ بل متعت هؤلاء وآباءهم ] بأنواع الشهوات ، حتى صارت هى غايتهم ، ونهاية مقصودهم ، فلم تزل يتربى حبها فى قلوبهم ، حتى صارت صفات راسخة ، وعقائد متأصلة .

[ حتى جاءهم الحق ] الذى لا شك فيه ، ولا مرية ولا اشتباه .

[ ورسول مبين ] أى : بين الرسالة ، قامت أدلة رسالته ، قياماً باهراً ، بأخلاقه ، ومعجزاته ، وبما جاء به ، وبما صدق به المرسلين ، وبنفس دعوته صلى الله عليه وسلم .

[ ولما جاءهم الحق ] الذى يوجب على من له أدنى دين ومعقول ، أن يقبله وينقاد له .

[ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ] وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة .

ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

---

فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه ، بل ولا جحده ، فلم يرضوا حتى قدحوا به ، قدحاً شنيعاً ، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل ، الذى لا يأتى به إلا أخبث الخلق ، وأعظمهم افتراء .

والذى حملهم على ذلك ، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم .

[ وقالوا ] مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة : [ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ] أى : معظم عندهم ، مبجل من أهل مكة ، وأهل الطائف ، كالوليد بن المغيرة ، ونحوه ، ممن هو عندهم عظيم .

قال الله رداً لاقتراحهم : [ أهم يقسمون رحمة ربك ) أى : أهم الخزان لرحمة الله ، وبيدهم تدبيرها ، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون ، ويمنعونها ممن يشاءون ؟

[ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ] أى : فى الحياة الدنيا ، [ و ] الحال أن [ رحمة ربك خير مما يجمعون ] من الدنيا .

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى ، وهو الذى يقسمها بين عباده ، فيبسط الرزق على من يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، بحسب حكمته ، فرحمته الدينية ، التى أعلاها ، النبوة والرسالة ، أولى وأحرى ، أن تكون بيد الله تعالى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ ، وأن التدبير للأمور كلها ، دينيها ودنيويها ، بيد الله وحده .

هذا إقناع لهم ، من جهة غلطهم فى الاقتراح ، الذى ليس فى أيديهم منه شىء ، إن هو إلا ظلم منهم ، ورد للحق .

وقولهم [ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ] لو عرفوا حقائق الرجال والصفات ، التى بها يعرف علو قدر الرجل ، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه ، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم الرجال قدراً ، وأعلاهم فخراً ، وأكملهم عقلا ، وأغزرهم علماً ، وأجلهم رأياً ، وعزماً ، وحزماً ، وأكملهم خلقاً ، وأوسعهم رحمة ، وأشدهم شفقة ، وأهداهم وأتقاهم .

وهو قطب دائرة الكمال ، وإليه المنتهى فى أوصاف الرجال ، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق .

يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه ، إلا من ضل وكابر .

فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله ؟! .

ومن جرمه ومنتهى حمقه ، أن جعل إلهه الذى يعبده ، ويدعوه ، ويتقرب إليه ، صنما ، أو شجراً ، أو حجراً ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وهو كَلٌّ على مولاه ، يحتاج لمن يقوم بمصالحه .

فهل هذا ، إلا من فعل السفهاء والمجانين ؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيما ؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

---

ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون .

وفى هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى ، فى تفضيل الله بعض العباد على بعض فى الدنيا [ ليتخذ بعضهم بعضا سخربا ] أى : ليسخر بعضهم بعضا ، فى الأعمال والحرف ، والصنائع .

فلو تساوى الناس فى الغنى ، ولم يحتج بعضهم إلى بعض ، لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم .

وفيها دليل على أن نعمته الدينية ، خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى فى الآية الأخرى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

* يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئا ، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده ، التى لا يقدم عليها شيئا ، لوسّع الدنيا على الذين كفروا ، توسيعا عظيما ، وجعل :

[ لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج ] أى : درجا من فضة .

[ عليها يظهرون ] إلى سطوحهم .

[ ولبيوتهم أبواباً وسررا عليها يتكئون ] من فضة ، وجعل

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

لهم زخرفاً ، أى : لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف ، وأعطاهم ما يشتهون .

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع فى الكفر وكثرة المعاصى ، بسبب حب الدنيا .

ففى هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم .

وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا ، منغصة ، مكدرة ، فانية ، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

لأن نعيمها تام كامل من كل وجه ، وفى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

فما أشد الفرق بين الدارين !! .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ

---

* يخبر تعالى عن عقوبته البليغة ، بمن أعرض عن ذكره فقال :

[ ومن يعش ] أى : يعرض ويصد [ عن ذكر الرحمن ] الذى هو القرآن العظيم ، الذى هو أعظم رحمة ، رحم بها الرحمن عباده .

فمن قبلها ، فقد قبل خير المواهب ، وفاز بأعظم المطالب والرغائب .

ومن أعرض عنها وردها ، فقد خاب وخسر خسارة ، لا يسعد بعدها أبداً ، وقيّض له الرحمن شيطاناً مريداً ، يقارنه ، ويصاحبه ، ويعده ، ويمنيه ، ويؤزه إلى المعاصى أزاً .

[ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ] أى : الصراط المستقيم ، والدين القويم .

[ ويحسبون أنهم مهتدون ] بسبب تزيين الشيطان للباطل ، وتحسينه له ، وإعراضهم عن الحق ، فاجتمع هذا وهذا .

فإن قيل : فهل لهـذا من عذر ، من حيث إنه ظن أنه مهتد ، وليس كذلك ؟

قيل : لا عذر لهذا وأمثاله ، الذين مصدر جهلهم ، الإعراض عن ذكر الله ، مع تمكنهم من الاهتداء .

فزهدوا فى الهدى ، مع القدرة عليه ، ورغبوا فى الباطل ، فالذنب ذنبهم ، والجرم جرمهم .

ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

---

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله فى الدنيا ، مع قرينه، وهو الضلال والغىّ ، وانقلاب الحقائق .

وأما حاله ، إذا جاء ربه فى الآخرة ، فهو شر الأحوال ، وهو : الندم والتحسر ، والحزن الذى لا يجبر مصابه ، والتبرّى من قرينه ، ولهذا قال تعالى :

[ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ] .

كما فى قوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا » .

وقوله تعالى [ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ] أى : ولا ينفعكم يوم القيامة ، اشتراككم فى العذاب ، أنتم وقرناؤكم ، وأخلاؤكم .

وذلك لأنكم اشتركتم فى الظلم ، فاشتركتم فى عقابه وعذابه .

ولن ينفعكم أيضا ، روح التسلى فى المصيبة فإن المصيبة إذا وقعت فى الدنيا ، واشترك فيها المعاقبون ، هان عليهم بعض الهون ، وتسلَّى بعضهم ببعض .

وأما مصيبة الآخرة ، فإنها جمعت كل عقاب ، ما فيه أدنى راحة ، حتى ولا هذه الراحة .

نسألك ياربنا العافية ، وأن تريحنا برحمتك .

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، مسلياً له عن امتناع المكذبين، عن الاستجابة له ، وأنهم لا خير فيهم ، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى :

[ أفأنت تسمع الصم ] أى : الذين لا يسمعون [ أو تهدى العمى ] الذين لا يبصرون .

[ و ] تهدى [ من كان فى ضلال مبين ] أى: بَيِّنٌ واضح ، لعلمه بضلاله ، ورضاه به .

فكما أن الأصم ، لا يسمع الأصوات ، والأعمى ، لا يبصر ، والضال ضلالا مبيناً ، لا يهتدى .

فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم ، بإعراضهم عن الذكر ، واستحدثوا عقائد فاسدة ، وصفات خبيثة ، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى ، وتوجب لهم الازدياد من الردى .

فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، إما فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، ولهذا قال تعالى :

[ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ] أى : فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق ، أنا منهم منتقمون .

[ أو نرينك الذى وعدناهم ] من العذاب [ فإنا عليهم مقتدرون ] ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره .

بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

---

فهذه حالك ، وحال هؤلاء المكذبين .

وأما أنت [ فاستمسك بالذى أوحى إليك ] فعلا واتصافاً ، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه ، وحرصاً على تنفيذه بنفسك وفى غيرك .

[ إنك على صراط مستقيم ] موصل إلى الله وإلى دار كرامته .

وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء .

إذا علمت أنه حق ، وعدل ، وصدق ، تكون بانياً على أصل أصيل ، إذا بنى غيرك على الشوك[1] والأوهام ، والظلم والجور .

[ وإنه ] أى هذا القرآن الكريم [ لذكر لك ولقومك ] أى : فخر لكم ، ومنقبة جليلة ، ونعمة لايقادر قدرها ، ولا يعرف وصفها ، ويذكركم أيضاً ، ما فيه ، من الخير الدنيوى والأخروى ، ويحثكم عليه ، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه .

[ وسوف تسألون ]عنه ، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم ،أم لم تقوموا به؟ فيكون حجة عليكم ، وكفراً منكم بهذه النعمة .

[ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة

---

( ١ ) قوله « على الشوك » لعل الصواب « الشرك » كما يفيده سياق الكلام وسباقه .

رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم

---

يعبدون ] حتى يكون للمشركين نوع حجة ، يتبعون فيها أحدا من الرسل .

فإنك لو سألتهم ، واستخبرت عن أحوالهم ، لم تجد أحدا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله ، وأن كل الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، يدعون إلى عبادة الله ، وحده لا شريك له .

قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وكل رسول بعثه الله ، يقول لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

فدل هذا ، أن المشركين ليس لهم مستند فى شركهم ، لا من عقل صحيح ، ولا نقل عن الرسل .

* لما قال تعالى [ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ] بين تعالى حال موسى ودعوته ، التى هى أشهر مايكون من دعوات الرسل ، ولأن الله تعالى ، أكثر من ذكرها فى كتابه ، فذكر حاله مع فرعون .

[ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ] التى دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به ، كالعصا ، والحية ، وإرسال الجراد ، والقمل ، إلى آخر الآيات .

[ إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول رب العالمين ] فدعاهم إلى الإقرار بربهم ، ونهاهم عن عبادة ما سواه .

مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ
ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ

---

[ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ] أى : ردوها وأنكروها ، واستهزأوا بها ، ظلما وعلوا .

فلم يكن لقصور بالآيات ، وعدم وضوح فيها ، ولهذا قال :

[ وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ] أى الآية المتأخرة أعظم من السابقة [ وأخذناهم بالعذاب ] كالجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات .

[ لعلهم يرجعون ] إلى الإسلام ، ويذعنون له ، ليزول شركهم وشرهم .

[ وقالوا ] عندما نزل عليهم العذاب : [ ياأيها الساحر ] يعنون موسى عليه السلام .

وهذا ، إما من باب التهكم به ، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم، مدحاً ، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه ، بما يخاطبون به ، من يزعمون أنهم علماؤهم ، وهم السحرة فقالوا : [ ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ] أى : بما خصك الله به ، وفضلك به ، من الفضائل والمناقب ، أن يكشف عنا العذاب [ إننا لمهتدون ] إن كشف الله عنا ذلك .

[ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ] أى : لم يفوا بما قالوا ، بل غدروا ، واستمروا على كفرهم .

فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ

---

وهذا كقوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا * ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » .

[ ونادى فرعون فى قومه قال ] مستعليا بباطله ، قد غره ملكه ، وأطغاه ماله وجنوده : [ ياقوم أليس لى ملك مصر ] أى : ألست المالك لذلك ، المتصرف فيه .

[ وهذه الأنهار تجرى من تحتى ] أى : الأنهار المنسحبة من النيل ، فى وسط القصور والبساتين .

[ أفلا تبصرون ] هذا الملك الطويل العريض .

وهذا من جهله البليغ ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته ، ولم يفخر بأوصاف حميدة ، ولا أفعال سديدة .

[ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ] يعنى قبحه الله - بالمهين ، موسى بن عمران ، كليم الرحمن ، الوجيه عند الله .

أى : أنا العزيز ، وهو الذليل المهان المحتقر ، فأينا خير ؟ [ و ] مع هذا فإنه [ لا يكاد يبين ] عما فى ضميره بالكلام ، لأنه ليس بفصيح اللسان .

مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

---

وهذا ليس من العيوب فى شيء ، إذا كان يبين ما فى قلبه ، ولو كان الكلام ثقيلا عليه .

ثم قال فرعون : [ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ] أى : فهلا كان موسى بهذه الحالة ، أن يكون مزينا مجملا بالحلى والأساور ؟ .

[ أوجاء معه الملائكة مقترنين ] يعاونونه على دعوته ، ويؤيدونه على قوله.

[ فاستخف قومه فأطاعوه ] أى : استخف فرعون عقولهم ، بما أبدى لهم من هذه الشبه ، التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولا حقيقة تحتها ، وليست دليلا على حق ولا على باطل ، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول .

فأى دليل ، يدل على أن فرعون محق ، فى كون ملك مصر له ، وأنهارها تجرى من تحته ؟

وأى دليل يدل على بطلان ماجاء به موسى ، لقلة أتباعه ، وثقل لسانه، وعدم تحلية أمه له بأساور من ذهب ؟

ولكن فرعون ، لقى ملأ ، لا معقول عندهم ، فمهما قال ، اتبعوه ، من حق وباطل .

[ إنهم كانوا قوماً فاسقين ] فبسبب فسقهم ، قيض لهم فرعون ، يزين لهم الشرك والشر .

[ فلما آسفونا ] أى أغضبونا بأفعالهم [ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ]ليعتبر بهم المعتبرون ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا

---

* يقول تعالى : [ ولما ضرب ابن مريم مثلا ] أى : نهى عن عبادته ، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد .

[ إذا قومك ] المكذبون لك [ منه ] أى : من أجل هذا المثل المضروب .

[ يصدون ] أى : يلجون فى خصومتهم لك ، ويصيحون ، ويزعمون أنهم قد غلبوا فى حجتهم ، وأفلجوا .

[ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ] يعنى : عيسى ، حيث نهى عن عبادة الجميع ، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم ، ونزل أيضا قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

ووجه حجتهم الظالمة ، أنهم قالوا : قد تقرر عندنا وعندك يا محمد ، أن عيسى من عباد الله المقربين ، الذين لهم العاقبة الحسنة ، فلم سويت بينه وبين معبوداتنا ، فى النهى عن عبادة الجميع ؟ فلولا أن حجتك باطلة ، لم تتناقض .

ولم قلت « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

وهذا اللفظ بزعمهم ، يعم الأصنام ، وعيسى ، فهل هذا إلا تناقض ؟ وتناقض الحجة ، دليل على بطلانها .

هذا أقصى ما يقرون به هذه الشبهة ، التى فرحوا بها ، واستبشروا ، وجعلوا يصدون ويتباشرون .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ

---

وهى — ولله الحمد — من أضعف الشبه وأبطلها ، فإن تسوية الله بين النهى عن عبادة المسيح ، وبين النهى عن عبادة الأصنام ، لأن العبادة ، حق لله تعالى ، لايستحقها أحد من الخلق ، لا الملائكةالمقربون ، ولاالأنبياء المرسلون ، ولا من سواهم من الخلق .

فأى شبهة ، فى تسوية النهى عن عبادة عيسي وغيره ؟

وليس فى تفضيل عيسى عليه السلام ، وكونه مقربا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها ، فى هذا الموضع .

وإنما هو كما قال تعالى : «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » بالنبوةوالحكمة والعلم والعمل « وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب .

وأما قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

فالجواب عنها من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن قوله « إنكم وما تعبدون من دون الله » أن « ما »اسم لما لا يعقل ، لا يدخل فيه المسيح ونحوه .

الثانى : أن الخطاب للمشركين ، الذين بمكة وما حولها ، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثانا .

الثالث : أن الله قال بعد هذه الآية « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً
فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا
وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ

---

فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون فى هذه الآية .

ثم قال تعالى : [ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ] أى لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض ، ويكونون فى الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم .

وأما أنتم يا معشر البشر ، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة .

فمن رحمة الله بكم ، أن أرسل إليكم رسلا من جنسكم ، تتمكنون من الأخذ عنهم .

[ وإنه لعلم للساعة ] أى : وإن عيسى عليه السلام ، لدليل على الساعة ، وأن القادر على إيجاده ، من أم بلا أب ، قادر على بعث الموتى من قبورهم .

أو ، وإن عيسى عليه السلام ، سينزل فى آخر الزمان ، ويكون نزوله ، علامة من علامات الساعة [ فلا تمترن بها ] أى : لاتشكن فى قيام الساعة، فإن الشك فيها ، كفر .

[ واتبعون ] بامتثال ما أمرتكم ، واجتناب ما نهيتكم .

[ هذا صراط مستقيم ] موصل إلى الله عز وجل .

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ

---

[ ولا يصدنكم الشيطان ] عما أمركم الله به [ إنه ] أى الشيطان [ لكم عدو مبين ] حريص على إغوائكم ، باذل جهده فى ذلك .

[ ولما جاء عيسى بالبينات ] الدالة عل صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة ، والأبرص ، ونحو ذلك من الآيات .

[ قال ] لبنى إسرائيل [ قد جئتكم بالحكمة ] النبوة والعلم ، بما ينبغى على الوجه الذى ينبغى .

[ ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ] أى : أبين لكم صوابه وجوابه ، فيزول عنكم بذلك ، اللبس .

فجاء عليه السلام ، مكملا ، ومتمما لشريعة موسى عليه السلام ، ولأحكام التوراة .

وأتى ببعض التسهيلات ، الموجبة للانقياد له ، وقبول ما جاءهم به .

[ فاتقوا الله وأطيعون ] أى : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، وآمنوا بى ، وصدقونى ، وأطيعونى .

[ إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ] ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية ، بأن الله هو المربى جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة والإقرار بتوحيد العبودية ، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإخبار

مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

---

عيسى عليه السلام ، أنه عبد من عباد الله ، ليس كما قال النصارى فيه « إنه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة » .

والإخبار بأن هـذا المذكور ، صراط مستقيم ، موصل إلى الله وإلى جنته .

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا [ اختلف الأحزاب ] المتحزبون على التكذيب [ من بينهم ] كل قال بعيسى عليه السلام ، مقالة باطلة ، ورد ما جاء به ، إلا من هدى الله من المؤمنين ، الذين شهدوا له بالرسالة ، وصدقوا بكل ما جاء به ، وقالوا : إنه عبد الله ورسوله .

[ فويل للذين ظلموا ] أى : ماأشد حزن الظالمين [ من عذاب يوم أليم ] وما أعظم خسارهم ، فى ذلك اليوم !! .

* يقول تعالى [ هل ينظرون ] أى : هل ينتظر المكذبون ، وهل يتوقعون [ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ] أى : فإذا جاءت ، فلاتسألوا عن أحوال من كذب بها ، واستهزأ بمن جاء بها .

وإن [ الأخلاء يومئذ ] أى : يوم القيامة ، المتخالين على الكفر والتكذيب ، ومعصية الله [ بعضهم لبعض عدو ] لأن خلتهم ومحبتهم فى الدنيا ، لغير الله ، فانقلبت يوم القيامة عداوة .

إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا
ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ

---

[ إلا المتقين ] للشرك والمعاصى ، فإن محبتهم تدوم وتتصل ، بدوام من كانت المحبة لأجله .

ذكر ثواب المتقين ، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ، ويذهب عنهم كل آفة وشر ، فيقول :

[ ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ] أى : لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها .

وإذا انتفى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب .

[ الذين آمنوا بآياتنا ] أى : وصفهم الإيمان بآيات الله ، وذلك شامل للتصديق بها ، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم ، بمعناها والعمل بمقتضاها.

[ وكانوا مسلمين ] لله منقادين له فى جميع أحوالهم .

فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن .

[ ادخلوا الجنة ] التى هى دار القرار [ أنتم وأزواجكم ] أى : من كان على مثل عملكم ، من كل مقارن لكم ، من زوجة ، وولد ، وصاحب ، وغيرهم .

[ تحبرون ] أى : تنعمون وتكرمون ، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور ، والأفراح ، واللذات ، ما لا تعبر الألسن عن وصفه .

[ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ] أى : تدور عليهم

مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا

---

خدامهم ، من الولدان المخلدين بطعامهم ، بأحسن الأوانى وأفخرها ، وهى : صحاف الذهب وشرابهم ، بألطف الأوانى ، وهى : الأكواب ، التى لاعرى لها ، وهى من أصفى الأوانى ، من فضة أعظم من صفاء القوارير .

[ وفيها ] أى : الجنة [ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ] وهذا اللفظ جامع ، يأتى على كل نعيم وفرح ، وقرة عين ، وسرور قلب .

فكل ما تشتهيه النفوس، من مطاعم ، ومشارب ، وملابس ، ومناكح وما تلذه العيون ، من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم مونقة ،ومبان مزخرفة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها ، على أكمل الوجوه وأفضلها ، كما قال تعالى « لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » .

[ وأنتم فيها خالدون ] وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة ، وهو : الخلد الدائم فيها ، الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته ، وعدم انقطاعه .

[ وتلك الجنة ] الموصوفة بأكمل الصفات هى [ التى أورثتموها بما كنتم تعملون ] أى : أورثكم الله إياها بأعمالكم ، وجعلها من فضله ، جزاء لها ، وأودع فيها من رحمته ، ما أودع .

[ لكم فيها فاكهة كثيرة ] كما فى الآية الأخرى « وفيها من كل فاكهة زوجان » .

تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

---

[ منها تأكلون ] أى : مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية ، والثمار اللذيذة تأكلون .

ولما ذكر نعيم الجنة ، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال : [ إن المجرمين ] إلى [ كارهون ] .

* [ إن المجرمين ] الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم [ فى عذاب جهنم ] أى : منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب .

[ خالدون ] فيه ، لا يخرجون منه أبداً .

و [ لا يفتر عنهم ] العذاب ساعة ، لا بإزالته ، ولا بتهوين عذابه .

[ وهم فيه مبلسون [ أى : آيسون من كل خير ، غير راجين للفرج ، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون * قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » وهذا العذاب العظيم ، بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم .

[ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ] فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

[ ونادوا ] وهم فى النار ، لعلهم يحصل لهم استراحة .

[ يامالك ليقض علينا ربك ] أى : ليمتنا فنستريح ، فإننا فى غم شديد ،

مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ
كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا

---

وعذاب غليظ ، لا صبر لنا عليه ولا جلد .

[ قال ] لهم مالك خازن النار — حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضى عليهم :

[ إنكم ماكثون ] أى : مقيمون فيها ، لا تخرجون منها أبدا .

فلم يحصل لهم ما قصدوه ، بل أجابهم بنقيض قصدهم ، وزادهم غما إلى غمهم .

ثم وبخهم بما فعلوا فقال : [ لقد جئناكم بالحق ] الذى يوجب عليكم أن تتبعوه .

فلو تبعتموه ، لفزتم وسعدتم .

[ ولكن أكثركم للحق كارهون ] فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها .

* يقول تعالى : [ أم أبرموا ] أى : أبرم المكذبون بالحق المعاندون له [ أمرا ] أى: كادوا كيدا ، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ، ليدحضوه ، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق .

[ فإنا مبرمون ] أى : محكمون أمرا ومدبرون تدبيرا ، يعلو تدبيرهم ، وينقضه ويبطله .

وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة ، لإحقاق الحق ، وإبطال

لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ

---

الباطل ، كما قال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » .

[أم يحسبون] بجهلهم وظلمهم [أنا لا نسمع سرهم] الذى لم يتكلموا به ، بل هو سر فى قلوبهم [ونجواهم] أى : كلامهم الخفى الذى يتناجون به ،

أى : فلذلك أقدموا على المعاصى ، وظنوا أنها لاتبعة لها ولا مجازاة ، على ماخفى منها .

فرد الله عليهم بقوله : [بلى] إنا نعلم سرهم ونجواهم [ورسلنا] الملائكة الكرام .

[لديهم يكتبون] كل ما عملوه ، سيحفظ ذلك عليهم ، حتى يردوا القيامة ، فيجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا .

* أى قل يا أيها الرسول الكريم ، الذين جعلوا لله ولدا ، وهو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولم يكن له كفوا أحد .

[قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين] لذلك الولد ، لأنه جزء من والده ، وأنا أول الخلق انقيادا للاوامر المحبوبة لله ولكنى أول المنكرين لذلك ، وأشدهم له نفيا ، فعلم بذلك بطلانه .

فهذا احتجاج عظيم ، عند من عرف أحوال الرسل .

وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق ، وأن كل خير ، فهم أول الناس سبقا إليه ، وتكميلا له .

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

---

وكل شر ، فهم أول الناس تركا له ، وإنكارا له ، وبعدا منه .

فلو كان للرحمن ولدوهو الحق ، لكان محمد بن عبد الله ، أفضل الرسل أول من عبده ، ولم يسبقه إليه المشركون .

ويحتمل أن معنى الآية : لو كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين لله .

ومن عبادتى لله ، إثبات ما أثبته ، ونفى مانفاه ، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية .

ويلزم من هذا ، لو كان حقا ، لكنت أول مثبت له .

فعلم بذلك ، بطلان دعوى المشركين وفسادها ، عقلا ونقلا .

[سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون] من الشريك والظهير ، والعوين ، والولد ، وغير ذلك ، مما نسبه إليه المشركون .

[ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ] أى : يخوضوا بالباطل ، ويلعبوا بالمحال .

فعلومهم ضارة غير نافعة،وهى الخوض ، والبحث بالعلوم ، التي يعارضون بها الحق ، وماجاءت به الرسل ، وأعمالهم لعب وسفاهة ، لاتزكى النفوس ، ولا تثمر المعارف .

ولهذا توعدهم بما أمامهم يوم القيامة فقال :

[ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ] فسيعلمون فيه ماذا حصلوا ، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم ، والعذاب المستمر .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

* [ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ] يخبر تعالى ، أنه وحده ، المألوه ، المعبود فى السموات والأرض .

فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض ، يعبدونه ، ويعظمونه ، ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكماله .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده * ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً » .

فهو تعالى المألوه المعبود ، الذى يألهه الخلائق كلهم ، طائعين مختارين . وكارهين .

وهذه كقوله تعالى :« وهو الله فى السموات وفى الأرض »أي:ألوهيته ومحبته فيهما .

وأما هو ، فإنه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، متوحد بجلاله ، متمجد بكماله .

[ وهو الحكيم ] الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ، ماشرعه .

فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، وحكمه القدرى ، والشرعى ، والجزائى مشتمل على الحكمة .

[ العليم ] بكل شىء يعلم السر وأخفى ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى العالم العلوى والسفلى ، ولا أصغر منها ، ولا أكبر .

[ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ] تبارك بمعنى تعالى وتعاظم ، وكثر خيره ، واتسعت صفاته ، وعظم ملكه .

وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ

---

ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض ومابينهما ، وسعة علمه ، وأنه بكل شيء عليم .

حتى إنه تعالى ، انفرد بعلم الغيوب ، التى لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ولهذا قال :

[ وعنده علم الساعة ] قدم الظرف ، ليفيد الحصر ، أى : لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو .

ومن تمام ملكه وسعته ، أنه مالك الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

[ وإليه ترجعون ] أى : فى الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل .

ومن تمام ملكه ، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً ، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد ، إلا بإذنه .

[ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ] ، أى : كل من دعى من دون الله ، من الأنبياء والملائكة وغيرهم ، لا يملكون الشفاعة ، ولا يشفعون إلا بإذن الله ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولهذا قال :

[ إلا من شهد بالحق ] أى : نطق بلسانه ، مقراً بقلبه ، عالما بما يشهد به ، ويشترط أن تكون شهادته بالحق ، وهى الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، ولرسله بالنبوة والرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، من أصول الدين ، وفروعه ، وحقائقه وشرائعه .

يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

---

فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، وهؤلاء الناجون من عقاب الله ، الحائزون لثوابه . ثم قال تعالى :

[ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ] أى : ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ، ومن هو الخالق ، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له .

[ فأنى يؤفكون ] أى : فكيف يصرفون عن عبادة الله ، والإخلاص له وحده ؟! .

فإقرارهم بتوحيد الربوبية ، يلزمهم به ، الإقرار بتوحيد الألوهية ، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك .

[ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ] هذا معطوف على قوله .
[ وعنده علم الساعة ] أى : وعنده علم قيله ، أى : الرسول صلى الله عليه وسلم ، شاكياً لربه ، تكذيب قومه ، متحزناً على ذلك ، متحسراً على عدم إيمانهم .

فالله تعالى عالم بهذه الحال ، قادر على معاجلتهم بالعقوبة .

ولكنه تعالى ، حليم يمهل العباد ، ويستأنى بهم ، لعلهم يتوبون ، ويرجعون ، ولهذا قال :

فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

[ فاصفح عنهم وقل سلام ] أى : اصفح عنهم ، ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية ، واعف عنهم ، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذى يقابل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين .

كما قال تعالى عن عباده الصالحين « وإذا خاطبهم الجاهلون » .

أى : خطاباً بمقتضى جهلهم « قالوا سلاماً » .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم ، من الأذى ، بالعفو والصفح ، ولم يقابلهم ، عليه السلام ، إلا بالإحسان ، إليهم والخطاب الجميل .

فصلوات الله وسلامه ، على من خصه الله بالخلق العظيم ، الذى فضل به أهل الأرض والسماء ، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء .

وقوله [ فسوف يعلمون ] أى : غِبَّ ذنوبهم ، وعاقبة جرمهم .

تم تفسير سورة الزخرف – ولله الحمد والمنة .

وبه تم الجزء السادس ويليه إن شاء الله الجزء السابع

وأوله تفسير سورة الدخان

# فهرس

## الجزء السادس

صفحة

تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علامة القَصِيم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدى

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات
## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

# تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء السابع

من أول تفسير سورة الدخان إلى آخر تفسير سورة الناس

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

# تفســـير

# سُورَةُ الدُّخَانِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

---

هذا قسم بالقرآن على القرآن .

فأقسم بالكتاب المبين لكل مايحتاج إلى بيانه أنه أنزله [ فى ليلة مباركة ] أى : كثيرة الخير والبركة ، وهى ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر .

فأنزل أفضل الكلام ، بأفضل الليالى والأيام ، على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام ، لينذر به قوماً ، عمتهم الجهالة ، وغلبت عليهم الشقاوة ، فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ، ويسيروا وراءه ، فيحصل لهم الخير الدنيوى ، والخير الأخروى ، ولهذا قال :

[ إنا كنا منذرين . فيها ] أى : فى تلك الليلة الفاضلة التى نزل فيها القرآن [ يفرق كل أمر حكيم ] أى : يفصل ويميز ، ويكتب كل أمر قدرى وشرعى ، حكم الله به .

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم

---

وهذه الكتابة والفرقان ، الذى يكون فى ليلة القدر ، إحدى الكتابات ، التى تكتب وتميز ، فتطابق الكتاب الأول ، الذى كتب الله به مقادير الخلائق ، وآجالهم ، وأرزاقهم ، وأعمالهم ، وأموالهم .

ثم إن الله تعالى ، قد وكل ملائكة ، تكتب ما سيجرى على العبد ، وهو فى بطن أمه .

ثم وكلهم بعد خروجه إلى الدنيا ، وكّل به كراما كاتبين ، يكتبون ويحفظون عليه أعماله .

ثم إنه تعالى يقدر فى ليلة القدر ، ما يكون فى السنة .

وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته ، وإتقان حفظه ، واعتنائه تعالى بخلقه [ أمرا من عندنا ] أى : هذا الأمر الحكيم ، أمر صادر من عندنا .

[ إنا كنا مرسلين ] للرسل ، ومنزلين للكتب ، والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره .

[ رحمة من ربك ] أى : إن إرسال الرسل وإنزال الكتب ، التى أفضلها القرآن ، رحمة من رب العباد بالعباد .

فما رحم الله عباده برحمة ، أجل من هدايتهم بالكتب والرسل .

وكل خير ينالونه فى الدنيا والآخرة ، فإنه من أجل ذلك وسببه .

[ إنه هو السميع العليم ] أى : يسمع جميع الأصوات ، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة ، وقد علم تعالى ، ضرورة العباد إلى رسله وكتبه ،

مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ
يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

---

فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم، فلله تعالى الحمد، والمنة، والإحسان.

[ رب السموات والأرض وما بينهما ] أى: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما شاء.

[ إن كنتم موقنين ] أى: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات، هو إلهها الحق، ولهذا قال:

[ لا إله إلا هو ] أى: لا معبود إلا وجهه، [ يحيى ويميت ] أى: هو المتصرف وحده، بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[ ربكم ورب آبائكم الأولين ] أى رب الأولين والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام، ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان [ فى شك يلعبون ] أى: منغمرون فى فى الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذى لايجدى عليهم إلا الضرر.

[ فارتقب ] أى: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وآن أوانه.

[ يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس ] أى: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: [ هذا عذاب أليم ].

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ

---

واختلف المفسرون فى المراد بهذا الدخان .

فقيل : إنه الدخان ، الذى يغشى الناس ويعمهم ، حين تقرب النار من المجرمين فى يوم القيامة ، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم .

ويؤيد هذا المعنى ، أن هذه الطريقة ، هى طريقة ، القرآن ، فى توعد الكفار والتأنى بهم ، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه ، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار ، بمن آذاهم .

ويؤيده أيضا ، أنه قال فى هذه الآية : [ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ] وهذا يقال يوم القيامة للكفار ، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا ، فيقال : قد ذهب وقت الرجوع .

وقيل : إن المراد بذلك ، ما أصاب كفار قريش ، حين امتنعوا من الإيمان ، واستكبروا على الحق ، فدعا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اللهم أعنى عليهم بسنين كسنى يوسف » .

فأرسل الله عليهم الجوع العظيم ، حتى أكلوا الميتات والعظام ، وصاروا يرون الذى بين السماء والأرض ، كهيئة الدخان ، وليس به . وذلك من شدة الجوع .

فيكون — على هذا — قوله : [ يوم تأتى السماء بدخان ] أن ذلك ، بالنسبة إلى أبصارهم ، وما يشاهدون ، وليس بدخان حقيقة .

مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

---

ولم يزالو بهذه الحالة ، حتى استرحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يدعو الله لهم ، أن يكشفه الله عنهم ، فكشفه الله عنهم .

وعلى هذا فيكون قوله : [ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ] إخبار بأن الله سيصرفه عنهم ، وتوعدٌ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب ، وإخبار بوقوعه فوقع ، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى ، قالوا : وهى وقعه « بدر » ، وفى هذا القول نظر ظاهر .

وقيل : إن المراد بذلك ، أن ذلك من أشراط الساعة ، وأنه يكون فى آخر الزمان ، دخان يأخذ بأنفاس الناس ، ويصيب المؤمنين منه كهيئة الدخان .

والقول ، هو الأول .

وفى الآية احتمال أن المراد بقوله [ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون] أن هذا كله يوم القيامة .

وأن قوله تعالى [ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ] أن هذا ، ما وقع لقريش كما تقدم .

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين ، لم تجد فى اللفظ ، ما يمنع من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ

---

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة ، وهذا الذى يظهر عندى ، ويترجح والله أعلم .

* لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ذكر أن لهم سلفا من المكذبين .

فذكر قصتهم مع موسى ، وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه فقال : [ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ] أى : ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا ، موسى بن عمران إليهم ، الرسول الكريم ، الذى فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ، ماليس فى غيره .

[ أن أدوا إلى عباد الله ] أى : قال لفرعون وملإه : أدوا إلىّ عباد الله .

يعني بهم : بنى إسرائيل ، أى : أرسلوهم ، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب ، فإنهم عشيرتى ، وأفضل العالمين فى زمانهم .

وأنتم قد ظلمتموهم ، واستعبدتموهم بغيرحق ، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم .

[ إنى لكم رسول أمين ] أى : رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلنى به ، لا أكتمكم منه شيئا ، ولا أزيد فيه ولاأنقص ، وهذا يوجب تمام الانقياد له .

[ وأن لاتعلوا على الله ] بالاستكبار عن عبادته ، والعلو على عباد الله .

بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾
فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا

---

[إنى آتيكم بسلطان مبين] أى : بحجة بينة ظاهرة ، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات ، والأدلة القاهرات .

فكذبوه ، وهموا بقتله ، فلجأ إلى الله من شرهم فقال : [ وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ] أى : تقتلونى شر القتلات ، بالرجم بالحجارة .

[ وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ] أى : لكم ثلاث مراتب .

الإيمان بى وهو : مقصودى منكم ، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة ، فاعتزلونى ، لا علىّ ولا لى ، فاكفونى شركم .

فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية ، بل لم يزالو متمردين عاتين على الله ، محاربين لنبيه موسى عليه السلام ، غير ممكنين له من قومه بنى إسرائيل .

[ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ] أى : قد أجرموا جرما ، يوجب تعجيل العقوبة .

فأخبر عليه السلام بحالهم ، وهذا دعاء بالحال ، التى هى أبلغ من المقال ، عن نفسه عليه السلام [ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ] .

فأمره الله أن يسرى بعباده ليلا ، وأخبره أن فرعون وقومه ، سيتبعونه .

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾
كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ

---

[ واترك البحر رهوا[1] ] ، وذلك أنه لما سرى موسى ببنى إسرائيل كما أمره الله ، ثم تبعهم فرعون ، أمر الله موسى أن يضرب البحر ، فضربه فصار اثنى عشر طريقا ، وصار الماء من بين تلك الطرق ، كالجبال العظيمة فسلكه موسى وقومه .

فلما خرجوا منه ، أمره الله أن يتركه رهوا ، أى : بحاله ، ليسلكه فرعون وجنوده [ إنهم جند مغرقون ] .

فلما تكامل قوم موسى خارجين منه ، وقوم فرعون داخلين فيه ، أمره الله تعالى ، أن يلتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا ، وأورثه الله بنى إسرائيل ، الذين كانوا مستعبدين لهم ، ولهذا قال :

[ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها ] أى : هذه النعمة المذكورة [ قوما آخرين ] وفى الآية الأخرى « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل » .

---

(١) رهوا . أى : ساكناً منفرجاً حتى يدخله فرعون وجنوده ، وهم القبط .

مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾
مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ

---

[ فما بكت عليهم السماء والأرض ] أى : لما أتلفهم الله وأهلكهم ، لم تبك عليهم السماء والأرض ، أى : لم يحزن عليهم ، ولم ييأس على فراقهم ، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض ، لأنهم ما خلفوا من آثارهم ، إلا ما يسود وجوههم ، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين .

[ وما كانوا منظرين ] أى : ممهلين عن العقوبة ، بل اصطلمتهم فى الحال .

ثم امتنَّ تعالى على بنى إسرائيل فقال : [ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ] الذى كانوا فيه [ من فرعون ] إذ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .

[ إنه كان عاليا ] أى : مستكبراً فى الأرض بغير الحق [ من المسرفين ] المتجاوزين لحدود الله ، المتجرئين على محارمه .

[ ولقد اخترناهم ] أى : اصطفيناهم وانتقيناهم [ على علم ] منا بهم ، وباستحقاقهم لذلك الفضل [على العالمين] أى: عالمى زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففضلوا العالمين كلهم ، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ، وامتن عليهم ، بما لم يمتن به على غيرهم .

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ

---

[ وآتيناهم ] أى : بنى إسرائيل [ من الآيات ] الباهرة ، والمعجزات الظاهرة .

[ ما فيه بلاء مبين ] أى : إحسان كثير ، ظاهر منا عليهم ، وحجة عليهم ، على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام .

* يخبر تعالى [ أن هؤلاء ] المكذبين [ يقولون ] مستبعدين للبعث والنشور :

[ إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ] أى : ما هى إلا الحياة الدنيا ، فلا بعث ، ولا نشور ، ولا جنة ، ولا نار .

ثم قالوا ـ متجرئين على ربهم ، معجزين له ـ : [ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ] .

وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين ، فى مكان سحيق .

فأى ملازمة بين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم ؟

فإن الآيات ، قد قامت على صدق ما جاءهم به ، وتواترت تواترا عظيما من كل وجه .

صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى

---

قال تعالى : [ أهم خير ] أى : هؤلاء المخاطبون [ أم قوم تبع ، والذين من قبلهم ، أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ] .

فإنهم ليسوا خيرا منهم ، وقد اشتركوا فى الإجرام ، فليتوقعوا من الهلاك ، ما أصاب إخوانهم المجرمين .

* يخبر تعالى ، عن كمال قدرته ، وتمام حكمته ، وأنه ما خلق السموات والأرض لعباً ، ولا لهواً ، ولا سدى من غير فائدة ، وأنه ما خلقهما إلا بالحق أى : نفس خلقهما بالحق ، وخلقهما مشتمل على الحق .

وأنه أوجدهما ، ليعبدوه وحده لا شريك له ، وليأمر العباد ، وينهاهم ويثيبهم ، ويعاقبهم .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] ، فلذلك لم يتفكروا فى خلق السموات والأرض .

[ إن يوم الفصل ] وهو يوم القيامة ، الذى يفصل الله به بين الأولين والآخرين ، وبين كل مختلفين [ ميقاتهم ] أى : الخلائق [ أجمعين ] .

شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ

---

كلهم ، سيجمعهم الله فيه ، ويحضرهم ويحضر أعمالهم ، ويكون الجزاء عليها .

[ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ] لا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه .

[ ولا هم ينصرون ] أى : يمنعون عذاب الله عز وجل ، لأن أحدا من الخلق ، لا يملك من الأمر شيئا .

[ إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم ] فإنه هو الذى ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى ، التى تسبب إليها ، وسعى لها سعيها فى الدنيا .

ثم قال تعالى : [ إن شجرة الزقوم ] إلى تمترون ] .

* لما ذكر يوم القيامة ، وأنه يفصل بين عباده فيه ، ذكر افتراقهم إلى فريقين : فريق فى الجنة .

وفريق فى السعير ، وهم : الآثمون بعمل الكفر والمعاصى وأن طعامهم [ شجرة الزقوم ] شر الأشجار وأفظعها .

وأن طعمها [ كالمهل ] أى : كالصديد المنتن ، خبيث الريح والطعم ، شديد الحرارة .

[ يغلى فى البطون * كغلى الحميم ] ويقال للمعذّب :

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾
ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ
تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾

---

[ ذق ] هذا العذاب الأليم ، والعقاب الوخيم [ إنك أنت العزيز الكريم ].

أى : بزعمك أنك عزيز ، ستمتنع من عذاب الله ، وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب .

فاليوم تبين لك ، أنك أنت الذليل المهان الخسيس .

[ إن هذا ] العذاب العظيم ، هو [ما كنتم به تمترون] أى : تشكون ، فالآن صار عندكم ، حق اليقين .

* هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه ، بتركهم المعاصى ، وفعلهم الطاعات .

فلما انتفى السخط عنهم والعذاب ، ثبت لهم الرضا من الله ، والثواب العظيم ، فى ظل ظليل ، من كثرة الأشجار والفواكه والعيون ، تجرى من تحتهم الأنهار ، يفجرونها تفجيراً فى جنات النعيم .

فأضاف الجنات إلى النعيم ، لأن ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور ، كامل من كل وجه ، ما فيه منغص ولا مكدر ، بوجه من الوجوه .

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق ، أي : غليظ الحرير ورقيقه ، مما تشتهيه أنفسهم .

يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا

---

[ متقابلين ] فى قلوبهم ووجوههم ، فى كمال الراحة ، والطمأنينة ، والمحبة والعشرة الحسنة ، والآداب المستحسنة .

[ كذلك ] النعيم التام والسرور الكامل [ وزوجناهم بحور ] أى : نساء جميلات من جمالهن وحسنهن ، أنه يحار الطرف فى حسنهن ، وينبهر العقل بجمالهن ، وينخلب اللب لكمالهن [ عين ] أى : واسعات الأعين ، حسانها .

[ يدعون فيها ] أى : الجنة [ بكل فاكهة ] مما له اسم فى الدنيا ، ومما لا يوجد له اسم ، ولا نظير فى الدنيا .

فمهما طلبوه ، من أنواع الفاكهة وأجناسها ، أحضر لهم فى الحال ، من غير تعب ولا كلفة .

[ آمنين ] من انقطاع ذلك ، وآمنين من مضرته ، وآمنين من كل مكدر وآمنين من الخروج منها والموت ، ولهذا قال :

[ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ] أى : ليس فيها موت بالكلية .

ولو كان فيها موت يستثنى ، لم يستثن الموتة الأولى ، التى هى الموتة فى الدنيا ، فتم لهم كل محبوب مطلوب .

[ ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ] أى : حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم ، من فضل الله عليهم وكرمه ، فإنه تعالى ، هو الذى وفقهم

مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

للأعمال الصالحة ، التى بها نالوا خير الآخرة ، وأعطاهم أيضا ، ما لم تبلغه أعمالهم .

[ ذلك هو الفوز العظيم ] وأى: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته ، والسلامة من عذابه وسخطه ؟ .

[ فإنما يسرناه ] أى : القرآن [ بلسانك ] أى : سهلناه بلسانك ، الذى هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها ، فتيسر به لفظه ، وتيسر به معناه .

[ لعلهم يتذكرون ] ما فيه نفعهم فيفعلونه ، وما فيه ضررهم فيتركونه .

[فارتقب] أى : انتظر ماوعدك ربك ، من الخير والنصر [إنهم مرتقبون] ما يحل بهم من العذاب ، وفرق بين الارتقابين :

رسول الله وأتباعه ، يرتقبون الخير فى الدنيا والآخرة .

وضدهم ، يرتقبون الشر فى الدنيا والآخرة .

تم تفسير سورة الدخان — ولله الحمد والمنة

# تفسير

# سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

---

* يخبر تعالى خبراً ، يتضمن الأمر بتعظيم القرآن ، والاعتناء به ، وأنه [ تنزيل من الله ] المألوه المعبود ، لما اتصف به من صفات الكمال ، وانفرد به من النعم ، الذى له العزة الكاملة والحكمة التامة .

ثم أيد ذلك ، بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية ، من خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من الدواب ، وما أودع فيهما من المنافع ، وما أنزل الله من الماء ، الذى يحيى به الله البلاد والعباد .

فهذه كلها آيات بينات ، وأدلة واضحات ، على صدق هذا القرآن ، العظيم ، وصحة ما اشتمل عليه ، من الحكم والأحكام .

ودالات أيضا ، على ما لله تعالى من الكمال ، وعلى البعث والنشور .

ثم قسم تعالى الناس ، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه ، إلى قسمين :

إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

---

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها ، وينتفعون ، فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، إيمانا تاماً ، وصل بهم إلى درجة اليقين .

فزكى منهم العقول ، وازدادت به معارفهم ، وألبابهم ، وعلومهم .

وقسم يسمع آيات الله ، سماعاً تقوم به الحجة عليه ، ثم يعرض عنها ، ويستكبر - كأنه ما سمعها ، لأنها لم تزك قلبه ، ولا طهرته ، بل - بسبب استكباره عنها ، ازداد طغيانه .

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً ، اتخذها هزواً ، فتوعده الله تعالى بالويل فقال :

[ ويل لكل أفاك أثيم ] أى : كذاب فى مقاله ، أثيم فى فعاله .

وأخبر أن له عذاباً أليما ، وأن [ من ورائهم جهنم ] تكفى فى عقوبتهم البليغة .

وأنه [ لا يغنى عنهم ما كسبوا ] من الأموال [ شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ] يستنصرون بهم فخذلوهم ، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا .

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

---

فلما بين آياته القرآنية والعيانية ، وأن الناس فيها على قسمين ، أخبر عن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية ، أنه هدى فقال :

[ هذا هدى ] وهو وصف عام لجميع القرآن ، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى ، بصفاته المقدسة ، وأفعاله الحميدة .

ويهدى إلى معرفة رسله ، وأوليائهم ، وأعدائهم ، وأوصافهم .

ويهدى إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ، ويبين الأعمال السيئة ، وينهى عنها .

ويهدى إلى بيان الجزاء على الأعمال ، ويبين الجزاء الدنيوى والأخروى .

فالمهتدون ، اهتدوا به ، فأفلحوا وسعدوا .

[ والذين كفروا بآيات ربهم ] الواضحة القاطعة ، التى لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه ، وتضاعف طغيانه [ لهم عذاب من رجز أليم ] .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ
لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ

---

* يخبر تعالى عن فضله على عباده ، وإحسانه إليهم ، بتسخير البحر ، لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره .

[ لتبتغوا من فضله ] بأنواع التجارات والمكاسب .

[ ولعلكم تشكرون ] الله تعالى ، فإنكم إذا شكرتموه ، زادكم من نعمه ، وأثابكم على شكركم ، أجراً جزيلا .

[ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ] أى : من فضله وإحسانه .

وهذا شامل لأجرام السموات والأرض ، ولما أودع الله فيهما ، من الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والثوابت ، والسيارات ، وأنواع الحيوانات ، وأصناف الأشجار والثمرات ، وأجناس المعادن ، وغير ذلك ، مما هو معه لمصالح بنى آدم ، ومصالح ما هو من ضروراته .

فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم ، فى شكر نعمته ، وأن تتغلغل أفكارهم ، فى تدبر آياته وحكمه ، ولهذا قال :

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

[ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ] .

وجملة ذلك ، أن خلقها وتدبيرها ، وتسخيرها ، دال على نفوذ مشيئة الله ، وكمال قدرته .

وما فيها من الإحكام والإتقان ، وبديع الصنعة ، وحسن الخلقة ، دال على كمال حكمته وعلمه .

ومافيهامن السعة ، والعظمة ، والكثرة ، دال على سعة ملكه وسلطانه.

وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات ، دليل على أنه الفعال لما يريد .

وما فيها من المنافع ، والمصالح الدينية والدنيوية ، دليل على سعة رحمته ، وشمول فضله وإحسانه ، وبديع لطفه وبره .

وكل ذلك ، دال على أنه وحده ، المألوه المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة والذل ، والمحبة ، إلا له ، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به .

فهذه أدلة عقلية واضحة ، لا تقبل ريباً ولا شكا .

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ
لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بحسن الخلق ، والصبر على أذية المشركين به ، الذين لا يرجون أيام الله ، أى : لا يرجون ثوابه ، ولا يخافون وقائعه فى العاصين ، فإنه تعالى سيجزى كل قوم ، بما يكسبون .

فأنتم -يامعشر- المؤمنين ، يجزيكم على إيمانكم ، وصفحكم ، وصبركم ، ثواباً جزيلا .

وهم — إن استمروا على تكذيبهم — فلا يحل بكم ، ما حل بهم ، من العذاب الشديد ، والخزى ، ولهذا قال : [ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ] .

* أى : ولقد أنعمنا على بنى إسرائيل نعماً ، لم تحصل لغيرهم من الناس .

وآتيناهم الكتاب أى : التوراة والإنجيل ، والحكم بين الناس ، والنبوة ، التى امتازوا بها ، وصارت النبوة فى ذرية إبراهيم عليه السلام ، أكثرهم من بنى إسرائيل .

[ ورزقناهم من الطيبات ] من المآكل والمشارب ، والملابس ، وإنزال المن والسلوى عليهم .

بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ

[ وفضلناهم على العالمين ] أى : على الخلق[1] بهذه النعم ، ويخرج من هذا العموم اللفظى ، هذه الأمة فإنهم خير أمة أخرجت للناس .

والسياق يدل على أن المراد غيرهذه الأمة ، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بنى إسرائيل ، وميزهم على غيرهم .

وأيضا فإن الفضائل التى فاق بها بنو إسرائيل ، من الكتاب ، والحكم ، والنبوة ، وغيرها من النعوت ، قد حصلت كلها لهذه الأمة ، وزادت عليهم هذه الأمة ، فضائل كثيرة ، فهذه الشريعة ، شريعة بنى إسرائيل ، جزء منها .

فإن هذا الكتاب ، مهيمن على سائر الكتب السابقة .

ومحمد صلى الله عليه وسلم ، مصدق لجميع المرسلين .

[ وآتيناهم ] أى آتينا بنى إسرائيل [ بينات ] أى : دلالات ، تبين الحق من الباطل [ من الأمر ] القدرى ، الذى أوصله الله إليهم .

( ١ ) قوله « على الخلق » جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بتفضيل بنى إسرائيل على العالمين « عالمى زمانهم فقط » وأما أبو السعود فذهب فى تفسيره إلى أن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين مقيد بالنعم التى خصهم الله بها دون غيرهم من الأمم السابقة واللاحقة كما يدل عليه كلامه حيث قال :« حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما . وقيل : عالمى زمانهم» . اهـ وعبر عن القول الثانى: بـ «قيل» ليشعر القارىء بضعف هذا القول .

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ

---

وتلك الآيات ، هي : المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام .

فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه ، وأن يجتمعوا على الحق ، الذي بينه الله لهم .

ولكن انعكس الأمر ، فعاملوها بعكس ما يجب .

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به ، ولهذا قال :

[ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ] أي : الموجب لعدم الاختلاف .

وإنما حملهم على الاختلاف ، البغي من بعضهم على بعض ، والظلم .

[ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ] فيميز المحق من المبطل ، والذي حمله على الاختلاف ، الهوى أو غيره .

* أي : ثم شرعنا لك شريعة كاملة ، تدعو إلى كل خير ، وتنهى عن كل شر ، من أمرنا الشرعي [ فاتبعها ] فإن في اتباعها ، السعادة الأبدية ، والصلاح والفلاح .

[ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ] أي : الذين تكون أهويتهم ، غير تابعة للعلم ، ولا ماشية خلفه .

وهم كل من خالف شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هواه ، وإرادته ، فإنه ، من أهواء الذين لا يعلمون .

أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾
هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

---

[ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ] أى : لا ينفعونك عند الله ، فيحصلوا لك الخير ، ويدفعوا عنك الشر ، إن اتبعتهم على أهوائهم .

ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم ، فإنك وإياهم متباينون .

[ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ] يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بسبب تقواهم ، وعملهم بطاعته .

* أى : [ هذا ] القرآن الكريم والذكر الحكيم [ بصائر للناس ] أى : تحصل به التبصرة فى جميع الأمور للناس ، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين.

[ وهدى ورحمة لقوم يوقنون ] فيهتدون به إلى الصراط المستقيم ، فى أصول الدين وفروعه ، ويحصل به الخير ، والسرور ، والسعادة فى الدنيا والآخرة ، وهى الرحمة .

فتزكو به نفوسهم ، وتزداد به عقولهم ، ويزيد به إيمانهم ويقينهم ، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

---

* أى : أم حسب المسيئون ، المكثرون من الذنوب ، المقصرون فى حقوق ربهم .

[ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ] بأن قاموا بحقوق ربهم ، واجتنبوا مساخطه ، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم ؟

أى : أحسبوا أن يكونوا [ سواء ] فى الدنيا والآخرة ؟

ساء ما ظنوا وحسبوا ، وساء ما حكموا به فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين ، وخير العادلين ، ويناقض العقول السليمة ، والفطر المستقيمة .

ويضاد ما نزلت به الكتب ، وأخبرت به الرسل .

بل الحكم الواقع القطعى ، أن المؤمنين العاملين الصالحات ، لهم النصر والفلاح ، والسعادة ، والثواب ، فى العاجل والآجل ، كل على قدر إحسانه ، وأن المسيئين ، لهم الغضب والإهانة ، والعذاب ، والشقاء ، فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

* أى : خلق الله السموات والأرض بالحكمة ، وليعبد ، وحده لا شريك له .

ثم يحاسب بعد ذلك من أمرهم بعبادته ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة هل شكروا الله تعالى ، وقاموا بالمأمور ؟ أم كفروا ، فاستحقوا جزاء الكفور ؟

* يقول تعالى [أفرأيت] الرجل الضال الذى [اتخذ إلهه هواه] فما هواه سلكه ، سواء كان يرضى الله ، أم يسخطه .

[وأضله الله على علم[1]] من الله ، أنه لا تليق به الهداية ، ولا يزكو عليها .

---

(١) قوله « وأضله الله على علم » أى : ضلاله لا عن جهل عن الحق ولا عن عدم معرفته بالطريق المستقيم .

بل ضلاله ناشىء عن عناد ، وعن غلبة هواه عليه .

هذا التفسير هو الصواب ، والأحسن ، وذلك لتقوم حجة الله على العبد ، ولا تقوم حجته تعالى على العبد الجاهل بالحق .

يؤيد ما ذهبنا إليه ما قاله أبو السعود فى تفسيره : « على علم » أى : عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها » .

وفى « المنتخب من التفسير » : أنظرت فرأيت أيها الرسول ، من اتخذ إلهه هواه معبوداً له .

=

وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

---

وختم على سمعه ] فلا يسمع ما ينفعه [ وقلبه ] فلا يعى الخير [ وجعل على بصره غشاوة ] تمنعه من نظر الحق [ فمن يهديه من بعد الله ]أى لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية ، وفتح له أبواب الغواية .

وما ظلمه الله ، ولكن هو الذى ظلم نفسه ، وتسبب لمنع رحمة الله عليه [ أفلا تذكرون ] ما ينفعكم فتسلكوه ، وما يضركم فتجتنبوه .

[ وقالوا ] أى : منكرو البعث [ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

---

نخضع له وأطاعه وضل عن سبيل الحق على علم منه بهذا السبيل .

وأغلق سمعه فلا يقبل وعظا ، وقلبه فلا يعتقد حقا ، وجعل على بصره غطاء ، فلا يبصر عبرة ، فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه أتتركون النظر فلا تتذكرون ؟ !

هذا هو المعنى المعقول فى تفسير هذه الآية ، كما هو واضح من ظاهر عبارتها ، لا كما ذهب إليه مؤلفنا تبعاً للجلالين والنسفى وغيرهما .

وأيضا فما فائدة القول بأنه ضل على علم من الله ؟

فهل هناك من يشك أن ما يحدث فى الكون ، يحدث من غير أن يعلم الله ذلك ؟ اللهم لا ، حتى ، ولا أهل الجاهلية فى زمن الرسول .

لأن عباد الأصنام والجاهلية يعتقدون أن الله يعلم كل شىء وعلمه محيط بجليات الأمور وخفاياها ، وإنما اتخذوا الأصنام آلهة لتكون لهم شفعاء ، ووسطاء فقط .

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

---

وما يهلكنا إلا الدهر ] إن هى إلا عادات ، وجرْىٌ على رسوم الليل والنهار ، يموت أناس ، ويحيا أناس ، ومن مات ، فليس براجع إلى الله ، ولا مجازى بعمله .

وقولهم هذا ، صادر عن غير علم [ إن هم إلا يظنون ] فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين ، من غير دليل دلهم ، ولا برهان .

إن هى إلا ظنون ، واستبعادات ، خالية عن الحقيقة ، ولهذا قال تعالى: [ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] وهذا جراءة منهم على الله،حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله ، متوقف على الإتيان بآبائهم .

وأنهم لو جاءوهم بكل آية ، لم يؤمنوا ، إلا إن اتبعتهم الرسل على ما قالوا .

وهم كذبة فيما قالوا ، وإنما قصدهم ، دفع دعوة الرسل ، لا بيان الحق قال تعالى :

[قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم ، لعملوا له أعمالا ، وتهيئوا له .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا

---

* يخبر تعالى عن سعة ملكه ، وانفراده بالتصرف والتدبير ، فى جميع الأوقات .

وأنه [ يوم تقوم الساعة ] ويجمع الخلائق لموقف القيامة،يحصل الخسار على المبطلين ، الذين أتوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

وكانت أعمالهم باطلة ، لأنها متعلقه بالباطل ، فبطلت فى يوم القيامة ، اليوم الذى تستبين فيه الحقائق واضمحلت عنهم ، وفاتهم الثواب ، وحصلوا على أليم العقاب .

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ، ليحذره الناس ، ويستعدله العباد فقال :

[ وترى ] أيها الرائى لذلك اليوم [ كل أمة جاثية (١) ] على ركبها خوفا ، وذعرا ، وانتظارا لحكم الملك الرحمن .

[ كل أمة تدعى إلى كتابها ] أى : إلى شريعة نبيهم ، الذى جاءهم من عند الله .

وهل قاموا بها فيحصل الثواب والنجاة ؟ أم ضيعوها ، فيحصل لهم الخسران .

---

(١) أى : ترى أهل كل دين جالسين على الركب من هول الموقف متحفزين لإجابة النداء .

كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ

---

[ اليوم تجزون بما كنتم تعملون ] فأمة موسى ، يدعون إلى شريعة موسى ، وأمة عيسى كذلك ، وأمة محمد كذلك .

وهكذا غيرهم ، كل أمة تدعى إلى شرعها الذى كلفت به .

هذا أحد الاحتمالات فى الآية ، وهو معنى صحيح فى نفسه ، غير مشكوك فيه .

ويحتمل أن المراد بقوله [ كل أمة تدعى إلى كتابها ] أى : إلى كتاب أعمالها ، وما سطر عليها ، من خير وشر ، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه ، كقوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » .

ويحتمل أن المعنيين ، كليهما ، مراد من الآية ، ويدل على هذا قوله : [ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ] أى : هذا كتابنا الذى أنزلنا عليكم ، يفصل بالحق الذى هو العدل .

[ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ] فهذا كتاب الأعمال .

ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال : [ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ، من واجبات ومستحبات [ فيدخلهم ربهم فى رحمته ] التى محلها الجنة ، وما فيها من النعيم المقيم ، والعيش السليم .

[ ذلك هو الفوز المبين ] أى : المفاز والنجاة ، والربح ، والفلاح الواضح

تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

---

البَيِّن الذى إذا حصل للعبد ، حصل له كل خير ، واندفع عنه كل شر .

[ وأما الذين كفروا ] بالله ، فيقال لهم توبيخا وتقريعا :

[ أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ] وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ، ونهتكم عما فيه ضرركم ، وهى أكبر نعمة وصلت إليكم ، لو وفقتم لها .

[ فاستكبرتم ] عنها ، وأعرضتم ، وكفرتم بها ، فجنيتم أكبر جناية ، وأجرمتم أشد الجرم ، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون .

ويوبخون أيضا بقوله : [ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ] منكرين لذلك : [ ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ][1] .

فهذه حالهم فى الدنيا ، وحال البعث ، الإنكار له ، وردوا قول من جاء به . قال تعالى : [ وبدا لهم سيئات ما عملوا ] أى : وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم .

[ وحاق بهم ] أى : نزل [ ما كانوا به يستهزئون ] أى : نزل بهم العذاب ، الذى كانوا فى الدنيا ، يستهزئون بوقوعه ، وبمن جاء به .

---

(١) بمستيقنين ، أي : إمكان إتيان الساعة ، فضلا عن إثباتها قطعاً ووقوعها فعلا .

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ

---

[ وقيل اليوم ننساكم[1] ] أى : نترككم فى العذاب ، كما نسيتم لقاء يومكم هذا ] فإن الجزاء من جنس العمل [ ومأواكم النار ] أى : هى مقركم ومصيركم .

[ وما لكم من ناصرين ] ينصرونكم من عذاب الله ، ويدفعون عنكم عقابه .

[ ذلكم ] الذى حصل لكم من العذاب [ بـ ] سبب [ أنكم اتخذتم آيات الله هزوا ] مع أنها موجبة للجد والاجتهاد ، وتلقيها بالسرور والاستبشار ، والفرح .

[ وغرتكم الحياة الدنيا ، بزخارفها ، ولذاتها وشهواتها ، فاطمأننتم إليها ، وعملتم لها ، وتركتم العمل للدار الباقية .

---

(١) أى : نترككم فى العذاب ترك المنسى . اهـ . أبو السعود .

وقيل لهؤلاء المشركين — توبيخا — : اليوم نترككم فى العذاب كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم ، بالطاعة والعمل الصالح .

ومقركم النار ، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها . اهـ .

من « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » .

مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

---

[ فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ] أى: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .

[ فلله الحمد ] كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه [ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ] أى : له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق ، حيث خلقهم ورباهم ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

[ وله الكبرياء فى السموات والأرض ] أى: له الجلال، والعظمة ، والمجد.

فالحمد ، فيه الثناء على الله ، بصفات الكمال ، ومحبته تعالى ، وإكرامه .

والكبرياء ، فيها عظمته وجلاله ، والعبادة مبنية على ركنين ، محبة الله ، والذل له .

وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله ، وجلاله ، وكبريائه .

[ وهو العزيز ] القاهر لكل شىء .

[ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فلا يشرع ما يشرعه ، إلا لحكمة ومصلحة ، ولا يخلق ما يخلقه ، إلا لفائدة ومنفعة .

تم تفسير سورة الجاثية ـ ولله الحمد والمنة والفضل

# تفســـير

# سُورَةُ الأَحْقَاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

---

* هذا ثناء منه تعالى ، على كتابه العزيز ، وتعظيم له .

وفى ضمن ذلك ، إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره ، والإقبال على تدبر آياته ، واستخراج كنوزه .

ولما بين إنزال كتابه ، المتضمن للأمر والنهى ، ذكر خلقه السموات والأرض ، فجمع بين الخلق والأمر « ألا له الخلق والأمر » كما قال تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » .

وكما قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون * خلق السموات والأرض بالحق » .

فالله تعالى ، هو الذى خلق المكلفين ، وخلق مساكنهم ، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وأمرهم ونهاهم ، وأخبرهم أن هذه الدار ، دار أعمال وممر للعمال ، لا دار إقامة ، لا يرحل عنها أهلها .

مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

---

وهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار ، وموطن الخلود والدوام .

وإنما أعمالهم ، التى عملوها فى هذه الدار ، سيجدون ثوابها فى تلك الدار كاملاً موفرا .

وأقام تعالى الأدلة على تلك الدار ، وأذاق العباد نموذجا من الثواب والعقاب العاجل ، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب ، والهرب من المرهوب .

ولهذا قال هنا : [ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ] .

أى : لا عبثا ، ولا سدى ، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما ، ويستدلوا على كماله ، ويعلموا أن الذى خلقهما ، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء ، وأن خلقهما وبقاءهما ، مقدر إلى ساعة معينة [ وأجل مسمى ] .

فلما أخبر بذلك ـ وهو أصدق القائلين ، وأقام الدليل ، وأنار السبيل ـ أخبر ـ مع ذلك ـ أن طائفة من الخلق ، قد أبوا إلا إعراضا عن الحق ، وصدوفا عن دعوة الرسل فقال :

[ والذين كفروا عما أنذروا[1] معرضون[2] ] .

---

(١) أنذروا . أى : خُوِّفوا من هول ذلك اليوم ، ومع ذلك التخويف ما زالوا مصرين على كفرهم حتى فارقوا الدنيا وهم كافرون .

(٢) معرضون . أى : غير مقبلين على دعوة الرسل ولا مؤمنين بيوم القيامة ولا بالبعث ، ولا يهتمون بالاستعداد لذاك اليوم الذى يخلقون فيه خلقا جديداً ، ثم يبعثهم الله لمحاسبتهم ومجازاتهم .

❁ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ

---

وأما الذين آمنوا ، فلما علموا حقيقة الحال ، قبلوا وصايا ربهم ، وتلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالانقياد والتعظيم ، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر .

* أى [ قل ] لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، أوثانا وأندادا ، لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا .

قل لهم – مبينا عجز أوثانهم ، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة – : [ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ] .

هل خلقوا من أجرام السموات شيئا ؟ هل خلقوا جبالا ؟ هل أجروا أنهارا ؟ .

هل نشروا حيوانا ؟ هل أنبتوا أشجارا ؟

هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك ؟

لا شيء من ذلك ، بإقرارهم على أنفسهم ، فضلا عن غيرهم .

فهذا دليل عقلى قاطع ، على أن كل من سوى الله ، فعبادته باطلة .

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلى فقال : [ ائتونى بكتاب من قبل هذا ] الكتاب يدعو إلى الشرك .

مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ

---

[ أو أثاره[1] من علم ] موروث عن الرسل يأمر بذلك .

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل ، بدليل يدل على ذلك .

بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل ، دعوا إلى توحيد ربهم ، ونهوا عن الشرك به .

وهى أعظم ما يؤثر عنهم من العلم ، قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وكل رسول قال لقومه: « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

فعلم أن جدال المشركين فى شركهم ، غير مستندين على برهان ولا دليل ، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة ، وآراء كاسدة ، وعقول فاسدة .

---

(١) أثارة . أى : بقية من علم ، بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة .

ومعنى الآية « إيتونى بكتاب من عند الله ، أو أثر من علم الأولين ، تستندون إليه في دعواكم ، أن ما تعبدون من الأوثان وغيرها ، حق وصراط مستقيم ، إن كنتم صادقين .

هيهات هيهات. فَجَمْعُ نجوم السماء وجَعْلُهَا فى حجوركم ، أقرب إليكم ، مما تدعونه .

مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

---

يدلك على فسادها ، استقراء أحوالهم ، وتتبع علومهم وأعمالهم ، والنظر فى حال من أفنوا أعمارهم بعبادته ، هل أفادهم شيئا فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

ولهذا قال تعالى : [ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ] أى : مدة مقامه فى الدنيا ، لا ينتفع به مثقال ذرة ، [ وهم(١) عن دعائهم غافلون ] .

لا يسمعون منهم دعاء ، ولا يجيبون لهم نداء ، هذا حالهم فى الدنيا .

ويوم القيامة يكفرون بشرككم [ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ] يلعن بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض [ وكانوا بعبادتهم كافرين ] .

---

(١) وهم : أى الأصنام « عن دعائهم » أى : عبادتهم « غافلون » لأنها جمادات لا تعقل . الضمير الأول لمفعول « يدعو » والثانى ، لفاعله ، والجمع فيهما باعتبار معنى « مَنْ » كما أن الإفراد فيما سبق وهو قوله « ومن أضل ممن يدعو » باعتبار لفظها .

وأتى بضمير العقلاء وهو « هم » وفى قوله « لهم » وفى « كانوا » لإجرائهم إياها مجرى العقلاء ، ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها ، كقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » الآية . اهـ . أبو السعود ، بتصرف .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ

---

* [ وإذا تتلى عليهم ] أي : على المكذبين [ آياتنا بينات ] بحيث تكون على وجه ، لا يمترى بها ، ولا يشك فى وقوعها وحقها ، لم تفدهم خيرا ، بل قامت عليهم بذلك الحجة .

ويقولون من إفكهم وافترائهم [ للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ] أي : ظاهر لا شك فيه ، وهذا من باب قلب الحقائق ، الذى لا يروج إلا على ضعفاء العقول .

وإلا فبين الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة ، أعظم مما بين السماء والأرض .

وكيف يقاس الحق الذى علا وارتفع ارتفاعا على الأفلاك ، وفاق بضوئه ونوره ، نور الشمس ، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه ، وأقرت به وأذعنت ، أولو البصائر والعقول الرزينة ، كيف يقاس الحق الذى هذا شأنه ، بالباطل الذى هو السحر ، الذى لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس ، خبيث العمل ؟! فهو مناسب له وموافق لحاله ، وهل هذا ، إلا من البهرجة ؟ .

[ أم يقولون افتراه ] أي : افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه ، فليس هو من عند الله .

[ قل ] لهم : [ إن افتريته ] فالله علىّ قادر وبما تفيضون فيه عالم .

كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ

---

فكيف لم يعاقبنى على افترائى ، الذى زعمتم ؟

[ فلا تملكون لى من الله شيئا ] إن أرادنى الله بضر ، أو أرادنى برحمة .

[ هو أعلم بما تفيضون[1] فيه كفى بهشهيدا بينى وبينكم ] فلو كنت متقولا عليه ، لأخذ منى باليمين ، ولعاقبنى عقابا يراه كل أحد ، لأن هذا ، أعظم أنواع الافتراء ، لو كنت متقولا .

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته،فقال :

[ وهو الغفور الرحيم ] أى : فتوبوا إليه ، وأقلعوا عما أنتم فيه ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويرحمكم ، فيوفقكم للخير ، ويثيبكم جزيل الأجر .

[ قل ما كنت بدعا من الرسل ] أى : لست بأول رسول جاءكم ، حتى تستغربوا رسالتى وتستنكروا دعوتى ، فقد تقدم من الرسل والأنبياء ، من وافقت دعوتى دعوتهم ، فلأى شيء تنكرون رسالتى ؟ .

[ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ] أى : لست إلا بشراً ، ليس بيدى من الأمر شيء ، والله تعالى المتصرف بى وبكم ، الحاكم علىّ وعليكم .

---

(١) بما تفيضون فيه . أى : تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته ، وتسميته « سحراً » تارة ، و « فرية » أخرى . ا هـ . أبو السعود والنسفى .

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

---

[ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ] ولست آتى بالشىء من عندى .

[ وما أنا إلا نذير مبين ] فإن قبلتم رسالتى ، وأجبتم دعوتى ، فهو حظكم ، ونصيبكم فى الدنيا والآخرة .

وإن رددتم ذلك علىّ ، فحسابكم على الله ، وقد أنذرتكم ، ومن أنذر فقد أعذر .

[ قل أرأيتم إن كان من عند الله ، وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ] أى : أخبرونى ، لو كان هذا القرآن من عند الله ، وشهد على صحته ، الموفقون من أهل الكتاب ، الذين عندهم من الحق ، ما يعرفون أنه الحق ، فآمنوا به واهتدوا ، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء ، واستكبرتم ، أيها الجهلاء الأغبياء ، فهل هذا إلا أعظم الظلم ، وأشد الكفر ؟ .

[ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ] ومن الظلم ، الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا

---

* أى : قال الكفار بالحق ، معاندين له ، ورادّين لدعوته :

[ لو كان خيرا ما سبقونا إليه ] أى : ما سبقنا إليه المؤمنون ، وكنا أول مبادر به ، وسابق إليه ، وهذا من البهرجة ، فى مكان .

فأى دليل ، يدل على أن علامة الحق ، سبق المكذبين به ، للمؤمنين ؟

هل هم أزكى نفوسا ؟ أم أكمل عقولا ، أم الهدى بأيديهم ؟

ولكن هذا الكلام الذى صدر منهم ، يعزون به أنفسهم ، بمنزلة من لم يقدر على الشيء ، ثم طفق يذمه ، ولهذا قال :

[ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ] أى : هذا السبب الذى دعاهم إليه ، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن ، وفاتهم أعظم المواهب ، وأجل الرغائب ، قدحوا فيه ، بأنه كذب ، وهو الحق الذى لا شك فيه ، ولا امتراء يعتريه .

[ و ] قد وافق الكتب السماوية [ من قبله ] خصوصاً ، أكملها ، وأفضلها بعد القرآن ، وهى التوراة [ كتاب موسى إماماً ورحمة ] .

أى : يقتدى بها بنو إسرائيل ، ويهتدون بها ، ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة .

كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

---

[ وهذا ] القرآن [ كتاب مصدق ] للكتب السابقة ، شهد بصدقها ، وصدَّقها ، بموافقته لها ، وجعله الله [ لسانا عربيا ] ليسهل تناوله ، ويتيسر تذَكُّره .

[لينذر الذين ظلموا] أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان ، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل .

[ وبشرى ] للمحسنين ] فى عبادة الخالق ، وفى نفع المخلوقين ، بالثواب الجزيل ، فى الدنيا والآخرة ، ويذكر الأعمال ، التى ينذر عنها ، والأعمال التى يبشر بها .

* أى : إن الذين أقروا بربهم ، وشهدوا له بالوحدانية ، والتزموا طاعته وداموا على ذلك [ ثم استقاموا ] مدة حياتهم [ فلا خوف عليهم ] من كل شر أمامهم .

[ ولا هم يحزنون ] على ما خلَّفوا وراءهم .

[ أولئك أصحاب الجنة ] أى : أهلها الملازمون لها ، الذين لا يبغون عنها حولا ، ولا يريدون بها بدلا .

[ خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ] من الإيمان بالله ، المقتضى للأعمال الصالحة ، التى استقاموا عليها .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ

---

* هذا من لطفه تعالى بعباده، وشكره للوالدين، أن وصَّى الأولاد، وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم، بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك، من وجوه الإحسان.

ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها ثم مشقة ولادتها، المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة.

وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة، أو ساعتين.

وإنما ذلك أى: [حمله وفصاله] مدة طويلة قدرها [ثلاثون شهرا]: الحمل، تسعة أشهر ونحوها، والباقى للرضاع، هذا هو الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » أن أقل مدة الحمل، ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهى سنتان - إذا سقطت من الثلاثين شهرا، بقى ستة أشهر مدة للحمل.

[حتى إذا بلغ أشده] أى: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله.

[وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى] أى: ألهمنى ووفقنى [أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى] أى: نعم الدين، ونعم الدنيا.

وشكره، بصرف النعم فى طاعة مسديها ومُوليها، ومقابلته على مِنَّتِهِ، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد فى الثناء بها على الله.

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ
ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

---

والنعم على الوالدين ، نعم على أولادهم وذريتهم ، أنهم لابد أن ينالهم منها ، ومن أسبابها وآثارها .

خصوصاً ، نعم الدين ، فإن صلاح الوالدين ، بالعلم والعمل ، من أعظم الأسباب ، لصلاح أولادهم .

[ وأن أعمل صالحاً ترضاه ] بأن يكون جامعاً لما يصلحه ، سالماً مما يفسده .

فهذا العمل الذى يرضاه الله ويقبله ، ويثيب عليه .

[ وأصلح لى فى ذريتى ] لما دعا لنفسه بالصلاح ، دعا لذريته ، أن يصلح الله أحوالهم .

وذكر ، أن صلاحهم ، يعود نفعه على والديهم ، لقوله « وأصلح لى »

[ إنى تبت إليك ] من الذنوب والمعاصى ، ورجعت إلى طاعتك [ وإنى من المسلمين[1] أولئك ] الذين ذكرت أوصافهم [ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ] وهو الطاعات ، لأنهم يعملون أيضا غيرها .

---

(١) أى : الذين أخلصوا لك وأسلموا أنفسهم إليك .

[ ونتجاوز عن سيئاتهم فى ] جملة [ أصحاب الجنة ] ، فحصل لهم الخير والمحبوب ، وزال عنهم الشر والمكروه .

[ وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ] أى : هذا الوعد الذى وعدناهم هو وعد من أصدق القائلين ، الذى لا يخلف الميعاد .

* لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه ، ذكر حالة العاق ، وأنها شر الحالات فقال :

[ والذى قال لوالديه ] إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وخوفاه الجزاء .

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما ، أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية ، وفلاحه السرمدى ، فقابلهما بأقبح مقابلة فقال :

[ أف[1] لكما ] أى : تبًّا لكما ولما جئتما به .

---

(١) أف : وهو صوت إذا صوّت به الإنسان ، علم أنه متضجر ، كما إذا قال « حَسّ » علم أنه متوجع .

واللام لبيان المؤفف له ، كما فى « هيت لك » أى : هذا التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما ، دون غيركما . اهـ . نسفى وأبو السعود بتصرف يسير .

وفى الجلالين . أف . بكسر الفاء وفتحها بمعنى مصدر . أى : نتناً وقبحا . اهـ .

وفى « غريب القرآن » لمحمد منير الدمشقى . « يقال لكل مستخف به ، استقذاراً . وأصل « الأف » كل مستقذر من وسخ وغيره .

وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾

---

ثم ذكر استبعاده وإنكاره لذلك فقال :

[ أتعدانني أن أخرج ] من قبرى إلى يوم القيامة [ وقد خلت القرون من قبلى ] على التكذيب ، وسلفوا على الكفر ، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور ، وجهول ، ومعاند ؟ .

[ وهما ] أى : والداه [ يستغيثان الله ] عليه ويقولان له :

[ ويلك آمن ] أى : يبذلان غاية جهدهما ، ويسعيان فى هدايته ، أشد السعى ، حتى إنهما ـ من حرصهما عليه ـ يستغيثان الله له ، استغاثة الغريق ويسألانه ، سؤال الشريق ، ويعذلان ولدهما ، ويتوجعان له ، ويبينان له الحق ، فيقولان :

[ إن وعد الله حق ] ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما .

وولدهما ، لا يزداد إلا عتواً ، ونفوراً ، واستكباراً عن الحق ، وقدحاً فيه .

[ فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ] أى : إلا منقول من كتب المتقدمين ، ليس من عند الله ، ولا أوحاه الله إلى رسوله .

وكل أحد يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، أُمِّىٌّ ، لا يكتب ، ولا يقرأ ولم يتعلم من أحد .

فمن أين يتعلمه ؟ وأنَّى للخلق ، أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟ .

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِـكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

---

[ أولئك الذين ] بهذه الحالة الذميمة [ حق عليهم القول ] أى : حقت عليهم كلمة العذاب [ فى ] جملة [ أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ] على الكفر والتكذيب ، فسيدخل هؤلاء فى غمارهم ، ويغرقون فى تيارهم .

[ إنهم كانوا خاسرين ] والخسران : فوات رأس مال الإنسان ، وإذا فقد رأس ماله ، فالأرباح من باب أولى وأحرى .

فهم قد فاتهم الإيمان ، ولم يحصلوا شيئا من النعيم ، ولا سلموا من عذاب الجحيم .

[ ولكل ] من أهل الخير وأهل الشر [ درجات مما عملوا ] .

أى : كُلٌّ على حسب مرتبته ، من الخير والشر ، ومنازلهم فى الدار الآخرة ، على قدر أعمالهم ، ولهذا قال :

[ وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ] بأن لا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى، حال الكفار عند عرضهم على النار ، حين يوبخون ، ويقرعون ، فيقال لهم :

[ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ] حيث اطمأننتم إلى الدنيا ، واغتررتم بلذاتها ، ورضيتم بشهواتها ، وألهتكم طيباتها عن السعى لآخرتكم [ واستمتعتم بها ] كما تتمتع الأنعام السارحة ، فهى حظكم من آخرتكم .

[ فاليوم تجزون عذاب الهون ] أى : العذاب الشديد ، الذى يهينكم ويفضحكم .

[بما كنتم تستكبرون على الله بغير الحق ] أى تنسبون الطريق الضالة ، التى أنتم عليها إلى الله ، وإلى حكمه ، وأنتم كذبة فى ذلك .

[ وبما كنتم تفسقون ] أى : تتكبرون « وتخرجون » عن طاعته .

فجمعوا بين قول الباطل ، والعمل بالباطل،والكذب على الله ،والقدح فى الحق ، والاستكبار عنه ، فعوقبوا أشد العقوبة .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا

---

* أى [ واذكر ] بالثناء الجميل [ أخا عاد ] ، وهو : هود عليه السلام ، حيث كان من الرسل الكرام ، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه ، وإرشاد الخلق إليه .

[ إذ أنذر قومه ] وهم عاد [ بالأحقاف ] أى : فى منازلهم المعروفة بالأحقاف ، وهى : الرمال الكثيرة فى أرض اليمن .

[ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ] فلم يكن بدعا منهم ، ولا مخالفا لهم .

قائلا لهم : [ أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ] .

فأمرهم بعبادة الله ، الجامعة لكل قول سديد ، وعمل حميد .

ونهاهم عن الشرك والتنديد ، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة .

[ قالوا أجئتنا لتأفكنا(١) عن آلهتنا ] أى . ليس لك من القصد ، ولا معك من الحق ، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا ، فأردت أن تصرفنا عنها .

---

(١) لتأفكنا . أى لتصرفنا عن عبادة آلهتنا .

عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ

---

[ فأتنا بما تعدنا[١] إن كنت من الصادقين[٢] ] وهذا غاية الجهل والعناد [ قال إنما العلم[٣] عند الله ] فهو الذى بيده أزمة الأمور ومقاليدها وهو الذى يأتيكم بالعذاب إن شاء .

[ وأبلغكم ما أرسلت به ] أى ليس علىّ إلا البلاغ المبين .

[ ولكنى أراكم قوما تجهلون[٤] ] فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة .

فأرسل الله عليهم العذاب العظيم ، وهو الريح التى دمرتهم وأهلكتهم .

ولهذا قال : [ فلما رأوه ] أى : العذاب [ عارضا مستقبل أوديتهم ]

---

(١) بما تعدنا . أى : من العذاب العظيم .

(٢) فى وعيدك ، ووعدك ، بنزوله بنا .

(٣) أى : العلم بجميع الأشياء ، التى من جملتها ، وقت نزول عذاب الله بكم .

(٤) أى : ولكنكم تجهلون ما تبعث به الرسل ، لأن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه ، وليس من وظيفتهم الإتيان بالعذاب ، ولا تعيين وقت نزوله .

مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ
كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ

---

أى : معترضا كالسحاب ، قد أقبل على أوديتهم ، التى تسيل ، فتسقى مزارعهم ، ويشربون من آبارها ، وغُدْرانِها .

[ قالوا ] مستبشرين : [ هذا عارض ممطرنا ] أى : هذا السحاب سيمطرنا .

قال تعالى : [ بل هو ما استعجلتم به ] أى : هذا الذى جنيتم به على أنفسكم ، حيث قلتم :

« فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

[ ريح فيها عذاب أليم تدمر[1] كل شىء ] تمر عليه ، من شدتها ونحسها .

فسلطها الله عليهم سبع ليالى ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية [ بأمر ربها ] أى : بإذنه ومشيئته .

[ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ] قد تلفت مواشيهم ، وأموالهم ، وأنفسهم .

[ كذلك نجزى القوم المجرمين ] بسبب جرمهم وظلمهم .

---

( ١ ) تدمر . أى : تهلك الريح بأمر ربها من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير .

فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

---

هذا مع أن الله قد أدرّ عليهم النعم العظيمة ، فلم يشكروه ، ولا ذكروه ، ولهذا قال :

[ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ] أى : مكناهم فى الأرض ، ينالون طيباتها ، ويتمتعون بشهواتها ، وعمرناهم عمراً ، يتذكر فيه من تذكر ، ويتعظ فيه المهتدى .

أى: ولقد مكنا عادا ، كما مكناكم ياهؤلاء المخاطبون ، أى : فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه ، مختص بكم ، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً .

بل غيركم ، أعظم منكم تمكينا ، فلم تغن عنهم أموالهم ، ولا أولادهم ، ولا جنودهم ، من الله شيئاً .

[ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ] أى : لا قصور فى أسماعهم ، ولا أبصارهم ، ولا أذهانهم ، حتى يقال : إنهم تركوا الحق ، جهلا منهم ، وعدم تمكن من العلم به ، ولا خلل فى عقولهم ، ولكن التوفيق بيد الله .

[ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ] لا قليل ولا كثير .

[ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ] الدالة على توحيده ، وإفراده بالعبادة .

[ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ] أى : نزل بهم العذاب ، الذى يكذبون بوقوعه ، ويستهزئون بالرسل ، الذين حذروهم منه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

يحذر تعالى ، مشركى العرب وغيرهم ، بإهلاك الأمم المكذبين ، الذين هم حول ديارهم .

بل كثير منهم فى جزيرة العرب ، كعاد ، وثمود ، ونحوهم ، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات ، أى: نوّعها من كل وجه .

[ لعلهم يرجعون ] عماهم عليه ، من الكفر والتكذيب .

فلما لم يؤمنوا ، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، ولم تنفعهم آلهتهم التى يدعون من دون الله ، من شىء ، ولهذا قال هنا :

[ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ] أى : يتقربون إليهم ، ويتألهونهم لرجاء نفعهم .

[ بل ضلوا[1] عنهم ] فلم يجيبوهم ، ولا دفعوا عنهم .

[ وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ] من الكذب ، الذى يمنون به أنفسهم ، حيث يزعمون أنهم على الحق ، وأن أعمالهم ستنفعهم ، فضلت وبطلت .

كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، إلى الخلق ،

---

( ١ ) أى : غابت عنهم آلهتهم أحوج ما كانوا إلى النصرة .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

---

إنسهم وجنهم ، وكان لا بد من إبلاغ الجميع ، لدعوة النبوة والرسالة .

فالإنس يمكنه ، عليه الصلاة والسلام ، دعوتهم وإنذارهم .

وأما الجن ، فصرفهم الله إليه بقدرته ، وأرسل إليه [ نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ] وصَّى بعضهم بعضا بذلك .

[ فلما قضى[1] ] وقد وعوه ، وأثَّر ذلك فيهم [ ولوا إلى قومهم منذرين ] نصحا منهم لهم ، وإقامة للحجة عليهم ، وقيضهم الله ، معونة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فى نشر دعوته فى الجن .

[ قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ] لأن كتاب موسى أصل . للإنجيل ، وعمدة لبنى إسرائيل ، فى أحكام الشرع .

وإنما الإنجيل ، متمم ، ومكمل ومغير لبعض الأحكام .

[ مصدقا لما بين يديه يهدى ] هذا الكتاب الذى سمعناه [ إلى الحق ] وهو : الصواب فى كل مطلوب وخبر [ وإلى صراط مستقيم ] موصل إلى الله ، وإلى جنته ، من العلم بالله ، وبأحكامه الدينية ، وأحكام الجزاء .

---

( ١ ) أي : فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من قراءة القرآن للجن .

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

---

فلما مدحوا القرآن ، وبينوا محله ومرتبته ، دعوهم إلى الإيمان به ، فقالوا :

[ ياقومنا أجيبوا داعى الله ] أى : الذى لا يدعو إلا إلى ربه ، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ، ولا هوى ، وإنما يدعوكم إلى ربكم ، ليثيبكم ، ويزيل عنكم كل شر ومكروه .

ولهذا قالوا :

[ وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ] وإذا أجارهم من العذاب الأليم ، فما ثَمَّ بعد ذلك ، إلا النعيم ، فهذا جزاء من أجاب داعى الله .

[ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ] فإن الله على كل شيء قدير ، فلا يفوته هارب ، ولا يغالبه مغالب .

[ وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ] وأى : ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ، ووصلت إليه النذر ، بالآيات البينات ، والحجج المتواترات ، فأعرض واستكبر ؟ ! ! .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

---

* هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت ، بما هو أبلغ منها وهو : أنه الذى خاق السموات والأرض ، على عِظَمِهِمَا وسعتهما ، وإتقان خلقهما ، من دون أن يكترث بذلك ولم يَعْىَ بخلقهن .

فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم ، وهو على كل شيء قدير ؟ ! ! .

* يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة ، عند عرضهم على النار ، التى كانوا يكذبون بها ، وأنهم يوبخون ويقال لهم :

[ أليس هذا بالحق ] فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً ؟

[ قالوا : بلى وربنا ] .

فاعترفوا بذنبهم ، وتبين كذبهم .

[قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ] أى : عذاباً لا زماً دائما ، كما كان كفركم صفة لازمة .

ثم أمر تعالى رسوله ، أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له ، وأن

وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً

---

لا يزال داعيا لهم إلى الله ، وأن يقتدى بصبر أولى العزم من المرسلين ، سادات الخلق ، أولى العزائم ، والهمم العالية ، الذين عظم صبرهم ، وتم يقينهم .

فهم أحق الخلق بالأسوة بهم ، والقفو لآثارهم ، والاهتداء بمنارهم .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، فصبر صبراً ، لم يصبره نبي قبله ، حتى رماه المعادون له ، عن قوس واحدة .

قاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله ، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة .

وهو صلى الله عليه وسلم ، لم يزل صادعا بأمر الله مقيما على جهاد أعداء الله ، صابراً على ما يناله من الأذى .

حتى مكّن الله له فى الأرض ، وأظهر دينه على سائر الأديان ، وأمته على سائر الأمم .

فصلى الله عليه وسلم تسليما .

وقوله : [ ولا تستعجل لهم ] أى : المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم . فلا يستخفنك جهلهم ولا يحملك[1] ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك ، فإن كل ما هو آت قريب .

[ كأنهم حين يرون مايوعدون لم يلبثوا ] فى الدنيا [ إلا ساعة من نهار ] فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل

---

(١) قوله « ولا يحملك » هكذا فى الأصل . والصواب « ولا يحملنك » ليتناسب مع ما قبله .

مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

[ بلاغ ] أى : هذه الدنيا ، متاعها ، وشهوتها ، ولذاتها ، بلغة منغصة ، ودفع وقت حاضر قليل .

وهذا القرآن العظيم ، الذي بيّناً لكم فيه البيان التام ، بلاغ لكم ، وزاد إلى الدار الآخرة .

ونعم الزاد والبلغة ، زاد يوصل إلى دار النعيم ، ويعصم من العذاب الأليم .

فهو أفضل زاد ، يتزوده الخلائق ، وأجل نعمة ، أنعم الله بها عليهم .

[ فهل يهلك ] بالعقوبات [ إلا القوم الفاسقون ] أى : الذين لا خير فيهم ، وقد خرجوا عن طاعة ربهم ، ولم يقبلوا الحق الذى جاءتهم به الرسل .

وأعذر الله لهم ، وأنذرهم ، فاستمروا على تكذيبهم وكفرهم ، نسأل الله العصمة .

تم تفسير سورة الأحقاف - بحول الله وتوفيقه .

# تفسير

# سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ

---

* [هذه الآيات، مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين، وعقاب العاصين.

والسبب فى ذلك، دعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال:

[الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله] وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم، عن سبيل الله، التى هى الإيمان، بما دعت إليه الرسل وأتباعه.

فهؤلاء [أضل الله أعمالهم] أى: أبطلها وأشقاهم بسببها.

وهذا يشمل أعمالهم، التي عملوها، ليكيدوا بها الحق، وأولياء الله.

إن الله جعل كيدهم فى نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا، شيئاً.

وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، إن الله سيحبطها عليهم.

والسبب فى ذلك، أنهم اتبعوا الباطل، وهو: كل غاية، لا يراد

عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

---

بها وجه الله ، من عبادة الأصنام والأوثان .

والأعمال التي فى نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة .

[ والذين آمنوا ] بما أنزل الله على رسله عموما ، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خصوصا ، [ وعملوا الصالحات ] بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله ، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة .

[ كفر الله عنهم سيئاتهم ] صغارها وكبارها .

وإذا كفرت سيئاتهم ، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة .

[ وأصلح بالهم ] أى : أصلح دينهم ودنياهم ، وقلوبهم ، وأعمالهم وأصلح ثوابهم ، بتنميته وتزكيته ، وأصلح جميع أحوالهم .

والسبب فى ذلك ، أنهم اتبعوا [ الحق ] الذى هو الصدق واليقين ، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم ، الصادر [من ربهم] الذى رباهم بنعمته ، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق ، فاتبعوه ، فصلحت أمورهم .

فلما كانت الغاية المقصودة لهم ، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقى ، الحق المبين ، كانت الوسيلة صالحة باقية ، باقيا ثوابها .

[ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ] حيث بيّن لهم تعالى ، أهل الخير وأهل الشر .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن

---

وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة » .

* يقول تعالى ـ مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم ، ونصرهم على أعدائهم :

[ فإذا لقيتم الذين كفروا ] فى الحرب والقتال ، فاصدقوهم القتال ، واضربوا منهم الأعناق .

[ حتى إذا أثخنتموهم ] وكسرتم شوكتهم ، ورأيتم الأسر أولى وأصلح .

[ فشدوا الوثاق ] أى : الرباط ، وهذا احتياط لأسرهم ، لئلا يهربوا ، فإذا اشتد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من حربهم ، ومن شرهم .

فإذا كانوا تحت أسركم ، فأنتم بالخيار بين المن عليهم ، وإطلاقهم بلا مال .

[ فإما منا بعد وإما فداء ] بأن لا تطلقوهم ، حتى يشتروا أنفسهم ، أو يشتريهم أصحابهم بمال ، أو بأسير مسلم عندهم .

وهذا الأمر مستمر [ حتى تضع الحرب أوزارها ] أى : حتى لا يبقى حرب ، وتبقون فى المسالمة والمهادنة ، فإن لكل مقام مقالاً ، ولكل حال حكما .

فالحال المتقدمة ، إنما هى إذا كان قتال وحرب .

لِيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

---

فإذا كان فى بعض الأوقات ، لاحرب فيه لسبب من الأسباب ، فلا قتل ولاأسر .

[ ذلك ] الحكم المذكور فى ابتلاء المؤمنين بالكافرين ، ومداولة الأيام بينهم ، وانتصار بعضهم على بعض [ ولو يشاء الله لانتصر منهم ] فإنه تعالى على كل شيء قدير ، وقادر على أن لا ينتصر الكفار فى موضع واحد أبدا ، حتى يبيد المسلمون خضراءهم .

[ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ] ليقوم سوق الجهاد ، وتتبين بذلك أحوال العباد ، الصادق من الكاذب ، وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا ، عن تبصرة ، لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة ، فإنه إيمان ضعيف جدا ، لا يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا .

[والذين قتلوا فى سبيل الله] لهم ثواب جزيل ، وأجر جميل ، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم ، لتكون كلمة الله هى العليا .

[ فلن يضل ] الله [ أعمالهم ] أى : لن يحبطها ويبطلها ، بل يتقبلها ، وينميها لهم ، ويظهر من أعمالهم نتائجها ، فى الدنيا والآخرة .

[ سيهديهم ] إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة .

[ ويصلح بالهم ] أى : حالهم وأمورهم ، وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه ، ولا تنغيص ، بوجه من الوجوه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

---

[ ويدخلهم الجنة عرفها[1] لهم ] أى : عرفها أولا ، بأن شوقهم إليها ، ونعتها لهم ، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها ، التى من جملتها ، الشهادة فى سبيل الله ، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه .

ثم إذا دخلوا الجنة ، عرفهم منازلهم ، وما احتوت عليه ، من النعيم المقيم ، والعيش السليم .

* هذا أمر منه تعالى للمؤمنين ، أن ينصروا الله ، بالقيام بدينه ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، وأن يقصدوا بذلك وجه الله .

فإنهم إذا فعلوا ذلك ، نصرهم ، وثبت أقدامهم ، أى : يربط على قلوبهم بالصبر ، والطمأنينة ، والثبات ، ويصبر أجسادهم على ذلك ، ويعينهم على أعدائهم .

فهذا وعد ، من كريم صادق الوعد ، أن الذى ينصره بالأقوال والأفعال ، سينصره مولاه ، وييسر له أسباب النصر ، من الثبات وغيره .

---

(١) عن مجاهد : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا عنها ، أو طيبها لهم من « العرف » ( بفتح العين وسكون الراء ) وهو : طيب الرائحة . اهـ . نسفى .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

---

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، « فتعساً[1] لهم » فإنهم فى تعس أى: انتكاس من أمرهم وخذلان.

[ وأضل أعمالهم ] أى أبطل أعمالهم التى يكيدون بها الحق.

فرجع كيدهم فى نحورهم، وبطلت أعمالهم، التى يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس، للذين كفروا، بسبب أنهم [ كرهوا ما أنزل الله ] من القرآن، الذى أنزله، صلاحاً للعباد، وفلاحا لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه [ فأحبط أعمالهم ].

---

(١) التعس: الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس. وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعاً ( أى: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: تعس تعسا ) أى: فقال تعساً لهم، أو فقضى تعسا لهم. اهـ. أبو السعود.

وفى المختار من الصحاح: التعس: الهلاك، وأصله: الكب وهو ضد الانتعاش، وقد تعس، من باب قطع ومن باب تعب، وأتعسه الله.
ويقال: تعساً لفلان. أى: ألزمه الله هلاكاً.

وفى « مفردات الراغب » التعس: أن لا ينتعش من العثرة وأن ينكسر فى سفال، وتعس تعساً وتعسة.

وفى الجلالين فتعساً لهم. أى: هلاكا وخيبة من الله لهم.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

---

* أى : أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول صلى الله عليه وسلم، [ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ] فإنهم لا يجدون عاقبتهم، إلا شر العواقب .

فإنهم لا يلتفون يمنة ولا يسرة ، إلا وجدوا من كان قبلهم، قد بادوا وهلكوا ، واستأصلهم التكذيب والكفر ، فخمدوا ، ودمَّر الله عليهم أموالهم وديارهم ، بل دمر أعمالهم ومكرهم .

وللكافرين فى كل زمان ومكان ، أمثال هذه العواقب الوخيمة ، والعقوبات الذميمة .

وأما المؤمنون ، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب ، ويجزل لهم كثير الثواب .

[ ذلك بأن الله مولى[1] الذين آمنوا ] فتولاهم برحمته ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتولى جزاءهم ، ونصرهم .

[ وأن الكافرين ] بالله تعالى ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته [ لا مولى لهم ] يهديهم إلى سبل السلام ، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه .

بل أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

---

(١) أى : إن الله ولى المؤمنين ، يتولى شئونهم ، ويرعاهم وينصرهم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ
أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى أنه ولى المؤمنين ، ذكر ما يفعل بهم فى الآخرة ، من دخول الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، التى تسقى تلك البساتين الزاهرة ، والأشجار الناضرة المثمرة ، بكل زوج بهيج ، وكل فاكهة لذيذة .

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم ، ذكر أنهم وُكِلوا إلى أنفسهم فلم يتصفوا بصفات المروءة ، ولا الصفات الإنسانية .

بل نزلوا عنها دركات ، وصاروا كالأنعام ، التى لا عقل لها ولا فضل بل جُلُّ همهم ومقصدهم ، التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة ، دائرة حولها ، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة ، ولهذا كانت النار مثوى لهم ، أى : منزلا معدا ، لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم من عذابها .

* أى : وكم من قرية من قرى المكذبين ، هى أشد قوة من قريتك ، فى الأموال ، والأولاد ، والأعوان ، والأبنية ، والآلات .

أهلكناهم ، حين كذبوا رسلنا ، ولم تفد فيهم المواعظ ، فلا تجد لهم ناصرا ، ولم تغن عنهم قوتهم ، من عذاب الله شيئا .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ

---

فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، أهل قريتك ، إذا أخرجوك عن وطنك وكذبوك ، وعادوك ، وأنت أفضل المرسلين ، وخير الأولين والآخرين ؟ !

أليسوا بأحق من غيرهم ، بالإهلاك والعقوبة ، لولا أن الله تعالى ، بعث رسوله بالرحمة والتأنى ، بكل كافر وجاحد ؟

* أى : لا يستوى من هو على بصيرة من أمر دينه ، علما ، وعملا ، قد علم الحق واتبعه ، ورجا ما وعده الله لأهل الحق .

كمن هو أعمى القلب ، قد رفض الحق وأضله ، واتبع هواه بغير هدى من الله .

ومع ذلك ، يرى أن ما هو عليه ، هو الحق .

فما أبعد الفرق بين الفريقين ! ، وما أعظم التفاوت بين الطائفتين ، أهل الحق ، وأهل الغىّ !

* [ مثل الجنة التى وعد المتقون ] أى : التى أعدها الله لعباده ، الذين اتقوا سخطه ، واتبعوا رضوانه ، أنها من نعتها ، وصفتها الجميلة .

[ فيها أنهار من ماء غير آسن ] أى . غير متغير ، لا بوخم ، ولا بريح منتنة ، ولا بحرارة ، ولا بكدورة بل هو أعذب المياه وأصفاها ، وأطيبها ريحا ، وألذها شربا .

غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

---

[ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ] بحموضة ولا غيرها .

[ وأنهار من خمرة لذة للشاربين ] أى . يلتذ بها ، لذة عظيمة ، لا كخمر الدنيا ، التى يكره مذاقها ، وتصدع الرأس ، وتغول العقل .

[ وأنهار من عسل مصفى ] من شمعه ، وسائر أوساخه .

[ ولهم فيها من كل الثمرات ] من نخيل ، وعنب ، وتفاح ، ورمان ، وأترج ، وتين ، وغير ذلك ، مما لا نظير له فى الدنيا ، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم .

ثم قال : [ ومغفرة من ربهم ] يزول بها عنهم المرهوب .

فهؤلاء خير ، أم [ كمن هو خالد فى النار ] التى اشتد حرها ، وتضاعف عذابها .

[ وسقوا ] فيها [ ماء حميا ] أى : حاراً جداً [ فقطع أمعاءهم ] .

فسبحان من فاوت بين الدارين ، والجزاءين ، والعاملين ، والعملين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : ومن المنافقين [ من يستمع إليك ] ما تقول ، استماعاً ، لا عن قبول وانقياد ، بل معرضة قلوبهم عنه ، ولهذا قال :

[ حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ] مستفهمين عما قلت ، وما سمعوا ، مما لم يكن لهم فيه رغبة [ ماذا قال آنفا ] أى : قريبا .

وهذا فى غاية الذم لهم ، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير ، لألقوا إليه أسماعهم ، ووعته قلوبهم ، وانقادت له جوارحهم ، ولكنهم بعكس هذه الحال ، ولهذا قال :

[ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ] أى : ختم عليها ، وسد أبواب الخير ، التى تصل إليها ، بسبب اتباعهم أهواءهم ، التى لا يهوون فيها ، إلا الباطل .

ثم بين حال المهتدين فقال : [ والذين اهتدوا ] بالإيمان والانقياد ، واتباع ما يرضى الله [ زادهم هدى ] شكراً منه تعالى على ذلك ، [ وآتاهم تقواهم ] أى : وفقهم للخير ، وحفظهم من الشر .

فذكر للمهتدين جزاءين : العلم النافع ، والعمل الصالح .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

---

* أى: فهل ينظر هؤلاء المكذبون ، أو ينتظرون [إلا الساعة أن تأتيهم بغتة] أى : فجأة ، وهم لا يشعرون [ فقد جاء أشراطها ] أى : علاماتها الدالة على قربها .

[فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ] أى : من أين لهم ، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم ، أن يتذكروا ويستعتبوا ؟

فقد فات ذلك ، وذهب وقت التذكر ، فقد عمروا ، ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءهم النذير .

ففى هذا ، الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت ،فإن موت الإنسان قيام ساعته .

* العلم ، لابد فيه من إقرار القلب ، ومعرفته ، بمعنى ما طلب منه علمه .

وتمامه ، أن يعمل بمقتضاه .

وهذا العلم ، الذى أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فرض عين على كل إنسان ، لا يسقط عن أحد ، كائنا من كان ، بل كل مضطر إلى ذلك .

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله ، أمور :

أحدها ـ بل أعظمها ـ : تدبر أسمائه وصفاته ، وأفعاله الدالة على كماله ، وعظمته ، وجلاله .

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

---

فإنها توجب بذل الجهد فى التأله له ، والتعبد للرب الكامل ، الذى له كل حمد ومجد ، وجلال وجمال .

الثانى : العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير .

فيعلم بذلك ، أنه المنفرد بالألوهية .

الثالث : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية .

فإن ذلك ، يوجب تعلق القلب به ، ومحبته ، والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع : ما نراه ونسمعه ، من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده ، من النصر ، والنعم العاجلة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فإن هذا ، داع إلى العلم ، بأنه تعالى وحده ، المستحق للعبادة كلها .

الخامس : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد ، التى عبدت مع الله ، واتخذت آلهة ، وأنها ناقصة من جميع الوجوه ، فقيرة بالذات ، لا تملك لنفسها ولا لعابديها ، نفعاً ولا ضرًا ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ، ولا ينصرون من عبدهم ، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة ، من جلب خير ، أو دفع شر .

فإن العلم بذلك ، يوجب العلم ، بأنه لا إله إلا الله ، وبطلان إلهية ما سواه .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك ، وتواطؤها عايه .

السابع : أز خواص الخلق ، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ،

. . . . . . . . . . .

---

ورأياً ، وصواباً ، وعلماً ـ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ـ قد شهدوا لله بذلك .

الثامن : ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية ، التى تدل على التوحيد أعظم دلالة .

تنادى عليه بلسان حالها ، بما أودعها من لطف صنعته ، وبديع حكمته، وغرائب خلقه .

فهذه الطرق ، التى أكثر الله من دعوة الخلق بها ، إلى أنه لا إله إلا الله ، وأبداها فى كتابه ، وأعادها ، عند تأمل العبد فى بعضها ، لا بد أن يكون عنده يقين ، وعلم بذلك .

فكيف ، إذا اجتمعت وتواطأت ، واتفقت ، وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب .

فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك ، فى قلب العبد ، بحيث يكون كالجبال الرواسى ، لا تزلزله الشبه والخيالات ، ولا يزداد — على تكرر الباطل والشبه — إلا نمواً وكمالا .

هذا ، وإن نظرت إلى الدليل العظيم ، والأمر الكبير ـ وهو تدبر هذا القرآن العظيم ، والتأمل فى آياته ـ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ، ما لا يحصل فى غيره .

. . . . . . . . . . .

وقوله [ واستغفر لذنبك[1] ] أى : اطلب من الله المغفرة لذنبك ، بأن تفعل أسباب المغفرة ، من التوبة ، والدعاء بالمغفرة ، والحسنات الماحية ، وترك الذنوب ، والعفو عن الجرائم .

[ و ] استغفر أيضاً [ للمؤمنين والمؤمنات ] فإنهم – بسبب إيمانهم – كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة .

ومن جملة حقوقهم ، أن يدعى لهم ، ويستغفر لذنوبهم .

وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم ، المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم ، فإن من لوازم ذلك ، النصح لهم ، وأن يحب لهم من الخير ، مايحب لنفسه ، ويكره لهم من الشر ، ما يكره لنفسه ، ويأمرهم بما فيه الخير لهم ، وينهاهم عما فيه ضررهم ، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم ، ويحرص على

---

( ١ ) قد علم من علم التوحيد أن الأنبياء – بالإجماع – معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها .

والمراد هنا – كما قال أبو السعود فى تفسيره : « وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى .

عبر عنه بالذنب ، نظراً إلى منصبه الجليل ، وإرشاداً له عليه الصلاة والسلام ، إلى التواضع ، وهضم النفس ، واستقصار العمل » اهـ . المراد منه .

وفي النسفى « ذنب الأنبياء ، ترك الأفضل ، دون مباشرة القبيح . وذنوبنا مباشرة القبائح ، من الصغائر والكبائر » اهـ . المراد منه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

اجتماعهم ، اجتماعاً تتألف به قلوبهم ، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق ، الذى به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم .

[ والله يعلم متقلبكم ] أى : تصرفاتكم وحركاتكم ، وذهابكم ومجيئكم .

[ ومثواكم ] الذى به تستقرون ، فهو يعلمكم فى الحركات والسكنات فيجازيكم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

* يقول تعالى : [ ويقول الذين آمنوا ] استعجالا ومبادرة للأوامر الشاقة :

[ لولا نزلت سورة ] أى : فيها الأمر بالقتال .

[ فإذا أنزلت سورة محكمة ] أى : ملزم العمل بها [ وذكر فيها القتال ] الذى هو أشق شىء على النفوس ، لم يثبت ضعفاء الإيمان ، على امتثال هذه الأوامر ، ولهذا قال :

[ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ] من كراهتهم لذلك ، وشدته عليهم .

وهذا كقوله تعالى « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم فقال :

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ

---

[ فأولى لهم طاعة وقول معروف ] أى : فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم ، ويجمعوا عليه هممهم ، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم ، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه .

[ فإذا عزم الأمر ] أى : جاءهم أمر جد،وأمر محتم [ فلو صدقوا الله ] فى هذه الحال بالاستعانة به ، وبذل الجهد فى امتثاله [ لكان خيرا لهم ]من حالهم الأولى ، وذلك من وجوه .

منها : أن العبد ناقص من كل وجه ، لا قدرة له ، إلا إن أعانه الله ، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده .

ومنها : أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ، ضعف عن العمل ، بوظيفة وقته الحاضر ، وبوظيفة المستقبل .

أما الحال ، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره ، والعمل تبع للهمة .

وأما المستقبل ، فإنه لا يجىء حتى تفتر الهمة عن نشاطها ، فلا يعان عليه .

ومنها : أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة ، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر ، شبيه بالمتألى الذى يجزم بقدرته ، على ما يستقبل من أموره .

فأحرى به ، أن يخذل ، ولا يقوم بما همّ به ، وتوعّد نفسه عليه .

فالذى ينبغى ، أن يجمع العبد همه ، وفكرته ، ونشاطه ، على وقته الحاضر ، ويؤدى وظيفته بحسب قدرته .

خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

---

ثم كلما جاء وقت ، استقبله بنشاط ، وهمة عالية مجتمعة ، غير متفرقة ، مستعينا بربه فى ذلك .

فهذا ، أحرى بالتوفيق والتسديد ، فى جميع أموره .

ثم ذكر تعالى المتولِّى عن طاعة ربه ، وأنه لا يتولى إلى خير ، بل إلى شر فقال :

[ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ] .

أى: فهما أمران ، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره ، فثَمَّ الخير والرشد الفلاح .

وإما الإعراض عن ذلك ، والتولِّى عن طاعة الله ، فما ثَمَّ إلا الفساد فى الأرض ، بالعمل بالمعاصى ، وقطيعة الأرحام .

[ أولئك الذين ] أفسدوا فى الأرض ، وقطعوا أرحامهم [ لعنهم الله ] بأن أبعدهم عن رحمته ، وقربوا من سخط الله .

[ فأصمهم وأعمى أبصارهم ] أى : جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ، ولا يبصرونه .

فلهم آذان ، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول ، وإنما تسمع سماعا ، تقوم بها حجة الله عليها .

ولهم أعين ، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات ، ولا يلتفتون بها ، إلى البراهين والبينات .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِلَىٰ

---

* أى : فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ، ويتأملونه حق التأمل.

فإنهم لو تدبروه ، لدلَّهُمْ على كل خير ، ولحذَّرَهُمْ من كل شر ، ولملأ قلوبهم من الإيمان ، وأفئدتهم من الإيقان .

ولأوصلهم إلى المطالب العالية ، والمواهب الغالية .

ولبيَّنَ لهم الطريق الموصلة إلى الله ، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها ، والطريق الموصلة إلى العذاب ، وبأى شيء يحذر .

ولعرّفهم بربهم ، وأسمائه وصفاته ، وإحسانه .

ولشوّقهم إلى الثواب الجزيل ، ورهّبهم من العقاب الوبيل .

[ أم على قلوب أقفالها ] أى : قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة ، والاعتراض ، وأقفلت ، فلا يدخلها خير أبداً ؟ هذا هو الواقع .

* يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان ، على أعقابهم ، إلى الضلال والكفران .

ذلك لا عن دليل دلهم ، ولا برهان ، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم ، وإملاء منه لهم « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

---

و [ ذلك بأنهم ] قد تبين لهم الهدى ، فزهدوا فيه ، ورفضوه ، و[قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ] من المبارزين العداوة لله ، ولرسوله [ سنطيعكم فى بعض الأمر ] أى : الذى يوافق أهواءهم ، فلذلك عاقبهم الله بالضلال ، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى .

[ والله يعلم إسرارهم ] فلذلك فضحهم ، وبينها لعباده المؤمنين ، لئلا يغتروا بها .

[ فكيف ] ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة[ إذا توفتهم الملائكة] الموكلون بقبض أرواحهم [ يضربون وجوههم وأدبارهم ] بالمقامع الشديدة ؟ ! .

[ ذلك ] العذاب الذى استحقوه ونالوه [ بـ ] سبب [ أنهم اتبعوا ما أسخط الله ] من كل كفر وفسوق وعصيان .

[ وكرهوا رضوانه ] فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ، ولا يدنيهم منه .

[ فأحبط أعمالهم ] أى : أبطلها وأذهبها .

وهذا ، بخلاف من اتبع ما يرضى الله ، وكره سخطه ، فإنه سيكفر عنه سيئاته ، ويضاعف له أجره وثوابه .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

* يقول تعالى : [ أم حسب الذين في قلوبهم مرض ] من شبهة أو شهوة بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله .

[ أن لن يخرج الله ] ما فى قلوبهم من [ أضغانهم(١) ] وعداوتهم للإسلام وأهله ؟ هذا ظن ، لا يليق بحكمة الله ، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب .

وذلك بالابتلاء بالمحن ، التى من ثبت عليها ، ودام إيمانه فيها ، فهو المؤمن حقيقه .

ومن ردته على عقبيه ، فلم يصبر عليها ، وحين أتاه الامتحان ، جزع وضعف إيمانه ، وظهر ما فى قلبه من الضغن ، وتبين نفاقه ، هذا مقتضى الحكمة الإلهية .

مع أنه تعالى قال : [ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ] أى : بعلاماتهم التى هى كالرسم فى وجوههم .

---

(١) قال الراغب فى « مفردات ألفاظ القرآن » : الضَّغن ، والضِّغن . ( بفتح الضاد وكسرها ) الحقد الشديد .

يعنى : هل ظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم لرسوله وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة ؟

والمعنى : إن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ
فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

---

[ ولتعرفنهم فى لحن القول(١) ] أى : لابد أن يظهر ما قلوبهم ، ويتبين بفلتات ألسنتهم .

فإن الألسن ، مغارف القلوب ، يظهر فيها ما القلوب ، من الخير والشر [ والله يعلم أعمالكم ] فيجازيكم عليها .

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده ، وهو : الجهاد فى سبيل الله فقال : [ ولنبلونكم ] أى : نختبر إيمانكم وصبركم [ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ] فمن امتثل أمر الله وجاهد فى سبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقا ، ومن تكاسل عن ذلك ، كان ذلك نقصا فى إيمانه .

---

(١) فى لحن القول أى : معناه ، إذا تكلموا عندك بأن يُعَرِّضوا بما فيه تهجين ( تقبيح ) أمر المسلمين اهـ جلالين .

وفي أبى السعود « ولحن القول : نحوه وأسلوبه ، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية . ومنه قيل للمخطىء « لاحن » لعدله بالكلام عن سمت الصواب » . اهـ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها ، من الكفر بالله ، وصد الخلق عن سبيل الله ، الذى نصبه ، موصلا إليه .

[ وشاقوا[1] الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ] أى : عاندوه ، وخالفوه عن عمد وعناد ، لا عن جهل ، وغىٍّ وضلال .

فإنهم [ لن يضروا الله شيئا ] فلا ينقص به ملكه .

[ وسيحبط أعمالهم ] أى : مساعيهم التى بذلوها فى نصر الباطل ، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران ، وأعمالهم التى يرجون بها الثواب ، لاتقبل لعدم وجود شرطها .

---

(١) هذه الآية نزلت فى المشركين الذين كانوا يطعمون إخوانهم المشركين يوم « بدر » أو غزوة بنى قريظة أو بنى النضير فى رواية أخرى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى المؤمنين ، بأمر به تتم وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية ، وهو : طاعته ، وطاعة رسوله ، فى أصول الدين وفروعه .

والطاعة هى: امتثال الأوامر، واجتناب النهى[1] على الوجه المأمور به، بالإخلاص ، وتمام المتابعة .

وقوله : [ ولا تبطلوا أعمالكم ] يشمل النهى عن إبطالها بعد عملها ، بما يفسدها ، من مَنٍّ بها ، وإعجاب ، وفخر ، وسمعة ، ومن عمل بالمعاصى ، التى تضمحل معها الأعمال ، ويحبط أجرها .

ويشمل النهى عن إفسادها ، حال وقوعها ، بقطعها ، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها .

فمبطلات الصلاة ، والصيام ، والحج ، ونحوها ، كلها داخلة فى هذا ، ومنهى عنها .

ويستدل الفقهاء بهذه الآية ، على تحريم قطع الفرض ، وكراهة قطع النفل ، من غير موجب لذلك .

وإذا كان الله ، قد نهى عن إبطال الأعمال ، فهو أمر بإصلاحها ، وإكمالها ، وإتمامها ، والإتيان بها ، على الوجه الذى تصلح به، علماً وعملا .

---

(١) قوله « النهى » هكذا في الأصل ، والصحيح أن يقال « المناهى » ليتناسب مع ما قبله وهى كلمة « الأوامر » .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ

---

* هذه الآية ، والتى فى البقرة وهى قوله تعالى « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » مقيدتان ، لكل نص مطلق ، فيه إحباط العمل بالكفر ، فإنه مقيد بالموت عليه .

فقال هنا : [ إن الذين كفروا ] بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر [ وصدوا ] الخلق [ عن سبيل الله ] بتزهيدهم إياهم بالحق ، ودعوتهم إلى الباطل ، وتزيينه .

[ ثم ماتوا وهم كفار ] لم يتوبوا منه [ فلن يغفر الله لهم ] لا بشفاعة ولا بغيرها .

لأنه قد تحتم عليهم العقاب ، وفاتهم الثواب ، ووجب عليهم الخلود فى النار وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار .

ومفهوم الآية الكريمة ، أنهم ، إن تابوا من ذلك قبل موتهم ، فإن الله يغفر لهم ، ويرحمهم ، ويدخلهم الجنة ، ولو كانوا مفنين أعمارهم فى الكفر به والصد عن سبيله ، والإقدام على معاصيه .

فسبحان ، من فتح لعباده أبواب الرحمة ، ولم يغلقها عن أحد ، ما دام حيا ، متمكناً من التوبة .

وسبحان الحليم ، الذى لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يعاقبهم ، ويرزقهم ، كأنهم ما عصوه ، مع قدرته عليهم .

ثم قال تعالى [ فلا تهنوا ] أى : لا تضعفوا عن قتال عدوكم ، ويستولى

وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

عليكم الخوف ، بل اصبروا واثبتوا ، ووطِّنوا أنفسكم على القتال والجلاد ، طلبا لمرضاة ربكم ، ونصحاً للإسلام ، وإغضاباً للشيطان .

[ و ] لا [ تدعوا إلى السلم ] والمتاركة بينكم وبين أعدائكم ، طلباً للراحة .

[ و ] الحال أنكم [ أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم ] أى: ينقصكم [ أعمالكم ] .

فهذه الأمور الثلاثة ، كل منها ، مقتض للصبر ، وعدم الوهن .

كونهم الأعلين ، أى : قد توفرت لهم أسباب النصر ، ووعدوا من الله بالوعد الصادق :

فإن الإنسان ، لا يهن ، إلا إذا كان أذل من غيره ، وأضعف عددا ، أو عُدَدًا وقوة داخلية وخارجية .

الثانى : أن الله معهم ، فإنهم مؤمنون ، والله مع المؤمنين ، بالعون ، والنصر ، والتأييد .

وذلك موجب لقوة قلوبهم ، وإقدامهم على عدوهم .

الثالث : أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً ، بل سيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله .

خصوصا عبادة الجهاد ، فإن النفقة تضاعف فيه ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

« ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب

لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا، إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى ، لا يضيع عمله وجهاده ، أوجب له ذلك النشاط ، وبذل الجهاد ، فيما يترتب عليه الأجر والثواب .

فكيف ، إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام .

فهذا من ترغيب الله لعباده ، وتنشيطهم ، وتقوية أنفسهم ، على ما فيه صلاحهم وفلاحهم

* هذا تزهيد منه تعالى لعباده ، فى الحياة الدنيا ، بإخبارهم عن حقيقة أمرها ، بأنها لعب ولهو ، لعب فى الأبدان ، ولهو فى القلوب .

فلايزال العبد لاهيا فى ماله ، وأولاده ، وزينته ، ولذاته ، من النساء ، والمآكل ، والمشارب ، والمساكن ، والمجالس ، والمناظر ، والرياسات ، لاعباً فى كل عمل لا فائدة فيه ، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصى ، حتى يستكمل دنياه ، ويحضره أجله .

فإذا هذه الأمور ، قد ولَّتْ ، وفارقت ، ولم يحصل العبد منها على طائل .

بل قد تبين له خسرانه وحرمانه ، وحضر عذابه .

فهذا موجب للعاقل ، الزهد فيها ، وعدم الرغبة فيها ، والاهتمام بشأنها .

يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

---

وإنما الذى ينبغى أن يهتم به ، ما ذكره بقوله [ وإن تؤمنوا وتتقوا ] بأن تؤمنوا بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتقوموا بتقواه ، التى هى من لوازم الإيمان ومقتضياته ، وهى : العمل بمرضاته على الدوام ، مع ترك معاصيه ، فهذا الذي ينفع العبد ، وهو الذى ينبغى أن يتنافس فيه ، وتبذل الهم والأعمال فى طلبه .

وهو مقصود الله من عباده ، رحمة بهم ، ولطفاً ، ليثيبهم الثواب الجزيل ، ولهذا قال :

[ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ] أى : لا يريد تعالى ، أن يكلفكم ما يشق عليكم ويعنتكم ، من أخذ أموالكم ، وبقائكم بلا مال ، أو ينقصكم نقصا يضركم .

ولهذا قال : [ إن يسألكموها فيحفكم[1] تبخلوا ويخرج أضغانكم ]

أى : ما فى قلوبكم من الضغن ، إذا طلب منكم ، ما تكرهون بذله .

الدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها ، أنكم

---

( ١ ) فيحفكم . أي : يجهدكم ، ويشق عليكم ، ويطلبه كله .
والإحفاء والإلحاف : المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شيء .
يقال : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، وأحفى شاربه : إذا استأصله عن آخره .

تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

---

تمنعون منها أنكم [ تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ] على هذ الوجه ، الذى فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية .

[ فمنكم من يبخل ] أى : فكيف لو سألكم ، وطلب منكم ، أموالكم ، فى غير أمر ترونه مصلحة عاجلة ؟ أليس من باب أولى وأحرى ، امتناعكم من ذلك .

[ ثم قال : [ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ] لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى ، وفاته خير كثير ، ولن يضر الله وبترك الإنفاق شيئاً .

[ والله ] هو [ الغنى وأنتم الفقراء ] تحتاجون إليه فى جميع أوقاتكم ، لجميع أموركم .

[ وإن تتولوا ] عن الإيمان بالله ، وامتثال ما يأمركم به [يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم] فى التولّى « عن أمر الله » .

بل يطيعون الله ورسوله ، ويحبون الله ورسوله ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

تم تفسير سورة محمد ( القتال ) - والحمد لله رب العالمين .

# تفسير

# سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

---

* هذا الفتح المذكور ، هو صلح الحديبية ، حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لما جاء معتمراً ، فى قصة طويلة ، صار آخر أمرها ، أن صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على وضع الحرب ، بينه وبينهم ، عشر سنين ، وعلى أن يعتمر من العام المقبل .

وعلى أن من أراد أن يدخل فى عهد قريش وحلفهم دخل .

ومن أحب أن يدخل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعقده ، فعل .

وسبب ذلك ، أنه لما أمن الناس بعضهم بعضاً ، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل .

وصار كل مؤمن ، بأى محل كان من تلك الأقطار ، يتمكن من ذلك .

مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

---

وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام .

فدخل الناس فى تلك المدة ، فى دين الله أفواجا ، فلذلك سماه الله فتحا ، ووصفه ، بأنه فتح مبين ، أي : ظاهر جلى .

وذلك ، لأن المقصود من فتح بلدان المشركين ، إعزاز دين الله ، وانتصار المسلمين ، وهذا حصل به الفتح ، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور فقال :

[ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ] وذلك — والله أعلم — بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة ، والدخول فى الدين بكثرة .

وبما تحمل صلى الله عليه وسلم ، من تلك الشروط التى لا يصبر عليها ، إلا أولو العزم من المرسلين .

وهذا من أعظم مناقبه ، وكراماته صلى الله عليه وسلم ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

[ ويتم نعمته عليك ] بإعزاز دينك ، ونصرك على أعدائك ، واتساع كلمتك [ ويهديك صراطاً مستقيما ] تنال به السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدى .

[وينصرك الله نصراً عزيزاً ] أى: قويا ، لا يتضعضع فيه الإسلام ، بل يحصل الانتصار التام ، وقمع الكافرين ، وذلهم ، ونقصهم ، مع توفر المسلمين ، ونموهم ، ونمو أموالهم .

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال :

[ هو الذى أنزل السكينة ] إلى [ وساءت مصيراً ] .

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن

---

* يخبر تعالى عن مِنَّتِهِ على المؤمنين بإنزال السكينة فى قلوبهم .

وهى: السكون والطمأنينة ، والثبات عند نزول المحن المقلقة ، والأمور الصعبة ، التى تشوش القلوب ، وتزعج الألباب ، وتضعف النفوس .

فمن نعمة الله على عبده فى هذه الحال ، أن يثبته ، ويربط على قلبه ، وينزل عليه السكينة ، ليتلقى هذه المشقات ، بقلب ثابت ، ونفس مطمئنة ، فيستعد بذلك ، لإقامة أمر الله فى هذه الحال ، فيزداد بذلك إيمانه ، ويتم إيقانه .

فالصحابة رضى الله عنهم ، لما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ، من تلك الشروط ، التى ظاهرها ، أنها غضاضة عليهم ، وحط من أقدارهم ، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس .

فلما صبروا عليها ، ووطَّنوا أنفسهم لها ، ازدادوا بذلك ، إيماناً مع إيمانهم . وقوله : [ولله جنود السموات والأرض] أى : جميعها فى ملكه ، وتحت تدبيره وقهره .

فلا يظن المشركون ، أن الله لا ينصر دينه ونبيه ، ولكنه تعالى عليم حكيم . فتقتضى حكمته ، المداولة بين الناس فى الأيام ، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر .

[ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنـدَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

---

فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ] فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين ، أى : يحصل لهم المرغوب المطلوب ، بدخول الجنات ، ويزيل عنهم المحذور . بتكفير السيئات .

[ وكان ذلك ] الجزاء المذكور للمؤمنين [ عند الله فوزا عظيما ] فهذا ما يفعل بالمؤمنين فى ذلك الفتح المبين .

وأما المنافقون والمنافقات ، والمشركون والمشركات ، فإن الله يعذبهم بذلك ، ويريهم مايسوؤهم ، حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين ، وظنوا بالله ظن السوء ، أنه لا ينصر دينه ، ولا يُعلِى كلمته ، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق .

فأدار الله عليهم ظنهم ، وكانت دائرة السوء عليهم فى الدنيا .

[ وغضب الله عليهم ] بما اقترفوه من المحادّة لله ولرسوله .

[ ولعنهم ] أى : أبعدهم وأقصاهم عن رحمته [ وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا[1] .

---

( ١ ) أى : ساءت وقبحت جهنم مرجعاً ونهاية يخلدون فى عذابها .

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾

---

* كرر الإخبار ، بأن له ملك السموات والأرض ومافيهما من الجنود ، ليعلم العباد أنه تعالى ، هو المعز المذل ، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه ، كما قال تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

[ وكان الله عزيزاً حكيما ] أى : قويا غالباً ، قاهراً لكل شىء .

ومع عزته وقوته ، حكيم فى خلقه وتدبيره ، يجرى على ما تقتضيه حكمته وإتقانه .

* أى : [ إنا أرسلناك ] أيها الرسول الكريم [ شاهداً ] لأمتك بما فعلوه ، من خير وشر .

وشاهدا على المقالات والمسائل ، حقها وباطلها .

وشاهدا لله تعالى بالوحدانية ، والانفراد بالكمال ، من كل وجه .

[ ومبشرا ] من أطاعك ، وأطاع الله بالثواب الدنيوى والدينى ، والأخروى .

[ ونذيرا ] لمن عصى الله ، بالعقاب العاجل والآجل .

ومن تمام البشارة والنذارة ، بيان الأعمال والأخلاق ، التى يبشر بها وينذر .

فهو المبين للخير والشر ، والسعادة والشقاة والشقاوة ، والحق من الباطل .

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

---

ولهذا رتب على ذلك قوله : [ لتؤمنوا بالله ورسوله ] أى : بسبب دعوة الرسول لكم ، وتعليمه لكم ما ينفعكم ، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله ، المستلزم ذلك لطاعتهما ، فى جميع الأمور .

[ وتعزروه(1) وتوقروه ] أى : تعزروا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوقروه ، أى : تعظموه وتجلوه ، وتقوموا بحقوقه ، كما كانت له المنة العظيمة فى رقابكم .

[ وتسبحوه ] أى تسبحوا لله [ بكرة وأصيلا ] أول النهار وآخره .

فذكر الله فى هذه الآية ، الحق المشترك بين الله ، وبين رسوله ، وهو : الإيمان بهما .

والمختص بالرسول ، وهو : التعزير والتوقير .

والمختص بالله ، وهو : التسبيح له والتقديس ، بصلاة ، أو غيرها .

---

( ١ ) تعزروه . التعزير : النصرة مع التعظيم . ا هـ . مفردات الراغب وفى « أبو السعود » وتعزروه بتقوية دينه ورسوله . ا هـ . والمراد : تنصروا الله تعالى بالجهاد الصادق مع نبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

* هذه المبايعة ، التى أشار الله إليها هى « بيعة الرضوان » التى بايع الصحابة رضى الله عنهم فيها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن لا يفروا عنه .

فهى عقد خاص ، من لوازمه : أن لا يفروا ، ولو لم يبق منهم إلا القليل ، ولو كانوا فى حال يجوز الفرار فيها .

فأخبر تعالى [ إن الذين يبايعونك ] حقيقة الأمر أنهم [ إنما يبايعون الله ] ويعقدون العقد معه ، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال :

[ يد الله فوق أيديهم ] أى : كأنهم بايعوا الله ، وصافحوه بتلك المبايعة .

وكل هذا ، لزيادة التأكيد والتقوية ، وحملهم على الوفاء بها .

ولهذا قال : [ فمن نكث[1] ] فلم يف بما عاهد الله عليه [ فإنما ينكث على نفسه ] لأن وبال ذلك راجع إليه ، وعقوبته واصلة له .

[ ومن أوفى بما عاهد عليه الله ] أي . أتى به كاملا موفراً

[ فسيؤتيه أجراً عظيما ] لا يعلم عظمه وقدره ، إلا الذى آتاه إياه .

( ١ ) أى : فمن نقض عهده الذى عاهدك عليه وهو الثبات على الإيمان الصادق ، فإنما يعود ضرر نقض العهد المذكور على نفسه ولا يضر إلا نفسه .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا

---

يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله ، فى الجهاد فى سبيله ، من الأعراب ، الذين ضعف إيمانهم ، وكان فى قلوبهم مرض ، وسوء ظن بالله تعالى ، وأنهم سيعتذرون ، بأن أموالهم وأهليهم ، شغلتهم عن الخروج فى سبيله .

وأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستغفر لهم ، قال الله تعالى : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدل على ندمهم ، وإقرارهم على أنفسهم بالذنب ، وأنهم تخلفوا تخلفاً ، يحتاج إلى توبة واستغفار .

فلولا هذا الذى فى قلوبهم ، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم ، لأنهم قد تابوا وأنابوا .

ولكن الذى فى قلوبهم ، أنهم إنما تخلفوا ، لأنهم ظنوا بالله ظن السوء .

فظنوا [ أن لن ينقلب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم أبدا ] أى : إنهم سيقتلون ويستأصلون .

ولم يزل هذا الظن يزيد فى قلوبهم ، ويطمئنون إليه ، حتى استحكم .

وسبب ذلك أمران :

بَل كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَل ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ
ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ
وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

---

أحدها : أنهم كانوا [ قوما بورا ] أى : هلكى ، لا خير فيهم فلو كان فيهم خير ، لم يكن هذا فى قلوبهم .

الثانى : ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ، ونصر دينه ، وإعلاء كلمته ، ولهذا قال :

[ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ] أى : فإنه كافر مستحق للعقاب .

[ فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ] .

* أى: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض ، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية ، والأحكام الشرعية ، والأحكام الجزائية .

ولهذا ذكر حكم الجزاء ، المرتب على الأحكام الشرعية فقال :

[ يغفر لمن يشاء ] وهو : من قام بما أمره الله به [ ويعذب من يشاء ] ممن تهاون بأمر الله .

[ وكان الله غفوراً رحيما ] أى : وصفه اللازم ، الذى لا ينفك عنه المغفرة والرحمة .

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

---

فلا يزال فى جميع الأوقات ، يغفر للمذنبين ، ويتجاوز عن الخطائين ، ويتقبل توبة التائبين ، وينزل خيره المدرار ، آناء الليل والنهار .

* لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم ، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها ، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة ، ويقولون :

[ ذرونا نتبعكم ، يريدون ] بذلك [ أن يبدلوا كلام الله ] حيث حكم بعقوبتهم ، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم ، شرعا وقدرا .

[ قل ] لهم [ لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ] إنكم محرومون منها ، بما جنيتم على أنفسكم ، وبما تركتم القتال أول مرة .

[ فسيقولون ] مجيبين لهذا الكلام ، الذى منعوا به عن الخروج : [ بل تحسدونا ] على الغنائم ، هذا منتهى علمهم فى هذا الموضع .

ولو فهموا رشدهم ، لعلموا أن حرمانهم ، بسبب عصيانهم ، وأن المعاصى ، لها عقوبات دنيوية ودينية ، ولهذا قال :

[ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا[1] ] .

---

(١) أى : لا يفهمون إلا فهما قليلا ، وهو فطنتهم لأمور الدنيا . وهذا ردٌّ لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين ، اهـ . من أبى السعود .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

---

* لما ذكر تعالى ، أن المخلفين من الأعراب ، يتخلفون عن الجهاد فى سبيله ، ويعتذرون بغير عذر ، وأنهم يطلبون الخروج معهم ، إذا لم يكن شوكة ولا قتال ، بل لمجرد الغنيمة ، قال تعالى ، ممتحناً لهم :

[ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ] أى: سيدعوكم الرسول ، ومن ناب منابه ، من الخلفاء الراشدين ، والأئمة.

وهؤلاء القوم ، هم فارس والروم ، ومن نحا نحوهم ، وأشبههم .

[ تقاتلونهم أو يسلمون ] أى : إما هذا ، وإما هذا .

وهذا هو الأمر الواقع ، فإنهم فى حال قتالهم ، ومقاتلتهم لأولئك الأقوام ، إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم ، فإنهم فى تلك الحال ، لا يقبلون أن يبذلوا الجزية .

بل إما أن يدخلوا فى الإسلام ، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه .

فلما أثخنهم المسلمون ، وضعفوا ، وذلوا ، ذهب بأسهم ، فصاروا ، إما أن يسلموا ، وإما أن يبذلوا الجزية .

[ فإن تطيعوا ] الداعى إلى قتال هؤلاء [ يؤتكم الله أجراً حسناً ] وهو : الأجر الذى رتبه الله ورسوله ، على الجهاد فى سبيل الله .

[وإن تتولوا كما توليتم من قبل] عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله .

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

---

[ يعذبكم عذاباً أليما ] ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين ، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس . وأنه تجب طاعتهم فى ذلك .

ثم ذكر الأعذار التى يعذر بها العبد ، عن الخروج إلى الجهاد ، فقال :

[ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ] أى : فى التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع .

[ ومن يطع الله ورسوله ] فى امتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

[ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ] فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

[ ومن يتول ] عن طاعة الله ورسوله [ يعذبه عذاباً أليما ] .

فالسعادة كلها ، فى طاعة الله ، والشقاوة ، فى معصيته ، ومخالفته .

* يخبر تعالى ، بفضله ورحمته ، برضاه عن المؤمنين ، إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم ، تلك المبايعة التى بيضت وجوههم ، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة .

وكان سبب هذه البيعة — التى يقال لها « بيعة الرضوان » لرضا الله

ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا

عن المؤمنين فيها ، ويقال لها « بيعة أهل الشجرة » — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية ، فى شأن مجيئه ، وأنه لم يجىء لقتال أحد ، وإنما جاء زائراً هذا البيت ، معظماً له .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لمكة فى ذلك .

فجاء خبر غير صادق ، أن عثمان قتله المشركون .

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم من معه من المؤمنين ، وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة ، فبايعوه تحت شجرة ، على قتال المشركين ، وأن لا يفروا ، حتى يموتوا .

فأخبر تعالى ، أنه رضى عن المؤمنين فى تلك الحال ، التى هى من أكبر الطاعات ، وأجل القربات .

[ فعلم ما فى قلوبهم ] من الإيمان [ فأنزل السكينة عليهم ] شكراً لهم على ما فى قلوبهم ، وزادهم هدى .

وعلم ما فى قلوبهم من الجزع ، من تلك الشروط ، التى شرطها المشركون على رسوله .

فأنزل عليهم السكينة ، تثبتهم ، وتطمئن بها قلوبهم .

[ وأثابهم فتحاً قريباً ] وهو : فتح خيبر ، لم يحضره سوى أهل الحديبية .

قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ
أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا

---

فاختصوا بخيبر وغنائمها ، جزاءاً لهم ، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى ، والقيام بمرضاته .

[ ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما ] أى : له العزة والقدرة ، التى قهر بها الأشياء ، فلو شاء ، لانتصر من الكفار فى كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين .

ولكنه حكيم ، يبتلى بعضهم ببعض ، ويمتحن المؤمن بالكافر .

[ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ] وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة .

[ فعجل لكم هذه ] أى : غنيمة خيبر ، أى : فلا تحسبوها وحدها ، بل ثمّ شىء كثير من الغنائم سيتبعها .

[ و ] احمدوا الله ، إذ [ كف أيدى الناس ] القادرين على قتالكم ، الحريصين عليه [ عنكم ] فهى نعمة ، وتخفيف عنكم .

[ ولتكون ] هذه الغنيمة [ آية للمؤمنين ] يستدلون بها على خير الله الصادق ، ووعده الحق ، وثوابه للمؤمنين ، وأن الذى قدرها ، سيقدر غيرها .

[ ويهديكم ] بما يقيض لكم من الأسباب [ صراطاً مستقيما ] من العلم والإيمان والعمل .

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

---

[ وأخرى ] أي : وعدكم أيضاً غنيمة أخرى [ لم تقدروا عليها ] وقت هذا الخطاب .

[ قد أحاط الله بها ] أي : هو قادر عليها ، وتحت تدبيره وملكه ، وقد وعدكموها ، فلابد من وقوع ما وعد به ، لكمال اقتدار الله تعالى ، ولهذا قال : [ وكان الله على كل شيء قديرا ] .

* هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين ، ينصرهم على أعدائهم الكافرين ، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم [ لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً ] يتولى أمرهم .

[ ولا نصيراً ] ينصرهم ، ويعينهم على قتالكم ، بل هم مخذولون مغلوبون .

وهذه سنة الله فى الأمم السابقة ، أن جند الله هم الغالبون « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

---

* يقول تعالى ، ممتنا على عباده بالعافية ، من شر الكفار ومن قتالهم ، فقال :

[ وهو الذى كف أيديهم ] أى : أهل مكة [ عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ] أى : من بعد ما قدرتم عليهم ، وصاروا تحت ولايتكم ، بلا عقد ، ولا عهد ، وهم نحو ثمانين رجلا ، انحدروا على المسلمين ، ليصيبوا منهم غرة .

فوجدوا المسلمين منتبهين ، فأمسكوهم ، فتركوهم ، ولم يقتلوهم ، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم .

[ وكان الله بما تعملون بصيرا ] فيجازى كل عامل بعمله ، ويدبركم ، أيها المؤمنون ، بتدبيره الحسن .

ثم ذكر تعالى ، الأمور المهيجة على قتال المشركين ، وهى : كفرهم بالله ورسوله ، وصدهم رسول الله ، ومن معه من المؤمنين ، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له ، بالحج والعمرة .

وهم الذين أيضا صدوا [ الهدى معكوفا ] أى : محبوسا [ أن يبلغ محله ] وهو محل ذبحه فى مكة ، حيث تذبح هدايا العمرة ، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدوانا .

وكل هذه ، أمور موجبة ، وداعية إلى قتالهم .

وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

---

ولكن ثَمَّ مانع وهو : وجود رجال ونساء من أهل الإيمان ، بين أظهر المشركين ، وليسوا بمتميزين بمحلة ، أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى .

فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون ، والنساء المؤمنات ، الذين لا يعلمهم المسلمون ، أن تطأوهم ، أى : خشية أن تطأوهم [ فتصيبكم منهم معرة بغير علم ] .

والمعرة : ما يدخل تحت قتالهم ، من نيلهم بالأذى والمكروه .

وفائدة أخروية ، وهو : أنه [ ليدخل الله فى رحمته من يشاء ] فيَمُنُّ عليهم بالإيمان بعد الكفر ، وبالهدى بعد الضلال ، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب .

[ لو تزيلوا ] أى لو زالوا من بين أظهرهم [ لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ] .

بأن نبيح لكم قتالهم ، ونأذن فيه ، وننصركم عليهم .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ] حيث أنفوا من كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » وأنفوا من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين إليهم فى تلك السنة ، لئلا يقول الناس : « دخلوا مكة قاهرين لقريش » .

وهذه الأمور ونحوها ، من أمور الجاهلية ، لم تزل فى قلوبهم ، حتى أوجبت لهم ما أوجبت ، من كثير من المعاصى .

[ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ] فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به ، بل صبروا لحكم الله ، والتزموا الشروط ، التى فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت ، ولم يبالوا بقول القائلين ، ولا بلوم اللائمين .

[ وألزمهم كلمة التقوى ] وهى « لا إله إلا الله » وحقوقها ، ألزمهم القيام بها ، فالتزموها ، وقاموا بها .

[ وكانوا أحق بها ] من غيرهم [ و ] كانوا [ أهلها ] الذين استأهلوا لما يعلم الله عندهم ، وفى قلوبهم من الخير ، ولهذا قال : [ وكان الله بكل شىء عليما ] .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

---

* يقول تعالى : [ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى فى المدينة رؤيا ، أخبر بها أصحابه ، أنهم سيدخلون مكة ، ويطوفون بالبيت .

فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ، ورجعوا من غير دخول لمكة ، كثر فى ذلك ، الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألم تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال: « أخبرتكم أنه العام ؟» قالوا : لا .

قال : « فإنكم ستأتونه وتطوفون به » .

قال الله تعالى هنا : [ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق] أى : لابد من وقوعها وصدقها ، ولا يقدح فى ذلك تأويلها .

[ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين] أى : فى هذه الحال ، المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام ، وأدائكم للنسك ، وتكميله بالحلق والتقصير ، وعدم الخوف .

[ فعلم ] من المصلحة والمنافع [ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك] الدخول بتلك الصفة [ فتحاً قريبا ] .

ولما كانت هذه الواقعة، مما تشوشت به قلوب بعض المؤمنين ، وخفيت

هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ

---

عليهم حكمتها فبين تعالى حكمتها ومنفعتها ، وهكذا سائر أحكامه الشرعية ، فإنها كلها ، هدى ورحمة .

أخبر بحكم عام فقال : [ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ] الذى هو العلم النافع ، الذى يهدى من الضلالة ، ويبين طرق الخير والشر .

[ ودين الحق ] أى : الدين الموصوف بالحق ، وهو : العدل ، والإحسان ، والرحمة .

وهو : كل عمل مُزَكٍّ للقلوب ، مطهر للنفوس ، مُرَبٍّ للأخلاق ، مُعْلٍ للأقدار .

[ ليظهره[1] ] بما بعثه الله به [ على الدين كله ] بالحجة والبرهان ، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان .

* يخبر تعالى عن نبيه [ محمد رسول الله ]صلى الله عليه وسلم [ والذين معه ] من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، أنهم بأكمل الصفات ، وأجل الأحوال .

وأنهم [ أشداء على الكفار ] أى : جادون ومجتهدون فى نصرتهم ، وساعون فى ذلك بغاية جهدهم ، فلم ير الكفار منهم إلا الغلظة والشدة .

---

(١) ليظهره . أى : ليعليه على الأديان كلها .

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ

---

فلذلك ذل أعداؤهم لهم ، وانكسروا ، وقهرهم المسلمون .

[ رحماء بينهم ] أى : متحابون ، متراحمون ، متعاطفون ، كالجسد الواحد .

يحب أحدهم لأخيه ، ما يحب لنفسه ، هذه معاملتهم مع الخلق .

وأما معاملتهم مع الخالق فإنك [ تراهم ركعا سجدا ] أى : وصفهم كثرة الصلاة ، التى أجل أركانها ، الركوع ، والسجود .

[ يبتغون ] بتلك العبادة [ فضلا من الله ورضوانا ] أى: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم ، والوصول إلى ثوابه .

[ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ] أى : قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - فى وجوههم ، حتى استنارت .

لما استنارت بالصلاة بواطنهم ، استنارت بالجلال ، ظواهرهم .

[ ذلك ] المذكور [ مثلهم فى التوراة ] أى : هذا وصفهم ، الذى وصفهم الله به ، مذكور بالتوراة هكذا .

[ ومثلهم فى الإنجيل ] بوصف آخر ، وأنهم فى كمالهم وتعاونهم [ كزرع أخرج شطئه فآزره ] أى : أخرج أفرخه فوازرته فراخه ، فى الثبات والاستواء .

فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

---

[ فاستغلظ ] ذلك الزرع ، أى : قوى وغلظ [ فاستوى ] « أى : قوى واستقام » [ على سوقه ] جمع ساق ، « أى : أصوله . والمراد : أنه قوى وقام على قضبانه » .

[ يعجب الزراع ] من كماله واستوائه ، وحسنه واعتداله .

كذلك الصحابة رضى الله عنهم ، هم كالزرع ، فى نفعهم للخلق ، واحتياج الناس إليهم .

فقوة إيمانهم وأعمالهم ، بمنزلة قوة عروق الزرع ، وسوقه .

وكون الصغير والمتأخر إسلامه ، قد لحق الكبير السابق ، ووازره ، وعاونه على ما هو عليه ، من إقامة دين الله والدعوة إليه ، كالزرع الذى أخرج شطئه ، فآزره فاستغلظ .

ولهذا قال : [ ليغيظ بهم الكفار ] حين يرون اجتماعهم ، وشدتهم على أعداء دينهم ، وحين يتصادمون معهم فى معارك النزال ، ومعامع القتال .

[ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ] .

فالصحابة رضى الله عنهم ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، قد جمع الله لهم بين المغفرة ، التى من لوازمها ، وقاية شرور الدنيا والآخرة ، والأجر العظيم ، في الدنيا والآخرة .

. . . . . . . . . . .

ولنسق قصة الحديبية بطولها ، كما ساقها الإمام شمس الدين بن القيم فى الهدى النبوى ، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة ، وقد تكلم على معانيها وأسرارها .

## فصل فى قصة الحديبية

قال رحمه الله تعالى :

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة .

وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتادة ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحق وغيرهم .

وقال هشام بن عروة ، عن أبيه : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية فى رمضان ، وكانت فى شوال .

وهذا وهم ، وإنما كانت غزاة الفتح فى رمضان .

قال أبو الأسود عن عروة : إنها كانت فى ذى القعدة على الصواب .

وفى الصحيحين ، عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم ، اعتمر أربع عمر ، كلهن فى ذى القعدة .

فذكر منهن ، عمرة الحديبية . وكان معه ألف وخمسمائة ، هكذا فى الصحيحين ، عن جابر ، وعنه فيهما ، كانوا ألفا وأربعمائة .

وفيهما ، عن عبد الله بن أبى أوفى : كنا ألفا وثلثمائة .

قال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ .

. . . . . . . . . . .

---

قال . خمس عشرة مائة .

قال قلت : فإن جابر بن عبد الله قال : كانوا أربع عشرة مائة .

قال : يرحمه الله ، وَهِم ، وهو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

قلت : صح عن جابر القولان ، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية ، سبعين بدنة ، البدنة عن سبعة .

فقيل له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً وأربعمائة ، بخيلنا ورجلنا .

يعنى : فارسهم وراجلهم .

والقلب إلى هذا أمْيَل ، وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع ، فى أصح الروايتين ، وقول المسيب بن حزن .

قال شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

وغلط غلطاً بيناً ، من قال : كانوا سبعمائة .

وعذرهم ، أنهم نحروا يومئذ ، سبعين بدنة ، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة ، أو عشرة .

وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل ، فإنه قد صرح بأن البدنة ، كانت فى هذه الغزوة عن سبعة .

فلو كانت السبعون عن جميعهم ، لكانوا أربعمائة ، وتسعين رجلا ، وقد قال بتمام الحديث بعينه ، أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة .

. . . . . . . . . . .

---

## فصل

فلما كان بذى الحليفة ، قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الْهَدْىَ وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش .

حتى إذا كانوا قريباً من عُسْفان ، أتاه عينه فقال :

إنى قد تركت كعب بن لؤى ، قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك ، وصادُّوك عن البيت .

واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصحابه أن نميل إلى ذرارى هؤلاء ، الذين أعانوهم فنصيبهم .

فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا ، يكن عنق قطعه الله .

أم ترون أن نؤم البيت ؟ فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، قاتلناه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذاً .

فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش ، فخذوا ذات اليمين »

فوالله ما شعر بهم خالد ، حتى إذا هو نفيرة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش .

. . . . . . . . . . .

---

وسار النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان بالثنية ، التي يهبط عليهم منها ، بركت راحلته .

فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأت القصواء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم قال : « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها .

ثم زجرها ، فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرضه الناس تبرضاً ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العطش .

فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه .

قال : فوالله ، ما زال يجيش لهم بالرى ، حتى صدروا عنها .

وفزعت قريش ، لنزوله عليهم .

فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه .

فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ، ليس بمكة من بنى كعب ، أحد يغضب لى ، إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال :

« أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، إنما جئنا عمَّاراً ، وادعهم إلى الإسلام».

. . . . . . . . . . .

---

وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟

فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً .

قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك .

وقام إليه أبان بن سعيد ، فرحب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، فأجاره ، وأردفه أبان ، حتى جاء مكة .

وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت ، وطاف به .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أظنه طاف بالبيت ، ونحن محصورون » .

فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟

قال « ذاك ظنى به ، أن لا يطوف بالكعبة ، حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح .

فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر ، وكانت معركة .

وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان ، كلاهما ، وارتضى كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة .

. . . . . . . . . . .

فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه، وقال: « هذه عن عثمان » .

ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون :

اشتفيت يا أبا عبد الله ، من الطواف بالبيت .

فقال : بئسما ظننتم بى ، والذى نفسى بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت .

فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً .

وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للبيعة تحت الشجرة فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس .

وكان معقل بن يسار ، أخذ بغصنها ، يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أول من بايعه ، أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع ، ثلاث مرات ، فى أول الناس ، وأوسطهم ، وآخرهم .

فبينما هم كذلك ، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى ، فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه

. . . . . . . . . . .

---

الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا ، أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جموا .

وإن أبوا إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده ، لأقاتلنهم على أمرى هذا ، حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره » .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولا ، فإن شئتم عرضته عليكم .

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء .

وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته .

قال : سمعته يقول كذا وكذا .

فقال عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعونى آته . فقالوا : ائته .

فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، نحواً من قوله لبديل .

فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟

. . . . . . . . . . .

---

وإن تكن الأخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس، خليقاً أن يفروا ، ويدعوك .

فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟

قال : من ذا ؟ قال : أبو بكر .

قال : أما والذى نفسى بيده ، لولا يد كانت لك عندى ، لم أجزك بها ، لأجبتك .

وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة ابن شعبة على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه السيف ، وعليه المغفر .

فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ، ضرب يده بنعل السيف وقال : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة .

فقالو : أى غُدَر ، أو لست أسعى فى غدرتك ؟

وكان المغيرة صحب قوماً ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال ، فلست منه فى شىء » .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما تنخم النبى صلى الله عليه وسلم نخامة ، إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه .

. . . . . . . . . . .

---

وإذا أمرهم ، ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وَضُوئِه .

وإذا تكلم ، خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر ، تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ، والله ، لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشى . والله ، ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد محمداً .

والله ما تنخم نخامة ، إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده .

وإذا أمرهم ، ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم ، خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر ، تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته .

فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له » فبعثوها فاستقبله القوم يلبون .

فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، لا ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فرجع إلى أصحابه فقال :

رأيت البدن قد قلدت ، وأشعرت ، وما أرى يصدون عن البيت .

. . . . . . . . . .

فقام مكرز بن حفص وقال : دعونى آته . فقالوا : ائته .

فلما أشرف عليهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر » .

فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد سهل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينك كتاباً . فدعا الكاتب فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : والله ما نكتبها ، إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اكتب باسمك اللهم » .

ثم قال « اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سهيل : فوالله لو نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنى رسول الله ، وإن كذبتمونى ، اكتب : محمد بن عبد الله » .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب ، أنا أخذنا ضغطة . ولكن لك من العام المقبل . فكتب .

. . . . . . . . . . .

---

فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته علينا .

فقال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ، يرسف فى قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين .

فقال سهيل : هذا يا محمد ، أول ما قاضيتك عليه ، أن ترده .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال : فوالله إذاً ، لا أصالحك على شيء أبداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فأجزه لى » .

فقال : ماأنا بمجيزه . فقال: « بلى ، فافعل » .

قال : ما أنا بفاعل .

قال مكرز : قد أجزناه .

فقال أبو جندل : يامعشر المسلمين ، أرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلما ! ألا ترون ما لقيت ؟

وكان قد عذب فى الله عذابا شديدا .

قال عمر بن الخطاب : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ .

فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت :يارسول الله ألست نبى الله ؟ .

قال : بلى . قال :قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى

. . . . . . . . . . .

---

فقلت : على م نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ، ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟

فقال : إنى رسول الله ، وهو ناصرى ، ولست أعصيه .

قلت : أو لست كنت تحدثنا ، أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟

قال: بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا .

قال : فإنك آتيه ومطوف به .

قال : فأتيت أبابكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورد عليه أبوبكر كما رد عليه رسول الله ، سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

قال : عمر فعملت لذلك أعمالا .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا وانحروا . ثم احلقوا » .

فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكرلها مالقى من الناس .

فقالت : يارسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة ، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك ، فيحلق لك .

فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه .

فلما رأى الناس ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا . حتى كاد بعضهم ، يقتل بعضا غما .

. . . . . . . . . . . .

---

ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل [ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ] حتى بلغ [ بعصم الكوافر ] .

فطلق عمر يومئذ امرأتين ، كانتا عنده فى الشرك .

فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة .

وفى مرجعه أنزل الله عليه [ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ] إلى آخرها .

فقال عمر : أفتح هو يارسول الله ؟ فقال : نعم .

فقال الصحابة : هنيئا لك يارسول الله ، فمالنا ؟

فأنزل الله عز وجل [ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ] الآية . انتهى

وهذا آخر تفسير سورة الفتح ، ولله الحمد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه . وكان الفراغ من كتابته فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين .

بقلم الفقير إلى ربه ، سليمان بن حمد العبد الله البسام ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

تفسير

# سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

* هذا متضمن الأدب ، مع الله تعالى ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعظيم ، والاحترام له ، وإكرامه .

فأمر الله عباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، بالله ورسوله ، من امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وأن يكونوا ماشين ، خلف أوامر الله ، متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى جميع أمورهم .

وأن لا يتقدموا بين يدى الله ورسوله ، فلا يقولوا ، حتى يقول ، ولا يأمروا ، حتى يأمر .

فإن هذا ، حقيقة الأدب الواجب ، مع الله ورسوله ، وهو : عنوان سعادة العبد وفلاحه .

وبفواته ، تفوته السعادة الأبدية ، والنعيم السرمدى .

وفى هذا ، النهى الشديد عن تقديم قول غير الرسول صلى الله عليه وسلم ، على قوله .

فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب اتباعها ، وتقديمها على غيرها ، كائنا من كان .

ثم أمر الله بتقواه عموماً ، وهى كما قال طلق بن حبيب : أن تعمل بطاعة الله ، ترجو ثواب الله .

وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، تخشى عقاب الله .

وقوله [ إن الله سميع ] أى : لجميع الأصوات ، فى جميع الأوقات ، فى خفى المواضع والجهات .

[ عليم ] بالظواهر والبواطن ، والسوابق ، واللواحق ، والواجبات ، والمستحيلات ، والجائزات .

وفى ذكر الاسمين الكريمين — بعد النهى عن التقدم بين يدى الله ورسوله ، والأمر بتقواه — حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة ، والآداب المستحسنة ، وترهيب عن ضده .

ثم قال تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ] وهذا أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى خطابه .

أى : لا يرفع المخاطب له ، صوته معه ، فوق صوته ، ولا يجهر له بالقول ، بل يغض الصوت ، ويخاطبه بأدب ولين ، وتعظيم وتكريم ، وإجلال وإعظام .

كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

---

ولا يكون الرسول كأحدهم ، بل يميزونه فى خطابهم ، كما تميز عن غيره ، فى وجوب حقه على الأمة ، ووجوب الإيمان به ، والحب الذى لا يتم الإيمان إلا به .

فإن فى عدم القيام بذلك ، محذوراً ، خشية أن يحبط عمل العبد ، وهو لا يشعر .

كما أن الأدب معه ، من أسباب حصول الثواب ، وقبول الأعمال .

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى ، أى : ابتلاها واختبرها ، فظهرت نتيجة ذلك ، بأن صلحت قلوبهم للتقوى .

ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم ، المتضمنة لزوال الشر والمكروه ، وحصول الأجر العظيم ، الذى لا يعلم وصفه إلا الله تعالى ، وفيه حصول كل محبوب .

وفى هذا ، دليل على أن الله يمتحن القلوب ، بالأمر ، والنهى ، والمحن .

فمن لازم أمر الله ، واتبع رضاه ، وسارع إلى ذلك ، وقدمه على هواه ، تمحض وتمحص للتقوي ، وصار قلبه صالحا .

ومن لم يكن كذلك ، علم أنه لا يصلح للتقوى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

---

نزلت هذه الآيات الكريمة ، فى ناس من الأعراب ، الذين وصفهم الله بالجفاء ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

قدموا وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه فى بيته وحجرات نسائه .

فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج ، بل نادوه : يا محمد يا محمد ، أى : اخرج إلينا .

فذمهم الله بعدم العقل ، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه .

كما أن من العقل ، استعمال الأدب .

فأدب العبد ، عنوان عقله ، وأن الله مريد به الخير ، ولهذا قال : [ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ] .

أي : غفور لما صدر عن عباده من الذنوب ، والإخلال بالآداب .

رحيم بهم ، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* وهذا أيضا ، من الآداب التى على أولى الألباب ، التأدب بها واستعمالها .

وهو : أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ ، أى : خبر ، أن يتثبتوا فى خبره ، ولا يأخذوه مجردا .

فإن فى ذلك خطرا كبيرا ، ووقوعا فى الإثم .

فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل ، حكم بموجب ذلك ومقتضاه ، فحصل من تلف النفوس والأموال ، بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سببا للندامة .

بل الواجب عند سماع خبر الفاسق ، التثبت والتبين .

فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه ، عمل به وصدق .

وإن دلت على كذبه ، كذب ، ولم يعمل به .

ففيه دليل ، على أن خبر الصادق مقبول ، وخبر الكاذب ، مردود ، وخبر الفاسق ، متوقف فيه .

ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج ، المعروفين بالصدق ، ولو كانوا فساقا .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ

---

* أى : وليكن لديكم معلوما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أظهركم ، وهو الرسول الكريم ، البار ، الراشد ، الذى يريد بكم الخير ، وينصح لكم ، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ، مالا يوافقكم الرسول عليه .

ولو يطيعكم فى كثير من الأمر ، لشق عليكم ، وأعنتكم ولكن الرسول يرشدكم .

والله تعالى يحبب إليكم الإيمان ، ويزينه فى قلوبكم ، بما أودع فى قلوبكم من محبة الحق وإيثاره ، وبما نصب على الحق من الشواهد ، والأدلة الدالة على صحته ، وقبول القلوب والفطر له ، وبما يفعله تعالى بكم ، من توفيقه للإنابة إليه .

ويكره إليكم الكفر والفسوق ، أى : الذنوب الصغار ـ بما أودع فى قلوبكم من كراهة الشر ، وعدم إرادة فعله ، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته ، وعدم قبول الفطر له ، وبما يجعل الله فى القلوب من الكراهة له .

[ أولئك ] الذين زين الله الإيمان فى قلوبهم ، وحببه إليهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان [ هم الراشدون ] أى : الذين صلحت علومهم وأعمالهم ، واستقاموا على الدين القويم ، والصراط المستقيم .

هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ

---

وضدهم الغاوون ، الذين حبب إليهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، وكره إليهم الإيمان .

والذنب ذنبهم ، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم ، « ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة ، قلب أفئدتهم .

وقوله [ فضلا من الله ونعمة ] أى : ذلك الخير الذى حصل لهم ، هو بفضل الله عليهم وإحسانه ، لا بحولهم وقوتهم .

[ والله عليم حكيم ] أى : عليم بمن يشكر النعمة ، فيوفقه لها ، ممن لا يشكرها ، ولا تليق به ، فيضع فضله ، حيث تقتضيه حكمته .

* هذا متضمن لنهى المؤمنين ، عن أن يبغى بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا .

وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين ، فإن على غيرهم من المؤمنين ، أن يتلافوا هذا الشر الكبير ، بالإصلاح بينهم ، والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ، ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك .

فإن صلحتا ، فبها ونعمت [ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى

أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ

---

تبغى حتىٰ تفىء إلى أمر الله ] أى : ترجع إلى ما حد الله ورسوله ، من فعل الخير وترك الشر ، الذى من أعظمه ، الاقتتال .

وقوله : [ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ] هذا أمر بالصلح ، وبالعدل فى الصلح .

فإن الصلح ، قد يوجد ، ولـكن لا يكون بالعدل ، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين ، فهذا ليس هو الصلح المأمور به .

فيجب أن لا يراعى أحدهما ، لقرابة ، أو وطن ، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض ، التى توجب العدول عن العدل .

[ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ] أى : العادلين فى حكمهم بين الناس وفى جميع الولايات ، التى تولوها .

حتى إنه ، قد يدخل فى ذلك ، عدل الرجل فى أهله ، وعياله ، فى أداء حقوقهم .

وفى الحديث الصحيح « المقسطون عند الله ، على منابر من نور :الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم ، وما ولوا » .

[ إنما المؤمنون إخوة ] هذا عقد ، عقده الله بين المؤمنين ، أنه إذا وجد من أى شخص كان ، فى مشرق الأرض ومغربها ، الإيمان بالله ، وملائـكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فإنه أخ للمؤمنين ، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ، ما يحبون لأنفسهم ، ويكرهوا له ، ما يكرهون لأنفسهم .

أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم آمرا بالأخوة الإيمانية : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا * المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه » متفق عليه .

وفيهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « المؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه .

ولقد أمر الله ورسوله ، بالقيام بحقوق المؤمنين ، بعضهم لبعض ، ومما يحصل به التآلف والتوادد ، والتواصل بينهم ، كل هذا ، تأييد لحقوق بعضهم على بعض .

فمن ذلك ، إذا وقع الاقتتال بينهم ، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها ، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم ، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم .

ثم أمر بالتقوى عموما ، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين ، الرحمة فقال :

[ لعلكم ترحمون ] ، وإذا حصلت الرحمة ، حصل خير الدنيا والآخرة .

ودل ذلك ، على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين ، من أعظم حواجب الرحمة .

وفى هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم : أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية ، ولهذا ، كان من أكبر الكبائر .

وأن الإيمان ، والأخوة الإيمانية ، لا يزولان مع وجود الاقتتال ،

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ

---

كغيره من الذنوب الكبائر ، التى دون الشرك ، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة .

وعلى وجوب الإصلاح ، بين المؤمنين بالعدل .

وعلى وجوب قتال البغاة ، حتى يرجعوا إلى أمر الله .

وعلى أنهم لو رجعوا ، لغير أمر الله ، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه ، أنه لا يجوز ذلك ، وأن أموالهم معصومة ، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة ، دون أموالهم .

* وهذا أيضا ، من حقوق المؤمنين ، بعضهم على بعض ، أن [ لا يسخر قوم من قوم ] بكل كلام ، وقول ، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم ، فإن ذلك حرام ، لا يجوز وهو دِال على إعجاب الساخر بنفسه .

وعسى أن يكون المسخور به خيرا من الساخر ، وهو الغالب والواقع.

فإن السخرية ، لا تقع إلا من قلب ممتلىء من مساوىء الأخلاق ، مُتَحلٍّ بكل خلق خلق ذميم ، مُتَخَلٍّ من كل خلق كريم ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « بحسب امرىء من الشر ، أن يحقر أخاه المسلم » .

ثم قال : [ ولا تلمزوا أنفسكم ] أى : لا يعب بعضكم على بعض .

ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

---

واللمز : بالقول ، والهمز : بالفعل ، وكلاهما منهىٌّ عنه حرام ، متوعد عليه بالنار .

كما قال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » الآية .

وسمى الأخ المسلم نفسا لأخيه ، لأن المؤمنين ينبغى أن يكون هذا حالهم كالجسد الواحد .

ولأنه إذا همز غيره ، أوجب للغير أن يهمزه ، فيكون هو المتسبب لذلك .

[ ولا تنابزوا بالألقاب ] أى : لا يعير أحدكم أخاه ، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه ، وهذا هو التنابز .

وأما الألقاب غير المذمومة ، فلا تدخل فى هذا .

[ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ] أى : بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه ، وما يقتضيه ، بالإعراض عن أوامره ونواهيه ، باسم الفسوق والعصيان ، الذى هو التنابز بالألقاب .

[ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ] وهذا هو الواجب على العبد ، أن يتوب إلى الله تعالى ، ويخرج من حق أخيه المسلم ، باستحلاله ، والاستغفار ، والمدح مقابلة على ذمه .

[ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ] فالناس قسمان : ظالم لنفسه غير تائب وتائب مفلح ، ولا ثَمَّ غيرهما .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* نهى الله عز وجل عن كثير من الظن السيء بالمؤمنين ، حيث قال : [ إن بعض الظن إثم ] .

وذلك ، كالظن الخالى من الحقيقة والقرينة ، وكظن السوء ، الذى يقترن به كثير من الأقوال ، والأفعال المحرمة .

فإن بقاء ظن السوء بالقلب ، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك ، بل لا يزال به ، حتى يقول ما لا ينبغى ، ويفعل مالا ينبغى .

وفى ذلك أيضاً ، إساءة الظن بالمسلم ، وبغضه ، وعداوته المأمور بخلافها منه .

[ ولا تجسسوا ] أى : لا تفتشوا عن عورات المسلمين ، ولا تتبعوها .

ودعوا المسلم على حاله ، واستعملوا التغافل عن زلاته ، التى إذا فتشت ، ظهر منها ما لا ينبغى .

[ولا يغتب بعضكم بعضا ] والغيبة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه » .

ثم ذكر مثلا منفرا عن الغيبة فقال : [ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

شبه أكل لحمه ميتا ، المكروه للنفوس غاية الكراهة ، باغتيابه ، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه ، خصوصا إذا كان ميتا ، فاقد الروح ، فكذلك ، فلتكرهوا غيبته ، وأكل لحمه حيًّا .

[واتقوا الله إن الله تواب رحيم] والتواب ، الذى يأذن بتوبة عبده ، فيوفقه لها ، ثم يتوب عليه ، بقبول توبته ، رحيم بعباده ، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم ، وقبل منهم التوبة .

وفى هذه الآية ، دليل على التحذير الشديد من الغيبة ، وأنها من الكبائر ، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت ، وذلك من الكبائر .

* يخبر تعالى أنه خلق بنى آدم ، من أصل واحد ، وجنس واحد ، وكلهم ، من ذكر وأنثى .

ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ، ولكن الله تعالى بث منهما رجالا كثيراً ونساء ، وفرقهم ، وجعلهم شعوبا وقبائل ، أى : قبائل صغاراً وكبارا ، وذلك ، لأجل أن يتعارفوا .

فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه ، لم يحصل بذلك ، التعارف الذى يترتب عليه التناصر والتعاون ، والتوارث ، والقيام بحقوق الأقارب .

ولكن الله جعلهم شعوبا وقبائل ، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها ، مما يتوقف على التعارف ، ولحوق الأنساب ، ولكن الكرم ، بالتقوى .

أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

فأكرمهم عند الله ، أتقاهم ، وهو أكثرهم طاعة ، وانكفافا عن المعاصى ، لا أكثرهم قرابة وقوما ، ولا أشرفهم نسبا .

ولكن الله تعالى عليم خبير ، يعلم منهم ، من يقوم بتقوى الله ، ظاهراً وباطنا ، ممن لا يقوم بذلك ، ظاهراً ولا باطنا ، فيجازى كلا ، بما يستحق .

وفى هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب ، مطلوبة مشروعة ، لأن الله جعلهم شعوبا وقبائل ، لأجل ذلك .

* يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب ، الذين دخلوا فى الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخولا من غير بصيرة ، ولا قيام بما يجب ، ويقتضيه الإيمان ، أنهم مع هذا ادعو وقالوا : آمنا ، أي : إيمانا كاملا ، مستوفيا لجميع أموره .

فأمر الله رسوله ، أن يرد عليهم فقال : [ قل لم تؤمنوا ] أى: لا تدّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ، ظاهراً ، وباطنا ، كاملا .

[ ولكن قولوا أسلمنا ] أى : دخلنا فى الإسلام واقتصروا على ذلك .

[ و ] السبب فى ذلك ، أنه [ لما يدخل الإيمان فى قلوبكم ] وإنما أسلمتم خوفا ، أو رجاء ، أو نحو ذلك ، مما هو السبب فى إيمانكم ، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان فى قلوبكم .

لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

---

وفى قوله [ ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ] أى : وقت هذا الكلام ، الذى صدر منكم فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك .

فإن كثيراً منهم ، مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقى ، والجهاد سبيل الله .

[ وإن تطيعوا الله ورسوله ] بفعل خير ، أو ترك شر [ لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ] .

أى : لا ينقصكم منها ، مثقال ذرة ، بل يوفيكم إياها ، أكمل ما تكون لا تفقدون منها ، صغيراً ، ولا كبيراً .

[ إن الله غفور رحيم ] أى : غفور لمن تاب إليه وأناب ، رحيم به ، حيث قبل توبته .

[ إنما المؤمنون ] أى : على الحقيقة [ الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله ] أى : من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .

فإن من جاهد الكفار ، دل ذلك ، على الإيمان التام فى قلبه .

لأن من جاهد غيره على الإسلام ، والإيمان ، والقيام بشرائعه ، فجهاده لنفسه على ذلك ، من باب أولى وأحرى

ولأن من لم يقو على الجهاد ، فإن ذلك ، دليل على ضعف إيمانه .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟

---

وشرط تعالى ، فى الإيمان ، عدم الريب ، أى : الشك ، لأن الإيمان النافع ، هو : الجزم اليقينى ، بما أمر الله بالإيمان به ، الذى لا يعتريه شك ، بوجه من الوجوه .

وقوله : [ أولئك هم الصادقون ] أى : الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة .

فإن الصدق ، دعوى عظيمة فى كل شىء يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان .

وأعظم ذلك ، دعوى الإيمان ، الذى هو مدار السعادة ، والفوز الأبدى ، والفلاح السرمدى .

فمن ادعاه ، وقام بواجباته ، ولوازمه ، فهو الصادق المؤمن حقا .

ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه ، وليس لدعواه فائدة .

فإن الإيمان فى القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى .

فإثباته ونفيه ، من باب تعليم الله بما فى القلب ، وهو سوء أدب ، وظن بالله ، ولهذا قال :

[قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله بكل شىء عليم ] وهذا شامل للأشياء كلها ، التى من جملتها ، ما فى القلوب من الإيمان والكفران ، والبر والفجور ، فإنه تعالى ، يعلم ذلك كله ،

عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ

---

ويجازى عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

هذه حالة من أحوال من ادّعى لنفسه الإيمان ، وليس به .

فإنه إما أن يكون ذلك تعليما لله ، وقد علم أنه عالم بكل شىء .

وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام ، المِنَّة عل رسوله ، وأنهم قد بذلوا ، وتبرعوا بما ليس من مصالحهم ، بل هو من حظوظه الدنيوية .

وهذا تجمل بما لا يجمل ، ونخر بما لا ينبغى لهم الفخر به ، على رسوله ، فإن المنة لله تعالى عليهم .

فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم ، بالخلق والرزق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنته عليهم بالإيمان ، أفضل من كل شىء ، ولهذا قال :

[يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السموات والأرض] .

أى : الأمور الخفية فيها ، التى تخفى على الخلق ، كالذى فى لجج البحار ، ومهامه القفار . وماجنه الليل أو واراه النهار ، يعلم قطرات الأمطار ، وحبّات الرمال ، ومكنونات الصدور ، وخبايا الأمور .

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

[ والله بصير بما تعملون ] يحصى عليكم أعمالكم ، ويوفيكم إياها ، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة ، وحكمته البالغة .

تم تفسير سورة الحجرات

بعون الله ومنه وجوده وكرمه ، والحمد لله

# تفسـير

# سُورَةُ قٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ

---

يقسم تعالى بالقرآن المجيد ، أى : وسيع المعانى عظيمها ، كثيرالوجوه ، كثير البركات ، جزيل المبرات ، والمجد : سعة الأوصاف ، وعظمتها .

وأحق كلام يوصف بذلك ، هذا القرآن ، الذى قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذى حوى من الفصاحة أكملها ، ومن الألفاظ أجزلها ، ومن المعانى أعمها وأحسنها .

وهذا موجب لـكمال اتباعه ، وسرعة الانقياد له ، وشكر الله على المنـة به .

ولـكن أكثر الناس ، لا يقدر نعم الله قدرها ، ولهذا قال تعالى :

[ بل عجبوا ] أى : المـكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، [ أن جاءهم منذر ] منهم أى : ينذرهم ما يضرهم ، ويأمرهم بما ينفعهم ، وهو من جنسهم ، يمـكنهم التلقى عنه ، ومعرفة أحواله وصدقه .

مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

---

فتعجبوا من أمر ، لا ينبغى لهم التعجب منه ، بل يتعجب من عقل ، من تعجب منه .

[ فقال الكافرون ] أى : الذى حملهم كفرهم وتكذيبهم ، لا نقص بذكائهم وآرائهم .

[ هذا شيء عجيب ] أى : مستغرب ، وهم فى هذا الاستغراب ، بين أمرين :

إما صادقون فى استغرابهم وتعجبهم ، فهذا يدل على غاية جهلهم ، وضعف عقولهم .

بمنزلة المجنون ، الذى يستغرب كلام العاقل .

وبمنزلة الجبان الذى يتعجب من لقاء الفارس للفرسان .

وبمنزلة البخيل ، الذى يستغرب سخاء أهل السخاء .

فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله ؟ .

وهل تعجبه ، إلا دليل على زيادة جهله وظلمه ؟.

وإما أن يكونوا متعجبين ، على وجه يعلمون خطأهم فيه ، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه .

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال : [ أإذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد ] فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير ، الكامل من كل وجه ، بقدرة العبد الفقير العاجز ، من جميع الوجوه .

ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

---

وقاسوا الجاهل، الذى لا علم له، بمن هو بكل شىء عليم.

[قد علمنا ما تنقص الأرض منهم] أى: من أجسادهم مدة مقامهم فى البرزخ، وقد أحصى فى كتابه.

[وعندنا كتاب حفيظ] أى: محفوظ عن التغيير والتبديل، بكل ما يجرى عليهم فى حياتهم، أو مماتهم، وهذا الاستدلال، بكمال سعة علمه، التى لا يحيط بها إلا هو - على قدرته على إحياء الموتى.

* أى: [بل] كلامهم الذى صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب.

فقد [كذبوا بالحق] الذى هو أعلى أنواع الصدق [لما جاءهم فهم فى أمر مريج] أى: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شىء، ولا يستقر لهم قرار.

فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة، مجنون، وتارة، شاعر.

وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه، ما اقتضاه رأيه الفاسد.

وهكذا، كل من كذب بالحق، فإنه فى أمر مختلط، لا يدرى له وجه ولا قرار.

فترى أموره متناقضة مؤتفكة.

كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ

---

* لما ذكر تعالى حالة المكذبين ، وما ذمهم به ، دعاهم إلى النظر في آياته الأفقية ، كى يعتبروا ، ويستدلوا بها ، على ما جعلت أدلة عليه فقال :

[ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ] أى : لايحتاج ذلك النظر ، إلى كلفة وشد رحل ، بل هو فى غاية السهولة .

فينظروا [ كيف بنيناها ] قبة مستويه الأرجاء ، ثابتة البناء ، مزينة بالنجوم الخنس ، والجوارى الكنس ، التى ضربت من الأفق إلى الأفق فى غاية الحسن والملاحة ، لا ترى فيها عينا ، ولا فروجا ، ولا خلالا ، ولا إخلالا .

قد جعلها الله سقفا لأهل الأرض ، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع .

[و] إلى [ الأرض كيف مددناها ] ووسعناها ، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار ، والاستعداد لجميع مصالحه .

وأرساها بالجبال ، لتستقر من التزلزل ، والتموج .

[ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ] أى ، من كل صنف من أصناف النبات ، التي تسر ناظريها ، وتعجب مبصريها ، وتقر عين رامقيها ، لأكل بنى آدم ، وأكل بهائمهم ، ومنافعهم .

مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ

وخص من تلك المنافع ، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة ، من العنب ، والرمان ، والأترج ، والتفاح وغير ذلك ، من أصناف الفواكه .

ومن النخيل الباسقات ، أى : الطوال ، التى يطول نفعها ، وترتفع إلى السماء ، حتى تبلغ مبلغا ، لا يبلغه كثير من الأشجار .

فتخرج من الطلع النضيد ، فى قنوانها ، ما هو رزق للعباد ، قوتا ، وأدما ، وفاكهة يأكلون منه ويدخرون ، هم ومواشيهم .

وكذلك ما يخرج الله بالمطر ، وما هو أثره من الأنهار ، التى على وجه الأرض ، وتحتها من [ حب الحصيد ] أى : من الزرع المحصود ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ، ودخن وغيره .

فإن فى النظر فى هذه الأشياء [ تبصرة ] يتبصر بها ، من عمى الجهل .

[ وذكرى ] يتذكر بها ، ما ينفع فى الدين والدنيا ، ويتذكر بها ، ما أخبر الله به ، وأخبرت به رسله .

وليس ذلك لكل أحد ، بل [ لكل عبد منيب ] إلى الله أى : مقبل عليه ، بالحق ، والخوف ، والرجاء ، وإجابة داعيه .

وأما المكذب والمعرض ، فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون

وحاصل هذا ، أن ما فيها من الخلق الباهر ، والقوة والشدة ، دليل على كمال قدرة الله تعالى .

وما فيها من الحسن والإتقان ، وبديع الصنعة ، وبديع الخلقة ، دليل على أن الله أحكم الحاكمين ، وأنه بكل شىء عليم .

ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ
وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ

---

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد ، دليل على رحمة الله ، التى وسعت كل شىء ، وجوده ، الذى عم كل حى .

وما فيها من عظمة الخلقة ، وبديع النظام ، دليل على أن الله تعالى ، هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة ،والذل ، والحب ، إلا له .

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها ، دليل على إحياء الله الموتى ، ليجازيهم بأعمالهم .

ولهذا قال : [ وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ] .

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية ، خوفهم أخذات الأمم ، وألا يستمروا على ما هم عليه ، من التكذيب ، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين ، فقال : [ كذبت قبلهم قوم نوح ] إلى [ من خلق جديد ].

* أى : كذب الذين من قبلهم من الأمم ، رسلهم الكرام ، وأنبياءهم العظام .

ك « نوح » كذبه قومه ، و « ثمود » كذبوا « صالحا » وعاد ، كذبوا « هودا » وإخوان لوط كذبوا « لوطا » وأصحاب الأيكة كذبوا « شعيبا »

وقوم تبع - « وتبع » كل ملك ، ملك اليمن فى الزمان السابق قبل

وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ

---

الإسلام - فقوم تبع كذبوا الرسول ، الذى أرسله الله إليهم ، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول ، وأى تبع من التبابعة ، لأنه - والله أعلم - كان مشهورا عند العرب العرباء ، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب ، خصوصا مثل هذه الحادثة العظيمة .

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل ، الذين أرسلهم الله إليهم ، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته .

ولستم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، خيراً منهم ، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم ، فاحذروا جرمهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم .

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو النشأة الأولى - على الخلق الآخر ، وهو : النشأة الآخرة .

فكما أنه الذى أوجدهم بعد العدم ، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيروتهم إلى الرفات والرمم فقال :

[ أفعيينا ] أى : أفعجزنا وضعفت قدرتنا [ بالخلق الأول ] ؟ ليس الأمر كذلك .

فلم نعجز ونَعْيَ عن ذلك ، وليسوا فى شك من ذلك .

ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ

---

[بل هم فى لبس من خلق جديد] هذا الذى شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة، أهون من الابتداء كما قال تعالى: «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه».

* يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره وتوسوس به نفسه.

وأنه [أقرب إليه من حبل الوريد] الذى هو أقرب شىء إلى الإنسان وهو: العظم المكتنف لثغرة النحر.

وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه فى جميع أحواله.

فيستحيي منه أن يراه، حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره.

وكذلك ينبغى له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضى رب العالمين.

ولهذا قال: [إذ يتلقى المتلقيان] أى: يتلقيان عن العبد أعماله كلها واحد [عن اليمين] يكتب الحسنات [و] الآخر [عن الشمال يكتب السيئات، وكل منهما [مقيد]بذلك متهيىء لعمله الذى أعد له، ملازم لذلك.

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا

---

[ ما يلفظ من قول ] خير أو شر [ إلا لديه رقيب عتيد ] أى : مراقب له ، حاضر لحاله ، كما قال تعالى : « وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » .

* أى [ وجاءت ] هذا الغافل المكذب بآيات الله [ سكرة الموت بالحق ] الذى لا مرد له ولا مناص [ ذلك ما كنت منه تحيد ] أى : تتأخر وتنكص عنه .

[ ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ] أى : اليوم الذى يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب ، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب .

[ وجاءت كل نفس معها سائق ] يسوقها إلى موقف القيامة ، فلا يمكنها أن تتأخر عنه [ وشهيد ] يشهد عليها بأعمالها خيرها وشرها .

وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد ، وحفظه لأعمالهم ومجازاته لهم بالعدل.

فهذا الأمر ، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال .

ولكن أكثر الناس غافلون ، ولهذا قال : [ لقد كنت فى غفلة من هذا ] .

فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ

---

أى : يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام ، توبيخا ، ولوما وتعنيفا .

أى : لقد كنت مكذبا بهذا ، تاركا للعمل له [ فـ ] الآن [ كشفنا عنك غطاءك ] الذى غطى قلبك ، فكثر نومك ، واستمر إعراضك [ فبصرك اليوم حديد ] ينظر ما يزعجه ويروعه ، من أنواع العذاب والنكال .

أو هذا خطاب من الله للعبد ، فإنه فى الدنيا ، فى غفلة عما خلق له ، ولكنه يوم القيامة ، ينتبه ويزول عنه وسنه ، فى وقت لايمكنه أن يتدارك الفارط ، ولا يستدرك الفائت .

وهذا كله تخويف من الله للعباد ، وترهيب ، بذكر ما يكون على المكذبين ، فى ذلك اليوم العظيم .

* يقول تعالى : [ وقال قرينه ] أى : قرين هذا المكذب المعرض ، من الملائكة ، الذين وكلهم الله على حفظه ، وحفظ أعماله ، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول :

[ هذا ما لدى عتيد ] أى : قد أحضرت ما جعلت عليه ، من حفظه ، وحفظ عمله ، فيجازى بعمله .

ويقال لمن استحق النار : [ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ] أى : كثير الكفر والعناد لآيات الله ، المكثر من المعاصى ، المجترىء على المحارم والمآثم.

كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ

---

[ مناع للخير ] أى : يمنع الخير الذى قبله ، الذى أعظمه ، الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، مناع ، لنفع ماله وبدنه .

[ معتد ] على عباد الله ، وعلى حدوده [ مريب ] أى : شاك فى وعد الله ووعيده .

فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان ، والشك ، والريب ، والشح ، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن ، ولهذا قال :

[ الذى جعل مع الله إلها آخر ] أى : عبد معه غيره ، ممن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشوراً .

[ فألقياه ] أيها الملكان القرينان [ فى العذاب الشديد ] الذى هو معظمها وأشدها ، وأشنعها .

[ قال قرينه ] الشيطان ، متبرئا منه ، حاملا عليه إثمه : [ ربنا ما أطغيته ] لأنى لم يكن لى عليه سلطان ، ولا حجة ولا برهان .

[ ولكن كان فى ضلال بعيد ] فهو الذى ضل وبعد عن الحق ، باختياره كما قال فى الآية الأخرى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » الآية .

قال الله تعالى مجيبا لاختصامهم : [ لا تختصموا لدى ] أى : لا فائدة

وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن
مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

---

فى اختصامكم عندى [و] الحال أنى [ قد قدمت إليكم بالوعيد ] أى: جاءتكم رسلى بالآيات البينات ، والحجج الواضحات ، والبراهين الساطعات ، فقامت عليكم حجتى ، وانقطعت حجتكم ، وقدمتم إلىّ بما أسلفتم من الأعمال التى وجب جزاؤها .

[ ما يبدل القول لدى ] أى : لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به ، لأنه لا أصدق من الله قيلا ، ولا أصدق حديثا .

[ وما أنا بظلام للعبيد ] بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر .

فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

* يقول تعالى ، مخوفا لعباده :

[ يوم نقول لجهنم هل امتلأت ] وذلك من كثرة ما ألقى فيها .

[ وتقول هل من مزيد ] أى : لا تزال تطلب الزيادة ، من المجرمين العاصين ، غضبا لربها ، وغيظا على الكافرين .

وقد وعدها الله مَلْأَها ، كما قال تعالى «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه ، فينزوي بعضها على بعض ، وتقول : قط قط ، قد اكتفيت وامتلأت .

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ

---

[ وأزلفت الجنة ] أى : قربت [ للمتقين غير بعيد ] بحيث تشاهدو ينظر ما فيها ، من النعيم المقيم ، والحبرة والسرور .

وإنما أزلفت وقربت ، لأجل المتقين لربهم ، التاركين للشرك ، كبيره وصغيره ، الممتثلين لأوامر ربهم ، المنقادين له .

ويقال لهم على وجه التهنئة : [ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ] أى : هذه الجنة وما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، هى التى وعد الله كل أواب ، أى : رجّاع إلى الله ، فى جميع الأوقات ، بذكره ، وحبه ، والاستعانة به ، ودعائه ، وخوفه ، ورجائه .

[ حفيظ ] أى : محافظ على ما أمر الله به ، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له ، على أتم الوجوه ، حفيظ لحدوده .

[ من خشى الرحمن ] أى : خافه على وجه المعرفة بربه ، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله فى حال غيبه ، أى مغيبه عن أعين الناس ، وهذه هى الخشية الحقيقية .

وأما خشيته فى حال نظر الناس وحضورهم ، فقد تكون رياء وسمعة ، فلا تدل على الخشية ، وإنما الخشية النافعة ، خشيته فى الغيب والشهادة .

[ وجاء بقلب منيب ] أى:وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه .

ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار : [ ادخلوها بسلام ] أى دخولا مقرونا بالسلامة من الآفات والشرور ، مأمونا فيه جميع مكاره الأمور ، فلاانقطاع لنعيمهم ، ولا كدر ، ولا تنغيص .

مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا
فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن

---

[ ذلك يوم الخلود ] الذى لا زوال له ولا موت ، ولا شىء من المكدرات .

[ لهم ما يشاءون فيها ] أى : كل ما تعلقت به مشيئتهم ، فهو حاصل فيها .

[ ولدينا ] فوق ذلك [ مزيد ] أى : ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وأعظم ذلك ، وأجله ، وأفضله ، النظر إلى وجهه الكريم ، والتمتع بسماع كلامه ، والتنعم بقربه ، فنسأله ذلك من فضله .

* يقول تعالى - مخوفا للمشركين المكذبين للرسول : [ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ] .

أى : أمما كثيرة [ هم أشد منهم بطشا ] أى : قوة وآثارا فى فى الأرض .

ولهذا قال : [ فنقبوا فى البلاد ] أى : بنو الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة ، وغرسوا الأشجار ، وأجروا الأنهار ، وزرعوا ، وعمروا ، ودمروا .

كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ

---

فلما كذبوا رسل الله ، وجحدوا آياته ، أخذهم الله بالعقاب الأليم ، والعذاب الشديد .

[ هل من محيص ] أى : لا مفر لهم من عذاب الله ، حين نزل بهم ، ولا منقذ .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا أموالهم ، ولا أولادهم .

[ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ] أى : قلب عظيم حىٌّ ، ذَكِىٌّ ، زَكِىٌّ ، فهذا إذا ورد عليه شىء من آيات الله ، تذكر بها ، وانتفع ، فارتفع .

وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله ، واستمعها ، استماعا يسترشد به ، وقلبه [ شهيد ] أى : حاضر ، فهذا أيضا ، له ذكرى وموعظة ، وشفاء وهدى .

وأما المعرض ، الذى لم يصغ سمعه إلى الآيات ، فهذا لا تفيده شيئا ، لأنه لا قبول عنده ، ولا تقتضى حكمة الله هداية من هذا نعته .

* وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ، ومشيئته النافذة ، التى أوجد بها أعظم المخلوقات [ السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ] .

أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، من غير تعب ، ولا نصب ، ولا لغوب ، ولا إعياء .

بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ

---

فالذى أوجدها ـ على كبرها وعظمها ـ قادر على إحياء الموتى ، من باب أولى وأحرى .

[ فاصبر على ما يقولون ] من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم بطاعة ربك وتسبيحه ، أول النهار وآخره ، فى أوقات الليل ، وأدبار الصلوات .

فإن ذكر الله تعالى ، مُسَلٍّ للنفس ، مؤنس لها ، مُهَوِّنٌ للصبر .

* أى : [ واستمع ] بقلبك [ يوم ينادى المنادى ] وهو إسرافيل عليه السلام .

أى : حين ينفخ فى الصور [ من مكان قريب ] من الأرض .

[ يوم يسمعون ] تلك [ الصيحة ] المزعجة المهولة [ بالحق ] الذى لاشك فيه ولا امتراء .

[ ذلك يوم الخروج ] من القبور ، الذى انفرد به القادر على كل شىء ولهذا قال :

[ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم ] أى : عن الخلائق .

نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

---

[ سراعا ] أى : يسرعون لإجابة الداعى لهم ، إلى موقف القيامة .

[ ذلك حشر علينا يسير ] أى : سهل على الله ، لا تعب فيه ، ولا كلفة .

[ نحن أعلم بما يقولون ] لك ، مما يحزنك ، من الأذى .

وإذا كنا أعلم بذلك ، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك ، وتيسيرنا لأمورك ، ونصرنا لك على أعدائك . فليفرح قلبك ، ولتطمئن نفسك ، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف ، من نفسك .

فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسّى بأولى العزم ، من رسل الله .

[ وما أنت عليهم بجبار ] أى : مسلط عليهم [ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ] .

ولهذا قال : [ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ] والتذكير ، هو تذكير بما تقرر فى العقول والفطر ، من محبة الخير وإيثاره ، وفعله ، ومن بغض الشر ومجانبته .

وإنما يتذكر بالتذكير ، من يخاف وعيد الله .

وأما من لم يخف الوعيد ، ولم يؤمن به ، فهذا فائدة تذكيره ، إقامة الحجة عليه ، لئلا يقول « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

آخر تفسير سورة ( قٓ ) والحمد لله أولا وآجراً وظاهراً وباطناً

تفسير

# سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ

---

هذا قسم من الله الصادق فى قيله ، بهذه المخلوقات العظيمة التى جعل الله فيها من المصالح والمنافع ، ما جعل على أن وعده صدق ، وأن الدين الذى هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال ، لواقع لا محالة ، ما له من دافع .

فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه ، وأقام الأدلة والبراهين عليه فلم يكذب به المكذبون ، ويعرض عن العمل له العاملون .

[ والذاريات ] هى : الرياح التى تذرو ، فى هبوبها [ ذروا ] بلينها ، ولطفها ، وقوتها ، وإزعاجها .

[ فالحاملات وقرا ] هى : السحاب ، تحمل الماء الكثير ، الذى ينفع الله به العباد والبلاد .

[ فالجاريات يسرا ] النجوم ، التى تجرى على وجه اليسر والسهولة ، فتتزين بها السموات ، ويهتدى بهـــا فى ظلمات البر والبحر ، وينتفع بالاعتبار بها .

يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾

---

[ فالمقسمات أمرا ] الملائكة التى تقسم الأمر وتدبره بإذن الله .

فكل منهم ، قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة ، لا يتعدى ماحُدّ له وقدر ، ورسم ، ولا ينقص منه .

* [ والسماء ذات الحبك ] أى : ذات الطرائق الحسنة ، التى تشبه حبك الرمال ، ومياه الغدران ، حين يحركها النسيم .

[ إنكم ] أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، [ لفى قول مختلف ] منكم ، من يقول ساحر ، ومنكم من يقول كاهن ، ومنكم من يقول : مجنـــون ، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة ، الدالة على حيرتهم وشكهم ، وأن ما هم عليه باطل .

[ يؤفك عنه من أفك ] أى : يصرف عنه من صرف عن الإيمان ، وانصرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه ، واختلاف قولهم ، دليل على فساده وبطلانه .

كما أن الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، متفق ، يصدق بعضه بعضاً ، لا تناقض فيه ، ولا اختلاف .

وذلك ، دليل على صحته ، وأنه من عند الله « فلو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ قتل الخراصون ] أى : قاتل الله الذين كذبوا على الله ، وجحدوا آياته ، وخاضوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

[ الذين هم فى غمرة ] أى : فى لجة من الكفر ، والجهل ، والضلال [ ساهون ] (١) .

[ يسألون ] على وجه الشك والتكذيب [ أيان يبعثون ] أى : متى يبعثون ، مستبعدين لذلك .

فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم [ يوم هم على النار يفتنون ] .
أى : يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر ، ويقال لهم :

[ ذوقوا فتنتكم ] أى : العذاب والنار ، الذى هو أثر ما افتتنوا به ، من الابتلاء الذى صيرهم إلى الكفر ، والضلال .

[ هذا ] العذاب ، الذى وصلتم إليه ، هو [ الذى كنتم به تستعجلون ] .

فالآن ، تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال ، والسخط والوبال .

---

(١) ساهون . أى : غافلون عما أمروا به .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ

---

* يقول تعالى ـ فى ذكر ثواب المتقين وأعمالهم ، التى وصلوا بها إلى ذلك الجزء :ـ

[ إن المتقين ] أى : الذين كانت التقوى شعارهم ، وطاعة الله دثارهم .

[ فى جنات ] مشتملات على جميع أصناف الأشجار ، والفواكه ، التى يوجد لها نظير فى الدنيا ، والتى لا يوجد لها نظير ، مما لم تنظر العيون إلى مثله ، ولم يخطر على قلب بشر .

[ وعيون ] سارحة ، تشرب منها تلك البساتين ، ويشرب بها عباد الله ، يفجرونها تفجيرا .

[ آخذين ما آتاهم ربهم ] يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم ، من جميع أصناف النعيم ، فأخذوا ذاك ، راضين به ، قد قرت به أعينهم ، وفرحت به نفوسهم ، ولم يطلبوا منه بدلا ، ولا يبغون عنه حولا ، وكل قد ناله من النعيم ، ما لا يطلب عليه المزيد .

ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا ، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهى ، أى : قد تلقوها بالرحب ، وانشراح الصدر ، منقادين لما أمر الله به ، بالامتثال على أكمل الوجوه .

ولما نهى عنه ، بالانزجار عنه لله ، على أكمل وجه ،

فإن الذين أعطاهم الله من الأوامر والنواهى ، هو أفضل العطايا ، التى حقها ، أن تتلقى بالشكر لله عليها ، والانقياد .

مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ

والمعنى الأول ، ألصق بسياق الكلام ، لأنه ذكر وصفهم فى الدنيا ، وأعمالهم بقوله : [ إنهم كانوا قبل ذلك] الوقت الذى وصلوا به إلى النعيم [ محسنين[١] ] .

وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم ، أن يعبدوه كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم . وللإحسان إلى عبادة الله ببذل النفع ، والإحسان ، من مال ، أو علم، أو جاه أو نصيحة ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو غير ذلك من وجوه البر ، وطرق الخيرات .

حتى إنه يدخل فى ذلك ، الإحسان بالقول ، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك ، والبهائم المملوكة ، وغير المملوكة .

ومن أفضل أنواع الإحسان فى عبادة الخالق ، صلاة الليل ، الدالة على الإخلاص ، وتواطؤ القلب واللسان .

ولهذا قال : [ كانوا ] أى : المحسنون [ قليلا من الليل ما يهجعون ] أى : كان هجوعهم أى : نومهم بالليل ، قليلا .

وأما أكثر الليل ، فإنهم قانتون لربهم ، ما بين صلاة ، وقراءة ، وذكر ، ودعاء ، وتضرع .

[ وبالأسحار ] التى هى قبيل الفجر [ هم يستغفرون ] الله تعالى .

---

(١) محسنين . أى الأعمال الصالحة ، آتين بها على ما ينبغى ، فلذلك نالوا ما نالو من الفوز العظيم . اهـ. أبو السعود .

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ

---

فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا فى خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه.

وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالى فى وصف أهل الإيمان والطاعة: « والمستغفرين بالأسحار ».

[ وفى أموالهم حق ] واجب ومستحب [ للسائل والمحروم ] أى: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يسألونهم.

* يقول تعالى ـ داعياً عباده إلى التفكر والاعتبار ـ:

[ وفى الأرض آيات للموقنين ].

وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار، وأنهار، وأشجار، ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه، بالظواهر والبواطن.

وكذلك فى نفس العبد من العبر، والحكمة، والرحمة، ما يدل على أن الله واحد، صمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: [ وفى السماء رزقكم ] أى مادة رزقكم، من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الدينى، والدنيوى.

[ وما توعدون ] من الجزاء فى الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله، كسائر الأقدار.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيها ، ينتبه به الذكى اللبيب ، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق .

وشبه ذلك ، بأظهر الأشياء لنا ، وهو النطق فقال :

[ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[١] ] .

---

(١) وعن الأصمعى انه قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود[١] ( الذكر الشاب من الإبل )

فقال : من الرجل ؟ قلت من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كلام الله .

قال : أتل علىّ . فتلوت ( والذاريات ) .

فلما بلغت قوله تعالى : ( وفى السماء رزقكم ) قال : حسبك . =

---

( ١ ) قال فى المختار من الصحاح : القعود ـ بالفتح ـ البعير من الإبل وهو البكر حين يركب أى : يمكن ظهر الركوب . فأقله سنتان إلى أن يثني فإذا أثنى ، سمى جملا ، ولا تكون البكرة قعوداً ، بل قلوصا .

وقال أبو عبيد : القعود من الإبل ، هو الذى يقتعده الراعى فى كل حاجة .

فى المصباح « والقعود ذكر القلاص ، وهو الشاب . قيل سُمِّىَ بذلك لأن ظهره اقْتُعِدَ أى : ركب » اهـ .

. . . . . . . . . . .

---

فكما أنكم ، لا تشكون فى نطقكم ، فكذلك ينبغى أن لا يعتريكم الشك ، فى البعث والجزاء .

---

= فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولّى .

فلما حججت مع الرشيد ، طفقت أطوف .

فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق .

فالتفتُ ، فإذا أنا بالأعرابى ، وقد نحل ، واصفر ، فسلم علىّ ، واستقرأ السورة .

فلما بلغت الآية ، صاح وقال :

« قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

ثم قال : وهل غير هذا ؟ .

فقرأت .

[ فورب السماء والأرض إنه لحق ]

فصاح وقال : يا سبحان الله . من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟

لم يصدقوه بقوله حتى حلف ؟

قالها ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه . اهـ . نسفى .

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

---

* يقول تعالى : [ هل أتاك ] أى : أما جاءك [ حديث ضيف إبراهيم المكرمين ] ونبأهم الغريب العجيب ، وهم : الملائكة ، الذين أرسلهم الله ، لإهلاك قوم لوط ، وأمرهم بالمرور على إبراهيم ، فجاءوه فى صورة أضياف .

[ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال ] مجيباً لهم [ سلام ] أى : عليكم [ قوم منكرون ] أي : أنتم قوم منكرون ، فأحب أن تعرفونى بأنفسكم ولم يعرفهم إلا بعد ذلك .

[ فراغ إلى أهله ] أى : ذهب سريعاً فى خيفة ، ليحضر لهم قراهم .

[ فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم ] وعرض عليهم الأكل .

[ قال ألا تأكلون . فأوجس[1] منهم خفية ] حين رأى أيديهم لا تصل إليه

[ قالوا لا تخف ] وأخبروه بما جاءوا له [ وبشروه بغلام عليم ] وهو : إسحق عليه السلام .

[ ف ] لما سمعت المرأة البشارة [ أقبلت ] فرحة مستبشرة [ فى صرة ]

---

( ١ ) أوجس . أى : أضمر فى نفسه خيفة لتوهم أنهم جاءوا للشر . وقيل : وقع فى قلبه أنهم ملائكة جاءوا للعذاب . اهـ . أبو السعود.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ

---

أى: صيحة [ فصكت[1] وجهها ] وهذا من جنس ما يجرى للنساء عند السرور ونحوه، من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة.

[ وقالت عجوز عقيم ] أى: أنّى لى الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمى للولادة أصلا، فثَمّ مانعان، كل منهما مانع من الولد.

وقد ذكرت المانع الثالث فى سورة هود فى قولها: « وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب ».

[ قالوا كذلك قال ربك ] أى: الله الذى قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب فى قدرة الله.

[ إنه هو الحكيم العليم ] أى: الذى وضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شىء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

[ قال فما خطبكم أيها المرسلون ] أى: قال لهم إبراهيم عليه السلام: ما شأنكم أيها المرسلون؟ وماذا تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

---

( ١ ) فصكت وجهها أى: لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمث. وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب. اهـ. أبو السعود.

مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

---

[ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ] وهم قوم لوط ، قد أجرموا بإشراكهم بالله ، وتكذيبهم لرسولهم ، وإتيانهم الفاحشة ، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

[ لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين ] أى : معلمة ، على كل حجر اسم صاحبه ، لأنهم أسرفوا ، وتجاوزوا الحد .

فجعل إبراهيم يجادلهم فى قوم لوط ، لعل الله يدفع عنهم العذاب .

فقيل له : « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

[ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ] وهم بيت لوط عليه السلام ، إلا امرأته ، فإنها من المهلكين .

[ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ] يعتبرون بها ويعلمون ، أن الله شديد العقاب ، وأن رسله صادقون ، مصدقون .

. . . . . . . . . . .

# فصل

## فى ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها : أن من الحكمة ، أن قص الله على عباده ، نبأ الأخيار والفجار ، ليعتبروا بهم ، وأين وصلت بهم الأحوال .

ومنها : فضيلة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، حيث ابتدأ الله قصته ، بما يدل على الاهتمام بشأنها ، والاعتناء بها .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن إبراهيم الخليل ، الذى أمر الله محمدا وأمته ، أن يتبعوا ملته ، وساقها الله فى هذا الموضع ، على وجه المدح له والثناء .

ومنها : أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام ، بالقول ، والفعل ، لأن الله وصف أضياف إبراهيم ، بأنهم مكرمون ، أي : أكرمهم إبراهيم . ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة ، قولا وفعلا ، ومكرمون أيضاً عند الله .

ومنها : أن إبراهيم عليه السلام ، قد كان بيته ، مأوى للطارقين والأضياف ، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان ، وإنما سلسكوا طريق الأدب ، فى ابتداء السلام ، فرد عليهم إبراهيم سلاما ، أكمل من سلامهم وأتم ، لأنه أتى به جملة اسمية ، دالة على الثبوت والاستمرار .

. . . . . . . . . . .

---

ومنها : مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان ، أو صار له فيه نوع اتصال ، لأن فى ذلك ، فوائد كثيرة .

ومنها : أدب إبراهيم ولطفه فى الكلام ، حيث قال : [قوم منكرون] ولم يقل « أنكرتكم » ، وبين اللفظين من الفرق ، مالا يخفى .

ومنها : المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها ، لأن خير البر عاجله ، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرَى أضيافه .

ومنها : أن الذبيحة الحاضرة ، التى قد أعدت لغير الضيف الحاضر ، إذا جعلت له ، ليس فيها أقل إهانة ، بل ذلك من الإكرام ، كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون .

ومنها : ما منّ الله به على خليله إبراهيم ، من الكرم الكثير ، وكون ذلك حاضرا لديه ، وفى بيته معداً ، لا يحتاج إلى أن يأتى به من السوق ، أو الجيران ، أو غير ذلك .

ومنها : أن إبراهيم ، هو الذى خدم أضيافه ، وهو خليل الرحمن ، وسيد من ضيّف الضيفان .

ومنها : أنه قرّبه إليهم فى المكان الذى هم فيه .

فلم يجعله فى موضع ويقول لهم : « تفضلوا ، أو ائتوا عليه » لأن هذا أيسر وأحسن .

ومنها : حسن ملاطفة الضيف فى الكلام اللين ، خصوصا ، عند تقديم الطعام إليه .

. . . . . . . . . . .

---

فإن إبراهيم ، عرض عليهم عرضا لطيفا فقال : [ ألا تأكلون ] ولم يقل « كلوا » ونحوه من الألفاظ ، التى غيرها أولى منها ، بل أتى بأداة العرض فقال : [ ألا تأكلون .

فينبغى للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ، ما هو المناسب واللائق بالحال ، كقوله لأضيافه « ألا تأكلون » أو « ألا تتفضلون » أو « تشرفوننا وتحسنون إلينا » ونحو ذلك .

ومنها : أن من خاف من أحد ، لسبب من الأسباب ، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف ، ويذكر له ما يؤمن روعه ، ويسكن جأشه .

كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم : [ لا تخف ] وأخبروه بتلك البشارة ، السارة ، بعد الخوف منهم .

ومنها : شدة فرح سارة ، امرأة إبراهيم ، حتى جرى منها ما جرى ، من صك وجهها وصَرَّتها غير المعهود .

ومنها : ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة ، من البشارة ، بغلام عليم .

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

* أى : [ وفى موسى ] وما أرسله الله به إلى فرعون وملأه ، بالآيات البينات ، والمعجزات الظاهرات ، آية للذين يخافون العذاب الأليم .

فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين ، تولى فرعون [ بركنه ] .

أى : أعرض بجانبه عن الحق ، ولم يلتفت إليه ، وقدحوا فيه أعظم القدح فقالوا :

[ ساحر أو مجنون ] أى : إن موسى ، لا يخلو ، إما أن يكون ما أتى به سحرا وشعبذة ، ليس من الحق فى شىء .

وإما أن يكون مجنونا ، لا يؤخذ بما صدر منه ، لعدم عقله .

هذا ، وقد علموا ، خصوصا فرعون ، أن موسى صادق ، كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

وقال موسى لفرعون : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » الآية .

[ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ] أى : مذنب طاغ ، عاتٍ على الله ، فأخذه عزيز مقتدر .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* أى [ و ] آية لهم [ فى عاد ] القبيلة المعروفة [ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ] أى : التى لا خير فيها ، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام .

[ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ] أى كالرمم البالية .

فالذى أهلكهم على قوتهم وبطشهم ، دليل على كمال قوته واقتداره ، الذى لا يعجزه شىء ، المنتقم ممن عصاه

* أى [وفى ثمود] آية عظيمة ، حين أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام ، فكذبوه وعاندوه ، وبعث الله له الناقة ، آية مبصرة ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوا ونفورا .

[قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا[1] عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة ] أى : الصيحة العظيمة المهلكة [ وهم ينظرون ] إلى عقوبتهم بأعينهم .

[فما استطاعوا من قيام] ينجون به من العذاب [وما كانوا منتصرين] لأنفسهم .

---

( ١ ) فعتوا . أى : فاستكبروا عن امتثال أمر ربهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

* أى وكذلك ما فعل الله بقوم نوح ، حين كذبوا نوحا عليه السلام ، وفسقوا عن أمر الله .

فأرسل عليهم السماء والأرض بماء منهمر ، فأغرقهم عن آخرهم ، ولم يبق من الكافرين ديارا ، وهذه عادة الله وسنته ، فيمن عصاه .

* يقول تعالى مبينا لقدرته العظيمة : [ والسماء بنيناها ] أى : خلقناها وأتقناها ، وجعلناها سقفا للأرض وما عليها .

[ بأيد ] أى : بقوة وقدرة عظيمة [ وإنا لموسعون ] لأرجائها وأنحائها .

وإنا لموسعون أيضا على عبادنا ، بالرزق الذى ما ترك دابة فى مهامه القفار ، ولجج البحار ، وأقطار العالم العلوى والسفلى ، إلا وأوصل إليها من الرزق ، ما يكفيها ، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها .

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات ، وتبارك الذى وسعت رحمته جميع البريات .

[ والأرض فرشناها ] أى : جعلناها فراشا للخلق ، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم ، من مساكن ، وغراس ، وزرع ، وحرث ، وجلوس ، وسلوك للسبل الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم .

تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

ولما كان الفراش ، قد يكون صالحا للانتفاع من كل وجه ، وقد يكون من وجه دون وجه ، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد ، على أكمل الوجوه وأحسنها .

وأثنى على نفسه بذلك فقال : [ فنعم الماهدون ] الذى مهد لعباده ما اقتضته وحكمته ورحمته .

[ ومن كل شىء خلقنا زوجين ] أى : صنفين ، ذكر وأنثى ، من كل نوع من أنواع الحيوانات .

[ لعلكم تذكرون ] لنعم الله التى أنعم بها عليكم فى تقدير ذلك وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها ، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع .

فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته ، والإنابة إليه ، أمر بما هو المقصود من ذلك ، وهو الفرار إليه مما أى : الفرار مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا ، إلى ما يحبه ، ظاهرا وباطنا ، فرار من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى الذكر .

فمن استكمل هذه الأمور ، فقد استكمل الدين كله ، وزال عنه المرهوب ، وحصل له ، غاية المراد والمطلوب .

وسمى الله الرجوع إليه ، فرارا ، لأن فى الرجوع إلى غيره ، أنواع المخاوف والمكاره .

وفى الرجوع إليه ، أنواع المحاب والأمن ، والسرور والسعادة الفوز .

وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

---

فيفر العبد من قضائه وقدره ، إلى قضائه وقدره ، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى ، فإنه بحسب الخوف منه ، يكون الفرار إليه .

[ إنى لكم منه نذير مبين ] أى : منذر لكم من عذاب الله ، ومخوف بَيِّنُ النذارة .

[ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ] هذا من الفرار إلى الله ، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله ، من الأوثان ، والأنداد ، والقبور وغيرها ، مما عبد من دون الله ، ويخلص لربه العبادة والخوف ، والرجاء والدعاء ، والإنابة .

* يقول الله - مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين بالله ، المكذبين له ، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ، ما هو منزه عنه ، وأن هذه الأقوال ، مازالت دأبا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل فما أرسل الله من رسول ، إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون .

يقول الله تعالى : هذه الأقوال التى صدرت منهم - الأولين والآخرين هل هى أقوال تواصوا بها ، ولقن بعضهم بعضا ؟ .

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها :

[ أم هم قوم طاغون ] تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان ، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم ؟ .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

---

وهـذا هو الواقع ، كما قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » وكذلك المؤمنون ، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه ، والسعى فيه بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم ، وتوقيرهم ، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم .

* يقول تعالى آمرا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين .

[ فتول عنهم ] أى : لا تبال بهم ولا تؤاخذهم ، وأقبل على شأنك .

[ فما أنت بملوم ] فى ذنبهم ، وإنما عليك البلاغ ، وقد أديت ما حملت وبلغت ما أرسلت به .

[ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ] والتذكير نوعان .

تذكير بما لم يعرف تفصيله ، مما عرف مجمله بالفطر والعقول .

فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره ، وكراهة الشر والزهد فيه ، وشرعه موافق لذلك .

فكل أمر ونهى من الشرع ، فهو من التذكير .

وتمام التذكير ، أن يذكر ما فى المأمور ، من الخير والحسن والمصالح وما فى المنهى عنه ، من المضار .

والنوع الثانى من التذكير : تذكير بما هو معلوم للمؤمنين ، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول .

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ

فَيُذَكَّرُونَ بذلك ، ويكرر عليهم ليرسخ فى أذهانهم ، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه ، من ذلك ، وليحدث لهم نشاطا وهمة ، توجب لهم الانتفاع والارتفاع .

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين ، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة ، واتباع رضوان الله ، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى : « فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى » .

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير ، فهذا لا ينفع تذكيره .

بمنزلة الأرض السبخة ، التى لا يفيدها المطر شيئا . وهؤلاء الصنف ، لو جاءتهم كل آية ، لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

* هذه الغاية ، التى خلق الله الجن والإنس لها ، وبعث جميع الرسل يدعون إليها .

وهى عبادته ، المتضمنة لمعرفته ومحبته ، والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه .

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى ، فإن تمام العبادة ، متوقف على المعرفة بالله .

بل كلما ازداد العبد معرفة بربه ، كانت عبادته أكمل ، فهذا الذى خلق الله المكلفين لأجله ، فما خلقهم لحاجة منه إليهم .

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

---

[ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ] تعالى الله الغنى عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه ، وإنما جميع الخلق ، فقراء إليه ، فى جميع حوائجهم ومطالبهم ، الضرورية وغيرها ولهذا قال :

[ إن الله هو الرزاق] أى : كثير الرزق ، الذى ما من دابة فى الأرض ولا فى السماء إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها .

[ ذو القوة المتين ] أى : الذى له القوة والقـدرة كلها ، الذى أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية ، وبها تصرف فى الظواهر والبواطن ونفذت مشيئته فى جميع البريات ، .

فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يعجزه هارب ، ولا يخرج سلطانه أحد ، ومن قوته ، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم .

ومن قدرته وقوته ، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى وعصفت بهم الرياح وابتلعتهم الطيور والسباع وتمزقوا وتفرقوا فى مهامه القفار ولجج البحار .

فلا يفوته منهم أحد ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، فسبحان القوى المتين .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

* أى : [ فإن للذين ظلموا ] بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، من العذاب والنكال [ ذنوبا ] أى : نصيباً وقسطاً ، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب .

[ فلا يستعجلون ] بالعذاب فإن سنة الله فى الأمم واحدة .

فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة ، فإنه لابد أن يقع عليه العذاب ، ولو تأخر عنه مدة ، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة فقال : [ فويل للذين كفروا من[1] يومهم الذى يوعدون ] وهو يوم القيامة ، الذى قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والأغلال ، فلا مغيث ، ولا منقذ لهم من عذاب الله . نعوذ بالله منه .

تم تفسير سورة الذاريات

(١) و « من » فى قوله تعالى : [من يومهم الذى يوعدون] للتعليل . أى : يوعدونه من يوم « بدر » .

وقيل : يوم القيامة ، وهو الأنسب ، بما فى صدر السورة الكريمة الآتية:

والأول ( يوم القيامة ) هو الأوفق لما قبله من حيث إنهما من العذاب الدنيوى . اهـ . أبو السعود .

# تفسير

# سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾

---

* يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة ، المشتملة على الحكم الجليلة ، على البعث ، والجزاء للمتقين ، والمكذبين .

فأقسم بالطور ، وهو : الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران ، عليه الصلاة والسلام ، وأوحى إليه ، ما أوحى من الأحكام .

وفى ذلك من المنة عليه وعلى أمته ، ما هو من آيات الله العظيمة ، ونعمه التى لا يقدر العباد لها على عدٍّ ولا ثمن .

[ وكتاب مسطور ] يحتمل أن المراد به : اللوح المحفوظ ، الذى كتب الله به كل شيء .

ويحتمل أن المراد به : القرآن الكريم ، الذى هو أفضل الكتب .

أنزله الله محتويا ، على نبأ الأولين والآخرين ، وعلوم السابقين واللاحقين .

وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴿٤﴾وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴿٦﴾

وقوله [ فى رق ] أى ورق [ منشور ] أى : مكتوب مسطر ، ظاهر غير خفى ، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير .

[ والبيت المعمور ] وهو : البيت الذى فوق السماء السابعة ، المعمور مدى الأوقات ، بالملائكة الكرام ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وقيل : إن البيت المعمور هو : بيت الله الحرام ، والمعمور بالطائفين ، والمصلين ، والذاكرين كل وقت ، وبالوفود إليه بالحج والعمرة .

كما أقسم الله به فى قوله « وهذا البلد الأمين » .

وحقيق ببيت ، هو أفضل بيوت الأرض ، الذى يقصده الناس بالحج والعمرة ، أحد أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، التى لا يتم إلا بها ، وهو الذى بناه إبراهيم وإسمعيل وجعله الله مثابة للناس وأمنا ، أن يقسم الله به ، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته .

[ والسقف المرفوع ] أى السماء ، التى جعلها الله سقفا للمخلوقات ، وبناء للأرض ، تستمد منها أنوارها ، ويقتدى بعلاماتها ومنارها ، وينزل الله منها المطر والرحمة ، وأنواع الرزق .

[ والبحر المسجور ] أى : المملوء ماء ، قد سجره الله ، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض ، مع أن مقتضى الطبيعة ، أن يغمر وجه الأرض .

ولكن حكمته ، اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان ، ليعيش من من على وجه الأرض ، من أنواع الحيوان .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

---

وقيل : إن المراد بالمسجور : الموقد الذى يوقد ناراً يوم القيامة ، نارا تلظى ، ممتلئا ـ على سعته ـ من أصناف العذاب .

هذه الأشياء التى أقسم الله بها ، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده ، وبراهين قدرته ، وبعثه الأموات ، ولهذا قال :

[ إن عذاب ربك لواقع ] أى : لابد أن يقع ، ولا يخلف الله وعده وقيله .

[ ما له من دافع ] يدفعه ، ولا مانع يمنعه ، لأن قدرة الله ، لا يغالبها مغالب ، ولا يفوتها هارب .

ثم ذكر وصف ذلك اليوم ، الذى يقع فيه العذاب فقال :

[ يوم تمور السماء مورا ] أى : تدور السماء وتضطرب ، وتدوم حركتها ، بانزعاج ، وعدم سكون

[ وتسير الجبال سيرا ] أى تزول عن أماكنها ، وتسير كسير السحاب وتتلوون كالعهن المنفوش ، وتبث بعد ذلك ، حتى تصير مثل الهباء ، وذلك كله ، لعظم هول يوم القيامة فكيف بالآدمىّ الضعيف !؟ .

[ فويل يومئذ للمكذبين ] والويل : كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف .

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل فقال :

ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ

---

[ الذين هم فى خوض يلعبون ] أى : خوض بالباطل ولعب به .

فعلومهم وبحوثهم ، بالعلوم الضارة ، المتضمنة للتكذيب بالحق ، والتصديق بالباطل .

وأعمالهم ، أعمال أهل الجهل والسفه ، واللعب .

بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان ، من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة .

[ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ] أى : يدفعون إليها دفعا ، ويساقون إليها سوقا عنيفا ، ويجرون على وجوههم ويقال لهم توبيخا ولوما :

[ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ] فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذى لا يبلغ قدره ، ولا يوصف أمره .

[ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ] يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب ، كما يدل عليه سياق الآيات .

أى : لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع « أهذا سحر لا حقيقة له ، فقد رأيتموه ، أم أنتم فى الدنيا لا تبصرون ، أى : لا بصيرة لكم ولا علم عندكم ، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة ؟ .

والجواب انتفاء الأمرين .

أما كونه سحراً ، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق ، وأصدق الصدق ، المنافى للسحر من جميع الوجوه .

أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اُصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

---

وأما كونهم لا يبصرون ، فإن الأمر بخلاف ذلك ، بل حجة الله قد قامت عليهم ، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك ، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك ، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجليلة .

ويحتمل أن الإشارة بقوله [ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ] إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الحق المبين ، والصراط المستقيم .

أي : أفيتصور من له عقل ، أن يقول عنه : إنه سحر ، وهو أعظم الحق وأجله ؟ .

ولكن لعدم بصيرتهم ، قالوا فيه ما قالوا .

[ اصلوها ] أي : ادخلوا على وجه تحيط بكم ، وتشمل أبدانكم ، وتطلع على أفئدتكم .

[ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ] أي : لا يفيدكم الصبر على النار شيئا ، ولا يتأسى بعضكم ببعض ، ولا يخفف عنكم العذاب .

وليست من الأمور ، التي إذا صبر العبد عليها ، هانت مشقتها وزالت شدتها .

وإنما فعل بهم ذلك ، بسبب أعمالهم الخبيثة ، وكسبهم ولهذا قال :

[ إنما تجزون ما كنتم ما تعملون ]

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ

---

* لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين ، ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترغيب والترهيب ، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء ، فقال :

[ إن المتقين ] لربهم ، الذين اتقوا سخطه وعذابه ، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى .

[ فى جنات ] أى : بساتين ، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة ، والأنهار المتدفقة ، والقصور المحدقة ، والمنازل المزخرفة .

[ ونعيم ] وهذا شامل لنعيم القلب ، والروح ، والبدن .

[ فاكهين بما آتاهم ربهم ] أى : معجبين به ، متمتعين على وجه الفرح والسرور ، بما أعطاهم الله من النعيم الذى لا يمكن وصفه ، ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

[ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ] فرزقهم المحبوب ، ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه ، وجانبوا ما يسخطه .

[كلوا واشربوا ] أى : مما تشتهيه أنفسكم ، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة .

[ هنيئا ] أى : متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح ، والسرور والحبور .

[ بما كنتم تعملون ] أى : نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة ، وأقوالكم المستحسنة .

وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

[ متكئين على سرر مصفوفة ] الاتكاء هو : الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار .

والسرر هى : الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية .

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ، ليدل ذلك على كثرتها ، وحسن تنظيمها ، واجتماع أهلها وسرورهم ، بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضا .

فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ، ما لا يخطر بالبال ولا يدور فى الخيال من المآكل ، والمشارب اللذيذة ، والمجالس الحسنة الأنيقة لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتى لا يتم سرور إلا بهن .

فذكر تعالى ، أن لهم من الأزواج ، أكمل النساء أوصافا وخلقا وأخلاقا ولهذا قال :

[ وزوجناهم بحور عين ] وهن النساء اللواتى قد جمعن جمال الصور الظاهرة وبهاءها ، ومن الأخلاق الفاضلة ، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين ، ويسلبن عقول العالمين ، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقا إليهن ورغبة فى وصالهن .

والعين : حسان الأعين مليحاتها ، التى صفا بياضها وسوادها .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾

---

* وهذا من تمام نعيم الجنة ، أن ألحق الله بهم ذريتهم ، الذين اتبعوهم بإيمان .

أى : لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم فصارت الذرية تبعا لهم بالإيمان ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم .

فهؤلاء المذكورون ، يلحقهم الله بمنازل آبائهم فى الجنة ، وأن لم يبلغوها جزاء لآبائهم ، وزيادة فى ثوابهم .

ومع ذلك ، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئا .

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك ، يلحق الله بهم ذريتهم ، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكما واحدا .

فإن النار دار العدل ، ومن عدله تعالى ، أن لا يعذب أحداً إلا بذنب ، ولهذا قال :

[ كل امرىء بما كسب رهين ] أى : مرتهن بعمله ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يحمل على أحد ذنب أحد .

فهذا اعتراض ، من فوائده ، إزالة هذا الوهم المذكور .

وقوله : [ وأمددناهم ] أي : أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ، ورزقنا العميم [ بفاكهة ] من العنب والرمان والتفاح ، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون .

يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾

---

[ ولحم مما يشتهون ] من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم ، من لحوم الطير وغيرها .

[ يتنازعون فيها كأسا ] أى : تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم ، ويتعاطونها فيما بينهم .

وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب ، وأباريق .

[ لا لغو فيها ولا تأثيم ] أى : ليس فى الجنة كلام لغو ، وهو : الذى لا فائدة فيه .

ولا تأثيم وهو : الذى فيه إثم ومعصية ، وإذا انتفى الأمران ، ثبت الأمر الثالث .

وهو أن كلامهم فيها ، سلام طيب طاهر ، مسر للنفوس ، مفرح للقلوب ، يتعاشرون أحسن عشرة ، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم ، إلا ما يقر أعينهم ، ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم .

[ ويطوف عليهم غلمان لهم ] أى : خدم شباب [ كأنهم لؤلؤ مكنون ] من حسنهم وبهائهم ، يدورون عليهم بالخدمة ، وقضاء أشغالهم .

وهذا يدل على كثرة نعيمهم ، وسعته ، وكمال راحتهم .

[ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ] عن أمور الدنيا وأحوالها .

[ قالوا ] فى ذكر بيان الذى أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور .

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

---

[ إنا كنا قبل ] أى : فى دار الدنيا [ فى أهلنا مشفقين ] أى :خائفين وجلين ، فتركنا من خوفه ، الذنوب ، وأصلحنا لذلك ، العيوب .

[ فمن الله علينا ] بالهداية والتوفيق [ ووقانا عذاب السموم ] .

أى : العذاب الحار الشديد حره .

[ إنا كنا من قبل ندعوه ] أن يقينا عذاب السموم ، ويوصلنا إلى النعيم ، وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

أى : لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات ، وندعوه فى سائر الأوقات .

[ إنه هو البر الرحيم ] فمن بره ورحمته إيانا ، أنالنا رضاه والجنة،ووقانا سخطه والنار .

* يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يذكر الناس ، مسلمهم وكافرهم ، لتقوم حجة الله على الظالمين ، ويهتدى بتذكيره الموفقون .

وأن لا يبالى بقول المشركين المكذبين ، وأذيتهم ، وأقوالهم ، التى يصدون بها الناس عن اتباعه ، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها ، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به فقال :

[ فما أنت بنعمة ربك ] أى : منه ولطفه [ بكاهن ] أى : له رَئِىٌّ من

وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل

---

الجن ، يأتيه بخبر بعض الغيوب ، التي يضم إليها مائة كذبة .

[ ولا مجنون ] فاقد للعقل ، بل أنت أكمل الناس عقلا ، وأبعدهم عن الشياطين ، وأعظمهم صدقا ، وأجلهم وأكملهم .

وتارة [ يقولون ] فيه : إنه [ شاعر ] يقول الشعر ، والذى جاء به شعر والله يقول « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

[ نتربص به ريب المنون ] أى : ننتظر به الموت ، فيبطل أمره ، ونستريح منه .

[ قل ] لهم جوابا لهذا الكلام السخيف : [ تربصوا ] أى : انتظروا بى الموت .

[ فإنى معكم من المتربصين ] نتربص بكم ، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا .

[ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ] أى : أهذا التكذيب لك ، والأقوال التى قالوها ؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم ؟

فبئس العقول والأحلام ، التى هذه نتائجها ، وهذه ثمراتها .

فإن عقولا جعلت أكمل الخلق عقلا مجنونا ، وجعلت أصدق الصدق ، وأحق الحق ، كذبا وباطلا ، لهِىَ العقول ، التى ينزه المجانين عنها .

لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

أم الذى حملهم على ذلك ، ظلمهم ، وطغيانهم ؟ وهو الواقع ،فالطغيان ليس له حد يقف عليه .

فلا يستغرب من الطاغى المتجاوز الحد ، كل قول وفعل صدر منه .

[ أم يقولون تقوله ] أى : تقول محمد القرآن ، وقاله من تلقاء نفسه ؟

[ بل لا يؤمنون ] فلو آمنوا ، لم يقولوا ما قالوا .

[ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ] أنه تقوله ، فإنكم العرب الفصحاء ، والفحول البلغاء ، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله ،فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه ، وأنكم لو اجتمعتم ، أنتم والإنس والجن ، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله ، فحينئذ أنتم بين أمرين .

إما مؤمنون به ، مقتدون بهديه ، وإما معاندون متبعون ، لما علمتم من الباطل .

[ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ] وهذا استدلال عليهم ، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق ، أو الخروج عن موجب العقل والدين .

وبيان ذلك : أنهم منكرون لتوحيد الله ، مكذبون لرسوله ، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم .

وقد تقرر فى العقل مع الشرع ، أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور .

إما أنهم خلقوا من غير شىء ، أى : لا خالق خلقهم ، بل وجدوا من

وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

---

غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور،أن يوجد أحد نفسه.

فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث وهو: أن الله، هو الذى خلقهم.

وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذى لا تنبغى العبادة ولا تصلح، إلا له تعالى.

وقوله: [ أم خلقوا السموات والأرض ] وهذا استفهام يدل على تقرير النفى.

أى: ما خلقوا السموات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدا.

[ بل ] المكذبون [ لا يوقنون ] أى: ليس عندهم يقين، يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

[ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ] أى: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطوا من يشاءون، ويمنعوا من يشاءون؟.

أى: فلذلك حجروا على الله، أن يعطى النبوة عبده ورسوله، محمدا صلى الله عليه وسلم.

وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر، وأذل من ذلك.

ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ

---

فليس فى أيديهم لأنفسهم ، نفع ولا ضر ، ولا موت ولا حياة ، ولا نشور .

« أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معشيتهم فى الحياة الدنيا » .

[ أم هم المسيطرون ] أى : المتسلطون على خلق الله وملكه ، بالقهر والغلبة ؟ .

ليس الأمر كذلك ، بل هم العاجزون الفقراء .

[ أم لهم سلم يستمعون فيه ] أى : ألهم اطلاع على الغيب ، واستماع له بين الملأ ، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم ؟

[ فليأت مستمعهم ] المدعى لذلك [ بسلطان[1] مبين ] .

وأنّى : له ذلك ؟ .

والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه .

وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أفضل الرسل ، وأعلمهم وإمامهم ، وهو المخبر بما أخبر به ، من توحيد الله ، ووعيده ، وغير ذلك من أخباره الصادقة ، والمكذبون ، هم أهل الجهل ، والضلال ، والغى والعناد .

---

(١) بسلطان . أى : بحجة واضحة تصدق دعواه .

أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ

فأيُّ المخبرين أحق بقبول خبره ؟

خصوصا والرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام من الأدلة والبراهين، على ما أخبر به ، ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين ، وأكمل الصدق ، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة ، فضلا عن إقامة حجة .

وقوله : [ أم له البنات ] كما زعمتم [ ولكم البنون ] فتجمعون بين المحذورين ؟ .

جعلكم له الولد ، واختياركم له أنقص الصنفين ؟ .

فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين ، غاية ، أو دونه نهاية ؟

[ أم تسألهم ] يا أيها الرسول [ أجرا ] على تبليغ الرسالة .

[ فهم من مغرم(٢) مثقلون ] .

ليس الأمر كذلك ، بل أنت الحريص على تعليمهم ، تبرعا من غير شيء .

بل تبذل لهم الأموال الجزيلة ، على قبول رسالتك ، والاستجابة لأمرك ودعوتك ، وتعطى المؤلفة قلوبهم ، ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم .

---

(٢) المغرم . أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، يعنى يفرض عليه جبراً أن يدفع مبلغاً من المال .

والمعنى . أألزمتهم وأجبرتهم على دفع مبلغ يثقل عليهم ويعجزون عن أدائه مقابل تأديتك رسالة الله إليهم ، فزهدهم ذلك ، فى أن يتبعوك ؟

يَكْتُبُونَ﴿٤١﴾أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴿٤٢﴾

[ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ] ما كانوا يعلمونه من الغيوب ، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله ، فعارضوه ، وعاندوه بما عندهم من الغيب ؟ .

وقد علم أنهم هم الأمة الأمية ،الجهال الضالون .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذى عنده من العلم أعظم من غيره وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق

وهذا كله إلزام لهم ، بالطرق العقلية والنقلية ،على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها ، وأسلمها من الاعتراض .

وقوله: [ أم يريدون ] بقدحهم فيك ، وفيما جئت به [ كيدا ] يبطلون به دينك ، ويفسدون به أمرك ؟

[ فالذين كفروا هم المكيدون ] أي : كيدهم فى نحورهم ، ومضرته عائدة إليهم .

وقد فعل الله ذلك ـ ولله الحمد ، فلم يُبْقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئا ، إلا فعلوه ، فنصر الله نبيه عليهم ، وأظهر دينه ، وخذلهم ، وانتصر عليهم .

[ أم لهم إله غير الله ] أى : ألهم إله يدعى ويرجى نفعه ، ويخاف من ضره ، غير الله تعالى ؟

[ سبحان الله عما يشركون ] فليس له شريك فى الملك ، ولا شريك فى الوحدانية والعبادة .

وهذا هو المقصود من الكلام الذى سيق لأجله ، وهو بطلان عبادة ما سوى الله ، وبيان فسادها ، بتلك الأدلة القاطعة .

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

---

وأن ما عليه المشركون ، هو الباطل ، وأن الذى ينبغى أن يعبد ، ويصلى له ويسجد ، ويخلص له دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، هو الله المألوه المعبود ، كامل الأسماء والصفات ، كثير النعوت الحسنة ، والأفعال الجميلة ، ذو الجلال والإكرام ، والعز الذى لا يرام ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد .

* يقول تعالى ، فى ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح ، قد عتوا عن الحق ، وعسوا[1] على الباطل ، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه ، ولخالفوه وعاندوا .

[ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا ] أى : لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة ، كسف أى : قطع كبار من العذاب [ يقولوا سحاب مركوم ] أى : هذا سحاب متراكم على العادة .

[ أى : فلا يبالون بما رأوا من الآيات ، ولا يعتبرون بها .

وهؤلاء لا دواء لهم ، إلا العذاب والنكال ، ولهذا قال :

[ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ] وهو يوم القيامة الذى يصيبهم فيه من العذاب ، ما لا يقادر قدره ، ولا يوصف أمره .

---

( ١ ) قال المختار من الصحاح : عسا الشيء من باب « سما » وعساءً بالمد . أي : يبس وصلب . اهـ . والمراد هنا : جمدوا على الباطل وتمسكوا به بيبوسة وصلابة .

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ

---

[ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ] أى : لا قليلا ولا كثيرا .

وإن كان فى الدنيا ، قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنا قليلا فيوم القيامة ، يضمحل كيدهم ، وتبطل مساعيهم ، ولا ينتصرون من عذاب الله [ ولا هم ينصرون(١) ] .

* لما ذكر الله عذاب الظالمين فى الآخرة ، أخبر أن لهم عذابا قبل عذاب يوم القيامة وذلك شامل لعذاب الدنيا ، بالقتل ، والسبى ، والإخراج من الديار ، ولعذاب البرزخ والقبر .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] أى : فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب ، وشدة العقاب .

ولما بين تعالى ، الحجج والبراهين، على بطلان أقوال المكذبين ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن لا يعبأ بهم شيئا ، وأن يصبر لحكم ربه القدرى ، والشرعى ، بلزومه ، والاستقامة عليه ، ووعده الله الكفاية بقوله :

[ فإنك بأعيننا ] أى بمرأى منا ، وحفظ ، واعتناء بأمرك .

وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادةفقال : [ وسبح بحمدربك حين تقوم ] من الليل .

---

(١) ولاهم ينصرون أى : من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم .

بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ
ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

---

ففيه الأمر بقيام الليل ، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس ، بدليل قوله :

[ ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ] أى : آخر الليل ، ويدخل فيه صلاة الفجر . والله أعلم .

تم تفسير سورة والطور ـ والحمد لله

# تفسير

# سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

---

* يقسم تعالى بالنجم عند هُوِيِّه ، أى : سقوطه فى الأفق ، فى آخر الليل عند إدبار الليل ، وإقبال النهار ، لأن فى ذلك ، من الآيات العظيمة ، ما أوجب أن أقسم به .

والصحيح أن النجم ، اسم جنس شامل للنجوم كلها .

وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الوحى الإلهى ، لأن فى ذلك مناسبة عجيبة .

فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء ، فكذلك الوحى وآثاره ، زينة للأرض .

فلولا العلم الموروث عن الأنبياء ، لكان الناس فى ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم .

والمقسم عليه ، تنزيه الرسول عن الضلال فى علمه ، والغىِّ فى قصده .

ويلزم من ذلك ، أن يكون مهتديا فى علمه ، هاديا ، حسن القصد ، ناصحا للخلق .

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾

---

وبعكس ما عليه أهل الضلال ، من فساد العلم ، وسوء القصد .

وقال [صاحبكم] لينبههم على ما يعرفونه منه ، من الصدق والهداية ، وأنه لا يخفى عليهم أمره .

[ وما ينطق عن الهوى ] أى : ليس نطقه صادرا عن هوى نفسه .

[ إن هو إلا وحى يوحى ] أى : لا يتبع إلا ما أوحى إليه،من الهدى والتقوى ، فى نفسه ، وفى غيره .

ودل هذا ، على أن السنة وحى من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » .

وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه،لأن كلامه لا يصدر عن هوى ، وإنما يصدر عن وحى يوحى .

ثم ذكر المعلم للرسول ، وهو جبريل عليه السلام ، أفضل الملائكة الكرام ، وأقواهم ، وأكملهم فقال :

[ علمه شديد القوى ] أى : نزل بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام ، شديد القوى الظاهرة والباطنة .

قوى على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوى على إيصال الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنعه من اختلاس الشياطين له ، أو إدخالهم فيه ما ليس منه .

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ
عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُ

---

وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوى الأمين.

[ ذو مرة ] أى : قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

[ فاستوى ] جبريل عليه السلام [ وهو بالأفق الأعلى ] أى: أفق السماء الذى هو أعلى من الأرض فهو من الأرواح العلوية، التى لاتنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

[ ثم دنا ] جبريل من النبى صلى الله عليه وسلم، لإيصال الوحى إليه.

[ فتدلى ] عليه من الأفق الأعلى [ فكان ] فى قربه منه [قاب قوسين] أى : قدر قوسين، والقوس معروف.

[ أو أدنى ] أى : أقرب من القوسين.

وهذا يدل على كمال مباشرته للرسول صلى الله عليه وسلم، بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

[ فأوحى ] الله بواسطة جبريل عليه السلام [ إلى عبده ما أوحى ].

أى : الذى أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

[ ما كذب الفؤاد ما رأى ] أى: اتفق فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤيته على الوحى الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه.

وهذا دليل على كمال الوحى، الذى أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقيا لا شك فيه ولا شبهة، ولا ريب.

عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ

---

فلم يكذب فؤاده ، ما رأى بصره ، ولم يشك فى ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك:ما رأى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ، من آيات الله العظيمة ، وأنه تيقنه حقا ، بقلبه ورؤيته ، وهذا هو الصحيح فى تأويل الآية الكريمة .

وقيل : إن المراد بذلك ، رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ، لربه ليلة الإسراء ، وتكليمه إياه ، وهذا اختيار كثير من العلماء ، رحمهم الله ، فأثبتوا بهذا ، رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ، لربه فى الدنيا .

ولكن الصحيح ، القول الأول ، وأن المراد به جبريل عليه السلام ، كما يدل عليه السياق .

وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ، رأى جبريل فى صورته الأصلية ، التى هو عليها مرتين : مرة فى الأفق الأعلى ، تحت السماء الدنيا كما تقدم ، والمرة الثانية ، فوق السماء السابعة ، ليلة أسرى برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال :

[ ولقد رآه نزلة أخرى ] أى : رأى محمد جبريل مرة أخرى ، نازلا إليه .

[ عند سدرة المنتهى ] وهى شجرة عظيمة جدا ، فوق السماء السابعة ، سميت سدرة المنتهى ، لأنه ينتهى إليها ما يعرج من الأرض ، وينزل إليها ما ينزل من الله ، من الوحى وغيره .

مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

أو لانتهاء علم المخلوقات إليها، أى : لكونها فوق السموات والأرض فهى المنتهى فى علوها ، أو لغير ذلك ، والله أعلم .

فرأى محمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل فى ذلك المكان ، الذى هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التى لا يقربها شيطان ولا غيره ، من الأرواح الخبيثة .

[ عندها ] أى : عند تلك الشجرة [ جنة المأوى ] أى : الجنة الجامعة ، لكل نعيم ، بحيث كانت محلا ، تنتهى إليه الأمانى ، وترغب فيه الإرادات وتأوى إليها الرغبات ، وهذا دليل على أن الجنة فى أعلى الأماكن ، وفوق السماء السابعة .

[ إذ يغشى السدرة ما يغشى ] أى : يغشاها من أمر الله ، شىء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل .

[ ما زاغ البصر ] أى : ما زاغ يمنة ولا يسرة،عن مقصوده [ وماطغى] أى : وما تجاوز البصر .

وهذا كمال الأدب منه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن قام مقاما ، أقامه الله فيه ، ولم يقصر عنه ، ولا تجاوزه ، ولا حاد عنه .

وهذا ، أكمل ما يكون من الأدب العظيم ، الذى فاق فيه الأولين والآخرين .

فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور .

رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ

---

إما أن لا يقوم العبد بما أمر به .

أو يقوم به على وجه التفريط .

أو على وجه الإفراط ، أو على وجه الحيدة ، يمينا وشمالا وهذه الأمور كلها منتفية عنه صلى الله عليه وسلم .

[ لقد رأى من آيات ربه الكبري ] من الجنة والنار ، وغير ذلك ، من التى رآها صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى به .

* لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ، ودين الحق ، والأمر بعبادة الله ، وتوحيده ، ذكر بطلان ما عليه المشركون ، من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شىء ، ولا تنفع ، ولا تضر ، وإنما هى أسماء فارغة من المعنى ، سماها المشركون ، هم وآباؤهم الجهال الضلال ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة ، التى لا تستحقها ، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال .

فالآلهة التى بهذه الحال ، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة .

وهذه الأنداد التى سموها بهذه الأسماء ، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هى متصفة بها .

فسموا « اللات » من « الإله » المستحق للعبادة ، و « العزى » من « العزيز » ، و « مناة » من « المنان » إلحادا فى أسماء الله وتجريا على الشرك به ، وهذه أسماء متجردة من المعانى .

ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

---

فكل من له أدنى مسكة من عقل ، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها .

[ ألكم الذكر وله الأنثى ] أى : أتجعلون لله البنات بزعمكم ، ولكم البنون ؟ .

[ تلك إذا قسمة ضيزى ] أي ظالمة جائرة .

وأى ظلم ، أعظم من قسمة ، تقتضى تفضيل العبد المخلوق على الخالق ؟!

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وقوله : [ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ] أى : من حجة وبرهان ، على صحة مذهبكم .

وكل أمر ، ما أنزل الله فيه من سلطان ، فهو باطل ، فاسد ، لا يتخذ دينا .

وهم - فى أنفسهم ، ليسوا بمتبعين لبرهان ، يتيقنون به ما ذهبوا إليه .

وإنما دلهم على قولهم ، الظن الفاسد ، والجهل الكاسد ، وما تهواه أنفسهم ، من الشرك ، والبدع الموافقة لأهويتهم ، والحال ، أنه لا موجب لهم يقتضى ذلك ، إلا اتباعهم للظن ، من فقد العلم والهدى ، ولهذا قال تعالى :

ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

---

[ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ] أى : الذى يرشدهم فى باب التوحيد والنبوة ، وجميع المطالب ، التى يحتاج إليها العباد .

فكلها قد بينها الله أكمل بيان ، وأوضحه ، وأدله على المقصود .

وأقام عليه من الأدلة والبراهين ، ما يوجب لهم ولغيرهم ، اتباعه .

فلم يبق لأحد حجة ، ولا عذر ، من بعد البيان والبرهان .

وإذا كان ما هم عليه ، غايته اتباع الظن ، ونهايته الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى ، فالبقاء على هذه الحال ، من أسفه السفه ، وأظلم الظلم ، ومع ذلك ، يتمنون الأمانى ، ويغترون بأنفسهم .

ولهذا أنكر تعالى على من زعم ، أنه يحصل له ما تمنى ، وهو كاذب فى ذلك فقال :

[ أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى ] فيعطى منها من يشاء ، ويمنع من يشاء .

فليس الأمر تابعا لأمانيهم ، ولا موافقا لأهوائهم .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

* يقول تعالى ، منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم ، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة :

[ وكم من ملك فى السموات ] من الملائكة المقربين ، وكرام الملائكة .

[ لا تغنى شفاعتهم شيئا ] أى : لا تفيد من ادعاها[1] وتعلق بها ورجاها .

[ إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ] أى : لا بد من اجتماع الشرطين : إذنه تعالى فى الشفاعة ، ورضاه عن المشفوع له .

ومن المعلوم المتقرر ، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله ، موافقا فيه صاحبه ، الشريعة .

فالمشركون إذاً ، لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين ، لأنهم سدوا على أنفسهم ، رحمة أرحم الراحمين .

---

( ١ ) قوله : من ادعا . أى : اتخذها آلهة بمجرد الدعوى فأخذ يدعوها . والأنسب أن يقال [ دعاها ] ليتناسب مع ما بعدها .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ

---

* يعنى : أن المشركين بالله المكذبين لرسله ، الذين لا يؤمنون بالآخرة ، بسبب عدم إيمانهم بالله تعالى ، تجرأوا على ما تجرأوا عليه ، من الأقوال ، والأفعال المحادة لله ولرسوله ، من قولهم : « الملائكة بنات الله » .

فلم ينزهوا ربهم عن الولادة ، ولم يكرموا الملائكة ، ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثا .

والحال أنه ليس لهم بذلك علم ، لا عن الله ، ولا عن رسوله ، ولا دلت على ذلك ، الفطر والعقول .

بل العلم كله ، دال على نقيض قولهم ، وأن الله منزه عن الأولاد ، والصاحبة ، لأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وأن الملائكة ، كرام مقربون إلى الله ، قائمون بخدمته « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

والمشركون إنما يتبعون فى ذلك ، القول القبيح ، وهو : الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ، فإن الحق لا بد فيه من اليقين ، المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة .

ولما كان هذا ، دأب هؤلاء المذكورين ، أنهم لا غرض لهم فى اتباع

عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

---

الحق ، وإنما غرضهم ومقصودهم ، ما تهواه نفوسهم ، أمر الله رسوله بالإعراض على من تولى عن ذكره ، الذى هو الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، فأعرض عن العلوم النافعة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، فهذا منتهى إرادته .

ومن المعلوم أن العبد ، لا يعمل إلا للشى الذى يريده .

فَسَعْىُ هؤلاء مقصور على الدنيا ولذاتها ، وشهواتها ، كيف حصلت حصلوها ، وبأى طريق سنحت ، ابتدروها .

[ ذلك مبلغهم من العلم ] أى : هذا منتهى علمهم وغايته .

وأما المؤمنون بالآخرة ، المصدقون بها ، أولو الألباب والعقول ، فهمهم وإرادتهم ، للدار الآخرة ، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها ، وهو المأخوذ من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى ، أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ممن لا يستحق ذلك ، فيكله إلى نفسه ، ويخذله ، فيضل عن سبيل الله ، ولهذا قال تعالى :

[ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ] فيضع فضله ، حيث يعلم المحل اللائق به .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ

---

* يخبر تعالى ، أنه مالك الملك ، المنفرد بملك الدنيا والآخرة ، وأن جميع ما فيهما ، ملك لله ، يتصرف فيهم ، تصرف الملك العظيم ، فى عبيده ومماليكه ، ينفذ فيهم قدره ، ويجري عليهم شرعه ، ويأمرهم ، وينهاهم ، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصى .

[ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ] من سيئات الكفر ، فما دونه ، من المعاصى ، وبما عملوه من أعمال الشر ، بالعقوبة الفظيعة .

[ ويجزى الذين أحسنوا ] فى عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع [ بالحسنى ] أى : بالحالة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة .

وأكبر ذلك وأجله ، رضا ربهم ، والفوز بالجنة ، وما فيها من النعيم .

ثم ذكر وصفهم فقال : [ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ] أى : يفعلون ما أمرهم الله به ، من الواجبات ، التى يكون تركها من كبائر الذنوب ، ويتركون المحرمات الكبار ، من الزنا ، وشرب الخمر ، وأكل الربا ، والقتل ، ونحو ذلك ، من الذنوب العظيمة .

[ إلا اللمم ] وهى الذنوب الصغار ، التى لا يصر صاحبها عليها ، أوالتى يلم العبد بها ، المرة بعد المرة ، على وجه الندرة والقلة ، فهذه ، ليس مجرد الإقدام عليها ، مخرجا للعبد من أن يكون من المحسنين ، فإن هذه ، مع

ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ

---

الإتيان بالواجبات ، وترك المحرمات ، تدخل تحت مغفرة الله ، التى وسعت كل شىء ، ولهذا قال :

[ إن ربك واسع المغفرة ] فلولا مغفرته ، لهلكت البلاد والعباد ، ولولا عفوه وحلمه ، لسقطت السماء على الأرض ، ولما ترك على ظهرها من دابة .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ، ما اجتنبت الكبائر » .

وقوله [ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ] أى : هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها ، وما جبلكم عليه ، من الضعف والخور ، عن كثير مما أمركم الله به ، ومن كثرة الدواعى إلى فعل المحرمات ، وكثرة الجواذب إليها ، وعدم الموانع القوية .

والضعف موجود مشاهد منكم ، حين أخرجكم الله من الأرض ، وإذ كنتم فى بطون أمهاتكم ، ولم يزل موجودا فيكم .

وإن كان الله تعالى ، قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به ، ولكن الضعف لم يزل .

فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ، ناسبت الحكمة الإلهية ، والجود الربانى أن يتغمدكم برحمته ، ومغفرته ، وعفوه ، ويغمركم بإحسانه ، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم .

فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾
أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا
وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ

---

خصوصا إذا كان العبد مقصوده ، مرضاة ربه ، فى جميع الأوقات ، وسعيه فيما يقرب إليه فى أكثر الآنات ، وفراره من الذنوب ، التى يمقت بها عند مولاه ، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبا ، وأن يكون الله له ، فى جميع أحواله مجيبا ، ولهذا قال تعالى :

[ فلا تزكوا أنفسكم ] أى : تخبرون الناس بطهارتها ، على وجه التمدح عندهم .

[ هو أعلم بمن اتقى ] فإن التقوى ، محلها القلب ، والله هو المطلع عليه ، المجازى على ما فيه ، من بر ، وتقوى وأما الناس ، فلا يغنون عنكم من الله شيئا .

* يقول تعالى : [ أفرأيت ] قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده ، فتولى عن ذلك ، وأعرض عنه ؟.

فإن سمحت نفسه ببعض الشىء القليل ، فإنه لا يستمر عليه ، بل يبخل

بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ

---

ويكدى[1] ويمنع .

فإن الإحسان ليس سجية له وطبعا ، بل طبعه التولىّ عن الطاعة وعدم الثبوب على فعل المعروف .

ومع هذا ، فهو يزكىّ نفسه ، وينزلها غير منزلتها ، التى أنزلها الله بها .

[ أعنده علم الغيب فهو يرى ] الغيب ، فيخبر به ، أم هو متقول على الله ، متجرىء عليه ، جامع بين المحذورين ، الإساءة ، والتزكية ، كما هو الواقع ، لأنه قد علم ، أنه ليس عنده علم من الغيب ، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك ، فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب ، التى على يد النبى المعصوم ، تدل على نقيض قوله ، وذلك دليل على بطلانه .

[ أم لم ينبأ ] هذا المدعى [ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى ].
أى : قام بجميع ما ابتلاه الله به ، وأمره به ، من الشرائع ، وأصول الدين وفروعه .

---

( ١ ) قوله « ويكدى » فعل مضارع وماضيه « أكدى » أى : قطع عطيته وأمسك . وعلى هذا فيكون عطف « يمنع » على « يكدى » من باب عطف المرادف .

وأصله أكدى الحافر ، إذا بلغ الكدية . أى : الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر فيمسك عنه . اهـ . من أبى السعود والنسفى بتصرف يسير .

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ

---

وفى تلك الصحف ، أحكام كثيرة ، من أهمها ما ذكره الله بقوله « أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

أى : كل عامل ، له عمله الحسن والسىء .

فليس له من عمل غيره وسعيه ، شىء ، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبا .

[ وأن سعيه سوف يرى ] فى الآخرة فيميز حسنه من سيئه .

[ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ] أى : المستكمل لجميع العمل .

الحسن الخالص ، بالحسنى ، والسىء الخالص ، بالسُّوأى ، والمشوب ، بحسبه .

جزاء تقر بعدله وإحسانه ، الخليقة كلها ، وتحمد الله عليه .

حتى إن أهل النار ، ليدخلون النار ، وإن قلوبهم ، مملوءة من حمد ربهم ، والإقرار له ، بكمال الحكمة ، ومقت أنفسهم ، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم ، وأوردوها شر الموارد .

وقد استدل بقوله [ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ] فوصول[1] سعى

---

( ١ ) قوله « فوصول سعى غير ومناف لذلك » هكذا فى الأصل وهو تعبير غير قويم .

والصواب أن يقال : « وقد استدل البعض بالآية على عدم وصول سعى غيره ، إذا أهداه ذلك الغير إليه » .

يعنى بذلك إهداء قراءة القرآن والصدقات وغيرهما إلى الأموات .

إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾

---

غيره إليه ، مناف لذلك ، وفى هذا الاستدلال نظر ، فإن الآية ، إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه ، وهذا حق ، لا خلاف فيه .

وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعى غيره ، إذا أهداه ذلك الغير إليه .

كما أنه ليس للإنسان من المال ، إلا ما هو فى ملكه وتحت يده ، ولا يلزم من ذلك ، أن لا يملك ما وهبه الغير له ، من ماله الذى يملكه .

وقوله [ وأن إلى ربك المنتهى ] أى : إليه تنتهى الأمور : وإليه تصير الأشياء والخلائق ، بالبعث والنشور .

وإلى الله المنتهى فى كل حال ، فإليه ينتهى العلم ، والحكم ، والرحمة ، وسائر الكمالات .

[ وأنه هو أضحك وأبكى ] أى : هو الذى أوجد أسباب الضحك والبكاء ، وهو الخير ، والشر ، والفرح ، والسرور ، والهم ، والحزن ، وهو سبحانه ، له الحكمة البالغة فى ذلك .

[ وأنه هو أمات وأحيا ] أى : هو المنفرد بالإيجاد والإعدام .

والذى أوجد الخلق ، وأمرهم ، ونهاهم ، سيعيدهم بعد موتهم ، ويجازيهم بتلك الأعمال ، التى عملوها فى دار الدنيا .

[ وأنه خلق الزوجين ] فسرهما بقوله [ الذكر والأنثى ] وهذا اسم جنس ، شامل لجميع الحيوانات ، ناطقها ، وبهيمها ، فهو المنفرد بخلقها .

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ

---

[ من نطفة إذا تمنى ] وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وانفراده بالعزة العظيمة ، حيث أوجد تلك الحيوانات ، صغيرها ، وكبيرها ، من نطفة ضعيفة ، من ماء مهين ، ثم نماها ، وكملها ، حتى بلغت ما بلغت .

ثم صار الآدمى منها ، إما إلى أرفع المقامات ، فى أعلى عليين .

وإما إلى أدنى الحالات ، فى أسفل سافلين .

ولهذا استدل بالبداءة ، على الإعادة فقال : [ وأن عليه النشأة الأخرى ] فيعيد العباد من الأجداث ، ويجمعهم ليوم الميقات ، ويجازيهم على الحسنات والسيئات .

[ وأنه هو أغنى وأقنى ] أى : أغنى العباد ، بتيسير أمر معاشهم ، من التجارات ، وأنواع المكاسب ، من الحرف وغيرها .

وأقنى أى : أفاد عباده من الأموال ، بجميع أنواعها ، ما يصيرون به مقتنين لها ، ومالكين لكثير من الأعيان ، وهذا من نعمه تعالى ، أن أخبرهم أن جميع النعم منه .

وهذا يوجب على العباد ، أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له .

[ وأنه هو رب الشعرى ] وهو ، النجم المعروف بالشعرى العبور ، المسماة بالمرزم .

وخصها الله بالذكر ، وإن كان هو رب كل شىء ، لأن هذا النجم مما عبد فى الجاهلية .

عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾

---

فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون ، مربوب مدبر مخلوق ، فكيف يتخذ مع الله آلهة .

[ وأنه أهلك عادا الأولى ] وهم : قوم هود عليه السلام ، حين كذبوا هودا ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

[ وثمود ] قوم صالح عليه السلام ، أرسله الله إلى ثمود ، فكذبوه .

فبعث الله إليهم الناقة ، آية ، فعقروها ، وكذبوه ، فأهلكهم الله .

[ فما أبقى ] منهم أحداً ، بل أبادهم عن آخرهم .

[ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ] من هؤلاء الأمم . فأهلكهم الله وأغرقهم .

[ والمؤتفكة ] وهم : قوم لوط عليه السلام [ أهوى(١) ] أى أصابهم الله بعذاب ، ما عذب به أحداً من العالمين ، قلب أسفل ديارهم أعلاها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

ولهذا قال : [ فغشاها ما غشى ] أى : غشيها من العذاب الأليم الوخيم ، ما غشى .

أى : شىء عظيم ، لا يمكن وصفه .

---

( ١ ) أهوى . أى : أسقطها ـ بعد رفعها إلى السماء ـ مقلوبة إلى الأرض بأمره تعالى جبريل أن يرفع ديار قوم لوط على جناحه إلى السماء .

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

[فبأى آلاء ربك تتمارى] أى : فبأى نعم الله وفضله ، تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة ، لا تقبل الشك ، بوجه من الوجوه .

فما بالعباد من نعمة ، إلا منه تعالى ، ولا يدفع النقم ، إلا هو .

[هذا نذير من النذر الأولى] أى : هذا الرسول القرشى الهاشمى ، محمد بن عبد الله ، ليس ببدع من الرسل ، بل قد تقدمه من الرسل السابقين ، ودعوا إلى ما دعا إليه .

فلأى شىء تنكر رسالته ؟ وبأى حجة تبطل دعوته ؟

أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام ؟

أليس يدعو إلى كل خير ، وينهى عن كل شر ؟

ألم يأت بالقرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ؟

ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام ؟

فما الذى يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين ؟

[أزفت الآزفة] أى قربت القيامة ، ودنا وقتها ، وبانت علاماتها .

[ليس لها من دون الله كاشفة] أى : إذا أتت القيامة ، وجاءهم العذاب الموعود به .

كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ

---

ثم توعد المنكرين لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم فقال :

[ أفمن هذا الحديث تعجبون ] ؟ أى : أفمن هذا الحديث ، الذى هو خير الكلام وأفضله ، وأشرفه ، تتعجبون ، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة ، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة ؟

هذا من جهلهم ، وضلالهم ، وعنادهم .

وإلا فهو الحديث ، الذى إذا حدث صدق ، وإذا قال قولا ،فهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، وهو القرآن العظيم ، الذى لو أنزل على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

الذى يزيد ذوى الإصلاح ، رأياً وعقلا ، وتسديداً ، وثباتاً ، وإيقانا ، وإيمانا .

بل الذى ينبغى العجب ، من عقل من تعجب منه ، وسفهه وضلاله .

[ وتضحكون ولا تبكون ] أى : تستعجلون الضحك والاستهزاء به، مع أنه الذى ينبغى أن تتأثر منه النفوس ، وتلين له القلوب ، وتبكى له العيون ، سماعا لأمره ونهيه ، وإصغاء لوعده ووعيده ، والتفاتا لأخباره الصادقة الحسنة .

[ وأنتم سامدون ] أى : غافلون ، لاهون عنه وعن تدبره ، وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم .

وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه فى جميع الأحوال ، لما كنتم بهذه المثابة ، التى يأنف منها أولو الألباب ، ولهذا قال تعالى :

[ فاسجدوا لله واعبدوا ] الأمر بالسجود لله خصوصا ، يدل على فضله ، وأنه سر العبادة ولبها .

فإن روحها ، الخشوع لله ، والخضوع له .

والسجود ، أعظم حالة يخضع بها العبد ، فإنه يخضع قلبه وبدنه ، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة ، موضع وطء الأقدام .

ثم أمر بالعبادة عموماً ، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة ، والباطنة .

تم تفسير سورة النجم — والحمد لله

# تفسير

## سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً

---

* يخبر تعالى، أن الساعة وهي: القيامة، اقتربت، وآن أوانها، وحان وقت مجيئها.

ومع هذا، فهؤلاء المكذبون، لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها.

ويريهم الله، من الآيات العظيمة، الدالة على وقوعها، ما يؤمن على مثله، البشر.

فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات، ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه، أشار صلى الله عليه وسلم، إلى القمر، فانشق بإذن الله، فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان.

يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ

---

والمشركون وغيرهم ، يشاهدون هذه الآية العظيمة ، الكائنة فى العالم العلوى ، التى لا يقدر الخلق على التمويه بها ، والتخييل .

فشاهدوا أمراً ، ما رأوا مثله ، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله ، نظيره .

فانبهروا لذلك ، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ولم يرد الله بهم خيرا .

ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا : سحرنا محمد .

ولكن علامة ذلك ، أنكم تسألون من ورد عليكم من السفر ، فإنه إن قدر على سحركم ، لم يقدر أن يسحر من ليس مشاهدا مثلكم .

فسألوا كل من قدم ، فأخبروهم بوقوع ذلك فقالوا : ( سحر مستمر ] .

سحرنا محمد ، وسحر غيرنا .

وهذا من البهت ، الذى لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل .

وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها ، بل كل آية تأتيهم ، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب والرد لها ، ولهذا قال :

[ وإن يروا آية يعرضوا ] فليس قصدهم اتباع الحق والهدى ، وإنما مقصودهم ، اتباع الهوى ولهذا قال :

[ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ] كقوله تعالى « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » .

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾
حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى ، لآمنوا قطعا ، واتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، لأن الله أراهم على يديه ، من البينات والبراهين ، والحجج القواطع ، ما دل على جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية .

[ وكل أمر مستقر ] أى : إلى الآن ، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه ، وسيصير الأمر إلى آخره .

فالمصدق ، يتقلب فى جنات النعيم ، ومغفرة الله ورضوانه ، والمكذب يتقلب فى سخط الله وعذابه ، خالداً مخلداً أبداً .

وقال تعالى — مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح ، واتباع للهدى :

[ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ] أى : زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم .

وذلك [ حكمة ] منه تعالى [ بالغة ] أى : لتقوم حجته على العالمين ، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل .

[ فما تغنى النذر ] لقوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : قد بان أن المكذبين ، لا حيلة فى هداهم ، فلم يبق ، إلا الإعراض عنهم فقال : [ فتول عنهم ] وانتظر بهم يوما عظيما وَهَوْلًا جسيما .

وذلك [ يوم يدع الداع ] وهو إسرافيل عليه السلام [ إلى شىء نكر ] أى : إلى أمر فظيع ، تنكره الخليقة ، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه .

فينفخ إسرافيل ، نفخة ، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة .

[ خشعا أبصارهم ] أى : من الهول والفزع ، الذى وصل إلى قلوبهم فخضعت ، وذلت ، وخشعت لذلك أبصارهم .

[ يخرجون من الأجداث ] وهى : القبور [ كأنهم ] من كثرتهم ، وروجان(1) بعضهم ببعض [ جراد منتشر ] أى : مبثوث فى الأرض ، متكاثر جداً ،

[ مهطعين إلى الداع ] أى : مسرعين لإجابة نداء الداعى .

وهذا يدل ، على أن الداعى ، يدعوهم ، ويأمرهم بالحضور ، لموقف القيامة ، فيلبون دعوته ، ويسرعون إلى إجابته .

[ يقول الكافرون ] الذين قد حضر عذابهم : [ هذا يوم عسر ]

---

(١) قوله « وروجان » هكذا فى الأصل . والصواب أن يقال « وموجان » .

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا

---

* لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله ، وأن الآيات لا تنفع فيهم ، ولا تجدى عليهم شيئاً ، أنذرهم ، وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل ، وكيف أهلكهم الله ، وأحل بهم عقابه .

فذكر قوم نوح ، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام .

فدعاهم إلى توحيد الله ، وعبادته وحده لا شريك له ، فامتنعوا من من ترك الشرك وقالوا :

« لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسرا »

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ، ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، فلم يزدهم ذلك ، إلا عنادا وطغيانا ، وقدحا فى نبيهم .

ولهذا قال هنا : [ فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون ] لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم ، من الشرك والضلال ، هو الذي يدل عليه العقل ، وأن ما جاء به نوح عليه السلام ، جهل وضلال ، لا يصدر إلا من المجانين .

وكذبوا فى ذلك ، وقلبوا الحقائق الثابتة ، شرعا وعقلا .

فإن ما جاء به ، هو الحق الثابت ، الذى يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور ، والرشد ، وما هم عليه جهل وضلال مبين .

وقوله : [ وازدجر ] أى : زجره قومه ، وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى .

أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾

---

فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به ، ولاتكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ، ما قدروا عليه .

وهكذا جميع أعداء الرسل ، هذه حالهم مع أنبيائهم .

فعند ذلك دعا نوح ربه فقال : [ إنى مغلوب ] لا قدرة لى على الانتصار منهم ، لأنه لم يؤمن من قومه ، إلا القليل النادر ، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم .

[ فانتصر ] اللهم لى منهم ، وقال فى الآية الأخرى : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الآيات .

فأجاب الله سؤاله ، فانتصر له من قومه قال تعالى :

[ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ] أى : كثير جداً متتابع .

[ وفجرنا الأرض عيونا ] فجعلت السماء ، ينزل منها من الماء شىء خارق للعادة ، وتفجرت الأرض كلها ، حتى التنور الذى لم تجر العادة ، بوجود الماء فيه ، فضلا عن كونه منبعا للماء ، لأنه موضع النار .

[ فالتقى الماء ] أى : ماء السماء والأرض [ على أمر ] من الله له بذلك .

[ قد قدر ] أى : قد كتبه الله فى الأزل ، وقضاه ، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين .

تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً

---

[ وحملناه على ذات ألواح ودسر ] أى : ونجينا عبدنا نوحا ، على السفينة ، ذات الألواح والدسر ، أى : المسامير التى قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها .

[ تجرى بأعيننا ] أى : تجرى بنوح ومن آمن معه ، ومن حمله ، من أصناف المخلوقات .

برعاية من الله ، وحفظ منه لها عن الغرق ، ونظر وكلاءة منه تعالى ، وهو نعم الحافظ والوكيل .

[ جزاء لمن كان كفر ] أى : فعلنا بنوح مافعلنا من النجاة من الغرق العام ، جزاء له ، حيث كذبه قومه ، وكفروا ، فصبر على دعوتهم ، واستمر على أمر الله .

فلم يرده عنه راد ، ولا صده عن ذلك صاد ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » الآية .

ويحتمل أن المراد : إنا أهلكنا قوم نوح ، وفعلنا بهم ما فعلنا ، من العذاب والخزى ، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم .

وهذا متوجه على قراءة من قرأها ، بفتح الكاف .

[ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ] أى : ولقد تركنا قصة نوح مع قومه ، آية يتذكر بها المتذكرون ، على أن من عصى الرسل وعاندهم ، أهلكه الله بعقاب عام شديد .

فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

أو أن الضمير ، يعود إلى السفينة وجنسها ، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام ، ثم أبقى الله صنعتها ، وجنسها بين الناس ليدل ذلك ، على رحمته بخلقه ، وعنايته ، وكمال قدرته ، وبديع صنعته .

[ فهل من مدكر ] ؟ أى : فهل من متذكر للآيات ، مُلْقٍ ذهنه وفكرته ، لما يأتيه منها ، فإنها فى غاية البيان واليسر؟ .

[ فكيف كان عذابى ونذر ] أى : فكيف رأيت ، أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذى لا يُبْقِى لأحد عليه ، حجة .

[ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] أى : ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ، ألفاظه للحفظ والأداء ، ومعانيه للفهم والعلم ، لأنه أحسن الكلام لفظا ، وأصدقه معنى ، وأبينه تفسيرا .

فكل من أقبل عليه ، يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير ، وسهله عليه.

والذكر ، شامل لكل ما يتذكر به العاملون ، من الحلال ، والحرام وأحكام الأمر والنهى ، وأحكام الجزاء والمواعظ ، والعبر ، والعقائد النافعة ، والأخبار الصادقة .

ولهذا كان علم القرآن ، حفظا وتفسيراً ، أسهل العلوم ، وأجلها على الإطلاق .

وهو العلم النافع ، الذى إذا طلبه العبد ، أُعِينَ عليه .

وقال بعض السلف عند هذه الآية : هل من طالب علم فَيُعَانَ عليه ؟ .

ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله « فهل من مدكر» .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾
تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ

---

* «وعاد» هى: القبيله المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم [ ريحا صرصرا ] أى: شديدة جدا.

[ فى يوم نحس ] أى: شديد العذاب والشقاء عليهم.

[ مستمر ] عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

[ تنزع الناس[1] ] من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء ثم تدفعهم بالأرض[2] فتهلكهم، فيصبحون [ كأنهم أعجاز نخل منقعر ] أى: كأن جثثهم بعد هلاكهم، مثل جذوع النخل الخاوى الذى اقتلعته الريح فسقط على الأرض.

فما أهون الخلق على الله، إذا عصوا أمره!.

---

(١) تنزع الناس. أى: تقلعهم من حفر الأرض المندسين فيها وتصرعهم على رءوسهم فتدق رقابهم فتفصل الرأس من الجسد. اهـ. جلالين. وذكر النسفى فى تفسيره أنهم كانوا يصطفون، آخذا بعضهم أيدى بعض، ويتداخلون فى الشعاب ويحفرون الحفر فيدسون فيها فتقتلعهم الريح وتكبهم وتدق رقابهم.

(٢) قوله «ثم تدفعهم بالأرض» تعبير غير قويم. والصواب أن يقال «ثم ترمى بهم - منكبين على وجوههم - على الأرض صرعى».

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا

---

[ فكيف كان عذابى ونذر ] كان ، والله ، العذاب الأليم ، والنذارة التى ما أبقت لأحد عليه حجة .

[ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ] كرر تعالى ذلك ، رحمة بعباده ، وعناية بهم ، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم .

* [ كذبت ثمود ] وهم القبيلة المعروفة المشهورة فى أرض الحجر ، نبيهم صالحا صلى الله عليه وسلم ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنذرهم العقاب ، إن هم خالفوه .

فكذبوه واستكبروا عليه ، وقالوا ـ كبراً وتيهاً ـ : [ أبشرا منا واحدا نتبعه ] أى : كيف نتبع بشرا ،لا مَلَكاً ، منا، لا من غيرنا ، ممن هو أكبرعند الناس منا .

ومع ذلك فهو شخص واحد [ إنا إذا ] أى : إن اتبعناه وهو فى هذه الحالة .

[ لفى ضلال وسعر [1] ] أى : لضالون أشقياء .

---

( ١ ) سعر . أى : جنون . كما في الجلالين وأبى السعود .

وذكر النسفى أن معنى « سعر » نيران . جمع « سعير » فعكسوا عليه =

بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم ، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر ، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر ، والحجر ، والصور .

[ أألقى الذكر عليه من بيننا ] أى : كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر ؟ ، فأى مزية خصه من بيننا ؟ .

وهذا اعتراض من المكذبين على الله ، لم يزالوا يدلون به ، ويصولون ويردون به دعوة الرسل .

وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم : « قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

فالرسل مَنَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات ، بها صلحوا لرسالات ربهم ، والاختصاص بوحيه .

ومن رحمته وحكمته ، أن كانوا من البشر .

فلو كانوا من الملائكة ، لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم .

ولو جعلهم من الملائكة ، لعَاجَل المكذبين لهم بالعقاب العاجل .

والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح ، تكذيبه ، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر فقالوا :

[ بل هو كذاب أشر ] أى : كثير الكذب والشر .

---

= فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول [ يعنى أنهم إذا تركوا دينهم يكونون من أصحاب النار ] .

وقيل : أى : إن معنى « السعر » الضلال والخطأ والبعد عن الصواب.

و « السعر » الجنون . اه .

إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ

---

فقبحهم الله ، ما أسفه أحلامهم ، وأظلمهم ، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين ، بالخطاب الشنيع .

لا جرم ، عاقبهم الله حين أشتد طغيانهم .

فأرسل الله الناقة التى هى من أكبر النعم عليهم ، آية من آيات الله ، ونعمة ، يحلبون من درِّها ، ما يكفيهم أجمعين .

[ فتنة لهم ] أى : اختباراً منه لهم وامتحانا .

[ فارتقبهم واصطبر ] أى : اصبر على دعوتك إياهم ، وارتقب ما يحل بهم .

أو ارتقب ، هل يؤمنون أو يكفرون ؟

[ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ] أى : وأخبرهم أن الماء .

أى : موردهم الذى يستعذبونه ، قسمة بينهم وبين الناقة ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم آخر معلوم .

[ كل شرب محتضر ] أى : يحضره من كان قسمته ، ويحظر على من ليس بقسمة له .

[ فنادوا صاحبهم ] الذى باشر عقرها ، الذى هو أشقى القبيلة

فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

---

[ فتعاطى ] أى : انقاد لما أمروه به من عقرها [ فعقر ][1]

[ فكيف كان عذابى ونذر ] كان أشد عذاب ، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة ، أهلكتهم عن آخرهم ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه

[ إنا أرسلنا عليهم ] فى اليوم الرابع من عقرها [ صيحة واحدة ] صاح بها جبريل عليه السلام .

[ فكانوا ] أى : فصاروا [ كهشيم المحتظر ] .

والهشيم : الشجر اليابس المتهشم المتكسر ، أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . أى : كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها .

والمعنى الإجمالى « إنا سلطنا عليهم صيحة واحدة ، فصاروا بها كشجر يابس يجمعه من يريد اتخاذ حظيرة لبهائمه » [ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ] .

---

( ١ ) فعقر . أى : قتلها . وقال فى آية أخرى

[ فكذبوه فعقروها ] لرضاهم بفعل الفاعل الواحد ، أو لأنه عقرت بمعرفتهم و موافقتهم على ذلك .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

* أي : [ كذبت قوم لوط ] لوطا عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن الشرك والفاحشة ، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين .

فكذبوه ، واستمروا على شركهم وقبائحهم ، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف ، حين سمع بهم قومه ، جاءوا مسرعين ، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم ، لعنهم الله وقبحهم ، وراودوه عنهم .

فأمر الله جبريل عليه السلام ، فطمس أعينهم ، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته .

[ فتماروا [٢] بالنذر ]

[ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ] قلب الله عليهم ديارهم ، وجعل أسفلها أعلاها ، وتبعهم بحجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك للمسرفين

ونجى الله لوطا وأهله ، من الكرب العظيم ، جزاء لهم على شكرهم لربهم ، وعبادته وحده لا شريك له .

---

( ٢ ) فتماورا أي : تجادلوا وكذبوا

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا
كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ
أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ

---

قال تعالى : « على الكافرين غير يسير » .

مفهوم ذلك ، أنه يسير سهل على المؤمنين .

* أى : [ ولقد جاء آل فرعون ] أى : فرعون وقومه [ النذر ] فأرسل الله إليهم موسى الكليم ، وأيده بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ، وأشهدهم من العبر ، ما لم يشهد غيرهم .

فكذبوا بآيات الله كلها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فأغرقه وجنوده فى اليم .

والمراد من ذكر هذه القصص: تحذير الناس والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال :

[ أكفاركم خير من أولئكم ] أى: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين ، الذين ذكر الله هلاكهم ، وما جرى عليهم ؟.

فإن كانوا خيراً منهم ، أمكن أن ينجوا من العذاب ، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار

وليس الأمر كذلك ، فإنهم ، إن لم يكونوا شراً منهم ، فليسوا بخير منهم

[ أم لكم براءة فى الزبر ] أى : أم أعطاكم الله عهداً وميثاقا ، فى الكتب التى أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ ، أنكم الناجون بأخبار الله ووعده ؟

مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ

---

وهذا غير واقع ، بل غير ممكن ، عقلا وشرعا ، أن تكتب براءتهم فى الكتب الإلهية ، المتضمنة للعدل والحكمة .

فليس من الحكمة ، نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين ، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله ، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها فأخبر تعالى ، أنهم يقولون : [ نحن جميع منتصر[1] ]

قال تعالى مبينا لضعفهم ، وأنهم مهزومون : [ سيهزم الجمع ويولون الدبر ] فوقع كما أخبر ، هزم الله جمعهم الأكبر يوم « بدر » وقتل صناديدهم وكبراؤهم ، فأذلوا ، ونصر الله دينه ونبيه ، وحزبه المؤمنين .

ومع ذلك ، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم ، ومن أصيب فى الدنيا منهم ، ومن متع بلذاته ، ولهذا قال : [بل الساعة موعدهم] الذى يجازون به ويؤخذ منهم الحق بالقسط .

[ والساعة أدهى وأمر ] أى : أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور فى الخيال

---

( ١ ) [ نحن جميع منتصر ] أى : نحن أولو حزم ورأى ، أمرنا مجتمع لا يغلبنا أحد ولا نضام وسننتصر على الأعداء ولا سيما محمد وأصحابه وكلمة [ منتصر ] مفرد ، أفرده مراعاة للفظ الجميع ، كما فى أبى السعود :

يعني أن كلمة « الجميع » مفرد بمعنى « الجماعة » التى تجمع على جماعات .

فهذا الذى سوغ أن يخبر عنه بالمفرد وهو « منتصر » باعتبار لفظ «الجميع»

وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ

---

[ إن المجرمين ] أى : الذين أكثروا من فعل الجرائم ، وهى الذنوب العظيمة ، من الشرك وغيره ، من المعاصى [ فى ضلال وسعر ] أى : هم ضالون فى الدنيا ، ضلال عن العلم ، وضلال عن العمل ، الذى ينجيهم من العذاب ، ويوم القيامة فى العذاب الأليم ، والنار التى يستعر بهم ، وتشتعل فى أجسامهم ، حتى تبلغ أفئدتهم .

[ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ] التى هى أشرف ما بهم من الأعضاء ، وألمها أشد من غيرها ، فيهانون بذلك ، ويخزون ويقال لهم :

[ ذوقوا مس سقر ] أى : ذوقوا ألم النار وأسفها ، وغيظها ولهبها .

[ إنا كل شىء خلقناه بقدر ] وهذا شامل للمخلوقات ، والعوالم العلوية والسفلية ، إن الله تعالى وحده ، خلقها لا خالق لها سواه ، ولا مشاركة فى خلقه .

وخلقها بقضاء ، سبق به علمه ، وجرى به قلمه ، بوقتها ومقدارها ، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف ، وذلك على الله يسير ، فلهذا قال :

[ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ] فإذا أراد شيئا قال له ، كن فيكون ، كما أراد ، كلمح البصر ، من غير ممانعة ولا صعوبة .

[ ولقد أهلكنا أشياعكم ] من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم

مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ

---

وكذبوا كما كذبتم [ فهل من مدكر ] أى : متذكر ، يعلم أن سنة الله الأولين والآخرين واحدة .

وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم ، ولا فرق بين الفريقين .

[ وكل شىء فعلوه فى الزبر ] أى : كل ما فعلوه ، من خير وشر مكتوب عليهم فى الكتب القدرية [ وكل صغير وكبير مستطر ] أى : مسطر مكتوب .

وهذه حقيقة القضاء والقدر ، وأن جميع الأشياء كلها ، قد علمها الله تعالى وسطرها عنده فى اللوح المحفوظ ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فما أصاب الإنسان ، لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

[ إن المتقين ] لله ، بفعل أوامره ، وترك نواهيه ، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر .

[ فى جنات ونهر ] أي : فى جنات النعيم ، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من الأشجار اليانعة ، والأنهار الجارية ، والقصور الرفيعة ، والمنازل الأنيقة ، والمآكل والمشارب اللذيذة والحور الحسان ، والروضات البهية فى الجنان ورضا الملك الديان ، والفوز بقربه ، ولهذا قال :

[ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ] فلا تسأل بعد هذا ، عما يعطيهم

صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

ربهم من كرامته وجوده ، ويمدهم به من إحسانه ومنته .

جعلنا الله منهم ، ولا حرمنا خير ما عنده ، بشر ما عندنا .

تم تفسير سورة القمر ـ والحمد لله

# تفسير

## سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾

---

هذه السورة الكريمة الجليلة ، افتتحها باسمه « الرحمن » الدال على سعة رحمته ، وعموم إحسانه ، وجزيل بره وواسع فضله .

ثم ذكر ، ما يدل على رحمته وأثرها ، الذى أوصله الله إلى عباده ، من النعم الدينية والدنيوية والأخروية .

وبعد كل جنس ونوع ، من نعمه ، ينبه الثقلين ، لشكره ويقول : [فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

فذكر أنه [ علم القرآن ] أى : علم عباده ، ألفاظه ومعانيه ، ويسرها على عباده .

وهذا أعظم منة ورحمة ، رحم بها العباد ، حيث أنزل عليهم قرآنا عربيا ، بأحسن الألفاظ ، وأوضح المعانى ، مشتمل على كل خير زاجر عن كل شر .

[ خلق الإنسان ] فى أحسن تقويم كامل الأعضاء ، مستوفى الأجزاء ،

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا

---

محكم البناء ، قد أتقن البارىء تعالى البديع خلقه أى إتقان ، وميزه على سائر الحيوانات .

بأن [ علمه البيان ] أى : التبين عما فى ضميره . وهذا شامل للتعليم النطقى ،والتعليم الخطى .

فالبيان الذى ميز الله به الآدمى على غيره ، من أجل نعمه ، وأكبرها عليه .

[ الشمس والقمر بحسبان ] أى : خلق الله الشمس والقمر ، وسخرهما يجريان ، بحساب مقنن ، وتقدير مقدر ، رحمة بالعباد ، وعناية بهم ، وليقوم بذلك من مصالحهم ، ما يقوم ، وليعرفوا عدد السنين والحساب .

[ والنجم والشجر يسجدان ] أى : نجوم السماء ، وأشجار الأرض ، تعرف ربها ، وتسجد له ، وتطيع ، وتخضع ، وتنقاد لما سخرها له ، من مصالح عباده ومنافعهم .

[ والسماء رفعها ] سقفها للمخلوقات الأرضية .

[ ووضع الميزان ] أى : العدل بين العباد ، فى الأقوال والأفعال .

وليس المراد به ، الميزان المعروف وحده ، بل هو كما ذكرنا ، يدخل فيه الميزان المعروف ، والمكيال الذى تكال به الأشياء ، والمقادير ، والمساحات التي تضبط بها المجهولات ، والحقائق التى يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم ، ولهذا قال :

فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾
وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ

---

[ ألا تطغوا فى الميزان ] أى : أنزل الله الميزان ، لئلا تتجاوزوا الحد فى الحقوق والأمور .

فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم ، لحصل من الخلل ، ما الله به عليم .

ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

[ وأقيموا الوزن بالقسط ] أى : اجعلوه قائما بالعدل ، الذى تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم .

[ ولا تخسروا الميزان ] أى : لا تنقصوه ، وتعملوا بضده ، وهو الجور ، والظلم ، والطغيان .

[ والأرض وضعها ] الله على ما كانت عليه ، من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها [ للأنام ] أى للخلق ، لكى يستقروا عليها ، وتكون لهم مهادا ، وفراشا يبنون بها ، ويحرثون ويغرسون ، ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجا ، وينتفعون بمعادنها ، وجميع ما فيها ، مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم .

ثم ذكر ما من الأقوات الضرورية فقال : [ فيها فاكهة ] وهى جميع الأشجار ، التى تثمر الثمرات التى يتفكه بها العباد ، من العنب ، والتين ، والرمان ، والتفاح وغير ذلك .

[ والنخل ذات الأكمام ] أى : أى ذات الوعاء ، الذى ينفلق عن

ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

---

القنوان ، التى تخرج شيئا فشيئا حتى تتم ، فتكون قوتا يدخر ويؤكل ، ويتزود منه المقيم والمسافر ، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه .

[ والحب ذو العصف ] أى : ذو الساق الذي يداس ، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها .

ويدخل فى ذلك ، حب البر ، والشعير ، والذرة ، والأرز ، والدخن وغير ذلك .

[ والريحان ] يحتمل أن المراد به ، جميع الأرزاق التى يأكلها الآدميون .

فيكون هذا ، من باب عطف العام على الخاص ، ويكون الله ، قد امتن على عباده بالقوت والرزق ، عموما وخصوصا .

ويحتمل أن المراد بالريحان ، المعروف ، وأن الله امتن على عباده ، بما يسره فى الأرض من أنواع الروائح الطيبة ، والمشام الفاخرة ، التى تسر الأرواح ، وتنشرح لها النفوس .

ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه ، التى تشاهد بالأبصار والبصائر ، وكان الخطاب للثقلين ، الجن والإنس ، قررهم تعالى بنعمه فقال : [ فبأي آلاء ربكما تكذبان ] .

أى : فبأى نعم الله الدينية والدنيوية ، تكذبان ؟ .

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم هذه

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

---

السورة ، فكلما مر بقوله [ فبأى آلاء ربكما تكذبان ] قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

فهكذا ينبغى للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه ، أن يقربها ويشكر ويحمد الله عليها .

ثم قال تعالى : [ خلق الإنسان]إلى [ تكذبان ] .

* وهذا من نعمه تعالى على عباده ، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته .

أن [ خلق ] أبا [ الإنسان ] وهو آدم عليه السلام [ من صلصال كالفخار ] أى : من طين مبلول ، قد أحكم بله ، وأتقن ، حتى جف ، فصار له صلصلة وصوت ، يشبه صوت الفخار ، وهو الطين المشوى .

[ وخلق الجان ] أى : أبا الجن ، وهو : إبليس لعنه الله .

[ من مارج من نار ] أى : من لهب النار الصافى ، أو الذى قد خالطه الدخان .

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمى المخلوق من الطين والتراب ، الذى هو محل الرزانة والثقل والمنافع .

بخلاف عنصر الجان ، وهو النار ، التى هى محل الخفة والطيش ، والشر والفساد .

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ
لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا
ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

ولما بين خلق الثقلين ، ومادة ذلك ، وكان منة منه تعالى عليهم قال :
[ فبأى آلاء ربكما تكذبان ]

* أى : هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة ، وكل ما غربت عليه ، وكل ما كانا فيه فالجميع تحت تدبيره وربوبيته .

وثناهما هنا ، باعتبار مشارقها ، شتاء وصيفا . والله اعلم .

* المراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر المالح ، فهما يلتقيان .

فيصب العذب فى البحر المالح ، ويختلطان ويمتزجان .

ولكن الله تعالى ، جعل بينهما برزخا من الأرض ، حتى لا يبغى أحدهما على الآخر ، ويحصل النفع بكل منهما .

فالعذب ، منه يشربون ، وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم .

والملح ، به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك ، واللؤلؤ والمرجان ، ويكون مستقرا مسخرا للسفن والمراكب ، ولهذا قال :

[ وله الجوار ] إلى [ تكذبان ] .

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

---

* أى : وسخر تعالى لعباده ، السفن الجوارى ، التى تمخر البحر ، وتشقه بإذن الله ، التى ينشئها الآدميون .

فتكون من عظمها وكبرها ، كالأعلام وهى : الجبال العظيمة .

فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم ، وأنواع تجاراتهم وغير ذلك ، مما تدعوا إليه حاجتهم وضرورتهم ، وقد حفظها حافظ السموات والأرض .

وهذه من نعم الله الجليلة ، ولهذا قال [ فبأي آلاء ربكما تكذبان ] .

* أى : كل من على الأرض ، من إنس ، وجن ، ودواب ، وسائر المخلوقات ، يفنى ويبيد .

ويبقى الحى الذى لا يموت [ ذو الجلال والإكرام ] أى : ذو العظمة والكبرياء ، والمجد الذى يعظم ويبجل ، ويجل لأجله .

والإكرام ، الذى هو سعة الفضل ، والجود ، الذى يكرم أولياءه ، وخواص خلقه بأنواع الإكرام ، الذى يكرمه أولياؤه ويجلونه ، ويعظمونه ويحبونه ، وينيبون إليه ويعبدونه .

[ فبأى آلاء ربكما تكذبان ] .

﴿ يَسْئَلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كل يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى : هو الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، وهو واسع الجود والكرم .

فكل الخلق مفتقرون إليه ، يسألونه جميع حوائجهم ، بحالهم ومقالهم ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك .

وهو تعالى [ كل يوم هو فى شأن ] يغنى فقيرا ، ويجبر كسيرا ، ويعطى قوما ، ويمنع آخرين ، ويميت ويحيي ، ويخفض ويرفع ، لا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ، ولا طول مسألة السائلين .

فسبحان الكريم الوهاب ، الذى عمت مواهبه أهل الأرض والسموات .

وعم لطفه ، جميع الخلق ، فى كل الآنات واللحظات .

وتعالى ، الذي لا يمنعه من الإعطاء ، معصية العاصين ، ولا استغناء الفقراء ، الجاهلين به ، وبكرمه .

وهذه الشئون التى أخبر أنه كل يوم هو فى شأن ، هى تقاديره وتدابيره التى قدرها فى الأزل وقضاها ، لا يزال تعالى ، يمضيها وينفذها فى أوقاتها ، التى اقتضتها حكمته .

وهى أحكامه الدينية ، التى هى الأمر والنهى .

والقدرية ، التى يجريها على عباده مدة مقامهم فى هذه الدار .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾

---

حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى، وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله، وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه، ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان، إلى دار الحيوان.

وفرغ حينئذ، لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: [ سنفرغ ] إلى [ تكذبان ].

* أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم، التي عملتموها في دار الدنيا.

* أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم:

[ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ] أي: تجدون مسلكا ومنفذا، تخرجون به عن ملك الله وسلطانه.

[ فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ] أي: لا تخرجون منه إلا بقوة، وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة، ولا نشورا؟!.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

---

ففى ذلك الموقف ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ولا تسمع إلا همسا .

وفى ذلك الموقف ، يستوى الملوك والمماليك ، والرؤساء والمرءوسون ، والأغنياء والفقراء .

ثم ذكر ما أعد لهم فى ذلك اليوم فقال : [ يرسل عليكما ] إلى [ تكذبان ] .

* أى : يرسل عليكما لهب صاف ، من النار ، ونحاس وهو : اللهب ، الذى قد خالطه الدخان .

والمعنى : أن هذين الأمرين الفظيعين ، يرسلان عليكما ، ويحيطان بكما .

فلا تنتصران ، لا بناصر من أنفسكم ، ولا بأحد ينصركم من دون الله .

ولما كان تخويفه لعباده ، نعمة منه عليهم ، وسوطا يسوقهم به إلى أعلى المطالب ، وأشرف المواهب ، ذكر منته بذلك فقال : [ فبأى آلاء ربكما تكذبان ] .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ
إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ
الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

* [ فإذا انشقت السماء ] أى : يوم القيامة من الأهوال ، وكثرة البلبال وترادف الأوجال ، فانخسفت شمسها وقمرها ، وانتثرت نجومها .

[ فكانت ] من شدة الخوف والانزعاج [ وردة كالدهان ] أى: كانت كالمهل والرصاص ، المذاب ونحوه [ فبأى آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ] أى : سؤال استعلام بما وقع ، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة ، والماضى ، والمستقبل ، ويريد أن يجازى العباد ، بما علمه من أحوالهم .

وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة ، علامات يعرفون بها ، كما قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

وقال هنا [ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ] أى : فيخذ بنواصى المجرمين وأقدامهم ، فليقون فى النار ، ويسحبون إليها .

وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ ، وتقرير بما وقع منهم ، وهو أعلم به منهم .

ولكنه تعالى ، يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة .

هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

---

* أى : يقال للمكذبين بالوعد والوعيد ، حين تسعر الجحيم :[ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ] فليهنهم تكذيبهم بها ، وليذوقوا من عذابها ، ونكالها وسعيرها ، وأغلالها ، ما هو جزاء لهم على تكذيبهم .

[ يطوفون بينها ] أى : بين أطباق الجحيم ولهبها [ وبين حميم آن ] أى : ماء حار جدا ، قد انتهى حره ، وزمهرير، قد اشتد برده ، وقره [ فبأى آلاء ربكما تكذبان ] .

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين ، ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال :

[ ولمن خاف ] إلى [ والإكرام ] .

* أى : والذى خاف ربه ، وقيامه عليه ، فترك ما نهى عنه،وفعل ما أمر به ، له جنتان ، من ذهب آنيتهما ، وحليتهما ، وبنيانهما ، وما فيهما .

إحدى الجنتين ، جزاء على ترك المنهيات ، والأخرى على فعل الطاعات.

ومن أوصاف تلك الجنتين ، أنهما [ ذواتا أفنان ] أى : فيهما من ألوان النعيم المتنوعة ، نعيم الظاهر والباطن ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ
وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ

---

أن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ، ذوات الغصون الناعمة ، التى فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة .

وفى تلك الجنتين [عينان تجريان] يفجرونهما على ما يريدون ويشتهون .

[ فيهما من كل فاكهة ] من جميع أصناف الفواكه [ زوجان ] .

أى : صنفان ، كل صنف له لذة ولون ، ليس للنوع الآخر .

[ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ] هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها ، وأنهم متكئون عليها ، أى : جلوس تمكن واستقرار وراحة ، كجلوس من الملوك على الأسرة .

وتلك الفرش ، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى ، حتى إن بطائنها التى تلى الأرض منها ، من إستبرق وهو أحسن الحرير وأفخره .

فكيف بظواهرها التى يباشرون ؟ ! .

[ وجنى الجنتين دان ] الجنى هو الثمر المستوى ، أى : وثمر هاتين الجنتين قريب التناول ، يناله القائم والقاعد ، والمضطجع .

[ فيهن قاصرات الطرف ] أى : قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، من

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا
ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾

---

حسنهم وجمالهم ، وكمال محبتهن لهم .

وقصرن أيضا طرف أزواجهن عليهن ، من حسنهن وجمالهن ، ولذة وصالهن ، وشدة محبتهن .

[ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ] أى : لم ينلهن أحد قبلهم ، من الإنس والجن .

بل هن أبكار عرب ، متحببات إلى أزواجهن ، بحسن التبعل والتغنج والملاحة ، والدلال .

ولهذا قال : [ كأنهن الياقوت والمرجان ] وذلك لصفائهن وجمال منظرهن ، وبهائهن .

[ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ] أى : هل جزاء من أحسن فى عبادة الخالق ، ونفع عبيده ، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل ، والفوز الكبير ، والنعيم ، والعيش السليم .

فهاتان الجنتان العاليتان ، للمقربين .

[ ومن دونهما جنتان ] من فضة بنيانهما ، وحليتهما ، وما فيهما لأصحاب اليمين .

وتلك الجنتان [ مدهامتان ] أى : سوداوان من شدة الخضرة والرى .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ
حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ
فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

---

[ فيهما عينان نضاختان ] أى : فوارتان ، [ فيهما فاكهة ] من جميع أصناف الفواكه ، وأخصها : النخل ، والرمان ، اللذان فيهما من المنافع ، ما فيهما .

[فيهن] أى : فى الجنات كلها [ خيرات حسان ] أى : خيرات الأخلاق حسان الأوجه ، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن ، وحسن الخَلق والخُلق .

[ حور مقصورات فى الخيام ] أى : محبوسات فى خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن .

ولا ينفى ذلك خروجهن فى البساتين ، ورياض الجنة ، كما جرت العادة لبنات الملوك المخدرات الخفرات .

[لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر ] أى : أصحاب هاتين الجنتين ، متكأهم على الرفرف الأخضر ، وهى : الفرش التى تحت المجالس العالية ، التى قد زادت على

مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ

---

مجالسهم ، فصار لها رفرفة ، من وراء مجالسهم ، لزيادة البهاء ، وحسن المنظر .

[ وعبقرى حسان ] العبقرى : نسبة لكل منسوج نسجا حسنا فاخرا .

ولهذا وصفها بالحسن الشامل ، لحسن الصفة والمنظر ، ونعومة الملمس .

وهاتان الجنتان ، دون الجنتين الأوليين ، كما نص الله على ذلك بقوله [ ومن دونهما جنتان ] وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف ، لم يصف بها الأخريين .

فقال فى الأوليين : [ فيهما عينان تجريان ] وفى الأخريين [ عينان نضاختان ] .

ومن المعلوم ، الفرق بين الجارية والنضاخة .

وقال فى الأوليين [ ذواتا أفنان ] ولم يقل ذلك فى الأخريين .

وقال فى الأوليين [ فيهما من كل فاكهة زوجان ] .

وفى الأخريين [ فيهما فاكهة ونخل ورمان ] وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت .

وقال فى الأوليين [ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ] .

ولم يقل ذلك فى الأخريين ، بل قال : [ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ] .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

وقال فى الأولين ، فى وصف نسائهم وأزواجهم [ فيهن قاصرات الطرف ] .

وفى الأخريين [ مقصورات فى الخيام ] وقد علم التفاوت بين ذلك .

وقال فى الأوليين [ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ] فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين ، ولم يقل ذلك فى الأخيرتين .

ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين ، يدل على فضلهما .

فبهذه الأوجه ، يعرف فضل الأوليين على الأخريين ، وأنهما معدتان للمقربين ، من الأنبياء ، والصديقين ، وخواص عباد الله الصالحين .

وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين .

وفى كل من الجنات المذكورات ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيهن ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

وأهلهن فى غاية الراحة والرضا والطمأنينة ، وحسن المأوى .

حتى إن كل واحد منهم ، لا يرى أحداً أحسن حالا منه ، ولا أعلى من نعيمه ، الذى هو فيه .

ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال : [ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ] .

أي : تعاظم وكثر خيره ، الذى له الجلال الباهر ، والمجد الكامل ، والإكرام لأوليائه .

تم تفسير سورة الرحمن — ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

# تفســـير

## سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾
خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ

---

* يخبر تعالى بحال الواقعة ، التي لا بد من وقوعها ، وهى : القيامة التى [ ليس لوقعتها كاذبة ]

أى : لا شك فيها ، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية ، ودلت عليها حكمته تعالى

[ خافضة رافعة ] أى : خافضة لأناس فى أسفل سافلين ، رافعة لأناس فى أعلى عليين .

أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب ، ورفعت ، فأسمعت البعيد .

[ إذا رجت الأرض رجا ] أى : حركت واضطربت .

[ وبست الجبال بسا ] أى : فتتت [ فكانت هباء منبثا ] فأصبحت

بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾
فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ
مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ

---

ليس عليها جبل ولا معلم ، قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

[وكنتم] أيها الخلق [ أزواجا ثلاثة ] أى : انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة .

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال : [ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ] تعظيم لشأنهم ، وتفخيم لأحوالهم .

[ وأصحاب المشئمة ] أى : الشمال [ ما أصحاب المشئمة ] تهويل لحالهم

[ والسابقون السابقون * أولئك المقربون ] أى : السابقون فى الدنيا إلى الخيرات ، هم السابقون فى الآخرة لدخول الجنات .

أولئك الذين هذا وصفهم ، المقربون عند الله ، فى جنات النعيم ، فى أعلى عليين ، فى المنازل العاليات ، التى لا منزلة فوقها .

وهؤلاء المذكورون [ ثلة من الأولين ] أى : جماعة كثيرون من المتقدمين ، من هذه الأمة وغيرهم .

[ وقليل من الآخرين ] وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة فى الجملة ، على متأخريها لكون المقربين من الأولين ، أكثر من المتأخرين .

عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾

---

والمقربون هم : خواص الخلق [ على سرر موضونة ] أى : مرمولة بالذهب والفضة ، واللؤلؤ ، والجوهر ، وغير ذلك ، من الحُلِىّ ، والزينة ، التى لا يعلمها إلا الله تعالى .

[ متكئين عليها ] أى : على تلك السرر ، جلوس تمكن وطمأنينة ، وراحة واستقرار .

[ متقابلين ] وجه كل منهم إلى وجه صاحبه ، من صفاء قلوبهم ، وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم .

[ يطوف عليهم ولدان مخلدون ] أى : يدور على أهل الجنة لخدمتهم ، وقضاء حوائجهم ، ولدان صغار الأسنان ، فى غاية الحسن والبهاء .

[ كأنهم لؤلؤ مكنون ] أى مستور ، لا يناله ما يغيره .

مخلوقون للبقاء والخلد ، لا يهرمون ، ولا يتغيرون ، ولا يزيدون على أسنانهم .

ويدورون عليهم بآنية شرابهم [ بأكواب ] وهى : التى لا عرى لها [ وأباريق ] الأوانى التى لها عرى .

[ وكأس من معين ] أى : من خمر لذيذ المشرب ، لا آفة فيه .

[ لا يصدعون عنها ] أى : لا تصدع رءوسهم ، كما تصدع خمرة الدنيا ، رأس شاربها .

وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا

---

[ ولا هم عنها ينزفون ] أى : لا تنزف عقولهم ، ولا تذهب أحلامهم منها ، كما يكون لخمر الدنيا .

والحاصل : أن كل ما فى الجنة من النعيم الموجود جنسه فى الدنيا ، لا يوجد فى الجنة فيه آفة كما قال تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » .

وذكر هنا خمر الجنة ، ونفى عنه كل آفة توجد فى الدنيا .

[ وفاكهة مما يتخيرون ] أى : مهما تخيروا ، وراق فى أعينهم ، واشتهته نفوسهم ، من أنواع الفواكه الشهية ، والجنى اللذيذ ، حصل لهم ، على أكمل وجه وأحسنه .

[ ولحم طير مما يشتهون ] أى : من كل صنف من الطيور يشتهونه ، ومن أى جنس من لحمه أرادوا ، إن شاءوا مشويا ، أو طبيخاً ، أوغيرذلك.

[ وحور عين ] أى : ولهم حور عين ، والحوراء : التى فى عينها كحل وملاحة ، وحسن وبهاء

والعين : واسعات الأعين حسانها .

وحسن عين الأنثى ، من أعظم الأدلة ، على حسنها وجمالها .

[ كأمثال اللؤلؤ المكنون] أى . كأنهن اللؤلؤ الرطب الصافى البهى ، المستور عن الأعين والريح ، والشمس ، الذى يكون لونه ، من أحسن الألوان ، الذى لا عيب فيه ، بوجه من الوجوه .

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

---

فكذلك الحور العين ، لا عيب فيهن بوجه من الوجوه ، بل هن كاملات الأوصاف ، جميلات النعوت .

فكل ما تأملته منها ، لم تجد فيه إلا ما يسر القلب ويروق الناظر .

وذلك النعيم المعد لهم [ جزاء بما كانوا يعملون ] فكما حسنت منهم الأعمال ، أحسن الله لهم الجزاء ، ووفر لهم الفوز والنعيم .

[ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ] أى : لا يسمعون فى جنات النعيم ، كلاما يلغى ، ولا يكون فيه فائدة ، ولا كلاما يؤثم صاحبه .

[ إلا قيلا سلاما سلاما ] أى : إلا كلاما طيباً ، وذلك لأنها دار الطيبين ، ولا يكون فيها إلا كل طيب .

وهذا دليل ، على حسن أدب أهل الجنة فى خطابهم ، فيما بينهم ، وأنه أطيب كلام ، وأسره للقلوب ، وأسلمه من كل لغو وإثم ، نسأل الله من فضله « أن يجعلنا من أهل الجنة » .

ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين فقال :

[وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ] أى: شأنهم عظيم ، وحالهم جسيم.

[ فى سدر[1] مخضود ] أى : مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة ، مجعول مكان ذلك ، الثمر الطيب .

وللسدر من الخواص ، الظل الظليل ، وراحة الجسم فيه .

---

( ١ ) السدر : شجر النبق .

وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ
وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾

---

[ وطلح منضود [1] ] والطلح معروف ، وهو شجر كبار ، يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى .

[ وماء مسكوب ] أى كثير من العيون والأنهار السارحة ، والمياه المتدفقة .

[ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ] أى : ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع ، فى وقت من الأوقات ، وتكون ممتنعة ، أى : متعسرة على مبتغيها .

بل هى على الدوام ، موجودة ، وجناها قريب يتناوله العبد على أى حال يكون .

[ وفرش مرفوعة ] أى : مرفوعة فوق الأسرة ، ارتفاعا عظيما .

وتلك الفرش من الحرير ، والذهب ، واللؤلؤ ، وما لا يعلمه إلا الله .

[ إنا أنشأناهن إنشاء ] أى : إنا أنشأنا نساء أهل الجنة ، نشأة غير النشأة ، التي كانت فى الدنيا ، نشأة كاملة ، لا تقبل الفناء .

[ فجعلناهن أبكاراً ] صغارهن وكبارهن .

---

( ١ ) الطلح : شجر الموز ، والمنضود : الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه . فليست له ساق بارزة . اهـ نسفى .

والمعنى : في شجر من النبق مقطوع شوكه ، وشجر من الموز متراكب ثمره ، بعضه فوق بعض .

وعموم ذلك ، يشمل الحور العين ، ونساء أهل الدنيا ، وأن هذا الوصف — وهو البكارة — ملازم لهن فى جميع الأحوال .

كما أن كونهن [ عربا أترابا ] ملازم لهن فى كل حال .

والعروب هى : المرأة المتحببة إلى بعلها ، وحسن هيئتها ودلالها ، وجمالها ومحبتها ، فهى التي إن تكلمت ، سبت العقول ، وود السامع أن كلامها لا ينقضى .

خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة ، والنغمات المطربة .

وإن نظر إلى أدبها وسمتها ، ودلها ، ملأت قلب بعلها فرحا وسروراً.

وإن انتقلت من محل إلى آخر ، امتلأ ذلك الموضع منها ريحا طيبا ونوراً .

ويدخل فى ذلك ، الغنجة عند الجماع .

والأتراب : اللاتى على سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، التى هى غاية ما يتمنى أكمل سن الشباب .

فنساؤهم عرب أتراب ، متفقات مؤتلفات ، راضيات مرضيات ، لا يَحْزَنَّ ولا يُحْزِنَّ .

بل هن أفراح النفوس ، وقرة العيون ، وجلاء الأبصار .

[ لأصحاب اليمين ] أى : معدات لهم مهيئات .

[ ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ] أى هذا القسم ، وهم أصحاب اليمين ، عدد كثير من الأولين ، وعدد كثير من الآخرين .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

المراد بأصحاب الشمال ، هم أصحاب النار ، والأعمال المشئومة .

فذكر الله لهم من العقاب ، ماهم حقيقون به ، فأخبر أنهم [ فى سموم ] أى : ريح حارة من حر نار جهنم ، تأخذ بأنفاسهم ، وتقلقهم أشد القلق .

[ وحميم ] أى : ماء حار ، يقطع أمعاءهم .

[ وظل من يحموم ] أى : لهب نار ، يختلط بدخان .

[ لا بارد ولا كريم ] أى : لا برد فيه ولا كرم .

والمقصود : أن هناك الهم والغم ، والحزن ، والشر الذى لا خير فيه ، لأن نفى الضد ، إثبات لضده .

ثم ذكر أعمالهم التى أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال :

[ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ] أى : قد ألهتهم دنياهم ، وعملوا لها ، وتنعموا ، وتمتعوا بها ، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل .

فهذا هو الترف الذى ذمهم الله عليه .

[ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ] أى : وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ، ولا يتوبون منها ، ولا يندمون عليها .

بل يصرون على ما يسخط مولاهم ، فقدموا عليه بأوزار كثيرة ، غير مغفورة .

قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ

---

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعادا لوقوعه: [أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون] أى: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا ترابا وعظاما ؟! هذا من المحال، قال تعالى فى جوابهم : [قل إن الأولين] إلى [يوم معلوم].

* أى: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضى الخليقة، ويريد الله جزاءهم على أعمالهم التى عملوها فى دار التكليف.

* [ثم إنكم أيها الضالون] عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردي.

[المكذبون] بالرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق والوعد والوعيد [لآكلون من شجر من زقوم] وهو أقبح الأشجار، وأخسها، وأنتنها ريحا، وأبشعها منظرا. [فمالئون منها البطون].

والذى أوجب لهم أكلها - مع ماهى عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذى يلتهب فى أكبادهم وتكاد تتقطع منه أفئدتهم.

هذ الطعام، هو الذى يدفعون به الجوع، وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع.

وأما شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[1] ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ

---

الطعام ، من الماء الحميم الذى يغلى فى البطون [ شراب الهيم ] وهى: الإبل العطاش ، التى قد اشتد عطشها .

أو أن الهيم : داء يصيب الإبل لا تروى معه من شراب الماء .

[ هذا ] الطعام والشراب [ نزلهم ] أى : ضيافتهم [ يوم الدين[2] ] وهى الضيافة التى قدموها لأنفسهم ، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه .

قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

ثم ذكر الدليل العقلى على البعث فقال : [نحن خلقناكم فلولا تصدقون] .

أى : نحن الذى أوجدناكم ، بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، من غير عجز ولا تعب .

أفليس القادر على ذلك ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير .

ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث ، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ .

* أى : أفرأيتم ابتداء خلقكم من المنى ، الذى تمنون ، فهل أنتم خالقون ذلك المنى وما ينشأ منه ؟ أم الله تعالى الخالق الذى خلق فيكم الشهوة فى

---

(١) ما تمنون أى : تقذفون فى الأرحام من النطف .

(٢) أى : يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .

ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ

---

الذكر والأنثى ، وهدى كلا منهما لما هنالك ، وحبب بين الزوجين ، وجعل بينهما من المودة والرحمة ، ما هو سبب التناسل .

ولهذا أحالهم الله تعالى بالاستدلال بالنشأة الأولى ، على النشأة الأخرى فقال :

[ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ] أن القادر على ابتداء خلقكم ، قادر على إعادتكم .

* وهذا امتنان منه على عباده ، يدعوهم به ، إلى توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار .

فتخرج من ذلك ، من الأقوات ، والأرزاق ، والفواكه ، ما هو من من ضروراتهم ، وحاجاتهم ، ومصالحهم ، التي لا يقدرون أن يحصوها ، فضلا عن شكرها ، وأداء حقها ، فقررهم بمنته فقال :

[ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ] أي : أأنتم أخرجتموه نباتا من الأرض ؟ أم أنتم الذي نميتموه ؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره ، حتى صار حبا حصيدا ، وثمرا نضيجا ؟ .

أم الله الذي انفرد بذلك وحده ، وأنعم به عليكم ؟ .

وأنتم غاية ما تفعلون ، أن تحرثوا الأرض وتشقوها ، وتلقوا فيها البذر .

ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

---

ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك .

ومع ذلك ، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار ، لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ، ومتاعا إلى حين .

[ لو نشاء لجعلناه ] أي : الزرع المحروث ، وما فيه من الثمار [ حطاما ] أي : فتاتاً متحطماً ، لا نفع فيه ولا رزق .

[ فظلتم ] أي : فصرتم بسبب جعله حطاما ، بعد أن تعبتم فيه ، وأنفقتم النفقات الكثيرة .

[ تفكهون ] أي: تندمون ، وتتحسرون على ما أصابكم ويزول بذلك ، فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون :

[ إنا لمغرمون [1] ] أي إنا قد نقصنا ، وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا .

ثم تعرفون بعد ذلك ، من أين أتيتم ، وبأى سبب دهيتم فتقولون :

[ بل نحن محرومون [2] ] .

فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه لكم ، ثم أبقاه وكمله لكم ، ولم يرسل عليه من الآفات ، ما به تحرمون نفعه وخيره .

---

( ١ ) لمغرمون أى : لملزمون غرامة ما أنفقنا . أو . مهلكون بهلاك رزقنا . من الغرام وهو : الهلاك . اهـ . أبو السعود .

( ٢ ) محرومون . أى : سيئو الحظ ، لا بخت لنا ، ومحرومون من الرزق .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَءَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام ، ذكر نعمته عليهم ، بالشراب العذب ، الذى منه يشربون ، وأنه لولا أن الله يسره وسهله ، لما كان لكم إليه سبيل .

وأنه الذى أنزله من المزن ، وهو السحاب والمطر ، ينزله الذى الله تعالى .

فتكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض، وفى بطنها .

وتكون منه الغدران المتدفقة .

ومن نعمته تعالى ، أن جعله عذبا فراتا ، تسيغه النفوس ، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا ، لا ينتفع به .

[ فلو لا تشكرون ] الله تعالى على ما أنعم به عليكم .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* وهذه نعمة ، تدخل فى الضروريات ، التى لا غنى للخلق عنها .

فإن الناس محتاجون إليها فى كثير من أمورهم وحوائجهم .

فقررهم تعالى بالنار ، أنتى أوجدها فى الأشجار ، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها ، وإنما الله تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر ، فإذا هى نار توقد ، بقدر حاجة العباد ، فإذا فرغوا من حاجتهم ، أطفأوها وأخمدوها .

[ نحن جعلناها تذكرة ] للعباد بنعمة ربهم ، وتذكرة بنار جهنم ، التى أعدها الله للعاصين ، وجعلها سوطا ، يسوق به عباده إلى دار النعيم .

[ ومتاعا للمقوين ] أى : المنتفعين أو المسافرين ، وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر أعظم من غيره .

ولعل السبب فى ذلك ، لأن الدنيا كلها دار سفر .

والعبد من حين ولد ، فهو مسافر إلى ربه .

فهذه النار ، جعلها الله متاعا للمسافرين فى هذه الدار ، وتذكرة لهم بدار القرار .

فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده ، وشكره ، وعبادته أمر بتسبيحه وتعظيمه فقال :

[فسبح باسم ربك العظيم] أى نزه ربك العظيم كامل الأسماء والصفات كثير الإحسان والخيرات .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

---

واحمده ، بقلبك ، ولسانك ، وجوارحك ، لأنه أهل لذلك ، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، ويطاع فلا يعصى .

* أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها ، أى : مساقطها فى مغاربها ، وما يحدث الله فى تلك الأوقات ، من الحوادث الدالة على عظمته ، وكبريائه ، وتوحيده

ثم عظم هذا المقسم به فقال : [ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ] .

وإنما كان القسم عظيما ، لأن فى النجوم وجريانها ، وسقوطها عند مغاربها ، آيات وعبرا ، لا يمكن حصرها .

وأما المقسم عليه ، فهو إثبات القرآن ، وأنه حق لا ريب فيه ، ولا شك يعتريه .

وأنه كريم أي : كثير الخير ، غزير العلم ، وكل خير وعلم ، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه .

[ فى كتاب مكنون ] أي : مستور عن أعين الخلق .

وهذا الكتاب المكنون ، هو : اللوح المحفوظ .

أى : إن هذا القرآن ، مكتوب فى اللوح المحفوظ ، معظم عند الله ، وعند ملائكته فى الملأ الأعلى .

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون ، هو الكتاب الذى بأيدى

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ

---

الملائكة ، الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته ، وأن المراد بذلك : أنه مستور عن الشياطين ، لا قدرة لهم على تغيره ، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه .

[ لا يمسه إلا المطهرون ] أى : لا يمس القرآن ، إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات ، والذنوب ، والعيوب .

وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون . وأن أهل الخبث والشياطين ، لا استطاعة لهم ، ولا يدان إلى مسه ، دلت الآية — تنبيها ، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر(١) .

[ تنزيل من رب العالمين ] أى : إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة ، هو تنزيل رب العالمين ، الذى يربى عباده ، بنعمه الدينية والدنيوية .

وأجل تربية ربى بها عباده ، إنزاله هذا القرآن ، الذى قد اشتمل على مصالح الدارين ، ورحم الله به العباد رحمة ، لا يقدرون لها شكورا .

---

( ١ ) قوله « لا يمس القرآن إلا طاهر » هذا من باب الأدب فقط ، لا من باب وجوب الوضوء لمس المصحف . فإن مس المصحف للحدث جائز لا حرمة فيه كما أفاد ذلك ابن حزم فى كتابه « المحلى » وابن القيم فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » وقد أطال ابن القيم الكلام فى ذلك وذكر من الأدلة القاطعة ما لا يمكن ردها ولا نقضها ولولا خشية الإطالة ، لذكرناها هنا ، ومن أراد الوقوف على الحقيقة ، فليرجع إلى الكتاب المذكور .

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾

---

ومما يجب عليهم ، أن يقوموا به ويعلنوه ، ويدعوا إليه ويصدعوا به ، ولهذا قال :

[ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ] أى : أفبهذا الكتاب العظيم ، والذكر الحكيم [ أنتم مدهنون ] أى : تختفون ، وتدلون خوفا من الخلق وعارهم ، وألسنتهم ؟

هذا لا ينبغى ولا يليق ، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذى لا يثق صاحبه منه .

وأما القرآن الكريم ، فهو الحق الذى لا يغالب به مغالب ، إلا غلب ، ولا يصول به صائل ، إلا كان العالى على غيره .

وهو الذى ، لا يداهن به ويختفى ، بل يصدع به ويعلن .

وقوله [ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ] أى : تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق والتكذيب والكفر لنعمة الله ، فتقولون : مطرنا بنوء[1] كذا وكذا ، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومو ليها .

---

( ١ ) النوء سقوط نجم من النازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق ، يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

وقيل : إلى الطالع منها ، لأنه فى سلطانه .

وجمعه أنواء ونوءان كعبد وعبدان . اﻫ من المختار من الصحاح . =

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

---

فهلا شكرتم الله على إحسانه ، إذ أنزله إليكم ، ليزيدكم من فضله .

فإن التكذيب والكفر ، داع لرفع النعم ، وحلول النقم .

[ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ] .

أى : فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم ، وأنتم تنظرون المحتضر فى هذه الحالة .

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم ، بعلمنا وملائكتنا ، ولكن لا تبصرون .

[ فلولا إن كنتم غير مدينين ] أى : فهلا إذ كنتم تزعمون ، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجزيين [ ترجعونها ] أى : إلى بدنها [ إن كنتم صادقين ] وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها .

فحينئذ إما أن تقروا بالحق ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وإما أن تعاندوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم .

---

= والمراد هنا : النهى عن إثبات تأثير حوادث الأمطار والحر والبرد إلى تنقلات النجوم من منزل إلى منزل كما كان عرب الجاهلية تعتقد هذا : بل المؤثر بإنزال المطر وإرسال الرياح وحصول الحر والبرد ، إنما هو الله تعالى .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ

---

* ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث : المقربين ، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين فى أول السورة فى دار القرار .

ثم ذكر أحوالهم فى آخرها ، عند الاحتضار والموت فقال :

[ فأما إن كان من المقربين ] أى : إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات . وترك المحرمات والمكروهات ، وفضول المباحات .

[ فـ ] لهم [ روح ] أى : راحة وطمأنينة ، وسرور وبهجة ، ونعيم القلب والروح .

[ وريحان ] وهو اسم جامع لكل لذة بدنية ، من أنواع المآكل والمشارب وغيرها .

وقيل : الريحان هو : الطيب المعروف ، فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه العام .

[ وجنة نعيم ] جامعة للأمرين كليهما ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة ، التى تكاد تطير منها الأرواح ، فرحاً وسروراً .

كما قال تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم » .

لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا

---

وقد فسر قوله تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » أن هذه البشارة المذكورة ، هى البشرى فى الحياة الدنيا .

وقوله [ وأما إن كان من أصحاب اليمين ] وهم : الذين أدوا الوجبات وتركوا المحرمات ، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق ، التى لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم ، فيقال لأحدهم :

[ سلام لك من أصحاب اليمين ] أى : سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين .

أى : يسلمون عليه ، ويحيونه عند وصوله إليهم ، ولقائهم له .

أو يقال له : سلام لك من الآفات والبليات والعذاب ، لأنك من أصحاب اليمين ، الذين سلموا من الموبقات .

[ وأما إن كان من المكذبين الضالين ] أى : الذين كذبوا بالحق ، وضلوا عن الهدى .

[ فنزل من حميم وتصلية جحيم ] أى : ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم ، التى تحيط بهم ، وتصل إلى أفئدتهم .

وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ « يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

[ إن هذا ] الذى ذكره الله تعالى ، من جزاء العباد بأعمالهم ، خيرها

لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

وشرها ، وتفاصيل ذلك [ لهو حق اليقين ] أى : الذى لا شك فيه ولا مرية .

بل هو الحق الثابت ، الذى لا بد من وقوعه .

وقد أشهد الله عباده ، الأدلة القواطع على ذلك ، حتى صار عند أولى الألباب ، كأنهم ذائقون له ، مشاهدون لحقيقته .

فحمدوا الله تعالى ، على ما خصهم من هذه النعمة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .

ولهذا قال تعالى : [ فسبح باسم ربك العظيم ] فسبحان ربنا العظيم وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون ، علوا كبيرا .

والحمد لله رب العالمين ، حمدا كثيرا ، طيبا ، مباركا فيه .

تم تفسير سورة الواقعة

تفســـير

# سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ

---

* يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وسعة سلطانه ، أن جميع مافى السموات والأرض ، من الحيوانات الناطقة وغيرها ، والجوامد ، تسبح بحمد ربها ، وتنزهه عما لا يليق بجلاله .

وأنها قانتة لربها ، منقادة لعزته ، قد ظهرت فيها آثار حكمته ، ولهذا قال :

[ وهو العزيز الحكيم ] فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات ، العلوية والسفلية ، لربها ، فى جميع أحوالها ، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها ، وعموم حكمته فى خلقه وأمره .

ثم أخبر عن عموم ملكه فقال : [ له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ] .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

---

أي : هو الخالق للمخلوقات ، الرازق المدبر لها ، بقدرته [ وهو على كل شيء قدير ][1] .

[ هو الأول ] الذى ليس قبله شيء [ والآخر ] الذى ليس بعده شيء .

[ والظاهر ] الذى ليس فوقه شيء [ والباطن ] الذى ليس دونه شيء .

[ وهو بكل شيء عليم ] قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن ،والسرائر والخفايا ، والأمور المتقدمة والمتأخرة .

[ وهو الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ] أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

[ ثم استوى على العرش ] استواء يليق بجلاله ، فوق جميع خلقه .

[ يعلم ما يلج فى الأرض ] من حب وحيوان ، ومطر ، وغير ذلك .

[ ومايخرج منها ] من نبت وشجر ، وحيوان ، وغير ذلك .

[ وما ينزل من السماء ] من الملائكة والأقدار والأرزاق .

[ وما يعرج فيها ] من الملائكة والأرواح ، والأدعية ، والأعمال وغير ذلك .

---

( ١ ) قدير . أى : تام القدرة ومبالغ فيها بحيث لا تدرك العقول مدى قدرة الله ولا تحديدها .

مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

---

[ وهو معكم أينما كنتم ] كقوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » .

وهذه المعية ، معية العلم والاطلاع ، ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله :

[ والله بما تعملون بصير ] أى : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال ، وما صدرت عنه تلك الأعمال ، من بر وفجور ، فمجازيكم عليها ، وحافظها عليكم .

[ له ما فى السموات والأرض ] ملكا ، وخلقا ، وعبيداً ، يتصرف فيهم بما شاءه ، من أوامره القدرية والشرعية ، الجارية على الحكمة الربانية .

[ وإلى الله ترجع الأمور ] من الأعمال والعمال .

فيعرض عليه العباد ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

[ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ] أى : يدخل الليل على النهار ، فيغشيهم الليل بظلامه ، فيسكنون ويهدأون .

ثم يدخل النهار على الليل ، فيزول ما على الأرض من الظلام ، ويضىء الكون .

فيتحرك العباد ، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم .

فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

---

ولا يزال الله يكور الليل على النهار ، والنهار على الليل ، ويداول بينهما ، فى الزيادة والنقص ، والطول والقصر ، حتى تقوم بذلك ، الفصول ، وتستقيم الأزمنة ، ويحصل من المصالح بذلك ، ما يحصل .

فتبارك الله رب العالمين ، وتعالى الكريم الجواد ، الذى أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة .

[ وهو عليم بذات الصدور ] أى : بما يكون فى صدور العالمين .

فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك ، ويخذل من يعلم ، أنه لا يصلح لهدايته .

* يأمر تعالى عباده ، بالإيمان به وبرسوله ، وبما جاء به ، وبالنفقة فى سبيله ، من الأموال التى جعلها الله فى أيديهم ، واستخلفهم عليها ، لينظر كيف يعملون .

ثم لما أمرهم بذلك ، رغبهم ، وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال :

[ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ] أى : الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والنفقة فى سبيله ، لهم أجر كبير ، أعظمه وأجله ، رضا ربهم ، والفوز بدار كرامته ، وما فيها من النعيم المقيم ، الذى أعده الله للمؤمنين والمجاهدين .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ

---

ثم ذكر السبب الداعى لهم إلى الإيمان ، وعدم المانع منه فقال :

[ ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ] أى : وما الذى يمنعكم من الإيمان ، والحال أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ، أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله ، يدعوكم .

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته ، والتلبية والإجابة للحق ، الذى جاء به ، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان ، إن كنتم مؤمنين .

ومع ذلك ، من لطفه وعنايته بكم ، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذى هو أشرف العالم ، بل أيده بالمعجزات ، ودلكم على صدق ماجاء به ، بالآيات البينات .

فلهذا قال : [ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ] أى : ظاهرات تدل أهل العقول على صحة جميع ما جاء به ، وأنه هو الحق اليقين .

[ ليخرجكم ] بإرسال الرسول إليكم ، وما أنزله الله على يده ، من الكتاب والحكمة .

[ من الظلمات إلى النور ] أى : من ظلمات الجهل والكفر ، إلى نور العلم والإيمان .

بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ

---

وهذا من رحمته بكم ورأفته ، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها [ وإن الله بكم لرءوف رحيم[1] ] .

ومالكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ] أى : وما الذى يمنعكم من النفقة فى سبيل الله ، وهى طرق الخير كلها ، ويوجب لكم أن تبخلوا .

[ و ] الحال أنه ليس لكم شىء بل [ لله ميراث السموات والأرض ] .

فجميع الأموال ، ستنتقل من أيديكم ، أو تنقلون عنها ، ثم يعود الملك إلى مالكه ، تبارك وتعالى .

فاغتنموا الإنفاق ، ما دامت الأموال فى أيديكم ، وانتهزوا الفرصة .

ثم ذكر تعالى ، تفاضل الأعمال، بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال: [ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ] المراد بالفتح هنا هو : فتح الحديبية

---

( ١ ) ( وإن الله بكم ) فى إخراجكم من الكفر إلى الإيمان ( لرءوف ) كثير الرأفة [ رحيم ] واسع الرحمة . حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات ونصب الحجج العقلية .

وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

---

حين جرى من الصلح بين الرسول ، وبين قريش ، مما هو أعظم الفتوحات، التى حصل فيها نشر الإسلام ، واختلاط المسلمين بالكافرين ، والدعوة إلى الدين من غير معارض .

فدخل الناس من ذلك الوقت ، فى دين الله ، أفواجاً ، واعتز الإسلام عزاً عظيما .

وكان المسلمون قبل هذا الفتح ، لا يقدرون على الدعوة إلى الدين فى غير البقعة التى أسلم أهلها ، كالمدينة وتوابعها .

وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها ، من ديار المشركين ، يؤذى ويخاف .

فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وقاتل ، أعظم درجة وأجراً وثواباً ، ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك ، كما هو مقتضى الحكمة .

ولهذا كان السابقون ، وفضلاء الصحابة ، غالبهم أسلم قبل الفتح .

ولما كان التفضيل بين الأمور ، قد يتوهم منه نقص وقدح فى المفضول ، احترز تعالى من هذا بقوله :

[ وكلا وعد الله الحسنى ] أى : الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده ، كلهم وعده الله الجنة .

وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم ، رضى الله عنهم ، حيث شهد الله لهم بالإيمان ، ووعدهم الجنة .

[ والله بما تعملون خبير ] فيجازى كُلا منكم ، على ما يعمله من عمله .

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

---

ثم حث على النفقة فى سبيله ، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه ، وبذل الأموال فى التجهز له فقال :

[ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ] وهى : النفقة الطيبة ، التى تكون خالصة لوجه الله ، موافقة لمرضاة الله ، من مال حلال طيب ، طيبة به نفسه .

وهذا من كرم الله تعالى ، حيث سماه قرضا ، والمال ماله ، والعبيد عبيده.

ووعد بالمضاعفة عليه ، أضعافا كثيرة ، وهو الكريم الوهاب .

وتلك المضاعفة ، محلها ومواضعها ، يوم القيامة يوم يتبين كل إنسان فقره ، ويحتاج إلى أقل شىء من الجزاء الحسن ، ولهذا قال : [ يوم ترى المؤمنين ] إلى [ وبئس المصير ] .

* يقول تعالى — مبينا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة : [ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ] .

أى : إذا كان يوم القيامة ، وكورت الشمس ، وخسف القمر ، وصار الناس فى الظلمة ، ونصب الصراط على متن جهنم ، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فيمشون بإيمانهم ، ونورهم

خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ

---

فى ذلك الموقف الهائل الصعب ، كل على قدر إيمانه ، ويبشرون عند ذلك ، بأعظم بشارة فيقال :

[بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم] .

فلله ماأحلى هذه البشارة بقلوبهم ، وألذها لنفوسهم،حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ، ونجوا من كل شر ومرهوب .

فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم ، وهم قد طفىء نورهم ، وبقوا فى الظلمات حائرين ، قالوا للمؤمنين : [ انظرونا نقتبس من نوركم ] أى : أمهلونا ، لننال من نوركم ما نمشى به ، لننجو من العذاب .

[ قيل ] لهم : [ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ] .

أى : إن كان ذلك ممكنا ، والحال أن ذلك غير ممكن ، بل هو من المحالات .

[ فضرب بينهم ] أى : بين المؤمنين والمنافقين [ بسور ] أى : حائط منيع ، وحصن حصين .

[ له باب باطنه فيه الرحمة[1] ] وهو الذى يلى المؤمنين [ وظاهره من

---

( ١ ) أى : فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب ، باطن الحاجز الذى يلى الجنة ، فيه الرحمة والنعيم،وظاهر الحاجز الذى يلى النار من جهته ،النقمة والعذاب . اهـ من المنتخب من تفسير القرآن الكريم .

ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ

---

قبله العذاب ] وهو الذى يلى المنافقين .

فينادى المنافقون المؤمنين ، فيقولون تضرعا وترحما :

[ ألم نكن معكم ] فى الدنيا بقول « لا إله إلا الله » ونصلى ونصوم ، ونجاهد ، ونعمل مثل عملكم ؟

[ قالوا بلى ] كنتم معنا فى الدنيا ، وعملتم فى الظاهر ، مثل عملنا ، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين ، من غير إيمان ، ولا نية صادقة صالحة .

[ بل فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ] أى : شككتم فى خبر الله الذى لا يقبل شكا .

[ وغرتكم الأمانى ] الباطلة ، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين ، وأنتم غير موقنين .

[ حتى جاء أمر الله ] أى : حتى جاءكم الموت ، وأنتم بتلك الحالة الذميمة .

[ وغركم بالله الغرور ] وهو : الشيطان ، الذى زين لكم الكفر والريب ، فاطمأننتم به ، ووثقتم بوعده ، وصدقتم خبره .

لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

---

[ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ] ولو افتديتم بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، لما تقبل منكم .

[ مأواكم النار ] أى : مستقركم [ هى مولاكم ] التى تتولاكم ، وتضمكم إليها [ وبئس المصير ] النار .

قال تعالى « وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هية * نار حامية » .

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات فى الدار الآخرة كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها ، والاستكانة لعظمته ، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك فقال : [ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ] .

* أى : ألم يأت الوقت الذى به تلين قلوبهم ، وتخشع لذكر الله ، الذى هو القرآن ، وتنقاد لأوامره وزواجره ، وما نزل من الحق ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

وهذا فيه ، الحث على الاجتهاد ، على خشوع القلب لله تعالى ، ولما أنزله من الكتاب والحكمة ، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية ، والأحكام الشرعية ، كل وقت ، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك .

[ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ] .

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

---

أى : ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب ، والانقياد التام ، ثم لم يدوموا عليه ، ولا ثبتوا .

بل طال عليهم الزمان ، واستمرت بهم الغفلة ، فاضمحل إيمانهم ، وزال إيقانهم .

[ فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ] فالقلوب تحتاج فى كل وقت ، إلى أن تذكر بما أنزل الله ، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغى الغفلة عن ذلك، فإنه سبب لقسوة القلب ، وجمود العين .

[ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ] فإن الآيات تدل العقول على المطالب الإلهية .

والذي أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم ، فيجازيهم بأعمالهم .

والذى أحيا الأرض بعد موتها ، بماء المطر ، قادر على أن يحيي القلوب الميتة ، بما أنزله من الحق على رسوله .

وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ، ولم ينقد لشرائع الله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

---

* [ إن المصدقين والمصدقات ] بالتشديد ، أى : الذين أكثروا من الصدقات والنفقات المرضية .

[وأقرضوا الله قرضا حسنا] بأن قدموا من أموالهم فى طرق الخيرات ، ما يكون ذخرا لهم عند ربهم [ يضاعف لهم ] الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

[ ولهم أجر كريم ] وهو ما أعده الله لهم فى الجنة ، مما لا تعلمه النفوس .

[ والذين آمنوا بالله ورسله ] والإيمان عند أهل السنة ، ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح .

فيشمل ذلك ، جميع شرائع الدين ، الظاهرة والباطنة .

فالذين جمعوا هذه الأمور ، هم الصديقون ، أى : الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ، ودون مرتبة الأنبياء .

وقوله [ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ] كما ورد فى الحديث الصحيح « إن فى الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » .

وهذا يقتضى شدة علوهم ورفعتهم ، وقربهم من الله تعالى .

وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

[ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ] فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدقين ، والصديقين والشهداء ، وأصحاب الجحيم .

فالمتصدقون هم الذين ، جُلُّ عملهم ، الإحسان إلى الخلق ، وبذل النفع لهم ، بغاية ما يمكنهم .

خصوصاً بالنفع بالمال فى سبيل الله .

والصديقون ، هم الذين كملوا مراتب الإيمان ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ، واليقين الصادق .

والشهداء ، هم الذين قاتلوا فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم ، فقتلوا .

وأصحاب الجحيم ، هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله .

وبقى قسم ، ذكرهم الله فى سورة فاطر ، وهم المقتصدون ، الذين أدوا الواجبات ، وتركوا المحرمات ، إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده .

فهؤلاء مآلهم الجنة ، وإن حصل لبعضهم عقوبة ، ببعض ما فعل .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

---

* يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا ، وما هى عليه ، ويبين غايتها ، وغاية أهلها ، بأنها لعب ولهو ، تلعب بها الأبدان ، وتلهو بها القلوب .

وهذا مصداقه ، ما هو موجود ، وواقع ، من أبناء الدنيا .

فإنك تجدهم ، قد قطعوا أوقات عمرهم ، بلهو قلوبهم ، وغفلتهم عن ذكر الله ، وعما أمامهم ، من الوعد والوعيد .

تراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا .

بخلاف أهل اليقظة ، وعُمَّالِ الآخرة ، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ، ومعرفته ومحبته .

وقد شغلوا أوقاتهم ، بالأعمال التى تقربهم إلى الله ، من النفع ، القاصر والمتعدى .

وقوله: [وزينة] أي : تَزيُّنٌ فى اللباس والطعام ، والشراب والمراكب ، والدور ، والقصور ، والجاه ، وغير ذلك .

[ وتفاخر بينكم ] أى : كل واحد من أهلها ، يريد مفاخرة الآخر ، وأن يكون هو الغالب فى أمورها ، والذى له الشهرة فى أحوالها .

[ وتكاثر فى الأموال والأولاد ] أى : كُلٌّ ، يريد أن يكون هو الكاثر لغيره ، فى المال والولد ، وهذا مصداقه ، وقوعه من مُحِبِّى الدنيا ، والمطمئنين إليها .

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها ، فجعلها معبرا ، ولم يجعلها مستقراً .

فنافس فيما يقربه إلى الله ، واتخذ الوسائل ، التى توصله إلى دار كرامته .

وإذا رأى من يكاثره ، وينافسه فى الأموال والأولاد ، نافسه بالأعمال الصالحة .

ثم ضرب للدنيا مثلا ، بغيث نزل على الأرض ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وأعجب نباته الـكفار ، الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا،جاءها من أمر الله ، ما أتلفها ، فهاجت ويبست ، وعادت إلى حالها الأولى ، كأنه لم ينبت فيها خضراء ، ولا رُؤِىَ لها مرأى أنيق .

كذلك الدنيا ، بينما هى زاهية لصاحبها ، زاهرة ، مهما أراد من مطالبها حصل ، ومهما توجه لأمر من أمورها ، وجد أبوابه مفتحة .

إذ أصابها القدر ، فأذهبها من يده ، وأزال تسلطه عليها ، أو ذُهِبَ به عنها ، فرحل منها صفر اليدين ، ولم يتزود منها سوى الـكفن .

فَتبًّا لمن أضحت هى غاية أمنيته ، ولها عمله وسعيه .

وأما العمل للآخرة ، فهو الذى ينفع ، ويدخر لصاحبه ،ويصحب العبد على الأبد .

ولهذا قال تعالى : [وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان] أى : حال الآخرة ، لا يخلو من هذين الأمرين .

إما العذاب الشديد فى نار جهنم ، وأغلالها ، وسلاسلها ، وأهوالها

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

---

لمن كانت الدنيا هى غايته ، ومنتهى مطلبه ، فتجرأ على معاصى الله ، وكذب بآيات الله ، وكفر بأنعم الله .

وإما مغفرة من الله للسيئات ، وإزالة العقوبات ، ورضوان من الله ، يحل من أحله عليه ، دار الرضوان ، لمن عرف الدنيا ، وسعى للآخرة سعيها .

فهذا كله ، مما يدعو إلى الزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، ولهذا قال :

[ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ] أى : إلا متاع يتمتع به ، وينتفع به ، ويستدفع به الحاجات ، لا يغتر به ، ويطمئن إليه ، إلا أهل العقول الضعيفة ، الذين يغرهم بالله الغرور .

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته .

وذلك يكون بالسعى بأسباب المغفرة ، من التوبة النصوح ، والاستغفار النافع ، والبعد عن الذنوب ومظانها ، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح ، والحرص على ما يرضى الله على الدوام ، من الإحسان فى عبادة الخالق ، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ولهذا ، ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك فقال :

[ وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ] والإيمان بالله ورسله ، يدخل فيه أصول الدين وفروعه

يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ
إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

---

[ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ] أى : هذا الذى بيناه لكم ، وذكرنا الطرق الموصلة إلى الجنة ، والطرق الموصلة إلى النار ، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل ، والثواب الجيل ، من أعظم منته على عباده وفضله .

[ والله ذو الفضل العظيم ] الذى لا يحصى أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه .

* ويقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره : [ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم ] وهذا شامل لعموم المصائب ، التى تصيب ، التى تصيب الخلق ، من خير وشر ، فكلها قد كتب فى اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها .

وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول ، بل تذهل عنده أفئدة أولى الألباب ، ولكنه على الله يسير .

وأخبر الله عباده بذلك ، لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم ، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر .

فلا يأسوا ويحزنوا ، على ما فاتهم ، مما طمحت له أنفسهم ، وتشوفوا إليه ، لعلمهم أن ذلك مكتوب فى اللوح المحفوظ ، لابد من نفوذه ووقوعه ، فلا سبيل إلى دفعه .

ولا يفرحوا بما آتاهم الله ، فرح بطر وأشر ، لعلمهم أنهم ما أدركوه

لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

---

بحولهم وقوتهم ، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنِّه ، فيشتغلوا بشكر من أولى ، النعم ، ودفع النقم ، ولهذا قال :

[ والله لا يحب كل مختال فخور ] أى : متكبر فظ ، معجب بنفسه ، فخور بنعم الله ، ينسبها إلى نفسه ، وتطغيه وتلهيه كما قال تعالى : « وإذا أذقناه رحمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة » .

[ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ] أى : يجمعون بين الأمرين الذميمين ، اللذين كل منهما كاف فى الشر :

البخل وهو : منع الحقوق الواجبة ، ويأمرون الناس بذلك ، فلم يكفهم بخلهم ، حتى أمروا الناس بذلك ، وحثوهم على هذا الخلق الذميم ، بقولهم وفعلهم .

وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها .

[ ومن يتول ] عن طاعة الله ، فلا يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئا

[ فإن الله هو الغنى الحميد ] الذى غناه من لوازم ذاته ، الذى له ملك السموات والأرض ، وهو الذى أغنى عباده ، وأقناهم .

الحميد الذى له كل اسم حسن ، ووصف كامل ،وفعل جميل ، يستحق أن يحمد عليه ، ويثنى ويعظم عليه .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ

---

* يقول تعالى : [ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ] وهى : الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته .

[ وأنزلنا معهم الكتاب ] وهو اسم جنس ، يشمل سائر الكتب ، التى أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ، إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

[ والميزان ] وهو : العدل فى الأقوال والأفعال .

والدين الذى جاءت به الرسل ، كله عدل وقسط فى الأوامر والنواهى وفى معاملات الخلق ، وفى الجنايات ، والقصاص ، والحدود ، والمواريث ، وغير ذلك .

وذلك [ ليقوم الناس بالقسط ] قياما بدين الله ، وتحصيلا لمصالحهم التى لا يمكن حصرها وعدها .

وهذا ، دليل على أن الرسل ، متفقون فى قاعدة الشرع ، وهو القيام بالقسط ، وإن اختلفت صور العدل ، بحسب الأزمنة والأحوال .

[ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ] من آلات الحرب ، كالسلاح ، والدروع وغير ذلك .

[ ومنافع للناس ] وهو : ما يشاهد من نفعه ، فى أنواع الصناعات والحرف ، والأوانى ، وآلات الحرث ، حتى إنه قلّ أن يوجد شىء ، إلا وهو يحتاج إلى الحديد .

قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا

[ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ] أى:ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد ، فيتبين من ينصره ، وينصر رسله فى حالة الغيب ، التى ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة ، التى لا فائدة بوجود الإيمان فيها ، لأنه حينئذ يكون ضروريا واضطراريًّا .

[ إن الله لقوى عزيز ] أى : لا يعجزه شىء ، ولا يفوته هارب .

ومن قوته وعزته ، أن أنزل الحديد ، الذى منه الآلات القوية .

ومن قوته وعزته ، أنه قادر على الانتصار من أعدائه ، ولكنه يبتلى أولياءه بأعدائه ، ليعلم من ينصره بالغيب .

وقرن تعالى بهذا الموضع ، بين الكتاب والحديد ، لأن بهذين الأمرين ، ينصر الله دينه ، ويعلى كلمته

بالكتاب ، الذى فيه الحجة والبرهان .

والسيف الناصر ، بإذن الله ، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط ، الذى يستدل به على حكمة البارى وكماله ، وكمال شريعته ، التى شرعها على ألسنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموما ، ذكر من خواصهم، النبيين الكريمين نوحا ، وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب فى ذريتهما فقال :

[ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ] أى : الأنبياء المتقدمين والمتأخرين ، كلهم من ذرية نوح ، وإبراهيم عليهما السلام .

ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا

---

وكذلك الكتب كلها ، نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين .

[ فنهم ] أى : ممن أرسلنا إليهم الرسل [ مهتد ] بدعوتهم ، منقاد لأمرهم ، مسترشد بهداهم .

[ وكثير منهم فاسقون ] أى : خارجون عن طاعة الله ، وطاعة رسله كما قال تعالى : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[ ثم قفينا ] أى : أتبعنا [ على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم ].

خص الله عيسى عليه السلام ، لأن السياق مع النصارى ، الذين يزعمون اتباع عيسى .

[ وآتيناه الإنجيل ] الذى هو من كتب الله الفاضلة [ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ] كما قال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ،ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ولهذا كان النصارى ، ألين من غيرهم قلوبا ، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

[ ورهبانية ابتدعوها ] والرهبانية : العبادة ، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة ، ووظفوها على أنفسهم ، والتزموا لوازم ، ما كتبها الله عليهم ولا فرضها .

مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا
فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ

---

بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم ، قصدهم بذلك ، رضا الله .

ومع ذلك [ فمارعوها حق رعايتها ] أي : ما قاموا بها ، ولا أدوا حقوقها .

فقصروا من وجهين : من جهة ابتداعهم .

ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال ، هي الغالب من أحوالهم .

ومنهم : من هو مستقيم على أمر الله ولهذا قال :

[ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ] أي : الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، مع إيمانهم بعيسى ، كُلٌّ أعطاه الله على حسب إيمانه [ وكثير منهم فاسقون ] « أي : مكذبون بمحمد ، وخارجون عن الطاعة والطريق المستقيم » .

* وهذا الخطاب ، يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب ، الذين آمنوا بموسى وعيسى ، عليهما السلام ، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم ، بأن يتقوا الله ، فيتركوا معاصيه ، ويؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم إن فعلوا ذلك ، أعطاهم الله [ كفلين من رحمته ] أي : نصيبين من الأجر .

لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ

---

نصيب على إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً ، يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم ، وهذا هو الظاهر .

وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى ، الذى يدخل فيه جميع الدين ، ظاهره وباطنه ، أصوله وفروعه ، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم ، أعطاهم [ كفلين من رحمته ] لا يعلم قدهما ولا وصفهما إلا الله تعالى .

أجر على الإيمان ، وأجر على التقوى ، وأجر على امتثال الأوامر ، وأجر على اجتناب النواهى .

أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء ، مرة بعد أخرى .

[ ويجعل لكم نورا تمشون به ] أى يعطيكم علما ، وهدى ، ونوراً تمشون به فى ظلمات الجهل ، ويغفر لكم السيئات .

[ والله ذو الفضل العظيم ] فلا يستغرب كثرة هذا الثواب ، على فضل ذى الفضل العظيم ، الذى عم فضله ، أهل السموات والأرض ، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ، ولا أقل من ذلك .

وقوله [ لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شىء من فضل الله ] أى : بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانا عاما ، واتقى الله ، وآمن برسوله ، لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم ، بأنهم لا يقدرون على

وَٱللَّهُ ذو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

شىء من فضل الله ، أى : لا يحجرون على الله ، بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة ، فيقولون :

« لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » ، ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة .

فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم المتقين لله أن أن لهم كفلين من رحمته ، ونورا ، ومغفرة ، رغما على أنوف أهل الكتاب .

وليعلموا [ أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ] ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله [ والله ذو الفضل العظيم ] الذى لا يقادر قدره .

تم تفسير سورة الحديد ـ ولله الحمد والمنة

تفســـير

# سُورَةُ المُجَادَلَةِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ

---

* نزلت هذه الآيات الكريمات ، فى رجل من الأنصار ، اشتكته زوجته إلى الله ، وجادلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما حرمها على نفسه ، بعد الصحبة الطويلة ، والأولاد .

وكان هو ، رجلا شيخا كبيراً .

فشكت حالها ، وحاله إلى الله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكررت ذلك ، وأبدت فيه وأعادت .

فقال تعالى : [ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ] أى : تخاطبكما فيما بينكما .

[ إن الله سميع ] لجميع الأصوات ، فى جميع الأوقات ، على تفنن الحاجات .

[ بصير ] يبصر دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء .

يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟

---

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره ، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة .

وفى ضمن ذلك ، الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها .

ولهذا ذكر حكمها ، وحكم غيرها على وجه العموم فقال:

[ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهن إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ] .

المظاهرة من الزوجة : أن يقول الرجل لزوجته «أنت علىّ كظهر أمى» أو غيرها من محارمه ، أو « أنت علىّ حرام » .

وكان المعتاد عندهم فى هذا اللفظ « الظهر » ولهذا سماه الله « ظهاراً » فقال :

[ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهن ] أى : كيف يتكلمون بهذا الكلام ، الذى يعلمون أنه لا حقيقة له ، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتى ولدنهم ؟ .

ولهذا عظم الله أمره ، وقبحه فقال :

[وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ] أى : قولا شنيعا ، وكذبا .

[ وإن الله لعفو غفور ] عمن صدر منه بعض المخالفات ، فتداركها بالتوبة النصوح .

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا

[ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ] اختلف العلماء فى معنى العود .

فقيل ، معناه العزم على جماع من ظاهر منها ، وأنه بمجرد عزمه ، تجب عليه الكفارة المذكورة ، ويدل على هذا ، أن الله تعالى ذكر فى الكفارة ، أنها تكون قبل المسيس ، وذلك إنما يكون بمجرد العزم .

وقيل : معناه حقيقة الوطء ، ويدل على ، أن الله قال : [ ثم يعودون لما قالوا ] .

والذى قالوا ، إنما هو الوطء .

وعلى كل من القولين [ ف ] إذا وجد العود ، صار كفارة هذا التحريم [ تحرير رقبة مؤمنة ] كما قيدت فى آية القتل ، ذكر ، أو أنثى ، بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارة بالعمل .

[ من قبل أن يتماسا ] أى : يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته ، التى ظاهر منها ، حتى يكفر برقبة .

[ ذلكم ] الحكم الذى ذكرناه لكم ، [ توعظون به ] أى : يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به ، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب .

فالذى يريد أن يظاهر ، إذا ذكر أن عليه عتق رقبة ، كف نفسه عنه .

[ والله بما تعملون خبير ] فيجازى كل عامل بعمله .

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ

---

[ فمن لم يجد ] رقبة يعتقها، بأن لم يجدها، أو لم يجد ثمنها [ فـ ] عليه [ صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا .

[ فمن لم يستطع ] الصيام [ فإطعام ستين مسكينا ] .

إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم ، كما هو قول كثير من المفسرين .

وإما أن يطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزى فى الفطرة كما هو قول طائفة أخرى .

ذلك الحكم الذى بيناه لكم ، ووضحناه [ لتؤمنوا بالله ورسوله ] وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام ، والعمل به .

فإن التزام أحكام الله ، والعمل بها ، من الإيمان ، بل هى المقصودة ، ويزداد بها الإيمان ، ويكمل ، وينمو .

[ وتلك حدود الله ] التى تمنع من الوقوع فيها ، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها .

[ وللكافرين عذاب أليم (١) ] .

وفى هذه الآيات ، عدة أحكام :

---

( ١ ) قوله « وللكافرين عذاب أليم » أى : وللكافرين بحدود الله الذين يتعدونها ولا يلتزمون حدود الله « عذاب أليم » أى : مؤلم للغاية

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

---

منها : لطف الله بعباده ، واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة ، وأزالها ، ورفع عنها البلوى ، بل رفع البلوى بحكمه العام ، عن كل من ابتلى بمثل هذه القضية .

ومنها : أن الظهار ، مختص بتحريم الزوجة ، لأن الله قال [ من نسائهم ] .

فلو حرم أمته ، لم يكن ظهارا ، بل هو من جنس تحريم الطيبات ، كالطعام ، والشراب ، تجب فيه كفارة اليمين فقط .

ومنها : أن لا يصلح الظهار [1] من امرأة قبل أن يتزوجها ، لأنها لا تدخل فى نسائه وقت الظهار ، كما لا يصح طلاقها ، سواء نجّز ذلك ، أو علّقه .

ومنها : أن الظهار محرم ، لأن الله سماه [ منكراً من القول وزورا ] .

ومنها : تنبيه الله على الحكم وحكمته ، لأن الله قال [ما هن أمهاتهم ] .

ومنها : أنه يكره للرجل أن ينادى زوجته ويدعوها باسم محارمه ، كقوله « ياأمى » ، « يا أختى » ونحو ذلك ، لأن ذلك يشبه المحرم .

ومنها : أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر ، على اختلاف القولين السابقين ، لا بمجرد الظهار .

---

( ١ ) قوله «أن لا يصلح الظهار» هكذا فى الأصل المطبوع ، والصواب أن يقال « ومنها أنه لا يصح الظهار من امرأة » الخ. ليتناسب مع ما بعده

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾

---

ومنها : أنه يجزىء فى كفارة الرقبة ، الصغير والكبير ، والذكر ، والأنثى ، لإطلاق الآية فى ذلك .

ومنها : أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقا ، أو صياما ، قبل المسيس ، كما قيده الله . بخلاف كفارة الإطعام ، فإنه يجوزالمسيس والوطء فى أثنائها .

ومنها : أنه لعل الحكمة فى وجوب الكفارة قبل المسيس ، أن ذلك أدعى لإخراجها ، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع ، وعلم أنه لا يُمكن من ذلك إلا بعد الكفارة ، بادر إلى إخراجها .

ومنها : أنه لابد من إطعام ستين مسكينا .

فلو جمع طعام ستين مسكينا ، ودفعه لواحد أو أكثر من ذلك ، دون الستين ، لم يجز ذلك ، لأن الله قال : [ فإطعام ستين مسكينا ] .

* محادة الله ورسوله : مخالفتهما ومعصيتهما ، خصوصا فى الأمور الفظيعة كمحادة الله ورسوله ، بالكفر ، ومعاداة أولياء الله .

و قوله : [ كبتوا كما كبت الذى من قبلهم ] أى : أذلوا وأهينوا ، كما فعل بمن قبلهم ، جزاء وفاقا .

وليس لهم حجة على الله ، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق .

وقد أنزل من الآيات البينات ، والبراهين ما يبين الحقائق ، ويوضح المقاصد .

فمن اتبعها ، وعمل عليها ، فهو من المهتدين الفائزين .

[ وللكافرين ] بها [ عذاب مهين ] أى : يهينهم ويذلهم .

فكما تكبروا عن آيات الله ، أهانهم الله وأذلهم :

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

---

* يقول الله تعالى : [ يوم يبعثهم الله ] أى : يوم يبعث الله الخلق [جميعاً] فيقومون من أجداثهم سريعاً [ فينبئهم بما عملوا ] من خير وشر ، لأنه علم ذلك ، و [ أحصاه الله ] أى : كتبه فى اللوح المحفوظ ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة ، بكتابته .

هذا [و] العاملون قد [ نسوه ] أى : نسوا ماعملوه والله أحصى ذلك .

[ والله على كل شىء شهيد ] على الظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا .

ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته ، بما فى السموات والأرض ، من دقيق وجليل .

وأنه [ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ] .

والمراد بهذه المعية : معية العلم والإحاطة ، بما تناجوا ، به وأسروه فيما بينهم ، ولهذا قال : [ إن الله بكل شىء عليم ]

ثم قال تعالى : [ ألم تر إلى الذين ] إلى [ تحشرون ] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا

---

* النجوى هى : التناجى بين اثنين فأكثر ، وقد تكون فى الخير ، وتكون فى الشر .

فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر ، وهو : اسم جامع لكل خير وطاعة ، وقيام بحق الله ، وحق عباده .

والتقوى ، وهى ـ هنا ـ اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم .

فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهى ، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً ، إلا بما يقربه إلى الله ، ويباعده من سخطه .

والفاجر ، يتهاون بأمر الله ، ويناجى بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى [ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ] أى : يسيئون الأدب فى تحيتهم لك .

[ويقولون فى أنفسهم] أى : يسرون فيها ما ذكر عالم الغيب والشهادة عنهم ، وهو قولهم : [ لولا يعذبنا الله بما نقول ] .

ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك ، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم ، أن ما يقولونه غير محذور .

وقال تعالى فى بيان أنه يمهل ولا يهمل : [ حسبهم جهنم يصلونها

يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾
إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

فبئس المصير ] أي تكفيهم جهنم ، التي جمعت كل عذاب وشقاء عليهم ، تحيط بهم ، ويعذبون بها [ فبئس المصير ]« أى : المرجع والمآل ، جهنم » .

وهؤلاء المذكورون ، إما أناس من المنافقين ، يظهرون الإيمان ، ويخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم ، بهذا الخطاب ، الذى يوهمون أنهم أرادوا به خيراً ، وهم كذبة فى ذلك .

وإما أناس من أهل الكتاب ، الذين سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا « السام عليك يا محمد » يعنون : الموت .

* يقول تعالى [ إنما النجوى ] أى : تناجى أعداء المؤمنين بالمؤمنين ، بالمكر والخديعة ، وطلب السوء ، من الشيطان ، الذى كيده ضعيف .

[ ليجزى الذين آمنوا ] هذا غاية هذا المكر ومقصوده .

[ وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ] فإن الله وعد المؤمنين بالكفاية ، والنصر على الأعداء ، وقال تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ

---

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين ، مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك ، عائد إلى أنفسهم ، ولا يضر المؤمنين ، إلا شيء قدره الله وقضاه .

[ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ] أي : ليعتمدوا عليه ، ويثقوا بوعده .

فإن من توكل على الله ، كفاه كيد الأعداء ،وكفاه أمر دينه ودنياه .

* هذا أدب من الله لعباده ، إذا اجتمعوا فى مجلس من مجالس مجتمعاتهم ، واحتاج بعضهم ، أو بعض القادمين للتفسح له فى المجلس ، فإن من الأدب ، أن يفسحوا له ، تحصيلا لهذا المقصود .

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً ، فيحصل مقصود أخيه ، من غير ضرر يلحقه .

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه، فسح الله له ، ومن وسع لأخيه ، وسع الله عليه .

[ وإذا قيل انشزوا ] أى : ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم ، لحاجة تعرض .

[ فانشزوا ] أى : فبادروا للقيام ، لتحصيل تلك المصلحة .

فإن القيام بمثل هذه الأمور ، من العلم والإيمان ، والله تعالى يرفع

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟
بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ

---

أهل العلم والإيمان ، درجات بحسب ما خصهم به ، من العلم والإيمان .

[ والله بما تعلمون خبير ] فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفى هذه الآية ، فضيلة العلم وأن زينته وثمرته ، التأدب بآدابه ، والعمل بمقتضاه .

* يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة ، أمام مناجاة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، تأديبا لهم ، وتعليما ، وتعظيما للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا التعظيم ، خير للمؤمنين ، وأطهر .

أى: بذلك ، يكثر خيركم وأجركم ، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس ، التى من جملتها ، ترك احترام الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأدب معه بكثرة المناجاة ، التى لا ثمرة تحتها .

فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدى مناجاته ، صار هذا ميزانا ، لمن كان حريصا على العلم والخير ، فلا يبالى بالصدقة .

ومن لم يكن له حرص ولا رغبة فى الخير ، وإنما مقصوده ، مجرد كثرة الكلام ، فينكف بذلك ، عن الذى يشق على الرسول ، هذا فى الواجد للصدقة .

صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ

---

وأما الذى لا يجد الصدقة ، فإن الله لم يضيق عليه الأمر ، بل عفا عنه وسامحه ، وأباح له المناجاة ، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها .

ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ، ومشقة الصدقات عليهم ، عند كل مناجاة ، سهل الأمر عليهم ، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدى المناجاة وبقى التعظيم للرسول والاحترام بحاله ، لم ينسخ ، لأن هذا من باب المشروع لغيره ، ليس مقصوداً لنفسه .

وإنما المقصود ، هو الأدب مع الرسول والإكرام له .

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال :

[ فإذ لم تفعلوا ] أى : لم يهن عليكم تقديم الصدقة ، ولا يكفى هذا فإنه ليس من شرط الأمر ، أن يكون هينا على العبد ، ولهذا قيده بقوله :

[ وتاب الله عليكم ] أى : عفا لكم عن ذلك .

[ فأقيموا الصلاة ] بأركانها وشروطها ، وجميع حدودها ، ولوازمها .

[ وآتوا الزكاة ] المفروضة فى أموالكم ، إلى مستحقيها .

وهاتان العبادتان ، هما أم العبادات البدنية والمالية .

فمن قام بهما على الوجه الشرعى ، فقد قام بحقوق الله ، وحقوق عباده .

ولهذا قال بعده : [ وأطيعوا الله ورسوله ] وهذا أشمل ما يكون من الأوامر .

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

---

فيدخل في ذلك ، طاعة الله وطاعة رسوله، بامتثال أوامرهما، واجتناب نواهيهما ، وتصديق ما أخبرا به ، والوقوف عند حدود الشرع .

والعبرة فى ذلك ، على الإخلاص والإحسان ، فلهذا قال :

[ والله خبير بما تعملون ] فيعلم تعالى أعمالهم ، وعلى أى وجه صدرت ، فيجازيهم على حسب علمه ، بما فى صدورهم .

* يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين ، الذين يتولون الكافرين ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، ممن غضب الله عليهم ، ونالوا من لعنة الله ، أوفى نصيب ، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار ، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم ، الذى نعتهم الله به .

والحال أنهم يحلفون على الذى هو الكذب ، فيحلفون ، أنهم مؤمنون ، والحال أنهم ليسوا مؤمنين .

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذابا شديداً، لا يقادر قدره ، ولا يعلم وصفه ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، حيث عملوا بما يسخط الله ، ويوجب لهم العقوبة واللعنة .

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ
أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾
لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ

---

[ اتخذوا أيمانهم جنة ] أى : ترسا ووقاية ، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين .

فبسبب ذلك ، صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله ، وهو الصراط الذى من سلكه ، أفضى به إلى جنات النعيم .

ومن صد عنه ، فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم .

[ فلهم عذاب مهين ] حيث إنهم لما استكبروا عن الإيمان بالله ، والانقياد لآياته . أهانهم بالعذاب السرمدى ، الذى لا يُفتَّر عنهم ساعة ، ولا هم يُنظَرُون .

[ لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ] أى : لا تدفع عنهم شيئا من العذاب ، ولا تحصل لهم قسطا من الثواب .

[ أولئك أصحاب النار ] الملازمون لها ، الذين لا يخرجون عنها .

[ وهم فيها خالدون ] ومن عاش على شىء ، مات عليه .

فكما أن المنافقين فى الدنيا ، يموهون على المؤمنين ، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون ، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً ، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين ، ويحسبون فى حلفهم هذا ، أنهم على شىء ، لأن كفرهم ،

كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ

---

ونفاقهم، وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ فى أذهانهم شيئا فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون فى ذلك.

ومن المعلوم، أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

وهذا الذى جرى عليهم، من استحواذ الشيطان، الذى استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذى لا يريد بهم إلا الشر «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

[أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون] الذين خسروا دينهم ودنياهم وأهليهم.

* هذا وعد، ووعيد.

وعيد لمن حادّ الله ورسوله، بالكفر والمعاصى، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة.

ووعد، لمن آمن به، وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من

فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ

---

حزب الله المفلحين ، أن لهم الفتح والنصر والغلبة ، فى الدنيا والآخرة .

وهذا وعد لا يُخْلفَ ، ولا يُغَيَّرّ ، فإنه من الصادق القوى العزيز ، الذى لا يعجزه شيء يريده .

* يقول تعالى : [ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ] .

أى : لا يجتمع هذا وهذا ، فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة ، إلا كان عاملا على مقتضى إيمانه ولوازمه ، من محبة من قام بالإيمان ، وموالاته ، بغض من لم يقم به ، ومعاداته ، ولو كان أقرب الناس إليه .

وهذا هو الإيمان على الحقيقة ، الذى وجدت ثمرته ، والمقصود منه .

وأهل هذا الوصف ، هم الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان، أى : رسمه وثبته ، وغرسه غرسا ، لا يتزلزل ، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك .

وهم الذين قواهم الله بروح منه ، أى : بوحيه ، ومعرفته ، ومدده الإلهى ، وإحسانه الربانى .

وهم الذين ، لهم الحياة الطيبة فى هذه الدار ، ولهم جنات النعيم فى دار القرار ، التى فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وتختار ، ولهم أفضل النعيم وأكبره .

مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

---

وهو أن الله يحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبدا ، ويرضون عن ربهم ، بما يعطيهم من أنواع الكرامات ، ووافر المثوبات ، وجزيل الهبات ، ورفيع الدرجات .

بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم ، غاية ، ولا وراءه نهاية .

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو مع ذلك ، مُوَادٌّ لأعداء الله ، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره ، فإن هذا إيمان زَعْمِىٌّ ، لا حقيقة له .

فإن كل أمر ، لا بد له من برهان تصدقه ، فمجرد الدعوى ، لا تفيد شيئا ، ولا يصدق صاحبها .

تم تفسير سورة المجادلة — والحمد لله

تفســـير

# سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

• هذه السورة تسمى « سورة بنى النضير » وهم طائفة كبيرة من اليهود ، فى جانب المدينة ، وقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، كفروا به فى جملة من كفر من اليهود .

فهادن النبي صلى الله عليه وسلم ، طوائف اليهود ، الذين هم جيرانه فى المدينة .

فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أونحوها ، خرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين ، الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى .

فقالوا : نفعل يا أباالقاسم ، اجلس ههنا ، حتى نقضى حاجتك .

فخلا بعضهم ببعض ، وسوّل لهم الشيطان ، الشقاء الذى كتب عليهم .

. . . . . . . . . . .

---

فتآمروا على قتله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحا ، فيصعد ، فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟

فقال أشقاهم ، عمرو بن جحاش : أنا .

فقال لهم سلام بن مشكم : لاتفعلوا ، فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم به ، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .

وجاء الوحى على الفور إليه من ربه ، بما هموا به .

فنهض مسرعا ، فتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه ، فقالوا : نهضت ، ولم نشعر بك .

فأخبرهم بما همت يهود به .

وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه » :

فأقامو أياما يتجهزون ، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول « أن لاتخرجوا من دياركم ، فإن معى ألفين ، يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم ، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان » .

وطمع رئيسهم حُيَىّ بن أخطب فيما قال له ، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونهضوا إليهم ، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء :

. . . . . . . . . . .

وأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم ابن أُبَىّ ، وحلفاؤهم من غطفان .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقطع نخلهم وحرّق .

فأرسلوا إليه : نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم ، على أن يخرجوا منها بنفوسهم ، وذراريهم ، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأموال والسلاح .

وكانت بنو النضير ، خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنوائبه ، ومصالح المسلمين .

ولم يخمسها ، لأن الله فاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها ، بخيل ولاركاب

وأجلاهم إلى خيبر ، وفيهم حُيَيُّ بن أخطب كبيرهم ، واستولى على أرضهم وديارهم .

وقبض السلاح ، فوجد من السلاح ، خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلثمائة وأربعين سيفا .

هذا حاصل قصتهم ، كما ذكرها أهل السير .

فافتتح تعالى هذه السورة ، بالإخبار أن جميع من فى السموات والأرض ، تسبح بحمد ربها ، وتنزهه عما لايليق بجلاله ، وتعبده وتخضع لعظمته ، لأنه العزيز ، الذى قد قهر كل شىء ، فلا يمتنع عليه شىء ، ولا يستعصى عليه عسير .

ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ

---

الحكيم فى خلقه وأمره ، فلا يخلق شيئا عبثا ، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه ، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته .

ومن ذلك ، نصره لرسوله صلى الله عليه وسلم ، على الذين كفروا ، من أهل الكتاب ، من بني النضير ، حين غدروا برسوله ، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم ، التى ألفوها وأحبوها .

وكان إخراجهم منها ، أول حشر وجلاء ، كتبه الله عليهم ، على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى خيبر .

ودلت الآية الكريمة ، أن لهم حشرا وجلاء غير هذا .

فقد وقع حين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر ، ثم عمر رضى الله عنه ، أخرج بقيتهم منها .

[ ماظننتم ] أيها المسلمون [ أن يخرجوا ] من ديارهم ، لحصانتها ، ومنعتها ، وعزهم فيها .

[ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ] فأعجبو بها ، وغرتهم ، وحسبوا أنهم لا يُنَالُون بها ، ولا يقدر عليها أحد .

وقدر الله وراء ذلك كله ، لاتغنى عنه الحصون والقلاع ، ولا تُجْدِي فيه القوة والدفاع .

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ

ولهذا قال : [ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ] أى : من الأمر والباب، الذى لم يخطر ببالهم ، أن يؤتوا منه .

وهو أنه تعالى [ قذف فى قلوبهم الرعب ] وهو الخوف الشديد ، الذى هو جند الله الأكبر ، الذى لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة ، ولا قوة ولا شدة .

فالأمر الذى يحتسبونه ، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التى تحصنوا بها ، واطمأنت نفوسهم إليها .

ومن وثق بغير الله فهو مخذول ، ومن ركن إلى غير الله ، كان وبالا عليه .

فأتاهم أمر سماوى ، نزل على قلوبهم ، التى هى محل الثبات والصبر ، أو الخور والضعف .

فأزال قوتها وشدتها ، وأورثها ضعفا وخورا ، وجبنا ، لا حيلة لهم فى دفعه ، فصار ذلك عونا عليهم ، ولهذا قال :

[ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ] وذلك أنهم صالحوا النبى صلى الله عليه وسلم ، على أن لهم ما حملت الإبل .

فنقضوا لذلك ، كثيرا من سقوفهم ، التى استحسنوها ، وسلطوا المؤمنين ، بسبب بغيهم على إخراب ديارهم ، وهدم حصونهم .

فهم الذين جنوا على أنفسهم ، وصاروا أكبر عون عليها .

فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ

---

[فاعتبروا يا أولى الأبصار] أى : البصائر النافذة ، والعقول الكاملة، فإن فى هذا معتبرا ، يعرف به صنع الله فى المعاندين للحق ، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم ، ولا منعتهم قوتهم ، ولا حصنتهم حصونهم ، حين جاءهم أمر الله ، فوصل إليهم النكال بذنوبهم ، والعبرة بعموم المعنى ، لا بخصوص السبب .

فإن هذه الآية ، تدل على الأمر بالاعتبار ، وهو اعتبار النظير بنظيره ، وقياس الشيء على ما يشابهه ، والتفكر فيما تضمنته الأحكام ، من المعانى والحكم ، التى هى محل العقل والفكرة ، وبذلك يكمل العقل ، وتتنور البصيرة ، ويزداد الإيمان ، ويحصل الفهم الحقيقى .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود ، لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة .

وأن الله خفف عنهم .

[ ولولا أن كتب عليهم الجلاء ] الذى أصابهم وقضاه عليهم ، بقدره الذي لا يبدل ولا يغير ، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها .

ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوى - فإن لهم فى الآخرة عذاب النار ، الذى لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله .

فلا يخطر ببالهم ، أن عقوبتهم ، انقضت وفرغت ، ولم يبق لهم منها بقية .

فما أعد الله لهم من العذاب فى الآخرة ، أعظم وأطم .

بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ

---

ذلك بأنهم [شاقوا الله ورسوله ] وعادوهما وحاربوهما ، وسعوا فى معصيتهما .

وهذه سنته وعادته فيمن شاقه [ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب]

ولما لام بنو النضير ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين فى قطع النخيل والأشجار ، وزعموا أن ذلك من الفساد ، وتوصلوا بذلك ، إلى الطعن بالمسلمين ، أخبر تعالى ، أن قطع النخيل إن قطعوه ، أو إبقاءهم إياه ، إن أبقوه [ فبإذن الله ] وأمره [ وليخزى الفاسقين ] حيث سلطكم على قطع نخلهم ، وتحريقها ، ليكون ذلك نكالا لهم ، وخزيا فى الدنيا ، وذلا يعرف به عجزهم التام ، الذى ما قدروا على استنقاذ نخلهم ، الذى هو مادة قوتهم .

واللينة : تشمل النخيل كله ، على أصح الاحتمالات وأولاها .

فهذه حال بنى النضير ، وكيف عاقبهم الله فى الدنيا .

ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال :

[ وما أفاء الله على رسوله منهم ] أى : من أهل هذه القرية ، وهم بنو النضير .

[ ف] إنكم يا معشر المسلمين [ ما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ] أى : ما أجلبتم ولا حشدتم ، أى : لم تتعبوا بتحصيلها ، لا بأنفسكم ،

فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ

---

ولا بمواشيكم ، بل قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فأتتكم صَفْواً عفْواً .

ولهذا قال [ ولـكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير ] .

ومن تمام قدرته ، أنه لا يمتنع عليه ممتنع ، ولا يعزز من دونه قوِىٌّ .

وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء ، هو ما أخذ من مال الـكفار بحق ، من غير قتال ، كهذا المال الذى فرُّوا وتركوه ، خوفا من المسلمين .

وسمى فيئا ، لأنه رجع من الـكفار ، الذين هم غير مستحقين له ، إلى المسلمين ، الذين لهم الحق الأوفر فيه .

وحكمه العام ، كما ذكره الله بقوله [ ما أفاء الله على رسوله من أهل القري ] عموما ، سواء كان فى وقت الرسول أو بعده ، على من تولى « الإمارة » من بعده من أمته .

[ فلله وللرسول و لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ] .

وهذه الآية ، نظير الآية ، التى فى سورة الأنفال وهى قوله : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام :

لله ، ولرسوله ، يصرف فى مصالح المسلمين العامة .

وخمس لذى القربى ، وهم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، حيث كانوا ، يُسَوَّى فيه بين ، ذكورهم وإناثهم .

وإنما دخل بنو المطلب فى خمس الخمس ، مع بنى هاشم ، ولم يدخل بقية بنى عبد مناف ، لأنهم شاركوا بنى هاشم ، فى دخولهم الشعب ، حين تعاقدت قريش عل هجرهم وعداوتهم ، فنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف غيرهم .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بنى عبد المطلب « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام » .

وخمس لفقراء اليتامى ، وهم : من لا أب له ولم يبلغ .

وخمس للمساكين . وخمس لأبناء السبيل ، وهم الغرباء المنقطع بهم فى غير أوطانهم .

وإنما قدر الله هذا التقدير ، وحصر الفىء فى هؤلاء المعينين [ كى لا يكون دولة ] أى : مدوالة واختصاصا [ بين الأغنياء منكم ] فإنه لو لم يقدره ، لتداولته الأغنياء الأقوياء ، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شىء ، وفى ذلك من الفساد ، مالا يعلمه إلا الله .

كما أن فى اتباع أمر الله وشرعه ، من المصالح ، مالا يدخل تحت الحصر .

ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية ، والأصل العام فقال :

[ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ] وهذا شامل

لأصول الدين وفروعه ، وظاهره وباطنه ، وأن ما جاء به الرسول ، يتعين على العباد ، الأخذ به واتباعه ، ولا تحل مخالفته .

وأن نص الرسول على حكم الشيء ، كنص الله تعالى ، لا رخصة لأحد ولا عذر له فى تركه ، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله .

ثم أمر بتقواه ، التى بها عمارة القلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة ، وبها السعادة الدائمة ، والفوز العظيم ، وبإضاعتها ، الشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى فقال :

[ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ] على من ترك التقوى ، وآثر اتباع الهوى .

ثم ذكر تعالى ، الحكمة والسبب الموجب ، لجعله تعالى أموال الفيء ، لمن قدرها له ، وأنهم حقيقون بالإعانة ، مستحقون لأن تجعل لهم ، وأنهم ما بين مهاجرين ، قد هجروا المحبوبات والمألوفات ، من الديار ، والأوطان ، والأحباب ، والخلان ، والأموال ، رغبة فى الله ، ومحبة لرسول الله .

فهؤلاء هم الصادقون ، الذين عملوا بمقتضى إيمانهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، والعبادات الشاقة .

بخلاف من ادعى الإيمان ، وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما ، من العبادات ، وبين أنصارهم ، الأوس ، والخزرج ، الذين آمنوا بالله ورسوله

دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن

---

طوعا ومحبة واختيارا ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنعوه من الأحمر والأسود ، وتبوأوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلا ومرجعا يرجع إليه المؤمنون ، ويلجأ إليه المهاجرون ،ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها ، بلدان حرب ، وشرك وشر .

فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار ، حتى انتشر الاسلام،وقوى وجعل يزداد شيئا فشيئا ، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن ، والبلدان ، بالسيف والسنان .

الذين من جملة أوصافهم الجميلة ، أنهم [ يحبون من هاجر إليهم ]وهذا لمحبتهم لله ورسوله ، أحبوا أحبابه ، وأحبوا من نصر دينه .

[ ولا يجدون فى أنفسهم حاجة مما أوتوا ] أى : لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله ، وخصهم به ، من الفضائل والمناقب ، التى هم أهلها .

وهذا يدل على سلامة صدورهم ، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها .

ويدل ذلك ، على أن المهاجرين ، أفضل من الأنصار ، لأن الله قدمهم بالذكر ، وأخبر أن الأنصار ، لا يجدون فى صدورهم حاجة ، مما أوتوا .

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِن

فدل على أن الله تعالى ، آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم ، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة .

وقوله [ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ] أى : ومن أوصاف الأنصار ، التى فاقوا بها غيرهم ، وتميزوا بها عمن سواهم ، الإيثار ، وهو أكمل أنواع الجود ، وهو الإيثار بمحاب النفس،من الأموال وغيرها وبذلها للغير مع الحاجة إليها ، بل مع الضرورة والخصاصة .

وهذا لا يكون ، إلا من خلق زكى ، ومحبة لله تعالى ، مقدمة على شهوات النفس ولذاتها .

ومن ذلك ، قصة الأنصارى الذى نزلت الآية بسببه ، حين آثر ضيفه بطعامه ، وطعام أهله وأولاده ، وباتوا جياعا .

والإيثار عكس الأثرة .

فالإيثار محمود ، والأثرة مذمومة ، لأنها من خصال البخل والشح .

ومن رزق الإيثار، فقد وُقِىَ شح نفسه [ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ] .

ووقاية شح النفس ، يشمل وقايتها الشح ، فى جميع ما أمر به .

فإنه إذا وُقِىَ العبد شُحَّ نفسه ، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله ، ففعلها طائعا منقادا ، منشرحا بها صدره .

وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه ، وإن كان محبوبا للنفس ، تدعو إليه ، وتتطلع إليه .

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

---

وسمحت نفسه ببذل الأموال ، فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل للفلاح والفوز .

بخلاف من لم يوق شح نفسه ، بل ابتلى بالشح بالخير ، الذى هو أصل الشر ومادته.

فهذا الصنفان ، الفاضلان الزكيان ، هم الصحابة الكرام ، والأئمة الأعلام ، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ، ما سبقوا به من بعدهم ، وأدركوا به من قبلهم ، فصاروا أعيان المؤمنين ، وسادات المسلمين وقادات المتقين .

وحَسْبُ مَنْ بعدهم من الفضل ، أن يسير خلفهم ، ويأتم بهداهم .

ولهذا ذكر الله من اللاحقين ، من هو مؤتم بهم فقال : [ والذين جاءوا من بعدهم ] .

أي : من بعد المهاجرين والأنصار [ يقولون ] على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين : [ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ] .

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين ، من السابقين ، من الصحابة ، ومن قبلهم ومن بعدهم .

وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ، ويدعو بعضهم لبعض ، بسبب المشاركة فى الإيمان ، المقتضى لعقد الأخوة بين المؤمنين التى من فروعها ، أن يدعو بعضهم لبعض ، وأن يحب بعضهم بعضا .

ولهذا ذكر الله فى هذا الدعاء ، نَفْىَ الغل عن القلب ، الشامل لقليله وكثيره ، الذى إذا انتفى ، ثبت ضده ، وهو : المحبة بين المؤمنين ، والموالاة والنصح ، ونحو ذلك ، مما هو من حقوق المؤمنين .

فوصف الله مَنْ بعد الصحابة بالإيمان ، لأن قولهم [ سبقونا بالإيمان ] دليل على المشاركة فيه ، وأنهم تابعون للصحابة فى عقائد الإيمان وأصوله ، وهم أهل السنة والجماعة ، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم .

ووصفهم بالإقرار بالذنوب ، والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض ، واجتهادهم فى إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين ، لأن دعاءهم بذلك ، مستلزم لما ذكرنا ، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضا وأن يحب أحدهم لأخيه ، ما يحب لنفسه ، وأن ينصح له ، حاضرا وغائبا ، حيا وميتا .

ودلت الآية الكريمة ، على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض .

ثم ختموا دعاءهم ، باسمين كريمين ، دالين على كمال رحمة الله ، وشدة رأفته وإحسانه بهم ، الذى من جملته ، بل أجله ، توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده .

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة ، وهم المستحقون للفىء الذى مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام .

وهؤلاء أهله ، الذين هم أهله ، جعلنا الله منهم ، بمنه وكرمه .

ٱلْـكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَـكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيـكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّـكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَـكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ

---

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين ، الذين أطمعوا إخوانهم من أهل الـكتاب ، فى نصرتهم ، وموالاتهم على المؤمنين ، وأنهم يقولون لهم : [ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ] أى : لا نطيع فى عدم نصرتـكم أحداً ، يعذلنا أو يخوفنا .

[وإن قوتلتم لننصرنـكم ، والله يشهد إنهم لـكاذبون ] فى هذا الوعد الذى غروا به إخوانهم .

ولا يستـكثر هذا عليهم ، فإن الـكذب وصفهم ، والغرور والخداع ، مقارنهم ، والنفاق والجبن يصحبهم ، ولهذا كذبهم الله بقوله ، الذى وجد مخبره كما أخبر به ، ووقع طبق ما قال ، فقال :

[ لئن أخرجوا ] أى : من ديارهم جلاء ونفيا [ لايخرجون معهم ] لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال ، وعدم وفائهم بالوعد .

[ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ] بل يستولى عليهم الجبن ، ويملـكهم الفشل ، ويخذلون إخوانهم ، أحوج ما كانوا إليهم .

[ولئن نصروهم] على الفرض والتقدير ، [ليولن الأدبار ثم لاينصرون] أى : سيحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة ، ولا يحصل لهم نصر من الله .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾
لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ
بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

---

والسبب الذى حملهم على ذلك ، أنكم ـ أيها المؤمنين ـ [ أشد رهبة فى صدورهم من الله ] تخافوا منكم ، أعظم مما يخافون من الله ، وقدموا مخافة المخلوق ، الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، على مخافة الخالق ، الذي بيده الضر و النفع ، والعطاء والمنع .

[ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ] مراتب الأمور ، ولا يعرفون حقائق الأشياء ، ولا يتصورون العواقب .

وإنما الفقه كل الفقه ، أن يكون خوف الخالق ، ورجاؤه ، ومحبته ، مقدمة على غيرها ، وغيرها تبعا لها .

[ لا يقاتلونكم جميعا ] أى : فى حال الاجتماع [ إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ] أى : لا يثبتون على قتالكم ، ولا يعزمون عليه ، إلا إذا كانوا متحصنين فى القرى ، أو من وراء الجدر ، والأسوار .

فإنهم إذ ذاك ، ربما يحصل منهم امتناع ، اعتمادا على حصونهم وجدرهم لا شجاعة بأنفسهم ، وهذا من أعظم الذم .

[ بأسهم بينهم شديد ] أى : بأسهم فيما بينهم شديد ، لا آفة فى أبدانهم ولا فى قوتهم .

وإنما الآفة ، فى ضعف إيمانهم ، وعدم اجتماع كلمتهم ولهذا قال :

[ تحسبهم جميعا ] حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين .

لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ

---

[ و ] لكن [ قلوبهم شتى ] أى : متباغضة متفرقة متشتتة .

[ ذاك ] الذى أوجب لهم اتصافهم بما ذكر [ بأنهم قوم لا يعقلون ] أى : لا عقل عندهم ، ولا لب .

فإنهم لو كانت لهم عقول ، لآثروا الفاضل على المفضول ، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين ، ولكانت كلمتهم مجتمعة ، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ، ويتعاضدون ، ويتعاونون على مصالحهم الدينية والدنيوية ، مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب ، الذين انتصر الله لرسوله منهم ، وأذاقهم الخزى في الحياة الدنيا .

وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة [ كمثل الذين من قبلهم قريبا ] وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال « لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم * فلما تراءت الفئتان ، نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون » .

فغرتهم أنفسهم ، وغرهم من غرهم ، الذين لم ينفعوهم، ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا « بَدْراً » بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله وللمؤمنين أمانيهم .

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم ، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم ، وفر من فر .

وبذلك [ ذاقوا وبال أمرهم ] وعاقبة شركهم وبغيهم .

هذا فى الدنيا [ ولهم ] فى الآخرة [ عذاب أليم ] .

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

---

ومثل هؤلاء المنافقين ، الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب .

[ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ] أى : زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه .

فلما اغتر به وكفر ، وحصل له الشقاء ، لم ينفعه الشيطان ، الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه .

بل تبرأ منه [ وقال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ] .

أى : ليس لى قدرة على دفع العذاب عنك ، ولست بمغن عنك ، مثقال ذرة من الخير .

[ فكان عاقبتهما ] أى : الداعى الذى هو الشيطان ، والمدعو ، الذى هو الإنسان حين أطاعه [ أنهما فى النار خالدين فيها ] كما قال تعالى « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

[ وذلك جزاء الظالمين ] الذين اشتركوا فى الظلم والكفر ، وإن اختلفوا فى شدة العذاب وقوته .

وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه ، فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور ، إلى ما يضرهم ، حتى إذا وقعوا فى الشباك ، وحاق بهم أسباب الهلاك ، تبرأ منهم ، وتخلى عنهم .

واللوم كل اللوم ، على من أطاعه ، فإن الله قد حذر منه ، وأنذر ،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

---

وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته ، فالمقدم على طاعته ، عاص على بصيرة ، لا عذر له .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ، ويقتضيه من لزوم تقواه ، سرا وعلانية ، فى جميع الأحوال ، وأن يراعوا ما أمرهم الله به ، من أوامره وحدوده ، وينظروا ما لهم وما عليهم ، وماذا حصلوا عليه ، من الأعمال التى تنفعهم أو تضرهم ، فى يوم القيامة .

فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم ، وقبلة قلوبهم ، واهتموا للمقام بها ، اجتهدوا فى كثرة الأعمال الموصلة إليها ، وتصفيتها من القواطع والعوائق ، التى توقفهم عن السير ، أو تعوقهم أو تصرفهم .

وإذا علموا أيضاً ، أن الله خبير بما يعملون ، لا تخفى عليه أعمالهم ، ولا تضيع لديه ، ولا يهملها ، أوجب لهم الجد والاجتهاد .

وهذه الآية الكريمة ، أصل فى محاسبة العبد نفسه ، وأنه ينبغى له أن يتفقدها .

فإن رأى زللا ، تداركه بالإقلاع عنه ، والتوبة النصوح ، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه

وإن رأى نفسه مقصرا ، في أمر من أوامر الله ، بذل جهده ، واستعان بربه فى تتميمه ، وتكميله ، وإتقانه .

وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ

---

ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه ، وبين تقصيره ، فإن ذلك، يوجب له الحياة لا محالة .

والحرمان كل الحرمان ، أن يغفل العبد عن هذا الأمر ، ويشابه قوما نسوا الله ، وغفلوا عن ذكره ، والقيام بحقه .

وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها ، فلم ينجحوا ، ولم يحصلوا على طائل .

بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها ، فصار أمرهم فرطاً ، فرجعوا بخسارة الدارين ، وغبنوا غبنا ، لا يمكن تداركه ، ولا يجبر كسره ، لأنهم هم الفاسقون ، الذين خرجوا عن طاعة ربهم ، وأوضعوا فى معاصيه .

فهل يستوى من حافظ على تقوى الله ، ونظر لما قدم لغده ، فاستحق جنات النعيم ، والعيش السليم ـ مع الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ـ ومن غفل عن ذكره ، ونسى حقوقه فشقى فى الدنيا ، واستحق العذاب فى الآخرة .

فالأولون ، هم الفائزون ، والآخرون هم الخاسرون .

ولما بين تعالى لعباده ما بين ، وأمر عباده ونهاهم فى كتابه العزيز ،

خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

---

كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه، وحثهم عليه، ولو كانوا فى القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسى.

فإن هذا القرآن، لو أنزل عل جبل، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

أى: لكمال تأثيره فى القلوب، فإن مواعظ القرآن، أعظم المواعظ على الإطلاق.

وأوامره ونواهيه، محتوية على الحكم والمصالح، المقرونة بها، وهى من أسهل شىء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف لا تناقض فيها، ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها، ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا فى آياته ويتدبروها.

فإن التفكير فيها، يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوىء الأخلاق.

فلا أنفع للعبد من التفكير فى القرآن، والتدبر لمعانيه.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ

---

* هذه الآيات الكريمات ، قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى ، عظيمة الشأن ، وبديعة البرهان .

فأخبر أنه الله المألوه المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل ، وتدبيره العام .

وكل إله غيره ، فإنه باطل ، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة ، لأنه فقير عاجز ناقص ، لا يملك لنفسه ولا لغيره ، شيئا .

ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه .

وبعموم رحمته ، التى وسعت كل شىء ، ووصلت إلى كل حى .

ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها ، وأنه المالك لجميع الممالك .

فالعالم العلوى والسفلى وأهله الجميع ، مماليك لله ، فقراء مدبرون .

[ القدوس السلام ] أى : المقدس السالم من كل عيب ونقص ، المعظم الممجد .

لأن القدوس ، يدل على التنزيه من كل نقص ، والتعظيم لله فى أوصافه وجلاله .

[ المؤمن ] أى : المصدق لرسله وأنبيائه ، بما جاءوا به ، بالآيات البينات

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات .

[ العزيز ] الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شىء ، وخضع له كل شىء .

[ الجبار ] الذى قهر جميع العباد ، وأذعن له سائر الخلق ، الذى يجبر الكسير ، ويغنى الفقير .

[ المتكبر ] الذى له الكبرياء والعظمة ، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور .

[ سبحان الله عما يشركون ] وهذا تنزيه عام ، عن كل ما وصفه به ، من أشرك به وعانده .

[ هو الله الخالق ] لجميع المخلوقات [ البارىء ] للمبروءات [ المصور ] للمصورات .

وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير ، وأن ذلك كله ، قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشارك .

[ له الأسماء الحسنى ] أى : له الأسماء الكثيرة جدا ، التى لا يحصيها ، ولا يعلمها ، أحد إلا هو ، ومع ذلك ، فكلها حسنى ، أى : صفات كمال ، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها ، لا نقص فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

ومن حسنها ، أن الله يحبها ، ويحب من يحبها ، ويحب من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ومن كماله ، وأن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، أن جميع من في السموات والأرض ، مفتقرون إليه على الدوام ، يسبحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله وكرمه ، ما تقتضيه رحمته وحكمته .

[ وهو العزيز الحكيم ] الذي لا يريد شيئا إلا ويكون ، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة .

تم تفسير سورة الحشر ـ والحمد لله وحده

تفســـير

# سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ

---

* ذكر كثير من المفسرين ، رحمهم الله ، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فى قصة حاطب بن أبى بلتعة ، حين غزا النبى صلى الله عليه وسلم غزاة الفتح .

فكتب حاطب إلى المشركين ، من أهل مكة ، يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ليتخذ بذلك يداً عندهم ، لا شكا ونفاقا ، وأرسله مع امرأة .

فَأُخْبِرَ النبى صلى الله عليه وسلم ، بشأنه ، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب .

وعاتب حاطبا فاعتذر بعذر ، قبله النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذه الآيات فيها النهى الشديد ، عن موالاة الكفار من المشركين

وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم ، وأن ذلك مناف للإيمان،ومخالف لملة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، ومناقض للعقل الذى يوجب الحذر كل الحذر ، من العدو ، والذى لا يبقى من مجهوده فى العداوة شيئا ، وينتهز الفرصة فى إيصال الضرر إلى عدوه ، فقال تعالى :

[ يا أيها الذين آمنوا ] أى اعملوا بمقتضى إيمانكم ، من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه ، فإنه عدو لله ، وعدو للمؤمنين .

[لاتتخذوا]عدو الله[وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ]أى: تسارعون فى مودتهم ، والسعى فى أسبابها ، فإن المودة ، إذا حصلت ، تبعتها النصرة والموالاة .

فخرج العبد من الإيمان ، وصار من جملة أهل الكفران .

وهذا المتخذ للكافر وليا ، عادم المروءة أيضا ، فإنه كيف يوالى أعدى أعدائه ، الذى لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه ووليه ، الذى يريد به الخير ، ويأمره به ، ويحثه عليه ؟ !

ومما يدعو المؤمن أيضا ، إلى معاداة الكفار ، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين ، من الحق .

ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة ، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم ، وزعموا أنكم ضُلاَّل ، على غير هدى .

والحال أنهم كفروا بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

ومن رد الحق ، فمحال أن يوجد له دليل ، أو حجة ، تدل على صحة

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ

---

قوله ، بل مجرد العلم بالحق ، يدل على بطلان قول من رده وفساده .

ومن عداوتهم البليغة أنهم [ يخرجون الرسول وإياكم ] أيها المؤمنون من دياركم ، ويشردونكم من أوطانكم .

ولا ذنب لكم فى ذلك عندهم، إلا [ أن تؤمنوا بالله ربكم ] الذى يتعين على الخلق كلهم ، القيام بعبوديته ، لأنه رباهم ، وأنعم عليهم ، بالنعم الظاهرة والباطنة .

فلما أعرضوا عن هذا الأمر ، الذى هو أوجب الواجبات ، وقمتم به ، عادوكم ، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم .

فأى دين ، وأى مروءة وعقل ، يبقى مع العبد إذا والى الكفار ، الذين هذا وصفهم ، فى كل زمان أو مكان ؟!! ولا يمنعهم منه إلا خوف ، أو مانع قوى .

[ إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ] أى : إن كان خروجكم ، مقصودكم به الجهاد فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وابتغاء رضاه فاعملوا بمقتضى هذا ، من موالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه ، فإن هذا من أعظم الجهاد فى سبيله ، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ، ويبتغون به رضاه .

[ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ] أى : كيف

وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

---

تسرون المودة للكافرين ، وتخفونها ، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون ، وما تعلنون ؟ !

فهو ، وإن خفى على المؤمنين ، فلا يخفى على الله تعالى ، وسيجازى العباد بما يعلمه منهم ، من الخير والشر .

[ ومن يفعله منكم ] أى : موالاة الكافرين بعد ما حذركم الله منها [ فقد ضل سواء السبيل ] لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل ، والمروءة الإنسانية .

ثم بين تعالى شدة عداوتهم ، تهييجا للمؤمنين على عداوتهم فقال :

[ إن يثقفوكم ] أى : يجدوكم ، وتسنح لهم الفرصة فى أذاكم .

[ يكونوا لكم أعداء ] ظاهرين [ ويبسطوا إليكم أيديهم ] بالقتل والضرب ، ونحو ذلك .

[ وألسنتهم بالسوء ] أى : بالقول الذى يسوء ، من شتم وغيره .

[ وودوا لو تكفرون ] فإن هذا غاية ما يريدون منكم .

فإن احتججتم وقلتم نوالى الكفار ، لأجل القرابة والأموال [ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ] من الله شيئا [ يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير ] .

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

---

فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم .

[ قد كانت لكم ] يا معشر المؤمنين [ أسوة حسنة ] أى : قدوة صالحة واتمام ينفعكم .

[ فى إبراهيم والذين معه ] من المؤمنين ، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا .

[ إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ] أى : إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ، ومن معه من المؤمنين ، من قومهم المشركين ، ومما يعبدون من دون الله .

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا : [ كفرنا بكم وبدا ].

أى : ظهر وبان [ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ] أى : البغض بالقلوب وزوال مودتها ، والعداوة بالأبدان .

وليس لتلك العداوة والبغضاء ، وقت ولا حد ، بل ذلك [ أبدا ] ما دمتم مستمرين على كفركم [ حتى تؤمنوا بالله وحده ] أى : فإذا آمنتم بالله وحده ، زالت العداوة والبغضاء ، وانقلبت مودة وولاية .

فلكم أيها المؤمنون ، أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه ، فى القيام

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ
لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا

---

بالإيمان والتوحيد ، ولوازم ذلك ومقتضياته ، وفى كل شىء تعبدوا به لله وحده .

[ إلا ] فى خصلة واحدة وهى [ قول إبراهيم لأبيه ] آزر المشرك ، الكافر ، المعاند ، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد ، فامتنع فقال إبراهيم له :

[ لأستغفرن لك ، و ] الحال أنى [ ما أملك لك من الله من شىء ] .

ولكنى أدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا .

فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم ، فى هذه الحالة ، التى دعا بها للمشرك .

فليس لكم أن تدعوا للمشركين ، وتقولوا : إنا فى ذلك متبعون لملة إبراهيم .

فإن الله ذكر عذر إبراهيم فى ذلك بقوله « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » الآية .

ولكم أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه ، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه ، واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا :

[ ربنا عليك توكلنا ] أى : اعتمدنا عليك فى جلب ما ينفعنا ، ودفع ما يضرنا ، ووثقنا بك يا ربنا فى ذلك .

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ

---

[ وإليك أنبنا ] أى : رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ، وجميع ما يقرب إليك .

فنحن فى ذلك ساعون ، وبفعل الخيرات مجتهدون ، ونعلم أنا إليك نصير .

فسنستعد للقدوم عليك ، ونعمل ما يزلفنا إليك .

[ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ] أى : لا تسلطهم علينا بذنوبنا ، فيفتنونا ، ويمنعونا مما يقدرون عليه ، من أمور الإيمان .

ويفتنون أيضا بأنفسهم ، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأنا على الباطل ، فازدادوا كفرا وطغيانا .

[ واغفر لنا ] ما اقترفنا من الذنوب والسيئات ، وما قصرنا به من المأمورات .

[ ربنا إنك أنت العزيز ] القاهر لكل شىء .

[ الحكيم ] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، وأصلح عيوبنا .

ثم كرر الحث على الاقتداء بهم وقال : [ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة ] .

وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

وليس كل أحد ، تسهل عليه هذه الأسوة .

وإنما تسهل [ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ] فإن الإيمان ، واحتساب الأجر والثواب ، يسهل على العبد كل عسير ، ويقلل لديه كل كثير ، ويوجب له الاقتداء بعباد الله الصالحين ، والأنبياء والمرسلين ، فإنه يرى نفسه مفتقرا مضطرًا ، إلى ذلك غاية الاضطرار .

[ ومن يتول ] عن طاعة الله والتأسى برسل الله ، فلن يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا .

[ فإن الله هو الغنى ] الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه .

[ الحميد ] فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإنه محمود على ذلك كله .

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة ، التى أمر بها المؤمنين للمشركين ، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم ، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان ، فإن الحكم يدور مع علته ، والمودة الإيمانية ترجع .

فلا تيأسو أيها المؤمنون ، من رجوعهم إلى الإيمان .

فـ [ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ] سببها رجوعهم إلى الإيمان .

رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ
يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

---

[ والله قدير ] على كل شيء ، ومن ذلك، هداية القلوب ، وتقليبها من حال إلى حال .

[ والله غفور رحيم ] لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا عيب أن يستره

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

وفى هذه الآية،إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين ، الذين كانوا .

إذ ذاك ، أعداء للمؤمنين ، وقد وقع ذلك ، ولله الحمد والمنة .

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات ، المهيجة على عداوة الكافرين ، وقعت من المؤمنين كل موقع ، وقاموا بها أتم القيام ، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين ، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه .

فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل فى المحرم فقال : [ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ] .

أى : لا ينهاكم الله عن البر والصلة ، والمكافأة بالمعروف ، والقسط للمشركين ، من أقاربكم وغيرهم ، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم فى الدين ، والإخراج من دياركم .

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

---

فليس عليكم جناح أن تصلوهم ، فإن صلتهم فى هذه الحالة ، لا محذور فيها ولا تبعة .

كما قال تعالى فى الأبوين الكافرين ، إذا كان ولدهما مسلما « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

وقوله : [ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ] أى : لأجل دينكم ، عداوة لدين الله ، ولمن قام به .

[ وأخرجوكم من دياركم وظاهروا ] أى : عاونوا غيرهم [ على إخراجكم ] .

نهاكم الله [ أن تولوهم ] بالنصرة والمودة ، بالقول والفعل .

وأما بركم وإحسانكم ، الذى ليس بتولٍّ للمشركين ، فلم ينهكم الله عنه .

بل ذلك داخل ، فى عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم ، من الآدميين ، وغيرهم .

[ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ] وذلك الظلم ، يكون بحسب التولىِّ .

فإن كان تولِّياً تاما ، كان ذلك كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام ، وتحت ذلك من المراتب ، ما هو غليظ ، وما هو دونه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

* لما كان صلح الحديبية ، صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين ، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلما ، أنه يرد إلى المشركين .

وكان هذا ، لفظا عاما مطلقا ، يدخل فى عمومه ، النساء والرجال .

فأما الرجال فإن الله لم ينهَ رسوله عن ردهم ، إلى الكفار ، وفاء بالشرط وتتميما للصلح ، الذى هو من أكبر المصالح .

وأما النساء ، فلما كان ردهن ، فيه مفاسد كثيرة ، أمر المؤمنين ، إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات ، وشكوا فى صدق إيمانهن ، أن يمتحنوهن ويختبروهن ، بما يظهر به صدقهن ، من أيمان مغلظة وغيرها ، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة فى زوج ، أو بلد أو غير ذلك ، من المقاصد الدنيوية .

فإن كن بهذا الوصف ، تعين ردهن وفاء بالشرط ، من غير حصول مفسدة .

وإن امتحنوهن ، فوجدن صادقات ، أو علموا ذلك منهن ، من غير امتحان ، فلا يرجعوهن إلى الكفار .

[ لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن ] فهذه مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضا الوفاء بالشرط ، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ، ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه ، عوضا عنهن .

وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

---

ولا جناح حينئذ، على المسلمين، أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج فى دار الشرك.

ولكن بشرط، أن يؤتوهن أجورهن، من المهر، والنفقة.

وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم، ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب.

ولهذا قال تعالى: [ولا تمسكوا بعصم الكوافر] وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها، فالنهى عن ابتداء تزويجها أولى.

[واسألوا ما أنفقتم] أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار.

فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا، مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفى هذا دليل، على أن خروج البضع من الزوج، متقوم.

فإذا أفسد مفسد، نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر.

وقوله [ذلكم حكم الله] أى: ذلكم الحكم، الذى ذكره الله، هو حكم الله، بيّنهُ لكم ووضحه.

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟

---

[ والله عليم حكيم ] فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام فيشرعه، بحسب حكمته ورحمته.

وقوله: [ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار ] بأن ذهبن مرتدات [ فعاقبتم[1] فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ] كما

---

(١) قوله « فعاقبتم » أى: فغزوتم وغنمتم [ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ] من الغنيمة [ مثل ما أنفقوا ] لفواته عليهم من جهة الكفار [ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ] وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين، ثم ارتفع الحكم. اهـ من الجلالين.

وفى تفسير النسفى « إن انفلت أحد منهن إلى الكفار — وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه (أحد) - (فعاقبتم) فأصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم — عن الزجاج — (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة. وقيل: هذا الحكم منسوخ أيضاً. اهـ.

وفى تفسير أبى السعود.

[ وإن فاتكم ] أى: وانفلت منكم.

[ شىء من أزواجكم إلى الكفار ] أى: أحد من أزواجكم وقد قرىء=

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تقدم أن الكفار، إذا كانوا يأخذون ، بدل مايفوت من أزواجهم إلى المسلمين فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه ، فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة ، بدل ما أنفق .

[ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ] فإيمانكم بالله ، يقتضى منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى ، الدوام .

= كذلك . ( وهى قراءة ابن مسعود ) وإيقاع « شىء » موقعه للتحقير والإشباع فى التعميم أو شىء من مهور أزواجكم .

[ فعاقبتم ] أى : فجاءت عقبتكم أى : نوبتكم من أداء المهر

شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين ، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره .

[ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ] من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر .

وقيل : معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى ، هى ، الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة .

وقرئ « فأعقبتم » و « فعقبتم » بتشديد القاف و « فعقبتم » بالتخفيف وفتح القاف وكسرها .

وقيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ، أم الحكم بنت أبى سفيان ، وفاطمة بنت أمية ، وبروع بنت عقبة ، وعبدة بنت عبد العزى ، وهند بنت أبى جهل ، وكلثوم بنت جرو . اهـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ
أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ
أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ

---

* هذه الشروط المذكورة في هذه الآية ، تسمى « مبايعة النساء » اللاتى كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة ، التى تجب على الذكور والنساء ، فى جميع الأوقات .

وأما الرجال ، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم ، وما يتعين عليهم .

فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمتثل ما أمره الله .

فكان إذا جاءته النساء يبايعنه ، والتزمن بهذه الشروط ، بايعهن ، وجبر قلوبهن ، واستغفر لهن الله ، فيما يحصل منهن من التقصير ، وأدخلهن فى جملة المؤمنين .

[ على أن لا يشركن بالله شيئاً ] بل يفردن الله وحده بالعبادة .

[ ولا يقتلن أولادهن ] كما يجرى لنساء الجاهلية الجهلاء « من وأد البنات » .

[ ولا يزنين ] كما كان ذلك موجوداً كثيراً ، فى البغايا وذوات الأخدان

[ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن[1] ] .

---

(١) قوله « بين أيديهن وأرجلهن » أى : لا يلحقن بأزواجهن من ليس من أولادهم ، بهتانا وكذبا يختلقنه بين أيديهن وأرجلهن . =

وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ

---

والبهتان: الافتراء على الغير، أى لا يفترين بكل حالة ، سواء تعلقت بهن مع أزواجهن ، أو تعلق ذلك بغيرهم .

[ ولا يعصينك فى معروف ] أى : لا يعصينك فى كل أمر تأمرهن به ، لأن أمرك لايكون إلا بمعروف ، ومن ذلك ، طاعتهن لك ، فى النهى عن النياحة ، وشق الجيوب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بدعوى الجاهلية .

[ فبايعهن ] إذا التزمن بجميع ما ذكر .

[ واستغفر لهن الله ] عن تقصيرهن وتطييبا لخواطرهن .

[ إن الله غفور ] أى : كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين .

[ رحيم ] وسعت رحمته كل شىء ، وعم إحسانه البرايا .

* أى : يا أيها المؤمنون ، إن كنتم مؤمنين بربكم ، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه .

[ لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ] وإنما غضب عليهم لكفرهم .

وهذا شامل لجميع أصناف الكفار .

---

= كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هو ولدى منك .

كنىّ عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها ، لأن بطنها الذى تحمله بين يديها ، ومخرجه ، بين رجليها . اهـ . أبو السعود .

عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

[ قد يئسوا من الآخرة ] أى : قد حرموا من خير الآخرة ، فليس لهم منها نصيب .

فاحذروا أن تولوهم ، فتوافقوهم على شرهم وشركهم ، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا .

وقوله [ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ] حين أفضو إلى الدار الآخرة ، وشاهدوا حقيقة الأمر ، وعلموا علم اليقين ، أنهم لا نصيب لهم منها .

ويحتمل أن المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، أى : قد أنكروها ، وكفروا بها .

فلا يستغرب حينئذ منهم ، الإقدام على مساخط الله ، وموجبات عذابه ، وإياسهم من الآخرة ، كما يئس الكفار المنكرون للبعث فى الدنيا ، من رجوع أصحاب القبور ، إلى الله تعالى .

تم تفسير سورة الممتحنة ـ والله أعلم

تفســـــير

# سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

---

* وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره ، وذل جميع الأشياء له ، تبارك وتعالى ، وأن جميع من فى السموات والأرض ، يسبحون بحمد ربهم ، ويعبدونه ، ويسألونه حوائجهم .

[ وهو العزيز ] الذى قهر الأشياء بعزته وسلطانه [ الحكيم ] فى خلقه وأمره .

[ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ] أى : لم تقولون الخير ، وتحثون عليه ، وربما تمدحتم به ، وأنتم لا تفعلونه .

وتنهون عن الشر ، وربما نزهتم أنفسكم عنه ، وأنتم متلوثون متصفون به .

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

---

فهل تليق بالمؤمنين ، هذه الحالة الذميمة ؟ .

أم من أكبر المقت عند الله ، أن يقول العبد ما لا يفعل ؟ .

ولهذا ينبغى للآمر بالخير، أن يكون أول الناس مبادرة إليه ، والناهى عن الشر ، أن يكون أبعد الناس عنه ، قال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وقال شعيب عليه السلام:« وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » .

* هذا حث من الله لعباده ، على الجهاد فى سبيله ، وتعليم لهم ، كيف يصنعون .

وأنهم ينبغى لهم ، أن يصفوا فى الجهاد ، صفا متراصا ، متساويا ، من غير خلل يحصل فى الصفوف .

وتكون صفوفهم ،على نظام وترتيب ، به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو ، وتنشيط بعضهم بعضا .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حضر القتال ، صف أصحابه، ورتبهم فى مواقفهم ، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض .

بل تكون كل طائفة منهم ، مهتمة بمركزها ، وقائمة بوظيفتها ، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ، ويحصل الكمال .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

---

* أى [ وإذ قال موسى لقومه ] موبخا لهم على صنيعهم ، ومقرعا لهم على أذيته ، وهم يعلمون أنه رسول الله : [ لم تؤذوننى ] بالأقوال والأفعال [ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ] .

والرسول من حقه الإكرام والإعظام ، والقيام بأوامره ، والابتدار لحكمه .

وأما أذية الرسول ، الذى إحسانه إلى الخلق ، فوق كل إحسان ، بعد إحسان الله ، ففى غاية الوقاحة والجراءة ، والزيغ عن الصراط المستقيم ، الذى قد علموه وتركوه .

ولهذا قال : [ فلما زاغوا ] أى : انصرفوا عن الحق بقصدهم [ أزاغ الله قلوبهم ] عقوبة لهم على زيغهم ، الذى اختاروه لأنفسهم ، ورضوه لها ، ولم يوفقهم الله للهدى ، لأنهم لا يليق بهم الخير ، ولا يصلحون إلا للشر .

[ والله لا يهدى القوم الفاسقين ] أى الذين لم يزل الفسق وصفا لهم ، ليس لهم قصد فى الهدى .

وهذه الآية الكريمة ، تفيد أن إضلال الله لعبيده ، ليس ظلماً منه ، ولا حجة لهم عليه .

وإنما ذلك ، بسبب منهم ، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا

---

بعد ما عرفوه ، فيجازيهم بعد ذلك ، بالإضلال والزيغ ، وتقليب القلوب ، عقوبة لهم وعدلا منه بهم ، كما قال تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنو به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »

* يقول تعالى مخبراً عن عناد بنى إسرائيل المتقدمين ، الذين دعاهم عيسى بن مريم وقال لهم : [ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ] .

أي : أرسلنى الله لأدعوكم إلى الخير ، وأنهاكم عن الشر ، وأيدنى بالبراهين الظاهرة ومما يدل على صدق ، كونى [ مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ] أى : جئت بما جاء به موسى من التوراة ، والشرائع السماوية .

ولو كنت مدعياً للنبوة ، غير صادق فى دعواى ، لجئت بغير ما جاء به المرسلون .

ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة أيضاً ، أنها أخبرت بى وبشرت فجئت وبعثت مصدقا لها [ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ] وهو : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب النبي الهاشمى .

فعيسى عليه الصلاة والسلام ، كسائر الأنبياء ، يصدق بالنبي السابق ، ويبشر بالنبي اللاحق .

بخلاف الكذابين ، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة ، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق ، والأمر والنهى .

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ
يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ

---

[ فلما جاءهم ] محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى بشر به عيسى [ بالبينات ] أى : الأدلة الواضحة ، الدالة على أنه هو ، وأنه رسول الله حقاً .

[ قالوا ] معاندين للحق مكذبين له [ هذا سحر مبين ] وهذا من أعجب العجائب .

الرسول الذى قد وضحت رسالته ، وصارت أَبيَنَ من شمس النهار ، يجعل ساحراً بَيِّناً سحره .

فهل فى الخذلان ، أعظم من هذا ؟

وهل فى الإفتراء أبلغ من هذا الافتراء ، الذى نفى عنه ، ما كان معلوما من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه ؟

[ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ] بهذا أو غيره ، والحال أنه لا عذر له ، وقد انقطعت حجته ، لأنه [ يدعى إلى الإسلام ] وتبين له براهينه وبيناته .

[ والله لا يهدى القوم الظالمين ] الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة ، ولا يزجرهم بيان ولا برهان .

خصوصاً هؤلاء الظلمة ، القائمين بمقابلة الحق ليردوه ، ولينصروا الباطل -

ولهذا قال عنهم : [ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم ] أى : بما يصدر

لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْـكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

---

منهم من المقالات الفاسدة ، التي يردون بها الحق ، وهي لا حقيقة لها ، بل تزيد البصير ، معرفة بما هم عليه ، من الباطل .

[ والله متم نوره ولو كره الكافرون ] أى : قد تكفل الله بنصر دينه ، وإتمام الحق ، الذى أرسل به رسله ، وإظهار نوره فى سائر الأقطار ، ولو كره الكافرون ، وبذلوا بسبب - كراهته - كل ما قدروا عليه ، مما يتوصلون به إلى إطفاء نور الله ، فإنهم مغلوبون .

ومثلهم ، كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ، ليطفئها ، فلا على مرادهم حصلوا ، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها .

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامى ، الحسى والمعنوى فقال :

[ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ] أى : بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

بالعلم : الذى يهدى إلى الله ، وإلى دار كرامته ، ويهدى لأحسن الأعمال والأخلاق ، ويهدى إلى مصالح الدنيا والآخرة .

[ ودين الحق ] أى الدين الذى يدان به ، ويتعبد لرب العالمين الذى هو حق وصدق ، لا نقص فيه ، ولا خلل يعتريه ، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح ، وراحة الأبدان .

وتركوا نواهيه ، سلامة من الشر والفساد .

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

فما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ودين الحق ، أكبر دليل وبرهان ، على صدقه ، وهو برهان باق ، ما بقي من الدهر ، كلما ازداد العاقل تفكرا ، ازداد به فرحا وتبصرا .

[ ليظهره على الدين كله ] أى : ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان ، ويظهر أهله القائمين به ، بالسيف والسنان .

فأما نفس الدين ، فهذا الوصف ، ملازم له فى كل وقت ، فلا يمكن أن يغالبه مغالب ، أو يخاصمه مخاصم ، إلا فلجه ، وصار له الظهور والقهر .

وأما المنتسبون إليه ، فإنهم إذا قاموا به ، واستناروا بنوره ، واهتدوا بهديه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، فكذلك لا يقوم لهم أحد ، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان .

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الأنتساب إليه ، لم ينفعهم ذلك ، وصار إهمالهم له ، سبب تسليط الأعداء عليهم .

ويعرف هذا ، من استقرأ الأحوال والنظر ، فى أول المسلمين وآخرهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ

---

* هذه وصية ودلالة ، وإرشاد من أرحم الراحمين ، لعباده المؤمنين ، لأعظم تجارة ، وأجل مطلوب ، وأعلى مرغوب ، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم ، والفوز بالنعيم المقيم .

وأتى بأداة العرض ، الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل معتبر ، ويسمو إليه كل لبيب .

فكأنه قيل : : ما هذه التجارة ، التى هذا قدرها ؟ فقال : [ تؤمنون بالله ورسوله ] .

ومن المعلوم ، أن الإيمان التام ، هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح ، التى من أجلها، الجهاد فى سبيله .

فلهذا قال : [ وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ] بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم ، لمصادمة أعداء الإسلام ، والقصد : دين الله ، وإعلاء كلمته .

وتنفقون ما تيسر من أموالكم فى ذلك المطلوب،فإن ذلك، وإن كان كريها للنفوس ،شاقاً عليها فإنه [ خير لكم إن كنتم تعلمون ] فإن فيه الخير الدنيوى ، من النصر على الأعداء ، والعز المنافى للذل والرزق الواسع ، وسعة الصدر ، وانشراحه .

والخير الأخروى ، بالفوز بثواب الله ، والنجاة من عقابه ولهذا ذكر الجزاء فى الآخرة فقال :

فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

---

[ يغفر لكم ذنوبكم ] وهو شامل للصغائر والكبائر ، فإن الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله ، مكفر للذنوب ، ولو كانت كبائر .

[ ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ] أى: من تحت مساكنها وقصورها ، وغرفها ، وأشجارها ، أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات .

[ ومساكن طيبة فى جنات عدن ] أى : جمعت كل طيب ، من علو ، وارتفاع ، وحسن بناء وزخرفة .

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين ، يتراءاهم أهل الجنة ، كما يتراءى الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى ، أو الغربى .

وحتى إن بناء الجنة ، بعضه من لبن ذهب ، وبعضه من لبن فضة ، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان ، وبعض المنازل من الزمرد ، والجواهر الملونة بأحسن الألوان .

حتى إنها من صفائها ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها وفيها من الطيب والحسن ، ما لا يأتى عليه وصف الواصفين ، ولا خطر على قلب أحد من العالمين ، لا يمكن أن يدركوه ، حتى يروه ، ويتمتعوا بحسنه ، وتقر به أعينهم .

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ

فى تلك الحالة ، لولا أن الله خلق أهل الجنة ، وأنشأهم نشأة كاملة ، لا تقبل العدم ، لأوشك أن يموتوا من الفرح .

فسبحان من لا يحصى أحد من خلقه ، ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه .

وتبارك الجليل الجميل ، الذى أنشأ دار النعيم ، وجعل فيها من الجلال والجمال ، ما يبهر عقول الخلق ، ويأخذ بأفئدتهم .

وتعالى من له الحكمة التامة ، الذي من جملتها ، أنه لو رأى العباد الجنة ، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد ، ولما هنأهم العيش فى هذه الدار المنغصة ، المشوب نعيمها بألمها ، وفرحها بترحها .

وسميت جنة عدن ، لأن أهلها مقيمون فيها ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولا .

ذلك الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، هو الفوز العظيم ، الذى لا فوز مثله .

فهذا الثواب الأخروى .

وأما الثواب الدنيوى لهذه التجارة ، فذكره بقوله [ وأخرى تحبونها ] أى : يحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهى : [ نصر من الله ] لكم على الأعداء ، يحصل به العز والفرح .

[ وفتح قريب ] تتسع به دائرة الإسلام ، ويحصل به الرزق الواسع ، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ

---

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد ، إذا قام غيرهم بالجهاد ، فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه ، بل قال :

[ وبشر المؤمنين ] أى : بالثواب العاجل والآجل كل على حسب إيمانه ، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين فى سبيل الله .

كما قال النبي صل الله عليه وسلم « من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، وجبت له الجنة » .

فعجب لها أبو سعيد الخدرى ، راوي الحديث فقال : أعدها عَلَيَّ يا رسول الله ، فأعادها عليه .

ثم قال « وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » .

فقال: وما هى يارسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم.

ثم قال تعالى [ ياأيها الذين آمنو كونوا أنصار الله ] أى : بالأقوال والأفعال ، وذلك بالقيام بدين الله ، والحرص على تنفيذه على الغير ، وجهاد من عانده ونابذه ، ، بالأبدان والأموال ، ومن نصر الباطل بما يزعمه ، من العلم ، ورد الحق ، بدحض حجته ، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه .

ومن نصر دين الله ،تَعَلُّمُ كتاب الله وسنة رسوله ، والحث على ذلك والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله :

نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

---

[ كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصار الله ] أى : قال لهم منبها: من يعاوننى ، ويقوم معى فى نصر دين الله ، ويدخل مدخلى ، ويخرج مخرجى ؟ .

فابتدر الحواريون فقالوا : [ نحن أنصار الله ] فمضى عيسى عليه السلام ، على نصر دين الله ، هو ومن معه من الحواريين .

[ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ] بسبب دعوة عيسى والحواريين .

[ وكفرت طائفة ] منهم ، فلم ينقادوا لدعوتهم ، فجاهد المؤمنون الكافرين .

[ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ] أى : قويناهم ، ونصرناهم عليهم .

[ فأصبحو ظاهرين ] عليهم قاهرين لهم .

فأنتم ياأمة محمد ، كونوا أنصار الله ودعاة دينه ، ينصركم الله كما نصر من قبلكم ، ويظهركم على عدوكم .

تم تفسير سورة الصف ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

# سُورَةُ الجُمُعَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

---

أى : يسبح لله ، وينقاد لأمره ، ويتألهه ، ويعبده ، جميع ما فى السموات والأرض .

لأنه الكامل الملك ، الذى له ملك العالم العلوى والسفلى ، فالجميع ، مماليكه ، وتحت تدبيره .

[ القدوس ] المعظم ، المنزه عن كل آفة ونقص [ العزيز ] القاهر للأشياء كلها .

[ الحكيم ] في خلقه وأمره .

فهذه الأوصاف العظيمة ، تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

[ هو الذى بعث فى الأميين رسولا ] المراد بالأميين : الذين لا كتاب عندهم ، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ، ممن ليسوا من أهل الكتاب .

مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ

---

فامتن الله تعالى عليهم ، منة عظيمة ، أعظم من منته على غيرهم ، لأنهم عادمون للعلم والخير ، وكانوا من قبل ، فى ضلال مبين ، يتعبدون للأصنام والأشجار ، والأحجار ، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية ، يأكل قويهم ضعيفهم ، وقد كانوا فى غاية الجهل ، بعلوم الأنبياء .

فبعث الله فيهم رسولا منهم ، يعرفون نسبه ، وأوصافه الجميلة وصدقه.

وأنزل عليه كتابه [ يتلو عليهم آياته ] القاطعة الموجبة للإيمان واليقين.

[ ويزكيهم ] بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ، ويحثهم عليها ، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة .

[ ويعلمهم الكتاب والحكمة ] أى : علم الكتاب والسنة ، المشتمل على علوم الأولين والآخرين .

فكانوا، بعد هذا التعليم والتزكية، من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين ، وأكمل الخلق أخلاقا ، وأحسنهم هديا وسمتا .

اهتدوا بأنفسهم ، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين ، وقادة المتقين .

فلله تعالى عليهم ، ببعثة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أكمل نعمة وأجل منحة .

وقوله [ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ] أى وامتن على آخرين من غيرهم،أى:من غير الأميين ، ممن يأتى بعدهم ، ومن أهل الكتاب ، لما يلحقوا بهم ، أى : فيمن باشر دعوة الرسول .

بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ

---

ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم فى الفضل .

ويحتمل أن يكونوا ، لما يلحقوا بهم فى الزمان ، وعلى كل ، فكلا المعنيين صحيح .

فإن الذين بعث الله فيهم رسوله ، وشاهدوه ، وباشروا دعوته ، حصل لهم من الخصائص والفضائل ، ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها .

وهذا من عزته وحكمته ، حيث لم يترك عباده هملا ، ولا سدى .

بل ابتعث فيهم الرسل ، وأمرهم ونهاهم ، وذلك من فضله العظيم ، الذى يؤتيه من يشاء من عباده ، وهو أفضل من نعمته عليهم ، بعافية البدن وسعة الرزق ، وغير ذلك ، من النعم الدنيوية .

فلا أعظم من نعمة الدين التى هى مادة الفوز ، والسعادة الأبدية .

* لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة ، الذين بعث فيهم النبى الأمى ، وما خصهم الله من المزايا والمناقب ، التى لا يلحقهم فيها أحد .

وهم : الأمة الأمية ، الذين فاقوا الأولين والآخرين ، حتى أهل الكتاب ، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون ، والأحبار المتقدمون ،

ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟

---

ذكر [1] أن الذين حملهم الله التوراة من اليهـود والنصارى ، وأمرهم أن يتعلموها ، ويعملوا بها فلم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به أنهم لا فضيلة لهم.

وأن مثلهم كمثل الحمار الذى يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم .

فهل يستفيد الحمار من تلك الـكتب التى فوق ظهره ؟ وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك ؟ أم حظه منها حملها فقط ؟ .

فهذا مثل علماء أهل الـكتاب ، الذين لم يعملوا بما فى التوراة ، الذى من أجله وأعظمه ، الأمر باتباع محمد صلى الله عليـه وسلم ، والبشارة به ، والإيمان بما جاء به من القرآن .

فهـل استفاد من هذا وصفه ، من التوراة ، إلا الخيبة والخسران ، وإقامة الحجة عليه ؟

فهذا المثل ، مطابق لأحوالهم .

[ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ] الدالة على صدق رسولنا وصحة ما جاء به .

[ والله لا يهدى القوم الظالمين ] أى لا يرشدهم إلى مصالحهم ، ما دام الظلم لهم وصفا ، والعناد لهم نعتا .

ومن ظلم اليهود وعنادهم ، أنهم يعلمون ، أنهم على باطل ، ويزعمون أنهم على حق ، وأنهم أولياء الله من دون الناس .

---

( ١ ) قوله « ذكر » جواب « لما » فى قوله المتقدم « لما ذكر » .

إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

---

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يقول لهم : إن كنتم صادقين فى زعمكم ، أنكم على الحق ، وأولياء الله : [ فتمنوا الموت ] وهذا أمر خفيف .

فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدى الذى جعله الله دليلا على صدقهم إن تمنوه ، وكذبهم إن لم يتمنوه .

ولما لم يقع منهم ، مع الإعلان لهم بذلك ، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده .

ولهذا قال : [ ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم ] أى من الذنوب والمعاصى ، التى يستوحشون من الموت ، من أجلها .

[ والله عليم بالظالمين ] فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شىء .

هذا ، وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم ، بل يفرون منه غاية الفرار ، فإن ذلك ، لا ينجيهم ، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذى قد حتمه الله على العباد .

ثم بعد الموت واستكمال الآجال ، يرد الخلق كلهم يوم القيامة ، إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر ، قليل وكثير .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها من حين ينادي لها والسعى إليها .

والمراد بالسعى هنا : المبادرة والاهتمام ، وجعلها أهم الأشغال : لا العدو الذى قد نهى عنه عند المضى إلى الصلاة .

وقوله [ وذروا البيع ] أى : اتركوا البيع ، إذا نودى للصلاة ، وامضوا إليها .

فإن [ ذلكم خير لكم ] من اشتغالكم بالبيع ، أو تفويتكم لصلاة الفريضة ، التى هى من آلذ الفروض .

[ إن كنتم تعلمون ] أى : ما عند الله خير وأبقى ، وأن من آثر الدنيا على الدين ، فقد خسر الخسارة الحقيقية ، من حيث يظن أنه يربح .

وهذا الأمر بترك البيع ، موقت مدة الصلاة .

[فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض] لطلب المكاسب والتجارات

ولما كان الاشتغال بالتجارة ، مظنة الغفلة عن ذكر الله ، أمر الله بالإكثار من ذكره ، لينجبر بهذا فقال :

وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ

---

[واذكروا الله كثيرا] أى فى حال قيامكم ، وقعودكم ، وعلى جنوبكم .

[لعلكم تفلحون] فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح .

[وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها] أى : خرجوا من المسجد ، حرصا على ذلك اللهو ، وتلك التجارة ، وتركوا الخير [وتركوك قائما] تخطب الناس .

وذلك فى يوم الجمعة ، بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الناس ، إذ قدم المدينة ، عير تحمل تجارة .

فلما سمع الناس بها ، وهم فى المسجد ، انفضوا من المسجد ، وتركوا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب ، استعجالا لما لا ينبغى أن يستعجل له ، وترك أدب .

[قل ما عند الله] من الأجر والثواب ، لمن لازم الخير ، وصبر نفسه على عبادة الله .

[خير من اللهو ومن التجارة] التى ، وإن حصل منها بعض المقاصد ، فإن ذلك قليل منقض ، مفوت لخير الآخرة ، وليس الصبر على طاعة الله ، مفوتا للرزق .

ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

[ والله خير الرازقين ] فمن اتقى الله ، رزقه من حيث لا يحتسب .

وفى هذه الآيات فوائد عديدة :

منها : أن الجمعة فريضة على المؤمنين ، يجب عليهم السعى إليها ،والمبادرة والاهتمام بشأنها .

ومنها : أن الخطبتين يوم الجمعة ، فريضة ، يجب حضورهما ، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين ، فأمر الله بالمضى إليه والسعى له .

ومنها : مشروعية النداء للجمعة ، والأمر به .

ومنها : النهى عن البيع والشراء ، بعد نداء الجمعة ، وتحريم ذلك ، وما ذاك إلا أن يفوت الواجب ، ويشغل عنه .

فدل ذلك ، على أن كل أمر ، وإن كان مباحا فى الأصل ، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب ، فإنه لا يجوز فى تلك الحال .

ومنها : الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة ، وذم من لم يحضرهما ، ومن لازم ذلك ، الإنصات لهما .

ومنها : أنه ينبغى للعبد المقبل على عبادة الله ، وقت دواعى النفس لحضور اللهو والتجارات ، والشهوات ، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه .

تم تفسير سورة الجمعة ، بمن الله وعونه ـ والحمد لله رب العالمين

# تفسير

## سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾

---

* لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكثر الإسلام فيها وعز ، صار أناس من أهلها ، من الأوس والخزرج ، يظهرون الإيمان ، ويبطنون الكفر ، ليبقى جاههم ، وتحقن دماؤهم ، وتسلم أموالهم .

فذكر الله من أوصافهم ، مابه يعرفون ، لكي يحذرهم العباد ، ويكونوا منهم على بصيرة فقال :

[ إذا جاءك المنافقون قالوا ] على وجه الكذب [ نشهد إنك لرسول الله ] وهذه الشهادة من المنافقين ، على وجه الكذب والنفاق ، مع أنه لا حاجة لشهادتهم ، فى تأييد رسوله .

[ والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ] فى قولهم ودعواهم ، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم .

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ

---

[ اتخذوا أيمانهم جنة ] أى : ترسا يتترسون بها ، من نسبتهم إلى النفاق .

[ فصدوا عن سبيل الله ] بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، ممن يخفى عليه حالهم .

[ إنهم ساء ما كانوا يعملون ] حيث أظهروا الإيمان ، وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك ، وأوهموا صدقهم .

[ ذلك ] الذى زين لهم النفاق [ بـ ] سبب [ أنهم ] لا يثبتون على الإيمان .

بل [ آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ] بحيث لا يدخلها الخير أبداً .

[ فهم لا يفقهون ] ما ينفعهم ، ولا يعون ما يعود بمصالحهم .

[ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ] من روائها ، ونضارتها .

[ وإن يقولوا تسمع لقولهم ] أى : من حسن منطقهم ، تستلذ لاستماعه.

فأجسامهم وأقوالهم معجبة ، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والهدى الصالح ، شىء ، ولهذا قال :

[ كأنهم خشب مسندة ] لا منفعة فيها ، ولا ينال منها إلا الضرر المحض .

ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ
وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

---

[ يحسبون كل صيحة عليهم ] وذلك لجبنهم وفزعهم ، وضعف قلوبهم وريبها ، يخافون أن يطلع عليها .

فهؤلاء [ هم العدو ] على الحقيقة ، لأن العدو البارز المتميز ، أهون من العدو ، الذى لا يشعر به ، وهو مخادع ماكر ، يزعم أنه وَلِيٌّ ، وهو العدو المبين .

[ فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ] أى : كيف يصرفون عن الدين الإسلامى بعد ما تبينت أدلته ، واتضحت معالمه ، إلى الكفر الذى لا يفيدهم ، إلا الخسار والشقاء .

[ وإذا قيل لهم ] أى: لهؤلاء المنافقين [ تعالوا يستغفر لكم رسول الله ] عما صدر منكم ، لتحسن أحوالكم ، وتقبل أعمالكم ، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع .

[ لووا رءوسهم ] امتناعا من طلب الدعاء من الرسول .

[ ورأيتهم يصدون ] عن الحق، بغضا له [ وهم مستكبرون ] عن اتباعه بغيا وعنادا .

فهذه حالهم ، عندما يدعون إلي طلب الدعاء من الرسول ، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله ، حيث لم يأتوا إليه ، فيستغفر لهم .

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

فإنه [ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ] وذلك لأنهم قوم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ، مؤثرون للكفر على الإيمان ، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول ، لو استغفر لهم كما قال تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » . [ إن الله لا يهدى القوم الفاسقين[1] ] .

* وهذا من شدة عداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، لما رأوا اجتماع أصحابه ، وائتلافهم ، ومسارعتهم فى مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قالوا بزعمهم الفاسد :

[ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ] فإنهم — على زعمهم — لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم ، لما اجتمعوا فى نصرة دين الله .

وهذا من أعجب العجب ، أن يدعى هؤلاء المنافقون ، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين ، وأذية المسلمين ، مثل هذه الدعوى ، التى لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق .

---

( ١ ) الفاسقين . أى : الكاملين فى الفسق ، الخارجين عن دائرة الاستصلاح ، المنهمكين فى الكفر والنفاق . اهـ أبو السعود .

لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

---

ولهذا قال تعالى ، ردا لقولهم : [ ولله خزائن السموات والأرض ] فيؤتى الرزق من يشاء ، ويمنعه من يشاء ، وييسر الأسباب لمن يشاء ، ويعسرها على من يشاء .

[ ولـكن المنافقين لا يفقهون ] فلذلك قالوا تلك المقالة ، التى مضمونها أن خزائن الرزق فى أيديهم ، وتحت مشيئتهم .

[ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ] وذلك فى غزوة المريسيع ، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار ، بعض كلام ، كدر الخواطر ، ظهر حينئذ نفاق المنافقين ، وتبين ما فى قلوبهم .

وقال كبيرهم ، عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول : ما مثلنا ، ومثل هؤلاء — يعنى المهاجرين — إلا كما قال القائل « سَمِّنْ كلبك يأكلك » .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينة [ ليخرجن الأعز منها الأذل ] بزعمه أنه ، هو وإخوانه المنافقين ، الأعزون ، وأن رسول الله ، ومن اتبعه هم ، الأذلون ، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق .

فلهذا قال تعالى : [ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ] فهم الأعزاء ، والمنافقون وإخوانهم من الـكفار ، هم الأذلاء .

[ ولـكن المنافقين لا يعلمون ] ذلك ، فلذلك زعموا أنهم الأعزاء ، اغترارا بما هم عليه من الباطل .

ثم قال تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا ] إلى [ بما تعملون ]

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بالإكثار من ذكره ، فإن فى ذلك ، الربح والفلاح ، والخيرات الكثيرة .

وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره ، فإن محبة المال والأولاد ، مجبولة عليها أكثر النفوس ، فتقدمها على محبة الله ، وفى ذلك ، الخسارة العظيمة ، ولهذا قال تعالى :

[ ومن يفعل ذلك ] أى يلهه ماله وولده ، عن ذكر الله [ فأولئك هم الخاسرون ] للسعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى .

قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » .

وقوله : [ وأنفقوا مما رزقناكم ] يدخل فى هذا ، النفقات الواجبة ، من الزكاة ، والكفارات ، ونفقة الزوجات ، والمماليك ، ونحو ذلك ، والنفقات المستحبة ، كبذل المال فى جميع المصالح .

وقال : [ مما رزقناكم ] ليدل ذلك على أنه تعالى ، لم يكلف العباد من النفقة ، ما يعنتهم ويشق عليهم ، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ،ويسره، ويسر أسبابه .

فليشكروا الذى أعطاهم ، بمواساة إخوانهم المحتاجين ، وليبادروا

ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

---

بذلك ، الموت الذى إذا جاء ، لم يمكن العبد أن يأتى بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال :

[ من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول ] متحسراً على ما فرّط فى وقت الإمكان ، سائلا الرجعة التى هى محال : [ رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب] أى : لأتدارك ما فرّطتُ فيه .

[ فأصدق ] من مالى ، مابه أنجو من العذاب ، وأستحق جزيل الثواب .

[ وأكن من الصالحين ] بأداء المأمورات كلها ، واجتناب المنهيات ، ويدخل فى هذا ، الحج وغيره .

وهذا السؤال والتمنى ، قد فات وقته ، ولا يمكن تداركه ، ولهذا قال: [ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ] المحتوم لها [ والله خبير بما تعملون ] من خير وشر ، فيجازيكم على ما علمه ، من النيات والأعمال .

تم تفسير سورة المنافقين — ولله الحمد

# تفسير

# سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ

---

* هذه الآيات الكريمات ، مشتملات على جملة كثيرة واسعة ، من أوصاف البارى العظيمة .

فذكر كمال ألوهيته سبحانه ، وسعة غناه ، وافتقار جميع الخلائق إليه ، وتسبيح من فى السموات والأرض بحمد ربها ، وأن الملك كله لله ، فلايخرج عن ملكه مخلوق .

والحمد كله له ، حمد ، على ماله من صفات الكمال ، وحمد ، على ما أوجده من الأشياء .

وحمد ، على ما شرعه من الأحكام ، وأسداه من النعم .

وقدرته شاملة ، لا يخرج عنها موجود ، فلا يعجزه شىء يريده .

فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ

---

وذكر أنه خلق العباد ، وجعل منهم المؤمن والكافر .

فإيمانهم وكفرهم كله ، بقضاء الله وقدره ، وهو الذى شاء ذلك منهم ، بأن جعل لهم قدرة وإرادة ، بها يتمكنون من كل ما يريدون ، من الأمر والنهى ، [ والله بما تعملون بصير(1) ] .

فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهى ، ذكر خلق باقى المخلوقات فقال :

[ خلق السموات والأرض ] أى : أجرامهما ، وجميع ما فيهما ، فأحسن خلقهما .

[ بالحق ] أى : بالحكمة ، والغاية المقصودة له تعالى .

[ وصوركم فأحسن صوركم ] كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

فالإنسان ، أحسن المخلوقات صورة . وأبهاها منظرا .

[ وإليه المصير ] أى : المرجع يوم القيامة ، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم ، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذى أولاكم ، هل قمتم بشكره ، أم لم تقوموا به ؟

---

( ١ ) فيجازيكم بذلك ، فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان . اهـ . أبو السعود .

ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟
وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ

---

ثم ذكر عموم علمه فقال :

[ يعلم ما فى السموات والأرض ] أى : من السرائر والظواهر ، والغيب والشهادة .

[ ويعلم ما تسرون وما تعلنون[1] * والله عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها من الأسرار الطيبة ، والخبايا الخبيثة ، والنيات الصالحة ، والمقاصد الفاسدة .

فإذا كان عليما بذات الصدور ، تعين على العاقل البصير ، أن يحرص ويجتهد ، فى حفظ باطنه ، من الأخلاق الرذيلة ، واتصافه بالأخلاق الجميلة .

* لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ، ما به يعرف ويعبد ، ويبذل الجهد فى مرضاته ، وتجتنب مساخطه ، أخبر بما فعل بالأمم السابقين ، والقرون الماضين ، الذين لم تزل أنباؤهم ، يتحدث بها المتأخرون ، ويخبر بها الصادقون ، وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق ، كذبوهم وعاندوهم .

[ فذاقوا وبال أمرهم ] فى الدنيا ، وأخزاهم الله فيها [ ولهم عذاب أليم ] فى الدار الآخرة ، ولهذا ذكر السبب فى هذه العقوبة فقال :

[ ذلك ] النكال والوبال ، الذى أحللناه بهم [ بأنه كانت تأتيهم

---

(١) أى : ما تسرونه فيما بينكم ، وما تظهرونه من الأمور .

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

---

رسلهم بالبينات ] أى : بالآيات الواضحات ، الدالة على الحق والباطل ، فاشمأزوا ، واستكبروا على رسلهم فقالوا :

[ أبشر يهدوننا ] أى : ليس لهم فضل علينا ، ولأى شىء خصهم الله دوننا .

كما قال فى الآية الأخرى : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه ، أن يكونوا رسلا للخلق ، واستكبروا عن الانقياد لهم .

فابتلوا بعبادة الأشجار ، والأحجار ونحوها [ فكفروا ] بالله [ وتولوا ] عن طاعته .

[ واستغنى الله ] عنهم ، فلا يبالى بهم ، ولا يضره ضلالهم شيئاً .

[ والله غنى حميد ] أى : هو الغنى ، الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه .

الحميد ، فى أقواله وأفعاله وأوصافه .

* يخبر تعالى عن عناد الكافرين ، وزعمهم الباطل ، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فأمر أشرف خلقه ، أن يقسم بربه على بعثهم ، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة ، وتكذيبهم بالحق .

لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾

---

[ وذلك على الله يسير ] فإنه ، وإن كان عسيراً بل متعذراً ، بالنسبة إلى الخلق ، فإن قواهم كلهم ، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد ، ماقدروا على ذلك .

وأما الله تعالى ، فإنه إذا أراد شيئاً ، قال له كن فيكون .

قال تعالى . « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

* لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث ، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته ، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء ، وهو الإيمان به ، وبرسوله ، وبكتابه .

وسماه الله نوراً ، لأن النور ضد الظلمة ، فما فى الكتاب الذى أنزله الله ، من الأحكام ، والشرائع ، والأخبار ، أنوار يهتدى بها فى ظلمات الجهل المدلهمة ، ويمشى بها فى حندس الليل البهيم .

وما سوى الأهتداء بكتاب الله ، فهى علوم ، ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها .

بل لا خير فيها ولا نفع ، إلا ما وافق ماجاءت به الرسل .

والإيمان بالله ورسوله وكتابه ، يقتضى الجزم التام ، واليقين الصادق بها ،والعمل بمقتضى ذلك التصديق،من امتثال الأوامر ،واجتناب النواهى

[ والله بما تعملون خبير ] فيجازيكم بأعمالكم ، الصالحة والسيئة .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن

* يعنى : اذكروا يوم الجمع الذى يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفا هائلا عظيما، وينبئهم بما عملوا .

فحينئذ، يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق ، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين ، فى الغرف العاليات ، والمنازل المرتفعات ، المشتملة على جميع اللذات والشهوات .

ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين ، محل الهم والغم ، والحزن والعذاب الشديد .

وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم ، وأسلفوه أيام حياتهم ، ولهذا قال : [ ذلك يوم التغابن (١) ]

---

( ١ ) أصل الغبن فى اللغة المخادعة فى البيع والشراء ، واستعير هنا ، بمعنى أن يغبن الناس بعضهم بعضاً ، بنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفى الحديث « ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » وتخصيص التغابن بذلك اليوم ، للإيذان والإعلام ، بأن التغابن — فى الحقيقة — هو الذى يقع فيه ( أي : يوم القيامة ) لا ما يقع فى أمور الدنيا . اهـ . أبو السعود ، والنسفى بتصرف يسير .

يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ

---

اى : يظهر فيه التغابن ، والتفاوت بين الخلائق .

ويغبن المؤمنون الفاسقين ، ويعرف المجرمون . أنهم على غير شيء ، وأنهم هم الخاسرون .

فكأنه قيل : بأى شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب ؟

فذكر أسباب ذلك بقوله : [ ومن يؤمن بالله ] إيماناً تاماً ، شاملا لجميع ما أمر الله بالإيمان به .

[ ويعمل صالحا ] من الفرائض والنوافل ، من أداء حقوق الله وحقوق عباده .

[ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ] فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وتختاره الأرواح ، وتحن إليه القلوب ، ويكون نهاية كل مرغوب .

[ خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم [(١)]. ]

[ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ] أى : كفروا بها ، من غير مستند شرعى ولا عقلى .

بل جاءتهم الأدلة والبينات ، فكذبوا بها وعاندوا ، ما دلت عليه .

---

( ١ ) أى : الذى لافوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الملكات والظفر بأجل الطلبات . اﻫ . أبو السعود .

فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ

---

[ أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير[1] ] لأنها جمعت كل بؤس وشدة ، وشقاء وعذاب .

* يقول تعالى : [ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله [2] ] هذا عام لجميع المصائب ، فى النفس ، والمال ، والولد ، والأحباب ، ونحوهم .

فجميع ما أصاب العباد ، بقضاء الله وقدره ، قد سبق بذلك ، علم الله ، وجرى به قلمه ، ونفذت مشيئته ، واقتضته حكمته .

ولكن الشأن كل الشأن ، هل يقوم العبد بالوظيفة ، التى عليه فى هذا المقام ، أم لا يقوم بها ؟

فإن قام بها ، فله الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، فى الدنيا والآخرة .

فإذا آمن أنها من عند الله ، فرضى بذلك ، وسلم لأمره ، هدى الله قلبه ، فاطمأن ، ولم ينزعج عند المصائب ، كما يجرى ممن لم يهد الله قلبه ، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ، ثواب

---

( ١ ) أى : النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان لكيفية التغابن . اهـ . أبو السعود .

( ٢ ) أى : إلا بعلمه وتقديره ومشيئته ، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه . اهـ . نسفى .

يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟

---

عاجل، مع مايدخر له يوم ، الجزاء من الأجر العظيم ، كما قال تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »

وعلم من ذلك ، أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب ، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره ، بل وقف مع مجرد الأسباب ، أنه يخذل ، ويكله الله إلى نفسه .

وإذا وكل العبد إلى نفسه ، فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع ، الذى هو عقوبة عاجلة على العبد ، قبل عقوبة الآخرة ، على مافرط فى واجب الصبر .

هذا مايتعلق بقوله [ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ] فى مقام المصائب الخاص

وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظى ، فإن الله أخبر أن كل من آمن ، أى: الإيمان المأمور به ، وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره .

وصدق إيمانه ، بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته ، أن هذا السبب الذى قام به العبد ، أكبر سبب لهداية الله له ، فى أقواله ، وأفعاله ، وجميع أحواله وفى علمه وعمله .

وهذا أفضل جزاء ، يعطيه الله لأهل الإيمان ، كما قال تعالى ـ مخبراً أنه يثبت المؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وأصل الثبات : ثبات القلب وصبره ، ويقينه عند ورود كل فتنة ، فقال :

ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

---

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

فأهل الإيمان ، أهدى الناس قلوباً ، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات وذلك ، لما معهم من الإيمان .

وقوله : [ وأطيعوا الله وأطيعو الرسول ] أى : فى امتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

فإن طاعة الله وطاعة رسوله ، مدار السعادة ، وعنوان الفلاح .

[ فإن توليتم ] أى : عن طاعة الله وطاعة رسوله [ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ] أى : يبلغكم ما أرسل به إليكم ، بلاغا بينا واضحاً ، فتقوم عليكم به الحجة ، وليس بيده من هدايتكم ، ولا من حسابكم شىء .

وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، أو عدم ذلك ، عالم الغيب والشهادة .

[ الله الذى لا إله إلا هو ] أى : هو المستحق للعبادة والألوهية ، فكل معبود سواه ، فباطل .

[ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ] أى فليعتمدوا عليه فى كل أمر نابهم ، وفيما يريدون القيام به .

فإنه لا يتيسر أمر من الأمور ، إلا بالله .

۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ

---

ولا سبيل إلى ذلك ، إلا بالاعتماد على الله .

ولا يتم الاعتماد على الله ، حتى يحسن العبد ظنه بربه ، ويثق به فى كفايته الأمر ، الذى يعتمد عليه به .

وبحسب إيمان العبد ، يكون توكله ، قوة وضعفا .

* هذا تحذير من الله للمؤمنين ، عن الاغترار بالأزواج والأولاد فإن بعضهم عدو لكم ، والعدو ، هو الذى يريد لك الشر .

فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته ، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد .

فنصح تعالى عباده ، أن توجب لهم هذه المحبة، الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد ، التى فيها محذور شرعى ، ورغبهم فى امتثال أوامره ، وتقديم مرضاته بما عنده ، من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية ، والمحاب الغالية ، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية .

ولما كان النهى عن طاعة الأزواج والأولاد ، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك ، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم - أمر تعالى بالحذر منهم ، والصفح عنهم والعفو ، فإن فى ذلك ، من المصالح ، ما لا يمكن حصره ، فقال :

[ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ] لأن الجزاء من جنس العمل .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟

---

فمن عفا ، عفا الله عنه ، ومن صفح ، صفح عنه ، ومن عامل الله فيما يحب ، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم ، نال محبة الله ، ومحبة عباده ، واستوثق له أمره .

* يأمر تعالى بتقواه ، التي هي امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وقيد ذلك ، بالاستطاعه والقدرة .

فهذه الآية ، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد ، يسقط عنه ، وأنه إذا قدر على بعض الأمور ، وعجز عن بعضه، فإنه يأتى بما قدر عليه، ويسقط عنه مايعجز عنه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ، ما لا يدخل تحت الحصر .

وقوله [ واسمعوا ] أى : اسمعوا ما يعظكم الله به ، وما يشرعه لكم ، من الأحكام ، واعلموا ذلك ، وانقادوا له [ وأطيعوا ] الله ورسوله ، فى جميع أموركم .

[ وأنفقوا ] من النفقات الواجبة والمستحبة ، يكن ذلك الفعل منكم

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١٦)

[ خيراً لأنفسكم ] فى الدنيا والآخرة ، فإن الخير كله ، فى امتثال أوامر الله، وقبول نصائحه ، والانقياد لشرعه ، والشر كله ، فى مخالفة ذلك .

ولـكن ثَمَّ آفة تمنع كثيراً من الناس ، من النفقة المأمور بها ، وهو الشح ، المجبولة عليه أكثر النفوس ، فإنها تشح بالمال ، وتحب وجوده ، وتـكره خروجه من اليد غاية الـكراهة .

[ ومن يوق شح نفسه ] بأن تسمح بالإنفاق النافع لها [ فأولئك هم المفلحون ] لأنهم أدركوا المطلوب ، ونجوا من المرهوب .

بل لعل ذلك ، شامل لـكل ما أمر به العبد ، ونهى عنه .

فإنه إن كانت نفسه شحيحة. لاتنقاد لما أمرت به، ولاتخرج ما قِبَلها، « من النفقات المأمورة بها » لم يفلح ، بل خسر الدنيا والآخرة.

وإن كانت نفسه نفساً سمحة ، مطمئنة ، منشرحة لشرع الله ، طالبة لمرضاته ، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به ، ووصول معرفته إليها ، والبصيرة بأنه مُرْضٍ لله .

وبذلك تفلح ، وتنجح ، وتفوز كل الفوز .

ثم رغب تعالى فى النفقة فقال : [ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً ] وهو : كل نفقة كانت من الحلال ، وإذا قصد بها العبد وجه الله تعالى ، - ووضعها فى موضعها [ يضاعفه لـكم ] النفقة ، بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة.

إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

---

[ و ] مع المضافة أيضاً [ يغفر لكم ] بسبب الإنفاق والصدقة ، ذنوبكم فإن الذنوب تكفرها الصدقات والحسنات « إن الحسنات يذهبن السيئات .

[ والله شكور حليم ] لا يعاجل من عصاه ، بل يمهله ولا يهمله .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

[ والله ] تعالى [ شكور ] يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر .

ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال ، وأنواع التكاليف الثقال ، ومن ترك شيئاً ، عوضه الله خيراً منه .

[ عالم الغيب والشهادة ] أي ما غاب عن العباد ، من الجنود التى لا يعلمها إلا هو ، وما يشاهدنه من المخلوقات .

[ العزيز ] الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، الذى قهر جميع الأشياء .

[ الحكيم ] فى خلقه وأمره ، الذى يضع الأشياء مواضعها .

تم تفسير سورة التغابن ــ ولله الحمد

تفســـير

## سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ
وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ

---

* يقول تعالى - مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين - :

[ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ] أي : أردتم طلاقهن [ ف ] التمسوا لطلاقهن ، الأمر المشروع ، ولا تبادروا بالطلاق ، من حين يوجد سببه ، من غير مراعاة لأمر الله .

بل [ طلقوهن لعدتهن ] أي: لأحل عدتهن ، بأن يطلقها زوجها ، وهي طاهر ، في طهر لم يجامعها فيه ، فهذا الطلاق ، هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة .

بخلاف ما لو طلقها وهي حائض فإنها لا تحتسب تلك الحيضة ، التي وقع فيها الطلاق ، وتطول عليها العدة بسبب ذلك .

وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن

---

وكذلك لو طلقها فى طهر وطىء فيه ، فإنه لا يؤمن حملها ، فلا يتبين ، ولا يتضح بأى عدة تعتد .

[ وأحصوا العدة ] وإحصاء العدة ، ضبطها إن كانت تحيض ، أو بالأشهر ، إن لم تكن تحيض ، وايست حاملا .

فإن فى إحصائها ، أداء لحق الله ، وحق الزوج المطلق ، وحق من سيتزوجها بَعْدُ ، وحقها فى النفقة ونحوها .

فإذا ضبطت عدتها ، علمت حالها على بصيرة ، وعلم ما يترتب عليها ، من الحقوق ، وما لها منها .

وهذا الأمر بإحصاء العدة ، يتوجه للزوج ، وللمرأة ، إن كانت مكلفة ، وإلا فَلِوَلِيِّهَا .

وقوله : [ واتقوا الله ربكم ] أى : فى جميع أموركم ، وخافوه فى حق الزوجات المطلقات .

[ لا تخرجوهن من بيوتهن ] مدة العدة ، بل تلزم بيتها ، الذى طلقها زوجها وهى فيه .

[ ولا يخرجن ] أى : لا يجوز لهن الخروج منها .

أما النهى عن إخراجها ، فلأن المسكن ، يجب على الزوج للزوجة ، لتكمل فيه عدتها التى هى حق من حقوقه .

وأما النهى عن خروجها ، فلما فى خروجها ، من إضاعة حق الزوج ، وعدم صونه .

يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ

---

ويستمر هذا النهى عن الخروج من البيوت ، والإخراج ، إلى تمام العدة.

[ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ] أى : بأمر قبيح واضح ، موجب لإخراجها ، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر ، من عدم إخراجها ، كالأذى بالأقوال ، والأفعال الفاحشة .

فنى هذه الحال يجوز لهم إخراجها،لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها .

والإسكان فيه جبر لخاطرها ، ورفق بها ، فهى التى أدخلت الضرر عليها ، وهذا فى المعتدة الرجعية .

وأما البائن ، فليس لها سكنى واجبة ، لأن السكن تبع للنفقة ، والنفقة تجب للرجعية ، دون البائن .

[ وتلك حدود الله ] أي : التى حدها لعباده وشرعها لهم ، وأمرهم بلزومها ، والوقوف معها .

[ ومن يتعد حدود الله ] بأن لم يقف معها ، بل تجاوزها ، أوقصر عنها.

[ فقد ظلم نفسه ] أى بخسها حقها ، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التى هى الصلاح فى الدنيا والآخرة .

[ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ] أى : شرع الله العدة ، وحدد الطلاق بها ، لحكم عظيمة :

فنها : أنه لعل الله يحدث فى قلب المطلق ، الرحمة والمودة ، فيراجع من طلقها ، ويستأنف عشرتها ، فيتمكن من ذلك « من معرفة » مدة العدة .

ولعله يطلقها ، لسبب منها ، فيزول ذلك السبب ، فى مدة العدة ، فيراجعها ، لانتفاء سبب الطلاق .

أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ

---

ومن الحكم : أنها مدة التربص ، يعلم براءة رحمها ، من زوجها .

وقوله : [ فإذا بلغن أجلهن ] أى قاربن انقضاء العدة ، لأنهن لو خرجن من العدة ، لم يكن الزوج مخيرا بين الإمساك والفراق .

[ فأمسكوهن بمعروف ] أي : على وجه المعاشرة الحسنة ، والصحبة الجميلة ، لا على وجه الضرر ، وإرادة الشر والحبس ، فإن إمساكها على هذا الوجه ، لا يجوز .

[ أو فارقوهن بمعروف ] أى : فراقا لا محذور فيه ، من غير تشاتم ولا تخاصم ، ولا قهر لها ، على أخذ شيء من مالها .

[ وأشهدوا ] على طلاقها ورجعتها [ ذوى عدل منكم ] أى : رجلين مسلمين عدلين ، لأن فى الإشهاد المذكور ، سداً لباب المخاصمة ، وكتمان كل منهما ، ما يلزم بيانه ،

[ وأقيموا ] أيها الشهداء [ الشهادة لله ] أى ائتوا بها على وجهها ، من غير زيادة ولا نقص .

واقصدوا باقامتها وجه الله تعالى ، ولا تراعوا بها قريبا لقرابته ، ولا صاحبا لمحبته .

[ ذلكم ] الذى ذكرنا لكم من الأحكام والحدود [ يوعظ به من كان

يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّل

يؤمن بالله واليوم الآخر ] فإن الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله ، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ، مايتمكن منها.

بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه ، فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من الشر ، ولا يعظم مواعظ الله ، لعدم الموجب لذلك .

ولما كان الطلاق ، قد يوقع فى الضيق والكرب والغم ، أمر تعالى بتقواه ووعد من اتقاه فى الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجا ومخرجا .

فإذا أراد العبد الطلاق ، ففعله على الوجه الشرعى ، بأن أوقعه طلقة واحدة ، فى غير حيض ولا طهر أصابها فيه ، فإنه لا يضيق عليه الأمر ، بل جعل الله له فرجا وسعة ، يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح ، إذا ندم على الطلاق .

والآية ، وإن كانت فى سياق الطلاق والرجعة ، فإن العبرة بعموم اللفظ .

فكل من اتقى الله ، ولازم مرضاته فى جميع أحواله ، فإن الله يثيبه فى الدنيا والآخرة .

ومن جملة ثوابه ، أن يجعل له فرجا ومخرجا ، من كل شدة ومشقة .

وكما أن من اتقى الله ، جعل له فرجا ومخرجا ، فمن لم يتق الله ، يقع فى الآصار والأغلال ، التى لا يقدرون على التخلص منها ، والخروج من تبعتها .

واعتبر ذلك في الطلاق ، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه ، بل أوقعه على

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

---

الوجه المحرم ، كالثلاث ونحوها ، فإنه لا بد أن يندم ندامة ، لا يتمكن من استدراكها ، والخروج منها

وقوله [ ويرزقه من حيث لا يحتسب ] أى : يسوق الله الرزق للمتقى ، من وجه لا يحتسبه ، ولا يشعر به .

[ ومن يتوكل على الله ] فى أمر دينه ودنياه ، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ويثق به فى تسهيل ذلك [ فهو حسبه ] أى : كافيه الأمر الذى توكل عليه فيه .

وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى ، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شىء .

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية ، اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له فلهذا قال تعالى :

[ إن الله بالغ أمره ] أى : لابد من نفوذ قضائه وقدره .

ولكنه [ قد جعل لكل شىء قدرا ] أى : وقتا ومقدارا ،لا يتعداه، ولا يقصر عنه .

﴿ وَٱللَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾

* لما ذكر تعالى ، أن الطلاق المأمور به ، يكون لعدة النساء ، ذكر العدة فقال .

[ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم ] بأن كن يحضن ، ثم ارتفع حيضهن ، لكبر أو غيره، ولم يُرْجَ رجوعه [ فعدتهن ثلاثة أشهر] جعل كل شهر ، مقابلة حيضة .

[ واللائى لم يحضن ] أى : الصغار ، اللائى لم يأتهن الحيض بَعْدُ ، أو البالغات ، اللاتى لم يأتهن حيض بالكلية ، فإنهن كالآيسات ، عدتهن ثلاثة أشهر .

وأما اللائى يحضن ، فذكر الله عدتهن فى قوله :

[ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ] .

وقوله [ وأولات الأحمال أجلهن ] أى : عدتهن [ أن يضعن حملهن] أى : جميع ما فى بطونهن ، من واحد ، ومتعدد ، ولا عبرة حينئذ ، بالأشهر ولا غيرها .

[ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ] أى : من اتقى ، يسّر له الأمور ، وسهّل عليه كل عسير .

ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟

---

[ ذلك ] أى الحكم الذي بينه الله لكم [ أمر الله أنزله إليكم ] لتمشوا عليه ، وتأتموا به ، وتعظموه .

[ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ] أى : يندفع عنه المحذور ، ويحصل له المطلوب .

* تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات من البيوت وهنا أمر بإسكانهن وقدر إسكانهن بالمعروف ، وهو البيت الذى يسكنه مثله ومثلها ، بحسب وُجْدِ الزوج وعسره

[ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ] أى : لا تضاروهن ، عند سكناهن بالقول أو الفعل ، لأجل أن يمللن ، فيخرجن من البيوت ، قبل تمام العدة ، فتكونوا ، أنتم المخرجين لهن .

وحاصل هذا ، أنه نهى عن إخراجهن ، ونهاهن عن الخروج ، وأمر بسكناهن ، على وجه لا يحصل به عليهن ، ضرر ولا مشقة ، وذلك راجع إلى العرف .

[ وإن كن ] أى : المطلقات [ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ] وذلك لأجل الحمل الذى فى بطنها ، إن كانت بائنا .

عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

---

ولها ولحملها ، إن كانت رجعية ومنتهى النفقة ، إلى وضع الحمل .

فإذا وضعن حملهن ، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا .

[ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ] المسماة لهن ، إن كان مسمى ، وإلا فأجر المثل .

[ وائتمروا بينكم بمعروف ] أى : وليأمر كل واحد من الزوجين وغيرهما ، الآخر بالمعروف ، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة فى الدنيا والآخرة.

فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف ، يحصل فيها من الضرر والشر ، ما لا يعلمه إلا الله .

وفى الائتمار به ، تعاون على البر والتقوى .

ومما يناسب هذا المقام ، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة ، خصوصا إذا ولد بينهما ولد، فى الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق ، الذى لا يحصل فى الغالب ، إلا مقرونا بالبغض ، فيتأثر من ذلك ، شيء كثير .

فكل منهما ، يؤمر بالمعروف ، والمعاشرة الحسنة ، وعدم المشاقة والمنازعة وينصح على ذلك .

[ وإن تعاسرتم ] بأن لم يتفق الزوجان على رضاعها لولدها .

[ فسترضع له أخرى ] غيرها « ولا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » .

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

---

وهذا حيث كان الولد يقبل ثَدْىَ غير أمه .

فإن لم يقبل إلا ثدى أمه ، تعينت لإرضاعه ، ووجب عليها ، وأجبرت إن امتنعت ، وكان لها أجرة المثل ، إن لم يتفقا على مسمى .

وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى ، فإن الولد ، لما كان فى بطن أمه مدة الحمل ، لا خروج له منه ، عَيَّنَ تعالى على وليه النفقة .

فلما ولد ، وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ، ومن غيرها ، أباح تعالى، الأمرين .

فإذا ، كان بحالة ، لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه ، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقا لقوته .

ثم قدر تعالى النفقة ، بحسب حال الزوج فقال :

[ لينفق ذو سعة من سعته ] أى : لينفق الغنى من غناه ، فلا ينفق نفقة الفقراء .

[ ومن قدر عليه رزقه ] أى : ضيق عليه [ فلينفق مما آتاه الله ] من الرزق .

[ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ] وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلا بحسبه ، وخفف عن المعسر ، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، فى باب النفقة وغيرها . [ سيجعل الله بعد العسر يسرا ] وهذه بشارة للمعسرين ، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ، ويرفع عنهم المشقة ، « فإن مع العسر يسرا » .

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا

---

* يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية ، والقرون المكذبة للرسل ، وأن كثرتهم وقوتهم ، لم تغن عنهم شيئا ، حين جاءهم الحساب الشديد ، والعذاب الأليم .

وأن الله أذاقهم من العذاب ، ما هو موجب أعمالهم السيئة .

ومع عذاب الدنيا ، فإن الله أعد لهم فى الآخرة ، عذابا شديدا .

[ فاتقوا الله ياأولى الألباب ] أى : ياذوى العقول ، التى تفهم عن الله آياته وعبره ، وأن الذى أهلك القرون الماضية ، بتكذيبهم ، أن من بعدهم مثلهم ، لا فرق بين الطائفتين .

ثم ذكر عباده المؤمنين ، بما أنزل عليهم من كتابه ، الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والمعصية ، إلى نور العلم والإيمان والطاعة .

فمن الناس ، من آمن به ، ومنهم من لم يؤمن به .

[ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ] من الواجبات والمستحبات .

يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ
أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

---

[ يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ] فيها من النعيم المقيم ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله له رزقا ] أى : ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون .

ثم أخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض ، ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وما بينهن ، وأنزل الأمر وهو : الشرائع والأحكام الدينية ، التى أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم ، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية ، التى يدبر بها الخلق ، كل دلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها ، وإحاطة علمه بجميع الأشياء ، .

فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة ، عبدوه ، وأحبوه ، وقاموا بحقه ، فهذه هى الغاية المقصودة من الخلق والأمر : معرفة الله وعبادته .

فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين ، وأعرض عن ذلك ، الظالمون المعرضون .

تم تفسير سورة الطلاق - والحمد لله

# تفســـير

# سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

---

* هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته « مارية » أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، فى قصة معروفة.

فأنزل الله هذه الآيات [ يأأيها النبي ] أى: يا أيها الذى أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحى [ لم تحرم ما أحل الله لك ] من الطيبات، التى أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

[ تبتغى ] بذلك التحريم [ مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ].

هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى:

[ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ] وهذا عام فى جميع أيمان المؤمنين

أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَّ

---

أى : قد شرع لكم ، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث ، وما به تتكفر بعد الحنث .

وذلك كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » إلى أن قال : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » .

فكل من حرم حلالا عليه ، من طعام أو شراب ، أو سرية ، أو حلف يمينا بالله ، على فعل أو ترك ، ثم حنث وأراد الحنث ، فعليه هذه الكفارة المذكورة .

وقوله [ والله مولاكم أى : متولى أموركم ، ومربيكم أحسن تربية ، في أمر دينكم ودنياكم ، وما به يندفع عنكم الشر ، فلذلك فرض لكم لكم تحلة أيمانكم ، لتبرأ ذممكم .

[ وهو العليم الحكيم ] الذى أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم . وهو الحكيم فى جميع ما خلقه وحكم به .

فلذلك شرع لكم من الأحكام ، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ، ومناسب لأحوالكم .

ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

وقوله [ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا ] قال كثير من المفسرين : هى حفصة ، أم المؤمنين رضى الله عنها ، أَسَرَّ لها النبى صلى الله عليه وسلم حديثا ، وأمر أن لا تخبر به أحدا ، فحدثت به عائشة رضى الله عنهما .

وأخبره الله بذلك الخبر ، الذى أذاعته ، فعَرَّفها صلى الله عليه وسلم ، ببعض قالت ، وأعرض عن بعضه ، كرما منه صلى الله عليه وسلم ، وحلما .

[ قالت ] له : [ من أنبأك هذا ] الخبر الذى لم يخرج منا ؟ .

[ قال نبأنى العليم الخبير ] الذى لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى.

وقوله : [إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما] الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة ، وعائشة رضى الله عنهما ، كانتا سببا لتحريم النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه .

فعرض الله عليهما التوبة ، وعاتبهما على ذلك ، وأخبرهما أن قلوبكما قد صغت أى : مالت وانحرفت عما ينبغى لهن ، من الورع والأدب ، مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، واحترامه ، وأن لا يشققن عليه .

[ وإن تظاهرا عليه ] أى : تعاونا على ما يشق عليه ، ويستمر هذا الأمر منكن .

وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ

---

[ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ] أى : الجميع أعوان للرسول ، مظاهرون له . ومن كان هؤلاء أنصاره ، فهو المنصور ، وغيره ، إن يناوئه ، فهو مخذول .

وفى هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين ، حيث جعل البارى ، نفسه الكريمة ، وخواص خلقه ، أعوانا لهذا الرسول الكريم .

وفيه من التحذير للزوجين الكريمتين ، ما لا يخفى .

ثم خوفهما أيضا ، بحالة تشق على النساء غاية المشقة ، وهو الطلاق ، الذى هو أكبر شىء عليهن فقال :

[عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ] أى:فلا تترفعن عليه ، فإنه لو طلقكن ، لا يضيق عليه الأمر ، ولم يكن مضطراً إليكن .

فإنه سيجد ، ويبدله الله أزواجا ، خيرا منكن ، دينا وجمالا .

وهذا من باب التعليق الذى لم يوجد ، ولا يلزم وجوده .

فإنه ، ما طلقهن ، ولو طلقهن ، لكان ما ذكره الله ، من هذه الأزواج الفاضلات .

[ مسلمات مؤمنات ] جامعات بين الإسلام ، وهو : القيام بالشرائع الظاهرة .

والإيمان وهو : القيام بالشرائع الباطنة ، من العقائد وأعمال القلوب .

[ قانتات ] والقنوت هو : دوام الطاعة واستمرارها [ تائبات ] عما يكرهه الله .

سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ

---

فوصفهن بالقيام بما يحبه الله ، والتوبة عما يكرهه الله .

[ ثيبات وأبكارا ] أى بعضهن ثيب ، وبعضهن أبكار . ليتنوع صلى الله عليه وسلم ، فيما يحب .

فلما سمعن - رضى الله عنهن - هذا التخويف والتأديب ، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الوصف ، منطبقا عليهن ، فصرن أفضل نساء المؤمنين .

* أى : يامن مَنّ الله عليهم بالإيمان ، قوموا بلوازمه وشروطه .

ف[ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ] موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة .

ووقاية الأنفس ، بإلزامها أمر الله ، امتثالا ، ونهيه اجتنابا ، والتوبة عما يسخط الله ، ويوجب العذاب .

ووقاية الأهل والأولاد ، بتأديبهم ، وتعليمهم ، وإجبارهم على أمر الله .

فلا يسلم العبد ، إلا إذا قام بما أمر الله به فى نفسه ، وفيمن تحت ولايته وتصرفه .

ووصف الله النار بهذه الأوصاف ، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال :

[ وقودها الناس والحجارة ] كما قال تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

---

[ عليها ملائكة غلاظ شداد ] أى : غليظة أخلاقهم ، شديد انتصارهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم ، ويهينون أصحاب النار بقوتهم ، وينفذون فيهم أمر الله ، الذى حتّم عليهم بالعذاب وأوجب ، عليهم شدة العقاب .

[ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ] وهذا فيه أيضا ، مدح للملائكة الكرام ، وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له فى كل ما أمرهم به .

* أى : يونج أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم :

[ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ] أى : فإنه ذهب وقت الاعتذار ، وزال نفعه ، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال .

وانتم لم تقدموا ، إلا الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه .

* قد أمر الله بالتوبة النصوح فى هذه الآية ، ووعد عليها بتكفير السيئات ، ودخول الجنات ، والفوز والفلاح ، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة ، بنور إيمانهم ، ويمشون بضيائه ، ويتمتعون بروحه وراحته ، ويشفقون إذا طفئت الأنوار ، التى تعطى المنافقين ، ويسألون الله ، أن يتم

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا
وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

---

لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم ، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين ، إلى جنات النعيم ، وجوار الرب الكريم .

وكل هذا ، من آثار التوبة النصوح .

والمراد بها : التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب ، التى عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله ، والقرب منه ، ويستمر عليها فى جميع أحواله .

* يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، بجهاد الكفار والمنافقين ، والإغلاظ عليهم فى ذلك .

وهذا شامل لجهادهم ، بإقامة الحجة عليهم ، ودعوتهم بالموعظة الحسنة وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال ، وجهادهم بالسلاح والقتال ، لمن أبى أن يجيب دعوة الله ، وينقاد لحكمه ، فإن هذا ، يجاهد ويغلظ عليه .

وأما المرتبة الأولى ، فتكون بالتى هى أحسن .

فالكفار والمنافقون ، لهم عذاب فى الدنيا ، بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم ، وعلى جهادهم ، وعذاب النار فى الآخرة ، وبئس المصير ، الذى يصير إليه كل شقى خاسر .

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ
وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ
يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

---

* هذان المثلان ، اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين ، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن ، وقربه منه ، لا يفيده شيئا ، وأن اتصال المؤمن بالكافر ، لا يضره شيئا ، مع قيامه بالواجب عليه .

فكأن في ذلك ، إشارة وتحذيرا لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، عن المعصية ، وأن اتصالهن به صلى الله عليه وسلم ، لا ينفعهن شيئا مع الإساءة ، فقال :

[ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا ] .

أي : المرأتان [ تحت عبدين من عبادنا صالحين ] وهما نوح ، ولوط ، عليهما السلام .

[ فخانتاهما ] في الدين ، بأن كانتا على غير دين زوجيهما .

وهذ هو المراد بالخيانة لا خيانة النسب والفراش ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط ، وما كان الله ، ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيا .

[ فلم يغنيا ] أي : نوح ولوط [ عنهما ] أي . عن امرأتيهما [ من الله شيئا وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين(١) ] .

---

(١) أي : مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام . اهـ . أبو السعود .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ

---

[ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ] وهى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها [ إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ] .

فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها ، وسؤالها أجل المطالب ، وهو دخول الجنة ، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها ، أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ، ومن فتنة كل ظالم .

فاستجاب الله لها ، فعاشت فى إيمان كامل ، وثبات تام ، ونجاة من الفتن .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وقوله [ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها ] أى : حفظته وصانته عن الفاحشة ، لكمال ديانتها ، وعفتها ، ونزاهتها .

[ فنفخنا فيه من روحنا ] بأن نفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم ، فجاء منها ، عيسى عليه السلام ، الرسول الكريم والسيد العظيم .

ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

[ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ] وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة .

فإن التصديق بكلمات الله ، يشمل كلماته الدينية والقدرية .

والتصديق بكتبه ، يقتضى معرفة ما به يحصل التصديق ، ولا يكون ذلك ، إلا بالعلم والعمل ، ولهذا قال :

[ وكانت من القانتين ] أى : المداومين على طاعة الله ، بخشية وخشوع .

وهذا وصف لها بكمال العمل ، فإنها ـ رضى الله عنها ـ صديقة ، والصديقية هى : كمال العلم والعمل .

تم تفسير سورة التحريم ـ بعون الله وتيسيره

تفسير

# سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

* [ تبارك الذى بيده الملك ] أى : تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه.

من عظمته أن بيده، ملك العالم العلوى والسفلى، فهو الذى خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته.

[ وهو على كل شىء قدير ] أى : ومن عظمته، كمال قدرته، التى يقدر بها على كل شىء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض.

[ الذى خلق الموت والحياة ] أى : قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم.

[ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ] أى : أخلصه وأصوبه.

عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا

وذلك أن الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره.

فمن انقاد لأمر الله، أحسن الله له الجزاء فى الدارين.

ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

[ وهو العزيز ] الذى له العزة كلها ، التى قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

[ الغفور ] عن المسيئين ، والمقصرين ، والمذنبين، خصوصا إذا تابوا وأنابوا.

فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

[ الذى خلق سبع سموات طباقا ] أى : كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها فى غاية الحسن والإتقان [ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ] أى : خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، فى لونها، وهيئتها، وارتفاعها، وما فيها، من الشمس، والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوما، أمر الله تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل فى أرجائها فقال :

مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا

---

[ فارجع البصر ] أى : أعده إليها ، ناظرا معتبرا [ هل ترى من فطور ] أى : نقص واختلال .

[ ثم ارجع البصر كرتين ] المراد بذلك : كثرة التكرار [ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ] أى : عاجزا عن أن يرى خللا أو فطورا ، ولو حرص نهاية الحرص .

ثم صرح بذكر حسنها فقال : [ ولقد زينا السماء ] إلى [ لأصحاب السعير ] .

* [ ولقد زينا ] أى : ولقد جملنا [ السماء الدنيا ] التى ترونها وتليكم .

[ بمصابيح ] وهى : النجوم ، على اختلافها فى النور والضياء .

فإنه لولا ما فيها من النجوم ، لكانت سقفا مظلما ، لا حسن فيه ولا جمال .

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء ، وجمالا ونورا ، وهداية يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

ولا ينافى إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح ، أن يكون كثير من

لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا

---

النجوم ، فوق السموات السبع ، فإن السموات شفافة ، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا ، وإن لم تكن الكواكب فيها .

[ وجعلناها ] أى : المصابيح [ رجوما للشياطين ] الذين يريدون استراق خبر السماء .

فجعل الله هذه النجوم ، حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبارها ، إلى الأرض .

فهذه الشهب ، التى ترمى من النجوم ، أعدها الله فى الدنيا للشياطين .

[ وأعتدنا لهم فى الآخرة عذاب السعير ] لأنهم تمردوا على الله ، وأضلوا عباده .

ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم ، قد أعد الله لهم عذاب السعير ، فلهذا قال :

[ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ] التى يهان أهلها ، غاية الهوان .

[ إذا ألقوا فيها ] على وجه الإهانة والذل [ سمعوا لها شهيقا ] أى : صوتا عاليا فظيعا [ وهى تفور[1] ] .

---

(١) أى : والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل [ القدر ] بما فيه . اهـ . أبو السعود .

وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ

---

[ تكاد تميز من الغيظ ] أى : تكاد على اجتماعها ، أن يفارق بعضها بعضا ، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار ، فما ظنك ما تفعل بهم ، إذا حصلوا فيها ؟!! .

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال : [ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ] أى : حالكم هذه واستحقاقكم النار ، كأنكم لم تخبروا عنها ، ولم تحذركم النذر منها .

[ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير ] ، فجمعوا بين تكذيبهم الحاضر ، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله .

ولم يكفهم ذلك ، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين ، وهم الهداة المهتدون .

ولم يكتفوا بمجرد الضلال ، بل جعلوا ضلالهم ، ضلالا كبيرا .

فأى : عناد وتكبر وظلم ، يشبه هذا ؟

[ وقالوا ] معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد : [ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ] فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى ، وهى ، السمع لما أنزل الله ، وجاءت به الرسل ، والعقل ، الذى ينفع صاحبه ، ويوقفه على حقائق الأشياء ، وإيثار الخير ، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة ، فلا سمع لهم ولا عقل .

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾
وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾
فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

---

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان ، وأرباب الصدق والإيمان ، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية ، فسمعوا ما جاء من عند الله ،وجاء به رسول الله ، علما ، ومعرفة ، وعملا .

والأدلة العقلية ، المعرفة للهدى من الضلال ، والحسن من القبيح ، والخير من الشر .

وهم - فى الإيمان - بحسب ما منّ الله عليهم به ، من الاقتداء بالمعقول والمنقول .

فسبحان من يختص بفضله من يشاء ، ويمن على من يشاء من عباده ، ويخذل من لا يصلح للخير .

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار ، المعترفين بظلمهم وعنادهم :

[ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ] أى : بُعْداً لهم وخسارة وشقاء .

فما أشقاهم وأرداهم ، حيث فاتهم ثواب الله ، وكانوا ملازمين للسعير ، التى تستعر فى أبدانهم ، وتطلع على أفئدتهم !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

---

* لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر وصف الأبرار السعداء فقال: [ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ] أى: فى جميع أحوالهم، حتى فى الحالة التى لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به.

[ لهم مغفرة ] لذنوبهم وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم.

[ ولهم أجر كبير ] وهو ما أعده لهم فى الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والقصور، والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن، الذى يحله على ساكنى الجنان.

* هذا إخبار من الله، بسعة علمه، وشمول لطفه فقال: [ وأسروا قولكم أو اجهروا به ] أى: كلاهما سواء لديه، لا يخفى عليه منهما خافية.

[ إنه عليم بذات الصدور ] أى: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التى تسمع وترى ؟!

ثم قال - مستدلا بدليل عقلى على علمه -: [ ألا يعلم من خلق ]، فمن خلق الخلق وأتقنه، وأحسنه، كيف لا يعلمه ؟!

ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟
فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

---

[ وهو اللطيف الخبير ] الذى لطف علمه وخبره ، حتى أدرك السرائر والضمائر ، والخبايا والخفايا ، والغيوب « وهو الذى يعلم السر وأخفى »

ومن معانى اللطيف ، أنه الذى يلطف بعبده ووليه ، فيسوق إليه البر والإحسان ، من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر ، من حيث لا يحتسب ، ويرقيه إلى أعلى المراتب ، بأسباب ، لا تكون من العبد على بال ، حتى إنه يذيقه المكاره ، ليوصله بها ، إلى المحاب الجليلة ، والمطالب النبيلة .

* أى : هو الذى سخر لكم الأرض،وذللها ، لتدركوا منها كل ماتعلقت به حاجتكم ، من غرس ، وبناء ، وحرث ، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية ، والبلدان الشاسعة .

[ فامشوا فى مناكبها ] أى : لطلب الرزق والمكاسب .

[ وكلوا من رزقه وإليه النشور ] أى : بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التى جعلها الله امتحانا ، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة ، تبعثون بعد موتكم ، وتحشرون إلى الله ، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة .

﴿ أَءَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا
هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ كَانَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

---

* هذا تهديد ووعيد ، لمن استمر فى طغيانه ،وتعدّيه ، وعصيانه الموجب للنكال ، وحلول العقوبة فقال : [ أأمنتم من فى السماء ] وهو الله تعالى ، العالى على خلقه .

[ أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ] بكم وتضطرب ، حتى تهلكوا وتتلفوا .

[ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ] أى : عذابا من السماء ، يحصبكم ، وينتقم الله منكم [ فستعلمون كيف نذير ] أى : كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب .

فلا تحسبوا أن أمنكم من أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ، ينفعكم .

فستجدون عاقبة أمركم ، سواء طال عليكم الأمد أو قصر .

فإن من قبلكم ، كذبوا كما كذبتم ، فأهلكهم الله تعالى ، فانظروا كيف إنكار الله عليهم .

عاجلهم بالعقوبة الدنيوية ، قبل عقوبة الآخرة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾
أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ

---

* وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير، التي سخرها الله ، وسخر لها الجو والهواء ، تصف فيه أجنحتها للطيران ، وتقبضها للوقوع ، فتظل سابحة فى الجو ، مترددة فيه ، بحسب إرادتها وحاجتها .

[ ما يمسكهن إلا الرحمن ] فإنه الذى سخر لهن الجو ، وجعل أجسادها وخلقتها ، فى حالة مستعدة للطيران .

فمن نظر فى حالة الطير ، واعتبر فيها ، دلته على قدرة البارى ، وعنايته الربانية ، وأنه الواحد الأحد ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

[ إنه بكل شىء بصير ] فهو المدبر لعباده ، بما يليق بهم ، وتقتضيه حكمته .

* يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره ، المعرضين عن الحق :
[ أم من هذا الذى هو جند لـكم ينصركم من دون الرحمن ] .
أى : ينصركم ، إذا أراد الرحمن بكم سوءا ، فيدفعه عنكم ؟ .

أى : من الذى ينصركم على أعدائكم غير الرحمن ؟ فإنه تعالي ، هو الناصر ، المعز المذل .

وغيره من الخلق ، لو اجتمعوا على نصر عبد ، لم ينفعوه بمثقال ذرة ، على أيدى أىّ عدو كان .

ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾

---

فاستمرار الكافرين على كفرهم ، بعد أن علموا ، أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن ، غرور ، وسَفَهٌ .

[ أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ] أى : الرزق كله من الله .

فلو أمسك عنكم الرزق ، فمن الذى يرسله لكم ؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم ، فكيف بغيرهم ؟

فالرزاق المنعم ، الذى لا يصيب العباد نعمة إلا منه ، هو الذى يستحق أن يفرد بالعبادة .

ولكن الكافرون [ لجوا ] أى : استمروا [ فى عتو ] أى : قسوة وعدم لين للحق [ ونفور ] أى : شرود عن الحق .

* أى : أى الرجلين أهدى ؟ من كان تائها فى الضلال ، غارقا فى الكفر قد انتكس قلبه ، فصار الحق عنده باطلا ، والباطل حقا ؟

أو من كان عالما بالحق ، مؤثرا له ، عاملا به ، يمشى على الصراط المستقيم ، فى أقواله وأعماله ، وجميع أحواله ؟

فبمجرد النظر إلى حال الرجلين ، يعلم الفرق بينهما ، والمهتدى من الضال منهما ، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال .

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ

---

* يقول تعالى ـ مبينا أنه المعبود وحده ، وداعيا عباده إلى شكره ، وإفراده بالعباده ـ :

[ قل هو الذى أنشأكم ] أى : أوجدكم من العدم ، من غير معاون له ولا مظاهر .

ولما أنشأكم ، كمل لكم الوجود ، إذ [ جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ] .

وهذه الثلاثة ، هى أفضل أعضاء البدن ، وأكمل القوى الجسمانية .

ولكنكم مع هذا الإنعام [ قليلا ما تشكرون ] الله ، قليل منكم الشاكر وقليل منكم الشكر .

[ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض ] أى : بثكم فى أقطارها ، وأسكنكم فى أرجائها ، وأمركم ، ونهاكم ، وأسدى إليكم من النعم ، ما به تنتفعون .

ثم بعد ذلك ، يحشركم ليوم القيامة .

ولكن هذا الوعد بالجزاء ، ينكره هؤلاء المعاندون [ ويقولون ] تكذيبا :

[ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] جعلوا علامة صدقهم ، أن يخبروهم بوقت مجيئه ، وهذا ظلم وعناد .

إن كنتمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ

---

[ قل إنما العلم عند الله ] لا عند أحد من الخلق ، ولا ملازمة بين هذا الخبر ، وبين الإخبار بوقته ، فإن الصدق ، يعرف بأدلته .

وقد أقام الله ، من الأدلة والبراهين على صحته ، ما لا يبقى معه أدنى شك ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

* يعنى أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به ، حين كانوا فى الدنيا .

فإذا كان يوم الجزاء ، ورأوا العذاب منهم [ زلفة ] أى : قريبا ، ساءهم ذلك ، وأفظعهم ، وأقلقهم ، فتغيرت لذلك وجوههم ، ووبخوا على تكذيبهم وقيل : [ هذا الذى كنتم به تدعون ] .

فاليوم رأيتموه عيانا ، وانجلى لكم الأمر ، وتقطعت بكم الأسباب ، ولم يبق إلا مباشرة العذاب .

ولما كان المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين يردون دعوته ، ينتظرون هلاكه ، ويتربصون به ريب المنون ، أمره الله أن يقول لهم : إنكم إن حصلت لكم أمنيتكم ، وأهلكنى الله ومن معى ، فليس ذلك بنافع لكم شيئا ، لأنكم كفرتم بآيات الله ، واستحققتم العذاب .

فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم ؟

وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ

---

فإذاً ، تعبكم وحرصكم على هلاكى ، غير مفيدة ، ولا مُجْدٍ لكم شيئا .

ومن قولهم ، إنهم على هدى ، والرسول على ضلال ، أعادوا فى ذلك وأبدوا ، وجادلوا عليه ، وقاتلوا .

فأمر الله نبيه ، أن يخبر عن حاله ، وحال أتباعه ، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم .

وهو أن يقولوا : [ هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ] والإيمان يشمل التصديق الباطن ، والأعمال الباطنة والظاهرة .

ولما كانت الأعمال ، وجودها وكمالها ، متوقفان على التوكل ، خص الله التوكل من سائر الأعمال ، وإلا ،فهو داخل فى الإيمان ومن جملة لوازمه.

كما قال تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

فإذا كانت هذه حال الرسول ، وحال من اتبعه ، وهى الحال التى تتعين للفلاح ، وتتوقف عليها السعادة ، وحالة أعدائه بضدها ، فلا إيمان لهم ، ولا توكل - علم بذلك ، من هو على هدى ، ومن هو فى ضلال مبين .

ثم أخبر عن انفراده بالنعم ، خصوصا ، الماء الذى جعل الله منه كل حَيٍّ فقال :

مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

---

[ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ] أى : غائرا [ فمن يأتيكم بماء معين ] تشربون منه ، وتسقون أنعامكم ، وأشجاركم ، وزروعكم ؟

وهذا استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يقدر أحد على ذلك ، غير الله تعالى .

تم تفسير سورة الملك ـ والحمد لله

تفسير

# سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

* نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

* يقسم تعالى بالقلم ، وهو اسم جنس شامل للأقلام ، التى تكتب بها أنواع العلوم ، ويسطر بها المنثور والمنظوم .

وذلك أن القلم ، وما يسطر به من أنواع الكلام ، من آياته العظيمة، التى تستحق أن يقسم بها ، على براءة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون .

فنفى عنه ذلك ، بنعمة ربه عليه ، وإحسانه ، حيث منّ عليه ، بالعقل الكامل ، والرأى الجزل ، والكلام الفصل ، الذى هو أحسن ما جرت به الأقلام ، وسطره الأنام ، وهذا هو السعادة في الدنيا .

ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال : [ وإن لك لأجرا غير ممنون ] .

أى : لأجرا عظيما ، كما يفيده التنكير ، غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر .

وذلك لما أسلفه النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال الصالحة ، والأخلاق الكاملة ، والهداية إلى كل خير .

. . . . . . . . . . .

ولهذا قال : [ وإنك لعلى خلق عظيم ] أى : علىٌّ به ، مُسْتَعلٍ بخلقك الذى منّ الله عليك به .

وحاصل خلقه العظيم ، ما فسرته به أم المؤمنين ، عائشة رضى الله عنها لمن سألها عنه فقالت : « كان خلقه القرآن » وذلك نحو قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * فبما رحمة من الله لنت لهم » الآية ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » الآية .

وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، والآيات الحاثّات على كل خلق جميل .

فكان له منها ، أكملها وأجلها ، وهو فى كل خصلة منها ، فى الذروة العليا .

فكان سهلا لينا ، قريبا من الناس ، مجيبا لدعوة من دعاه ، قاضيا لحاجة من استقضاه ، جابرا لقلب من سأله ، لا يحرمه ، ولا يرده خائبا .

وإذا أراد أصحابه منه أمراً ، وافقهم عليه ، وتابعهم فيه وإذا لم يكن فيه محذور .

وإن عزم على أمر ، لم يستبد به دونهم ، بل يشاورهم ، ويؤامرهم .

وكان يقبل من محسنهم ، ويعفو عن مسيئهم .

ولم يكن يعاشر جليسا ، إلا أتم عشرة وأحسنها .

فكان لا يعبس فى وجهه ، ولا يغلظ عليه فى مقاله ، ولا يطوى عنه بِشْرَهُ ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه ، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة .

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ
فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ

---

بل يحسن إليه غاية الإحسان ، ويحتمله غاية الاحتمال .

فلما أنزل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فى أعلى المنازل ، وكان أعداؤه ينسبون إليه ، أنه مجنون مفتون قال :

[ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ] وقد تبين أنه أهدى الناس ، وأكملهم لنفسه ولغيره .

وأن أعداءه ، أضل الناس ، وشر الناس للناس ، وأنهم الذين فتنوا عباد الله ، وأضلوهم عن سبيله .

وكفى بعلم الله بذلك ، فإنه المحاسب المجازى .

[ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ] وهذا ، فيه تهديد للضالين ، ووعد للمهتدين ، وبيان لحكمة الله ، حيث كان يهدى من يصلح للهداية ، دون غيره .

* يقول الله تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ فلا تطع المكذبين ] الذين كذبوك ، وعاندوا الحق ، فإنهم ليسوا أهلا ، لأن يطاعوا ، لأنهم لا يأمرون ، إلا بما يوافق أهواءهم ، وهم لا يريدون إلا الباطل فالمطيع لهم ، مقدِمٌ على ما يضره

بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

وهذا عام فى كل مكذب ، وفى كل طاعة ناشئة عن التكذيب ، وإن كان السياق فى شىء خاص ، وهو أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ، ويسكتوا عنه ، ولهذا قال :

[ ودوا ] أى : المشركون [ لو تدهن[1] ] أى : توافقهم على بعض ما هم عليه ، إما بالقول ، أو الفعل ، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه .

[ فيدهنون[1] ] ، ولكن اصدع بأمر الله ، وأظهر دين الإسلام ، فإن تمام إظهاره ، نقض ما يضاده ، وعيب ما يناقضه .

[ ولا تطع كل حلاف ] أى : كثير الحلف ، فإنه لا يكون كذلك ، إلا وهو كذاب .

ولا يكون كذاباً ، إلا وهو [ مهين ] أى : خسيس النفس ، ناقص الحكمة ، ليس له رغبة فى الخير ، بل إرادته فى شهوات نفسه الخسيسة .

[ هماز ] أى : كثير العيب للناس والطعن فيهم ، بالغيبة والاستهزاء ، وغير ذلك .

[ مشاء بنميم ] أى : يمشى بين الناس بالنميمة ، وهو : نقل كلام بعض الناس لبعض ، لقصد الإفساد بينهم ، وإيقاع العداوة والبغضاء .

[ مناع للخير ] الذى يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك [ معتد ] على الخلق يظلمهم فى دمائهم وأموالهم

(١) تدهن . أى : تلين لهم . فيدهنون أى : يلينون لك .

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

---

وأعراضهم [ أثيم ] أى : كثير الإثم والذنوب المتعلقة فى حق الله [ عتل بعد ذلك ] أى : غليظ شرس الخلق قاس ، غير منقاد للحق [ زنيم ] أى : دَعِيٌّ ، ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير ، بل أخلاقه أقبح الأخلاق ، ولا يرجى منه فلاح ، له زنمة أى : علامة فى الشر ، يعرف بها .

وحاصل هذا ، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب ، خسيس النفس ، سىء الأخلاق ، خصوصاً ، الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس ، والتكبر على الحق وعلى الخلق ، والاحتقار للناس ، بالغيبة والنميمة ، والطعن فيهم ، وكثرة المعاصى .

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت فى بعض المشركين ، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه [ أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ] أى : لأجل كثرة ماله وولده ، طغى واستكبر عن الحق ، ودفعه حين جاءه ، وجعله من جملة أساطير الأولين ، التى يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة فى كل من اتصف بهذا الوصف ، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم ، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم .

وربما نزل بعض الآيات فى سبب شخص من الأشخاص ، لتتضح به القاعدة العامة ، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة فى القضايا العامة .

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله ، بأن الله سيسمه على الخرطوم فى العذاب ، ويعذبه عذاباً ظاهراً ، يكون عليه سمة وعلامة ، فى

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا

---

أشق الأشياء عليه ، وهو وجهه[١] .

* يقول تعالى : إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير، وأمهلناهم ، وأمددناهم بما شئنا ، من مال وولد ، وطول عمر ، ونحو ذلك . مما يوافق أهواءهم ، لا لكرامتهم علينا .

بل ربما يكون استدراجا لهم ، من حيث لا يعلمون .

فاغترارهم بذلك ، نظير اغترار أصحاب الجنة ، الذين هم فيها شركاء ، حين أينعت أشجارها ، وزهت ثمارها ، وآن وقت صرامها ، وجزموا أنها في أيديهم ، وطوع أمرهم ، وأنه ليس ثَمّ مانع يمنعهم منها .

ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء ، أنهم سيصرمونها .

أي : يجذونها مصبحين .

ولم يدروا أن الله بالمرصاد ، وأن العذاب سيخلفهم عليها ، ويبادرهم إليها .

---

( ١ ) وذلك بأن يكويه على أنفه مهانة له وعلامة يعرف بها وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع . وحاصل معنى الآية ( سنسمه على الخرطوم ) أي : سنجعل على أنفه علامة يعير بها طيلة حياته ، فخطم أنفه بالسيف يوم « بدر » .

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا

---

[ فطاف عليها طائف من ربك ] أى : عذاب نزل عليها ليلا [ وهم نائمون ] فأبادها ، وأتلفها [ فأصبحت كالصريم ] أى : كالليل المظلم ، وذهبت الأشجار والثمار ، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع المؤلم ، ولهذا تنادوا فيما بينهم ، لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض :

[ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا ] قاصدين لما [ وهم يتخافتون ] فيما بينهم بمنع حق الله تعالى ويقولون : [ لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ] .

أى : بكروا قبل انتشار الناس ، وتواصوا مع ذلك ، بمنع الفقراء والمساكين .

ومن شدة حرصهم وبخلهم ، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة ، خوفاً أن يسمعهم أحد ، فيخبر الفقراء .

[ وغدوا ] فى هذه الحالة الشنيعة ، والقسوة ، وعدم الرحمة [ على حرد قادرين ] أى : على إمساك ومنع لحق الله ، جازمين بقدرتهم عليها .

[ فلما رأوها ] على الوصف الذى ذكر الله كالصريم [ قالوا ] من الحيرة والإنزعاج .

لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴿٢٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

---

[ إنا لضالون ] أى : تائهون عنها ، لعلها غيرها .

فلما تحققوها ، ورجعت إليهم عقولهم قالوا : [ بل نحن محرومون ] منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة .

[ قال أوسطهم ] أى : أعد لهم ، وأحسنهم طريقة [ ألم أقل لكم لولا تسبحون ] أى : تنزهون الله عما لايليق به، ومن ذلك ، ظنكم أن قدرتكم مستقلة ، فلو استثنيتم، وقلتم « إن شاء الله » وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته، ما جرى عليكم ما جرى .

[ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ] أى : استدركوا بعد ذلك ، ولكن بعد ما وقع على جنتهم العذاب ، الذى لا يرفع .

ولكن لعل تسبيحهم هذا ، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم ، ينفعهم فى تخفيف الإثم ويكون توبة ، ولهذا ندموا ندامة عظيمة .

[ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ] فيما أجروه وفعلوه [ قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ] أى : متجاوزين للحد فى حق الله ، وحق عباده .

[ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ] فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها ، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله ، ويلحون عليه فى الدنيا .

رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

---

فإن كانوا كما قالوا ، فالظاهر أن الله أبدلهم فى الدنيا خيراً منها لأن من دعا الله صادقا ، ورغب إليه ورجاه ، أعطاه سُؤْلَهَ .

قال تعالى معظما ما وقع : [ كذلك العذاب ] أى : الدنيوى لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبه الله الشىء الذى طغى به وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأن يزيله عنه ، أحوج ما يكون إليه .

[ ولعذاب الآخرة أكبر ] من عذاب الدنيا [ لو كانوا يعلمون ] فإن من علم ذلك ، أوجب له الإنزجار عن كل سبب يوجب العقاب، ويحرم الثواب

* يخبر تعالى بما أعده للمتقين الكفر والمعاصى ، من أنواع النعيم والعيش السليم فى جوار أكرم الأكرمين ، وأن حكمته تعالى ، لا تقتضى أن يجعل المتقين القانتين لربهم ، المنقادين لأوامره ، المتبعين مراضيه ، كالمجرمين الذين أوضعوا فى معاصيه ، والكفر بآياته ، ومعاندة رسله ، ومحاربة أوليائه .

وأن من ظن أنه يسويهم فى الثواب ، فإنه قد أساء الحكم ، وأن حكمه باطل ، ورأيه فاسد .

وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك ، فليس لهم مستند ، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون ، أنهم من أهل الجنة ، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا .

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾
أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا
تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ
فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ

---

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا .

فإن كان لهم شركاء وأعوان ، فليأتوا بهم ، إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم ، أن جميع ذلك منتف ، فليس لهم كتاب ، ولا لهم عهد عند الله فى النجاة ، ولا لهم شركاء يعينونهم ، فعلم أن دعواهم باطله فاسدة.

وقوله: [ سلهم أيهم بذلك زعيم ] أى : أيهم الكفيل بهذه الدعوى التى تبين بطلانها ، فإنه لا يمكن أحداً ، أن يتصدر بها ، ولا يكون زعيما فيها .

* أى : إذا كان يوم القيامة ، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل ، والأهوال ، ما لا يدخل تحت الوهم ، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة ، التى لا يشبهها شيء ، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ، ما لا يمكن التعبير عنه ، فحينئذ يدعون إلى السجود لله .

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟
يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

---

فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعاً واختياراً.

ويذهب الفجار المنافقون، ليسجدوا، فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصى البقر، لا يستطيعون الانحناء.

وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون فى الدنيا إلى السجود لله، وتوحيده وعبادته، وهم سالمون، لا علة فيهم فيستكبرون عن ذلك ويأبون.

فلا تسأل يومئذ عن حالهم، وسوء مآلهم، فإن الله سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة.

ففى هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصى، ويوجب التداوك مدة الإمكان.

* أى: دعنى والمكذبين بالقرآن العظيم فإن علىّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم

[سنستدرجهم من حيث لا يعلمون] فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم فى الأرزاق والأعمال، ليغتروا، ويستمروا على ما يضرهم، وهذا من كيد الله لهم.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ

---

وكيد الله لأعدائه ، متين قوي ، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم ، كل مبلغ .

[ أم نسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ] أى : ليس لنفورهم عنك ، وعدم تصديقهم لك ، سبب يوجب لهم ذلك فإنك تعلمهم ، وتدعوهم إلى الله ، لمحض مصلحتهم ، من غير أن تصيبهم من أموالهم مغرما ، يثقل عليهم

[ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ] ما كان عندهم من الغيوب ، وقد وجدوا أنهم على حق ، وأن لهم الثواب عند الله .

فهذا أمر ، ما كان ، وإنما كانت حالهم ، حال معاند ظالم .

فلم يبق إلا الصبر لأذاهم ، والتحمل لما يصدر منهم ، والاستمرار على دعوتهم ، ولهذا قال :

[ فاصبر لحكم ربك ] أى لما حكم به ، شرعاً وقدرا ، فالحكم القدرى ، يصبر على المؤذى منه ، ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع .

والحكم الشرعى ، يقابل بالقبول والتسليم ، والأنقياد لأمره .

وقوله : [ ولا تكن كصاحب الحوت(١) ] وهو يونس بن متى ، عليه الصلاة والسلام .

---

( ١ ) [ ولا تكن كصاحب الحوت ] وهو يونس بن متى ، فى العجلة والغضب على القوم ، حتى لا تبتلى ببلائه .

مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ

---

أى : ولا تشابهه فى الحال ، التى أوصلته ، وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت ، وهو عدم صبره على قومه ، الصبر المطلوب منه ، وذهابه مغاضبا لربه[1] ، حتى ركب البحر ، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها ، أيهم يلقون لكى تخف بهم ، فوقعت القرعة ،عليه فالتقمه الحوت وهو مليم

وقوله [ إذ نادى وهو مكظوم ] أى : وهو فى بطنها قد كظمت عليه أو نادى وهو مغتم مهقم فقال « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »

فاستجاب الله له ، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء ، وهو سقيم ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، ولهذا قال هنا :

[ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ] أى : لطرح فى العراء ، وهى الأرض الخالية [ وهو مذموم[2] ] ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح ، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى ، ولهذا قال :

[ فاجتباه ربه ] أى : اختاره ، ونقاه من كل كدر .

[ فجعله من الصالحين ] أى : الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ، ونياتهم وأحوالهم .

---

(١) قوله « مغاضبا لربه » الصواب « مغاضبا لقومه » وقد سبق أن تكلمنا على ذلك .

(٢) مذموم . أى : معاتب بزلته : لكنه رحم فنبذ بفضاء من الأرض غير مذموم .

لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

---

فامتثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أمر الله فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه أحد من العالمين .

فجعل الله له العاقبة « والعاقبة للمتقين » ولم يبلغ أعداؤه فيه ، إلا ما يسوؤهم .

حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم ، أى : يصيبوه بأعينهم ، من حسدهم ، وحنقهم ، وغيظهم .

هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلىّ ، والله حافظه وناصره .

وأما الأذى القولى ، فيقولون فيه أقوالا ، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم .

فيقولون تارة « مجنون » وتارة « شاعر » وتارة « ساحر » .

قال تعالى [ وما هو إلا ذكر للعالمين ] أى : وما هذا القرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، إلا ذكر للعالمين ، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم ، والحمد لله .

تم تفسير سورة القلم - بمن الله وكرمه

# تفسير

# سورة الحاقة

# بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟

---

* [ الحاقة ] من أسماء يوم القيامة ، لأنها تحق وتنزل بالخلق ، وتظهر فيها حقائق الأمور ، ومخبآت الصدور .

فعظم تعالى شأنها وفخمه ، بما كرره من قوله [ الحاقة ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة ] فإن لها شأنا عظيما ، وهولا جسيما .

ثم ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة فى الدنيا المشاهدة فيها ، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية فقال :

[ كذبت ثمود ] وهم : القبيلة المشهورة ، سكان الحجر ، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحا عليه السلام ، ينهاهم عما هم عليه من الشرك ، ويأمرهم بالتوحيد .

فردوا دعوته ، وكذبوه ، وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة ، وهى : القارعة ، التى تقرع الخلق بأهوالها .

بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

---

وكذلك عاد الأولى ، سكان حضرموت ، حين بعث الله إليهم رسوله هودا عليه الصلاة والسلام ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه ، وأنكروا ما أخبر به من البعث ، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل :

[ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ] وهى : الصيحة العظيمة الفظيعة ، التى قطعت قلوبهم ، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى ، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم .

[ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ] أى : قوية شديدة الهبوب ، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف [ عاتية ] أى : عتت على خزانها ، على قول كثير من المفسرين .

أو عتت على عاد ، وزادت على الحد كما هو الصحيح .

[ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ] أى : نحسا وشرا فظيعا عليهم ، فدمرتهم وأهلكتهم .

[ فترى القوم فيها صرعى ] أى : هلكى موتى [ كأنهم أعجاز نخل خاوية ] أى : كأنهم جذوع النخل ، التى قد قطعت رءوسها الخاوية ، الساقط بعضها على بعض .

[ فهل ترى لهم من باقية ] وهذا استفهام بمعنى النفى المتقرر .

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ

---

أى : وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين ، عاد وثمود ، جاء غيرهم من الطغاة العتاة ، كفرعون مصر ، الذى أرسل الله إليه عبده ورسوله ، موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وأراهم من الآيات البينات ، ما تيقنوا بها الحق ، ولكن جحدوا وكفروا ، ظلما وعلوا ، وجاء من قبله من المكذبين .

[ والمؤتفكات ] أى : قرى قوم لوط ، الجميع جاءوا [ بالخاطئة ] أى : بالفعلة الطاغية ، وهو : الكفر والتكذيب ، والظلم والمعاندة ، وما انضم إلى ذلك من أنواع المعاصى والفسوق

[ فعصوا رسول ربهم ] وهذا اسم جنس ، أى : كل من هؤلاء ، كذبوا الرسول ، الذى أرسله الله إليهم .

[ فأخذهم الله ] جميعا [ أخذة رابية ] أى : زائدة على الحد والمقدار ، الذى يحصل به هلاكهم .

ومن جملة هؤلاء ، قوم نوح أغرقهم الله فى اليم [ لما طغى الماء ] على وجه الأرض ، وعلا على مواضعها الرفيعة .

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم [ فى الجارية ] وهى : السفينة فى أصلاب آبائهم وأمهاتهم ، الذين نجاهم الله .

فاحمدوا الله ، واشكروا الذى نجاكم حين أهلك الطاغين ، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده ، ولهذا قال :

حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَـكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَـالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ

---

[ لنجعلها ] أى : الجارية والمراد جنسها [ تذكرة ] تذكركم أول سفينة صنعت ، وما قصتها ، وكيف نجى الله عليها من آمن به ، واتبع رسوله ، وأهلك أهل الأرض كلهم ، فإن جنس الشيء مذكر بأصله .

وقوله [ وتعيها أذن واعية ] أى : يعقلها أولو الألباب ، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها .

وهذا ، بخلاف أهل الإعراض والغفلة ، وأهل البلادة وعدم الفطنة ، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله ، لعدم وعيهم عن الله ، وتفكرهم بآياته .

* لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذبين لرسله ، وكيف جازاهم ، وعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم ، كان هذا مقدمة للجزاء الأخروى ، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة .

فذكر الأمور الهائلة التى تقع أمام يوم القيامة ، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل [ فى الصور ] إذا تكاملت الأجساد نابتة .

[ نفخة واحدة ] فخرجت الأرواح ، فتدخل كل روح فى جسدها ، فإذا الناس قيام لرب العالمين .

[ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ] أى : فتتت الجبال ،

ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

---

واضمحلت ، وخلطت بالأرض ، ونسفت عليها ، فكان الجميع قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . هذا ما يصنع بالأرض وما عليها .

وأما ما يصنع بالسماء ، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ، ويتغير لونها ، وتهى بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة ، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها ، وكرب جسيم هائل ، أوهاها وأضعفها .

[ والملك ] أى : الملائكة الكرام [ على أرجائها ] أى : على جوانب السماء وأركانها ، خاضعين لربهم ، مستكينين لعظمته .

[ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ] أملاك فى غاية القوة ، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم ، بعدله وقسطه وفضله .

ولهذا قال : [ يومئذ تعرضون ] على الله [ لا تخفى منكم خافية ] لا من أجسادكم وذواتكم ، ولا من أعمالكم وصفاتكم ، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة .

ويحشر العباد ، حفاة ، عراة ، عزلا ، فى أرض مستوية ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فحينئذ يجازيهم بما عملوا ، ولهذا ذكر كيفية الجزاء فقال : [ فأما من أوتى كتابه ] إلى [ الخالية ] .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ
كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ
رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ

---

* وهؤلاء، هم أهل السعادة، يُعْطَوْنَ كتبهم التى فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزا لهم، وتنويها بشأنهم، ورفعا لمقدارهم.

ويقول أحدهم عند ذلك، من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة:

[ هاؤم اقرأوا كتابيه ] أى: دونكم كتابى، فاقرأوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذى أوصلنى إلى هذه الحال، ما مَنَّ الله به عَلَىَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال:

[ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ] أى: أيقنت.

فالظن ـ هنا ـ بمعنى اليقين.

[ فهو فى عيشة راضية ] أى: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها.

[ فى جنة عالية ] المنازل والقصور، عالية المحل.

[ قطوفها دانية ] أى: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياما وقعودا، ومتكئين.

ويقال لهم إكراما: [ كلوا واشربوا ] أى: من كل طعام لذيذ، وشراب شهىٍّ.

وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾

---

[ هنيئا ] أي : تاما كاملا ، من غير مكدر ولا منغص .

وذلك الجزاء حصل لكم [ بما أسلفتم فى الأيام الخالية ] من الأعمال الصالحة ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ، وإحسان إلى الخلق ، وذكر الله ، وإنابة إليه ، وترك الأعمال السيئة .

فالأعمال ، جعلها الله سببا لدخول الجنة ، ومادة لنعيمها ، وأصلا لسعادتها .

* هؤلاء هم أهل الشقاء ، يُعْطَوْنَ كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة ، بشمالهم ، تمييزا لهم ، وخزيا ، وعارا وفضيحة .

فيقول أحدهم ، من الهم ، والغم ، والحزن : [ ياليتنى لم أوت كتابيه ] لأنه يبشر بدخول النار ، والخسارة الأبدية .

[ ولم أدر ما حسابيه ] أى : ليتنى كنت نسيا منسيا ، ولم أبعث وأحاسب ، ولهذا قال :

[ياليتها كانت القاضية] أي: ياليت موتتى هى الموتة ، التى لا بعث بعدها .

ثم التفت إلى ماله وسلطانه ، فإذا هو ، وبال عليه ، لم يقدم منه لآخرته ، ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً ، فيقول : [ ما أغنى عنى ماليه ]

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

---

أى : ما نفعني فى الدنيا ، لأنى لم أقدم منه شيئا ، ولا فى الآخرة ، قد ذهب وقت نفعه .

[هلك عني سلطانيه] أي : ذهب واضمحل ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا الْعَدَدُ ولا الْعُدَدُ ، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح وفاتت بسببه ، المتاجر والأرباح ، وحضرت بدله ، الهموم والغموم والأتراح.

فحينئذ يؤمر بعذابه ، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد : [ خذوه فغلوه ] أى : اجعلوا فى عنقه ، غلا يخنقه .

[ ثم الجحيم صلوه ] أى : قلبوه على جمرها ولهبها . .

[ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ] من سلاسل الجحيم فى غاية الحرارة [ فاسلكوه ] أى : انظموه فيها بأن تدخل فى دبره ، وتخرج من فمه ، ويعلق فيها .

فلايزال يعذب هذا العذاب الفظيع ، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له ، من التوبيخ والعتاب .

فإن السبب الذى أوصله ، إلى هذا المحل [ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ] بأن كان كافرا بربه ، معانداً لرسله ، رادا ما جاءوا به من الحق .

ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

---

[ ولا يحض على طعام المسكين ] أى : ليس فى قلبه رحمة ، يرحم بها الفقراء والمساكين ، فلا يطعمهم من ماله ، ولا يحض غيره على إطعامهم ، لعدم الوازع فى قلبه .

وذلك ، لأن مدار السعادة ومادتها أمران :

الإخلاص لله ، الذى أصله الإيمان بالله .

والإحسان إلى الخلق ، بجميع وجوه الإحسان ، التى من أعظمها ، دفع ضرورة المحتاجين ، بإطعامهم ما يتقوتون به .

وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان ، فلذلك استحقوا ، ما استحقوا .

[ فليس له اليوم ههنا ] أى : يوم القيامة [ حميم ] أى : قريب أو صديق ، يشفع له ، لينجو من عذاب الله ، أو يفوز بثوابه « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له * ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

[ ولا طعام إلا من غسلين ] وهو صديد أهل النار ، الذى هو فى غاية الحرارة والمرارة ، ونتن الريح ، وقبح الطعم .

لا يأكل هذا الطعام الذميم [ إلا الخاطئون[1] ] الذين أخطأوا الصراط

---

( ١ ) الخاطئون . أى : الكافرون ، وأصحاب الخطايا ، الذين كانوا يرتكبون الجرائم عمداً ، ولا يبالون بأوامر الله ونواهيه .

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾

---

المستقيم ، وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم ، فلذلك استحقوا العذاب الأليم .

* أقسم تعالى ، بما يبصر الخلق من جميع الأشياء ، وما لا يبصرونه .

فدخل فى ذلك ، كل الخلق ، بل دخل فى ذلك ، نفسه المقدسة ، على صدق الرسول ، بما جاء به من هذا القرآن الكريم ، وأن الرسول الكريم ، بلغه عن الله تعالى .

ونزه الله رسوله ، عما رماه به أعداؤه ، من أنه شاعر أو ساحر ، وأن الذى حملهم على ذلك ، عدم إيمانهم وتذكرهم ، فلو آمنوا وتذكروا ، علموا ما ينفعهم ويضرهم .

ومن ذلك ، أن ينظروا فى حال محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه ، ليروا أمرا مثل الشمس ، يدلهم على أنه رسول الله حقا ، وأن ما جاء به [ تنزيل من رب العالمين ] لا يليق أن يكون قولا للبشر ، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به ، وجلالة أوصافه ، وكمال تربيته للخلق ، وعلوه فوق عباده .

وأيضا ، فإن هذا ، ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته .

[ ولو تقول علينا ] وافترى [ بعض الأقاويل ] الكاذبة .

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

---

[ لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ] وهو عرق متصل بالقلب ، إذا انقطع ، هلك منه الإنسان .

فلو قدر أن الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوّل على الله ، لعاجله بالعقوبة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، لأنه حكيم ، قدير على كل شيء .

فحكمته ، تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه ، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ، وأنه هو وأتباعه ، لهم النجاة ، ومن خالفه ، فله الهلاك .

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات ، وبرهن على صدق ما جاء به ، بالآيات البينات ، ونصره على أعدائه ، ومكنه من نواصيهم ، فهو أكبر شهادة منه على رسالته .

وقوله : [ فما منكم من أحد عنه حاجزين ] أي : لو أهلكه ، ما امتنع هو بنفسه ، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله .

[ وإنه ] أي : القرآن الكريم [ لتذكرة للمتقين ] يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم ، فيعرفونها ، ويعملون عليها ، يذكرهم العقائد الدينية ، والأخلاق المرضية ، والأحكام الشرعية ، فيكونون من العلماء الربانيين ، والعباد العارفين ، والأئمة المهديين .

[ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ] به ، وهذا فيه تهديد ، ووعيد للمكذبين ،

وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

وأنه سيعاقبهم على تكذيبهم ، بالعقوبة البليغة .

[ وإنه لحسرة على الكافرين ] فإنهم لما كفروا به ، ورأوا ما وعدهم به ، تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره ، ففاتهم الثواب ، وحصلوا على أشد العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

[ وإنه لحق اليقين ] أى : أعلى مراتب العلم ، فإن أعلى مراتب العلم ، اليقين وهو : العلم الثابت ، الذى لا يتزلزل ، ولا يزول .

واليقين مراتبه ثلاثة ، كل واحدة أعلى مما قبلها :

أولها : علم اليقين ، وهو العلم المستفاد من الخبر .

ثم عين اليقين ، وهو : العلم المدرك بحاسة البصر .

ثم حق اليقين ، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة .

وهذا القرآن ، بهذا الوصف ، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية ، ومافيه من الحقائق والمعارف الإيمانية ، يحصل بهلمن ذاقه حق اليقين .

[ فسبح باسم ربك العظيم ] أى : نزهه عما لا يليق بجلاله ، وقَدِّسْهُ ، بذكر أوصاف جلاله ، وجماله ، وكماله .

تم تفسير سورة الحاقة ـ والحمد لله رب العالمين

# تفسير

# سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ
دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

---

* يقول تعالى – مبينا لجهل المعاندين ، واستعجالهم لعذاب الله ، استهزاء وتعنتا وتعجيزا :

[ سأل سائل ] أى : دعا داع ، واستفتح مستفتح [ بعذاب واقع ، للكافرين ] لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم [ ليس له دافع ، من الله ] أى : ليس لهذا العذاب ، الذى استعجل به من استعجل ، من متمردى المشركين ، أحد يدفعه قبل نزوله ، أو يرفعه بعد نزوله .

وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشى أو غيره ، من المكذبين فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .

فالعذاب ، لا بد أن يقع عليهم من الله ، فإما أن يعجل لهم فى الدنيا ، وإما أن يدخر لهم فى الآخرة .

إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا

فلو عرفوا الله ، وعرفوا عظمته ، وسعة سلطانه ، وكمال أسمائه وصفاته ، لما استعجلوا ، ولاستسلموا وتأدبوا ، ولهذا ذكر تعالى من عظمته ، ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال :

[ ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه ] أى : ذى العلو والجلال ، والعظمة ، والتدبير لسائر الخلق ، الذى تعرج إليه الملائكة ، بما جعلها على تدبيره ، وتعرج إليه الروح .

وهذا اسم جنس ، يشمل الأرواح كلها ، بَرّها ، وفاجرها ، وهذا عند الوفاة .

فأما الأبرار ، فتعرج أرواحهم إلى الله ، فيؤذن لها من سماء إلى سماء ، حتى تنتهى إلى السماء ، التى فيها الله عز وجل ، ربها فَتُحَيِّي ، وتسلم عليه ، وتحظى بقربه ، وتبتهج بالدنو منه ، ويحصل لها منه الثناء والإكرام ، والبر والإعظام .

وأما أرواح الفجار فتعرج ، فإذا وصلت إلى السماء ، استأذنت ، فلا يؤذن لها ، وأعيدت إلى الأرض .

ثم ذكر المسافة ، التى تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله ، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب ، وأعانها عليه من اللطافة والخفة ، وسرعة السير .

مع أن تلك المسافة ، على السير المعتاد ، مقدار خمسين ألف سنة ، من ابتداء العروج إلى بلوغها ، ما حُدّ لها ، وما تنتهى إليه من الملأ الأعلى .

جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

فهذا الملك العظيم ، والعالم الكبير ، علويه وسفليه ، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره ، العَلِيُّ الأعلى .

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة ، ومستقرهم ، ومستودعهم ، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ، ما عمهم وشملهم ، وأجرى عليهم حكمه القدرى وحكمه الشرعى ، وحكمه الجزائى .

فَبُؤْسًا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره ،فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان .

وسبحان الحليم ، الذى أمهلهم ، وما أهملهم ، وآذوه ، فصبر عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم .

هذا أحد الاحتمالات فى تفسير هذه الآية الكريمة ، فيكون هذا العروج والصعود فى الدنيا ، لأن السياق الأول ، يدل عليه .

ويحتمل أن هذا ، فى يوم القيامة، وأن الله تعالى ، يُظْهِرُ لعباده فى يوم القيامة ، من عظمته وجلاله وكبريائه ، ما هو أكبر دليل على معرفته ، مما يشاهدونه ، من عروج الأملاك والأرواح ، صاعدة ونازلة ، بالتدابير الإلهية ، والشئون الربانية .

[ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ] من طوله وشدته ، لكن الله تعالى ، يخففه على المؤمن .

وقوله : [ فاصبر صبرا جميلا ] أى : اصبر على دعوتك لقومك ، صبرا جميلا ، لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ

---

بل استمر على أمر الله ، وادع عباده إلى توحيده ، ولا يمنعك عنهم ، ما ترى من عدم انقيادهم ، وعدم رغبتهم ، فإن في الصبر على ذلك ، خيرا كثيرا .

[ إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ] الضمير يعود إلى البعث ، الذى فيه عذاب السائلين بالعذاب .

أى : إن حالهم ، حال المنكر له ، والذى غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه ، من البعث والنشور .

والله يراه قريبا ، لأنه رفيق حليم لا يعجل ، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وما هو آت ، فهو قريب . ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما فيه فقال : [ يوم تكون السماء ] إلى [ فأوعى ] .

* أى [ يوم ] القيامة ، الذى تقع فيه هذه الأمور العظيمة [ تكون السماء كالمهل ] وهو : الرصاص المذاب ، من تشققها ، وبلوغ الهول منها كل مبلغ .

[ وتكون الجبال كالعهن ] وهو : الصوف المنفوش ، ثم تكون بعد ذاك ، هباء منثورا ، فتضمحل .

فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة ، فما ظنك بالعبد الضعيف ، الذى قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار ؟

أليس حقيقا ، أن ينخلع قلبه ولبه ، ويذهل عن كل أحد ؟ ولهذا قال :

لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾
وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾
كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

---

[ولا يسأل حميم حميا * يبصرونهم] أى : يشاهد الحميم ، وهو: القريب حميمه ، فلا يبقى فى قلبه متسع لسؤاله عن حاله ، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحبتهم ، ولا يهمه إلا نفسه .

[ يود المجرم ] الذى حق عليه العذاب [ لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته ] أى : زوجته [ وأخيه * وفصيلته ] أى : قرابته [ التى تؤويه ] أى : التى جرت عادتها فى الدنيا ، أن تتناصر ، ويعين بعضها بعضا .

فنى القيامة ، لا ينفع أحد أحداً ، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله .

بل لو يفتدى المجرم المستحق للعذاب بكل من يعرفه [ ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ] ذلك ، لم ينفعه .

[ كلا ] أى : لا حيلة ولا مناصر لهم ، قد حقت عليهم كلمة ربك ، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء .

[ إنها لظى * نزاعة للشوى ] أى : النار التى تتلظى، تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة .

[تدعو] إلى نفسها [من أدبر * وتولى وجمع فأوعى] أى : أدبر عن

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ
هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾

---

اتباع الحق ، وأعرض عنه ، فلا غرض له فيه ، وجمع الأموال بعضها فوق بعض ، وأوعاها ، فلم ينفق منها ما ينفعه ، ويدفع عنه النار .

فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها ، وتستعد للالتهاب بهم .

* وهذا الوصف للإنسان ، من حيث هو ، وصف طبيعته ، أنه هلوع .

وفسر : الهلوع بقوله [ إذا مسه الشر جزوعا ] فيجزع إن أصابه فقر أو مرض ، أو ذهاب محبوب له ، من مال ، أو أهل ، أو ولد .ولا يستعمل في ذلك ، الصبر ، والرضا بما قضى الله .

[ وإذا مسه الخير منوعا ] فلا ينفق مما آتاه الله ، ولا يشكر الله على نعمه وبره ، فيجزع فى الضراء ، ويمنع فى السراء .

[ إلا المصلين ] الموصوفين بتلك الأوصاف ، فإنهم إذا مسهم الخير ، شكروا الله ، وأنفقوا مما خولهم ، وإذا مسهم الشر ، صبروا واحتسبوا .

وقوله فى وصفهم [ الذين هم على صلاتهم دائمون ] أى : مداومون عليها فى أوقاتها ، بشروطها ، ومكملاتها .

وليسوا كمن لا يفعلها ، أو يفعلها وقتا دون وقت ، أو يفعلها على وجه ناقص .

[ والذين فى أموالهم حق معلوم ] من زكاة وصدقة [ للسائل ] الذى

لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ

---

يتعرض للسؤال [ والمحروم ] وهو : المسكين الذى لا يسأل الناس ،فيعطوه، ولا يفطن له ، فيتصدق عليه .

[ والذين يصدقون بيوم الدين ] أى : يؤمنون بما أخبر به الله ، وأخبرت به الرسل ، من الجزاء والبعث ، ويتيقنون ذلك ، فيستعدون للآخرة ، ويسعون لها سعيها .

والتصديق بيوم الدين ، يلزم منه التصديق بالرسل ، وبما جاءوا به من الكتب .

[ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ] أى : خائفون وجلون ،فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله .

[ إن عذاب ربهم غير مأمون ] أى : هو العذاب الذى يخشى ويحذر .

[ والذين هم لفروجهم حافظون ] فلا يطأون بها وطئا محرماً ، من زناً ، أو لواط ، أو وطء فى دبر ، أو حيض ، ونحو ذلك .

ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسها ، ممن لا يجوز له ذلك .

ويتركون أيضاً ، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة .

[ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ] أى : سرياتهم [ فإنهم غير ملومين ] فى وطئهن ، فى المحل الذى هو محل الحرث .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

---

[ فمن ابتغى وراء ذلك ] أي : غير الزوجة ، وملك اليمين .

[ فأولئك هم العادون ] أى : المتجاوزون ما أحل الله ، إلى ما حرم الله .

ودلت هذه الآية ، على تحريم نكاح المتعة ، لكونها غير زوجة مقصودة ، ولا ملك يمين .

[ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ] أى : مراعون لها ، حافظون مجتهدون على أدائها ، والوفاء بها .

وهذا شامل لجميع الأمانات ، التى بين العبد وبين ربه ، كالتكاليف السرية ، التى لا يطلع عليها إلا الله ، والأمانات التى بين العبد وبين الخلق ، فى الأموال والأسرار .

وكذلك العهد ، شامل للعهد ، الذى عاهد عليه الله ، والعهد الذى عاهد الخلق عليه .

فإن العهد ، يسأل عنه العبد ، هل قام به ووفاه ، أم رفضه وخانه ، فلم يقم به ؟ .

[ والذين هم بشهاداتهم قائمون ] أى : لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا كتمان ، ولا يحابى فيها قريبا ولا صديقا ونحوه ، ويكون القصد بإقامتها ، وجه الله .

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ

---

قال تعالى : « وأقيموا الشهادة لله * يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

[ والذين هم على صلاتهم يحافظون ] بالمداومة عليها على أكمل الوجوه.

[ أولئك ] أى : الموصوفون بتلك الصفات [ فى جنات مكرمون ] أى : قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

وحاصل هذا ، أن الله وصف أهل السعادة والخير ، بهذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاق المرضية الفاضلة ، من العبادات البدنية ، كالصلاة ، والمداومة عليها ، والأعمال القلبية ، كخشية الله الداعية لكل خير ، والعبادات المالية ، والعقائد النافعة ، والأخلاق الفاضلة ، ومعاملة الله ، ومعاملة خلقه ، أحسن معاملة ، من إنصافهم ، وحفظ حقوقهم وأماناتهم، والعفة التامة بحفظ الفروج ، عما يكرهه الله تعالى .

* يقول تعالى ، مبينا اغترار الكافرين : [ فما للذين كفروا قبلك مهطعين ] أى : مسرعين [ عن اليمين وعن الشمال عزين ] أى : قطعا متفرقة ، وجماعات متنوعة ، كل منهم ، بما لديه فرح .

[ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ] أىُّ : سبب أطمعهم ،

نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟

---

وهم لم يقدموا سوى الكفر ، والجحود لرب العالمين ، ولهذا قال :

[ كلا ] أى : ليس الأمر بأمانيهم ، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم .

[ إنا خلقناهم مما يعلمون ] أى : من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، فهم ضعفاء ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

* هذا إقسام منه تعالى، بالمشارق والمغارب، للشمس، والقمر، والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات ، على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم ، وهم بأعيانهم ، كما قال تعالى : « وننشئكم فيما لا تعلمون » .

[ وما نحن بمسبوقين ] أى : ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا ، إذا أردنا أن نعيده .

فإذا تقرر البعث والجزاء ، واستمروا على تكذيبهم ، وعدم انقيادهم لآيات الله .

[ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ] أى : يخوضوا بالأقوال الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، ويلعبوا بدينهم ، ويأكلوا ويشربوا ، ويتمتعوا [ حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ] .

وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً
أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

---

فإن الله قد أعد لهم فيه ، من النكال والوبال ، ما هــو عاقبة خوضهم ولعبهم .

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذى يوعدون فقال :

[ يوم يخرجون من الأجداث ] أى : القبور [ سراعا ] مجيبين لدعوة الداعى ، مهطعين إليها .

[ كأنهم إلى نصب يوفضون[1] ] أى : كأنهم إلى علم يؤمون ويقصدون .

فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعى ، ولا الالتواء عن نداء المنادى . بل يأتون ، أذلاء مقهورين ، بين يدى رب العالمين .

[ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ] وذلك أن الذلة والقلق ، قد ملك قلوبهم ، واستولى على أفئدتهم ، فخشعت منهم الأبصار ، وسكنت الحركات ، وانقطعت الأصوات .

[ ذلك ] الحال والمآل ، هو [ اليوم الذى كانوا يوعدون ] ولا بد من الوفاء بوعد الله .

تم تفسير سورة المعارج ـ والحمد لله

---

( ١ ) نصب . أى : كل ما نصب فعبد من دون الله . « يوفضون » أى : يسرعون . اهـ . أبو السعود .

تفسـير

# سُورة نُوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

---

لم يذكر الله في هذه السورة ،لا قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه ، وتكرار دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك .

فأخبر تعالى أنه أرسل نوحا إلى قومه ، رحمه بهم وإنذاراً من عذاب أليم ، خوفاً من استمرارهم على كفرهم ، فيهلكهم هلاكا أبديا ، ويعذبهم عذابا سرمديا .

فامتثل نوح عليه السلام لذلك ، وابتدر لأمر الله فقال :

[ ياقوم إنى لكم نذير مبين ] أى : واضح النذارةَ بيِّنُهَا ، وذلك لتوضيحه ما أنذر به ، وما أنذر عنه ، وبأى شىء تحصل النجاة ، بيّنَ ذلك بيانا شافيا .

فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك فقال : [ أن اعبدوا الله واتقوه ] وذلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد ، والبعد عن الشرك وطرقه ، ووسائله .

أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾

---

فإنهم إذا اتقوا الله ، غفر ذنوبهم ، وإذا غفر ذنوبهم ، حصل لهم النجاة من العذاب ، والفوز بالثواب .

[ ويؤخركم إلى أجل مسمى ] أى : يمتعكم فى هذه الدار ، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى ، أى : مقدر البقاء فى الدنيا ، بقضاء الله وقدره ، إلى وقت محدود ، وليس المتاع أبدا ، فإن الموت لابد منه ، ولهذا قال :

[ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ] كما كفرتم بالله ، وعاندتم الحق ، فلم يجيبوا لدعوته ، ولا انقادوا لأمره ، فقال شاكيا لربه :

[ رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ] أى : نفورا عن الحق ، وإعراضا ، فلم يبق لذلك فائدة ، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه .

[ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ] أى : لأجل أن يستجيبوا ، فإذا استجابوا ، غفرت لهم ، وهذا محض مصلحتهم .

ولكن أبوا ، إلا تماديا على باطلهم ، ونفورا عن الحق .

[ جعلوا أصابعهم فى آذانهم ] حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام .

[ واستغشوا ثيابهم ] أى تغطوا بها غطاء يغشاهم ، بعدا عن الحق ، وبغضا له .

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ

---

[ وأصروا ] على كفرهم وشرهم [ واستكبروا على الحق [ استكبارا ] فشرهم ازداد ، وخيرهم بعُدَ .

[ ثم إنى دعوتهم جهارا ] أى بمسمع منهم كلهم .

[ ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ] كل هذا حرص ونصح ، وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود .

[ فقلت استغفروا ربكم ] أى : اتركو ما أنتم عليه ، من الذنوب ، واستغفروا الله منها .

[ إنه كان غفارا ] كثير المغفرة لمن تاب واستغفر ، فرغبهم بمغفرة الذنوب ، وما يترتب عليها من الثواب ، واندفاع العقاب .

ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل فقال : [ يرسل السماء عليكم مدرارا] أى : مطرا متتابعا ، يروى الشعاب والوهاد ، ويحيي البلاد والعباد .

[ ويمددكم بأموال وبنين ] أى : يكثر أموالكم ، التى تدركون بها ما تطلبون من الدنيا ، وأولادكم .

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟
كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

---

[ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ] وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها .

[ ما لكم لا ترجون لله وقارا ] أى : لا تخافون لله عظمة ، وليس لله عندكم قدر .

[ وقد خلقكم أطوارا ] أى : خلقا من بعد خلق ، فى بطن الأم ، ثم فى الرضاع ، ثم فى سن الطفولية ، ثم التمييز ، ثم الشباب . ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق .

فالذى انفرد بالخلق والتدبير البديع ، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد.

وفى ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد ، وأن الذى أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم .

واستدل أيضا بخلق السموات ، التى هى أكبر من خلق الناس فقال :

[ ألم تروا كيف الله سبع سموات طباقا ] أى : كل سماء فوق الأخرى

[ وجعل القمر فيهن نورا ] لأهل الأرض [ وجعل الشمس سراجا ] .

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء ، وكثرة المنافع فى الشمس والقمر الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه ، فالعظيم الرحيم ، يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ، ويرجى .

وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ
رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ

---

[ والله أنبتكم من الأرض نباتا ] حين خلق أباكم آدم وأنتم فى صلبه .

[ ثم يعيدكم فيها ] عند الموت [ ويخرجكم إخراجا ] للبعث والنشور ، فهو الذى يملك الحياة والموت والنشور .

[ والله جعل لكم الأرض بساطاً ] أى : مبسوطة مهيأة للانتفاع بها .

[ لتسلكوا منها سبلا فجاجا ] فلولا أنه بسطها ، لما أمكن ذلك ، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها ، وزرعها ، والبناء ، والسكون على ظهرها .

[ قال نوح ] شاكيا لربه : إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ، ما نجع فيهم ولا أفاد .

[ رب إنهم عصونى ] فيما أمرتهم به [ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ] أى : عصوا الرسول الناصح الدال على الخير واتبعوا الملأ والأشراف ، الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارا ، أى : هلاكا وتفويتا للأرباح ، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم ؟ !

[ ومكروا مكرا كبارا ] أى : مكراً كبيراً بليغا فى معاندة الحق .

وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا

---

[ وقالوا ] لهم داعين إلى الشرك مزينين [ لا تذرن آلهتكم ] فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك ، وأن لايدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون .

ثم عينوا آلهتهم فقالوا : [ ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ] .

وهذه أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا ، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم ، لينشطوا ـ بزعمهم ـ على الطاعة ، إذا رأوها .

ثم طال الأمد ، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان :

إن أسلافكم كانوا يعبدونهم ، ويتوسلون بهم ، وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

ولهذا وصى رؤساؤهم للتابعين لهم ، أن لا يدعوا عبادة هذه الأصنام .

[ وقد أضلوا كثيرا ] أي: أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم ، كثيرا من الخلق .

[ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ] أي : لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق ، لكان مصلحة ، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا ، أي : فلم يبق محل لنجاحهم وصلاحهم .

ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال :

نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ
لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ
يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى

---

[ مما خطيئاتهم أغرقوا ] فى اليم الذى أحاط بهم [ فأدخلوا نارا ] فذهبت أجسادهم فى الغرق ، وأرواحهم للنار والحرق .

وهذا كله بسبب خطيئاتهم ، التى أتاهم نبيهم ينذرهم عنها ، ويخبرهم بشؤمها وسوء مغبتها ، فرفضوا ما قال ، حتى حل بهم النكال .

[ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ] ينصرونهم حين نزل بهم الأمر ولا أحد يقدر على أن يعارض القضاء والقدر .

[ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ] يدور على وجه الأرض .

وذكر السبب فقال : [ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ] أى : بقاؤهم مفسدة محضة ، لهم ولغيرهم .

وإنما قال نوح ذلك ، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ، ومزاولته لأخلاقهم ، علم بذلك ، نتيجة أعمالهم ، فلهذا استجاب الله له دعوته ، فأغرقهم أجمعين ، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

---

[ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ] خص المذكورين، لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عم الدعاء فقال: [ وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ] أى: خسارا، ودمارا، وهلاكا.

تم تفسير سورة نوح - والحمد لله

تفســـير

# سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾

---

* أى : [ قل ] يا أيها الرسول للناس [ أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ] صرفهم الله إلى رسوله ، لسماع آياته ، لتقوم عليهم الحجة ،وتتم عليهم النعمة ، ويكونوا منذرين لقومهم .

وأمر رسوله ، أن يقص نبأهم على الناس .

وذلك : أنهم لما حضروه قالوا : أنصتوا .

فلما أنصتوا ، فهموا معانيه ، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم .

[ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ] أى:من العجائب الغالية،والمطالب العالية .

[ يهدى إلى الرشد ] والرشد : اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم .

[ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ] فجمعوا بين الإيمان ، الذى يدخل فيه جميع أعمال الخير ، وبين التقوى ، المتضمنة لترك الشر .

وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾
وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن
تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ

---

وجعلوا السبب الداعى لهم إلى الإيمان وتوابعه ، ما علموه من إرشادات القرآن ، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد ، واجتناب المضار ، فإن ذلك آية عظيمة ، وحجة قاطعة ، لمن استنار به ، واهتدى بهديه .

وهذا هو الإيمان النافع ، المثمر لكل خير ، المبنى على هداية القرآن .

بخلاف إيمان العوائد، والمربى، والإلف ونحو ذلك ، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة .

* [ وأنه تعالى جدر بنا ] أى : تعالت عظمته وتقدست أسمائه .

* [ ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ] فعلموا من جد الله وعظمته ، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدا ، لأن له العظمة والجلال ، فى كل صفة كمال .

واتخاذ الصاحبة والولد ، ينافى ذلك ، لأنه يضاد كمال الغنى .

[ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ] أى : قولا جائرا عن الصواب ، متعديا للحد ، وما حمله على ذلك ، إلا سفهه ، وضعف عقله

وإلا ، فلو كان رزينا مطمئنا ، لعرف كيف يقول .

[ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ] أى : كنا مغترين قبل ذلك ، غرتنا السادة والرؤساء من الجن والإنس ، فأحسنا بهم

يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا

---

الظن ، وحسبناهم لا يتجرأون على الكذب على الله ، فلذلك كنا قبل ذلك على طريقهم .

فاليوم إذ بان لنا الحق ، سلكنا طريقه ، وانقدنا له ، ولم نبال بقول أحد من الخلق ، يعارض الهدى .

[ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ] .

أى : كان الإنس ، يعوذون بالجن ، عند المخاوف والأفزاع ، ويعبدونهم .

فزاد الإنس الجن رهقا ، أى : طغيانا وتكبرا ، لما رأوا الإنس يعبدونهم ، ويستعيذون بهم .

ويحتمل أن الضمير وهو « الواو » يرجع إلى الجن ، أى : زاد الجن الإنس ذعرا وتخويفا ، لما رأوهم يستعيذون بهم ، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم ، والتمسك بما هم عليه .

فكان الإنسى إذا نزل بواد مخوف قال « أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه » .

[ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ] .

أى : فلما أنكروا البعث ، أقدموا على الشرك والطغيان .

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ
فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ
أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا

---

[ وأنا لمسنا السماء ] أى: أتيناها واختبرناها [ فوجدناها ملئت حرسا شديدا ] عن الوصول إلى أرجائها ، والدنو منها .

[ وشهبا ] يرمى بها من استرق السمع ، وهذا مخالف لعادتنا الأولى .

فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء .

[ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ] فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله .

[ فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ] أى : مرصدا له ، معدا لإتلافه وإحراقه .

أى : وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم .

وجزموا أن الله تعالى ، أراد أن يحدث فى الأرض حادثا كبيرا ، من خير أو شر .

فلهذا قالوا [ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ] أى: لابد من هذا أو هذا ، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرا أنكروه ، فعرفوا بفطنتهم ، أن هذا الأمر يريده الله ، ويحدثه فى الأرض .

وفى هذا بيان لأدبهم ، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى ، والشر حذفوا فاعله تأدبا .

ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

---

[وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك] أى : فساق ، وفجار ، وكفار .

[كنا طرائق قددا] أى : فرقا متنوعة ، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون .

[وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا] أى : وأنا فى وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله ، وكمال عجزنا ، وأن نواصينا بيد الله ، فلن نعجزه فى الأرض ، ولن نعجزه إن هربنا ، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته ، لا ملجأ منه ، إلا إليه .

[وأنا لما سمعنا الهدى] وهو : القرآن الكريم الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعرفنا هدايته وإرشاده ، أثّر فى قلوبنا و [آمنا به] .

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا : [فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا] .

أى : من آمن به إيمانا صادقا ، فلا عليه نقص ، ولا أذى يلحقه ، وإذا سلم من الشر ، حصل له الخير .

فالإيمان ، سبب داع إلى كل خير ، وانتفاء كل شر .

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟

---

[ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ] أى : الجائرون ، العادلون عن الصراط المستقيم .

[ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ] أى : أصابوا طريق الرشد ، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها .

[ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ] وذلك جزاء على أعمالهم ، لا ظلم من الله لهم .

[ وأن لو استقاموا على الطريقة ] المثلى [ لأسقيناهم ماء غدقا ] .

أى : هنيئا مريئا ، ولم يمنعهم من ذلك ، إلا ظلمهم وعدوانهم .

[ لنفتنهم فيه ] أى : لنختبرهم ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب .

[ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ] أى : من أعرض عن ذكر الله . الذى هو كتابه ، فلم يتبعه ، ويَنْقَدْ له ، بل لها عنه وغفل ، يسلكه عذابا صعدا ، أى : بليغا شديدا .

[ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ] أى : لا دعاء عبادة ، ولا دعاء مسئلة .

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ
أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى
لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا

---

فإن المساجد ، التى هى أعظم محالٍّ للعبادة ، مبنية على الإخلاص لله ، والخضوع لعظمته ، والاستكانة لعزته .

[ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ] أى : يسأله ويتعبد له ، ويقرأ القرآن .

[ كادوا ] أى : الجن من تكاثرهم عليه [ يكونون عليه لبدا ] .

أى : متلبدين متراكمين ، حرصا على ما جاء به من الهدى .

[ قل ] لهم ، يا أيها الرسول ، مبينا حقيقة ما تدعو إليه :

[ إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ] أى : أوحده ، وحده لاشريك له ، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان ، وكل ما يتخذه المشركون من دونه .

[ قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ] فإنى عبد ليس من الأمر والتصرف شىء .

[ قل إنّى لن يجيرنى من الله أحد ] أى:لا أحد أستجير به ينقذنى من عذاب الله .

وإذا كان الرسول الذى هو أكمل الخلق ، لا يملك ضرا ولا رشدا ، ولا يمنع نفسه من الله شيئا ، إن أراده بسوء ، فغيره من الخلق ، من باب أولى وأحرى .

[ ولن أجد من دونه ملتحدا ] أى : ملجأ ومنتصرا [ إلا بلاغا من الله ورسالاته ] أى : ليس لى مزية على الناس ، إلا أن الله خصنى بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقه إليه ، وبذلك تقوم الحجة على الناس .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ
أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ
أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

[ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ] وهذا المراد به ، المعصية الكفرية ، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة .

وأما مجرد المعصية ، فإنه لا يوجب الخلود في النار ، كما دلت على ذلك آيات القرآن ، والأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجمع عليه سلف الأمة ، وأئمة هذه الأمة .

[ حتى إذا رأوا ما يوعدون ] أى : شاهدوه عيانا ، وجزموا أنه واقع بهم .

[ فسيعلمون ] فى ذلك الوقت حقيقة المعرفة [ من أضعف ناصرا وأقل عدداً ] حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصرون ، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة .

[ قل ] لهم إن سألوك فقالوا : « متى هذا الوعد » ؟ .

[ إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا ] أى : غاية طويلة ، فعلم ذلك ، عند الله .

[عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ] من الخلق ، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار ، والغيوب .

وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

---

[ إلا من ارتضى من رسول ] أى : فإنه يخبره بما اقتضت حكمته ، أن يخبره به .

وذلك لأن الرسل ، ليسوا كغيرهم ، فإن الله أيدهم بتأييد ، ما أيده أحدا من الخلق ، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته ، من غير أن تقربه الشياطين ، فيزيدوا فيه أو ينقصوا ، ولهذا قال .

[ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ] أى . يحفظونه بأمر الله .

[ ليعلم ] بذلك [ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ] بما جعله لهم من الأسباب .

[ وأحاط بما لديهم ] أى : بما عندهم ، وما أسروه وما أعلنوه .

[ وأحصى كل شىء عددا ] ، وفى هذه السورة فوائد عديدة .

منها : وجود الجن ، وأنهم مأمورون منهيون ، ومجازون بأعمالهم ، كما هو صريح فى هذه السورة .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبعوث إلى الجن ، كما هو مبعوث إلى الإنس .

فإن الله صرف نفرا من الجن ، ليستمعوا ما يوحى إليه ، ويبلغوا قومهم .

. . . . . . . . . . .

ومنها : ذكاء الجن ، ومعرفتهم بالحق ، وأن الذى ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن ، وحسن أدبهم فى خطابهم .

ومنها . اعتناء الله برسوله ، وحفظه لما جاء به .

فحين ابتدأت بشائر نبوته ، والسماء محروسة بالنجوم ، والشياطين قد هربت من أماكنها ، وأزعجت عن مراصدها ، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر ، وأراد بهم ربهم رشدا ، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ، ومعرفته فى الأرض ، ما تبتهج به القلوب ، وتفرح به أولو الألباب وتظهر به شعائر الإسلام ، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام .

ومنها : شدة حرص الجن على استماعهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتراكمهم عليه .

ومنها : أن هذه السورة ، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، وبينت حالة الخلق ، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة .

لأن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ، إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا ، بل ولا يملك لنفسه ، علم أن الخلق كلهم كذلك .

فمن الخطأ والظلم ، اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر .

ومنها : أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد من الخلق ، إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شىء منها .

تم تفسير سورة الجن - والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ
أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

---

* المزمل : المتغطى بثيابه كالمدثر ، وهذا الوصف ، حصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أكرمه الله برسالته ، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه .

فرأى أمرا ، لم ير مثله ، ولا يقدر على الثبات عليه ، إلا المرسلون .

فاعتراه عند ذلك ، انزعاج ، حين رأى جبريل عليه السلام .

فأتى إلى أهله فقال : « زملونى زملونى » وهو ترعد فرائصه .

ثم جاءه جبريل فقال « اقرأ » فقال « ما أنا بقارىء » فغطه حتى بلغ منه الجهد وهو يعالجه على القراءة ، فقرأ صلى الله عليه وسلم .

ثم ألقى الله عليه الثبات ، وتابع عليه الوحى ، حتى بلغ مبلغا ، ما بلغه أحد من المرسلين .

فسبحان الله ، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها ، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف ، الذى وجد منه أول أمره .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا

فأمره هنا ، بالعبادات المتعلقة به ، ثم أمره بالصبر ، على أذية قومه ، ثم أمره بالصدع بأمره ، وإعلان دعوتهم إلى الله .

فأمره هنا ، بأشرف العبادات ، وهى الصلاة ، وبآكد الأوقات وأفضلها ، وهو قيام الليل .

ومن رحمته به ، أنه لم يأمره بقيام الليل كله ، بل قال : [ قم الليل إلا قليلا ] .

ثم قدر ذلك فقال ، [ نصفه أو انقص منه ] أى : من النصف [ قليلا ] بأن يكون الثلث ونحوه [ أو زد عليه ] أى : على النصف ، فيكون نحو الثلثين .

[ ورتل القرآن ترتيلا ] فإن ترتيل القرآن ، به يحصل التدبر والتفكر ، وتحريك القلوب به ، والتعبد بآياته ، والتهيؤ ، والاستعداد التام له .

فإنه قال : [ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ] أى : نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أى : العظيمة معانيه ، الجليلة أوصافه .

وما كان بهذا الوصف ، حقيق أن يتهيأ له ويرتل ، ويتفكر فيما يشتمل عليه .

ثم ذكر الحكمة فى أمره بقيام الليل فقال :

[ إن ناشئة الليل ] أى : الصلاة فيه بعد النوم [ هى أشد وطئا وأقوم قيلا ] أى : أقرب إلى حصول مقصود القرآن ، يتواطأ عليه القلب واللسان ، وتقل الشواغل ، ويفهم ما يقول ، ويستقيم له أمره .

وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ

---

وهذا بخلاف النهار ، فإنه لا تحصل به هذه المقاصد ، ولهذا قال :

[ إن لك فى النهار سبحا طويلا ] أى : ترددا فى حوائجك ومعاشك ، يوجب اشتغال القلب ، وعدم تفرغه التفرغ التام .

[ واذكر اسم ربك ] شامل لأنواع الذكر كلها [ وتبتل إليه تبتيلا ] أى : انقطع إليه ، فإن الانقطاع إلى الله ، والإنابة إليه ، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق ، والاتصاف بمحبة الله ، وما يقرب إليه ، ويوفى من رضاه .

[ رب المشرق والمغرب ] وهذا اسم جنس ، يشمل المشارق والمغارب كلها فهو تعالى رب المشارق والمغارب ، وما يكون فيها من الأنوار ، وما هى مصلحة له من العالم العلوى والسفلى ، فهو رب كل شىء ، وخالقه ، ومدبره .

[ لا إله إلا هو ] أى : لا معبود إلا وجهه الأعلى ، الذى يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم ، والإجلال والتكريم ، ولهذا قال :

[ فاتخذه وكيلا ] أى : حافظا ومدبرا لأمورك كلها .

فلما أمره الله بالصلاة خصوصا ، وبالذكر عموما ، وبذلك تحصل للعبد ملكة قوية ، فى تحمل الأثقال ، وفعل الشاق من الأعمال ، أمره بالصبر ،

هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ

---

على ما يقوله المعاندون له ويسبونه ، ويسبون ما جاء به ، وأن يمضى على أمر الله ، لا يصده عنه صاد ، ولا يرده راد ، وأن يهجرهم هجرا جميلا ، وهو الهجر ، حيث اقتضت المصلحة الهجر ، الذى لا أذية فيه ، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن أقوالهم ، التى تؤذيه ، وأمره بجدالهم بالتى هى أحسن .

[ وذرنى والمكذبين ] أي : اتركنى وإياهم ، فسأنتقم منهم ، وإن أمهلتهم ، فلا أهملهم .

وقوله : [ أولى النعمة ] أى : أصحاب النعمة والغنى ، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه ، وأمدهم من فضله كما قال تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال : [ إن لدينا ] إلى [ مهيلا ] .

* أى : إن عندنا [ أنكالا ] أى : عذابا شديدا ، جعلناه تنكيلا للذى لا يزال مستمرا على ما يغضب الله .

[ وجحيما ] أى: نارا حامية [ وطعاما ذا غصة ] وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن .

وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

---

[ وعذابا أليما ] أى : موجعا مفظعا ، وذلك [ يوم ترجف الأرض والجبال ] من الهول العظيم .

[ وكانت الجبال ] الراسيات الصم الصلاب [ كثيبا مهيلا ] .

أى : بمنزلة الرمل المنهال المنتثر ، ثم إنها تبس بعد ذلك ، فتكون كالهباء المنثور .

* يقول تعالى : احمدوا ربكم ، على إرسال هذا النبى الأمى العربى البشير النذير ، الشاهد على الأمة بأعمالهم ، واشكروه ، وقوموا بهذه النعمة الجليلة .

وإياكم أن تكفروا ، فتعصوا رسولكم ، فتكونوا كفرعون ،حين أرسل الله إليه موسى بن عمران ، فدعاه إلى الله ، وأمره بالتوحيد ، فلم يصدقه ، بل عصاه ، فأخذه الله أخذا وبيلا ، أى شديدا بليغا .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

---

* أى : فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة ، اليوم المهول أمره ، العظيم خطره ، الذى يشيب الولدان ، وتذوب له الجمادات العظام ، فتتفطر السماء وتنتثر نجومها [ كان وعده مفعولا ] أى : لابد من وقوعه ، ولا حائل دونه .

* أى : إن هذه الموعظة التى نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون ، وينزجر بها المؤمنون.

[ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ] أى : طريقا موصلا إليه ، وذلك باتباع شرعه ، فإنه قد أبانه كل البيان ، وأوضحه غاية الإيضاح .

وفى هذا دليل ، على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم ، ومكّنهم منها .

لا كما يقوله الجبرية : إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم ، فإن هذا ، خلاف النقل والعقل .

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ

---

* ذكر الله في أول هذه السورة ، أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل ، وثلثيه ، أو ثلثه .

والأصل ، أن أمته أسوة له فى الأحكام .

وذكر فى هذا الموضع ، أنه امتثل ذلك ، هو وطائفة معه من المؤمنين .

ولما كان تحرير الوقت المأمور به ، مشقة على الناس ، أخبر أنه سهل عليهم فى ذلك غاية التسهيل فقال :

[ والله يقدر الليل والنهار ] أى : يعلم مقاديرها ، وما يمضى ، ويبقى منهما .

[ علم أن لن تحصوه ] أى : لن تعرفوا مقداره،من غير زيادة ولا نقص لكون ذلك ، يستدعى انتباها ، وعناء زائدا .

[ فتاب عليكم ] أى : نخفف عنكم ، وأمركم بما تيسر عليكم ، سواء زاد على المقدر ، أو نقص .

[ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ] أى : مما تعرفون ، ولا يشق عليكم .

ولهذا كان المصلى بالليل ، مأمورا بالصلاة ، ما دام نشيطا ، فإذا فتر ، أو كسل ، أو نعس ، فليسترح ، ليأتى الصلاة بطمأنينة وراحة .

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟

---

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف فقال :

[ علم أن سيكون منكم مرضى ] يشق عليهم صلاة نصف الليل ، أو ثلثيه ، أو ثلثه ، فليصل المريض ، ما يسهل عليه ، ولا يكون أيضا مأمورا بالصلاة قائما ، عند مشقة ذلك ، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة ، فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحا .

[ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ] أى : وعلم أن منكم مسافرين ، يسافرون للتجارة ، ليستغنوا عن الخلق ، ويتكففوا عنهم .

أى : فالمسافر ، حاله تناسب التخفيف ، ولهذا خفف عنه فى صلاة الفرض ، فأبيح له جمع الصلاتين فى وقت واحد ، وقصر الصلاة الرباعية .

[ وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه ] فذكر تعالى تخفيفين ، تخفيفا للصحيح المقيم ، يراعى فيه نشاطه ، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت ، بل يتحرى الصلاة الفاضلة ، وهى ثلث الليل بعد نصفه الأول .

وتخفيفا للمريض والمسافر ، سواء كان سفره للتجارة ، أو لعبادة ، من جهاد ، أو حج ، أو غيره ، فإنه يراعى ما لا يكلفه .

فلله الحمد والثناء ، حيث لم يجعل علينا فى الدين من حرج ، بل سهل شرعه ، وراعى أحوال عباده ، ومصالح دينهم ، وأبدانهم ودنياهم .

ثم أمر العباد بعبادتين ، هما أم العبادات وعمادها .

مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا

---

إقامة الصلاة ، التي لا يستقيم الدين إلا بها .

وإيتاء الزكاة ، التي هي برهان الإيمان ، وبها تحصل المواساة للفقراء ، والمساكين فقال :

[ وأقيموا الصلاة ] أي : بأركانها وحدودها ، وشروطها ، وجميع مكملاتها .

[ وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ] أي : خالصا لوجه الله ، بنية صادقة ، وتثبيت من النفس ، ومال طيب ، ويدخل في هذا ، الصدقة الواجبة والمستحبة .

ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال :

[ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا].

الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير ، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا ، وما عليها في دار النعيم المقيم ، من اللذات والشهوات .

وإن الخير والبر في هذه الدنيا ، مادة الخير والبر في دار القرار ، وبذره وأصله وأساسه .

فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات .

وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات .

وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها ، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها .

فلك اللهم الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، ولاحول ولا قوة إلا بك .

[ واستغفر الله إن الله غفور رحيم ] وفى الأمر بالاستغفار ، بعد الحث على أفعال الطاعة والخير ، فائدة كبيرة .

وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به ، إما أن لا يفعله أصلا أو يفعله على وجه ناقص .

فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار ، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار .

فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته ، فإنه هالك .

تم تفسير سورة المزمل - والحمد لله

تفسير

# سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

---

* تقدم أن المزمل والمدثر ، بمعنى واحد ، وأن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالاجتهاد فى عبادات الله القاصرة والمتعدية .

فتقدم هناك ، الأمر له بالعبادات الفاضلة والقاصرة ، والصبر على أذى قومه .

وأمره هنا ، بالإعلان بالدعوة ، والصدع بالإنذار ، فقال :

[ قم ] أى : بجد ونشاط [ فأنذر ] الناس ، بالأقوال والأفعال ، التى يحصل بها المقصود ، وبيان حال المنذر عنه ، ليكون ذلك أدعى لتركه .

[ وربك فكبر ] أى : عظمه بالتوحيد ، واجعل قصدك فى إنذارك وجه الله ، وأن يعظمه العباد ، ويقوموا بعبادته .

[ وثيابك فطهر ] يحتمل أن المراد بالثياب ، أعماله كلها ، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات ، والمنقصات من شر ورياء ، ونفاق ، وعجب ، وتكبر ، وغفلة وغير ذلك ، مما يؤمر العبد باجتنابه فى عباداته .

. . . . . . . . . . .

---

ويدخل فى ذلك ، تطهير الثياب من النجاسة ، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال .

خصوصا فى الصلاة ، التى قال كثير من العلماء : إن إزالة النجاسة عنها ، شرط من شروطها « أى : من شروط صحتها » .

ويحتمل أن المراد بثيابه ، الثياب المعروفة ، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات ، فى جميع الأوقات ، خصوصا عند الدخول فى الصلوات .

وإذا كان مأمورا بطهارة الظاهر ، فإن طهارة الظاهر ، من تمام طهارة الباطن .

[ والرجز فاهجر ] يحتمل أن المراد بالرجز : الأصنام ، والأوثان ، التى عبدت مع الله .

فأمره بتركها والبراءة منها ، ومما نسب إليها ، من قول أو عمل .

ويحتمل أن المراد بالرجز : أعمال الشر كلها ، وأقواله ، فيكون أمرا له بترك الذنوب ، صغارها ، وكبارها ، ظاهرها وباطنها ، فيدخل فى هذا ، الشرك فما دونه .

[ ولا تمنن تستكثر ] أى : لا تمنن على الناس ، بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية ، فتستكثر بتلك المنة ، وترى الفضل عليهم .

بل أحسن إلى الناس ، مهما أمكنك ، وانسَ عندهم إحسانك ، واطلب أجرك من الله تعالى ، واجعل من أحسنت إليه وغيره ، على حد سواء .

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

وقد قيل : إن معنى هذا،ألا تعطى أحدا شيئا،وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه ، فيكون هذا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

[ ولربك فاصبر ] أى : احتسب بصبرك ، واقصد به وجه الله تعالى .

فامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، وبادر فيه ، فأنذر الناس ، وأوضح لهم بالآيات البينات ، جميع المطالب الإلهية .

وعظم الله تعالى ، ودعا الخلق إلى تعظيمه ، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة ، من كل سوء .

وهجر كل ما يعبد من دون الله ، وما يعبد معه من الأصنام وأهلها ، والشر وأهله .

وله المنة على الناس ـ بعد منة الله ـ من غير أن يطلب عليهم بذلك جزاء ولا شكورا .

وصبر لربه أكمل صبر : فصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه .

وصبر على أقداره المؤلمة ، حتى فاق أولى العزم من المرسلين . صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا

---

* أى : فإذا نفخ فى الصور للقيام من القبور ، وجمع الخلائق للبعث والنشور .

[ فذلك يومئذ يوم عسير ] لكثرة أهواله وشدائده .

[ على الكافرين غير يسير ] لأنهم قد أيسوا من كل خير ، وأيقنوا بالهلاك والبوار .

ومفهوم ذلك ، أنه على المؤمنين يسير ، كما قال تعالى : « يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

* هذه الآيات ، نزلت فى الوليد بن المغيرة ، المعاند للحق ، المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة .

فذمه الله ذما ، لم يذم به غيره ، وهذا جزاء كل من عاند الحق ، ونابذه، أن له الخزى فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، فقال :

[ ذرنى ومن خلقت وحيدا ] أى : خلقته منفردا ، بلا مال ، ولا أهل، ولا غيره ، فلم أزل أربيه وأعطيه .

[ وجعلت له مالا ممدودا ] أى : كثيرا [ و ] جعلت له [ بنين ] أى : ذكورا [ شهودا ] أى : حاضرين عنده على الدوام ، يتمتع بهم ، ويقضى بهم حوائجه ، ويستنصر بهم .

مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ
يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ
صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ

---

[ ومهدت له تمهيدا ] أى : مكنته من الدنيا وأسبابها ، حتى انقادت له مطالبه ، وحصل له ما يشتهى ويريد .

[ ثم ] مع هذه النعم والإمدادات [ يطمع أن أزيد ] أى : يطمع أن ينال نعيم الآخرة ، كما نال نعيم الدنيا .

[ كلا ] أى : ليس الأمر كما طمع ، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه.

وذلك [ إنه كان لآياتنا عنيدا ] عرفها ، ثم أنكرها ، ودعته إلى الحق، فلم ينقد لها .

ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولى ، بل جعل يحاربها ، ويسعى فى إبطالها، ولهذا قال عنه :

[ إنه فكر ] أى : فى نفسه [ وقدر ] ما فكر فيه ، ليقول قولا ، يبطل به القرآن .

[ فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ] لأنه قدر أمراً ، ليس فى طوره ، وتسوّر على ما لا يناله ، هو ولا أمثاله .

[ ثم نظر ] ما يقول [ ثم عبس وبسر ] فى وجهه ، وظاهره نفرة عن الحق ، وبغضا له .

أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَٰكَ
مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا

---

[ ثم أدبر ] أى : تولى [ واستكبر ] نتيجة سعيه الفكرى ، والعملى والقولى .

[ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر ] أى: ما هذا كلام الله ، بل كلام البشر ، وليس أيضا كلام البشر الأخيار ، بل كلام الأشرار منهم ، والفجار ، من كل كاذب سحار .

فتبًّا له ، ما أبعده من الصواب ، وأحراه بالخسارة والتباب ! !

كيف يدور في الأذهان ، أو يتصوره ضمير أى إنسان ، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه ، كلام الرب الكريم ، الماجد العظيم ، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين ؟ !

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد ، على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى ؟ !

فما حقه إلا العذاب الشديد ، ولهذا قال تعالى :

[ سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقى ولا تذر ] أى : لا تبقى من الشدة ، ولا على المعذب شيئا ، إلا وبلغته .

[ لواحة للبشر ] أى : تلوحهم وتصليهم فى عذابها ، وتقلقهم بشدة حرها وقرِّها .

تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

---

[ عليها تسعة عشر ] من الملائكة خزنة لها ، غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

[ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ] وذلك لشدتهم وقوتهم .

[ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ] يحتمل أن المراد : إلا لعذابهم وعقابهم فى الآخرة ، ولزيادة نكالهم فيها ، والعذاب ، يسمى فتنة كما قال تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » .

ويحتمل أن المراد : أنا ما أخبرناكم بعدتهم ، إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب .

ويدل على هذا ، ما ذكره بعده فى قوله : [ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ] .

فإن أهل الكتاب ، إذا وافق ما عندهم وطابقه ، ازداد يقينهم بالحق .

والمؤمنون ، كلما أنزل الله آية ، فآمنوا بها ، وصدقوا ، ازداد إيمانهم .

[ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ] أى : ليزول عنهم الريب والشك .

وهذه مقاصد جليلة ، يعتنى بها أولو الألباب ، وهى : السعى فى اليقين ،

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ

---

وزيادة الإيمان فى كل وقت ، وكل مسئلة من مسائل الدين ، ودفع الشكوك والأوهام ، التى تعرض فى مقابلة الحق .

فجعل ما أنزله على رسوله ، محصلا لهذه المقاصد الجليلة ، ومميزا للصادقين من الكاذبين .

ولهذا قال : [وليقول الذين فى قلوبهم مرض ] أى : شك وشبهة ونفاق.

[ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ] وهذا على وجه الحيرة والشك منهم ، والكفر بآيات الله ، وهذا وذاك ، من هداية الله لمن يهديه ، وإضلاله لمن يضله ، ولهذا قال :

[ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ] فمن هداه الله ، جعل ما أنزل على رسوله رحمة فى حقه ، وزيادة فى إيمانه ودينه .

ومن أضله ، جعل ما أنزله على رسوله ، زيادة شقاء عليه وحيرة ، وظلمه فى حقه .

والواجب ، أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله ، بالتسليم .

[ وما يعلم جنود ربك ] من الملائكة وغيرهم [ إلا هو ] فإذا كنتم جاهلين بجنوده ، وأخبركم بها العليم الخبير ، فعليكم أن تصدقوا خبره ، من غير شك ولا ارتياب .

لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾

---

[ وما هى إلا ذكرى للبشر ] أى : وما هذه الموعظة والتذكار ، مقصودا به العبث واللعب ، وإنما المقصود به ، أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه .

* [ كلا ] هنا ، بمعنى : حقاً ، أو بمعنى « ألا » الاستفتاحية .

فأقسم تعالى بالقمر ، وبالليل وقت إدباره ، والنهار وقت إسفاره ، لاشتمال المذكورات ، على آيات الله العظيمة ، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته ، وسعة سلطانه ، وعموم رحمته وإحاطة علمه .

والمقسم عليه ، قوله [ إنها لإحدى الكبر ] أى : إن النار لإحدى العظائم الطامة ، والأمور الهامة .

فإذا أعلمناكم بها ، وكنتم على بصيرة من أمرها ، فمن شاء منكم أن يتقدم ، فيعمل بما يقربه إلى الله ، ويدنيه من رضاه ، ويزلفه من دار كرامته .

أو يتأخر عما خلق له ، وعما يحبه الله ويرضاه ، فيعمل بالمعاصى، ويتقرب إلى جهنم ، كما قال تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » الآية .

لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾
عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ
مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ
مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا

---

[ كل نفس بما كسبت ] من أفعال الشر وأعمال السوء [ رهينة ] بها موثقة بسعيها ، قد ألزم عنقها ، وغل فى رقبتها ، واستوجبت به العذاب

[ إلا أصحاب اليمين ] فإنهم لم يرتهنوا ، بل أطلقوا وفرحوا .

[ فى جنات يتساءلون ، عن المجرمين ] أى : فى جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم ، وتمت لهم الراحة والطمأنينة ، حتى أقبلوا يتساءلون .

فأفضت بهم المحادثة ، أن سألوا عن المجرمين : أى حال وصلوا إليها ، وهل وجدوا ما وعدهم الله ؟

فقال بعضهم لبعض « هل أنتم مطلعون عليهم » ، فاطلعوا عليهم فى وسط الجحيم ، يعذبون فقالوا لهم :

[ ما سلككم فى سقر ] أى : أى شىء أدخلكم فيها ؟ وبأى ذنب استحققتموها ؟

[ قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين ] فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان ، ولا نفع للخلق المحتاجين .

[ وكنا نخوض مع الخائضين ] أى : نخوض بالباطل ، ونجادل به الحق .

ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

---

[ وكنا نكذب بيوم الدين ] هذه آثار الخوض بالباطل ، وهو التكذيب بالحق .

ومن أحق الحق ، يوم الدين الذى هو محل الجزاء على الأعمال ، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق .

فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل [ حتى أتانا اليقين ] أى: الموت .

فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل ، وانسد فى وجوههم باب الأمل .

[ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ] لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم .

فلما بين الله مآل المخالفين ، وبين ما يفعل بهم ، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم فقال :

[ فما لهم عن التذكرة معرضين ] أى : صادين غافلين عنها .

[ كأنهم ] فى نفرتهم الشديدة منها [ حمر مستنفرة ] أى : حمر وحش ، نفرت فنفر بعضها بعضا ، فزاد عدوها .

[ فرت من قسورة ] أي : من صائد ورام يريدها ، أو من أسد ونحوه .

وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق ، ومع هذا النفور والإعراض ، يدعون الدعاوى الكبار .

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا
بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ
ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ

---

[ يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ] نازلة عليه من السماء ، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك .

وقد كذبوا ، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

لأنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه ، فلو كان فيهم خير لآمنوا .

ولهذا قال : [ كلا ] أي : لا نعطيهم ما طلبوا ، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز .

[ بل لا يخافون الآخرة ] فلو كانوا يخافونها ، لما جرى منهم ما جرى .

[ كلا إنها تذكرة ] الضمير إما أن يعود على هذه السورة ، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة .

[ فمن شاء ذكره ] لأنه قد بين له السبيل ، ووضح له الدليل .

[ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ] فإن مشيئة الله ، نافذة عامة ، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير .

ففيها رد على القدرية ، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله ،

وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

والجبرية ، الذى يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ، ولا فعل حقيقة ، وإنما هو مجبور على أفعاله .

فأثبت تعالى للعباد مشيئه حقيقة وفعلا ، وجعل ذلك تابعا لمشيئته .

[ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ] أى : هو أهل أن يتقى ويعبد ، لأنه الإله ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه ، واتبع رضاه .

تم تفسير سورة المدثر — ولله الحمد والمنة

تفسير

# سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ

---

* ليست « لا » ههنا نافية ولا زائدة ، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها .

ولكثرة الإتيان بها مع اليمين ، لا يستغرب الاستفتاح بها ، وإن لم تكن فى الأصل موضوعة للاستفتاح .

فالمقسم به فى هذا الموضع ، هو المقسم عليه ، وهو : البعث بعد الموت ، وقيام الناس من قبورهم ثم وقوفهم ، ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم .

[ ولا أقسم بالنفس اللوامة ] وهى جميع النفوس الخيرة والفاجرة .

سميت « لوامة » لكثرة تلونها وترددها ، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها .

ولأنها عند الموت ، تلوم صاحبها على ما فعلت .

بل نفس المؤمن ، تلوم صاحبها فى الدنيا ، على ما حصل منه ، من تفريط وتقصير ، فى حق من الحقوق ، أو غفلة .

عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾

---

فجمع بين الإقسام ، بالجزاء ، وعلى الجزاء ، وبين مستحق الجزاء .

ثم أخبر مع هذا ، أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة فقال :

[ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ] بعدالموت ، كما قال : « قال من يحيي العظام وهى رميم » ؟!! .

فاستبعد من جهله وعدوانه ، قدرة الله على خلق عظامه التى هى عماد البدن ، فرد عليه بقوله :

[ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ] أى : أطراف أصابعه وعظامه .

وذلك مستلزم ، لخلق جميع أجزاء البدن ، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان ، فقد تمت خلقة الجسد .

وليس إنكاره لقدرة الله تعالى ، قصورا بالدليل الدال على ذلك ، وإنما وقع ذلك منه ، لأن إرادته وقصده ، التكذيب بما أمامه من البعث .

والفجور : الكذب مع التعمد . ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

[ فإذا برق ] إلى [ معاذيره ] .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا
لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ

---

* أى : [ فإذا ] كانت القيامة [ برق البصر ] من الهول العظيم، وشخص فلا يطرف كما قال تعالى : « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » .

[ وخسف القمر ] أى : ذهب نوره وسلطانه .

[ وجمع الشمس والقمر ] وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة .

ويخسف القمر ، وتكور الشمس ، ويقذفان فى النار ، ليرى العباد ، أنهما عبدان مسخران .

وليرى من عبدهما ، أنهم كانوا كاذبين .

[ يقول الإنسان يومئذ ] أى : حين يرى تلك القلاقل المزعجات :
[ أين المفر ] أي : أين الخلاص والفكاك ، مما طرقنا ، وألمّ بنا ؟

[ كلا لا وزر ] أى : لا ملجأ لأحد دون الله .

[ إلى ربك يومئذ المستقر ] لسائر العباد ، فليس فى إمكان أحد ، أن يستتر ، أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ، ليجزى بعمله ، ولهذا قال :

يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾
وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾
لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

---

[ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ] أى : بجميع عمله الحسن والسيء، فى أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

[ بل الإنسان على نفسه بصيرة ] أى : شاهد ومحاسب.

[ ولو ألقى معاذيره ] فإنها معاذير لا تقبل، بل يقرر بعمله، فيُقرُّ به، كما قال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ».

فالعبد، وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره، لا يفيدانه شيئا، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه، قد ذهب وقته، وزال نفعه « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ».

* كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا جاءه جبريل بالوحى، وشرع فى تلاوته، بادره النبي صلى الله عليه وسلم، من الحرص، قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه.

فنهاه الله عن ذلك وقال : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ».

وقال هنا : [ لا تحرك به لسانك لتعجل به ] ثم ضمن له تعالى، أنه لابد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله فى صدره فقال :

جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

---

[ إن علينا جمعه وقرآنه ] فالحرص الذى فى خاطرك ، إنما الداعى له حذر الفوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

[ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ] أى : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك ، فحينئذ ، اتبع ما قرأه فاقرأه .

[ ثم إن علينا بيانه ] أى : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه ، وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل صلى الله عليه وسلم لأدب ربه .

فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفى هذه الآية ، أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم للعلم ، قبل أن يفرغ المعلم من المسئلة ، التى شرع فيها ، فإذا فرغ منها ، سأله عما أشكل عليه .

وكذلك إذا كان فى أول الكلام ، ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، قبل الفراغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، وليفهمه فهما ، يتمكن فيه من الكلام فيه ، على وجه الصواب .

وفيها : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كما بين للأمة ألفاظ الوحى ، فإنه قد بين لهم معانيه .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

---

* أى : هذا الذى أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم [ تحبون العاجلة ] وتسعون فيما يحصلها ، وفى لذاتها ، وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة . فتذرون العمل لها .

لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل .

والآخرة متأخر مافيها ، من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها ، وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكأن هذه الدار ، هى دار القرار ، التى تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آناء الليل والنهار ، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل ، لأنجحتم ، وربحتم ربحا لا خسار معه ، وفزتم فوزا ، لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها فقال فى جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا :

[ وجوه يومئذ ناضرة ] أى : حسنة بهية ، لها رونق ونور ، مما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح .

[ إلى ربها ناظرة ] أى : ينظرون إلى ربهم ، على حسب مراتبهم .

ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة .

بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾

---

فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذى ليس كمثله شيء .

فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحصل لهم من اللذة والسرور ، ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، فازدادوا جمالا إلى جمالهم .

فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال فى المؤثرين العاجلة على الآجلة [ وجوه يومئذ باسرة ] أى:معبسة كدرة ، خاشعة ذليلة [ تظن أن يفعل بها فاقرة ] أى : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم ، وعبست .

* يعظ تعالى عباده ، بذكر المحتضر حال السياق ، وأنه إذا بلغت روحه التراقى ، وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر .

فحينئذ يشتد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة .

ولهذا قال : [ وقيل من راق ] أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية ، فتعلقوا بالأسباب الإلهية.

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء ، فلا مرد له .

وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾

---

[ وظن أنه الفراق[1] ] الدنيا [ والتفت الساق بالساق ] أى : اجتمعت الشدائد ، والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح من البدن ، الذى ألفته ، ولم تزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، ليجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر الذى ذكره الله ، يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذى لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على غيه ، وكفره ، وعناده .

[ فلا صدق ] أى : لا آمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره .

[ ولا صلى * ولكن كذب ] بالحق فى مقابلة التصديق [ وتولى ] عن الأمر والنهى ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه .

[ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ] أى : ليس على باله شىء .

ثم توعده بقوله : [ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ] وهذه كلمات

---

(١) أى : أيقن أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا ونعيمها . اهـ . أبو السعود .

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾
فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ
أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

---

وعيد ، كررها ، لتكرير وعيده .

ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول فقال : [ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ] أى : مهملا ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب ؟

هذا حسبان باطل ، وظن بالله ، غير ما يليق بحكمته .

[ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان ] بعد المنى [ علقة ] أى : دما [ فخلق ] الله منها الحيوان [ وسوى ] أى : أتقنه وأحكمه .

[ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك ] أى : الذى خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة [ بقادر على أن يحيي الموتى ] بلى ، إنه على كل شىء قدير .

تم تفسير سورة القيامة

تفســـير

# سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

---

* ذكر الله فى هذه السورة ، أول حال الإنسان ومنتهاها ، ومتوسطها .

فذكر أنه مر عليه [ حين من الدهر ] طويل ، وهو الذى قبل وجوده ، وهو معدوم [ لم يكن شيئا مذكورا ] .

ثم لما أراد خلقه خلق أباه آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلا [ من نطفة أمشاج ] أى : ماء مهين مستقذر [ نبتليه ] بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأولى ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الظاهرة والباطنة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء .

فأتمها له وجعلها سالمة ، يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهداه الطريق الموصلة إليه ، وبيَّنها ، ورغَّبه فيها ، وأخبره بما له عند الوصول إليه .

فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ

---

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك ، ورهّبه عنها ، وأخبره بما له ، إذا سلكها ، وابتلاه بذلك .

فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه ، قائم بما حمله الله من حقوقه .

وإلى كفور للنعم ، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية ، فردّها ، وكفر بربه ، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك .

* أى : إنا هيأنا ، وأرصدنا لمن كفر بالله ، وكذب رسله ، وتجرأ على معاصيه .

[ سلاسل ] فى نار جهنم كما قال تعالى : « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

[ وأغلالا ] تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ، ويوثقون بها .

[ وسعيرا ] أى : نارا تستعر بها أجسامهم ، وتحرق بها أبدانهم ، « كلما نضجت جلودهم ، بدلناهم جلودا غيرها ، ليذوقوا العذاب » .

وهذا العذاب الدائم ، مؤبد لهم ، مخلدون فيه سرمدا .

وأما [ الأبرار ] وهم : الذين برت قلوبهم ، بما فيها من معرفة الله ومحبته ، والأخلاق الجميلة ، فبرت أعمالهم ، واستعملوها بأعمال البر .

بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا

فأخبر أنهم [ يشربون من كأس ] أى : شراب لذيذ ، من خمر قد مزج بكافور ، أى : خلط به ، ليبرده ، ويكسر حدته .

وهذا الكافور ، فى غاية اللذة ، قد سلم من كل مكدر ومنغص ، موجود فى كافور الدنيا .

فإن الآفة الموجودة فى الدنيا ، تعدم من الأسماء ، التى ذكرها الله فى الجنة .

كما قال تعالى : « فى سدر مخضود * وطلح منضود * وأزواج مطهرة * لهم دار السلام عند ربهم * وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » .

[ عينا يشرب بها عباد الله ] أى : ذلك الكأس اللذيذ ، الذى يشربونه ، لا يخافون نفاذه ، بل له مادة لا تنقطع ، وهى عين دائمة الفيضان والجريان ، يفجرها عباد الله تفجيراً ، أنى شاءوا ، وكيف أرادوا .

فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات ، أو إلى الرياض النضرات ، أو بين جوانب القصور ، والمساكن المزخرفات ، أو إلى أى جهة يرونها من الجهات المونقات .

ثم ذكر جملة من أعمالهم فقال : [ يوفون بالنذر ] أى : بما ألزموا به أنفسهم من النذور والمعاهدات .

وإذا كانوا يوفون بالنذر ، الذى هو غير واجب فى الأصل عليهم ، إلا بإيجابهم على أنفسهم ، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية ، من باب أولى وأحرى .

كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم

---

[ ويخافون يوما كان شره مستطيرا ] أى : قاسيا منتشرا .

نخافوا أن ينالهم شره ، فتركوا كل سبب موجب لذلك .

[ ويطعمون الطعام على حبه ] أى : وهم فى حال يحبون فيها المال والطعام .

ولكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم .

ويتحرون فى إطعامهم ، أولى الناس وأحوجهم [ مسكينا ويتيما وأسيراً ]

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم ، وجه الله تعالى ، ويقولون بلسان الحال: [ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ] أى : لا جزاء ماليا ، ولا ثناء قوليا .

[ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا ] أى : شديد الجهمة والشر [قمطريرا] أى : ضنكا ضيقا .

[ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ] فلا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

[ ولقاهم ] أى : أكرمهم وأعطاهم [ نضرة فى وجوههم وسرورا ] فى قلوبهم ، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن .

بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

---

[ وجزاهم بما صبروا ] على طاعته ، فعملوا ما أمكنهم منها ، وعن معاصيه فتركوها ، وعلى أقداره المؤلمة ، فلم يتسخطوها .

[ جنة ] جامعة لكل نعيم ، سالمة من كل مكدر ومنغص .

[ وحريرا ] كما قال تعالى : « ولباسهم فيها حرير » .

ولعل الله إنما خص الحرير ، لأنه لباسهم الظاهر ، الدال على حال صاحبه .

[ متكئين فيها على الأرائك ] الاتكاء : التمكن من الجلوس ، فى حال الطمأنينة ، والراحة ، والرفاهية .

والأرائك ، هى : السرر التى عليها اللباس المزين .

[ لا يرون فيها ] أى : فى الجنة [ شمسا ] يضرهم حرها .

[ ولا زمهريراً ] أى : بردا شديداً ، بل جميع أوقاتهم ، فى ظل ظليل ، لا حر ولا برد ، بحيث تلتذ به الأجساد ، ولا تتألم من حر ولا برد .

[ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ] أى : قربت ثمراتها من مريدها ، تقريبا ينالها ، وهو قائم ، أو قاعد ، أو مضطجع .

[ ويطاف عليهم ] أى : يدور الولدان والخدم على أهل الجنة [ بآنية

قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ
فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا

---

من فضة وأكواب كانت قوارير* وقوارير من فضة ] أى : مادتها فضة ، وهى على صفاء القوارير .

وهذا من أعجب الأشياء ، أن تكون الفضة الكثيفة ، من صفاء جوهرها ، وطيب معدنها ، على صفاء القوارير .

[ قدروها تقديرا ] أى : قدروا الأوانى المذكورة على قدر رِيِّهِمْ ، لا تزيد ولا تنقص .

لأنها لو زادت ، نقصت لذتها ، ولو نقصت ، لم تكفهم لريهم .

ويحتمل أن المراد : قدرها أهل الجنة بمقدار ، يوافق لذاتهم ، فأتتهم على ما قدروا فى خواطرهم .

[ ويسقون فيها ] أى : الجنة [ كأسا ] وهو الإناء من خمر ورحيق .

[ كان مزاجها ] أى : خلطها [ زنجبيلا ] ليطيب طعمه وريحه .

[عينا فيها تسمى سلسبيلا] سميت بذلك ، لسلاستها ، ولذتها ، وحسنها .

[ ويطوف عليهم ] أى : على أهل الجنة ، فى طعامهم ، وشرابهم ، وخدمتهم .

[ ولدان مخلدون] أى : خلقوا من الجنة للبقاء ، لا يتغيرون ، ولا يكبرون، وهم فى غاية الحسن .

مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

[ إذا رأيتهم ] منتشرين فى خدمتهم [ حسبتهم ] من حسنهم [ لؤلؤا منثورا ] .

وهذا من تمام لذة أهل الجنة ، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون ، الذين تسر رؤيتهم ، ويدخلون فى مساكنهم ، آمنين من تبعتهم ، ويأتونهم بما يدعون ، وتطلبه نفوسهم .

[ وإذا رأيت ثم ] أى : رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل .

[ رأيت نعيما وملكا كبيرا ] فتجد الواحد منهم ، عنده من المساكن والغرف المزينة المزخرفة ، ما لا يدركه الوصف .

ولديه من البساتين الزاهرة ، والثمار الدانية ، والفواكه اللذيذة ، والأنهار الجارية ، والرياض المعجبة ، والطيور المطربة المشجية ، ما يأخذ بالقلوب ، ويفرح النفوس .

وعنده من الزوجات . اللاتى فى غاية الحسن والإحسان ، الجامعات لجمال الظاهر والباطن ، الخيرات الحسان ، ما يملأ القلب سرورا ولذة وحبورا .

وحوله من الولدان المخلدين ، والخدم المؤبدين ، ما به تحصل الراحة والطمأنينة ، وتتم لذة العيش ، وتكمل الغبطة .

ثم علاوة ذلك ومعظمه ، الفوز برضا الرب الرحيم ، وسماع خطابه ، ولذة قربه ، والابتهاج برضاه ، والخلود الدائم ، وتزايد ما هم فيه ، من النعيم ، كل وقت وحين .

عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ
وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ
سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾

---

فسبحان مالك الملك ، الحق المبين ، الذى لا تنفد خزائنه ، ولا يقل خيره .

فكما لا نهاية لأوصافه ، فلا نهاية لبره وإحسانه .

[عاليهم ثياب سندس خضر] أى : قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما ، أجل أنواع الحرير .

فالسندس : ما غلظ من الحرير ، والاستبرق : ما رق منه .

[ وحلوا أساور من فضة ] أى : حلوا فى أيديهم ، أساور ، ذكورهم وإناثهم .

وهذا وعد ، وعدهم الله ، وكان وعده مفعولا ، لأنه لا أصدق منه قيلا ولا حديثا .

وقوله : [ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ] أى : لا كدر فيه بوجه من الوجوه ، مطهرا لما فى بطونهم من كل أذى وقذى .

[ إن هذا ] الجزاء الجزيل [ كان لكم جزاء ] على ما أسلفتموه ، من الأعمال .

[ وكان سعيكم مشكورا ] أى : القليل منه ، يجعل الله لكم به ، من النعيم ، ما لا يمكن حصره .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ

---

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة [ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ] وفيه الوعد والوعيد ، وبيان كل ما يحتاجه العباد .

وفيه الأمر بالقيام ، بأوامره وشرائعه ، أتم القيام ، والسعي في تنفيذها ، والصبر على ذلك .

ولهذا قال : [ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا ] أي : اصبر لحكمه القدرى ، فلا تسخطه ، ولحكمه الديني ، فامض عليه ، ولا يعوقنك عنه عائق .

[ ولا تطع ] من المعاندين ، الذين يريدون أن يصدوك [ آثما ] أي فاعلا إثما ومعصية [ ولا كفورا ] فإن طاعة الكفار ، والفجار ، والفساق ، لا بد أن تكون معصية لله ، فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم .

ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله ، والإكثار من ذكره ، أمر الله بذلك فقال : [ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ] أي : أول النهار وآخره .

فدخل في ذلك ، الصلوات المكتوبات ، وما يتبعها ، من النوافل ، والذكر ، والتسبيح ، والتهليل ، والتكبير في هذه الأوقات .

[ ومن الليل فاسجد له ] أي : أكثر له من السجود ، وذلك متضمن لكثرة الصلاة .

وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا

---

[ وسبحه ليلا طويلا ] وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله : « يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه » .

وقوله : [ إن هؤلاء ] أى : المكذبين لك أيها الرسول ، بعد ما بينت لهم الآيات ، ورغبوا ورهبوا ، ومع ذلك ، لم يفد فيهم ذلك شيئا بل لا يزالون [ يحبون العجلة ] ويطمئنون إليها .

[ ويذرون ] أى : يتركون العمل ، ويهملون [ وراءهم ] أى : أمامهم [ يوما ثقيلا ] وهو يوم القيامة ، الذى مقداره ، خمسون ألف سنة مما تعدون .

وقال تعالى : « يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا ، والإقامة فيها .

ثم استدل عليهم وعلى بعثهم ، بدليل عقلى ، وهو دليل الابتداء فقال :

[ نحن خلقناهم ] أى : أوجدناهم من العدم [ وشددنا أسرهم ] .

أى : أحكمنا خلقتهم ، بالأعصاب ، والعروق ، والأوتار ، والقوى الظاهرة والباطنة ، حتى تم الجسم ، واستكمل ، وتمكن من كل ما يريده .

فالذى أوجدهم على هذه الحالة ، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم ، لجزائهم .

والذى نقلهم فى هذه الدار إلى هذه الأطوار ، لا يليق به أن يتركهم

شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ
ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

---

سدى ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون ، ولهذا قال :

[ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ] أى : أنشأناهم للبعث نشأة أخرى ، وأعدناهم بأعيانهم ، وهم بأنفسهم ، أمثالهم .

[ إن هذه تذكرة ] أى : يتذكر بها المؤمن ، فينتفع بما فيها ، من التخويف والترغيب .

[ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ] أى : طريقا موصلا إليه .

فالله ، يبين الحق والهدى ، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها ، والنفور عنها ، إقامة للحجة « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » .

[ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ] فإن مشيئة الله نافذة .

[ إن الله كان عليما حكيما ] فله الحكمة فى هداية المهتدى ، وإضلال الضال .

[ يدخل من يشاء فى رحمته ] فيختصه بعنايته ، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها .

[ والظالمين ] الذين اختاروا الشقاء على الهدى [ أعد لهم عذابا أليما ] بظلمهم وعدوانهم .

تم تفسير سورة الإنسان — ولله الحمد

تفســـــير

# سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال ، بالمرسلات عرفا . وهى : الملائكة التى يرسلها الله تعالى ، بشئونه القدرية وتدبير العالم ، وبشئونه الشرعية ، ووحيه إلى رسله .

و [ عرفا ] حال من المرسلات ، أى : أرسلت بالعرف ، والحكمة ، والمصلحة ، لا بالنكر والعبث .

[ فالعاصفات عصفا ] وهى : أيضا الملائكة ، التى يرسلها الله تعالى ، وصفها بالمبادرة لأمره ، وسرعة تنفيذ أوامره ، كالريح العاصف .

أو : أن العاصفات ، الرياح الشديدة ، التى يسرع هبوبها .

[ فالناشرات نشرا ] يحتمل أن المراد بها : الملائكة ، تنشر ما دبرت على نشره .

أو أنها : السحاب ، التى ينشر بها الله الأرض ، فيحييها بعد موتها .

[ فالملقيات ذكرا ] هى : الملائكة ، تلقى أشرف الأوامر .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ

---

وهو : الذكر الذى يرحم الله به عباده ، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم ، تلقيه إلى الرسل .

[ عذرا أو نذرا ] أى : إعذارا ، أو إنذارا للناس .

تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف ، وتقطع أعذارهم ، فلا يكون لهم حجة على الله .

[ إنما توعدون ] من البعث والجزاء على الأعمال [ لواقع ] أى: متحتم وقوعه ، من غير شك ولا ارتياب .

فإذا وقع حصل من التغير والأهوال الشديدة للعالم ، ما يزعج القلوب وتشتد له الكروب ، فتنطمس النجوم ، أى : تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال ، فتكون كالهباء المنثور ، وتكون هى والأرض ، قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

وذلك اليوم ، هو اليوم الذى أقتت فيه الرسل ، وأجلت للحكم بينها وبين أممها .

ولهذا قال : [ لأى يوم أجلت ] استفهام للتعظيم والتفخيم ،والتهويل.

ثم أجاب بقوله : [ ليوم الفصل ] أى : بين الخلائق ، بعضهم من بعض ، وحساب كل منهم منفردا .

ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ

---

ثم توعد المكذب بهذا اليوم فقال : [ ويل يومئذ للمكذبين ] .

أى : يا حسرتهم وشدة عذابهم ، وسوء منقلبهم .

أخبرهم الله ، وأقسم لهم ، فلم يصدقوه ، فلذلك استحقوا العقوبة البليغة .

* أى : أما أهلكنا المكذبين السابقين ، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين .

وهذه سنته السابقة واللاحقة، فى كل مجرم لابد من عقابه، فلم لاتعتبرون بما ترون وتسمعون ؟

[ ويل يومئذ للمكذبين ] بعد ما شاهدوا من الآيات البينات ، والعقوبات والمثلات .

* أى : أما خلقناكم ، أيها الآدميون [ من ماء مهين ] أى : فى غاية الحقارة ، خرج من بين الصلب والترائب ، حتى جعله الله [ فى قرار مكين ] وهو الرحم ، به يستقر وينمو .

مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ

---

[ إلى قدر معلوم ] ووقت مقدر .

[ فقدرنا ] أى : قدرنا ودبرنا ذلك الجنين ،فى تلك الظلمات ، ونقلناه من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى أن جعله الله جدا ، ونفخ فيه الروح ومنهم من يموت قبل ذلك .

[ فنعم القادرون ] يعنى بذلك ، نفسه المقدسة ، لأن قدره ، تابع لحكمته موافق للحمد ، [ ويل يومئذ للمكذبين ] .

* أى : أما مَنَنَّا عليكم ، وأنعمنا ، بتسخير الأرض لمصالحكم .

فجعلناها [ كفاتا[1] ] لكم [ أحياء ] فى الدور [وأمواتا] فى القبور .

فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته ، فكذلك القبور، رحمة فى حقهم ، وستر لهم ، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها .

[ وجعلنا فيها رواسى ] أى : جبالا ، ترسى الأرض ، لئلا تميد بأهلها فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات ، أى : الطوال العراض .

[ وأسقيناكم ماء فراتا ] أى : عذبا زلالا ، قال تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء

---

(١) كفاتا ، أى : وعاء تضم الأحياء والأموات . والمعنى : أن الأرض تجمع الناس جميعهم . ظهرها لأحيائهم ، وبطنها لأمواتهم .

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ
إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾

---

جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

[ ويل يومئذ للمكذبين ] مع ما أراهم الله من النعم ، التى انفرد بها ، واختصهم بها ، فقابلوها بالتكذيب .

هذا من الويل ، الذى أعد للمجرمين المكذبين ، أن يقال لهم يوم القيامة :

[ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ] ثم فسر ذلك بقوله :

[ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ] أى : إلى ظل نار جهنم ، التى تمايز فى خلاله ، ثلاث شعب ، أى : قطع من النار ، تتعاوره ، وتتناوبه ، وتجتمع به .

[ لا ظليل ] ذلك الظل ، أى : لا راحة فيه ، ولا طمأنينة .

[ ولا يغنى ] من مكث فيه [ من اللهب ] بل اللهب قد أحاط به ، يمنة ويسرة ، ومن كل جانب ، كما قال تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ

---

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين » .

ثم ذكر عظيم شرر النار ، الدال على عظمها وفظاعتها ، وسوء منظرها فقال :

[ إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر ] وهى : السود التى تضرب إلى لون ، فيه صفرة ، وهذا يدل على أن النار مظلمة ، لهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء ، كريهة المنظر ، شديدة الحرارة .

نسأل الله العافية منها ، ومن الأعمال المقربة منها .

[ ويل يومئذ للمكذبين ] .

* أى : هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين ، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد .

[ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ] أى : لا تقبل معذرتهم ، ولو اعتذروا « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون »

[ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ] لنفصل بينكم ، ونحكم بين الخلائق .

جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا

---

[ فإن كان لكم كيد تقدرون على الخروج به عن ملكى ، وتنجون من عذابى [ فكيدون ] أى : ليس لكم قدرة ، ولا سلطان ، كما قال تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » .

فنى ذلك اليوم ، تبطل حيل الظالمين ، ويضمحل مكرهم وكيدهم ، ويستسلمون لعذاب الله ، ويبين لهم كذبهم فى تكذيبهم [ ويل يومئذ للمكذبين ] .

* لما ذكر عقوبة المكذبين ، ذكر مثوبة المحسنين فقال :

[ إن المتقين ] أى : للتكذيب ، المتصفين بالتصديق ، فى أقوالهم وأفعالهم ، وأعمالهم .

ولا يكونون كذلك ، إلا بأدائهم الواجبات ، وتركهم المحرمات .

[ فى ظلال ] من كثرة الأشجار المتنوعة ، الزاهرة البهية .

[ وعيون ] جارية من السلسبيل ، والرحيق وغيرها .

[ وفواكه مما يشتهون ] أى : من خيار الفواكه وأطيبها .

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴿٤٥﴾

كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ

ويقال لهم : [ كلوا واشربوا ] من المآكل الشهية ، والأشربة اللذيذة [ هنيئا ] أى : من غير منغص ولا مكدر .

ولا يتم هناؤه ، حتى يسلم الطعام والشراب ، من كل آفة ونقص ، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ، ولا زائل .

[ بما كنتم تعملون ] فأعمالكم ، هى السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم .

وهكذا كل من أحسن فى عبادة الله ، وأحسن إلى عباد الله ، ولهذا قال :

[ إنا كذلك نجزى المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين ] ولو لم يكن من هذا الويل ، إلا فوات هذا النعيم ، لكفى به حزنا وحرمانا .

* هذا تهديد ووعيد للمكذبين ، أنهم ، وإن أكلوا فى الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات ، وغفلوا عن القربات ، فإنهم مجرمون ، يستحقون مايستحقه المجرمون ، فتنقطع عنهم اللذات ، وتبقى عليهم التبعات .

ومن إجرامهم ، أنهم إذا أمروا بالصلاة ، التى هى أشرف العبادات وقيل لهم « اركعوا » امتنعوا من ذلك .

فأى إجرام فوق هذا ؟ وأى تكذيب يزيد على هذا ؟!!

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

---

[ ويل يومئذ للمكذبين ] ومن الويل عليهم ، أنهم تنسدعنهم أبواب التوفيق ، ويحرمون كل خير .

فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن ، الذى هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق .

[ فبأى حديث بعده يؤمنون ] أبالباطل ، الذى هو كاسمه ، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل ؟ أم بكلام مشرك كذاب ، أفاك مبين ؟ .

فليس بعد النور المبين ، إلا دياجى الظلمات ، ولا بعد الصدق ، الذى قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة ، إلا الإفك الصراح ، والكذب المبين الذى لا يليق إلا بمن يناسبه .

فتبًا لهم ، ما أعماهم ! ، وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم ! .

نسأل الله العفو والعافية ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة المرسلات ـ ولله الحمد

تفســــير

# سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

---

* أى : عن أى شىء يتساءل المكذبون بآيات الله ؟ ثم بيّن ما يتساءلون عنه فقال: [ عن النبأ العظيم * الذى هم فيه يختلفون ] .

أى : عن الخبر العظيم ، الذى طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، وهو : النبأ ، الذى لا يقبل الشك ، ولا يدخله الريب .

ولكن المكذبين بلقاء ربهم ، لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ، حتى يروا العذاب الأليم .

ولهذا قال : [ كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون ] أى : سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ، ما كانوا به يكذبون ، حين يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا .

ويقال لهم : « هذه النار التى كنتم بها تكذبون » .

ثم ذكر تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل ، فقال : [ ألم نجعل الأرض] إلى [ ألفافاً ] .

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾
وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ
لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ

---

* أى : أما أنعمنا عليكم ، بنعم جليلة ، فجعلنا لكم [ الأرض مهادا ].

أى : ممهدة مذللة لكم ولمصالحكم ، من الحروث ، والمساكن ، والسبل .

[ والجبال أوتادا ] تمسك الأرض ، لئلا تضطرب بكم ، وتميد .

[ وخلقناكم أزواجا ] أى : ذكورا وإناثا ، من جنس واحد،ليسكن كل منهما إلى الآخر ، فتتكون المودة والرحمة ، وتنشأ عنهما الذرية ، وفى ضمن هذا الامتنان ، بلذة المنكح .

[ وجعلنا نومكم سباتا ] أى : راحة لكم ، وقطعا لأشغالكم ، التى متى تمادت بكم ، أضرت بأبدانكم .

فجعل الله ، الليل والنوم ، يغشى الناس ، لتسكن حركاتهم الضارة ، وتحصل راحتهم النافعة .

[ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ] أى : سبع سموات ، فى غاية القوة ، والصلابة والشدة .

وقد أمسكها الله بقدرته ، وجعلها سقفا للأرض ، فيها عدة منافع لهم ، ولهذا ذكر من منافعها ، الشمس فقال :

مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ

---

[ وجعلنا سراجا وهاجا ] نبه بالسراج ، على النعمة بنورها ، الذى صار ضرورة للخلق .

وبالوهاج ، وهى : حرارتها ، على ما فيها من الإنضاج والمنافع .

[ وأنزلنا من المعصرات ] أى : السحاب [ ماء ثجاجا ] .

أى : كثيرا جدا .

[ لنخرج به حبا ] من برّ وشعير ، وذرة ، وأرز ، غير ذلك ، مما يأكله الآدميون .

[ ونباتا ] يشمل سائر النباب ، الذى جعله الله قوتا لمواشيهم .

[ وجنات ألفافا ] أى : بساتين ملتفة ، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة .

فالذى أنعم بهذه النعم الجليلة ، التى لا يقدر قدرها ، ولا يحصى عددها كيف تكفرون به ، وتكذبون ما أخبركم به ، من البعث والنشور ؟ !

أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه ، وتجحدونها ؟ !!

* ذكر تعالى ، ما يكون فى يوم القيامة الذى يتساءل عنه المكذبون ، ويجحده المعاندون ، أنه يوم عظيم ، وأن الله جعله [ ميقاتا ] للخلق [ ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ] ويجرى فيه من الزعازع والقلاقل ، ما يشيب له المولود ، وتنزعج له القلوب .

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا
وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ

---

فتسير الجبال ، حتى تكون كالهباء المبثوث ، وتنشق السماء ، حتى تكون أبوابا .

ويفصل الله بين الخلائق ، بحكمه الذى لا يجور .

وتوقد نار جهنم ، التى أرصدها الله ، وأعدها للطاغين ، وجعلها مثوى لهم ومآبا .

وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة ، و « الحقب » على ما قاله كثير من المفسرين : ثمانون سنة .

فإذا وردوها [ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ] أى : لا ما يبرد جلودهم ، ولا ما يدفع ظمأهم .

[ إلا حميا ] أى : ماء حارا ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم .

[ وغساقا ] وهو : صديد أهل النار ، الذى هو ، فى غاية النتن ، وكراهة المذاق .

وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة [ جزاء وفاقا ] لهم [ على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها ، لم يظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم .

ولهذا ذكر أعمالهم ، التى استحقوا بها هذا الجزاء ، فقال :

كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

---

[ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ] أي : لا يؤمنون بالبعث ، ولا أن الله يجازى الخلق ، بالخير والشر ، فلذلك أهملوا العمل للآخرة .

[ وكذبوا بآياتنا كذابا ] أى : كذبوا بها ، تكذيبا واضحا ، صريحا ، وجاءتهم البينات فعاندوها .

[ وكل شىء ] من قليل أو كثير ، وخير وشر [ أحصيناه كتابا ] .

أى : أثبتناه فى اللوح المحفوظ .

فلا يحسب المجرمون ، أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها ، ولا يحسبوا ، أنه يضيع من أعمالهم شىء ، أو ينسى منها ، مثقال ذرة .

كما قال تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

[ فذوقوا ] أيها المكذبون ، هذا العذاب الأليم ، والخزى الدائم [ فلن نزيدكم إلا عذابا ] فكل وقت وحين ، يزداد عذابهم .

وهذه الآية ، أشد الآيات فى شدة عذاب أهل النار ، أجارنا الله منها .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

---

* لما ذكر حال المجرمين ، ذكر مآل المتقين فقال :

[ إن للمتقين مفازا ] أى : الذين اتقوا سخط ربهم ، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز ، ومنجى ، وبُعْدٌ عن النار .

وفى ذلك المفاز ، لهم [ حدائق ] وهى : البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار .

[ وأعنابا ] تتفجر خلالها الأنهار ، وخص العنب ، لشرفه ، وكثرته ، فى تلك الحدائق .

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس [ كواعب ] وهى : النواهد، اللاتى لم ينكسر ثديهن ، من شبابهن ، وقوتهن ، ونضارتهن .

[ أترابا ] أى : على سن واحد متقارب .

ومن عادة الأتراب ، أن يكن متآلفات ، متعاشرات ، وذلك السن ، الذى هن فيه ، ثلاث وثلاثون سنة ، أعدل ما يكون من الشباب .

[ وكأسا دهاقا ] أى : مملوءة من رحيق ، ، لذة للشاربين .

[ لا يسمعون فيها لغوا ] أى : كلاما لا فائدة فيه [ ولا كذابا ] أى : إثما .

كما قال تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما » .

وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل ، من فضله وإحسانه

[ جزاء من ربك عطاء حسابا ] أى : بسبب أعمالهم ، التى وفقهم الله لها ، وجعلها سببا للوصول إلى كرامته .

* أى : الذى أعطاهم هذه العطايا ، هو ربهم [ رب السموات والأرض وما بينهما ] الذى خلقها ودبرها [ الرحمن ] الذى رحمته وسعت كل شىء ، فرباهم ، ورحمهم ، ولطف بهم ، حتى أدركوا ما أدركوا .

ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة ، وأن جميع الخلق كلهم ، ساكتون ذلك اليوم ، لا يتكلمون و [ لا يملكون منه خطابا ] إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين :

أن يأذن الله له فى الكلام ، وأن يكون ما تكلم به صوابا .

لأن [ ذلك اليوم الحق ] الذى لا يروج فيه الباطل ، ولا ينفع فيه الكذب .

وذلك [ يوم يقوم الروح ] وهو : جبريل عليه السلام ، الذى هو أفضل الملائكة .

[ والملائكة ] أيضا يقوم الجميع [ صفا ] خاضعين لله [ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ] .

صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

---

فلما رغب ، ورهب ، وبشر ، وأنذر قال :

[ ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ] أى : عملا ، وقدم صدق ، يرجع إليه يوم القيامة .

[ إنا إنذرناركم عذابا قريبا ] لأنه قد أزف مقبلا ، وكل ما هو آت قريب .

[ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ] أى : هذا الذى يهمه ، ويفزع إليه .

فلينظر فى هذه الدار ، ما قدم لدار القرار .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون » الآيات .

فإن وجد خيرا ، فليحمد الله ، وإن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

ولهذا كان الكفار يتمنون الموت ، من شدة الحسرة والندم .

[ ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ] . نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة النبأ ــ ولله الحمد

تفســـير

# سُورَةُ النَّازِعَات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ

---

* هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله ، وإسراعهم فى تنفيذه ، يحتمل أن المقسم عليه ، الجزاء ، والبعث بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك .

ويحتمل أن المقسم عليه ، والمقسم به ، متحدان ، وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم ، أحد أركان الإيمان الستة .

ولأن فى ذكر أفعالهم هنا ، ما يتضمن الجزاء الذى تتولاه الملائكة ، عند الموت ، وقبله ، وبعده ، فقال :

[ والنازعات غرقا ] وهم : الملائكة ، التى تنزع الأرواح بقوة ، وتغرق فى نزعها ، حتى تخرج الروح ، فتجازى بعملها .

[ والناشطات نشطا ] وهى : الملائكة أيضا ، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط ، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين ، والنزع لأرواح الكفار .

[ والسابحات ] أى : المترددات فى الهواء ، صعودا ، ونزولا [ سبحا ] .

سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ
ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا
خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا

---

[ فالسابقات ] لغيرها [ سبقا ] فتبادر لأمر الله ، وتسبق الشياطين فى إيصال الوحى إلى رسل الله ، لئلا تسترقه .

[ فالمدبرات أمرا ] الملائكة ، الذين جعلهم الله يدبرون كثيرا من أمور العالم ، العلوى والسفلى ، من الأمطار ، والنبات ، والرياح ، والبحار والأجنة ، والحيوانات ، والجنة ، والنار وغير ذلك .

[ يوم ترجف الراجفة ] وهى : قيام الساعة .

[ تتبعها الرادفة ] أى : الرجفة الأخرى ، التى تردفها ، وتأتى تِلوَها .

[ قلوب يومئذ واجفة ] أى : منزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

[ أبصارها خاشعة ] أى : ذليلة حقيرة ، قد ملك قلوبهم الخوف ، وأذهل أفئدتهم الفزع ، وغلب عليهم التأسف ، واستولت عليهم الحسرة .

[ يقولون ] أى : منكروا البعث فى الدنيا ـ استهزاء وإنكاراً للبعث ـ : [ أإنا لمردودون فى الحافرة[1] ] أى : أنرد بعد الموت إلى الخلقة الأولى ؟ ! .

---

(١) والحافرة : اسم لأول الأمر ، ومنه « رجع فلان إلى حافرته » إذا رجع من حيث جاء ، ويقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : « رجع إلى حافرته » أى : إلى حالته الأولى . ويقال : « النقد فى الحافرة » أى : عند الحالة الأولى ، وهى : الصفقة .

عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ

---

استفهام إنكارى مشتمل على غاية التعجب ، ونهاية الاستغراب .

أنكروا البعث ، ثم ازدادوا استبعاداً ، فاستمروا .

[يقولون] أى : الكفار فى الدنيا ، على وجه التكذيب : [ أإذا كنا عظاما نخره ] أى : بالية فتاتا .

والمعنى « أنرد إلى االحياة بعد أن صرنا عظاماً وهى رميم ؟

[ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ] أى : استبعدوا أن يبعثهم الله، ويعيدهم بعد ما كانوا عظاما نخرة ، جهلا منهم بقدرة الله ، وتجرؤا عليه .

قال الله فى بيان سهولة هذا الأمر عليه : [ فإنما هى زجرة واحدة ] ينفخ فى الصور .

[ فإذا هم ] أى : الخلائق كلهم [ بالساهرة ] أى : على وجه الأرض ، قيام ينظرون . فيجمعهم الله ، ويقضى بينهم ، بحكمه العدل ، ويجازيهم .

* يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: [هل أتاك حديث موسى] .

وهذا الاستفهام عن أمر عظيم ، متحقق وقوعه .

أى : هل أتاك حديثه [ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ] وهو :المحل الذى كلمه الله فيه ، وامتن عليه بالرسالة ، وابتعثه بالوحى ، واجتباه فقال له :

[ اذهب إلى فرعون إنه طغى ] أى : فانهه عن طغيانه ، وشركه ، وعصيانه ، بقول لين ، وخطاب لطيف لعله « يتذكر أو يخشى » .

هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْأَيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً

---

[فقل] له: [هل لك إلى أن تزكى] أى: هل لك فى خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهى: أن تُزَكِّىَ نفسك، وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان، والعمل الصالح؟.

[وأهديك إلى ربك] أى: أدلك عليه، وأُبَيِّنُ لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

[فتخشى] الله، إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

[فأراه الآية الكبرى] أى: جنس الآية الكبرى، فلا ينافى تعددها «فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين»

[فكذب] بالحق [وعصى] الأمر [ثم أدبر يسعى] أى: يجتهد فى مُبارزة الحق ومحاربته.

[فحشر] جنوده أى: جمعهم [فنادى * فقال] لهم: [أنا ربكم الأعلى] فأذعنوا له، وأقروا بباطله، حين استخفهم.

[فأخذه الله نكال الآخرة والأولى] أى: جعل الله عقوبته، دليلا وزاجرا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ

---

[ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ] فإن من يخشى الله ، هو الذى ينتفع بالآيات والعبر .

فإذا رأى عقوبة فرعون ، عرف أن من تكبر وعصى ، وبارز الملك الأعلى ، يعاقبه فى الدنيا والآخرة .

وأما من ترحلت خشية الله من قلبه ، فلو جاءته كل آية لا يؤمن بها .

* يقول تعالى - مبينا دليلا واضحا لمنكرى البعث ، ومستبعدى إعادة الله للأجساد :

[ أأنتم ] أيها البشر [ أشد خلقا أم السماء ] ذات الجرم العظيم ، والخلق القوى ، والارتفاع الباهر [ بناها ] الله .

[ رفع سمكها ] أى : جرمها وصورتها [ فسواها ] بإحكام وإتقان ، يحير العقول ، ويذهل الألباب .

[ وأغطش ليلها ] أى : أظلمه ، فعمت الظلمة ، جميع أرجاء السماء ، فأظلم وجه الأرض .

[ وأخرج ضحاها ] أى : أظهر فيه النور العظيم ، حين أتى بالشمس ، فانتشر الناس فى مصالح دينهم ودنياهم .

[ والأرض بعد ذلك ] أى : بعد خلق السماء [ دحاها ] أى : أودع فيها منافعها .

بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

وفسر ذلك بقوله : [ أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها ] .

أى : ثبتها بالأرض .

فدحى الأرض ، بعد خلق السموات ، كما هو نص هذه الآيات الكريمة .

وأما خلق نفس الأرض ، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى : « قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » إلى أن قال : « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » .

فالذى خلق السموات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الغبراء الكثيفة ، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم ، لابد أن يبعث الخلق المكلفين ، فيجازيهم بأعمالهم .

فمن أحسن ، فله الحسنى ، ومن أساء ، فلا يلومن إلا نفسه .

ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ، ثم الجزاء فقال :[فإذا جاءت الطامة] إلى [ هى المأوى ] .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن
طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ

---

* أى : إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى ، التى يهون عندها كل شدة ، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده ، والصاحب عن صاحبه ، وكل محب عن حبيبه .

و [ يتذكر الإنسان ما سعى ] فى الدنيا ، من خير وشر .

فيتمنى زيادة مثقال ذرة فى حسناته ، ويغمه ، ويحزن لزيادة مثقال ذرة فى سيئاته .

ويعلم إذ ذاك ، أن مادة ربحه وخسرانه ، ما سعاه فى الدنيا ، وينقطع كل سبب ووصلة كانت له فى الدنيا ، سوى الأعمال .

[ وبرزت الجحيم لمن يرى ] أى : جعلت فى البراز ، ظاهرة لكل أحد قد هيئت لأهلها ، واستعدت لأخذهم ، منتظرة لأمر ربها .

[ فأما من طغى ] أى : جاوز الحد ، بأن تجرأ على المعاصى الكبار ، ولم يقتصر على ما حده الله .

[ وآثر الحياة الدنيا ] على الآخرة ، فصار سعيه لها ، ووقته مستغرقا فى حظوظها وشهواتها ، ونسى الآخرة ، والعمل لها .

[ فإن الجحيم هى المأوى ] له أى : المقر والمسكن ، لمن هذه حاله .

[ وأما من خاف مقام ربه ] أى : خاف القيام عليه ، ومجازاته بالعدل

هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً

---

فأثّر هذا الخوف فى قلبه [ ونهى النفس عن الهوى ] الذى يصدها عن طاعة الله ، وصار هواه تبعا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادين عن الخير .

[ فإن الجنة ] المشتملة على كل خير وسرور ونعيم [ هى المأوى ] لمن هذا وصفه .

* أى يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث [ عن الساعة ] متى وقوعها [ أيان مرساها ] فأجابهم الله بقوله :

[ فيم أنت من ذكراها ] أى: ما الفائدة لك ولهم فى ذكرها ، ومعرفة وقت مجيئها ؟ فليس تحت ذلك نتيجة .

ولهذا لما كان علم العباد للساعة ، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولادنيوية بل المصلحة فى إخفائه عليهم ، طوى علم ذلك عن جميع الخلق ، واستأثر بعلمه فقال :

[ إلى ربك منتهاها ] أى : إليه ينتهى علمها ، كما قال فى الآية الأخرى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها * قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو » .

[ إنما أنت منذر من يخشاها ] أى : إنما نذراتك ، نفعها لمن يخشى

أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

مجيء الساعة ، ويخاف الوقوف بين يدى الله ، فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها ، والعمل لأجلها .

وأما من لم يؤمن بها ، فلا يبالى به ، ولا بتعنته ، لأنه تعنت مبنى على التكذيب والعناد ، وإذا وصل إلى هذه الحال ، كانت الإجابة عنه عبثا ، ينزه أحكم الحاكمين عنه

تم تفسير سورة النازعات - بعون الله وتوفيقه

# تفسير

# سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ

---

* سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه ويتعلم منه .

وجاءه رجل من الأغنياء ، وكان صلى الله عليه وسلم ، حريصا على هداية الخلق .

فمال صلى الله عليه وسلم ، وأصغى إلى الغنى ، وصد عن الأعمى الفقير ، رجاء لهداية ذلك الغنى ، وطمعا فى تزكيته ، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال :

[ عبس ] أى : فى وجهه [ وتولى ] فى بدنه ، لأجل مجيء الأعمى له .

ثم ذكر الفائدة فى الإقبال عليه فقال :

[ وما يدريك لعله ] أى : الأعمى [ يزكى ؟ ] أى : يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ، ويتصف بالأخلاق الجميلة ؟

ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ
تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

---

[ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ ] أى : يتذكر ما ينفعه ، فينتفع بتلك الذكرى .

وهذه فائدة كبيرة ، هى المقصودة من بعثة الرسل ، ووعظ الوعاظ ، وتذكير المذكرين .

فإقبالك على من جاء بنفسه ، مفتقرا لذلك ، مقبلا ، هو الأليق الواجب .

وأما تصديك ، وتعرضك للغنى المستغنى ، الذى لا يسأل ، ولا يستفتى لعدم رغبته فى الخير ، مع تركك من هو أهم منه ، فإنه لا ينبغى لك فإنه ليس عليك أن لا يزكى .

فلو لم يتزكّ ، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر .

فدل هذا ، على القاعدة المشهورة أنه « لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم ولا مصلحة متحققة ، لمصلحة متوهمة » .

وأنه ينبغى الإقبال على طالب العلم ، المفتقر إليه ، الحريص عليه ، أزيد من غيره .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾
فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾
كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ

---

* يقول تعالى : [ كلا إنها تذكرة ] أى : حقا إن هذه الموعظة ، تذكرة من الله ، يذكر بها عباده ، ويبين لهم فى كتابه ، ما يحتاجون إليه ، ويبين الرشد من الغى .

فإذا تبين ذلك [ فمن شاء ذكره ] أى : عمل به كقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ثم ذكر محل هذه التذكرة ، وعظمها ، ورفع قدرها فقال :

[ فى صحف مكرمة مرفوعة ] القدر والرتبة [ مطهرة ] من الآفات ، وعن أن ينالها أيدى الشياطين ، أو يسترقوها .

بل هى [ بأيدى سفرة ] وهم الملائكة ، الذين هم سفراء بين الله وبين عباده .

[ كرام ] أى : كثيرى الخير والبركة [ بررة ] قلوبهم وأعمالهم .

وذلك كله ، حفظ من الله لكتابه ، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء .

ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا .

وهذا مما يوجب الإيمان به ، وتلقيه بالقبول .

ولكن ، مع هذا ، أبى الإنسان إلا كفورا ، ولهذا قال تعالى :

خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ

---

[ قتل الإنسان ما أكفره ] لنعمة الله ، وما أشد معاندته للحق ، بعد ما تبين ، وهو ما هو ، هو من أضعف الأشياء ، خلقه من ماء مهين ، ثم قدر خلقه ، وسواه بشرا سويا ، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة .

[ ثم السبيل يسره ] أي : يسر له الأسباب الدينية والدنيوية . وهداه السبيل ، وبينه ، وامتحنه بالأمر والنهى .

[ ثم أماته فأقبره ] أي : أكرمه بالدفن ، ولم يجعله كسائر الحيوانات، التى تكون جيفها على وجه الأرض .

[ ثم إذا شاء أنشره ] أي : بعثه بعد موته للجزاء .

فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف ، لم يشاركه فيه مشارك .

وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ، ولم يقض ما فرضه عليه بل لا يزال مقصرا تحت الطلب .

ثم أرشده الله إلى النظر والتفكر فى طعامه ، وكيف وصل إليه بعد ما تكررت عليه طبقات عديدة ، ويسره له فقال :

[ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا ] أي : أنزلنا المطر على الأرض بكثرة .

صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا
وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً
وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

---

[ ثم شققنا الأرض ] للنبات [ شقا * فأنبتنا فيها ] أصنافا مصنفة ، من أنواع الأطعمة اللذيذة ، والأقوات الشهية [ حبا ] وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها .

[ وعنبا وقضبا ] وهو القَتّ : [ وزيتونا ونخلا ].

وخص هذه الأربعة ، لكثرة فوائدها ومنافعها .

[ وحدائق غلبا ] أى : بساتين ، فيها الأشجار الكثيرة الملتفة .

[ وفاكهة وأبا ] الفاكهة : ما يتفكه فيه الإنسان ، من تين ، وعنب ، وخوخ ، ورمان وغير ذلك .

والأب : ما تأكله البهائم والأنعام ، ولهذا قال :

[ متاعا لكم ولأنعامكم ] التى خلقها الله وسخرها لكم .

فمن نظر فى هذه النعم ، أوجب له ذلك ، شكر ربه ، وبذل الجهد فى الإنابة إليه ، والإقبال على طاعته ، والتصديق لأخباره .

فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ
أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ
مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ
مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾

---

* أى : إذا جاءت صيحة القيامة التى تصخ لهولها الأسماع ، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ ، مما يرى الناس ، من الأهوال ، وشدة الحاجة لسالف الأعمال .

[ يفر المرء ] من أعز الناس عليه ، وأشفقهم عليه [ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ] أى زوجته [ وبنيه ] .

وذلك لأنه [ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ] أى : قد شغلته نفسه ، واهتم لفكاكها ، ولم يكن له التفات إلى غيرها .

فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين ، سعداء ، وأشقياء .

فأما السعداء ، فـ[وجوههم ] يومئذ [مسفرة] أى : قد ظهر فيها السرور والبهجة ، لما عرفوا من نجاتهم ، وفوزهم بالنعيم .

[ ضاحكة مستبشرة * ووجوه ] الأشقياء [ يومئذ عليها غبرة * ترهقها ] أى : تغشاها [ قترة ] فهى سوداء مظلمة مدلهمة ، قد أيست من كل خير ، وعرفت شقاءها وهلاكها .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْـكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

[ أولئك ] الذين بهذا الوصف [ هم الـكفرة الفجرة ] أى : الذين كفروا بنعمة الله ، وكذبوا بآياته ، وتجرأوا على محارمه .

نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة عبس ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

# سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ

---

* أى : إذا حصلت هذه الأمور الهائلة ، تميز الخلق ، وعلم كل ، ماقدمه لآخرته ، وما أحضره فيها ، من خير وشر .

وذلك : إنه إذا كان يوم القيامة تكور الشمس ، أى : تجمع وتلف ، ويخسف القمر ، ويلقيان فى النار .

[ وإذا النجوم انكدرت ] أى : تغيرت ، وتناثرت من أفلاكها .

[ وإذا الجبال سيرت ] أى : صارت كثيبا مهيلا . ثم صارت كالعهن المنفوش .

ثم تغيرت وصارت هباء منبثا ، وأزيلت عن أماكنها .

[ وإذا العشار عطلت ] أى : عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم ، التى كانوا يهتمون لها ويراعونها ، فى جميع الأوقات ، فجاءهم مايذهلهم عنها.

فنبه بالعشار ـ وهى : النوق التى تتبعها أولادها ، وهى أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو فى معناها ، من كل نفيس .

حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾
وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾

---

[ وإذا الوحوش حشرت ] أى : جمعت ليوم القيامة ، ليقتص الله من بعضها لبعض ، ويرى العباد كمال عدله ، حتى إنه يقتص للشاة الجماء ، من الشاة القرناء ثم يقال لها كونى ترابا .

[ وإذا البحار سجرت ] أى : أوقدت فصارت ــ على عظمها ــ نارا تتوقد .

[ وإذا النفوس زوجت ] أى : قرن كل صاحب عمل مع نظيره ، فجمع الأبرار مع الأبرار ، والفجار مع الفجار ، وزوج المؤمنون بالحور العين ، والكافرون بالشياطين ، وهذا كقوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا * احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » .

[ وإذا الموءودة سئلت ] وهى : ما كانت الجاهلية الجهلاء تفعله ، من دفن البنات ، وهن أحياء من غير سبب ، إلا خشية الفقر ، فتسأل [ بأى ذنب قتلت ] .

ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ، ولكن هذا ، فيه توبيخ وتقريع لقاتليها .

[ وإذا الصحف ] المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر [ نشرت ] وفرقت على أهلها .

فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره .

[ وإذا السماء كشطت ] أى : أزيلت كما قال تعالى « يوم تشقق السماء بالغمام * يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب * والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

[ وإذا الجحيم سعرت ] أى : أوقد عليها فاستعرت ، والتهبت التهابا ، لم يكن لها قبل ذلك .

[ وإذا الجنة أزلفت ] أى : قربت للمتقين .

[ علمت نفس ] أى : كل نفس ، لإتيانها فى سياق الشرط .

[ ما أحضرت ] أى : ما حضر لديها من الأعمال ، التى قدمتها كما قال تعالى : « ووجدوا ما عملوا حاضرا » .

وهذه الأوصاف ، التى وصف بها يوم القيامة ، من الأوصاف التى تنزعج لها القلوب ، وتشتد من أجلها الكروب ، وترتعد الفرائص ، وتعم المخاوف ، وتحث أولى الألباب للاستعداد لذلك اليوم ، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم .

ولهذا قال بعض السلف : من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى عين ، فليتدبر سورة « إذا الشمس كورت » .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ

---

* أقسم تعالى [ بالخنس ] وهي : من الكواكب التي تخنس أى : تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق .

وهى : النجوم السبعة السيارة « الشمس » و « القمر » و « الزهرة » و « المشترى » و « المريخ » و « زحل » و « عطارد » فهذه السبعة لها سيران :

سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك .

وسير معاكس لهذا من جهة المشرق ، تختص به هذه السبعة دون غيرها .

فأقسم الله بها ، فى حال خنوسها ، أى : تأخرها ، وفى حال جريانها ، وفى حال كنوسها ، أى : استتارها بالنهار .

ويحتمل أن المراد بها : جميع الكواكب السيارة وغيرها .

[ والليل إذا عسعس ] أى : أقبل ، وقيل : أدبر .

[ والنهار إذا تنفس ] أى : بدت علائم الصبح ، وانشق النور شيئا فشيئا ، حتى يستكمل وتطلع الشمس .

وهذه آيات عظام ، أقسم الله عليها ، لقوة سند القرآن وجلالته،وحفظه من كل شيطان رجيم فقال :

رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ

---

[ إنه لقول رسول كريم ] وهو : جبريل عليه السلام ، نزل به من الله تعالى كما قال تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين » .

ووصفه الله بالكريم ، لكرم أخلاقه ، وخصاله الحميدة ، فإنه أفضل الملائكة ، وأعظمهم رتبة عند ربه .

[ ذى قوة ] على ما أمره الله به .

ومن قوته ، أنه قلب ديار قوم لوط بهم ، فأهلكهم .

[ عند ذى العرش ] أى : جبريل مقرب عند الله ، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله ، اختصه بها .

[ مكين ] أى : له مكانة ومنزلة ، فوق منازل الملائكة كلهم .

[ مطاع ثم ] أى : جبريل مطاع فى الملأ الأعلى ، لأنه من الملائكة المقربين ، نافذ فيهم أمره ، مطاع رأيه .

[ أمين ] أى : ذو أمانة ، وقيام بما أمر به ، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدّ له .

وهذا كله ، يدل على شرف القرآن عند الله تعالى .

فإنه بعث به هذا الملك الكريم ، الموصوف بتلك الصفات الكاملة .

والعادة ، أن الملوك لا ترسل الكريم عليها ، إلا فى أهم المهمات ، وأشرف الرسائل .

ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

ولما ذكر فضل الرسول الملكى ، الذى جاء بالقرآن ، ذكر فضل الرسول البشرى ، الذى نزل عليه القرآن ، ودعا إليه الناس فقال :

[ وما صاحبكم ] وهو محمد صلى الله عليه وسلم [ بمجنون ] كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته ، المتقولون عليه الأقوال ، التى يريدون أن يطفئوا بها ، ما جاء به .

بل هو أكمل الناس عقلا ، وأجزلهم رأياً ، وأصدقهم لهجة .

[ ولقد رآه بالأفق المبين ] أى : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام بالأفق البَيِّن ، الذى هو أعلى ما يلوح للبصر .

[ وما هو على الغيب بضنين ] أى : وما هو على ما أوحاه الله إليه ، بشحيح ، يكتم بعضه .

بل هو صلى الله عليه وسلم ، أمين أهل السماء ، وأهل الأرض ، الذى بلغ رسالات ربه ، البلاغ المبين .

فلم يشح بشىء منه ، عن غَنِيٍّ ، ولا فقير ، ولا رئيس ، ولا مرءوس ، ولا ذكر ، ولا أنثى ، ولا حضريٍّ ، ولا بدَوِيٍّ ، ولذلك بعثه الله فى أمة أمية ، جاهلة جهلاء .

فلم يمت صلى الله عليه وسلم ، حتى كانوا علماء ربانيين ، وأحبارا متفرسين .
إليهم الغاية فى العلوم ، وإليهم المنتهى فى استخراج الدقائق والمفهوم .
وهم الأساتذة ، وغيرهم ، قصاراه أن يكون من تلاميذهم .

شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

[ وما هو بقول شيطان رجيم ] لما ذكر جلالة كتابه وفضله ، بذكر الرسولين الكريمين ، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما ، وأثنى الله عليهما بما أثنى ، دفع عنه كل آفة ، ونقص ، مما يقدح فى صدقه فقال :

[ وما هو بقول شيطان رجيم ] أى : فى غاية البعد عن الله وعن قربه .

[ فأين تذهبون ] أى : كيف يخطر هذا ببالكم ، وأين عزبت عنكم أذهانكم ؟ حتى جعلتم الحق الذى هو فى أعلى درجات الصدق ، بمنزلة الكذب ، الذى هو أنزل ما يكون ، وأرذل ، وأسفل الباطل ؟

هل هذا ، إلا من انقلاب الحقائق(١) .

[ إن هو إلا ذكر للعالمين ] يتذكرون به ربهم ، وماله من صفات الكمال ، وما ينزه عنه من النقائص ، والرذائل والأمثال .

ويتذكرون به ، الأوامر والنواهى ، وحكمها .

ويتذكرون به ، الأحكام القدرية ، والشرعية ، والجزائية .

---

( ١ ) قوله « من انقلاب الحقائق » الصواب أن يقال « من قلب الحقائق » حتى يكون نصا على معاندة المعاندين وتحريفهم .

وأما كلمة « انقلاب » فلا تؤدى هذا المعنى بل تدل على التأثر بفعل آخر لأنها من أفعال المطاوعة والمطاوع ، يدل على أثر فاعل فعل آخر فكلمة « انقلاب » مطاوع لكلمة « قلب » .

لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

---

وبالجملة ، يتذكرون به مصالح الدارين ، وينالون بالعمل به،السعادتين.

[ لمن شاء منكم أن يستقيم ] بعد ما تبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال .

[ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ] أى : فمشيئته نافذة ، لا يمكن أن تعارض أو تمانع .

وفى هذه الآية وأمثالها،رَدٌّ على فِرْقَتَيِ القدريةالنفاة ، والقدريةالمجبرة كما تقدم من أمثالها . والله أعلم ، والحمد لله .

تم تفسير سورة التكوير

# تفســـير

# سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ
ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

---

* أى : إذا انشقت السماء وانفطرت ، وتناثرت نجومها ، وزال جمالها .

وفجرت البحار ، فصارت بحرا واحدا .

وبعثرت القبور ، بأن أخرج ما فيها من الأموات ، وحشروا للموقف، بين يدى الله ، للجزاء على الأعمال .

فحينئذ ينكشف الغطاء ، ويزول ما كان خفيا .

وتعلم كل نفس ، ما معها من الأرباح والخسران .

هنالك يعض الظالم على يديه ، إذا رأى ما قدمت يداه ، وأيقن بالشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى .

وهنا لك يفوز المتقون ، المقدمون لصالح الأعمال ، بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم ، والسلامة من عذاب الجحيم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾
كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ، معاتبا للإنسان المقصر فى حقه ، المتجرىء على معاصيه : [ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ] أتهاونا منك فى حقوقه ؟أم احتقارا منك لعذابه ؟ أم عدم إيمان منك بجزائه ؟

أليس هو [ الذى خلقك فسواك ] فى أحسن تقويم ؟

[ فعدلك ] وركبك تركيبا قويما معتدلا ، فى أحسن الأشكال ، وأجمل الهيئات ؟

فهل يليق بك ، أن تكفر نعمة المنعم ، أو تجحد إحسان المحسن ؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك ، وعنادك ، وغشمك .

فاحمد الله ، إذ لم يجعل صورتك ، صورة كلب ، أو حمار أو نحوهما ، من الحيوانات .

ولهذا قال تعالى : [ فى أى صورة ما شاء ركبك ]

وقوله [ كلا بل تكذبون بالدين ] أى : مع هذا الوعظ والتذكير ، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء .

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم ، وقد أقام الله عليكم ملائكة

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ

---

كراما ، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ، ويعلمونها . فدخل فى هذا ، أفعال القلوب ، وأفعال الجوارح .

فاللائق بكم ، أن تكرموهم وتجلوهم .

* المراد بالأبرار ، هم القائمون بحقوق الله ، وحقوق عباده ، الملازمون للبر ، فى أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح .

فهؤلاء جزاؤهم ، النعيم فى القلب ، والروح والبدن ، فى دار الدنيا ، وفى دار البرزخ ، وفى دار القرار .

[ وإن الفجار ] الذين قصروا فى حقوق الله ، وحقوق عباده ، الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم [ لفى جحيم ] أى : عذاب أليم ، فى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، وفى دار القرار .

[ يصلونها ] ويعذبون بها أشد العذاب [ يوم الدين ] أى : يوم الجزاء على الأعمال .

[ وما هم عنها بغائبين ] أى : بل هم ملازمون لها ، لا يخرجون منها .

[ وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين ] فى هذا تهويل لذلك اليوم الشديد ، الذى يحير الأذهان .

نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

[ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ] ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية فكل مشتغل بنفسه ، لا يطلب الفكاك لغيرها .

[ والأمر يومئذ لله ] فهو الذى يفصل بين العباد ، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه والله أعلم .

تم تفسير سورة الانفطار

تفسير

# سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ

---

* [ ويل ] كلمة عذاب وعقاب [ للمطففين ] وفسر الله المطففين ، بأنهم [ الذين إذا اكتالوا على الناس ] أي : أخذوا منهم ، وفاء لهم عما قبلهم [ يستوفون ] كاملا من غير نقص .

[ وإذا كالوهم أو وزنوهم ] أي : إذا أعطوا الناس حقهم ، الذى لهم عليهم ، بكيل أو وزن [ يخسرون ] أي : ينقصونهم ذلك ، إما بمكيال وميزان ناقصين ، أو بعدم ملء المكيال والميزان ، أو بغير ذلك .

فهذا سرقة لأموال الناس ، وعدم إنصاف لهم منهم .

وإذا كان هذا وعيدا على الذين يبخسون الناس ، بالمكيال والميزان ، فالذي يأخذ أموالهم قهرا وسرقة ، أولى بهذا الوعيد من المطففين .

ودلت الآية الكريمة ، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس ، الذى له ، يجب أن يعطيهم كل مالهم من الأموال والمعاملات .

أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾

---

بل يدخل فى عموم هذا ، الحجج والمقالات ، فإنه كما أن المتناظرين . قد جرت العادة أن كل واحد منهما ، يحرص على ماله من الحجج .

فيجب عليه أيضاً ، أن يبين ماخصمه من الحجة ، التى لا يعلمها ، وأن ينظر فى أدلة خصمه ، كما ينظر فى أدلته هو .

وفى هذا الموضع ، يعرف إنصاف الإنسان ، من تعصبه واعتسافه ، وتواضعه من كبره ، وعقله من سفهه .

نسأل الله التوفيق ، لكل خير .

ثم توعد تعالى المطففين ، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال :

[ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ] .

فالذى جرأهم على التطفيف ، عدم إيمانهم باليوم الآخر .

وإلا ، فلو آمنوا به ، وعرفوا أنهم سيقومون بين يدى الله ، فيحاسبهم على القليل والكثير ، لأقلعوا عن ذلك ، وتابوا منه .

۞ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا

---

* يقول تعالى : [ كلا إن كتاب الفجار ] وهذا شامل لكل فاجر، من أنواع الكفرة والمنافقين ، والفاسقين [ لفى سجين ] ثم فسر ذلك بقوله :

[ وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم ] أى : كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة .

والسجين : المحل الضيق الضنك ، و « سجين » ضد « عليين » الذى هو محل كتاب الأبرار ، كما سيأتى .

وقد قيل : إن « سجين » هو أسفل الأرض السابعة ، مأوى الفجار ، ومستقرهم فى معادهم .

[ ويل يومئذ للمكذبين ] ثم بينهم بقوله : [ الذين يكذبون بيوم الدين ] أى : يوم الجزاء ، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم .

[ وما يكذب به إلا كل معتد ] على محارم الله ، متعد الحلال إلى الحرام .

[ أثيم ] أى كثير الإثم ، فهذا يحمله عدوانه على التكذيب ، ويوجب له كبره ، رد الحق ، ولهذا قال :

[ إذا تتلى عليه آياتنا ] الدالة على الحق ، وعلى صدق ماجاءت به الرسل ،

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

---

كذبها وعاندها [ وقال ] : هذه [ أساطير الأولين ] أى : من ترهات المتقدمين ، وأخبار الأمم الغابرين ، ليست من عند الله ، تكبرا وعنادا .

وأما من أنصف ، وكان مقصوده الحق المبين ، فإنه لا يكذب بيوم الدين ، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين ، ما يجعله حق اليقين ، وصار لبصائرهم ، بمنزلة الشمس للأبصار .

بخلاف من ران على قلبه كسبه ، وغطته معاصيه ، فإنه محجوب عن الحق .

ولهـذا جوزى على ذلك ، بأن حجب عن الله ، كما حجب قلبه عن آيات الله .

[ ثم إنهم ] مع هذه العقوبة البليغة [ لصالو الجحيم[1] ] .

ثم يقال لهم توبيخا وتقريعا [ هذا الذى كنتم به تكذبون ] .

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب :

عذاب الجحيم ، وعذاب التوبيخ واللوم .

---

( ١ ) أي : إنهم لداخلون النار المحرقة . وكلمة ( ثم ) لتراخى الرتبة ، فإن صَلْيَ الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة ، ولا شك أن « الصلى » وهو الاحتراق بالجحيم ، متراخى التأخر عن الحرمان من رحمة الله وكرامته . اهـ . أبو السعود بتصرف .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ

---

وعذاب الحجاب عن رب العالمين ، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم ، وهو أعظم عليهم ، من عذاب النار .

ودل مفهوم الآية ، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، في الجنة ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ، ويبتهجون بخطابه . ويفرحون بقربه ، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن ، وتواتر فيه النقل عن رسول الله .

وفي هذه الآيات ، التحذير من الذنوب ، فإنها ترين على القلب وتغطيه ، شيئا فشيئا ، حتى ينطمس نوره ، وتموت بصيرته ، فتنقلب عليه الحقائق ، فيرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، وهذا من أعظم عقوبات الذنوب .

* لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها ، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها ، وأوسعها ، وأفسحها .

وأن كتابهم [ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ] من الملائكة الكرام ، وأرواح الأنبياء ، والصديقين والشهداء ، وينوه الله بذكرهم في الملأ الأعلى .

و « عليون » اسم لأعلى الجنة .

فلما ذكر كتابهم ، ذكر أنهم في نعيم ، وهو : اسم جامع لنعيم القلب ، والروح ، والبدن .

يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ
مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

---

[ على الأرائك ] أى : على السرر المزينة بالفرش الحسان .

[ ينظرون ] إلى ما أعد الله لهم من النعيم ، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم .

[ تعرف ] أيها الناظر [ فى وجوههم نضرة النعيم ] أى : بهاءه ونضارته ، ورونقه .

فإن توالى اللذات ، والمسرات والأفراح ، يكسب الوجه ، نوراً وحسنا ، وبهجة .

[ يسقون من رحيق ] وهو من أطيب ما يكون ، من الأشربة وألذها .

[ مختوم ] ذلك الشراب [ ختامه مسك ] .

يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته ، أو يفسد طعمه ، وذلك الختام ، الذى ختم به ، مسك .

ويحتمل أن المراد ، أنه الذى يكون فى آخر الإناء ، الذى يشربون منه الرحيق حثالة وهى المسك الأذفر .

فهذا الكدر منه ، الذى جرت العادة فى الدنيا ، أنه يراق ، يكون فى الجنة بهذه المثابة .

[ وفى ذلك ] النعيم المقيم ، الذى لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله .

ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟

---

[ فليتنافس المتنافسون ] أى : فليتسابقوا فى المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه .

فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس ، وأحرى ما تزاحمت الوصول إليه ، فحول الرجال .

[ و ] هذا الشراب [ مزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون ] صِرْفاً وهى أعلى أشربة الجنة على الإطلاق ، فلذلك كانت خالصة للمقربين ، الذين هم أعلى الخلق منزلة ، وممزوجة لأصحاب اليمين ، أى : مخلوطة بالرحيق وغيره ، من الأشربة اللذيذة .

* لما ذكر تعالى جزاء المجرمين ، وجزاء المحسنين ، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم .

أخبر أن المجرمين كانوا فى الدنيا ، يسخرون بالمؤمنين ، ويستهزئون بهم ، ويضحكون منهم .

فيتغامزون بهم ، عند مرورهم عليهم ، احتقارا لهم وازدراء .

ومع هذا تراهم مطمئنين ، لا يخطر الخوف على بالهم .

إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾

---

[ وإذا انقلبوا إلى أهلهم ] صباحا ومساء [ انقلبوا فكهين ]. أى : مسرورين مغتبطين .

وهذا أشد ما يكون من الاغترار ، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة ، مع الأمن فى الدنيا ، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله ، أنهم من أهل السعادة ، وقد حكموا لأنفسهم ، أنهم أهل الهدى ، وأن المؤمنين ضالون ، افتراء على الله ، وتجرأوا على القول عليه بلا علم .

قال تعالى : [ وما أرسلوا عليهم حافظين ] أى : وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ، ملزمين بحفظ أعمالهم ، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال

وما هذا منهم ، إلا تعنت وعناد وتلاعب ، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة ، من جنس عملهم .

قال تعالى : [ فاليوم ] أى يوم القيامة [ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ] حين يرونهم فى غمرات العذاب يتقلبون ، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون .

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة [على الأرائك ] وهى السرر المزينة.

[ ينظرون ] إلى ما أعد الله لهم من النعيم ، وينظرون إلى وجه

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ربهم الكريم .

[ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ] أى : هل جوزوا من جنس عملهم ؟

فكما ضحكوا فى الدنيا من المؤمنين ، ورموهم بالضلال ، ضحك المؤمنون منهم فى الآخرة ، حين رأوهم فى العذاب والنكال ، الذى هو عقوبة الغى والضلال .

نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون ، عدلا من الله ، وحكمة، والله عليم حكيم .

تم تفسير سورة المطففين ـــ ولله الحمد

تفســـير

# سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ

---

* يقول تعالى : مبينا لما يكون فى يوم القيامة من تغير الأجرام العظام .

[ إذا السماء انشقت ] أى : انفطرت وتمايز بعضها من بعض ، وانتثرت نجومها ، وخسف شمسها وقمرها .

[ وأذنت لربها ] أى : استمعت لأمره ، وألقت سمعها ، وأصاخت لخطابه.

[ وحقت ] أى : حق لها ذلك فإنها مسخرة ، مدبرة ، تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ، ولا يخالف حكمه .

[ وإذا الأرض مدت ] أى : رجفت وارتجت ، ونسفت عليها جبالها ، ودك ما عليها من بناء ومعلم ، فسويت ، ومدها الله مد الأديم ، حتى صارت واسعة جدا ، تسع أهل الموقف على كثرتهم ، فتصير قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ، ولا أمتا .

[ وألقت ما فيها ] من الأموات والكنوز .

[ وتخلت ] منهم فإنه ينفخ فى الصور فتخرج الأموات من الأجداث

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ
حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ

---

إلى وجه الأرض ، وتخرج الأرض كنوزها ، حتى تكون كالأسطوان العظيم ، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون .

[ وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ] أى : إنك ساع إلى الله ، وعامل بأوامره ، ونواهيه ، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر ، ثم تلاقى الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل .

بالفضل إن كنت سعيدا ، وبالعقوبة العادلة إن كنت شقيا .

ولهذا ذكر تفضيل الجزاء فقال : [ فأما من أوتى كتابه بيمينه ] وهم أهل السعادة .

[ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ] وهو العرض اليسير على الله فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك ، قال الله تعالى إنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أسترها لك اليوم .

[ وينقلب إلى أهله ] فى الجنة .

[ مسرورا ] لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب .

[ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ] أى بشماله من وراء ظهره .

سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾
فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ

---

[ فسوف يدعو ثبورا ] من الخزي والفضيحة ، وما يجد فى كتابه من الأعمال التى قدمها ولم يتب منها .

[ ويصلى سعيرا ] أى : تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها ، وذلك [ إنه كان فى أهله مسرورا ] لا يخطر البعث على باله ، وقد أساء ، ولا يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه .

[ بلى إن ربه كان به بصيرا ] فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب .

* أقسم فى هذا الموضع بآيات الليل ، فأقسم بالشفق الذى هو بقية نور الشمس ، الذى هو مفتتح الليل .

[ والليل وما وسق ] أى : احتوى عليه من حيوانات وغيرها .

[والقمر إذا اتسق] أى : امتلأ نورا بإبداره ، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع ، والمقسم عليه قوله [ لتركبن ] أى : أيها الناس [ طبقا عن طبق ] أي : أطوارا متعددة وأحوالا متباينة من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى نفخ الروح .

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾

---

ثم يكون وليدا وطفلا ومميزا ، ثم يجرى عليه قلم التكليف ، والأمر والنهى .

ثم يموت بعد ذلك .

ثم يبعث ويجازي بأعماله .

فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد ، دالة على أن الله وحده هو المعبود ، الموحد ، المدبر لعباده ، بحكمته ورحمته ، وأن العبد فقير ، عاجز ، تحت تدبير العزيز الرحيم .

ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون [ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ] أي : لا يخضعون للقرآن ، ولا ينقادون لأوامره ، ونواهيه .

[ بل الذين كفروا يكذبون ] أى : يعاندون الحق بعد ما تبين ، فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن .

فإن المكذب بالحق عنادا ، لا حيلة فيه .

[ والله أعلم بما يوعون ] أى : بما يعملونه وينوونه سرا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ، ولهذا قال [ فبشرهم بعذاب أليم ] وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر فى البشرة سرورا أو غما .

فهذه حال أكثر الناس ، التكذيب بالقرآن ، وعدم الإيمان به .

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

---

ومن الناس فريق هداهم الله ، فآمنوا بالله ، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل ، فآمنوا وعملوا الصالحات .

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أى غير مقطوع ، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والحمد لله .

تم تفسير سورة الانشقاق

# تفسير

# سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾
وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ

---

* [ والسماء ذات البروج ] أى : ذات المنازل ، المشتملة على منازل الشمس والقمر ، والكواكب المنتظمة فى سيرها ، على أكمل ترتيب ، ونظام دال ، على كمال قدرة الله ورحمته ، وسعة علمه وحكمته .

[ واليوم الموعود ] وهو يوم القيامة ، الذى وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ، ويضم فيه أولهم وآخرهم ، وقاصيهم ودانيهم ، الذى لا يمكن أن يتغير ، ولا يخلف الله الميعاد .

[ وشاهد ومشهود ] وشمل هذا ، كل من اتصف بهذا الوصف ، أى مُبْصَر ومُبصِر ، وحاضر ومحضور ، وراء ومرئى .

والمقسم عليه ، ما تضمنه هذا القسم ، من آيات الله الباهرة ، وحكمه الظاهرة ، ورحمته الواسعة .

وقيل : إن المقسم قوله [ قتل أصحاب الأخدود ] وهذا دعاء عليهم بالهلاك .

و « الأخدود » الحفر التى تحفر فى الأرض .

ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾

---

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء ، قوما كافرين ، ولديهم قوم مؤمنون.

فراودوهم على الدخول فى دينهم ، فامتنع المؤمنون من ذلك .

فشق الكافرون أخدودا فى الأرض ، وقذفوا فيها النار ، وقعدوا حولها ، وفتنوا المؤمنين ، وعرضوهم عليها .

فمن استجاب لهم أطلقوه ، ومن استمر على الإيمان ، قذفوه فى النار .

وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين ، ولهذا لعنهم الله ، وأهلكهم ، وتوعدهم فقال : [ قتل أصحاب الأخدود ] .

ثم فسر الأخدود بقوله : [ النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ] .

وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب ، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها ، ومحاربة أهلها ، وتعذيبهم بهذا العذاب، الذى تنفطر منه القلوب .

وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها ، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة يمدحون عليها ، وبها سعادتهم ، وهى : أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد ، أى : الذى له العزة ، التى قهر بها كل شىء ، وهو حميد فى أقواله ، وأفعاله ، وأوصافه .

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

[ الذى له ملك السموات والأرض ] خلقا وعبيدا ، يتصرف فيهم بما يشاء .

[ والله على كل شىء شهيد ] علما وسمعا ، وبصرا .

فهلا خاف هؤلاء المتمردون عليه ، أن يأخذهم العزيز المقتدر .

أو ما علموا كلهم ، أنهم مماليك لله ، ليس لأحد على أحد سلطة ، من دون إذن المالك ؟.

أو خفى عليهم أن الله محيط بأعمالهم ، مجازيهم عليها ؟ .

كلا إن الكافر فى غرور ، والجاهل فى عمى وضلال عن سواء السبيل.

ثم أوعدهم ، ووعدهم ، وعرض عليهم التوبة فقال :

[ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ] أى : العذاب الشديد المحرق .

قال الحسن رحمه الله : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وأهل طاعته ، وهو يدعوهم إلى التوبة .

ولما ذكر عقوبة الظالمين ، ذكر ثواب المؤمنين ، فقال :

[ إن الذين آمنوا ] بقلوبهم [ وعملوا الصالحات ] بجوارحهم [ لهم

لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾
إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

---

جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ] الذى حصل لهم الفوز ، برضا الله ، ودار كرامته .

[ إن بطش ربك لشديد ] أي : إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام ، لقوية شديدة ، وهو للظالمين بالمرصاد .

قال الله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

[ إنه هو يبدىء ويعيد ] أى : هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته ، فلا يشاركه فى ذلك مشارك .

[ وهو الغفور ] الذى يغفر الذنوب جميعها ، لمن تاب ، ويعفو عن السيئات ، لمن استغفره وأناب .

[ الودود ] الذى يحبه أحبابه ، محبة لا يشبهها شىء .

فكما أنه لايشابهه شىء فى صفات الجلال والجمال ، والمعانى ، والأفعال ، فمحبته فى قلوب خواص خلقه ، التابعة لذلك ، لا يشبهها شىء من أنواع المحاب .

ولهذا كانت محبته أصل العبودية ، وهى المحبة ، التى تتقدم جميع المحاب وتغلبها ، وإن لم يكن غيرها تبعا لها ، كانت عذابا على أهلها .

. . . . . . . . . . .

---

وهو تعالى الودود، الْوَادُّ لأحبابه، كما قال تعالى: « يحبهم ويحبونه » والمودة هى: المحبة الصافية.

وفى هذا سر لطيف، حيث قرن « الودود » بالغفور، ليدل ذلك، على أن أهل الذنوب، إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفرلهم ذنوبهم، وأحبهم.

فلا يقال تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قال بعض الظالمين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل على راحلته، عليها طعامه وشرابه، وما يصلحه، فأضلها فى أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.

فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها.

فالله أعظم فرحا، بتوبة العبد، من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه!!

[ ذو العرش المجيد ] أى: صاحب العرش العظيم، الذى من عظمته، أنه وسع السموات والأرض، والكرسى.

فهى بالنسبة إلى العرش، كحلقة ملقاة فى فلاة، بالنسبة لسائر الأرض.

وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه.

وهذا على قراءة الجر، يكون « المجيد » نعتا للعرش.

هَل أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ

---

وأما على قراءة الرفع ، فإنه يكون نعتا لله ، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها .

[ فعال لما يريد ] أى : مهما أراد شيئا فعله ، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله .

فإن المخلوقات ، ولو أرادت شيئا ، فإنه لابد لإرادتها من معاون وممانع .

والله لا معاون لإرادته ، ولا ممانع له ، مما أراد .

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال :

[ هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود ] وكيف كذبوا المرسلين ، فجعلهم من المهلكين .

[بل الذين كفروا فى تكذيب] أى : لايزالون مستمرين على التكذيب والعناد ، لا تنفع فيهم الآيات ، ولا تُجْدِى لديهم العظات .

[ والله من ورائهم محيط ] قد أحاط بهم علما ، وقدرة ، كقوله : « إن ربك لبالمرصاد » .

ففيه ، الوعيد الشديد للكافرين ، من عقوبة من هم فى قبضته ، وتحت تدبيره .

[ بل هو قرآن مجيد ] أى : وسيع المعانى عظيمها كثير الخير والعلم .

﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

[ فى لوح محفوظ ] من التغيير والزيادة والنقص ، ومحفوظ من الشياطين .

وهو : اللوح المحفوظ ، الذى قد أثبت الله فيه كل شىء .

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ، ورفعة قدره عند الله تعالى . والله أعلم .

تم تفسير سورة البروج - والحمد لله

تفســـير

# سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾
ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ
ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ

---

* يقول الله تعالى : [ والسماء والطارق ] .

ثم فسر الطارق بقوله : [ النجم الثاقب ] أى : المضيء ، الذي يثقب نوره ، فيخرق السموات ، فينفذ ، حتى يرى فى الأرض .

والصحيح ، أنه اسم جنس ، يشمل سائر النجوم الثواقب .

وقد قيل : إنه « زحل » الذى يخرق السموات السبع وينفذها ، فيرى منها .

وسمى طارقا ، لأنه يطرق ليلا . والمقسم عليه قوله :

[ إن كل نفس لما عليها حافظ ] يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة ، وستجازى بعملها المحفوظ عليها .

[ فلينظر الإنسان مما خلق ] أى : فليتدبر خلقته ومبدأه ، فإنه [ خلق

ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى
ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾

---

من ماء دافق ] وهو : المنى الذى [ يخرج من بين الصلب والترائب ] .

يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وهى ثدياها .

ويحتمل أن المراد : المنى الدافق ، وهو منى الرجل ، وأن محله الذى يخرج منه ، ما بين صلبه وترائبه .

ولعل هذا أولى ، فإنه إنما وصف به الماء الدافق ، الذى يحس به ويشاهد دفقه ، وهو منى الرجل .

وكذلك لفظ الترائب ، فإنها تستعمل للرجل ، فإن الترائب للرجل ، بمنزلة الثديين للأنثى .

فلو أريد الأنثى ، لقيل « من الصلب والثديين » ونحو ذلك ، والله أعلم .

فالذى أوجد الإنسان من ماء دافق ، يخرج من هذا الموضع الصعب ، قادر على رجعه فى الآخرة ، وإعادته للبعث ، والنشور ، والجزاء .

وقد قيل : إن معناه ، أن الله على رجع الماء المدفوق فى الصلب، لقادر .

وهذا المعنى ، وإن كان صحيحا ، فليس هو المراد من الآية ، ولهذا قال بعده :

[ يوم تبلى السرائر ] أى : تختبر سرائر الصدور ، ويظهر ما كان فى القلوب ، من خير وشر ، على صفحات الوجوه كما قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

---

فنى الدنيا ، ينكتم كثير من الأشياء ، ولا يظهر عيانا للناس .

وأما يوم القيامة ، فيظهر بِرُّ الأبرار ، وفجور الفجار ، وتصير الأمور علانية .

وقوله : [ فما له من قوة ] أى : من نفسه يدفع بها [ ولا ناصر ] من خارج ، ينتصر به ، فهذا الْقَسَمُ على العاملين، وقت عملهم ، وعندجزائهم .

ثم أقسم قسما ثانياً ، على صحة القرآن فقال : [ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ] أى : ترجع السماء بالمطر كل عام ، وتنصدع الأرض للنبات ، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم ، وترجع السماء أيضا بالأقدار والشئون الإلهية ، كل وقت ، وتنصدع الأرض عن الأموات .

[ إنه ] أى : القرآن [ لقول فصل ] أى : حق وصدق ، بَيِّنٌ واضح .

[ وما هو بالهزل ] أى : جد ، ليس بالهزل ، وهو : القول الذى يفصل بين الطوائف والمقالات ، وتنفصل به الخصومات .

[ إنهم ] أى : المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وللقرآن [ يكيدون كيدا ] ليدفعوا بكيدهم الحق ، ويؤيدوا الباطل .

فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

[ وأكيد كيدا ] لإظهار الحق ، ولو كره الكافرون ، ولدفع ما جاءوا به من الباطل ، ويعلم بهذا ، مَنِ الغالب ، فإن الآدمى أضعف وأحقر ، من أن يغالب القوى العليم فى كيده .

[ فمهل الكافرين أمهلم رويدا ] أى: قليلا ، فسيعلمون عاقبة أمرهم ، حين ينزل بهم العقاب .

تم تفسير سورة الطارق ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً

---

* يأمر تعالى ، بتسبيحه المتضمن لذكره ، وعبادته ، والخضوع لجلاله ، والاستكانة لعظمته .

وأن يكون تسبيحا ، يليق بعظمة الله تعالى ، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية ، على كل اسم ، بمعناها العظيم الجليل .

وتذكر أفعاله ، التي منها ، أنه خلق المخلوقات ، فسواها أي : أتقن وأحسن خلقها .

[ الذي قدر ] تقديرا ، تتبعه جميع المقدرات [ فهدى ] إلى ذلك جميع المخلوقات .

وهذه هي الهداية العامة ، التي مضمونها ، أنه هدى كل مخلوق لمصلحته ، وتذكر فيها نعمه الدنيوية ، ولهذا قال :

[ والذي أخرج المرعى ] أي : أنزل من السماء ماء ، فأنبت به أصناف النبات ، والعشب الكثير ، فرتع فيه الناس والبهائم ، وجميع الحيوانات .

أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾

---

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب ، ألوى نباته،وصوّح عشبه .

[ فجعله غثاء أحوى ] أى: أسود.أى : جعله هشيما رميما،ويذكر فيها نعمه الدينية .

ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها ، وهو القرآن فقال :

[ سنقرئك فلا تنسى ] أى . سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ، ونوعيه قلبك ، فلا تنسى منه شيئا .

وهذه بشارة من الله كبيرة ، لعبده ، ورسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ، أن الله سيعلمه علما لا ينساه .

[ إلا ما شاء الله ] مما اقتضت حكمته أن ينسيكه ، لمصلحة ،وحكمة بالغة .

[ إنه يعلم الجهر وما يخفى ] ومن ذلك ، أنه يعلم ما يصلح عباده .

أى : فلذلك ، يشرع ما أراد ، ويحكم بما يريد .

[ ونيسرك لليسرى ] وهذه أيضا بشارة أخرى ، أن الله ييسر رسوله صلى الله عليه وسلم ، لليسرى فى جميع أموره ، ويجعل شرعه ودينه ،يسيرا .

[ فذكر ] بشرع الله وآياته [ إن نفعت الذكرى ] أى : ما دامت الذكرى مقبولة ، والموعظة مسموعة ، سواء حصل من الذكرى ، جميع المقصود ، أو بعضه .

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ

---

ومفهوم الآية ، أنه ، إن لم تنفع الذكرى ، بأن كان الذكير يزيد في الشر ، أو ينقص من الخير ، لم تكن مأمورا بها ، بل هي منهي عنها .

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين : منتفعون ، وغير منتفعين .

فأما المنتفعون ، فقد ذكرهم بقوله [ سيذكر من يخشى ] الله ، فإن خشية الله تعالى ، والعلم بمجازاته على الأعمال ، توجب للعبد ، الانكفاف عما يكرهه الله ، والسعي في الخيرات .

وأما غير المنتفعين ، فذكرهم بقوله [ ويتجنبها الأشقى ٭ الذي يصلى النار الكبرى ] وهي : النار الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة .

[ ثم لا يموت فيها ولا يحيي ] أي : يعذب عذابا أليما ، من غير راحة ولا استراحة ، حتى إنهم يتمنون الموت ، فلا يحصل لهم ، كما قال تعالى « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » .

[ قد أفلح من تزكى ] أي قد فاز وربح ، من طهر نفسه ، ونقاها من الشرك والظلم ، ومساوىء الأخلاق .

[ وذكر اسم ربه فصلى ] أي : اتصف بذكر الله ، وانصبغ به قلبه ، فأوجب له ذلك ، العمل بما يرضى الله ، خصوصا ، الصلاة ، التي هي ميزان الإيمان : هذا معنى الآية .

وأما من فسر قوله « تزكى » يعني أخرج زكاة الفطر ، وذكر اسم

تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

---

ربه فصلى ، أنه صلاة العيد ، فإنه وإن كان داخلا فى اللفظ ، وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده .

[ بل تؤثرون الحياة الدنيا ] أى : تقدمونها على الآخرة ، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل ، على الآخرة .

[ والآخرة خير وأبقى ] : خير من الدنيا ، فى كل وصف مطلوب ، وأبقى، لكونها دار خلد وبقاء ، والدنيا دار فناء .

فالمؤمن العاقل ، لا يختار الأردأ ، على الأجود ، ولا يبيع لذة ساعة ، بترحة الأبد .

فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، رأس كل خطيئة .

[ إن هذا ] المذكور لكم فى هذه السورة المباركة ، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة [ لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى ] اللذين هما أشرف المرسلين ، بعد محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

فهذه أوامر فى كل شريعة ، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين ، وهى مصالح فى كل زمان ومكان ولله الحمد .

تم تفسير سورة الأعلى

تفسير

# سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ

---

* يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في وصف أهل النار.

[ وجوه يومئذ ] أي: يوم القيامة [ خاشعة ] من الذل، والفضيحة، والخزى.

[ عاملة ناصبة ] أي: تاعبة في العذاب، تُجَرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد بقوله [ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة ] في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل.

ولكنه لما عدم شرطه، وهو الإيمان، صار يوم القيامة، هباء منثورا.

ءانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ

---

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحا ، من حيث المعنى ، فلا يدل عليه سياق الكلام .

بل الصواب المقطوع به،هو الاحتمال الأول ، لأنه قيده بالظرف ، وهو يوم القيامة ، ولأن المقصود هنا،بيان ذكر أهل النار عموما،وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار .

ولأن الكلام ، فى بيان حال الناس عند غشيان الغاشية ، فليس فيه تعرض لأحوالهم فى الدنيا .

وقوله [ تصلى نارا حامية ] أى:شديدا حرها،تحيط بهم من كل مكان [ تسقى من عين آنية ] أى : شديدة الحرارة « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » فهذا شرابهم .

وأما طعامهم ، فإنهم [ ليس لهم طعام إلا من ضريع *لا يسمن ولا يغنى من جوع ] وذلك لأن المقصود من الطعام ، أحد أمرين .

إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه .

وإما أن يسمن بدنه من الهزال .

وهذا الطعام ليس فيه شىء من هذين الأمرين ، بل هو طعام فى غاية المرارة ، والنتن ، والخسة ، نسأل الله العافية .

وأما أهل الخير ، فوجوههم يوم القيامة [ ناعمة ] أى:قد جرت عليهم

عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا

نضرة النعيم ، فنضرت أبدانهم ، واستنارت وجوههم ، وسروا غاية السرور .

[ لسعيها ] الذى قدمته فى الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله .

[ راضية ] إذ وجدت ثوابه ، مدخرا مضاعفا ، فحمدت عقباه ،وحصل لها كل ما تتمناه .

وذلك أنها [ فى جنة ] جامعة لأنواع النعيم كلها [ عالية ] فى محلها ومنازلها ، فمحلها فى أعلى عليين ، ومنازلها ، مساكن عالية ، لها غرف ، ومن فوق الغرف ، غرف مبنية ، يشرفون منها ، على ما أعد الله لهم من الكرامة .

[ قطوفها دانية ] أى : كثيرة الفواكه اللذيذة ، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول ، بحيث ينالونها على أى حال كانوا،لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة ، أو يستعصى عليهم منها ثمرة .

[ لا تسمع فيها ] أى : فى الجنة [ لاغية ] أى : كلمة لغو وباطل فضلا عن الكلام المحرم ، بل كلامهم ، كلام حسن نافع ، مشتمل على ذكر الله ، وذكر نعمه المتواترة عليهم ، وعلى الآداب الحسنة بين المتعاشرين ، الذى يسر القلوب ، ويشرح الصدور .

[ فيها عين جارية ] وهذا اسم جنس ، أى : فيها العيون الجارية ،التى يفجرونها ، ويصرفونها كيف شاءوا ، وأنى أرادوا .

سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى

---

[ فيها سرر مرفوعة ] و « السرر » جمع « سرير » وهى : المجالس المرتفعة فى ذاتها ، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة .

[ وأكواب موضوعة ] أى : أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم ، وأعدت لهم ، وصارت تحت طلبهم واختيارهم ، يطوف بها عليهم ، الولدان المخلدون .

[ ونمارق مصفوفة ] أى : وسائد من الحرير والإستبرق وغيرها ، مما لا يعلمه إلا الله .

قد صفت للجلوس والاتكاء عليها ، وقد أريحوا ، عن أن يصنعوها، أو يَصُفُّوها بأنفسهم .

[ وزرابى مبثوثة ] والزرابى هى : البسط الحسان ، مبثوثة، أى:مملوءة بها مجالسهم من كل جانب .

* يقول تعالى ـ حَثًّا للذين لا يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولغيرهم من الناس ، أن يتفكروا فى مخلوقات الله الدالة على توحيده :

[ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ] أى : ألا ينظرون إلى خلقها البديع ، وكيف سخرها الله للعباد ، وذللها لمنافعهم الكثيرة ، التى يضطرون إليها .

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾

---

[ وإلى الجبال كيف نصبت ] بهيئة باهرة ، حصل بها الاستقرار للأرض ، وثباتها من الاضطراب ، وأودع فيها من المنافع الجليلة ، ما أودع .

[ وإلى الأرض كيف سطحت ] أى : مدت مدا واسعا ، وسهلت غاية التسهيل ، ليستقر العباد على ظهرها ، ويتمكنوا من حرثها وغراسها ، والبنيان فيها ، وسلوك طرقها .

واعلم أن تسطيحها ، لا ينافى أنها كرة مستديرة ،قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها ، كما دل على ذلك النقل والعقل ، والحس ،والمشاهدة كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس ، خصوصا فى هذه الأزمنة ، التى وقف فيها الناس على أكثر أرجائها ، بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد .

فإن التسطيح ، إنما ينافى كروية الجسم الصغير جدا ، الذى لو سطح ، لم يبق له استدارة تذكر .

وأما جسم الأرض ، الذى هو كبير جدا ، وواسع ، فيكون كرويا مسطحا ، ولا يتنافى الأمران ، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة .

[ فذكر إنما أنت مذكر ] أى : ذكر الناس ، وعظهم ، وأنذرهم ، وبشرهم ، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم ، ولم تبعث مسيطرا عليهم ، مسلطا ، ولا موكلا بأعمالهم .

لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

---

فإذا قمت بما عليك ، فلا عليك بعد ذلك لوم ، كقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

وقوله:[ إلا من تولى وكفر] أى : لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله [ فيعذبه الله العذاب الأكبر ] أى:الشديد الدائم ، [ إن إلينا إيابهم ] أى : رجوع الخلائق وجمعهم فى يوم القيامة .

[ ثم إن علينا حسابهم ] على ما عملوا ، من خير وشر .

تم تفسير سورة الغاشية ـ والحمد لله

تفســير

# سُورَةُ الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾

---

* الظاهر ، أن المقسم عليه ، هو المقسم به ، وذلك جائز مستعمل ، إذا كان أمرا ظاهراً مُهِمًّا ، وهو كذلك فى هذا الموضع .

فأقسم تعالى بالفجر ، الذى هو آخر الليل ، ومقدمة النهار ، لما فى إدبار الليل ، وإقبال النهار ، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه تعالى ، هو المدبر لجميع الأمور ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

ويقع فى الفجر ، صلاة فاضلة معظمة ، يحسن أن يقسم الله بها .

ولهذا أقسم بعده ، بالليالى العشر ، وهى على الصحيح : ليالى عشر رمضان ، أو عشر ذى الحجة

فإنها ليال مشتملة ، على أيام فاضلة ، ويقع فيها من العبادات والقربات، مالا يقع بغيرها .

وفى ليالى عشر رمضان ، ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر .

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾

ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ

---

وفى نهارها ، صيام آخر رمضان الذى هو أحد أركان الإسلام العظام .

وفى أيام عشر ذى الحجة ، الوقوف بعرفة ، الذى يغفر الله فيه لعباده مغفرة ، يحزن لها الشيطان ، فإنه ما رُئِىَ الشيطان أحقر ولا أدحر منه فى يوم عرفة ، لما يرى من تَنَزُّلِ الأملاك والرحمة من الله ، على عباده .

ويقع فيها ، كثير من أفعال الحج والعمرة .

وهذه أشياء معظمة ، مستحقة أن يقسم الله بها .

[ والليل إذا يسر ] أى : وقت سريانه ، وإرخائه ظلامه على العباد ، فيسكنون ويستريحون ، ويطمئنون ، رحمة منه تعالى وحكمة .

[ هل فى ذلك ] المذكور [ قسم لذى حجر ] أى : لذى عقل ؟

نعم ، بعض ذلك يكفى ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

* يقول تعالى : [ ألم تر ] بقلبك وبصيرتك [ كيف فعل ربك بعاد ] هذه الأمة الطاغية وهى [ إرم ] القبيلة المعروفة فى اليمن [ ذات العماد ] .

أى : القوة الشديدة ، والعتو والتجبر .

[ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ] أى : فى جميع البلدان،فى القوة والشدة .

كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من

بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾
إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

---

بعدم قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون».

[ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ] أى وادى القرى ، نحتوا بقوتهم الصخور ، فاتخذوها مساكن .

[ وفرعون ذى الأوتاد ] أى : ذى الجنود ، الذين ثبتوا ملكه ، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها .

[ الذين طغوا فى البلاد ] هذا الوصف عائد ، إلى عاد وثمود وفرعون ، ومن تبعهم .

فإنهم طغوا فى بلاد الله ، وآذوا عباد الله ، فى دينهم ودنياهم ، ولهذا قال :

[ فأكثروا فيها الفساد ] وهو العمل بالكفر وشُعَبِهِ ، من جميع أجناس المعاصى .

وسعوا فى محاربة الرسل ، وصد الناس عن سبيل الله .

فلما بلغوا من العتو ، ما هو موجب لهلاكهم ، أرسل الله عليهم من عذابه ، ذنوبا ، وسوط عذاب .

[ إن ربك لبالمرصاد ] لمن يعصيه ، يمهله قليلا ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾

---

* يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وأنه جاهل ظالم ، لا علم له بالعواقب .

يظن الحالة ، التي تقع فيه ، تستمر ولا تزول .

ويظن أن إكرام الله فى الدنيا وإنعامه عليه ، يدل على كرامته وقربه منه .

وأنه [ إذا قدر عليه رزقه ] أى : ضيقه ، فصار يقدر قوته لا يفضل عنه ، أن هذا إهانة من الله له ، فرد الله عليه هذا الحسبان ، فقال :

[ كلا ] أى : ليس كل من نَعَّمْتُهُ فى الدنيا ، فهو كريم عَلَىَّ .

ولا كل من قدرت عليه رزقه ، فهو مهان لدىَّ .

وإنما الغنى والفقر ، والسعة والضيق ، ابتلاء من الله ، وامتحان يمتحن به العباد ، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر ، فيثيبه على ذلك ، الثواب الجزيل ومن ليس كذلك ، فينقله إلى العذاب الوبيل .

وأيضا ، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط ، من ضعف الهمة .

ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال :

[ كلا بل لا تكرمون اليتيم ] الذى فقد أباه وكاسبه ، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه .

وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ
أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ
رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ

---

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه ، وهذا يدل على عدم الرحمة فى قلوبكم، وعدم الرغبة فى الخير .

[ ولا تحاضون على طعام المسكين ] أى : لا يحض بعضكم بعضا ، على إطعام المحاويج ، من الفقراء والمساكين ، وذلك ، لأجل الشح على الدنيا ، ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب ، ولهذا قال :

[ وتأكلون التراث ] أى : المال المخلف [ أكلا لما ] أى : ذريعا ، لا تبقون على شىء منه .

[ وتحبون المال حبا جما ] أى : شديدا ، وهذا كقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى * كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

* [ كلا ] أى : ليس كل ما أحببتم من الأموال ، وتنافستم فيه من اللذات ، بباق لكم .

بل أمامكم يوم عظيم ، وهول جسيم ، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعا صفصفا ، لا عوج فيه ولا أمت .

ويجىء الله لفصل القضاء بين عباده ، فى ظلل من الغمام .

ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

---

وتجيء الملائكة الكرام ، أهل السموات كلهم ، صفا صفا ، أى: صفا بعد صف ، كل سماء يجيء ملائكتها صفا ، يحيطون بمن دونهم من الخلق .

وهذه الصفوف ، صفوف خضوع ، وذل للملك الجبار .

[ وجيء يومئذ بجهنم ] تقودها الملائكة بالسلاسل .

فإذا وقعت هذه الأمور [ يومئذ يتذكر الإنسان ] ما قدمه من خير ومن شر .

[ وأنى له الذكرى ] فقد فاتت أوانها ، وذهب زمانها .

[ يقول ] متحسرا على ما فرط فى جنب الله .

[ يا ليتنى قدمت لحياتى ] الباقية الدائمة ، عملا صالحا ، كما قال تعالى : « يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » .

وفى هذا ، دليل على أن الحياة ، التى ينبغى السعى فى كمالها ، وتحصيلها وكمالها ، وفى تتميم لذاتها ، هى الحياة فى دار القرار ، فإنها دار الخلد والبقاء .

[ فيؤمئذ لا يعذب عذابه أحد ] لمن أهمل ذلك اليوم ، ونسى العمل له .

[ ولا يوثق وثاقه أحد ] فإنهم يوثقون بسلاسل من نار ، ويسحبون على وجوههم فى الجحيم ، ثم فى النار يسجرون ، فهذا جزاء المجرمين .

وأما من آمن بالله ، واطمأن به ، وصدق رسله فيقال له :

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

---

[ يا أيتها النفس المطمئنة ] إلى ذكر الله ، الساكنة إلى حبه ، التي قرت عينها بالله .

[ ارجعي إلى ربك ] الذي رباك بنعمته [ راضية مرضية ] أي : راضية عن الله ، وعن ما أكرمها به من الثواب ، والله قد رضي عنها .

[ فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ] وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة وتخاطب به وقت السياق والموت .

تم تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

# تفسير

## سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾
وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن

---

* يقسم تعالى [ بهذا البلد ] الأمين ، وهو : مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق ، خصوصا وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيها .

[ ووالد وما ولد ] أى : آدم وذريته .

والمقسم عليه قوله : [ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ] يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان ويقاسيه ، من الشدائد فى الدنيا ، وفى البرزخ ، ويوم يقوم الأشهاد .

وأنه ينبغى له ، أن يسعى فى عمل يريحه من هذه الشدائد ، ويوجب له الفرح والسرور الدائم .

وإن لم يفعل ، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد ، أبد الآباد .

ويحتمل أن المعنى : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، وأقوم خلقة ، يقدر على التصرف والأعمال الشديدة .

يَقدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

---

ومع ذلك ، فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة ، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه ، فحسب بجهله وظلمه ، أن هذه الحال ستدوم له،وأن سلطان تصرفه لا ينعزل ، ولهذا قال :

[ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ] ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه ، حيث [ يقول أهلكت مالا لبدا ] أى : كثيرا ، بعضه فوق بعض .

وسمى الله الإنفاق فى الشهوات والمعاصى ، إهلاكا ، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ، ولا يعود إليه من إنفاقه ، إلا الندم والخسارة ، والتعب والقلة .

لا كمن أنفق في مرضاة الله ، في سبيل الخير ، فإن هذا ، قد تاجر مع الله ، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق .

قال الله متوعدا هذا الذى افتخر بما أنفق فى الشهوات :

[ أيحسب أن لم يره أحد ] أى : أيظن فى فعله هذا ، أن الله لا يراه ولا يحاسبه على الصغير والكبير ؟ .

بل قد رآه الله ، وحفظ عليه أعماله ، ووكل به الكرام الكاتبين ، لكل ما عمله من خير وشر .

ثم قرره بنعمه فقال : [ ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين ] للجمال والبصر ، والنطق ، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها ، فهذه نعم الدنيا.

وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَٰكَ
مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾أَوْ مِسْـكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

ثم قال فى نعم الدين : [ وهديناه النجدين ] أى : طريقى الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال ، والرشد من الغى .

فهذه المنن الجزيلة ، تقتضى من العبد ، أن يقوم بحقوق الله ، ويشكره على نعمه ، وأن لا يستعين بها على معاصى الله ، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك .

[ فلا اقتحم العقبة ] أى : لم يقتحمها ويعبر عليها ، لأنه متبع لهواه .

وهذه العقبة ، شديدة عليه ، ثم فسر هذه العقبة بقوله :

[ وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ] أى : فكها من الرق ، بعتقها ، أو مساعدتها على أداء كتابتها ، ومن باب أولى ، فكاك الأسير المسلم عند الكفار .

[ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ] أى : مجاعة شديدة ، بأن يطعم وقت الحاجة ، أشد الناس حاجة .

[ يتيما ذا مقربة ] جامعا بين كونه يتيما ، وفقيرا ذا قرابة .

[ أو مسكينا ذا متربة ] أى : قد لزق بالتراب ، من الحاجة والضرورة .

[ ثم كان من الذين آمنوا ] وعملوا الصالحات ، أى : آمنوا بقلوبهم

ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

---

بما يجب الإيمان به ، وعملوا الصالحات بجوارحهم .

فدخل فى هذا ، كل قول ، وفعل واجب ، أو مستحب .

[ وتواصوا بالصبر ] على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا ، على الانقياد لذلك ، والإتيان به ، كاملا ، منشرحا به الصدر ، مطمئنة به النفس .

[ وتواصوا بالمرحمة ] للخلق ، من إعطاء محتاجهم ، وتعليم جاهلهم ، والقيام بما يحتاجون إليه ، من جميع الوجوه ، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه

أولئك قاموا بهذه الأوصاف ، والذين وفقهم الله لاقتحام العقبة [ أولئك أصحاب الميمنة ] لأنهم أدوا ، ما أمر الله به ، من حقوقه ، وحقوق عباده ، وتركوا ما نهوا عنه ، وهذا عنوان السعادة وعلامتها .

[ والذين كفروا بآياتنا ] بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم ، فلم يصدقوا بالله ، ولا آمنوا به ، ولا عملوا صالحا ، ولا رحموا عباد الله .

[ أولئك هم أصحاب المشئمة * عليهم نار مؤصدة ] أى : مغلقة ، فى عمد ممددة ، قد مدت من ورائها ، لئلا تنفتح أبوابها ، حتى يكونوا فى ضيق ، وهم ، وشدة .

تم تفسير سورة البلد ـ والحمد لله

## تفسير

# سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة ، على النفس المفلحة ، وغيرها من النفوس الفاجرة فقال :

[ والشمس وضحاها ] أي : نورها ، ونفعها الصادر منها .

[ والقمر إذا تلاها ] أي : تبعها في المنازل والنور .

[ والنهار إذا جلاها ] أي : جلّى ما على وجه الأرض ، وأوضحه .

[ والليل إذا يغشاها ] أي : يغشى وجه الأرض ، فيكون ما عليها مظلما .

فتعاقب الظلمة والضياء ، والشمس والقمر ، على هذا العالم ، بانتظام وإتقان ، وقيام لمصالح العباد ، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه المعبود وحده ، الذي كل معبود سواه ، باطل .

[ والسماء وما بناها ] يحتمل أن « ما » موصولة ، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها ، وهو الله تعالى .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

---

ويحتمل أنها مصدرية ، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها ، الذى هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان .

ونحو هذا قوله : [ والأرض وما طحاها ] أى : مدهاووسعها، فتمكن الخلق حينئذ ، من الانتفاع بها ، بجميع أوجه الانتفاع .

[ ونفس وماسواها] يحتمل أن المراد، ونفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا ، العموم .

ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف ، بدليل ما يأتى بعده .

وعلى كُلٍّ ، فالنفس آية كبيرة من آياته ، التى يحق الإقسام بها ، فإنها فى غاية اللطف والخفة ، سريعة التنقل والحركة ،والتغير ، والتأثر،والانفعالات النفسية ، من الهم ، والإرادة ، والقصد ، والحب ، والبغض .

وهى التى ، لولاها ، لكان البدن مجرد تمثال ، لا فائدة فيه

وتسويتها على ما هى عليه ، آية من آيات الله العظيمة .

وقوله : [ قد أفلح من زكاها ] أى : طهر نفسه من الذنوب ، ونقاها من العيوب ، ورقَّاها بطاعة الله ، وعلَّاها بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

[ وقد خاب من دساها[1] ] أى : أخفى نفسه الكريمة ، التى ليست

---

(١) أى : أخفاها فى مزابل المعاصى، وأمات استعدادها للخير بالمداومة على اتباع طرق الشيطان وفعل الفجور .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ

---

حقيقة بقمعها وإخفائها ، بالتدنس بالرذائل ، والدنو من العيوب والذنوب ، وترك ما يكملها وينميها ، واستعمال ما يشينها ويدسيها .

[ كذبت ثمود بطغواها ] أى : بسبب طغيانها ، وترفعها عن الحق ، وعتوها على رسولهم .

[ إذ انبعث أشقاها ] أى : أشقى القبيلة ، وهو « قدار بن سالف » لعقرها ، حين اتفقوا على ذلك ، وأمروه ، فأتمر لهم .

[ فقال لهم رسول الله ] صالح عليه السلام محذرا :

[ ناقة الله وسقياها ] أى : احذروا عقر ناقة الله ، التى جعلها لكم آية عظيمة ، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم ، بِسَقْىِ لبنها ، أن تعقروها .

فكذبوا نبيهم صالحا [ فعقروها ، فدمدم عليهم[1] ربهم بذنبهم ]

---

( ١ ) دمدم عليهم . أى : أطبق العذاب عليهم . وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمدمة : إذا لبسها الشحم . اهـ أبو السعود وفى مفردات الراغب « فدمدم عليهم ربهم » أى : أهلكهم وأزعجهم .

وقيل : الدمدمة : حكاية صوت الهرة ، ومنه دمدم فلان فى كلامه .

ودمدمت الثوب : طليته بصبغ مَّا ، والدمام ، ما يطلى به ، وبعير مدمدم بالشحم .

والدَّامَّاء والدمة : جحر اليربوع ، والدَّامَّاء بالتخفيف ، والديمومة : المفازة . اهـ .

عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

أى : دمر عليهم ، وعمهم بعقابه ، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم ، والرجفة من تحتهم ، فأصبحوا جاثمين على ركبهم ، لا تجد منهم داعيا ولا مجيبا .

[ فسواها ] عليهم أى : سوى بينهم فى العقوبة [ ولا يخاف عقباها ] أى : تَبِعَتَهَا .

وكيف يخاف من هو قاهر ، لايخرج عن قهره وتصرفه ، مخلوق ، حكيم فى كل ما قضاه وشرعه ؟

تم تفسير سورة الشمس بحمد الله وعونه

تفسير

# سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

* وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾
وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ

---

* هذا قسم من الله ، بالزمان الذى تقع فيه أفعال العباد ، على تفاوت أحوالهم فقال :

[ والليل إذا يغشى ] أى : يعم الخلق بظلامه ، فيسكن إلى مأواه ومسكنه ، ويستريح العباد من الكد والتعب .

[ والنهار إذا تجلى ] للخلق ، فاستضاءوا بنوره ، وانتشروا فى مصالحهم .

[ وما خلق الذكر والأنثى ] إن كانت « ما » موصولة ، كان إقساما بنفسه الكريمة الموصوفة ، بكونه خالق الذكور والإناث .

وإن كانت مصدرية ، كان قسما بخلقه ، للذكر والأنثى .

وكال حكمته فى ذلك ، أن خلق من كل صنف من الحيوانات ، التى يريد إبقاءها ، ذكرا وأنثى ، ليبقى النوع ، ولا يضمحل ، وقاد كلا منهما إلى الآخر ، بسلسلة الشهوة .

وجعل كل منهما ، مناسبا للآخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

وقوله [ إن سعيكم لشتى ] هذا هو المقسم عليه ، أى : إن سعيكم ، أيها المكلفون ، لَمُتَفَاوِتٌ تفاوتا كثيراً ، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها ، والنشاط فيها ، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال ، هل هو وجه الله الأعلى الباقى ؟ فيبقى العمل له ببقائه ، وينتفع به صاحبه .

أم هى غاية مضمحلة فانية ، فيبطل السعى ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله ، بهذا الوصف .

ولهذا فضل الله العاملين ، ووصف أعمالهم فقال : [ فأما من أعطى ] أى : ما أمر به من العبادات المالية ، كالزكوات ، والنفقات ، والكفارات ، والصدقات ، والإنفاق فى وجوه الخير .

والعبادات البدنية ، كالصلاة ، والصوم ، وغيرها .

والمركبة من ذلك ، كالحج ، والعمرة ، ونحوها .

[ واتقى ] مانهى عنه ، من المحرمات والمعاصى ، على اختلاف أجناسها .

[وصدق بالحسنى] أى: صدق بـ« لا إله إلا الله » وما دلت عليه ، من العقائد الدينية ، وما ترتب عليها ، من الجزاء .

[ فسنيسره لليسرى ] أى : نيسر له أمره ، ونجعله مسهلا عليه كل خير ، ميسرا له ترك كل شر ، لأنه أتى بأسباب التيسير ، فيسر الله له ذلك .

وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

---

[ وأما من بخل ] بما أمر به ، فترك الإنفاق الواجب والمستحب ، ولم تسمح نفسه بأداء ما أوجب لله .

[ واستغنى ] عن الله ، فترك عبوديته جانبا ، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها ، الذى لا نجاة لها ، ولا فوز ، ولا فلاح ، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها ، الذى تقصده وتتوجه إليه .

[ وكذب بالحسنى ] أى : بما أوجب الله على العباد ، التصديق به من العقائد الحسنة .

[ فسنيسره للعسرى ] أى : للحالة العسرة ، والخصال الذميمة ، بأن يكون ميسرا للشر ، أينما كان ، ومقيضا له أفعال المعاصى ، نسأل الله العافية .

[ وما يغنى عنه ماله ] الذى أطغاه ، واستغنى به ، وبخل به .

[ إذا تردى ] أى : هلك ومات ، فإنه لا يصحب الإنسان ، إلا عمله الصالح .

وأما ماله ، الذى لم يخرج منه الواجب ، فإنه يكون وبالا عليه ، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئا .

[ إن علينا للهدى ] أى : إن الهدى المستقيم طريقه ، يوصل إلى الله ، ويدنى من رضاه .

لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا
تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ

---

وأما الضلال ، فطرقه مسدودة عن الله ، لا توصل صاحبها ، إلا للعذاب الشديد .

[ وإن لنا للآخرة والأولى ] ملكا وتصرفا ، ليس له فيهما مشارك .

فليرغب الراغبون إليه فى الطلب ، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين .

[ فأنذرتكم نارا تلظى ] أى : تستعر وتتوقد .

[ لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب ] بالخبر [ وتولى ] عن الأمر .

[وسيجنبها الأتقى* الذى يؤتى ماله يتزكى] بأن يكون قصده به تزكية نفسه ، وتطهيرها من الذنوب والأدناس ، قاصدا به وجه الله تعالى .

فدل هذا ، على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ، ترك واجب، كدين ، ونفقة ونحوها ، فإنه غير مشروع ، بل تكون عطيته مردودة ، عند كثير من العلماء ، لأنه يتزكى بفعل مستحب ، يفوت عليه الواجب .

[ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ] أى : ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى ، إلا وقد كافأه عليها ، وربما بقى له الفضل والمنة على الناس فتمحض عبداً لله ، لأنه رقيق إحسانه وحده .

وأما من بقيت عليه نعمة الناس ، فلم يجزها ويكافئها ، فإنه لابد أن يترك الناس ، ويفعل لهم ، ما ينقص إخلاصه .

عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

---

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بل قد قيل : إنها نزلت بسببه ، فإنه ـ رضى الله عنه ـ ما لأحد عنده من نعمة تجزى ، حتى ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا نعمة الرسول التى لا يمكن جزاؤها ، وهى نعمة الدعوة إلى دين الإسلام ، وتعليم الهدى ، ودين الحق ، فإن لله ورسوله ، المنة على كل أحد .

منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة ، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل .

فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى ، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى .

ولهذا قال [ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ] هذا الأتقى بما يعطيه الله ، من أنواع الكرامات ، والمثوبات .

تم تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

تفســـير

# سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ

---

* أقسم تعالى، بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا، سجى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله صلى الله عليه وسلم، فقال:

[ما ودعك ربك] أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك، منذ رباك ورعاك.

بل لم يزل يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

[وما قلا] ك الله أي: ما أبغضك، منذ أحبك، فإن نفى الضد، دليل على ثبوت ضده، والنفى المحض، لا يكون مدحا، إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم، الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له، واستمرارها، وترقيته فى درجات الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة فقال: [وللاخرة خير لك من الأولى] أى: كل

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ
ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ

---

حالة متأخرة من أحوالك ، فإن لها الفضل على الحالة السابقة .

فلم يزل صلى الله عليه وسلم ، يصعد فى درجات المعالى ، ويمكن الله له دينه ، وينصره على أعدائه ، ويسدده فى أحواله ، حتى مات ، وقد وصل إلى حال ، ماوصل إليها الأولون والآخرون ، من الفضائل ، والنعم ، وقرة العين ، وسرور القلب .

ثم بعد هذا ، لا تسأل عن حاله فى الآخرة ، من تفاصيل الإكرام ، وأنواع الإنعام .

ولهذا قال : [ ولسوف يعطيك ربك فترضى ] وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه ، إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة .

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة فقال :

[ ألم يجدك يتيما فآوى ] أى : وجدك لا أم لك ، ولا أب .

بل قد مات أبوه ، وهو لا يدبر نفسه ، فآواه الله ، وكفله جده عبد المطلب .

ثم لما مات جده ، كفله الله عمه أبا طالب ، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين .

[ ووجدك ضالا فهدى ] أى : وجدك لا تدرى ، ما الكتاب ، ولا الإيمان .

فعلمك ما لم تكن تعلم ، ووفقك لأحسن الأعمال ، والأخلاق .

[ ووجدك عائلا ] أى : فقيرا [ فأغنا ] ك الله ، بما فتح عليك من البلدان ، التى جبيت لك أموالها وخراجها .

فالذى أزال عنك هذه النقائص ، سيزيل عنك كل نقص .

والذى أوصلك إلى الغنى ، وآواك ، ونصرك ، وهداك ، قَابِلْ نعمته بالشكران .

ولهذا قال : [ فأما اليتيم فلا تقهر ] أى : لا تسىء معاملة اليتيم ، ولا يضق صدرك عليه ، ولا تنهره ، بل أكرمه ، وأعطه ما تيسر ، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك .

[ وأما السائل فلا تنهر ] أى : لا يصدر منك كلام للسائل ، يقتضى رده عن مطلوبه ، بنهر ، وشراسة خلق ، بل أعطه ، ما تيسر عندك ، أو ردّه بمعروف وإحسان .

ويدخل فى هذا ، السائل للمال ، والسائل للعلم ، ولهذا كان المعلم ، مأمورا بحسن الخلق ، مع المتعلم ، ومباشرته بالإكرام ، والتحنن عليه ، فإن فى ذلك ، معونة له على مقصده ، وإكراما لمن كان يسعى فى نفع العباد والبلاد .

[ وأما بنعمة ربك فحدث ] وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية .

فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

أى : أثنِ على الله بها ، وخصها بالذكر ، إن كان هناك مصلحة .

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق ، فإن التحدث بنعمة الله ، داع لشكرها ، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها ، فإن القلوب ، مجبولة على محبة المحسن .

تم تفسير سورة الضحى ـ بحمد الله وعونه

# تفسير

## سُورَةُ الشَّرْحِ "الانشراح"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ

---

* يقول تعالى - ممتناً على رسوله : [ ألم نشرح لك صدرك ] أى : نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله ، والاتصاف بمكارم الأخلاق ، والإقبال على الآخرة ، وتسهيل الخيرات .

فلم يكن ضيقاً حرجاً ، حتى لا يكاد ينقاد لخير ، ولا تكاد تجده منبسطاً .

[ ووضعنا عنك وزرك ] أى : ذنبك [ الذى أنقض ] أى : أثقل [ ظهرك ] كما قال تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

[ ورفعنا لك ذكرك ] أى : أعلينا قدرك ، وجعلنا لك الثناء الحسن العالى ، الذى لم يصل إليه أحد من الخلق .

فلا يذكر الله ، إلا ذكر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فى الدخول فى الإسلام ، وفى الأذان ، والإقامة ، والخطب ، وغير ذلك ، من الأمور التى أعلى الله بها ، ذكر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ

---

وله فى قلوب أمته ، من المحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، ما ليس لأحد غيره ، بعد الله تعالى .

فجزاه الله عن أمته ، أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

وقوله : [ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ] بشارة عظيمة ، أنه كلما وجد عسر وصعوبة ، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه ، حتى لو دخل العسر جحر ضب ، لدخل عليه اليسر ، فأخرجه كما قال تعالى : « سيجعل الله بعد عسر يسراً ».

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم « وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً » .

وتعريف « العسر » فى الآيتين ، يدل على أنه واحد ، وتنكير « اليسر » يدل على تكراره ، فلن يغلب عسر يسرين .

وفي تعريفه بالألف واللام ، الدال على الاستغراق والعموم ، دلالة على أن كل عسر ، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ، فإنه في آخره التيسير ، ملازم له .

ثم أمر رسوله أصلا ، والمؤمنين تبعاً ، بشكره ، والقيام بواجب نعمه فقال :

[فإذا فرغت فانصب] أى : إذا تفرغت من أشغالك ، ولم يبق فى قلبك ما يعوقه ، فاجتهد فى العبادة والدعاء .

رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

[ وإلى ربك ] وحده [ فارغب ] أى : أعظم الرغبة ، فى إجابة دعائك ، وقبول دعواتك .

ولا تكن ، ممن إذا فرغوا ، لعبوا ، وأعرضوا عن ربهم ، وعن ذكره ، فتكون من الخاسرين .

وقد قيل : إن معنى هذا : فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها ، فانصب فى الدعاء .

وإلى ربك فارغب فى سؤال مطالبك .

واستدل من قال هذا القول ، على مشروعية الدعاء والذكر ، عقب الصلوات المكتوبات . والله أعلم .

تم تفسير سورة الشرح « الإنشراح »

تفســـير

# سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ

---

* [ التين ] هو التين المعروف ، وكذلك [ الزيتون ] .

أقسم بهاتين الشجرتين ، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما ، ولأن سلطانهما فى أرض الشام ، محل نبوة عيسى بن مريم عليه السلام .

[ وطور سينين ] أى : طور سيناء ، محل نبوة موسى عليه السلام .

[ وهذا البلد الأمين ] وهو : مكة المكرمة ، محل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة ، التى اختارها ، وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم .

والمقسم عليه قوله : [ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ] أى : تام الخلق ، متناسب الأعضاء ، منتصب القامة ، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً ، شيئاً .

أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

---

ومع هذه النعم العظيمة ، التى ينبغى له القيام بشكرها ، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم ، مشتغلون باللهو واللعب ، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمر ، وسفساف الأخلاق .

فردهم الله فى أسفل سافلين ، أى : أسفل النار ، موضع العصاة المتمردين على ربهم ، إلا من منَّ الله عليه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والأخلاق الفاضلة العالية .

[فلهم] بذلك المنازل العالية ، و [أجر غير ممنون] أى : غير مقطوع .

بل لذات متوافرة ، وأفراح متواترة ، ونعم متكاثرة ، فى أبد لا يزول ، ونعيم ، لا يحول ، أكلها دائم وظلها .

[فما يكذبك بعد بالدين] أى : أى شىء يكذبك أيها الإنسان ، بيوم الجزاء على الأعمال ، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين ، ومن نعمه ، ما يوجب عليك أن لا تكفر بشىء منها ؟

[أليس الله بأحكم الحاكمين] فهل تقتضى حكمته ، أن يترك الخلق سدى ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون ؟

أم الذى خلق بنى الإنسان أطواراً ، بعد أطوار ، وأوصل إليهم من النعم ، والخير ، والبر ، ما لا يحصونه ، ورباهم التربية الحسنة ، لا بد أن يعيدهم إلى دار ، هى مستقرهم ، وغايتهم التى إليها يقصدون ، ونحوها يؤمون .

تم تفسير سورة التين ـ والحمد لله

# تفســــير

# سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾

---

* هذه السورة أول السور القرآنية ، نزولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنها نزلت فى مبادىء النبوة ، إذ كان لا يدرى ، ما الكتاب ولا الإيمان .

فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة ، وأمره أن يقرأ ، فاعتذر وقال : « ما أنا بقارىء » فلم يزل به حتى قرأ .

فأنزل الله [ اقرأ باسم ربك الذى خلق ] عموم الخلق .

ثم خص الإنسان ، وذكر ابتداء خلقه [ من علق ] .

فالذى خلق الإنسان ، واعتنى بتدبيره ، لا بد أن يدبر بالأمر والنهى ، وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

ولهذا أتى بعد الأمر بالقراءة ، بخلقه للإنسان .

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ
ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾
عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ

---

ثم قال : [ اقرأ وربك الأكرم ] أي : كثير الصفات واسعها ، كثير الكرم والإحسان ، واسع الجود ، الذى من كرمه ، أن علم أنواع العلوم .

و [ علم بالقلم علم الإنسان * ما لم يعلم ] فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه ، لا يعلم شيئاً ، وجعل له السمع ، والبصر ، والفؤاد ، ويسر له أسباب العلم .

فعلمه القرآن ، وعلمه الحكمة ، وعلمه بالقلم ، الذى به تحفظ به العلوم ، وتضبط الحقوق وتكون رسلا للناس ، تنوب مناب خطابهم .

فلله الحمد والمنة ، الذى أنعم على عباده ، بهذه النعم ، التى لا يقدرون لها ، على جزاء ولا شكور .

ثم منّ عليهم بالغنى ، وسعة الرزق .

ولكن الإنسان ـ لجهله وظلمه ـ إذا رأى نفسه غنياً ، طغى وبغى ، وتجبر عن الهدى ، ونسى أن لربه الرجعى ، ولم يخف الجزاء .

بل بما وصلت به الحال ، أنه يترك الهدى بنفسه ، ويدعو غيره إلى تركه .

فينهى عن الصلاة ، التى هى أفضل أعمال الإيمان ، يقول الله لهذا المتمرد العاتى :

[ أرأيت ] أيها الناهى للعبد إذا صلى [ إن كان ] العبد المصلى [ على الهدى ] العلم بالحق ، والعمل به [ أو أمر ] غيره [ بالتقوى ] .

بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ
يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ
خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا

---

فهل يحسن أن ينهى ، من هذا وصفه ؟ أليس نهيه ، من أعظم المحادّة لله ، والمحاربة للحق ؟

فإن النهى ، لا يتوجه إلا ممن هو فى نفسه على غير الهدى ، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى .

[ أرأيت إن كذب ] الناهى بالحق [ وتولى ] عن الأمر ، أما يخاف الله ، ويخشى عقابه ؟ [ ألم يعلم بأن الله يرى ] ما يعمل ويفعل ؟ .

ثم توعده إن استمر على حاله فقال : [ كلا لئن لم ينته ] عما يقول ويفعل [ لنسفعن بالناصية ] أى : لنأخذن بناصيته ، أخذاً عنيفاً ، وهى حقيقة بذلك ، فإنها [ ناصية كاذبة خاطئة ] أى : كاذبة فى قولها ، خاطئة فى فعلها .

[ فليدع ] هذا الذى حق عليه العذاب [ ناديه ] أى : أهل مجلسه وأصحابه ، ومن حوله ، ليعينوه على ما نزله به .

[ سندعو الزبانية ] أى : خزنة جهنم ، لأخذه ، وعقوبته .

فلينظر ، أى الفريقين أقوى وأقدر ؟

فهذه حالة الناهى ، وما توعد به من العقوبة .

وأما حالة المنهى ، فأمره الله ، أن لا يصغى إلى هذا الناهى ، ولا ينقاد لنهيه فقال :

لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

[ كلا لا تطعه ] أى : فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار .

[ واسجد ] لربك [واقترب] منه فى السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات ، فإنها كلها تُدْنِى من رضاه ، وتقرب منه .

وهذا عام ، لكل ناهٍ عن الخير ، ولكل منهى عنه .

وإن كانت نازلة فى شأن أبى جهل ، حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ،وعذبه وأذاه .

تم تفسير سورة العلق ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

# سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ

---

* يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره : [ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ] وذلك أن الله تعالى ، ابتدأ بإنزال القرآن فى رمضان فى ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة ، لا يقدر العباد لها شكراً .

وسميت ليلة القدر ، لعظم قدرها ، وفضلها عند الله ، ولأنه يقدر فيها ، ما يكون فى العام من الأجل والأرزاق ، والمقادير القدرية .

ثم فخم شأنها ، وعظم مقدارها فقال : [ وما أدراك ما ليلة القدر ] أى : فإن شأنها جليل ، وخطرها عظيم .

[ ليلة القدر خير من ألف شهر ] أى : تعادل فى فضلها ألف شهر .

فالعمل الذى يقع فيها ، خير من العمل فى ألف شهر ، خالية منها .

وهذا مما تتحير فيها الألباب ، وتندهش له العقول ، حيث منّ تعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى ، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر ، عمر رجل معمر عمراً طويلاً ، نيفاً وثمانين سنة .

وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

---

[ تنزل الملائكة والروح فيها ] أى : يكثر نزولهم فيها [ من كل أمر سلام هى ] أى : سالمة من كل آفة وشر ، وذلك لكثرة خيرها .

[ حتى مطلع الفجر ] أى : مبتداها من غروب الشمس ، ومنتهاها طلوع الفجر .

وقد تواترت الأحاديث فى فضلها ، وأنها فى رمضان ، وفى العشر الأواخر منه ، خصوصاً فى أوتاره ، وهى باقية فى كل سنة إلى قيام الساعة .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يعتكف ، ويكثر من التعبد فى العشر الأواخر من رمضان ، رجاء ليلة القدر . والله أعلم .

تم تفسير سورة القدر ـ بعون الله

تفســـير

# سُورَةُ البَيِّنَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ

---

يقول تعالى : [ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ] أى : من اليهود والنصارى [ والمشركين ] من سائر أصناف الأمم ] .

[ منفكين ] عن كفرهم وضلالهم ، الذى هم عليه ، أى : لا يزالون فى غيهم وضلالهم ، لا يزيدهم مرور الأوقات إلا كفراً .

[ حتى تأتيهم البينة ] الواضحة ، والبرهان الساطع ، ثم فسر تلك البينة فقال :

[ رسول من الله ] أى : أرسله الله ، يدعو الناس إلى الحق ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ، ليعلم الناس الحكمة ، ويزكيهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولهذا قال :

[ يتلو صحفاً مطهرة ] أى : محفوظة من قربان الشياطين ، لا يمسها إلا المطهرون ، لأنها أعلى ما يكون من الكلام .

أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟
إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ

---

ولهذا قال عنها : [ فيها ] أى : فى تلك الصحف [ كتب قيمة ] أى : أخبار صادقة ، وأوامر عادلة تهدى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .

فإذا جاءتهم هذه البينة ، فحينئذ يتبين طالب الحق ، ممن ليس له مقصد فى طلبه .

فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىَّ عن بينة .

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول ، وينقادوا له ، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم ، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا ، وصاروا أحزاباً [ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ] ، التى توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق .

ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم ، لم يزدهم الهدى إلا ضلالا ، ولا البصيرة إلا عمى .

مع أن الكتب كلها ، جاءت بأصل واحد ، ودين واحد .

[ وما أمروا ] فى سائر الشرائع [ إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ] أى : قاصدين بجميع عباداتهم ، الظاهرة والباطنة ، وجه الله ، وطلب الزلفى لديه .

[ حنفاء ] أى : معرضين مائلين عن سائر الأديان ، المخالفة لدين التوحيد .

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن

---

وخص الصلاة والزكاة بالذكر ، مع أنهما داخلان فى قوله [ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ] لفضلهما وشرفهما ، وكونهما العبادتين اللتين ، من قام بهما ، قام بجميع شرائع الدين .

[ وذلك ] أن التوحيد والإخلاص فى الدين ، هما [ دين القيمة ] أى : الدين المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، وما سواه ، فطرق موصلة إلى الجحيم .

ثم ذكر جزاء الكافرين ، بعد ما جاءتهم البينة فقال :

[ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم ] قد أحاط بهم عذابها ، واشتد عليهم عقابها .

[ خالدين فيها ] لا يفتر عنهم العذاب ، وهم فيها مبلسون .

[ أولئك هم شر البرية ] لأنهم عرفوا الحق وتركوه ، وخسروا الدنيا والآخرة .

[ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ] لأنهم عبدوا الله وعرفوه ، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

[ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن ] أى : جنات إقامة ، لا ظعن فيها ولا رحيل ، ولا طلب لغاية فوقها .

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

[ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ] فرضى عنهم بما قاموا به من مراضيه ، ورضوا عنه ، بما أعد لهم من أنواع الكرامات .

[ ذلك ] الجزاء الحسن [ لمن خشى ربه ] أى : لمن خاف الله ، فأحجم عن معاصيه ، وقام بما أوجب عليه .

تم تفسير سورة البينة ـ بفضل الله وتوفيقه

# تفســـير

## سُورَة الزّلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

---

* يخبر تعالى ، عما يكون يوم القيامة وأن الأرض تتزلزل وترجف ، وترتج ، حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم .

فتندك جبالها ، وتُسَوَّى تلالها ، وتكون قاعاً صفصفاً ، لا عوج فيه ولا أمت .

[ وأخرجت الأرض أثقالها ] أى : ما فى بطنها ، من الأموات والكنوز .

[ وقال الإنسان ] إذا رأى ما عراها ، من الأمر العظيم : [ مالها ] ؟ أى : أى شيء عرض لها ؟.

[ يومئذ تحدث ] الأرض [ أخبارها ] أى : تشهد على العاملين ، بما عملوا على ظهرها ، من خير وشر ، فإن الأرض ، من جملة الشهود ، الذين يشهدون على العباد ، بأعمالهم .

إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

---

ذلك [ بأن ربك أوحى لها ] أى : أمرها أن تخبر بما عمل عليها ، فلا تعصى لأمره .

[ يومئذ يصدر الناس ] من موقف القيامة [ أشتاتاً ] أى : فرقاً متفاوتين .

[ ليروا أعمالهم ] أي : ليريهم الله ما عملوا من السيئات ، والحسنات ، ويريهم جزاءه موفراً .

[ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ] وهذا شامل عام ، للخير والشر كله ، لأنه إذا رأى مثقال الذرة ، التى هى أحقر الأشياء وجوزى عليها ، فما فوق ذلك ، من باب أولى وأحرى ، كما قال تعالى :

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً *(ووجدوا ما عملوا حاضراً » .

وهذا ، فيه الترغيب فى فعل الخير ولو قليلا ، والترهيب من فعل الشر ، ولو حقيراً .

تم تفسير سورة الزلزلة ــ والحمد لله

# تفســـير

## سُورَة العَادِيَات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى بالخيل ، لما فيها من آياته الباهرة ، ونعمه الظاهرة ، ما هو معلوم للخلق .

وأقسم تعالى بها ، فى الحال التى ، لا يشاركها فيه غيرها ، من أنواع الحيوانات فقال :

[ والعاديات ضبحا ] أي : العاديات عدواً بليغاً قوياً ، يصدر عنه الضبح ، وهو صوت نفسها فى صدرها ، عند اشتداد عَدْوِها .

[فالموريات] بحوافرهن مايطأن عليه من الأحجار [ قدحاً ] أى : تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن ، إذا عدون .

[ فالمغيرات ] على الأعداء [ صبحاً ] وهذا أمر أغلبى ، أن الغارة تكون صباحاً .

[ فأثرن به ] أى : بعدوهن ، وغارتهن [ نقعاً ] أى : غباراً .

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ

---

[ فوسطن به ] أى : براكبهن [ جمعاً ] أى : توسطن به جموع الأعداء ، الذين أغار عليهم .

والمقسم عليه ، قوله : [ إن الإنسان لربه لكنود ] أى : منوع للخير ، الذى لله عليه .

فطبيعة الإنسان وجبلته ، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق ، فتؤديها كاملة موفرة .

بل طبيعتها ، الكسل والمنع ، لما عليها ، من الحقوق المالية والبدنية ، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف ، إلى وصف السماح ، بأداء الحقوق .

[ وإنه على ذلك لشهيد ] أى : إن الإنسان ، على ما يعرف من نفسه من المنع والكند ، لشاهد بذلك ، لا يجحده ولا ينكره ، لأن ذلك ، بيِّنٌ واضح .

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله ، أى : إن العبد لربه لكنود ، والله شهيد على ذلك .

ففيه الوعيد ، والتهديد الشديد ، لمن هو لربه كنود ، بأن الله عليه شهيد .

[ وإنه ] أى : الإنسان [ لحب الخير ] أى : المال [ لشديد ] أى : كثير الحب للمال .

مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

وحبه لذلك ، هو الذى أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه .

قدم شهوة نفسه على رضا ربه .

وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار ، وغفل عن الآخرة .

ولهذا قال - حاثاً له على خوف يوم الوعيد - :

[ أفلا يعلم ] أى : هلَّا يعلم هذا المعتز [ إذا بعثر ما فى القبور ] أى : أخرج الله الأموات من قبورهم ، لحشرهم ونشرهم .

[وحصل ما فى الصدور] أى : ظهر وبان ما فيها ، وما استتر فى الصدور من كائن الخير والشر ، فصار السر علانية ، والباطن ظاهراً ، وبان على وجوه الخلق ، نتيجة أعمالهم .

[ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ] بأعمالهم الظاهرة والباطنة ، الخفية والجلية ، ومجازيهم عليها .

وخص خبرهم بذلك اليوم ، مع أنه خبير بهم فى كل وقت ، لأن المراد بهذا ، الجزاء على الأعمال ، الناشىء عن علم الله ، واطلاعه

تم تفسير سورة العاديات ، ولله الحمد والمنة

# تفسير

## سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

---

* [ القارعة ] من أسماء يوم القيامة .

سميت بذلك ، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها .

ولهذا عظم أمرها ، وفخمه بقوله :

[ القارعة ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس ] من شدة الفزع والهول .

[ كالفراش المبثوث ] أى : كالجراد المنتشر ، الذى يموج بعضه فى بعض .

والفراش هى : الحيوانات ، التى تكون فى الليل ، يموج بعضها ببعض لا تدرى أين توجه .

فإذا أوقد لها نار ، تهافتت إليها ، لضعف إدراكها .

فهذه حال الناس ، أهل العقول .

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ
هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

---

وأما الجبال الصم الصلاب ، فتكون [ كالعهن المنفوش] أى : كالصوف المنفوش ، الذى بقى ضعيفاً جداً ، تطير به ، أدنى ريح .

قال تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .

ثم بعد ذلك ، تكون هباء منثوراً ، فتضمحل ، ولا يبقى منها شىء يشاهد .

فحينئذ تنصب الموازين ، وينقسم الناس قسمين : سعداء وأشقياء .

[ فأما من ثقلت موازينه ] أى : رجحت حسناته على سيئاته [ فهو فى عيشة راضية ] فى جنات النعيم .

[ وأما من خفت موازينه ] بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته .

[ فأمه هاوية ] أى : مأواه ومسكنه ، النار التى من أسمائها الهاوية ، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى : « إن عذابها كان غراماً » .

وقيل : إن معنى ذلك ، فأم دماغه هاوية فى النار ، أى : يلقى فى النار على رأسه .

[ وما أدراك ماهيه ] وهذا تعظيم لأمرها ، ثم فسرها بقوله : [ نارحامية ] أى : شديدة الحرارة ، قد زادت حرارتها ، على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً . نستجير بالله منها .

تم تفسير سورة القارعة ـ بحمد الله وفضله

تفســـير

## سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا

---

* يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له ، من عبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته ، والإنابة إليه ، وتقديم محبته على كل شيء .

[ ألهاكم ] عن ذلك المذكور [ التكاثر ] ، ولم يذكر المتكاثر به ، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون ، ويفتخر به المفتخرون ، من الأموال ، والأولاد ، والأنصار ، والجنود ، والخدم ، والجاه ، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر ، وليس المقصود منه وجه الله .

فاستمرت غفلتكم ، ولهوتكم ، وتشاغلكم [حتى زرتم المقابر] فانكشف حينئذ لكم ، الغطاء ، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه .

ودل قوله [ حتى زرتم المقابر ] أن البرزخ دار ، المقصود منها ، النفوذ إلى الدار الآخرة ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث ، والجزاء على الأعمال ، فى دار باقية غير فانية .

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

---

ولهذا توعدهم بقوله : [ كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين ] أى : لو تعلمون ما أمامكم ، علماً يصل إلى القلوب ، لما ألهاكم التكاثر ، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة .

ولكن عدم العلم الحقيقى ، صيّركم إلى ما ترون .

[ لترون الجحيم ] أى : لترون القيامة ، فلترون الجحيم ، التى أعدها الله للكافرين .

[ ثم لترونها عين اليقين ] أى : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً » .

[ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ] الذى تنعمتم به في دار الدنيا ، هل قمتم بشكره ، وأديتم حق الله فيه ، ولم تستعينوا به ، على معاصيه ، فينعمكم نعيماً ، أعلى منه وأفضل .

أم اغتررتم به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعنتم به على المعاصى ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون » الآية .

تم تفسير سورة التكاثر - ولله الحمد والفضل

# تفسير

# سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

* أقسم تعالى بالعصر، الذى هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خسارا مطلقا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرا من بعض الوجوه، دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه، لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل، لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

والتواصى بالحق ، الذى هو الإيمان والعمل الصالح ، أى : يوصى بعضهم بعضا بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصى بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين ، يكمل العبد نفسه .

وبالأمرين الأخيرين ، يكمل غيره .

وبتكميل الأمور الأربعة ، يكون العبد ، قد سلم من الخسار ، وفاز بالربح العظيم .

تم تفسير سورة العصر ـ بحمد الله وفضله

# تفســـير

## سُورَة الهُمَزَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

---

[ ويل ] أى : وعيد ، ووبال ، وشدة عذاب [ لكل همزة لمزة ] .

أى : الذى يهمز الناس بفعله ، ويلمزهم بقوله .

فالهماز : الذى يعيب الناس ، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل .

واللماز : الذى يعيبهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز ، أنه لا هَمَّ له ، سوى جمع المال وتعديده ، والغبطة به ، وليس له رغبة فى إنفاقه ، فى طرق الخيرات ، وصلة الأرحام ونحو ذلك .

[ يحسب ] بجهله [ أن ماله أخلده ] فى الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه ، فى تنمية ماله ، الذى يظن أنه ينمى عمره .

ولم يدر أن البخل ، يقصف الأعمال ، ويخرب الديار ، وأن البر ، يزيد فى العمر .

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾

---

[ كلا لينبذن ] أى : ليطرحن [ فى الحطمة * وما أدراك ما الحطمة ] تعظيم لها ، وتهويل لشأنها . ثم فسرها بقوله :

[ نار الله الموقدة ] التى وقودها الناس والحجارة ، و [ التى ] من شدتها [ تطلع على الأفئدة ] أى : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها ، قد أيسوا من الخروج منها.

ولهذا قال : [ إنها عليهم مؤصدة ] أي : مغلقة [ فى عمد ] من خلف الأبواب [ ممددة ] لئلا يخرجوا منها .

« كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » .

نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العفو والعافية .

تم تفسير سورة الهمزة ـ ولله الحمد والشكر

تفسير

# سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

---

* أى : أما رأيت من قدرة الله ، وعظيم شأنه ، ورحمته بعباده ، وأدلة توحيده ، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ما فعله الله بأصحاب الفيل ، الذين كادوا بيته الحرام ، وأرادوا إخرابه .

فتجهزوا لأجل ذلك ، واستصحبوا معهم ، الفيلة ، لهدمه ، وجاءوا بجمع لا قِبَلَ للعرب به ، من الحبشة واليمن .

فلما انتهوا إلى قرب مكة ، ولم يكن بالعرب مدافعة ، وخرج أهل مكة ، خوفا منهم ، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، أى : متفرقة ، تحمل أحجارا محماة ، من سجيل .

فرمتهم بها ، وتتبعت قاصيهم ودانيهم .

فخمدوا ، وهمدوا ، وصاروا كعصف مأكول .

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

وكفى الله شرهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

وقصتهم معروفة مشهورة ، وكانت تلك السنة ، التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصارت من جملة إرهاصات دعوته ، وأدلة رسالته . فلله الحمد والشكر .

تم تفسير سورة الفيل ـ بحمد الله وفضله

تفسير

# سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن

---

* قال كثير من المفسرين : إن الجار والمجرور متعلق بالسورة ، التى قبلها .

أى : فعلنا مافعلنا بأصحاب الفيل ، لأجل قريش ، وأمنهم ، واستقامة مصالحهم ، وانتظام رحلتهم فى الشتاء لليمن ، وفى الصيف للشام ، لأجل التجارة والمكاسب .

فأهلك الله من أرادهم بسوء ، وعظم أمر الحرم وأهله ، فى قلوب العرب ، حتى احترموهم ، ولم يعترضوا لهم ، فى أى سفر أرادوا .

ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال : [ فليعبدوا رب هذا البيت ] أى : ليوحدوه ، ويخلصوا له العبادة .

جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

[ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ] فرغد الرزق والأمن من الخوف ، من أكبر النعم الدنيوية ، الموجبة لشكر الله تعالى .

فلك اللهم الحمد والشكر ، على نعمك الظاهرة والباطنة .

وخص الله الربوبية بالبيت ، لفضله وشرفه ، وإلا فهو رب كل شىء .

تم تفسير سورة قريش - بعون الله وتيسيره

# تفســـير

## سُورَةُ الماعُونْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾

---

* [ أرأيت الذى يكذب بالدين ] أى : بالبعث والجزاء ، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل .

[ فذلك الذى يدع اليتيم ] أى : يدفعه بعنف وشدة ، ولا يرحمه لقساوة قلبه .

ولأنه لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً .

[ ولا يحض ] غيره [ على طعام المسكين ] ومن باب أولى ، أنه بنفسه ، لا يطعم المسكين .

[ فويل للمصلين ] أى : الملتزمين لإقامة الصلاة ، ولكنهم [ عن صلاتهم ساهون ] أى : مضيعون لها ، تاركون لوقتها ، مخلون بأركانها .

وهذا لعدم اهتمامهم ، بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة ، التى هى أهم الطاعات .

ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

والسهو عن الصلاة ، هو الذى يستحق صاحبه الذم واللوم .

وأما السهو فى الصلاة ، فهذا يقع من كل أحد ، حتى من النبى صلى الله عليه وسلم .

ولهذا وصف الله هؤلاء ، بالرياء والقسوة ، وعدم الرحمة فقال :

[ الذين هم يراءون ] أى يعملون الأعمال ، لأجل رئاء الناس .

[ ويمنعون الماعون ] أى : يمنعون إعطاء الشىء ، الذى لا يضر إعطاؤه ، على وجه العارية ، أو الهبة ، كالإناء ، والدلو ، والفأس ، ونحو ذلك ، مما جرت العادة ببذله ، والسماح به .

فهؤلاء ـ لشدة حرصهم ـ يمنعون الماعون ، فكيف بما هو أكثر منه.

وفى هذه السورة ، الحث على إطعام اليتيم ، والمساكين ، والتحضيض على ذلك ، ومراعاة الصلاة ، والمحافظة عليها ، وعلى الإخلاص فيها ، وفى سائر الأعمال .

والحث على فعل المعروف ، وبذل الأموال الخفيفة ، كعارية الإناء ، والدلو ، والكتاب ، ونحو ذلك ، لأن الله ، ذم من لم يفعل ذلك . والله سبحانه أعلم .

تم تفسير سورة الماعون ـ بحول الله ومعونته

تفسير

# سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢) ﴾

---

* يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [ إنا أعطيناك الكوثر ] أى : الخير الكثير ، والفضل الغزير ، الذى من جملته ، ما يعطيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، من النهر الذى يقال له « الكوثر » .

ومن الحوض ، طوله شهر ، وعرضه شهر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

آنيته عدد نجوم السماء ، فى كثرتها ، واستنارتها ، من شرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبداً .

ولما ذكر منته عليه ، أمره بشكرها فقال :

[ فصل لربك وانحر ] خص هاتين العبادتين بالذكر ، لأنهما أفضل العبادات ، وأجل القربات .

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع فى القلب والجوارح لله ، وتنقله فى أنواع العبودية .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

وفى النحر ، تقرب إلى الله ، بأفضل ما عند العبد ، من الأضاحى ، وإخراج للمال الذى جبلت النفوس ، على محبته ، والشح به .

[ إن شانئك ] أى : مبغضك وذامك ، ومنتقصك [ هو الأبتر ] أى : المقطوع من كل خير ، مقطوع العمل ، مقطوع الذكر .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الكامل حقا ، الذى له الكمال الممكن للمخلوق ، من رفع الذكر ، وكثرة الأنصار ، والأتباع ، صلى الله عليه وسلم .

تم تفسير سورة الكوثر ـ فلله الحمد والشكر

# تفســـــير

## سُورَةِ الكافِرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

---

* أى : قل للكافرين معلنا ومصرحا [ لا أعبد ما تعبدون ] أى : تبرّأ مما كانوا يعبدون ، من دون الله ، ظاهراً وباطناً .

[ ولا أنتم عابدون ما أعبد ] لعدم إخلاصكم فى عبادتكم لله .

فعبادتكم له ، المقترنة بالشرك ، لا تسمى عبادة .

وكرر ذلك ، ليدل الأول على عدم وجود الفعل .

والثانى ، على أن ذلك قد صار وصفا لازما .

ولهذا ميز بين الفريقين ، وفصل بين الطائفتين فقال :

[ لكم دينكم ولى دين ] كما قال تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته * أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » .

تم تفسير سورة الكافرين ـ بفضل الله وتيسيره

# تفسير

## سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ

---

* في هذه السورة الكريمة ، بشارة وأمر لرسوله ، عند حصولها ، وإشارة ، وتنبيه ، على ما يترتب على ذلك .

فالبشارة هي : البشارة بنصر الله لرسوله ، وفتحه مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، بحيث يكون كثير منهم ، من أهله وأنصاره ، بعد أن كانوا من أعدائه . وقد وقع هذا المبشر به .

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح ، فأمر رسوله ، أن يشكره على ذلك ، ويسبح بحمده ويستغفره .

وأما الإشارة ، فإن في ذلك إشارتين :

إشارة أن النصر يستمر للدين ، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره ، من رسوله ، فإن هذا ، من الشكر ، والله يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وقد وجد ذلك فى زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم فى هذه الأمة .

لم يزل نصر الله مستمرا ، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه، دين من الأديان ، ودخل فيه ، من لم يدخل فى غيره .

حتى حدث من الأمة ، من مخالفة أمر الله ما حدث ، فابتلوا بتفرق الكلمة ، وتشتت الأمر ، فحصل ما حصل .

ومع هذا ، فلهذه الأمة ، وهذا الدين ، من رحمة الله ولطفه ،مالايخطر بالبال ، ويدور فى الخيال .

وأما الإشارة الثانية ، فهى إلى أن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد قرب ودنا .

ووجه ذلك ، أن عمره ، عمر فاضل ، أقسم الله به .

وقد عهد أن الأمور الفاضلة ، تختم بالاستغفار ، كالصلاة ، والحج ، وغير ذلك .

فأمْرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال ، إشارة إلى أن أجله قد انتهى .

فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ، ويختم عمره ، بأفضل ما يجده ، صلوات الله وسلامه عليه .

فكان يتأول القرآن ، ويقول ذلك فى صلاته يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده .

« سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

تم تفسير سورة النصر ـ بتيسير الله ومعونته

تفسير

# سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ

---

* أبو لهب ، هو : عم النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان شديد العداوة والأذية له ، فلا دين له ، ولا حمية للقرابة ، قبحه الله .

فذمه الله بهذا الذم العظيم ، الذى هو خزى عليه إلى يوم القيامة فقال:

[ تبت يد أبى لهب ] أى . خسرت يداه ، وشقى [ وتب ] فلم يربح .

[ ما أغنى عنه ماله ] الذى كان عنده ، فأطغاه .

[ وما كسب ] لم يرد عنه شيئا من عذاب الله ، إذا نزل به .

[ سيصلى نارا ذات لهب ] أى : ستحيط به النار من كل جانب ، هو [ وامرأته حمالة الحطب ] .

وكانت أيضا شديدة الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتعاون

ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

---

هى وزوجها على الإثم والعدوان ، وتلقى الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه فى أذية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتجمع على ظهرها الأوزار ، بمنزلة من يجمع حطبا ، قد أعد له فى عنقه حبلا [ من مسد ] أى : من ليف .

أو أنها ، تحمل فى النار الحطب ، على زوجها ، متقلدة فى عنقها ، حبلا من مسد .

وعلى كل ، ففى هذه السورة ، آية باهرة من آيات الله .

فإن الله أنزل هذه السورة ، وأبو لهب وامرأته ، لم يهلكا .

وأخبر أنهما سيعذبان في النار ، ولا بد ، ومن لازم ذلك ، أنهما لا يسلمان .

فوقع كما أخبر ، عالم الغيب والشهادة .

تم تفسير سورة المسد ـ بعون الله وتيسيره

# تفسير

## سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

---

* أى [ قل ] قولا جازما به ، معتقدا له عارفا بمعناه :

[ هو الله أحد ] أى : قد انحصرت فيه الأحدية ، فهو الأحد المنفرد بالكمال ، الذى له الأسماء الحسنى ، والصفات الكاملة العليا ، والأفعال المقدسة ، الذي لا نظير له ولا مثيل .

[ الله الصمد ] أى : المقصود فى جميع الحوائج .

فأهل العالم العلوى والسفلى . مفتقرون إليه غاية الافتقار ، يسألونه حوائجهم ، ويرغبون إليه فى مهماتهم ، لأنه الكامل فى أوصافه ، العليم الذى قد كمل فى علمه .

الحليم الذى كمل فى حلمه ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء . وهكذا سائر أوصافه .

ومن كماله ، أنه [ لم يلد ولم يولد ] لكمال غناه [ ولم يكن له كفوا أحد ] لا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، تبارك وتعالى .

فهذه السورة ، مشتملة ، على توحيد الأسماء والصفات .

تم تفسير الإخلاص ـ ولله الحمد والشكر

تفســـــير

# سُورَةِ الفَلَق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾
وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾

---

* أى : [ قل متعوذا [ أعوذ ] أى : ألجأ ، وألوذ ، وأعتصم [ برب الفلق ] أى : فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح .

[ من شر ما خلق ] وهذا يشمل جميع ما خلق الله ، من إنس ،وجن ، وحيوانات ، فيستعاذ بخالقها ، من الشر ، الذى فيها .

ثم خص بعد ما عم ، فقال :

[ ومن شر غاسق إذا وقب ] أى : من شر ما يكون فى الليل ، حين يغشى النعاس ، وينتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة ، والحيوانات المؤذية .

[ ومن شر النفاثات فى العقد ] أى: ومن شر السواحر ، اللاتى يستعن على سحرهن بالنفث فى العقد ، التى يعقدنها على السحر .

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

[ ومن شر حاسد إذا حسد ] والحاسد ، هو الذى يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى فى زوالها ، بما يقدر عليه من الأسباب .

فاحتيج إلى الاستعاذة بالله ، من شره ، وإبطال كيده .

ويدخل فى الحاسد ، العاين ، لأنه لا تصدر العين ، إلا من حاسد شرير الطبع ، خبيث النفس .

فهذه السورة ، تضمنت الاستعاذة ، من جميع أنواع الشرور ، عموما وخصوصا .

ودلت على أن السحر ، له حقيقة ، يخشى من ضرره ، ويستعاذ بالله منه ، ومن أهله .

تم تفسير سورة الفلق ـ ولله الحمد والشكر

تفسير

# سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ

---

وهذه السورة ، مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم ، وإلههم ، من الشيطان ، الذى هو أصل الشرور كلها ، ومادّتها ، الذى من فتنته وشره ، أنه يوسوس فى صدور الناس ، فيحسن لهم الشر ، ويريهم إياه فى صورة حسنة ، وينشط إرادتهم لفعله .

ويثبطهم عن الخير ، ويريهم إياه فى صورة غير صورته .

وهو دائماً ، بهذه الحال ، يوسوس ، ثم يخنس ، أى : يتأخر عن الوسوسة ، إذا ذكر العبد ربه ، واستعان على دفعه .

فينبغى له أن يستعين ، ويستعيذ ، ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم ، داخلون تحت الربوبية والملك ، فكل دابة ، هو آخذ بناصيتها .

وبألوهيته ، التى خلقهم لأجلها .

فلا تتم لهم، إلا بدفع شر عدوهم، الذى يريد أن يقتطعهم عنها، ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير.

والوسواس كما يكون من الجن، يكون من الإنس.

ولهذا قال: [ من الجنة والناس ].

والحمد لله رب العالمين أولا وآخراً وظاهراً وباطناً.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يغفر لنا ذنوبنا، التى حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا، عن تدبر آياته.

ونرجوه، ونأمل منه، أن لا يحرمنا خير ما عنده، بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات. والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه، وحسن توفيقه، على يد جامعه، وكاتبه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بـ «ابن سعدى».

وقع النقل فى ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ.

ربنا تقبل منا، واعف عنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

# فهرس

## الجزء السابع

تم بحمد الله وعونه تفسير الجزء السابع

وبه تم كتاب تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

① التفسير

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

١- القواعد الحسان لتفسير القرآن

٢- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن

الجزء الثامن

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

بسم اللہ الرحمن الرحیم

فاللہ خیر حافظا وھو ارحم الراحمین

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

تتشرف الجمعية الخيرية الصالحية في عنيزة بأن يكون من بواكير أعمالها المفيدة، إن شاء الله، إصدار المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي، رحمه الله.

وقد قام بهذه المهمة النبيلة مركز صالح بن صالح الثقافي التابع للجمعية، تنفيذاً لواجباته في نشر الثقافة والعلم، وتيسير المفيد من المراجع النافعة.

وقد تضمن الجزء الأول من المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ، رحمه الله، «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ترجمة وافية للمؤلف الجليل وسرداً لبعض مؤلفاته.

وتحقيقاً لأحد الأهداف الرئيسية للجمعية، ممثلة في مركز صالح بن صالح الثقافي، تم الاستئذان من ورثة الشيخ عبد الرحمن، رحمه الله، بإعادة طباعة ما صدر من مؤلفاته، مضافاً إليها ما تيسر الحصول عليه من مؤلفات ورسائل مخطوطة وذلك على هيئة مجموعة كاملة تتضمن فروع التفسير والفقه والإرشاد والفتاوي والعلوم الشرعية والعربية والثقافة الإسلامية، وسوف تصدر إن شاء الله تباعاً.

كما تمت الموافقة من الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ٤٦٥/١/ش بتاريخ ١/٨/١٤٠٧ هـ لاعتماد الطبعة

التي أصدرتها الرئاسة للتفسير وتصويره، ووافقت وزارة الإعلام مشكورة، كما وافقت وكالة الوزارة لشؤون الرعاية الاجتماعية ـ وهي الجهة المشرفة على الجمعيات الخيرية ـ على هذه الخطوة.

وتنوي الجمعية بإذن الله الاستمرار في هذا البرنامج لنشر ما ترى نفعه من المراجع، وبصفة خاصة من إنتاج أبناء منطقة القصيم أو ما يتعلق بهذه المنطقة في إطار مشروع وحدة المعلومات الخاصة بهذه المنطقة في مكتبة مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة.

ومن أجل تمكين أكبر عدد من الراغبين في الحصول على مؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي وغيرها من إصدارات المركز، فقد تقرر أن تخصص نسبة منها للبيع بدور النشر والمكتبات، وتخصيص نسبة أخرى للإهداء حسبما ترى الجمعية.

وتم تحديد البيع بسعر رمزي للدفعة الأولى من المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السِّعدي وعددها ثمانية مجلدات تشمل التفسير بأجزائه السبعة، وكتاب «القواعد الحسان لتفسير القرآن»، وكتاب «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن». وهذان الكتابان في مجلد واحد.

والله الموفق؟

الجمعية الخيرية الصالحية
بعنـــيزة

# مصنفات المؤلف

١ ــ تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان» في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع.

٢ ــ حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي. ولم تطبع.

٣ ــ إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب؛ رتَّبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً.

٤ ــ الدرَّة المختصرة في محاسن الإسلام. طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦.

٥ ــ الخطب العصرية القيمة، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده، اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدرَّة المختصرة في مطبعة أنصار السُّنة على نفقته ووزعها مجاناً.

٦ ــ القواعد الحسان لتفسير القرآن. طبعها في مطبعة أنصار السُّنة عام ١٣٦٦. وهو القسم الأول من هذا المجلد.

٧ ــ تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله. طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندي نصيف» عام ١٣٦٦.

٨ ــ الحق الواضح المبين، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

٩ ــ توضيح الكافية الشافية. وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم.

١٠ ــ وجوب التعاون بين المسلمين. وموضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً.

١١ ــ القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧.

١٢ ــ مختصر في أصول الفقه، لم يطبع.

١٣ ــ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، وهو القسم الثاني من هذا المجلد.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها؛ وله تعليقات شتى على كثير مما يمرُّ عليه من الكتب. وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً. ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور، وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فرآه شاقًّا عليه، فجمع بينه وبين الإنصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له، ولهذا لم نعدَّه من مصنفاته.

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق؛ ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا لينال منها عرضاً زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً. ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

* * *

# القواعد الحسان

## لتفسير القرآن

تأليف العلامة المحقق الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

من أفاضل علماء عنيزة

جعله الله هادياً مهديًا، وهداه إلى الحق صراطاً سوياً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفاسير، ومناهج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة. أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إلى إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع، والهدى الكامل.

فاعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها، وأحبها إلى الله. لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته. وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة. وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيىء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود. لأنه إذا انفتح للعبد الباب وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة، توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل. ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

* * *

## القاعدة الأولى
# في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقاً وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه، وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى:

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه. ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق، وإرشادهم؛ وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها، أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه

خطاب من عالم الغيب والشهادة، موجَّه إليهم، مطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق، وجَدَّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته؛ واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية. وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه. فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح؛ مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزَّلها على كل واقع وحادث، سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها، وكثرة فوائدها وثمرتها.

ويلحق بهذه القاعدة:

## القاعدة الثانية

## العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جداً؛ بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير؛ وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع في الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم. فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية، عرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول: إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا ممّا يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها. فإن القرآن ــ كما تقدم ــ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنَّى تكون.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكُّر والتدبُّر لكتابه، فإذا تدبَّرنا الألفاظ العامة،

وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود، رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فأرعها سمعك، فإنه إما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص: فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه، ونزِّهه عن كل ما نزه نفسه عنه.

وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزماً لا شك فيه أنه على حقيقته، بل هو أعلا أنواع الحق والصدق

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

وَ﴿ . . . حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة. وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها، بأوضح الألفاظ، وأحسنها؛ قال تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

يوضح ذلك ويبينه، وينهج طريقته:

## القاعدة الثالثة

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق، بحسب ما دخلت عليه. وقد نصى على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان. فمثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾

إلى قوله تعالى

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم .وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نهى الله عنه ورتب عليه وعلى الاتصاف به عقوبة وشراً ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور؛ وكذلك مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾
[سورة المعارج: الآيات ١٩ ــ ٣٥]

عام لجنس الإنسان. فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله:

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ــ إلى آخرها ﴾ الآية ٢٢

كما أن قوله:

﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [سورة العصر: الآيتان ١ و٢]

دال على أن كل إنسان عاقبته ومآله إلى الخسار

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾
[سورة العصر: الآية ٣]

وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شيئاً كثيراً، وهي أجل علوم القرآن، بل هي المقصد الأول للقرآن.

فمثلاً يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد.. فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الربوبية:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]

لا بشر ولا ملك، بل هم جميعاً عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته؛ فلا ينبغي أن يكون أحد منهم نِدًّا، ولا شريكاً لله في عبادته وإلهيته. فبربوبيته سبحانه يربى الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم: خلقاً ورزقاً وتدبيراً وإحياءً وإماتة. وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًّا ولا شفيعاً. فالإلهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته، وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك. وهو الملك الكامل والتصرف النافذ. وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية، والجزائية، وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات والجائزات، والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه؛ لا يخرج عن حكمته، لا مخلوق ولا مشروع.

وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه، عزة القوة وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم، وأنه الرحمن الرحيم، الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين. تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧]

وأنه القدوس السلام، المعظم المنزَّه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له نِدٌّ من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى، اِعتبِرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله. بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه اسماؤه الحسنى، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾

[سورة المائدة: الآية ٢]

يشمل جميع أنواع البر والخير،وتشمل التقوى جميع ما ينبغي ويلزم اتقاؤه من أنواع المخوفات والمعاصي والمحرمات؛ والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية؛ كما أن العدوان اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدِّي على الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدِّي على مجموع الأمة وعلى الحكومات والتعدي لحدود الله.

و «المعروف» في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه وجماله شرعاً وعقلاً، وعكسه: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها، إذ علمهم أن يقولوا في التشهُّد في الصلاة «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد لله صالح من أهل السماء والأرض». وفي القرآن كثير جداً من هذا.

## القاعدة الرابعة

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام: دلت على العموم. كقوله تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٦]

فإنه نهى عن الشرك به في النِّيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفيّ، والجليّ. فلا ينبغي أن يجعل العبد لله نِدًّا ومشاركاً في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢]

وقوله في وصف يوم القيامة:

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة الأنفطار: الآية ١٩]

يعُمُّ كلَّ نفس، وأنها لا تملك في هذا اليوم شيئاً من الأشياء، لأي نفس أخرى، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار. وكقوله تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٧]

فكل ضُرٍّ قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائناً من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله:

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢]

وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣].

يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣]

وإذا دخلت «من» صارت نصًا في العموم، كهذه الآية:

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٤٧].

وقوله في غير آية:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ولها أمثلة كثيرة جداً.

## القاعدة الخامسة

المقرر: أن المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ـ إلى آخرها ـ ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٣]

يشمل كل أمٍّ انتسبْتَ إليها، وإن علت، وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت ـ إلى آخر المذكورات، فكذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣]

فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية؛ وقوله:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[سورة الأنعام :الآية ١٦٢]

فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها. وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلاً وإحساناً، وأنك قد أتيت ما أتيت منه واوقعته وأخلصته لله وحده. لا شريك له.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتَّخِذُوه معبداً.

وأصرح من هذا قوله:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣]

وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠]

فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدي المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد

شرعنا بخلافه، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه. وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣]

وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلاً وتركاً، اعتقاداً وانقياداً، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده. كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧]

لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين الذي كانوا دائمين عليه من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال؛ وكذلك قوله:

﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠]

يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١]

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣]

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]

تدل على أنه وفَّى جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية. وقوله:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠]

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[سورة النحل: الآية ٤٠]

يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

## القاعدة السادسة

## في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

القرآن كله لتقرير التوحيدِ ونفي ضده. وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل، بل الفِطَر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يدن بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده، فعمله باطل:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥]

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٨]

ويدعو العباد إلى ما تقرر في فِطَرِهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير، والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده. ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره. وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة على خلق، ولا نفع ولا دفع ضر عن أنفسهم فضلاً عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً.

ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يتمدح به، ويثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هـو الحاكم وحـده. فلا يحكم غيـره شرعـاً ولا جزاء:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٠].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً وعقلاً وفِطرة، على جميـع العبيد. ويذكر مساوىء الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضـل من الأنعام سبيلاً.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.

## القاعدة السابعة
## في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ؛ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دَعَوْا إليه، وأن جميـع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ، ومـا نزهـوا عنه من النقـائص والعيوب، فرسولنا محمد أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه. وأن شريعته مهيمنة على جميـع الشرائـع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميـع محاسن الأديـان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف، لم توجـد في غيره. وقـرر نبوتـه بأنـه أميّ، لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلـه ما أتوا

ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله على ربه، أو أن يكون على الغيب ظنيناً.

وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول بما أوحي إليه تفصيلاً، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتها ونشأتها، وبموسى وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن. فقص ذلك على ما وقع وحصل. مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك ـ أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته. وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمة ورحمة العزيز الحكيم. وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله، وفي قدرته، وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبـي على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده. كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته بما جمـع له وكلمه به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميـع الخلق، التي أعلاها: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه اللقب أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف بيئته. كما في قوله تعالى:

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف: الآية ٦].

وتارة يقرر رسالته بما أخبره به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان، مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقـع في كل وقت؛ فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظـه إياه وعصمته له من الخلق، مـع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجدهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم. والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم. وما ذاك إلا لأنه رسوله حقًا، وأمينه على وحيه والمبلـغ ما أمر به.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾
[سورة فصلت: الآية ٤٢]

ويتحدى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل. وهم أهل اللسن المبرِّزون في

ميدان القول والفصاحة، ومع ذلك ما استطاعوا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يأتوا بسورة منه، وما استطاعوا ولا قدروا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يجدوا فيه نقصاً أو عيباً ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التي ملكت أزمة قلوبهم فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلاً إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علوماً وحِكماً فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذي جمع الله فيه لرسوله وللمؤمنين به كل ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كل شؤونهم. وأن هذا القرآن لأكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها.

والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جداً أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة. منها قوله:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥١].

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدال كل واحد منها بمفرده ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته ﷺ على الخلق، وحنوه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًّا وإحساناً إلى الخلق منه. وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعانٍ مفصلة وأساليب عجيبة. وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

## القاعدة الثامنة

## طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم. وقرره بطرق متنوعة.

منها: إخباره ـ وهو أصدق القائلين ـ عنه، وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره. فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة القيامة: الآية ١].

ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء. فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره للعباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، لا بد أن يعيدهم كما بدأهم. وأن الإعادة أهون عليه. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة، بعد موتها. وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك. وهو خلق السموات والأرض، والمخلوقات العظيمة. فمتى أثبت المفكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجّى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث؟ ونوع عليهم

العقوبات؟ وأحل بهم المثلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيـي من حيًّا عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل. والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصّة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى ابن مريم للأموات، وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قويّ ذو اقتدار، وأن العباد لا بد أن يردوا دار القرار. إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

## القاعدة التاسعة

## في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق، موصلٍ للمقصود محصِّل للمطلوب. ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية، هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير، وينهاهم عن الشر بالوصف الذي منَّ عليهم به. وهو الإيمان. فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، اتركوا كذا. لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكمِّلاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد، والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها، حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: «يا أيها الذين آمنوا» أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا» افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من منَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بشكر هذه النعمة، بفعل كذا، وترك كذا.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر. وهو الانقياد التام لأمره ونهيه. وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها. وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام، وتودُّد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، وملاذاً ومعاذاً، ومَفْزَعاً إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليته الخاصة تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنِّيه ويغرُّه. حتى يفوِّتَه المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك.

وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المبدلة. لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله:

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٥].

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [سورة ؛الأنعام: الآية ٥٢]

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦]

إلى غير ذلك من الآيات.

## القاعدة العاشرة

## في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، بما يضعه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصد الحق، والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند.

وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبهتهم، وما يحتجون به. فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة. وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة؛ ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء فإنهم

رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لا بد أن تقتطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول. ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم. وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف؛ وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى. وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم، وختم عليها، وسد عليهم طرق الهدى: عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن. وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم. وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة.

فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية والله أعلم.

## القاعدة الحادية عشرة

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه، مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني، التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجلِّ قواعد التفسير، وأنفعها. وتستدعي قوة فكر،

وحسن تدبر وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدى والرحمة. هو العالِمُ بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكنُّ الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني. فإذا فهمتها فهماً جيِّداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها. وأَكْثِرْ من هذا التفكير وداوم عليه، حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق. ولازم الحق حق. وما يتوقف على الحق حق. وما يتفرع عن الحق حق. ذلك كله حق ولا بدّ.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجلية والأخلاق السامية والآداب الكريمة العالية.

ولنمتثل لهذا الأصل أمثلة توضحه.

منها: في أسماء الله الحسنى «الرحمن الرحيم» فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمن، وسعة رحمته.

فإذا فهمت أنّ الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفة الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته. لتوقف الرحمة على ذلك كله. ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]

فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنك لا تنال رضا الله إلا بأدائها لأهلها.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللت بذلك على كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لا بد أن يكون عالماً بما يحكم به: فإن كان حاكماً عامًّا، فلا بد أن يحصل من العلم ما يؤهله لذلك. وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها، فلا بد أن يكون عارفاً بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد؛ فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم: أن امتثال أمره واجتناب نهيه: يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه. فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه، أو يتجنب الأمر الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده: أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر. ليأمروا بهذا، وينهوا عن هذا. فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وما لا يحصل ترك المنهى عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به. والعلم بضد ذلك متقدم على تركه، لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبُّداً حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد، والحث عليه. من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به: من تعلم الرمي بكل ما يرمى به والركوب لكل ما يركب، وعمل آلاته وصناعاته. مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية، ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته. وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك: أن سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماماً: يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم به الإمامة في الدين: من علوم ومعارف جليلة، وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة. لأن سؤال العبد لربه شيئاً سؤالٌ له ولما لا يتم إلّا به. كما إذا سأل العبدُ اللَّهَ الجنةَ، واستعاذ به من النار: فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرِّب إلى هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح. وأثنى على المصلحين. وأخبر أنه لا يصلح عمل المفسدين. فيستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يُعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه؛ وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب ﷺ:

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٣]

و ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٥]

يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة، ونحو ذلك.

ومن ذلك: الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها. فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلَّفين يدخل في ذلك، حتى

إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، ووجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام، والفطرة، والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها. وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها. فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به.

وهذا من آيات القرآن، وأكبر براهينه أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئاً منه؛ فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلا؛ ويرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه، فهذا محال. والحس والتجربة شاهدان بذلك. فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك: فإن القرآن ولله الحمد لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارات تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في غير هذا الموضع، والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

## القاعدة الثانية عشرة

الآيات القرآنية التي يفهم منها قصار النظر التعارض: يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن.

منها: الإخبار في بعض الآيات: ان الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة. وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجون ويعتذرون، ويعترفون. فمجمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر ويقسمون على ذلك. ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم،

وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم، أخرسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة مع أنه أثبت الكلام لهم معه. فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم، على وجه التوبيخ لهم والتقريع. فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم. والإثبات يوضح أحوالهم ويبين للعباد كمال عدل الله بهم. إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك: أن في بعض الآيات أخبر أنه لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان؛ وفي بعضها: انه يسألهم:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٩٢].

و ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٥].

ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام.. والاستفهام عن الأمور المجهولة. فإنه لا حاجة إلى سؤالهم، مع كمال علم الله واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المثبت: واقع على تقريرهم بأعمالهم، وتوبيخهم وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة. وفي بعضها: أثبت لهم ذلك. فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس كقوله:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

[سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٦].

والمنفي: هو الانتفاع بها. فإن الكفار يدَّعُون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة: فأخبر تعالى أنه:

﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩]

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم؛ وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. فهذا لما اشتركوا في الإيمان، وأصل الصلاح: زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئاً.

ومن ذلك: الشفاعة؛ فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيَّدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه. فتعين حمل المطلق على المقيد. وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله. وحيث أثبتت، فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة: أنه لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، ونحوها.

وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم. فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله. لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾

[سورة يونس: الآيتان ٩٦ و ٩٧]

وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة.

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة، وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: الآية ١٧]

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده وعلى عرشه. وفي بعضها: أنه مع العباد، أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين، ونحوهم؛ فعلوُّه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه، ومعيته لعباده: لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد؛ فهو على عرشه عليٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم. ولا منافاة بين الأمرين، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته. وما يتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم، فهي معية أخص من المعية العامة، تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن موادتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار، ونحوهم.

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ [سورة الممتحنة: الآيتان ٨ و ٩]

فالنهي واقع على التولِّي. والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر، واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات. وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السموات، أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم على خلق السموات. ثم لما خلق الله السموات بعد ذلك دحا الأرض فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد، وببعض أحوالهم؛ وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيراً أو شراً، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون؛ فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على الجهاد باليد. والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة، والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدره، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته، ومشيئته. فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته وإثبات الأسباب والمسببات والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوى الطرفين، فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة، وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور بل يتكل على الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة

فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحابَّ تقع بمحض فضله، وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد. فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسَّرها، وأن السيئات ـ وهي المصائب التي تصيب العبد ـ فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده. فالله، وإن كان هو المقدر لها، فإنه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه. ولهذا أمثله يطول عدها.

## القاعدة الثالثة عشرة

## طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن. ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها، وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجهٍ لا تشويش فيه، ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المنفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم. وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم. وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لا بد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيراً ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان، كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى أنه لا تنبغي العبادة إلا لمن هذا شأنه. ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضاً بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئاً.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدِّقاً لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعها واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثراً من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الآلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرّع.

وينقُضُ على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضادُّ ذلك من أحوالهم وأوصافهم ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدق رسوله محمد ﷺ وحقيقة هذا تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له. فماذا بعد الصدق إلا الكذب؟ وبعد الحق إلاّ الضلال؟

وهذا الأصل في القرآن كثير. فإنه يفيد في الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق، العبد الفقير العاجز من كل وجه، شيئاً من حقوق الرب الخالق الغني، الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة. وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق، الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه.

## القاعدة الرابعة عشرة

## حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدًّا، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قيد بشيء تقيد به. فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم. ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا:

منها: أنه قال في عدة آيات:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علَّمَكُمُوه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة. ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائماً متيقظين مرهفي الحواس، تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية. ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي. ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام.

ولهذا كان قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]:

يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به، ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة، وتتقون وتتجنبون المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها. وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله:

﴿ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١]

أي المتقين لكل ما يتقى مما يقتل الإنسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد والكفر والفسوق والعصيان، المتقين الآخذين بكل أسباب القوة على شكر الله بأداء الفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

أي إن الذين كانت التقوى وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم، متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبَّس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات ـ تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالاً لعظمة الله وما يقتضيه، وحرصاً على نعم الله، والهدى والإيمان وما توجبه التقوى. وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص، وما تسلبه من الكمالات. فإذا هم مبصرون من أين أُتوا، مبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه. فبادروا بالتوبة النَّصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم. فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ «المؤمنين» وبلفظ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة الأنفعال: الآية ٧٢]

ونحوها فإن حقيقة معنى كلمة «إيمان» التصديق الحاصل عن علم وفهم وفقه لمن يكون منه هذا الإيمان بأي شيء، يوجب له ولا بد إذعاناً وانقياداً لما يدعو إليه هذا الإيمان بذلك الشيء. ومن ذلك قول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [سورة يوسف: الآية ١٧]

فإذا فهمت هذا علمت أن الإيمان يقصد منه في القرآن: الإيمان بسنن الله وآياته في الأنفس وفي الآفاق، والإيمان بنعم الله وآلائه، وأنها من العليم الحكيم. الذي ما خلق شيئاً لعباً ولا باطلاً، ولا أنزل ولا شرع شيئاً لعباً ولا باطلاً، وأن كل ذلك بالحق الثابت الذي لن يتغير ولن يتبدل ـ فعرفت بذلك أنه يدخل فيه جميع ما يجنب الإيمان به من السنن والآيات الكونية والعلمية والأصول والعقائد والأعمال والأحكام مع أنه قيَّد ذلك في بعض الآيات مثل قوله:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

ونحوها.

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً، يدخل فيه كل صلاح في الدنيا والدين كما يدخل في النهي كل فساد كذلك. وكذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٣]

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦]

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠].

يدخل في ذلك كله: الإحسان في سنن الله وآياته ونعمه وآلائه ليثمر ذلك الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنَّك تراه. فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.

والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قولٍ وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر: الآية ١]

فحذف المتكاثر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات، والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسننه فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآيتان ١ و٢]

أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] و[سورة الأنبياء: الآية ٧]

فذكر المسؤولين وأطلق المسؤول عنه، ليعم كل ما يحتاج العبد أن يعلمه.

وكذلك أمره بالصبر ومحبته للصابرين وثنائه عليهم وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله.

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين، والمنافقين، والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل ذلك جميع المعنى.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

ليشمل كل حصر ومنع. ومنه قوله:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٩]

ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سبق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت. ولكن قد فتح لك الباب، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

## القاعدة الخامسة عشرة

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات، لتطمين القلوب، وزيادة الإيمان. وهذا في عدة مواضع من كتابه.

فمن ذلك: النصر. قال في إنزال الملائكة به: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٠]

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾

[سورة يونس: الآيات ٦٢ ـ ٦٤]

وهي البشرى كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد لهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته. فيدخل فيه: الثناء الحسن والرؤيا الصالحة. ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق للهدى والعلم والإيمان، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العسرى.

ومن ذلك: بل ألطفه أنه يجعل الشدائد مبشِّرات بالفرج والعسرَ مؤذِناً باليسر.

وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف إنه لما اشتدت بهم

الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله؟ يأتيهم الجواب من لطف الله بهم، ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته، وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسباباً مؤدية إلى النصر، فيجيبهم الحق من كل ذلك:

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: الآيتان ٥ و٦]

وقال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» وأمثلة ذلك كثيرة. والله أعلم.

## القاعدة السادسة عشرة

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر، وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

[سورة السجدة: الآية ١٢]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سورة سبأ: الآية ٥١]

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

[سورة البقرة: الآية ١٦٥]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٠]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٧].

فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره، ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعتـه لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ ولا أن يدرك بالوصف. مثله قوله تعالى:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [سورة التكاثر: الآية ٥]

أي لو علمتم علم اليقين لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفـريط والغفلة واللهو.

## القاعدة السابعة عشرة

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى العام المناسب له. وإذا قرن مـع غيره دل على بعض المعنى. ودل ما قرن معه على باقيه.

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة.

منها: الإيمان، أفرده وحده في آيات كثيرة، وقرنه مـع العمل الصالح، والصفات الكريمة في آيات كثيرة.

فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميـع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة. ولهـذا يرتب الله عليـه حصول الثـواب، والنجاة من العقـاب. ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره. وهـو عند السلف: قـول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن فيها العمل الصالح: كقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٧]

يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعـارف والتصديق، والاعتقـاد والإنابة. والعمل الصالـح: يفسر بالقيام بجميـع الشرائـع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر، والتقوى» فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق، والنجاة المطلقة. كما يرتبه على الإيمان.

تارة يفسر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي. وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ١٣٣ و١٣٤]

إلى آخر ما ذكره من أوصاف المتقين، التي لا تتم حقيقة التقوى إلا بها.

وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

كان «البر» اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة. وكانت «التقوى» اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات. وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان» إذا اقترنا فُسِّر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجرِّي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وإذا أفرد «الإثم» دخل فيه كل المعاصي التي تؤثم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق. وكذلك إذا أفرد «العدوان».

وكذلك لفظ «العبادة والتوكل» ولفظ «الاستعانة» إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً. ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣]

فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة. وفُسِّر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك «الفقير والمسكين» إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر. كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما، كما في آية الصدقات وهي قوله:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

فسر الفقير بمن اشتدت حاجته، وكان لا يجد شيئاً، أو يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً. وفسر «المسكين» بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدين كله. فإذا قرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى:

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

كان ذكر الصلاة تعظيماً لها وتأكيداً لشأنها، وحثًّا عليها. وإلَّا فهي داخلة في الاسم العام، وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

## القاعدة الثامنة عشرة

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي بعضها: يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره، وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء: يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبُّون منها، ودفع كل ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحداً غيره. كما

في الحديث القدسي «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم» إلى آخره.

وفي البعض الآخر: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها فيسلكوا النافع ويدعوا الضار كقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

يبين أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه، وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٦]

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]

وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسناً ومن يرغب في الخير، واتبع رضوان الله؛ وأنه يضلُّ من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد على الله، وتولّى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٠]

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦ و١٥٧]

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية٢٥٦]

وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٨]

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٠٤]

وأَعمُّ من ذلك كله قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً. وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً. وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولِّي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى:

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيات ١٥ ــ ١٨]

وقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾
[سورة طه: الآية ٤٨]

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله والسعي الجميل في مناكب الأرض مع لزوم التقوى، كقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
[سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣]

وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالى:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وبكثرة الذكر والاستغفار:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ٣]

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾
[سورة نوح: الآيتان ١٠ و١١]

فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره. وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى؛ وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها، فالزمه.

## القاعدة التاسعة عشرة

يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى، ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة. عليك بتتبعها في جميـع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف، وأشرف العلوم.

تجد آية الرحمة مختومة بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا. ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا. لأنها من أهم المهمات. ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها.

قال تعالى:

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسموات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة المُلْك: الآية ١٤]

فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية على علمه. فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جـاعل في الأرض خليفـة، ومراجعتهم لـه في ذلك. فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾
[سورة البقرة: الآية ٣٢]

فاعترفوا للّه بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلاّ منه. فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالَّين على علم الله بآدم، وما خلق له، وما خلق عليه، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٣٧]

وختمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين «التواب الرحيم» بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبة جليلة لكل أحد. وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كل شؤونهم وأمورهم إلى ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم. ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم، وأجاب سؤالهم. ولهذا قال في الآية الأخرى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨]

أي أقبل بقلوبهم عليه. فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك، حين استولت عليهم النفس الأمارة وركبها العدو المبين ببهيميَّتها وجهلها مطية فإنها لا تأمر إلاّ بالسوء والفحشاء، إلاّ من رحم ربك. فأعاذه من بهيميتها وجهلها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته، وتفرده بالملك. فقال:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ١٠٦ و١٠٧]

وفي هذا ردٌّ على من أنكر النسخ كاليهود وإعلامٌ أن نسخه لما ينسخه هو من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته. فإنه تعالى يتصرف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وهي كلها بالحق والعدل والحكمة البالغة.

ولما قال:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥]

قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥].

أي واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه. ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلية، ومحيطٌ علمه بما في التوجه إلى القبلة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة عن غير قصد ولا عمد فحيث ولى المصلٍّي منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧]

فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة ــ معنى المستجيب. كما قال الخليل في الآية الأخرى:

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

وأما ختم قوله:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ [بقوله] إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٢٩]

فمعناه: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزتك، وكمال حكمتك. فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً. فحقق اللّه حكمته ببعثته خاتماً، كما حقق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله. لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها. لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام.

مثل قوله تعالى:

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٩]

لم يقل: فعليكم من العقوبة كذا، بل قال:

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٩]

أي فإذا عرفتم عزته، وهي قهره وغلبته، وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته، وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها، أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصرُّ على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

لم يقل: فاعفوا عنهم، أو اتركوهم ونحوها بل قال:

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه. فيدفع عنه العقوبة ويمده بالقوة على الطاعة، فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها:

﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨].

أي عز وحكم. فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدين شرعاً وقدراً وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة، وقدرها في سورة النساء قال:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

فكونه علياً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها. فاخضعوا لما قاله، وفصّله وحكم به في توزيع الأموال على مستحقيها، الذين يستحقونها بعلم الله وحكمته. فلو وكل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى، والغي والظلم. وصارت المواريث فوضى وسبباً في إراقة الدماء، وحصل من ذلك من الضرر ما الله به عليم. ولكن تولاها هو وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو كافر، لأنه قادح في علم الله وفي حكمته.

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه.

ويختم الأدعية بأسماءٍ تناسب المطلوب. وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

أي تعبدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج:

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

[سورة الحج: الآية ٥٩]

والآيات المتتابعة التي بعدها. كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأولى منها هذه: ختمُها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم، فكأنهم ما فعلوها.

وختمُ الثانية بالعفو الغفور. فإنه أباح المعاقبة بالمثل. وندب إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا الله بالتخلق بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختمُ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختمُ الآية الرابعة: بالعلي الكبير. لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده، تضمحل معها جميع المخلوقات ويبطل معها كل ما عبد من دونه؛ وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختمُ الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن، كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النمير، والخير الغزير.

وختمُ الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها. فإنه الغنيّ الغِنَى المطلق، ولا ليتكمل بها، فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه؛ فبغناه تفضل عليهم فسخر لهم ما في السموات

وما في الأرض جميعاً منه، لأنه الجميل الذي يفعل كل جميل ويسدي إلى عباده كل جميل، يستوجب عليهم أن يعرفوه الحميد في أقداره، الحميد في شرعه، الحميد في جزائه فله الحمد المطلق ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً.

وختمُ الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، فإن من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السموات والأرض وإبقاءها وإمساكها لئلا تزول، فتختل مصالحهم. ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم. فرحمهم حيث خلق لهم المسكن وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦٨]

فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين. فإنه نجّى الرسل وأتباعهم بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته ورحمته. ويكون ذكر الرحمة دالاً على عظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم، بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾
[سورة المائدة: الآية ١١٨]

ولم يقل: أنت الغفور الرحيم؛ لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلٰهين من دون الله. فناسب ذكر العزة والحكمة. وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة.

مثل قوله: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٢٩]

وقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٧٣]

فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه، وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان. ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها كيفية الاستدلال بذلك.

## القاعدة العشرون

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاثة.

فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه:

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

[سورة هود: الآية ١]

ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام وقوة الاتساق، وأنه بالغ في الحكمة أقصى غاية. فأخباره كلها حق وصدق. لا تناقض فيها ولا اختلاف. وأوامره كلها خير وهدى وبركة وصلاح. ونواهيه عن كل ما يعود على الإنسان بالشرور والضرر والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة. فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٣]

أي متشابهاً في الحسن والصدق والهدى والحق. وورده بالمعاني النافعة المزكِّية للعقول، المطهِّرة للقلوب المصلحة للأحوال. فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني، كما وصف ثمرات الزروع والفواكه التي أنعم بها على الإنسان، وجعل فيها كل نافع صالح لجسمه وغذائه. فقال في سورة الأنعام:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٤١]

ووصف طيبات الجنة وثمراتها الدانية بقوله في سورة البقرة:

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥].

ووصفه بأن: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٧]

فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا. وأن الذين أرسخت قلوبهم وثبتت بالفقه والفهم عن الله، فثبتوا ثبات الجبال الراسخة، لا تزلزلهم الشبهات ولا الشهوات، لأنهم يردون المتشابه منه إلى المحكم. فيصير كله محكماً، ويقولون:

﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم. فحصل العلم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة. منها: ما تقدم من الأخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت آيات على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله جزافاً لغير سبب كشفت هذا الاشتباه وجلته الآيات الأُخَر الدالّة على أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد، ويتصف بها، مثل قوله في سورة المائدة:

﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾
[سورة المائدة: الآية ١٦]

وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان. قال في سورة الأعراف:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

وفي سورة الصف:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن العباد مجبورون على أفعالهم بيَّنتها الآيات الأُخَرُ الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، فظنوا أنها منقطعة عن قضائه وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة الدالة على تناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد ما يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها. وأنها لا تتنافى، فالطاعات والمعاصي واقعةٌ منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجمِل في بعض الآيات فسرته آيات أخر. وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر.

وما كان معروفاً بين الناس وورد فيه القرآن أمراً ونهياً، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً، لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه. والله أعلم.

## القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والمكان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد.

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع. فإن الله أمر عباده بالمعروف. وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً وعرفاً، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً وعرفاً. وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة والأخلاق الكريمة، من البر والإحسان، والمروءة والشجاعة، والفهم والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه. فإنه أمر به في كل وقت. والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة. وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر، ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت في كل زمان ومكان. لا يتغير. ولا يختلف حكمه.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، فهو المراد ههنا. فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعاً خاصًا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد

يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: هو النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم. فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً. ولا يكون معارضاً للمعروف من التشريع.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف. وكذلك قوله تعالى في سورة النساء:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وفي سورة البقرة:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

فردَّ الله الزوجين في عشرتها وأداء حق كل منهما إلى الآخر إلى المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك ومركزك الاجتماعي.

وذلك يختلف اختلافاً عظيماً. لا يمكن إحصاؤه عدًّا. فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة. وهذا من آيات إحكام القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئاً من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان

والأمكنة، فتتعلق بها الإباحة حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن أو غير موجود.

وكذلك قوله في سورة الأنفال:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

ومن المعلوم: أن السلاح والقوة التي كانت موجودة وقت نزول القرآن غير نوع السلاح والقوة التي وجدت بعد ذلك.

فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى، في سورة النساء:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

لم يعين لنا نوعاً من التجارة ولا جنساً. ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى في البيع والتجارة، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما تجري فيه تجارة ما لم ينه عنه الشارع، أو لا يحصل وأن كل ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات والمعاملات.

وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

## القاعدة الثانية والعشرون

## في مقاصد ما يضرب القرآن من الأمثال

اعلم أن القرآن احتوى على أعلى وأكمل وأنفع الموضوعات التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعليمه العالي: ضرب الأمثال؛ وهذا النوع يذكره الباري

سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القارىء كأنه يشاهد معانيها رأي عين.

وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم.

فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأرض والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض؛ فمنها: أرض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير. كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها. كالأرض بحسب حالها. ومنها أرض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، ينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأرضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة. ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند الأولين.

ومنها: أرض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً. كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علماً ولا حفظاً ولا عملاً.

ومناسبة الأرض للقلوب كما ترى في الظهور. وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك. لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية. والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أُكُلُها دائم كل حين بإذن ربها. لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها، لأنها غرس معرفة وتصديق وتفكر وتدبر لآيات الله، وتؤتي أُكُلَها تقوىً وإيماناً، وإرادةً لموجبها، وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدي المستقيم، دائمة في نفع صاحبها وانتفاع الناس به. وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهاً يتعزز به، ويزعم أنه

سينال منه النفع، ودفع الضرر: بأن اتخاذه هذا في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأوهاها. فما ازدادت باتخاذه إلاّ ضعفاً ألى ضعفها. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا ونصيراً من دون الله إلا ضعفاً. لأن قلبه انقطع عن الله. ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وَهْناً إلى وهنه، فإنه اتكل عليه، وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله؛ وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله، وتوحيده تعلق بالله وحده، لأنه يوقن أنه الذي بيده الأمر والنفع، ودفع الضرر، وهو المتصرِّف في أحواله كلها؛ فهو العبد الذي استقام على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة، تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه؛ بخلاف المشرك، فإنه كالعبد الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مسترق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومثَّل المشرك أيضاً بالذي خرَّ من السماء فتخطفته الطير، ومزقته كل ممزق.

ومثَّل في سورة الحج لآلهة المشركين وأوليائهم ـ هؤلاء الذين زعموا أنهم ينفعون فيدعونهم ـ بأنهم كالذباب، بل أضعف من الذباب، إذ لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب، لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم، فكيف بفرد من مئات الألوف منهم. وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لا يقدرون على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك غرور؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف مقسم القلب بين عدة آلهة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم، دون الآخر. فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم. فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعد ما أضاع دينه. وأما الموحِّد فإنه خالص لربه، لا يعبد إلا خالقه وبارئه، ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه، فقد اطمأن قلبه، واستراح ضميره، وعلم أنه الحق، وأن عاقبته أحمد

العواقب، ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين. فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحس المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضحى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة. فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له كالطل الذي ينزل من السماء. ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها؛ فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار وطيب الظلال، ووفور الثمار؛ فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له، فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. فأما الآخر الذي قد ركن إلى غير بارئه وفاطره، فاعتمد على الميت الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ووثق به وفوض إليه حراسته وكلاءته في ماله وولده: فالله يغضب عليه أشد الغضب، ويبعث على بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة، فلا تغني عنه آلهته وأولياؤه من شيء فيقلِّب كَفَّيه حسرة وندامة، وقد كبرت سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم، فضعف عن العمل، وعنده أسرة ضعاف لا مساعدة منهم ولا غناء فيهم. وكان قد اغتبط به حيث كان مادة حياته وحياة أسرته. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل الصالح بما يبطله من الشرك والنفاق والمعاصي المحرقة. فيا ويله، بعد ما كان بستانه زاكياً زاهياً أصبح تالفاً، على عروشه خاوياً، قد أيس من عوده، وبقي بحسرته مع أسرته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها. فقد ذكر الله عاقبة من ثبَّته الله على الإيمان، والعمل الصالح، وعاقبة من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده.

ووجْهُ تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها عدة قوى تطيبها وتجعلها نافعة مثمرة؛ منها طيب الأرض وقوة ما فيها من مواد الإخصاب؛ ومنها: يقظة صاحبها وعلمه بفنون استثمار أرضه وبستانه؛ ومنها: المياه.

فكذلك الأعمال يمدها طيب عنصر القلب وتخليته من المواد المفسدة، وتحليته بكثرة تفكره في آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق، وتدبره لآيات الوحي المُنْزَل لحياة القلوب الطيبة. وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عمله كل زوج بهيج.

وقد مثَّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء. فحين يأتيه، وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، يجده سراباً.

ومثَّله برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية. وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله. فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة لكل ما يأتي من عمل، فيدعه تراباً يظنه بجهله وغبائه وتقليده الأعمى أعمالاً صالحة، فإذا جاءها يرجو ثوابها قدم الله إليها فجعلها هباءاً منثوراً.

والسراب هو: ما يتخيله الظمآن في الصحراء المحرقة أمامه ماء. فلا يزال يسعى ويجهد نفسه حتى يهلك ظمأ. فهذا مثل عمل المرتكس في ظلمات التقليد لآبائه وشيوخه، يجتهد في العمل الليل والنهار يعتقده نافعاً، فإذا وصل إليه بالموت لم يجده شيئًا فتقطَّعت نفسه حسرات. ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه.

كما مثَّل نفقات المخلصين بذلك البستان الزاهي.

ومثَّل نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاسٍ كالحجر، فنفقته ــ حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وحب للسمعة ــ لم تؤثر في قلبه حياة ولا زكاة. كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً.

وهذه الأمثال إذا طبقت على ممثلاتها أوضحتها وبينت مراتبها من الخير والشر، والكمال والنقصان.

ومثَّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة. فاستوقد ناراً من غيره، فلما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق ذهب نوره، وانطفأ ضوؤه، فبقي في ظلمة

عظيمة أعظم من الظلمة التي كان فيها. وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان؛ فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة: أيبقى على دين الآباء والشيوخ، أم يخرج عنه إلى دين الهدى والحق وما يقتضيه من الطاعات والأعمال؟ فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلى ظلمات

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٢]

فذهب عنه نوره أحوج ما يكون إليه، وبقي في ظلمته متحيراً. فهم لا يرجعون، لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى، واتضح له الحق ثم رجع عنه أن يحرم التوفيق بعد ذلك للهداية، لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩]

ينطبق على حال ثانية للمنافقين الضالين المتحيرين، الذين يسمعون القرآن فلم يعرفوا المراد منه. لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم.

ومثَّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، فيظنون بقاءها، ولا يؤملون زوالها. فلهوا بها عما خلقوا له. فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع، إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة يبساً رميما.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البرُّ والفاجر. ولكن سكرة الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الأجل.

## القاعدة الثالثة والعشرون

إرشادات القرآن على نوعين:

أحدهما: أن يرشد أمراً ونهياً وخبرًا إلى أمر معروف شرعاً أو معروف عرفاً كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد العبد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، وأن يعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية:

وأما النوع الثاني، وهو المقصود هنا ـ فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السموات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها. وأخبر أنه سخّرها لمصالحنا ومنافعنا. وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

[سورة الجاثية: الآية ١٣]

فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

فإننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها، وأوصافها، وانتظامها لأي شيء خلقت ولأي شيء أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا التفكر فيها علمين جليلين.

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله، وحقيقة ما جاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به، وكل عالم ومحقق قد

ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه؛ فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب، وكل واد يسيل بهدي القرآن بحسبه.

وهذا أجل العلمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة؛ فإن الله سخَّرها لنا وجعلها طوع علومنا وأعمالنا. وسلطنا على استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية. فذلّل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة، لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها ـ لا سيما في هذه الأوقات ـ كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حدَّ له. وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها ما فيه فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدَّم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب بطلبها. وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً. كما هي مطلوبة لازمة عقلاً. وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

فإن الله نبَّه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق. وهي لا تُعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها. وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل على سعة علم الله، وحكمته ورحمته بعباده، بأن أباح لهم جميع النعم، ويسَّر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتاً بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة، يتذكر به العباد في كل زمان ومكان، وأنه هداية لجميع المصالح.

## القاعدة الرابعة والعشرون

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال. ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحدّ في كل الأمور.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

وقال:

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها. وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصِّر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمر بالعدل وهو بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدِّي الحدود وذم المقصرين، في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول. فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما، فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلّى الله عليهم وسلم أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم، ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وأن يرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله. ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك. كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم. أو عدم اتباعهم. وذم الغالين فيهم، كالنصارى ونحوهم في عيسى. كما ذم الجافين لهم، كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا، وذم من فرق بينهم. فآمن ببعض دون بعض. وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك الأمر في حق العلماء والأولياء، فيجب محبتهم ومعرفة أقدارهم،

ولا يحل الغلو فيهم وإعطاؤهم شيئاً من حق الله، ولا شيئاً من حق رسوله الخاص. ولا يحل مجافاتهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله وليًا فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات. ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء، وأهل الخور، وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع، والتسخط كما نهى عن التجبر، والقسوة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين وذوي القربى والجار، والإخوان والولاة والحكام والأُجرَاء والطلبة وغيرهم من كل ذي حق، هو فرع حق الله سبحانه وتعالى تفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولاً وفعلاً. وذمَّ من قصَّر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً. كما ذمَّ من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس والحركة والمشي والصوت، ونهى عن التجاوز والإسراف في كل ذلك، كما حذر أشد التحذير من الترف، ونهى عن التقصير الضار بالروح والجسم.

وبالجملة، فإن الله العليم الحكيم أمر بالوسط في كل شيء بين خلقين ذميمين. تفريط وإفراط. وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣]

## القاعدة الخامسة والعشرون

## حدود الله قد أمر بحفظها. ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٢]

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

و: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، ومن المحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا على معرفة الحدود على وجهها، ليعرف ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها على ذلك الوجه كاملة، غير منقوصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولئلا يلبِّس الشيطان عليه بعضاً منها. ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وأثنى أطيب الثناء على من عرف ذلك.

وحيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع ــ فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرَّم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح، والطلاق والعدة وتوابع ذلك. ونهى عن تعدِّي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعاً.

وكما أمر بالمحافظة على ما فصَّله من أحكام المواريث ولزوم حده، ونهى عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

كان المراد بذلك: المحرمات. فإن قوله (فلا تقربوها) نهيٌ عن الدنو والقرب منها من أي ناحية من نواحيها. فهو نهيٌ عن مقدماتها ونهيٌ عن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها، ونهيٌ عن فعلها من باب أولى.

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم. وبيّن لهم وقت الصيام فقال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧].

وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ثم قال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

وكما بيّن المحرمات في قوله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٢]

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

وفي الخمر والميسر أنهما:

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠]

فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والوقوف عندها والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب كل العقوبات الجهل بحدود الله، وترك المحافظة عليها، والله أعلم.

## القاعدة السادسة والعشرون

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة.

وهذه قاعدة لطيفة. فإن الله متى رتب في كتابه حكماً على شيء، وقيَّده بقيد، أو شَرَطَ لذلك شرطاً، تعلق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالى.

وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين، إذا تكلموا عليها: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر.

فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة. قد تظهر للمتكلم وقد تخفى. وإنما مرادهم بقولهم «غير مراد» ثبوت الحكم بها.

فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده، ليظهر لهم حسنها، إن كانت مأموراً بها، أو قبحها إن كانت منهياً عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عياناً.

فمنها قوله تعالى:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧]

ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقاً. وإنما قيدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمشرك، وأن الشرك ليس له دليل شرعي ولا عقلي قطعاً. والمشرك ليس بيده ما يسوِّغ له شيئاً من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين بما تملَّكهُم لغبائهم وبلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض بهيمية ومقاصد سيئة وتقليد أعمى كالأنعام، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستسيغه من له أدنى فهم وعقل.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٣]

مع أن كونها في حجره أو غير حجره ليس شرطاً لتحريمها. فإنها تحرم مطلقاً. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح تزوج الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجلية بثياب قبحها، لينفِّر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يعلق بمثل هذه الحالة. فالأنثى إمَّا أن تكون مباحة مطلقاً، أو محرمة مطلقاً سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣١]

و: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥١]

مع أن من المعلوم النهي عن قتل الأولاد على أي حال. فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله: كونه قتلاً بغير حق، وقتل من جبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها. وكون ذلك صادراً عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله. فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرُّماً وتسخطاً بقدر الله، فهم قد تبرَّموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضاً فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خَشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

وأيضاً ففي هذا بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم.

فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع. وأنه يستحق ردها سواء أراد

المراجع الإصلاح أو لم يرده. فيكون ذكر هذا القيد حثًّا على لزوم ما أمر الله به، من قصد الإصلاح وتحريم إمساكها وردِّها إلى زوجيته على وجه المضارة. وإن كان يملك ردها، كقوله تعالى:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يملك رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح. فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها. وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

مع أن الرهن يصح حضراً وسفراً. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت معها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض. وأن قبضه ليس شرطاً لصحته، وإنما ذلك للاحتياط، وزيادة الاستيثاق. وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

مع أن الحق يثبت بالرجل فقط والمرأتين فقط، مع وجود الرجلين، لكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم.

وأما قوله تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع. وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرى أو لم تنفع. لكن قصر الآية على هذا غلط، فإن الآية تعطى أيضاً لمن تدبر أن الذكرى إذا كان يحصل بهاالخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه، فإنه منهي عنه في هذه الحال، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به. وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شراً. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه. وكل هذا من تفصيل قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فعلم أن هذا قيد مراد، يرتبط الحكم به ثبوتاً وانتفاءً، والله أعلم.

ومنها قوله تعالى:

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦١]

مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق، فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرماً، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥١]

فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، و «الحق» الذي قيدها الله به جاء مفسَّرًا في قوله ﷺ «النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

مـع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر. فإنه إذا فقد جاز التيمم حضراً وسفراً، لكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء. وأما الحضر فإنه يندر فيه عدم الماء جدًّا.

وظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيـح للتيمم. وإن كان الماء موجوداً، وهو في غاية الضعف. وما ثبت من هدي الرسول وأصحابه والأئمة مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [سورة النساء: الآية ١٠١]

مـع أن الخوف ليس شرطاً لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق. ولما سئل النبـي ﷺ عن هذا أجاب: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» ويعني بصدقة الله: إحسانه في كل زمان ومكان، لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئـاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيأتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبـي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط، فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليـح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

## القاعدة السابعة والعشرون

## المحترزات في القرآن تقـع في كل المواضـع عند الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفـع، عظيمة الوقـع.

وذلك أنه ما من موضـع يسوق الله فيه حكماً من الأحكام أو خبراً من

الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر، إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذي تشوفت إليه الأذهان، فيبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم، فإنه لا يبقي إشكالاً إلا أزاله، ولا احتمالاً إلا أوضحه. وهذا يدل على عظيم فضل الله وبالغ حكمته. وهو في القرآن كثير جداً.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة.

فمن ذلك قوله تعالى في سورة النمل:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾

[سورة النمل: الآية ٩١]

لما كان تخصيص مكة بالذكر ربما يوقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله:

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل: الآية ٩١].

ومنها قوله تعالى في سورة هود:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٩]

لما كان قد يقع في الذهن أنهم على بعض حجة وبرهان في شركهم أبان بقوله:

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٩]

أن ضلالهم إنما هو عن تقليد أعمى لآبائهم وجهل مطبق. ثم لما كان قد يتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم وعلى بعض يقين من شركهم وكفرهم بدَّد ذلك بقوله:

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [إلى قوله] وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

[سورة هود: الآيتان ١٠٩ و١١٠]

فبيَّن بهذا أنهم ليسوا على شيء من اليقين في دينهم ولا اطمئنان إلى

جزائهم في الآخرة بما يحبون. فإن من المحال أن يؤتي العزيز الحكيم الجزاء في الآخرة بما يهوى الضالون. ولما قال في سورة النساء:

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥]

ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع القاعدين ولو كان القاعدون معذورين، أزال هذا الوهم بقوله:

﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥]

وكذلك لما قال: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة على أي حال، فأزال هذا الوهم بقوله:

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يستحق بظاهر هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله:

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ومنها: قوله في سورة النمل: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٨]

ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله:

﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٨]

أي لا خير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع:

﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٠]

فربما توهم أحد أنهم، وإن لم يسمعوا، فلعلهم يفهمون الإشارة. فأزال هذا الاحتمال بقوله:

﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٠]

فهذه الحالة لا تقبل سماعاً ولا رؤية لتحصل الإشارة. وهذا نهاية الإعراض.

ومنها: قوله:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢]

ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافاً من غير سبب. فأزال هذا بقوله:

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٧]

أي بمن يصلح للهداية لزكائه وخيره، وإقباله على الهداية وطلبه بالتفكر في آيات الله، والشوق إلى فهم ما يوحي به إلى رسله، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان فقيهاً غير مقلد أي من هذا شيئاً كثيراً.

## القاعدة الثامنة والعشرون

## في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًّا: أمراً به ونهياً عن ضده، وترغيباً فيه، وبياناً لأوصاف أهله وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فإذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان. فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصاً شيئاً منها.

وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإن المراد بذلك المؤمن حقًّا والجامع لكل معاني الآيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول:

وصف الله المؤمن في كتابه بتصديقه وإذعانه لجميع عقائد الدين، وبحب ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل به، وبالتباعد والحذر من كل ما يبغضه الله، وبإدامة الإنابة والرجوع إلى الله في كل حال. وكان لإيمانه أطيب الثمرات في الأعمال والأخلاق.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقَدَرِ خيره وشره. وأنهم يؤمنون بكل ما جاء به الرسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطناً. ووصفهم بأنهم:

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

ووعدهم بأنعم وأطيب البشرى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآيتان ٣٣ و ٣٤]

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصاً، وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم راعون.

ووصفهم بأنهم يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا

سلاماً. وأنهم يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، وأنهم يقولون بدعائهم وأعمالهم وأخلاقهم: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم. وأنهم مقتصدون وسطٌ في كل شؤونهم، وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. وأنهم لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون. وأنهم لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما، وأنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعمياناً، بل خَرُّوا سُجَّداً وبكياً. ويخرون للأذقان يبكون، وتزيدهم رؤية آيات الله وسماعها خشوعفا وإخباتاً. وأنهم يطلبون السمو والعلو دائماً فلا يرضون إلا أن يكونوا أئمـةً في الهدى والإيمـان والتقوى ومكـارم الأخلاق، وأنهم يقدرون الواجب عليهم ومسؤوليتهم أمام الله عما استرعاهم من الأولاد والزوجات وغيرهم، فيحسنون القيام عليهم في تأديبهم وتربيتهم ليكونوا قرة عين لهم.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والـدعاء للسـابقين والـلاحقين منهم، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرؤون من موالاة جميـع أعداء الدين، وبأنهم يأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم.

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثـارها الانقيـاد لفعل المـأمورات، وتـرك المنهيات، والـوقوف عـلى الحدود الشرعيات.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من أسباب العقاب، واستحق جميل الثواب، ونال كل خير رتب على الإيمان.

فإن الله رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة. كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتّب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء. ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن أهوال القيامة، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق الكريم والحسنة وتيسيره لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب، وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية والصبر عند المحن والمصائب. وحمل الله عنهم الأثقال ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء ورفع المؤاخذة عند النسيان والخطأ، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال التي تكبل بها المقلدون الغافلون، الأشقياء المعذبون في الدنيا والآخرة بكفرهم وشركهم.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد وتخفيفها.

## القاعدة التاسعة والعشرون

## في الفوائد التي يجتنيها العبد من معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير. وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم. فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتدبر القرآن ويعرف كل نوع منها. ويعمل على هذا ويتتبع الآيات الواردة فيه. فيحصل المراد منها: علماً وتصديقاً، وحالاً، وعملاً.

فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال. فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها. فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد. وعرف أنه ليس له مثيل في ذاته ولا في صفاته. وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب العلم بكمال الله وعظمته. فإن القلوب مجبولة على محبة الكمال. فكيف بمن له الكمال

المطلق؟ ومنه جميـع النعم الجزيلة؟ ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته بما يشهد من آثارها عليه وعلى الناس، فيقدر الله حق قدره ويشكره أعظم الشكر.

وأيضاً يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإنه هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القـرآن: صفات الرسل وأحوالهم، وما جرى لهم وعليهم، مع من وافقهم ومن خالفهم. وما كانوا عليه من الأوصاف الراقية والأخلاق الكريمة. فإذا فهم هذه الآيات ازدادت معرفته ومحبته لهم، خصوصاً إمامهم وسيدهم محمد ﷺ، فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم جهد طاقته، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم، ومحبتهم، واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدى. ويستفيد أيضاً الاقتداء بشرائعهم الحكيمة وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم، ولطف جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سَمَرا، وإنما القصد أن تكون عِبَرا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر. والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء. وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم، ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم. وفي معرفته لذلك فوائد الترغيب في الاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار. فأَحَبَّ الأخيار ووالاهم وأبغض الفجار وعاداهم؛ فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان. وكلما كان أعرف لأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله، والإيمان باليوم الآخر. فإن تمام الإيمان بذلك يتوقف على معرفة مايكون فيه، والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجميل، والرهبة من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلى معرفة ما أُمِروا به وما نُهُوا عنه والعمل بذلك. والعلم سابق للعمل. وطريق ذلك: إذا مر على القارىء نص فيه أمر بشيء عرفه، وفهم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائماً به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصراً فيه فليعلم أنه مطالب به. وملزم به. فليستعن الله على فعله. وليجاهد نفسه على ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك. ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على توفيقه، ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات. وليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة الله، ليكون تركه عبادة، كما كان فعله للطاعة عبادة. وإن كان غير تارك له، فليبادر بالتوبة إلى الله توبةً نَصُوحًا جازمة، لا تمنعه منها الشهوات الدنية التي تدعو إليها النفس الأمَّارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملاً على هذه الطريقة فإنه ثابت على الصراط المستقيم من الاسترشاد بكتاب الله.

## القاعدة الثلاثون

أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دلّ عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار.

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى.

وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيف عن ثمانين اسماً ـ كررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، محيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة وقوة عظيمة. ويقدر على كل شيء، ورحيم وذو رحمة عظيمة، ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة.

فالاسم دل على الوصف. وذلك دل على المتعلق. فمن نفى واحداً من هذه الثلاثة فلن تتم معرفته بالله ولن يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج. ليعرف أن الأسماء كلها على هذا.

## القاعدة الحادية والثلاثون

## ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة، وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده، ومتعلقاتها، ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة، يدخل فيها جميع المخلوقات: بَرُّها وفاجرها، بل مكلَّفوها وغير المكلَّفين، حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاج إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها والمقاصد منها. فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه. فيربيهم بالوحي ينزل لهم بغيث العلم ويهديهم إلى الإيمان، ويوفقهم لتكميله ويكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاق الرذيلة، وييسرهم لليسرى ويجنِّبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أطلقت ربيبته تعالى، فإن المراد بها المعنى الأول؛ مثل قوله:

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ١]

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤]

ونحو ذلك.

وحيث قُيِّدت بما يحبُّه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول، وزيادة؛ ولهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالباً فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

[سورة مريم: الآية ٩٣]

فكلهم مماليكه. وليس لهم من الملك والأمر شيء، لا في أنفسهم ولا في غيرهم. ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: الآية٦٣]

ثم ذكر صفاتهم الجليلة كقوله:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

وفي قراءة ﴿عباده﴾ وقوله:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية١]

وقوله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣]

فالمراد بهذا النوع من قاموا بحقوق عبوديتهم له بصفة ربوبيته، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولى: يدخل فيها البرُّ والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكن الفرق: أن الربوبية وصف الرب وفعله. والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

## القاعدة الثانية والثلاثون

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتاً للكمال.

وذلك: أنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهياً عن الشرك، وعن ترك الصلاة، وترك الزكاة، وترك الصوم، وترك الحج، وعن العقوق، والقطيعة، والظلم والإساءة؛ وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة ـ إلى آخر المذكورات، كان آمراً بالتوحيد، وفعل الصلاة وغيرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال العبد إلى الله إنابة ومحبة، وخوفاً ورجاء، كان ناهياً عن الجزع والسخط، وكفران النعم، وإعراض القلب عن الله وهلعه وجزعه وتعلقه بغير الله خوفاً ورجاء؛ وحيث نهى عن الجزع، وكفران النعم، وغفلة القلب، كان آمراً بالصبر وغيره من المذكورات.

وهذا ضرب مثل. وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط.

وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات، فحيث أثنى على نفسه، وذكر تنزُّهَهُ عن النقائص والعيوب، كالنوم والسِّنَة واللغوب، والموت، وخفاء شيء في العالم، من الأعيان والصفات وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلاً، وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافـاً بلا حكمة: فلتضمُّن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتى ينفى تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى عن كتابه الريب والاختلاف والشك، والإخبار بخلاف الواقع: كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الحق في كل الأحكام، والصدق الخالص، وانتظامه لكل ما يهدي إلى الرشد وإلى الصراط المستقيم.

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب، والتقوُّلَ على الله، واتباع الهوى والغي والضلال والجنون والسحر، والشعر، ونحوها: كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وكمال عقله واستحالة كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيراً كثيراً. والله أعلم.

## القاعدة الثالثة والثلاثون

المرض في القرآن ــ مرض القلوب ــ نوعان: مرض شبهات وشكوك؛ ومرض شهوات وفسوق.

والطريق إلى تمييز هذا من هذا، مع ورودها في القرآن، يُدرَك من السياق.

فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان هذا مرض الشكوك والشبهات؛ وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرض الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته. وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتَّبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن كان ما يزعمه علماً إنما هو شكوك، وعنده شبهات تعارض ما أخبر الله به في

أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفاً، وكان مرض قلبه على حسب ذلك قوةً وضعفاً. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافًا في إرادته ومرضاً وهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ فلا يغلب على العبد الشهوات إلا بفساد علمه بالله وعدله وقضائه وحكمته وشرعه وجزائه. ولا يغلب عليه الشهوات إلا بفساد نفسه وغلبة شهوات الدنيا ورياستها وحظوظها على ما عند الله والدار والآخرة، ؛ وإنما قد يكون أحدهما أبرز من الأخر.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠]

وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠]

عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة براءة:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾
[سورة براءة ـ التوبة: الآية ١٢٥]

وكذلك قوله تعالى في سورة الحج:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾
[سورة الحج: الآية ٥٣]

فإن مريض القلب من الشكوك وضعف العلم: أقل شيء يريبه، ويؤثر فيه، ويفتنه.

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

أي مرض شهوة، وإرادة للفجور، فالمريض بذلك: أقل شيء من أسباب الافتتان يوقعه في الفتنة، طمعاً أو فعلاً. فكل من أراد شيئاً من معاصي الله، فقلبه مريض مرض شهوة. ولو كان صحيحاً لاتَّصف بصفات الأزكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾
[سورة الحجرات: الآيتان ٧ و٨]

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات على ذلك، ويأخذ في أسباب الزيادة من فضل الله ورحمته.

## القاعدة الرابعة والثلاثون

دل القرآن في عدة آيـات أن من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحرم الأمر الأول.

وذلك أنه ورد في عدة آيـات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل ـ بزعمهم أنهم بشر ـ ابتلوا بالانقياد لكل ما رجَّ العقل والدين. ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبـع عليها، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. ولما بين لهم الصراط المستقيم وزاغوا عنه اختياراً ورضىً بطريق الغي وكرهاً لطريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة، لكل مبطل.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها، لم يكن لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلّا خائفين:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[سورة التوبة: الآيات ٧٥ ــ ٧٧]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم. ثم إذا تركها بعد أن عرفها، ونكص عنها بعد أن سلكها، عوقب بإبعاده في طريق ضلاله الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى. فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادراً في طريق غوايته ممعناً في سبيل ضلالته: جزاء على فعله. كقوله في اليهود في سورة البقرة:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾

[سورة البقرة :الآيتان ١٠١ و ١٠٢]

فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح كل شؤونهم، وإسعادهم ــ وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها ــ ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها، وأضرها للعقول، وأفتكها في أفساد المجتمع. ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

## القاعدة الخامسة والثلاثون

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته؛ وهذه قاعدة جليلة، نبه الله عليها في آيات كثيرة.

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال، وتقديم الأعلى منها. كقوله في سورة الحديد:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

وقوله في سورة التوبة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٩]

وكقوله في سورة النساء:

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
[سورة النساء: الآية ٩٥]

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٧]

بيّن تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين، من قتال في الشهر الحرام، وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه: أكبر عند الله. وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٥]

فكفَّ الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضى من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من أصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل ـ ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها ضرر على المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضرراً من الصبر والإخلاد إلى السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

يعني: فإن ضرّت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جداً.

ومن الثالث: قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٩]

هذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة الله وحكمته لا بد أن تقتضي المنع وتحريمه على عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعاً فإنه هو المعقول بين الناس المفطورين على استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية. والله أعلم.

## القاعدة السادسة والثلاثون

طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلة عدوانه بمثله، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان؛ وهذا في آيات كثيرة.

كقوله في سورة النحل:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٦]

وقوله في سورة الشورى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠]

فذكر المراتب الثلاث.

ولما كان القتال في المسجد الحرام محرَّماً، قال تعالى في سورة البقرة:

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآيات ١٩١ ــ ١٩٤]

وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه. فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدى به لا أكثر. وقوله بعد ذلك:

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٤]

وقوله في سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٨]

وقوله في سورة المائدة:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥]

وقوله في سورة الإسراء:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٣]

وقوله في سورة النساء:

﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[سورة النساء: الآية ١٤٨]

والآيات في هذا المعنى كثيرة. والله أعلم.

## القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبر الله القصد والإرادة في ترتب الأحكام على أعمال العباد. وهذا الأصل العظيم: صرّح به النبي ﷺ في قوله: «إنما الأعمال بالنيات»

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جداً في هذا الأصل.

فمنها، وهو أعظمها: أنه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بأرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس. قال في سورة النساء:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
[سورة النساء: الآية ١١٤]

وقال في سورة البقرة:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٦٥]

وفي مقابله قال: ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٨]

ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا. وقال في الرجعة في سورة البقرة:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وقال في سورة البقرة:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٥]

وقال في سورة النساء:

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾
[سورة النساء: الآية ١٢]

وقال في سورة البقرة:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [سورة البقرة: الآية ٤]

وفي سورة النساء:

﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

وفي سورة البقرة:

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٠]

وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

فقال الله: «قد فعلت»، وقال في سورة الأحزاب:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٥]

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة. ثم قال في سورة النساء:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣]

وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة:

﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٥]

وقال في سورة البقرة:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥]

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، صحتها وفسادها، وترتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.

## القاعدة الثامنة والثلاثون

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجاباً أو استحباباً.

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المطلقة. فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها، أمر الله بمتعتها على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف. وكذلك من مات زوجها عنها فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغب فيها. وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجيعة، أو كانت حاملة مطلقة.

وقال تعالى في سورة النساء:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٨]

ويدخل الواجب المستحب في مثل قوله في سورة الأنعام:

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنّها مصبحين، ولا يتركون شيئاً منها يلتقطه الفقير، وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالى في سورة الإسراء:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ [إلى قوله] وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾

[سورة الإسراء: الآيات ٢٣ ــ ٢٦]

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد، وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات. وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات. فهذا أصل قد اعتبره الله، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في أوقات المناسبات.

## القاعدة التاسعة والثلاثون
## في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد. ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

فالأمر مفرد ومضاف إلى المؤمنين، وفي الآية الأولى: قد دخلت عليه «ال» المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشؤونهم، واستجلاب مصالحهم، واستدفاع مضارهم: معلق بالشورى والتعاون على الاهتداء إلى الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة. فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا اشتبهت مصلحة بمضرة، نظروا: أيها أقوى، وأحسن عاقبة؟ ثم نظروا بأي شيء تدرك الأسباب، وبأي حال تنال على وجه لا يضر سلوكها.. وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم، الملقي إلى التهلكة. وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدُّوا في هذا واجتهدوا؛ وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة، أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته. فيقْدِمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام.

وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية، ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاورُوا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشد إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان. ولكل أمة. ومن ذلك: قوله في سورة الأنفال:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة

عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصره؛ وفي كل وقت ولكل عدو يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه. ومن ذلك قوله في سورة النساء:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، وأن نكون منهم أبداً على حذر في وقت السلم، فضلاً عن وقت الحرب. وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم، لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية، لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتى لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا، وأن لا نمكنهم من الاطلاع على أسرارنا الحربية ولا على مواردنا الاقتصادية، فضلاً عن تمكينهم منها، فضلاً عن أن نكون عالة عليهم فيها. فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله:

﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد: أن الله عاتب المؤمنين بقوله في سورة آل عمران:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

فأرشد الله عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طرقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فقد رئيس مهما كان عظيماً. وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة من القادة، متساوين أو متقاربين في قوة القيادة والدراية والحنكة والسياسة الدينية والاقتصادية والحربية، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في أرادتها وعزمها ومقاصدها وشؤونها، قصدهم جميعاً: أن تكون كلمة الله هي العليا وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو، فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية في أرضها ومنافعها، ولا بعض حقوقها في سيادتها وحريتها. وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم ومكنهم

بها من المحافظة التامة على حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان: أن الله ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها، باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها، وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات، ومؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض، أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة على غيرهم. فإن سنة الله في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه، وأعزها، بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهيناً ذليلاً، لا يعرفه الوجود إلا تابعاً قد تلاشت شخصيته وانماع في متبوعه. ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معاني الحياة العزيزة الكريمة، حين فهموا هذا القرآن على وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه.

وقال تعالى في سورة التغابن:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[سورة التغابن: الآية ١٦]

اي اتقوا الله، واحذروا شديد عقابه، بالقيام بما أمركم به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم، جماعة ومنفردين، بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوى. فإن هذا هو حق تقواه: وأن يبذل العبد كل ما في وسعه. وليست ناسخة لآية آل عمران. بل هي مفسرة لها.

فكل مصلحة أمر الله بها ــ وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة ــ فإنه يجب على الإنسان تحصيلها بكل ما عنده من الاستطاعة. فإن الله الحكيم لا يطلب إلى عباده إلا ما آتاهم من القوى والأسباب ما يقدرهم على القيام به. ولكنهم يتوانون ويتكاسلون، فيأتيهم العجز والفشل من ذلك، وكذلك كل ما نهاهم عنه. فإنه أعطاهم من القوى والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه، ومن الحلال ما يستغنون به. فالأمر بالتقوى أمر بأسبابها أو لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

ومن الآيات الجامعة في السياسة: قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]

والآيـة التي بعدها. فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة؛ من أجلّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة. الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدّى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها. وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميـع الأحوال. فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٦]

ولن يتم ذلك للأمة ـ على ما أرشد الله وأمر ـ إلا بأن يشعر كل واحد بالواجب عليه لنفسه وما لها وما عليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه، وخدمه ومواليه وبهائمه، وأرضه ومتجره، وكل شيء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه، ويقدر المسؤولية أمام الله سبحانه

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩]

فيقوم بكل ما في مكنته وجهده بهذا الواجب، غير متوان ولا متواكل. فعندئذ ـ وعندئذ فقط ـ تكون الأمة صالحة في أفرادها وأسرها وحكـامها وأمرائها. فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده. وأصدق البراهين على ذلك قول الله في سورة الرعد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ١١]

فهـل آن للذين يتجنون بالشكوى من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الداء ليس في الحكام والولاة فقط، وإنما الداء في الأمة التي غفلت وغفل كل فرد فيها عن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية، وخيانته لما استأمنه الله من أمانات. وأن الولاة: إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها؟ ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السموات

والأرض إلا به. فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه: معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه. وكان المتولون للولايات هم الكُمَّل من الرجال والأكفاء للأعمال، فجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد: ترقت الأمة وصلحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾

[سورة النساء: الآية ٥٩]

فهل يوجد أكمل وأعلى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود على الجرائم، والعقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده، وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال، والتخويف لأهل الشر والفساد وتطهير المجتمع من فسادهم وتنقيته من جراثيمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق والدعوة إلى الصالح للأمة.

كما أن الحدود والعقوبات، والنهي عن الكلام القبيح، والفعل القبيح فيها ردع عن الحرية الزائفة الكاذبة التي يتمشدق بها الحمقى والسفهاء الذين عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية

الفاجرة الخاسرة؛ فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ. وأما إطلاق عنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع، المحلِّلة للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة. فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج. ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلاً للمصالح، ودفعًا للمضار والمفاسد. والله أعلم.

## القاعدة الأربعون
## في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد.

وقد نبَّه القرآن على حفظ الصحة ودفع المؤذي في قوله من سورة الأعراف:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

فأمر الله بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما؛ وأطلق ذلك، ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال. ونهى عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كمية المأكولات والمشروبات، وإما في كيفيتها بالتخليط في المطعوم والأوقات. وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر: منع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي. وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن. فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة. فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر، بتجنبه والتحرز عنه، وبمعالجة الحادث مما وقع فيه بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج والإحسان إلى الخلق وبقية الأعمال. فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضى الله وقربه وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحاً للقلب وأسراراً خاصة، تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة، فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.

## القاعدة الحادية والأربعون

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليه من المصالح، ومن جهة النعم وتقديرها بالنظر إلى ضدها.

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة. وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقي العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي. فإن العامل إذا اشتغل بعمله ـ الذي هو وظيفة وقته ـ قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح ويتم له الأمر بحسب حاله. وإن تشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد، شغل بها ثم استبعد حصولها، ففترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى كليلاً يُنقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه. ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه. وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، على كل عمل في وقته. فإنه إذا جاء العمل الثاني يأتيه مستعدًا له بقوة ونشاط جديدين حصلهما من نشاطه وقوته في الأول، فيتلقاه بشوق وعزيمة فيفلح فيه وينجح. وهكذا هو أبداً متجدد القوى.

ومن هذا: قوله تعالى مصرِّحاً بهذا المعنى في سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [سورة النساء: الآية ٧٧]

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي. فلما لم يقبلوا موعظة الله، ضعفوا فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف.

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحُدٍ في قوله في سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٤٣]

وقد كشف هذا كل الكشف قولُه تعالى في سورة النساء:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾
[سورة النساء: الآية: ٦٦]

لأن فيه تكميلاً للعمل الأول، وتثبيتاً من الله، وتمرُّناً على العمل الثاني.

ونظيره قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّا ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآيات: ٧٥ ـ ٧٧]

فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته. ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معيناً على الثاني. وهذا المعنى في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة، فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمراتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه زاد وهناً وضعفاً، وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات تجدد نشاطه، وقوي وهانت عليه مشقته. كما قال تعالى:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد من الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله عليها، ففي القرآن منه كثير، يذكر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم. كقوله في سورة آل عمران:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقوله في سورة آل عمران:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

أي تهتدون إلى الزيادة من هذه الأسباب والنعم. وقوله في سورة الأنفال:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٦]

وقوله في سورة القصص:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

[سورة القصص: الآية ٧١ وما بعدها]

حيث يذكرهم أن ينظروا ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم. ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فأنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وقوله تعالى:

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦٩]

وقوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ *﴾

إلى آخرها. [سورة الضحى: الآيات ٦ والتالي لها]

## القاعدة الثانية والأربعون

قد ميَّز الله في كتابه بين حقه الخاص، وحق رسوله الخاص، والحق المشترك، وأعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة: حق لله وحده، لا يكون لغيره، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات، وحق خاص لرسوله ﷺ وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به، وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله وطاعة رسوله ومحبة الله ومحبة رسوله.

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن.

فأما حقه الخاص فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له، والترهيب من ضد ذلك. وهذا شيء لا يحصى. وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا مشترك

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا خاص بالرسول

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا حق لله وحده. وقوله:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

في آيات كثيرة وكذلك:

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦]

وكذلك قوله في سورة التوبة:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٢]

وقوله تعالى:

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٥٩]

فهذا مشترك:

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٥٩]

هذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة. والإيمان والطاعة لله لا بد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع رغبة ورهبة.

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله، وطاعة لله فمن أطاع

الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم. فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالاً لأمر الله، وعبودية له.

وإنما قيل له حق الرسول: لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالى. فيقوم به العبد امتثالاً لأمر الله وتعبداً له، وقياماً بحق ذي الحق، وإحساناً إليه. إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته. فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليماً.

## القاعدة الثالثة والأربعون

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يُخشى فواتها.

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة.

قال تعالى في القسم الأول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾

[سورة النساء: الآية ٩٤]

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾

[سورة الحجرات: الآية ٦]

وفي قراءة (فتثبتوا) فيهما. وقد عاب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان. فقال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٣]

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٩]

ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم. وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: فقوله:

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

الآيات؛ وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٨]

وقوله:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١]

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ١٠]

أي السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه: هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات. وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرات.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

## القاعدة الرابعة والأربعون

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي: يذكِّرها الله ما يفوتها من الخير، وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل.

وهذا في القرآن كثير. وهو من أنفـع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفِّهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافاً مضاعفة على الذي

يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك. قال تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٨]

فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر نفوس الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٩]

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٠]

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآيات ٢٠٥ ــ ٢٠٧]

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً، فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر. والله أعلم.

## القاعدة الخامسة والأربعون

## حثُّ الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

وهذه القاعدة من أهم القواعد. فإن القرآن كله لهذا المقصد نزل.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنّه الله، مقصوداً بها غاياتها الحميدة التي قصد الله إليها. فأمر الله بالأعمال الصالحة، وأثنى على الصالحين. لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان،

وتصلح الدين والدنيا والآخرة. وضدها فساد هذه الأشياء. وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس؛ وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: هو السعي في إزالة ما تحتوي عليه وتنتجه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم. كما قال شعيب ﷺ: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت»؛ فكل ساع في مصلحةٍ دينية أو دنيوية، فإنه مصلح. والله يهديه ويرشده ويسدده. وكل ساع بضد ذلك فهو مفسد. والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال، والحقوق المتنازع عليها بين الزوجين. والواجب أن يصلح بالعدل ويسلك كل طريق توصل إلى الملاءمة بين المتنازعين. فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى أن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة: أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله. وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر.

وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، المتعدية والقاصرة. والله أعلم.

## القاعدة السادسة والأربعون

ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه؛ فهذا أمر له بالدخول فيه. وإما أن يوجه لمن دخل فيه؛ فهذا أمره به ليصحح ما وجد عنده منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه.

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها.

فقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٧]

من القسم الأول. وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦]

من الثاني والثالث. فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها؛ ونهاهم عما يفسدها وينقصها. وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل. ونهى عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أن الله قد هداهم للإسلام. جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل. فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

## القاعدة السابعة والأربعون

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها: جاء الله بالحكم العام.

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة.

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، استثنى منهم التائبين فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٦]

فلما أراد أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، بل قال:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٦]

ليحضهم على المسارعة إلى التوبة وإخلاص الإيمان ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ـ إلى قوله ـ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [سورة النساء: الآيتان ١٥٠ و١٥١]

ولم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها.

ومثله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٤]

ـ أي هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ـ

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٤].

## القاعدة الثامنة والأربعون

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك: العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وذلك: أنه قد تقرر في الكتاب والسنّة والإجماع أن الله بكل شيء عليم. وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن، والجليات والخفيات، والماضي والمستقبل؛ وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا. وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا: ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وأما علمه بأعمال العباد، وما هم عاملون قبل أن يعملوا: فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال.

وعلى هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٤]

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ١١]

وقوله:

﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٢]

وما أشبه هذه الآيات، كلها على هذا الأصل.

## القاعدة التاسعة والأربعون

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه، وأسهل وأولى.

وهذا من لطفه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢]

فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال، وبلسان الحال.

ولما سأل موسى عليه السلام ربه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، سلاه بما أعطاه من الخير العظيم. فقال:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٦]

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

## القاعدة الخمسون

آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها.

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات. وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل. وعلى صدق كل ما أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث «ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر». وأما ما آتى الله محمداً ﷺ من الآيات فهي لا تحدُّ ولا تعد من كثرتها، وقوتها ووضوحها، ولله الحمد. فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل.

وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ. فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية، والآية الفلانية، إن كنت صادقاً. فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف. ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعد ما عرفوا الحق ورفضوه.

وأيضاً فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق. فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم أظهروا أنهم جزموا جزماً لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم. فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جداً. كقولهم:
﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٠]

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١١]

وأيضاً فإن اقتراحهم هذا ينادي صريحاً بأنهم ينسبون إلى الله العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولاً لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة على صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوي خصمه. وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله. وهذا أعظم كفر، وإجرام أشد من شركهم وفسوقهم. وما كان يتولى كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء. ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلى قوله. ولذلك يدمغهم

الله بميسم الخزي عقب كل تحد واقتراح لآية، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به.

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٣]

ثم يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧]

ويقول في سورة العنكبوت:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآيات ٤٧ ـ ٥٢].

وأيضاً إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة. وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب. فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم، وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا فهو متجرئ على الله، متوثب على حرمات الله، وأحكامه: فكذلك براهين أحكامه لا يتولاها إلا هو. فمن اقترح شيئاً من عنده فقد ادعى مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ . . . وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٩٣]

## القاعدة الحادية والخمسون

كل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة وهذه قاعدة نافعة. فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط. ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

وهذا خطأ جَرَّهم إلى ما هو شر منه. فإن الآيات صريحة في شموله لدعاء المسألة والعبادة. ويدل على عموم ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

فسمى ذلك عبادة. وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال. والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقاً قبل أن يجيبك لسانه: بأن قصدي من ذلك رضى ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه: ولهذا كانت النية شرطاً لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة غافر: الآية ١٤]

فوضع كلمة «الدين» موضع كلمة «العبادة» ــ وهو في القرآن كثير

جداً ـ : يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة. ومعنى الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحياناً بدعاء الطلب، كقوله:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [سورة القمر: الآية ١٠]

وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [سورة يونس: الآية ١٢]

فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًّا بلسانه، سائلاً دفع ضرورته. ويدخل فيه دعاء العبادة، فإن قلبه في هذه الحال يكون راجياً طامعاً، منقطعاً عن غير الله، عالماً أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله. وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٥]

يدخل فيه الأمران. فكما أن من كمال دعاء الطلب: كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٠]

فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا. ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٣]

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧]

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ١٨]

يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك كافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك كافر. ومثله:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٦]

كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. أما دعاء المسألة فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب، ويقتضيه. فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم. ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق. وهكذا.

وأما دعاء العبادة فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتى يمتلئ قلبه منه. فالأسماء الدالَّة على العظمة والجلال والكبرياء، تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى. والأسماء الدالَّة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعاً في فضل الله ورجاء لروحه ورحمته. والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًّا وتألُّهًا وإنابة لله تعالى. والأسماء الدالَّة على سعة علمه ولطيف خُبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة. وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

## القاعدة الثانية والخمسون

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل.

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية. قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المشاورات هو إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور. لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح. فإذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث. والمعارض هنا لا يُلتفَت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات؛ قال تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦]

يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية. فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟

ونظير هذا قوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾
[سورة الكهف: الآية ٢٩]

أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقيته: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. كقوله:

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٤٢]

وقال تعالى:

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

أي في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويطلب فيها وجه المصلحة. فأما أمر تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه فإذا عزمت فتوكل على الله.

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف، في قوله:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦]

أي فكل من جادل في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق علمه، فإنه غالط شرعاً وعقلاً. وقال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩]

فلامهم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم. وهو أنه تعالى فصّل لعباده كلَّ ما حرم عليهم. فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وبّخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال:

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾
[سورة الانشقاق: الآيتان ٢٠ و ٢١]

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بيانًا وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال تعالى:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة قال تعالى:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٥٥]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن: الآية ١٦]

وقال تعالى:

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢]

وكذلك في آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشُّبَهِ كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.

## القاعدة الثالثة والخمسون

من قواعد القرآن: أن يبين الأجر والثواب على قدر المشقة في الطاعة والعبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من مننه، وأحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً.

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار فضله ونفحة من نفحاته. المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشيء، بل هي خيرٌ محض، وإحسانٌ صِرف من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة، لولاها لم يكونوا واصلين إليها. وقال تعالى:

﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقال:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٥٥ و١٥٦]

وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠]

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة الأنفال: الآيتان ١١ و١٢]

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يَسَّر بها العبادة، مزيلة، محصلة لثمراتها.

وقال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾
[سورة يونس: الآيات ٦٢ ــ ٦٤]

فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أن ييسر لهم العبادات، ويهون عليهم مشقة القربات، وأن ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل. قال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾
[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ٧]

أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾
[سورة النحل: الآية ٩٧]

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوق حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضى الله تعالى.

فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن. إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حمد الله وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها واحتسب الخير في عنائه وجهاده، ورجا عظيم الثواب.

وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة. والله أعلم.

## القاعدة الرابعة والخمسون

كثيراً ما ينفي الله الشيء وإن كانت صورته موجودة: لعدم وجود فائدته وثمرته المقصودة منه.

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى: من السمع والبصر، والفؤاد وغيرها، ليعرف بها ربه، ويقوم بحقه. فهذا المقصود منها، وباستعمالها محررة من قيود التقليد ــ في التأمل والتفكر في آيات الله وسننه التي لا تبديل لها يتحقق لصاحبها ما خلقت له فتنمو وتكمل ويكمل صاحبها. وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها. فإنها حجة الله على عباده ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا. فأما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له. ولهذا كثيراً ما ينفي الله هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للآباء والسادة والرؤساء، المنسلخين من آيات الله. وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقاباً علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين. كقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٧٠ ـ ١٧١]

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٣]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٧]

وقال في سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢]

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم وإخراجكم منها بشرًا سويًا، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً لكم ـ ثم ساق الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات. وبين سبب هذه الغفلة بقوله:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٥]

أي ألقاها وخلعها كارهاً لها

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٦]

فما أعطيناها له إلّا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته، فيرتفع على درجات الكمال. ولكنه أخلد إلى أرض البهيمية رضىً بالتقليد الأعمى الذي هو من خصائص الأنعام؛ ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٩]

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾

[سورة الحج: الآية ٤٦]

وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

[سورة النمل: الآيتان ٨٠ و ٨١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾

[سورة النساء: الآيتان ١٥٠ و ١٥١]

فأثبت لهم الكفر من كل وجه. لأن دعواهم الإيمان بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان، لأن ثمرة إيمانهم مفقودة، حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ وغيره ممن كفروا به. وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٨]

لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفي عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٢]

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤١]

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات. فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، ولهذا قال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤]

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٠١]

ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام لما قال له بنو إسرائيل:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٦٧]

فإذا كان فقد العلم جهل قبيح ففقد العمل به جهل أقبح وأشنع.

## القاعدة الخامسة والخمسون

يكتب الله للعبد عمله الذي باشره، ويُكَمِّل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهراً عنه، ويكتب له آثار عمله. فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.

أما الأعمال التي باشرها العبد: فأكثر من أن تحصى النصوص فيها. كقوله:

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥]

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [سورة يونس: الآية ٤١]

ونحو ذلك.

أما الأعمال التي عجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالى:

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠]

فهذا خرج قاصداً إلى الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره. فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بما هو فوق طاقته ــ وكان من نيته إكماله ــ فقد وقع أجره على الله. فإنما الأعمال بالنيات. وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا [أي باشروا عمله] وَآثَارَهُمْ﴾ [سورة يس: الآية ١٢]

التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة. وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٢٠]

فكل هذه الأمور من آثار عملهم. ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢١]

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان.

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان؛ كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله. وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولاداً صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علَّم غيره علماً نافعاً، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال. ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك، فإنه من آثار عمله. وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإنه من آثار عمله؛ وكذلك من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره. فما

ترتب من نفع على هذا العمل، فإنه من آثار عمله. وإن كان يأخذ على عمله أجراً وعوضاً. فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، وراميه، والممدّ به.

## القاعدة السادسة والخمسون

يرشد القرآن المسلمين إلى أقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة، من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها؛ لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية الحكيمة. فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن أن يشتغل الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها. فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه. قال تعالى في الجهاد والعلم، اللذين هما من أعظم مصالح الدين، :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢]

فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى. وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت. وقال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها. لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، وأن يكون سائراً في جميع أعماله إليها. فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة. فالله المستعان.

## القاعدة السابعة والخمسون

في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها. وأخبر أن فيها آيات وعبراً نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا. فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه ـ هذا أمر بديهي ـ فتيقَّنَّا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، الكامل القدرة العظيم السلطان، الواسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾

[سورة غافر: الآية ٥٧]

وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصداً وإنما خلقنالنستعدَّ فيها للنشأة الأخرى.

وأذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان. وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات فإن ذلك دالٌّ على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف بذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه، وهذا شأنه: هو الذي لا يستحق العبادة أحد سواه. وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلاّ إليه. ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له. لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شؤونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكن الله الآدميين من استخراج أصناف المنافع منها: عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها. . . فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة؛ ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها، وفاقونا فيها. فإنها كلها ــ كما نبَّه الله ــ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلّم الإنسان ما لم يعلم.

## القاعدة الثامنة والخمسون

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة قرن بهم الناقصين فيها من المستعدين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن.

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلَّمه أسماء كل شيء، ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير أرى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها. ثم

بعد ذلك عبرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه.. فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السحرة عصيّهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر:

﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١١٦]

فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم فظهرت هذه الآية الكبرى. وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب. فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوّه الشديد حَرْده، القويّ مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له: من أعظم أنواع النصر. كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض. فقال:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

وقريب من هذا: نصره له يوم حنين، حيث أعجب المسلمين كثرتُهم، فلم تغن عنهم شيئاً. وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولَّوْا مدبرين. وثبَّت الله نبيه ﷺ، فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا

النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه. وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل الله فَرَجَه ونصره ليكون لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم مبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله، والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمداً وشكراً، وثناء على الباري تعالى. وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٦]

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: الآيات ٧١ ــ ٧٣]

ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه، حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف، وقالوا:

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٨]

ثم بعد قليل قال:

﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٩]

في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكِّر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع؛ فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأُحُدٍ: ما أصابوا من المشركين ببدر. فقال:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٥]

وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج من المصائب قبل أن تقلـع عنه، ليكون هذا الرجاء مخففاً لما نزل به من البلاء. قال تعالى:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

[سورة يوسف: الآية ١٥]

وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا تذكرها هب على قلبه نسيم الرجاء ولهذا قال:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ ﴾

[سورة يوسف: الآية ٨٦]

وكذلك قوله لأم موسى في سورة القصص:

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية ٧]

وأعم من هذا كله: وعد الله لرسله بتمام الأمر وبالنصر وحسن العاقبة كان يهون عليهم به المشقات، ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة. وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

## القاعدة التاسعة والخمسون

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩].

ما أعظم هذه القاعدة، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذي نصَّ نصًّا صريحاً على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال. فكل حالة هي أقوم: في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية.. فإن القرآن يهدي لها ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحث عليها.

ومعنى «أقوم» أى أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قياماً وصلاحاً للأمور.

فأما عقائد القرآن: فإنها هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب، وحياتها، وكمالها. فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرَّفها بتخصصها لمحبة الله تعظيماً له وتألهاً وتعبداً وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلقَ لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها، فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل: من الصبر، والحلم، والعفو، والأدب، وحسن الخلق مع الله، ومع الخلق، وجميع مكارم الأخلاق. ويحث عليها بكل طريق يؤلف القلوب، ويجمع المتفرق.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها، فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق عباده على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية. فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد، والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد. ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقضيه المصلحة في كل وقت، بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله، وخادمه،

وأصحابه، ومعامليه؛ فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، فإن القرآن يرشد إليها نصًا أو ظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنّة، وما تقتضيه المصالح تفصيل لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع، أو طريق صلاح يحرِّمه القرآن. والله ولي الإحسان.

## القاعدة الستون

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها. وأن الأمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة. فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة. وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الأجمال: يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل، الذي لا يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها. فإن الصورة تشوق إلى التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مواضع.

في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣]

ثم أخذ في تفصيلها:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف، قال في تصويرها الجملي:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [سورة الكهف: الآيات ٩ ــ ١٢]

فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها. ثم بسطها بقوله:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٣]

الآيات إلى آخر القصة

وكذلك قصة موسى، قال:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ [إلى قوله] يَحْذَرُونَ﴾
[سورة القصص: الآيات ٣ ــ ٦]

ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾
[سورة طه: الآية ١١٥]

ثم أتى بعد ذلك بالقصة.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه فكثير.

منه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهاً آخر، وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية: أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله، لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسَّدوا بشراً ثم عادوا إلى النورانية ــ فيقول:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٤]

فأبـان أن قولهم هذا بلا علم. ومن المعلوم: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة. ثم صرح بقبحه في قوله:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل:

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

وقال في حق المنكرين للبعث:

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٦]

أي علْمُهم فيها علمٌ ضعيف سافل إلى أحط الدركات، لا يعتمد عليه إلا سفيه. ثم انتقل إلى ما هو أبلـغ منه فقال:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٦]

والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذَّبه، وزعم أنه في ضلال مبين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦١]

ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له، فقال:

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦١]

ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه فقال:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٦٢]

وكذلك هود عليه الصلاة والسلام.

وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيتان ١و٢]

فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه ثم قال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤].

وكانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا على كبره وعقم زوجته، إلى ذكر مريم وعيسى، وكذلك أمر بالتوجه إلى الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها. وهذا في القرآن كثير.

## القاعدة الحادية والستون

## معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع

حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص، وذلك أن الله رتَّب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على أزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبطها وإحصائها وتحديدها. قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٩]

فقوله: (مواقيت للناس) يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها. وخص بالذكر الحج لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة. وكذلك مواقيت العدد والديون، والإجارات وغيرها. قال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١]

وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥]

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٦]

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾
[سورة الكهف: الآية ١٢]

وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم. فإنهم لو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من قصتهم. فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين أو الدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنى: قوله تعالى:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٥٩]

وقوله: ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [سورة يونس: الآية ٥]

ونحوها من الآيات.

## القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على جميع الأمور. والذي يعين على الصبر: معرفة حقيقته ومعرفة سبله وعواقبه ومعرفة الجزع وسبله وعواقبه.

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دل القرآن عليها في مواضع؛ قال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم بالصبر، فبالصبر: يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده. وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلباً لرضى مولاها. وبالصبر تخف عليه الكريهات. ولكن لهذا الصبر وسيلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها، وهي معرفة الشيء الذي يصبر عليه، ومعرفة

ما فيه من الفضائل والثمرات المترتبة عليه. فمتى عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور: إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع الشدائد. وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها. ولهذا يذكر الله كثيراً في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها. وقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧]

ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرات وزوال المنافع.

وقال تعالى عن الخضر لما قال له موسى:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآيات ٦٦ ــ ٦٨]

فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر. ولو تجلد ما تجلد عيل صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن وما هو عليه من الجلاء والصدق والكامل:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٩]

فبيَّن أن الأعداء المكذِّبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان. فهم وإن قامت عليهم الحجة ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته.

وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٣]

والمقصود: أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وفضائلها ورذائلها.

## القاعدة الثالثة والستون

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوي المجردة أو بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: من طرق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذا الأصل وقد قال تعالى:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٧]

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان: ٨٨ و٨٩]

وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة مواضع.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين، فقال عن اليهود والنصارى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١١]

ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة. فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٢]

وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٣]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧٣]

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

[سورة الزخرف: الآية ٣١]

ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات، ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة. وهذا من أكبر مواضع الفتن. فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.

## القاعدة الرابعة والستون

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق وعلى الأمور اليقينية، ولكن سرعان ما تضمحل وتتلاشى.

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص؛ ومن عرف حكمة الله في ورودها على الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعهاأو لشبه قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحق الباطل ودمغه فزهق الباطل وثبت الحق، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين. فكان في ذلك التقدير حِكَمٌ بالغة، وأيادٍ سابغة. ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، أكمل الحق إيماناً ويقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده؛ وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوه في الرسل، وأنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضِدِّه. ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حساً لما علم يقيناً ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولوا:

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

وقد يخطر في هذه الحالة للقلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب. ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب.

﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

فعندئذ يكون لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة. ولهذا قال:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾

[سورة يوسف: الآية ١١٠]

فهذا الوارد الذي لا قرار له. وعند ما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى، لا ينكر ولا يطلب للآيات الدالات عليه تأويلات تخالف ظاهرها.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [سورة الحج: الآية ٥٢]

أي يلقي من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته. والله عليم حكيم. فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء. لهذه الحكم التي ذكرناها. فمن أنكر ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر الغلط. ولو فهم أن

الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولاً يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى عن يونس:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

وأنه ظن عرض في الحال ثم زال. نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه. ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها. ولهذا قال ﷺ عندما شكا إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشراً لهم «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» وأخبرهم «أن هذا صريح الإيمان».

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٤]

وهو ما معه من الإيمان والخوف والخشية، والمعرفة التي دفعت عنه هذا الهم وموجبه، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه. ولهذا فاز بمرتبة الصِّدِّيقية، لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق، حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن فقال:

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٣]

وكان كل من يتشبَّه به ويقف موقفه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته. فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان، وواجباته من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات، فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير.

ولعل من هذا قول لوط عليه الصلاة والسلام:

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠].

وقول النبي ﷺ «لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط في تلك الحالة الحرجة ملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه بقوة ذي العظمة والجلال.

## القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح، إذا كان يفضي إلى ترك واجب، أو فعل محرم.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد فمنها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٠٨]

وقوله:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾

[سورة النور: الآية ٣١]

وقوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩]

فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون، كانت مأموراً بها؛ وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرّمة منهيًّا عنها. وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية. والله أعلم.

## القاعدة السادسة والستون

أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها: توحيد الألوهية والعبادة.

وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية؛ وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله وخلق المخلوقات. وشرع الشرائع لقيامه وبوجوده يكون الصلاح وبفقده يكون الشر والفساد.

وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهي عن ضدّه، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويقال له: توحيد الإلّهية. فإن الإلّهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدالّ عليها الإسم العظيم. وهو الله. وهو مستلزم جميع صفات الكمال. ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بصفته الملازمة له من مقتضيات العبودية للربوبية بإخلاص العبادة لله تعالى وتحقيقها في العبد

أن يكون عارفاً بربه مخلصاً له جميع عباداته محقِّقاً ذلك بترك الشرك، صغيره وكبيره، وباتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، والبراءة من كل بدعة وضلالة، والحب في الله والبغض في الله.

وهذا الأصل، الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، قد قرره شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسائل لا تحصى، وبالأخص في كتاب التوحيد. وذكر من تقريره وتفاصيله وتحقيقه، ونفى كل ما يضاده ما لم يوجد في كتاب غيره.

والقرآن يقرره بطرق متنوعة، وقد تقدم في أول القواعد شيء من ذلك. وقد ذكرنا في التفسير ثمانية طرق كلية في تقرير هذا الأصل. وصورة ما ذكرناه على قوله تعالى:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]

بعد ما ذكرنا تفسيرها.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله، أمور:

أحدها، بل أعظمها: التفكُّر في سنن الله وآياته الكونية، ثم تدبُّر أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته، وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التألُّه له والتعبُّد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية والأخروية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به خوفًا ورغبة ورهبة، والتألُّه له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه، القائمين بتوحيده من النصر والنِّعَم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داعٍ إلى العلم بأنه تعالى المستحق للعبادة كلها وحده.

الخامس: معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله، ومعرفة أوصاف الأوثان والأنداد، التي عبدت مع الله، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ولا تنصر من عبدها ولا تنفعه بمثقال ذرة: من جلب خير، أو دفع شر. فإن العلم بذلك يوجب العلم بأن لا إله إلا الله.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. وهو أعظم ما فيها.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً، وعلماً ورأياً وإصابة، وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون، قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه من الأدلة الآفاقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق، التي أكثر الله من دعوة الخلق بها ألى أنه لا إله ألا هو، قد أبداها في كتابه وأعادها بطرق وأساليب متنوعة إلى آخر ما ذكرنا هناك. وكل رسول أول ما يدعو قومه إلى هذا التوحيد ويقرره لهم بأكثر وأقوى من هذه الأدلة.

## القاعدة السابعة والستون

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات. وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقّق، ونحوها من العبارات، وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة.

منها: لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشابهات: أنهم يقولون:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

فالأمور المحكمة المعلومة: يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون.
وقال في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٢]

فأمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه. وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩]

فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص رماه به من آذاه. لأنه لا يكون وجيهاً عند الله حتى يسلم من جميع النقائص التي لا تليق بالرسل، ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم. فحذّر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك اليهود المغضوب عليهم القساة القلوب، الذين أعلنوا بمعاداة الأنبياء واحتقارهم، مهما عاد عليهم من الخير العظيم من تعظيم الأنبياء، حتى لم يسلم من أذاهم موسى الذي شرفهم بالانتساب إليه. وقد جعل الله نجاتهم من سوء العذاب والتقتيل على يده مع وجاهته عند ربه. فالله يحذر المؤمنين أن يتشبهوا ببني إسرائيل فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله، وأرفعهم مقاماً ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحساناً إلى الخلق.

وقال تعالى:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢]

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾
[سورة سبأ: الآية ٦]

## القاعدة الثامنة والستون

## من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين. وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله: وهب له إسحق ويعقوب والذرية الصالحين. ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه وعصمها من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته، وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليبعد عن دائرة الفساد والفتنة: عوَّضه الله ـ أن مكَّن له في الأرض، يتبوّأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما يشاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان. وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة، وجعلهم سبباً لهداية الضالين. ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوَّضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.

## القاعدة التاسعة والستون

القرآن الكريم كفيل بمقاومة جميع المفسدين. ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه، وتنفيذ شرائعه وأحكامه.

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل. ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه.

فأعظم أهل الشر: أهل التعطيل، العمون عما سوى المحسوسات،

المنكرون للخالق وأديان الرسل، وما أخبر الله به وأخبرت به رسله. وفي القرآن من البراهين والحجج المتنوعة ما يبطل قولهم ويمحق مذهبهم، ويبين للعقلاء أنهم مكابرون في إنكار أظهر الأشياء البديهية وأجلاها.

ومنهم: أهل الشرك بالمخلوقات وتسويتها بالرب في شيء من الصفات والنعوت، أو الحقوق الخاصة لله. وفي القران من إبطال الشرك، ووجوب التوحيد، وإقامة البراهين على تفرد الله تعالى بالوحدانية، وصفات الكمال، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وأن لا أحد يساويه في وصف، ولا في حق من الحقوق: ما يكفي بعضه لإزهاق قولهم.

ومنهم المنكرون للأنبياء من الآدميين، وفيه من الحجج والبراهين على إثبات رسالتهم، وإقامة الآيات والخوارق الدالة على صدقهم، والأوصاف والنعوت التي اتصفوا بها: ما يدل أكبر دلالة على أنهم رسل الله حقاً، وأنهم أصدق الخلق، وأكملهم في كل صفة كمال، وأكملهم في كل فضيلة.

ومنهم المفرِّقون بين الأنبياء والكتب، الذين يزعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وفي القرآن حجج وبراهين كثيرة تدل على إبطال قولهم، وأنهم متناقضون في إثباتهم وفي نفيهم. وأن الإيمان الحق والحق الصريح: هو الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله، وأن الحق والصدق والعلم واليقين يجب الإيمان به والاعتراف به حيثما كان، ومع من كان. وليس ذلك بالدعاوي والأماني.

ومنهم الإباحية والشيوعية الذين هم أخبث جرثومة لإفساد الأديان والملك والدنيا والآخرة، والقرآن كفيل بإبطال قولهم بما فيه من العقائد والبراهين. ووجوب التحلّي بالأخلاق الجميلة والتخلّي عن الأخلاق الرذيلة، وأداء الحقوق المتنوعة بين طبقات الناس، وإيتاء الزكوات، وإنقاذ المضطرين وغير ذلك من الأحكام والشرائع الحكيمة الرشيدة. فكل هذا سد محكم يمنع نفوذ هؤلاء المفسدين. ويقي شرهم ويزهق حجتهم.

ومنهم أهل البدع على اختلاف مذاهبهم وتنوع نحلهم.

وفي القـرآن من البراهين، ووجوب التمسك بما عليه النبـي ﷺ من أصول الدين، وفروعه، ووجوب رد المتشابه إلى المحكم والاعتصام بحبل الله ودينه ما يبطل قولهم جميعاً ويكسر شوكتهم.

ومنهم: أهل التحزب والتشيـع، وتفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وفي القـرآن من الحث على الاعتصام بحبل الله، والحث على الألفة، والنهي عن التفرق، والإخبار بـأن التفريق في الـدين طريق أهـل الضلال والغضب، والتحذير من أحوال هؤلاء وهؤلاء، ووجوب الاتفاق على الأصول العامـة الكلية، مما يقمع شرهم، ويبين شناعة طريقتهم.

ومنهم: أهل الفساد المنتهكون للدماء والأموال والأعراض؛ وفي الآيات القرآنية من قمعهم وإقامة الحدود عليهم، والزجر عن طريقتهم، والمواعظ والزجر ما يقمعهم ويردعهم، ويخفف شرهم. فكل صاحب شر وفساد إنما سلطته ووصول شره على من لم يعتصم بالقـرآن؛ وكل من خرج من هذا الحصن الحصين الذي من دخله كان من الآمنين من كل شر وضرر، وهو القاهر لكل باطل والمطهِّر للقلوب والمجتمع من كل فساد.

## القاعدة السبعون
## في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

إعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب. وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها. فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم، فإن كثـيرًا منها من القواعد الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أوحي إليه به وأعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً. ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج:

فمنها: قوله تعالى:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٦]

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦]

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠]

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ١٠]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾
[سورة المائدة: الآية ٢]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان ٧ و٨]

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾
[سورة المزمل: الآية ٢٠]

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٣]

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾
[سورة النساء: الآية ٩٤]

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٦]

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾
[سورة النساء: الآية ٤٠]

﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس: الآية ٨١]

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥]

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٩]

﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن: الآية ١٨]

﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢]

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣]

﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة غافر: الآية ١٤]

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [سورة هود: الآية ٣]

﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٥]

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [سورة هود: الآية ١١٢]

﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦]

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة هود: الآية ١١٥]

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾
[سورة يوسف: الآية ٢٤]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٨٠]

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١]

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠]

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٦]

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٩٤]

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [سورة الجن: الآية ٢]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥]

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩١]

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠]

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾
[سورة الكهف: الآية ٤٦]

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧٦]

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [سورة الحج : الآية ٧٨]

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١]

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

[سورة الحشر: الآية ٧]

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٣]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٥٨]

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل منها قاعدة، وأصل كلي، يحتوي على معانٍ كثيرة.

وقد تقدّم في أثناء القواعد منها شيء كثير؛ وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد يسَّر الله ما مَنَّ بجمعه، فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسر الناظرين. ويعين على فهمٍ كلام رب العالمين، وقد حوى من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أَجَلّ القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئاً كثيراً، وعلماً واسعاً غزيراً. ومخبر الكتاب يغني عن وصفه.

وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرِّباً إلى جنات النعيم. وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، بمنِّه وكرمه وجوده، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين آمين.

وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

وبعد فهذه القواعد: جمعت من أنواع الحسن ما يجعلها أحسن نموذج لاجتناء ثمرات القرآن الطيبة الدانية. وهي تنادي: أن الشيخ عبد الرحمن ـ زاده الله هدى ـ قد نشط: محرراً من قيود التقليد يتنقل في رياض التحقيق النضرة ليجني قطوف الشكر، ويقدمها لإخوانه المؤمنين. وهذه القواعد أول فاكهة سيتلوها غيرها أنضج منها وأبرك إن شاء الله. فشمر أيها المقتطف، وسر قُدُماً إلى أهدافك. ولا تنظر خلفك. ولا ترج إلا مثوبة ربك. والله يؤيدنا ويؤيدك. ويثبتنا ويثبتك، وثق أن الطريق ممهد والغاية قريبة. والنجح مكفول لكل صبار شكور.

أخوك: محمد حامد الفقي

* * *

# تيسير اللطيف المنان

## في خلاصة تفسير القرآن

تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بارك الله في علمه النافع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فقد كنت كتبت كتاباً في تفسير القرآن مبسوطاً مطولاً يمنع القراء من الاستمرار بقراءته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار عليّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطول يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأي الميمون، لأمور كثيرة: منها أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين، معيناً للقارئين، ومنها أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب، لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع، والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد. فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب، وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدينية والدنيوية والأخروية، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة، ويعيد المعاني النافعة على العباد، ليتم علمهم، وتكمل هدايتهم، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم، علماً وعملاً.

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه،

والله جعله مثاني تثنى فيه العلوم النافعة، والمعاني الجليلة الكاملة، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ١٧]

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوي عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا:

* * *

# مقــدمة

## «في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة»

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة:

وصفه بالهدى والرشد، والفرقان، وأنه مبين وتبيان لكل شيء؛ فهو في نفسه هدى، ويهدي الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ويرشدهم إلى كل طريق نافع، ويفرق لهم بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين. وفيه بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة.

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود: قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين، المتقين؛ لقوم يعقلون، ويتفكرون، ولمن قصده الحق. وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته؛ وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلاً وعاملاً، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته؛ فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته، ليس له من هدايته نصيب؛ فالأول حرم هدايته لفقد الشرط، والثاني لوجود المانع؛ فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم، وحسن قصد، وسلم من الهوى، فإنه يهتدي به إلى كل مطلوب، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب.

ووصفه بأنه رحمة، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك.

ووصفه بأنه نور، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة، والمعاني الكاملة، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والرشاد المتنوع.

ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب؛ فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها؛ فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة.

ووصفه بأنه كله محكم، وكله متشابه في الحسن، وبعضه متشابه من وجه، محكم من وجه آخر.

فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور منازلها، ووضعها مواضعها، وأنه متفق غير مختلف، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه؛ وأما حسنه فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، فهي في غاية الحسن لفظاً ومعنى، وآثارها أحسن الآثار، وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال، ويصدق بعضها بعضاً. وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأُخر متشابهات، فالمتشابهات هي التي يقع الإشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة، فأمر الله بردّها إلى المحكمات الواضحة بينة المعاني، التي هي نص في المراد؛ فإذا ردّت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات، وزال الشك والإشكال، وحصل البيان للهدى من الضلال.

ووصفه بأنه كله صلاح ويهدي إلى الإصلاح، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء. وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها.

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد، وأنه أُعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه، فهمتَ أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرّب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات.

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاقتصار على خلاصة ذلك التفسير؛ راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود؛ ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضع واحد؛ مع أنه ـ كما تقدم ـ لا بد أن يدخل في آيات الأصول كثير من الفروع، وفي آيات الفروع كثير من الأصول، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شيء كثير؛ وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره؛ فإنه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة، وكتاب تربية يقوّم الأخلاق والأعمال، فهو يُعلم ويقوّم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق، التي لا يمكن الحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها.

* * *

# علوم التوحيد والعقائد والأصول

١ ـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

[سورة الفاتحة]

أي أبتدىء بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع أسماء الله الحسنى؛ فيكون العبد مستعيناً بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب، وأجلّ ما يستعان به على عبادة الله؛ وأجلّ ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله، وتفهم معانيه، والاهتداء بهديه.

«الله» هو المألوه المستحق لإفراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها، لما اتصف به من صفات الكمال، وهي التي تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له. ﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان دالّان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمّت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتّبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة، لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر، وتوليه عن الأمر، فلا يلومنّ إلّا نفسه.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء الله كلها، وصفاته جميعها، وبأحكام تلك الصفات؛ فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها

المتعلقة بالمرحوم؛ فالنعم كلها من آثار رحمته، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى؛ فيقال عليم: ذو علم عظيم، يعلم به كل شيء؛ قدير: ذو قدرة يقدر على كل شيء، فإن الله قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر، كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلاً.

﴿الحمد لله﴾: الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة؛ ولا بد في تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملاً.

﴿رب العالمين﴾: الربُّ هو المربي جميع العالمين بكل أنواع التربية، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة؛ وهذه التربية العامة لجميع الخلق، بَرِّهم وفاجرهم، بل المكلفون منهم وغيرهم؛ وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه، فإنه مع ذلك يربي إيمانهم فيكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التي تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية، وتيسيرهم لليسرى وحفظهم من جميع المكاره. وكما دلّ ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكمال الغنى، فإنه يدل على تمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار، فيسأله من في السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون إليه في مهماتهم.

﴿مالك يوم الدين﴾: المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها الملك، التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف في العالم العلوي والسفلي التصرف التام المطلق بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية، وأحكام الجزاء، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين، مع أنه المالك المطلق في الدنيا والآخرة؛ فإنه يوم القيامة الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها، ويرتب عليها جزاءها، وتشاهد الخليقة ــ من آثار ملكه وعظمته وسعته، وخضوع الخلائق كلها لعظمته وكبريائه، واستواء الخلق في

ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم في نفوذ أحكامه عليهم ـ ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾: أي نخصُّك يا ربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك؛ فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة؛ فهي القيام بعقائد الإيمان وأخلاقه وأعماله محبةً لله وخضوعاً له. والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في حصول ذلك؛ وهذا التزام من العبد بعبودية ربه، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به، وعُلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾: أي دلنا وأرشدنا ووفِّقنا للعلم بالحق والعمل به، الذي هو الصراط المستقيم، المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته؛ وهذا يشمل الهداية إلى الصراط، وهي التوفيق للزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان الباطلة؛ ويشمل الهداية في الصراط وقت سلوكه علماً وعملا؛ فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا أوجبه الله ويسَّره، وهذا الصراط هو طريق و ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ﴿غير المغضوب عليهم﴾: وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم ﴿ولا الضالين﴾: الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله، رب العالمين، وتوحيد الإلٓهية من قوله، إياك نعبد وإياك نستعين، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به.

وتوحيد الأسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ. وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله؛ فإن الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى، وتضمنت

إثبات الرسالة في قوله: اهدنا الصراطالمستقيم. لأنه الطريق الذي عليه النبي ﷺ. وذلك فرع عن الإيمان بنبوته ورسالته، وتضمنت إثبات الجزاء وأنه بالعدل، وذلك مأخوذ من قوله: مالك يوم الدين.

وتضمنت إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القَدَر، وأن جميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعلٌ حقيقةً ليس مجبوراً على أفعاله. وهذا يفهم من قوله: إياك نعبد وإياك نستعين. فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها ألى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة، وتضمنت أصل الخير ومادته، وهو الإخلاص الكامل لله في قول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين.

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلَّفين في كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلا؛ وفيها تعليم الله لعباده كيف يحمدونه ويثنون عليه ويمجدونه بمحامده ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمرين: مفتقرين إليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته، ومفتقرين إليه في أن يقوم بمصالحهم يوفقهم لخدمته. والحمد لله رب العالمين..

٢ ـ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨٤]

هذه الآية الكريمة لها شأن كبير؛ كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً في الركعة الأولى من سُنّة الصبح، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، فأن الإيمان الشرعي هو تصديق القلب التام وإقراره بهذه الأصول المتضمن لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب؛ وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها؛ فهي إيمان، وهي من آثار الإيمان. فإذا أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان، فإذا قرن بين الإسلام والإيمان، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الصحيحة والإرادات الصالحة، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح، الإيمان لما في الباطن، والعمل الصالح هو الظاهر، ومع إطلاق الإيمان يدخل فيه العمل الصالح، كما في كثير من الآيات؛ فقوله تعالى: ﴿قل آمنا بـالله﴾ الخ. أي قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم. وهذا هو القول التام الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ فكمـا أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بإيمان، بل هو نفاق، فكذلك القول الخالي من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة؛ وفي قوله ﴿قل﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي مثل قوله: آمنا، وما أشبهها من الآيات التي يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف والنهي عن الافتراق، وأن المؤمنين كالجسد الواحد، عليهم السعي لمصالحهم كلها جميعاً والتناصح التام؛ وفيه دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله؛ كما يقول آمنت بالله، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات، كما أمر الله به أمراً حتماً بخلاف قول العبد: أنا مؤمن ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس؛ لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات، فهو كقوله: أنا متقي أو وليّ أو من أهل الجنة، وهذا التفريق هو مذهب محققي أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿آمنا بالله﴾ أي بأنه واجب الوجود، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص مستحق لإفراده بالعبودية كلها، وهو يتضمن الإخلاص التام ﴿وما أُنزل علينا﴾ يدخل فيه الإيمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيهما، كما قال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣]

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

[سورة النحل: الآية ٤٤]

فيدخل في هذا الإيمانُ بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله: من أسماء الله وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها، وغلإيمان بما تضمنه

الكتاب والسنة أيضاً: من الأحكام الشرعية الأمر والنهي وأحكام الجزاء وغير ذلك؛

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

إلخ. فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليهم منهم في الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار، فمن براهين الإسلام ومحاسنه، وأنه دين الله الحق: الأمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله وكل رسول أرسله الله مجملاً ومفصّلا؛ فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فيبطِلُ كفرُهم وتكذيبُهم تصديقَهم، ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقاً، وأنه لا سبيل يسلك إلى الله إلا سبيل الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل. وفي قوله:

﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

برهان على أن الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، وأنه ليس لهم من الأمر شيء؛ وفي الإخبار بأنه من ربهم، بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التربية التامة أنه أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلموهم ويزكوهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأنه لا يليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

ويفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين، وبين من يدّعي النبوة من الكاذبين؛ فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً، ويشهد بعضهم لبعض، ويكون كل ما جاءوا به متفقاً لا يتناقض. لأنه من عند الله محكم منتظم، وأما الكَذَبة فإنهم لا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، ويُعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو إليه الأنبياء الصادقون.

فلما بيَّن تعالى جميع ما يجب الإيمان به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾، أي خاضعون لعظمته

منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له بذلك؛ فإن تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر؛ فهذه الأصول المذكورة في هذه الآية قد أمر الله بها في كتابه في عدة آيات من القرآن إجمالاً وتفصيلا، وأثنى على القائمين بها، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب؛ وأنها تكمل العبد وترقيه في عقائده وأخلاقه وآدابه، وتجعله عَـدْلاً معتبراً في معاملاته، وتوجب له خير الدنيا والآخرة، ويحيا بها الحياة الطيبة في الدارين، وتجلب له السعادتين، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة. وقد أخبر في هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علماً وتصديقاً وإقراراً، وعملاً ودعوة وهداية وإرشاداً، فكُتبُ أهل العلم المصنّفة في العقائد كلها تفصيل لما في هذه الآية الكريمة.

٣ - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: آية الكرسي رقم ٢٥٥]

قد أخبر النبـي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن على الإطلاق، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشرور كلها، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة صفات الكمال لله تعالى؛ فأخبر أنه الله، الذي له جميـع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية غيره، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارّة في الحال والمآل؛ وعبادته وحده لا شريك له هي الحق الموصلة إلى كل كمال؛ وأنه الحيّ كامل الحياة، فمن كمال حياته أنه السميـع البصير القدير المحيط علمه بكل شيء، الكامل من كل وجه؛ فالحي يتضمن جميـع الصفات الذاتية، والقيّوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميـع المخلوقات، وقام بها فأوجدها وأبقاها وأمدّها بكل ما تحتاج إليه في بقائها؛ فالقيوم يتضمن جميـع صفات الأفعال، ولهذا ورد أن اسم الله الأعظم الذي أذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾: فإن هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما

جميع الكمالات الذاتية والفعلية؛ ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سِنة أي نعاس، ولا نوم، لأنهما إنما يَعْرُضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، وينزّه عنهما ذو العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك لجميع ما في السموات وما في الأرض، فكلهم عبيده ومماليكه، لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾
[سورة الزمر: الآية ٤٤]

ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها

﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين؛ وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله ولا معلوماته إلا بما شاء منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً بالنسبة إلى علم الباري، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم المخلوقات، وهم الرسل والملائكة:

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾[سورة البقرة: الآية ٣٢]

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم، بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في مخلوقاته ومع ذلك فلا يؤوده، أي يثقله، حفظهما لكمال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته في أحكامه؛ وهو العلي، بذاته على جميع مخلوقاته، فهو الرفيع الذي باين جميع مخلوقاته؛ وهو العلي بعظمة صفاته، الذي له كل صفة كمال، ومن تلك الصفات أكملها ومنتهاها، ﴿وهو العلي﴾ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له كل الموجودات، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب؛ ﴿العظيم﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد، الذي تحبه القلوب وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العليّ العظيم، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجلّ المعاني وأفرضها على العباد، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهمًّا أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان، وقد نعت الباري نفسه الكريمة بهذه الأوصاف في عدة آيات من كتابه:

٤ - ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨]

هذه أجل الشهادات على الإطلاق؛ فإنها صدرت من الملك العظيم، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه؛ وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء؛ فإن الدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبادة، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال، وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

وأما القسط فهو العدل الكامل؛ والله تعالى هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه؛ فإن العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي كله عدل وقسط، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الإحكام والانتظام، وفي غاية الحكمة والجزاء على الأعمال، كله دائر بين فضل الله وإحسانه على الموحِّدين المؤمنين به، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين، فإنه لم يهضمهم شيئاً من حسناتهم، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤]

قال تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٩]

فتوحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها؛ وقد شهد الله له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه. ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة، فإنهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق وإبطال كل باطل، لما خصهم الله به من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة.

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله، فإن الله جعلهم وسائط بينه وبين عباده، يبلغونهم توحيده ودينه وشرائعه الظاهرة والباطنة؛ وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وغيرهم تابعٌ لهم في الدنيا والآخرة. ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى في الآخرة، لما ذكر تعالى اختصام الخلق واختلافهم، ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٦]

وفي هذا دليل على كمال عدل أهل العلم؛ فإن الله استشهد بهم على عباده، وذلك تعديل منه لهم، وفي هذا من الشرف وعلو المكانة ما لا يخفى.

٥ ـ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]

العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضى ذلك العلم في كل مقام بحسبه؛ وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحد، كائناً من كان.

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله لله فوق كل ضرورة، والعلم بالشيء يتوقف على معرفة الطريق المفضي إلى معرفته وسلوكها، والطريق إلى العلم بأنه

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣]

على وجه الإجمال والعموم أمور:

أحدها: وهو أعظمها وأوضحها وأقواها، تدبُّرُ أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإن معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه، وتوجب بذل الجهد في التأله والتعبد لله، الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإنابة، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم، ومن النعم العاجلة المشاهدة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبدت مع الله واتُّخذت آلهة، وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه، ناقصة من كل وجه، لا تملك لنفسها

ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلٰهيتها، وأن ما يدعون من دون الله هو الباطل، وأن الله هو الإلٰه الحق المبين.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به، وهم خواص الخلق وأكملهم أخلاقاً وعقولاً وعلماً ويقيناً.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادي عليه بلسان المقال ولسان الحال، بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

التاسع: ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار، ومن الإحسان المتنوع، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه. وأن شريعته التي نزلت على ألسنة رسله شاهدة بذلك.

فهذه الطرق التي لا تحصى أنواعها وأفرادها قد أبداها الله في كتابه وأعادها، ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذي هو أعظم المطالب وأجل الغايات، فمن سلك طريقاً من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو؛ وكلما ازداد العبد سلوكاً لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه، وكان الإيمان في قلبه أرسخ من الجبال، وأحلى من كل لذيذ وأنفس من كل نفيس.

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل من غيره وقوله:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٥]

أي اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التي تحصل بها

المغفرة: من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح، وفعل الحسنات الماحية، وترك الذنوب، والعفو عن الخلق والإحسان إليهم، ومن ذلك الاستغفار لهم. فلهذا قال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ فهذا من ثمرات الإيمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة. وإذا كان العبد مأموراً بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحاً لهم، يحبّ لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر، ويعفو عن معائبهم ومساويهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، فإنه بالائتلاف تقل الذنوب وبالافتراق تكثر الشرور والمعاصي. ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم، وما إليه تنتهون وبه تستقرون، فهو المحيط بكم في كل أحوالكم؛ وهذا فيه التخويف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسنها وسيئها.

٦ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٤]

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى التي عليها مدار التوحيد والاعتقاد، فأخبر أنه المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه؛ وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام وحكمه الشاملة. فهو الإله الحق وما سواه فعبوديته باطلة، لأنه خال من الكمال ومن الأفعال التي فيها النفع والضر؛ ووصف نفسه بالعلم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما في العالم العلوي وما في العالم السفلي وما ظهر وما بطن، فلا تخفى عليه خافية في مكان من الأمكنة ولا زمان من الأزمنة؛ ومن كمال علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما تفرق من أجزائهم

وما استحال من حال إلى حال؛ أحاط علماً بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه إعادتهم للبعث والجزاء، ووصف نفسه بأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله؛ ووصف نفسه بأنه ﴿الملك﴾ وهو الذي له الملك التام المطلق، له صفات الملك التي هي نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان. وله التصرف المطلق في جميع الممالك، الذي لا ينازعه فيه منازع، والموجودات كلها عبيده، وملكه ليس لهم من الأمر شيء.

وأخبر أنه ﴿القدوس السلام﴾ أي المقدس المعظم، السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لكماله؛ ﴿المؤمن﴾ المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. الذي له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك، ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال. ﴿العزيز﴾ الذي له العزة كلها، عزة القوة والقدرة، فهو القوي المتين، وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق، فكلهم نواصيهم بيده وليس لهم من الأمر شيء، وعزة الامتناع الذي تمنَّع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع، وليس له نديد ولا ضديد. ﴿الجبّار﴾ الذي قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلى على الكائنات وجبر بلطفه وإحسانه القلوب المنكسرات. ﴿المتكبر﴾ عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه. ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره. ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارىء﴾ بحكمته ولطفه لجميع البريَّات، المصور بحسن خلقه لجميع الموجودات، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهيئ له.

فالله تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهذا من براهين توحيده، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع. ﴿له الأسماء الحسنى﴾: وقد ورد في الحديث الصحيح أن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة ـ يعني أحصى ألفاظها وحفظها وعقلها وتعبد لله بها ـ

فهو تعالى الذي له كل اسم حسن، وكل صفة جلال وكمال، فيستحق من عباده كل إجلال وتعظيم وحب وخضوع. ﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾: يعني من المكلفين والحيوانات والأشجار والجمادات.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٤٤]

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص]

أي قل قولاً جازماً فيه، معتقداً له، عارفاً بمعناه، عاملاً بمقتضاه من الإيمان بالله والتعظيم والخضوع: هو الله أحد؛ أي الذي انحصرت فيه الأحدية، وهي التفرد بكل صفة كمال الذي لا يشاركه في ذلك مشارك؛ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المقدسة والتصرف المطلق ﴿الله الصمد﴾، أي السيد الذي قد انتهى سؤدده؛ العليم الذي قد كمل علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه وفي قدرته وفي جميع أوصاف كماله؛ ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته في كل حاجاتها وفزعت إليه الخليقة في مهماتها وملماتها.

فالصمد هو الذي صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات، ومن كماله أنه لم يلد ولم يولد، لأنه الغني المالك، فاتخاذُ الولد ينافي ملكه وغناه ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له مكافىء ولا مثيل في أسمائه وصفاته وأفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تضمنت توحيد الأسماء والصفات، ومن لوازم ذلك توحيد الإلٓهية، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه، الذي ليس له مثيل بوجه من الوجوه، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لا إله إلا هو.

٨ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٦٣]

يخبر تعالى، وهو أصدق القائلين، أنه إله واحد؛ أي متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فليس له شريك ولا سمي له، ولا كفو ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره؛ فإذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشركَ به أحد من خلقه، لأنه الرحمن الرحيم، المتَّصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي؛ فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كلَّ ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلّت فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعينَّ على العباد أن يفردوه بالمحبة، والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاقات، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقين من تراب، بالرب العظيم، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه، بالرب الخالق المدبِّر القوي، الذي قهر كل شيء، وخضعت له الرقاب.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباريء وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، والاستدلال على ذلك بتفرده بالرحمة، التي من آثارها جميع البر والإحسان في الدنيا والآخرة، ثم ذكر الله الأدلة التفصيلية بقوله:

٩ ـ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤]

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي أدلة، على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون؛ أي لهم عقول يُعملونها فيما خلقت له؛ فعلى حساب ما منَّ الله على عبده من العقل وصرفه في التفكر في الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره؛ ففي خلق السموات، في ارتفاعها واتساعها وإحكامها واتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب، لمصالحُ للعباد.

وفي خلق الأرض؛ وجعلها مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار؛ ما يدل ذلك على انفراد الله بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم؛ وفي ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه، وأن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده.

وفي اختلاف الليل والنهار، وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر؛ وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح الآدميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها، كل ذلك بتدبير وتسخير تحيّر في حسنه العقول، ويعجز عن إدراك كنهه الرجال الفحول، وذلك يدل على قدرة مصرِّفها وسعة علمه وشمول حكمته، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم، يضطر العباد إلى معرفة ربهم وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

وفي الفلك التي تجري في البحر، وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها، ثم سخّر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبها تنتظم معائشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق

لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها هذا البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره الرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية والهوائية النار والمعادن المتنوعة المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جداً؛ فهل هذه الأمور حصلت صدفة واتفاقاً؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وليس له قدرة على شيء، ثم أعطاه خالقه القدرة وعَلّمه ما لم يكن يعلم، أم تقول: والحق تقول، بل المسخِّر لذلك الربُّ الواحد، العظيم العليم الحكيم القدير؛ الذي لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، بل الأشياء كلها قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته؛ وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام؛ فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بعباده، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له، وينيبوا إليه في كل حال.

وما أنزل الله من السماء من ماء، وهو المطر النازل من السحاب، فأحيا به الأرض بعد موتها، فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الأشجار والنباتات التي لا يمكن العباد أن يعيشوا بدونها..

أليس ذلك برهاناً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج؛ وعلى رحمته ولطفه بعباده، وشدة افتقار الخليقة إليه في كل أحوالهم.. وهو يحدوهم إلى إخلاص الدين له والإنابة إليه والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً..

وكذلك هو دليل على إحياء الله للموتى كما قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٣٩]

وقد ذكر الله هذا البرهان على البعث في عدة آيات، كما ذكر ابتداء الخلق برهاناً على إعادته، وكما ذكر كمال علمه وقدرته، وخلق السموات والأرض، وأنه جعل للعباد من الشجر الأخضر ناراً برهاناً بيناً على البعث.

وقوله: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة وسخَّرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها، متكفل بأوقاتها، فما من دابَّة في الأرض إلَّا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي تصريف الرياح آيات عظيمة على وحدانية الله وتفرده بالكمال المطلق، فتارة تكون باردة وحارة وبين ذلك، وجنوباً وشمالاً ودَبورًا (أي غربية) وبين ذلك؛ وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقِّحه وتدرُّه، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب.. فمن الذي صرَّفها هذا التصريف ورتَّب عليها من المنافع للعباد شيئاً كثيراً إلا العزيز الحكيم، الرحيم اللطيف بعباده، المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاد والعباد، ويروي به التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً.

فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه، ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالي عليهم الإحسان؟ خيره إليهم على الدوام نازل، وشرهم إليه في كل وقت صاعد..

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات، علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغنيُّ بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلَّا هو، ولا رب سواه.

ولنقتصر على هذا الأنموذج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع ما دخل في ضمنها من الإيمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب، وقد قرن الله ذلك بأدلته وبراهينه الموصلة إلى العلم التام، واليقين الراسخ، وبذلك يعلم أن هذه الأصول الثلاثة متلازمة: **التوحيد والرسالة والمعاد**، كما أن في ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شيئًا كثيرًا من متعلقات التوحيد والرسالة؛ فسبحان من جعل في كلامه الهدى والرشاد، وإصلا العباد

## فصـــل

١٠ ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

هذه المنة التي امتن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن، بل هي أصلها؛ وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي جمع الله به جميع المحاسن الموجودة في الرسل؛ ومن كماله العظيم هذه الآثار التي جعلها الله نتيجة رسالته التي بها كمال المؤمنين علماً وعملاً وأخلاقاً وآداباً، وبها زال عنهم كل شر وضـرر، فبعثه الله من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم، يعـرفون نسبـه أشرف الأنساب، وصدقه وأمانته وكماله الذي فاق به الأولين والآخرين، ناصحاً لهم مشفقاً، حريصاً على هدايتهم ﴿يتلو عليهم آياته﴾، فيعلمهم ألفاظها ويشرح لهم معانيها ﴿ويزكيهم﴾، أي يطهِّرهم من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر الخصال الذميمة، ويزكيهم أيضاً، أي ينميهم، فيحثهم على الأخلاق الجميلة، فإن التزكية تتضمن هذين الأمرين: التطهير من المساوىء والتنمية بالمحاسن؛ ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ وهو القرآن ﴿والحكمة﴾ وهي السُّنَّة.

فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمته الدين، وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة وما يترتب عليها من الخيرات، وزوال الشرور، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة، وبهما الهداية والصلاح للبشر.

فمحمد ﷺ، هو الإمام الأعظم المعلم لهذين الأمرين، اللذين ينابيع العلوم كلها تتفجر من معينهما، فعلَّم ﷺ أمته الكتاب والحكمة وأوقفهم على حكم الأحكام وأسرارها، فكانت حياته كلها ـ أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه، وأخلاقه الظاهرة والباطنة، وسيرته الكاملة المتنوعة في كل فن من الفنون ـ تعليماً منه للمؤمنين، وشرحاً للكتاب والحكمة؛ فجمع لهم بين تعليم الأحكام الأصولية والفروعية، وما به تدرك وتنال، والطرق التي تفضي إليها عقلاً ونقلاً وتفكيراً وتدبراً، واستخراجاً للعلوم الكونية من مظانِّها وينابيعها؛ وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم، اعتقاداته وأخلاقه وأعماله، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل.

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبي الكريم مباشرة وتبليغاً من العلماء الربانيين الراسخين في العلم، ومن الهداة المهديين ومن أكابر الصديقين، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات، وتمَّ لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات.

فيا لها من نعمة لا يقادر قدرها ولا يحصي المؤمنون كنه شكرها.

١١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة الفرقان: الآيات ٤ ـ ٦]

ذكر الله تعالى في هذا قدح المكذبين لمحمد ﷺ، وإدلاءهم بهذه الشبه التي يعلمون ويعلم الناس بطلانها، فزعموا أنه افترى هذا القرآن، وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون، فردَّ الله عليهم هذه المقالة المنتهية في القبح بأن هذا ظلم

عظيم، وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء، وأنه من الزور والظلم؛ فإنه قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التي لا يلحقه فيها أحد، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل في طلبه، وقد نشأ بين أمة أمِّية في غاية الجهل والضلال، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي لم يطرق العالم أعظم منه، ولا أعلى معاني وأغزر علماً، ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه، وأتم من حُكمه وحِكَمِه ومبانيه. وقد تحدى أقصاهم وأدناهم، وأفرادهم وجماعتهم، وأولهم وآخرهم أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله؛ وصرح لهم أنهم إن أتوا بشيء من مثله فهم صادقون، وهم أهل الفصاحة والبلاغة في الكلام، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والاتيان بمثله، واتضح لهم ولغيرهم عِيُّهم وعجزهم، وتبين بطلان دعواهم.

وكل من حاول أن يأتي بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلاً عن أهل النظر والعقول، وكل شبهة يدلون بها في معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضمحل وتزهق.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١]

ومن جراءتهم أنهم قالوا: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد أساطير الأولين، اكتتبها من كتب الأولين المسطورة، فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً.. فياويحهم! من الذي عندهم في بطن مكة يمليها؟ وهل يوجد في ذلك الوقت في مكة أو ما حولها كتب تملى؟ ولو فرض وقدر أنه يوجد أحد، لمَ يختص محمد وحده بالأخذ عنه؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا: كان محمد يجلس إلى قينٍ حدّاد في مكة فارسي فيتعلم منه، فلهذا قال الله عنهم:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: الآية ١٠٣]

بالغ في البيان والبلاغة نهايتها وغايتها، فلا يمكن الجمع بين النقيضين: أن يتعلمه من هذا الأبكم أعجميٍّ اللسان، الذي لم يعرف عنه علم يرجع إليه، ولا معرفة يتميز بها؛ وهذا القرآن الذي جاء به مع كمال بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين.

ولما كان هذا القول الذي قالوه، والمكابرة التي تجرأوا عليها قد علم الموافق والمخالف كذبها وافتراءها، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة، يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول في الكذب والافتراء والمكابرة، وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول، ورأوا أن مقالتهم قد بطلت واضمحلت، وبَانَ زورها لكل أحد، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موَّهوها، وظنوا أنها بهذا التمويه تروج، فزعموا، وما أسمجه وأكذبه من زعم، أن محمداً كان يتعلم من نفسه؛ وأنه كان يخلو بالطبيعة: السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم فيعطيها لبه، ويناجيها بقلبه فيخيل إليه أصناف التخاييل، فيأتي بها إلى الناس زاعماً أنها من وحي الله على يد جبريل، وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التي يعتاد الاتيان بها أهل الرأي والحجى.

ولما رأوا آثارها الجليلة في الإسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأمم، وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا إلى هذا التحذلق الذي منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي ﷺ ورَقَّوْه إلى رجل من الطبيعيين، كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الإفرنسيين، وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين، وهو مبني على إنكار وجود رب العالمين، وأنه ما ثَمَّ إلا عمل الطبيعة، وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكابرة ومباهتة من قول الأولين، وأن هذا الافتراء الذي ولَّدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالاً وظلماً وجراءة ووقاحةً من زور الأولين، وأن هؤلاء الأراذل الذين أعجبوا بآرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه، وأن عقولاً ولدت هذه الأقوال المؤتفكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقولٌ سافلة وآراء ساقطة، يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها وإنكارها أجلى الحقائق، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦]

فالرب القادر العظيم، الذي أحاط علمه بجميع الأسرار، وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم، وجعله مناراً وعلماً يهتدي به المهتدون في كل وقت وحين.

فجميع الحقائق التي دعا إليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد، لا يأتي من الحقائق ما يغيرها، ومحال أن يأتي شيء أصلح منها أو مثلها أو يقاربها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقوَّل عليه أحد بمثل هذه المقالة لعاجله بالعقوبة، فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم التي يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال عُلم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرَّهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه، وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلاً وضلالاً وغيًّا وفساداً في كل زمان ومكان.

ومن مكابرة أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون في مقالاتهم ويتفننون في إفكهم المكشوف كذبه؛ فمنهم من قال إنه مجنون، ومنهم من قال ساحر وكاهن، ومنهم من قال مسحور، ومنهم من قال لو كان صادقاً لجاءت الملائكة تؤيده، ولو كان صادقاً لأغناه الله عن المشي في الأسواق وجعل له جنات وأنهاراً وأموالاً كثيرة. .وكلٌّ يعلم أن هذه الأقوال ــ مع تناقضها ــ ليست من الشبه فضلاً عن كونها من الحجج، ولهذا قال تعالى معجباً:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٤٨]

ومثل هذه الأقوال التي يذكرها الله عن المكذبين للرسول هي بنفسها تدل على كذبهم ومكابرتهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الأخرى. وإذا وزنت

هذه الأقوال الجارية من الأولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين؛ ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣]

فما جاء به الرسول من الهدى في جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذي هو الصلاح المطلق، أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً، وأكبر الأدلة على إبطال كل ما ناقضه من أقوال المؤتفكين؛ والحمد لله رب العالمين.

١٢ ــ ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾
[سورة القلم: الآيات ١ ــ ٧]

يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطَّر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم، وما يسطّر به من أنواع الكلام، من آياته العظيمة التي تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه، إذ منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي السديد والكلام الفصل الذي هو من أحسن ما جرت به الأقلام وسطَّره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا؛ ثم ذكر سعادته في الآخرة فقال: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي لأجراً عظيماً ــ كما يفيده التنكير ــ غير مقطوع، بل هو دائم متتابع مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العالية في الدين والأخلاق الرفيعة؛ ولهذا قال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ فعَلَا ﷺ بخلقه العظيم على جميع الخلق، وفاق الأولين والآخرين، وكان خلقه العظيم كما فسَّرته به عائشة رضي الله عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة: التوبة: الآية ١٢٨]

وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات التي فيها الحث على كل خلق جميل، فكان أول الخلق امتثالاً لها وسبقاً إليها وإلى تكميلها، فكان له منها أكملها وأجلها وأعلاها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا. فكان سهلاً ليِّناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن في ذلك محذور، وإن عزم على أمر لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم؛ وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في كلامه ولا يطوي عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان ويحتمله غاية الاحتمال، ﷺ.

فلما أنزله الله بأعلى المنازل، وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال: ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾ وقد تبين أنه كان أهدى الناس وأكملهم وأنفعهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه المحاسب المجازي و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.

وفيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله في هدايته من يصلح للهداية دون غيره.

## فصـــل

١٣ ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ـ إلى آخر السورة الكريمة ـ [سورة الزمر: الآية ٦٨ وما بعدها]

من أهم أصول الإيمان الإيمان باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت، من فتنة القبر ونعيمه وعذابه، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلهما.

فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك كله جملة وتفصيلاً؛ أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف، والقرآن أشار إليه في عدة آيات؛ وأما ما يكون بعد ذلك، فإذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزاءهم ﴿نُفِخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذي خلقه، كما ورد في حديث الصور المشهور، أو نفخ في الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفزع. انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا، إلا من شاء الله من خلقه، ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام﴾ من أجداثهم كاملي الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الآخروية التي يجازَى فيها العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها.

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته، مستبشرين بثوابه وعفوه ومغفرته، يحشرون إلى موقف القيامة وفداً مكرمين. وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين، يدعون بالويل والثبور، يقولون: يا ويلنا، من بعثنا من مرقدنا؟ فيساقون إلى جهنم ورداً.

فحينئذ تكثر القلاقل والأهوال، ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾
[سورة الحج: الآية ٢]

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ * وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٤٢]

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٢٥ و٢٦]

وتكور الشمس والقمر، وتنثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة، وتشرق الأرض بنور ربها، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده، ومحاسبتهم على أعمالهم: أما المؤمنون فيحاسبهم حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها عن الخلائق، ويضاعف لهم الحسنات، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم، ويعطون كتبهم بأيمانهم إكراماً واحتراماً، كما تبيضُّ وجوههم، وتثقل موازينهم؛ ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لإخوانهم ومعارفهم ومحبيهم:

﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ [أي أيقنت] أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ * فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ ـ الآيات ـ [سورة الحاقة: الآيات ١٩ ـ ٢١ وما بعدها]

ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم، كما يردون في عرصات القيامة حوض نبيهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظمأون بعدها، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلمح البصر، وكالبرق الخاطف، وكأجاويد الخيل والإبل وكسعي الرجال وكمشيهم، ودون ذلك.

فإذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذن

لهم في دخول الجنة، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعة محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم، ويهنونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدي بسبب طيبهم، ولهذا قالوا:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

أي طابت قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة، والأخلاق الجميلة، وألسنتكم بذكر الله والثناء عليه، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته:

﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

فإذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والإيمان والأعمال الصالحة؛ وبإنجاز ما وعدهم به على ألسنة رسله، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوأون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاؤن مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾
[سورة الواقعة: الآيات ١٥ ـ ٢٣]

خيِّرات الأخلاق حسان الوجوه، قد جمع الله لهن حسنَ البواطن والظواهر، فهن سرور النفس وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً؛ وإن لكم أن تصحُّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيُّهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيُّهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره،

مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات؛ وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته والأنس به، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرِّعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم؛ وتَسْودُّ منهم الوجوه، وتخف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعاً عطاشاً منزعجين مرعوبين زُمَراً، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١]

في وجوههم ففاجأهم حرها المفظع وحلَّ بهم الفزع الأكبر الذي لا يشبهه فزع، وتلقتهم خزنة الجحيم يوبخونهم على ما قدموه، وقالوا لهم:

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١]

قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر، فما كان منا إليهم إلا الاستهزاء بهم والتكذيب، فلو كان لنا أسماع واعية، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار، بل خالفنا المنقول والمعقول

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة المُلك: الآية ١١]

ما أشد شقاءهم وعناءهم؛ ينوع عليهم العذاب أنواعاً، فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم. كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يهري اللحوم ويكسر العظام، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع، وإذا استغاثوا لذلك أُغيثوا بعذاب آخر، ولون من الشقاء ينسي ما سبقه، فيغاثون بطعام ذي غصة؛ بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم وثمرها في غاية المرارة والنتن والحرارة، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كغلي الحميم الذي يوقد عليه في النار، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولوها؛ فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب متنوع

شديد، لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يرجون رحمة ولا فرجاً، يتمنون الممات ليستريحوا، فينادون مالكاً رئيس خزنة النار: يا مالك ليقض علينا ربك. فيقول لهم إنكم ماكثون، فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٨]

وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين، وينادون ربهم فيقولون:

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۞ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١٠٦ و١٠٧]

فيجيبهم الله:

﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨]

فحينئذ ييأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة، ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدي والشقاء المستمر. فنسأل الله الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، ونعوذ به من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

## فصــــل

١٤ ـ ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾
[سورة الأنبياء: الآيتان ١٩ و ٢٠]

الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان؛ ولا يتم الإيمان بالله وكتبه ورسله إلا بالإيمان بالملائكة؛ وقد وصفهم الله بأكمل الصفات، وأنهم في غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ وأنهم لا يستكبرون عن عبادته، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة إنابتهم إليه ونشاطهم التام في طاعته، وأنهم لا يعصونه طرفة عين، وهم الوسائط بينه وبين رسله، وخصوصاً جبريل أفضلهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة؛ فإنه ذو

﴿قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٠ و ٢١]

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٤]

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾
[سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ ــ ١٩٤]

وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده في تبليغ الوحي والشرائع إلى الأنبياء، فهم الوسائط في التدبيرات القدرية؛ فإن الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً، فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به بإذن الله؛ فمنهم الموكلون بالغيث والنبات، والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم، وبحفظ أعمالهم وكتابتها؛ والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة في الأرحام وكتابة ما يجري عليها في الحال والمآل؛ والموكلون على الجنة والنار، ومنهم حملة العرش، ومن حوله من الملائكة المقربين، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة.

فيجب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلينا أن نؤمن بذلك كله، ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم، ومن تستر بالإسلام منهم فإنه ينكر الملائكة حقيقة، وينكر خبر الله ورسوله عنهم، ويفسر الملائكة تفسيراً وتحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الإنسان، وأن الشياطين هي القوَى الشريرة فيه، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشنعة عنهم، وقد ازدادوا بهذا التحريف شرًّا إلى شرهم، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل، وإن أظهروا تعظيمهم، فإن زنادقة الفلاسفة أعظم في

قلوبهم من الرسل، وكفى بالعبد ضلالاً وغياً أن يصل إلى هذه الحال، ونعوذ بالله من مضلات الفتن.

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف، وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة، وإنما ذلك تسخير الله للآدميين جميع ما في الأرض من القوَى والمعادن وغيرها، فأنكر ما هو معلوم بالضرورة بخبر الله الصريح في كتابه وخبر رسوله، وقال هذه المقالة التي فيها مع تكذيب الله ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم، ومضمون ذلك بل صريح قولهم: إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برّهم وفاجرهم؛ فأين قول الناس في موقف القيامة: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته..

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب لله ورسوله موجود في كتب من يشار إليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجريء، الذي يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانَه؛ ولنقتصر على هذا المقدار من الإشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء، وإن كان القرآن معظمه في تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة إليها في كل وقت وحال، ولكن حصل ولله الحمد التنبيه الذي يحصل به المقصود، ويعين على غيره، والله أعلم.

## فصــــل
## في ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجليلة

اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيا العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب، ولنشرْ إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل، فإن معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه.

فمن ثمرات الإيمان أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء، فما نال أحد

رضا الله في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان وثمراته، بل صرح الله به في كتابه في مواضع كثيرة، وإذا رضي الله عن العبد قبل اليسير من عمله ونماه، وغفر الكثير من زلله ومحاه.

ومنها: أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها، إنما يكون بالإيمان، فأهل الإيمان هم أهل الثواب المطلق، وهم الناجون من جميع الشرور.

ومنها: أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة، فيدفع عنهم كيد شياطين الإنس والجن، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾
[سورة النحل: الآية ٩٩]

ولما ذكر إنجاءه ذا النون قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

أي من الشدائد والمكاره إذا وقعوا فيها. والإيمان بنفسه وطبيعته يدفع الإقدام على المعاصي، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة إلى التوبة كما قال ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. إلى آخر الحديث. فبين أن الإيمان يدفع وقوع الفواحش؛ وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

ومنها: أن الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقةً بالنصر وأحقه على نفسه، فمن قام بالإيمان ولوازمه ومتمماته فله النصر في الدنيا والآخرة؛ وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا الإيمان وضيّعوا حقوقه وواجباته المتنوعة.

ومنها: أن الهداية من الله للعلم والعمل ولمعرفة الحق وسلوكه، هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه، قال تعالى:

﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

ومعلوم أن اتباع رضوان الله الذي هو حقيقة الإخلاص، هو روح الإيمان وساقُه الذي يقوم عليه، وقال تعالى:

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

فهذه هداية عملية، هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب إذا علم أنها من عند الله فرضي وسلَّم وانقاد.

ومنها: أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة؛ فالمؤمن بحسب إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الأعمال النافعة ظاهراً وباطناً، وبحسب قوة إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾

[سورة الحجرات: الآية ١٥]

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤]

ومنها: أن المؤمنين بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده، أعظم الناس يقيناً وطمأنينة وتوكلاً على الله، وثقة بوعده الصادق، ورجاء لرحمته وخوفا من عقابه، وأعظمهم إجلالاً لله ومراقبة، وأعظمهم إخلاصاً وصدقاً، وهذا هو صلاح القلوب، لا سبيل إليه إلا بالإيمان.

ومنها: أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان، فإن المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التي لله والتي لعباد الله.

ومنها: أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش بوجه من الوجوه، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون؟

ومنها: أن الإيمان أكبر عون على تحمل المشقات، والقيام بأعباء الطاعات، وترك الفواحش التي في النفوس داعٍ قويٌّ إلى فعلها، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان.

ومنها: أن العبد لا بد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ وهو بين أمرين: إما أن يجزع ويضعف صبره، فيفوته الخير والثواب، ويستحق على ذلك العقاب، ومصيبته لم تقلع ولم تخف، بل الجزع يزيدها؛ وإما أن يصبر فيحظى بثوابها، والصبر لا يقوم إلا على الإيمان؛ وأما الصبر الذي لا يقوم على الإيمان كالتجلد ونحوه، فما أقل فائدته، وما أسرع ما يعقبه الجزع، فالمؤمنون أعظم الناس صبراً ويقيناً وثباتاً في مواضع الشدة.

ومنها: أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله، لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومندرجة في قضائه وقدره، وأن من اعتمد عليه كفاه، ومن توكل على الله فقد توكل على القويِّ العزيز القهّار؛ ومع أنه يوجب قوة التوكل، فإنه يوجب السعي والجد في كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان: دينية ودنيوية.

فالأسباب الدينية: هي إيمان، وهي من لوازم الإيمان.

والأسباب الدنيوية قسمان:

سبب معين على الدين ويحتاج إليه الدين، فهو أيضاً من الدين، كالسعي في القوة المعنوية والمادية التي فيها قوة المؤمنين.

وسبب لم يوضع في الأصل معيناً على الدين، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ إليه مع كل سبب وطريق، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه باباً يكون به معيناً على

الخير، مجماً للنفس، مساعداً لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، فيكون هذا المباح حسناً في حقه، عبادةً لله لما صحبه من النية الصادقة؛ حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذّاته التقوّي على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير، وكذلك في أدويته وعلاجاته التي يحتاجها؛ وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر، وربما نوى بمعاشرته الحسنة إدخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه. ولما كان الإيمان بهذا الوصف، قال تعالى في عدة آيات من كتابه:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

ومنها: أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة، فإنه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات، ويقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له راهباً من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين؛ ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقًّا ويعرف الخلق حقًّا، فيعرف أن الله هو النافع الضار المعطي المانع، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأنه الغنيّ من جميع الوجوه، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد، وأن الخلق بخلاف ذلك كله؛ ولا ريب أن هذا داع قويٌّ عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم.

ومنها: أن الإيمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية والدنيوية؛ والإيمان القوي يدعو إلى هذا المطلب الذي هو أعلى الأمور على الإطلاق، وهو غاية سعادة العبد؛ وفي مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين، ومن التعلق بهم؛ ومَن تعلق بالخالق دون المخلوق في كل أحواله حصلت له الحياة الطيبة، والراحة الحاضرة، والتوحيد الكامل، كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده، وانفتحت عليه الهموم والغموم والحسرات.

ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الإيمان وضعفه، وصدقه وكذبه، وتحققه حقيقة أو دعواه والقلب خالٍ منه.

ومنها: أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس، كما قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً». وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم، ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولي والبدني والمالي، وأن يخالقهم بحسب أحوالهم بما يحبون إذا لم يكن في ذلك محذور شرعي، وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، ولا يقوم بهذا الأمر ألا المؤمنون الكمل؛ قال تعالى:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[سورة فصلت: الآية ٣٥]

وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف، أثَّر ذلك في أخلاق العبد انحرافاً بحسب بُعده عن الإيمان.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية، كما منع صاحبه في الدنيا من عمل المعاصي، ومن الإصرار على ما وقع منه منها، والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار وإن دخلها كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان.

ومنها: أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً، ويوجب للعبد العفة عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم؛ وفي الحديث «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»؛ وأي شرف دنيوي أبلغ من هذا الشرف الذي يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس لقوة إيمانه وتمام أمانته، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع في أمورهم، وهذا من ثمرات الإيمان الجليلة الحاضرة.

ومنها: أن قويَّ الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان

وأثره ما يزري بلذات الدنيا كلها بأسرها، فإنه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل، ومسرور بأنه ربح وقته الذي هو زهرة عمره وأصل مكسبه، ومحشوٌّ قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره، وسعة جوده وإحسانه ولذة محبته والإنابة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه، وعن مشاهدة إحسانه ومننه، فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة، ولهذا كان الإيمان مسلِّياً عن المصيبات مهوِّناً للطاعات، ومانعاً من وقوع المخالفات، جاعلاً إرادة العبد وهواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ومنها: أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين، وهو الجهاد البدني والمالي والقولي، جهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد الكفار والمنافقين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجة والبرهان، فكلما قوي إيمان العبد علماً ومعرفة وإرادة وعزيمة قوي جهاده، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة؛ وإذا ضعف الإيمان ترك العبد مقدوره من الجهاد القولي بالعلم والحجة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف جهاده البدني لعدم الحامل له على ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥]

فصادقُ الإيمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التي هي مرتبة الطبقتين العاليتين بعد النبيين: طبقة الصديقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا من دون قتل؛ وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله؛ وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان ونقصه؛ والله المستعان.

## فصــــل
## في ذكر بعض الآيات
## الحاثة على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٦]

والآيات التي في سورة الإسراء:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٢٣]

إلى قوله:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٩]

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والدخول تحت رق عبوديته التـي هي غاية شرف العبد، والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه محبة له وذلاً له، وإخلاصاً لله وإنابة له في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وفيها النهي عن الشرك به شيئًا، سواءً كان شركاً أكبر، بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، أو شركاً أصغر، مثل وسائل الشرك كالحلف بغير الله والرياء ونحو ذلك مما يتذرع به إلى الشرك، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والتدبير الكامل الشامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق، أمر بالقيام بحقوق ذوي الحقوق من الخلق: الأهم فالأهم، فقال: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾، أي أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، وبالفعل بالقيام بطاعتهما، واجتناب معصيتهما والحذر من عقوقهما والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من جهتهما. ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما﴾،

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٢٤]

والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحساناً، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص، وفيه النهي عن ضد الإحسان إليهما، وهو أمران: الإساءة والعقوق الذي هو إيصال الأذى القولي والفعلي إليهما، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة، والأمر الثاني ترك الإحسان وترك الإساءة، فإن ذلك داخل في العقوق، فلا يسع الولد أن يقول إذا قمت بواجب والديّ وتركت معصيتهما فقد قمت بحقهما، فيقال: بل عليك أن تبذل لهما من الإحسان الذي تقدر عليه ما يجعلك في مرتبة الأبرار البارِّين بوالديهم، وقوله: ﴿كما ربياني صغيراً﴾ بيان لبعض الأسباب الموجبة للبر، وأن الوالدين اشتركا في تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن، وبالتعليم والإرشاد والإلزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة، وفي هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقاً عليك بالإحسان والبر والدعاء؛ وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك؛ وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين ومن حقوقهم على الناس، فإنهم ربما فاقوا في هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
وقوله: ﴿وبذي القربى﴾، أي أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والإحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتتيسر به أمورهم، وتكونوا بذلك واصلين، وللأجر من الله حائزين.

﴿واليتامى﴾ وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والإحسان إليهم وكفالتهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم، سواء كان اليتيم ذكراً أو أنثى، قريباً أو غير قريب.

﴿والمساكين﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون فأمر تعالى بسد خلتهم، ودفع فاقتهم، والحض على ذلك، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير ضرر عليه؛ ﴿والجار ذي القربى﴾ أي الجار القريب الذي له حق الجوار وحق القرابة ﴿والجار الجنب﴾ الذي ليس بقريب، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقاً، مسلماً كان أو كافراً، قريباً أو بعيداً، بكف أذاه عنه، وتحمل أذاه، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الإحسان، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار، وتقديم الإحسان إليه على الإحسان على من ليس بجار، وكلما كان الجار أقرب باباً كان آكد لحقه، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال تقرباً إلى الله وإحساناً إلى أخيه صاحب الحق.

﴿والصاحب بالجنب﴾ قيل هو الرفيق في السفر، وقيل هو الزوجة، وقيل هو الرفيق مطلقاً في الحضر والسفر، وهذا أشمل، فإنه يشمل القولين الأولين، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له والوفاء معه في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه؛ وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد.

﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب في غير بلده، سواء كان محتاجاً أو غير محتاج، فحثَّ الله على الإحسان إلى الغرباء لكونهم في مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه في أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويجبر خاطر غير المحتاج بالإكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفره. ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ أي من الرقيق والبهائم بالقيام بكفايتهم وأن لا يُحَمَّلوا ما لا يطيقون، وأن يعاونوا على مهماتهم، وأن يقام بتقويمهم وتأديبهم النافع؛ فمن قام بهذه المأمورات

فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل؛ ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرِض عن ربه، عاتٍ على الله، متكبِّر على عباد الله معجب بنفسه، فخور بأقواله على وجه الكبر والعجب واحتقار الخلق، وهو في الحقيقة السافل المحتقر، ولهذا قال: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ فهؤلاء، ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، أي من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق؛ فهؤلاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم، والسعي في خسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، ولهذا قال:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[سورة النساء: الآية ٣٧]

أي كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق، أهانهم الله بالعذاب الأليم والخزي الدائم.

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٩]

أي احذر هذين الخلقين الرذيلين: البخل بالواجبات وفي بذل المال فيما ينبغي بذله فيه، والتبذير بالنفقة فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي ﴿فتقعد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي تلام على ما فعلت من الإسراف، لأن كل عاقل يعرف أن الإسراف مناف للعقل الصحيح؛ كما أنه مناف للشرع، فإن الله جعل الأموال قياماً لمصالح الخلق؛ فكما أن منعها وإمساكها عن وضعها فيما جعلت له مذموم، فكذلك بذلها في الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة في الأمور العادية وغيرها مذموم، لأنه إتلاف للمال بغير مصلحة، وانحراف في حسن التصرف والتدبير، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم في كل شيء، كما

أن حسن التدبير محمود ونافع لفاعله وغيره. ﴿محسوراً﴾ أي فارغ اليد فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خَلَفَهُ مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى وغيرهم مع القدرة، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٢٨]

أي تعرضن عن إعطائهم حاضراً، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الأمر من الله، فقل لهم قولاً ميسوراً، أي لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم، عاذرين راجين كما قال تعالى:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٦٣]

وهذا من لطف الله بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وسبب لحصوله، فإن الله عند ظن عبده به، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأن الهمّ بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له. وفي قوله: ﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله وصرف التعلق بالمخلوقين، فالموفق في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه لا ينسى ولا يبطر النعمة، وفي حال الفقد والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجلّ عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣١]

وذلك أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فنهى الوالدين عن هذا الخلق الذي هو من أرذل الأخلاق وأسقطها: قتلِ أولادهم خشية من الفقر والإملاق، ففيه عدة جنايات: قتل النفس الذي هو من أعظم الفساد، وأشنع

من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين، وجهلهم وضلالهم البليغ، إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق، فتكفّل لهم بقيامه برزق الجميع، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم، قوي ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤنتهم مطمئنة نفوسهم، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك، وراجين ثواب ذلك عنده، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك؛ قال ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٢]

والنهي عن قربان الزنا يشمل النهي عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته، كالنظر المحرم، والخلوة بالأجنبية، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك؛ ووصف الزنا بأقبح الأوصاف: بأنه فاحشة، أي جريمة عظيمة تستفحش شرعاً وعقلاً، لأن فيها انتهاك حرمة الشرع والتهاون به وفيه إفساد المرأة وإفساد الأنساب واختلاط المياه، وفيه إضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها، وفيه من المفاسد شيء كثير.

وأمر تعالى بإيفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان؛ وفي ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح في جميع المعاملات، فإنه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال:

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٥]

أي هو خير في الحاضر وأحسن عاقبة في الآجل، يسلَمُ به العبد من التبعات، وتحل البركة في هذه المعاملة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٦]

أي ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فإن التثبت في الأمور كلها دليل على حسن الرأي وقوة العقل، وبه تتوضح الأمور

ويعرف بعد ذلك هل الإقدام خير أم الإحجام؛ لأن المتثبت لا بد أن يعمِلَ فكره ويشاور في الأمور التي عليه أن يتثبت فيها؛ والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لإصابة الصواب والسلامة من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط. ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

[سورة الإسراء: الآية ٣٦]

أي لا بد أن تسأل عن حركة هذه الجوارح، وهل هي حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى الله، أم ضارة بأن وجهت إلى معصية الله، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليعدَّ لهذا السؤال جواباً، فمن استعملها بطاعة الله فقد زكّاها ونمّاها وأثمرت له النعيم المقيم، ومن استعملها في ضد ذلك فقد دسَّاها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٧]

أي لا تتكبر على الحق ولا على الخلق، فإن التكبر من أرذل الأخلاق، والمتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه في مقام رفيع على الخلق، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه، مبغوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلى أسفل سافلين، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه، وحصل على نقيضه. ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، والنار مثوى المتكبرين، والكبر هو بطر الحق، وغمط الناس، أي احتقارهم وازدراؤهم، وهذه الأوامر الحسنة والإرشادات في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها الله لرسوله ﷺ؛ وهي من أعظم محاسن الدين، فالدين هو دين الحكمة التي هي معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق في كل شيء.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ ـ إلى آخر السورة ـ [سورة الفرقان: الآية ٦٣ وما بعدها]

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبية الله وملكه، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون، وعبودية لألوهيته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ تنبيهاً على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه وإحسانه، فذكر صفاتهم أكمل الصفات، وبالاتصاف بها يكون العبد متحققاً بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي خطاب جهل، فإنه أضاف الخطاب لهذا الوصف ﴿قالوا سلاماً﴾ أي خاطبوهم خطاباً يَسْلمون فيه من الإثم ولا يقابلون الجاهل بجهله، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة المسيء بالإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٤]

أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
[سورة السجدة: الآية ١٦]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥]

أي ادفعه عنّا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منّا ممّا هو مقتضٍ للعذاب

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥]

أي ملازماً لأهلها ملازمة الغريم لغريمه

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٦]
وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنه ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفظاعتها.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

أي النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا أي يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة، ولم يقتروا فيدخلوا في باب الشح والبخل، وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ تقوم به الأحوال؛ فإنهم يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفّارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي من الأمور النافعة على المحتاجين، وفي المشاريع الخيرية، وفي الأمور الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية من غير ضرر ولا إضرار، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

لا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة، بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء، مقبلين عليه معرضين عما سواه

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

وهي نفس المسلم والكافر المعاهد

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

كقتل النفس بالنفس والزاني المحصَن والتارك لدينه المفارق للجماعة،

﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله والزنا

﴿يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾
[سورة الفرقان: الآيتان ٦٨ و ٦٩]

أي العذاب

﴿مُهَانًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٩]

فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها كلها من أكبر الكبائر؛ وأما خلود القاتل بغير حق والزاني، فقد دلّت النصوص القرآنية وتواترت الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين ـ وإن دخلوا النار ـ فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن، فإن الإيمان الكامل يمنع من دخولها، ومطلق الإيمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها كما تقدم.

ونص الله على ثلاثة هذه الأشياء لأنها أكبر الكبائر، وفسادها كبير، فالشرك فيه فساد الأديان بالكلية، والقتل فيه فساد الأبدان؛ والزنا فيه فساد الأعراض

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على فعلها وعزم عزماً جازماً أن لا يعود

﴿وَءَامَنَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بالله إيماناً صحيحاً يقتضي فعل الواجبات، وترك المحرمات

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

فيدخل فيه جميع الصالحات من واجب ومستحب

﴿فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بأن يوفقهم للخير، فتبدل أقوالهم وأفعالهم التي كانت مستعدة لفعل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وندماً وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد فيه حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه؛ ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

لمن تاب، يغفر ذنوبه كلها

﴿رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم؛ ثم وفّقهم لها ثم قبلها منهم، ومن تاب وعمل صالحًا، فإنه يتوب إلى الله متاباً، أي فليعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة.

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل له ثمراتها الجليلة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

أي لا يحضرون الزور، أي القول المحرم والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم، كالخوض في آيات الله بالباطل، والجدل الباطل، والغيبة والنميمة، والسب والقذف، والاستهزاء وشرب الخمر، والغناء المحرم، وفرش الحرير والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فإنهم من باب أولى لا يفعلونه ولا يقولونه؛ وشهادة الزور داخلة في قول الزور

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم

﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

أي نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوه سفهاً منافياً لمكارم الأخلاق.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن يحصل ذلك بغير قصد، فيكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٣]

التي أُمروا بالاستماع لها والاهتداء بها

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٣]

أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [سورة السجدة: الآية ١٥]

يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها؛ وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها يقينهم، وتحدث لهم فرحاً ونشاطاً واغتباطاً، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة إليهم من ربهم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات.

﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو هممهم ومراتبهم، أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم، أن يطلبوا منه صلاحهم؛ فإن صلاح الذرية عائد إليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً، لأن بصلاح المذكورين صلاحاً لكل من له تعلق بهم، ثم يتسلسل الصلاح والخير.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكُمَّل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يُقتدى بأقوالهم وأفعالهم، ويطمأن إليها لثقة المتقين بعلمهم

ودينهم، ويهتدي المهتدون بهم؛ ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شيء دعاء به وبما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين.

كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ٢٤]

فهذا الدعاء يستلزم من حصول الأعمال الصالحة والصبر على طاعة الله، وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، ومن العلم النافع التام الراسخ الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً، ولما كانت هممهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم من جنس عملهم فقال:

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [سورة الفرقان: الآية٧٥]

أي المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم روحي وبدني بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٥]

من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض، ويسلمون من جميع المنغِّصات والمكدِّرات.

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات في النفقات على وجه الاقتصاد، وإذا كانوا مقتصدين في النفقات التي جرت عادة أكثر الخلق بالتفريط فيها أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيرها من باب أولى، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها، وبالتوبة مما يصدر منهم منها.

ومنها الإخلاص لله في عبادته؛ وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها؛ وأنهم يتنزهون عن اللغو والأقوال الرديئة التي لا خير فيها ولا نفع، وذلك يستلزم كمال إنسانيتهم ومروءتهم وكمالهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله في حصوله لا بد أن يكون مجتهداً في تحصيله بكل طريق؛ مستعيناً بربه في تسهيل ذلك، وأنهم دعوا الله في حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية، فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس، ولله فضل الله عليهم ولطفه بهم الذي أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل، ولله الحمد من جميع عباده إذ بين لهم أوصافهم وحثهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه، والله الموفق المعين.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

هذه الآية الكريمة جامعة لمعاني حسن الخلق مع الناس وما ينبغي للعبد سلوكه في معاملتهم ومعاشرتهم، فأمر تعالى ﴿بأخذ العفو﴾ وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والأخلاق، بل يقبل ما سهل ولا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا ما لا يطيقونه، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص، ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه الحال الحاضرة، وبما تنشرح له صدورهم ويوقر الكبير ويحنو على الصغير ويجامل النظير.

﴿وأمر بالعرف﴾ وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم ديني أو دنيوي أو نصيحة أو حث لهم على خير من عبادة الله وصلة رحم وبر الوالدين، وإصلاح بين الناس أو رأي مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية. أو تحذير من ضد ذلك.

ولما كان لا بد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر الله بالإعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهلهم، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه، ومن حرمك فلا تحرمه، ومن قطعك فصِله، ومن ظلمك فاعدل فيه، فبذلك يحصل لك من الثواب من الله، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين، ومن انقلاب العدو صديقاً، ومن التبوُّء من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب، قال تعالى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[سورة فصلت: الآيتان ٣٤ و ٣٥]

ولنقتصر في هذا الموضوع على هذه ا لآيات، ففيها الهدى والشفاء والخير كله.

## فصــل
## في أحكام الشرع الفروعية المتنوعة في الصلاة والزكاة مع ما ينضم إليهما من المعاني الأخرى

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩]

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التي أمر بها في آيات متعددة، ويأتي الأمر

بها في القرآن بلفظ الإقامة كهذه الآية، ومثل

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣]

ونحوها. وهو أبلغ من قوله افعلوها، فإن هذا أمر بفعلها وبتكميل أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً، وبجعلها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين، وفي هذه الآية زيادة عن بقية الآيات، وهي الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة، وهذه هي الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشيء إلى سببه الموجب له ﴿فدلوك الشمس﴾ أي زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب، فيدخل في هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك ﴿إلى غسق الليل﴾ أي ظلمته؛ فدخل في ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق، وصلاة العشاء الآخرة، وبها يتم الغسق والظلمة ﴿وقرآن الفجر﴾ أي صلاة الفجر، وسماها قرآناً لمشروعية إطالة القراءة فيها، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ففي هذه الآية الكريمة فوائد:

منها ذكر الأوقات الخمسة صريحاً؛ ولم يصرح بها في القرآن في غير هذه الآية ــ وأتت ظاهرة في قوله:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٧]

وفيها أن هذه المأمورات كلها فرائض لأن الأمر بها مقيد في أوقاتها، وهذه هي الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها.

ومنها أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها؛ ويرجع في مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع إليه في تقدير ركعات الصلاة وسجداتها وهيئاتها.

وفيها أن العصر والظهر يجمعان للعذر، وكذلك المغرب والعشاء، لأن الله جمع وقتها فهو وقت واحد للمعذور، ووقتان لغير المعذور.

وفيها فضيلة صلاة الفجر وفضيلة إطالة القرآن فيها، وأن القراءة فيها

ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته، وقد عبر الله عن الصلاة بالقراءة وبالركوع وبالسجود وبالقيام، وهذه كلها أركانها المهمة.

قوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي صلّ به في أوقاته ﴿نافلة لك﴾ أي لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، وأما صلاة الليل فإنها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على الله، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون؛ مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بأكابر الأنبياء، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من همّ الموقف وكربه ويفصل بينهم، فيشفعه الله ويقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق، ﷺ تسليماً كثيراً، وأدخلنا في شفاعته، ومنّ علينا بالسعي في أسباب شفاعته التي أهمها إخلاص الأعمال لله، وتحقيق متابعته في هديه وقوله وعمله.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٨]

لما أمر الله تعالى رسوله خصوصاً والمؤمنين عموماً باستقبال بيته الحرام، أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون إليها في عباداتهم، وليس الشأن في القبل والوجهات المعينة، فإنها من الشرائع التي تختلف باختلاف الأزمنة، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله على الإطلاق والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده.

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة في الدنيا والآخرة؛ كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به؛ والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها؛ فإن الاستباق إليها يتضمن الأمر بفعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات؛ فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر، فهذه الآية تحث على الإتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتمم ظاهراً وباطناً: كالمبادرة في أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى إبراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات؛ فللّه ما أجمعها من آية وأنفعها؛ ولما كان أقوى ما يحث النفوس إلى المسارعة إلى الخيرات ما رتب الله عليها من الثواب، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ فيجمع الله العباد يوم القيامة بقدرته ويجازيهم بما أسلفوه من الأعمال خيرها وشرها.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٣٨ و ٢٣٩]. إلى آخر الآية.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً، وعلى الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر خصوصاً، لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها، ولكونها ختام النهار. والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التي أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتتم، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ويزداد بها إيمانه، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لُبها وروحها، ولهذا قال: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي مخلصين خاشعين لله، فإن

القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع؛ ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة.

وفيها أن القيام في صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف، فإن أُريد به القيام بأفعال الصلاة عموماً دل على الأمر بإقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة.

﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ أي فصلُّوا الصلاة رجالاً أي ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها، أو ركباناً على الإبل وغيرها من المركوبات، وحذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته، وفي هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة، بل قبلته حيثما كان وجهه.

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة في السفر، ومثل ذلك صلاة النافلة في السفر على الراحلة، وكل هذا داخل في قوله:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ١١٥]

فهذه صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة، ويدخل في قوله:

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٩]

تكميل الصلوات؛ ويدخل فيه أيضاً الإكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله؛ وفيه تنبيه على أن الإكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم أُخر لم يكن العبد ليعرفها، فإن الشكر مقرون بالمزيد، وقد ذكر الله صلاة الخوف في سورة النساء في قوله:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فأمر بها على تلك الصفة تحصيلاً للجماعة لها وقياماً للألفة وجمعاً بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الإمكان، وبالقيام بالواجبات مع التحرز من

شرور الأعداء؛ فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد وإصلاح الأمور كلها.

## فصـــل

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣]

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

وقال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

قد جمع الله في كتابه آيات كثيرة بين الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين ومباني الإسلام العظيمة، والإيمان لا يتم إلا بهما، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقيماً لدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع، فالصلاة فيها الإخلاص التام للمعبود وهي ميزان الإيمان، والزكاة فيها الإحسان إلى المخلوقين وهي برهان الإيمان. ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وقال أبو بكر رضي الله عنه: «لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة» فقوله تعالى: ﴿خذّ من أموالهم صدقة﴾ هذا الأمر موجه للنبي ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهي الزكاة، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به في الآية الأخرى: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ من النقود والعروض والماشية المنماة ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ من الحبوب والثمار؛ وقد وضّح النبي ﷺ النُّصب في هذه الأنواع كلها، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الأرض مما يسقى بلا مؤنة، ونصف عشره فيما سقي بمؤنة، وربع

العشر من أموال التجارة، وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة. وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار، كما هو صريح الآية المذكورة.

وأمر تعالى بإخراج الوسط، فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالي من ماله ــ إلا أن يختار هو ذلك ــ ولا يحل له أن يتيمم الخبيث، وهو الرديء، من ماله فيخرجه، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضاً، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلاً؛ وبين تعالى الحكمة في ذلك وأنها حكمة معقولة: فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حقٌّ لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والإغماض، فكيف ترضون لربكم ولإخوانكم ما لا ترضونه لأنفسكم، فليس هذا من الإنصاف والعدل.

وبيّن تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال: ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾، فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطي والمعطى والمال والأمور العمومية والخصوصية شيء كثير. فقوله: ﴿تطهرهم﴾ أي من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، فإن من أعظم الذنوب وأكبرها منع الزكاة، وأيضاً إعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى، فإنها من أكبر الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات..

ومن أشنع الأخلاق الرذيلة البخل. والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل، ويتصف صاحبها بالرحمة والإحسان، والشفقة على الخلق، وتطهر المال من الأوساخ والآفات، فإن للأموال آفات مثل آفات الأبدان، وأعظم آفاتها أن تخالطها الأموال المحرمة؛ فهي للأموال مثل الجرب تسحته وتحل به النكبات والنوائب المزعجة، فإخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للأمور النافعة، وأما قوله: ﴿وتزكيهم بها﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه وتحل البركة في أعماله، ويزداد بالزكاة ترقياً في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال» بل تزيده وتنمي

أيضاً المخرج إليه فتسد حاجته، وتقوم المصلحة الدينية التي تصرف فيها الزكاة كالجهاد والعلم والإصلاح بين الناس والتأليف ونحوها، وأيضاً تدفع عادية الفقر والفقراء، فإن أرباب الأموال إذا احتكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئاً للفقراء، اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أرباب الأموال، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق؛ فالقيام بالدين الإسلامي على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرعاً وقدراً لهذه الطائفة التي بها فساد الأديان والدنيا والآخرة، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصلي عليهم فيدعو لهم بالبركة، فإن في ذلك تطميناً لخواطرهم وتسكيناً لقلوبهم وتنشيطاً لهم وتشجيعاً على هذا العمل الفاضل، وكما أن الإمام والساعي مأمور بالدعاء للمزكي عند أخذها فالفقير المحتاج إذا أُعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطي تسكيناً لقلبه، وفي هذا إعانة على الخير.

ودل تعليل الآية الكريمة أن كل ما أعان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه أنه مطلوب ومحبوب لله، وأنه ينبغي للعبد مراعاته وملاحظته في كل شأن من شؤونه، فإن من تفطن له فتح له أبواباً نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة، وأنه ينبغي إدخال السرور على المؤمنين.

ولما أمر في آية البقرة بالنفقات قال: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾: غني بذاته عن جميع المخلوقين. وهو الغني عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم، وبمحض فضله وكرمه عليهم، إذ تفضل عليهم بالأمر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التي توصل أصحابها إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات.

ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف؛ لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يدرك العباد كنهها ولا يقدرونها حق قدرها. فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار! وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير

ويعدهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل، وخلف ما أنفقوا؛ وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك ويخوِّفهم إن أنفقوا افتقروا؛ فمن كان مجيباً لداعي الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب؛ ومن كان مجيباً لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير؛ فليختر العبد أي الأمرين أليق به. وختم الآية بالإخبار بأنه «واسع عليم» أي واسع الصفات كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

المراد بالصدقات هنا الزكاة، فهؤلاء الثمانية هم أهلها، إذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزأت ووقعت موقعها، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز؛ وهؤلاء المذكورون فيها قسمان: قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه، وقسم يأخذ لنفعه العمومي والحاجة إليه، وهم البقية. فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ به، والأهم مقدم في الذكر غالباً، ولكن الحاجة تجمع الصنفين ﴿والعاملين عليها﴾ وهم السعاة الذين يجبونها ويكتبونها ويحفظونها، ويقسّمونها على أهلها، فهم يُعطَوْن ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة في حقهم. ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أُعطوا حصل في إعطائهم مصلحة للإسلام والمسلمين، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم وإسلام نظرائهم، أو جبايتها ممن لا يعطيها أو يرجى قوة إيمانهم ﴿وفي الرقاب﴾ أي في فكها من الرق كإعانة المكاتبين وكبذلها في شراء الرقاب لعتقها وفي فك الأسارى

من المسلمين عند الأعداء. ﴿والغارمين﴾ للإصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهي الإصلاح بين الناس، ولو أغنياء، ومن الغارمين من ركبتهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لوفائها. ﴿وفي سبيل الله﴾ أي بذلها في إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين، ومن الجهاد التخلي لطلب العلم الشرعي والتجرد للاشتغال به ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعان على سفره من الزكاة.

فالله تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، فإن سد الكفليات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين، وهي على أهل الأموال شكر منهم لله تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار، وسلامة من نعوت الأشرار.

## فصل
## في الطهارة بالماء والتيمم

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

هذه الآيات جمع الله فيها أحكام طهارة الماء وطهارة التيمم والتنبيه على

شروطهما وبيان كيفياتهما، وذكر فوائد ذلك وثمراته الطيبة، فبين فيها الأحكام وحكمها وأسرارها، وهي أحكام كثيرة تستفاد من هذا الموضـع.

منها أن الطهارة من الحدثين شرط لصحة الصلاة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾... الخ ومنها أن ذلـك عام للفـرائض من الصلوات والنوافل، فكل ما يسمى صلاة فلا بد فيه من هذه الطهارة ومنها اشتراط النية للطهارة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ أي لأجل الصلاة، فإن المتطهر إما أن ينوي رفـع ما عليه من الأحداث أو ينوي الصلاة ونحوها مما يحتاج إلى الطهارة، أو ينويهما.

ومنها أن غسل هذه الأعضاء لا بد منه في الحدث الأصغر، فحد الوجه ما يدخل في مسماه وما تحصل به المواجهة، وذلك من الأذن إلى الأذن عرضاً، ومن منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً مـع مسترسل اللحية، لأن هذا هو الذي تحصل به المواجهة، وأما اليدان فقد حدَّهما الله إلى المرفقين فقال العلماء: إن ﴿إلى﴾ بمعنى مـع المرفقين، وأيدوا هذا بأن النبـي ﷺ أدار الماء على مرفقيه، وكذلك يقال في الرجلين إلى الكعبين، وأما الرأس فإنه يتعين استيعاب مسحه فإن الله أمر بمسحه، والباء للإلصاق الذي يقتضي إلصاق المسح بهذا الممسوح، وليست للتبعيض. ومنها أن الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة شرط، لأن الله رتَّبها وأدخل عضواً ممسوحاً بين الأعضاء المغسولة، ولا يعلم لهذا فائدة سوى الترتيب وعموم قوله ﷺ: «ابدأ بما بدأ الله به» فهو وإن كان وارداً في الحـج فإنه يعم كل شيء، مـع أن جميـع الواصفين لوضوئه ﷺ ذكروه مرتباً.

ومنها أن الموالاة شرط أيضاً، ووجه ذلك أن الله تعالى ذكر الوضوء مقترناً بعض الأعضاء ببعض بالواو الدالة على اجتماع هذه العبادة بوقت واحد، فإذا فرّقها في وقتين لم تكن عبادة واحدة كما لو فرق الصلاة، وبفعل النبـي ﷺ الدائم الذي كأنك تشاهده أنه كان يوالي بين أعضاء وضوئه، وهذا أولى من استدلال كثير من أهل العلم بقصة صاحب اللمعة الذي أمره النبـي ﷺ أن

يعيد الوضوء كله، فهو وإن كان فيه بعض الدلالة على هذه المسألة، لكن يحتمل أن أمره بالإعادة كأمر المسيء في صلاته أن يعيد، لأنه رآه مخلاً بوضوئه غير متمم له.

ومنها بيان الطهارة الكبرى، كيفيتها وذكر سببها، فكيفيتها أن يطهر العبد جميع ظاهر بدنه بالماء لقوله: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ فلم يخصه بعضو أو بأعضاء معينة، بل جعل الله التطهير لجميع البدن، فعلى المتطهر أن يعمم التطهير لجميع ظاهر بدنه وما تحت الشعور، خفيفة أو كثيفة، وأن يكون ذلك غسلاً لا مسحاً.

ومنها أن طهارة الحدث الأكبر لا ترتيب فيها ولا موالاة. ومنها أن من أسبابها الجنابة، والجنابة قد عرفها المسلمون عن نبيهم ﷺ أنها إنزال المنيّ يقظةً أو مناماً، وإن لم يكن جماع، أو الجماع وإن لم يحصل إنزال، أو وجود الأمرين كليهما.

وقد بين الله أيضاً في سورة البقرة سبباً آخر للاغتسال وهو الحيض في قوله:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

فأضاف التطهير فيها إلى البدن كله كالجنابة، ويشمل ذلك النفاس، وأما التطهير من إسلام الكافر وتطهير الميت فإنه يؤخذ من السُّنة.

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم في قراءة الجر في قوله: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ أنها تدل على مسح الخفين الذي بينته السنة وصرحت به، وأما قراءة النصب في ﴿أرجلكم﴾ فإنها معطوفة على المغسولات.

ومنها مشروعية التيمم، وأن سببه أحد أمرين، إما عدم الماء لقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ أو التضرر باستعماله لقوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ فكل ضرر يعتري العبد إذا استعمل الماء، فإنه يسوغ له العدول إلى التيمم؛ وأنواع الضرر

كثيرة؛ وأما ذكر السفر فلأنه مظنة الحاجة إلى التيمم لفقد الماء كتقييد الرهن في السفر، لا لأن السفر وحده مسوغ للتيمم كما ظنه بعض الناس وهو مناف لقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ ومنها أن التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، إذا كان طيباً غير خبيث، والخبيث هو النجس في هذا الموضع.

ومنها أن التيمم خاص بعضوين، بالوجه واليدين، وأن اليدين عند الإطلاق وعدم التقييد هما الكفان كما في آية السرقة، وإذا قيدت كما في آية الوضوء إلى المرفقين تقيدت بذلك.

ومنها التنبيه على ما يوجب الطهارة الصغرى، وهو الإتيان من الغائط، يعني خروج الخارج من أحد السبيلين وملامسة النساء لشهوة، والسنة بينت الوضوء من النوم الكثير، ولمس الفرج وأكل لحوم الإبل على اختلاف من أهل العلم في ذلك.

ومنها أن التيمم كما أنه مشروع في الحدث الأصغر، فكذلك في الحدث الأكبر لأن الله تعالى ذكره بعد سبب الطهارتين.

ومنها أنه في طهارة التيمم تستوي فيه الطهارة الصغرى بالكبرى في مسح العضوين فقط.

ومنها أن الآية الكريمة تدل على أن طهارة التيمم تنوب وتقوم مقام طهارة الماء عند عدمه أو التضرر باستعماله، لأن الله أنابه منابه وسماه طهارة.

وكذلك الأحاديث الكثيرة تدل على هذا، وبهذا يعرف أن الصحيح أن طهارة التيمم لا تبطل بخروج وقت ولا دخوله ولا غير ذلك مما قاله كثير من أهل العلم. بل إنها تبطل بأحد أمرين: إما حصول ناقض من نواقض الطهارة، وإما وجود الماء أو زوال الضرر المانع من استعمال الماء.

ومنها أن الماء المتغير بالطاهرات، ولو تغيراً كثيراً، أنه يجب تقديمه على طهارة التيمم، لأن قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ نكرة في سياق النفي فيعم أي ماء سوى الماء النجس.

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم أن من كان في موضع ليس فيه ماء وهو يشك في وجوده فيما يقاربه أن عليه أن يطلبه ويفتش فيما حوله قبل أن يعدل إلى التيمم، لأن قوله: ﴿فلم تجدوا﴾ لا يقال إلا بعد طلب ما يمكن طلبه فيه من دون مشقة، وهو استدلال لطيف.

ومنها أنه لا بد في الطهارة من النية لقوله في طهارة الماء: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ إلى آخره وفي طهارة التيمم ﴿فتيمموا﴾ أي اقصدوا ﴿صعيداً طيباً﴾ ومن لازم ذلك النية.

ومنها أن هذه الأحكام التي شرعها الله لعباده إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التي تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التي لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم، فمنه التفضل على عباده بالسبب والمسبب.

ومنها أن طهارة التيمم، وإن لم يشاهد فيها نظافة حسية، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال العبد لأمر الله ورسوله.

ومنها: القاعدة الكلية في قوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ وأن الحرج منفي شرعاً في جميع ما شرعه الله لعباده، فأصل العبادات في غاية السهولة على المكلفين، ثم إذا عرضت فيها عوارض عجز أو مرض أو تعذر لبعض شروطها، فإن الشارع يخففها تخفيفاً يناسب ذلك العارض.

ومنها: أن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الإسلامي، لما فيها من المنافع للعباد في قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم، والتقرب بها إلى الله، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل، فجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الإسلام، وأنه الدين الحق الذي فيه الصلاح والإصلاح، وأن سعادة الدنيا والآخرة منوطة به، مترتبة عليه، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار، تجد هذا مشاهداً فيها.

## فصـــل
## في صلاة الجمعة والسفر والأذان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة الجمعة: الآيات ٩ ـ ١١]

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، والمبادرة إليها من حين ينادى لها؛ والمراد بالسعي هنا: الاهتمام بها وعدم الاشتغال بغيرها، لا المراد به العدْوُ الذي نهى عنه النبي ﷺ، عند المضي إلى الصلاة، فالمشي إلى الصلاة بسكينة ووقار، هو المراد بالسعي هنا ﴿وذروا البيع﴾ أي اتركوه في هذه الحالة التي أُمرتم بالمضي فيها إلى الصلاة؛ وإذا أمر بترك البيع الذي ترغب فيه النفوس، وتحرص عليه، فترك غيره من الشواغل من باب أولى، كالصناعات وغيرها.

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ حقائق الأمور وثمراتها، وذلك الخير هو امتثال أمر الله ورسوله، والاشتغال بهذه الفريضة، التي هي من أهم الفرائض، واكتساب خيرها وثوابها، وما رتب الشارع على السعي لها والمبادرة والتقدم والوسائل، والمتممات لها من الخير والثواب، ولما في ذلك من اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، فإن من أرذل الخصال الحرص والجشع الذي يحمل العبد على تقديم الكسب الدنيء على الخير الضروري، ومن الخير أن من قدم أمر الله وآثر طاعته على هوى نفسه، كان ذلك برهان إيمانه، ودليل رغبته، وإنابته إلى ربه، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن قدم هواه على طاعة مولاه، فقد خسر دينه، وتبع ذلك خسارة دنياه.

وهذا الأمر بترك البيع موقت إلى انقضاء الصلاة ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب المباحة ﴿وابتغوا من فضل الله﴾، أي ينبغي للمؤمن الموفق وقت اشتغاله في مكاسب الدنيا، أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات، وأن يكون مستعيناً بالله في ذلك، طالباً لفضله جاعلاً الرجاء والطمع في فضل الله نصب عينيه، فإن التعلق بالله والطمع في فضله من الإيمان ومن العبادات.

ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾، أي في حال قيامكم وقعودكم وفي تصرفاتكم وأحوالكم كلها، فإن ذكر الله طريق الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ومن المناسب في هذا أن يجعل المعاملة الحسنة والإحسان إلى الخلق نصب عينيه، فإن هذا من ذكر الله، فكل ما قرب إلى الله فإنه من ذكره، وكل أمر يحتسبه العبد فإنه من ذكره، فإذا نصح في معاملته وترك الغش تقرب في هذه المعاملة إلى الله لأن الله يحبها؛ ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة، وكلما سامح أحداً أو حاباه في ثمن أو مثمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه، فإنه من الإحسان والفضل، وهو من ذكر الله. قال تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ أي خرجوا من المسجد حرصاً على تلك التجارة واللهو، وتركوا ذلك الخير الحاضر، حتى إنهم تركوا النبي ﷺ قائماً يخطب، وذلك لحاجتهم لتلك العير التي قدمت المدينة، وقبل أن يعلموا حق العلم ما في ذلك من الذم وسوء الأدب؛ فاجتماع الأمرين حملاهم على ما ذكر؛ وإلا فهم رضي الله عنهم كانوا أرغب الناس في الخير، وأعظمهم حرصاً على الأخذ عن الرسول وعلى توقيره وتبجيله، وحالهم المعلومة في ذلك أكبر شاهد، ولكن لكل جواد كبوة، ثم إن الكبوة التي عوتب عليها العبد، وتاب منها وأناب وغفرها الله وأبدل مكانها حسنة، لا يحل لأحد اللوم

عليها، قل لمن قدم اللهو والتجارة على الطاعة: ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، التي وإن حصل منها بعض المقاصد فإن ذلك قليل منغص مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق؛ فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب، ومن قدّم الاشتغال بالتجارة على طاعة الله، لم يبارك له في ذلك، وكان هذا دليلاً على خلو قلبه من ابتغاء الفضل من الله، وانقطاع قلبه عن ربه وتعلقه بالأسباب وهذا ضرر محض يعقب الخسران.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة.

منها: أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعي لها والاهتمام بشأنها، وأن الخيرات المترتبة عليها لا يقابلها شيء.

ومنها مشروعية الخطبتين، وأنهما فريضتان، وأن المشروع أن يكون الخطيب قائماً، لأن قوله: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ يشمل السعي إلى الصلاة وإلى الخطبتين، وأيضاً فإن الله ذم من ترك استماع الخطبة.

ومنها: مشروعية النداء يوم الجمعة وغيرها، لأن التقييد بيوم الجمعة دليل على أن هناك نداء لبقية الصلوات الخمس، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٨]

ومنها: النهي عن البيع والشراء، بعد نداء الجمعة، وذلك يدل على التحريم وعدم النفوذ.

ومنها: أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإن البيع في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة لترك الواجب نهى الله عنه.

ومنها: تحريم الكلام والإمام يخطب، لأنه إذا كان الاشتغال بالبيع ونحوه، ولو كان المشتغل بعيداً عن سماع الخطبة محرماً، فمن كان حاضراً تعين عليه أن لا يشتغل بغير الاستماع، كما أيد هذا الاستنباط الأحاديث الكثيرة.

ومنها: أن المشتغل بعبادة الله وطاعته إذا رأى من نفسه الطموح إلى ما يلهيها عن هذا الخير من اللذات الدنيوية والحظوظ النفسية شرع أن يذكرها

ما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر الدين على الهوى، وما يترتب من الضرر والخسران على ضده.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٠١]

أي إذا سافرتم في الأرض لتجارة أو عبادة أو غيرهما، فقد خفف الله عنكم ورفع عنكم الجناح وأباح لكم بل أحبَّ لكم أن تقصروا الصلاة الرباعية إلى ركعتين، فإن حصل مع ذلك خوف، فلا حرج في قصر كيفية الصلوات كلها، وهذا والله أعلم الحكمة في تقييد القصر بالخوف، لأنه من المعلوم المتواتر عن النبي ﷺ جواز القصر في السفر، ولو كان ليس فيه خوف، ولكن إذا اجتمع السفر والخوف، كان رخصة في قصر العدد للرباعية والهيئة لغيرها، فإن وجد الخوف وحده، ترتب عليه قصر الهيئات على الصفة التي ثبتت عن النبي ﷺ وإن وجد السفر وحده، لم يكن فيه إلا قصر العدد، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن هذا القيد قال: صدقة تصدق الله عليكم بها؛ فاقبلوا صدقته. أو يقال هذا القصر المذكور في الآية الكريمة مطلق، والسنة عن النبي ﷺ تقيده وتبين المراد به.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٤]

أي ولا تصل على أحد مات من المنافقين ولا تقم على قبره بعد الدفن لتدعو له، فإن الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم للدعاء لهم شفاعة لهم وهم لا تنفع فيهم الشفاعة ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهو فاسقون﴾ خارجون عن دين الله بالكلية؛ ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق فإنه لا يصلى عليه ولا يدعى له بالمغفرة؛ وفي هذه الآية مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف على قبورهم، خصوصاً وقت دفنهم للدعاء لهم،

وإن هذا كان عادته ﷺ مع المؤمنين، وقد بينت السنة وجوب تجهيز الميت المسلم بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه وحمله ودفنه كما هو معلوم.

## فصـــل
## في الصيام وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآيات: ١٨٣ـ١٨٥]

يخبر تعالى بمنته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع الكبار التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفي هذا حث للأمة أن ينافسوا الأمم في المسارعة إليه وتكميله وبيان عموم مصلحته وثمراته التي لا تستغني عنها جميع الأمم؛ ثم ذكر حكمته بقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التي فيها سعادة العبد في دينه ودنياه وآخرته، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه في الحديث الصحيح، وهو من أعظم أصول التقوى، فإن الإسلام والإيمان لا يتم بدونه.

وفيه من حصول زيادة الإيمان والتمرُّن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين، وأنه سبب لكثرة الطاعات، من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى، وفيه من ردع النفس عن الأمور المحرَّمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى.

ومنها أن في الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع ربه عليه ما ليس في غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى.

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان «فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم» فبالصيام يضعف نفوذه وتقل معاصي العبد.

ومنها أن الغني، إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك وحمله على مواساة الفقراء المعدمين، وهذا كله من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات، أي قليلة سهلة، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين؛ ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهونات المسهلات ومن ألطاف المولى ومعونته للصائمين، ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر﴾ وذلك للمشقة غالباً رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهما أن يقضياه في أيام أُخر، إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فعدة من أيام أُخر﴾ دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وبهذا أجبنا عن سؤال ورد علينا: أنه يوجد مسلمون في بعض البلاد التي يكون في بعض الأوقات ليلها نحو أربع ساعات أو تنقص، فيوافق ذلك رمضان، فهل لهم رخصة في الإطعام إذا كانوا يعجزون عن تتميمها.

فأجبنا: إن العاجز منهم في هذا الوقت يؤخره إلى وقت آخر يقصر فيه النهار ويتمكن فيه من الصيام كما أمر الله بذلك المريض، بل هذا أولى، وأن الذي يقدر على الصيام في هذه الأيام الطوال يلزمه ولا يحل له تأخيره إذا كان صحيحاً مقيماً، هذا حاصل الجواب.

وقوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قيل هذا في أول الأمر وفي ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان ابتداء فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درَّجهم الرب الحكيم بأسهل ما يكون، وخيَّر المطيق للصوم

بين أن يصوم، وهو الأفضل الأكمل، أو يطعم ويجزيه، ثم لما تمرنوا على الصيام وكان ضرورياً على المطيقين فَرَضَهُ عليهم حتماً.

وقيل إن قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة لا تحتمل، كالكبير والمريض الميئوس من برئه، فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره.

وقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي حصل لكم من الله فيه الفضل العظيم، وهو إنزال القرآن الذي فيه هدايتكم لجميع مصالحكم الدينية والدنيوية، وفيه بيان الحق وتوضيحه، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله العظيم فيه عليكم أن يكون معظماً محترمًا، موسمًا للعباد مفروضاً فيه الصيام؛ فلما قرر فرضيته وبين حكمته في ذلك وفي تخصيصه قال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر الشهر وهو قادر تحتم عليه صيامه ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر﴾ أعاد ذلك تأكيداً له، ولئلا يظن أنه أيضاً منسوخ مع ما نسخ من التخيير للقادر ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي يريد الله أن ييسر ويسهل عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ليسهل سلوكها، ويعين عليها بكل وسيلة ليرغب فيها العباد؛ وهذا أصل عظيم من أصول الشريعة، بل الشريعة كلها تدور على هذا الأصل، فإن جميع الأوامر لا تشق على المكلفين، وإذا حصل بعض المشاق والعجز خفف الشارع من الواجبات بحسب ما يناسب ذلك، فيدخل في هذا جميع التخفيفات في جواز الفطر، وتخفيفات السفر والأعذار لترك الجمعة والجماعة.

وقوله: ﴿ولتكملوا العدة﴾ وذلك لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود ببعضه دفع هذا الوهم بقوله: ﴿ولتكملوا العدة﴾ وأمر بشكره على إتمامه، لأن من أكبر مِنن الله على عبده توفيقه لإتمامه وتكميله وتبيين أحكامه للعبيد ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ هداية التعليم وهداية التوفيق والإرشاد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]

هذا سؤال وجواب، أي إذا سألك العباد عن ربهم، وبأي طريق يدركون منه مطالبهم، فأجبهم بهذا الجواب الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويوجب أن يعلق العبد بربه بكل مطلوب ديني ودنيوي، فأخبرهم أن الله قريب من الداعين، ليس على بابه حجاب ولا بواب، ولا دونه مانع في أي وقت وأي حال، فإذا أتى العبد بالسبب والوسيلة، وهو الدعاء لله المقرون بالاستجابة له بالإيمان به والانقياد لطاعته، فليبشر بالإجابة في دعاء الطلب والمسئلة، وبالثواب والأجر والرشد إذا دعا دعاء العبادة، وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل في دعاء العبادة، لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والإثابة عليها.

وفي هذه الآية تنبيه على الأسباب الموجبة لإجابة الدعاء التي مدارها على الإيمان بالله وتحقيقه بالانقياد لله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيه؛ وتنبيه أيضاً على أن موانع الإجابة ترك تحقيق الإيمان وترك الانقياد، فأكل الحرام وعمل المعاصي من موانع الإجابة، وهي تنافي الاستجابة لله، وفيه تنبيه على أن الإيمان بالله والاستجابة له سبب إلى حصول العلم، لأن الرشد هو الهدى التام علماً وعملاً، ونظير هذا قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين كل ما يحتاج إلى تفصيله.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ـ إلى قوله ـ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية: ١٨٧]

كان أول ما فرض الصيام مُنِـع المسلمون من الأكل والشرب في الليل إذا ناموا، فحصلت المشقة لكثير منهم، فخفف الله ذلك وأباح في ليالي الصيام

كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أُمروا به لو بقي الأمر على ما كـان أولاً، فتاب الله عليكم بأن وسع لكم أمراً لولا توسعته لكان داعياً إلى الإثم والإقدام على المعاصي، وعفا عنكم ما سلف من التخون.

فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهن﴾ وطئاً وقبلة ولمساً ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي اقصدوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله بذلك، واقصدوا أيضاً حصول الذرية وإعفاف الفرج وحصول جميع مقاصد النكاح؛ وابتغوا أيضاً ليلة القدر، فإياكم أن تشتغلوا بهذه اللذة وتوابعها وتضيعوا ليلة القدر، وهي مما كتبه الله لهذه الأمة، وفيها من الخير العظيم ما يعد تفويته من أعظم الخسران؛ فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك، ولم يعوض عنها شيء ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام؛ وفيه أن هذه الثلاثة إذا وقعت وصاحبها شاك في طلوع الفجر فلا حرج عليه، ودليل على استحباب السحور، وأنه يستحب تأخيره أخذًا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، ودليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، لأن من لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق، ثم إذا طلع الفجر أتموا الصيام، أي أمسكوا عن المفطرات إلى الليل، وهو غروب الشمس.

ولما كانت إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، استثنى تعالى المعتكف بقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي وأنتم متصفون بذلك؛ ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف؛ وهو لزوم المساجد لطاعة الله، وإن الاعتكاف لا يصح إلا بمسجد؛ ويستفاد من تعريف المساجد بالألف واللام أنها المساجد التي يعرفها المسلمون، وأنها التي تقام فيها الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف، تلك المذكورات وهي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوها من مفطرات الصيام، وتحريم الوطء على

المعتكف ونحو ذلك من المحرمات التي حدها لعباده ونهاهم عنها: ﴿فلا تقربوها﴾ أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها وتفعلوا وسائلها، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها بترك كل وسيلة تدعو إليها.

وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ كما ينهى عن مجاوزتها، ﴿فلا تعتدوها﴾ كذلك البيان السابق والتوضيح التام من الله لعباده ﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ فإن العلم الصحيح سبب للتقوى لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه والباطل فاتبعه كان أعظم لجرمه وأشد لإثمه.

## فصل
## في الحج وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

إلى آخر الآيات المتعلقة بالحج.

لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ٩٦ و٩٧]

وكان في ذلك تنبيه على الحكم والأسرار والمصالح والبركات المتنوعة المحتوي هذا البيت العظيم عليها، وكان ذلك داعياً إلى تعظيمه بغاية ما يمكن من التعظيم أوجب الله على العباد حجَّه وقصده لأداء المناسك التي فعلها رسول الله ﷺ وعلمها أُمته وأمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم، فأوجبه على من استطاع إليه سبيلاً، بأن قدر على الوصول إليه بأي مركوب متيسر وبزاد يتزوده ويتم به السبيل، وهذا هو الشرط الأعظم لوجوب الحج. وهذه الآية صريحة في

فرضية الحج، وأنه لا يتم للعبد إسلام ولا إيمان وهو مستطيع إلا بحجه، وأن الله إنما أمر به العباد رحمة منه بهم وإيصالاً لهم إلى أجلِّ مصالحهم وأعلى مطالبهم، وإلا فالله غني عن العالمين وطاعتهم، فمن كفر فلم يلتزم لشرع الله فهو كافر ولن يضر إلا نفسه.

وأما آية البقرة فإن الله أمر فيها بإتمام الحج والعمرة بأركانهما وشروطهما وجميع متمماتهما؛ ولا فرق في ذلك بين الفرض والنفل، وبهذا تميز الحج والعمرة عن غيرهما من العبادات؛ وإن من شرع فيهما وجب عليه إتمامهما لله مخلصاً، ويدخل في الأمر بإتمامهما أنه ينبغي للعبد أن يجتهد غاية الاجتهاد في فعل كل قول وفعل ووصف وحالة بها تمام الحج والعمرة، وذلك شيء كثير مفصل في كتب أهل العلم، وأن من دخل فيهما فلا يخرج منهما إلا بإتمامهما والتحلل منهما إلا بما استثناه الله وهو الحصر، ولهذا قال:

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

أي منعتم من الوصول إلى البيت، ومن تتميم المناسك بمرض أو عدو أو ذهاب نفقة أو ضللتم الطريق أو غير ذلك من أنواع الحصر الداخلة في عموم قوله: ﴿أحصرتم﴾ فاذبحوا ما تيسر من الهدْيِ وهو شاة أو سُبع بدنة أو سبع بقرة يذبحها المحصر ويحلق رأسه ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدَّهم المشركون عن البيت وهم محرمون عام الحديبية، فإن لم يتيسر الهدي على المحصر فهل يكفيه الحلق وحده ويحل، كما فعله الصحابة الذين لم يكن معهم هدي، وهو الصحيح، أو ينوب عن الهدي صيام عشرة أيام قياساً على هدي التمتع كما قاله آخرون ثم يحل؟ ثم قال تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾.

وفي هذا أن المحرم يُحَرَّمُ عليه إزالة شيء من شعر بدنه تعظيماً لهذا النسك، وقاس عليه أهل العلم إزالة الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع من ذلك حتى يبلغ الهدي محله، وهو وقت ذبحه يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، ويجوز أن يقدم الحلق على النحر كما رخص في ذلك

النبي ﷺ حين سئل عمن قدم الحلق أو الرمي أو الذبح أو الطواف بعضها على بعض. فقال افعل ولا حرج.

ويستدل بالآية الكريمة على أن المتمتع كالقارن والمفرد لا يحل من عمرته إذا كان سائقاً للهدي حتى يبلغ الهدي محله، فقيل إنه إذا حل من عمرته بأن فرغ من الطواف والسعي بادر بالدخول بالحج بالنية، وقيل إنه بسوقه للهدي صار قارناً، وأن الهدي الذي استصحبه حيث أنه كان للنسكين كليهما مزج بين النسكين وصار صاحبه قارناً، وهذا هو القول الصواب، وإنما منع تعالى من الحل لمن ساق الهدي قبل محله، لما في سوق الهدي وما يتبعه من كشف الرأس وترك أخذ الشعور ونحوها من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو روح النسك وعين صلاح العبد وكماله، وليس عليه في ذلك ضرر؛ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من رأسه من مرض ينتفع بحلق رأسه أو قروح أو قمل أو نحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية تخيير، يخير بين صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وهذه تسمى فدية الأذى. وأُلحق بذلك إذا قلم أظفاره، أو لبس الذكر المخيط؛ أو غطى رأسه، أو تطيب المحرم من ذكر وأنثى، فكل هذا فديته فدية تخيير بين الصيام أو الإطعام أو النسك.

وأما فدية قتل الصيد فقد ذكر الله التخيير فيها بين ذبح المثل من النعم أو تقويمه بطعام فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره، أو يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً؛ فهذه الأنواع فديتها تخيير.

وأما المتمتع والقارن، فإن هديهما هدي نسك، غير هدي جبران، وهو على الترتيب، إن تيسر الهدي وجب الهدي، فإن لم يتيسر فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة في الحج ولا يؤخرها عن أيام التشريق، وسبعة إذا رجع ـ أي فرغ من جميع شؤون النسك ـ ودل إطلاق إيجاب الصيام على أنه يجوز فيها التتابع والتفريق ﴿ذلك﴾ أي وجوب الهدي على المتمتع والقارن؛ أو بدله لمن لم يجد من الصيام، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، وهم الأفقية، لأن من

الحكمة فـي إيجـاب الهدي على الأفقي أنه لما حصل نسكين في سفرة واحدة كان هذا من أعظم نعم الله، فكان عليه أن يشكر الله على هذه النعمة الجليلة، ومن جملة الشكر إيجاب الهدي عليه.

وأما المقيمون في مكة أو كانوا في قربها بحيث لا يقال لهم مسافرون، فليس عليهم هدي ولا بدله لما ذكرنا من الحكمة ﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات في هذه العبادة الجليلة واجتنابكم لمحظوراتها ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن عصاه، وذلك موجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عن السيئات، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف الله فإنه لا بد أن يتجرأ على المحارم ويتهاون بالفرائض.

ثم أخبر تعالى أن الحج واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، بحيث لا تحتاج إلى تعيين كما احتاج الصيام لتعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهـم، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور: شوال وذو القعدة، وعشر أو ثلاثة عشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً، وهي التي تقـع فيها أفعال الحج، أركانه وواجباته ومكملاته، فمن فرض فيهن الحج أي عقده وأحـرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضـاً ولو كـان قبل ذلك نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن قال بقوله: أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، ولو قيل إن الآية فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً، لأن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ دليل على أنه يقـع الفرض فيهن وفي غيرهن، وإلا لما كان في القيد فائدة ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي يجب عليكم أن تعظموا حرمة الإحرام بالحـج، وخصوصاً الواقـع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً التكلم في أمور النكاح بحضرة

النساء ﴿ولا فسوق﴾ وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام ﴿ولا جدال﴾ والجدال هو المماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب إليه بما أمكن من القربات والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه يكون بذلك مبروراً، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة؛ وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل زمان ومكان، فإنه يتأكد المنع منها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر فلهذا أتبعه بقوله: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أتى ﴿بمن﴾ المفيدة لتنصيص العموم فكل عبادة وقربة فإنها تدخل في هذا، والإخبار بعلمه يتضمن الحث على أفعال الخير خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة فإنه ينبغي اغتنام الخيرات والمنافسة فيها من صلاة وصيام وصدقة وقراءة وطواف وإحسان قولي وفعلي ﴿وتزودوا﴾ لهذا السفر المبارك فإن التزود فيه الاستغناء عن الخلق وعدم التشوف لما عندهم وإعانة المسافرين والتوسعة على الرفقة والانبساط والسرور في هذا السفر وزيادة التقرب إلى الله تعالى؛ وهذا الزاد المراد به إقامة البنية بلغة ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً؛ ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين.

وقد يتمكن الموفَّق من جعل الزاد الحسي يجمع الزادين: بأن يقصد به وجه الله والقيام بواجب النفس والرفقة ومن يتصل به، والقيام بالإحسان المستحب وقصد امتثال أمر الله، فالنية هي الأساس لكل خير التي تجعل الناقص كاملاً والعادة عبادة، ثم قال: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ أي يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على فساد العقل والرأي.

ولما أمر بتقواه أخبر أن ابتغاء فضله بالاشتغال بالتكسب في التجارة في مواسم الحج وغيرها، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو

الحج وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله معترفاً فيه بنعمة الله، لا منسوباً إلى حذق العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه في كل وقت، فكيف إذا قارن النسك الفاضل، وفي قوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ دلالة على أمور:

أحدها: أن الوقوف بعرفة من المشاعر الجليلة، ومن أركان الحج، فإن الإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف الذي هو ركن الحج الأعظم بعد الطواف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف يكون الحاج ليلة النحر بائتاً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً.

ويدخل في ذكر الله عند المشعر الحرام ما يقع في المشعر من الصلوات فرضها ونفلها.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء المفيدة للترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كليهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالمشعر الحرام.

السابع: أن عرفة بالحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي اذكروا الله كما مَنَّ عليكم بالهداية بعد الضلالة، وكما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بالإكثار من ذكر المنعم بالقلب واللسان ﴿ثم أفيضوا﴾ أي من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم إلى هذا الوقت والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق، وتكميل بقية المناسك.

ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى بعد الفراغ منها باستغفاره، خشية الخلل الواقـع من العبد في أداء العبادة وتقصيره فيها، وبالإكثار من ذكره شكـراً له على نعمة التوفيق لهذه العبادة العظيمة وتكميلها، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق، فهذا حقيق بأن الله يجبر له ما نقص منها ويتقبلها ويزيده نعماً أخرى، لأن من جهل حق ربه فرأى نفسه أنه قد كمل حقوق العبادة فأعجب بنفسه ومنَّ بعبادته على ربه، وتراءى له أنه قد جعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ويخشى عليه من رد العمل.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألـونه مـطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم؛ ولكن هممهم ومقاصدهم متباينة، فمنهم من يقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾ أي يسأل ربه من مطالب دنياه وشهواته فقط ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ لا رغبة له فيها ولا حظ له منها، ومنهم عالي الهمة من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إلى ربه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء له نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم الله على حسب أعمالهم ونياتهم، جزاء دائراً بين الفضل والإحسان والكرم للمقبولين، وبين العدل والحكمة لغيرهم؛ وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يقبل دعوة كل داع مسلماً كان أو كافراً بَرًّا أو فاجراً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته وقربه منه إلاَّ في مطالب الآخرة ومهمات الدين، فمن أُجيبت دعوته في هذه الأمور الدائم نفعها كان من البشرى، وكان أكبر دليل على برِّه وقربه من ربه.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد وما به تكمل حياته، من رزق هنيء واســع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقرُّ به العين، ومن راحة وعلم نافـع وعمل صالـح، وما يتبـع ذلك من المطالب النافعة المحبوبة والمباحة.

وأما حسنة الآخرة، فهي السلامة من العقوبات التي يستقبلها العباد من عذاب القبر والموقف وعذاب النار، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم

والقرب من الرب الرحيم، فهذا الدعاء أجمع الأدعية وأكملها وأولاها بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به ويحث عليه.

ولما أكمل الله تعالى أحكام النسك أمر بالإكثار من ذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق في قول جمهور المفسرين، وذلك لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تُفعل بها، ولكون الناس فيها أضيافاً لله، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله» ويدخل في ذكر الله رمي الجمار والتكبير عند رميها، والدعاء بين الجمرتين، والذبح والتسمية فيه، والصلوات التي تفعل فيها من فرائض ونوافل، والذكر المقيد بعد الفرائض فيها، وعند كثير من أهل العلم أنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، فجميع ما يقرب إلى الله داخل بذكره: ﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي خرج من منى ونفر منها قبل غروب الشمس فلا إثم عليه، ومن تأخر بأن بات بها ليلة الثالث من أيام التشريق ليرمي من غده فلا إثم عليه، وهذا تخفيف من الله على عباده حين أباح الأمرين، مع أن التأخر أرجح لموافقته فعل النبي ﷺ وزيادة العبادات؛ وقوله: ﴿لمن اتقى﴾ هذا من الاحتراز العالي، لأن نفي الحرج يوهم العموم، فقيل ذلك بهذا الشرط الذي هو شرط لنفي الحرج في كل شيء ﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فَمُجَازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد عنده جزاء المتقين، ومن لم يتقه عاقبه عقوبة تارك التقوى، فإن التقوى هي ميزان الثواب والعقاب في القائم بها والمضيع لها، فالعلم بالجزاء والإيمان به هو أعظم الدواعي للقيام بالتقوى.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الآية ـ وما تلاها ـ

[سورة الحج: الآيات ٢٦ ـ ٢٩]

يذكر الله تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن فقال: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي هيئناه له وأنزلناه إياه،

بحيث جعل قسماً من ذريته هم سكانه وأمره الله ببنيانه، فبناه وأسسه على تقوى الله ورضوانه هو وابنه اسماعيل بنية صادقة وخضوع لله وإخلاص ودعاء منهما أن يتقبل منهما هذا العمل الجليل، فتقبله الله.

فهذه آثار القبول لهذا البيت في كل وقت وجيل متواصلة، ووصاه بأن لا يشرك به شيئاً، بأن ينفي الشرك عنه وعن ذريته وعمن وصلت إليه دعوته ﴿وطهر بيتي﴾ أي من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه إلى نفسه ليكتسب شرفاً إلى شرفه، ولتعظم محبته في القلوب، لكونه بيت محبوبها الأعظم، وتنصب وتهوي إليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به؛ والقائمين عنده للعبادات المتنوعة ﴿والركع السجود﴾ أي المصلين، أي طهِّره لهؤلاء الفضلاء الذين ليس لهم همٌّ إلا طاعة مولاهم وما يقربهم إليه، فهؤلاء لهم الحق، ومن إكرامهم تطهير هذا البيت لهم وتهيئته لما يريدونه عنده، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف والقراءة وغيرها، وقدم الطواف لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي أعلمهم به وادعهم إليه، وبلِّغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم عن أمر الله أتوك حجاجاً وعماراً ﴿رجالاً﴾ أي مشاة على أرجلهم من الشوق ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن ﴿من كل فج عميق﴾ أي مكان وبلد بعيد، وقد فعل الخليل ﷺ ذلك، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا وأعادا فيه فحصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الحرام مرغباً فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي لينالوا بوصولهم لبيت الله في الإنساك منافع متنوعة دينية، ومنافع دنيوية كالتكسب وحصول الأرباح، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد، فجميع العلوم والعبادات الدينية التي تفعل في تلك البقاع الفاضلة، وما جعل الله لها من التضعيف داخل في هذه المنافع، وجميع المنافع الدنيوية التي لا تعد ولا تحصى

داخلة في ذلك؛ فصدق الله وعده، وأنجز ما قاله، وكان ذلك آية وبرهانًا على توحيده وصدق رسله.

وقوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذه تجمع الأمرين: الدينية والدنيوية؛ أي ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسّرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي شديد الفقر، والآية الأخرى

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٦]

﴿القانع﴾ وهو الفقير الذي لا يسأل الناس ﴿والمعتر﴾ الفقير السائل. وفي هذا الأمر بالأكل والإهداء والصدقة فأن الأمر يشمل أكل أهلها منها وإهداءهم للأغنياء ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي يستكملوا بقية إنساكهم ويزيلوا عنهم محظورات الإحرام وما ترتب عليها من الشعث ونحوه ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا فنفس عقد العبد للإحرام إيجاب منه على نفسه ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي القديم أقدم المساجد على الإطلاق، المعتَق من تسلط الجبابرة عليه، وتخصيص الطواف به دون غيره من المناسك لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وما بعده وسائل وتوابع، ولأنه يتعبد به لله مع الأنساك ووحده وأما بقية الأنساك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة لنسك.

## فصل
## في آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ...﴾ [سورة الحج: الآيتان ٣٩ و ٤٠].

كان المسلمون في أول الأمر مأمورين بكف الأيدي عن قتال الكفار، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة، فلما اضطهدوا واضطرهم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم وقتلوا من قتلوا وحبسوا من حبسوا، وجدّوا في العداوة البليغة

بكل طريق، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقواهم الله على قتال الأعداء، وقد رماهم الأعداء عن قوس واحدة، فحينئذ أذن الله لهم في القتال ولهذا قال: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم في كل مكان ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الأعداء بكل مستطاع أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه.

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ بالأذية والفتنة بغير حق إلّا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرأوا من عبادة المخلوقين وهذا كما قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة البروج: الآية ٨]

وهذا ظاهر في حكمة الجهاد وعظم مصلحته، وأنه من الضروريات في الدين؛ فإن المقصود به إقامة دين الله والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المكلفين لها، وأوجبها عليهم ودفع كل من قاوم الأمر الضروري ومقاومة الظالمين المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده كما قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾

[سورة الأنفال: الآية ٣٩]

ولهذا قال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية وأعظمها وأجلها وأزكاها الجهاد في سبيله لاستولى الكفار الظالمون ومحقوا أديان الرسل فقتلوا المؤمنين بهم وهدموا معابدهم؛ ولكن ألطاف الله عظيمة، وأياديه جسيمة، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الديني، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق، بل الجهاد الإسلامي مرماه وغرضه الوحيد إقامة العدل وحصول الرحمة واستعباد الخلق لخالقهم، وأداء

الحقوق كلها ونصر المظلومين وقمع الظالمين، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار، وهو من أعظم محاسن دين الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

[سورة الأنفال: الآيات ٤٥ ـ ٤٧]

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها؛ فمن أعظمها وأهمها أمران: الصبر، وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك؛ والثاني، التوكل على الله والتضرع إليه والإكثار من ذكره؛ فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده.

فيدخل بالأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك، فإنه من يتصبر يصبره الله، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان، فإن التعليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر؛ ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعي في أسبابها والترغيب في فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة، وما في تضييعه من ضياع الدين والدنيا واستيلاء الأعداء والذل والدمار، فإن النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها. قال تعالى:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

فحثهم على الصبر بتألمهم وطمعهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية.

وقال أيضاً في ذم الناكلين وترغيب التائبين الصابرين

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآيتان ١٢٠ و ١٢١]

وقال عن المنافقين ونكولهم عن مشقة الجهاد:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾

[سورة التوبة: الآية ٨١]

أي لو كان عندهم فقه نافع في تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغي تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلاً وآجلاً.

وفي هذا أنه بحسب فقه العبد وعلمه ويقينه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته، ومن دواعي الصبر وهو من الفقه أيضاً أنه إذا علم المجاهد أنه على الحق ويجاهد أهل الباطل أن هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها، وأن الحق منصور وعاقبته حميدة.

ومن دواعي الصبر الثقة بالله وبوعده فإن الله وعد الصابرين العون والنصر، وأنه معهم في كل أحوالهم ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله؛ ومما يعين على الصبر والثبات (الأمر الثاني) وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه في طلب النصر والإكثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. وقال تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

وقال تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾

[سورة آل عمران: الآيات ١٤٦ ــ ١٤٨]

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ .. ﴾ [سورة محمد: الآية ٦]

أي تقوموا بدينه وبالحق الذي جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا ينصركم ويثبت أقدامكم. وقال تعالى:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٠]

فإخباره بأنه المتفرد بنصرهم وأن غيره لا يملك من النصر شيئاً وأمرهم بالتوكل عليه أمر لهم بأقوى الأسباب النافعة في هذا المقام العظيم؛ وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

أي الذي قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة.

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع، فإن ذلك محلِّلٌ للقوة موجِب للفشل؛ وأما اجتماع الكلمة وقيام الألفة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التي هي

الأصل والقوة المادية تبع لها، والكمال: الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك في هذه الآية، وفي قوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الإخلاص في إعلاء كلمة الحق؛ فلهذا حذر تعالى من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، فهؤلاء لما لم يعتمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أَشِرين بطرين، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخيبة والفشل والخذلان، ولهذا أدّب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الإعجاب بالكثرة في غزوة حنين حيث قال القائل: لن نغلب اليوم عن قلة. فقال:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٥]

فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الإعجاب

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٦]

ومن الأسباب التي أرشد الله إليها في القتال: الثبات والصبر وحسن التدبير، والنظام الكامل في جميع الحركات العسكرية، قال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢١]

وكان ﷺ يرتب الجيش وينزلهم منازلهم، ويجعل في كل جنبة كفأها، ويسد الثغرات التي يخشى أن يتسرب منها العدو؛ يحفظ المكامن، ويبعث العيون لتعرّف أحوال العدو، ويستعين بمشاورة أصحابه كما أمر الله بذلك، خصوصاً في هذا الأمر المهم، وتعرّف أسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين

الذين لا يكاد يشعر بهم، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الأسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان.

ومن المهم أيضاً أن تفعل جميع الأسباب الممكنة في إخلاص الجيوش وقتالها عن الحق، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامي فقد رئيس، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف في صمودها في طريقها النافع على أمور خارجية، فإنه متى كانت هذه الغاية العالية هي التي يسعى لها أهل الحل والعقد، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية، كانت الجيوش التي على هذا الوصف مضرب المثل في الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة؛ ولهذا أرشد الله المؤمنين يوم أُحُد إلى هذا النظام العجيب، فقال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

فنبههم على أنه وإن كان محمد هو الإمام الأعظم والرسول المعظم، فإنه لا ينبغي لكم أن يفت فقده في عزيمتكم وانحلال قوتكم، بل أنتم تقاتلون لله، وعلى الحق الذي بعث به رسوله، ولدفع الباطل والشرور، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم وأساس عملكم، وامضوا قُدُماً في سبيل الله غير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم، فإن الأمور هكذا تكون: تارة لك وتارة عليك، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله في الحالين، في السراء والضراء؛ في حال إتيان الأمور على ما يحب، أو ضد ذلك، وهذا الوصف هو كمال الفرد وكمال الجماعات؛ والله الموفق.

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رحيماً برعيته، ناصحاً محبًّا للخير ساعياً فيه جهده، كثير المراودة والمشاورة لهم، خصوصاً لأهل الرأي والحجى منهم؛ وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى

شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

أي إذا حصل النزاع في أي أمر من الأمور، خصوصاً في الأمور المتعلقة في سياسة الحرب، ردت إلى هذا الأصل الذي يطمئن إليه المؤمنون، ويلجأ إليه كبارهم وصغارهم، لعلمهم أنه فرض على جميعهم، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصلاح، وأن الله يعلم من مصالحهم ما لا يعلمون، ويرشدهم إلى كل ما به ينتفعون.

ومن الأمور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل في قسمة الغنائم، وأن لا تكون ظالمة مستبداً بها الأقوياء، محروماً منها الضعفاء، أو تكون فوضى، فإن هذين الأمرين مع ضررهما في الدين، وأن هذا لا يحل ولا يجوز، وهو من أعظم المحرمات، فإنهما يضرّان غاية الضرر في الجيوش في وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة، فبذلك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الأمر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين.

ومن الأمور المهمة جداً أيضاً، وهي عون كبير في الحروب، السعي بقدر الاستطاعة في إيقاع الانشقاق في صفوف الأعداء، وفعل كل سبب يحصل به تفريق شملهم وتفريق وحدتهم، ومهادنة من يمكن مهادنته منهم، وبذل الأموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرهم عن المسلمين؛ فكم حصل بهذا الطريق من نكاية العدو ما لا يحصل بالجيوش الكثيرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾
[سورة النساء: الآية ٩٠]

فذكر الله هذه المصلحة العظيمة في الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين.

وللموفقين من الرؤساء وقواد الجيوش في هذه الأمور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين.

فانظر إلى هذه التعاليم الإلٓهية التي هي النظام الكامل الوحيد في جميع

الأزمنة والأمكنة، واستدل بذلك على أن الإسلام الحقيقي هو الدين الحق الذي إليه ملجأ الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور، وأن النقص والهبوط بتضييع تعاليم هذا الدين الذي أكمله الله وأتم به النعمة على المؤمنين.

## فصل
## في البيوع وأنواع المعاملات

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]
وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

اشتملت هذه الآيات الكريمات على أحكام جمة وفوائد مهمة، منها أن الأصل في البيوع والمعاملات والتجارات كلها الحِل والإطلاق، كما هو صريح هذه الآيات، لا فرق بين تجارة الإدارة التي يديرها التجار بينهم، هذا يأخذ العوض، وهذا يعطي المعوض، ولا بين التجارة في الديون الحالّ ثمنها المؤجل مثمنها كالسلم، وبيع السلع بأثمان مؤجلة لعموم قوله: ﴿إذا تداينتم بدين﴾ ولا بين تجارة التربص والانتظار، بأن يشتري السلع في أوقات رخصها وينتظر بها الفرص من مواسم وغيرها، ولا بين التجارة بالتصدير والتوريد من محل إلى آخر، ولا بين التجارة والتكسب أفراداً ومشتركين، فكل هذه الأنواع وما يتبعها قد أباحها الشارع وأطلقها لعباده رحمة بهم وقياماً لمصالحهم ودفعاً للأضرار عنهم، وكلها جائزة بما يقترن بها ويتبعها من شروط ووثائق ونحوها إذا سلمت من المحاذير الشرعية التي نبّه الله عليها ورسوله، يدخل في هذا العموم جميع

أجناس المبيعات وأنواعها وأفرادها من عقارات وحيوانات وأمتعة وأطعمة وأوانٍ وأشربة وأكسية وفرش وغيرها؛ وكلها لا بد أن تقترن بهذا الشرط الذي ذكره الله، وهو التراضي بين المتعاوضين؛ الرضا الصادر عن معرفة، وأما السفيه والمجنون ومن لا يعتبر كلامه، فوليه يقوم مقامه في معاملاته.

وأعظم المحاذير المانعة من صحة المعاملات: الربا والغرر والظلم.

فالربا الذي حرمه الله ورسوله يدخل فيه ربا الفضل، وهو بيع المكيل بالمكيل من جنسه متفاضلاً، وبيع الموزون بالموزون من جنسه متفاضلاً؛ ويشترط في هذا النوع في حِله ما شرط الشارع، وهو التماثل بين المبيعين بمعياره الشرعي، مكيلاً كان أو موزوناً، والقبض للعوضين قبل التفرق. وربا النسيئة: وهو بيع المكيل بالمكيل إلى أجل، أو غير مقبوض ــ ولو من غير جنسه ــ وبيع الموزون بالموزون إلى أجل أو بلا قبض، ويستثنى من هذا السلم.

وأشد أنواع هذا النوع قلب الديون في الذمم، وهو الذي ذكره بقوله:

﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

وذلك إذا حل ما في ذمة المدين، قال له الغريم: «إما أن تقضيني ديني، وإما أن تزيد في ذمتك»، فيتضاعف ما في ذمة المعسر أضعافاً مضاعفة بلا نفع ولا انتفاع، وذلك أن المعسر قد أوجب الله على غريمه إنظاره كما قال تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٠]

وسواء كان قلب الدين المذكور صريحاً أو يتحيل عليه بحيلة ليست مقصودة، وإنما يراد بها التوصل إلى مضاعفة ما في ذمة الغريم، فهذا الذي قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد، وأن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلى بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، أي من الجنون فيقومون مرعوبين منزعجين قد اختلّت حركاتهم لما يعلمون ما أمامهم من القلاقل والأهوال المزعجة والعقوبات لأكلة الربا، وقد آذنهم الله بمحاربته

ومحاربة رسوله إذا لم يتوبوا: ومن كان محارباً لله ورسوله فإنه مخذول وإن عواقبه وخيمة، وإن استدرج في وقت فآخر أمره المحق والبوار، قال تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦]

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ اللَّهِ﴾
[سورة الروم: الآية ٣٩]

فالمرابي يأخذه الأمن والغرور الحاضر ولا يدري ما خبىء له في مستقبل أمره، وأن الله سيجمع له بين عقوبات الدنيا والآخرة، إلا إن تاب وأناب، فإذا تاب فله ما سلف وأما العقود الحاضرة فالزيادة لا تحل، وعليه أن ينزل على رأس ماله، كما قال تعالى:

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٧٩]

بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بأخذ بعض رؤوس أموالكم.

ومن أنواع الربا القرض الذي يجر نفعاً؛ فإن القرض من الإحسان والمرافق بين العباد، فإذا دخلته المعاوضة وشرط المقرض على المقترض رد خير منه بالصفة أو المقدار، أو شرط نفعاً أو محاباة في معاوضة أخرى، فهو من الربا لأنه في الحقيقة دراهم بدراهم مؤخّرة، والربح ذلك النفع المشروط، فالله تعالى وعظ المؤمنين عن تعاطي الربا كله والمعاملة به، وأن يكتفوا بالمكاسب الطيبة التي فيها البركة وصلاح الدين والدنيا، وفيها تزكو الأخلاق ويحصل الاعتبار وحسن المعاملة والصدق والعدل وأداء الحقوق والسلامة من جميع التبعات.

ومن المحاذير في المعاملات محذور الميسر والغرر، فإن الله حرّم في كتابه الميسر وقرنه بالخمر وذكر مضارَّ ذلك ومفاسده؛ والميسر يدخل في المعاملات كما يدخل في المغالبات، فكما أن المراهنات والمقامرات وتوابعها من الميسر، فالبيوع التي فيها غرر ومخاطرات وجهالات داخلة في الميسر، ولهذا قال ﷺ كلمة جامعة نهى عن بيع الغرر، فيدخل في ذلك بيع الحمل في البطن، وبيع الآبق

والشارد والشيء الذي لم يُرَ ولم يوصف؛ ودخل فيه بيع الملامسة والمنابذة وجميع العقود التي فيها جهالة بيِّنة، وذلك لأن أحد المتعاملين إما أن يغنم، وإما أن يغرم، وهذا مخالف لمقاصد المعاوضات التي يقصد أن يكون العوض في مقابلة المعوض على وجه يستوي فيه علم المتعاوضين، فإذا جهل الثمن أو المثمن، أو كان الأجل في الديون غير مسمى ولا معلوم دخل هذا في بيع الغرر والميسر الذي زجر الله عنه.

ومن المحاذير المنهي عنها في المعاملات، الظلم والغش والتدليس وبخس المكاييل والموازين وبخس الحقوق أخذاً وإعطاءًا، بأن يأخذ أكثر مما له، أو يعطي أقل مما عليه، فهذا من أعظم المحرّمات، وقد توعد الله عليه بالعقوبات في الدنيا والآخرة، وأهلك أمة عظيمة بسبب هذه المعاملة الخبيثة، وهذه المعاملات المحرمة تدخل في قوله: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ كما يدخل فيه الغصب والسرقة ونحوهما.

وفي آية الدَّيْن من الفوائد سوى ما تقدم، الأمر بكتابة المعاملات والإشهاد عليها، وأن يكون الكاتب عدلاً عارفاً بالكتابة وبما ينبغي أن يكتب؛ وهذا الأمر للندب والاستحباب عند جمهور العلماء، إلاّ إذا وجب حفظ المال وكان على دين مؤجل أو غير مقبوض، فإنه لا يتم حفظه إلا بذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وفيها أن الكاتب لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق إن كان رشيداً ووليُّه أن كان عاجزاً ضعيفاً؛ كالمجنون والصغير والسفيه، وأن على صاحب الحق أن يقر بالحق كله من غير بخس، أي نقص لعدده أو صفته.

وتدل الآية أن الإقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق في الذمم، كما يثبت فيها براءة الذمم المشتغلة بالحقوق إذا أقرّ من له الحق بالإقباض أو الإبراء المعتبر، وأنه لا يعذر من أقر لو ادعى الغلط أو الكذب ونحوه.

وفيها الإرشاد إلى حفظ الحقوق بالإشهاد والكتابة والرهن إذا احتيج إليه في سفر أو غيره، وأن نصاب الشهادة في المعاملات كلها من عقود وفسوخ

وثبوت وشروط وإبراء ونحوها رجلان مرضيان إن أمكن، وإلا فرجل واحد وامرأتان، وثبت في السنة قبول شهادة الواحد مع يمين صاحب الحق.

وفيها أن شهادة الفسّاق والمجهولين غير مقبولة، وأن الاعتبار بمن يرضاه الناس ويعتبرونه.

وفيها أن شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل لكمال حفظ الرجل وقوة ذاكرته، كما نبّه عليه بقوله:

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

وفيها دلالة أن من نسي شهادة فتذكرها، أو ذكرها فذكرها أن شهادته صحيحة.

وفيها أنه لا يحل أن يشهد إلا بما علمه وتيقّنه، فإن شك فيه لم يحل له أن يشهد.

وفيها بيان الحكمة العظيمة في هذه الإرشادات من الرب في حفظ المعاملات، وأن ذلك صلاح للعباد في معاملاتهم؛ وأن تكون جارية على القسط، وأنها تقطع الخصومات والمنازعات وتبرىء الذمم وتمنع الظالم من ظلمه، فلهذا قال:

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فكم حصل بهذه الوثائق التي أرشد الله إليها من مصالح عظيمة، وكم اندفع بها من مفاسد وشرور كثيرة، فسبحان من جعل شرعه صلاحاً لدين العباد ودنياهم.

وفيها أن التجارة الحاضرة لا بأس بترك كتابتها لكون التقابض يغني غالباً عن ذلك، ولمشقة كثرة ذلك، وأما الشهادة فلا ينبغي تركها خصوصاً في الأمور المهمة، وقوله:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

يحتمل أنه مبني للفاعل أو للمفعول، والمعنى يشمل الأمرين؛ فالكاتب والشهيد يجب عليه أن يعدل في كتابته وشهادته؛ ولا يحل له أن يميل مع أحدهما لغرض من أغراضه، ولا يضارهما بأخذ أجرة لا تحل له على شهادته، أو يماطل في شهادته وكتابته مماطلة تضرهما أو أحدهما، وكذلك المعاملان لا يحل أن يضارّا الكاتب والشهيد بأن يكلفاه ما لا يطيقه، أو يتضرر به، لأن الشاهد والكاتب محسنان، حقهما أن يشكرا على ذلك، فمضارتهما تنافي ذلك.

وفيها أن تعلُّم الكتابة من الأمور المحبوبة لله، وأنه نعمة من الله على من علمه الله الكتابة فمن شكر هذه النعمة ــ أن لا يأبى كاتب أن يكتب كما علمه الله.

ويستفاد من المعنى المقصود أن الله شرع هذه الأمور حفظاً للحقوق أنه ينبغي تعلم كتابة الوثائق والاصطلاحات الجارية بين الناس في المعاملات، حتى يكون الكاتب بهذه الصفة التي يحرر فيها المعاملات فينتفع الناس بحفظ حقوقهم، فلا يكفي مجرد الكتابة من غير معرفة بهذه الأمور، كما أنه لا بد أن يكون الكاتب معتبرًا ثقة ليحصل الاعتماد على كتابته والطمأنينة إليها.

ويستفاد من هذا أن الخط المعروف صاحبه وثقته أنه معتبر معمول به ليتم المقصود من الكتابة في حياة الكاتب وبعد موته.

وفيها وجوب أداء الشهادة وتعينها على من تحملها، وأن كتمان الشهادة من كبائر الذنوب وكما أن شهادة الزور بأن يشهد بثبوت ما ليس بثابت، أو بالبراءة من الحق الثابت وهو كاذب من أكبر الكبائر، فكذلك السكوت عن أداء الشهادة، وكلا الأمرين ظلم لصاحب الحق بتفويت حقه، وظلم أيضاً للنفس بوقوع الإثم، وظلم للظالم لإعانته على الإثم والعدوان.

وفيها مشروعية الوثائق بالحقوق، وهي أربعة: الشهادة والرهن ــ كما هو مذكور في هذا الموضع ــ والضمان والكفالة، يؤخذ من الاعتبار على هذا المعنى، ومن قوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٢]

أي كفيل وضامن، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، وتقييد الرهن بالسفر لا يدل على أنه لا يكون رهن في الحضر، بل قيد لأجل الحاجة إليه لعدم الكاتب غالباً.

وفيها ثبوت الولاية على القاصرين ـ لجنون أو صغر أو سفه ـ لقوله:

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فأقامه في التصرفات في ماله مقام المالك الرشيد وعليه أن يفعل في أموالهم ما هو الأصلح، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

ولا يدفع إليهم حتى يرشدوا، ويعرف ذلك بالاختبار والتجربة كما قال تعالى:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥]

وفيها في قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ من الفوائد التنبيه على أن كل من فعل إحساناً ومعروفاً أن عليه أن يتممه ويكمله بالتسهيل والتيسير وعدم المضارة، وأن للمحسنين على الناس أن يشكروا لهم معروفهم وأن لا يكلفوهم الضرر والمشقة جزاءاً لهم على إحسانهم وترغيباً في الإحسان.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، كما أن العلم سبب للتقوى، وأوضح من هذا قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الحقائق المحتاج إليها.

وفيها أنه كما أنه من العلوم النافعة تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات والمعاملات، فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

وفيها أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، بل بمجرد الاستئمان لقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

ولكن في هذه الحال تتوقف الثقة على التقوى والخوف من الله وإلاّ فصاحب الحق مخاطر، فلهذا وعظ الله من عليه الحق أن يؤدي أمانته، ويؤخذ من هذا أن من عاملك ورضي بأمانتك ووثق فيك أنه قد فعل معك معروفًا ورآك موضع الثقة والأمانة؛ فيتأكد عليك أداء الأمانة من الجهتين، أداء لحق الله ووفاء بحق من وثق فيك ومكافأة له.

## فصـــل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٦]

وقال يوسف:

﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

يؤخذ من هاتين الآيتين أنه ينبغي أن يتخير في الإجارات والجعالات والأمانات والولايات كلها ــ كبيرة كانت أو صغيرة ــ مَنْ جَمَعَ الوصفين: القوة على ذلك العمل، والكفاءة والحفظ وتوابـع ذلك من جميـع ما تقوم به الأعمال. والأمر الثاني الأمانة، فبالأمانة تتم به الثقة ويعلم نصحه وبذله الواجب، وبالكفاءة والقوة يحصل العمل ويتم ويتقن، فإن وجد الجامع للوصفين على وجه الكمـال فليستمسك بغرزه وإلا اكتفى بالأمثل فالأمثل، ونقص الأعمال كلها من الإخلال بالوصفين أو أحدهما.

## فصــل
## في آيــات المواريث

قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ـ إلى قوله ـ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ﴾ [سورة النساء الآيات ١١ ـ ١٣]

والتي في آخر السورة:

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ إلى آخرها

[سورة النساء: الآية ١٧٦]

تضمنت هذه الآيات الكريمة أحكام المواريث في غاية البيان والتفصيل والإيضاح وفي غاية الحكمة، فتوصيته للعباد بأولادهم من كمال رحمته وعنايته، وأنه أرحم بهم من والديهم، ولذلك وصى الوالدين بالأولاد؛ فالأولاد عند والديهم وصايا من الله وأمانات عندهم؛ على الوالدين أن يربّوهم تربية نافعة لدينهم ودنياهم، فإن فعلوا فقد قاموا بهذه الأمانة؛ وإلّا فقد ضيّعوها وباءوا بإثمها وخسرانها، فذكر الله ميراث الأولاد، وأن لهم ثلاث حالات: إما أن يجتمع الذكور والإناث فحينئذ يتقاسمون المال أو ما أبقت الفروض على عدد رؤوسهم ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ سواء كانوا أولاد صلب أو أولاد ابن ويؤخذ من هذا:

الحالة الثانية: أن يكون الأولاد ذكوراً فقط، فإنهم يتقاسمونه متساوين، ومن ارتفعت درجته حجب من دونه من الأولاد إذا كان الرفيع من الذكور.

الحالة الثالثة: إذا كن إناثاً، فإن كانت واحدة فلها النصف، سواء كانت بنت صلب أو بنت ابن، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلهما الثلثان، ومن الحكمة في الإتيان بقوله: ﴿فوق اثنتين﴾ التنبيه على أنه لا يزيد الفرض وهو الثلثان بزيادتهن على الثنتين، كما زاد فرض النصف لما صرن أكثر من واحدة؛ وقد نصّ الله على أن الأختين فرضهما الثلثان، فالبنتان من باب أولى وأحرى. فإن كان

البنتان بنات صلب لم يبق لبنات الابن شيء، وصار البقية بعد فرض البنات للعاصب، وإن كانت العالية واحدة أخذت النصف، وباقي الثلثين وهو السدس لبنت أو بنات الابن.

هذا ميراث الأولاد قد استوعبته الآية استيعاباً، وقد علمنا من ذلك أن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى من أولاد الصلب وأولاد الابن وإن نزل، وأما أولاد البنات فلا يدخلون في إطلاق اسم الأولاد في المواريث.

ثم ذكر الله ميراث الأبوين: الأم والأب. فجعل الله للأم سدساً وثلثاً، جعل لها السدس مع وجود أحد من الأولاد مطلقاً، منفردين أو متعددين، أولاد صلب أو أولاد ابن، وكذلك جعل لها السدس بوجود جمع من الإخوة والأخوات اثنين فأكثر، وجعل لها الثلث إذا فقد الشرطان المذكوران.

وأما ثلث الباقي في زوج أو زوجة وأبوين فقيل إنه يؤخذ من قوله: ﴿وورثه أبواه﴾ فإذا كان معهما أحد الزوجين خرجت عن هذا فلم يكن لها ثلث كامل، أو يقال إن الله أضاف الميراث للأبوين ـ وهو الأب والأم ـ فيكون لها ثلث ما ورثه الأبوان، ويكون ما يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغريم. فالله أعلم.

وأما الأب فقد فرض الله له السدس مع وجود أحد من الأولاد، فإن كان الأولاد ذكوراً لم يزد الأب على السدس وصار الأبناء أحق بالتقديم من الأب بالتعصيب بالإجماع.

وإن كان الأولاد إناثاً واحدة أو متعددات، فرض له السدس ولهن أو لها الفرض، فإن بقي شيء فهو لأولى رجل، وهو الأب هنا؛ لأنه أقرب من الإخوة وبنيهم ومن الأعمام وبنيهم، فجمع له في هذه الحال بين الفرض والتعصيب، وإن استغرقت الفروض التركة، لم يبق للأب زيادة عن السدس، كما لو خلف أبوين وابنتين؛ فلكل واحد من الأبوين السدس، وللبنتين الثلثان.

ومفهوم الآية الكريمة أنه إذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث، أن الأب يرث بغير تقدير، بل بالعصب، بأن يأخذ المال كله إذا انفرد، أو ما أبقت الفروض

إن كان معه أصحاب فروض، وهو إجماع، وحكم الجد حكم الأب في هذه الأحكام إلا في العمريتين؛ فإن الأم ترث ثلثاً كاملاً مع الجد؛ وأما ميراث الجدة السدس عند عدم الأم فهو في السنة.

ثم ذكر الله ميراث الزوجين، وأن الزوج له نصف ما تركت زوجته إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع، وأن الزوجة واحدة أو متعددات لها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد، فإن كان للزوج ولد منها أو من غيرها ذكر أو أنثى، ولد صلب أو ولد ابن، فلها أو لهن الثمن...

ثم ذكر الله ميراث الإخوة من الأم، وأنهم لا يرثون إلا إذا كانت الورثة كلالة ليس فيهم أحد من الفروع ولا الأب والجد، فللواحد من الإخوة من الأم أو الأخوات السدس، وللاثنين فأكثر الثلث، يستوي فيه ذَكَرُهم وأنثاهم، وهذه الفروض كلها ذكر الله أنها من بعد الوصية إذا حصل الإيصاء بها، ومن بعد الدين. وقد قضى النبي ﷺ: أن الدين قبل الوصية. وقد اتفق العلماء على ذلك، وشرط الله في الوصية أن لا تكون على وجه المضارّة بالورثة، فإن كانت كذلك فإنها وصية إثم وجنف يجب تعديلها وردّ الظلم الواقع فيها.

وأخبر تعالى أن هذه التقديرات والفرائض حدود الله قدرها وحددها، فلا يحل مجاوزتها ولا الزيادة فيها والنقصان، بأن يعطى وارث فوق حقه، أو يحرم وارث أو ينقص عن حقه.

ثم ذكر في آخر السورة ميراث الإخوة لغير أم وأخواتهم بأن الأُنثى الواحدة لها النصف، وللثنتين فأكثر الثلثان، وإن اجتمع رجال ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، ويقال فيهم كما يقال في الأولاد إذا كانوا ذكوراً تساووا إذا كانوا أشقاء أو لأب، فإن وجد هؤلاء وهؤلاء حجب الأشقاء الإخوة للأب، وإن كن نساء شقيقات وأخوات لأب واستغرق الشقيقات الثلثين لم يبق للأخوات للأب شيء؛ فإن كانت الشقيقة واحدة أخذت نصفها وأعطيت الأخت للأب أو الأخوات السدس تكملة الثلثين.

وما سوى هذه الفروض فإن الورثة من إخوة لغير أم وبنيهم وأعمام

وبنيهم وولاء يدخلون في قوله ﷺ في حديث ابن عباس الصحيح: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر. رواه مسلم، فيقدم الإخوة ثم بنوهم ثم الأعمام ثم بنوهم ثم الولاء؛ ويقدم منهم الأقرب منزلة، فإن استوت منزلتهم قدم الأقوى وهو الشقيق على الذي لأب. والله أعلم.

## فصــول
## تتعلق بالنكاح وتوابعه من الأحكام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾

[سورة النساء: الآيتان ٣ و ٤]

لما منّ الباري على عباده بالنكاح قدراً وأباحه شرعاً، بل أحبه ورضيه وحث عليه، لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة، رتّب عليه أحكاماً كثيرة وحقوقاً متنوعة تدور كلها على الصلاح وإصلاح أحوال الزوجين ودفع الضرر والفساد، وهي من محاسن الشريعة، والشريعة كلها محاسن وجلب للمصالح ودرءللمفاسد، يقول تعالى هنا: ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا﴾ أي تقوموا بحق النساء اليتامى اللاتي تحت حجوركم وولايتكم لعدم محبتكم إياهن فاعدلوا إلى غيرهن ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ أي ينبغي أن تختاروا منهن الطيبات في أنفسهن اللاتي تطيب لكم الحياة بالاتصال بهن، الجامعات للدين والحسب والعقل والآداب الحسنة وغير ذلك من الأوصاف الداعية لنكاحهن.

وفي هذه الآية الحث على الاختيار قبل الخطبة، وأنه ينبغي أن لا يتزوج إلا الجامعة للصفات المقصودة بالنكاح، فإن النكاح يقصد لأمور كثيرة من أهمها كفاءة البيت والعائلة وحسن التدبير وحسن التربية؛ وأهم صفة هذا النوع الدين والعقل.

ويقصد به إحصان الفرج والسرور في الحياة، وعمدة هذا حسن الأخلاق الظاهرة وحسن الخلائق الباطنة.

ويقصد به نجابة الأولاد وشرفهم؛ وأساسه الحسب والنسب الرفيع، ولهذا أباح الشارع بل أمر بالنظر لمن يخطبها ليكون على بصيرة من أمره ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي من أحب أن يتزوج اثنتين فليفعل، أو ثلاثاً أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد على الأربع، لأن الآية سيقت للامتنان فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله، إجماعاً، وذلك أن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة أو لا يحصل مقصوده أو مقاصده بها، كما تقدم أن النكاح له عدة مقاصد، فلهذا أباح الله له هذا العدد، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر؛ ومع هذا فإذا خاف من نفسه الجور والظلم بالزيادة على الواحدة فليقتصر على الواحدة أو على ملك يمينه التي لا يجب عليه لها قسم كالزوجات ﴿ذلك﴾ أي الاقتصار على واحدة من الزوجات، أو ما ملكت اليمين، أدنى أن لا تعولوا أي تظلموا وتجوروا.

ويستفاد من هذا المعنى أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب، ولو كان مباحاً لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، وخصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً دفعة واحدة يشق عليهم، حثهم على إيتاء النساء صدقاتهن، أي مهورهن ﴿نحلة﴾ أي عن حال طمأنينة وطيب نفس، من غير مطل ولا بخس منه شيئاً.

وفيه أن المهر للمرأة، وأنه يدفع إليها أو إلى وكيلها إن كانت رشيدة؛ أو إلى وليها إن لم تكن رشيدة، وأنها تملكه بالعقد لأنه أضافه إليها وأمر بإعطائه لها، وذلك يقتضي الملك ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه﴾ أي من الصداق ﴿نفساً﴾ بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المحاباة في التعوض عنه (فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ لا تبعة عليكم فيه ولا حرج؛ وهذا دليل على أن للمرأة الرشيدة التصرف في مالها، ولو بالتبرع، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء إلا ما طابت نفسها به إذا كانت رشيدة، ويؤخذ من الأمر بنكاح ما طاب من النساء تحريم نكاح الخبيثة التي لا يحل للمسلم نكاحها، وهي الكافرة غير الكتابية، وكذلك الزانية حتى تتوب كما نص الله على الثنتين.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنه لا بد في النكاح من صداق، وأنه يجوز في الكثير واليسير للعموم، وأنه لا يباح لأحد أن يتزوج بدون صداق، وإن لم يسم فمهر المثل، إلا النبي ﷺ فإن له ذلك خاصة، كما قال تعالى:

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠]

وفي قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٢]

دليل على اعتبار الولي في النكاح، وهو العاصب ويقدم منهم الأقرب فالأقرب، فإن تعذر الولي القريب والبعيد لعدم أو جهل أو غيبة طويلة، قام الحاكم مقام الولي، فالسلطان والحاكم ولي من لا ولي لها من النساء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا - إلى قوله - مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [سورة النساء: الآيات ١٩ - ٢١]

كان أهل الجاهلية إذا مات أحدهم وُرثت زوجته عنه كما يورث ماله، فرأى قريبه كأخيه وابن عمه أنه أحق بها من نفسها ويحجرها عن غيره، فإن رضي بها تزوّجها على غير صداق أو على صداق يحبّه هو دونها، وإن لم يرض بزواجها عضلها ومنعها من الأزواج إلا بعوَض من الزوج أو منها. وكان منهم أيضاً من يعضل زوجته التي هي في حباله فيمنعها من حقوقها، ومن التوسعة لها لتفتدي منه، فنهى الله المؤمنين عن هذه الأحوال القبيحة الجائرة ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة﴾ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها ومن يتصل به، فيجوز في هذه الحال أن يعضلها مقابلة لها على فعلها لتفتدي منه؛ فإن هذا الافتداء بحق لا بظلم ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته ببذل النفقة والكسوة والمسكن اللائق بحاله ويصاحبها صحبة جميلة بكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة

والخلق، وأن لا يمطلها بحقها، وهي كذلك عليها ما عليه من العشرة، وكل ذلك يتبع العرف في كل زمان ومكان وحال ما يليق به، قال تعالى:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقوله: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي ينبغي لكم يا معشر الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم ولو كرهتموهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً:

منها امتثال أمر الله ورسوله الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه ومجاهدته إياها مع عدم محبة زوجته تمرين على التخلق بالأخلاق الجميلة؛ وربما زالت الكراهة وخلفتها المحبة، وربما زالت الأسباب التي كرهها لأجلها وربما رزق منها ولداً صالحاً نفع الله به والديه في الدنيا والآخرة؛ ولا بد لهذه الكراهة من أسباب من الزوجة، فينبغي إذا كره منها خلقاً لحظ بقية أخلاقها، وما فيها من المقاصد الأخر، ويجعل هذا في مقابلة هذا، وهذا عنوان الإنصاف والرأي الأصيل، فإن النزق الطائش الذي ليس عنده إنصاف يلاحظ بعض أغراضه النفسية، فإذا لم يأت على ما يريد أهدر المحاسن والمناقب الأخر، وهذا لا يكاد يصفو له خل في حياته؛ لا زوجة ولا صاحب ولا حبيب، بل هو سريع التقلب.

أما الرجل الحازم الوفي الزكي، فإنه يوازن بين الأمور، ويقدم الحق السابق، ويفي بالسوابق، ويكون نظره للمحاسن أرجح من نظره للمساوىء.

فإن وصل إلى الدرجة العالية التي لا يصل إليها إلّا أفرادٌ من كُمَّل الرجال جعل المحاسن نصب عينيه وأغضى عن المساوىء بالكلية، وعفا عنها لله ولحق صاحب الحق، فهذا قد كسب الأجر والراحة والخلق الذي لا يلحق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا الصبر المأمور به إنما هو مع الإمكان، فإن كان لا بد من الفراق، ولم يبق للصبر والإمساك موضع، فالله قد أباح الفراق،

فلهذا قال: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أي فلا حرج عليكم، ولكن إذا آتيتم إحداهن أي الزوجة السابقة أو اللاحقة ﴿قنطاراً﴾ وهو المال الكثير ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، بل وفروه لهن ولا تمطلوهن؛ وهذا يدل على جواز إعطاء النساء من المهور وغيرها المال الكثير، وأنها بذلك تملكه، ولكن الأكمل والأفضل التساهل في المهور اقتداء بالنبي ﷺ وتسهيلاً للنكاح ولطرقه وبراءة للذمم.

ثم ذكر الحكمة في تحريم أخذ الزوج ما أعطاه لزوجته، فقال: ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ وبيان ذلك أن الأنثى قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، وهي لم ترض بهذا الحل إلا بالعقد والميثاق الغليظ الذي عقد على ذلك العوض المشروط، فإذا دخل عليها وباشرها وأفضى إليها وأفضت إليه وباشرها المباشرة التي كانت قبل هذه الأمور حراماً فقد استوفى المعوض فثبت عليه العوض تاماً، فكيف يستوفي المعوض ثم يرجع على العوض؟ لا ريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعاً وعقلاً وفطرة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

[سورة النساء: الآية ٢٢]

ثم عدد المحرمات إلى أن قال:

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٤]

قد استوفى الباري المحرمات في النكاح في هذه الآيات في النسب والرضاع والمصاهرة. أما المحرمات بالمصاهرة؛ فإذا تزوج الرجل امرأة ترتب على هذا الزواج أربعة أحكام: تحريم هذه الزوجة على أولاده وإن نزلوا نسباً ورضاعاً وتحريمها على آبائه وإن عَلَوْا نسباً ورضاعاً وحرمت عليه أمها في الحال؛ وأما بنتها فإن كان قد دخل بزوجته حرمت أيضاً وصارت ربيبة لا فرق بين بنتها من زوج سابق له أو من زوج خلفه عليها.

وأما المحرمات بالنسب فتحرم الأمهات، وهنّ كل أنثى لها عليك ولادة، وهي التي تخاطبها بالأم والجدة وإن علَتْ من كل جهة وتحرم البنات، وهن كل أنثى تخاطبك بالأبوة أو بالجدودة من بنات الابن وبنات البنات وإن نزلن، وتحرم الأخوات شقيقاتٍ كن أو لأب أو لأم، وبنات الإخوة وبنات الأخوات مطلقاً، وتحرم العمات والخالات، وهنّ كل أخت لأحد آبائك وإن علا أو أحد أمهاتك وإن عَلَون. وما سوى ذلك من الأقارب حلال، كبنات الأعمام وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات، ولهذا ذكر الله هذا الحل والتحريم المهم في موضعين؛ في هذا الموضع صرح بالمحرمات السبع وقال: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ وفي سورة الأحزاب أتى بها بأسلوب آخر فقال في الحل:

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠]

أي فهن حلال ومن عداهن من الأقارب حرام.

وأما المحرّمات بالرضاع فإنهن نظير المحرّمات بالنسب من جهة المرضعة وصاحب اللبن، فالمرضعة أم للرضيع، وأمهاتها جداته، وإخوتها وأخواتها أخواله وخالاته، وأولادها إخوته وأخواته، وهو عم لأولادهم أو خال، وكذلك صاحب اللبن.

وأما الانتشار من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم لأحد من أقاربه إلاّ لذريته فقط، وتقييد الآية في الربيبة بقوله: ﴿اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ بيان لأغلب أحوالها، ولبيان أعلى حكمة تناسب حكمة التحريم، وأنها إذا كانت في حجرك بمنزلة بناتك لا يليق إلا أن تكون من محارمك.

وتقييدها الآخر بقوله: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ يخرج ابن التبني لا يخرج ابن الرضاع في قول جمهور العلماء ﴿والمحصنات من النساء﴾ أي ذوات الأزواج، فكل أنثى في عصمة زوج أو في بقية عدته لا تحل لغيره، لأن الأبضاع ليست محل اشتراك، بل قصد تمييزها التام، ولهذا شرعت العدة والاستبراء ونحو ذلك.

وقوله: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ المراد بهذا الملك ملك السبي إذا سبيت المرأة ذات الزوج من الكفار في القتال الشرعي حلت للمسلمين، ولكن بعد الاستبراء أو العدة؛ فزوجها الحربي الذي في دار الحرب لم يبق له فيها حق ولا له حرمة، فلهذا حلت للمسلمين كما حل لهم ماله ودمه، لأنه ليس له عهد ولا مهادنة.

وقوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي ما سوى ما نص الله على تحريمه سبع بالنسب وسبع بالرضاع وأربع بالصهر، فما عداهن فإنه حلال، إلا أنه حرم تعالى الجمع بين الأختين، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، وحرم على الأحرار نكاح المملوكات لما فيه من إرقاق الولد، ولما فيه من الدناءة والضرر العائد للأولاد لتنازع الملاك وتنقلات الأرقاء، لكن إذا رجحت مصلحة الإباحة فقد أباحه الله بشرط المشقة لحاجة متعة أو خدمة، وأن لا يقدر على الطول للحرة، وأن تكون الأمة مؤمنة بإذن أهلها، فعند اجتماع هذه الشروط كلها يحل للحر نكاح الإماء.

وقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

هذا خبر وأمر، أي الرجال قوامون على النساء في أمور الدين والدنيا، يلزمونهن بحقوق الله والمحافظة على فرائضه، ويكفونهن عن جميع المعاصي والمفاسد، وبتقويمهن بالأخلاق الجميلة والآداب الطيبة، وقوامون أيضاً عليهن بواجباتهن من النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك. ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي ذلك بسبب فضل الرجال عليهن وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات كلها مختصة بالرجال والنبوة والرسالة، وباختصاصهم بالجهاد البدني

ووجوب الجماعة والجمعة ونحو ذلك، وبما تميزوا به عن النساء من العقل والرزانة والحفظ والصبر والجلد والقوة التي ليست للنساء، وكذلك يده هي العليا عليها بالنفقات المتنوعة؛ بل وكثير من النفقات الأخر والمشاريع الخيرية، فإن الرجال يفضلون النساء بذلك كما هو مشاهد، ولهذا حذف المتعلق في قوله: ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ ليدل على هذا التعميم، فعلم من ذلك أن الرجل كالوالي والسيد على امرأته، وهي عنده أسيرة عانية تحت أمره وطاعته، فليتق الله في أمرها، وليقوِّمها تقويماً ينفعه في دينه ودنياه، وفي بيته وعائلته يجد ثمرات ذلك عاجلاً وآجلاً، وإلّا يفعل فلا يلومن إلّا نفسه؛ وهن قسمان:

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازه الرجال، وهن المذكورات في قوله: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ أي مطيعات لله ولأزواجهن، قد أدت الحقين وفازت بكفلين من الثواب، حافظات أنفسهن من جميع الريب، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيوتهن، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة والأدب النافع في الدين والدنيا، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك فلهذا قال: ﴿بما حفظ الله﴾ أي إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها، فإن من وكل إلى نفسه، فالنفس أمارة بالسوء، ومن شاهد منّة الله وتوكل على الله وبذل مقدوره في الأعمال النافعة، كفاه الله ما أهمه، وأصلح له أموره، ويسّر له الخير وأجراه على عوائده الجميلة.

والقسم الثاني: هن الطبقة النازلة من النساء، وهن بضد السابقات في كل خصلة، اللاتي من سوء أخلاقهن وقبح تربيتهن تترفع على زوجها وتعصيه في الأمور الواجبة والمستحبة، فأمر الله بتقويمهن بالأسهل فالأسهل، فقال: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن﴾ أي بيّنوا لهن حكم الله ورسوله في وجوب طاعة الأزواج، ورغِّبوهن في ذلك بما يترتب عليه من الثواب، وخوفوهن معصية الأزواج، وذكّروهن ما في ذلك من العقاب، وما يترتب عليه من قطع حقوقها وإباحة هجرها وضربها، فإن تقوّمن بالوعظ والتذكير فذلك المطلوب وحصل الاتفاق الذي لا يشوبه مكدِّر، فإن لم يفد التذكير فاهجروهن في المضاجع، بأن

لا ينام عندها ولا يباشرها بجماع ولا غيره لعل الهجر ينجع فيها، وذلك بمقدار ما يحصل به المقصود فقط، فإن القصد بالهجر نفع المهجور وأدبه، ليس الغرض منه شفاء النفس كما يفعله من لا رأي له إذا خالفته زوجته أو غيرها ولم يحصل مقصوده، هجر هجراً مستمراً، أي بقي متأثراً بذلك، عاتباً على من لم يواته على ما يحب، ووصلت به الحال إلى الحقد الذي هو من الخصال الذميمة، فهذا ليس من الهجر الجميل النافع، وإنما هو من الحقد الضارٌ بصاحبه، الذي لا يحصل به تقويم ولا مصلحة، فإن نفع الهجر للزوجة وإلا انتقل إلى ضربها ضرباً خفيفاً غير مبرِّح، فإن حصل المقصود ورجعت إلى الطاعة وتركت المعصية، عاد الزوج إلى عشرتها الجميلة، ولا سبيل له إلى غير ذلك من أذيتها لأنها رجعت إلى الحق.

وهذا الدواء لكل عاص ومجرم إن الشارع رغبه إذا ترك إجرامه عاد حقه الخاص والعام كما في حق التائب من الظلم وقطع الطريق وغيرها، فكيف الزوج مع زوجته.

وفي هذه الآية ونحوها فائدة نافعة، وهي أنه ينبغي لمن عاد إلى الحق أن لا يذكر الأمور السالفة، فإن ذلك أحرى للثبات على المطلوب، فإن تذكير الأمور الماضية ربما أثار الشر فانتكس المرض وعادت الحال إلى أشد من الأولى.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

[سورة النساء: الآية ٣٥]

هذه حالة أخرى غير الحالة السابقة التي يمكن الزوج معالجتها، وهذه إذا استطار الشر بين الزوجين، وبلغت الحال إلى الخصام وعدم الالتئام، ولم ينفع في ذلك وعظ ولا كلام ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ عَدْلين عاقلين يعرفان الجمع والتفريق، ويفهمان الأمور كما ينبغي، فإن الحكم لا بد أن يتصف بهذه الأوصاف، فيبحثان في الأسباب التي أدت بهما إلى هذه الحال ويسألان كلًّا منهما ما ينقم على صاحبه، ويزيلان ما يقدران عليه من المعتبة

بترغيب الناقم على الآخر بالإغضاء عن الهفوات واحتمال الزلات، وإرشاد الآخر إلى الوعد بالرجوع، وإرشاد كل منهما إلى الرضى والنزول عن بعض حقه، فكم حصل بهذا الطريق من المصالح شيء كثير، وإن أمكنهما إلزام المتعصب على الباطل منهما بالحق فَعَلا، ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق والملاءمة بينهما لم يعدلا عنها، إما بتنازل عن بعض الحقوق، أو ببذل مال أو غير ذلك، فإن تعذرت الطرق كلها ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملاءمة فرَّقا بينهما بما تقتضيه الحال بعوض أو بغير عوض، ولا يشترط في هذا رضى الزوج، لأن الله سماهما حكمين لا وكيلين، ومن قال إنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج؛ ولكن هذا القول ضعيف، ولمحبة الباري للاتفاق بينهما وترجيحه على الآخر قال: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ أي بسبب الرأي الميمون والكلام اللطيف والوعد الجميل الذي يجذب القلوب ويؤثر فيها ﴿إن الله كان عليماً﴾ بالسرائر والظواهر مطلعاً على الخفايا، فمن كمال علمه وحكمته شرع لكم هذه الأحكام الجليلة التي هي الطريق الوحيد إلى القيام بالحقوق

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

هذه حالة من أحوال الزوجين غير الأحوال السابقة؛ لأن الحالتين السابقتين حالة نشوز الزوجة وحالة وقوع الخصام واستطارة الشر بينهما، وهذه إذا كان الزوج هو الراغب عن زوجته، إما عدم محبة وإما طمعاً، فأرشد الله في هذه الحال إلى الطريق الذي تستقيم به الأمور، وهو طريق الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها اللازم لزوجها على شرط البقاء معه، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو تسقط حقها من القسم أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها بإذنه فمتى اتفقا على شيء من ذلك فلا حرج

ولا بأس؛ وهو أحسن من المقاضاة في الحقوق المؤدية إلى الجفاء أو إلى الفراق، ولهذا قال: ﴿والصلح خير﴾.

وهذا أصل عظيم في جميع الأشياء، وخصوصاً في الحقوق المتنازع فيها أن المصالحة فيها خير من استقصاء كل منهما على حقه كله، لما في الصلح من بقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح، وهو جائز بين المسلمين في كل الأبواب ـ إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً ـ .

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك فقال: ﴿والصلح خير﴾ والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وأُحضرت الأنفس الشح﴾ أي جبلت النفوس على الشح، وهو الاستئثار والتفرد في الحقوق وعدم الرغبة في بذل ما على الإنسان والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً؛ أي فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم وتقليله وتلطيفه وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة ببذل جميع الحقوق التي عليك والاقتناع ببعض الحق الذي لك والإغضاء عن التقصير، فمتى وفق العبد لهذا الخلق الطيب سهل عليه الصلح بينه وبين كل من بينه وبينه منازعة ومعاملة، وتسهلت الطريق الموصلة إلى المطلوب، ومن لم يكن بهذا الوصف تعسر الصلح أو تعذر؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له كاملاً مكملاً، ولا يهون عليه أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي تحسنوا في عبادة الخالق؛ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ وتحسنوا إلى المخلوقين بكل إحسان قولي أو فعلي؛ وتتقوا الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم على قيامكم بالإحسان والتقوى، أو على عدم ذلك بالجزاء بالفضل والعدل.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٩]

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم، فإن العدل التام يقتضي أن يكون الداعي والحب على السواء؛ والميل القلبي على السواء؛ ويقتضي مع ذلك الإيمان الصادق والرغبة في مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عذر الله الأزواج وعفا عنهم عما لا يقدرون عليه، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا مستطاعكم من العدل، فالنفقة والكسوة والقسم في المبيت والفراش ونحو ذلك مقدور، فعليكم العدل فيها بينهن، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك. فالعبد لا يملك نفسه فعذره الله، وقوله: ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ يعني أن الزوج إذا مال عن زوجته وزهد فيها ولم يقم بحقوقها الواجبة، وهي في حباله أسيرة عنده صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها، وإن تصلحوا فيما بينكم وبين زوجاتكم بوجه من وجوه الصلح كما تقدم، وبمجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس فيما تنازعتم به من الحقوق، وتتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٠]

يعني إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يغنِ الله كلاًّ﴾ من الزوجين ﴿من سعته﴾ أي من فضله وإحسانه العام الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه؛ فإنها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها

المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق، فسوف يغنيها الله من فضله، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاءاً قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي واسع الرحمة كثير الإحسان ﴿حكيماً﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

وفي الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن يعلِّق رجاءه بالله وحدَه، وأن الله إذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمده على ذلك، ويسأله أن يبارك فيه له، فإن انقطع أو تعذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه، فإن هذا السبب من جملة أسباب لا تحصى لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المعين، بل يفتح له سبباً غيره أحسن منه وأنفع، وربما فتح له عدة أسباب؛ فعليه في أحواله كلها أن يجعل فضل ربه والطمع في بره نصب عينيه وقبلة قلبه، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء؛ فإن الله يقول على لسان نبيه: ﴿أنا عند ظن عبدي بي فإن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله﴾ وقال: ﴿إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي﴾.

## فصـــل

قال الله تعالى في أحكام الطلاق والعدد:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ـ إلى قوله ـ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

[سورة البقرة: الآيات ٢٢٩ ـ ٢٣١]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الآيات

[سورة الطلاق: الآية ١ وما بعدها]

ذكر الله أحكام الفراق كما ذكر أحكام النكاح والدخول فيه؛ تقدم أنه تعالى حث الزوج على الصبر على زوجته ما دام متمكناً من الصبر؛ وفي هذا ذكر الله أنه إذا كان لا بد له من الطلاق، فعليه أن يطلق زوجته لعدتها، أي

لتستقبل عدتها، وذلك أن يطلقها مرة واحدة في طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهي حامل قد تبين حملها، أو وهي آيسة أو صغيرة، لأنها في هذه الأحوال كلها تبتدىء بالعدة البينة الواضحة، فمن طلَّقها أكثر من واحدة، أو وهي حائض أو نفساء، أو في طهر قد وطىء فيه ولم يتبين حملها فإنه آثم متعدٍّ لحدود الله، وإذا طلَّقها هذا الطلاق المشروع فله أن يراجعها ما دامت في العدة كما قال تعالى:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وسواء رضيت أو كرهت.

وهذا الطلاق الذي يتمكن فيه العبد من الرجعة، هو الطلاق بواحدة إلى ثنتين بلا عوض، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا تحل له حتى تنقضي عدتها وتنكح زوجاً غيره نكاح رغبة لا نكاح تحليل، ويطأها ويطلِّقها رغبة في طلاقها وتنقضي عدتها منه فله أن ينكحها برضاها وببقية شروط النكاح من الولي ومن الصداق وغيره؛ فإن طلَّقها بعوض بلفظ الطلاق أو الخلع أو الفداء، أو غيرها من الألفاظ، فقد أباح الله هذا الفداء عند الحاجة، وهي التي نص عليها بقوله: ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وسواء كان العوض بقليل أو كثير لعموم الآية، فإذا فارقها على هذا الوجه حصل لها الفكاك منه ولم يكن له عليها رجعة إلا إذا شاءت بنكاح جديد، وعند التراجع بين الزوجين إذا رغب كل منهما في الآخر، فليس لولي الأنثى أن يعضلها ويمنعها أن تراجع بعلها الأول أو الذي فارقها، بغضاً له أو نكاية له وغضباً عليه، أو طمعاً في بذلها أو بذله له شيئاً من المال؛ فكل هذا لا يحل للولي أن يفعله، بل عليه أن يسعى في التأليف بينها وبين زوجها، وأقل ما عليه أن لا يعارض في ذلك، وإذا كان منهياً عن ذلك بعد الطلاق أو الفداء ونحوهما؛ فكيف في ابتداء الأمر، ولكن بشرط أن يكون الزوج كفؤاً وترضى المرأة فيه.

وأما إذا منعها مِن تزوُّج مَن ليس كفؤاً لها في دينه أو غيره من الصفات المعتبرة شرعاً فهو محسن، لأن منعها عما فيه ضررها إحسان عليها. وهذا أحد

الأسباب في اعتبار الولي للمرأة في النكاح. وفي قوله في الرجعة:
﴿إِنْ يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٥].

وفي التراجع ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ اعتبار هذا الشرط في الرجعة والتراجع، وإلا فلا يراجع ولا يتراجعا للضرار وللبقاء على غير ما يحبه الله. وفي هذا أن الأفعال مبنية على مقاصدها، وأن الأمر الذي يقصد فيه الخير والصلاح لا بد أن يجعل الله فيه بركة، كما أن الذي يقصد به غير ذلك ولو مكن منه العبد فإنه ضرر حاضر ويخشى أن تكون عواقبه ذميمة.

ويستفاد من هذا معنى كليٌّ نافع، وهو أنه ينبغي للعبد إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور مثل الأمور التي يترتب عليها حقوق كثيرة، ومثل الولايات الكبار والصغار والأمور المهمة أن يتأنى وينظر في نفسه وعاقبة أمره، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بقيامه بما فيها من الحقوق تقدم إليها متوكلاً على الله، وإلا أحجم واغتنم السلامة عن الدخول في الأمور الخطرة. وأمر تعالى الأزواج أن يمسكوا زوجاتهم بمعروف أو يسرحوهن بمعروف، فإن أمسكها أمسكها بعشرة حسنة، وإن فارقها فليكن على وجه الشرع بطمأنينة، من غير مغاضبة ولا مشاتمة ولا عداوات تقع بينه وبينها، أو بينه وبين أهلها.

ومن التسريح بالمعروف أن يعطيها شيئاً من المال تتمتع به وينجبر به خاطرها، وتذهب عن زوجها شاكرة، ولا يكون لهذا الفراق على هذا الوجه إلا العواقب الطيبة للطرفين.

ولما بين الباري هذه الأحكام الجليلة غاية التبيين، وكان القصد بها أن يعلمها العباد ويعملوا بها ويقفوا عندها ولا يتجاوزوها، فإنه لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالعلم والصدق والحق النافع والجد، نهى عن اتخاذها هزواً أي لعباً بها، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل المضارة في الإمساك والإرسال أو كثرة الطلاق وجمع الثلاث، وقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بأن يستعان بنعمه على طاعته، وخصوصاً ما أُنزل عليكم من الكتاب والحكمة، فإن في الكتاب والسنة

من بيان الحق والهدى من الضلال والحلال من الحرام وجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم ما يوجب للعباد أن يشكروه شكراً كثيراً ويقوموا بحقه ويخضعوا لأحكامه، وختم الآيات بعموم علمه تنبيه على أن أحكامه قد شرعها العليم الحكيم صالحة للعباد في كل زمان ومكان.

وقد ذكر عدة المفارقة بحسب أحوالها في كتابه، فذكر أن المفارقة بطلاق إن كانت تحيض باستكمال ثلاثة قروء من بعد وقوع الطلاق عليها، وأن الآيسة والتي لم تحض لصغر ونحوه عدتها ثلاثة أشهر، وأن المفارقة بموت زوجها تربص أربعة أشهر وعشراً، وأن الحامل من المفارقات في الحياة وبعد الممات عدتها بوضع الحمل.

وفي هذه العدد وتقديرها من الأسرار والحكم والمنافع للزوجين وغيرهما ما هو من آيات الله للمتأملين المستبصرين، وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٤٩]

ففي هذه الآية أن المفارقة في الحياة بطلاق ونحوه ليس لزوجها عليها عدة إذا لم يدخل أو يخلُ بها، بل بمجرد ما يطلقها لها التزوج في الحال.

وفي هذا أن العدة تثبت بالدخول، وكذلك الخلوة، كما ثبت عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. ومفهوم الآية أن الفراق بالموت تعتد له الزوجة المعقود عليها ولو قبل الدخول، وكما يؤخذ من مفهوم هذه فإنه يؤخذ من عموم قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ ــ الآية ــ

[سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

وفيها أن العدة من حقوق الزوج لتمكنه من الرجعة ولحفظ فراشه ومائه

من الاختلاط؛ وحق لها أيضاً؛ فإن المعتدة نوعان: نوع حامل لها النفقة بكل حال. قال تعالى:

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٦]

ونوع غير حامل. وهي أيضاً نوعان: مفارقة بائنة بموت أو فسخ أو خلع أو ثلاث أو عوض. فهؤلاء كلهن لا نفقة لهن ولا كسوة ولا مسكن إلا على وجه المعروف والإحسان، ومفارقة رجعية فما دامت في العدة فلها النفقة والكسوة والمسكن وتوابعها على الزوج، وحكمها حكم الزوجة التي في حباله في كل حال إلا في القسم فلا قسم له، لأن الله سماه بعلاً لها في قوله: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ ولأن له أن يرجعها إلى الزوجية التامة رضيت أو كرهت ما دامت في العدة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

دليل على أمانتها على نفسها وقبول قولها في وجود الحيض وانقطاعه لأنه توعدها بكتمان ذلك، وهذا دليل على أن قولها معتبر. وفي قوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ دليل على أنه لا يقع الطلاق إلا بعد النكاح. وأن من علق طلاقاً بنكاح امرأة لم ينعقد هذا التعليق ولم يقع عليها شيء إذا نكحها، لأن النكاح لا يراد به خلاف مقصوده وهذا بخلاف تعليق عتق المملوك للغير بملكه إياه، فإنه صحيح ويعتق إذا ملكه. لأن تملك الرقيق يقصد به العتق، وهو مقصود شرعي صحيح.

وقوله: ﴿فمتعوهن﴾ فيه الأمر بتمتيع المفارقة بالطلاق قبل المسيس مطلقاً. وفي آية البقرة الأمر بالتمتيع إذا لم يسم لها مهراً؛ فإن سمَّى لها مهراً فإنه يتنصف إذا طلقها قبل الدخول، ويكون نصف الصداق هو المتعة كما قال تعالى:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٣٦ و٢٣٧]

فحث على العفو في هذا الموضع الخاص لنفعه وعظم موقعه، وقال: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ وهذا إرشاد عظيم نافع في جميع المعاملات أنه ينبغي للعبد فيها أن لا يتسقصي في كل شيء، بل يجعل للفضل محلاً من عفو ومحاباة وإعطاء أزيد مما في الذمة قدراً أو وصفاً، وقبول أدنى من الحق كمية وكيفية، فكم حصل بهذا الفضل ــ وإن كان طفيفاً ــ خير كثير وأجر كبير، ومعروف وبركة، وراحة فكر وطمأنينة قلب.

وفي قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٤١]

وهذا العموم يقتضي أن كل مطلقة لها على زوجها متعة؛ لكن إن كانت غير مدخول بها ولم يسمَّ لها مهر، فالمتعة واجبة كما تقدم بحسب يسار الزوج وإعساره، وإن كان قد سُمي لها مهر، تنصف المهر وكان النصف الحاصل لها هو المتعة؛ فإن لم يكن الأمر كذلك كانت المتعة حقاً معروفاً وإحساناً جميلاً، لما فيها من جبر خاطرها وقضاء نوائبها التي هي مظنة الحاجة إليها في تلك الحال، وكون ذلك عنواناً على التسريح بالمعروف، ودفعاً للمشاغبات والعداوات التي تحدث لكثير من الناس عند الطلاق، واحتياطاً لبراءة ذمته مما لعله لحقه لها من الحقوق، وتسهيلاً للرجعة أو المراجعة إذا تغيرت الحال وأحدث الله بعد ذلك أمراً. ولها من الفوائد شيء كثير، ومدح الله هذه الأحكام الجليلة بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٤٢]

فسمّى هذه الأحكام آيات لأنها تدل أكبر دلالة على عنايته ولطفه بعباده، وأنه شرع لهم من الأحكام، الأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ولا يُصلح العباد غيرها.

## فصـــل
## في آيات في الإيلاء والظهار واللعان

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ و٢٢٧]

وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآيات.

[سورة المجادلة: الآية ١]

وقال في اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيات. [سورة النور: الآية ٦]

من جملة الأحكام المنتشرة المتعلقة بالزوجة أنه قد يؤلي منها أو يظاهر منها، والفرق بين الإيلاء والظهار أن الإيلاء هو الحلف بالله على ترك وطء زوجته أبداً أو مدة طويلة تزيد على أربعة أشهر إذا كان قادراً على الوطء؛ فإذا فعل ذلك وحلف هـذا الحلف فلا يخلو، إمـا أن تطالبـه الزوجـة بحقهـا من الـوطء أو لا تطالبه، فإن لم تطالبه ترك وشأنه، فإن وطىء في هذه المدة فقد حنث، وعليه كفارة يمين، وإلا فلا كفارة عليه؛ وإن طالبته بالوطء أمر بذلك وجعل له أربعة أشهر؛ فإن فاء ورجـع إلى الوطء فذلك هو المطلوب منه، وهو أحب الأمرين إلى الله، وإن أبـى وامتنـع ومضت الأربعة الأشهر وهو مُصرٌّ على عدم وطئها وهي مقيمة على طلب حقها، أُجبر على أحد أمرين: إما أن يفيء ويكفِّر كفارة يمين، وإما أن يطلق. فإن امتنـع من كل منهما طلق الحاكم عليه.

وأما الظهار فأن يحرم زوجته ويقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي، أو نحوه مـن ألفاظ التحريم الصريحة. فهذا قد أتى منكراً من القول وزوراً؛ وكذب أعظم كذب إذ شبه من هي حلال بمن هي أعظم المحرمات، وهي الأم، ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢]

ثم عرض التوبة فقال:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ـ تتمة الآية ـ، [سورة المجادلة: الآية ٢]

ثم ذكر طريقها بالكفارة، فأمر المظاهر أن يعتق رقبة من قبل أن يمسها فإن لم يجد صام شهرين متتابعين من قبل المسيس أيضاً، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، فبعد هذه الكفارة تحلُّ له الزوجة وتنحل يمينه.

وأما اللعان فإن الزوج إذا رمى زوجته بالزنا ولم يكن له على ذلك أربعة شهود ولم تعترف بل أقامت على الإنكار، فعليه ما على من قذف المحصنات من جلد ثمانين جلدة إلا أن يلاعنها، وذلك بأن يشهد أربع مرات أنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، ويقول في الخامسة داعياً على نفسه، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فحينئذ يترتب عليها الحد أو الحبس حتى تقر، إلا أن تقابله بلعان يدرأ عنها العذاب، بأن تقول أربعاً: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فعند ذلك يحصل الفراق الأبدي بينه وبينها.

والحكمة في تخصيص الزوج بسقوط حد القذف عنه إذا لاعن أن الزوج محتاج، وربما كان مضطراً إلى رميها لنفي ما يلحقه من أولاد غيره ولحقّه وإفساد فراشه. وأما القاذف، إذا كان غير زوج، إذا قذف غيره بالزنا، فإن الله قال في حدِّه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [سورة النور: الآيتان ٤ و٥]

## فصـــل
## في آيات الحدود

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ ـ إلى آخرها والتي بعدها ـ [سورة البقرة: الآيتان ١٧٨ و١٧٩].

يمتن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص في القتلى، أي المساواة فيه، وأن يقتل القاتل عمداً على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل بين العباد. وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يحل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل إذا تمت الشروط كما يفعله أهل الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدِثين.

ثم فصل ذلك بقوله: ﴿الحر بالحر﴾ يدخل في منطوقها وفي منطوق قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥]

أن الذكر يقتل بالأنثى، كما تقتل الأنثى بالذكر، فيكون هذا المنطوق مقدماً على مفهوم قوله: ﴿الأنثى بالأنثى﴾ مع دلالة صريح السنة الصحيحة في قتل النبي ﷺ اليهودي بالجارية. وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السُّنة بذلك، مع أن في لفظ القصاص ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالدين من الرحمة المانعة من صدور هذه الجريمة منهما على ولدهما ما يحدث الشبهة، إما أنه لا بد أن في عقلهما اختلالاً أو أذية شديدة أحرجته إلى قتل ولده، أو لم يحرر أن القتل عمد محض.

وخرج من هذا العموم أن المسلم لا يقتل بالكافر لثبوت السنة بذلك، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وليس أيضاً من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه ﴿والعبد بالعبد﴾ ذكراً كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل مفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساوٍ له. وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في العمد العدوان؛ وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال:

﴿فمن عُفي له من أخيه شيء﴾ أي عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي؛ فإذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل بالمعروف من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان: مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان كما قال ﷺ: «رحم الله عبداً سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

وفي قوله: ﴿عفي له من أخيه﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأكمل من ذلك العفو مجاناً، وفي قوله: ﴿أخيه﴾ دليل على أن القاتل عمداً لا يكفر، لأن المراد بالأخوَّة هنا أخوة الإسلام؛ فلم يخرج بالقتل عنها، ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون القتل، فإن صاحبها لا يكفر ولكنه يستحق العقاب، وينقص بذلك إيمانه إن لم يتب؛ وإذا عفا أولياء المقتول أو بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم. فلهذا قال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾ أي في الآخرة؛ وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك.

ثم بيَّن تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه إذا قَتَل قُتِل لا يكاد يصدر منه قتل؛ وإذا رؤي القاتل مقتولاً انزجر غيره بذلك؛ فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل من انكفاف الشر ما يحصل بالقتل؛ وهكذا سائر الحدود الشرعية: فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر الحياة لإفادة التعظيم.

ولما كان هذا الحكم لا يعرفه حقيقة المعرفة إلا أهل العقول الكاملة قال: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾. وهذا يدل على أنه يحبُّ من عباده أن يُعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبير ما في أحكامه من الحكم

والمصالـح الدالَّة على كماله، وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة؛ وأن من كان بهذا الوصف فقد استحق الثناء والمدح بأنه من ذوي الألباب، الذين وجه إليهم الخطاب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً، وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له أن ينقاد لأمر الله ويخضـع لشرعه طاعة لله ولرسوله. قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة النور: الآية ٢]

هذا حد الزاني غير المحصن من ذكر أو أنثى يجلد مائة جلدة، جلدات تؤلمه وتزجره ولا تهلكه، ويتعين أن يكون ذلك علناً لا سرًّا بحيث يشهده طائفة من المؤمنين، لأن إقامة الحدود من الضروريات لقمـع أهل الجرائم، واشتهارها هو الذي يحصل به الردع والانزجار وإظهار شعائر الدين، والاستتار به أو على أحد دون أحد فيه مفاسد كثيرة. ووردت السُّنة بتغريب عام كامل عن وطنه مـع الجلد، كما تواترت السنة وأجمـع المسلمون على رجم الزاني المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨]

السارق هو من أخذ مال غيره المحترم بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب هذه العقوبة؛ وهو أنه يجب قطـع يده اليمنى كما هي قراءة بعض الصحابة، واليد إذا أطلقت فهي الكف إلى الكوع فقط، فإذا قطعت حسمت وجوباً في زيت أو ودك مغليّ لتنسد العروق فيقف الدم، ولكن السُّنة قيدت عموم الآية الكريمة بأمور كلها ترجـع إلى تحقيق السرقة للأموال.

فمنها: لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربـع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي ذلك.

ومنها: لا بد أن يكون المأخوذ منه حرزاً، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة، فلو سرق من مال غير محرز فلا قطع عليه، ويؤخذ هذا من لفظ السارق؛ فإنه الذي يأخذ المال على وجه لا يمكن التحرز منه، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد فقيل تقطع يده اليسرى، ثم إن عاد قطعت رجله اليمنى، وقيل يحبس حتى يموت. وورد في ذلك آثار عن السلف مختلفة.

وقوله: ﴿جزاءاً بما كسبا﴾ من التجري على أموال الناس ﴿نكالاً من الله﴾ أي ترهيباً منه للسُّرَّاق ليرتدعوا إذا علموا أنهم يقطعون. وهذا نظير قوله في القتل: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ والله ﴿عزيز حكيم﴾ أي عز وحكم، فقطع بحكمته يد السارق تنكيلاً للمجرمين وحفظاً للأموال.

وقد ذكر الله قبل هذا حد قُطَّاع الطريق المحاربين في قوله:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٣]

فقيل إن الإمام مخير فيهم بين هذه الأمور، وعليه أن يفعل ما تقتضيه المصلحة ويحصل به النكاية؛ وقيل إن هذه العقوبة مرتبة بحسب الجريمة؛ فإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع لهم بين القتل والصلب، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً قُتلوا ولم يُصلبوا، وإن أخذوا مالاً ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالاً، نُفوا من الأرض فلا يتركون يأوون إلى بلد، أو يحبسون كما قاله بعضهم.

## فصل
## في الأيمان ونحوها

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا

﴿حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
[سورة المائدة: الآيات ٨٧ ــ ٨٩]

يقول الباري: يا أيها الذين آمنـوا اعملوا بمقتضى أيمانكم في تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، فلا تحرِّموا مـا أحل الله لكم من المطاعم والمشارب وغيرها، فأنها نِعَمٌ تفضَّل الله بها عليكم فاقبلوها، واشكروا الله عليها إذْ أحلهـا شرعاً ويسَّرها قدراً، ولا تردوا نعمة الله بكفرها أو عـدم قبولهـا أو اعتقاد تحريمها أو الحلف على عدم تناولها، فإن ذلك كله من الاعتداء، ولهذا قال: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم على ذلك ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم ويسَّره لكم بأسبابه المتنوعة، إذا كان حلالاً، لا سرقة ولا غصباً، ولا حصل في معاملة خبيثة، وكان أيضاً طيباً نافعاً لا خبث فيه ﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن الإيمان لا يتم إلاّ بـذلك، وهو يدعو إلى ذلك.

ودلت الآية الكريمة أن العبد أذا حَرّم حلالاً عليه من طعام وشراب وكسوة واستعمال وسرية ونحو ذلك، فإن هذا التحريم منه لا يحرِّم ذلك الحلال، لكن إذا فعله فعليه كفارة يمين، لأن التحريم يمين كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [سورة التحريم: الآيتان ١ و٢]

وهذا عام في تحريم كل طيب، إلا أن تحريم الزوجة يكون ظهاراً فيه كفارة الظهار السابقة.

وكما أنه ليس له أن يحلف على ترك الطيبات فليس له أن يمتنع من أكلها ولو بلا حلف تنسكاً وغلوًّا في الدين؛ بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ويشمل هذا الأَيمان التي حلف بها من غيرِ نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك، ﴿ولكن يؤاخذكم

بما عَقَّدتم الْأَيمان﴾ أي بما عقّدت عليه قلوبكم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٥]

فإذا عقد العبد اليمين وحنث ـ بأن فعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله ـ خُيِّر في الكفارة بين إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، وذلك يختلف باختلاف النـاس والأوقات والأمكنـة، أو كسوتهم بما يعد كسوة، وقيد ذلك بكسوة تجزي في الصلاة، أو تحرير رقبة صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة، كما في الآية المقيدة بالْأيمان، وأن تكون تلك الرقبة سليمة من العيوب الضارة بالعمل، فمتى كفَّر بواحد من هذه الثلاثة انحلت يمينه.

وهذا من نعمة الله على هذه الأمة أنه فرض لهم تحِلّة أَيْمانهم ورفع عنهم الإلزام والجُناح، فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام، أي متتابعة مع الإمكان، كما قيدت في قراءة بعض الصحابة ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن أن تحلفوا بالله وأنتم كاذبون، وعن كثرة الْأيمان لا سيما عند البيـع والشراء، واحفظوها إذا حلفتم، عن الحنث فيها، إلّا أذا كان الحنث خيراً من المضي فيها، كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٤]

أي لا تقولوا إننا قد حلفنا على ترك البر وترك التقوى وترك الإصلاح بين الناس، فتجعلوا أيمانكم مانعةً لكم من هذه الأمور التي يحبها الله ورسوله، بل احنثوا وكفِّروا وافعلوا ما هو خير وبر وتقوى؛ واحفظوا أيضاً أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم بالكَفارة، فإن الكَفارة بها حفظ اليمين الذي معناه تعظيم المحلوف به، فمن كان يحلف ويحنث ولا يكَفِّر فما حفظ يمينه، ولا قام بتعظيم ربه ﴿كذلك يبين الله لكم آياتـه﴾ المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام ﴿لعلكم تشكرون﴾ فعلى العباد أن يشكروا ربهم على بيانه وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمون، فإن العلم أصل النعم وبه تتم.

## فصـــل
## في آيات في الأطعمة ونحوها والصيود وتوابعها

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩]

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾

[سورة المائدة: الآية ٣]

وبعدها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ﴾

[سورة المائدة: الآية ٤]

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢١]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و [سورة الأنعام: الآية ١٤٥]

دلت هذه الآيات الكريمات على أن الأصل في الأشياء الحلّ من طعام وشراب وغيرها، لأن الله تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً ننتفع به بكل وجوه

الانتفاعات، من أكل وشرب واستعمال. وفصَّل لنا ما حرّم علينا؛ فما لم يذكر في الكتاب والسنة تحريمه فهو حلال، وأباح لنا كل طيب، وحرّم علينا كل خبيث.

فمن الخبائث المحرمة الميتة ـ سوى ميتة الجراد والسمك ـ وهي ما مات حتف أنفه أو ذُكِّي ذكاة غير شرعية، والدم المسفوح كما قيدته الآية الأخرى، وأما الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح فإنه طيب حلال ﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ بأن ذُبح لغير الله من أصنام أو ملائكة أو إنس أو جن أو غيرها من المخلوقات.

ومن الخبائث كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، كما صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ.

ومن الميتة ﴿والمنخنقة﴾ أي التي تخنق بالحبال أو غيرها، أو تختنق فتموت ﴿والموقوذة﴾ وهي التي تضرب بالحصى أو بالعصا حتى تموت. ومن هذا إذا رمى صيداً فأصاب الصيد بعرضه فقتله، ﴿والمتردية﴾ وهي التي تسقط من موضع عال كسطح وجبل فتموت ﴿والنطيحة﴾ التي تنطحها غيرها فتموت بذلك، وما أكله ذئب أو غيره من السباع؛ وكل هذه المذكورات إذا لم تدرك ذكاتها؛ فإن أدركها حية فذكّاها حلت. لقوله: ﴿إلا ما ذَكَّيتم﴾ وساء غلب على الظن بقاؤه أو تلفه إذا لم يُذَكَّ أم لا.

ومن المحرّمات الحشرات وخشاش الأرض من فأرة وحية ووزغ ونحوها من المستخبثة شرعاً وطِبًّا.

ومن المحرمات ما ذُكِّي ذكاة غير شرعية، إما أن الذابح غير مسلم ولا كتابي، وإما أن يذبحها في غير محل الذبح وهي مقدور عليها، وإما أن لا يقطع حلقومها ومريها، وإما أن يذبحها بغير ما ينهر الدم أو بعظم أو ظفر، وما أمر الشارع بقتله أو نهى عن قتله، دل على تحريمه وخبثه.

وكل هذه الأشياء تحريمها في حال السعة، وأما إذا اضطر إليها غير باغ لأكلها قبل أن يضطر ولا متعد إلى الحرام، وهو يقدر على الحلال، فإنه إذا

اضطر إليها غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم. من رحمته أباح المحرّمات في حال الضرورة.

ومن رحمته وسَّع لعباده طرق الحلال، فأباح الصيد إذا جرح في أي موضع من بدنه، وأباح صيد السهام إذا سمّى الرامي عند رميها، وأباح أيضاً صيد الكلاب المعلَّمة والطيور المعلَّمة والتعليم يختلف باختلاف الحيوانات؛ قال العلماء: تعليم الكلب أن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل من صيده لقوله: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرسالها لقصد الصيد.

## فصـــل
## في جوامع الحُكْم والقضايا في الأصول والفروع

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٩]

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٥]

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٢]

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

الحكم بين الناس بالحق والقسط، هو الحكم بما أنزل الله؛ وهو الرد إلى الله ورسوله؛ فإن هذه الآيات يصدِّق بعضها بعضاً؛ وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول، وأن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الإطلاق، أي أعدلها وأقومها وأصلحها وأحسمها للشرور، وأعظم أحكام توسل

بها إلى تحصيل المصالح ودرء المفاسد؛ وأن رد مسائل النزاع والاختلافات الدينية والدنيوية إلى الله والرسول خير في الحال وأحسن عاقبة، وأن كلمات الله تمت وكملت من كل وجه صدقاً في إخبارها، عدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها، فكل مسألة خارجة عن العدل إلى الظلم، وعن الصلاح إلى الفساد، فليست من الشرع، وقد جاء شرع الله محكم الأصول والفروع، موافقًا للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل.

وقد حكم الله ورسوله بأحكام متنوعة متفرعة عن هذا الأصل العظيم؛ وتفصيل لمجمله، فحكم الله بأن إقرار من عليه الحق معتبر في القليل والكثير، كما تقدم التنبيه عليه في آية الدَّين.

وحكم بأن البينة على المدَّعي لإثبات حق، أو المدَّعي براءة الذمة من الحقوق الثابتة، وأن اليمين على من أنكر، وهاتان القاعدتان عليهما مدار جمهور القضايا، اعتبار إقرار من عليه الحق إذا كان جايز التصرف، وتكليف المدَّعين كلهم بالبينات.

والبينة شرعاً اسم جامع لكل ما بيَّن الحق؛ والبيان مراتب بعضها يصل إلى درجة اليقين وبعضها كالقرائن، وشواهد الأحوال توصل إلى غلبة لظن، والترجيحات كثيرة جداً.

وعند تساوي الترجيحات ومقادير الأشياء وكمياتها بالتوسط بينها، إما بقسمتها متساوية وجعل الزيادة والنقص بحسب ذلك، وإلا بالقرعة إذا تعذرت القسمة. ومن أحكام الشارع العادلة إلغاؤه المعاملات الظالمة الجائرة: كأنواع الغَرَرِ والظلم والميل على أحد المتعاملين بغير حق.

ومن أحكامه الكلية اعتباره التراضي بين المتعاملين في عقود المعاوضات وفي عقود التبرعات، وأنه لا يحل مال امرىء مسلم أو معاهد إلا بطيب نفسه.

ومن أحكامه الكلية منع الضرر والإضرار بغير حق في كل معاملة وخلطة وجوار واتصال.

ومن أحكامه الكلية أن على العمال تكميل أعمالهم بغير نقص، وعلى من عمل لهم تكميل أجورهم.

ومن أحكامه الكلية إيجابه الوفاء بالعقود والشروط التي يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر في أبواب العقود كلها، مما لكل منهما أو لأحدهما فيه مصلحة، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرم حلالاً، فهذا قد أهدره الشارع وألغاه وقال: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ.

ومن أحكامه الكلية اعتبار المقاصد والنيات في أبواب المعاملات والأعمال، كما تعتبر في باب العبادات، وبهذا الأصل أبطل جميع الحيل التي يتوسل بها إلى فعل محرم أو إسقاط حق مسلم ونحوها.

ومن أحكامه الكلية أن جميع العقود اللازمة والجائزة: عقود المعاوضة وعقود التبرع، وكذلك الفسوخ تنعقد بما دل عليها من الألفاظ التي يتعارفها المتعاقدان؛ ومن الأفعال الدالة على ذلك.

ومن أحكامه الكلية أنّ تَلَفَ الشيء بيد الظالم كالغاصب ونحوه فيه الضمان، فرّط أو لم يفرِّط، فإن ثبوت يده على وجه الظلم والعدوان، وأن تلف الشيء تحت يد الأمين لا ضمان فيه إن لم يفرِّط أو يتعدَّ.

ومن أحكامه الكلية أن الشيء المشكوك فيه يرجع فيه إلى اليقين في العبادات والمعاملات: فمن ادعى الأصل فقوله مقبول، ومن ادعى خلاف الأصل لم يقبل إلا ببينة، وأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، والأصل براءة الذمة حتى يتيقن اشتغالها، كما أن الأصل بقاء ما كان ثابتاً في الذمة حتى يتيقن البراءة بوفاء أو إسقاط أو سقوط؛ وأن الأصل في عقود المسلمين الصحة والسلامة حتى نعرف أنه جرى ما يفسدها.

ومن أحكامه الكلية أن جميع الأحكام من أصول وفروع لا تتم وتكمل ويحصل مقتضاها إلا باجتماع شروطها وأركانها ومقوِّماتها وانتفاء موانعها ومفسداتها.

ومن أحكامه الكلية وجوب المماثلة في المتلَفات والمضمونات بمثلها إن أمكن المثل، وبالقيمة إن تعذر المثل.

وكذلك الأعمال، فمن عمل لغيره عملاً بعوض لم يُسمَّ، أو سُمِّي تسمية فاسدة، أو جهلت التسمية أو عاوضه معاوضة تعذر معرفة العوض فيها، فإنه يرجع في ذلك إلى أجرة المثل وعوض المثل.

ومن أحكامه الكلية وجوب العدل بين الأولاد والزوجات، ووجوب العدل بين ذوي الحقوق الذي لا مزية لواحد منهم على الآخر، كالعول الداخل على أهل الفروض بالسوية، وكقسمة المال بين الغرماء إذا لم يف بحقوقهم يعطون على قدر حقوقهم إذا لم يكن لأحدهم مزية رهن ونحوه، وكاشتراك الملّاك في الزيادة المترتبة عليها على قدر أملاكهم والنقص على قدر أملاكهم إذا اعتراها نقص، وسواء كان النقص بحق تعلق بها أو بتلف أو خسارة أو وقع ظلماً فإنهم يشتركون في الزيادة والنقص على قدر أملاكهم.

ومن أحكامه الكلية إثبات الخيار في كل عَقد ظهر في العوض المعين أو المعوض عيب ينقصه؛ وأنه إذا لم يمكن الرد تعين الأرش وإسقاط النقص، وعلى الصحيح لا فرق بين البيوع وغيرها، فإن هذا من قاعدة العدل.

ومن أحكامه الكلية جعل المجهول كالمعدوم، ويندرج تحت هذا الأصل الأموال التي جهل ملاكُها أنه يتصدق بها عنهم أو تبذل في المصالح نيابة عنهم، وتملك اللقطة ومن مات لا وارث له بفرض ولا تعصيب ولا رحم: تركته في بيت المال للمصالح العامة جعلاً للمجهول في ذلك كالمعدوم.

ومن أحكامه الكلية الرجوع إلى العرف إذا تعذر التعيين شرعاً ولفظاً، كالرجوع للعرف في نفقة الزوجات والأقارب والأُجَراء، وكالشروط العرفية في المعاملات إذا اطردت بين الناس وكالقبض والحرز ونحوها مما لا يعدّ ولا يحصى.

ومن أحكامه الكلية أن الأصل في العبادات الحظر، فلا يشرَّع منها إلا

ما شرعه الله ورسوله، والأصل في المعاملات والاستعمالات كلها الإباحة؛ فلا يحرَّم منها إلاّ ما حرمه الله ورسوله؛ وعلى هذا جميع أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما لا يمكن إحصاؤه، ولهذا من شرّع في عبادة لم تنقل عن الشارع فهو مبتدع، ومن حرّم من العادات شيئاً لم يرد عن الشارع فهو مبتدع.

ومن أحكامه الكلية حثه على الصلح والإصلاح بين من بينهم حقوق، وخصوصاً عند اشتباهها أو عند تناكرهما، وإذا تعذر استيفاء الحق كله أو تعسّر، فقد شرع في ذلك كله الصلح بالعدل، وسلوك الحالة المناسبة لتلك القضية بما تقتضيه الحال، وفيه من الفوائد والثمرات الطيبة ما لا يعد ولا يحصى.

ومن أحكامه الكلية اعتبار العدالة في الشهود وأن يكونوا ممن يرضي من الشهداء، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فالشارع اعتبر شهادة العدل المرضي من الشهداء وأسقط شهادة الكاذب والقاذف قبل التوبة، وأمر بالتثبت في خبر الفاسق وكذلك المجهول، لأنه اعتبر المرضيَّ العَدْلَ عند الناس، فلا بد من تحقيق هذا الوصف، وأما عدد الشهود ونصابها فذلك يختلف باختلاف المشهود به كما فَصَّله أهل العلم.

ومن أحكامه الكلية أن من سبق إلى مباح فهو أحق به، فيدخل في هذا السبق إلى الجلوس في المساجد والأسواق والأفنية، ويدخل فيه السبق إلى النزول في المساكن والأوقاف التي لا تتوقف على نظر ناظر، ويدخل في ذلك السبق إلى المباحات من الصيود البرية والبحرية وإلى ما يستخرج من البحار والمعادن، وإلى الاحتشاش والاحتطاب وغير ذلك، وإلى إحياء الموات وغيرها من المسائل المتنوعة الداخلة في هذا الأصل.

ومن أحكامه الكلية قبول قول الأمناء على ما في أيديهم مما هم عليه أولياء من قبل الشارع أو قبل المالك بالوكالة أو الوصاية أو النظارة للأوقاف، فكل هؤلاء مقبول قولهم فيما يدعونه من داخل وخارج ومصرف ونحوه إذا كان ذلك ممكناً، وهذا معنى تأمينهم وتوليهم وولايتهم. واعلم أن قبول قول هؤلاء في هذه الأمور لا يمنع محاسبتهم، وطلب الوقوف على كيفية تلك المصارف الداخلية

والخارجية، وتبيين وجه النقص والتلف ونحو ذلك، ليستظهر بذلك على صدقهم وكذبهم. وأما تمكينهم من إطلاق سراحهم بحجة أنهم أمناء مقبول قولهم، فهذا غلط على الشريعة وعلى الحقيقة، فالشارع حاسب عماله واستدرك عليهم، والحقيقة والوقوف عليها مطلوب باتفاق أهل الاعتبار؛ فكم من أمين ظهرت خيانته يقيناً حين استدرك عليه.

ومن أحكامه الكلية أن الواجب يسقط بالعجز عنه بالكلية، وأنه إذا قدر على بعض الواجب وجب عليه ما يقدر عليه منه، وسقط عنه ما يعجز عنه، وهذا مطرد في العبادات والحقوق الواجبة وغيرها، كما أن الضرورة تبيح المحظور وتقدر بقدرها.

ومن أحكامه الكلية أنه أقام البدل مقام مبدله في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق وغيرها؛ فمتى كان للشيء بدل وتعذر الأصل، قام هذا مقامه، وحكم له بأحكامه، وأن النماء تابع للأصل.

ومن أحكامه الكلية أن من وجب عليه أمر من الأمور فإنه يجبر عليه بحق. وأن من أتلف شيئاً لدفع أذاه له دفعاً عن نفسه، فلا ضمان عليه، فإن أتلفه للانتفاع به ضمنه.

وأن ما ترتب على المأذون فيه من تلف فغير مضمون، وما ترتب على غير المأذون فإنه مضمون.

ومن أحكامه الكلية أن الاستثناءات والقيود والأوصاف الملحقة بالألفاظ تعتبر وتقيد الكلام، ويرتبط بها بشرط الاتصال لفظاً أو حكماً، ويدخل في هذا ألفاظ العقود والفسوخ والوقف والوصايا والعتق والطلاق والأيمان والإقرارات وغيرها.

ومن أحكامه الكلية أن الشركاء في الأملاك والمنافع يلزمون بكل ما يعود إلى حصول المنافع الضرورية ودفع المضار، ويجبر الممتنع منهما من ذلك من المصارف والنفقات والضرائب التي تلحق الأملاك هم فيها شركاء على كل منهم بقدر ملكه.

ومن أحكامه الكلية أن المباشر لإتلاف الأموال أو المتسبب لذلك ضامن لها متعمداً كان أو ناسياً أو جاهلاً، وأنه إذا اجتمع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر إلا إن تعذر تضمينه لفقد أو امتناع أو عسر أو نحوه، فيحال الضمان على المتسبب بغير حق.

ومنها أن من أدى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع، فإنه يرجع ولو لم يأذن له في ذلك.

ومنها أن الوصف في الشيء الذي بيد الغير، وذلك الغير لا يدعيه لنفسه بيِّنة.

ومنها أن من تعجل شيئاً قبل أوانه على وجه محرم عوقب بحرمانه.

ومن أحكامه الكلية أنه إذا تزاحمت المصالح قُدِّم الأعلى منها، وإن تزاحمت المفاسد وكان لا بد من فعل إحداها ارتكب الأخف منها لدفع الأشد مفسدة، وعلى هذا من مسائل الفقه ما لا يُعدُّ ولا يحصى، لأن الشارع شرع الشريعة لتحصيل المصالح أو تكميلها، ولتقليل المفاسد وتعطيلها بحسب الإمكان.

ومنها أن إطلاق التشريك في الوصايا والهبات والإقرارات، وإيقاع العقود والفسوخ على الأعيان وغير ذلك: كل ذلك يقتضي المساواة بين من شرك بينهم في شيء من ذلك، إلا أن دل دليل على المفاضلة بينهم، وكذلك في الأشياء المشتبهة التي يعلم أنها لهؤلاء الأشخاص، ولا يعلم مقدار ما لكلٍ، فإنهم يتساوون فيها، وأدلة هذه الأصول من الكتاب والسنة ظاهرة، وهي أصول جامعة عظيمة النفع، ينتفع بها الحاكم والمفتي وطالب العلم، وهي من محاسن الشريعة ومن أكبر البراهين على أن ما جاء به الرسول حق من عند الله محكم الأصول متناسب الفروع عدل في معانيه تابع للحكم والصلاح في مبانيه، فلنقتصر على هذه القواعد إذ غيرها تبع لها، وهي تغني عن غيرها ولا يغني عنها سواها. والله أعلم.

## فصـــول

## في ذكر ما قَصَّ الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم

قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه، ووصفها بأنها أحسن القصص. وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء، صلى الله عليهم وسلم، فإننا وإنْ كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسانْ على جميع نوع الإنسان، بل وصل أحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلَّفين في الاعتناء بها والقيام بحقها، فهذا الإيمان التفصيلي بالأنبياءء يصل به العبد إلى الإيمان الكامل، وهو من مواد زيادة الإيمان.

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العمل له والإيمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءاً ولا شكوراً إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضاً عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة، ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح وإصلاح، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك.

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والأحكام الشرعية والأسرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب، والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق ـ ما فيه زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونين ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سَمَراً، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعِبراً.

واعلم قبل الشروع فيها أن كثيراً من قصصهم صلوات الله وسلامه عليهم أعادها الله في كتابه مرات عديدة بأساليب مناسبة لمقاماتها؛ وربما يكون في موضع منها ما ليس في المواضع الأخر من الزيادات والفوائد، أو يأتي بها بألفاظ غير ألفاظ القصة الأخرى والمعاني متفقة أو متقاربة؛ فعلى حساب أن هذا التعليق مختصر سوف آتي بهذه القصص، وأجمع القصة في موضع واحد وأحرص على ما دلت عليه ألفاظ الكتاب من سياقها من أولها إلى آخرها، وأتبع كل قصة بما يفتح الله به من الفوائد الأصولية والفروعية والأخلاق والآداب والمواضيع المتنوعة، راجياً من الله أن يوفقني بذلك للصواب اللفظي والإخلاص الباطني وموافقة رضاه، وأن يجعل بذلك النفع العام، إنه جواد كريم.

## فصـــل
## في قصة آدم، أبـي البشر، عليه الصلاة والسلام

لم يزل الله أولاً ليس قبله شيء، ولم يزل فعالاً لما يريد؛ ولا خلا وقت من الأوقات من أفعال وأقوال تصدر عن مشيئته وإرادته بحسب ما تقتضيه حكمة الله الذي هو حكيم في كل ما قدره وقضاه، كما هو حكيم في كل ما شرعه لعباده، فلما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خلق آدم أبـي البشر الذين فضّلهم الله على كثير ممن خلق تفضيلاً، أعلم الملائكة وقال:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠]

يخلف من كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [تابع الآية]

وهذا منهم تعظيم لربهم وإجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقاً يشبه أخلاق المخلوقات الأول، أو أن الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمي ذريته، قال الله للملائكة:

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [تابع الآية]

فإنه محيط علمه بكل شيء، وبما يترتب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التي لا تعد ولا تحصى.

فعرّفهم تعالى بنفسه بكمال علمه، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئاً عبثاً ولا لغير حكمة، ثم بيّن لهم على وجه التفصيل، فخلقه بيده تشريفاً له على جميع المخلوقات، قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها، وطيبها وخبيثها، ليكون النسل على هذه الطبائع، فكان تراباً أولاً ثم ألقى عليه الماء فصار طيناً، ثم لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغير ذلك الطين فصار حمأ مسنوناً، طيناً أسود، ثم أيبسه بعدما صوره فصار كالفخار الذي له صلصلة.. وفي هذه الأطوار هو جسدٌ بلا روح، فلما تكامل خلق جسده نفخ فيه الروح فانقلب ذلك الجسد الذي كان جماداً حيواناً له عظام ولحم وأعصاب وعروق وروح هي حقيقة الإنسان، وأعده الله لكل علم وخير، ثم أتم عليه النعمة، فعلّمه أسماء الأشياء كلها.

والعلم التام يستدعي الكمال التام، وكمال الأخلاق، فأراد الله أن يريَ الملائكة كمال هذا المخلوق فعرض هذه المسميات على الملائكة وقال لهم:

﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١]

في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أن ترك خلقه أوْلَى، هذا بحسب ما بدا لهم في تلك الحال، فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات وقالوا:

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾
[سورة البقرة: الآية ٣٢]

قال الله:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣]

شاهد الملائكة من كمال هذا المخلوق وعلمه ما لم يكن لهم في حساب، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله، وعظّموا آدم غاية التعظيم؛ فأراد الله أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهراً وباطناً، فقال للملائكة:

﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤]

احتراماً له وتوقيراً وتبجيلاً، وعبادة منكم لربكم وطاعة ومحبة وذلاً؛ فبادروا كلهم أجمعون، فسجدوا وكان إبليس بينهم، وقد وجه إليه الأمر بالسجود معهم، وكان من غير عنصر الملائكة؛ كان من الجن المخلوقين من نار السموم، وكان مبطناً للكُفر بالله، والحسد لهذا الإنسان الذي فضله الله هذا التفضيل؛ فحمله كبره وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفراً بالله واستكباراً، ولم يكفه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه والقدح في حكمته، فقال:

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢]

فقال الله له:

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾
[سورة صٓ: الآية ٧٥]

فكان هذا الكفر والاستكبار والإباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطروداً ملعوناً، فقال الله له:

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٣]

فلم يخضع الخبيث لربه ولم يتب إليه، بل بارزه بالعداوة وصمم التصميم التام على عداوة آدم وذريته؛ ووطن نفسه لما علم أنه حتم عليه الشقاء الأبدي أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتبت لهم دار البوار فقال:

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٣٦]

فيتفرغ لإعطاء العداوات حقها في آدم وذريته.

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركَّباً من طبائع متباينة، وأخلاق طيبة أو خبيثة، وكان لا بد من تمييز هذه الأخلاق وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكين هذا العدو من دعوتهم إلى كل شر، أجابه:

﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾
[سورة الحجر: الآيتان ٣٧ و ٣٨]

فقال لربه معلناً معصيته وعداوته آدم وذريته:

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآيتان ١٦ و ١٧]

قال إبليس هذه المقالة ظنًّا منه لأنه عرف ما جبل عليه الآدمي.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾
[سورة سبأ: الآية ٢٠]

فمكنه الله من الأمر الذي يريده إبليس في آدم وذريته، فقال الله له:

﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [سورة الإسراء: الآيتان ٦٣ و ٦٤]

أي إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربية أولادهم إلى التربية الضارّة، وفي صرف أموالهم المصارف الضارة وفي الكسب الضارّ؛ وأيضاً شارك منهم من إذا تناول طعاماً أو شراباً أو نكاحاً ولم يذكر اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد، وعِدْهم أي مُرْهُم أن يكذبوا بالبعث والجزاء، وأن لا يقدموا على خير، وخوّفهم من أوْليائك وخوّفهم عند الإنفاق النافع بالفحشاء والبخل. وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار. وإنك أيها العدو المبين لا تبقي من مقدورك في أغوائهم شيئاً، فالخبيث منهم يظهر خبثه ويتضح شره، والله لا يعبأ به ولا يبالي به.

وأما خواص الذرية من الأنبياء وأتباعهم من الصديقين والأصفياء وطبقات الأولياء والمؤمنين فإن الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلطاً، بل أقام عليهم سوراً منيعاً؛ وهو حمايته وكفايته؛ وزودهم بسلاح لا يمكن عدوهم مقاومتهم بكمال الإيمان بالله وقوة توكُّلهم عليه:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

[سورة النحل: الآية ٩٩]

ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمور كثيرة: أنزل عليهم كتبه المحتوية على العلوم النافعة والمواعظ المؤثرة والترغيب إلى فعل الخيرات والترهيب من فعل الشرور، وأرسل إليهم الرسل مبشرين من آمن بالله وأطاعه بالثواب العاجل، ومنذرين من كفر وكذب وتولى، بالعقوبات المتنوعة، وضمن لمن اتبع هداه الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وأنه لا خوف عليه ولا حزن يعتريه؛ وأرشدهم في كتبه وعلى ألسنة رسله إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبين، وبين لهم ما يدعو إليه هذا الشيطان وطرقه التي يصطاد بها الخليقة.

وكما بينها لهم ووضحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شره وفتنته، وأعانهم على ذلك إعانة قدرية خارجة عن قدرتهم؛ لأنهم لما بذلوا المجهود واستعانوا بالمعبود، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود.

ثم إن الله تعالى أتم نعمته على آدم فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله ليسكن إليها وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام وتنبث الذرية بذلك، وقال له ولزوجته: إن الشيطان عدو لكما فاحذراه غاية الحذر، فلا يخرجنّكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها، وأباحكما أن تأكلا من جميع ثمارها وأن تتمتعا بجميع لذاتها إلاّ شجرة معينة في هذه الجنة فحرمها عليهما فقال: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩]

وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [سورة طه: الآيتان ١١٨ و ١١٩]

فمكثا في الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذي ذكره الله وعدوُّهما يراقبهما ويراصدهما وينظر الفرصة فيهما؛ فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة ورغبته العظيمة في دوامها، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصح، فقال: يا آدم، هل أدلك على شجرة إذا أكلت منها خلدت في هذه الجنة ودام لك الملك الذي لا يبلى؟ فلم يزل يوسوس ويزين ويسوِّل ويَعِدُ ويُمَنِّي ويُلقي عليهما من النصائح الظاهرة، وهي أكبر الغش حتى غرّهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرمها عليهما؛ فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما بعد ما كانا مستورين وطفقا يخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة، أي يلزقان على أبدانهما العارية ليكون بدل اللباس. وسقط في أيديهما وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهما:

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾
[سورة الأعراف: الآية ٢٢]

فأوقع الله في قلبيهما التوبة التامة والإنابة الصادقة

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٧]

وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٣]

فتاب الله عليهما ومحا الذنب الذي أصابا، ولكن الأمر الذي حذّرهما الله منه، وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها تحتّم ومضى؛ فخرجا منها إلى الأرض التي حشي خيرها بشرّها وسرورها بكدرها.

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما، وأن من آمن وعمل صالحاً كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى، ومن كَذَّب وتولَّى فآخر أمره الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي؛ وحذر الله الذرية منه فقال:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٧]

وأبدلهم الله بذلك اللباس الذي نزعه الشيطان من الأبوين بلباس يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة، ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخلاص والإنابة والتحلّي بكل خلق جميل والتخلّي عن كل خلق رذيل؛ ثم بثَّ الله من آدم وزوجه رجالاً كثيراً ونساء، ونشرهم في الأرض واستخلفهم فيها لينظر كيف يعملون.

**فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب:**

فمنها أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك؛ وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين، حتى نبغت في هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل، وأنكروا وجود الباري ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التي وصلت إليها معارفهم القاصرة.

فبناء على هذا المذهب الذي هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعاً وعقلاً

أنكروا آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرد، حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة. وهؤلاء اغتـرُّوا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصاً ما جاءتهم به الرسل، وصَدَق عليهم قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين ولجميع المثبتين وجود الباري، يعلمون أنهم أضل الطوائف، ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول، إذ فسر طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين، وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة. ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأي الأفن، وأنه تحريف لكتاب الله، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن. وانقلب القرآن بعد ما كان تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ـ رموزاً يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل، فيبطل بذلك القرآن وتعود هدايته إضلالاً، ورحمته نقمة. سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمؤمن في هذا الموضع يكفيه لإبطال هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصّه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله غاية المنافاة، وإن زخرفه أصحابه ولووا له العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن، فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغَرِّرة أو المغرور أصحابها.

ومنها فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

ومنها أن من منّ الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم، فإن العلم أعظم المنن وشكر هذه النعمة الاعتراف لله بها والثناء عليه بتعليمها وتعليم الجهال، والوقوف على ما علمه العبد والسكوت عما لم يعلمه.

ومنها أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص وتجبر الكسير وتنجي الهالك وترفع الساقط.

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة؛ فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على أغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان وقوة التوكل على الله ومراغمته في أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

ومنها أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال.

ومنها إثبات اليدين لله كما هو في قصة آدم صريحاً: لما خلقت بيدي. فله يدان حقيقة، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات.

# قصة نوح ﷺ

مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر؛ فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء وَدًّا وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسرا؛ قد كان أوَّلوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصح الناصحين؛ ثم بعث الله فيهم نوحاً ﷺ يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال:

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة نوح: الآيات ٢ ـ ٤]

فلما باداهم بالأمر بالإخلاص لله وتسفيه آرائهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[سورة هود: الآية ٢٧]

وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستنكافاً على الحق وعلى الخلق، فبيَّن لهم أنه ليس به ضلال، وإنما به تزول الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعي لهم طورًا يزاحم فيه الرب فقال:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [سورة هود: الآية ٣١]

فلم يزل يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً وإعراضاً وتواصياً منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح:

﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا * وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾

[سورة نوح: الآيات ٢١ ـ ٢٣]

فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه؛ وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله، قال:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [سورة نوح: الآيتان ٢٦ و٢٧]

فأجاب الله دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتن الله بها على العباد، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات ما لا يعد ولا يحصى؛ وأخبره الله بتحتم إغراقهم، وأنه لا يخاطب ربه فيهم فإنهم ظالمون؛ وجعل يصنع الفلك، وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم. وأوحى الله إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنور، أي جعلت الأرض كلها تتفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادة، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين، ذكر وأنثى، ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها، والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخرة لمصالح البشر، ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء، والحال أنه ما آمن

معه إلا قليل؛ وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك؛ فلما أركب جميع من أُمر بهم قال لهم: سموا الله كلما جرت وكلما رست. لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله، ولا تمام لها إلا بالله.

فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يميناً وشمالاً. وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال، فرآه مثل سائر قومه قد فرَّ هارباً من المياه الجارفة، فناداه نوح مترفقاً فقال:

﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٢]

فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة؛ فقال:

﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٤٣]

لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال، فقال له نوح:

﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [من الآية]

فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ [من الآية]

فكان ذلك الابن من المغرقين.

فأغرق الله جميع الكافرين ونجّى نوحاً ومن معه أجمعين، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن من خالفه فإنه مبطل، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة.

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تقلع عن الماء، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء، أي نقص شيئاً فشيئاً، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودي، وهو جبل شامخ معروف في نواحي الموصل.

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان، وحزن نوح على ابنه فقال منادياً ربه مترفقاً متضرعاً يا رب:

﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة هود الآية ٤٥]

أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين، فقال له ربه:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦]

أي الموعود بنجاتهم، لأن الله قيد ذلك بقوله:

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [سورة هود: الآية ٤٠]

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦]

أي هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [تتمة الآية]

وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضى الله تعالى فقال نوح:

﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
[سورة هود: الآيتان ٤٧ و٤٨]

فهبط وبارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك،

ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله، وكان من أولي العزم من المرسلين، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، وهو أول الرسل إلى الناس، وهو الأب الثاني للبشر، ﷺ تسليماً.

**يستفاد من هذه القصة أمور:**

منها: أن جميع الرسل، من نوح إلى محمد، صلى الله عليهم وسلم، متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك؛ فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحا دعا قومه ليلاً ونهاراً، وسرًّا وجهاراً. . بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغّبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل؛ وحذرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبيَّن البراهين.

ومنها: أن الشُّبَه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين فإن الأقوال التي قالوها، ولم يكن عندهم غيرها، ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل. فقول قوم نوح: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين﴾ تأمل جملها تجدها تمويهات دالَّة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة، فقولهم: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق، ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلاً. وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر؛ ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا:

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

[سورة إبراهيم: الآية ١١]

فمنَّ الله على الرسل وخصَّهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسر عليهم هذه النعمة ويسهِّل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذِّبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبر وتيه، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه.

وأيضاً قولهم: ﴿أراذلنا﴾ إن أرادوا الفقر، فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق، فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله وطاعة الله ورسله والانقياد للحق والسلامة من كل خصلة ذميمة، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده. . . من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق؟ هذا والله أرذل الرذائل، ولكن القوم مباهتون فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾ أي مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشاوروا ولم يتأنوا ويترووا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية، التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها؛ أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة.

وقولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه، لأنهم يخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون. وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ معلوم أن الظن أكذب الحديث؛ ثم لو قالوا: بل نعلمكم كاذبين. فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقى ريب لأحد في بطلانها.

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[سورة هود:الآية ٢٩]

ولهذا كان من أجلِّ الفضائل لأتْبَاع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

ومنها أن القدح في نيات المؤمنين وفيما منَّ الله عليهم به من الفضائل والتألي على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾.

ومنها أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من الكربات والمشقات، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [سورة هود: الآية ٤١]

وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢٨]

وأنه ينبغي أيضاً الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة؛ كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة: كالمساكن والدور لقوله:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢٩]

وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان ــ وإن كان لذلك أيضاً أسباب أُخر. وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها.

ومنها أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب، لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذِّبين شملت الأطفال والبهائم؛ وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو مناف للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٥]

## قصة هود عليه الصلاة والسلام

بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى المقيمين بالأحقاف ـ من رمال حضرموت ـ لما كثر شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [سورة فصلت: الآية ١٥]

مع شركهم بالله وتكذيبهم لرسل الله، فأرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك والتجبر على العباد، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا والبسطة في الرزق والقوة، فردوا دعوته وتكبَّروا عن إجابته وقالوا:

﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾
[سورة الشعراء: الآية ١٥٤]

وهم كاذبون في هذا الزعم، فإنه ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر؛ ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله لإحكامه وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره، وأمره بكل خير ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له، ويصدقه من بعده ويشهد له.

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد خوَّفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو سوء، فتحدَّاهم علناً وقال لهم جهاراً:

﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦]

فلم يصلوا إليه بسوء.

فأي آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الحريصين على إبطال دعوته بكل

طريق؟ فلما انتهى طغيانهم تولَّى عنهم وحذَّرهم نـزول العذاب، فجـاءهم العذاب معترضاً في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا:

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤]

قال الله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤]

بقولكم فاءتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين:

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾[سورة الأحقاف: الآيتان ٢٤ و٢٥]

تمر عليه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٧]

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

[سورة الأحقاف: الآية ٢٥]

فبعدما كانت الدنيا لهم ضاحكة، والعز بليـغ، ومطالب الحياة متوفرة، وقد خضع لهم من حولهم من الأقطار والقبائل، إذ أرسل الله إليهم ريحًا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون:

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [سورة هود: الآية ٦٠]

ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين، إن في ذلك لآيـة على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وآية على إبطال الشرك، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

**فوائد من هذه القصة:**

فيها ما تقدم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل؛ ومنها أن الله

بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها؛ لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرف فيه التذكيرات تصريفاً نافعاً، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلاً، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة ورَدٍّ وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلاً بعد جيل، بل نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أن نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر، ولا نعرف لغاتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به؛ فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقاً، لكن الحق يتفاوت، والمذكِّر والمعلِّم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخبر إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٧]

أي نوعناها بكل فن ونوع

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٧]

أي ليكون أقرب لحصول الفائدة.

ومنها أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية، كما قال الله في قصة عاد وإنكار هود عليهم، قال:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ١٢٨ و١٢٩]

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية:

إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما أن تكون البنايات حصوناً واقية لشرور الأعداء، وثغوراً تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم.

ومنها أن العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية، وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغاً هائلاً، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسله.

وأما الجاحد لآيات الله المكذب لرسل الله، فإنه وإن استُدرج في الحياة وأُمهل فإن عاقبته وخيمة، وسمعه وبصره وعقله لا يغني عنه شيئاً إذا جاء أمر الله، كما قال الله عن عاد:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

وفي الآية الأخرى:

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [سورة هود: الآية ١٠١]

## قصة صالح عليه الصلاة والسلام

كانت ثمود ــ وهي عاد الثانية ــ يسكنون في الحجر وما حولها، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل حروث وزروع، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة، ومن الجبال بيوتاً منحوتة متقنة، فبطروا النعم وكفروها، وعبدوا غير الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحسبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى الله وإلى إخلاص الدين له، وترك ما كانوا يعبدون من دونه، وذكرهم بنعم الله وبأيامه بالأمم المجاورة لهم، فلم يتبعه إلا القليل.

وحين ذكرهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمأزوا ونفروا واستكبروا وقالوا:

﴿يَصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [سورة هود: الآية ٦٢]

أي قد كنا قد تخايلنا فيك أن تفضلنا جميعاً لكمالك وكمال أخلاقك، وآدابك الطيبة.

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال، فما نزله عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد، وإلى السعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين، وهم كانوا أضل منهم، ثم أقام لهم بينة عظيمة وبرهاناً ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال: هذه ناقة الله ــ التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم ــ آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم، فذروها تأكل في أرض الله على الله رزقها ولكم نفعها ترد الماء يوماً فترد القبيلة بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيته، ثم تردون أنتم في اليوم الثاني، فمكثت على هذا ما شاء الله.

وكان في مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق؛ فأول ما فعل

أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة، فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ إِذِ انۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: الآية ١٢]

أي بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها؛ وهم جميعهم راضون بل آمرون؛ فعقرها، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها.

فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيعاً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة، لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم. فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام. ذلك وعد غير مكذوب، ونبَّه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم؛ ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة؛ على قتل نبيهم صالح، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة، وكتموا أمرهم خشية من مَنَعِ أهل بيته، لأنه في بيت عز وشرف، وقالوا: لنبيتنه وأهله، ثم إذا ظن بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. فدبروا هذا المكر العظيم، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح. فحين كمنوا في أصل جبل لينظروا الفرصة في صالح، بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفاً مقدَّماً لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين، ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين، وتولى عنهم وقال:

﴿ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٩]

**فوائد تتعلق بهذه القصة:**

منها أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأن من كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الجميع، لأنه يكذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهم، ولهذا يقول في

كـل قصة: كـذبت قوم نـوح المـرسلين، كـذبت عـاد المـرسلين، كـذبت ثمود المرسلين.

ومنها أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها، فكُفْرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ولكت تحتم الإهلاك عند تناهي الشرور، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تناهي إجرامهم، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومنها أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق، فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا. وقالت جميع الأمم المكذبة رادِّين لدعوة الرسل:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

[سورة الزخرف: الآية ٢٣]

وهذا سبيل لا يـزال معموراً بـالسالكـين من أهل البـاطـل، نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال..

## قصة إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

قد ذكر الله في كتابه سيرة وأخباراً كثيرة من سيرة إبراهيم، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عموماً، وبه على وجه الخصوص؛ فإن الله أمر نبينا وأمرنا باتباع ملته، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية، فقد آتاه الله رشده وعلَّمه الحكمة منذ كان صغيراً، وأراه ملكوت السموات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقيناً وعلماً وقوة في دين الله ورحمته بالعباد. وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخبث الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق، فدعاهم بطرق شتى،

فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التي منها الشمس والقمر، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل، قال لهم ناظراً ومناظراً: هلم يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة.

منها أن المُناظِر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٢]

فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال:

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣]

ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله: ﴿هذا ربي﴾ أي إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة:

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

أي غاب

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

فإن من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغيبة، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهاً. ثم انتقل إلى القمر، فلما رآه بازغاً

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٧]

يريهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم، لكن على وجه التقليد، بل يقصد إقامة البرهان على إلٰهية النجوم والقمر، فالآن وقد أفلت، وتَبين بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلٰهيتها، فأنا إلى الآن لم يستقر لي قرار على رب وإلٰه عظيم، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر، فإن جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما؛ فلما أفلت وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطل الباطل، فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام ووجه عليهم الحجة فقال:

﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ – أي ظاهري وباطني – لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

[سورة الأنعام: الآيتان ٧٨ و٧٩]

هذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعين أن يُقْصد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبَّرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها؛ فجعلوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عَبَدها وتَضُر من تركها أو قدح فيها، فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم فقال:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الأنعام: الآية ٨١]

أجاب الله هذا الاستفهام جواباً يعم هذه القصة وغيرها في كل وقت فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ – أي بشرك – أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]

فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة، وعجزوا عن نصر باطلهم؛ ولكنهم صمموا على الإقامة على ما هم عليه، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون نهياً عامًّا وخاصًّا، وأخص من دعاه أبوه آزر؛ فإنه دعاه بعدة طرق نافعة، ولكن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦ و٩٧]

فمن جملة مقالاته لأبيه إذ قال لأبيه:

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [سورة مريم: الآيتان ٤٢ و٤٣]

انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب: لم يقل لأبيه إنك جاهل؛ لئلا ينفر من الكلام الخشن؛ بل قال له هذا القول: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[سورة مريم: الآيات ٤٣ـ ٤٥]

فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد، ولكنه مع ذلك قال له أبوه:

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾

[سورة مريم: الآية ٤٦]

هذا وإبراهيم لم يغضب ولم يقابل أباه ببعض ما قال؛ بل قابل هذه الإساءة الكبرى بالإحسان فقال:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [سورة مريم: الآية ٤٧]

أي لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة، ومع ذلك

فلست بآيس من هدايتك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾
[سورة مريم: الآية ٤٧]

أي بَراً رحيماً قد عودني لطفه وأجراني على عوائده الجميلة ولم يـزل لدعائي مجيباً.

فلم يزال إبراهيم مـع قومه في دعوة رجدال، وقد أفحمهم وكسر جميـع حججهم وشُبَهَهُم، فأراد ﷺ أن يقاومهم بأعظم الحجج وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقدرتهم وقوتهم، غير هائب ولا وجل، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم فنظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، لأنه خشي إن تَخَلَّف لغير هذه الوسيلة، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهي الأكيد عنها وجهاد أهلها. فلما برزوا جميعاً إلى الصحراء كرَّ راجعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذاً كلها إلا صنماً كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة. فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابة ومحبة، فرأوا فيها أفظـع منظر رآه أهلها فقالوا:

﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾
[سورة الأنبياء: الآيتان ٥٩ و٦٠]

أي يعيبها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٠]

فلما تحققوا أنه الذي كسرها:

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[سورة الأنبياء: الآية ٦١]

أي بحضرة الخلق العظيم. ووبخوه أشد التوبيـخ ثم نكلوا به، وهذا الذي أراد إبراهيم، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم؛ فلما جمـع الناس وحضروا، وحضَّروا إبراهيم قالوا:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾
[سورة الأنبياء: الآيتان ٦٢ و٦٣]

مشيـرًا إلى الصنم الذي سلم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جماداً معروفاً أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل؛ وإما أن يقولوا: نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها؛ وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الأخير، قال: فاسألوهم إن كانوا ينطقون. وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال، فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم، أي ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتاً قصيراً ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي رسخت في قلوبهم وصارت صفات ملازمة، إن وجد ما ينافيها، فإنه عارض يعرض ثم يزول

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٦٥]

فحينئذ وبخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رؤوس الأشهاد، فقال لهم:

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآيتان ٦٦ و٦٧]

فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء. فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا إلى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. فأوقدوا ناراً عظيمة جداً فألقوه بها، فقال وهو في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله للنار:

﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩].

فلم تضره بشيء، وأرادوا به كيداً لينصروا آلهتهم ويقيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالاً عليهم، وكان انتصارهم

لألهتهم نصراً عظيماً عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم. وانتصر الخليل على الخواص والعوام والـرؤساء والمرؤوسين حتى إن ملكهم حاجَّ إبراهيم في رَبِّه بغياً وطغياناً، أن آتاه الله الملك فقال إبراهيم:

﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

فألزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق، فقال:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

## فصـــل

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجراً وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية، وفي أثناء مدة إقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجته سارة، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق، فلما رآها ملك مصر وكان جباراً عنيداً لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها، فدعت الله عليه، فكاد أن يموت ثم أطلق ثم عاد ثانية، وكلما أرادها دعت عليه فصرع، ثم دعت له فأطلق، فكفاهما الله شره، ووهب لها هاجر جارية قبطية، وكانت سارة عاقراً منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لإبراهيم ليتسررها لعل الله يرزقه منها ولداً، فأتت هاجر بإسماعيل على كبر إبراهيم ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة، رضي الله عنها أدركتها الغيرة فحلفت أن لا يساكنها بها، وذلك لما يريده الله. وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضـع البيت الحرام، وإلا فهو متقرر عنده ذلك عليه السلام.

فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهي في ذلك الوقت ليس فيها سكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره، وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر، ووضعهما عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما؛ فلما كان في الثنية بحيث يشرف عليهما، دعا الله تعالى فقال:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٧] إلى آخر الدعاء.

ثم استسلمت لأمر الله وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا، فعطشت ثم عطش ولدها، فجعل يتلوى من العطش؛ ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلعت فلم تر أحداً؛ ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت، فلم تر أحداً؛ ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهي تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصرها ابنها.

والفرج مع الكرب، والعسر يتبعه اليسر؛ فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء، فاشتد فرح أم إسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها، وحمدت الله على هذه النعمة الكبرى، وحوطت على الماء لئلا يسيح. قال النبي ﷺ «رحم الله أم إسماعيل: لو تركت ماء زمزم ــ أي لم تحوطه ــ لكانت زمزم عيناً معيناً» ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم، فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

وشب إسماعيل شباباً حسناً وأعجب القبيلة بأخلاقه وعلو همته وكماله؛ فلما بلغ تزوج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضي الله عنها، وجاء إبراهيم بغيبة إسماعيل يتصيد فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له يغير عتبة بابه. ورجع من فوره لحكمة أرادها الله، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً. فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته. وسألنا عن عيشنا

فأخبرته إننا في شدة، وأنه يقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّر عتبة بابك. فقال: ذاك أبـي، وأنت العتبة إلحقي بأهلك. ثم تزوج إسماعيل غيرها.

ثم جاء إبراهيم مرة أخرى وإسماعيل أيضاً في الصيد، فدخل على امرأته فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير. وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة لزوجها، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له: يثبت عتبة بابه، ثم رجع أيضاً من فوره قبل مواجهة إسماعيل لحكمة أرادها الله تعالى؛ فلما رجع إسماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: جاءنا شيخ بهذا الوصف. فقال: هل قال لكم من شيء؟ فقالت: سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إنا في نعمة، وأثنيت على الله. فقال: فما قال؟ قالت: هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. فقال: ذاك أبـي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يبري نبلاً عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق، فقال: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة: قال سأعينك على ذلك، فجعلا يرفعان القواعد من البيت، إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآيات ١٢٧ ــ ١٢٩]

فلما تمَّ بنيانه وتمَّ للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يفدون إلى هذا البيت من كل فَجٍّ عميق ليشهدوا منافع دنياهم وأخراهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاؤهم. وفي هذه الأثناء، حين تمكن حب إسماعيل من قلبه، وأراد الله أن يمتحن

إبراهيم لتقديم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فأمره في المنام أن يذبح إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله. فقال لإسماعيل:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾

أي خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ نزل الفرج من الرحمن الرحيم

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾

[سورة الصافات: الآيات ١٠٢ ــ ١٠٥]

فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لهما الأجر والثواب، وحصل لهما الشرف والقرب والزلفى من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز. قال تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ * وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾

[سورة الصافات: الآيات ١٠٥ ــ ١٠٧]

وأي ذِبْحٍ أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يشبهها عبادة، وصار سنة في عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه:

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾

[سورة الصافات: الآيتان ١٠٨ و١٠٩]

## فصل

ثم إن الله أتم النعمة على إبراهيم، ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فحين

أرسل الله لوطاً إلى قومه، وتمرَّدوا عليه وحتَّم الله عقوبتهم، وكان لوط عليه السلام تلميذاً لإبراهيم، ولإبراهيم عليه حقوق كثيرة، فمرت الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط بإبراهيم بصورة آدميين؛ فلما دخلوا عليه وسلموا ردَّ عليهم السلام، بادرهم بالضيافة، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم، وكان بيته مأواً للأضياف، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم، فجاء بعجل سمين محنوذ مشوي على الرضف فقربه إليهم، فقال:

﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٧]

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، إذ ظن أنهم لصوص:

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [سورة هود: الآية ٧٠]

وكانت سارة قائمة في خدمتهم، وبشره بغلام عليم، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومترددة ومتحيرة وقالت:

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٢]

وقبل ذلك كنت عقيماً، وهذا بعلي شيخاً، إن هذا لشيء عجيب؛ قالوا: أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، فبشراهما بإسحاق وأنه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه. ولهذا حمد الله إبراهيم على تمام نعمته وقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

## فصـــل
## فيما في قصة الخليل من الفوائد

ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمراً خاصاً قال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] أي الزموها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣]

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ الآية [سورة الممتحنة: الآية ٤]

فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه؛ فإن اتباعنا إياه من ديننا؛ ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال:

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٤]

أي فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

ومنها أن الله اتخذه خليلاً، والخلة أعلى درجات المحبة، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ومنها ما أكرمه الله به من الكرامات المتنوعة، جعل في ذريته النبوة والكتاب، وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم: العرب وبنو إسرائيل؛ واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس؛ ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس، وملأ بذكره ما بين الخافقين وامتلأت قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه.

ومنها أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج، قال جل ذكره:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥]

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣]

ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

ومنها أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، أن أجره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره، وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أتمَّ الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره، ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

ومنها ما في قصصه من آداب المناظرة: طرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصم الألد إلى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين.

ومنها أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل ﷺ في قوله:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩] إلى آخر الدعاء.

وقال جلَّ ذكره في الثناء عموماً على من يدعو الله بصلاح ذريته:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٥]

فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

ومنها أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمان بالله ورسله، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل دينية، لقوله تعالى:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

ومنها الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية، تعظيماً لله وإعانة وتنشيطاً للمتعبدين فيه، ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل:

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

[سورة الحج: الآية ٢٦]

وقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾

[سورة النور: الآية ٣٦]

ومنها أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصًى به إبراهيم بنيه ويعقوب؛ وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

ومنها أن العامل ـ كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في ايقاعه على أكمل الوجوه ـ فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

ومنها أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السعي في تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذي خلق له

الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين، وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال:

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٧]

ومنها ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها، فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون، يعني أنهم كرماء على الله؛ وأيضاً إبراهيم أكرمهم بضيافته قولاً وفعلاً، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتى بأطيب مـاله: عجل حنيذ سمين، وقرَّبه إليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى عمل آخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ألا تأكلون؟

ومنها مشروعية السلام، وأن المبتدىء فيه هو الداخل وهو الماشي، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله:

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٥]

أي لا أعرفكم فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قولـه أنكرتكم ونحوه.

ومنها الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولى شؤون بيته حازمين مستعدين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادر إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا إلى تقديمه.

ومنها أن إتيان الولد والبشارة به من سارة، وهي عجوز عقيم، يعد معجزة لإبراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبـي وكرامة ولي، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى: وبشارتهم بيحيى لزكريا وزوجته، وكون زكريا جعل الله آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام؛ وهو سويٌّ لا آفة فيه إلا بالرمز والإشارة، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب. فسبحان من هو على كل شيء قدير.

ومنها ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم، وقد قال:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و٨٩]

والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبرّ والكرم، سليم من الشبهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملآن بالتوحيد والإيمان والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله وفي نفع عباد الله.

ومنها ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون والياس

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٧٩]

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٩]

يتبعها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٥]

فوعد الباري أن كل محسن في عبادته محسن إلى عباده أن الله يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثواب عاجل وآجل، وهو من البشرى في الحياة الدنيا ومن علامات السعادة.

## قصة لوط عليه السلام

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة إبراهيم، لأنه تلميذه وقد تعلَّم من إبراهيم، وكان له بمنزلة الابن، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين، وكانوا مع شِركهم بالله يلوطون بالذكور، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وحذرهم من هذه الفاحشة؛ فلم يزدادوا إلا عتواً وتمادياً فيما هم فيه. ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فمروا بطريقهم على إبراهيم وأخبروه بذلك؛ فجعل إبراهيم يجادل في إهلاكهم ــ وكان رحيماً حليماً ــ وقال:

﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٣٢]

فقيل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [سورة هود: الآية ٧٦]

ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب، ساء لوطاً ذلك

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٧]

لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة؛ ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط، فقال:

﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [سورة هود: الآية ٧٨]

لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله. ولهذا قال قومه:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [سورة هود: الآية ٧٩]

وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين ﴿هؤلاء بناتي﴾ يعني زوجاتهم، يعني لأن النبي أب لأمته، فإن هذا يمنعه أمران:

أحدهما: قوله ﴿هؤلاء بناتي﴾ يشير إليهن إشارة الحاضر.

ثانياً: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له؛ وأيضاً النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار، والمحذور الذي توهموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق، فاشتد الأمر بلوط وقال:

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠]

أي لدافعتكم، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال لقومه:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾

[سورة هود: الآية ٧٨]

فاستلجوا في طغيانهم وسكرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لإهلاكهم، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم، فكان هذا عذاباً معجلاً وأنموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطاً أن يسري بأول الليل بأهله ويلح في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب؛ فخرج بهم فما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد.

وفي هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتلي بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

وفيها وفي قصة إبراهيم جواز التعريض، أما قصة إبراهيم ففي قوله:

﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ *﴾

[سورة الصافات: الآيتان: ٨٨ و٨٩]

وأما لوط ففي قوله: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ والتعريض يكون في الأقوال ويكون في الأفعال، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التي لا بأس بها ويوهم السامع والرائي أمراً آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة.

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن

الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: أليس منكم رجل رشيد. أي فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغي.

ومنها الحث على السعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر، فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله، ولهذا قال لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ وأكثر الأنبياء يبعثهم الله في أشراف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمكن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك؛ واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له:

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [سورة هود: الآية ٩١]

وكذلك نبينا محمد بعث في أشرف بيت في قريش وأعزه؛ وقد رماه قومه بالعداوة البليغة وعقدوا المجالس المتعددة في إبطال قوله ودينه، بل وفي كيفية الفتك به؛ ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حدهم خوفهم من قبيلته؛ وانظر إلى حالته في تضييقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم ـ مسلمهم وكافرهم ـ ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه في القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره؛ ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

## قصة شعيب عليه السلام

نبَّأه الله وأرسله إلى أهل مدين، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين، ويغشون في المعاملات وينقصون الناس أشياءهم، فدعاهم إلى توحيد الله ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البخس في المعاملات، وذكَّرهم الخير الذي أدره الله عليهم، والأرزاق المتنوعة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس في أموالهم، وخَوَّفهم العذاب المحيط في الدنيا قبل الآخرة، فأجابوه ساخرين وردوا عليه متهكمين فقالوا:

﴿ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٧]

أي فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون، فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله؛ فقال لهم:

﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ ﴾

أي أغناني الله.

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

أي ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها، إلّا وأنا أول تارك لها، مع أن الله أعطاني ووسَّع عليَّ وأنا محتاج إلى المعاملة ولكني متقيد بطاعة ربي، إن أريد في فعلي وأمري لكم إلا الإصلاح، أي أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت:

﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

ثم خوفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال:

﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٩]

ثم عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [سورة هود: الآية ٩٠]

فلم يفد فيهم. فقالوا: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾

ـ وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق ـ. ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۞ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

[ثم لما رأى عتوهم قال:]

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾

[سورة هود: الآيات ٩١ ــ ٩٤]

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

[سورة هود: الآية ٥٨]

فأرسل الله عليهم حراً أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلتهم فتنادوا إلى ظلها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذّبين مذمومين ملعونين في جميع الأوقات.

**وفي قصة شعيب فوائد متعددة:**

منها أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج. لهذا قال شعيب لقومه:

﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ [سورة هود: الآية ٨٤]

أي بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

ومنها قوله:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة هود: الآية ٨٦]

فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

ومنها فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها، فلله على ذلك أتم الحمد.

ومنها أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته، وفي معاملاته المالية، داخل تحت حجر الشريعة، فما أبيح له منها فعله؛ وما منعه الشرع تعين عليه تركه؛ ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشر الكل مباح. ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا. لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردوا عليه أنهم أحرار في أموالهم، لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قال: إنما البيع مثل الربا، فمن سَوَّى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه.

ومنها أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله: أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء

كان أول التاركين. لقول شعيب: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

ومنها أن الأنبياء جميعهم بُعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد؛ فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم كلأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب: ﴿إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب﴾.

ومنها أن الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يُحْفِظه أذى الخلق ولا يصده عن شيء من دعوته؛ وهذا الخلق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلم، فانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو ﷺ يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويهون هذا الأمر أن هذا خُلُقٌ من ظفر به وحازه فقد فاز بالحظ العظيم، وأن لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم، ويهونه أنه يعالج أمماً قد طبعوا على أخلاق إزالتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح، وقدموها على جميع المهمات عندهم، أفتظن مع هذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟... كلا والله، إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يذكرون بنعم الله وأن الذي تفرد بالنعم يتعين أن يفرد بالعبادة، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يعد ولا يحصى، ويذكرون بما في مذاهبهم من الزيغ والفساد والاضطراب والتناقض المزلزل للعقائد الداعي إلى تركها، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويذكرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه من

المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الإحسان إليهم وبذل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم، وسلوك كل سبيل حكمة معهم، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهم فالأهم، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق: محمد ﷺ.

## قصة موسى وهارون عليهما السلام

قد ذكر الله لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام. وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى، لأنه عالج فرعون وجنوده، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل؛ وشريعته وكتابه التوراة، هو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ. وله من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره، وقد ولد في وقت قد اشتد فيه فرعون على بني إسرائيل: فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بني إسرائيل ويستحيي النساء للخدمة والامتهان؛ فلما ولدته أمه خافت عليه خوفاً شديداً، فإن فرعون جعل على بني إسرائيل من يرقب نساءهم ومواليدهم، وكان بيتها على ضفة نهر النيل فألهمها الله أن وضعت له تابوتاً إذا خافت أحداً ألقته في اليم، وربطته بحبل لئلا تجري به جرية الماء ومن لطف الله بها أنه أوحى لها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

فلما ألقته ذات يوم انفلت رباط التابوت، فذهب الماء بالتابوت الذي في وسطه موسى، ومن قدر الله أن وقع في يد آل فرعون وجيء به إلى امرأة فرعون آسية. فلما رأته أحبته حباً شديداً، وكان الله قد ألقى عليه المحبة في القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله، فقالت امرأته: لا تقتلوه... قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، فنجا بهذا السبب من قتلهم،

وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعي المشكور عند الله، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك.

أما أم موسى فإنها فزعت وأصبح فؤادها فارغاً، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه وتحسسي عنه، وكانت امرأة فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدي امرأة، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه إلى الطريق لعل الله أن ييسر له أحداً، فحانت من أخته نظرة إليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعاً قالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؛ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن. ثم ذكر الله في هذه السورة قصة مفصلة واضحة، وكيف تنقلت به الأحوال، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها، والله تعالى ما فصّل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر، ولكن في قصته من العبر والفوائد شيء كثير ننبه على بعضها.

**ذكر الفوائد المستنبطة نصاً أو ظاهراً أو تعمياً أو تعليلاً من قصة موسى ﷺ:**

منها: لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها بردِّه إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه. وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة.

ومنها: أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة؛ إنما يستفيد منها ويستنير بها

المؤمنون؛ والله يسوق القصص لأجلهم، كما قال تعالى في هذه القصة:

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة القصص: الآية ٣]

ومنها: أن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئه منهم، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص لقوله:

﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية ١٠]

والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والمخاوف، فإنه كما يزداد به إيمانه وثوابه فإنه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة؛ وأما من لم يحصل له هذا الثبات، فإنه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه

آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر الله منه وتاب إليه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين في الأرض؛ ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب، ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس.

ومنها: أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة، بل قد يكون واجباً، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذِّراً لموسى على وجه الثناء عليه.

ومنها: إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك، بل يفرّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

ومنها: إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما، الأسلم دفعاً لما هو أعظم وأخطر؛ فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه، ومعلوم أنها أرجى للسلامة، لا جرم آثرها موسى.

ومنها: فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه ويسأله أن

يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدري الطريق المعين إليها قال:

﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٢]

وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه.

ومنها: أن الرحمة والإحسان على الخلق، من عرفه العبد ومن لا يعرفه، من أخلاق الأنبياء؛ وأن من جملة الإحسان الإعانة على سقي الماشية، وخصوصاً إعانة العاجز، كما فعل موسى مع ابنتي صاحب مدين حين سقى لهما، لما رآهما عاجزتين عن سقي ماشيتهما قبل صدور الرعاة.

ومنها: أن الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤]

لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد.

ومنها: أن الحياء والمكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين.

ومنها: أن العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل بإخلاصه وأجره، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة.

ومنها: جواز الإجارة على كل عمل معلوم في نفع معلوم أو زمن مسمى، وأن مرد ذلك إلى العرف، وأنه تجوز الإجارة وتكون المنفعة البضع، كما قال صاحب مدين:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٧]

وأنه يجوز للإنسان أن يخطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولي عليها ولا نقص في ذلك، بل قد يكون نفعاً وكمالاً، كما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها قوله:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٦]

هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين، أن يكون قوياً على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكون مؤتمناً عليه، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما.

ومنها: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله:

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٧]

وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقاً في ذلك.

ومنها: جواز عقد المعاملات من إجارة وغيرها بغير إشهاد لقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٨]

وتقدم أن الإشهاد تنحفظ به الحقوق، وتقل المنازعات، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة وكذلك الحقوق.

ومنها: الآيات البينات التي أيدّ الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها:

﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠]

ثم عودها سيرتها الأولى، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين؛ ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون وملئه، ومن انفلاق البحر لما ضربه موسى بعصاه فصار اثني عشر طريقاً وسلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا؛ وغير ذلك من الآيات المتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها، وبراهين لمن سمعها، فإنها نقلتها معظم مصادر اليقين، الكتب السماوية، ونقلتها القرون كلها، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر زنديق، وجميع آيات الأنبياء بهذه المثابة.

ومنها: أن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أُخر أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً؛ فإن سنن الله في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء: لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه؛ وهذا القسم أيضاً مندرج في قدرة الله وقضائه، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة الله في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعاً ولا قدراً، وهذه توجب للعبد أن يجد ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه.

والقسم الثاني: حوادث معجزات الأنبياء التي تواترت تواتراً لا يتواتر مثله في جميع الأخبار وتناقلتها القرون كلها، وكذلك ما يكرم الله به عباده من إجابة

الدعوات وتفريج الكربات وحصول المطالب المتنوعة ودفع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية والإلهامات الإلّهية والأنوار التي يقذفها الله في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة ما لا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لأعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات: فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها، وإنما هي حوادث قدرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم، الأولون منهم والآخرون، وبها يعرف عظمة الباري، وأن نواصي العباد بيده، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل، كما يعرف أيضاً بالقسم الأول، وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الأرضي للوصول إلى العالم السماوي، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون، وإنما أطلنا الكلام على هذه المسألة، وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا، لأمرين:

أحدهما: أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود الباري وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور الغيب، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سوى ذلك، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير، أو يغير شيئاً من أسبابه، وأنه وجد صدفة من غير إيجاد موجد، وأنه آلة تمشي بنفسها وطبيعتها، ليس لها مدبر ولا رب ولا خالق، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهتتهم لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلت عقولهم الحقيقة، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها، وأعظمها براهين وآيات، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن. . .

الأمر الثاني: أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الإسلام، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه يريدون باجتهادهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الإلهية؛ وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم، فحرفوا لذلك المعجزات، وأنكروا الآيات البينات، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث؛ إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفاً يؤول إلى إنكارها، وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة ولا عنده من العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين، بل زادوهم إغراء في مذاهبهم، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون إرجاع النصوص الدينية ومعجزات الأنبياء وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدركات بالحواس، فيا عظم المصيبة ويا شدة الجرم المزوق؛ ولكن ضعف البصيرة والإعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: أم من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً في الشر وداعياً إليه؛ كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً، قال تعالى في فرعون وملئه:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [سورة القصص: الآية ٤١]

وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣]

ومنها: ما في هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبرًا مفصَّلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً، قصه قصًّا صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع، ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان لينذر به العباد أجمعين. ولهذا يقول في آخر هذه القصة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [سورة القصص: الآية ٤٦]

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص الآية ٤٥]

وهذا نوع من أنواع براهين رسالته.

ومنها: ذكر كثير من أهل العلم أنه يستفاد من قوله تعالى: عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ [سورة طه: الآية ١٨]

استحبابُ استصحاب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة في قوله:

﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٨]

وأنه يستفاد منها أيضاً الرحمة بالبهائم والإحسان إليها والسعي في إزالة ضررها. ومنها: أن قوله جلّ ذكره:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤]

أي إن ذكر العبد لربه هو الذي خُلِق له العبد وبه صلاحه وفلاحه، وأن المقصود من إقامة الصلاة إقامة هذا المقصود الأعظم؛ ولولا الصلاة التي تتكرر على المؤمنين في اليوم والليلة لتذكِّرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعائه والخضوع له الذي هو روح الذكر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين.

وكما أن الذكر هو الذي خلق الخلق لأجله، والعبادات كلها ذكر لله، فكذلك الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شَقَّت، ويهون عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفف عليه الدعوة إلى الله، قال تعالى في هذه القصة:

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [سورة طه: الآيتان ٣٣ و ٣٤]

وقال: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [سورة طه: الآية ٤٢]

ومنها: إحسان موسى ﷺ على أخيه هارون، إذ طلب من ربه أن يكون نبياً معه، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال:

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾

[سورة طه: الآيات ٢٩ ــ ٣٢]

ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن اللثغة لا عيب فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود.

ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم: الرفق والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش ولا غلظة، وهذا يحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع. وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود، وهوقاله:

﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤]

ومنها: أن من كان في طاعة الله مستعيناً بالله واثقاً بوعد الله راجياً ثواب الله، فإن الله معه؛ ومن كان الله معه فلا خوف عليه، لقوله تعالى:

﴿ لَا تَخَافَا [ثم علله بقوله] إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

[سورة طه: الآية ٤٦]

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

ومنها: أن أسباب العذاب منحصرة في هذين الوصفين:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٨]

أي كذب خبر الله وخبر رسله، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله، ونظيرها قوله تعالى:

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيتان ١٥و ١٦]

ومنها: أن قوله تعالى:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

استوعب الله بها الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله.

أحدها: التوبة، وهو الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً، وهي تجبّ ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها.

الثاني: الإيمان، وهو الإقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله، الموجب لأعمال القلوب، ثم تتبعها أعمال الجوارح؛ ولا ريب أن ما في القلب من الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر الذي لا ريب فيه، أصلُ الطاعات وأكبرها وأساسها؛ ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات، يدفع ما لم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينافيه وعدم إصرار القلب عليه؛ فإن المؤمن ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يجامع المعاصي.

الثالث: العمل الصالح، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، والحسنات يذهبن السيئات.

الرابع: الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها، فمن كمل هذه الأسباب الأربعة فليُبْشِرْ بمغفرة الله العامة الشاملة. ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة فقال: ﴿وإني لغفار﴾ ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد، مع أن فيها فوائد كثيرة للمتأملين.

## قصة يونس ﷺ

وهو من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه الله إلى أهل نينوى ـ من أرض الموصل ـ فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أَبَقَ مغاضباً لهم. وهم لما ذهب نبيهم ألقي في قلوبهم التوبة إلى الله والإنابة بعد ما شاهدوا مقدمات العذاب، فكشف الله عنهم العذاب.

والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر في ذهابه عنهم، ولهذا قال تعالى:

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤٠]

فركب في سفينة موقرة من الركاب والأحمال، فلما توسطوا البحر شارفت على الغرق ودار الأمر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تخف السفينة فيسلم الباقون، فاختاروا الأخير لعدلهم وتوفيقهم فاقترعوا فأصابت القرعة أناساً منهم، ومنهم يونس ﷺ، ولهذا قال:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤١]

أي المغلوبين في القرعة، فألقوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاعاً، لم يكسر له عظماً ولم يمضغ له لحماً.

فلما صار في جوف الحوت، في تلك الظلمات نادى:

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

فأمر الله الحوت أن تلقيه بالعراء. فخرج من بطنها كالفرخ الممعوط من البيضة في غاية الضعف والوهن، فلطف الله به وأنبت عليه شجرة من يقطين، فأظلته بظلها الظليل حتى قوي واشتد، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم

ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وفي هذه القصة عتاب الله ليونس ﷺ اللطيف، وحبسه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس. ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

وفيها استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر؛ فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم.

وفيها أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن الله يشكر له ذلك، ويعرفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهذا قال في قصة يونس:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤]

وفيها ما قاله النبي ﷺ: دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلاَّ فرَّج الله عنه ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

وفيها أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

أي إذا وقعوا فيها لإيمانهم.

## قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

وكانا من أعظم أنبياء بني إسرائيل، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوي؛ أما داود ﷺ فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكاً على بني إسرائيل لشجاعته وقوته

وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى:

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٧]

ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت واستعانوا بالله تفوق داود ﷺ على الجميع بالشجاعة العظيمة، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت، وحصلت الهزيمة على بقيتهم، ونصر الله بني إسرائيل ذلك النصر: نبّأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوي، كما قال تعالى:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٠]

وكان قد أعطاه الله قوة في العبادة وبصيرة، ووصفه الله بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

[سورة صٓ: الآية ١٧]

فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله، وبأنه أوّاب لكمال معرفته بالله.

وكان الله تعالى قد سخر له الطير والجبال تسبِّح الله معه، وكان قد أُعطي من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين. وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يعجب الناظرين، وقد ألان الله له الحديد وعلّمه صنعة الدروع الواقية في الحروب، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحلق التي يحصل فيها الوقاية وهي خفيفة المحمل؛ وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملكين بصورة خصمين، فدخلوا عليه وهو في محرابه ففزع منهم؛ لأنهم دخلوا عليه في وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا:

﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٢]

ثم قص عليه أحدهما القصة فقال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة

ـ والمراد بها المرأة ـ ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها؛ وعزني في الخطاب، أي صار خطابه أقوى مني فغلبني. فقال داود عليه السلام: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك:

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة ص: الآيتان ٢٤ و٢٥]

فمحا الله عنه الذنب وعاد به بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك: حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة؛ وقال الله له:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦].

وأما سليمان بن داود ﷺ فإن الله أعطاه النبوة وورث أباه: علمَه ونبوته وملكَه. وزاده الله ملكاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله ولا بعده: سخر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره برخاء؛ أي بسهولة حيث أراد، غدوها شهر ورواحها شهر؛ وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته؛ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد؛ وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب؛ وعلّمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلم به، ولهذا خاطب الهدهد وراجعه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادت في قومها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٨].

فحذرت وأمرت بما يقي من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده؛ فلهذا

ابتسم سليمان ضاحكاً من قولها وقال:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٩]

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبرين، فإن قوله:

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٣].

دليل على ذلك، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها فقال:

﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٠]

وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل وطلب الهدهد، بل وقال:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٠]

ثم توعده لمخالفته لأمره؛ ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: الآيات ٢١ ــ ٢٦]

ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة. أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل

شيء يحتاج الملك إليه وأن لها عرشاً عظيماً، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار.

هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبِّحه وتوحِّده، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، وتدين بذلك، فقال له سليمان:

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٨]

فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة: ملكة سبأ؛ فلما قرأته عظمته جداً وأُرعبت منه فزعاً وجمعت رؤساء قومها فقالت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: الآيات ٢٩ ــ ٣١]

كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله، قالت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [سورة النمل: الآية ٣٢].

أي أشيروا علي، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٣٢ و٣٣]

أي مستعدون لما تقولين حرباً وسلماً، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين؛ فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم، لكن بصورة حازمة، فقالت سأهدي له هدية حاضرة

﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٥]

إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا، فربما أن الهدية كسرت سورته، وفلَّت عزيمته، وسالمنا وسالمناه من بعيد؛ وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر.

فأرسلت أناساً ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٦]

فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله في الإسلام.

ثم وصَّى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب، وقال للرسول:

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٧]

وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون، فقال لأهل مجلسه:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٣٨ و٣٩]

وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً: ثم قال الذي عنده علم من الكتاب:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٠]

يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أُعطي الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وأنه دعا الله فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه؛ ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي يسخرها الله لسليمان أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة.

وعلى كلٍّ فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم؛ ولهذا

لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك، قال:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

ثم خاطب من حوله: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا

﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٤٠ و٤١]

وكان قد مُدِح له رأيها وعقلها فأحبَّ أن يقف على الحقيقة، فلما جاءت قيل:

﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

وعرض عليها، فلما رأته عرفته ورأت ما فيه من التنكير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين:

﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

لم تقل: هو؛ لما فيه من التغيير، ولم تنف أنه هو؛ لما كانت تعرفه، فأتت بلفظ صالح للأمرين، فعرف سليمان رجاحة عقلها.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه إننا أُخبرنا عن عقلها، وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها؛ وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ، فإنه تقول: ﴿وأوتينا العلم﴾ عن ملك سليمان، وأنه ملك نبوة ورسالة وقوة هائلة من قبل هذه الحالة ﴿وكنا مسلمين﴾ مذعنين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره؛ فكأنه قيل: مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر، وإنما يضر من عبده.

حاصل الجواب قوله:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾

[سورة النمل: الآية ٤٣]

أي العقائد التي نشأت عليها، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمن عليه باتباعه.

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري، لأن الزجاج شفاف، فلما قيل لها ادخلي الصرح. فرأته لجة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

[سورة النمل: الآية ٤٤]

فأسلمت لله واتبعها قومها، فيقال إن سليمان تزوجها، فالله أعلم.

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم الله له، وبلَّغه أنهم باجتماعهم بالإنس يعلمونهم السحر، فجمعهم وتوعَّدهم وأخذ كتبهم ودفنها؛ فلما توفي سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا: إن ملك سليمان مشيد على السحر، واستخرجوا الكتب التي دفنها، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان، وأن سليمان ساحر، وروج ذلك طائفة من اليهود، فبرأ الله سليمان من هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم الضارة فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾

أي بتعليم السحر والرضاء به.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الآية،

[سورة البقرة: الآية ١٠٢]

وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل، ويذكرهم بأوصافهم الجميلة وينزِّههم عما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم.

وكان الله قد ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسداً، أي شيطاناً عتاباً له على بعض الهفوات وإرجاعاً له إلى كمال الخضوع لربه، ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سورة صٓ: الآية ٣٤]

إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه فقال:

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾
[سورة صٓ: الآية ٣٥]

فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم.

وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٧٨]

أي دخلت الغنم بستانهم ليلاً فرعت زرعه وأشجاره؛ فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث، لظنه أن الذي تلف من الحرث يقابل قيمتها. ثم رفعت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقي والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بدرها ولبنها ودهنها وصوفها ومغلها مقابلة ما كان بصدد أن ينتفع بحرثه في هذه المدة؛ فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث، فلهذا قال تعالى:

﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٩]

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى، فادعت الكبرى على الصغرى أن

الذئب أكل ابن الصغرى، وأن الذي سلم من الذئب ابنها، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت: بل الذئب أكل ابن الكبرى فتحاكما إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها. رأى أن يحكم به للكبرى اجتهاداً ورحمة بها لكبرها، وأن الصغرى في مستقبل عمرها سيرزقها الله ولداً بدله. ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. فرضيت الكبرى. وقالت الصغرى: لما دار الأمر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها: هو ابنها يا نبي الله؛ فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعي الذي هو من أقوى البينات أنه ليس ابناً للكبرى لكونها رضيت بشقه وإتلافه، وأن دعواها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها، فقضى به سليمان للصغرى. ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال، من الفهم الذي يخص الله به من يشاء.

## فصـــل
## في بعض الفوائد المستنبطة
## من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (صۤ) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به، قال بعدها:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

[سورة صۤ: الآية ١٧]

ومنها أن قوله: ﴿ذا الأيدي إنه أواب﴾ مدح عظيم من الله لهذين الوصفين، قوة القلب والبدن على طاعة الله والإنابة، باطناً وظاهراً، إلى الله المستلزمة لمحبته وكمال معرفته، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم، والثناء من الله عليهما يقتضي

الحث على جميع الأسباب التي تعين على القوة والإنابة؛ وأن يكون العبد رجَّاعاً إلى الله في حال السَّراء والضَّراء، وفي جميع الأحوال.

ومنها ما أكرم الله به نبيه داود ﷺ من حسن الصوت ورخامته، وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

ومنها أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات. كما قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

ومنها كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنة إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان.

ومنها أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله. فإن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك؛ وقد يجري منهم أحياناً بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

ومنها أن داود في أغلب أوقاته ملازماً محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق، فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده.

ومنها أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس، خصوصاً الحكام والرؤساء؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة فير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك؛ ورآه غير لائق بالحال.

ومنها أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها كمال حلم داود؛ فإنه ما غضب منهما حين جاءاه بغير استئذان، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني؛ أو: يا ظالم؛ ونحوه؛ أو: يا باغي لقوله: ﴿بغى بعضنا على بعض﴾.

ومنها أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين: ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾ بل حكم بالحق الصرف.

ومنها أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها إكرام الله لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المآب، فلا يتوهم أحد أن ما جرى منهما منقص لدرجتهما عند الله؛ وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال عنهم أثر الذنوب، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ وما ذلك على فضل الكريم بعزيز.

ومنها أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس.

ومنها أن سليمان يعد من فضائل داواد ومن منن الله عليه، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة صّ: الآية ٣٠]

وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان.

ومنها كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار يمنُّ عليهم بالأخلاق الجميلة

والأعمال الصالحة، ثم يثني عليهم بها ويرتِّب عليها من الثواب أنواعاً منوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.

ومنها أن سليمان قدَّم محبة الله على محبة كل شيء، وأتلف الخيل التي ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

ومنها أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشؤوم فليفارقه، وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد ـ التي ألهته عن طاعة الله ـ سخَّر الله له الريح والشياطين: أن من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه.

ومنها أن تسخير الشياطين، وتسخير الريح على الوجه الذي سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان، ولهذا لما رأى النبي ﷺ أن يأخذ الشيطان الذي تفلَّت عليه ليلةً فيربطه في سارية المسجد قال: «ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته».

ومنها أن سليمان كان ملكاً نبياً مباح له أن يفعل ما يريد، ولكنه لكماله لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون له إرادة مستقلة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

ومنها أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره، وتسخير الشياطين، وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات؛ وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه؛ وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ

الخلق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أُعطيه سليمان.

ومنها أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين ولا يكتفوا بمجرد السؤال، بل يختبرونهم ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم؛ كما فعل سليمان مع ملكة سبأ: امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته ولم يكتف بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة، وتمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون.

## قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

كان أيوب من أنبياء بني إسرائيل ومن الأصفياء الكرام؛ وقد ذكره الله في كتابه وأثنى عليه بالخصال الحميدة عموماً، وبالصبر على البلاء خصوصاً؛ فإن الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله، ثم بجسده، فأصابه من البلاء ما لم يصب أحداً من الخلق، فصبر لأمر الله ولم يزل منيباً لله.

ولما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣]

فقيل له:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [سورة صٓ: الآية ٤٢]

فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل: ففعل ذلك فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من البلاء، ثم أعاد الله له أهله وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً؛ وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين وعبرة للمعتبرين، وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنها، وقيل له: خذ بيدك ضغثاً حزمة حشيش أو علف أو شماريخ أو نحوها فيها مائة عود فاضرب به ولا تحنث، أي ينحل بذلك يمينك. وفي هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد من قبل شريعتنا؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي

لا بد من وفائه، وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك، لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك.

## قصة الخضر مع موسى، ومحلها في أثناء قصص موسى

وذلك أن موسى ﷺ قام ذات يوم في بني إسرائيل مقاماً عظيماً، علّمهم فيه علوماً جمة؛ وأعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي الله، هل يوجد، أو هل تعلم في الأرض أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، بناءاً على ما يعرفه، وترغيباً لهم في الأخذ عنه؛ فأخبره الله أن له عبداً في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى، وإلهامات خارجة عن الطور المعهود؛ فاشتاق موسى إلى لقياه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوتاً وقيل له: إذا فقدت الحوت فهو في ذلك المكان، فذهب فوجده، وكان ما قص الله من نبأهما في سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا [إلى قوله] ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

[سورة الكهف: الآيات ٦٠ ــ ٨٢]

وفي هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله، ونذكر المهمّ منه.

فمنها ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى رحل في طلبه مسافة طويلة ولقي في ذلك النصب، وترك الإقامة عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة في العلم بالأهم فالأهم، فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالاً بالتعليم فقط، بل يتعلم ليعلم.

ومنها: جواز أخذ الخادم في السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى ﷺ.

ومنها: أن المسافر بطلب العلم أو الجهاد أو غيرهما من أسفار الطاعة، بل وكذلك غيرهما إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين مراده، فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره من فوائد الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة والإعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً﴾ ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده، مع أنه كان في الغالب إذا أراد غزوة ورى بغيرها تبعاً للمصلحة في الحالتين.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، وكذلك النقص، لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخّط، وكان صدقاً لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾.

ومنها: أنه ينبغي أن يتخذ الإنسان خادماً ذكياً فطناً كيِّساً ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿آتنا غداءنا﴾ أنه للجميع. ومنها أن المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعي، وأن ما وافق رضا الله يعان عليه ما لا يعان على غيره لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشتك منه مع طوله.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًّا، بل هو عبد صالح عالم ملْهَم، لأن الله ذكره بالعلم والعبودية الخاصة والأوصاف الجميلة، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول، وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، وذلك يكون لغير الأنبياء، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٧]

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجدّه، وعلم إلهي لدنيٍّ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥]

فالخضر أعطي من هذا النوع الحظ الأوفر. ومنها التأدب مع المعلم والتلطف في خطابه لقول موسى:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٦]

فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي أم لا؟ وإظهار حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده، بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم، فلا أنفع للمتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم درجات؛ فإن موسى من أكابر أولي العزم من الرسل، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه.

ومنها: أنه يتعين إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته، والاعتراف بذلك وشكر الله عليه لقوله: ﴿تعلمن مما علمت رشداً﴾؟

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير؛ وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك، فإنه من العلم

النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

ومنها: أن من ليس له صبر على صحبة العالِم، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم، فإنه قاصر ليس بأهلٍ لتلقي العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص.

ومنها: أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علماً وبمنافعها وثمراتها ونتائجها؛ فمن لا يدري هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾؟.

ومنها: الأمر بالتأنِّي والتثبت وعدم المبادرة على الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلة على مشيئة الله لقوله: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وإن العزم على الشيء ليس بمنزلة فعله، فموسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يخبر المتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً أو نهاه عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التي لا تتعلق بالموضوع. ومنها جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ، لا في حق الله ولا في حق العباد، إلا إن ترتب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناسي لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم، فإن هذا داع إلى النفور، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصَّلاه، هو والخضر، أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدىء.

ومنها: فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً؛ وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره.

ومنها: القاعدة الكبيرة الأخرى، وهي: أن عمل الإنسان في مال غيره ــ إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة ــ يجوز بلا إذن، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم؛ وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر، لقوله: ﴿يعملون في البحر﴾.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به، لقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علّل أفعاله بالجدار بقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾.

ومنها: استعمال الأدب مع الله حتى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وأما الخير فأضافه إلى الله لقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك﴾ وقال إبراهيم:

وقال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠]

وقالت الجن:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

[سورة الجن: الآية ١٠]

مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته، بل يفي له بذلك حتى لا يجد للصبر محلاً، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

## قصة ذي القرنين

وكان ذو القرنين ملكاً صالحاً، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره، فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله، ولهذا قال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٣]

أي من بعض أخباره. ومن المعلوم أن ما قصه الله في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح المُخضِع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه؛ ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطيها، فما كل أحد يعطَى الأسباب النافعة، ولا كل من أُعطيها يتبعها ويعمل بها.

أما ذو القرنين فإنه تَمّ له الأمران: أعطي سبباً فأتبع سبباً، فغزا بجيوشه الجرارة أدنى أفريقية وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٦]

أي رآها في رؤية العين كأنها تغرب في البحر، والبحر لونه أسود كالحمئة. والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخف والحافر من بلاد أفريقية، ووجد في ذلك المحل وتلك الأقطار قوماً، منهم المسلم والكافر، والبر والفاجر، بدليل قوله:

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٦]

إما أن القائل له نبي من أنبياء الله أو أحد العلماء، أو أن المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيَّراً قدراً؛ وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يسوِّي بين الأمرين المتفاوتين في الإحسان والإساءة.

فقال:

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

[سورة الكهف: الآيتان ٨٧ و٨٨]

وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح، وعلى حسن تدبيره

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٩]

أي ثم عمل بالأسباب التي أوتيها بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الأرض قطراً قطراً حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطىء البحر المحيط الهادي. وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٠]

أي لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها؛ أي وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوي إلى الغياض والغيران والأسراب منقطعين

عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

ثم كر راجعاً واتبع سبباً؛ يمكنه من مناهج البلاد وتخضيع العباد قاصداً نحو الشمال

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٣]

أي بلغ محلاً متوسطاً بين السَّدَّين الموجودين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة، وهي الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهي في بلاد الترك، على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنّما اختلفوا: هل هي سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك في أذربيجان، أم سلاسل جبال ألتاي، أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا وهو الظاهر؟. وعلى الأقوال كلها، فوجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، من بُعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾
[سورة الكهف: الآية ٩٤]

وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم،

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾

[سورة الكهف: الآيتان ٩٤ و٩٥]

من القوة والأسباب والاقتدار خير فأعينوني بقوة؛ أي إن هذا بناء عظيم يحتاج في الإعانة عليه إلى مساعدة قوية في الأبدان

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٥]

ولم يقل سداً، لأن الذي بنى فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين

السدين الطبيعيين، أي بين سلاسل تلك الجبال، فدبرهم على كيفية آلاته وبنيانه فقال:

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي اجمعوا لي جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولا تدعوا من الموجود شيئاً واركموه بين السدين، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تلولاً عظيمة موازنة للجبال، ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي الجبلين المكتنفين لذلك الردم قال:

﴿ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلاً هائلاً متصلاً بالسدين؛ فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج، ولهذا قال:

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ [أي يصعدوا ذلك الردم] وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [سورة الكهف: الآيتان ٩٧ و٩٨]

أي ربي الذي وفقني لهذا العمل الجليل والأثر الجميل، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٨]

أي هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل، فإذا جاء ذلك الأجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٩٦]

أي من كل مكان مرتفع، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء ﴿ينسلون﴾ أي يسرعون فيها غير مكترثين ولا حاجز يحجزهم، فلفظة «من كل حدب»، تشمل جميع المواضع والأقطار: سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها؛ وإنما نص الله على المرتفعات لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى.

وقد ورد في صفاتهم أحاديث في الصحيحين تؤيد ما في هذه الآيات من صفاتهم وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثاراً لا خطام لها ولا زمام، شوشت أفكار أكثر الناس ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة، ودع ما سوى ذلك، فإن فيه الهدى والرشد والنور.

## قصة عيسى وأمه، وزكريا ويحيى عليهم السلام

كانت زوجة عمران ــ وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوي المقامات العالية عندهم ــ نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما في بطنها لبيت المقدس، يكون خادماً لبيت الله مُعَدًّا لعبادة الله، ظناً أن الذي في بطنها ذكر، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شاكية إليه الحال:

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ [أي أن الذكر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس] وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٦]

فحصنتها بالله من عدوها هي وذريتها. وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها في هذه الدنيا:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ [أي أن الله جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور] وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾
[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت؛ فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم، فاقترعوا وألقوا أقلامهم، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، قال: أنَّى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا. قالت:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

أي رزقه تعالى يأتي بطرق معهودة وبطرق أخرى، والله على كل شيء قدير.

فحين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولداً يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده في بني إسرائيل، في تعليمهم وهدايتهم:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ [أي بعيسى عليه السلام] وَسَيِّدًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٩]

أي عظيماً عند الله وعند الخلق لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة، والأعمال الصالحة

﴿وَحَصُورًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٩]

أي ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته من مواقعة المعاصي؛ فوصفه الله

بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد. فتعجب زكريا من ذلك وقال:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا﴾ [سورة مريم: الآيتان ٨ و ٩]

وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كبرك، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال:

﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً [تدلني على وجود الولد] قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٠]

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٤١]

وهذه آية كبرى، يمنع من الكلام الذي هو أسهل ما يقدر عليه الإنسان، وهو سويّ، فلا يقدر أن يكلم أحداً إلا بالإشارة، ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه وتحميده، فحينئذ تمت له البشارة من الله وعرف أنه لا بد أن يكون، فولدت زوجته يحيى، وأنشأه الله نشأة عجيبة، فتعلم وهو صغير، ومهر في العلم وهو صغير، ولهذا قال:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا [حتى قيل إن الله نبأه وهو صغير، وكما أعطاه الله العلم العظيم فقد منّ عليه بأكمل الصفات فقال] وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآيات ١٢ ــ ١٥]

ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله وحقوق والديه وحقوق الخلق، وأن الله سيحسن له العواقب في أحواله كلها.

وأما مريم فإنها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. متجردة لعبادة ربها:

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧]

لئلا يشغلها أحد عما هي بصدده؛ فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل في صورة بشر سوي من أكمل الرجال وأجملهم، فظنت أنه يريدها بسوء، فقالت:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٨]

فتوسلت بالله في حفظها وحمايتها، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى الله، فكان هذا الورع العظيم منها في هذه الحالة التي يخشى منها الوقوع في الفتنة، ورفع الله بذلك مقامها ونعتها بالعفة الكاملة، وأنها أحصنت فرجها، فقال لها جبريل:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ [به وبك وبالناس] وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾
[سورة مريم: الآيات ١٩ ــ ٢١]

فلا تعجبي مما قدره وقضاه.

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ [أي ابتعدت به عن الناس] مَكَانًا قَصِيًّا [خشية الاتهام والأذية منهم] فَأَجَآءَهَا [أي ألجأها] ٱلۡمَخَاضُ [أي الطلق] إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآيتان ٢٢ و٢٣]

لما تعرفه مما هي متعرضة له من الناس، وأنهم لا يصدقونها، ولم تدر ما الله صانع لها.

﴿فَنَادَىٰهَا [الملك] مِن تَحۡتِهَآ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٤]

وكانت في مكان مرتفع، وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا [أي نهراً جارياً] وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ

ٱلنَّخۡلَةِ [من دون أن تحوجك إلى صعود] تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا [أي طرياً ناضجاً] فَكُلِي [من الرطب] وَٱشۡرَبِي [من السَّريِّ] وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ [بولادة عيسى، وليذهب روعك وخوفك] فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا [أي سكوتاً، وكان معهوداً عندهم أنهم يتعبدون بالصمت في جميع النهار، ولهذا فسره بقوله:] فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [سورة مريم: الآيات ٢٤ ـ ٢٦]

فاطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد.

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت من شأنها وقويت بعد الولادة ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٧]

علناً غير هائبة ولا مبالية، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها، جزموا أنه من وجه آخر فقالوا:

﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا * يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا * فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ [سورة مريم: الآيات ٢٧ ـ ٢٩]

كما أمرت بذلك. فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم:

﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [سورة مريم: الآية ٢٩]

فقال، وهو في تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته:

﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا * وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾
[سورة مريم: الآيات ٣٠ ـ ٣٣]

فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله وأدلة رسالته، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من السوء، لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدقها الناس،

ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جلا كل ريب يقع في القلوب، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام:

قسم آمنوا به وصدقوه في كلامه هذا وفي الانقياد له بعد النبوة، وهم المؤمنون حقيقة.

وقسم غلوا فيه وهم النصارى، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وقسم كفروا به وجفوه ــ وهم اليهود ــ ورموا أمه بما برأها الله منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٧]

ولما أرسله الله إلى بني إسرائيل، آمن به من آمن، وكفر به من كفر، وجعل يريهم الآيات والعجائب، فكان يصور الطين فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداؤه وأرادوا قتله، فألقى الله شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم، ورفعه الله إليه وطهّره من قتلهم، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالإثم العظيم والجرم الجسيم، وصدقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه، ونزّهه الله من هذه الحالة فقال:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧]

وقد قام عيسى في بني إسرائيل فبشَّر وأعلن برسالة محمد ﷺ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا:

﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٣]

كما قالوا في عيسى: ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[سورة المائدة: الآية ١١٠]

**وفي هذه القصة من الفوائد أمور:**

منها أن النذر ما زال مشروعاً في الأمم السابقة؛ والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح النافذ منه للباطل فقال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه؛ ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

ومنها: أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار؛ فإن المربي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أَمَرَ الله المربين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوىء الأخلاق.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء؛ فإن الله كرم مريم بأمور: يسّر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها، وأكرمها بأن كان رزقُها يأتيها من الله بلا سبب؛ وأكرمها بوجود عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمّن قلبها، ثم بكلامه في المهد، فهذه الأخيرة جمعت كرامة وليّ ومعجزة نبي.

ومنها: الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى بن مريم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ونحوهما.

ومنها: ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصاراً في حياته وبعد مماته في بث دعوته والنصر لدينه، ولذلك كثر تابعوه، ولكن منهم المستقيم؛ وهو الذي آمن به حقيقة، وآمن بجميع الرسل؛ ومنهم المنحرف؛ وهم الذين غلوا فيه، وهم جمهور من يدعي أنه من أتباعه وهم أبعد الناس عنه.

ومنها: أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصديقية، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع لله، وأنه اصطفاها وفضلها على نساء العالمين.

ومنها: أن إخبار النبي ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته لقوله:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

## قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام

هذه القصة من أعجب القصص، وذكرها الله جميعاً، وأفردها بسورة مطولة مفصلة تفصيلاً واضحاً، قراءتها تغني عن التفسير، فإن الله ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره، وما بين ذلك من التنقلات واختلاف الأحوال، وقال فيها:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

فلنذكر ما يستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد، فنقول مستعينين بالله:

**ذكر ما فيها من الفوائد:**

منها أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس، ومن ملك إلى رق وبالعكس؛ ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس، ومن سرور إلى حزن وبالعكس، ومن رخاء إلى جدب وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس، ومن وصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب.

ومنها: ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة في الصفات.

فوجه مناسبة رؤيا يوسف: أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، أن هذه زينة للسماء، وفيها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالأنوار السماوية، ولأن أباه وأمه أصل، وإخوته فرع عنهما، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً من الفرع، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه، والقمر الآخر منهما، والكواكب إخوته، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له، والمسجود له

معظم محترم، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظماً محترماً لأبويه وإخوته، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضي الوصول إلى هذا: من علوم وأعمال واجتباء من الله، فلهذا قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٦]

ومنها: المناسبة في رؤيا الفتيين، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمراً، أن الذي يعمل هذا العمل يكون في العادة خادماً لغيره، وأيضاً العصر مقصود لغيره والخادم تابع لغيره ويؤول أيضاً إلى السقي الذي هو خدمته، فلذلك أوّله بما يؤول إليه، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذي هو يحمل.

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبلات: بأنها السنين المخصبة والمجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، فهذه نسبته إذ رأى هو الرؤيا، وكذلك السنون بخصبها وجدبها تنتظم أمور المعاش أو تختل، والبقر هي آلة حرث الأرض واستخراج مغلها، والمغل هو الزرع؛ فرأى السبب والمسبب، فرؤيته السبع السمان من البقر ثم السبع العجاف، والسبع السنبلات الخضر، ثم السبع اليابسات. أي لا بد أن تتقدم السبع السنين المخصبات، ثم تتلوها المجدبات، وتأكل ما حصل فيها من غلال، ولا تبقي إلا شيئاً يحصنونه عنها وإلا فهي بصدد أكلها كلها.

فإن قيل من أين أخذ قوله:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٤٩]

فإن بعض المفسرين قال: هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه.

فالجواب ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك، فإن السنين

المجدبة سبع فقط، فدل على أنه سيأتي بعدها عام الخصب، كثير البركات، يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة التي لا يزيلها عام خصب عادي، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة؛ وهذا واضح وهو من مفهوم العدد.

ومنها: ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد ﷺ، حيث قص عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التي أتت بالمقصود كله، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً كما هو معلوم لقومه، وهو بنفسه أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ولهذا قال:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٢]

ومنها: أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرّته، لقول يعقوب ليوسف:

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥]

ومنها: ذكر الإنسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾. ومنها ؛ أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، فإنه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله:

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦]

أي بما يحصل لك؛ ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة.

ومنها: أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها؛ لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة، خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرّع عنها من

الأخلاق والأعمال؛ فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته، مقام عظيم ومرتبة عالية، وأنه لا بد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها، ولهذا قال: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك﴾.

ومنها: أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار، في معاملة السلطان لرعيته، ومعاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات، وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها؛ وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر؛ لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف في المحبة، وجعل وجهه له جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول؛ وانظر إلى جرم إخوة يوسف، فإنهم لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم، احتالوا على ذلك بعدة حيل، وكذبوا عدة مرات، وزوّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء يبكون؛ ولا بد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب، بل وعلى يوسف، فليحذر العبد من الذنوب، خصوصاً الذنوب المتسلسلة، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في علمه وعمله.

ومنها: أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والاعتراف التام، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة؛ وإذا سمح العبد

بحق فالله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين، ولهذا في أصح الأقوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم، وكأنه ما كان، ولقوله:

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وهم أولاد يعقوب الإثناء عشر وذريتهم؛ ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية، وهي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد.

ومنها: ما منّ الله به على يوسف من العلم والحلم والأخلاق الكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتمّم ذلك بأن أخبرهم أنه لا يثرب عليهم بعد هذا العفو، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته، وإحسانه على عموم الخلق، كما هو بيّن في سيرته وقصته.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما قالوا:

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩]

وقال قائل منهم:

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠]

كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الأكبر، وهو من جملة الأسباب التي قدر الله ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد.

ومنها: أن الشيء، إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم المعاملون أنه على غير وجه الشرع، فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف باعه إخوته بيعاً محرَّماً عليهم، واشترته السيارة بناءاً على أنه عبد لإخوة يوسف البائعين، ثم ذهبوا به إلى مصر

فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً وسماه الله سيداً، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم، وسمى الله شراء السيارة وشراءه في مصر معاملة لما ذكرنا.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات، وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحُّدها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل.

ومنها: أن الهم الذي همّ به يوسف ثم تركه لله ولبرهان الإيمان الذي وضعه الله في قلبه مما يرقّيه إلى الله زلفى، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمّارة بالسوء، وهو طبيعة طبع عليها الآدمي، فإذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الإيمان والخوف من الله وقع الذنب، وإن كان العبد مؤمناً كامل الإيمان، فإن الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الإيمان الصحيح القوي منعه من ترتب أثره، ولو كان الداعي قوياً، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع، قال تعالى:

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [بدليل قوله] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٤]

لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه وإخلاصه، خلّصه الله من الوقوع في الذنب، فكان ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن أعلى السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر ﷺ منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. فهمّها لما كان لا معارض له استمرت في مراودته، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال ببرهان ربه.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به، وكان مخلصاً لله في كل أحواله، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لأن الله علّل صرف هذه الأمور عن يوسف بقوله: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ على قراءة من

قرأها بكسر اللام؛ ومن قرأها بالفتح، فإن من أخلصه الله واجتباه فلا بد أن يكون مخلصاً، فالمعنيان متلازمان.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا ابتلي بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر، كما فر يوسف هارباً للباب، وهي تمسك بثوبه وهو مدبر عنها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوي، وذلك أن الشاهد الذي شهد، أي حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبر القرينة فقال:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٦]

إلى آخر القضية، وصار حكمه هذا موافقاً للصواب، ومن القرائن وجود الصواع في رحل الأخ؛ وقد اعتبر هذا وهذا.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهراً وباطناً؛ فإن جماله الظاهر أوجب لامرأة العزيز ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة؛ ولما لامها النساء دعتهن

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾
[سورة يوسف: الآية ٣١]

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع السوء منه، ولكن الإيمان ونوره والإخلاص وقوته لا يشذ عنهما فضيلة ولا تجامعهما رذيلة؛ وقد بينت امرأة العزيز للنساء من يوسف الأمرين؛ فإنها لما رأتهن جماله الظاهر الذي اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد في الآدميين قالت:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٢]

وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥١]

ومنها: أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية، فهكذا إذا ابتلي العبد بأحد أمرين، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور: ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية؛ وهو يدخل في الجهاد في سبيل الله، وثواب من جهة المصيبة التي نالته والألم الذي أصابه؛ فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه، وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجىء إلى ربه ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

فالعبد الموفق يستعين ربه على دفع المعاصي وأسبابها، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافي المتوكلين.

ومنها: أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله: ﴿أصبُ إليهن وأكنْ من الجاهلين﴾ أي الجاهلين بالأمور الدينية، والجاهلين بالحقائق النافعة والحقائق الضارة.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لربه في حال رخائه، فعليه عبودية في حال الشدة؛ فيوسف ﷺ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك؛ ومن كمال رأيه وحكمته أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا إليه في تعبير رؤياهما وقالا له:

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٦]

رأى ذلك فرصة، فدعاهما إلى الله قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أقرب إلى حصول المطلوب، وبيّن لهما أن الذي أوصله إلى هذه الحال التي رأياه فيها من

الكمال والعلم إيمانـه وتوحيدُه وتركُه لملة المشركين؛ وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال، وبرهن لهما على حسن التوحيد ووجوبه، وعلى قبح الشرك وتحريمه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشدّ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والإيمان أعظم من كل شيء، قدّمها.

ومنها: أن من وقـع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها. ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما:

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٢]

ومنها: أنه يتعين على المعلم والداعي إلى الله استعمال الإخلاص التام في تعليمه ودعوته، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مال أو جاه أو نفـع، وأن لا يمتنـع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف قد وصّى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي؛ فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائـلاً مستفتياً عن تلك الـرؤيا، فلم يعنفه يوسف ولا وبّخه، بل ولا قال له: لِمَ لم تذكرني عند ربك، وأجابه جواباً تاماً من جميـع الوجوه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول إذا أجاب السؤل أن يدل السائل على الأمر الذي ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفـع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن إرشاده؛ فإن يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه في تلك السنين المخصبات من الإكثار من الزراعة وحسن الحفظ والجباية.

ومنها: أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها فضيلة العلم، علم الشرع والأحكام، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وعلم السياسة، فإن يوسف ﷺ إنما حصلت له الرفعة في الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع، وفيه أن علم التعبير داخل في الفتوى، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك، كما ليس له أن يفتي في الأحكام بغير علم، لأن الله سماها فتوى في هذه السورة.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة، من العلم وغيره، إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب، ولم يقصد به الرياء، لقول يوسف:

﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر الله بل أراد الترأس والمأكلة المالية.

ومنها أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان لا ثالث لهما: الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به، والتقوى التي هي امتثال الأوامر الشرعية واجتناب النواهي، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملكها، وأنه ينبغي للعبد أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهي عاجزة عنها، بل يسليها بالثواب الأخروي ليخف عليها عدم حصول الدنيا، لقول يوسف:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٧]

ومنها أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر

يلحقهم لا بأس به، بل ذلك مطلوب، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد به للسنين المجدبات، وقد حصل به الخير الكثير.

ومنها حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها، فنهض بالزراعة حتى كثرت الغلال جداً، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما فقدوا ما عندهم، لعلمهم بوفورها في مصر، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله، وظاهر حاله هذا أنه لا يعطي أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده.

ومنها مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف، لقول يوسف:

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٩]

ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإن يعقوب قال لأولاده:

﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾
[سورة يوسف: الآية ٦٤]

وقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٣]

فهم في الأخيرة، وإن لم يكونوا مفرطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه.

ومنها أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر؛ لقول يعقوب:

﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾
[سورة يوسف: الآية ٦٧]

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وأما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فإنها محرمة غير نافذة.

ومنها أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يجب بيانه له أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حين ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهماً أنه سارق، وليس في ذلك تصريح بسرقته، وإنما استعمل المعاريض، ومثل هذا قوله:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾
[سورة يوسف: الآية ٧٩]

ولم يقل من سرق متاعنا.

ومنها أنه لا يجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم:

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [سورة يوسف: الآية ٨١]

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٦]

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدرعلى فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن، فتم لهذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ثم ازداد به الأمر حين اتصل فراق الابن الثاني بالأول، وهو في ذلك صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا ريب أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله:

﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٦]

فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين؛ ولا ريب أن الله رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية، لا تنال إلّا بمثل هذه الأمور.

ومنها أن الفرج مع اشتداد الكرب، فإنه لما تراكمت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعاً بحملها، فرجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين؛ وهذه عوائده الجميلة، خصوصاً لأوليائه وأصفيائه، ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة.

ومنها جواز إخبار العبد بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر غيرهما على غير وجه التسخط، لقول يعقوب:

﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٤].

وقول إخوة يوسف:

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٨].

وأقرهم يوسف.

ومنها فضيلة التقوى والصبر، وإن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وإن عاقبة أهلها أحسن العواقب لقوله:

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٠]

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى، ولهذا قال يوسف:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠].

ومنها ما في هذه القصة من الألطاف المتنوعة المسهِّلة للبلاء: منها رؤيا يوسف السابقة؛ فإن فيها روحاً ولطفاً بيوسف وبيعقوب، وبشارة بالوصول إلى تأويلها، ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا،

وهو لا يشعرون؛ وتنقلاته من حال إلى حال، فإن فيها ألطافاً ظاهرة وخفية؛ ولهذا قال في آخر الأمر:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

يلطف به في أحواله الداخلية، ويلطف له في الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلح دائماً على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها، وخير أعماله خواتمها، فإن الله كريم جواد رحيم.

## قصة أصحاب الكهف

وهم فتية وفقهم الله وألهمهم الإيمان، وعرفوا ربهم وأنكروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان، وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم، خائفين من سطوة قومهم فقالوا:

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾

[أي إن دعونا غيره]

﴿شَطَطًا﴾

[أي زورًا وبهتاناً وظلماً]

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سورة الكهف: الآيتان ١٤ و١٥]

فلما اتفقوا على هذا الأمر، وعرفوا أنهم لا يمكنهم إظهار ذلك لقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

[سورة الكهف: الآية ١٠]

فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير، واسع الفجوة، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس، لا في طلوعها ولا في غروبها، فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاث مئة سنة وازدادوا تسعاً، وقد ضرب الله عليهم نطاقاً من الرعب على قربهم من مدينة قومهم؛ ثم إنه في الغار تولى حفظهم بقوله:

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٨]

وذلك لئلا تُبلي الأرضُ أجسادهم، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة:

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾

[وليقفوا في آخر الأمر على الحقيقة:]

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٩] إلى آخر القصة.

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة:

منها أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله، فإن لله آيات عجيبة وقصصاً فيها عبرة للمعتبرين.

ومنها أن من أوى إلى الله أواه الله ولطف به وجعله سبباً لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهم في هذه القومة الطويلة إبقاءاً على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.

ومنها الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها، لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

ومنها الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عـالمه، وأن يقف عند ما يعرف.

ومنها صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك، لقولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيُّها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. ومنها جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه، لقوله: ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾.

ومنها الحث والتحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر.

ومنها بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم لأوطانهم وعوائدهم في الله.

ومنها ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين.

ومنها أن قوله:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٢١]

فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا في زمانهم، أناس أهل تدين، لأنهم عظَّموهم هذا التعظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم؛ وهذا وإن كان ممنوعاً ـ وخصوصاً في شريعتنا، فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبـدلهم الله به بعد ذلك أمناً وتعظيماً من الخلق؛ وهذه عوائد الله فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة.

ومنها أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الانهماك به لقوله:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢]

ومنها أن سؤال من لا علم له في القضية المسئول فيها أو لا يوثق به منهي عنه لقوله:

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢]

## قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين

اعلم أن سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله؛ والقرآن إنما كان ينزل تبعاً لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له، وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها؛ وهذا من حكمة إنزاله مفرقاً، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۞ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٣٢ و٣٣]

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٠]

فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عوناً في هذا المقام.

فأول مقاماته في إنزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت إليه عبادة الأوثان، وبغض إليه كل قول قبيح وفعل قبيح. وفطر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقول الحق علماً وعملاً؛ والله تعالى هو الذي طهر قلبه وزكاه وكمّله، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد، ويأخذ معه طعاماً يطعم منه المساكين ويتعبّد ويتحنث فيه، فقلبه في غاية التعلق بربه، ويفعل من العبادات ما وصل إليه علمه في ذلك الوقت الجاهلي الخالي من العلم، ومع ذلك فهو في غاية الإحسان إلى الخلق. فلما تم

عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقي أعظم رسالة أرسل الله بها أحداً من خلقه، تبدَّى له جبريل ﷺ فرأى منظراً هاله وأزعجه، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك، وإنما قدَّم الله له الرؤيا، التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فأول ما أنزل الله عليه

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١]

فجاءه بها جبريل وقال له: اقرأ. فأخبره أنه ليس بقارىء ـ أي لا يعرف أن يقرأ ـ كما قال تعالى:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحى: الآية ٧]

وتفسيرها الآية الأخرى:

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

فغطه جبريل مرتين أو ثلاثاً ليهيئه لتلقي القرآن العظيم، ويتجرد قلبه وهمته وظاهره وباطنه لذلك، فنزلت هذه السورة التي فيها نبوته، وأمره بالقراءة باسم ربه، وفيها أصناف نعمه على الإنسان بتعليمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائصه من الفرَق، وأخبرها بما رآه وما جرى عليه، فقالت خديجة رضي الله عنها: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، أي ومن كانت هذه صفته، فإنها تستدعي نعماً من الله أكبر منها وأعظم، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه، ومن تهوين القلق الذي أصابه.

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحي مدة ليشتاق إليه وليكون أعظم لموقعه عنده؛ وكان قد رأى الملك على صورته فانزعج، فجاء إلى خديجة أيضاً ترعد فرائصه فقال: «دثروني دثروني» فأنزل الله عليه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾
[سورة المدَّثر: الآيات ١ ــ ٥]

فكان في هذا: الأمر له بدعوة الخلق وإنذارهم. فشمر ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب، وسيلقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشدة، ولكن الله أيَّده وقوَّى عزمه وأيَّده بروح منه وبالدين الذي جاء به، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحي لما قال المكذبون: إن رب محمد قلاه. قال:

﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إلى آخرها.
[سورة الضحى: الآيات ١ ــ ٣ وما بعدها]

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله، ونفي لكل نقص؛ وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها؛ وأن الله سيعطيه من النصر والأتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه. فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده؛ دعا الناس لهذا، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه، وتعينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته؛ وقرار إبطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، وهي أغلب السور المكية، فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجهدهم وقولهم وفعلهم، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابرون ويجحدون آيات الله، كما قال تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٣٣]

ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والتكذيب، وتوطين نفوسهم على معاداته، أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن

يفقهوه، وفي آذانهم وقراً؛ وأنهم لا يهتدون بسبب ما أسسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى؛ وهذا مما يعلم به حكمة الباري في إضلال الضالين، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه، ولَّاهم الله ما تولوا لأنفسهم وتركهم في طغيانهم يعمهون؛ وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم، قلب الله أفئدتهم وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم وأفئدتهم، وهذا الوصف الذي أشرنا إليه قد ذكره الله في كتابه عنهم، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى، والذنب ذنبهم وهم السبب في ذلك؛ قال تعالى:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

وبضده تعرف الحكمة في هدايته للمؤمنين، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم، هداهم الله بالقرآن، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة. قال تعالى:

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم، وبه ينفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم للحق: أصوله وفروعه.

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويدعوهم أفراداً ومتفرقين، ويذكرهم بالقرآن ويتلوه في الصلاة وخارجها؛ وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم، وقد يسبونه ويسبون من أنزله، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى يبين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن

ويصفونه به لينفروا عنه الناس، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سماه الله وحيداً فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر، ولكن أبى الله إلا أن يعلو هذا الكلام كلَّ كلام، ويزهق هذا الحق كل باطل، وكانوا من إفكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه كذب، إنه أساطير؛ فجعلوا القرآن عضين، كل هذا أثر البغض الذي أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولاً من هذه الأقوال، أنزل الله آيات يبطل بها ما قالوا، ويبين زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ، وأن القرآن من عند الله، مقابلة المكذبين له. فإن من نظر إليها علم أنها سلاح عليهم؛ وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون في إبطاله، وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ من الدين، وكانوا أيضاً يقولون في النبي ﷺ الأقوال التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون، وليس فيها نقص بالنبي ﷺ. يقولون: لو أن محمداً صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه الله عن المشي في الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحي إليه عقولهم الفاسدة، ويذكرها الله في القرآن في مواضع متعددة، تارة يصورها للعباد فقط، لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشُّبَهِ القادحة، فضلاً عن الحجج المعتبرة؛ وتارة يصورها ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير في القرآن.

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يسعون أشد السعي أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن في دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه، لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليه من النقص، وأنه ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئاً من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به، فلا أحب إليهم من التزوير وإبقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه: وهذا الذي منه يفرون؛ وهذا المقام أيضاً ذكره الله في آيات متعددة، مثل قوله:

﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٩] ونحوها من الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨]

فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم لله، فإنه يترك لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبي ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم، ويقولون: إن كنت صادقاً فاءتنا بعذاب الله، أو بما تعدنا، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً. وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم فيجيبهم الله عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيده الله بالآيات والله أعلم بما ينزل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الأدلة والبراهين على ذلك. فقول الجاهل الأحمق: لو كان كذا وكذا... جهل منه وكبر ومشاغبة محضة، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الإتيان بها إلا الإبقاء عليهم وأنها لو جاءت لا يؤمنون، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب. وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين، ليس له من الأمر شيء، ولا من الآيات شيء، وأن هذا من عند الله، فطلبهم من الرسول محض الظلم والعدوان، وهذه الما ماني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة.

وأحياناً يقدحون في الرسول قدحاً يعترضون فيه على الله، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ومحمد ليس كذلك؛ وأنك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا؛ فلأي شيء تفضل علينا بالوحي... ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد؛ فيجيبهم الله بذكر فضله، وأن فضله يؤتيه من يشاء، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والمحل اللائق بها، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم، وأنه ما وجد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال، مؤيداً ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلمة، وقد أبدى الله هذه المعاني وأعادها معهم في مواضع كثيرة.

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة التامة والقيام معهم في كل أمورهم، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم، وأحنى عليهم من كل أحد، كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨]

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثته، نحو عشر سنين، وهو يدعو إلى الله على بصيرة.

ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته، وعرج به إلى فوق السموات السبع، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها، وجاءه جبريل على أثرها فعلّمه أوقاتها وكيفيّاتها، وصلى به يومين، اليوم الأول صلّى الصلوات الخمس في أول وقتها. واليوم الثاني في آخر الوقت، وقال: الصلاة ما بين هذين الوقتين؛ ففرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، ولم يفرض الأذان في ذلك الوقت ولا بقية أركان الإسلام، وانتشر الإسلام في المدينة وما حولها. ومن جملة الأسباب: أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيراناً لهم، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبياً قد أظل زمانه، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه؛ فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبي ﷺ في مكة وتيقنوا أنه رسول الله، وأما اليهود فاستولى عليهم الشقاء

والحسد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. وكان المسلمون في مكة في أذى شديد من قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولاً إلى الحبشة، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة.

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملأهم ورؤساؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ؛ فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلاً شجاعاً فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة. قالوا: لأجل أن يتفرق دمه في القبائل، فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية، فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. فجاء الوحي إلى النبي ﷺ وعزم على الهجرة، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه إلى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الإيقاع به، وأمر علياً أن ينام على فراشه وخرج هو وأبو بكر إلى الغار، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر، فخرج إليهم عليّ فقالوا: أين صاحبك؟ قال لا أدري.

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة، وجعلوا الجعالات الكثيرة لمن يأتي به؛ وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وأنزل الله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

فهاجر إلى المدينة واستقر بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعاً لحكمة مشاهدة، فقال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

[سورة الحج: الآية ٣٩]

وجعل يرسل السرايا، ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام، فآيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام وقت فرضها، وأما قوله تعالى:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [سورة فصلت: الآيتان ٦ و٧]

فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك.

وفي السنة الثانية أيضاً كانت وقعة بدر. وسببها أن عيراً لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي ﷺ بمن خف من أصحابه لطلبها، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت والنفير التقوا مع الرسول وأصحابه، وكانوا ألفاً كاملي العدد والخيل؛ والمسلمون ثلثمائة وبضعة عشر على سبعين بعيراً يعتقبونها، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة، قتلت سرواتهم وصناديدهم، وأسر من أسر منهم، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلها؛ وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال. وبعدما رجع إلى المدينة منها مظفراً منصوراً ذل من بقي ممن لم يُسلم من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقاً، ولذلك جميع الآيات نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر.

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أُحد. غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتقوا في أُحُد عند الجبل المعروف شمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم لا تبرحوا عنه، ظهَرنا أو غُلبنا، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة وكان ما كان، حصل على المسلمين في أُحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، وذكر الله تفصيل هذه الغزوة في سورة آل عمران، وبسط متعلقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات.

ثم في السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها ــ في بدر ــ فجاء

المسلمون لذلك الموعد وتخلف المشركون معتذرين أن السنة مجدبة، فكتبها الله غزوة للمسلمين،

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٤]

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق. اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبي ﷺ وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة؛ ولما سمع بهم النبي ﷺ خندق على المدينة، وخرج المسلمون نحو الخندق، وجاء المشركون كما وصفهم الله بقوله:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٠]

ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام، وحال الخندق بينهم وبين اصطدام الجيوش، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل. وسبب الله عدة أسباب لانخذال المشركين، ثم انشمروا إلى ديارهم، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله، تفرغ النبي ﷺ لبني قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة، ومظاهرتهم الفعلية ونقضهم ما كان بينهم وبين النبي ﷺ فحاصرهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم. وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر سورة الأحزاب من قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [إلى قوله] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآيات ٩ ــ ٢٧]

ثم في سنة ست من الهجرة اعتمر ﷺ وأصحابه عمرة الحديبية؛ وكان

البيت لا يُصدُّ عنه أحد، فعزم المشركون على صد النبي ﷺ عنه؛ ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلح لحقن الدماء في بيت الله الحرام، ولما في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين؛ فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه غضاضة على المسلمين، ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة، فرجع ﷺ عامه ذلك وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة، فأنزل الله في هذه القضية سورة الفتح بأكملها:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح: الآية ١]

فكان هذا الفتح لما فيه من الصلح الذي تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الإسلام ودخول الناس في دين الله حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور. وقد تقدم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق، أما قبيلة بني النضير من اليهود فإنها قبل ذلك، حين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وكانوا على جانب المدينة غزاهم ﷺ واحتموا بحصونهم ووعدهم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزلهم رسول الله ﷺ على أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم، ويدعوا الأرض والعقار وما لم تحمله الإبل للمسلمين؛ فأنزل الله في هذه القضية أول سورة الحشر:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾

إلى آخر القصة. [سورة الحشر: الآية ٢]

وفي سنة ثمان من الهجرة، وقد نقضت قريش العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف، فدخلها فاتحاً لها، ثم تمّمها بغزو حنين على هوازن وثقيف، فتم بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين، وأنزل الله في ذلك أول سورة التوبة.

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمون معه، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين، وثلاثة من صلحاء المؤمنين: كعب بن

مالك وصاحباه. وكان الوقت شديداً والحر شديداً والعدو كثيراً والعسرة مشتدة، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يوماً ولم يحصل قتال فرجع إلى المدينة؛ فأنزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها، ويثني على المؤمنين، ويذم المنافقين وتخلفهم، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وإنابتهم.

وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله، وما للناكلين عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل، كما أنه في أثناء هذه المدة ينزل الله الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه حكمته.

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهودهم، وأتم عهود الذين لم ينقضوا، ثم حج النبي ﷺ بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله، وأنزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه، وأنزل الله يوم عرفة:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

[سورة المائدة: الآية ٣]

فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بيّنه لهم، فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن؛ فإنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

فهذه الآية جمعت بين نوعي العلوم، فإن العلوم وسائل ومقاصد، وهو الحق الذي يقوله الله في كتابه وعلى لسان رسوله، ونوع وسائل، وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل، كما أن قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

جمعت الكمال في ألفاظه ومعانيه؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق، بوضوحها وأحكامها وقوامها؛ ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في أخبارها؛ وعدلاً في أحكامها: أوامرها ونواهيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد، فهذا في شرعه ودينه ونظيره في خلقه، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

وقد جمع الله في كتابه بين المتقابلات العامة، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة، وكما في قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فإن البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار، ولهذا قال:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فالإثم المعاصي المتعلقة بحقوق الله، والعدوان البغي على الخلق في الدماء والأموال والأعراض والحقوق.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

فجمع بين زاد سفر الدنيا، وزاد سفر الآخرة بالتقوى.

وكذلك قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فهذا اللباس الحسي الضروري والكمالي، ثم قال:

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فهذا اللباس المعنوي، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن، وعن لباس التقوى إنها لباس القلب والروح.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١١]

جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور.

وكذلك قوله في صفة نساء الجنة:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٧٠]

فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر.

ولما ذكر السير الحسي ذكر السير المعنوي، فقال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [سورة النحل: الآية ٩]

وكذلك قوله:

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ [أي أفراداً بدليل قوله] أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾

[سورة النساء: الآية ٧١]

وكذلك قوله:

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيتان ١٥ و ١٦]

كذب الخبر وتولى عن الطاعة «التكذيب»: انحراف الباطن، «والتولي»: انحراف الظاهر؛ ونظيره قوله:

﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٨]

وضد ذلك ما رتب الله على الإيمان والعمل الصالـح من خير الدنيا والآخرة؛ فإن الإيمان ضد التكذيب، والتولي ضده الاستقامة والعمل الصالـح.

وكذلك قوله:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

فاعبده وتوكل عليه تجمع جميع ما يراد من العبد؛ فالعبادة حق الله على العبد، والإعانة من ربه إسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من منافعه؛ فالعبد في عبادة لله واستعانة به.

وكذلك قوله:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة في الدنيا والآخرة، ونظيره:

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٠]

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤١]

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

وكذلك قوله: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٧٧]

في مواضع نفي جميع المكروه الماضي ينفي الحزن والمستقبل بنفي الخوف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٩]

فالروح اسم جامع لنعيم القلب، والريحان اسم جامع لنعيم الأبدان؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين.

وكذلك قوله:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى [أي القرآن الذي أنزله] فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٤]

جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار.

وكذلك قوله:

﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥]

أي متكبر على الحق جبار على الخلق. ومثله:

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ١٢]

أي معتد في البغي على عباد الله ﴿أثيم﴾ أي متجرىء على محارم الله.

وكذلك قوله في مواضع:

﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٨]

فالولي الذي يجلب لموليه المنافع ﴿والنصير﴾ الذي يدفع عنه المضار.

## فوائد منثورة منوعة غير مرتبة

الأمّة: جاء في القرآن لعدة معاني، جاء بمعنى الإمام الجامع لخصال الخير، مثل قوله:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠]

وبمعنى الطائفة:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٤]

وهذا المعنى كثير، وبمعنى الملة والدين:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥٢]

وبمعنى المدة الطويلة:

﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٥]

السلطان: أكثر استعماله في القرآن بمعنى الحجة، مثل قوله:

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٨]

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٠]

ويأتي بمعنى الملك، مثل قوله:

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٢٩]

ويأتي بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

[سورة النحل: الآيتان ٩٩ و ١٠٠]

اللسان: ورد في القرآن لعدة معاني؛ ورد بمعنى الجارحة:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦]

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [سورة الفتح: الآية ١١]

وهو كثير، وبمعنى اللغة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤]

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٥]

وبمعنى الثناء الحسن:

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٤]

«استوى» وردت في القرآن على ثلاثة أوجه، تارة تُعدّى بعلى فتدل على العلو والارتفاع؛ مثل:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [سورة الزخرف: الآية ١٣]

وتعدى بإلى فتدل على القصد، مثل:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

وتأتي بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال، ومنه قوله:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ١٤]

أي كمل في عقله وأحواله كلها.

التأويل: أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء وما يؤول إليه ووقت وقوعه، مثل قوله:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٥٣]

أي وقوع المخبر به من العذاب:

﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

أي هذا ما آلت إليه وهذا وقوعها. وقد يأتي بمعنى التفسير وهو قليل، ومنه على أحد التفسيرين:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي تفسيره، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول، أي وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده، فعلى هذا المعنى يتعين الوقوف على ﴿الله﴾ وعلى المعنى الأول الذي بمعنى التفسير يعطف عليه ﴿والراسخون في العلم﴾ أي ما يعلم تفسير المتشابه الذي يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم، فإنهم يعلمون تأويله بهذا المعنى.

الغافل: ورد في القرآن بمعنى الجاهل، مثل قوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة يسٓ: الآية ٦]

وبمعنى النسيان لذكر الله وذكر طاعته، كقوله:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥]

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨]

**فـائدة:** إخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن على أحد معنيين:

أحدهما: المعية العامة، كقوله:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧]

أي هو معهم بعلمه وإحاطته.

الثاني: المعية الخاصة، وهي أكثر وروداً في القرآن، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها، مثل قوله:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٤]

مع المحسنين مع الصابرين

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠]

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ]سورة طه: الآية ٤٦]

وهذه المعية تقتضي العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد، بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتبت عليه المعية.

ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد في القرآن على نوعين: نوع عام، مثل قوله:

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

[سورة مريم: الآية ٩٣]

أي معبداً مملوكاً لله؛ والنوع الثاني العبودية الخاصة، وهي تقتضي أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته، وذلك مثل قوله:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣]

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله.

ونظير هذا القنوت؛ يرد في القر آن على قسمين: قنوت عام، مثل قوله:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٦]

أي الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره. النوع الثاني: وهو الأكثر في القرآن: القنوت الخاص، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع؛ مثل قوله:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٩]

﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨]

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٣]

﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

ونحوها.

**فائدة:** طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغي على الحق وعلى الخلق، برهان ذلك قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

وقوله:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [سورة العلق: الآيتان ٦ و٧]

فعلل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء؛ أما الموفقون الأصفياء فإنهم في هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم؛ ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكاً كبيراً، ورأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده لم يطغ ويقل هذا من حولي وقوتي ونحوه، بل قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر. وقال قبل ذلك: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

**فائدة:** من الحكمة استعمال اللين في معاشرة المؤمنين، وفي مقام الدعوة للكافرين، كما قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤]

فأمر باللين في هذه المواضع، وذكر ما يترتب عليه من المصالح؛ كما أن من الحكمة استعمال الغلظة في موضعها. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾

[سورة التحريم: الآية ٩]

لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة، بل قد تعين فيه القتال، فالغلظة فيه من تمام القتال، وقد جمع الله بين الأمرين في قوله في وصف خواص الأمة:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩]

والفرق بين قوله:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦]

وبين قوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

أن هداية الإرشاد والتعليم والبيان هي التي أثبتها لرسوله، بل ولكل من له تعليم وإرشاد للخلق؛ كما قال:

﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣]

وقال:

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد: الآية ٧]

وأما هداية التوفيق ووضع الإيمان في القلوب، فإنها مختصة بالله، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ويميت إلا الله، فلا يهدي إلّا الله.

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله:

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة قٓ: الآية ٨]

أن التبصرة هي العلم بالشيء والتبصر فيه، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملاً؛ وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة أمور:

التفكر أولاً في آيات الله المتلوّة والمشهودة؛ فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه، وهذا هو التبصر؛ فإذا علمه عمل به، فإن كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقرّ به واعترف. وإن اقتضى عملاً قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به، وهذا هو التذكر وهو التذكرة، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه.

والفرق بين المواضع التي ورد في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون، والمواضع التي ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين أوجههما تقييد هذه المواضع بقوله:

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[سورة النبأ: الآية ٣٨]

فإثبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لإذن الله لهم في ذلك، ونفي التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم. الوجه الثاني: ما قاله كثير من المفسرين: إن القيامة لها أحوال ومقامات، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون، وهذا الوجه لا ينافي الأول، فيقال: هذه الأحوال والمقامات تبع لإذن الله لهم أو عدمه.

والفرق بين إثبات الله في القرآن الأنساب بين الناس في مواضع كثيرة، ونفيها في مواضع: إن المواضع المنفية المراد بها أن الأنساب لا تنفع، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد، وهو الإيمان والعمل الصالح، كما ذكره في كتابه في مواضع؛ وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة، ويذكر في كل مقام بحسبه.

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بإلحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة الكامل، مثل قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [سورة الطور: الآية ٢١]

أي ما نقصناهم، ومثل:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾
[سورة الرعد: الآية ٢٣]

ونحوها.

وفي مقامات العدل والعقوبة، يذكر الأنساب وأنها لا تنفع؛ وأن الأمر أعظم من أن يلتفت الإنسان إلى أقرب الناس إليه، مثل قوله:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ [سورة المعارج: الآيات ١١ ـ ١٣]

ومثل:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧]

ونظير هذا الإخبار عن المجرمين أنهم يُسألون عن أعمالهم، وذلك على وجه إظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة، وفي بعض المواضع مثل:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٣٩]

أي لا يحتاج في علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام، لأنها مُسطَّرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها.

**فائدة:** النفي المحض لا يكون كمالاً، ولهذا في مقامات المدح كل نفي في القرآن فإنه يفيد فائدتين: نفي ذلك النقص المصرح به وإثبات ضده ونقيضه؛ فيدخل في هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أثنى على نفسه بنفي أمور كثيرة تنافي كماله؛ نفى الشريك في مواضع متعددة فيقتضي توحُّده بالكمال المطلق، وأنه لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وسبح نفسه في مواضع، وأخبر في مواضع عن تسبيح المخلوقات، والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد، وذلك يدل على كماله. ونفى عن نفسه الصاحبة والولد

ومكافأة أحد ومماثلته، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرّده بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق. ونفى عن نفسه السِّنَةَ والنوم والموت، لكمال حياته وقيوميته. ونفى كذلك الظلم في مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله. ونفى أن يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو يعجزه شيء، وذلك لإحاطة علمه وكمال قدرته؛ ونفى العبث في مخلوقاته وفي شرعه، وذلك لكمال حكمته، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها في خزانة قلبك، فإنها خير الكنوز وأنفعها.

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها؛ وذلك يدل على أنه الحق في أخباره وأحكامه، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد، وأحكامه كلها محكمة في كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم.

وقال عن نبيه ﷺ:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٢]

فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته ﴿والغيّ﴾ وهو سوء القصد، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الإطلاق، وأهداهم وأعظمهم علماً ويقيناً وإيماناً؛ وأنه أنصح الخلق للخلق، وأعظمهم إخلاصاً لله وطلباً لما عنده، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة؛ وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه، وأنه في الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص.

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله، وكمال حياتهم وقوة شبابهم وكمال صحتهم وتمام نعيمهم الروحي والقلبي والبدني من كل وجه؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولاً.

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال، فإنه يثبت له ضد ذلك من النقص؛ كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية

والذاتية، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة.

**فائدة:** قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٤٧]

أي القوة والشجاعة في هذه الآية، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان: العلم بالولاية والسياسة وحسن التدبير والشجاعة والقوة، فهو الذي يصلح للولاية والملك، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال، فإن العبرة بجميع الولايات إمكان إقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات، وولاية الملك لا تتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية.

**فائدة:** قوله تعالى:

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحاً، لا فرق بين الأمور العلمية والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة.

**فائدة:** لما ذكر الله الأنبياء وأثنى عليهم قال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠]

تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم، والله هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، فكل أمر أثنى الله فيه على أحدٍ من أنبيائه من عقد أو خلق أو عمل، فإننا مأمورون بالاقتداء بهم، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا، فإن الله أمرنا بذلك، كما أمرنا بالأوصاف العامة التي تدخل فيها مفردات كثيرة.

**فـائدة**: إذا أمرنا الله في كتابه بأمر كان آمراً بذلك، وبكل أمر لا يتم إلا به. فالأمر مثلاً بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها؛ وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة ما لا تتم إلا به، وهذا من أعظم الأدلة على وجوب طلب العلم؛ فإن المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها؛ وكذلك إذا نهانا الله عن شيء كان نهياً عن كل وسيلة توصل إليه، والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه في كل زمان ومكان؛ والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل؛ ويدخل في هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة.

**فـائدة**: قد أخبر الله في عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتوبته على كل مجرم، وأخبر في آيات أُخر أنه:

﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٨]

فما الجمع بينها؟ فيقال قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦ و٩٧]

هي الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم، فمن حقت عليه كلمة العذاب ـ لعنادهم، ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية، بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم، ملازماً غير قابل للزوال، ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق ـ فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها خير أبداً، والجرم جرمهم، فإنهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه، ورأوا سبيل الغي فرغبوا فيه، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

**فـائدة**: ورد في كثير من الآيات إضافة الأمور إلى قدرة الله ومشيئته وعموم خلقه، وفي آيات كثيرة إضافتها إلى عامليها وفاعليها، وهذه الآيات

المتنوعة تنزل على الأصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة، والذي دل عليه العقل والنقل، وهو أن جميع الأمور واقعة بقضاء الله وقدره: أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث، لا يخرج شيء منه عن قضائه وقدره. ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها ولإرادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدرة تدل على الأصل الأول، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الأصل الثاني، ولا منافاة بينهما، فإن أعمال العباد مثلاً تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم وخالق السبب التام خالق للمسبب، ومع ذلك فقد جعلهم في أفعالهم وتروكهم مختارين غير مجبورين.

**فـائدة**: يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الأصول والأحكام النافعة بقوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٣]

وهذا يدل على أمور:

منها: أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وإرشاداته وتعليماته، فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا، ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها: أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانًا خاصاً، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة.

ومنها: أن في هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولاً تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه، ولا تميل بها الأهواء والأغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول.

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم؛ ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل

والقال، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد في قلبه الحقائق النافعة، عقلاً يحيط بمعرفتها ويميز بينها وبين ضدها، ويعرف الراجح من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضار فيتركه، وبعبارة أخرى مختصرة نقول: العقل هو الذي يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الأمور الضارة.

فائدة: ورد في القرآن آيات عامة عطف عليه بعض أفرادها الداخلة فيها، وذلك يدل على فضيلة المخصوص وآكديته، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه؛ مثل قوله:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٩٨]

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [سورة القدر: الآية ٤]

وهو جبريل

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨]

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

دخل فيه الدين كله ثم قال:

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

ومثله:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

أي اتبعه، ويدخل في ذلك جميع الشرائع، ثم قال:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وذكر السبب في ذلك، إلى غير ذلك من الآيات التي إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة.

**فـائدة لطيفة**: في عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره، عُلم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم؛ وهذا إنهاض من الله لعباده أن يعرفوا أسماءه حق المعرفة، وأن يعلموا أنها الأصل في الخلق والأمر، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى، وذلك مثل قوله:

﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٧]

فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه، وأن الطلاق كريه إلى الله، وأما المؤلي إذا طلق فإن الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب، وهو الإيلاء، والمسبب، وهو ما ترتب عليه، ومثل هذا قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

أي فإنكم إذا علمتم ذلك رفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق الله، وهذا كثير؛ وقد يصرح الله بالحكم ويعلله بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له.

**فـائدة**: قوله تعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً، كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة، وأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها، لأنه حذف المأكول. والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب

ما ينفعه ويقيم صحته وقوته؛ وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن؛ لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف، وعلى أن السرف منهي عنه، وخصوصاً في الأطعمة والأشربة، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال.

أما ضرره الديني، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره العقلي، فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه؛ ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلـغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافـع إلى طور الإسراف الضارّ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله، فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني، فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطرة؛ وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء؛ ثم إنه ينضرّ أيضاً من وجه آخر، فإن من عوَّد بدنه شيئاً اعتاده، فإذا عوّده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي فظاهـر، فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٩]

أي تلام على ما فعلت، لأنه في غير طريقه، ﴿محسوراً﴾ فارغ اليد. وإخباره أنه لا يحب المسرفين، دليل على أنه يحب المقتصدين؛ ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمـال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزاً للعلوم النافعة المتنوعة.

**فـائدة**: ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة، وبجعـل الموانـع عليهـا من الران، والأكنـة والحجاب، وبمـوتها

وبحيرتها؛ فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً.

فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية، وقوته العملية الإرادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف، فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم، وصاحبه من أولي النُّهى وأولي الحِجى وأولي الألباب وأولي الأبصار؛ والمُخْبت لله والمنيب إليه.

وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت إحدى قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما.

فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير، كان مرضها مهلكاً.

ومرض الشهوات، الذي هو ميل القلب إلى المعاصي، مخل بقوة القلب العملية، فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلاّ إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له، فمتى رأيت القلب ميالاً إلى المعاصي سريع الانقياد لها، فهو مريض، وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة، كما قال تعالى:

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وأما القلب القاسي، فهو الذي لا يلين لمعرفة الحق، وإن عرفه لا يلين للانقياد له، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك، إما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها؛ وقد يجتمع الأمران؛ وأما الرّان والأكنة والأغطية التي تكون على القلوب، فإنها من آثار كسب العبد وجرائمه، فإذا أعرض عن الحق وعارض الحق، وجاءه الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه، عاقبه الله بهذا العمل بأن سدّ عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له ومتيسرة فتكبَّر عنها وردَّها، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورانت عليه

الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً وأقفلت القلب؛ فهذه المعاني التي أكثر الله من ذكرها في كتابه، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها، وعرفت بذلك حكمة الله وعدله في عقوبة هذه القلوب، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها.

**فـائدة:** قوله تعالى:

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
[سورة الفتح: الآية ٩]

جمع الله فيها الحقوق الثلاثة: الحق المختص بالله الذي لا يصلح لغيره، وهو العبادة في قوله: ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ والحق المختص بالرسول، وهو التوقير والتعزير، والحق المشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله.

**فـائدة:** ذكر الله اليقين في مواضع كثيرة من القرآن في المحل العالي من الثناء، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل بقوله:

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥]

وأنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وأن الآيات إنما ينتفع بها الانتفاع الكامل ﴿الموقنون﴾ فحقيقة اليقين هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبي والعمل البدني.

أما آثار اليقين العلمية فثلاث مراتب: علم اليقين. وهي العلوم الناتجة عن الأدلة والبراهين الصادقة الخبرية، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين. وعين اليقين وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة، كما طلب الخليل إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله ذلك بعينه، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين؛ وحق اليقين: وهي المعلومات التي تحقق بالذوق، كذوق القلب لطعم الإيمان، والذوق باللسان للأشياء المحسة.

وأما آثاره القلبية، فسكون القلب وطمأنينته، كما قال إبراهيم:

﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

وقال ﷺ: البر ما اطمأن إليه القلب. وفي لفظ: الصدق ما اطمأن إليه القلب. فإن العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأن قلبه لعقائد الإيمان كلها، واطمأن قلبه لحقائق الإيمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره، وهما متلازمان، قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٨]

فتسكن القلوب عند الأخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئناً عالماً أن هذا أعظم فائدة حصّلتها القلوب. ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملاً للمأمورات تاركاً للمنهيات راجياً لثواب الله واثقاً بوعده.

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها، وقد علم بذلك آثارها البدنية، فإن الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال، فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه.

**فـائدة:** الظن ورد في القرآن على وجهين، وجه محمود ووجه مذموم:

أما المحمود ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب، فإنه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٦]

أي يتيقنون لذلك، ومثل قوله:

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٢٠]

وأما المذموم، ففي أغلب الآيات الواردة في الظن، مثل:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٦]

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة يونس: الآية ٣٦]

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٨]

وهو كثير، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الأخبار الصادقة، لأن الظن في الأصل يحتمل الصدق والكذب، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه.

**فائدة:** قوله تعالى:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦]

وقوله:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٩]

تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات، وخصوصاً المكاسب المحرّمة، نقص في البركة، وقد ينسحت المال بذاته عاجلاً أو آجلاً، وعلى أن من أخرج شيئاً لله أو فعل شيئاً لله، فإن الله يزيده وينزل له البركة، فإن المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله، فإنه يزداد معنى ووصفاً؛ وقد يفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان بصدد أن يصيبه.

**فائدة:** الفرح ورد في القرآن محموداً مأموراً به في مثل قوله:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٥٨]

فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والإسلام، وكذلك قوله:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٠]

فهذا فرح بثواب الله.

وورد منهياً عنه مذموماً، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [سورة هود: الآية ١٠]

وقوله عن قارون:

﴿قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٦]

وما أشبه ذلك، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به؛ إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود، وإلا فهو مذموم.

**فـائدة:** ورد السعي في القرآن في آيات كثيرة، والمراد به الاهتمام والجد في العمل، مثل قوله:

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٩]

وقوله:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾
[سورة الجمعة: الآية ٩]

وقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٤]

وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام للعمل، إلا في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٠]

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [سورة يس: الآية ٢٠]

فالمراد بذلك العَدْوُ؛ وهو يتضمن الأول وزيادة.

**فـائدة**: أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته، صادقاً في خلقه، صادقاً في قوله وعمله، فهو الذي يجيء بالصدق في ظاهره وباطنه، ويصدق بالصدق لمن جاء به، كما قال تعالى:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[سورة الزمر: الآية ٣٣]

ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال:

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة الزمر: الآيتان ٣٤ و ٣٥]

وخواص أهل هذا الوصف هم الصدِّيقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩]

والمراد الإيمان الكامل، كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التي يتراآها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ فقال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وهؤلاء هم الهداة المهديون كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾

[سورة السجدة: الآية ٢٤]

فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله، وقوامها وروحها الإخلاص الكامل لله والإنابة إليه،

والرجوع إليه في جميع الأحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماً وخضوعاً وذلاً لله، وثمراتها الأخلاق الحميدة والأقوال السديدة والأعمال الصالحة والإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان، وجهاد جميع أصناف المنحرفين؛ فهي في الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحالاً ودعوة إلى الله، والله هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً.

**فــائدة:** قوله تعالى في المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾

[سورة فاطر: الآية ٣٢]

اشترك هؤلاء الثلاثة في أصل الإيمان، وفي اختيار الله لهم من بين الخليقة وفي أنه منّ عليهم بالكتاب، وفي دخول الجنة، وافترقوا في تكميل مراتب الإيمان، وفي مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب، وفي منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم.

أما الظالم لنفسه، فهو المؤمن الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئاً؛ وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها. إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات؛ فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

أحدها: من ترجح حسناته على سيئاته، فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

ثانيها: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف،

وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، كما وصف ذلك في القرآن.

ثالثها: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول له، أو شفاعة أحد أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه؛ أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلاَّ فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة؛ ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها.

وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين، وأما من كان من أصحاب اليمين:

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٩١]

فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار، وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته.

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام وقام بمرتبة الإحسان، فَعَبَدَ الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه؛ وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآناً من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله، وهم أهل الفردوس الأعلى، فإن الله كما أنه رحيم واسع الرحمة، فإنه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير، كانوا في الآخرة في أعلى المنازل؛ وكما تخيروا من الأعمال أحسنها، جعل الله لهم من الثواب أحسنه؛ ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة

أهل الجنة، يشرب منها هؤلاء المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً في بقية أشربة الجنة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كما قال تعالى:

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

[سورة المطففين: الآيتان ٢٧ و٢٨]

وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه، وإن كان ليس في نعيم الجنة دني ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه، بل كل من تنعم بأي نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شيء أعلى منه؛ فإن الله أعطاهم وأرضاهم، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم، ثم الصديقون على مراتبهم، ولكل درجات مما عملوا، فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فائدة: ورد في القرآن ﴿الظلم﴾ بمعنى الكفر والشرك الأكبر، كما قال تعالى:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٤]

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣] ونحوهما.

وورد كثيراً بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه؛ ومثل:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٠].

وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا. ومثل هذا ﴿الفسق﴾ والمعصية والذنب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها، فإنها وردت في القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة، فتفسر في كل مقام بما يناسب ذلك المقام.

فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾

[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ٧]

جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة، وهي ثلاثة أشياء: فعل المأمور، واجتناب المحظور، وتصديق خبر الله ورسوله. فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله، وذلك أن قوله ﴿أعطى﴾ أي جميع ما أمر به من قول وعمل ونية ﴿واتقى﴾ جميع ما نهي عنه من كفر وفسوق وعصيان، ﴿وصدق بالحسنى﴾ بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء، فصدَّق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله... فمن جمع ثلاثة الأمور يسَّره الله لليسرى، أي لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها، ومقابل هذا قوله:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ [سورة الليل: الآية ٨]

أي ترك ما أمر به ـ ليس خاصاً بالنفقة ـ بل معنى البخل المنع، فإذا منع الواجبات المتوجهة إليه، القولية أو الفعلية أو المالية، فقد بخل

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٨]

أي رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه، وذلك عنوان الكبر والتجرؤ على محارم الله

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٩]

أي بلا إله إلا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها،

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ١٠]

أي لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده.

**فائدة:** خطابات القرآن للناس خبراً وأمراً ونهياً قسمان:

أحدهما: وهو الأكثر جدًّا خطاب عام يخاطب به جميع الناس، ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه.

القسم الثاني: الخطاب العام من جهة، الخاص من جهة أخرى، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات المعلقة على أوقاتها، كالأمر بالصلوات الخمس لأوقاتها، كقوله:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾

[سورة الإسراء: الآية ٧٨]

وبالإمساك عن المفطرات، مثل قوله:

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكلفين فإنه خطاب عام، جميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك؛ ومن جهة أن لكل موضع حكماً بنفسه، فإنه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين، فكل يخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذي فيه بلا ريب؛ ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله:

﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٤]

فالمقصود واحد، والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة، وكل أحد مأمور بطريقه الخاص.

ونظير ذلك الإخبارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها: لو تحذلق جاهل فقال إن مثل قوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٦]

أي في البحر برؤية العين، وقوله:

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٠]

ينافي المعلوم، أن الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكلية، فيقال هذا من الجهل والعجمة بمكان سحيق عن الحقائق، وذلك أن الله لم يقل وجدها تغرب عن جميع الأرض أو تطلع على جميع الأرض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر، كما يفهم الناس كلهم سابقاً ولاحقاً، ولا فرق بين الإخبارات والأحكام بوجه، ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعاً ومغرباً، فهذه الخطابات في الأحكام والإخبارات في غاية الإحكام التي لا يتطرق إليها اعتراضات المعترض، ومن اعترض على شيء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحمقه؛ وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا، يفهمه الذكي والبليد، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً، أنزله الله بما يعقله العباد.

فائدة: ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣]

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤]

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨١]

فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فإنهم لا بد أن يخرجوا منها، فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الأمة، وأحسن ما يقال فيها إن ذكر الخلود

على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب للخلود في النار لشناعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع، ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الإيمان مانع من الخلود، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور، وهو أنه لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضح ولله الحمد؛ مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر، لأن قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ دليل على ذلك، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنع من إحاطتها، وكذلك قوله:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤]

فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الإشكال.

**فائدة**: ورد في القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، وورد أيضاً آيات أُخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك، فما وجه ذلك.

فيقال: أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها في كل عمل صالح كما قال تعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠].

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيته أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه.

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فمضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الإخلاص وقوة الإيمان.

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عن عقيدة صحيحة سلفية

خالصة متلقاة من الكتاب والسنة، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك.

ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش، مع قوة الداعي إليها لبرهان الإيمان والتوكل والإخلاص.

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء، وذلك كالجهاد في سبيل الله، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، كما قال تعالى في نفقات أهل هذا الصنف:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٦١]

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها؛ وفي الحديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينتفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها، ومن ذلك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه.

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير، كإنجاء المضطرين، وكشف كربات المكروبين، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه؛ وقصة البغيِّ التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك.

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته، كما قال تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وقوله قبلها: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣١]

ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص.

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل.

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل تحقيق مقام الإحسان في القيام بعبودية الله؛ وفي الحديث: «ليس لك من صلاتك إلاّ ما عقلت منها» فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطي.

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة، ولكن نبهنا على أصولها.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الإخلاص لله والنصح لعباد الله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وبقية الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم.

**فائدة:** قد أمر الله في كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر، وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم، وأثنى على أهلها، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلهما ونهج جميع طريق يوصل إليها.

فاعلم أن الذي يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية. أحدها طريق الإخبارات الصادقة. والثاني طريق الحس. والثالث طريق العقل. ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق؛ وإما أن تدرك بالعقل، وإما أن تنال بالإخبار. وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فإنهما لا يتفارقان.

وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الإنسان إلى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر. وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك.

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة.

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله، فإنه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

فكل ما قاله الله وقاله رسوله فهو الحق والصدق؛ وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو يهدي إلى كل دليل عقلي ونقلي، وفي خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة ما لا تصل إليه علوم الخلائق كلهم، أولهم وآخرهم.

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبني على جهالات ومواد فاسدة... فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسسه كيف اتفقت عليها الأدلة النقلية والعقلية والحسية.. انظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها، بل هي المقصود الأعظم منها، وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها.

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية، وسعة الصفات وعظمتها: من سعة العلم والحكمة، وعموم القدرة والإرادة، وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن، والإحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق أولي الألباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء، وأقوى وأكبر من كل شيء، وأوضح من كل شيء، وأنه مقدم عندهم على الحقائق كلها، وأنهم يعلمونه

علماً ضرورياً بديهيًّا قبل الأدلة النظرية، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل.. ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فوجود جميع الأشياء في العالم العلوي والسفلي وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة، كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها وممدها بكل ما تحتاج إليه؛ ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الأمور وأعظم الحقائق.

ومن ههنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غرورًا واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الأرضي المادي الطبيعي، وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا: نثبت ما وصلت إليه معارفنا وننفي ما سواه، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم فهو ضال غاوٍ، فكذلك من نفى شيئاً بلا علم. وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت إليها معارفهم أن هذا الإثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون، فأثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود، وهم في علمهم هذا حائرون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة؛ فهم دائماً في خلط وخبط وتناقض، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا: هذا من فلتات الطبيعة، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه؛ فصدق عليهم قوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [سورة قٓ: الآية ٥]

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم، ولم يقدح فيه إلاَّ هؤلاء الضُّلَّال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم.

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، وخصوصاً محمد ﷺ، فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة: سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم، وحثَّه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل، ونهيه عن ضد ذلك، وما جاء به من الوحي: الكتاب والسنة، كله جملة وتفصيلاً براهين على نبوته وصدقه، مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها، ومن إجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلاً عن أفرادها، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها وعجزهم عن نصر باطلهم.

ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً راهقاً، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدُّون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه؛ ولولا الجهل بما جاء به الرسول، والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقاومات العنيفة، وإقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحثه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد؛ ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته.

ثم انظر إلى الأصل الثالث، وهو إثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب

السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف التام به، وكم أقام الله عليه من الأدلة النقلية والعقلية، وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب، وأراهم حلول المثلات بالمكذبين، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين؛ كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها المكذبون بالمعاد، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيده وصدق رسله، وبين سفههم وفساد عقولهم، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين.

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة؛ ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي، ثم نفى مع ذلك واحدًا من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين، فقد كابر عقله وحسه وعلمه، ونادى على نفسه بالتناقض العظيم؛ لأن الطرق التي دلته على إثبات معلوماته هي ـ وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح ـ قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد.

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسله عامة يدخل فيها الأخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانه. ولنكتف بهذا الأنموذج من الأمثلة، والله أعلم.

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي. وكذلك إخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والألفاظ التي نقلوها، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة

دينهم، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي، والاتفاق على غير الصواب.

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة، تعلم علماً يقيناً حسن التوحيد والإخلاص لله، كما تعلم قبح الشرك، وتعلم حسن الصدق والعدل والإحسان إلى المخلوقين، كما تعلم قبح ضده، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الأقارب، والقيام بحق من له حق عليك، وتستحسن كل صلاح وإصلاح، وتستقبح كل فساد وضرر، ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركوز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون. ومن المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس، كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من أتم المعارف، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم، كشم الروائح الطيبة والخبيثة، وما يدرك باللمس، كالحرارة والبرودة، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها، كل هذا من مدركات الحس. وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً، وكلما كان الشيء أعظم ومعرفته أهم، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى؛ كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد، والله أعلم.

فائدة: لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال:

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾

[سورة الزخرف: الآيتان ١٣ و١٤]

ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة: وهي الاعتراف والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها، والخضوع لله والاستعانة بها على عبادته، لأن المقصود من قوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ الاعتراف بالجزاء والاستعداد له،

وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله، وفي قوله: ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ تقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر. فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفـع ما يضادها أو ينقصها كله من فضل الله وإحسانه ليس من العبد شيء، خضـع لله وذلَّ وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية؛ فأما إذا قابلها بالأَشَر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه.

## فـــائدة

## بل فوائد عظيمة في ذكر شيء من الأسباب التي ذكرها الله في كتابه موصلة إلى المطالب العالية

لا ريب أن من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافـع الدينية والدنيوية وإلى دفـع المضار الدينية والدنيوية، فاقتضت حكمته وسنته التي لا تتبدل أن هذه المنافـع المتنوعة ـ وخصوصاً الأمور العظام ـ لا تحصـل إلا بالسعي بـأسبابهـا الموصلة إليهـا، وكذلـك المضار لا تنـدفـع إلا بالسعي بالأسباب التي تدفعها؛ وقد بين في كتابه غاية التبيين هذه الأسباب وأرشد العباد إليها، فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب.

فأصل الأسباب كلها الإيمان والعمل الصالـح، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين، وقد ذكر الله في القرآن من هذا شيئاً كثيراً جداً، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك عند ذكر فوائد الإيمان.

وجعل الله القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميـع مطالبه، شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

أي بمن يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً.

وجعل الله التقوى والسعي والحركة سبباً للرزق، شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣]

وقوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [سورة الملك: الآية ١٥]

وجعل الله التقوى والإيمان وتكرار دعوة ذي النون سبباً للخروج من كل كرب وضيق وشدة، شاهده الآية السابقة، وكذلك قوله:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧ و٨٨]

وجعل الله الدعاء والطمع في فضله سبباً لحصول جميع المطالب، دليله قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

وقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وجعل الله الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق سبباً يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل، شاهده الآية السابقة: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ وقوله:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠]

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

ومن أحبه الله نال جميع ما يطلب.

وجعل الله التوبة والاستغفار والإيمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسباباً لمحو الذنوب والخطايا، شاهده قوله تعالى:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾
[سورة يوسف: الآية ٩٠]

وجعل الله الصبر سبباً وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها الكريهات، شاهده الآية السابقة وقوله:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على جميع أموركم. ولما ذكر الله ما وصل إليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور، ذكر أن هذا أثر صبرهم؛ فقال:

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٤]

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٥]

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى مقامات، وهي الإمامة في الدين، دليله قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

وجعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإنصات والتعلم والتقوى وحسن القصد؛ شاهده قوله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠١]

وقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي نوراً وعلماً تفرقون به بين الحقائق كلها، وقوله:

﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

وجعل الله الاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم، شاهده قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

وقوله:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وجعل الله اليسر يتبع العسر، والفرج عند اشتداد الكرب، شاهده قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [سورة الشرح: الآية ٦]

﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢]

وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها، وكفران النعم سبباً لزوالها، شاهده قوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

[سورة إبراهيم: الآية ٧]

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٩٠]

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٤]

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة النساء: الآية ٨٤]

وجعل الله لمحبته التي هي أعلى ما ناله العباد أسباباً، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال، قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١]

ومن أسبابها ما ذكره بقوله:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦]

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤]

﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٦]

﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف: الآية ٤]

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذي أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سبباً للقناعة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سبباً لصلاح الأحوال، وضده سبباً لفسادها واختلافها، شاهده قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن: الآيات ٧ ـ ٩]

وجعل الله كمال إخلاص العبد لربه سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن، شاهده قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٤]

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الإيمان حصناً حصيناً يمنع العبد من تسلط الشيطان؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الإكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان، شاهده قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٩]

وقال:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [سورة الفلق: الآية ١]

و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس: الآية ١]

إلى آخرهما.

وجعل الله مفتاح الإيمان واليقين التفكر في آيات الله المتلوة، وآياته المشهودة، والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[سورة صٓ: الآية ٢٩]

والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات، وقوله:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الحجر: الآية ٧٧]

فهي سبب للإيمان، والإيمان موجب للانتفاع بها.

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور، وعدم القيام بها سبباً للتعسير، شاهده قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

وجعل الله العلم النافع للرفعة في الدنيا والآخرة، شاهده قوله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

[سورة المجادلة: الآية ١١]

وجعل الله كون العبد طيباً في عقيدته وخلقه وعمله سبباً لدخول الجنة، وللبشارة عند الموت، شاهده قوله تعالى:

﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٢]

وجعل الله مقابلة المسيء بالإحسان، وحسن الخلق سبباً يكون به العدو صديقاً، وتتمكن فيه صداقة الصديق؛ دليله قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وبذلك تحصل الراحة للعبد ويتيسر له كثير من أحواله.

وجعل الله الإنفاق في محله سبباً للخلف العاجل والثواب الآجل؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وجعل الله لرزقه أبواباً وأسباباً متنوعة، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن، فإن الله يفتح له غيره، وقد يكون أقوى منه وأحسن، وقد يكون مثله ودونه؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

[سورة التوبة: الآية ٢٨]

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقاً سهلاً هيِّناً لتركها؛ شاهده قوله تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ [أي محارمه] فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ وإذا قيل مثل هذه الآية: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ كان المراد بالحدود المحارم؛ وأما إذا قيل:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات، فعلى العبد أن لا يتجاوزها، لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرّم، فافهم الفرق بين الأمرين.

وجعل الله السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فالحكمة وضع الدعوة في موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه ﴿والموعظة الحسنة﴾ البالغة في الحسن مبلغاً، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال؛ فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل.

«والمجادلة بالتي هي أحسن» بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحقق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة.

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام؛ كل يدعى بالطريق التي تناسبه:

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح، فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض.

والقسم الثاني: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادّة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادّة لها عن الحق علماً وعملاً إلّا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة.

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون، المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن، بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين، والمعرضين والمعارضين، تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها.

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ، وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً، على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها، تجدْهُ قد فاق في ذلك الأولين والآخرين، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر.

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضي للمتشاجرين المنصفين في جميع المقالات، الذي هو خير في الحال وأحسن في المآل، ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ شاهده قوله تعالى:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية في جنات النعيم، شاهده قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ

* . . . ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [سورة الرعد: الآيات ٢١ ـ ٢٣]

وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد؛ شاهده قوله تعالى:

﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾
[سورة الصّافّات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤]

وقول أهل الجنة فيها:

﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الطور: الآيات ٢٦ ـ ٢٨]

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسباباً متعددة: اليقين والإيمان والإكثار من ذكر الله وقوة الإنابة إليه، والقناعة بما أعطى من الرزق، وحصول العلم النافع، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها؛ وشواهد هذا كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾
[سورة الرعد: الآية ٢٨]

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾
[سورة الزمر: الآية ٢٢]

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٣]

وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾
[سورة المطففين: الآيتان ١٤ و١٥]

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة؛ كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ [في قلب المؤمن] وَفَرْعُهَا [من الأعمال والأخلاق] فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا [أي منافعها] كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ و ٢٥]

ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع. ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره.

وكذلك مثّل الشرك والمشرك واتخاذه ولياً من دون الله يتعزز به وينتصر:

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤١]

ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع، وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة، وبيّن ذلك، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة، وهو يُقْسم تعالى على أصول الدين التي يجب على الخلق الإيمان بها: كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها؛ وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق؛ فتأمل إقسامات القرآن تجدها كذلك، ولذلك حثّ الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها، فقال:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[سورة الحشر: الآية ٢١]

وفي الآية الأخرى

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]

## فصــــل
## في ذكر حدود ألفاظ كثر مرورها في القرآن
## أمراً بها أو نهياً عنها أو مدحاً لها أو ذماً لها

فالله تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله، وذَمَّ من جهلها؛ وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها. وتتفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور، وقد يكون بينها فروق، وكذلك المنهيات؛ وهذا من إحكام القرآن، وأنه يصدق بعضه بعضاً:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾

[سورة النساء: الآية ٨٢]

الإسلام والإيمان: أما الإسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة؛ وأما الإيمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالإيمان بها، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، ولهذا سمى الله كثيرا من الشرائع الظاهرة والباطنة إيماناً، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الإيمان فعلى هذا: الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام، وكذلك بالعكس؛ وإذا جمع بين الإيمان والإسلام، فسر الإيمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك، وفسر الإسلام بالقيام بعبودية الله كلها، الظاهرة والباطنة.

الإحسان: قسمان. إحسان في عبادة الخالق، وهو بذل الجهد في إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة. وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي للخلق، ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتاً عظيماً بحسب قيامهم بالإحسان المتنوع إلى الخلق، برّهم وفاجرهم، حتى الحيوان البهيم، كما قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» الحديث.

الهدى والهداية: نوعان. هداية العلم والإرشاد والتعليم، وهداية التوفيق وجعل الهدى في القلب، وهذان يطلبان من الله تعالى، إما على وجه الإطلاق

كقول العبد: اللهم اهدني، أو اللهم إني أسألك الهدى؛ وإما على وجه التقييد بطريقها النافع، كقول المصلِّ: اهدنا الصراط المستقيم. ومن حصلت له الهداية سمي مهتدياً، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً، وقال:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢]

وقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعة.

العلم واليقين: فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه، ولهذا يقال: العلم ما قام عليه الدليل، والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول، واليقين أخص من العلم بأمرين. أحدهما: أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع؛ ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به.

الأمر الثاني: أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله، والطمأنينة بذكر الله، والصبر على المكاره، والقوة في أمر الله؛ والشجاعة القولية والفعلية، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد في ذات الله المشقات وتحمل الكريهات، فهذه الآثار الجميلة ــ التي هي أعلى وأحلى من كل شيء ــ من آثار اليقين.

الصبر: حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله؛ وينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وخصوصاً الطاعات الشاقة، حتى يؤديها على وجه الكمال، وصبر عن معصية الله، خصوصاً المعصية التي تدعو النفس إليها دعاءاً قوياً، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، خصوصاً إذا عظمت المصيبة، حتى لا يتسخطها، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله.

الشكر لله: هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة، العامة والخاصة، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته، فبهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاماً:

البر والتقوى لله: إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر، فإنه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وإذا جمع بينهما نحو:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه؛ وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان.

الصدق والكذب: الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم، فالصدق في العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متلقاة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم؛ والصدق في الأخلاق أن يكون القلب ملآناً من الإيمان والإخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم؛ والصدق في الأقوال أن يكون قائلاً للصدق مصدقاً به، والصدق في الأعمال الاجتهاد في تكميلها وإتقانها؛ والكذب ما ناقض ذلك كله، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

العدل والظلم: العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال في الصدق، والظلم ما ناقض ذلك، ولهذا انقسم الظلم إلى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل ــ الظلم في التوحيد بالإشراك بالله؛ قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣]

وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وظلم العبد نفسه

فيما دون الشرك، ولا يتم للعبد العدل الكامل حتى يدع جميع هذه الأقسام، ويتوب إلى ربه مما وقع منه، ويخرج من حق العباد إليهم، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط.

«العبادة والعبودية لله»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك. ولا تتم العبادة إلا بالإخلاص: «الإخلاص لله وحده»: بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة؛ وضده العمل للرياء والسمعة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق:

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه. وجميع الأعمال على هذا النمط، وقد يراد بالهجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ: والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه.

«الخوف والخشية والخضوع والإخبات والوجل»: معانيها متقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله. وأما الخضوع والإخبات والوجل: فإنها تنشأ عن الخوف والخشية لله، فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيباً إليه بقلبه ويحدث له الوجل؛ وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه، فهذا خشوع خاص. وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة.

«القنوت»: ورد في القرآن على أحد معنيين: معنى خاص بمعنى الخشوع، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه.

«الذكرلله» الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله، وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية؛ فكلُّ ما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر الله؛ والله تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره، فهي ذكر الله. ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي ﷺ. ومن ذكره ذكر أحكامه ــ تعلمها وتعليمها، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر. وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

«حدود الله»: يراد بها ما حرمه ومنعه عباده، فيقال فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾. ويراد بها كذلك ما أباحه وأحله لعباده وقدره وفرضه، فيقال فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي لا تجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم الله، ولا تتجاوزوا ما قدره الله للعباد إلى ما يخالف تقديره.

«الأمانة»: هي الأمور التي يؤتمن عليها العبد، فيشمل الأمانة التي بينه وبين الله، فإنه ائتمن عبده على إقامة الواجبات وترك المحرمات؛ فالقيام بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها، وترك بعض الواجبات وخصوصاً السرية التي لا يطلع عليها إلا الله أو التجرؤ على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانة؛ ويشمل أيضاً الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة.

«العهد والعقد»: يشمل العهود والعقود التي بين العبد وبين ربه؛ فإن الله عقد بينه وبين المكلفين عقداً وعاهدهم عهداً بإقامة ما خلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه؛ فإقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد، وإهماله نقض للعهد والعقد والثقة. وكذلك العهود والعقود التي بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء.

«الشجاعة والجبن والتهور»: أثنى الله في كتابه على الشجاعةومدح أهلها

وأمر بها، وذم الجبن والتهور، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الإقدام بحكمة وحنكة، فإن أقدم عليها في حال لا يحل له الإقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحمق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره، ويتبع ذلك خور الأعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا يهاب؛ فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميمين رذيلين: بين التهور، الذي هو غلو وزيادة عن الحد، وبين الجبن، الذي هو تفريط وتقصير وضعف وخور، ونظير ذلك (القوام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال، بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد؛ فإن منع الواجبات فهو البخل، وصاحبه بخيل؛ وإن أسرف وزاد في النفقة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير؛ قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

«الاستقامة»: هي لزوم الصراط المستقيم، بأن يستقيم العبد على الإيمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه، مداوماً لذلك، تائباً مما أخل به من حقوقها، ولهذا قال:

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦]

أي مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة.

«التوبة والاستغفار»: أما التوبة فهي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على ما مضى وتركاً في الحال وعزماً على أن لا يعود؛ والاستغفار طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب. وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة.

«التوكل على الله والاستعانة به»: بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية، الخاصة والعامة، مع الثقة بالله في ذلك المطلوب.

«المحبة لله والإنابة إلى الله»: هي قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة، وانجذاب القلب إلى الله تألهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب، وطمأنينة القلب بذكره واللهج بدعائه والرجوع إليه في الأمور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة، فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله، والمنيب هو الأوّاه الرجاع إلى الله الأوّاب إليه.

«المعروف والمنكر»: متقابلان، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً، والمنكر ضده.

«الخبيث والطيب»: متقابلان، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع، والخبيث بالعكس.

«حسن الخلق وسوء الخلق»: يكون مع الله ومع خلقه؛ فحسن الخلق مع الله القيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، مع قوة محبته والطمأنينة إليه واللهج بذكره وقوة الثقة به؛ ومع الخلق بذل الإحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم، وسوء الخلق بعكس ذلك كله.

«الشرك والكفر»: الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً؛ والشرك نوعان: شرك في ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقاً مع الله، وشرك في ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره، ويشركون بينه وبين المخلوقين؛ ويسوونهم في الله في شيء من خصائص إلهيته. وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، وقد يكون أصغر. كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير الله، نحو ذلك.

«النفاق»: هو أن يظهر الخير ويبطن الشر. وهو نوعان: نفاق أكبر، كأن يظهر الإيمان بالله ورسوله وقلبه منطو على الكفر؛ ونفاق أصغر، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور في الخصومة.

«الكبر والتواضع»: فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، يعني وضده التواضع للحق: قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق.

فهذه الحدود ينبغي أن تعتبرها في كل ما يمر عليك من نصوص الكتاب والسنة لتهتدي إلى معرفة ما يدخل في الأمور التي حكم الله عليها بالأحكام المتنوعة، وما لا يدخل، فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان، فنسأل الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، وهو العلم بالحق والعمل به ويجنبنا الطرق المخالفة لذلك.

وقد يسر الله تتميم هذا التعليق المبارك في ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين، وأن كلام الله كفيل ببيان كل شيء ينتفع به العباد في معاشهم ومعادهم، وإرشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة، وأنه يتعذر الصلاح والإصلاح للأحوال كلها إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها هذا القرآن في أصول الدين وفروعه، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأمور الداخلية والخارجية، والحمد لله الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، بخط الفقير إلى الله من كافة الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف في سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام، غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين.

* * *

# محتويات المجلد

## فهرس كتاب
## القواعد الحِسان لتفسير القرآن

| الموضوع | | | الصفحة |
|---|---|---|---|

| الموضوع | | الصفحة |
|---|---|---|


* * *

# فهرس كتاب تيسير اللطيف المنّان
# في خلاصة تفسير القرآن

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |



* * *

② الحديث

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

# بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار

## في شرح جوامع الأخبار

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# بهجة قلوب الأبرار
# وقرة عيون الأخيار
## في شرح جوامع الأخبار

# تعريف بالكتاب

من تأمل هذا الكتاب على اختصاصه ووضوحه رآه مشتملاً من جميع العلوم النافعة على: علم التوحيد، والأصول، والعقائد، وعلم السير والسلوك إلى الله، وعلم الأخلاق، والآداب الدينية، والدنيوية، والطبية، وعلم الفقه والأحكام في كل أبواب الفقه: من عبادات، ومعاملات، وأنكحة، وغيرها، وبيان حكمها، ومأخذها وأصولها وقواعدها، وعلوم الإصلاحات المتنوعة، والمواضيع النافعة، والتوجيهات إلى جلب المنافع الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية، ودفع المضار.

وهي كلها مأخوذة ومستفادة من كلماته صلوات الله وسلامه عليه، حيث اختير فيه شرح أجمع الأحاديث وأنفعها، كما ستراه.

وذلك كله من فضل الله ورحمته. والله هو المحمود وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العظيمة العليا، وعلى آثارها الشاملة للأولى والأخرى.

وأصلي وأسلم على محمد أجمع الخلق لكل وصف حميد، وخلق رشيد، وقول سديد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه من جميع العبيد.

أما بعد: فليس بعد كلام الله أصدق ولا أنفع ولا أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلام رسوله وخليله محمد ﷺ؛ إذ هو أعلم الخلق، وأعظمهم نصحاً وإرشاداً وهداية، وأبلغهم بياناً وتأصيلاً وتفصيلاً، وأحسنهم تعليماً. وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، بحيث كان يتكلم بالكلام القليل لفظُه، الكثيرة معانيه، مع كمال الوضوح والبيان الذي هو أعلى رتب البيان.

وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس، أو نوع، أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط.

فأقول مستعيناً بالله، سائلاً منه التيسير والتسهيل:

## الحديث الأول

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) متفق عليه.

## الحديث الثاني

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ــ وفي رواية: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ــ فهو رَدٌّ) مُتَّفَق عليه.

هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله، أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه. فحديث عمر ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة ميزان للأعمال الظاهرة.

ففيهما الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول اللذان هما شرط لكل قول وعمل، ظاهر وباطن. فمن أخلص أعماله لله متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ فهذا الذي عمله مقبول، ومن فقد الأمرين أو أحدهما فعمله مردود، داخل في قول الله تعالى:

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾.

[سورة الفرقان: الآية ٢٣]

والجامع للوصفين داخل في قوله تعالى:

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن...﴾ الآية،

[سورة النساء: الآية ١٢٥]

**﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [سورة البقرة: الآية ١١٢]

أما النية: فهي القصد للعمل تقرباً إلى الله، وطلباً لمرضاته وثوابه. فيدخل في هذا: نية العمل، ونية المعمول له.

أما نية العمل: فلا تصح الطهارة بأنواعها، ولا الصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع العبادات إلا بقصدها ونيتها، فينوي تلك العبادة المعينة. وإذا كانت العبادة تحتوي على أجناس وأنواع، كالصلاة، منها الفرض، والنفل المعين، والنفل المطلق. فالمطلق منه يكفي فيه أن ينوي الصلاة. وأما المعين من فرض أو نفل معين ـ كَوِتْرٍ أو راتبة، فلا بد مع نية الصلاة أن ينوي ذلك المعين. وهكذا بقية العبادات.

ولا بد أيضاً أن يميز العادة عن العبادة. فمثلاً الاغتسال يقع نظافة أو تبرداً، ويقع عن الحدث الأكبر، وعن غسل الميت وللجمعة ونحوها فلا بد أن ينوي فيه رفع الحدث، أو ذلك الغسل المستحب. وكذلك يخرج الإنسان الدراهم مثلاً للزكاة، أو للكفارة، أو للنذر، أو للصدقة المستحبة، أو هدية. فالعبرة في ذلك كله على النية.

ومن هذا: حيل المعاملات إذا عامل معاملة ظاهرها وصورتها الصحة، ولكنه يقصد بها التوسل إلى معاملة ربَوِيَّةٍ، أو يقصد بها إسقاط واجب، أو توسلاً إلى محرم، فإن العبرة بنيته وقصده، لا بظاهر لفظه؛ فإنما الأعمال بالنيات. وذلك بأن يضم إلى أحد العوضين ما ليس بمقصود، أو يضم إلى العقد عقداً غير مقصود. قاله شيخ الإسلام.

وكذلك شرط الله في الرجعة وفي الوصية: أن لا يقصد العبد فيهما المضارة.

ويدخل في ذلك جميع الوسائل التي يتوسل بها إلى مقاصدها؛ فإن الوسائل لها أحكام المقاصد، صالحة أو فاسدة، والله يعلم المصلح من المفسد.

وأمّا نيّة المعمول له: فهو الإخلاص لله في كل ما يأتي العبد وما يذر، وفي كل ما يقول ويفعل، قال تعالى:

﴿وما أُمِروا إلا ليَعْبُدوا الله مخلصين له الدين﴾ [سورة البينة: الآية ٥]

وقال:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ [سورة الزمر: الآية ٣]

وذلك أن على العبد أن ينوي نية كلية شاملة لأموره كلها، مقصوداً بها وجه الله، والتقرب إليه، وطلب ثوابه، واحتساب أجره، والخوف من عقابه. ثم يستصحب هذه النية في كل فرد من أفراد أعماله وأقواله، وجميع أحواله، حريصاً فيه على تحقيق الإخلاص وتكميله، ودفع كل ما يضاده: من الرياء والسمعة، وقصد المحمدة عند الخلق، ورجاء تعظيمهم، بل إن حصل شيء من ذلك فلا يجعله العبد قصده، وغاية مراده، بل يكون القصد الأصيل منه وجه الله، وطلب ثوابه من غير التفات للخلق، ولا رجاء لنفعهم أو مدحهم. فإن حصل شيء من ذلك دون قصد من العبد لم يضره شيئاً، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن.

فقوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) أي: إنها لا تحصل ولا تكون إلا بالنية، وإن مدارها على النية. ثم قال: (وإنما لكل امرىء ما نوى) أي: إنها تكون بحسب نية العبد صحتها أو فسادها، كمالها أو نقصانها، فمن نوى فعل الخير وقصد به المقاصد العليا ــ وهي ما يقرب إلى الله ــ فله من الثواب والجزاء الجزاءُ الكامل الأوفى. ومن نقصت نيته وقصده، نقص ثوابه، ومن توجهت نيته إلى غير هذا المقصد الجليل، فاته الخير، وحصل على ما نوى من المقاصد الدنيئة الناقصة. ولهذا ضرب النبي ﷺ مثالاً ليقاس عليه جميع الأمور، فقال: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) أي: حصل له ما نوى، ووقع أجره على الله (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) خص فيه المرأة التي يتزوجها بعدما عم جميع الأمور الدنيوية

لبيان أن جميع ذلك غايات دنيئة، ومقاصد غير نافعة، وكذلك حين سئل ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، أو حمية، أو ليُرى مقامه في صف القتال (أيُّ ذلك في سبيل الله؟) فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) وقال تعالى في اختلاف الإنفاق بحسب النيات

**﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتَثْبيتاً من أنفسهم كمثل جنة برَبْوة. . .﴾ الآية.** [سورة البقرة: الآية ٢٦٥]

وقال:

**﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** [سورة النساء: الآية ٣٨]

وهكذا جميع الأعمال.

والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص، حتى إن صاحب النية الصادقة ـ وخصوصاً إذا اقترن بها ما يقدر عليه من العمل ـ يلتحق صاحبها بالعامل، قال تعالى:

**﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدركْهُ الموتُ فقد وقع أجره على الله﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٠]

وفي الصحيح مرفوعاً (إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً)، (إن بالمدينة أقواماً ما سِرتُم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ـ أي: في نياتهم وقلوبهم وثوابهم ـ حَبَسَهم العُذرُ) وإذا همَّ العبد بالخير، ثم لم يقدر له العمل، كتبت هِمَّته ونيته له حسنة كاملة. والإحسان إلى الخلق بالمال والقول والفعل خير وأجر وثواب عند الله، ولكنه يعظم ثوابه بالنية. قال تعالى:

**﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾** [سورة النساء: الآية ١١٤]

أي: فإنه خير، ثم قال:

**﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾**

فرتب الأجر العظيم على فعل ذلك ابتغاء مرضاته. وفي البخاري مرفوعاً: (من

أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّاها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله) فانظر كيف جعل النية الصالحة سبباً قوياً للرزق وأداء الله عنه، وجعل النية السيئة سبباً للتلف والإتلاف.

وكذلك تجري النية في المباحات والأمور الدنيوية، فإن من قصد بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات، واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وراحاته ومكاسبه: انقلبت عاداته عبادات، وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أموراً لا يحتسبها ولا تخطر له على بال. ومن فاتته هذه النية الصالحة لجهله أو تهاونه، فلا يلومن إلا نفسه. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (إنك لن تعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا أُجرت عليه، حتى ما تجعله في فيِّ امرأتِك).

فعلم بهذا: أن هذا الحديث جامع لأمور الخير كلها. فحقيق بالمؤمن الذي يريد نجاة نفسه ونفعها أن يفهم معنى هذا الحديث، وأن يكون العمل به نصب عينيه في جميع أحواله وأوقاته.

وأما حديث عائشة: فإن قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ـ أو من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) فيدل بالمنطوق وبالمفهوم.

أما منطوقه: فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله، فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبُعدها عن الدين. فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله ولم يشرعه فهو مبتدع، ومن حَرَّم المباحات، أو تعبد بغير الشرعيات فهو مبتدع.

وأما مفهوم هذا الحديث: فإن من عمل عملاً، عليه أمر الله ورسوله ـ وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب: فعمله مقبول، وسعيه مشكور.

ويستدل بهذا الحديث على أن كل عبادة فعلت على وجه منهي عنه فإنها فاسدة؛ لأنه ليس عليها أمر الشارع، وأن النهي يقتضي الفساد. وكل معاملة نهى الشارع عنها فإنها لاغية لا يعتد بها.

## الحديث الثالث

عن تميم الداريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم.

كرر النبي ﷺ هذه الكلمة اهتماماً للمقام، وإرشاداً للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله ـ ظاهره وباطنه ـ منحصر في النصيحة. وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة.

فالنصيحة لله: الاعتراف بوحدانية الله، وتفرده بصفات الكمال على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاستغفار الدائم؛ لأن العبد لا بد له من التقصير في شيء من واجبات الله، أو التجرؤ على بعض المحرمات. وبالتوبة الملازمة والاستغفار الدائم ينجبر نقصه، ويتم عمله وقوله.

وأما النصيحة لكتاب الله: فبحفظه وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

وأما النصيحة للرسول فهي الإيمان به ومحبته. وتقديمه فيها على النفس والمال والولد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ــ وهم ولاتهم، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة ــ : فباعتقاد ولايتهم، والسمع والطاعة لهم، وحث الناس على ذلك، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس، وإلى القيام بواجبهم.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان، فإن من أحب شيئاً سعى له، واجتهد في تحقيقه وتكميله.

فالنبي ﷺ فسر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التي تشمل القيام بحقوق الله، وحقوق كتابه، وحقوق رسوله، وحقوق جميع المسلمين على أختلاف أحوالهم وطبقاتهم. فشمل ذلك الدين كله، ولم يبق منه شيء إلا دخل في هذا الكلام الجامع المحيط. والله أعلم.

## الحديث الرابع

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتى أعرابي النبي ﷺ، فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة (قال: تعبدُ الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتُؤدِّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقصُ منه. فلما ولىَّ، قال النبي ﷺ: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) متفق عليه.

قد وردت أحاديث كثيرة في هذا الأصل الكبير الذي دل عليه الحديث، ومدلولها كلها متفق أو متقارب على أن من أدى ما فرض الله عليه بحسب الفروض المشتركة والفروض المختصة بالأسباب التي من وجبت فيه وجبت عليه. فمن أدى الفرائض واجتنب المحرمات استحق دخول الجنة، والنجاة من

النار، ومن اتصف بهذا الوصف فقد استحق اسم الإسلام والإيمان، وصار من المتقين المفلحين، وممن سلك الصراط المستقيم.

ويشبه هذا ويقاربه:

## الحديث الخامس

عن سفيان بن عبد الله الثَّقفي قال: قلت: (يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم). رواه مسلم.

فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ كلاماً جامعاً للخير نافعاً، موصلاً صاحبه إلى الفلاح. فأمره النبيُّ ﷺ بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقاده: من عقائد الإيمان، وأصوله، وما يتبع ذلك، من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله، باطناً وظاهراً، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه إلى الممات. وهو نظير قوله تعالى:

**﴿إن الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة: ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾**

[سورة فصلت: الآية ٣٠]

فرتب على الإيمان والاستقامة: السلامة من جميع الشرور، وحصول الجنة وجميع المحاب.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب: من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر. ومن أعمال الجوارح[1]. ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

---

(١) الأعضاء.

# الحديث السادس

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) متفق عليه، وزاد الترمذي والنسائي: (والمؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم) وزاد البيهقي: (والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله).

ذكر في هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة التي رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد. وذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقه، وحقوق المسلمين. ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده. فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين. فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم؛ فإن الإيمان إذا دار في القلب وامتلأ به، أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات؛ فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان، كما قال ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له).

وفسر ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي. وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله؛ فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي. والهجرة الخاصة

التي هي الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام والسنة، جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله؛ فإن النفس مَيَّالة إلى الكسل عن الخيرات، أمارة بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله؛ وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب. وهذه هي الطاعات: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور؛ لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلِّه: مجاهدتُها على قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل؛ فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله: من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر إلا تركه. والله الموفق وحده.

## الحديث السابع

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤْتُمِنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدرَ، وإذا خاصَمَ فَجَر[1]) متفق عليه.

النفاق أساس الشر، وهو أن يظهر الخير، ويبطن الشر. هذا الحدُّ يدخل

(١) زاد في الخصومة على حد الشرع فلم يكتف بمقابلة السيئة بمثلها على سبيل المثال.

فيه النفاق الأكبر الاعتقادي، الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدَّرْك الأسفل من النار. وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين؛ لمشاركتهم لهم في عداوة دين الإسلام. وهم موجودون في كل زمان، ولا سيما في هذا الزمان الذي طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية.

والمقصود هنا: القسم الثاني من النفاق الذي ذكر في هذا الحديث، فهذا النفاق العملي ــ وإن كان لا يخرج من الدين بالكلية ــ فإنه دهليز الكفر، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، فإن الصدق، والقيام بالأمانات، والوفاء بالعهود، والورع عن حقوق الخلق هي جماع الخير، ومن أخص أوصاف المؤمنين. فمن فقد واحدة منها، فقد هدم فرضاً من فروض الإسلام والإيمان، فكيف بجميعها؟

فالكذب في الحديث يشمل الحديث عن الله والحديث عن رسول الله ﷺ الذي من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب؟﴾ [سورة الصف: الآية ٧]

ويشمل الحديث عما يخبر به من الوقائع الكلية والجزئية. فمن كان هذا شأنه فقد شارك المنافقين في أخص صفاتهم، وهي الكذب الذي قال فيه النبي ﷺ: (إياكم والكذب، فإن الكذب يدعو إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) ومن كان إذا اؤْتُمنَ على الأموال والحقوق والأسرار خانها، ولم يقم بأمانته، فأين إيمانه؟ وأين حِقيقة إسلامه؟ وكذلك من ينكث العهود التي بينه وبين الله، والعهود التي بينه وبين الخلق متصف بصفة خبيثة من صفات المنافقين. وكذلك من لا يتورع عن أموال الخلق وحقوقهم، ويغتنم فرصها، ويخاصم فيها بالباطل ليثبت باطلاً، أو يدفع حقاً. فهذه الصفات لا تكاد تجتمع في شخص ومعه من الإيمان ما يجزىء أو يكفي، فإنها تنافي الإيمان أشد المنافاة.

واعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة: أنه قد يجتمع في العبد خصال خير وخصال شر، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق. ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك وقد دل على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، فيجب العمل بكل النصوص، وتصديقها كلها. وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ما جاءت به النصوص: من بقاء الإيمان وبقاء الدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعل، إذا لم يفعل شيئاً من المكفرات التي تخرج صاحبها من الإيمان. فالخوارج يدفعون ذلك كله، ويرون من فعل شيئاً من الكبائر ومن خصال الكفر أَو خصال النفاق خارجاً من الدين، مخلداً في النار. وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة، وإِجماع سلف الأمة.

## الحديث الثامن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، وَلْيَنْتَهِ). وفي لفظ (فليقل: آمنت بالله ورسله) متفق عليه. وفي لفظ (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا: من خلق الله؟).

احتوى هذا الحديث على أنه لا بد أن يلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل: إما وسوسة محضة، أو على لسان شياطين الإنس وملاحدتهم. وقد وقع كما أخبر، فإن الأَمرين وقعا، لا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العالم بكلام سخيف معروف.

وقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة: بالانتهاء، والتعوذ من الشيطان، وبالإيمان.

أما الانتهاء ــ وهو الأمر الأول ــ: فإن الله تعالى جعل للأفكار والعقول

حداً تنتهي إليه، ولا تتجاوزه. ويستحيل لو حاولت مجاوزته أَن تستطيع، لأنه محال، ومحاولة المحال من الباطل والسفه، ومن أمحل المحال التسلسل في المؤثرين والفاعلين، فإن المخلوقات لها ابتداء، ولها انتهاء. وقد تتسلسل في كثير من أمورها حتى تنتهي إلى الله الذي أوجدها وأوجد ما فيها من الصفات والمواد والعناصر

﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [سورة النجم: الآية ٤٢]

فإذا وصلت العقول إلى الله تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. فأوّليته تعالى لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحوال، وهو الذي أوجد الأزمان والأحوال والعقول التي هي بعض قوى الإنسان. فكيف يحاول العقل أن يتشبث في إيراد السؤال الباطل. فالغرض عليه المحتم في هذه الحال: الوقوف، والانتهاء.

الأمر الثاني: التعوذ بالله من الشيطان، فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلوب؛ ليشكك الناس في الإيمان بربهم. فعلى العبد إذا وجد ذلك: أن يستعيذ بالله منه، فمن تعوذ بالله بصدق وقوة أَعاذه الله وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

الأمر الثالث: أن يدفعه بما يضاده من الإيمان بالله ورسله، فإن الله ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه تعالى المتفرد بالوحدانية، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة اللاحقة.

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له، فإن الحق يدفع الباطل، والشكوك لا تعارض اليقين.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ تبطل هذه الشبه التي لا تزال على ألسنة الملاحدة، يلقونها بعبارات متنوعة. فأمر بالانتهاء الذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشيطان الذي هو الملقي لهذه الشبهة، وبالإيمان

الصحيح الذي يدفع كل ما يضاده من الباطل. والحمد لله. فبالانتهاء: قطع الشر مباشرة، وبالاستعاذة: قطع السبب الداعي إلى الشر، وبالإيمان اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض.

وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان. فينبغي العناية بها في كل ما عرض للإيمان من شبهة واشتباه يدفعه العبد مباشرة بالبراهين الدالة على إبطاله، وبإثبات ضده وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، وبالتعوذ بالله من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ليزلزل إيمانهم، ويوقعهم بأنواع المعاصي. فبالصبر واليقين: ينال العبد السلامة من فتن الشهوات، ومن فتن الشبهات. والله هو الموفق الحافظ.

## الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (كل شيء بقدَر، حتى العَجْز والكَيْس) رواه مسلم.

هذا الحديث متضمن لأصل عظيم من أصول الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، عامه وخاصه، سابقه ولاحقه، بأن يعترف العبد أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه علم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ. كما قال تعالى:

**﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض؟ إن ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير﴾** [سورة الحج: الآية ٧٠]

ثم إن الله ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، الشاملتان لكل ما كان وما يكون، الشاملتان للخلق والأمر وأنه مع ذلك، ومع خلقه للعباد وأفعالهم وصفاتهم، فقد أعطاهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم بحسب اختيارهم، لم يجبرهم عليها، وهو الذي خلق قدرتهم ومشيئتهم، وخالق

السبب التام خالق للمسبب. فأفعالهم وأقوالهم تقع بقدرتهم ومشيئتهم اللتين خلقهما الله فيهم، كما خلق بقية قواهم الظاهرة والباطنة. ولكنه تعالى يَسَّرَ كلا لما خلق له.

فمن وَجَّه وجهَه وقصدَه لربه: حَبَّب إليه الإيمان، وزَيَّنه في قلبه وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين، فتمت عليه نعم الله من كل وجه.

ومن وجّه وجهه لغير الله، بل تولى عدوه الشيطان: لم ييسره لهذه الأمور، بل وَلَّاه الله ما تولى، وخذله، ووكله إلى نفسه، فضَلَّ وغوى، وليس له على ربه حجة، فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى، فلا يلومن إلا نفسه. قال تعالى:

**﴿فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

وقال:

**﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** [سورة المائدة: الآية ١٦]

وهذا القدر يأتي على جميع أحوال العبد وأفعاله وصفاته، حتى العجز والكيس. وهما الوصفان المتضادان الذي ينال بالأول منهما ـ وهو العجز ـ: الخيبة والخسران، وبالثاني ـ وهو الكيس ـ: الجد في طاعة الرحمن. والمراد هنا: العجز الذي يلام عليه العبد، وهو عدم الإرادة، وهو الكسل، لا العجز الذي هو عدم القدرة. وهذا هو معنى الحديث الآخر (اعملوا؛ فكل مُيَسَّرٌ لما خُلِق له).

أما أهل السعادة: فييسرون لعمل السعادة، وذلك بكيسهم وتوفيقهم ولطف الله بهم. والكيس والعاجز هما المذكوران في قوله ﷺ: (الكيس من دان

نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني).

## الحديث العاشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من دعا إلى هُدَى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يَنْقُص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) رواه مسلم.

هذا الحديث ـ وما أشبهه من الأحاديث ـ فيه: الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغي، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

فكل من علم علماً أو وجه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم: فهو داع إلى الهدى.

وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة: فهو داع إلى الهدى.

وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية يتوسل بها إلى الدين: فهو داع إلى الهدى.

وكل من اهتدى في علمه أو عمله، فاقتدى به غيره: فهو داع إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعمل خيري، أو مشروع عام النفع: فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله: الداعي إلى الضلالة.

فالداعون إلى الهدى: هم أئمة المتقين، وخيار المؤمنين.

والداعون إلى الضلالة: هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى: فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان: فهو من الداعين إلى الضلالة.

## الحديث الحادي عشر

عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يُرِدِ الله به خيراً يُفَقِّهْه في الدين) متفق عليه.

هذا الحديث من أَعظم فضائل العلم، وفيه: أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيراً.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأَحكام، وحقائق الإحسان. فإن الدين يشمل الثلاثة كلها، كما في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه ﷺ بحدودها. ففسر الإيمان بأصوله الستة، وفسر الإسلام بقواعده الخمس، وفسر الإحسان بـ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهراً وباطناً، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة.

ودخل في ذلك: علم الفقه، أصوله وفروعه، أحكام العبادات والمعاملات، والجنايات وغيرها.

ودخل في ذلك: التفقه بحقائق الإيمان، ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور، ووفقه لها.

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية فإن الله لم يرد به خيراً، لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات وتكتسب بها السعادة.

## الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجَز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم.

هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة وكلمات جامعة.

فمنها: إثبات المحبة صفة لله، وأنها متعلقة بمحبوباته وبمن قام بها ودل على أنها تتعلق بإرادته ومشيئته، وأيضاً تتفاضل. فمحبته للمؤمن القوي أعظم من محبته للمؤمن الضعيف.

ودل الحديث على أَن الإيمان يشمل العقائد القلبية، والأقوال والأفعال، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أَعلاها: قول: (لا إله إلا الله) وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة منه. وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان. فمن قام بها حق القيام، وكَمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر: فهو المؤمن القوي الذي حاز أعلى مراتب الإيمان، ومن لم يصل إلى هذه المرتبة: فهو المؤمن الضعيف.

وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه، وبحسب أعماله.

وهذا الأصل قد دل عليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

ولما فاضل النبي ﷺ بين المؤمنين قويهم وضعيفهم خشي من توهم القدح في المفضول، فقال: (وفي كل خير) وفي هذا الاحتراز فائدة نفيسة، وهي أن على من فاضل بين الأشخاص أو الأجناس أو الأعمال أن يذكر وجه التفضيل، وجهة التفضيل. ويحترز بذكر الفضل المشترك بين الفاضل والمفضول، لئلا يتطرق القدح إلى المفضول وكذلك في الجانب الآخر إذا ذكرت مراتب الشر والأشرار، وذكر التفاوت بينهما. فينبغي بعد ذلك أن يذكر القدر المشترك بينهما من أسباب الخير أو الشر. وهذا كثير في الكتاب والسنة.

وفي هذا الحديث: أن المؤمنين يتفاوتون في الخيرية، ومحبة الله والقيام بدينه، وأنهم في ذلك درجات

﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٩]

ويجمعهم ثلاثة أقسام: السابقون إلى الخيرات، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، وكملوا ما باشروه من الأعمال، واتصفوا بجميع صفات الكمال. ثم المقتصدون الذين اقتصروا على القيام بالواجبات وترك المحظورات، ثم الظالمون لأنفسهم، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وقوله ﷺ (احرص على ما ينفعك واستعن بالله) كلام جامع نافع، محتو على سعادة الدنيا والآخرة.

والأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية. فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه. ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة: فاته من الخير بحسبها. فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة، بل كان كسلاناً، لم يدرك شيئاً. فالكسل هو أصل الخيبة والفشل. فالكسلان

لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا دنيا؛ ومتى كان حريصاً، ولكن على غير الأمور النافعة: إما على أمور ضارة، أو مفوتة للكمال كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر، فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء.

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها: لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله؛ والاستعانة به على إدراكها وتكميلها وأن لا يتكل على نفسه وحَوْله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه. فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنه في هذه الأحوال محتاج ـ بل مضطر غاية الاضطرار ـ إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال. والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه. فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظاً، فليكرره كثيراً، متدبراً لمعانيه، حتى تَرْسَخ معانِيه في قلبه. ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها. ومن ضيع الأصول حرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله: أعانه الله، وبارك في علمه، وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة: فاتت عليه

الأوقات، ولم يدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة. والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلماً يحسن طريقة التعليم، ومسالك التفهيم: تم له السبب الموصل إلى العلم.

وأما الأمر الثاني ـ وهو العمل الصالح ـ: فهو العمل الذي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، وهو التقرب إلى الله: باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه وتصديق رسوله في كل خبر أخبرا به عما مضى، وعما يستقبل عن الرسل، والكتب والملائكة، وأحوال الآخرة، والجنة والنار، والثواب والعقاب وغير ذلك. ثم يسعى في أداء ما فرضه الله على عباده: من حقوق الله، وحقوق خلقه ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات، خصوصاً المؤكدة في أوقاتها، مستعيناً بالله على فعلها، وعلى تحقيقها وتكميلها، وفعلها على وجه الإخلاص الذي لا يشوبه غرض من الأغراض النفسية. وكذلك يتقرب إلى الله بترك المحرمات، وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس، وتميل إليها. فيتقرب إلى ربه بتركها لله، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات، فمتى وفّق العبد بسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك أفلح وأنجح. وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأَما الأمور النافعة في الدنيا: فالعبد لا بد له من طلب الرزق. فينبغي أن يسلك أنفع الأَسباب الدنيوية اللائقة بحاله. وذلك يختلف باختلاف الناس، ويقصد بكسبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب من يعوله ومن يقوم بمؤنته، وينوي الكفاف والاستغناء بطلبه عن الخلق. وكذلك ينوي بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديات المالية: من الزكاة والصدقة، والنفقات الخيرية الخاصة والعامة مما يتوقف على المال، ويقصد المكاسب الطيبة، متجنباً للمكاسب الخبيثة المحرمة. فمتى كان طلب العبد وسعيه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله كانت حركاته وسعيه قربة يتقرب إلى الله بها. ومن تمام ذلك: أن لا يتكل العبد على حوله وقوته وذكائه ومعرفته، وحذقه

بمعرفة الأَسباب وإدارتها، بل يستعين بربه متوكلاً عليه، راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها، وأقربها تحصيلاً لمراده، ويسأل ربه أن يبارك له في رزقه: فأول بركة الرزق: أن يكون مؤسساً على التقوى والنية الصالحة. ومن بركة الرزق: أن يوفق العبد لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة. ومن بركة الرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملة، كما قال تعالى:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحاباة عند البيع والشراء، بما تيسر من قليل أو كثير، فبذلك ينال العبد خيراً كثيراً.

فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف أهل العلم في ذلك، فمنهم من فضل الزراعة والحراثة، ومنهم من فضل البيع والشراء، ومنهم من فضل القيام بالصناعات والحرف ونحوها. وكل منهم أدلى بحجته، ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع، وهو أنه ﷺ قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله) والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمنهم من تكون الحراثة والزراعة أفضل في حقه، ومنهم من يكون البيع والشراء والقيام بالصناعة التي يحسنها أفضل في حقه، فالأفضل من ذلك وغيره الأنفع.

فصلوات الله وسلامه على من أعطي جوامع الكلم ونوافعها.

ثم إنه ﷺ حض على الرضى بقضاء الله وقدره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع. فإذا أصاب العبد ما يكرهه، فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه وتستريح نفسه؛ فإن «لو» في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب. وهذه الحال التي أرشد إليها النبي ﷺ هي أعظم

الطرق لراحة القلب، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسره منها، والرضى عنه بما فات، ولم يحصل منها.

واعلم أن استعمال «لو» يختلف باختلاف ما قصد بها، فإن استعملت في هذه الحال التي لا يمكن استدراك الفائت فيها، فإنها تفتح على العبد عمل الشيطان، كما تقدم، وكذلك لو استعملت في تمني الشر والمعاصي فإنها مذمومة، وصاحبها آثم، ولو لم يباشر المعصية، فإنه تمنى حصولها.

وأما إذا استعملت في تمني الخير، أو في بيان العلم النافع، فإنها محمودة، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

وهذا الأصل الذي ذكره النبي ﷺ ـ وهو الأمر بالحرص على الأمور النافعة، ومن لازمه اجتناب الأمور الضارة مع الاستعانة بالله ـ يشمل استعماله والأمر به في الأمور الجزئية المختصة بالعبد ومتعلقاته، ويشمل الأمور الكلية المتعلقة بعموم الأمة. فعليهم جميعاً أن يحرصوا على الأمور النافعة، وهي المصالح الكلية والاستعداد لأعدائهم بكل مستطاع مما يناسب الوقت، من القوة المعنوية والمادية، ويبذلوا غاية مقدورهم في ذلك، مستعينين بالله على تحقيقه وتكميله، ودفع جميع ما يضاد ذلك. وشرح هذه الجملة يطول وتفاصيلها معروفة.

وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر، والعمل بالأسباب النافعة، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، ولا يتم الدين إلا بهما، بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بها، لأن قوله (احرص على ما ينفعك) أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلاً وتدبيراً.

وقوله: (واستعن بالله) إيمان بالقضاء والقدر، وأمر بالتوكل على الله الذي هو الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع

الثقة التامة بالله في نجاح ذلك. فالمتبع للرسول ﷺ يتعين عليه أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته والله المستعان.

## الحديث الثالث عشر

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضا) وشَبَّك بين أصابعه. متفق عليه.

هذا حديث عظيم، فيه الخبر من النبي ﷺ عن المؤمنين أنهم على هذا الوصف، ويتضمن الحث منه على مراعاة هذا الأصل، وأن يكونوا إخواناً متراحمين متحابِّين متعاطفين، يحب كل منهم للآخر ما يحب لنفسه، ويسعى في ذلك، وأن عليهم مراعاة المصالح الكلية الجامعة لمصالحهم كلهم، وأن يكونوا على هذا الوصف، فإن البنيان المجموع من أساسات وحيطان محيطة كلية وحيطان تحيط بالمنازل المختصة، وما تتضمنه من سقوف وأبواب ومصالح ومنافع، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده حتى ينضم بعضها إلى بعض. كذلك المسلمون يجب أن يكونوا كذلك، فيُرَاعوا قيامَ دينهم وشرائعه وما يقوِّم ذلك ويقويه، ويزيل موانعه وعوارضه.

فالفروض العينية: يقوم بها كل مكلف، لا يسع مكلفاً قادراً تركُها أو الإخلالُ بها، وفروض الكفايات: يجعل في كل فرض منها من يقوم به من المسلمين، بحيث تحصل بهم الكفاية، ويتم بهم المقصود المطلوب، قال تعالى في الجهاد:

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نَفَر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم﴾. [سورة التوبة: الآية ١٢٢]

وقال تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وأمر تعالى بالتعاون على البر والتقوى فالمسلمون قصدهم ومطلوبهم واحد، وهو قيام مصالح دينهم ودنياهم التي لا يتم الدين إلا بها، وكل طائفة تسعى في تحقيق مهمتها بحسب ما يناسبها ويناسب الوقت والحال. ولا يتم لهم ذلك إلا بعقد المشاورات والبحث عن المصالح الكلية، وبأي وسيلة تدرك، وكيفية الطرق إلى سلوكها، وإعانة كل طائفة للأخرى في رأيها وقولها وفعلها وفي دفع المعارضات والمعوقات عنها، فمنهم طائفة تتعلم، وطائفة تعلم، ومنهم طائفة تخرج إلى الجهاد بعد تعلمها لفنون الحرب، ومنهم طائفة ترابط، وتحافظ على الثُّغور[1]، ومسالك الأعداء، ومنهم طائفة تشتغل بالصناعات المخرجة للأسلحة المناسبة لكل زمان بحسبه، ومنهم طائفة تشتغل بالحراثة والزراعة والتجارة والمكاسب المتنوعة، والسعي في الأسباب الاقتصادية، ومنهم طائفة تشتغل بدرس السياسة وأمور الحرب والسلم، وما ينبغي عمله مع الأعداء مما يعود إلى مصلحة الإسلام والمسلمين، وترجيح أعلى المصالح على أدناها، ودفع أعلى المضار بالنزول إلى أدناها، والموازنة بين الأمور، ومعرفة حقيقة المصالح والمضار ومراتبها.

وبالجملة، يسعون كلهم لتحقيق مصالح دينهم ودنياهم، متساعدين متساندين، يرون الغاية واحدة، وإن تباينت الطرق، والمقصود واحداً، وإن تعددت الوسائل إليه.

فما أنفع العمل بهذا الحديث العظيم الذي أرشد فيه هذا النبي الكريم أمته إلى أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه

(١) حدود الأعداء لتمنع هجومهم على بلاد الإسلام.

عضو تداعَى له سائر الجسد بالحمى والسهر. ولهذا حث الشارع على كل ما يقوي هذا الأمر، وما يوجب المحبة بين المؤمنين، وما به يتم التعاون على المنافـع، ونهى عن التفرق والتعادي، وتشتيت الكلمة في نصوص كثيرة حتى عد هذا أصلاً عظيماً من أصول الدين تجب مراعاته واعتباره وترجيحه على غيره والسعي إليه بكل ممكن.

فنسأل الله تعالى أن يحقق للمسلمين هذا الأصل ويؤلف بين قلوبهم، ويجعلهم يداً واحدة على من ناوأهم وعاداهم، إنه كريم.

## الحديث الرابـع عشر

عن أبـي موسى رضي الله عنه أن النبـي ﷺ كان إذا أتاه سائل أو طالب حاجة، **قال: (اشفعوا تؤجروا. ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء)** متفق عليه.

وهذا الحديث متضمن لأصل كبير، وفائدة عظيمة، وهو أنه ينبغي للعبد أن يسعى في أمور الخير سواء أثمرت مقاصدها ونتائجها أو حصل بعضها، أو لم يتم منها شيء. وذلك كالشفاعة لأصحاب الحاجات عند الملوك والكبراء، ومن تعلقت حاجاتهم بهم، فإن كثيراً من الناس يمتنـع من السعي فيها إذا لم يعلم قبول شفاعته، فيفوّت على نفسه خيراً كثيراً من الله، ومعروفاً عند أخيه المسلم. فلهذا أمر النبـي ﷺ أصحابه أن يساعدوا أصحاب الحاجة بالشفاعة لهم عنده ليتعجلوا الأجر عند الله، لقوله: (اشفعوا تؤجروا) فإن الشفاعة الحسنة محبوبة لله، ومرضية له. قال تعالى:

**﴿من يشفـع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾**.

[سورة النساء: الآية ٨٥]

ومـع تعجله للأجر الحاضر فإنه أيضاً يتعجل الإحسان وفعل المعروف مـع أخيه، ويكون له بذلك عنده يد.

وأيضاً، فلعل شفاعته تكـون سبباً لتحصيـل مراده من المشفـوع له

أو لبعضه، كما هو الواقـع. فالسعي في أمور الخير والمعروف التي يحتمل أن تحصل أو لا تحصل خير عاجل، وتعويد للنفوس على الإعانة على الخير، وتمهيد للقيام بالشفاعات التي يتحقق أو يُظن قبولها.

وفيه من الفوائد: السعي في كل ما يزيل اليأس، فإن الطلب والسعي عنوان على الرجاء والطمـع في حصول المراد، وضده بضده. وفي الحديث دليل على الترغيب في توجيه الناس إلى فعل الخير، وأن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها إلا أن يشفـع في إيصال الحقوق الواجبة فإن الحق الواجب يجب أداؤه وإيصاله إلى مستحقه، ولو لم يشفـع فيه، ويتأكد ذلك مـع الشفاعة.

وفيه أيضاً: رحمة النبي ﷺ في حصول الخير لأمته بكل طريق. وهذا فرد من آلاف مؤلفة تدل على كمال رحمته ورأفته ﷺ، فإن جميـع الخير والمنافـع العامة والخاصة لم تنلها الأمة إلا على يده وبوساطته وتعليمه وإرشاده، كما أنه أرشدهم لدفـع الشرور والأضرار العامة والخاصة بكل طريق. فلقد بلَّـغ وأدَّى الأمانة، ونصـح الأمة صلوات الله وسلامه وبركته عليه وعلى آله وصحبه.

قوله: (ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء) قضاؤه تعالى نوعـان: قضاء قدري، يشمل الخير والشر والطاعات والمعاصي، بل يشمل جميـع ما كان وما يكون، وجميـع الحوادث السابقة واللاحقة، وأخص منه القضاء القدري الديني الذي يختص بما يحبه الله ويرضاه، وهذا الذي يقضي على لسان نبيه من القسم الثاني؛ إذ هو ﷺ عبدٌ رسول، قد وفَّى مقام العبودية، وكمل مراتب الرسالة، فكل أقواله وأفعاله وهديه وأخلاقه عبودية لله متعلقة بمحبوبات الله تعالى. ولم يكن في حقه ﷺ شيء مباح محض لا ثواب فيه ولا أجر فضلاً عما ليس بمأمور، وهذا شأن العبد الرسول الذي اختار ﷺ هذه المرتبة التي هي أعلى المراتب حين خير بين أن يكون رسولاً ملكاً، أو عبداً رسولاً.

## الحديث الخامس عشر

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (أنْزِلوا الناس منازلهم) رواه أبو داود.

يا له من حديث حكيم، فيه الحث لأمته على مراعاة الحكمة. فإن الحكمة وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، والله تعالى حكيم في خلقه وتقديره، وحكيم في شرعه وأمره ونهيه وقد أمر عباده بالحكمة ومراعاتها في كل شيء، وأوامر النبي ﷺ وإرشاداته كلها تدور على الحكمة.

فمنها: هذا الحديث الجامع، إذ أمر أن ننزل الناس منازلهم. وذلك في جميع المعاملات، وجميع المخاطبات، والتعلم والتعليم.

فمن ذلك: أن الناس قسمان: قسم لهم حق خاص، كالوالدين والأولاد والأقارب، والجيران والأصحاب والعلماء، والمحسنين بحسب إحسانهم العام والخاص. فهذا القسم تنزيلهم منازلهم: القيام بحقوقهم المعروفة شرعاً وعرفاً، من البر والصلة والإحسان والتوقير والوفاء والمواساة، وجميع ما لهم من الحقوق، فهؤلاء يميزون عن غيرهم بهذه الحقوق الخاصة.

وقسم ليس لهم مزية اختصاص بحق خاص، وإنما لهم حق الإسلام وحق الإنسانية، فهؤلاء حقهم المشترك: أن تمنع عنهم الأذى والضرر بقول أو فعل، وأن تحب للمسلمين ما تحب لنفسك من الخير وتكره لهم ما تكره لها من الشر، بل يجب منع الأذى عن جميع نوع الإنسان وإيصال ما تقدر عليه لهم من الإحسان.

ومما يدخل في هذا: أن يعاشر الخلق بحسب منازلهم، فالكبير له التوقير والاحترام، والصغير يعامله بالرحمة والرقة المناسبة لحاله، والنظير يعامله بما يجب أن يعامله به، وللأم حق خاص بها، وللزوجة حق آخر، ويعامل من يُدِل عليه ويثق به، ويتوسع معه، ما لا يعامل به من لا يثق به ولا يدل عليه. ويتكلم

مـع الملوك وأرباب الرئاسات بالكلام اللين المناسب لمراتبهم، ولهذا قال تعالى لموسى وهارون:

**﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً لَيِّناً لعله يتذكر أو يخشى﴾.**
[سورة طه: الآيتان ٤٣، ٤٤]

ويعامل العلماء بالتوقير والإجلال والتعلم، والتواضـع لهم، وإظهار الافتقار والحاجة إلى علمهم النافـع، وكثرة الـدعاء لهم، خصـوصاً وقت تعليمهم وفتواهم الخاصة والعامة.

ومن ذلك: أمر الصغار بالخير، ونهيهم عن الشر بالرفق والترغيب، وبذل ما يناسب من الدنيا لتنشيطهم وتوجيههم إلى الخير، واجتناب العنف القولي والفعلي، ولهذا قال ﷺ: (مُروا أولادكم بالصلاة لسبـع سنين، وأضربوهم عليها لعشر) وكذلك سلك رسول الله ﷺ مـع المؤلفه قلوبهم ـ من العطاء الدنيوي الكثيرـ ما يحصل به التأليف، ويترتب عليه من المصالـح، ولم يفعل ذلك مـع من هو معروف بالإيمان الصادق تنزيلاً للناس منازلهم.

وكذلك مخاطبة الزوجة والأولاد الصغار بالخطاب اللائق بهم الذي فيه بسطهم، وإدخال السرور عليهم.

وكذلك من تنزيل الناس منازلهم: أن تجعل الوظائف الدينية والدنيوية والممتزجة منها للأكفـاء المتميِّزين، الـذين يَفْضُلون غيرَهم في ولايـة تلك الوظيفة، فمعلوم أن ولاية الملك: أن الواجب فيها خصوصاً ـ وفي غيرها عموماً ـ مشاورة أهل الحل والعقد في تولية من يصلـح لها ممن جمـع بين القوة والشجاعة والحلم، ومعرفة السياسة الداخلية والخارجية، ومن له القوة الكافية لتنفيذ العدل، وإيصال الحقوق إلى أهلها، وردع الظلمة والمجرمين، وغير ذلك مما يدخل في الولاية.

وكذلك ولاية القضاء: يختار لها الأعلم بالشرع وبالواقـع، الأفضل في دينه وعقله وصفاته الحميدة.

وكذلك ولاية الإمامة في المساجد في الجمعة والجماعة: يختار لها الأعلم بأحكام العبادات الأتقى، ثم الأمثل فالأمثل ـ وكذلك ولاية قيادة الجيوش: يختار لها أهل القوة والشجاعة والرأي والنصح، والمعرفة لفنون الحرب وأدواتها، وما يتبع ذلك مما تتوقف عليه هذه الوظيفة المهمة التي هي من أهم الوظائف وأخطرها، إلى غير ذلك من الولايات الكبار والصغار. فإنها داخلة في قوله تعالى:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وهذه الولايات من أعظم الأمانات. فيتعين أن تؤدى إلى أهلها، وأن يوظف فيها أهل الكفاءة بها، وكل وظيفة لها أكفاء مختصون، وهو داخل في هذا الحديث الشريف.

وكذلك يدخل في ذلك معاملة العصاة والمجرمين، فمن رتب الشارع على جرمه عقوبة من حد ونحوه تعين ما عينه الشارع، لأنه هو عين المصلحة العامة الشاملة، ومن لم يعين له عقوبة، عزر بحسب حاله ومقامه، فمنهم من يكفيه التوبيخ والكلام المناسب لفعلته، ومنهم من لا يردعه إلا العقوبة البليغة.

وكذلك في الصدقة والهدية، ليس عطية الطَّوَّاف الذي يدور على الناس فتكفيه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان كعطية الفقير المتعفف الذي أصابته العَيْلة بعد الغنى. وفي الأثر (ارحموا عزيز قوم ذل).

وكذلك يميز من له آثار وسوابق وغناء ونفع للمسلمين على من ليس كذلك.

فهذه الأمور وما أشبهها داخلة في هذا الكلام الجامع الذي تواطأ عليه الشرع والعقل. وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن.

## الحديث السادس عشر

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضارَّ ضار الله به. ومن شاقَّ شاق الله عليه) رواه الترمذي وابن ماجه.

هذا الحديث دل على أصلين من أصول الشريعة:

أحدهما: أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، وهذا من حكمة الله التي يحمد عليها، فكما أن من عمل ما يحبه الله أحبه الله، ومن عمل ما يبغضه أبغضه الله، ومن يسر على مسلم يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في حاجة العبد ما كان العبد في حاجة أخيه، كذلك من ضار مسلماً ضره الله، ومن مَكَر به مكر الله به، ومن شق عليه شق الله عليه، إلى غير ذلك من الأمثلة الداخلة في هذا الأصل.

الأصل الثاني: منـع الضرر والمضارة، وأنه (لا ضرر ولا ضرار) وهذا يشمل أنواع الضرر كله.

والضرر يرجـع إلى أحد أمرين: إما تفويت مصلحة، أوحصول مضرة بوجه من الوجوه، فالضرر غير المستحق لا يحل إيصاله وعمله مـع الناس، بل يجب على الإنسان أن يمنـع ضرره وأذاه عنهم من جميـع الوجوه.

فيدخل في ذلك: التدليس والغش في المعاملات وكتم العيوب فيها، والمكر والخداع والنجش، وتلقي الركبان، وبيـع المسلم على بيـع أخيه، والشراء من شرائه. ومثله الأجارات، وجميـع المعاملات والخطبة على خطبة أخيه، وخطبة الوظائف التي فيها أهل لها قائم بها. فكل هذا من المضارة المنهي عنها.

وكل معاملة من هذا النوع، فإن الله لا يبارك فيها، لأنه من ضار مسلماً ضاره الله، ومن ضاره الله، ترحل عنه الخير، وتوجه إليه الشر وذلك بما كسبت يداه.

ويدخل في ذلك: مضارة الشريك لشريكه، والجار لجاره، بقول أو فعل حتى إنه لا يحل له أن يحدث بملكه ما يضر بجاره، فضلاً عن مباشرة الإضرار به.

ويدخل في ذلك: مضارة الغريم لغريمه، وسعيه في المعاملات التي تضر بغريمه، حتى إنه لا يحل له أن يتصدق ويترك ما وجب عليه من الدين إلا بإذن غريمه، أو يرهن موجوداته أحد غرمائه دون الباقين، أو يقف، أو يعتق ما يضر بغريمه، أو ينفق أكثر من اللازم بغير إذنه.

وكذلك الضرار في الوصايا: كما قال تعالى:

﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾.

[سورة النساء: الآية ١٢]

بأن يخص أحد ورثته بأكثر مما له، أو ينقص الوارث، أو يوصي لغير وارثه بقصد الإضرار بالورثة.

وكذلك لا يحل إضرار الزوج بزوجته من وجوه كثيرة: إما أن يعضلها ظلماً لتفتدي منه، أو يراجعها لقصد الإضرار، أو يميل إلى إحدى زوجتيه ميلاً يضر بالأخرى، ويجعلها كالمعلقة.

ومن ذلك: الحيف في الأحكام والشهادات والقسمة وغيرها على أحد الشخصين لنفع الآخر. فكل هذا داخل في المضارة، وفاعله مستحق للعقوبة، وأن يضار الله به.

وأشد من ذلك: الوقيعة في الناس عند الولاة والأمراء، ليغريهم بعقوبته أو أخذ ماله، أو منعه من حق هو له، فإن من عمل هذا العمل فإنه باغٍ، فليتوقع العقوبة العاجلة والآجلة.

ومن هذا: نهى النبي ﷺ (أن يورد مُمْرِض على مُصِحّ) لما في ذلك من الضرر.

وكذلك نهى الجذْمَى ونحوَهم عن مخالطة الناس، وهذا وغيره داخل في قوله تعالى:

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾. [سورة الأحزاب: الآية ٥٨]

ونهى ﷺ عن ترويع المسلم، ولو على وجه المزح.

ومن هذا السخرية بالخلق، والاستهزاء بهم، والوقيعة في أعراضهم، والتحريش بينهم. فكله داخل في المضارة والمشاقة الموجب للعقوبة.

وكما يدل الحديث بمنطوقه: أن من ضارّ وشاق ضرَّه الله وشق عليه، فإن مفهومه يدل على: أن من أزال الضرر والمشقة عن المسلم فإن الله يجلب له الخير، ويدفع عنه الضرر والمشاق، جزاء وفاقاً، سواء كان متعلقاً بنفسه أو بغيره.

## الحديث السابع عشر

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) رواه الإمام أحمد والترمذي.

هذا حديث عظيم جمع فيه رسول الله ﷺ بين حق الله وحقوق العباد، فحق الله على عباده: أن يتقوه حق تُقاته، فيتقوا سخطه وعذابه باجتناب المنهيات وأداء الواجبات.

وهذه الوصية هي وصية الله للأولين والآخرين، ووصية كل رسول لقومه أن يقول: (اعبدوا الله واتقوه).

وقد ذكر الله خصال التقوى في قوله تعالى:

﴿ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن

**بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.**

[سورة البقرة: الآية ١٧٧]

وفي قوله:

**﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجَنَّة عَرْضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾.** [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

ثم ذكر خصال التقوى فقال:

**﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. والله يحب المحسنين﴾.** [سورة آل عمران: الآية ١٣٤]

فوصف المتقين بالإيمان بأصوله وعقائده وأعماله الظاهرة والباطنة وبأداء العبادات البدنية والعبادات المالية، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وبالعفو عن الناس، واحتمال أذاهم، والإحسان إليهم، وبمبادرتهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بالاستغفار والتوبة، فأمر ﷺ ووصى بملازمة التقوى حيثما كان العبد في كل وقت وكل مكان، وكل حالة من أحواله، لأنه مضطر إلى التقوى غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كل حالة من أحواله.

ثم لما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق التقوى وواجباتها أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يتْبع الحسنة السيئة «والحسنة» اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله تعالى: وأعظم الحسنات الدافعة للسيئات التوبة النصوح والاستغفار والإنابة إلى الله بذكره وحبه، وخوفه ورجائه، والطمع فيه وفي فضله كل وقت. ومن ذلك الكفارات المالية والبدنية التي حددها الشارع.

ومن الحسنات التي تدفع السيئات: العفو عن الناس، والإحسان إلى

الخلق من الآدميين وغيرهم، وتفريج الكربات، والتيسير على المعسرين، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العالمين. قال تعالى:

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. [سورة هود: الآية ١١٤]

وقال ﷺ: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) وكم في النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات.

ومما يكفر الله به الخطايا: المصائب، فإنه لا يصيب المؤمن من هَمٍّ ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها خطاياه. وهي إما فوات محبوب، أو حصول مكروه، بدني، أو قلبي، أو مالي، داخلي أو خارجي، لكن المصائب بغير فعل العبد. فلهذا أمره بما هو من فعله، وهو أن يتبع الحسنة السيئة.

ثم لما ذكر حق الله ــ وهو الوصية بالتقوى الجامعة لعقائد الدين وأعماله الباطنة والظاهرة ــ قال: (وخالق الناس بخلق حسن).

وأول الخلق الحسن: أن تكف عنهم أذاك من كل وجه، وتعفو عن مساوئهم وأذيتهم لك، ثم تعاملهم بالإحسان القولي والإحسان الفعلي وأخص ما يكون بالخلق الحسن: سعة الحلم على الناس، والصبر عليهم، وعدم الضجر منهم، وبشاشة الوجه، ولطف الكلام والقول الجميل المؤنس للجليس، المدخل عليه السرور، المزيل لوحشته ومشقة حشمته. وقد يحسن المزح أحياناً إذا كان فيه مصلحة، لكن لا ينبغي الإكثار منه، وإنما المزح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم.

ومن الخلق الحسن: أن تعامل كل أحد بما يليق به، ويناسب حاله من صغير وكبير، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل.

فمن اتقى الله، وحقق تقواه، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق

الحسن، فقد حاز الخير كله؛ لأنه قام بحق الله وحقوق العباد. ولأنه كان من المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

## الحديث الثامن عشر

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

هذا الحديث فيه التحذير من الظلم، والحث على ضده، وهو العدل. والشريعة كلها عدل، آمرة بالعدل، ناهية عن الظلم. قال تعالى:

**﴿قل أمر ربي بالقسط﴾**. [سورة الاعراف: الآية ٢٩]

**﴿إن الله يأمر بالعدل﴾**. [سورة النحل: الآية ٩٠]

**﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**.
[سورة الأنعام: الآية ٨٢]

فإن الإيمان أصوله وفروعه، باطنة وظاهره ــ كله عدل، وضده ظلم. فأعدل العدل وأصله: الاعتراف وإخلاص التوحيد لله، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، وإخلاص الدين والعبادة له، وأعظم الظلم، وأشده الشرك بالله، كما قال تعالى:

**﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**. [سورة لقمان: الآية ١٣]

وذلك أن العدل وضع الشيء في موضعه، والقيام بالحقوق الواجبة، والظلم عكسه فأعظم الحقوق، وأوجبها: حق الله على عباده: أن يعرفوه ويعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، ثم القيام بأصول الإيمان، وشرائع الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وحج البيت الحرام، والجهاد في سبيل الله قولاً وفعلاً، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ومن الظلم: الإخلال بشيء من ذلك، كما أن من العدل: القيام بحقوق

النبي ﷺ من الإيمان به ومحبته، وتقديمها على محبة الخلق كلهم، وطاعته وتوقيره وتبجيله، وتقديم أمره وقوله على أمر غيره وقوله.

ومن الظلم العظيم: أن يخل العبد بشيء من حقوق النبي ﷺ الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأرحم بهم وأرأف بهم من كل أحد من الخلق، وهو الذي لم يصل إلى أحد خير إلا على يديه.

ومن العدل: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء حقوق الأصحاب والمعاملين، ومن الظلم: الإخلال بذلك.

ومن العدل: قيام كل من الزوجين بحق الآخر، ومن أخل بذلك منهما فهو ظالم.

وظلم الناس أنواع كثيرة، يجمعها قوله ﷺ في خطبته في حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا).

فالظلم كله بأنواعه ظلمات يوم القيامة، يعاقب أهلها على قدر ظلمهم، ويجازى المظلومون من حسنات الظالمين، فإن لم يكن لهم حسنات أو فنيت أخذ من سيئاتهم فطرحت على الظالمين.

والعدل كله نور يوم القيامة

﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [سورة الحديد: الآية ١٢]

والله تعالى حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً. فالله تعالى على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله وجزائه، وهو العدل. وقد نصب لعباده الصراط المستقيم الذي يرجع إلى العدل، ومن عدل عنه عدل إلى الظلم والجور الموصل إلى الجحيم.

والظلم ثلاثة أنواع: نوع لا يغفره الله، وهو الشرك بالله

﴿إِن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨]

ونوع لا يترك الله منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض، فمن كمال عدله: أن الخلق بعضهم من بعض بقدر مظالمهم.

ونوع تحت مشيئة الله: إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عن أهله، وهو الذنوب التي بين العباد وبين ربهم فيما دون الشرك.

## الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (انظروا إِلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تَزْدروا نعمة الله عليكم) متفق عليه.

يا لها من وصية نافعة، وكلمة شافية وافية، فهذا يدل على الحث على شكر الله بالاعتراف بنعمه، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر. فإن الشكر لله هو رأس العبادة، وأصل الخير، وأَوْجَبُه على العباد؛ فإنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة، خاصة أو عامة إلا من الله. وهو الذي يأتي بالخير والحسنات، ويدفع السوء والسيئات. فيستحق أن يبذل له العباد من الشكر ما تصل إليه قواهم، وعلى العبد أن يسعى بكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر.

وقد أرشد ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوي لشكر نعم الله. وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم. فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه، فإِنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أُوتيه من عافية ومال ورزق، وخَلْق وخُلُق، فيحمد الله على

ذلك حمداً كثيراً، ويقول: الحمد لله الذي أنعم عليَّ وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، موسع عليه رزقه.

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتُلُوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام وهو مُعافى من ذلك، مُسَرْبل بالعافية. ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتُلوا ببلاء أفظع من ذلك، بانحراف الدين، والوقوع في قاذورات المعاصي، والله قد حفظه منها أو من كثير منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومنة الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة ـ نعمة القناعة وراحة القلب ـ كثيراً من الأغنياء.

ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالماً كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة، فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء، فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدى الذي أرشد إليه النبي ﷺ لم يزل شكره في قوة ونمو، ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى. ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك، فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله، ويفقد شكره. ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله رباً ومدبراً. وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين.

واعلم أن من تفكر في كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء الله[1] الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه، وأن جنساً من نعم الله لا يقدر العبد على إحصائه وتعداده، فضلاً عن جميع الأجناس، فضلاً عن شكرها، فإنه يضطر إلى الاعتراف التام بالنعم، وكثرة الثناء على الله، واستحيا من ربه أَن يستعين بشيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضاه، وأوجب له الحياء من ربه الذي هو من أفضل شعب الإيمان، فاستحيا من ربه أَن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

ولما كان على الشكر مدار الخير وعنوانه قال ﷺ لمعاذ بن جبل: (إني أحبك، فلا تدعن أَن تقول دبر كل صلاة مكتوبة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) وكان يقول: (اللهم اجعلني لك شَكَّاراً، لك ذَكَّاراً. اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصحك، وأَحفظ وصيتك).

وقد اعترف أعظم الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله، فقال ﷺ: (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك) والله أعلم.

## الحديث العشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يقبل الله صلاة أحدكم ـ إذا أحدث ـ حتى يتوضأ) متفق عليه.

يدل الحديث بمنطوقه: أن من لم يتوضأ إذا أحدث فصلاته غير مقبولة: أي غير صحيحة، ولا مجزئة، وبمفهومه: أن من توضأ قبلت صلاته: أي مع بقية ما يجب ويشترط للصلاة؛ لأن الشارع يعلق كثيراً من الأحكام على أمور معينة لا تكفي وحدها لترتب الحكم، حتى ينضم إليها بقية الشروط، وحتى تنتفي الموانع. وهذا الأصل الشرعي متفق عليه بين أهل العلم؛ لأن العبادة

---

(١) نِعَمه.

التي تحتوي على أمور كثيرة ـ كالصلاة مثلاً ـ لا يشترط أن تجمع أحكامها في كلام الشارع في موضع واحد، بل يجمع جميع ما ورد فيها من الأحكام، فيؤخذ مجموع أحكامها من نصوص متعددة. وهذا من أكبر الأسباب لوضع الفقهاء علوم الفقه والأحكام، وترتيبها وتبويبها، وضم الأجناس والأنواع بعضها لبعض للتقريب على غيرهم. فلهم في ذلك اليد البيضاء فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وهذا الأصل ينبغي أن تعتبره في كل موضع. وهو أن الأحكام لا تتم إلا باجتماع شروطها ولوازمها، وانتفاء موانعها.

والحدث يشمل جميع نواقض الوضوء، فيدخل فيه الخارج من السبيلين، والنوم الناقض للوضوء، والخارج الفاحش من بقية البدن إذا كان نجساً، وأكل لحم الإبل، ولمس المرأة لشهوة، ولمس الفرج باليد، وفي بعضها خلاف.

فكل من وجد منه شيء من هذه النواقض لم تصح صلاته، حتى يتوضأ الوضوء الشرعي، فيغسل الأعضاء التي نص الله عليها في سورة المائدة، مع الترتيب والموالاة، أو يتطهر بالتراب بدل الماء عند تعذر استعمال الماء: إما لعدمه، وإما لخوفه باستعماله الضرر.

وفي هذا دليل على أنه لو صلى ناسياً أو جاهلاً حدثه فعليه الإعادة لعموم الحديث، وهو متفق عليه. فهو وإن كان مثاباً على فعله صورة الصلاة وما فيها من العبادات، لكن عليه الإعادة لإبراء ذمته. وهذا بخلاف من تطهر ونسي ما على بدنه أو ثوبه من النجاسة، فإنه لا إعادة عليه على الصحيح؛ لأن الطهارة من باب فعل الأمور التي لا تبرأ الذمة إلا بفعلها. وأما اجتناب النجاسة فإنه من باب اجتناب المحظور الذي إذا فعل والإنسان معذور، فلا إعادة عليه.

# الحديث الحادي والعشرون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البَرَاجِمِ، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، يعني الاستنجاء) قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم.

«الفطرة» هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين، لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه، وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين.

أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه: من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى:

**﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾** [سورة الروم: الآيتان ٣٠، ٣١]

فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

والنوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها.

فأما المضمضة والاستنشاق: فإنهما مشروعان في طهارة الحدث الأصغر والأكبر بالاتفاق، وهما فرضان فيهما من تطهير الفم والأنف وتنظيفهما، لأن الفم والأنف يتوارد عليهما كثير من الأوساخ والأبخرة ونحوها، وهو مضطر إلى ذلك وإزالته، وكذلك السواك يطهر الفم. فهو (مطهرة للفم مرضاة للرب) ولهذا يشرع كل وقت ويتأكد عند الوضوء والصلاة والانتباه من النوم، وتغير الفم، وصفرة الأسنان، ونحوها.

وأما قص الشارب أو حَفُّه حتى تبدو الشَّفَة، فلما في ذلك من النظافة، والتحرز مما يخرج من الأنف، فإن شعر الشارب إذا تدلى على الشفة باشر به ما يتناوله من مأكول ومشروب، مع تشويه الخلقة بوفرته، وإن استحسنه من لا يعبأ به. وهذا بخلاف اللحية، فإن الله جعلها وقاراً للرجل وجمالاً له. ولهذا يبقى جماله في حال كبره بوجود شعر اللحية. واعتبر ذلك بمن يعصي الرسول ﷺ فيحلقها، كيف يبقى وجهه مشوهاً قد ذهبت محاسنه وخصوصاً وقت الكبر، فيكون كالمرأة العجوز إذا وصلت إلى هذه السن ذهبت محاسنها، ولو كانت في صباها من أجمل النساء وهذا محسوس، ولكن العوائد والتقليد الأعمى يوجب استحسان القبيح واستقباح الحسن.

وأما قص الأظفار ونتف الإبط، وغسل البراجم، وهي مطاوي البدن التي تجتمع فيها الأوساخ ـ فلها من التنظيف وإزالة المؤذيات ما لا يمكن جحده، وكذلك حلق العانة.

وأما الاستنجاء ـ وهو إزالة الخارج من السبيلين بماء أو حجر ـ فهو لازم وشرط من شروط الطهارة.

فعلمت أن هذه الأشياء كلها تكمل ظاهر الإنسان وتطهره وتنظفه، وتدفع عنه الأشياء الضارة والمستقبحة والنظافة من الإيمان.

والمقصود: أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحلّيه بالأخلاق الجميلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها، وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية، ولهذا قال ﷺ: (الطُّهور شَطْر الإيمان) وقال تعالى:

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

فالشريعة كلها طهارة وزكاء وتنمية وتكميل، وحث على معالي الأمور، ونهى عن سفسافها، والله أعلم.

## الحديث الثاني والعشرون

عن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الماء طَهُور لا ينجسه شيء). رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

هذا الحديث الصحيـح يدل على أصل جامـع، وهو أن الماء ــ أي جميـع المياه النابعة من الأرض، والنازلة من السماء الباقية على خلقتها، أو المتغيرة بمقرها أو ممرها، أو بما يلقى فيها من الطاهرات ولو تغيراً كثيراً ــ طاهرة تستعمل في الطهارة وغيرها. ولا يستثنى من هذا الكلام الجامـع إلا الماء المتغير لونه أو طعمه أو ريحه بالنجاسة، كما في بعض ألفاظ هذا الحديث.

وقد اتفق العلماء على نجاسة الماء المتغير بالنجاسة، واستدل عليه الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره بقوله تعالى:

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنْزِير﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

إلى آخر الآية. يعني: ومتى ظهرت أوصاف هذه الأشياء المحرمة في الماء صار نجساً خبيثاً.

وهذا الحديث وغيره يدل على أن الماء المتغير بالطاهرات طهور، وعلى أن ما خلت به المرأة لا يمنـع منه مطلقاً، وعلى طهورية ما انغمست فيه يد القائم من نوم الليل، وإنما ينهى القائم من النوم عن غمسها حتى يغسلها ثلاثاً. وأما المنـع من الماء، فلا يدل الحديث عليه.

والمقصود: أن هذا الحديث يدل على أن الماء قسمان: نجس، وهو ما تغير أحد أوصافه بالنجاسة، قليلاً كان أو كثيراً. وطهور، وهو ما ليس كذلك، وأن إثبات نوع ثالث ــ لا طهور ولا نجس، بل طاهر غير مطهر، ليس عليه دليل شرعي، فيبقى على أصل الطهورية.

ويؤيد هذا العموم قوله تعالى:

﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وهذا عام في كل ماء، لأنه نكرة في سياق النفي، فيشمل كل ماء خرج منه الماء النجس للإجماع عليه.

ودل هذا الحديث أيضاً: أن الأصل في المياه الطهارة. وكذلك في غيرها، فمتى حصل الشك في شيء منها: هل وجد فيه سبب التنجيس أم لا؟ فالأصل الطهارة.

## الحديث الثالث والعشرون

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في الهرة: (إنها ليست بنجس، إنها من الطوّافين عليكم والطوّافات) رواه مالك وأحمد وأهل السنن الأربع.

هذا الحديث محتوٍ على أصلين:

أحدهما: أن المشقة تجلبُ التيسير، وذلك أصل كبير من أصول الشريعة، من جملته: أن هذه الأشياء التي يشق التحرز منها طاهرة، لا يجب غسل ما باشرت بفيها أو يدها أو رجلها، لأنه علل ذلك بقوله: (إنها من الطوافين عليكم والطوافات) كما أباح الاستجمار في محل الخارج من السبيلين، ومسح ما أصابته النجاسة من النعلين والخفين، وأسفل الثوب، وعفا عن يسير طين الشوارع النجس، وأبيح الدم الباقي في اللحم والعروق بعد الدم المسفوح، وأبيح ما أصابه فم الكلب من الصيد، وما أشبه ذلك مما يجمعه علة واحدة، وهي المشقة.

الثاني: أن الهرة وما دونها في الخلقة كالفأرة ونحوها طاهرة في الحياة لا ينجس ما باشرته من طعام وشراب وثياب وغيرها، ولذلك قال أصحابنا: الحيوانات أقسام خمسة:

أولها: نجس حياً وميتاً في ذاته وأجزائه وفضلاته، وذلك كالكلاب والسباع كلها، والخنزير ونحوها.

الثاني: ما كان طاهراً في الحياة نجساً بعد الممات، وذلك كالهرة وما دونها في الخلقة، ولا تحله الذكاة ولا غيرها.

الثالث: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الممات، ولكنه لا يحل أكله، وذلك كالحشرات التي لا دم لها سائل.

الرابع: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الذكاة، وذلك كالحيوانات المباح أكلها، كبهيمة الأنعام ونحوها.

الخامس: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الممات، ذُكِّي أو لم يُذَك وهو حلال، وذلك كحيوانات البحر كلها والجراد.

واستدل كثير من أهل العلم بقوله ﷺ: (إنها من الطوافين عليكم والطوافات) بطهارة الصبيان، وطهارة أفواههم، ولو بعد ما أصابتها النجاسة، وكذلك طهارة ريق الحمار والبغل وعرقه وشعره. وأين مشقة الهر من مشقة الحمار والبغل؟

ويدل عليه: أنه ﷺ كان يركبها هو وأصحابه، ولم يكونوا يتوقَّون منها ما ذكرنا، وهذا هو الصواب.

وأما قوله ﷺ في لحوم الحمر يوم خيبر: (إنها رجس) أي: لحمها رجس نجس حرام أكله، وأما ريقها وعرقها وشعرها: فلم ينه عنه، ولم يتوقَّه ﷺ.

وأما الكلاب: فإنه ﷺ أمر بغسل ما وَلَغَتْ فيه سبع مرات إحداهن بالتراب.

## الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) رواه مسلم.

هذا الحديث يدل على عظيم فضل الله وكرمه بتفضيله هذه العبادات الثلاث العظيمة، وأن لها عند الله المنزلة العالية، وثمراتها لا تعد ولا تحصى.

فمن ثمراتها: أن الله جعلها مكملة لدين العبد وإسلامه، وأنها منمية للإيمان، مسقية لشجرته. فإن الله غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين بحسب إيمانهم، وقدَّر من ألطافه وفضله من الواجبات والسنن ما يسقي هذه الشجرة وينميها، ويدفع عنها الآفات حتى تكمل وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وجعلها تنفي عنها الآفات.

فالذنوب ضررها عظيم، وتنقيصها للإيمان معلوم.

فهذه الفرائض الثلاث إذا تجنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بها الصغائر والخطيئات، وهي من أعظم ما يدخل في قوله تعالى:

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]

كما أن الله جعل من لطفه تجنب الكبائر سبباً لتكفير الصغائر، قال تعالى:

**﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدْخلاً كريماً﴾** [سورة النساء: الآية ٣١]

أما الكبائر، فلا بد لها من توبة.

وعلم من هذا الحديث: أن كل نص جاء فيه تكفير بعض الأعمال الصالحة للسيئات، فإنما المراد به الصغائر؛ لأن هذه العبادات الكبار إذا كانت لا تكفر بها الكبائر فكيف بما دونها؟

والحديث صريح في أن الذنوب قسمان: كبائر، وصغائر.

وقد كثر كلام الناس في الفرق بين الصغائر والكبائر، وأحسن ما قيل: إن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا، أو توعد عليه بالآخرة أو لعن صاحبه، أو رتب عليه غضب ونحوه، والصغائر ما عدا ذلك.

أو يقال: الكبائر: ما كان تحريمه تحريم المقاصد، والصغائر: ما حرم

تحريم الوسائل، فالوسائل: كالنظرة المحرمة مع الخلوة بالأجنبية، والكبيرة: نفس الزنا، وكربا الفضل مع ربا النسيئة، ونحو ذلك، والله أعلم.

## الحديث الخامس والعشرون

عن مالك بن الحُوَيْرِث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (صلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم) متفق عليه.

هذا الحديث احتوى على ثلاث جمل، أولها أعظمها:

الجملة الأولى: قوله: (إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم) فيه مشروعية الأذان ووجوبه للأمر به، وكونه بعد دخول الوقت. ويستثنى من ذلك صلاة الفجر فإنه ﷺ قال: (إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن مكتوم فإنه لا ينادي حتى يقال له: أصبحت، أصبحت) وإن الأذان فرض كفاية، لا فرض عين؛ لأن الأمر من الشارع إن خوطب به كل شخص مكلف وطلب حصوله منه، فهو فرض عين. وإن طلب حصوله فقط، بقطع النظر عن الأعيان، فهو فرض كفاية. وهنا قال: (فليؤذن لكم أحدكم) وألفاظ الأذان معروفة.

وينبغي أن يكون المؤذن: صَيِّتاً أميناً، عالماً بالوقت، متحرياً له، لأنه أعظم لحصول المقصود، ويكفي من يحصل به الإعلام غالباً.

والحديث يدل على وجوب الأذان في الحضر والسفر، والإقامة من تمام الأذان، لأن الأذان: الإعلام بدخول الوقت للصلاة، والإقامة: الإعلام بالقيام إليها.

وقد وردت النصوص الكثيرة بفضله، وكثرة ثوابه، واستحباب إجابة المؤذن، وأن يقول المجيب مثل ما يقول المؤذن إلا إذا قال: «حَيَّ على الصلاة،

حي على الفلاح» فيقول كلمة الاستعانة بالله على ما دعا إليه من الصلاة والفلاح الذي هو الخير كله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم يصلي على النبي ﷺ ويقول: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته» ثم يدعو لنفسه؛ لأنه من مواطن الإجابة التي ينبغي للداعي قصدها.

الجملة الثانية: (ولْيَؤُمَّكم أكبرُكم) فيه: وجوب صلاة الجماعة وأن أقلها إمام ومأموم، وأن الأولى بالإمامة أقومهم بمقصود الإمامة، كما ثبت في الصحيح: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسُّنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة أو إسلاماً) فإذا كانوا متقاربين ـ كما في هذا الحديث ـ كان الأولى منهما أكبرهما؛ فإن تقديم الأكبر مشروع في كل أمر طلب فيه الترتيب، إذا لم يكن للصغير مزيد فضل؛ لقوله ﷺ (كَبِّرْ كبِّرْ).

وإذا ترتبت الصلاة بإمام ومأموم، فإنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر: كَبَّر من وراءه، وإذا ركع، وسجد، ورفع: تبعه من بعده وينهى عن موافقته في أفعال الصلاة. وأما مسابقته الإمام، والتقدم عليه في ركوع أو سجود، أو خفض أو رفع، فإن ذلك حرام، مبطل للصلاة، فيؤمر المأمومون بالاقتداء بإمامهم، وينهون عن الموافقة والمسابقة والتخلف الكثير، فإن كانوا اثنين فأكثر فالأفضل: أن يصفوا خلفه، ويجوز عن يمينه، أو عن جانبيه، والرجل الواحد يصف عن يمين الإمام، والمرأة خلف الرجل، أو الرجال، وتقف وحدها، إلا إذا كان معها نساء فيكنَّ كالرجال في وجوب المصافَّة، وإن وقف الرجل الواحد خلف الإمام أو خلف الصف لغير عذر بطلت صلاته.

وعلى الإمام تحصيل مقصود الإمامة من الجهر بالتكبير في الانتقالات والتسميع، ومن الجهر في القراءة الجهرية، وعليه مراعاة المأمومين في التقدم والتأخر، والتخفيف مع الإتمام.

الجملة الثالثة: ـ وهي الأولى في هذا الحديث ـ قوله: (صلوا كما رأيتموني أصلي) وهذا تعليم منه ﷺ بالقول والفعل، كما فعل ذلك في الحج، حيث كان يقوم بأداء المناسك ويقول للناس: (خذوا عني مَنَاسِكَكُمْ) وهذه الجملة تأتي على جميع ما كان يفعله ويقوله ويأمر به في الصلاة، وذلك بأن يستكمل العبد جميع شروط الصلاة، ثم يقوم إلى صلاته ويستقبل القبلة، ناوياً الصلاة المعينة بقلبه، ويقول «الله أكبر» ثم يستفتح، ويتعوذ بما ثبت عن النبي ﷺ من أنواع الاستفتاحات والتعوذات، ويقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يقرأ الفاتحة، وسورة طويلة في صلاة الفجر، وقصيرة في صلاة المغرب، وبين ذلك في بقية الصلوات، ثم يركع مكبراً رافعاً يديه حذو منكبيه في ركوعه وفي رفعه منه في كل ركعة، وعند تكبيرة الإحرام، وإذا قام من التشهد الأول على الصحيح في الصلاة الرباعية والثلاثية، ويقول «سبحان ربي العظيم» مرة واجبة، وأقل الكمال: ثلاث مرات، فأكثر، وكذلك تسبيح السجود قول: «سبحان ربي الأعلى» ثم يرفع رأسه قائلاً ـ إماماً ومنفرداً ـ : «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» وكذلك المأموم، إلا أنه لا يقول: «سمع الله لمن حمده» ثم يكبر ويسجد على سبعة أعضاء: القدمين، والركبتين، والكفين، والجبهة، مع الأنف، ويمكنها من الأرض، ويجافيها، ولا يبسط ذراعيه انبساط الكلب، ثم يرفع مكبراً، ويجلس مفترشاً جالساً على رجله اليسرى، ناصباً رجله اليمنى، موجهاً أصابعها إلى القبلة، والصلاة جلوسها كله افتراش، إلا في التشهد الأخير، فإنه ينبغي له أن يتورّك فيقعد على الأرض، ويخرج رجله اليسرى عن يمينه، ويقول بين السجدتين: «رب اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني» ثم يسجد الثانية كالأولى، وهكذا يفعل في كل ركعة، وعليه أن يطمئن في كل رفع وخفض، وركوع وسجود وقيام وقعود، ثم يتشهد فيقول: «التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» هذا التشهد الأول، ثم يقوم،

إن كانت رباعية أو ثلاثية، ويصلي بقيتها بالفاتحة وحدها، وإن كان في التشهد الذي يليه السلام قال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» ويدعو بما أحب، ثم يسلم، ويذكر الله بما ورد، فجميع الوارد عن النبي ﷺ في الصلاة من فعله وقوله وتعليمه وإرشاده داخل في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وهو مأمور به، أمر إيجاب أو استحباب بحسب الدلالة.

فما كان من أجزائها لا يسقط سهواً ولا جهلاً، ولا عمداً قيل له: ركن، كتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والتشهد الأخير، والسلام، وكالقيام، والركوع، والسجود، والاعتدال عنها.

وما كان يسقط سهواً ويجبره سجود السهو قيل له: واجب، كالتشهد الأول، والجلوس له، والتكبيرات غير تكبيرة الإحرام، وقول «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد، وقول: «ربنا ولك الحمد» لكل مصل، وقول: «سبحان ربي العظيم» مرة في الركوع، و«سبحان ربي الأعلى» مرة في السجود، وقول: «رب اغفر لي» بين السجدتين.

وما سوى ذلك، فإنه من مكملاتها ومستحباتها، وخصوصاً روح الصلاة ولُبها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله من قراءة، وذكر ودعاء، وما يفعله من قيام وقعود، وركوع وسجود، والخضوع لله، والخشوع فيها لله.

ومما يدخل في ذلك: تجنب ما نهى عنه الرسول ﷺ في الصلاة، كالضحك، والكلام، وكثرة الحركة المتتابعة لغير ضرورة، فإن الصلاة لا تتم إلا بوجود شروطها وأركانها وواجباتها، وانتفاء مبطلاتها التي ترجع إلى أمرين: إما إخلال بلازم، أو فعل ممنوع فيها، كالكلام ونحوه.

## الحديث السادس والعشرون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة) متفق عليه.

فُضِّل نبينا محمد ﷺ بفضائل كثيرة فاق بها جميع الأنبياء، فكل خصلة حميدة ترجع إلى العلوم النافعة، والمعارف الصحيحة، والعمل الصالح، فلنبينا منها أعلاها وأفضلها وأكملها، ولهذا لما ذكر الله أعيان الأنبياء الكرام قال لنبيه:

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقْتَدِه﴾. [سورة الأنعام: الآية ٩٠]

وهداهم: هو ما كانوا عليه من الفضائل الظاهرة والباطنة.

وقد تم ﷺ ما أمر به، وفاق جميع الخلق، ولذلك خص الله نبينا بخصائص لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء، منها: هذه الخمس التي عادت على أمته بكل خير وبركة ونفع.

إحداها أنه نصر بالرعب مسيرة شهر، وهذا نصر رباني وجند من السماء يعين الله به رسوله وأمته المتبعين لهديه، فمتى كان عدوه عنه مسافة شهر فأقل، فإنه مرعوب منه، وإذا أراد الله نصر أحد ألقى في قلوب أعدائه الرعب، قال تعالى:

﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٥١]

وألقى في قلوب المؤمنين من القوة والثبات والسكينة والطمأنينة ما هو أعظم أسباب النصر، فالله تعالى وعد نبينا وأمته بالنصر؛ وأن يعينهم بأسباب أرشدهم إليها، كالاجتماع والائتلاف، والصبر والاستعداد للأعداء بكل مستطاع من

القوة إلى غير ذلك من الإرشادات الحكيمة، وساعدهم بهذا النصر، وقد فعل تبارك وتعالى، كما هو معروف من حال نبينا ﷺ والمتبعين له من خلفائه الراشدين والملوك الصالحين، تم لهم من النصر والعز العظيم في أسرع وقت ما لم يتم لغيرهم.

الثانية: قوله: (وجعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً) وحقق ذلك بقوله: (فأينما أدركَتْ أحداً من أمتي الصلاةُ فعنده مسجده وطهوره) فجميع بِقاع الأرض مسجد يصلي فيها من غير استثناء إلا ما نص الشارع على المنع منه، وقد ثبت النهي عن الصلاة في المقبرة والحمام، وأعطان الإبل، وكذلك الموضع المغصوب والنجس لاشتراط الطهارة لبدن المصلي وثوبه وبقعته.

وكذلك من عدم الماء أو ضره استعماله فله العدول إلى التيمم بجميع ما تصاعد على وجه الأرض، سواء التراب الذي له غبار أو غيره، كما هو صريح هذا الحديث مع قوله تعالى:

**﴿فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾.**
[سورة المائدة: الآية ٦]

فإن الصَّعِيد: كلُّ ما تَصَاعَدَ على وجه الأرض من جميع أجزائها.

ويدل على أن التيمم على الوجه واليدين ينوب مناب طهارة الماء، ويفعل به من الصلاة والطواف ومس المصحف وغير ذلك ما يفعل بطهارة الماء. والشارع أناب التراب مناب الماء عند تعذر استعماله، فيدل ذلك على أنه إذا تطهر بالتراب ولم ينتقض وضوؤه لم يبطل تيممه بخروج الوقت ولا بدخوله، وأنه إذا نوى التيمم للنفل استباح الفرض كطهارة الماء، وأن حكمه حكم الماء في كل الأحكام في حالة التعذر.

الثالثة: قوله: «وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي) وذلك لكرامته على ربه، وكرامة أمته وفضلهم، وكمال إخلاصهم، فأحلها لهم، ولم ينقص من أجر جهادهم شيئاً، وحصل بها لهذه الأمة من سعة الأرزاق، وكثرة الخيرات،

والاستعانة على أمور الدين والدنيا شيء لا يمكن عده، ولهذا قال ﷺ: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) أما من قبلنا من الأمم، فإن جهادهم قليل بالنسبة لهذه الأمة، وهم دون هذه الأمة بقوة الإيمان والإخلاص، فمن رحمته بهم أنه منعهم من الغنائم؛ لئلا يخل بإخلاصهم، والله أعلم.

الرابعة: قوله: (وأعطيت الشفاعة) وهي الشفاعة العظمى التي يعتذر عنها كبار الرسل، وينتدب لها خاتمهم محمد ﷺ، فيشفّعه الله في الخلق، ويحصل له المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وأهل السموات والأرض، وتنال أمته من هذه الشفاعة الحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، ويشفع لهم شفاعة خاصة، فيشفعه الله تعالى، وقد قال ﷺ: (لكل نبي دعوة قد تعجَّلَها، وقد خَبَأْتُ دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة ــ إن شاء الله ــ من مات لا يشرك بالله شيئاً)، وقال: (أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه).

الخامسة: قوله: (وكان النبي) أي: جنس الأنبياء (يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة) وذلك لكمال شريعته وعمومها وسعتها، واشتمالها على الصلاح المطلق، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، ولا يتم الصلاح إلا بها، وقد أسّست للبشر أصولاً عظيمة، متى اعتبروها صلحت لهم دنياهم كما صلح لهم دينهم.

## الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام) متفق عليه.

وصيته ﷺ وخطابه لواحد من أمته خطاب للأمة كلها، ما لم يدل دليل على الخصوصية.

فهذه الوصايا الثلاث، من آكد نوافل الصلاة والصيام.

أما صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه يعدل صيام السنة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وصيام الثلاث من كل شهر يعدل صيام الشهر كله. والشريعة مبناها على اليسر والسهولة، وجانب الفضل فيها غالب، وهذا العمل يسير على من يسره الله عليه، لا يشق على الإنسان ولا يمنعه القيام بشيء من مهماته، ومع ذلك ففيه هذا الفضل العظيم؛ لأن العمل كلما كان أطوع للرب وأنفع للعبد، كان أفضل مما ليس كذلك، وقد ثبت الحث على تخصيص ستة من شوال، وصيام يوم عرفة، والتاسع والعاشر من المحرم، والاثنين والخميس.

وأما صلاة الضحى: فإنه قد تكاثرت الأحاديث الصحيحة في فضلها، واختلف العلماء في استحباب مداومتها، أو أن يغب بها الإنسان، والصحيح: أنه تستحب المداومة عليها لهذا الحديث وغيره إلا لمن له عادة من صلاة الليل، فإذا تركها أحياناً فلا بأس، وقد أخبر رسول الله ﷺ: (أنه يصبح على كل آدمي كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى) قال العلماء: أقل صلاة الضحى ركعتان، وأكثرها ثمان، ووقتها من ارتفاع الشمس قِيْد رمح إلى قبيل الزوال.

وأما الوتر: فإنه سنة مؤكدة، حث عليه رسول الله ﷺ، وداوم عليه حضراً وسفراً.

وأقله ركعة واحدة، وإن شاء بثلاث، أو خمس، أو سبع، أو تسع، أو إحدى عشرة ركعة، وله أن يسردها بسلام واحد، وأن يسلم من كل ركعتين.

ووقت الوتر من صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر والأفضل آخر الليل لمن طمع أن يقوم آخره، وإلا أوتر أوله كما في هذا الحديث.

## الحديث الثامن والعشرون

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الدين يُسر. ولن يَشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فَسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغُدْوة والروحة، وشيء من الدُّلَجة) متفق عليه. وفي لفظ (والقصدَ القصدَ تَبْلُغوا).

ما أعظم هذا الحديث، وأجمعه للخير والوصايا النافعة، والأصول الجامعة، فقد أسس ﷺ في أوله هذا الأصل الكبير، فقال: (إن الدين يسر) أي ميسر مسهل في عقائده وأخلاقه وأعماله، وفي أفعاله وتُروكه، فإن عقائده التي ترجع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره: هي العقائد الصحيحة التي تطمئن لها القلوب، وتوصِّل مقتديها إلى أجل غاية وأفضل مطلوب، وأخلاقه وأعماله أكمل الأخلاق، وأصلح الأعمال، بها صلاح الدين والدنيا والآخرة، وبفواتها يفوت الصلاح كله، وهي كلها ميسرة مسهلة، كل مكلف يرى نفسه قادراً عليها لا تشق عليه، ولا تكلفه، عقائده صحيحة بسيطة، تقبلها العقول السليمة، والفطر المستقيمة، وفرائضه أسهل شيء.

أما الصلوات الخمس: فإنها تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات في أوقات مناسبة لها. وتمم اللطيف الخبير سهولتها بإيجاب الجماعة والاجتماع لها، فإن الاجتماع في العبادات من المنشطات والمسهلات لها ورتب عليها من خير الدين وصلاح الإيمان، وثواب الله العاجل والآجل ما يوجب للمؤمن أن يستحليها، ويحمد الله على فرضه لها على العباد، إذ لا غنى لهم عنها.

وأما الزكاة: فإنها لا تجب على فقير ليس عنده نصاب زكوي. وإنما تجب على الأغنياء تتميماً لدينهم وإسلامهم، وتنمية لأموالهم وأخلاقهم، ودفعاً للآفات عنهم وعن أموالهم، وتطهيراً لهم من السيئات، ومواساة لمحاويجهم، وقياماً

لمصالحهم الكلية. وهي مع ذلك جزء يسير جداً بالنسبة إلى ما أعطاهم الله من المال والرزق.

وأما الصيام: فإن المفروض شهر واحد من كل عام، يجتمع فيه المسلمون كلهم، فيتركون فيه شهواتهم الأصلية ـ من طعام وشراب ونكاح ـ في النهار، ويعوضهم الله عن ذلك من فضله وإحسانه تتميم دينهم وإيمانهم، وزيادة كمالهم، وأجره العظيم، وبره العميم، وغير ذلك مما رتبه على الصيام من الخير الكثير، ويكون سبباً لحصول التقوى التي ترجع إلى فعل الخيرات كلها، وترك المنكرات.

وأما الحج: فإن الله لم يفرضه إلا على المستطيع، وفي العمر مرة واحدة، وفيه من المنافع الكثيرة الدينية والدنيوية ما لا يمكن تعداده وقد فصلنا مصالح الحج ومنافعه في محل آخر. قال تعالى:

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾. [سورة الحج: الآية ٢٨]

أي: دينية ودنيوية.

ثم بعد ذلك بقية شرائع الإسلام التي هي في غاية السهولة الراجعة لأداء حق الله وحق عباده، فهي في نفسها ميسرة. قال تعالى:

﴿يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

ومع ذلك إذا عرض للعبد عارض مرض أو سفر أو غيرهما، رتب على ذلك من التخفيفات، وسقوط بعض الواجبات، أو صفاتها وهيأتها ما هو معروف.

ثم إذا نظر العبد إلى الأعمال الموظفة على العباد في اليوم والليلة المتنوعة من فرض ونفل، وصلاة وصيام وصدقة وغيرها، وأراد أن يقتدي فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد ﷺ رأى ذلك غير شاق عليه، ولا مانع له عن مصالح دنياه، بل يتمكن معه من أداء الحقوق كلها: حق الله وحق النفس، وحق

الأهل والأصحاب، وحق كل من له حق على الإنسان برفق وسهولة، وأما من شدد على نفسه فلم يكتف بما اكتفى به النبي ﷺ، ولا بما علَّمه للأمة وأرشدهم إليه، بل غلا، وأوغل في العبادات: فإن الدين يغلبه، وآخر أمره العجز والانقطاع، ولهذا قال: «ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو، ولم يقتصد: غلبه الدين، واستحسر ورجع القهقري. ولهذا أمر ﷺ بالقصد، وحث عليه. فقال: (والقصد القصد تبلغوا).

ثم وصى ﷺ بالتسديد والمقاربة، وتقوية النفوس بالبشارة بالخير، وعدم اليأس. فالتسديد: أن يقول الإنسان القول السديد، ويعمل العمل السديد، ويسلك الطريق الرشيد، وهو الإصابة في أقواله وأفعاله من كل وجه. فإن لم يدرك السداد من كل وجه فليتق الله ما استطاع، وليقارب الغرض، فمن لم يدرك الصواب كله فليكتف بالمقاربة، ومن عجز عن العمل كله فليعمل منه ما يستطيعه.

ويؤخذ من هذا أصل نافع دل عليه أيضاً قوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقوله ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم) والمسائل المبنية على هذا الأصل لا تنحصر. وفي حديث آخر (يسروا، ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا).

ثم ختم الحديث بوصية خفيفة على النفوس، وهي في غاية النفع. فقال: (واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة) وهذه الأوقات الثلاثة كما أنها السبب الوحيد لقطع المسافات القريبة والبعيدة في الأسفار الحسية، مع راحة المسافر، وراحة راحلته، ووصوله براحة وسهولة، فهي السبب الوحيد لقطع السفر الأخروي، وسلوك الصراط المستقيم، والسير إلى الله سيراً جميلاً. فمتى أخذ العامل نفسه، وشغلها بالخير والأعمال الصالحة المناسبة لوقته ــ أول نهاره وآخر نهاره وشيئاً من ليله، وخصوصاً آخر الليل ــ حصل له من الخير ومن الباقيات الصالحات أكمل حظ، وأوفر نصيب. ونال السعادة والفوز والفلاح،

وتم له النجاح في راحة وطمأنينة، مع حصول مقاصده الدنيوية، وأغراضه النفسية. وهذا من أكبر الأدلة على رحمة الله بعباده بهذا الدين الذي هو مادة السعادة الأبدية، إذْ نصبه لعباده، وأوضحه على ألسنة رسله، وجعله ميسراً سهلاً، وأعان عليه من كل وجه، ولطف بالعاملين، وحفظهم من القواطع والعوائق.

فعلمت بهذا: أنه يؤخذ من هذا الحديث العظيم عدة قواعد.

القاعدة الأولى: التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم.

القاعدة الثانية: المشقة تجلب التيسير وقت حصولها.

القاعدة الثالثة: إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم.

القاعدة الرابعة: تنشيط أهل الأعمال، وتبشيرهم بالخير والثواب المرتب على الأعمال.

القاعدة الخامسة: الوصية الجامعة في كيفية السير والسلوك إلى الله، التي تغني عن كل شيء ولا يغني عنها شيء.

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم ونوافعها.

## الحديث التاسع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حق المسلم على المسلم ست: قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشَمِّته، وإذا مرض فعُدْه، وإذا مات فاتْبَعه) رواه مسلم.

هذه الحقوق الستة من قام بها في حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى، وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التي فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله.

الأولى: «إذا لقيته فسلم عليه» فإن السلام سبب للمحبة التي توجب الإيمان الذي يوجب دخول الجنة، كما قال ﷺ: (والذي نفسى بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) والسلام من محاسن الإسلام؛ فإن كل واحد من المتلاقيين يدعو للآخر بالسلامة من الشرور، وبالرحمة والبركة الجالبة لكل خير، ويتبع ذلك من البشاشة وألفاظ التحية المناسبة ما يوجب التآلف والمحبة، ويزيل الوحشة والتقاطع.

فالسلام حق للمسْلِم، وعلى المسلَّم عليه ردُّ التحية بمثلها أو أحسنَ منها، وخيرُ الناس من بَدَأهم بالسلام.

الثانية: «إذا دعاك فأجبه» أي دعاك لدعوة طعام أو شراب فاجبر خاطر أخيك الذي أدلى إليك وأكرمك بالدعوة، وأجبه لذلك إلا أن يكون لك عذر.

الثالثة قوله: «وإذا استنصحك فانصح له» أي إذا استشارك في عمل من الأعمال: هل يعمله أم لا؟ فانصح له بما تحبه لنفسك، فإن كان العمل نافعاً من كل وجه فحثه على فعله، وإن كان مضراً فحذره منه، وإن احتوى على نفع وضرر فاشرح له ذلك ووازن بين المصالح والمفاسد، وكذلك إذا شاورك على معاملة أحد من الناس أو تزويجه أو التزوج منه فابذل له محض نصيحتك، واعمل له من الرأي ما تعمله لنفسك، وإياك أن تغشه في شيء من ذلك، فمن غش المسلمين فليس منهم، وقد ترك واجب النصيحة.

وهذه النصيحة واجبة مطلقاً، ولكنها تتأكد إذا استنصحك وطلب منك الرأي النافع، ولهذا قيده في هذه الحالة التي تتأكد، وقد تقدم شرح الحديث «الدين النصحية» بما يغني عن إعادة الكلام.

الرابعة قوله: «وإذا عطس فحمد الله فشمته» وذلك أن العطاس نعمة من الله؛ لخروج هذه الريح المحتقنة في أجزاء بدن الإنسان، يسر الله لها منفذاً

تخرج منه فيستريح العاطس، فشرع له أن يحمد الله على هذه النعمة، وشرع لأخيه أن يقول له: «يرحمك الله» وأمره أن يجيبه بقوله: «يهديكم الله ويصلح بالكم» فمن لم يحمد الله لم يستحق التشميت، ولا يلومن إلا نفسه، فهو الذي فوت على نفسه النعمتين: نعمة الحمد لله، ونعمة دعاء أخيه له المرتب على الحمد.

الخامسة قوله: «وإذا مرض فعده» عيادة المريض من حقوق المسلم، وخصوصاً من له حق عليك متأكد، كالقريب والصاحب ونحوهما، وهي من أفضل الأعمال الصالحة، ومن عاد أخاه المسلم لم يزل يخوض الرحمة، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة، ومن عاده أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن عاده آخر النهار صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وينبغي للعائد أن يدعو له بالشفاء، وينفس له، ويشرح خاطره بالبشارة بالعافية، ويذكره التوبة والإنابة إلى الله والوصية النافعة، ولا يطيل عنده الجلوس، بل بمقدار العيادة، إلا أن يؤثر المريض كثرة تردده وكثرة جلوسه عنده، فلكل مقام مقال.

السادسة قوله: «وإذا مات فاتْبعه» فإن من تبع جنازة حتى يصلى عليها فله قيراط من الأجر[1]، فإن تبعها حتى تُدْفَنَ فله قيراطان، واتباع الجنازة فيه حق لله، وحق للميت، وحق لأقاربه الأحياء.

## الحديث الثلاثون

عن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً) رواه البخاري.

هذا من أكبر مِنن الله على عباده المؤمنين: أن أعمالهم المستمرة المعتادة إذا

(١) أي نصيب من الثواب.

قطعهم عنها مرض أو سفر كتبت لهم كلها كاملة؛ لأن الله يعلم منهم أنه لـولا ذلك المانـع لفعلوها، فيعطيهم تعالى بنياتهم مثل أجور العاملين مـع أجر المرض الخاص، ومـع ما يحصل به من القيام بوظيفة الصبر، أو ما هو أكمل من ذلك من الرضى والشكر، ومن الخضوع لله والانكسار له، ومـع ما يفعله المسافر من أعمال ربما لا يفعلها في الحضر: من تعليم، أو نصيحة، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية، وخصوصاً في الأسفار الخيرية، كالجهـاد، والحـج والعمرة، ونحوها.

ويدخل في هذا الحديث: أن من فعل العبادة على وجه ناقص وهو يعجز عن فعلها على الوجه الأكمل، فإن الله يكمل له بنيته ما كان يفعله لو قدر عليه؛ فإن العجز عن مُكَمِّلات العبادات نوع مرض، والله أعلم.

ومن كان من نيته عمل خير، ولكنه اشتغل بعمل آخر أفضل منه، ولا يمكنه الجمـع بين الأمرين: فهو أولى أن يكتب له ذلك العمل الذي منعه منه عمل أفضل منه، بل لو اشتغل بنظيره، وفضل الله تعالى عظيم.

## الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أسـرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم) متفق عليه.

هذا الحديث محتو على مسائل أصولية وفروعية.

فقوله ﷺ: (أسرعوا بالجنازة)، يشمل الإسراع بتغسيلها وتكفينها وحملها ودفنها) وجميـع متعلقات التجهيز، ولهذا كانت هذه الأمور من فروض الكفاية، ويستثنى من هذا الإسراع إذا كان التأخير فيه مصلحة راجحة، كأن يموت بغتة، فيتعين تأخيره حتى يتحقق موته؛ لئلا يكون قد أصابته سكتة، وينبغي أيضاً ــ تأخيره لكثرة الجمـع، أو لحضور من له حق عليه من قريب ونحوه، وقد علل

ذلك بمنفعة الميت لتقديمه لما هو خير له من النعيم، أو لمصلحة الحي بالسرعة في الإبعاد عن الشر.

وإذا كان هذا مأموراً به في أمور تجهيزه، فمن باب أولى الإسراع في إبراء ذمته من ديون وحقوق عليه، فإنه إلى ذلك أحوج.

وفيه: الحث على الاهتمام بشأن أخيك المسلم حياً وميتاً، وبالإسراع إلى ما فيه خير له في دينه ودنياه، كما أن فيه: الحثَّ على البعد عن أسباب الشر، ومباعدة المجرمين، حتى في الحالة التي يبتلى الإنسان فيها بمباشرتهم.

وفي هذا الحديث: إثبات نعيم البرزخ(1) وعذابه، وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وأن مبتدأ ذلك: وضعه في قبره إذا تم دفنه، ولهذا يشرع في هذه الحال الوقوف على قبره والدعاء له، والاستغفار، وسؤال الله له الثبات.

وفي هذا أيضاً: التنبيه على أسباب نعيم البرزخ وعذابه، وأن أسباب النعيم الصلاح؛ لقوله: «فإن كانت صالحة» والصلاح كلمة جامعة تحتوي على تصديق الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، فهو تصديق الخبر، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، وأن العذاب سببه الإخلال بالصلاح: إما لشك في الدين، أو اجتراء على المحارم، أو لترك شيء من الواجبات والفرائض، وجميع الأسباب المفصلة في الأحاديث والآثار ترجع إلى ذلك، ولذلك قال تعالى:

**﴿لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذَّب وتولَّى﴾.**

[سورة الليل: الآيتان ١٥، ١٦]

كذب الخبر، وتولى عن الأمر.

---

(١) هو ما بين موت الإنسان وبعثه للحساب.

## الحديث الثاني والثلاثون

عن أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس فيما دون خمسة أوْسُقٍ مـن التمر صدقة، وليس فيما دون خمس أواقٍ من الوَرِق صدقة، وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ صدقة) متفق عليه.

اشتمل هذا الحديث على تحديد أنصبة الأموال الزكوية الغالبة، والتي تجب فيه الزكاة: الحبوب، والثمار والمواشي من الأنعام الثلاثة والنقود، وما يتفرع عنها من عروض التجارة.

أما زكاة الحبوب والثمار: فإن نص هذا الحديث أن نصابها خمسـة أوسق، فما دون ذلك لا زكاة فيه، والوَسْق: ستون صاعاً بصاع النبـي ﷺ، فتكون الخمسة الأوسق ثلاثمائة صاع، فمن بلغت حبوب زرعه أو مَغَلُّ ثمره هذا المقدار فأكثر: فعليه زكاته فيما سُقي بمؤونة نصف العشر، وفيما سقي بغير مؤونة العشر.

وأما زكاة المواشي، فليس فيما دون خمس من الإبل شيء. فإذا بلغت خمسا: ففيها شاة، ثم في كل خمس شاة، إلى خمس وعشرين: فتجب فيها بنت مَخَاضٍ، وهي التي تم لها سنة، وفي ست وثلاثين: بنت لَبُون، لها سنتان، وفي ست وأربعين: حِقَّةٌ، لها ثلاث سنين، وفي إحدى وستين جَذَعة، لها أربـع سنين، وفي ست وسبعين: بنتا لبون، وفي إحدى وتسعين: حقتان، فإذا زادت على عشرين ومائة: ففي كل أربعين بنتُ لبون، وفي كل خمسين حقةٌ.

وأما نصاب البقر، فالثلاثون فيها تَبيـع أو تبيعة، له سنة، وفي أربعين مُسِنَّة، لها سنتان، ثم في كل ثلاثين تبيـع، وفي كل أربعين مسنة.

وأما نصاب الغنم، فأقله أربعون، وفيها شاة، وفي إحدى وعشرين ومائة: شاتان، وفي مائتين وواحدة: ثلاث شياه، ثم في كل مائة: شاة، وما بين الفرضين يقال له: «وَقْص» في المواشي خاصة، لا شيء فيه، بل هو عفو.

وأما بقية الحيوانات، كالخيل والبغَال والحمير وغيرها، فليس فيه زكاة، إلا إذا أعد للبيـع والشراء.

وأما نصاب النقود من الفضة، فأقله خمس أواق، والأوقية أربعون درهما، فمتى بلغت عنده مائتي درهم، ففيه ربـع العشر وكذلك ما تفرع عن النقدين من عروض التجارة، وهو كل ما أعد للبيـع والشراء لأجل المكسب والربـح فيُقَوَّم إذا حال الحول بقيمة النقود، ويخرج عنه ربـع العشر، ولا بدَّ في جميعها من تمام الحول، إلا الحبوب والثمار، فإنها تخرج زكاتها وقت الحصاد والجذَاذ[1]، قال تعالى:

﴿وآتوا حَقَّه يوم حصاده﴾. [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

فهذه أصناف الأموال التي تجب فيها الزكاة.

وأما مصرفها: فللأصناف الثمانية المذكورين في قوله تعالى:

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم﴾. [سورة التوبة: الآية ٦٠]

## الحديث الثالث والثلاثون

عن أبـي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ومن يستعفف يُعفّه الله، ومن يستغن يُغْنه الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْه الله، وما أُعْطِيَ أحد عطاءً خيراً وأوسـع من الصبر) متفق عليه.

هذا الحديث اشتمل على أربـع جمل جامعة نافعة.

إحداها: قوله: (ومن يستعفف يعفه الله).

(١) الحصاد للزرع والجذاذ للثمر.

والثانية: قوله: (ومن يستغن يغنه الله).

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين. فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقًّا حرًّا من رق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر: (ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تُتْبعه نفسَك) فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن مِنن الخلق، وعن تعلق القلب بهم، سبب قوي لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا، فإن من استعف عما في أيدي الناس عما يناله منهم، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه، ويحسن ظنه وثقته بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به، إن ظن خيراً فله، وإن ظن غيره فله، وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه، فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس.

ومن دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى) فجمع الخير كله في هذا الدعاء، فالهدى: هو العلم النافع، والتقى: هو العمل الصالح، وترك المحرمات كلها، هذا صلاح الدين.

وتمام ذلك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً، وإن قلت حواصله، فليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى القلب، وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتاه الله.

والثالثة قوله: (ومن يتصبَّر يصبره الله).

ثم ذكر في الجملة الرابعة: أن الصبر إذا أعطاه الله العبد فهو أفضل العطاء وأوسعه وأعظمه، إعانة على الأمور، قال تعالى:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي: على أموركم كلها.

والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها، فلهذا قال: (ومن يتصبر) أي: يجاهد نفسه على الصبر (يصبره الله) ويعينه، وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها، وإلى صبر عن معصيه الله حتى يتركها لله، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكرالله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر وبالصبر ينال الفلاح، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال:

﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾. [سورة الرعد: الآيتان ٢٣، ٢٤]

وكذلك قوله:

﴿أولئك يُجزَوْنَ الغرفة بما صبروا﴾. [سورة الفرقان: الآية ٧٥]

فهم نالوا الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته، والله هو المعين.

وقد وعد الله الصابرين في كتابه وعلى لسان رسوله أموراً عالية جليلة، وعدهم بالإعانة في كل أمورهم. وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد، وأنه يحبهم ويثبت قلوبهم وأقدامهم، ويلقي عليهم السكينة والطمأنينة، ويسهل لهم

الطاعات، ويحفظهم من المخالفات، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة والبداية عند المصيبات، والله يرفعهم إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، وعدهم النصر، وأن ييسرهم لليسرى ويجنبهم العُسْرى، ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح، وأن يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأن يخلف عليهم في الدنيا أكثر مما أخذ منهم من محبوباتهم، وأحسن، يعوضهم عن وقوع المكروهات عوضاً عاجلاً يقابل أضعاف أضعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصيبة وهو في ابتدائه صعب شديد وفي انتهائه سهل حميد العواقب، كما قيل:

والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته    لكنْ عواقبُه أحلى من العسل

## الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) رواه مسلم.

هذا الحديث احتوى على فضل الصدقة، والعفو والتواضع، وبيان ثمراتها العاجلة والآجلة، وأن كل ما يتوهمه المتوهم من نقص الصدقة للمال، ومنافاة العفو للعز، والتواضع للرفعة: وهم غالط، وظن كاذب.

فالصدقة لا تنقص المال، لأنه لو فرض أنه نقص من جهة، فقد زاد من جهات أخر، فإن الصدقة تبارك المال، وتدفع عنه الآفات وتنميه، وتفتح للمتصدق من أبواب الرزق وأسباب الزيادة أمورًا ما تفتح على غيره فهل يقابل ذلك النقص بعض هذه الثمرات الجليلة؟

فالصدقة لله التي في محلها لا تنفد المال قطعاً، ولا تنقصه بنص النبي ﷺ، وبالمشاهدات والتجربات المعلومة، هذا كله سوى ما لصاحبها عند الله: من الثواب الجزيل، والخير والرفعة.

وأما العفو عن جنايات المسيئين بأقوالهم وأفعالهم: فلا يتوهم منه الذل، بل هذا عين العز، فإن العزَّ هو الرفعة عند الله وعند خلقه، مع القدرة على قهر الخصوم والأعداء.

ومعلوم ما يحصل للعافي من الخير والثناء عند الخلق، وانقلاب العدو صديقاً، وانقلاب الناس مع العافي، ونصرتهم له بالقول والفعل على خصمه، ومعاملة الله له من جنس عمله، فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه، وكذلك المتواضع لله ولعباده يرفعه الله درجات؛ فإن الله ذكر الرفعة في قوله:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

[سورة المجادلة: الآية ١١]

فمن أَجَلِّ ثمرات العلم والإيمان: التواضع، فإنه الانقياد الكامل للحق، والخضوع لأمر الله ورسوله؛ امتثالاً للأمر، واجتناباً للنهي، مع التواضع لعباد الله، وخفض الجناح لهم، ومراعاة الصغير والكبير، والشريف، والوضيع، وضد ذلك التكبر؛ فهو غمط الحق، واحتقار الناس.

وهذه الثلاث المذكورات في هذا الحديث: مقدمات صفات المحسنين، فهذا محسن في ماله، ودفع حاجة المحتاجين، وهذا محسن بالعفو عن جنايات المسيئين، وهذا محسن إليهم بحلمه وتواضعه، وحسن خلقه مع الناس أجمعين، وهؤلاء قد وسعوا الناس بأخلاقهم وإحسانهم ورفعهم الله فصار لهم المحل الأشرف بين العباد، مع ما يدخر الله لهم من الثواب.

وفي قوله ﷺ: (وما تواضع أحد لله) تنبيه على حسن القصد والإخلاص لله في تواضعه؛ لأن كثيراً من الناس قد يظهر التواضع للأغنياء ليصيب من دنياهم، أو للرؤساء لينال بسببهم مطلوبه، وقد يظهر التواضع رياءً وسمعة، وكل هذه أغراض فاسدة، لا ينفع العبد إلا التواضع لله تقرباً إليه، وطلباً لثوابه، وإحساناً إلى الخلق، فكمال الإحسان وروحه الإخلاص لله.

## الحديث الخامس والثلاثون

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريـح المسك، والصوم جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم) متفق عليه.

ما أعظم هذا الحديث؛ فإنه ذكر الأعمال عموماً، ثم الصيام خصوصاً، وذكر فضله وخواصه، وثوابه العاجل والآجل، وبيان حكمته، والمقصود منه، وما ينبغي فيه من الآداب الفاضلة كلها، احتوى عليها هذا الحديث.

فبين هذا الأصل الجامـع، وأن جميـع الأعمال الصالحة ـ من أقوال وأفعال، ظاهرة أو باطنة، سواء تعلقت بحق الله، أو بحقوق العباد ـ مضاعفة من عشر إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وهذا من أعظم ما يدل على سعة فضل الله، وإحسانه على عباده المؤمنين، إذ جعل جناياتهم ومخالفاتهم الواحدة بجزاءٍ واحد، ومغفرة الله تعالى فوق ذلك.

وأما الحسنة، فأقل التضعيف أن الواحدة بعشر، وقد تزيد على ذلك بأسباب.

منها: قوة إيمان العامل، وكمال إخلاصه، فكلما قوي الإيمان والإخلاص تضاعف ثواب العمل.

ومنهـا: أن يكون للعمـل موقـع كبير، كالنفقـة في الجهاد والعلم، والمشاريـع الدينية العامة، وكالعمل الذي قوي بحسنه وقوته ودفعه المعارضات، كما ذكره ﷺ في قصة أصحاب الغار، وقصة البَغيِّ التي سقت الكلب، فشكر الله لها وغفر لها، ومثل العمل الذي يثمر أعمالاً أخر: ويقتدي به غيره،

أو يشاركه فيه مشارك، وكدفع الضرورات العظيمة، وحصول المبرَّات الكبيرة، وكالمضاعفة لفضل الزمان أو المكان، أو العامل عند الله.

فهذه المضاعفات كلها شاملة لكل عمل.

واستثنى في هذا الحديث الصيام، وأضافه إليه، وأنه الذي يجزي به بمحض فضله وكرمه، من غير مقابلة للعمل بالتضعيف المذكور الذي تشترك فيه الأعمال، وهذا شيء لا يمكن التعبير عنه، بل يجازيهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص، وأن الصائم لما ترك محبوبات النفس التي طبعت على محبتها، وتقديمها على غيرها، وأنها من الأمور الضرورية، فقدم الصائم عليها محبة ربه، فتركها لله في حالة لا يطلع عليها إلا الله، وصارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية، وطلب رضاه وثوابه مقدماً على تحصيل الأغراض النفسية، فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بأجر وجزاءٍ تكفل به الرحمن الرحيم الكريم المنان، الذي عمت مواهبه جميع الموجودات، وخص أولياءه منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، وقدر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر له بالبال، ولا تدور في الخيال؟ فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟

وهنا يقف القلم، ويسيح قلب الصائم فرحاً وطرباً بعمل اختصه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ودل الحديث على أن الصيام الكامل هو الذي يدع العبد فيه شيئين: المفطرات الحسية، من طعام وشراب ونكاح وتوابعها، والمنقصات العملية، فلا يرفُث ولا يَصْخَب، ولا يعمل عملاً محرماً، ولا يتكلم بكلام محرم، بل يجتنب جميع المعاصي، وجميع المخاصمات والمنازعات المحدثة للشحناء، ولهذا قال:

(فلا يرفث) أي: لا يتكلم بكلام قبيح (ولا يصخب) بالكلام المحدث للفتن والمخاصمات، كما قال في الحديث الآخر: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه).

فمن حقق الأمرين: ترك المفطرات، وترك المنهيات، تم له أجر الصائمين، ومن لم يفعل ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ثم أرشد الصائم إذا عرض له أحد يريد مخاصمته ومشاتمته أن يقول له بلسانه: (إني صائم).

وفائدة ذلك: أن يريد كأنه يقول: اعلم أنه ليس بي عجز عن مقابلتك على ما تقول، ولكني صائم، أحترم صيامي وأراعي كماله، وأمر الله ورسوله، واعلم أن الصيام يدعوني إلى ترك المقابلة، ويحثني على الصبر، فما عملته أنا خير وأعلى مما عملته معي أيها المخاصم.

وفيه: العناية بالأعمال كلها من صيام وغيره، ومراعاة تكميلها، والبعد عن جميع المنقصات لها، وتذكر مقتضيات العمل، وما يوجبه على العامل وقت حصول الأسباب الجارحة للعمل.

وقوله: (الصيام جُنَّة) أي: وقاية يتقي بها العبد الذنوب في الدنيا ويتمرن به على الخير، ووقاية من العذاب.

فهذا من أعظم حكم الشارع من فوائد الصيام، وذلك لقوله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم؛ لعلكم تتقون﴾.** [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فكون الصوم جنة، وسببًا لحصول التقوى: هو مجموع الحكم التي فصلت في حكمة الصيام وفوائده، فإنه يمنع من المحرمات أو يخففها، ويحث على كثير من الطاعات.

وقوله ﷺ: (للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه).

هذان ثوابان: عاجل، وآجل.

فالعاجل: مشاهد إذا أفطر الصائم فرح بنعمة الله عليه بتكميل الصيام، وفرح بنيل شهواته التي منع منها في النهار.

والآجل: فرحة عند لقاء ربه برضوانه وكرامته، وهذا الفرح المعجل نموذج ذلك الفرح المؤجل، وأن الله سيجمعهما للصائم.

وفيه: الإشارة إلى أن الصائم إذا قارب فطره، وحصلت له هذه الفرحة، فإنها تقابل ما مر عليها في نهاره من مشقة ترك الشهوات، فهي من باب التنشيط، وإنهاض الهمم على الخير.

وقوله: (ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك).

الخلوف: هو الأثر الذي يكون في الفم من رائحة الجوف عند خلوه من الطعام وتصاعد الأبخرة، فهو وإن كان كريهاً للنفوس، فلا تحزن أيها الصائم؛ فإنه أطيب عند الله من ريح المسك، فإنه متأثر عن عبادته والتقرب إليه، وكل ما تأثر عن العبادات من المشقات والكريهات فهو محبوب لله، ومحبوب الله عند المؤمن مقدم على كل شيء.

## الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرب إليَّ عبد بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء

أنا فاعله ترددت عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بدَّ له منه) رواه البخاري.

هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له. ومن كان متصدياً لعداوة الرب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول، ومن تكفل الله بالذَّبِّ عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه؛ فأحبهم وقام بكفايتهم، وكفاهم ما أهمهم.

ثم ذكر صفة الأولياء الصفة الكاملة، وأن أولياء الله هم الذين تقربوا إلى الله بأداء الفرائض أولاً: من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه وحقوق عباده الواجبة.

ثم انتقلوا من هذه الدرجة إلى التقرب إليه بالنوافل، فإن كل جنس من العبادات الواجبة مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل عظيمة تكمل الفرائض، وتكمل ثوابها.

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنوافل، فتولاهم وأحبهم وسهل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه، ووفقهم وسددهم في جميع حركاتهم، فإن سمعوا سمعوا بالله، وإن أبصروا فلله، وإن بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله.

ومع تسديده لهم في حركاتهم جعلهم مجابي الدعوة: إن سألوه أعطاهم مصالح دينهم ودنياهم، وإن استعاذوه من الشرور أعاذهم.

ومع ذلك لطف بهم في كل أحوالهم، ولولا أنه قضى على عباده بالموت لسلم منه أولياؤه؛ لأنهم يكرهونه لمشقته وعظمته، والله يكره مساءتهم، ولكن لما كان القضاء نافذاً كان لا بدّ لهم منه.

فبين في هذا الحديث صفة الأولياء، وفضائلهم المتنوعة، وحصول محبة الله

لهم التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأنه معهم وناصرهم، ومؤيدهم ومسدِّدهم، ومجيب دعواتهم.

ويدل هذا الحديث على: إثبات محبة الله، وتفاوتها لأوليـائه بحسب مقاماتهم.

ووصف النبـي ﷺ لأولياء الله بأداء الفرائض والإكثار من النـوافل، مطابق لوصف الله لهم بالإيمان والتقوى في قوله:

﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾. [سورة يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣]

فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً؛ لأن الإيمان يشمل العقائد، وأعمال القلوب والجوارح، والتقوى ترك جميـع المحرمات.

ويدل على أصل عظيم: وهو أن الفرائض مقدمة على النوافل. وأحب إلى الله وأكثر أجراً وثـواباً، لقـوله: «ومـا تقرب إليَّ عبـدي بشيء أحب إليَّ افترضت عليه»، وأنه عند التزاحم يتعين تقديم الفروض على النوافل.

## الحديث السابـع والثلاثون

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا: بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقَت بركةُ بيعهما» متفق عليه.

هذا الحديث أصل في بيان المعاملات النافعة، والمعاملات الضارة، وأن الفاصل بين النوعين: الصدق والبيان.

فمن صدق في معاملته، وبين جميـع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصاف المقصودة، ومن العيوب والنقص، فهذه معاملة نافعة في العاجل بامتثال أمر الله

ورسوله، والسلامة من الإثم، وبنزول البركة في معاملته، وفي الآجلة بحصول الثواب، والسلامة من العقاب.

ومن كذب وكتم العيوب، وما في العقود عليه من الصفات فهو مع إثمه، معاملته ممحوقة البركة. ومتى نزعت البركة من المعاملة خسر صاحبها دنياه وأخراه.

ويستدل بهذا الأصل على تحريم التدليس، وإخفاء العيوب، وتحريم الغش، والبخس في الموازين والمكاييل والذرع وغيرها؛ فإنها من الكذب والكتمان. وكذلك تحريم النَّجْش[1]، والخداع في المعاملات وتلقي الجلب ليبيعهم، أو يشتري منهم.

ويدخل فيه: الكذب في مقدار الثمن والمثمن، وفي وصف المعقود عليه، وغير ذلك.

وضابط ذلك: أن كل شيء تكره أن يعاملك فيه أخوك المسلم أو غيره ولا يخبرك به، فإنه من باب الكذب والإخفاء والغش.

ويدخل في هذا: البيع بأنواعه، والإجارات، والمشاركات وجميع المعاوضات، وآجالها ووثائقها. فكلها يتعين على العبد فيها الصدق والبيان، ولا يحل له الكذب والكتمان.

وفي هذا الحديث: إثبات خيار المجلس في البيع، وأن لكل واحد من المتبايعين الخيار بين الإمضاء أو الفسخ، ما داما في محل التبايع، فإذا تفرّقا ثبت البيع ووجب، وليس لواحد منهما بعد ذلك الخيار إلا بسبب يوجب الفسخ، كخيار شرط، أو عيب يجده قد أخفي عليه، أو تدليس أو تعذر معرفة ثمن، أو مثمن.

---

(١) هو نحو زيادة في الثمن على قيمة الحاجة من غير رغبة في الشراء ليخدع المزاودين الآخرين.

والحكم في إثبات خيار المجلس: أن البيع يقع كثيراً جداً، وكثيراً ما يندم الإنسان على بيعه أو شرائه؛ فجعل له الشارع الخيار؛ كي يتروى وينظر حاله: هل يمضي، أو يفسخ؟ والله أعلم.

## الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة، وعن بيع الغَرر) رواه مسلم.

وهذا كلام جامع لكل غرر، والمراد بالغرر: المخاطرة والجهالة. وذلك داخل في الميسر، فإن الميسر كما يدخل في المغالبات والرهان ـ إلا رهان سباق الخيل والإبل والسهام ـ فكذلك يدخل في أمور المعاملات.

فكل بيع فيه خطر: هل يحصل المبيع، أو لا يحصل؟ ـ كبيع الآبق والشارد والمغصوب من غير غاصبه، أو غير القادر على أخذه، وكبيع ما في ذمم الناس ـ وخصوصاً المماطلين والمعسرين ـ فإنه داخل في الغرر.

وكذلك كل بيع فيه جهالة ظاهرة يتفاوت فيها المقصود؛ فإنها داخلة في بيع الغرر، كبيعه ما في بيته من المتاع، أو ما في دكانه، أو ما في هذا الموضع، وهو لا يدري به ولا يعلمه، أو بيع الحصاة التي هي مثال من أمثلة الغرر، كأن يقول: ارم هذه الحصاة، فعلى أيّ متاع وقعت، فهو عليك بكذا، أو ارمها في الأرض فما بلغته من المدى، فهو لك بكذا، أو بيع المنابذة أو الملامسة، أو بيع ما في بطون الأنعام، وما أشبه ذلك: فكل ذلك غرر واضح.

ومن حكمة الشارع: تحريم هذا النوع، لما فيه من المخاطرات، وإحداث العداوات التي قد يغبن فيها أحدهما الآخر غبناً فاحشاً مضراً.

ولهذا اشترط العلماء للبيع: العلم بالمبيع، والعلم بالثمن.

واشترطوا أيضاً: أن يكون العاقد جائز التصرف، بأن يكون بالغاً عاقلاً

رشيداً؛ لأن العقد مع الصغير أو غير الرشيد لا بد أن يحصل به غبن مضر، وذلك من الغرر.

وكذلك اشترطوا: العلم بالأجل، إذا كان الثمن أو بعضه، أو المبيع في السلم مؤجلاً؛ لأن جهالة الأجل تصيِّر العقد غرراً.

وكما يدخل في النهي عن بيع الغرر الغررُ الذي يتفقان عليه، فمن باب أولى أن يدخل فيه التغرير، وتدليس أحدهما على الآخر شيئاً من أمور المعاملة: من معقود به، أو عليه، أو شيء من صفاته.

والغش كله داخل في التغرير. وأفراد الغش وتفاصيله، لا يمكن ضبطها، وهي معروفة بين الناس.

وحاصل بيع الغرر يرجع إلى بيع المعدوم، كحبَل الحبَلة، والسنين، أو بيع المعجوز عنه، كالآبق ونحوه، أو بيع المجهول المطلق في ذاته، أو جنسه، أو صفاته.

## الحديث التاسع والثلاثون

عن عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً. والمسلمون على شروطهم، إلا شرطاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً) رواه أهل السنن إلا النسائي.

جمع في هذا الحديث الشريف بين أنواع الصلح والشروط ـ صحيحها وفاسدها ـ بكلام يشمل من أنواع العلم وأفراده ما لا يحصى بحد واضح بيِّن.

فأخبر أن الأصل في الصلح: أنه جائز لا بأس به، إلا إذا حرم الحلال، أو أحل الحرام. وهذا كلام محيط، يدخل فيه جميع أقسام الصلح. والصلح خير؛ لما فيه من حسم النزاع، وسلامة القلوب، وبراءة الذمم.

فيدخل فيه: الصلـح في الأموال في الإقرار، بأن يقرَّ له بدين، أو عين، أو حق، فيصالحه عنه ببعضه أو بغيره.

وصلـح الإنكار، بأن يدعي عليه حقاً من دين، أو عين، فينكر. ثم يتفقان على المصالحة عن هذا بعين أو دين، أو منفعة أو إبراء، أو غيره: فكل ذلك جائز.

وكذلك الصلـح عن الحقوق المجهولة، كأن يكون بين اثنين معاملة طويلة، اشتبه فيها ثبوت الحق على أحدهمـا أو عليهما، أو اشتبـه مقداره، فيتصالحان على ما يتفقان عليه، ويتحريان العدل.

وتمام ذلك: أن يحلل كل منهما الآخر، أو يكون بين اثنين مشاركة في ميراث أو وقف، أو وصية أو مال آخر: من ديون، أو أعيان، ثم يتصالحان عن ذلك بما يريانه أقرب إلى العدل والصواب.

وكذلك يدخل في ذلك: المصالحة بين الزوجين في حق من حقـوق الزوجية: من نفقة أو كسوة أو مسكن أو غيرها، ماضية أو حاضرة، وإن اقتضت الحال أن يغض أحدهما عن بعض حقه، لاستيفاء بقيته، أو لبقاء الزوجية، أو لزوال الفضل، أو لغير ذلك من المقاصد، فكل ذلك حسن. كما قال تعالى في حقهما:

﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً، والصلـح خير﴾.
[سورة النساء: الآية ١٢٨]

وكذلك الصلـح عن القصاص في النفوس، أو الأطراف بمال يتفقان عليه، أو المعاوضة عن ديات النفوس والأطراف والجروح، أو يصلـح الحاكم بين الخصوم بما تقتضيه الحال، متحرياً في ذلك مصلحتهما جميعاً.

فكل هذا داخل في قوله ﷺ: (الصلـح جائز بين المسلمين).

فإن تضمن الصلـح تحريم الحلال، أو تحليل الحرام، فهو فاسد بنص هذا

الحديث، كالصلح على رق الأحرار، أو إباحة الفروج المحرمة، أو الصلح الذي فيه ظلم. ولهذا قيده الله بقوله تعالى:

**﴿فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.**

[سورة الحجرات: الآية ٩]

أو صلح اضطرار كالمكره، وكالمرأة إذا عضلها زوجها ظلماً لتفتدي منه، وكالصلح على حق الغير بغير إذنه وما أشبه ذلك، فهذا النوع صلح محرم غير صحيح.

وأما الشروط: فأخبر في هذا الحديث أن المسلمين على شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، وهذا أصل كبير، فإن الشروط هي التي يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر مما له فيه حظ ومصلحة، فذلك جائز، وهو لازم إذا وافقه الآخر عليه، واعترف به.

وذلك مثل إذا اشترط المشتري في المبيع وصفاً مقصوداً، كشرط العبد كاتباً، أو يحسن العمل الفلاني، أو الدابة هملاجة أو لبوناً، أو الجارح صيوداً، أو الجارية بكراً أو جميلة أو فيها الوصف الفلاني المقصود.

ومثل أن يشترط المشتري: أن الثمن أو بعضه مؤجل بأجل مسمى، أو يبيع الشيء ويشترط البائع: أن ينتفع به مدة معلومة، كما باع جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما للنبي ﷺ جمله، واشترط ظهره إلى المدينة.

ومثل أن يشترط سكنى البيت، أو الدكان مدة معلومة، أو يستعمل الإناء مدة معلومة، وما أشبه ذلك.

وكذلك شروط الرهن والضمان والكفالة هي من الشروط الصحيحة اللازمة.

ومثل الشروط التي يشترطها المتشاركان في مضاربة، أو شركة عنان،

أو وجوه، أو أبدان، أو مساقاة، أو مزارعة: فكلها صحيحة، إلا شروطاً تحلل الحرام، وعكسه كالتي تعود إلى الجهالة والغرر.

ومثل شروط الواقفين والموصين في أوقافهم ووصاياهم من الشروط المقصودة: فكلها صحيحة، ما لم تدخل في محرم.

وكذلك الشروط بين الزوجين، كأن تشترط دارها أو بلدها، أو نفقة معينة أو نحوها، فإن أحق الشروط أن يوفى به هذا النوع.

## الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَطْل الغنيِّ ظلم. وإذا أُتْبِع أحدكم على مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ). متفق عليه.

تضمن هذا الحديث الأمر بحسن الوفاء، وحسن الاستيفاء، والنهي عما يضاد الأمرين أو أحدهما.

فقوله: (مطل الغني ظلم» أي: المعاسرة في أداء الحق الواجب ظلم؛ لأنه ترك لواجب العدل، إذ على القادر المبادرة إلى أداء ما عليه، من غير أن يحوج صاحب الحق إلى طلب وإلحاح، أو شكاية. فمن فعل ذلك مع قدرته على الوفاء، فهو ظالم.

«والغني» هو الذي عنده موجودات مالية يقدر بها على الوفاء.

ومفهوم الحديث: أن المعسر لا حرج عليه في التأخير. وقد أوجب الله على صاحب الحق إنظاره إلى الميسرة.

ونفهم من هذا الحديث: أن الظلم المالي لا يختص بأخذ مال الغير بغير حق، بل يدخل فيه كل اعتداء على مال الغير، أو على حقه بأي وجه يكون.

فمن غصب مال الغير، أو سرقه، أو جحد حقاً عنده للغير، أو بعضه،

أو ادعى عليه ما ليس له من أصل الحق أو وصفه، أو ماطله بحقه من وقت إلى آخر، أو أدى إليه أقل مما وجب له في ذمته ـ وصفاً أو قدراً ـ فكل هؤلاء ظالمون بحسب أحوالهم. والظلم ظلمات يوم القيامة على أهله.

ثم ذكر في الجملة الأخرى حُسْنَ الاستيفاء، وأن من له الحق عليه أن يَتْبَع صاحبه بمعروف وتيسير، لا بإزعاج ولا تعسير، ولا يرهقه من أمره عسراً، ولا يمتنع عليه إذا وجهه إلى جهة ليس عليه فيها مضرة ولا نقص. فإذا أحاله بحقه على مليء ـ أي: قادر على الوفاء غير مماطل ولا ممانع ـ فليحتل عليه، فإن هذا من حسن الاستيفاء والسماحة.

ولهذا ذكر الله تعالى الأمرين في قوله:

﴿فمن عُفي له من أخيه شيء فاتِّباعٌ بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٧٨]

فأمر صاحب الحق أن يتبع من عليه الحق بالمعروف، والمستحسن عرفاً وعقلاً، وأن يؤدي من عليه الحق بإحسان.

وقد دعا ﷺ لمن اتصف بهذا الوصف الجميل، فقال: (رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذ قضى، سمحاً إذا اقتضى).

فالسماحة في مباشرة المعاملة، وفي القضاء، والاقتضاء، يرجى لصاحبها كل خير: ديني ودنيوي، لدخوله تحت هذه الدعوة المباركة التي لا بد من قبولها.

وقد شوهد ذلك عياناً. فإنك لا تجد تاجراً بهذا الوصف إلا رأيت الله قد صب عليه الرزق صباً، وأنزل عليه البركة. وعكسه صاحب المعاسرة والتعسير، وإرهاق المعاملين، والجزاء من جنس العمل، فجزاء التيسير التيسير.

وإذا كان مطل الغني ظلماً: وجب إلزامه بأداء الحق إذا شكاه غريمه، فإن أدى وإلّا عُزِّر حتى يؤدي، أو يسمح غريمه. ومتى تسبب في تغريم غريمه بسبب

شكايته: فعليه الغرم لما أخذ من ماله، لأنه هو السبب، وذلك بغير حق. وكذلك كل من تسبب لتغريم غيره ظلماً فعليه الضمان.

وهذا الحديث أصل في باب الحوالة، وأن من حُوِّلَ بحقه على مَلِيء، فعليه أن يتحول، وليس له أن يمتنع.

ومفهومه: أنه إذا أحيل على غير مليء فليس عليه التحول، لما فيه من الضرر عليه.

والحق الذي يتحول به: هي الديون الثابتة بالذمم، من قرض أو ثمن مبيع، أو غيرهما.

وإذا حوله على المليء فاتبعه: برئت ذمة المُحيل، وتحوَّل حق الغرم إلى من حوِّلَ عليه. والله أعلم.

## الحديث الحادي والأربعون

عن سمرة بن جُنْدب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (على اليد ما أخذت، حتى تؤدِّيَه).

رواه أهل السنن إلا النسائي.

وهذا شامل لما أخذته من أموال الناس بغير حق، كالغصب ونحوه، وما أخذته بحق، كرهن وإجارة.

أما القسم الأول: فهو الغصب، وهو أخذ مال الغير بغير حق بغير رضاه، وهو من أعظم الظلم والمحرمات؛ فإن رسول الله ﷺ يقول: (من غصب قيد شبر من الأرض طوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين).

وعلى الغاصب أن يرد ما أخذه، ولو غرم على رده أضعاف قيمته ولو صار

عليه ضرر في رده، لأنه هو الذي أدخل الضرر على نفسه. فإن نقص ردَّه مع أرش نقصه. وعليه أجرته مدة بقائه بيده، وإن تلف ضمنه.

وأما إذا كانت اليد أخذت مال الغير برضى صاحبه، بإجارة، أو رهن أو مضاربة، أو مساقاة، أو مزارعة، أو غيرها: فصاحب اليد أمين، لأن صاحب العين قد ائتمنه، فإن تلفت وهي بيده بغير تعدّ ولا تفريط: فلا ضمان عليه، وإن تلفت بتفريط في حفظها أو تعدٍّ عليها: ضمنها ومتى انقضى الغرض منها ردها إلى صاحبها. ودخل في هذا الحديث (على اليد ما أخذت حتى تؤديه).

وكذلك العارية على المستعير أن يردها إلى صاحبها بانقضاء الغرض منها، أو طلب ربها، لأن العارية عقد جائز لا لازم.

فإن تلفت العارية بغير تعد ولا تفريط، فمن العلماء من ضَمَّنه، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد، ومنهم من لم يضمنه كسائر الأمناء.

ومنهم من فصَّل: فإن شرط ضمانها ضمنها، وإلا فلا، وهو أحسن الأقوال الثلاثة.

ولكن لو وجد المال بيد مجنون، أو سفيه، أو صغير، فأخذه ليحفظه، فتلف بيده بغير تعدّ ولا تفريط: فإنه محسن، وما على المحسنين من سبيل.

ولو أخذ اللقطة التي يجوز التقاطها، فعليه تعريفها عاماً كاملاً. فإن لم تعرف: فهي لواجدها، فإن وجد صاحبها بعد ذلك ووصفها: سلمها إليه إن كانت موجودة، وضمنها إن كان قد أتلفها باستعمال أو غيره. وإن تلفت في حول التعريف بغير تفريط ولا تعد: فلا ضمان على الملتقِط، لأنه من جملة الأمناء، وهي حينئذ لم تدخل في ملكه، والله أعلم.

## الحديث الثاني والأربعون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم. فإذا وقعت الحدود، وصُرِفت الطرق، فلا شفعة) رواه البخاري.

يؤخذ من هذا الحديث: أحكام الشفعة كلها، وما فيه شفعة، وما لا شفعة فيه.

والشفعة إنما هي في الأموال المشتركة. وهي قسمان: عقار وغيره.

فأثبت في هذا الحديث الشفعة في العقار، ودل على أن غير العقار لا شفعة فيه، فالشركة في الحيوانات، والأثاثات، والنقود، وجميع المنقولات لا شفعة فيها، إذا باع أحدهما نصيبه منها.

وأما العقارات: فإذا أفرزت وحددت الحدود، وصرفت الطرق واختار كل من الشريكين نصيبه، فلا شفعة فيها، كما هو نص الحديث، لأنه يصير حينئذ جاراً، والجار لا شفعة له على جاره.

وأما إذا لم تحد الحدود ولم تصرف الطرق، ثم باع أحدهم نصيبه: فللشريك أو الشركاء الباقين الشفعة، بأن يأخذوه بالثمن الذي وقع عليه العقد، كُلٌّ على قدر ملكه.

وظاهر الحديث: أنه لا فرق بين العقار الذي تمكن قسمته. وهذا هو الصحيح؛ لأن الحكمة في الشفعة ـ وهي إزالة الضرر عن الشريك ـ موجودة في النوعين. والحديث عام.

وأما ما استدل به على التفريق بين النوعين: فضعيف.

واختلف العلماء في شفعة الجار على جاره، إذا كان بينهما حق من حقوق الملكين، كطريق مشترك، أو بئر أو نحوهما.

فمنهم: من أوجب الشفعة في هذا النوع، وقال: إن هذا الاشتراك في هذا الحق نظير الاشتراك في جميع الملك، والضرر في هذا كالضرر هناك، وهو الذي تدل عليه الأدلة.

ومنهم: من لم يثبت فيه شفعة، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

ومنهم من أثبت الشفعة للجار مطلقاً، وهذه الصورة عنده من باب أولى، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة.

والنبي ﷺ أثبت للشريك الشفعة: إن شاء أخذ، وإن شاء لم يأخذ، وهو من جملة الحقوق، التي لا تسقط إلا بإسقاطها صريحاً، أو بما يدل على الإسقاط.

وأما اشتراط المبادرة جداً إلى الأخذ بها، من غير أن يكون له فرصة في هذا الحق المتفق عليه: فهذا قول لا دليل عليه.

وما استدلوا به من الحديثين اللذين أوردوهما: (الشفعة كحَلِّ العِقَال)، (الشفعة لمن واثَبها[1]) فلم يصح منهما عن النبي ﷺ شيء.

فالصحيح: أن هذا الحق كغيره من الحقوق من خيار الشرط، أو العيب أو نحوها الحق ثابت إلا إن أسقطه صاحبه بقول أو فعل والله أعلم.

## الحديث الثالث والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا ثالث الشريكين، ما لم يَخُن أحدهما صاحبه، فإن خانه خرجت من بينهما). رواه أبو داود.

يدل هذا الحديث بعمومه على جواز أنواع الشركات كلها: شركة العنان،

(١) طلبها حين علم بالبيع ولم يتراخ في طلبها.

والأبدان، والوجوه، والمضاربة، والمفاوضة وغيرها من أنواع الشركات التي يتفق عليها المتشاركان.

ومن منـع شيئاً منها فعليه الدليل الدال على المنـع، وإلا فالأصل الجواز، لهذا الحديث، وشموله. ولأن الأصل الجواز في كل المعاملات.

ويدل الحديث على فضل الشركات وبركتها، إذا بنيت على الصدق والأمانة. فإن من كان الله معه بارك له في رزقه، ويسر له الأسباب التي ينال بها الرزق، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأعانه وسدده.

وذلك: لأن الشركات يحصل فيها التعاون بين الشركاء في رأيهم وفي أعمالهم. وقد تكون أعمالاً لا يقدر عليها كل واحد بمفرده، وباجتماع الأعمال والأموال يمكن إدراكها.

والشركات أيضاً يمكن تفريعها وتوسيعها في المكان والأعمال وغيرها.

وأيضاً، فإن الغالب أنها يحصل بها من الراحة ما لا يحصل بتفرد الإنسان بعلمه. وقد يجري ويدير أحدهما العمل مـع راحة الآخر، أو ذهابه لبعض مهماته، أو وقت مرضه.

وهذا كله مـع الصدق والأمانة، فإذا دخلتها الخيانة، ونوى أحدهما أو كلاهما خيانة الآخر، وإخفاء ما يتمكن منه، خرج الله من بينهما. وذهبت البركة. ولم تتيسر الأسباب. والتجربة والمشاهدة تشهد لهذا الحديث. والله أعلم.

## الحديث الرابـع والأربعون

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مات العبد انقطـع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفـع به، أو ولد صالـح يدعو له).

رواه مسلم.

دار الدنيا جعلها الله دار عمل، يتزود منها العباد من الخير، أو الشر، للدار الأخرى، وهي دار الجزاء. وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار، ولم يتزودوا لآخرتهم ما يسعدهم، وحينئذ لا يمكن الاستدراك. ولا يتمكن العبد أن يزيد حسناته مثقال ذرة، ولا يمحو من سيئاته كذلك. وانقطع عمل العبد عنه إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله.

الأول: الصدقة الجارية، أي: المستمر نفعها. وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بمغلِّها، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها، أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها.

فكلها أجرها جارٍ على العبد ما دام ينتفع بشيء منها. وهذا من أعظم فضائل الوقف. وخصوصاً الأوقاف التي فيها الإعانة على الأمور الدينية، كالعلم والجهاد، والتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.

ولهذا اشترط العلماء في الوقف: أن يكون مصرفه على وجهة بِرٍّ وقربة.

الثاني: العلم الذي ينتفع به من بعده، كالعلم الذي علمه الطلبة المستعدين للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفها في أصناف العلوم النافعة.

وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة، أو كتابة، فإن أجره جارٍ عليه. فكم من علماء هداة ماتوا من مئات من السنين، وكتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم. وذلك فضل الله.

الثالث: الولد الصالح ـ ولد صلب، أو ولد ابن، أو بنت، ذكر

أو أنثى ـ ينتفع والده بصلاحه ودعائه. فهو في كل وقت يدعو لوالديه بالمغفرة والرحمة، ورفع الدرجات، وحصول المثوبات.

وهذه المذكورة في هذا الحديث هي مضمون قوله تعالى:

**﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدَّموا وآثارهم﴾**

[سورة يٰس: الآية ١٢]

فما قدموا: هو ما باشروه من الأعمال الحسنة أو السيئة.

وآثارهم: ما ترتب على أعمالهم، مما عمله غيرهم، أو انتفع به غيرهم.

وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول: أمور عمل بها الغير بسببه وبدعايته وتوجيهه.

الثاني: أمور انتفع بها الغير أيّ نفع كان، على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير.

الثالث: أمور عملها الغير وأهداها إليه، أو صدقة تصدق بها عنه أو دعا له، سواء أكان من أولاده الحسِّيين أو من أولاده الروحيين الذين تخرجوا بتعليمه، وهدايته وإرشاده، أو من أقاربه وأصحابه المحبين، أو من عموم المسلمين، بحسب مقاماته في الدين، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير، أو تسبب به. وبحسب ما جعل الله له في قلوب العباد من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة التي منها: دعاؤهم، واستغفارهم له.

وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف.

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع. كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكتب التي يقفها أو يهبها لمن ينتفع بها.

ويستدل بهذا الحديث على الترغيب في التزوج الذي من ثمراته حصول

الأولاد الصالحين، وغيرها من المصالـح، كصلاح الزوجة وتعليمها ما تنتفـع به، وتنفـع غيرها. والله أعلم.

## الحديث الخامس والأربعون

عن أسمر بن مُضَرِّسٍ: أن رسول الله ﷺ قال: (من سَبَق إلى ما لم يَسْبِق إليه مسلم فهو له).

رواه أبو داود.

يدخل في هذا الحديث: السبق إلى جميـع المباحات التي ليست ملكاً لأحد، ولا باختصاص أحد.

فيدخل فيه: السبق إلى إحياء الأرض الموات. فمن سبق إليها باستخراج ماءٍ، أو إجرائه عليها، أو ببناء، مَلَكها. ولا يملكها بدون الإحياء.

لكن لو أقطعه الإمام أو نائبه، أو تحجر مواتاً من دون إحيائه: فهو أحق به، ولا يملكه. فإن وجد متشوف للإحياء قيل له: إما أن تعمرها، وإما أن ترفـع يدك عنها.

ويدخل في ذلك:

السبق إلى صيد البر، والبحر، وإلى المعادن غير الظاهرة، وغير الجارية.

والسبق إلى أخذ حطب أو حشيش أو منبوذ رغبة عنه.

والسبق إلى الجلوس في المساجد والمدارس والأسواق والرُّبُط إن لم يتوقف ذلك على ناظر جعل له الترتيب والتعيين، فيرجـع فيه إلى نص الواقفين والموصين.

فمن سبق إلى شيء من المباحات التي لا مالك لها، فهو أحق بها. والملك فيها مقصور على القدر المأخوذ.

وكذلك من سبق إلى الأعمال في الجعالات التي يقول فيها صاحبها: من عمل لي هذا العمل فله كذا: فهو المستحق للتقديم والجعل.

وكذلك من سبق إلى التقاط اللقطة واللقيط، وغيرها، فكله داخل في هذا الحديث. والله أعلم.

## الحديث السادس والأربعون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ألحِقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأَوْلى رجلٍ ذكر).

متفق عليه.

## الحديث السابع والأربعون

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه، فلا وصية لوارث).

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

هذان الحديثان اشتملا على جل أحكام المواريث، وأحكام الوصايا. فإن الله تعالى فصَّل أحكام المواريث تفصيلاً تاماً واضحاً، وأعطى كل ذي حقٍّ حقه، وأمر ﷺ أن يلحق الفرائض بأهلها، فيقدمون على العصبات. فما بقي فهو لأَوْلى رجل ذكر. وهم العصبة من الفروع الذكور، والأصول الذكور، وفروع الأصول الذكور، والولاء.

فيقدم من هذه الجهات إذا اجتمع عاصبان فأكثر: الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة، قدم الأقرب منزلة. فيقدم الابن على ابن الابن، والعم مثلاً على ابن العم. فإن كانوا في منزلة واحدة، وتميز أحدهم بقوة القرابة ولا يتصور ذلك إلا في فروع الأصول، كالإخوة والأعمام مطلقاً وبنيهم: قدم الأقوى ـ وهو الشقيق ـ على الذي لأب.

وهذا هو المراد بقوله ﷺ: (فلأولى رجل ذكر) أي: أقربهم جهة، أو منزلة، أو قوة، على حسب هذا الترتيب.

وعلم من هذا: أن صاحب الفرض مقدم على العاصب في البداءة، وأنه إن استغرقت الفروض التركة سقط العاصب في جميع مسائل الفرائض، حتى في الحِمارِيَّة، وهي ما إذا خَلَّفت زوجاً، وأُمًّا، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء: فللزوج النصف، وللأم السدس؛ وللإخوة لأم الثلث.

فهؤلاء أهل فروض ألحقنا بهم فروضهم، وسقط الأشقاء؛ لأنهم عصبات. وهذا هو الصحيح لأدلة كثيرة. هذا أوضحها.

ويستدل بقوله ﷺ: (ألحقوا الفرائض بأهلها) على أن الفروض إذا كثرت وتزاحمت ولم يحجب بعضهم بعضاً، فإنه يعول لهم، وتنقص فروضهم بحسب ما عالت به كالديون إذا أدلت على موجودات الغريم التي لا تكفي لدينهم؛ فإنهم يعطون بقدر ديونهم. وهذا من العدل.

فكل مشتركين في استحقاق شيء لا يمكن أن يكمل لكل واحد منهم، وليس لواحد منهم مزية تقديم: فإنهم ينقصون على قدر استحقاقهم. وذلك في الهبات والوصايا والأوقاف وغيرها، كما أن الزائد لهم بقدر أملاكهم واستحقاقهم.

ويدل الحديث أنه إذا لم يوجد صاحب فرض، فالمال كله للعصبات على حسب الترتيب السابق.

وكذلك يدل على أنه إذا لم يوجد إلا أصحاب الفروض، ولم يوجد عاصب، فإنه يرد عليهم على قدر فروضهم، كما تُعال عليهم؛ لأن من حكمة فرض الفروض وتقديرها: أن تبقى البقية للعاصب. فإذا لم يوجد رُدَّ على المستحقين لعدم المزاحم.

ويدل الحديث على صحة الوصية لغير الوارث. ولكن في ذلك تفصيل: إن كان الموصي غنياً ويدَع ورثته أغنياء، استحبت. وإن كان فقيراً وورثته يحتاجون جميع ميراثه، لفقرهم أو كثرتهم، فالأولى له أن لا يوصي، بل يدع ماله لورثته.

وأما الوصية للوارث، فالحديث دل على منعها. وعلل ذلك بقوله ﷺ: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث).

فمن أوصى لوارث فقد تعدى حدود الله، وفضل بعض الورثة على بعض. وسواء وقع ذلك على وجه الوصية أو الهبة للوارث، كما هو اتفاق العلماء، أو على وجه الوقف لثلثه على بعض ورثته.

وشذ بعضهم في هذه المسألة، فأجازها. وهو منافٍ للفظ الحديث ومعناه.

وأما الوصية للأجنبي، أو للجهات الدينية، فتجوز بالثلث فأقل. وما زاد على الثلث، يتوقف على إجازة الورثة.

## الحديث الثامن والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَوْنُهم: الُمكاتَب يريد الأداء، والمتزوِّج يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله) رواه أهل السُّنَن إلا النسائيّ.

وذلك: أن الله تعالى وعد المنفقين بالخَلَف العاجل، وأطلق النفقة. وهي تنصرف إلى النفقات التي يحبها الله؛ لأن وعده بالخلف من باب الثواب الذي لا يكون إلا على ما يحبه الله.

وأما النفقات في الأمور التي لا يحبها الله: إما في المعاصي، وإما في الإسراف في المباحات، فالله لم يضمن الخلف لأهلها، بل لا تكون إلا مغرماً.

وهذه الثلاثة المذكورة في هذا الحديث من أفضل الأمور التي يحبها الله.

فالجهاد في سبيل الله هو سنام الدين وذروته وأعلاه. وسواء كان جهاداً بالسلاح، أو جهاداً بالعلم والحجة، فالنفقة في هذا السبيل مخلوفة وسالكُ هذا السبيل مُعَانٌ من الله، مُيَسَّرٌ له أمرُه.

وأما المكاتب، فالكتابة قد أمر الله بها في قوله تعالى:

﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ [سورة النور: الآية ٣٣]

أي: صلاحاً في تقويم دينهم ودنياهم. فالسيد مأمور بذلك. والعبد المكاتب الذي يريد الأداء ويتعجل الحرية والتفرغ لدينه ودنياه يعينه الله، وييسر له أموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وعلى السيد: أن يرفق بمكاتبه في تقدير الآجال التي تحل فيها نُجُوم الكتابة، ويعطيه من مال الكتابة إذا أدَّاها ربعها.

وفي قوله تعالى في حق المكاتبين:

﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ [سورة النور: الآية ٣٣]

أمر للسيد ولغيره من المسلمين. ولذلك جعل الله له نصيباً من الزكاة في قوله:

﴿وفي الرقاب﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

وهذا من عونه تعالى.

وقد ثبت عن النبـي ﷺ ما هو أعم من هذا، فقال: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّاها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله). رواه البخاري.

وأما النكاح: فقد أمر الله به ورسوله. ورتب عليه من الفوائد شيئاً كثيراً: عون الله، وامتثال أمر الله ورسوله، وأنه سنن المرسلين.

وفيه: تحصين الفرج. وغض البصر، وتحصيل النسل، والإنفاق على الزوجة والأولاد؛ فإن العبد إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له أجراً، وحسنات عند الله، سواء كانت مأكولاً أو مشروباً أو ملبوساً أو مستعملاً في

الحوائج كلها. كله خير للعبد، وحسنات جارية. وهو أفضل من نوافل العبادات القاصرة.

وفيه: التذكر لنعم الله على العبد، والتفرغ لعبادته، وتعاون الزوجين على مصالح دينهما ودنياهما، وقد قال تعالى:

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [سورة النساء: الآية ٣]

وقال ﷺ: (تُنْكَح المرأةُ لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يمينك) لما فيها من صلاح الأحوال والبيت والأولاد، وسكون قلب الزوج وطمأنينته، فإن حصل مع الدين غيره، فذاك، وإلا فالدين أعظم الصفات المقصودة، قال تعالى:

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾

[سورة النساء: الآية ٣٤]

وعلى الزوجة: القيام بحق الله، وحق بَعْلها، وتقديم حق البعل على حقوق الخلق كلهم.

وعلى الزوج: السعي في إصلاح زوجته، وفعل جميع الأسباب التي تتم بها الملاءمة بينهما، فإن الملاءمة هي المقصود الأعظم. ولهذا ندب النبي ﷺ إلى النظر إلى المرأة التي يريد خطبتها؛ ليكون على بصيرة من أمره، والله أعلم.

## الحديث التاسع والأربعون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (يحرمُ من الرَّضاعة ما يحرم من الولادة) متفق عليه.

وذلك: أن المحرمات من النسب بنص القرآن والإجماع: الأمهات وإن عَلَوْنَ من كل جهة، والبنات وإن نزلن من كل جهة، والأخوات مطلقاً، وبنات الإخوة، وبنات الأخوات، وإن نزلن، والعمات، والخالات.

فجميع القرابات حرام، إلا بنات الأعمام، وبنات العمات، وبنات الأخوال، وبنات الخالات.

وهذه السبع محرمات في الرضاع من جهة المرضعة، وصاحب اللبن، إذا كان الرضاع خمس رضعات فأكثر، في الحولين.

وأما من جهة أقارب الراضع، فإن التحريم يختص بذرية الراضع. وأما أبوه من النسب وأمه وأصولهم وفروعهم، فلا تعلق لهم بالتحريم.

وكذلك يحرم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها؛ أو خالتها في النسب. ومثل ذلك في الرضاع.

وكذلك تحرم أمهات الزوجة وإن علون، وبناتها وإن نزلن، إذا كان قد دخل بزوجته، وزوجات الآباء وإن علوا، وزوجات الأبناء وإن نزلوا من كل جهة، ومثل ذلك في الرضاع.

ومسائل تحريم الجمع والصهر في الرضاع فيه خلاف. ولكن مذهب جمهور العلماء والأئمة الأربعة، تحريم ذلك للعمومات.

## الحديث الخمسون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يَفْرك مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خُلقاً رضي منها آخر).

رواه مسلم.

هذا الإرشاد من النبي ﷺ، للزوج في معاشرة زوجته من أكبر الأسباب والدواعي إلى حسن العشرة بالمعروف، فنهى المؤمن عن سوء عشرته لزوجته. والنهي عن الشيء أمر بضده. وأمره أن يلحظ ما فيها من الأخلاق الجميلة، والأمور التي تناسبه، ون يجعلها في مقابلة ما كره من أخلاقها؛ فإن الزوج إذا تأمل ما في زوجته من الأخلاق الجميلة، والمحاسن التي يحبها، ونظر إلى

السبب الذي دعاه إلى التضجر منها وسوء عشرتها، رآه شيئاً واحداً أو اثنين مثلاً، وما فيها مما يحب أكثر. فإذا كان منصفاً غض عن مساوئها لاضمحلالها في محاسنها.

وبهذا: تدوم الصحبة، وتؤدّى الحقوق الواجبة المستحبة. وربما أن ما كره منها تسعى بتعديله أو تبديله.

وأما من غض عن المحاسن، ولحظ المساوىء ولو كانت قليلة، فهذا من عدم الإنصاف. ولا يكاد يصفو مع زوجته.

والناس في هذا ثلاثة أقسام.

أعلاهم: من لحظ الأخلاق الجميلة والمحاسن، وغض عن المساوىء بالكلية وتناساها.

وأقلهم توفيقاً وإيماناً وأخلاقاً جميلة، من عكس القضية، فأهدر المحاسن مهما كانت، وجعل المساوىء نصب عينيه. وربما مددها وبسطها وفسرها بظنون وتأويلات تجعل القليل كثيراً، كما هو الواقع.

والقسم الثالث: من لحظ الأمرين، ووازن بينهما، وعامل الزوجة بمقتضى كل واحد منها. وهذا منصف. ولكنه قد حرم الكمال.

وهذا الأدب الذي أرشد إليه ﷺ، ينبغي سلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين؛ فإن نفعه الديني والدنيوي كثير، وصاحبه قد سعى في راحة قلبه، وفي السبب الذي يدرك به القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة؛ لأن الكمال في الناس متعذر. وحسب الفاضل أن تعد معايبه. وتوطين النفس على ما يجيء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان، يسهل عليه حسن الخلق، وفعل المعروف والإحسان مع الناس. والله الموفق.

## الحديث الحادي والخمسون

عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتَها عن مَسْألة وُكِلْت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فائت الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك). متفق عليه.

هذا الحديث احتوى على جملتين عظيمتين:

إحداهما: أن الإمارة وغيرها من الولايات على الخلق، لا ينبغي للعبد أن يسألها، ويتعرض لها. بل يسأل الله العافية والسلامة، فإنه لا يدري، هل تكون الولاية خيراً له أو شراً؟ ولا يدري، هل يستطيع القيام بها، أم لا؟

فإذا سألها وحرص عليها، وُكِلَ إلى نفسه. ومتى وُكل العبد إلى نفسه، لم يوفق، ولم يسدد في أموره، ولم يُعَن عليها؛ لأن سؤالها ينبىء عن محذورين:

الأول: الحرص على الدنيا والرئاسة، والحرص يحمل على الريبة في التخوض في مال الله، والعلو على عباد الله.

الثاني: فيه نوع اتكال على النفس، وانقطاع عن الاستعانة بالله. ولهذا قال: (وكلت إليها).

وأما من لم يحرص عليها ولم يتشوف لها، بل أتته من غير مسألة ورأى من نفسه عدم قدرته عليها، فإن الله يعينه عليها، ولا يكله إلى نفسه لأنه لم يتعرض للبلاء، ومن جاءه البلاء بغير اختياره حمل عنه، ووفق للقيام بوظيفته. وفي هذه الحال يقوى توكله على الله تعالى، ومتى قام العبد بالسبب متوكلاً على الله نجح.

وفي قوله ﷺ: (أعنت عليها) دليل على أن الإمارة وغيرها من الولايات الدنيوية جامعة للأمرين: للدين، وللدنيا؛ فإن المقصود من الولايات كلها: إصلاح دين الناس ودنياهم.

ولهـذا: يتعلق بها الأمـر والنهي، والإلزام بـالواجبـات، والردع عن المحرمات، والإلزام بأداء الحقوق. وكذلك أمور السياسة والجهاد، فهي لمن أخلص فيها لله وقام بالواجب من أفضل العبادات، ولمن لم يكن كذلك من أعظم الأخطار.

ولهذا كانت من فروض الكفايات؛ لتوقف كثير من الواجبات عليها.

فإن قيل: كيف طلب يوسف ﷺ ولاية الخزائن المالية في قوله:

﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

قيل: الجواب عنه قوله تعالى:

﴿إني حفيظ عليم﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

فهو إنما طلبها لهذه المصلحة التي لا يقوم بها غيره: من الحفظ الكامل، والعلم بجميـع الجهـات المتعلقة بهـذه الخـزائن. من حسن الاستخـراج، وحسن التصريف، وإقامة العدل الكامل. فهو لما رأى الملك استخلصه لنفسه وجعله مقدَّماً عليه، وفي المحل العالي، وجب عليه أيضاً النصيحة التامة، للملك والرعية. وهي متعينة في ولايته.

ولهذا: لما تولى خزائن الأرض سعى في تقوية الزراعة جداً. فلم يبق موضـع في الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها يصلـح للزراعة إلا زرع في مدة سبـع سنين. ثم حصنه وحفظه ذلك الحفظ العجيب. ثم لما جاءت السنون الجدب، واضطر الناس إلى الأرزاق، سعى في الكيل للناس بالعدل، فمنـع التجار من شراء الطعام خوف التضييق على المحتاجين، وحصل بذلك من المصالـح والمنافـع شيء لا يعد ولا يحصى، كما هو معروف.

الجملة الثانية: قوله ﷺ: (وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذي هو خير، وكفر عن يمينك).

يشمل من حلف على ترك واجب، أو ترك مسنون؛ فإنه يكفِّر عن يمينه،

ويفعل ذلك الواجب والمسنون الذي حلف على تركه. ويشمل من حلف على فعل محرم، أو فعل مكروه، فإنه يؤمر بترك ذلك المحرم والمكروه، ويكفِّر عن يمينه.

فالأقسام الأربعة داخلة في قوله ﷺ: (فائت الذي هو خير) لأن فعل المأمور مطلقاً، وترك المنهيّ مطلقاً: من الخير.

وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٤]

أي: لا تجعلوا اليمين عذراً لكم وعرضة ومانعاً لكم من فعل البر والتقوى، والصلح بين الناس إذا حلفتم على ترك هذه الأمور، بل كفِّروا أيمانكم، وافعلوا البر والتقوى، والصلح بين الناس.

ويؤخذ من هذا الحديث: أن حفظ اليمين في غير هذه الأمور أولى، لكن إن كانت اليمين على فعل مأمور، أو ترك منهي، لم يكن له أن يحنث. وإن كانت في المباح، خير بين الأمرين. وحفظها أولى.

واعلم أن الكفارة لا تجب إلا في اليمين المنعقدة على مستقبل إذا حلف وحنث. وهي على التخيير بين العتق، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

وأما اليمين على الأمور الماضية أو لغو اليمين، كقول الإنسان: لا والله، وبلى والله في عرض حديثه، فلا كفارة فيها. والله أعلم.

## الحديث الثاني والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه).

رواه البخاري:

النذر إلزام العبد نفسه طاعة لله: إما بدون سبب، كقوله: لله عليّ أو نذرت عتق رقبة، أو صيام كذا وكذا، أو الصدقة بكذا وكذا. وإما بسبب، كأن يعلق ذلك على قدوم غائبه، أو برء مريض، أو حصول محبوب، أو زوال مكروه، فمتى تم له مطلوبه وجب عليه الوفاء.

وهذا الحديث شامل للطاعات كلها. فمن نذر طاعة واجبة ومستحبة، وجب عليه الوفاء بالنذر، وليس عنه كفارة بل يتعين الوفاء، كما أمره النبي ﷺ في هذا الحديث. وكما أثنى الله على الموفين بنذرهم في قوله:

﴿يوفون بالنذر﴾ [سورة الإنسان (الدهر): الآية ٧]

مع أن عقد النذر مكروه، كما نهى ﷺ عن النذر. وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل).

وأما نذر المعصية، فيتعين على العبد أن يترك معصية الله ولو نذرها.

وبقية أقسام النذر، كنذر المعصية، والنذر المباح، ونذر اللجاج، والغضب، حكمها حكم اليمين في الحنث، فيها كفارة يمين لمشاركتها في المعنى لليمين. والله أعلم.

## الحديث الثالث والخمسون

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يدٌ علىَ من سواهم. ألا، لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عَهْد في عهده).

رواه أبو داود والنسائي. ورواه ابن ماجه عن ابن عباس.

هذا الحديث كالتفصيل لقوله تعالى:

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات: الآية ١٠]

وقوله ﷺ: (وكونوا عباد الله إخوانا).

فعلى المؤمنين: أن يكونوا متحابين، متصافين غير متباغضين ولا متعادين، يسعَون جميعاً لمصالحهم الكلية التي بها قِوام دينهم ودنياهم، لا يتكبر شريف على وضيع، ولا يحتقر أحد منهم أحداً. فدماؤهم تتكافأ، فإنه لا يشترط في القصاص إلا المكافأة في الدين، فلا يقتل المسلم بالكافر، كما في الحديث، والمكافأة في الحرية، فلا يقتل الحر بالعبد.

وأما بقية الأوصاف، فالمسلمون كلهم على حد سواء. فمن قتل أو قطع طرفاً متعمداً عدواناً، فلهم أن يقتصوا منه بشرط المماثلة في العضو، لا فرق بين الصغير بالكبير، وبالعكس، والذكر بالأنثى وبالعكس، والعالم بالجاهل، والشريف بالوضيع، والكامل بالناقص كالعكس في هذه الأمور.

قوله ﷺ: (ويسعى بذمتهم أدناهم) يعني: أن ذمة المسلمين واحدة. فمتى استجار الكافر بأحد من المسلمين وجب على بقيتهم تأمينه، كما قال تعالى:

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلِغْهُ مأمنه﴾. [سورة التوبة: الآية ٦]

فلا فرق في هذا بين إجارة الشريف الرئيس، وبين آحاد الناس.

وقوله ﷺ: (ويرد عليهم أقصاهم) أي: في التأمين وكذلك اشتراك الجيوش مع سراياه التي تذهب فتُغِير أو تحرس، فمتى غنم الجيش، أو غنم أحد السرايا التابعة للجيش، اشترك الجميع في المغنم. ولا يختص بها المباشر؛ لأنهم كلهم متعاونون على مهمتهم.

وقوله ﷺ: (وهم يَدٌ على من سواهم) أي: يجب على جميع المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يكونوا يداً على أعدائهم من الكفار، بالقول والفعل، والمساعدات والمعاونة في الأمور الحربية، والأمور الاقتصادية، والمدافعة بكل وسيلة.

فعلى المسلمين: أن يقوموا بهذه الواجبات بحسب استطاعتهم؛ لينصرهم الله ويعزهم، ويدفع عنهم بالقيام بواجبات الإيمان عدوان الأعداء، فنسأله تعالى أن يوفقهم لذلك.

وقوله ﷺ: (ولا ذو عهد في عهده) أي: لا يحل قتل من له عهد من الكفار بذمة أو أمان أو هدنة، فإنه لما قال: «لا يقتل مسلم بكافر» احترز بذلك البيان عن تحريم قتل المعاهد، لئلا يظن الظان جوازه. والله أعلم.

## الحديث الرابع والخمسون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: (من تطبَّب ولم يُعلم منه طِبٌّ، فهو ضامن).

رواه أبو داود والنسائي.

هذا الحديث يدل بلفظه وفحواه على: أنه لا يحل لأحد أن يتعاطى صناعة من الصناعات وهو لا يحسنها، سواء كان طباً أو غيره، وأن من تجرأ على ذلك، فهو آثم. وما ترتب على عمله من تلف نفس أو عضو أو نحوهما، فهو ضامن له، وما أخذه من المال في مقابلة تلك الصناعة التي لا يحسنها، فهو مردود على باذله؛ لأنه لم يبذله إلا بتغريره وإيهامه أنه يحسن، وهو لا يحسن، فيدخل في الغش، و (من غشنا فليس منا).

ومثل هذا البنَّاء والنجار والحداد والخراز والنساج ونحوهم ممن نصَب نفسه لذلك، موهما أنه يحسن الصنعة، وهو كاذب.

ومفهوم الحديث: أن الطبيب الحاذق ونحوه إذا باشر ولم تجن يده، وترتب على ذلك تلف، فليس بضامن؛ لأنه مأذون فيه من المكلف أو وليه. فكل ما ترتب على المأذون فيه، فهو غير مضمون، وما ترتب على غير ذلك المأذون فيه، فإنه مضمون.

ويستدل بهذا على: أن صناعة الطب من العلوم النافعة المطلوبة شرعاً وعقلاً. والله أعلم.

## الحديث الخامس والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (ادْرَؤوا الحُدودَ عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطىء في العفو، خير من أن يخطىء في العقوبة).

رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً.

هذا الحديث: يدل على أن الحدود تدرأ بالشبهات. فإذا اشتبه أمر الإنسان وأشكل علينا حاله، ووقعت الاحتمالات: هل فعل موجب الحد أم لا؟ وهل هو عالم أو جاهل؟ وهل هو متأوِّل معتقد حله أم لا؟ وهل له عذر عقد أو اعتقاد؟. درئت عنه العقوبة، لأننا لم نتحقق موجبها يقيناً.

ولو تردد الأمر بين الأمرين، فالخطأ في درء العقوبة عن فاعل سببها، أهون من الخطأ في إيقاع العقوبة على من لم يفعل سببها، فإن رحمة الله سبقت غضبه، وشريعته مبنية على اليسر والسهولة.

والأصل في دماء المعصومين وأبدانهم وأموالهم التحريم، حتى نتحقق ما يبيح لنا شيئاً من هذا.

وقد ذكر العلماء على هذا الأصل في أبواب الحدود أمثلة كثيرة، وأكثرها موافق لهذا الحديث.

ومنها: أمثلة فيها نظر، فإن الاحتمال الذي يشبه الوهم والخيال، لا عبرة به. والميزان لفظ هذا الحديث. فإن وجدتم له، أو فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله.

وفي هذا الحديث: دليل على أصل. وهو: أنه إذا تعارض مفسدتان تحقيقاً أو احتمالاً، راعينا المفسدة الكبرى، فدفعناها تخفيفاً للشر. والله أعلم.

## الحديث السادس والخمسون

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف).

متفق عليه.

هذا الحديث: قيد في كل من تجنب طاعته من الولاة، والوالدين والزوج، وغيرهم. فإن الشارع أمر بطاعة هؤلاء.

وكل منهم طاعته فيما يناسب حاله، وكلها بالمعروف. فإن الشارع رد الناس في كثير مما أمرهم به إلى العرف والعادة، كالبر والصلة، والعدل والإحسان العام. فكذلك طاعة من تجب طاعته.

وكلها تقيد بهذا القيد، وأن من أمر منهم بمعصية الله بفعل محرم، أو ترك واجب، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، فإذا أمر أحدهم بقتل معصوم، أو ضربه، أو أخذ ماله، أو بترك حج واجب، أو عبادة واجبة، أو بقطيعة من تجب صلته، فلا طاعة لهم، وتقدم طاعة الله على طاعة الخلق.

ويفهم من هذا الحديث: أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة، ونافلة من النوافل، فإن طاعتهم تقدم؛ لأن ترك النفل ليس بمعصية، فإذا نهى زوجته عن صيام النفل، أو حج النفل، أو أمر الوالي بأمر من أمور السياسة يستلزم ترك مستحب، وجب تقديم الواجب.

وقوله ﷺ: (إنما الطاعة في المعروف) كما أنه يتناول ما ذكرنا، فإنه يتناول أيضاً تعليق ذلك بالقدرة والاستطاعة، كما تعلق الواجبات بأصل الشرع.

وفي الحديث (عليكم السمع والطاعة فيما استطعتم).

والله أعلم.

## الحديث السابع والخمسون

عن عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (إذا حكم الحاكم، فاجتهد وأصاب، فله أجران. وإذا حكم، فاجتهد فأخطأ، فله أجر واحد).

متفق عليه.

المراد بالحاكم: هو الذي عنده من العلم ما يؤهله للقضاء. وقد ذكر أهل العلم شروط القاضي. فبعضهم بالغ فيها، وبعضهم اقتصر على العلم الذي يصلح به للفتوى. وهو الأولى.

ففي هذا الحديث: أن الجاهل لو حكم وأصاب الحكم، فإنه ظالم آثم، لأنه لا يحل له الإقدام على الحكم وهو جاهل.

ودل على: أنه لا بد للحاكم من الاجتهاد. وهو نوعان:

اجتهاد في إدخال القضية التي وقع فيها التحاكم بالأحكام الشرعية.

واجتهاد في تنفيذ ذلك الحق على القريب والصديق وضدهما، بحيث يكون الناس عنده في هذا الباب واحداً، لا يفضِّل أحداً على أحد، ولا يميله الهوى، فمتى كان كذلك فهو مأجور على كل حال: إن أصاب فله أجران. وإن أخطأ فله أجر واحد، وخطؤه معفو عنه، لأنه بغير استطاعته. والعدل كغيره معلق بالاستطاعة.

والفرق بين الحاكم المجتهد، وبين صاحب الهوى: أن صاحب الحق قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد، وهو مأمور في الظاهر باعتقاد ما قام عنده عليه دليله، بخلاف صاحب الهوى، فإنه يتكلم بغير علم، وبغير قصد للحق. قاله شيخ الإسلام.

وفي هذا: فضيلة الحاكم الذي على هذا الوصف، وأنه يغنم الأجر والثواب في كل قضية يحكم بها.

ولهذا: كان القضاء من أعظم فروض الكفايات؛ لأن الحقوق بين الخلق كلها مضطرة للقاضي عند التنازع أو الاشتباه.

وعليه: أن يجاهد نفسه على تحقيق هذا الاجتهاد الذي تبرأ به ذمته، وينال به الخير، والأجر العظيم. والله أعلم.

## الحديث الثامن والخمسون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لو يُعطى الناسُ بدَعْواهم لادَّعى رجال دماء قوم وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه).

رواه مسلم.

وفي لفظ عند البيهقي: (البينة على المدعي، واليمين على من أنكر).

هذا الحديث عظيم القدر. وهو أصل كبير من أصول القضايا والأحكام؛ فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع: هذا يدعي على هذا حقاً من الحقوق، فينكره، وهذا يدعي براءته من الحق الذي كان ثابتاً عليه.

فبين ﷺ أصلاً يفض نزاعهم، ويتضح به المحق من المبطل.

فمن ادعى عيناً من الأعيان، أو ديناً، أو حقاً من الحقوق وتوابعها على غيره، وأنكره ذلك الغير، فالأصل مع المنكر.

فهذا المدعي إن أتى ببينة تثبت ذلك الحق، ثبت له، وحكم له به وإن لم يأت ببينة، فليس له على الآخر إلا اليمين.

وكذلك من ادعى براءته من الحق الذي عليه، وأنكر صاحب الحق ذلك، وقال: إنه باق في ذمته، فإن لم يأت مدعي الوفاء والبراءة ببينة، وإلا حكم ببقاء الحق في ذمته، لأنه الأصل. ولكن على صاحب الحق اليمين ببقائه.

وكذلك دعوى العيوب، والشروط، والآجال، والوثـائق: كلها من هذا الباب.

فعلم أن هذا الحديث تضطر إليه القضاة في مسائل القضاء كلها، لأن البينة اسم للمبين الحق. وهي تتفاوت بتفاوت الحقوق، وقد فصلها أهل العلم رحمهم الله.

وقد بين ﷺ في هذا الحديث الحكم، وبين الحكمة في هذه الشريعة الكلية، وأنها عين صلاح العباد في دينهم ودنياهم، وأنه لو يعطى الناس بدعواهم لكثر الشر والفساد، ولادَّعى رجال دماء قوم وأموالهم.

فعلم أن شريعة الإسلام بها صلاح البشر. وإذا أردت أن تعرف ذلك، فقابل بين كل شريعة من شرائعه الكلية وبين ضدها، تجد الفرق العظيم، وتشهد أن الذي شرعها حكيم عليم، رحيم بالعباد، لاشتمالها على الحكمة والعدل، والرحمة، ونصر المظلوم، وردع الظالم.

وقد قال بعض المحققين: إن الشريعة جعلت اليمين في أقوى جنبتي المدعين. ومن تتبـع ذلك عرفه. والله أعلم.

## الحديث التاسـع والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها ــ مرفوعاً ــ (لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا مجلود حداً، ولا ذي غمر على أخيه، ولا ظنين في ولاءٍ ولا قرابة، ولا القانـع من أهل البيت).

رواه الترمذي.

هذا حديث مشتمل على الأمور القادحة في الشهادة.

وذلك: أن الله أمر بإشهاد العدول المرضيين.

وأهل العلم اشترطوا في الشاهد في الحقوق بين الناس: أن يكون عدلاً ظاهراً، وذكروا صفات العدالة.

وحَدَّها بعضهم بحد مأخوذ من قوله تعالى:

﴿ممن ترضون من الشهداء﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فقال: كلُّ مَرْضِيّ عند الناس يطمئنون لقوله وشهادته، فهو مقبول. وهذا أحسن الحدود. ولا يسع الناس العمل بغيره.

والأشياء التي تقدح في الشهادة ترجع إلى التهمة أو إلى مظنتها.

فمن الناس من لا تقبل شهادته مطلقاً على جميع الأمور التي تعتبر فيها الشهادة، كالخائن والخائنة، والذي أتى حداً ــ أي: معصية كبيرة لم يتب منها ــ فإنه لخيانته وفسقه مفقود العدالة، فلا تقبل شهادته.

ومن الناس من هو موصوف بالعدالة، لكن فيه وصف يخشى أن يميل معه، فيشهد بخلاف الحق، وذلك كالأصول والفروع، والمولى والقانع لأهل البيت، فهؤلاء لا تقبل شهادتهم للمذكورين، لأنه محل التهمة. وتقبل عليهم.

ومثل ذلك الزوجان، والسيد مع مكاتبه أو عتيقه.

ومن الناس من هو بعكس هؤلاء، كالعَدُوّ الذي في قلبه غمر ــ أي: غلّ ــ على أخيه. فهذا إن شهد له، قبلت شهادته. وإن شهد على عدوه: لم تقبل، لأن العداوة تحمل غالباً على الإضرار بالعدو. والله أعلم.

## الحديث الستون

عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله. إنَّا لاَقُو العدوِّ غداً، وليس معنا مُدى. أفنذبح بالقصب؟ قال: ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه فكُلْ، ليس السنَّ والظُّفْرَ. وسأحدثك عنه أما السنُّ فعظمٌ. وأما الظفر فمُدى الحبشة. وأصبنا نهب إبل وغنم فنَدَّ منها بعير، فرماه رجل بسهم فحبسه. فقال رسول الله ﷺ: (إن لهذه أوابد كأوابد الوحش، فإذا غلبكم منها شيء فافعلوا به هكذا). متفق عليه.

قوله ﷺ: (ما أنهر الدم...) إلى آخره، كلام جامع يدخل فيه جميع ما يُنْهِرُ الدم ــ أي: يسفِكه ــ من حديد، أو نحاس، أو صفر، أو قصب، أو خشب، أو حطب، أو حصى، محدد أو غيرها، وما له نفوذ كالرصاص في البارود؛ لأنه ينهر بنفوذه، لا بثقله.

ودخل في ذلك: ما صيد بالسهام، والكلاب المعلَّمة، والطيور إذا ذكر اسم الله على جميع ذلك.

وأما محل الذبح، فإنه الحلقوم والمرِيء، إذا قطعهما كفى. فإن حصل معهما قطع الودَجين ــ وهما العرقان المكتنفان الحلقوم ــ كان أولى.

وأما الصيد، فيكفي جرحه في أي موضع كان من بدنه؛ للحاجة إلى ذلك.

ومثل ذلك إذا ندَّ البعير أو البقرة أو الشاة، وعجز عن إدراكه، فإنه يكون بمنزلة الصيد، كما في الحديث. ففي أي محل من بدنه جرح كفى، كما أن الصيد إذا قُدر عليه ــ وهو حي ــ فلا بد من ذكاته.

فالحكم يدور مع علته، المعجوز عنه بمنزلة الصيد، ولو من الحيوانات الإنسية. والمقدور عليه لا بد من ذبحه، ولو من الحيوانات الوحشية.

واستثنى النبي ﷺ من ذلك السن، وعلله بأنه عظم. فدل على أن جميع العظام ــ وإن أنهرت الدم ــ لا يحل الذبح بها.

وقيل: إن العلة مجموع الأمرين: كونه سناً، وكونه عظيماً، فيختص بالسن. والصحيح الأول.

وكذلك الظفر لا يحل الذبح به، لا طير ولا غيره.

فالحاصل: أن شروط الذبح: إنهار الدم في محل الذبح، مع كون الذابح مسلماً، أو كتابياً، وأن يذكر اسم الله عليها.

وأما الصيد، فهو أوسع من الذبح. كما تقدم أنه في أي موضع يكون من بدن الصيد، وأنه يباح صيد الجوارح من الطيور والكلاب إذا كانت مُعَلَّمة، وذُكر اسم الله عليها عند إرسالها على الصيد. والله أعلم.

## الحديث الحادي والستون

عن شدّاد بن أوْس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة. وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذبيحته). رواه مسلم.

الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الخالق، بأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. وهو الجد في القيام بحقوق الله على وجه النصح، والتكميل لها. وإحسان في حقوق الخلق.

وأصل الإحسان الواجب: أن تقوم بحقوقهم الواجبة، كالقيام ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإنصاف في جميع المعاملات، بإعطاء جميع ما عليك من الحقوق، كما أنك تأخذ مالك وافياً. قال تعالى:

**﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى**

والیتامی والمساکین والجار ذي القربی والجار الجُنب والصاحب بالجنْب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم﴾. [سورة النساء: الآية ٣٦]
فأمر بالإحسان إلى جميع هؤلاء.

ويدخل في ذلك الإحسان إلى جميع نوع الإنسان، والإحسان إلى البهائم، حتى في الحالة التي تزهق فيها نفوسها، ولهذا قال ﷺ: (فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة).

فمن استحق القتل لموجب قتل، يضرب عنقه بالسيف، من دون تغرير ولا تمثيل.

وقوله ﷺ: (إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة) أي: هيئة الذبح وصفته. ولهذا قال: (وليُحِدَّ أحدكم شَفْرته) أي: سكِّينه: (وليرح ذبيحته) فإذا كان العبد مأموراً بالإحسان إلى من استحق القتل من الآدميين، وبإحسان ذِبحة ما يراد ذبحه من الحيوان، فكيف بغير هذه الحالة؟

وأعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجه عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب. وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدني، أو مالي، أو علمي، أو توجيه لخير ديني، أو مصلحة دنيوية، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان. وكل ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان.
ولما ذكر النبي ﷺ قصة البغي التي سقت الكلب الشديد العطش بخفيها من البئر، وأن الله شكر لها وغفر لها. قالوا لرسول الله ﷺ: (إن لنا في البهائم أجراً؟) قال: (في كل كبد حَرَّى أجر).

فالإحسان: هو بذل جميع المنافع من أي نوع كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت المحسن إليهم، وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

ومن أجلِّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل. قال تعالى:

﴿إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة، كأنه وليٌّ حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم﴾.
[سورة فصلت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه.

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟﴾. [سورة الرحمن: الآية ٦٠]
﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. [سورة يونس: الآية ٢٦]
﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾. [سورة الزمر: الآية ١٠]
﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾. [سورة الأعراف: الآية ٥٦]
أي المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

والله تعالى يوجب على عباده العدل من الإحسان، ويندبهم إلى زيادة الفضل منه، وقال تعالى في المعاملة:

﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]
أي اجعلوا للفضل والإحسان موضعاً من معاملاتكم. ولا تستقصوا في جميع الحقوق، بل يَسِّروا ولا تعسروا، وتسامحوا في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء. ومن ألزم نفسه هذا المعروف، نال خيراً كثيراً، وإحساناً كبيراً. والله أعلم.

## الحديث الثاني والستون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (حرَّم رسول الله ﷺ يوم خيبر الحمر الإنسية، ولُحومَ البغال، وكلَّ ذي ناب من السباع، وكلَّ ذي مخلب من الطير) رواه الترمذي.

الأصل في جميع الأطعمة الحلّ، فإن الله أحل لعباده ما أخرجته الأرض من حبوب وثمار ونبات متنوع، وأحل لهم حيوانات البحر كلها حيها وميتها.

وأما حيوانات البر، فأباح منها جميع الطيبات، كالأنعام الثماني وغيرها، والصيود الوحشية من طيور وغيرها.

وإنما حرَّم من هذا النوع الخبائث وجعل لذلك حداً وفاصلاً. وربما عين بعض المحرمات، كما عين في هذا الحديث الحمر الأهلية، والبغال وحرمها. وقال: «إنها رِجْس».

وأما الحمر الوحشية، فإنها حلال، وكذلك حرم ذوات الأنياب من السباع، كالذئب والأسد والنمر والثعلب والكلب ونحوها، وكل ذي مخلب من الطير يصيد بمخلبه، كالصقر والباسق ونحوهما.

وما نهي عن قتله كالصُّرد، أو أمر بقتله كالغراب ونحوها، فإنها محرمة. وما كان خبيثاً، كالحيات والعقارب والفئران وأنواع الحشرات، وكذلك ما مات حتف أنفه من الحيوانات المباحة، أو ذُكِّي ذكاة غير شرعية، فإنه محرم. والله أعلم.

## الحديث الثالث والستون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال).

رواه البخاري.

الأصل في جميع الأمور العادية الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله، إما لذاته كالمغصوب، وما خبث مكسبه في حق الرجال والنساء، وإما لتخصيص الحل بأحد الصنفين، كما أباح الشارع حل لباس الذهب والفضة والحرير للنساء، وحرَّمه على الرجال.

وأما تحريم الشارع تشبُّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، فهو عام في اللباس، والكلام، وجميع الأحوال.

فالأمور ثلاثة أقسام:

قسم مشترك بين الرجال والنساء من أصناف اللباس وغيره، فهذا جائز للنوعين، لأن الأصل الإباحة، ولا تشبه فيه.

وقسم مختص بالرجال، فلا يحل للنساء، وقسم مختص بالنساء، فلا يحل للرجال.

ومن الحكمة في النهي عن التشبه: أن الله تعالى جعل للرجال على النساء درجة، وجعلهم قَوَّامين على النساء، وميزهم بأمور قَدَرية، وأمور شرعية، فقيام هذا التمييز وثبوت فضيلة الرجال على النساء، مقصود شرعاً وعقلاً. فتشبُّه الرجال بالنساء يهبط بهم عن هذه الدرجة الرفيعة. وتشبه النساء بالرجال يبطل التمييز.

وأيضاً، فتشبه الرجال بالنساء بالكلام واللباس ونحو ذلك: من أسباب التخنث، وسقوط الأخلاق، ورغبة المتشبه بالنساء في الاختلاط بهن، الذي يخشى منه الحذور، وكذلك بالعكس.

وهذه المعاني الشرعية، وحفظ مراتب الرجال ومراتب النساء، وتنزيل كل منهم منزلته التي أنزله الله بها، مستحسن عقلاً، كما أنه مستحسن شرعاً.

وإذا أردت أن تعرف ضرر التشبه التام، وعدم اعتبار المنازل، فانظر في

هذا العصر إلى الاختلاط الساقط الذي ذهبت معه الغيرة الدينية، والمروءة الإنسانية، والأخلاق الحميدة، وحَلَّ محله ضد ذلك من كل خلق رذيل.

ويشبه هذا ــ أو هو أشد منه ــ تشبه المسلمين بالكفار في أمورهم المختصة بهم، فإنه ﷺ قال: (من تشبه بقوم فهو منهم) فإن التشبه الظاهر يدعو إلى التشبه الباطن، والوسائلُ والذرائع إلى الشرور قصد الشارع حَسْمها من كل وجه.

## الحديث الرابع والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنزل الله دَاءً إلا أنزل له شفاءً). رواه البخاري.

الإنزال هنا بمعنى: التقدير.

ففي هذا الحديث: إثبات القضاء والقدر، وإثبات الأسباب.

وقد تقدم أن هذا الأصل العظيم ثابت بالكتاب والسنة. ويؤيده العقل والفطرة. فالمنافع الدينية والدنيوية والمضار كلها بقضاء الله وتقديره، قد أحاط بها علماً، وجرى بها قلمه، ونفذت بها مشيئته، ويَسَّر العبادَ لفعل الأسباب التي توصلهم إلى المنافع والمضار، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له: من مصالح الدين والدنيا، ومضارِّهما. والسعيد من يَسَّره الله لأيسر الأمور وأقربها إلى رضوان الله، وأصلحها لدينه ودنياه، والشقي من انعكس عليه الأمر.

وعموم هذا الحديث يقتضي: أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية، أو تخففه.

وفي هذا: الترغيب في تعلم طب الأبدان، كما يتعلم طب القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة. وجميع أصول الطب وتفاصيله، شرح لهذا

الحديث، لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية. فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلُّمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها.

وقد كان يظن كثير من الناس أن بعض الأمراض ليس له دواء، كالسل ونحوه، وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علمه، عرف الناس مصداق هذا الحديث، وأنه على عمومه. وأُصول الطب: تدبير الغذاء، بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوة وينهضم الطعام السابق انهضاماً تاماً، ويتحرى الأنفع من الأغذية، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال، ولا يمتلىء من الطعام امتلاءً يضره مزاولته، والسعي في تهضيمه، بل الميزان قوله تعالى:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

ويستعمل الحِمْية عن جميع المؤذيات في مقدارها، أو في ذاتها، أو في وقتها. ثم إن أمكن الاستفراغ، وحصل به المقصود، من دون مباشرة الأدوية، فهو الأولى والأنفع. فإن اضطر إلى الدواء، استعمله بمقدار. وينبغي أن لا يتولى ذلك إلا عارف وطبيب حاذق.

واعلم أن طيب الهواء، ونظافة البدن والثياب. والبعد عن الروائح الخبيثة، خير عون على الصحة. وكذلك الرياضة المتوسطة. فإنها تقوي الأعضاء والأعصاب والأوتار، وتزيل الفضلات، وتهضم الأغذية الثقيلة، وتفاصيل الطب معروفة عند الأطباء. ولكن هذه الأصول التي ذكرناها يحتاج إليها كل أحد.

وصح عنه ﷺ (الشفاء في ثلاث: شَرْطة مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كَيَّة بنار، وفي الحبة السوداء شفاء من كل داء). (العود الهندي فيه سبعة أَشْفِية)، (يُسَعَّط من العُذرة، ويلد من ذات الجنب)، (الحُمَّى من فَيْح جهنم، فأبردوها بالماء)، (رخص في الرُّقية من العين والحُمَة والنملة)، و (إذا استُغْسِلتم من العين فاغسلوا) (ونهى عن الدواء الخبيث)، (وأمر بخضاب الرجلين لوجعهما).

## الحديث الخامس والستون

عن أبـي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب. وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذ بالله من شرها ومن شر الشيطان، ولْيَتْفُلْ ثلاثاً، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره) متفق عليه.

أخبر ﷺ في هذا الحديث: أن الرؤيا الصالحة من الله، أي: السالمة من تخليط الشيطان وتشويشه، وذلك لأن الإنسان إذا نام خرجت روحه، وحصل لها بعض التجرد الذي تتهيأ به لكثير من العلوم والمعارف. وتلطفت مـع ما يلهمها الله، ويلقيه إليها المَلَك في منامها. فتتنبه وقد تجلت لها أمور كانت قبل ذلك مجهولة، أوذكرت أموراً قد غفلت عنها، أو تنبهت لأحوال ينفعها معرفتها، أو العمل بها، أو حَذِرَتْ مضاراً دينية أو دنيوية لم تكن لها على بال، أو اتعظت ورغبت ورهبت عن أعمال قد تلبست بها، أو هي بصدد ذلك، أو تنبهت لبعض الأعيان الجزئية لإدخالها في الأحكام الشرعية.

فكل هذه الأمور علامة على الرؤيا الصالحة، التي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. وما كان من النبوة فهو لا يكذب.

فانظر إلى رؤيا النبـي ﷺ في قوله تعالى:

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر، ولكن الله سَلَّم، إنه عليم بذات الصدور﴾

[سورة الأنفال: الآية ٤٣]

كم حصل بها من منافـع واندفـع من مضار.

وكذلك قوله تعالى:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، مُحلِّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون؛ فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٧]

كم حصل بها من زيادة إيمان، وتم بها من كمال إيقان، وكانت من آيات الله العظيمة.

وانظر إلى رؤيا ملك مصر، وتأويل يوسف الصديق لها، وكما تولّى التأويل فقد ولاه الله ما احتوت عليه من التدبير، فحصل بذلك خيرات كثيرة، ونعم غزيرة، واندفع بها ضرورات وحاجات، ورفع الله بها يوسف فوق العباد درجات.

وتأمل رؤيا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما الأذان والإقامة، وكيف صارت سبباً لشرع هذه الشعيرة العظيمة التي هي من أعظم الشعائر الدينية.

ومرائي الأنبياء والأولياء والصالحين ـ بل وعموم المؤمنين وغيرهم معروفة مشهورة، لا يحصى ما اشتملت عليه من المنافع المهمة، والثمرات الطيبة. وهي من جملة نعم الله على عباده، ومن بشارات المؤمنين، وتنبيهات الغافلين، وتذكيره للمعرضين، وإقامة الحجة على المعاندين.

وأما الحلم الذي هو أضغاث أحلام، فإنما هو من تخليط الشيطان على روح الإنسان، وتشويشه عليها وإفزاعها، وجلب الأمور التي تكسبها الهم والغم، أو توجب لها الفرح والمرح والبطر، أو تزعجها للشر والفساد والحرص الضار.

فأمر النبي ﷺ عند ذلك أن يأخذ العبد في الأسباب التي تدفع شره، بأن لا يحدِّث به أحداً، فإن ذلك سبب لبطلانه واضمحلاله، وأن يَتْفُل عن شماله ثلاث مرات. وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الذي هو سبب هذا الحلم والدافع له، وليطمئن قلبه عند ذلك أنه لا يضره، مصداقاً لقول رسوله، وثقة بنجاح الأسباب الدافعة له.

وأما الرؤيا الصالحة، فينبغي أن يحمد الله عليها، ويسأله تحقيقها،

ويحدث بها من يحب ويعلم منه المودة، ليُسر لسروره، ويدعو له في ذلك. ولا يحدث بها من لا يحب، لئلا يشوش عليه بتأويل يوافق هواه، أو يسعى ـ حسداً منه ـ في إزالة النعمة عنه.

ولهذا لما رأى يوسف الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، وحدث بها أباه قال له:

**﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾** [سورة يوسف: الآية ٥]

ولهذا كان كَتْم النعم عن الأعداء ـ مع الإمكان ـ أولى، إلا إذا كان في ذلك مصلحة راجحة.

واعلم أن الرؤيا الصادقة تارة يراها العبد على صورتها الخارجية، كما في رؤيا الأذان وغيرها، وتارة يضرب له فيها أمثال محسوسة، ليعتبر بها الأمور المعقولة، أو المحسوسة التي تشبهها، كرؤيا ملك مصر ونحوها، وهي تختلف باختلاف الرائي والوقت والعادة، وتنوع الأحوال.

## الحديث السادس والستون

عن علي بن الحسين رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: (من حُسْن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنيه).

رواه مالك وأحمد. ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الترمذي عن علي بن الحسين وعن أبي هريرة.

الإسلام ـ عند الإطلاق ـ يدخل فيه الإيمان، والإحسان. وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة. والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين، كما دل عليه فحوى هذا الحديث.

فمنهم: المحسن في إسلامه، ومنهم: المسيء.

فمن قام بالإسلام ظاهراً وباطناً فهو المحسن

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، واتَّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥]

فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه، مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغي له تركه كالمكروهات وفضول المباحات التي لا مصلحة فيها، بل تفوت عليه الخير.

فقوله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) يعم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أن من لم يترك ما لا يعنيه، فإنه مسيء في إسلامه وذلك شامل للأقوال والأفعال المنهي عنها نهي تحريم أو نهي كراهة.

فهذا الحديث يُعدّ من الكلمات العامة الجامعة، لأنها قسمت هذا التقسيم الحاصر، وبينت الأسباب التي يتم بها حسن الإسلام، وهو الاشتغال بما يعني، وترك ما لا يعني من قول وفعل، والأسباب التي يكون بها العبد مسيئاً، وهي ضد هذه الحال. والله أعلم.

## الحديث السابع والستون

عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: (ما نَحَل والدٌ ولدَه من نحْل أفضل من أدب حسَن) رواه الترمذي.

أولى الناس ببرّك، وأحقهم بمعروفك: أولادُك؛ فإنهم أمانات جعلهم الله عندك، ووصاك بتربيتهم تربية صالحة لأبدانهم وقلوبهم، وكل ما فعلته معهم من هذه الأمور، دقيقها وجليلها، فإنه من أداء الواجب عليك، ومن أفضل ما يقربك إلى الله، فاجتهد في ذلك، واحتسبه عند الله، فكما أنك إذا أطعمتهم وكسوتهم وقمت بتربية أبدانهم، فأنت قائم بالحق مأجور، فكذلك ـ بل أعظم

من ذلك ـ إذا قمت بتربية قلوبهم وأرواحهم بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، والتوجيه للأخلاق الحميدة، والتحذير من ضدها.

و «النحل»: هي العطايا والإحسان. فالآداب الحسنة خير للأولاد حالاً ومآلاً من إعطائهم الذهب والفضة، وأنواع المتاع الدنيوي، لأن بالآداب الحسنة، والأخلاق الجميلة يرتفعون، وبها يسعدون وبها يؤدُّون ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وبها يجتنبون أنواع المضار، وبها يتم برهم لوالديهم.

إما إهمال الأولاد، فضرره كبير، وخطر خطير. أرأيت لو كان لك بستان فَنمّيته، حتى استتمت أشجاره، وأينعت ثماره، وتزخرفت زروعه وأزهاره. ثم أهملته فلم تحفظه، ولم تَسْقِه ولم تُنَقِّه من الآفات، وتعده للنموِّ في كل الأوقات، أليس هذا من أعمِّ الجهل والحمق؟ فكيف تهمل أولادك الذين هم فِلذة كبدك، وثمرة فؤادك، ونسخة روحك، والقائمون مقامك حياً وميتاً، الذين بسعادتهم تتم سعادتك. وبفلاحهم ونجاحهم تدرك به خيراً كثيراً

﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

## الحديث الثامن والستون

عن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك، ونافخ الكير. فحامل المسك: إما أن يُحْذِيَك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة) متفق عليه.

اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم.

ومثَّل النبي ﷺ بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من

المسك: إما بهبة، أو بعوض. وأقل ذلك: مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك.

فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلِّمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك. فيحثك على طاعة الله وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصِّرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير أو إلى ضده.

وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح ـ وهي فائدة لا يستهان بها ـ أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفُّعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك.

وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم.

وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله.

وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا. وهم مضرة من جميع الوجوه على من صاحبهم، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام. وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده: أن يبتليه بصحبة الأشرار.

صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين.

صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع

**﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتَّخذْتُ مع الرسول سبيلاً. يا ويلَتي، ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلَّني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خَذولاً﴾** [سورة الفرقان: الآيات ٢٧ ـ ٢٩]

## الحديث التاسع والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **قال** رسول الله ﷺ: (لا يُلْدَغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين). متفق عليه.

هذا مثل ضربه النبي ﷺ: لبيان كمال احتراز المؤمن ويقظته، وأن المؤمن يمنعه إيمانه من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتها، وأنه متى وقع في شيء منها، فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة.

ومن تمام توبته: أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب، كحال من أدخل يده في جُحرٍ فلدغته حَيَّة، فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر، لما أصابه فيه أول مرة.

وكما أن الإيمان يحمل صاحبه على فعل الطاعات، ويرغبه فيها، ويحزنه لفواتها، فكذلك يزجره عن مقارفة السيئات، وإن وقعت، بادر إلى النزوع عنها، ولم يعد إلى مثل ما وقع فيه.

وفي هذا الحديث: الحث على الحزم والكَيْس في جميع الأمور. ومن لوازم ذلك: تعرُّف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنَّبها.

ويدل على الحث على تجنب أسباب الرِّيب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر.

وعلى أن الذرائـع معتبرة. وقد حذر الله المؤمنين من العود إلى ما زينه الشيطان من الوقوع في المعاصي، فقال:

﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾

[سورة النور: الآية ١٧]

ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلـغ، لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة.

وفي الحـديث: (الأنـاة من الله، والعجلة من الشيــطان، ولا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة) والله أعلم.

## الحديث السبعون

عن أبـي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا ذَرٍّ، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حَسَبَ كحُسْن الخلق). رواه البيهقي في «شعب الإيمان».

هذا الحديث اشتمل على ثلاث جمل، كل واحدة منها تحتها علم عظيم:

أما الجملة الأولى: فهي في بيان العقل وآثاره وعلاماته، وأن العقل الممدوح في الكتاب والسنة: هو قوة ونعمة أنعم الله بها على العبد، يعقل بها الأشياء النافعة، والعلوم والمعارف، ويتعقل بها، ويمتنـع من الأمور الضارة والقبيحة، فهو ضروري للإنســان، لا يستغني عنه في كـل أحوالـه الدينيـة والدنيوية، إذ به يعرف النافـع والطريق إليه، ويعرف الضار وكيفية السلامة منه. والعقل يعرف بآثاره.

فبين ﷺ في هذا الحديث آثاره الطيبة، فقال: (لا عقل كالتدبير) أي: تدبير العبد لأمور دينه، ولأمور دنياه.

فتدبيره لأمور دينه: أن يسعى في تعرّف الصراط المستقيم، وما كان عليه النبـي الكريم من الأخلاق والهدى والسَّمْت، ثم يسعى في سلوكه بحالة

منتظمة. كما قال ﷺ: (استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجة، والقصد القصد تبلغوا).

وقد تقدم شرح هذا الحديث وبيان الطريق الذي أرشد إليه رسول الله ﷺ، وأنها طريق سهلة توصل إلى الله وإلى دار كرامته بسهولة وراحة، وأنها لا تفوِّت على العبد من راحاته وأموره الدنيوية شيئاً، بل يتمكن العبد معها من تحصيل المصلحتين والفوز بالسعادتين والحياة الطيبة.

فمتى دبَّر أحواله الدينية بهذا الميزان الشرعي، فقد كمل دينه وعقله، لأن المطلوب من العقل: أن يوصل صاحبه إلى العواقب الحميدة، من أقرب طريق وأيسره.

وأما تدبير المعاش، فإن العاقل يسعى في طلب الرزق بما يتضح له أنه أنفع وأجدى عليه في حصول مقصوده. ولا يتخبط في الأسباب خبط عشواء، لا يقر له قرار، بل إذا رأى سبباً فتح له به باب رزق فليلزمه، وليثابر عليه، وليُجْمل في الطلب، ففي هذا بركة مجربة.

ثم يدبر تدبيراً آخر. وهو التدبير في التصريف والإنفاق، فلا ينفق في طرق محرمة، أو طرق غير نافعة، أو يسرف في النفقات المباحة أو يُقتِّر. وميزان ذلك: قوله تعالى في مدح الأخيار:

﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتِرُوا، وكان بين ذلك قَواماً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فحسن التدبير في كسب الأرزاق، وحسن التدبير في الإنفاق، والتصريف، والحفظ، وتوابع ذلك: دليل على كمال عقل الإنسان ورزانته ورشده.

وضد ذلك: دليل على نقصان عقله، وفساد لُبِّه.

الجملة الثانية: قوله ﷺ: (لا ورع كالكف).

فهذا حدٌّ جامع للورع، بيَّن به رسول الله ﷺ: أن الورع الحقيقي هو الذي يكفُّ نفسه، وقلبه ولسانه، وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة. فكل ما قاله أهل العلم في تفسير الورع، فإنه يرجع إلى هذا التفسير الواضح الجامع.

فمن حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات، وعن الشهوات المحرمة والغلِّ والحقد، وعن سائر مساوىء الأخلاق، وحفظ لسانه عن الغيبة والنميمة والكذب والشتم، وعن كل إثم وأذى، وكلام محرم، وحفظه فرجه وبصره عن الحرام، وحفظ بطنه عن أكل الحرام، وجوارحه عن كسب الآثام، فهذا هو الورع حقيقة.

ومن ضيع شيئاً من ذلك نقص من ورعه بقدر ذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام: «الورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة».

الجملة الثالثة: قوله ﷺ: (ولاَ حَسَبَ كحسن الخلق).

وذلك أن الحسب مرتبة عالية عند الخلق. وصاحب الحسب له اعتبار وشرف بحسب ذلك. وهو نوعان:

النوع الأول: حسب يتعلق بنسب الإنسان وشرف بيته. وهذا النوع إنما هو مدح؛ لأنه مظنة أن يكون صاحبه عاملاً بمقتضى حسبه، مترفعاً عن الدنايا، متحلِّياً بالمكارم. فهو مقصود لغيره.

وأما النوع الثاني، فهو الحسب الحقيقي الذي هو وصف للعبد، وجمال له وزينة، وخير في الدنيا والدين، وهو حسن الخلق المحتوي على الحلم الواسع، والصبر والعفو، وبذل المعروف والإحسان، واحتمال الإساءة والأذى، ومخالقة طبقات الناس بخلق حسن.

وإن شئت فقل: حسن الخلق نوعان:

الأول: حسن الخلق مع الله، وهو أن تتلقى أحكامه الشرعية والقدرية

بالرضى والتسليم لحكمه، والانقياد لشرعه، بطمأنينة ورضى، وشكر لله على ما أنعم به: من الأمر والتوفيق، والصبر على أقداره المؤلمة والرضى بها.

الثاني: حسن الخلق مع الخلق، وهو بذل الندَى، واحتمال وكف الأذى، كما قال تعالى:

﴿خذ العفو وأمُر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وَلِيٌّ حميم. وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [سورة فصلت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

فمن قام بحسن الخلق مع الله ومع الخلق، فقد نال الخير والفلاح. والله أعلم.

## الحديث الحادي والسبعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل فقال: يا رسول الله، أوصني. فقال: لا تغضب. ثم ردَّدَ مراراً فقال: لا تغضب). رواه البخاري.

هذا الرجل ظن أنها وصية بأمر جزئي، وهو يريد أن يوصيه النبي ﷺ بكلام كلي، ولهذا ردد. فلما أعاد عليه النبي ﷺ، عرف أن هذا كلام جامع، وهو كذلك؛ فإن قوله: (لا تغضب) يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب، والتمرن على حسن الخلق، والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخلق، من الأذى القولي والفعلي. فإذا وفق لها العبد، وورد عليه وارد الغضب، احتمله بحسن خلقه، وتلقاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإن الأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به، والنهي عن الشيء أمر بضده، وأمر بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثاني: الأمر ـ بعد الغضب ـ أن لا يُنْفِذ غَضبَه؛ فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه. فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال المحرمة التي يقتضيها الغضب.

فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضارة، فكأنه في الحقيقة لم يغضب. وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية، والقوة القلبية، كما قال ﷺ: (ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب).

فكمال قوة العبد: أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الشهوة وقوة الغضب الآثار السيئة، بل يصرف هاتين القوتين إلى تناول ما ينفع في الدين والدنيا، وإلى دفع ما يضر فيهما.

فخير الناس من كانت شهوته وهواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ وغضبه ومدافعته في نصر الحق على الباطل.

وشر الناس: من كان صريع شهوته وغضبه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

## الحديث الثاني والسبعون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذَرَّة من كِبْر) فقال رجل: إن الرجل يحب أن ثوبه حسناً، ونعله حسناً. فقال: (إن الله جميل يحب الجمال. الكِبْر: بَطر الحق، وغَمْط الناس). رواه مسلم.

قد أخبر الله تعالى: أن النار مثوى المتكبرين. وفي هذا الحديث أنه (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر) فدل على أن الكبر موجب لدخول النار، ومانع من دخول الجنة.

وبهذا التفسير الجامع الذي ذكره النبي ﷺ يتضح هذا المعنى غاية الاتضاح؛ فإنه جعل الكبر نوعين:

كبر النوع الأول: على الحق، وهو رده وعدم قبوله، فكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما ردَّ من الحق. وذلك أنه فرض على العباد أن يخضعوا للحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

فالمتكبرون عن الانقياد للرسل بالكلية كفارٌ مخلدون في النار؛ فإنه جاءهم الحق على أيدي الرسل مؤيداً بالآيات والبراهين. فقام الكبر في قلوبهم مانعاً، فردُّوه. قال تعالى:

**﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، إن في صدورهم إلا كِبر ما هم ببالغيه﴾** [سورة غافر: الآية ٥٦]

وأما المتكبرون عن الانقياد لبعض الحق الذي يخالف رأيهم وهواهم، فهم ــ وإن لم يكونوا كفاراً ــ فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر. وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به. ولهذا أجمع العلماء أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يحل له أن يعدل عنها لقول أحد، كائناً من كان.

فيجب على طالب العلم أن يعزم عزماً جازماً على تقديم قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد، وأن يكون أصله الذي يرجع إليه، وأساسه الذي يبني عليه، الاهتداء بهدي النبي ﷺ، والاجتهاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك، ظاهراً وباطناً.

فمتى وُفق لهذا الأمر الجليل فقد وفق للخير، وصار خطؤه معفواً عنه؛ لأن قصده العام اتباع الشرع. فالخطأ معذور فيه إذا فعل مستطاعه من الاستدلال والاجتهاد في معرفة الحق، وهذا هو المتواضع للحق.

وأما الكبر على الخلق ــ وهو النوع الثاني ــ: فهو غمطهم واحتقارهم وذلك ناشىء عن عجب الإنسان بنفسه، وتعاظمه عليهم. فالعجب بالنفس يحمل على التكبر على الخلق، واحتقارهم والاستهزاء بهم، وتنقيصهم بقوله وفعله. وقال رسول الله ﷺ: (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم).

ولما قال هذا الرجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً» وخشي أن يكون هذا من الكبر الذي جاء فيه الوعيد: بين له النبي ﷺ: أن هذا ليس من الكبر، إذا كان صاحبه منقاداً للحق، متواضعاً للخلق، وأنه من الجمال الذي يحبه الله؛ فإنه تعالى جميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، يحب الجمال الظاهري والجمال الباطني. فالجمال الظاهر: كالنظافة في الجسد، والملبس، والمسكن، وتوابع ذلك.

والجمال الباطن: التجمل بمعاني الأخلاق ومحاسنها.

ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم اهدني لأحْسَن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحْسَنِها إلا أنت. واصرف عنِّي سيِّىء الأعمال والأخلاق، لا يصرف عنِّي سيئها إلا أنت). والله أعلم.

## الحديث الثالث والسبعون

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (قد أفلح من أسْلَمَ ورُزِق كَفَافاً، وقنَّعه الله بما آتاه). رواه مسلم.

حكم ﷺ بالفلاح لمن جمع هذه الخلال الثلاث.

و«الفلاح» اسم جامع لحصول كل مطلوب محبوب، والسلامة من كل كل مخوف مرهوب.

وذلك أن هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا، فإن العبد إذا هدي للإسلام الذي هو دين الله الذي لا يقبل ديناً سواه، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وحصل له الرزق الذي يكفيه ويكُفّ وجهه عن سؤال الخلق، ثم تمم الله عليه النعمة، بأن قنعه بما آتاه، أي حصل له الرضى بما أوتي من الرزق والكفاف، ولم تطمح نفسه لما وراء ذلك، فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة.

فإن النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها: إما أن لا يُهْدَى للإسلام: فهذا مهما كانت حاله، فإن عاقبته الشقاوة الأبدية. وإما بأن يهدى للإسلام، ولكنه يبتلى: إما بفقر يُنْسِي، أو غنى يُطْغي، وكلاهما ضرر ونقص كبير. وإما بأن يحصل له الرزق الكافي موسعاً أو مقدراً ولكنه لا يقنع برزق الله، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله، فهذا فقير القلب والنفس.

فإنه ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب، فكم من صاحب ثروة وقلبه فقير متحسر، وكم من فقير ذات اليد، وقلبه غني راض، قانع برزق الله.

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه، بل كما يسعى لتحصيل الرزق، فليسْع لراحة القلب، وسكونه وطمأنينته. والله أعلم.

## الحديث الرابع والسبعون

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، عظْني وأوجز. فقال: إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودِّع، ولا تَكَلم بكلام تعذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس). رواه أحمد.

هذه الوصايا الثلاث يا لها من وصايا، إذا أخذ بها العبد: تمت أموره وأفلح.

فالوصية الأولى: تتضمن تكميل الصلاة، والاجتهاد في إيقاعها على أحسن الأحوال. وذلك بأن يحاسب نفسه على كل صلاة يصليها وأن سيتم جميع ما فيها من واجب، وفرض، وسنة، وأن يتحقق بمقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات. وذلك بأن يقوم إليها مستحضراً وقوفه بين يدي ربه، وأنه يناجيه بما

يقوله من قراءة وذكر ودعاء، ويخضع له في قيامه وركوعه، وسجوده وخفضه ورفعه.

ويعينه على هذا المقصد الجليل، توطين نفسه على ذلك من غير تردد ولا كسل قلبي، ويستحضر في كل صلاة أنها صلاة مودع، كأنه لا يصلي غيرها.

ومعلوم أن المودع يجتهد اجتهاداً يبذل فيه كل وسعه. ولا يزال مستصحباً لهذه المعاني النافعة، والأسباب القوية، حتى يسهل عليه الأمر، ويتعود ذلك.

والصلاة على هذا الوجه، تنهى صاحبها عن كل خلق رذيل، وتحثه على كل خلق جميل؛ لما تؤثره في نفسه من زيادة الإيمان، ونور القلب وسروره، ورغبته التامة في الخير.

وأما الوصية الثانية: فهي حفظ اللسان ومراقبته؛ فإن حفظ اللسان عليه المدار، وهو مِلاك أمر العبد. فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه، ومتى ملكه لسانه فلم يصنه عن الكلام الضار، فإن أمره يختل في دينه ودنياه. فلا يتكلم بكلام، إلا قد عرف نفعه في دينه أو دنياه. وكل كلام يحتمل أن يكون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعه، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام، وصار أسيراً له. وربما أحدث عليه ضرراً لا يتمكن من تلافيه.

وأما الوصية الثالثة: فهي توطين النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله، ويوطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس؛ فإن اليأس عصمة، ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبداً لله حقيقة، سالماً من عبودية الخلق. قد تحرر من رقِّهم، واكتسب بذلك العز والشرف؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم. والله أعلم.

# الحديث الخامس والسبعون

عن مصعب بن سعد أن النبي ﷺ قال: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟). رواه البخاري.

فهذا الحديث فيه: أنه لا ينبغي للأقوياء القادرين أن يستهينوا بالضعفاء العاجزين، لا في أمور الجهاد والنصرة، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب.

بين الرسول ﷺ أنه قد يحدث النصر على الأعداء وبسط الرزق بأسباب الضعفاء، بتوجههم ودعائهم، واستنصارهم واسترزاقهم.

وذلك: أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان.

نوع يشاهد بالحس، وهو القوة بالشجاعة القولية والفعلية، وبحصول الغنى والقدرة على الكسب. وهذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلِّقون به حصول النصر والرزق، حتى وصلت الحال بكثير من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، ووصلت بغيرهم إلى أن يتضجروا بعوائلهم الذين عُدِم كسبهم، وفقدت قوتهم، وهذا كله قصر نظر، وضعف إيمان، وقلة ثقة بوعد الله وكفايته، ونظر للأمور على غير حقيقتها.

النوع الثاني: أسباب معنوية، وهي قوة التوكل على الله في حصول المطالب الدينية والدنيوية، وكمال الثقة به، وقوة التوجه إليه والطلب منه.

وهذه الأمور تقوي جداً من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضروة إلى أن يعلموا حق العلم، أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز. فانكسرت قلوبهم، وتوجهت إلى الله، فأنزل لهم من نصره ورزقه ــ من دفع المكاره، وجلب المنافع ــ ما لا يدركه القادرون. ويسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم في حساب؛ فإن الله جعل لكل أحد رزقاً مقدَّراً.

وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين، وأعان القادرين على ذلك، وخصوصاً من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال.

فكم من إنسان كان رزقه مقتَّراً، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به، وسع الله له الرزق من جهات وأسباب شرعية قدرية إلهية.

ومن جهة وعد الله الذي لا يخلف.

﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾. [سورة سبأ: الآية ٣٩]

ومن جهة: دعاء الملائكة كل صباح يوم: «اللهم أعط مُنْفِقاً خَلَفاً، وأعط مُمْسِكاً تَلَفاً».

ومن جهة أن أرزاق هؤلاء الضعفاء تَوَجَّهت إلى من قام بهم، وكانت على يده.

ومن جهة أن يد المعطي هي العليا من جميع الوجوه.

ومن جهة أن المعونة من الله تأتي على قدر المؤنة، وأن البركة تشارك كل ما كان لوجهه، ومراداً به ثوابه. ولهذا نقول:

ومن جهة إخلاص العبد لله، وتقربه إليه بقلبه ولسانه ويده، كلما أنفق، توجه إلى الله وتقرب إليه. وما كان له فهو مبارك.

ومن جهة قوة التوكل، وثقة المنفق، وطمعه في فضل الله وبره. والطمع والرجاء من أكبر الأسباب لحصول المطلوب.

ومن جهة دعاء المستضعفين المُنْفَق عليهم، فإنهم يدعون الله ــ إن قاموا وقعدوا، وفي كل أحوالهم ــ لمن قام بكفايتهم. والدعاء سبب قوي:

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾. [سورة غافر: الآية ٦٠]

وكل هذا مجرب مشاهد، فتباً للمحرومين، وما أجل ربح الموفقين، والله أعلم.

## الحديث السادس والسبعون

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله، فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد) متفق عليه.

هذا الحديث يدل على تنوع كرم الكريم، وأن كرمه وفضله متنوع من وجوه لا تعد ولا تحصى، ولا يدخل في عقول الخلق وخواطرهم.

فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر قيض الله لكل منهما من فضله وكرمه سبباً أوصله إلى الجنة.

فالأول: قاتل في سبيله، وأكرمه الله على يد الرجل الآخر ـ الذي لم يسلم بعد ـ بالشهادة التي هي أعلى المراتب، بعد مرتبة الصديقين، وغرضه في جهاده إعلاء كلمة الله، والتقرب إلى ربه بذلك. فأجره على الله، وليس له على القاتل حق، فثبت أجره على الله.

وأما الآخر: فإن الله تعالى جعل باب التوبة مفتوحاً لكل من أراد التوبة بالإسلام وما دونه، ولم يجعل ذنباً من الذنوب مانعاً من قبول التوبة، كما قال تعالى في حق التائبين:

**﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله؛ إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾**. [سورة الزمر: الآية ٥٣]

فلما أسلم وتاب محا الله عنه الكفر وآثاره، ثم منَّ عليه بالشهادة، فدخل الجنة، كأخيه الذي قتله وأكرمه على يده، ولم يهنه على يد أخيه بقتله، وهو كافر.

فهذا الضحك من الباري يدل على غاية كرمه وجوده، وتنوع بره.

وهذا الضحك الوارد في هذا الحديث وفي غيره من النصوص كغيره من صفات الله. على المؤمن أن يعترف بذلك ويؤمن به، ويجريه على ظاهره، وأن صفاته صفات كمال، ليس له فيها مثل، ولا شبه ولا نِدّ.

فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات، وكلها صفات حمد ومجد وتعظيم وجلال وجمال وكمال. فنؤمن بما جاء به الكتاب والسنة من صفات ربنا، ونعلم أنه لا يتم الإيمان والتوحيد إلا بإثباتها على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده.

وهذا الحديث من جملة الأحاديث المرغبة في الدخول في الإسلام وفتح أبواب التوبة بكل وسيلة؛ فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وما عمله الإنسان في حال كفره، وقد أسلم على ما أسلف، حتى الرقاب التي قتلها نصراً لباطله، والأموال التي استولى عليها من أجل ذلك؛ كل ذلك معفو عنه بعد الإسلام.

وقولنا: «من أجل ذلك» احتراز عن الحقوق التي اقتضتها المعاملات بين المسلمين والكفار؛ فإن الكافر إذا أسلم وعليه حقوق وديون وأعيان أخذها وحصلت له بسبب المعاملة، فإن الإسلام لا يسقطها؛ لأنها معاملات مشتركة بين الناس، برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، بخلاف القسم الأول، فإن كلا من الطرفين ـ المسلمين والكفار ـ إذا حصل الحرب، وترتب عليه قتل وأخذ مال، لا يرد إلا طوعاً، وتبرعاً ممن وصل إليه، والله أعلم.

ويشبه هذا من بعض الوجوه، قتال أهل البغي لأهل العدل، حيث لم يُضَمِّنْهُمُ العلماءُ ما أتلفوه حال الحرب من نفوس وأموال للتأويل، كما أجمع على ذلك الصحابة رضي الله عنهم حين وقعت الفتنة، فأجمعوا على أن ما تلف من نفوس، وأتلف من أموال، ليس فيه ضمان من الطرفين.

وفي قوله: (ثم يتوب الله على الآخر فيسلم) دليل على أن توبة الله على من أسلم أو تاب من ذنوبه متقدمة على توبة العبد، فإنه تعالى أذن بتوبته وقدرها ولطف به، إذ قيض له الأسباب الموجبة لتوبته، فتاب العبد، ثم تاب الله عليه بعد ذلك، بأن محا عنه ما سبق من الجرائم ـ الكفر فما دونه ـ فتوبة العبد محفوفة بتوبتين، تفضل بهما عليه ربه، إذنه له وتقديره وتيسيره للتوبة حتى تاب، ثم قبول توبته ومحو زلته، فهو تعالى التواب الرحيم.

والتوبة من أجل الطاعات وأعظمها، فهذا الحكم ثابت في جميع الطاعات كلها، يوفق الله لها العبد أولاً، وييسر له أسبابها، ويسهل له طرقها، ثم إذا فعلها المطيع قبلها، وكتب له بها رضوانه وثوابه، فما أوسع فضل الكريم، وما أغزر كرمه المتنوع العميم، والله أعلم.

## الحديث السابع والسبعون

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي) متفق عليه.

هذا نهي عن تمني الموت للضر الذي ينزل بالعبد، من مرض أو فقر أو خوف، أو وقوع في شدة ومهلكة، أو نحوها من الأشياء، فإن في تمني الموت لذلك مفاسد.

منها: أنه يؤذن بالتسخط والتضجر من الحالة التي أصيب بها، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته.

ومعلوم أن تمني الموت ينافي ذلك.

ومنها: أنه يُضعف النفس، ويحدث الخَوَر والكسل، ويوقع في اليأس. والمطلوب من العبد مقاومة هذه الأمور، والسعي في إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره، وأن يكون معه من قوة القلب وقوة الطمع في زوال ما نزل به. وذلك موجب لأمرين: اللطف الإلهي لمن أتى بالأسباب المأمور بها، والسعي النافع الذي يوجبه قوة القلب ورجاؤه.

ومنها: أن تمني الموت جهل وحمق، فإنه لا يدري ما يكون بعد الموت، فربما كان كالمستجير من الضر إلى ما هو أفظع منه، من عذاب البرزخ وأهواله.

ومنها: أن الموت يقطع على العبد الأعمال الصالحة التي هو بصدد فعلها

والقيام بها، وبقية عمر المؤمن لا قيمة له، فكيف يتمنى انقطاع عملٍ الذَّرةُ منه خير من الدنيا وما عليها.

وخص من هذا العموم: قيامه بالصبر على الضر الذي أصابه، فإن الله يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

ولهذا قال في آخر الحديث: (فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي) فيجعل العبد الأمر مفوضاً إلى ربه الذي يعلم ما فيه الخير والصلاح له، الذي يعلم من مصالح عبده ما لا يعلم العبد، ويريد له من الخير ما لا يريده، ويلطف به في بلائه كما يلطف به في نعمائه.

والفرق بين هذا وبين قوله ﷺ: (لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن لِيعْزِمِ المَسْألةَ؛ فإن الله لا مكره له)، أن المذكور في الحديث الذي فيه التعليق بعلم الله وإرادته، هو في الأمور المعيّنة التي لا يدري العبد من عاقبتها ومصلحتها.

وأما المذكور في الحديث الآخر: فهي الأمور التي يعلم مصلحتها بل ضرورتها وحاجة كل عبد إليها، وهي مغفرة الله ورحمته ونحوها. فإن العبد يسألها ويطلبها من ربه طلباً جازماً، لا معلق بالمشيئة وغيرها. لأنه مأمور ومحتم عليه السعي فيها، وفي جميع ما يتوسل به إليها.

وهذا كالفرق بين فعل الواجبات والمستحبات الثابت الأمر بها؛ فإن العبد يؤمر بفعلها أمر إيجاب أو استحباب، وبعض الأمور المعينة التي لا يدري العبد من حقيقتها ومصلحتها، فإنه يتوقف حتى يتضح له الأمر فيها.

واستثنى كثير من أهل العلم من هذا، جواز تمني الموت خوفاً من الفتنة، وجعلوا من هذا قول مريم رضي الله عنها:

﴿يا ليتني مِتُّ قبل هذا﴾. [سورة مريم: الآية ٢٣]

كما استثنى بعضهم تمني الموت شوقاً إلى الله. وجعلوا منه قول يوسف ﷺ:

﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين﴾.
[سورة يوسف: الآية ١٠١]

وفي هذا نظر؛ فإن يوسف ﷺ لم يتمن الموت، وإنما سأل الله الثبات على الإسلام، حتى يتوفاه مسلماً، كما يسأل العبد ربه حسن الخاتمة، والله أعلم.

## الحديث الثامن والسبعون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها، فيَنْظرَ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء). رواه مسلم.

أخبر ﷺ في هذا الحديث بحال الدنيا وما هي عليه من الوصف الذي يروق الناظرين والذائقين. ثم أخبر أن الله جعلها محنة وابتلاء للعباد، ثم أمر بفعل الأسباب التي تقي من الوقوع في فتنتها.

فإخباره بأنها حلوة خضرة يعم أوصافها التي هي عليها، فهي حلوة في مذاقها وطعمها، ولذاتها وشهواتها، خضرة في رونقها وحسنها الظاهر، كما قال تعالى:

﴿زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسَوَّمة والأنعام والحرث﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٤]

وقال تعالى:

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾.
[سورة الكهف: الآية ٧]

فهذه اللذات المنوعة فيها، والمناظر البهيجة، جعلها الله ابتلاء منه وامتحاناً، واستخلف فيها العباد لينظر كيف يعملون.

فمن تناولها من حلها، ووضعها في حقها، واستعان بها على ما خلق له من القيام بعبودية الله، كانت زاداً له وراحلة إلى دار أشرف منها وأبقى، وتمت له السعادة الدنيوية والأخروية.

ومن جعلها أكبر هَمِّه، وغاية علمه ومراده، لم يؤتَ منها إلا ما كتب له، وكان مآله بعد ذلك إلى الشقاء، ولم يهنأ بلذاتها ولا شهواتها إلا مدة قليلة، فكانت لذاته قليلة، وأحزانه طويلة.

وكل نوع من لذاتها فيه هذه الفتنة والاختبار، ولكن أبلغ ما يكون وأشد فتنة النساء، فإن فتنتهن عظيمة، والوقوع فيها خطير وضررها كبير؛ فإنهن مصائد الشيطان وحبائله، كم صاد بهن من مُعافى فأصبح أسير شهوته، رهين ذنبه، قد عَزَّ عليه الخلاص، والذنب ذنبه، فإنه الذي لم يحترز من هذه البلية، وإلا فلو تحرز منها، ولم يدخل مداخل التهم، ولا تعرض للبلاء، واستعان باعتصامه بالمولى، لنجا من هذه الفتنة، وخلص من هذه المحنة.

ولهذا حذر النبي ﷺ في هذا الحديث منها على الخصوص. وأخبر بما جَرَّت على من قبلنا من الأمم؛ فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين. والله أعلم.

## الحديث التاسع والسبعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون ــ أو بضع وستون ــ شُعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان). متفق عليه.

هذا الحديث من جملة النصوص الدالة على أن الإيمان اسم يشمل عقائد القلب وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، فكل ما يقرب إلى الله،

وما يحبه ويرضاه، من واجب ومستحب، فإنه داخل في الإيمان، وذكر هنا أعلاه وأدناه، وما بين ذلك وهو الحياء. ولعل ذكر الحياء؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان. فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، والعبد ــ مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويجني عليها ــ أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات.

فأعلى هذه الشعب وأصلها وأساسها، قول: «لا إله إلا الله» صادقًا من قلبه، بحيث يعلم ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم، وهو الألوهية إلا الله وحده؛ فإنه هو ربه الذي يربيه ويربي جميع العالمين بفضله وإحسانه، والكل فقير وهو الغني، والكل عاجز وهو القوي، ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه، مخلصًا له الدين؛ فإن جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل.

ودل على أن شعب الإيمان بعضها يرجع إلى الإخلاص للمعبود الحق، وبعضها يرجع إلى الإحسان إلى الخلق.

ونبه بإماطة الأذى على جميع أنواع الإحسان القولي والفعلي. الإحسان الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضار عن الخلق.

وإذا علمنا أن شعب الإيمان كلها ترجع إلى هذه الأمور، علمنا أن كل خصلة من خصال الخير فهي من الشعب، وقد تكلم العلماء على تعيينها.

فمنهم: من وصل إلى هذا المبلغ المقدر في الحديث.

ومنهم: من قارب ذلك، ولكن إذا فهم المعنى تمكن الإنسان أن يعتد بكل خصلة وردت عن الشارع ــ قولية أو فعلية، ظاهرة أو باطنة ــ من الشعب، ونصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلة وكثرة، وقوة

وضعفاً، وتكميلاً وضده، وهي ترجع إلى تصديق خبرالله وخبر رسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

وقد وصف الله الإيمان بالشجرة الطيبة في أصلها وثمراتها التي أصلها ثابت، وفروعها باسقة في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون. والله أعلم.

## الحديث الثمانون

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان فينظر أيمنَ منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تِلْقَاءَ وجهه، فاتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة). متفق عليه.

هذا حديث عظيم تضمن من عظمة الباري ما لا تحيط به العقول ولا تعبر عنه الألسن.

أخبر ﷺ فيه: أن جميع الخلق سيكلمهم الله مباشرة من دون ترجمان ولا واسطة، ويسألهم عن جميع أعمالهم، خيرها وشرها، دقيقها وجليلها، سابقها ولاحقها، ما علمه العباد وما نسوه منها، وذلك أنه لعظمته وكبريائه كما يخلقهم ويرزقهم في ساعة واحدة، ويبعثهم في ساعة واحدة فإنه يحاسبهم جميعهم في ساعة واحدة، فتبارك من له العظمة والمجد، والملك العظيم والجلال.

وفي هذه الحالة التي يحاسبهم فيها ليس مع العبد أنصار ولا أعوان ولا أولاد ولا أموال، قد جاءه فرداً كما خلقه أول مرة، قد أحاطت به أعماله تطلب الجزاء بالخير أو الشر، عن يمينه وشماله، وأمامه النار لا بد له من ورودها، فهل إلى صدوره منها سبيل؟ لا سبيل إلى ذلك إلا برحمة الله، وبما قدمت يداه من الأعمال المنجية منها.

ولهذا حث النبي ﷺ أمته على اتقاء النار ولو بالشيء اليسير، كشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة.

وفي هذا الحديث: أن من أعظم المنجيات من النار، الإحسان إلى الخلق بالمال والأقوال، وأن العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعروف ولو شيئاً قليلاً، والكلمة الطيبة تشمل النصيحة للخلق بتعليمهم ما يجهلون، وإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية.

وتشمل الكلام المسر للقلوب، الشارح للصدور، المقارن للبشاشة والبشر.

وتشمل الذكر لله والثناء عليه، وذكر أحكامه وشرائعه.

فكل كلام يقرب إلى الله ويحصل به النفع لعباد الله، فهو داخل في الكلمة الطيبة، قال تعالى:

**﴿إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه﴾**.
[سورة فاطر: الآية ١٠]

وقال تعالى:

**﴿والباقيات الصالحات** [وهي كل عمل وقول يقرب إلى الله، ويحصل به النفع لخلقه] **خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾**. [سورة الكهف: الآية ٤٦]
والله أعلم.

## الحديث الحادي والثمانون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (دعوني ما تركتكم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم). متفق عليه.

هذه الأسئلة التي نهى النبي ﷺ عنها: هي التي نهى الله عنها في قوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم﴾.
[سورة المائدة: الآية ١٠١]

وهي الأسئلة عن أشياء من أمور الغيب، أو من الأمور التي عفا الله عنها، فلم يحرمها ولم يوجبها، فيسأل السائل عنها وقت نزول الوحي والتشريع، فربما وجبت بسبب السؤال، وربما حرمت كذلك، فيدخل السائل في قوله ﷺ: (أعظم المسلمين جرماً: من سأل عن شيء لم يحرَّم فَحُرِّم من أجل مسألته).

وكذلك ينهى العبد عن سؤال التعنت والأغلوطات، وينهى أيضاً عن أن يسأل عن الأمور الطفيفة غير المهمة، ويدع السؤال عن الأمور المهمة، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي التي نهى الشارع عنها.

وأما السؤال على وجه الاسترشاد عن المسائل الدينية من أصول وفروع، عبادات أو معاملات، فهي مما أمر الله بها ورسوله، ومما حث عليها، وهي الوسيلة لتعلم العلوم، وإدراك الحقائق، قال تعالى:

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. [سورة الأنبياء: الآية ٧]

وقال:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون؟﴾. [سورة الزخرف: الآية ٤٥]

إلى غيرها من الآيات. وقال ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) وذلك بسلوك طريق التفقه في الدين دراسة وتعلماً وسؤالاً. وقال: (ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِيِّ السؤال).

وقد أمر الله بالرفق بالسائل، وإعطائه مطلوبه، وعدم التضجر منه. وقال في سورة الضحى:

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾.

فهذا يشمل السائل عن العلوم النافعة والسائل لما يحتاجه من أمور الدنيا، من مال وغيره.

ومما يدخل في هذا الحديث: السؤال عن كيفية صفات الباري؛ فإن الأمر في الصفات كلها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش؟ فقال:

«الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أن ذات الله تعالى لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله، ويعرفون ما تعرف لهم به من صفاته وأفعاله، وأما كيفية ذلك، فلا يعلم تأويله إلا الله.

ثم ذكر ﷺ في هذا الحديث أصلين عظيمين:

أحدهما: قوله ﷺ: (فإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه) فكل ما نهى عنه النبي ﷺ من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة، وجب تركه، والكف عنه، امتثالاً وطاعة لله ورسوله.

ولم يقل في النهي: هو كف النفس، وهو مقدور لكل أحد، فكل أحد يقدر على ترك جميع ما نهى الله عنه ورسوله. ولم يضطر العباد إلى شيء من المحرمات المطلقة؛ فإن الحلال واسع، يسع جميع الخلق في عباداتهم ومعاملاتهم، وجميع تصرفاتهم.

وأما إباحة الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر، فإنه في هذه الحالة الملجئة إليه قد صار من جنس الحلال؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات، فتصيرها الضرورة مباحة؛ لأنه تعالى إنما حرم المحرمات حفظاً لعباده، وصيانةً لهم عن

الشرور والمفاسد، ومصلحة لهم، فإذا قاوم ذلك مصلحة أعظم ــ وهو بقاء النفس ــ قدِّمت هذه على تلك رحمة من الله وإحساناً.

وليست الأدوية من هذا الباب، فإن الدواء لا يدخل في باب الضرورات، فإن الله تعالى يشفي المبتلى بأسباب متنوعة، لا تتعين في الدواء. وإن كان الدواء يغلب على الظن الشفاء به، فإنه لا يحل التداوي بالمحرمات، كالخمر وألبان الحمر الأهلية، وأصناف المحرمات، بخلاف المضطر إلى أكل الميتة، فإنه يتيقن أنه إذا لم يأكل منها يموت.

الأصل الثاني: قوله ﷺ: (وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم) وهذا أصل كبير، دل عليه أيضاً قوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

فأوامر الشريعة كلها معلقة بقدرة العبد واستطاعته. فإذا لم يقدر على واجب من الواجبات بالكلية، سقط عنه وجوبه. وإذا قدر على بعضه ــ وذلك البعض عبادة ــ وجب ما يقدر عليه منه، وسقط عنه ما يعجز عنه.

ويدخل في هذا من مسائل الفقه والأحكام ما لا يعد ولا يحصى. فيصلي المريض قائماً، فإن لم يستطع صلى قاعداً، فإن لم يستطع صلى على جنبه، فإن لم يستطع الإيماء برأسه، أومأ بطرفه. ويصوم العبد ما دام قادراً عليه. فإن أَعجزه مرض لا يُرْجى زواله، أطعم عنه كل يوم مسكيناً، وإن كان مرضاً يرجى زواله، أفطر، وقضى عدته من أيام أُخر.

ومن ذلك من عجز عن سترة الصلاة الواجبة، أو عن الاستقبال أو توقِّي النجاسة: سقط عنه ما عجز عنه. وكذلك بقية شروط الصلاة وأركانها، وشروط الطهارة.

ومن تعذرت عليه الطهارة بالماء للعدم، أو للضرر في جميع الطهارة، أو بعضها، عدل إلى طهارة التيمم.

والمعضوب في الحج، عليه أن يستنيب من يحج عنه، إذا كان قادراً على ذلك بماله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب على من قدر عليه باليد، ثم باللسان ثم بالقلب.

وليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج في ترك العبادات التي يعجزون عنها، أو تشق عليهم مشقة غير محتملة.

ومن عليه نفقة واجبة، وعجز عن جميعها، بدأ بزوجته، فرقيقه، فالولد، فالوالدين، فالأقرب ثم الأقرب. وكذلك الفطرة.

وهكذا جميع ما أمر به العبد أمر إيجاب أو استحباب، إذا قدر على بعضه، وعجز عن باقيه، وجب عليه ما يقدر عليه، وسقط عنه ما عجز عنه. وكلها داخلة في هذا الحديث.

ومسائل القرعة لها دخول في هذا الأصل؛ لأن الأمور إذا اشتبهت: لمن هي، ومن أحق بها؟ رجعنا إلى المرجِّحات. فإن تعذر الترجيح من كل وجه، سقط هذا الواجب للعجز عنه، وعدل إلى القرعة التي هي غاية ما يمكن. وهي مسائل كثيرة معروفة في كتب الفقه.

والولايات كلها ـ صغارها وكبارها ـ تدخل تحت هذا الأصل؛ فإن كل ولاية يجب فيها تولية المتصف بالأوصاف متى يحصل بها مقصود الولاية. فإن تعذرت كلها، وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل.

وكما يستدل على هذا الأصل بتلك الآية وذلك الحديث، فإنه يستدل عليها بالآيات والأحاديث التي نفى الله ورسوله فيها الحرج عن الأمة، كقوله تعالى:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

**﴿لينفق ذو سعة من سعته، ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾** [سورة الطلاق: الآية ٧]

**﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** [سورة الحج: الآية ٧٨]

**﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾** [سورة المائدة: الآية ٦]

**﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** [سورة البقرة: الآية ١٨٥]

**﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾** [سورة النساء: الآية ٢٨]

فالتخفيفات الشرعية في العبادات وغيرها بجميع أنواعها داخلة في هذا الأصل، مع ما يستدل على هذا بما لله تعالى من الأسماء والصفات المقتضية لذلك، كالحمد والحكمة، والرحمة الواسعة، واللطف والكرم والامتنان. فإن آثار هذه الأسماء الجليلة الجميلة كما هي سابغة وافرة واسعة في المخلوقات والتدبيرات، فهي كذلك في الشرائع، بل أعظم لأنها هي الغاية في الخلق. وهي الوسيلة العظمى للسعادة الأبدية.

فالله تعالى خلق المكلفين ليقوموا بعبوديته. وجعل عبوديته والقيام بشرعه طريقاً إلى نيل رضاه وكرامته. كما قال تعالى ــ بعد ما شرع الطهارة بأنواعها ــ

**﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم؛ لعلكم تشكرون﴾** [سورة المائدة: الآية ٦]

فظهرت آثار رحمته ونعمته في الشرعيات والمباحات، كما ظهرت في الموجودات. فله تعالى أتم الحمد وأعلاه، وأوفر الشكر والثناء وأغلاه، وغاية الحب والتعظيم ومنتهاه. وبالله التوفيق.

## الحديث الثاني والثمانون

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله). متفق عليه.

يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله، كما قال ﷺ في الحديث الآخر: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء).

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم، من رحمة الله.

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى:

**﴿إِن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم. فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه

على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فوته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك. ويعلم أن الجزاء من جنس العمل. ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخواناً متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلىء قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق. ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل.

وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد، أن يكون محباً لوصول الخير لكافة الخلق عموماً، وللمؤمنين خصوصاً، كارهاً حصول الشر والضرر عليهم. فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته.

ومن أُصيب حبيبه بموت أوغيره من المصائب، فإن كان حزنه عليه لرحمة، فهو محمود، ولا ينافي الصبر والرضى، لأنه ﷺ لما بكى لموت ولد ابنته، قال له سعد: «ما هذا يا رسول الله؟» فأتبع ذلك بعبرة أُخرى، وقال: (هذه رحمة يجعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) وقال عند موت ابنه إبراهيم: (القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون).

وكذلك رحمة الأطفال الصغار والرقة عليهم، وإدخال السرور عليهم من الرحمة، وأما عدم المبالاة بهم، وعدم الرقة عليهم، فمن الجفاء والغلظة والقسوة، كما قال بعض جُفاة الأعراب حين رأى النبي ﷺ وأصحابه يقبِّلون

أولادهم الصغار، فقال ذلك الأعرابـي: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحداً منهم، فقال النبـي ﷺ: (أو أملك لك شيئاً أن نزع الله من قلبك الرحمة؟).

ومن الرحمة: رحمة المرأة البغيّ حين سقت الكلب، الذي كاد يأكل الثرى من العطش، فغفر الله لها بسبب تلك الرحمة.

وضدها: تعذيب المرأة التي ربطت الهرة، لا هي أَطْعَمَتْها وسَقَتْها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأرض[1]، حتى ماتت.

ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب، أن من أحسن إلى بهائمه بالإطعام والسقي والملاحظة النافعة، أن الله يبارك له فيها. ومن أساء إليها، عوقب في الدنيا قبل الآخرة، وقال تعالى:

**﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣٢]

وذلك لما في قلب الأول من القسوة والغلظة والشرّ، وما في قلب الآخر من الرحمة والرقة والرأفة؛ إذ هو بصدد إحياء كل من له قدرة على إحيائه من الناس، كما أن ما في قلب الأول من القسوة، مستعد لقتل النفوس كلها.

فنسأل الله أن يجعل في قلوبنا رحمة توجب لنا سلوك كل باب من أبواب رحمة الله، ونحنو بها على جميـع خلق الله، وأن يجعلها موصلة لنا إلى رحمته وكرامته، إنه جواد كريم.

---

(١) حشراتها وهَوَامِّها.

## الحديث الثالث والثمانون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنْسأ له في أَثَره، فليَصِلْ رحمه).

متفق عليه.

هذا الحديث فيه: الحث على صلة الرحم، وبيان أنها كما أنها موجبة لرضى الله وثوابه في الآخرة، فإنها موجبة للثواب العاجل، بحصول أحب الأمور للعبد، وأنها سبب لبسط الرزق وتوسيعه، وسبب لطول العمر. وذلك حق على حقيقته؛ فإنه تعالى هو الخالق للأسباب ومسبباتها.

وقد جعل الله لكل مطلوب سبباً وطريقاً يُنال به، وهذا جار على الأصل الكبير، وأنه من حكمته وحمده جعل الجزاء من جنس العمل، فكما وصل رحمه بالبر والإحسان المتنوع، وأدخل على قلوبهم السرور، وصل الله عمره، ووصل رزقه، وفتح له من أبواب الرزق وبركاته، ما لا يحصل له بدون هذا السبب الجليل.

وكما أن الصحة وطيب الهواء وطيب الغذاء، واستعمال الأمور المقوية للأبدان والقلوب، من أسباب طول العمر، فكذلك صلة الرحم جعلها الله سبباً ربانياً، فإن الأسباب التي تحصل بها المحبوبات الدنيوية قسمان: أمور محسوسة، تدخل في إدراك الحواس، ومدارك العقول. وأُمور ربانية إلٰهية قدَّرها مَنْ هو على كل شيء قدير، ومَنْ جميع الأسباب وأمور العالم منقادة لمشيئته، ومَنْ تكفل بالكفاية للمتوكلين، ووعد بالرزق والخروج من المضائق للمتقين. قال تعالى:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾. [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

وإذا كان النبي ﷺ يقول: (ما نقصت صدقة من مال) بل تزيده، فكيف بالصدقة والهدية على أقاربه وأرحامه؟

وفي هذا الحديث دليل: على أن قصد العامل، ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا لا يضره إذا كان القصد وجه الله والدار الآخرة. فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل، ووعد بذلك العاملين؛ لأن الأمل واستشعار ذلك ينشط العاملين، ويبعث هممهم على الخير، كما أن الوعيد على الجرائم، وذكر عقوباتها مما يخوِّف الله به عباده ويبعثهم على ترك الذنوب والجرائم.

فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصاً لله، مستعيناً بما في الأعمال من المرغبات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى، والله الموفق.

## الحديث الرابع والثمانون

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب). متفق عليه.

هذا الحديث فيه الحث على قوة محبة الرسل، واتباعهم بحسب مراتبهم، والتحذير من محبة ضدهم؛ فإن المحبة دليل على قوة اتصال المحب بمن يحبه، ومناسبته لأخلاقه، واقتدائه به، فهي دليل على وجود ذلك، وهي أيضاً باعثة على ذلك.

وأيضاً من أحب الله تعالى، فإن نفس محبته من أعظم ما يقربه إلى الله؛ فإن الله تعالى شكور، يعطي المتقرب أعظم ـ بأضعاف مضاعفة ـ مما بذل، ومن شكره تعالى: أن يلحقه بمن أحب، وإن قصر عمله، قال تعالى:

**﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً﴾**

[سورة النساء: الآية ٦٩]

ولهذا قال أنس: «ما فرحنا بشيء فرحنا بقوله ﷺ: (المرء مع من أحب) قال: فأنا أحب رسول الله ﷺ، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم».

وقال تعالى:

﴿جنات عدن يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾
[سورة الرعد: الآية ٢٣]

وقال سبحانه:

﴿والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم، وما أَلَتْنَاهُم[١] من عملهم من شيء﴾.
[سورة الطور: الآية ٢١]

وهذا مشاهد مجرب إذا أحب العبد أهل الخير رأيته منضماً إليهم، حريصاً على أن يكون مثلهم، وإذا أحب أهل الشر انضم إليهم، وعمل بأعمالهم.

وقال ﷺ: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)، و(مثل الجليس الصالح، كحامل المسك: إما أن يُحْذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة).

وإذا كان هذا في محبة الخلق فيما بينهم، فكيف بمن أحب الله، وقدَّم محبته وخشيته على كل شيء. فإنه مع الله، وقد حصل له القرب الكامل منه، وهو قرب المحبين، وكان الله معه. فإن الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون.

وأعلى أنواع الإحسان محبة الرحيم الكريم الرحمن، محبة مقرونة بمعرفته.

فنسأل الله أن يرزقنا حبه، وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقرّب إلى حبه، إنه جواد كريم، وبالله التوفيق.

---

(١) نَقَصْناهم.

## الحديث الخامس والثمانون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر: كبر ثلاثاً، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عَنَّا بُعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في المال والأهل والولد) وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: (آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون).

رواه مسلم.

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة تتعلق بالسفر.

وقد اشتملت هذه الأدعية على طلب مصالح الدين ـ التي هي أهم الأمور ـ ومصالح الدنيا، وعلى حصول المحاب، ودفع المكاره والمضار وعلى شكر نعم الله، والتذكر لآلائه وكرمه، واشتمال السفر على طاعة الله، وما يقرب إليه.

فقوله: (كان إذا استوى على راحلته خارجاً إلى سفر، كبر ثلاثاً) هو افتتاح لسفره بتكبير الله، والثناء عليه، كما كان يختم بذلك.

وقوله ﷺ: (سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مُقْرِنين[1]، وإنا إلى ربنا لَمُنْقَلِبون[2]) فيه الثناء على الله بتسخيره للمركوبات، التي تحمل الأثقال والنفوس إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، واعتراف بنعمة الله بالمركوبات.

وهذا يدخل فيه المركوبات: من الإبل، ومن السفن البحرية، والبرية، والهوائية، فكلها تدخل في هذا.

(١) مطيقين تذليله وتسخيره.

(٢) راجعون يوم القيامة.

ولهذا قال نوح ﷺ للراكبين معه في السفينة:

﴿اركبوا فيها بسم الله مَجريها ومُرْساها﴾ [سورة هود: الآية ٤١]

فهذه المراكب، كلها وأسبابها، وما به تتم وتكمل، كله من نعم الله وتسخيره. يجب على العباد الاعتراف لله بنعمته فيها، وخصوصاً وقت مباشرتها.

وفيه تذكر الحالة التي لولا الباري لما حصلت وذللت في قوله: (وما كنا له مقرنين) أي مطيقين، لو رَدَّ الأمر إلى حولنا وقوتنا، لكنا أضعف شيء علماً وقدرة وإرادة، ولكنه تعالى سخر الحيوانات وعلّم الإنسان صنعة المركوبات، كما امتن الله في تيسير صناعة الدروع الواقية في قوله:

﴿وعلمناه صنعة لَبُوسٍ[1] لكم لتُحْصِنَكُمْ من بأسكم[2] فهل أنتم شاكرون؟﴾. [سورة الأنبياء: الآية ٨٠]

فعلى الخلق أن يشكروا الله، إذْ علمهم صناعة اللباس الساتر للعورات، ولباس الرياش، ولباس الحرب وآلات الحرب، وعلمهم صنعة الفلك البحرية والبرية والهوائية، وصنعة كل ما يحتاجون إلى الانتفاع به، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس متنوعة. ولكن أكثر الخلق في غفلة عن شكر الله، بل في عتو واستكبار على الله، وتجبر بهذه النعم على العباد.

وفي هذا الحديث التذكر بسفر الدنيا الحِسِّي لسفر الآخرة المعنوي؛ لقوله: (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) فكما بدأ الخلق فهو يعيدهم ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وقوله: (اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى).

---

(١) درع تلبسونها وقت الحرب.

(٢) حربكم وشدتكم وقوتكم.

سأل الله أن يكون السفر موصوفاً بهذا الوصف الجليل، محتوياً على أعمال البر كلها المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحقوق الخلق، وعلى التقوى التي هي اتقاء سخط الله، بترك جميع ما يكرهه الله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كما سأله العمل بما يرضاه الله.

وهذا يشمل جميع الطاعات والقربات، ومتى كان السفر على هذا الوصف، فهو السفر الرابح، وهو السفر المبارك.

وقد كانت أسفاره ﷺ كلها محتوية لهذه المعاني الجليلة.

ثم سأل الله الإعانة، وتهوين مشاق السفر، فقال: (اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطْوِ عَنَّا بُعْدَه) لأن السفر قطعة من العذاب، فسأل تهوينه، وطيَّ بعيده، وذلك بتخفيف الهموم والمشاق، وبالبركة في السير، حتى يقطع المسافات البعيدة، وهو غير مكترِث، ويقيِّضَ له من الأسباب المريحة في السفر أموراً كثيرة، مثل راحة القلب، ومناسبة الرفقة، وتيسير السير، وأمن الطريق من المخاوف، وغير ذلك من الأسباب.

فكم من سفر امتد أياماً كثيرة، لكن الله هونه، ويسره على أهله، وكم من سفر قصير صار أصعب من كل صعب، فما ثَمَّ إلا تيسير الله ولطفه ومعونته.

ولهذا قال في تحقيق تهوين السفر: (اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر) أي مشقته وصعوبته (وكآبة المنظر) أي الحزن الملازم والهم الدائم (وسوء المنقلب في المال والأهل والولد) أي: يا رب نسألك أن تحفظ علينا كل ما خلَّفناه وراءنا، وفارقناه بسفرنا من أهل وولد ومال، وأن ننقلب إليهم مسرورين بالسلامة، والنعم المتواترة علينا وعليهم؛ فبذلك تتم النعمة، ويكمل السرور.

وكذلك يقول هذا في رجوعه، وعَوده من سفره، ويزيد: (آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون) أي نسألك اللهم أن تجعلنا في إيابنا ورجوعنا ملازمين

للتوبة لك، وعبادتك وحمدك، وأن تختم سفرنا بطاعتك، كما ابتدأته بالتوفيق لها.

ولهذا قال تعالى:

**﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾** [سورة الإسراء: الآية ٨٠]

ومدخل الصدق ومخرجه، أن تكون أسفار العبد، ومداخله ومخارجه كلها تحتوي على الصدق والحق، والاشتغال بما يحبه الله، مقرونة بالتوكل على الله، ومصحوبة بمعونته.

وفيه الاعتراف بنعمته آخراً، كما اعترف بها أولاً، في قوله: (لربنا حامدون).

فكما أن على العبد أن يحمد الله على التوفيق لفعل العبادة والشروع في الحاجة، فعليه أن يحمد الله على تكميلها وتمامها، والفراغ منها؛ فإن الفضل فضله، والخير خيره، والأسباب أسبابه. والله ذو الفضل العظيم.

## الحديث السادس والثمانون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: (خذوا عني مناسككم). رواه أحمد ومسلم والنسائي.

هذا كلام جامع استدل به أهل العلم على مشروعية جميع ما فعله النبي ﷺ، وما قاله في حجه وجوباً في الواجبات، ومستحباً في المستحبات، وهو نظير قوله ﷺ في الصلاة: (صلوا كما رأيتموني أصلي) فكما أن ذلك يشمل جزئيات الصلاة كلها، فهذا يشمل جزئيات المناسك كلها.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن جداً في خلاصة حج النبي ﷺ، ذكره في «القواعد النورانية»، فقال قدس الله روحه ورضي عنه:

وقد ثبت بالنقل المتواتر عند الخاصة من علماء الحديث من وجوه كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما: أنه ﷺ لما حج حجة الوداع أحرم هو والمسلمون من ذي الحليفة. فقال: (من شاء أن يُهِلَّ[1] بعمرة فليفعل، ومن شاء أن يُهِلَّ بحجة فليفعل، ومن شاء أن يُهِلَّ بعمرة وحجة فليفعل) فلما قدموا وطافوا بالبيت وبين الصفا والمروة، أمر جميع المسلمين الذين حجوا معه أن يحلوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة، إلا من ساق الهدي، فإنه لا يحل حتى يَبْلغ الهديُ مَحِلَّه[2]، فراجعه بعضهم في ذلك. فغضب، وقال: (انظروا ما أمرتكم به فافعلوه). وكان هو ﷺ قد ساق الهدي، فلم يحل من إحرامه، ولما رأى كراهة بعضهم للإحلال قال: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة، ولولا أن معي الهدي لأحللت). وقال أيضاً: (إني لَبَّدْتُ رأسي وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر). فحل المسلمون جميعهم إلا النفر الذين ساقوا الهدي؛ منهم: رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله. فلما كان يوم التروية أحرم المحلون بالحج، وهم ذاهبون إلى منى، فبات بهم تلك الليلة بمنى وصلى بهم فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم سار بهم إلى نمرة، على طريق ضَبٍّ، ونمرة خارجة عن عرفة، من يمانيها وغربيها، ليست من الحرم، ولا من عرفة. فنصبت له القبة بنمرة. وهناك كان ينزل خلفاؤه الراشدون بعده، وبها الأسواق، وقضاء الحاجة، والأكل، ونحو ذلك. فلما زالت الشمس ركب هو ومن ركب معه، وسار المسلمون إلى المصلى ببطن عُرَنَة، حيث قد بني المسجد وليس هو من الحرم، ولا من عَرَفَة. وإنما هو برزخ بين المشعرين: الحلال والحرام هناك، بينه وبين الموقف نحو ميل، فخطب فيهم خطبة الحج على راحلته، وكان يوم الجمعة، ثم نزل فصلى بهم الظهر والعصر مقصورتين مجموعتين. ثم سار ـ والمسلمون معه ـ إلى الموقف بعرفة عند الجبل المعروف بجبل الرحمة. واسمه «إلال» على وزن هلال، وهو الذي تسميه العامة عرفة، فلم يزل هو والمسلمون في الذكر

---

(١) هو رفع الصوت بالتلبية، والمراد هنا مع النية. (٢) مكان ذبحه في الحرم.

والدعاء إلى أن غربت الشمس، فدفع بهم إلى مزدلفة، فصلى المغرب والعشاء بعد مغيب الشفق قبل حط الرحال، حين نزلوا بمزدلفة، وبات بها حتى طلع الفجر، فصلى بالمسلمين الفجر في أول وقتها، مغلساً بها زيادة على كل يوم، ثم وقف عند قزَح، وهو جبل مزدلفة الذي يسمى المشعر الحرام، فلم يزل واقفاً بالمسلمين إلى أن أسفر جداً، ثم دفع بهم حتى قدم منى، فاستفتحها برمي جمرة العقبة، ثم رجع إلى منزله بمنى، فحلق رأسه، ثم نحر ثلاثاً وستين بَدَنة من الهدي الذي ساقه، وأمر عليًّا فنحر الباقي وكان مائة بدنة، ثم أفاض إلى مكة، فطاف طواف الإفاضة، وكان قد عَجَّل ضَعَفة أهله من مزدلفة قبل طلوع الفجر، فرموا الجمرة بليل. ثم أقام بالمسلمين أيام منى الثلاث، يصلي بهم الصلوات الخمس مقصورة غير مجموعة، يرمي كل يوم الجمرات الثلاث بعد زوال الشمس، يستفتح بالجمرة الأولى ــ وهي الصغرى، وهي الدنيا إلى منى ــ والقصوى من مكة. ويختتم بجمرة العقبة، ويقف بين الجمرتين: الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة وقوفاً طويلاً بقدر سورة البقرة، يذكر الله ويدعو؛ فإن المواقف ثلاث: عرفة، ومزدلفة، ومنى. ثم أفاض آخر أيام التشريق بعد رمي الجمرات هو والمسلمون، فنزل بالمحصَّب، عند خيف بني كنانة، فبات هو والمسلمون ليلة الأربعاء، وبعث تلك الليلة عائشة مع أخيها عبد الرحمن؛ لتعتمر من التنعيم، وهو أقرب أطراف الحرم إلى مكة، من طريق أهل المدينة. وقد بُني بعده هناك مسجد سماه الناس مسجد عائشة؛ لأنه لم يعتمر بعد الحج مع النبي ﷺ من أصحابه أحد قط إلا عائشة، لأجل أنها كانت قد حاضت لما قدمت وكانت معتمرة. فلم تطف قبل الوقوف بالبيت، ولا بين الصفا والمروة، وقال لها النبي ﷺ: (اقضي ما يقضي الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت، ولا بين الصفا والمروة) ثم ودع البيت هو والمسلمون ورجعوا إلى المدينة. ولم يقم بعد أيام التشريق، ولا اعتمر أحد قط على عهده عمرة يخرج فيها من الحرم إلى الحل إلا عائشة ــ رضي الله عنها ــ وحدها فأخذ فقهاء الحديث ــ كأحمد وغيره ــ بسنته في ذلك كله، إلى آخر ما قال رحمه الله ورضي عنه. والله أعلم.

## الحديث السابع والثمانون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (﴿**قل هو الله أحد**﴾ تعدل ثلث القرآن). رواه مسلم.

تكلم أهل العلم على معنى هذه المعادلة وتوجيهها.

وأحسن ما قيل فيها: أن معادلتها لثلث القرآن، لما تضمنته من المعاني العظيمة: معاني التوحيد، وأصول الإيمان. فإن المواضيع الجليلة التي اشتمل القرآن عليها:

١ ــ إما أحكام شرعية: ظاهرة أو باطنة، عبادات أو معاملات.

٢ ــ وإما قصص وأخبار عن المخلوقات السابقة واللاحقة، وأحوال المكلفين في الجزاء على الأعمال.

٣ ــ وإما توحيد ومعارف، تتعلق بأسماء الله وصفاته، وتفرده بالوحدانية والكمال، وتنزهه عن كل عيب، ومماثلة أحد من المخلوقات.

فسورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ مشتملة على هذا، وشاملة لكل ما يجب اعتقاده من هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها.

ولهذا أمرنا الله أن نقولها بألسنتنا، ونعرفها بقلوبنا، ونعترف بها وندين لله باعتقادها، والتعبد لله بها. فقال: ﴿**قل هو الله أحد**﴾.

فالله: هو المألوه المستحق لمعاني الأُلوهية كلها، التي توجب أن يكون هو المعبود وحده، المحمود وحده، المشكور وحده، المعظم المقدس، ذو الجلال والإكرام.

و«الأحد» يعني: الذي تفرد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال وحمد، وحكمة ورحمة، وغيرها من صفات الكمال.

فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه. فهو الأحد

في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرته، وعظمته وجلاله، وجماله وحمده، وحكمته ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته، من كل صفة من هذه الصفات.

ومن تحقيق أحديته وتفرده بها أنه «الصمد» أي: الرب الكامل، والسيد العظيم، الذي لم يبق صفة كمال إلا اتصف بها. ووصف بغايتها وكمالها، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها ألسنتهم. وهو المصمود إليه، المقصود في جميع الحوائج والنوائب

﴿يسأله من في السموات والأرض. كل يوم هو في شأن﴾
[سورة الرحمن: الآية ٢٩]

فهو الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم، في إيجادهم وإعدادهم، وإمدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجوه، ليس لأحد منها غنى عنه مثقال ذرة، في كل حالة من أحوالها.

فالصمد: هو المصمود إليه، المقصود في كل شيء، لكماله وكرمه وجوده وإحسانه. ولذلك ﴿لم يلد ولم يولد﴾ فإن المخلوقات كلها متولد بعضها من بعض، وبعضها والد بعض، وبعضها مولود. وكل مخلوق فإنه مخلوق من مادة. وأما الرب جل جلاله، فإنه منزه عن مماثلتها في هذا الوصف، كما هو منزه عن مماثلتها في كل صفة نقص.

ولهذا حقق ذلك التنزيه، وتمم ذلك الكمال بقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي: ليس له نظير ولا مكافىء ولا مثيل، لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في جميع حقوقه التي اختص بها.

فحقه الخاص أمران: التفرد بالكمال كله من جميع الوجوه، والعبودية الخالصة من جميع الخلق.

فحق لسورة تتضمن هذه الجمل العظيمة: أن تعادل ثلث القرآن، فإن

جميع ما في القرآن من الأسماء الحسنى، ومن الصفات العظيمة العليا، ومن أفعال الله وأحكام صفاته، تفاصيل لهذه الأسماء التي ذكرت في هذه السورة، بل كل ما في القرآن من العبوديات الظاهرة والباطنة، وأصنافها وتفاصيلها، تفصيل لمضمون هذه السورة. والله أعلم.

## الحديث الثامن والثمانون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلَكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها).

متفق عليه.

الحسد نوعان: نوع محرم مذموم على كل حال، وهو أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد ـ دينية أو دنيوية ـ وسواء أحب ذلك محبة استقرت في قلبه، ولم يجاهد نفسه عنها، أو سعى مع ذلك في إزالتها وإخفائها، وهذا أقبح، فإنه ظلم متكرر.

وهذا النوع هو الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والنوع الثاني أن لا يتمنى زوال نعمة الله عن الغير، ولكن يتمنى حصول مثلها له، أو فوقها أو دونها.

وهذا نوعان محمود، وغير محمود.

فالمحمود من ذلك: أن يرى نعمة الله الدينية على عبده، فيتمنى أن يكون له مثلها، فهذا من باب تمني الخير، فإن قارن ذلك سعي وعمل لتحصيل ذلك، فهو نور على نور.

وأعظم من يُغْبَطُ: من كان عنده مال قد حصل له من حِلِّة، ثم سلط

ووفق على إنفاقه في الحق، في الحقوق الواجبة والمستحبة، فإن هذا من أعظم البرهان على الإيمان، ومن أعظم أنواع الإحسان.

ومن كان عنده علم وحكمة علمه الله إياها، فوفق لبذلها في التعليم والحكم بين الناس، فهذان النوعان من الإحسان لا يعادلهما شيء.

الأول: ينفع الخلق بماله، ويدفع حاجاتهم، وينفق في المشاريع الخيرية، فتقوم ويتسلسل نفعها، ويعظم وقعها.

والثاني: ينفع الناس بعلمه، وينشر بينهم الدين والعلم الذي يهتدي به العباد في جميع أمورهم، من عبادات ومعاملات وغيرها.

ثم بعد هذين الاثنين: تكون الغِبْطة على الخير، بحسب حاله ودرجاته عند الله. ولهذا أمر الله تعالى بالفرح والاستبشار بحصول هذا الخير، وإنه لا يوفق لذلك إلا أهل الحظوظ العظيمة العالية. قال تعالى:

**﴿قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون﴾**
[سورة يونس: الآية ٥٨]

وقال تعالى:

**﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم﴾**. [سورة فصلت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

وقد يكون من تمنى شيئاً من هذه الخيرات، له مثل أجر الفاعل إذا صدقت نيته، وصمم من عزيمته أن لو قدر على ذلك العمل، لعمل مثله، كما ثبت بذلك الحديث. وخصوصاً إذا شرع وسعى بعض السعي.

وأما الغبطة التي هي غير محمودة، فهي تمني حصول مطالب الدنيا لأجل اللذات، وتناول الشهوات، كما قال الله تعالى حكاية عن قوم قارون

﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم﴾
[سورة القصص: الآية ٧٩]

فإن تمنى مثل حالة من يعمل السيئات فهو بنيته، ووزرهما سواء.

فبهذا التفصيل يتضح الحسد المذموم في كل حال. والحسد الذي هو الغبطة، الذي يحمد في حال، ويذم في حال. والله أعلم.

## الحديث التاسع والثمانون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله: (أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى) رواه مسلم.

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن «الهدى» هو العلم النافع. و«التقى» العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة، ومعارف صادقة، فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله، فهو التقى.

و«العفاف والغنى» يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة.

فمن رزق الهدى والتقى، والعفاف والغنى، نال السعادتين، وحصل له كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب. والله أعلم.

## الحديث التسعون

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه). رواه مسلم.

لا شك أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمنين، فذكر النبي ﷺ في هذا الحديث لها سببين، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع، الإيمان بالله واليوم الآخر، المتضمن للإيمان بالأصول التي ذكرها الله بقوله:

﴿قولوا آمنا بالله...﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها، لأن الإيمان الصحيح يقتضي ذلك ويستلزمه، والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم من القول والفعل والمال والمعاملة ما يحب أن يعاملوه به.

فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس، فانظر، هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا؟ فإن كنت تحب ذلك، كنت محباً لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة، فقد ضيعت هذا الواجب العظيم.

فالجملة الأولى فيها القيام بحق الله، والجملة الثانية فيها القيام بحق الخلق. والله أعلم.

## الحديث الحادي والتسعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم، قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) رواه مسلم.

فيه إثبات الرضى لله، وذكر متعلقاته، وإثبات الكراهة منه، وذكر متعلقاتها؛ فإن الله جل جلاله من كرمه على عباده، يرضى لهم ما فيه مصلحتهم، وسعادتهم في العاجل والآجل.

وذلك بالقيام بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له بأن يقوم الناس بعقائد الإيمان وأصوله، وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، وبالأعمال الصالحة، والأخلاق الزاكية، كل ذلك خالصاً لله موافقاً لمرضاته، على سنة نبيه، ويعتصموا بحبل الله، وهو دينه الذي هو الوصلة بينه وبين عباده، فيقوموا به مجتمعين متعاونين على البر والتقوى (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يَخْذُله، ولا يكذبه، ولا يَحْقِره)، بل يكون محباً له مصافياً، وأخاً معاوناً.

وبهذا الأصل والذي قبله يكمل الدين، وتتم النعمة على المسلمين، ويعزهم الله بذلك وينصرهم، لقيامهم بجميع الوسائل التي أمرهم الله بها والتي تكفل لمن أقام بها بالنصر والتمكين، وبالفلاح والنجاح العاجل والآجل.

ثم ذكر ما كره الله لعباده، مما ينافي هذه الأمور التي يحبها وينقضها فمنها: كثرة القيل والقال، فإن ذلك من دواعي الكذب، وعدم التثبت، واعتقاد غير الحق. ومن أسباب وقوع الفتن، وتنافر القلوب، ومن الاشتغال بالأمور الضارة عن الأمور النافعة. وقلَّ أن يسلم أحد من شيء من ذلك، إذا كانت رغبته في القيل والقال.

وأما قوله: (وكثرة السؤال) فهذا هو السؤال المذموم، كسؤال الدنيا من غير حاجة وضرورة، والسؤال على وجه التعنت والإعنات، وعن الأمور التي يخشى من ضررها، أوعن الأمور التي لا نفع فيها، الداخلة في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾
[سورة المائدة: الآية ١٠١]

وأما السؤال عن العلوم النافعة على وجه الاسترشاد أو الإرشاد، فهذا محمود مأمور به.

وقوله: (وإضاعة المال) وذلك إما بترك حفظه حتى يضيع، أو يكون عرضة للسراق والضياع، وإما بإهمال عمارة عقاره، أو الإنفاق على حيوانه،

وإما بإنفاق المال في الأمور الضارة، أو غير النافعة. فكل هذا داخل في إضاعة المال. وإما بتولي ناقصي العقول لها، كالصغار والسفهاء والمجانين ونحوهم، لأن الله تعالى جعل الأموال قياماً للناس، بها تقوم مصالحهم الدينية والدنيوية، فتمام النعمة فيها أن تصرف فيما خلقت له: من المنافع والأمور الشرعية، والمنافع الدنيوية.

وما كرهه الله لعباده، فهو يحب منهم ضدها، يحب منهم أن يكونوا متثبتين في جميع ما يقولونه، وأن لا ينقلوا كل ما سمعوه، وأن يكونوا متحرين للصدق، وأن لا يسألوا إلا عما ينفع، وأن يحفظوا أموالهم ويدبروها، ويتصرفوا فيها التصرفات النافعة، ويصرفوها في المصارف النافعة. ولهذا قال تعالى:

**﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾.**

[سورة النساء: الآية ٥]

والحمد لله أولاً وآخراً. والله أعلم.

## الحديث الثاني والتسعون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ، إلا ما أخذته من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله ﷺ: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك). متفق عليه.

أخذ العلماء من هذا الحديث فقهاً كثيراً، سأشير إلى ما يحضرني منه، أن المستفتي والمتظلم يجوز أن يتكلم بالصدق فيمن تعلق به الاستفتاء والتظلم، وليس من الغيبة المحرمة، وهو أحد المواضع الْمُسْتَثْنَيَات من الغيبة، ويجمع الجميع الحاجة إلى التكلم في الغير؛ فإن الغيبة المحرمة ذِكرك أخاك بما يكره،

فإن احتيج إلى ذلك ـ كما ذكرنا وكما في النصيحة الخاصة، أو العامة، أو لا يعرف إلا بلقبه ـ جاز ذلك بمقدار ما يحصل به المقصود.

ومنه: أن نفقة الأولاد واجبة على الأب، وأنه يختص بها، لا تشاركه الأم فيها ولا غيره.

وكذلك فيه: وجوب نفقة الزوجة، وأن مقدار ذلك الكفاية، لقوله ﷺ: (خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك) وأن الكفاية معتبرة بالعرف، بحسب أحوال الناس: في زمانهم ومكانهم، ويسرهم وعسرهم، وأن المنفق إذا امتنع أو شح عن النفقة أصلاً أو تكميلاً، فلمن له النفقة أو يباشر الإنفاق أن يأخذ من ماله، ولو بغير علمه، وذلك لأن السبب ظاهر، ولا ينسب في هذه الحالة إلى خيانة، فلا يدخل في قوله ﷺ: (لا تخن من خانك).

وهذا هو القول الوسط الصحيح في مسألة الأخذ من مال من له حق عليه بغير علمه بمقدار حقه، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد أنه لا يجوز ذلك، إلا إذا كان السبب ظاهراً، كالنفقة على الزوجة والأولاد والمماليك ونحوهم، وكحق الضيف.

ومنه أن المتولي أمراً من الأمور يحتاج فيه إلى تقدير مالي يقبل قوله في التقدير؛ لأنه مؤتمن، له الولاية على ذلك الشيء.

ومنه أن المستفتي فتوى لها تعلق بالغير، إذا غلب على ظن المسؤول صدقه لا يحتاج إلى إحضار ذلك الغير، وخصوصاً إذا كان في ذلك مفسدة، كما في هذه القضية؛ فإنه لو أحضر أبا سفيان لهذه الشكاية، لم يؤمن أن يقع بينه وبين زوجه ما لا ينبغي.

وليس في هذا دلالة على الغائب؛ فإن هذا ليس بحكم، وإنما هو استفتاء. والله أعلم.

## الحديث الثالث والتسعون

عن أبـي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحكُمْ أحد بين اثنين وهو غضبان). متفق عليه.

هذا الحديث يدل على أمور:

أحدها: نهي الحاكم بين الناس أن يحكم في كل قضية معينة بين اثنين وهو غضبان، سواء كان ذلك في القضايا الدينية أو الدنيوية. وذلك لما في الغضب من تغير الفكر وانحرافه. وهذا الانحراف للفكر يضر في استحضاره للحق، ويضر أيضاً في قصده الحق، والغرض الأصلي للحاكم وغيره: قصد الحق علماً وعملاً.

الثاني: يدل على أنه ينبغي أن يجتهد في الأخذ بالأسباب التي تصرف الغضب، أو تخففه: من التخلق بالحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيبه، وما يسمعه من الخصوم؛ فإن هذا عون كبير على دفـع الغضب، أو تخفيفه.

الثالث: يؤخذ من هذا التعليل: أن كل ما منـع الإنسان من معرفة الحق أو قصده، فحكمه حكم الغضب. وذلك كالهم الشديد، والجوع والعطش، وكونه حاقناً أو حاقباً أو نحوها، مما يشغل الفكر مثل أو أكثر من الغضب.

الرابـع: أن النهي عن الحكم في حال الغضب ونحوه مقصود لغيره. وهو أنه ينبغي للحاكم أن لا يحكم حتى يحيط علماً بالحكم الشرعي الكلي، وبالقضية الجزئية من جميـع أطرافها، ويحسن كيف يطبقها على الحكم الشرعي؛ فإن الحاكم محتاج إلى هذه الأمور الثلاثة:

الأول: العلم بالطرق الشرعية، التي وضعها الشارع لفصل الخصومات والحكم بين الناس.

الثاني: أن يفهم ما بين الخصمين من الخصومة، ويتصورها تصوراً تاماً،

ويدع كل واحد منها يدلي بحجته، ويشرح قضيته شرحاً تاماً. ثم إذا تحقق ذلك وأحاط به علماً، احتاج إلى الأمر الثالث.

وهو صفة تطبيقها وإدخالها في الأحكام الشرعية، فمتى وُفِّق لهذه الأمور الثلاثة، وقصد العدل، وفق له، وهدي إليه. ومتى فاته واحد منها، حصل الغلط، واختل الحكم. والله أعلم.

## الحديث الرابع والتسعون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلْ واشرب، والبَسْ وتصدَّق، من غير سَرَف ولا مَخِيلَة).

رواه أحمد وأبو داود، وعلقه البخاري.

هذا الحديث مشتمل على استعمال المال في الأمور النافعة في الدين والدنيا، وتجنب الأمور الضارة. وذلك أن الله تعالى جعل المال قواماً للعباد، به تقوم أحوالهم الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية. وقد أرشد الله ورسوله فيه ــ استخراجاً واستعمالاً، وتدبيراً وتصريفاً ــ إلى أحسن الطرق وأنفعها، وأحسنها عاقبة: حالاً ومآلاً.

أرشد فيه إلى السعي في تحصيله بالأسباب المباحة والنافعة، وأن يكون الطلب جميلاً، ولا كسل معه ولا فتور، ولا انهماك في تحصيله انهماكاً يخل بحالة الإنسان، وأن يتجنب من المكاسب المحرمة والرديئة، ثم إذا تحصل سعى الإنسان في حفظه واستعماله بالمعروف، بالأكل والشرب واللباس، والأمور المحتاج إليها، هو ومن يتصل به من زوجة وأولاد وغيرهم، من غير تقتير ولا تبذير.

وكذلك إذا أخرجه للغير فيخرجه في الطرق التي تنفعه، ويبقى له ثوابها

وخيرها، كالصدقة على المحتاج من الأقارب والجيران ونحوهم، وكالإهداء والدعوات التي جرى العرف بها.

وكل ذلك معلق بعدم الإسراف، وقصد الفخر والخُيَلاءِ، كما قَيَّده في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى:

**﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.**

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فهذا هو العدل في تدبير المال: أن يكون قواماً[1] بين رتبتي البخل والتبذير، وبذلك تقوم الأمور وتتم. وما سوى هذا، فإثم وضرر، ونقص في العقل والحال. والله أعلم.

## الحديث الخامس والتسعون

عن أبـي ذرّ رضي الله عنه قال: (قيل: يا سول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده ـ أو يحبه ـ الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن). رواه مسلم.

أخبر ﷺ في هذا الحديث: أن آثار الأعمال المحمودة المعجلة أنها من البشرى؛ فإن الله وعد أولياءه ـ وهم المؤمنون المتقون ـ بالبشرى في هذه الحياة وفي الآخرة.

و«البشارة» الخبر أو الأمر السار الذي يعرف به العبد حسن عاقبته، وأنه من أهل السعادة، وأن عمله مقبول.

أما في الآخرة فهي البشارة برضى الله وثوابه، والنجاة من غضبه وعقابه، عند الموت، وفي القبر، وعند القيام إلى البعث، يبعث الله لعبده المؤمن في تلك

---

(١) وسطاً.

المواضع بالبشرى على يدي الملائكة، كما تكاثرت بذلك نصوص الكتاب والسنة، وهي معروفة.

وأما البشارة في الدنيا التي يجعلها الله للمؤمنين؛ نموذجاً وتعجيلاً لفضله، وتعرفاً لهم بذلك، وتنشيطاً لهم على الأعمال فأعَمُّها توفيقُه لهم للخير، وعصمته لهم من الشر، كما قال ﷺ: (أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة).

فإذا كان العبد يجد أعمال الخير ميسرة له، مسهلة عليه، ويجد نفسه محفوظاً بحفظ الله عن الأعمال التي تضره، كان هذا من البشرى التي يستدل بها المؤمن على عاقبة أمره، فإن الله أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين. وإذا ابتدأ عبده بالإحسان أتمه. فأعظم منة وإحسان يمن به عليه إحسانه الديني، فيسر المؤمن بذلك أكمل سرور: سرور بمنة الله عليه بأعمال الخير، وتيسيرها؛ لأن أعظم علامات الإيمان محبة الخير، والرغبة فيه، والسرور بفعله. وسرور ثان بطمعه الشديد في إتمام الله نعمته عليه، ودوام فضله.

ومن ذلك ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث: إذا عمل العبد عملاً من أعمال الخير ـ وخصوصاً الآثار الصالحة والمشاريع الخيرية العامة النفع، وترتب على ذلك محبة الناس له، وثناؤهم عليه، ودعاؤهم له ـ كان هذا من البشرى أن هذا العمل من الأعمال المقبولة، التي جعل الله فيها خيراً وبركة.

ومن البشرى في الحياة الدنيا، محبة المؤمنين للعبد، لقوله تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا﴾.

[سورة مريم: الآية ٩٦]

أي محبة منه لهم، وتحبيباً لهم في قلوب العباد.

ومن ذلك الثناء الحسن؛ فإن كثرة ثناء المؤمنين على العبد شهادة منهم له. والمؤمنون شهداء الله في أرضه.

ومن ذلك الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو تُرى له؛ فإن الرؤيا الصالحة من المبشرات.

ومن البشرى أن يقدر الله على العبد تقديراً يحبه أو يكرهه. ويجعل ذلك التقدير وسيلة إلى إصلاح دينه، وسلامته من الشر.

وأنواع ألطاف الباري سبحانه لا تُعَد ولا تحصى، ولا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال. والله أعلم.

## الحديث السادس والتسعون

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (رضى الله في رضى الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين).

أخرجه الترمذي. وصححه ابن حبان والحاكم.

هـذا الحديث دليل على فضل برّ الوالدين ووجوبه، وأنه سبب لرضى الله تعالى. وعلى التحذير عن عقوق الوالدين وتحريمه، وأنه سبب لسخط الله.

ولا شك أن هذا من رحمة الله بالوالدين والأولاد؛ إذ بين الوالـدين وأولادهم من الاتصـال ما لا يشبهـه شيء من الصلات والارتبـاط الـوثيق والإحسان من الوالدين الذي لا يساويه إحسان أحد من الخلق. والتربية المتنوعة وحاجة الأولاد الدينية والدنيوية إلى القيام بهذا الحق المتأكد، وفاء بالحق، واكتساباً للثواب، وتعليماً لذريتهم أن يعاملوهم بما عاملوا به والديهم.

هذه الأسباب وما يتفرع عنها موجب لجعل رضاهما مقرونًا برضى الله. وضده بضده.

وإذا قيل: فما هو البر الذي أمر الله به ورسوله؟

قيل: قد حده الله ورسوله بحد معروف، وتفسير يفهمه كل أحد. فالله تعالى أطلق الأمر بالإحسان إليهما. وذكر بعض الأمثلة التي هي أنموذج من الإحسان. فكل إحسان قولي أو فعلي أو بدني، بحسب أحوال الوالدين والأولاد والوقت والمكان، فإن هذا هو البر.

وفي هذا الحديث: ذكر غاية البر ونهايته التي هي رضى الوالدين؛ فالإحسان موجب وسبب، والرضى أثر ومسبب. فكل ما أرضى الوالدين من جميع أنواع المعاملات العرفية، وسلوك كل طريق ووسيلة ترضيهما، فإنه داخل في البر، كما أن العقوق: كل ما يسخطهما من قول أو فعل. ولكن ذلك مقيد بالطاعة لا بالمعصية. فمتى تعذر على الولد إرضاء والديه إلا بإسخاط الله، وجب تقديم محبة الله على محبة الوالدين، وكان اللوم والجناية من الوالدين، فلا يلومان إلا أنفسهما.

وفي هذا الحديث: إثبات صفة الرضى والسخط لله، وأن ذلك متعلق بمحابه ومراضيه. فالله تعالى يحب أولياءه وأصفياءه. ويحب من قام بطاعته وطاعة رسوله، وهذا من كماله وحكمته وحمده، ورحمته. ورضاه وسخطه، من صفاته المتعلقة بمشيئته وقدرته.

والعصمة في ذلك: أنه يجب على المؤمن أن يثبت ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات الكمال الذاتية والفعلية، على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده. ويعلم أن الله ليس له ندٌّ، ولا كفو، ولا مثيل في ذاته وأسمائه، وصفاته وأفعاله. والله أعلم.

## الحديث السابع والتسعون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث لا يَغُلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم).

رواه الترمذي والشافعي وغيرهما.

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم رحمه الله: أي لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه

عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. انتهى.

أي فمن أخلص أعماله كلها لله، ونصح في أموره كلها لعباد الله، ولزم الجماعة بالائتلاف، وعدم الاختلاف، وصار قلبه صافياً نقياً، صار لله وليا، ومن كان بخلاف ذلك، امتلأ قلبه من كل آفة وشر، والله أعلم.

## الحديث الثامن والتسعون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة). متفق عليه.

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل ـ أو مقارب الكمال ـ فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها، وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو الوظائف المهمة، لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً، وهذا هو الواقع، فإن الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

وأما الإرشاد، فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعَوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله:

**﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾**. [سورة التوبة: الآية ١٢٢]

فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى، ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها، وبما لا تتم إلا به من الشروط والمكملات.

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة. قال الله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾. [سورة التغابن: الآية ١٦]

والله أعلم.

## الحديث التاسع والتسعون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر) رواه الترمذي.

وهذا الحديث أيضاً يقتضي خبراً وإرشاداً.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان يقلُّ الخير وأسبابه، ويكثر الشر وأسبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل، وهذا القليل في حالة شدة ومشقة عظيمة، كحالة القابض على الجمر، من قوة المعارضين، وكثرة الفتن المضلة، فتن الشبهات والشكوك والإلحاد، وفتن الشهوات وانصراف الخلق إلى الدنيا وانهماكهم فيها، ظاهراً وباطناً، وضعف الإيمان، وشدة التفرد لقلة المعين والمساعد.

ولكن المتمسك بدينه، القائم بدفع هذه المعارضات والعوائق التي لا يصمد لها إلا أهل البصيرة واليقين، وأهل الإيمان المتين، من أفضل الخلق، وأرفعهم عند الله درجة، وأعظمهم عنده قدراً.

وأما الإرشاد، فإنه إرشاد لأمته، أن يوطنوا أنفسهم على هذه الحالة، وأن يعرفوا أنه لا بد منها، وأن من اقتحم هذه العقبات، وصبر على دينه وإيمانه ـ مع هذه المعارضات ـ فإن له عند الله أعلى الدرجات، وسيعينه مولاه على ما يحبه ويرضاه، فإن المعونة على قدر المؤنة.

وما أشبه زماننا هذا بهذا الوصف الذي ذكره ﷺ، فإنه ما بقي من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سراً وعلناً للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بخبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق، ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، بحيث أصبحت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا، وتدمير الدين واحتقاره والاستهزاء بأهله، وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشررها وشرورها قد شاهده العباد.

فمع هذه الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة، والمزعجات الملمة، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة ـ مع هذه الأمور وغيرها ـ تجد مصداق هذا الحديث.

ولكن مع ذلك، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصوراً على الأسباب الظاهرة، بل يكون متلفتاً في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد عسر يسراً، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات.

فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال: «لا حول ولا قوة إلا بالله. وحسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا. اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى. وأنت

المستعان. وبك المستغاث. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة. ويقنـع باليسير، إذا لم يمكن الكثير. وبزوال بعض الشر وتخفيفه، إذا تعذر غيرذلك:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٢]
﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]
﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ [سورة الطلاق: الآية ٤]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

تمت هذه الرسالة المشتملة على شرح تسع وتسعين حديثاً، من الأحاديث النبوية الجوامع، في أصناف العلوم، والمواضيع النافعة، والعقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والفقه والآداب، والإصلاحات الشاملة، والفوائد العامة.

قال ذلك معلقها: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي. غفر الله له ولوالديه ووالديهم، وجميع المسلمين.

وفرغ منه في العاشر من شعبان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة.

وقد وقع الفراغ من نقلها بعون الله تعالى وتيسيره من خط المؤلف في ٢٧ رمضان سنة ١٣٧١ هـ بقلم الفقير إلى ربه المنَّان عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان. غفر الله له ولوالديه ووالديهم وجميع المسلمين.

هذه جوهرة نفيسة، وروضة ممرعة، هي بغية الراغبين، ونزهة المستفيدين، وبهجة الناظرين، لما ظهرت به من مظهر أنيق، وتحلت به من زهور المعارف والتحقيق، ولما أودعته من فوائد جليلة، سهل اجتناؤها، وثمرات دانية طاب مذاقها، ومناهل عذبة، راق مشربها حيث اشتملت على بيان العقائد النافعة، والأصول الجامعة، والأحكام المتنوعة، والآداب السامية، وغيرها من المواضيع المهمة، والعلوم الجمة، التي تكسب الإنسان هدى ورشداً، وتزيده بصيرة ويقيناً.

وحسبك منها أنها شرح لكلام هو أشرف الكلام، بعد كلام الله وأجمعه للخير وأنفعه، كلام أعلم الخلق، وأفصحهم محمد ﷺ.

وتبيين لمقاصده الشريفة، وكنوزه النفيسة، يقدمها الشيـخ الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي، جزاه الله عن الإسلام وأهله خيـراً، ولا زالت شموس تحقيقه مشرقة، وبدور علومه نيِّرة.

[انتهى]

# فهرس المجموع الثاني

## بهجة قلوب الأبرار

٣ العقيدة الإسلامية

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- القول السديد في مقاصد التوحيد
- سؤال وجواب في أهم المهمات
- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان
- الدرة البهية
  شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية
- الحق الواضح المبين
  في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية
- توضيح الكافية الشافية

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# القول السديد في مقاصد التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد. فقد سبق أن كتبنا تعليقاً لطيفاً في مواضيـع كتاب التوحيد، لشيـخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قدّس الله روحه، فحصل فيه نفـع ومعونة للمشتغلين ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مـع الوضوح التام. وطبـع بمطبعة الإمام، ثم نفدت نسخه مـع كثرة الطلب عليه. ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول الستة وتوابعها، فأقول مستعيناً بالله:

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

## مقدمة تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرِّد بكل كمال، فيعبدونه وحده، مخلصين له الدين، فيقولون إن الله هو الخالق البارىء المصور الرازق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخِر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، وأنه العليُّ الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي؛ وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وإنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرحمن الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم، ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؛ حتى يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل ما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره،

فما خلق شيئاً عبثاً، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم، وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات؛ ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدا، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفاً بأنه يفعل ما يريد؛ ويتكلم بما يشاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة. إن المؤمنين يرون ربهم تعالى عياناً جهرة، وإن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم وألذه، وإن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبداً، وإن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة، فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها، وإن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها؛ وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقاً، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئاً نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع

الاستعانة بالله، فهم يحرصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله. وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله، فالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين طريقهم.

## فصل

ويشهدون أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه على ذلك. ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بياناً، فيطيعونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهديه، ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقاماً، وأعظمهم جاهاً، وأكملهم في كل فضيلة؛ لم يبق خير إلا دل أمته عليه؛ ولا شر إلا حذرهم عنه. وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرّقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد ــ خيرها وشرّها ــ قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها، بل جعلهم مختارين لها، وخصَّ المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين بفضله ونعمته، وولى غيرهم ما تولوه ورضوه لأنفسهم من الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة

المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوىء الأخلاق وأرذلها، ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيماناً، أعظمهم إيماناً ويقيناً، وأحسنهم أعمالاً وأخلاقاً، وأصدقهم أقوالاً، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة؛ وأبعدهم من كل رذيلة. ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها، ويرون الجهاد في سبيل الله ماض مع البَرِّ والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها. ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصاً الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون الله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم، ويدينون الله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وأن يثبتهم على

دين نبيهم إلى الممات. فهذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

قال المصنف رحمه الله:

# كتاب التوحيد

هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة؛ أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلـهية والعبادة بذكر أحكامه وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه وما به يتم ويكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

**أحدها**: توحيد الأسماء والصفات، وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشاركة بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

**الثاني**: توحيد الربوبية بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

**الثالث**: توحيد الإلهية ويقال له توحيد العبادة وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما، لأن الألوهية التي هي وصفه تعم جميع أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أنه لا يستحق العبادة أحد سواه. ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصاً محمد ﷺ. وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به، وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

## بـــاب
## فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة مثل التوحيد فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رحمه الله: «وما يكفر من الذنوب» من باب عطف

الخاص على العام فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما.

ومن أجلّ فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إلـه إلا الله خالصاً من قلبه.

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد. فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخفّ عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين، ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي، والشرف

العالي، ويكون مع ذلك متألهاً متعبداً لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيراً وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السموات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

## بـــاب
## من حقق التوحيد
## دخل الجنة بغير حساب

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في

الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب؛ ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله؛ بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصود بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات

**﴿ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٣٢]

وليس تحقيق التوحيد بالتمنِّي ولا بالدعاوي الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة، فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

## باب
## الخوف من الشرك

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي، فأما الشرك الأكبر فهو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً

من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء؛ وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمِّي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقاً على العبد أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألها وإنابة وخوفاً ورجاء وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

## باب

### الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهراً وباطناً، والخوف من ضده؛ وبذلك يكمل العبد في نفسه. ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء، فإنهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده

لا شريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ، لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ولم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن؛ وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إلـه إلا الله فرضاً على كل أحد كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم؛ وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة. قال تعالى:

**﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** [سورة التغابن: الآية ١٦]

ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.

## بـــاب
### تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـه إلا الله

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف رحمه الله. وحقيقة تفسير التوحيد العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين: نفي الألوهية كلها عن غير الله بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلـهية ولا شيئاً من العبودية أحد من الخلق، لا نبي

مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها وهي نعوت الكمال كلها. ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصداً بذلك وجه الله وطالباً رضوانه وثوابه، ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله، ينافي معنى لا إلـه إلا الله أشد المنافاة، وبيَّن المصنِّف، رحمه الله، أن من أعظم ما يبين معنى لا إلـه إلا الله قوله ﷺ: (من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)، فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ومن الإقرار بذلك اعتقاداً ونطقاً، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقياداً ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقداً وقولاً وفعلاً، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، ولا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوي الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متى تخلف واحد منها تخلفت البقية والله أعلم.

## بـــاب
### من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفـع البلاء أو دفعه

وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

**أحـدها** أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

**ثانيها** أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مـع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافـع منها.

**ثالثها** أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها؛ وإن شاء غيّرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده. فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميـع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصداً بذلك رفـع البلاء بعد نزوله؛ أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكاً مـع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعاً ورجاءً لنفعه وإن اعتقد أن الله هو الدافـع الرافـع وحده ولكن اعتقدها سبباً يستدفـع بها البلاء فقد جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً سبباً وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر: أما الشرع فإنه ينهي عن ذلك أشد النهي وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها وذلك نوع شرك ووسيلة إليه فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضا الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقاً قلبه بها راجياً لنفعها فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه وذلك أيضاً نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه؛ بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها والله أعلم.

## باب
## ما جاء في الرقى والتمائم

أما التمائم فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم فمنها ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة.

وأما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام

الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفـع، وهي جائزة في حق المرقي إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدىء بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحداً من الخلق لا رقية ولا غيرها؛ بل ينبغي له إذا سأل أحداً أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مـع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانية البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد. وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر لأنه دعاء واستغاثة بغير الله، فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مـع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

## بـــاب

### من تبرك بشجر أو حجر أو غيرهما

أي فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقـع والمشاهد وغيرها فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبـي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقـع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد فهذا تعظيم للخالق وتعبد له وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له فالفـرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

## بـــاب
### ما جاء في الذبـح لغير الله

أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبـح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة فقد قرن الله الذبـح بالصلاة في عدة مواضـع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبـح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبـح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائـرة الإسلام، فإن حد الشَرك الأكبر وتفسيره الذي يجمـع أنواعه وأفراده أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلـغ رتبة العبادة، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

## بـــاب
### لا يذبـح لله بمكان يذبـح فيه لغير الله

ما أحسن اتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل. ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبـح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبـح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبّه بالمشركين وشاركهم في مشعلاهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى أنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور.

## باب

## من الشرك النذر لغير الله، باب من الشرك الاستعاذة بغير الله؛ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بينها، فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به؛ وأمر ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة، والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضاً من العقل،

فإن أحداً من الخلق ليس عنده من النفـع والدفـع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره بل الكل فقراء إلى الله في كل شؤونهم.

## بـــاب
## قول الله تعالى: ﴿أيشركون ما لا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩١]

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره، فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مـع الله، فإن جميـع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفـع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافـع، المعطي المانـع، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجـع كل شيء وله يقصد ويصمد ويخضـع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضـع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله، وأنه الحق وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفـع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟ فتباً لمن أشرك بالله وساوى به أحداً من المخلوقين؛ لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه؛ فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة

إلا هو، وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شؤونها وأنه ليس لها من الكمال إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين على بطلان إلـٰهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفاً ورجاءً وطمعاً والله أعلم.

## بـــاب

## قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم﴾

[سورة سبأ: الآية ٢٣]

وهذا أيضاً برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضـع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عند ما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله، إلاّ هـو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة، ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

## بـاب الشفاعة

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم نحن ندعوهم مـع

علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاها عظيماً ومقامات عالية ندعوهم ليقرِّبونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم. وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه لله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها، بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فأبطل الله هذا الزعم وبيّن أن الشفاعة كلها له كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له. فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوًا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود.

فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رحمه الله كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب، يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء: لا استقلالاً ولا مشاركة ولا معاونة ومظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

## باب

### قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي مَنْ أحببتَ﴾

[سورة القصص: الآية ٥٦]

وهذا الباب أيضاً نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهًا وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو

الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات، فتبين أنه الإلـه الحق، وأما قوله تعالى:

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [سورة الشوري: الآية ٥٢]

فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلـغ عن الله وحيه الذي اهتدى به الخلق.

## بـــاب
## أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

والغلو هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشـاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق من جميـع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً من هذه الأشياء فقد ساوى به رب العالمين وذلـك أعظم الشـرك، ومن رفـع أحداً من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين.

والنـاس في معاملة الصـالحين ثلاثـة أقسام: أهـل الجفـاء الـذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقيـر والتبجيل، وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها، وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرأون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضاً يتبرَّأون من أن يدّعوا لأنفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ:

﴿سبحانَك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ﴾

[سورة المائدة: الآية ١١٦]

واعلم أن الحقوق ثلاثة: حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله

له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه وحده حباً وخوفاً ورجاءً، وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة؛ وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله؛ ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعاً لحق الله، فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم.

## بـــاب

## ما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده، باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم؛ وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل: يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان: أحدهما محرم ووسيلة للشرك، كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها وكإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة. والنوع الثاني شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى

الله زلفى ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر . من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنّة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين. وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

## باب
## حماية المصطفى حمى التوحيد
## وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصاً كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه من الحث على الإنابة إلى الله وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة وقوة الطمع بفضله وإحسانه والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها وخصوصاً حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين ونهى عن التشبه بالمشركين لأنه يدعو إلى الميل إليهم ونهي عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد ونهي عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

## بــاب
### ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه وأنه أمر واقـع في هذه الأمة لا محالة والرد على من زعم أن من قال لا إلـه إلا الله وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم وسمى ذلك توسلاً لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامـع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضـع وهو العبادة، فإنها حق الله وحده فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثناً وخرج بذلك عن الدين ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافـر ومنافق. والعبـرة بروح الـدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

## بــاب
### السحر وباب شيء من أنواع السحر

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيراً من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوصل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره، ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم وربما تقرّب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه؛ ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر، وفيه أيضاً من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول،

وهذا من أفظع المحرمات وذلك من الشرك ووسائله ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

## باب
## ما جاء في الكهان ونحوهم

أي من كل من يدّعي علم الغيب بأي طريق من الطرق وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدّق من ادعى ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه وقد كذب الله ورسوله. وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

## باب النشرة

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بيّن الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

# بـــاب الطيرة

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغيرها فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين وكان يحب الفال ويكره الطيرة، والفرق بينهما أن الفال الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره؛ أو يسمع كلاماً يسره مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه؛ فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيَرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثَّر في قلبه أحد أمرين أحدهما أعظم من الآخر (أحدهما) أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازماً على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازماً عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله. ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسباباً، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله. وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني أن لا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً وغماً، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة

وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل وينبغي لمن وجد شيئاً من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

## باب
## ما جاء في التنجيم

التنجيم نوعان:

نوع يسمى علم التأثير وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولما فيه من فساد العقل، لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات فهذا النوع لا بأس به بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

## باب
## الاستسقاء بالنجوم

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مُطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء، والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله فإنه الذي تفضل بها على عبادة، ثم الأنواء

ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

## بـــاب

**قول الله تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يتَّخذُ من دون الله أنداداً يُحبُّونَهم كحُبِّ الله﴾**
[سورة البقرة: الآية ١٦٥]

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهي أصل التأله والتعبد له بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله والبغض في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه؛ وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئاً، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضاً وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

## بـــاب

### قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكُمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٧٥]

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك؛ ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه شرّك في هذه العبادة التي هي

من أعظم واجبات القلب غير الله مـع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله، وأيضاً فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله نداً في الخشية كمن جعل لله نداً في المحبة وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقـع به مكروها أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقـع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أو سبـع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري: فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم، وإن كان خوفاً وهمياً كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفـع هذا النوع، حتى أن خواصَّ المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب:

## بـــاب

### قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين﴾

[سورة المائدة: الآية ٢٣]

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله وأنه ما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافـع الضـار المعطي المـانـع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب

مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله.

## بــاب

### قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مَكْرَ الله﴾

[سورة الأعراف: الآية ٩٩]

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له، راغباً راهباً؛ إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه، خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسارٍّ يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلها، وبرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين (أحدهما) أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه. الثاني أن يتجاري به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد، وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران (أحدهما) أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصبر له هذا وصفاً وخلقاً لازماً، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي (الثاني) أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشيء من ضعف علم العبد بربه وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها ـ فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل؛ لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه. وللأمن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان (أحدهما) إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات، منهمكاً في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروى.

السبب الثاني أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدل بعمله ويزول الخوف عنه ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمناً من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن ههنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

# بــاب
## من الإيمان الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وأصله وفرعه فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله وبرضاه ويقرب إليه وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله وأن لله أتـمَّ الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره تقرباً إلى الله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه واغتناماً لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

# بــاب
## ما جاء في الرياء ثم قال: باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائـع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان وبحقوق الله وحقوق عباده مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد

مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو مشرك أصغر ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر، وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس ولم يقلع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضاً بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء، والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها وأغراضها فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً ولكنه يأخذ على عمله جعلاً ومعلوماً يستعين به على العمل والدين كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معيناً له على قيام الدين ولهذا جعل

الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءاً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها والله أعلم.

## بــاب
### من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً، باب قول الله تعالى:
### ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يزعُمُون أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليك﴾

[سورة النساء: الآية ٦٠]

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر فإن الرب والإلـه هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ وهو الذي يؤله ويُعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته، فإذا اتخذ العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم ويحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، وهذا هو الكفر بعينه فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله، والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكماً وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصاً لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلى الطاغوت.

# بـــاب
## من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بـالله وبأسمـائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإلـه الحق وأن إلـهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

# بـــاب
## قول الله تعالى: ﴿يعرفون نعمةَ الله ثم يُنْكِرُونها﴾

[سورة النحل: الآية ٨٣]

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً كما تقدم وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيـد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته والله أعلم.

## بـــاب

### قول الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢]

الترجمة السابقة على قوله تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥]

يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله نداً في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات ــ وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كلولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد، والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفـع الأسباب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء ويذكر مـع ذلك مرتبة السبب ونفعه فيقول لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله نداً في قلبه وقوله وفعله.

## بـــاب

### من لم يقنـع في الحلف بالله

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بـالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرضَ إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة والله أعلم.

## بـــاب
### قول: ما شاء الله وشئت

**هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾**
[سورة البقرة: الآية ٢٢]

## بـــاب
### من سب الدهر فقد سب الله

وهذا واقع كثيراً في الجاهلية وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجّان والحمقى إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت وربما لعنوه. وهذا ناشىء من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء فإنه مدبّر مصرّف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره، وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها وتغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد؛ أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.

## بـــاب
### التسمي بقاضي القضاة ونحوه

## وبـــاب
### احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب أن لا يجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

## بـــاب
### من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

أي فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين: الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون، فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفراً وأعظم فساداً، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

## بـــاب
### قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرَّاءَ مَسَّته﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٥٠]

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو

بكدّه وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد لأن المؤمن حقاً من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقاً على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس، والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

## باب

**قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاءَ فيما آتاهما﴾**

[سورة الأعراف: الآية ١٩٠]

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وألَّا يُعبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

## باب

**قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعُوهُ بها وذَرُوا الذين يُلْحِدُون في أسمائه﴾**

[سورة الأعراف: الآية ١٧٩]

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه؛ أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى؛ ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها، فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه: فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى؛ فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفوّ الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك

باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلىء بأجلِّ المعارف. فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيماً لله وإجلالاً له. وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقاً له وحمداً له وشكراً. وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعاً لله وخشوعاً وانكساراً بين يديه وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية، والإرادات الفاسدة. وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقاراً واضطراراً إليه والتفاتاً إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته وتعبّده بها لله لا يحصل العبد في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخاص والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين. وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة، والإلحاد أنواع إما أن ينفي الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم، وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم، وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى فشبهوها بالله، ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة، فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظاً أو معنى، تصريحاً أو تأويلاً أو تحريفاً. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.

## بـــاب

### لا يقال: السلام على الله

وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله (فإن الله هو السلام) فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

## بـــاب

### لا يقول: اللهم أغفر لي إن شئت

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلباً ملحاً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة، لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور «اللهم احيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي» وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة ولطفاً.

## بـــاب
### لا يقل: عَبْدِي وأَمَتي

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي، تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد، وليس حراماً وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذوراً بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصاً هذه الألفاظ التي هي أمسُّ بهذا المقام.

## بـــاب
### لا يرد من سأل بالله
## وبـــاب
### لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الباب الأول خطاب للمسؤول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احتراماً وتعظيماً لحق الله، وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئاً من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسني هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية، والأمور الدنية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه.

# بــاب
## ما جاء في «اللَّوْ»

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقع على قسمين: مذموم ومحمود:

أما المذموم فأَنْ يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان، لأن فيه محذورين (أحدهما) أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه وليس فيها نفع (الثاني) أن في ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها، والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده. فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا، نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك فأَنْ يقولها العبد تمنياً للخير، أو تعليماً للعلم والخير كقوله ﷺ: (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولأهللت بالعمرة) وقوله في الرجل المتمني للخير (لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان) و(لو صبر أخي موسى ليقص الله علينا من نبئِهما)، أي في قصته مع الخضر.

وكما أن «لو» إذا قالها للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنياً للشر فهو مذموم، فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها: إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمني الشر كان مذموماً، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محموداً، ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

## بـــاب
### النهي عن سب الريـح

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميـع حوادث الدهر، وفي هذا خاص بالريـح. ومـع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريـح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالسابُّ لها يقـع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريـح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالباً لكان الأمر أفظـع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

## بـــاب
### قول الله تعالى: ﴿يظُنُّون بالله غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهلية﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٥٤]

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميـع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان؛ وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية للنافية للتوحيد لأنها سوء ظن بالله؛ ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

## بـــاب
### ما جاء في منكر القدر

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميـع مراتب القدر فنؤمن أن الله بكل

شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون بل جعلهم مختارين لطاعاتهم ومعاصيهم.

## بـــاب
### ما جاء في المصورين

وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله نداً في النيات والأقوال والأفعال. والند هو المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشَبُّه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلـٰهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

## بـــاب
### ما جاء في كثرة الحلف

أصل اليمين إنما شرعت تأكيداً للأمر المحلوف عليه، وتعظيماً للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقاً. ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

## بـــاب
### ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقـع النقض في هذه الحال كان انتهـاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركاً لتعظيم الله وارتكاباً لأكبر المفسدتين؛ كما نبه عليه ﷺ، وفي ذلك أيضاً تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به؛ فإن الوفاء بالعهود خصوصاً المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

## بـــاب
### الإقسام على الله
## وبـــاب
### لا يستشفـع بالله على خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مـع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافـع وهو الكبير العظيم الـذي خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها.

## بـــاب
## ما جاء في حماية المصطفى حمى التوحيد
## وسدِّه طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميـع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيـد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته؛ وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلاً وإرادة واعتقاداً. وقد مضى من التفاصيل ما يوضـح ذلك.

## بـــاب
## قول الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

[سورة الأنعام: الآية ٩١]

ختم المصنف، رحمه الله، كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه، لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل. وهذا حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه. إنه جواد كريم.

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيـح مقاصده، وقد

حوى من غرر مسائل التوحيد. ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها، والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

# سؤال وجواب في أهم المهمات

بسم الله الرحمن الرحيم

## عليه نتوكل وبه نستعين

# تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه.

وبعد، يقول العبد الفقير إليه مختار أبو الشامات: بعد اطلاعي على هذا الكتاب الذي حوى فوائد عديدة قل أن توجد في غيره، وهذا دليل واضح على علو مقام مؤلفه الذي ملأ وشاع ذكره وكيف لا، وهو الفريد في عصره وقد بث روح العلم والعمل وأرشد قومه إلى طريق التوحيد الذي هو أساس الدين إذ لا معبود في هذا الوجود إلا الواحد المعبود الذي علا فاقتدر هو رب العالمين الذي لا يستحق العبادة سواه وحصر العبادة لذاته بقوله:

﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

ولا نطلب العون إلا منك يا رب العالمين.

وهذا الكتاب الذي حوى كل المعاني التي عليها أساس هذا الدين، وقد أوضح فيه معنى التوحيد الذي بني عليه الإسلام، أقول إن مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي من قبيلة تميم؛ ولد في بلدة عنيزة في القصيم في عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وعاش يتيماً وأوقف نفسه لطلب العلم وحفظ الحديث عن شيخه الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر وقرأ الفقه وعلوم العربية على شيخه الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، وكما أنه قرأ التوحيد والتفسير وأصول الفقه وفروعه على أكبر مشايخه، القاضي الورع الشيخ صالح بن عثمان القاضي، وقرأ على عدة مشايخ وكل منهم يفتخر بهذا

المؤلف لحسن أخلاقه وزهده وورعه. وكان متواضعاً أنيساً ويحب الفقراء والمساكين ويمد يده لمساعدتهم ولكل من يريد المساعدة، وهو اليوم يبث روح العلم والأدب في كل أوقاته وله تلاميذ عديدون نسأل الله أن يطيل حياته ويبارك في أوقاته ويرزقنا وإياه العمل الصالـح أنه قريب مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

الحمد لله على ما لهُ من الأسماء الحسنى والصفاتِ الكاملةِ والنعمِ السابغة وأصلِّي على محمدٍ، المبعوثِ لصلاح الدينِ والدنيا والآخرةِ. أما بعدُ فهذه رسالةٌ مختصرةٌ احتوت على أهم المهماتِ من أمورِ الدينِ وأصولِ الإيمان، تدعو الحاجةُ والضرورة إلى معرفتها جعلتها على وجهِ السؤالِ والجوابِ لأنه أقربُ إلى الفهمِ والتفهيمِ وأوضحُ في التعلُّم والتعليمِ.

## السؤال الأول

### ما حدُّ التوحيدِ وما أقسامُه

**الجوابُ**: حَدُّ التوحيدِ الجامعُ لكل أنواعِه هو علمُ العبدِ واعتقادُه واعترافُه وإيمانُه بتفرد الربِّ بكل صفةِ كمالٍ وتوحُّدهُ في ذلك واعتقادُ أنه لا شريكَ لهُ ولا مثيل لهُ في كمالِهِ وأنَّه ذو الألوهية والعبوديةِ على خلقه أجمعين، ثم إفرادُه بأنواعِ العبادةِ فَدَخَلَ في هذا التعريفِ أقسامُ التوحيدِ الثلاثة: أحدُها: توحيدُ الربوبيةِ، وهو الاعترافُ بانفرادِ الربِّ بالخلقِ والرزقِ والتدبيرِ والتربيةِ. الثاني: توحيدُ الأسماء والصفاتِ، وهو إثباتُ جميع ما أثبتهُ اللَّهُ لنفسهِ أو أثبتهُ لهُ رسُولُهُ مُحمد ﷺ، من الأسماء الحسنى وما دلتْ عَليه من الصفاتِ، من غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ. الثالثُ: توحيدُ العبادةِ، وهو إفرادُ الله وحدَهُ بأجناسِ العباداتِ وأنواعِها، وإفرادُها، وإخلاصُها للَّهِ من غير إشراك يدٍ في شيءٍ منها. فهذه أقسامُ التوحيدِ التي لا يكونُ العبدُ موحِّداً حتى يلتزمَ بها كلِّها ويقومَ بها.

## السؤال الثاني

### ما هو الإيمانُ والإسلامُ وأُصولُهما الكليةُ؟

**الجوابُ**: الإيمانُ هو التصديقُ الجازِمُ بجميع ما أمر اللَّهُ ورسُولُه بالتصديقِ به المتضمنُ للعملِ الذي هو الإسلامُ وهو الاستسلام لله وحده والانقيادُ لطاعتِه. وأما أصولُهما فهي ما احتوتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ:

**﴿قولوا آمنَّا باللَّهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيُّونَ من ربِّهمْ لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وما فسرهُ به النبيُّ ﷺ في حديث جبريلَ وغيرِه حيثُ قال: الإيمانُ أن تؤمنَ باللَّهِ وملائِكته وكتبِه ورسُلِه واليومِ الآخر والقدر خيرِهِ وشرهِ. والإسلامُ أن تشهد أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وأن محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة وتؤتي الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتحجَّ البيتَ. ففسَّر الإيمانَ بعقائدِ القلوب، وفسرَ الإسلامَ بالقيامِ بالشرائع الظاهرةِ.

## السؤال الثالث

### ما هي أركانُ الإيمانِ بأسماء الله وصفاتِه؟

**الجواب**: هي ثلاثةٌ: إيمانٌ بالأسماء الحسنى كلِّها؛ وإيمانٌ بما دلّتْ عليه من الصفاتِ؛ وإيمانٌ بأحكامِ صفاتِه ومتعلقاتِها. فنؤمنُ بأنه عليمٌ لهُ العلمُ الكاملُ المحيطُ بكل شيءٍ؛ وأنهُ قديرٌ ذو قدرةٍ عظيمةٍ يقدرُ بها على كل شيءٍ؛ وأنهُ رحيمٌ رحمان ذو رحمةٍ واسعةٍ يرحمُ بها من يشاء. وهكذا بقية الأسماء الحسنى والصفات ومتعلقاتِها.

## السؤال الرابع

### ما قولُكم في مسألةِ علوِّ الله على الخلقِ واستوائِه على العرشِ ؟

**الجواب**: نعرفُ ربَّنا بأنهُ عليٌّ أعْلىَ، بكل مَعْنى. واعتبارُ علوّ الذات وعلُوِّ القدرِ والصفاتِ وعلوِّ القهر وأنه بائنٌ من خلقِه مستوٍ على عرشِه كما وصفَ لنا نفسَه بذلك. والاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ؛ فَقدْ أخبرنا أنه استوى ولمْ يخبرنا عن الكيفية. وكذلك نقولُ في جميع صفات الباري إنه أخبرنا بها ولم يخبرْنا عن كيفيتِها، فعلينْا أن نؤمنَ بكل ما أخبرنا في كتابه وعلى لسانِ رسُولِه ﷺ لا نزيدَ على ذلك ولا ننقص منهُ.

## السؤال الخامس

### ما قولُكم في الرحمةِ والنزولِ إلى السماء الدنيا، ونحوِها؟

**الجوابُ**: تؤمنُ وتقرُّ بكلّ ما وصفَ الله به نفسَه من الرحمةِ والرضى والنزول والمجيء، وبما وَصَفَهُ به الرسولُ ﷺ على وجهٍ لا يماثلُهُ فيه أحدٌ من خلقِه، فإنه ليس كمثله شيء. فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله تعالى صِفاتٌ لا تشبهُها الصفاتُ. وبرهانُ ذلك ما ثبت من التفصيلاتِ العظيمةِ في الكتابِ والسنةِ في إثباتها والثناء على الله بها، وما وردَ على وجهِ العمومِ في تنزيهِه عن المَثَلِ والنِّدّ والكفوِ والشريكِ.

## السؤال السادس

### ما قولُكم في كلامِ اللَّهِ وفي القرآنِ؟

**الجواب**: نقول القرآنُ كلامُ الله منزلٌ غيرُ مخلوقٍ. منهُ بدأ وإليه يعودُ، واللَّهُ المُتَكلِّمُ به حقًا، لفظُهُ ومعانيه، ولمْ يزلْ ولا يزالُ مُتكلِماً بما شاء إذا شاء وكلامُه لا ينفدُ ولا لهُ منتهى.

## السؤال السابع

### ما هو الإيمانُ المطلقُ، وهل يزيدُ وينقصُ؟

**الجواب**: الإيمانُ اسمٌ جامعٌ لعقائِد القلبِ وأعمالِه وأعمالِ الجوارِح وأقوالِ اللِّسانِ، فجميعُ الدينِ أصُوله وفروعُه داخلٌ في الإيمانِ ويَترتَّبُ على ذلك أنَّه يزيدُ بقوَّة الاعتقادِ وكثرتِه، وحُسن الأعمال والأقوال وكثرتها، وينقصُ بضدّ ذلك.

## السؤال الثامن

### ما حكمُ الفاسِق الملِّي؟

**الجواب**: منْ كان مؤمناً موحِّداً وهو مصرٌّ على المعاصي فهو مؤمنٌ بما معهُ من الإيمان، فاسقٌ بما تركه من واجباتِ الإيمان، ناقص الإيمان مستحقٌّ للوعد بإيمانِه وللوعيدِ بمعاصيِه، ومع ذلك لا يخلَّدُ في النارِ؛ فالإيمانُ المطلقُ التامُّ يمنعُ من دخولِ النارِ والإيمانُ الناقصُ يمنعُ من الخلودِ فيها.

## السؤال التاسع

### كمْ مراتبُ المؤمنين، وما هي؟

**الجواب**: المؤمنون ثلاثةُ أقسامٍ: سابقونَ إلى الخيرات، وهُم الذين قامُوا بالواجباتِ والمستحبّاتِ، وتركوا المحرَّمات والمكروهات؛ ومقتصِدون، وهُمُ الذين اقتصروُا على أداء الواجباتِ واجتناب المحرّمات؛ وظالمونَ لأنفسهِم، وهمُ الذين خلطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

## السؤال العاشر

### ما حكمُ أفعالِ العبادِ؟

**الجواب**: أفعالُ العباد كلُّها من الطاعاتِ والمعاصي داخلةٌ في خلقِ اللّهِ وقضائِه وقدرهِ، ولكنَّهم هُم الفاعلونَ لها لمْ يجبرْهُمُ اللّهُ عَليها مع أنها واقعةٌ بمشيئَتِهمْ وقدرتِهمْ، فهي فعلُهمْ حقيقة وهمُ الموصوفون بها المثابُون والمعاقَبون عليها، وهي خلقُ الله حقيقةً؛ فإنَّ الله خلقَهم وخلق مشيئَتَهُمْ وقدرتهم وجميع ما يقعُ بذلك فنؤمنُ بجميع نصوص الكتابِ والسنةِ، الدالّةِ على شمولِ خلق اللّهِ وقدرته لكلِ شيءٍ من الأعيانِ والأوصافِ والأفعالِ، كما نؤمنُ بنصوص الكتابِ والسنَّةِ الدالّةِ على أن العبادِ همُ الفاعلونَ حقيقةً للخيرِ والشرِّ، وأنهم مختارون لأفعالِهمْ، فإنَّ اللّهَ خالقُ قدرتِهمْ وإرادتِهم وهما السببُ في وجود أفعالِهم وأقوالِهم، وخالقُ السببِ التام خالقُ للمسبَّب، واللّهُ أعظمُ وأعدلُ من أن يجْبرهُمْ عليها.

## السؤال الحادي عشر

### ما هو الشِّركُ وما أقسامُهُ؟

**الجواب**: الشِّركُ نوعان: شركٌ في الربوبية، وهوَ أنْ يعتقِدَ العبدُ أنَّ لله شريكاً في خلق بعض المخلوقات أو تدبيرها. النوعُ الثاني الشركُ في العبادة، وهو قسمانِ: شِركُ أكبرُ وشركُ أصغرُ. فالشِّركُ الأكبرُ أن يصرفَ العبدُ نوعاً من أنواع العبادة لغيرِ الله. كأنْ يدعو غيرَ الله أو يرجوهُ أو يخافُهُ فهذا مُخْرِجٌ من الدين وصاحبُهُ مُخْلَدٌ في النارِ وأما الشِّركُ الأصغرُ فالوسائلُ والطرقُ المفضيةُ إلى الشِّرك إذا لمْ تبلغ رتبةَ العبادةِ كالحلفِ بغيرِ الله والرياءِ ونحوِ ذلك.

# السؤال الثاني عشر

## ما صفةُ الإيمانِ باللهِ على وجهِ التفصيل؟

**الجواب**: إنَّنا نقرُّ ونعترفُ بقلوبنا وألسنَتِنا أنَّ الله واجبُ الوجودِ؛ واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ؛ متفرِّدٌ بكلِّ صفةِ كمالٍ ومجدٍ؛ وعظمةٍ وكبرياءٍ وجلالٍ؛ وأنَّ لهُ غايةَ الكمالِ الذي لا يقدرُ الخلائقُ أنْ يُحيطُوا بشيءٍ من صفاته؛ وأَنَّهُ الأولُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي ليسَ بعدَهُ شيءٌ، والظاهرُ الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ والباطنُ الذي ليسَ دونَهُ شيءٌ وأَنَّهُ العليُّ الأعلى: علوَّ الذَّات وعلوَّ القدرِ، وعلوَّ القهرِ وأنَّهُ العليمُ بكل شيءٍ، القديرُ على كلِّ شيءٍ، السميعُ لجميع الأصواتِ، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. البصيرُ بكلِّ شيءٍ، الحكيمُ في خلقِه وشرعِه، الحميدُ في أوصافِه وأفعالِه، المجيدُ في عظمتِه وكبريائِه، الرحمنُ الرحيمُ الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعمَّ بجوده وبرِّهِ ومواهبِه كلّ موجودٍ؛ المالك الملك لجميع الممالك فلهُ تعالى صفةُ الملك والعالم العلويُّ والسفليُّ كلُّهم مماليكُ وعبيدٌ لله، ولَهُ التصرفُ المطلقُ، وهو الحيُّ الذي لَهُ الحياةُ الكاملةُ المتضمِّنَةُ لجميع أوصافِه الذاتيةَ القيُّومُ الذي قام بنفسِه وبغيره وهو متصفٌ لجميع صفاتِ الأفعالِ، فهو الفعّالُ لما يريدُ، فما شاء كان وما لمْ يشأ لم يكنْ. ونشهدُ أَنَّهُ ربُّنا الخالقُ البارىءُ المصوِّرُ الذي أوجد الكائناتِ وأتقن صنْعَها، وأحسن نِظامها وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو الإِلٓهُ المعبودُ الذي لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواهُ، فلا نخضعُ ولا نذلُّ ولا نُنِيبُ ولا نتوجَّهُ إلَّا للّهِ الواحدِ القهارِ، العزيزِ الغفارِ، فإياهُ نعبدُ وإياه نستعين، وله نرجو ونخشى: نرجُو رحمتَهُ ونخشى عدْلَهُ وعذَابَهُ. لا ربَّ لنا غيرهُ فنسألُهُ وندْعُوهُ، ولا إلٓه لنا سواهُ نُؤمِّلُهُ ونرجُوهُ، هو مولانا في إصلاح ديننا ودنيانا، وهو نِعمَ النصيرُ، الدافعُ عنّا جميع السوء والمكارِه.

## السؤال الثالث عشر

### ما صفةُ الإيمان بالأنبياء على وجه التفصيل؟

**الجواب**: علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسُل الذين ثَبَتَتْ نبُوَّتُهم ورسالَتُهُمْ على وجه الإجمال والتفصيلِ، ونعتقدَ أن اللَّهَ تعالى اختصَّهم بوحيِه وإرْسالِه، وجَعلَهمْ وسائِطَ بينَهُ وبين خلقِه في تبليغ دينِه وشرعِه، وأيَّدهُمْ بالآيات الدالّة على صدقهم وصحةِ ما جاؤوا به، وأنهُم أكملُ الخلق علماً وعملاً، وأصدقُهم وأبرُّهُمْ وأكملُهُم أخلاقاً وأعمالاً، وأنَّ اللَّهَ خصَّهمُ بفضائِل لا يلحقُهُم فيها أحدُ، وبرَّأَهُمْ منْ كلِّ خُلُقٍ رذيلٍ، وأنهم معصومونَ في كلِّ ما يبلغونَهُ عن الله وأنَّهُ لا يستقِرُّ في خبرِهم وتبليغهم إلاّ الحقُّ والصوابُ، وأنَّهُ يجبُ الإيمانُ بهمْ كلِّهمْ، وبكلِّ ما أُوتوهُ من اللّهِ، ومحبَّتُهم وتوقيرهُم وتعظيمُهمْ، ونؤمن أنَّ هذه الأمور واجبةٌ علينا لنبيّنا محمدٍ ﷺ على أكمل الوجوه وأعلاها، وأنَّهُ يجبُ معرفتُهُ ومعرفة ما جاءَ به من الشرعِ: جملةً وتفصيلاً، بحسَب الاستطاعة، والإيمانُ بذلك والتزامُه والتزام طاعتِه في كلِّ شيءٍ بتصديقِ خبره وامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه، وأنَّهُ خاتَمُ النبيين لا نبيَّ بعدَهُ، قد نَسختْ شريعتُه جميعَ الشرائعِ، وهي باقيةٌ إلى قيامِ الساعةِ، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى يعلمَ العبدُ أنَّ جميعَ ما جاءَ بِهِ حقٌّ، وأنهُ يستحيلُ أن يقومَ دليلٌ عَقليٌ وحسِّي أو غيرهما على خلافِ ما جاءَ بِهِ. بل العقلُ الصحيحُ والأمورُ الحسِّيةُ الواقعةُ تشهد للرسولِ بالصِّدقِ والحقِّ.

## السؤال الرابع عشر

### كم مراتبُ الإيمانِ بالقضاء والقدرِ؟ وما هي؟

**الجواب**: مراتبُ ذلك أربعٌ لا يتمُ الإيمانُ بالقدرِ إلاّ بتكميلها: الإيمانُ بأنه بكل شيء عليمٌ، وأنَّ علمَهُ محيطٌ بالحوادِثِ، دقِيقِها وجليلِها، وأنه كتَبَ ذلك باللَّوحِ المحفوظِ، وأن جميعها واقعةٌ بمشيئتِهِ وقدرتِهِ. ما يشاء كان

وما لمْ يشأ لمْ يكنْ، وأنهُ مع ذلكَ مكّنَ العبادَ من أفعالِهِمْ فيفعَلونها اختياراً منهم بمشيئَتِهِم وقدرتهم. كما قالَ اللَّهُ تعالى:

﴿ألَمْ تعلمْ أنّ اللَّهَ يعلمُ ما في السماء والأرضِ إنّ ذلك في كتاب﴾
[سورة الحج: الآية ٧٠]

وقالَ: ﴿لمنْ شاءَ منكمْ أن يستقيم * وما تشاؤون إلاَّ أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمينَ﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

## السؤال الخامس عشر

### ما حدُّ الإيمانِ باليومِ الآخر، وما الذي يدخلُ فيه؟

**الجواب**: كلُّ ما جاءَ في الكتابِ والسّنّةِ مما يكونُ بعدَ الموتِ فإنه داخلٌ في الإيمانِ باليومِ الآخر: كأحوال القبر والبرزخ ونعيمه وعذابهِ، وأحوالِ يومِ القيامةِ وما فيها من الحساب، والثواب والعقاب، والصحفِ والميزانِ، والشفاعةِ وأحوالِ الجنةِ والنارِ، وصفاتها وصفاتِ أهْلها، وما أعدَّ الله فيهما لأهْلِهما إجمالاً وتفصيلاً، كلُّ ذلك من الإيمانِ باليومِ الآخرِ.

## السؤال السادس عشر

### ما هو النفاقُ وأقسامُه وصفتُه؟

**الجواب**: حَدُّ النفاقِ إظهارُ الخيرِ وإبطالُ الشّرِ؛ وهو قسمان: نفاقٌ أكبرُ اعتقاديٌّ مخلَّدٌ صاحبه في النار، وذلك مثل ما أخبر الله بهِ عن المنافِقِينَ في قوله:

﴿ومِنَ الناسِ من يقول آمنّا بالله وباليومِ الآخِرِ وما هُم بمؤمنينَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٨]

من المُبْطنين للكفْرِ المظهرين للإسلامِ؛ ونفاقٌ أصغر عمليٌّ، مثلُ ما ذكرهُ النبيُّ ﷺ في قولِهِ: (آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كَذب، وإذا وعد أخْلف، وإذا ائتُمِنَ خانَ) فالكُفْرُ الأكبرُ والنفاقُ لا ينفعُ معهُ إيمانٌ ولا عملٌ، وأما

الأصغرُ منهما فقدْ يجتمعُ مـعَ الإيمانِ فيكونُ في العبد خيرٌ وشرٌ، وأسبابُ ثوابٍ وأسبابُ عقابٍ.

## السؤال السابـع عشر

### ما هي البدعةُ، وما أقسامُها؟

**الجواب**: البدعةُ هي خلافُ السُّنَّةِ؛ وهي نوعان: بدعةُ اعتقادٍ، وهي اعتقادُ خلافِ ما أخبرَ اللَّهُ به ورسُولُه، وهي المذكورة في قولِهِ ﷺ: (وستفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كلها في النار إلا واحدةً) «قالوا: ما هي يا رسولُ اللَّهِ» قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابـي). فمنْ كانَ على هذا الوصف فهو صاحبُ سنةٍ محضةٍ ومنْ كان من بقية الفرق فهو مبتدعٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ؛ وتتفاوت البدعُ بحسبِ بعدها عن السُّنَّة.

والنوعُ الثاني بدعةٌ عمليةٌ، وهي التعبُّدُ بغير ما شرعَ اللَّهُ ورسُولُهُ، أو تحريمُ ما أَحلَّ اللَّهُ ورسُولهُ. فمنْ تعبَّدَ بغير الشرعِ أو حرمَ ما لم يُحَرِّمْهُ الشارعُ فهو مبتدعٌ.

## السؤال الثامن عشر

### ما حقوقُ المسلِمينَ عليك؟

**الجواب**: قال اللَّهُ تعالى:

**﴿إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٠]

فالواجبُ أنْ تَتَّخِذَهمْ إخواناً تحبُّ لهمْ ما تُحبُّ لنفسِكَ وتكرهُ لهم ما تكرهُ لنفسكَ، وتسعى بحسبِ مقدورِكَ في مصالحِهِم وإصلاحِ ذاتِ بينهمْ وتأليفِ قلوبهم واجتماعِهِم على الحق. المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظْلِمُه ولا يخذلُهُ ولا يكذِبُهُ ولا يحْقِرُهُ وتقوم بحقّ من لهُ حقٌّ خاصٌّ كـالوالـدين والأقاربِ والجيرانِ والأصحابِ والمعامِلينَ.

## السؤال التاسع عشر

### ما الواجبُ نحو أصحاب النبـيّ ﷺ؟

**الجواب**: من تمام الإيمان برسُولِ اللَّهِ ﷺ ومحبَّته محبـةُ أصحابـه بحسب مراتبهم من الفضلِ والسَّبْقِ، والاعترافُ بفضائلهِمْ التي فاقوا فيها جميـع الأمّة، وأنْ تدينَ اللَّهَ بحبهمْ ونشرِ فضائلهِمْ، ونُمْسكَ عمّا شجر بيْنهُمْ، ونعتَقدَ أنّهمْ أولى الأمَّةِ بكلِّ خصلةٍ حميدةٍ وأسبقُهُمْ إلى كلِّ خيرٍ وأبعدُهمْ من كلِّ شرٍ، وأنهم جميعهم عدولٌ مرضيّونَ.

## السؤال العشرون

### ما قولُكم في الإمامَةِ؟

**الجوابُ**: نعْتَقِدُ أنَّ نَصْبَ الإمامِ فرضُ كفايةٍ، فإنَّ الأمة لا تسْتَغني عن إمامٍ يُقيمُ لها دينَها ودُنياها، ويدْفـعُ عنها عاديةَ المعتدين وإقامةِ الحدودِ على الجناة، ولا تتم إمامته إلاّ بطاعتهِ في المعروف في غيرِ معصيةٍ والجهادُ ماضٍ مـع البَرِّ والفاجرِ، ويُعانُون على الخيرِ ويُنْصَحُونَ عن الشرّ.

## السؤال الحادي والعشرون

### ما هو الصِّراطُ المستقيمُ، وما صفتُهُ؟

**الجواب**: الصراطُ المستقيمُ هو العلمُ النافـعُ والعَمَلُ الصالـحُ. والعلمُ النافـعُ هو ما جاءَ به الرسُولُ من الكتابِ والسُّنَّةِ والعَمَلُ الصالـحُ هو التَّقربُ إلى اللَّهِ بـالاعتقاداتِ الصحيحَـةِ وأداء الفـرائضِ والنـوافـلِ، واجتنـابِ المنهياتِ، وهو القيامُ بحقوقِ الله وحقُوقِ عبادهِ، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بالإخلاصِ التامِّ لله والمتابعةِ لرسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ والدينُ يدورُ على هذينِ الأصلين، فمنْ فاته الإخلاص وقـع في الشِّركِ ومن فاتتْهُ المتابعةُ وقـع في البِدعِ.

## السؤال الثاني والعشرون

### ما هي الأوصافُ التي يتميز بها المؤمنُ عن الكافرِ والجاحِد؟

**الجواب**: هذا سؤالٌ عظيمٌ. بالفرق بين المؤمنِ وغيره يتميز الحقُّ والباطلُ، وأهلُ السعادةِ من أهل الشقاوةِ؛ فاعلمْ أنّ المؤمنَ حقّاً هو الذي آمن بالله وبأسمائه وصفاته الـواردةِ في الكتابِ والسُّنَّـةِ على وجهِ الفهمِ لهـا والاعتراف بها، وتنْزيههِ عما يُنافي ذلك؛ فامتلأ قلبُهُ إيماناً وعلماً، ويقيناً وطمأنينةً وتعلُّقاً باللَّهِ، فأنابَ إلى الله وحدَهُ وتعبَّدَ لله بالعباداتِ التي شرعَها على لسان نبيه ﷺ، مخلصاً للَّهِ بها، راجياً لثوابِهِ، خائفاً من عقابه، شاكراً للَّهِ بقلبه ولسانِهِ وجوارحه على نعَم اللَّهِ وإحسانِهِ العظيمِ، الذي يتقلبُ به في جميـعِ الساعاتِ؛ لاهجاً بذكرِهِ لا يرى نعمةً أعظمَ من هذه النعمةِ ولا كرامةً أعظم منها. يهزأ بلذَّاتِ الدُّنيا الماديةِ إذا نُسبَتْ إلى لذةِ الإنابةِ إلى اللَّهِ والإقبالِ عليه وحْدَهُ، ومـعَ هذا فقَدْ أخذَ نصيباً وافراً من لذَّاتِ الحياة، وتمتَّـع بها، لا على الوجهِ الذي يتمتَّـعُ به الجاحدونَ أو الغافلون، بلْ تمتَّـعَ بها عَلَى وجهِ الاستعانةِ بها على القيامِ بحقوقِ الله وحقوقِ عبادهِ. وبذلك الاحتساب والرجاء تمتْ بها لذاتُهُ واستراحَ قلبُهُ وآطمأنَّ، ولمْ يحزنْ إذا جاءتهُ الأمورُ على خلافِ ما يحبُّ. فهذا قدْ جمـعَ اللَّهُ لهُ بين سعادةِ الدُّنْيا والآخرة.

أما الجاحدُ والغافلُ فهو على خلاف ذلك. قدْ جحَدَ ربّه العظِيمَ، الذي قامت البراهينُ العقليَّةُ والنقليَّةُ والعلومُ الضروريةُ والحسيةُ على وجودِهِ وكمالِهِ، فلمْ يعبأ بذلك كلِّه، فلمَّا انْقَطَـع عن اللَّهِ اعترافاً وتعبداً تعلَّق بالطبيعَةِ فعَبَدها وصارَ قلبُهُ شبيهاً بقلوبِ البهائم السائمة، ليس لَهُ همةٌ إلا التمتـعُ بالأمورِ المادّيةِ، وقلبُهُ دائماً غيرُ مُطمَئن بلْ خائفٌ من فوات محيوياتِه، وخائفٌ من حصُولِ المكارهِ التي تنتابُهُ، وليس معهُ من الإيمانِ ما يسهلُ عليه المصيباتِ، وما يخفف عنهُ النكباتِ، قدْ حُرِمَ لذةَ الإيمان وحلاوة التقرُّب إلى اللَّهِ وثمراتِ الإيمانِ العاجلةَ والآجلةَ، لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً وإنما خوفُهُ ورجاؤهُ متعلقٌ بمطالِب النفُوسِ الدنيوية الخسيسةِ الماديّةِ.

ومن أوصافِ المؤمنِ: التواضـعُ للحقِّ وللخلقِ، والنصيحةُ لعبادِ اللَّهِ على اختلافِ مراتبهم، قولاً، وفعلاً، ونيةً. والجاحِدُ: وصفُهُ التكبرُ على الحقِّ وعلى الخلق والإعجابُ بالنفس؛ لا يدينُ بالنصيحَةِ لأحدٍ. المؤمنُ سليمُ القلبِ من الغشِّ والحقدِ، يحبُّ للمسلمين ما يحبُّ لِنفْسِه، ويكرَهُ لهمْ ما يكرهُ لنفسِه، ويسعى بحسَب وُسْعِه في مصالحهمْ، ويتحملُ أذى الخلقِ ولا يَظلمُهمْ بوجهٍ من الوجوهِ. والجاحِدُ قلبُهُ يغلي بالغلِّ والحقْدِ، ولا يريدُ لأحد خيراً ولا نفعاً إلا إذا كانَ لهُ في ذلك غرضٌ دنيويٌ، ولا يبالي بظلمِ الخلْقِ عندَ قدرتِه، وهو أضعفُ شيءٍ عن تحمُّل ما يصيبُهُ منهمْ. المؤمن صَدُوقُ اللِّسان حَسنُ المعاملةِ، وصفهُ الحلمُ والوقارُ، والسكينةُ والرحمةُ، والصبرُ والوفاءُ، وسهولةُ الجانب ولينُ العريكةِ؛ والجاحدُ وصفهُ الطيشُ والقسوةُ، والجزعُ والهلـعُ، والكذبُ وعدمُ الوفاء، وشراسةُ الأخلاق.

المؤمنُ لا يذلُّ إلا للَّه، قد صانَ قلبَهُ ووجههُ عن بذلِه وتذلُّله لغير ربه، وصفهُ العفةُ والقوةُ، والشجاعةُ والسخاءُ والمروءةُ، لا يختارُ إلَّا كلَّ طيبٍ أما الجاحِدُ، فعلى الضِد من ذلك، قد تعلَقّ قلبُهُ بالمخلوقِينَ خوفاً من ضرَرِهمْ ورجاءً لِنَفْعهِمْ، وبذلَ لهمْ ماءَ وجهِهِ؛ وليس لهُ عفةٌ، ولا قوةٌ، ولا شجاعةٌ، إلّا في أغراضهِ السُفليَّةِ، عادمُ المروءةِ والإنسانيةِ، لا يُبالي بما حَصلَ لهُ من طيبٍ أو خبيث. المؤمنُ قد جمـعَ بين السَّعي في فعلِ الأسبابِ النافِعَةِ والتوكلِ على اللَّهِ والثقَةِ به وطلبِ العون منهُ في كلِّ الأمُور، واللَّهُ تعالى في عونهِ؛ وأما الجاحدُ، فليسَ عندهُ من التوكُّلِ خبرٌ وليس لهُ نظرٌ إلا إلى نفسِه الضعيفةِ المَهينةِ قد ولَّاهُ اللَّهُ ما تولى لِنَفسهِ وخذلهُ عن إعانته على مطالبِهِ فإنْ قدَّرَ لهُ ما يحبُّ كانَ استدراجاً.

المؤمنُ إذا أتتهُ النعمُ تلقّاها بالشُّكرِ وصرفَها فيما ينفَعُهُ ويعودُ عليه بالخير، وغيرُ المؤمنِ يتلقاها بأشَرٍ وبطرٍ واشتغالٍ بالنعْمَةِ عن المنعِمِ، وعن شُكرهِ ويصرفُها في أغراضِه السُّفليةِ وهي مـع هذا سريـعٌ زوالُها، قريبٌ

انفصالُها. المؤمنُ إذا أصابتهُ المصائبُ قابلَها بالصبرِ والاحتسابِ وارتقابِ الأجرِ والثوابِ، والطمعِ في زوالِها فيكونُ ما عُوِّضَ من الخيرِ والثواب أعظمَ ممّا فاته من محبوبٍ أو فصلَ لهُ من مكروهٍ. والجاحدُ يتلقّاها بهلعٍ وجزعٍ، فتزدادُ مصيبتُهُ، ويجتمعُ عليه ألمُ الظاهرِ وألمُ القلبِ، قد عُدمَ الصبرَ وليسَ لهُ رجاءٌ في الأجرِ، فما أشدَّ حسرَتُهُ وأعظمَ حربتَهُ. المؤمنُ يدينُ اللّهَ بالإيمانِ بجميعِ الرسُلِ وتعظيمهمْ وتقديمِ محبتهمْ على محبةِ الخلق كُلهمْ، ويعترفُ أنَّ كلَّ خيرٍ منهُ الخلقُ إلى يوم القيامةِ، فعلى أيدِيهِمْ وبإرشادهِمْ، وكلُّ شرٍّ وضررٍ ينالُ الخلقَ فسببُهُ مخالفتهم، فهم أعظمُ الخلْقِ إحساناً إلى الخلقِ، وخصوصاً إمامُهمْ وخاتمُهُمْ محمدٌ ﷺ؛ الذي جعلهُ اللّهُ رحمةً للعالمينَ، وبعثهُ لكلِّ صلاحٍ وإصلاحٍ وهدايةٍ.

وأما الملحدونَ فبضدِّ ذلك، يعظِّمونَ أعداءَ الرسُلِ ويحترمونَ أقوالهمْ ويهزأون كأسلافهِمْ بما جاءتْ به الرُّسُلُ وذلك أكبرُ دليلٍ على سخافة عقولِهمْ وهبوطِ أخلاقهمْ إلى أسفلِ سافلين. المؤمنُ يدينُ اللّهَ بمَحبة الصحابةِ وأئمةِ المسلمينَ وأئمة الهدى والملحدُ بالعكس. المؤمنُ ـ لكمالِ إخلاصِه للهِ ـ يعملُ للهِ ويحسنُ إلى عباد اللّهِ، والجاحدُ ليسَ لِعمله غايةٌ إلّا تحصيلُ أغراضهِ الخسيسةِ. المؤمنُ مُنشرحِ الصدرِ بالعلم النافعِ والإيمانِ الصحيحِ والإقبالِ على اللّهِ واللهْجِ بذكرهِ والإحسانِ إلى الخلقِ وسلامةِ الصدر من الأوصافِ الذميمةِ، والجاحدُ الغافلُ دينه ذلك لفقده الأسباب الموجبةِ لانشراح الصدر.

فإذا قيل إذا كانَ الإيمانُ الصحيحُ كما وصفْتَ، مع اختصاركَ واقتصارِكَ، وأَنَّ به السعادةَ العاجِلَةَ والآجِلةَ، وأَنَّهُ يُصْلِحُ الظاهرَ والباطنَ، والعقائدَ والأخلاقَ والآدابَ، وأنَّهُ يدعو البشرَ كلَّهمْ إلى كلِّ خيرٍ وصلاحٍ، ويهدي للَّتي هي أقومُ، فإذا كان الأمرُ كما ذكرتَ، فلِمَ كان أكثرُ البشَر عن الدين والإيمانِ معرضين، ولهُ محاربينَ، ومنه ساخرين؟ وهلا كان الأمرُ

بالعَكسِ ، لأنَّ الناسَ لهُمْ عقُولٌ وأذهانٌ تختارُ الصالِحَ على الفاسِد، والخيرَ على الشرِّ، والنافعَ على الضَّارِ؟..

فالجواب: أنَّ هذا الإيرادَ قد ذكرَهُ الله في كتابِه وأجابَ عنهُ بذكرِ الأسبابِ الواقعَةِ المانِعَةِ، وبالموانِـع العائقَةِ، وبذكرِ الأجوبةِ عنْ هذا الإيراد لا يهُول العبدَ ما يراهُ من إعراضِ أكثر البشر عنْهُ، ولا يستغربُ ذلك، فأقولُ: قد ذكرَ اللَّهُ لِعدَمِ الإيمانِ بالدين الإسلامي موانـعَ عديدةً واقعةً من جمهور البشر، منها الجهلُ به وعدمُ معرفتهِ حقيقةً، وعدمُ الوقوفِ على تعاليمه العاليةِ وإرشاداته الساميةِ، والجهلُ بالعلوم النافعة أكبرُ عائقٍ وأعـظمُ مانـعٍ من الوصول إلى الحقائق الصحيحةِ والأخلاق الجميلة. قال تعالى: ﴿**بَلْ كذَّبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمِهِ ولمَّا يأْتِهم تأويلُهُ**﴾ [سورة يونُس: الآية ٣٩]

فأخبرنا أنْ تكذيبهم صادرٌ عن جهلهمْ وعدمِ إحاطتهم بعلمهِ، وأنه لمْ يأْتهم تأويلُهُ الذي هو وقوعُ العذاب الذي يوجب للعبدِ الرجوعَ إلى الحق والاعتراف به، ويقولُ تعالى:

﴿**ولكن أكثرَهُم يجهلون**﴾ [سورة الإنعام: الآية ١١١]
﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمُونَ**﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٧]
﴿**صمٌّ بكمٌ عميٌ فَهمْ لا يعقلونَ**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١]
﴿**إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعلمون**﴾ [سورة النمل: الآية ٥٢]

إلى غير ذلك من النصوص الدالّة على هذا المعنى. والجهلُ إما أن يكونَ بسيطاً، كحال كثيرٍ من دهماء المكذِّبين للرسُولِ الرَّادِّينَ لِدعـوته اتِّبـاعاً لرؤسائهِمْ وساداتهِمْ وهُمُ الذينَ يقُولونَ إذا مسَّهم العذابُ:

﴿**ربَّنا إنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وكبراءَنا فأضَلُّونا السبيل**﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٦٧]

وإما أن يكونَ الجهلُ مركباً، وهذا على نوعين:

**أحدُهما**: أن يكونَ على دينِ قومِه وآبائهِ ومن هو ناشيءٌ معهمْ، فيأتيه

الحقُّ فلا ينظرْ فيه وإنْ نظرَ فنظرٌ قاصرٌ جداً لرضاه بدينه الذي نشأ عليه وتعصيبهِ لقومه، وهؤلاء جمهورُ المكذبينَ للرُّسُلِ الرادّينَ لدعْوتهمْ، الذين قال اللَّهُ فيهم:

**﴿وكذلك ما أرسلْنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مترفُوها إنّا وجَدْنا آباءنا على أُمةٍ وإنّا على آثارهمْ مقتدون﴾** [سورة الزخرف: الآية ٢٣]

وهذا هو التقليدُ الأعمى الذي يظنُّ صاحبُهُ أَنهُ على حقٍّ وهو على الباطلِ؛ ويدخلُ في هذا النوْعِ أكثرُ الملحدينَ المادّيينَ، فإن علومهُم عند التحقيق تقليدٌ لزعمائهم، إذا قالوا مقالةً قبلوها كأنها وحيٌ مُنْزَلٌ، وإذا ابتكروا نظريةً خاطئةً سَلَكوا خَلْفَهُمْ في حالِ اتِّفاقِهِمْ وحالِ تناقُضِهِمْ، وهؤلاء فتْنَةٌ لِكلِّ مفتونٍ لا بصيرةَ لهُ.

**النوعُ الثاني**: من الجهلِ المركَّب حالةُ أئمة الكفر وزعماء الملحدينَ، الذين مهروا في علومِ الطبيعةِ والكونِ، واستجهلوا غيرَهمْ وحصروا المعلوماتِ في معارفهمْ الضئيلةِ ضيقة الدائرةِ، واستكبروا على الرُّسُلِ وأتْبَاعهمْ، وزعموا أنَّ العلومَ محصورةٌ فيما وصلتْ إليه الحواسُّ الإنسانيةُ والتجاربُ البشريةِ، وما سوى ذلك أنكروهُ وكذّبوهُ، مهما كان من الحقِ: فأنكروا ربَّ العالمين، وكذّبوا رُسُله، وكذبوا بما أخبر اللَّهُ به ورسُوله من أُمورِ الغيبِ كلِّها، وهؤلاء أحقُّ النَّاسِ بالدُّخولِ تحتَ قولِه تعالى:

**﴿فلمّا جاءتهمْ رُسُلهمْ بالبيِّناتِ فرحُوا بما عنْدَهمْ من العلمِ وحاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة غافر: الآية ٨٣]

ففرْحُهُمْ بعلومِهمْ، علوم الطبيعةِ، ومهارتُهُمْ فيها هو السَّببُ الأقوى الذي أوجَب لهُمْ تمسُّكَهُمْ بما معَهُم من الباطِل، وفرْحُهُمْ بها يقتضي تفْضيلَهُمْ لها ومدْحَهُمْ لها وتقديمها على ما جاءتْ به الرُّسُلُ من الهدى والعلم. بل لم تكفِهمْ هذه الحالُ حتى وصلوا إلى الاستهزاءِ بعلوم الرُّسُلِ واستهجانها، وسيحيق بهمْ ما كانوا به يستهزئون. ولقد انخدع لهؤلاء الملحدينَ كثيرٌ من المشتغلين بالعلوم العصريةِ التي لمْ يَصْحبها دينٌ صحيحٌ، والعهدةُ في ذلك

على المدارسِ التي لم تهتمَّ بالتعاليمِ الدينيَّةِ العاصمةِ من هذا الإلحادِ، فإنَّ التلميذَ إذا خرج منها لم يمهر في العلوم الدينية، ولا تخلّق بالأخلاق الشَّرعيةِ ورأى نفسَهُ أنه يعرفُ ما لا يعرفهُ غيرهُ احتقرَ الدِّين وأهلَهُ وسَهُلَ عليه الانقيادُ لهؤلاءِ الملحـدين المادِّيين. وهذا أكبرُ ضررٍ ضُرِبَ به الدينُ الإسلاميُّ.

فالواجبُ قبل كلّ شيءٍ على المسلمين نحو المدارسِ أن يكـونَ اهتمامُهُمْ بتعليم العلومِ الدينيةِ قبل كلِّ شيءٍ، وأن يكونَ النجاحُ وعدمُه متعلقاً بها لا بغيْرها، بل يُجعلُ غيرُها تبعاً. وهذا من أفرضِ الفرائضِ على من يتولّاها ويباشر تدبيـرها وعلى الأساتذةِ المعلمين فيها ومستقبلُ الشبيبةِ متوقفٌ على هذا الأمرِ فليتق اللَّهَ من لهُ ولايةٌ أو كلامٌ عليها، وليحتسب الأجر العظيم عند اللَّهِ في جَعلِ الدين أهمَّ العلوم المدرسية، فإن الخَطَر كبيرٌ مـع الإهمالِ، والصلاحُ والخيرُ مضمونٌ مـع العنايةِ في علوم الدينِ.

ومن موانِـع الدين والإيمانِ الحسدُ والبَغْي، كحالِ اليهود الذين يعرفُونَ النبـيَّ ﷺ وصدقَه وحقيقةَ ما جاءَ به كما يعرفونَ أبناءهُمْ ويكتمون الحقَّ وهُمْ يعلمونَ، تقديماً للأغراض الدنيوية والمطالب السُّفليةِ على الإيمان. وقدْ منـعَ هذا الداء كثيراً من رؤساءِ قريشٍ، كما هو معروفٌ، من أخبارِهمْ وسيرهمْ. وهذا الداء ناشىءٌ عن الكبرِ الذي هو أعظمُ الموانـعِ من اتباع الحقِ. قال تعالى:

﴿سأصْرفُ عن آياتيَ الذين يتكبَّرونَ في الأرض بغير الحقِّ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٤٦]

فالتكبرُ الذي هو ردُّ الحق واحتقارُ الخلقِ منَـع خلقاً كثيراً من اتباع الحق والانقيادِ لهُ بعد ما ظَهرتْ آياته وبراهينه. قال تعالى:

﴿وجَحَدُوا بها واستيقنتْها أنفُسُهمْ ظلماً وعلوًّا فانظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

ومن موانـع الإيمانِ الإعراضُ عن الأدلَّةِ السَّمْعيَةِ والأدلَّة العقلية الصحيحة. قال تعالى:

﴿ومن يَعْشُ عنْ ذكرِ الرحمن نُقَيِّض لهُ شيطاناً فهو لهُ قرينٌ * وإنهمْ ليصدُّونهمْ عن السبيل ويحسبون أنهمْ مهتدونَ﴾

[سورة الزخرف: الآيتان ٣٦، ٣٧]

وفي القرآن الكريم على لسانهم:

﴿لو كُنا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنا في أصحاب السعيرِ﴾

[سورة المُلْك: الآية ١٠]

فلمْ يكن لأمثالِ هؤلاء الذين اعترفوا بعدم عَقلهمْ وسمعهمْ النافع رغبةٌ في عُلوم الرُّسُلِ والكُتُبِ المنْزَلة من الله ولا عقولٌ صحيحةٌ يهتدون بها إلى الصواب وإنّما لهم آراءٌ ونظرياتٌ خاطئةٌ يظنُّونها عقلياتٍ وهي جهالاتٌ، ولهم اقتداءٌ خلفَ زعماءِ الضلالِ منعهُمْ من اتباع الحق حتى وردوا نارَ جهنمْ فبئس مثوى المُتكبرين. ومن موانع اتباع الحق ردُّهُ بعد ما تبينَ، فيعاقبُ العبدُ بانقلاب قلبهِ ورؤيته الحسن قبيحاً والقبيح حسناً. قال تعالى:

﴿فلما زاغوا أزاغ اللَّهُ قلوبهمْ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

﴿ونُقَلِّبُ أفئدَتَهمْ وأبصارَهُم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهُمْ في طغيانهمْ يعمهون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٠]

وهذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ وقد ولاهُم اللَّهُ ما قولوا لأنفُسهِمْ إنَّهمْ اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون اللَّهِ. ومن الموانع الانغماسُ في الترفِ والإسرافُ في التَّنعُّم فإنهُ يجعلُ العبد تابعاً لهَواه منقاداً للشهوات الضارة كما ذكرَ اللَّهُ هذا المانِعَ في عِدَّة آياتٍ مثل قولِه:

﴿بلْ متعنا هؤلاء وآباءهُمْ حتَّى طال عليهمُ العُمرُ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٤٤]

﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [سورة الواقعة: الآية ٤٥]

فلما جاءتهُم الأديانُ الصحيحةُ بما يعدلُ ترفَهُمْ ويوقفهم على الحدِّ النافِع ويمنعُهُمْ من الانهماك الضارِّ في اللذات رأوا ذلك صادّاً لهُمْ عن مؤاداتهم، وصاحبُ الهوى الباطل ينْصرُ هواه بكلِّ وسيلةٍ. لما جاءهُمْ الدين بوجوب

عبادة الله وشُكر المنعمِ على نعمه وعدمِ الانهماك في الشهوات ولّوا على أدْبارهمْ نفوراً. ومن الموانِـع احتقارُ المكذبين للرُّسُل وأتباعهم واعتقاد نقصهِمْ والتهكمُ بهمْ كما قال قومُ نوحٍ:

﴿أنـؤْمِنُ لك واتبعك الأرذلون﴾ [سورة الشعراء: الآية ١١١]

﴿وما نراك اتَّبعك إلاّ الذين هُم أراذلُنا باديَ الرأي وما نرى لكمْ علينا من فضلٍ﴾ [سورة هود: الآية ٢٧]

وهذا منشؤهُ من الكبر، فإذا تكبّر وتعاظمَ في نفسه واحتقرَ غيرهُ اشمأزَّ من قبول ما جاء به من الحق حتى لو فُرض أن هذا الذي ردّهُ جاءهُ من طريق من يعظمهُ لقبله بلا تردُّد. وقال تعالى:

﴿كذلك حقّتْ كلمةُ ربك على الذين فسقُوا أنهم لا يؤمنون﴾
[سورة يونس: الآية ٣٣]

فالفسقُ وهو خروج العبد عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان، وكونُ القلب على هذا الوصف الخبيث أكبرُ مانـع من قبولِ الحقّ علماً وعملاً، واللّهُ تعالى لا يزكّي من هذه حاله، بل يكلُه إلى نفسهِ الظالمةِ، فتجُولُ في الباطلِ عناداً وضلالاً وتكونُ حركاتُهُ كلُّها شرًّا وفساداً فَفِسْقٌ يقرنه بالباطِلِ وتصدُّهُ عن الحق، لأن القلْبَ متى خرجَ عن الانقيادِ للّهِ والخضوعِ فلا بُدَّ أنْ ينقادَ لكلِّ شيطانٍ مَريدٍ، كُتِبَ عليْهِ أنَّهُ من تولاهُ، فإنهُ يُضِلُّه ويهديه إلى عذابِ السَّعير. ومن أكبرِ موانـعِ اتباع الحقّ والإيمانِ حصرُ العلومِ والحقائقِ في دائرةٍ ضيقةٍ، كما فعل مَلاحِدةُ المادِّيينَ في حصرهم العلومَ ومدركاتِ الحسِّ، فما أدركوه بحواسِّهم أثبتوهُ وما لم يُدركُوه بها نَفَوْهُ ولو ثبَتَ بطُرقٍ وبراهين أعظم بكثير وأوضَـح وأجْلى من مدركاتِ الحسِّ. وهذه فتنةٌ وشبهةٌ ضلَّ بها خلقٌ كثيرٌ، وهذه الطريقة الخبيثة انكروا وجودَ الربِّ وكفروا بالرسُلِ وبما أخْبرُوهُمْ به من أمورِ الغيبِ التي قامت الأدلةُ والبراهينُ المتنوعَةُ على صدْقِها، بلْ قامت الأدلةُ المشاهدةُ على حقِّها. ومن المعلومِ بالضرورةِ والعلمِ اليقيني أن البراهينَ على وجود الباري ووحدانيته وانفرادِه بالخلْقِ والتدْبير لا يمكن أن يساويَها

أو يقاربَها شيءٌ من الطرقِ المثْبَتةِ لأي حقيقةٍ تكون. فقد قامت الأدلةُ السمْعِيَّةُ والعقليةُ والعيانيَّةُ والفطريةُ على ذلك، وقدْ أظْهَرَ من آياتهِ في الآفاقِ وفي الأنفسِ ما تبينَ به الحقُّ، وأنّهُ حقٌّ ورسلُه حقٌّ وجزاؤهُ حقٌّ وجميعُ أخباره حقٌّ ودينُهُ حقٌّ فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضلالُ، ولكنْ تمرُّدُ المادِّيّينَ وكبرُهُمْ حالَ بيْنَهُمْ وبينَ الحقِّ النافِع الذي لا ينفعُ غيرهُ بدونه بوجهٍ من الوجوهِ. والمؤمنُ البصيرُ يعرفُ بنورِ بصيرته أنهم في ضلالٍ مبين وعمىً متراكِم ونحمدُ اللَّهَ على نعمةِ الهدايةِ.

ومن الموانِعِ تجرد المادِّيينَ ومن تبِعَهُمْ من المغرورينَ، وزعمُهُمْ أنَّ البشرَ لَمْ يبلغوا الرُّشدَ ونضوجَ العَقْلِ إلاّ في هذه الأوقات التي طغتْ فيها المادة وعلومُ الطبيعةِ، وأنهمْ قبل ذلك لَمْ يبلغوا الرُّشدَ. وهذا فيه من الجراءةِ والإقدامِ على السَّفْسَطَةِ والمُكابرةِ للحقائقِ والمباهَتَةِ ما لا يخفى على من لهُ أدنى معقولٍ لم تغيرْهُ الآراء الخبيثةُ. فلو قالوا إنَّ المادةَ والصناعةَ والاختراعاتِ وتطويعَ الأمور الطبيعيةِ لمْ تنْضُجْ وتتمَّ إلا في الوقتِ الأخيرِ لصَدَّقهُمْ كلُّ أحدٍ، وأَمّا تعريفهمْ على هذا وتجريهمْ وتعدِّيهمْ إياهُ إلى العلومِ الصحيحةِ والحقائقِ الثابتةِ والأخلاقِ الجميلةِ فقضيته من أكذبِ القضايا. فإنَّ العقولَ والعلومَ الصحيحةَ إنما تعرفُ ويستدلُّ على كمالها أو نقصها بآثارِها وبأدلتها وغاياتها. انظُرْ إلى الكمال والعلوِ في العقائدِ والأخلاقِ والدينِ والدنيا والرحمةِ والحكمةِ التي جاء بها محمدٌ ﷺ، وأخذها عنه المسلمونَ وأوصَلَتْهمْ وقت عملِهِمْ بها إلى كلِ خيرٍ دينيٍ ودنيوي وكل صلاحٍ، وأخضعَتْ لهمْ جميعَ الأمم وأنهمْ وصلوا إلى حالةٍ وكمالٍ يستحيلُ أن يصلَ إليهِ أحدٌ حتى يسلك طريقهم.. ثم انظر إلى ما وصلتْ إليه أخلاقُ المادِّيينَ الإباحيين، الذين أطلقوا السِّراحِ لشهواتهمْ ولمْ يقفوا عند حدٍّ حتّى هبطوا بذلك إلى أسفل سافلين. ولولا القوةُ الماديةُ تمسِكهُمْ بعض التماسُكِ لأَرْدَتْهُم هذه الإباحية والفوضى في الهلاك العاجلِ.

﴿ولا تحسبن اللَّهَ غافلاً عمّا يعمَلُ الظالمونَ﴾

[سورة إبراهيم: الآية ٤٢]

ثم لولا بقايا من آدابِ الأديانِ بقيتْ بعضُ آثارها في الشعوبِ الراقيةِ صلحتْ بها دنياهمْ لمْ يكن لرقيهم المادي قيمةٌ عاجلةٌ، فإنَّ الذينَ فقدوا الدين عجزوا كلَّ العجزِ عن الحياةِ الطيبة والراحةِ الحاضرةِ والسعادة العاجلةِ، والمشاهدةُ أقوى شاهدٍ لذلك. ومشركو العرب ونحوهُمْ ممن عندهُمْ بعض الإيمان وبعضُ الاعتراف بالأصول الإيمانيةِ كتوحيدِ الربوبيةِ والاعترافِ بالجزاء خير لكثيرٍ من هؤلاءِ المادّيين بلا ريب ولا شكٍ؛ ثُمَّ قد عُلِم بالضرورةِ أنَّ الرُّسُلَ ـ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهمْ ـ جاؤوا بالوحي والهداية جملةً وتفصيلاً، وبالنُّور والعلْم الصحيح والصلاحِ المطلقِ من جميعِ الوجوهِ، واعترفَت العقُولُ الصحيحةُ بذلك وعلِمَت أنّها في غاية الافتقارِ إليهِ، وخَضَعَتْ لِمَا جاءَتْ به الرُّسُلُ وعلِمَت العقُولُ أنَّها لو اجْتَمَعَتْ من أوَّلها إلى آخرها لمْ تصلْ إلى درجةِ الكُتُبِ.. إلى الحقائقِ النافعةِ التي جاءتْ بها الرُّسُلُ، ونزلتْ بها الكتُبُ.. وأنَّهُ لولاها لكانتْ في ضلالٍ مبينٍ وعمى عظيمٍ وشقاءٍ وهلاكٍ مستمرٍّ.

﴿لقدْ منَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَث فيهمْ رسُولاً من أنفسهم يتلو عليهمْ آياته ويُزكّيهمْ ويعلّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

فالعقُولُ لمْ تبْلغِ الرُّشدَ الصحيحَ ولم تنضج إلّا بما جاءتْ به الرُّسُلُ، ومنْ ذلك انخداعُ أكثرِ النَّاسِ بالألفاظِ التي يزوَّقُ بها الباطلُ ويردُّ بها الحق من غيرِ بصيرةٍ ولا علمٍ صحيحٍ، وذلك لتسْميتهِ علوم الدين وأخلاقِه العاليةِ رجعيةً وسميتهم العلومَ والأخلاق الأخر المنافيةَ لذلك ثقافةً وتجديداً. ومن المعلومِ لكلِّ صاحبِ عقلٍ صحيحٍ أنَّ كل ثقافةٍ وتجديدٍ لمْ يستندْ في أُصولهِ إلى هدايةِ الدينِ وإلى توجهات الدين فإنهُ شرٌّ وضررٌ عاجلٌ وآجلٌ ومن تأمّل أدْنى تأمُّلٍ ما عليه من يسمون المثقفينَ الماديينَ من هبوطِ الأخلاقِ والإقبالِ على

كلِ ضارٍّ وتركِ كل نافـع عرف أنَّ الثقافَةَ الصحيحة تثقيفُ العقولِ بهدايةِ الرُسُّل وعلومهمُ الصحيحةِ وتثقيفُ الأخلاقِ وتهـذيبُها بـالأخلاقِ الحميـدة الجميلةِ والتوجيهات النافعَةِ التي تشتمل على الصلاحِ المطلَق والاستعانة بعلومِ المادة الصحيحةِ على الخير والصلاحِ والنجاحِ. فالإسلامُ يأمرُ ويحثّ على تحصيل السعادتين، وتكميلِ الفضيلتينِ. ومن تأملَ ما جاءَ به الدينُ الإسلامي من الكتابِ والسُّنَّة، جملةً وتفصيلاً، عرفُ أنَّهُ كما أصْلَحَ العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ فَقَدْ أصْلَحَ أمور الدُّنيا وأرشد إلى كلِّ ما يعودُ إلى الخير والنفـعِ العام والخاص، واللَّهُ الموفقُ الهادي، وصلّى اللَّهُ على محمـد وسلَّم.

# التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهـج بذكره آناء الليل والنهار؛ وجعلها تُؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمداً ذلك من كتاب الله الكريم ــ الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقاً لا مزيد عليه ــ ومن سنة نبيه محمد ﷺ: التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيراً من مطلقاته. مبتدئاً بتفسيره، مثنياً بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مثلثاً بفوائده وثمراته، وما يتبـع هذه الأصول.

قال الله تعالى[1]: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا: كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ تُـؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؛ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: [١٤/٢٤ ــ ٢٥].**

(١) عبارة الأصل: «قال الله تعالى ومثل كلمة طيبة كشجرة»... إلـخ. وهي سبق قلم.

فمثل الله كلمة الإيمان ـ التي هي أطيب الكلمات ـ بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافـع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيماً، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بهـا: علماً وعملاً. فإن نصيبه ـ من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة ـ بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

**عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي**

# الفصل الأول
## في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها؛ فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور ـ قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره ـ أخطأ خطأً فاحشاً.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛ والانقياد ظاهراً وباطناً. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن. وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى ـ من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته ـ هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة ـ وهو التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً ـ من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.

وكـذلك الإيمـان بجميـع الرسـل ـ صلوات الله وسلامـه عليهم ـ وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة؛ كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن من أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائـع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح. لأنه متى فات شيء من ذلك: حصل ـ من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب ـ بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفـع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾: [١٩/٥٧]. والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء: في الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية: أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، قال: (إِنَّ أَهْلَ ٱلجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ في الجَنَّةِ[١]، كما تَـرَاءَوْنَ الكوكبَ الشـرقيَّ أو الغربـيَّ في الأُفُق؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهمْ)؛ فقالوا: «يـا رسول [الله]؛ تلكَ

(١) قوله: «في الجنة»، لفظ مسلم من طريق سهل بن سعد. واللفظ المتفق عليه ـ من طريق أبـي سعيد ـ هو: «من فوقهم». وقد أخرجه أحمد من هذا الطريق، والترمذي من طريق أبـي هريرة. وفي سائر اللفظ الوارد هنا اختلاف واختصار، كما في سائر الروايات، فراجـع: صحيـح البخاري (١١٩/٤ أو الفتـح: ٢٠٦/٩)، ومسلم (١٤٤/٨ ـ ١٤٥ أو الشرح: ١٦٨/١٧ ـ ١٦٩)، وهداية الباري (١٧٢/١ ـ ١٧٣: ط ثانية)، والجامـع الصغير (٨٨/١: ميمنية)، والفتـح الكبير (٣٨٠/١ ـ ٣٨١)، ومصابيـح السنة (١٥٩/٢: بولاق).

مَنَازِلُ الأنبياء لا يَبْلُغُها غيرُهم»؛ قال: (بَلَى ــ والذي نَفْسِي بيَدِه ــ رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ).

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به؛ فقال في أعظم آيات الإيمان: **﴿قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ؛ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**: [٢/١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة؛ والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده ــ بقوله: **﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**.

كما أثنى على المؤمنين ــ في آخر السورة ــ بالقيام بذلك: فقال: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ؛ وَقَالُوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، غفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾**: [٢/٢٨٥].

فأخبر: أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم: أن يحقق لهم ذلك وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان؛ وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله: يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء ــ عيسى وغيره ــ: إنهم قالوا: **﴿رَبَّنَا**

**آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَٱتَّبَعْنا الرَّسُولَ؛ فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**: [٣/٥٣]. فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به: قولاً، وعملاً، واعتقاداً.

وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إذا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيْماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ؛ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ؛ أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً؛ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَمَغْفِرَةٌ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾**: [٨/٢ ـ ٤].

فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيماناً: ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه ـ مع ثبوت الإيمان في قلوبهم ـ يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله؛ وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه. وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها: يقيمونها ظاهراً وباطناً؛ ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ومن كان على هذا الوصف: فلم يبق من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً. ولهذا قال: **﴿أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾**؛ الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً. ثم ذكر ثوابهم الجزيل: المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ: ٱلَّذِينَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فَاعِلُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ؛ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ؛ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ**

**وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[1]، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ؛ أولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ؛ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾**: [٢٣/١ ــ ١١].

ففسر الله الإيمان ــ في هذه الآيات ــ بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: **﴿الَّذِينَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾**؛ إلى آخر الآيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات. وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات. وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات. كما ذكرهم الله بقوله: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا؛ فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ؛ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾**: [٣٥/٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر،

---

(١) ورد في الأصل بعد ذلك، زيادة: ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾؛ كما وردت فيه الآية التالية بلفظ: ﴿... صلاتهم...﴾. وهو خطأ وزيادة نشآ من الاشتباه بآيات سورة المعارج: [٧٠/٢٩ ــ ٣٤].

للحاجة إلى ذكر المعطوف. لئلا يظن الظان: أن الأيمان يكتفى فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ثم يذكر خبراً عنهم. والأعمال الصالحات: من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن ــ وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله: من الواجبات، ومن ترك المحرمات ــ فليس بصادق في إيمانه.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: [١٠/٦٢ ــ ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب: من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله: من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وكانُوا يَتَّقُونَ﴾. كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ؛ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ؛ أولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ؛ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً؛ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: [٤٩/٧ ــ ٨).

فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته؛ وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام؛ ويبغض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في الصحيح ــ من حديث أنس رضي الله عنه ــ أنه ﷺ،

---

(١) كما في سورة البقرة: [٢/٢٧٧] ويونس: [١٠/٩]، وهود: [١١/٢٣]، والكهف: [١٨/٣٠ و١٠٧)، ومريم: [١٩/٩٦]، ولقمان: [٣١/٨]، وفصلت: [٤١/٨]، والبروج: [٨٥/١١]، والبينة: [٩٨/٧].

قال[1]: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إِلاَّ لِلَّهِ، وأَنْ يَكرهَ أن يَرْجِعَ عن دينه، كما يَكْرهُ أَنْ يُقْذَفَ في النار).

فذكر أصل الإيمان الذي هو: محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب. وذكر تفريقها: بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه. وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أنّ للإيمان حلاوةً في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية؛ وأوجبت له الحياة الطيبة. فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً ــ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ــ واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. من كان كذلك: فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام؛ فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية؛ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا[2]﴾.

وكذلك في الصحيحين ــ من حديث أبي هريرة ــ أنه ﷺ قال[3]:

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/٨ــ ٩ و١٤/٨ و٢٠/٩)، ومسلم: (٤٨/١)، والترمذي: (٩١/١٠)، والمصابيح: (٣/١)، ببعض اختلاف. وقد أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه، كما في الفتح الكبير: (٤٩/٢)، وأبو داود كما في هداية الباري: (٣٢٣/١) وانظر: سننه (١٩٨/٤).

(٢) اقتباس من سورة الأنعام: [١٣٢/٦]، والأحقاف: [١٩/٤٦].

(٣) كما في صحيح مسلم: (٤٦/١)، والمصابيح (٣/١) ببعض اختلاف. وورد في مسلم أيضاً مختصراً، كما ورد في البخاري بلفظ: «وستون». وقد أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر: الجامع الصغير (١٢٣/١)، والفتح الكبير (٥١٠/١)، وهداية الباري (٢٨٠/١)، وسنن أبي داود (٢١٩/٤).

(الإيمانُ بِضْـعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أعلاَها قولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ؛ وأدْناها: إمَاطَةُ الأذَى عنِ الطَّريقِ. والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمَانِ).

وهذا صريـح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمـع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته ــ وهو قول: لا إلـه إلا الله؛ اعتقاداً، وتألهاً، وإخلاصاً لله ــ وبين أدناه، وهو: إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي، عن الطريق. فكيف بما فـوق ذلك: من الإحسـان. وذكر الحيـاء ــ والله أعلم ــ: لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيـح. كما به يتحقق كل خلق حسن. وهذه الشعب ــ المذكورة في هذا الحديث ــ هي جميـع شرائـع الدين الظاهرة والباطنة.

وهذا ــ أيضاً ــ صريـح: في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائـع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم: أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً. فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ فقد خالـف الحس، مـع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقـد ذكر النبـي ــ ﷺ ــ الإسـلام والإيمـان في حـديث جبـريـل المشهور(١)، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر)؛ وفسر الإسلام بالشرائـع الخمس الظاهرة. لأنه ــ كما تقدم ــ إذا قرن بالإيمان غيره، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية؛ والإسلام أو الأعمال الصـالحة

---

(١) المـروي ــ باختـلاف أو اختصـار ــ من طـريق أبـي هـريـرة: في صحيـح البخـاري (١/١٥، ٦/١١٥) ومسلم (١/٣٠ ــ ٣١)، ومسند أحمد، وسنن ابن ماجه. ومن طريق عمر: في صحيـح مسلم (ص ٢٩)، والمصابيـح (١/٣)، وسنن أبـي داود (٤/٢٢٤)، والترمذي والنسـائي وشعب الإيمان للبيهقي. انـظر: الجـامـع الصغـير (١/١٢٣)، والفتـح الكبـير (١/٥٠٩ ــ ٥١٠) وهداية الباري (٢/١٢٥).

بالشرائع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.

وفي الصحيحين ــ من حديث أنس ــ أن النبي ﷺ قال[1]: (لا يؤمن أحدكم: حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).

فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان؛ فإن قدم ما يحبه الرسول: كان صادق الإيمان؛ وإلا: فهو ناقص الإيمان. كما قال تعالى: ﴿**فَلا ــ وَرَبِّكَ ــ لَا يُؤْمِنُونَ: حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾: [٤/٦٥].

فأقسم تعالى: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكمه: في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي الصحيحين[2] أيضاً ــ عن أنس مرفوعاً ــ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة؛ فإنه من الإيمان. ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/٨) ومسلم: (١/٤٩) والمصابيح: (١/٣)، وهداية الباري: (٢/٣٠٨)، ومسند أحمد وسنن النسائي وابن ماجه، كما في الجامع الصغير: (٢/٣٠٢) والفتح الكبير (٣/٣٠). وقد أخرجه البخاري أيضاً ــ من طريق أبي هريرة ــ باختصار من آخره، وزيادة في أوله.

(٢) والمصابيح (٢/١١٥)، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وابن ماجه. انظر: صحيح البخاري (١/٨)، ومسلم (١/٤٩)، وقد ورد فيه بلفظ: «أو لجاره». وهداية الباري (٣/٣٠٨)، والجامع الصغير (٢/٢٥٣)، والفتح الكبير (٣/٣٥١).

وفي صحيح مسلم(١) ـ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً).

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، و[أن(٢)] يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن: حيث رضي الله له(٣) الإسلام ووفقه له، واصطفاه له؛ ويرضى بمحمد ﷺ نبياً: إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال. وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، وأتباعه: من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ(٤) يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: وَإِنْ كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: [٣/١٦٤]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم؛ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: [٩/١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم؛ الذي أقسم الله(٥) أنه لعلى خلق عظيم؛ وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله،

---

(١) ١/٤٦، والترمذي (٩١/١٠) والمصابيح: (٣/١)، ومسند أحمد. كما في الجامع الصغير: (١٧/٢) والفتح الكبير: (١١٨/٢). وقوله: «نبياً» لفظ الترمذي. ولفظ مسلم وغيره: «رسولاً».

(٢) هذه الزيادة متعينة.

(٣) عبارة الأصل: «.. لك الإسلام ووثقك له واصطفاك له واصطفاه له». والظاهر أن أصلها ما أثبتنا، وهو الملائم للسابق واللاحق.

(٤) في الأصل: «رسولاً منهم»؛ وهو اشتباه بآية الجمعة [٦٢/٢].

(٥) في سورة القلم: [٦٨/٤].

واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان!

قال تعالى: ﴿قُلْ: إن كنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ، فَاتَّبِعُونِي[1] يُحْبِبْكُم اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم﴾: [٣/٣١].

وفي صحيح مسلم[2] ــ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ــ قال: (قلت: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل: آمنت بالله؛ ثم استقم).

فبيّن ﷺ ــ بهذه الوصية الجامعة ــ: أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه ــ قولاً وعملاً، فعلاً وتركاً ــ: فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ؛ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ــ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ: أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ؛ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ؛ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾: [٤١/٣٠ ــ ٣٢].

وفي حديث ابن عباس ــ المتفق عليه ــ في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ؛ حيث قالوا: (مرنا بأمر فصل: نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة)؛ وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع؛ أمرهم: بالإيمان بالله وحده؛ [و] قال: (أتدرون: ما الإيمان بالله وحده؟)؛ قالوا: (الله ورسوله أعلم)؛ قال: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان؛ وأن تعطوا من المغنم

---

(١) بالأصل: «فاتبعون»؛ وهو خطأ وتحريف.

(٢) ١/٤٧، والمصابيح: ١/٤؛ ومسند أحمد، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه كما في الجامع الصغير: (٢/٨٦)، والتفح الكبير: (٢/٣٠٠). وفي بعض الروايات بلفظ: «أحداً غيرك».

الخمس)؛ ونهاهم عن أربع: (عَنِ الْحَنْتَمِ، والدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُزَفَّتِ[1])؛ وقال: (احْفظوهنَّ، وأخْبروا بهنَّ مَن وَرَاءَكم).

فهذا ــ أيضاً ــ صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان؛ مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيراً يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما قرب إلى الله ــ من قول وعمل واعتقاد ــ فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبي داود[2]، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأعطَى لله، وَمَنَعَ لله: فقد اسْتَكْمَلَ الإيمانَ).

فالحب والبغض: في القلب والباطن؛ والعطاء والمنع: في الظاهر. واشترط فيها كلها: الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه: من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال؛ ويحب من يحبه: من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه [الله]: من كفر وفسوق وعصيان؛ ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

---

(١) بالأصل: «والمؤفت»؛ وهو خطأ وتصحيف. وهذا الحديث قد أخرجه الشيخان باختلاف كبير ــ من طرق مختلفة عن ابن عباس. وأخرجه عنه الترمذي والنسائي، كما في هداية الباري: (١/٧). كما أخرجه عنه مختصراً أبو داود في السنن: (٢١٩/٤)، والبغوي في المصابيح: (٤/١) وأخرجه مسلم وأحمد عن أبي سعيد الخدري. فانظر: صحيح البخاري (١٦/١ و٢٥ و١٠٧، و١٠٥/٢، و٨١/٤، و١٦٨/٥ ــ ١٦٩، و٤١/٨، و٩٠/٩ و١٦٠)، ومسلم (٣٥/١ ــ ٣٧)، والفتح الكبير (١٢/١ ــ ١٣).

(٢) ٢٢٠/٤، والمصابيح: (٥/١)، والأحاديث المختارة للضياء المقدسي، كما في الجامع الصغير: (١٥٩/٢)، والفتح الكبير: (١٤٩/٣). وأخرج أحمد والترمذي ــ عن معاذ بن أنس مثله. وهو ضعيف كما قال المناوي في فيض القدير: (٢٩/٦).

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾: [٩٢/٥ ـ ٧]؛ وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد: لا يختص بالعطاء المالي؛ بل هو جزء من العطاء. وكذلك مقابله المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي ـ من حديث أبي هريرة مرفوعاً[١] (المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)؛ يدل: على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة؛ حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي: الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه ـ كما قال الحسن[٢] وغيره: «ليسَ الإيمَانُ بالتَّمَنِّي وَالتَّحَلِّي؛ ولكِنَّه: مَا وَقَرَ في القلوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الأعمالُ».

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: [٦٤/١١].

فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن: أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده: هدى الله قلبه هداية خاصة

---

(١) بلفظ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن» إلخ، وقد أخرجه أيضاً عنه أحمد والحاكم وابن حبان؛ وعن واثلة الطبراني في الكبير. وأخرجه باختلاف وزيادة في آخره ـ عن فضالة بن عبيد ـ ابن ماجه. وذكر المناوي: أن الترمذي أخرجه عنه أيضاً. فانظر: الجامع الصغير (٢/١٨٣، ١٨٥) والفتح الكبير (٣/٢٥١، ٢٥٧)، وفيض القدير (٦/٢٥٢ ـ ٢٥٣ و ٢٧٠).

(٢) كما هو ثابت عنه بسند جيد. وروي بمعناه ـ من طريق أنس مرفوعاً ـ: في تاريخ بغداد لابن النجار، ومسند الفردوس للديلمي وهو منكر أو ضعيف. انظر: الجامع الصغير (٢/١٣٣)، والفتح الكبير (٣/٥٧)، وفيض القدير (٥/٣٥٥ ـ ٣٥٦).

للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: [١٠/٩]. فحذف المتعلق: ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر؛ وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: [٢/١٤٣].

كثير من المفسرين فسّروا الإيمان هنا: بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها، بيت المقدس، قبل النسخ؛ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم؛ فأنزل الله هذه الآية[1]. وذلك: أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله: وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى [وهي][2]: أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين: قل ذلك الإيمان، أو كثر. كما ورد في الصحيح: (أن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان)[3].

وبشارة لكل من عمل عملاً قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطىء، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل: إيماناً بالله، وقصداً لطاعته؛ ولكنه تأول تأويلاً أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل؛ فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/١٢ ــ ١٣)، وسنن أبي داود: (٤/٢٢٠).

(٢) في الأصل: «وإن» بكسر الهمزة. وهو خطأ. ولعل الزيادة سقطت من الناسخ، أو لعل الواو زيادة منه. وما في الأصل يصح مع فتح الهمزة. ولكن الأولى ما أثبتناه.

(٣) انظر: حديث أبي سعيد الخدري، المذكور: في صحيح البخاري (١/٩ و٨/١١٥) ومسلم (١/١١٧ ــ ١١٨)، والفتح الكبير (٣/٤٢١ ــ ٤٢٢)، وحديث أنس المذكور في صحيح مسلم (١/١٢٥ ــ ١٢٧).

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخطَأْنَا﴾: [٢/٢٨٦]؛ قال الله على لسان نبيه: (قَدْ فَعَلْتُ).

وفي الحديث الصحيح: (إذَا اجْتَهَدَ الْحاكِمُ فَحَكَمَ[١]، فأصابَ ــ: فله أجْرانِ، وَإذا اجْتَهَد، فأخطأ ــ: فله أجرٌ واحِدٌ، وخطؤُه مغفورٌ له).

وكذلك: من نوى عملاً صالحاً، وحرص على فعله، ومنعه مانع ــ: من مرض، أو سفر أو عجز أو غيرها ــ. كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم ــ من حديث أبي موسى مرفوعاً ــ: (مَنْ مَرِضَ أو سَافَرَ كُتِبَ له ما كان يَعملُ: صَحِيحاً مُقيماً)[٢]. ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

(١) الرواية: «إذا حكم الحاكم فاجتهد»، فما في الأصل روعي فيه المعنى المراد. وهذا الحديث أخرجه أحمد مع الستة عن أبي هريرة؛ ومعهم ــ ما عدا الترمذي ــ عن عمرو بن العاص. وأخرجه البخاري عن أبي سلمة. انظر: صحيح البخاري (٩/١٠٨)، ومسلم (٥/١٣٥)، وسنن أبي داود (٣/٢٩٩)، والجامع الصغير (١/٢٣)، والفتح الكبير (١/١٠٢ ــ ١٠٣)، وهداية الباري (١/٩).

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري وأحمد بلفظ: «إذا مرض العبد أو سافر» مع اختلاف في سائره. وأخرجه أبو داود بمعناه. ولا ذكر له في صحيح مسلم، ولم يشر أحد إلى روايته له. فانظر: صحيح البخاري (٤/٥٧)، وسنن أبي داود (٣/١٨٣)، والفتح (٦/٨٣ ــ ٨٤)، وذخائر المواريث (٣/٢٢١)، والجامع الصغير (١/٣٤)، والفتح الكبير (١/١٥٥)، وهداية الباري: (١/٦٨)، وفيض القدير (١/٤٤٤).

# فصـــل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنّة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان؛ وتوابع ذلك من أمور الدين ـ بل هو اسم للدين كله ـ: علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه: لا شرعاً، ولا حساً، ولا واقعاً.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنّة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾: [٤٨/٤]، ﴿وَيَزْدَادَ[1] الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾: [٧٤/٣١]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: [٣/١٧٣]، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا، فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: [٩/١٢٤]؛ وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة ـ متفاوتون تفاوتاً عظيماً: في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة. وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة. بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في نفس العلم

(١) بالأصل: «ليزداد»، وهو سبق قلم من الناسخ.

الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ أحدهما: علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة؛ والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضاً. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً: صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة: كالصلاة؛ يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما: يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[1]. والآخر يصليها بظاهره: وباطنه مشغول[2] بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضاً، أهلها متفاوتون تفاوتاً كثيراً. والعبد المؤمن ـ في نفسه ـ له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحياناً بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم ـ يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له؛ ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله: أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه: من علومه وأعماله وأحواله. فنسأل الله: أن يزيدنا علماً ويقيناً، وطمأنينة به وبذكره، وإيماناً صادقاً.

وخيار الخلق ـ أيضاً ـ يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى؛ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي؛ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا؛ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً؛ وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ**

(١) هذا مأخوذ من بعض ما ورد في حديث جبريل الذي تقدم بعضه: (ص ١٤).
(٢) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «مشغولاً» وهو تحريف.

حَكِيمٌ﴾: [٢/٢٦٠]؛ وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: [٦/٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح بن مريم ــ حين طلبوا نزول المائدة، ووعظهم عيسى عن هذا الطلب ــ ﴿قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا، وَنَعْلَمَ أن قَدْ صَدَقْتَنَا، وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]. فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية؛ إلى ذلك.

---

(١) اقتباس من سورة المائدة: [٥/١١٣].

# الفصل الثاني
# في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية معرفة واتصافاً ــ وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة؛ وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد. وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سبباً وطريقاً يوصل إليه. والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل.

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها؛ والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم.

وأما التفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

منها ــ بل أعظمها ــ: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: (إن لله تسعة[1] وتسعين اسماً ــ مائة إلا واحداً ــ من أحصاها: دخل الجنة)؛ أي: من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها ــ دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم. فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه؛ ما يزداد به إيماناً. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ، زَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: [٨/٢].

---

(١) الرواية: «تسعا». وهذا الحديث أخرجه عن طريق أبي هريرة ــ باختلاف أو زيادة أو اختصار ــ الشيخان والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الأسماء الحسنى، وكل من أبي الشيخ وابن مردويه في التفسير. وأخرج من طريق علي في الحلية، ومن طريق عمر في تاريخ ابن عساكر، وأخرجه النسائي كما في هداية الباري (٢٠٠/١)، والبغوي في المصابيح: (١٠٩/١)، وراجع: صحيح البخاري (١٩٨/١ و ٩٧/٨ و ١١٨/٩) ومسلم (٦٣/٨)، والجامع الصغير (٩٣/١، ٩٤) والفتح الكبير (٤٠٦/١ ــ ٤٠٨).

وكذلك: إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف ـ تيقن أنه ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[1]؛ وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه ـ من التناقض والاختلاف ـ أمور كبيرة. قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ؛ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْد غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾: [٤/٨٢]. وهذا من أعظم مقويات الإيمان؛ ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة ـ يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟!. ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿**رَبَّنَا، إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمانِ: أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا**﴾ الآية [٣/١٩٣].

وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله ـ كلها من محصلات الإيمان ومقوياته. فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم. الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين: الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين؛ كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ: ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ؛ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا؛ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾: [٣/٧]. فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات؛ وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا

---

(١) اقتباس من سورة فصلت: [٤١/٤٢].

بالجميع، فكلها من عند الله؛ وما منه، وما تكلم به وحكم به ــ كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ، يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: [١٦٢/٤].

وقال: ﴿شَهِدَ اللهُ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ــ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ــ قَائِماً بِالْقِسْطِ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: [١٨/٣].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح ــ استشهد بهم في الدنيا والآخرة: كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإِيمانَ: لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ؛ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ؛ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: [٥٦/٣٠].

وأخبر تعالى في عدة آيات[1]: أن القرآن آيات للمؤمنين، [وآيات] للموقنين. لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره: من العلم واليقين والإيمان. بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون علماً وإيماناً ويقيناً.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل: الجالبة للإيمان، والمقوية له. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ: لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾: [٢٩/٣٨].

فاستخراج بركة القرآن ــ التي من أهمها حصول الإيمان ــ سبيله وطريقه: تدبر آياته وتأملها؛ كما ذكر: «أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه».

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ؟!﴾: [٦٨/٢٣]؛ أي: فلو تدبروه

(١) كما في سورة البقرة [٩٧/٢]، والنساء [٨٢/٤]، والأنفال [٢/٨]، ويونس [٥٧/١٠]، والإسراء (٩/١٧ و٨٢]، والنمل [٢/٢٧ و٧٧]، ويس [٦٩/٣٦ ــ ٧٠]، والجاثية [٢٠/٤٥]، والأحقاف [٣٠/٤٦]، والجن [١/٧٢ ــ ٢).

حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه: من الكفر والتكذيب؛ وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[1]: [٣٩/١٠]، أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

* * *

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه ــ معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه: من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة.

فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به: من الكتاب والسنة، والدين الحق. كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ؟! فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾: [٢٣/٦٩] أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثًا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ. إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ: أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا؛ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ؛ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: [٣٤/٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق ــ بقوله: ﴿نٓ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ: مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: [٦٨/١ ــ ٤].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة. فهو: الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَقَدْ كانَ[2] لكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3].

---

(١) بالأصل: «به»، وهو سبق قلم من الناسخ.

(٢) بالأصل: «كانت»، والزيادة من الناسخ. وهو اقتباس من سورة الأحزاب: [٣٣/٢١].

(٣) اقتباس من سورة الحشر: [٥٩/٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا؛ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً﴾ وهو: هذا الرسول الكريم: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله؛ ﴿فَآمَنَّا﴾: [٣/١٩٣]؛ أي: إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله ــ توسلوا بإيمانهم: أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا: إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ: أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ؛ فَآمَنَّا؛ رَبَّنَا: فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا؛ وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [٣: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف ــ الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه ــ يتبادر إلى الإيمان [به ﷺ]، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم ــ مجرد ما يرى وجهه الكريم ــ يعرف: أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: «لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟» فقال: «ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه؛ ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به». فاستدل العاقل الموفق ــ بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة ــ على رسالته؛ فبادر إلى الإيمان [به].

ولهذا استدل ملك الروم هرقل ــ لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه ــ استدل بذلك: أنه من أعظم الرسل؛ واعترف بذلك اعترافاً جلياً. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه؛ كما منع كثيراً ممن اتضح له: أنه رسول الله حقاً. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة: عاجلاً وآجلاً.

ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة ـ أعظم إيماناً ويقيناً من غيرهم، وأحسن عملاً في الغالب.

* * *

ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون، في خلق السماوات والأرض وما فيهن: من المخلوقات المتنوعة؛ والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه: من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات: من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته؛ وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب: الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته؛ وما فيها: من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره؛ وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان ويسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين؛ خصوصاً ما تشاهده في نفسك: من أدلة الافتقار، وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه؛ ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها[1].

---

(١) كما رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً، عن طريق ضعيف أوحسن. ورواه بلفظ: (الدعاء هو العبادة)، أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، والأربعة وابن حبان، والحاكم ـ من طريق النعمان بن بشير. والقاضي أبو يعلى في المسند، من طريق البراء بن عازب. كما في الجامع الصغير: (١٦/٢) والفتح الكبير: (١١٥/٢) وذكر اللفظين في المصابيح (١٠٧/١).

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كلوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، واشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: [١٧٢/٢]. فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

* * *

ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد ذكر الله: قوي إيمانه؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره؛ ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه.

* * *

ومن الأسباب الجالية للإيمان: معرفة محاسن الدين.

فإن الدين الإسلامي كله محاسن: عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها؛ وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها؛ وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قلوبِكُمْ﴾: [٧/٤٩]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه؛ فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان: وفي الدعاء المأثور: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

* * *

ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان، في عبادة الله، والإحسان إلى خلقه. فيجتهد: أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه؛ فإن لم يقو على هذا: استحضر أن الله يشاهده ويراه. فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه. ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين ـ الذي هو أعلى مراتب اليقين ـ فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق ـ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع ـ هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان. والجزاء من جنس العمل. فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه ـ: أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان؛ ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله وبعباده. فإن (الدين: النصيحة)[1]؛ ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق ـ: فقد تحقق نصحه.

ولذلك قال النبي ﷺ: (لا يُـؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)، متفق عليه[2].

* * *

(١) كما أخرجه البخاري في التاريخ عن ثوبان، والبزار عن ابن عمر. كما في الجامع الصغير (٢/١٧)، والفتح الكبير (٢/١١٧). وأخرج من طريق تميم الداري ـ بزيادة مشهورة ـ : في صحيح مسلم (١/٥٣)، وسنن أبي داود (٤/٢٨٦)، والمصابيح (٢/١١٥). وذكر نحوه: في صحيح البخاري (١/١٧)، والشفا للقاضي عياض (٢/٢٧ «ط. الآستانة»).

(٢) انظر: ما تقدم (ص ٥)، وصحيح الترمذي (٩/٣١٩).

ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾... الآيات [٢٣/١ ـ ١٠]. فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنمِّيه؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره. كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله ـ: من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود ـ من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم[١]: أن الله سمى الصلاة إيماناً، بقوله: ﴿وَمَا كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾: [٢/١٤٣]؛ وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ؛ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: [٢٩/٤٥]. فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان؛ كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها؛ كما قال النبي ﷺ: (والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ)؛ أي: على إيمان صاحبها. فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه ـ بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً ـ لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: «اجلس بنا نؤمن ساعة»؛ فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

---

(١) ص ٢٠.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[1]، إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها: من علائم الإيمان. وفي الحديث[2]: (لَا إيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ).

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية، أو قولية؛ أو أمانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟.

فإن كان كذلك: فهو صاحب دين وإيمان. وإن لم يكن كذلك: نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات ــ على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها ــ: لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أُكُله كل حين.

وشجرة الإيمان ــ كما تقدم ــ محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي ــ وهو: المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات ــ وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة؛ وهو: العفة عن المحرمات قولاً وفعلاً. فمتى تمت هذه الأمور حي[3] هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

* * *

(١) اقتباس من سورة النازعات: [٧٩/٤٠].

(٢) الحسن أو الصحيح عن أنس، بدون زيادة: كما في المصابيح (١/٥)، أو بزيادة مشهورة: كما في مسند أحمد، وصحيح ابن حبان. أو الضعيف عن ابن عمر، بزيادة أخرى كما في معجم الطبراني الأوسط. انظر: الجامع الصغير (٢/١٥٧)، والفتح الكبير (٣/٣١١).

(٣) كذا بالأصل. وهو صحيح بل الأكثر استعمالاً، والوارد في قوله تعالى في سورة الأنفال: [٨/٤٢]: ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾. وهو إدغام «حيي». انظر: المختار.

ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره. كما أقسم تعالى بالعصر: أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق ـ الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق ـ وبالصبر على ذلك كله؛ وبهما يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها. وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضاً: فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق؛ وصبر على ذلك ـ لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه، وروح وقوة إيمان، وقوة التوكل. فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء: من شياطين الإنس، وشياطين الجن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: [٩٩/١٦].

وأيضاً: فإنه متصد لنصر الحق: ومن تصدى لشيء، فلا بد أن يفتح عليه فيه ـ من الفتوحات العلمية والإيمانية ـ. بمقدار صدقه وإخلاصه.

* * *

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان: من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك ـ من دفع الموانع والعوائق؛ وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له؛ والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها: الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه ـ لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر؛ ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات: تَمَّ إيمانه، وقوي يقينه؛ وصار مثل بستان إيمانه: ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ؛ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ: فَطَلٌّ؛ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[1].

ومتى كان الأمر بالعكس: ـ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما ـ. انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ: أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ؛ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ؛ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ؛ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾: [٢/٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها: علماً، وعملاً، حالاً.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها: من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني: بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

---

(١) بالأصل: «خبير»، وهو سهو من الناسخ. وهذا اقتباس من سورة البقرة: [٢/٢٦٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ، تَذَكَّروا فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: [٧/٢٠١]؛ أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه؛ فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً؛ ﴿وإِخْوانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ، ثُمَّ لَا يُقصرُونَ﴾[1]: الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك؛ والمستجيبون[2] لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم: حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان؛ واجعلنا من الراشدين؛ بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.

* * *

(١) اقتباس من سورة الأعراف: [٧/٢٠٢].

(٢) بالأصل: «المستجيبين»، وهو خطأ وتحريف.

# الفصل الثالث
## في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة. وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنى اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر؛ أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها: أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك: أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها ــ عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل.

فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: [١٠/٦٢، ٦٣].

فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: [٢/٢٥٧] أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات

الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل: بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى. فإن التقوى تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ؛ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: [٩/٧١ ـ ٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة ـ بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

* * *

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار؛ والإيمان ـ ولو قليلاً ـ يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيماناً ـ أدى به الواجبات، وترك المحرمات ـ فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ـ في

هذا الأصل. كما تواتر عنه: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيراً(١).

* * *

ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: [٢٢/٣٨] أي: يدافع عنهم كل مكروه؛ يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه ﴿فنادَى فِي الظُّلُمَاتِ: أن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ؛ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾: [٢١/٨٧ ـ ٨٨]، إذا وقعوا في الشدائد؛ كما أنجينا يونس. قال النبي ﷺ(٢): (دَعْوَةُ أخِي يُونُسَ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ ـ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه؛ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [٦٥/٢] أي: من كل ما ضاق على الناس؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾: [٦٥/٤].

فالمؤمن المتقي: ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى؛

(١) كما يفيده حديث أبي ذر المذكور: في صحيح البخاري (٧/١٤٩))، ومسلم (١/٦٦)، والترمذي (١٠/١١٣)، والمصابيح (١/٥). وحديثا جابر وابن مسعود المذكوران: في صحيح مسلم (١/٦٥ ـ ٦٩). وانظر هامش ما تقدم: (ص ٢٠).

(٢) كما في مسند أحمد، وسنن الترمذي والنسائي، والمستدرك للحاكم، والشعب للبيهقي والأحاديث المختارة للضياء المقدسي ـ من طريق سعد ـ: باختلاف وزيادة. انظر: الجامع الصغير (٢/١٤) والفتح الكبير (٢/١١٢).

ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثير، من الكتاب والسنة.

* * *

ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح ـ الذي هو فرعه ـ يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً ـ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: [١٦/٩٧].

وذلك: أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة: راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

* * *

ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص.

ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل؛ مثل قوله: ﴿فَمَنْ[1] يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: [٢١/٩٤]؛ أي: لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ـ: فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُوراً﴾: [١٧/١٩]. والسعي للآخرة: هو العمل بكل

---

(١) بالأصل: «ومن» بالواو. وهو سهو من الناسخ.

ما يقرب إليها، ويدني منها: من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه، كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره: فإنه غير مقبول. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾: [٢٥/٢٣].

وذلك: لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: ﴿قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً؟: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾: [١٨/١٠٣ ـ ١٠٥]؛ فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته: حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: [٣٩/٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: [٦/٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجبُّ ما قبله: من السيِّئات وإنْ عظمت؛ والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان والقادحة فيه، والمنقصة له ـ تجبُّ ما قبلها.

* * *

ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وبهديه(١)

(١) بالأصل: «ويهديه (بالياء) في الصراط»... إلخ. والظاهر أن التصحيف والزيادة من الناسخ. انظر: المختار، والمصباح، والقاموس (مادة: هدى).

الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به؛ وإلى تلقي المحاب والمسار[1] بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: [٩/١٠].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: [١١/٦٤]؛ قال بعض السلف[2]: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها...[3]؛ وذلك: لقوة إيمانه، وقوة توكله؛ ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ؛ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾: [٤/١٠٤].

ولهذا تجد اثنين: تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة ـ وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له ـ تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

---

(١) جمع «مسرة»: ما يسر به الإنسان؛ كما في المصباح: (٢/٤١٨). وعبارة الأصل: «والسرور بالشكر». وأصلها ما ذكرناه، أو: «بالسرور والشكر». على ما يظهر.

(٢) هو: علقمة بن قيس النخعي؛ كما في تفسير الطبري: ٢٨/٧٩ ـ ٨٠: بولاق. وروي نحوه عن مقاتل بن حبان، في تفسير الشوكاني: (٥/٢٣١).

(٣) لم يرد في الأصل ذكر لجواب «لو». والظاهر أنه حذف للعلم به، أي: لكان ذلك أكبر داع للتمسك به والحرص عليه. وكثيراً ما يحذف لذلك، ولتذهب النفس فيه كل مذهب. كما في سورة الأنعام: [٦/٢٧ و ٣٠]، والأنفال: [٨/٥٠]، والسجدة: [٣٢/١٢]، وسبأ: [٣٤/٣١ و ٣٥].

وكما أنه يسلِّي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلِّي عند فقد المحاب. فإذا فقد مؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه ــ من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها ــ تسلى بحلاوة إيمانه؛ والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب ــ في الحقيقة ــ معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب ــ عليه الصلاة والسلام ــ عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم: بحيث قال لإخوته ــ لما طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب معهم ليرتع ويلعب ــ ﴿قَالَ: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾(١)؛ فأخبر أن المانع له من إرساله: أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم؛ فأرسله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾(٢). فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه ــ هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن: قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله ــ أوجب له أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وعد به المؤمنون.

وكذلك: أم موسى ــ حين ذهبت اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغاً من كل شيء إلا من الحزن على موسى ــ لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق ــ لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها(٣). ولكن هو الإيمان: المثبِّت عند الشدائد، المسلِّي عند المصائب؛ المقوِّي إذا وهنت القوى، المعزِّي إذا عز العزا.

---

(١) اقتباس من سورة يوسف. [١٢/١٣] وجواب «لولا» قد حذف هنا أيضاً للعلم به؛ أي: لهلك أسفاً وحزناً. كما حذف في آية القصص: [٢٨/١٠].

(٢) اقتباس من سورة الأنفال: [٨/٤٢ و ٤٤].

(٣) راجع: سورة طه [٢٠/٣٨ ــ ٤٠]، والقصص [٢٨/٧ ــ ١٣].

وقال النبي ﷺ، في وصيته العظيمة ــ في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في السنن: (تعرَّفْ إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»[1]؛ أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان ــ وأنت صحيح غني[2] قوي ــ يعرفك الله في الشدة؛ يقويك[3] الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها. وأعظم شدة ــ تنزل بالمؤمن ــ شد الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن ــ قد تعرف إلى ربه في رخائه ــ: أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

ومن ثمرات الإيمان ولوازمه ــ من الأعمال الصالحة ــ ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [١٩/٩٦] أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

---

(١) قد أخرج أحمد في المسند، والترمذي والحاكم والبغوي وغيرهم، هذه الوصية بدون هذا القول. وأخرجها أحمد ــ في كتاب الزهد على ما يظهر ــ متضمنة له. وقد رواه من طريق أبي هريرة ــ أبو القاسم بن بشران في أماليه، والقضاعي في الشهاب، وغيرهما. راجع: نور الاقتباس (شرح الوصية) لابن رجب (ص ٥ ــ ٩ و٣٦: ط. مصر)، وسنن الترمذي (٩/٣١٩ ــ ٣٢٠)، والمصابيح (٢/١٣٠)، والجامع الصغير (١/١٣٠)، والفتح الكبير (٢/٣١ و٣/٤٠٠)، وفيض القدير (٣/٥١).

(٢) بالأصل: «شحيح»؛ ولا معنى له هنا. ولعله زائد من الناسخ، أو مصحف عن نحو ما ذكرنا.

(٣) بالأصل ــ هنا وفي «يعينك» ــ: بزيادة الياء وهو صحيح: لأنه الغرض مجرد التفسير، بقطع النظر عن الموقع الإعرابي.

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله المؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل ــ لسان صدق ــ ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا منهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا؛ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾: [٣٢/٢٤]، فبالصبر واليقين ــ اللذين هما رأس الإيمان وكماله ــ نالوا الإمامة في الدين.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾: [٥٨/١١].

فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة؛ فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده: في الدنيا والآخرة.

وإنما نالوا هذه الرفعة: بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم؛ والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]؛ فأطلقها: ليعم الخير العاجل والآجل: وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: أن لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: [٢/٢٥] فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ــ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: [٦/٨٢].

---

(١) المراد: آية البقرة [٢/٢٢٣]، والتوبة [٩/١١٢]، ويونس [١٠/٨٧]، والصف[٦١/١٣]، لا آية الأحزاب: [٣٣/٤٧].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ: فَلا خَوْفُ عَلَيهم، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: [٦/٤٨]. فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم. وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَةِ﴾: [١٠/٦٤]. ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ؛ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ: أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ؛ نَحْنُ أَوْلِيَـؤُكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ؛ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ؛ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾: [٤١/٣٠ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا؛ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ: يُـؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمتِهِ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: [٥٧/٢٨].

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُـؤْمِنَاتِ: يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ؛ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ: جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[١]؛ فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه؛ وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة: مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرة على الإيمان؛ ومن غفرت سيئاته: سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

* * *

(١) اقتباس من سورة الحديد: [٥٧/١٢].

ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح ـ الذي هو: إدراك غاية الغايات؛ فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب ـ والهدى الذي هو: أشرف الوسائل.

كما قال تعالى ـ بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد وما أنزل على من قبله: والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان ـ قال(1): ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون**﴾.

فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل.

فلا سبيل إلى الهدى والفلاح ـ اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما ـ إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات.

قال تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ، فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾: [٥١/٥٥]، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً**(2) **لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وهذا: لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه؛ علماً وعملاً. وكذلك معه الآلة العظمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق؛ وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد. ومن كان كذلك: انتفع بالآيات.

---

(١) كما في سورة البقرة [٢/٥]، ولقمان [٣١/٥].

(٢) كذا في سورة الحجر [١٥/٧٧]، والعنكبوت [٢٩/٤٤]. وبالأصل «لآيات». وهو خطأ ناشىء عن الاشتباه بآية الحجر [١٥/٧٥]، والمؤمنون [٢٣/٣٠].

ومن لم يكن كذلك: فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له. ولهذا يذكر الله ــ في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول، وقبول الحق الذي جاء به ــ السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو: الكفر الذي في قلوبهم. يعني: لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة؛ والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه. أي فلا تستغربوا هذه الحالة: فإنها لم تزل دأب كل كافر.

* * *

ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُـؤْمِنِ! إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ: إنْ أصابَتْه سَرَّاء شَكر، فكان[1]، خَيْراً له؛ وإنْ أصابَتْه ضَرَّاء صَبَرَ، فكان خيْراً له).

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي الصحيح عنه ﷺ: (لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى ــ إلا كفر الله عنه بها من خطاياه)[2].

---

(١) بالأصل ــ في الموضعين ــ: «كان»؛ وهو تحريف. والتصحيح من صحيح مسلم: (٢٧٢/٨)، والمصابيح: (١٢٩/٢ ــ ١٣٠). وقد أخرجاه بزيادة من طريق وصهيب. وأخرجه أحمد أيضاً، كما في الجامع الصغير: (٥٧/٢)، والفتح الكبير: (٢٢٢/٢)، انظر: فيض القدير (٣٠٢/٤).

(٢) قد أخرجه ــ ببعض اختلاف، أو بمعناه ــ الشيخان: عن أبي هريرة؛ ومع النسائي عن ابن مسعود، ومع أحمد والترمذي وابن حبان: عن عائشة. وأخرجه البخاري والترمذي: عن أبي سعيد الخدري، كما أخرجه أحمد والحاكم: عن معاوية. انظر: صحيح البخاري (١١٤/٧ ــ ١١٥)، ومسلم (١٤/٨ ــ ١٦)، والترمذي (١٨٦/٤ ــ ١٨٨)، والجامع الصغير (٢٤٩/٢ و١٥١ ــ ١٥٢)، والفتح الكبير (١١٢/٣ و١١٩ ــ ٢١٢)، وفيض القدير (٤٨٣/٥ ــ ٤٨٤ و٤٩٧ و٥٠١)، وهداية الباري (١٧٨/٢).

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء، نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك. وبذلك تتم عليه النعمة. ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي [هي] أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه. لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

* * *

ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم.

قال الله تعالى: ﴿إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾: [٤٩/١٥]؛ أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية؛ وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن؛ والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في الصحيحين ــ من حديث أبي هريرة ــ أن النبي ﷺ، قال: (لا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ [حتى يقال[1]] هذا: اللَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟. فمَنْ وَجَدَ ذلك، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ؛ وَلْيَنْتَهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ).

(١) هذه الزيادة جيدة، ثابتة في رواية لمسلم. ولم يرو البخاري هذا الحديث، بهذا اللفظ والرواية المتفق عليها ــ من طريق أبي هريرة ــ هي: (يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه: فيستعذ بالله، ولينته). انظر: صحيح البخاري (٤/١٢٣)، ومسلم (١/٨٤)، والفتح الكبير (٣/٤٠٦). وقد تعرضنا لتخريج هذا الحيدث: في هامش «الدرة البهية» للمؤلف: (ص ٣٤). وقد أخرجه أيضاً النسائي، كما في هداية الباري: (٢/٢٤٣).

فذكر ﷺ، هذا الدواء النافع، لهذا الداء المهلك، وهي ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها: ليضل بها العباد؛ والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به: كان من الآمنين.

وذلك: لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة؛ أعظمها: العلم أنه مناف للحق؛ وكل ما ناقض الحق فهو باطل، ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾(1).

* * *

ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم: من سرور وحزن وخوف وأمن؛ وطاعة ومعصية؛ وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

فعند المحاب والسرور، يلجأون إلى الإيمان: فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة: يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك: من الثواب؛ ويقابلون الأحزان والقلق: براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف: فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة؛ ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ؛ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ**

---

(1) اقتباس من سورة يونس: [10/32].

وَفَضْلٍ﴾: [٣/١٧٣ ـ ١٧٤]؛ لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار؛ وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن: فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء؛ بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب: الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجأون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة: فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها: أن يتم عليهم نعمته بقبولها؛ والذي تفضل عليهم بحصول أصلها: أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي: بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا: إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ، تَذَكَّرُوا، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: [٧/٢٠١].

وقالﷺ: (مَثَلُ المُـؤْمِنِ [ومثل الإيمان[١]] كـالفَرَسِ المَـرْبُوطِ في آخِيَّتِهِ: يَجُولُ مَا يَجُولُ، ثُمَّ يَعُودُ إلى آخِيَّتِهِ).

---

(١) هذه الزيادة عن المصابيح. وقد أخرج هذا الحديث فيه (٢/٨٢ ـ ٨٣) ـ من طريق أبـي سعيد الخدري ـ بزيادة أخرى مفيدة، هي: (فإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان؛ فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين). وأخرج مختصراً: في النهاية (١/٢)، ولسان العرب (١٨/٢٤). وأخرج القسم الثاني منه: ابن أبـي الدنيا في كتاب الإخوان، وأبو يعلى في المسند، والديلمي وابن المبارك في البر والصلة. انظر: الجامع الصغير (١/٤٣)، والفتح الكبير (١/١٩٢) وفيض القدير (١/٥٣٨) و(الآخية): العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض.

كذلك المؤمن: يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعاً إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده. وذلك من فضل الله عليه، ومنه.

* * *

ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة.

كما ثبت في الصحيح[1] ـ عن النبي ﷺ ـ أنه قال: (لَا يَزْنِي الزَّانِي ـ حِينَ يَزْنِي ـ: وهو مُؤمِنٌ؛ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ ـ حِينَ يَسْرِقُ ـ: وهو مُؤْمِنٌ؛ ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ ـ حِينَ يَشْرَبُ ـ: وهو مُؤمِنٌ)الحديث.

فأخبر: أن الإيمان إذا صحبه ـ عند وجود أسباب هذه الفواحش ـ: فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله ـ الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك ـ يمنع من مواقعة هذه الفواحش. ومن وقعت منه: فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه. وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه؛ والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه

(١) الذي أخرجه أحمد والبغوي مع الستة: من طريق أبي هريرة؛ ومع البخاري والنسائي من طريق ابن عباس باختلاف أو زيادة أو اختصار. راجع: صحيح البخاري (٣/١٣٦ و٧/١٠٤ و٩/١٥٧ و١٦٤)، ومسلم (١/٥٤ ـ ٥٦)، وسنن أبي داود، (٤/٢٢١)، والترمذي (١٠/٩١ ـ ٩٢)، والفتح الكبير (٣/٣٦٣) والمصابيح (١/٦)، وهداية الباري (٢/٣١٦).

الأمور ـ التي هي من مكملات الإيمان ـ لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

* * *

ومنها: أنه ثبت عنه [ﷺ] في الصحيحين ـ من حديث أبي موسى رضي الله عنه ـ أنه قال: (مَثَلُ الْمُـؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُها طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَ[مَثَلُ المُـؤْمِنِ(١)] الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرآنَ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، ولا ريحَ لها».

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام:

[الأول]: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين. فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره؛ مبارك أينما كان. كما قال الله تعالى: عن عيسى [عليه السلام]: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَما كُنْتُ﴾: [١٩/٣١].

(والثاني): طيب في نفسه، صاحب خير. وهو: المؤمن الذي ليس عنده من العلم، ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة؛ والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم: من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

---

(١) هذه الزيادة مفيدة، ثابتة: في المصابيح (١/١٠١)، وغيره. والحديث أخرجه أحمد والستة: من هذا الطريق، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه: من طريق أنس باختلاف أو زيادة أو اختصار. انظر: صحيح البخاري (٦/١٩١ ـ ١٩٢ و١٩٨، و٧/٧٧ و٩/١٦١)، ومسلم (٢/١٩٤)، وسنن أبي داود (٤/٢٥٩)، والترمذي (١٥/٣٠٨ ـ ٣٠٩)، والجامع الصغير (٢/١٥٣)، والفتح الكبير (٣/١٣٠)، وفيض القدير (٥/٤٥٤ ـ ٤٥٥)، وهداية الباري (٢/٢٣٨).

(والقسم الثالث): من هو عادم للخير؛ ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

(والرابع): من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾**[1].

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه؛ وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى، قوله ﷺ[2]: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وفي كل خير).

فقسم ــ ﷺ ــ المؤمنين، إلى قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه، وفي نفعه لغيره. وقسم ضعيف في هذه الأشياء.

ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير: لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

ومثل هذا قوله ﷺ[3]: (المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن: الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم).

ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة: أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان: فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر على

---

(١) اقتباس من سورة النحل: (١٦/٨٨).

(٢) كما في المصابيح (٢/١٣٠): بزيادة مشهورة. وقد أخرجه ــ من طريق أبي هريرة مسلم (٨/٥٦)، وأحمد وابن ماجه. كما في الفتح الكبير: (٣/٢٥٠ ــ ٢٥١).

(٣) كما في سنن الترمذي: (٩/٣١٢ ــ ٣١٣)، والمصابيح: (٢/١٢٠ ــ ١٢١) ومسند أحمد، وسنن ابن ماجه، والأدب المفرد للبخاري ــ كما في الفتح الكبير: (٢/٢٥١)، والجامع الصغير: (٢/١٨٤) ــ من طريق ابن عمر: باختلاف يسير. وانظر فيض القدير (٦/٢٥٥ ــ ٢٥٦).

نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه؛ وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر. وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد، صارت شراً.لأن الخير الذي معه، يقابله شر نظيره: فيتساقطان؛ ويبقى الشر ـ الذي لا مقابل له من الخير ـ يعمل عمله.

ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

* * *

فتبين مما تقدم: أن هذه الشجرة المباركة ـ شجرة الإيمان ـ أبرك اشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمان وعلومه ومعارفه؛ وساقها وأفنانها: شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة؛ المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمت الحسن، والهدى الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناءعليه، والنفع لعباد الله ـ بحسب القدرة ـ: نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال. وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة ـ في قلوب المؤمنين ـ متفاوتة تفاوتاً عظيماً، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به: من هذه الصفات.

وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها [له سبحانه]. ﴿**بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمانِ؛ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ**(١)﴾.

---

(١) اقتباس من سورة الحجرات: (٤٩/١٧).

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوَّأوا منازلها ـ معترفين بفضل ربهم العظيم ـ ﴿وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ، وَنُودُوا: أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: [٧/٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله: حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية؛ وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به؛ وهو: العمل الصالح الذي هو: الإيمان وأعماله.

* * *

فنسأل الله تعالى: أن يمن علينا بالإيمان الصادق؛ وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ ويهب لنا من لدنه رحمة. إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً.

* * *

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي؛ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

حرر: في ٨ شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٤، والحمد لله رب العالمين. وتم نقله: في ١٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦هـ؛ بقلم: عبد الله السليمان السلمان؛ فلله الحمد من قبل ومن بعد.

* * *

# الدُّرَّةُ البهيَّة

## شرح القصيدة التائيَّة في حلّ المشكلة القدريَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين؛ وأشهد أن لا إلـه إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين؛ اللهم: صلِّ وسلم على محمد وآله وصحبه؛ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد طلب مني بعض الإخوان: أن أشرح «المنظومة التائية في القدر» لشيخ الإسلام والمسلمين: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية؛ لما فيها: من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر، ولمتانتها وصعوبة فهمها، واحتياجها إلى شرح متوسط: يوضحها ويكشف عن معانيها؛ ولكون المقام والموضوع مقاماً مهماً جداً، والحاجة ـ بل الضرورة ـ داعية إلى علمه؛ والتحقق به: معرفة واعتقاداً.

وهذا النظم: قد أتى فيه الشيخ بالعجب العجاب، وبين الحق الصريح، وكشف الشكوك والشبهات: التي طالما خالطت قلوب أذكياء العلماء، وحيرت كثيراً من أهل العلم الفضلاء.

لذلك، أجبت السائل لما طلبه. وأرجو الله وأسأله: أن يعين على تحقيقه وتوضيحه. فإن التوضيح والبيان ـ خصوصاً في هذا المقام ـ أولى من الاختصار؛ وذكر الشواهد والأمثلة الموضحة أولى من الاقتصار. وأسأله تعالى: أن يجعل الداعي إليه إرادة وجهه الكريم، وإرادة النفع به للمشتغلين.

* * *

والشيخ ـ رحمه الله، وقدس روحه ـ نظمها جواباً لسؤال أورده عليه من قال: «إنه ذمي»، ليشبه على المسلمين، وليشككهم في أصول الدين. فإن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول الإسلام، ومبانيه العظام.

وهذا نص السؤال:

أَيَا عُلَمَاءَ ٱلدِّينِ: ذِمِّيُّ دِينِكمْ ... تَحَيَّرَ؛ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ
إذَا مَا قَضَى رَبِّي بكُفْرِي ـ بِزَعْمِكُمْ ـ ... ولَم يَرْضَهُ مِنِّي، فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي؟
دَعَانِي، وَسَدَّ ٱلْبَابَ دُونِي؛ فَهَلْ إلَى ... دُخُولِي سَبِيلٌ؟ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي
قَضَى بِضَلاَلِي، ثُمَّ قَالَ: ٱرْضَ بِالْقَضَا؛ ... فَهَلْ أنَا رَاضٍ بالَّذِي فيهِ شِقْوَتِي؟!
فَإنْ كُنْتُ بالمقضِيِّ ـ يَا قَوْمُ ـ رَاضِياً، ... فَرَبِّيَ لاَ يَرْضَى بِشُؤْمِ بَلِيَّتِي
وَهَلْ لِي رِضَا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي؟ ... فَقَدْ حِرْتُ؛ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حَيْرَتِي
إذَا شَاءَ رَبِّي ٱلْكفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً، ... فَهَلْ أنَا عَاصٍ فِي ٱتِّبَاعِ ٱلْمَشِيئَةِ؟
وَهَلْ لِي ٱخْتِيَارٌ: أنْ أُخَالِفَ حُكمَهُ؟ ... فَبِاللَّهِ: فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ غُلَّتِي

هذا آخر السؤال المذكور. وحاصله أنه إيراد على مذهب الجبرية القائلين: «إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها»؛ بل هي ـ عندهم ـ واقعة بغير اختياره.

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس. كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وجميع المسلمين من جميع الطوائف ـ أهل السنة، وغيرهم ـ ينكرون هذا المذهب، ويتبرءون منه.

فيقول هذا المشبه على المسلمين ـ المشكك لهم ـ بانياً على مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميع الطوائف سوى غلاة الجهمية من الجبرية ـ يقول:

«إذا كان الله قضى علي بالكفر، وقدر عليَّ أن لا أكون مسلماً؛ أو قدر عليَّ المعاصي وأن لا أكون طائعاً ـ : فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي؟ وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة، بعد ما قضى عليَّ الكفر والمعصية؟ فهل أكون معذوراً إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان: وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها؟ وكيف أجمع بين الرضا بالقضاء، وبين الرضا بالمقضيِّ: من الكفر والمعاصي؟. فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدرها عليَّ: وهو لا يرضاها؟».

هذا حاصل هذا السؤال. وجوابه على وجه الإجمال، بسيط ولله الحمد. فإنه لا يرد على مذهب جمهور طوائف المسلمين: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان. بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج، وغيرهم: من أهل البدع. فإن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة، من إثبات الأصلين:

(أحدهما): الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها ـ أعيانها، وأوصافها، وأفعالها ـ بقضاء وقدر، لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، بل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(والأصل الثاني): أن أفعال العباد ـ من الطاعات، والمعاصي، وغيرها ـ واقعة بإرادتهم وقدرتهم؛ وأنهم لم يجبروا عليها؛ بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم: من القدرة؛ والإرادة.

ويقولون: لا منافاة بين الأمرين؛ فالحوادث كلها ـ التي من جملتها أفعال العباد ـ بمشيئة الله وإرادته؛ والعباد هم الفاعلون لأفعالهم، المختارون لها. فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها. والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها، واختاروا ترك الأوامر فتركوها. فاستحق الأولون المدح والثواب، واستحق الآخرون الذم والعقاب. ولم يجبر الله أحداً منهم على خلاف مراده واختياره. فلا عذر للعاصين إذا

عصوا وقالوا: إن الله قدرها علينا، فلنا بذلك العذر. فيقال لهم: إن الله قد أعطاكم المكنة[1] والقدرة على كل ما تريدون؛ وأنتم ــ بزيغكم وانحرافكم ــ أردتم الشر ففعلتموه؛ والله قد حذركم، وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه؛ وأراكم سبيل الرشد فتركتموه، وسبيل الغي فسلكتموه.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا المقام: فإنه من المعلوم لكل أحد: أن كل فعل يفعله العبد، وكل كلام يتكلم به ــ فلا بد فيه من أمرين: قدرة منه على ذلك الفعل والقول؛ وإرادة منه. فمتى اجتمعا: وجدت منه الأقوال والأفعال. والله تعالى هو الذي خلق قدرة العبد، وإرادة العبد؛ وخالق السبب التام، خالق للمسبب. فالله تعالى خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون لها حقيقة.

فهذا الإيراد الذي أورده هذا المشكك، وما أشبهه ــ: من الإيرادات التي يحتج بها أهل المعاصي، بالقدر ــ يجيبونهم بهذا الجواب، المفحم، فيقولون: دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة: على أن الله خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير وأن كل شيء بقضاء وقدر: الأعيان، والأوصاف، والأفعال. ودلت ــ أيضاً ــ أدلة الكتاب والسنة: أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة، بقدرتهم واختيارهم. فإنه تعالى نسب إليهم، وأضاف إليهم كل ما فعلوه: من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية. وإنه تعالى مكنهم من هذا، ومن هذا. ولكنه تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان؛ وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم: حيث اختاروا الشر على الخير؛ وأسباب العقاب على أسباب الثواب.

وهذا ــ كما أنه معلوم بالضرورة من الشرع ــ فهو معلوم بالحس الذي

---

(١) ضبط في الأصل: بكسر الميم وسكون الكاف. وهو خطأ على ما في المصباح: ٨٩٢/٢. والصواب: فتح الميم وكسر الكاف.

لا يمكن أحداً المكابرة فيه: فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها، ويحب حصولها.

* * *

فهذا: الجواب المجمل. وأما الجواب المفصل، فقد ذكره الشيخ ـ قدس الله روحه ـ فقال:

سُؤالُكَ ـ يا هذا ـ سُؤالُ معانِدٍ ... مُخَاصِمِ ربِّ الْعَرْشِ بارِي الْبَرِيَّةِ
فهذا سؤالٌ: خاصَمَ الْمَـلأَ الْعُلاَ ... ـ قَديماً ـ به، إبْليسُ أصْلُ الْبَلِيَّةِ
ومَن يَكُ خَصْماً لِلْمُهَيْمِنِ: يَرْجِعَنْ ... علَى أُمِّ رأسٍ، هاوِياً في الْحُفَيْرَةِ

بين الشيخ ـ في أول الجواب ـ: أن هذا السؤال والإيراد إنما صدر عن رجل معاند مكابر، مخاصم لله.

فإن هذا السؤال ـ في الحقيقة ـ موجه إلى الله؛ والسائل قد أورده على ربه، واعترض عليه، وزعم أن الله ظالم له؛ حيث قدر عليه الكفر والمعاصي، وعذبه عليه. وكل من عاند الله: فحجته داحضة باطلة، وهو مخصوم محجوج.

وهذا السؤال من جنس سؤال إبليس؛ حيث قال: **﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم[1]﴾**. فقال: «فبما أغويتني»، ولم يقل: «غويت». وإبليس هو الذي غوى واستكبر عن أمر ربه: حيث أمره بالسجود لآدم، فقال: **﴿أأسجد لمن خلقت طيناً؟! قال: أرأيتك هذا الذي كرمت علي، لئن أخرتن إلى يوم القيامة: لأحتنكن ذريته إلا قليلا[2]﴾**. فإبليس خاصم الله، وباداه بالمعصية؛ واستكبر عن أمره، واستكبر على آدم.

(١) انظر: سورة الأعراف (٧/١٦).
(٢) انظر: سورة الإسراء (١٧/ ٦١ ـ ٦٢).

فكل من خاصم عن نفسه، أو عن غيره ــ في معصية الله ــ فهو: وارث إبليس، وعنه أخذ هذه الخصومة.

فكل من خاصم الحق: فلج وخصم؛ كما أن كل من خاصم بالحق: فلج وغلب. ﴿وقل: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا[١]﴾.
وكل من نصر الباطل: فهو من خصوم الله.

* * *

ولكن: أصناف القدرية الثلاثة، هم أحق الناس بهذا الوصف. فلهذا، قال الشيخ:

وَتُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ ــ يومَ مَعَادِهِمْ إلى النَّار، طُرًّا: مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ
سَوَاءٌ: نَفَوْهُ، أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللَّهَ، أَوْ مَارَوْا بِهِ للشَّرِيعَةِ

يشير الشيخ إلى ما رواه ابن ماجه[٢] عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: سمعت النبي ــ ﷺ ــ يقول: (من تكلم في شيء من القدر؛ سئل عنه يوم القيامة)، أي: سؤال تقريع وتوبيخ.

وهو ــ كما ذكر الشيخ ــ يشمل طوائف القدرية الثلاث: القدرية النفاة؛ والقدرية المجبرة، والقدرية المشركين. فكل الطوائف الثلاث: خاضوا في القدر خوضاً منحرفاً، وبعضهم أغلظ من بعض. وكلهم عن الصراط ناكبون.

فأما القدرية النفاة، فهم: الذين يطلق عليهم أكثر العلماء اسم

---

(١) اقتباس من سورة الإسراء: (٨١/١٧).
(٢) في السنن: (٢٣/١ ط العلمية). وانظر: الفتح الكبير في ضم الزيادة على الجامع الصغير (١٨٠/٣).

«القدرية» وهم الذين ورد فيهم الحديث ـ الذي في السنن[1] ـ : «أنهم مجوس هذه الأمة». وأكثر المعتزلة على هذا المذهب الباطل.

وحقيقة مذهبهم: أنهم يقولون: «إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضاء الله وقدره». فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها؛ ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم؛ بل: هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها: استقلالاً بدون مشيئة الله.

ويزعمون: أنهم ـ بهذا القول ـ ينزهون الله عن الظلم؛ لأنه لو قدر المعاصي عليهم، ثم عذبهم عليها ـ : لكان ظالماً لهم؛ وللزم من إثبات قدرة الله على أفعالهم، الجبر. الذي هو باطل بالشرع والعقل. كما تقدمت الإشارة إليه[2].

ولكنهم ـ بهذا القول الباطل ـ ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة، تثبت وتصرح: أن جميع أعمال العباد ـ : من خير وشر، وطاعة ومعصية. ـ بقضاء الله وقدره. كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وسموا «مجوس هذه الأمة»: لأنهم أشبهوا المجوس الذين أثبتوا خالقاً للخير وهو الله، وخالقاً للشر وهو إبليس، على زعم المجوس.

وهؤلاء القدرية أثبتوا: أن الله خالق للعباد: لأعيانهم وأوصافهم؛ ولم

---

(١) من طريق جابر: كما في سنن ابن ماجه (١/٢٥). ومن طريق حذيفة وابن عمر: كما في سنن أبي داود (٤/٢٢٢ و٢٢٨ ط التجارية أولى). وقد أخرجه الحاكم في المستدرك. وحقق الحافظ ابن حجر: أنه صحيح على شرط مسلم؛ كما قال السندي في حاشية سنن ابن ماجه. وانظر: سنن الترمذي (٨/٣١٦)، ومصابيح السنة للبغوي (١/٩ ـ ١٠ ط بولاق) والجامع الصغير (٢/٨٨ ط اليمنية).

(٢) ص ١٤ ـ ١٧.

يثبتوا أنه خالق لأفعالهم. فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله، ولم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه أهل السنة: من أن الله كما أنه الذي خلقهم، خلق[1] ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم؛ ثم فعلوا الأفعال المتنوعة ـ: من طاعة، ومعصية ـ. بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله باتفاق المسلمين، حتى هؤلاء القدرية يثبتون أن قدرة العباد وإراداتهم مخلوقة له.

وحيث وقعت أفعال العباد بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله في العبد، ليتمكن بهما من كل ما يريده: من أقواله وأفعاله؛ وخالق السبب التام خالق للسبب ـ: فالعبد المؤمن هو الذي يصلي ويصوم، ويتصدق ويحج، ويعمل أعمال البر بما مكنه الله وأعطاه: من قدرة وإرادة يتمكن بهما[2] من أفعال الخير. والعبد الكافر أو الفاجر هو الذي يشرك ويقتل، ويزني ويسرق، ويعمل أجناس المعاصي بما مكنه الله به وأعطاه: من قدرة وإرادة يفعل بهما[2] تلك الأفعال.

والقدرة والإرادة ـ اللتان أعطاهما الله للعبد ـ هما خير ونعمة، وفضل من الله. لكن العبد العاصي هو الذي وجه قواه وأفعاله إلى أعمال الشر؛ فلم يكن له على الله حجة. بل لله عليه الحجة البالغة: نهج الله له طريق الخير فأباه، وسلك بنفسه طريق الشر وارتضاه. فلا يلومن ـ من بعد ذلك ـ إلا نفسه.

فمن احتج ـ مع ذلك ـ على ربه، وقال: «إنه قدر عليَّ المعاصي، فلا لوم علي»؛ قيل له: هذه حجة أبطلها الله في كتابه؛ حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنا؛ وَلَا حَرَّمْنَا[3] مِنْ شَيْءٍ.

---

(١) بالأصل: «وخلق»؛ والزيادة من الناسخ. وإلا كان قوله: كما أنه؛ زائداً.

(٢) بالأصل: «بها»؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل بعد ذلك زيادة: «من دونه». والظاهر أنها من الناسخ، وأنها لم تذكر ـ معترضة ـ على سبيل التوضيح. والآيتان من سورة الأنعام: (٦/١٤٨ ـ ١٤٩).

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، حَتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا. قُلْ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنَ عِلْمٍ، فَتُخْرِجُوهُ لنا؟ إنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ. قُلْ: فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فتضمنت هاتان الآيتان: أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل؛ من وجوه:

منها: أن هذا هو احتجاج المشركين.

ومنها: أن هذا الاحتجاج بالقدر على الشر، لم يمنعهم من عذاب الله. حيث قال: ﴿كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

ومنها: أن الله وبخهم على ذلك، وطالبهم بالبرهان في قوله: ﴿قُلْ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ، فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟﴾. فنفى عنهم العلم، وأخبر[1]: أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً.

ومنها: أنه أخبر: أن له الحجة البالغة على جميع من تجرأ على معاصيه. فمن احتج بالقدر على المعاصي، فهو من أظلم الظالمين.

وأيضاً: فهذا المحتج بالقدر، المقيم لعذر نفسه على ربه ــ هو يكذب نفسه بنفسه. فإنه لو تجرأ عليه أحد بتعد على ماله أو بدنه أو محبوباته، واعتذر بالقدر ــ: لم يقبل عذره. فكيف يقبل عذر نفسه على تجريه على ربه؟!.

فالمحتجُّ بالقدر على المعاصي: يكذبه الكتاب والسنة والعقل؛ وضميره يكذبه كما ذكرنا. وإنما يقصد باحتجاجه، دفع الشناعة عن نفسه.

وكانت طائفة القدر ــ في أول أمرهم ــ: ينكرون العلم، وينكرون القدر. فيقولون: «إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها؛ ولا تعلقت

(١) كما في سورة يونس: (١٠/٣٦)، وسورة النجم: (٥٣/٢٣ و٢٨).

بها مشيئة الله». فلما شنع عليهم المسلمون، وكفروهم بذلك ـ : تحولوا عن قولهم الأول؛ فأثبتوا العلم، وأنكروا القدر.

ولهذا، كان الأئمة ـ كالإمام أحمد، وغيره ـ يقولون: «ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا».

يعني: أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عباده، جاحدون لنصوص الكتاب والسنة: المصرحة بإحاطة علم الله، بما كان وما يكون: من أعيان وأوصاف وأفعال، مما دق وجل. فمن أنكر ذلك: فقد كذب الكتاب والسنة صريحاً؛ وذلك هو الكفر. وإن اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء، وبأفعال العباد قبل وقوعها ـ كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم ـ : خصموا.

ووجه ذلك أنهم يقولون: «إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته؛ وإنما هم مستقلون بها من كل وجه». إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله، مع قولهم: «إن الله يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها»؛ فهذا تناقض محض: كيف يعلمها وهو لم يقدرها ولم يردها؟ : هذا محال. ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**[(1)]﴾.

فيلزمهم أحد أمرين: إما أن لا يتناقضوا، فينفوا الأمرين ـ : علم الله بأفعالهم، ومشيئته لها. ـ فيتضح كفرهم.

وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون. وهو: أنه [تعالى] كما أنه بكل شيء عليم، وبكل شيء محيط ـ فإنه على كل شيء قدير. ومن جملة الأشياء، أفعال العباد: طاعتهم ومعاصيهم. فهو تعالى يعلمها ـ إجمالاً وتفصيلاً ـ قبل أن يعملوها. وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته: فقد شاءها منهم وأرادها؛ ولم يجبرهم: لا على الطاعات، ولا على المعاصي. بل هم الذين فعلوها

---

(1) اقتباس من سورة الملك: ١٤/٦٧.

باختيارهم. كما قال تعالى: ﴿لِمنْ شَاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاؤونَ إلَّا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالمِينَ[1]﴾.

فهذه الآية فيها رد على القدرية النفاة وعلى القدرية المجبرة؛ وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿لمنْ شَاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ﴾؛ أثبت: أنه لهم مشيئة حقيقية، وفعلاً حقيقياً ــ وهو الاستقامة ــ باختيارهم. فهذا رد على الجبرية.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاؤونَ إلَّا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ أخبر: أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ففيها[2] رد على القدرية القائلين: «إن مشيئة العباد مستقلة، ليست تابعة لمشيئة الله»؛ بل عندهم. يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله، ولا يقدره.

ودلت الآية على الحق الواضح، وهو: أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، ليسوا مجبورين عليها؛ وأنها ــ مع ذلك ــ تابعة لمشيئة الله. كما تقدم كيفية وجه ذلك. والآيات الدالات على هذا كثيرة جداً.

فهذه إحدى الطوائف الثلاث المخاصمين لله: فإنهم أنكروا عموم مشيئته وقدره، وجحدوا ما قرره الله ــ في كتابه، وعلى لسان رسوله ــ: من شمول قدره لكل شيء. فزعموا: أن أفعال العباد خارجة من هذا العموم.

* * *

وأما الطائفة الثانية، فهم الجبرية الذين يقال لهم: «القدرية المجبرة».

---

(١) سورة التكوير: (٨١/٢٨ ــ ٢٩).

(٢) بالأصل: «فيها». والظاهر أن نقص الفاء من الناسخ.

وهم غلاة الجهمية الذين إمامهم ـ في هذا وغيره ـ : «جهم بن صفوان»؛ المتفق على بدعته، بل بدعه الخبيثة المتنوعة.

فزعموا: أن عموم مشيئة الله، وعموم إرادته يقتضي[1]: أن العبد مجبور على أفعاله، مقسور مقهور على أقواله وأفعاله: لا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا على ترك المعاصي. ومع أنه لا قدرة له على ذلك عندهم، فهو مثاب معاقب على ما لا قدرة له عليه.

وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ ومخالف للعقول والفطر؛ ومخالف للمحسوس.

وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده، إلا هذا القول الشنيع. فإنه لا يمكن أن يعمل به ويطرده؛ كما تقدم: أنه لا يعذر من ظلمه وتعدى عليه، مع اعتذار المتعدي بالقدر. فإن الجبري لا يعذره، بل يرى اعتذاره بالقدر: زيادة ظلم، وتهكماً به. فكيف يسلك هذا المسلك مع ربه، وهو لا يرتضيه لنفسه من غيره؟!.

والمقصود: أن هذه الطائفة خالفت المنقول والمعقول؛ ونصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم. فإن الله نسب أعمال العباد إليهم ـ : من الطاعات المتنوعة، والمعاصي الكثيرة. ـ كلها يضيفها إلى الفاعلين، ويخبر: أنهم هم الفاعلون لها، ويستحقون جزاءها من خير وشر.

فلو كانوا مجبورين عليها: لم ينسبها لهم، ولم يضفها إليهم؛ بل: ينسب الأفعال إلى نفسه. حاشاه وتعالى عن ذلك. فلا يقال: «الله: الذي فعل الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية»؛ بل يقول كل أحد: العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها.

---

(١) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «تقتضي» بالتاء.

ويلزم على قول الجبرية ـ أيضاً ـ: إسقاط الأمر والنهي. لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر، واجتناب النهي؟!.

ويلزم أيضاً ـ على قولهم ـ: إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم. إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود: وهم غير قادرين، بل مجبورون؟!.

فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه.

ويلزم أيضاً ـ على قول الجبرية ـ: تعطيل الأسباب الدينية والدنيوية. وذلك: أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها؛ وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم. فكيف يؤمرون: وهم مجبورون غير قادرين؟!.

فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا. والذي حملهم على هذا القول ـ مع ظهور فساده ـ ظنهم: أنه لا يمكنهم إثبات عموم مشيئة الله وقدره، حتى يسلبوا العبد قدرته.

وقد غلطوا بهذا الظن. فإنه ـ كما تقدم ـ يتمكن العبد من إثبات عموم القدر، ومن إثبات أن الأعمال هي أعمال العباد حقيقة. لأن الله خلقهم، وخلق كل ما فيهم: من القوى الظاهرة والباطنة؛ وبقدرتهم وإرادتهم ـ اللتين خلقهما الله، ومكن العبد بها من كل ما يريده: من خير، وشر. ـ فعلوا الأمرين باختيارهم من غير إجبار.

***

وقد تصل الحال بهذه الطائفة، وتغلو في القدر ـ حتى يعتقدوا: أن معاصيهم طاعات؛ لأنها بمشيئة الله.

فيشاركون الطائفة الثالثة، وهم: القدرية المشركون الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما أباح الله ـ: بالمشيئة؛ وجعلوا مشيئة الله هي محبته.

فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا[1] مِنْ شَيْءٍ﴾
[سورة الأنعام: الآية ١٤٨]

وفي الآيةِ الأخرى:
﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ... كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم؛ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟!﴾[2].

* * *

فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره؛ منهم: من نفاه؛ ومنهم: من غلا فيه غلواً أوقعه في الباطل.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، لما اختلفوا فيه بإذنه؛

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[3]؛

فأثبتوا عموم قضاء الله، ونفوذ مشيئته في كل شيء. وأثبتوا ــ مع ذلك ــ أفعال العباد: من الطاعات والمعاصي؛ وقالوا: إنها واقعة باختيارهم؛ ولا حجة للعاصين على الله إذا احتجوا على معاصيهم بقدره؛ بل حجتهم داحضة باطلة. وقالوا: إن مشيئة الله غير محبته؛ فمشيئته تعلقت بكل شيء موجود: من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ ومحبته خاصة للطاعات وأهلها. كما أخبر بذلك في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ.

***

ثم قال الشيخ ــ رحمه الله ــ:

وَأَصْلُ ضلالِ الخَلْقِ فِي كلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ: الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ
فَــإِنَّ جَمِيعَ الْكَوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ ... مَشِيئَةُ رَبِّ الْخَلْق، بَارِي الْخَلِيقَةِ
وَذَاتُ إِلــهِ الْخَلْقِ وَاجِبَــةٌ بِمَــا ... لَهَا: مِنْ صِفَاتٍ وَاجِبـاتٍ قَدِيمـةِ

(١) ورد بالأصل ــ بعد ذلك ــ زيادة: «من دونه». وهو يؤكد ما استظهرناه فيما سبق: (ص ٢٠).
(٢) سورة النحل: (١٦/٣٥).
(٣) اقتباس من سورة البقرة: (٢/٢١٣)، والنور: (٢٤/٤٦). وانظر: سورة البقرة (١٤٢)، والمائدة (٥/١٦)، ويونس (١٠/٢٥).

لَـوَازِمُ ذَاتِ اللَّهِ قَـاضِي الْقَضِيَّـةِ مَشِيئَتـهُ مَـعْ عِلْمِـهِ، ثُمَّ قُـدْرَةً ــ
بهَـا حِكْمَـةٌ فِيـهِ، وَأَنْـوَاعُ رَحْمَـةِ وَإِبْدَاعُهُ مَـا شَاءَ: مِنْ مُبْـدَعَاتِـهِ؛

يذكر الشيخ: أن أصل ضلال الخلق ــ من جميع فرق الضلال ــ هو: الخوض في فعل الرب.

وذلك: أن جميع الكون ــ العالم العلوي والسفلي ــ وما فيهن من المخلوقات، خلقها الله وأوجدها بمشيئته وقدرته. فإنه تعالى هو الواجب بأسمائه وصفاته القديمة التي لا أول لها: لأنه الأول الذي ليس قبله شيء، ولم يزل بأسمائه وصفاته كذلك.

فإذا كانت أوصافه كلها قديمة واجبة ــ: لأنه واجب الوجود. ــ فمن لوازم صفاته اللازمة لذاته: العلم المحيط بكل شيء، والقدرة الشاملة لكل شيء، والمشيئة العامة لكل موجود. فهو تعالى لم يزل عليماً فعالاً لما يريد. وأفعاله تعالى وإبداعه لمبتدعاته، تابعة لحكمته التي هي: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها. فلم يخلق ــ ولن يخلق ــ شيئاً عبثاً؛ بل خلق المخلوقات، وأبدع المبدعات بالحق وللحق؛ فهي صدرت، عن الحق، واشتملت على الحق، وكانت غاياتها المقصودة الحق.

فهذا: التقرير الصحيح لمذهب أهل السنة والجماعة؛ وهو الذي دلت عليه الأدلة الكثيرة.

فكما أنه تعالى أخبر[1]: أنه على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه إذا أراد أمراً قال له: «كن» فيكون؛ وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير

(١) كما في سورة البقرة: (١٤٨/٢ و٢٨٤)، والمائدة: (١٧/٥ و١٩ و٤٠)، وهود: (٤/١١)، والنور: (٤٥/٢٤) والعنكبوت: (٢٠/٢٩)، والشورى: (٩/٤٢). وفي سورة هود: (١٠٧)، والحج: (١٤/٢٢)، والبروج: (١٦/٨٥) وفي سورة آل عمران: (٤٧/٣)، ومريم: (٣٥/١٩)، ويس: (٨٢/٣٦). وفي سورة القمر: (٤٩/٥٤ و٥٣).

وكبير مستطر ـ فكذلك قد أخبر: أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء[1]؛ وأنه خلق السموات والأرض ومن فيهن بالحق[2]، ولم يخلقهما باطلاً. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾[3]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ؟!﴾[4]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟!﴾[5]. إلى غير ذلك: من الآيات الدالات على الأصلين[6]؛ وهما: عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر.

هذا: الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده.

أما مذهب الجبرية، فإنهم زعموا: أن فعل الرب وإبداعه لجميع المبتدعات لغير حكمة؛ بل أوجدها ـ عندهم ـ بمشيئة مجردة. وقالوا: إنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[7].

ولا حجة لهم بالآية الكريمة، بل هي حجة عليهم. فإنه لا يسأل عما يفعل: لكمال حكمته؛ فلا يمكن مخلوقاً أن يعترض على الله ـ اعتراضاً صحيحاً ـ في شيء من مخلوقاته. بل: لو اجتمعت عقول الخلق ـ من أولهم وآخرهم ـ ليقترحوا أحسن من خلقه وإبداعه وتكوينه، لعجزت عقولهم وقواهم. وإنما حسب العقول الكاملة: أن تدرك حكمة الله، وأن تفهمها. وما يخفى عليهم ـ من الحكم ـ أعظم وأكثر.

---

(١) كما يؤخذ من مجموع آيات كثيرة مشهورة.
(٢) كما في سورة الأنعام: (٦/٧٣)، والنحل: (١٦/٣)، والزمر: (٣٩/٥) والجاثية: (٤٥/٢٢)، والأحقاف: (٤٦/٣)، والتغابن: (٦٤/٣).
(٣) اقتباس من سورة صٓ: (٣٨/٢٧).
(٤) اقتباس من سورة المؤمنون: (٢٣/١١٥).
(٥) اقتباس من سورة القيامة: (٧٥/٣٦).
(٦) وهي أكثر من الكثرة، وأشهر من الشهرة.
(٧) اقتباس من سورة الأنبياء: (٢١/٢٣).

قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أتْقنَ كلَّ شَيْءٍ﴾(١).

وقال: ﴿الذِي أحْسَنَ كلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ؛ فَارْجِعِ الْبَصَرَ: هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟!﴾ أي: نقصٍ وَخُلُوٍّ من الحكمة؛ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، يَنْقَلِبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ: خَاسِئاً، وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٣).

ومن تأمل في المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المصنوعات؛ ورأى ما فيها من الحسن والانتظام والإتقان. وشاهد ما فيها: من المنافع التي لا تحصى ـ: شهد لله بكمال الحكمة، وعموم الرحمة.

***

فَتَبًّا لمن زعم: أن أفعال الباري صادرة عن محض المشيئة الخالية من الحكمة والرحمة؛ وأنه يرجح مثلاً على مثل، بلا معنى ولا سبب مرجح. لقد ضلت أفهامهم: حيث أنكروا أظهر الأشياء وأوضحها.

ولهذا، قال الشيخ:

وَلَسْنَا إذَا قُلْنا: جَرَتْ بمَشِيئَةٍ؛ مِنَ الْمُنْكِرِي آيَاتِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ
بَلِ الْحَقُّ: أنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَهُ الْخَلْقُ، والْأَمرُ الذي في الشَّرِيعَةِ

أي: إذا قلنا: «إن جميع الكائنات جرت بمشيئة الله وإرادته»؛ فلسنا ننكر حكمته وآياته المستقيمة، الدالة على الغايات المحمودة؛ بل نجمع بين إثبات الأمرين، ونعتقد شمول الأصلين لكل ما خلقه وشرعه. لأنه تعالى له الحكم وحده؛ ﴿ألَا لَهُ الخلق والأمر﴾(٤). أي: له ـ وصفاً وفعلاً ـ الخلق الشامل لكل مخلوق، والأمر الشامل لجميع الأحكام الشرعية.

---

(١) سورة النمل: (٢٧/٨٨).

(٢) سورة السجدة: (٣٢/٧).

(٣) سورة الملك: (٦٧/٣ ـ ٤).

(٤) اقتباس من سورة الأعراف: (٧/٥٤).

فكما [أنه] لا خالق سواه، فلا حاكم بين العباد سواه. وكما أن مخلوقاته مملوءة من الحكمة والرحمة، فشرعه العظيم أعظم وأعظم: كله حكمة، وكله رحمة. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقومٍ يُوقِنُونَ﴾(١).

فلهذا، قال:

هُوَ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ فِي كلِّ حَالَةٍ؛ لَهُ الْمُلْكُ: مِنْ غَيْرِ انْتِقَاصٍ بِشِرْكَةِ

أي: له الملك كله، وله الحمد كله؛ لا شريك له في ملكه، ولا في حمده. فهو المحمود على ما له: من الأسماء الحسنى؛ وعلى ما له: من الصفات الكاملة العليا. وهو المحمود على فضله الشامل ورحمته الواسعة، وعلى عدله وحكمته التي وضع بها الأشياء مواضعها. فيحمد على عدله، كما يحمد على فضله. كما قال الشاعر:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ؛ ــ كَلَّا ــ وَلا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذبُوا: فَبِعَدْلِهِ؛ أوْ نُعِّمُوا: فَبِفَضْلِهِ؛ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

* * *

وقد قرر الشيخ هذا المقام، فقال ــ مقرراً، مكرراً للمعاني بعبارات مختلفة؛ لأن المقام مهم جداً ــ :

فَمَا شَاءَ مَوْلَانَا الإلٰهُ: فَإنَّهُ يَكُونُ؛ وَمَا لا: لَا يَكُونُ بِحِيلَةِ
وَقُدْرَتُهُ لَا نَقْصَ فيهَا، وَحُكْمُهُ يَعُمُّ؛ فَلَا تَخْصِيصَ فِي ذِي الْقَضِيَّةِ
أُرِيدُ بِذَا: أنَّ ٱلْحَوَادِثَ كُلَّهَا بِقُدْرَتِهِ كَانَتْ، وَمَحْضِ ٱلْمَشِيئَةِ
وَمَالِكنَا ــ فِي كلِّ مَا قَدْ أرَادَهُ ــ لَهُ الْحَمْدُ حَمْداً: يَعْتَلِي كلَّ مِدْحَةِ
فَإنَّ لهُ ــ فِي الْخلقِ ــ رَحْمَتَهُ سَرَتْ، وَمِنْ حِكَمٍ فَوْقَ الْعُقُولِ الْحَكِيمَةِ
أمُوراً: يَحَارُ الْعَقْلُ فيهَا، إذَا رَأى مِنَ الْحِكَمِ الْعُلْيَا، وَكلِّ عجيبةِ

---

(١) اقتباس من سورة المائدة: (٥/ ٥٠).

يعني: أنه ما شاء الله كان؛ لا مانع من كونه ووجوده إذا شاءه الله. وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يدرك بحيلة: ولو اجتمع عليه جيع الخلق.

وفي حديث ابن عباس[1]، أنه ـ ﷺ ـ قال: (واعلم: أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء: كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء: قد كتبه الله عليك).

فقدرة الباري تعالى كاملة لا نقص فيها: حدثت جميع الحوادث، ووجدت الموجودات بها وبمشيئته. وله ـ في ذلك الخلق والإيجاد ـ كمال الحكمة، وسعة الرحمة؛ التي تحار العقول في كثرتها وسعتها وعظمتها. وهو المحمود ـ تعالى ـ على ذلك كله.

***

ثم قال أيضاً:

فَنُؤْمِنُ: أنَّ اللَّهَ عَزَّ بِقُدْرَةٍ، وَخَلْقٍ، وَإِبْرَامٍ لِحُكْمِ الْمَشِيئَةِ
فَنُثْبِتُ هَذا كُلَّهُ لإِلهِنَا، وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ: مِنْ كلِّ حِكْمةِ
وَهَذَا مَقَامٌ: طَالَمَا عَجَزَ الألى نَفَوْهُ، وكَرُّوا: رَاجِعِينَ بِحَيْرَةِ
وَتَحْقِيقُ مَا فِيهِ ـ بِتَبْيِينِ غَوْرِه، وَتَحْرِيرِ حَقِّ الحَقِّ فِي ذِي الْحَقِيقَةِ ـ
هُوَ: الْمَطْلَبُ الأَقْصَى لِرُوَّادِ بَحْرِهِ؛ وَذَا عَسِرٌ في نَظْمِ هَذِي الْقَصِيدَةِ:
لِحاجَتِهِ تَبْيِينَ[2] عِلْمٍ مُحَقَّقٍ، لِأَوْصَافِ مَوْلانَا الإِلهِ، الْكَرِيمَةِ
وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَأَحْكَامِ دِينِه، وَأَفْعَالِهِ فِي كلِّ هَذِي الْخَلِيقَةِ
وَهَذَا ـ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ قَدْ بانَ ظاهِراً، وَإِلْهَامُهُ لِلخَلْقِ أَفْضَلُ نِعْمَةِ

(١) الذي أخرجه الترمذي في صحيحه: (٩/٣١٩ ـ ٣٢٠)، وأحمد في المسند، والحاكم في المستدرك: كما في الفتح الكبير (٣/٤٠٠). وانظر: المصابيح (٢/١٣٠)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٧).

(٢) بالأصل: «إلى تبيين»؛ وهذه الزيادة مقدرة، وإثباتها مخل بالوزن.

وَقَدْ قِيلَ فِي هَذا، وَخُطَّ كِتَابُهُ، بَـانَ شِفَـاءٌ لِلنُّفُـوسِ السَّقِيمَـةِ

كرر المؤلف هذه المعاني بهذه العبارات، لما ذكره: أن المقام مقام عظيم، طالما عجز الذين نفوه ولم يفهموه، وبقوا حائرين غير مهتدين.

ومسائله العظيمة مستمدة من أسماء الله وأوصافه وأفعاله، ومعرفة دينه، والتدبر لكتابه.

فمن تفقه في الأسماء الحسنى، واعترف بما لله: من الصفات العليا؛ وعرف: أن أفعاله تعالى مشتملة على الحق، والحق غايتها ومقصودها؛ وتدبر كتاب الله الذي فيه الهدى والشفاء، وسنة نبيه ﷺ ـ من عرف ذلك كله، واعترف به: جزم جزماً ـ لا تردد فيه ـ بأنه تعالى خلق المخلوقات وأوجدها ودبرها بمشيئة نافذة، وحكمة شاملة، ورحمة واسعة.

وذلك: أن عظمة المخلوقات تدل على عظمة خالقها ومبدعها، وكمال قدرته.

وما فيها ـ: من التخصيصات المتنوعة من كل وجه ـ يدل[1] على نفوذ مشيئته وإرادته.

وما فيها ـ: من الحكم والانتظام، والحسن والالتئام؛ والخلق الغريب، والإبداع العجيب. ـ يدل على شمول علمه وإحاطته، وشمول حكمته وحمده.

وما فيها ـ: من الخيرات الكثيرة، والمنافع الغزيرة؛ والصلاح والإصلاح ـ يدلُّ ذلك على سعة رحمته وبره، وكرمه وإحسانه.

وتحقيق هذه المقامات، هو: المطلب الأقصى لرواد الحقيقة. ولا سبيل

(١) هذا هو الظاهر المناسب. وفي الأصل: «تدل» بالتاء. ولعله ـ مع صحته ـ مصحف.

لذلك إلا الاستمداد من كلام الله وكلام رسوله، والاستنارة بهداية الأئمة المهتدين.

ومعرفته وإلهامه للعباد: من أجل نعم الله عليهم. والقرآن شفاء لما في الصدور: من أمراض الشكوك، والشبهات، والشهوات.

***

ثم قال الشيخ مجيباً للمعترض:

فَقَوْلُكَ: «لِمْ قَدْ شَاءَ؟» مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ يَقولُ: فَلِمْ قَدْ كانَ في الْأَزَلِيَّةِ؟
وَذَاكَ سؤالٌ: يُبطِلُ الْعَقْلُ وَجهَهُ، وَتَحْريمُهُ قَدْ جَاءَ في كُلِّ شرعَةِ

يعني ـ رحمه الله ـ: أن سؤال السائل، واعتراض المعترض بقوله: «لم شاء؟ وكيف شاء كفر الكافرين، ووقوع العصيان من العاصين؟»؛ ونحوها من الأسئلة المشابهة لذلك، كلها محظورة ممنوعة: لأن الله تعالى هو الحاكم ليس محكوماً عليه؛ ولا يلزم أن يبدي لعباده كل حكمة اشتملت عليها مراداته ومفعولاته، فقد أخبر عباده بالأمر العام، وهو: أنه حكيم في كل ما خلق، وكل ما شرع.

وأما دقائق الخلق وأسرارها، وأسرار أفعاله ـ فعنده علمها: لا يلزم أن يطلع العباد عليها، إلا ما شاء منها.

وهذا مثل سؤال السائل: «لم قدم الله هذا المخلوق على هذا المخلوق؟ ولم كان هذا المخلوق سابقاً، وهذا المخلوق لاحقاً؟». فإنه تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ وهُمْ يُسْأَلونَ﴾(1).

فالعقل والشرع لا يبيح أمثال هذه الأسئلة التي يعترض بها العبد الحقير، على الرب العظيم. فإنه محرم في جميع الشرائع.

---

(1) اقتباس من سورة الأنبياء: (٢١/٢٣).

حتى وصلت بهم الحال إلى ما قاله النبي ـ ﷺ ـ : (لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقولوا[1] هذا: الله خلق هذا الخلق؛ فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك: فليستعذ بالله من الشيطان، ولينته)؛ وفي رواية: (فليقل: آمنت بالله).

فأمر ﷺ ـ عند هذه الشكوك والأسئلة المحرمة ـ بثلاثة أشياء: بالإيمان بالله؛ لأن الإيمان الصحيح يدفع هذه الشبهات؛ لعلم العبد المؤمن: أنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه لا منتهى لأوليته، كما لا منتهى لآخريته. وبالاستعاذة بالله من الشيطان: الموسوس، الموقع لهذه الشكوك والشبهات. وأمره: أن ينتهي، وأن يعلم: أن هذا سؤال باطل: شرعاً وعقلاً؛ وهو من باب المكابرة والمباهتة. لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كل شيء بإيجاده.

***

وَفي الْكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ ... لَـهُ نَـوْعُ عَقْـلٍ: أَنَّـهُ بِـإِرَادَةِ
وَإِصْـدَارُهُ عَنْ وَاحِدٍ بَعْـدَ وَاحِدٍ، ... أوِ الْقَوْلُ بالتَّجْـوِيزِ ـ رَمْيَـةُ حَيْرَةِ
وَلَا رَيْبَ فِي تَعْلِيقِ كـلِّ مُسَبَّبٍ، ... بِمَـا قَبْلَهُ: مِنْ عِـلَّةٍ مُـوجِبِيَّـةِ
بَلِ الشَّأْنُ فِي الْأَسْبَابِ ـ أَسْبَابِ مَاتَرَى ... ـ وَإِصَدَارِهَا عَنْ حُكْمِ مَحْضِ مَشِيئَةِ

يقول: إن في العالم العلوي والسفلي، تخصيصات كثيرة جداً، تدل ـ دلالة عقلية صريحة ـ: أنها بإرادة العزيز الحكيم.

مثل جعل بعضها عالياً وبعضها سافلاً، وبعضها كبيراً وبعضها صغيراً،

---

(١) هذا اللفظ ورد في بعض روايات مسلم، كرواية: (لا يزال الناس يسألونكم عن العلم) أو (لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة) أو (ليسألنكم الناس عن كل شيء). وأما لفظ هذه الرواية ـ وهي المشهورة ـ فهو: (يقال): والحديث أخرج من طرق عدة عن أبي هريرة، كما أخرج نحوه عن أنس أيضاً: في صحيح مسلم (١/٨٣ ـ ٨٥ أو ٢/١٥٣ و ١٥٦ من شرح النووي)، وسنن أبي داود (٤/٢٣١). وانظر: المصابيح (١/٧) والفتح الكبير (٣/٣٦٢).

وبعضها متصلاً بغيره وبعضها منفصلاً، وبعضها على صفة وبعضها على صفة أخرى. مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ؛ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي على أَرْبَعٍ. يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1].

والتخصيصات لا يحيط بها الوصف؛ وكلها تدل على أنها متعلقة بإرادة الله ومشيئته، وأنه الفعال لما يريد.

ومن الغلط العظيم، والحيرة والضلال ـ قول الفلاسفة: «إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد». . فإن هذا باطل ـ شرعاً وعقلاً ـ من وجوه كثيرة: ذكرها الشيخ في كتاب «العقل والنقل»[2]، وفي «المنهاج»، وغيرهما من كتبه.

لكن الأمر الذي لا ريب فيه: أن كل مسبب لا بد له من سبب، وكل معلول لا بد له من علة موجبة، وكل شيء لا بد له من مادة: قد خلق منها.

ولكن جميع الأسباب تنتظم في قضاء الله وقدره، وهي من القضاء والقدر.

ولهذا، لما قالوا للنبي ﷺ[3]: (يا رسول الله: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقيها، وتقاة نتقيها؛ هل ترد من قدر الله شيئاً؟)؛ قال: (هي من قدر الله).

---

(١) سورة النور: (٤٥/٢٤).

(٢) الظاهر أن المراد: كتاب «موافقة صريح المعقول، لصحيح المنقول» المطبوع بهامش كتاب «منهاج السنة النبوية»، ثم على حدة طبعة محرفة غير محققة.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣١٥/٨): من طريق أبي خزامة. وانظر: المصابيح (٩/١).

وثبت في الصحيحين[1]: أن الصحابة رضي الله عنهم ــ حين ذكر لهم النبي ﷺ، القدر السابق ــ قالوا: (يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا الأول، وندع العمل؟)؛ فقال: (اعملوا: فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة) ثم تلا رسول الله ــ ﷺ ــ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وكذَّبَ بِالْحُسنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2].

فبين ﷺ: أن السعادة والشقاوة ــ وإن كانت مقدرة مفروغاً منها ــ فإن الله قدرها بأسبابها؛ وهو: أن الله ييسر أهل السعادة لليسرى، بما فعلوه من الأسباب الثلاثة؛ وهي قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى، وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ــ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾؛ وأنه ييسر أهل الشقاوة للعسرى، بما فعلوه من الأسباب الثلاثة؛ وهي قوله: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ، وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ــ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

ومشيئته تعالى لا تنافي ما جعله: من الأسباب الدنيوية والأخروية. فقد أخبر في عدة آيات: أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي آيات أخر، أخبر[3] بالأسباب التي تنال بها هداية الله، أو يستحق العبد أن يبقى على ضلاله:

---

(١) وغيرهما: من طريق علي. وأخرج نحوه مختصراً: من طريق عمر وجابر، وحذيفة بن أسيد، وعمران بن حصين، وسراقة بن جعشم. انظر: صحيح البخاري (٦/١٧٠ ــ ١٧١ و٨/١٢٣ ــ ١٢٤ و٩/١٥٩: بولاق)، وصحيح مسلم (٨/٤٦ ــ ٤٨)، وسنن أبي داود (٤/٢٢٣ ــ ٢٢٤ و٢٢٨) والترمذي (٨/٢٩٩ ــ ٣٠٠) وابن ماجه (١/٢١ ــ ٢٢ و٢٥)، والمصابيح (١/٨)، والجامع الصغير (١/٤٧)، وشرح مسلم (١٦/١٩٥ ــ ١٩٨)، وفتح الباري (٨/٥٠٠ ــ ٥٠١ و١١/٣٩٤ ــ ٣٩٧ و٣٩٩ ــ ٤١١، و١٣/٤٠٠ ــ ٤٠١ الخشاب)، ومجموعة رسائل ابن تيمية الكبرى (٢/٨٢)، وشفاء العليل (٨ و٢٤ ــ ٢٥).

(٢) سورة الليل: (٩٢/٥ ــ ١٠).

(٣) في الأصل زيادة: «بها». وهي من الناسخ.

كقوله [في الهداية]: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلامِ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ﴾(١). وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٢)؛ وقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: إنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقاناً﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٤)؛ ونحوها.

وقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾(٦)، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٧)، ﴿وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً؛ فَهوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(٨).

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر ـ في هداية من يهديه، وإضلال من يضله ـ ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

وكذلك أخبر في عدة آيات(٩): أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. وفي آيات أخر، أخبر عن الأسباب التي تنال بها مغفرة الله ـ مثل قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾(١٠) ـ والأسباب التي

---

(١) سورة المائدة: (١٦/٥).
(٢) سورة العنكبوت: (٦٩/٢٩).
(٣) سورة الأنفال: (٢٩/٨).
(٤) سورة التغابن: (١١/٦٤).
(٥) سورة الصف: (٥/٦١).
(٦) سورة البقرة: (١٠/٢).
(٧) سورة الأنعام: (١١٠/٦).
(٨) سورة الزخرف: (٣٦/٤٣).
(٩) كما في سورة البقرة: (٢٨٤/٢)، وآل عمران (١٢٩/٣)، والنساء (٤٨/٤ و١١٦)، والمائدة: (١٨/٥ و٤٠)، والعنكبوت: (٢١/٢٩).
(١٠) سورة طه: (٨٢/٢٠). وانظر: سورة البقرة (٥٨/٢)، وآل عمران (٣١/٣ و١٣٥ ـ ١٣٦)، والأعراف (١٦١/٧)، والأنفال (٢٩/٨ و٦٩ و٧٠) والتغابن (١٤/٦٤).

يُستحَقُّ بها العذابُ، مثلُ قوله: ﴿إنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا: أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[1].

وكذلك أخبر في آيات كثيرة[2]: أنه يرزق لمن يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء. وفي آيات أخر، ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه؛ مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ: يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَن يتوكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[3]؛ وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهِ: يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[4]. كما ثبت في الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: (مَنْ أَحَبَّ[5] أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، ويُنْسَأ له أَجَلُهُ، فليَصِلْ رحِمَهُ).

وكذلك الأسبابُ الماديَّة، مثلُ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ. وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[6].

وجميع المطالب الدنيوية والأخروية، جعل لها أسباباً: متى سلكها الإنسان، حصل له مطلوبه.

---

(١) سورة طه: (٢٠/٤٨). وانظر: سورة النساء (٤/١٣٧ ـ ١٣٨ و١٦٨ ـ ١٦٩) والأعراف (٧/١٦٢ ـ ١٦٧).

(٢) كما في سورة الرعد: (٣/٢٦)، والإسراء: (١٧/٣٠)، والعنكبوت: (٢٩/٦٢)، وسبأ: (٢٤/٣٩). والشورى: (٤٢/١٢ و١٩).

(٣) سورة الطلاق: (٦٥/٢ ـ ٣).

(٤) سورة الطلاق: (٦٥/٤).

(٥) أو: «من سره». وقوله: أجله؛ الرواية: «أثره» أو«في أثره»؛ كما سيأتي في أواخر الرسالة. والمعنى واحد. والحديث أخرج ـ باختلاف لفظي ـ من طريق أنس: في صحيح البخاري (٣/٥٦ و٨/ ٥) ومسلم (٨/٨)، وسنن أبي داود (٢/١٣٢ ـ ١٣٣) والنسائي. ومن طريق أبي هريرة: في صحيح البخاري (٨/٥)، ومسند أحمد. وانظر: المصابيح (٢/١١٤)، وشرح مسلم (١٦/١١٤)، والفتح (٤/٢١٠ و١٠/٣٢٠)، والجامع الصغير (٢/١٥٩).

(٦) سورة الملك: (٦٧/١٥).

وقد جمع النبي ـ ﷺ ـ ذلك، في كلمة واحدة[1]؛ فقال: (احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بالله).

فقوله: (احرص على ما ينفعك)؛ أي: في دينك ودنياك، واسلك كل طريق يوصلك إلى هذه المنفعة. ولكن: لا تتكل على حولك وقوتك؛ بل: توكل على الله، واستعن به. فمن فعل ذلك: فهو عنوان سعادته ونجاحه؛ وإلا: فلا يلم العبد إلا نفسه.

***

وَقَوْلُكَ: لِمْ شَاءَ الْإِلَهُ؟ هُوَ الَّذِي ... أَضَلَّ[2] عُقُولَ الْخلقِ في قَعْرِ حُفْرَةِ
فَإِنَّ الْمَجُوسَ الْقَائِلِينَ بِخَالِقٍ ... لِنَفعٍ، وربٍّ مُبْدِعٍ لِلْمَضَرَّةِ ـ
سُؤَالُهُمُ عَنْ عِلَّةِ السِّرِّ، أَوْقَعَتْ ... أَوَائِلَهُمْ، فِي شُبْهَةِ الثَّنَوِيَّةِ

يعني: أن هذا السؤال ـ الذي مضمونه الاعتراض على الله؛ ومضمونه أيضاً الدخول فيما ليس للعقل سبيل إليه ـ لم يزل يضل عقول الخلق، ويلقيهم في الهلاك. وهو الذي أوقع المجوس القائلين: «إن الخالق اثنان: خالق الخير ـ هو الله ـ وخالق الشرور؛ هو الشيطان». فأشركوا بالربوبية، بعد شركهم في الإلهية. فكانوا يعبدون النار، ويستحلون المحارم.

فزاد شرهم على المشركين: من جهة استحلال المحارم، ومن جهة اعتقادهم: أن إبليس خالق الشر. فجعلوا رب العالمين اثنين؛ ولهذا يقال لهم: «الثنوية».

والذي أوقعهم في هذا الشر العظيم ـ الذي لم يصل إليه المشركون ـ

---

(١) في الحديث الذي أخرج من طريق أبي هريرة ـ ببعض اختلاف ـ: في صحيح مسلم (٨/٥٦ أو ١٦/٢١٥ من الشرح)، وسنن ابن ماجه (١/٢٢ و٢/٢٨١)، ومسند أحمد كما في الفتح الكبير: (٣/٢٥٠ ـ ٢٥١). وانظر: المصابيح (٢/١٣٠).

(٢) ورد بهامش الأصل: «في المطبوعة: أزل». ولا خلاف في المعنى المراد.

هذا السؤال؛ فقالوا: «كيف يخلق الله الشر؟ ! فعلينا أن ننزه الله عن خلق الشر». فأتوا بهذه الطامة الكبرى، والمقالة الشنعاء.

يقول الشيخ ــ رحمه الله ــ: فهؤلاء المشككون ــ الذين يقولون: «كيف يقدر الله علينا الكفر والمعاصي، ويعذبنا على ذلك؟» ــ قد تابعوا في اعتراضهم، كل كفار عنيد: من المجوس الثنوية؛ وكذلك من هم أعظم منهم ــ شراً وجرماً ــ ملاحدة الفلاسفة.

***

فلهذا، قال الشيخ:

وَإِنَّ مَلاَحِيدَ الْفَلاَسِفَةِ الْأُلى ... يَقُولُونَ بِالْفِعْلِ الْقَدِيمِ لِعِلَّةِ
بَغَوْا عِلَّةً فِي الْكَوْنِ بَعْدَ آنْعِدَامِهِ، ... فَلَمْ يَجِدُوا ذَاكُمْ: فَضَلُّوا بِضَلَّةِ

يعني: أن ملاحدة الفلاسفة ــ المعطلين لله ولكتبه ورسله، المكذبين لهم ــ أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك: حيث حكموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون، فلم تهتد لذلك: لقصورها وتقصيرها.

فزعم كثير منهم: «أن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال». وبذلك، أنكروا وجود الرب العظيم. ومن باب أولى: أنكروا رسله وكتبه. وتضاربت نظرياتهم الفاسدة: فضلوا، وأضلوا.

وَلقد صدَقَ عليهم قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبينَاتِ، فَرِحوا بِمَا عِنْدَهُمْ: مِنَ الْعِلمِ؛ وَحَاقَ بِهِم مَا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

ثم: إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة ــ في هذه الأوقات ــ أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم، وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة: مبنية على الخرص والجهل المركب. ولم يزالوا في اضطراب.

***

(١) سورة غافر: (٤٠/٨٣).

وهذه حالة كل من ترك الحق واستكبر عنه، وتاه بعقله. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ: فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[1].

ولهذا، قال الشيخ:

وَإِنَّ مَبَادِي الشَّرِّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ـ ذَوِي مِلَّةٍ مَيْمُونَةٍ نَبَوِيَّةٍ ـ
لخوْضِهِمُ في ذَاكُمُ صارَ شِرْكُهُمْ، وَجَاءَ رُؤُوسُ الْبِيِّنَاتِ بِقِتْرَةٍ[2]

يعني: وكذلك الأمم الذين ينتسبون للأنبياء ـ كاليهود والنصارى ـ مبادي شرهم وشركهم: جنس هذا السؤال، وخوضهم بالباطل. فانحرفوا عن أديان الأنبياء، واتبعوا كل شيطان مريد.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ آللَّهِ، مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ـ: نَبَذَ فَرِيقٌ، مِنَ آلَّذِينَ أُوتُوا آلْكِتَابَ، كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ؛ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية[3].

فأخبر: أنهم تركوا الإيمان بسيد الرسل محمد ـ ﷺ ـ وأفضل الكتب، وتعوضوا عن ذلك بالعلوم الباطلة، التي هي: السحر؛ ونحوها.

فكل من ترك الأمور النافعة، ابتلي بالأمور الضارة. وكل من زهد بالحق، وقع في الباطل. وهذا مطرد: في كل زمان ومكان، وكل أمة.

***

وَيَكْفِيكَ نَقْصاً: أَنَّ مَا قَدْ سَأَلْتَهُ ـ مِنَ الْعُذْرِ ـ مَرْدُودٌ لَدَى كلِّ فِطْرَةِ
فَأَنْتَ تَعِيبُ الطَّاعِنِينَ ـ جَمِيعَهُمْ ـ عَلَيْكَ، وَتَرْمِيهِمْ بِكُلِّ مَذَمَّةِ
وَتَنْحَلُ مَنْ وَالَاكَ صَفْوَ مَوَدَّةٍ، وَتُبغضُ مَنْ نَادَاكَ: مِن كلِّ فِرْقَةِ

---

(١) سورة قَ: (٥٠/٥).

(٢) القترة (بفتح القاف): الغبرة. وبالكسر: علم للشيطان. (كما في القاموس: ٢/١١٣ ـ ١١٤). ولعل الثاني هو المراد في البيت.

(٣) سورة البقرة: (٢/١٠١ ـ ١٠٢).

وَحَـالُهُمُ فِي كـلِّ قَـوْلٍ وَفَعْلَةٍ، كَحَالِكَ ـ يَا هَذا ـ بِأرْجَحِ حُجَّةِ

وهذا ـ كما تقدم ـ إلزام ونقض واضح، على من اعتذر عن مخالفته ومعاصيه بالقدر. فإنه ـ في فطرة كل عاقل[1] ـ: أن من ذمك ذممته، ومن عابك عبته؛ ومن ظلمك في نفسك أو مالك، عاملته معاملة الظالم. فكيف تعذر نفسك: إذا عصيت الله؛ ولا تعذرهم: إذا ذموك أو ظلموك؛ بل: تبغضهم وتذمهم، وتقابلهم ـ على ظلمهم ـ بما تقدر عليه؟!. وهذا شيء كل أحد يعرفه.

فاتضح بهذا: أن المحتج بالقدر على المعاصي، كما أنه مخالف للشرع والعقل، فهو مخالف للفطرة التي فطر عليها كل أحد. بل هو مكابر مستهزىء.

***

ثم أعاد هذه المعاني بذكر أمثلة توضح المقام ـ: لكونه من أهم المهمات. ـ فقال:

وَهَبْكَ: كَفَفْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ كافِرٍ وَكُـلِّ غَـوِيٍّ خَـارِجٍ عَنْ مَحَجَّـةِ
فيلْزَمُكَ الْإعْرَاضُ عَنْ كـل ظالِمٍ عَلَى النَّاسِ: فِي نَفْسٍ، وَمَالٍ، وَحُرْمَةِ
فَلَا تَغْضَبَنْ يَوْماً عَلَى سَافِكٍ دَماً، وَلا سَـارِقٍ مَـالاً لِصَـاحِبِ فَـاقَـةِ
وَلا شَاتِمٍ عِرْضاً مَصُوناً وَإنْ عَلَا، وَلا نَاكِحٍ فَرْجاً عَلَى وَجْهِ غَيَّـةِ
وَلا قَاطِـعٍ لِلنَّاسِ نَهجَ سَبِيلِهِمْ، وَلا مُفْسِدٍ فِي الأرْضِ مِنْ كلِّ وِجْهَةِ
وَلا شَـاهِدٍ بـالزُّور إفْكـاً وَفِرْيَـةً؛ وَلا قَـاذِفٍ لِلْمُحْصَنَـاتِ بِـزَنْيَـةِ
وَلا مُهْلِكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ عَامِداً، وَلا حَـاكِمٍ لِلْعَـالِمِينَ بِـرِشْـوَةِ
وَكُفَّ لسانَ اللَّوْمِ عَنْ كُل مُفْسِدٍ، وَلا تَـأْخُـذَنْ ذَا جُـرْمَـةٍ بِعُقُـوبَـةِ
وَسَهِّلْ سَبِيلَ الْكاذِبينَ ـ تَعَمّداً ـ عَلَى رَبِّهِمْ: مِنْ كـلِّ جَاء بِفِـرْيَةِ

(١) في الأصل: «في كل فطرة عاقل». والظاهر أن التقديم من الناسخ.

وَإِنْ قَصَدُوا إِضْلَالَ مَنْ يَسْتَجِيبهُمْ: بِرَومِ فَسَادِ النَّوْعِ، ثُمَّ الرِّيَاسَةِ
وَجَادِلْ عَنِ الْمَلْعُونِ فِرْعَوْنَ: إِذْ طغَى فَأغْرِقَ فِي الْيَمِّ، انْتِقَاماً، بِغُصَّةِ
وَكُلِّ كفورٍ مُشْرِكٍ بِإِلَهِهِ، وَآخَرَ طَاغٍ كَافِرٍ بِنُبُوَّةِ:
كَعَادٍ، وَنُمْرُوذٍ، وَقَوْمٍ لصالحٍ، وَقَوْمٍ للوطٍ، ثُمَّ أَصْحَابِ أَيْكَةِ
وَخَاصِمْ لِموسَى، ثُمَّ سَائِرِ مَنْ أَتَى: مِنَ الْأَنبِيَاءِ؛ مُحْيِياً لِلشَّرِيعَةِ ــ
عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جاهدوا النَّاسَ: إِذْبَغَوْا؛ وَنَالُوا مِنَ الْعَاصِي بَلِيغَ الْعُقُوبَةِ
وَإِلَّا: فَكُلُّ الْخَلْقِ ــ فِي كلّ لَفْظَةٍ، وَلحظَةِ عَيْنٍ، أَوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ
وَبَطْشَةِ كَفٍّ، أَوْ تَخَطِّي قَدِيمَةِ، وَكُلِّ حِرَاكٍ، بَلْ وَكُل سَكِينَةِ ــ
هُمُ تَحْتَ أَقْدَارِ الْإِلَهِ وَحُكْمِهِ؛ فَمَا أَنْتَ ــ فِيما قَدْ أَتَيْتَ ــ بِحُجَّةِ،

هذه الإلزامات ــ التي ذكرها الشيخ ــ في غاية القوة والوضوح: يبطل كل واحد منها، اعتذار المعتذرين بالأقدار.

ومثل بأمثلة كثيرة يعرفها كل أحد: لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني، وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة. ولأنه لو فرض أنه تأول من ألزم بها بعض هذه الأمثلة، باحتمالات ضعيفة ــ: لم يكن له سبيل إلى بقيتها.

فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في دمائهم وأعراضهم وأموالهم. فلا تغضبون على من سفك الدماء، وأخذ الأموال بالغصب والسرقة؛ ولا من شتم الأعراض؛ ولا على الزناة وقطاع الطرق والمفسدين في الأرض؛ ولا على قاذف أو شاهد بالزور؛ ولا من سعى في الأرض: ليهلك الحرث والنسل؛ ولا على من حكم بالرشوة وجار في حكمه. بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق. بل عليك: أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم، وتعتذر عنهم: وإن سعوا في إضلال الناس. بل: وجادل عن أئمة الكفر: كفرعون وقارون وهامان؛ وكل مشرك وكافر: كعاد وثمود، ونمروذ، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة. وما أشبههم: من الكفار المعاندين. بل على قول

هؤلاء، عليك: أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء؛ حيث جاهدوا الناس على الإيمان، وعاقبوا أهل الجرائم. لأن الخلق كلهم ـ في جميع حركاتهم وسكناتهم، ولفظاتهم ولحظاتهم ـ تحت أقدار الله.

وهذا القول الفظيع ـ الذي يفضي إلى هذه المكابرات، والمجاهرة بتكذيب الله ورسله وكتبه ـ حسب الناظر لهذا القول: أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله، وفيها[1] فساد الدين والدنيا والآخرة.

***

وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللَّومَ عَنْ كلِّ فَاعِلٍ ... فِعَالَ رَدى، طَرْداً لِهَـذي الْمَقيسَةِ
فَهَلْ يُمْكِنَنْ رَفْـعُ الْمَلَامِ جَمِيعِهِ، ... عَنِ النَّاسِ طُرًّا، عِنْدَ كلِّ قَبِيحَةِ
وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الَّذِينَ قَـدِ اعْتَدَوا، ... وَتَرْكُ الْوَرَى الإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ؟
فَـلَا تُضْمَنَنْ نَفْسٌ وَمَـالٌ بمِثْلِهِ، ... وَلَا يُعْقَبنْ عَـادٍ بمِثْـلِ الْجَـرِيمَـةِ
وَهَلْ فِي عُقُولِ النَّاسِ، أَوْفِي طِبَاعِهِمْ ـ ... قَبُولٌ لِقَوْلِ النَّذْلِ: مَاوَجْهُ حِيلَتِي؟!

لما ذكر الشيخ تلك الإلزامات التي لا محيد لهم عنها، ألجأهم ـ أيضاً ـ إلى إلزامات اخر، فقال: فلو فرض وقدر أنك ـ أيها المعتذر بالقدر على المعاصي ـ رفعت اللوم عن العاملين لمعاصي الله، المتجرئين على محارمه ـ: فهل يمكنك طرد ذلك، وترك عقوبات المعتدين، وترك الحدود عن أهل الجرائم: بحيث لا يضمن القاتل نفساً، ولا الغاصب والمتلف مالا؛ ولا ينصف الحكام بين رعاياهم إذا قالوا وادعوا أنهم معذورون بالقدر؟!. وهل في عقل أحد أو فطرته، قبول قول الواحد من هؤلاء المجرمين: «ما وجه حيلتي: وأنا معذور؟ فإني ـ وإن خالفت الشرع ـ فقد وافقت القدر»؟! وهل هذا إلا تلاعب محض، وتهكم صرف؟!.

***

(١) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «وفيه»، ولعله مصحف عما أثبتناه.

ثم قال:

ويكفيكَ نقضاً مَا بجِسْمِ آبْنِ آدَمٍ — صَبِيٌّ، وَمَجْنُونٍ — وَكلِّ بَهِيمَةِ:
مِنَ الْأَلَمِ الْمَقضِيِّ مِنْ غَيْرِ حِيلَةٍ؛ وَفِيمَا يَشَاء اللَّهُ، أكْمَلُ حِكْمَةِ
إِذَا كَانَ فِي هَذا لَهُ حِكْمَةٌ، فَمَا يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ، ثُمَّ الْعُقُوبَةِ؟
فَكَيْفَ: وَمِنْ هَذا عَذابٌ مُوَلَّدٌ عَنِ الْفِعْلِ — فِعْلِ الْعَبْدِ — عِنْدَ الطَّبيعَةِ؟!
كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ الْمَوْتَ أكْلُهُ؛ وَكُلٌّ بِتَقْدِيرٍ لِرَبِّ الْمَشِيئَةِ
فَكُفْرُكَ — يَاهَذَا — كَسُمٍّ أكَلْتَهُ؛ وَتَعْذِيبُ نَارٍ: مِثْلُ جُرْعَةِ غُصَّةِ
أَلَسْتَ تَرَى — فِي هَذِهِ الدَّارِ — مَنْ جَنَى يُعَاقَبُ: إمَّا بِالْقَضَا أَوْ بِشِرْعَةِ؟!
وَلا عُذْرَ لِلْجَانِي بِتَقْدِيرِ خَالِقٍ؛ كَذلِكَ فِي الأخرى بِلاَ مَثْنَوِيَّةِ

يعني: أنه يكفيك — نقضا لقولك، وإبطالاً له —: أن الله تعالى يقضي بحكمته الآلام، على غير المكلفين: من الصبيان، والمجانين، والبهائم. وهذه الآلام من لوازم الطبيعة؛ فلا تنفك الطبائع إلا أن تكون على هذه الصفة: تكون صحيحة ومريضة، ومرتاحة ومتألمة؛ بحسب ما يعرض للطبيعة: من استقامة وانحراف.

فإذا كانت أسباب الآلام، إذا وجدت: تولدت عنها الآلام، وترتبت عليها الأسقام — كمن أكل سما ترتب عليه الهلاك، أو ألقى نفسه في نار أو مهلكة —: فكفر الكافرين، وإجرام المجرمين بمنزلة من أكل سماً، أو قذف نفسه في نار أو مهلكة — لا بد أن يترتب عليه مقتضاه وأثره.

فإذا كنت لا تعذر من أكل سماً أو ألقى نفسه في تهلكة[1]، وتنسب هلاكه إلى عمله: فالكفر والمعاصي كذلك، بل أبلغ. لأن آكل السم

---

(١) كذا بالأصل. وهو صحيح: من باب إطلاق المصدر على المهلكة أي: المفازة ومكان الهلاك (انظر المختار: هلك). على حد قوله تعالى — في سورة البقرة ١٩٥/٢ —: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

والملقي نفسه بالهلكة[1]، ربما يعرض بعض العوارض المانعة من الهلاك. بخلاف الكفر وتوابعه: فإن آثاره مترتبة عليه قطعاً، إلا إذا رفعها العبد بتوبة نصوح.

ومما يؤيد هذا: أنك تشاهد في هذه الدار عقوبات الباغين والظالمين والمعتدين، عقوبات يشاهدها كل أحد، إما عقوبات قدرية يوقعها الله بالمجرمين: كما أهلك الأمم السابقة بالعقوبات المتنوعة؛ وكما يشاهده من سبر أحوال الخلق، وتتبع ما جرياتهم، وكيف كانت عواقب الباغين والمجرمين أشنع العواقب. وإما عقوبات[2] شرعية: يقتل القاتل، ويقطع السارق، ويقام الحد ـ بالرجم أو الجلد ـ على الزاني، ويجلد الشارب للخمر، ويعذر في كثير من المعاصي. وهذه عقوبات قدرية شرعية.

فهل تقول ـ أيها المعتذر عن العاصين بالقدر ـ: إن جميع هؤلاء قد ظلمهم الله؛ حيث أوقع بهم هذه العقوبات، وحيث أحل بهم المثلات؟.

فإن قلت ذلك: فقد بلغت من عداوة الله وعداوة رسله، ومحاربة الله ـ مبلغاً ما بلغه أحد.

وإن رجعت إلى الحق، وقلت: إن هذه العقوبات القدرية والشرعية، هي عدل الله بين عباده، وهي حكمته التي وضعها الله موضعها، وجعلها في محلها اللائق بها، وليس لهؤلاء الجناة المعاقبين عذر ـ بل «ما أصابهم من مصيبة فبما كسبت أيديهم؛ ويعفو عن كثير»[3] ـ: فالرجوع إلى الحق أحق.

وبذلك وغيره، يتضح بطلان الاعتذار بالقدر عن المجرمين.

* * *

(١) كذا بالأصل. أي: الهلاك؛ مراداً به المهلكة، على ما سبق.

(٢) بالأصل: (بعقوبات)، والظاهر أن الزيادة من الناسخ.

(٣) اقتباس بتصرف من سورة الشورى: (٤٢/ ٣٠).

وشبيه بهذا ـ أيضاً ـ قول الشيخ:

وَتَقْدِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ لِلذنْبِ مُوجِبٌ ... لِتَقْدِيرِ عُقبَى الـذَّنْبِ، إلَّا بِتَوْبَـةِ
وَمَا كانَ مِنْ جِنْسِ الْمَتَابِ؛ لِرَفْعِهِ ... عَـوَاقِبَ أفْعَـالِ الْعِبَـادِ الْخَبِيثَـةِ؛
كَخَيْرٍ بِهِ تُمْحَى الذُّنُوبُ، وَدَعْـوَةٍ ... تُجَابُ مِنَ الْجَانِي وَرَبِّ الشَّفَـاعَةِ
وَتَقْـدِيرُهُ لِلْفِعـلِ يَجْلِبُ نِعْمَـةً، ... كَتَقْـدِيـرِهِ الأشْيَـاءَ طُـرًّا بِعِـلَةِ

يعني: كما جعل الله الذنوب والجرائم أسباباً للعقوبات، فقد جعل الله التوبة وأعمال الخير، والدعوات والشفاعات ـ تمحى بها الذنوب، وتكشف بها الكروب.

فالله تعالى ـ بحكمته ورحمته ـ جعل أعمال العباد، خيرها وشرها، تترتب عليها آثارها، وتحصل موجباتها: عاجلاً وآجلاً.

فكم جلبت أفعال الخير من نعم، وكم دفعت من نقم. كذلك أفعال الشر: كم حصل بها من عقوبات، وكم ترتب عليها من شرور ومصائب. فهذه أمور لا بد منها: في قدر الله، وفي حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي الذي يحمد عليه؛ لما فيه: من العدل والفضل.

* * *

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ:

وَقَـوْلُ حَلِيفِ الشَّـرِّ: «إنِّي مُقَـدَّرٌ ... عَلَيَّ»؛ كَقَوْلِ الذِّئْبِ: هَذِي طَبِيعَتِي
فَهَـلْ يَـرْفَعَنْ ذَمَّ الْمَلُومِ، بِـأَنـه ... كَذَا طَبْعُهُ؟ أمْ هَلْ يُقَالُ لِعَثْـرَةٍ؟!
أمِ الـذَّمُّ وَالتَّعْـذِيبُ أوْكَـدُ لِلَّذِي ... طَبِيعَتُـهُ فِعْـلُ الشَّـرُورِ الشَّنِيعَـةِ؟!

يعني: أن المجرم إذا اعتذر بذلك العذر المردود، وقال: «إن الذنب مقدر علي»؛ فهو مثل قول الذئب والسبـع المفترس، ومثل الشرير: إذا فعل الشر والعدوان والبغي، وقال: «هذه طبيعتي؛ فلا لوم علي».

فهل يرفع هذا القول عنه الملام والعقاب؛ أم يكون لومه أشد، وعقوبته أوكد؟: لأنه عمل العمل القبيح، واتصف بالخلق القبيح؛ فكان أغلظ جرماً، وأشد عقوبة ممن فعل جرماً عارضاً: فإنه يرجى له الرجوع والتوبة؛ بخلاف الشرير: الذي طبيعته وقوته متوجهة إلى الشرور والمعاصي.

* * *

ثم ذكر الشيخ ما ينجي العبد من هذا المأزق الحرج، فقال:

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى ... يُنَجِّيكَ مِنْ نَارِ الإِلَهِ الْعَظِيمَةِ:
فَدُونَكَ رَبَّ الْخَلْقِ: فَاقْصِدْه ضَارِعاً ... مُرِيداً لأَنْ يَهْدِيكَ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ
وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ، وَآسْمَعَنْ؛ ... وَلا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لأَقْوَمِ شِرْعَةِ
وَدَعْ دِينَ ذِي الْعَادَاتِ: لَا تَتْبَعَنَّهُ؛ ... وَعُجْ عَنْ سَبِيلِ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ
وَمَا بَانَ ـ مِنْ حَق ـ: فَلا تَتْرُكَنَّهُ؛ ... وَلاَ تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ
وَمَنْ ضَلَّ عَنْ حَقٍّ ـ: فَلاَ تَعْفُوَنَّهُ؛ ... وَزِنْ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ بِالْمَعْدَلِيَّةِ
هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنَ الْهُدى ... بِتَبْشِيرِ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنَفِيَّةِ
بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ـ ذَاكَ إِمَامُنَا ـ ... وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
فَلاَ يَقْبَلُ الرَّحْمَنُ دِيناً سِوَى الَّذِي ... بِهِ جَاءَتِ الرُّسْلُ الْكِرَامُ السَّجِيَّةِ
وَقَدْ جَاءَ هَذا الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ الذِي ... حَوَى كلَّ خَيْرٍ فِي عُمومِ الرسَالَةِ
وَأَخْبَرَ عَنْ رَبِّ الْعِبَادِ: بِأَنَّ مَنْ ... غَدَا[1] عَنْهُ، فِي الأخْرَى بِأَقْبحِ خَيْبَةِ
فَهَذِي دَلاَلاَتُ الْعِبَادِ لِحَائِرٍ، ... وأَمَّا هُدَاهُ، فَهُوَ فِعْلُ الرُّبُوبَةِ[2]
وَفَقْدُ الْهُدَى عِنْدَ الْوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ، بَلْ يَجْرِي بِلاَ وَجْهِ حُجَّةِ

(١) كذا في الأصل: بالغين المعجمة. يعني: أن من أصبح بعيداً عن دينه، لحقته أقبح خيبة في آخرته. فتأمل.

(٢) بالأصل: «الربوبية»: وإثبات الياء مخل بالوزن. على أن هذا الاسم قد ورد أيضاً بدون الياء، كما في اللسان: (١/٣٨٥)، والقاموس: (١/٧٠)، أو التاج.

هذه نصائح نفيسة ـ من نصائح الشيخ ـ مستندة إلى الكتاب والسنة.

يقول: إذا كنت ـ أيها العبد ـ تريد نجاتك من عذاب الله والفوز بثوابه، فاقصد ربك: متضرعاً له آناء الليل والنهار؛ واسأله: أن يهديك الصراط المستقيم؛ ووطن نفسك للانقياد للحق، واقبله ممن قاله؛ وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ودع عنك دين العادات، والاقتداء بأهل الغضب والضلال.

وأكثر من التدبر لكتاب الله وسنة نبيه؛ ثم ما بان لك ـ: من الحق. ـ فاتبعه: غير مبال بخلاف المخالفين.

واجعل كتاب الله وسنة نبيه نصب عينيك، وزن بهما أحوالك وأحوال غيرك. فإنهما الميزان العادل، غير العائل[1]. فإنك إذا فعلت ذلك: حصلت لك تباشير الخير، وأمارات السعادة.

واتبع ملة إبراهيم حنيفاً: مائلاً عن جميع الأديان والبدع، إلى دين محمد ﷺ. فإن الله لا يقبل من أحد ديناً، سوى الدين الذي ارتضاه لرسله وأتباعهم، حتى ختمهم بإمامهم وسيدهم: محمد ﷺ؛ الذي جمع الله به وله ـ: من المحاسن والكمالات. ـ ما لم تجتمع في غيره. وقد أخبر عن ربه أن من اتبعه فهو المهتدي السعيد، ومن تولى عنه فهو الضال الطريد.

ثم قال: وهذا الذي بينته في هذه الأبيات؛ فيه الدلالة للحيران، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان. والهداية بيد الله؛ لكنه: من أقبل على ربه صادقاً، وعمل بأسباب الهداية ـ: فلا بد أن يقبله الله، ويسلك به الصراط المستقيم.

* * *

(١) أي: غير المائل. انظر: المختار (مادة: عول).

وَحُجَّـةُ مُحْتَـجٍّ بِتَقْـدِيـرِ رَبِّـهِ، يَـزِيدُ عَـذَاباً، كَـاحْتِجَاجِ مَـرِيضَةِ

وذلك: لأنه عمل في الحقيقة جرمين بل ثلاثة؛ (أحدهـا): فعله للذنب.

(ثانياً): احتجاجه عليه بالقدر؛ وهو كذب: فإن مضمون[1] الاحتجاج بالقدر، يعني: أن الله اضطره وألجأه إليه، وأكرهه عليه؛ وهو لا يريد الذنب. وهو كذب صريـح: فإن الله مكنه من الترك، بل فتـح له كل باب يصده عن الذنب؛ وقد أبت نفسه الأمارة بالسوء إلا أن توقعه في الذنب. فالملام عليه لا على ربه.

(ثالثاً): أنه بهذا الاعتذار، يمهد لنفسه الإصرار على الذنوب، والإقامة على ما يسخط علام الغيوب. فإن هذا الاعتذار يهون عليه كل ذنب، كما هو مشاهد.

* * *

وَأَمَّـا رِضَـانَـا بِـالْقَضَـاءِ، فَـإِنَّمـا أُمِرْنَا بِأَن نَرْضَى بِمِثْـلِ الْمُصِيبَةِ:
كَسُقْمٍ، وَفَقْرٍ، ثُمَّ ذُلٍّ، وَغُرْبَـةٍ؛ وَمَا كانَ: مِنْ مُؤْذٍ بدُون جَريمـةِ
فَـأَمَّا الأَفَـاعِيلُ الَّتِي كُـرِهَتْ لَنَا، فَلاَ نَصَّ يَأْتِي فِي رِضَاهَا بِـطَاعَةِ
وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ ـ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ ـ : لَا رِضاً بِفِعْلِ الْمَعَاصِي، وَالذُّنوبِ الْكَبِيرَةِ
فَـإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ لَمْ يَـرْضَهَا لَنـا؛ فَـلاَ نَرْتَضِي مَسْخُـوطَـهُ لِمَشِيئَـةِ؛
وَقَـالَ فَـرِيقٌ: نَـرْتَضِي بِقَضَـائِـهِ؛ وَلاَ نَرْتَضِي الْمَقضِيَّ أَقْبَـحَ خَصْلَةِ
وَقَـالَ فَـرِيقٌ: نَـرْتَضِي بِـإِضَـافَـةٍ إِلَيْـهِ؛ وَمَـا فِينَـا: فَنَلْقَى بِسَخْـطَةِ
كَمَـا أَنَّهَـا لِلرَّبِّ خَلْقٌ، وَأَنَّـهَـا لِمَخْلُوقِـهِ كَسْبٌ، كَفِعْلِ الْغَـرِيزَةِ
فَنَرْضَى مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ، وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْـهِ اكْتِسَابِ بِحِيلَةِ

(١) كذا بالأصل. وهو صحيح على أن خبرة قوله: يعني. فتأمل.

يعني: إذا أورد المورد علينا: «أنه يجب الرضا بقضاء الله» ـ يعني: والمعاصي من قضاء الله. ـ فقد أجاب الشيخ بأربعة أجوبة، كل واحد منها كاف شاف، فكيف إذا اجتمعت ـ:

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به: المصائب، دون المعائب. فإذا أصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما ـ من حصول مكروه، أو فقد محبوب ـ: فيجب علينا الصبر على ذلك ـ واختلف في وجوب الرضا؛ والصحيح: استحبابه. لأنه لم يثبت ورود[1] الأمر به على وجه الوجوب، ولتعذره على أكثر النفوس ـ لأن الصبر: حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط: من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثو التراب على الرؤوس ونحوها. وذلك واجب مقدور.

وأما الرضا ـ الذي هو مع ذلك: طمأنينة القلب عند المصيبة؛ وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت. ـ فهذا صعب جداً على أكثر الخلق. فلهذا لم يوجبه الله ولا رسوله؛ وإنما هو من الدرجات العالية. وهو مأمور به أمر استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها؛ ولم يأت نص ـ صحيح أو ضعيف ـ في الأمر بها. فأين هذا من ذاك؟!

(الجواب الثاني) ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نكفر ونعصي؛ فعلينا: أن نوافق ربنا في رضاه وسخطه. قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ؛ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ. وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2].

---

(١) بالأصل: وجوب؛ وهو تحريف. ولا يقال: إن المراد به الثبوت، لأنه يؤدي إلى التهافت، ويفضي إلى التكلف الذي لا ضرورة له، ولا داعي إليه.

(٢) سورة الزمر: (٣٩/٧).

فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان، مع تركها: وموافقته في محبة الشكر والإيمان والطاعة لنا، مع فعلها.

(الجواب الثالث): أن القضاء غير المقضي؛ فنرضى بالقضاء: لأنه فعله تعالى. وأما المقضي ـ الذي هو فعل العبد ـ فينقسم إلى أقسام كثيرة: «الإيمان والطاعة»: علينا الرضا بها. و«الكفر والمعصية»: لا يحل لنا الرضا بها؛ بل علينا: أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها: من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها. و«المباحات»: مستوية الطرفين.

(الجواب الرابع): أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها؛ فهي من الله: خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وهي من العبد: فعلاً وتركاً. فحيث أضيفت إلى الله ـ قضاء وقدراً ـ نرضى بها من هذا الوجه؛ وحيث أضيفت إلى العبد: نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء، قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض.

* * *

ثم قال الشيخ:

وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ تَرْكُهُ    لِمَا أَمَرَ الْمَوْلى: وَإِنْ بِمَشِيئَةِ
فَإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ حَقٌّ مَقَالُهُ:    بِأَنَّ عِبَادِي فِي جَحِيمٍ وَجَنَّةٍ؛
كَمَا أَنَّهُمْ ـ فِي هَذِهِ الدَّارِ ـ هَكَذا    بَلِ الْبُهْمُ فِي الآلاَمِ ـ أَيْضاً ـ وَنِعْمَةِ

يعني: أن معصية العبد: تركه لما أمر الله به ورسوله، وإن كان ذلك بمشيئة الله. فالله تعالى شاءه وأراده: لما له في ذلك من الحكمة، ولعلمه تعالى أن العبد يفعله باختياره ومراغمته لربه. فلا حجة له في ذلك.

وقد أخبر الله تعالى[1]: أن الأبرار لفي نعيم، وأن الفجار لفي جحيم؛ في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار: إما الجنة أو النار.

بل البهائم في الدنيا منها: ما هو منعم؛ ومنها: ما هو مريض أو مصيبه شيء من الآلام.

* * *

ولذلك كله أسباب وطرق معروفة: يحمد المولى بوضعه الأسباب المنوعة، مفضية إلى مسبباتها.

ولهذا، قرر الشيخ هذا المقام، بقوله:

وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْهُ: مِنْ ... فُرُوقٍ بِعِلْمٍ، ثُمَّ أَيْدٍ وَرَحْمَةِ
يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ، بالسَّبَبِ الَّذِي ... يُقَدِّرُهُ، نَحْوَ الْعَذابِ ـ بِعِزَّةِ
وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ، ... بأَعْمَالِ صِدْقٍ: فِي رَجاءٍ وَخَشْيَةِ
وَأَمْرُ إِلَهِ الْخَلْقِ: بَيَّنَ مَا بِهِ ... يَسُوقُ أُولِي التَّنْعِيمِ، نَحْوَ السَّعَادَةِ
فَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ: أَثَّرَتْ ... أَوَامِرُهُ فِيهِ، بِتَيْسِيرِ صَنْعَةِ
وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ: لَمْ يُبَلْ ... بِأَمْرٍ وَلا نَهْيٍ، بِتَيْسِيرِ شِقْوَةِ
وَلا مُخْرِجٌ لِلْعَبْدِ عَمَّا بِهِ قَضَى؛ ... وَلَكِنَّهُ مُخْتَارُ حُسْنٍ وَسَوْأَةِ
فَلَيسَ بِمَجْبُورٍ عَدِيمٍ إِرَادَةً؛ ... وَلَكِنَّهُ شَاءَ بِخَلْقِ الْإِرَادَةِ

يعني: أن حكمة الرب العليا اقتضت افتراق العباد: بالعلم والجهل، والعمل والكسل، والنعيم وضده. وذلك: بحسب عملهم بالأسباب النافعة، أو الأسباب الضارة.

فإن الله دعا إلى دار السلام، وبين طريقها وأعمال البر الموصلة إليها؛

---

(١) كما في سورة الانفطار: (٨٢/١٣ ـ ١٤). وانظر: سورة الإنسان (٧٦/٥)، والمطففين (٨٩/٢٢).

التي مرجعها إلى ثلاثة أمور: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما. وأمر العباد بسلوكها؛ وأخبر بما لهم عنده: من الكرامة.

فمن كان من أهل السعادة: يسره لعمل أهل السعادة، وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان. فسار ـ بحسن طريقه ـ إلى سعادته الأبدية.

ومن كان من أهل الشقاوة: لم يبال بأمر الله ولا نهيه؛ بل: كذب وتولى. فاستحق العذاب بجرمه وذنوبه. بين الله له الهدى؛ وأمره بسلوكه: فأدبر وتولى؛ فولاه الله ما تولى لنفسه، ووكله إليها. ومن وكل إلى نفسه ـ الأمارة بكل سوء، الظالمة الجاهلة ـ: فقد هلك؛ وذلك بما كسبت يداه: ليس بمجبور على ذلك ولا مكره ولا مقسور، بل هو مختار مسرف كفور.

* * *

فلهذا، قال الشيخ:

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ: خَلْقُ مَشِيئَةٍ ... بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ
فقَوْلُكَ: هَلْ أَخْتَارُ تَرْكاً لِحُكْمِهِ؟ ... كَقَوْلِكَ: هَلْ أَخْتَارُ تَرْكَ مشِيئَتِي؟
وَأَخْتَارُ: لا أَخْتَارُ فِعْلَ ضَلالَةٍ؛ ... وَلَوْ نِلْتَ هَذا التَّرْكَ: فُزْتَ بِتَوْبَةِ
وَذَا مُمكنٌ؛ لكِنَّهُ مُتَوَقِّفٌ ... عَلى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ ذِي الْمَشِيئَةِ

يقول الشيخ: إن من أعجب الأشياء: أن خلق الله للعبد مشيئة يتمكن بها من كل ما يريد. فيختار بها الهدى: إن كان من أهل السعادة؛ ويختار بها الضلالة: إن كان من أهل الشقاوة. والعبد هو الذي يفعل ويعمل ويكسب: من غير ممانع له عما يريده.

فقولك ـ أيها المعترض عليه ـ: «هل أختار ترك حكم الله وقدره؟»؛ مثل قولك: «هل أختار ترك مشيئتي؟».

يعني: فأنت الذي اخترت أفعال المعاصي. فلو زعمت: أنك لا تختار ولا تحب فعل الضلالة والغي؛ فأنت بين أمرين: إما أن تكون كاذباً؛ وهو الواقع لكل من يعترض على المعاصي بالقدر؛ ولكنه يريد بهذا الكلام دفع الشنعة عليه. وقصده معروف؛ فهو يعرف من نفسه: أنه لا يختار ولا يحب أن يترك ما باشره: من الكفر والإجرام.

فلو فرض وقدر على وجه الإمكان أنه صادق في قوله: «إني أختار: أن لا أختار فعل الضلالة»؛ وكان ذلك من صميم قلبه صادقاً في ذلك ــ لو كان الأمر كذلك: لكان هذا توبة. لأن العبد متى كانت له إرادة مصممة على فعل ما يحبه الله، وعلى ترك ما يكرهه الله ــ: أقبل بهذه الإرادة إلى الخيرات، وانصرف عن السوء والسيئات؛ وكان توبة له من جميع الموبقات.

ولكن: من وفق لهذه الحال، كان أبعد الناس عن الاحتجاج بالقدر.

والوصول إلى هذه الدرجة العالية، ممكن في حق كل أحد. ولكنه يتوقف على مشيئة الله وإرادته. ومن لجأ إلى الله وأناب إليه، وتضرع له ــ: هداه الله، وشاء منه أن يفعل ما يحبه ويرضاه.

وأشار الشيخ إلى هذا الفرق اللطيف، بقوله: على ما يشاء الله من ذي المشيئة وذو المشيئة هو: العبد.

وهذا الفرق اللطيف، هو: أنه إن شاء تعالى أن يعين عبده على فعل ما يحبه ويرضاه، وشاء من عبده ذلك الفعل ــ: حصل المطلوب، وفاز العبد بكل مرغوب. وإن لم يشأ تعالى إعانة عبده؛ بل أمره بالخير وأحب منه أن يفعله، ونهاه عن الشر وكره له فعله؛ ولكن لم يشأ من نفسه إعانته ــ: بقي العبد على ما اختاره لنفسه: من الإقامة على مساخط الله.

* * *

قال الشيـخ ــ بعد ما أجاب بهذه الأجوبة السديدة، والمعارف المَفيدة ــ :

فَدُونَكَ عِلْماً بِالَّذِي قَدْ أَجَبْتُ بِهِ مَعَانٍ: إِذَا ٱنْحَلَّتْ بِفَهْمٍ غَرِيزَةٍ،
أَشَارَتْ إلى أَصْلٍ يُشِيرُ إلى الْهُدَى؛ وَلِلَّهِ رَبِّ الْخَلْقِ، أَكْمَلُ مِدْحَتِي

أي: دونك هذه الأجوبة لما سألت عنه؛ سواء: كان السؤال سؤال استرشاد، أو سؤال اعتراض وعناد: كما هو الظاهر من ألفاظ السائل وفحوى كلامه. وهو الذي فهمه الشيـخ.

فهذه الأجوبة: التي تشير وتبين هذا الأصل؛ وهو: أصل القدر، الذي هو أحد أصول الإيمان.

وقد بين الشيـخ ــ في تفاصيل جوابه ــ هذا الأصل بياناً شافياً، ووضحه توضيحاً كافياً؛ لا تجد هذا التفصيل وهذا التحقيق، في كلام غير هذا الإمام العظيم.

فجزاه الله ــ عن الإسلام والمسلمين عموماً ، وأهل العلم خصوصاً ــ أفضل الجزاء، ورفعه في أعلى درجات الصديقين، ونفـع بعلومه جميـع المسلمين. آمين.

* * *

# خاتمة

## في ذكر أمثلة منوعة تكشف لك مسألة القضاء والقدر

حيث كان المقام من أهم الأمور، وقد حارت فيه أفهام كثير من الأذكياء، ولم يهتد إلى الصواب المحض كثير من العلماء؛ وكثير منهم يأخذ مسائله على وجه التقليد: غير مقتنع بوجه يجمع فيه بين الإيمان بشمول القضاء والقدر، مع أن العبد هو الفاعل حقيقة لفعله، وهو الممدوح أو الملوم على كسبه. مع أن الشيخ ــ رحمه الله ــ حقق هذا المقام، في هذا النظم، غاية التحقيق؛ وبين فيه الهدى من الضلال، حتى وضح الطريق. لكن الأمثلة تزيد البصير بصيرة، وتزيل عن الشاك الطالب للحق، الريب والحيرة.

لهذا، نقول في ضرب الأمثلة المتعلقة بهذه المسألة العظيمة:

(المثال الأول): رجل كان مسرفاً على نفسه، كثير الجراءة على المعاصي.

فقال له صاحبه ــ وهو يناصحه ويحاوره ــ : أما ترتدع عما أنت عليه؟ أما تتوب إلى ربك وتنيب إليه؟ أما علمت أن عقابه شديد على العاصين؟.

فقال المسرف: دعني أتمتع فيما أريد؛ فلو شاء الله لهداني، ولو أراد لي غير ذلك لما أغواني.

فقال له الناصح: بهذا الاعتذار الكاذب ازداد جرمك، وتضاعف ذنبك؛ فإن الله لم يغوك؛ بل الذي أغواك: الشيطان؛ وانقادت له النفس الأمارة بالسوء حيث قال الشيطان ــ مخاطباً لربه ــ ﴿قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُم الْمُخْلِصِينَ﴾[1]. فالشيطان دعاك إلى المعاصي

---

(١) سورة ص: (٣٨/٨٢ ــ ٨٣).

فأجبته، والله دعاك إلى الهدى فعصيته. بين الله لك السعادة وطرقها، وسهل أسبابها ورغبك فيها؛ ووضح لك طريق الشقاوة، وحذرك من سلوكها واتباع خطوات الشيطان. وأخبرك بما تؤول إليه: من العذاب الشديد؛ فرضيت، واستبدلت الضلالة بالهدى، والشقاوة على السعادة. وجعل لك قدرة وإرادة: تختار بهما، وتتمكن بهما من كل ما تريد. ولم يلجئك إلى فعل المعاصي، ولا منعك من الخير. فسلكت طريق الغي، وتركت طريق الرشد. فلا تلم إلا نفسك.

أما سمعت ما يقول الداعي لأتباعه يوم القيامة ــ حيث يقوم خطيباً فيهم ــ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ؛ وَمَا كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلاَّ أن دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لِي؛ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ؛ مَا أنَا بِمُصْرِخِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ الآية[1]؟!.

فقال المسرف: كيف أستطيع أن أترك ما أنا فيه: والله هو الذي قدره علي؟!. وهل يمكنني الخروج عن قضائه وقدره؟.

فقال له الناصح: نعم؛ يمكنك الخروج بقدره. فالتوبة والإقلاع عما أنت فيه ــ وأنت تعلم علماً لا تشك فيه ــ من قدر الله. فارفع قدر الله بقدره.

ثم إن قولك: «إن المعاصي الواقعة مني، من قدر الله»؛ إن أردت: أن الله أجبرك عليها وحال بينك وبين الطاعة؛ فأنت كاذب. وأول من يعلم كذبك نفسك: فإنك تعلم كل العلم أنك لو أردت ترك الذنوب لما فعلتها، ولو أردت إرادة جازمة فعل الواجبات لفعلتها. فلقد أقدمت على المعاصي برغبة منك ومحبة لها، وإرادة لا تشك ولا يشك غيرك فيها، وتعلم أن قولك: «إنها

(١) سورة إبراهيم: (١٤/٢٢).

بقضاء الله وقدره»؛ دفع اللوم عنك. فهل تقبل هذا العذر: لو ظلمك ظالم، أو تجرأ عليك متجرىء؛ وقال: «إني معذور بالقدر؛ فلا تلمني». أما يزيدك كلامه هذا حنقاً وتعرف أنه متهكم بك؟!.

فقال المسرف: بلى؛ هذا الواقع.

فقال الناصح: كيف ترضى أن تعامل ربك ــ الذي خلقك وأنعم عليك النعم الكثيرة ــ بما لا ترضى أن يعاملك به[1] الناس؟!

وإن أردت بقولك: «إنها بقضاء وقدر»؛ بمعنى: أن الله علم مني أني سأقدم عليها، وأعطاني قدرة وإرادة أتمكن بهما من فعلها؛ وأنا الذي فعلت المعاصي بما أعطاني ربي: من القوى التي مكنني فيها من المعاصي؛ وأعلم أنه لم يجبرني ولم يقهرني؛ وإنما أنا الذي فعلت، وأنا الذي تجرأت ــ: فقد رجعت إلى الحق والصواب، واعترفت بأن لله الحجة البالغة على عباده.

* * *

(المثال الثاني): رجل جاء لبعض العلماء، فقال له: «أحب أن ترشدني إلى أمر يطمئن له قلبي، وتقنع به نفسي؛ من جهة القضاء والقدر. فإني لا أشك أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره؛ وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وأعلم ــ مع ذلك ــ أن أفعالي كلها باختياري وإرادتي، وأنا الذي عملتها. هذا أمر ضروري؛ لا أشك فيه، وأعتقد أنه لا يشك فيه أحد. ولكن: أحب طريقة تهديني إلى كيفية الجمع بين الأمرين».

فقال العالم: الجواب المقنع في هذه المسألة: أنك إذا علمت أن الله خلقك وخلق أعضاءك الظاهرة والباطنة؛ هذا أمر لا تشك فيه ولا يشك فيه مسلم؛ ومن أعظم الأعضاء الباطنة: أن الله جعلك مريداً لكل ما تحبه، كارهاً

(١) بالأصل: «فيه»؛ والظاهر أنه مصحف عما ذكرناه.

لما تبغضه، إجمالاً وتفصيلاً؛ وأن الله أعطاك قدرة؛ توقع بها جميع ما تريد فعله، وتنكف بها عما تريد تركه؛ فأنت تعترف بذلك ولا تستريب فيه؛ وتعرف ــ مع ذلك ــ أنك إذا أردت أمراً من الأمور إرادة جازمة، وأنت تقدر عليه، فعلته من دون توقف؛ حتى إن الأمور المستقبلة التي تريد فعلها ــ إرادة جازمة ــ تقول فيها: سأفعل إن شاء الله كذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ: إني فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1] ــ :

فإذا اعترفت بذلك كله ــ يعني: اعترفت بأنه تعالى خلقك وخلق قواك الظاهرة والباطنة؛ ومكنك من كل ما تريد بما أعطاك: من قدرة ومشيئة؛ وأنت الذي تختار وتفعل أو تترك. ــ فقد جمعت بين الأصلين: الاعتراف بعموم قدر الله، وأن أفعالك كلها من كسبك؛ وأنه إن وفقك للخير: فبفضله وتيسيره؛ وإن لم يوفقك ــ بل وكلك إلى نفسك ــ : فلا تلومن إلا نفسك.

ومعرفة هذه المقدمات سهلة بسيطة؛ وبها يحصل لك الاقتناع التام.

ففعلك داخل في عموم قدرة الله وخلقه: لأن خالق السبب التام، هو الخالق للسبب. والسبب التام: قدرتك وإرادتك؛ والله هو الذي خلقهما، وأنت الذي تفعل بهما.

وإنما الإشكال الذي لا يمكن حله ــ لبطلان أحد أصليه ــ : اعتقادك أنك مجبور على أفعالك، فهذا الذي لا يمكن العبد أن يعترف معه: أن الأفعال أفعاله. وهذا يعلم بطلانه بالضرورة؛ كما سبق بيانه.

فقال الرجل السائل المسترشد: لقد وضحت المسألة وضوحاً لا أشك فيه؛ علمت بأن الله خلقني، وخلق جميع أوصافي؛ وخلق الأسباب التي أتمكن بها من الأفعال؛ وأنا الذي أفعل وأطيع: إن ساعدني الله بتوفيقه؛ وأعصي وأغفل: إن وكلني إلى نفسي.

---

(١) سورة الكهف: (١٨/٢٣ ــ ٢٤).

فقال العالم: وأزيدك إيضاحاً وبياناً لهذا السؤال:

قال الله لخيار المؤمنين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(١).

فلم يقل: ولكن الله أجبركم على الإيمان؛ إلى آخره. ولكنه تعالى لما علم حالة النفس وأنها ظالمة جاهلة أمارة بالسوء، لطف بالمؤمنين، وحبب إلى قلوبهم الإيمان، وزينه فيها. فانقادت إلى الخيرات باختيارها، لما جعل في قلوبهم: من هذه الأوصاف الجليلة. ولما كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، انصرفوا عنها: لكراهتهم لها؛ وكان هذا لطفاً وكرماً منه.

وأما الآخرون: فلم يجعل لهم نصيباً من هـذا اللطف؛ فانحـرفوا باختيارهم، وكانوا هم السبب لأنفسهم. حيث كانت مقاصدهم فاسدة؛ وحيث عرض عليهم الخير فرفضوه، واعترض لهم الشر والغي فاختاروه؛ فولاهم الله ما تولوا لأنفسهم؛ واللوم كله عليهم، والحجة البالغة لله على العباد كلهم. ﴿قُلْ: فَلِلَّهِ الْحجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

وأزيدك إيضاحاً وبياناً: ألست تفرق ويفرق كل أحد بين حركة المرتعش بغير اختياره؛ وبين حركة الباطش والكاتب باختياره؛ وتعلم أن الأخير فعل العبد حقيقة، والأول مقسور عليه؛ وما أشبه ذلك ـ: من الحركات التي من هذا النوع. ـ تفرق بين الحركة الاختيارية، والحركة الاضطرارية؟!.

فمن ألحق أحد القسمين بالآخر، وساواه به ـ: فهو مختل الشعور.

فقال الرجل: جزاك الله خيراً: فلقد أزلت عني كل إشكال، واقتنعت بذلك غاية الاقتناع.

* * *

(١) سورة الحجرات: (٤٩/٧).

(٢) اقتباس من سورة الأنعام: (٦/١٤٩).

(المثال الثالث): قضية الرجل الجبري.

كان رجل قد غلا في الجبر والقدر غلواً عظيماً؛ فكان يعتذر بالقدر عند كل جليل وحقير: حتى آلت به الحال إلى الاستهتار، وانتهاك أصناف المعاصي. وكلما نصح وليم على أفعاله، جعل القدر حجة له في كل أحواله.

وكان له صاحب يعذله وينصحه عن هذه المقالة التي تخالف العقل والنقل والحس؛ ولا يزيده العذل إلا إغراءاً.

وكان صاحبه ينتظر وينتهز الفرصة في إلزامه بأمور تختص به وتتعلق.

وكان هذا الجبري صاحب ثروة له أموال منوعة، قد وكل عليها الوكلاء والعملة.

فصادف في وقت متقارب أن جاءه صاحب ماشيته، فقال: إن الماشية هلكت وتلفت جميعها؛ لأني رعيتها في أرض جدبة ليس فيها عود أخضر.

فقال له: فعلت ذلك وأنت تعلم أن الأرض الفلانية مخصبة؛ فما عذرك في ذلك؟.

فقال: قضاء الله وقدره.

وكان ممتلئاً غضباً قبل ذلك؛ فزاد غضبه من هذا الكلام، واستشاط غضبه، وكاد يتقطع من هذا الاعتذار.

وجاءه صاحب البضائع، فقال: إني سلكت الطريق المخوف، فاقتطع المال قطاع الطريق.

فقال له: كيف تسلك هذا الطريق المخوف ـ مع علمك أنه مخوف ـ وتترك الطريق الآمن الذي لا تشك في أمنه؟!.

فأجابه بمثل جواب الراعي للماشية، وعمل معه الجبري ما عمله مع صاحبه.

ثم جاءه وكيله على تربية أولاده وحفظهم، فقال: إني أمرتهم أن ينزلوا في البئر الفلانية ــ ليتعلموا السباحة ــ فغرقوا.

فقال: لم فعلت ذلك: وأنت تعلم أنهم لا يحسنون السباحة؟ والبئر المذكورة تعلم أن ماءها غزير؛ فكيف تتركهم ينزلون فيها وحدهم، وأنت لست معهم؟!.

فقال: هكذا قضاء الله وقدره.

فغضب عليه غضباً لا يشبه الأولين، وكاد الغضب أن يقتله. وكل واحد ــ من هؤلاء الذين وكلهم على ما ذكرنا ــ يزداد غضبه عليه، إذا قال له: هذا قضاء الله وقدره.

فحينئذ قال له صاحبه: يا عجباً يا فلان! كيف قابلت هؤلاء المذكورين بهذا الغضب البليغ، ولم تعذرهم حين اعتذروا بالقدر، بل زاد هذا الاعتذار في جرمهم عندك؛ وأنت مع ربك ــ في أحوالك المخجلة ــ قد سلكت مسلكهم، وحذوت حذوهم؟!.

فإن كان لك عذر: فهم من باب أولى أعذر وأعذر؛ وإن كانت أعذارهم تشبه التهكم والاستهزاء: فكيف ترضى أن تكون مع ربك هكذا؟!.

فانتبه الجبري حينئذ، وصحا بعد ما كان غارقاً في غلوه. وقال: الحمد لله الذي أنقذني مما كنت فيه، وجعل لي موعظة وتذكيراً من هذه الوقائع التي وقعت لي، ولمست فيها غلطي الفاحش.

والآن أعتقد: أن ما حصل لي من نعمة الهداية إلى الحق، أعظم عندي من هذه المصائب الكبيرة. كما تحققت فيها قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أن تَكْرَهُوا

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

* * *

(المثال الرابع): مخاصمة بين القدري والجبري.

طال الخصام بين قدري يعتقد: أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله؛ وبين جبري يعتقد: ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم. لأنهما متباعدان في طرفي نقيض.

فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة: يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني: ليعرض كل منكما عليَّ مقالته؛ ولكما علي: أن أدقق الحكم بينكما وأن أرد ما مع كل واحد: من باطل؛ وأثبت ما معه: من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: «إن الله حكم عدل، لا يظلم من عباده أحداً»؛ ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل، أني أنزه ربي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله؛ بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالاً.

وأدلتي على هذا: جميع النصوص الدالة على أن الله ليس بظالم لعباده مثقال ذرة، وأنه حكم عدل. لأن تعلق مشيئته بأفعالهم، ثم تعذيبهم عليها ــ ظلم من جهتين: [ظلم] من جهة إضافتها إلى مشيئته، وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره؟!.

(١) سورة البقرة: (٢/٢١٦).

ثم إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله؛ لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه. بل في ذلك إبطال للشرع.

فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور المحظور، إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل منزه لله.

فقال الجبري: أنا أقول: «إن الله على كل شيء قدير، وإنه خالق كل شيء؛ وإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»؛ قضايا: لا يمكن مسلماً أن ينكرها ولا ينازع فيها.

وهذا عموم: لا يخرج عنه حادثة. ومن أعظم الحوادث أفعال العباد: من طاعات، ومعاصٍ، وغيرها.

فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته، لم يكن الله قديراً على كل شيء، ولا خالقاً لكل شيء. ومقتضى ذلك: أن العباد مجبورون على أفعالهم، غير مختارين لها. لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة، لخرجت عن مشيئة الله وقدرته.

فتعين القول بالجبر وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم: قد نفذت فيهم مشيئة الله، وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا: جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته؛ وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله؛ لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وقدرته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحاً كاملاً؛ واستدل كل واحد منكما بأدلة لا يمكن المنازعة فيها: لكثرتها ووضوحها. ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها؛ بل لحظ جانباً، وعمي عن الجانب الآخر. وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب.

وسأحكم بينكما بحكم: يستند على الكتاب والسنة، ويستند إلى العقل والفطرة. وسأقنـع كل واحد منكما: إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت ــ أيها القدري ــ فأصبت بقولك: إن أفعال العباد كلها من كسبهم وكلها من فعلهم؛ طاعاتها ومعاصيها، وغيرها من أفعالهم. وأصبت في استدلالك عليها: بأن الله نسبها وأضافها إليهم. وأصبت في تَبَرِّيك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي؛ وهو: الجبر.

ولكنك أخطأت خطأً كبيراً، حيث زعمت: أن مشيئة الله وقدرته، لا تعلق لها بأفعال العباد.

فنفيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل؛ وظننت: أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله، ينافي كون الأفعال الصادرة من العبـاد تكون باختيارهم، ومن كسبهم.

وهذا الظن غلط محض. بل المؤمن العارف يجمـع بين الأمرين: يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء: من الأعيان، والأوصاف، والأفعال. وأنه ــ مـع ذلك ــ الأفعال صادرة منهم حقيقة.

وأما أنت ــ أيها الجبري ــ فلقد أصبت بإثباتك: أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء؛ وأنه ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن. وأصبت في هذا الاستدلال.

ولكنك أخطأت خطأً كبيراً، حيث زعمت: أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله، أن العبد مجبور على أفعاله: لم تقـع بمشيئته. وظننت: أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

* * *

ثم قال السني ــ أيضاً ــ لهما: لقد قال كل منكما قولاً ممزوجاً حقه

بباطله؛ وسأحكم بينكما بحكم: يتضمن إثبات ما مـع كل منكما: من حق؛ وإبطال ما مـع كل منكما: من باطل.

وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ؛ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما: فإن الله أثبت للعبد مشيئة بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم، أو يدعه باختياره ومشيئته. وأخبر: أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، غير خارجة عنها. فمشيئة الله عامة: لا يخرج عنها شيء؛ ومـع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون.

ومـع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية ــ: من الكتاب والسنة. ــ فهو الذي يدل عليه العقل والواقـع والحس. فإن الله خلق العبد، وخلق ما فيه: من جميـع الأوصاف والقوى. ألستما تعترفان بذلك، وكل عاقل يعترف به؟!.

قالا: بلى.

قال السني: فإن من جملة أوصاف العبد ــ التي خلقها الله فيه ــ أنه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده ــ: من خير وشر، وطاعة ومعصية. ــ وبهما تقـع طاعاته ومعاصيه. وتعلمان: أن العبد متى أراد أمراً من الأمور التي يقدر عليها، فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه.

فإذا أوقـع العبد بهما فعلاً من أفعاله، دخلت[2] تحت عموم قدر الله. لأن خالق السبب التام ــ الذي هو قدرة العبد وإرادته ــ خالق للمسبب؛ يعني: لما

---

(١) سورة التكوير: (٨١/٢٨ ــ ٢٩).

(٢) كذا بالأصل؛ وهو صحيح: وإن كان الأولى حذف التاء.

يصدر عنهما. وكل منكما يعترف: أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته؛ كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.

فإذا اتفقتما على هذا القول الذي هو الصواب ــ بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس ــ: عاد الأمر إلى الوفاق.

فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه.

ليتبرأ الجبري من اعتقاده: أن العبد مجبور مقهور على أفعاله؛ وليعترف: أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة.

وليتبرأ القدري من اعتقاده: أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله، وغير شامل لها خلق الله وقدره. وليعترف: بعموم خلق الله، وشمول قدره.

والحمد لله الذي بين الصواب، ووفق من شاء من عباده لاتباعه. ﴿وَاللَّهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إِلىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١).

***

(المثال الخامس): في الآجال والأرزاق.

اعلم: أن الآجال والأرزاق ــ كسائر الأشياء ــ مربوطة بقضاء الله وقدره. فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ ﴿وَلِكلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ؛ فإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ: لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً؛ وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

فهذا أمر لا ريب فيه ولا شك. ومع ذلك، فهي ــ أيضاً ــ كغيرها: لها

(١) انظر: هامش ما تقدم (ص ٢٦).
(٢) اقتباس من سورة الأعراف: (٧/٣٤).

أسباب دينية، وأسباب طبيعية مادية، والأسباب تبـع قضاء الله وقدره. ولو كان شيء سابق القضاء والقدر ــ من الأسباب ــ: لسبقته العين؛ لقوتها ونفوذها.

فمن الأسباب الدينية لطول العمر، وسعة الرزق ــ: لزوم التقـوى والإحسان إلى الخلق، لا سيما الأقارب. كما ثبت في الصحيحين عن النبـي ــ ﷺ ــ أنه قال: (مَنْ أحبَّ أنْ يبسط لَهُ في رِزْقِهِ، وَيُنْسَأ لَهُ فِي أَثَرِهِ [أي: يُطِيلَ عمُرَه]: فليَصِلْ رَحِمَهُ)[1].

وذلك: أن الله يجازي العبد من جنس عمله؛ فمن وصل رحمه: وصل الله أجله ورزقه، وصلاً حقيقياً. وضده: من قطـع رحمه، قطعه الله: في أجله، وفي رزقه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّـهَ: يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

ومن الأسباب الدينية لقطـع طول العمر: البغي والظلم للعباد. فالباغي سريـع المصرع، والظالـم لا يغفل الله عن عقوبته، وقد يعاقبه عاجلاً بقصم العمر.

ومن الأسباب الدينية لمحق الرزق: المعاملات المحرمة كالربـا[3] والغش، وأكل أموال الناس بالباطل. فصاحبها يظن ــ بل يجزم ــ: أنها توسـع عليه[4] الرزق. ولهذا تجرأ عليها. والله تعالى يعامله بنقيض قصده. قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرْبِـي الصَّدَقَاتِ﴾[5].

---

(١) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٧ ــ ٣٨).

(٢) سورة الطلاق: (٦٥/٢).

(٣) بالأصل: «بالربا»، ولعله مصحف عما أثبتناه وإن كان يمكن تصحيحه بجعل الباء تصويرية.

(٤) بالأصل: «عليها»، وهو تحريف.

(٥) سورة البقرة: (٢/٢٧٦).

فالمعاملة بالربا تمحق صاحبها، وتمحق ماله. وإن تمتع به قليلاً، فمآله إلى المحق والقل. كما أن المتصدق يفتح الله له ـ: من أبواب الرزق. ـ ما لا يفتحه على غيره. كما قال النبي ﷺ[1]: (ما نقصت صدقة من مال، بل تزيده [ثلاثاً] ).

وكذلك الغش وأكل أموال اليتامى والأوقاف بغير حق ـ: من أكبر أسباب المحق؛ مع ما على صاحبها: من الإثم والعقوبة.

***

ومن أسباب طول العمر وقصره الطبيعية ـ: الصحة، والمرض.

فالعافية من الأسقام سبب لطول العمر؛ كما أن الأمراض بأنواعها سبب لقصره.

والمسكن والبقعة: إذا كانت صحيحة طيبة الهواء، صارت من أسباب عافية أهلها وطول أعمارهم. والعكس بالعكس: البقاع الرديئة المناخ والهواء، أو البقاع الوبيئة ـ سبب لقصر العمر، كما هو شاهد.

والتوقي عن المخاطر والمهالك، واستعمال الأسباب الواقية ـ فائدتها في طول العمر ظاهرة. والإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وسلوك المخاطر، وكل أمر فيه خطر ـ سبب ظاهر للهلاك. والأمثلة في هذا كثيرة.

***

ومن الأسباب المادية في حصول الرزق وسعته ـ: استعمال المكاسب النافعة. وهي كثيرة متنوعة: كل أحد يناسب له منها ما يوافقه ويحسنه، ويليق بحاله. كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلولاً؛ فَامْشُوا فِي

---

(١) من حديث تمامة ـ بعد قوله: مال. ـ : «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا؛ وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وقد أخرج من طريق أبي هريرة: في صحيح مسلم (٢١/٨ أو ١٤١/١٦ من الشرح)، والترمذي (١٨٤/٨)، ومسند أحمد على ما في الجامع الصغير (١٥٢/٢). وانظر: فيض القدير للمناوي (٥٠٣/٥ ـ ٥٠٤)، والمصابيح (٩١/١) ولم يرد في شيء منها قوله: «بل تزيده» إلخ.

مَنَاكِبِهَا، وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ؛ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١). فيدخل في هذا العمل جميع الأسباب النافعة. وكذلك قوله تعال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا؛ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أخرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾(٢)؛ إلى غير ذلك: من الآيات.

وكل هذه الأمور تابعة لقضاء الله وقدره. فإن الله تعالى قدر الأمور بأسبابها: فالأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: (يا رسول الله؛ أرأيت أدوية نتداوى بها، وتُقاةً نتقيها، ورُقى نسترقيها؛ هل ترد من قضاء الله وقدره شيئاً؟)؛ فقال: (هي من قضاء الله وقدره)(٣).

وكذلك: الأدعية المتنوعة سبب كبير لحصول المطلوب، والسلامة من المرهوب. وقد أمر الله بالدعاء، ووعد بالإجابة. والدعاء نفسه، والإجابة كلها داخلة في القضاء والقدر.

وقد جمع النبي ـ ﷺ ـ الأمر، بالعمل بكل سبب نافع، مع الاستعانة بالله. كما ثبت في الصحيح ـ مرفوعاً ـ: (آحْرِصْ علَى ما ينفَعُكَ، وآسْتَعِنْ باللَّهِ)(٤).

فهذا أمر بالحرص على الأسباب النافعة في الدين والدنيا، مع الاستعانة بالله. لأن هذه: الاستقامة. وذلك: لأن الانحراف من أحد أمور ثلاثة: إما أن لا يحرص على الأمور النافعة؛ بل: يكسل عنها، وربما اشتغل بضدها. أو يشتغل بها، ولكن: يتكل على حوله وقوته، وينظر إلى الأسباب، ويعلق جميع قلبه بها، وينقطع عن مسببها. أو لا يشتغل بالأسباب النافعة، ويزعم: أنه متوكل على الله. فإن التوكل لا يكون إلا بعد العمل بالأسباب.

فهذا الحديث بين فيه النبي ـ ﷺ ـ الطرق النافعة للعباد.

***

(١) سورة الملك: (٦٧/١٥).

(٢) سورة البقرة: (٢/٢٦٧). وانظر: آية ٢٥٤ و٢٦٥ منها.

(٣) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٤ و ٣٥).

(٤) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٨).

ولنقتصر على هذا: فإنه يحصل به المقصود. والله أعلم؛ وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

***

قال ذلك وكتبه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، آل سعدي. غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

وافق الفراغ منه: في ٣٠ ربيع الثاني، سنة ١٣٧٦ هـ.

وتم نقله بيد راجي عفو ربه: محمد السليمان البسام؛ في ٢٢ جمادي الأول، سنة ١٣٧٦هـ.

***

# الحقّ الواضح المبين

## في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين

## من الكافية الشافية

بسم الله الرحمن الرحيم

**وبه نستعين * اللهم يسّر وأعِن؛ يا كريم!**

الحمد لله رب العالمين * وأشهد أنه الإلٓه الحق الملك المبين * وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين * اللّهم صلّ على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كنت وضعت شرحاً على توحيد الأنبياء والمرسلين من (الكافية الشافية) للمحقق شمس الدين بن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرتُ فيه من النقول عن كتب المؤلف، فبدا لي أن ألخِّصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، نافعاً لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله:

**عبد الرحمٰن بن ناصر آل سعدي**

# فصل في توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطِّلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقاً للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلاّ به؛ وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولاً وأزكاهم نفوساً وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم، ونَبَذَه وزهد فيه كل ملحد ومعطّل، ممن فسدت أديانهم ومَرَجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممّن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكِّي للنفوس المطهِّر للأخلاق؛ وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل مؤيد بالشُّبَهِ التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثم آجعله داخل كفة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان

وذلك أن الشيء يعرف بضدِّه، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضادّه من الباطل؛ فإنك إذا وزنت ـ بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالّة على الحقائق ـ توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين، وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. وكيف يوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين، ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى كتبه ورسله، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساوياً للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي على تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل، وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم؟ وكيف يوزن توحيدٌ يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أم كيف يوزن توحيدٌ يجعل من اتصف بها هادياً مهديًّا وطاهراً مرضيًّا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويفضي بهم إلى الشقاء الأبدي:

توحيدهم نوعان قوليٌّ وفعـ ـلي كلا نوعيه ذو برهان

يعني أن توحيد الأنبياء ينقسم قسمين: أحدهما التوحيد الفعلي، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقرّبات، ويأتي آخر الفصول، وهو المسمّى (توحيد العبادة وتوحيد الإلـٰهية)، وسمي توحيداً فعليّاً لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأنه لا يتخذ له شريك ولا نديد. والثاني التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

فـالأول القـوليّ ذو نـوعين أيـضـاً في كتـاب الله مـوجـودان
إحـداهمـا سلب وذا نـوعـان أيـضـاً فيـه حقـاً فيـه مـذكـوران
سلبُ النقـائص والعيوب جميعهـا عنـه همـا نـوعـان معقـولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السنة: أحدهما سلب، أي نفيٌ للنقائص والعيوب عن الله تعالى، والثاني إثبات صفات الكمال لله تعالى، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن للمدح وللثناء على الله، بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصـل ومنفـصـل همـا نـوعـان معـروفـان أمـا الثـاني
سلب الشريك مـع الظهير مـع الشفيـع بـدون إذن الخـالق الـديّـان
وكذاك سلب الزوج والولد الـذي نسبـوا إليـه عـابـدو الصلبـان
وكذاك نفي الكفو أيضاً والولي لنا سوى الرحمٰن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص نوعان: سلب لمتصل، وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة. وسلب لمنفصل، وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضاً ظهير أي معين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوّتهم إلا بالله، فالشريك والظهير منفيّان عنه مطلقاً وأما الشفيـع فإنه من عظمته وكمال ملكه ينزه عن أن يشْفَـع عنده أحد إلّا بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصاً لله متابعاً لرسول الله، قال تعالى نافياً مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة: الملك والشركة فيه، والمعاونة، والشفاعة بغير إذنه:

**﴿قلِ ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وَمَا لَهُ منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلاّ لمن أذِنَ له﴾** [سورة سبأ: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبَيّن أن من كان بهذا الوصف ــ لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك، ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله ــ لا يستحق من العبادة مثقال ذرة. وكذلك ينزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبه إليه عبادُ الصُّلبان حيث قالوا: إن المسيح ابن الله؛ وكذلك عباد الأوثان، إذ قالوا: الملائكة بنات الله؛ فكذب الله كلَّ من زعم أن له زوجة أو ولداً فقال:

**﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾** [سورة الإخلاص: الآيات ١ ــ ٤]

وقال: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾**
[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

وقال: **﴿بديعُ السماوات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وَخَلَقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٠١]

إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولداً أو شريكاً لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه

من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحبة والولد؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً:

**﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتخِرُّ الجبال هدًّا * أن دَعَوْا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إنْ كلُّ من في السماوات والأرضِ إلاّ آتي الرحمن عَبْدا﴾** [سورة مريم: الآيات ٨٨ ـ ٩٣]

وقول المصنف: «نسبوا إليه عابدو الصلبان»: هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقاً فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان. قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضاً» أي يجب ويتعين أن ينفي أن يكون أحد مكافئاً لله في كماله وحقوقه، قال تعالى:

**﴿ولم يكن له كفواً أَحَدُ﴾** [سورة الإخلاص: الآية ٤]

**﴿هل تعلم له سميا﴾** [سورة مريم: الآية ٦٥]

**﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٢]

**﴿ليس كمثله شيء﴾** [سورة الشورى: الآية ١١]

فليس أحد مكافئاً لله أي مساوياً له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال، لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمِّله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلاً حتى يعينه الله على أفعاله، ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين:

**﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين﴾** [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

ومما ينفي عن الله وينزه عنه أنه ليس لنا وليّ سواه يجلب لنا المنافع ويدفع عنًا المضار، فليس لنا ولي سواه، فإنه تولى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبَرِّ والفاجر قال تعالى:

**﴿ما لهم من دونه من ولي﴾** [سورة الكهف: الآية ٢٦]

**﴿فما له من ولي من بعده﴾** [سورة الشورى: الآية ٤٤]

والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتقين يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى:

**﴿ألَا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**

[سورة يونُس: الآيات ٦٢ ــ ٦٤]

وقال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٥٧]

وكذلك لم يتخذ من خلقه وليًا من الذُّل لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنما يتخذ منهم أولياء رحمةً بهم وإحساناً إليهم يحبهم ويحبونه. والحاصل أنه ليس أحد مساوياً لله تعالى أو مماثلاً أو معيناً أو وزيراً أو محتاجاً إليه بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسِّنَةِ التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص يناقض لكمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة

كمال، منزَّه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادّها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفاً بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى:

﴿وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨]

﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [سورة قٓ: الآية ٣٨]

ومنزه أيضاً عما يضادّ الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهو السِّنَة، قال تعالى:

﴿الله لا إله إلّا هو الحي القيوم، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوم﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

وقال النبي ﷺ: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام)، وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يُسِرُّ العباد وما يعلنون، منزَّه عما ينافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض. قال تعالى:

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾
[سورة آل عمران: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿عالِمِ الغيبِ لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣]

وكـذلك العبث الـذي تنفيـه حكــــمتـه وحمـد الله ذي الإتـقـان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدىً لا يبعثـون إلى معـادٍ ثـان
كـلّا ولا أمـر ولا نـهي عـليــهـم من إلّـه قـادر ديّـان

أي وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا شَرَع شيئاً إلا لحكمة عظيمة لأنه حكيم حميد، فمن

تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه، وهذا مشاهد في خلقه وشرعه؛ ومن تمام حكمته أنه لم يخلق خلقه سُدًى لا يؤمرون ولا يُنْهَوْن ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى:

**﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملكُ الحقُّ لا إله إلّا هو رب العرش الكريم﴾**

[سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥، ١١٦]

وقال تعالى: **﴿أيحسَبُ الإنسان أن يُترك سُدىً * ألم يك نُطفةً من مَنِيٍّ يمنىٰ * ثم كان علقة فخلق فسوّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيِي الموتى﴾**

[سورة القيامة: الآيات ٣٦ ــ ٤٠]

فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملاً مهملاً لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب.

وكــذاك ظلم عبــاده وهــو الـغـــــــــنيّ فمــا لــه والــظلم لــلإنســان

أي وكذلك ينزّه الباري عن الظلم للعباد، بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا؛ فإن الظلم لا يفعله إلّا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه، الحَكَم العَدْل الحميد، فما له وظلم العباد، قال الله تعالى:

**﴿وما ربك بظلّام للعبيد﴾** [سورة فصلت: الآية ٤٦]

وقال: **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإنْ تَكُ حسنة يضاعفْها﴾**

[سورة النساء: الآية ٤٠]

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾
[سورة طه: الآية ١١٢]

وقال على لسان نبيه: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وكذاك غفلته تعالى وهو علام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جلّ إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورزق وهو رزَّاق بلا حسبان

أي كذلك ينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها، قال تعالى:

﴿قال علمُها عند ربي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى﴾
[سورة طه: الآية ٥٢]

وكذلك ينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه قال تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ * ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أُريد أن يطعمونِ * إنَّ الله هو الرزاقُ ذو القوة المتين﴾
[سورة الذّاريات: الآيات ٥٦ ــ ٥٨]

﴿وهو يُطعِم ولا يُطعَم﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤]

هذا وثاني نوعي السلب الذي هو أول الأنواع في الأوزان
تنزيه أوصاف الكمال له عن التشبيه والتمثيل والنكران
لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطّل عابد البهتان
من مثَّل الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزَّه الله عنه الذي هو أول النوعين: الثبوتي والسلبي في الميزان، أي في هذه القصيدة؛ وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل المتضمن تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علمُ الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإن ذلك تشبيه لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنه يمثل بفكره صنماً ووثناً يعبده كما فعل النصارى بالمسيح بن مريم: جعلوه إلّهَهم ومعبودهم، فالمشبّه نسيب أي مشابه للنصراني. وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا تشبهها صفاتهم. وينزه عن تعطيل صفاته ونفيها كما فعلته الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسُّنّة الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطّل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبِّداً للعدم المحض والنفي الصِّرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، وردّ لما جاؤوا به. ولهذا قال المصنف «فهو الكفور وليس ذا إيمان» وسيأتي إن شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطِّل. فالمؤمن الموحِّد يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله. والمشبِّه هو الذي يشبِّه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله. والمعطِّل هو من نفى شيئاً من صفات الله. وكلٌّ من المعطِّل والمشبِّه قد حُرِم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلّف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه

العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنّة والجماعة لاتِّباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبّر ما عليه هذه الطوائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

## فصل في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنّف في هذا البيت:

هـذا ومن تـوحيـدهم إثبـاتُ أو صـاف الكمـال لـربِّنـا الـرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلّهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرّفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية. فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبةً لله وتعظيماً له وتقديساً؛ وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها؛ وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعاً فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقاً إليه، وتوجب له التألّه والتعبّد والتقرّب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه. وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: (ان لله تسعة وتسعين آسماً مَنْ أحصاها دخل الجنة) متفق عليه. فإحصاؤها فهمُها وعقلُها والاعتراف بها والتعبد لله بها. ثم شرع يفصلها فقال:

كعلوه سبحانه فوق السماوات العلى بل فوق كل مكان
فهو العليّ بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو الذي حقاً على العرش استوىٰ قد قام بالتدبير للأكوان

أما علوّ الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها فقد دلّ عليهما العقل والفطرة، مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل أن لا يكون عليًّا. فإنه يمتنع أن يكون حالاًّ في المخلوقات، فيتعين أن يكون فوقها مبايناً لها؛ وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل: الكتاب والسنة. قال تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طٰه: الآية ٥]

في عدة مواضع، وأخبر أنه العليّ الأعلى، وأنه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سئل الإمام مالك، رحمه الله، عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب». وهكذا يجاب عن جميع ما أخبره الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه تثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك، يدبّر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله:

﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ [سورة يونُس: الآية ٣]

حيٌّ مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحنان

أي هو تعالى حيٌّ حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنه كامل القدرة نافذ الإرادة والمشيئة. وجمع المؤلف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة لأن جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش، ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخَلق وأنواع

التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد عُلم أن الله أراده، وما لم يوجد علم أن الله لم يرده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حولَ ولا قوة لأحد إلاّ به لشمول إرادته وكمال قدرته. وقوله «متكلم» أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفاً، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد:

﴿وتمت كلمة ربك صِدقاً وعَدْلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

وسيأتي إن شاء الله القول في الكلام «ذو رحمة وحنان» أي قد اتصف بالرحمة وعم خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

هو أوَّل هو آخر هو ظاهر — هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده — شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه — شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبُّرٍ — وتبصّر وتعقّل لِمعان
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ — ـرفة لخالقنا العظيم الشان

أي هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة المباركة قد فسّرها به النبي ﷺ بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) إلى آخر الحديث، ففسر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يضادّه وينافيه. فتدبَّرْ هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرُّد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله «الأول والآخر» والمكانية في «الظاهر والباطن» فالأول يدلّ على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى؛ والآخر يدل على أنه هو الغاية والصَّمَد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألُّهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها؛ والظاهر يدلّ على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذواتٍ وصفاتٍ وعلى علوِّه؛ والباطن يدلّ على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على

كمال قربه ودنوِّه. ولا يتنافى الظاهر والباطن لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

وهو العليُّ فكل أنواع العلوِّ له فثابتة بلا نكران

في القرآن من أسمائه الحسنى: «العليّ، الأعلىٰ» وذلك دالٌّ على أن جميع معاني العلوّ ثابتة لله من كل وجه، فله علوّ الذات فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى، أي علا وارتفع. وله علو القدر وهو علوّ صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [سورة طه: الآية ١١٠].

وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته. وله علو القهر، فإنه الواحد القهّار، الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد: أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: أحدهما أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكملُه وأعظمُه وأوسعُه؛ فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة؛ ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى:

﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْره والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسماواتُ مطويَّات بيمينه﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧]

وقال: ﴿إن الله يُمسك السماواتِ والأرض أَنْ تزولا ولَئِن زالتا إن أَمسكهما مِنْ أحدٍ من بعده﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١]

وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ [سورة الشورى: الآية ٥].

وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته).

فللّه تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما. النوع الثاني من معاني عظمته تعالى أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يُعظَّم كما يعظم الله فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يُتَّقى حق تقاته، فيطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى ويُشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرَّمه وشَرَعه من زمان ومكان وأعمال:

﴿ذلك ومن يُعظِّمْ شعائر الله فإنها من تَقْوَى القلوب﴾

[سورة الحج: الآية ٣٢]

و ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾

[سورة الحج: الآية ٣٠]

ومن تعظيمه أن لا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان
من بعض آثار الجميل فربُّها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجمـالـه بـالـذات والأوصـاف والأفعـال والأسمـاء بـالبـرهـان
لا شيء يشبـه ذاتـه وصفـاتـه    سبحـانـه عن إفـك ذي بهتـان

يعني أن الله تعالى هو «الجليل» الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو «الجميل» بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقاً أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نَسُوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، ووَدُّوا أن لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالاً إلى جمالهمْ، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحاً تكاد تطير له القلوب. وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى:

**﴿ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها﴾** [سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

وقال تعالى: **﴿هل تعلم له سميًّا﴾** [سورة مريم: الآية ٦٥]

فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره. وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصافُ كمال ونعوتُ ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلُّقاً، خصوصاً أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويُثنى عليه ويشكر وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سَفَه ولا سُدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل:

**﴿إن ربي على صراطٍ مستقيم﴾** [سورة هود: الآية ٥٦]

فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه

﴿صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء﴾ [سورة النمل: الآية ٨٨]

وأحسن ما خلقه: ﴿الذي أحسن كل شيء خَلَقَه﴾

[سورة السجدة: الآية ٧]

﴿ومنْ أَحْسَنُ من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

ثم استدلّ المصنِّف بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحُسْن، فهو أولى منها لأن معطي الجمال أحق بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، خصوصاً ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كف واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحقَّ منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟ فهذا دليل عقلي واضح مسلّم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته قال تعالى:

﴿ولله المثلُ الأعلى﴾ [سورة النحل: الآية ٦٠]

فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصاً فإن معطيه، وهو الله، أحق به من المعطىٰ بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحقُّ منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، وقال: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فسبحان الله وتقدَّس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علواً كبيراً. وحسبهم مقتاً وخساراً أنهم حُرِموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل، لأن تمام التعبد لله هو التعبد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته

وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتألّه له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج يما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيدُ صفاته أوصاف تعظيم فشأن الوصف أعظم شان

«المجيد» الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يُعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سِرٍّ ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسرُّ والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والدّاني
وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخر والصوّان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى نياطَ عروقها بعَيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذلك تقلبَ الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع، البصير» وكثيراً ما يقرن الله بينهما مثل قوله:

﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٤]

فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها: سرَّها وعلنها، وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميعِ اللغات، والقريب منها والبعيد والسِّر والعلانية عنده سواء:

﴿سواءٌ منكم من أَسَرَّ القولَ ومن جَهَر به ومن هو مُستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار﴾ [سورة الرعد: الآية ١٠]

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوُرَكما إن الله سميع بصير﴾ [سورة المجادلة: الآية ١]

قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله:

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾... الآية.

وسَمْعُه تعالى نوعان: أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها. الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى:

﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

وقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي استجاب.

ثم قال المصنف «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها: فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب؛ ويرى خيانات الأعين وتقلّبات الأجفان، وحركاتِ الجنان، قال تعالى:

﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلُّبَكَ في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ [سورة الشعراء: الآيات ٢١٨ ـ ٢٢٠]

﴿يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور﴾ [سورة غافر: الآية ١٩]

﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ [سورة الحج : الآية ١٧]

أي مطّلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سرٍّ ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجودَ في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف ... يكون ذا إمكان

هذا تفسير لاسمه «العليم» بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وُجدت. كما قال تعالى:

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢]

وقال تعالى: **﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾** [سورة المؤمنون: الآية ٩١]

فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها، ما وجد منها وما لم يوجد، مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجلي والخفي. قال الله تعالى:

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وانه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت كما أن قُدَرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يميتهم وبعد ما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

## فصــل

| | |
|---|---|
| وهو الحميد فكل حمد واقع | أو كان مفروضاً مدى الأزمان |
| ملأ الوجود جميعه ونظيره | من غير ما عدٍّ ولا حسبان |
| هو أهله سبحانه وبحمده | كل المحامد وصف ذي الإحسان |

هذا تفسير لاسمه «الحميد» فذكر أنه حميد من وجهين:

**أحدهما**: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض، الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضاً ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمداً يملأ الوجود كله: العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عدٍّ ولا إحصاء، فإن الله تعالى مستحقّه من وجوه كثيرة: منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدىٰ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلاّ هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

**الوجه الثاني**: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.

## فصل

وهو المكلِّم عبده موسى بتكليم الخطاب وقبله الأبَوَان
كلماته جلت عن الإحصاء والتعداد بل عن حصر ذي الحسبان
لو أن أشجار البلاد جميعها الأقلام تكتبها بكل بنان
والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمان
نَفِدَت ولم تنفَدْ بها كلماته ليس الكلام من الإله بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفاً موصوفاً، وكلامه تعالى من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق كسائر صفات أفعاله، قال الله تعالى:

**﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾** [سورة النساء: الآية ١٦٤]

وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه. قال تعالى:

**﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾**

[سورة لقمان: الآية ٢٧]

﴿**قلْ لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنَفِدَ البحر قبل أن تنفَدَ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً**﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩]

فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلم تعالى بما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله وبما يتعلق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار، ومَنْ أصدق من الله قيلاً، وعدل في الأوامر والنواهي؛ والقرآن العظيم من أجلِّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله، ويكلم عباده؛ وتكليمه إياهم نوعان:

**نوع بلا واسطة**، كما كلّم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمداً ﷺ ليلة أسري به إليه، وكما يخاطب أهل الموقف وأهل الجنة في الجنة حين يرونه ويكلمهم ويكلمونه.

**والنوع الثاني** تكليمه لعباده بواسطة إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولاً يكلمهم من أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله:

﴿**وما كان لبشرٍ أن يكلمَه اللَّهُ إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذْنه**﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١]

واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلُّقُها وقيامُها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة عُلم أنه لم يزل ولا يزال متكلِّماً إذا شاء، لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كافٍ في ردّه.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئاً قط ذو سلطان

وهو القويّ له القوى جمعاً تعـ ـالى الله ذو الأكـوان والسلطان
وهـو العـزيـز فلن يُـرام جنـابـه أنَّى يـرام جنـاب ذي السلطان
وهـو العزيـز القاهـر الغـلاب لم يـغـلبـه شـيء هـذه صفـتـان
وهـو العـزيــز بقـوة هي وصفـه فـالعـز حينئـذ ثـلاث معـان
وهي التي كملت لـه سبحـانـه من كـل وجـه عـادم النقصـان

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة «القدير، القوي، العزيز» معانيها متقاربة؛ فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة:

﴿إن العزة لله جميعاً﴾ [سورة يونُس: الآية ٦٥]

فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزة القوة الدالّ عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفة العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت. وعزة الامتناع، فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضُرَّه فيضرونه ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع. وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات، فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حولَ ولا قوة إلا به. فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه راجعون:

﴿ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنَفْس واحدة﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٨]

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾

[سورة الروم: الآية ٢٧]

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإن هذه القوة

الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أنّ قُواهم وقُدَرهم ومخترعاتهم لم تغنِ عنهم شيئاً في صدِّ ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقِّي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزّته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى:

**﴿والله خلقكم وما تعملون﴾** [سورة الصافات: الآية ٩٦]

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءَه على قلة عَددهم وعُدد على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعُدة، قال تعالى:

**﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

وهو الغني بذاته فغناه ذا تيٌّ له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: **﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾** [سورة فاطر: الآية ١٥]

فهو تعالى **﴿الغني﴾** الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه، لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيّاً فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسناً جواداً بَرًّا رحيماً كريماً، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه. ومن سعة غناه

أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خَلْقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلًا منهم ما سأله وما بلغت أمانيُّه ما نقص من ملكه مثقال ذرة. ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ولا وليّاً من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المُغْني لجميع مخلوقاته.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضاً ما هما عدمان
حكم وأحكام فكل منهما نوعـ ... ـان أيضاً ثابِتَا البُرهان
والحكم شرعيٌّ وكونيٌّ ولا يتـ ... ـلازمان وما هما سيان
بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً ... والعكس أيضاً ثم يجتمعان
لن يخلوَ المربوبُ من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان
لكنما الشرعي محبوب له ... أبداً ولن يخلو من الأكوان
هو أمره الديني جاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان
لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان
هو كله حق وعدل ذو رضىً ... والشأن في المقضيِّ كل الشان
فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضيَّ حين يكون بالعصيان
فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ ... ـمقضيَّ ما الأمران متحدان

فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ـمقضِيُّ إلا صنعة الرحمن
هذا البيان يزيل لبساً طالما هلكت عليه الناس كل زمان
ويحلُّ ما قد عقدوا بأصولهم وبحوثهم، فافهمه فهم بيان
من وافق الكونيَّ وافق سخطه إن لم يوافق طاعة الديان
فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجـ ـر بل له عند الصواب اثنان

## فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ ـضاً حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضاً ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضاً وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللائي حمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادىء الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: **أحدهما الحكمة في خلقه**، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل

أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضوٍ من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنّى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدّى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل: هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً؟ وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

**النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره**، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل وكرم أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً ويقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد. وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلّا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرّته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلّا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين، أصوله وفروعه، وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكماً كاملاً لا يحصل الصلاح إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده وكوّنه وقدّره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه. والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضادّ ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع الحكم الشرعي ومتعلقه. والله أعلم.

وهو الحَيِيُّ فليس يفضح عبده          عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره          فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: (إن الله حييٌّ يستحيِي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صُفْراً) وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقّوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح. ويستحيي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمدّ يديه إليه، أن يردهما صُفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة وهو الحَيِيُّ الستير، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى:

**﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾** [سورة النور: الآية ١٩]

وهذا كله من معنى اسمه (الحليم) الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا، ولهذا قال:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده          بعقوبة ليتوب من عصيان
وهو العفوُّ فعفوه وَسِعَ الورىٰ          لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى (الحليم) الذي له الحلم الكامل، (العفوُّ) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصاً إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابّة، وهو تعالى عفوٌّ يحب العفوَ عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه. ومن كمال عفوه أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها.

وهو الصبور على أذىٰ أعدائه ... شتموه، بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولدٌ وليس يعيدنا ... شتماً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه ... لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم ... يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم) وبما ثبت أيضاً في الصحيح قال الله تعالى: (كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله إنَ لي ولداً وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، فالله تعالى يدرّ على عباده الأرزاق المطيع

منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكـذيبه وتكـذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابـع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر لأنه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم.

وهو الرقيب على الخـواطر واللوا        حظ كيف بـالأفعـال بـالأركـان

(الرقيب) و(الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدلّ على إحاطة سمـع الله بـالمسموعـات، وبصره بـالمبصرات، وعلمـه بجميـع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى:

**﴿إنَّ الله كان عليكم رقيباً﴾**، [سورة النساء: الآية ١]

**﴿إنَّ الله على كل شيء شهيد﴾** [سورة الحج: الآية ١٧]

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبّد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وهـو الحفيظ عليهم وهـو الكفيـ        ـل بحفـظهم من كل أمـر عـان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: أحدهما أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميـع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي

الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله. والمعنى الثاني من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان»، أي مشقٍّ مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص. فالعام، حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشى إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها:

﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [سورة طه: الآية ٥٠]

أي هدى كل مخلوق إلى ما قدّر له وقضى له من ضروراته وحاجاته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضارّ، وهذا يشترك فيه البرّ والفاجر، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى:

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [سورة الحج: الآية ٣٨]

وهذا عام في دفع جميع ما يضرّهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: (احفظ الله يحفظك) أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعدّيها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

وهو اللطيف بعبده ولعبده والّلطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف لعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر. وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور وما لطف ودق من كل شيء. النوع الثاني لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية فييسره لليسرى ويجنبه العسرى ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدّره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العقبى في الدنيا والآخرة، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: «فيريك عزته» أي بامتحانك بما تكره، «ويبدي لطفه» في العواقب الحميدة السارة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوّره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزيناً من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رؤوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

## فصــل

وهو الرفيق يحبّ أهل الرفق بل يعطيهم بالرفق فوق أمان

هذا قد أخذه المؤلف من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (إن الله رفيق يحب أهل الرفق) وأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئاً بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعاً لسنن الله في الكون واتباعاً لنبيه ﷺ فإن هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

وهو القريب وقربه المختص بالداعي وعابده على الإيمان

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: قرب عام وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. وقرب خاص بالداعين والعابدين المحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى:

﴿وإذا سألك عبادِيْ عنّي فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوة الداعي إذا دعانِ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٦]

وهو المجيب يقول من يدعو أجبه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان. إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادةٍ أو دعاء مسئلة، قال تعالى:

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

فدعاء المسئلة أن يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته. وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلى صدقه وتعيّن الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوّته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات فإنه من أدلة كراماتهم على الله. وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدّة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته قال تعالى:

﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢]

وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

وهو الجواد فجوده عمَّ الوجو د جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يخيب سائلاً ولو انه من أمة الكفران

يعني أنه تعالى (الجواد) المطلق الذي عم بجوده جميع الكائنات وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤاله وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم:

**﴿وما بكم من نعمة فمن الله. ثم إذا مسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْأَرون﴾**

[سورة النحل: الآية ٥٣]

ومن جوده الواسع ما أعدّه لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهو المغيث لكل مخلوقاته ... وكذا يجيب إغاثة اللهفان

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات: يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم وينزل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار، فمن استغاثه أغاثه. وفي الكتاب والسنة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جداً معروف.

## فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنّان
وهو الذي جعل المحبة في قلوبهم وجازاهم بحبٍّ ثان
هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شَكورهم وشُكورهم ... لا لاحتياج منه للشكران
وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجبَ الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عُذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنّانِ

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ وبمعنى مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة، ويتعين أن تكون بقية المحابّ تبعاً لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه، جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله له على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه

بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهراً وباطناً كما قال تعالى:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ الله﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

ومن أسمائه تعالى (الشَّاكر الشَّكورُ) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحملون لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئاً لأجله عوضه خيراً منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً، ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب    هو أوجب الأجر العظيم الشان

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

ما للعباد عليه حق واجب    كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع    إن كان بالإخلاص والإحسان

أي جامعاً للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحاً كما قال في موضع آخر:

وقيام دين الله بالإخلاص والإحسان إنهما له أصلان

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم فإنه من الله تعالى فضلاً منه

وكرماً وإنْ نعّمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

## فصل

وهو الغفور فلو أتى بقرابها من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الإحسان
وكذلك التوّاب من أوصافه والتَّوبُ في أوصافه نوعان
إذْنٌ بتوبة عبده وقبولها بعد المتاب بمنة المنان

فهو تعالى (الغفور التواب) الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب، ففي الحديث: (إن الله يقول يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة، وقال تعالى:

﴿إنّ ربك واسع المغفرة﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢]

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: أحدهما أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي والندم على فعلها والعزم على أن لا يعود إليها واستبدال عملٍ صالحٍ بها. الثاني توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجبّ ما قبلها.

## فصـــل

وهـو الإلّه السيـد الصمـد الـذي صمـدت إليـه الخلق بـالإذعـان
الكامل الأوصـاف من كل الـوجو ه كمـالـه مـا فيـه من نقصـان

هذا معنى اسمه (الصمد) المعنى الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسره، وهو الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

وكـذلـك القهـار من أوصـافـه فـالخلق مـقهـورون بـالسلطان
لـو لم يكن حيًّا عـزيـزاً قـاهـراً مـا كـان من قهـر ومن سلطان

(القهار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً. ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره.

وكـذلـك الجبـار من أوصـافـه والجبـر في أوصـافـه نـوعـان
جبر الضعيف وكل قلب قـد غدا ذا كـسـرة فـالجـبـر منـه دان
والثـاني جبر القهـر بالعـز الـذي لا يـنبـغي لـسـواه مـن إنسـان
ولـه مسمـى ثـالث وهـو الـعلـــوّ فليس يـدنـو منـه من إنسان
مـن قـولهـم جبـارة لـلنخـلة الـعليـا التي فـاتت لـكـل بنـان

يعني أن للجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معان كلها داخلة باسمه (الجبار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير

ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر ويعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبراً خاصاً قلوبَ الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب وإذا دعا الداعي فقال: «اللهم اجبرني» فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنى الثالث أنه العلي على كل شيء.

فصار الجبار متضمناً لمعنى الرؤوف القهار العلي. وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

وهو الحسيب حماية وكفاية والحسْب كافي العبد كل أوان

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه. والحسيب أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. قال تعالى:

﴿يا أيها النبي حسبُكَ اللَّهُ ومَنِ ٱتَّبعك من المؤمنين﴾

[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهراً وباطناً وقيامه بعبودية الله تعالى.

وهو الرشيد فقوله وفعاله رُشْدٌ وربك مرشد الحيران
وكلاهما حق فهذا وصفه والفعل للإرشاد ذاك الثاني

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد وهو مرشد الحيران الضال فيهديه إلى الصراط المستقيم بياناً وتعليماً وتوفيقاً، فالرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فعله فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة والحسن والإتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلاً ولا أحسن منه حديثاً:

﴿وتَمَّتْ كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بها العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنها تزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالاًّ وأرشد حائراً وخصوصاً من تعلق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه وعلم أنه المنفرد بالهداية.

والعدل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم في الميزان
فعلى الصراط المستقيم إلٓهنا قولاً وفعلاً ذاك في القرآن

يعني أن الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قوله:

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ [سورة هود: الآية ٥٦]

فإن أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

## فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التـنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدّس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله. فهذا ضابط ما ينزه عنه: ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفو أو سمي أو ند أو مضاد، وينزّه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة. كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنياً على ربه «سبحان الله» أو «تقدس الله» أو «تعالى الله» ونحوها كان مثنياً عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

والبَرّ في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبِرُّ حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن مولى الجميل ودائم الإحسان
وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلي والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

من أسمائه تعالى (البر الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته

وكرمه، فهو مولى الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البر وآثار هذا الوصف جميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله:

**﴿ربَّنا وسعتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً﴾** [سورة غافر: الآية ٧]

**﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾** [سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

**﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾** [سورة النحل: الآية ٥٣]

وهذا يشترك فيه البر والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم، والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال:

**﴿فسأكتبها للذين يتَّقون ويُؤْتُون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتَّبعون الرسول النبـيَّ الأمِّيَّ﴾** [سورة الأعراف: الأيتان ١٥٦، ١٥٧]

وقال: **(إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾**
[سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وفي دعاء سليمان

**﴿وأدخِلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾** [سورة النمل: الآية ١٩]

وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواصّ الخلق.

وكـذلـك الفتـاح من أسمـائـه    والـفـتـح فـي أوصـافـه أمـران
فتـح بحكم وهـو شـرع إلـهنـا    والـفـتـح بـالأقـدار فـتـح ثـان
والـرب فتـاح بـذين كـليهـمـا    عـدلاً وإحسـانـاً من الـرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وَفَتْحُه تعالى قسمان: أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميعَ ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم. وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء واتّباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفي كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى:

**﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمة فلا مُمْسِكَ لها وما يُمسكْ فلا مرسِلَ لَهُ من بعدِهِ وهو العزيز الحكيم﴾** [سورة فاطر: الآية ٢]

فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

وكذلك الرزَّاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله ... نوعان أيضاً ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ ... ـرزق المعدّ لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا ... رزّاقه والفضل للمنان
والثاني سوق القوت للأعضاء في ... تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو ... ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبـ ... ـار وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: **﴿إن الله هو الرزاق﴾** [سورة الذاريات: الآية ٥٨]

**﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقُها﴾** [سورة هود: الآية ٦]

ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص. فالعام إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها،

وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضاً من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقاً ونعمة بهذا الاعتبار ويقال «رزقه الله» سواء ارتزق من حلال أو حرام وهو مطلق الرزق. وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خصّ به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى «اللهم ارزقني» أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

## فصل

هذا من أوصافه القيوم والـ ... قيوم في أوصافه أمران

| | |
|---|---|
| إحداهما القيوم قام بنفسه | والكون قام به هما الأمران |
| فالأول استغناؤه عن غيره | والفقر من كل إليه الثاني |
| والوصف بالقيوم ذو شأن كذا | موصوفه أيضاً عظيم الشان |
| والحيُّ يتلوه فأوصاف الكما | ل هما لأفق سمائها قطبان |
| فالحيُّ والقيوم لن تتخلف الأ | وصاف أصلاً عنهما ببيانٍ |

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضـع من كتابه كقوله:

﴿الله لا إلَه إلاّ هو الحي القيوم﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢]

وذلك أنهما محتويان على جميـع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميـع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقـدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميـع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجـدها وأمـدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من لـه صفة كـل كمال وهو الفعال لما يريد.

هو قابض هـو باسط هـو خافض ... هـو رافـع بـالعـدل والإحسـان
وهـو المعـزّ لأهـل طـاعتـه وذا ... عـزٌّ حـقـيـقـي بـلا بـطلان
وهـو المذلّ لمن يشـاء بـذلـة الـ ... ـداريـن ذل شـقـا وذل هـوان
هـو مـانـعٌ معطٍ فهـذا فـضله ... والـمنـع عـين الـعـدل للمنـان
يعـطي بـرحمتـه ويمنـع من يشـا ... ء بـحـكـمـة والله ذو الـسـلطان

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يثنى على الله بها إلا كل واحد منها مـع الآخر، لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب. وهو الرافـع لأقوام قائمين بالعلم والإيمان، الخافض لأعدائـه. وهو المعز لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيـع لله عزيز وإن كان فقيراً ليس له أعوان، المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلاً في الدنيا والآخرة. فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسـه في الشهوات فإن العز كل العز بطاعة الله والذل بمعصيته:

﴿ومن يُهِنِ اللَّهُ فما له من مكرِمٍ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨]

﴿من كان يريد العزة فلله العزةُ جميعاً﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠]

﴿ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾ [سورة المنافقون: الآية ٨]

وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه. وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسباباً ولضد ذلك أسباباً من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنها محل حكمة الله.

## فصل

والنور من أسمائه أيضاً ومن أوصافه سبحان ذي البرهان
قال ابن مسعود كلاماً قد حكا ه الدارمي عنه بلا نكران
ما عنده ليل يكون ولا نهار قلت تحت الفلك يوجد ذان
نور السماوات العلى من نوره والأرض كيف النجم والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله وكذا حكاه الحافظ الطبراني
فيه استنار العرش والكرسيُّ مع سبع الطباق وسائر الأكوان
وكتابه نور كذلك شرعه نور كذا المبعوث بالقرآن
وكذلك الإيمان في قلب الفتى نور على نور مع القرآن

وحجابه نور فلو كشف الحجاب لأحرق السبحات للأكوان
وإذا أتى للفصل يشرق نوره في الأرض يوم قيامة الأبدان
وكذاك دار الرب جنات العلى نور تلألأ ليس ذا بطلان
والنور ذو نوعين مخلوق ووصف ما هما والله متحدان
وكذلك المخلوق ذو نوعين محسوس ومعقول هما شيئان
احذر تزلَّ فتحت رجلك هوَّة كم قد هوى فيها على الأزمان
من عابد بالجهل زلت رجله فهوىٰ إلى قعر الحضيض الداني
لاحت له أنوار آثار العبا دة ظنها الأنوار للرحمن
فأتى بكل مصيبة وبلية ما شئت من شطح ومن هذيان
وكذا الحلولي الذي هو خِدنه من ههنا حقاً هما أخوان
ويقابل الرجلين ذو التعطيل والحجب الكثيفة ما هما سيان
ذا في كثافة طبعه وظلامه وبظلمة التعطيل هذا الثاني
والنور محجوب فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والهيبة والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحانه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسي كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه. فعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار ويكون نوراً للعبد في الدنيا والآخرة:

﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [سورة النور: الآية ٣٥]

لما ذكر أنه نور السماوات والأرض وسمى الله كتابه نوراً ورسوله نوراً ووحيه نوراً.

ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لم يفرقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال. وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يفرقون بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحل بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علماً وعملاً، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نوراً وكلامه نوراً وعلمه نوراً والنور محيط به من جهاته. والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.

## فصـــل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الصـــــفتــان لــلأفعــال تــابــعتــان
وهما صفات الذات أيضاً إذ هما بــالــذات لا بــالغيــر قــائمتــان
ولــذاك قــد غلط المقسّم حيـن ظن صـفـاتـه نـوعــان مختلفــان
إن لم يــرد هــذا ولكن قــد أرا د قيامها بـالفعـل ذي الأمكــان
والفعـل والمفعـول شيء واحــد عنـد المقسّم مـا همـا شيئـان
فلذاك وصف الفعـل ليس لــديـــــه إلا نـسبـة عــدميـة بـبيـان
فجميع أسمـاء الفعـال لـديـه ليــــست قط ثـابتـة ذوات مـعــان
مـوجـودة لـكـن أمـور كـلهـا نسب تـرى عـدميـة الـوجـدان
هـذا هو التعـطيل لـلأفعـال كـالـــتعـطيـل لـلأوصـاف بـالميزان
فـالحق أن الـوصف ليس بمـورد التقسيم هــذا مـقتـضى الـبـرهــان
بـل مـورد التقسيم مـا قـد قـام بـالـذات التي للواحـد الـرحمن
فهمـا إذاً نـوعــان: أوصـاف وأفــــعــال فهـذي قسـمـة التبيـان
فـالوصف بـالأفعال يستـدعي قيـا م الفعـل بالمـوصـوف بـالبـرهـان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إنْ بين ذينـك قط من فـرقــان
ومن العجـائب أنـهم ردّوا عـلى من أثبـت الأسمــاء دون مـعــان
قـامت بمن هي وصفه هـذا محا ل غيـر معقـول لـذي الأذهــان
وأتـوا إلى الأوصـاف بـاسم الفعـل قـالـوا لم تقم بـالـواحـد الـديـان
فانظر إليهم أبطلوا الأصل الـذي ردوا بـه أقـوالـهـم بـوزان
إن كـان هذا ممكنـاً فكـذاك قـو ل خصـومكم أيضاً فـذو إمكـان
والـوصف بالتقـديم والتأخيـر كـو نـيٌّ وديـنـيٌّ هـمـا نـوعـان
وكـلاهـمـا أمـر حقيقي ونســـــبي ولا يـخفـى عـلى الأذهـان
والله قــدَّر ذاك أجـمـعـه بـإحـــــكـام وإتـقـان مـن الـرحـمـن

## فصـــل

هــذا ومن أسمائــه مـا ليس يفـــــرد بــل يقــال إذا أتى بـقــران
وهي التي تــدعى بمـزدوجــاتهـا إفــرادهــا خــطر على الإنســان
إذ ذاك مــوهم نــوع نقص جــل رب العــرش عن عيب وعن نقصــان
كالمانـع المعـطي وكالضـار الذي هــو نــافـع وكـمــالــه الأمــران
ونظير هذا القابض المقـرون باســـــم البـاسط اللفـظان مقتـرنــان
وكـذا المعز مـع المـذل وخافض مـع رافـع لــفــظان مــزدوجــان
وحـديث إفـراد اسم منتقم فمــو قـوف كما قـد قـال ذو العـرفـان
مـا جـاء في القــرآن غيـر مقيــد بـالمجـرمين وجــا بـذو نــوعـان

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدم المؤخر) وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقروناً بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونياً كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضهـا على بعض، وكتقـديم الأسبـاب على مسببـاتهـا والشـروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعياً كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخَّر من أخَّر منهم بشيء من ذلك وكل هذا تبـع لحكمته. وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وأن صفات الذات متعلقـة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإن صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسماً مشتقاً دالاً على غير صفة في المحل المسمى به. والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئاً فشيئاً، وأقواله التي يتكلم بها شيئاً بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين. فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته وكلها قائمة بالله والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدم المؤخر والضارّ النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.

## فصل

واعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحاً جامعاً مختصراً كما تقدم، وما لم يذكره فإنه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العلي) كما تقدم ولم يذكر (الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم) وهي في معنى (البرّ الجواد

الوهاب) ولم يذكر (الرب والله والمِلك والمالك) وقد ذكر في (البدائع) أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الربّ هو القادر الخالق البارىء المصور الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى. وأما (المِلك) فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرِّف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى المِلك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك. وأما (الإِلَه) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح أن (الله) أصله (الإِلَه) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والله أعلم.

## فصــل

ودلالـة الأسـمـاء أنـواع ثـلا … ث كـلهـا مـعـلومـة بـبـيـان
دلت مـطابقـة كـذاك تضمنـاً … وكـذا التـزامـاً واضح البـرهـان
أمـا مـطابقـة الـدلالـة فهي أنَّ … الاسـم يفـهم مـنـه مفـهـومـان
ذات الإلـه وذلك الوصف الذي … يـشتـق مـنـه الاسـم بـالمـيـزان
لـكن دلالـتـه على إحـداهـمـا … بتضمن فـافـهـمـه فـهـم بيـان
وكــذا دلالته على الصفـة التي … مـا اشتق منهـا فـالتـزام دان
وإذا أردت لـذا مـثـالاً بيِّـنـاً … فمثـال ذلـك لفـظة الـرحمٰن
ذات الإلّـه ورحمـة مـدلـولهـا … فـهمـا لـهـذا اللفظ مـدلـولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهي تضمن ذا واضح التبيان
لكن وصف الحي لازم ذلك المعنىٰ لزوم العلم للرحمن
فلذا دلالته عليه بالتزا م بين والحق ذو تبيان

هذه قاعدة ذكرها المصنف نافعة في الأسماء الحسنى، وذلك أن الدلالة نوعان: لفظية ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص، وإن أعطيته بعض المعنى فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه. وأما الدلالة المعنوية العقلية فهي خاصة العقل والفكر الصحيح، لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها، وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام. مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملِك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الرب) لصفات الربوبية، و (الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حملت لمعان
إياك والإلحاد فيها إنه كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذن ثلاث طوائف      فعليهم غضبٌ من الرحمٰن

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلاماً محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسماً إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضاً من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفي من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، ولهذا توعد الله الملحدين في أسمائه. إما أن يسموا بها بعض المخلوقات كتسمية آلهتهم «اللات» من (الإِلٰه) و«العزى» من (العزيز) و«مناة» من (المنّان)، وإما أن تمثل بصفات المخلوقين، وإما أن تنفى وتعطل كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها. وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سموا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الإشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أن المؤلف بسط الكلام، لكننا أتينا بالجمل الكلية فيها.

## فصل

### في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هذا وثاني نوعي التوحيد تو      حيد العبادة منك للرحمن

أن لا تكون لغيره عبداً ولا      تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والإحسان      في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التو      حيد كالركنين للبنيان

وحقيقة الإخلاص توحيد المر ... اد فلا يزاحمه مراد ثان
لكن مراد العبد يبقى واحداً ... ما فيه تفريق لدى الإنسان
إن كان ربك واحداً سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحداً أَنْشَاك لم ... يشركه إذْ أَنشاك رب ثان
فكذاك أيضاً وحدَه فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ... ل الجهد كَسِلاً ولا مُتَوان
والسّنّة المثلىٰ لسالكها فتو ... حيد الطريق الأعظم السلطاني
فلواحد كن واحداً في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث مسعدات للذي ... قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرّة ... بلغت من العلياء كل مكان

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول:

﴿اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣٢]

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [سورة النحل: الآية ٣٦]

وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه، والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له. فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به، ويعرف حدّه وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع.

فأما حدُّه وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة. وأن صفات الإلٰهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه. ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصاً ذلك كله لله، لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله.

ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده. و (توحيد الصدق) وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته. و (توحيد الطريق) وهو المتابعة. فلهذا قال: «فلواحد» وهو الله «كن واحداً» في عزمك وصدقك وإرادتك «في واحد» أي متابعة الرسول. ولهذا فسره بقوله: «أعني طريق الحق والإيمان». فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة. وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك، فعليك أن لا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجا والفزع في أمورك كلها. وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الإلـهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد بل للخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنه هو الإلّه حقاً الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية غيره. ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرّد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من

أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية. وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغني عنه طرفة عين. فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئاً منه شريكاً لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، لا نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية، لأن الله هو الذي له صفة الإِلٓهية وهي صفات الكمال كلها. ولهذا كلما قوي إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته قوي توحيده وتم إيمانه، وأما ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النِّدِّ للرحمٰن أيًّا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر. وهذا النوع لا يقبل الغفران قال تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾

[سورة النساء: الآية ٤٨]

وتفسيره أن يتخذ العبد لله ندّاً يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعاً من العبادة الظاهرة والباطنة. وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها، فمن صرف لشيء منها نوعاً من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله. وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك

الأكبر، بشرط أن لا يبلغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله جليّه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعاً فيها سنة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه مما شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدّها المؤلف بقوله:

ليس العبادة غير توحيد المحبّة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين * وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين * والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم هذا التعليق المبارك على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ثالث ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين. وتم نقله من خط المصنف في تسعة عشر من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين والحمد لله.

# توضيح الكافية الشافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شر أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضل له، ومن يُضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً.

أما بعد، فهذا توضيح لمعاني (الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية) لشمس الدين بن القيم قدّس الله روحه، لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين، والرد على الجهمية والمعطّلة والملحدين. بالنقول الصحيحة، والأصول السلفية، والقواعد والعقول الصريحة. وفيه من الفوائد الفرائد، وما تصح وتكمل به العقائد، ما لا يوجد في كتاب سواه. ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال، أحببت أن أقرّبه للقارئين، بحله إلى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ما دل عليه، إلّا إذا اقتضت الحال الزيادة أو كان المعنى يتوقف عليها. ولم اشتغل بشرح لها كالشروح المعتادة لتيسر حل ألفاظها على الراغب من كتب اللغة والعربية، لكون الشرح العادي يقتضي بسطاً وتطويلاً.

واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام «للكافية الشافية»، حيث اختير فيه أسهل العبارات وأوضحها، فأغنى عن شرح كبير وعمل كثير، وتضمن من البراهين النقلية والعقلية والرد على أصناف المبتدعين وسياق

المذاهب والرد عليها بأسلوب واضح. ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بما يقابله من هذا التعليق يحصل لك المقصود، وتحظى بالمطلوب. واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك رحمهم الله. وأرجو الله أن يعينني على ما قصدت وينفعني وإخواني بما أوردت، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، وأن ينزل علينا من لطفه وتوفيقه ما تصلح به أمورنا، وييسر لنا الطريق الموصل إلى رحمته، إنه جواد كريم.

**عبد الرحمـٰن بن ناصر آل سعدي**

## فصل

أما مقصود هذا الكتاب فهو معرفة الله تعالى بإثبات ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة المخلوقات. وتفريع هذا الأصل العظيم وتقريره والتنبيه على أصول العقائد كلها وعلى أدلة ذلك من الكتاب والسنة والعقل والفطرة. وتقرير توحيد العبادة وعبودية الله ومحبته وحده والإنابة إليه، ودفع ما يعارض هذه الأصول، والرد على المبتدعين المعارضين، وذم الغافلين المعرضين، ومدح أهل السنة القائمين بهذه الأصول علماً وعملاً وحالاً ودعوة، وبيان ما لهم عند ربهم من الكرامة بتفصيل أصناف النعيم.

ولا ريب أن هذه المواضيع الجليلة أصل العلوم كلها وأشرفها وأفرضها وأفضلها وأنفعها.

## فصل

ولما كان موضوع هذا الكتاب ما ذكرنا، وكانت تلك المواضيع أقوى الدواعي إلى محبة الله التي هي أصل الخير والسعادة والفلاح، ذكر المصنف رحمه الله في أول فصل منها «حكم المحبة ثابت الأركان» لتوفر شروطه وهي كمال المحبوب المطلق من جميع الوجوه، وآلاؤه ونعمه المتنوعة، وقوة المحبة من الأنبياء والأصفياء وأتباعهم، والموانع منتفية في حق خواص الخلق، وقيام البراهين والأدلة والشواهد على ذلك عقلاً ونقلاً وفطرة وذوقاً ووجداناً، فصار هذا الحكم ثابتاً كاملاً علمياً اعتقادياً وجدانياً عقلياً، وأنه لا سبيل للعذال واللوام الذين يريدون إبطال الحقائق الثابتة ومحو الأمور

اليقينية، ولا طريق لهم إلى نقضه وإبطاله، لأنه تم وأبرم ونفذ، بل هو على الدوام في نمو وازدياد، لثبات أصوله، واستمرار ينابيعه وموارده.

ثم إن المؤلف رحمه الله شبب تشبيباً خيالياً بالمحبوبة، كعادة الشعراء يشببون بأعلى محبوباتهم، ثم ينتقلون منها إلى الأغراض التي يقصدونها في غاية اللطف والخفاء، فيقع ذلك من الحسن في أعلى المراتب وأعذب المشارب، فإن كان غرضهم مدحاً انتقلوا إليه من ذلك المحبوب الموصوف بالصفات التي يذكرونها، فيكون معنى ذلك ومضمونه أن الغرض المنتقل إليه أعلى عندهم وأشرف من المنتقل منه. وإن كان الغرض الذي يريدونه ذماً وقدحاً وتخلصوا إليه من وصف ذلك المحبوب كان ذلك المنتقل إليه فيه من القبح والقدح والذم أبلغ وأعظم مما في هجر المحبوب وصده الذي هو أكره شيء للمحبين، فلذلك سلك المؤلف هذا المسلك، فإنه لما شبب بمحبوبته الخيالية وذكر أوصافها وشدة تعلقه بها وأنه لا زال يتمنى وصلها يقظة ومناماً وأن محبوبته فاجأته بوصلها بعدما وعدته وصدقت في موعدها وأن هذا اللقاء إنما هو في المنام أو تخيل في الوهم، فلما حصل له ذلك اللقاء الذي هو أغلى عنده من روحه اندهش وهام بحديثها الشافي للسقام فقال لها في تلك الحال:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني        فعليك إثم الكاذب الفتان

وهو جهم بن صفوان وشيعته، ثم جعل يذكر مذهب الجهمية المنتسبين إلى جهم بن صفوان، فوقع هذا التخلص في نهاية الحسن. فللّه دره ما أبلغه، وما أشد شكيمته في الحق. وكان الجهم بن صفوان معروفاً بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله التي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة، إلا هؤلاء المبتدعة ومن سلك سبيلهم فإنهم زعموا أن الله معطل عن صفات الكمال، وأنه ليس على العرش رب يعبد، وأن حظ العرش منه كحظ الأرض السابعة السفلى،

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وكذلك قالوا إنه ليس له سمع ولا بصر ولا قدرة ولا علم ولا إرادة ولا رحمة ولا وجه ولا يدان ولا له صفة تقوم به، وإنما هو على قولهم ذات مجردة عن الأوصاف خالية من المعاني والنعوت، فأثبتوا الأسماء ونفوا ما دلت عليه الصفات. وهذا مجرد تصوره كاف في رده وإبطاله، ويعلم به مخالفته للسمع والعقل كما سيأتي شرح ذلك، وزعموا مع هذا أنه ليس له خليل من خلقه فنفوا محبة الله وخلته لمن اصطفاه من عباده، وزعموا أنه لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولا كلم موسى تكليماً، فأنكروا صريح الكتاب والسنة، وفسروا معنى خليل الله بأنه الفقير إلى الله، ومعلوم أن هذا التفسير باطل فإنه يدخل فيه الأبرار والفجار وأهل الجنة وأهل النار فكلهم مفتقرون إلى الله ليس لأحد غنى عنه طرفة عين. فلزم من هذا مساواة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في الخلة لكل أحد، وهذا من أبطل الباطل.

ولما كان هذا القول متقرراً قبحه وبطلانه عند سلف الأمة وأئمتها وأمرائها وعامتها، وأظهر الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان هذا القول، طلبه ولاة أمر المسلمين؛ فأخذه خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية على العراق فأوثقه وخرج به للمصلى يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلم موسى تكليماً تعالى الله عن قوله. ثم نزل فذبحه بالمصلي. فشكر الناس له هذا الفعل بشيخ الجهيمة.

ثم تمم المؤلف مقالات الجهمية في هذه الفصول المتوالية، فذكر أن مذهبهم في باب القضاء والقدر وأفعال العباد (الجبر)، وأن العبد عندهم مجبور ومقهور على أفعاله كلها خيرها وشرها، وأنه ليس بفاعل حقيقة، وأن فعله بغير اختياره بمنزلة هبوب الرياح وتحرك الأشجار وحركة المرتعش والنائم ونحوهم ممن حركاتهم بغير اختيارهم، وهذا باطل شرعاً وعقلاً، فإنه من

المعلوم عقلاً وحساً الفرق بين الحركة الاختيارية الواقعة بقدرة العبد وإرادته، والحركة القسرية التي لا إرادة له فيها ولا اختيار.

والشارع أضاف الأعمال خيرها وشرها للعباد، وأخبر بوقوعها بقدرتهم ومشيئتهم وأن لهم الاختيار في الفعل والترك، وهؤلاء الجبرية سووا بين النوعين ظناً منهم أن هذا مدلول القضاء والقدر، وأنه كيف يقضي عليهم ما يعاقبهم عليه، وهذا من أقبح الأغلاط وأشنعها، فإن القضاء والقدر لا ينافي أن العباد هم العاملون لأعمالهم، فإنه تعالى خالق كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، وأفعال العباد تقع بقدرتهم وإرادتهم التي خلقها الله فيهم، وأعطاهم الاختيار في ترجيح ما يختارون، وخالق السبب التام خالق للمسبب. وأيضاً فإنه يعاقبهم على كفرهم ومعاصيهم وهو الحكم العدل، فكيف يعاقبهم على ما ليس من فعلهم؟ هذا من أنكر المنكر وأبطل الباطل. وعند هؤلاء الجبرية الظلم محال عندهم لا يتصور وقوعه، فانظر كيف قادهم هذا الأصل الخبيث، إلى إبطال الأمر والنهي والجزاء بالعدل وإقامة المعذرة لكل ظالم ومجرم، فالظلم الذي نزه الله عنه نفسه وتمدح به أنه لا يعذب أحداً بغير ذنبه ولا يهضمه من حسناته شيئاً ولا يزيد في سيئاته ما لم يعمله، فهو تعالى قادر عليه، ولكن لكمال عدله وحمده حرمه على نفسه وأخبر بنفيه عنه في مواضع كثيرة من القرآن.

ثم ذكر في الفصل الذي بعد هذا أن الجهمية كما نفوا صفاته فإنهم نفوا حكمته في خلقه وأمره، وما احتوت المخلوقات والشرائع عليه من الحكمة، وما توصل إليه من الغايات الحميدة المرادة لله في شرعه وخلقه، كما دل على ذلك اسمه الحكيم وإخباراته الصادقة، وما هي موجودة عليه في نفس الأمر، واتفق على ذلك الصحابة والسلف الصالح وأئمة الدين على أن حكمته وصفه العظيم القائم به الناشىء عنه وقوع الأشياء في أحسن صنع وأكمل نظام، وإحكام أحكامه بالحكمة التي صارت بها أحسن الأحكام، وفسروا الحكمة

بأنها وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها اللائقة، فنفى الجهمية ذلك كله: فلم يثبتوا لله حكمة حقيقية، بل جعلوا حكمته نفس مشيئته، وزعموا أنه يجمع بين المختلفات بأوصافها ويفرق بين المتماثلات، فيرجح مثلاً على مثل بلا مرجح، ومع ذلك فهذه الحكمة التي يثبتونها على هذا الوجه المنحرف ليست عندهم صفة قائمة بالله، بل يفسرونها إما بأنها ترجع إلى مجرد الذات العارية عن الصفات، أو أنها راجعة إلى المفعولات، كما قالوا ذلك في كلامه إذ زعموا أنه مخلوق خلقه في بعض الأجسام كسائر المخلوقات، لأن كلامه على أصلهم غيره، وما كان غيره كان مغايراً له مخلوقاً، وهذا معلوم البطلان، فإن صفات الله التي من جملتها الكلام داخلة في مسمى ذاته، فهو الله الموصوف بجميع صفاته، وهو بأسمائه وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، وسيأتي إن شاء الله الكلام في الغيرية هل تطلق على الصفات أم لا وما في ذلك من التفصيل.

ومن مقالة الجهمية التي لم يسبقهم إليها أحد من سلف الأمة وأئمتها كلامهم في تفسير الإيمان، حيث زعموا أن الإيمان هو إقرار العبد بأن الله خلقه ودبره فقط، وأما أعمال القلوب من محبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه فإنها لا تدخل في الإيمان عندهم، وكذلك عندهم أعمال الجوارح وأقوال اللسان غير داخلة في مسمى الإيمان عندهم، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف من دخول جميع المذكورات في الإيمان، وأنه اسم لعقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأن الناس فيه متفاوتون جداً بحسب ما قاموا به من أمور الإيمان، وعند الجهيمة إيمان أصلح الناس وأكملهم إيماناً كإيمان أفسقهم وأنقصهم إيماناً، فكلهم في الإيمان على حد سواء عندهم. فمن لوازم هذا القول الفاسد المعلوم فساده بالضرورة أن إبليس وفرعون وقارون وقوم عاد وثمود وقوم نوح ونحوهم وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وسائر الكفرة الذين يعرفون أن

الله خلقهم ليسوا كفاراً، وهذا اللازم لهذا القول الباطل معلوم عند كل أحد أنه باطل منكر، حتى عند هؤلاء الجهمية ينفون الإيمان عن هؤلاء ويتولون كل من حكم الشارع بكفره فإنه دليل على أنه ليس في قلوبهم شيء من الاعتراف بالله، وإنما هم جاهلون بربهم غير مقرين بربوبيته. وهذا من أبطل الباطل، وهو نوع من المكابرة والسفسطة، لما صرح به الكتاب والسنة من اعترافهم بربوبية الله وخلقه، ولما هو معلوم من أحوالهم. فقول المؤلف «هم عند جهم كاملوا الإيمان» أي هذا لازم قوله، وإلا فلو قال ذلك وصرح به لكان كفره ظاهراً لكل أحد، ولكن يستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم.

وأما الإيمان الشرعي عند السلف فإنه شامل للعقائد الدينية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى، ويترتب على هذا أن الإيمان يزيد بزيادة هذه الأمور وينقص بنقصها، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه أوصاف الخير والشر، وله من الثواب وعليه من العقاب بحسب ما قام به واتصف به من أمور الإيمان، وهذا كما أنه القول الذي أجمع عليه السلف الصالح مستندين فيه إلى نصوص الكتاب والسنة فإنه القول الموافق للعقل وللفطرة التي فطر الله عليها عباده.

ثم ذكر المؤلف في الفصل بعده أن الجهمية ومن تبعهم أن مذهبهم في أفعال الله الاختيارية المتعلقة بمشيئته وقدرته من أفسد المذاهب وأبعدها عن الصواب، فإنهم زعموا أن الله كان في الأزل معطلاً عن أفعاله وأنه يمتنع عليه الفعل غاية الامتناع، ثم بعد هذا الامتناع استحال الأمر فصار قادراً على الفعل من غير أن تحدث له صفة فوجب حدوث فعله وانقلاب الممتنع ممكناً، بل أن حاله قبل ذلك ومعه وبعده على حد سواء، والذي قادهم إلى هذا القول الباطل نفيهم للتسلسل في أفعال الله زعماً منهم أن إثبات التسلسل ودوام فاعلية الرب يقتضي قدم المخلوقات، وأنه لا يمكنهم إثبات

حدوثها إلا بهذا الأصل الذي أصلوه وخالفوا به الكتاب والسنَّة وأقوال سلف الأمة. وطردوا أصلهم هذا فقالوا: كما أن التسلسل منفي في الماضي فهو منفي في المستقبل، فإن أفعال الله على قولهم تعدم في المستقبل كما كانت معدومة عندهم في الماضي، فتفنى الجنة والنار وأهلهما وما فيهما من النعيم والعذاب.

وزعم أبو الهذيل العلاف المعتزلي أن الفناء يكون في الحركات لا في الذات، وأن أهل الجنة والنار سيأتي عليهم زمان تنقطع فيه حركاتهم ويبقون جمادات في سكون أبداً، والنار وأهلها كذلك، وهذا ـ مع مخالفته للكتاب والسنة والإجماع ـ مما يضحك السفهاء، فلذلك صور المصنف قوله هذا، فإنه بمجرد تصوره يكفي الإنسان معرفة بسخافته وهجنته، فإنه على قول أبي الهذيل وأتباعه من المعتزلة ـ إذ جاء ذلك الوقت الذي ينقطع فيه فعل الله أن أهل الجنة وأهل النار يكونون فيها كالحجارة والصور، وأن من صادفه ذلك الزمان وقد امتدت يده إلى ثمرة في الجنة يسكن وتبقى يده ممتدة على الدوام، ومن رفع لقمة إلى فيه فأتى عليه ذلك الوقت بقيت يده مرفوعة فيها اللقمة وفمه مفتوحاً مستعداً لتناولها، ومن كان في تلك اللحظة مواقعاً لزوجته بقيا حجرين متصلين على الدوام، وهكذا، وكذا بقية الصفات. فتباً لهذه العقول والأذهان، والحمد لله على نعمة السنة والقرآن.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة وهي أفعال الله فهو ما دل عليه الكتاب والسنة والعقل السليم، أن الله تعالى لم يزل ولا يزال كاملاً متصفاً بجميع صفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال ولم يزل يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فإنه لم يزل فعالاً لما يريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، بل لا يتأتى الكمال إلا بتنوع الأفعال، فكيف يمكن أن يكون في وقت من الأوقات خالياً من هذا الكمال، وهذا يقتضي أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، ولا محدث إلا وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة

الله وإرادته، مرتبطة بحكمته. وهذا لا يقتضي كون شيء من أعيان العالم قديماً، بل إثبات هذا الأصل أكبر دليل على حدوث العالم، فالتسلسل الباطل الذي اتفق العقلاء على بطلانه هو التسلسل في العلل والمؤثـرين، هذا هو المحال الممتنـع، وأما التسلسل في الآثار فإنه ثابت بالأدلة السمعية والعقلية، لا يمكن غيره، فالله تعالى لم يزل قادراً على الفعل، ولم يزل يفعل ولا يزال يفعل، وأفعاله لا تنفد ولا تبيد، والجنة والنار وأهلهما في خلود دائم ونعيم أو عذاب مستمر والله أعلم.

ثم ذكر المصنف في الفصل الذي بعد هذا مذهب الجهمية، وقولهم في المعاد، وأنه قول باطل، فإنهم زعموا أن الله تعالى يعدم الخلق عدماً محضاً: العالم العلوي والسفلي وما فيهما من المخلوقات كما يزول الظل بالشمس، ثم يعيد هذا المعدوم ثانياً فيكون المعاد بعينه هو المفنى، فقالوا هذا القول الفاسد الذي مجرد تصوره يكفي في إبطاله، ونسبوا هذا القول الباطل للقرآن والسنة، وما في الكتاب والسنة مبطل له كما سيأتي التنبيه عليه، فلما نسبوه للإسلام ورأى الفلاسفة بطلانه ببديهة العقل، فظنوا بالإسلام الظنون السيئة، فتجرأ ابن سينا القرمطي وأتباعه ومن قال بقوله على الكفر العظيم والتكذيب بما جاء به الرسـول، فإن الأذهـان لا تقبل هـذا القول ولا تتصوره، بل تحيله وتراه من الممتنعات، فأوجب لهؤلاء الملاحدة التمسك بما هم عليه من الكفر وإنكار المعاد رأساً.

فهذا القول الذي قاله جهم في المعاد ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وإنما مذهب سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة، أن حقيقة المعاد هو إعادة الله ما تفرق من أجزاء الأموات ورد ما استحال منها من عين إلى إخرى فإنه جل جلاله لما كان واسـع العلم: يعلم ما تنقص الأرض منهم، ولا يخفى عليه ما تفرق في ظلمات الأرض وقرار البحار، ولا ما استحال في الفيافي والقفار والأماكن

الظاهرة والخفية، ولا ما أحالته بطون السباع والطيور والنار، وهو مع سعة علمه كامل القدرة نافذ المشيئة إنما أمره إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فإنه يعيد العالمين بجميع ما تفرق منهم، ورد ما استحال، فيعودون بأعيانهم، ولا يمتنع على قدرته ردهم وإعادتهم من عين إلى أخرى، وقد أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يبين لهم أنه الحق فأشهدهم من أعمال الكهرباء والمخترعات الحادثة ما يدلهم أكبر دلالة على إمكان وقوع جميع ما أخبر الله به وأخبرت به رسله من أمور الغيب والبعث والجزاء وغيرها، فالذي أقدر المخلوق على هذه الأعمال الباهرة ألا يدل أنه على كل شيء قدير وأنه لا يمتنع ولا يتعاصى على قدرته شيء. فهذا القول الذي دلت عليه الكتب المنزلة وجاءت به الرسل هو الذي تقبله الأذهان وتعترف به العقول وتخضع له الألباب، وأن المعادين بأعيانهم هم الذين أماتهم الله ثم نقلهم لأطوار متنوعة ثم أعادهم بأعيانهم. فإن الوحي صرح بأنه يغير الأكوان وينقلها من صفة إلى أخرى لا يفنيها فناء محضاً ثم يعيدها، فأخبر أنه يبدل السماوات والأرض وهذا تبديل لصفاتها ولذاتها كما يبدل الله جلود أهل النار إذا احترقت جلوداً غيرها، فإنها استحالت فحماً فيعيدها ويردها على حالتها الأولى وهكذا، وإخباره أنه يقبض السماوات والأرض بيده وهما المعروفتان، لأنهما لو كانتا فانيتين لم يتصور أن يخبر أنه يقبضهما، بل يخبر أنه يقبض غيرهما.

وكذلك أخبر أن الأرض يومئذ تحدّث أخبارها وتشهد بما عمل عليها من خير وشر، فلو كانت غيرها من كل وجه لم يكن الخبر على حقيقته، وكان الذي يتحدث ويشهد غيرها، وإنما الله يسويها ويبسطها ويبدل صفتها ويكون لها في ذلك اليوم أحوال متنوعة وصفات متعددة، وكذلك السماوات يحصل لها تغير في الصفات فتكون الجبال كثيباً مهيلاً، ثم تكون كالعهن وكالهباء المبثوث، ويمد الله الأرض فيجعلها قاعاً صفصفاً مستوياً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة كالأسطوان العظيم

لا يستطيع أحد أن يأخذ منه، كل مشغول بنفسه، وكذلك تسجر البحار فتكون بحراً واحداً وكذلك يأذن الله للشمس والقمر فيجتمعان، فالشمس مكورة والقمر خاسف ويطرحان في النار ليعلم من عبدهما أنهم كانوا كاذبين وأنهما من جملة المخلوقات المسخرات المدبَّرات لا المدبِّرات، وتنشق السماء فتكون وردة كالدهان تتلون من عظم ذلك الهول، وتمور موراً فتنتثر كواكبها، وكل ما ذكر الله من هذه الأوصاف هو تغير لصفاتها لا لذاتها خلاف ما يقوله جهم وأصحابه.

ومما يدل على بطلان قول جهم أن جميع العالم العلوي والسفلي عنده يفني فناء محضاً يدل على بطلانه أنه قد دلت الأدلة الشرعية أن العرش والكرسي والجنة وما فيها من الولدان والحور كل ذلك مخلوق للبقاء لا يفنى ولا يبيد، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة، إلا الجهمية فإنهم زعموا أن الجنة والنار لم تخلقا، وأنهما لا تخلقان إلا يوم القيامة، ثم بعد ذلك يفنيان عنده كما تقدم، وهذا من أبطل الباطل. ومما يدل أيضاً على فساد قولهم أنه ثبت أن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء وأجسامهم، وأن عجب الذنب من كل أحد لا يبلى كما يبلى الجسد بل يبقى، منه يركب الله خلقة الإنسان، فلو كان الفناء يعم الأشياء كلها لاضمحلت أجساد الأنبياء وعجب الظهر من الإنسان. ومما يدل على ذلك ما تواترت به النصوص من بقاء الأرواح بعد الموت في البرزخ منعمة أو معذبة إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله بعث العباد وإخراجهم من القبور أمطر على الأرض أربعين يوماً مطراً عظيماً غليظاً كمني الرجال لا يكن منه بيت مدر ولا بيت شعر، فينبت الخلق من ذلك كنبات الطراثيث، فإذا تكاملت الأجساد نفخت الأرواح فدخلت في الصور، فهذا هو المعاد الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهذه هي النشأة الأخرى، وهذا الذي تتصوره العقول والأذهان: لم يقل الله ورسوله إن الله يعدم خلقه عدماً محضاً كما قالته الجهمية. ولما كان هذا هو القول الذي لا شك فيه وعليه سلف الأمة وأئمتها، وكانت أدلته وبراهينه النقل المؤيد بالعقل، لم يكن

ملحداً ولا زنديقاً أن يقاوم هذا القول أو يورد عليه إشكالاً يمنعه، وتمكن أهل السنة من كسر الفلاسفة الملاحدة، والحمد لله رب العالمين.

## فصــل

ومن أقوال الجهمية الباطلة نفي أفعال العبيد كما نفوا أفعال الله في قولهم إن أفعال الله لا تقوم به، والفعل عندهم عين المفعول، كذلك قالوا إن العبد مجبور على أفعاله طاعاتها ومعاصيها، وأنها واقعة بغير اختياره، وأن الله كلفهم ما لا يطيقون، فالعبد عندهم كالنعامة التي قد كلفت بالطيران لما لها من الأجنحة ومشابهة الطيور، وبالجمل لما لها من كبر الجسم، وهي لا قدرة لها على واحد منها، فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان: أحدهما أن تنفى عن العباد قدرتهم على أفعالهم، ثانياً أن ينفى صدورها منهم، فيقال على قولهم: لم يقدروا على الإسلام والإيمان ولا الصلاة والصيام ونحوها، وإذا فعلوها يصح أن يقال: لم تصدر منهم، وإنما يقال ذلك على وجه المجاز لا الحقيقة، ولا فرق عندهم أن يوصفوا بهـذه الأفعال أو يـوصفوا بالبياض والسواد وبقية الألوان، لأن الجميـع قامت بهم، فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه. فإذا جمعت مقالات جهم المذكورة وهي نفي صفات الله، ونفي أفعاله، ونفي خلته ومحبته، ونفي كلامه وتكلمه، ونفي أفعال العبيد، لزم من ذلك بطلان الخلق والأمر والـوحي والشرع والتكاليف، فإذا ضممت ذلك إلى قول غلاتهم بنفيهم لأسماء الله الحسنى عرفت أن هذا القول مفض إلى تعطيل رب العالمين وجحده، ولكنهم موهوا قولهم وزخرفوه، وحسنوا له العبارات، وهولوا مخالفتها، وضموا إلى ذلك القدح في مذهب السلف وتسميته بأسماء قبيحة، فتولد من ذلك قبول الناس له وافتتانهم به كما افتتن بنو إسرائيل بعبادة العجل المصوغ المزخرف، فافتتنوا بصورته وشارته كما افتتن هؤلاء بتحسين القول وزخرفة عبارته، فأخذت

طوائف البدع من أقوال جهم بحسب بعدهم عن مذهب السلف: فطائفة أثبتت الأسماء ونفت الصفات وهم جمهور الجهمية والمعتزلة، وطائفة غلت فنفت الأسماء الحسنى، وطائفة وافقت الجهمية بنفي الأفعال الاختيارية ووافقوا السلف في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهم الأشعرية والماتريدية، وطائفة أخذت بقوله إن العباد مجبورون على أفعالهم وهم الملقبون بالجبرية. وطائفة وافقته في أن القرآن الموجود المحفوظ في الصدور المكتوب في المصاحف مخلوق، والمعنى القديم النفسي غير مخلوق، كالكلابية والأشعرية.

ونجَّى الله أهل السنة والجماعة من جميع أقواله الباطلة فأثبتوا جميع أسماء الله الحسنى وما دلت عليه من الصفات العليا لا فرق بين الصفات الذاتية المتعلقة بذاته التي لا ينفك عنها كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولا بين صفات الأفعال القائمة بذاته المتصف بها المتعلقة بمشيئته وقدرته، وأثبتوا محبته وخلته لأوليائه وأصفيائه وكلامه وتكليمه حقيقة، وكذلك قالوا إن الإيمان هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعات وينقص بالمخالفات، وأن العباد هم الفاعلون لأفعالهم حقيقة، ليسوا مجبورين عليها بل هم مختارون لها واقعة بقدرتهم ومشيئتهم، وإن كانت مندرجة بقضاء الله وقدره، فإنه قد أرادها منهم خلقاً وتقديراً، وهم فعلوها حقيقة ومباشرة، لم يقهروا عليها، ولهذا وصفوا بما عملوه من خير وشر، وثبت بقولهم الوحي والشرع والقدر، وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله من غير رد لشيء من ذلك.

## فصـــل
### في مقدمة نافعة قبل التحكيم

وذلك أن المؤلف رحمه الله جعل هذا الكتاب حكماً وحاكماً بين مذاهب الجهمية والمعطلين وبين مذاهب أهل السنة والجماعة المثبتين، والحاكم لا يمكنه أن يحكم بالعدل حتى يعلم العدل ويتخلق بالأخلاق الجميلة ويتخلّى عن الأخلاق الرذيلة، فأعظم الأخلاق الجميلة الواجبة خصوصاً في هذا المقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون هذا الأمر هو قاعدة العبد واخيته التي يرجع إليها ويرد ما تنازع فيه المتنازعون إليه، فما وافقه فهو الحق المقبول وما ناقضه فهو الباطل المردود وما لا يعلم موافقته ولا مناقضته وقف فيه حتى يتبين أمره، فإذا بنى العبد أقواله وعلومه ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح وأنجح وكان على ثقة من أمره ويقين من براهينه، ولكن لا يصلح هذا ولا يتم إلا لمن كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وأما الجاهل فما يفسده أكثر مما يصلحه فعليه أن يتعلم ليتكلم، فالجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، والجاهل البسيط هو الذي لا يدري ويدري أنه لا يدري، كلاهما إذا تكلم كان مع تحريم كلامه ضرره أكثر من نفعه سواء انتسب إلى الحق أو إلى الباطل.

فإذا وفق العبد للعلم ورزق خشية لله وإنصافاً بأن يكون مراده الحق فيقبل الحق مع من كان وأين كان فهذا موفق محمود، فإذا رزق مع ذلك الإخلاص والمتابعة بأن تقع أقواله وأفعاله وجميع حركاته وسكناته خالصة لوجه الله مراداً بها رضاه وطلب ثوابه وكان في ذلك دائراً مع سنة نبيه ﷺ فقد كمل أمره، وحينئذ لا يبالي بكثرة المعارضين. وكلما كثر خصومه ازدادت شجاعته لعلمه وخشيته وإخلاصه ومتابعته ومعرفته أن ما معه من الحق لا تثبت له الجبال الرواسي، فإن أهل الحق لا يقاتلون بكثرة عدد ولا قوة عدد مادية وإنما قوتهم ومدارهم على القوة الحقيقية المعنوية قوة الإيمان وقوة الحق

وما يقتضيه من المقويات المعنوية وما يتبعها من القوة المادية، وبهذا فتح الصحابة وقرون الأمة المفضلة القلوب بالعلم والإيمان، واحتلوا بهذه القوة وبالعدل والرحمة الأقطار، لأنهم جمعوا أصناف الشجاعة لاعتمادهم على الحق وزهدهم في النفوس وتمام ذلك زهدهم في الثناء الباطل، فإن هذه الأمور متى اجتمعت تمت الشجاعة ومتى فقد واحد منها أو كلها نقصت أو فقدت، فمن لم يعتمد على حق بل ينصر الباطل فما أسرع ما يخالطه الجبن والخيالات المتولدة من الباطل، ومن لم يزهد بنفسه بل حببت إليه ولم يهن عليه إقدامها في الحق المشق على النفوس أو كان يخشى لوم اللائمين أو يقف عند مدح المادحين أو يعرقل مساعيه ذم الذامين فهذه كلها علل توقف سير القوة وتمنع الشجاعة، فالحق الذي لا يبالي بالمشاق ولا يقف إلا عند مدح الله ورسوله وذمهما هو القوي الشجاع.

ولا بد أن يبتلى إذا وصل إلى هذه الحال بالمعرضين والمعارضين له الرادين لما قاله، فإذا تيقن أنه على الحق وما مع المعارضين باطل ما بين بدعة أو فرية أو رأي مخالف للشرع أو شبه وتشكيكات يشككون فيها الخلق أوجب له أن يصدع بالحق ولا يخشى إلا الله. ولكنه في هذه الحال يحتاج إلى صبر جميل وصفح جميل، والجميل من ذلك ضد القبيح، فهو الخالص لوجه الله، الموافق لمرضاة الله، الخالي من هوى النفس وحمية الشيطان، ومن التسخط والشكاية إلى المخلوقين، بل إذا اشتكى فإلى رب العالمين، ويستعمل الهجر في محله لأهل البدع والانحراف والمعاصي، حيث كان فيه مصلحة ونصر للحق وتخفيف للباطل والشر، وعليه أن يحمد الله على الهداية إلى الحق ويرحم الخلق، فإنه إذا نظر إلى أقدار الله إذ خذلهم وولاهم ما تولوا لأنفسهم من الباطل والغي، وأبقاهم في ضلالهم يعمهون، رحمهم ودعا لهم وجد وحرص على السعي في هدايتهم بحسب إمكانه، ثم إذا نظر إليهم بعين الشرع والأمر أقام عليهم ما أمر به الشارع من العقوبات، وحملهم عليه وعلى

التزام أحكامه، وهو مع ذلك خائف مشفق على إيمانه، فإن الله مقلب القلوب، فما استبقيت نعم الله بمثل حمده والثناء عليه، والخوف والحذر من زوالها، والسعي في الأسباب الجالبة لها، والبعد عن المخالفات والبطر والبغي الذي يزيلها، والإكثار من الاستعاذة بالله من شر النفس وسيء الأعمال، وعليه أن يوطن نفسه على الخضوع للحق والانقياد له مع من قاله. وسرعة الرجوع عن الباطل الذي قاله مخطئاً، وأن لا يعجب بنفسه وعمله، ويجعل الرياسة والتمكن من قلوب الناس مانعاً له من قبول الحق.

فإذا جمع الله للعبد هذه الأمور التي وصى بها المؤلف في هذه المقدمة، ووثق بربه وتوكل عليه، وعلم أن الله لا بد أن ينصر الحق ومن اتبعه، نشطت نفسه وقويت همته وحصل على الفلاح والنجاح. والله أعلم.

## فصــل

### وهذا أول عقد مجلس التحكيم

ذكر المصنف رحمه الله في هذه الفصول أقوال أهل البدع من الجهمية وغيرهم، ثم قول أهل العلم والإيمان بطريقة التمثيل والتصوير، ليكون أوضح لمعرفتها، وأكمل لتصورها على ما هي عليه. فهذه الطريقة من طرق التعليم العالي، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المهمة، وكذلك النبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال، فضرب المؤلف لهذه المذاهب مثلاً بركب اتفقت مقاصدهم أولا حين شرعوا في سفرهم، يظهر من قصد جميعهم أنهم لا يطلبون أولاً حين فسلكوا طريقاً واحداً في مبتدأ سيرهم، فلما جد بهم السير وصلوا إلى مفرق الطرقات وتعدد السبل المفضية إلى مقاصدها ومواردها، فحينئذ افترقوا، فكل من هؤلاء الركب سلك طريقاً غير طريق الطائفة الأخرى.

ثم رجعوا من سفرهم آيبين وعرضوا تجارتهم وما حصلوه في سفرهم

وثمرات سعيهم على العالم العادل ليحكم بينهم بالحكم الموافق للنقل والعقل والفطرة وأنواع الأدلة، فذكر مذهب الاتحادية كابن عربي الطائي صاحب «الفصوص...» وغيرها من المصنفات المشحونة بالتعطيل والاتحاد، وكابن سبعين والعفيف التلمساني ونحوهم ممن يجمعهم هذا المذهب الخبيث، وهو أن الوجود عندهم شيء واحد، فما ثم خالق ومخلوق ولا رب ولا مربوب، بل الجميع عندهم شيء واحد، ويزعمون أن تكثر الموجودات إنما ذلك وهم وغلط، فهم يطلقون عباراتهم الإلحادية فيقولون:

إن تعدد الموجودات مظاهر للتجليات؛ فيتجلى عندهم الحق في أصناف الموجودات، فهو فقير إليها لأجل ظهوره وتجليه فيها، وهي فقيرة إليه لكونه هو ذاتها وهي صفاته، فتارة يلبس الموجودات وهو إيجادها، وتارة يخلعها وهو إعدامها، فالموجودات عندهم قد لبسها، والمعدومات قد خلعها، بحسب المظاهر والتجليات. ويشبهون تكثر الموجودات بتكثر أعضاء الحيوانات، فهو حيوان واحد وأعضاؤه متنوعة، فكذلك الخالق عندهم واحد بالعين والموجودات من السماوات والأرض وما فيها صفات له وأعضاء. وقد يشبهونه أيضاً بالقوى النفسية: نفس واحدة تحمل قوى متنوعة، فيكون على قولهم كلًّا وأجزاؤه الموجودات، أو كلياً وجزئياته هذا الوجود. فهذان قولان لهذه الطوائف الملحدة.

ولم يرتض التلمساني هذين القولين وقال: هذا غلط، والصواب عنده أن الجميع شيء واحد ليس فيه تقسيم ولا تجزئة ولا تعدد، فالآكل والمأكول شيء واحد، والواطىء والموطوء شيء واحد. وقالت طائفة رابعة منهم: كل هذا غلط، وإنما الموجودات مظاهر للذات الواحدة بالعين.

ومضمون كلام طوائفهم الخبيثة أن وجود الباري تعالى خيال في الأذهان، لا وجود له في الخارج، وليس لوجوده حقيقة. وهذا هو التعطيل المحض. فقول هذه الطائفة مجرد تصوُّرِهِ كافٍ في إبطاله، فلم يصونوه عن

المحال التي يرغب عن ذكرها. فهذا مضمون توحيدهم وعقيدتهم، فالكفار عندهم لا يذمون إلا على تخصيصهم لبعض المعبودات، وإلا فلو عبدوا الوجود جميعه لكانوا عند هؤلاء مهتدين. وعندهم أن تغريق فرعون في البحر تطهير له من الوهم والحسبان الذي ظن أنه ربهم الأعلى بسبب رياسته. وزعموا أن موسى عليه السلام لما أنكر على أهل العجل حين عبدوه لم ينكر على من عبده منهم، إنما أنكر على من لم يعبده. ولذلك جر بلحية أخيه هرون ورأسه حين أنكر عليهم. وفي هذا القول من المكابرة وقلب الحقائق وجحد الضروريات ما لا يخفي على أحد، إلا على ملبوس عليه.

وتنتهي بهم الحال إلى أنهم يتظاهرون بالسجود لكل شيء حتى أن بعض أكابرهم رأى إبليس فسجد له، فأنكر عليه فقال: ما سجدت إلا لله، فاسجدوا لأي موجود شئتم من شمس أو قمر أو أصنام أو غيرها فليس ثم غير الله، لأن الجميع شيء واحد. هذا المحقق منهم فسبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فلقد تجرأوا على الله وقالوا مقالة لم يرتضها اليهود والنصارى وغيرهم من الملل، وحقيقة الأمر أن كفر المشركين وكل كافر جزء من أجزاء كفر هذه الطائفة الملعونة، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لأمرين: انتسابهم إلى التأله والتعبد والتصوف والزهد، وكثرة الرموز والإشارات الشبيهة بالألغاز. وإلا فمن في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان لو عرف حقيقة مذهبهم لرجمهم بالحجارة. نسأل الله العافية، ونحمده على نعمه الظاهرة والباطنة.

## فصـــل
### في قدومَ ركْب آخر

وهذا الوصف الذي ذكره المصنف ينطبق على مذهب الجهمية الأولين الذين حقيقة مذهبهم يزعمون أن الله في كل مكان، وأنه حال في الأمكنة حلول الروح في الجسد. وهؤلاء الذين ناظرهم الإمام أحمد وغيره، فهؤلاء لم يصونوه عن الأمكنة الطيبة والخبيثة، وهؤلاء غير الجهمية الذين ذكرهم بقوله:

## فصـــل
### في قدوم رَكْب آخر

وهؤلاء هم الجهمية الصرف الذين نفوا علو الله على خلقه، ونفوا جميع صفاته كما تقدم بيان مذهبهم. فنفوا ما تواترت به الآيات القرآنية والنصوص النبوية، من علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، فراراً بزعمهم من تشبيهه بالمعدومات، ولذلك قال بعض الفضلاء: لو قيل: صفوا لنا العدم لم نصفه بأبلغ من قول الجهمية في الله أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ثم من الغرائب استدلال بعض من يشار إليه منهم بقوله ﷺ (لا تفضلوني على يونس بن متى) يقول هذا الفاضل منهم: إن محمداً عرج به إلى فوق السماوات السبع ويونس ابتلعه الحوت في قرار البحر وكلاهما في قربه من ربه سواء، فهذا يدل على نفي العلو. فانظر إلى هذا التعصب العظيم الذي أداه إلى هذا التحريف لهذا الحديث الذي لم يقله أحد ممن ينتسب للعلم. وهذه حال الذين يتبعون المتشابه، مع أن هذا الحديث واضح ليس بمتشابه، ويدعون النصوص الكثيرة المحكمة المصرحة بعلوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه. فاحمد الله أيها السني على العافية من هذا البلاء، وسله الثبات في الأمر.

# فصــل
## في قدوم رَكْب آخر

وهؤلاء طائفة من أذكياء الفلاسفة مضمون مذاهبهم وخلاصتها أنهم لما رأوا مذاهب الجهمية والمتكلمين متناقضة متضاربة: ينفون الشيء ويثبتون نظيره وما هو أولى منه. ويقطعون بالشيء في موضع وبضده في موضع آخر. ورأوها مناقضة للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح. ورأوا مذاهب أهل السنة والجماعة محكمة متناسبة دائرة مع ما جاء به الكتاب والسنة، فعرفوا بذكائهم وحرية فكرهم أن القول الحق هو قول أهل السنة والجماعة وما سواه فمعروف بطلانه ببداهة العقول، ولكن حال بينهم وبين اتباع هذا القول تنفير الناس عنه وتلقيبهم لأهله بأنهم مجسمة مشبهة حشوية ونحوها من الألقاب الشنيعة التي ينفر من أهلها أكثر الناس ويهابونها، فلم يكن عندهم من القوة والبصيرة التامة ما يوجب لهم اتباعهم ومخالفة الجمهور، وهم قد عرفوا بطلان مذهب الجهمية ونحوهم، فانحلوا بذلك من الشرائع كلها وصرحوا بمذاهب ملاحدة الفلاسفة وقالوا صريحاً: إذا لم نتبع المجسمة ـ يعنون أهل السنة المثبتين لما جاء به الرسول من الصفات ـ فلا نرضى لأنفسنا بمذهب الجهمية وأهل الكلام المتناقضين، فانظر كيف صارت بدعة التجهم من أعظم الأسباب لتمسك الملحدين في إلحادهم، لظنهم أن ما عليه أهل الكلام هو ما جاء به الرسول، فأساءوا الظن بالشريعة، وصار مع ذلك هؤلاء المبتدعون يخضعون للفلاسفة في بحوثهم ومناظراتهم معهم، لأنهم وافقوهم في كثير من أصولهم الفاسدة، وإلا فلو قابل هؤلاء الفلاسفة أهل السنة والجماعة الذين سلاحهم ما جاء به الكتاب والسنة وما دلت عليه صرائح العقول لم يثبتوا لهم بوجه من الوجوه، ولقامت الحجة عليهم واهتدى من كان قصده الهدى، لأن المناظرة بالحق وبطرقه الحقيقية هو السبب الوحيد للرشاد والإرشاد.

# فصـــل
## في قدوم رَكْب الإيمان وعسكر القرآن

ذكر المصنف أن هذا الركب لما قدموا من سفرهم، وعرضوا بضاعتهم وتجارتهم فأخبروا أن مذهبهم مبني على الحق والصدق واليقين، مؤسس على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان من القرون المفضلة، ومـع ذلك فهو الحق الذي يؤيده العقل الصريـح ويعترف به أولو الألباب، والعقول الوافية لما كانت مبنية على هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم، لم يتفرع عنها إلا كل خير مُزَكٍّ للنفوس مصلـح للعقـائد منمّ للأخلاق الفاضلة مكمل للأعمال الصالحة، وهاك تفصيل عقيدتهم:

فإنهم يشهدون أن لا إلَهَ إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الله متفرد بالخلق والملك والسلطان والتدبير، فليس له في ذلك شريك ولا عوين، وأنه الإلَه الحق الذي لا معبود سواه، وأن كل من عبد من دونه من ملك مقرب أو نبـي مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك، ويقومون بعبودية ربهم بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقـوال الظاهـرة والباطنـة، يخلصونها لله، ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذل الكامل، فإن عبادة الله مبنيـة على هذين الأصلين:

الإخلاص والمتابعة الناشئين عن محبة الله وتعظيمـه. فعبوديـة الله الظاهرة والباطنة تدور على هذا، ولا نجاة ولا فلاح إلا بذلك.

ويرون أعظم التقربات إلى الله الجد في إحسان الأعمال وإكمالها وإيقاعها على أكمل الوجوه، مـع استحضار مقام المراقبة لله وقت تلبس العبد بها، فيجتهدون في اتقان العمل وتنقيته من جميـع المنقصات، ويعلمون أن هذا مراد الله من عباده كما قال تعالى:

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]

ويُقِرُّون ويعتقدون بجميـع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته

وأفعاله، ويقولون إنه عليّ على خلقه، مستو على عرشه، يدبر أمر العباد ويراهم ويسمعهم ويشاهد حركاتهم وسكناتهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى خائنة الأعين ويعلم ما تخفي الصدور، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين. وهو العليم الذي أحاط بكل شيء علماً فيعلم ما توسوس به الصدور، والخفيات والجليات من الأمور، وما فوق السماوات السبع وتحت الأرضين السبع، والقريب والبعيد عنده سواء.

ويعلم العالم العلوي والسفلي وما احتوت عليه من أصناف المخلوقات

**﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلَمُها إلّا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقُطُ من ورقةٍ إلّا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبين﴾** [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو القدير على كل شيء، فجميع الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيئته، لا تستعصي عليه ولا تمتنع منه.

قالوا: وهذا العموم يتناول كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، فيدخل في ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي فإنها داخلة تحت قدرة الله ومشيئته، وكما أنه المريد لها القادر عليها فإنهم هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم، كما جمع الله بين هذين الأصلين في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى:

**﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾** [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

لكن الجبرية والقدرية لم يوفقوا للجمع بين إثبات القدر والقضاء وبين إثبات أفعال العباد، فالجبرية تقدم مذهبهم أنهم يثبتون القدر وعمومه ويعتقدون أنهم

مجبورون مقهورون على أفعالهم وقابلهم القدرية النفاة فزعموا أن قدرة الله لا تتناول أفعال العباد. وكل من الطائفتين نظرت نظراً قاصراً، فلم يؤمنوا بالكتاب كله الدال على إثبات عموم قضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن الأفعال واقعة من العباد بقدرتهم ومشيئتهم، فلو وفقوا لذلك كما وفق له أهل السنة والجماعة لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله «القدر هو قدرة الله» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد وقال: إنه شفى بهذه الكلمة ووفى، فإن هذه الحقيقة هي التي افترق الناس فيها كما تقدم التفصيل.

والحاصل أن أهل السنة أثبتوا عموم قدرة الله وتمام حكمته وشرعه وقدره، ويعتقدون أنه الحي القيوم، فالحي له صفات الحياة كلها من السمع والبصر والعلم والقدرة وغير ذلك من المعاني العظيمة والنعوت الكاملة التي لا تتم الحياة الكاملة بدونها، وإثباتها لله على أكمل الوجوه، فلا يعرض لها ما يضادها من الموت والنوم والسِّنَة والعجز والنقص بوجه من الوجوه. والقيوم الذي له العظمة كلها، الذي قام بنفسه وقام به كل شيء. الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. وكل الصفات الفعلية والمجد والعظمة والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين. ولذلك ورد الحديث أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى

﴿الله لا إلَه إلاّ هو الحيُّ القيوم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

لاشتمالهما على جميع الكمالات. فصفات الذات ترجع إلى (الحي) ومعاني الأفعال ترجع إلى (القيوم). ويعتقدون أن له الإرادة النافذة في جميع الموجودات، وبها خصص ما شاء من المخلوقات بالصفات المتباينة والنعوت المتنوعة، وأنه يحب الصالحين من عباده، المتقين المحسنين. ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الكفر والفسوق وأهلهما، وأن إرادته ومشيئه غير كراهته ومحبته، فالإرادة عامة لكل ما وجد من محبوب ومكروه، والمحبة والكراهة خاصتان كما تقدم، وأن له الرحمة الواسعة والإحسان العظيم الذي ملأ

جميع المخلوقات، فهو الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، وله الكمال المطلق التام الذي لا يعتريه نقص ولا يشابهه ولا يماثله أو يقاربه في كماله أحد، فإنه الكامل الذي ليس كمثله شيء في كماله وتفرّده به. ومن الأدلة العقلية على كماله أنه تعالى خلق أجناس المخلوقات وأودعها ما اقتضته حكمته وحمده من الكمال اللائق بها، ومن أعطى الكمال فهو أحق بالكمال من المعطى، وهذا بخلاف اللوازم البشرية اللازمة لنقص البشر التي لا ينفك الإنسان عنها، كالنوم والأكل والشرب والجماع والحاجات ونحوها من لوازم المخلوق المحدث، فإن الله يتقدس عنها ويتنزه عن جميع خصائص البشر.

ومن قول أهل السنة والجماعة قولهم في الكلام وإن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، فإن الكلام من صفات الكمال، والله تعالى لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق فكلامه القرآن هو المقروء بالألسنة المحفوظ في الصدور المسموع بالآذان، وكلامه من جملة صفاته الفعلية، فهو متصف به، وهو متعلق بمشيئته وقدرته، وليس مخلوقاً لأن الكلام صفة المتكلم:

**﴿وتَمَّتْ كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾** [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في أخبارها وعدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها، وكلماته لا تنفد ولا تبيد:

**﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلمات الله﴾** [سورة لقمان: الآية ٢٧]

وهذا الوصف لا يكون للمخلوق، والنبي ﷺ قد استعاذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وهذا يدل على أنه من صفاته، لأن كل مخلوق ينفد ويبيد، والمخلوق لا يستعاذ به وإنما يستعاذ بالله وأسمائه وصفاته، والقرآن كلام الله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه، وأما أفعال العباد كأصواتهم ومدادهم الذي به يكتبون القرآن والرق الذي يكتبون عليه فإن ذلك من جملة المخلوق، ولذلك يقولون الكلام كلام الباريء والصوت صوت

القارىء والمداد مداد الكاتب والكتابة فعل الكاتب، هذا كله إذا أخبر عن كلام الله الذي يكون بهذه الوسائط، فأما إذا سمع من الله تعالى كما سمعه موسى بن عمران فإن المخلوق في هذه الحال هو سمع العبد، وأما الكلام وصوت المتكلم به فإنه من نعوت الله وصفاته، وهذا الفرق ثابت عن الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة، واتفق على ذلك أصحابهم وأتباعهم، وخالفهم في هذا طائفتان من الناس إحداهما الجهمية كما تقدم قولهم إن القرآن مخلوق أالفاظه ومعانيه، والثانية الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية القائلين بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعان: فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة في النفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، أن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلاً. وهذا القول تصوّره كاف بمعرفة بطلانه، وليس لهم دليل ولا شبهة على هذا القول الذي لم يقله أحد غيرهم إلا استدلالهم ببيت يقال إنه للأخطل النصراني وهو قوله إن ثبت وإلا فكثير من النحويين ينكرون أنه له:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا البيت معروف معناه، وأن الكلام يخرج من القلب ويعبر عنه اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط فهذا يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما؛ وهَبْ أنه دل على القول الذي قالوه فكيف يتركون لأجله أدلة الكتاب والسنة، والذي يعقله العقلاء بعقولهم أن الكلام صفة للمتكلم، وأنه الكلام المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمى كلاماً بوجه من الوجوه، وأيضاً فإن النصارى غلطهم في الأصول والفروع معروف فإنهم غلطوا في معنى الإلّه أظهر الأشياء وأجلاها حيث قالوا في وصف المسيح أقوالاً عظيمة وافتراء كبيراً فزعموا أن في عيسى وصفين متباينين كل المباينة: وصف الإلّهية وهي المعبر عنها عندهم باللاهوت ووصف الإنسانية وهي المعبر عنها عندهم

بالناسوت، فهو عندهم قديم محدث بما فيه من هذين الوصفين. وقول الكلابية من هذا الجنس أن القرآن شطره قديم وهو المعنى النفسي وشطره محدث وهو هذا الموجود في المصحف، فهو عندهم عبارة أو حكاية عن كلام الله، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول وبين بطلانه في رسالته التسعينية، فبين تسعين وجهاً كل واحد منها يدل على بطلانه أدلة نقلية وأدلة عقلية، وبعض هؤلاء الكلابية والأشعرية قالوا إنه خمسة معان: الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي، والإخبار بكل خبر والاستفهام عن المعاني، ومجموع هذه وهو المعنى الخامس. فتكون هذه أنواعاً للكلام، وعلى قول الأولين تكون أوصافاً له، ولكن اتفقت الطائفتان أن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته مخلوق كقول المعتزلة سواء، فمنهم من قال خلقه في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال إن جبريل ألهمه إلهاماً، ومنهم من قال بل محمد، وهذا القول كما قال من اعترف منهم أنه لا فرق بينه وبين قول المعتزلة إلا في اللفظ، وإلا فهو معنى قولهم، وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق، نزل به جبريل من عند الله وسمعه من الله، فنزل به على محمد ﷺ، فهو كلام الله حقاً حيث تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون، وهو المعجز بلفظه ومعناه.

## فصـــل
## في مجامع طُرُقِ أهل الأرض واختلافهم في القرآن

استوعب المصنف أقوال أهل الأرض في هذه المسئلة، وذكر أصلاً جامعاً تنبني عليه أقوالهم في القرآن، وأن أقوال الناس في القرآن سبعة أقوال تدور على أصلين أحدهما هل قوله متعلق بقدرته ومشيئته أم لا. الثاني هل قوله وكلامه قائم بذاته ومتصف به أم هو خارج عن الذات ومنفصل عنه. فعن هذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن، فالقائلون إنه لا يتعلق بمشيئته وإرادته طائفتان: إحداهما الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية كما تقدم قولهم قريباً، وأنه معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأن الموجود عبارة أو حكاية عنه كما تقدم، فالحكاية قول أبـي سعيد بن كلاب الذي تنسب إليه الكلابية، والعبارة قول أبـي الحسن الأشعري وبعض أصحاب هؤلاء يقولون هذا الخلاف لفظي لا طائل تحته.

والطائفة الأخرى من القائلين إنه لا يتعلق بمشيئته قالوا إن ألفاظه ومعانيه قديمة قائمة بالنفس لا تقبل الحدوث، والحروف كلها قديمة ما زالت موجودة في الأزل والقدم. فلما قيل لهم هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن حروف الكلام طبعاً لا بد أن يسبق بعضها بعضاً، قالوا إنما ترتيبها بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي ما زالت متصاحبة مقترنة. ولا شك أن هذا القول إلى التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان، وهذا المذهب قول طائفة يقال لهم الاقترانية نسبة لهذا القول الذي انفردوا به، وهو مخالف لأصل الأئمة وموافق لبعض قول الكلابية. وذكر المصنف أن ابن الزاغوني من هذه الطائفة فرق بين ذوات هذه الحروف وبين حروفها، وزعم أنها مقترنة بذواتها مترتبة بوجودها، وهذا التفريق باطل، فإن ذات الشيء وحقيقته وماهيته شيء واحد، ولا فرق بين هذه الحقائق سواء قدّرت في الأعيان أو في الأذهان، ولكن إذا اختلف التقدير أمكن افتراق التعبير، فإذا قيل الحقائق الخارجية غير

الوجودات الذهنية فهذا صحيح، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده المتكلمون كالرازي وغيره وهو هل وجود الباري غير ذاته أوغير حقيقته أم لا، وأن الواجب أن يقال إذا اتحدت الاعتبارات فهما شيء واحد وإذا اختلفت العبارات اختلفت وفُرّق بين الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي والوجود الخارجي، فهذا غير هذا وهذا غير هذا. والله أعلم.

## فصل

وأما القائلون بأن القرآن متعلق بمشيئة الله وقدرته فهم أيضاً طائفتان: إحداهما الجهمية المعتزلة القائلون بأن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق السموات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول، فلما قال الناس لهم هذا أمر معلوم بطلانه، فإن الكلام صفة المتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة صفة إلى موصوفها، فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله وبيت الله وعبد الله، فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه، فقالوا إن الإضافة نوعان: أحدهما ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله وناقة الله ونحوهما فهذه الإضافة لبعض مخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بما امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة، والثاني إضافة معانٍ وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه، فهذه الإضافة من باب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات.

وهذا القول الذي ذكره في هذا الفصل مقالة الجهمية ومتأخري المعتزلة، وأما متقدمو المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأصحابهم الذين اعتزلوا عن مجلس الحسن البصري حين قرر مذهب الحق في الإيمان وأنه اسم جامع للعقائد والأقوال والأفعال، وأنه يزيد وينقص، وأن الفاسق الملي مؤمن ناقص الإيمان غير مخلد في النار، فلم يرتضوا هذا لأن مذهبهم شبيه بمذهب الخوارج من جهة المعنى لتخليدهم أهل الكبائر في

النار، ولكنهم يخالفونهم في اللفظ فيقولون: إن صاحب الكبيرة الذي لم يتب منها ليس بمؤمن ولا كافر بل هو منزلة بين منزلتين، ومع ذلك تناقضوا فخلدوه في النار. من ذلك الوقت سماهم الحسن البصري بالمعتزلة لهذا السبب؛ فهؤلاء قولهم في القرآن يوافق قول أهل السنة والجماعة أنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدىء وإليه يعود، وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام في أهل البدع، وانقسامهم إلى كافر وفاسق وضال ودون ذلك. والله أعلم.

الفرقة الثانية من القائلين إنه يتعلق بمشيئته وإرادته انقسموا إلى طائفتين: إحداهما الكرامية قالوا إن كلامه تعالى متعلق بمشيئته وقدرته، وصدقوا في هذا ولكن قالوا إنه حادث النوع، وأخطأوا خطأ كبيراً. والذي أوجب لهم هذا الخطأ الفاحش كونهم ظنوا أنهم إذا أثبتوا قدم النوع أن ذلك يوجب التسلسل الذي يفسد عليهم الطريق الذي أثبتوا به وجود الخالق، فلذلك قالوا إنه حادث النوع، وجعلوا أفعال الله وكلامه في هذا سواء كلها حادثة بعد أن لم تكن، ولكنها بعد ذلك لا تزال ولا تفنى ولا تبيد.

قالت الكرامية: ولم ينصف خصومنا من الكلابية والأشعرية حيث شنعوا علينا بهذا القول وأقاموا علينا القيامة بسببه، فلو فكروا في أنفسهم لعرفوا أن غلطهم أكبر منا وأشد جرماً، فإنهم قالوا: إن الفعل عين المفعول، فهل في تعطيل أفعال الله أعظم من هذا التعطيل، فإذا لم يقم بالله لا قول ولا فعل فهذان التعطيلان أبلغ من قولنا بحلول الحوادث حيث عبروا بهذا اللفظ البشع، وحقيقة الأمر أن الطائفتين منحرفتان، ولكن الكرامية أهون خطأ من الأشعرية ومن تبع الجهمية في هذا الأصل، ولم يبق على الكرامية إلا مرتبة لو قالوها واعتقدوها لهدوا إلى الرشد وهي موافقتهم لأهل السنة والجماعة كالإمام أحمد والبخاري وبقية الأئمة، وإنما نص المصنف على هذين الإمامين لأنهما ابتليا في هذه المسألة وأظهرا من السنة والتفاصيل فيها ما لم يكن لغيرهما، فلهذا عقد لمذهبهم فصلاً فقال:

## فصـــل

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما دل عليه الكتاب والسنة من الأصلين: أحدهما أن الله موصوف بالكلام وكلامه نعته ووصفه، والثاني أنه متعلق بمشيئته وقدرته فيتكلم إذا شاء كيف يشاء بما يشاء ولم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً، فالكلام من صفات الذات لقيامه بها واتصافه به فإنه كلامه، ومن صفات الأفعال الواقعة بمشيئته وقدرته، والله لم يزل كاملاً والكلام بلا ريب من صفات الكمال، فكيف يتصور أن يخلو في وقت من الأوقات من هذا الكمال ويعود ممكناً بعد أن كان ممتنعاً. ويقولون: إن تعاقب الكلمات ثابت لها لذواتها مثل ثبوت تعاقب الأزمنة، فكما أن كل زمان قبله زمان وقبل هذا الزمان زمان إلى غير غاية ونهاية والتسلسل فيها ثابت وهي من جملة الواقع بإرادة الله وقدرته فكذلك الكلام والأحرف مترتبة كل كلام قبله كلام وقبل ذلك كلام إلى غير نهاية وغاية، فترتبها في ذاتها كترتبها في سماعها، فإن هذا الوصف من لوازم الكلمات لا تكون إلا كذلك، خلاف ما يقوله الاقترانية فإن الاقتران غير معقول كما أن قول القائلين بأن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأعيان يقتضي عقلاً ولغة وعرفاً أن صفة الكلام قائمة بذلك المحل، وأن ذلك المحل هو الذي يتكلم، فهذا أيضاً محال في العقل كما أنه باطل في النقل فلا يعقل الكلام إلا لمن قام به وتكلم به حقيقة، كما أنه لا يكون حياً عالماً سامعاً مبصراً إلا لمن قامت به هذه الصفات فلو وصف المحل بحياة أو علم أو سمع أو بصر قائم بغيره لعلم الناس أن هذا محال ممتنع، وهكذا جميع الصفات.

والله تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وقد شهدت بذلك العقول الصحيحة والفطر السليمة والبراهين القواطع، وكلامه من جملة صفاته قائم بذاته، فلو لم يقم بذاته لم يكن في الحقيقة متكلماً، وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول والنداء

والنجاء، فالنداء الصوت الرفيع والنجاء الصوت الخفي، وهذه الأمور لا تعقل إلا لمن اتصف بها وقامت به وأسمعها غيره، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما وردت الآثار بهذه الأوصاف له وكما هو معروف بين الناس، وهو كله كلام الله منزل غير مخلوق والله أعلم.

## فصـــل
### في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا آنتفت صفةُ الكلام

هذا الفصل مشتمل على أمرين: أحدهما أن الرسالة والنبوّة من أكبر الأدلة على أن الله متكلم، لأن حقيقة رسالة الرسل صلى الله عليهم وسلم تبليغ كلام الله للخلق: أخباره وأوامره ونواهيه وتوابع ذلك، فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت صفة الكلام، ومن نفيها نفي الكلام. وهذا هو الأمر الثاني وهو إلزام أهل الكلام الباطل الذين نفوا كلام الله وزعموا أنه مخلوق أو أنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، يلزم من هذا القول نفي الرسالة. ومن المعلوم أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وفساد القول بنفي الرسالة أمر معلوم، وأنه جحد للرسل والكتب والشرائع. ويوضح هذا أن الرسالة هي خطابه للرسل إما بغير واسطة كخطابه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ومحمد وجبريل وغيرهم ممن كلمه الله، وإما بواسطة وهو أيضاً نوعان: إما يوحى إلى الرسول ويلقى الوحي إليه وفي قلبه، وإما يرسل إليهم الملك كما ذكر الله ذلك بقوله:

**﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسِلَ رسولاً فيوحِيَ بإذنه ما يشاء﴾** [سورة الشورى: الآية ٥١]

## فصـــل

### في إلزامهم التشبيه للربّ بالجماد الناقص
### إذا آنتفت صفة الكلام

وهذا الإلزام الذي ألزمه أهل السنة والجماعة للجهمية ومن تبعهم معروف مشهور، وهو واضح إلزامه جداً، فإنه إذا لم يكن الله متكلماً ولا موصوفاً بالكلام، ومعلوم أن الكلام صفة مدح، لزم أن يكون الحيوان الذي يتكلم أكمل منه، ولزم من ذلك مشابهته للجمادات التي لا تتكلم، فانظر كيف فرّوا من تشبيهه بالإنسان فوقعوا في تشبيهه بالجمادات التي لا تتكلم. ولما عرفوا شنعة هذا الإلزام عليهم قالوا: إن نفي الكلام يكون نقصاً إذا نفي عمن هو قابل له ولضده كالإنسان، فإنه إذا كان أخرس نقص بكثير عن المتكلمين، وأما الذي لا يقبل الكلام ولا يصح منه فليس في إثبات الكلام ونفيه عنه نقص. فيقال لهم كلامكم هذا مما زاد الأمر شراً وبطلاناً، فإن نفي الكلام عنه نقص، ونفي القبول منه للكلام نقص آخر، فإن الحيوان المتكلم معلوم أنه أكمل من الجماد الذي لا يتكلم، فنزلوا عن تشبيهه بالإنسان إلى تشبيهه بالجماد فصاروا مشبهين بفهمهم معطلين باعتقادهم. أما أهل السنة والجماعة فيقولون: ثبوت ما دل عليه الوحي من جميع الصفات لا يقتضي تشبيهاً ولا تمثيلاً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

## فصـــل

### في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقُّه وباطلُه عينُ كلام الله

قد قامت الأدلة والبراهين من وجوه متعددة كثيرة جداً أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن جميع أفعالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وجميع أحوالهم مخلوقة لله، فيلزم على قول الجهمية أن يكون كلام الخلق كله حقه وباطله كلام الله لأنه منسوب إلى الله من جهة خلقه، فإن نسبة الكلام إلى الله ــ على قولهم ــ كنسبة بيت الله وناقة الله ونحو ذلك من الأعيان التي يعلم أن نسبتها

إلى الله نسبة تشريف وتكريم، ولا تخرج بذلك أن تكون مخلوقة، فالقرآن كذلك. وهذا اللازم لزومه لقولهم واضح جداً، وهو أبطل ما يكون ويلزم منه شر الأقوال. ولهذا التزم هذا القول شر الطوائف وهم الاتحادية، وهو كفر بالله العظيم وتعطيل لوجوده. فإن زعم الجهمية أن هذا غير لازم لهم لأنهم خصصوا، فيقال ما تقدم أن هذا التخصيص لا ينفي التعميم، كما خصص ربوبيته بالعرش وبالبيت الحرام مع أنه رب العالمين، فهكذا قولهم إن هذا التخصيص للقرآن لا يمنع التعميم. ولما كان أهل السنة قولهم حقاً لم يلزمَ منه إلا كل حق والله أعلم.

## فصل

### في التفريق بين الخَلْق والأمر

اعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الخلق غير الأمر، وأن الفعل غير المفعول، فالفعل صفة لله والمفعول هو المخلوق، والأمر تنشأ عنه المأمورات والشرائع، والخلق تنشأ عنه المخلوقات كلها. وقد دل على هذا قوله تعالى:

**﴿إنّ ربكم اللَّهُ الذي خلق السماواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليلَ النهارَ يطلُبُهُ حثيثاً والشمسَ والقمَر والنجومَ مسخراتٍ بأَمْره ألَا لهُ الخَلْقُ والأمرُ تبارك اللَّهُ رب العالمين﴾**

[سورة الأعراف: الآية ٥٤]

فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحة بأن الخلق غير الأمر كما هو الأصل أن المعطوف غير المعطوف عليه، ويمتنع أنهما شيء واحد، فإنه صرح فيها أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وذلك بعد ما أخبر أنه خلقها، فخلقها ثم سخرها بأمره، والأمر سواء قيل إنه مصدر أو اسم مفعول فالغرض حاصل، فإن كان مصدراً وهو الأظهر فهو وصف ظاهر، وإن كان اسم مفعول بمعنى المأمور فإن المأمور ناشىء عن الأمر كالمصنوع ناشىء عن الصنعة، فيلزم من وجود المأمور وجود الأمر ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كما يلزم

من وجود المخلوق وجود صفة الخلق الذي هو الفعل وبه وجد المخلوق، ومن نفيه انتفاء الخلق.

وتدبر في هذه الآية سراً عجيباً، فإنه ذكر في أولها خلقه السماوات والأرض خصوصاً، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم بأمره أيضاً خصوصاً، وصرح فيهما بالفعل، وذكر في آخرها الوصف والتعميم في قوله: **﴿ألَا له الخلق والأمر﴾** فجمع بين فعله ووصفه على وجه الخصوص وعلى وجه العموم، فهذا القول الحق الموافق لما دل عليه القرآن، ولما هو معقول عند أولي الألباب. وأما الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين فحيث كان أصل قولهم إن الفعل عين المفعول سووا بين الخلق والأمر، وهذا قول متناقض باطل مخالف للنقل وللمعلوم بالعقل، فكيف يثبتون فرعاً بلا أصل، وهل هذا إلا مبطل للفرع والأصل؟

## فصــــل

### في التفريق بين ما يضاف إلى الله من الأعيان والأوصاف وكذلك ما أخبر أنه منه

وحاصل ذلك أن الذي يضيفه الله إلى نفسه إما أعيان يخصها بهذه الإضافة المقتضية للاختصاص والتشريف مثل عبد الله وناقة الله وبيت الله ومثله:

**﴿وعباد الرحمن﴾**

[سورة الفرقان: الآية ٦٣]

فهذه أعيان قائمة بأنفسها وهي من جملة المخلوقات، لكنه أضافها لنفسه تفضيلاً لها على غيرها وتعظيماً. وإما إضافة أوصاف كعلم الله وقدرته وإرادته، وكذلك كلامه وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها. وكذلك ما أخبر أنه منه، فإن كان أعياناً كروح منه:

﴿وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾
[سورة الجاثية: الآية ١٣]

فهذه منه خلقاً وتقديراً. وإن كان ذلك أوصافاً كقوله:

﴿تنزيل الكتاب من الله﴾

[سورة الزّمَر: الآية ١]

دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمية ونحوهم وقعوا في الأقوال الباطلة. والله أعلم.

## فصل

وزعم أبو محمد بن حزم الظاهري أن مسمى القرآن يطلق على أربعة أشياء: يطلق على المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويطلق على هذا الذي نقلوه، ويطلق على ما هو محفوظ في الصدور. فهذه الثلاثة عنده مخلوقة. ويطلق على المعنى القديم القائم بذاته كقيام علمه بحيث لا يتعلق بمشيئته، فهذا غير مخلوق.

وهذا القول هو قول الكلابية السابق إلا أن التعبير اختلف، فأبو محمد قال إنه مخلوق كما صرح بذلك المعتزلة والكلابية، والأشعرية قالوا عبارة وحكاية عن كلام الله كما تقدم قولهم. والذي أوجب لابن حزم أن يقول بهذا التفصيل الذي هو من الأضاليل أنه لما رأى مراتب الوجودات أربعة: للمعينات وجود في الخارج، ووجود في اللفظ، ووجود في الرسم، ووجود في الذهن: فوجود الشيء يطلق على كل من هذه الأمور الأربعة، وأن أولاها بالقرآن عنده الوجود الخارجي وهو المعنى النفسي القديم، وخالفه أبو عبد الله الرازي فزعم أن الأولى بهذه المراتب الوجود الذهني، وكل هذا غلط فاحش وقلة فرقان، وإلا فالشيء واحد في نفسه حيثما تصرف، فالقرآن كلام الله

بوجوداته الأربعة إذا تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون أو تكلم رب العالمين، فهو في كل هذه المراتب كلام الله منزل غير مخلوق، وهو حقيقة في جميع هذه المراتب، ولهذا أخبر الله عن القرآن خبراً واحداً في أحواله كلها فأخبر أنه تكلم به، وأنه كلامه وتنزيله، وأنه نزل منه؛ وأخبر أنه في صدور أهل العلم محفوظ، وأنه في صحف مطهرة، وأنه متلوّ مقروء وكل ذلك على وجه الحقيقة. وهذا بخلاف القول في تلاوة العبد، فإن التلاوة غير المتلوّ، والقراءة غير المقروء. فالتلاوة فعل العبد وهي مخلوقة، والمتلوّ هو كلام الله غير مخلوق. ولهذا كان الأئمة يقولون: إن كتابة العباد وأصواتهم والرق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به هذه كلها مخلوقة، فإن جميع ما يرجع إلى ذوات العباد وأوصافهم مخلوق، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق، وهذا الفرق واضح شرعاً وعقلاً.

والتلاوةُ قد يعنى بها المتلوّ فهو كلام الله غير مخلوق، وقد يعنى بها تلاوة العباد وأصواتهم وأفعالهم فهي مخلوقة. وهذا الفرق هو الذي قرره البخاري وغيره. وأنكر عليه بعض أهل العلم حيث لم يفهموا مراده، وجرى بينه وبين الإمام محمد بن يحيى الذهلي محنة مشهورة، وكل منهما إمام من أهل السنة والجماعة، فمحمد بن يحيى قصد سد الباب عن تطرق الجهمية والمعتزلة؛ والبخاري فصل الحق الذي به يزول الإشكال وتستقيم به الأحوال، وكل منهما يحمد على سعيه المشكور ولكن الحق أحق أن يتبع. فالواجب على من عرف الحقائق أن يفصلها ويميز بين الحقائق المتباينة، وعلى من عنده توقف وإشكال أن يقف حتى يتضح له الصواب. وكل من البخاري والذهلي نسب القول الذي نصره إلى الإمام أحمد، ولكن بهذا الحمل الذي ذكرناه يتضح أن كلًّا منهما وممن قال بقولهما من أئمة السلف محمود مشكور، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ورضي الله عنهم وأرضاهم.

# فصـــل
## في مقالات الفلاسفة والقرامطة
## في كلام الربِّ، جل جلاله

أصل معنى «الفلسفة» كلمة يونانية، فالفيلسوف معناه عندهم محب الحكمة، وقدماء اليونان لهم اعتناء بالفلسفة، وهم أصناف مصنفة، فكثير منهم أو أكثرهم لم يرتضوا برأي أرسطاليس الذي يقال له أرسطو في قوله بقدم العالم وإنكار رب العالمين والبعث والجزاء الأخروي، ولكن فلسفة أرسطو الملحد الذي حقيقة قوله تعطيل رب العالمين وإنكار الرسل والبعث بعد الموت هي التي راجت وروّجها المتفلسفة المنتسبون للإسلام والإسلام منهم بريء كالفارابـي وابن سينا ونحوهم ممن أرادوا الجمـع بين الانتساب للإسلام والبقاء على عقيدة التعطيل نفاقاً منهم وزوراً وبهرجة. وقد فصل أهل العلم مقالات الفلاسفة والمتفلسفة وبينوا حقائقهـا وما تحتـوي عليه من الطامات الكبرى، وأن حقيقة قول هؤلاء أن الطبيعة هي المحدثة للأعيان والأفعال والأوصاف، وقد بينوا فساد أقوالهم نقلاً وعقلاً، وأنهم قد فسدت عقولهم التي بها يفتخرون، وظهر من جهلهم وضلالهم وتناقض أقوالهم ما يعلم به أنهم أبعد الطوائف الضالة عن الحق.

ولا زال مذهبهم الباطل يظهر في أساليب متنوعة، فملاحدة القرامطة على مذهبهم، وفلاسفة الاتحادية على مذهبهم، والاسماعيلية والباطنية على مذهبهم، والشيوعية التي تفاقمت في هذه الأوقات وفروعهم على مذهبهم، فهم في واد ورسل الله في واد، فجاء المتفلسفون المنتسبون للإسلام وبنوا على أصولهم الباطلة قولهم في القرآن، فلما كان من أصولهم القول بقدم العالم، وأن العقل الفعال ــ وهو فلك القمر أو غيره من الأفلاك التي يعينونها ــ هو المحدث لكل ما تحته، وأن هذا العقل دائم الفيض على ما تحته على المحال المستعدة بحسب قابليتها، فيفيض الوجودات وأوصـافها وأفعـالها

وأقوالها وآثارها، فيفسرون كلام الله على هذا الأصل الباطل فيقولون: لما كان محمد قد اجتمعت فيه القوى الكاملة من الزكاء والذكاء، والقوة العملية، فاض عليه من هذا العقل ما يناسب حاله وهو الكلام الراقي، فتلقاه وأتى به للعباد ألفاظاً وخطابة ومواعظ خالية من البراهين لم تصرح بالحق بل رمزت إليه وأشارت إليه من بعيد، وأن الأنبياء على زعمهم الفاسد لا يمكنهم مخاطبة الجمهور إلا بهذه الطريقة طريقة التخييل والمثال لأنها أصلح للناس، ولذلك يحرّمون تأويل النصوص لأنها تخالف ما قصده الرسل من التخييل والإتيان بالحقائق على صور الأمثال والرموز. وهم من جراءتهم وكبريائهم ادّعوا لأنفسهم مقامات أعلى من مقامات الأنبياء، فالنبي للعوام والفيلسوف للخواص. ومن تصور أقوالهم جزم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا يثبتون وجوده ولا يثبتون الرسالة ولا المعاد الأخروي، وعلم أن ما قالوه مع مخالفته لجميع ما جاءت به الرسل فإنه مخالف لما دلت عليه العقول الصحيحة، وأن ما ادعوه من العقليات هو في الحقيقة جهليات وخيالات. وبسط الكلام على مذهبهم يستدعي أكثر من ذلك، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لما فيه من التمويهات والتلبيس والنفاق ويصادف مع هذا قلة بصيرة والله المستعان.

وتقدم أن الاتحادية لا يبعدون عن الفلاسفة في حقيقة عقيدتهم إلا أنهم ينتسبون إلى التأله والتصرف لهذا ذكر قولهم فقال:

# فصـــل
## في مقالات طوائف الاتّحادية
## في كلام الرب جلّ جلاله

لما كان قولهم إن الوجود جميعه واحد، وإنه ما ثم خالق ومخلوق، وإن الرب عين العبد والعبد عين الرب تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، بنوا عليه أن كلام الموجودات كلها من الإنس والجن والملائكة وغيرهم من المخلوقات هو كلام الله حقه وباطله محموده ومذمومه. وحسبك بقول بلـغ هذا المبلـغ فساداً وبطلاناً. فهذه المقالات في هذه الفصول هي مقالات الطوائف في كلام الله، وكلهم منحرف عن الصراط المستقيم، ويتفاوتون في هذا كما تقدمت حكاية أقوالهم، والحق الذي لا شك فيه من هذه الأقوال هو مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله ألفاظه ومعانيه، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه مـع اتصافه به فهو من صفات فعله المتعلقة بقدرته ومشيئته. والله أعلم.

ثم عطف المؤلف على الجهمية بنقض وإبطال ما قالوه في نفي صفات الرب العظيم، وأن قولهم مناقض للعقل والنقل واللغة، فإنه من المعلوم عقلاً ونقلاً ولغة وعرفاً أنه لا يصـح وصف الشيء بوصف مشتق منه وهو منفي عنه وثابت لغيره فلا يقال عالم وقادر وحيّ وسميـع وبصير ونحوها، والعلم والحياة والقدرة والسمـع والبصر وصف لغيره فلا تقال هذه الأسماء ونحوها إلا لمن اتصف بمعانيها ففي قولهم هذا محذوران: نفي الصفات لمن أثبتتـه له النصوص، وإثباتها لمن لم تقم به؛ فإن هذا من باب قلب الحقائق ومكابرة الأمور المعلومة ببداهة العقول. ونظير هذا في المكابرة إذا كان أخوان واحد منهما مبصر والثاني أعمى ووصف كل منهما بوصف أخيه. وإذا قالت الجهمية إن هذا ثابت في الأفعال فإن الله يسمى الخالق وخلقه قائم بغيره لأنه لو قام به لكان محلاً للحوادث وذلك محال فكذلك الكلام هو فاعل للكلام وخالق له

والكلام قائم بغيره، وأيدوا هذا الإيراد بردّهم لمذهب الاقترانية الذين يقولون إن كلامه قديم، والكلمات والحروف مقترن بعضها ببعض. وردّهم أيضاً لمذهب الكلابية والأشعرية القائلين إنه معنى واحد أو خمسة معان قديمة قائمة بالله، وأنه ليس للقرآن كل ولا بعض ولا فيه تعدد، وأن الأمر عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وأن قيام الكلام بذات المتكلم كقيام الحياة فإن هذين المذهبين باطلان مخالفان للعقل والنقل كما تقدم، وأنه بمجرد تصورها يجزم بفسادها. قالوا: وأما نحن فقد قلنا قولاً يوافق العقل، فإننا قلنا إن كلامه كلمات وحروف مرتبة، وإنه متعلق بمشيئته، وإرادته بمنزلة فعله. قالوا: فلأي شيء ينكر علينا ويرجح المرجح أحد المذهبين: مذهب الاقترانية والكلابية، فنحن أحق بالعقل والنقل منهما، وإذا كان لا بد من الترجيح فرجحوا بالدليل والفرقان لا بمجرد الدعاوي فإنها لا تسمن ولا تغني من جوع. هذا مضمون إيرادهم.

وحاصل الجواب عن هذا الإيراد أن الخلاف مبني على أصلين تكرر ذكرهما في كلام المصنف وهما: هل الفعل غير المفعول أو الفعل عين المفعول. وهل هو قائم بذاته أو منفصل عنه. وتقدم أن الكتاب والسنة والعقل دلت على أن الفعل وصف الفاعل والمفعول مفعوله وأثره، فالفعل غير المفعول. وأما الجهمية والمنحرفون من أهل الكلام فتوهموا أن الفعل هو المفعول، وأنه إذا كان غيره لزم حلول الحوادث بالله. وهذا الوهم باطل وخطأ وضلال واضح، فإن الله لم يزل فعالاً لما يريد، ولم يزل يفعله: يفعل الأشياء ويحدث الحوادث شيئاً بعد شيء. ولا يلزم من هذا حلول الحوادث في ذاته، وإنما الحوادث منفصلة عنه. والفعل الذي هو الوصف قديم النوع، ولكنه لا يزال يفعل ما يريد.

وبهذا الأصل العظيم الذي دل عليه الكتاب والسنة وقبله العقل الصريح يندفع كل إيراد يورده المبطلون على نفي ما أثبته الله ورسوله من

أوصافه المقدسة، وبذلك يمكن قمع الفلاسفة الدهريين وبطلان قولهم بقدم العالم، وبه علم بطلان قول الجهمية الذين قالوا الفعل هو المفعول. فعلى قولهم بأي شيء حدثت الحوادث أعيانها وأفعالها وصفاتها فتعطيلهم لفعله تعطيل في الحقيقة للمفعولات. فالقائلون بأن الفعل غير المفعول طائفتان: إحداهما أهل السنة المتقدم شرح قولهم، والثانية قول الحنفية التابعين لأبي منصور الماتريدي القائلين إن تكوين الله قديم قائم بذاته كفاء قدرته متعلق بكل مكوَّنٍ مخلوق. وبقي على هؤلاء بقية وهي أن الفعل مع قيامه بالله فهو متعلق بمشيئته وقدرته. ومذهب الكرامية أن الفعل غير المفعول، ولكن له ابتداء وافتتاح حذر التسلسل كما تقدم، وليس له غاية. وتقدم صواب القول في ذلك أن الله لم يزل ولا يزال يقول ويفعل ما يشاء، والفعل من لوازم الحياة فلا توجد الحياة بدون الفعل، فمن لم يثبت لله أفعالاً تقوم به لزمه نفي حياته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن الرب لم يزل على كل شيء قديراً ولم يزل نافذ الإرادة ولم يزل محسناً عفواً رحيماً، فلأيّ شيء تمتنع هذه الأفعال عن الله في وقت من الأوقات، أليس إثبات فعله المذكور من أعظم الكمال ونفيه من أرذل النقص، أليس الخلق مفطورين باللهج بقولهم: يا دائم المعروف والإحسان، يا قديم الجود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل يرون هذا من أعظم ما يقرّبهم إلى الله ويتوسلون به لقضاء حوائجهم، أليس الفعل من لوازم الكمال، فالله كملَ ففعل، وخلقه للمخلوقات أعيانها وأوصافها كمال حصل بكماله. وقد خالف العقل والنقل من زعم أن الفعل ممتنع عليه في الأزل. ثم انتقل من هذا المحال إلى الإمكان فما الذي تجدّد له من الكمال حتى تمكن من الفعل الذي كان ممتنعاً، فإن الله غير معطل عن فعله كل وقت، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمور ويحدث ما تقتضيه حكمته.

ومن المعلوم المتقرر أنه لو فرض وجود القدرة على الكلام والتكوين وعدم القدرة على ذلك لكان الأول هو الكمال، وإذا كان هو الكمال فكيف يتخلف التأثير بعد وجود موجبه وسببه ومقتضيه. وأيضاً إذا كان الله لم يزل موصوفاً بتمام القدرة ونفوذ المشيئة والحياة الكاملة والعلم المحيط، فإنها أوصاف ذاتية لله تعالى، فمع وجودها يمتنع امتناع الفعل، لأن تمام الفعل بوجودها فلأي شيء قد تأخر فعله مع وجود سببه التام، والله تعالى قد عاب آلهة المشكرين بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تفعل ولا تكلم، وعاب من عبد من هذه صفته وبين أنها لا تستحق من الإلهية شيئاً، وأما الباري تعالى فلم يزل هو الإله الحق، فهل يمكن أن يسلب عنه الفعل والتكليم، فإذا كان لم يزل إلهاً فإنه لم يزل فاعلاً متكلماً، وليس في العقول ما ينافي هذا القول الحق، بل ليس فيه إلا ما يطابقه ويؤيده.

والله تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، السابق لكل شيء فليس شيء من مفعولاته مقارناً له كما يقوله زنادقة الدهرية من الفلاسفة فإنهم صرحوا بقدم العالم، وأتى بعدهم ابن سينا المتفلسف وهو موافق لهم على هذا القول، لكنه لما كان منتسباً للإسلام وهو منه بريء فرأى أن مصانعة المسلمين بالعبارات الموهمة التي ليست صريحة أولى به من التصريح المحض، فتلطف بتقريب قولهم فزعم أن العالم ممكن، والممكن عنده هو المعلول لعلة تامة تقتضي مقارنتها لمعلولها بحيث لا يتأخر معلولها عنها، وهذا هو القول بقدم العالم، لكن زوّره وبهرجه ليقرّب المذهب الدهري إلى الدين الإسلامي، وهذا من العجائب الغرائب أن يسعى في التقريب بين مذهبين متباينين غاية التباين: مذهب الرسل الذي هو دين الإسلام والمسلمين من الأوّلين والآخرين الرسل وأتباعهم المبني على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتوحيد العلمي الاعتقادي، والتوحيد العملي وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف بانفراد الرب بالخلق والتدبير والملك والسلطان والربوبية.

ومذهب الفلاسفة الدهرية المباين لمذهب الرسل في جميع هذه الأصول من غير استثناء والحرب لم يزل بين الأنبياء وأتباعهم وبين أهل هذا المذهب الخبيث، فيستحيل غاية الاستحالة التقريب بينهما فضلاً عن الجمع بينهما. وجرى خلف ابن سينا القرامطة والملاحدة والباطنية والنصيرية والدروز ونحوهم من كل معطل لرب العالمين جاحد لرسله وكتبه ودينه. ومن أعظم من نصر مذهب ابن سينا الملحد النصير الطوسي الذي كان كالوزير لملك التتار لما خرجوا على المسلمين وقتلوا ملوكهم وخلفاءهم وعلماءهم، وقد ذكروا أنه هو الذي أشار على التتار بقتل المذكورين وإبقاء أهل الصنائع والحرف والعملة، وعمر المدارس لتعليم الإلحاد والفلسفة، وصرف لها الأوقاف الإسلامية، وأراد أن يجعل «إشارات» ابن سينا موضع القرآن، وأن يقرر القواعد والنواميس المشيدة للإلحاد الهادمة للدين الإسلامي، وعرف أنه لا يتم له مقصوده حتى يستأصل رؤساء الدين، فأشار على التتار بوضع السيف فيهم، فجرى على الإسلام بذلك من المصائب والرزايا ما يفجع القلوب، ولولا حفظ الله لدينه لجرى عليه ما جرى على الأديان السابقة من الذهاب والاضمحلال.

واعلم أن أدلة الخلق وحدوث هذا العالم المشاهد ظاهرة جلية عقلية ونقلية، من أعظمها جميع الأدلة والبراهين الدالة على توحد الله وتفرده بصفات الكمال وبديع الأفعال، فكلها تدل على حدوث كل ما سواه، فلو كان معه شيء قديم للزم أن يساوي الله في غناه ووحدانيته، فمحال أن يكون ربان متكافئان متمانعان مستقلان، فإن استقلال أحدهما ينافي استقلال الآخر، وذلك أنهما إما أن يستقلا فيحصل التمانع والتساقط وهذا محال باطل، وإما أن يذهب كل واحد بما خلقه ويستقل بتدبير ما هو مالك له ويبقى الأمر هكذا فهذا أيضاً باطل، لأنه يلزم من ذلك المغالبة وأن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون الرب واحداً قاهراً لكل شيء والكل مقهور بقهره داخل تحت نفوذه وتدبيره وهذا هو الحق، قال تعالى:

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلّه، إذاً لذهب كل إله بما خلقَ وَلَعَلاَ بعضُهُم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

ولذلك أخبر تعالى أنه الواحد القهار في عدة آيات، لأن الوحدة والقهر متلازمان فلا يكون منفرداً بالوحدانية حتى يكون منفرداً بالقهر، ومن انفرد بالقهر للأشياء كلها فقد تفرد بالوحدانية، فمحال أن توجد الصفتان وتجتمعا في ذاتين، وإنما هما لله الواحد القهار.

## فصـــل
### في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الربِّ وكلامه والجواب عنه

وذلـك أن المتكلمين عطلوه عن فعله فيما مضى كقول الكـلابية والأشعرية، أو في الماضي والمستقبل كقول الجهمية. والذي حملهم على هذا القول الباطل الفرار والحذر من التسلسل، والجواب عن هذا التزام القول بالتسلسل في الماضي كما قال الكلابيـة والأشعريـة بجوازه ووجـوبه في المستقبل، وأيّ فرق بين الأمرين؟ فمن زعم أن لفعل الله ابتداء وهو يقول ليس له انتهاء فقد تناقض، فكلاهما متساويان في الإمكان والوجوب عقلاً ونقلاً.

وقد طرد هذا القول الجهمية ونفوا التسلسل لفعله تعالى في الماضي والمستقبل، وبنوا على هذا القول الذي هو أبطل من قول الكلابية والأشعرية القول بفناء الجنة والنار، فالجهم أفنى ذاتهما، والعلاف شيـخ المعتزلة أفنى حركاتهما، كما تقدم شرح قولهم، وأما أبو علي الجبائي وابنه وأبو الحسن الأشعري وأبو بكر بن الطيب ومن بعدهم من أهل الكلام الباطل ففرقوا بين الأمرين، وفرقهم باطل، وتناقضوا وتناقضهم أهون شراً من قول الجهمية، والمحذور الذي ظنوه أنهم إذا أثبتوا دوام فعل الرب في الماضي وفيما لا يزال

لزم صحة قول الفلاسفة في قدم العالم، وهذا الظن خطأ محض، فإن المثبتين للتسلسل في أفعال الباري ماضياً ومستقبلاً وهم أهل السنة والجماعة لم يقل أحد منهم إن شيئاً من أعيان المخلوقات وأفرادها قديم، ولكنهم يقولون بدوام نوع الفعل الذي لا يدل العقل والنقل إلا عليه، فنوع فعله تعالى لم يزل ولا يزال، فالله لم يزل يفعل وهو الفعال لما يريد، وكل فرد من أفراد مخلوقاته السماوات وما فيهما والأرضون وما فيهما وما قبل ذلك من المخلوقات وما قبلها وما قبلها وهلم جراً فكلها مخلوقة موجودة بعد أن لم تكن.

وأما النوع الذي هو من لوازم الكمال وهو وصفه تعالى فلا له مبتدأ وليس له منتهى لأن الله لا يمكن أن يكون في وقت من الأوقات فاقداً لشيء من الكمال. ونظير تعاقب الأعيان أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق وقبل ذلك مخلوق إلى غير غاية ونهاية، نظيره تعاقب الأزمنة، فما من زمان إلا وقبله زمان وقبل ذلك زمان وقبله وقبله إلى غير نهاية، وهذا يدرك بأقل تأمل.

فإن قالوا إننا نمنع التسلسل أيضاً في الأزمنة، فيقال لهم: ما تعنون بالأزمنة، هل تعنون بها المدة والزمان الكائن منذ خلق الله السماوات والأرض، وهذا مرادهم، ولا يفيدهم شيئاً، أم تعنون أنه لم يكن قبلها من المخلوقات شيء، فهذا لا دليل عليه من الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في النقل، بل هذه الأدلة كلها تدل على أن الله تعالى قد خلق مخلوقات قبل خلق السماوات والأرض، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذه الأيام التي خلقها الله بها مقدّرة بزمان غير هذا الزمان المقدر بسير الشمس والقمر، فدل على أنه مقدر بحركة أخرى غير سير الشمس والقمر، وذلك دليل على وجود زمان ومخلوقات قبل ذلك، فإن الأزمنة تقدّر فيها الحوادث. وقد ثبت في الصحيح: أن الله لما خلق القلم قال له اكتب، قال ما أكتب، قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف

عام وكان عرشه على الماء. وهذا صريح في وجود مخلوقات قبل السماوات والأرض.

وقد اختلف الناس أيّ العرش والقلم خلق أولاً. حكى أبو العلاء الهمذاني في ذلك قولين والراجح أن العرش قبل القلم، لأنه قال في الحديث الذي فيه «أول ما خلق الله القلم» إلى أن قال فيه «وكان عرشه على الماء» وهذا ظاهر في تقدم العرش، فإن الحديث صريح في أن العرش قبل الكتابة، فإن الكتابة تعقبت إيجاد القلم من غير مهلة. فهذا ونحوه من الآثار يدل على أن الله تعالى لم يزل يفعل، ومما يدل عليه عقلاً وفطرة القاعدة المتقدمة، وهو أن الله تعالى باتفاق الناس موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وهذا الكمال ثابت له في جميع الأوقات، يستحيل أن يكون عادماً له في وقت من الأوقات، وهذا واضح لا يقبل الريب، ولكن أهل الكلام لما أصّلوا أصولاً فاسدة وقواعد باطلة اعتقدوها وحرفوا لأجلها النصوص وردّوا لأجلها ما خالفها بعقولهم الفاسدة، اشتبه الأمر عليهم، وإلا فاتصاف الباري تعالى أنه على الدوام فعال لما يريد لا يحتاج إلى كثير نظر.

## فصل

لم يزل المسلمون وأئمة الهدى مثبتين ما دل عليه الكتاب والسنة من نعوت الباري الذاتية والفعلية، وليس في قلوبهم أدنى شبهة تناقض هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، حتى جاء هؤلاء المتكلمون بالكلام الباطل، وأصلوا لهم أصولاً من تلقاء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان نقلي ولا عقلي، فابتدعوا هذا الاستدلال الذي نفوا به أفعال الله وظنوا وقالوا إنهم للإسلام ينصرون، وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا على أعدائه وجاحديه انتصروا، بل صار دليلهم هذا أكبر سلاح لأعداء الإسلام عليهم، وألزموهم لأجله اللوازم التي عجزوا عن التخلص منها، وبذلك أغروا عدوّ

الإسلام في لزومه لقوله، وظنوا بالإسلام الظنون السيئة حيث ظنوا أن هذا مما جاء به الإسلام، مع أن الإسلام بريء منه كل البراءة. ولولا أن الله متكفل بحفظ دينه، ومقيم له الأنصار والحفظة من أئمة الهدى ومصابيح الدجى لذهب الإسلام.

ولقد بينوا أن هذا الدليل الذي ابتدعه أهل الكلام الباطل دليل باطل مستدل به على باطل، فاللازم والملزوم باطلان. ومما يدل على بطلانه أن أعيان خيار هذه الأمة وصفوتهم وأعلاهم أخلاقاً وأعمالاً وأكملهم إيماناً من المهاجرين والأنصار والقرون المفضلة وجميع أئمة الدين ومحققي المسلمين لم يعرفوا هذا الدليل، وليس له عندهم حس ولا خبر ولا عين ولا أثر، ولم يعرفوا الله بهذه الألفاظ المبتدعة بالأجسام والأعراض والجواهر ونحوها، فمن المحال أن يكون هذا الدليل صحيحاً وقد حرم منه هؤلاء الصفوة الأخيار ويفوز به هذا الخلف السوء. فإيمان السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان مبني على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، مؤيد بالعقل الصحيح الذي يعترف به أهل العقول الوافية والألباب الكاملة، فهل يقاربهم من إيمانه مبني على دليل الأعراض الذي ليس له في النصوص ذكر ولا إشارة، ولا قاله أحد من السلف، ولقد اعترف كثير من فضلائهم ببطلانه كالأشعري وغيره وأنه دليل مبتدع، وصرح بعضهم بالحق وهو أنه في نفسه باطل ومقدّماته فاسدة وأنه مفسد للدين والإيمان، مخبط للأذهان، مشوش للحقائق العقلية، مخالف للأدلة النقلية.

وأيضاً فالله ورسوله قد بينا جميع الطرق المعرّفة بالله وصرّفاها ونوّعاها ولم يذكر الله ولا رسوله هذا الدليل فلو كان حقاً لذكراه، ولكنه باطل. ولهذا لما أطلع الأئمة على حقيقة هذا الدليل أنكروا على أهله غاية الإنكار وحذّروا منه غاية التحذير لعلمهم بما يفضي إليه. ومن أراد معرفة بطلانه حقاً بالأدلة الشرعية والأدلة العقلية، ونقل اعتراف فضلائهم ببطلانه وتناقض المثبتين له،

وتوضيح فساد مقدماته، وعجز أهله عن نصرته غاية العجز، فلينظر إلى (كتاب العقل والنقل) لشيخ الإسلام والمسلمين ابن تيمية، فقد أتى فيه بالعجب العجاب، وقاوم فحولهم وأساطينهم ونظارهم، وبين بالأدلة المتنوعة بطلان أقوالهم وفسادها، وأنهم ادعوا أنهم أهل العقول والنظر، فاتضح أن عقولهم فاسدة، وآراءهم ضالة، وعقلياتهم جهليات وخيالات، ونحمد الله على نعمة السنة والإسلام، ونشكره أن قيض لنصره مثل هذا الإمام وأمثاله، جزاهم الله خير الجزاء، والله أعلم.

## فصــل

### في الرد على الجهمية المعطلة
### القائلين بأنه: ليس على العرش إلَهٌ يُعبد،
### ولا فوق السموات ربٌّ يُصَلّى له ويُسجَد،
### وبيان فساد قولهم عقلاً ونقلاً وفطرةً

قد علم وتقرّر نقلاً وعقلاً أن الله تعالى كان وليس شيء غيره من المخلوقات، ثم خلق المخلوقات وأوجد الكائنات. فيقال للمعطل: هل خلق المخلوقات بائنة عنه، أم خلقها حالة فيه. فلا بد أن يجيب بأحد الأمرين، أو بجواب ثالث وهو التحيز إلى قول الاتحادية الذين هم أخبث الطوائف قولاً إن الخالق هو عين المخلوق وهؤلاء هم غلاة المعطلين، فإن قالوا إن الله خلق المخلوقات حالة في ذاته حلول الروح في الجسم، فقد زعموا أنه مفتقر ومحتاج إليها، وإن قالوا: هو لا داخل العالم ولا خارجه فقد حكموا عليه بالعدم، لأنهم إذا رفعوا النقيضين فهذا وصف المعدوم، وإن قالوا الحق وهو أنه خلقها بائنة عنه وهو بائن عنها فقد أقروا بالحق، ويلزم على هذا أن يكون علياً على خلقه مستوياً على عرشه.

فإن قالوا: إن هذا النفي إنما يكون ينطبق على المعدوم فيما يقبل

الدخول والخروج، وأما الباري فليس يقابل لواحد منهما، إذ هذا من خصائص الأجسام والله منزه عن هذا. فيقال: هذه دعوى مجردة عن الدليل فهي ممنوعة فلا تقبل، فإن مثل هذه الدعوى دعوى المذهب والاصطلاح الذي اصطلح عليه هؤلاء المتكلمون فتكون الدعوى باطلة. ويقال ثانياً: بل يصدق نفي الشيء على القابل للشيء المنفي وغير القابل لغة وشرعاً فإنه نفى عن نفسه الظلم وهو محال عند الجهمية كما تقدم تفسيرهم للظلم أنه الممتنع لذاته، فهو وإن كان تفسيراً باطلاً ولكنهم يعتقدونه فيحسن ذكره في مقام إلزامهم، وكذلك نفى عن نفسه النوم والسنة والطعم والولادة والزوجية وهذه ممتنعة على الرحمن، وكذلك نفى عن بعض الجمادات السمع والبصر والنطق والشعور وإنها لا تخلق شيئاً وليست بقابلة لشيء من ذلك. ويقال ثالثاً: لو صح ما قالوه إن الشيء لا ينفى إلا عن المحل القابل فإنما ذلك في الضدين اللذين لا يجتمعان وقد يرتفعان، لا في النقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومسألة نفي دخوله العالم ومباينته له من هذا القسم، ويقال رابعاً: نفيكم لقبوله للدخول والخروج يزيل وينفي وصفه بأنه واجب الوجود بل ينفي إمكانه لأنه إذا لم يقبل الدخول والخروج كان ممتنعاً عقلاً وفطرة.

فإذا قال المعطل: إن نفي الأمرين القيام بالنفس والقيام بالغير باطل إذ لا يقبل أحد الأمرين إلا الممكنات والله ليس بقابل للأمرين، كان هذا من أعظم أوصاف المعدوم الممتنع، فلو قيل صفوا لنا المعدوم ما وصف بأبلغ من هذا، وهذا في الحقيقة نفي لوجود الله فلا يمكنه التفريق بين الأمرين أبداً، وإنْ طرد الأمرين ظهر كفره وإلحاده والله أعلم.

## فصـــل
### في سياق هذا الدليل على وجه آخر

وهذه العادة في أدلة الحق وشواهده حيث صرِّفت وأديرت على أي وجه وبأي عبارة فإن دلالتها واحدة لأن الحق ثابت لا يتغير مستقر في العقول الصحيحة السليمة إلا أن العبارات تختلف في وضوحها وجلائها أو خفائها بخلاف أدلة الباطل فإنها لا تكاد تقبل إلا إذا وافقت ضعف بصيرة وقلة علم ونظمت بعبارة مخصوصة مزوقة مزخرفة، فإذا أديرت بعبارة وسياق آخر بان بطلانها، وكلما حرفت اتضح فسادها بمنزلة الشيء المغشوش يظهر غشه بأدنى اختبار، فتقدم الإلزام للمعطل واستخباره واستفهامه: هل يقول إنه بَرَأَ البرية في نفسه أو خارجاً عنه أو ينفي الأمرين؟ وأنه يضطر إلى الاعتراف بأنه خلقها بائنة عنه وهو بائن عنها عال عليها وأنه إن قال غير هذا فهو غالط مكابر.

وهذا سؤال آخر، فإنه يقال للمعطل أولاً: هل الرب تعالى ثابت في الأذهان أم لا؟ فإن قال لا فهو جاحد لرب العالمين، فإن الذي لا وجود له في الأذهان والقلوب لا وجود له أصلاً. فإن قال نعم هو موجود في الأذهان فإنه يقال له ثانياً: هل هو هذه الأكوان أو غيرها؟ فإن قال: هو هي وهي هو فقد قال بقول الاتحاديين الذين هم أكفر الناس برب العالمين. فإن قال: بل هو غيرها فإنه يقال له ثالثاً: هل هو حالّ في الأكوان أو هي حالة فيه؟ فإذا قال بأحد الأمرين فقد قال بقول النصارى القائلين بإلَهية المسيح بن مريم وأن اللاهوت حل بالناسوت، وهؤلاء أبلغ من النصارى، فإن النصارى خصصوه بعيسى وهؤلاء عمموه بجميع المخلوقات فإذا نفى الأمرين بأن قال لم يحل فيها ولم تحلل فيه فيقال له رابعاً: هل هو قائم بنفسه غنيّ عن الأكوان والخلق أم هو قائم بغيره كقيام الألوان والأعراض بمحالها فإن أقر بالحق وقال: بل هو قائم بنفسه مستغن عن جميع خلقه، فيسأل خامساً فيقال له: هل ذاته تماثل الذوات أو تضادها أو تغايرها؟

وعلى هذه التقادير الثلاثة فإنه لو لا أنه بائن عنها لم يكن شيئان متماثلين أو متضادين أو متغايرين، لأن كل واحد من هذه الثلاثة بالنسبة إلى قسيميه يكون غيره لا يمكن أن يتحد معه، فيضطر إلى أن يختار أحدها، إما أنه هذه المخلوقات وينفي التماثل والتضاد والتغاير ويصرح بقول الاتحاديين ويخرج من ربقة الدين، وإما أن يعترف بالحق الواضح وهو أن الخالق غير المخلوق، وأنه بائن عن مخلوقاته، متوحد في صفاته، متفرد بربوبيته وإلّهيته، عليّ على جميع بريته.

فهذه إشارة إلى تقاسيم عقلية وحقائق يعترف بها من له لب تلجىء المنصف إلى الاعتراف بالحق ويعلم بها أن من خالفها فهو مكابر للمحسوس والمعقول، كما أنه مخالف للمنقول.

فلما ذكر الأدلة العقلية والإلزامات المفحمة لكل مبطل ذكر الأدلة النقلية فقال:

## فصـــل

### في الإشارة إلى الطرق النقلية

### الدالَّة على أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه

ذكر المصنف أحداً وعشرين نوعاً من الأدلة على هذه المسئلة العظيمة كل نوع منها تحته من الأفراد ما لا يعد ولا يحصى.

الأول الإخبار بأنه استوى على عرشه في سبعة مواضع من القرآن معروفة، وكلها جاءت بلفظ:

﴿على العرش﴾ [٧:٥٣ ـ ١٠:٣ ـ ١٣:٢ ـ ٢٥:٥٩ ـ ٣٢:٤ ـ ٥٧:٤ ـ ٢٠:٥]

فإن «على» تدل على العلوّ والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال ولا الاشتباه في معناه. فإنها لو كانت بمعنى «استولى» كما قاله الجهمية وأتباعهم لأتت اللام في موضع واحد أو أكثر لأجل أن يحمل الباقي عليها فلما لم ترد في

موضـع واحد بذلك كانت نصاً صريحاً في العلوّ والفوقية، فإن العرب جرت عادتهم في كلامهم الفصيـح أن يضمروا بعض القيود في بعض كلامهم ويذكروه في كلام ولفظ آخر فيحمل مطلق الكلام على مقيده، وأما هذا الموضـع فالحمل متعذر، وقد أبطل شيـخ الإسلام ابن تيمية تفسير الجهمية أن معنى استوى على العرش «استولى» بعشرين وجهاً كل واحد منها كاف شاف.

الثاني التصريـح بلفظ العلوّ، وقد تكرر في الكتاب وصفه بالعليّ الأعلى، وذلك يدل على أنه العليّ الأعلى بكل وجه ومعنى، واعتبار علو الذات والصفات وعلوّ القدر والعظمة وعلوّ القهر والجبروت. لكن المعطلة على أصلهم الفاسد ينفون عنه علوّ الذات ويفسرونه بالوجهين الأخيرين، وهذا هضم منهم لهذا المعنى العظيم، وإنكار لعلوِّه الذي فطر الله عليه الخليقة. فإنه ما توجه متوجه من البرية إلى الله إلا رفـع قلبه وطرفه إلى الله لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهذه الفطرة لا يستطيـع المعطلون تبديلها. ولو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا هذا المعنى مركـوزاً في فطرهم، ولكن العقائد الباطلة مسيطرة على الفطر وعلى كل حقيقة، ونهاية ما يوردونه على هذا الأمر المقطوع به شكوك وشبهات لا تعارض العلم واليقين، فإن علوه معلوم بالضرورة نقلاً وعقلاً وفطرة، فإذا تقابلت هذه البراهين والضرورات التي تعرف ببـداهة العقول مـع هذه الشبهات اضمحلت الشبهات ولم يكن عندها أدنى مقاومة للبراهين اليقينية.

الثالث التصريـح بالفوقية لله تعالى تارة مقرونة بمن كقوله:

﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠]

وتارة غير مقرونة كقوله:

﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨]

فالمقرون بمن نص في معناه لا يقبل التأويل والآخر هو ظاهر في المراد، وقد

يقبل التأويل على وجه ضعيف لكن إذا دل الدليل، وهنا دل الدليل على تعين المعنى الظاهر، هذا بالنظر إلى مجرد الألفاظ بقطع النظر عن سياق الكلام وما اقترن به مما يعين معناه فإذا أتى الكلام بسياقه ونظمه وتعبيره عن المعاني العالية فإنه يكون نصاً في معناه قاطعاً لا يقبل التأويل لسياقه ونظمه، فالمدار كله على السياق وأساليب الكلام، فذلك مثل شواهد الأحوال فتأويل الكلام إذا أتى بعد سياقه بأسلوبه الناصّ على معناه يكون في غاية الهجنة، كالكتمان إذا أتى بعد شواهد الأحوال كان كذباً قبيحاً.

والفوقية وصف ثابت لله تعالى لا يمكن أن يكون إلا كذلك، وله الفوقية المطلقة: فوقية الذات، وفوقية القدر، وفوقية القهر، فمن أنكر واحداً منها كان مبطلاً مكابراً متناقضاً كما هو قول المعطلة النافين لعلوّ ذاته وفوقيتها، وأن المراد عندهم فوقية القدر مثل قول الناس الذهب فوق الفضة وهذه دعوى بلا دليل بل مخالفة للدليل.

وذكر المؤلف كلام المفسرين على قوله تعالى:

**﴿تعرُجُ الملائكة والروح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة﴾**
[سورة المعارج: الآية ٤]

وقوله تعالى: **﴿يُدَبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألفَ سنة مما تعدون﴾** [سورة السجدة: الآية ٥]

فقيل إن تقديره بخمسين ألف سنة المراد به يوم القيامة وأن هذا مقداره في التقدير وتقديره بألف سنة في الدنيا، وقيل إنهما يعودان إلى يوم واحد وهو تقدير مسافة العالم العلوي والسفلي من المركز الأسفل إلى أعلى العرش خمسين ألف سنة ومن وجه الأرض إلى سماء الدنيا ألف سنة، ثم من كل سماء إلى الآخرى كذلك، ويؤيده ما ورد في هذا التقدير من الآثار. وقيل إن هذا التفاوت يرجع إلى اختلاف السير، وفيه أقوال أخر والمؤلف توقف عن الجزم بواحد من هذه الأوجه. والظاهر لي أن آية «المعارج» التقدير الذي فيها

ليوم القيامة، وأن معنى الكلام الإخبار بعظمة ذلك اليوم وطوله العظيم وأنه في ذلك اليوم يظهر للخلائق من عظمة الرب وعظمة ملكه وكمال تدبيره وأن أمور الملك وتدابيره تعرج بها الملائكة إليه وتنزل فيها منه والسياق في الآيات التي في المعارج يدل على ذلك. وأما تقديره بالألف في سورة السجدة فإنه في الدنيا لأن السياق أيضاً يدل عليه، فإنه في سياق بيانه في الدنيا ليعرفوا عظمة الله وكبرياءه ونفوذ تدبيره والله أعلم(١).

الخامس التصريح بصعود بعض المخلوقات والأعمال إلى الله تعالى من العمل الصالح والكلم الطيب والملائكة والأرواح كما وردت بذلك النصوص الكثيرة، وكذلك تواترت الأحاديث الصحيحة والحسنة في معراج النبي ﷺ إلى ما فوق السماوات السبع وأن عروجه إلى الله وإخباره برفع عيسى بن مريم عليه السلام إليه وكذلك ما في الأحاديث والآثار من ارتفاع دعوات المضطرين والمظلومين إلى الله، وذلك كله صريح في علوّ الله وفوقيته ومباينته لخلقه.

السادس والسابع إخباره أن القرآن العظيم نزل منه، وأنه تنزيل منه في عدة آيات. ومن المعلوم أن النزول لا يكون إلا لمن هو فوق عباده ومن هو عال عليهم، وكذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في نزوله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: (من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له) فهذا كله دليل على علوّه وارتفاعه. وعند الجهمية ومن تبعهم أنه لا ينزل والنزول إنما هو لأمره، وهذا باطل نقلاً وعقلاً، والأحاديث نص في نزوله نزولاً يليق بعظمته وجلاله، وأنه هو الذي يقول: (من يدعوني فأستجيب له) إلى آخره، لا كما حرفه الجهمية أنه يأمر من يقول ذلك.

الثامن: ما أخبر به عن رفعته وعظمته بسورة غافر في قوله:

---

(١) لم يرد (الرابع) في الأصل الذي يطبع منه، ولعله سهو من الناسخ.

﴿رفيـع الدرجات﴾ [سورة غافر: الآية ١٥]

فإن فعيلاً فيها بمعنى مفعول وأن معناه مرفوعة درجاته لرفعته وارتفاعه وعلوّ شأنه وكماله.

التاسـع إخباره بأنه في السماء كقوله:

﴿أأمنتم من في السماء﴾ [سورة المُلك: الآية ١٦]

ومعناها عند جميـع المفسرين معنى العلوّ وأن معناها أنه فوق العالم كله أو أن «في» بمعنى «على» وليس معناها أن السماوات تحصره وتحيط به فإنه أعظم وأجل، ومعناها أنه في العلو، وبقية النصوص الدالة على علوه تعين هذا المعنى وتزيل ما فيه من الاشتباه على أفهام الحائرين، بل الجهات كلها إذا نسبت إلى الله اضمحلت وعدمت فهو المحيط ولا يحاط به.

العاشر إخبار النصوص باختصاص بعض المخلوقات بأنها عند الله، كقوله:

﴿ومَنْ عِنْدَهُ لا يستكبرون عن عبادته﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٩]

وقول النبـي ﷺ: (إن الله كتب كتاباً فهو عنده على العرش: أن رحمتي سبقت غضبـي) فإن هذا دليل وبرهان على علوه تعالى على عباده، لأنه لو لم يكن كذلك لكان أشرف المخلوقات وأدناها وجميـع الذوات عنده في القرب سواء كما قال ذلك الجهمية، وتمموا هذا القول الباطل بقولهم إن محبة الله عين إرادته، فكل ما أراده فقد أحبه، والكون كله مراد الله فيكون محبوباً لله على قولهم، وحرفوا النصوص في محبة الله لبعض عباده ولـلأعمال الصالحة ونحوها فإذا جمعت قوليهم الفاسدين إن جميـع الذوات في القرب منه سواء وإن جميـع ما أراده فقد أحبه ظهر فساد ذلك وقبحه وآثاره الخبيثة، وأن نفس القولين متناقضان فإذا قالوا المراد بالعِنْدِية والقرب عندية الخلق والتكوين فالذوات كلها مكونة مخلوقة لله، وإن قالوا العِنْدِية عندية التقريب والشرف فهم ينفون هذا لأن المحبة عندهم هي الإرادة فيستحيل هذا التأويل

ويتبين أنه مكابرة للمعقول كما أنه مناف للمنقول.

الحادي عشر: إشارته ﷺ إلى العلو حين خطب الناس يوم عرفة وقال: (هل بلغت)؟ قالوا: نعم، فأشار بإصبعه إلى السماء يشير إلى الله وينكبها إلى الناس يقول: «اللهم اشهد» وهذا برهان على علوه وارتفاعه.

الثاني عشر أن الله وصف نفسه وسماها بأنه الظاهر، وقد فسره ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه إذْ قال في دعائه واستفتاحه (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) فهذا تفسير صريح من الصادق المصدوق وقرره بنفي ضده بقوله (فليس فوقك شيء) وهذا هو المفهوم من لفظ الظاهر، فإن الظاهر يدل على العلو فكلما علا الشيء ظهر وبان، كما أنه كلما سفل خفي واستتر كما هو مشاهد في المركز الأسفل لهذا العالم وأن أعلاه ومحيطه أظهرها وأوسعها، فالله أعظم من ذلك وأعلى، فالعلو والظهور كل منهما مقتض للآخر فهما متلازمان.

الثالث عشر ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مع دلالات القرآن المتعددة في رؤية أهل الجنة ربهم تعالى، فإن هذه النصوص من أعظم البراهين على علو الله، ولهذا لا يمكن المعطل أن يثبت الرؤية إثباتاً صحيحاً على وجه يعقل حتى يثبت علو الله على خلقه، فإنه إذا أثبت الرؤية ونفى العلو كقول أكثر الأشاعرة فإنه يسأل ويقال له: من أين يرى ربنا، هل من تحتنا أو يميننا أو شمالنا أو خلفنا أو أمامنا؟ وهذا باطل فلا بد أن يضطر ويقول من فوقنا إذا لم يكابر، فإن الرؤية المعقولة المعروفة تقتضي مقابلة الرائي للمرئي، فمن زعم خلاف ذلك فقد كابر المحسوس، ولهذا فسر هؤلاء الرؤية بشيء لا يدل عليه الشرع واللغة والحس، فسروها بأنه ينكشف لأهل الجنة زيادة علوم ومعارف، فجمعوا محذورين: نفي رؤية الله التي دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية، وإتيانهم من عند أنفسهم بمعنى لم يرده الله ولا رسوله، والعقائد الباطلة هكذا تصنع بأصحابها. ولهذا كان بعض فضلاء الأشعرية يقول: إنه لا فرق بين مذهب الأشاعرة ومذهب المعتزلة في نفي

الرؤية إلا اختلاف عبارات؛ وهو كما قال، لأن زيادة معارف أهل الجنة بربهم وانكشاف العلم الذي فسروا به الرؤية لم يزل مصاحباً لهم في جميع أحوالهم، وهذا من أعظم ما يبين بطلان هذا التفسير الذي هو تحريف وتمويه.

الرابع عشر أنه ﷺ قال للجارية: أين الله؟ وأجاب السائل له «أين الله». بجواب الأينِ فقال: في السماء. ولم يجبه بجواب مَنِ الله كما هو قول الجهمية. وهذا الذي أراد ﷺ وهو الذي فهمه السائل وكل سامع لم يتمكن منه مذهب الجهمية، فدل ذلك دلالة قاطعة على علو الله على خلقه. وأن الجواب السديد الصحيح لمن سأل أين الله أن يقال: فوق عرشه عال على خلقه. والجهمية يمتنع عندهم السؤال بالأين ولا الجواب عنه، وإن ورد ذلك كان معناه معنى الاستفهام. وهذا معلوم البطلان، فهم يصرحون بنفيه، والرسول ﷺ يصرح بإثباته فعلاً وإقراراً، وهذا من أعظم المشاقة لله ولرسوله. وكيف يعدل النبي ﷺ مع كمال نصحه وكمال علمه وكمال بيانه عن لفظ «مَنْ» وهي أخصر وأوضح وأفصح إلى لفظ «أين» وهي بخلاف ذلك؟ هذا من المحال.

الخامس عشر إجماع الكتب السماوية والرسل عليهم الصلاة والسلام على التصريح بعلو الله على خلقه وفوقيته، حكى ذلك غير واحد من العلماء المعتبرين، كالشيخ عبد القادر الجيلاني في غنيته وأبي الوليد بن رشد وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب التحقيق الكامل والاطلاع الواسع الذي لا يوجد له نظير في معارفه ومعلوماته وتحقيقاته العقلية والنقلية، وكذلك المصنف رحمه الله قطع بذلك وقطع باتفاق الرسل على جميع أصول الدين التي أصلها إثبات صفات رب العالمين، وعلوه على الخلق، وأنه المتكلم على الحقيقة، وأن الله هو المعبود وحده، وأن القضاء خيره وشره من الله والإيمان باليوم الآخر، فجميع الأنبياء والمرسلين متفقون في أصول الدين في

الشرائـع الكبار التي لا تختلف باختلاف الأزمنة، كالعبادات الكلية، والعدل في المعاملات والأحكام والولايات، وتحريم الظلم والكذب والغيبة والنميمة والفواحش الظاهرة والباطنة، والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، لأنه يستحيل أن تأتي الشرائـع السماوية بخلاف ذلك. فهذه الأصول الحقة النافعة التي لا تحصل سعادة الدنيا والآخرة إلا بها.

وأما أصول مذهب المعتزلة فإنها منافية لهذه الأصول غاية المنافاة، فعندهم أصول خمسة من خصائص مذهبهم: جحود صفات الباري، وعلوِه على خلقه، ورؤيته في الآخرة، والقول بخلق القرآن، وما يسمونه العدل الذي مضمونه نفي قدرة الله على أفعال العباد وأن الفاسق الملي ينفى عنه الإيمان ولا يسمى كافراً ولكنهم يخلدونه في النار، وينفون الشفاعة بأهل المعاصي. ولأجل هذه الأصول قالوا: لا يقدر الله على هـداية الكـافرين ولا إصـلاح العاصين، ولأجلها قـالوا بـوجوب الصـلاح والأصلـح على ربهم بحسب ما اقتضته عقولهم الفاسدة وقد علم بالضرورة منافاة هذه الأصول للشرع والعقل.

السادس عشر إجماع أهل السنة والجماعـة من الصحابـة والتابعين وتابعيهم من أئمة المسلمين المعتبرين الذين إجماعهم هو الحجة والعصمة، وأما من سواهم ممن هو معروف ببدعة وإلحاد فوجود خلافهم لا يقدح في الإجماع، وقد قرر هذا الإجماع كثير من الأئمة بالنقل المتواتر عنهم بالألفاظ المتنوعة على علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وتتبـع ذلك كثير جداً موجود في كتب التفسير والأصول والآثار والفقه، لم يخالف منهم مخالف، بل كلهم مُقِرُّون بذلك منكرون على من تأول وأنكر أو شك فيه. وأطال المؤلف في تعداده لمن حكى هذا الإجماع من الأئمة، وسرد أقوالهم على وجه الإشارة، وذكر أنهم أهل العقول الكاملة المؤيدة بنور الوحي والبصيرة وأهل الصدق الكامل والدين المتين، فهل يوزن بهذه العقول التي ترجح بالجبال

الرواسي أو تساويها عقول سفهاء الأحلام أرباب الكلام الباطل وقشور الفلسفة الذين كذبوا بالحق فهم في أمر مريج.. الذين لا يفرح بوفاقهم ولا يؤسف على خلافهم.

السابع عشر ما أخبر به تعالى عن موسى عليه السلام وعن فرعون حين دعاه إلى ربه وأنكر فرعون دعوته وموه على قومه وقال لوزيره هامان على وجه التكذيب لموسى والتهكم به:

﴿ٱبْنِ لِي صَرْحاً لعلِّي أبلُغُ الأسباب * أسبابَ السماواتِ فأَطَّلِعَ إلى إِلَهِ مُوسى وإنِّي لأظُنُّهُ كاذباً﴾ [سورة غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧]

فهذا صريح في تكذيبه لموسى في قوله إن الله فوق السماوات والخلق كلهم، وتبع فرعون على قوله هذا جميع الجهمية الفرعونية ورموا ببلائهم أهل السنة والجماعة وقالوا إن مذهبهم مذهب فرعون الذي اعتقد علو الله على خلقه، وهذا من العجائب وقلب الحقائق، فإنه لا يشك أحد أن مقالة فرعون المذكورة تكذيب لموسى ورد لقوله وأن فرعون أراد أن يموه على قومه فيصعد السماء ليصل إلى إلّه موسى الذي دعاه موسى إلى عبادته، فموسى إمام المثبتين لعلو رب العالمين وفرعون إمام كل معطل.

الثامن عشر أن الله تعالى قد نزه نفسه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتشبيه، كما نزه نفسه عن الشريك والظهير والعوين والوزير والولد والصاحبة والحاجة وأن يوالي أحداً من الذلة، وكذلك نزه نفسه أن يكون أحد يشفع عنده بدون إذنه، بل نزه نفسه عن أمور ما قالها أحد تحذيراً من وقوعها، فإنه نزه نفسه عن الطعم والموت والنوم والسنة والنسيان ولم ينسبه أحد إلى شيء من ذلك.

كذلك نزه نفسه عن الظلم وإرادته وعن العبث والباطل والتعب والعجز المنافي لقدرة الله تعالى، ونزه نفسه عن كل ما لا يليق بجلاله، ونزه نفسه عن مقالة قالها بعض طوائف اليهود إن العزير ابن الله، فكل نقص وتمثيل قد نفاه

عن نفسه، فلو كانت مقالة المعطلين النافين لعلو الله على عرشه فوق مخلوقاته ومباينته لهم حقاً لنزه نفسه عن العلو والفوقية، فكيف والأمر بالعكس فهو دائماً يبدي ويعيد في ذكر علوه وفوقيته ويقرر ذلك بكل دليل وبرهان، فلو فرض أن النصوص خالية من تقرير العلو والاستواء على العرش لكان تركه تنزيهه عن العلو أكبر دليل على تقرير ذلك ورضاه به والعلم بأنه غير مناف لكماله، فكيف وهو مع ذلك والأدلة الشرعية كلها على خلاف قول الجهمية، فلو بسطت أنواعها وجعلت أفراداً لزادت على ألف دليل فإن كان يمكن تأويلها وإنكارها مع هذا البيان والوضوح وتنوع الأدلة أمكن تأويل الدين كله وإنكاره كما فعل ذلك الملاحدة الزنادقة من القرامطة والباطنية والإسماعيلية فإذا كان معلوماً بطلان قولهم في الشرائع والمعاد والتوحيد فكذلك قول المتأولين للعلو ولا فرق بين الأمرين في الحقيقة.

التاسع عشر أن يقال للمعطل: هل تعترف أن محمداً ﷺ كان يعرف ربه؟ فلا بد أن يقول نعم، فيقال له: هل كانت نصيحته لأمته كاملة تامة لا يمكن أن يساويه فيها أحد؟ فلا بد أن يقول نعم، فيقال له: هل كان فصيحاً بليغاً مقتدراً على التعبير عن المعاني المقصودة بالألفاظ الجلية الفصيحة فمعاني كلامه أجل المعاني وألفاظه أفصح الألفاظ؟ فلا بد أن يقول نعم، لأن هذه الأمور الثلاثة في حق النبي ﷺ لا يمكن أن ينازع فيها مسلم يعظم الرسول، فإذا علم بالضرورة أن هذه الأمور الثلاثة قد كملت فيه على أكمل وجه كان من أعظم المحال أن يكتم ما يجب لله من العلو والفوقية وصفات الكمال ويفصح بضد ذلك، بل لما كان ﷺ كامل العلم بربه وبدينه فهو أعلم الخلق وأخشاهم لربه وكان بالمؤمنين رحيماً أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأبلغ الخلق وأقدرهم على التعبير عن المعاني النافعة، علمهم ﷺ ما لم يكونوا يعلمون، وقد بين للناس جميع ما يحتاجون إليه، خصوصاً الأمور المهمة والعقائد الدينية والأصول الإيمانية، فلو كان الحق فيما يقوله

النفاة والنبي ﷺ لم يصرح بشيء منه بل صرح بضده وجعل الأمر موكولاً لعقول الناس وآرائهم الضعيفة للزم انتفاء هذه الأمور الثلاثة كلها، وهذا لا يفوه به مسلم يؤمن بالله ورسوله.

بل لما كان هذا الباب أنفع الأصول وأفرضها، والناس مضطرون إليه، صرح ﷺ بأنواعه وتفاصيله حتى أن كثيراً من الأئمة لم يقل جميع ما قاله الرسول في هذا الباب.. لا كتماناً منهم، بل مراعاة لأحوال وقتهم وأهل زمانهم، وأن كثيراً منهم لا تكاد أفهامهم تطيق وتحتمل بعض الدقائق الإيمانية فلم يخبروا به للمصلحة، فالعلم يجب بيانه إلا إذا اقتضت المصلحة السكوت عن بعضه مراعاة لأهم الأمرين، فإن الشرع دائر مع المصالح وتقديم راجحها على مرجوحها والله أعلم.

العشرون من البراهين الدالة على علو الله على خلقه واستوائه على عرشه الدليل العظيم والبرهان القاطع، وهو ما يحصل من مجموع الأدلة السابقة وغيرها، فإنه يحصل من سرد أنواعها وأفرادها ونصوصها وقواطعها ما يوصل إلى اليقين الاضطراري والعلم الضروري الذي لا يمكن دفعه ويحصل الجزم التام الذي لا ريب فيه بعلو الله وارتفاعه واستوائه على عرشه. وأشار المؤلف إليها في هذا الموضع إشارة لطيفة تعرف مما تقدم، وذلك أن واحداً من الأدلة يفيد العلم بالمقصود ثم الآخر كذلك ثم يستفاد من انضمام أحدهما للآخر دلالة أخرى ثم من مجموع الجميع دلالة هي أقوى أنواع الدلالات فتتزايد شواهد الإيمان وتتعاون أدلته حتى يكون الإيمان في القلب أرسخ من الجبال.

الحادي والعشرون أنه ورد في الكتاب والسنة ذكر مجيء الله للفصل بين عباده كما في قوله تعالى:

**﴿هل ينظرون إلاّ أَنْ تأتِيَهم الملائكةُ أو يأتيَ ربُّك أو يأتيَ بعضُ آيات ربك﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٥٨]

فهذا التنويـع والتقسيم المصرح بمجيء الملائكة ثم مجيء الله ثم مجيء بعض آياته يمنـع تأويلة بأنه يأتي أمره أو ملك من الملائكة، وأنه من باب تحريف الكلم عن مواضعه، لأن الأمرين صرح بذكرهما وصرح بينهما بذكر مجيئه فلم يبق للاحتمال موضـع بوجه، فإذا ثبت وتقرر مجيئه كان معلوماً أنه يأتيهم من فوقهم لا من بقية جهاتهم كما تقدم في الرؤية.

## فصـــل

### في الإشارة إلى ذلك من السُّنَّة

أشار المصنف رحمه الله في هذا الفصل إلى بعض ما تضمنته الأحاديث النبوية من علو الله تعالى واستوائه على عرشه، وقد بسط الأدلة في ذلك والآثار في كتابه (الجيوش الإسلامية) فليرجـع إليه من أحب الوقوف عليه، وذكر في آخر الفصل حين أشار إليها أن هذه الأدلة الكثيرة المتنوعة لا تقبل التأويل بوجه من الوجوه وأن تأويلها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

## فصـــل

### في جناية التأويل، والفرق بين المقبول منه والمردود

لا يرتاب عارف أن جميـع المصائب التي جرت في صدر الإسلام وبعد ذلك ووقوع الفتن والاقتتال والتحزبات كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا ينتـج إلا شراً. فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية، والفتن الفعلية، فلم يزل التأويل يتوسـع، وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته التي قبلها، حتى وصلت النوبة إلى ابن سينا وأتباعه، فتأولوا جميـع الشرائـع العلمية والعملية، وأبطل القرامطة جميـع الشرع، وفسروا شرائعه الكبار بتفاسير يعلم الصبيان بطلانها. فهذه البدع أصلها الذي تأسست عليه التأويل الباطل المردود.

وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهي التي أمر الله ورسوله بها ومدح أهلها، وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يَـؤُول إليه الأمر من العمل بأمر الله ومن فهم ما يَـؤُول إليه الخبر. فلفظ «التأويل» في الكتاب والسنة الغالب عليه هذان الأمران: إما نفس وقوع ما أخبر الله به ورسوله، وإما العمل بما أمر الله به ورسوله. فالأول راجع إلى التصديق، والثاني راجع إلى الطاعة والإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله هو الخير كله وسبب السعادة والفلاح.

فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلى فهم مراد الله ورسوله، وإلى العمل بالخبر، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله، إلى بدعهم وضلالهم، وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم وقول غير الحق.

وكل من ادعى تأويلاً يخالف اللفظ لم تصح دعواه إلا بأربعة أمور لو اختل واحد منها فتأويله باطل: (أحدها) أن يأتي بدليل يدل على قوله، لأنه خلاف الأصل فإن الأصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقته، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه البرهان. فإذا أتى بدليل طولب بأمر (ثان) وهو أن ذلك الذي تأوله إلى ذلك المعنى يحتمله، لأنه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب، لأنه باللسان العربي أنزله الله ليعقله العباد إذا تدبروا ألفاظه، فهل يمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجية. .

فإذا أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى الذي عينه وهيهات له ذلك طولب بأمر (ثالث) وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له، فهب أن ظاهره غير مراد فلا بد من دليل يعين المعنى الذي صرفه إليه ويخصصه به، فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص، لأن اللفظ لا يدل عليه

بخصوصه، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عينوه، وقد يكون اللفظ متعبداً بتلاوته ولفظه مجرداً عن المعاني، وهو أولى من تحريفهم أو إتيانهم بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، وإن كان الأمران ينافيان حكمة الباري، لكن التعبد أهون من التحريف.

فإن فرض أنه تأول على غير ظاهره وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعين طولب بأمر (رابع) وهو الجواب عن المعارض، لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك، والمعارض للنفي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفطرة كما تقدمت الإشارة إليها، ومن المستحيل أنْ يُعَارَضَ وحيه وتنزيله وقول رسوله وأصحابه والتابعين بإحسان بأقوال النفاة الذين بنوا أمرهم على المحال، فتبين أن المعطلين النافين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبداً بوجه من الوجوه وهو المطلوب.

## فصــل

### في شَبَهِ المُعَطِّلين لليهود، المحرِّفين للنصوص، وإرثهم التحريف منهم، وبراءة أهل الإثبات ممَّا رَمَوْهم به من هذا الشَّبَه

وذلك أن المحرفين من الجهمية ونحوهم رموا أهل السنة بأنهم ممثلون ومشبهون مشابهون لليهود، لأن اليهود على زعمهم ممثلون، فعندهم أن أهل السنة ممثلون لأنهم أثبتوا لله صفات الكمال التي نطق بها الكتاب والسنة ودلت عليها العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة لعقول الجهمية ومن دان بقولهم توهموا أن إثبات الصفات تمثيل ورموا به أهل السنة، والحال أن المشابهة الحقيقة لليهود منطبقة على الجهمية، فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وكتمانها وبين تحريف ما لا يمكن فيه أحد الأمرين، فهؤلاء الجهمية لما تعذر عليهم التبديل والكتمان لأن الله نزل الذكر وحفظه فيستحيل تبديله وكتمانه، عمدوا إلى تحريف معاني النصوص وتبديلها، فنفوا المعنى

الذي أراده الله ورسوله، وأثبتوا لها معاني من تلقاء أنفسهم. فهذا هو الشبه الحقيقي باليهود، وكذلك اليهود لما قيل لهم:

﴿وادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّة﴾ [سورة البقرة: الآية ٥٨]

دخلوا على إستاتهم وقالوا حبة في حنطة تهكماً وجرأة على الله، كذلك الجهمية لما نصّ الله أنه:

﴿استوى على العرش﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

قالوا معنى استوى «استولى» فاليهود زادوا النون في قولهم حنطة بدل حطة والجهمية زادوا اللام في قولهم استولى بدل استوى. وهذا قول باطل قد بين الأئمة بطلانه من وجوه كثيرة. وقد ذكر المؤلف في كتابه (الصواعق المرسلة) أكثر من أربعين وجهاً في إبطال هذا التحريف واليهود قد وصفوا الله بالنقائص والعيوب، وهؤلاء نفوا صفاته وهو أشنع التنقيص.

## فصـــل

### في بيان بهتانهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون، وقولهم: إن مقالة العلُوّ، عنه أخذوها، وأنهم أولى بفرعون، وهم أشباهه

وذلك أن الجهمية رموا أهل السنة وسموهم فرعونية، يقولون إن مذهبهم مذهب فرعون لأنهم يعتقدون أن الله فوق خلقه كما اعتقد فرعون ذلك حتى طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً ليبلـغ الأسباب أسباب السماوات فيطلـع إلى إلّه موسى تكذيباً لموسى وجحداً لرب العالمين. ومن المعلوم أن الجهمية أولى بفرعون في هذه الحالة، لأنه قالها إنكاراً، وهو نفس مذهب الجهمية، فإنهم أنكروا كلام الله وعلوه على خلقه كما أنكر فرعون ذلك بتكذيبه لرسالة موسى ولعلوّ الله، وليس بينهم فرق إلا أن فرعون صرح بالإنكار وهم موهوا العبارات وزخرفوا الألفاظ وقبحوا الحسن وحسنوا القبيـح وسموا أنفسهم أهل الحق وسموا غيرهم أهل الباطل فانخدعوا لهذه الزخارف وخدعوا غيرهم.

# فصـــل

## في بيان تدليسهم وتلبيسهم الحق بالباطل

وذلك أن كل صاحب بدعة يقصد نصر مقالته يأتي إلى الحق الصريح المناقض لقوله فيستخرج له الاحتمالات البعيدة والألفاظ المجملة، فإن هؤلاء الجهمية موهوا وقالوا لإخوانهم: إذا قال لكم المجسم:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طَه: الآية ٥]

فقولوا له: هذا لفظ مجمل، فإن «العرش» له عدة معانٍ و «الاستواء» له عدة محامل، فأي المعاني تريد وأي المحامل تقصد. و«على» أيضاً تأتي في العربية لعدة معانٍ فإذا سمع الجاهل هذا التلبيس والتمويه استعظم ذلك ورآه إشكالاً يعسر الانحلال عنه، وأما المتبصر الذي نور الله قلبه فإنه يعرف أن هذا ليس محل إشكال ولا لبس بل هو من أوضح الأشياء وأبينها، فإن الألف واللام في «العرش» للعهد الذي يفهمه كل مسلم أنه عرش الرب العظيم لا غيره من عروش الكرم ونحوها، ولو قيل له يحتمل واحداً غير هذا لبادر لإنكاره، هذا مع اتفاق جميع الرسل وشهادتهم أنه استوى على العرش العظيم، فكل مؤمن يفهم المعنى من قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طَه: الآية ٥]

وكذلك لفظ الاستواء المعدّى بعلى فإنه واضح جداً دالّ على العلوّ والظهور، فإن الاستواء حيث عُدِّيَ بعلى فإنه يدل على العلو والظهور، وأما إذا عدي بإلى نحو

﴿استوى إلى السماء﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

فإنه يدل على القصد، وإذا قيل استوى كذا وكذا دل على معية الأول للثاني كقوله لموسى:

﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ [سورة القصص: الآية ١٤]

فهذه المعاني المتباينة بحسب تعديته بالحروف كما ذكرنا، فعلم علماً يقيناً أن قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

لا إشكال فيه ولا إجمال، خصوصاً وقد طرد إتيانه بهذا السياق في جميع موارده ومصادره، ولم يأت هذا المعنى بلفظ فيه إجمال، فلو كان المراد ما قصده الجهمي لأتى به ولو في موضع واحد ليستبين المراد، والجهميّ من تلبيسه جعل هذه الألفاظ مجملة محتملة لعدة معانٍ ليتمكن من تحريفه، فينبغي مع ذلك أن يتمم هذا التحريف والتلبيس فيقول والرحمن له عدة معانٍ ليكمل إلحاده ويستريح ويجعل قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

ليس له معنى وإنما يتبرك بقراءته تبركاً.

ونظير هذا الفصل الفصل الذي بعده وهو قوله:

## فصـــل

### في بيان سبب غلطهم في الألفاظ، والحكم عليها بعدة معانٍ حتى أسقطوا الاستدلال بها

اعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة تأتي مركبة صريحة في معانيها لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق على هذا جميع أئمة المسلمين الذين عرفوا مقاصد الشارع في مصادره وموارده، وتمرّنوا على ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية فلا يستريبون أيضاً في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بياناً وأبلغ وضوحاً لشدة الحاجة والضرورة إليه.

ودون هؤلاء من أهل العلم من لم يصل إلى ما وصلوا إليه لأنه ليس عندهم من الاعتناء بالنصوص كما عند أولئك، فنصوص الشارع عندهم ظواهر ظاهرة في معناها في مداركهم وأفهامهم، وربما وقع لبعض هؤلاء من الاحتمالات والإشكالات ما لا يقدرون على حله، وبين هؤلاء وبين الأولين

فرق عظيم في هذه الأبواب والأصول العظيمة، وليس نزولهم عن الأولين لقصور في أفهامهم وإنما ذلك لعدم إقبالهم التام واعتنائهم بكلام الشارع، ولهذا تجدهم في المذاهب التي تفقهوا بها واعتنوا بها جازمين بمقاصد أئمتهم ومرادهم بألفاظهم ونصوصهم، لأنهم وفروا مداركهم لتحصيل ذلك فمهروا فيها.

وأما القسم الثالث المذموم فهم جمهور أهل الكلام الباطل الذين أصلوا أصولاً ما أنزل الله بها من سلطان حالت بينهم وبين فهم مراد الله ورسوله، حتى جعلوا كلامهم أصلاً واضحاً محكماً وكلام الله ورسوله تابعاً مجملاً مشتبهاً، وموهوا على الناس أنهم أهل الحق ومن سواهم أهل الباطل، وسموا مقالاتهم بأسماء ممدوحة راجت على أكثر الخلق الذين يغترون بزخارف الألفاظ ولا تنفذ بصائرهم إلى بواطن المعاني، ثم تمموا مقالتهم الباطلة بأنْ سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء المذمومة كالمجسِّمة والمشبهة ومقالتهم تجسيماً وتشبيهاً وتنقيصاً، ثم عمدوا إلى ألفاظ السنة الصريحة الواضحة المركبة ففككوا تراكيبها وتكلموا على مفرداتها وأنها تحتمل كذا وكذا من المعاني من حيث أفرادها، فأسقطوا بعملهم هذا الاستدلال بها، وأفسدوا على الناس عقائدهم وحرفوا معاني الوحي.

فاعلم هداك الله أن المجردات اللفظية والمجردات المعنوية لا وجود لها في الخارج، وإنما يفرضها الذهن فرضاً خيالياً وهو غالط في هذا الفرض، فإنه لا يستفاد من لفظ مفرد مجرد عن التركيب والقيود معنى أصلاً. وإنما تستفاد المعاني بانضمام الألفاظ بعضها إلى بعض وتركيبها تركيباً صحيحاً، ونظير فعل المتكلمين في الألفاظ المجردة نظير فعل الفلاسفة في المعاني المجردة كالوجود المطلق عن كل قيد فحكموا بوجوده خارجاً وجوداً مطلقاً مجرداً عن كل قيد وحيواناً مطلقاً وإنساناً مجرداً، فحصل بذلك من الغلط العظيم والتخبيط للأذهان والإلحاد شر عظيم، فالحاصل أن الألفاظ

المجردة والمعاني المجردة عن كل قيد ووصف مفروض بالذهن لا وجود له أصلاً.

## فصـــل

### في بيان تناقضهم، وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب

وذلك أن المتكلمين بالكلام الباطل من جهمية ومعتزلة وقدرية وكلابية وأشعرية قد اشتركوا في نفي صفات الباري، وقد تفاوتوا في كثرة ما ينفونه منها، وكل فريق منهم فيما ينفيه من الصفات إذا وردت عليه النصوص من الكتاب والسنة في إثباتها تأولها تأويلات تنفي ما تدل عليـه من المعاني الصريحة الظاهرة الحقة، وصرّفها لمعان باطلة لا تدل عليها لأجل موافقة نحلته ومذهبه. وجرأهم على هذا التأويـل أنهم سموا المعـاني الفلسفية والأصول اليونانية قواطـع عقلية وبراهين يقينية وأدلة الكتاب والسنة ظواهر لفظية قابلة للتأويل، فسطوا عليها بالتأويلات الباطلة التي يجزم كل ذي بصيرة أنها خلاف مراد الله ورسوله منها.

ثم إنهم لا بد أن يثبتوا أشياء من الصفات أو من الأسماء ويمنعوا من تأويلها، ومن تأولها أنكروا عليه غاية الإنكار، فصاروا بهذه الحال مذبذبين لا من النافين للرب المعطلين له بالكلية كالفلاسفة الزنادقة ونحوهم من كل مارق خارج عن الأديان ولا من أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته الله ورسوله على الوجه الذي يفهمه كل أحد لم تفسد عقيدته القواعد الباطلة والمقالات الفاسدة، فصاروا أعداء للطائفتين بما خالفوهم فيه وانقطعوا عند مناظرتهم لكل من الفريقين، وكانت الفلاسفة تعترض عليهم بما وافقوهم فيه من الأصول الباطلة؛ يقولون لهم: كيف لا تلتزمونها ولا تطردونها فتوافقونا على قولنا؟ وصار أهل السنة والجماعة يلزمونهم ويقولون لهم: إن تأويلاتكم هذه من جنس تأويلات الفلاسفة الزنادقة ــ الذين لا يؤمنون بالله ورسله ــ لنصوص

الكتاب والسنة في جميع الشريعة، فلأي شيء ساغ تأويل أهل الكلام من الجهمية ونحوهم ولم يسغ تأويل الفلاسفة، وبذلك سلطوا على أنفسهم أعداء الإسلام ويلزمونهم بالتحيز إليهم، وكفى شراً بمقالة تصل بأصحابها إلى هذا الحد.

وكان أهل السنة والجماعة ينكرون عليهم النفي والتعطيل ويقولون لهم: هذا خلاف ما أتت به الأدلة النقلية والعقلية، وقالوا لهم: جميع الصفات من العلو والاستواء والكلام وغيرها صريحة في الوحيين لا ريب في دلالتها عليها، فبأي شيء فرقتم بينها فأثبتم أشياء ونفيتم أشياء وجميعها وردت وروداً واحداً، فعجزوا عن الفرق الصحيح وتشبثوا بفروق لفظية لا حقائق معنوية، فادعى بعضهم ما أشار إليه في هذا الفصل:

## فصل

### في المطالبة في الفَرْق بين ما يتأول، وما لا يتأول

وهذه المطالبة موجهة إلى الكلابية والأشعرية والماتريدية الذين يثبتون الصفات السبع، وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، وينفون ما عداها من الرحمة والرضى والغضب والعلو والاستواء على العرش وغيرها فإذا قيل لهم: فرقوا بين ما أثبتم وما نفيتم إذ الجميع وردت في الكتاب والسنة ورودا واحداً مثبتة لله كسائر ما يثبت له من الأسماء والأوصاف، فكيف تأولتم ما نفيتم وتركتم ما أثبتم؟ فقالوا: ما يقتضي التجسيم تأولناه لأن الجسم من خصائص المحدثات المخلوقة فهذا الذي تأولناه ما نعقل منه إلا التجسيم فتعين فيه التأويل، بخلاف الصفات السبع فإنها لا تدل على التجسيم بل تثبت لله على الوجه اللائق بحلال الله وعظمته.

فقال لهم أهل الإثبات: هلا سلكتم هذا المسلك في الصفات الأخر وأثبتموها لله على وجه لا يماثله فيه أحد من الخلق بوجه من الوجوه كما هو

الحق الواجب، فتفريقكم بين الأمرين تفريق بين متماثلين، فإذا قالوا: ما نفهم من هذا الذي تأولناه إلا التجسيم فتعين نفيه؛ قال لهم النفاة من الجهمية ونحوهم: ما نفهم من الصفات السبع إلا التجسيم، فتعين نفيها، فما أجابوا به الجهمية من أنهم يثبتونها وينفون عنها خصائص المخلوقين يقول لهم أهل السنة فافعلوا هذا في بقية الصفات فالباب واحد، وإلا فبينوا فرقاً صحيحاً. ومن المعلوم اليقيني أنهم لا يهتدون إلى فرق بين الصفات بإثبات بعضها ونفي بعضها، ولو نشرت شيوخهم لعلمنا أن الجميع طريقه واحد، والتماثل بين الصفات أمر يقيني قطعي لا تؤثر فيه الشبهات والفروق الخيالية.

فلذلك فرّ بعضهم إلى فرق آخر خياليّ وهمي فقال: ما دل عليه العقل وهي الصفات السبع أثبتناها، فإن وجود المخلوقات دل على القدرة، وما فيها من التخصيصات دال على الإرادة، وذلك دليل العلم، والعلم والقدرة والإرادة تدل على الحياة، والحياة الكاملة تدل على السمع والبصر والكلام. وما لا يدل عليه العقل نفيناه وهو ما سوى المذكورات. فقال لهم أهل السنة: هذا عجب منكم، كيف أنكرتم التجسيم غاية الإنكار وقامت لذلك قيامتكم وزعمتم أن كل موصوف فهو جسم، ثم أثبتم هذه الصفات السبع ولم تتحاشوا من كونها دالة على التجسيم. فإن كان في العقل ما يدل على التجسيم وأنتم تنفونه غاية النفي فيلزمكم نفي الصفات السبع وموافقة الجهمية في النفي التام، وإن كان فيه ما يدل على ثبوته فلأي شيء تفرون من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له أعلم خلقه وأتقاهم وأورعهم، وإذا قلتم إنه منفي في شيء دون شيء فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ويقال أيضاً نفي الدليل المعين لا يدل على نفي المدلول، فقدروا أن بقية الأوصاف لم يدل عليها العقل، فالسمع قد دل عليها دلالة واضحة جلية قاطعة، ودلالة السمع دلالة شرعية يقينية متفق عليها بين حملة الشريعة، فيجب اتباع الدليل السالم عن المعارض والمقاوم. ثم يقال أيضاً قد ثبت كثير

من الصفات الخبرية بأمور عقلية عيانية، فما في المخلوقات من أنواع المنافع والمصالح والنعم يدل على رحمة الخالق، وما يشاهد من إكرام أوليائه وإهانة أعدائه أكبر دليل على رضاه على هؤلاء وغضبه على الأعداء، وما يشاهد من إحكام المخلوقات وإتقانها وحكم الشرائع وأسرارها دال على كمال حكمة الله. فهذه الصفات ثابتة شرعاً وعقلاً وفطرة فعلم أن المفرقين في ضلال بعيد.

## فصل

### في مخالفة طريقة المُعَطِّلين لطريقة أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً

اعلم أن طريق أهل الكلام الباطل مخالف لطريق أهل الاستقامة من جهة التأصيل والتفريع، وذلك أن أصل طريقهم الذي بنوا عليه قواعدهم وأقوالهم وأعمالهم أن رأي متبوعهم وشيوخهم وعقولهم هو الأصل الأصيل، وهو النص الواضح الذي توزن به المقالات، فإذا جاءهم كلام الله وكلام رسوله مخالفاً لهذا الأصل قالوا هذا متشابه يحتمل عدة معانٍ، وكلام متبوعنا نص لا احتمال فيه فإن أمكنهم التأويل والتحريف فعلوا ذلك، وإلا قالوا: متشابه لا يعلمه إلا الله. وإذا قيل لهم: هذا بيان الله ورسوله ما فيه اشتباه ولا إشكال أجابوا بأننا مقلدون ومتبوعنا أعلم منا بمراد الله ومراد رسوله، فهذا من أعجب العجب، كيف اهتدوا مع اعترافهم أنهم مقلدون عن الاستدلال أن يعينوا أولوية ذلك المتبوع على غيره، بل اهتدوا لوجوب اتباعه وإهدار أقوال من سواه؟ كيف نهض بهم الاستدلال إلى هذا الحد وهو من أصعب الأشياء وعجزوا عن الأخذ عن الله ورسوله مع استيلاء الوحيين على غاية البيان والبلاغة. ولا ريب أن هذا غاية الحرمان. والمقصود أن طريق هؤلاء المتكلمين أخبث الطرق، إذ جعلوا أصولهم هي الأصول وكلام الله ورسوله تبعاً لها، فما وافقها قبلوه وإلا حرفوه أو فوضوه.

أما طريقة أهل الاستقامة فإنها بالعكس من هذا الطريق، بل سلكوا الصراط المستقيم وتبعوا بذلك سيد المرسلين وأتباعه من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث كان أصلهم الذي عليه يعتمدون وفي أصولهم وفروعهم إليه يرجعون كتاب الله وسنة رسوله إذ فيهما الهدى التام والكفاية والشفا والغنى عما سواهما، فصدقوا أخبارهما وحققوا أوامرهما بالامتثال والنواهي بالاجتناب، وعلموا أن الحق ما اشتمل عليه الكتاب والسنة وليس بعد الحق إلا الضلال، وعرضوا جميع المقالات والعقائد عليهما فما وافق ذلك قبلوه وما خالفه ردوه على من قاله، وعلموا أن كل أحد من الخلق يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما أشكل عليهم هل هو موافق أو مخالف من المقالات الغامضة والألفاظ المجملة توقفوا فيه ولم يحكموا له بقبول ولا رد حتى يتبين حاله.

فهذه الطريق هي المنجية العاصمة من المهالك، الكفيلة ببيان الحقائق وتعدي الخلائق، التي من استمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقي والسبب الأقوى فإن النقل نقل مصدّق والقائل معصوم، وأما غير الرسول من النقلة والقائلين فالنقل غير مصدق بل يعتريه من الكذب والتغيير شيء كثير، ثم القائل غير معصوم لا وثوق لأحد بقوله في فرع من فروع الدين فضلاً عن أصوله فضلاً عن تقديمه على الأصول الكبار، فهذا تحقيق الفرق، ولا يخفى الأمر على أولي الألباب.

# فصــل

## في بيان كذبهم في رميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج، وبيان شَبَهِهِم المُحَقَّق بالخوارج

بدعة الخوارج معروفة، وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والصحابة وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وأسسوا لهم بدعة خبيثة وهي تكفير أهل الكبائر وتخليدهم في النار، وإنكار الشفاعة فيهم، فقدحوا في الصحابة ومن لم يدن بدينهم من فضلاء الأمة، بل قال قائلهم وهو ذو الخويصرة للنبي ﷺ: اعدل يا محمد وهذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقدحوا في قصده وحكمه وروجوا مذهبهم الباطل بنصوص من الكتاب والسنة لم يفهموها وحملوها على مذهبهم. وقد اتفق السلف على بدعتهم وأنهم «مارقون من الدين» كما ثبت به الحديث.

فهؤلاء الجهمية شابهوا الخوارج مشابهة ظاهرة: سموا أنفسهم أهل الحق ومن قال بقول الصحابة والتابعين لهم بإحسان بأهل الباطل، والنصوص الثابتة في الكتاب والسنة الدالة على الإثبات ردّوا منها ما تمكنوا من رده وحرفوا ما حرفوا وكفروا المثبتين، فانطبق عليهم الشبه المحقق بالخوارج من كل وجه، بل الخوارج أحسن حالاً منهم من وجوه كثيرة، منها أن أدلتهم التي بنوا عليها مذهبهم نصوص فهموها من الكتاب والسنة غلطوا فيها، والجهمية إنما بنوا مذهبهم على آرائهم الفاسدة وعقولهم الكاسدة وعرضوا عليها الكتاب. والسنة والخوارج أصدق منهم وأورع عن الكذب، ولكنهم مع هذا رموا أهل السنة والجماعة أنهم أشباه الخوارج تمويها وترويجاً، والخوارج جردوا سيوفهم وألسنتهم على من قالوا إنهم فعلوا الكبائر، وهؤلاء سلوا سيوفهم على سنن الرسول بالردّ والتكذيب والتحريف وعلى أئمة الهدى بالقتل والتضليل والتبديع، والخوارج مثبتون لصفات ربهم والجهمية نافون لها، وأهل السنة وإن كانوا برآء من الطائفتين ويدينون الله ببغضهم ومعاداتهم فالحق

أحق أن يقال، والواجب معرفة مراتب الأقوال وتنزيل الأمور منازلها. وكل وصف نعت به الخوارج فالجهمية مثلهم أو أشر منهم، فإن الخارجي قال للرسول؛ «اعدل» والجهمية لما قال الله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

قالوا: الصواب «استولى» فاستدركوا على الله وعلى رسوله. وكذلك لما تواترت النصوص في نزول الرب إلى سماء الدنيا قال الجهمي مستدركاً على الرسول: الصواب ينزل أمره، لأن إخبار الرسول أنه ينزل يشوش عقائد الناس! وقالوا في معراجه: الصواب أنه عرج إلى كرامة الله لا إلى الله، وإن توجه العباد إلى العلو طالبين لربهم في أدعيتهم وتضرعاتهم قالوا: الصواب لا داخل العالم ولا خارجه.

ولما وصف المؤلف أحوال الجهمية أخبر أنه لم ينقل عنهم سوى ما قالوه. وأنه ممن جرب مقالتهم ووقع فيها في أول أمره حتى هيأ الله له شيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه وتبين له بسببه الحق المبين من الباطل وحصلت له الهداية والنور التام. وبين أصول الدين ورد أقوال المبطلين. والحاصل أن أهل السنة والجماعة تبعوا ما قاله الله ورسوله وهم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ولم يزيدوا على ذلك شعرة ولم ينقصوا منه ذرة، وكلام الله ورسوله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من كل شيء، وأسهل شيء عليهم رد كلام الناس كلهم إذا خالفوا نصاً واحداً من الكتاب والسنة، فبالله عليك أيهم أشبه بالخوارج وأولاهم بهم؟ والجواب لا يحتاج إلى ذكر لوضوحه.

# فصـــل

## في تلقيبهم أهل السُّنَّة والجماعة بالحَشْوِية، وبيان: مَنْ أولى بهذا الوصف المذموم من الطائفتين. .

سبب تلقيب الجهمية لأهل السنة بالحشوية أن الإيمان عندهم نفي الصفات، فمن لم يتصف بوصفهم فليس له من العلم والإيمان إلا اسمهما ولا من الحقائق إلا رسمها، فأهل السنة لما كانوا يثبتون لله صفات الكمال سموهم «حشوية» يعني أنهم حشو وفضلة في الناس وغثاء كغثاء السيل. وجهال الجهمية يتوهمون أن أهل السنة يعتقدون أن الباري في جوف السماوات والأرض وأنه حشوها، وهذا غاية ما يكون من الجهل، إذ لم يقل بهذه المقالة أحد من الناس، وأبعد الناس عنها أهل السنة والجماعة، فإن من اعتقادهم أن السماوات وما فيها من العوالم والأرضين وما فيها في قبضة الرحمن أصغر من خردلة في كف ممسكها، وله من العظمة والكبرياء والقدس والجلال ما لا تدركه عقول العالمين ولا تحيط به عبارات المعبرين، فكيف ينسب إليهم هذا القول الذي يدل على أن من قاله لم يقع في قلبه من معرفة الرب وعظمته أدنى شيء ولا قدر الله حق قدره.

المقصود أن الجهمية اختلفوا في أهل السنة: هل المراد أنهم حشو الوجود وفضلة فيه أو كما قاله جهالهم من تلك المقالة التي لم تخطر بقلب إنسان ولأهل السنة أسوة بغيرهم؟ فقد ذكر أن أول من لقب هذا اللقب عمرو بن عبيد المعتزلي لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأهل السنة والجماعة لا يتركون السنة لأجل تشنيع المشنعين، فإن كان من يتبع الكتاب والسنة حشوياً فإنهم يشهدون كل أحد أنهم حشوية بهذا المعنى، والمدار كله على المعاني لا على الأسماء، فكم سمى أهلُ الباطل لأهل الحق بالأسماء المذمومة وسموا أنفسهم بالأسماء الممدوحة، وذلك لا يضر أهل الحق ولا يرفع أهل الباطل، وإنما هذا شبكة يصطاد بها الذين لا بصيرة لهم،

أمَّا الذين هم أحق بهذا اللقب المذموم فإنهم أهل الكلام الباطل الذين حشوا الأوراق من الهذيان والقلوب من الشبه والافتراء وفرحوا بما عندهم من العلوم الباطلة المخالفة لعلوم الرسل، لا أهل السنة الذين حشـوا القلوب علماً وإيماناً، وأناروا الوجود صدقاً ومعارف وإيقاناً، ووردوا عين الشريعة أعذب المناهل وأصفاها إذ ورد غيرهم زبالة الأفكار ونتن الآراء.

## فصـــل
## في تلقيبهم لأهل السُّنَّة والجماعة بالمُجَسِّمة والمُشَبِّهَة، ونحوها من الأسماء

وذلك لأن أهل السنة أثبتوا لله صفات الكمال كلها، فزعم الجهمية أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فسموا المثبتين بذلك، فأهل السنة يجيبونهم بجواب يفحمهم ويخصمهم أن إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من الأوصاف إما أن لا يقتضي التشبيه والتجسيم لأن الله ليس كمثله شيء فيكون رميكم لنا من باب البهت والافتراء، وإما أن يقتضي ذلك، فإن اقتضاه لم نترك ما دل عليه الكتاب والسنة لأي لازم يقوله أهل الباطل ولا لأجل شناعة المشنعين، فالمبطل في الحقيقة إنما يوجه الإلزامات التي يذكرها على كلام الله ورسوله، وحسبك فحشاً وقبحاً مقالة تصل إلى هذا الحد.

فَبَيْنَ أهل السنة وأهل الباطل فروق عظيمة، أهل السنة يقـولون: ما دلت عليه النصوص فهو حق على حقيقته مبين غاية البيان، فلا بعد بيان الله ورسوله بيان، وما خالف هذا الحق فهو باطل. والمتكلمون جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة وهي مجاز مـع أن المجاز يجوز نفيه وفي نفيه من الكفر ما لا يخفى. ومن قولهم أيضاً أن حقائق الألفاظ منتفية عقلاً، فإذا انتفت الألفاظ والمعاني فما الذي بقي من الدين ومن كلام رب العالمين ونصوص

سيد المرسلين، فالنفي والتعطيل للحق والحقائق الثابتة سيما هذه الطائفة والذم نعت لهؤلاء المبتدعين.

## فصل
### في بيان موارد أهل التعطيل
### وأنهم تعوضوا بالقلوط عن مورد السلسبيل

أطيب الموارد وألذها وأصفاها وأنفعها مورد الشريعة المحمدية سهلة التناول واضحة الألفاظ حسنة المعاني تملأ القلوب أمناً وإيماناً وتصديقاً وتعظيماً وعلوماً ومعارف، فإن فهم أصول الدين وفروعه من الوحيين متيسر، قال تعالى:

﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ١٧]

وآثارها في القلب واللسان والجوارح والهدى والسمت أحسن الآثار وأجملها، تصلح القلوب فتصلح لها الجوارح، وعكس ذلك موارد المبطلين، وخصوصاً الذين بنوا أصول دينهم على جهليات يسمونها عقليات وعلى قواعد الفلسفة، فنفوا لذلك صفات المولى التي هي التوحيد وهي أصل جميع الأصول وبها تستقيم الأمور، ففسد بذلك موردهم وخبثت بواطنهم وظواهرهم، وتعوَّضوا عن مورد الشرع والسلسبيل موارد الأخباث والأنجاس التي هي أصل التعطيل، فيا بئس ما أَصَّلوا وما فرعوا.

# فصــل

## في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

أعاد المؤلف هذه المباحث المهمة بتعبيرات متنوعة، لأنه بذلك تتضح الحقائق وتتبين الطرائق. فهؤلاء الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام الباطل سعوا في هدمهم قواعد الإسلام والقرآن، بما أصَّلوه من الأصول الباطلة، وبما نفوه من الأصول الصحيحة. فمن المعلوم أن قواعد الإسلام والإيمان إنما ثبتت وتأسست وانبنت على نصوص الكتاب والسنة، والجهمية عزلوا هذا الأساس العظيم بما أصَّلوه من الأصول الفاسدة فزعموا أن كلام الفلاسفة وعقولهم الفاسدة تفيد اليقين والقطع، وأن كلام الله ورسوله يفيد غلبة الظن، وإذا تعارضت القواطع العقلية مع الظواهر السمعية قدمت قواطع العقل، فهذا أخبث أصل أصَّلوه وأفسدوا به العقائد الصحيحة، وعزلوا لأجله النصوص الصحيحة الصريحة، وتمموا هذا الأصل الخبيث بأن جعلوا عقولهم الفاسدة هي الميزان دون عقول أولي الألباب الذين ينقحون الحقائق الخالصة، ويميزون بين العقليات والجهليات وبين البراهين والشبه، فهؤلاء هم الذين يتعين الرجوع إلى أقوالهم وآرائهم الصائبة.

وقد تتبع المحققون جميع الأصول الدينية فوجدوها مطابقة للمعقول الصريح، وحققوا كل ما قاله هؤلاء الحيارى الضالون من عقلياتهم التي عارضوا بها الحق فوجدوها جهليات هي على جهل أصحابها وانسلاخهم من زمرة أولي الألباب من أوضح الأدلة. ومن أراد تفصيل هذه الجملة فليطالع كتاب (العقل والنقل) وكتاب (التأسيس) لشيخ الإسلام ابن تيمية وكيف نقل أكبر براهينهم التي سموها براهين، ووضح ما فيها من الفساد والتناقض، وشهادة بعضهم على بعض بفسادها، وربما كان بعض رؤسائهم يذكرها في موضع من كتبه وينصرها ويذكرها في موضع آخر ويبطلها. وقد تصدى في

هذين الكتابين لبيان مخالفتها للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح، فأدلة الكتاب والسنة وأدلة العقول الصحيحة لا تتناقض لأنها من عند الله

**﴿ولو كان من عند غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**

[سورة النساء: الآية ٨٢]

واعلم أن العقل مع النقل له ثلاث مقامات: إمّا أن يشهد بما دل عليه الشرع، بما يراه من محاسن الدين وبناء أحكامه على تحصيل المصالح وتكميلها، وعلى دفع المفاسد وتقليلها حسب الإمكان، وبيان أن هداية الدين وإرشاداته تجري مع الوقت والزمان لا تتغير ولا يحصل الرشد بغيرها. وإما أن لا يهتدي العقل لمعرفة تفاصيلها كأمور الغيب والبرزخ والجنة والنار وأحوال يوم القيامة مما لا تهتدي العقول إليه لا إجمالاً ولا تفصيلاً إلا بالوحي السماوي، والعقل فيها يخضع ويسلم للسمع لتيقنه صدق الشارع وأنه لا يقول إلا الحق. وإمَّا أن يأتي الشرع بما تحار فيه العقول ولا تعرف وجهه ولا حكمته، وهذا النوع سماه الفقهاء تعبداً. فهذه الأمور الثلاثة هي التي ترد الشرائع بها.

وأما ورودها بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه وإحالته فهذا من المحال الممتنع لأن الحق لا يتعارض، والأمور اليقينية لا تتناقض، فحيث ظن في شيء من أمور الشرع تناقض ومناقضة للعقل فهو لأحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن العقل فاسد يظنه صاحبه معقولاً وحقيقة وهو خيال لا حقيقة له، وإما أن النقل غير صحيح. فالنقل غير الصحيح ليس من الشرع فلا تتصور المعارضة. وإذا بنى العبد إيمانه على هذا الأصل العظيم فقد استقام إيمانه وتم يقينه واهتدى للحقائق الصحيحة وسلك أحسن الطرائق المريحة، ومتى سلك الطريق المخالف لهذا فهو ضال زائغ، ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين لمعرفة الحق واتباعه آمين.

# فصـــل
## في بطلان قول المُلْحِدين
## القائلين: إن الاستدلال بكلام الله وكلام رسوله
## لا يفيد العلم واليقين

وهذا من جنس ما قبله، فهؤلاء الملحدون زعموا أن أدلة الكتاب والسنة ظنية، وعللوا هذا بأنها ألفاظ تحتمل عدة معان لاشتراكها وإجمالها ولما فيها من الحذف والإضمار والمجاز ونحوه، وهذا يوجب التوقف في مدلولها. والسنة عندهم أغلبها آحاد كذبوا منه وحرّفوا ما لم يتمكنوا من ردّه. وقد تقدم إبطال هذا الأصل الخبيث.

أما أهل السنة والجماعة وجميع أئمة الهدى ومصابيح الدجى فهم يقولون صدق الله العظيم وصدق رسوله النبي الكريم ومن أصدق من الله قيلا وحديثاً، وقال تعالى:

﴿ولا يأتونك بمَثَلٍ إلاّ جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

الوحيان قد اشتملا على أجل المسائل وأوضح البراهين، بعبارات وألفاظ واضحة متصادقة، يصرف الله المعنى الجليل من أصول الدين في أساليب متنوعة وألفاظ متغايرة وكلها في غاية الوضوح والبيان والتبيين. ويؤيد المعاني النافعة بضرب الأمثال وتنبيه العقول والألباب على صحتها وعلى الطرق الموصلة إليها، فهي أدلة نقلية عقلية فطرية، وكل ما قرره أساطين العقلاء وأذكياء الحكماء من الحقائق الصحيحة فهو جزء مما دل عليه القرآن، وأدلة الوحيين تثبت الإيمان في القلوب حتى يكون أرسخ وأقوى من الجبال الرواسي، لوضوحها وقوتها وجلاء براهينها وشهادة العقول بصحتها. لا تحصى الأدلة والبراهين التي يبديها الله ورسوله للأصول الكبار، وكلما كان الأصل أعظم كانت براهينه أكثر وأعظم وأوضح، قد نوعها الله من جميع الوجوه وصرفها.

والنبـي ﷺ أُعطي جوامـع الكلم وأيده الله بقوة البيان وبلاغة التعبير، وقد اجتمـع فيه ثلاثة أمور لم يصل ولن يصل إليها أحد من الأولين والآخرين: النصـح الكامل، والعلم الواسـع القوي التام، والبلاغة التامة. فمن اجتمعت فيه هذه الأمور الثلاثة هل تظن أن في كلامه نقصاً أو في تعبيره قصوراً أو يمكن أحداً أن يستدرك على كلامه أو يحمله على خلاف ما يبين ويتضـح منه؟ أم تقول والحق تقول إن كلامه هو الغاية التي لا غاية فوقها في البيان والإرشاد والهدى والهداية إلى كل علم نافـع ويقين، وكـلامه هـو الدليـل والمدلول، فياويـح من زعـم أن اليقين لا يستفاد من كلام الله ولا من كلام الرسول:

﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

## فصـــل

### في نكتة بديعة

### تبين ميراث الملقِّبين والملقَّبين من المشركين والموحدين

النكتة هي الفائدة اللطيفة التي لا تكاد تدرك إلا بدقة فهم ولطف عبارة. وذلك أن أعداء الرسول ﷺ من الكفار والمنافقين رموه بألقاب هم أهلها وأحق بها، ورسول ﷺ أبعد الخلق عنها، رموه بالكذب والافتراء والقول على الله وأنه أبتر وأنه الذي قطـع الأرحام وأتاهم بما لم يأت به أحد. وقد برأه الله من ذلك وأخبر أن هذه الأوصاف الشنيعة وصف أعدائه.

كذلك حالة من ورث هؤلاء المشركين من جهمية وملاحدة لقبوا ورثة الرسول بالألقاب القبيحة وهم أبعد الناس عنها ومن رماهم أحق بها.

ومن بديـع ذلك وعجيبه أن المشركين كانوا يسمون محمداً ﷺ مذمماً بدل محمد فيشتمون مذمماً ويقول النبـي ﷺ: (ألا تعجبون كيف يشتمون مذمماً وأنا محمد) فصرف الله عن نبيه شتمهم لفظاً ومعنى، وكذلك أتباع

محمد يسميهم أعداؤهم مجسمة مشبهة حشوية نواصب، فيرمون هذه الأسماء ويشتمونها، ويصرف الله شتمهم عنهم لفظاً ومعنى، فهذا تحقيق لهذا الميراث من الوارثين والوارثين، ولله ألطاف وأسرار لا تبلغها الأفهام.

## فصـــل
### في اقتضاء التَّجَهُّم والجبر والإرجاء الخروجَ عن جميـع ديانات الأنبياء

وهذا من المناسبات العجيبة اللفظية أن كل واحدة من هذه الجيمات في هذه الأسماء الثلاثة تقتضي الخروج عن بعض الدين، فإذا استجمعت بواحد خرج من الدين بالكلية. وذلك أن الدين مبني على ثلاثة أصول: التوحيد، والإيمان، وإثبات أفعال العباد حقيقة. فالتجهم يخل بالتوحيد لأن التوحيد مبناه على إثبات تفرد الرب بصفات الكمال، والجهمية ينفون ذلك كما تقدم من نفيهم لصفاته الذاتية والمعنوية والفعلية، وأما الجبر فإن مذهب الجبرية كما تقدم يقتضي أن العبد مجبور مقهور على أفعاله وأقواله. وهذا يبطل الشرع والحكمة، ويثبت للعصاة العذر العظيم في كفرهم ومعاصيهم، وأنهم إذا عذبوا عليها فهم مظلومون لأنهم عذبوا على ما لم يكن لهم فيه أثر. ويرتقي هذا المذهب الخبيث ببعض غلاتهم إلى أن يشهد أن معاصيه طاعات ومخالفاتـه عبادات، لأنه وإن عصى الأمر بغير اختياره فقد أطاع القدر الذي لا بد له منه. وحسبك بهذا المذهب شراً وضلالاً. وأما جيم الإرجاء فالمرجئة يرون أن الإيمان هو إقرار العبد واعترافه بأن الله هو الخلاق وحده وما عدا هذا فلا يدخل في الإيمان. ومن المعلوم أن الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دل على أن الإيمان شامل لعقائد القلوب كلها وأعماله وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، وأن نقص شيء من ذلك نقص في الإيمان.

ولا يخفى أن من جمع هذه الجيمات فقد اجتمـع فيه الشر كله وفاته

الخير كله، وهذا مذهب الجهمية المحضة الذين لا نصيب لهم من الدين، وقد يوجد في اتباعهم بعض هذه الأصول الخبيثة دون بعض، والشر دركات كما أن الخير درجات، ولم ينج من هذه الأقوال الباطلة إلا أهل السنة والجماعة الذين وصفوا ربهم بكل صفة كمال، ونزهوه عن كل عيب ونقص، وحققوا الإيمان فأدخلوا فيه الاعتقادات والأعمال الباطنة والظاهرة وقالوا إن «الإيمان» اسم لذلك كله، وهو يزيد بتكميل هذه الأمور وينقص بنقصها، والناس في الإيمان درجات، وعرفوا مع ذلك أن الله تعالى قدير مريد لكل شيء، ومع ذلك فأعمال العباد خيرها وشرها مع دخولها في قضاء الله وقدره هم الذين فعلوها بقدرتهم واختيارهم لم يجبروا عليها، وقد قامت الحجة على العباد فليس لأحد على الله حجة، وحاشا لله أن يجبر العباد على ما لا يريدون والله أعلم.

## فصل

### في جواب المُثْبِتِ والمُعَطِّل للرب إذا سأله عن قوله

قصد المؤلف تنويع الأدلة وتصريفها بوجوه متعددة وطرق كثيرة على بطلان مذهب المعطلين، لأن الحق والباطل متى صُرِّفا بأساليب متنوعة ظهر واتضح وبانت حالهما. وهذا الفصل في بيان نتيجة المقالتين وثمرة العقيدتين، في المقام الذي لا تنفع فيه مجرد الدعاوي، ولا تروج فيه البهرجة. فالمعطل النافي إذا سأله ربه عما يقوله ويعتقده فيه صار حاصل جوابه الحقيقي: يا رب إني قد نفيت عنك صفات الكمال، ونفيت ما لك من الحكمة وبديع الأفعال، وما أخبر به عنك نبيك من الاستواء والنزول، وكل ما ورد به الكتاب والسنة من هذا الباب فقد نفيته مقتدياً في ذلك بآراء المتهوكين الذين قدموا آراءهم الفاسدة وعقولهم المنحرفة على كتابك وسنة نبيك.

أما المثبت فإن حاصل جوابه أن يقول: يا رب قد قلت ما قلتَه في كتابك، وقاله عنك رسولك محمد ﷺ من الصفات الذاتية والمعنوية والفعلية، لم أعد ذلك شعرة، ولم أسلط عليها الآراء بالتأويل والتحريف، وكيف أقدم عليها قولاً أو عقيدة أو رأياً وهي في غاية الوضوح والبيان، تملأ القلب معرفة وإيماناً وأنواراً، ويشهد لها كل ذي عقل سليم ورأي صحيح مستقيم.

فبالله عليك أي الجواب أصح وأولى وأنجى من عذاب الله وأقرب إلى رضى الله. والله المسؤول بفضله أن يحيينا على سنة رسوله، ويميتنا عليها، ويبعثنا عليها. إنه جواد كريم.

## فصــل
### في تحميل أهل الإثبات للمُعَطِّلين
### شهادةً تُؤَدَّى عند رب العالمين

أهل الإثبات لصفات المولى من أهل السنة والجماعة يعلنون جهاراً بعقيدتهم، ويحمدون الله عليها، ويشهدون الله وملائكته وجميع خلقه عليها، ويحملونها للمعطلين لها من الجهمية ونحوهم جازمين بها مطمئنة بها قلوبهم قائمين بها ممتثلين قوله تعالى:

﴿فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأَنَّا مُسلمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]

فمن أصولهم العظيمة أنهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن الله هو العليُّ الأعلى، وأنه فوق سماواته على عرشه بائن عن خلقه، تنزل من عنده الأحكام والأوامر القدرية والشرعية، وترفع إليه وتصعد إليه الأملاك والأرواح والأعمال وقد صعد إليه رسوله محمد ﷺ ليلة المعراج وعيسى بن مريم. ويعتقدون أنه متكلم ولم يزل ولا يزال يتكلم بما شاء إذا شاء، وأن القرآن كلامه حقاً تكلم به وسمعه جبريل وأداه إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته.

ويثبتون جميع ما ورد به الكتاب والسنة من أنواع كلامه لمن شاء من خلقه، والقرآن جميعه ألفاظه ومعانيه كلام الله منزل غير مخلوق.

ومن كليات أصولهم أن كل ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال ونعوت العظمة والكبرياء والجلال أو وصفه به رسوله فهو حق ثابت على حقيقته، لا ينفون شيئاً من ذلك، ولا يحرفون، ولا يمثلون. وعندهم أعلى مراتب العلم واليقين مدلول كلام الله وكلام رسوله، وأنه مشتمل على البراهين القاطعة والمسائل النافعة، ويبرأون إلى الله من تقديم غيرها عليها، وهي أعظم في صدورهم وأجل في نفوسهم من أن يقدم عليها معقول أو رأي أو قياس أو قول أحد من الناس كائناً من كان.

ومن أصولهم العظيمة أنه لا يتم الإيمان بالله حتى يؤمن العبد بجميع أسماء الله الحسنى، وجميع ما دلت عليه من الصفات، وما صدر عنها من الأفعال والمتعلقات والأحكام. وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات، فيقولون: إنه عليم، وذو علم عظيم، ويعلم كل شيء. قدير، ذو قدرة، ويقدر على كل شيء. وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذه الطريقة. وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسماء تدل على الصفات وهي مشتقة منها، وصفاته تدل على أسمائه، فما سمي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونحوها إلا لما اتصف به من كمال العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، والفعل مرتبطة به الأسماء والصفات، فإن إثبات أفعال بدون أوصاف تصدر عنها غير معقول، فآثار الرحمة والنعم تدل على أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخلق والأمر تدل على كمال حكمته، وهكذا. وقد تطلق الصفة ويراد بها آثارها كما قال تعالى:

**﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٠٧]

وفي الحديث الصحيح: (لما احتجت الجنة والنار قال الله للجنة أنت رحمتي

أرحم بك من أشاء من عبادي. فأطلق على الجنة الرحمة لأنها ناشئة عنها ومملوءة بها. ومن الممتنع المستحيل إثبات فعل من دون أن يعود إلى فاعله وصف منه. والفعل له شروط ثلاثة: نفوذ الإرادة، وتمام القدرة، وإمكان الفعل. والرب تعالى تام القدرة، نافذ الإرادة، وليس عليه شيء ممتنع.

ومن أصولهم الكلية أنهم يبرأون إلى الله من كل تأويل يخالف مراد الله ومراد رسوله من تحريفات المبتدعين واختراعات المتكلفين، وإنما تأويلهم يعود إلى الجد في معرفة مراد الله ومراد رسوله، وإذا ورد في الكتاب والسنة لفظ مشتبه ردّوا المتشابه إلى المحكم ليصير الجميع محكماً، وهذا عند الضرورة، وإلا فلا يعدلون عن ظاهر الكتاب والسنة ما وجدوا إليه سبيلاً.

ومن ممادح أهل السنه أنهم يجتهدون في معرفة الحق بكل طريق يوصل إليه، ويرحمون الخلق فهم أرحم خلق الله للخلق يقصدون هدايتهم مهما أمكنهم. ومن خالف الكتاب والسنة من كل مبتدع فهم يبدّعونه وينكرون عليه بدعته ويزجرون عنها بكل وسيلة، ولكنهم لا يكفرون المبتدعين المتأولين الذين ضلوا عن الحق وظنوا أن ما قالوه واعتقدوه هو مراد الله ومراد رسوله جهلاً وضلالاً، فالبدعة وإن كانت منافية للإيمان قد يمنع من تكفير قائلها جهله وضلاله وتأويله إذا كان مؤمناً بالرسول معظماً له ملتزماً لطاعته وتصديق خبره، وأما من عرف منهم مخالفة بدعته لما قاله الرسول وعاند وشاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى فإنه كافر، لأن الكفر جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه.

ويؤمنون بالقدر خيره وشره، فيعلمون أن الله على كل شيء قدير، وقد أحاط علمه بكل شيء وكتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وأن مشيئة الله نافذة وإرادته عامة لكل ما وجد من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم

مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

ومن أصولهم أن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الناس يتفاضلون في عقائد الإيمان وفي أعماله القلبية والبدنية وأقوال اللسان قوة وضعفاً وحسناً وضده وقلة وكثرة، ويبرأون من مذهب المرجئة الذين يرون الإيمان مجرد إقرار القلب وأن الناس في الإيمان متساوون، ومن مذهب الخوارج المخلدين أهل الكبائر في النار، ومن مذهب المعتزلة الموافقين لهم في الحكم، بل عند أهل السنة أن أهل الكبائر لا يسلب عنهم اسم الإيمان ولا يخلدون في النار بل لا بد من خروجهم منها بشفاعة أو غير شفاعة برحمة من أرحم الراحمين، ومع ذلك فهم ناقصو الإيمان.

ويعتقدون ما ثبت في الكتاب والسنة المتواترة من أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى كما يرى القمر ليلة البدر، يرونه في عرصات القيامة ثم يرونه في الجنة كما يشاء الله سبحانه في أوقات قدرها الرب الرحيم لأوليائه المطيعين لتقرّ أعينهم وتبتهج قلوبهم ويزدادوا من معرفته ومحبته وتوابع ذلك الذي هو أكبر النعيم وأجل الفوز العظيم.

ويعتقدون أن خير الخلق بعد النبيين والمرسلين أصحاب نبيهم، لما ثبتت به وبفضائلهم نصوص الكتاب والسنة، ولما مَنَّ الله به عليهم من السوابق والفضائل والخصائص التي لا يشاركهم فيها أحد من الأمة، وأفضلهم أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ثم باقي العشرة المشهود لهم بالجنة ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ممن أسلم قبل صلح الحديبية وهم على مراتبهم من السبق بحسب مقاماتهم رضي الله عنهم.

## فصـــل
### في عهود المُثْبِتين مـع رب العالمين

توسل المصنف إلى الله بالحق الذي وصفه ووصف دينه ووعده ووعيده أن ينصر دينه ويشرح له صدر كل مؤمن موحد لينال أعلى المقامات، فإن الله إذا أراد هداية عبده شرح صدره للإسلام والإيمان، فتلقى ما جاء به الرسول بقوة، وأقبل على تفهم معانيه والعمل بما يدل عليه ويقتضيه هادياً مهدياً، وعاهد ربه بما التزمه من السمـع والطاعة على نصر دينه ووحيه، وعلى مجاهدة المبطلين وأصناف المبتدعين بالطرق النقلية والعقلية.

## فصـــل
### في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل
### أنه ليس في السماء إلّه، ولا لله بيننا كلام، ولا في القبر رسول

أما الأوَّلَتان فقد تقدم الكلام عليهما مراراً، وأما شهادة أهل الإثبات على الجهمية ومن تبعهم أنه ليس في القبر رسول فلأن من قول المعطلين أن روح الإنسان عرض من الأعراض القائمة به كالألوان ونحوها، وتلك مشروطة بوجوده وحياته فإذا مات زالت هذه الأعراض، فلهذا أنكر بعضهم نعيم البرزخ وعـذابه وبعضهم جعله للجسم دون الـروح لكونهـا معدومـة مضمحلة. ولا يخفى بطلان هذين القولين ومخالفتهما للنصوص الثابتة المتواترة من أن الروح جسم لطيف له من اللطافة والخفة والحركة السريعة ما يناسب حاله كما سيأتي إن شاء الله الكلام عليها، وأنَّ نعيم البرزخ وعذابه على الروح أصلاً وعلى الروح مـع البدن.

والقصد أن الجهمية إذا قالوا هذا الأصل الفاسد ترتب على قولهم ولزم منه بطلان رسالة الرسول بموته وأنه رسول ما دام حياً فإذا مات عدمت رسالته كما تعدم روحه عندهم، فلما علموا أن هذا القول مخالف للمعلوم بالضرورة

من الدين قال من أراد نصر هذا القول: إن الرسول حي في قبره حياة مماثلة لحياته في الدنيا ولذلك بقي تحريم زوجاته على أمته، والشهداء ذكر الله أنهم أحياء والأنبياء بلا شك أكمل حياة منهم. واحتجوا أيضاً بأنه ﷺ رأى موسى في قبره يصلي والصلاة لا تقع إلا من حي، وبأنه ﷺ قال: (ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه) وكذلك ما ورد في عرض أعمال أمته عليه يوم الاثنين ويوم الخميس.

هذا حاصل ما احتجوا به، وهو لا يدل على مطلوبهم بوجه من الوجوه، فإنه لو كان في قبره حياً حياة مماثلة لهذه الحياة لم يجز أن يحبس في قبره ويسجن ذلك السجن الموحش، ولو كان حياً في قبره لكان يرشد أمته ويفتيهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم وينهاهم عما يضرهم، ولأراحهم من الاختلافات الجارية على الدوام بين أمته، ولجاءه الصحابة رضي الله عنهم يسألونه ويشكون إليه ما نزل بهم من الملمات على عادتهم إذ كان بين أظهرهم، ولو كان حياً لاستسقوا به إذا أجدبوا، ولم يفعلوا ذلك بغيره لا العباس ولا غيره، ولكنهم رضي الله عنهم قد عرفوه حق المعرفة وعرفوا أن الأمور المختصة به في حياته لم يكن لها أثر بعد وفاته، فكم من مشكلة أشكلت عليهم وكم ملمة نزلت بهم ولم يجيئوا إليه لذلك، فكل هذا دليل على أنهم اتفقوا على أنه كان ميتاً كما أخبر الله به في كتابه. فهل جاء بعد هذا خبر صحيح أنه بعث في قبره وأنه حي كما كان في الدنيا. وأيضاً فإن الناس لهم موتتان وحياتان، قال تعالى عنهم:

﴿ربنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [سورة غافر: الآية ١١]

وعلى قولهم بحياة الأنبياء في قبورهم يكون للأنبياء ثلاث موتات، فهذا مع مخالفته للكتاب فلا يقوله إلا من لا يبالي بالأقوال التي لا مستند لها. وأما قياسهم لحياة الأنبياء بحياة الشهداء فهذا من أكبر الأدلة عليهم، فإن الشهيد نص الله في كتابه على حياته في البرزخ فلم تثبت حياتهم بالقياس بل بالنصّ

المثبت لحياتهم الناهي عن تسميتهم أمواتاً. ومع هذا فالشهيد تحل نساؤه لمن بعده ويقسم ماله ويحكم عليه بما يحكم على أموات المسلمين إلا في الصلاة والتغسيل، وكذلك جسمه بلا شك يبلي، لكن المراد بحياته أنها حياة برزخية تبتهج الروح برضا الله وكرامته وفضله، والأنبياء أكمل حالة منهم في ذلك بلا ريب.

وأما تحريم نساء النبي ﷺ على غيره فقد ذكروا لذلك عدة حكم، منها أنهن نساؤه في الدنيا والآخرة لأنهن لما خيرن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن عملهن ولم يزل الله شكوراً، فمنع رسوله أن يتزوج عليهن وأن يستبدل غيرهن بهن، وجعلهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلذلك حرمن على غيره لا لأجل أنه حي كما هو في الدنيا فإن هذا لا تستقر عليه قدم عالم. ومنها أنهن أمهات المؤمنين في المحبة والتوقير والإعظام والاحترام فلا يناسب أن يتزوجهن بعده أحد. ومنها أنه يجب تقديم محبة النبي ﷺ على كل محبة بعد محبة الله فمنع الله من كل ذريعة تحول دون هذا المقصود ودون تكميله. ولا شك أن تزوج الرجل لزوجة الرجل من بعده من جملة الدواعي لنقصان المحبة ولغير ذلك من الحكم، ولذلك اعتددن بعده ولزمن الإحداد أربعة أشهر وعشرًا رضي الله عنهن، وكل هذا دليل على موته.

وأما رؤيته لموسى يصلي في قبره ففي النفس منه شيء لأن البخاري ترك تخريجه في صحيحه على عمد فلو لا أن عنده علة توجب تركه لم يتركه، ولذلك أعله الدارقطني بالوقف على أنس، وبين الحديث المرفوع والموقوف فرق عظيم، ولكن خرجه مسلم في صحيحه فنقله ونقله غيره من الأئمة، وعلى هذا التقدير فليس هذا مختصاً بالرسول، فقد روى ابن عباس وغيره حديثاً صحيحاً حين يأتي الملكان إلى المسلم يسألانه فتمثل له الشمس عند الغروب فيقول: دعاني أصلي العصر، فيقولان: إنك ستصليها بعد. فإذا كان هذا مع الموت الذي لم يشك فيه أحد علم أنه لا منافاة بين موت الإنسان

وبين صلاته في قبره وفي برزخه، فإنه وإن كانت التكاليف قد انقطعت فإن الله يكرم أنبياءه وأولياءه بكرامات، ومن أعظم الكرامات فعل العبادات المتصلة بمعرفة ربهم ومحبته فإنها من أعظم اللذات والكرامات. ولهذا سأل الله ثابتٌ البناني إن كان قد أعطى أحداً الصلاة في قبره أن لا يزال مصلياً، فرؤي بعد وفاته يصلي في قبره.

وقد رأى ﷺ موسى ليلة المعراج في السماء السادسة كما رآه في قبره مصلياً، ولا منافاة بين الأمرين فإن للروح شأناً غير شأن البدن، فإنها في غاية اللطافة وسرعة الحركة كما ثبتت به الآثار. ولما كانت مخالفة في أوصافها لهذا الجسم الكثيف كثر غلط الخائضين فيها لأنهم لم يشاهدوها ولا شاهدوا لها نظيراً، ولكن الأدلة ثبتت بذكر أوصافها وتنقلاتها وسرعة حركتها فيستبعد الخائضون بها أن تكون في أعلى عليين فوق السماوات السبع مقيمة هناك وتردُّ إلى قبره أسرع من لمح البصر فتردُّ السلام على المسلِّم عليها، وقد أظهر الله لعباده في هذه الأوقات من المخترعات وعجائب الكهرباء ما هو من أكبر الأدلة على أحوال الروح وعلى ما أخبر به الله ورسوله من أمور الغيب التي لا تدركها الحواس فإذا كان علم المخلوق وقدرته وصل إلى هذه العجائب والله هو الذي علمه وأقدره فكيف بقدرة الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون..

وأمَّا استدلالهم برد النبي ﷺ سلام من يسلم عليه فليس خاصاً به، فإنه ثبت في السنن مرفوعاً (ما من مسلم يمر على قبر أخ له كان يعرفه فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه). وأما الحديث الذي فيه ذكر رؤية الأنبياء في قبورهم أحياء فهو غير صحيح بل منكر، فتبين أنه ليس لهم دليل واحد على ما قالوا.

والمنكر من قولهم في هذا المقام قولهم إن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة مماثلة للحياة الدنيوية وهم محبوسون في قبورهم والتراب قد عمهم من جميع جوانبهم، فهذا مما يعلم الله بالضرورة بطلانه. وأما الحياة الثابتة في

الكتاب والسنة في حق الأنبياء فإنها حياة برزخية للروح أصلاً والبدن تابع فيها الروح يسري إليه أحياناً من نعيمها وعذابها.

وأما عرض الأعمال على النبي ﷺ يوم الاثنين والخميس فإنه قد وردت آثار تدل على عرض أعمال الناس على آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، ولكن الذي يعرض على النبي ﷺ جميع أعمال الأمة والذي على غيره خاص بأقاربهم وأخصائهم، فليس في هذا ما يدل على الحياة المعهودة، والكلام في الأرواح كثير منتشر صنفت فيه الكتب وكثر فيه خوض الخائضين، ومن أحسن الكتب المصنفة فيه «كتاب الروح» للمؤلف فإنه اتى فيه بما يشفي ويكفي.

والذي يجب اعتقاده في شأن الروح أنها مخلوقة حادثة بعد عدمها، وأن الله خلقها للبقاء. ولهذا إذا مات العبد بقيت الروح منعمة إن كان صاحبها من السعداء أو معذبة إن كان من الأشقياء. وكذلك يجب اعتقاد جميع ما وصفت فيه الروح في الكتاب والسنة، وأنها مداخلة لهذا البدن الكثيف فإذا فارقته مات وفارق الدنيا، وأنها ليست كما ذكره أهل الكلام الباطل ليست داخل البدن ولا خارجه، فإن هذا في الحقيقة نفي لها كما قالوه في الباري كما تقدمت الإشارة إليه.

## فصل
### في كسرِ المنجنيق الذي نَصَبَهُ أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلاً بعد جيل

وهو الذي يسميه المتكلمون «دليل التركيب» فإنهم قرروا هذا الدليل الباطل بقولهم: لو كان موصوفاً بالصفات كالحياة والعلم والقدرة وغيرها كان مركباً، ولو كان مركباً كان محدثاً، فتعين أن تنفى عنه الصفات، وأن لا يوصف بوصف زائد على مجرد الذات.

فهذا قد أخذه متأخرهم عن متقدمهم، وغيروا بذلك عقائد الخلق

وموهوا على ضعفاء البصائر، ونفوا لأجله أجلى الحقائق وأوضحها وأحقها بالإثبات، وتركوا لأجله ما هو معلوم من الدين بالضرورة ثابت في الكتاب والسنة.

فأكبر الأدلة على بطلان هذا الطاغوت مخالفته للأدلة اليقينية من الكتاب والسنة فمخالفة المعلوم بالضرورة باطل بلا ريب. ثم بقطع النظر عن ذلك هو في نفسه باطل يستفسر أهله عن مرادهم بالتركيب، فإن التراكيب المصطلح عليها كثيرة فيقال لهم: هل تعنون بهذا التركيب «التركيب الامتزاجي الاختلاطي» كتركب الإنسان والحيوان من عدة أعضاء ومن الأركان الأربعة أم تعنون بذلك «تركيب المجاورة» كتركيب السقف على البنيان والجسر على النهر. فإن عنيتم واحداً من هذين الأمرين لم يلزم شيء منهما في إثبات صفات الباري التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ عند أحد من العقلاء. وإن عنيتم «التركيب من الجواهر الفردة» وهي الجزء الذي لا يتجزأ، أو من الهيولى والصورة، فأكثر العقلاء لا يتصورون الجواهر الفردة فضلاً عن إثباتها، بل من تصور الأمر على ما هو عليه علم بطلان ذلك وأنه لا وجود له ولا يتركب منه موجود، ثم على التقدير الباطل الممتنع فلا يلزم من إثبات الصفات تركبه من هذه الحالات.

وإن عنيتم أنه تركب من الذات والصفات فما المحذور من هذا الإثبات، فسموه ما شئتم فلن يترك بتسمية المبطلين له بالأسماء المنفردة. وصورة التلازم هكذا: لو كان موصوفاً بالصفات لزم أن يكون موصوفاً بالصفات، كما يقول القائل: لو كان موجوداً لكان موجوداً، ولو كان حياً لكان حياً. فإذا اتحد اللازم والملزوم كان اللازم للحق بلا شك حقاً.

والقصد أنهم يطالبون بوجود معاني هذه التراكيب في الكتاب والسنة أو كلام أهل اللغة، ولن يجدوها، فإن هذه الأسماء من اصطلاح فلاسفة اليونان.

ثم يقال ثانياً: هب أنه كان يسمى تركيباً فليس لكم دليل على نفي هذا الذي تسمونه «التركيب» لأنه ثابت في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وما ثبت بذلك فمحال أن يقاومه دليل آخر. وهنا شيء يسمونه «التركيب من الماهية والوجود» وهل الماهية هي الوجود أو هي غيره؟ فمتى قالوا إنها الوجود لم يتصور تركيب كما هو قول لبعض المتكلمين، ومتى قالوا: هي غيره ارتبكوا في هذا الموضع لأن «التركيب» عندهم باطل، وكل شيء اقتضى معنى التركيب في جانب الباري فهو باطل، فلهذا منهم من أطلق الكلام نفياً وإثباتاً، ومنهم من توقف، والتحقيق أن يقال إن وجود كل شيء هو عين ماهيته، وماهيته عين وجوده، فإذا اختلف اعتبارهما ذهناً وعيناً وخارجًا ورسماً فكل واحد من المذكورات له اعتبار مختص به.

## فصـــل

### في أحكام التراكيب الستة

ما تقدم من شرح «التراكيب» فإنما هو اصطلاح للمتكلمين أخذوه عن فلاسفة اليونان. أما حكمها في الواقع فإن القسمين الأولين «تركيب الامتزاج» كالحيوان و«تركيب الجوار» كالسقف مع الجدار فهما التركيبان المعروفان في النطق والعين والذهن، وقد تقدم أنه لا يلزم من إثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة شيء منها عند كل أحد. والثالث والرابع «التركيب من الجواهر المنفردة» أو «من الهيولى والصورة» أكثر العقلاء لا يثبتونهما ويرون أنه لا حقيقة لذلك كما تقدم، وعلى إثباتهما عند من يقول به فلا يلزم ذلك في إثبات الصفات. وأما التركيب الخامس والسادس عند المصطلحين عليهما فقد تقدم أنه لا يسمى هذا تركيباً وعلى فرض تسميته ليس لهم دليل واحد على نفيه، لكن لما كانت عقيدتهم الفاسدة أدتهم إلى نفي صفات الله جعلوا يتوسلون إلى قولهم بكل شبهة تروّجه. وإذا قالوا لا مشاحة في الاصطلاح فلنا أن نسمي ذلك تركيباً، قيل لا مشاحة في الاصطلاحات التي

لا تتضمن محذوراً، وأما تمكين المبطل أن يصطلح هو وذووه اصطلاحات يتوسلون بها إلى رد الحق ونصر الباطل فهذا يشاح فيه كل المشاحة ويدفع بكل وسيلة، فإن اصطلاحهم هذا ردّوا به ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله وعلوه على عرشه وتكليمه بوحيه وتكليمه من شاء من عباده ورؤية العباد له وغير ذلك مما هو ثابت في الكتاب والسنة.

والدليل العقلي والنقلي إنما قام ودل على استناد الكون جميعه إلى الرب العظيم في ايجاده وإمداده وبقائه وجميع شؤونه وما يحتاج إليه، وكذلك دل على انتهاء الكون إلى الله وأن إلى ربك المنتهى في كل شيء. فالأصل الأول افتقار جميع العالم العلوي والسفلي إلى الله في كل شيء وغناه الكامل عنها، والأصل الثاني فيه إثبات كمال أوصافه وأن له غاية الكمال الذي لا يتصوره المتصورون، ولا يعبر عن كنهه المعبرون، فإن محمداً ﷺ أعلم خلقه قال: (لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وإذا سبحه يوم القيامة عندما يشفع للخلق يفتح عليه من محامد الله وثنائه وتمجيده ما لم يفتحه على أحد من الأولين والآخرين. فكل مخلوق قاهر لمخلوق آخر ثم ذلك القاهر فوقه من هو أقدر منه حتى تنتهي العزة والقدرة للواحد القهار. وكذلك كل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى المحيط علمه بكل شيء.

وهكذا جميع أوصاف الكمال تنتهي كلها إلى من هو بها أحق من كل موجود وهو الذي له الكمال المطلق بكل معنى واعتبار. وليس المحذور من إثبات الصفات كما توهمته الجهمية، وإنما أكبر المحاذير وأفظعها من إثبات إلهين اثنين. وأما إذا قيل إن الإلّه واحد متفرّد في وحدانيته كثير الأسماء والصفات فهو الحق الأكبر الذي لا أحق منه ولا أعظم، وهو أكبر الأصول وهو أصل الكمال، فإن النقص يرجع إلى أمرين: إما سلب كماله وصفاته،

وإما اعتقاد الشركة لله تعالى. فالذم كله راجع إلى هذين الأمرين، كما أن الحمد والمدح والثناء راجع إلى إثبات صفات الله ونعوته.

ومن تأمل هذا العالم كله، وتغلغل فكره فيما احتوى عليه من آثار القدرة والرحمة والحكمة، رآه شاهداً بلسان المقال ولسان الحال بأن الله هو الخالق وحده، المعبود وحده، الذي له كل صفة كمال ورحمة وحكمة ومدح وثناء وتعظيم، وأنه على كل شيء قدير، فعال لما يريد، له الحياة الكاملة والقيومية التامة فلا تأخذه سنة ولا نوم، قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى والعظمة، وقام بجميع المخلوقات. فكل يوم هو في شان، يدبر الأمر، يفصل الآيات.

فهذه الأصول يشهد بها الكون لله الواحد القهار، لكن الجهمية ردّوا هذه الشهادات المبنية على البراهين القواطع بشبه يونانية لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذا أردت أن تعرف حقيقة التركيب الذي يصول به المتكلمون ويقدمونه على كل شيء فعبر عن المعاني المقصودة الصحيحة بعبارات واضحة، خصوصاً الألفاظ القرآنية والألفاظ النبوية، فإنها مضمون لها العصمة وقد استولت على غاية البيان، فقل في هذا الذي سموه تركيباً ونفوا صفات الله لأجل هذا قل كاشفاً للمعنى: لو كان موصوفاً بصفات الكمال كان موصوفاً بصفات الكمال، ولو كان موصوفاً بأنه العلي الأعلى لكان علياً أعلى، ولو كان موصوفاً بالكلام لكان موصوفاً بالكلام، ونحو ذلك من العبارات البينة الواضحة التي تعبر عن المعنى الصحيح بعبارة صحيحة، وفيها يتحد اللازم والملزوم، فإذا عبر عنه النافي بعبارات أُخَر وتدرج بها إلى نفيها ظهر أنه مكابر معاند عندما ينكشف المعنى بالعبارات المذكورة، فإذا أصر على التعبير بالعبارات البدعية فقل إن أردت ما ذكرنا من هذا المعنى الواضح فنحن نقبل المعنى الذي دل عليه الشرع ولو عبر عنه بأي عبارة تكون.

# فصـــل

## في أقسام التوحيد

## والفرق بين توحيد المُرسَلِين، وتوحيد النفاة والمعطلين

أما توحيد الفلاسفة فهو إثبات وجود مطلق لا ذات له ولا اسم ولا صفة ولا فعل، ومضمون هذا إنكار وجود الله أصلاً، لأن هذا الذي نعتوه لا يمكن وجوده في الخارج، وإنما يتصوره الذهن الفاسد كما يتصور الخيالات التي لا حقيقة لها، والشرك عندهم إثبات الذات والصفات.

وكذلك توحيد الاتحادية القائلين بأن الوجود واحد، فلا ثم رب ولا مربوب وإنما الخالق عندهم عين المخلوق ولكن الحس والوهم يظن تباينهما، وإلا فالكل شيء واحد. ومحققهم لا يصل إلى تحقيق قولهم الباطل حتى يخرق الحس والعقل فضلاً عن الوهم والخيال، فحينئذ يصل إلى هذا التوحيد الذي حقيقته الكفر برب العالمين وتعطيله عن أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو قريب من توحيد الفلاسفة أو هو هو لكن التعبير اختلف، والشرك عند هؤلاء إثبات التباين بين الخالق والمخلوق، فجعلوا التوحيد شركاً والتعطيل حقاً. ولما احتج المحتج عليهم فقال: «فصوصكم» تخالف القرآن فقال القرآن كله شرك وإنما التحقيق في كلامنا. فقاتل الله من عد هذه الطائفة من أمة محمد وهم برآء من جميع الأنبياء، ولا أظن أحداً يعرف قولهم وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان فيستريب في أمرهم ويعرف أنهم مباينون للدين كل المباينة.

وأما توحيد الجهمية فقد تقدمت حكايته، والشرك عندهم إثبات صفات الله التي نطق بها الكتاب والسنة.

وأما توحيد الجبرية فقد تقدم أيضاً قولهم إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له فيها، وعندهم أن الله هو الفاعل للطاعات والمعاصي.

فهذه الأنواع المذكورة مع ما اشتملت عليه من الكفر بالله والتكذيب

لأنبيائه وإبطال أمره وشرعه هي الأقوال الرائجة بين الناس المنصورة عند جماهير المتكلمين فاقرن بينها وبين توحيد الأنبياء والمرسلين تجد الفرق العظيم.

## فصـــل
### في توحيد الأنبياء والمرسلين

وهذا هو التوحيد الحقيقي الصحيـح، وهو الذي لا يصدق على مسماه سواه، فإنه الاعتراف بتوحد الباري بكل صفة كمال وجمال وجلال ومجد وحمد وعظمة وكبرياء، والعمل بمقتضى هذا من التعظيم الكامل لله والحب التام والخضوع له وإخلاص العمل له. فهو نوعان: علمي اعتقادي وعملي. وقدم المصنف الاعتقادي لأن التوحيد العملي يتفرع عنه ويقوى بقوته، ولأنه أكبر البراهين على توحيد الإلٓهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة ولأن معظم الخلاف مـع أهل الكلام الباطل في هذا النوع.

وهذا النوع مبني على أصلين عظيمين أحدهما تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله وما ينافي كماله، وحاصل هذا النوع يعود إلى تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله أو في حق من حقوقه وخصائصه، وإلى حفظ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها. فيعلم أن له الكمال المطلق الذي لا يمكن التعبير عن عظمته وكنهه، وأن له من ذلك الكمال غايته ومنتهاه وأكمله، فهو المنزه عن الشـريك والـظهير والعـوين والشفيـع بلا إذنه، وهـو الذي لم يلد ولم يـولد ولـم يكن لـه كفواً أحـد، وهو المنزه عن السنة والنوم والموت والتعب واللغوب، وأن يغيب عن سمعه أو بصره أو علمه شيء، وهو المنزه عن كل ما ينافي كماله وعظمته وجلاله.

# فصـــل
## في النوع الثاني وهو الثبوتي

وهذا النوع هو المقصود الأعظم، وما مضى وسيلة وتتميم وحفظ لهذا النوع. فإن جميع ما ينزه الله عنه فإنما ذلك لأجل ثبوت ضده. وهذا النوع مبناه على إثبات جميع صفات الله الموجودة في الكتاب والسنة والأسماء الحسنى ومعانيها على وجهها والتفقه في معرفة معانيها والتحقق بها تصديقاً ومعرفة وتعبداً لله بها. وكلما قويت هذه الأمور وقوي التوحيد في القلب حتى يكون في قلوب العارفين الربانيين أعظم من الجبال الرواسي، وأطيب وأحلى وألذ من كل اللذات.

وذلك بإثبات أنه (العليّ الأعلى) بكل وجه واعتبار: علوّ الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. فعلوّ الذات هو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة، متكلم بأحكامه القدرية وتدبيراته الكونية وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو أن صفاته كلها صفات كمال، وله من كل وصف ونعت أكمله وغايته. وأما علو القهر فهو قهره تعالى لجميع المخلوقات، فالعالم العلوي والسفلي كلهم خاضعون لعظمته مفتقرون إليه في كل شؤونهم.

ومن أسمائه العظيمة (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن) وقد فسرها النبي ﷺ تفسيراً كاملًا واضحاً فقال: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) ففسر كل اسم بكل معناه، ونفى عنه كل ما يضاده، فمهما قدر المقدرون وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلى غير نهاية فالله قبل ذلك، وكل وقت لاحق مهما قدّر وفرض فالله بعد ذلك. ولهذا لا يستحق اسم (واجب الوجود) إلا هو، فمن خصائصه أنه لا يكون إلا موجوداً

كاملاً فلا يشاركه في وجوب الوجود أحد، فوجوب وجوده بنعوته الكاملة في جميع الأوقات، وهو الذي أوجد الأوقات وجميع الموجودات، وكلها مستندة في وجودها وبقائها إلى الله، فالأول والآخر يتضمنان إحاطته بجميع الأزمنة وجميع المخلوقات من كل وجه، والظاهر والباطن يقتضيان إحاطته بجميع الأمكنة وأنها تنتهي إلى الله في العلوّ والقرب، ولا منافاة بين الأمرين في حقه تعالى لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو العلي في دنوّه القريب في علوه.

ومن أسمائه الحسنى (الكبير، العظيم، الجليل) وهو الذي له كل عظمة وكبرياء وجلال. ومعاني العظمة نوعان: أحدهما أنه متصف بصفات المجد والعظمة والكبرياء، الثاني أنه يستحق أن يعظم غاية التعظيم، ويخضع العباد لجلاله وكبريائه وإخلاص المحبة والعبودية له. ومن كمال عظمته تنزيهه عن كل صفة نقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من خلقه.

ومن أسمائه (الجليل، الجميل) وما أحسن الجمع بينهما، فإن «الجليل» من له صفات الجلال والكبرياء والعظمة، و«الجميل» من له نعوت الحسن والإحسان، فإنه جميل في ذاته، وجمال المخلوقات بأسرها من آثار جماله، وهو الذي أعطاهم الجمال، فمعطي الجمال أحق بالجمال. وهو جميل في أسمائه لأنها كلها حسنى. وجميل في صفاته إذ كلها صفات كمال. وجميل في أفعاله فلا أحسن منه حكماً ولا وصفاً.

ومن أسمائه العظيمة (الحميد، المجيد) فالحمد كثرة الصفات والخيرات، والمجد عظمة الصفات وسعتها، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، المجيد لعظمتها وعظمة ملكه وسلطانه، فهو يقارب الجمع بين الجليل والجميل.

ومن أسمائه الحسنى (السميع، البصير) الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب،

ويرى دبيب النملة السوداء في جوف الصخور في الليالي المظلمة وجريان القوت في أعضائها وعروقها الدقيقة الضئيلة، وسريان المياه في أغصان الأشجار والنبات، ويرى خيانات الأعين، وما هو في أخفى الأمكنة.

ومن أسمائه الحسنى (العليم) الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ويعلم الواجبات والممتنعات والجائزات وما في أقطار العالم العلوي والسفلي

**﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتاب مبين﴾** [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

**﴿يعلم السر وأخفى﴾** [سورة طه: الآية ٧]

وهو تعالى لم يزل ولا يزال (متكلماً) بكلماته الكونية والشرعية

**﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾** [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في الأخبار وعدلاً في أوامرها ونواهيها

**﴿ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يَمُدُّهُ من بعدِهِ سبعة أبحرٍ ما نَفِدَت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾** [سورة لقمان: الآية ٢٧]

وكلامه تعالى نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى وآدم وحواء ومحمداً ليلة المعراج ويكلم عباده في الآخرة وفي الجنة، ونوع بواسطة أنبيائه ورسله.

ومن أسمائه (القوي، العزيز، المتين، القدير) ومعانيها متقاربة تقتضي كمال قوته وعظمته وكبريائه فلا يملك الخلق نفعه فينفعونه ولا ضره فيضرونه، وكمال اقتداره على جميع الموجودات والمعدومات، وأن جميع العالم طوع قدرته ومشيئته يتصرف فيها بما يشاء وكيف يشاء

**﴿إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أنْ يقول لَهُ كُنْ فيكون﴾**

[سورة يس: الآية ٨٢]

وقال تعالى: **﴿إن العزة لله جميعاً﴾** [سورة يونس: الآية ٦٥]

وهي عزة الامتناع والقوة والقهر والغلبة، كلها قد كملت لله الواحد القهار من جميـع الوجوه.

ومن أسمائه (الغني) بذاته عن جميـع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه فكل المخلوقات مفتقرة إليه في إيجادها وإعدادها وإمدادها في أمور دينها ودنياها في جلب المنافـع ودفـع المضار، وهو الذي أغناها وأقناها، ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له كفواً أحد، ومن سعة غناه أن جميـع الخيرات والعطايا والنعم في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قطرة من بحر غناه وجوده وكرمه، فهو الغني بذاته المستغني عن جميـع مخلوقاته، المغني لعباده بما أدرّه عليهم من الخيرات وأنزله من البركات.

ومن أسمائه الحسنى (الحكيم) وهو الذي يضـع الأمور مواضعها اللائقة بها، وله الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وله الحكمة في شرعه والحكمة في قدره، فأحكامه الشرعية هي ما جاءت به الرسل، وهي متعلق رضاه ومحبته ومناط أمره ونهيه، والأحكام الكونية القدرية وهي جميـع التدابير جليلها وصغيرها الواقعة في العالم العلوي والعالم السفلي، وقد يجتمـع في حق المؤمن الحكمان إذا أطاع الله، وقد ينفرد الحكم القدري في وجود ما وجد من المعاصي والمباحات، ولذلك يقال: من وافق الحكم الشرعي فقد وافق رضى الله تعالى ومحبته، فإن الله يحب المؤمنين والمتقين والصابرين. ومن وافق حكمه القدري فقط فإن كان معصية فله الذم والعقوبة لمخالفته لأمر الله وتجرؤه على معاصيه، وإن كان مباحاً فلا له ولا عليه، ولكن قد يفوته من الخير ما هو بصدد فعله. والقضاء صفة لله، والله لا يوصف إلا بكل وصف جميل، والمقضيّ فعل الإنسان وصنعته وهو ينقسم إلى محمود ومذموم ومباح فلذلك وجب التفصيل في الرضا بالقضا، فالرضا بنفس ما يقدره ويرضاه بقطـع النظر عن فعل العبد لازم. والرضا بالمقضيّ الذي هو فعل العبد فيه

تفصيل بحسبه إن كان خيراً تعين الرضاء به وإن كان شراً تعين عدم الرضاء، فأحكام الرب القدرية والشرعية وكذلك أحكام الجزاء كلها متضمن لها اسمه (الحكيم) وهو الذي له الحكم بين عباده الذي لا حاكم إلا هو بالحق والعدل والحمد.

وأما الحكمة فهي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها اللائقة بها، وهو تعالى قد أتقن ما صنعه وأحسن ما شرعه، فالمخلوقات كلها والشرائع مشتملات على الحكم والغايات الحميدة، كما أنها في نفسها في غاية الإحكام، فمن أجلِّ الغايات في ذلك أنه خلق الخلق وشرع الأمر ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه، ويخلص له الدين، وكذلك ليبتلي عباده أيهم أحسن عملاً، وليجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، فالحكيم هو الحاكم بين عباده في أقداره وشرائعه وجزائه وكون أحكامه في نفسها جارية على الحكم والحق في أصلها وفرعها وغاياتها وثمراتها. وتفصيل هذه الجمل كثير جداً.

## فصل

ومن أسمائه (الحليم، الحي، الستار، الصبور، العَفُوُّ)، وكل هذه الأسماء تتعلق بجرائم العباد وذنوبهم، فإنه تعالى الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، فكما أنه الجواد بإعطاء الخيرات ونيل المواهب والهبات والبركات فإنه الجواد بالحلم عن العاصين، والستر على المخالفين، والصبر على المحاربين له ولرسله المبارزين، والعفوّ عن الذنوب. فالعباد يبارزونه بالعظائم وبما يغضبه، وهو تعالى يسدي إليهم النعم ويصرف عنهم النقم كأنهم لم يعصوه، ويعافيهم ويرزقهم كأنهم لم يزالوا يشكرونه، وكذلك لا يزالون مقيمين على ما يوجب أخذهم بالعقوبات المتنوعة، وهو يمهلهم

ليتوبوا، ويذكرهم لينيبوا، والعبد يجاهره بالمخالفات والرب يستحيي من فضيحته ويسدل عليه ستره القدري وستره الشرعي:

﴿ولو يؤاخذُ اللَّهُ الناسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظهرها من دابَّة﴾

[سورة فاطر: الآية ٤٥]

هذا مع كمال غناه عنهم، وكمال قدرته عليهم، ونهاية حاجتهم وفقرهم إليه، واضطرارهم إليه في كل لحظة ونَفَس. وفي الحديث الصحيح (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم) وفي الصحيحين مرفوعاً (قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. أما تكذيبه إياي فقوله إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأما شتمه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته) هذا وهو تعالى يسمع ما يقولون ويعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما به يتفوهون، وهو يلاطفهم بنعمه، ويتحبب إليهم بكرمه، فيا ويح المعرضين عنه ماذا حرموا من الخيرات، ويا سعادة المنقطعين إليه ماذا ادخر لهم من الألطاف والكرامات، ويا بؤس العاصين ما أقل حياءهم وأعظم شقاءهم وأشد جرأتهم.

## فصل

ومن أسمائه الحسنى (الشهيد، والرقيب) وهو المطلع على ما في الضمائر وأكنته السرائر ولحظته العيون وما اختفى في خبايا الصدور، فكيف الأقوال والأفعال الظاهرة.. ومقام الإحسان الذي هو مقام «المراقبة» التعبد لله بهذين الاسمين الكريمين، وحفظ الخواطر أن تساكن ما لا يحب الاطلاع عليه.

ومن أسمائه (الحفيظ) وهو يتضمن شيئين: حفظه على العباد جميع ما عملوه بعلمه وكتابته وأمره الكرام الكاتبين بحفظه، وحفظه لعباده من جميع المكاره والشرور. وأخص من هذا حفظه لخواص عباده الذين حفظوا وصيته

وحفظوه بالغيب بحفظ إيمانهم من النقص والخلل، وحفظهم وحمايتهم من الخطل والزلل، وحفظه عليهم دينهم ودنياهم. قال النبي ﷺ: (احفظ الله يحفظك) أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده لا تتعدها، يحفظك في دينك ودنياك.

ومن أسمائه الحسنى (اللطيف) الذي لطف علمه حتى أدرك الخفايا والخبايا. وما احتوت عليه الصدور، وما في الأرض من خفايا البذور. ولطف بأوليائه وأصفيائه فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وسهل لهم كل طريق يوصل إلى مرضاته وكرامته، وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلى سخطه، من طرق يشعرون بها، ومن طرق لا يشعرون بها. وقدر عليهم أموراً يكرهونها لينيلهم ما يحبون، فلطف بهم في أنفسهم فأجراهم على عوائده الجميلة وصنائعه الكريمة، ولطف لهم في أمور خارجة عنهم لهم فيها كل خير وصلاح ونجاح، فاللطيف مقارب لمعاني الخبير الرؤوف الكريم.

ومن أسمائه (الرفيق) في أفعاله وشرعه. ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئاً بعد شيء وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطواراً، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وييسر من جرى على ما يحبه أموره كلها.

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوّت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت.

ومن أسمائه (المجيب) لجميع الداعين، وإجابة خاصة للمضطرين، وأخص من ذلك إجابته للمحبين الخاضعين لعظمته المنكسرة قلوبهم من أجله، فإجابته تعالى عامة للمخلوقات، بَرِّها وفاجرها، بإعطائهم ما سألوه بلسان المقال، وما احتاجوه بلسان الحال، كما قال تعالى:

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤]

والإجابة المذكورة أسبابها في الكتاب والسنة كإجابته للمضطرين وللمحبين والوالد لولده والمسافر والمريض ونحوهم.

ومن أسمائه (المغيث) وهو المنقذ من الشدائد الفادحة والكروب

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٣]

ومن أسمائه الحسنى (الجواد، الكريم، الوهاب) الذي عم بجوده أهل السماء والأرض، فما بالعباد من نعمة فمنه، وهو الذي إذا مسهم الضرّ فإليه يرجعون، وبه يتضرعون، فلا يخلو مخلوق من إحسانه طرفة عين، ولكن يتفاوت العباد في إفاضة الجود عليهم بحسب ما منّ الله به عليهم من الأسباب المقتضية لجوده وكرمه، وأعظمها تكميل عبودية الله الظاهرة والباطنة، العلمية والعملية، القولية والفعلية والمالية، وتحقيقها باتباع محمد ﷺ في الحركات والسكنات.

## فصـــل

ومن أسمـائـه الحسنى (الـــودود) بمعنى الـوادّ وبمعنى المــودود، فهو المحبوب لأنبيائه ورسله وأتباعهم محبة لا يشبهها ولا يماثلها شيء من المحابّ، كما أن محبوبهم ليس كمثله شيء في كماله، فلا يرون كمالاً لهم ولا صلاحاً ولا فلاحاً إلا بمحبة ربهم، ومحبته في قلوبهم أحلى من كل شيء وألذّ من كل شيء وأقوى من كل شيء، وبقوة محبته قاموا بعبوديته الظاهرة والباطنة، وروح العبودية هي المحبة وهو الذي وضـع هذه المحبة في قلوبهم فأحبوه، وكل من كانت محبته أكمل كانت عبوديته لله أقوى وأتم. يحبون ربهم لذاته، ويحبونه لما قام به من صفات الكمال ونعوت الجـلال والجمال، ويحبونه لما يغذوهم به من نعمه الظاهرة والباطنة، وخصوصاً أكبر النعم

وهو نعمة الإسلام الخالص والإيمان الكامل، وهو تعالى يحبهم لكمال إحسانه وسعة بره، بل حبهم لله تعالى محفوف بحبين منه لهم: حب وضعه في قلوبهم فانقادوا له طوعاً واطمأنت به قلوبهم، ثم أحبهم جزاء حبهم، وكمل لهم محبته، والفضل كله منه، والمنة لله أولاً وآخراً، فمن تقرب منه شبراً تقرب الله منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، كما نطق به الصادق المصدوق.

ومن أسمائه الحسنى (الشكور) وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة بغير عد ولا حساب. ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرماً منه وجوداً، والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى.

ومن أسمائه الحسنى (الغفور، الغفار، التواب) الذي يغفر ذنوب التائبين، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، الرجاع لعباده بالخيرات وحلول البركات ومغفرة الذنوب وستر العيوب. وتوبة العبد محفوفة بتوبتين من ربه: تاب عليه أولاً فأقبل بقلبه على التوبة والإنابة والرجوع، ثم تاب عليه ثانياً بالقبول والجزاء والإحسان.

## فصـــل

ومن أسمائه الحسنى (الصمـد) وهو الـذي صمدت لـه المخلوقات بحاجاتها وملماتها الدقيقة والجليلة، وذلك لكمال عظمته وسعة جوده وسلطانه وعظمة صفاته.

ومن أسمائه (القهار، الجبار) وهو القوي العزيز الذي قهر المخلوقات كلها، ودانت له الموجودات بأسرها. ومن لوازم قهره أنه يقتضي أنه كامل الحياة والعلم والقدرة. والجبار بمعنى القهار، وبمعنى أنه يجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله. وهو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى المتكبر عن كل نقص وسوء ومثال.

ومن أسمـائه (الحسيب) بمعنى الـرقيب المحاسب لعبـاده المتولي جزاءهم بالعدل والفضل، وبمعنى الكافي عبده همومه وغمومه. وأخص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣] أي كافيه أمور دينه ودنياه.

وهو (الرشيد) وهو الذي أقواله رشد، وأفعاله رشد، وهو مرشد الحائرين في الطريق الحسي والضالين في الطريق المعنوي، فيرشد الخلق بما شرعه على ألسنة رسله من الهداية الكاملة، ويرشد عبده المؤمن، إذا خضـع له وأخلص عمله أرشده إلى جميـع مصالحه، وييسره لليسرى وجنبه العسرى.

ومن أسمائه (الحكم، العدل) الذي إليه الحكم في كل شيء، فيحكم تعالى بشرعه، ويبين لعباده جميـع الطرق التي يحكم بها بين المتخاصمين، ويفصل بين المتنازعين. من الطرق العادلة الحكيمة، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويحكم فيهم بأحكام القضـاء والقدر، فيجـري عليهم منها ما تقتضيه حكمته، ويضـع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجزاء والحساب، فيقضي بينهم بالحق، ويحمده الخلائق على حكمه حتى من قضى عليهم بالعذاب يعترفون له بالعدل وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة.

## فصــل

ومن أسمائه (القدوس، السلام)، وهو المعظم المقدس عن كل عيب، السالم من كل نقص، ومن أن يكون له مثل أو كفو أو نديد أو سمي، وذلك لكماله وكمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

ومن أسمائه (الفتاح)، وفتحه نوعان: فتح بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو حكمه بين عباده، يشرع الشرائع، ويسن لعباده الأحكام والوسائل والطرق التي يهتدون بها إلى جميع منافعهم ومصالحهم، ويحكم بين الرسل وأتباعهم وبين أعدائهم، فيكرم الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، ويهين أعداءهم ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحق وأولئك على الباطل. والنوع الثاني فتحه لعباده الرحمة والبركة، قال تعالى:

**﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمسكْ فلا مرسلَ له من بعده﴾** [سورة فاطر: الآية ٢]

ويفتح لعبده المؤمن أبواب المعارف وحلاوة الإيمان وسرور اليقين وسهولة الطاعات وتيسير القربات. اللهم افتح علينا فتوحك على العارفين.

ومن أسمائه (الرزاق) لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه، مغمور بكرمه. ورزقه نوعان:

أحدهما الرزق النافع الذي لا تبعة فيه. وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته وإرشاده. وهو نوعان أيضاً: رزق القلوب بالعلوم النافعة والإيمان الصحيح، فإن القلوب لا تصلح ولا تفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التحقق بالأخلاق الجميلة والتنزه عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكمل وجه، بل لا طريق لها إلا من طريقه.

والنوع الثاني أن يغني الله عبده بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه.

والأول هو المقصود الأعظم وهذا وسيلة إليه ومعين له، فإذا رزق الله العبد العلم النافع والإيمان الصحيح والرزق الحلال والقناعة بما أعطاه الله منه فقد تمت أموره واستقامت أحواله الدينية والبدنية. وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية واشتملت عليه الأدعية النافعة. وأما النوع الثاني وهو إيصال الباري جميع الأقوات التي تتغذى بها المخلوقات بَرُّها وفاجرها المكلفون وغيرهم فهذا قد يكون من الحرام كما يكون من الحلال. وهذا فصل النزاع في مسألة هل الحرام يسمى رزقاً أم لا، فإن أريد النوع الأول وهو الرزق المطلق الذي لا تبعة فيه فلا يدخل فيه الحرام فإن العبد إذا سأل ربه أن يرزقه فلا يريد به إلا الرزق النافع في الدين والبدن وهو النوع الأول، وإن أريد به مطلق الرزق وهو النوع الثاني فهو داخل فيه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ومثل هذا يقال في النعمة والرحمة ونحوها.

ومن أسمائه الحسنى (النور) فالنور وصفه العظيم، فأسماؤه حسنى، وصفاته أكمل الصفات، وأفعاله تعالى رحمة وحمد وحكمة، وهو نور السماوات والأرض، وبنوره استنارت قلوب المؤمنين، وبنوره استنارت جنات النعيم. وحجابه نور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. والنور الذي هو وصفه من جملة نعوته العظيمة، وأما النور المخلوق فهو نوعان: نور حسي كنور الشمس والقمر والكواكب وسائر المخلوقات المدرك نورها بالأبصار، والثاني نور معنوي وهو نور المعرفة والإيمان والطاعة، فإن لها نوراً في قلوب المؤمنين بحسب ما قام في قلوبهم من حقائق المعرفة ومواجيد الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة. وهذا النور هو الذي يمنع صاحبه من المعاصي ويجذبه إلى الخير ويدعو إلى كمال الإخلاص لله، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً ومن بين يدي نوراً ومن خلفي نوراً وفوقي نوراً وتحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً).

وهذا النور الذي يعطيه الله عبده أعظم منة منه عليه، وهو أصل الخير، وهذا النور مهما قوي فإنه مخلوق، فإياك أن تضعف بصيرتك ويقل تمييزك وعلمك فتظن هذا النور نور العيان ومشاهدة القلب لنور الذات المقدسة، وإنما هو نور المعرفة والإيمان، ويبتلى بهذا بعض الصوفية الذين ترد عليهم الواردات القوية فيقع منهم من الشطح والخطل ما ينافي العلم والإيمان، كما أن كثيف الطبع جافي القلب قد تراكمت عليه الظلمات وتوالت عليه الغفلات فلم يكن له من هذا النور حظ ولا نصيب، بل ربما ازدرى من سفاهة عقله وقلة وجده هذه الأحوال وزهد فيها، فمتى منّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة وتفقه في أسماء الله وصفاته وتعبد لله بها واجتهد أن يحقق مقام الإحسان فيعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ولهج بذكر الله تعالى استنار قلبه وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم للذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## فصل

ومن أسمائه الحسنى (المقدم، والمؤخر. المعطي، المانع. الضار، النافع. الخافض، الرافع). من أسمائه الحسنى ما يؤتى به مفرداً ويؤتى به مقروناً مع غيره وهو أكثر الأسماء الحسنى، فيدل ذلك على أن لله كمالاً من إفراد كل من الاسمين فأكثر وكمالاً من اجتماعهما أو اجتماعها. ومن أسمائه ما لا يؤتى به إلا مع مقابله الاسم الآخر لأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما، وذلك مثل هذه الأسماء، وهي متعلقة بأفعاله الصادرة عن إرادته النافذة وقدرته الكاملة وحكمته الشاملة، فهو تعالى المقدم في الزمان والمكان والأوصاف الحسية، والمقدم في الفضائل والأوصاف المعنوية، والمؤخر لمن شاء في ذلك، المعطي من شاء من القوة والقوى الحسية والعقل والمعارف والكمالات المتنوعة، المانع لمن يشاء ممن لا يستحق ذلك، وهو تعالى

النافع لمن شاء من عباده بالمنافع الدينية والدنيوية، الضار لمن فعل الأسباب التي توجب ذلك، وكل هذا تبع لحكمته وسننه الكونية وللأسباب التي جعلها موصلة إلى مسبباتها.

فإن الله تعالى جعل مقاصد للخلق وأموراً محبوبة في الدين والدنيا، وجعل لها أسباباً وطرقاً، وأمر بسلوكها ويسرها لعباده غاية التيسير، فمن سلكها أوصلته إلى المقصود النافع، ومن تركها أو ترك بعضها أو فوت كمالها أو أتاها على وجه ناقص ففاته الكمال المطلوب فلا يلومن إلا نفسه، وليس له حجة على الله، فإن الله أعطاه السمع والبصر والفؤاد والقوة والقدرة وهداه النجدين وبين له الأسباب والمسببات ولم يمنعه طريقاً يوصل إلى خير ديني ولا دنيوي، فتخلفه عن هذه الأمور يوجب أن يكون هو الملوم عليها المذموم على تركها.

واعلم أن صفات الأفعال التي منها هذه الأسماء كلها متعلقة وصادرة عن هذه الصفات الثلاث: القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة، والحكمة الشاملة التامة. وهي كلها قائمة بالله، والله متصف بها، وآثارها ومقتضياتها جميع ما يصدر عنها في الكون كله من التقديم والتأخير والنفع والضر والعطاء والحرمان والخفض والرفع، لا فرق بين محسوسها ومعقولها، ولا بين دينيها ودنيويها. فهذا معنى كونها أوصاف أفعال لا كما ظنه أهل الكلام الباطل أن الفعل هو عين المفعول، وأنه لم يقم بالله منها وصف، فهذا مخالف للعقل والنقل، وقول متناقض في نفسه، فإن الآثار تدل على المؤثر كما أن الوصف يدل على الأثر، فهما شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، دل الكتاب والسنة والعقل على ذلك، فمن فرق بينهما فأثبت المفعول ونفى الفعل فقوله غير معقول ولا منقول.

واعلم أن الأفعال الاختيارية للباري نوعان: نوع متعلق بذاته المقدسة كالاستواء على العرش والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا والمجيء والإتيان

ونحوها، ونوع متعلق بالمخلوقات كالخلق والرزق والعطاء والمنع وأنواع التدابير الكونية والشرعية والله أعلم.

## فصل

أسماء الله كلها حسنى، وكلها تدل على الكمال المطلق والحمد المطلق، وكلها مشتقة من أوصافها، فالوصف فيها لا ينافي العلمية، والعلمية لا تنافي الوصف، ودلالتها ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله، ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله، ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها. فمثلاً (الرحمن) دلالته على الرحمة والذات دلالة مطابقة. وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة في الضمن، ودلالته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ونحوها دلالة التزام، وهذه الأخيرة تحتاج إلى قوة فكر وتأمل، ويتفاوت فيها أهل العلم، فالطريق إلى معرفتها أنك إذا فهمت اللفظ وما يدل عليه من المعنى وفهمته فهما جيداً ففكر فيما يتوقف عليه ولا يتم بدونه، وهذه القاعدة تنفعك في جميع النصوص الشرعية فدلالاتها الثلاث كلها حجة لأنها معصومة محكمة.

## فصل

### في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر أقسام الملحدين

وهذا الفصل في نفي الإلحاد في أسماء الله وصفاته من تمام إثبات صفات الكمال وتفرد الرب بنعوت العظمة والجلال، فعلى العبد المؤمن أن يحققها علماً وتعبداً لله بها ونفياً للإلحاد فيها. وحقيقة الإلحاد فيها هو الميل بها عن الاستقامة إما بإثبات المشاركة فيها لأحد من الخلق، كإلحاد المشركين الذين اشتقوا لآلهتهم من صفات الله ما لا يصح إلا لله، كتسميتهم اللات من

الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان وكل مشرك تعلق بمخلوق اشتق لمعبوده من خصائص الربوبية والإلهية ما برر له عبادته. وأعظم الخلق إلحادًا طائفة الاتحادية الذين من قولهم إن الرب عين المربوب، فكل اسم ممدوح أو مذموم يطلق على الله عندهم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وإما نفي صفات الله وإثبات أسماء لا حقيقة لها كما فعل الجهمية ومن تفرع عنهم، وإما بجحدها وإنكارها رأساً إنكاراً لوجود الله كما فعل زنادقة الفلاسفة فهؤلاء الملحدون قد انحرفوا عن الصراط المستقيم ويمموا طرق الجحيم.

## فصــــل

### في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين

وهذا النوع يسمى توحيد الإلهية وتوحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة. وحقيقة هذا التوحيد هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتقرب إلى الله بمعرفة ذلك وفهمه واعتقاده فإنه أصل التوحيد وأساسه، ثم القيام التام بعبودية القلب وهي قوة الإنابة إلى الله بمحبته وخوفه ورجائه وسائر أعمال القلوب، ثم القيام بالصلاة فرضها ونفلها، والزكاة والصدقة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيله بالقول والفعل، وأداء حقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، وترك ما يكرهه الله ورسوله من المحرمات والمكروهات، وإخلاص ذلك كله لله تعالى، فكل هذا داخل في عبادة الله وتوحيده، ولا يتم ذلك إلا بتكميلها بالصدق وهو الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه وأحسنها، وأن تكون موافقة لمرضاة الله وما شرعه رسوله.

فهذه الثلاث: الإخلاص والمتابعة والصدق، من اجتمعت له تم له هذا التوحيد. فإن الإخلاص ينفي الشرك الأكبر الجلي وهو صرف نوع من العبادة لغير الله واتخاذ ندّ مع الله، وكمال الإخلاص ينفي الشرك الأصغر في الألفاظ

ووسائل الشرك، والصدق ينفي الكسل والفتور ونقصان العمل، والمتابعة تنفي البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية، فبهذا يتحقق التوحيد، وكمال هذا بتكميل محبة الله وتقديمها على كل محبة، ومحبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه الله من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة.

وبراهين هذا التوحيد أقوى البراهين: براهينه العلم بتفرد الرب بالربوبية والعظمة والكبرياء والسلطان، وأنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة وباطنة إلا منه، وهو الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيئات، وهو المنفس لكرب المكروبين وإغاثة المضطرين، وهو الذي يجير ولا يجار عليه

**﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قَنَطُوا وينشُرُ رحمته، وهو الوليُّ الحميد﴾** [سورة الشورى: الآية ٢٨]

ومن براهينه أن جميع الكتب السماوية وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دعوا إلى توحيده وإخلاص العمل له. وأنه مركوز في عقول جميع العقلاء ــ التي لم تغيرها العقائد الباطلة ــ وجوب عبادته وحده لا شريك له، ووجوب حمده وشكره وإخلاص العمل له.

ومن براهينه معرفة أوصاف ما عبد من دونه من جميع المخلوقين، وأنه ليس فيهم من خصائص الإلَهية والربوبية شيء بل هم ناقصون فقراء عاجزون

**﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما له منهم من ظهير﴾** [سورة سبأ: الآية ٢٢]

**﴿ومَنْ أَضَلُّ مِمَّن يدعو مِنْ دونِ اللَّهِ مَنْ لا يستجيبُ له إلى يومِ القيامةِ وهمْ عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** [سورة الأحقاف: الآيتان ٥، ٦]

فنسأل الله الكريم الوهاب أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، وأن يكمل لنا توحيده بقوة الإنابة إليه والشوق إلى لقائه والتلذذ بخدمته

واللهج بذكره. وأن يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا. ويكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين. إنه جواد كريم.

## فصـــل
### في صف العسكرين وتقابل الصفين واستدارة رحي الحرب العَوَان، وتصاوُل الأقران

وهذا في المقابلة بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله على وجه العموم، فأهل الحق هم الرسل الكرام والأنبياء العظام وأئمة الهدى ومصابيح الدجى والعلماء الربانيون والفقهاء والصالحون وطبقات أهل العلم والإيمان على توالي الزمان خلاصة الخلق وأكمل الناس إيماناً ويقيناً وأرجحهم عقولاً وأصوبهم آراء، وسلاحهم وبراهينهم جميع الكتب السماوية، وجميع العلوم الصحيحة الموروثة عن الأنبياء والنقل الصحيح والعقل الصريح. وأما أهل الباطل فهم كل زنديق ومارق وجاحد وملحد منافق ممن مرجت عقولهم وانحرفت أديانهم واختلت عقائدهم وعدمت فيهم الفضيلة واتصفوا بكل خصلة رذيلة. وأما سلاحهم فمناسب لحالهم: زبد عقولهم التي هي شبه لا تسمن ولا تغني من جوع، قدموها على نصوص الوحي والسنة والقرآن فأوهت منهم العقائد وعدموا الإيمان والإيقان، فشرح حال العسكرين يكفي في معرفة المُحِقّ من المبطل.

## فصـــل
### في عقد الهدنة بين المُعَطِّلة والمُلْحِدين

لما اتفق أهل التعطيل مع ملاحدة الفلاسفة على عزل الكتاب والسنة عن الاستدلال بهما على أعلى المطالب وأشرف الأصول، ووافقوهم على الأصل الذي ردوا به الوحي وما جاء به الرسول، وخضعوا لهم في كثير من

أصولهم وبحوثهم، وسلموا لهم كثيراً من أصولهم الباطلة، وعجزوا عن مقاومتهم عند مناظرتهم بما أعطوهم من سلاحهم، عقدوا بينهم وبينهم الهدنة، وقالوا بلسان الحال، وربما صرحوا به في لسان المقال: هلم نتفق على مقاومة أهل السنة والجماعة ـ وسموهم بالأسماء الشنيعة ـ هلمَّ نقاتل من قابلونا بالسنة والقرآن، وصالوا علينا بالأدلة العقلية والنقلية، وسفهوا أحلامنا وعابوا عقائدنا وجهروا بالقدح في أصولنا. فلما التقى الجمعان عرف الجهمية وزنادقة الفلاسفة أنه لا سبيل لهم إلى مقاومة الحق، ولا يدان لهم أن يقاوموا صحيح المنقول وواضح الدلالة والمدلول وصريح المعقول بآراء المتهوكين وأقيسة الحائرين وإفك المفترين وتزوير المزورين، تالله إن أدنى سرية من سرايا الحق إذا قابلت الباطل بأجمعه سحقته، وإن واحداً من شواهد الحق إذا وزن بجميع شبه الباطل محقه وأتلفه. وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فتأمل هذا الفصل، وهو:

## فصل
## في مصارع النُّفَاةِ المُعَطِّلين بأسِنَّة أهل الإثبات المُوَحِّدين

ذكر المصنف في هذا الفصل أنه لا يتم للإنسان معرفة حقيقة أهل البدع وما آلت إليه بدعهم من البطلان والاضمحلال حتى يقف على تصانيف شيخ الإسلام حقيقة الذي لم يحز هذا اللقب أحد بتمامه وكماله غيره، فهو شيخ الإسلام في أصول الدين وفروعه، وفي نصر الحق وجهاد أهل الباطل على اختلاف مللهم ونحلهم، فمن وقف على تصانيفه رآها كافية شافية، ورأى فحول أهل الكلام وأئمتهم وأساطين الفلاسفة وزنادقة أهل الوحدة وغيرهم ممن يشار إليهم بالأصابع ويرمقون بالأبصار ويخضع الكثير لأقوالهم وأصولهم قد تبين جهلهم وبان عيهم وتحقق بطلان ما كانوا ينصرونه من الأقوال الباطلة التي طالما أضلت الخليقة، فصارت بهذا البيان والتحقيق من

هذا الإمام العظيم في حيز المحال، وأباد خضراءهم، وقتلهم بسلاحهم الذي به صالوا وردّ عليهم بحججهم التي طالما في ميادينها جالوا، فلم يبقِ من فحولهم وأئمتهم، وأكابرهم أحداً إلا أرداه ووضح للناس ضلاله وعماه، فرحمة الله عليه من إمام عظيم منّ به الرحمن الرحيم في زمان تكاثرت فيه البدع، وتفاقمت فيه الطرائق المنحرفة، ورفع فيه أهل الإلحاد رؤوسهم فمزق جمعهم كل ممزق وذكر من تصانيفه المعروفة ما مخبره كاف عن وصفه، وهي ولله الحمد موجود أكثرها، وكل إصلاح في هذه الأوقات الأخيرة لا يخفى على صاحب البصيرة أن لكتبه فيه الأثر الأكبر والحظ الأوفر.

## فصـــل

### في بيان أن المصيبة التي حلّت بأهل التعطيل والكفران من جهة الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان

اعلم أن العصمة والنجاة بالوقوف مع الألفاظ الشرعية كما أن الدين هو ما دلت عليه تلك الألفاظ من المعاني، فهي الكفيلة بكل هدى وبيان، العاصمة من كل خطأ وخطل وفساد، المتمسك بها قد استمسك بالعروة الوثقى، وهي التي دلالاتها الثلاث المطابقة والتضمن والالتزام كلها حق وصدق، وأما الأسماء والألفاظ البدعية التي لم ترد في الكتاب والسنة فإن تعليق الاعتقادات والأقوال والأحكام عليها يجر إلى أقوال باطلة وضلال مبين، فانظر إلى أهل الكلام الباطل من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن تفرع عنهم لما علقوا اعتقاداتهم على الألفاظ البدعية ضلوا وأضلوا، ولو هدوا لرشدهم وتمسكوا بألفاظ الوحي ومعانيه لهدوا إلى الصراط المستقيم.

## فصـــل

### في كسر الطاغوت الذي نَفَوْا به صفاتِ ذي الملكوت والجبروت

وهذا الطاغوت هو شبهتهم الباطلة حيث زعموا أن إثبات الصفات

للباري تستلزم التجسيم، لأننا لا نشاهد موصوفاً بالصفات إلا هذه الأجسام، والله ليس كمثله شيء، فتعين نفي الصفات وتعطيلها وأن نتأولها ونأتي لها بمعانٍ مناسبة لها.

هذا حاصل هذا الطاغوت الذي من سمع به ممن لا بصيرة له هاله قولهم وخضع له وظن أن هذا الحق وهان عليه ردّ ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات، لأنه أعد هذا الطاغوت ترساً له.

فيقال في إبطال هذا الطاغوت: قد علم ثبوت الصفات المتنوعة لله تعالى في الكتاب والسنة بألفاظ كثيرة وأساليب متنوعة صريحة يكفي بعضها في إفادة العلم اليقيني، فكل شبهة تناقض هذا المعلوم المفهوم فإنها باطلة كائنة ما كانت، بأي لفظ عبر عنها، وبأي أسلوب حرفت. وكذلك قد علم بالضرورة من الدين ثبوت الصفات وهي أصل الأصول وأُسُّ الدين، ودلالة الكتاب والسنة عليها أعظم بكثير من دلالتها على الأحكام التي لا ينازع فيها مسلم كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع الأحكام الشرعية، فمن حاول إبطال النصوص الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات كان محاولته لإبطال بقية شرائع الدين أهون بكثير، ومن نظر الأمر وأمعن التأمل جزم أن محاولة هدم السماوات والأرض والجبال الشوامخ أسهل من محاولة إبطال نص واحد من هذا الأصل الذي قامت عليه العقائد والعلوم والأعمال والخلق والأمر.

ويقال في إبطاله أيضاً: إن تصوره وتصور لوازمه وما يلزم منه من الزور والافتراء والإلحاد وإبطال أصول الإيمان وتشييد أصول الإلحاد والزندقة يكفي العاقل في رده وإبطاله فضلاً عن الأدلة الأخر الدالة على بطلانه.

ويقال أيضاً على وجه التنزل والفرض والتقدير في مقام المجادلة، إذا ألح المعطل وأبى إلاّ أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم والتركيب ونحوهما مما قالوه من هذا الجنس، فلنا على هذا ثلاثة أجوبة:

الجواب الأول المنع، فنقول يكفينا لردّ قولكم أن نقول إنه ممنوع، فكل دعوى مجردة لم تقم على قواعد البراهين اليقينية إذا منعها المجادل كفى في ردها، ودعواهم هذه من هذا القبيل.

الجواب الثاني: إذا قلتم إنه لازم على كل حال وأبيتم إلا ذلك فنقول: ما تدعون لزومه من الجسم ونحوه إن كان لازماً لإثبات صفات الباري قلنا به لأنا نقول بالحق ولازم الحق حق، فكل نص من الكتاب والسنة نقول به وبجميع لوازمه كما هو الفرض على كل مسلم، كما أننا نعتقد ما دل عليه مطابقة وتضمناً، والإلزام الذي ذكرتموه في الحقيقة إلزام منكم لله ورسوله، فالله ورسوله منهما النص على إثبات تلك الصفات، فويح من استدرك على الله وعلى رسوله وخطأهما، فهل أعظم من هذا الإلحاد فنحن معاشر أهل السنة والجماعة لم نأت بكلام من تلقاء أنفسنا وإنما قلنا ما قاله ربنا ونبينا الذي فرض علينا وعليكم أن نأخذ به كله وأن لا نرد منه شيئاً ولا نستدرك عليه.

فإن قنعتم بهذا الجواب الذي لا يسع مسلمٌ الخروج عنه وإلا انتقلنا معكم إلى الجواب الثالث: ما تعنون بالجسم الذي نفيتم به الصفات وألزمتم به أهل السنة هذا الإلزام الذي لا يصدر ممن في قلبه إيمان وتعظيم لله ورسوله. هل مرادكم به أن كل من قام بنفسه فهو جسم، أو كل من هو عال على خلقه فهو جسم. فعلى هذه التقادير قد دلت البراهين اليقينية والصريحة التي لا معارض لها أصلاً على ثبوت الصفات وعلو الباري على خلقه واستوائه على عرشه، فتعين على كل مسلم تصديقها والاعتراف بها. فإن كان الجسم لازماً للإثبات فهو الحق والصواب، وإن لم يكن لازماً للإثبات فإن إلزامكم لأهل السنة تشنيع وهوى محض. وإن أردتم بالجسم غير ذلك فعينوا واحداً، فحينئذ تحتاجون إلى أمرين: أحدهما أن تبرهنوا على لزوم ذلك المعنى الذي

عنيتم ونفيتم به الصفات، الثاني أن تبرهنوا على نفي هذا اللازم على تقدير لزومه. ومن المعلوم أن هذه طلبات مفحمة لا جواب عنها لا من مقلديهم ولا من أئمتهم، فتعين بطلان هذا الطاغوت الذي نفوا به صفات الباري والحمد لله رب العالمين.

## فصـــل
## في مبدأ العداوة الواقعة بين المُثْبِتِين المُوَحِّدين وبين النَّافِين المُعَطِّلين

فالعداوة منشأها من المآخذ والأدلة التي بنى عليها كل فريق منهما اعتقاداته وأقواله وأحواله، وأنها في غاية التباين، وقد تقدم مراراً أن المثبتين الموحدين بنوا عقيدتهم على ما قاله الله في كتابه وقاله رسوله ﷺ وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأيد ذلك العقل الصحيح والفطرة المستقيمة، والمعطلة عكسوا الأمر فجعلوا عقولهم الفاسدة وآراءهم الضالة أصلاً عليه يعتمدون، فهذا التخالف في الأصل والطريق من لازمه التعارض والتخالف والتعادي، ومن أراد الوفاق بدون اتفاق فقد رام المحال.

## فصـــل
## في بيان أن التعطيل أساسُ الزَّندقة والكُفْران، والإثباتَ أساسُ العِلم والإيمان

ووجه ذلك ظاهر، فإن أصولهم التي ذكرناها وشرحناها مراراً تقتضي ما ذكره المصنف. فإثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة هو أصل العلوم وأسُّ الإيمان، فأصول الإيمان وفروعه لا تبنى ولا تثبت ولا تقوى ولا تتم إلا بإثبات الصفات، وأما تعطيل الصفات ونفيها لا فرق بين الصفات الذاتية وبين صفات الأفعال فهذا بعينه هو الكفر والإلحاد، فمن لا وصف له ولا فعل هل يتصور وجوده فيكون وجود كل الموجودات أكمل من وجود من قالوا فيه ذلك.

وأيضاً من كان من قوله إن أدلة الوحيين أدلة لفظية ظنية وأدلة عقول زنادقة الملحدين براهين يقينية فهذا إبطال للوحي وكفر بالرسالة وترجيح لأقوال أعداء الرسل على ما جاءت به الرسل، فالمثبتون لصفات الله قلوبهم ملآنة من تعظيم الله والخضوع له وألسنتهم على الدوام تلهج بذكره، وهم في كل وقت في مزيد من إيمانهم وأحوالهم بخلاف المعطلين.

## فصـــل

### في بهت أهل الشرك والتعطيل في ذَمِّهم أهل التوحيد بتنقيص الرسول

وهذا يعدُّ من العجائب، فإن أهل التعطيل كما تقدم عزلوا كلام الله وكلام رسوله عن الاحتجاج بهما في هذا الباب، وزعموا أن أدلة الوحيين لفظية ظنية، وأنها تدل على التجسيم، وأن من قال بما دلت عليه من المعاني المفهومة بلا ريب فهو كافر، وقدموا عليهما أصول أهل الإلحاد، ثم مع هذا زعموا أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقدموا على الوحيين رأي أحد وقالوا بما دلت عليه بأنواعها الثلاثة وجعلوا الوحيين هما الأصل الذي ترجع إليه الأقوال والمذاهب كلها فما وافقهما فهو مقبول وما خالف الوحيين فهو مردود وما لم يعلم موافقته أو مخالفته فهو موقوف، ولم يتقدموا بين يدي رسوله بمقالة لا أصولية ولا فروعية، زعم أهل التعطيل مع هذا أنهم متنقصون للرسول، وهذا من أعظم قلب الحقائق وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والمحسن مسيئاً والمسيء محسناً، فمن عرف ما قاله أهل السنة وما قاله الجهمية في هذا الباب عرف أن الإيمان بالله ورسوله وتعظيم الله ورسوله دائر مع ما قاله أهل السنة إثباتاً ونفياً وظاهراً وباطناً، فإنهم كما عظموا ربهم بالإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة من صفات عظمته وكبريائه وانقادت قلوبهم وجوارحهم لذلك وشهدت به ألسنتهم فهم القائمون بتعظيم الرسول حقاً والإيمان به إذ قالوا نشهد أن ما جاء به الرسول حق يجب الإيمان به كله في جميع أبواب العلم

في أصول الدين وفروعه، ويجب الانقياد له واتباعه وتقديمه على غيره، وميزوا بين الحق المختص بالله وهو عبادته وحده لا شريك له فلا يستحق هذا الحق ملك مقرب ولا نبـي مرسل ولا غيرهما، والحق المختص بالرسول وهو تعزيره وتوقيره وتبجيله، والحق المشترك هو الإيمان بالله ورسوله ومحبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله.

وأما غيرهم من أهل التعطيل والشرك فإنهم عزلوا الوحيين عن الاحتجاج بهما وقدموا عليهما أقوال المكذبين بـالرسـل وأعطوا الـرسول من الحق المختص بالله من التأله والغلو ما لا يليق إلا بالله وشابهوا النصارى في غلوهم بعيسى بن مريم، إلى غير ذلك من أوصافهم المناقضة للدين، فأي الفريقين أحق بتعظيم الرسول، وأيهم أولى به في الدنيا والآخرة. لا يستريب العاقل المنصف أن أهل الشرك والتعطيل هم المتنقصون للرسول، المنقوصون حظهم من الإيمان بالله ورسوله.

ونظير رمي المعطلين للمثبتين في طريقتهم رمي المشركين للموحدين أنهم يتنقصون الرسول إذ لم يجعلوا للرسول من حق الله الخـاص شيئاً، فلم يدعوه ولا تضرعوا إليه، ولا غلوا فيه غلو النصارى كما فعله المشركون، ولا فعلوا في زيارته كفعل المشركين الذين استغاثوا به في كشف شدائدهم وتمسحوا بقبره ورفعوا أصواتهم بالضجيـج الجافي عنده وزعموا أنهم هم الموحدون وأن الموحدين متنقصون، فهل تنقص الرسول من قدم طاعـة الرسول على كل طاعة، واتبعه في أصول الدين وفروعه، وقام بتوقيره وتبجيله اللائق بجنابه الشريف، وعلم أنه ﷺ أكمل الخلق في جميـع الصفـات الحميدة، وأنه أعلاهم مقاماً وأوجههم عند الله وأقربهم منه، وقدم محبته على محبة نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين، وعلم أن عنوان محبته الاهتداء بهديه والاقتداء بأقواله وأفعاله والتأدب التام بين يدي سنته وأن لا يرفـع عليها مذهب ولا عقيدة ولا قول أحد من الناس كائنـاً من كان، والتـأدب عند

زيارته ﷺ، واعتقاد أن زيارة مسجده مع زيارته من أفضل القربات وسلوك طريق الأدب في ذلك، وأن أحدهم إذا وصل إلى تلك الربوع الشريفة والأمكنة المنيفة ابتدأ في مسجده ﷺ فصلى تحية المسجد ركعتين بطمأنينة وسكون وخضوع لله تعالى وحمد وثناء لله الذي منَّ عليه بوصوله. ثم يقوم إلى ما بين يدي الرسول ﷺ مستقبلاً وجهه الكريم غاض الطرف خافضاً صوته يخاطبه في هذه الحال كما يخاطبه في حياته فيقول:

«السلام عليك يا رسول الله وخيرته من خلقه وصفوته من عباده، أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وبينت الهدى من الضلال والرشاد من الغي والحق والباطل، وجاهدت في الله حق جهاده وهديت الخلق ببيانك وإرشادك وقولك وفعلك وهديك إلى صراط مستقيم، فلم يبق خير إلا دللت الأمة عليه وبينته وأرشدت إلى طرقه، ولا شر إلا حذرتها عنه وعن مسالكه وسبله. وأشهد أن الله قد جمع لك من الفضائل والخصائص والمزايا والكمالات ما لم يجمعه لأحد من الأنبياء والمرسلين، فجزاك الله عن أمتك خير الجزاء، وصلى الله عليك وملائكته وجميع خلقه صلاة كاملة تامة، وآتاك الوسيلة والفضيلة والمقامات المحمودة».

ويثنى عليه بكل ما يقدر عليه من الثناء الذي يليق بجنابه وهو أهله، بأبي هو وأمي، ويصلى عليه، ثم ينحرف يمنة فيسلم على أبي بكر الصديق، ثم على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وذلك كله بأدب وطمأنينة وغض صوت وخضوع واستحضار لشخصه الكريم كأنه في حياته. فهذه الزيارة للموحدين تملأ القلب إيماناً وتصديقاً ومحبة للرسول وشوقاً إليه وتعظيماً وتبجيلاً. ثم ينصرف فيجعل الحجرة عن يساره ويستقبل القبلة ويدعو الله بما أحبه من خير دينه ودنياه وآخرته. أفمن كانت هذه حالهم مع الرسول ومع سنته لا يميلون عما قاله وفعله قيد شعرة يكونون متنقصين له، أم المتنقصون له في الحقيقة من خالفوا هذه الطريقة المستقيمة من كل وجه؟

فأهل السنة يقولون للمعطلين والمشركين ما قاله متبوعهم صلوات الله وسلامه عليه لأعدائه حين بين السبيل وأوضح المسالك

﴿وإنَّا أَوْ إيَّاكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤]

## فصــل
### في تعيين أن اتِّباع السُّنَن والقرآن طريقُ النَّجاة من النيران

وذلك أن الطرق كلها مسدودة لا يوصل منها إلى الله وإلى ثوابه ولا ينجو بها العبد من عقابه إلا بطريق واحد وهو طريق السعادة والنجاة من العذاب، وهو اتباع كتاب الله الذي هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، واتباع رسوله محمد ﷺ بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

وتفصيل هذه الجملة أن تأخذ كتاب الله وما صحت بـه السنة عن رسول الله، خصوصاً كتب الصحاح كالبخاري ومسلم، فتقرأها وتفهم معانيها وتقدر أن الخطاب من الله ورسوله كأنك مشافه للرسول جالس بين يديه مع أصحابه، وتعلم أنه لا يصح إيمانك حتى تعتقد وجوب عرض أقوال الخلق كلهم على قول الرسول، فما وافق ذلك فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود، وما لم يعلم موافقته أو مخالفته فهو موقوف. وتوضيح ذلك أن تقدر جميع مقالات الخلق معدومة لا وجود لها، لأن الله لم يوجب طاعة أحد من الخلق غير رسوله، فتتلقى العقائد والأحكام: الأصول والفروع عن رسول الله ﷺ، ولو لا التعصب والهوى لكانت هذه الطريقة لا يشك مسلم أنها فرض عام على الناس كلهم.

وإذا عرفت أنه ﷺ قد جمع الله له كمال العلم وكمال النصح وقوة البيان الذي لا يشاركه في شيء من ذلك مشارك عرفت أن كلامه هو الغاية في الإرشاد والهداية واستفادة أصناف العلوم والحقائق من كلامه، مع وجوب طاعته وتحقيق عصمته، فهذا برهان قاطع على استيلاء كلامه على غاية البيان

وتمام الإرشاد، فالنقلة عنه أصدق الناس وأعظمهم تحرياً للصدق وأعرفهم بكلامه، وكلامه معصوم وصدق، فكيف يعدل مع هذا عن كلامه إلى قول غيره المنافي له في هذه الأمور. فقد وضح السبيل للسائرين فسر عليه مجداً، واهجر كل قاطع يقطعك عنه، فكل من قطع عن نيل المقاصد العالية فقد برهن على عداوته وكل من أعانك على سيرك فهو الصديق ولو كان من أبعد الناس.

## فصل

### في تيسير السير على المُثْبِتِين المُوَحِّدين وامتناعه على المُعَطِّلين والمشركين

العبد منذ عقل أمره وعرف النجدين فهو يسير إلى الدار الآخرة في ليله ونهاره وحركته وسكونه، ولكن الخلق يتفاوتون في سيرهم المستقيم وسيرهم المنحرف تفاوتاً عظيماً، فأعظم الطريق الموصلة إلى الله وإلى كرامته وأيسرها وأسهلها وأصحها وأحسنها هي طريق المثبتين لصفات ربهم المخلصين له في أعمالهم، فالسير إلى الله هو سير القلوب بالعقائد الصحيحة النافعة التي تملأ القلب معرفة ويقيناً وإيماناً وإخلاصاً وقوة وطيباً وسروراً. ومدارها على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وتسهل على العبد الطاعات وأصناف القربات، وتورث محبة الله واللهج بذكره.

وهذه الأخلاق التي هي أعلى الأخلاق وأكملها تمنع صاحبها من وقوع المخالفات، فإن وقعت منه بادر إلى الإقلاع والتوبة النصوح، وكلما كان العبد أعرف بالله كان له أحب وله أخشى وأرجى وأطمع في فضله، وأما المعطلون فقطعوا هذا الطريق على أنفسهم وعلى السائرين، لأن المحبة تتعذر إذا لم يعرف العبد ربه، ولا يمكن أن يعرفه إلا بصفاته ونعوته فكان المعطلون محجوبين عن هذا المطلب الأعلى.

واعلم أنه لا بد للخلق أن يسألوا عن أمرين: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين. والجواب الصحيح عن السؤال الأول هو تجريد التوحيد عن شوائب الشرك كبيره وصغيره، وعن السؤال الثاني تجريد متابعة النبي ﷺ، وتقديم قوله وحكمه على قول غيره وحكم غيره. فنسأل المولى الذي ابتدأ بالإحسان وختم بالإحسان وعلم حالة الإنسان وما هو عليه من النقصان أن يتولانا بلطفه، ويمن علينا بتوحيده الكامل، وإخلاص العمل لأجله، وتجريد متابعة نبيه، وأن لا يزيغ قلوبنا إنه هو الوهاب.

## فصل

### في ظهور الفرق بين الطائفتين، وعدم التباسه إلّا على من ليس بذي عينين

وهذا الفرق بين أهل السنة وغيرهم هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فأهل السنة يدعون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ويتلقون أصول الدين وفروعه عنهما ولا يعطلون الصفات بل يثبتونها، ومن سواهم بالعكس من ذلك يكذبون ويحرفون ويفوضون. وقد تقدم من تفاصيل فروقهم ما يكفي. ونظيره الفصل الذي بعده:

## فصل

### في ظهور التفاوت بين حظ المُثْبِتِين والمُعَطِّلين من وحي رب العالمين

وذلك أنه يظهر التفاوت بين الخلق مدحاً وذماً وحقاً وباطلاً بصفاتهم ومآخذهم وأصولهم وأخلاقهم وثمرات أعمالهم وقوة أدلتهم وضعفها. فلأهل السنة والجماعة من كلام الله الحقيقة، لا يعدلون إلى المجاز الذي وضع أخيراً، كما اتفق أهل الأصول والعلوم على ذلك في كل كلام، وغيرهم

يتبعون المجازات والاحتمالات البعيدة الشاذة المخالفة للظاهر وللمعلوم من الدين بالضرورة تحقيقاً لقوله تعالى:

**﴿فأما الذين في قلوبهم زَيْـغٌ فيتَّبِعُون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله﴾** [سورة آل عمران: الآية ٧]

وكليات أدلة أهل السنة قواطـع الأدلة من الكتاب والسنة، وقواطـع العقل التي اتفق العقلاء على صحتها، واتباع إجماع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهدى ومصابيـح الدجى. وليس للنافين منها دليل واحد، وإنما أدلتهم شبه تدل على سفاهة مبديها وضلاله، وينقض بعضها بعضاً، وإذا استدلوا فبكلام أرسطو وابن سينا والفارابـي وابن الخطيب ممن عرف انحرافهم عن الحقائق الدينية. وخير ما يستدلون به كلام أبـي الحسن الأشعري مـع أنهم خالفوه فيما أثبته من العلو والاستواء على عرشه ونحو ذلك من الإثباتات التي صرح بها في كتبه (الإبلة) وغيرها كما هو معروف، فخيار أئمتهم خالفوه حين قال الحق وقرر الصواب ووافق أهل السنة فيه، وهذا غاية الخذلان.

وطريق أهل السنة إذا فرض التعارض بين النقل عن المعصوم وبين ما خالفه من الآراء قدموا النقل، والآخرون بالعكس. وطريق أهل السنة النفي المجمل والإثبات المفصل: ينفون عن الله أنواع النقائص والعيوب ومماثلة أحد من خلقه، ويثبتون على وجه التفصيل كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله ونعوته. والمعطلون يثبتون مجملاً وينفون مفصلاً: يثبتون ألفاظاً مجملة لا تسمن ولا تغني من جوع، وينفون نفياً مفصلاً لجميـع الصفات والأفعال لله. فأي الفريقين أحق باتباع الكتاب والسنة...

# فصـــل

## في بيان الاستغناء بالوحي المنزل من السماء عن تقليد الرجال والآراء

وذلك أن الله جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وأمر برد ما تنازع فيه الخلق من المسائل الأصولية والفروعية لله ولرسوله، وأخبر أنه أكمل لعباده الدين، فالوحي الذي هو الكتاب والسنة كفيل بجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم من أصول وفروع، بل وفي أمور دنياهم، فيه بيان الأصول العظيمة بياناً منوعاً مصرفاً بأساليب متعددة، وطرق متنوعة، وفيه بيان جميع الأحكام، وفيه الإرشاد جملة وتفصيلاً إلى المنافع والمصالح الدينية والدنيوية. فيه علوم التوحيد والرسالة وتفاصيلها بأكملها وفيه علم الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة والجنايات وغيرها، وفيه علم الجزاء وتفاصيل الجزاء الدنيوي والجزاء الأخروي، وفيه بيان الأسباب ومسبباتها تفصيلاً وإجمالاً.

فالكتاب والسنة إذا تم علم العبد بهما حصل له الكفاية والشفاء والهداية في كل أبواب العلم، ولم يحتج معهما إلى رأي أو قياس إلا في بيان حكمهما واستنباط أسرارهما. وقد يخفى على العالم بعض نصوص الكتاب والسنة أو يفوته بعض معانيها فيضطر إلى القياس على قواعد الشرع وأصوله، فالقياس يصار إليه عند الاضطرار كما قاله الأئمة الشافعي وأحمد وغيرهما.

والقياس الصحيح من العدل والميزان الذي أمر الله به وهو داخل في الشريعة، وإنما ينكر منه القياس الفاسد المخالف للنص أو لأصول الشريعة، أو القياس الضعيف الذي لم يستوف شروطه. والقياس الصحيح مبني على الجمع بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين. وهذا الاستغناء المذكور بالوحي لا يتم إلا بالإقبال التام على الكتاب والسنة، وأن يكون ذلك أكبر همة طالب العلم وغاية بغيته، وأن يلغي جميع الموانع والمعارضات التي تحول بينه وبين هذا المطلوب من التعصب والتقليد الأعمى ونصرة غير الحق.

وذكر المؤلف رحمه الله حاله في طلب العلم وأنه في ابتداء أمره ما زال متقيداً بقيود التقليد، غير منطلق الفكر في العلم الصحيح، ثم إن الله يسر له بحسن قصده وشدة طلبه أن خلع القيود وأقبل على الكتاب والسنة، وحصل منهما خيراً كثيراً وشرح الله صدره للهدى، واتسعت دائرة معارفه، واتضح له الفرق العظيم بين حالته الأولى والثانية. وغرض المؤلف أنه أخبر عن تجربة ومشاهدة، وليرغب في هذه الطريقة التي لا يسلكها إلا الكمل من العباد. ولكن هذه الطريقة لها شروط بينها في هذا الفصل وهو قوله:

## فصل
### في بيان شروط كفاية النَّصَّين والاستغناء بالوحيين

وجملة شروط ذلك وحاصلها يرجع إلى أمرين: وجود المقتضى، وهو الإقبال التام على الكتاب والسنة، وبذل الجهد في معرفة معانيهما والاهتداء بهما. ولا بد أيضاً من دفع المانع وهو التصميم الجازم على دفع كل ما عارض النصين من المذاهب والمقالات والقواعد والعوائد التي جرت عليها أكثر الخليقة وأوجبت من مخالفة الوحيين أموراً كثيرة متى دفعها العبد وأعرض عنها اتسعت دائرة علمه ومعرفته، فبالتجرد عنها والإقبال التام على الوحيين وسلوك كل طريق يعين على معرفتهما والاستنارة بنور العلماء والاهتداء بهداهم تحصل الكفاية التامة.

والناس في حالهم مع الأئمة والعلماء ثلاثة أقسام: **أحدها** من غلا فيهم وجعل أقوالهم معصومة بمنزلة أقوال الرسول وقدمها على الكتاب والسنة، مع أن كل إمام له قبول في الأمة قد حث على اتباع الكتاب والسنة، وأمر أن لا يتبع من أقواله ومذهبه ما خالف الكتاب والسنة.

**القسم الثاني**: من ألغى أقوال العلماء وأهدر مقالات أئمة الهدى

ومصابيح الدجى ولم يستغن بنور فهمهم، ولا استعان بعلومهم، أو بعدما استفاد منها لم يشكرهم على ذلك، فهذا قد حرم خيراً كثيراً. والذي حمل هؤلاء على ذلك ظنهم أن وجوب اتباع الرسول وتقديم قوله على قول كل أحد يوجب الزهد في أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهدى، وهذا من الغلط الفاحش، فإن الصحابة وأهل العلم هم الوسائط بين الرسول وبين أمته في تبليغ سنته ألفاظها ومعانيها، فالمتبع لهم في ذلك مهتد بأفهامهم، مقتبس من أنوارهم، مستفيد من استنباطاتهم للمعاني النافعة، والدقائق التي لا تكاد تخطر على أذهان كثير من أهل العلم ولا تكاد الأفهام تدركها، فمن فضل الله على الأمة أن مَنَّ عليهم بهؤلاء العلماء الربانيين المربين لهم بنوعين من أنواع التربية العالية: أحدهما التربية العلمية، يربونهم بصغار العلم قبل كباره، وبإيصال معاني الكتاب والسنة إلى أذهانهم وعقولهم بالتعليم الشفاهي، وبتصنيف كتب العلم النافع المتنوعة التي لا يقدر العباد أن يصفوا ما اشتملت عليه من العلوم والفوائد التي لهم اليد البيضاء في استنباطها من الكتاب والسنة، وفي ترتيبها وتفصيلها وتقسيمها، وجمع النظائر والمتماثلات والشروط والأركان والموانع، وتفريق المعاني المتباينة وأصناف الفوائد المتنوعة، والنوع الثاني تربية عملية، يربون أخلاقهم ويحثونهم على كل خلق حميد، ببيان حكمه ومرتبته وما يترتب عليه من الفوائد، ويبينون لهم الأسباب والطرق التي يكتسبونها به، والموانع التي تعوقهم عن الاتصاف به. فهم في الحقيقة غذاء القلوب والأرواح، وهم أطباء أدواء القلوب وعللها، يعلمونهم بأقوالهم وأفعالهم وهديهم، فهؤلاء لهم الحق الأكبر على الأمة، ولهم من المحبة والتعظيم والتوقير والشكر على محاسنهم وإحسانهم المتنوع فوق كل حق بعد حق الله وحق رسوله.

ولهذا كان **القسم الثالث** الذين وفقوا لمعرفة أقدارهم، وقاموا بحقوقهم، وشكروهم على فواضلهم وفضائلهم، واكتسبوا من علومهم وقدروها حق قدرها، وعرفوا أنهم غير معصومين، وأن أقوالهم تابعة لأقوال الرسول، وأن

كل واحد منهم يؤخذ من قوله ما احتوى عليه من الهدى والعلم والرشاد والإصابة، ويترك منه ما أخطأ فيه، ولا يذم على خطئه إذ هو مجتهد في إصابة الحق وخطأهم مغفور، وسعيهم مشكور. وإذا ردوا ما قاله أحد هؤلاء السادة لما يرونه من الضعف ومخالفة الدليل الشرعي بينوا ضعف القول ومرتبته، ولم يقدحوا في قصد أهل العلم والدين ولم يذموهم على هذا، ويقولون كما هو الواجب أن يقولوا:

**﴿ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾** [سورة الحشر: الآية ١٠]

فهؤلاء أدوا الواجبين: جمعوا بين تقديم الكتاب والسنة على كل شيء، وبين معرفة أقدار العلماء وأئمة الهدى والقيام ولو ببعض حقهم، فنسأله أن يمن علينا ويجعلنا من أهل هذا القسم الثالث، ويجعلنا ممن يحبه ويحب من يحبه ويحب العمل الذي يقرب إلى حبه.

## فصــل

### في لازم المذهب: هل هو مذهبٌ أمْ لا.

أما كلام الله وكلام رسوله فإنه كله حق، ودلالاته الثلاث حق: دلالة المطابقة والتضمن ودلالة الالتزام، لأنه تنزيل من حكيم عليم حميد، محكم قد علم الله ما يلزم وحيه وما تتوقف عليه كلماته وكلمات رسوله من الشروط والمتممات التي يتوقف كثير من المعاني عليها.

فهذا النوع من الكلام لا يدخل في الخلاف الذي أشار إليه المؤلف، وأما كلام أهل العلم وأرباب المذاهب في الأصول والفروع فدلالة المطابقة والتضمن معلوم أنها داخلة في كلامهم لأنها هي معنى الكلام، وأما إذا قالوا مقالة ولزم منها أقوال أخر متوقفة عليها صحيحة أو فاسدة فالصواب والتحقيق الذي يدل عليه الدليل أن لازم المذهب الذي لم يصرح به صاحبه ولم يشر

إليه ولم يلتزمه ليس مذهباً، لأن القائل غير معصوم، وعلم المخلوق مهما بلـغ فإنه قاصر، فبأي برهان نلزم القائل بما لم يلتزمه، ونقوّله ما لم يقله، ولكننا نستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم، فإن لوازم الأقوال من جملة الأدلة على صحتها وضعفها وعلى فسادها، فإن الحق لازمه حق، والباطل يكون له لوازم تناسبه فيستدل بفساد اللازم خصوصاً اللازم الذي يعترف القائل بفساده على فساد الملزوم، كما تقدم في إلزام الجهمية على أقوالهم الفاسدة لوازم يعترفون بفسادها ويكفرون من قال بتلك اللوازم، كإلزامهم في قولهم في الإيمان إنه مجرد إقرار العبد بأن الله ربه، أنه يلزم من هذا القول الحكم بإيمان إبليس وفرعون وقوم عاد وثمود وقوم نوح وكل مكذب للرسل إذا كان يعترف بالله.

وكذلك نفيهم لصفات الله وأفعاله وعلوه على خلقه من لوازم التعطيل المحض ونفي وجود الله بالكلية. وكذلك تقدم لوازم قولهم في تفسيرهم لكلام الله أنه يلزم منه أن كلام الخلق كلهم كلام الله كما قاله الاتحادية. والقول بنفي الرسالة ونحوها مما مر ومر توجيهه. فهذه الإلزامات الصحيحة. وأما إلزام أهل الكلام لأهل السنة القول بالجسمية أو التشبيه إذا أثبتوا الصفات فهو إلزام منهم باطل في نفسه، باطل في نفس إلزامهم، وتقدم وجه فساده واستفسارهم الذي يبطل به قولهم، فإلزامهم لأهل السنة ما لم يلتزموه افتراء منهم وتقوّل عليهم، واللازم الذي قالوه باطل بالنص والإجماع لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فكما أثبت لنفسه عظيم الصفات فقد نفى عنه مماثلة أحد من المخلوقين وأن يكون له كفو أو نِدّ.

وقد تمادت هذه الطائفة أرباب الكلام الباطل حتى إن بعض من يشار إليه منهم بالفضل والعلم حكى الإجماع أن خلق العرش بعد خلق السماوات والأرض. وما حمله على هذا القول الذي فاه به وخالف نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة إلا تفسير الاستواء بالاستيلاء والخلق، وأن قوله:

﴿إنّ ربَّكم اللَّهُ الذي خلق السماواتِ والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

يعني على زعم هذا المفتري: ثم خلق العرش. والقول إذا وصل إلى هذه الحالة السمجة فهو نهاية الافتراء والتحريف والتعصب.

## فصـــل

### في الردِّ عليهم في تكفيرهم أهل العلم والإيمان
### وذكر انقسامهم إلى أهل الجهل والتفريط والبدعة والكفران

وبهذا التفصيل في هذا الفصل يتضح إنصاف أهل السنة في معاملتهم لأعدائهم من أهل البدع والمعطلين، كما يتضح جراءة أعدائهم وافتراؤهم حيث جعلوا ميزان الكفر والإيمان مخالفتهم وموافقتهم، فمن وافقهم على بدعتهم ونفيهم فهو المؤمن عندهم، ومن خالفهم فهو كافر. فانظر إلى هذه الجراءة العظيمة، وحكمهم على أهل السنة والشريعة بالكفر والخروج من الدين بغير بينة ولا برهان، بل بالتعصُّب والأقوال التي لم ينزل الله بها من سلطان. فلو أنهم حين ابتلوا بهذه البدعة الباطلة قالوا: هذا رأينا الذي رأيناه ولم يتعدوا هذا العدوان لكان أهون شراً وأقل مصيبة عليهم، ولكنهم جمعوا بين الشرين وجمعوا بين الضلالتين، وهذا من عقوبات الله القدرية لقلوب أعرضت عن وحيه وتعوضت عنه آراء كل أفاك أثيم، فنسألك اللهم عافيتك ولطفك.

أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع جميع أهل البدع المسلك المستقيم المبني على الأصول الشرعية والقواعد المرضية، ينصفونهم ولا يكفرون منهم إلا من كفره الله ورسوله، ويعتقدون أن الحكم بالكفر والإيمان من أكبر حقوق الله وحقوق رسوله، فمَنْ جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه غير متأول من أهل البدع فهو كافر، لأنه كذّب الله ورسوله، واستكبر على الحق وعانده، فكل مبتدع من جهمي وقدري وخارجي ورافضي

ونحوهم عرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة، ثم أصر عليها ونصرها فهو كافر بالله العظيم مشاقٌّ لله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى. ومن كان من أهل البدع مؤمناً بالله ورسوله ظاهراً وباطناً، معظماً لله ورسوله ملتزماً ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنه خالف الحق وأخطأ في بعض المقالات وأخطأ في تأويله من غير كفر وجحد للهدى الذي تبين له لم يكن كافراً، ولكنه قد يكون فاسقاً مبتدعاً، أو مبتدعاً ضالاً، أو معفواً عنه لخفاء المقالة وقوة اجتهاده في طلب الحق الذي لم يظفر به.

ولهذا كان الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم من أهل البدع أقساماً متنوعة: منهم من هو كافر بلا ريب كغلاة الجهمية الذين نفوا الأسماء والصفات وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفة لما جاء به الرسول، فهؤلاء مكذبون للرسول عالمون بذلك. ومنهم من هو مبتدع ضال فاسق كالخوارج المتأولين والمعتزلة المتأولين الذين ليس عندهم تكذيب للرسول ولكنهم ضلوا ببدعتهم وظنوا أن ما هم عليه هو الحق، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم في الحكم على بدعة الخوارج ومروقهم كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فيهم، واتفقوا أيضاً على عدم خروجهم من الإسلام مع أنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم وأنكروا الشفاعة في أهل الكبائر وكثيراً من الأصول الدينية، ولكن تأويلهم منع من تكفيرهم.

ومن أهل البدع من هو دون هؤلاء ككثير من القدرية وكالكلابية والأشعرية فهؤلاء مبتدعة ضالون في الأصول التي خالفوا فيها الكتاب والسنة وهي معروفة مشهورة، وهم في بدعهم مراتب بحسب بعدهم عن الحق وقربهم، وبحسب بغيهم على أهل الحق بالتكفير والتفسيق والتبديع، وبحسب قدرتهم على الوصول إلى الحق واجتهادهم فيه وضد ذلك، وتفصيل القول فيه يطول جداً.

فأهل السنة والجماعة عندهم من الأصول الصحيحة، وملازمة ما دل عليه الكتاب والسنة، والتصديق بذلك كله والخوف من الله ما يمنعهم من

التعدي على الخلق وعلى أعدائهم من أهل البدع والكلام الباطل، ولا يحملهم بغضهم وعداوتهم على مجاوزة الحد فيهم، بل ينزلون كلًّا من أقسامهم منزلته، متبعين في ذلك ما جاء به الوحي وما دلت عليه أصوله، عالمين بالحق، راحمين للخلق، يدينون باتباع الكتاب والسنة ويتبرأون ممن خالف ذلك، ويسألون الله أن يعافيهم من أهل البلاء، ومن أعظم البلاء البدع في الدين. والله أعلم.

## فصــل
### في تلاعب المُكَفِّرِين لأهل السُّنة والإيمان بالدين كتلاعب الصبيان

أهل الكلام الباطل والبدع جعلوا دينهم ما قالته شيوخهم، فإذا جاءتهم نصوص الوحي قالوا: هذا مجمل، هذا مؤوّل، هذا كذا هذا كذا. وأما أقوال شيوخهم فلا يعتريها عندهم إجمال ولا إشكال، ولا يحل لأحد مخالفتها ولو كان ذلك لقول الله وقول رسوله، فهل أبلـغ من هذا التلاعب بالدين...

أمَّا أهل السنة والجماعة فعندهم أن نصوص الوحي صريحة بينة واضحة كما هو مشاهد، معصومة توجب العلم واليقين، لا تحل مخالفتها ولو اجتمعت عقول أهل الأرض وآراؤهم على مخالفة نص واحد منها. فالنص عندهم أعظم وأجل من أن يعارض بغيره، ولهذا كان أهل البدع لم يعيبوا أهل السنة بمخالفة شيء من النصوص وإنما عابوا عليهم مخالفة أئمة أهل البدع. ولما كان أبو الحسن الأشعري فيه سنة وبدعة، وأثنى عليه أهل السنة بما معه من السنة وما نصره من الحق وما ردّ به على المعتزلة وغيرهم، وأنكروا عليه ما يقوله مما خالف فيه الحق وخالفوه في ذلك، عاب أهل الكلام على أهل السنة مخالفة أبـي الحسن في أقواله البدعية، وهم في أنفسهم قد تناقضوا: فإنهم وافقوا الأشعري في أقواله المبتدعة، وخالفوه بما ذكره في كتبه: (الإبانة)

وغيرها، من التصريح بعلو الله واستوائه على عرشه وإثباته للصفات وردّه على الجهمية وموافقته للإمام أحمد وأصحابه كما صرح بذلك كله. وإنما ثبت على قوله في الكلام النفسي وبقي على مذهب ابن كلاب كما تقدمت حكايته. فأي الفريقين أحق بالحق إن كنتم تعلمون...

وهكذا صنيع أهل السنة مع كل من عرف بالعلم والإيمان، يعتقدون فضله ومقامه الذي أقامه الله به من العلم والإيمان، ويوافقونه فيما قاله من الحق، ويستفيدون من علمه، ويردّون ما غلط فيه من الباطل، لعلمهم أنه لا معصوم إلا رسول الله وإلا إجماع الأمة، وهؤلاء المبتدعة ليس لهم جواب عن هذا التحقيق إلا التكفير والتبديع والشكاية إلى الملوك ليؤيدوا ما قالوه من الباطل.

## فصل

### في بيان أن أهل الحديث هم أنصار رسول الله ﷺ وخاصته ولا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر

ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الأنصار (لا يبغضهم إلا منافق) وذلك بأسباب إيمانهم ومسابقتهم ونصرتهم التامة لرسول الله ﷺ وذبهم عنه من يريده بسوء. كذلك أهل السنة والجماعة وأهل الحديث هم أنصار دينه وكتابه ورسوله: نصروا الرسول بعد وفاته كما نصره الأنصار في حياته، فمحبتهم من الإيمان وبغضهم من النفاق، ولذلك قيل لهم «أهل السنة والجماعة» و«أهل الحديث» لانتسابهم لسنته دون المقالات كلها والمذاهب وغيرها، لأن الإنسان لا ينسب لشيء إلا لاتصاله به، بخلاف غيرهم فإنهم تباينت نسبهم إما إلى القائلين كالجهمية والكلابية والأشعرية ونحوهم، وإما إلى المقالات كالقدرية والجبرية والمعطلة، أو إلى الأمكنة أو إلى الأشخاص ونحو ذلك. ولا ينجي العبد من النار إلا اتباع السنة والقرآن، والناس في

الحقيقة هم المتبعون لهما، وخيار أهل الحق علماؤهم لأنهم هدوا واهتدوا، وشرار أهل الباطل علماؤهم لأنهم ضلوا وأضلوا، والجهال من هؤلاء وهؤلاء وسط بين الكمل الذين هم أهل العلم والإيمان وبين أئمة الباطل.

## فصــل

### في تعيين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته كما كانت فرضاً من الأمصار إلى بلدته

وذلك أن الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ومن بلاد البدع إلى بلاد السنة واجبة عند وجود سببها وهو العجز عن إظهار الدين والسنة مع القدرة على الهجرة. وهذه قد تجب في وقت دون وقت وفي مكان دون مكان وعلى شخص دون آخر بحسب وجود سببها أو عدمه. وأما الهجرة إلى الله ورسوله بالإخلاص والمتابعة فهي فرض عين على كل شخص وفي كل مكان وزمان، وهي روح الدين وحقيقة الإيمان. فعلى كل عبد أن يقصد رضا ربه وطلب رضوانه في كل ما يأتي وما يذر في أقواله وأفعاله وسره وعلنه، بأن يكون حبه لله وفي الله وبغضه لله وولايته وعداوته لله، وينيب إلى ربه في جميع أعمال قلبه.

وعليه مع ذلك أن يكون في أقواله وأفعاله واعتقاداته وأصول دينه وفروعه متابعاً لرسول الله متلقياً عنه جميع دينه، وأن يعرض جميع المقالات والمذاهب على ما جاء به الرسول ﷺ، فما وافقه قبله، وما خالفه رده، وما أشكل أمره توقف فيه. فالعمل المقبول ما جمع هذين الوصفين. وقد صنف المؤلف في هذين الأصلين كتاباً سماه (سفر الهجرتين) فصَّلَ فيه مجمل ما ذكره في هذا الفصل تفصيلاً تاماً. ومن تفضل الله عليه بهذين الأمرين ــ الإخلاص والمتابعة ــ كان سيره إلى الله مستوعباً لجميع أوقاته على سهولته ويسره، وصار القليل من عمله كثيراً، وقد سبق المكثرين من الأعمال وهو

مطمئن في سيره. فعَلى العبد أن يسأل ربه أن يوفقه للقيام بهاتين الهجرتين، مع جده واجتهاده في تحقيقهما، وأن يضطر إليه في طلب الهداية، ويستعيذ به من شر نفسه وسيئات أعماله، وأن يعيذه من أكبر شرور نفسه وهو التكبر والهوى فإنهما يجمعان الشرور كلها، لأن أعظم ما يصد العبد عن الحق إما تكبره عنه وإما هواه وأغراضه النفسية وإما الأمران، ولا يسلم العبد ويستقيم أمره حتى يكون متواضعاً للحق يعرف نفسه حقيقة وأنه أحقر وأصغر من أن يكون في أخلاقه وإرادته معارضة للحق، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول. والمعافى من عافاه الله من التكبر والهوى بكمال تواضعه وبقوة صبره وحسن قصده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

## فصــل
### في ظهور الفرق المبين
### بين دعوة الرسل ودعوة المُعَطِّلين

الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دعوا إلى الحق النافع، وغيرهم دعا إلى الباطل الضار. الرسل حققوا أصل التوحيد والرسالة والمعاد، وأعداؤهم خالفوهم في الأصول الثلاثة أو بعضها وقصروا فيما أثبتوه منها. الرسل أثبتوا لله نعوت الكمال وصفات المجد والعظمة والجلال، ونفوا عنه النقائص والعيوب والتشبيه والمثال، وأعداؤهم نفوا عنه كل وصف جميل وعطلوه عن كل نعت جليل، وأثبتوا ألفاظاً لا حقائق لها إلا النقص والعدم. الرسل جاؤوا بالحق الواضح في تبيين الأصول والفروع، وأعداؤهم حرفوا نصوصهم: كذبوا ما كذبوا منها، وبدلوا ما تمكنوا من تبديله، وحرفوا ما عجزوا عن تغيير لفظه. فلا يخفى الفرق بين ما يدعو إليه كل رسول، خصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، وبين ما يدعو إليه المعطلون وأهل الكلام الباطل، وأن الدعوتين متباينتان غاية التباين.

# فصــــل
## في شكوى أهل السُّنة والقرآن
## أهل التعطيل والآراء المخالفين للرحمـٰن

لما عجز أهل التعطيل عن نصرة باطلهم ومعارضة أهل العلم والإيمان أيَّدوا باطلهم بكثرة الشكاوى إلى ولاة الأمور والسلاطين، وزوروا عليهم نوعين من الزور: مَوَّهوا عليهم بدعهم وألبسوها ألفاظاً مزخرفة وعبارات مموهة، ورفعوها بأقوالهم وهي وضيعة، وعظموها وهي حقيرة، وهوّلوها وهي أجسام بلا أرواح وأسماء بلا مسميات وألفاظ لا حقائق لها. والتمويه الثاني أنهم سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء القبيحة: سموهم مجسمة مشبهة نوابت حشوية، ووضعوا لهم من الاحتقارات والازدراءات شيئاً كثيراً، فصادفت من الولاة آذاناً صاغية وقلوباً معرضة وعلوماً قاصرة وأهواء مختلفة، فصار لأقوال المبطلين عندهم رواج مبني على هذه التمويهات، وساعدوهم على كثير من باطلهم بأفعالهم وقمع أهل السنة والجماعة، ولكن الحق في علوّ دائم وأهله لا يزالون على الحق ثابتين، وفي نصرته صامدين، وعلى ربهم متوكلين، وبوعده الصادق ونصره واثقين. وهم مع حججهم العلمية وبراهينهم اليقينية وثباتهم التام مع هذه المعارضات والمقاومات من أهل الباطل وأنصارهم فهم لا يشتكون إلا إلى الله، فهم يشتكون إليه ما لقوا من أهل الباطل من أقوال وشبهات لا حظَّ لها من العلم، ومن أناس متناقضين لا يستقيمون على طريقة واحدة، بل كل طائفة تدعو إلى غير ما دعت إليه الأخرى، وكلهم في خوضهم يلعبون، وبعلومهم المخالفة لعلوم الرسل فرحون، وتجرأوا على تحريف النصوص، وعدم التأدب والتوقير لكلام الله وكلام رسوله، وهم يسألون الله العافية في الدنيا والآخرة.

## فصــــل

### في أذان أهل السُّنَّة الأعلام
### بصريحها جَهراً على رؤوس منابر أهل الإسلام

الأذان المعروف هو الإعلام بدخول الوقت بذكر مخصوص معروف، وهو من أعظم شعائر الدين الظاهرة. فأهل السنة الأعلام ـ وهم العلماء الربانيون ـ نادوا على رؤوس منابر الإسلام جهراً وعلناً، بصريحها، بصريح السنة الدالة على الأصول الدينية والقواعد الإيمانية، وصرحوا بأنه لا يصح ولا يتم الدين والإيمان والإسلام إلا بذلك.

وهذا الأذان فرض على كل أحد إجابته ظاهراً وباطناً. وحاصل هذا الأذان العظيم هو أن يكبر الله ويعظم بإثبات جميع صفاته العظيمة، كعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه، والشهادة أنه الفعال لما يريد، وأن له صفات الذات وصفات المعاني وصفات الأفعال ثابتة على الوجه الثابت في الكتاب والسنة، والله أكبر عما يقوله الملحدون والمحرفون علوًّا كبيراً. فأهل السنة يعلنون بجميع الأصول الدينية، ولا يبالون بلوم اللائمين ومخالفة المخالفين.

## فصــــل

### في تلازم التعطيل والشِّرك

تقدم أن لازم المذهب ليس بمذهب على الإطلاق، ولكن يستدل بفساد اللازم وبطلانه على فساد الملزوم، وهذا اللازم الذي هو الشرك من أكبر الأدلة على فساد التعطيل. ووجه ذلك أن كل عبد مضطر إلى الله في كل أموره الدينية والدنيوية ليس له غنى عنه طرفة عين، وإليه يلجأ في مهماته ويقصده في كل حاجاته. فإذا انتفت صفات الله على قول المعطلين ـ كحياة الله وعلمه وقدرته وإرادته ورحمته وحكمته ـ لم يكن عند هذا المنفيِّ عنه هذه

الصفات مطالب الخلق وفزعت الخليقة إلى غيره وتوجهت القلوب لمن يعلم بأحوالها ويقدر على مصالحها ومنافعها ودفع مضارها، واضطرهم هذا الأمر إلى الشرك. وأما الإثبات لصفات كماله فإنه أصل التوحيد، وأوصاف الكمال هي المقتضية لإجابة الدعوات وتحصيل جميع المطلوبات، وبذلك يحصل للقلب الإنابة التامة والإخلاص الكامل لوجود المقتضى من الداعي والمدعوّ، فالداعي وجود ضرورته التامة في كل أموره، والمدعوّ عنده جميع المطالب ولديه كل الرغائب، وهو الكفيل والوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير. فالإثبات مستلزم لكمال الإخلاص والتوحيد، والنفي مستلزم للشرك.

وفي هذا المقام انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: جاحد للرب لا يثبت شيئاً من صفاته وهو ملتفت بقلبه وقالبه إلى المخلوقات، وهذا شر الخليقة. ومشرك بالله يدعوه ويدعو غيره ويرجوه مع تعليق رجائه بغيره. وموحد وهو المخلص الذي يدعو الله في الرغبات والرهبات وجميع الحالات، وهو الجامع لنوعي التوحيد: التوحيد العلمي الاعتقادي المبني على إثبات الصفات، والتوحيد العملي وهو إخلاص الدين لله المستمد من التوحيد العلمي.

## فصل
### في بيان أن المعطِّل شرٌّ من المُشْرك

وهذا انتقال من الشر إلى أعظم منه، وذلك أن المعطل إما أن يكون معطلاً للذات، أو معطلاً لكماله بنفي بعض صفاته، وذلك قدح في ألوهية الله لأن الألوهية هي جميع صفات الكمال. وأما الشرك فهو تعظيم يجهل من المشرك حيث يظن بجهله أنه ليس بأهل أن يسأل الله ويتوجه إليه، فاتخذ وسيلة ووليجة بزعمه الباطل تقربه إليه، فهو من هذا الوجه معظم لله، ولكن التعظيم إذا كان على غير الصراط المستقيم فإنه مناف للتعظيم، فإن

المشركين قاسوا رب العالمين بالملوك المخلوقين. فرأوا أن الملوك لا يوصل إليهم إلا بالشفعاء والوجهاء عندهم، وهذا من أعظم الجهل، فإن الفرق بين الله وبين الملوك ثابت من جميع الوجوه، فالملوك غير عالمين بأحوال رعيتهم ويحتاجون إلى من يسترحمهم لهم ويستعطفهم عليهم لعجزهم وضعف قدرتهم وعلمهم وحاجتهم الشديدة إلى مساعدة الرعية لهم، والله هو القوي العزيز القدير الرحيم.

والملوك تخفى عليهم أحوال الرعايا يحتاجون إلى من يخبرهم بها. والله محيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، والملوك قد لا يريدون مصالح رعاياهم فيحتاجون لمن يتوسط لهم عندهم أن يجعلهم مريدين رحمتهم، والله تعالى أرحم الراحمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلهذه الأسباب احتاج الملوك إلى وسائط وشفعاء يشفعون عندهم، وأما الرب تعالى فإن جميع الشفعاء يخافونه، ولا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، فالشفاعة كلها ملك لله تعالى، وهو الذي يتفضل بها على من يشاء من عباده ممن رضي الله قوله وعمله من أهل الإخلاص والتوحيد. فهذه الشفاعة هي التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، فالمشركون غلطوا أشد الغلط إذ أثبتوا شفاعة بغير إذنه وللمشركين به، فتعلقوا بالمخلوقين، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. وفي الجملة الأمر كله لله والحكم كله لله والشفاعة كلها لله والولاية كلها لله، فمن تولى ربه بالإيمان الكامل بأسمائه وصفاته وإخلاص العمل له وترك كل ما يكرهه تولاه ربه ولاية خاصة، فلطف به ويسره لليسرى وجنبه العسرى وأصلح له أحواله كلها.

والمقصود أن المشرك وإن كان مفترياً كافراً فالمعطل شر منه، لأنه عطل كماله ونفى صفاته، ويلزم من ذلك نفي أفعاله وربوبيته، وإن كان قد لا يشعر بهذا اللزوم.

## فصـــل
### في مثل المُشْرك والمُعَطِّل

وهذا يقارب الفصل الذي قبله من حيث إن المعطل شر من المشرك، ويزاد في تنويع العبارة ومخالفة الأسلوب، فإن المعطل عطل صفات المولى ونفى حقيقة ملكه وسلطانه الذي هو الأمر والنهي والأقدار والتدابير المتنوعة، ونفى أن يكون فعالاً لما يريد وأن يكون متكلمًا إذا شاء بما شاء. فأين هذا من المشرك الذي أثبت صفات المولى وأثبت ملكه وأفعاله، لكنه مع ذلك زعم أنه من تمام تعظيمه لله لا يدخل عليه إلا بوسائط يخضع لهم ويدعوهم ويتوكل عليهم ليوصلوه إلى الملك ويرفعوا حوائجه ويتوجهوا بجاههم عنده في قضائها. بهذا تجد الفرق بين الاثنين، مع أن كلًّا منهما لا حظَّ له من الدين، وليس له في الآخرة من خلاق.

## فصـــل
### فيما أعدَّ الله من الإحسان، للمتمسكين بالوحي عند فساد الزمان

ذكر المؤلف في هذا الفصل الآثار الواردة في فضل المتمسكين بسنة رسول الله عند فساد الزمان، وأن المحيي لسنته له أجر خمسين من الصحابة، كما في سنن أبي داود، وله شاهد في صحيح مسلم (إن العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إليَّ) و(من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة)، رواه الترمذي وروى أيضاً: (إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدرى أوله خير أم آخره) إلى أن قال: (كيف تهلك أمة أنا في أولها والمسيح في آخرها)، وفي القرآن:

﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخِرين﴾

[سورة الواقعة: الآيتان ٣٩، ٤٠]

والآثار في هذا المعنى كثيرة أشكل معناها على كثير من أهل العلم، لاتفاق

الأمة على أن الصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علماً وعملاً وتصديقاً وصحبة لرسول الله ﷺ وسبقاً إلى كل خصلة جميلة وشهودهم للمشاهد مع رسول الله ﷺ، لهذا أشكلت هذه الآثار التي قد يخطر ببال من سمعها تفضيل من ذكر فيها على الصحابة، ولكن يقال فيها:

التحقيق أن الفضل نوعان: أحدهما تفضيل مطلق في جميع الفضائل فهذا النوع لا يصل أحد فيه إلى درجة الصحابة فضلاً عن أن يفضلهم فيه، فالصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علماً وإيماناً وعملاً على وجه الإطلاق والعموم. والنوع الثاني هو الفضل المقيد بأن يوجد في الشخص تميز عن غيره في خصلة من خصال الخير، لسبب من الأسباب المختصة التي لا يشاركه فيها صاحب الفضل المطلق، وفي هذه الحالة الخاصة قد يقال إنه أفضل من الفاضل في هذه الحال الخاصة المقيدة، والفاضل أفضل منه في جهات وفضائل أخرى.

فعلى هذا، المتمسك بسنته عند فساد الناس والمحيي لها عند إماتتها إنما تميز بتبريزه وانفراده وقوّته العظيمة مع قوة المعارضات وعدم العوين والمساعد على الخير، وفي الحالة التي هونت عليه هذا الأمر الشاق من الرغبة التامة وإحياء السنن التي أميتت عمل عظيم لا يوجد له نظير، والرب تعالى شكور لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا ما تحمله المتحملون من أجله من المشاق والمصاعب.

فهذه الإشارة تكفي في هذا المقام، وتفتح للعبد وجه الجمع بين النصوص، والله أعلم.

## فصـــل

### فيما أعد الله في الجنة

### لأوليائه المتمسِّكين بالكتاب والسُّنَّة

ذكر المصنف فصولاً متعددة في تفاصيل نعيم الجنة التي وعدها المتمسكون بالكتاب والسنة، فهذا جزاؤهم إذا قدموا على ربهم. ونحيل القارىء على كتاب المؤلف (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) فإنه كالشرح لهذه الفصول، ولكونها واضحة المعاني، قراءتها تفسيرها، اكتفينا بالتحويل على الكتاب المذكور.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه في شؤونه كلها عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧.

# فهرس المجموع الثالث

## القول السديد في مقاصد التوحيد

## سؤال وجواب في أهم المهمات

# التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

## الدرة البهية

## الحق الواضح المبين

## توضيح الكافية الشافية

٤ الفقه — المجلد الأول

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

# الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- **رسالة لطيفة جامعة**
  في أصول الفقه المهمة
- **القواعد والأصول الجامعة**
  والفروق والتقاسيم البديعة النافعة
- **هذه رسالة في القواعد الفقهية**
  ويليها تعليق لطيف على منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# رسالة لطيفة جامعة

## في أصول الفقه المهمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مقدّمة

الحمد لله، نحمده على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، وعلى أحكامه القدرية العامة لكل مكون وموجود، وأحكامه الشرعية الشاملة لكل مشروع، وأحكام الجزاء بالثواب للمحسنين والعقاب للمجرمين. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له في الأسماء والصفات والأحكام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بيَّن الحكم والأحكام، ووضح الحلال والحرام، وأصَّل الأصول وفصَّلها حتى استتم هذا الدين واستقام. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه خصوصاً العلماء الأعلام.

أما بعد:

فهذه رسالة لطيفة في أصول الفقه، سهلة الألفاظ واضحة المعاني، معينة على تعلم الأحكام لكل متأمل معاني، نسأل الله أن ينفع بها جامعها وقارئها، إنه جواد كريم.

عبد الرحمـٰن بن ناصر السعدي

# فصـل

أصول الفقه: هي العلم بأدلة الفقه الكلية؛ وذلك أن الفقه إما مسائل يطلب الحكم عليها بأحد الأحكام الخمسة، وإما دلائل يستدل بها على هذه المسائل.

فالفقه: هو معرفة المسائل والدلائل.

وهذه الدلائل نوعان:

كلية تشمل كل حكم من جنس واحد من أول الفقه إلى آخره، كقولنا: الأمر للوجوب والنهي للتحريم ونحوهما. وهذه هي أصول الفقه. وأدلة جزئية تفصيلية تفتقر إلى أن تبنى على الأدلة الكلية، فإذا تمت حكم على الأحكام بها.

فالأحكام مضطرة إلى أدلتها التفصيلية، والتفصيلية مضطرة إلى الأدلة الكلية وبهذا نعرف الضرورة والحاجة إلى معرفة أصول الفقه وأنها معينة عليه، وهي أساس النظر والاجتهاد في الأحكام.

# فصـل

الأحكام التي يدور الفقه عليها خمسة:

الواجب الذي يثاب فاعله ويعاقب تاركه.

والمسنون الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

والحرام ضد الواجب والمكروه ضد المسنون.

والمباح مستوي الطرفين.

وينقسم الواجب: إلى فرض عين يطلب فعله من كل مكلف بالـغ عاقل وهو جمهور أحكام الشريعة الواجبة، وإلى فرض كفاية، وهو الذي يطلب حصـوله وتحصيله من المكلفين لا من كـل واحـد بعينـه، كتعلم العلوم والصناعات النافعة، والأذان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

وهذه الأحكام الخمسة تتفاوت تفاوتاً كثيراً بحسب حالهـا ومرتبتهـا وآثارها، فما كانت مصلحته خالصة أو راجحة أمر به الشارع أمر إيجاب أو استحباب، وما كانت مفسدته خالصة أو راجحة نهى عنه الشارع نهي تحريم أو كراهة فهذا الأصل يحيط بجميع المأمورات والمنهيات.

وأما المباحات فإن الشارع أباحها وأذن فيها، وقد يتوصل بها إلى الخير فتلحق بالمأمورات، وإلى الشر فتلحق بالمنهيات. فهذا أصل كبير أن الوسائل لها أحكام المقاصد، وبه نعلم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهـو واجب، وما لا يتم المسنون إلا به فهو مسنون، وما يتوقف الحرام عليه فهو حرام، ووسائل المكروه مكروهة.

## فصل

الأدلة التي يستمد منها الفقه أربعة:

الكتاب والسنة، وهما الأصل الذي خوطب به المكلفون وانبنى دينهم عليه، والإجماع. والقياس الصحيح، وهما مستندان إلى الكتاب والسنة. فالفقه من أوله إلى آخره لا يخرج عن هذه الأصول الأربعة. وأكثر الأحكام المهمة تجتمع عليها الأدلة الأربعة، تدل عليها نصوص الكتاب والسنة. ويجمع عليها العلماء ويدل عليها القياس الصحيح، لما فيها من المنافع والمصالح إن كانت مأموراً بها، ومن المضارّ إن كانت منهيّاً عنها. والقليل من الأحكام يتنازع فيه العلماء، وأقربهم إلى الصواب فيها من أحسن ردها إلى هذه الأصول الأربعة.

## فصل
## في الكتاب والسنة

أما الكتاب فهو هذا القرآن العظيم، كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ، ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، للناس كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، وهو المقروء بالألسنة، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وأما السنة فإنها أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته على الأقوال والأفعال.

فالأحكام الشرعية تارة تؤخذ من نص الكتاب والسنة وهو اللفظ الواضح الذي لا يحتمل إلا ذلك المعنى، وتارة من ظاهرهما وهو ما دل على ذلك على

وجه العموم اللفظي أو المعنوي، وتارة تؤخذ من المنطوق وهو ما دل على الحكم في محل النطق، وتارة تؤخذ من المفهوم وهو ما دل على الحكم بمفهوم موافقة إن كان مساوياً للمنطوق أو أولى منه، أو بمفهوم مخالفة إذا خالف المنطوق في حكمه لكون المنطوق وصف بوصف أو شرط فيه شرط إذا تخلف ذلك الوصف أو الشرط تخلف الحكم.

والدلالة من الكتاب والسنة ثلاثة أقسام:

دلالة مطابقة إذا طبقنا اللفظ على جميع المعنى، ودلالة تضمن إذا استدللنا باللفظ على بعض معناه.

ودلالة التزام إذا استدللنا بلفظ الكتاب والسنة ومعناهما على توابع ذلك ومتمماته وشروطه وما لا يتم ذلك المحكوم فيه أو المخبر عنه إلا به.

## فصل

الأصل في أوامر الكتاب والسنة أنها للوجوب إلا إذا دل الدليل على الاستحباب أو على الإباحة. والأصل في النواهي أنها للتحريم، إلَّا إذا دلَّ الدليل على الكراهة.

والأصل في الكلام الحقيقة، فلا يعدل إلى المجاز إن قلنا به إلا إذا تعذرت الحقيقة...

والحقائق ثلاث:

شرعية، ولغوية، وعرفية. فما حكم به الشارع وحده وجب الرجوع فيه إلى الحد الشرعي، وما حكم به ولم يحده اكتفاء بظهور معناه اللغوي وجب الرجوع فيه إلى اللغة، وما لم يكن له حد في الشرع ولا في اللغة رجع فيه إلى عادة الناس وعرفهم؛ وقد يصرح الشارع بترجيع هذه الأمور إلى العرف كالأمر بالمعروف والمعاشرة بالمعروف ونحوها.

فاحفظ هذه الأصول التي يضطر إليها الفقيه في كل تصرفاته الفقهية.

## فصل

نصوص الكتاب والسنة منها عام وهو اللفظ الشامل لأجناس أو أنواع أو أفراد كثيرة، وذلك أكثر النصوص. ومنها خاص يدل على بعض الأجناس أو الأنواع أو الأفراد، فحيث لا تعارض بين العام والخاص عمل بكل منهما، وحيث ظن تعارضهما خص العام بالخاص. ومنه مطلق عن القيود، ومقيد بوصف أو قيد معتبر، فيحتمل المطلق على المقيد. ومنه مجمل ومبين، فما أجمله الشارع في موضع وبينه ووضحه في موضع آخر وجب الرجوع فيه إلى بيان الشارع. وقد أجمل في القرآن كثيراً من الأحكام وبينتها السنة، فوجب الرجوع إلى بيان الرسول فإنه المبين عن الله. ونظير هذا أن منه محكماً ومتشابهاً، فيجب إرجاع التشابه إلى المحكم. ومنه ناسخ ومنسوخ، والمنسوخ في الكتاب والسنة قليل، فمتى أمكن الجمع بين النصين وحمل كل منهما على حال وجب ذلك، ولا يعدل إلى النسخ إلا بنص من الشارع أو تعارض النصين الصحيحين اللذين لا يمكن حمل كل منهما على معنى مناسب فيكون المتأخر ناسخاً للمتقدم، فإن تعذر معرفة المتقدم والمتأخر رجعنا إلى الترجيحات الأخر. ولهذا إذا تعارض قول النبي ﷺ وفعله قدم قوله، لأنه أمر أو نهي للأمة، وحمل فعله على الخصوصية له، فخصائص النبي ﷺ تنبني على هذا الأصل. وكذلك إذا فعل شيئاً على وجه العبادة ولم يأمر به فالصحيح أنه للاستحباب، وإن فعله على وجه العادة دل على الإباحة. وما أقره ﷺ من الأقوال والأفعال حكم عليه بالإباحة أو غيرهما على الوجه الذي أقره.

## فصـل

وأما الإجماع فهو اتفاق العلماء المجتهدين على حكم حادثة، فمتى قطعنا بإجماعهم وجب الرجوع إلى إجماعهم ولم تحل مخالفتهم. ولا بد أن يكون هذا الإجماع مستنداً إلى دلالة الكتاب والسنة.

وأما القياس الصحيح فهو إلحاق فرع بأصل لعلة تجمـع بينهما، فمتى نص الشارع على مسألة ووصفها بوصف أو استنبط العلماء أنه شرعها لذلك الوصف ثم وجد ذلك الوصف في مسألة أخرى لم ينص الشارع على عينها من غير فرق بينها وبين النصوص وجب إلحاقها في حكمها، لأن الشارع حكيم لا يفرق بين المتماثلات في أوصافها، كما لا يجمع بين المختلفات. وهذا القياس الصحيح هو الميزان الذي أنزله الله، وهو متضمن للعدل، وما يعرف به العدل. والقياس إنما يعدل إليه وحده، إذا فقد النص، فهو أصل يرجع إليه إذا تعذر غيره، وهو مؤيد للنص، فجميع ما نص الشارع على حكمه فهو موافق للقياس لا مخالف.

## فصـل

وأخذ الأصوليون من الكتاب والسنة أصولاً كثيرة بنوا عليها أحكاماً كثيرة جداً، ونفعوا وانتفعوا بها.

فمنها «اليقين لا يزول بالشك» أدخلوا فيه من العبادات والمعاملات والحقوق شيئاً كثيراً، فمتى حصل الشك في شيء منها رجع إلى الأصل المتيقن وقالوا: الأصل الطهارة في كل شيء، والأصل الإباحة إلا مادل الدليل على نجاسته أو تحريمه، والأصل براءة الذمم من الواجبات ومن حقوق الخلق حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، والأصل بقاء ما اشتغلت فيه الذمم من حقوق الله وحقوق عباده حتى يتيقن البراءة والأداء.

ومنها «أن المشقة تجلب التيسير» وبنوا على هذا جميع رخص السفر، والتخفيف في العبادات والمعاملات وغيرها.

ومنها قولهم: «لا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة» فالشارع لم يوجب علينا ما لا نقدر عليه بالكلية، وما أوجبه من الواجبات فعجز عنه العبد سقط عنه، وإذا قدر على بعضه وجب عليه ما يقدر عليه وسقط عنه ما يعجزه وأمثلتها كثيرة جداً. وكذلك ما احتاج الخلق إليه لم يحرمه عليهم والخبائث التي حرمها إذا اضطر إليها العبد فلا إثم عليه، فالضرورات تبيح المحظورات الراتبة والمحظورات العارضة، والضرورة تقدر بقدرها تخفيفاً للشر، فالضرورة تبيح المحرمات من المآكل والمشارب والملابس وغيرها.

ومنها: «الأمور بمقاصدها»، فيدخل في ذلك العبادات والمعاملات. وتحريم الحيل المحرّمة مأخوذ من هذا الأصل، وانصراف ألفاظ الكنايات والمحتملات إلى الصرائح من هذا الأصل، وصورها كثيرة جدّاً.

ومنها: «يختار أعلى المصلحتين، ويرتكب أخف المفسدتين، عند التزاحم» وعلى هذا الأصل الكبير تنبني مسائل كثيرة، وعند التكافؤ فدرء المفاسد أولى من جلب المصالح.

ومن ذلك قولهم: «لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وانتفاء موانعها» وهذا أصل كبير بني عليه من مسائل الأحكام وغيرها شيء كثير، فمتى فقد شرط العبادة أو المعاملة أو ثبوت الحقوق لم تصح ولم تثبت، وكذلك إذا وجد مانعها لم تصح ولم تنفذ.

وشروط العبادات والمعاملات كل ما تتوقف صحتها عليها، ويعرف ذلك بالتتبع والاستقراء الشرعي، وبأصل التتبع حصر الفقهاء فرائض العبادات وشروطها وواجباتها، وكذلك شروط المعاملات وموانعها. والحصر إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، فيستفاد من حصر الفقهاء شروط الأشياء وأمورها أن ما عداها لا يثبت له الحكم المذكور.

ومن ذلك قولهم: «الحكم يدور مع علته ثبوتاً وعدماً» فالعلل التامة التي يعلم أن الشارع رتب عليها الأحكام متى وجدت وجد الحكم، ومتى فقدت لم يثبت الحكم.

ومن ذلك قولهم: «الأصل في العبادات الحظر إلا ما ورد عن الشارع تشريعه، والأصل في العادات الإباحة إلّا ما ورد عن الشارع تحريمه» لأن العبادة ما أمر به الشارع أمر إيجاب أو استحباب، فما خرج عن ذلك فليس بعبادة، ولأن الله خلق لنا ما على الأرض لننتفع به بجميع أنواع الانتفاعات إلا ما حرمه الشارع علينا.

ومنها: «إذا وجدت أسباب العبادات والحقوق ثبتت ووجبت إلا إذا قارنها المانع».

ومنها: «الواجبات تلزم المكلفين» والتكليف هو البلوغ والعقل والإتلافات تجب على المكلفين وغيرهم، فمتى كان الإنسان بالغاً عاقلاً وجبت عليه العبادات التي وجوبها عام، ووجبت عليه العبادات الخاصة إذا اتصف بصفات من وجبت عليهم بأسبابها. والناسي والجاهل غير مؤاخذ من جهة الإثم لا من جهة الضمان المتلفات.

## فصل

قول الصحابي ـ وهو من اجتمع بالنَّبيِّ ﷺ مؤمناً، ومات على الإيمان ـ إذا اشتهر ولم ينكر بل أقره الصحابة عليه فهو إجماع، فإن لم يعرف اشتهاره ولم يخالفه غيره فهو حجة على الصحيح، فإن خالفه غيره من الصحابة لم يكن حجة.

## فصــل

الأمر بالشيء نَهْيٌ عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده، ويقتضي الفساد إلا إذا دل الدليل على الصحة. والأمر بعد الحظر يرده إلى ما كان عليه قبل ذلك. والأمر والنهي يقتضيان الفور، ولا يقتضي الأمر التكرار إلا إذا علق على سبب فيجب أو يستحب عند وجود سببه. والأشياء المخير فيها إن كان للسهولة على المكلف فهو تخيير رغبة واختيار، وإن كان لمصلحة ما ولي عليه فهو تخيير يجب تعيين ما ترجحت مصلحته.

ألفاظ العموم: ككل، وجميـع، والمفرد المضاف؛ والنكرة في سياق النهي أو النفي أو الاستفهام أو الشرط، والمعرف بأل الدالة على الجنس أو الاستغراق ــ كلها تقتضي العموم.

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويراد بالخاص العام وعكسه مـع وجود القرائن الدالة على ذلك. وخطاب الشارع لواحد من الأمة أو كلامه في قضية جزئية يشمل جميـع الأمة وجميـع الجزئيات إلا إذا دل دليل على الخصوص وفعله الأصل أن أمته أسوته في الأحكام إلا إذا دل الدليل على أنه خاص به. وإذا نفى الشارع عبادة أو معاملة فهو لفسادها، أو نفى بعض ما يلزم فيها فلا تنفى لنفى بعض مستحباتها.

تنعقد العقود وتنفسـخ بكل ما دل على ذلك من قول أو فعل.

المسائل قسمان: مجمـع عليها فتحتاج إلى تصور وتصوير، وإلى إقامة الدليل عليها، ثم يحكم عليها بعد التصوير والاستدلال.

وقسم فيها خلاف فتحتاج مـع ذلك إلى الجواب عن دليل المنازع. هذا في حق المجتهد والمستدل. وأما المقلد فوظيفته السؤال لأهل العلم. فالتقليد قبول قول الغيـر من غير دليـل. فالقـادر على الاستدلال عليـه الاجتهاد

والاستدلال، والعاجز عن ذلك عليه التقليد والسؤال، كما ذكر الله الأمرين في قوله:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣]

والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

قال ذلك الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين.

وتم نقلها ـ بعون الله تعالى وتيسيره ـ في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣هـ بقلم الفقير إلى ربه: عبد الله السليمان السلمان، غفر الله له ولوالديه والمسلمين.

# القواعد والأصول الجامعة

## والفروق والتقاسيم البديعة النافعة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدّمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيرا.

أما بعد: فإن معرفة جوامع الأحكام وفوارقها من أهم العلوم وأكثرها فائدة وأعظمها نفعاً. لهذا جمعت في رسالتي هذه ما تيسر من جوامع الأحكام وأصولها، ومما تفترق فيه الأحكام لافتراق حكمها وعللها وقسمتها قسمين:

القسم الأول: في ذكر ما تجتمع فيه الأحكام من الأصول والقواعد، وانتقيت القواعد المهمة والأصول الجامعة وشرحت كل واحدة منها شرحاً يوضح معناها، ومثلت لها من الأمثلة التي تتفرع عنها ما تيسر.

والقسم الثاني: أتبعتُ ذلك بذكر الفوارق بين المسائل المشتبهة والأحكام المتقاربة. وذكر التقاسيم المهمة. فأقول في القسم الأول مستعيناً بالله، راجياً منه الإعانة والتسهيل.

**عبد الرحمن بن ناصر السعدي**

# القاعدة الأولى

## الشارع لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة ولا ينهى إلا عما مفسدته خالصة أو راجحة

هذا الأصل شامل لجميع الشريعة، لا يشذ عنه شيء من أحكامها، لا فرق بين ما تعلق بالأصول أو بالفروع، وما تعلق بحقوق الله وحقوق عباده. قال الله تعالى:

**﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾** [سورة النحل: الآية ٩٠]

فلم يبق عدل، ولا إحسان، ولا صلة إلا أُمر به في هذه الآية الكريمة، ولا فحشاء ومنكر متعلق بحقوق الله، ولا بغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم إلا نهي عنه ووعظ عباده أن يتذكروا ما في هذه الأوامر وحسنها ونفعها فيمتثلوها، ويتذكروا ما في النواهي من الشر والضرر فيجتنبوها. وقال تعالى:

**﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بَدَأَكُمْ تعودون﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

فقد جمعت هذه الآية أصول المأمورات، ونبهت على حسنها كما جمعت الآية التي بعدها أصول المحرمات، ونبهت على قبحها وهي قوله تعالى:

**﴿قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَنَ والإِثمَ والبغيَ بغير الحق، وأن تُشرِكوا بالله ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣٣]

ولما ذكر الله الأمر بالطهارة للصلاة من الحدث الأكبر والأصغر، وذكر طهارة الماء، ثم طهارة التيمم عند العدم أو الضرر بمرض ونحوه. قال تعالى:

**﴿ما يُريدُ اللّهُ ليجعلَ عليكم من حرج ولكنْ يريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نعمتَه عليكم لعلكم تشكرون﴾** [سورة المائدة: الآية ٦]

فأخبر أن أوامره وشرائعه من أكبر نعمه العاجلة المتصلة بالنعم الآجلة، ثم تأمل قوله تعالى:

**﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ـ إلى قوله ـ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾** [سورة الإسراء: الآيات ٢٣ ـ ٣٩]

وقوله: **﴿قل تعالَوْا أَتْلُ ما حرّم ربُّكم عليكم ـ إلى قوله ـ وأَنَّ هذا صِراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله﴾**
[سورة الأنعام: الآيات ١٥١ ـ ١٥٣]

وقوله: **﴿واعبدوا الله ولا تُشْركوا به شيئاً ـ إلى قوله ـ ومن يَكُنِ الشيطانُ له قَرِيناً فساء قريناً﴾** [سورة النساء: الآيات ٣٦ ـ ٣٨]

انظر إلى ما في هذه الآيات من الأوامر التي بلغت نهاية الحسن، وما اشتملت عليه من الخير والعدل والرحمة، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة. وكذلك ما اشتملت عليه من المنهيات التي ضررها عظيم، وشرها جسيم. وهذه الشرائع مأموراتها ومنهياتها من أعظم معجزات القرآن، والرسول ﷺ، وأنها تنزيل من حكيم حميد. ومثلها ما وصف الله به خواص العباد وفضلاءهم في قوله تعالى:

**﴿وعبادُ الرَّحمنِ الذين يمشُون على الأرض هَوناً ـ إلى قوله ـ أولئك يُجْزَوْنَ الغُرفةَ بما صَبَروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلاما﴾**
[سورة الفرقان: الآيات ٦٣ ـ ٧٥]

وقوله: **﴿قد أفلح المؤمنون﴾** [سورة المؤمنون: الآية ١]

ثم عدَّد أوصافهم الجليلة، ثم قال في جزائهم:

**﴿أولئك هم الوارِثُون * الذين يَرِثُون الفردوسَ هُمْ فيها خالدون﴾**
[سورة المؤمنون: الآيتان ١٠، ١١]

وقوله: **﴿إن المسلمين والمسلمات ـ إلى قوله ـ أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

فكل ما في هذه الآيات من الأوصاف التي وصف الله بها خيار الخلق. قد علم حسنها وكمالها ومنافعها العظيمة. ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون وجميع ما في الشريعة من العبادات والمعاملات والأمر بأداء الحقوق المتنوعة تفاصيل وتفاريع لما ذكر الله في هذه الآيات وجميع ما فصله العلماء من مصالح المأمورات ومنافعها، ومضار المنهيات ومفاسدها داخل في هذا الأصل. ولهذا يعلل الفقهاء الأحكام المأمور بها بالمصالح، والمنهيَّ عنها بالمفاسد.

وأحد الأصول الأربعة. القياس: وهو الميزان الذي تنبني عليه الأحكام الشرعية الذي قال الله فيه:

**﴿الله نَزَّل الكتابَ بالحق﴾** [سورة البقرة: الآية ١٧٦]

والميزان: وهو الجمع بين المسائل المتماثلة في مصالحها، أو في مضارها بحكم واحد، والتفريق بين المتباينات المختلفات بأحكام مختلفة مناسبة لكل واحد منها.

مثال ما مصلحته خالصة من المأمورات ومضرته خالصة من المنهيات: جمهور الأحكام الشرعية. فالإيمان، والتوحيد، والإخلاص، والصدق، والعدل، والإحسان، والبر، والصلة وأشباهها: مصالحها في القلب، والروح، والدين، والدنيا، والآخرة لا تُعَدُّ ولا تحصى، والشرك، والكذب والظلم: مضارها لا يمكن تعدادها عاجلاً وآجلاً. والخمر، والميسر، والربا: مفاسدها أكثر من منافعها. قال الله تعالى:

**﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل: فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهُما أكبرُ من نفعهما﴾** [سورة البقرة: الآية ٢١٩]

وتعلم السحر مضرته خالصة قال تعالى:

﴿ويتعلمون ما يَضُرُّهُم ولا ينفَعُهُم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢]

وحرَّم الله الميتة، والدم، ولحم الخنزير ونحوها لما فيها من المفاسد والمضار. فإذا قاوم هذه المفاسد مصلحة عظيمة ودفع مفسدة كبيرة، وهي الضرورة لإحياء النفس حلّت. قال تعالى:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ في مخمصةٍ غيرَ مُتَجَانِفٍ لإثْمٍ فإنَّ اللَّهَ غفورٌ رَحيم﴾
[سورة المائدة: الآية ٣]

ولما كانت مصلحة الجهاد من أعظم المصالح. جاز العوض في مسابقة الخيل والإبل والسهام وخرجت عن الميسر المحرم.

ويستدل بهذا الأصل العظيم والقاعدة الشرعية على أن علوم الكون التي تسمى العلوم العصرية وأعمالها، وأنواع المخترعات النافعة للناس في أمور دينهم ودنياهم أنها داخلة فيما أمر الله به ورسوله، ومما يحبه الله ورسوله، ومن نعم الله على العباد لما فيها من المنافع الضرورية والكمالية. فالبرقيات بأنواعها، والصناعات كلها، وأجناس المخترعات الحديثة تنطبق هذه القاعدة عليها أتم انطباق. فبعضها يدخل في الواجبات، وبعضها في المستحبات، وشيء منها في المبيحات بحسب نفعها وما تثمره، وينتج عنها من الأعمال والمصالح. كما أنها أيضاً تدخل في هذا الأصل الشرعي، وهو:

## القاعدة الثانية

الوسائل لها أحكام المقاصد. فما لا يتم الواجب إلا به: فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلا به: فهو مسنون، وطرق الحرام والمكروهات تابعة لها، ووسيلة المباح مباح، ويتفرع عليها أن توابع الأعمال ومكملاتها تابعة لها. هذا أصل عظيم يتضمن عدة قواعد. كما ذكره في الأصل ومعنى الوسائل الطرق التي يسلك منها إلى الشيء، والأمور التي تتوقف الأحكام عليها من لوازم وشروط، فإذا أمر الله ورسوله بشيء كان أمراً به، وبما لا يتم إلا به.

وكان أمراً بالإتيان بجميع شروطه الشرعية، والعادية، والمعنوية، والحسية. فإن الذي شرع الأحكام عليم حكيم يعلم ما يترتب على ما حكم به على عباده من لوازم وشروط ومتممات. فالأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به، والنهي عن الشيء نهيٌ عنه، وعن كل ما يؤدي إليه. فالذهاب والمشي إلى الصلاة، ومجالس الذكر، وصلة الرحم، وعيادة المرضى، واتباع الجنائز وغير ذلك من العبادات: داخل في العبادة، وكذلك الخروج إلى الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله من حين يخرج ويذهب من محله إلى أن يرجع إلى مقره وهو في عبادة، لأنها وسائل للعبادة ومتممات لها. قال تعالى:

**﴿ذلك بأنهم لا يصيبُهُم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللَّهِ ولا يَطَأُون موطِئاً يَغِيظُ الكُفَّار ولا ينالون مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنَّ اللَّهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنين * ولا يُنفِقُون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطَعُونَ وادياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيجْزِيَهُمُ الله أحسنَ ما كانوا يعملون﴾**
[سورة التوبة: الآيتان ١٢٠، ١٢١]

وفي الحديث الصحيح (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة). وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة في ثواب المشي إلى الصلوات، وأن كل خطوة يخطوها تكتب له حسنة وتمحى عنه سيئة.

وفسر قوله تعالى: **﴿إنَّا نحن نحيي الموتى ونكتبُ ما قَدَّموا وآثارَهم﴾**
[سورة يسٓ: الآية ١٢]

أي نقل خطاهم وأعمالهم للعبادات أو لضدها، وكما أن نقل الأقدام للعبادات تابع لها، فنقل الأقدام إلى المعاصي تابع لها ومعصية أخرى، فالأمر بالصلاة مثلاً أمر بها، وبما لا تتم الصلاة إلا بها من الطهارة والسترة واستقبال القبلة وبقية شروطها. وكذلك أمر بتعلم أحكامها التي لا تتم إلا به. وكذلك بقية العبادات. فما لا يتم الواجب والمسنون إلا به، فهو واجب للواجب، ومسنون للمسنون.

ومن فروع هذا الأصل، قول العلماء: إذا دخل الوقت على عادم الماء لزمه طلبه في المواضع التي يرجو حصوله فيها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به: فهو واجب ويلزمه أيضاً شراؤه وشراء السترة الواجبة بثمن المثل أو زيادة لا تضر.

ومن فروع هذا الأصل: وجوب تعلم الصناعات التي يحتاج الناس إليها في أمر دينهم ودنياهم صغيرها وكبيرها.

ومن فروع هذا الأصل: وجوب تعلم العلوم النافعة وهي قسمان:

علوم تعلمها فرض عين، وهي ما يضطر إليه العبد في دينه وعباداته ومعاملاته كل أحد بحسب حاله.

والثاني: فرض كفاية. وهو ما زاد على ذلك بحيث يحتاجه العموم. وفرض الكفاية إذا قام به من يكفي سقط عن غيره، وإذا لم يقم به أحد أثم كل قادر عليه.

ومن فروع هذه القاعدة جميع فروض الكفايات، من أذان، وإقامة، وإمامة صغرى وكبرى، وولاية قضاء، وجميع الولايات، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وجهاد لم يتعين، وتجهيز الموتى بالتغسيل، والتكفين، والصلاة، والحمل، والدفن، وتوابع ذلك. وكذلك الزراعة والحراثة، والنساجة، والحدادة، والنجارة وغير ذلك. ومن فروع ذلك: السعي في الكسب الذي يقيم به العبد ما عليه من واجبات النفس والأهل، والأولاد، والمماليك من الآدميين، والبهائم، وما يوفي به ديونه. فإن هذه واجبات ولا تقوم إلا بطلب الرزق والسعي فيه. ومن فروعها: وجوب تعلم أدلة القبلة والوقت والجهات لمن يحتاج إليها. ومن فروعها أن العلوم الشرعية قسمان:

أحدهما: مقاصد وهي علم الكتاب والسنة.

والثاني: وسائل إليها مثل علوم العربية بأنواعها. فإن معرفة الكتاب

والسنة وعلومهما تتوقف أو يتوقف أكثرها على معرفة علوم العربية، ولا تتم معرفتهما إلا بها فيكون الاشتغال بعلوم العربية لهذا الغرض تابعاً للعلوم الشرعية. ومن فروعها: أن كل مباح توسل به إلى ترك واجب أو فعل محرم، فهو محرم. قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة مِنْ يومِ الجمعةِ فاسعَوْا إلى ذكر الله وذَرُوا البيع﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩]

فيحرم البيع والشراء بعد نداء الجمعة الثاني. وكذلك إذا خيف فوت الوقت، أو فوت الجماعة. وكذلك لا يحل بيع الأشياء المباحة لمن يعمل فيها معصية كبيع العصير على من يتخذه خمراً، وبيع السلاح في الفتنة أو لأهل الحرب، أو قطاع الطريق، وبيع البيض ونحوه لمن يقامر عليه. ومن فروعه: تحريم الحيل التي يتوسل بها إلى فعل محرم. كالحيل على قلب الدين، وكبيع العينة والتحيل لإسقاط الشفعة بشيء من الحيل. فتحرم هذه الحيل ولا تفيد صاحبها حل المحرم والتحليل في النكاح.

ومن فروعها: قتل الموصى له للموصي، وقتل الوارث لمورثه يعاقبان بنقيض قصدهما فتبطل الوصية في حق القاتل، ولا يرث من مورثه شيئاً.

ومن فروعها: عضل الزوج لزوجته بغير حق لتعطيه شيئاً من المال ليطلقها. كما قال تعالى:

﴿ولا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا ببعضِ ما آتيتمُوهن﴾

[سورة النساء: الآية ١٩]

فلا يحل الأخذ منها في هذه الحال.

ومنها: أن من أهدى حياء أو خوفاً وجب على المهدى إليه الرد أو يعاوضه عنها. وكثير من هذه الفروع أيضاً داخل في أصل اعتبار المقاصد والنيات. وذلك دليل على قوة الفرع الذي تتناوله عدة أصول. وكما أن الحيل التي يقصد بها التوسل إلى فعل محرم أو ترك واجب حرام. فالحيل التي

يتوسل بها إلى استخراج الحقوق مباحة بل مأمور بها. فالعبد مأمور باستخراج حق أو الحق المتعلق به بالطرق الواضحة والطرق الخفية. قال تعالى لما ذكر تحيل يوسف ﷺ لبقاء أخيه عنده:

﴿كذلك كِدْنا ليوسف﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٦]

ومثله الحيل التي يتسلم بها النفوس والأموال كما فعل الخضر بخرقه للسفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم. فالحيلة تابعة للمقصود حسنها وقبيحها.

ومن فروعها: أن الله قال:

﴿إنّ اللّهَ يأمُرُكم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

والأمانات كل مال ائتمن عليه العبد ووليٍّ عليه، من، وديعة وعين مؤجرة، ومرهونة، وولاية مال يتيم ونظارة وقف، ووكيل ووصي ونحوها. فكلها يجب حفظها في حرز مثلها، لأنه من لوازم الأداء، وكذلك الإنفاق عليها إذا كانت ذات روح، ومن وسائل أدائها عدم التفريط والتعدي فيها.

ومن فروع هذا الأصل: أن الله حرم الفواحش وحرم قربانها بكل وسيلة يخشى منها وقوع المحرم. كالخلوة بالأجنبية والنظر المحرم. ولهذا قال النبي ﷺ (من وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه).

ومن فروعها: النهي عن كل ما يحدث العداوة والبغضاء. كالبيع على بيع المسلم، والعقد على عقده، والخطبة على خطبته وطلب الولاية والوظيفة إذا كان فيها أهل. كما أن من فروعها الحث على كل ما يجلب الصداقة من الأقوال والأفعال بحسب ما يناسب الحال. وقد خرج عن هذا الأصل النذر لحكمة اختص بها. فإن عقده مكروه، والوفاء به واجب. لقوله ﷺ (من نذر أن يطيع الله فليطعه) فعقده لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل

استخراجاً غير محمود على عقده. ومن فروع هذا الأصل: فعل كل سبب بغير حق يترتب عليه تلف نفس أو مال. وكما أن وسائل الأحكام حكمها حكمها. فكذلك توابعها ومتمماتها فالذهاب إلى العبادة عبادة. وكذلك الرجوع منها إلى الموضع الذي منه ابتدأها.

## القاعدة الثالثة

### المشقة تجلب التيسير

هذا أصل عظيم جميع رخص الشريعة وتحقيقاتها متفرعة عنه. قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريد بِكُمُ العُسْرَ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

وقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلَّا وُسْعَها﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

وقال: ﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلّا ما آتاها﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقال: ﴿وما جَعَلَ عليكم في الدِّين مِنْ حَرَجٍ﴾

[سورة الحج: الآية ٧٨]

وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ٦١]

فهذه الآيات وغيرها دليل على هذا الأصل الكبير. فأولاً جميع الشريعة حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، لأن مبناها على عبادة الله وحده لا شريك له، سمحة في الأحكام والأعمال، فالصلوات المفروضات خمس في اليوم والليلة، لا تستغرق من وقت العبد إلا جزءاً يسيراً. والزكاة لا تجب إلا في الأموال المتمولة إذا بلغت نصابا. وهي جزء يسير جداً في العام مرة. وكذلك صيام رمضان شهر واحد من جميع العام، والحج لا يجب إلا في العمر مرة واحدة على المستطيع وبقية الواجبات عوارض بحسب أسبابها. وكلها في غاية اليسر والسهولة.

وقد شرع الله لكثير منها أسباباً تعين عليها وتنشط على فعلها. كما شرع الاجتماع في الصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين، وكذلك الصيام يجتمع فيه المؤمنون في شهر واحد لا يتخلف منهم إلا معذور بمرض أو سفر أو غيرهما. وكذلك الحج. ولا شك أن الاجتماع يزيل مشقة العبادات، وينشط العاملين، ويوجب التنافس في أفعال الخير، كما جعل الله الثواب العاجل والآجل الذي لا يقادر قدره أكبر معين على فعل الخيرات، وعلى ترك المنهيات. وكذلك جعل الله الزواجر الدنيوية والأخروية معينة على التقوى وعلى ترك المحرمات. قال تعالى:

﴿ذلك يُخَوِّفُ اللَّهُ به عبادَهُ يا عبادِ فاتَّقونِ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٦]

ثم إنه مع هذه السهولة في الأحكام، إذا عرض للعبد بعض الأعذار التي تعجزه أو تشق عليه مشقة شديدة، خفف عنه تخفيفاً يناسب الحال. فيصلي المريض الفريضة قائماً. فإن عجز صلى قاعداً. فإن عجز فعلى جنبه ويومىء بالركوع والسجود. ويصلي بطهارة الماء. فإن شق عليه صلى بالتيمم. وكذلك رخص السفر تتفرع عن هذا الأصل، لأن المسافر مظنة المشقة، فأبيح له قصر الرباعية إلى ركعتين، والجمع بين الصلاتين، والفطر في رمضان، والمسح ثلاثة أيام بلياليها على الخفين، ومن مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً، ويتفرع عن هذا الأصل الأعذار المسقطة لحضور الجمعة والجماعة.

ومن فروعها العفو عن الدم اليسير النجس والاكتفاء بالاستجمار الشرعي عن الاستنجاء، وطهارة أفواه الصبيان. وكذلك الهر وما دونها في الخلقة لقوله ﷺ (إنها ليست بنجس، إنها الطوافين عليكم والطوافات). ومن ذلك العفو عن طين الشوارع ولو ظنت نجاستها. فإن علمت عفي منها عن الشيء اليسير. ومن ذلك الاكتفاء بنضح بول الغلام الصغير الذي لم يأكل الطعام لشهوة وقيئة.

ومن فروع هذا الأصل: العمل بالأصل في طهارة الأشياء وحلها. فالأصل في المياه، والأراضي، والثياب، والأواني، وغيرها الطهارة حتى تعلم نجاستها. والأصل في الأطعمة والأشربة الحل إلا ما نص الشارع على تحريمه.

ومن فروعه الرجوع إلى الظن إذا تعذر اليقين في تطهير الأشياء من الأحداث والأنجاس. فيكفي الظن في الإسباغ. وكذلك في دخول الوقت إذا غلب على الظن دخوله بالدلائل الشرعية.

ومن فروعه: أن المتمتع والقارن قد حصل لكل منهما حج وعمرة تامان في سفر واحد. ولهذا وجب عليهما الهديُ شكراً لهذه النعمة. ويدخل في هذا الأصل إباحة المحرمات للمضطر، وإباحة ما تدعو إليه الحاجة كالعرايا، وإباحة أخذ العوض في مسابقة الخيل والإبل والسهام، وإباحة تزوج الحر للأمة إذا عدم الطول وخاف العنت.

ومن فروع هذا الأصل، حمل العاقلة الدية عن القاتل خطأ أو شبه عمد حملاً لا يشق عليهم يوزع على جميعهم ويؤجل عليهم ثلاث سنين كل سنة ثلث الدية.

## القاعدة الرابعة

### الوجوب يتعلق بالاستطاعة فلا واجب مع العجز ولا محرم مع الضرورة

قال الله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦] وثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم. ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وأباح الله الميتة ونحوها للمضطر. قال تعالى:

﴿وما لَكُم ألاَّ تأكُلُوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه وقد فَصَّل لكم ما حرَّمَ عليكم إلاَّ ما آضْطُرِرْتُم إليه﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩]

والضرورة تقدر بقدرها. فإذا اندفعت الضرورة وجب الانكفاف. وهذه القاعدة تضمنت أصلين، كما ذكره في الأصل. فيدخل في الأصل الأول: كل من عجز عن شيء من شروط الصلاة أو أركانها أو واجباتها. فإنها تسقط عنه، ويصلي على حسب ما يقدر عليه مما يلزم فيها. والصوم من عجز عنه عجزاً مستمراً، كالكبير الذي لا يطيقه، والمريض مرضاً لا يرجى برؤه أفطر، وكفر عن كل يوم إطعام مسكين. ومن عجز عنه لمرض يرجى زواله أو لسفر، أفطر وقضى عدة أيامه إذا زال عذره. والعاجز عن الحج ببدنه إن كان يرجو زوال عذره صبر حتى يزول، وإن كان لا يرجو زواله أقام عنه نائباً يحج عنه. وقال تعالى:

﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرج﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

وذلك في كل عبادة توقفت على البصر، أو الصحة، أو سلامة الأعضاء كالجهاد وغيره. ولهذا الأصل اشترطت القدرة في جميع الواجبات فمن لم يقدر فلا يكلفه الله ما يعجز عنه. ولذلك قال النبي ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.

وقال تعالى: ﴿لينفقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِهِ ومن قُدِرَ عليه رزقُه فَلْيُنْفِقْ مما آتاهُ اللَّهُ لا يكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلاَّ ما أتاها سيجعَلُ اللَّهُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾
[سورة الطلاق: الآية ٧]

وقال ﷺ في الواجبات المالية: (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول).

ومن هذا الأصل الكفارات المرتبة إذا عجز عن الأعلى انتقل إلى

ما دونه، وأعذار حضور الجمعة والجماعة داخلة في هذا الأصل كما دخلت في الذي قبله.

والضرورات تبيح للمحرم المحظورات. ولكنه يفدي عنها جبراً لما فاته منها. كما دخلت في الذي قبله. ومن ذلك جواز الانفراد في الصف إذا لم يجد موضعاً في الصف الذي أمامه، لأن الواجبات التي هي أعظم من المصافة تسقط مع العجز بالاتفاق فالمصافة من باب أولى وأحرى.

## القاعدة الخامسة

الشريعة مبنية على أصلين: الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ. هذان الأصلان شرط لكل عمل ديني ظاهر: كأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أو باطن: كأعمال القلوب، قال الله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخالصُ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية ٣]

وقال: ﴿وما أُمِروا إلّا لِيَعْبُدُوا الله مُخلِصين له الدينَ﴾ [سورة البَيِّنة: الآية ٥]

والدين الذي أمروا بإخلاصه هو الإسلام والإيمان، والإحسان كما فسره بذلك النبي ﷺ في حديث جبريل وغيره.

فهذه الأمور لا بد أن تكون خالصة لله مراداً بها وجهه ورضوانه، وثوابه، ولا بد أن تكون مأخوذة من الكتاب والسنة، وقال تعالى في متابعة الرسول:

(وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتَهُوا﴾ [سورة الحشر: الآية ٧]

وقال في الجمع بين الأصلين:

﴿وَمَنْ أحسنُ دِيناً مِمَّنْ أسلَمَ وجهَهُ للّهِ وهو مُحْسِنٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥]

أي أخلص أعماله الظاهرة، والباطنة لله. وهو في هذا محسن بأن يكون متبعاً لرسول الله، وفي عدة آيات: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول. فالعمل الجامع

للوصفين. هو المقبول، وإذا فقدهما أو فقد أحدهما. فهو مردود على صاحبه يدخل في قوله تعالى:

**﴿وَقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فجعلناهُ هَباءً منثوراً﴾**

[سورة الفرقان: الآية ٢٣]

وقال تعالى في نفقات المخلصين: **﴿وَمَثَلُ الذين يُنفقون أموالهم ٱبتغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ وتثبيتاً مِنْ أنفسِهِم كَمَثلِ جَنةٍ بِرَبوةٍ أصابَهَا وابلٌ فآتَتْ أُكُلَهَا ضِعفينِ. فإنْ لمْ يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ. والله بما تعملون بصيرٌ﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٦٥]

وقال في نفقات المرائين: **﴿والذين يُنفقـون أموالَهم رِئَـاءَ الناسِ ولا يؤمِنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يَكُنِ الشيطانُ له قريناً فساء قريناً﴾**

[سورة النساء: الآية ٣٨]

وقال ﷺ في الهجرة التي هي من أفضل الأعمال وتفاوتها بتفاوت الإخلاص وعدمه: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) متفق عليه.

وسئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله. فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) متفق عليه. فمن كان قصده في جهاده القولي والفعلي نصر الحق فهو المخلص، ومن كان قصده وغرضه غير ذلك، فله ما نوى، وعمله غير مقبول. وقال تعالى في الأعمال الفاقدة للمتابعة:

**﴿قل هل نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أعمالاً * الذين ضَلّ سعيهُم في الحياة الدُّنْيا وهُمْ يحسَبُون أنَّهُم يُحْسِنون صُنعاً﴾**

[سورة الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤]

وقال: **﴿فإنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لكَ فٱعلَمْ أَنَّما يتَّبعون أهواءَهم، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَـع هواهُ بغيرِ هُدًى من الله﴾** [سورة القصص: الآية ٥٠]

فالأعمال الصالحة كلها إذا وقعت من المرائين. فهي باطلة لفقدها الإخلاص الذي لا يكون العمل صالحاً إلا به، والأعمال التي يفعلها العبد لله لكنها غير مشروعة. فهي باطلة لفقدها المتابعة.

وكذلك الاعتقادات المخالفة لما في كتاب الله وسنة رسوله كاعتقادات أهل البدع المخالفة لما عليه الرسول ﷺ وأصحابه وكلها مردودة لقوله ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. فهذا الحديث ميزان للأعمال الظاهرة، كما أن حديث عمر عنه ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى) متفق عليه. ميزان الأعمال باطناً، والإخلاص لله في كل شيء هو الذي وردت فيه نصوص الكتاب والسنة في الأمر به، وفي فضله وثمراته الجليلة. وفي بطلان كل عمل يفقده. وأما نية نفس العمل، فهذا وإن كان لا بد منه في كل عمل، لكنه حاصل من كل عامل معه رأيه وقصده، لأنها القصد. وكل عاقل يقصد العمل الذي يعمله ويباشره. ولهذا كانت عناية الشارع في الأول وفي تحقيقه وتخليصه من جميع الشوائب.

وكما أن هذا الأصل يشمل جميع العبادات، فكذلك المعاملات فكل معاملة من بيع أو إجارة أو شركة، أو غيرها من المعاملات تراضى عليها المتعاملان لكنها ممنوعة شرعاً، فإنها باطلة محرمة ولا عبرة بتراضيهما: لأن الرضى إنما يشترط بعد رضى الله ورسوله. وكذلك التبرعات التي نهى الله ورسوله عنها كتخصيص بعض الأولاد على بعض أو تفضيلهم في العطايا والوصايا. وكذلك في المواريث فلا وصية لوارث. وكذلك شروط الواقفين لا بد أن تكون موافقة للشرع غير مخالفة له. فإن خالفته ألغيت. وميزان الشروط مطلقاً قوله ﷺ: (المسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أَحَلَّ حراماً) رواه أهل السنن.

وكذلك النكاح شروطه وأركانه، والذي يحلُّ من النساء، والذي

لا يحل، والطلاق، والرجعة. وجميع الأحكام المتعلقة به لا بد أن تقع على الوجه المشروع، فإن لم تقع فهي مردودة.

وكذلك الأيمان والنذور لا يحلف العبد إلا بالله، أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو بنذر لله: (فمن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه).

وكذلك الحنث في الأيمان لقوله ﷺ: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه).

وكذلك الفتوى، والقضاء، والبينات، وتوابعها جميعها مربوطة بالشرع. قال تعالى:

﴿فَلَا وربِّك لا يؤمنونَ حتَّى يحكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهُم ثم لا يَجِدُوا في أنفسِهِم حرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويسلِّمُوا تسليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]

وقال: ﴿فإنْ تنازَعْتُم في شيءٍ فرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرسولِ إنْ كنتم تؤمنونَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ ذلكَ خيرٌ وأَحسنُ تأويلاً﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

بل الفقه من أوله إلى آخره لا يخرج عن هذا الأصل المحيط. فإن الأحكام كلها مأخوذة من الأصول الأربعة. الكتاب، والسنة. وهما: الأصل والإجماع مستنداً إليهما، والقياس مستنبط منهما.

## القاعدة السادسة

الأصل في العبادات الحظر فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله. والأصل في العادات الإباحة. فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله.

وهذه القاعدة تضمنت أصلين عظيمين دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع، مثل قوله تعالى في الأصل الأول:

﴿أَمْ لهم شُركاءُ شَرَعُوا لهم مِنَ الدِّين ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾

[سورة الشورى: الآية ٢١]

ومثل الأمر بعبادته وحده لا شريك له في مواضـع. والعلماء مجمعون على أن العبادة ما أمر به أمر إيجاب، أو استحباب.

وقوله في الأصل الثاني: ﴿هُوَ الذي خَلَقَ لكُمْ ما في الأرض جميعاً﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٩]

أي تنتفعون بها بجميـع الانتفاعات إلا ما نص على المنـع منه. وقوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزق﴾
[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

فأنكر تعالى على من حرَّم ما خلق الله لعباده من المآكل والمشارب والملابس ونحوها. فكل واجب أوجبه الله ورسوله، أو مستحب، فهو عبادة يعبد الله به وحده. فمن أوجب أو استحب شيئاً لم يدل عليه الكتاب والسنة. فقد ابتدع ديناً لم يأذن به الله، وهو مردود على صاحبه. كما قال ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) متفق عليه.

وتقدم أن من شروط كل عبادة الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله.

واعلم أن البدع من العبادات على قسمين: إما أن يبتدع عبادة لم يشرع الله ورسوله جنسها أصلاً. وإما أن يبتدعها على وجه يغير به ما شرعها الله ورسوله. وأما العادات كلها: كالمآكل، والمشارب، والملابس، والأعمال العادية، والمعاملات، والصنائـع. فالأصل فيها الإباحة والإطلاق. فمن حرم شيئاً منها لم يحرمه الله ولا رسوله، فهو مبتدع. كما حرم المشركون بعض الأنعام التي أباحها الله ورسوله. وكمن يريد بجهله أن يحرم بعض أنواع اللباس، أو الصنائـع، والمخترعات الحادثة بغيـر دليل شـرعي يحرمهـا. والمحرم من هذه الأمور الأشياء الخبيثة أو الضارة. وقد فصلت في الكتاب والسنة. ومن تتبـع المحرمات وجدها تشتمل على المفاسد المتنوعة.

وهذان الأصلان نفعهما كبير، وبهما تعرف البدع من العبادات، والبدع

من العادات، فمن لزمهما فقد استقام على السبيل. ومن ادعى خلاف أصل منهما فعليه الدليل.

## القاعدة السابعة

التكليف: وهو البلوغ، والعقل شرط لوجوب العبادات والتمييز: شرط لصحتها إلا الحج والعمرة ويشترط لصحة التصرف التكليف والرشد. ولصحة التبرع: التكليف والرشد والملك.

هذه القاعدة تشتمل على هذه الضوابط التي تنبني عليها العبادات وجوباً وصحة. وصحة التصرفات والتبرعات. فالمكلف هو البالغ العاقل، وهو الذي تجب عليه جميع العبادات والتكاليف الشرعية، لأن الله رؤوف رحيم بعباده. فإذا بلغ العاقل. فقد بلغ إلى السن التي يقوى بها على القيام بالواجبات، ومعه العقل الذي يميز به بين ما ينفعه وما يضره، وقبل البلوغ إذا ميز الأشياء صحت منه العبادات من غير إيجاب عليه. ولكن يؤمر بها على وجه التمرين، فمن كان دون التمييز لم تصح عباداته لعدم وجود شرطها الذي هو العقل الذي يقصد به الأشياء سوى الحج والعمرة. فإن امرأة رفعت إلى النبي ﷺ صبياً في المهد، فقالت: ألهذا حج؟ قال: (نعم ولك أجره). متفق عليه. فينوي عنه وليه الإحرام، ويجنبه ما يتجنبه المحرم، ويحضره المناسك كلها، ويطوف به ويسعى به ويرمي عنه الجمار لعجزه عنها، ويستثنى من هذه العبادات المالية: كالزكوات والكفارات والنفقات، فإنها تجب على الصغير والكبير، والعاقل وغير العاقل. لعموم النصوص من الكتاب والسنة، ولأن معتمدها المال.

وأما التصرفات المالية فلم تصح من غير البالغ الرشيد. لأن الغرض منها حفظ المال وحسن التصرف فيه، قال تعالى:

﴿حتى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ فإنْ آنستُمْ منهم رُشْداً فَآدْفَعُوا إليهم أموالَهم﴾
[سورة النساء: الآية ٦]

فشرط الله شرطين لدفع أموالهم إليهم البلوغ والرشد، وأمر باختبارهم قبل ذلك. هل يحسنون الحفظ والتصرف، فيدفع إليهم مالهم بعد البلوغ، أم لا يحسنون؟ فلا يدفع إليهم لئلا يضيعوها. فعلم أن البلوغ والعقل والرشد شرط لصحة جميع المعاملات، فمن فقد واحداً منها لم تصح معاملته ولم تنفذ تصرفاته وتعين الحجر عليه.

وأما التبرعات: فهي بذل المال بغير عوض من هبة أو صدقة أو وقف أو عتق أو نحوها. فلا بد مع ذلك أن يكون المتبرع مالكاً للمال ليصح تبرعه، لأن غير المالكِ لا يصح تبرعه من مال غيره لقوله تعالى:

﴿ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيم إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ﴾
[سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

## القاعدة الثامنة

### الأحكام الأصولية والفروعية لا تتم إلا بأمرين: وجود الشروط وانتفاء الموانع

وهذا أصل كبير مطرد الأحكام، يرجع إليه في الأصول والفروع. فمن فوائده أن كثيراً من نصوص الوعد بالجنة أو تحريم النار، أو نحو ذلك. قد ورد في بعض النصوص، ترتيبها على أعمال لا تكفي وحدها، بل لا بد من انضمام الإيمان وأعمال أخر لها. وكذلك في نصوص كثيرة ترتيب دخول النار، أو الخلود فيها على أعمال لا تستقل بهذا الحكم بل لا بد فيها من وجود شروطها وانتفاء موانعها. وبهذا الأصل يندفع إيرادات تورد على أمثال هذه النصوص.

والجواب الصحيح فيها، أن يقال: ما ذكر في النصوص الصحيحة من

الوعد والوعيد، فهو حق. وذلك العمل موجب له. ولكن لا بد من وجود الشروط كلها، وانتفاء الموانـع. فإن الكتاب والسنة: قد دلا دلالة قاطعة على أن من معه إيمان صحيـح لا يخلد في النار، كما دل الكتاب والسنة: أن المشرك محرم عليه دخول الجنة. وأجمـع على ذلك السلف والأئمة. وأنه قد يجتمـع في الشخص الواحد إيمان وكفر وخير وشر، ومـوجبات الثـواب وموجبات العقاب. وذلك مقتضى النصوص، ومقتضى حكمة الله ورحمته وعدله.

ومن فروع هذا الأصل: الصلاة لا تصـح حتى توجد شروطها وأركانها وواجباتها. وتنتفي موانعها وهي مبطلاتها التي ترجـع إلى الإخلال بشيء مما يلزم فيها أو فعل منهيٍّ عنه فيها بخصوصها.

وكذلك الصيام لا بد في صحته من وجود كل ما يلزم فيه. ومن انتفاء المفطرات.

وكذلك الحـج والعمـرة ومن ذلك المعـاملات. كـالبيـع والشراء، والإجارة. وجميـع المعاوضـات. والتبرعـات لا تصـح وتنفذ إلا بـاجتماع شروطها وانتفاء موانعها وهي مفسداتها.

وكذلك المواريث والنكاح وغيرها، وشروط هذه الأشياء ومفسداتها مفصل في كتب الفقه. ولهذا إذا فسدت العبادة، أو المعاملة، أو غيرها من العقود والفسوخ. فلا بد من أحد أمرين، إمـا إخلال بشيء من دعـائمها وشروطها، وإما بوجود مانـع ينافيها ويفسدها، ومن تتبـع ذلك وجده مطرداً غير منتقض.

# القاعدة التاسعة

## العرف والعادة يرجع إليه في كل حكم
## حكم الشارع به ولم يحده

وهذا أصل واسع موجود منتشر في المعاملات والحقوق وغيرها. وبيان ذلك: أن جميع الأحكام يحتاج كل واحد منها إلى أمرين:

أحدهما: معرفة حده وتفسيره.

الثاني: بعد هذا يحكم عليها بأحد الأحكام الخمسة. فإذا وجدنا الشارع قد حكم عليها بإيجاب، أو استحباب، أو منع، أو إباحة. فإن كان قد حدها وفسرها كالصلاة، والزكاة والصيام، والحج ونحوها، رجعنا إلى ما حده الشارع كما رجعنا إلى ما حكم به. وأما إذا حكم عليها الشارع ولم يحدها. فإنه حكم على العباد بما يعرفونه ويعتادونه. وقد يصرح لهم بالرجوع إلى ذلك كما في قوله:

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وقد يدخل في ذلك المعروف شرعاً، والمعروف عقلاً مثل قوله:

﴿وَأْمُرْ بالعُرْفِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

ويدخل في هذا الأصل مسائل كثيرة جداً.

منها: أن الله أمر بالإحسان إلى الوالدين، والأقارب، والجيران، واليتامى، والمساكين. وكذلك أمر بالإحسان إلى جميع الخلق. فكل ما شمله الإحسان مما يتعارف الناس أنه إحسان، فهو داخل في هذه الأوامر الشرعية، لأن الله أطلق ذلك، والإحسان ضد للإساءة، وضد أيضاً لعدم الإحسان ولو لم يكن إساءة.

وفي الحديث الصحيح: (كل معروف صدقة) ومن ذلك أن الشارع اشترط الرضى في جميع عقود المعاوضات، والتبرعات بين الطرفين، ولم يشترط للرضى لفظاً معيناً. فأي لفظ وأي فعل دل على العقد والتراضي

حصل به المقصود. فالعقود كلها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل. ولكن أهل العلم استثنوا منها بعض مسائل اشترطوا اللفظ لعقدها أو لحلها لخطرها مثل النكاح. قالوا لا بد فيه من الإيجاب والقبول اللفظي. وكذلك الطلاق لا يقع إلا بلفظ أو كتابة.

ومن الفروع: أن كل عقد اشترط له القبض أن القبض راجع إلى العرف. وكذلك الحرث يرجع فيه إلى العرف ويختلف باختلاف الأموال.

ومن ذلك: أن الأمين لا يضمن ما تلف عنده إلا بتعدٍّ أو تفريط. والتعدي والتفريط مرجعه إلى العرف فما عده الناس تعدياً أو تفريطاً علق به الحكم.

ومن ذلك: أن من وجد لقطة لزمه أن يعرفها حولاً كاملاً بحسب العرف. فإن لم يجد صاحبها بعد تعريفها ملكها.

ومن فروعها: أن الأوقاف يرجع في مصارفها إلى شروط الواقفين التي لا تخالف الشرع. فإن جهل شرط الموقف رجع في ذلك إلى العادة، والعرف الخاص، ثم إلى العرف العام في صرفها في مصارفها. ومن ذلك الحكم باليد والمجاراة لمن كان بيده عين يتصرف فيها مدة طويلة تصرف الملاك بأنها له عملاً بالعرف إلا ببينة تشهد بخلاف ذلك.

ومن فروعها: الرجوع إلى المعروف في نفقة الزوجات والأقارب، والمماليك، والأجراء ونحوهم، بل صرح الله في حق الزوجات بالرجوع إلى العرف بما هو أعم من النفقة، وهو المعاشرة. فقال:

**﴿وعاشروهن بالمعروف﴾** [سورة النساء: الآية ١٩]

فشمل هذا جميع ما يكون بين الزوجين من المعاشرة القولية، والفعلية، وأن على كل منهما الرجوع فيها إلى المعروف.

ومن فروعها: رجوع المستحاضة إلى عادتها، ثم إلى العادة الغالبة ستة أيام أو سبعة.

ومن ذلك: العيوب، والغبن، والتدليس يرجع في ذلك إلى المعروف بين الناس، مما عده الناس غبناً، أو عيباً، أو تدليساً، أو غشاً علق به الحكم.

ومن ذلك: الرجوع إلى قيمة المثل في المتقومات، والمتلفات، والضمانات، وغيرها. والرجوع إلى مهر المثل لمن وجب لها مهر ولم يسم أو سُمِّي تسمية فاسدة. وكذلك الرجوع إلى أجرة المثل في الإجارات التي لم تسم فيها الأجرة، أو سميت تسمية غير صحيحة. وفروع هذا الأصل لا تحصى.

## القاعدة العاشرة

### البينة على المدعي واليمين على من أنكر في جميع الدعاوي والحقوق وغيرها.

وقد أجمع أهل العلم على هذا الأصل العظيم في الجملة. قال ﷺ (البينة على المدعي واليمين على من أنكر) رواه البيهقي. وأصله في الصحيحين. وهذا الأصل يحتاجه القاضي والمفتي، وكل أحد لشدة الحاجة إليه، وقد قيل في قوله تعالى:

﴿وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخِطاب﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٠]

أن فصل الخطاب هو أن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، لأن به تنفصل الشبهات، وتنحل الخصومات، ولا شك أن ذلك داخل في فصل الخطاب، لأنه الفصل بين الحق والباطل في الديانات، والأموال، والحقوق.

فكل من ادعى عيناً عند غيره، أو ديناً على غيره، أو حقاً من الحقوق، فعليه البينة: وهي كل ما أبان الحق ويختلف نصابها وحالها باختلاف المشهود عليه، فإن لم يأت ببينة تشهد بصحة دعواه، فعلى الآخر اليمين التي تنفي ما ادعاه المدعي.

وكذلك إذا ثبت الحق في ذمة إنسان، ثم ادعى أنه خرج منه بقضاء

أو إبراء أو غيرهما، فالأصل بقاؤه. فإن جاء ببينة تشهد بدعواه وإلا حلف صاحب الحق أن حقه باق، ولم يستوفه وحكم له به.

وكذلك من ادعى استحقاقاً في وقف أو ميراث. فعليه إقامة البينة التي تثبت السبب الذي يستحق به ذلك، وإلا لم يثبت له شيء. فإن كان المال بيد من لا يدعيه لنفسه. كاللقطة والأموال التي يجهل أربابها، فبينة المدعي أن يصفه بصفاته المعتبرة، وجميع الدعاوي مضطرة إلى هذا الأصل، والله أعلم. ويقارب هذا الأصل الذي بعده وهو:

## القاعدة الحادية عشرة

### الأصل بقاء ما كان على ما كان، واليقين لا يزول بالشك

هذا أصل كبير يدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح (حين شكا إليه الرجل يجد الشيء وهو في الصلاة، قال: لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً) أي: حتى يتيقن أنه أحدث. فمتى تيقن أمراً من الأمور، أو استصحب أصلاً من الأصول. فالأصل بقاء ذلك الأمر المتيقن. فلا ينتقل عن ذلك بمجرد الشك حتى يتيقن زواله، فيدخل في هذا بعض مسائل الأصل الذي قبله. ويدخل فيه أن من تيقن الطهارة، وشك في الحدث هل حصل له موجب من موجبات الطهارة وناقض من نواقضها؟ فالأصل بقاء طهارته، والطهارة أصل كل شيء، فمتى شك الشاك في طهارة ماء أو بقعة، أو ثوب أو إناء أو غيرها بنى على الأصل، وهو الطهارة.

ومن ذلك لو أصابه ماء من ميزاب أو غيره، أو وطىء رطوبة لا يدري عنها، فالأصل الطهارة. ومن تيقن أنه محدث وشك هل تطهر أم لا؟ فهو على حدثه. ومن شك هل صلى ركعتين أو ثلاثاً؟ جعلها ركعتين وسجد للسهو. وكذا لو شك في عدد الطواف، أو السعي أو عدد الغسلات المعتبرة: بنى

على الأقل. ومن عليه صلوات متعددة أو صيام أبرأ ذمته مما عليه وجوباً. ومن شك في أصل الطلاق أو في عدده بنى على الأصل وهو العصمة، ولو شك هل خرجت المرأة من العدة؟ فالأصل أنها في العدة، وإذا شك في أصل الرضاع أو في عدده. فكذلك يبني على اليقين. ومن رمى صيداً مسمياً، ثم وجده قد مات ولم يجد فيه إلا أثر سهمه، بنى على الأصل. وأنه مات بسهمه فهو حلال. فكل شيء شككنا في وجوده فالأصل عدمه، وكل شيء شككنا في عدده. فالأصل البناء على الأقل، وأمثلتها كثيرة جداً.

## القاعدة الثانية عشرة

### لا بد من التراضي في عقود المعاوضات والتبرعات والفسوخ الاختيارية

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، كما قال تعالى في عقود المعاوضات:

﴿إِلَّا أَنْ تَكونَ تجارةً عن تراضٍ مِنكُم﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

لأن التجارة اسم جامع لكل ما يقصد به الربح والكسب. فلا بد فيها من التراضي بين الطرفين. وقال تعالى في عقود التبرعات:

﴿فإنْ طِبْنَ لكم عن شيءٍ منه نَفْساً فَكُلُوهُ هنيئاً مريئاً﴾

[سورة النساء: الآية ٤]

فهذا التبرع من الزوجة الرشيدة لزوجها بالمهر أو ببعضه شرط الله فيه طيب نفسها. وهذا هو الرضى فجميع التبرعات نظير الصداق. فالبيع بأنواعه، والوثائق، والإجارات، والمشاركات، والوقف، والوصايا والهبة، لا بد فيها من رضى المتعاقدين. وكذلك النكاح وغيره من جميع العقود والفسوخ لا تتم إلا برضى المتصرف فيها لأنها تنقل الأملاك من شخص إلى آخر، أو تنقل الحقوق، أو تغير الحال السابقة، وذلك يقتضي الرضى. فمن أكره على عقد، أو على فسخ بغير حق، فعقده وفسخه لاغ وجوده مثل

عدمه، ويستثنى من هذا الأصل العام من أكره على عقد أو فسخ بحق. فضابط ذلك: إذا امتنع الإنسان مما وجب عليه ألزم به. وكان إكراهه بحق. فإذا أكره على بيع ماله لوفاء دينه أو لشراء ما يجب شراؤه من نفقة أو كسوة، أو نحوها، فهو إكراه بحق.

وكذلك المشترك الذي لا ينقسم إلا بضرر إذا امتنع أحد الشريكين من بيعه أجبر على بيعه بحق.

وكذلك من وجب عليه طلاق زوجته لسبب من الأسباب الموجبة. فامتنع أجبر عليه بحق. وكذلك لو وجب عليه إعتاق رقيق عن كفارته، أو نذره. فامتنع أجبر على ذلك. وأمثال ذلك كثيرة.

## القاعدة الثالثة عشرة

الإتلاف يستوي فيه المتعمد، والجاهل، والناسي. وهذا شامل لإتلاف النفوس المحترمة، والأموال، والحقوق. فمن أتلف شيئاً من ذلك بغير حق. فهو مضمون، سواء كان متعمداً أو جاهلاً، أو ناسياً. ولهذا أوجب الله الدية في القتل خطأ، وإنما الفرق بين المتعمد وغيره من جهة الإثم وعقوبة الدنيا والآخرة في حقه وعدمه في حق المعذور بخطأ أو نسيان. فمن أتلف مال غيره أو حقاً من حقوقه بمباشرة أو سبب فهو ضامن..

ومن الأسباب المتعلق بها الضمان إتلاف بهيمته التي هو متصرف فيها، والتي يخرجها ليلاً، أو نهاراً بقرب ما تتلفه أو يطلق حيوانه المعروف بالأذية على الناس في أسواقهم وطرقهم. فإنه متعمد عليه الضمان. ومما يدخل في هذا قتل الصيد للمحرم عمداً، أو خطأ. ففيه الجزاء عند جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الأربعة. واختار بعض أصحابهم أن الجزاء مختص بمن قتله متعمداً كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ منكم متعمِّداً فجزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾

[سورة المائدة: الآية ٩٥]

وهو صريح الآية الكريمة. والفرق بينه وبين أقوال الآدميين: أن الحق فيه لله، والإثم مترتب على القصد. فكذلك الجزاء. وهذا القول أصح.

## القاعدة الرابعة عشرة

التلف في يد الأمين غير مضمون إذا لم يتعد أو يفرط. وفي يد الظالم مضمون مطلقاً، أو يقال: ما ترتب على المأذون فيه، فهو غير مضمون والعكس بالعكس.

الأمين من كان المال بيده برضى ربه أو ولايته عليه. فيدخل فيه الوديع، والوكيل، والأجير، والمرتهن، والشريك، والمضارب، والوصي، والولي، وناظر الوقف ونحوهم. فكل هؤلاء إذا تلف المال بأيديهم بغير تفريط، ولا تعدٍّ لا يضمنون، لأن هذا هو معنى الائتمان. فالتلف في أيديهم كالتلف في يد المالك. فإن تعدوا أو فرطوا ضمنوا. فالتفريط ترك ما يجب من الحفظ، والتعدي فعل ما لا يجوز من التصرفات أو الاستعمالات. لأنهم في هذه الحال يشبهون الغاصب. ويستثنى من الأمناء المستعير فإنه ضامن في قول كثير من أهل العلم إذا تلفت العين المستعارة بيده في غير ما استعيرت له، ولو لم يفرط، أو يتعد كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد. والقول الثاني أصح، وهو أن العارية تجري مجرى بقية الأمانات.

وأما من كان المال بيده بغير حق. فإنه ضامن لما في يده، سواء تلف بتعد أو تفريط، أو لا، لأن يد الظالم يد متعدية يضمن العين ومنافعها. فيدخل في هذا الغاصب والخائن في أمانته، ومن عنده عين لغيره فطلب منه الرد لمالكها، أو لوكيله. فامتنع لغير عذر. فإنه ضامن مطلقاً. وكذلك من عنده لقطة فسكت عليها ولم يعرفها بغير عذر. ومن حصل في داره أو يده مال غيره

بغير إذنه فلم يرده ولم يخبر به صاحبه لغير عذر وما أشبه هؤلاء. فكلهم ضامنون. ولهذا كان أسباب الضمان ثلاثة: اليد المتعدية. كهذه اليد، ومباشرة الإتلاف بغير حق، أو فعل سبب يحصل به التلف كما تقدم في الأصل السابق.

## القاعدة الخامسة عشرة

### لا ضرر ولا ضرار

وهذا الأصل لفظ الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس. فالضرر منفي شرعاً. فلا يحل لمسلم أن يضر أخاه المسلم بقول، أو فعل، أو سبب بغير حق، وسواء كان له في ذلك نوع منفعة أو لا، وهذا عام في كل حال على كل أحد، وخصوصاً من له حق متأكد. كالقريب، والجار والصاحب، ونحوهم. فيحرم على الجار أن يضر بجاره، ولو أن يحدث بملكه ما يضره. وكذلك لا يحل أن يجعل في طرق المسلمين وأسواقهم ما يضر بهم من أخشاب، أو أحجار، أو حفر أو نحو ذلك إلا ما كان فيه نفع ومصلحة لهم.

وفي الحديث الصحيح (من ضارَّ مسلماً ضاره الله) ومن أشد أنواع الضرار، مضارة الزوجة والتضييق عليها لتفتدي منه بغير حق. كما قال تعالى:

﴿ولا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عليهن﴾ [سورة الطلاق: الآية ٦]

وقال: ﴿ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

وكذلك مضارة أحد الوالدين للآخر من جهة الولد، كما قال تعالى:

﴿لا تُضَارَّ والدةٌ بِوَلَدِها ولا مولودٌ لَهُ بِوَلده﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٣٣]

وقال تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

يحتمل أن الفعل مبني للفاعل. فيكون الكاتب والشهيد منهين عن مضارتهما

لصاحب الحق بأي ضرر يكون، ويحتمل أن يكون مبنياً للمجهول. فيكون صاحب الحق منهياً عن مضارته لأحدهما. وكل ذلك صحيـح.

ومن ذلك إضرار المورث والموصي. قال تعالى:

﴿مِنْ بَعدِ وَصِيةٍ يوصَى بها أوْ دَيْنٍ غيرَ مُضارٍّ﴾

[سورة النساء: الآية ١٢]

فكل ضرر أوصله إلى مسلم أوغيره بغير حق: فهو محرم داخل في هذا الأصل، وكما أن العبد منهي عن الضرر والإضرار: فإنه مأمور بالإحسان لكل إنسان بل لكل ذي روح بأي إحسان يكون. ودرجات الإحسان متفاوتة، كدرجات الإساءة. قال تعالى:

﴿وأحسِنوا إن اللَّهَ يحبُّ المحسنين﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

وصـح عنه ﷺ أنه قال (إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته). رواه مسلم من حديث شداد بن أوس فأمره ﷺ بالإحسان حتى في إزهاق النفوس.

## القاعدة السادسة عشرة

### العدل واجب في كل شيء، والفضل مسنون

العدل: أن تعطي ما عليك كما تطلب ما لك. والفضل: هو الإحسان الأصلي أو الزيادة على الواجب. قال الله تعالى:

﴿وأقْسِطُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩]

وقال تعالى: ﴿وإنْ عاقبتم فعاقبوا بمِثل ما عُوقبتم به ولئن صبرتم لَهُوَ خَيرٌ للصابرين﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٦]

وقال: ﴿وجزاءُ سيئةٍ مثلُها فمن عفا وأصلَـحَ فأجرُهُ على الله﴾

[سورة الشورى: الآية ٤٠]

فأباح الله مقابلة الجاني بمثل جنايته، وهو العدل، ثم ندب إلى العفو وهو الفضل. وكذلك جميع المعاملات العدل فيها واجب، وهو أن تعطي ما عليك، وتأخذ مالك والفضل فيها مندوب إليه. قال تعالى:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

وهو العفو عن بعض الحق والمحاباة في المعاملة، وأباح تعالى أخذ الحق من الواجد في الحال، وأمر بانتظار المعسر. وهذا هو العدل، ثم ندب إلى الفضل فقال:

﴿وإنْ تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٠]

وأباح مخالطة اليتيم في الطعام والشراب وتوابعها على وجه العدل، وندب إلى الفضل والاحتياط. فقال:

﴿وإنْ تُخالِطُوهم فإخوانُكُم واللَّهُ يعلم المُفسِدَ من المُصْلِحِ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٠]

وقال تعالى: ﴿وكَتَبْنا عليهِم فيها أَنَّ النفسَ بالنفسِ، والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجروحُ قِصاص ـ فهذا العدل ثم قال ـ فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥]

فهذا الفضل. وقال تعالى:

﴿لا يحبُّ اللَّهُ الجهرَ بالسُّوءِ مِنَ القَولِ إلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾

[سورة النساء: الآية ١٤٨]

أي: فهو مباح له على وجه القصاص والعدل. ومع هذا: فقد حث فيه على الفضل في قوله تعالى:

﴿ولا تستوِي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ ٱدْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤]

فالعدل والفضل مقامان للمنصفين والسابقين ومن قصر دونهما فهو من الظالمين.

ومن فروع هذا الأصل العبادات. كالطهارة، والصلاة، والصوم، والحج وغيرها. منها: مجزىء، وهو الذي يقتصر فيه على ما يجب في العبادة ويلزم وهو العدل. ومنها: كامل، وهو الإتيان بمستحبات العبادة بعد تكميل الواجبات، وهو الفضل. وكل ما أشبه هذه المسائل يجري هذا المجرى.

## القاعدة السابعة عشرة

### من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه

وذلك أن العبد مملوك تحت أحكام ربه ليس له من الأمر شيء. قال تعالى:

**﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قَضَى اللَّهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لهم الخِيَرَةُ من أمرهم﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٣٦]

فإذا تعجل الأمور التي يترتب عليها حكم شرعي قبل وجود أسبابها الصحيحة لم يفده شيئاً وعوقب بنقيض قصده ويندرج تحت هذا الأصل صور عديدة. منها: حرمان القاتل الميراث سواء كان القتل عمداً أو خطأ إذا كان بغير حق. وكذلك إذا قتل الموصى له الموصي بطلت الوصية، والمدبر إذا قتل سيده بطل التدبير. ومثل ذلك: من طلق زوجته في مرض موته المخوف ترث منه ولو خرجت من العدة. ومما يدخل في هذا أن من تعجل شهواته المحرمة في الدنيا عوقب بحرمانها في الآخرة إنْ لم يتب منها. قال تعالى:

**﴿ويومَ يُعرَضُ الذين كفروا على النار أَذْهَبْتُمْ طيباتِكم في حياتِكُمُ الدُّنيا وآستمتعتم بها﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٠]

ويقابل هذا الأصل أصل آخر. وهو أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ولم يجد فقده.

## القاعدة الثامنة عشرة

### تضمن المثليات بمثلها، والمتقومات بقيمتها

اختلف العلماء ما هي المثليات؟ فقيل: إنها المكيلات والموزونات فقط. والمتقومات ما عداها. وقيل: إن المثليات ما كان له مثل أو مشابه، أو مقارن. وهو الصحيح، لأنه ﷺ استقرض بعيراً وقضى خيراً منه، ولأنه ضمن أم المؤمنين حين كسرت صحفة أم المؤمنين الأخرى، فأعطاها صحفتها الصحيحة. وقال: إناء بإناء وطعام بطعام، ولأن الضمان بالشبيه والمقارب بجمع الأمرين القيمة، وحصول مقصود صاحبه، وعلى القولين: فمن أتلف مالاً لغيره. فإن كان مثلياً ضمنه بمثله. وإن كان متقوماً ضمنه بقيمته يوم تلفه. وكذلك من استقرض مثلياً ردَّ بدله، وإن كان متقوماً رد قيمته. ومثل ذلك من أوجبنا عليه الضمان لكونه فرط في أمانته أو تعدى فيها، أو كانت يده متعدية. فكل هؤلاء يضمنون المثل بمثله والمتقوم بقيمته وأشباه ذلك.

## القاعدة التاسعة عشرة

### إذا تعذر المسمى رجع إلى القيمة

وهذه القاعدة غير التي قبلها، لأن هذه في المعاوضات التي يسمى لها ثمن. اتفق عليه المتعاوضان فحيث تعذر معرفة المسمى، أو تعذر تسليمه، لكون التسمية غير صحيحة، لغرر أو تحريم آخر، فإنه يرجع إلى قيمة ذلك الذي سمي له الثمن الذي تعذر تسليمه، فيدخل في هذا: البيع والإجارة بأنواعها. فإذا باع شيئاً بثمن وتعذر معرفة الثمن الذي سماه في العقد، رجع إلى قيمة المبيع الذي وقع عليه العقد، لأن الغالب أن السلع تباع بأقيامها. وكذلك إذا تعذر معرفة الأجرة رجعنا إلى أجرة المثل. وكذلك لو كان الثمن أو الأجرة محرمين أو منهما جهالة. ومثل ذلك المسمى في مهور النساء إذا تعذر معرفته أو تسليمه. فإنه يجب مهر المثل. والله أعلم.

# القاعدة العشرون

## إذا تعذر معرفة من له الحق جعل كالمعدوم

يعني: إذا علمنا أن المال ملك للغير، ولكن ذلك الغير تعذرت علينا معرفته وأيسنا منه جعلناه كالمعدوم. ووجب صرف هذا المال بأنفع الأمور لصاحبه، أو إلى أحق الناس بصرفه إليه. ويترتب على هذا اللقطة إذا تعذر معرفة صاحبها بعد التعريف المعتبر شرعاً. فهي لواجدها، لأنه أحق الناس بها، والمفقود إذا انتظر المدة المقدرة له إما باجتهاد الحاكم أو المدة التي قدرها الفقهاء ومضت، ولم يوقف له على خبر: قسم ما له بين ورثته الموجودين وقت الحكم بموته، ومن كان بيده ودائع أو رهون أو غصوب، أو أمانات جهل ربها وأيس من معرفته. فإن شاء دفعها لولي بيت المال ليصرفها في المصالح النافعة، وإن شاء تصدق بها عن صاحبها ينوي أنه إذا جاء خيّره بين أن يجيز تصرفه ويكون له الثواب كما نواه المتصدق، أو يضمنها إياه، ويعود أجر الثواب لمن باشر الصدقة ونحو ذلك. ومن مات ليس له وارث معلوم. فميراثه لبيت المال يصرف في المصالح النافعة. والله أعلم.

# القاعدة الحادية والعشرون

## الغرر، والميسر: محرم في المعاوضات والمغالبات

وقد قرن الله الميسر للخمر للمفاسد التي يشترك فيهما الخمر والميسر، لأنه يوقع العداوة والبغضاء ويصدّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، ويوقع العبد في المكاسب الدنيئة السافلة. وقد نهى ﷺ عن بيع الغرر فيدخل فيه بيع الآبق والشارد، والحمل في البطن، والمجهولات التي يجهل: هل تحصل أم لا؟ أو يجهل مقدارها أو صفاتها. وكلها داخلة في الميسر. ومن هذا الغرر في المشاركات والمساقاة والمزارعة بأن يقول أحدهما للآخر: لك ربح أحد السفرتين أو إحدى السلعتين، أو أحد الوقتين ولي الآخر، أو يقول: لك هذا

الجانب من الشجر أو الزرع ولي الجانب الآخر. فكله داخل في الغرر والميسر.

ومن ذلك تأجيل الديون إلى آجال مجهولة، وأما الميسر في المغالبات، فكل مغالبة فيها عوض من الطرفين فهي من الميسر كالنرد والشطرنج، والمغالبات القولية والفعلية.

ويستثنى من هذا: المسابقة على الخيل، أو الإبل، أو السهام. فإنها مستحبة لما فيها من الإعانة على الجهاد في سبيل الله، ولا يشترط لها محلل على القول الصحيح.

## القاعدة الثانية والعشرون
## والقاعدة الثالثة والعشرون

### الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

هذان الأصلان: هما لفظ الحديث الذي صححه غير واحد من الأئمة، وما أعظم نفعهما وأكثر فوائدهما. فهذا الأصل يدل على أن جميع أنواع الصلح الجارية بين الناس جائزة ما لم تدخلهم في حرام، أو تخرجهم من واجب. فيصلح الصلح مع الإقرار بالحق ومع إنكاره بجنس المدعى به أو بغير جنسه حاضراً أو مؤجلاً. وكذلك الصلح عن الحقوق الثابتة ليسقطها من هي له. كخيار عيب، أو غبن أو تدليس أو غيرها. وكذلك على الصحيح حق الشفعة، وخيار الشرط لعموم هذا الحديث وغيره، ولعدم المحذور الشرعي، وكذا لو صالحه عن دم العمد في النفس وما دونها. فهو جائز. وكذلك لو صالحه عن المجهول من الديون والحقوق بشيء معلوم جاز. ومن هذا مصالحة أحد الزوجين الآخر عن بعض حقوق الزوجية الماضية

أو المستقبلة. ومثل ذلك أن ترى عدم رغبته فيها فتسقط عنه بعض حقوقها ليمسكها كما قال تعالى:

﴿وإنِ امرأةٌ خافَتْ مِنْ بعلِها نُشُوزاً أَوْ إعراضاً فلا جُناحَ عليهِما أَنْ يُصلِحا بينهُمَا صُلحاً والصلحُ خيرٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٧]

وكذلك الصلح عن جميع المنازعات والمشاجرات بين الناس، والتجاحد للحقوق. فهو خير ومصلحته عظيمة.

وكذلك على الصحيح عن الدين المؤجل ببعضه حالاً. فهذه وأشباهها من الصلح الجائز.

ومثال الصلح الذي لا يجوز: كأن يصالح من يقر له أنه عبده، أو أنها زوجته وهو كاذب، أو يصالح صاحب الحق الذي يجهل مقداره، والمدين عالم به. فيصالحه على ما يجحف بصاحب الحق، وكل صلح أدخل في محرم فحكمه كذلك.

والأصل الآخر: الشروط التي يشترطها المتعاقدان أو أحدهما على الآخر. فهي جائزة لما فيها من مصلحة المشترط وخلوها من المحذور الشرعي كأن يبيع شيئاً، ويشترط الانتفاع به مدة معلومة، أو يشترط تأجيل الثمن أو بعضه أو صفة مقصودة في المبيع، أو وثيقة. كرهن وضمان ونحو ذلك من الشروط التي لا محذور فيها، وفيها مصلحة للمشترط.

ومثال الشروط التي لا تصحّ: كأن يبيع العبد ويشترط أن الولاء للبائع، أو يشترط أن لا تتصرف فيه مما يخالف مقصود العقد.

ومن الشروط الجائزة: شروط الواقفين في أوقافهم إذا لم تخالف الشرع ويجب العمل بها. وكذلك الشروط بين الزوجين كأن تشترط المرأة على زوجها أن لا يخرجها من دارها أو بلدها أو لا يتزوج عليها، ولا يتسرى، أو زيادة مهر أو نفقة، فيجب الوفاء بها. فإن لم يقر بها فلها فسخ النكاح،

ومن الشروط الفاسدة: نكاح المتعة ونكاح التحليل ولا يفيد الحل لمطلقها الأول ثلاثاً.

## القاعدة الرابعة والعشرون

### من سبق إلى المباحات. فهو أحق بها من غيره

المراد بالمباحات هنا: ما ليس له مالك، ولا هو من الاختصاصات لقوله ﷺ: (من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم. فهو أحق به).

فيدخل في هذا السبق إلى إحياء الأرض الموات، فإذا أحياها بحفر بئر وصل إلى مائها أو أجرى ماء إليها أو منع ما لا تزرع الأرض مع وجوده: كمنافع المياه، وككثرة الأحجار إذا نقاها منها، أو يبني عليها بنياناً. فبذلك يملكها. ولو كان النهر المباح، أو الوادي يسقي حروثاً يمر عليها قدم الأعلى فالأعلى، لأنه أسبق.

وأما المياه المملوكة: فإنها على حسب الأملاك.

ومن فروع هذا الأصل: السبق إلى صيد البر أو البحر، أو إلى حطب أو حشيش، أو نحوها من المباحات. فمن سبق إلى شيء منها: فهو أحق به، ولا يملكه إلا بحيازته لا بمجرد رؤيته. ويدخل فيه السبق إلى المساجد، أو الجلوس في الأسواق، أو البيوت المسبلة، إذا لم تتوقف على ناظر يقرر فيها.

# القاعدة الخامسة والعشرون

## تستعمل القرعة عند التزاحم ولا مميز لأحدهما، أو إذا علمنا أن الشيء لأحدهما وجهلناه

وقد ثبتت القرعة عند الاشتباه في الكتاب والسنة، قال تعالى:

﴿فَسَاهَمَ فكان مِنَ المُدْحَضِين﴾ [سورة الصّافّات: الآية ١٤١]

وقال: ﴿وما كنتَ لَدَيْهِم إِذْ يُلْقُونَ أقلامَهم﴾

[سورة آل عمران: الآية ٤٤]

وقد أقرع النبي ﷺ عدة مرات. فإذا جهل المستحق أو تزاحم عدد على من يقدم، ولا يمكن اجتماعهم فيه ولا مميز لأحدهما: أقرع بينهم فمن خرجت له القرعة استحق. فمتى تشاحَّ اثنان في إمامة، أو أذان، أو سبق إلى مباح، أو إلى جلوس بمسجد، أو سوق، أو رباط، أو نحوها، ولم يكن لأحدهما مرجح أقرع، فمن خرجت له القرعة قدم.

وكذلك لو بذل لأولاهم به ثوب أو ماء أو غيره، ولم يتميز الأول رجحت القرعة.

ومنها: إذا تداعيا عيناً ليست بيد أحدهما، ولا بيد من يدعيها لنفسه أقرع.

ومنها: إذا طلق إحدى زوجاته، أو أعتق أحد عبيده، وجهل من وقع عليها الطلاق أو العتق أقرع.

ومنها: الأولياء المستحقون للولاية إذا تساووا وتشاحُّوا أيهم يقدم أقرع بينهم.

وأما إذا علم اشتراكهم في الأعياد أو الديون، وأرادوا القرعة لمن يكون له الشيء. فإن هذا من الميسر.

## القاعدة السادسة والعشرون

### يقبل قول الأمناء في التصرفات أو التلف ما لم يخالف العادة

هذه قاعدة نافعة تحل الاختلافات الواقعة بين الأمناء، والملاك في متعلقات الأمانة التي تحت أيديهم وتصرفهم. فإذا اختلفوا في تصرف أو صفة ذلك التصرف، أو تلف: فالقول قول الأمناء، لأن أرباب الأموال ائتمنوهم ونزلوهم منزلة أنفسهم. ومقتضى هذا الائتمان قبول قولهم إلا إذا ادعى الأمين دعوى تخالف الحس والعادة فيرد قوله.

## القاعدة السابعة والعشرون

### من ترك المأمور لم يبرأ إلا بفعله، ومن فعل المحظور وهو معذور بجهل أو نسيان فهو معذور لا يلزمه شيء

وهذا الفرق ثابت بالسنة الصحيحة في صور عديدة، والصحيح طرده في جميع صوره، كما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

فمن ذلك: من صلى وهو محدث، أو تارك لركن، أو شرط من شروط الصلاة لغير عذر. فعليه الإعادة، ولو أنه جاهل أو ناسٍ، ومن نسي النجاسة في بدنه، أو ثوبه أو جهلها فلا إعادة عليه، لأن الأول: من ترك المأمور. والثاني: من فعل المحظور. ومن ترك نية الصيام لم يصح صومه، ومن فعل مفطراً ناسياً أو جاهلاً صح صومه. ومن ترك شيئاً من واجبات الحج جهلاً أو نسياناً. فعليه دم. ومن غطى رأسه ـ وهو رجل محرم ـ أو لبس المخيط، أو تطيب المحرم، أو قلم أظفاره أو حلق شعره ـ وهو جاهل أو ناس ـ فلا شيء عليه. وفي بعض هذا خلاف ضعيف.

## القاعدة الثامنة والعشرون

### يقوم البدل مقام المبدل إذا تعذر المبدل منه

قال الله تعالى بعد ما أوجب الطهارة بالماء:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صعيدًا طيِّبًا﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣]

فأقام التيمم عند تعذر طهارة الماء مقام طهارة الماء. فتقوم مقام طهارة الماء في كل شيء. ولا يستثنى شيء منها على الصحيح.

ومنها: إذا أبدلت الأضحية، أو الهدي، أو الوقف بغيره. قام هذا مقام الأصل.

## القاعدة التاسعة والعشرون

### يجب تقييد اللفظ بملحقاته من وصف، أو شرط أو استثناء، أو غيرها من القيود

وهذا الأصل واضح معلوم من لغة العرب وغيرها، ومن العرف الجاري بين الناس، لأنه لو لم يعتبر ما قيد به الكلام لفسدت المخاطبات، وتغيرت الأحكام. وهذا مطرد في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام جميع الناطقين. فكما أننا نعتبر هذه القيود في الكتاب والسنة. كذلك نعتبره في كلام الناس ونحكم عليهم بما نطقوا به من إطلاق أو تقييد. ويدخل في هذا الأصل من الأحكام ما لا يعدّ ولا يحصى من ألفاظ المتعاقدين، وصفة العقود، ومن شروط الموقفين والموصين ومن القيود والاستثناءات في كلام المطلقين والمعتقين، ومن القيود في كلام الحالفين والمعترفين بحق من الحقوق على الصفة التي أقروا بها. وكما أننا نعتبر القيود اللفظية. فكذلك نعتبر القرائن. ومقتضى الأحوال. وما يحتقر بالكلام من الأسباب المهيجة والغايات المقصودة. والله أعلم.

# القاعدة الثلاثون

## الشركاء في الأملاك يشتركون في زيادتها ونقصانها ويشتركون في التعمير اللازم وتقسط عليهم المصاريف بحسب ملكهم ومع الجهل بمقدار ما لكل منهم يتساوون.

ويدخل في هذا شيء كثير. فإذا احتاجت الدار المشتركة إلى تعمير وامتنع أحد الشركاء ألزم بذلك، مع أنه لو كان وحده لم يجبر، لأن الشيء إذا تعلق به حق الغير، وجب فيه ما لا يجب في الشيء الذي ليس لأحد فيه شيء. وكذلك عليهم أن يقوموا بمؤنة المماليك من البهائم، والآدميين، ونفقاتهم على قدر أملاكهم، وكذلك لو احتاج النهر، أو البئر، أو الأرض إلى تعمير عمروها جميعاً على قدر ملكهم، ولا فرق بين الأملاك الحرة والأوقاف. وكذلك يلزم الجار مباناة جاره إذا اشتركا في الحاجة، ويلزم الأعلى منهم سترة تمنعه من مشارفة جاره الأسفل، لأن الضرر مدفوع شرعاً. وكذلك إذا زادت الأملاك المشتركة بذاتها، أو أوصافها، أو نمائها المتصل، أو المفصل أو مكسبها، أو نقصت. فالشركاء مشتركون في الزيادة والنقص. ومن ذلك المحجوز عليه لحق الغرماء إذا لم تفسر موجوداته بحقوقهم وزعت عليهم على قدر ديونهم.

وكذلك العول في الفرائض تنقص به الفروض كلها كلٌّ بحسبه والرد تزيد به الفروض كلها. وإذا علم مقدار ما لكل من المشتركين فذاك وإلا فإنه يحكم بينهم بالتساوي. والله أعلم.

# القاعدة الحادية والثلاثون

## قد تتبعض الأحكام بحسب تفاوت أسبابها

وهذه قاعدة لطيفة تستدعي معرفة مآخذ المسائل ومعرفة عللها وحكمها. فتترتب آثارها عليها بحسب ذلك. ولهذا عدة أمثلة.

منها: في الشهادات إذا شهد رجل وامرأتان، أو رجل عدل وحلف معه صاحب الحق ثبت المال لتمام نصابه، دون القطع في السرقة، لأنه لا يثبت إلا برجلين. وكذلك إذا أقر بالسرقة مرة واحدة ثبت المال دون القطع، لأنه لا بد فيه من إقرار مرتين. ومن ذلك دعوى الخلع إذا ادعاه الزوج وأتى بشاهد، وحلف معه، أو رجل أو امرأتين ثبت لأنه يدعي العوض وتبين منه باعترافه، وإن ادعته المرأة بذلك لم يثبت، لأن الخلع نصابه رجلان عدلان.

ومنها: قال العلماء: الولد يتبع أباه في النسب، ويتبع أمه في الحرية أو الرق، ويتبع في الدين خير الأبوين، ويتبع في النجاسة وتحريم الأكل أخبثهما، فالبغل يتبع الحمار في النجاسة وتحريم الأكل، ولا يتبع الفرس والسبع والغبار يتولدان من بين الذئب، والضباع يتبع الذئب في النجاسة وتحريم الأكل.

ومنها: مسائل تفريق الصفقة في البيوع والإجارات، والشركات، والتبرعات وغيرها إذا جمع العقد بين مباح ومحرم، أو بين ما يملك عليه العقد وما لا يملك صح في المباح، وما يملك العقد عليه لملك أو ولاية وبطل ولغي في الآخر.

ومنها: شهادة الفروع والأصول بعضهم لبعض لا تقبل ولو كانوا في صفة العدالة لمكان التهمة، وإن شهدوا عليهم قبلت وعكس ذلك: شهادة العدو على عدوه لا تقبل وله تقبل.

## القاعدة الثانية والثلاثون

### من أدى عن غيره واجباً بنية الرجوع عليه رجع وإلا فلا

قال الله تعالى: ﴿فإنْ أَرْضَعْنَ لكمْ فآتوهُنَّ أُجورَهُنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٦]

لأن أجرة الرضاع على الأب. فإذا أرضعت الأم الطفل له فقد قامت عنه بواجب فترجع بالأجرة على الأب. ومثل ذلك: من أنفق على زوجته غيره أو أولاده النفقة الواجبة، أو على من تجب عليه نفقتهم من المماليك والبهائم، ونوى الرجوع رجع، وخصوصاً إذا كانت العين بيده كالمرتهن والأجير ونحوهم. وكذلك من أدى عن غيره ديناً ثابتاً عليه لغريمه، فله الرجوع إذا نوى الرجوع. فإن نوى في هذه المسائل التبرع، أو لم ينو الرجوع لم يرجع، لأنه لم يوكله ولم يأذن له. وهذه المسائل في الديون التي لا تحتاج إلى نية فأما ما يحتاج إلى نية كالزكاة والكفارة والنذر، وغيرها فمن أداها عن غيره لم يرجع، لأن الأداء لا يفيد لأن الذي عليه الزكاة ونحوها لم يوكل الدافع.

## القاعدة الثالثة والثلاثون

### إذا تزاحمت المصالح قدم الأعلى منها. فيقدم الواجب على المستحب، والراجح من الأمرين على المرجوح، وإذا تزاحمت المفاسد واضطر إلى واحد منها، قدم الأخف منها.

وهذان أصلان عظيمان. قال الله تعالى:

﴿إنّ هذا القرآنَ يهدِي للتي هي أقومُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

أي: أصلح وأحسن. وقال:

﴿واتَّبِعُوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكم من ربكم﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٥]

وقال: ﴿الذين يستمعون القول فيتَّبِعُون أحسنه﴾

[سورة الزمر: الآية ١٨]

فالواجب أحسن من المستحب، وأحد الواجبين أو المستحبين أرجح مما دونه وأحسن. وقصة الخضر في خرقه للسفينة، وقتله الغلام تدل على الأصل الآخر. وذلك أن الحال دائرة بين قتله للغلام، وهو مفسدة وبين إرهاقه لأبويه الكفر وإفساده لدينهما، وهي مفسدة أعظم. فارتكب الأخف.

وكذلك خرقه للسفينة مفسدة، وذهاب السفينة كلها غصباً من الملك الذي أمامهم مفسدة أكبر. فارتكب الأخف منهما. فيدخل في هذين الأصلين من مسائل الأحكام ما لا يحد. فإذا دار الأمر بين فعل الواجب، أو المسنون، وجب تقديم الواجب في الصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، والعمرة، وغيرها.

وكذلك يجب تقديم من تجب نفقته على من تستحب، وعلى الصدقة المستحبة. ويجب تقديم من تجب طاعته على من تستحب. وأمثلة تقديم الواجب على المستحب كثيرة جداً. ومن أمثلة تقديم أعلى الواجبين طاعة المرأة لزوجها، مقدمة على طاعة الأبوين.

ويقدم العبد طاعة الله على طاعة كل أحد. ولهذا لا يطيع والديه في منعهما له من الحج الواجب، والعمرة الواجبة، والجهاد المتعين، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ويقدم السنن الراتبة على السنن المطلقة والعبادات المتعدية على العبادات القاصرة، ويقدم نفل العلم على نفل الصلاة والصيام والصدقة على القريب صدقة وصلة. ومن أمثلة الأصل الثاني: من اضطر إلى أكل المحرم، ووجد شاة ميتة وصيداً، وهو محرم قدم الصيد على الصحيح. ويقدم ميتة الشاة على الكلب.

ومن اضطر إلى وطء إحدى زوجتيه الصائمة والحائض وطىء الصائمة، لأنها أخف، ولأن الفطر يجوز بضرورة الغير. كفطر الحامل، والمرضع إذا خافتا على الولد، ويقدم ما فيه شبهة على الحرام الخالص. هذا كله: إذا ابتلي العبد بذلك، والمعافى من عافاه الله.

ومن أمثلة القسم الأول: إذا ضاق الوقت للصلاة. أو أقيمت تعينت المكتوبة. ومن عليه قضاء رمضان لم يكن له أن يصوم نفلاً.

## القاعدة الرابعة والثلاثون

**إذا خير العبد بين شيئين فأكثر. فإن كان التخيير لمصلحته فهو تخيير يرجع إلى شهوته واختياره، وإن كان لمصلحة الغير فهو تخيير يلزمه فيه الاجتهاد في الأصلح**

مثال الأول: التخيير في كفارة اليمين بين العتق وإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، وفي فدية الأذى بين الذبح، أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام. وفي جزاء الصيد بين ذبح المثل من النعم، أو تقويمه بطعام يطعمه للمساكين، أو يصوم عن كل مدّ من ذلك المقوم يوماً. فهو في هذه المسائل التخيير راجع لإرادته، ومثله الدية يخير المخرج بين مائة من الإبل، أو مائتين من البقر، أو ألفي شاة، أو ألف دينار أو اثني عشر ألف درهم. فالمخير هو الدافع. وعلى القول بأن الإبل هي الأصل تخرج عن هذا الأصل.

ومثال الثاني: تخيير الملتقط للحيوان في حول التعريف بين حفظه والإنفاق عليه، ليرجع على صاحبه إذا وجده، وبين بيعه، وحفظ ثمنه، وبين أكله بعد أن يقومه على نفسه، ويلزمه فعل الأصلح.

وكذلك يخير الإمام في الأسير الحربي بين قتله ورقه، وأخذ فدائه، والمنة عليه، ويلزمه الأصلح.

ومن ذلك تصرفات ولي اليتيم، وناظر الوقف، والوصي ونحوهم إذا تعارضت التصرفات. لزمه أحسن ما يراه، قال تعالى:

**﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن﴾**

[سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

## القاعدة الخامسة والثلاثون

### من سقطت عنه العقوبة لموجب ضوعف عليه الضمان

وذلك إذا كان فعله سبباً ناهضاً لوجوب العقوبة عليه، ولكن سقطت عنه العقوبة لسبب من الأسباب. فإنه يضاعف عليه ضمان الشيء.

فمن ذلك من سرق تمراً أو ماشية من غير حرز سقط عنه القطع. ولكنه يضمن المسروق بقيمته مرتين.

ومن ذلك إذا قتل المسلم الذمي عمداً لم يقتص منه، لعدم المكافأة في الإسلام، ولكن تضاعف عليه الدية.

ومنها: إذا قلع الأعور عين الصحيح المماثلة لعينه الصحيحة عمداً لم يقتص من الأعور، لأنه يذهب بصره كله. ولكن تضاعف عليه دية العين. فيلزمه دية نفس كاملة.

## القاعدة السادسة والثلاثون

### من أتلف شيئاً لينتفع به ضمنه، وإن كان لمضرته له فلا ضمان

فمن ذلك: إذا صالت عليه بهيمة غيره، فدفعها عن نفسه فأتلفها لم يضمنها، وإن اضطر إلى أكلها فذبحها لذلك ضمنها، لأنه لنفعه.

ومن كان محرماً بحج أو عمرة، فانقلع ظفره، أو نزل الشعر في عينه فأزاله فلا فدية عليه.

فإن أصابه مرض احتاج معه إلى إزالة شعره، فعليه فدية أذى لإزالة الشعر.

## القاعدة السابعة والثلاثون

**إذا اختلف المتعاملان في شيء من متعلقات المعاملة يرجح أقواهما دليلاً**

والترجيحات كثيرة الرجوع إلى الأصول. فمن معه أصل قدم على الآخر، وكثرة القرائن المرجحة. ولذلك قال العلماء: إذا اختلف المتعاملان في شرط أو أجل أو صفة زائدة: فالقول قول من ينفي ذلك، لأن الأصل عدمه. وإذا اختلفا هل العيب حادث بعد الشراء؟ فالقول قول البائع. وإذا اختلف الزوجان في الشروط التي يدعي أحدهما أنه شرطها، وينفيها الآخر: فالقول قول النافي. فإن تساوى المتعاملان في الترجيح، أو عدمه ترادا المعاملة إلا أن يرضى أحدهما بقول الآخر.

## القاعدة الثامنة والثلاثون

**إذا عاد التحريم إلى نفس العبادة، أو إلى شرطها فسدت، وإذا عاد إلى أمر خارج لم تفسد. وكذلك المعاوضة**

وهذا هو الفرقان بين العبادات التي تفسد والتي لا تفسد إذا اشتملت على أمر محرم أنه إن عاد التحريم إلى ذاتها، أو شرطها فسدت. فإنه يعود على موضوعها بالإبطال، وإن عاد إلى أمر خارج حرم على الإنسان ذلك الفعل ولم تبطل العبادة، وإنما ينقص ثوابها. مثال ما عاد إلى نفسها وشرطها: لو توضأ بماء محرم. كمغصوب، أو صلى في ثوب محرم عالماً ذاكراً بطلت طهارته وصلاته، أي: لم تنعقد، وإن كان الماء مباحاً. ولكن الإناء مغصوب حرم ذلك الفعل وصحت طهارته. وكذلك لو صلى وعليه عمامة حرير وهو رجل أو خاتم ذهب: حرم عليه الفعل، والصلاة صحيحة، لأنه عاد إلى أمر خارج، والصائم إذا تناول شيئاً من المفطرات فسد صومه. فإن فعل شيئاً من المحرمات في حق الصائم وغيره. كالغيبة، والنميمة، والفعل المحرم. صح صومه مع الإثم.

ومثال المعاملات: إذا باع ما لا يملك أو بغير رضى معتبر أو بيع ربا أو غرر ونحو ذلك فسد البيع، لأنه متعلق بذاته وشرطه، وإن تلقى الجلب، أو دلس، أو باع بنجس أو معيباً يعلمه وغش فيه المشتري فالفعل محرم والعقد صحيح، وللآخر الخيار.

## القاعدة التاسعة والثلاثون

### لا يجوز تقديم العبادة على سبب الوجوب ويجوز تقديمها بعد وجود السبب وقبل شرط الوجوب وتحققه

وذلك أن الله جعل للعبادات أوقاتاً تجب بوجودها وتكرر بتكرارها. كأوقات الصلوات الخمس، ورمضان، وأوقات الحج. فلو فعلت هذه قبل دخول وقتها لم تصح. ومن حلف جاز له أن يقدم الكفارة قبل الحنث، ولا يجوز تقديمها قبل الحلف، وكذلك النذر.

## القاعدة الأربعون

### يجب فعل المأمور به كله. فإن قدر على بعضه وعجز عن باقيه فعل ما قدر عليه

قال الله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]
وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم) فيصلي من قدر على بعض أركان الصلاة وشروطها وعجز عن باقيها فيفعل ما يقدر عليه منها، ويسقط عنه ما يعجز عنه. وأمثلة هذا الأصل كثيرة جداً.

## القاعدة الحادية والأربعون

### إذا اجتمعت عبادتان من جنس واحد تداخلت أفعالهما واكتفي عنهما بفعل واحد إذا كان المقصود واحداً

وهذا من نعمة الله وتيسيره، أن العمل الواحد يقوم مقام أعمال. فمن دخل المسجد وقت حضور الراتبة فصلى ركعتين ينوي بهما الراتبة وتحية المسجد حصل له فضلهما. وكذلك لو اجتمعت معهما أو مع أحدهما سنة الوضوء أو صلاة الاستخارة أو غيرها من ذوات الأسباب.

ومن حلف عدة أيمان على شيء واحد وحنث فيه عدة مرات قبل التكفير. أجزأه كفارة واحدة عن الجميع. فإن كان الحلف على شيئين فأكثر وحنث في الجميع. فكذلك على المشهور من المذهب. واختار الشيخ تقي الدين في هذه المسألة الأخيرة أن الكفارة تتعدد بتعدد المحلوف عليه. وأما إذا كانت الكفارات متباينة مقاصدها، ككفَّارة ظهارة، ويمين بالله، أو للوطء في نهار رمضان وجب عليه كفارات لكل واحدة منها إذا حنث. والله أعلم.

## القاعدة الثانية والأربعون

### استثناء المنافع المعلومة في العين المنتقلة بمعاوضة جائز وفي التبرعات يجوز استثناء المدة المعلومة والمجهولة

والفرق بين البابين: أن المعاوضات يشترط فيها تحرير المبيع، والعلم به وبمنافعه، وصفاته من كل وجه، وباب التبرعات أوسع منه، لا يشترط فيه التحرير، لأنه ينتقل إلى المتبرع إليه مجاناً فلا يضر جهالة بعض المنافع.

مثال الأول: من باع داراً أو دكاناً، واستثنى سكناها مدة معلومة، أو باع بهيمة، واستثنى ظهرها إلى محل معين، أو باع سلاحاً، أو آنية، واستثنى

الانتفاع بها مدة معلومة، أو باع كتاباً وشرط أن ينتفع به مدة معلومة. فكل ذلك جائز. فإن كانت مجهولة لم يجز لما فيه من الغرر.

ومثال الثاني: لو وقف عقاراً واستثنى الانتفاع به مدة معلومة، أو مدة حياته، أو أعتق رقيقاً واستثنى خدمته له أو لغيره مدة معلومة، أو مدة حياته، فهو جائز. مع أن مدة الحياة مجهولة.

## القاعدة الثالثة والأربعون

### من قبض العين لحظ نفسه لم يقبل قوله في الرد إلا ببينة. فإن قبضها لحظ مالكها قبل

وذلك لأنه إذا قبضها لحظ مالكها. فهو محسن محض. وما على المحسنين من سبيل، ولكن يقيد ذلك: إذا ادعى رده للذي ائتمنه.

فالمودع، والوكيل، والوصي، وناظر الوقف، وولي اليتيم إذا كان ذلك منهم بغير عوض إذا ادعوا الرد قبل قولهم.

وأما من قبض العين لحظ نفسه. كالمرتهن والأجير، ومنهم المذكورون إذا كانوا بعوض، لأنهم يكونون أجراء، فإذا ادعى أحد من هؤلاء الرد لم يقبل قوله إلا ببينة، لأنه يدعى خلاف الأصل.

## القاعدة الرابعة والأربعون

### إذا أدى ما عليه وجب له ما جعل له عليه

وهذا شامل للأعمال والأعواض. فالأجير على عمل، والمجاعل عليه إذا عمل ذلك العمل وكمله، استحق الأجرة المسماة، والجعل المسمى. فإن لم يقم بما عليه لم يستحق في الجعالة شيئاً، لأن الجعالة عقد جائز. وقد جعل الجعل لمن يكمل له هذا العمل. فمتى لم يكمله لم يستحق شيئاً.

وأما الإجارة: فإن ترك بقية العمل لغير عذر. فكذلك لا يستحق شيئاً، وإن كان لعذر وجب من الأجرة بقدر ما عمله. وكذلك لو تلفت العين المؤجرة المعينة.

ومن فروع هذا الأصل: لو شرط استحقاق وصية، أو وقف، أو نحوها لمن يقوم بعمل من الأعمال، من إمامة، أو أذان، أو تدريس، أو تصرف، أو عمل من الأعمال. فمتى عمل ذلك استحق ما جعل له عليه.

## القاعدة الخامسة والأربعون

### من لا يعتبر رضاه في عقد، أو فسخ لا يعتبر عمله

ويدخل تحت هذا من له خيار شرط، أو عيب، أو غبن، أو تدليس، أو غيرها. فله الفسخ رضي الآخر أو لم يرض علم أو لم يعلم.

وكذلك من له حق شفعة فله أن يأخذ بها رضي المشتري وعلم أو لا.

وكذلك من طلق زوجته، أو راجعها لا يعتبر علمها كما لا يعتبر رضاها.

وكذلك العتيق والموقوف عليه. والله أعلم.

## القاعدة السادسة والأربعون

### من له الحق على الغير، وكان سبب الحق ظاهراً: فله الأخذ من ماله بقدر حقه إذا امتنع، أو تعذر استئذانه. وإن كان السبب خفياً، فليس له ذلك

للأول أمثلة، منها: إذا امتنع الزوج من النفقة الواجبة على زوجته فلها الأخذ من ماله بمقدار نفقتها، ونفقة أولادها الصغار. وكذلك من وجبت عليه نفقة قريبة. وكذلك الضيف إذا امتنع من نزل به من قراه. فله الأخذ من ماله، بمقدار حقه، لأن أخذهم في هذه الأحوال لا ينسب إلى خيانة، وإنما يعزى إلى ذلك السبب الظاهر.

ومثال الثاني: من له دين على آخر من قرض، أو ثمن مبيع، أو قيمة متلف أو غيرها من الحقوق التي تخفى. فهذا إذا امتنع المطلوب من الوفاء. فليس لصاحب الحق الأخذ من ماله بغير إذنه، لأنه وإن كان له حق. لكنه في هذه الحال ينسب إلى خيانة. وفيه أيضاً: سد لباب الشر والفساد كما هو معروف لحديث (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك) وهذا القول المتوسط بين قول من أجاز ذلك مطلقاً، ومن منع مطلقاً هو مذهب الإمام أحمد، وهو أصح الأقوال، وهو الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة الموافق لأصول الشريعة وحكمها.

## القاعدة السابعة والأربعون

### الواجب بالنذر يلحق بالواجب بالشرع

لأن قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (من نذر أن يطيع الله فليطعه) يدل على أن مجرى النذر مجرى ما وجب على العبد بدون إيجاب على نفسه. فإذا نذر صلاة، وأطلق فأقلها ركعتان، ويلزمه أن يصليها قائماً كالفرض.

ومن نذر صياماً لزمه أن يبيت النية من الليل. كصيام الفرض. لأن نفل الصيام يصح بنية من النهار. ومن نذر صلاة وأطلقها. لم يصلها في جوف الكعبة عند المانعين للفرض فيها، ومن عليه صوم نذر لم يكن له أن يتنفل بالصيام قبل أداء نذره.

## القاعدة الثامنة والأربعون

### الفعل الواحد ينبني بعضه على بعض مع الاتصال المعتاد

وذلك أن الانقطاع اليسير عرفاً بين مفردات الفعل الواحد لا يضر، ولا يقطع اتصاله.

مثال ذلك: إذا اعتبرنا تطهير الماء النجس بإضافة الماء الكثير إليه لا يشترط أن يصب عليه دفعة واحدة، بل إذا صب عليه شيئاً فشيئاً حصل المقصود. ولكن الصحيح أن الماء إذا تنجس بالتغير يطهر بزوال التغير بأي حالة تكون.

ومنها: إذا ترك شيئاً من صلاته فسلم قبل إتمامها، ثم ذكر ولم يطل الفصل أتى بما تركه وسجد للسهو، ولو طال الفصل عرفاً أعادها كلها.

ومنها: يشترط في الوضوء الموالاة. فإن غسل بعض أعضائه، ثم انفصل غسل الباقي عن الأول بفصل قصير لم يضر، وإلا طال الفصل بين أبعاض الوضوء أعاده كله.

وهكذا كل فعل تعتبر له الموالاة. وكذلك كل قول يعتبر اتصال بعضه ببعض. فإذا ألحق بكلامه استثناء أو شرطاً أو وصفاً. فإن طال الفصل عرفاً لم ينفعه ذلك الإلحاق. وإن اتصل لفظاً أو حكماً. كانقطاعه بعطاس وشبهه لم يضر.

وهكذا الفصل بين إيجاب العقود وقبولها لا يضر الفصبل المعتاد. فإن زاد على المعتاد أو استغل المتعاقدان بغيره بعد الإيجاب وقبل القبول: فلا بد من إعادة الإيجاب في الذي يشترط له ذلك. والله أعلم.

## القاعدة التاسعة والأربعون

### الحوائج الأصلية للإنسان لا تعد مالاً فاضلاً

وذلك أن الذي تعلقت به حاجة الإنسان في حكم المستهلك مثلاً البيت الذي يحتاجه للسكنى والخادم، والذي يحتاجه لركوبه وأثاث بيته وأوانيه وفرشه ولباسه المحتاج إليه. كل ذلك ليس بمال فاضل يمنع صاحبه أخذ الزكاة إذا كان فقيراً ونحوه. وكذلك لا زكاة فيه. ولا يلزمه بيع شيء من ذلك ليحج فرضه، لأن الاستطاعة تعتبر فيما زاد عن الحوائج الأصلية. وكذلك لا يجب عليه فيه نفقة قريبه المحتاج، لأن هذه الأشياء بمنزلة قوته الضروري. والله أعلم.

## القاعدة الخمسون

### يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً

وذلك أن المسائل والصور التابعة لغيرها يشملها حكم متبوعها. فلا تفرد بحكم فلو أفردت بحكم لثبت لها حكم آخر. وهذا هو الموجب لكون كثير من التوابع تخالف غيرها. فيقال فيها: إنها ثابتة على وجه التبع. ولهذا أمثلة كثيرة.

منها: كثير من أفعال الصلاة وترتيبها لو فعلها المصلي وحده أبطلت الصلاة. فإذا كان مع الإمام وجب عليه متابعة إمامه وسقط وجوب المذكورات لأجل المتابعة. كالمسبوق بركعة في رباعية محل تشهده الأول بعد ما يصلي ركعتين، لكنه سيقوم مع إمامه في ذلك الموضع. كما أنه يتشهد التشهد الأول مع إمامه بعد ما يصلي واحدة. ولو سها إمامه لزم المأموم متابعته في سجود السهو، ولو لم يسه المأموم. لكن وجب عليه تبعاً لإمامه.

ومنها: إذا بدا صلاح الثمر جاز بيع الجميع. وكان الذي لم يبد

صلاحه تابعاً لما بـدا صلاحه. وكذلك لا يجوز بيـع المجهولات التي لم توصف ولم يرها المشتري، لكنها إذا كانت تابعة لغيرها جاز ذلك. كأساسات الحيطان إذا بيعت الدار تدخل تبعاً لبيـع الدار المعلومة.

ومنها: إجبار الشريك مـع شريكه على العمارة في الأشياء المشتركة، مـع أن لو كان وحده لم يجبر على التعمير. وكذلك إجباره على البيـع إذا طلبه الشريك فيما تضر قسيمته. ومن ذلك نقبل قولة المرأة الثقة في الرضاع، ويترتب على ذلك انفساخ النكاح، مـع أن المرأة لا يقبل قولها في الطلاق. لكنه جاء تبعاً لقبول قولها في الرضاع. وأمثلته كثيرة.

## القاعدة الحادية والخمسون

### الأسباب والدواعي للعقود والتبرعات معتبرة

يعني: إذا عقد العاقد عقداً، أو تبرع بشيء وهنا داع وحامل حمله على ذلك اعتبرنا ذلك الذي حمله، لأن الأعمال بالنيات، والأمور بمقاصدها.

فمن ذلك: عقود المكره بغير حق وتبرعاته لا تنعقد.

ومن ذلك: الحيل التي يتحيل بها على المحرمات فنعتبر القصد ولا ننظر إلى صورة العقد.

ومن ذلك: هدايا العمال. فإنها لا تحل لهم، لأن السبب معروف. ولهذا قال ﷺ في قضية ابن اللتبية الذي أرسله عاملاً على الصدقة وحصل له من الناس هدايا. فقال ﷺ منكراً عليه (هلا جلس في بيته فينظر أيهدى إليه أم لا؟) فاعتبر السبب الحامل لهم على الإهداء، ومن أهدي إليه خوفاً أو حياء وجب عليه الرد.

وكذلك لا يقبل المقرض من المقترض هدية قبل الوفاء إلا أن يحتسبها

من دينه أو يكافئه عنها، لأن الحامل له على ذلك القرض، وكل قرض جر منفعة فهو ربا.

ومن هذا عقود الأيمان يعتبر فيها نية الحالف. فإن تعذر ذلك نظرنا إلى السبب الذي هيـج اليمين فربطناها به. ومثله الحلف بطـلاق زوجته ينظر إلى السبب الذي حمله على ذلك.

ومن هذا إقرارات الناس ينظر فيها إلى الحامل لهم وإلى ما اقترن بذلك من الأحوال لا إلى مجرد اللفظ، والأمثلة كثيرة.

## القاعدة الثانية والخمسون

### إذا قويت القرائن قدمت على الأصل

وهذا أصل نافـع، وهو أن القرائن التي تحتف بالأحكام قد تقوى فتقدم على الأصل ولهذا أمثلة.

منها: تقديم غلبة الظن عند تعذر اليقين، أو مشقة الوصول إليه مثل قولهم ويكفي الظن في الإسباغ في إزالة النجاسة، وفي طهارة الأحداث كلها. ومثل تقديم العادة في حق المستحاضة ومثل البناء في الصلاة على غلبة الظن، وهو قول قوي في الصلاة والطواف والسعي وغيرها.

ومن ذلك إذا ادعت المرأة على زوجها أنه لم ينفق عليها وهي في بيته، والعادة جارية أن الزوج هو الذي يتولى النفقة على أهله قدم قوله على قولها وهو الصواب. ومن ذلك تقديم من له قرينة قوية أن المال له على صاحب اليد، وأشباه ذلك.

ومنها: إذا تنازع الزوجان في متاع البيت، فما يصلـح للرجل فهو للرجل، وما يصلـح للنساء فهو للمرأة تقديماً لهذا الظاهر والقرينة على غيرها.

## القاعدة الثالثة والخمسون

### إذا تبين فساد العقد بطل ما بني عليه وإن فسخ فسخاً اختيارياً لم تبطل العقود الطارئة قبل الفسخ

وهذا ضابط وفرق لطيف. فمن اشترى شيئاً، أو استأجره أو اتهبه ونحوه، ثم تصرف فيه وبعد تصرفه بان العقد الأول باطلاً بطل ما بني عليه من التصرف الأخير، لأنه تصرف في شيء لا يملكه شرعاً ــ وأما لو تصرف فيه، ثم فسخ العقد الأول بخيار أو تقايل أو غيرها من الأسباب الاختيارية، فإن العقد الثاني صحيح، لأنه تصرف فيما يملكه من غير مانع. وحينئذ يتراجع مع العاقد الأول إلى ضمان المثلي بمثله، والمتقوم بقيمته. ومثله إذا باعه شيئاً ووثقه برهن، أو ضمين، أو أحاله بالثمن، ثم بان البيع باطلاً بطلت التوثقة والحوالة لأنها مبنية عليه. فإن فسخ الأول فسخاً. وقد أحاله بدينه فالحوالة بحالها. وله أن يحيله على من أحاله عليه. والله أعلم.

## القاعدة الرابعة والخمسون

### العبرة في المعاملات بما في نفس الأمر

ويدخل في هذا إذا تصرف في شيء يظنه يملك التصرف فيه بملك أو توكيل ونحوه، ثم بعد التصرف تبين أنه لا يملك ذلك التصرف، لم ينعقد العقد، وإن كان الأمر بالعكس بأن ظن أنه لا يملك التصرف، ثم بان أنه يملكه صح التصرف، لأن المعاملات المغلب فيها ما يظهر من التصرفات بخلاف العبادات.

## القاعدة الخامسة والخمسون

### لا عذر لمن أقر

وذلك أن الإقرار أقوى البينات وكل بينة غيره فإنه يحتمل خطؤها. وأما إذا أقر المكلف الرشيد على نفسه بمال، أو حق من الحقوق. ترتب على إقراره مقتضاه حتى ولو قال: كذبت أو نسيت أو غلطت. لأنه ثبت عنه ﷺ أنه قال (إنما أقضي بنحو مما أسمع) ومسائل الإقرار الكثيرة ترجع إلى هذا الأصل.

## القاعدة السادسة والخمسون

### يقوم الوارث مقام مورثه في كل شيء

لأنه لما مات الميت وانتقل ماله إلى ورثته وهو ما خلفه من أعيان أو ديون، وحقوق، فناب الوارث مناب مورثه في مخلفاته. فيطالب بالديون المتعلقة بالموروث، ويقضي الوارث ديونه وينفذ وصاياه إن لم يكن له وصي، وله أن يتصرف في التركة، ولو كان الموروث مديناً بشرط ضمان الوارث الدين المتعلق بالتركة. ولكن لا يطالب الوارث بأكثر مما وصل إليه من التركة؛ لأنه لم يكن شريكاً للميت، وإنما كان بمنزلة النائب عنه في موجوداته. وكذلك يتلقى عنه أمواله وحقوقه، مثل خيار العيب، والغبن والتدليس، ومثل الرهون والضمانات ونحوها. وإنما اختلف العلماء: هل يقوم مقامه في خيار الشرط وفي حق الشفعة إذا لم يطالب بذلك؟ والصحيح قيامه مقامه فيها كغيرها.

## القاعدة السابعة والخمسون

### يجب حمل كلام الناطقين على مرادهم مهما أمكن في العقود والفسوخ والإقرارات وغيرها

وذلك أن الأقوال داخلة في الأعمال فتدخل في قوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى).

أما ما يتعلق به بنفسه. فهذا ليس فيه استثناء أن العبرة بما نواه لا بما لفظ به. وأما إذا تعلق بكلامه حق للغير. فكذلك نعتبر ما نوى إلا أن الغير إذا طالبه بمقتضى لفظه لم يكن لنا أن يحكم إلا بالظاهر لقوله ﷺ (إنما أقضي بنحو مما أسمع) متفق عليه. ومن هذا باب الكنايات من كل شيء له صريح وكناية. فالصريح: اللفظ الذي لا يحتمل سوى موضوعه. والكناية ما يحتمله ويحتمل غيره، لكن إذا نوى أو اقترنت به قرينة صار كالصريح. وكذلك مسائل الأيمان ألفاظها يرجع فيها إلى نية الحالف وقصده حتى أن النية تجعل اللفظ العام خاصاً، والخاص عاماً. وينبغي أن يراعى في ألفاظ الناس عرفهم وعوائدهم. فإن لها دخلاً كبيراً في معرفة مرادهم ومقاصدهم.

## القاعدة الثامنة والخمسون

### الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً

وهذه قاعدة عظيمة واسعة تحيط أو تكاد تحيط بالأحكام الشرعية. وعلة الحكم هي الحكمة الشرعية في سبب الأمر به، أو النهي عنه، أو الإباحة. والله تعالى حكيم له الحكمة في كل ما شرعه لعباده من الأحكام. وقد ينص الشارع على الحكمة، وقد يستنبطها العلماء بحسب معرفتهم لمقاصد الشارع العامة والخاصة. وقد يتفقون عليها بحسب ظهورها. وقد يتنازعون فيها. وقد يكون للحكم عدة علل متى وجد واحدة منها ثبت الحكم. وقد تكون علة مجموعة من عدة أوصاف لا تتم إلا باجتماعها. والقليل من الأحكام لا يفهم

العلماء لها حكمة بينة ويسمونها الأحكام التعبدية أي: علينا أن نتعبد به، وإن لم نفهم حكمته.

ولهذا الأصل أمثلة لا تحصى. تقدم في الأصول السابقة كثير منها. ولما سئل ﷺ عن الهرة. قال: (إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات). فعلل بكثرة طوفانها وترددها على الناس، وعظم المشقة فيها لو حكم بنجاستها. فدل على أن هذا الحكم ـ وهو الطهارة ـ ثابت لها ولما هو دونها في الخلقة ولما هو أكثر طوفاناً ومشقة منها. كالحمار والبغل، والصبيان، وقال تعالى في وصف النبي ﷺ:

﴿يأْمُرُهم بالمعروفِ وينهاهُمْ عن المُنكرِ، ويُحِلُّ لهُمُ الطيباتِ، ويُحَرِّمُ عليهم الخبائِثَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

وكل ما أمر به فهو معروف شرعاً وعقلاً، وكل ما نهى عنه فهو منكر شرعاً وعقلاً، وكل ما أباحه فهو طيب وكل ما حرمه فهو خبيث. وهذه علل جامعة تشمل جميع الشريعة وأنواعها وأفرادها تفصيل لهذه الجمل الجامعة. ومن العلل الجامعة تحريمه كل معاملة فيها غرر، وتحريم الخمر وهو كل ما خامر العقل وتحريمه للغش في المعاملات وغيرها.

## القاعدة التاسعة والخمسون

### النكرة إذا كانت بعد النفي أو النهي أو الاستفهام أو الشرط: تفيد العموم

وهذه أصول جوامع يدخل فيها أمثلة كثيرة من الكتاب والسنة وكلام أهل العلم: قال الله تعالى:

﴿يوم لا تَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٩]

فهذه ثلاث نكرات بعد النفي يقتضي عموم ذلك. وأنه أيّ نفس، وإن عظم

قدرها عند الله لا تملك لأي نفس، وإن اشتد اتصالها بها شيئاً من المنافع أو دفع المضار قليلاً كان أو كثيراً. وقال تعالى:

﴿فلا تدعُوا مع الله أحدا﴾ [سورة الجنّ: الآية ١٨]

وقال: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلاّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لِفَضْله﴾ [سورة يونُس: الآية ١٠٧]

وأمثلتها في كلام الواقفين والموصين وفي الطلاق والأيمان والإقرار وغيرها من الأبواب كثيرة جداً. فحيث وجدت نكرة بعد المذكورات فاحكم عليها بالعموم، إلا أن دلَّ دليل لفظي، أو قرينة حالية على الخصوص والله أعلم.

## القاعدة الستون

**مَنْ، ومَا، وأيٍّ، ومتى، وألْ، والمفرد المضاف يدل كل واحد منها على العموم**

كل واحد من هذه الستة أصل كبير يتفرع عليه من الأمثلة في الكتاب والسنة شيء كثير. فمتى وجدتها فاحكم لها بعموم مدخولها. وكذلك في كلام الفقهاء في الأحكام التي يرتبونها على الألفاظ في أبواب متعددة خصوصاً في الوقف، والوصية، والعتق، والطلاق، والإقرار وغيرها. فلا تخرج عن هذا الموضوع إلا لتخصيص يقترن بها لفظاً أو قرينة حالية، أو نية تصرفها عن موضوعها مثال ذلك من القرآن:

﴿ومَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ لَهُ مخرجاً * ويرزُقْهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُ ومَنْ يتوكَّلْ على اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

أي: كافيه. فكل من اتقى الله، وكل من توكل عليه حصل له هذا الجزاء، وقال تعالى:

﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظمَ أجراً﴾ [سورة المزّمّل: الآية ٢٠]

فكل من قدم خيراً قولياً، أو فعلياً، أو اعتقادياً: وجده عند الله على هذا الوصف.

**﴿فمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ * ومنْ يعملْ مِثقالَ ذرةٍ شرًّا يَرَهُ﴾**
[سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]

فكل من عمل خيراً أو شراً ولو كان أقل القليل وجد جزاءه. وقال تعالى:

**﴿قُلِ آدْعُوا اللَّهَ أوِ آدْعُوا الرحمنَ أيًّا مَّا تدعُوا فلَهُ الأسمـاءُ الحسنى﴾**
[سورة الإسراء: الآية ١١٠]

وقال تعالى: **﴿والعصرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾**
[سورة العصر: الآيتان ١، ٢]

فكل إنسان خاسر إلا من استثناه الله. وقال تعالى:

**﴿إن المسلمين والمسلمات ـ إلى قوله ـ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

فكل وصف قد دخلت عليه (الـ) في هذه الآية يعم ما يدخل في ذلك الوصف. وقال تعالى:

**﴿وأمّا بنعمة ربك فحدث﴾** [سورة الضحى: الآية ١١]

فهذا مفرد مضاف يشمل كل نعمة ظاهرة وباطنة دينية، أو دنيوية وقس على هذه الأمثلة ما أشبهها. والله أعلم.

فهذا آخر القسم الأول من هذا الكتاب: وهو القواعد والأصول.

# القسم الثاني

## في ذكر الفروق بين المسائل المشتبهات الفقهية والتقاسيم النافعة الشرعية

أصل هذا الباب أن تعرف أن الشارع لا يفرق بين المسائل المتشابهات إلا أن كل واحد منها انفرد بوصف باين به الآخر، لأن الشارع يحكم على المسائل المتماثلات في أوصافها بحكم واحد. كما تقدم في الأصول السابقة، ويفرق بين المسائل المختلفة في أوصافها كما ستراه في هذا القسم، والفروق نوعان: حقيقية وصورية.

أما الفروق الحقيقية: فهي المراد هنا. وهي المسائل المتباينة في أوصافها.

وأما الفروق الصورية: فهي الفروق الضعيفة التي لا تجد فرقاً حقيقياً بين معانيها وأوصافها، بل يفرق بعض أهل العلم بينهما فرقاً صورياً عند التأمل فيه لا تجد له حقيقة. فافهم هذا الضابط الذي يوضح لك الفروق الصحيحة من الضعيفة.

ولنذكر ما نستحضره من الفروق بين المسائل الفقهية.

فمنها: الفرق بين الماء الطهور، والماء النجس. وهو على القول الصحيح الذي تدل عليه الأدلة فرق بسيط واضح، وهو التغيير بالنجاسة، وعدم التغير بها. فما تغير لونه، أو طعمه، أو ريحه بنجاسة فهو نجس، وما لم يتغير بشيء من ذلك فهو طهور حتى ولو تغير بشيء من الطاهرات. كصبغ ونحوه. فهو باق على طهوريته. وإثبات ماء ليس بطهور ولا نجس لا يدل عليه نص ولا قياس، لأن علة النجاسة ظهور أثر الخبث في الماء.

والفرق بين فرض الصلاة وبين نفلها مع اشتراكهما في أكثر الأحكام: أن القيام في فرض الصلاة ركن على القادر، وفي النفل سنة. ويصح النفل على الراحلة في السفر الطويل والقصير. وكذلك للماشي، والفرض لا يصح إلا عند الضرورة، ويجوز في النفل الشرب اليسير بخلاف الفرض، ويجب ستر أحد المنكبين للرجل في فرض الصلاة دون نفلها. والصحيح في هذا: أن ستر المنكب يستوي فيه الفرض والنفل، وأنه سنة من كمال السترة.

ومنها: جواز النفل داخل الكعبة دون الفرض. والصحيح جواز الصلاة في جوفها الفرض والنفل.

ومن الفروق الضعيفة: المنع من ائتمام المفترض بالمتنفل والصحيح جوازه في الأمرين لثبوته ثبوتاً لا شك فيه في قصة صلاة معاذ بأصحابه بعدما يصلي مع النبي ﷺ العشاء الآخرة وغيره من الأحاديث، والاختلاف المنهي عنه في قوله ﷺ (إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه) هو الاختلاف في الأفعال لا في النية بدليل جواز أن يأتم المتنفل بالمفترض قولاً واحداً.

ومن الفروق الصحيحة: تجويز قطع النفل لحضور الفرض، وأنه لا يصح ابتداء نافلة بعد إقامة الفريضة، وأنه لا يجوز أن يشتغل بالنافلة إذا ضاق وقت الفريضة، ولا تقضى النوافل إذا كثرت الفوائت الفرائض، وما أشبه ذلك مما يعود إلى وجوب تقديم الفرض على النفل.

ومن الفروق الصحيحة: بين صلاة الجمعة والعيد، وهي كثيرة قد فصلتها في كتاب الإرشاد.

ومن الفروق الصحيحة: أن صيام الفرض لا بد له من نية من الليل، ونفل الصيام يصح بنية من النهار، لكن أجره من وقت نيته.

ومنها: أنه لا يصح صيام النفل وعليه صيام فرض.

ومنها: جواز صيام أيام التشريق للمتمتع، والقارن إذا عدم الهَدْي، ولا يجوز فيها غيره من الصيام حتى قضاء رمضان.

ومن الفروق بين النوافل والفرائض: أن النفل يجوز قطعه من صلاة

وصيام، وغيرها. والفرض: لا يجوز قطعه لغير سبب إلا الحج والعمرة: فمن شرع فيهما فرضاً أو نفلاً وجب عليه الإتمام.

ومن الفروق الضعيفة: تفريقهم بين الجاهل والناسي، والمتعمد في إتلاف المحرم لشعره أو أظفاره أن الثلاثة عليهم الفدية لحصول الإتلاف، وأن من لبس أو غطى رأسه، أو تطيب ناسياً أو جاهلاً فلا شيء عليه. والصحيح أن حكم الجميع واحد، وأن المعذور بجهل أو نسيان كما لا إثم عليه لا فدية عليه، لأن مقصود اجتناب المذكورات لأجل حصول الترفه والإتلاف الذي يستوي فيه المعذور بجهل ونسيان، والمتعمد إتلاف أموال الآدميين ونفوسهم. وهي مبنية على الشح وحقوق الله مبنية على المسامحة. ومثل ذلك في جزاء الصيد على الصحيح. كما نصت عليه الآية الكريمة في قوله:

﴿ومن قَتَلَه مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾

[سورة المائدة: الآية ٩٥]

ومن الفروق الصحيحة الثابتة شرعاً: الفرق بين من ترك المأمور سهواً أو جهلاً أنه لا تبرأ الذمة إلا بفعله وبين من فعل المحظور وهو معذور بجهل أو نسيان أنه يعذر وتصح عبادته. فمن ذلك في الصلاة إذا ترك الطهارة أو السترة أو غيرهما من الشروط جاهلاً أو ناسياً. فعليه الإعادة. وإن صلى وقد نسي نجاسة على بدنه أو ثوبه فصلاته صحيحة. وكذلك الصيام، والحج، والعمرة، وبقية العبادات: إذا ترك فيها المأمور لا بد من فعله أو فعل بدله إذا كان له بدل، وإذا فعل المحظور وهو معذور لا حرج عليه ولا إثم، ولا بدل، واختاره شيخ الإسلام وطرده في كل المسائل.

ومن الفروق الضعيفة: كراهة السواك للصائم بعد الزوال لا قبله. والصحيح: استحباب السواك للصائم قبل الزوال وبعده. كما هو ظاهر الأحاديث ولم يصح حديث في الفرق.

ومن الفروق الضعيفة: تفريق الفقهاء بين البيع والإجارة، وأن من وجد عيباً في مبيع خُيِّر بين الرد أو الأرش. وفي الإجارة: يخير بين الإمساك

بالأرش وبين الرد. والصواب استواء البيع والإجارة في ذلك وليس بينهما فرق في أخذ الأرش أو عدمه. وشبيه لهذا تفريقهم بين الوصية ببينة ونحوه بعد موته، وبين وقفه بعد موته، وأنه ليس له أن يرجع إذا وقفه بعد موته، لكنه يكون من الثلث وله أن يرجع إذا أوصى به. والصحيح أن له الرجوع في الأمرين، لأنه لا فرق بينهما إلا فرقاً صورياً.

ومن الفروق الضيعفة: في التعاليق وأن الفسوخ يصح تعليقها، وأما العقود: فلا يصح تعليقها إلا عقود الوكالة والولايات فيصح تعليقها. وهذا هو المشهور من المذهب. والصواب جواز تعليق الجميع لظاهر الأدلة ولعدم الفرق الصحيح.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين الأب وأن له التملك من مال ولده ما شاء بلا ضرر دون الأم وغيرها. فليس لها أن تتملك. وأما قولهم: إنه ليس له أن يبرىء غريم ابنه، ولا أن يبرىء نفسه من دين ولده، وليس له مخالعة زوج ابنته بشيء من مالها. فهذا ضعيف وهذه الأشياء أحق من تملكه ابتداء من مال ولده.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق بين شروط الواقفين والموصين ونحوهم. فما وافق منها الشرع فهو صحيح وما خالفه فهو فاسد.

ومن الفروق الضعيفة: تفريق من فرق بين الجد والإخوة لغير أم في تقديم الجد عليهم في جميع الولايات دون الميراث فيشاركونه على تفصيل لهم كثير لا يدل عليه دليل، ولا يقتضيه تعليل. والصواب أنه يحجبهم لأدلة كثيرة تدل على هذا القول.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين شروط الأشياء من عقود ومعاوضات أو تبرعات وبين الشروط فيها. فشروطها هي مقوماتها التي لا تتم ولا تصلح إلا بها، ولا بد فيه من اجتماعها.

وأما الشروط فيها: فهي أمور خارجة عن نفس العقود، وإنما يشترطها المتعاقدان أو أحدهما لمصلحة تعود على المشترط، وتنقسم إلى صحيحة

وهي كل شرط مقصود لا يدخل في محرم، ولا يخرج من واجب. فيجب اعتبارها. فالمسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. وإلى فاسدة: وهي التي تخالف مقتضى العقد. فتارة تفسد بنفسها، والعقد بحاله، وتارة تفسد العقد إذا عادت على مقصوده بالتغيير والتبديل، وكلها مفصلة في كتب الأحكام.

ومن الفروق الضعيفة: التفريق بين دَيْن السلم وبين غيره من الديون. والصواب: أن ما جاز في غير دين السلم من المعاوضات والوثائق: جاز في دين السلم.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق في العقود إذا انفسخت لتبين بطلانها أن ما بني عليها من وثائق وتحويل وغيره يبطل. وإذا فسخها المتعاقدان لخيار عيب وغيره، أو إقالة أن العقود الطارئة عليها بعد العقد الأول لا تنفسخ.

ومن الفروق الضعيفة: التفريق في الشهادة بين أن يخبر خبراً بغير لفظ الشهادة. فلا تكون شهادة وبين أن يقول: أشهد أو أشهدت ونحوه. فهي الشهادة. والصواب أن الخبر الجازم شهادة سواء كان بلفظها أو خبراً مجرداً.

ومن الفروق الصحيحة: أن إقرار الإنسان على نفسه في مال أو حق من الحقوق مقبول وإقراره على غيره غير مقبول، لأن الأول بينة قوية. والثاني: مجرد دعوى على غيره. وقد يتكلم بكلام واحد يتضمن إقراره على نفسه فيؤاخذ به وإقراره على غيره فلنفيه.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين العقود اللازمة. كالبيع والإجارة ونحوهما. وأنه ليس لأحد فسخها بلا موجب، وبين العقود الجائزة. كالوكالة والشركة، والجعالة، ونحوها، وأن لكل واحد فسخها، وأن الوكالة الدورية لا تعتبر لأنها تغير العقد الجائز إلى عقد لازم. وذلك تغيير لحكم الله.

وهنا أيضاً: قسم ثالث جائز في حق أحدهما لازم في حق الآخر. كالرهن والضمان جائز في حق من له الدين لازم في حق من عليه الدين.

ومن الفروق الضعيفة: قول من قال: إن جميع حقوق الميت تثبت

لوارثه بعد موته سوى حق الشفعة وحق خيار الشرط. فتبطل بموت المورث إن لم يكن طالب بها.

والصواب: أنها كغيرها لا تسقط إلا بإسقاط الميت قبل موته، أو بعفو الوارث بعده.

ومن الفروق الضعيفة: تفريقهم بين إعارة الأرض للزرع وإعارتها للدفن، أو السفينة للحمل أن له الرجوع قبل انقضاء الفرض في الزرع بالأجرة وليس له الرجوع في بقية المسائل التي أذن المعير للمستعير أن يشغلها بما يستضر لو رجع قبل انقضاء الفرض.

والصواب: أن حكم الجميع واحد ليس له في الزرع ولا غيره أجرة كما ليس له رجوع.

ومن الفروق الضعيفة: قولهم: إن عتق العبد المرهون ينفذ مع التحريم، والتصرف فيه بوقف أو هبة أو عقد معاوضة لا ينفذ إلا برضى المرتهن.

والصواب: أن العتق لا ينفذ إلا بالإذن، لأنه قربة فلا يتقرب إلى الله بفعل محرم. ولأنه يبطل حق المرتهن من الوثيقة.

ومن الفروق الضعيفة: جعل الفقهاء، رحمهم الله، الأمور الوجودية الأغلبية حداً فاصلاً لكثير من الأحكام الشرعية التي أطلقها الشارع، ولم يقيدها، مثل وجود الحيض. فحيث وجد الدم المعتاد تعلقت به الأحكام الشرعية وحيث طهرت تطهرت وزالت أحكام الحيض. هذا الذي دلت عليه النصوص وعليه العمل بين المسلمين. وأما تقييد أقل سن تحيض فيه وأكثر سن تنتهي إليه، وأقل الحيض وأكثره فليس على ذلك دليل شرعي، وهكذا مدة الحمل الصحيح أنه ليس لأكثر مدته حد محدود.

من الفروق الصحيحة: التفريق بين الذكر والأنثى في إيجاب الجمعة، والجماعة والجهاد البدني، وأنها على الذكر والأنثى. وكذلك في تنصيف الميراث، والدية، والعقيقة، وأن شهادة المرأتين كشهادة الرجل في العتق،

وكذلك في الولايات. فهذه الفروق ثابتة تابعة للحكمة حيث علقت الأحكام الشرعية بحسب أهلية المحكوم عليهم وكفاءتهم وحاجتهم. كما أن من الحكمة مساواة الأنثى للذكر في أحكام التكليف، والتصرفات، والتبرعات، والتملكات وغيرها لتساويهما في السبب الذي يشرع له الحكم.

ومن الفروق الصحيحة: أن من أوقع طلاقاً أو عتقاً أو ظهاراً أو نحوه على شعر أو سن أو ظفر لم يقع على المذكورين شيء وإذا أضيف إلى عضو مشاع، أو معين غير المذكورات وقع ولم يتبعض. وأما التصرفات الأخر الواقعة على الأعيان: كالبيع والإجارة، والشركة، والوقف، والهبة ونحوها. فيصح وقوعها على الكل أو على البعض المعلوم.

ومن الفروق الصحيحة: بين الهبة والعطية والوصية: أن الهبة ثابتة كلها إذا لم تتضمن ظلماً، ولو استوعبت المال كله.

وأما الوصية: فإنها لا تثبت إلا بعد الموت بالثلث فأقل لغير وارث.

والعطية: في مرض موته المخوف كذلك إلا أنها تلزم من حينها ويقدم فيها الأول فالأول.

والوصية: يدلي الموصي لهم بعد موته جميعاً.

ومن الفروق الضعيفة، بل الخارقة للإجماع: تجويز بعض الفقهاء وقف المريض مرض الموت المخوف ثلثه على بعض ورثته بلا إذن الباقين. فإن هذا عين الوصية للوارث التي لا تجوز بالاتفاق.

ومن الفروق الصحيحة الثابتة بالنص والإجماع: التفريق بين قتل العمد العدوان الذي يوجب القصاص أو الدية وبين قتل الخطأ وشبه العمد الموجب للدية فقط. وكذلك في الأطراف.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق بين الأعضاء المغسولة في الوضوء فيشرع فيها التكرار، وبين الممسوحة كالرأس، والخفين، والخمار،

والعمامة. فلا يشرع فيها التكرار، لأن الممسوحات مبنيات على السهولة. ولذلك جعل المسح في التيمم في عضوين. وهما: الوجه والكفان.

ومن الفروق الضعيفة: تفريقهم في طهارة الماء وطهارة التيمم في أمور كثيرة.

والصواب: أنه إذا حل التيمم لفقد الماء أو للضرر باستعماله ناب التيمم عن طهارة الماء في كل شيء من دون استثناء.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق في طهارة الحدث الأكبر وطهارة الحدث الأصغر. حيث وجب في الطهارة الكبرى إيصال الماء إلى باطن الشعور ولو كثيفة وأما الحدث الأصغر فلا يجب إيصاله إلى الباطن إلا إذا كان الشعر خفيفاً. وطهارة التيمم يكفي فيها مسح ظاهر الشعر ولو خفيفاً.

ومن الفروق الصحيحة الفرق بين السجود على حائل من أعضاء السجود فلا يجزي، أو على حائل مما يتصل بالإنسان فيكره إلا لعذر وبحائل منفصل فلا بأس به.

## فصل

ومن الفروق الصحيحة الفرق بين أجزاء الحيوان الطاهر إذا مات بغير تذكية شرعية. وأنها ثلاثة أقسام، قسم طاهر على كل حال، وهو الشعر، والصوف، والوبر، والريش، لأنها منفصلات لا فضلات فيها ولا يحلها الموت. وقسم نجس على كل حال محرم، وهو اللحوم، والشحوم، وما يتبعها من أعصاب وعروق وغيرها. وكذلك العظام لأنه يحلها الموت، وتكون هذه الأجزاء بعد الموت خبيثة. وقسم نجس يطهره الدباغ وهو الجلد كما ثبتت به النصوص، ولأن الدباغ يزيل ما فيه من الخبث. كما قسم الشارع الحيوانات بالنسبة إلى الحل والحرمة ثلاثة أنواع، قسم حلال طيب حياً وميتاً

وهو حيوانات البحر. وكذا الجراد، وقسم حرام لا ينفع فيه ذكاة ولا غيرها، وهو كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والخبائث كلها، كما هو مفصل في الأطعمة. وقسم يحل بشرط التذكية الشرعية وهو الأنعام الثماني، وأكثر الحيوانات البرية والطيور. والله أعلم.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين الذبائح الهدايا، والفدى، والأضاحي ونحوها من ذبائح القرب أنها نوعان:

نوع له الأكل منها، والصدقة، والهدية، وهو الأضاحي الواجبة، والمستحبة، والعقيقة، والهدي الذي هو دم نسك كدم المتعة، والقران، والهدي المستحب. فهذا كله يأكل منه ويتصدق ويهدى.

النوع الثاني: تجب الصدقة به كله وهو ما وجب لترك واجب من واجبات الحج، والعمرة، أو لفعل محظور، لأنه دم حلال بمنزلة الكفارة.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين المغالبات التي لا تحل مطلقاً لا بعوض ولا غيره. كالنرد والشطرنج ونحوها. وقسم تحل بعوض وغير عوض وهو المسابقة على الخيل والإبل والسهام، لأنها تعين على الجهاد الذي به قوام الدين. وقسم يفرق فيه بين أخذ العوض عليه. فلا يحل، وبين المغالبة من دون عوض فيحل وهو ما عدا ذلك.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين ما تثبت فيه الشفعة من المشتركات. فالعقارات التي لم تقسم تثبت فيها الشفعة للشريك إذا باع شريكه، والمشتركات الأخر لا شفعة فيها، لأن العقارات يكثر الضرر فيها بالمشاركة وغيرها بخلاف ذلك.

ومن الفروق الصحيحة بين ما لا تصح فيه الوكالة: كحقوق الله المتعين على العبد فعلها بنفسه. كالصلاة، والطهارة، ونحوها، وحق الآدمي الذي يتعين فعله على صاحبه. كالشهادة. والقسم بين الزوجات ونحو ذلك، وبين

ما تصح فيه الوكالة وهو ما عدا ذلك من العقود، والفسوخ والحقوق المالية ونحوها.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين اليمين، والنذر. فاليمين: مقصوده الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب. وتحله الكفارة، والنذر: إلزام العبد نفسه لله طاعته مطلقاً أو معلقاً لها على شرط حصول نعمة، أو دفع نقمة، ويتعين فيه الوفاء فلا تفيد فيه الكفارة وهو نذر التبرر، وأما باقي أقسام النذر فيجري مجرى اليمين.

وبهذا الفرق فرق شيخ الإسلام بين التعاليق المحضة في الطلاق التي إذا وجدت وقع الطلاق مثل قوله: إذا جاء الوقت الفلاني فأنت طالق أو إن أعطيتني كذا فأنت طالق وبين التعليق الذي يقصد به الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب كإن خرجت من الدار، أو إن كلمت فلاناً فأنت طالق أن هذا الأخير يجري مجرى اليمين تفيد فيه الكفارة.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين إيقاع التحريم على الزوجة. فهو ظهار فيه كفارة ظهار، وبين إيقاعه على سريته أو على طعام، أو لباس، أو نحوه. فحكمه حكم اليمين.

ومن الفروق الصحيحة الثابتة بالنص: الفرق بين لغو اليمين التي لا إثم فيها، ولا كفارة. وهي اليمين التي لم يقصدها الحالف، بل جرت على لسانه من غير قصد أو يحلف على أمر ماض يعتقده، كما قال: ثم يثبت الأمر بخلاف اعتقاده. وبين اليمين المنعقدة على أمر مستقبل مقصود. ففيه الكفارة إذا حنث بفعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله، كما فرق النص بين الأمر بالحنث في اليمين إذا كان الحنث خيراً وبين الأمر بحفظ اليمين إذا لم يكن الحنث خيراً.

ومن الفروق الضعيفة: تفريق الفقهاء بين الحنث جاهلاً أو ناسياً أنه يحنث في الطلاق والعتاق دون اليمين بالله.

والصواب فيها كلها أنه لا يحنث وهو معذور بجهل أو نسيان.

## فصل

ومن الفروق اللطيفة التي تتصيد من تتبع كلام الفقهاء: أن الألفاظ الصريحة في الطلاق ونحوه لا تحتاج إلى نية ولا يقبل صاحبها إذا حوكم عند الحاكم إذا ادعى أنه أراد خلاف صريح كلامه.

وأما الألفاظ المحتملة احتمالاً بيناً لغير الظاهر منها: يقبل صاحبها حكماً، لأن احتمال إرادته أقوى. وأما الألفاظ التي تحتمل خلاف المفهوم احتمالاً مرجوحاً لا يقبل صاحبها حكماً، ولكنه يدين. وهل الأولى للمرأة أن تدين زوجها في مثل هذه الأمور وترفعه إلى الحاكم؟ الأولى النظر إلى القرائن. فإن علمت صدقه، أو غلب على ظنها صدقه، وكلته إلى دينه، لأن احتمال إرادته ما قال قوي، وإن غلب ظنها كذبه رفعته إلى الحاكم.

ومن الفروق الصحيحة بين مسح الجبيرة ومسح الخفين ونحوهما: أن الجبيرة لا تكون إلا عند الضرورة إليها وتمسح كلها في الحدث الأكبر والأصغر، ويمسح عليها إلى حملها أو برء ما تحتها، ولا يشترط لها تقدم الطهارة على الصحيح. وأما مسح الخفين، والعمامة، والخمار: فيجوز في الضرورة والسعة، ولا بد فيه من تقدم الطهارة، ويكون في الحدث الأصغر خاصة، ومدته للمقيم يوم وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها.

ومن الفروق الصحيحة: أن طهارة الأحداث لا بد فيها من نية، لأنها معنى من المعاني، وطهارة النجاسة لا يشترط لها النية، سواء كانت على البدن، أو الثوب، أو البقعة، لأنها من أقسام التروك التي القصد منها إزالتها.

ومن الفروق الصحيحة: تقسيمهم النجاسة إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: مغلظة كنجاسة الكلب، والخنزير التي لا بد فيها من سبع غسلات إحداها بتراب ونحوه.

والثاني: مخففة كنجاسة بول الغلام الذي لم يأكل الطعام لشهوة وقيئة. فيكفي فيها النضح. وكذلك يعفى عن الدم، والقيح، والصديد اليسير ونحو ذلك.

والثالث: متوسطة وهي باقي النجاسات يكفي فيها على الصحيح أن تزول بأي شيء، وبأي عدد. وقيل: لا بد فيها من سبع غسلات.

ومن الفروق الصحيحة: أن الدماء ثلاثة أقسام: قسم نجس: لا يعفى عن قليله ولا كثيره، وهي دماء الحيوانات النجسة كالكلب ونحوه.

وقسم طاهر مطلقاً، وهي التي تبقى في الذبيحة بعد ذبحها في اللحوم، والعروق، ودم السمك ونحوها.

والثالث: ما عدا ذلك. فهو نجس يعفى عن اليسير منه، وهو الذي لا يفحش في النفوس.

ومن الفروق الصحيحة: صحة الحج والعمرة من الصبي الذي لم يميز دون بقية العبادات فلا بد فيها من التمييز.

## فصل

ومن الفروق الصحيحة: أن عورة الصلاة ثلاثة أقسام.

أحدها: الغليظة، وهي عورة المرأة الحرة البالغة كلها عورة إلا وجهها.

والثاني: الخفيفة، وهي عورة ابن سبع سنين إلى أن يتم له عشر. فهي القبل والدبر.

والثالث: من عدى هؤلاء من السرة إلى الركبة، وهذا في الصلاة.

وأما العورة في باب النظر: فالحرة البالغة الأجنبية، لا يجوز النظر للرجل النظر إليها إلى جميع بدنها من غير حاجة أو ضرورة، والطفلة التي دون سبع لا حكم لعورتها. ومن دون البلوغ من الأجنبيات، وذوات المحارم، يجوز نظر ما جرت العادة بكشفه. وعند الضرورة لعلاج أو استنقاذ من مهلكة يجوز نظر ولمس ما تدعو إليه الضرورة.

وكذلك نظر الشاهد، والمعاملة إذا احتاج إلى ذلك. وكل ذلك مقيد إذا كان لغير شهوة.

ومن الفروق الصحيحة: أن اللباس ثلاثة أقسام.

قسم حلال على الذكور والإناث: وهو الأصل في جميع أنواع الأكسية التي لم يرد منع من الشارع منها.

وقسم حرام على الذكور والإناث: مثل المغصوب، والتشبه بالكفار، وتشبه كل واحد من الرجال والنساء بالآخر.

وقسم حرام على الذكور دون النساء: مثل لباس الذهب والفضة والحرير.

ومن الفروق الصحيحة: أن الحركة في الصلاة على أربعة أنواع مبطلة وهي:

الحركة الكثيرة عرفاً المتوالية لغير ضرورة. إذا كانت من غير جنس الصلاة.

وحركة مكروهة. وهي: الحركة اليسيرة لغير حاجة.

وحركة مباحة. وهي: اليسيرة لحاجة والكثيرة للضرورة.

وحركة مأمور بها. كالتقدم والتأخر للصفوف في صلاة الخوف. وكالحركة لتعديل الصف أو لتنبيه المصلِّي إلى جانبه لما يلزمه أو يشرع له.

ومن الفروق: أن تكبيرات الصلاة ثلاثة أقسام: ركن وهو تكبيرة الإحرام، وتكبيرات الجنازة كلها. ومسنونة، وهو تكبيرة المسبوق، والذي أدرك إمامه راكعاً للركوع، وواجب وهو بقية التكبيرات.

ومن الفروق الصحيحة: أن المار بين يدي المصلي على ثلاثة أنواع:

أحدها: يبطل الصلاة، وهو مرور الكلب الأسود البهيم. وكذلك المرأة والحمار على الصحيح.

والثاني: ينقصها ولا يبطلها وهو مرور من عدى المذكورات.

والثالث: لا بأس به، وهو المرور بين يدي المصلي في المسجد الحرام عند زحمة الطائفين والمتعبدين.

ومن الفروق الصحيحة: موقف المأموم على أربعة أقسام: موقف واجب وهو وقوف الرجل الواحد، يجب أن يكون عن يمين الإمام. وموقف مستحب إذا كانوا اثنين فأكثر. فالأفضل خلف الإمام، ويجوز عن يمينه أو عن جانبيه. وموقف مباح. وهو وقوف المرأة مع الرجل. وموقف ممنوع، وهو وقوف الرجل الواحد خلفه أو خلف الصف مع القدرة على المصافة.

## فصل

ومن الفروق الصحيحة: تفريق الشارع بين إيجاب الزكاة في الإبل، والبقر، والغنم، دون بقية الحيوانات، إذا لم تتخذ للتجارة.

وكذلك التفريق بين ما تجب فيه الزكاة من الحبوب، والثمار المكيلة المدخرة إذا بلغت نصابها الشرعي، دون بقية الخضر والفواكه ونحوها.

وكذلك التفريق في الأمتعة، والأواني ونحوها، المتخذة للقنية. فلا زكاة فيها، والمتخذة للتجارة ففيها الزكاة.

ومن الفروق الصحيحة: أن العقارات كالبيوت والدكاكين ونحوها على ثلاثة أقسام:

قسم لا زكاة فيه أصلاً، وهو الذي يحتاجه للسكنى، والانتفاع بنفسه.

وقسم يزكي قيمته كل عام، وهو الذي يتخذه منها للتجارة.

وقسم يزكي ما يرد عليه من المغل. كالبيوت والدكاكين التي يستغلها والأثل الذي يستغله. فما حصل له من فعله ضمه إلى ما عنده من المال وزكاه، ولا يلزمه أن يزكي قيمة العقار الذي لم يتخذه عروضاً.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين الديون التي على الأملياء. ففيها الزكاة، والتي على المعسرين فلا زكاة فيها على الصحيح.

ومن الفروق الصحيحة: أن من يعطى من الزكاة إن كان لحاجته، فلا بد أن يكون فقيراً. وإن كان للحاجة إليه. كالمـؤَلَّف، وفي سبيل الله، فيعطى كذلك ولو غنياً.

ومن الفروق الصحيحة: أن من اشترى شيئاً يحتاج إلى حق توفية، فإنه لا يصح تصرفه فيه حتى يستوفيه بكيل، أو وزن، أو عد، أو زرع ونحوها. وإن كان عيناً متميزة جاز التصرف فيها ولو لم يقبضها، ويترتب على ذلك الضمان، فما يحتاج إلى حق توفية، إذا أتلف قبل توفيته، فضمانه على البائع. وكذلك جوائح الثمار، وما سوى ذلك فعلى المشتري.

ومن الفروق الصحيحة: الفرق بين الأملاك التي لم يتعلق بها حق للغير فلا يجبر على تعميرها، وبين ما تعلق بها حق الغير فيجبر على مجاراة شريكه على التعمير اللازم.

ومن الفروق الصحيحة: قبول قول الأمناء كلهم في دعوى التلف بلا

تفريط ولا تعدٍّ، سواء لهم حظ أم لا، بخلاف دعوى الرد. فيفرق بين المتبرع منهم فيقبل قوله، وبين غير المتبرع فلا يقبل.

ومن الفروق قولهم: من أدى عن غيره ديناً واجباً ناوياً للرجوع رجع وإلا لم يرجع.

ومن الفروق الصحيحة بين الإجارة والجعالة: أن الإجارة عقد لازم على عمل معلوم مع معين، والجعالة عقد جائز. والعمل قد يكون معلوماً، وقد يكون مجهولاً، وتكون مع معين ومع غير معين، والجعالة تجوز على أعمال القرب، بخلاف الإجارة، ولا يستحق العوض في الجعالة حتى يعمل جميع العمل. وأما الإجارة: ففيها تفصيل إن كان المانع لتكميل العمل من جهة المؤجر فلا شيء له، وإن كان من جهة المستأجر. فعليه كل الأجرة. وإن كان بغير ذلك وجب من الأجرة بقدر ما استوفى.

ومن الفروق الصحيحة: أن اللقطة ثلاثة أقسام:

قسم لا يجوز التقاطه مطلقاً كالذي يمتنع من صغار السباع. كالإبل ونحوها.

وقسم يجوز التقاطه ويملك بلا تعريف وهو ما لا تتبعه همة أوساط الناس.

والقسم الثالث: بقية الأموال فيجب على ملتقطه أن يعرفه حولاً كاملاً. فإذا لم يعرف دخل في ملكه.

ومن الفروق: أن الطفل والطفلة قبل التمييز عند أمه وبعد التمييز يخير الغلام بين أبيه وأمه. والجارية تكون عند أبيها. وبعد البلوغ يستقل الغلام، وتبقى الأنثى عند أبيها حتى يتسلمها زوجها. وكل هذا إذا كان المقدم أهلاً للحضانة ويصون الطفل ويحفظه.

ومن الفروق الصحيحة: أن الوكيل لا يشترط أن يكون عدلاً، والولي لليتيم ونحوه لا بد أن يكون عدلاً، لأنه ولاية، والوكالة نيابة.

وفرق آخر: الوكيل لا يأكل إلا بإذن موكله، وولي اليتيم إن كان غنياً فليستعفف، وإن كان فقيراً أكل بالمعروف وناظر الوقف يأكل ما شرط له. فإن لم يشرط له أكل بالمعروف.

ومن الفروق الصحيحة: إذا كان الوقف حيواناً وجبت نفقته على كل حـــال:

إما مـن الجهة المعينة له، أو في أجرته وكسبه وإلا بيـع منه وأنفق على البـاقي، وإن كان عقـاراً وجبت نفقة تعميـره على حسب البـطون على الصحيـح.

ومن الفروق بين العقود الباطلة والفاسدة في باب النكاح أن الباطل ما كان متفقاً على بطلانه، والفاسد ما فيه خلاف. وفي باب الحـج: الحـج الباطل يبطل بالكلية، والحـج الفاسد بالوطء يلزمه المضي فيه ويقضيه. وأما بقية الأبواب. فالباطل والفاسد واحد.

وكذلك فرقوا بين الفسوخ المتفق عليها، فلا تحتاج إلى حاكم، وبين المختلف فيه فلا بد من حاكم يحكم بفسخها، لأن حكمه يرفـع الخلاف.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق بين القذف بالزنا. فيوجب ثمانين جلدة، وبين رميه بالكفر أو الفسوق فيوجب التعزير، لأنه في الأخير يتمكن من تكذيب الرامي له دون الأول.

وكذلك التفريق بين قذفه لزوجته بالزنا إذا لم يقم أربعة من الشهداء أنه يدفـع عنه الحد أو التعزير بلعانه لحاجته إلى رمي زوجته لنفي الولد ولإفســاد فراشه، وبين رميه لغيرها، فلا ينفـع فيه اللعان.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق بين الذبـح والصيد، بتوسيـع طرق

حل الصيد لعدم القدرة عليه. فيحل الصيد بإصابته في أي موضع من بدنه، وبصيدها بالجوارح من الكلاب والطيور المعلمة بشروطها. واعتبر هذا المعنى في الحيوانات الأهلية، إذا نفرت وكانت كالوحشية فيصير حكمها حكمها. وعكسها الوحشية إذا كانت مقدوراً عليها. فلا تحل إلا بالذبح. كل هذا رعاية للقدرة أو عدمها. والله أعلم.

ومن الفروق بين القاضي والمفتي: أن القاضي يبين الأحكام الشرعية ويلزم بها، والمفتي: يبين ولا يلزم. والمفتي يفتي في المسائل المتنازع فيها وفي غيرها، ويفتي لنفسه ولغيره والقاضي: لا يقضي إلا لفصل النزاع، ولا يقضي لنفسه، ولا لمن لا تقبل شهادته له. ولا على عدوه. والقاضي لا يقضي بعلمه إلا فيما أقر به في مجلس حكمه. وفي عدالة الشهود وفسقهم. والمفتي بخلاف ذلك. وحكم القاضي يرفع الخلاف وإفتاء المفتي لا يرفعه.

ومن الفروق الصحيحة: بين قسمة التراضي، وقسمة الإجبار. بأن ما لا ضرر فيه ولا رد عوض يجبر الشريك فيه على القسمة إذا امتنع. وأما ما فيه ضرر أو رد عوض، فلا يجبر الممتنع على القسمة. ولكن الضرر يزال بالبيع، أو التأجير، أو المهايأة.

## فصل

ومن الفروق الصحيحة، بين البيع والإجارة: أن البيع واقع على الأعيان بمنافعها، والإجارة على المنافع. وأنه لا يجوز بيع الحر، ولا الوقف، ولا أم الولد، ويجوز إجارتهن، والبيع يدخله الربا ربا الفضل. وربا النسيئة، والإجارة لا يدخلها بدليل جواز إجارة حليّ الذهب. والفضة بذهب، أو فضة مقبوضاً، أو غير مقبوض.

ومن الفروق بين إيقاع طلقتين فأكثر بين المدخول بها وغير المدخول

بها: أن العدد إذا وقع دفعة واحدة أو دفعات مرتبط بعضها ببعض أنه يقع العدد المذكور عليها، وإذا كان بدفعات غير مرتبط بعضها ببعض وقع بالمدخول بها العدد المذكور. وبانت غير المدخول بها بالطلقة الأولى وصادفتها الطلقات الأخر. وقد بانت منه فلم يقع عليها شيء وهي ألفاظ كثيرة. ذكرها الفقهاء كلها تدخل تحت هذا الضابط.

ومن الفروق الصحيحة: أن التأويلات في الأيمان قد تنفع وقد لا تنفع. فاتفقوا على نفعها إذا كان المتأول مظلوماً وعلى عدم نفعها للظالم. واختلفوا في نفعها لغير الظالم الذي لم يحتج إليها. فالمشهور من المذهب نفعها. وعند شيخ الإسلام لا تنفعه، لأنها تشبه التدليس وتوهم الكذب، وتسيء به الظنون.

ومن الفروق الصحيحة: التفريق بين وجوب الزكاة، والنفقات، والعبادات المالية، على غير المكلف، وبين عدم وجوب الصلاة، والصوم، والحج عليه لعدم تكليفه.

ويشبه هذا إيجاب ضمان المتلفات على المكلف وغيره، لربط الحكم بسببه الموجب للضمان.

ومن الفروق الصحيحة: أن القدرة على التكسب غنى يمنع صاحبه أخذ الزكاة لحاجته، ويوجب عليه فيه قضاء الدين والنفقات الواجبة، لأن الواجب قد تقرر عليه، ولا سبيل إلى أدائه إلا بالكسب الذي يقدر عليه فوجب عليه، وليس ذلك بغنى يوجب الحج، لأنه مما لا يتم الوجوب إلا به. والأول مما لا يتم الواجب إلا به.

ومن الفروق الصحيحة: أن العبد المملوك إذا كان للتجارة وجبت فيه زكاة الفطر وزكاة المال لوجود السببين: الملك والتجارة. والذي لغير التجارة تجب فيه زكاة الفطر فقط لانفراد سبب الملك وحده. وهكذا كل حكم له سببان فأكثر مستقلان إذا وجدا ترتب عليهما مقتضاهما، وإذا انفرد أحدهما

ترتب عليه حكمه مثل من وجد فيه سببان فأكثر من الأسباب التي يستحق بها الأخذ من الزكاة، أو الوقوف أو الوصايا، أو يجب عليه في كل منهما واجب.

ومن الفروق الصحيحة: أنه إذا صلى الرجل في ثوب حرير أو ذهب أو فضة، عالماً ذاكراً لم تصح صلاته، ومن صلى وعليه عمامة حرير ونحوها صحت صلاته مع تحريم الاستعمال.

ومن الفروق بين سترة المصلي وسترة المتخلي، وسترة الجوار، أن سترة المصلي: يكفي فيها ولو عصا، أو يخط خطاً بين يديه.

وأما سترة المتخلي: فلا بد أن تستر أسافله عورته الفاحشة.

وأما سترة الجوار: فلا بد أن تمنع المشارفة بين الجيران. وهي على الأعلى من الجارين. فإن استويا اشتركا.

ومن الفروق بين الخارج من بدن الإنسان: أن البول والغائط لا يعفى عن يسيره. وأن الدم، والقيح، والصديد يعفى عن يسيره، وبقية الخارج من البدن طاهر. والله أعلم.

ومن الفروق الصحيحة: أن شعور بدن الإنسان ثلاثة أقسام:

قسم تحرم إزالته، وهو شعر اللحية، وحلق المرأة رأسها بلا عذر.

وقسم تشرع إزالته، وهو شعر الشارب والإبط، والعانة.

وقسم يباح، وهو باقي الشعور.

ومن الفروق بين مَسّ المرأة بشهوة فينقض الوضوء ويحرم على الصائم والمعتكف والمحرم بحج وعمرة. وبين ما كان لغير شهوة فلا يضر ذلك.

ومن الفروق بين الخارج من الذكر: فمنه نجس لا يعفى عن يسيره، وهو البول، ومنه طاهر وهو المني، ومنه نجس ينقض الوضوء ويوجب غسله أو نضحه، ويوجب أيضاً غسل الذكر والأنثيين، وهو المذي.

ومن الفروق: أن نجاسة البدن يتيمم لها عند الأصحاب، ونجاسة الثوب والبقعة لا يتيمم عنها. وسوى شيخ الإسلام بين الأمرين بعدم وجوب التيمم للجميع، وإنما يتيمم للإحداث فقط.

## فصل

ومن الفروق: أن الخمرة إذا انقلبت بنفسها خلاً طهرت. والماء المتغير بالنجاسة إذا زال تغيره طهر، والعلقة إذا كانت حيواناً طاهراً طهرت. وما سوى ذلك من استحالة النجاسة لا تطهر. وعند الشيخ تقي الدين يعمم فيرى أن النجاسة إذا استحالت إلى عين طيبة تطهر، لأنه قد زال خبثها وهو الموافق للأصل الشرعي، وهو أن كل طيب طاهر حلال، وكل خبيث نجس.

ومن الفروق الصحيحة: أن المولود له ثلاثة أحكام متباينة، حكم يتعلق بالصلاة عليه والعفو عنه وذلك إذا وضع بعد أربعة أشهر إذا نفخت فيه الروح، وحكم يتعلق بملكه المال من ميراث ووصية وغيرها.

فهذا يتعلق بوصفه حياً حياة صحيحة. والحكم الثالث: بقية الأحكام تتعلق بوضع ما تبين فيه خلق إنسان كالنفاس، والعدة، والاستبراء وغيرها.

ومن الفروق الصحيحة: أن تصوير ذوات الأرواح واستعمالها محرم، وتصوير الأشجار والقصور وغيرها جائز.

ومن الفروق الصحيحة: أن المشهود عليه يختلف فيه نصاب الشهادة.

فمنها: ما لا يقبل فيه إلا أربعة رجال عدول يصرحون فيه برؤيتهم له، وهو الزنا واللواط.

ومنها: ما لا يقبل فيه إلا ثلاثة رجال، وهو من عرف بغنى إذا ادعى أنه فقير ليأخذ من الزكاة.

ومنها: ما لا يكفي فيه إلا رجلان عدلان. كالحدود، والقصاص، والنكاح، والطلاق، والعتق، والرجعة ونحوها.

ومنها: ما يقبل فيه رجلان عدلان أو رجل وامرأتان، أو شاهد، ويمين المدعي. وهو المال وما يقصد به المال.

ومنها: ما يقبل فيه شهادة امرأة عدل، وهو ما لا يطلع عليه الرجال غالباً من عيوب النساء، والرضاع، والجراحات ونحوها في المواضع التي لا يحضرها إلا النساء.

ومنها: ما لا يقبل فيه إلا طبيب مسلم، أو بيطار كالأمراض أمراض الآدميين والدواب.

ومنها: ما يقبل فيه شهادة الكفار. كالوصية في السفر إذا تعذر وجود غيرهم. وعنه شيخ الإسلام. وكذلك عند كل ضرورة.

ومن الفروق الصحيحة: أن أوقات النهي لا تصلى فيها النوافل المطلقة، وتصلى فيها المعادة وراتبة الفجر، وسنة الطواف، وراتبة الظهر إذا جمع بينها وبين العصر. وإذا دخل يوم الجمعة المسجد والإمام يخطب. وكذلك على الصحيح كل نافلة لها سبب يفوت.

ومن الفروق الصحيحة: أن جميع بقاع الأرض يصلى فيها إلا المقبرة والحمام، وأعطان الإبل، والأماكن النجسة، والمغصوبة، والحش. هذه التي يقوم الدليل على المنع منها. وقيل: والمجزرة، والمزبلة، وقارعة الطريق وأسطحتها. والفرض في جوف الكعبة، ولكن الحديث الوارد فيه ضعيف.

ومن الفروق الصحيحة: أن الأموال الزكوية خمسة أقسام: قسم يجب فيه ربع العشر، وهو النقود، والعروض، عروض التجارة. وقسم يجب فيه نصف العشر، وهو الحبوب، والثمار إذا سقيت بمؤنة. وقسم يجب فيه العشر، وهو الحبوب، والثمار إذا سقيت بلا مؤنة. والخامس: يجب فيه الخمس، وهو الركاز ألحق بالزكاة إلحاقاً. وقسم الواجب فيه مقدر شرعاً ليس مشاعاً وهو المواشي. وقد فصلت هذه الأحكام في كتب الفقه.

## فصـــل

ومن الفـروق الصحيحة: استعمـال الـذهب والفضـة. ولـه ثـلاثـة استعمالات:

أحـدها: استعمـالـه في الأواني ونحـوهـا. فهـذا لا يحـل للذكـور ولا للإناث.

الثاني: استعماله في اللباس. فهذا يحل للنساء دون الرجال.

والثالث: استعماله في لباس الحرب وآلات الحرب. فهذا يجوز حتى للذكور.

ومن الفروق الصحيحة: أن الأقارب قسمان:

أحدهما: أصول وفروع يختصون بأحكام لا يشاركهم فيها أحد من الأقارب لا تجوز دفـع الزكاة إليهم ولا شهادته لهم وشهادتهم له، ولا يحكم القاضي لهم، وهم كلهم محارم.

وأما بقية الأقارب: فلا يشاركونهم إلا في أحكام لسبب آخر. ففروع الأب والأم. وإن نزلوا يشاركونهم في المحرمية، وفروع الأجداد، والجدات لصلبهم فقط. كذلك دون من عداهم.

ومن الأحكام المختصة بالفروع والأصول: أن الوكيـل، والوصي، والولي لا يبيـع لهم شيئاً مما هو لغيره ولا يشتري منهم لمكان التهمة، ومنها: وجوب النفقة للمعسرين منهم على كل حال وغيرهم لا بد أن يكون المنفق وارثاً لهم.

ومن الفروق: إذا وجد المشتري معيباً لا يعلم عيبه. فالأصل أن له الرد، وله أخذ الأرش، وقد يتعين الأرش إذا تعذر الرد، وقد يتعين الرد أو الإمساك بلا أرش إذا بيـع الربوي بربوي من جنسه، وقد يتلف على البائـع إذا علم ودلسه على المشتري حتى تلف قبل الرد.

وقسَّم الفقهـاء المتلفـات إلى قسمين: قسم يجب فيـه المثـل، وهو المثليات، وقسم فيه القيمة، وهي المتقومات، وقسموا بيـع الثمار قبل بدوّ صلاحها إلى قسمين. قسم لا يجوز، وهو الأصل، وقسم يجرز إذا بيعت مـع أصلها أو شرط فيها القطـع في الحال، وكذلك على المذهب إذا بيعت لرب الأصل والصواب المنـع في هذه الأخيرة، وبيـع الزرع قبل اشتداد حبه فيه هذه الأقسام الثلاثة.

وقسموا بيـع الأشياء إلى قسمين: قسم لا يتم بيعه إلا بالقبض، كبيـع الربويات بعضها ببعض إذا اتفقا في الجنس، أو في الكيل أو الوزن، وهذا لا بد فيه من القبض من الطرفين.

ومنها: السلم لا يتم إلا بقبض رأس ماله قبل التفرق، وما عدا ذلك فيتم البيـع ولو لم يقبض.

وقسموا ما يتعلق بالرقيق من ضمانات الأموال إلى أربعة أقسام: قسم يتعلق بـذمة سيـده. قليلاً كـان أو كثيراً وهـو ما أذن فيـه من التصرفـات أو الإتلافات، وقسم يتعلق بذمة العبد يتبـع فيه بعد عتقه. وهو ما استدانه بلا إذن سيده، وقسم يتعلق برقبة العبد، وهو إتلافه وجناياته. فيخير سيده بين فدائه بالأقل من قيمته، أو أرش جنايته، أو يسلمه للمجني عليه. وقسم يتعلق أيضاً برقبته على المشهور. وهو تصرفاته التي يلزم فيها مال، ولم يأذن فيها السيد. وعلى القول الصحيـح هذا القسم يتعلق بذمته.

وقسموا أسباب الضمان إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يد متعدية، كالغاصب ونحوه، فيضمن بتلف الشيء عنده مطلقاً أو إتلافه، ويضمن أيضاً نقصه ومنافعه.

والثاني: إتلاف بغير حق عمداً أو خطأ. ففيه الضمان على المكلف وغيره.

والثالث: تلف الأمانات عند المؤتمنين إذا فرطوا في حفظها أو تعدوا فيها. ولا فرق في الإتلاف بين المباشر والمتسبب.

# فصـــل

ومن التقاسيم الصحيحة: الغرس والبناء في أرض الغير إذا رجعت الأرض إلى صاحبها أنه قسمان: محترم وغير محترم. فغير المحترم: غرس الغاصب وبناؤه. فيخير صاحب الأرض بين إلزامه بقلعه وإزالة بنيانه مـع تضمينه نقص الأرض وأجرتها مدة مقامها بيد الغاصب، وبين تملك الغرس والبناء بقيمته، وبين إبقائه للغاصب بأجرة المثل إلا أن يختار الغاصب القلـع. فله ذلك، لكنه يضمن كل نقص وكل تفويت.

وأما القسم المحترم: فهو غرس المستأجر إذا تمت مدة الإجارة وبناؤه والمستعير ونحوهم، ممن هو مأذون له. فهنا ليس لصاحب الأرض قلـع الغرس والبناء، لأنه وضـع بحق لكنهما يتفقان إما على تقويمه على صاحب الأرض، أو على تأجيره. وإن اختار صاحبه أخذه، فله ذلك. إلا إن شرط بقاؤه، أو كان بقاؤه لازماً كالوقف، فليس لصاحبه قلعه. وأصل هذا كله الحديث الصحيـح (ليس لعرق ظالم حق).

ومن الفروق والتقاسيم الصحيحة: أن الولاية والوكالة على الأموال، والحقوق ثلاثة أقسام:

أحدها: وكيل، أو ولي خاص. فهذا عمله وتصرفه مقصور على ما أذن له فيه.

والثاني: وكيل، وولي عام، وهو الإمام، والحاكم. فهو وكيل وولي من لا وكيل له، ولا ولي من القاصرين، والغائبين، والمتغيبين، والأوقاف التي لا ناظر لها خاص وولي من لا ولي لها في النكاح.

الثالث: وكيل، وولي اضطرار. وهو في كل حالة يضطر فيه إلى توليه بحيث يخشى عليه الضياع إن لم يتوله. كمن مات في موضـع لا وصي له، ولا حاكم. فعلى من حضره جمـع ما تركه وحفظه وبيـع ما الأصلـح بيعه،

حتى يصل إلى وارثه أو وصيه. وكحفظ المال الذي إن تركه ضاع، وإن تولاه انحفظ على أهله. فيتعين حفظه وإيصاله. وله أجرة المثل إن لم يتبرع.

ومن التقاسيم الصحيحة: تقسيم الورثة إلى أصحاب فروض لهم نصيب مقدر لا يزيد إلا بالرد، ولا ينقص إلا بالردِّ، ولا ينقص إلا بالعول. وعاصب: له نصيب غير مقدر إن انفرد أخذ المال كله، وإن استغرقت الفروض سقط، وإن بقي بعدها شيء أخذه وإلى ذوي أرحام، يتفرعون عن أصحاب الفروض والعصبات من الأقارب، وينزلون في ميراثهم بمنزلتهم.

وتقسيم العصبات إلى عاصب بنفسه. وهم: جميع ذكور القرابة، والولاء المدلون بمحض الذكور أو بأنفسهم، وإلى عاصب بالغير، وهن: البنات، وبنات الابن، والأخوات الشقيقات، والأخوات للأب مع إخوتهن. يكونون للذكر مثل حظ الأنثيين فيما ورثوه، وعصبة مع الغير وهن: الأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن يأخذن ما فضل بعدهن.

والورثة من الأقارب الذكور مع الإناث ثلاثة أقسام:

قسم للذكر مثل حظ الأنثيين. وهم: الأبناء وأبناؤهم، والإخوة الأشقاء، والإخوة لأب مع أخواتهم.

وقسم الذكر والأنثى في الميراث سواء، وهم: الإخوة لأم مع أخواتهم. وكذلك ذوو الأرحام.

وقسم ينفرد الذكر بالميراث دون الأنثى. وهم: من عدا هؤلاء.

وكذلك تقسيم الحجب إلى ثلاثة أقسام:

محجوب بالوصف بأن يتصف الوارث بأنه قاتل، أو رقيق، أو مخالف لدين مورثه.

ومحجوب بالشخص حجب نقصان. فهذان القسمان يتأتى دخولهما على جميع الورثة.

وحجب حرمان بشخص فلا يدخل على الزوجين، والأبوين، والولدين، ويمكن دخوله على غيرهم. وقد وضحت هذه الجمل في المواريث.

ومن التقاسيم الصحيحة: تقسيم العتق إلى أربعة أقسام:

أحدها: العتق بإيقاع المعتق بلفظ من ألفاظ العتق.

الثاني: العتق بالفعل بأن يمثل برقيقه فيعتق عليه.

الثالث: العتق بالملك. فإذا ملك ذا رحم محرم بالقرابة عتق عليه.

الرابع: بالسراية، وهو أن يعتق جزء من رقيقه فيعتق كله أو يعتق نصيبه من الرقيق المشترك. فيسري إلى حق شريكه ويضمن نصيب شريكه إن كان موسراً. فإن كان معسراً لم يعتق منه إلا نصيبه. وهو المذهب. وقيل: يعتق كله، ويستسعي العبد في نصيب الشريك.

ومن التقاسيم الصحيحة: تقسيم المماليك إلى أقسام:

أحدهم: رقيق وقن، ومملوك، وعبد مطلق، وهو الذي لم يوجد فيه من أسباب العتق شيء، وهو الأصل في الأرقاء.

الثاني: مدبر، وهو الذي علق سيده عتقه بموته، فإن مات السيد، وهو في ملكه عتق من ثلثه.

والثالث: أم ولد، وهي التي ولدت من سيدها ما فيه خلق إنسان، وحكمها أنها في حال حياة سيدها يملك سيدها منافعها منافع الخدمة، ومنافع الاستمتاع، لكن لا يملك التصرف فيها، فإذا مات السيد عتقت من رأس ماله.

الرابع: مكاتب، وهو الذي اشترى نفسه من سيده بنجوم مؤجلة. فما دام في كتابته فهو رقيق، لكنه يملك إكسابه ومنافعه، فإن أدى لسيده أو لمن قام مقامه من وارث أو مشتر عتق. وإن عجز عن الأداء عاد إلى الرق.

الخامس معلق عتقه بصفة. فإن وجدت وسيده حي عتق من رأس المال إن كان صحيحاً، وإن كان مريضاً مرض الموت المخوف عتق من ثلثه.

## فصل

ومن التقاسيم الصحيحة: تقسيم الصداق إلى مسمى، وإلى مهر المثل، وإلى متعة.

فالمسمى: ما سمي في العقد من أعيان أو ديون أو منافع. وأما مهر المثل: ففي صور. منها: من لم يسم لها صداقها. ومنها: من نفي صداقها. ومنها: من سمي لها صداق فاسد.

وأما المتعة: فهي واجبة لمن طلقت قبل الدخول ولم يسم لها صداق لها المتعة بحسب يسار الزوج وإعساره، ومستحبة لكل مطلقة.

وكذلك تقسيم المهر إلى ثلاثة أقسام: تارة يسقط كله إذا كانت الفرقة من قبل الزوجة قبل الدخول، أو فسخ لعيبها قبل الدخول، وتارة يستقر كله إذا حصل الدخول، أو الخلوة، أو الموت، وتارة يتنصف إذا كانت الفرقة في الحياة قبل الدخول من جهة الزوج. وقد سمي لها صداق فلها نصف المسمى إلا أن يعفو الزوج أو تعفو الزوجة أو أبوها.

ومن الفروق والتقاسيم الصحيحة: تقسيم الإجابة إلى الدعوات إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: تجب الإجابة إليها، وهي وليمة العرس خاصة بشروطها المعروفة.

والثاني: تكره، وهي وليمة المأتم الذي يصنعه أهل الميت لأنه يكره لهم فعله للناس.

الثالث: من عدى ذلك فتستحب الإجابة إذا لم يكن عذر.

ومن التقاسيم الصحيحة: أن الطلاق يكره إذا كان من غير حاجة، وهو الأصل، ويحرم في الحيض، أو في طهر وطيء فيه أو بالثلاث، ويجب على المولى إذا أبـى الفيئة ولمن أصرت على ترك الصلاة، أو أبت العفة، ويسن إذا تضررت ببقائها وطلبت منه الطلاق، ويباح عنه الحاجة إليه.

ومن التقاسيم الصحيحة: أن المرأة تبين من زوجها إذا كمل الطلاق الثلاث، أو إذا كان الطلاق على عوض، أو كان قبل الدخول، أو في النكاح الفاسد. وإذا انقضت عدة الرجعية قبل الرجعة. وكذلك أنواع الفسوخ إذا فسخ نكاحها لسبب من الأسباب.

ومن التقاسيم الصحيحة: تقسيم الزوجات إلى من تجب لها النفقة، وهي كل زوجة في حبال زوجها، أو طلقها رجعياً، وهي في العدة، أو كانت حاملاً مطلقاً، ولمن لا تجب لها وهي الزوجة الناشز، والمطلقة البائن بلا حمل.

وقد ذكرنا في كتاب الإرشاد أكثر من عشرين فرقاً بين النكاح وبين سائر العقود. وقد ذكرنا أحكامها هناك مبسوطة.

وملخصها: أن النكاح من أجلِّ العبادات، وأنه ينبغي أن يتخير الأنثى الصالحة جامعة الأوصاف المقصودة، وأنه يجوز النظر إليها إذا أراد خطبتها، وأنه لا بد فيه من الولي والشهادة. وأما المحللات منه محصورات، والعبد الحر محجور عليه إلى أربع لا يزيد عليها، وأنه لا بد فيه من إيجاب وقبول قوليين، ولا بد فيه من تعيين الزوجين. ولا بد فيه من صداق وإن قل، ورتب عليه تحريم المحرمات بالمصاهرة.

وأما الطلاق: فيه ينتهي إلى ثلاث، فلا تحل له بعدها إلا بعد زوج آخر بشروطه. وأنه إذا فارقها ترتب على الفراق العدة بحسب أحوالها وما دامت فيها لا تحل لغيره، وأن جميع مخلفات الميت تورث عنه من أموال وحقوق إلا الزوجة، لا تورث عنه، بل هي ترثه، وأنه يجوز جعل الصداق أو بعضه

لأبيها. وأن له أن يزوجها بدون صداق مثلها. وله إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وأنه لا خيار فيه، وأنه لا أجل في النكاح. بل أجله الموت أو الفرقة، وأن الصداق إذا جعل مؤجلاً بأجل غير مسمى صح. وأجله الفرقة، وأن السيد إذا زوج أمته لم يملك بضعها ما دام نكاحها باقياً، حتى ولو باعها أو وهبها. وأنه لا يجوز مناكحة الكفار إلا المسلم يتزوج الكتابية. وأن النكاح الفاسد لا بد من فسخه. وأما بقية العقود فتخالف النكاح في هذه الأحكام، كما وضحنا هذه الجمل هناك.

## فصل

ومن التقاسيم الصحيحة: أن النجاسة الخارجة من السبيلين شرط لصحة الوضوء والصلاة إزالتها وإزالة النجاسات الأخر شرط لصحة الصلاة لا لصحة الطهارة.

ومن التقاسيم الصحيحة: أن الحدث الأصغر يمنع ثلاثة أشياء: الصلاة، والطواف بالبيت، ومس المصحف. وأن حدث الجنابة يمنع من هذه الثلاثة، ويمنع أيضاً من قراءة القرآن، ومن اللبث في المسجد بلا وضوء، وأن حدث الحيض والنفاس يمنع من هذه الخمسة، ويمنع أيضاً من الصوم ومن الطلاق، ومن الوطء في الفرج.

ومن الفروق الصحيحة: أن الإبل اختصت عن بقية البهائم بثلاثة أشياء:

أحدها: أن لحمها ينقض الوضوء.

الثاني: أنه لا تصح الصلاة بأعطانها وهو ما تقيم فيه، وتأوي إليه.

الثالث: أنها الأصل في الديات على الصحيح.

ومن الفروق: أن الكلب الأسود اختص عن بقية الحيوانات بثلاثة

أشياء: لا يحل اقتناؤه، ولا يحل صيده، ويبطل الصلاة إذا مرّ بين يدي المصلي.

ومن الفروق الصحيحة: أن الإبل والبقر والغنم اختصت عن غيرها من البهائم بأمور:

منها: وجوب الزكاة فيها بشروطها.

ومنها: أن الهدي، والأضاحي والعقيقة لا تكون إلا بها.

ومنها: أن الديات لا تكون إلا منها.

ومن الفروق الصحيحة: أن الدم الخارج من فرج الأنثى على ثلاثة أنواع:

دم الحيض وهو الأصل.

ودم النفاس. وسببه الولادة. وحكمه حكم الحيض، إلا أنه لا يحسب من الأقراء للعدة، ولا يحتسب به على المولِّي من الأربعة الأشهر.

والثالث: دم الاستحاضة، وهو الدم الذي يعرض للأُنثى بعارض من مرض ونحوه، ويستمر معها أو لا ينقطع إلا انقطاعاً يسيراً. وتجلس للحيض عادتها الخاصة إن كان لها عادة. فإن لم يكن لها عادة، وكان الدم متميزاً أسود وأحمر أو غليظاً ورقيقاً، أو منتناً، وغير منتن، جلست للحيض الأسود أو الغليظ أو المنتن. وما سواه طهر. فإن لم يكن لها تمييز جلست غالب الحيض ستة أيام أو سبعة أيام، ثم اغتسلت وصلت في بقية دمها. والله أعلم.

ومن الفروق الصحيحة: أن الصلاة إذا فاتت بأن خرج الوقت قبل فعلها، فهي على أقسام: قسم يقضى بحاله في كل وقت وهو الصلوات الخمس. وقسم لا يقضى بنفسه، وهو الجمعة إذا فاتت أو فات وقتها صُلِّي

الظهر بدلاً عنها. وقسم تقضى ولكن بنظير وقتها. وهي العيدان إذا فات العيد قضي من الغد قبل الزوال.

وأما النوافل: فما كان له سبب عارض إذا فات لم يقض لفوات سببه، كالكسوف والاستسقاء وتحيته المستحبة وسنة الوضوء ونحوها، وما كان يدور بدوران الوقت كالرواتب والوتر استحب قضاؤه.

ومن الفروق الصحيحة: أن من ترك ركناً من أركان الصلاة معه. ولا بجهل أو نسيان وجب عليه أمران: فعله وسجود السهو. ومن ترك واجباً من واجباتها وجب عليه سجود السهو دون فعل الواجب إذا فات محله.

ومن الفروق الصحيحة: أن أقوال الصلاة ثلاثة أقسام:

أحدها: أركان؛ وهي تكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة إلا في حق المأموم إذا جهر إمامه، والتشهد الأخير، والصلاة على النبـي ﷺ فيه، والسلام.

الثاني: واجبات؛ وهي التكبيرات غير تكبيرة الإحرام، وغير تكبيرة ركوع المسبوق إذا أدرك إمامه راكعاً. فإنها سنة، وقول: سمـع الله لمن حمده في الرفـع من الركوع للإمام والمنفرد. وقول: ربنا ولك الحمد للكل. وقول: سبحان ربـي العظيم في الركوع، وسبحان ربـي الأعلى في السجود، ورب اغفر لي بين السجدتين، والتشهد الأول في الرباعية والثلاثية، وبقية الأقوال سنة.

وكـذلك أفعـال الصلاة: القيـام، والقعود، والـركـوع، والسجـود، والطمأنينة فيها وترتيبها كلها أركان وهيئات؛ هذه الأركان وما يشرع فعله فيها مستحبات والقعود في التشهد الأول من الواجبات.

ومن الفروق الصحيحة: أن الإمام يتحمل عن المأموم أشياء مخصوصة وهو السترة، وقراءة الفاتحة، والتشهد الأول إذا سبق في ركعة في رباعية وسجود السهو إذا سهـا المأمـوم دون الإمام بشرط أن يدرك الصلاة كلها.

وسجود التلاوة إذا قرأ المأموم آية سجدة لم يسجد. وقول: سمع الله لمن حمده. وما سوى ذلك من أقوال الصلاة وأفعالها لا يتحمله.

## فصل

ومن الفروق الصحيحة: بين المفرد بالحج، والقارن، والمتمتع في النية. ووجوب الهدْي والأفعال. فالمفرد: هو الذي ينوي الإحرام بالحج وحده، والقارن: هو الذي ينوي الإحرام بالحج والعمرة معاً وقت الإحرام أو يدخل الحج على العمرة قبل الشروع في طوافها لعذر كحيض وخشية فوات أو لغير عذر، والمتمتع: ينوي الإحرام بالعمرة وحدها في أشهر الحج.

وأما الأفعال: فأفعال المفرد والقارن واحدة. المفرد واضح، لأنه محرم بالحج وحده.

وأما القارن: فإن أفعال العمرة تدخل في أفعال الحج وتكون الأفعال كأفعال المفرد.

وأما المتمتع: فيأتي بعمرة تامة مستقلة وبحج مستقل.

وأما الهدْي: فالمتمتع والقارن عليهما الهدْي إن وجدا. فإن لم يجدا صاما عشرة أيام. ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجعا إلى أهلهما، والهدْي: هدْي شكر لله على حصول نسكين تامّين في سفر واحد.

وهذا من الفروق بينهما وبين المفرد بالحج. فإن المفرد فيه لم يحصل له إلا الحج وحده، فإن اعتمر بعده من مكة كانت عمرة مكية لا عمرة أفقية. وبينها وبين الأفقية فرق عظيم في فضل الأفقية وشرفها.

ومن الفرق بينها: أن المتمتع إذا دخل مكة طاف طواف العمرة. والمفرد والقارن يطوفان طواف القدوم وهو سنة وأفضل هذه الأنساك التمتع.

ولهذا يشرع للمفرد والقارن إذا لم يسوقا الهدْيَ أن يفسخا نية الحج وينويا عمرة مفردة ليكونا متمتعين.

* * *

تم الكتاب والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان. اللهم أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

قال ذلك مؤلفه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وقع الفراغ منه في ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥.

# هذه رسالة في القواعد الفقهيّة

## ويليها تعليق لطيف على منظومة
## في السّير إلى الله والدّار الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدّمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإني وضعتُ لي ولإخواني: منظومة مشتملة على أمهات قواعد الدين، وهي ــ وإن كانت قليلة الألفاظ ــ فهي كثيرة المعاني لمن تأمَّلها.

ولكنها تحتاج إلى تعليق يوضحها ويكشف بعض معانيها، وأمثلتها تنبّه اللبيب الفَطِنَ على ما وراءَ ذلك، فوضعت عليها هذا الشرح اللطيف، تَيْسِيراً لفَهمها، وأسأل الله أن ينفـع به واضعه، وقارئَه، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه رؤوف رحيم.

**عبد الرحمـٰن بن ناصر السعدي**

بسم الله الرحمن الرحيم

## ١ ــ الحمــد لله العليّ الأرفق وجـامـع الأشيـاء والمفـرّق

١ ــ أما الحمد فهو: الثناءُ على الله بصفات كماله، وسبوغ نعمه، وسعة جوده، وبديـع حكمته، لأنه تعالى كامل الأسماء والصفات والأفعال، ليس في أسمائِه اسم مذموم، بل كلها أسماء حسنى، ولا في صفاته صفة نقص وعيب، بل هي صفات كاملة من جميـع الوجوه، وهو تعالى جميل الأفعال؛ لأن أفعاله دائرة بين العدل والإحسان، وهو محمود على هذا وعلى هذا، فله أتم حمد وأكمله.

و«الله» هو المألوه المعبود، الذي يستحق أن يؤلّه ويعبد بجميـع أنواع العبادة، ولا يشرك به شيئاً لكمال حمده.

«العليّ» الذي له العلوّ التام المطلق من جميـع الوجوه، علوّ الذات، وعلوّ القَدْرِ، وعلوّ القهر.

«الأرفق» أي الرفيق في أفعاله، فأفعاله كلها رفق، على غاية المصالـح والحكمة، وقد أظهر سبحانه لعباده من آثار رفقه ما يستدلون به على كماله وكمال حكمته ورفقه، كما في خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيّامٍ، مـع أنه قادر على أن يخلقها في لحظة، وكذلك خلقه الإنسان والحيوانـات والنبات، على اختلاف أنواعـه، يخلقها شيئـاً فشيئاً، حتى تنتهي وتكمـل، مـع قدرتـه على تكميلهـا في لحظة، ولكنـه رفيق حكيم، فمن رفقه وحكمتـه تطويـرهـا في هذه الأطوار، فلا تنافي بين قـدرته وحكمتـه، كما أنـه يقدر على هـداية الضالين، ولكن حكمته اقتضت إبقاءَهم على ضلالهم عدلاً منه تعالى، ليس ظلماً،

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

لأن إعطاءَ الإيمان والهدى محض فضله، فإذا منعه أحداً لم يُعَدَّ ظالِماً، لا سيّما إذا كان المحلّ غير قابلٍ للنعم، فكل صفة من صفاته تعالى لها أثر في الخلق والأمر، ولا ينافي بعضها بعضاً، ومن فهم هذا الأصل العظيم انحلت عنه إشكالات كثيرة في معرفة أسماءِ الله وصفاته، ونَزَّل كل اسم من أسماءِ الله في محله اللائق به، وقولي:

«وجامع الأشياء والمفرق» يعني: أنه تعالى جمع الأشياءَ في شيء، وفرّقها في شيء آخر، كما جَمَع بين خلقه في كونه خلقهم، وَرَزَقهم، وفرّق بينهم في الأشكال والصور، والطول والقِصَر، والسواد والبياض، والحسن والقبح، وغير ذلك من الصفات.

كل هذا صادر عن كمال قدرته وحكمته، ووضعه الأشياءَ مواضعها اللائقة بها، والله أعلم.

قولي:

٢ ـ ذي النعم الواسعة الغزيره     والحِكَمِ الباهرة الكثيره

---

٢ ـ هذا بيان لسعة فضله وعطاياه الشاملة لجميع خلقه، فلا يخلو مخلوق من نعمه طرفة عين، ولا سيّما الآدمي، فإنَّ الله فضَّله وشرّفه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة، ولا يمكن تعداد نعمه.

قال تعالى: ﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل: الآية ١٨]. ولكنه تعالى رضِيَ من شكر نعمه بالاعتراف بها، والتحدث بها، وصرفها في طاعة الله، وأن لا يستعان بشيءٍ من نعمه على معاصيه.

وقولي:

[والحِكم الباهرة الكثيرة] يعني أن حكمه تعالى كثيرة تبهر العقول، وتتعجب منها غاية العجب، فإن جميع مخلوقاته ومأموراته مشتملة على غاية الحكمة.

ومَنْ نظر في هذا الكون وعجائبه وسمائِه وأرضه، وشمسه وقمره، وكواكبه وفصوله وحَيَوانِه، وأشجاره ونباته، وجباله وبحاره، وجميع ما يحتوي عليه، رأى فيه العجائب العظيمة، ويكفي الإنسان نفسه، فإنه إذا نظر إلى كل عضو من أعضائِه علم أنه لا يصلح في غير مَحَلِّهِ.

وقولي:

٣ ـ ثم الصلاة مع سلام دائم
على الرسول القرشيِّ الخاتم

٤ ـ وآله وصحبه الأبْرار
الحائزي مراتب الفخار

---

٣ ـ أما الصلاة من الله فهي ثناؤه على عبده في الملإ الأعلى ففيها حصول الخير، والسلام: فيه دفع الشر والآفات، والرسول: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والخاتم: الذي ختم الله به أنبياءَه ورسله، فلا نبي بعده.

٤ ـ وآل النبيّ هم: أتباعه على دينه إلى يوم القيامة، فيدخل فيهم الصحابة، فيكون عطفهم عليهم من باب عطف الخاص على العام، لمزيتهم وشرفهم بالعلم النافع والعمل الصالح والتقى الكامل الذي أوجب لهم مفاخر الدنيا والآخرة، رضي الله عنهم.

٥ ــ اعلم هــديت أن أفـضــل المـنن
علم يزيل الشـك عنك والـدَّرن
٦ ــ ويـكشـف الحـق لــذي الـقـلوب
ويـوصـل العبــد إلى المـطلوب

---

٥ و٦ ــ يعني أن منن الله على العباد كثيرة، وأفضل ما منَّ الله على عبده به هو العلم النافـع.

وضابط العلم النافـع كما قلت في النظم: أنه يزيل عن القلب شيئين، وهما: الشبهات والشهوات.

فالشبهات تورث الشك، والشهوات تورث دَرَن القلب وقسوته، وتثبط البدن عن الطاعات.

فعلامة العلم النافـع أن يزيل هذين المرضين العظيمين، ويجلب للعبد في مقابلتهما شيئين، وهما: اليقين الذي هو ضد الشكوك، الثاني الإيمان التام الموصل للعبد لكل مطلوب، المثمر للأعمال الصالحة، الذي هو ضدّ للشهوات، فكلما ازداد الإنسان من العلم النافـع، حصل له كمال اليقين، وكمال الإرادة، ولا تتم سعادة العبد إلا باجتماع هذين الأمرين، وبهما تنال الإمامة في الدين.

قال تعالى: **﴿وجَعَلْنا مِنهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتنا يُوقِنُونَ﴾** [سورة السجدة: الآية ٢٤].

ودَرَجات اليقين ثلاث: كل واحدة أعلى من الأُخرى: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

فعلم اليقين في: كعلمنا الآن الجنة والنار.

وعين اليقين: إذا ورد الناس القيامة **﴿وأُزلفت الجنة للمتقين، وبُـرِّزت الجحيم للغاوين﴾** فرأوهما قبل الدخول.

. . .   . . .   . . .   . . .   . . .      . . .   . . .   . . .   . . .   . . .

---

وحق اليقين: إذا دخلوهما.

وحاصل ذلك أن العلم: شجرة تثمر كل قول حسن وعمل صالح، والجهل: شجرة تثمر كل قول وعمل خبيث.

وإذا كان العلم بهذه المثابة فينبغي للإنسان أن يحرص كل الحرص، ويجتهد كل الاجتهاد في تحصيله، وأن يديم الاستعانة بالله في تحصيله، ويبدأ بالأهم فالأهم منه.

ومن أهمه معرفة أصوله وقواعده التي ترجع مسائله إليها.

فلهذا قلت:

٧ ــ فـاحـرص على فهمـك للقـواعِـدِ
جـامعـة المسـائـل الشـوارِدِ

٨ ــ فتـرتقي في العلم خيـر مـرتقى
وتقتفي سبـل الـذي قـد وفقـا

٩ ــ هـذه الـقـواعـد نـظمـتـهـا
من كتب أهل العلم قد حصَّلتها

١٠ ــ جـزاهم المـولى عـظيم الأجـر
والـعفـو مـع غـفـرانـه والبِـر

٧ ــ ١٠ ــ وهذا لأن معرفة القواعد من أقوى الأسباب لتسهيل العلم وفهمه وحفظه، لجمعها المسائل المتفرقة بكلام جامع.

# فصل

## ١١ ـ النيّة شرط لسائر العَمَـلْ   بها الصلاح والفساد للعمل

١١ ـ هذه القاعدة أنفـع القواعد وأجلها، وتدخل في جميـع أبواب العلم، فَصَلاح الأعمال البدنية والمليّة: أعمال القلوب: وأعمال الجوارح إنما هو بالنية، وفساد هذه الأعمال، بفساد النية، فإذا صلحت النية صلحت الأقوال والأعمال، وإذا فسدت النية فسدت الأقوال والأعمال، كما قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرءٍ ما نوى).

«النِّيَّة» لها مرتبتان: إحداهما تمييز العادة عن العبادة، وذلك أن الصوم ـ مَثَلاً ـ هو: ترك الطعام والشراب ونحوهما، ولكن تارة يتركه الإنسان عادة؛ من غير نية التقرب إلى الله في هذا الترك، وتارة يكون عبادة، فلا بُدَّ من التمييز بينهما.

الثاني: تمييز العبادات بعضها من بعض، فبعضها فرض عين، وبعضها فرض كفاية، وبعضها راتبة أو وتر، وبعضها سنن مطلقة، فلا بدّ من التمييز.

وَمِنْ مراتب النيّة: الإخلاص، وهو قدر زائد على مجرد نية العمل، فلا بد من نية نفس العمل والمعمول له؛ وهذا هو الإخلاص، وهو: أن يقصد العبد بعمله وجه الله، لا يريد غيره، فمِنْ أمثلة هذه القاعدة: العبادات كلها، كالصلاة فرضها ونفلها، والزكاة، والصوم والاعتكاف، والحـج، والعمرة، فـرض الكل ونفله، والأضاحي والهَدْي، والنذور والكفارات، والجهاد، والعتق، والتدبير، ويُقَال: بل يسري هذا إلى سائر المباحات: إذا نوى بها التَّقَوِّي على طاعة الله، أو التوصل إليها؛ كالأكل والشرب، والنوم، واكتساب المال، والنكاح، والوطءِ فيه، وفي الأمَةِ إذا قصد به الإعفاف، أو تحصيل الولد الصالـح، أو تكثير الأمة.

وهَاهنا معنى ينبغي التنبّه له، وذلك أن الذي يخاطب به العبد نوعان: أمر مقصود فعله، وأمر مقصود تركه.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

فأما المأمور به فلا بد فيه من النية، فهي شرط في صحته، وحصول الثواب به، كالصلاة ونحوها.

وأما ما يقصد تركه، كإزالة النجاسة في الثوب، والبدن، والبقعة، وكأداءِ الديون الواجبة.

أما براءَة الذِّمَّة من النجاسة والديون، فلا يشترط لها نيّة إبرَاء الذمة، ولو لم ينو، وأما حصول الثواب عليها فلا بد فيه من نية التقرب إلى الله في هذا، والله أعلم.

## ١٢ ـ الدين مبني على المصالح في جلبها والدرء للقبائح

١٢ ـ هذا الأصل العظيم، والقاعدة العامة يدخل فيها الدين كله، فكله مبني على تحصيل المصالح في الدين والدنيا والآخرة، وعلى دفع المضار في الدين والدنيا والآخرة. ما أمر الله بشيءٍ إلا وفيه من المصالح ما لا يحيط به الوصف، وما نهى عن شيءٍ إلا وفيه من المفاسد ما لا يحيط به الوصف.

ومن أعظم ما أمر الله به التوحيد، الذي هو: إفراد الله بالعبادة، وهو مشتمل على صلاح القلوب، وسعتها، ونورها، وانشراحها، وزوال أدرانها، وفيه مصالح البدن والدنيا والآخرة.

وأعظم ما نهى الله عنه: الشرك في عبادته، الذي هو فساد وحسرة في القلوب والأبدان، والدنيا والآخرة.

فكل خير في الدنيا والآخرة فهو من ثمرات التوحيد.

وكل شر في الدنيا والآخرة فهو من ثمرات الشرك.

ومما أمر الله به: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج: الذي من فوائد هذا انشراح الصدر ونوره، وزوال همومه وغمومه، ونشاط البدن وخفته، ونور الوجه، وسعة الرزق، والمحبة في قلوب المؤمنين، وفي الزكاة والصّدقة، ووجوه الإحسان: زكاة النفس وتطهيرها، وزوال الوسخ والدرن عنها، ودفع حاجة أخيه المسلم، وزيادة بركة ماله ونماؤه، مع ما في هذه الأعمال من عظيم ثواب الله الذي لا يمكن وصفه، ومن حصول رضاه الذي هو أكبر من كل شيءٍ، وزوال سخطه.

وكذلك شرع لعباده الاجتماع للعبادة في مواضع، كالصلوات الخمس، والجمعة، والأعياد، ومشاعر الحج، والاجتماع لذكر الله، والعلم النافع، لما في الاجتماع من الاختلاط الذي يوجب التوادد والتواصل، وزوال التقاطع والأحقاد بينهم، ومراغمة الشيطان الذي يكره اجتماعهم على الخير، وحصول التنافس في

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

الخيرات، واقتداء بعضهم ببعض، وتعليم بعضهم بعضاً، وتعلم بعضهم من بعض، وكذلك حصول الأجر الكثير الذي لا يحصل بالانفراد، إلى غير ذلك من الحكم. وأباح سبحانه البيع والعقود المباحة، لما فيها من العدل، ولحاجة الناس إليها. وحرم الربا وسائر العقود الفاسدة، لما فيها من الظلم والفساد، ولاغتناء الناس عنها، وأباح الطيبات من المآكل والمشارب، والملابس، والمناكح، لما فيها من مصالح الخلق، ولحاجة الناس إليها، ولعدم المفسدة فيها. وحرم الخبائث من: المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، لما فيها من الخبث والمضرة، عاجلاً وآجلاً، فتحريمها حماية لعباده، وصيانة لهم، لا بخلاً عليهم، بل رحمة منه بهم، فكما أن عطاءَه رحمة، فمنعه رحمة، مثال ذلك: أن إنزال المطر بقدر ما يحتاج إليه العباد: رحمة منه تعالى، فإذا زاد بحيث تضر زيادته كان منعه رحمة.

وبالجملة، فإن أوامر الرب قوت القلوب وغذاؤها، ونواهيه داء القلوب وَكُلُومهَا، وكذلك المواريث، والأوقاف، والوصايا، وما في معناها: اشتملت كلها على غاية المصلحة والمحاسن، ولا يمكن ضبط الحكم والمصالح في باب واحد من أبواب العلم، فضلاً عن جميعه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم، والملّة الحنيفية، والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاءِ ــ لو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل واحد منهم ــ فوقها، فإن العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسنها، وشهدت لها، وأنه ما طَرَقَ العالم شريعة أكمل منها ولا أعظم ولا أجل، ففيها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدليل والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وشاهداً على أنها من عند الله تعالى، وكلها شاهدة لله بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة، والبر، والإحسان، والإحاطة بالغيب

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

والشهادة، والعلم بالمبادىء والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم على عباده نعمة أجل مِن أَنْ هَداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاهم لها وارتضاها لهم، كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]» ثم أطال الكلام رحمه الله تعالى.

## ١٣ ـ فإنْ تَزَاحَم عَدَدُ المصالِح
## يقدّم الأعلى من المصالح

١٣ ـ إذا دار الأمر بين فعل إحدى المصلحتين وتفويت الأخرى، بحيث لا يمكن الجمع بينهما، رُوعي أكبر المصلحتين وأعلاهما فَفُعِلَتْ.

فإن كانت إحدى المصلحتين واجبة والأخرى سُنَّة، قدم الواجب على السنة، وهذا مثل: إذا أُقيمت الصلاة الفريضة، لم يجز ابتداءُ التطوع، وكذا إذا ضاق الوقت، وكذلك لا يجوز نفل الصيام، والحج، والعمرة، وعليه فرض، بل يقدم الفرض.

وإن كانت المصلحتان واجبتين، قدّم أوجبهما، فيقدم صلاة الفرض، على صلاة النذر، وكالنفقة اللازمة للزوجات، والأقارب، والمماليك: تقدم الزوجات، ثم المماليك، ثم الأولاد، ثم الأقرب فالأقرب، وكذا صدقة الفطر.

وإن كانت المصلحتان مسنونتين، قدم أفضلهما، فتقدم الراتبة على السنة، والسنة على النفل المطلق، ويقدم ما فيه نفع متعدٍّ، كالتعليم وعيادة المريض، واتباع الجنائز، ونحوها على ما نفعه قاصر، كالصلاة النافلة، والذكر، ونحوها.

وتقدم الصدقة، والبر للقريب على غيره، ويقدم من عتق الرقاب أغلاها وأنفسها.

ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يَعْرِض للعمل المفضول من العوارض ما يكون به أفضل من الفاضل، بسبب اقتران ما يوَجب التفضيل.

والأسباب الموجبة للتفضيل أشياءُ، منها:

أن يكون العمل المفضول مأموراً به بخصوص هذا الموطن، كالأذكار في الصلاة وانتقالاتها، والأذكار بعدها، والأذكار الموظفة بأوقاتها، تكون أفضل من القراءة في هذه المواطن.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

ومن الأسباب الموجبة للتفضيل: أن يكون العمل المفضول مشتملاً على مصلحة لا تكون في الفاضل، كحصول تأليف به أو نفـع متعدٍ لا يحصل بالفاضل، أو يكون في العمل المفضول دفـع مفسدة يظن حصولها في الفاضل.

ومن الأسباب الموجبة للتفضيل أن يكون العمل المفضول أزيد مصلحة للقلب من الفاضل، كما قال الإمام أحمد رحمه الله لمَّا سئل عن بعض الأعمال: «انظر إلى ما هو أصلـح لقلبك فافعله» فهذه الأسباب تصيِّر العمل المفضول أفضل من الفاضل بسبب اقترانها بها.

## ١٤ ـ وضدّه تزاحم المفاسِدِ يرتكب الأدنى من المفاسِدِ

١٤ ـ المفاسد: إما محرمات، أو مكروهات، كما أن المصالح إما واجبات أو مستحبات، فإذا تزاحمت المفاسد، بأن اضطرّ الإنسان إلى فعل إحداها، فالواجب أن لا يرتكب المفسدة الكبرى، بل يفعل الصغرى، ارتكاباً لأهون الشرين، لدفع أعلاهما.

فإن كانت إحدى المفسدتين حراماً والأخرى مكروهة، قدم المكروه على الحرام، فيقدم الأكل من المشتبه على الحرام الخالص، وكذلك يقدم سائر المكروهات على المحرمات.

وإن كانت المفسدتان حرامين: قدم أخفهما تحريماً، وكذا إذا كانتا مكروهتين، قدم أهونهما.

ومراتب المحرمات والمكروهات في الصغر والكبر تستدعي بسطاً كثيراً لا يمكنني ضبطها.

## ١٥ ــ ومن قواعد الشريعة التيسير في كل أمرٍ نابه تعسير

١٥ ــ وذلك أن الشرع مبناه على الرأفة والرحمة والتسهيل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]، فإن الأمور نوعان:

نوع لا يطيقه العباد، فهذا لا يكلِّفُهم الله به.

والثاني يطيقونه، واقتضت حكمته أمرهم به، فأمرهم به.

ومع هذا إذا حصل لهم بفعله مشقة وعسر، فلا بد أن يقع التخفيف فيه والتيسير، إما بإسقاطه كله، أو تخفيفه وتسهيله.

ويدخل في هذه القاعدة أنواع من الفقه، منها في العبادات: التيمم عند مشقة استعمال الماء ــ على حسب تفاصيله في كتب الفقه ــ والقعود في الصلاة عند مشقة القيام في الفرض وفي النفل مطلقاً، وقصر الصلاة في السفر، والجمع بين الصلاتين، ونحو ذلك من رخص السفر ونحوها.

ومن التخفيفات أيضاً: أعذار الجمعة والجماعة، وتعجيل الزكاة، والتخفيفات في العبادات، والمعاملات، والمناكحات، والجنايات.

ومن التخفيفات المطلقة: فروض الكفايات وسننها، والعمل بالمظنون، لمشقة الاطلاع على اليقين، والله أعلم.

١٦ ـ ولـيس واجـب بـلا اقـتـدار
ولا مـحـرم مـع اضـطرار

---

١٦ ـ وهاتان قاعدتان عظيمتان ذكرهما شيـخ الإسلام وغيره، واتفق العلماءُ عليهما، فإن الله فرض على عباده فرائض وحرم عليهم محرمات، فإذا عجزوا عما أمرهم به، وضعفت قُدَرُهم عنه، لم يوجب عليهم فعل ما لم يقدروا عليه، بل أسقطه عنهم، ومَـعَ هذا إذا كانت لهم أعمال قبل وجود هذا المانـع، فإنه يجري أجرها عليهم: تفضلاً منه تعالى.

وكذلك حرم عليهم أشياءَ حماية لهم وصيانة، وجعل لهم في المباح فسحة عن المحرم، ومـع هذا إذا اضطر الإنسان إلى المحرم جاز له فعله، فالضرورات تبيـح المحظورات، كأكل الميتة، وشرب الماء النجس عند الضرورة، وجواز محظورات الحـج وغيره عند الضرورة، ولكن يجب أن لا يأخذ من المحظور إلا بقدر الضرورة.

فلهذا قلت:

١٧ ـ وكــل مــحــظور مــع الضــروره
بقــدر مــا تحتــاجــه الضــروره

١٨ ـ وتــرجــع الأحــكــام لــليــقــيــن
فــلا يــزيــل الــشــك لليقين

---

١٧ ـ أي فلا يزيد على ما تحتاج إليه الضرورة، بل إذا زالت الضرورة وجب الكف عن الباقي، فيأكل من الميتة ونحوها بقدر ما يُزِيل الضرورة.

١٨ ـ ومعنى هذا أن الإنسان متى تحقق شيئاً، ثم شك: هل زال ذلك الشيء المتحقَّق أم لا؟: الأصل بقاء المحقق، فيبقى الأمر على ما كان متحققاً، فلو شك في امرأة: هل تزوجها؟ لم يكن له وطؤها، استصحاباً لحكم التحريم، وكذا لو شك: هل طلق زوجته أم لا؟ لم تطلق، وله أن يطأها استصحاباً للنكاح، وكذا لو شك في الحدث بعد تيقنه الطهارة أو عكسه، أو شك في عدد الركعات، أو الطواف، أو السعي، أو الرمي ونحوه.

ولا تختص هذه القاعدة بالفقه، بل الأصل في كل حادث عدمه، حتى يتحقق، كما نقول: «الأصل انتفاء الأحكام عن المكلفين حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك».

والأصل في الألفاظ أنها للحقيقة، وفي الأوامر أنها للوجوب، وفي النواهي أنها للتحريم.

الأصل بقاء العموم حتى يتحقق مخصص.

والأصل بقاء حكم النص حتى يرد الناسخ، ولأجل هذه القاعدة كان الاستصحاب حجة، وما ينبني على هذه القاعدة لا يطالب بالدليل، فإنه مستند إلى حجة، للاستصحاب، كما أن المدَّعى عليه في باب الدعاوى لا يطالب بحجة على براءة ذمته، بل القول في الإنكار قوله بيمينه.

ولَمَّا كانت الأحكام ترجع إلى أصولها حتى يتيقن زوال الأصل، احتيج إلى ذكر أصول أشياء إذا شك فيها رجع إلى أصولها:

فقلت:

١٩ ـ والأصــل في ميـاهنـا الـطهـارة
والأرض والـثيـاب والـحـجـارة

---

١٩ ـ فالمياه كلها: البحار، والأنهار، والآبار، والعيون، وجميع ما تحتوي عليه الأرض من: التراب، والأحجار، والسباخ، والرمال، والمعادن، والأشجار، وجميع أصناف الملابس، كلها طاهرة، حتى يتيقن زوال أصلها بِطُرُوء النجاسة عليها.

٢٠ ــ والأصل في الإبضاع واللحوم
والنفس والأموال للمعصوم
٢١ ــ تحريمها حتى يجيءَ الحِلُّ
فافهم هداك الله مايُمَلُّ

---

٢٠، ٢١ ــ يعني أن الأصل في هذه الأشياء التحريم حتى نتيقن الحل.

فالأصل في الإبضاع التحريم، والإبضاع: وطءُ النِّساءِ، فلا يحل إلا بيقين الحل: إما بنكاح صحيح، أو ملك يمين، وكذلك اللحوم؛ الأصل فيها التحريم، حتى يتيقن الحل.

ولهذا إذا اجتمع في الذبيحة سببان: مبيح، ومحرِّم، غلِّب التحريم، فلا يحل المذبوح والمَصيدُ، فلو رماه أو ذبحه بآلة مسمومة، أو رماه فوقع في ماء، أو وطئه شيء يقتل مثله غالباً، فلا يحل، وكذلك الأصل في المعصوم ــ وهو: المسلم، أو المعاهد: ــ تحريم دمه، وماله، وعرضه، فلا تباح إلا بحق، فإذا زال الأصل ــ : إما بردة المسلم، أو زنا المُحْصَن، أو قتل نفس، أو نقض المعاهد العهد ــ حل: قتله.

وكذلك إذا جنى الإنسان جناية توجب قطع عضو، أو توجب عقوبة أو مالاً: حل منه بقدر ما يقابل تلك الجناية، كإذا قطع عضواً، أو سرق، ونحوه.

وكذا إذا استدان وأبى الوفاء، فيؤخذ من ماله بقدر ذلك الحق، سواء كان الدَّيْن لله، أو لخلقه، أو نفقة للأقارب والمماليك، والبهائم، والضيف، ونحوه.

٢٢ ــ والأصل في عاداتنا الإباحَهْ
حتى يجيء صارف الإباحَهْ
٢٣ ــ وليس مشروعاً من الأمورْ
غير الذي في شرعنا مذكورْ

---

٢٢ و٢٣ ــ وهذان الأصلان ذكرهما شيخ الإسلام رحمه الله في كتبه، وذكر أن الأصل الذي بنى عليه الإمام أحمد مذهبه: أن العادات الأصل فيها الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما ورد تحريمه، وأن الأصل في العبادات أنه لا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله.

فالعادات هي ما اعتاد الناس من: المآكل، والمشارب، وأصناف الملابس، والذهاب، والمجيء، والكلام، وسائر التصرفات المعتادة، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله: إمَّا نَصًّا صريحاً أو يدخل في عموم أو قياس صحيح، وإلا فسائر العادات حلال، والدليل على حلها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا في الأرضِ جَمِيعاً**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]. فهذا يدل على أنه خلق لنا ما في الأرض جميعه، لننتَفع به على أيِّ وجه من وجوه الانتفاع.

وأما العبادات، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وبين في كتابه، وعلى لسان رسوله العبادات التي يُعْبَدُ بها، وأمر بإخلاصها له، فمن تقرب بها لله مخلصاً، فعمله مقبول، ومن تقرب لله بغيرها، فعمله مردود، كما قال ﷺ: (**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمرُنا فَهُوَ رَدٌّ**) وصاحبه داخل في قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾ [سورة الشورى: الآية ٢١].

## ٢٤ ـ وسـائل الأمـور كـالمقـاصـد
## واحكم بهـذا الحكم لـلزوائـد

٢٤ ـ يعني أن الوسائل تعطي أحكام المقاصد، فإذا كان مأموراً بشيء كان مأموراً بما لا يتم إلا به، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلا به فهو مسنون، وإذا كان منهياً عن شيءٍ كان منهياً عن جميـع طرقه وذرائعه ووسائله الموصلة إليه.

فالوسيلة إلى الواجب واجبة، كالمشي إلى الصلاة للفريضة والزكاة ونحوها، والجهاد، وأداء الحقوق اللازمة، كحقوق الله تعالى، وحقوق الوالدين والأقارب، والزوجات، والمماليك، فما لا تتم هذه الأمور إلا به فهو واجب.

وأما المسنون كالنافلة من: الصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، والعمرة.

والمتعلقة بالخلق كحقـوق الخلق المستحبة من: صلة الأرحـام، وعيادة المريض، والذهاب إلى مجالس العلم، ونحوه. فما لا تتم هذه إلاَّ به فهو مسنون، كنقل الأقدام إليها ونحوه.

وأما المحرَّم فمنه الشرك الأكبر، وهو الشرك في العبادة، فيحرم كل قول وفعل يفضي إليه، ويكون وسيلة قريبة إليه، ويكون شركاً أصغر، مثل الحلف بغير الله، وتعظيم القبور، والتبرك بها، الذي لم يبلـغ رتبة العبادة، لأنه ذريعة لعبادتها.

وكذلك الوسائل إلى سائر المعاصي، كالزنا، وشرب الخمر، ونحوهما، فالوسائل إليها محرمةً.

والوسيلة إلى المكروه مكروه.

وهذه القاعدة من أنفـع القواعد وأعظمها وأكثرها فوائد، ولعلها يدخل فيها ربـع الدين.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

وقولي «واحكم بهذا الحكم للزوائد» الأشياء ثلاثة: مقاصد، كالصلاة مثلاً، ووسائل إليها: كالوضوء والمشي، ومتممات لها: كرجوعه إلى محله الذي خرج منه، وقد ذكرنا أن الوسائل تعطى أحكام المقاصد، فكذلك المتممات للأعمال، تعطى أحكامها، كالرجوع من الصلاة، والجهاد، والحج، واتباع الجنازة، وعيادة المريض، ونحو ذلك، فإنه من يحن يخرج من محله للعبادة فهو في عبادة حتى يرجع.

٢٥ ـ والـخـطأ والإكـراه والـنـسـيـان
أسقـطه معبـودنـا الـرحمـان

٢٦ ـ لكن مع الإتـلاف يثبت البَـدَلْ
وينتفي التـأثيم عنـه والـزلـل

---

**٢٥ و٢٦** ـ وهذا من كمال جوده وكرمه تعالى، ورحمته بعباده.

إنه لما كلف عباده بأوامر يفعلونها، ونواهي يجتنبونها، أنه إذا صدر منهم إخلال بالمأمور، أو ارتكاب للمحظور، نسياناً، أو خطأً، أو إكراهاً أنه عفى عنهم وسامحهم، لقوله ﷺ (عُفِيَ لِأُمَّتي عَنِ الْخَطَأ وَالنِّسْيانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ).

قال ابن رجب رحمه الله في [شرح الأربعين] ـ بعد ما ذكر النصوص الدالة على رفـع الإثم عن المخطىء والناسي، فقال ـ «والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الناسي والمخطىء قد عُفِيَ عنهما، بمعنى رفـع الإثم عنهما، لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطىء لا قصد لهما، فلا إثم عليهما.

وأما رفـع الأحكام فليس مراداً من هذه النصوص فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر.

والخطأ: أن يقصد بفعله شيئاً فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فيصادف مسلماً.

والنسيان: أن يكون ذاكراً للشيء فينساه عند الفعل، وكلاهما معفو عنه».

إلى أن قال:

«الفصل الثاني: في حكم المكره، وهو نوعان: أحدهما من لا اختيار له ولا قدرة على الامتناع، كمن حُمِلَ كرهاً وأُدخل مكاناً حلف على الامتناع من دخوله، أو حمل كرهاً، وضرب به غيره حتى مات ذلك الغير؛ ولا قدرة له على الامتناع، أو أُضْجِعَت المرأة ثم زُنِيَ بها من غير قدرة على الامتناع، فهذا لا إثم عليه

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

بالاتفاق، ولا يترتب عليه حنث عند الجمهور، وقد حكي عن بعض السلف ـ كالنخعي ـ فيه خلاف».

ثم قال:

«النوع الثاني: من أُكره بضرب أو غيره حتى فعل، فهذا الفعل متعلق به التكليف، فإنه يمكنه أن لا يفعل، فهو مختار للفعل، لكن ليس غرضه نفس الفعل، بل دفع الضرر عنه، فهو مختار من وجه، غير مختار من وجه، ولهذا اختلف الناس، هل هو مكلف أم لا؟ واتفق العلماءُ على أنه لو أُكره على قتل معصوم لم يصح له قتله، فإنه إنما يقتله باختياره، وافتداء نفسه بقتله.

هذا إجماع من العلماء المعتد بهم».

ثم ذكر بعد هذا:

«أن الإكراه على الأقوال معفوّ عنها، لا يأثم الإنسان إذا أُكره عليها، وأن الإكراه على الأفعال فيه خلاف بين العلماء».

انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

والحاصل: أن الإثم مرفوع عن هؤلاء الثلاثة، وأما الضمان إذا أَتلف نفساً أو مالاً فيضمنون، لأن الضمان مرتب على نفس الفعل، سواء قصد أو لم يقصد.

وأما الإثم فمرتب على المقاصد، والله أعلم.

## ٢٧ ــ ومن مسائل الأحكام في اتبع
## يثبت لا إذا استقل فوقع

٢٧ ــ يعني أنه يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً فإنّ من الأحكام أشياء يختلف حكمها في حال الانفراد، وفي حال التبع لغيرها، فلها حكم إذا انفردت، ولها حكم إذا تبعت غيرها.

فمن ذلك في البيع: لا يجوز بيع المجهول استقلالاً، ويجوز إذا كان تبعاً لغيره، والجهالة يسيرة، كأساسات الحيطان، وما اختفى تبعاً لما ظهر، والحشرات لا يجوز أكلها منفردة، ويجوز أكل الدود ونحوه تبعاً للثمرة ونحوها. والنحل في ذبابه، والطلاق لا يثبت بشهادة النساءِ، فإذا شهدت المرأة أنها أرضعت المرأة وزوجها انفسخ النكاح تبعاً لقبول قولها في الرضاع.

٢٨ ـ والعُـرْف معـمـول بــه إذا وَرَدْ
حكم من الشرع الشريف لم يُحَدّ

٢٨ ـ هذا معنى قول الفقهاء: «العادة مُحَكَّمَةٌ» أي معمول بها، فإذا نصّ الشارع على حكم، وعلق به شيئاً، فإن نصّ على حده وتفسيره، وإلا رجع إلى العرف الجاري، وذلك كالمعروف في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]. وهذا الذي جرى عليه عُرْف النَّاس.

وكذلك بر الوالدين، وصلة الأرحام، فكل ما يعد براً وصلة فهو داخل في ذلك، وكذلك لفظ القبض، والحرز وألفاظ العقود كلها: يرجع فيه إلى عرف الناس.

وَمِنْ هذا: إذا أمر حمالاً ونحوه بعمل شيءٍ من غير إجارة فله أُجرة عادته، ويدخل في هذا تصرف الإنسان في ملك غيره، واستعماله بغير إذنه، إذا جرت العادة بذلك، والمسامحة كالتروح بمروحة غيره، ودق بابه، ودخول ملكه، ولو لم يأذن فيه؛ لجريان العرف بذلك.

## ٢٩ ـ مُعَاجِلُ الْمحظورِ قبلَ آنِهِ
## قد باءَ بالخسران مع حِرْمانِهِ

---

٢٩ ـ هذا معنى قولهم: «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه»، وهذا عام في أحكام الدنيا والآخرة، ويدخل فيها مسائل كثيرة، منها: إذا قتل مورِّثه، أو من أوصى له بشيءٍ أو قتل العبد المدبر سيده، فإنه يحرم الميراث، والوصية والعتق.

ومنها المطلّق في مرض موته، فإن زوجته ترث منه ولو خرجت من العدّة.

وكذلك في أحكامٍ: فمن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة.

وَكَمَا أنَّ المتعجل للمحظور يعاقب بالحرمان، فمن ترك شيئاً لله تهواه نفسه عوّضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة، فمن ترك معاصِيَ الله ونفسه تشتهيها، عوّضه الله إيماناً في قلبه، وسعة، وانشراحاً، وبركة في رزقه، وصحة في بدنه مَعَ ما لَهُ من ثواب الله الذي لا يقدر على وصفه، والله المستعان.

٣٠ ــ وإِن أتى التحريم في نفس العَمَلْ
أو شــرطـه، فــذو فسـاد وخَلَلْ
٣١ ــ ومـتلفُ مـؤذيـهِ لـيس يَـضـمـنُ
بعـد الدفـاع بـالتي هِيَ أَحْسَنُ

---

٣٠ ــ هذا حكم العبادات الواقعة على وجهٍ محرَّمٍ، فإنْ عاد بالتحريم إلى نفس العبادة، أو عاد إلى شرطها، فالعمل باطل، مثاله: الصلاة في وقت النهي، أو وهو مستدبر القبلة، أو وعليه نجاسة، أو وهو محدث، أو لم ينو، أو أخل بركن من أركان الصلاة وشرط من شروطها، وكذلك صوم أيام النهي، ونحو ذلك: العبادة في هذه المسائل باطلة.

وأمَّا إن كان التحريم لا يعود إلى نفس العبادة، ولا شرطها، فإن العبادة صحيحة مع التحريم، كالوضوء في الإناءِ المحرم [ذهباً، أو فضة، أو مغصوباً] أو صلى وعليه عمامة حرير، أو خاتم ذهب ونحو ذلك، فالصلاة صحيحة مع حرمة الأفعال.

٣١ ــ إذا صال عليه آدمي، أو حيوان، أو طير في الإحرام فأتلفه دفعاً عن نفسه، فلا ضمان عليه، ولكن يدفعه بالأسهل فالأسهل.

وأما إذا اضطر إلى صيد وهو محرم، فأتلفه لضرورته، فإنه يضمن، ولكن لا إثم عليه.

قال ابن رجب في قواعده:

«من أتلف شيئاً لدفع أذاه له: لم يضمنه، وإن أتلفه لدفع أذاه به ضمنه، ويتخرج عليه مسائل»، فذكرها.

## ٣٢ ـ وأَل تفيد الكل في العموم في الجمع والإفراد كالعليم

٣٢ ـ إذا دخلت أَل على لفظ مفرد، أو لفظ جمع: أفادت الاستغراق والعموم لجميع المعنى.

فدخولها على المفرد مثل قوله تعالى: ﴿والعصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * إلّا الذين آمنوا﴾ [سورة العصر: الآيات ١ ـ ٣]. أي كل إنسان خاسر، لا يختص بإنسان دون غيره، إلا من استُثني، وهم: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وتواصوا بالحق الذي هو: العلم النافع، والعمل الصالح، وتواصوا بالصَّبرِ على ذلك، فهؤلاءِ هم الرابحون، ومن فاته شيء من هذه الخصال كان له من الخسار بحسب ما فاته، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [سورة المعارج: الآيات ١٩ ـ ٢١]. ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [سورة العاديَات: الآية ٦]. ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤]. أي كل واحد من الناس هذه صفته، إلا من أخرجه عن هذه الصفات المذمومة إلى صفات الخير التي هي أضدادها.

وَمِنْ أمثلة دخول «أَلْ» على المفرد دخولها على أسماء الله وصفاته، فكلما دَخَلَتْ على اسم من أسماء الله، أو صفة من صفاته أفادت جميع ذلك المعنى، واستغرقت، وبلغت نهايته «كالحيّ القيّوم» أي الذي له الحياة الكامِلَةُ المستلزمة لصفات الذّات، والقيوميّة الكاملة: الذي قام بنفسه، وقام بجميع الخلق تدبيراً.

«العليم» الذي له العلم الكامل الشامل لكل معلوم.

«الرحمن الرحيم» الذي له الرحمة العامة الواسعة لكل مخلوق.

«الغنيّ»: الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه.

«العلي الأعلى» الذي له العلوّ المطلق من جميع الوجوه.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

«العظيم، الكبير، الجليل، الجميل، الحميد، المجيد» الذي له جميع معاني العظمة والكبرياء، والجلال، والجمال، والحمد، والمجد، وقس على هذا بقية الأسماء والصفات.

ولو لم يكن في هذه القاعدة إلا هذا الموضع الشريف لكفى بها شرفاً وعظمةً.

ومثال دخول ألْ على الجمع فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ [سورة الحج: الآية ١]. يدخل في هذا الخطاب جميع الناس.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة يونُس: الآية ٦٣]. يدخل فيه عموم المؤمنين.

وقوله: ﴿إِنَّما المُشْرِكون نَجَسٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨]. يدخل فيه كل مشرك.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] إلى آخرها، يعم هذه الأوصاف المذكورة.

وقوله ﷺ: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) يعم كل عمل بدني وماليّ، عباديّ أو ماديّ، والله أعلم.

## ٣٣ـ والنكراتُ في سياق النفي تعطي العمومَ، أَوْسياقِ النَّهْي

٣٣ ـ إذا جاءَت النكرة بعد النَّفي، أوجاءَت بعد النهي، دلَّت على العموم والشمول.

فمثال النكرة في سياق النفي «لا إلـه إلاَّ الله» نفت كل إلـه في السماء والأرض، وأثبتت إلهيّة الله تعالى، وكذلك: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا تحوّل من حال من جميع الأحوال ولا قوة على ذلك التحول، إلاَّ بالله.

وكذا قوله تعالى: ﴿**وَلا يُحيطُون بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً**﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٩]. يعم كل نفس وكل شيء.

ومثال النكرة في سياق النهي: قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَدْعُ مع اللَّهِ إلـهاً آخرَ**﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٣]. ﴿**وَأَنَّ الْمَساجِدَ للَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً**﴾ [سورة الجنّ: الآية ١٨]، شامل كل أحد: ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [سورة الكهف: الآيتان ٢٣، ٢٤].

٣٤ ـ كـذاك «مَنْ» و«مَـا» تفيـدان مَعَـا
كـل العمـوم يـا أُخَيّ فـاسْمَعَـا

---

٣٤ ـ «مَنْ» و«مَا» تفيدان العموم المستغرق لكل ما دخلا عليه.

مثال مَنْ قوله تعالى: ﴿إنَّ للَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [سورة يونُس: الآية ٦٦] ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧] ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٤٦] ـ ﴿وَمَـنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتوكَّل على اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣] ـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧] ـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢] ـ ﴿وَمَـنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠] ـ ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَـعَ اللَّهِ إلـٰهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] ـ ﴿وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ والرَّسولَ فأُولئكَ مـع الَّذِين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٨] ـ ﴿وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأَنْهَارُ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣] ـ ﴿وَمَنْ يَتوَلَّ يُعذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [سورة الفتـح: الآية ١٧] ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥] ـ ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكذلك الأحاديث كقوله ﷺ: (يَنْزِلُ رَبنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدنْيَّا فيقُول: مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيب لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفرُنِي فَأَغْفِر لَهُ).

والأحاديث الَّتي فيها مَنْ قال كذا، أو مَنْ فعل كذا، فله كذا: يعم كل من قال أو فعل ذلك.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

ومثالُ «ما» قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] ـ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١١] ـ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩] ـ ﴿وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٥] ـ ﴿وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ وَمَا تتْلو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [سورة يونُس: الآية ٦١] ـ ﴿وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرض ولا في السَّماء﴾ [سورة يونس: الآية ٦١] ـ ﴿وما لَهُمْ فيهِمَا مِنْ شِرْكٍ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٢]. فتدبر هذه الآيات وما في معناها ينفتح لَكَ باب عظيم من أبواب فهم النصوص.

٣٥ ـ ومثله المفرد إذ يضاف
فافهم هديت الرشد ما يضاف

٣٥ ـ يعني أن المفرد المضاف يعم عموم الجمع، ويستغرق جميع المعنى، كقوله تعالى: ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى: الآية ١١] ـ ﴿وَإِنْ تَعَدوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤]. يعم كل نعمة: دينية أو دنيوية، وقوله: ﴿يا عبادي﴾ وهو كثير في الكتاب والسنة، يدخل فيه جميع العباد، وقوله: ﴿سُبْحَان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] ـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلى عَبْدِهِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]. إشَارَة إلى قيامه بجميع وظائف العبودية.

## ٣٦ـ ولا يتم الحكم حتَّى تجتمعْ
## كل الشروط والموانع ترتفع

٣٦ ـ هذا أصل كبير وقاعدة عظيمة، يحصل به لمن حقق نفع عظيم، وينفتح له باب من أبواب فهم النصوص المطلقة التي طالما كثر فيها الاضطراب والاشتباه.

ومعنى هذا الأصل أن الأحكام لا تتم ولا يترتب عليها مقتضاها والحكم المعلق بها حتى تتم شروطها، وتنتفي موانعها، وأما إذا عدمت الشروط، أو وجدت الشروط ولكن قام مانع لم يتم الحكم ولم يترتب عليه مقتضاه لعدم وجود الشرط، أو لوجود المانع. فافهم هذا الموضع.

ولنمثل لهذا الأصل بمثال يستدل به اللبيب على ما وراءَه فنقول: إنَّ التَّوْحيد مثمر لكل خير في الدنيا والآخرة، ودافع لكل شر فيهما، ولكن لا تحصل هذه الأمور إلا باجتماع شروطه، وانتفاء موانعه.

فأما شروطه فهي على: القلب، واللسان، والجوارح.

أمَّا الذي على اللسان فهو النطق بالتوحيد، وجميع أقوال الخير، متممات له.

وأما الذي على القلب فهي إقراره وتصديقه ومحبته للتوحيد وأهله وبغضه للشرك وأهله، ومعرفة القلب لمعناه ويقينه به.

وأما الذي على الجوارح، فهو انقيادها للعمل بالتوحيد وأعماله الظاهرة والباطنة، هذه شروطه.

وأمَّا موانعه ومفسداته، فهي ضدّ هذه الشروط، أو ضد بعضها، وَجِمَاعُ الموانع أنها: إما شرك، وإما بدعة، وإما معصية.

فالشرك نوعان: أكبر وأصغر.

... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

فالشرك الأكبر يمنعه ويبطله بالكلية، والشرك الأصغر، والبدعة وسائر المعاصي تُنَقِّصُهُ بحسبها، ولا تزيله بالكلية، فإذا فهمت هذا فهمت النصوص التي فيها: أي من أتى بالتوحيد حصل له كذا واندفع عنه كذا، إنه ليس مجرد القول، وكذلك النصوص التي فيها من قال كذا أو عمل كذا: إنما المراد به القول التام والعمل التام، وهو الذي اجتمعت شروطه وانتفت موانعه.

ومن أعظم شروط الأعمال كلها: الإخلاص، وكونها على السُّنَّةِ.

وكذلك الوضوءُ: لا يتم إلا باجتماع شروطه وفروضه، وانتفاء موانعه، وهي نواقضه.

وكذلك الصلاة: لا تتم حتى توجد أركانها وشروطها وتنتفي مبطلاتها، وكذا الزكاة، والصيام، والحج، والعمرة، وسائر الأعمال: لا تتم إلا بوجود الشروط، وانتفاء الموانع.

وكذلك الميراث: لا يرث إلا شخص قام به شرط الإرث، وهو: سببه، وانتفى عنه مانعه.

وكذلك النكاح وسائر العقود، لها شروط وموانع قد فصّلت في كتب الأحكام.

وليَكُنْ هذا الأصل على بالك، وحكّمه في كل دقيق وجليل؛ فللدُّعاء شروط وموانع، وللمحبة والحقوق والرجاء والتوبة شروط وموانع.

والله المستعان على القيام بشروط الأعمال ودفع موانعها: إنه جواد كريم.

٣٧ـ ومَنْ أتى بمـا عليـه مِنْ عَمَـلْ
قـد استحق مَا لَـهُ على العَمَـلْ

---

٣٧ـ أشياء توجب الضمـان، لو استقلت كـانت تلك الآثار هَـدَراً غير مضمونة.

ومفهوم هذا البيت أنَّ ما نشأ عن غير المأْذون فيه فإنه مضمون، فما تَوَلَّدَ عن المأذون فيه، فهو تابـع للمأذون فيه، وما تولّد عن غير المأذون فيه، فهو تابـع له.

مثال هذا: أن يقطـع يد غيره، فيسري ذلك القطـع إلى إتلاف نفسه أو بعض أعضائِه، فهل تضمن تلك السراية أم لا؟

الجواب: إن كان القطـع قصاصاً أو حداً، فإن سرايته هدرٌ، وإن كان القطـع جناية ضمنت السراية تبعاً للجناية، وكذا لو أراد أن يمر بين يديه إنسان وهو يصلي، ثم دافعه حتى أفضى إلى تلفه أو تلف بعضه لم يضمن، لأنه مأذون له من الشارع، ولو دَفَعَهُ من غير إذن منه ولا من الشارع، ثم تلف: ضمنه.

ومن أمثال هذا: أنه لو وطىءَ زوجته ثم عقرها، فإن كانت يوطىء مثلها لم يضمن ذلك العقر، لأنه مأذون فيه، وإن كانت لا يوطىء مثلها ضمنه، ومن ذلك لو وَضَـع حجراً في الطريق، أو حفر بئراً فيه، ثم تلف به إنسان أو حيوان، فإن كان الحفر ونحوه مأذوناً له فيه، بأن كان لنفـع المسلمين لم يضمن ما تلف به، وإن كان متعدياً فيه: ضمن.

وَمِمَّا يشبه هذه القاعدة أن الآثار الناشئة عن الطاعة مثاب عليها، ولا سيّما إن كانت مكروهةً للنفوس كالنَّصَبِ والتَّعب، ورائحة الصوم الكريهة للنفوس، وأن الآثار الناشئة عن المعصية تبـع للمعصية، والله أعلم.

وَمِمَّا يدخل في هذا: أن من غضب وكان غضبه لله، فصدر عن ذلك الغضب أقوال وأفعال لا تجوز، متأَولاً في ذلك مجتهداً فإنه معفيٌّ عنه، كما قال عمر رضي الله عنه للنبـي ﷺ في شأن حاطب ابن أبـي بلتعة: إنه منافق، واعتراضه على النبـي ﷺ في قصة الحديبية ونحوها بخلاف من قصده متابعة هواه والحمية لنفسه، فإنه يعاقب على ما صدر عنه من الأقوال والأفعال.

٣٨ـ وكـل حـكم دائـرٌ معْ علَّتِـهْ
وهي التي قـد أوجبت لِشَرْعِيَّتِـه

---

٣٨ ـ يعني أن الحكم يدور مـع علته وجوداً وعدماً، إذا وجدت العلة وجد الحكم، وإن انتفت العلة انتفى الحكم، والعلة هي التي شرع الحكم لأجلها، ويدخل تحت هذه القاعدة مسائل كثيرة، منها:

أن المشقة عُلِّق عليها أحكام كثيرة من التخفيفات بـ: الصلاة والزكاة، والصوم، والحـج، والعمرة، ونحوها من الأحكام، إذا وجدت المشقة: حصلت التخفيفات المرتبة عليها، وإذا عدمت المشقة عدمت هذه الأحكـام، وتفصيل المشقة معروف في كتب الفقه.

ومن ذلك:

التكليف، وهو: البلوغ، والعقل: علِّق عليه أمور كثيرة من: الوجوب في العبادات، وصحة العقود في المعاملات، ووجوب القود في الجنايات، ووجوب الحدود، والعقوبات كلها معلقة بالتكليف: تثبت بوجوده، وتنتفي بعدمه، وكذلك التمييز، والعقل. والإسلام: شرط لصحة جميع العبادات، لا تصح إلا بها، بل جميـع شروط الأحكام داخلة تحت هذا الأصل.

٣٩ ـ وكـل شـرط لازم لـلعـاقـد

في البيـع والنكـاح والمقـاصِـدِ

٤٠ ـ إلا شـروطـاً حللت محـرَّمَـا

أو عكسـه فبـاطـلات فـاعلمـا

---

٣٩ و٤٠ ـ وهذا أصل كبير وقاعدة كلية في الشروط الصحيحة والشروط الباطلة، وذلك أن الشروط في جميع العقود نوعان: صحيحة، وباطلة.

فأما الصحيحة، فهي كل شرط اشترطه المتعاقدان، لهما أو لأحدهما فيه مصلحة، وليس فيه محذور من الشارع، ويدخل في هذا جميع الشروط في البيع، والشروط في الإجارة والجعالة، والشروط في الرهون والضمانات، والشروط في النكاح وغيرها من الشروط على اختلاف أنواعها، فإنها شروط لازمة للمتعاوضين، إذا لم يف أحدهما بما عليه منها كان للآخر الفسخ.

والشرط إما لفظيٌّ، وإما عرفي، وإما شرْعيٌّ.

وأما الشروط الباطلة فهي: الَّتي تضمنت: إما تحليلَ حرام أو تحريمَ حلالٍ، ويدخل فيها جميع الشروط الباطلة في البيع، والإجارة، والرهن، والوقف، والنكاح، فإنها مشتملة على تحريم الحلال، أو تحليل الحرام، ومن تأملها وجدها كذلك، وهي مذكورة في كتب الأحكام.

## ٤١ ـ تستعمل القرعة عند المبهم من الحقوق أو لدى التزاحم

٤١ ـ يعني أن القرعة تستعمل إذا جهل المستحق لحق من الحقوق، ولا مزية لأحدهما على الآخر، أو حصل التزاحم في أمر من الأمور ولا مرجح لأحدهما.

وتحت هذه القاعدة دلائل كثيرة، منها: إذا تَشَاحّ اثنان في الأذان، أو الإقامة، أو الإمامة في الصلاة، أو صلاة الجنازة، وليس أحدهما أولى من الآخر، فإنه يقرع بينهما.

وكذلك إذا تنازع اثنان لقطة، أو لُقَيطاً، أو مكاناً، ونحوه، ولا مرجح لأحدهما على الآخر، فإنها تستعمل القرعة، وكذلك إذا طلق من نسائه واحدة [مبهمة أو معينة] ثم نسيها، أو أعتق من عَبيدِهِ مبهماً، فإنها: تخرج المطلقة والمعتق بالقرعة، إلى غيرها من المسائل.

٤٢ ـ وإِن تســاوى العَمــلان اجتمعــا
وفعــل إحــداهمــا فــاستمعــا

٤٢ ـ إذا اجتمع عملان من جنس واحد، وكانت أفعالهما متفقةً اكتفي بأحدهما ودخلَ فيه الآخر، وذلك في مسائل، منها: إذا دخل المسجد وصلى الراتبة وتحية المسجد ركعتين، نوى بهما جميع السنن أجزأ عنها، وكذلك سنة الوضوءِ إذا نوى بها الراتبة، وكذلك المعتمر إذا طاف طواف العمرة أجزأه عن طواف القدوم، والقارن يكفيه لحجه وعمرته طواف واحد وسعي واحد.

٤٣ ــ وكــل مــشغــولٍ فــلا يــشغَّــل
مثــالــه المــرهــون والمُسَبَّــلُ

---

٤٣ ــ هذا معنى قول الفقهاء [المشغول لا يشغل] وذلك أن الشيءَ إذا اشتغل بشيءٍ لم يشغل بغيره حتى يفرغ من هذا المشغول به، وذلك كالرهن: لا يباع، ولا يوهب، ولا يرهن حتى ينفك الرهن أو يأذن الراهن، وكذلك الموقوف: لا يباع ولا يوهب ولا يرهن لانشغاله بالوقف، وكذلك الأجير الخاص، وهو من استؤجر زمناً، كيوم وساعة ونحوه لعمل: لا يشغل في هذا المدة لغير من استأجره، لأن زمانه مستحق للمؤجر، مشغول به، والدار المؤجرة لا تؤجر حتى تفرغ المدة، بل كل مشغول بحق لا يشغل بآخر حتى يفرغ الحق عنه، والله أعلم.

٤٤ ـ ومن يؤد عن أخيه واجبا
له الرجوع: إن نوى يطالبا

---

٤٤ ـ معنى هذا أن كل من أدى عن غيره دَيْنَا واجباً عليه ونوى الرجوع عليْهِ، فإنه يرجع عليه، ويلزم المؤدى عنه ما أداه عنه، ويدخل تحت هذا جميع ديون الآدميين، من: القرض، والسلم، وأثمان السلع، والنفقات الواجبة للزوجات، والمماليك، والأقارب، والبهائم، ويدخل في هذا قضاءُ الضامن والكفيل ما على المضمون عنه والمكفول له، ولو لم يأْذن في الضمان ولا في الكفالة، ولا الأداء، وهذا كله إذا نوى الرجوع، فإن لم ينو الرجوعَ فأَجره على الله، ولا يرجع على من أدى عنه، وهذا أيضاً كله في الديون التي لا تحتاج إلى نية.

فأما ما يحتاج إلى نية كالزكوات والكفارات ونحوها، فلا يؤدي عن غيره إلا بإذنه لأن، هذا الأداء لا يبرىءُ من أدى عنه، لاحتياجه لنيته. والله أعلم.

٤٥ ـ والــوازع الـطبْعي عن العصيــان
كـالـوازع الشـرعي بـلا نكــران

٤٥ ـ الوازع عن الشيء هو الموجب لتركه، ومعنى هذا أن الله حرم على عباده المحرمات صيانة لهم، ونصب لهم على تركها وازعات طبعية ووازعات شرعية، فالذي تميل إليه النفوس وتشتهيه، جعل له عقوبات مناسبة لتلك الجناية، خفة وثقلاً ومحلاً.

وأما المحرمات التي تنفر منها النفوس، فلم يرتب عليها حَدّاً اكتفاءً بوازع الطبـع ونفرته عنها، وذلك كأكل النجاسات والسموم وشرحها، فإنه لم يرتب عليها عقوبة، بل يعزر عليها كسائر المعاصي التي لم يرتب عليها عقوبة.

٤٦ ـ والحمد لله على التمام
في البدء والختام والدوامْ

٤٧ ـ ثم الصلاة مع سلام شائع
على النبي وصحبه والتابع

---

٤٦ و٤٧ ـ حمداً لله في مبدءِ الأعمال وختامها.

واستدامة ذلك الحمد، من أسباب الزيادة لفضل الله وكرمه.

وحمد الله على الأمور يوجب بركتها وزكاءَها ونماءَها وحفظها من الآفات، ويوجب كمال الانتفاع بها.

وأَسأَلُ الله بمنه وكرمه الذي تتلاشى وتضمحل في جنبه الذنوب، أن يجعل في هذه الرسالة جميع ما أشرنا إليه من هذه الفوائد.

والله الموفق للصواب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

١٨ ذو القعدة سنة ١٣٣١ هجرية.

# منظومة

# في السير إلى الله والدار الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين:

هذا تعليق لطيف على منظومتي في السير إلى الله والدار الآخرة، يحل معانيها ويوضح مبانيها، فإنها قد حصلت على كثير من منازل السائرين إلى الله، التي توصل صاحبها إلى جنات النعيم في جوار الرب الكريم، وتمنعه من عذاب الجحيم والحجاب الأليم، والله المسؤول بفضله ومنّه أن يجعله خالصاً لوجهه، مقرِّباً عنده.

واعلم أن المقصود من العبد عبادة الله ومعرفته ومحبته والإنابة إليه على الدوام، وسلوك الطرق التي توصله إلى دار السلام، وأكثر الناس غلب عليهم الحس وملكتهم الشهوات والعادات، فلم يرفعوا بهذا الأمر رأْساً، ولا جعلوه لبنائهم أساساً، بل أعرضوا عنه اشتغالاً بشهواتهم، وتركوه عكوفاً على مراداتهم، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتهم في أوقاتهم، فهم في جهلهم وظلمهم حائرون، وعلى حظوظ أنفسهم الشاغلة عن الله مكبون، وعن ذكر ربهم غافلون، ولمصالح دينهم مضيعون، وفي سكر عشق المأْلوفات هائمون.

﴿نَسُوا الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئكَ هُمُ الفاسِقُون﴾

[سورة الحشر: الآية ١٩]

ولم ينتبه من هذه الرقدة العظيمة، والمصيبة الجسيمة إلا القليل من العقلاءِ، والنادر من النبلاءِ، فعلموا أن الخسارة كل الخسارة الاشتغال بما لا يجدي على صاحبه إلا الوبال والحرمان، ولا يعوضه مما يؤمل إلا

الخسران، فآثروا الكامل على الناقص، وباعوا الفاني بالباقي، وتحملوا تعب التكليف والعبادة، حتى صارت لهم لذة وعادة، ثم صاروا بعد ذلك سادة، فاسمع صفاتهم واستعن بالله على الاتصاف بها:

سعد الذين تجنبوا سبل الردى
وتيمموا لمنازل الرضوان

هذا هو أصل طريقهم وقاعدة سير فريقهم.

إنهم تجنبوا طرق الخسران، وتيمموا طرق الرضوان.

تجنبوا طرق الشيطان، وقصدوا عبادة الرحمن.

تجنبوا طرق الجحيم وتيمموا، سبل النعيم.

تركوا السيئات وعملوا على الحسنات.

نزهوا قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم عن المحرمات والمكروهات، وشغلوها بفعل الواجبات والمستحبات.

تحلوا بالأخلاق الجميلة، وتخلوا من الأوصاف الرذيلة.

فهم الذين قد أخلصوا في مشيهم
متشرعين بشرعة الإيمان

هاتان القاعدتان، وهما: الإخلاص والمتابعة، شرط لكل عبادة، ظاهرة وباطنة، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، وكل عمل لا يكون على سنة رسول الله فهو مردود، فإذا اجتمع للعمل الإخلاص للمعبود، وهو: أن يراد بالعمل وجه الله وحده، والمتابعة للرسول، وهو: أن يكون العمل قد أمر به، فهذا فهو هو العمل المقبول.

وهم الـذين بنـوا منـازل سيـرهم
بين الـرجـا والـخـوف للديـان

أي ساروا في جميـع أمورهم مستصحبين وملازمين للخوف والرجاء، وذلك أن لهم نظراً أيّ نظر إلى أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله، يُحدث لهم الخوف، ونظر إلى منن الله عليهم وإحسانه إليهم يُحدث لهم الرجاء، وأيضاً ينظرون إلى صفات العظمة والجلال، والحكمة والعدل، فيخافون على أنفسهم من ترتب آثارها، وينظرون إلى صفات الرحمـة والجود والكـرم والإحسان فيرجون ما تقتضيه، فإن فعلوا حسنة جمعوا بين الخوف والرجاء فيرجون قبولها ويخافون ردها، وإن عملوا سيئة خافوا من عقابها ورجوا مغفرتها بفضل الله، فهم بين الخوف والرجاء يترددون، وإليهما دائماً يفزعون، ومنهما في أمر سيرهم مترددون، فأُولئك الذين أحرزوا قصب السبق، وأولئك هم المفلحون.

وهم الـــذين مـــلا الإلـــه قلوبهم
بـــوداده ومـــحـــبـــة الـــرحـــمـــان

هذه المنزلة، وهي منزلة المحبة، هي أصل المنازل كلها ومنها تنشأ جميـع الأعمال الصالحة والأعمال النافعة، والمنازل العالية.

ومعنى المحبة: تعلق القلب بالمحبوب، ولزوم الحب للقلب فلا تنفك عنه، تقتضي من صاحبها الانكفاف عمَّا يكره الحبيب، والمبادرة إلى ما يرضيه بقلب منشرح وصدر رحيب، فإن تكلم تكلم بالله، وإن سكت سكت للّه، وإن تحرك فللّه، وإن سكن فله، ويحدث عن الحب الشوق إلى الله، والقلق فلا يكاد صاحبه يستقر.

فإن قيل: فهل المحبة التي هي أعلى المراتب من وسيلة وسبب؟ قيل: لم يجعل الله مطلباً إلا جعل لحصوله سبباً، فمن أكبر أسبابها الانكفاف عن

كل قاطـع بالقول والفعل والأفكار الردية، والإكثار من ذكر الله بحضور قلب وتدبر كلامه الكريم، ومطالعة نعمه العظيمة على العبد، وبالوقوف بين يديه بحضور قلب وأدب في الوقوف بين يديه، ومجالسة المحبين، ومجانبة كل قاطـع، فمن فعل ذلك نال محبة الله إن شاء الله، والله المستعان.

ولهذا قلت:

هم الـذين قـد أكثـروا من ذكـره
في الســـر والإعــلان والأحيــان

منزلة شريفة، حاجة كل أحد إليها، بل ضرورة إليها فوق كل حاجة، فذكر الله هو عمارة الأوقات، وبه تزول الهموم والغموم، والكدورات، وبه تحصل الأفراح والمسرات، وهو عمارة القلوب المقفرات، كما أنه غراس الجنَّات، وهو موصل لأعلى المقامات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى، ومن الفضائل ما لا يعد، ينقضي، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾
[سورة الأحزاب: الآيتان ٤١، ٤٢]

وقال النبـي ﷺ لرجل قال إن شرائـع الإسلام قد كثرت عليَّ فأَوصِني: قال: (لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

وقال: (سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ)، قَالُوا: «وَمَا الْمُفْرِدُونَ؟» قَالَ: (الذَّاكِرُونَ الله كَثِيراً والذَّاكِراتُ).

ولي من أبيات:

وكن ذاكــراً لله في كـل حــالـة
فـليس لــذكــر الله وقت مـقيَّــدُ
فـذكـر إلـه العـرش سـرًّا ومعلنـاً
يـزيل الشقـا والهمَّ عنـكَ ويـطردُ
ويجلب للخيــرات دنيــا وآجــلا
وإن يـأْتِك الـوسواس يـوماً يشـرّدُ
فقـد أخبر المختـار يومـاً لصحبـه
بأن كثير الـذكر في السبق مُفْـردُ
وَوصَّـى معــاذًا يـستـعيـن إلـٰهــه
على ذكره والشكر بـالحسن يعبد
وأوصى لشخص قد أتى لنصيحة
وقد كان في حمل الشرائـع يجهد
بـأَنْ لا يزال رطبـاً لسـانـك هـذه
تعين على كــل الأمـور وتسعــد
وأخبــر أن الـذكــر غـرس لِأهله
بجنـات عـدن وَالمسَــاكنُ تُمهَـدُ
وأخبــر أن الله يــذكــر عـبــدَهُ
ومَعْــهُ على كـل الأمــور يســدد
وأخبــر أن الـذكــر يبقى بجنــة
وينقــطـع التكليف حـين يـخلَّدوا
ولـو لم يكن في ذكره غيـر أنـه
طـريق إلى حب الإلـه ومــرشـد

وينهى الفتى عن غِيبــة ونميمــة
وعن كـل قـول للديـانـة مفسـد
لكــان لنــا حظ عــظيم ورغبــة
بكثــرة ذكـر الله نِعْمَ المــوَحَّــد
ولكننــا من جهلنا قــلَّ ذكـرنــا
كمــا قـل منــا لــلإلــه التعبـد

وذكر الله نور للذاكر في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويوم حشره، والله المستعان:

يتقــربــون إلى المليــك بفعلهم
طــاعــاتــه والـتــرك للعـصيــان

هذه الأعمال التي تقرب إلى الله، وتوصل إليه، وهو فعل طاعته، لا سيما الفرائض وترك معاصيه، كما في الحديث القدسي:

(وما تقرّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أحبَّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب بالنوافل حتى أُحبَّهُ).

فلهذا قلت:

فعـل الفـرائض والنــوافـل دأْبهم
مـع رؤيــة التقصيــر والنقـصــان

هذا هو الكمال، وهو أن يجتهد في أداءِ الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرى نفسه مقصراً مفرطاً، فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العجب الذي يبطل الأعمال ويفسدها:

صبِّروا النفوس على المكاره كلها
شـوقـاً إلى مـا فيـه من إحســان

الصبر، هو حبس النفس على ما يكره الإنسان إذا كان فيـه رضى الرحمن، والصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله حتى يؤديها، وصبر عن معاصي الله حتى يتركها، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسنها، فإذا كسلت نفسه عن طاعة الله حثها عليها وألزمها ورغبها إياها بثوابها، وإذا اشتدت دواعي نفسه إلى معصية الله كفها عنها وحذرها وبالها وعاقبة فعالها، فالصبر محتاج إليه في كل الأمور:

نـزلـوا بمنـزلـة الـرضى فهم بهـا
قــد أصبحــوا في جُنَّــةٍ وأمــان

منزلة الرضى أعلى من منزلة الصبر، فإن الصبر حبس النفس وكفها على ما تكره، مـع وجود منازعة فيها، والرضى تضمحل تلك المنازعة، ويرضى عن الله رضى مطمئنٍّ منشرحِ الصدر، بل ربما تلذذ بالبلاءِ كتلذذ غيره بالرخاءِ، وإذا نزل العبد بهذه المنزلة طابت حياته وقرت عينه، ولهذا سُمِّيَ الرضا «جَنة الدنيا ومستراح العابدين»، ومن رضي عن الله رضي الله عنه، ومن رضي من الله باليسير من الرزق، رضي الله منه باليسير من العمل، فحقيقة الرضى: تلقِّي أحكام الله الأمرية الدينية، وأحكامه الكونية القدرية بانشراح صدر وسرور نفس، لا على وجه التكره والتلمظ.

شكروا الذي أولى الخلائق فضله
بــالــقــلب والأقــوال والأركــان

الشكر يكون بالقلب، وهو: الاعتراف بنعم الله والإقرار بها، وعدم رؤية نفسه لها أهلاً، بل هي محض فضل ربه، ويكون باللسان، وهو الثناءُ على الله بها، والتحدث بها، فيكون بالجوارح، وهو كفها عن معـاصي الله،

والاستعانة بنعمه على طاعته، فإن أعطاه شيئاً من الدنيا شكره عليه، وإن زوى عنه شيئاً منها شكره أيضاً؛ إذ ربما كانت نعمة عليه صارفة منه شراً أعظم منها، وإن وفقه لطاعة من الطاعات رأى المنة لله في توفيقه لها وشكره عليها، والله المستعان.

صحبوا التوكل في جميـع أمورهم
مـع بذل جهد في رضى الرحمان

يكمل العبد في هذين الأمرين، وهما: التوكل على الله، والاجتهاد في طاعة الله، ويتخلف عن العبد الكمال بفقد واحد منهما، فحقيقة التوكل يجمـع أمرين: الاعتماد على الله والثقة بالله، فيعتمد على ربه بقلبه في جلب ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فيتبرَّأ من نفسه وحولها وقوتها، ويثق بالله في حصول ما ينفعه ودفـع ما يضره، ويجتهد في الأسباب التي يتوصل بها إلى المطلوب.

وتفصيل ذلك: أنه إذا عزم على فعل عبادة، بذل جهده في تكميلها وتحسينها، ولا يبقى من مجهوده مقدور وتبرأ من النظر إلى نفسه وقوتها، بل لجأ إلى ربه واعتمد عليه في تكميلها، وأحسن الظن ووثق في حصول ما توكل به عليه، وإذا عزم على ترك معصية قد دعته نفسه إليها بذل جهده في الأسباب الموجبة لتركها، من التفكر بها وصرف الجوارح عنها، ثم اعتمد على الله ولجأ إليه في عصمته منها، وأحسن الظن به في عصمته له، فإنه إذا فعل ذلك في جميـع ما يأتي ويذر؛ رجا له الفلاح إن شاءَ الله تعالى.

وأما من استعان بالله وتوكل عليه، مـع تركه الاجتهاد اللازم له، فهذا ليس بتوكل، بل عجز، ومهانة وكذلك من يبذل اجتهاده ويعتمد على نفسه ولا يتوكل على ربه فهو مخذول.

عبـدوا الإله على اعتقـاد حضوره
فـتبـــوءُوا فــي منـــزل الإحـســـان

هذه المنزلة يقال لها: منزلة الإحسان، وهي كما فسرها النبـي ﷺ: (أن تعبد الله وحده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فإذا تصور الإنسان هذا المقام في جميـع أحواله ـ لا سيما حال العبادة ـ منعه من الالتفات بقلبه إلى غير ربه، بل أقبل بكُلِّيَّته على الله، وتوجه بقلبه إليه متأدباً في عبادته، آتياً بجميـع ما يكملها، مجتنباً كل منقص لها، وهذه المنزلة من أعظم المنازل وأجلها، ولكنها تحتاج إلى تدريـج للنفوس شيئاً فشيئاً، ولا يزال العبد يعوّدها نفسه حتى تنجذب إليها وتعتادها، فيعيش العبد قرير العين بربه، فرحاً ومسروراً بقربه.

نصحوا الخليقة في رضى محبوبهم
بــالـعـلـم والإرشـــاد والإحـســـان
صحبـوا الخلائق بـالجسوم وإنمـا
أرواحهم فــي منـــزلٍ فـــوقـــانـي

هذه حالهم مـع الخلق، أكمل حال وأجلها، فأبدوا لهم غاية النصـح، وأحبوا لهم ما أحبوا لأنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشر، فسعوا في إزالة الشر عنهم بكل ممكن، واجتهدوا في إيصال النفـع إليهم بكل مقدور، من: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، وردع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفهم أذى أنفسهم عنهم، ومـع هذا فصحبتهم لهم بالظاهر والجسم، وأما قلوبهم وأرواحهم، فإنها تجول حول الحبيب وتطلب من قربه أعظم نصيب، فتارة تنكسر بين يديه، وتخشـع وتخضـع لديه، وطوراً تشكره لحبه، وتدل عليه لاستحضار بره وقربه، ثم

تميل إلى مراضيه، فتجتهد في عباداته وتحسن إلى مخلوقاته، فهؤلاء هم الناس، بل هم العقلاءُ الأكياس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ألا بالله دعوت الخلائق والمشاهد كلها
خوفاً على الإيمان من نقصان

هذه منزلة الرعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكر في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه عن المفسدات، وينزهه عن المنقصات، فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهاداً فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.

ومن أعظم ما ينبغي: مراعاته في العمل مشهد الإحسان وهو الحرص على إيقاع العبادة بحضور قلب وجمعية على الله، وكذلك مراعاة منة الله على العبد، وأنه ينبغي له أن يشكر الله على توفيقه لذلك العمل أعظم شكر، وكذلك مراعاة التقصير، وأنك لم تؤت العبادة حقها، ولا قمت بجميع ما تستحقها، وكذلك مراعاة الخوف والرجاء: يخاف من ردها بعجب، أو رياء أو تكبر بها، أو عدم قيام بحقها، أو غير ذلك، ويرجو قبولها برحمة ربه ومنه، وإحسانه إليه الذي من جملته توفيقه لها:

عزفوا القلوب عن الشواغل كلها
قد فرغوها من سوى الرحمان
حركاتهم وهمومهم وعزومهم
لله، لا للخلق والشيطان

أي فرغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد، ولا يكفي هذا التفريغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة

والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمن من: تصور علم، وتدبر قرآن وذكر لله بحضور قلب وتفكر في عبادة وإحسان، وخوفاً من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمن وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة حول هذه الأمور، متنزهة عن دنيات الأمور، والتفكر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والوبال، وتضييع الوقت، وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل.

نعم الرفيق لطالب السبل التي
تفضي إلى الخيرات والإحسان

فهؤلاء هم الذين يسعد بهم رفيقهم إذا اقتدى بسلوك سيرهم فريقهم، وهؤلاءِ الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا طريقهم إذا أنعم عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وأن يجنبنا طرق الغضب والضلال الموصلة إلى الخزي والوبال، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

والله أسأل وبأسمائه الحسنى وصفاته ونعمه أتوسل أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان والغفران، بِشَرٍّ ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز عنده في جنات النعيم.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً مباركاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

وصلى الله على محمد النبي الأُمي المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيرا.

قال مؤلفه رحمه الله : «فرغت منه ومن نسخه في
٣ شعبان سنة ١٣٣٣» وقد تم بقلم
الفقير إليه عبده عبد العزيز بن حمد
المصيريـع في ٢٨ شوال
سنة ١٣٤٢
هجرية

# فهرس المجموع الرابع
# المجلد الأول

## رسالة في القواعد الفقهية

④ الفقه — المجلد الثاني

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- منهج السالكين
  وتوضيح الفقه في الدين
- المختارات الجلية من المسائل الفقهية
- الإرشاد إلى معرفة الأحكام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# مَنهَج السَّالِكين

## وَتوضيح الفِقه في الدّين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## وبه نستعين

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد:

فهذا كتاب مختصر في الفقه، جمعت فيه بين المسائل والدلائل. لأن العلم معرفة الحق بدليله.

و«الفقه» معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها من الكتاب والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح.

واقتصرت على الأدلة المشهورة خوفاً من التطويل.

وإذا كانت المسألة خلافية، اقتصرت على القول الذي ترجح عندي، تبعاً للأدلة الشرعية.

**الأحكام خمسة:**

**الواجب:** وهو ما أثيب فاعله وعوقب تاركه. **والحرام:** ضده.

**والمسنون:** وهو ما أثيب فاعله ولم يعاقب تاركه. **والمكروه:** ضده.

**والمباح**: وهو الذي فعله وتركه على حد سواء.

ويجب على المكلف أن يتعلم من الفقه كل ما يحتاج إليه في عباداته ومعاملاته. قال ﷺ (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) متفق عليه.

## فصل

قال النبي ﷺ (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان) متفق عليه.

فشهادة أن لا إله إلا الله: علمُ العبد واعتقاده، والتزامه: أنه لا يستحق الألوهية والعبادة إلا الله وحده لا شريك له.

فيوجب ذلك للعبد: إخلاص جميع الدين لله تعالى، وأن تكون عباداته ــ الظاهرة والباطنة ــ كلها لله وحده، وأن لا يشرك به شيئاً في جميع أمور الدين. وهذا أصل دين جميع الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى:

**﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ: أَنَّهُ لَا إِلَه إلاَّ أنَا فَاعْبُدُونِ﴾**
[سورة الأنبياء: الآية ٢٥]

وشهادة أن محمداً رسول الله: أن يعتقد العبد أن الله أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين ــ الإنس والجن ــ بشيراً ونذيراً، يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته، بتصديق خبره، وامتثال أمره، وأنه لا سعادة ولا صلاح في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان به وبطاعته، وأنه يجب تقديم محبته على النفس والولد والناس أجمعين، وأن الله أيَّده بالمعجزات الدالة على رسالته، وبما جبَله الله عليه من العلوم الكاملة والأخلاق العالية، وبما اشتمل عليه دينه من الهدى والرحمة والحق، والمصالح الدينية والدنيوية. وآيته الكبرى:

هذا القرآن العظيم، بما فيه من الحق في الأخبار، والأمر والنهي والله أعلم.

# فصل

وأما الصلاة: فلها شروط تتقدم عليها.

فمنها: الطهارة، كما قال النبي ﷺ (لا يقبل الله صلاة بغير طهور) رواه البخاري ومسلم.

فمن لم يتطهر من الحدث الأكبر والأصغر والنجاسة فلا صلاة له.

**والطهارة نوعان:**

أحدهما: الطهارة بالماء، وهي الأصل. فكل ماء نزل من السماء، أو خرج من الأرض: فهو طَهور، يُطَهِّر من الأحداث والأخباث. ولو تغير طعمه أو لونه أو ريحه بشيء طاهر. كما قال النبي ﷺ (إن الماء طهور لا ينجسه شيء) رواه أهل السنن. وهو صحيح.

فإن تغير أحد أوصافه بنجاسة فهو نجس يجب اجتنابه.

والأصل في الأشياء: الطهارة والإباحة: فإذا شك المسلم في نجاسة ماء أو ثوب أو بقعة أو غيرها: فهو طاهر، أو تيقن الطهارة وشك في الحدث: فهو طاهر. لقوله ﷺ – في الرجل يخيل إليه: أنه يجد الشيء في الصلاة – (لا يَنْصَرِفْ حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً) متفق عليه.

وجميع الأواني مباحة، إلا آنية الذهب والفضة، وما فيه شيءٌ منهما، إلا اليسير من الفضة للحاجة. لقوله ﷺ (لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها. فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة) متفق عليه.

## باب الاستنجاء، وآداب قضاء الحاجة

يستحب إذا دخل الخلاء: أن يقدم رجله اليسرى، ويقول «بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث» وإذا خرج منه: قدَّم اليمنى، وقال «غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني».

ويعتمد في جلوسه على رجله اليسرى وينصب اليمنى. ويستتر بحائط أو غيره. ويُبعِد إن كان في الفضاء.

ولا يحل له أن يقضي حاجته في طريق، أو محل جلوس للناس، أو تحت الأشجار المثمرة، أو في محل يؤذي به الناس.

ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها حال قضاء حاجته. لقوله ﷺ (إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول، ولا تستدبروها ولكن شرِّقوا أو غرِّبوا) متفق عليه.

فإذا قضى حاجته استجمر بثلاثة أحجار ونحوها، تُنَقِّي المحل. ثم استنجى بالماء. ويكفي الاقتصار على أحدهما. ولا يستجمر بالروث والعظام، لنهي النبي ﷺ عن ذلك. وكذلك كل ما له حرمة.

ويكفي في غسل النجاسات ــ على البدن، أو الثوب، أو البقعة، أو غيرها ــ أن تزول عينها عن المحل. لأن الشارع لم يشترط في غسل النجاسة عدداً إلا في نجاسة الكلب، فاشترط فيها سبع غسلات إحداها بالتراب.

والأشياء النجسة: بول الآدمي وعَذرته والدم، إلا أنه يعفى عن الدم اليسير. ومثله الدم المسفوح من الحيوان المأكول، دون الذي يبقى في اللحم والعروق. فإنه طاهر.

ومن النجاسات: بول وروث كل حيوان محرم أكله. والسباع كلها

نجسة. وكذلك الميتات، إلا ميتةَ الآدمي وما لا نَفْس له سائلة، والسمكَ والجراد. فإنها طاهرة. قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّمُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

وقال النبي ﷺ (المؤمن لا يَنجُس حياً ولا ميتاً) وقال (أُحِلَّ لنا ميتتان ودمان. أما الميتتان: فالحوت والجراد. وأما الدمان: فالكبد والطحال) رواه أحمد وابن ماجه.

وأما أرواث الحيوانات المأكولة وأبوالها: فإنها طاهرة.

ومَنيُّ الآدمي طاهر. كان النبي ﷺ يغسل رَطْبه ويفرك يابسه. وبول الغلام الصغير الذي لم يأكل الطعام لشهوة: يكفي فيه النضح كما قال النبي ﷺ (يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام) رواه أبو داود والنسائي.

وإذا زالت عين النجاسة طهرت. ولم يضر بقاء اللون أو الريح، كما قال النبي ﷺ لخَوْلَة بنت يسار في دم الحيض (يكفيك الماء، ولا يضرك أثره).

## باب صفة الوضوء

وهو أن ينوي رفع الحدث، أو الوضوء للصلاة ونحوها.

والنيةُ: شرط لجميع الأعمال من طهارة وغيرها. لقوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى) متفق عليه. ثم يقول (بسم الله) ويغسل كفيه ثلاثاً. ثم يتمضمض، ويستنشق ثلاثاً بثلاث غرفات. ثم يغسل وجهه ثلاثاً، ويديه مع المرفقين ثلاثاً. ويمسح رأسه من مُقَدَّمه إلى قفاه بيديه. ثم يعيدهما إلى المحل الذي بدأ منه مرة واحدة. ثم يُدخل سَبَّاحتيه في أذنيه ويمسح بإبهاميه ظاهرهما، ثم يغسل رجليه مع الكعبين ثلاثاً ثلاثاً.

هذا أكمل الوضوء الذي فعله النبي ﷺ.

والفرض من ذلك: أن يغسلها مرة واحدة، وأن يرتبها على ما ذكره الله بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وجوهكم﴾

[سورة المائدة: الآية ٦]

وأن لا يفصل بينها فاصل كثير عرفاً، بحيث لا ينبني بعضه على بعض. وكذا كل ما اشْتُرِطت له الموالاة.

فإن كان عليه خُفَّان ونحوهما: مسح عليهما إن شاء، يوماً وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليهن للمسافر، بشرط أن يلبسهما على طهارة، ولا يمسحهما إلا في الحدث الأصغر. عن أنس مرفوعاً (إذا توضأ أحدكم ولبس خفيه فليمسح عليهما وليصل فيهما، ولا يخلعهما إن شاء إلا من جنابة) رواه الحاكم وصححه.

فإن كان على أعضاء وضوئه جبيرة على كسر، أو دواءٌ على جرح، ويضره الغَسل: مسَحَه بالماء في الحدث الأكبر والأصغر حتى يبرأ.

وصفة مسح الخفين: أن يمسح أكثر ظاهرهما.

وأما الجبيرة: فيمسح على جميعها.

## باب نواقض الوضوء

وهي: الخارج من السبيلين مطلقاً، والدم الكثير ونحوه، وزوال العقل بنوم أو غيره، وأكل لحم الجزور، ومس المرأة بشهوة، ومس الفرج، وتغسيل الميت، والردة. وهي تحبط الأعمال كلها. لقوله تعالى:

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾

[سورة المائدة: الآية ٦]

وسئل النبي ﷺ (أنتوضأ من لحوم الإبل؟ فقال: نعم) رواه مسلم. وقال في الخفين (ولكن من غائط وبول ونوم) رواه النسائي والترمذي وصححه.

## باب ما يوجب الغسل، وصفته

ويجب الغسل من الجنابة. وهي إنزال المني بوطء أو غيره، أو بالتقاء الختانين، وبخروج دم الحيض والنفاس، وموت غير الشهيد، وإسلام الكافر، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فأتُوهُنَّ من حيث أَمَرَكُمُ الله﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

أي إذا اغتسلن. وقد أمر النبي ﷺ بالغسل من تغسيل الميت، وأمر من أسلم أن يغتسل.

وأما صفة غُسْل النبي ﷺ من الجنابة: فكان يغسل فرجه أولاً، ثم يتوضأ وضوءاً كاملاً، ثم يَحْثِي الماء على رأسه ثلاثاً، يُرويه بذلك. ثم يفيض الماء على سائر جسده. ثم يغسل رجليه بمحل آخر.

والغرض من هذا: غسل جميع البدن، وما تحت الشعور الخفيفة والكثيفة. والله أعلم.

## باب التيمم

وهو النوع الثاني من الطهارة. وهو بدل عن طهارة الماء إذا تعذر استعمال الماء لأعضاء الطهارة، أو بعضها. لعدمه، أو خوف ضرر باستعماله. فيقوم التراب مقام الماء، بأن ينوي رفع ما عليه من الأحداث. ثم يقول «بسم الله» ثم يضرب التراب بيده مرة واحدة، يمسح بها جميع وجهه وجميع كفيه. فإن ضرب مرتين فلا بأس، قال الله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ. مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وعن جابر أن النبي ﷺ قال (أُعْطِيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرة شهر، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجلٌ أدركته الصلاة فليصل، وَأُحِلَّتْ لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة) متفق عليه.

ومن عليه حَدَث أصغر: لم يَحلَّ له أن يصلي، ولا أن يطوف بالبيت، ولا يمس المصحف.

ويزيد من عليه حدث أكبر: أنه لا يقرأ شيئاً من القرآن، ولا يَلْبَث في المسجد بلا وضوء.

وتزيد الحائض والنفساء: أنها لا تصوم، ولا يحل وطؤها، ولا طلاقها.

والأصل في الدم الذي يصيب المرأة: أنه حيض بلا حد لِسِنِّه ولا قدره، ولا تكرره، إلا إن أطبق الدم على المرأة، أو صار لا ينقطع عنها إلا يسيراً. فإنها تصير مستحاضة. فقد أمرها النبي ﷺ أن تجلس عادتها. فإن لم يكن لها عادة، فإلى تمييزها. فإن لم يكن لها تمييز، فإلى عادة النساء الغالبة: ستة أيام أو سبعة. والله أعلم.

# كتاب الصلاة

تقدم: أن الطهارة من شروطها.

ومن شروطها: دخول الوقت. والأصل فيه: حديث جبريل (أنه أمَّ النبي ﷺ في أول الوقت وآخره، وقال: يا محمد، الصلاة ما بين هذين الوقتين) رواه أحمد والنسائي والترمذي.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (وقتُ الظهر: إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، ما لم تحضر العصر. ووقت العصر: ما لم تَصْفَرَّ الشمس. ووقت صلاة المغرب: ما لم يغب الشَّفَق. ووقت صلاة العشاء: إلى نصف الليل. ووقت صلاة الصبح: من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس) رواه مسلم.

ويدرك وقت الصلاة بإدراك ركعة. لقوله ﷺ (من أدرك ركعة من الصلاة، فقد أدرك الصلاة) متفق عليه.

ولا يحل تأخيرها، أو تأخير بعضها عن وقتها لعذر أو غيره، إلا إذا أخرها ليجمعها مع غيرها. فإنه يجوز لعذر: من سفر، أو مطر، أو مرض، أو نحوها.

والأفضل: تقديم الصلاة في أول وقتها، إلا العشاء إذا لم يَشُقَّ، وإلا

الظهر في شدة الحر، قال النبي ﷺ (إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة. فإن شدة الحر من فَيْحِ جهنم) متفق عليه.

ومن فاتته الصلاة وجب عليه المبادرة إلى قضائها مرتباً. فإن نَسِيَ الترتيب أو جهله، أو خاف فوت الصلاة: سقط الترتيب.

ومن شروطها: ستر العورة بثوب مباح لا يصف البشرة.

والعورة ثلاثة أنواع: مغلظة، وهي: عورة المرأة الحرة البالغة. فإن جميع بدنها عورة في الصلاة إلا وجهها.

ومخففة: وهي عورة ابن سبع سنين إلى عشر. فإنها الفرجانِ.

ومتوسطة: وهي عورة من عداهم، من السرة إلى الركبة. قال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٣١]

ومنها: استقبال القبلة. قال تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٤٩ و١٥٠]

فإن عجز عن استقبالها، لمرض أو غيره: سقط، كما تسقط جميع الواجبات بالعجز عنها. قال تعالى:

﴿فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

(وكان النبي ﷺ يصلي في السفر النافلة على راحلته حيث توجهت به) متفق عليه. وفي لفظ (غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة).

ومن شروطها: النية.

وتصح الصلاة في كل موضع، إلا في محل نجس، أو مغصوب، أو في مقبرة، أو حمام، أو أعطان إبل. وفي سنن الترمذي مرفوعاً (الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام).

# باب صفة الصلاة

يستحب أن يأتي إليها بسكينة ووقار. فإذا دخل المسجد قال «بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله. اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك» ويقدم رجله اليمنى لدخول المسجد، واليسرى للخروج منه. ويقول هذا الذكر إلا أنه يقول «وافتح لي أبواب فضلك» كما ورد ذلك في الحديث.

فإذا قام إلى الصلاة قال «الله أكبر» ورفع يديه إلى حَذْو مَنكبيه، أو إلى شَحْمَتي أذنيه، في أربعة مواضع: عند تكبيرة الإحرام، وعند الركوع، وعند الرفع منه، وعند القيام من التشهد الأول، كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ. ويضع يده اليمنى على اليسرى تحت سرته، أو فوقها، أو على صدره، ويقول «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدك، ولا إله غيرك» أو غيره من الاستفتاحات الواردة عن النبي ﷺ. ثم يتعوذ ويبسمل، ويقرأ الفاتحة، ويقرأ معها في الركعتين الأوليين من الرباعية والثلاثية: سورة، تكون في الفجر: من طوال المفصَّل، وفي المغرب: من قِصَاره، وفي الباقي: من أوساطه، يجهر في القراءة ليلاً، وَيُسِرُّ بها نهاراً، إلا الجمعة والعيد، والكسوف، والاستسقاء، فإنه يجهر. ثم يكبر للركوع، ويضع يديه على ركبتيه، ويجعل رأسه حِيال ظهره، ويقول «سبحان ربي العظيم» ويكرره. وإن قال مع ذلك في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» فحسن. ثم يرفع رأسه قائلاً «سمع الله لمن حمده» إن كان إماماً أو منفرداً. ويقول أيضاً «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، مِلْء السماء وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد» ثم يسجد على أعضائه السبعة كما قال النبي ﷺ (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ــ وأشار بيده إلى أنفه ــ والكفين، والركبتين، وأطراف القدمين) متفق عليه، ويقول «سبحان ربي الأعلى» ثم يكبر، ويجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى ــ وهو الافتراش. وجميع جلسات الصلاة: افتراش، إلا في التشهد الأخير. فإنه

يتورك: بأن يجلس على الأرض ويُخرج رجله اليسرى من الخلف الأيمن ــ ويقول «رب اغفر لي وارحمني، واهدني وارزقني، واجبرني وعافني» ثم يسجد الثانية كالأولى. ثم ينهض مكبراً على صدور قدميه. ويصلي الركعة الثانية كالأولى. ثم يجلس للتشهد الأول. وصفته «التحيات لله، والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» ثم يقوم لبقية صلاته. ويقتصر في الذي بعد التشهد على الفاتحة. ثم يتشهد في الجلوس الأخير. وهو المذكور، ويقول أيضاً «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وبارك محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» ويدعو بما أحب. ثم يسلم عن يمينه وعن يساره «السلام عليكم ورحمة الله».

والأركان القولية من المذكورات: تكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة على غير مأموم، والتشهد الأخير، والسلام.

وباقي أفعالها: أركان فعلية، إلا التشهد الأول. فإنه من واجبات الصلاة، كالتكبيرات، غير تكبيرة الإحرام، وقول «سبحان ربي العظيم» في الركوع و«سبحان ربي الأعلى» مرةً في السجود، و«رب اغفر لي» بين السجدتين مرةً مرةً. وما زاد فهو مسنون، وقول «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد، و«ربنا لك الحمد» للكل. فهذه الواجبات تسقط بالسهو. ويجبرها سجوده.

والأركان لا تسقط سهواً ولا جهلاً ولا عمداً.

والباقي سنن أقوال وأفعال مكمل للصلاة.

ومن أركانها: الطمأنينة في جميع أركانها. وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء. ثم استقبل القبلة فكبر. ثم اقرأ

ما تيسر معك من القرآن. ثم اركـع حتى تطمئن راكعاً. ثم ارفـع حتى تعتدل قائماً. ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً. ثم ارفـع حتى تطمئن جالساً. ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً. ثم افعل ذلك في صلاتك كلها) متفق عليه. وقال ﷺ (صلوا كما رأيتموني أصلي) متفق عليه.

فإذا فرغ من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال «اللهم أنت السلام ومنك السلام. تباركت ياذا الجلال والإكرام. لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» «سبحان الله والحمد لله والله أكبر، ثلاثاً وثلاثين» ويقول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» تمام المائة.

والرواتب المؤكدة التابعة للمكتوبات عشر. وهي المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال (حفظت عن رسول الله ﷺ عشر ركعات: ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء في بيته، وركعتين قبل صلاة الصبـح) متفق عليه.

## باب سجود السهو والتلاوة والشكر

وهو مشروع إذا زاد الإنسان في صلاة ركوعاً أو سجوداً أو قياماً أو قعوداً سهواً، أو نقص شيئاً من الأركان: يأتي به ويسجد، أو ترك واجباً من واجبات الصلاة سهواً، أو شك في زيادة أو نقصان.

وقد ثبت (أنه ﷺ قام عن التشهد الأول فسجد، وسلم من ركعتين من الظهر أو العصر. ثم ذكَّروه فتمَّم وسجد للسهو) و(صلى الظهر خمساً فقيل له: أزيدت الصلاة؟ فقال: وما ذاك؟ قالوا: صليت خمساً، فسجد سجدتين بعد ما سلم) متفق عليه. وقال (إذا شك أحدكم في صلاته، فلم يدر: كَمْ صلى: أثلاثاً، أم أربعاً؟ فليطرح الشك، ولْيَبْنِ على ما استيقن. ثم يسجد سجدتين

قبل أن يسلم. فإن كان صلى خمساً شفعن صلاته. وإن كان صلى تماماً كانتا ترغيماً للشيطان) رواه أحمد ومسلم. وله أن يسجد قبل السلام أو بعده.

وسن للقارىء والمستمع، إذا تلا آية سجدة: أن يسجد في الصلاة أو خارجها سجدة واحدة.

وكذلك إذا تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة: سجد لله شكراً. وحكم سجود الشكر كسجود التلاوة.

## باب مفسدات الصلاة ومكروهاتها

تبطل الصلاة: بترك ركن أو شرط، وهو يقدر عليه، عمداً أو سهواً أو جهلاً، وبترك واجب عمداً، وبالكلام عمداً، وبالقهقهة، وبالحركة الكثيرة عرفاً المتوالية لغير ضرورة. لأنه في الأول ترك ما لاَ تتم العبادة إلا به. وبالأخيرات فعل ما ينهى عنه فيها.

ويكره الالتفات في الصلاة. لأن النبي ﷺ سئل عن الالتفات في الصلاة؟ فقال (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد) رواه البخاري.

ويكره العبث، ووضع اليد على الخاصرة، وتشبيك أصابعه، وفرقعتها، وأن يجلس فيها مُقعياً كإقعاء الكلب، وأن يستقبل ما يلهيه، أو يدخلها وقلبه مشتغل بمدافعة الأخبثين، أو بحضرة طعام، كما قال النبي ﷺ (لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان) متفق عليه.

ونهى النبي ﷺ أن يفترش الرجل ذراعيه في السجود.

# باب صلاة التطوع

وآكدها: صلاة الكسوف. لأن النبي ﷺ فعلها وأمر بها وتصلى على صفة حديث عائشة (أن النبي ﷺ جهر في صلاة الكسوف بقراءته. فصلى أربع ركعات، في ركعتين، وأربع سجدات) متفق عليه.

وصلاة الوتر سنة مؤكدة. داوم النبي ﷺ عليه حضراً وسفراً. وحث الناس عليه وأقله: ركعة وأكثره: إحدى عشرة. ووقته من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر. والأفضل: أن يكون آخر صلاته، كما قال النبي ﷺ (اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً) متفق عليه. وقال (من خاف أن لا يقوم من آخر الليل. فليوتر أوله. ومن طمع أن يقوم آخره: فليوتر آخر الليل. فإن صلاة آخر الليل مشهودة. وذلك أفضل) رواه مسلم.

وصلاة الاستسقاء: سنة إذا اضطر الناس لفقد الماء. وتفعل كصلاة العيد في الصحراء. ويخرج إليها متخشعاً متذللاً متضرعاً. فيصلي ركعتين. ثم يخطب خطبة واحدة، يكثر فيها الاستغفار وقراءة الآيات التي فيها الأمر به. ويلح في الدعاء. ولا يستبطىء الإجابة.

وينبغي قبل الخروج إليها: فعل الأسباب التي تدفع الشر وتنزل الرحمة، كالاستغفار، والتوبة، والخروج من المظالم، والإحسان إلى الخلق، وغيرها من الأسباب التي جعلها الله جالبة للرحمة دافعة للنقمة. والله أعلم.

وأوقات النهي عن النوافل المطلقة: من الفجر إلى أن ترتفع الشمس قِيدَ رمح ومن صلاة العصر إلى الغروب، ومن قيام الشمس في كَبِد السماء إلى أن تزول.

# باب صلاة الجماعة والإمامة

وهي فرض عين للصلوات الخمس على الرجال حضراً وسفراً. كما قال النبي ﷺ (لقد هممت أن آمر بالصلاة أن تقام. ثم آمر رجلاً يؤم الناس ثم أَنطلق بحزم من حطب إلى أناس يتخلفون عنها فأُحَرِّق عليهم بيوتهم بالنار) متفق عليه.

وأقلها: إمام ومأموم. وكلما كان أكثر فهو أحب إلى الله. وقال ﷺ (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة) متفق عليه. وقال (إذا صليتما في رحالكما، ثم أتيتما مسجد جماعة فصليا معهم فإنها لكما نافلة) رواه أهل السنن. وعن أبي هريرة مرفوعاً (إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، ولا تكبروا حتى يكبر. وإذا ركع فاركعوا، ولا تركعوا حتى يركع. وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا ربنا ولك الحمد. وإذا سجد فاسجدوا، ولا تسجدوا حتى يسجد. وإذا صلى قائماً فصلوا قياماً. وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً أجمعون). رواه أبو داود. وأصله في الصحيحين. وقال (يَؤُم القوم أقرؤهم لكتاب الله. فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة. فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة. فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سِنًّا. ولا يُؤَمَّنَ الرجلُ الرجلَ في سلطانه. ولا يقعد في بيته على تَكرِمته إلا بإذنه) رواه مسلم.

وينبغي أن يتقدم الإمام، وأن يتراص المأمومون. ويكملون الصف الأول فالأول.

ومن صلى ركعة وهو فَذٌّ خلف الصف لغير عذر أعاد صلاته. وقال ابن عباس (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقمت عن يساره، فأخذ برأسي من ورائي، فجعلني عن يمينه) متفق عليه. وقال: (إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة الوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم

فأتمُّوا) متفق عليه. وفي الترمذي (إذا أتى أحدكم الصلاة والإمام على حال، فليصنع كما يصنع الإمام).

## باب صلاة أهل الأعذار

والمريض يعفى عنه حضور الجماعة. وإذا كان القيام يزيد في مرضه صلى جالساً، فإن لم يطق فعلى جنبه. لقوله ﷺ لعمران بن حُصَين (صلِّ قائماً. فإن لم تستطع فقاعداً. فإن لم تستطع فعلى جنبك) رواه البخاري.

وإن شق عليه فعلُ كل صلاة في وقتها فله الجمع بين الظهر والعصر، وبين العشاءين، في وقت إحداهما. وكذلك المسافر يجوز له الجمع. ويسنُّ له القصر للصلاة الرباعية إلى ركعتين. وله الفطر في رمضان.

وتجوز صلاة الخوف على كل صفة صلاها النبي ﷺ.

فمنها: حديث صالح بن خَوَّات عمن صلى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف (أن طائفة صلت معه وطائفة وجاه العدو. فصلى بالذين معه ركعة. ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وصفوا وجاه العدو. وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت. ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم. ثم سلم بهم) متفق عليه.

وإذا اشتد الخوف صلوا رجالاً ورُكباناً إلى القبلة وإلى غيرها، يومِئون بالركوع والسجود. وكذلك كل خائف على نفسه يصلي على حسب حاله ويفعل كل ما يحتاج إلى فعله في هرب أو غيره. قال النبي ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم) متفق عليه.

# باب صلاة الجمعة

كل من لزمته الجماعة لزمته الجمعة إذا كان مستوطناً ببناء.

ومن شروطها: فعلها في وقتها، وأن تكون بقرية، وأن يتقدمها خطبتان.
وعن جابر قال: (كان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّاكم، ويقول: أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخيرَ الهدي هَدْيُ محمد، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة) رواه مسلم. وفي لفظ (كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة: يحمد الله ويثني عليه، ثم يقول على إثر ذلك، وقد علا صوته) وفي رواية (من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له) وقال: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه» رواه مسلم.

ويستحب أن يخطب على منبر.

فإذا صعد أقبل على الناس فسلم عليهم، ثم يجلس ويؤذِّن المؤذن. ثم يقوم فيخطب ثم يجلس، ثم يخطب الخطبة الثانية، ثم تقام الصلاة فيصلي بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة، يقرأ في الأولى بسبح وفي الثانية بالغاشية، أو بالجمعة والمنافقين.

ويستحب لمن أتى الجمعة: أن يغتسل، ويتطيب، ويلبس أحسن ثيابه، ويبكر إليها. وفي الصحيحين (إذا قلتَ لصاحبك: أنْصِتْ يوم الجمعة، والإمام يخطب، فقد لَغَوت) ودخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: (صليت؟ قال: لا، قال: قم فصل ركعتين) متفق عليه.

# باب صلاة العيدين

(أمر النبـي ﷺ الناس بالخروج إليها حتى العواتق والحُيَّض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزل الحيض المصلى) متفق عليه.

ووقتها: من ارتفاع الشمس قِيدَ رمـح إلى الزوال.

والسُّنة: فعلها في الصحراء، وتعجيل الأضحى، وتأخير الفطر، والفطر في الفطر خاصة قبل الصلاة بتمرات وتراً، وأن يتنظف ويتطيب لها، ويلبس أحسن ثيابه، ويذهب من طريق ويرجـع من أخرى.

فيصلي بهم ركعتين بلا أذان ولا إقامة. يكبر في الأولى سبعاً بتكبيرة الإحرام وفي الثانية خمساً سوى تكبيرة القيام. يرفـع يديه مـع كل تكبيرة. ويحمد الله ويصلي على النبـي ﷺ بين كل تكبيرتين. ثم يقرأ الفاتحة وسورة يجهر بالقراءة فيها. فإذا سلم خطب بهم خطبتين كخطبتي الجمعة، إلا أنه يذكر في كل خطبة الأحكام المناسبة للوقت.

ويستحب التكبير المطلق ليلتي العيدين، وفي كل عشر ذي الحجة. والمقيد عقب المكتوبات: من صلاة فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر لا إلّه إلا الله، الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد».

# كتاب الجنائز

قال النبـي ﷺ: (لَقِّنوا موتاكم لا إلّه إلا الله) رواه مسلم.

وقال: (اقرأوا على موتاكم يّس) رواه النسائي وأبو داود.

وتجهيز الميت ـ كتغسيله وتكفينه والصلاة عليه وحمله ودفنه ـ فرض كفاية. قال النبـي ﷺ: (أسرعوا بالجنازة. فإن تكُ صالحةً فخير تقدمونها إليه. وإن كانت غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم) وقال: (نفس المؤمن معلقة بدَينه حتى يقضى عنه) رواه أحمد والترمذي.

والواجب في الكفن: ثوب يستر جميعه، سـوى رأس المحْرِم ووجـه المحرمة.

وصفة الصلاة عليه: أن يكبر فيقرأ الفاتحـة. ثم يكبر فيصـلي على النبـي ﷺ. ثم يكبر فيدعو للميت فيقول: «اللهـم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وذكرنا وأنثانا وصغيرنا وكبيرنا. اللهم من أحييته منا فأحْيِه على الإسلام ومن تَوَفَّيته فتوفه على الإيمان. اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزُله ووسـع مُدْخله، واغسله بالماء والثلـج والبرد. ونَقِّه من الذنوب كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده، واغفر لنا وله».

وإن كان صغيراً قال بعد الدعاء العام «اللهم اجعله فَرطاً لوالديه وذُخراً وشفيعاً مجاباً. اللهم ثقل به موازينهما، وأعظم به أجورهما، واجعله في كفالة إبراهيم، وقِهِ برحمتك عذاب الجحيم» ثم يكبر ويسلم. وقال النبي ﷺ: (ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفَّعهم الله فيه) رواه مسلم. وقال: (من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان. قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين) متفق عليه. ونهى النبي ﷺ (أن يُجَصَّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه) رواه مسلم.

وكان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: (استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت. فإنه الآن يسأل) رواه أبو داود وصححه.

ويستحب تعزية المصاب بالميت.

وبكى النبي ﷺ على الميت، وقال: (إنها رحمة) مع أنه لعن النائحة والمستمعة. وقال: (زوروا القبور فإنها تذكر بالآخرة) رواه مسلم.

وينبغي لمن زارها أن يقول: «السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم. نسأل الله لنا ولكم العافية».

وأيُّ قُربة فعلها وجعل ثوابها لمسلم نفعه ذلك. والله أعلم.

# كتاب الزكاة

وهي واجبة على كل مسلم حر ملك نصاباً.

ولا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول، إلا الخارج من الأرض، وما كان تابعًا للأصل، كنماء النصاب، وربح التجارة. فإن حَولهما حولُ أصلهما.

ولا تجب الزكاة إلا في أربعة أنواع: السائمة من بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض، والأثمان، وعروض التجارة.

فأما السائمة: فالأصل فيها حديث أنس أن أبا بكر رضي الله عنهما كتب له (هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله: في أربع وعشرين من الإبل، فما دونها من الغنم، في كل خمس شاة. فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين، ففيها بنت مَخاض أنثى. فإن لم تكن فابن لَبون ذكر. فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين، ففيها بنت لبون أنثى. فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين، ففيها حِقَّة طَروقة الجمل. فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين، ففيها جَذَعة. فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين، ففيها بنتا لبون. فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة، ففيها حقتان طروقتا الجمل. فإذا زادت على عشرين ومائة، ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة. ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها

صدقة إلا أن يشاء ربها. وفي صدقة الغنم: في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة: شاة. فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان. فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه. فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة. فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها. ولا يُجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع، خشية الصدقة. وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. ولا يخرج في الصدقة هَرِمة ولا ذات عَوار. وفي الرِّقَةِ ربع العشر. فإن لم يكن إلا تسعون ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها. ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجَذَعة، وليس عنده جذعة، وعنده حقة فإنها تقبل منه الحقة، ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له، أو عشرين درهما. ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده الحقة، وعنده الجذعة: فإنها تقبل منه الجذعة، ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين) رواه البخاري. وفي حديث معاذ (أن النبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعًا أو تبيعة، ومن كل أربعين مُسِنَّة) رواه أهل السنن.

وأما صدقة الأثمان: فإنه ليس فيها شيء حتى تبلغ مائتي درهم، وفيها ربع العشر.

وأما صدقة الخارج من الأرض من الحبوب والثمار: فقد قال النبي ﷺ: (ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة) متفق عليه. والوَسْق ستون صاعاً فيكون النصاب للحبوب والثمار: ثلاثمائة صاع بصاع النبي ﷺ. وقال النبي ﷺ: (فيما سَقت السماء والعيون، أو كان عَثَرِيًّا: العشر، وفيما سُقي بالنَّضْح نصف العشر) رواه البخاري. وعن سهل ابن أبي حَثْمة قال: (أمرنا رسول الله ﷺ: إذا خَرَصْتم فدعوا الثلث، فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع) رواه أهل السنن.

وأما عروض التجارة، وهي كل ما أعد للبيع والشراء لأجل الربح: فإنه يقوَّم إذا حال الحول بالأحظ للمساكين من ذهب وفضة. ويجب فيه ربع العشر.

ومن كان له دين ومال لا يرجو وجوده، كالذي على مماطل أو معسر لا وفاء له: فلا زكاة فيه، وإلا ففيه الزكاة.

ويجب الإخراج من وسط المال. ولا يجزىء من الأدون. ولا يلزم الخيار إلا أن شاء ربه.

وفي حديث أبـي هريرة مرفوعاً (وفي الركاز الخمس) متفق عليه.

## باب زكاة الفطر

عن ابن عمر قال: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر: صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين. وأمر بها أن تُؤدَّي قبل خروج الناس إلى الصلاة) متفق عليه. وتجب عن نفسه وعمن تلزمه مؤنته، إذا كان ذلك فاضلاً عن قـوت يومه وليلته: صاعاً من تمر أو شعير أو أقِطٍ أو زبيب أو بُرّ.

والأفضل فيها: الأنفـع، ولا يحل تأخيرها عن يوم العيد.

وقد فرضها رسول الله ﷺ طُهرة للصائم من اللغو والرفث، وطُعمة للمساكين فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة. ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات. رواه أبو داود وابن ماجه. وقال ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل معلق قلبه بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال. فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه.

## باب أهل الزكاة ومن لا تدفع له

لا تدفع الزكاة إلا للثمانية الذين ذكرهم الله تعالى بقوله:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. [سورة التوبة: الآية ٦٠]

ويجوز الاقتصار على واحد منهم. لقوله ﷺ لمعاذ: (فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم: أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) متفق عليه.

ولا تحل الزكاة لغنيٍّ، ولا لقوي مكتسب، ولا لآل محمد. وهم بنو هاشم ومواليهم، ولا لمن تجب عليه نفقته وقت جريانها، ولا لكافر.

فأما صدقة التطوع: فيجوز دفعها إلى هؤلاء وغيرهم. ولكن كلما كانت أنفع نفعاً عاماً أو خاصاً فهي أكمل. وقال النبي ﷺ: (من سأل الناس أموالَهم تَكَثُّراً فإنما يسأل جَمراً. فليستقلَّ أو ليستكثر) رواه مسلم. وقال لعمر رضي الله عنه: (ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا تُتبِعه نفسك) رواه مسلم.

# كتاب الصيام

الأصل فيه قوله تعالى:

﴿يَأَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ ـ **الآيات**﴾. [سورة البقرة: الآيات ١٨٣ ـ ١٨٧]

ويجب صيام رمضان على كل مسلم بالغ عاقل قادر على الصوم برؤيته، أو إكمال شعبان ثلاثين يوماً. قال ﷺ: (إذا رأيتموه فصوموا. وإذا رأيتموه فأفطروا. فإن غُمَّ عليكم فاقْدُروا له) متفق عليه. وفي لفظ (فاقدروا له ثلاثين) وفي لفظ (فأكملوا عدة شعبان ثلاثين) رواه البخاري.

ويصام برؤية عدل لهلاله. ولا يقبل في بقية الشهور إلا عدلان.

ويجب تبييت النية لصيام الفرض. وأما النفل: فيجوز بنية من النهار.

والمريض الذي يتضرر بالصوم والمسافر: لهما الفطر والصيام.

والحائض والنفساء: يحرم عليهما الصيام، وعليهما القضاء.

والحامل والمرضع، إذا خافتا على ولديهما: أفطرتا وقضيتا وأطعمتا عن كل يوم مسكيناً.

والعاجز عن الصوم، لكبر أو مرض لا يرجى بُرؤه: يطعم عن كل يوم مسكيناً.

ومن أفطر فعليه القضاء فقط، إذا كان فطره بأكل أو شرب أو قَيء عمداً

أو حجامة أو إمناء بمباشرة، إلا من أفطر بجماع. فإنه يقضي ويعتق رقبةً. فإن لم يجد فيصوم شهرين متتابعين. فإن لم يستطع فيطعم ستين مسكينا.

وقال النبي ﷺ: (من نسي وهو صائم. فأكل أو شرب فليتم صومه. فإنما أطعمه الله وسقاه) متفق عليه. وقال: (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) متفق عليه. وقال: (تسحروا فإن في السحور بركة) متفق عليه. وقال: (إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طَهور) رواه الخمسة. وقال ﷺ: (من لم يَدَعْ قولَ الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) رواه البخاري. وقال: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) متفق عليه.

وسئل عن صوم يوم عرفة، فقال: (يكفر السنة الماضية والباقية) وسئل عن صيام عاشوراء، فقال: (يكفر السنة الماضية) وسئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: (ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل عليَّ فيه) رواه مسلم.

وقال: (من صام رمضان، ثم أتبعه سِتاً من شوال، كان كصيام الدهر) رواه مسلم. وقال أبو ذر: (أمَرنا رسول الله ﷺ أن نصوم من الشهر ثلاثة أيام: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة) رواه النسائي والترمذي.

و (نهى عن صيام يومين: يوم الفطر ويوم النحر) متفق عليه وقال: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) رواه مسلم، وقال: (لا يصومنَّ أحدكم يوم الجمعة، إلا أن يصوم يوماً قبله أو يوماً بعده) متفق عليه.

وقال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

و (كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله. واعتكف من بعده أزواجه) متفق عليه.

وقال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى) متفق عليه.

# كتاب الحج

الأصل فيه قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

[سورة آل عمران: الآية ٩٧]

والاستطاعة أعظم شروطه، وهي: ملك الزاد والراحلة بعد ضرورات الإنسان وحوائجه الأصلية.

ومن الاستطاعة: أن يكون للمرأة محرم إذا احتاجت إلى سفر، وحديث جابر في حج النبي ﷺ يشتمل على أعظم أحكام الحج، وهو ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ مكث في المدينة تسع سنين لم يحج ثم أذَّن في الناس في العاشرة: أن رسول الله ﷺ حاج. فقدم المدينة بشَر كثير ـ كلهم يلتمس أن يأتَمَّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله ـ فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحُلَيفة، فولدت أسماء بنت عُميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي وَاسْتَثْفِري بثوب وأحرمي. فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القَصْواء حتى إذا استوت به ناقته على البَيْداء أهَلَّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك. وَأَهَلَّ الناس بهذا الذي يُهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه. ولزم رسول الله ﷺ

تلبيته. قال جابر: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة. حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن. فطاف سبعاً. فرَمَل ثلاثاً ومشى أربعاً. ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾. [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

فصلى ركعتين. فجعل المقام بينه وبين البيت ــ وفي رواية أنه قرأ في الركعتين (قل هو اللَّهُ أحد) و(قل يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) ــ ثم رجع إلى الركن واستلمه. ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ:

﴿إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

أبْدَأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا فرقَى عليه، حتى رأى البيت. فاستقبل القبلة، فوحّدَ الله وكبره، وقال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا إلّه إلا الله وحده، أنْجَزَ وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك ــ قال مثل هذا ثلاث مرات ــ ثم نزل ومشى إلى المروة، حتى إذا انصبَّت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. حتى كان آخرُ طواف على المروة، فقال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسُقِ الهدْيَ وجَعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هَدي فلْيَحِلَّ وليجعلها عمرة. فقام سُراقة بن جُعْشُم، فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا، أم لأبدٍ؟ فشَبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج ــ مرتين ــ لا، بل لأبَدِ أبدٍ. وقَدِم عليٌّ من اليمن بِبُدن النبي ﷺ. فوجد فاطمة ممن حَلّ، ولبست صَبيغاً واكتحلت. فأنكر ذلك عليها. فقالت: إن أبي أمرني بهذا. قال: فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ مُحَرِّشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه. فأخبرتُه أني أنكرت عليها. فقال: صدقتْ صدقتْ. ماذا قلت حين فرضتَ الحج؟ قال: قلت: اللهم إني أهِلُّ بما أَهَلَّ به رسولك. قال: فإن معي الهدي فلا يَحِلَّ.

قال: فكان جماعةُ الهدي الذي قدم به عليٌّ من اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ: مائة. قال: فحل الناس كلهم، وقَصَّروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي. فلما كان يومُ التروية توجهوا إلى مِنًى. فأهَلُّوا بالحج. وركب النبي ﷺ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس. وأمر بقبة من شَعَر تضرب له بِنَمِرَة. فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية. فأجاز رسول الله ﷺ حتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة. فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلت له. فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أَضَعُ من دمائنا: دمُ ابن ربيعة بن الحارث ــ كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعد فقتلته هذيل ــ وربا الجاهلية موضوع. وأول رباً أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب. فإنه موضوع كله. فاتقوا الله في النساء. فإنكم أخذتموهن بأمان الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ولكم عليهن أن لا يُوطِئن فُرُشكم أحداً تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح. ولهن عليكم رزقهن وكِسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتابَ الله. وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت، وأديت، ونصحت. فقال بإصْبَعه السبابة ــ يرفعها إلى السماء، ويَنْكُتُها إلى الناس ــ: اللهم اشهد، اللهم اشهد ــ ثلاث مرات ــ ثم أذَّن بلال. ثم أقام فصلى الظهر. ثم أقام فصلى العصر. ولم يصل بينهما شيئاً. ثم ركب حتى أتى الموقف. فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخَرات. وجعل حَبْل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة. فلم يزل واقفاً حتى غَرَبت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القُرص وأردف أسامة بن زيد خلفه. ودفع رسول الله ﷺ، وقد شَنَق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِك رَحْله. ويقول بيده

اليمنى: أيها الناس، السكينةَ السكينةَ، كلما أتى حَبْلاً من الحِبال أرخَى لها قليلاً حتى تصعدَ، حتى أتى المزدلفة. فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين. ولم يسبح بينهما شيئاً. ثم اضطجع حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام. فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً. فدفع قبل أن تطلع الشمس. وأردف الفضل بن العباس، حتى أتى بطن مُحسِّر. فحرك قليلاً. ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجَمْرة الكبرى. حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حَصَيات، يكبر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخَذْف. رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحَر. فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غَبَر، وأشركه في هَدْيه. ثم أمر من كلِّ بَدَنة ببَضْعَة، فجعلت في قِدْر وطُبخت. فأكلا من لحمها وشربا من مَرَقها. ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت. فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يَسْقُون على زمزم. فقال: انْزِعوا بني عبد المطلب. فلولا أنْ يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم. فناولوه دلواً فشرب منه) رواه مسلم.

وكان ﷺ يفعل المناسك، ويقول للناس: (خذوا عني مناسككم) فأكملُ ما يكون من الحج: الاقتداء فيه بالنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ولو اقتصر الحاج على الأركان الأربعة، التي هي: الإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف، والسعي، والواجبات، التي هي: الإحرام من الميقات، والوقوف بعرفة إلى الغروب، والمبيت ليلة النحر بمزدلقة، وليالي أيام التشريق بمنى، ورمي الجمار، والحلق أو التقصير: ـ لأجزأه ذلك.

والفرق بين ترك الركن في الحج، وترك الواجب: أن تارك الركن لا يصح حجه حتى يفعله على صفته الشرعية، وتارك الواجب: حجه صحيح. وعليه إثم ودم لتركه.

ويخير من يريد الإحرام بين التمتع، وهو أفضل، والقِران، والإفراد.

فالتمتع هو: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، ويفرغ منها. ثم يحرم بالحج من عامه، وعليه هدي إن لم يكن من حاضري المسجد الحرام.

والإفراد هو: أن يحرم بالحج من الميقات مفرداً.

والقِران: أن يحرم بهما معاً، أو يحرم بالعمرة، ثم يدخل الحج عليها قبل الشروع في طوافها. ويضطر المتمتع إلى هذه الصفة إذا خاف فوات الوقوف بعرفة إذا اشتغل بعمرته. وإذا حاضت المرأة أو نُفست وعرفت أنها لا تطهر قبل وقت الوقوف بعرفة.

والمفرد والقارن فعلهما واحد. وعلى القارن هدي دون المفرد.

ويجتنب المحرم جميع محظورات الإحرام: من حلق الشعر، وتقليم الأظفار، ولبس المخيط، إن كان رجلاً، وتغطية رأسه إن كان رجلاً، ومن الطيب رجلاً وامرأة.

وكذلك يحرم على المحرم: قتل صيد البر الوحشي المأكول والدلالة عليه والإعانة على قتله.

وأعظم محظورات الإحرام: الجماع. لأن تحريمه مغلظ، مفسد للنسك موجب لفدية بدنة.

وأما فدية الأذى، إذا غطى رأسه، أو لبس المخيط، أو غطت المرأة وجهها، أو لبست القفازين، أو استعمال الطيب: فيخير بين صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة.

وإذا قتل الصيدَ خيِّر بين ذبح مثله ـ إن كان له مثل من النعم ـ وبين تقويم المثل بمحل الإتلاف، فيشتري به طعاماً فيطعمه، لكل مسكين مُدُّ بُرٍّ، أو نصف صاع من غيره، أو يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً.

وأما دم المتعة والقران: فيجب فيه ما يجزىء في الأضحية. فإن لم يجد صام عشرة أيام، ثلاثة في الحج، ويجوز أن يصوم أيام التشريق منها، وسبعة إذا رجع وكذا حكم من ترك واجباً، أو وجبت عليه الفدية لمباشرة.

وكل هَدي أو إطعام يتعلق بحرم أو إحرام: فلمساكين الحرم من مقيم وآفاقي.

ويجزيء الصوم بكل مكان.

ودم النسك ـ كالمتعة والقِران والهدي ـ المستحب: أن يأكل منه ويهدي ويتصدق.

والدم الواجب لفعل المحظور، أو ترك الواجب ـ ويسمى دم جُبران ـ لا يأكل منه شيئاً، بل يتصدق بجميعه. لأنه يجري مجرى الكفارات.

وشروط الطواف مطلقاً: النية، وأن يبدأ به من الحجَر ويسن له أن يستلمه ويقبله. فإن لم يستطع أشار إليه، ويقول عند ذلك: «بسم الله، الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ» وأن يجعل البيت عن يساره، ويكمل الأشواط السبعة، وأن يتطهر من الحدث والخبث.

والطهارة في سائر الأنساك ـ غير الطواف ـ سنة غير واجبة. وقد ورد في الحديث: «الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله أباح فيه الكلام».

ويسن له أن يَضْطَبع في طواف القدوم: بأن يجعل وسط ردائه تحت عاتقه الأيمن وطرفه على عاتقه الأيسر، وأن يَرْمُل في الثلاثة الأشواط الأوائل منه ويمشي في الباقي. وكل طواف سوى هذا لا يسن فيه رَمَل ولا اضطباع.

وشروط السعي: النية، وتكميل السبعة، والابتداء من الصفا.

والمشروع: أن يكثر الإنسان في طوافه وسعيه وجميع مناسكه من ذكر الله ودعائه؛ لقوله ﷺ: (إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمي الجمار

لإقامة ذكر الله) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما فتح الله على رسوله مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل. وسلط عليها رسوله والمؤمنين. وإنها لم تَحلَّ لأحد كان قبلي. وإنما حَلَّت لي ساعة من نهار. وإنها لن تحل لأحد بعدي. فلا يُنَفَّر صيدها. ولا يُخْتَلَى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشِدٍ. ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين. فقال العباس: إلا الإذخِرَ يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا. فقال: إلا الإذخر) متفق عليه. وقال: (المدينة حرام ما بين عَيْر إلى ثور) رواه مسلم. وقال: (خمس من الدواب كلهن فاسق، يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحِدَأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور) متفق عليه.

## باب الهدي والأضحية والعقيقة

تقدم ما يجب من الهدي، وما سواه سنة. وكذلك الأضحية والعقيقة.

ولا يجزىء فيها إلا الجَذَع من الضأن. وهو ما تم له نصف سنة، والثَّنِيُّ من الإبل: ما له خمس سنين، ومن البقر ما له سنتان، ومن الْمَعِز ما له سنة، قال ﷺ: (أربع لا تجوز في الضحايا: العوراء البيِّن عَوَرها، والمريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البين ضَلَعها، والكبيرة التي لا تُنْقِي) صحيح رواه الخمسة.

وينبغي أن تكون كريمة كاملة الصفات. وكلما كانت أكمل فهي أحب إلى الله وأعظم لأجر صاحبها. وقال جابر: (نحرنا مع النبي ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» رواه مسلم.

وتسن العقيقة في حق الأب، عن الغلام شاتان. وعن الجارية شاة، قال ﷺ: (كل غلام مُرتَهَن بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه. ويحلق رأسه، ويسمى) صحيح رواه الخمسة.

ويأكل من المذكورات، ويهدى ويتصدق. ولا يعطى الجازر أجرته منها، بل يعطيه هدية أو صدقة.

# كتاب البيوع

الأصل فيه الحل؛ قال تعالى:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]

فجميع الأعيان ــ من عقار وحيوان وأثاث وغيرها ــ يجوز إيقاع العقود عليها إذا تمت شروط البيع.

فمن أعظم الشروط: الرضى، لقوله تعالى:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

إلا أن يكون فيه غَرَر وجهالة. لأن النبي ﷺ (نهى عن بيع الغَرَر) رواه مسلم.

فيدخل فيه بيع الآبق والشارد، وأن يقول: بعتك إحدى السلعتين، أو بمقدار ما تبلغ الحصاة من الأرض ونحوه، أو ما تحمل أمته أو شجرته، أو ما في بطن الحامل، وسواء كان الغرر في الثمن أو المثمن، وأن يكون العاقد مالكاً للشيء، أو له عليه ولاية، وهو بالغ عاقل رشيد.

ومن شروط البيع أيضاً: أن لا يكون فيه ربا. عن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبرُّ بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح، مثلاً بمثل سوءٍ بسواه فإذا اختلفت هذه

الأصناف فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد. فمن زاد أو استزاد فقد أربى) رواه مسلم. فلا يباع مكيل بمكيل من جنسه إلا بهذين الشرطين، ولا موزون بجنسه إلا كذلك. وإن بيع مكيل بمكيل من غير جنسه أو موزون بموزون من غير جنسه: جاز، بشرط التقابض قبل التفرق. وإن بيع مكيل بموزون أو عكسه: جاز. ولو كان القبض بعد التفرق. والجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل، كما (نهى النبي ﷺ عن بيع المزابنة ـ وهو شراء التمر بالتمر في رؤوس النخل) متفق عليه. و (رخص في بيع العرايا بخَرْصها فيما دون خمسة أوسق للمحتاج للمرطب ولا ثمن عنده يشترى به بخرصها) رواه مسلم.

ومن الشروط: أن لا يقع العقد على محرم شرعاً، إما لعينه، كما (نهى النبي ﷺ عن بيع الخمر والميتة والأصنام) متفق عليه، وإما لما يترتب عليه من قطيعة المسلم، كما «نهى النبي ﷺ عن البيع على بيع المسلم، والشراء على شرائه والنجّش) متفق عليه.

ومن ذلك: نهيه ﷺ عن التفريق بين ذوي الرحم في الرقيق.

ومن ذلك: إذا كان المشتري يعلم منه أنه يفعل المعصية بما اشتراه ـ كاشتراء الجوز والبيض للقمار، أو السلاح للفتنة، وعلى قطاع الطريق ـ ونهى النبي ﷺ عن تلقي الجَلب، فقال: (لا تَلَقُّوا الجلب. فمن تلقى فاشترى منه، فإذا أتى سيده السوق: فهو بالخيار) رواه مسلم. وقال: (من غشنا ليس منا) رواه مسلم.

ومثل الربا الصريح: التحيل عليه بالعينَة، بأن يبيع سلعة بمائة إلى أجل ثم يشتريها من مشتريها بأقل منها نقداً أو بالعكس، أو بالتحيل على قلب الدين، أو التحيل على الربا بالقرض، بأن يقرضه مائة ويشترط الانتفاع بشيء من ماله، أو إعطائه عن ذلك عوضاً. فكل قرض جرَّ نفعاً فهو ربا.

ومن التحيل: بيع حُلي فضة معه غيره بفضة، أو مُدّ عجوة ودرهم بدرهم، و (سئل النبي ﷺ عن بيع التمر بالرطب؟ فقال: أينقص إذا جَفَّ؟

قالوا: نعم. فنهى عن ذلك) رواه الخمسة. و (نهى عن بيع الصُّبرة من التمر، لا يعلم مكيلها، بالكيل المسمى من التمر» رواه مسلم.

وأما بيع ما في الذمة: فإن كان على من هو عليه: جاز. وذلك بشرط قبض عوضه قبل التفرق. لقوله ﷺ: (لا بأس أن تأخذها بسعر يومها ما لم تتفرقا وبينكما شيء) رواه الخمسة. وإن كان على غيره لا يصح. لأنه من الغرر.

## باب بيع الأصول والثمار

قال ﷺ: (من باع نخلاً بعد أن تُؤبَّر فثمرتها للبائع، إلا أن يشترطها المبتاع) متفق عليه. وكذلك سائر الأشجار إذا كان ثمره بادياً. ومثله إذا ظهر الزرع الذي لا يحصد إلا مرة. فإن كان يحصد مراراً فالأصول للمشتري والْجَزَّة الظاهرة عند البيع: للبائع.

و (نهى رسول الله ﷺ عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها: نهى البائع والمبتاع) وسئل عن صلاحها؟ فقال: (حتى تذهب عاهته) وفي لفظ (حتى تحمارَّ أو تصفار) و (نهى عن بيع الحب حتى يشتد) رواه أهل السنن. وقال: (لو بعتَ من أخيك ثمراً فأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً، بم تأخذ مال أخيك بغير حق؟) رواه مسلم.

## باب الخيار وغيره

إذا وقع العقد صار لازماً، إلا لسبب من الأسباب الشرعية.

فمنها: خيار المجلس. قال النبي ﷺ: (إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعاً، أو يخير أحدهما الآخر. فإن خَيَّر أحدهما الآخر، فتبايعا على ذلك: فقد وجب البيع. وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع، فقد وجب البيع) متفق عليه.

ومنها: خيار الشرط. إذا شرط الخيار لهما أو لأحدهما مدة معلومة. قال ﷺ: (المسلمون عند شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً) رواه أهل السنن.

ومنها: إذا غبن غبناً يخرج عن العادة، إما بنجش أو تلقي جلب أو غيرها.

ومنها: خيار التدليس، بأن يدلِّس البائع على المشتري ما يزيد به الثمن كتصْرِية اللبن في ضَرع بهيمة الأنعام. قال ﷺ: (لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعدُ فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها. إن شاء أمسكها وإن شاء ردها وصاعاً من تمر) متفق عليه. وفي لفظ (فهو بالخيار ثلاثة أيام).

وإذا اشترى معيباً لم يعلم عيبه، فله الخيار بين رده وإمساكه. فإن تعذر رده تعين أرشه. وإذا اختلفا في الثمن تحالفا. ولكل منهما الفسخ.

وقال ﷺ: (من أقال مسلماً بيعته أقاله الله عثرته) رواه أبو داود وابن ماجه.

## باب السلم

يصح السلَم في كل ما ينضبط بالصفة إذا ضبطه بجميع صفاته التي يختلف بها الثمن، وذكَر أجله، وأعطاه الثمن قبل التفرق. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسْلِفون في الثمار السنةَ والسنتين، فقال: من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم) متفق عليه. وقال ﷺ: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله) رواه البخاري.

## باب الرهن والضمان والكفالة

وهذه وثائق بالحقوق الثابتة.

فالرهن: يصح بكل عين يصح بيعها. فتبقى أمانة عند المرتهن، لا يضمنها إلا إن تعدى أو فرط، كسائر الأمانات. فإن حصل الوفاء التام انفكَّ الرهن. وإن لم يحصل، وطلب صاحب الحق بيع الرهن: وجب بيعه والوفاء من ثمنه. وما بقي من الثمن بعد وفاء الحق: فلربه. وإن بقي من الدين شيء: يبقى ديناً مرسلاً، بلا رهن.

وإن أتلف الرهن أحد: فعليه ضمانه يكون رهناً.

ونماؤه تبع له. ومؤنته على ربه. وليس للمرتهن ولا للراهن الانتفاع به إلا بإذن الآخر، أو بإذن الشارع في قوله ﷺ: (الظهر يركب بنفقته، إذا كان مرهوناً. ولبن الدَّر يشرب بنفقته، إذا كان مرهوناً. وعلى الذي يركب ويشرب: النفقة) رواه البخاري.

والضمان: أن يضمن الحق عن الذي عليه.

والكفالة: أن يلتزم بإحضار بدن الخصم. قال ﷺ: (الزعيم غارم) فكل منهما ضامن، إلا إن قام بما التزم به، أو أبرأه صاحب الحق، أو برىء الأصيل. والله أعلم.

## باب الحجر لفلس أو غيره

ومن له الحق فعليه أن يُنظِر المعسر. وينبغي له أن ييسر على الموسر. ومن عليه الحق فعليه الوفاء كاملاً بالقدر والصفات. قال ﷺ: (مَطْل الغني ظلم، وإذا أُحيل بدينه على مَلِيء فليَحْتل) متفق عليه. وهذا من المياسَرة.

فالمليء: هو القادر على الوفاء الذي ليس مماطلاً، ويمكن تحضيره لمجلس الحكم. وإذا كانت الديون أكثر من مال الإنسان، وطلب الغرماء أو بعضهم من

الحاكم أن يحجر عليه: حجر عليه. ومنعه من التصرف في جميع ماله. ثم يصفي ماله، ويقسمه على الغرماء بقدر ديونهم. ولا يقدم منهم إلا صاحب الرهن برهنه. وقال ﷺ: (من أدرك ماله عند رجل قد أفلس فهو أحق به من غيره) متفق عليه.

ويجب على ولي الصغير والسفيه والمجنون أن يمنعهم من التصرف في مالهم الذي يضرهم. قال تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾

[سورة النساء: الآية ٥]

وعليه ألا يَقرُب مالهم إلا بالتي هي أحسن: من حفظه، والتصرف النافع لهم، والصرف عليهم منه ما يحتاجون إليه.

ووليهم: أبوهم الرشيد. فإن لم يكن: جعل الحاكم الولاية لأشفق من يكون من أقاربه، وأعرفهم وآمنهم. ومن كان غنياً فيستعفف. ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف. وهو الأقل من أجرة مثله أو كفايته.

## باب الصلح

قال النبي ﷺ: (الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح. وصححه الحاكم.

فإذا صالحه عن عين بعين أخرى، أو بدين: جاز. وإن كان له عليه دين فصالحه عنه بعين، أو بدين قبضه قبل التفرق: جاز، أو صالحه على منفعة في عقاره أو غيره معلومة، أو صالحه عن الدين المؤجل ببعضه حالاً، أو كان له عليه دين لا يعلمان مقداره، فصالحه على شيء: صح ذلك. قال ﷺ: (لا يمنعن جار جاره أن يَغرِزَ خَشَبَهُ على جداره) رواه البخاري.

# باب الوكالة والشركة والمساقاة والمزارعة

كان النبي ﷺ يوكل في حوائجه الخاصة وحوائج المسلمين المتعلقة به. فهي عقد جائز من الطرفين. تدخل في جميع الأشياء التي تصح النيابة فيها: من حقوق الله، كتفريق الزكاة، والكفارة ونحوها، ومن حقوق الآدميين، كالعقود والفسوخ وغيرها.

وما لا تدخله النيابة: من الأمور التي تتعين على الإنسان وتتعلق ببدنه خاصة ـ كالصلاة، والطهارة، والحلف، والقَسْم بين الزوجات ونحوها ـ لا تجوز الوكالة فيها ولا يتصرف الوكيل في غير ما أذن له فيه نطقاً أو عرفاً.

ويجوز التوكيل بجُعل أو غيره. وهو كسائر الأمناء لا ضمان عليهم إلا بالتعدي أو التفريط. ويقبل قولهم في عدم ذلك باليمين.

ومن ادعى الرد من الأمناء، فإن كان بجُعل: لم يقبل إلا ببينة. وإن كان متبرعاً: قبل قوله بيمينه. وقال ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا ثالث الشريكين، ما لم يخن أحدهما صاحبه. فإذا خان خرجت من بينهما) رواه أبو داود.

فالشركة بجميع أنواعها كلها جائزة. ويكون الملك فيها والربح بحسب ما يتفقان عليه إذا كان جزءاً مشاعاً معلوماً.

فدخل في هذا «شركة العنان» وهي: أن يكون من كل منهما مال وعمل و«شركة المضاربة» بأن يكون من أحدهما المال ومن الآخر العمل، و«شركة الوجوه» بما يأخذان بوجوههما من الناس. و«شركة الأبدان» بأن يشتركا بما يكتسبان بأبدانهما من المباحات من حشيش ونحوه، وما يتقبلانه من الأعمال و«شركة المفاوضة» وهي الجامعة لجميع ذلك. وكلها جائزة.

ويفسدها إذا دخلها الظلم والغرر لأحدهما، كأن يكون لأحدهما ربح وقت معين، وللآخر ربح وقت آخر، أو ربح إحدى السلعتين، أو إحدى السَّفرتين، وما يشبه ذلك. كما يفسد ذلك المساقاة والمزارعة. وقال رافع بن

خَديج: (كان الناس يؤاجرون على عهد رسول الله ﷺ ما على الماذيانات، وأقبال الجداول، وأشياء من الزرع. فيهلك هذا ويسلم هذا. ويسلم هذا ويهلك هذا. ولم يكن للناس كراء إلا هذا. فلذلك زجر عنه. فأما شيء معلوم مضمون: فلا بأس به) رواه مسلم. و «عاملَ النبي ﷺ أهل خيبر بشَطْر ما يخرج منها من ثمر أو زرع» متفق عليه.

فالمساقاة على الشجر: بأن يدفعها للعامل ويقوم عليها بجزء مشاع معلوم من الثمرة، والمزارعة: بأن يدفع الأرض لمن يزرعها بجزء مشاع معلوم من الزرع. وعلى كل منهما ما جرت العادة به. والشرط الذي لا جهالة فيه.

ولو دفع دابته إلى آخر يعمل عليها وما حصل بينهما: جاز.

## باب إحياء الموات

وهي الأرض الداثرة التي لا يعلم لها مالك. فمن أحياها بحائط، أو حفر بئر، أو إجراء ماء إليها، أو منع ما لا تزرع معه: مَلكها بجميع ما فيها إلا المعادن الظاهرة. لحديث ابن عمر (من أحيا أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها) رواه البخاري.

وإذا تحجَّر مواتاً، بأن أدار حولها أحجاراً، أو حفر بئراً، لم يصل إلى مائها، أو أُقطع أرضاً: فهو أحق بها. ولا يملكها حتى يحييها بما تقدم.

## باب الجعالة والإجارة

وهما: جَعلُ مال معلوم لمن يعمل له عملاً معلوماً، أو مجهولاً في الجعالة ومعلوماً في الإجارة، أو على منفعة في الذمة. فمن فعل ما جُعل عليه فيهما: استحق العوض وإلا فلا، إلا إذا تعذر العمل في الإجارة. فإنه يتقسط العوض. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: ثلاثة

أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غَدَر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره) رواه مسلم.

والجعالة أوسع من الإجارة. لأنها تجوز على أعمال القُرَب. لأن العمل فيها يكون معلوماً أو مجهولاً. ولأنها عقد جائز، بخلاف الإجارة.

وتجوز إجارة العين المؤجرة على من يقوم مقامه إلا بأكثر ضرراً منه.

ولا ضمان فيهما بدون تعد ولا تفريط. وفي الحديث (أعطوا الأجير أجره قبل أن يَجفَّ عرقه) رواه ابن ماجه.

## باب اللقطة

وهي على ثلاثة أضراب:

أحدها: ما تقل قيمته، كالسوط والرغيف ونحوهما. فيملك بلا تعريف.

والثاني: الضوالُّ التي تمتنع من صغار السباع كالإبل. فلا تملك بالالتقاط مطلقاً.

والثالث: ما سوى ذلك. فيجوز التقاطه. ويملكه إذا عرّفه سنة كاملة. وعن زيد بن خالد الجهني قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ. فسأله عن اللقطة؟ فقال: اعْرِف عِفاصَها ووِكاءها ثم عرِّفها سنة. فإن جاء صاحبها وإلا فشأنَك بها. قال: فضالَّة الغنم؟ فقال: هي لك، أو لأخيك، أو للذئب. قال: فضالّة الإبل؟ قال: مالك ولها؟ معها سِقاؤها وحِذاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها) متفق عليه.

والتقاط اللقيط والقيام به: فرض كفاية. فإذا تعذر بيت المال فعلى من علم بحاله.

## باب المسابقة والمغالبة

وهي ثلاثة أنواع:

نوع يجوز بعوض وغيره. وهي: مسابقة الخيل والإبل والسهام، ونوع يجوز بلا عوض. ولا يجوز بعوض، وهي: جميع المغالبات بغير الثلاثة المذكورة وبغير النرد والشطرنج ونحوهما، فتحرم مطلقاً. وهو النوع الثالث، لحديث (لا سَبَق إلا في خُف أو حافر أو نَصْل» رواه أحمد والثلاثة.

وأما ما سواها: فإنها داخلة في القمار والميسر.

## باب الغصب

وهو الاستيلاء على مال الغير بغير حق، وهو محرم. لحديث (من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طَوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين) متفق عليه. وعليه رده لصاحبه ولو غرم أضعافه. وعليه نفقته وأجرته مدة مقامه بيده، وضمانه إذا تلف مطلقاً، وزيادته لربه.

وإن كانت أرضاً، فغرس أو بنى فيها: فلربه قلعه، لحديث (ليس لعِرْق ظالم حق) رواه أبو داود.

ومن انتقلت إليه العين من الغاصب، وهو عالم: فحكمه حكم الغاصب.

## باب العارية والوديعة

وهي إباحة المنافع. وهي مستحبة في المعروف. قال ﷺ: (كل معروف صدقة).

وإن شرط ضمانها: ضمنها، وإن تعدى أو فرط فيها: ضمنها، وإلا فلا. ومن أُودع وديعة فعليه حفظها في حِرْز مثلها. ولا ينتفع بها بغير إذن ربها.

## باب الشفعة

وهي: استحقاق الإنسان انتزاع حصة شريكه من يد من انتقلت إليه ببيع ونحوه. وهي خاصة في العقار الذي لم يقسم. لحديث جابر رضي الله عنه (قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم. فإذا وقعت الحدود وصُرفت الطرق فلا شفعة) متفق عليه.

ولا يحل التحيل لإسقاطها. فإن تحيل لم تسقط، لحديث: (إنما الأعمال بالنيات).

## باب الوقف

وهو تحبيس الأصل وتسبيل المنافع. وهو من أفضل القرب وأنفعها إذا كان على جهة بر، وسلم من الظلم. لحديث (إذا مات العبد انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم. وعن ابن عمر قال: (أصاب عمر أرضاً بخيبر. فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها. فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه. قال: إن شئت حَبّست أصلها وتصدقت بها. قال: فتصدق بها عمر، غير أنه لا يباع أصلها ولا يورث ولا يوهب. فتصدق بها في الفقراء، وفي القُربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف. لا جناح على من وَليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقاً، غير متمول مالاً) متفق عليه.

وأفضله: أنفعه للمسلمين. وينعقد بالقول والفعل الدال على الوقف.

ويرجع في مصارف الوقف وشروطه إلى شرط الواقف حيث وافق الشرع ولا يباع إلا أن تتعطل منافعه، فيباع. ويجعل في مثله أو بعض مثله.

# باب الهبة والعطية والوصية

وهي من عقود التبرعات.

فالهبة: التبرع بالمال في حال الحياة والصحة.

والعطية: التبرع به في مرض موته المخوف.

والوصية: التبرع به بعد الوفاة. فالجميع داخل في الإحسان والبر.

فالهبة: من رأس المال، والعطية والوصية: من الثلث فأقل لغير وارث. فإن زاد عن الثلث، أو كان لوارث: توقف على إجازة الورثة الراشدين.

وكلها يجب فيها العدل بين أولاده، لحديث (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) متفق عليه.

وبعد تقبيض الهبة وقبولها لا يحل الرجوع فيها، لحديث (العائد في هبته كالكلب يَقيء ثم يعود في قَيْئه) متفق عليه. وفي الحديث الآخر (لا يحل لرجل مسلم أن يعطي العطية ثم يرجع فيها، إلا الوالد فيما يعطي ولده) رواه أهل السنن. و(كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها).

وللأب أن يتملك من مال ولده ما شاء، ما لم يضره، أو يعطيه لولد آخر، أو يكون بمرض موت أحدهما، لحديث (أنت ومالك لأبيك).

وعن ابن عمر مرفوعاً (ما حق امرىء مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده) متفق عليه. وفي الحديث (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه. فلا وصية لوارث) رواه أهل السنن. وفي لفظ (إلا أن يشاء الورثة).

وينبغي لمن ليس عنده شيء يحصل منه إغناء ورثته أن لا يوصي. بل يدع التركة كلها لورثته، كما قال النبي ﷺ (إنك أن تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) متفق عليه. والخير مطلوب في جميع الأحوال.

# كتاب المواريث

وهي العلم بقسمة التركة بين مستحقيها. والأصل فيها قوله تعالى في سورة النساء:

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ـ إلى قوله تعالى ـ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ [سورة النساء: الآيتان ١١، ١٢]

وقوله في آخر السورة:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ، قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ـ إلى آخرها﴾
[سورة النساء: الآية ١٧٦]

مع حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (ألحِقوا الفرائض بأهلها. فما بقي فلأَوْلَى رجل ذكر) متفق عليه.

فقد اشتملت الآيات الكريمة ــ مع حديث ابن عباس ــ على جُل أحكام المواريث وذكرها مفصلة بشروطها. فجعل الله الذكور والإناث من أولاد الصلب وأولاد الابن ومن الإخوة الأشقاء، أو لغير أم إذا اجتمعوا يقتسمون المال. وما أبقت الفروض: للذكر مثل حظ الأنثيين. وأن الذكور من المذكورين يأخذون المال أو ما أبقت الفروض وأن الواحدة من البنات لها النصف، والثنتين فأكثر لهما الثلثان، وإذا كانت بنت وبنت ابن فللبنت النصف، ولبنت الابن

السدس تكملة الثلثين وكذلك الأخوات الشقيقات واللاتي للأب في الكلالة إذا لم يكن ولد ولا والد، وأنه إذا استغرقت البنات الثلثين سقط مَنْ دونهن من بنات الابن، إذا لم يُعصِّبهن ذكر بدرجتهن أو أنزلَ منهن. وكذلك الشقيقات يُسقطن الأخوات للأب إذا لم يعصبهن أخوهن. وأن الإخوة من الأم والأخوات: للواحد منهن السدس، وللاثنين فأكثر الثلث، يُسوَّى بين ذكورهم وإناثهم. وأنهم لا يرثون مع الفروع مطلقاً، ولا مع الأصول الذكور. وأن الزوج له النصف مع عدم أولاد الزوجة، والربع مع وجودهم. وأن الزوجة فأكثر لها الربع مع عدم أولاد الزوج، والثمن مع وجودهم. وأن الأم لها السدس مع أحد من الأولاد، أو اثنين فأكثر من الإخوة أو الأخوات، والثلث مع عدم ذلك. وأن لها ثلث الباقي في زوج وأبوين، أو زوجة وأبوين. وقد (جعل النبي ﷺ للجدة السدس إذا لم يكن دونها أم) رواه أبو داود والنسائي. وأن للأب السدس لا يزيد عليه مع الأولاد الذكور. وله السدس مع الإناث. فإن بقي بعد فرضهن شيء أخذه تعصيباً مع عدم الأولاد مطلقاً.

وكذلك جميع الذكور، غير الزوج والأخ من الأم عصبات، وهم الإخوة الأشقاء أو لأب وأبناؤهم. والأعمام الأشقاء أو لأب وأبناؤهم أعمام الميت وأعمام أبيه وجده، وكذلك البنون وبنوهم.

وحكم العاصب: أن يأخذ المال كله إذا انفرد. وإن كان معه صاحب فرض أخذ الباقي بعده. وإذا استغرقت الفروض التركة لم يبق للعاصب شيء. ولا يمكن أن تستغرق مع ابن الصلب ولا مع الأب.

وإن وجد عاصبان فأكثر فجهات العصوبة على الترتيب الآتي:

بُنوّة، ثم أبوّة، ثم أخوّة وبنوهم، ثم أعمام وبنوهم، ثم الولاء وهو المعتق، وعصباته المتعصبون بأنفسهم. فيقدم منهم الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة: قدم الأقرب منزلة. فإن كانوا في المنزلة سواء: قدم الأقوى منهم. وهو الشقيق على الذي لأب. وكل عاصب غير الأبناء والإخوة لا ترث أخته معه

شيئاً. وإذا اجتمعت فروض تزيد على المسألة بحيث لا يسقط بعضهم بعضاً، عالت بقدر فروضهم. فإذا كان زوج وأم وأخت لغير أم، فأصلها ستة وتعول لثمانية. فإن كان معهم أخ لأم فكذلك. فإن كانوا اثنين عالت لتسعة. فإن كان الأخوات لغير أم ثنتين عالت إلى عشرة. وإذا كان بنتان وأم وزوج عالت من اثني‌عشرة إلى ثلاثة عشر. فإن كان معهم أب عالت إلى خمسة عشر. فإن كان بدل الزوج زوجة فأصلها من أربع وعشرين وتعول إلى سبع وعشرين وإن كانت الفروض أقل من المسألة، ولم يكن معهم عاصب: رد الفاضل على كل ذي فرض بقدر فرضه.

فإن عدم أصحاب الفروض والعصبات، ورث ذوو الأرحام وهم من سوى المذكورين، وينزلون منزلة من أدلوا به.

ومن لا وارث له فماله لبيت المال يصرف في المصالح العامة والخاصة.

وإذا مات الإنسان تعلق بتركته أربعة حقوق مرتبة. أولها: مؤنة التجهيز. ثم الديون الموثقة والمرسلة من رأس المال. ثم إذا كان له وصية تنفذ من ثلثه للأجنبي. ثم الباقي للورثة المذكورين. والله أعلم.

وأسباب الإرث ثلاثة: النسب، والنكاح الصحيح، والولاء.

وموانعه ثلاثة: القتل، والرق، واختلاف الدين.

وإذا كان بعض الورثة حَمْلاً، أو مفقوداً أو نحوه: عملت بالاحتياط. ووقفت له. إن طلب الورثة قسمة التركة عملت بما يحصل به الاحتياط على حسب ما قرره الفقهاء. رحمهم الله تعالى.

# باب العتق

وهو تحرير الرقبة وتخليصها من الرق. وهو من أفضل العبادات. لحديث (أيما امرىء مسلم أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار) متفق عليه. وسئل رسول الله ﷺ (أي الرقاب أفضل؟ قال: أغلاها ثمناً، وأنفسُها عند أهلها) متفق عليه.

ويحصل العتق بالقول. وهو لفظ «العتق» وما في معناه، وبالملك. فمن ملك ذا رحم محرم من النسب: عتق عليه، وبالتمثيل بعبده بقطع عضو من أعضائه أو تحريقه، وبالسراية. لحديث (من أعتق شِرْكاً له في عبد. فكان له مال يبلغ ثمن العبد: قُوِّم عليه قيمة عدل. فأعطي شركاؤه حصصهم وعتق عليه العبد وإلا فقد عتق عليه ما عتق) متفق عليه. وفي لفظ (وإلا قوم عليه واستُسعي غير مشقوق) متفق عليه.

فإن علق عتقه بموته فهو المدبَّر، يعتق بموته إذا خرج من الثلث. فعن جابر (أن رجلاً من الأنصار أعتق غلاماً له عن دُبُر لم يكن له مال غيره. فبلغ ذلك النبي ﷺ. فقال: من يشتريه مني؟ فاشتراه نُعيم بن عبد الله بثمانمائة درهم. وكان عليه دين فأعطاه، وقال: اقض دينك) متفق عليه.

والكتابة: أن يشتري الرقيقُ نفسه من سيده بثمن مؤجل بأجلين فأكثر قال تعالى:

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ [سورة النور: الآية ٣٣]

يعني صلاحاً في دينهم وكسباً. فإن خيف منه الفساد، بعتقه أو كتابته، أو ليس له كسب: فلا يشرع عتقه ولا كتابته.

ولا يعتق المكاتب إلا بالأداء. لحديث (المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته درهم) رواه أبو داود.

وعن ابن عباس مرفوعاً، وعن عمر موقوفاً (أيما أمة ولدت من سيدها فهي حرة بعد موته) أخرجه ابن ماجه. والراجح الموقوف على عمر رضي الله عنه. والله أعلم.

# كتاب النكاح

وهو من سنن المرسلين، وفي الحديث (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج. فإنه أغضُّ للبصر، وَأَحْصَنُ للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء) متفق عليه. وقال ﷺ (تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها. فاظفر بذات الدين تربت يمينك) متفق عليه.

وينبغي أن يتخير صاحبة الدين والحسب الودود الولود الحسيبة.

وإذا وقع في قلبه خِطبة امرأة فله أن ينظر منها ما يدعوه إلى نكاحها.

ولا يحل للرجل أن يخطب على خِطبة أخيه المسلم، حتى يأذن أو يترك. ولا يجوز التصريح بخطبة المعتدة مطلقاً. ويجوز التعريض في خطبة البائن بموت أو غيره. لقوله تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٣٥]

وصفة التعريض، أن يقول: إني في مثلك لراغب، أو لا تفوتي نفسك عليّ، ونحوها.

وينبغي أن يخطب في عقد النكاح بخطبة ابن مسعود، قال (علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الحاجة: أن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه

ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ويقرأ ثلاث آيات. لرواية أصحاب السنن. والثلاث الآيات سَردها بعضهم وهي قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٢]

والآية الأولى من سورة النساء، وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾
[سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١]

ولا يجب إلا بالإيجاب. وهو اللفظ الصادر من الولي، كقوله: زوجتك أو أنكحتك، والقبول. وهو اللفظ الصادر من الزوج أو نائبه، كقوله: قبلت هذا الزواج، أو قبلت ونحوه.

## باب شروط النكاح

ولا بد فيه من رضى الزوجين، إلا الصغيرة. فيجبرها أبوها، والأمة يجبرها سيدها.

ولا بد فيه من الولي. قال ﷺ (لا نكاح إلا بولي) حديث صحيح رواه الخمسة.

وأولى الناس بتزويج الحرة: أبوها وإن علا، ثم ابنها وإن نزل. ثم الأقرب فالأقرب من عصباتها وفي الحديث المتفق عليه (لا تنكح الأيِّم حتى تُستأمر. ولا تنكح البكر حتى تستأذن. قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت» وقال النبي ﷺ (أعلنوا النكاح) رواه أحمد. ومن إعلانه: شهادة عدلين، وإشهاره وإظهاره، والضرب عليه بالدف ونحوه.

وليس لولي المرأة تزويجها بغير كفء لها. فليس الفاجر كفؤاً للعفيفة، والعرب بعضهم لبعض أكفاء. فإن عدم وليها، أو غاب غيبة طويلة، أو امتنع من تزويجها كفؤاً: زوجها الحاكم. كما في الحديث (السلطان وليّ من لا ولي له) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي.

ولا بد من تعيين من يقع عليه العقد. فلا يصح: زوجتك بنتي وله غيرها، حتى يميزها باسمها أو وصفها. ولا بد أيضاً من عدم الموانع بأحد الزوجين. وهن المذكورات في باب المحرمات في النكاح.

## باب المحرمات في النكاح

وهن قسمان: محرمات إلى الأبد، ومحرمات إلى أمد.

فالمحرمات إلى الأبد: سبع من النسب. وهن: الأمهات وإن علون، والبنات وإن نزلن، ولو من بنات البنت، والأخوات مطلقاً. وبناتهن، وبنات الإخوة والعمات، والخالات له أو لأحد أصوله. وسبع من الرضاع نظير المذكورات. وأربع من الصهر. وهن: أمهات الزوجات وإن علون، وبناتهن وإن نزلن إذا كان قد دخل بهن، وزوجات الآباء وإن علون، وزوجات الأبناء وإن نزلن، من نسب أو رضاع.

والأصل في هذا قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ـ إلى آخرها﴾

[سورة النساء: الآيتان ٢٣، ٢٤]

وقوله ﷺ (يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة، أو من النسب) متفق عليه.

وأما المحرَّمات إلى أمد: فمنهن قوله ﷺ (لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها) متفق عليه، مع قوله تعالى:

﴿وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٣]

ولا يجوز للحرِّ أن يجمع بين أكثر من أربع، ولا للعبد أن يجمع بين أكثر من زوجتين. وأما ملك اليمين فله أن يطأ ما شاء.

وإذا أسلم الكافر وتحته أختان: اختار إحداهما، أو عنده أكثر من أربع اختار أربعاً، وفارق البواقي.

وتحرم المحْرِمة حتى تحل من إحرامها، والمعتدة من الغير حتى يبلغ الكتاب أجله، والزانية على الزاني وغيره حتى تتوب، وتحرم مطلقته ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره وتنقضي عدتها.

ويجوز الجمع بين الأختين بالملك، ولكن إذا وطيء إحداهما لم تحل له الأخرى حتى يحرم الموطوءة بإخراج عن ملكه أو تزوج لها بعد الاستبراء.

والرضاع الذي يُحَرِّم: ما كان قبل الفطام. وهو خمس رضعات فأكثر. فيصير به الطفل وأولاده أولاداً للمرضعة وصاحب اللبن. وينتشر التحريم من جهة المرضعة وصاحب اللبن كانتشار النسب.

## باب الشروط في النكاح

وهي ما يشترطه أحد الزوجين على الآخر. وهي قسمان: صحيح، كاشتراط أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، ولا يخرجها من دارها أو بلدها، أو زيادة مهر أو نفقة ونحو ذلك. فهذا ونحوه كله داخل في قوله ﷺ (إن أحق الشروط أن توفوا به: ما استحللتم به الفروج) متفق عليه.

ومنها: شروط فاسدة، كنكاح المتعة والتحليل والشغار. ورخص النبي ﷺ في المتعة ثم حرّمها. و(لعن المحلِّل والمحلَّل له) و(نهى عن نكاح الشغار وهو أن يزوجه موليته على أن يزوجه الآخر موليته ولا مهر بينهما) وكلها أحاديث صحيحة.

# باب العيوب في النكاح

إذا وجد أحد الزوجين بالآخر عيباً لم يعلم به قبل العقد ـ كالجنون والجذام والبرص ونحوها ـ فله فسخ النكاح.

وإذا وجدته عنيناً: أُجِّل إلى سنة. فإن مضت وهو على حاله: فلها الفسخ.

وإن عتقت كلها وزوجها رقيق خيرت بين المقام معه وفراقه، لحديث عائشة الطويل في قصة عتق بَريرة (خيرت بريرة حين عتقت على زوجها) متفق عليه.

وإذاوقع الفسخ قبل الدخول: فلا مهر، وبعده يستقر، ويرجع الزوج على من غَرَّه.

# كتاب الصداق

ينبغي تخفيفه. وسئلت عائشة (كم كان صداق النبي ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونَشًا، أتدري ما النش؟ قلت: لا. قالت: نصف أوقية. فتلك خمسمائة درهم) رواه مسلم. و(أعتق صفية وجعل عتقها صداقها) متفق عليه. وقال لرجل (التمس ولو خاتماً من حديد) متفق عليه. فكل ما صح ثمناً وأجرة ــ وإن قل ــ صح صداقاً.

فإن تزوجها ولم يسم لها صداقاً: فلها مهر المثل. فإن طلقها قبل الدخول: فلها المتعة، على الموسع قَدَرُه وعلى المعسر قدره، لقوله تعالى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٣٦]

ويتقرر الصداق كاملاً بالموت أو الدخول. ويتنصف بكل فرقة قبل الدخول من جهة الزوج، كطلاق ويسقط بفرقة من قِبلها أو فسخه لعيبها.

وينبغي لمن طلق زوجته أن يمتِّعها بشيء يحصل به جبر خاطرها. لقوله تعالى:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٤١]

# باب عِشْرة الزوجين

يلزم كلًّ واحد من الزوجين معاشرةُ الآخر بالمعـروف: من الصحبة الجميلة، وكفِّ الأذى، وألّا يَمْطُله حقه.

ويلزمها طاعته في الاستمتاع، وعدم الخروج والسفر إلا بإذنه، والقيام بالخَبْز والعجْن والطبـخ ونحوها.

وعليه نفقتها وكسوتها بالمعروف. قال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وفي الحديث (استوصوا بالنساء خيراً) متفق عليه. وفيه (خيركم خيركم لأهله) وقال ﷺ (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء: لعنتها الملائكة حتى تصبـح) متفق عليه.

وعليه أن يعدل بين زوجاته في القَسْم والنفقة والكسوة وما يقدر عليه من العدل. وفي الحديث (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقه مائل) متفق عليه. وعن أنس (من السنة ــ إذا تزوج الرجل البكر على الثيب ــ أقام عندها سبعاً ثم قسم، وإذا تزوج الثيب: أقام عندها ثلاثاً ثم قسم) متفق عليه. وقالت عائشة (كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها) متفق عليه.

وإن أسقـطت المرأة حقهـا من القسْم بـإذن الـزوج، أو من النفقـة أو الكسوة: جاز ذلك. وقد (وهبت سودة بنت زمعة يومها لعائشة. فكان النبـي ﷺ يقسم لعائشة يومها ويوم سودة) متفق عليه.

وإن خاف نشوز امرأته، وظهرت منها قرائن معصية: وعَظها. فإن أصرت هجرها في المضجـع. فإن لم ترتدع ضربها ضرباً غير مُبَرِّح. ويُمنـع من ذلك إن كان مانعاً لحقها.

وإن خيف الشقاق بينهما بعث الحاكم حَكماً من أهله وحكماً من أهلها يعرفان الأمور والجمع والتفريق، يَجمعان إن رأيا، بعوض أو غيره، أو يفرقان. فما فعلا جاز عليهما. والله أعلم.

## باب الخلـع

وهو فراق زوجته بعوض منها أو من غيرها. والأصل فيه قوله تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

فإذا كرهت المرأة خُلق زوجها أو خَلْقه، وخافت ألا تقيم حقوقه الواجبة بإقامتها معه، فلا بأس أن تبذل له عوضاً ليفارقها. ويصح في كل قليل وكثير ممن يصح طلاقه. فإن كان لغير خوف ألا يقيما حدود الله فقد ورد في الحديث (من سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة).

# كتاب الطلاق

والأصل فيه قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِـيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ١]

وغيرها من نصوص الكتاب والسنة. وطلاقهن لعدتهن فسره حديث ابن عمر، حيث (طلق زوجته وهي حائض. فسأل عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: مُرْه فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر ثم تحيض، ثم تطهر. ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء) متفق عليه. وفي رواية (مره فليراجعها، ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً) وهذا دليل على أنه لا يحل له أن يطلقها وهي حائض، أو في طهر وطىء فيه إلا إن تبين حملها.

ويقـع الطلاق بكل لفظ دل عليه: من صريـح لا يفهم منه سوى الطلاق كلفظ «الطلاق» وما تصرف منه وما كان مثله. وكنايته إذا نوى بها الطلاق أو دلت القرينة على ذلك.

ويقـع الطلاق منجزاً أو معلقاً على شرط، كقوله: إذا جاء الوقت الفلاني فأنت طالق. فمتى وجد الشرط الذي علق عليه الطلاق وقـع.

# فصل

ويملك الحر ثلاث طلقات. فإذا تمت لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره بنكاح صحيح ويطؤها، لقوله تعالى:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ــ إلى قوله ــ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٢٩، ٢٣٠]

ويقع الطلاق بائناً في أربع مسائل. هذه إحداها، وإذا طلق قبل الدخول لقوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٩]

وإذا كان في نكاح فاسد، وإذا كان على عوض.

وما سوى ذلك فهو طلاق رجعي، يملك الزوج رجعة زوجته ما دامت في العدة لقوله تعالى:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

والرجعية حكمها حكم الزوجات إلا في وجوب القسْم.

والمشروع: إعلان النكاح والطلاق والرجعة، والإشهاد على ذلك. لقوله تعالى:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٢]

وفي الحديث (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة) رواه الأربعة إلا النسائي. وفي حديث ابن عباس مرفوعاً (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجه.

# باب الإيلاء والظهار واللعان

فالإيلاء: أن يحلف على ترك وطئه زوجته أبداً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر. فإذا طلبت الزوجة حقها من الوطء: أُمر بوطئها، وضُربت له أربعة أشهر. فإن وطىء كفَّر كفارة يمين. وإن امتنع: ألزم بالطلاق، لقوله تعالى:

**﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**

[سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦، ٢٢٧]

والظهار: أن يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي ونحوه من ألفاظ التحريم الصريحة لزوجته، فهو منكر وزور. ولا تحرم الزوجة بذلك، لكن لا يحل له أن يمسَّهَا حتى يفعل ما أمره الله به في قوله:

**﴿والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ـ إلى آخر الآيتين﴾**

[سورة المجادلة: الآيتان ٣، ٤]

فيعتق رقبة مؤمنة سالمة من العيوب الضارة بالعمل. فإن لم يجد صام شهرين متتابعين. فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، وسواء كان الظهار مطلقاً أو مؤقتاً بوقت كرمضان ونحوه.

وأما تحريم المملوكة والطعام واللباس وغيرها: ففيه كفارة يمين. لقوله تعالى:

**﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾**

[سورة المائدة: الآيات ٨٧ ـ ٨٩]

إلى أن ذكر الله كفارة اليمين في هذه الأمور.

وأما اللعان: فإذا رمى الرجل زوجته بالزنى فعليه حد القذف ثمانون جلدة إلا أن يقيم البينة أربعةَ شهود عدول. فيقام عليها الحد، أو يلاعن فيسقط عنه حد القذف.

وصفة اللعان على ما ذكره الله في سورة النور:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ـ إلى آخر الآيات﴾

[سورة النور: الآيات ٦ ـ ٩]

فيشهد خمس شهادات بالله إنها لزانية، ويقول في الخامسة «وإن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» ثم تشهد هي خمس مرات بالله إنه لمن الكاذبين، وتقول في الخامسة «وإنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين» فإذا تم اللعان سقط عنه حد القذف واندرأ عنها العذاب. وحصلت الفرقة بينهما والتحريم الأبدي، وانتفى الولد إذا ذكر في اللعان. والله أعلم.

# كتاب العدد والاستبراء

العدة تَرَبُّصُ من فارقها زوجها بموت أو طلاق. فالمفارقة بالموت إذا مات عنها تعتد على كل حال. فإن كانت حاملاً فعدتها وضعها جميـع ما في بطنها لقوله تعالى:

﴿وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٤]

وهذا عام في المفارقة بموت أو حياة. وإن لم تكن حاملاً فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام.

ويلزم في هذه العدة أن تُحِدَّ المرأة، وتترك الزينة والطيب والحلى والتحسن بحناء ونحوها، وأن تلزم بيتها الذي مات زوجها وهي فيه. فلا تخرج منه إلا لحاجتها نهاراً، لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

وأما المفارقة في حال الحياة: فإذا طلقها قبل أن يدخل بها، فلا عدة له عليها لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٤٩]

وإن كان قد دخل بها أو خلا بها، فإن كانت حاملاً: فعدتها وضع حملها، قصرت المدة أو طالت. وإن لم تكن حاملاً: فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض كاملة. لقوله تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وإن لم تكن تحيض ــ كالصغيرة ومن لم تحض والآيسة ــ فعدتها ثلاثة أشهر، لقوله تعالى:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٤]

فإن كانت تحيض وارتفع حيضها لرضاع ونحوه: انتظرت حتى يعود الحيض فتعتد به.

وإن ارتفع ولا تدري ما رفعه: انتظرت تسعة أشهر احتياطاً للحمل. ثم اعتدت بثلاثة أشهر. وإذا ارتابت بعد انقضاء العدة لظهور أمارات الحمل لم تتزوج حتى تزول الريبة.

وامرأة المفقود تنتظر حتى يحكم بموته بحسب اجتهاد الحاكم ثم تعتد.

ولا تجب النفقة إلا للمعتدة الرجعية، أو لمن فارقها زوجها في الحياة وهي حامل. لقوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٦]

وأما الاستبراء: فهو تربص الأمة التي كان سيدها يطؤها. فلا يطؤها بعده

زوج أو سيد حتى تحيض حيضة واحدة. وإذا لم تكن من ذوات الحيض تستبرأ بشهر أو وضع حملها إن كانت حاملاً.

## باب النفقات للزوجات والأقارب والمماليك والحضانة

على الإنسان نفقة زوجته وكسوتها ومسكنها بالمعروف بحسب حال الزوج. لقوله تعالى:

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ. وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلّا ما آتَاهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

ويلزم بالواجب من ذلك إذا طلبت، وفي حديث جابر الذي رواه مسلم (ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف).

وعلى الإنسان نفقة أصوله وفروعه الفقراء إذا كان غنياً. وكذلك من يرثه بفرض أو تعصيب. وفي الحديث (للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلَّف من العمل إلا ما يطيق) رواه مسلم. وإن طلب التزوج زوجه وجوباً.

وعلى الإنسان أن يُقيت بهائمه طعاماً وشراباً، ولا يكلفها ما يضرها، وفي الحديث (كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته) رواه مسلم.

والحضانة: هي حفظ الطفل عما يضره والقيام بمصالحه.

وهي واجبة على من تجب عليه النفقة، ولكن الأم أحق بولدها ذكراً أو أنثى، إن كان دون سبع. فإذا بلغ سبعاً فإن كان ذكراً خُيِّرَ بين أبويه. فكان مع من اختار. وإن كانت أنثى: فعند من يقوم بمصلحتها من أمها أو أبيها.

ولا يترك المحضون بيد من لا يصونه ويصلحه.

# كتاب الأطعمة

وهي نوعان: حيوان وغيره. فأما غير الحيوان ـ من الحبوب، والثمار وغيرها ـ فكله مباح إلا ما فيه مضرة كالسم ونحوه.

والأشربة كلها مباحة إلا ما أسكر، فإنه يحرم كثيره وقليله. لحديث (كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرَق فملء الكف منه حرام» وإن انقلبت الخمرة خلاًّ حلت.

والحيوان قسمان: بَحري. فيحل كل ما في البحر حياً وميتاً. قال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٦]

وأما البري: فالأصل فيه الحل، إلا ما نص الشارع على تحريمه.

فمنها: ما في حديث ابن عباس (كل ذي ناب من السباع فأكله حرام) و(نهى عن كل ذي مخلب من الطير) رواه مسلم. و(نهى عن لحوم الحمر الأهلية) متفق عليه. و(نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد» رواه أحمد وأبو داود.

وجميع الخبائث محرمة كالحشرات ونحوها. و(نهى النبي ﷺ عن الجلاَّلة وألبانها حتى تحبس وتطعم الطاهرَ ثلاثاً).

# باب الذَّكاة والصيد

الحيوانات المباحة لا تباح بدون الذكاة إلا السمك والجراد.

ويشترط في الذكاة أن يكون المذكِّي مسلماً أو كتابياً، وأن يكون بمحدد وأن ينهر الدم، وأن يقطع الحلقوم والمَرِيء، وأن يذكر اسم الله عليه.

وكذلك يشترط في الصيد، إلا أنه يحل بعقره في أي موضع من بدنه، ومثل الصيد ما نَفَر وعُجِز عن ذبحه. وعن رافع بن خديج أن النبي ﷺ قال (ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكُلْ، ليس السن والظفر. أما السن: فعظم، وأما الظفر: فمُدَى الحبشة) متفق عليه.

ويباح صيد الكلب المعلَّم، بأن يسترسل إذا أُرسل، وينزجرإذا زُجر، وإذا أمسك لا يأكل. ويسمِّي صاحبها عليها إذا أرسلها.

وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ (إذا أرسلت كلبك المعلَّم فاذكر اسم الله عليه. فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه، وإن أدركته قد قتله ولم يأكل منه فكله، وإن وجدت مع كلبك كلباً غيره وقد قتله: فلا تأكل. فإنك لا تدري أيهما قتله؟ وإن رميت سهمك فاذكر اسم الله عليه. فإن غاب عنك يوماً فلم تجد فيه إلا أثر سهمك فكل إن شئت. فإن وجدته غريقاً في الماء فلا تأكل) متفق عليه. وفي الحديث (إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة ولْيُحِدَّ أحدكم شَفرته، وَلْيُرِحْ ذبيحته» رواه مسلم. وقال ﷺ (ذكاة الجنين ذكاة أمه) رواه أحمد.

# باب الأَيْمان والنذور

لا تنعقد اليمين إلا بالله، أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته.

والحلف بغير الله شرك لا تنعقد به اليمين.

ولا بد أن تكون اليمين الموجبة للكفارة على أمر مستقبل. فإن كانت على ماض ـ وهو كاذب عالماً ـ فهي اليمين الغموس. وإن كان يظن صدق نفسه فهي من لغو اليمين، كقوله: لا والله، وبلى والله، في عرض حديثه. وإذا حنث في يمينه ـ بأن فعل ما حلف على تركه، أو ترك ما حلف على فعله ـ وجبت عليه الكفارة: عِتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم. فإن لم يجد صام ثلاثة أيام. وعن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير) متفق عليه. وفي الحديث (من حلف على يمين، فقال: إن شاء الله، فلا حنث عليه) رواه الخمسة.

ويرجع في الأَيْمان إلى نية الحالف. ثم إلى السبب الذي هَيَّج اليمين. ثم إلى اللفظ الدال على النيّة والإرادة، إلا في الدعاوي. ففي الحديث (اليمين على نية المستحلف) رواه مسلم.

وعقد النذر مكروه. وقد نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال (إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل) متفق عليه.

فإذا عقده على بر: وجب عليه الوفاء به، لقوله ﷺ (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) متفق عليه.

وإذا كان النذر مباحاً، أو جارياً مجرى اليمين ـ كنذر اللجاج والغضب ـ أو كان نذر معصية: لم يجب الوفاء به. وفيه كفارة يمين إذا لم يوف به. ويحرم الوفاء به في المعصية.

# كتاب الجنايات

القتل بغير حق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: العمد العدوان، وهو أن يقتله بجناية تقتل غالباً. فهذا يخير الولي فيه بين القتل والدية. لقوله ﷺ (من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يقتل، وإما أن يفديه) متفق عليه.

الثاني: شبه العمد، وهو أن يتعمد الجناية عليه بما لا يقتل غالباً.

الثالث: الخطأ، وهو أن تقع الجناية منه بغير قصد بمباشرة أو سبب. ففي الأخيرين لا قود، بل الكفارة في مال القاتل والدية على عاقلته. وهم عصباته كلهم قريبهم وبعيدهم، توزع عليهم الدية بقدر حالهم. وتؤجل عليهم ثلاث سنين كل سنة يحملون ثلثها.

والديات للنفس وغيرها قد فُصلت في حديث عمرو بن حزم (أن النبي ﷺ كتب إلى أهل اليمن وفيه: إن من اعْتُبِط مؤمناً قَتْلاً عن بينة فإنه قود إلا أن يرضى أولياء المقتول، وإن في النفس الدية مائة من الإبل، وفي الأنف إذا أُوعب جَدْعه الدية، وفي اللسان الدية، وفي الشفتين الدية، وفي الذكر الدية، وفي البيضتين الدية، وفي الصلب الدية، وفي العينين الدية، وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة ثلث الدية، وفي المنقلة خمس

عشرة من الإبل، وفي كل إصبع من أصابع اليد والرجل عشرة من الإبل، وفي السنّ خمس عشرة من الإبل، وفي الموضِحة خمس من الإبل، وإن الرجل يقتل بالمرأة، وعلى أهل الذهب ألف دينار) رواه أبو داود.

ويشترط في وجوب القصاص كون القاتل مكلفاً والمقتول معصوماً ومكافئاً للجاني في الإسلام والرق والحرية. فلا يقتل المسلم بالكافر، ولا الحر بالعبد؛ وألا يكون ولداً للمقتول. فلا يقتل الأبوان بالولد.

ولا بد من اتفاق الأولياء المكلفين، والأمن من التعدي في الاستيفاء.

وتقتل الجماعة بالواحد. ويقاد كل عضو بمثله إذا أمكن بدون تعدٍّ، لقوله تعالى:

**﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ـ إلى آخر الآية﴾**

[سورة المائدة: الآية ٤٥]

ودية المرأة على النصف من الرجل إلا فيما دون ثلث الدية فهما سواء.

# كتاب الحدود

لا حَدَّ إلا على مكلف عالم بالتحريم. ولا يقيمه إلا الإمام أو نائبه، إلا السيد، فإن له إقامته بالجلد خاصة على رقيقه. وحد الرقيق في الجلد: نصف حد الحر.

فحد الزنا ـ وهو فعل الفاحشة في قبل أو دبر ـ إن كان محصناً، وهو الذي قد تزوج ووطئها، وهما حران مكلفان: فهذا يرجم حتى يموت. وإن كان غير محصن جلد مائة جلدة، وغُرِّب عن وطنه عاماً؛ ولكن بشرط أن يُقرّ به أربعَ مرات، أو يشهد عليه أربعة عدول يصرحون بشهادتهم. قال تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾

[سورة النور: الآية ٢]

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ (خذوا عني، خذوا عني. فقد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم) رواه مسلم. وآخر الأمرين: الاقتصار على رجم المحصن، كما في قصة ماعز والغامدية.

ومن قذف محصناً بالزنى، وشهد عليه به ولم تكمل الشهادة: **جُلد** ثمانين جلدة.

وقذف غير المحصن فيه التعزير.

والمحصن: هو الحر البالـغ المسلم العاقل العفيف.

والتعزير واجب في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة.

ومن سرق ربـع دينار من الذهب أو ما يساويه من المال من حرزه: قطعت يده اليمنى من مفصل الكف وحُسمت. فإن عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل الكعب وحسمت. فإن عاد حبس. ولا يقطـع غير يد ورجل. قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾

[سورة المائدة: الآية ٣٨]

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبـي ﷺ قال (لا تقطـع يد سارق إلا في ربـع دينار فصاعداً) متفق عليه. وفي الحديث (لا قطـع في ثَمر ولا كَثَر) رواه أهل السنن. وقال تعالى في المحاربين:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّـعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾

[سورة المائدة: الآية ٣٣]

وهم الذين يخرجون على الناس ويقطعون الطريق عليهم بنهب أو قتل.

فمن قَتلَ وأخذ مالاً: قتل وصلب. ومن قتل: تحتم قتله. ومن أخذ مالاً: قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى. ومن أخاف الناس: نفي من الأرض. ومن خرج على الإمام يريد إزالته عن منصبه: فهو باغ.

وعلى الإمام مراسلة البغاة وإزالة ما ينقمون عليه مما لا يجوز، وكشف شبههم. فإن انتهوا كف عنهم، وإلا قاتلهم. وعلى رعيته معونته على قتالهم. فإن اضطر إلى قتالهم أو إتلاف مالهم: فلا شيء على الدافـع. وإن قتل الدافـع كان شهيداً. ولا يتبـع لهم مدبر، ولا يجهز على جريـح. ولا يغنم لهم مال. ولا يسبـى لهم ذرية. ولا ضمان على أحد الفريقين فيما أتلف حال الحرب من نفوس أو أموال.

# باب حكم المرتد

والمرتد هو: من خرج عن دين الإسلام إلى الكفر بفعل أو قول أو اعتقاد أو شك. وقد ذكر العلماء رحمهم الله تفاصيل ما يخرج به العبد من الإسلام. وترجع كلها إلى جحد ما جاء به الرسول ﷺ أو جحد بعضه.

فمن ارتد استتيب ثلاثة أيام، فإن رجع وإلا قتل بالسيف.

# كتاب القضاء والدعاوي والبينات

## وأنواع الشهادات

والقضاء لا بد للناس منه. فهو فرض كفاية.

يجب على الإمام نصب من يحصل به الكفاية ممن له معرفة بالقضاء بمعرفة الأحكام الشرعية وتطبيقها على الوقائع الجارية بين الناس.

وعليه أن يولي الأمثل فالأمثل بالصفات المعتبرة في القاضي. ويتعين على من كان أهلاً ولم يوجد غيره ولم يشغله عما هو أهم منه. وقد قال النبي ﷺ (البينة على المدعي واليمين على من أنكر) وقال (إنما أقضي بنحو ما أسمع) فمن ادعى مالاً ونحوه فعليه البينة: إما شاهدان عدلان، أو رجل وامرأتان، أو رجل ويمين المدعي. لقوله تعالى:

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ممَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

وقد (قضى النبي ﷺ بالشاهد مع اليمين) وهو حديث صحيح. فإن لم يكن له بينة: حلف المدعى عليه وبرىء. فإن نكل عن الحلف قضى عليه بالنكول، أو ردت اليمين على المدعي. فإذا حلف مع نكول المدعى عليه أخذ ما ادعى به.

ومن البينة: القرينة الدالة على صدق أحد المدعيين. مثل أن تكون العين المدعى بها بيد أحدهما، فهي له بيمينه. ومثل أن يتداعى اثنان متاعاً لا يصلح إلا لأحدهما، كتنازع نجار وغيره آلة النجارة، وحداد وغيره آلة حدادة ونحوها.

وتحمُّل الشهادة في حقوق الآدميين فرض كفاية، وأداؤها فرض عين.

ويشترط أن يكون الشاهد عدلاً ظاهراً وباطناً.

والعدل هو من رضيه الناس، لقوله تعالى:

﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

ولا يجوز أن يشهد إلا بما يعلمه برؤية أو سماع من المشهود عليه، أو استفاضة يحصل بها العلم في الأشياء التي يحتاج إليها، كالأنساب ونحوها. وقال النبي ﷺ لرجل (ترى الشمس؟ قال: نعم، قال: على مثلها فاشهد أو دع) رواه ابن عدي.

ومن موانع الشهادة: مظنة التهمة، كشهادة الوالدين لأولادهم وبالعكس، وأحد الزوجين للآخر، والعدو على عدوه، كما في الحديث (لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا ذي غمر على أخيه، ولا تجوز شهادة القانع لأهل البيت) رواه أحمد وأبو داود. وفي الحديث (من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر: لقي الله وهو عليه غضبان) متفق عليه.

## باب القسمة

وهي نوعان: قسمة إجبار فيما لا ضرورة فيه ولا رد عوض، كالمثليات، والدور الكبار، والأملاك الواسعة.

وقسمة تراض، وهي ما فيه ضرر على أحد الشركاء في القسمة. وفيه رد عوض. فلا بد فيها من رضَى الشركاء كلهم. وإن طلب أحدهم فيها البيع

وجبت إجابته. وإن أجروها: كانت الأجرة فيها على قدر ملكهم فيها. والله أعلم.

## باب الإقرار

وهو اعتراف الإنسان بكل حق عليه بكل لفظ دال على الإقرار، بشرط كون المقر مكلفاً. وهو من أبلـغ البينات.

ويدخل في جميـع أبواب العلم والعبادات والمعاملات والأنكحة وغيرها. وفي الحديث (لا عذر لمن أقر).

ويجب على الإنسان أن يعترف بجميـع الحقوق التي عليه للآدميين ليخرج من التبعة بأداء أو استحلال. والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا ونبيينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

علقه العلامة الفهامة الشيـخ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، رحمه الله وغفر له ولوالديه ولجميـع المسلمين آمين.

وتم نقله في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣هـ. بقلم الفقير إلى الله الغني: عبد الله بن سليمان السلمان، غفر الله له ولوالديه ولكافة المسلمين.

# المختارات الجلية

# من

# المسائل الفقهية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أَنفسنا وسيئات أَعمالنا، ونسأَله تعالى أَن يعيننا على إِخلاص العمل له، وأَن يقيم قلوبنا ويسدد أَلسنتنا.

أَما بعد:

فإِنه قد تكرر السؤال من بعض الأصحاب على وضع كتاب في فقه أَصحابنا من الحنابلة، على وجه يتضح به ما نختاره ونصححه من المسائل الفقهية، ونشير إلى شيءٍ من مآخذها وأَدلتها، فلم تمكِّنِّي فرصةٌ لأَداءِ هذا المطلب، ومضى على هذا مدة طويلة، فعرفت أَن الوفاءَ ببعض المقصود أَولى من تفويت جميعه، ورأَيت أَيضاً أَنه يصعب عليّ جمع كتاب يحتوي على جميع المسائل، مثل: الإقناع، والمنتهى، والمقنع، وما تفرع عنها، مع قلة الحاجة إلى كتاب في هذا الموضوع إذ كتب الأصحاب كفيلة بهذا المطلب.

لكن لما كان كثير من الطلبة في هذه الأوقات قد انفتح لهم باب الاستدلال، ورأَوا لزوم ذلك وفائدته ومصلحته، وكان الغالب على مسائل هذه الكتب المذكورة ــ ولله الحمد ــ موافقتها للراجح والصحيح، وأَدلتها واضحة، ويوجد في كثير من الأبواب بعض مسائل قد يكون الراجح غيرها، وقد تكرر مرورها، أَو مرور بعضها في المباحثة والتعلم والتعليم. فكان من المصلحة المهمة جداً تقييد مثل هذه المسائل.

فلذلك أَحببت تقييد ما تيسر منها، ورأَيت شرح مختصر «المقنـع» للشيـخ منصور البهوتي أَكثرها استعمالاً وأَنفعها للطلبة في هذه الأوقات فأَحببت أَن أَجعل هذا التعليق كالاستدراك عليه، والتنبيه على ما ذكره، خصوصاً ليكون تنبيهاً على غيره من كتب الأصحاب عموماً.

والله تعالى أَسأَله وأَرجوه أَن يجعل عملنا خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، مثمراً للبركة والنفـع الخاص والعام، إِنه جواد كريم.

وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

**عبد الرحمن الناصر السعدي**

# مقدّمة

اعلم أَنه يتعين على طالب العلم أَن يسعى بجهده لتحصيل ما يحتاجه من الفهم، وتشتد إليه ضرورته، مبتدئاً بالأهم فالأهم، قاصداً بذلك وجه الله، يعتقد أَن درسه ومدارسته، وبحثه ومباحثته، ونظره ومناظرته وتعلمه وتعليمه، طريق يوصله إلى ربه، ويحتسب به ثوابه، ويخرج به نفسه وغيره من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن تبعة الإعراض عن الواجب والمستحب إلى القيام بهما، وأَن يعلم أَن العلم المشروع هو ميراث عن نبيه محمد ﷺ، فليستكثر منه، لتتحقق الوراثة النبوية، وأَنه يجتهد ويحرص في كل مسأَلة من مسائل الدين والأحكام على تصورها، وتحريرها وتفصيلها، وحدها، وتفسيرها، ثم يسعى في إدراك ما بنيت عليه من الدليل والتعليل الراجح لمعاني الكتاب والسنة وأُصولها، فإن العلم الحقيقي هو الجمع بين هذين الأمرين، والتحقق بهذين الأصلين بحسب القدرة والاستطاعة، فإذا فعل ذلك وقصد ترجيح ما قام عليه الدليل من الأقوال المختلفة، فقد وُفِّقَ بسلوك طريق العلم الذي من سَلَكَهُ سلكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنة، وكان سعيه مشكوراً وخطأُه مغفوراً، وثوابه مضاعفاً، وأَجره موفوراً.

والله الموفق للخير.

* * *

# كتاب الطهارة

الصواب، أَن الماءَ نوعان: طهور مطهِّر، ونجس منجِّس، وأَن الحد الفاصل بينهما هو التغير لأحد أَوصافه بالنجاسات والأخباث، فما تغير لونه أَو ريحه أَو طعمه بنجاسة فهو نجس منجِّس، وسواء كان التغير كثيراً أَو قليلاً، في محل التطهير أَو في غيره، للون أَو للريح، أَو للطعم، وسواء كان ذلك بممازجة أَو بغير ممازجة.

وأَما الماءُ الذي أَصابته نجاسة فلم تغير أَحد أَوصافه فهو طهور لعدم الدليل الدال على نجاسته، ولدخوله في الطيبات، ولدخوله في العمومات، ومن باب أَولى وأَحرى إذا كان تغيره بشيءٍ طاهر، ولو غلب التغير على أَجزائه، وسواء كان يشق صون الماءِ عنه أَم لا، فإن الصواب أَنه طهور مطهِّر، لقوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣ ــ وسورة المائدة: الآية ٦]

وهذا ماءٌ، وغيرها من العمومات، ولأن التعليل الذي ذكره الأصحاب في قولهم: «ليس بماءٍ مطلق» لا يصلح أَن يكون دليلاً في مثل هذا الأمر. وتفريقهم بين ما تغير بما يشق صون الماءِ عنه وما لا يشق، أَنَّ الأَوّل لا يضر، دون الثاني من الأدلة، على أَن المسأَلة ضعيفة، لأَنه لو كان المانع صفة موجودة في الماءِ، لم يكن فرق بين الأمرين، وكذلك تفريقهم بين ما وضع قصداً،

أَو لا قصداً، من هذا الباب، وكذلك قولهم: «إِن تغيره في مقره أَو ممره أَو في محل التطهر أَو بالطين ونحوه لا يضره، وتغيره بغير ذلك يضر» كل هذا تفريق بين متماثلين، وهو يؤيد القول الصحيح: أَن جميع ذلك طهور، وكذلك قولهم «إِن ما خلت فيه المرأَة لطهارة الحدث الكاملة يُنهى الرجل عن استعماله في رفع الحدث، لا في إِزالة النجاسة ولا ما خلت به لطهارة خبث» كل هذا تفريق ليس عليه دليل، ولذلك كان الصحيح أَن الماءَ الذي خلت به المرأَة للطهارة كغير من الماءِ، وقد قال ﷺ (إِن الماءَ لا يجنب) ولما علموا ـ رحمهم الله ـ ضعف هذا القول، قالوا: يستعمل هذا الماءُ عند الضرورة ويتيمم، ولا حاجة من فضل الله إلى هذا، بل هذا الماءُ طهور، لا مانع فيه ولا محذور، فلا يجوز التيمم إِلا عند عدم الماءِ، أَو تعذر استعماله، وهذا ماءٌ، فيدخل في قوله

﴿فلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣، وسورة المائدة: الآية ٦]

كما هو داخل [قولاً واحداً] في طهارة الخبث..

ونظيره ما غمست فيه اليد بعد الاستيقاظ من نوم الليل: الصحيح فيه أَنه طهور، لا مانع فيه، لأنه لم يتغير بشيءٍ نجس ـ ولا قال الشارع إِنه طاهر غير مطهر، وإِنما نهى النبي ﷺ المستيقظ عن غمسها قبل غسلها، وهذا من الآداب الشرعية، فالنهي مُسَلَّم، وأَما كونه يدل على نجاسة الماءِ، أَو كونه طاهراً غير مطهر، فليس فيه ما يدل على ذلك، ودلالته على التنجيس أَقرب من دلالته على سلبه الطهورية فقط.

والمقصود أَن هذه المياه المذكورة كلها داخلة في قوله تعالى:

﴿وأَنْزلْنا منَ السَّماءِ مَاءً طَهُورا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٨]

وقوله:

﴿فلَمْ تجِدُوا مَاءً﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣، وسورة المائدة: الآية ٦]

وغيرها من العمومات، ولم يرد نص صحيح صريح يخرجها عن هذا، فوجب

بقاؤها على أَصلها حتى يأْتينا ما يرفع هذا، وهو تغير الماءِ بالنجاسة، فيدخل في قسم الخبيث النجس.

وأَما الاستدلال بحديث القلتين على تنجيس ما لم يبلغهما بمجرد الملاقاة ولو لم يتغير، ففيه نظر من وجوه:

أحدها: أَنه مفهوم، والمفهوم لا عموم له، وتلك النصوص أَلفاظ عامة.

الثاني: أَنه لا يقاومها في الصحة والصراحة على تقدير الاحتجاج فيه.

الثالث: أَنه ـ ﷺ ـ أَخبر بالحال الواقعة، وأَنه إذا كان قلتين، فإِنه لا يحمل الخبث، بل يضمحل الخبث فيه إذا صار فيه لكثرته، فمفهومه أَنه إذا كان دون ذلك، فإِن كان قليلاً، فإِنه مظنة لحمله الخبث، وهو تغير أَحد أَوصافه بالنجاسة، فإِن وجدت هذه المظنة رتب عليها الحكم، وهو التنجيس وإِن لم توجد فالماءُ باق على طهوريته.

ورابعاً: فيه تنبيه وإِشارة إِلى أَن العلة في التنجيس هو حمله الخبث، فوجب أَن تكون هذه العلة هي الأَصل في هذا الباب.

وخامساً: أَنه إِذا كان المفهوم لا عموم له؛ بل يكفي فيه أَن يعلم أَنه غير مساو للمنطوق، فإِذا حصلت المخالفة فيه في بعض الصور حصل المقصود، والصور التي تحصل فيها المخالفة فيه هو أَن كثيراً من صور القليل إِذا خالطته نجاسة بان أَثرها فيه، فحصل حمله بالخبث والله أعلم.

وعلى هذا القول الصحيح ينبني تطهير الماءِ النجس وهو بشيءٍ واحد: زوال تغيره بالنجاسة، فمتى زال تغير الماءِ النجس بنزح، أَو إِضافة، أَو تتريب، أَو بنفسه، أَو بغير ذلك، فإِنه يطهر، وعلى هذا أَيضاً يقل الاشتباه في المياه، لأَن الماءَ النجس يعرف بتغير أَحد أَوصافه بالنجاسة، فيبعد أَن يشتبه بالطهور، وعلى هذا القول الصحيح الذي نصرناه أَن الماءَ نوعان: طهور، ونجس، لا يوجد

الاشتباه بالطاهر غير المطهر، لأنه إذا كان لا ثبوت له، فكيف يحصل فيه الاشتباه؟ والله أعلم.

والصحيح في اشتباه الثياب النجسة بالطاهرة، أَو المحرمة بالمباحة، أَنه يتحرى، ويصلي في ثوب واحد صلاة واحدة، لأنه اتَّقى الله ما استطاع، ولم يوجب الله على العبد أَن يصلي الصلاة مرتين أَو أَكثر، إلا إذا أَخل بالصلاة الأولى، وهذا لم يخلّ، وإنما اشتبه عليه الأمر، إذا اضطر إلى الصلاة في أَحدها، كان مأْموراً بذلك، بل واجباً عليه.

ومن امتثل ما أُمر به خرج من العهدة، وفي هذه الحال تكون النية مجتمعة، بخلاف ما إذا فرّقها على كل ثوب وصلاة، فإنها تضعف من حيث يظن العبد قوتها، ويؤدي الصلاة على وجه لا يدري: هل هي فريضة أَم لا، كما هو الواقـع.

* * *

# ومن باب الآنية والاستنجاء والسواك

الصحيح: أَن الدباغ مطهر لجلد ميتة المأْكول، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة والصريحة، وعلى هذا تكون طاهرة تستعمل في اليابسات والمائعات.

والصحيح: أَنه لا يستحب المسح ولا النثر، لعدم ثبوت الحديث في ذلك، لأن ذلك يحدث الوسواس.

والصحيح: أَنه لا يكره استقبال النيّرين وقت قضاءِ الحاجة، والتعليل الذي ذكروه، وهو: لما فيهما من نور الله تعالى ـ منقوض بسائر الكواكب، وعلة غير معتبرة، وقول النبي ﷺ.

(إِذَا أَتَيْتُمُ الْغَائِطَ فَلاَ تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ بغَائِط وَلا بَوْلٍ، وَلكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غرِّبُوا).

صريح في عدم الكراهة، لأنه نهاهم عن استقبال القبلة واستدبارها، ولم ينههم عن استقبال غيرها من الجهات، ولأن قوله (ولكن شرقوا أَوغربوا) عامٌّ في كل وقت، وإِذا شرق وقت طلوعها، استقبلها، وإِذا غرب عند ميلانها للغروب استقبلها، فدل ذلك على أَنه لا بأْس بذلك، والله أعلم.

والصحيح: أَن السواك للصائم لا يكره، لا قبل الزوال ولا بعده، بل محبوب له كل وقت، كما في الحديث (من خير خصال الصائم السواك)، وعموم الترغيب فيه ومدحه، والأمر به للصلاة وغيرها: يشمل الصائم كغيره، والحديث الذي أَوردوه: (إِذَا صُمْتُم فَاسْتَاكُوا بالْغداةِ وَلاَ تستَاكُوا بِالْعَشِيِّ)، لم يثبت عن النبي ﷺ، فلا يحتج به وإِنما مستنَد من كره السواك للصائم حديث (خَلُوف فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ] قالوا: والخلوف في

الغالب يكون بعد نصف النهار، فتعلق الحكم به، وليس في هذا دليل على كراهة السواك، ولا تعرض له، وإنما المقصود به الترغيب في الصيام، وأنه عند الله بهذه المنزلة العالية، ولا يدل على استحباب إبقاءِ الخلوف، وأيضاً فقد يخلف قبل الزوال، وربما أن بعض الصائمين لا يحصل له خلوف أصلاً، فما الفارق للكراهة، والمقصود أن هذا الوهم والاحتمال لا يزيل ما ثبت بالنصوص الصحيحة ولا يخصصها، والله أعلم.

واستحبابهم لقص الأظافر على وجه المخالفة فيه نظر.

والأثر الذي يروى فيه:

(مَنْ قَصَّ أَظفَارَهُ مُخَالِفاً لَمْ يَرَ فِي عَيْنَيْهِ رَمداً).

باطل، لا يبنى عليه حكم شرعي، وإنما المستحب التيامن في كل شيءٍ، كما ثبت به الحديث، سوى الأشياءِ المستقذرة، فإنها تكرم اليمنى عن مباشرته، كالاستنجاءِ والاستنثار، ونحو ذلك.

والصحيح: أن الختان لا يجب على الأنثى، لعدم الأمر به في حقها، ولعدم المعنى الموجود في ختان الذكر، لأنه يتوصل به إلى كمال الطهارة، ولاتفاق المسلمين عليه في حق الذكر، والله أعلم.

* * *

# ومن باب الوضوء ومسح الخفين

الصحيح أنه لا يستحب مجاوزة محل الفرض في طهارة الماءِ، لأن الله تعالى ذكر حد الوضوءِ إلى المرفقين، والكعبين، وكل الواصفين لوضوءِ النبي ﷺ لم يذكر أحد منهم أنه فعل ذلك، ولا رغَّب فيه، وإنما فهمه أبو هريرة رضي الله عنه من ترغيب النبي ﷺ في الوضوءِ، حيث قال:

(إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُون غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، وإِنَّ الْحِلْيَةَ تَبْلُغُ مِنَ الْمُؤمِنِ حَيْثُ يبْلُغُ الْوُضُوءُ).

ففهم مَن ذلك أنه يستحب إطالة التحجيل، فكان رضي الله عنه يغسل ذراعيه حتى يصل إلى قريب المنكبين، ويغسل قدميه حتى يشرع في الساقين، وغيره فهم من هذه الأحاديث الترغيب في الوضوءِ الشرعي الذي كان رسول الله ﷺ يفعله، وقال الأئمة: إن قوله:

«فَمَن اسْتَطَاعَ مِنْكُم أنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ وتَحْجِيلَهُ..».

ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما هو من كلام أبي هريرة رضي الله عنه، كما قال ذلك الإمام أحمد وغيره، وأيضاً إطالة الغرة غير ممكنة، لأن إطالتها لا تكون إلا بغسل شيء من الرأس مع غسل الوجه، وهذا غير مشروع اتفاقاً، والله أعلم.

والصحيح: أنه لا يستحب أخذ ماء جديد للأذنين بعد مسح الرأس، بل إن شاء مسحهما من بلل يديه بعد مسح رأسه، أو أخذ لهما ماءً جديداً، لأنه لم يصح الحديث الذي فيه أنه أخذ لأخنيه ماءً خلاف ماء رأسه، ولأنهما تبع للرأس.

والصحيح: أن كل خف يمسح، سواء كان مخرّقاً أو مفتقاً، وسواء أمكن متابعة المشي فيه أم لا، بل وكذلك لو كان على قدميه لفافة جاز المسح على ذلك كله، لأن النبي ﷺ رخص فيه رخصة عامة، فقصد بها السهولة على الخلق، ونفى الحرج والمشقة.

ومن المعلوم أن الخفاف ــ خصوصاً خفاف الفقراء ــ لا تخلو من شق أو فتق، والحاجة داعية إلى ذلك، ولأن ترك البيان وقت الحاجة إليه غير جائز.

وقد رخص النبي ﷺ للمسلمين في مسح الخفين في أحاديث كثيرة، ليس في شيء منها اشتراط سلامة الخف من الشق والفتق، يؤيد هذا أن الخف ممنوع للمحرم إلا عند الحاجة إليه، إذا لم يجد نعلين، وبالاتفاق يدخل فيه الصحيح والمخرّق، فإذا كان يدخل في تحريمه على المحرم؛ فكيف لا يدخل في المسح عليه، وهو باب سهولة ورخصة؟ ولأن المعنى الموجود في الصحيح موجود في المخرق، وكذا في اللفائف، وأبلغ، فإن اللفائف لا يكاد يستعملها إلا من احتاج أو اضطر إليها، فكيف يُمنع من اشتدت حاجته ويرخص لمن هو أقل منه؟ ولهذا يقوى اختيار شيخ الإسلام: أن المضطر إلى عدم نزع الخفين، كالبريد، والخائف ونحوهم، أنه يمسح وإن جاوز ثلاثة أيام بلياليها، تشبيها له بالجبيرة المضطر إليها، وأن مسحه في هذه الحال خير من التيمم.

وأما قولهم ــ رحمهم الله ــ في منع المسح على المخرق ونحوه، لأن ما ظهر فرضه الغَسْل، فلا يجامع المسح، فهذا مسلَّم لو كانت الرِّجْل لا خُفَّ فيها، وأما إذا كان فيها خف فلا يسلم أن ما ظهر فرضه الغَسْل، كما لم يسلم ذلك في المسح على العمامة إذا ظهر بعض جوانب الرأس، ومجرد التقليل الذي لا نص فيه: يكفي فيه عدم التسلم أو معارضته بمقابله.

وإذا تقرّر أنه يمسح كل خف ونحوه، فالصحيح أن ابتداء المدة من المسح، لا من وقت الحدث، لأن النبي ﷺ جعل اليوم والليلة للمقيم، والثلاثة للمسافر، كلها مسحاً، ولا يمكن ذلك إلا أن يجعل الابتداء من وقت المسح.

وأما الحدث فإنه غير مناسب جعله أول المدة، وإنما المناسب جعل أول الفعل الذي فيه رخصة مخالفة للأصل، وهو المسح الذي يدل على الغسل.

واتفق أهل العلم: أن طهارة الماسح طهارة كاملة لا نقص فيها، فيترتب على هذا أن الصحيح أن طهارة الماسح لا تبطل بخلع الخف الممسوح ونحوه، وإنما تبطل بالحدث الذي تبطل به الطهارة، وأنه لا فرق بين أن يتوضأ ويمسح فيه رأسه ثم يحلقه بعد تمام الطهارة وبين أن يتوضأ ويمسح على خفيه ونحوهما، ثم يخلعهما بعد تمام الطهارة: كلا المسألتين على حدٍّ سواء، لا فرق بينهما بوجه.

والصحيح أيضاً أن مسح الجبيرة لا يشترط له تقدم طهارة، وأنه يمسح على الجبيرة سواء وضعها على طهارة أو غير طهارة، وسواء كان الشد على محل الحاجة أو زائداً عن ذلك، إلَّا أنه إذا أمكنه أن يختصر الشد وجب عليه، فإن العلة في المسح عليها هو الضرورة، والغالب منها أن تقع على غير طهارة، ولم يرد عن النبيّ ﷺ فيها اشتراط الطهارة قبلها، ولا يمكن قياسها على الخفين لوجود الفروق الكثيرة بينهما، المانعة من الإلحاق، لأن شرط القياس مساواة الفرع للأصل من كل وجه، والله أعلم.

والصحيح أيضاً أن تمام المدة في المسح على الخفين وغيرهما لا ينقض الوضوء، وهو نظير خلع الممسوح، لكون الطهارة وقعت كاملة، والأصل بقاؤها.

والصحيح: أن الدم والقيء ونحوهما لا ينقض الوضوء، قليلها ولا كثيرها، لأنه لم يرد دليل بيِّنٌ على نقض الوضوء بها، والأصل بقاءُ الطهارة، وحديث (أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم قاء فَتَوضَّأ):

نهاية ما يدل عليه استحباب الوضوء لخروج القيء، لأن الفعل الذي تجرد من الأمر يدل على الاستحباب.

ونقض الوضوء بتغسيل الميت فيه نظر؛ لأن الحديث الوارد فيه لم يثبت، وما روي عن ابن عمر وابن عباس في أمرهما من غسَّل الميت بالوضوء، لا يتعين حمله على الوجوب، ولا يزيل الأصل الثابت في بقاء طهارة الغاسل حيث لم يحصل له ناقض.

والصحيح أن جميع أجزاء الإبل كالكرش والقلب والمصران ونحوها ناقض، لأنه داخل في حكمها ولفظها ومعناها، والتفريق بين أجزائها ليس له دليل ولا تعليل، والله أعلم.

* * *

## ومن باب الغسل والتيمم وإزالة النجاسة

والصحيح: أن التثليث لا يشرع في الغُسْل إلاَّ في غَسْل الرأس، لأن ذلك هو الوارد في صفة غُسله ﷺ، فلم يثبت عنه سوى هذا، وقياس الغسل على الوضوء غير مسلَّم لوجود الفارق من وجوه كثيرة.

والصحيح: أيضاً أن من عليه حدثان: أكبر وأصغر، ونوى الأكبر، وعم بدنه بالغُسْل أنه يكفي عن الأصغر، ولو لم ينوه بخصوصه، لأن الله قال:

﴿وَإِنْ كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

أي اغسلوا جميع أبدانكم، ولم يأمر مع ذلك بالوضوء ولا بنيته، ولأن جميع ما يجب في غُسْلِ الحدث الأصغر يجب نظيره في الأكبر وزيادة، والله أعلم.

وأما التيمم فإن الله تعالى شرعه عند عدم الماء، أو تعذُّرِ استعماله، وجعله قائماً مقام الماء عند عدمه، وهذا يقتضي أن حكمه حكم الماء في كل أحواله، فعلى هذا القول الصحيح لا يشترط له دخول الوقت، ولا يبطل بدخوله ولا بخروجه، بل إذا تيمم الإنسان لم يزل على طهارة حتى يوجد منه شيء من نواقض الطهارة، وعلى هذا إذا تيمم للنفل استباح به الفرض وما دونه، ومما يؤيد هذا القول أن الله ورسوله لما رخصا في التيمم، لم يشترطا شيئاً من هذه الأمور، بل أطلقا حكمه، فدل على أن حكمه حكم الماء في كل شيء من دون استثناء، مع أن الحاجة داعية جداً إلى بيان ذلك، لو كان كما قاله المشترطون، وهذا أيضاً جار على القواعد المشهورة: أن البدلَ له حكم المبدَلِ، وسادٌّ مسده في كل أحكامه، ولذلك قال الإمام أحمد رضي الله عنه: القياس أن التيمم كالماء، أو كما قال.

وقولهم في الاستدلال على أنه ليس كالماء: إنه طهارة ضرورة فتقدر بقدرها: مسلَّم إذا أريد به أنه لا يعدل إلى التيمم حتى يتعذر استعمال الماء، كما لا يعدل إلى المحرم حتى يعدم المباح، وأما كونه يدل على اشتراط دخول الوقت ونحوه، فلا يدل على ذلك لعدم النص الدالّ عليه، ولأن مقتضى هذا التعليل الذي عللوا به يقتضي أنه لا يجوز أن يصلي بالتيمم الواحد إلا صلاة واحدة، ويقتصر فيها على مجرد الواجبات، ثم إذا أراد صلاة أخرى تيمم، وهذا معلوم الفساد.

وإذا كان حكمه حكم الماء في كل شيء، فالصحيح أنه يصح التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض، من تراب له غبار أو لا، أو رمل، أو حجر، أو غير ذلك، لأن الظاهر من حال النبي ﷺ أنه تيمم في كل موضع أدركته فيه الصلاة: تراب، أو رمل أو غيره، ولو اشترط الغبار لنقل عنه فعله، وللزم نقل التراب للأرض التي يعلم أنه لا يوجد فيها تراب، وأيضاً فقوله، ﷺ: (فَأَيُّما رجُل مِنْ أُمَّتي أَدْركَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصلِّ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وطَهُورُهُ) ظاهِرٌ عمومُهُ في كل أرض، والمقصود التعبد لله تعالى بتيمم الصعيد الطيب، والطهارة الباطنة، وليس في التيمم من المقاصد الحسية شيءٌ حتى يقال: إنه لا يحصل المقصود بغير التراب.

وقولهم رحمهم الله تعالى: يكفي تيمم الإنسان على بعير، أو لبد أو ثوب ونحوه، في النفس منه شيء، فإن الله أمر بتيمم الصعيد، وهذا ليس منه، ولم يرد فيه شيءٌ يجب المصير إليه، والله أعلم.

وفي وجوب استعمال الماء القليل الذي لا يكفي المتوضىء ثم يتيمم بعده نظر، فإنه لا يحصل بهذا الاستعمال رفع حدث ولا تخفيفه، بخلاف الحدث الأكبر، فإنه قد يقال: إنه يجب ذلك لأنه يخفُّ الحدث، ويرتفع الحدث عن المغسول، والله أعلم.

والصحيح: أنه لا يجب التيمم ولا يشرع من نجاسته البدن، بل إذا

اضطر إلى الصلاة وعلى بدنه نجاسة لم يحتج إلى تيمم، لأن الذي ورد إنما هو التيمم من الحدث الأكبر والحدث الأصغر، ولم يرد في نجاسة البدن تيمم كنجاسة الثوب والبقعة.

وأما قياسها على طهارة الحدث فغير صحيح. لأن طهارة الخبث لا يمكن قياسها على طهارة الحدث، لفروق كثيرة بينهما، كاشتراط النية لطهارة الأحداث، وكونها معنوية، وغير ذلك.

والصحيح: أن الذي يعجز عن الطهارتين، ويصلي على حسب حاله، أنه يصلي ما شاء من فروض ونوافل، ويزيد على ما يجزىءُ، لأنها كاملة في حقه، لا نقص فيها، وليس للاقتصار على مجرد الواجبات نظير في العبادات يقاس عليه، والله أعلم.

والصحيح في غسل النجاسات كلها غير الكلب: أنه يكفي فيها غسلة واحدة تذهب بعين النجاسة وأثرها، فإن لم تذهب زاد حتى يذهب أثرها، ولو جاوز السبع، وسواء كانت على الأرض أو الثياب أو البدن أو الأواني أو غير ذلك، ويدل على هذا وجوه:

منها: أن جميع النصوص الواردة في غسل النجاسات مطلوبة لا قيد فيها ولا عدد، وذلك يدل على أن المقصود إزالتها فقط، وأن العدد فيها غير مقصود.

ومنها: أن النبي ﷺ أمر بصب ذَنُوب أوسَجْلٍ من ماء على بول الأعرابي، ولم يأمر بزيادة على ذلك.

والتفريق بكونها على الأرض دون غيرها غير صحيح، إذ الفرق غير واضح، ومنها أن إزالة النجاسة من بَاب التروك التي القصد تركها وإزالتها دون عدد ما تغسل به.

ومنها: أن غسل النجاسة لا يحتاج إلى نية، فلا يحتاج إلى عدد.

ومنها أنها لو لم تزل بسبع غسلات وجب الزيادة على ذلك بالاتفاق، فدل

على عدم اعتبار السبع، إلا فيما جعله الشارع شرطاً فيه، كنجاسة الكلب.

وأما الحديث المروي عن ابن عمر: «أمِرْنَا بِغَسْلِ الأنْجَاسِ سَبْعاً» فهذا لم يثبت، ولا يصح الاحتجاج به.

ومما يدل على ذلك أيضاً مسألة الاستحالة، فإن العلماء اختلفوا: هل إذا استحالت النجاسة وانتقلت من صفة الخبث إلى صفة الطيب، هل ذلك مطهر لها أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنه مطهر في بعضها، كاستحالة الخمر خلاًّ والعلقة ولداً، والماء المتغير الكثير بالنجاسة إذا زال بغيره، واختلفوا فيما سوى ذلك.

والصحيح: أن النجاسة إذا زالت بأيّ شيءٍ يكون، بماء أو غيره، أنها تطهر، وكذلك لو انتقلت صفاتها الخبيثة وخلفتها الصفات الطيبة، فإنها تطهر بذلك كله، لأن النجاسة تدور مع الخبث وجوداً وعدماً، فكما أن الطيب إذا انقلب خبيثاً صار نجساً فعكسه كذلك، وبالحقيقة: الصور المتفق عليها، لا فرق بينها وبين الصور المختلف فيها، والله أعلم.

وعلى هذا القول الصحيح فيمكن تطهير الأدهان المتنجسة بمعالجتها حتى يزول الخبث الذي فيها: لونه، وريحه، وطعمه.

والصحيح أن الاستجمار مطهر للمحل بعد الإتيان بما يعتبر شرعاً، للنص الصريح: أنه مطهر، وأيضاً هو من فروع هذا القول الذي رجحناه، فعلى هذا يكون المنيُّ الخارج بعد الاستجمار غير نجس، وكذلك لو أصاب المحل رطوبة لم يضر ذلك، والله أعلم.

والصحيح الذي لا ريب فيه أن البغل والحمار طاهران في الحياة كالهر، فيكون ريقهما وعَرقُهُمَا طاهراً، وذلك أن النبي ﷺ كان يركبهما كثيراً، ويركبان في زمنه، ولا يمكن المستعمل لهما التحرز من ذلك، فلم يغسل ما أصابه منهما ولا أمر بذلك، مع أن المشقّة في وجوب غسل ما أصابه منهما شديدة، والحرج منفي شرعاً، وقد قال ﷺ في الهرة: (إنَّها لَيْسَتْ بِنجس: إنَّهَا

مِن الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ والطَّوَّافَاتِ) فعلل بكثرة طوفانها ومشقة التحرز منها، ومن المعلوم أن المشقة في الحمار والبغل أشد من ذلك، وقد اعتبر الشارع المشقة في أمور كثيرة من الشرع وعفا عنها، مع قيام المقتضي للمنع لأجل المشقة، وأيضاً: الأصل الطهارة في الأشياء والعفو عما لم يرد المنع منه، وهذا منه.

وأما قوله ﷺ في لحوم الحمر يوم خيبر: (إنَّهَا رجسٌ) فنعم، هو كما قال ﷺ :(لحومها خبيثة وأكلها خبيث، والقدور التي تطبخ فيها أو تباشر لحومها نجسة).

وأما العَرَقُ والريق والشعر فلم يدل الحديث عليه بوجه، فالنبي ﷺ أمر باجتناب لحومها، وأخبر عن خبثها، ورخَّص في استعمالها وركوبها، ولم يأْمر بالتحرز من ذلك، فهذا هو الصواب والله أعلم.

* * *

## ومن باب الحيض والنفاس

الصحيح الذي لا ريب فيه، هو ما دل عليه الشرع، والعمل الصحيح والعادة والفطرة: أن الحيض هو دم طبيعة وجِبِلَّة، يعتاد الأُنثى في أوقات معلومة، وينقطع عنها في أوقات معلومة، ويتفاوت ذلك قلةً وكثرةً، وزيادةً ونقصاً. بحسب تفاوت طبائع النساء وما يعرض لهن من العوارض، فلا حد لأقله ولا لأكثره، ولا للسن التي يأْتيها فيها. وإذا زاد أو نقص الدم انتقلت إليه من دون تكرار، وهذا القول هو الصواب الذي لا يمكن النساءُ العمل إلاَّ به، وذلك لما ذكرنا: أن الحيض تابع للطبيعة، والطبيعة متفاوتة تفاوتاً كثيراً، ويدل على ذلك أن النساء في وقت النبي ﷺ لا يعتبرن من ذلك شيئاً، فإذا أصابهن الدم جلسن عن الصلاة ونحوها، وإذا انقطع اغتسلن وتعبدن، حتى أن المستحاضات منهن ـ قبل أن يعلمن الحكم ـ كن يجلسن في جميع دمهن، لأنه متقرر عندهن: أن الدم حيض، فبيَّنَ لهن النبي ﷺ أنه قد يكون استحاضة، وأما غير المستحاضات فلم يشكل عليهن التقدم والتأخر، والزيادة والنقص، ولو كان يجب على النساء اعتبار ما ذكره الفقهاءُ، لكان في ذلك الحرج والمشقة في العلم والعمل ما هو مستقر شرعاً، وَرَبْطُ الفقهاء بعض مسائل الحيض بالوجود معارَضٌ بنظيره، وحديث علي مع شريح في المرأة التي ادّعت أنها حاضت في شهر ثلاث حيض، ليس فيه دلالة على أن أقله يوم وليلة، ولا أن أقل الطهر ثلاثة عشر يوماً، وإنما يدل ـ إذا صح الأثر ـ أن المرأة قد يجتمع لها في شهر واحد ثلاثة أقْرَاءٍ، وذلك نادر جداً، وكذلك طلب البينة على ذلك، وإلاَّ فقول المرأة مقبول في حيضها وطهرها، وأيضاً فإن دم الفساد عارض ودم الحيض أصلي.

ومن المعلوم أنه إذا اشتبه الأمر رجع إلى الأصل ولا يصار إلى خلاف الأصل إلا بدليل، وأيضاً فكما أنه بالاتفاق أن الطهر إذا تقدم أو تأخر، أو زاد أو نقص، فهو طهر صحيح، تتعبد فيه المرأة، فكذلك الدم.

نعم، حد ذلك ما لم تصر المرأة مستحاضة، فإذا أطبق عليها الدم أو كان شبيها بالمطبق، علم أنها مستحاضة، فتعمل على عادتها أو تمييزها فإن لم يكن لها عادة ولا تمييز اعتبرت عادة أغلب النساء [ستة أيام أو سبعة]، ويترتب على مسألة الحيض مسألة النفاس: أن الصحيح أنه لا حد لأقله ولا لأكثره، ويقال فيه ما قيل في الحيض.

ومما يدل على ضعف القول الذي اختاره الفقهاء في مسائل الحيض أن مسائله متناقضة، يحكم على المرأة في الدم بحكم الطاهرات، ثم يحكم عليها في وقت آخر بحكم الحائضات، وتارة تؤمر باغتسالين: اغتسال بعد مضي يوم وليلة، واغتسال بعد الطهر، وكلاهما واجب. والاغتسال الأول مجزوم بأن ما قبله حيض. والثاني مشكوك فيه حتى تتكرر ثلاثاً، ثم لا يؤمن اختلافه، فتعود المسألة بحالها، هذا والدم واحد، ولا فرق بين ما قبل الاغتسال الأول والثاني.

فبهذا ونحوه يعلم أنه لم يرد عن النبي ﷺ منه شيء، ولا شيءٌ شبيه به، والقول إذا تناقض أو فرق بين صورة وصورة، مع عدم الفرق، أكبر دليل على ضعفه. والله أعلم.

والصحيح: أنه يجوز وطءُ المستحاضة، ولم لم يخف العنت، لأن النبي ﷺ لم يمنع عبد الرحمن بن عوف وغيره من وطءِ زوجاتهم المستحاضات ولأن الاستحاضة دم عِرْق، فلا يمنع الوطءَ، كدمِ الجروح ونحوه، ولأن حكمها حكم الطاهرات في كل شيءٍ، فكذلك في حِلِّ الوطء. والله أعلم.

* * *

## ومن كتاب الصلاة

قوله: «ويَقْضِي مَنْ شَرِب مُحَرَّماً حتى زمن جنون طرأ متصلا به تغليظاً عليه»، فيه نَظَرٌ، وهو مخالف للقاعدة الشرعية: أن المجنون مطلقاً لا قضاءَ عليه، ما تركه زمن جنونه، والتغليظ لا يكون إلا بالعقوبة الشرعية، فيكفي فيه الجلْدُ إذا شرب خمراً متعمداً عالماً.

قولهم: «لا يجوز تأْخير الصلاة ـ إلا لمشتغل ـ عن وقتها، إلا لناوي الجمع أو المشتغل بشرطها الذي يحصله قريباً»: فيه نظر، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية حكى اتفاق الأئمة على أنه لا يحل تأْخير الصلاة عن وقتها متعمداً لعذر من الأعذار غير الجهاد، فإن العلماء أجازوا تأْخيرها لأجل الجهاد المشروع، وإن كان جمهور العلماء لم يجيزوه في هذه الحال.

وأما ما سوى ذلك من الأعذار فلا يبيح التأْخير، بل يصلي الإنسان في الوقت بحسب قدرته واستطاعته، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسعها.

والصحيح: وجوب الأذان حتى على المسافرين للعمومات، ولأن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا يتركون الأذان في أسفارهم.

وفي إجزاءِ الأذان للفجر قبل طلوع الفجر إذا لم يكن مؤذن يؤذن للفجر: نظر ظاهر، فإن الأذان شرع للإعلام بدخول الوقت، فكيف يجوز أن يترك هذا المقصود الأعظم في صلاة الفجر، بل الأذان في الوقت الوقت في الفجر أكثر من غيرها من الأوقات، لتعلق الصلاة والصوم بطلوع الفجر، وإذا كان أهل البلد كلهم يؤذنون للفجر قبل طلوعِ الفجر، فبأي شيء يعرفون الوقت، ومن ترك الأذان المشروع فلا بد أن يعتَاض عنه: بدعة غير مشروعة، وأما الاستدلال

بحديث (إنَّ بِلالاً يُؤذِّنُ بِلَيْلٍ ، فَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يُؤذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ) فإنما يدل على أنه يجوز أن يكون بعض المؤذنين يؤذن قبل الفجر للحاجة إلى ذلك، ولذلك كان النبي ﷺ لا يكتفي بأذان بلال وحده.

ومما يدل على ذلك: أن النبي ﷺ كان إذا غزا قوماً انتظر طلوع الفجر، فإن سمع أذاناً كَفَّ عنهم، وإلا أغار عليهم، فجعل شعار ديار الإسلام الأذان على طلوع الفجر، وهذا واضح.

قوله: «وكذا يستحب للمؤذن والمقيم إجابة أنفسهما»: فيه نظر.

والصحيح: أن ذلك لا يستحب، بل يكفيهما الإتيان بِجُمَل الأذان والإقامة.

وترغيبُ النبي ﷺ في إجابة المؤذن، إنما ينصرف إلى السامعين، لا إلى المؤذِّنين كما هو المفهوم من السياق.

والصحيح: أن وقت العصر يمتد إلى اصفرار الشمس ووقت العشاء يمتد إلى نصف الليل، كما ثبت بذلك الحديث الذي في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولا يناقض ذلك حديث جبريل فإنه زيادة من ثقة، فتكون مقبولة. والله أعلم.

والصحيح: أن الصلاة لا تدرك إلا بإدراك ركعة، لا بتكبيرة الإحرام: الجماعة، والجمعة، والوقت، لظاهر قوله ﷺ:

(مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الصَّلاَةِ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلاَةَ).

فيشمل جميع أنواع الإدراكات، ولأنه لم يرد تعليق الإدراك بتكبيرة بشيءٍ من الأحاديث، وكما أنه يسقط الترتيب في قضاء الفوائت بالنسيان، وخشية فوات الوقت، فالصحيح: أنه يسقط أيضاً بالجهل بالواقع أو بالحكم، لأن حالة الجهل حالة النسيان أوْ أوْلَى، بل وبخشية فوت الجماعة لوجوبها وعدم المسقط لذلك.

والصحيح: أن ستر المنكبين أو أحدهما في الصلاة للرجل من باب تكميلها وتمامها، وأنه ليس بشرط، وحديث أبي هريرة:

«لَا يُصَلِّ الرَّجُلُ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ مِنْهُ شَيْءٌ».

يفسره حديث جابر:

«إِنْ كَانَ الثَّوْبُ وَاسِعاً فَالْتَحِفْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ضَيِّقاً فاتَّزِرْ بِهِ، أَوْ فَخَالِفْ بَيْنَ طَرَفَيْهِ».

ولأن المنكب ليس بعورة، فستره في الصلاة من باب تكميله، كما هو قول جمهور العلماء.

والقول الصحيح: أنه إذا صلى في ثوب نجس ناسيًا، أو في حال الضرورة، أنه لا إعادة عليه، لأنه أتى بما يقدر عليه، وسقط عنه ما عجز عنه، ولأن النبي ـ ﷺ ـ صلى في نعليه، فلما كان في أثناء الصلاة خلعهما، بعدما أخبره جبريل أن فيهما قَذَراً، ثم بنى على صلاته، وإذا كان يبني على ما مضى منها، فإذا لم يعلم إلا بعد الفراغ، كان صحتها من باب أَوْلى وأحرى، ولأن اجتناب النجاسة من باب المحظور، والمحظور إذا فعله ناسياً لا حرج عليه فيه، فلا إبطال، لأنه إذا حبس في بقعة نجسة وصلى لا يعيد «قولاً واحداً»، ولا فرق بين الثوب والبقعة، وهذا بخلاف نسيان الحدث، فإنه إذا صلى محدثاً ناسياً، فإنَّ عليه الإعادة، لأنه من باب المأمور، ولا تبرأ الذمة إلا بفعل المأمور، ونظير ذلك الصيام: إذا لم ينوه لم يصح صيامه، لأنه لم يأْت بالمأمور، وإذا نواه وأكل وشرب ناسياً فليتم صومه ولا إفطار، لأنه من باب ترك المحظور.

قوله: «إلا إذا كفت منكبه وعجزه فقط، فيسترهما ويصلي جالساً»: فيه نظر ظاهر، خصوصاً على القول الصحيح. أن ستر المنكبين ليس بواجب، فإن الصواب أنه يستر الفرجين وما قرب منهما، ويدع المنكب، لأن هذا عورة بالاتفاق، والمنكب ليس بعورة.

وقولهم: «القبل له بدل والمنكب لا بدل له» كلام غير معقول، فأي شيءٍ ينوب عن ستر القبل، وكأنهم لما رأوا القبل والدبر كل منهما يسمى فرجاً، جعلوا أحدهما نائباً عن الآخر في هذه الحال، ولا يخفى بُعْدُ هذا التعليل عن المعاني الشرعية.

وقولهم: «في ستر المنكب، ولو بثوب يَصِفُ البشرةَ» فيه أيضاً نظر، لأنه إذا وجب ستره كان من جنس غيره من البدن المستور، والذي يصف البشرة لا يحصل به الستر والمقصود.

وقولهم: «إن العاري يصلي جالساً»، وتعليل ذلك بأنه يحصل به نوع استتار، لا تطمئن إليه النفس، فإن سقوط القيام في هذه الحالة يحتاج إلى دليل بيِّـن، وإذا كان لا بد من انكشاف العورة فصلاته قائماً أوْلى، لأنه يجب عليه ما يقدر عليه من واجبات الصلاة، ويسقط عنه ما يعجز عنه منها، ومثله إسقاط السجود عنه في هذه الحال. والله أعلم.

قوله: «وإن كانت النجاسة بطرف مصل متصل به صحت إن لم ينجس بمشيه» فيه نظر، فإنه إذا لم يباشر النجاسة بدنه ولا ثوبه، وغاية ما يكون أن الذي باشره متعلق بشيءٍ نجس، فليس في هذا مباشرة للنجاسة، ولا حمل لها، فإبطال الصلاة في مثل هذه المسألة لا نظير له، ولا فرق في الحقيقة بين الذي ينجس بمشيه، والذي لا ينجس إلا بخفة هذا وثقل هذا، وهذا غير معتبر.

الأصل: أن الصلاة جائزة في جميـع بقاع الأرض، كما قال النبـي ﷺ: (جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّما رَجُل مِنْ أُمتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ).

وهذا عامٌّ لا يخرج منه شيءٌ إلا ما صـح به النقل في النهي عنه، وذلك كالحمَّام، وأعطان الإبل، والصلاة في المقبرة وإليها، وكذلك الصلاة في الموضـع النجس.

وأما: قارعة الطريق، والمجزرة والمزبلة، إذا لم يكونا نجستين فلم يثبت به الحديث، فيبقى الحكم على الأصل، وكذلك في وسط الكعبة، لم يثبت الحديث في إبطال الصلاة به، وقد ثبت أنه ﷺ صلّى فيها النفل، وما ثبت في النفل ثبت نظيره في الفرض، إلا ما خصه الدليل، وأضعف ما يكون النهي عن الصلاة في أسْطِحَةِ هذه المواضع.

وتعليل ذلك بأن الهواء تابع للقرار، وهم قد قالوا: إن النهي عن الصلاة في هذه المواضع تَعَبُّدِيٌّ، والتعبدي هو غير معقول المعنى، وشرط القياس والإلحاق فَهْمُ المعنى، ووجوده في الملحق، فإذا كان المعنيان منتفيين كان القول في منع الصلاة في هذه الأسْطِحَةِ ضعيفاً مبنياً على ضعيف، وإن علل هذه المواضع فالأمر أوضح وأوضح.

قولهم: «ويعيد الأعمى العاجز مطلقا» فيه نظر، فإنه إذا لم يحسن الاجتهاد، ولم يكن عنده من يقتدي به، وصلى بحسب حاله، مجتهداً على إصابة القِبلة فقد أدى ما عليه، ولم يحصل منه تقصير، وإنما الحاصل عجز، والعجز يعذر به الإنسان.

والصحيح أن المتنفل على راحلته لا يلزمه الاستقبال في الركوع والسجود، ولا في الإحرام، لأن النبي ﷺ كان يصلي حيث توجهت به راحلته، وأيضاً قبلته في هذه الحال جهة سيره، ففي الحقيقة هي القبلة في حقه في جميع أجزاء صلاته.

وأما مسائل النية في الصلاة، فالصحيح أن المصلي إذا عرض له في صلاته ما أوجب قلبها نفلاً، أو انتقالاً من انفراد إلى ائتمام وبالعكس، ومن إمامة إلى ائتمام، أن ذلك كله جائز، لا محذور فيه، فإن جنس هذه الأمور واردة عن النبي ﷺ، فصلاته ﷺ وحده في الليل، ثم أتى ابن عباس فدخل معه، يدل على جواز مثل ذلك في الفرض والنافلة، لأن ما ثبت في النفل فالفرض مثله، إلا ما خصه الدليل، والمحذور من منعه في الفرض موجود في النفل، وكذلك

صلاة أبـي بكر رضي الله عنه بالناس، ثم إن النبـي ﷺ جاء وهم يصلون، فتأخر أبو بكر، وتقدم النبـي ﷺ، يدل على أنه إذا انتقل الإمام من الإمامة ثم صار مأْموماً أن ذلك جائز، وأنه إذا كان مأْموماً ثم صار إماماً، أن ذلك جائز، كما يجوز إذا كان الإنسان في أول صلاته عاجزاً عن ركن أو شرط، ثم قدر عليه في أثنائها، فإنه يبني على صلاته، فلا يمتنـع أن يكون للمصلي حال في أول صلاته، وحال في آخرها، ولا يخل ذلك بالنية، لأنه لم يقطعها ولم ينتقل فيها من نفل إلى فرض، فالأصل أن مثل هذه المسائل لا تبطل الصلاة، فكيف وقد ورد جواز جنسها أو عينها، والله أعلم.

الصحيـح: أن الإمام له أن يستخلف المأموم ولو سبقه الحدث، ولو كان صلى محدثاً أو نجساً ثم ذكر، لأنه إذا كان لم يعلم الإمام والمأْموم بحدث الإمام ولا نجاسته إلا بعد فراغ الصلاة: أن صلاة المأْموم صحيحة لا إعادة عليه، فإذا أمضى بعضها في هذه الحال، فصلاة المأْموم بحالها لم تبطل، وللإمـام أَن يستخلف من يصلي بهم، ولهم أن يستخلفوا، وإن صلوها فرادى جاز ذلك.

وأيضاً: القول بأن صلاة المأْموم تبطل بصلاة الإمام قول ضعيف لا دليل عليه، بل الأدلة تدل على أن كل مصل لم يحصل منه بنفسه مفسد لصلاته: أن صلاته صحيحة، وإنما تعلقت صلاة المأْموم بصلاة الإمام من حيث وجوب متابعته له واقتدائه فيه، لا أن أفعال الإمام صحتها وفسادها تسري إلى صلاة المأْموم، ولذلك لا تبطل صلاة الإمام ببطلان صلاة المأْموم «قولاً واحداً» وقصة عمر رضي الله عنه مـع عبد الرحمن بن عوف شاهدة بذلك، فإن الظاهر أن عمر استخلفه بعدما سبقه الحدث، وأن عبد الرحمن بنى على صلاته، لأنهم بقوا على صلاتهم وصفوفهم، والله أعلم.

والصحيـح: استحباب رفـع اليدين بعـد قيامه من التشهد الأول، لورود السنة الصحيحة.

والصواب: أن المرأة والكلب والحمار تقطع الصلاة لحديث أبي ذر الصريح الصحيح.

والصحيح: أن الكلام بعد سلامه سهواً لمصلحتها أو لغير مصلحتها لا يبطل الصلاة، وكذلك الكلام سهواً أو جهلاً في صلبها، لحديث ذي اليدين، وأنه تكلم هو والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر وكثير من المصلين، ولم يأمر أحداً منهم بالإعادة، وكذلك لما تكلَّم معاوية بن الحكم السَّلمي في الصلاة وشمت العاطس، ولم يأمره ــ ﷺ ــ بالإعادة، ولأن الناسي والجاهل غير آثم، فلا تبطل صلاته.

والصواب: أن الانتحاب والنحنحة لا تبطل الصلاة، وسواء كان حرفان أم لا، وَسواء كان لحاجة أم لا، لأنه لم يرد فيه ما يدل على الإبطال، وقياسه على الكلام غير صحيح، لأنه جنس آخر، ولأن الكلام يبطل الصلاة، ولو لم يُبِنْ حرفين[1]، ولو كان لحاجة، وأيضاً حديث عليّ:

«كان لي مِنْ رَسُولِ اللَّهُ ﷺ مَدْخَلان».

إلى أن قال: «وإن كان في صلاة تنحنح لي» دليل على جواز ذلك والحاجة غير داعية إلى نَحنحته، لإمكان أن ينبهه بتسبيح ونحوه.

قولهم: ومن ترك ركنا فذكره بعد شروعه في قراءة الركعة الأخرى، بطلت الركعة التي تركه منها، وقامت هذه مقامها، والقول الآخر في المسألة أنه يعود فيأتي بالركن المتروك وما بعده، وهذا القول أقرب إلى الأصول والقواعد الشرعية، فإنَّ ما فعله بعد هذا المتروك يقدر كالعدم، ومعفو عنه لكونه معذوراً بالسهو، فإذا زال عذره، وبان له الأمر كان مقتضى ذلك رجوعه إلى ترتيبها اللازم.

وأما كونها يلغى ما بعد الركن وما قبله، فهذا ــ مع مخالفته للأصل ــ لا دليل

(١) لعله بالرفع: أي حرفان، والنصب له وجه أيضاً، وهو أن يكون بين رباعياً أبان، أي: ولو لم يبن المتكلم حرفين، لكن أول الكلام يبعد هذا الوجه.

عليه، ولا نظير له شرعاً، نعم إذا وصل إلى محله من الركعة التي تليه، فقد حصل المقصود بفعل ما بعده من الأركان، ولغي ما تقدم، والله أعلم.

والصحيح: أنه إذا قام من التشهد الأول ناسياً، ولم يذكر إلا بعد قيامه، أنه لا يرجع، ولو لم يشرع في القراءة، لحديث المغيرة رَفَعَهُ:

(فإنِ اسْتَتَمَّ قَائِماً فَلا يَجْلِسْ).

رواه أبو داود وغيره ولم يقل «إذا شرع القراءة».

وقولهم: القراءة ركن مقصود، وكذلك القيام ركن مقصود، ولأن بقية الواجبات إذا لم يذكرها إلا بعد وصوله إلى الركن الذي بعدها، فإنها تسقط، ولا يعود إلى ركنها ليأْتي بها.

أصح الأقوال في شك المصلي في عدد الركعات: أنه يبني على اليقين ـ وهو الأقل ـ إن كان الشك متساوياً والأقل أرجح؛ وأنه يبني على غلبة ظنه إذا كان له ظن راجح، وعلى هذا تتنزل الأحاديث الصحيحة: حديث أبي سعيد، يدل على رجوعه إلى الأقل مع الشك، وحديث أبي مسعود يدل على رجوعه إلى ظنه، وهو كالصريح في ذلك لقوله: «فَلْيَتَحرَّ الصَّوَاب».

والصحيح: أنه لا يلزمه التشهد إذا جعل سجود السهو بعد السلام لعدم ثبوته عن النبي ﷺ.

وأما سجود التلاوة، فإن كان في الصلاة فهو من جملة سجداتها وأجزائها، وحكمه حكمها، وإن كان خارج الصَّلاة فالصحيح: أن حكمه حكم الدعاء، وأنه يجوز على غير طهارة، ولغير القبلة، ولا يشترط له ما يشترط للصلاة، ولا يشرع فيه تكبير للسجود ولا للرفع، ولا سلام، لأنه لا ينطبق عليه حد الصلاة، ولا يدخل في عموم ما يشرع لها، بل أشبه ما له الدعاءُ.

ومثله سجود الشكر، بل أولى، لأن ابن عمر رضي الله عنهما كان يسجد على غير طهارة.

وإذا سجد الإمام في صلاة السر، فالصحيح أنه يجب على المأْموم

متابعته، وإن كان يكره للإمام قراءة السجدة في صلاة السر، وسجوده فيها، لأن قول النبي ﷺ:

(إنَّما جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤتَمَّ بِهِ ـ إلى قوله ـ وَإذا سَجَد فَاسْجُدُوا).

عامٌّ وأيضاً كراهية إتيان الإمام بالسجدة، لا يوجب ترك المأموم متابعته الواجبة.

والصحيح أن سجدة «صّ» لا تبطل الصلاة إذا سجد بها القارىء لأن سببها القراءة المتعلقة بالصلاة. والله أعلم.

والصحيح في أوقات النهي: أن النهي في الفجر يتعلق بصلاة الفجر، لا بطلوع الفجر، كما هو صريح الحديث الذي في صحيح مسلم، وكصلاة العصر، فإن النهي فيها إنما يتعلق بصلاتها، لا بوقتها.

والصحيح: جواز إعادة الجماعة إذا دخل المسجد وقت النهي وهم يصلون، وسواء أدرك الإقامة أو وجودهم في أثنائها لقوله ﷺ:

(لَا تَفْعَلا: إذَا أَتَيْتُمَا مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ وَهُمْ يُصَلُّونَ فَصَلِّيَا مَعَهُمْ فَإنَّهَا لَكُمَا نَافلَةٌ).

ولأن العلة في إدراك الإقامة، أو إدراك ما بعدها واحدة، وهي خوف اتهام الإنسان، أو لأجل الرغبة في الخير، أو لغير ذلك من المناسبات الشرعية.

وتجويز ذوات الأسباب في أوقات النهي أرجح من منعها، لأن أحاديثها عامة محفوظة، وأحاديث النهي فيها تخصصات كثيرة، ولأن ذوات الأسباب تفوت بفوات أسبابها، بخلاف النوافل المطلقة، ولثبوت بعض ذوات الأسباب في الأحاديث الصحيحة، كالإعادة، وركعتي الطواف ونحوها، ولأن في بعض ألفاظ أحاديث النهي: النهي عن تحري الصلاة في هذه الأوقات. وذلك إنما يكون في النفل المطلق، وأما المقيد، فإن سببه منعه من التحري لوقت النهي، والله أعلم.

* * *

## ومن باب صلاة الجماعة وتوابعها

والصواب: وجوب فعلها في المسجد، لأن المسجد هو شعارها، ولأنه ـ ﷺ ـ همّ بتحريق المتخلفين عنها، ولم يستفصل: هل كانوا يصلون في بيوتهم جماعة أم لا؟ ولأنه لو جاز فعلها في غير المسجد لغير حاجة، لتمكن المتخلف عنها والتارك لها من الترك، وهذا محذور عظيم.

والصّحيح: أن المسجد الأكثر جماعة أفضل من المسجد العتيق، لعموم قوله ﷺ:

(ثُمَّ مَا كَانَ أَكْثَرَ جَمَاعَةً).

ولأن المصلحة في كثرة الجماعة أرجحُ مِن قدَمِ المسجد.

وقولهم: «ومن صلى ثم أقيمت الجماعة سُنَّ أن يعيدها، إلا المغرب»، فيه نظر، فإن عموم الأمر بالصلاة مع الجماعة الثانية إذا أدركهم يشمل المغرب، والحكمة أيضاً موجودة فيها كغيرها، وقولهم في تعليل الكراهية: لأن المعادة تطوع، والتطوع لا يكون بركعة، إنما ينصرف إلى التطوع المطلق، كما أن التطوع المطلق الأوْلى فيه أن يسلِّم من كل ركعتين، والرباعية المعادة تخالف ذلك.

والصواب في القراءة خلف الإمام: أنه إذا سمعه المأْموم، فلا يجب عليه قراءة، ولا تشرع، وإذا لم يسمعه وجبت عليه الفاتحة: سرية أو جهرية، لأن النصوص الآمرة بالاستماع والإنصات، إنما هي مع سماع المأْموم للقراءة، والنصوص الآمرة بقراءة الفاتحة وغيرها، تتناول الإمام، والمنفرد والمأموم الذي

لا يسمع قراءة إمامه، وهذا القول أعدل الأقوال في هذه المسألة، وتجتمع فيه الأدلة.

قوله: وما يقضيه المسبوق أول صلاته وما أدركه مع الإمام آخرها فيه نظر، والصحيح القول بالآخر، وأن الذي يدرك مع الإمام أولها، والذي يقضيه آخرها، وذلك أن قوله ـ ﷺ ـ:

(فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، ومَاَ فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا).

صريح في ذلك، غير محتمل، واللفظ الآخر: (وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا) ليس ظاهراً أن المراد بالقضاء أول الصلاة، وإنما يراد به الإتمام، وكثيراً ما يطلق القضاءُ بمعنى الإتمام، ويؤيد هذا أن هذا هو الأصل، وهو الواقع، فما الذي يخرج هذا الأصل عن حالته ويجب انعكاس الأمر؟ ويؤيد هذا أن الإنسان المصلِّي مأمور بالنية، وتكبيرة الإحرام في أول ما يدخل مع الإمام، ولو كان أولها الذي هو يقضي، لوجب عليه تأخير النية والإحرام إلى ما بعد سلام الإمام، ويؤيد ذلك أيضاً أنه إذا أدرك ركعة من المغرب، ثم قام ليقضي أنه يصلِّي ركعة ويجلس للتشهد الأول، ثم يتم صلاته.

ولو كان الذي يقضيه أولها لفعل في الركعتين الفائتتين كما يفعل فيهما إذا صلى وحده، بأن يسردهما، ولا ينفع قولهم: إنه لو سردهما لاقتصر في المغرب على شفع، وهي وتر، فإنه ـ على قولهم ـ يحصل الإيتاءُ بالركعة التي أدرك مع الإمام، لأنها على ذلك القول آخر الصلاة، ويدل على ذلك أيضاً: أن التشهد الأخير لا يكون إلا في آخر صلاته التي يقضيها، لا في التي أدرك مع الإمام.

ويلزم على قولهم: أنه يتشهد التشهُّد الأخير مع الإمام، ويقتصر على التشهد الأول فيما يقضيه،ولم يقولوا بذلك.

ويشهد لهذا أَن الترغيب في الاستفتاح، والأمر بالتعوذ، إنما هو في أول ما يدخل المصلي في صلاته، لتحصل المصلحة المترتبة على ذلك، نعم إذا فاتته

ركعتان من الرباعية، وأراد أن يقرأ في القضاءِ زيادة على الفاتحة كان حسناً، وليس هذا لأجل أنه أَول صلاته، وإنما ذلك تداركاً للقراءَة، حيث فاتته مع الإمام، والله أَعلم.

والصحيح: أن مسابقة الإمام عمداً إذا كان المسابق عالماً بالحال والحكم، أنها مبطلة للصلاة بمجرد ذلك، سواء سبقه إلى ركن، أو بركن أو ركنين، وسواء كان ذلك ركوعاً أو سجوداً أو غيرهما، وسواءً أدركه الإمام أو رجع إلى ترتيب الصلاة، لأن النهي والوعيد يتناول هذا، وما نهي عنه لخصوص العبادة كان من مفسداتها، وأما القول بأن ذلك محرّم، والإبطال يتوقف على السبق بركن الركوع، أو بركنين غيره، فهذا القول لا دليل عليه بوجه، وكما أنه خلاف النص، فإنه خلاف نص الإمام أحمد، كما صرح بذلك في رسالته المشهورة، والله أعلم.

والصحيح: أن الأتقى والأورع في الإمامة مقدّم على الأشرف صاحب النسب؛ بل ومقدم على السِّنِّ، لأن الإمامة كَمَالُهَا في العلم والتُّقَى، والنسب لا دخل له في هذا الموضع، والسن دون الورع في المرتبة، وإنما يعتبر السن مع الاستواء في الصفات.

والصحيح: أن إمامة الفاسق صحيحة، سواء كان فسقه من جهة الأقوال كالبدع، أو من جهة الأفعال، لقوله ﷺ:

(يُصَلونَ لَكُمْ فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ).

قاله في أئمة الْجَوْرِ، ولأن صلاة الفاسق بنفسه صحيحة، فصلاة غيره خلفه كذلك، ولذلك كان الصدر الأول يصلون خلف من يكون إماماً للناس ـ في الجمع والجماعات وغيرها ـ من أئمة الجور، وممن بان فسقهم، ومن أهل البدع: لم يكونوا يمتنعون منها، ولا يصلونها معهم ويعيدون.

وأَما الحديث الذي رواه ابن ماجه:

«وَلاَ يُؤُمَّنَّ فَاجِرٌ مُؤْمِناً».

فهو ـ على تقدير صحته والاحتجاج به ـ يدل على أَن البَرَّ أَولى من الفاجر، وأَنه لا يجوز تولية الفاسق إِمامة ولا غيرها، وهذا مسلَّمٌ، ولذلك قرنه بقوله:

«وَلاَ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِراً».

وهذا أَولوية بالاتفاق، حتى إِن بعض الأَئمة ـ كشيخ الإِسلام وغيره ـ يرون أَن أَصل اعتزال الأئمة الفسّاق والصلاة منفرداً من طريق أَهل البدع والرفض، وأَنه مخالف لقول السَّلف ثم إِن هذا ظاهر في الاعتبار، فإِن صلاة الإِمام والمأْموم، كلٌّ منهما له كمالها، وعليه نقصها وفسادها، لا تتعدى أَحدهما إِلى الآخر، فكيف وهو تصح صلاته لنفسه؟ وإِذا كانت الصلاة تصح خلف من تجب عليه الإِعادة، كالمحدث الذي لم يعلم حدثه، ومن عليه نجاسة جهلها، على القول الآخر، فخلف الفاسق من باب أَولى وأَحرى.

وأَيضاً النصوص الكثيرة الموجبة لحضور الجماعة والمتوعدة على من تركها إِذا لم يوجد إِلا إِمام فاسق، فأَيّ شيءٍ ينسخها ويسقطها، وليس يتيسر للإِنسان الصلاة في جماعة في مثل هذه الحال، وأَيضاً إِذا قيل بعدم صحة الصلاة خلف الفاسق، كان ذلك ذريعة إِلى مفسدة عظيمة، وهي التخلف عن الجماعة، بل ربما تذرع إِلى ترك الصلاة بالكلية، كما هو الواقع.

فالحق الذي لا ريب فيه أَن الصلاة كالجهاد، تصلي خلف كل بر وفاجر، كما تجاهد مع كل أَمير، بَرًّا كان أَو فاجراً، إِلا أَنه يجب على من له الأَمر أَن لا يولي الإِمامة إِلا من هو أَحق بها شرعاً. وهذه مسأَلة، وتلك مسأَلة أُخرى، والله أَعلم.

والصحيح: صحة إِمامة العاجز عن شيءٍ من أَركان الصلاة، أَو شيءٍ من شروطها، إِذا أَتى بما يقدر عليه، وسواء كان إِمامَ الحيِّ أَو غيره، وسواء كان بمثله أَو بغير مثله، وهذا القول هو الذي تدل عليه العمومات، فإِن قوله ﷺ:

(يَؤُم الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ).

إلى آخره: يشمل هذا العاجز كغيره وكذلك صلاته ــ ﷺ ــ جالساً لما عجز عن القيام ــ دليل على جواز مثل هذه، وما كان في معناها، وتعليل ذلك: أَنه إِمام الحي، وأَن غير إِمام الحي لا يجوز فيه ذلك، تعليل غير مسلَّم، فإِن إِمام الحي كغيره من الأئمة، لا فرق في الحقيقة بينه وبين غيره، وأَيضاً فإِنه منقوض بغير القيام، فإِن إِمام الحي فيها كغيره [قولاً واحداً].

ومما يؤيد هذا القول الصحيح: أَن العاجز عن الأركان أَو الشروط لم يترك في الحقيقة شيئاً لازماً، بل الواجب عليه ما يقدر عليه فقط، وصلاته كاملة لا نقص فيها بوجه، فما الذي أَوجب بطلان إِمامته وعدم صحتها؟ ولأن نفس صلاة المأموم غير مرتبطة بصلاة إِمامه إلا بالمتابعة فقط، فكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولأننا لو طردنا التعليل الذي علل به المانع من إِمامته لقلنا لا تصح إِمامة المتيمم إِلا بمثله، ولا إِمامة الماسح على حائل إلا بمثله، ونحو ذلك من المسائل التي لا يمكن القول بها، فعلم أَن القول الصواب أَن الإِمام إِذا لم يُخلَّ بشيءٍ مما يجب عليه بنفسه: أَن إِمامته صحيحة كصلاته، وإِن شئت أَن تقول: كل من صحت صلاته بنفسه صحت إِمامته، بلا عكس، فقد تصح إِمامته ولا تصح صلاته، كالذي جهل حدثه.

فعرفت أَن مسأَلة الإِمامة أَخف وأَعم من مسأَلة صحة الصلاة، والله أَعلم.

قوله: «وإِن علم معه واحد أَعاد الكل» هذا فيه نظر: في حق بقية المأْمومين الذين لم يعلموا، فإِن الصواب صحة صلاة كل مأْموم لم يعلم بحدث إِمامه، وسواء كان الإِمام عالماً بحدثه، وتممها متعمداً، أَو علم بعض المأْمومين، فإِن الذي لم يعلم لم يوجد مفسد لصلاته بوجهٍ، نعم الذي علم ذلك وبقي على نية الائتمام فإِنه متلاعب، عليه إِعادة هذه الصلاة.

والصحيح: أَنه يجوز ائتمام المفترض خلف المتنفل لقصة معاذ رضي الله عنه، أَنه كان يصلي مع النبي ﷺ العشاءَ الآخرة، ثم يذهب إِلى قومه فيصلي بهم تلك الصلاة وهو في الصحيح، وذلك صريح في المسأَلة، وكذلك قصة عَمْرِو بن مَسْلَمَةَ الجرمي: أَنه كان إِماماً لقومه وهو صبي، دليل على صحة ائتمام المفترض بالمتنفل، ودليل أيضاً: على صحة إِمامة الصبي في الفرض والنفل، وكذلك بقية العمومات، وأَما تعليل المانعين بأَن المأْموم إِذا نوى أَن صلاته فرض والإِمام نواها نفلاً، أَن ذلك اختلاف يدخل تحت قوله ﷺ:

(إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فلا تَخْتَلِفُوا).

فليس الأَمر كما ذكروا لوجهين، أَحدهما: أَن مراده ﷺ، بالاختلاف المذكور مخالفة بالأفعال، كمسابقة الإِمام أَو التخلف عنه، وليس مراده بذلك مخالفته النية، وبقية هذا الحديث يوضحه جداً فإِنه قال فيه بعد قوله: (فلا تختلفوا عليه):

(فَإِذَا رَكَـعَ فَارْكَعُوا، وَإِذا رَفَـعَ فَارْفَعُوا، وإِذا سَجَدَ فَاسْجُدُوا) إِلى آخره، وهذا ظاهر.

والوجه الثاني أَنهم قد أَجازوا النفل خلف الفرض، وهذا مخالفة له في النية، فدل على أَن هذا المعنى غير معتبر. ويترتب على هذه المسأَلة أَن الصحيح أَنه يصح صلاة فرض خلف فرض آخر، ولو خالفه في الاسم كالظهر خلف العصر، وبالعكس، وهذا ظاهر لا دليل على المنع منه، والأَصل الجواز.

والصحيح: أَن وقوف المأْموم عن يمين الإِمام سنة مؤكدة، لا واجب تبطل بتركه الصلاة، فتصح الصلاة عن يسار الإِمام مع خُلُوِّ يمينه، لأن النهي إِنما ورد عن الفَذِّيَّةِ.

وأَما إِدَارَةُ النبيِّ ﷺ لابن عباس ــ لَمَّا وقف عن يساره ــ إِلى يمينه، فإِنه يدل على الأفضلية، لا على الوجوب، لأنه لم ينه عنه، والفعل يدل على السنية،

كتأْخيره جابراً وجباراً لما وقفا عن جانبيه إلى خلفه، فإنه نظير إدارته لابن عباس، وذلك دليل الأفضلية فقط.

والصحيح: أَن وقوف الفذ خلف الصف ـ إذا كان رجلًا ـ لعذر: لا يضر، لأن جميع واجبات الصلاة تسقط بالعجز، فالمضافَّة إذا قلنا إنها واجبة، فليست بأَوجب من كثير من أَركان الصلاة وشروطها، ومع ذلك، فكل من عجز عن شرط أَو ركن، فإن صلاته صحيحة إذا أَتى بما يقدر عليه، وكذلك الوقوف قُدَّامَ الإمام لعذر، والله أَعلم.

والصحيح: أَن المأْموم إذا أَمكنه الاقتداءُ بإمامه بالرؤية أَو سماع الصوت، أَنه يصح اقتداؤه به، سواءٌ كان في المسجد أَو خارج المسجد، وسواءٌ حال بينهما نهر أَو طريق أَم لا، لأنه لا دليل على المنع، ولا على التفريق، وإن قدرنا أَن الطريق لا تصح فيه الصلاة فلا يضر حيلولته بينه وبين إمامه إذا كان الموضع الذي يصلي فيه الإمام لا مانع فيه، والذي يصلي فيه المأْموم كذلك.

* * *

## ومن باب صلاة أهل الأعذار

لم يثبت عن النبي ﷺ في صلاة المريض إلاَّ قوله:

(يُصَلِّي المَرِيضُ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ).

وأَما صلاته بطرفه أَو بقلبه، فإنه لم يثبت، ومفهوم هذا الحديث يدل على أَن الصلاة على جنبه مع الإيماءِ آخر المراتب الواجبة، وهذا اختيار شيخ الإسلام رحمه الله.

والصحيح: أَن المريض إذا قدر على الصلاة قائماً إذا كان وحده وإن حضر الجماعة صلى جالساً، أَنه يحضر الجماعة ويصلي جالساً لأَن مصالح حضور الجماعة لا يوازنها شيءٌ من المصالح، وأَيضاً إذا وصل محل الجماعة وصار عاجزاً عن القيام، لم يكن واجباً عليه، وكان الجلوس في حقه بمنزلة القيام في حق القادر، فقد حصَّل مصالح الجماعة ولم تفته مصلحة القيام، والله أَعلم.

قوله: «وتجزي الفاتحة من عجز فأَتمها في انحطاطه، لا من صح فأَتمها في ارتفاعه» فيه نظر، فإنه ما دام ينهض إلى القيام لم يصر القيام بَعْدُ فرضاً عليه حتى يصل إليه، وفي قراءَته إياها وقت نهوضه حين يحس بنشاطه هذا، غاية ما يقدر عليه، وكونه يجب عليه الصبر حتى يصل إلى القيام يحتاج إلى دليل، والأَصل عدمه، والله أَعلم.

والصحيح أَن رُخَصَ السفر: القصر، والجمع، والفطر، والمسح ثلاثاً مترتبة على وجود حقيقة السفر الذي يسمى سفراً، وسواء كان يومين أَو أقل، لأن الله ورسوله قد رتَّبا الرخص على مجرد حقيقته ووجوده ولم يحدا ذلك بمدة،

وأَيضاً فالنبي ﷺ قَصَر في عرفة، ومزدلفة ومِنًى وخَلْفَه أَهل مكة يصلون بصلاته، ويَقْصُرُونَ كما كان يَقصر، ولم يكونوا يتمون الصلاة، ولم يثبت عن النبي ﷺ شيءٌ يدل على تحديده بيومين.

والقاعدة أن النص المطلق في كلام الله وكلام رسوله نعلق الحكم وجود حقيقته إِذا لم يرد فيه حد عن الله ورسوله، وأَما قول ابن عباس رضي الله عنه:

«يا أَهل مكة: لا تقصروا في أَقل من عسفان».

أَو كما قال رضي الله عنه.

فإِنه لا يعارض به ما سبق من النصوص، وأَيضاً فإِن الحكمة، وهي المشقة التي علق الشارع عليها التخفيفات ـ موجودة في قصير السفر وطويله.

والصحيح أيضًا: أَنه يترخص المسافر، وإِن كان هائماً أَو تائهاً، لا يقصد جهة معينة أَو يطلب ضالة، فإِنه يدخل في العمومات، ومثل هذا أَحق بالرخصة من غيره، وليس على منعه من الترخص دليل، ولا تعليل صحيح.

والصحيح أَيضاً: أَن المسافر إِذا أَقام بموضع، لا ينوي فيه قطع السفر، فإِنه مسافر، وعلى سفر، وإِن كان ينوي إِقامة أَكثر من أَربعة أَيام، لكونه داخلاً في عموم المسافرين، ولأَن إِقامة أَربعة أَيام أَو أَقل أَو أَكثر، حكمها واحد، فلم يرد المنع من الترخص في شيءٍ منها، بل ورد عنه ﷺ وعن أَصحابه ما يدل على الجواز، فإِنه أَقام بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة، وأَقام بمكة أَكثر من أَربعة أَيام، وهو يقصر، وكذلك روي عن كثير من الصحابة من هذا النوع شيءٌ كثير.

وقول المانعين: إِنهم لم ينووا الإِقامة في هذه المدة أَكثر من أَربعة أَيام غير ظاهر، فإِنه الظاهر من تلك الوقائع: أَنه يغلب على الظن، أَو يجزم بنية إِقامة أَكثر من أَربعة أَيام، والله أَعلم.

والصحيح: أَنه لا يشترط نية الجمع، ولا نية القصر، بل إِذا وجد

العذر المبيح للقصر والجمع جاز ذلك، ولو لم ينو، ولذلك لم يكن النبي ﷺ يقول قبل التكبير: نويت الجمع ولا القصر، ولا أمر بذلك، ولو كان شرطاً لنقل نقلاً متواتراً مشتهراً، وأيضاً فليس العلة عدم النية، وإنما العلة في وجود السبب المبيح للرخصة، فلا تأْثير للنية في شيءٍ من ذلك.

والصحيح: أن جميع المسائل التي ذكرها أصحابنا في السفر في وجوب الإتمام، وأنه لا يجوز القصر فيها.

القول الآخر: أنه يجوز القصر في كل صلاة رباعية وقعت في السفر، سواء ائتم بمقيم أو بمسافر، أو نوى القصر، أو لم ينو، ومن باب أولى إذا شك أو غير ذلك من المسائل، فإن الأصل مشروعية القصر في كل صلاة رباعية وقعت سفراً، ولا دليل يدل على وجوب الإتمام، بل ولا على استحبابه، والله أعلم.

والصحيح: جواز الجمع إذا وجد العذر، ولا يشترط غير وجود العذر، لا موالاة ولا نية، وقولهم: إن معنى الجمع لا يحصل إلا بالضم، والاقتران غير مسلَّم، فإنهم لم يوجبوا الموالاة في جمع التأْخير، وإنما معنى الجمع كون وقتي الصلاتين يصيران وقتاً لكل منهما، وبذلك تحصل السهولة الموجبة للجمع، والله أعلم.

* * *

## ومن صلاة الجمعة والعيدين إلى الزكاة

الصواب أن الجمعة والجماعة تجب حتى على العبيد الأرقاء، لأن النصوص عامة في دخولهم، ولا دليل يدل على إخراج العبيد، وأما حديث طارق بن شهاب:

«الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلَّا أَرْبَعَةً» فذكر منهم العبد المملوك [رواه أبو داود].

فهو حديث ضعيف الإسناد، وطارق قد ذكروا أنه لم يصح سماعه من النبي ﷺ، وأصح منه حديث حفصة في سنن النسائي مرفوعاً:

(رَوَاحُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ).

وهو عام في الحر والمملوك.

والأصل: أن المملوك حكمه حكم الحر في جميع العبادات البدنية المحضة، التي لا تعلق لها بالمال.

ولم يصح عن النبي ﷺ في اشتراط الأربعين في الجمعة والعيدين شيءٌ، فالصواب أنه لا يشترط لهما الأربعون.

قوله: «وإن أحرم ثم زحم وأخرج من الصف فصلى فذًّا لم تصح صلاته»، هذا بناءً على أن صلاة الفذ خلف الصف لا تصح ولو لعذر، والصواب ما تقدم: أنه إذا صلى فذًّا لعذر أن صلاته صحيحة، وهذه المسألة من فروع تلك، والله أعلم.

وأَما اشتراط تلك الشروط في الخطبتين: الحمد، والصلاة على رسول الله، وقراءَة آية من كتاب الله، فليس على اشتراط ذلك دليل.

والصواب: أنه إذا خطب خطبة يحصل بها المقصود والموعظة أَن ذلك كاف، وإِن لم يلتزم بتلك المذكورات، نعم من كمال الخطبة الثناءُ فيها على الله وعلى رسوله، وأَن تشتمل على قراءَة شيءٍ من كتاب الله، وأَما كون هذه الأمور شروطاً لا تصح إلا بها سواء تركها عمداً أَو خطأً أو سهواً، ففيه نظر ظاهر، وكذلك كون مجرد الإتيان بهذه الأركان الأربعة من دون موعظة تحرك القلوب يجزي ويسقط الواجب، وذلك لا يحصل به مقصود، فغير صحيح.

والصواب: أَن الكلام ممنوع إذا كان يخطب، ولو لم يكن في أَركانها، ولو شرع في الدعاءِ، لأن الخطبة اسم لمجموع ذلك كله.

وأَما مسأَلة تعدد الجمعة في البلد لغير حاجة فهذا أَمر متعلق بولاة الأمر، فعلى ولاة الأمر أَن يقتصروا على ما تحصل به الكفاية، وإِن أَخلوا بهذا فالتبعة عليهم، وأَما المصلون فإِن صلاتهم صحيحة في أَي جمعة كانت، سواء كان التعدد لعذر أَو لغير عذر، وسواء وقعتا معاً أَو جهل ذلك، أَو صلى مع الجمعة المتأَخرة، فلا إِثم عليهم ولا حرج ولا إِعادة، ومن قال: إنه يعيد في مثل ذلك فقد قال قولاً لا دليل عليه، وأَوجب ما لم يوجبه الله ولا رسوله، وأَي ذنب للمصلي وقد فعل ما يلزمه ويقدر عليه؟ وهذا القول الذي يؤمر فيه بالإعادة قول مخالف للأصول الشرعية من كل وجه، وذلك بيِّنٌ ولله الحمد.

قوله: «إِلا من قدم صاحباً له أَو حفظه بلا إِذنه» أَي فله ذلك، وفي هذا نظر: فإِن المسجد لمن سبق إِليه بنفسه، لا بنائبه الذي لا يريد أَن يصلي في المكان، غاية ما يكون أَن يقال: إِن من سبق إِلى مكان وقصده الصلاة فيه أَن له إِيثار غيره، وأَما كونه يقدم ولده أَو خادمه ويتأَخر هو، ثم إِذا حضر قام عنه فهذا لا يجوز، ولا يحل له ذلك بلا شك.

والصحيح أَن صلاة العيد فرض عين، والدليل الذي استدلوا به على

فرض الكفاية هو دليل على أَنها فرض عين، ولأن النبـي ﷺ كان يُحرّض الناس عليها حتى يأْمر بإِخراج العواتق وذوات الخدور، وأَمر الحُيّض أَن يعتـزلن المصلى، ولولا رجحان مصلحتها على كثير من الواجبات لم يحض أُمّته هذا الحض عليها، فدل على أَنها من آكد فروض الأعيان.

قولهم: «يستحب للمعتكف أَن يخرج إِلى المصلى في ثياب اعتكافه» فيه نظر، فإِنه ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ويخرج للعيد متجملاً.

والصحيـح: أَنه يستحب افتتاح جميـع الخطب بالحمد: الجمعة والعيد وغيرهما، لَأنه ﷺ لم يثبت عنه أَنه افتتـح خطبة بغير الحمد، ولقوله:

(كُل كَلامٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ) أَي ناقص البركة. والقلب يميل إِلى استحباب التكبير المطلق في أَيام التشريق، لأن الله خصها بالأمر بالذكر فيها، ولقوله ﷺ:

(أَيَّامُ التَّشْريق أَيَّامُ أَكْل وشُرْب وَذِكْر للهِ).

ولأن عمر كان يكبر في قبته فيكبر من حوله، حتى تَرتـجَّ منى تكبيراً، والله أَعلم.

وقال بعض العلماءِ بوجوب صلاة الكسوف، لأن النبـي ﷺ فعلها وأَمر الناس بها.

والصحيـح: في صلاة الكسوف حديث عائشة، الثابت في الصحيحين أَنه صلى في كل ركعة بركوعين وسجودين، وأَما ما سواه من الصفات فإِنه وهم من بعضهم واه، كما قاله الأئمة: الإِمام أَحمد والبخاري، وغيرهما، والله أَعلم.

الصواب: أَنه لا ينادى بـ «الصلاة جامعة» إِلا للكسوف، لا للعيدين ولا للاستسقاءِ، لأنه لم يرد إِلا في الكسوف، ولا حاجة أَيضاً إِلى النداءِ لكون الوقت معلوماً، بخلاف الكسوف.

قوله: «إلا نائباً عن مسلم، أي: فيجزي، ولو كان كافراً» فيه نظر: إذ هو طهارة يعتد به، فكيف تصح من كافر، من دون عذر؟

والصحيح: أن الزوج يجب عليه كفن امرأته، لأنه من الإنفاق بالمعروف، ويرى الناس من المنكر أن الزوج الغني لا يلزمه كفن زوجته الفقيرة، وأنه وغيره من الأجانب سواءٌ، والتعليل بأن النفقة مقابلة للاستمتاع وقد فات بالموت، يقال، بل هو في مقابلة الزوجية، كما أن باقي حقوق الزوجية تتعلق بعد الموت كالإرث ونحوه، فكذلك النفقة، وأيضاً هذا التعليل منقوض بالمريضة ونحوها ممن لا يمكن الاستمتاع بها، والله أعلم.

والصحيح: جواز الصلاة على القبر، ولو بعد شهر، لأنه لم يرد فيه منع، والله أعلم.

والصواب: تحريم البناءِ على القبور، وتجصيصها، وتبخيرها والجلوس، والكتابة عليها، لأن الوعيد الوارد في ذلك لا يقصر عن درجة التحريم.

* * *

## ومن كتاب الزكاة

الصحيح: أَن الديْنَ إذا كان على معسر لا وفاءَ له، أَو على مماطل لا يُقْدَر على الاستيفاءِ منه، أَو كان المال مسروقاً، أَو ضالاً، أَو نحوه ممن لا يقدر عليه صاحبه، ولا ينتفع به، لا زكاة فيه ولو قبضه حتى يحول عليه الحول بعد قبضه، لأن الله بحكمته شرع الزكاة في الأمور النامية المقدور عليها، وهذه الأموال المذكورة لا يقدر عليها أَصحابها، ولا هي معدة للنماءِ.

وأَيضاً فإِنه يجب إنظار المعسر وإِمهاله إِلى مَيْسَرةٍ، وإِيجاب الزكاة على الغريم في هذه الحالة يخالف هذا المقصود، ويوجب عليه أَن يضيق على المعسر، وأَيضاً فإِذا كانت أَموال القُنْيَةِ المعدة لمصالح أَهلها لا زكاة فيها؛ لكون القُنْيَةِ صرفتها عن النماءِ والكسب الذي هو أَصل الأموال الزكوية، فكيف تجب الزكاة في الأموال التي لا تنمى، ولا ينتفع بها، وهذا ظاهر، ولله الحمد.

والصواب إيجاب الزكاة في حصة المضارب قبل القسمة، إذا بلغت نصاباً لدخوله في جميع عمومات النصوص، أَلفاظها، ومعانيها، فالأحاديث التي فيها إيجاب الزكاة فيمن له هذا المقدار من الذهب أَو الفضة، أَو الماشية أَو الحبوب، والثمار أَو غيرها، يدخل فيها المضارب كغيره، وكذلك معانيها، فإِن الزكاة شرعت مواساة في الأمور النامية، وحصة المضارب نامية، فكيف تسقط عنه الزكاة وحصته قد تكون أَلفاً، أَو عشرة آلاف، أَو أَكثر من ذلك لعلة أَنها لم تقسم، وأَنه إذا نقص المال قبل القسمة كانت وقاية لرأْس المال، هذه العلة موجودة في أَصل المال، وفي حصة صاحب المال، وفي جميع أَموال الناس كلها تحت خطر النقص والتلف وغير ذلك من الآفات، ولم يرد عن النبي ﷺ أَنه أَسقط عنه الزكاة، بل كان ﷺ يبعث عماله، فيأْخذون زكاة الأموال الظاهرة،

ولم يكونوا يستفصلون: هل فيها حصة مضارب أم لا؟ وترك الاستفصال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم في المقال، وهذا التعليل الأخير احتج به من أَوجب الزكاة في الأموال الظاهرة مطلقاً، ولو كان صاحبها مديوناً، والله أَعلم.

الصحيح: قول من قال من الأصحاب: إن إبدال النصاب الزكوي بنصاب آخر زكوي لا يمنع الزكاة ولا يقطعها، سواءٌ كان من جنسه أَو من جنس آخر، والتفريق بين ما كان من الجنس وغيره لا دليل عليه، وحقيقة الأمر: لا فرق بين الأمرين، ولأن القول بقطعه إذا أَبدله من غير جنسه يوجب فتح أَبواب الحيل لمنع الزكاة.

الصحيح: أَنه يعتبر لوجود الزكاة بقاءُ المال إلى التمكن من الأداءِ، وأَنه إذا تلف قبل ذلك بلا تفريط لا ضمان على صاحبه، لأنه لم يفرط، وغاية ما يكون أَن تكون الزكاة في هذا المال كالأمانة التي لا تضمن إلا بالتفريط.

والصحيح: جواز دفع زكاة العروض من العروض، لأن الزكاة مواساة، فلا يكلفها من غير ماله، كما أَن الصحيح: جواز إخراج القيمة في الزكاة إذا كان في ذلك مصلحة للجهة المخرج عليها، وأَن العقارات المعدة للكراءِ إذا لم توجب الزكاة في أَقيامها، فإنها تجب في أُجرتها وريعها في الحال، ولا يشترط أَن يحول الحول على الأجرة، بل تجعل كربح التجارة ونتاج السائمة.

والصحيح: أَنه لا يجزي إخراج الفطرة إذا لم تكن تقتات في البلد والمحل الذي تخرج فيه، كما أَنه يجزىءُ من الحبوب والثمار غير الأصناف الخمسة إذا كانت تقتات في المحل الذي تخرج فيه، لأن النبي ﷺ قال:

(اغْنُوهُمْ عَنِ السُّؤَالِ فِي هَذَا الْيَوْمِ).

وذلك لا يكون إلا في قوت البلد، ولأن الله ذكر في الكفارات إطعام المساكين، وأَنه من أَوسط ما يطعمه أَهله، والفطرة أَولى، ولأن النبي ﷺ إنما

نص على الأصناف الخمسة في الفطرة، لكونها قوت أَهل المدينة في ذلك الوقت، فالحكم يدور مع علته.

والصحيح: أَنه لا تجب عليه فطرة من تبرع بنفقته شهر رمضان، وإِنما تستحب استحباباً كالنفقة، والله أَعلم.

وإِذا تعذرت نفقة الإِنسان على من تجب عليه نفقته أَو امتنع ولم يمكن إِلزامه بذلك، فالقول بأَن الزكاة لا تُجزىءُ إِليه بقيد، وتعليل الأصحاب رحمهم الله يدل على ذلك، فإِنهم عللوا بمنعه من دفعه إِليه، أَنه يوفر ماله عن النفقة، فإِذا كان لا ينفق عليه، ثم يمنع من إِعطائه من زكاته، فإِن هذا لم يدخل في كلامهم، بل هذا أَحق بزكاته من غيره، وإِنما يمنع الإِنسان مِن إِعطاءِ زكاته من في دفعها إِليه إِحياءُ ماله، كالأولاد والأهل الذين ينفق عليهم، وكالغريم الذي يقصد بإِعطائه أَن يردها عليه، أَو يرد مقابلها، أَو يتوفر عليه ماله، لأنها في هذه الحالة معاوضة، لا إِخراج محض.

والصحيح: أَنه إِذا نوى المتصدق الزكاة، ودفعها للوكيل، ثم دفعها الوكيل للمعطى أَن ذلك يجزىءُ، ولو أَن الوكيل لم ينو أَنها زكاة، سواء تأَخر دفعها عن نية المتصدق أَو قارنها، بل لو دفع إِليه زكاة وهو غائب ليخرجها على أَهلها، فأَخرجها وهو لا يدري أَنها زكاة أَو صدقة، أَن ذلك يجزي صاحبها، لأن الأعمال بالنيات، وهو قد نوى، ولا يضر عدم نية وكيله، ولا فائدة في ذلك أَيضاً.

والصحيح: جواز نقل الزكاة ولو لمسافة قصر، إِذا كان ذلك لمصلحة، لأنه ـ ﷺ ـ كان يبعث عمّاله، فتارة يفرقونها على فقراءِ المحل، وتارة يحملونها إِلى النبي ﷺ، ولأن الله أَوجب الدفع للأصناف الثمانية، فإِذا دفعت في أَحدها أَجزأَ ذلك مطلقاً.

* * *

## ومن كتاب الصيام والاعتكاف

الصواب: أنه إذا كان ليلة الثلاثين من شعبان غيم أَو قَتَرٌ أَنه لا يجب صيام ذلك اليوم، ولا يستحب، بل فطره هو المشروع، لقوله ﷺ:

(فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ يَوْماً).

وهو صحيح صريح، لا يحتمل التأْويل، وما استدل به على مشروعية الصيام، فإنه محتمل، وهو محمول على هذا الصريح.

والصواب: أَن المَطَالِعَ إذا اختلفت فلكُلٍّ قوم رؤيتهم، وحديث كريب عن ابن عباس الذي في صحيح مسلم صريح بذلك، فإن ابن عباس لم يعتبر رؤية أَهل الشام، وأَخبر أَن ذلك أَمر من النبي ﷺ.

وأَما قوله:

(صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ).

فإنه مثل قوله:

(إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ منْ ههُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ ههُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ).

وقوله تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

وغير ذلك من النصوص المؤَقِّتَةِ للعبادات في أَوقات معينة تابعة لجريان

الشمس والقمر، فإن هذه الأمور بالاتفاق: تختلف باختلاف محالِّها، ولكل أَهل محل حكمهم في ليلهم وفجرهم، وزوالهم وعصرهم، وغير ذلك، فكذلك في رؤيتهم للهلال، وهذا واضح ولله الحمد.

وإذا قامت البينة في أثناءِ النهار برؤية هلال رمضان لزمهم الإمساك [قولاً واحداً] واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا يلزمهم قضاءُ ذلك اليوم، وقوله قوي جداً، مبني على أَصل، وهو أَن الأحكام لا تلزم إلا بعد بلوغها، فهم أَفطروا لما كان في ظنهم والحكم الظاهر لهم أَنه ليس من رمضان، فإذا بان أنه من رمضان لزمهم إمساك ما بان لهم، ولم يلزمهم قضاءُ ما لم يبلغهم.

يوضح هذا أَنهم كانوا مستعدين ناوين موطنين أَنفسهم على صيام جميع شهر رمضان فإذا بان لهم بعد ذلك خطؤُهم في فطرهم لم يكن هذا خطأً مؤاخذين به، بل كان هذا المشروع في حقهم: أَنهم أَفطروا بالحكم الشرعي، وأَمسكوا بالحكم الشرعي، فهم لم يخالفوا حكم الشرع بوجه.

ويوضح هذا أَن الناسي إذا أَكل وشرب وهو صائم أَن صومه صحيح، وكذلك المخطىءُ [على القول الصحيح] وهؤلاءِ أَدنى أَحوالهم أَن يكونوا مخطئين إن لم نقل مصيبين، فكيف يتم الصوم للناسي والمخطىءُ دون المفطرين بالأمر، الممسكين بالأمر، والناسي والمخطىءُ مفطرون بالعذر، صائمون بالأمر، فأَيّ الطائفتين أَعذر وأَولى بعدم القضاءِ؟ بل حالة المفطر قبل أَن يتبين له أَنه من رمضان كحالة الذي يأْكل ويشرب قبل أَن يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فإذا تبين له بَعْدُ أَنه أَكل وشرب بعد طلوع الفجر، فالصواب أَن حكمه حكم الناسي: لا حرج عليه، وصيامه صحيح، لأن الله جعل الناسي والمخطىءَ حكمهما واحداً، ولم يثبت عن النبي ﷺ أَنه أَمر المخطىءَ أَن يقضي ذلك اليوم.

ويوضح ذلك أَيضاً أَن المتأَوّلين من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ للخيط الأبيض من الخيط الأسود: ظنوا أَنه الخيط المعروف، فكانوا يأْكلون

ويشربون حتى يتضح لهم الخيطان، ولم يأمرهم ﷺ بإعادة ما فعلوه، والذي كان مفطراً قبل أَن يتبين له أنه من رمضان، ثم أَمسك بعد أَن تبين له: أَعلى حالة من المتأَول.

فإن قيل: يلزم على هذا أَن الحائض والنُّفَسَاءَ إذا طهرتا، والكافِرَ إذا أَسلم في أَثناءِ يوم من رمضان أَن لا يقضوا ذلك اليوم، بل يمسكوه فقط، قيل: أَما الكافر فنعم، فلا يجب عليه قضاءُ ذلك اليوم الذي أَسلم فيه، لأنه لم يخاطب به قبل ذلك، ولم يجب عليه حكماً ظاهراً، فهو كالذي لم يعلم أَنه من رمضان، وأَما الحائض والنفساءُ فإن الصيام واجب عليهما حتى في حالة جريان الدم، إلا أَن من شرط صحته انقطاع الدم، وليست حالتهما كحالة المخطىءِ والناسي، فإن الشارع جعل دمهما مانعاً من صحة الصيام، وأَوجب عليهما إذا طهرتا قضاءَ الصيام الواجب، والله أَعلم.

والصحيح: أَن المسافر لا يلزمه الصيام في كل أَحواله، ولو اليوم الذي يعلم أَنه يقدم فيه قبل وصوله للإقامة، فإن الله قال:

﴿فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرِ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٨٤]

ولم يستثن حالة من الأحوال، ولأن من علم أَنه يقدم في الوقت فإنه ما دام في السفر يجوز له قصر تلك الصلاة وجمعها إلى ما يجوز له الجمع فيه، فكذلك الصيام والأحكام المرتبة على السفر لا تنقطع إلاَّ بانقطاعه.

قوله: «لكن إن كان الكبير أَو المريض الذي لا يُرْجَى برؤه مسافراً فلا فدية لفطره بعذر معتاد، ولا قضاءَ لعجزه عنه»: فيه نظر ظاهر، لَأنه مكلف، فلا يسقط عنه الأمران: الصيام أَو بدله، وليس اجتماع عذر السفر وعذر المرض أَو الكبر موجباً لإسقاط الفدية، وليس على ذلك دليل.

قولهم: «وإن قال: إن كان غداً من رمضان فهو فرض لم يضره. إن كان

في آخره، لأنه بنـي على أَصل، ويضر إن قال في أَوله لأنه لم يُبْنَ على أَصل»: فيه نظر، فإِنَّ هذا الذي عليه، ولا يمكنه أَن ينوي غير ذلك إلا نية تقديرية فرضية، لا نية واقعة، والتفريق بين الأمرين غير وجيه، فإنه إن كان لا يجزي في أوّله فلا يجزي أيضاً في آخره، وإن كان يجزي في آخره [وهو الصواب] فكذلك يجزي في أَوله.

ومما يوضح هذا أَنهم قالوا: كل يوم عبادة مستقلة، لا يبطل ببطلان غيره، ولا يصح بصحة غيره.

ولم يثبت من المفطرات سوى الأكل والشرب والجماع ونحوه إذا فعل ذلك متعمداً، وكذلك الحجامة، وأَما ما سوى ذلك فلم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيءٌ، وقياسه على هذه الأمور غير صحيح، لوجود الفرق بينهما، وشرط الإلحاق أَن لا يكون بين الملحَق والملحَق به فرق بوجه، وإلا فالأصل عدم التفطير.

وكذلك: الصحيح أَن المجامِعَ والمجامَعَ ناسِياً أَو مُكْرهاً أَنه لا فطر عليه ولا كفارة، لأنه إذا كان الأكل الذي هو أَصل المفطرات قد عُفِيَ فيه عن النسيان، فالجماع كذلك، ولأن الله عَفَا عن الناسي والمخطىء مطلقاً، ولأن فعل المحظور في العبادة نسياناً لا يؤثر في إبطالها. والله أَعلم.

والصحيح: عدم استحباب نية الاعتكاف لكل من دخل المسجد لعدم وروده.

* * *

## ومن كتاب المناسك

تقدم أَن العبد يشارك الحر في الأحكام البدنية، إلا ما ورد استثناؤه وتخصيصه، وكذلك قد خففت عنه العبادات المالية، لكونه لا مال له، فهو كالفقير، فعلى هذا الأصل المهم الصحيح أنه إذا حج بعد بلوغه ـ ولو قبل حريته ـ أَن حجته هي حجة الإسلام كما أَن الفقير معفو عنه الحج، ولا يجب عليه، فإذا تيسر له وفعله أَجزأَه ذلك، ولم يلزمه إعادته إذا استغنى، فكذلك هذا الرقيق إذا أَدى فريضته، فإن ذلك يجزيه.

وأَيضاً فإن الحج لم يوجبه الله ورسوله في العمر إلاَّ مرة واحدة، وذلك مجمع عليه، فيلزم على قول من يقول: إنَّ حج الرقيق لا يجزيه، أنه يجب في العمر مرتين، وهذا واضح.

والصحيح: أَن النائب في الحج الفرض لا يلزم أَن يكون من بلد المنوب عنه، لعدم وروده، ولأن الرخصة في القضاءِ عن الميت والمعضوب شاملة لمن كان ينشىءُ الحجة من بلده أَو من غيره، ولأن الذي يجب على المنوب عنه أَفعال الحج فقط، وأَما السعي إلى مكة فإنه من باب: ما لا يتم الواجب إلا به، فيكون مقصوداً قصد الوسائل التي إذا حصل مقصودها برئت الذمة، يؤيد هذا التعليل أَن المنوب عنه لو قدرنا أَنه سار إلى نحو مكة بغير قصد الحج والعمرة، ثم بدا له في أَثناءِ الطريق نية الحج أَنه لا يلزمه العود إلى بلده لينشىءَ منها نية الحج، فكذلك نائبه، وهذا بيِّن. ولله الحمد.

والصحيح: أَن من فعل محظوراً ناسياً فلا فدية عليه، ولو كان إزالة شعر أَو ظفر، بل ولو كان صيداً لقوله:

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٥]

وليس في ذلك إتلاف حق آدمي حتى يقال فيه: والإتلاف يستوي فيه المتعمد وغيره، وإنما ذلك في أموال الآدميين ونفوسهم، وأما في حقوق الله فإنه يترتب على الإثم، والله أعلم.

قولهم: «والأفضل الإحرام للحج للمحلِّين بمكة من تحت الميزاب»: فيه نظر، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يقصدوا الإحرام من تحت الميزاب، بل أحرموا من منازلهم.

والصحيح: أنه لا يجوز الدفع من مزدلفة قبل الفجر إلا لأهل العذر، فيرخص لهم قبيل الفجر، لأنه ﷺ وجمهور المسلمين مكثوا في مزدلفة إلى قريب طلوع الشمس ولم يقدم قبل الفجر إلا الضعفة، وقد قال:

(خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ).

قولهم: «وله تأْخير طواف الزيارة عن أيام منى، ولو غير معذور» فيه نظر، فإن الله قال:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

أي وقته وأفعاله، فكيف يجوز تأْخير آكد أركانه وهو الطواف إلى بعد أيام الحج؟ وما الدليل على ذلك؟، فإنه لو كان ذلك جائزاً لنقل عن النبي ﷺ، أو عن أحد من أصحابه، ولذلك قال بعض الأصحاب: لا يجوز تأْخيره عن أيام التشريق.

الصواب: أن الرامي للجمرات وقت الرمي يستقبل الجمرة، ولا يستقبل القبلة، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، فيجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه في جمرة العقبة والوسطى، ويجعل البيت عن يمينه ومنىً عن يساره في الجمرة القصوى.

* * *

## ومن كتاب الأضحية والعقيقة

الصحيح قول من قال من أَهل العلم: إِن عضباءَ الأذن والقرن تجزي إذا لم يبلغ العضب منها أَن يجرحها جرحاً تكون به مَعِيبَةً أَو مريضة، لأن مفهوم الحديث الحديث الصحيح:

(أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأضاحِي: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، والْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ضَلَعُهَا، وَالْعَجْفَاءُ الَّتِي لَا تَنْقَى).

يدل على إِجزاءِ ما سوى ذلك، ولأن النهي عن التضحية بأَعضب الأذن والقرن إذا احتج به يدل على الكراهة كما أَمر باستشراف الأذن والقرن، والله أَعلم.

والصحيح: أَن أَيام التشريق الثلاثة كلها أَيام ذبح للأضاحي والهدايا، لأنها كلها أَيام للرمي والمبيت، ولا يجوز صيامها، فكذلك كلها ذبح، وفي المسند عن جبير بن مُطْعِمٍ مرفوعاً:

(كُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيق ذَبْحٌ)، والله أَعلم.

والصواب كراهة الفرعة والعتيرة، لأن قوله ﷺ:

(لَا فَرعَ وَلَا عَتِيرة).

ظاهِرٌ في المنع.

* * *

# باب الجهاد

القول بأن الجزية تقبل من كل كافر [كتبي أو غيره] أصح؛ لأن النبي ﷺ أخذها من المجوس، وكذلك أصحابه، والمجوس مشركون، ولأن آية الجزية لم تنزل إلا بعد ما دخل المشركون من أهل جزيرة العرب في الإسلام، وصار القتال للكفار الكتابيين من اليهود والنصارى، وهذا لعلَّه الفائدة بالتقييد في الآية بقوله:

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. [سورة التوبة: الآية ٢٩]

ولأن من مقاصد إقرارهم بالجزية لأجل أن يسمعوا كلام الله وينظروا الإسلام وأهله، وغير أهل الكتاب أحوج إلى هذا من أهل الكتاب لشدة جهلهم.

والصحيح: أنه لا يحكم بإسلام أولاد أهل الذمة بمجرد موت أبويه بدارنا؛ لأن الظاهر من حالة الخلفاء الراشدين وقت الفتوحات الإسلامية أنه يقع من هذا شيءٌ كثير، ولا يلزمون أولادهم الصغار بالدخول في الإسلام، ولأن باقي الأولياء ينوبون عن الأبوين في التربية على دينهم.

* * *

# باب البيوع

الصواب: قول الشيخ تقي الدين رحمه الله: إن جميع العقود تنعقد بما يدل على مقصودها من الألفاظ والأفعال والأحوال؛ فكلٌّ ما عدّه المتعاقدان عقداً انعقد بأي لفظ كان، ولم يَزَلْ عمل المسلمين على هذا، والله ورسوله قد أباحا جميع العقود الجائزة المباحة ولم يشترطا في عقدها لفظاً معيناً، ولا تقديماً ولا تأخيراً، والله أعلم.

الذي يتعين القول به: جواز شراء المصحف، وكذلك جواز بيعه إذا لم يكن في ذلك امتهان وقلة احترام، لأن الحاجة داعية جداً إلى ذلك، وما كان بهذه المثابة لم يحرمه الله ولا رسوله، وقول ابن عمر رضي الله عنه:

«وَدِدْتُ أن الأيْدِيَ تُقْطَعُ فِي بَيْعِهَا».

يحمل ذلك على من كان يمتهنها ولا يحترمها.

الصحيح: الرواية الأخرى عن الإمام أحمد: أن بيع الفضول وشراءه صحيح إذا أجازه من تصرف له، لأن تعليل المنع يزول في هذه الحالة، فيبقى التصرف موقوفاً، خصوصاً على القول الصحيح: أن تعليق العقود جائز كتعليق الفسوخ، والولايات، وهذا هو الصواب، فإن القول بأن تعليق العقود غير جائز لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولا قياس، ولا بد للتعليقات من أمور مقصودة تعلق

لأجلها، وتلك الأمور لا محذور فيها، والأصل الجواز والحل في كل العقود، وما الفرق بين تعليق العقود التي يقصد بها العرض وعقود الولايات والوكالات: لا تجد بين الأمرين فرقاً مؤثراً، كما لا تجد فرقاً بين عقد العقود وحلها، ويترتب على هذا القول أن الصحيح جواز قوله: بعتك داري بكذا على أن تبيعني عبدك أو نحوه بكذا، ولا يدخل تحت نهيه ﷺ عن بيعتين في بيعة، لأن المراد أن يعقد على شيء واحد في وقت واحد عقدين، وذلك كمسائل العينة وما أشبهها، وأما هذه الصورة وما أشبهها، فإنها بمسائل التعليق أشبه، وليس فيها محذور أصلاً، إلا إذا تضمنت ظلماً في أحد العقدين، فيمنع لأجل ذلك.

والصحيح: أنه يجوز بيع ما فتح عنوة ولم يقسم بين الفاتحين كأرض مصر، والشام، والعراق، ولو كان غير المساكن، وتكون عند المشتري كما كانت عند البائع بخراجها، وهذا الذي عليه عمل المسلمين قديماً وحديثاً، والوقف لرقبة الأرض، وأما البيع فإنه يقع على منافعها، وما وضع فيها من بناءٍ وَغِرَاسٍ وغير ذلك، ولا فائدة في المنع من ذلك، بل فيه ضرر كثير.

وكذلك بيوت مكة، فإنه يصح بيعها وإجارتها، والآثار في المنع من ذلك يقابلها مثلها أو أكثر منها من الآثار، ولم يزل عمل أهل مكة على ذلك من زمان طويل، والحاجة من البائع والمؤجر والمشتري والمستأجر تدعو إلى ذلك جداً، وفي المنع من ذلك ضيق وحرج، وقد رفع الله الحرج عن هذه الأمة.

والأشياءُ المستترة كالمسك في فأرته، والفجل ونحوه في أرضه، إن كان ليس فيه غرر بيّن، فالصواب قول المجوّزين لبيعه، وإن كان فيه غرر ظاهر، فالصواب قول المانعين، لأنه ﷺ نهى عن بيع الغرر، والحكمُ يدورُ مع علته.

فهذه المسائل وما أشبهها مما يقال فيه: إنه مجهول أو غير مجهول ــ ينظر إلى تحقيقها، فإن تحقق فيها الغرر منعت، وإلا فالأصل الجواز.

يدخل تحت هذا الأصل شيءٌ كثير يقول فيه بعض أهل العلم: لا يجوز بيعه، ويقول آخرون: يجوز، وكلهم متفقون على العلة، وهي المغرر، فإن اشتبه

الأمر علينا فعلى مدعي أنه غررٌ البيان، ويرجع فيه عند الإشكال إلى أهل الخبرة والمعرفة به.

قوله: «وإن باع من الصبرة كل قفيز بدرهم لم يصح، لأن مَن للتبعيض، وكل للعدد، فيكون مجهولاً» هذا فيه نظر، فإنه لا جَهَالَةَ فيه بوجه، لأنهما تراضيا أنَّ كل قفيز من الصبرة يقابله درهم، وسواء أخذها كلها أو بعضها، فأي جهالة في هذا؟.

وكذلك على الصحيح: إن استثناء الدراهم من الدنانير، والدنانير من الدراهم، لا جهالة فيه، وهو معروف عند الناس: قدر أحد النقدين من الآخر.

قوله في مسألة بيع المعلوم والمجهول: «فإن لم يتعذر علم مجهول بيع مع معلوم صح في المعلوم بقسط من الثمن لعدم الجهالة» فيه نظر فإن عدم العلم بالمجهول وقت العقد يصير المعلوم مجهولاً، وهذا محذور ظاهر، فإنهم يمنعون من بيع ما هو أهون منها جهالة، كما هو ظاهر.

والصحيح: أن المنع من البيع على بيع أخيه وشرائه على أخيه عامّ في زمن الخيارين وغيرهما، لعموم النهي عنهما، ولأن العلة التي نهي عنها ــ وهو إحداث البغضاء بين المسلمين ــ موجودة، ولو بعد الخيارين، وربما توصل إلى فسخ البيع إذا رأى الزيادة بوجه مُحرّم.

قوله في مسألة العينة: «وإن اشتراه بغير جنسه، بأن باعه بذهب ثم اشتراه بفضة أو بالعكس جاز»: غير صحيح، والصواب المنع في ذلك، لأن النقدين مقاصدهما متفقة، وتجويز مثل هذه الحالة فتح لمسائل العينة كما هو معروف.

قوله: وإن جمع بين شرطين من غير النوعين الأولين، كحمل الحطب وتكسيره، وخياطة الثوب وتفصيله، بطل البيع، كما روى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال:

(لَا يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ، وَلَا شرطانِ فِي بَيْعٍ، وَلَا بَيْعُ مَا ليس عِنْدَكَ).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هذا على تفسير الشرطين في الحديث بما ذكر، ولكن الصحيح أن الحديث لا يتناول هذا، وإنما يدخل فيه الشرطان اللذان باجتماعهما يترتب مفسدة شرعية، كمسائل العينة ونحوها، كأن يبيع السلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها من مشتريها بأقل منه نقداً أو بالعكس، فإنهما في الغالب يتشارطان لفظاً أو مواطأة، ويؤيد هذا أن الشارع لا ينهى عن المعاملات إلا ما فيه مفسدة: رباً، أو غرر، أو ظلم، وهذه الشروط لا محذور فيها بوجه، فكيف ينهى الشارع عنها؟

وأيضاً فكما أنه لا مفسدة فيها بنفسها، فإنه لا يتذرع بها إلى مفسدة، ولو قيل: إن لفظ الحديث عام فتدخل فيه هذه الشروط، قلنا: لو أخذنا بعمومه من غير مراعاة منا لحمله على الشروط الفاسدة لمنعنا من اجتماع شرطين من القسم الأول والثاني، وذلك لا يجوز، فعلم أن الحديث إنما يتناول الشرطين المتضمنين لمفسدة شرعية، والله أعلم.

قوله: «والثالث ما لا ينعقد معه بيع، نحو: بعتك إن جئتني بكذا، أو رضي زيد أن يقول للمرتهن: إن جئتك بحقك في محله، وإلا فالرهن لك، لا يصح البيع» تقدم أن الصحيح أن تعليق العقود جائز، وهذا منها، وحديث إغلاق الرهن ــ إن صح ــ فإن معناه أن يتملكه المرتهن من دون إذن الراهن وشرطه، وهذا شرط إن جاءه بحقه، وإلا فهو له، والمؤمنون على شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

والصحيح: ثبوت خيار الشرط في الإجارة مطلقاً، وفي الصرف والسَّلم والضمان والكفالة، لعدم المحذور في ذلك، ومضيّ مدة بعض الإجارة في مدة الخيار لا يضر لتراضيهما على ذلك، فإن فسخ وجب من الأجر بحصّة المسَمَّىٰ. وكون الصرف والسلم يشترط لصحتها التقابض، لا يمنع من ثبوت الخيار،

فيحصل التقابض، ويصح السلم والصرف، إلا أنهما إذا بقيا ولم يفسخا، فقد حصل المقصود، وإن فسخاه رجع كل بما دفعه، ولم يكن في ذلك محذور شرعي، بل هذا داخل تحت قوله ﷺ:

(الْمُؤْمِنُون عَلَى شُرُوطِهِم).

وكذلك الكفالة ـ: إذا رضي المكفول له بكفالة من شرط له الخيار فيها، فالحق له، وقد رضي بتوثقه تحت الحظر ـ قد تلزم وقد لا تلزم، وباب التوثقات أوسع بكثير من باب المعاوضات، كما سيأتي إن شاء الله في الرهن.

الصحيح: أن خيار الشرط وثبوت الشفعة لا يبطل بالموت، سواء طالب به من ثبت له ذلك أم لا، فورثته ينوبون عنه في هذا، لأنه من حقوقه المالية، والتركة هي مخلفات الميت من الأعيان والحقوق، وهذا من الحقوق التي ثبوتها لمن بعده كثبوتها له، فأي شيءٍ يخرجها عن هذا الأصل؟ وهذا واضح ولله الحمد.

الصحيح في خيار العيب: أنه يخير من وجد بما اشتراه عيباً جهله بين إمساكه بلا أرش أو رده وأخذ ثمنه الذي دفع. وأما الأرش، فإن اختاره البائع ورضي المشتري بذلك فهو معاوضة تقف على تراضيهما وإلا فالقول بأن المشتري يجبر البائع على أنه يمسكه ويعطيه البائع أرش نقصه: قول ضعيف مخالف للمعاوضات، فإن البائع إنما رضي بإخراجه عن ملكه بالثمن الذي وقع عليه العقد، والأرش زيادة على ذلك، والتعليل الذي ذكره الأصحاب رحمهم الله في قولهم: «إن المتبايعين تراضيا على أن العوض في مقابلة المبيع، فكل جزءٍ منه يقابله جزءٌ من الثمن، ومع العيب فات جزءٌ من المبيع، فله الرجوع ببدله، وهو الأرش» كلام غير صحيح عند التأمّل، فإن الذي وقع عليه التراضي لم يفت منه جزءٌ من الأجزاء، وإنما اغتر المشتري فظنه سليماً، فإذا بان معيباً ثبت له خيار الرد، وأما الأرش فهو معاوضة لا إجبار فيها إلا إذا تعذر الرد، ففي هذه الحالة يتعين الأرش كسائر المتقومات.

والصحيح: أن البائع والمشتري إذا اختلفا: هل كان العيب متقدماً على

البيـع، أوحدث عند المشتري مـع الاحتمال: أن القول قول البائـع، فيحلف أنه باعه سليماً، أو أنه لا يعلم به عيباً، أو أنه إنما حدث عندك أيها المشتري، لقوله ﷺ:

(البَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ).

والمدعي في هذه الحالة هو المشتري، وأيضاً: الأصل السلامة في المعقود عليه، فمن ادعى خلاف الأصل فعليه الدليل.

قوله: «وإذا رده بعيب وقد كسره، رده، ورد أرش كسره» هذا ظاهر إن كان الكسر لجميعه أو أزيد مما يحصل به الاستعلام، فأما كسرها بمقدار ما يحصل به استعلامها، ففي وجوب ضمانه نظر ظاهر، فإن هذا الكسر لا بد منه في حصول الكشف عليها، وإذا كنا قد صححنا عدم لزوم الأرش في إمساك المعيب، كما سبق، فتصحيح ثبوت الخيار في البيـع: تـولية، وشركة، ومرابحة، ومواصفة، إذا بان خلاف ما أخبر به من باب أولى، وهو أصح من إلزام المشتري للبيـع والرجوع إلى الصواب الذي لم يدخلا عليه، والله أعلم.

والصحيـح: أن الاختلاف في عين المبيـع كالاختلاف في الثمن، إذا لم يكن بيِّنَة لأحدهما تحالفا وتفاسخا ولا فرق في الحقيقة بين الثمن والمثمن والعلة واحدة، ولا ترجيح لأحدهما في أحدهما دون الآخر، فتعين القول بتساويهما.

والصواب: أن البائـع يملك حبس المبيـع على ثمنه، ولا يجبر على تسليم المبيـع قبل قبض الثمن، لأنه لم يـرضَ بالبيـع إلا بهذه الحالة، ولو أجبر على تسليم المبيـع قبل قبض الثمن لحصل بذلك ضرر عظيم على الناس، ولتمكن الغادر من أخذ أموال الناس بهذه الطريق، وكذلك يملك حبس الشيء حتى يقبض أُجرته، لأن له فيه حقاً ثابتاً.

والصحيح: أن المفتاح داخل في بيع الدار بأبوابها، لأنه تابع للباب، وإن كان منفصلاً، وكذلك الطاحونة؛ إما أن تدخل كلها إذا لم تُسْتَثْنَ، وإما أن تخرج كلها إذا استثنيت، وأما القول بدخول التحتاني من الأحجار دون الفوقاني ففيه نظر ظاهر.

والصواب: أنه لا يجوز بيع الثمر قبل بدو صلاحه، ولا الزرع قبل اشتداد حبه لمالك الأرض والأصل، لأن الحديث عام والعلة عامة، وأما بيعه مع الأرض ومع الشجر، فإنه يدخل بالتبعية لوقوع العقد على الأمرين، بخلاف المسألة الأولى، فإن العقد واقع على نفس الثمرة وحدها، والزرع وحده.

والصحيح: أن الجائحة موضوعة عن المشتري في جميع الثمار لعموم العلة التي علل بها ﷺ في قوله:

(أرَأَيْتَ إنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمرةَ، بِمَ يَسْتَحِلُّ أَحَدُكمْ مَالَ أَخِيهِ؟).

والصحيح: أن التفاوت اليسير في السلم معفو عنه، كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه: كل سَلَم يتفاوت، فالبقول إذا أَسلم فيها وزنا، وكذلك الفواكه ونحوها، لا يضر التفاوت فيها، بل ربما كانت في التحرير مثل غيرها، وكذلك ضبط الجلود ونحوها بالمقدار، ممكن، لا غرر فيه، وكذلك الأواني ونحوها، وعلى هذا يذكر من صفات السلم ما يتفاوت فيه الثمن تفاوتاً ظاهراً بينا، لا شيئاً يسيراً، وإذا أسلم إلى الحصاد والْجذَاذِ ونحوهما مما يتقارب صح ذلك ـ على الصحيح ـ لأن التفاوت فيه يسير، وهو مقصود من أسلم في الزرع والثمر، ولو عين شهراً فإنَّ قصده حصول تلك الثمرة.

قوله: «ولا يصح شرط الأرْدَى أو الأجود»، هذا إذا لم يظهر من مرادهما، والعادة أن قصدهما من أجود ما يكون أو أردى ما يكون، فإن ظهر فهو جائز كما هو الواقع.

والصحيح: جواز السلم في المكيل وزناً، وفي الموزون كيلاً، لحصول العلم بذلك شرعاً وعرفاً، وعدم الغرر والجهالة الممنوعة شرعاً.

والصحيح: جواز الإسلام في بستانٍ ونحوه، لعدم الدليل على المنع، والغالب وجود المسلم فيه منه، فإن قدر عارض نادر قام غيره مقامه.

والصحيح: أنه إذا أسلم إلى أجلين فأكثر، لم يجب إلاَّ بيان مقدار ما يحل في كل أجل، ولا يلزم بيان قسطه من الثمن، لأن بيان مقدار المبيع ووقته هو المقصود.

والصحيح: جواز بيع المُسْلَمِ فيه لمن هو عليه، كسائر الديون، كذلك أخذ عوضه، والحوالة به، وعليه، كسائر الديون، وحديث:

«مَنْ أَسْلَمَ فِي شَيْءٍ فَلَا يَصْرِفْهُ إِلَى غَيْرِهِ»:

غير محتج به كما قاله المنذري، وعلى تقدير الاحتجاج به، فإنه يدل على أنه لا يجعل مال سلم آخر قبل قبضه، وهو ظاهر.

ويصح أيضاً أخذ الرهن والكفيل بالمسلم فيه، لعموم جواز ذلك في كل عقد، فيشمل ذلك عقد السلم، ولأن الحاجة للتوثقة في دَيْن السلم أبلغ من غيرها، فكيف يرخص في غيره ويمنع فيه؟

* * *

## باب القرض والرهن والضمان والكفالة وغيرها

الصحيح: أن المقرض إذا أجل القرض أنه يلزمه الوفاءُ بذلك، وأنه لا يملك المطالبة للمقترض قبل حلول أجله، لأن الله أمر بالوفاء بالعقود، وأمر بالوفاء بالوعد، وجعل النبي ﷺ إخلاف الوعد من صفات النفاق، وسائر الديون كالقرض: إذا أجّلها صاحبها برضاه تأجلت.

والصحيح: أن المقترض يرد مثل ما اقترضه، سواء كان مكيلًا أو موزوناً أو غيرهما، مما له شيءٌ يماثله أو يقاربه، لأن هذا هو مقتضى عقد القرض، ولأن مثله يحصل فيه المقصودان: مقصود القيمة، ومقصود حصول ذلك الشيء المقرض، ولأن النبي ﷺ ضمّن إحدى أمهات المؤمنين لما كسرت صحفة الأخرى بصحفة مثلها، وقال: (إناءٌ بإنَاء) ولأنه أمر عبد الله بن عمرو أن يستسلف على إبل الصدقة.

وجميع المتلفات حكمها كالقرض، ولأنه لو وجبت القيمة لكان العقد من أصله عقد معاوضة بيع بقيمته، وهو مخالف لموضوعه، فإن القرض عقد إرفاق.

قوله: «وإذا قال اقترضْ لي مائة ولك عشرة: صح لأنها في مقابلة ما بذله من جاهه» فيه نظر: فإن هذه الصورة داخلة في القرض الذي جر نفعاً، وهذا وسيلة قريبة إلى الربا المحض، كما هو ظاهر، ومن العجائب أنها أولى بالامتناع من قوله، ولو قال اضمني فيها ولك ذلك لم يجز، فما الفرق بين الأمرين؟

الصحيح: الذي لا ريب فيه: أن الرهن يجوز في كل عَيْنٍ وَدَيْنٍ ومنفعة، وأنه إذا رضي الراهن بشيءٍ من ذلك أن الحق له، فيلزم ما تراضيا عليه، لأنه

كما قد تكون التوثقة كثيرة جداً، وقد تكون أقل من دين الإنسان، وقد تكون كثيرة مقبوضة، وقد تكون يسيرة غير مقبوضة، وقد تكون أعياناً معينة، كما قد تكون ديوناً في الذمم، وقد يكون ديناً ثابتاً، وقد يكون ديناً يحتمل الثبوت وعدمه، وقد يكون منفعة وريعاً، فالصواب: جواز ذلك كله ولزومه بالتعاقد عليه وهذا هو الذي تدل عليه عمومات النصوص ومعانيها، ويحتاج الناس إليه، ولا دليل يدل على المنع في شيءٍ من ذلك، والغرر الذي لا يغتفر هو غرر المعاوضات. وأما التوثقات، فإنها زيادة على مجرد المعاملة، فيها مصلحة لمن له الحق، وإذا كان الحق له ورضي أن تكون توثقته ناقصة أو ديناً أو غير مقبوضة، فما الذي يمنع من ذلك؟ وعموم الأمر بالوفاء بالعقود والعهود يتناول هذا، وأيضاً فإنه لو جُوِّز للراهن أن يرهن غريمه الدين أو الرهن الذي لم يقبضه ثمَّ له أن يغدر به ويبيعه أو يرهنه غيره، فإن هذا غدر ولا تأتي به الشريعة، ولكن إذا أراد الغريم زيادة التوثقة بالقبض ورهن الأعيان، فهذا لا يلام على ذلك، ومن هنا تعلم حكمة قوله تعالى:

﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

فإن الله ذكر للعباد أعلى الحالات التي يتوثقون بها لحقوقهم، فذكر شاهدين رجلين، ثم نقلهم إلى رجل وامرأتين، ومن المعلوم قبول شهادة رجل وامرأتين ولو مع وجود رجلين، ولكن الرجلين آكد؛ بل وكذلك ثبت أنه ﷺ قضى في الحق بشاهد ويمين المدعي، فلا يقال: إن ظاهر الآية عدم قبول ذلك، فكذلك الرهن إذا لم يقبض لا يقال: إنه لا يثبت، بل يقال: إن الرهن المقبوض أزيد وثيقة لصاحب الحق، والرهن الذي لم يقبض لم تنفه الآية، وأثبتته الأدلة الأخرى، وهذا واضح، ويدل على ذلك أنهم جوزوا الرهن ما لا يجوز بيعه، كرهن الثمرة قبل بدوّ صلاحها والزرع قبل اشتداد حبه، والقن دون رحمه المحرم، فعلم أن من الرهن خفيف لا يضر فيه احتمال الغرر والجهالة، وعدم الحصول، ويدل على ذلك أنه بتقدير تلف الرهن أو عدم حصوله لا يسقط شيءٌ

من الحق، بل الحق باق لا يزول، وسر المسألة: أن الرهن أمر خارج عن المعاملة، لا تفتقر المعاملة إليه، بل هو من مصلحة صاحب الحق، وهذا بيِّن ولله الحمد.

والصواب: أن عتق الراهن للعين المرهونة لا يحل، ولا ينفذ سواء كان موسراً أو معسراً؛ لأنه تعلق به حق المرتهن تعلقاً منع صاحبه التصرف فيه قبل انفكاكه، ولأن تجويز عتقه فيه مفسدة عظيمة؛ لأنه لا تحصل الثقة والتوثقة برهن المماليك؛ لأنه قد يعتقه فيكون معسراً أو مماطلاً، فتضيع توثقته ويضيع حقه، ولأن العتق قربة إلى الله كالوقف، فكما لا ينفذ وقف المرهون فلا ينفذ عتقه، ولا يتقرب إلى الله إلا بالعبادات، لا يتقرب إليه بفعل المحرمات وإسقاط الحقوق الواجبة، وإذا كان صادقاً: قصده إعتاقه والتقرب به إلى الله فليؤد الحق الذي عليه، حتى تكون المسألة لا تبعة فيها فيعتقه بعد ذلك.

والصحيح جواز الزيادة في دَيْن الرهن، بأن يرهنه بمائة ثم يستدين منه مائة أخرى فيرهنه بالمائة الثانية كالأولى، فهذا لا محذور فيه، وقولهم في تعليل المنع «المشغول لا يشغل» إنما هو إذا رهنه عند زيد فلا يرهنه عند عمرو، وأما في الزيادة في دينه فلا بأس، وإنما هو زيادة استيثاق في الدين الأخير.

وتقدم أن الصحيح جواز قوله: «إن جئتك بحقك في محله وإلا فالرهن لك» والله أعلم.

والصحيح: أن قول المرتهن هو المقبول في مقدار الدين المرهون به، لأن الله تعالى جعل الرهن توثقة بالحق، فإذا كان الدين الثابت في الذمة ألفا، وقال صاحب الرهن المدين هو رهن بعشرة منها، وقال المرتهن: بل هو رهن بالألف كله، فإن قبلنا قول الراهن لم يحصل توثقة بالرهن بمجرده، وإن قبلنا قول المرتهن حصلت التوثقة بالحق، فكان قبول قول المرتهن هو الأَوْلى والأحسن، خصوصاً إذا ادعى الراهن ما لا يصدقه فيه العرف والعادة.

والصحيح: أن صاحب الحق لا يملك مطالبة الضامن حتى يعجز عن الاستيفاء من الغريم؛ لأن الضمان من التوثقات كالرهن؛ لا يباع إلا إذا تعذر الوفاء، ولأن العرف هكذا: يستقبح الناس طلب الضامن قبل تعذر الوفاء من الغريم، إلا إذا شرط وكان العرف أن الضامن يطالب بالحق، ولو لم يتعذر: فالمؤمنون على شروطهم.

والصحيح: في الحوالة أنها إذا اجتمعت شروطها وإن أوجبنا على صاحب الحق أن يستحيل فيها، فإن الحق لا ينتقل، بل إن حصل له الوفاءُ ممن أحيل عليه، وإلا رجع على صاحبه الذي عليه الدين، وإن قوله ﷺ

(مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ).

(وَإِذَا أُحِيلَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَحْتَلْ):

أن هذا أمر بإحسان الوفاء ممن عليه الحق، وأنه لا يحل له المطل إذا كان غنياً، بل يبادر بالأداء بإحسان، وأمر أيضاً بإحسان الاستيفاء، وأن صاحب الحق يحسن في أخذه للحق، ولا يعسر على غريمه، ومن إحسانه أنه إذا أحاله على من له عليه دين فلا يمتنع من الاستحالة إذا لم يكن عليه ضرر، فإنه إحسان منه بغريمه، وأما كون الحديث يدل على أن الغريم بمجرد حوالته لغريمه أنه يبرأ، ولو أفلس المحال عليه أو مطل أو تعذر الوفاءُ منه، فلا يدل على ذلك بوجه، والله أعلم.

* * *

## ومن أبواب الصلح والحجر وغيرهما

الصحيح: جواز الصلح عن المؤجل ببعضه حالاً، لأنه لا دليل على المنع، ولا محذور في هذا، بل في ذلك مصلحة للقاضي والمقتضي، فقد يحتاج من عليه الحق إلى الوفاءِ قبل حلوله، وقد يحتاج صاحب الحق إلى حقه لعذر من الأعذار، وفي تجويز هذا مصلحة ظاهرة، خصوصاً في الدَّيْن الذي على الميت: إذا مات ولم يمض من الأجل إلا شيء قليل، فإننا بين أمرين: إما أَن نقول: إن دَيْنَهُ يحل كله إذا لم يحصل توثقة لصاحب الحق، وفي هذا ظلم، لأن البيع المؤجل يجعل الثمن في مقابلة السلعة ومقابلةِ الأجل، فإذا باعه سلعة تساوي مائة، بمائة وعشرين مؤجلة ولم يمض من الأجل إلا بعضه، وقيل بحلول المائة والعشرين: كان هذا ظلماً منافياً للعدل، فكان من العدل الحسن أَن ينظر مقدار ما مضى من الأجل، ويجعل له حصته من الثمن مع الأصل، ويحصل بذلك براءَة ذمة الميت وحصول الحق لصاحبه من غير ظلم يدخل عليه ولا مال يأْخذه بغير حق.

والأمر الثاني أَن يعلق دَيْنَهُ إلى أَجله وحلوله، وقد يعتري التركة في هذه المدة خطر، وقد يحصل له توثقة بحقه برهن أَو كفيل، فهذا جائز، ولكن الحالة الأولى في الغالب أَرجح للطرفين.

وقد ورد أَن بني النضير لما أَراد النبي ﷺ أَن يجليهم من المدينة، ذكر له الناس أَن بينهم وبين الناس ديوناً، فأَمرهم أَن يضعوا ويتعجلوا.

وأَما قياس المانعين لهذه المسأَلة بمسأَلة قلب الدين بالربا فهذا القياس من أَبعد الأقيسة، وبين الأمرين من الفرق كما بين الظلم المحض والعدل الصريح.

والصحيح: صحة الصلح عن حق الشفعة وعن الخيار، لأن قوله ﷺ:

(الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحاً حَرَّمَ حَلَالاً أَوْ أَحَلَّ حَرَاماً).

يدخل فيه كل صلح لا محذور فيه، ولا يدخل في ربا، ولا يسقط واجباً، والصلح عن حق الشفعة والخيار كذلك.

وقولهم في تعليل المنع من الصلح عنهما: إنهما لم يشرعا لاستفادة مال، بل للأحظّ من الأمرين، فنعم كذلك، ولكن قد يرضى الإنسان بإسقاط حقه من الشفعة، أو بإسقاط خياره إذا بذل له مال، ولا يرضى بدون ذلك، ولم يشرعا في الأصل، إلَّا لأجل أن ينظر صاحبهما أي الأمرين أَحظ له من جهة المال، فإذا ترجح الإسقاط بالمال المبذول فيه، فهذا وافق للقواعد والأصول، ولا دليل ظاهر على المنع.

والصحيح: جواز إخراج الميازيب في الطرق العامة لأن هذا عمل المسلمين في كل عصرٍ ومصرٍ، وهذا من حقوق الطرق المشتركة.

والصحيح: أَن المفلس إذا لم يعلم غرماؤه بفلسه، ولم يحجروا عليه، وتصرف تصرفاً يضرهم، وأَعطى بعضهم وحرم آخرين، أَنه ليس له ذلك، لأن هذا ظلم محرم، فكيف ينفذ الظلم المحرم؟ ولأن حقوقهم كلهم تعلقت بماله، فكيف يخص بعضهم فيه؟

وأَما الحجر من الحاكم فإنه إظهار لهذه الحالة لا إيجاب شيءٍ لم يجب إلا بحجره، وأَيضاً فلو جوز له تنفيذ هذه الحال لحصل من ضرر المعاملات ما الله به عليم، وأَيضاً فالغالب على من يفعل هذا الفعل أَنه يغدر الناس، فيأْخذ من هذا ويعطي هذا من غير إعلام له بحاله، فكيف ينفذ الغدر البيِّن الظاهر؟ هذا لا يكون.

والصحيح: أَن الوكالة لا تنفسخ إلا بعد علم الوكيل بعزله، وأَن تصرفه قبل علمه نافذ صحيح، لأن العزل منعه مع إعلامه، ولأنه هو الذي

غرّ الناس بمعاملته وتضمينه في هذه الحالة قبل علمه من أبعد الأشياءِ عن الأصول والقواعد الشرعية.

والصحيح: أَن الوكيل إِذا باع بأَقل مما قدّره له موكله أنه لا ينفذ تصرفه إِلا بالإجازة، لأن الإِذن إِنما حصل على هذه الصفة، كما أَن الصحيح أَن الوكيل إِذا باع أَو اشترى بأكثر من ثمن المثل أو بأَقل من ثمن المثل مع احتياطه واجتهاده لموكله أنه غير ضامن، لأن الإِذن حاصل، ولم يحصل منه عدوان، وإِنما حصل منه اغترار مترتب على الإِذن، فلا يكون ذلك من ضمانه.

والصواب: أَن قبض الوكيل للثمن أَو للمثمن يرجع فيه إِلى العرف والعادة، فيعمل على ذلك، والله أَعلم.

والصحيح: جواز توكيله في كل قليل وكثير، أَو في شراءِ ما شاءَ، أَو عيناً بما شاءَ، لعدم الدليل على المنع، وقولهم: «لأنه يكثر فيه الغرر والضرر»، جوابه أَنه اختار الوكيل اختياراً مطلقاً، وفوض إِليه جميع التصرفات التي فيها معاوضة، وأَنابه مناب نفسه، فهو كما لو عدد أَنواع التصرفات، لأنه رضي بهذه الحالة واطمأَن إِلى اختيار وكيله، ولا يفعل ذلك إِلا لكمال ثقته به، فلا مانع من هذا ولا محذور فيه، بل قد يكون في ذلك مصلحة كبيرة.

قوله: [وإِن قال: «أَقبض حقي من زيد»؛ لم يملك طلبه من وارثه]. هذا فيه نظر وتفصيل، فإِن تبين من مراده أَنه وكله على استحصال حقه، بقطع النظر عمن يقبض منه، فلا شك أَنه يملك قبضه من وارثه كما يملك قبضه من وكيل زيد، وإِن صرح أَن قصده أَنه يقبض من زيد فقط، وأَنه لا يرغب قبضه من وارثه، فهذا لا يملكه إِلا بإِذن ظاهر، ولكن الظاهر أَن مراد الموكلين هو المعنى الأول، وأَنه مطابق لقوله: أَقبض حقي الذي قِبَله.

# ومن أبواب الشركة والمضاربة والمساقاة

## والمزارعة والإجارة والجعالة ونحوهما

قوله: «فإن كان بدونه لم يصح» مراده أَنه لا يلزم، لا أَن ذلك غير جائز، فإن وعده بذلك الربح المقابل لما له فلا بأْس به.

والصواب: أَن الشركة والمضاربة تصح، ولو كان رأْس المال غير النقدين المضروبين؛ فإنه لا مانع من ذلك، والحاجة داعية إلى هذا، وكما أَن غير النقدين يصح أَن يكون ثمناً في البيع ونحوه، وأُجرة في الإجارة ونحوها، فيصح أَن يكون رأْس مال الشركة والمضاربة، مع أَن المشاركات أَوسع من المعاوضات، والتعليل بأَنهما قيم المتلفات وأَثمان البياعات، هذا في الغالب، وإلا فقد تكون العروض قيماً للمتلفات، وأَثماناً للبياعات، فعلى هذا القول الصحيح تقوّم وقت العقد بأَحد النقدين، ويرجع إلى هذا التقويم عند المحاسبة.

الصحيح: أَنهما إذا اختلفا: لمن الجزءُ المشروط في المضاربة والمساقاة والمزارعة؟ أَن القول قول من يشهد له العرف، لأنه من أَقوى البينات.

الصحيح: أَن المساقاة والمزارعة عقدان لازمان لدخولهما في الأمر بالوفاءِ بالعقود والعهود، ولكون المقصود منهما الكسب والعوض، وليسا من عقود التبرعات أَو من عقود الوكالات حتى يفسح لأحدهما في فسخها.

قوله: «ولا يشترط كون البذر والغراس من رب الأرض، وعليه عمل الناس»، هذا هو الصواب كما استدل له في شرحه رحمه الله.

والصحيـح: جواز إجارة الحيوان ليأْخذ لبنه، لأن الله أَباح ذلك وأَجازه في الظئير، والحيوان بمعنى ذلك، ولا مانـع من كون المنفعة أَعياناً تستخلف شيئاً فشيئاً، ويكون حالها حال المنافـع، فلا دليل على المنـع، ولا يخالف ذلك قاعدة شرعية.

الصحيـح: الرجوع إلى العرف فيما على المؤجر والمستأْجر، والعرف أَصل كبير، يرجـع إليه في كثير من الشروط والحقوق التي لم تتقدر شرعاً ولا لفظاً.

والصحيـح: أَن الإجارة تنفسـخ بكل أَمر يتعذر فيه استيفاءُ المنفعة من موت الراكب ونحوه، ولا فرق بين مسائله في الحقيقة.

والصحيـح: أَن الأجير إذا عمل لغيره عملاً بصناعة أَو حمل شيءٍ، ثم تلف ذلك المصنوع أَو المحمول بغير تفريط وتَعَدٍّ من الأجير: أَن له من الأجر بقدر عمله، ولو لم يسلمه إلى ربه، لأن الأجرة مستحقة بالعمل لا بالتسليم، وبقاءُ الشيءِ المؤجر عليه، وإذا كان لا يضمنه فما الذي يسقط أُجرته؟ وليس من العدل أَن يحمل لغيره أَحمالاً ثقيلة من بلاد بعيدة حتى إذا قارب وصولها أَخذها قطاع الطريق أَو سرقت ونحو ذلك أَن يضيـع عمل الأجير، ويخيب ويتلف تعبه وتعب بهائمه مـع تلف مال المؤجر، هذا لا تأتي به الشريعة أَصلاً، وهو قبيـح في فِطَر الناس. وما رآه المُؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأَوه قبيحاً كان عند الله قبيحاً. وهذا واضـح لا إشكال فيه بوجه، ولله الحمد.

ومسأَلة الأَرش في المعيب لا فرق فيه بين الإجارة والبيـع.

والصحيـح: أَن الأجير غير ضامن سواء كان خاصاً أَو مشتركاً، لأنه من الأمناءِ الذين لا يضمنون إلا بالتعدي أَو التفريط، ويحمل ما ورد عن عَليٍّ في تضمينهم: إذا كان تعد أَو تفريط، وإلا فليسوا غاصبين حتى يرتب عليهم الضمان، وأَيضاً فالضمان مرتب على اليد والتصرف، فإذا كانت اليد يداً عادية رتب عليها الضمان، وإذا كان التصرف ممنوعاً رتب عليه الضمان، والأجير يده غير عادية وتصرفه غير ممنوع، بل مأْمور به من جهة المؤجر.

الصحيح: جواز المسابقة على الخيل والإبل والسهام بعوض، ولو كان المتسابقان كل منهما مخرجاً للعوض، وأَنه لا يشترط محلل لأنه ﷺ رخص في المسابقة، وأَخذ السبق في هذه الثلاثة، ولم يشترط المحلل، ولو كان شرطاً لشرطه، وتعليلهم بقولهم في اشتراط المحلل لأجل أَن يخرج عن شبه القمار تعليل فيه نظر، فإنه لا يشترط أَن تخرج عن القمار، بل هو قمار جائز، فالقمار كله ممنوع محرم شرعاً، إلا هذه الثلاثة لرجحان مصلحتها وإعانتها على الجهاد في سبيل الله، والحديث الذي فيه ذكر المحلل ضعّفه كثير من الأئمة، ولم يَرَوا الاحتجاج به.

والصحيح: أَنه لا يشترط اتحاد المركوبين في النوع، ولا القوسين في النوع، لأن الإذن في السبق بها يتناول ما كان من نوع واحد، وما اختلفت أَنواعه، بل الذي يلزم تعيينه الراكب، لاختلاف المقصود باختلاف الراكبين.

الصحيح: أَن العارية المؤجلة تلزم إلى ذلك الأجل، خصوصاً إذا أَذن في مشغله بشيءٍ يستضر المستعير إذا رجع فيه، فلا رجوع له ولا أُجرة.

والصواب: أَن العارية لا تضمن إلا بالشرط، لدخولها في جملة الأمانات، ولأن أَسباب الضمان إما تعدٍّ وإما تقصير عن الواجب، وإما تصرف لم يؤذن له فيه، وهذا مفقود في العارية، ولأن القاعدة: أَن ما ترتب على المأْذون، فإنه غير مضمون. وأَما قول النبي ﷺ لصفوان بن أمية. (بَلْ عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ).

ليس معناه أَنها تُضمن إذا أُتلفت، وإنما معناه أَن على المستعير أَداءَها كقوله: «على اليد ما أَخذت حتى تؤديه».

الصحيح: أَن مؤنة الدابة المستعارة على من استعارها، وهذا هو العرف الجاري، ويستقبح الناس أَن يحسن إليه بإعارة دابة يستعملها أَو يركبها ويعلفها، ثم يرجع على صاحبها بالعلف.

* * *

## ومن باب الغصب وغيره

أَما إِذا انتقل المغصوب من حالة إِلى أُخرى، كما إِذا أَبعده، أَو بنى عليه، أَو نجر الخشب باباً، أَو جعل الحديد أَوَانِيَ، فإِنه ظاهر أَنه بات على ملك المغصوب منه، وأَما إِذا استحال بالكلية بأَن كانت البيضة فرخاً أَو النوى غرساً، أَو الحب زرعاً، ونحو ذلك فإِن كونه باقياً على ملك صاحبه لا يظهر، بل الظاهر أَن هذا من نوع الإِتلاف، فيضمن الغاصب مثل المغصوب إِن أَمكن وإِلا فالقيمة.

والصواب: أَن الغاصب يضمن نقص المغصوب بأَي حالة كان، حتى ولو كان النقص بالسعر فإِن نقص السعر وغيره على حد سواء، فإِن السعر صفة خارجية للعين فتشبه الصفة الداخلية، وأَيضاً فلا ينبغي أَن يعان الظالم على ظلمه بأَن يغصب شيئاً يساوي مائة فتنقص قيمته الكساد فتصير قيمته خمسين، وكان صاحبه بصدد أَن يبيعه بالمائة، فيقال: لا يلزم الغاصب شيءٌ من هذا النقص: هذا غير صحيح.

قولهم: «والأيدي المترتبة على الغاصب كلها أَيدي ضمان، وأَن المغصوب منه له مطالبة من شاءَ من الغاصب أَو من انتقل إِليه المغصوب إِطلاقه» فيه نظر، فإِنه إِن أُريد أَنه يأْخذ عين ماله الموجود عند من وجده عنده، سواء كان الغاصب أَو من انتقلت إِليه، فهذا صحيح، وإِن أُريد أَنه إِذا تلف تحت يد من انتقل إِليه بشراءٍ أَو هبة أَو وديعة أَو نحوها أَنه يضمن العين، والمنافع لربها، وهو لا يدري بأَنه مغصوب، فإِنه غير صحيح، بل الصواب أَنه لا يضمن من لا يعلم أَنه مغصوب، سواء كان مشترياً أَو متَّهباً أَو مودعاً أَو انتقلت إِليه أُجرة أَو صداقاً، أَو عوض خلع أَو عارية أَو غيرها، لأنه غير متعد ولا ظالم، فكيف

يضمن المغرور المخدوع الذي فعل ما له فعله شرعاً؟ نعم: الغاصب من الغاصب، والعالم بأنه مغصوب هذا الذي عليه الضمان.

والصحيح: ثبوت الشفعة في ملك من عقار لم تقسم حدوده وتطرق طرقه، وأن الشريكين إذا اشتركا في بئر أو طريق أو نحوه من حقوق الملك، أنه تثبت فيه الشفعة، وهذا القول هو الذي تجتمع فيه الأدلة.

والصحيح: أن حق الشفعة كغيره من الحقوق، لا يسقط إلا بما يدل على الرضا بإسقاطه، لأن الشارع أثبته لدفع الضرر عن الشريك في العقار، فلا يسقط ما أثبته الشارع إلا بما يدل على إسقاطه من قول أو فعل دال على الرضا بالإسقاط، وأي فرق بينه وبين سائر الحقوق. . . وأما الأحاديث التي استدل بها أصحابنا رحمهم الله كالحديث الذي فيه (الشُّفعة كحل العقال)، والآخر (الشفعة لمن واثبها)، فلا يثبت بها حكم، لأنها لم تثبت عن النبي ﷺ، فلا ينبغي الاحتجاج بها، خصوصاً لهدم حكم أثبته الشارع، وقد لا يبادر من له حق الشفعة لينظر في أمره ويتروى، فمعاجلته في هذه الحال مخالفة لما أثبته الشارع له من الرفق، والله أعلم.

قوله: ولا شفعة بشركة وقف، وقيل تثبت الشفعة بذلك، فيأخذه المستحقون للوقف أو لأنفسهم، فإن كان أصلح للوقف ولم يحصل بذلك عليه ولا على المستحقين ضرر، أخذه الولي للوقف، وإن لم يكن أصلح وأحبَّ المستحقون لريع الوقف أخذه على ملكهم، فلهم ذلك، وهذا القول أولى، وحاجة أهل الوقف إلى دفع الضرر عنهم أشد من حاجة غيرهم، لأن غيرهم يتمكن من نقل الملك لغيره، وهؤلاءِ لا يتمكنون، فكيف تثبت الشفعة لغيرهم ولا تثبت لهم؟ ولأن الوقف يدخل في العموم اللفظي والمعنوي، فما الذي يخرجه؟. والتعليل بكونه لا يؤخذ بالشفعة، وأن مستحقه غير تامّ الملك لا يضر ولا يفرق التفريق المؤثر.

وتقدم أَن الصحيح أَن الشفعة لا تسقط بموت من له أَخذها وأَن ورثته يقومون فيها مقامه.

قوله: «فإن قال المشتري اشتريته بأَلف، أَخذه الشفيع به، ولو أَثبت البائع أن البيع بأَكثر من أَلف مؤاخذ وللمشتري بإقراره، فإن قال: غلطت، أَو كذبت، أَو نسيت، لم يقبل، لأنه رجوع عن إقراره» فيه نظر ظاهر، فإن هذا الإقرار تبين أَنه غلط بالبينة العادلة، وإنما الذي لا يقبل رجوعه عن إقراره بحق الغير إذا كان الحق ليس فيه إلا مجرد الإقرار.

قوله: «وإن حدث خوف أَو سفر رد الوديعة إلى ربها» هذا إذا لم يدل الدليل على إبقائها عنده، فيتبع العرف في ذلك وقرائن الأحوال.

قوله: «وإن أَخذ درهماً من غير محرزه، ثم رده، فضاع الكل ضمنه وحده، وإن رد بدله غير متميز: ضمن الجميع» لا يبين الفرق بين الصورتين ولا يظهر إيجاب الضمان عليه في الجميع، بل الظاهر أَنه لا يضمن إلا ما حصل فيه التعدي، وهو الدرهم وحده، سواء رده متميزاً أَم لا.

والصحيح: أَن فسخ الجعالة إذا كان من الجاعل كان العامل حصته من المسمى لا من أُجرة المثل، لأنه يوجد من العمال من لا يعمل إلا إذا كان المسمى أَكثر من أُجرة المثل، فدخل على هذا وصار شرطاً شرطه له الجاعل، فإن أَتمه استحقه كله، وإلا استحق قسط المسمى، سواء وافق أُجرة المثل أَو أَقل أَو أَكثر.

* * *

## ومن كتاب الوقف والهبة

اشتراط الفقهاءِ رحمهم الله أَن الوقف لا بد أَن يكون على جهة برٍّ وقرْبة، يدل على أَن الوقف على بعض الورثة دون بعض يحرم ولا ينفذ، وهو الصواب، وهو خلاف قول بعضهم في الوصية: «إنه إذا وقف ثلث ماله على بعض ورثته أَنه نافذ جائز» وهذا من باب الأغلاط المحضة، التي لا وجه لها، لأنها مخالفة للشرع من كل وجه، وإذا كان الوقف شرطه القربة باتفاق الفقهاءِ، فالوقف ممن عليه ديون يضرُّ بها غير نافذ، ولو كان لم يحجر عليه، خصوصاً إذا ظهر من قرائن أَحواله أَن قصده بوقفها تحجيرها عن غرمائه، فهذا النوع لا يمكن أَحداً من الفقهاءِ المعتبرين أَن يجيزه وينفذه، لكونه ظلماً متكرراً وغدراً ظاهراً.

قوله: فلا يصح على مجهول كرجل ومسجد، ولا على أَحد هذين، ولا على عبد ومبعض: فيه نظر، فإنه لا مانع من ذلك، فإنه إذا علم أَن قصده رجل من رجال المسلمين، أَو مسجد من مساجدهم، فإنه صحيح يصرفه الناظر إلى من يراه أَصلح من الرجال والمساجد، وكذلك الوقف على الأرقاءِ شبيه بمسأَلة الهبة لهم، والرقيق يهدى له ويتصدق عليه، ويكون ذلك أَيضاً إعانة لسيده عليه.

فالصواب: صحة الوقف المذكور وهو الموافق للأصول الشرعية. قولهم في مصرف الوقف المنقطع: «إنه يرجع إلى أَقارب المُوقِفِ الوارثين بقدر إرثهم»، والرواية الأخرى: «إنه يصرف على الفقراءِ المساكين فإن كان في أَقاربه من هو كذلك، كانوا أَحق من غيرهم، وهذا هو الذي يغلب على مقاصد المُوقِفِين للأوقاف الشرعية.

واعلم أَن كلام الفقهاءِ رحمهم الله في مسائل الوقف على الأولاد، وأَحد الورثة، من قولهم يقدم كذا، أَو يقدم كذا، وإِنما ذلك كلام مطلق راجـع إِلى معاني أَلفاظ الواقفين، ولكنه محمول على المقيد في الشرع، وفي كلام الفقهاءِ، من أَنه لا يحل لأحد أَن يوقِفَ وقفاً يتضمن المحرم والظلم، بأَن يكون وقفه مشتملاً على تخصيص أَحد الورثة دون الآخرين، أَو على حرمان من لهم الحق، وهذا القيد يتعين، لأن الله أَمر بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن الظلم، وأَمر بالعدل، فكل ما خالف هذا فإِنه مردود على صاحبه، غير نافذ التصرف، فإِن العبد ليس له أَن يتصرف في ماله بمقتضى شهوته النفسية وهواه، بل عليه أَن لا يخالف الشرع، ولا يخرج عن العدل، وإِن فعل ذلك كان ذلك باطلاً بمقتضى قوله ﷺ:

(مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ).

ومن هنا تعرف معنى قولهم: وإِن وجدت قرينة تقتضي إِرادة الإِناث أَو حرمانهن عمل بها.

وكذلك معنى قولهم: إِنَّ وقف الثلث على بعض الورثة صحيـح، وغير ذلك، مما هو ملحوظ فيه مجرد اللفظ.

والصـواب: أَنه يغتفـر في أَبواب التبـرعات مـا لا يغتفـر في أَبـواب المعاوضات، لوجود الفرق بين الأمرين، فعلى هذا يصـح هبة المجهول، سواء تعذر علمه أَو لم يتعذر، لأنه بذل ذلك لا في مقابلة عوض على ما هو عليه، فلا مانـع من صحته ونفوذه.

قولهم في إِبراءِ مدينه من دَيْنِه، ونحو مما هو في الذمة: «إِنه يسقط ولو لم يرض من عليه الحق وتعليلهم بأَنه إِسقاط، فيسقط سواء رضي أَو كره، وأَنه لا يغتفر إِلى القبول» فيه نظر ظاهر؛ فإِن الإِنسان لا يجبر أَن يكون تحت منة غيره، ولا فرق في هذا الباب بين هبة الأعيان وهبة الأوصاف والديون.

والصحيح: أن تصرف الأب في مال ولده الذي يصح تملكه له صحيح، لأنه متضمن للتملك، وقولهم في تعليل المنع «إن ملك الابن عليه تام، ولو كان للغير، أومشتركاً لم يجز» تعليل غير صحيح ينافيه قوله ﷺ: (أَنْتَ وَمَالُكَ لأبيكَ) فإنه كما أنه له أَن يتملكه، فله أَن ينوي تملكه ويتصرف فيه، وهو لا يتصرف فيه بالنيابة عن الولد، وإنما يتصرف فيه بحسب أنه ملك له، وليس للشارع غرض في قول الأب تملكته ثم يقبضه ثم يتصرف فيه، وإنما المراد أَن الأب في مال الولد حكمه حكم ولده، يأْخذ ويبيع ويؤجّر ويفعل كل ما لا يضر الولد.

قوله: «فإن وَصَّى لحي وميت يعلم موته، فالكل للحي».

الصحيح: القول الآخر: إن الحي له النصف فقط كجهل موته لأنه: كيف يتملك شيئاً أَو يكون له شيءٌ لم يملك إياه؟

قوله: «وتصح الوصية بكلب صيد، وزيت متنجس، وله ثلثهما ولو كثر المال إن لم تجز الورثة» هذا غير صحيح.

فالصواب: أَن له الكلب كله، والزيت المتنجس كله، إلا إن كان قد أَوصى بثلث ماله، ثم أَوصى بهذه زيادة على الثلث فإنه يفتقر إلى إجازة بقية الورثة، وكيف لا يكون له جميع ذلك، وهو صاحب أَموال عظيمة، ولم يوص بغير الكلب المذكور، والزيت، وتعليلهم ذلك بأَنه «لا بد من سلامة ثلثي التركة للورثة وليس من التركة شيءٌ من جنس الموصى به»: غير ظاهر، فإنه ناقص عن الأموال التي تتمول، فكيف يصحح الوصية بالمال الكثير المتمول ولا يصحح الوصية بالمال الناقص الذي لا يتمول حتى يكون له مقابل من جنسه؟ وهذا واضح، ولله الحمد.

* * *

# ومن كتاب الفرائض

والصواب: أَن الجد لأب، وإن علا، يحجب الإخوة مطلقاً، لأن الله سماه أَباً، ولأنه قائم بالإنفاق مقام الأب في غير ما استثناءٍ، ولأن بني الإخوة بالاتفاق لا يرثون مع الجد الأعلى، ولأن الله تعالى ورّث الإخوة في الكلالة، وهي: من لا ولد له ولا والد والوالد يشمل الأب والجد، فليس للإخوة ميراث معهم، ولأن المورثين للإخوة مع الجد ليس معهم في ذلك دليل، وهم مختلفون في كيفية إرثهم اختلافاً كثيراً، ومسائلهم معه غير منضبطة على القواعد الشرعية، فدل ذلك على ضعف القول بتوريث الإخوة مع الجد، والله أَعلم.

والصحيح: أَن الإخوة المحجوبين لا يحجبون الأم عن الثلث، لأن قوله تعالى:

﴿فإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

المراد بهم الوارثون، فكما لا يدخل فيهم المحجوب بوصف، لا يدخل المحجوب بشخص، ولأن قاعدة الفرائض: أَن من لا يرث لا يحجب، لا حرماناً ولا نقصاناً، ولأن الحكمة في تنقيصهم للأم، لأجل أَن يتوفر عليهم، فإذا لم يكونوا وارثين لم يكونوا حاجبين، والله أَعلم.

والصحيح: أَن كل جَدة أَدلت بجَد وارث، أَنَّها ترث، ولا ينافي ذلك الحديث الذي رواه النخعي أَنه ﷺ وَرَّث ثلاث جدات، واحدة من قبل الأم، واثنتين من قبل الأب، لأن هذا إِخبار بالصورة الواقعة، ولا فرق بين أُم الجد وأُم جد الأب، وما فوقها لاستواءِ الجميع بالإدلاءِ بالوارث.

والصحيـح: أَنه يرد على الزوجين كغيرهما من أَهل الفروض لعدم الدليل البيِّـن على أَن الرد مخصوص بغير الزوجين، أَما قوله تعالى:

﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦]

فَإنه كما لا يدل على أَنهم الوارثون بالفرض دون الزوجين، فلا يدل على أَنهم المخصوصون بالرد، ويدل على ذلك أَن العَوْل الذي هو ضد الرد يتناول جميـع أَهل الفروض [الزوجين وغيرهم] وحالة الرد نظير حالة العَوْل، وأَيضاً المعنى في العَوْل والرد معنى واحد، فالعول إذا تزاحمت الفروض، ولم يمكن أَن يكمل لكل واحد فرضـه، فإن المسـائل تعـول، وتنقص الفروض بمقـدار الحصص، والرد إِذا قلت الفروض وبقي بقية لا وارث لها إِلا أَهل الفروض، بأَن لم يكن عصبة، فإنها ترد عليهم بقدر فروضهم، وهذا واضـح، ولله الحمد.

والصحيـح أَن المفقود يُنْتظر حتى يَغْلِبَ على الظن أنه غير موجود، وأَنه لا يحدد بتسعين سنة ولا غيرها، لعدم الدليل على التحديد، ولأن القاعدة الشرعية أَنه متى تعذر الوصول إلى اليقين رجـع إلى غلبة الظن في كل مسائل الدِّيْن، ولأن التحديد كما أَنه غير منقول، فإنه غير معقول، فإنه ـ على القول به ـ إذا فقد من ظاهر غيبته السلامة، وكان له عشرون سنة انتظر سبعين سنة، فإن كان له تسـع وثمانون سنة انتظر سنة واحدة، وهذا ظاهر الفساد، ولكن تحد المسأَلة كنظائرها بأَن يجتهد الحاكم وأَهل الخبرة في تقدير مدة للانتظار.

ويختلف ذلك باختلاف الأوقات والبلدان والأشخاص؛ هذا الذي تطمئن إليه النفس والقلب.

والصحيـح: أَنه إذا مات متوارثان، وجهل السابق منهما بالموت أَنهما لا يتوارثان، سواء حصل اختلاف بين ورثة كل منهما أَم لا، لأن شرط الإرث تحقق حياة الوارث بعد موت مورثه، أَو إلحاقه بالأحياءِ، كالمفقود، وهنا هذا الشرط مفقود، يوضحه أَن الله تعالى ذكر في المواريث أَنَّ الحي له كذا وكذا مما ترك الميت، وهذه الصورة لا تدخل تحت ذلك، ولأن الأَصل عدم استحقاق

الإنسان لمال غيره حتى يعلم السبب الذي استحق به، والآثار في هذا الباب عن الصحابة رضي الله عنهم مختلفة، فوجب الرجوع إلى الأصول الشرعية، والألفاظ القرآنية.

والصحيح: أن المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، ولو ظهر ذلك منه: أنه يتوارث هو وقرابته المسلمون، كما كان المنافقون في زمن النبي ﷺ، تجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، ويتوارثون مع قراباتهم المسلمين، ولأن الحكم إنما هو في الدنيا على الظواهر، وأما أحكام الآخرة فإنها على البواطن.

* * *

# ومن باب النكاح وتوابعه

الصحيح: أنه إذا علم أَن غيره قد خطب لا يحل له أَن يخطب حتى يأْذن الخاطب أَو يرد، وأَما إِذا جهل الحال، أَو استأْذنه فسكت فإِنه لا يجوز له الخطبة في هذه الحال، لأن النبي ﷺ نهى أَن يخطب الرجل على خطبة أَخيه حتى ينكح أَو يترك، والنهي يدخل فيه إِذا جهل الحال، وإِذا استأْذنه فسكت لأن السكوت ليس بترك.

وقد تقدم أَن الصحيح: صحة العقود بكل لفظ دل عليها: سواء كانت بيعاً أَو إِجارة أَو هبة أَو نكاحاً أَو رجعة أَو غير ذلك، فعلى هذا ينعقد النكاح بكل قول دل عليه، وفهمه المتعاقدان ولم يلتبس عليهما، وسواء كان بلفظ العربية أَو غيرها للقادر على العربية، وغير القادر كما تقدم الدليل على ذلك.

والصحيح: أَن الأب ليس له إِجبار ابنته البالغة العاقلة على نكاح من لا ترضاه، لقوله ﷺ:

(لَا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، ولَا تُنْكَحُ البِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذن).

الحديث متفق عليه، وهذا عام للأب، وغيره.

(وَعَن ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ جاريَةً بِكْراً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فذكَرَتْ أَن أَبَاها زوَّجَها وَهِيَ كارهةٌ، فخيَّرَها النَّبيُّ ﷺ). أَخرجه أَحمد وأَبو داود وابن ماجه.

وهذا هو الاعتبار، فإِن الأب إِذا كان لا يجبرها على بيع شيءٍ من مالها، فكيف يجبرها على بَضْعِها الذي ضرر كراهتها أَعظم وأَضر من المال بكثير؟

والصواب المقطوع به: أَن العدالة ليست شرطاً في الولي فيزوج الولي

الفاسق موليته، كما هو المعمول به في سائر الأوقات، ولم يشترط الشارع العدالة في ولاية النكاح.

وأَما قولهم لأنها ولاية نظرية فلا يستبد بها الفاسق، فإِنما ذلك في ولايات الأموال ونحوها، مما تدخله المطامع والتهم، وأَما ولي النكاح فقل أَن يوجد من لا يختار لموليته أَصلح ما يقدر عليه، ولو كان من أَفسق الناس، وأَيضاً ولاية النكاح بمنزلة باقي التصرفات التي تنعقد من العدل والفاسق، والله أَعلم.

والصحيح: أَن كون الزوج والزوجة عفيفاً عن الزنا وعفيفة عنه شرط في صحة النكاح، فلا يصح إِنكاح المعروف بالزنا حتى يتوب كما لا يصح نكاح الزانية حتى تتوب، كما قال تعالى:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: الآية ٣]

وكما قال تعالى بعد ما أَحل المحصَنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم، فقال:

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾

[سورة المائدة: الآية ٥]

ولأن الزنا من أَحد الزوجين يفسد الفراش ويذهب مقصود النكاح، ويحصل فيه من المفاسد والمضارّ ما يوجِب اشتراط العفة، والله أَعلم.

والصواب: أَن تحريم المصاهرة لا يثبت إِلا بالنكاح، لا بالزنا والسفاح، لأنه لا يدخل في لفظه ولا معناه، ولا يمكن قياسه عليه بوجه.

والصحيح: أَنه لا يسقط خيار المعتقة تحت عبد إِلا بإِسقاطها أَو بتمكينها مع العلم، لأنه حق لها ثابت لا يسقطه إِلا الرضى بإِسقاطه، ومع تمكينها مع الجهل: ليس برضى.

قولهم: «ولا يثبت الفسخ بغير العيوب المذكورة، كخرس وطرش وقطع

يد أَو رجل أَو عضو» فيه نظر ظاهر، بل الصحيـح ما قاله صاحب الهدى: إِن النكاح يفسـخ بجميـع العيوب كسائر العقود، ولأن الأصل السلامة، فكأَن عدم هذه مشروط في العقد، والله أَعلم.

والذي يقتضيه الدليل: أَنه إِذا أَسلم أَحد الزوجين، وتأَخر إِسـلام الآخر، فإِن أَسلم المتخلف في العدة، فهما على نكاحهما، وإِن انقضت العدة جاز للزوجة أَن تتزوج، فإِن لم تتزوج، وأَسلم الزوج بعد ذلك، وأَرادها واختارته ردت إِليه بغير نكاح.

قوله: وإِن تزوجها على أَلْفٍ لها وأَلْف لأبيها صحت التسمية، فلو طلق قبل الدخول وبعد القبض رجـع عليها بالألف دون أَبيها، وكذا إِذا شرط الكل له وقبضه الأب، ثم طلق قبل الدخول رجـع عليها بقدر نصفه: الصحيـح الوجه الثاني: وهو أَنه يرجـع بالصداق أَو نصفه على من قبضه، سواء كان الأب أَو الزوجة.

والصحيـح: أَن الذي بيده عقدة النكاح، هو الأب الذي له التملك من مال ولده والعفو عنه، وهو ظاهر الآية، فإِن الخطاب للأزواج بقوله:

﴿وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

أَي لهن، أَو فأَعطوهن نصف ما فرضتم، إِلا أَن يحصل أَحد الأمرين: إِما عفوها، أَو عفو وليها الذي بيده عُقْدة النكاح، فإِذا حصل أَحدهما فلا يجب عليكم أَيها الأزواج شيءٌ، ولأن العطف يدل على هذا المعنى، ولأنه لو أَراد أَن الذي بيده عقدة النكاح الزوج لقال: إِلا أَن يعفـون أَو تعفوا عن جميـع ما فرضتم، أَو نحو ذلك، كما هو ظاهر واضـح، ولله الحمد.

والصحيـح: أَنه لا يصـح تفويض البُضْـعِ بأَن يزوجه بشرط عدم المهر،

وأَن المهر شرط في النكاح، لا يخلو النكاح منه، إن كان مسمًّى وجب المسمى، وإِن كان مسكوتاً عنه وجب مهر المثل.

وإِن كان مشروطاً نفيه فالنكاح باطل، كما دل على ذلك الآيات والأحاديث الكثيرة المتنوعة، ولو كان لأحد رخصة أَن يتزوج من دون مهر لَأسقطه ﷺ عن الرجل الذي قال له:

(الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَماً مِنْ حَدِيد).

فلم يجد فزوجه على ما معه من القرآن.

والصواب: أَن الوطءَ المحرَّم ـ كالزنا ـ لا يوجب المهر ولا يجب به عوض، وإِنما يضمن ما ترتب عليه من الإتلاف، لأنه ﷺ نهى عن البَغِيّ، ولأنه مال في مقابلة محرم، فلم يكن حلالاً، بل هو سُحْت محرم.

قولهم: «أَو سلمت نفسها تبرعاً فليس لها منع نفسها حتى تقبض صداقها الحالّ» فيه نظر ظاهر، بل الصواب أَن لها منع نفسها حتى تقبض الصداق الحالّ، سواء امتنعت أَو لا، أَو سلمت نفسها، على أَنه سَيُقبضها ثم امتنع من إِقباضها كسائر العقود التي فيها عوض، ولا فرق ـ في الحقيقة ـ بين النكاح وغيره، بل النكاح أَقوى من سائر العقود في وجوب المال فيه والشروط.

وقولهم في تعليل ما قالوا: «لرضاها بالتسليم» تعليل غير وجيه، فإِنها لم ترض بالتسليم مطلقاً، وإِنما رضيت بحسب ما سيُقْبضها صداقها، فلما لم يُقْبِضْها كان لها الامتناع، والله أَعلم.

والصواب: أَنه تجب معاشرة كل من الزوجين للآخر بالمعروف، وأَن الطبخ والخبز وخدمة الدار ونحو ذلك واجب عليها مع جريان العادة بذلك، لإن هذا هو المعاشرة المعروفة التي كأَنها مشروطة في العقد، وكذلك الوطءُ وغيره يجب بالمعروف، ولا يتقدر ذلك بثلث سنة ولا غيرها، وكما أَن الطعام والكسوة

والمسكن يرجع فيه إلى العرف، فكذلك الخدمة والوطءُ وغيرهما الجميع داخل في قوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وقوله ﷺ:

(وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ).

قوله «ويكره الوطءُ بمرأى أَحد أَو مسمعه، والتحدث بما جرى بينهما».

والصحيح: أَن ذلك يحرم، للنهي الشديد في ذلك، ولما يترتب عليه من المفاسد.

والصحيح: أَن الخلع لا يحسب من الطلاق، ولو كان بلفظ الطلاق ونيته، لأن الله تعالى جعل الافتداءَ غير الطلاق، وذلك عام، سواءٌ كان بلفظه الخاص أَو بلفظ آخر، ولأن العبرة بالمقصود والمعاني، لا بالألفاظ والمباني.

والصواب: أَن للأب خلع ابنته بشيءٍ من مالها إذا رأَى في ذلك مصلحة لها، لَأن في الأب من الشفقة ــ وله من الحق وجواز التملك والأخذ من مال ولده ــ ما يوجب أَن يكون له الحق الأكبر في ذلك وفي غيره.

والصحيح: أَن السكران ــ ولو بمحرم ــ لا يقع طلاقه، كما لا تقع عقوده، فعباداته لاغية، وعقوده لاغية، كذلك إقراره ــ على الصحيح ــ وطلاقه، ولأن الشارع لم يعاقبه على المسكر بغير الحد، ولأن القول بوقوع الطلاق يوجب عقوبة من لم يذهب، وهي الزوجة، ولأن شرط الطلاق قصده، والسكران لا قصد له.

ورجح الشيخ تقي الدين بن تيمية: أَن الطلاق لا يقع إلا واحدة بجميع أَلفاظ الطلاق، ولو صرح بلفظ الثلاث، أَو البينونة، أَو البتة، أَو غيرها، وأَنه لا تقع الثانية إلَّا بعد رجعة صحيحة، ونصر هذا القول بوجوه كثيرة جداً، من وقف على كلامه فيها لم يسعه مخالفة هذا القول، لقوته ورجحانه

وكثرة أَدلته وضعف ما قابله، وكذلك رجح رحمه الله تعالى، أَن يمين الطلاق كسائر الأَيْمان تدخلها الكفارة، ولا تكون بمنزلة الطلاق المعلق تعليقاً محضاً، وذكر الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، والاعتبار على هذا القول، وأَنه داخل في عموم الأيمان التي جعل الله لها تَحِلَّةً، وأَطال الكلام في ذلك جداً، وأَنه القول الموافق للأصول الشرعية والمعاني الفقهية، والألفاظ النبوية، والله تعالى أَعلم.

والصحيح: أَنه إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أَوجاهلاً لم يحنث، لا في طلاق ولا عتاق ولا غيرهما، لأن الله تعالى رفع المؤاخذة عن الناسي والمخطىءِ من دون استثناءٍ، ولأنه لا فرق بين اليمين بالله والحلف بالطلاق والعتاق وغيرهما، لأن المغلب في ذلك حق الله تعالى.

والصحيح: أَن الرجعة لا تحصل بمجرد الوطءِ حتى ينويه رجعة، لأن الرجعة حقيقتها ترجيع زوجته المطلقة إلى ما كانت عليه قبل ذلك، وهذا لا يحصل بمجرد الوطءِ.

والصحيح: أَن الإيلاءَ ينعقد باليمين بالله وبالطلاق والعتق وغير ذلك، مما يعد حلفاً، لعموم قوله تعالى:

﴿لِلَّذينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٦]

والصحيح: أَن المرأَة إِذا ظاهرت من زوجها ليس عليها في الحنث إِلا كفارة يمين، لأن الله تعالى جعل الظهار وكفارته صادرة من الرجل على المرأَة، وأَما العكس فكما لا يسمى ظهاراً فليس فيه كفارته الخاصة، ولا يصح قياس المرأَة في هذا الموضع على الرجل؛ لوجود الفوارق الكثيرة بينها وبينه.

قوله في الكفارة: «وإِن غَدَّى المساكينَ أَوعشاهم لم يُجْزِهِ لعدم تمليكهم» فيه نظر، بل الصحيح أَن ذلك يجزيه، وأَنه داخل في قوله تعالى:

﴿فكفارته إِطْعَامُ عَشَرَةُ مَسَاكِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٩]

وفي قوله:

﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ [سورة المجادلة: الآية ٤]

وهذا هو الإطعام الذي يعرفه العرب، وأَما تمليكهم الطعام، فنهاية الأمر أَنه ملحق به. والله أَعلم.

قوله: «وإن علمت ما رفعه من مرض أَو رضاع أَو نحوهما، فلا تزال في عدة حتى يعود، فتعتد به أَو تبلـغ سن الإياس، فتعتد عدة آيسة» هذا فيه نظر، فإنه إذا غلب على الظن أنه يعود، كما إذا ارتفـع عن المرضـع مدة الرضاع، فإنه يغلب على الظن أَنه يعود بعد الرضاع، فهذه تنتظر حتى يعود، وأَما إذا لم يظن عوده فإنها تعتد سنة كاملة، تسعة أَشهر احتياطاً عن الحمل، وثلاثة للعدة.

والقول بأنها تنتظر حتى تبلـغ سن الإياس: ضرر عظيم عليها، لا تأتي به الشريعة.

والصحيـح: أن الموطوءة بشبهة، والزانية، ونحوهن لا تعتد بعدة زواج، بل تستبرىء استبراءَ الإماءِ بحيضة بعدم دخولهن في نصوص عدة الزوجات، ولعدم صحة قياس السفاح على النكاح، ولأن للزواج عدة معان في حكمة العدة، بخلاف الموطوءة وطئاً محرماً، فإنه ليس القصد إلَّا معرفة براءة رحمها، وذلك حاصل بحيضة واحدة.

والصحيـح: أنه لا يجوز للمرأة الحادة لبس الأبيض الحسن، كالإبريسم ونحوه، وقول المجوِّزين إن حسنه من أصل الخلقة فرق غير مؤثر، فالتأثير إنما هو الفرق بين اللباس الذي يدعو إليها ويرغب فيها، وبين ما ليس كذلك من لباس المهنة، وأما الألوان فلا عبرة بها.

والصحيـح: أن الرضعة لا تسمى رضعة بمجرد إطلاق الراضـع للثدي، أو انتقاله إلى ثدي آخر، بل لا بد من رضعة كاملة، لأن هذا هو المتبادر شرعاً ولغةً وعرفاً.

* * *

# ومن كتاب النفقات وغيرها

والصحيح: أنها لا تسقط نفقة الزوجة عن زوجها إلا بنشوزها، ومعصيتها إياه، وأما حبسها وسفرها الواجب أو المباح بإذنه فلا يسقط نفقتها، لأن الأصل وجوبها ولا مسقط لها، وليست في مقابلة الاستمتاع فقط، فإنها تجب للمريضة ولو لم يمكن استمتاعه بها، وكذلك النُّفَسَاءُ ونحوها.

وإذا اختلف الزوج والزوجة في النفقة، فالصحيح أن القول قول الزوج إذا شهد له العرف والعادة بذلك، لأنه وإن كان الأصل وجوب النفقة عليه، فإنه يعارض هذا أصول أُخر وظواهر كثيرة، فإن الأصل أن نفقتها إنما كانت من زوجها، والظاهر الذي يقارب الجزم في كثير من ذلك يصدّق قوله.

والصحيح: أنه يملك إجبار زوجته على رضاع ولدها بلا أُجرة ما دامت في حباله، لأن هذا هو العرف، فيجب الرجوع إليه، ولأن الله تعالى لم يوجب على الزوج لزوجته التي ترضع ولده غير النفقة والكسوة، والله أعلم.

والصحيح في مسألة الحضانة: أن الترتيب الذي ذكره الأصحاب فيها، وإن اعتبرناه، فإنما ذلك إذا لم تتحقق مصلحة الطفل بغيره، فإن تحققت، وكان المؤخر أصلح له، أو المقدم أضر عليه، كان الواجب اتباع مصلحة الطفل، ويدل على هذا أن هذا الباب كله مقصوده القيام بمصالح المحضون، ودفع مضاره، فمع الاشتباه يقدم من كان مظنة حصول ذلك، ومع التحقق يرجع إلى الأصل المذكور.

والصحيح: وجوب النفقة لكل زوجة غير ناشز ــ حتى الصغيرة والمسافرة لحاجتها بإذنه ونحوهما ــ لأن الأصل وجوب النفقة لكل زوجة، كما

تجب بقية أحكام الزوجية، ولا نسلم أن النفقة علتها إمكان التمكين فقط، بل العلة الأصيلة كونها زوجة غير ناشز، ويؤيد هذا وجوب النفقة على الزوج الصغير، وللزوجة المريضة، والحائض. والمحرّمة، ونحوهن، مع أن التمكين من الوطءِ غير ممكن حسًّا أو شرعاً والله أعلم.

وهذا أحد القولين في مذهب الإمام أحمد والشافعي رضي الله عنهما.

والصحيح: أن للزوجة منع نفسها من زوجها لقبض صداقها، سواء مكنت قبل ذلك أم لا، وسواء كان حالاً أو مؤجلاً وحل، والزوج موسر به، لأن هذا هو الأصل الثابت في جميع العقود، والمعاوضات: أن أحد المتعاوضين إذا منع العوض فللآخر منع المعوض، كالبيع والإجارة ونحوهما، ولأن التعليل بقولهم: لوجود التمكين الذي هو استيفاءٌ للمعقود عليه، فإنه لم يستوف إلا ما مضى، وأما ما يستقبل فإنه إلى الآن لم يستوفه، وأما رضاها، فإنها لم ترض ببقاءِ المهر في ذمة الزوج، وإنما سلّمت نفسها إحساناً للظن بزوجها أنه لا يمنعها، فإذا ظهر خلاف ما ظنت ملكت الامتناع حتى تقبض الصداق، والله أعلم.

والصحيح [الرواية الأخرى عن أحمد] أن المرأة لا تملك الفسخ لعسرة زوجها، إلا إذا وُجد منه غرور لها، لأن الله يقول:

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاه اللهُ، لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

فلم يجعل لزوجة المعسر الفسخ، وأيضاً لم يثبت عن النبي ﷺ جواز الفسخ لإعساره. والله أعلم.

واختار شيخ الإسلام: وجوب النفقة للأقارب، ولو كان وارثاً لهم برحم، لأن الله أطلق في قوله:

﴿وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٣]

مع أنَّ الحاجة للنفقة في الغالب أشد من الحاجة إلى الإرث. والله أعلم.

ولم يتحرر لي في الحضانة ــ في تقديم بعض النساء على بعض ــ ضابط تطمئن إليه النفس، إلا أنه يراعى مصلحة المحضون، وأنَّ من تحققت فيه، فهو أولى من غيره وإن كان أبعد ممن لا يقوم بالواجب. وهذا مراد الأصحاب بقولهم: «ولا يُقَرُّ المحضون بيد من لا يصونه ويصلحه، لأن كل ولاية إنما يستحقها من كان أعظم قياماً بالمقصود منها».

وكذلك: الصحيح ما رجحه ابن القيم في الهدى: أن الرقيق، والفاسق، وكذلك المزوجة ــ خصوصاً إذا رضي زوجها ــ لهم الحضانة وأنه لا يسقط حقهم منها، لعدم الدليل المسقط لحقهم، ولتمام مصلحة المحضون، ولوجود هذه الأمور في الصدر الأول، وأنه لم ينقل أن أُمّاً عزلت عن حضانة أولادها لرقها أو فسقها.

* * *

# ومن كتاب الجنايات

الصحيح: أن الضابط الذي ذكره أصحابنا في قتل العمد العدوان: أنه القتل بما يغلب على الظن موته به، أنه مطرد على عمومه لا يستثنى منه شيءٌ، حتى ولو غرزه بإبرة أو شوكة في غير مقتل، وخرج دم كان من شبه العمد، لعدم الدليل على إخراج هذه الصورة من العموم، ولمشاركتها لسائر أنواع شبه العمد.

والصحيح [الرواية الأخرى عن الإمام أحمد] أنه كما يجب القصاص على شريك الأب، وشريك الحر في قتل القنِّ وشريك المسلم في قتل الكافر، فكذلك يجب على شريك المخطىء والمقتص وغير المكلف والسَّبُعِ لوجود القتل العمد العدوان، ولعدم المسقط.

والصحيح [الرواية الأخرى عن الإمام أحمد، التي اختارها شيخ الإسلام]: أنه يفعل بالجاني كما فعل، كما رَضَّ النبي ﷺ رأس اليهودي الذي رضَّ رأس الجارية بين حجرين، فكما أجاز الله أن يعاقب الجاني بمثل ما عاقب به، وفيه من تمام الردع ما هو من حكمة الشارع.

قوله: «إلا أن يكون الجرح أعظم من الموضحة، فله أن يقتصّ موضحة، وله أرش الزائد»، هذا قول ابن حامد، وقول أبي بكر: إنه يخير بين أن يقتص موضحة ولا يأخذ أرشاً زائداً، أو يأخذ الدية أقرب إلى الصواب، لأنهم قد ذكروا أنه إذا قطع الأشل طرف الصحيح فله أن يأخذ الدية أو يقتص بلا أرش، وإذا قطع الجاني من منكبه وخيف الجائفة، فله أن يقتص من المرفق بلا شيء، والظاهر أنه لا فرق بين الأمرين، والله أعلم.

قوله [في باب الديات]: أو بالت دابته في الطريق ويده عليها لزمته

ديته، وقال: «في المغني، والشرح، وصاحب الفروع»: وقياس المذهب: لا يضمنه، وصوّبه في [الإنصاف]، وهذا هو الظاهر، لأنه لم يتعد بذلك، والطريق المشترك له فيها حق، ولم تزل دواب المسلمين تبول في أسواقهم وطرقهم ولا يعدون ذلك تعدِّيًا، والله أعلم.

والصحيح [الرواية الأخرى عن الإمام أحمد] أن الأصل في الديات الإبل، والباقيات أبدال عنها، ويدل على ذلك أمور:

منها: رفع عمر دية الفضة في زمانه لما رخصت، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

ومنها: أن التغليظ والتخفيف خاص في الإبل.

ومنها: أن ديات الأعضاء، والشجاج، والغرة، كل ذلك مقدر بالإبل، فلو كان غيرها أصلاً لثبتت فيه هذه الأشياء، والله أعلم.

وعن أحمد [في قطع أعضاء العبد أو جِراحه ما نقص من قيمته مطلقاً]، اختارها الموفق، والشارح، والشيخ تقي الدين وغيرهم، وهي الصحيحة، لأنه لا نص في إلحاقه بالحرّ، بالنسبة إلى القيمة، ولأن ديته في نفسه قيمته، فكذلك ما دون النفس، ولأنه من جملة الأموال التي يعتاض عنها، وتضمن بالإتلاف فوجبت القيمة في النفس، وما نقص منها فيما دونها، والله أعلم.

وعنه: لا كفارة على قاتل نفسه مطلقاً، ورجحه المرفق، لأن سياق آية الكفَّارة: في قتل غيره، ولقوله تعالى:

﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ﴾. [سورة النساء: الآية ٩٢]

ولا تجب عليه الدية في قتل نفسه، ولقصة عامر بن الأكوع حين رجع إليه ذباب سيفه فقتله، ولم يأمر فيه بكفارة.

* * *

## ومن كتاب الحدود وغيرها

الصحيح: أن الحد يؤخر للمرض الذي يرجى برؤه، وكذلك للحر والبرد الذي يخاف منه التلف، لتأخير النبي ﷺ الحد عن النُّفَسَاء بعد الولادة، ولأن المقصود التأديب، لا إتلافه، وقد أمكن أن يحد بأسواط معتادة، يحصل بها النكاية له ولغيره.

والصحيح: أنها تحد إذا حملت مَن لا زوج لها ولا سيد، إذا لم تدع شبهة [أي وتدل القرينة على ذلك] وهو إحدى الروايتين، اختارها شيخ الإسلام رحمه الله، كما دلت عليه خطبة عمر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وفي عدم حد من وطىء ميتة نظر، فإنَّ وَطْأها أشنع من وطء الحية شرعاً وعقلاً وطبعاً، حتى روي عن الإمام أحمد: أنه يحد حدين، وذلك لتناهي قبحه وشناعته وفحشه.

وعن أحمد: لا يشترط أن يأتي الشهود الأربعة في الزنا في مجلس واحد، بل لو جاءوا في مجالس لم تردّ شهادتهم، كالإقرار، وكذلك لو شهد اثنان أنه وطئها في بيت أو يوم، وآخران أنه وطئها في يوم آخر، أو بيت آخر، لأنه لا دليل على اشتراط المذكورات، والشهادة المذكورة لا يناقض بعضها بعضاً، ولا تعارض فيها، بل في الأخيرتين لم يزد الأمر إلا شدة.

والصحيح: أن حد القذف لله تعالى فلا يسقط بعفو المقذوف لعموم الآية الكريمة، وهي:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾. [سورة النور: الآية ٤]

ولعموم المصلحة في إقامته.

واختار شيخ الإسلام في حد الخمر: أن ما زاد على الأربعين ليس بواجب على الإطلاق، ولا ممنوع على الإطلاق، بل يكون راجعاً للمصلحة، وعلى هذا القول تدل قضايا الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: «ويحرم العصير إذا أتت عليه ثلاثة أيام، ولو لم يسكر» [هذا من مفردات المذهب] وقول الجمهور أصح، وهو أنه لا يحرم حتى يغلى، ولكنه يكره إذا مضت عليه ثلاثة أيام على وجه الاحتياط، كما كان النبي ﷺ يطعمه الخادم ونحوه.

والصحيح: جواز حد التعزير على عشر جلدات، بحسب المصلحة والزجر، والمراد بقوله ﷺ:

(لَا يُجْلَدُ أَحَدٌ فَوْقَ عَشْرِ جَلْدَاتٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ):

أن الحد المراد به المعصية، وأن الذي لا يزيد على ذلك تأديب الصغير، والزوجة، والخادم، ونحوهم في غير معصية.

والصحيح: أنه يقطع بسرقة العبد الكبير، كما هو أحد الوجهين في المذهب، للعمومات، وعدم المخصص، وعدم ما يدل على سقوط القطع.

والصحيح أيضاً: أنه يقطع بسرقة الحر الصغير إذا كان عليه حلي أو غيره يبلغ نصاباً، للعموم، ولعدم المسقط.

وقولهم: «إنه تابع لا يدل على السقوط» بل قال بعض الأصحاب: إنه يقطع بسرقة الحر الصغير، ولو لم يكن عليه حلي، وما ذلك ببعيد.

قولهم: «إذا دخل الحرز فذبح فيه شاة، وقيمتها نصاب فنقصت بذبحه، ثم أخرجها فلا قطع عليه» فيه نظر ظاهر.

ومن العجيب قول صاحب الإنصاف: «بلا نزاع أعلمه» والله أعلم.

قولهم: إذا ادعى السارق أن المسروق ملكه، أو أذن له فيه لم يقطع،

وعنه «أنه يقطع بحلف المسروق منه» وهو الصواب بلا ريب، ولا يخفى ما يتضمنه القول الأول من فتح باب الشر، ومناقضته للردع والزجر.

والصحيح: القول الذي جرى عليه صاحب المختصر في إضعاف القيمة على كل من سرق من غير حرز، ولا فرق بين صوره.

وقولهم: «ثبت في الأربعة على خلاف القياس»: غير مسلَّم، بل هو مقتضى القاعدة الشرعية، وهي: أنه من سقطت عنه العقوبة لمانع أضعف عليه العزم، كما في نظائره، والله أعلم.

وكذلك: الصحيح ما جرى عليه في المختصر: أن قطاع الطريق إذا جنوا بما يوجب قوداً في الطرف تحتم استيفاؤه، لأنه إذا تحتم في النفس ففيما دونها من باب أولى، ولأن المصلحة في استيفائه عامة، والمضرة بعدم الاستيفاء عامة، وهذه خاصة ما يتعين إقامته، والعلل العامة لا يراعى فيها إفراد المسائل النادرة كما هو معلوم.

قوله: «لا يلزمه حفظ ما له عن الضياع والهلاك» فيه نظر ظاهر، بل الصواب لزوم ذلك، لنهيه ﷺ عن إضاعة المال، ولأن إضاعته سرف وتفريط خصوصاً إذا كان له عائلة أو عليه دَيْن يستضر بترك حفظه، فهذا لا يمكن القول إلا بلزوم حفظه وتعينه، لأن: ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب.

* * *

## ومن باب الصيد والذبائح

الصواب التسوية بين النسيان والجهل في ترك التسمية على الذبائح والصيد، لعدم الفارق، ولأن الشارع سوّى بينهما في ترك المؤاخذة.

قولهم: «وإن رمى صيداً فوقع في ماء ومات لم يحل»، الصواب التفصيل، وأنه إذا جرحه جرحاً غير موح، فوقع في ماء كثير يعين على قتله لم يحل، لاشتراك السبب المبيح والحاضر، وإن كان الجرح موحياً أو الماء لا يقتل مثله: حل، لأنه انفرد السبب المبيح وحده في زهوق النفس، والماء لا أثر له، وتعليلهم يدل على هذا التفصيل.

والصحيح: أن الذكاة تُحِلُّ ما أبينت حشوته أو قطع حلقومه إذا ذُكِّي وفيه حياة مستقرة، لقوله تعالى:

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ ــ إلى قوله ــ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

[سورة المائدة: الآية ٣]

وهذا قيد لهذه الخمسة، وهذه الصورة داخلة في العموم.

وأما قولهم: «إن وجود هذه الحياة كعدمها»، فهو معارَض بالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة إذا وصلت إلى حال يعلم أنها لا تبقى بعده، فإنها تحل، حتى على المشهور من المذهب، وكذلك المريضة، ولا فرق بين المذكورات في الحقيقة.

قولهم: «وإن سمى على سكين فألقاها وذبح بغيرها حل بتلك التسمية، لا إن سمى على سهم فألقاه ورمى بغيره، فلا يحل» هذا فيه نظر، والصحيح: استواء الصورتين في الحكم، وأنه إذا سمى على المذبوح والصيد كفاه ذلك ولو

أخذ سكيناً أخرى أو سهماً آخر، لأن المقصود التسمية على الذكاة والصيد، وقد حصل. وأما تعليلهم بالفرق بين الصورتين، أنه في السهم لمَّا كان يجزيه إذا رمى صيداً فأصاب غيره احتيج على التسمية على السهم ـ فهذا غير مفيد، لأن الصيد أوسع من الذبح في آلته ومحله وغير ذلك مما وسع فيه، فكيف تضيق فيه هذه الصورة؟ والله أعلم.

* * *

## ومن باب الأيمان والنذور

قولهم: «ومن لزمته أَيْمان موجبها واحد قبل التكفير، فعليه كفَّارة واحدة ولـو على أفعـال، كقولـه: والله لا أكلت والله لا شربت، والله لا أخـذت ولا أعطيت» هذا إحدى الروايتين.

والصحيـح: أن عليه كفارات بعدد الأفعال المتنوعة للعمومات الدالة على أن كل فعل محلوف عليه ففيه كفارة، وظاهر العموم يقتضي أن ذلك قبل التكفير وبعده، وكما لو ظاهر من زوجاته بكلمات متعددة.

والصحيـح [في جميـع الكفارات] أنه يكفي إطعام المساكين ولا يلزم تمليكهم، كما هو ظاهر الكتاب والسنة. والقول الجامـع في جـامـع الأَيْمان: الرجوع إلى نية الحالف، ثم إلى سبب اليمين الذي هيجها، ثم إلى ما كان أقرب إلى مقصد الحالف ونيته من: تعيـين، أو لغة الشـارع؛ أو العرف، أو اللغة، وذلك بحر لا ساحل له؛ لأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات، والأماكن واللغات، والله أعلم.

والرواية الأخرى عن أحمد: أن النذر لا ينعقد في مباح ولا محرم، فلا يوجب كفارة، وفاقاً لجمهور العلماء، أقوى من المشهور من المذهب، لعدم الدليل الدال على انعقادها، والحديث الصحيـح:

(مَنْ نَذَرَ أنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِهِ):

ليس فيه الأمر بالكفارة، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، والنذر المباح أشبه بلغو اليمين.

* * *

# ومن كتاب القضاء والشهادات

## وغير ذلك

قوله: «فإن لم يجعل له شيء وقال للخصمين: لا أقضي بينكما إلا بجعل، جاز» والصواب: أنه لا يجوز، لأن فيه فتح باب شر كبير من وجوه متعددة.

قوله في المجتهد في مذهب إمامه: «يحكم، ولو اعتقد خلافه» قول في غاية الضعف، وهو مبني على قول ضعيف جداً، وهو لزوم التمذهب بأحد المذاهب الأربعة، ووجوب الأخذ بالمقدم من ذلك المذهب عند أئمتهم، وهذا قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل الأدلة تدل على بطلانه، وهي مبسوطة في محالِّها من كتب أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن كان متبعاً لإمام فخالفه في بعض المسائل لقوة الدليل، أو يكون أحدهما أعلم أو أتقى، فقد أحسن، ولم يقدح في عدالته بلا نزاع.

قال: وفي هذه الحال يجوز عند أئمة الإسلام، بل يجب، وإن أحمد قد نص عليه.

وقال أيضاً في التمذهب بأحد المذاهب والأخذ برخصه وعزائمه: فيه طاعة غير الرسول في كل أمره ونهيه، وهو خلاف الإجماع، وتوقف في جوازه.

قال الشيخ تقي الدين: في مسألة تحرير الدعوى: وفروعها ضعيفة لحديث الحضرمي.

قوله: «ولا ترد اليمين على المدعي» والصحيح أن الحاكم إذا رأى ردها على المدعي فله ذلك، خصوصاً إذا كان المدعي منفرداً بعلم ذلكَ.

قوله في القسمة: «ومن ادعى غلطاً فيما تقاسماه بأنفسهما وأشهدا على رضاهما به لم يلتفت إليه» يعني ولو ببينة.

والصحيح: أنه تقبل البينة في الغلط، كما اختاره الموفق، وتعليلهم برضاهما غير مسلم؛ فإنهما لم يرضيا إلَّا على حسب التساوي والتعديل، فإذا تبين خلاف ذلك ثبت للآخر رد القسمة.

قوله في الشهادة: «لا تقبل شهادة عَمُودي النسب بعضهم لبعض، والعدو على عدوه، لأنهم مظنة التهمة»: الراجح في هذا قول من قال من أهل العلم: إنهم إذا تحققت عدالتهم ظاهراً وباطناً لم ترد شهادتهم بهذه الأسباب، لأن العلم اليقيني بأنهم مقبولو الشهادة لا يعارضه الظن الذي هو التهمة، بل هو ظن ضعيف في مثل حالهم، وإن كانت لم تتحقق عدالتهم ظاهراً وباطناً، بل ظاهرهم فقط العدالة، ووجود بعض الأسباب المذكورة قوّي قول من رد شهادتهم، والناس في هذا درجات متفاوتة.

ورجح كثير من السلف أن شهادة المرأتين يقوم مقام شهادة الرجل في كل شيء، حتى في القصاص، والنكاح، والطلاق، والنسب، والحدود [وهو رواية عن أحمد في بعضها]، وهذا القول هو الذي يقتضيه الدليل والتعليل.

أما الدليل، فلأن الله أقام المرأتين مقام الرجل، وجعل شهادتهما عن شهادته في الأموال ونحوها، وقوله ﷺ:

«أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ؟»:

ولا فرق بينها وبين غيرها.

وأما التعليل، فلأن مبنى الشهادة على الحفظ والضبط والصدق، وهذا

المعنى موجود في النساء كما هو موجود في الرجال، وما يقدّر من نقصهن مجبور بمضاعفة العدد، خصوصاً إذا كثرن وصرن معروفات بالصدق والحفظ.

وهذا كلما تأمله الإنسان تبين له رجحانه، والله أعلم.

وتقدم أن الصحيح في السكران: أنه لا يصح طلاقه، ولا إقراره، ولا غير ذلك من تصرفاته، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

تم بحمد الله في ثالث صفر سنة ١٣٥٥ هـ وقد صار على غاية ما يمكن من الاختصار، لكونه أشير فيه إلى مآخذ القول المنصور: إشارة لطيفة يحصل بها للفطن الوصول إلى المقصود.

والحمد لله رب العالمين.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه في أحواله كلها عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي: غفر الله له ولوالديه ومشايخه وجميع المسلمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

# المناظرات الفقهية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله: نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليماً.

أما بعد:

فإن العلم أفضل الأعمال، وأكمل الأحوال، وبه تتم الأمور وتدرك المطالب، والعلم هو: ما دل عليه الدليل، والنافع منه ما هو منقول عن الرسول، والعلم لا يدرك بمجرد الأماني، ولا بالكسل أو السعي الضعيف، ولا يدرك بسلوك غير طرقه وأبوابه، وإنما يدرك العلم بالجد والاجتهاد في تقرير المسائل وتصويرها، وتحريرها وبمعرفة أدلته ومآخذه وأصوله التي يُرْجع إليها، وبالمقابلة بين الأقوال المتباينة، والمسائل المتعارضة، فإن الحق عليه أدلة وبراهين، وشواهد يتميز بها عن ضده.

* وبضدّها تتبين الأشياءُ *

واعلم أنَّ من أجلِّ العلوم وأفرضها وأعظمها نفعاً: علم الفقه الذي

هو معرفة الأحكام الشرعية الفروعية بأدلتها التفصيلية؛ لأنه مأخوذ عن كتاب الله وسنة رسول الله: نصاً، أو ظاهراً، أو استنباطاً، أو تنبيهاً، أو قياساً، أو اعتباراً، وهو نوعان:

نوع مجمع عليه، وهو جمهور علم الفقه. ولله الحمد.

ونوع وقع فيه الخلاف بين أهل العلم لاختلاف مآخذهم وتباين استنباطاتهم، وإن كانوا ــ ولله الحمد ــ قصدهم جميعاً واحداً، وهو ترجيح ما رجحه الكتاب والسنة، وبهذا صاروا كلهم مأْجورين على اجتهاداتهم، فالمصيب له أجران، والمخطىءُ له أجر واحد، وخطؤه معفو عنه.

ولإصابة الصواب أسباب، منها: حسن الفهم عن الله وعن رسوله، ونور الفهم والذكاء، وقوة الإخلاص والاستعانة بالله في الوصول إلى الصواب، وعدم التعصب لما يقوله، أو يقوله من يعظمه، وسرعة الرجوع إلى الحق عند اتضاح الصواب، والمقابلة بين الأقوال المتعارضة، واستيعاب ما أمكن من أدلة كل قول، ومأْخذه ووزن الأدلة والمأْخذ بالموازين العادلة وأُصول الفقه المتفق عليها.

لهذا أحببت أن أضع في هذا التعليق عدة مسائل من مسائل الفقه المختلف فيها بين العلماء، مما اشتهر به الخلاف، وكان الخلاف فيها له أهمية، وأجعلها على صورة مناظرة بين: المستعين بالله، والمتوكل على الله، لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة.

منها: تيسير مأخذ القولين ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقربات العلم.

ومنها: التمرن على المناظرة والمباحثة، التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ومنها: التمرن على الاستدلال، والرجوع إلى أُصول المسائل ليصير للعبد ملكة تامة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ومنها: أن يعود الإنسان نفسه سرعة قبول الحق إذا اتضح له صوابه وبان له رجحانه.

ومنها: أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم: لا يوجب القدح والعيب والذم، بل كما قال بعضهم: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، بخلاف حال الجاهل ضيق الفطَن، الذي يرى أن من خالفه أو خالف من يعظمه قد فعل إثماً عظيماً، وهو معذور، بل ربما كان الصواب معه؛ فهذه حالة لا يرتضيها أحد من أهل العلم، ونسأل الله العافية منها ومن كل ما لا يحبه الله ورسوله.

عبد الرحمن الناصر السعدي

* * *

## المثال الأول

### محاورة في أحكام المياه وانقسامها

قال المتوكل على الله: المياه باعتبار ما تنوع إليه شرعاً، ثلاثة أقسام:

أحدها: طهور بنفسه مطهر لغيره، وهو الذي لم يتغير بشيءٍ طاهر ولا بشيء نجس، أو تغير بمقره أو بممره بشيءٍ طاهر، وهذا النوع هو المختص برفـع الأحداث وإزالة الأخباث من الأبدان والثياب وغيرها.

الثاني: طاهر في نفسه، غير مطهر لغيره، لأسباب، إما أن يكون مرفوعاً به حدث أكبر أو أصغر، وهو يسير، وذلك لأنه استعمل في عبادة على وجه الإتلاف، فلم يستعمل فيها ثانياً، قياساً على الكفارات، وإما أن ينتقلَ الماءُ عن اسمه المطلق إلى التقييد فيتغير بشيءٍ من الطاهرات تغيراً كثيراً، بحيث يقال فيه ماء زعفران، أو ماء حبر، أو نحوها من التقييدات، فهذا وجه أنه طاهر، لكونه لا يدخل في لفظ الماءِ المطلق الذي أمر الشارع بالتطهر به واستعماله، فحيث انتقل عن الاسم المطلق: انتقل عنه الحكم، فتعين أنه طاهر غير مطهر، ويصير وجوده كعدمه، كما لو كان معدوماً حساً، أو معجوزاً عن ثمنه، ويتفرع على هذا النوع: الماءُ الذي خلت به المرأة لرفـع الحدث، فإنه لا يرفـع حدث الرجل، فهذا يشارك الطاهر في منـع رفـع حدث الرجل، ويشارك الطهور في جواز استعماله في غير هذا النوع من الطهارات الشرعية.

الثالث من المياه: النجس، وهو نوعان:

متغير أحد أوصافه بالنجاسة مطلقاً، وملاق للنجاسة إذا كان أقل من قلتين، ولو لم يتغير.

أما المتغير فللإجماع، وأما الملاقي فلحديث ابن عمر المشهور:

(إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبَثَ) أو (لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ). [رواه أهل السنن]:

فمفهومه أنه إذا لم يبلغ قلتين، فإنه ينجس بمجرد الملاقاة.

وعلى هذا الحديث المقيد تحمل بقية الأحاديث المطلقة كقوله:

(إنَّ الماءَ طَهُورٌ لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ).

ونستثني من هذا النوع: الماء المتغير بمجاورة نجاسة، فإنه لا ينجس ولا يكره، لأنه تغيير مجاورة لا مخالطة، فبان بما ذكرنا على وجه الاختصار: أنَّ المياه ثلاثة: طهور، وطاهر، ونجس، وقد ذكرنا أحكامها.

فقال المستعين بالله: إنما دلت الأدلة الشرعية الظاهرة على أن المياه نوعان: طهور، ونجس، فما تغير أحد أوصافه بالنجاسة فهو نجس، قليلاً كان أو كثيراً، تغير بمخالطة أو مجاورة أو غيرها، وما سوى ذلك فإنه طهور، لا فرق بين الباقي على خلقته والمتغير بملوحة، أو مرارة، أو حرارة، أو مقره، أو ممره، أو وضع فيه شيءٌ طاهر فتغير به أو استعمل في حدث أو غيره، فكل ما لم يتغير بالنجاسات فإنه طهور، يجوز ــ بل يجب ــ استعماله في طهارة الأحداث، والأخباث، في الأبدان والثياب وغيرها، وعلى هذا الأصل تدل الأدلة الشرعية، فإن الله أخبر أن الماء الذي أنزله من السماء وأنبعه من الأرض طهور مطهر، وكذلك النبي ﷺ أخبر أن الماء طهور لا ينجسه شيءٌ، إلا ما غير أحد أوصافه بالنجاسة، فإذا وجد الإنسان ماءً متغيراً بالطاهرات ــ على اختلاف أنواعها ــ فإنه داخل في قوله تعالى:

﴿فلمْ تجدوا ماءً فَتيمَّمُوا﴾

[سورة النساء: الآية ٤٣ ــ سورة المائدة: الآية ٦]

فلا يحل العدول إلى التيمم مع وجود هذا الماء، سواء كان ماءً مطلقاً أو مقيداً بماء زعفران أو غيره.

وأيضاً فإثبات قسم طاهر غير مطهر لم يدل عليه حديث صحيح ولا حسن، ولا أصل من الأُصول الشرعية. ولو كان هذا النوع ثابتاً شرعاً تعين أن يبينه الشارع بياناً تاماً واضحاً لا يخفى على أحد، لعظم مصلحته، وشدة الحاجة إليه، فكل أمر اشتدت حاجة العباد إليه بيَّنه الشارع وبرهن عليه البراهين التي لا تبقي شبهة ولا إشكالاً، ولم يحوجنا إلى أن نأخذ المسألة العظيمة من قولهم، لأنه ليس بماءٍ مطلق، أو نقيسه على الكفارات. ثم إن القائلين بهذا القول لم يطرد قولهم، والقول المتناقض من أكبر الأدلة على ضعفه تناقضه وعدم اطراده، فإنهم قالوا: المتغير بالطاهرات إن كان بمقره، أو ممره، أو بما يشق صون الماء عنه، لا يضر هذا التغير، فإن وضع فيه الطاهر قصداً، أو تغير به عن ممازجه سلبه الطهورية.

ومن المعلوم أن الشارع لا يفرق بين متماثلين، بل يحكم لهما بحكم واحد، كما لو تغير الماءُ بالنجاسة، فإن الشارع لم يفرق بين تغيره بمقره أو ممره أو وضع واضع: قصداً أو بغير قصد، فكله نجس وكذلك هذا: كله طهور، وكذلك من هذا النوع تفريقكم بين تغيره بما هو من جنس التراب أو بملح مائي أصله الماءُ أو ملح معدني، هو من هذا النوع، لا يمكن أن يفرق الشارع بين أمرين من دون أوصاف شرعية متباينة.

وأما ما خلت به المرأة، فقد اعترفتم أنتم بضعف هذا القول وقلتم: لو لم يجد ما يرفع به حدثه إلا هذا الماءَ استعمله، ثم تيمم، وهذا لا نظير له شرعاً، بل إن كان طهوراً لم يعدل إلى التيمم، وإن كان ممنوعاً عنه عدل إلى التيمم من دون استعماله، كما قد اعترفتم بضعفه باعترافكم بأنه ماءٌ طهور، تستعمله النساء في الحدث والخبث، ويستعمله الصبيان كذلك، ويستعمله الرجال في إزالة الخبث، وإذا لم تتم المرأة طهارتها، بل بقي من غسلها أو وضوئها أصبع مثلاً، جاز للرجل أن يرفع به الحدث، فعلم بهذا أنه طهور من كل وجه، مع أن الأصل طهارته مع قوله ﷺ:

(إنَّ المَاءَ لَا يجْنبُ).

والحديث الذي فيه نهى النبـي ﷺ أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة ضعّفه أهل العلم، ولو فرض الاحتجاج به لم يقاوم الأدلة الواضحـة الصحيحة، ولو احتـج به لوجب منـع الرجل منه في كل شيءٍ، فعلم أنَّ القول بالمنـع من أضعف الأقوال، ولله الحمد.

وأما قولكم: إن الماءَ الملاقي للنجاسة إذا لم يبلـغ قلتين ينجس ولو لم يتغير لحديث ابن عمر السابق فحديث ابن عمر إنما الاستدلال به استدلال بالمفهوم، والمفهوم ــ باتفاق الأصوليين ــ لا عموم له، فإنه أخبر أنه إذا بلـغ قلتين لم يحمل الخبث، فمفهومه أنه إذا لم يبلغهما فقد يحمله، فيبين به وصف النجس لكثرة النجاسة وقوتها وقلته، وقد لا يحملها، فالقائلون: إن الماء لا ينجس إلا بالتغير لا يمتنعون من القول بحديث ابن عمر، فيقولون: إن حمل الخبث يعني: إن كان الخبث فيه محمولاً ــ أي قد ظهرت فيه أوصافه ــ نجس، وإلا فلا.

فإن قلتم على هذا أيضاً: إذا بلـغ قلتين، فإن هذا حكمه إن تغير نجس، وإلا فلا.

قلنا: إن هذا إخبار عن أن الماء إذا بلـغ هذا المبلـغ فإنه لا يحمل الخبث غالباً، لكثرته ودفعه النجاسات، وقد تكثر النجاسة أو توالي عليه فيبين به أوصافها، فينجس بالاتفاق، وحديث بئر بضاعة أصـح من هذا الحديث، ويدل بمنطوقه على أن الماء طهور، وظاهره سواء بلـغ قلتين أو لم يبلـغ، ما لم يتغير، فيدل على صحة هذا القول: أنه لو كان مجرد ملاقاة الماء الذي دون القلتين للنجاسة ينجسه ــ ولو لم يغيره ــ لبين الشارع بياناً مزيلاً للإشكال رافعاً للاحتمال.

وأيضاً فإن الشارع يحكم للمتماثلات بحكم واحد، لا يفرق بينها، فالماءُ الذي وقعت فيه نجاسة لم تغيره سواء كان ثلاث قرب أو أربـع قرب، أو خمساً

أو أكثر الكل لم تؤثر فيه ولا في صفاته شيئاً، فيتعين أن حكمها واحد، وهو الطهورية. وأيضاً، فقوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣ ـ سورة المائدة: الآية ٦]

يتناول هذا الماء الذي لم تغيره النجاسة، ولو كان قليلاً.

فلما وصل البحث إلى هذا.

قال المتوكل على الله: هب أننا وافقناك على القول بأن الماء نوعان فقط كما قررته ـ واستدللت عليه ـ فإنه ليس عندنا ما ندفع به هذه الأدلة، وليس لنا أن ندفعها بمجرد الجمود على قولنا، فإن القصد ظهور الحق، فلا نبالي أظهر في جانب القول الذي ننصره أو تنصره أنت، ولكن ما جوابك عن أمر النبي ﷺ بإهراق ما ولغ فيه الكلب ثم غسله سبع مرات إحداها بالتراب؟ أليس في هذا أكبر دليل على أن الماء القليل إذا لاقته النجاسة أنه ينجس ولو لم يتغير، لأن ظاهر هذا أنه يسير؟

فقال المستعين بالله: جوابي عنه من وجوه:

أحدها: أن الماء اليسير جداً إذا لاقته النجاسة ـ وخصوصاً إذا تكررت عليه تكررَ الولوغ ـ فإننا نحكم بنجاسته، لأن القليل جداً في مظنة التغير، وخصوصاً إذا لم تتميز النجاسة في لونها عن الماء، وبهذا الجواب قال بعض المالكية، وهم يقولون: إن الماء لا ينجس إلا بالتغير.

ثانياً: أنه يحتمل أن هذا في الماء الذي تغير بلعاب الكلب، ويكون هذا جمعاً بين الأدلة الدالة على أنه لا ينجس الماء إلا بالتغير.

ثالثاً: ما قاله المالكية: إن الأمر بغسل ولوغ الكلب ليس لأجل نجاسته، وإنما هو لمخالطة لعابه الضار للشارب والمتطهر.

وأحسن الأجوبة هو الجواب الأول.

والحاصل أن القول الصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن المتغير بالنجاسة نجس، لكونه خبيثاً، فيدخل في الخبائث التي حرمها الله، وأجمع العلماءُ عليه، وما عداه فإنه طهور مطهر، على أي صفة كان، وما سوى هذا القول فضعيف لعدم الدليل على إثباته، وتكون مسائله غير مطّردة ولا جارية على القواعد الشرعية، والله أعلم.

* * *

## المثال الثاني

### في تطهير الأبدان والثياب وغيرها من النجاسات

قال المستعين بالله: كل محل نجس يطروّ نجاسة عليه: ماء، أو بدن، أو ثوب، أو آنية، أو أراض أو غيرها، فإنه يطهر بزوال النجاسة عنه، بأن تزول عينها، ولا يشترط ثلاث غسلات ولا سبع، ولا أقل ولا أكثر، إلا نجاسة الكلب وما أُلحق به، لورود الشرع به، فإنه لا بد فيه من سبع غسلات، وإحداها بتراب.

وهذا القول هو الذي تكثر الأدلة على صحته، فإن الشارع أمر بتطهير النجاسات على الأبدان والثياب وغيرها من غير اشتراط عدد معين، ولم يثبت في العدد حديث يحتج به.

يؤيد هذا أن النجاسات أعيان، فما دامت العين باقية فحكمها باق، فإذا زالت عينها زال الحكم معها.

ويؤيد هذا أن النجاسات إنما نجست لخبثها، فما دام الخبث باقياً فالنجاسة باقية، فإذا زال الخبث زالت النجاسة، يؤيد هذا: أن الماء الكثير المتغير بالنجاسة نجس، فإذا زال تغيره طهر، فعلم أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

يؤيد هذا أن النجاسة لو لم تزل إلا بعد سبع الغسلات لم يطهر المحل حتى تزول، فعلم أن العدد غير معتبر، وهو المطلوب.

فقال المتوكل على الله: النجاسة قسمان:

قسم حكمه كما ذكرت، وهو النجاسة على الأرض وما اتصل بها من الحيطان والأحواض ونحوها، فيكفي غمرها بالماء، بحيث تزول عين النجاسة كما أمر النبي ﷺ بصب ذَنُوب من ماءٍ على بول الأعرابي، ولم يؤمر بتكرار فيه.

وقسم يشترط فيه سبع غسلات مع زوال عين النجاسة، وذلك قياساً على نجاسة الكلب، فإن الشارع أمر فيه بسبع وتراب، فنقيس عليه كل نجاسة على غير الأرض من جهة العدد، لا من جهة التراب.

يؤيد هذا الحديث الذي ذكره فقهاؤنا رحمهم الله، وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما:

«أُمِرْنَا بِغَسْلِ الأَنْجَاسِ سَبْعاً» وهذا نص صريح في المسألة، وإذا قال الصحابي أُمرنا أو نهينا أو نحوهما، فإنما ينصرف ذلك إلى أمر النبي ﷺ ونهيه، لأنه هو المشرّع الذي يطاع أمره ويجتنب نهيه، فاتضح بهذا أن النجاسات كلها إذا لم تكن على الأرض لا بد فيها من سبع غسلات مع زوالها، وهو المطلوب.

فقال المستعين بالله: هذه الأدلة التي استدللت بها على هذا التفريق لا تدل على المطلوب، أما حديث ابن عمر فما أصرحه من حديث لو كان ثابتاً عن النبي ﷺ، ولكنه حديث ساقط لا يسوغ الاحتجاج به.

وأما قياس سائر النجاسات على نجاسة الكلب فغير صحيح من وجهين:

أحدهما أن الشارع فرق بين الأمرين، وأمر بغسل نجاسة الكلب سبعاً مع التراب، وأمر بغسل سائر النجاسات لإزالتها من دون اشتراط عدد.

الوجه الثاني: أن قياسكم هذا غير مطرد، والقياس المنتقض لا يصلح الاحتجاج به، فإنكم لا تقولون باشتراط التراب في غير نجاسة الكلب والخنزير، فلو كان الإلحاق صحيحاً لوجب الإلحاق في العدد والتراب.

وأما احتجاجكم بحديث أمر النبي ﷺ بصب الذَّنُوب على بول

الأعرابي، فهو من جملة حججنا، فإنه لم يأمر بتكرار غسلها، وما سوى الأرض، والأرض كلها على حد سواء، لا يفرق الشارع بين متماثلين، لو فرض أنه لم يرد سوى حديث أنس المذكور، فكيف وبقية النصوص الدالة على إزالة النجاسة ليس فيها شيءٌ يأمر بالعدد؟

فقال المتوكل على الله: من لوازم قولكم هذا أن الاستحالة تطهر ولو لم تغسل النجاسة.

فقال المستعين بالله: نقول بهذا اللازم، وأن العين إذا كانت خبيثة نجسة، ثم استحالت فصارت طيبة وزال عنها الخبث، فإنها تطهر، وهذا متفق عليه في مسائل، مختلف فيه في أخرى، فالماءُ إذا استحال من تغيره بالنجاسة إلى زوال التغير طهر [قولاً واحداً] إذا كان كثيراً، والعلقة إذا صارت حيواناً طهرت [قولاً واحداً] والخمرة إذا استحالت وزالت خمريتها وصارت خلاً طهرت، [قولاً واحداً] فكذلك بقية المسائل، كما إذا استحالت النجاسة بمخالطة ملح أو صابون أو غيرهما، فإن النجاسة في الحقيقة دائرة مع الخبث وجوداً وعدماً، فالشيء الخبيث نجس لخبثه، فإذا زال خبثه طهر لزوال علته، فهذه الأدلة كما ترى قوتها، فإن كان عندك شيء تجيب به عنها جواباً صحيحاً فأت به، لنرى مرتبته، والحق ضالة المحق، وإن لم يكن عندك سوى ما ذكرت من الأدلة، وهو كذلك، فيلزمك الانقياد إلى الحجة، والانقياد إلى الحجج الراجحة هو مطلوب الطرفين.

فقال المتوكل على الله: قد رجعت إلى قولك، وأحمد الله على ظهور البرهان وبيانه، كما أني أحمد الله أن وفّقني للانقياد له، وأخبرك أيها الأخ أني وإن كنت أرى في الوقت الماضي القول الذي نصرته أولاً فإني جازم ـ بحول الله وقوته ـ أنني مثاب على تقريره ونصرته، لأن هذا هو اعتقادي فيه سابقاً، ومن كان معتقداً لقول ضعيف ثم تبين له بعد ذلك ضعفه، فإنه بمنزلة من كان يعمل على حكم ثم نسخ، فإنه مأجور على عمله السابق واللاحق.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحيم﴾
[سورة البقرة: الآية ١٤٣]

وإنما الخشية على من أصر على التعصب على قول اتضح له ضعفه، ولكن لغرض من الأغراض: أصر عليه.

فنسأل الله العافية والسلامة والتوفيق لمعرفة الصواب واتباعه.

* * *

## المثال الثالث

### هل التيمم حكمه حكم الماءِ إذا تعذر استعماله أم لا؟

قال المتوكل على الله: التيمم إذا عدم الماءُ أو تعذر استعماله حكمه حكم الماءِ في إباحة الصلاة ونحوها من العبادات المتوقفة على الطهارة، إلا أن طهارته طهارة ضرورة، تقدرها بقدرها، فتبطل بخروج الوقت ودخوله، ومن تيمم لشيءٍ لم يستبح ما هو أعلى منه، وإنما هو يستبيح ما هو مثله ودونه.

والسبب في ذلك أن الشارع لم يجعله طهارة إلا في حال الضرورة، وإذا كان كذلك تقدر بقدرها، وقصر عن وصوله إلى طهارة الماء من كل وجه، ويدل على ذلك أن الشارع لم يجعله رافعاً للأحداث، بل إذا وجد الماءُ ــ وكان قد تيمم لحدث أصغر أو أكبر ــ عاد إليه حدثه ولزمه رفعه بالماءِ، إلا في قول شاذ لا ينظر إليه، فدل ذلك على ما ذكرنا، وأنه لا يقوم مقام الماءِ من كل وجه.

فقال المستعين بالله: بل التيمم حكمه حكم الماء من كل وجه، فإن الله تعالى جعله نائباً منابه عند عدمه، أو تعذر استعماله.

ومقتضى ذلك أنه نائب منابه في كل شيءٍ، وأنه إذا تيمم لم تنتقض طهارته إلا بأحد نواقض الطهارة، فلا تنتقض بدخول الوقت ولا خروجه، ومن تيمم لشيءٍ استباحه واستباح ما هو فوقه وما هو دونه، والدليل على ذلك أن الله جعله قائماً مقام الماء عند جواز العدول إليه، وذلك دليل على ما قلنا.

وأيضاً: إذا تطهر العبد بالتراب، فالأصل بقاءُ طهارته حتى يأتي ما يدل على فسادها وانتقاضها، فأيّ نصٍّ دل على أنها تبطل بدخول الوقت وخروجه، وأي سبب يدعو إلى ذلك؟

ويؤيد هذا: أن التيمم بدل طهارة الماء، فالإجماع على أن البدل له حكم المبدل في كل أحكامه، وما استدللتم به من كونه طهارة ضرورة، فنحن أول قائل به، ولكن فيما دل عليه الشرع، وهو أنه ضرورة، يعني عند عدم الماء أو تعذر استعماله بمرض أو نحوه، وأما كونه يضيّق فيه هذا التضييق الذي قلتم، فلم يدل عليه الشرع بوجه، ثم أنتم ناقضون لما قلتم، فإنكم تقولون: إذا تيمم للفرض صلى كل وقته فروضاً ونوافل، فلو كانت طهارته اضطراراً من كل وجه، لوجب عليه أن يقتصر فقط على الفرض ولا يزيد في صلاته على ما يحصل به المقصود الواجب، ولا قائل بهذا ولله الحمد، فعلم أنه طهارة اضطرار في جوازه وابتدائه، لا بعد ذلك، بل هو طهارة كاملة تامة.

ويدل على هذا: أن الشارع سماه طهارة في عدة أحاديث، فكونه طهارة يثبت له ما يثبت للطهارة التامة فقوله تعالى بعد ذكر طهارة الماء والتراب.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وقوله ﷺ: (وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهوراً).

إذا لم نجد الماء، والتراب طهور أو وضوءُ المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين، وما أشبه ذلك، وذلك كله صريح أن التيمم طهارة تامة عند وجود شرطه.

وأما كون المتيمم إذا وجد الماء عاد إليه حدثه، فالأمر كذلك، فإننا لم نقل: حكمه حكم طهارة الماء إلا عند عدم الماء ونحوه، فأما مع وجود الماء المقدور على استعماله فإن وجود طهارة التيمم في هذا الحال كعدمها، فلا يبتديها، وإن كانت موجودة بطلت، وهذا ــ كما ذكرتم ــ قول جميع علماءِ الأمة، إلا قولاً شاذاً قد دل الدليل على بطلانه. وإذا اتضح أنه طهارة تامة بوجود شرطه، فمتى تيمم لنفل استباح الفرض، وما دامت طهارته باقية ولم يحصل له ناقض شرعي، فإنه يستبيح به كل العبادات.

فقال المتوكل على الله: الآن تبين لي رجحان هذا القول، وأن القول الذي قلته أنا في غاية الضعف، وقد تعجبت من عدم اتضاحه لي سابقاً، مع أنه بأدنى نظر وتأمل يظهر الصواب في هذه المسألة، ثم نظرت إلى السبب الذي أوجب عدم اتضاحه فوجدته التسليم المجرد لقول نشأْت عليه وأخذته على علاته واقتديت فيه بأئمة أعلام لم أبلغ في العلم عشر معشار ما بلغوا، وكلهم مجتهدون، نرجو الله أن لا يعدمهم أجراً أو أجرين.

وهذا السبب من أعظم الموانع والحجاب للعلم، وإنما البصيرة وانطلاق الفكر، وارتقاء النظر إنما هو بالتفكير والتأمل بمآخذ الأقوال وبراهينها، ومقابلة بعضها ببعض والتصميم التام على الانقياد لما ترجح عندك، ولله الحمد والمنة.

* * *

# المثال الرابع

## في أحكام الحيض

هل هو الدم الموجود الذي يعتاد الأنثى؟ أم له شروط وقيود؟

قال المستعين بالله: إن الحيض الذي يصيب النساءَ في أوقاته المعتادة، لا بد لنا أن نربطه بأمور يضبط بها ويتميز بها عن الدماء الفاسدة التي لا يثبت لها أحكامه، فنقول:

كل أنثى لم يتم لها تسع سنين، أو قد جاوزت في عمرها خمسين سنة فوجود الدم منها ليس بحيض، وإنما يعتاد الأنثى الحيض في السن الذي بين هذين التقديرين، من تمام تسع سنين إلى تمام خمسين سنة، بأن هذا هو المعتاد الموجود، وكذلك لا بد أن يكون الحيض لا يقل عن يوم وليلة، ولا يزيد على خمسة عشر يوماً، فمتى نقص عن يوم وليلة فليس بحيض، وإن تكررْ حتى جاوز الخمسة عشر، فهو استحاضة ولو تكرر، وكذلك الطهر بين الحيضتين: لا بد أن يكون ثلاثة عشر يوماً فأكثر، فمتى نقص لم يعتد به، وذلك للأثر المروي عن شريح المشهور.

وأيضاً إذا اختلف الدم على الأنثى فتقدم أو تأخر، أو زاد عن عادتها لم تنتقل معه ولم يثبت لها حكم الحيض حتى يتكرر ذلك ثلاثاً، فإذا تكرر ثبت له حكم الحيض وقضت حينئذ ما وجب فيه من صلاة ونحوها. والدليل على ذلك والاعتماد على أن العادة لا تثبت إلا بثلاث مرات وكذلك المبتدِئُ بها الدم تجلس ما تيقن أنه حيض أو يظهر أنه حيض، وهو يوم وليلة، وتغتسل بعدها ولو كان الدم جارياً، وتصلي وتصوم، ثم إذا انقطع دون الخمسة عشر يوماً، اغتسلت

ثانياً، ثم إذا تكرر ثلاثاً على هذه الوتيرة قضت ما وجب فيه، وصار هذا عادة، وأيضاً فإن هذه الأحوال التي ذكرناها وإن كانت مشقة على النساءِ فإن الاحتياط وطلب براءة الذمة مطلوب شرعاً، ولا يخفى ما في هذه الأقوال من الاحتياط والرجوع إلى حيض متيقن قد زالت عنه الشبه كلها، وهو المطلوب.

فاتضح مما تقدم أن الدماء التي تصيب الأنثى سوى النفاس ثلاثة أقسام:

حيض، وهو ما وجدت فيه تلك الشروط والقيود السابقة.

واستحاضة، وهو ما تجاوز خمسة عشر يوماً مطلقاً.

ودم فساد، وهو ما عدا ذلك مما اختل فيه قيد من تلك القيود.

فالقسم الأول ثبت فيه أحكام الحيض كلها، والقسمان الأخيران لا يثبت فيهما شيءٌ من أحكام الحيض بل تصلي فيهما المرأة وتصوم، وتفعل ما تفعل الطاهرات.

فقال المتوكل على الله: هذا القول الذي قررته وشرحته يا أخي لم يدل عليه دليل من كتاب ولا سنة، ولا معنى من المعاني الراجعة إلى الكتاب والسنة، وإنما دل الكتاب والسنة والوجود والنظر على أن الدم الذي يصيب الأنثى في أوقاته يكون هو الحيض، من غير فرق بين صغيرة وكبيرة، ولا فرق بين أن يزيد على خمسة عشر يوماً أو ينقص عن يوم وليلة، وبمجرد ما ترى الدم تجلس، وإذا انقطـع انقطاعاً تاماً اغتسلت وتنتقل معه في زيادته ونقصانه.

والدليل على هذا أن الشارع رتب على الحيض أحكاماً كثيرة، وأخبر أن النساء يعرفن دم الحيض بمجرد وجوده، وقد جرت عادتهن بالزيادة والنقص واختلاف الأحوال عليهن، ولم يأمرهن ويرشدهن إلى التقيد بتلك القيود التي لا يفهمنها، فضلاً عن إمكان العمل بها، وكون العادة لا تثبت إلا بثلاث مرات قول لا دليل عليه، بل الدليل يدل على ضده، فإن الأصل أن الدم الذي يصيب المرأة هو الأصلي الذي هو الحيض، لا العارض الذي هو دم الفساد

والاستحاضة، ولأن الحيض هو دم طبيعة وجبلة، وذلك يختلف باختلاف النساء والأحوال والفصول، والقوة والضعف وغيرها، فكونه يربط بسن معين ومقدار معين ويلغي ما سواه مع مماثلته له ومع كونه مخالفاً لظاهر النصوص الشرعية، فإنه مناف للأحوال الطبيعية.

يوضح هذا القول الصحيح أن القول الذي تقولونه مع أنه لا يدل عليه كتاب ولا سنة، فإنه لا يمكن أن يبنى على قاعدة من القواعد، ولا أصل من الأصول، لأن تلك الفروع التي فرعتموها يثبت لأحدها حكم وينفي عن نظيرها المماثل ذلك الحكم، ويجمع فيها بين المتباينات، ويحكم على الأنثى بها أن تجلس عن الصلاة ونحوها في وقت، ثم تؤمر بقضاءِ ما تركت فيه، وهي مأمورة بالترك، وقد تأمرونها أن تتقيد فيها، ثم تقضي ما فعلت كما إذا عاودها النفاس في الأربعين، وكل هذه الفروع لا نظير لها في الشرع، فإذا كانت لم ترد بذاتها عن الشارع، ولم تبن على مماثل لها أو مقارب، علم أنها غير شرعية.

ثم اعلم يا أخي أن من خواص الأقوال الضعيفة وجود التناقض فيها، وعدم انبنائها على أصل متفق عليه، وصعوبة فهمها، وصعوبة العمل بها أو تعذره، وهذه الفروع التي فرعتم كذلك، كما أن القول الصحيح تجد فهمه في غاية اليسر، والعمل به في غاية السهولة، ومسائله منضبطة مبنية على الأصول الشرعية، وهو قولنا الذي نصرناه. إنه بسيط جداً: وهو أن الدم الذي تراه المرأة دم حيض مطلقاً، وإذا انقطع فهي طاهرة تثبت لها أحكام الطاهرات، ما لم يطبق عليها الدم أو يزيد زيادة فاحشة، فحينئذ نعلم أنه ليس كله حيضاً، وإنما بعضه حيض وبعضه غير حيض، فنرجع حينئذ إلى المرجحات الشرعية والمميزات، وهي الرجوع إلى عادتهن، ثم إلى وصف الدم وتمييزه، فإن تعذر الأمران التحقت بأبناءِ جنسها من النساء ستة أيام أو سبعة للحيض، وما سوى ذلك طهر، كما هو الغالب للنساء، فهذا هو القول الذي يتعين القول به، فإن لم يكن عندك من الترجيح لقولك سوى ما شرحته، وهو كذلك، وجب عليك كما

وجب عليّ اتباع القول الصحيح، فلست أقول لك: قل بقولي، واتبعني على ما قلت، وإنما أقول: أنا وأنت: الواجب علينا واحد، اتباع ما رجحه الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

فقال المستعين بالله: سمعاً وطاعة للبراهين الشرعية المبنية على القواعد المرضية، وله الحمد على الإرشاد تعليماً وتوفيقاً للعمل.

* * *

## المثال الخامس

### في حكم الحمار الأهلي والبغل طهارةً ونجاسةً

قال المتوكل على الله: الحمار الأهلي والبغل نجسان، بولهما وروثهما وشعرهما وريقهما، وعرقهما، لقوله ﷺ في الحمر:

(إِنَّهَا رِكْس). أي نجس.

وعموم الحديث يقتضي نجاسة المذكورات من غير عفو عن شيءٍ من فضلاتهما، ثم إن الأصل أنَّ كل خبيث محرّم الأكل: نجس، هو وجميع أجزائه، خرج من ذلك الهر وما دونها في الخلقة، لقوله ﷺ:

(إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِس).

فيبقى ما عداها على الأصل، وهو النجاسة، لوجود الخبث فيها، ولهذا كان الكلب والخنزير ونحوهما من السباع نجسة لخبثها وعدم حل أكلها.

فقال المستعين بالله: الحمار، والبغل، مثل الهر: رَوثُهما وبولهما ولحومهما نجسة، والعرق والريق والشعر وما يخرج من الأنف: الكل طاهر، والدليل على هذا التفريق: أن النبي ﷺ حكم بنجاسة لحوم الحمر يوم خيبر وقال: (إِنَّهَا رِكْسٌ)، الحديث الذي ذكرتم.

ومع ذلك فكان ﷺ يَركَبُها وَيُرْكِبها أصحابه، ولم يأمر بتوقي هذه الفضلات منها. ولا ورد عنه أنه كان يتوقى ذلك منها.

وأيضاً فلو كانت هذه الأشياء نجسة لنبه على ذلك تنبيهاً يقطع العذر،

ويشتهر، مع علمه بشدة الحاجة إليها وإلى ملابستها ومخالطتها، خصوصاً في أوقات الأمطار ونحوها.

ويؤيد ذلك: أن من قواعد الشريعة «أن المشقة تجلب التيسير» والمشقة الحاصلة من ملابستها لا تخفى على أحد.

ويؤيد ذلك: أن قوله ﷺ في الهرة: (إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ).

فعلل طهارتها لكثرة طوفانها وعموم البلوى بها؛ وأين مشقة الهرة والبلوى بها من مشقة ملابسة الحمر والبغال، وهذا بخلاف لحمها وبولها وروثها، فإن الخبث ظاهر فيها، والاحتراز عنها في غاية السهولة، فإن قلت: فعلى هذا التعليل الذي قلتم فيلزمكم أن تجعلوا هذه الأشياء من الكلب طاهرة ــ قلنا: إن الكلب نص ﷺ على غسل ما ولغ فيه، والمشقة فيه دون المشقة بالحمار والبغل بكثير، ولهذا حيث وجدت المشقة فيه في مسألة صيده إذا صاد وباشر الصيد بفمه ولعابه: الصواب فيها القول بالعفو عن ذلك، لإذن الشارع في صيده من غير أمر بغسل ما أصاب أفواهها منه، فعلم أن الشارع له تشوق عظيم إلى رفع الحرج والمشقة والعفو عن الشيءِ مع قيام المقتضي لتنجيسه.

فقال المتوكل على الله: إذا قال النبي ﷺ قولاً فعلينا أن نعممه، وليس لنا أن نخرج من كلامه شيئاً، كما أنه ليس لنا أن تدخل فيه ما ليس منه، فحيث أخبر أن الحمار نجس تعين أن جميع هذه الفضلات نجسة، وأنه لا يحل إخراج شيءٍ منها بغير دليل.

فقال المستعين بالله: الأمر كما ذكرت، فإنَّ عليَّ الخضوع لأقوال الشارع والانقياد التام، ولكنا لم نخرج من كلامه شيئاً بمجرد أغراضنا وإرادتنا، فإننا أصغر وأحقر من أن نعارض قول الشارع بقول أحد من الناس كائناً من كان، وليس لأحد الاستدراك على الله ورسوله، ولكننا نقيد كلام الشارع بعضه ببعض، ونأخذ بالأدلة كلها، ونؤمن بها كلها، وبذلك يتم العلم والإيمان،

فالذي قال في الحمر: إنها نجس هو كان يستعمل البغل والحمار ولا يتوقى هذه الفضلات، ولا أمر أمته بتوقي ذلك، فنعمل بكل من الدليلين.

وأيضاً قيدنا ذلك لنقيسه على قاعدة المشقة والتسهيل في الطَّوّافين والطوّافات، وهذا هو الواجب على كل أحد، وهو العلم الحقيقي، وأما مجرد النظر إلى قول واحد ودليله الخاص، وعدم مقارنته بما يقابله من الأدلة، فهذا نقص في العلم يتعين على كل من له قدرة على الاستدلال أن يربأ بنفسه عنه، فإن كان عندك ما يرد هذا التفصيل الذي برهنا عليه وأقمنا الدليل، وإلا فتأمل ما ذكرناه يتضح لك أن القول ما قلناه، والله ولي التوفيق.

فقال المتوكل على الله: جزاك الله خيراً على البيان.

* * *

# المثال السادس

## في حكم من صلى وقد نسي النجاسة على بدنه أو ثوبه

قال المتوكل على الله: من صلى ثم بعد فراغه وجد على بدنه أو ثوبه نجاسة نسيها أو جهلها، فإن عليه الإعادة لأن إزالة النجاسة شرط من شروط الصلاة، وشروط الصلاة لا تسقط عمداً ولا سهواً ولا جهلاً، كما أن الطهارة من شروطها. ومن صلى بغير طهارة وجب عليه الإعادة بالاتفاق، ومن صلى عرياناً ناسياً أو جاهلاً فعليه الإعادة، فكذلك من نسي النجاسة فعليه الإعادة.

قال المستعين بالله: قد عفا الله تعالى عن الناسي والجاهل، ورفع عنه المؤاخذة، فمن صلى بنجاسة ناسياً لها أو جاهلاً فلا إعادة عليه.

يؤيد ذلك ــ بل هو صريح في المسألة ــ ما ثبت أنه ﷺ خلع نَعْليه في الصلاة، وهو في أثنائها بعد ما أخبره جبريل أن فيهما قذراً، وبنى على صلاته، فلو كان على الناسي إعادة أو الجاهل بها أو بالحكم لألغى ما مضى منها وأعادها من جديد، فلا فرق بين أن ينسى ويذكر في أثنائها، أو لم يذكر إلا بعد فراغها.

وأما قياسكم نسيان النجاسة على نسيان الطهارة فغير صحيح، لأن شرط القياس اجتماع الأصل والفرع في علة واحدة، والأمر هنا منتف، فإنَّ نسيان الطهارة من باب فعل المأمور الذي لا تبرأ الذمة إلا بالإتيان به، وأما نسيان النجاسة فمن باب ترك المحظور، وهذا النوع قد عفا الشارع فيه عن النسيان ونحوه، كما عفا عمن أكل في صومه ناسياً، مع أن ترك المفطرات من شروط

الصوم، بل هي ركنه الأعظم، وكما أنه عفا عمن تكلم في صلاته جاهلاً للحكم أو جاهلاً للحال.

وقد فرق بين الأمرين، فالمسيءُ في صلاته حيث ترك المأمور وهو الطمأنينة في الأركان أمر بالإعادة وهو جاهل، والمتكلم في صلاته لم يأمره بالقضاءِ لأنه معذور بجهله، وكذلك هو ﷺ لم يعد الصلاة، وقد صلى أولها، وقد لبس النعلين النجسين معذوراً فهذا الفرق ثابت في مصادر الشريعة ومواردها: أنه من نسي فترك المأمور فلا بد له من فعله، ومن نسي ففعل المحظور أنه ـ كما أنه غير آثم ـ فهو لا إعادة عليه، فتقع عبادته صحيحة، وأنت أيها الأخ ليس معك سوى القياس الذي قد قررنا أنه غير صحيح، لأن شرطه المساواة بين الفرع والأصل، وقد ظهر الفرق، ونحن معنا ظواهر النصوص، برفع الحرج عن الناسي والجاهل، والنص الصريح بترك الرسول الإعادة والجري على القواعد الشرعية!

فقال المتوكل على الله: صدقت يا أخي، وقد وافقتك على هذا القول؛ نستغفر الله، بل لقد تابعت الحق الصريح، والنص الصحيح، والتفريق الحسن المليح، فجزاك الله خيراً ببيانك، وأشكر الله على إحسانه الذي ساقه إليّ على لسانك، والحمد لله.

* * *

## المثال السابع

### في المسبوق الذي تابع إمامه في الزيادة نسياناً هل يعتد بها أم لا؟

قال المستعين بالله: المسبوق إذا زاد الإمام في صلاته ركعة ناسياً وتابعه فيها، فإنه لا يعتد بها، والسبب في ذلك أن الإمام بالاتفاق لاغية في حقه، فكذلك في حق المسبوق. فمثلاً من أدرك إمامه في الرباعية وقد صلى ركعتين ودخل معه، ثم صلى الإمام أيضاً ثلاث ركعات ناسياً، وتابعه المأموم جاهلاً بالحال أو بالحكم، أو ناسياً، فعلى المأموم إذا فرغ الإمام أن يأتي بركعتين، ويكون قد صلى خمس ركعات، لأن ركعة من الركعات التي أدركها مع الإمام حكمنا بإلغائها، وأن وجودها كعدمها، وقد حكى بعض العلماء الاتفاق على هذا، فذلك أن صلاة المأموم مرتبطة بصلاة إمامه، فلما لغت من الإمام تبعه المأموم، فلغت منه، سواء الذي أدرك أول الصلاة، أو الذي فاتته.

فقال المتوكل على الله: أما حكاية الاتفاق على هذا فغير صحيح، فإن الخلاف متحقق فيها، بل القائلون باعتداد المسبوق بها أسعد باتباع الإجماع، فقد أجمع العلماء كلهم على أن من زاد في الصلاة ركعة متعمداً عالماً، فصلى الرباعية خمساً، أو الثلاثية أربعاً، أو الثنائية ثلاثاً، أن صلاته باطلة، وهذا الإجماع من الإجماعات المعلومة بالضرورة عند علماء المسلمين، وعوامهم، وهو يتناول جميع الصور، فأي شيءٍ يخرج هذه الصورة؟ وبأي دليل أو تعليل نوجب على الإنسان أن يصلي الرباعية خمساً وهو يعلم أنه صلى أربعاً تامات!؟

ويؤيد هذا أن الصلاة لا تبطل إلا بأحد أمرين: إما بالإخلال بفرض من

فروضها، أو بالإتيان بمبطل من مبطلاتها، كالكلام ونحوه، فلا تبطل الصلاة كلها، ولا جزءٌ منها إلا بأحد هذين الأمرين، وقد عدم، فصح الاعتداد للمسبوق بما صلى مع إمامه، ولو كانت زائدة في حق الإمام.

وأما استدلالكم بأنه لما لغت من صلاة الإمام لغت من صلاة المأموم، فهذا القياس من أعجب ما يكون، فإنها لغت في حق الإمام لكونها زائدة على وجه السهو، وأما المسبوق فإنها أصلية، وسر ذلك أن الذي صلى المأموم من حين ابتداء دخوله في الصلاة، سواء التي أدركها من صلاة الإمام الأصلية ومن الزيادة التي في حق الإمام، أو مما يأتي به بعد ذلك حكمها واحد. فإذا ابتدأ الصلاة ثم تمم أربع ركعات، فقد تمت صلاته وحرم عليه الزيادة عليها، لأنه لم يسه ولم يَشُك، وأما إيجاب خمس ركعات في هذه الحال، فهذا لا نظير له في الشرع، وهو مخالف لما علم به الشرع، فنحن معنا نصوص مجمع عليها، ومعنا الجري أيضاً على القواعد المعلومة، وأنتم معكم قياس من أضعف الأقيسة ــ بل اتضح فساده ــ مقابل للنص، فوجب عليكم ــ كما وجب علينا ــ الرجوع إلى ما دل عليه النص.

وأما قولك: إن صلاة المأموم مرتبطة بصلاة الإمام، فإنما ذلك بوجوب الاقتداء في الأفعال، لقوله ﷺ.

(إِنَّما جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ).

وما سوى ذلك، فكل من الإمام والمأموم صلاته تختص به ــ كمالها ونقصها ــ لا يتعدى من صلاة أحدهما لصلاة الآخر شيءٌ لم يأت به الآخر، ومما يبين غاية البيان ضعف ما ذهبتَ إليه وعللت به ــ من أنه إذا لغت للإمام الركعة لكونها زائدة لغت في حق المسبوق ــ أن هذا التعليل منقوض باتفاق من الطرفين، وهو أن الإمام إذا صلى مُحْدِثاً أو نجساً ناسياً، لغت في حقه، ووجب عليه الإعادة [قولاً واحداً] في مسألة نسيان الحدث، وكذا تقول أنت في مسألة

نسيان النجاسة، وصحت الصلاة للمأموم، فمسألتنا أوْلى من هذه وأظهر. فلما وصل البحث إلى هذا الموضع قال المستعين بالله:

لم يخطر ببالي قبل ذلك أن فيها قولاً سوى الذي ذكرته لك، والآن فقد ظهر لي من قوة هذا القول الذي قررته ما اضمحل معه ما كنت قبل ذلك اعتقده سابقاً وأُفتي به وأقرره مطمئناً إليه، محتسباً فيه الأجرة والخير، وبهذا وغيره استفدت فائدة نافعة، وهو زيادة معرفتي بمقادير أهل العلم، ووجوب توقيرهم، لأن هذا أمر قد جربته في هذا القول، وما أشبهه من الأقوال التي اتضح لي بعد ذلك ضعفها، وقوة ما يقابلها، فحيث عرفت من نفسي أني كنت فيها مجتهداً محتسباً أجرها ـ تعلماً وتعليماً ـ راجياً من الله ثوابها وثواب عملي فيها حتى بعد رجوعي عنها، فعرفت أن أهل العلم الذين ليس لي نسبة إلى علمهم وفضلهم، أوْلى مني بذلك، وأن مقاصدهم جليلة حسنة، هذا فيما ظهر فيه خطأُ القول وضعفه، فكيف بجمهور مسائل العلم التي وقع عليها الاتفاق، أو كانت أصح من غيرها، وبهذا، ونحوه، سلمت من اعتقاد من إذا بان له قول راجح قد خالفه غيره من أهل العلم وقع في قلبه نوع تنقيص لمقادير أهل العلم، وغمض فضلهم، فإنها طريقة وخيمة، وصاحبها منقوص الحظ من التوفيق، فإن أهل العلم لهم من الفضائل والمحاسن والمزايا ما لا يعرفها حق المعرفة إلا من شاركهم في طريقهم وأعمالهم.

وحاصل هذا أن نصرنا لقول على آخر لا يدل على انتقاصنا مَنْ كان يرى خلاف ما رأينا لاجتهاده، والحمد لله على هذه النعمة.

* * *

## المثال الثامن

### في صلاة المنفرد خلف الصف

قال المستعين بالله: لا تصح صلاة المنفرد خلف الصف لقوله ﷺ: (لَا صَلَاةَ لِفَرْدٍ خَلْفَ الصَّفِّ).

وعموم كلامه يقتضي التعميم، سواء كان معذوراً، لكون الصف الذي قدامه ليس فيه موضع له، أو كان غير معذور، فتصحيحنا لصلاته خلفه مناقض لقول الرسول. فالرسول يقول: لا تصح صلاة الفرد خلف الصف، والمجوزون لذلك يقولون تجوز.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شيءٍ فَرُدُّوه إِلَى اللهِ وَالرَّسُول﴾
[سورة النساء: الآية ٥٩]

فالرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته، والوقوف عند أقواله وإرشاداته.

وأما استدلال الأئمة الثلاثة: مالك، والشافعي، وأبـي حنيفة في تجويز صلاة المنفرد خلف الصف بإذنه، وأمره للمرأة أن تقف خلف صف الرجال، فليس فيه دليل على صحة صلاة الرجل، لأن الشارع صحح صلاة المرأة خلف صف الرجال، ولم يصحح ذلك للرجل، فعلينا اتباعه في الأمرين.

فقال المتوكل على الله تعالى: الأقوال المعروفة في هذه المسألة ثلاثة:

تجويز صلاة الرجل المنفرد خلف الصف، كما هو مذهب الأئمة الثلاثة كما ذكرتم، وقد احتجوا بما ذكرتم.

ومنع ذلك مطلقاً في حال العذر وغيره، وهو قولكم للحديث الذي

ذكرتم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه. والقول الثالث وهو: الرواية الأخرى عن أحمد التي اختارها شيخ الإسلام وأكثر تلاميذه، وهو القول الصحيح: التفصيل، وهو أنه لا تصح صلاة الفذ خلف الصف من دون عذر، كما ذكرتم من الحديث وتصحيح ذلك عند العذر، كما إذا وجد الصف ملزوزاً ليس فيه موضع يقف فيه، وهذا به تجتمع الأدلة، وهو الذي تدل عليه أصول الشرع وقواعده، ويدخل في الأصل العظيم المتفق عليه، وهو أن جميع واجبات الصلاة وشروطها ـ المتفق عليها والمختلف فيها ـ تجب مع القدرة عليها، وتسقط مع العجز عنها، ولا يستثنى منها شيءٌ، فلأي شيءٍ يستثنى منه هذا الواجب؟، وهو: وجوب المصافَّة مع وقوع الخلاف فيه، كما ذكرنا، فإذا كان قول النبي ﷺ:

(لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ):

يستثنى منه من عجز عنها، فإنها تصح صلاته، ولا يقال فيه: إن من صحح صلاة العاجز فقد خالف قول الرسول، فكذلك مسألة المصافَّة، وكذلك من عجز عن القيام في الفرض، أو عجز عن ستر العورة، أو الطهارة، أو استقبال القبلة، أو غيرها: لا يقال: إن المصحح لصلاته في هذه الحال مخالف لإيجاب الشارع لها، فإن الشارع أوجب الواجبات كُلَّها، وذكر قواعد وأصولاً تقيد بها كقوله:

﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقوله ﷺ:

(إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ).

فهذه القواعد تقيد جميع الواجبات الشرعية المطلقة، وهي متفق عليها، فلأي شيءٍ يخرج من هذا الواجب، وهو: وجوب المصافَّة؟ فالقائل بصحة صلاة الفرد خلف الصف عند عجزه عن الصف وعدم صحتها عند قدرته، قد

قال بجميع الأدلة الشرعية، وكان أسعد بالدليل من المانعين مطلقاً، والمجيزين مطلقاً، لأن كلامهم لا بد أن يخالف دليلاً.

ومما يدل على صحة هذا القول: أنه قد ثبت ثبوتاً لا مِرْيَةَ فيه، وجوب صلاة الجماعة، وأنه لا يحل للرجل ترك الجماعة مع القدرة عليها، فإذا فرضنا رجلاً وجد الجماعة يصلون، ولم يجد في الصف موقفاً، ودار الأمر بين أن يترك الجماعة ويصلي وحده منفرداً، وبين أن يصلي خلف الصف ويدرك الجماعة، وهو يقدر على إدراكها، كان صلاته مع الجماعة الواجبة هو المتعين، وليس من الأعذار المسقطة للجمعة والجماعة عجز الإنسان عن وقوفه في الصف.

ثم أمر النبي ﷺ للمرأة أن تصلي خلف صف الرجال، إنما هو للعذر، وأن المرأة ليس لها الوقوف مع الرجال، يدل ذلك أن الشارع اعتبر العذر، وأن المصافة تسقط بالعذر، والعجز من باب أولى وأحرى.

فقال المستعين بالله: قد ظهر لي أن هذا القول هو الصحيح، لأنه لا يخالف شيئاً من الأدلة الشرعية، وهو الذي ينبني على الأصل الكبير: أن الواجبات كلها تسقط بالعجز عنها، وهذا منها، والحمد لله رب العالمين.

* * *

# المثال التاسع

## إمامة العاجز عن شرط أو ركن

قال المتوكل على الله: لا تصح إمامة العاجز عن شرط أو ركن إلا بمثله، وذلك أن عجزه المذكور أخل بصحة إمامته لقادر على ما عجز عنه، فمن لم يقدر على القيام أو الركوع، أو السجود، أو الاستقبال، أو السترة الواجبة، أو نحوها، لم تصح إمامته بقادر عليها، ويستثنى من هذا العموم صورة واحدة: وهو الإمام الراتب: إذا عجز عن القيام، فإنها تصح إمامته ـ وهو جالس ـ بالمأمومين، وينبغي أن يصلُّوا خلفه جلوساً كما أمرهم به النبي ﷺ، وأما إمامته بمثله فلا محذور فيها، لكونه عاجزاً مثل إمامه.

فقال المستعين بالله: هذا القول الذي قلته لا دليل عليه من كتاب ولا من سنة، ولا قياس، بل الأدلة المذكورة تدل على صحة إمامة العاجز عن شرط أو ركن بمثله وبدونه، وممن هو قادر عليها، وذلك لأمور منها:

أن الأصل: الصحة، فالمانع عليه الدليل، وما ذكرتم من عجزه فإنه غير دليل على ذلك بوجه من الوجوه.

ومنها أن الأمر بالإمامة كقوله ﷺ:

(وَلْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ) و (يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ) إلى آخرها وما أشبهه، يتناول ذلك القادر على الأركان والشروط والعاجز عن بعضها بمثله أو بغيره.

ومنها ما ذكرتم من أنه ـ ﷺ ـ لما عجز عن القيام في مرضه وصلى بالناس وهو جالس مع قوله:

(وَإِذَا صَلَّى جَالِساً فَصَلُّوا جُلُوساً أَجْمَعُونَ):

هو نص في المسألة، فهذا صريح في أنه إذا عجز عن بعض الأركان، أنه تصح إمامته، واعتذاركم بأنه خاص بإمام الحي العاجز عن القيام وحده: غير صحيح، فإن كلامه ﷺ في إمام الحي الراتب والإمام غير الراتب، فإن قوله:

(وَإِذَا صَلَّى جَالِساً فَصَلُّوا جُلُوساً).

يتناول كل إمام، وأيضاً فإذا ثبت صحة إمامته بعجزه عن القيام، فعجزه عن غير القيام كذلك، وأي فرق بين الأمرين؟

ومنها: أن العاجز عن الشرط والركن إذا عذرناه وصححنا صلاته بنفسه باتفاق الناس، فكيف لا تصح صلاة غيره خلفه، والمأموم لم يخلّ بشيءٍ واجب عليه، بل قد تصح صلاة المأموم وحده، والإمام عليه الإعادة، كما لو صلى محدثاً ناسياً، فإذا كان التارك للطهارة نسياناً تصح صلاة المأموم خلفه [قولاً واحداً] فالعاجز عنها أو عن غيرها من باب أولى.

ومنها أن الإمام لو ترك بعض ما هو ركن أو شرط أو واجب متأولاً باجتهاد أو تقليد صحت صلاة المأموم خلفه، ولو كان يعتقد لزوم ما ترك الإمام، فإذا عُذر الإمام بالتأويل الذي قد يكون الصواب فيه مع المأموم، فكيف بالعاجز الذي اتفق الناس على عذره وصحة صلاته؟!

ومنها أن الإمام لم يترك ركناً ولا شرطاً، فإنه عند العجز عنه تسقط ركنِيَّتُه وشرطيته، فلم يخل الإمام بشيءٍ، فكيف نبطل صلاة المأموم خلفه، وكل منهم لم يترك لازماً ولم يفعل مبطلاً؟!

ومنها أنه لو فرضنا اثنين: أحدهما عالم بكتاب الله وسنة رسول الله، قارىءٌ يحسن القراءة على أكمل ما يكون، في لسانه لثغة، بأن كان يبدل الراء غيناً أو نحوها من الحروف، والآخر أُمِّيٌّ، لا علم عنده ولا قراءة، وإنما هو فقط يحسن أن يقرأ الفاتحة، على وجه لا يلحن لحناً يحيل المعنى، كان الواجب عندكم

أن هذا الجاهل أولى من إمامة ذلك العالم التقي، بل لا تصح إمامة ذلك العالم لهذا الجاهل، وفي هذا من مصادمة قوله ﷺ:

(يَـؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتابِ اللهِ).

ثم نقول أيضاً: لو كانت إمامة العاجز عن شرط أو ركن لا تصح إلا بمثله لبينها الشارع بياناً شافياً، لشدة الحاجة إليها وعموم البلوى، فكيف والنصوص الصحيحة الصريحة: صريحة في صحتها، وأنتم ليس بأيديكم من الأدلة شيء؟

فقال المتوكل على الله: صدقت فيما قلت، ولقد برهنت عن هذه المسألة وأزلت اللبس والإشكال، ولم يبق عندي في ذلك أدنى شك، لأن أدلة هذا القول واضحة جلية.

ولكن أخبرني يا أخي: ما السبب الذي أوجب لي الجزم التام بالقول الذي كنت أقوله، وهذه الأدلة التي شرحتها تمر عليّ في كثير من أوقاتي، وأنا لم أزل حريصاً على تلقي العلم الصحيح، وهي في طي الخفا، كأنها لم تمر عليّ؟.
فقال له المستعين بالله: لهذا أسباب:

من أبلغها: نشوؤك على هذا القول، واعتقادك إياه اعتقاداً رسخ فيه، والاعتقاد الراسخ في القول ــ ولو كان خطأً ــ لا يزيله إلا علم قوي وبراهين جلية، إن صادفت إنصافاً وعدم تعصب، وإلا فلا.

ومن الأسباب: إخلادك إلى ترك الاستدلال وطلب البراهين، فإن من اعتاد الجري على أقوال لا يبالي أدل عليها دليل صحيح أو ضعيف أو لم يدل، يخمد ذهنه ولا ينهض بطلب الرقي والاستزادة في قوة الفكر والذهن، فاحرص يا أخي على معرفة المسائل بأدلتها ومآخذها، والمقابلة بين الأقوال الخلافية، واستوعب كل دليل قيل فيها، فبذلك ترتقي إلى درج ومعارف وعلوم لا يوصل إليها إلا بهذا الطريق، فلتكن القواعد الشرعية والأصول الكبار نصب عينيك في

جميـع الصور والمسائل، فقلَّ مسألة إلا وتبنى على قواعد كلية. وخذ نصيباً من أصول الفقه تحتاج إليه، بل تضطر إليه في هذا الطريق واسأل الله مـع هذا الإعانة، فمن بذل الجهود، وسلك الطريق المعهود، واستعان بالمعبود: نال المقصود.

* * *

# المثال العاشر

## في حكم الصغير والمجنون، هل عليهما زكاة أم لا؟

قال المتوكل على الله: ليس على الصغير ولا على المجنون زكاة، لأنهما غير مكلفين، كما لا صلاة عليهما ولا صوم ولا حج، فوجوب التكاليف شرطها التكليف، وهو: البلوغ والعقل.

فقال المستعين بالله: بل عليهما الزكاة إذا تمت شروطها، وذلك لأن النصوص الواردة في الزكاة في جميع الأموال الزكوية، تتناول مال كل مسلم، سواء كان مكلفاً أو غير مكلف.

وأيضاً فكان النبي ﷺ يبعث سُعَاتَهُ لجمع الزكاة، ولم يقل لهم: لا تأخذوا من أموال الصبيان والمجانين، مع كثرة وجود ذلك.

وأيضاً فإن الزكاة حق مالي، لا فرق فيه بين الصغير وغيره، كالنفقة على من تجب نفقته، من زوجة ومملوك.

وأما قولكم: إن العبادات والفرائض لا تلزم إلا المكلفين، فهذا مسلَّمٌ في العبادات البدنية، كالصلاة، والصيام، ونحوهما، أو المركبة منها ومن المالية: كالحج، والجهاد، وأما الحقوق المالية فلا تدخل في هذا الحكم، يدل على ذلك أيضاً أن الصحابة رضي الله عنهم قد ثبت عنهم وجوب الزكاة في مال الصبي، فقال عمر رضي الله عنه:

«اتَّجِرُوا فِي أَمْوالِ الْيَتَامَى لِئَلاَّ تَأْكُلَهَا الصَّدَقَةُ».

فلولا وجوب الزكاة فيها لم يقل ذلك. ومن جهة المعنى، وهو: أنه لم تجب

على غير المكلف العبادات البدنية، لضعف عقله وبدنه، بخلاف المالية، فإن ماله كمال غيره، تام الشروط، لا مانـع فيه.

فقال المتوكل على الله: قد رجعت إلى هذا القول، لأنه ظاهر النصوص الشرعية، ونظير النفقات الشرعية، والمقصود من الزكـاة واحد، وهـو سد الحاجات، وقيام المصالـح العامة، وذلك موجود سببه في مال المكلف وغير المكلف، والحمد لله.

* * *

# المثال الحادي عشر

## في زكاة الدَّيْن

قال المستعين بالله: تجب الزكاة في الديون كما تجب في الأعيان، ولا فرق بين الدَّيْنِ الذي على مَلِيءٍ باذِل، والذي على غيره، ولا بين الدَّيْنِ المَرْجُوِّ حُصُولُهُ والمأيوس منه، إلا أنه لا يجب على الإنسان الإعطاءُ حتى يقبضه فلو مر سِنُونَ كثيرة، ثم قبضه: زَكَّاهُ لما مضى.

والدليل على هذا عموم النصوص الدالة على وجوب الزكاة في كل مال زكوي، من غير تفريق بين الذي هو مرصد عند المالك، وبين ما هو عند الناس، أو في ذممهم، فكله داخل في العمومات، فلأيِّ شيءٍ تخص بعضه دون بعض، والأدلة لم تخصص منها شيئاً؟ يؤيد هذا أن معاملات الناس متنوعة، فقسم كبير منها هو الديون، فلو لم توجب فيها زكاة لتعطل هذا النوع منها، ولا قائل بذلك على وجْهِ الإطلاق، وإنما نهاية من يقول: أن يخصص بعض الديون، ويخرجها من إيجاب الزكاة فيها، والأصل عدم إخراجها.

فقال المتوكل على الله: الديون نوعان: نوع فيه الزكاة وهي الديون التي يتمكن صاحبها من قبضها لِمَلاَءة من هي عليه، وبذله، فهذا النوع هو الداخل في الأدلة التي ذكرتم لما قررتم، وأنه تتناول العمومات كقوله:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾. [سورة المعارج: الآية ٢٤]

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾. [سورة التوبة: الآية ١٠٣]

وقوله ﷺ:

(تُـؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ).

فهذا النوع لا يشك أحد في دخوله في هذه النصوص وشبهها.

والنوع الثاني: في الديون التي لا قدرة لصاحبها عليها، كالديون، التي على المعسرين، وعلى المماطلين الـذين لا يمكن أخذ الحق منهم: لا بـولاة ولا بغيرهم، والديون المجحودة، ولا يمكن صاحبها إثباتها، وما أشبه ذلك، فهذا النوع: الصواب أنه لا زكاة فيه.

وتعرف صحة هذا القول بتقرير أصل نافـع،وهو: أنَّ الشارع إنما أوجب الزكاة مواساة ودفع حاجة عامة أو خاصة على من لهم أموال يتمكنون من التصرف فيها وتنميتها، وهذا يدخل فيه من لهم أموال موجودة تحت أيديهم، ومن لهم ديون يتمكنون من قبضها. فأما من له دين عند معسر فقير عاجز عن قوت نفسه وقد أيس من حصوله، أو نحوه من كل دين يعجز صاحبه عن تحصيله، فهذا ليس محلاً للمواساة، فهو والفقير الذي ليس عنده مال في هذه الحال واحد.

فإذا قلتم: إننا لا نوجب عليه الدفـع حتى يقبضه، وإنما تجب الزكاة عليه:

قلنا: إيجاب الزكاة عليه في مال عاجز عنه وعن الانتفاع به لم يرد به شرع، ولا يقتضيه قياس ولا ميزان عادل، ثم إذا فرضنا أنه قبضه بعد سنين طويلة، فإذا حسب سنيه الماضية، وقدر زكاتها، فربما استوعب هذا المال كله، فلا يرد الشرع الذي لا يرهق الخلق عسراً ولا شططاً بإيجاب الزكاة بمثل هذا المال، وأيضاً فإذا علم من له الدَّيْن أن عليه زكاة الدين الذي على المعسر: ضيق عليه الخناق وشدد عليه وأرهقه من أمره عسراً، يقول: كيف يجتمـع عليّ الإنظار والصبر، ثم إذا حصل بعد اللُّتَيَّا والتي: أخرجت زكاة ما لم انتفـع به؟!

يؤيد هذا القول: أن الشارع لم يوجب الزكاة في الأموال التي يقتنيها الإنسان، كبيته، وأثاث بيته، ودابته، وخادمه، ونحوه من حاجاته، وذلك

لصرفها عن النماء والانتفاع بالتجارة، مع أنه يمكن الإنسان الانتفاع بها وبيعها والتوسع بها، فكيف لا يوجب الشارع الزكاة في هذا النوع، ويوجب في الديون التي لا يتمكن من الانتفاع بها من كل وجه، وقد يحصل اليأس منها.

يؤيد هذا: أنه لو فرض أن شخصاً ليس له مال إلا هذه الديون التي قد يتعذر عليه أخذها واستحصالها لم يعدّه الناس غنياً، لأن الغنيّ هو الذي اغتنى بماله عن الخلق، فلا يدخل تحت قوله ﷺ:

(تُـؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ).

يؤيد هذا: أنه لو كان له مال كثير من هذه الديون المتعذرة، وليس له مال موجود يدفع حاجته، جاز له الأخذ من الزكاة، ولم تكن الأموال التي في ذمم المعسرين تمنعه من الأخذ من الزكاة، ولو بلغت في الكثرة ما بلغت.

فعلم بذلك أنه لا يحصل بها الغنى الموجب للزكاة والمانع من أخذ الزكاة، فليس غنياً بها: لا شرعاً ولا عرفاً.

وأيضاً في حكمة الشارع إيجاب الزكاة في الأموال النامية أو المهَيّأة لذلك، كالمواشي من الإبل، والبقر، والغنم، إذا كانت للدَّرِّ والنسل والتسمين، بخلاف ما إذا كانت للعمل، وكالحبوب والثمار، وكالنقدين، وكالعروض المعدة للبيع والشراء.

فالديون التي يتمكن صاحبها منها تدخل في الأموال النامية أو المهيأة لذلك، والديون التي لا يتمكن منها لا تدخل تحت هذا النوع، وهذا ظاهر بيِّن جليٌّ.

فقال المستعين بالله: الآن ظهر قوة هذا القول ووضحانه وأنه هو القول الموافق للشرع، الموافق للعقل والفطَر، والحمد لله رب العالمين.

* * *

## المثال الثاني عشر

### في حكم العقود المعلقة بشرط

قال المتوكل على الله: العقود المعلقة على شرط لا تصح ولا تنعقد، بخلاف الفسوخ، فإنه يصح تعليقها، وبخلاف عقود الولايات، فإنه يصح تعليقها، والدليل على أنه لا يصح تعليق العقود: أن مقتضى العقد انتقال الشيء من العاقد إلى المعقود معه، ومع تعليقه بالشرط يمنع الانتقال في الحال وفي المآل على خطره: هل ينتقل أوْ لا؟ وهذا بخلاف عقود الولايات، فإنه ورد عن النبي ﷺ تعليقها في قوله:

(أَمِيرُكُمْ زَيْدٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَجَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ). وكذلك الفسوخ، لأنَّ الحل أسهل من العقد، فدخلته المسامحة لسهولته.

فقال المستعين بالله: يصح تعليق العقود، كما يصح تعليق فسخها، وكما يصح تعليق بعضها عندكم، والذي يدل على القول بالصحة أدلة كثيرة، منها:

أمر الشارع بالوفاء بالشروط والعقود والمعاملات، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ومنها: أن الأصل في المعاملات كلها: أصلها وشرطها وجميع ما تعلق بها ـ الأصل فيها الحل والإباحة، إلا ما دل الدليل الشرعي على منعه. وتعليق العقود داخل في هذا الأصل كما دخل فيه تعليق فسخها.

ومنها: أنه لا محذور في تعليق العقود، ولا دخول في أمر محرم، ولا خروج عن أمر لازم، وإنما فيه مصلحة العاقد حيث علقه على شرط يقصد أنه: إن تم لزم، وإلا فلا.

ومنها: أنه ثبت تعليق العقود ثبوتاً لا شك فيه، كما ذكرتم في الحديث الصحيح:

(أَمِيرُكُمْ زَيْدٌ..) إلى آخره، وما الفرق بين تعليق الولايات، والوكالات ونحوها، وبين تعليق البيع والإجارة ونحوها؟ فقد ثبت عن الشارع جنس تعليق المعقود، ومتى ثبت في فرد أو نوع من الجنس ثبت في جميع الجنس، إلا لفارق شرعي، وأنَّى لنا بذلك؟

ومنها: أنكم وافقتم على تعليق المفسوخ، وأنه لا محذور فيها، وما ثبت في الفسوخ ثبت في العقود، إلا لدليل، فكما أنه لا يعقد إلا جائز التصرف، فلا يفسخ إلا جائز التصرف، وكما يشترط الرضا في العقود يشترط الرضا في الفسوخ الاختيارية، إلا إن دل دليل على اختصاص أحدهما بحكم دون الآخر، وههنا لم يثبت اختصاص جواز ذلك في الفسخ دون العقد.

ومنها: أن الممنوع منه من العقود ما فيه غرر أو رباً أو ظلم، وإذا كان التعليق لم يتضمن واحداً من هذه الأمور ولا غيرها من المحاذير، فأيّ مانع يمنع منه؟.

وأما قولكم: إن مقتضى العقد: انتقال الشيء من العاقد إلى المعقود معه، والشرط ينافيه، فإن أردتم أن ذلك مقتضى العقد المطلق، حيث لم يقيد بشيء، فهذا صحيح، وكل الشروط وأنواع الخيار لا تدخل في هذا الإطلاق، فكذلك التعليق.

وإن أردتم أن هذا مقتضى العقد على كل حال، فلا قائل بذلك، فإنه يصح استثناء الانتفاع والمعقود عليه مدة، ويصح شرط الخيار، ويصح تأجيل الثمن أو المعقود عليه، وكلها تمنع انتقاله حالاً إلى المعقود معه، فكذلك هنا.

يؤيد هذا أن شرط الخيار في العقود هو في الحقيقة تعليق للعقد، لأنه إن

تمم من له الشرط العقد انعقد وتم، وإلا فهو مفسوخ، وما الفرق بين هذا وبين هذا؟

ومنها: أن كل أمر فيه مصلحة للخلق من دون مضرة راجحة، فإن الشارع لا ينهى عنه، بل يبيحه، وتعليق العقود من هذا الباب، فإن فيه مصالحَ متنوعة.

* * *

# المثال الثالث عشر

## في حكم الرهن

قال المتوكل على الله: الرهن من جملة الوثائق الأربع التي جعلها الشارع حفظاً للحقوق، وهي: الرهن، والضمان، والكفالة، والشهادة. فالثلاثة الأُوَل يستوفى منها الحق، والشهادة يستوفى بها الحق.

وتمام التوثقة فيها: أن تكون تامة كاملة، وذلك بأن يكون الرهن يكفي الحق، ويكون مقبوضاً، وبذلك يحصل به التوثقة التامة، فإن كان أقل من الحق، أو كان غير مقبوض، فإنه رهن صحيح، وهو أقل توثقة من الأول بمقداره أو كيفيته، لأنه إذا كان أقل من الحق كان توثقة ببعض الحق، لا بكله.

وإن لم يكن مقبوضاً كان عرضة للإنكار، وعرضة للإخفاء، هذا هو مقتضى العدل والمصلحة، وهو مقتضى ما دلت عليه الأدلة الصحيحة، وهو الموافق غاية الموافقة لمصالح الناس وقضاء حاجاتهم ودفع أضرارهم فإن الله ـ تعالى ـ أمر بالوفاء بالعقود والشروط، وأمر النبي ﷺ بذلك، وأخبر أن المؤمنين على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، والرهن المقبوض وغير المقبوض داخل في ضمن ذلك، حيث شَرَطَا أن يكون في يد أحدهما، وليس في ذلك محذور أصلاً، بل في ذلك مصلحة كبيرة، فإن الإنسان يعامل إنساناً آخر، ويستدين منه، ويحتاج الغريم إلى وثيقة يتوثق بها لحقه، والمستدين ليس عنده إلا أعواض ما استدان من غريمه، وهو مضطر إلى العمل فيها، كالحرّاث، والحمال، ونحوهما، وذاك لا يعامله إلا برهن ما تحت يده، والآخر لا يتمكن من العمل والاعتياش إلا ببقاء عين الرهن تحت يده، فهو ضرورة في حقه،

ومصلحة في حق غريمه، والتراضي من الطرفين حاصل، والعقد قد تقرر بينهما، فالشارع لا يجعل هذا النوع جائزاً لا لازماً، بل الشارع يراعي مصالح الخلق ومنافعهم، ولو عرّف المستدينين أن هذا الرهن لا يلزم الوفاء به، لفسخه أكثر المستدينين، وربما عقدوه مع غير الأول، فيحصل من الخداع والظلم والضرر ما لا تجيزه الشريعة.

وأيضاً: فإن العقود والشروط بين الناس: الأصل فيها الجواز، وجريانها على ما اتفق عليه المتعاملون، فإن اتفقوا على قبضه قبض وصار لازماً، وإن اتفقوا على إبقائه بيد الراهن بقي في يده، وكان لازماً، ولهذا اضطر كثير من البلدان على العمل بهذا القول لما يرون من الضرورة والمصلحة فيه، وهذا كما أنه مقتضى الأدلة الشرعية فإنه موافق للفطر وعقول العقلاء، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً كان عند الله قبيحاً.

فقال المستعين بالله: لا أنكر ما ذكرته من المصالح والمنافع في هذا القول، وكذلك لا أنكر إدخاله في العمومات الدالة على وجوب الوفاء بالعقود والشروط، ولا أنكر أيضاً ما في الإخلال به من الأضرار والمفاسد، ولكن قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾.

[سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

فهذا نص صريح: أن القبض شرط للزوم عقد الرهن، فالرهن إن كان مقبوضاً كان رهناً لازماً، وإن لم يكن مقبوضاً كان رهناً صحيحاً، لكنه غير لازم، كما دلت عليه الآية الكريمة.

فقال المتوكل على الله: حيث اعترفت بالبراهين التي سقناها على وجه التنبيه والاختصار، وإنما بقي في قلبك أن الآية الكريمة دلت على وجوب القبض، وأنه شرط للزوم، وَهبْتَ معارضة الآيةِ الكريمة حيث ظننتها دالة على

ما ذكرتَ، فهذا الطريق الذي سلكته نعم الطريق، وهو الواجب على كل أحد: أنه إذا اعتقد دلالة النص على حكم من الأحكام فإنه لا يعارضه بقول أحد من الناس، كائناً من كان، ولكن الآية الكريمة لا تخالف ما ذكرنا من الأدلة والبراهين، وسأنبئك عن ذلك.

فأولا: أن تعلم أن الله تعالى ذَكرها في سياق حفظ الحقوق، وذكر أعلى ما يكون من الحفظ، فذكر الشهادة: شهادة الرجلين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، فانتقل إلى الثاني عند تعذر الأول، وهو طريق للحكم ولو مع إمكان إشهاد رجلين: يؤيده أنه ثبت أن النبي ﷺ قضى بالشاهد مع اليمين، مع أنه لم يذكر في الآية الكريمة، لأن الله ذكر أعلى وأكمل ما يحفظ به الحقوق، فكذلك الرهن، ذكر الله أعلى حالة تكون، وهو قبضه، لأن المقام يقتضي ذلك، لكون المتعاملين في سفر ولم يجدوا كاتباً، فلو كان رهناً غير مقبوض لكان عرضة للإنكار، ولم تحصل فيه التوثقة، فتكون الآية على هذا الجواب قد دلت على كمال هذه الوثيقة بالقبض، وتكون النصوص الأخر التي أشرنا لها دالة على أنه يكون رهناً لازماً ـ مقبوضاً كان أو غير مقبوض ـ فنعمل بالدليلين، ولا نخالف واحداً منهما.

ثانياً: أن قوله:

﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

تدل دلالة بيّنة أنَّ الرهن تارة يكون مقبوضاً، وتارة لا يكون مقبوضاً، وهو رهن في الحالين، إلا أن أحدهما أحياناً أكمل من الآخر.

ثالثاً: أنكم تعترفون أنه يكون رهناً سواء كان مقبوضاً أو غير مقبوض، ولكن تقولون: إن كان مقبوضاً كان رهناً لازماً، وإن لم يكن مقبوضاً كان رهناً جائزاً، والآية الكريمة لم تفرق بين الأمرين، فبأي شيء تستدلون على هذا الفرق، وهذا أمر بيّن، لو تدبرتموه وتدبرتم الآية لعرفتم أن دلالتها على القول

الذي نصرناه أبلـغ من دلالتها على ما قلتم، فإنها لم تدل على ما قلتم من هذا التفريق، لا نصاً، ولا ظاهراً، ولا إشارة، ولا منطوقاً، ولا مفهوماً.

فقال المستعين بالله: لقد زال ما في قلبـي من الإشكال، وصارت المسألة عندي من أوضـح الواضحات، واعتقدت الآن أن ما قلتم هو القول الذي يجمـع الأدلة المتنوعة، ويحصل فيه راحة الخلق ومصالحهم ولهذا كنا نعتقد سابقاً أن الرهن لا يكون لازماً إلا بالقبض، ونعمل بخلاف ما نعتقد، لأن الضرورة تلجئنا إلى ذلك، ونعتذر عن هذا التناقض، بأن الضرورات تبيـح المحرمات، فالآن قد اطمأن القلب للحق الذي لا شك ولا مرية فيه، والحق من علاماته إحداث الطمأنينة في القلب، ومن علاماته أنه يتتبـع مصالـح الخلق ومنافعهم، فيبيـح لهم كل ما فيه نفـع خال من الضرر، أو نفعه أعظم من ضرره، ومن علامات الحق أنه يدفـع الظلم والمكر والخديعة وسوء المعاملة بكل طريق، والحمد لله رب العالمين.

* * *

# المثال الرابع عشر

## في الاختلاف: عند مَنْ حدث العيب؟

قال المتوكل على الله: إذا اختلف البائع والمشتري: عند مَنْ حَدَث العيبُ؟ فالقول قول المشتري بيمينه، وذلك لأن الأصل عدم القبض في الجزء الفائت، وهو الذي يقابل العيب إن لم يخرج المبيع عن يد المشتري المشاهدة.

فقال المستعين بالله: هذا القول الذي قلته لا دَليل عليه ولا عمل عليه، بل القول قول البائع، لأنه مُنكرٌ والمشتري مدعٍ للعيب، و(البينة على المدعي واليمين على من أنكر)، فيحلف البائع أنه لا عيب فيه وقت العقد، أو أنه لا يعلم فيه عيباً، ويؤيد هذا أن مع البائع أصلاً آخر، وهو أن الأصل السلامة، فمتى ادعى المشتري أنه معيب وقت العقد، فقد ادعى خلاف الأصل، فلا يقبل إلا ببينة، وقولكم: الأصل عدم القبض في الجزء الفائت كلام غير معقول، فما هو الجزء الفائت؟

تقولون: إنه الجزء الذي يقابل الثمن، يعني بذلك النقص الذي اعترى المعيب لسبب العيب، وهل الخلاف إلا في هذا النقص الذي نقول إن الأصل عدمه، فلم يفت من المبيع عيناً ولا جزءاً محسوساً، ثم إنكم اعترفتم بضعف هذا القول، وقلتم إذا خرج عن يده المشاهدة لم يكن القول قول المشتري، لاحتمال حدوثه وقت خروجه عن يده، وقد علم أن يد نائبه من وكيل أو مستحفظ ونحوه كَيَدِ نفسِهِ، فلو كان جانب المشتري راجحاً، لم يكن فرق بين الأمرين، فهل عندك غير هذا الدليل؟

قال المتوكل على الله: ليس عندي سوى ما ذكرته، وقد بان لي ضعفه ورجحان أن القول قول البائع لموافقته الأصلين، ولأنه يندفع بذلك أيضاً ما قد يقع من المشتري حتى يتسبب لتعييبه لأجل الرد، فالحمد لله على البيان، والله ولي الإحسان.

* * *

## المثال الخامس عشر

### في المصالحة عن الدَّيْنِ المؤجل ببعضه حالاً

قال المستعين بالله: لا تجوز المصالحة عن الدَّيْنِ المؤجل ببعضه حالاً، كمائة ديناً تحل في رمضان، فتصالحه عنها في ربيع، بتسعين مثلاً، ووجه المنع أنه قياس على تأجيل ما حل بأكثر منه مؤجلاً، وهو الربا الذي أجمع المسلمون على منعه، لأنه جعل الزيادة في مقابلة زيادة المدة، فنظيرها إسقاط الزيادة في مقابلة المدة، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما كراهة ذلك.

فقال المتوكل على الله: لا بأس بالمصالحة عن الدين المؤجل ببعضه حالاً، وقد رُوي جواز ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والدليل على هذا أن الأصل في جميع المعاملات الحل، فلا يمنع منها إلا ما منعه الله ورسوله، ولم يأت حديث صحيح أو محتج به يمنع من هذا، والآثار عن الصحابة مختلفة، منهم من كره ذلك كابن عمر، ومنهم من أباحه كابن عباس وغيره، فهي مسألة نزاع ويتعين أن تنزل على الأدلة الشرعية، والقواعد المرضية، وقد ذكرنا أن الأصل الحل، وأنه لا دليل على المنع.

وأما قياسكم هذا ـ على تأجيل الحال بزيادة ـ فما أبعد هذا القياس، وأشده مباينة بين المقيس والمقيس عليه، فإن التأجيل زيادة في المدة وزيادة فيما في الذمة، فيأكل الإنسان الربا أضعافاً مضاعفة، وتشتغل الذمة اشتغالاً يخشى أن تنوء بهذا الحمل الثقيل.

وأما المصالحة عن المؤجل ببعضه حالاً، فهو معاكس لذلك من كل وجه،

فإنه تعجيل لوفاء ما في الذمة، وتخفيف وتقليل للكثير، ونقص في المدة لنقص الواجب، فأي محذور في هذا؟! بل فيه مصالح متعددة فإنه قد يحتاج من عليه الدين للإسراع بوفاء ذمته، إما لوجود نقود ومال عنده يخشى إن انتظر الأجل اضمحلاله في أمور أخرى، وإما حاجة لسفر طويل يحتاج المدين ومن له الدين للإسراع بوفائه، خشية حيلولة الغيبة عن الوفاء أو مبادرته.

وإما أن يحتاج المدين لانتقال من غريم لآخر، والاستبدال بالأول بمعامل جديد، وإما لغير ذلك من المصالح، ومن أعظم الحاجة أنه قد يتوفى من عليه الدين فيحتاج الورثة إلى تخليص الديون المؤجلة ببعضها حالاً لعدم رغبتهم في الاستدانة، أو لسرعة تخليص ميتهم من الديون، وفي هذه الأحوال قد يكون صاحب الدين راغباً، فإذا اتفق الجميع على ذلك فلا مانع منه، ولا محذور فيه، ولهذا ــ المانعون من جوازه ــ كثيراً ما يضطرون إلى التحيل إلى ذلك بحيل باردة، ولكن ــ ولله الحمد ــ لم يحوج الشارع أحداً في المعاملات إلى حيلة ولا غيرها، بل فسح للعباد كل معاملة نافعة صالحة للخلق، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ــ في قصة بني النضير ــ (ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا) وهذا نص في المسألة.

فقال المستعين بالله: وما أدراك أنه قد وقعت لي معاملة مع مديني، واحتجت أن أصالحه عن المؤجل ببعضه حالاً، وفي اعتقادي أنه لا يجوز، فَدُلِلْنَا على حيلة باردة لا تتمشى على أصل من الأصول، وكنت مشمئزاً منها في تلك الحال، ولكن حاجة المعاملة اضطرتني إليها، وهو أنه قيل لنا: اتفق أنت ومدينك على أن يشتري مدينك سلعة ويبيعها عليك مؤجلة إلى الأجل الذي عليه، ويكون ما في ذمتك يماثل ما في ذمته، فإذا ثبت له في ذمتك ما ثبت لك في ذمته، وتماثلا أجلاً وجنساً ونوعاً فتقاصا وتساقطا، وبذلك يحصل المقصود.

فقال له المتوكل على الله: في هذا أكبر دليل على ضعف هذا القول، فإن الإثم ما اشمأز له القلب، واشمأزت له النفس، وهذه حيلة باردة لا تروج على

أحد من الخلق، فكيف تروج على علام الغيوب؟ ولا تتأتى على مذهبكم، فإنكم تمنعون كل حيلة يتوسل بها إلى فعل ما لا يجوز، وهذا لا يجوز عندكم، فإن هذه استدانة لم تقصد، وكيف يكون الفقير المعسر دائناً لك وبائعاً عليك سلعة قد أجل عليك ثمنها، وأنت لا تستدين من الأغنياء، لا قليلاً ولا كثيراً، فكيف بغريمك المستغرق، ولكن القصد من هذا كله تحيل على المصالحة عن المؤجل ببعضه حالاً، وقد أغنانا الله عن ذلك.

فقال المستعين بالله: قد رجعت كل الرجوع إلى جواز ذلك، وأستغفر الله عن وقوعي في تلك الحيلة التي لو سئلت عنها في ذلك الوقت وقيل لي: هل تجوز؟ لم أتجاسر على تجويزها، ولكن الطمع له آثار غير حميدة، والحمد لله رب العالمين.

* * *

## المثال السادس عشر

### في الشفعة

قال المتوكل على الله: الشفعة شرطها الفور، فلو أخر الطلب بعد علمه من غير عذر سقطت شفعته، لقوله ﷺ:

(الشُّفْعَةُ كَحَلِّ الْعِقَالِ).

وفي حديث آخر:

(الشُّفْعَةُ لِمَنْ واثَبَهَا).

وَلأنه إذا أخرها تضرر المشتري، والضرر لا يزال بالضرر.

فقال المستعين بالله: بل الشفعة حق من جملة الحقوق، لا تسقط إلا بإسقاط صاحبها، أو بما يدل على رضاه، فإن الشارع أثبتها، واتفق العلماء على إثباتها، فهي من الحقوق المجمع عليها، وهي ثابتة لصاحبها، فطريقها طريق سائر الحقوق، ولو كانت للفورية مع شدة الحاجة إلى بيانها لبينها الشارع.

وأما الحديثان اللذان ذكرتَ فغير محتج بهما على حكم شرعي، وأما تعليلك بأن في التأخير تضرر المشتري، فلسنا نقول: إنه يمكن الشفيع من استمراره على السكوت، ولكننا نقول: إذا علم بالبيع فتأخيره الطلب لأجل النظر في الحظ والمراودة والمشاورة، وما هو يقدر عليه في الثمن، وحالة المشتري: هل يرغب في شركته أم لا؟ ونحو ذلك من الأغراض التي شرعت الشفعة لتحصيلها، غير مسقط لحقه، فإلجاؤكم للشفيع وعدم إعطائه الفرصة غير

مناسب لما شرعت له الشفعة، فكما شرع الخيار ونحوه، ليتروى الإنسان وينظر أي الأمرين يجزم به، وشرع غيره من الحقوق، فكذلك الشفعة.

وأيضاً، فالقاعدة الكلية: أن جميع الحقوق لا تسقط إلا بالرضا، بإسقاطها بما يدل على الرضا. فلأي شيء نخرج من هذا الحق المتأكد، ولكنَّ الناس أكثروا من الحيل لإسقاطها، وجعلوها فورية، لا فرصة للإنسان فيها، كأنها حق شبيه بالصائل الذي يراد دفعه بكل طريق.

أما الأمر الشرعي فهو: الجد والاجتهاد، في تنفيذ الحقوق الشرعية ومقاصد الشارع بكل طريق.

فقال المتوكل على الله: قد بان لي أن هذا القول هو الحق، وكنت في ريبة من القول الذي نصرته أولاً، لكثرة التفاريع التي ذكرها الفقهاءُ رحمهم الله في التضييق على الشفيع، والأخذ بخناقه.

فالحمد لله على وضوح الحق الذي يطمئن له القلب، وتنشرح له النفس، والله أعلم.

* * *

# المثال السابع عشر

## في المحلل في المسابقة

قال المستعين بالله: شرط أخذ العرض في مسابقة الخيل والإبل والسهام أن يكون فيها محلل، لا يخرج شيئاً يكافئ في مركوبه، ورحبة المتسابقين، والسبب في ذلك لأجل الخروج عن شبه القمار، لأنه إذا لم يكن محلل، فإن كل واحد إما أن يغنم، وإما أن يغرم، ففيه خطر وقمار وميسر، فلا بد من المحلل الذي يخرج المسابقة في هذا الموضوع، هذا مقصدها وموضوعها.

يؤيد هذا حديث أبي هريرة مرفوعاً:

(مَنْ أَدْخَلَ فَرَساً بَيْنَ فَرَسَيْنِ وَهُو يَأْمَنُ أَنْ يَسْبقَ فَلاَ بَأْسَ، وَمَنْ أَدْخَلَ فَرَساً بَيْنَ فَرَسَيْنِ وَهُوَ لاَ يَأْمَنُ أَنْ يَسْبِقَ فَهُوَ قِمَارٌ).

رواه أحمد وأبو داود ولكن إسناده ضعيف، فهو يصلح للاعتضاد.

والله تعالى قرن بين الميسر والخمر، فالميسر جميع المغالبات التي فيها عوض من غير استثناء.

وكما أن هذا هو مقتضى السلامة من الخطر والميسر، فهو مذهب جمهور العلماء، فتعين القول به.

قال المتوكل على الله: ثبت ثبوتاً لا مرية فيه أن النبي ﷺ قال:

(لا سَبَقَ [أي أخذ عوض] إلاَّ في مُسَابَقَةِ الْخَيْلِ وَالإبلِ وَالسِّهَامِ) ولم يشترط في ذلك محللاً، ولو كان المحلل شرطاً لذكره لشدة الحاجة إليه، وعظم البلوى فيه، ولذلك المسابقات الجارية في وقت الخلفاء الراشدين ـ على كثرتها

واعتناء المسلمين بها ــ لم يثبت اشتراطهم فيها للمحلل، والحديث الذي ذكرته هو ضعيف كما ذكرته، لا يصلح أن يعارض الأحاديث الصحيحة، ولا العمل المستمر في القرون المفضلة.

أما قولكم: إن هذا هو الميسر الذي حرمه الله تعالى، فالشارع صرح باستثناء هذا النوع، وهو: أخذ العوض في مسابقة الخيل والإبل والسهام لعظم مصلحته، وإعانته على تعلم الرماية والركوب المعين على الجهاد الذي هو أكبر العبادات وأنفع الطاعات، فهو وإن كان فيه مفسدة يسيرة من جهة القمار، فمصلحته تربو على مضرته بأضعاف مضاعفة، وهذا شأن الأحكام الشرعية: أن ما كانت مصلحته ترجح على مضرته، فإن الشارع يبيحه ويأمر به، يؤيد هذا أن المتسابقين بقطع النظر عن المحلل لو كان المحذور من أخذ العوض كونه قماراً، فإن هذا لا يخرجه عن القمار، فالخطر حاصل: إما أن يغنم أحدهما، وإما أن يغرم.

إما أن يغنم: إن انفرد بالسبق، أو شاركه المحلل.

وإما أن يغرم: إن سبقه أحدهما، فالمحلل لا يخرج المسألة عن المحذور الذي توهمتم.

يؤيد هذا أن المحلل ظلم للمتسابقين، أو تحيّل بارد، فإنه إن كان مكافئاً لهما، إن تورعا وتكلفا احتمل أن يسبق فيفوز بالسبقين، أو يشارك أحدهما من غير مقصود لمغالبته، وهو من باب أكل المال بالباطل، لأن القصد من المسابقة في الرمي والركوب تغالب المتسابقين فقط، والمحلل ليس له غرض في مغالبته وقهره، ولا له أيضاً غرض في ذلك، وإنما غرضه ــ فقط ــ أخذ العوض، فهو مخالف لموضوع المسابقة، وإن كان المحلل غير مكافىءٍ لهما ــ كما هو الغالب ــ الذي لا يسمح أكثر المتسابقين الملتزمين للمحلل إلا جعله أقل منهما بكثير، كان ذلك تحيلاً بارداً، لا يفيد شيئاً.

فثبت: أن المحلل غير شرط في أخذ العوض، بل ولا محمود، وأنه من أعظم الموانـع المقصود المسابقة إذا التزما بشروطه المذكورة عندهم.

فقال المستعين بالله: الحق ما قلت، وأنا قد جرت لي هذه المسألة، والتزمنا بالمحلل وتقيدنا بجميـع شروطه، وأنه يكون معه فرس مكافئ لفرسي وفرس من سابقته، فلما تمت بيننا الشروط ونحن على مضض وإغماض من هذا المحلل، فتـح لنا بعض الحاضرين حيلة أخرى فقال: لو أنكم تجعلون المسابقة نُوَباً متكررة، فمرة يكون المحلل هذا الذي اتفقتما عليه، والمرة الثانية يكون المحلل صاحبك، والمحلل الأول أحد المتسابقين المخرجين للسبق، والمرة الثالثة تكون أنت، فقلنا: ويصلـح هذا؟ قال: لا مانـع، ففرحنا بذلك، إذ يكون المحلل مساوياً لنا في هذا الخطر.

فقال المتوكل على الله: هذا التحيل لا يتمشى على قولكم من وجهين:

أحدهما: أنه حيلة ظاهرة، بل صريحة على منـع التحليل.

والثاني: أنه استكمال النوبات الثلاث رجعت المسألة إلى المعنى الذي منعتم المسابقة من دون محلل، وأيضاً فإن منها محذوراً ثالثاً، وهو أنه شرط عقد في عقد، لأنكم لم تعقدوا العقد الأول إلا بشرط التزام العقود الأخرى. فأنتم فررتم من محذور فوقعتم في عدة محاذير، ولا سبيل إلى السلامة إلا بالعمل بالقول الذي نصرناه.

فقال: صدقت، وحصلت الموافقة من كل وجه، والحمد لله رب العالمين.

* * *

## المثال الثامن عشر

### الجد مع الإخوة في الميراث

قال المستعين بالله: إذا مات الميت عن جد لأب وإخوة لغير أم، اشتركوا في الميراث، لكن لا على سبيل المماثلة، بل الجد هو المخير بين المقاسمة كأخ مثلهم، وبين أخذ ثلث المال، إن لم يكن معهم صاحب فرض، فإن كان معهم صاحب فرض، خيّر أيضاً بين المقاسمة وبين أخذ سدس جميع المال، وبين أخذ ثلث الباقي، وإذا لم يبق إلا السدس أخذه وسقط الإخوة.

والدليل على هذا: أن هذا قول زيد بن ثابت رضي الله عنه، ووافقه على ذلك بعض الصحابة والأئمة الثلاثة: مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه.

ووجه اشتراكهم أن الجد والإخوة كلهم مدلون بالأب: الجد أبوه، والإخوة بنوه، فهذا وجه اشتراكهم.

وأما وجه: أن له الحظ الأوفر، والتخيير السابق، فلا أدري ما وجهه.

فقال المتوكل على الله: بل إذا وجد الجد أسقط جميع الإخوة، وهو مذهب أبي بكر الصديق وابن عباس وغيرهما من الصحابة، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

وهذا القول هو الذي تدل عليه الأدلة، فإن الله تعالى سمّى الجد أباً في عدة آيات، وقد أجمع العلماء أن حكمه حكم الأب في أبواب المواريث وغيرها، إلا في العُمَرِيَّتَيْنْ لسبب معروف، فما الذي يخرج مسائل الجد والإخوة، فإذا

عدم الأب، قام الجد مقامه في الميراث، مع الأم والجدات، ومع الأولاد وأولادهم من ذكور وإناث، ومع الحواشي كلهم، فلأيّ شيءٍ لا يحجب جميع الإخوة، والأب يحجبهم.

ويدل على هذا أن جهات العصوبة في الفرائض منضبطة، فكل جهة قريبة تحجب ما بعدها، وكل جهة من الجهات متسلسل من طريق واحد، فالبنوة ــ وإن نزلوا ــ جهة، والأبوة ــ وإن عَلَوْا ــ جهة، وبنو الأب ــ وهم الإخوة لغير أم ــ جهة، وإن نزلوا، وبنو الجد وبنوهم: الأعمام وبنوهم جهة، وإن نزلوا، وهكذا. فما الموجب لإخراج هذه المسألة، وجعل الجد مع الإخوة جهة، وإفراد الأب وحده بجهة وإفراد بني الإخوة بجهة غير جهة آبائهم، وهذا ظاهر جداً على هذا الأصل.

يؤيد هذا: أن الدليل الذي استدللتم به، وهو قولكم: إن الجد والإخوة مدلون بالأب، متساوون في إدلائهم فاشتركوا، فهذا دليل عليكم لا لكم، لا تطردونه فلا تقولون: إن جد الأب يساويه ابن الأخ، بل المال للأول، وهو الحق، وهنا قد استويا في القرب من الأب: الجد أبو أبيه، وابن الأخ ابن ابنه، لأن نسبة الجد إليه كنسبة ابن الأخ عليه، وهذا بيّن ظاهر.

يزيد هذا أن من أعظم البراهين على صحة القول انضباطه، ويسر معرفته والعمل به، ولا يخفى أن جعل الجد أباً وحجب الإخوة به هو القول المنضبط المتيسر فهمه، بل البسيط، كما أنه في الأدلة على ضعف القول عدم انضباطه وجريانه على القواعد الشرعية والأصول المرضية، ولا يخفى ما في قولكم هذا من الارتباك والتناقض، فتارة تقولون: له ثلث المال كله، فتفرضون فرضاً لم يفرضه الله ورسوله، فإن الأب والجد عند عدم الأولاد، ليس لهم فرض، وإنما هم عصبة، وتارة تقولون: يقاسم الإخوة كأنه أخ معهم، وليس في الفرائض عاصبان كل واحد من جنس يشارك الآخر، وتارة تجعلون له السدس، وتارة ثلث الباقي، وقد اعترفتم بحيرتكم في هذه التقديرات التي لم يدلَّ عليها دليل،

وتارة تجعلونه يعصب الأخوات، وتارة تفرضون للأخت معه في الأكدرية، ثم تكدرون عليها ما فرضتم، فتعود معه إلى التعصب، وإنما هو فرض حرمتم به الزوج والأم من تمام فرضها، وقد أجمع العلماء أن كل مسألة فيها عاصب لا عَوْلَ فيها، وهذه المسألة من هذا الباب، عالت، وهي فيها عاصَب، فإن الجد والأخت أخذا الباقي تعصيباً، والتفريض الأول اسم بلا مسمى، فما الذي أخرج هذه المسألة من الإجماع.

ومن عجائب هذا القول: أنهم يعادون الإخوة للأب مع الأشقاءِ على الجد، فيزاحمون بهم الجد لأجل تنقيص حقه، ثم يأخذ الأشقاءُ ما حصل لولد الأب، وهذا ليس له نظير بفرض لشخص ويسمى له نصيب، ويكون ذلك النصيب لغيره، فمن تأَمل هذه التفصيلات العجيبة، المخالفة للنصوص والقواعد والفرائض التي لا أساس لها، ولا أصل صحيح ولا ضعيف ترجع إليه، تيقن يقيناً ضعف هذا القول، وصواب القول الذي دلت عليه الأدلة المتنوعة: أن الجد حكمه حكم الأب، وهذا هو المطلوب.

فقال المستعين بالله: لقد جزمت بضعفه في أول ما برهنت عليه قبل أن تستكمل بقية الأدلة، فواحد مما ذكرته كاف، والباقي نور على نور، والحمد لله على فضله وإحسانه.

* * *

## المثال التاسع عشر

## في حكم العيوب في النكاح

قال المتوكل على الله: العيوب في النكاح معينة مخصوصة كعيوب الفرج، والجنون، والجذام، والبرص، والبخر، والقرع، وما سوى ذلك ليس من العيوب، فلا يثبت للزوج الآخر الفسخ بعيب غير المذكورات، ووجه انحصارها أنها مروية عن الصحابة رضي الله عنهم، فنقتصر عليها، لأن الأصل العصمة، فلا نمكن الآخر من الفسخ إلا بدليل.

فقال المستعين بالله: العيوب في النكاح: كل عيب ينفر الزوج عن الآخر، ويمنع المقصود، فمنها العيوب التي ذكرت، ومنها الخَرَسُ والصمم وقطع اليَدين والرجلين أو أحدهما، ومنها العقم، ومنها كل شيءٍ يمنع المقصود من النكاح، وهذا هو الذي ينبني على الأصل في جميع العيوب، فكل عيب في شيءٍ، فإنه المانع المقصودة ثمرته وفائدته: وأين البخر والقرع من: الخرس، والصمم، وقطع اليدين والرجلين. وقولكم: إنه مروي عن الصحابة، فما روي عن الصحابة رضي الله عنهم، فإنه يثبت الحكم به، وبنظيره، وبما هو أولى منه، بل قد روي عن بعضهم إثبات الخيار للمرأة إذا تبين أن الزوج عقيم، كما هو معروف عن عمر رضي اللهَ عنه.

وأما قولكم: الأصل العصمة، فنعم الأصل العصمة إذا تزوج الرجل بالمرأة حتى تعلم ما يخل بالنكاح ويزيله، ولكن الأصل السلامة من العيوب، فإذا وجد عيب خلاف المعهود، ثبت للآخر خيار العيب، وإذا كان العيب في المبيع ونحوه، يثبت في كل شيءٍ ينقص به قيمة المبيع، والخطر فيه أسهل،

فكيف لا يثبت في النكاح العظيم خطره الشديد أمره، يوضح هذا قوله ﷺ.

(إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوط أَنْ تُوفُوا به مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ).

فهذا نص صريح أنها أحق من غيرها بالوفاءِ والشروط: تارة تشترط لفظاً، وتارة تشترط عرفاً، فإذا تزوج أنثى بناءً على سلامتها، فوجدها عمياءَ خرساءَ صمَّاءَ مقطعة الأعضاءِ، أليس هذا من أكبر الإخلال بالشرط الذي دخل عليه الأزواج في العرف؟

فقال المتوكل على الله: صدقت يا أخي، لقد اتضح لي صواب هذا القول، وسأخبرك بقضية جرت لي الآن هي محل الفرجة: تزوجت امرأة بناءً مني على سلامتها، وأنها من جملة النساءِ التي يحصل المقصود بها، وكان لي مع قصد الاستمتاع وحصول النسل، قصد خدمة بيتي وطبخ طعامي وعمل ما أحتاج إليه في بيتي، فتكلفت في مهرها، وأمهرتها عشرة آلاف درهم، فلما دخلت عليها وجدتها عجوزاً صماءَ عمياءَ خرساءَ، فاسترجعت حين زفتْ إليّ، وقلت قد فاتني جميع مقاصدي: كونها عجوزاً مانع منه وجود النسل، وبقية صفاتها مانعة من السرور بها، والاستمتاع والانتفاع، فخاطبت وليها بذلك، وقلت: كيف غررتموني بها وهي على هذه الحال؟ فقال لي: هل شرطت علينا أنها ليست بعجوز ولا صماءَ ولا عمياءَ ولا خرساءَ؟فقلت: ما شرطت ذلك، ولكن كل أحد يعرف أن هذا غرور منكم، وأنها ليست مقصودة لي، فقال: لا نجبرك على البقاءِ معها، فإن شئت طلقها، ولكن قم بنفقة العدة وكسوتها ومسكنها، فقلت: وأين الصداق الذي سقته عليها؟ فقال لي: هلم إلى القاضي، وأنت قاضي نفسك، وقد أنصفك من جعلك قاضياً على نفسه، وكان هذا الولي قد علم أني أعتقد أن هذه الأشياء ليست بعيوب، بل كان من جملة التلاميذ الذين أخذوا عني هذه المسألة، فجعلت أحيد عنه، وأقول حسبكم الله: كيف غررتموني وظلمتموني فقال: يا أستاذ: لا تغضب. فإنَّا ما ظلمناك، وإنما أنت الذي قررت لنا هذه المسألة، فإن كان ملامة فَلُمْ نفسك، وإن كان فيها ظلم

فأنت الذي تسببت لظلمك، وإذا كان مثلك يا أستاذ لا يعمل بما يقول، فمن الذي يعمل منا؟ ولكن، بارك الله فيك ـ المهر قد تقرر، فإن كنت تريد زوجتك فقم بواجبها واصبر عليها، فإن الله لا يضيع أجر الصابرين، وإن كنت تريد فراقها ففارقها فراقاً جميلاً، واستعد بنفقة العدة وتوابعها. فحصل لي بذلك غم متتابع، ولكن لا شك أن هذا الذي جرى عليّ من أكبر الأسباب لسرعة تلقي قولك بالقبول، وصار له محل كبير عندي، لكوني علمت وجربت، فاجتمع لي علم هذه المسألة، وذوقها، وعملها، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

* * *

## المثال العشرون

### في مسألة فعل المحلوف عليه ناسياً أو جاهلاً

قال المستعين بالله: وإن حلف، ففعل المحلوف عليه ناسياً أو جاهلاً، حنث في طلاق وعتاق، ولم يحنث في اليمين بالله تعالى، والفرق بينهما أن الطلاق والعتاق فيهما حق آدمي، فلم يعف فيه عن الخطأ والنسيان، بخلاف اليمين بالله، فإن الله تعالى قد عفا عن الخطأ والنسيان، فلا يحنث بذلك.

فقال المتوكل على الله: ليس بين اليمين بالله وبين الطلاق والعتاق فرق، وكلها حق لله تعالى، وقد يكون إيقاع الطلاق أشد على المرأة من الرجل، والله تعالى لم يفرق بين الأمرين.

هذا من جهة دخولها بالنص، وأما من جهة مقصود الحالفين فظاهر جداً، فإنه إذا حلف على زوجته أن لا تفعل شيئاً، فإن غرضه منعها، وأنها تمتنع بحلفه، وأن لا تقصد مخالفته، فإذا فعلت ذلك نسياناً أو خطأً، فإن غرضه لم ينتقض، ومقصوده من عدم مخالفتها له باق، فإنها لم تتعمد ذلك، وحقيقة الحنث: هو فعل ما حلف على تركه، أو ترك ما حلف على فعله، على وجه القصد والعمد، فإذا طبقت الحنث على هذه المسألة، عرفت أنه لا حنث فيها. فالشارع رفع المؤاخذة عن الناسي والمخطىء، والعرف الذي في عقول الناس وفِطَرِهِمْ أنه غير حانث ولا ملوم، فتعين القول بهذا ووجب مساواة الجميع لاستوائها في المعنى الذي لأجله رفعت المؤاخذة، إثماً وتحنيثاً، وهو المطلوب.

فقال المستعين بالله: الحق ـ والله ـ ما قلت، ولقد جاءني هذا البرهان وأنا في غاية التعطش والاضطرار إليه نصاً، وعلى قلبي أحلى من الماء البارد

العذب للظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الشديد حره، ولي في هذا الموضوع قصة عجيبة هي: أنه كانت لي زوجة، وكنت مشغوفاً بها جداً بحيث ألهتني عن كثير من مصالحي، وهي أشد مني شغفاً، فكانت غاية أمنيتي في حياتي، وهي كذلك، حتى ظننا أنه لا يفرقنا إلا الموت، وكانت كريمة سخية، لا ترد مستوهباً ولا مستعيراً كائناً من كان، فاتفق ذات يوم أن حلفت عليها بالطلاق الثلاث أن لا تعير هذا المتاع: متاعاً كنا كثيراً ما نستعمله، وحاجتنا فيه مستمرة، فمن المصادفات الغريبة أنه طلب منها بعض أقاربي الذين كانت تعرف شدة رغبتي لصلتهم، وأنهم بمنزلة نفسي: استعارة هذا المتاع الذي حلفت عليه، لغرض ضروري بدا له، فحملتها معرفتها لقوة رغبتي في عدم منعه أن بادرت لإعطائه هذا المتاع، ساهية عن حلفي، وكانت بالطبع أشد مني على التزامها لهذه اليمين، فما هو إلا أن ذكرت الحلف بعد ما خرج المتاع من يدها فأُسقط في يدها وبقيت تتغشاها سكرات هذه الفجيعة التي هي أعظم عليها من موت أولادها وكل حبيب لها، وكل سكرة تتغشاها يخشى أن تخرج معها روحها، فدخلت الدار ورأيتها على هذه الحال المدهشة، وأخبرني أهل الدار بالواقعة، وقد عهدت من نفسي أني امرؤ لا تؤثر فيّ المصائب، ولا تزعجني الكوارث، لكنه اضمحل هذا كله فأصابني من الفجيعة أعظم مما أصابها، ومكثنا على هذه مدة، جزم أهلنا أننا نفارق الدنيا، ثم ذهبت إلى أهلها ذاهبة بقلبي وروحي وراحتي، وأبقت عندي ما قابل ذلك من قلبها وروحها وراحتها، فحملني بعد هذه الواقعة شدة الوله، وقوة الحب، وعدم تماسك الصبر، أني جعلت أتتبع المشهورين بالعلم، لعلهم يجدون لي فتوى تسوغ لي الرجوع، ولو كان في ذلك انسلاخي من جميع موجوداتي، فبينما أنا كذلك إذ قال لي بعض أصحابي الذي أعرف قوة نصحهم: يا عجباً لك يا فلان، كيف حملك الهوى وغرض النفس على تتبع أقوال كنت تعتقد خلافها؟ فما دمت تعتقد أن الناسي يحنث في يمين الطلاق، كيف تطلب من يفتي لك بخلاف ذلك؟ فهب أنك وجدت مفتياً بخلاف ما كنت تعتقد، هل يحل لك ذلك؟ فقلت: الضرورة حملتني، والفجيعة

حيرتني، حتى سلبت صبري، وقللت ورعي، فقال لي: هذا من المحن والابتلاء التي يبتليك الله، فإن قدمت طاعته على هواك كان ما أعطاك أعظم مما أصابك، وأدركت السعادتين، وأعانك الله على الصبر، وحصلت لك العواقب الحميدة، فلم يزل في نصحي حتى استسلمت لحكم الله، وسلمت لقضائه، ووطنت نفسي على الصبر العظيم الذي لو وضع على الجبال لفتتها، ثم استمررت على ذلك، لا تزيد فيّ الأوقات إلاّ ولهاً، حتى جمعني وإياك أيها الأخ هذا المجلس، وتناظرنا في هذه المسألة من دون قصد مني، فلما تجلت لي بالبراهين التي أوردتها علي: تجلت عن قلبي تلك الكروب، وعرفت أنها فرج من الله ساقه إليّ حين وطنت نفسي على طاعته، والصبر عن معصيته، فحينئذ راجعت حبيبتي، ورجعت إلينا أرواحنا وراحاتنا، وصار لهذا الأمر موقع لا يمكن التعبير عن كنهه، وشكرنا الله على هذه الحالة التي إنما جاءت وأسست على العلم الشرعي، والطريق المرضي، وكل قول وعمل وحال تأسس على العلم وكان تابعاً للعلم، فإنه مؤسس على التقوى، ثابت لا يتزعزع، مثمر لخير الدنيا والآخرة.

ولنقتصر على هذه الأمثلة التي هي من مشهور مسائل الخلافيات في الفقه، مقتصرين فيها على الإشارة إلى الأدلة على وجه التنبيه والاختصار، تاركين لذكر القائلين بكل من القولين من الأئمة الأعلام، إلا في الشيء النادر منها طلباً للاختصار.

ومن فوائد ذلك أن الأقوال التي يراد المقابلة بينها، ومعرفة راجحها من مرجوحها أن يقطع الناظر والمناظر النظر عن القائلين، فإنه ربما كان ذكر القائل مغتراً عن مخالفته، وتوجب له الهيبة أن يكف عن قول ينافي ما قاله.

ومن أسباب الاتفاق على القول الحق الصواب، إذا كان كل من المتناظرين ليس له قصد إلا معرفة الحق والراجح، وإيثاره، فبذلك تتم المباحثة والمناظرة، ويحصل مقصودها، كما تجد في قصة هذين الرجلين الموفقين المتسابقين

إلى معرفة الحق وإيثاره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً.

تمَّ على يد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بـن سعدي، وذلك في ٨ جمادى الآخرة عام ١٣٦٤هـ.

* * *

# مختارات من الفتاوى
للمــؤلف

## المسألة الأولى

### في تفسير: من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله

اعلم أن من أجلّ نعم الله على الآدمي أن أعطاه هذا العقل الذي يعقل به الأشياء، يوازن به بين المصالح والمضار، ويرجح الراجح من المصلحتين، ويرتكب الأخف من المفسدتين عند الاضطرار إلى ذلك، وينظر به عواقب الأمور وما تثمره الأعمال الدينية والدنيوية من الثمرات النافعة أو ضدها، ويلزم الإرادة بالعمل الصالح وباجتناب المضار.

وأجل فوائد العقل وأحلى ثمراته: العقل عن الله وعن رسوله الأخبار، والتصديق بها، والتعبد لله تعالى بالاعتراف بها، والأحكام الباطنة والظاهرة، والتخلق بها، والعمل الصالح واجتناب المحرم، فهذا أجلّ ثمرات العقل، فبه عُرِفَ اللَّهُ وعُرِفَتْ أحكامه ودينه، وبه عُبِد الله وأُطيع، وهذا وجه توجبه الله خطابه في كتابه: لأولي الألباب... لأولي النهى... لقوم يعقلون... لقوم يعلمون...

فالعقل هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلاً حقيقياً: فلا يترتب عليه إلاَّ كل خير ونفع، عاجل وآجل.

وإنما يخشى الشر والضرر من أحد أمرين، إما صوره وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حُدَّ له إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها، أما إذا كان الخلل من قصور العقل في معرفة العبد للحقائق، بأن يظن معرفته بها وهو غالط في ذلك، فمن ها هنا يقع الخطل والخلل، فدواؤه في هذا الحال

بتنقيح العقل وتصحيحه، بأن يسلك الطريق الموصل لمعرفة تلك الحقيقة التي وقع الغلط فيها؛ فإنَّ من سلك الطرق المعوجة لم يهتد إلى الصواب، وكذلك من ضعف سلوكه للطرق النافعة لم يصل إلى الحقيقة، ذاك يضل عنها وهذا يقصر عنها.

ولا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية، فإن الأمور لا تتم إلا بسلوك طرقها وأبوابها، مع الجد التام في تحصيلها، فهذا من الأمور التي يتحرز منها بالمعرفة والاستقامة.

وأما الأمر الثاني، وهو مجاوزته للحد الذي حُدَّ له، فهذا خطره كبير، وذلك أن العقل من أكبر نعم الله وأجلها على العبد، فعلى العبد أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى ويعترف لله بها، ويستعين بها على ما خُلِقَ له، وعلى ما ينفع، فإذا نسي نعمة الله عليه، وطغى بنفسه، وأعجب بها، وتاه بعقله، سُلِبَ هذه النعمة في أمور كثيرة، أعظمها: أن يسلب إيمانه، فإنَّ كثيراً من الملحدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاءٍ وفطنة، حتى تكبَّروا على ما جاءت به الرسل، واحتقروا الرسل وما جاؤوا به، وفرحوا بعلومهم، وصارت عقولهم الذكية ـ غير الزكية ـ سبباً لهذا الانحراف العظيم، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة.

فعقولهم التي طغوا بها أوصلتهم إلى هذه الهاوية السحيقة، وقد يرى كثير من أهل المهارة الأعمال الدنيوية، والاختراعات الحديثة قدرته على ما يعجز عنه غيره، فيتيه بعقله الفاسد، ويتوهم أن معرفته بهذه الأمور المادية دليل على تفوقه في العلوم النافعة والأعمال النافعة، ولا يُخضِعُ عَقْلَهُ لعلوم الرسل والدين الحق. فهذه مهالك هلك بها المعجبون بأنفسهم، وعلى العبد أن يحترز من القدح في حكم الله وشرعه، أو في قدره، بأن يقيس حكمة الحكيم الحميد بأفعال القاصرين من العبيد، فيضل ويسيء ظنه بالله، ودواء هذا أن يعلم أن الله حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات، وفي كل ما شرعه من الشرائع.

وإن تتبـع ما أوجده الله من الموجودات يجدها في غاية الحكمة، ويجد آثار الإتقان وحسن الخَلْق والانتظام التام عليها ظاهرة، لا تخفى إلاَّ على من عمي قلبه، وانقلبت عليه الحقائق، وما خفي عليه من بعض الجزئيات التي لا يهتدي إلى معرفة الحكمة فيها، فليعلم العلم الكلي أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً، وأنه أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأتقن جميـع ما صنعه، وكذلك من نظر ما احتوى عليه شرعه العظيم من المحاسن والمصالـح والمنافـع التي لا يمكن إحصاءُ أجناسها ـ فضلاً عن أنواعها وأفرادها ـ عرف بذلك أن الله كامل الحكمة.

وأضر الجهل على الإطلاق: الجهل بحكمة الله، وأشد أنواع الغرور القدح فيها، وما جاء هذا الغرور إلا من إعجاب العبد الجاهل بعقله الفاسد، فنسأل الله أن لا يزيـغ قلوبنا عن الهدى والرشاد؛ إنه جواد كريم.

# المسألة الثانية

## في الكهرباء ونتائجها

قال الله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

[سورة فصلت: الآية ٥٣]

وقال تعالى:

﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

لم تزل حقيقة الكهرباء ونتائجها الباهرة، وأعمالها العجيبة في طي الخفاء والكتمان، ولم يصل إليها في غابر الأزمان علم أي إنسان، حتى ترقت معارف الناس وعلومهم الطبيعية، فوصلوا إلى هذا الأمر العظيم والكنز الثمين، رهو استخراج الكهرباء من المواد الأرضية والمائية والنارية وغيرها من المواد المتنوعة، فحققوا علمها، وفرّعوا نتائجها، واخترعوا فروعها بعدما أتقنوا أصولها، فأوجدوا بها المخترعات الباهرة، والصنائع الفائقة، وأوصلوا بها الأنوار والأصوات من المحالّ المتباعدة، والأقطار الشاسعة في أسرعَ من لمح البصر، وكم ولّدوا بها من أمور تبهر عقول العالمين، وما زالوا، ولا يزالون في ترقية مخترعاتها وتفريعها. أفليس الذي علم الإنسان، الذي كان ناقصاً في علمه، ناقصاً في إرادته وقدرته وعمله، أليس الذي علمه هذه الأمور التي لم تخطر ببال أحد من البشر بقادر على أن يحيي الموتى، وأن يجمع الخلائق كلهم بنفخة واحدة؟!

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

[سورة لقمان: الآية ٢٨]

لم تزل كتب الله المنزلة على رسله، ولم تزل الرسل الكرام تقرر أمور الغيب والمعاد بأنواع البراهين والأدلة التي تجعلها من الأمور التي لا تقبل الشك، وأعداؤهم المكذبون برسالاتهم ليس عندهم ما يرد هذه الأمور العظيمة إلاَّ مجرد استبعادات استبعدُوها بعقولهم القاصرة، وآرائهم الكاسدة، يقولون: كما أن هذه الأمور متعذرة على قُدَرِ المخلوقين، فكذلك هي متعذرة على الخالق، هذا حاصل ما ردوا به ما جاءت به الرسل، ولم تزل هذه الطائفة الخبيثة في نمو وازدياد، حتى طمَّ بحرهم في هذه الأوقات الأخيرة، وانسلخوا عن أديان الرسل من جميع أمور الغيب بهذه الشبهة الباطلة، ونشأ الإلحاد، وطغى الماديون الذين ينكرون ما لم تصل إليه عقولهم، فأظهر الله هذه الآية الكبرى، والحجة العظمى الدالة دلالة يقينية عينية على صدق ما جاءت به وأخبرت به الرسل من أمور الغيب والمعاد، فرأى كل من عنده أدنى عقل وإنصاف أن ما جاء به الرسول، ونزل به القرآن هو الحق الصريح الذي صدقت له الآيات الأفقية، فكل شبهة يدلي بها أحد من المنكرين لما جاءت به الرسل: يستندون فيها إلى الأمور الحسية والمشاهدات المادية وأنَّ الذي جاءت به الرسل يخالف ما زعموا من المحسوسات.

فهذه الآية من أكبر ما يزلزل شُبهتهم، ويدحض باطلهم، ويردهم على أعقابهم مغلوبين مقهورين بالحق المؤيد ــ بالمنقول والمعقول والمحسوس ــ فهذه المخترعات الناشئة عن الكهرباء، قد كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما هو دونها، وما هو أهون منها، فيظل هؤلاء الضلاَّل منها يسْخرون، وبخبرها يكذبون، فلقد أراهم الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

والمقصود أن وجود هذه الأمور الهائلة، الحاصلة من نتائج تعليم الله للآدمي بواسطة القوة التي وضعها الله في الكهرباء، يزداد بها المؤمن إيماناً

وبصيرة بما جاءت به الرسل، فيضاف شاهد الإيمان إلى شاهد العيان، ولا يبقى في قلبه أدنى شك بصحة ما أخبرت به الرسل، فيكون بذلك من الموقنين، وتقوى الحجة ـ التي لا يستطيع أحد إنكارها ـ على الجاحدين، ويعلم بذلك أن تكذيبهم للرسل وإنكارهم ما جاءوا به مكابرة محضة، واستكبار صرف، وأنه لا شبهة لهم، فضلاً عن أن تكون حجة.

أليس الذي أقدر الآدمي على هذه الأمور الباهرة ـ مع أن قدرتهم وقدرة سائر الخلق ليس لها نسبة أصلاً إلى قدرة الخلّاق العليم ـ بقادر على أن يحيي الموتى، ويجمع قاصيهم ودانيهم، ويعلم ما تفرق من أجزائهم، وما تلاشى من أوصالهم، في أسرع من لمح البصر، وذلك دليل على أن الله بكل شيءٍ عليم، وعلى كل شيءٍ قدير.

أليس التنادي الذي ذكره القرآن بين أهل الجنة وأهل النار مع البعد العظيم، كان في ذلك الوقت يراه المنكرون محالاً ممتنعاً، فجاءهم ما لا قبل لهم بدفعه!

أليس إخبار النبي ﷺ بإسرائه إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى ما فوق السماوات، صار محل فتنة واستبعاد للمنكرين، مع أن آيات الرسل قد تقرر عند الخلق خرقها للعوائد، فهؤلاء ورثة أُولئك، فلينكروا نقل الأصوات والأنوار وغيرها من الأقطار الشاسعة.

فلو أخبرهم الرسول ﷺ في ذلك الوقت: أن الناس سيطيرون في الهواء، ويتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها وغيرها مما ظهر وسيظهر، فهل تظنهم إلَّا يَزْدادُونَ له تكذيباً، وبه سخرية؟

ولهذا: من حكمة الله أن الله لم يصرح بذكر هذه الأمور، لأن الناس مولعون بعدم التصديق بما لم يروه، أو يروا نظيره، فلم يصرح بذكره رحمة بالعباد، ولكنه ذكر في غير آية من كتابه ما يدل على ذلك، بحيث إذا وقعت هذه

الأمـور فهم الناس دلالتـه عليهـا، فالمؤمن يستفيـد غايـة الفائـدة إذا نظر للمخترعات الحاضرة بنور إيمانه، ودلالتها على المطالب العالية. ولا شك أن فائدة المؤمن معرفتها أعظم من فائدة من اخترعوها فلم ينتفعوا بها في أمر دينهم، ولا في أمر دنياهم، وإنما كانت وبالاً عليهم.

فنسأل الله أن لا يزيـغ قلوبنا، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم. وصلى الله على محمد وآله وسلم.

* * *

## المسألة الثالثة

**عن بلاد الشرك: ما تصير به بلاد إسلام؟ وهل العراق والبحرين وغيرهما بلاد إسلام؟ وعن حكم السفر إلى بلاد الشرك للتجارة وعمن يقيم فيها؟**

هذه المسائل ــ ولله الحمد ــ معروفة، وكلام أهل العلم فيها معروف، نورد ما تيسر لنا منه، ونرجو الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ويجعل عمل الجميع خالصاً لوجهه الكريم فنقول: قد ذكر أهل العلم رحمهم الله الفرق بين بلاد الإسلام وبلاد الكفار، فبلاد الإسلام: التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية، ويكون النفوذ فيها للمسلمين، ولو كان جمهور أهلها كفاراً، وبلاد الكفر ضدها: فهي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار، وهي على نوعين:

بلاد كفار حربيين، وبلاد كفار مهادنين، بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة، فتصير إذا كانت الأحكام للكفار، والنفوذ لهم: دار كفار، ولو كان بها كثير من المسلمين، وكل أحد يعرف ولا شك أن العراق، والبحرين وغيرهما من البلاد المجاورة ونحوها، من المستعمرات الإنجليزية، وأنهم هم الذين لهم النفوذ والحكم بها، ولكنهم يدخلون في الكفار المهادنين، لما بينهم وبين المسلمين من الأمان في عدم تعدي أحدهما على الآخر، وارتباط التجارة، كما هو معروف لكل أحد.

وأما الهجرة من دار الكفار، سواء كانت دار حرب أو دار صلح وهدنة، فنسوق فيها كلام أهل العلم وأدلتهم فيها بلفظها: فقال في «المغني»:

فصل في الهجرة:

وهي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذين تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآيات.

[سورة النساء: الآية ٩٧]

وأورد الأدلة... إلى آخره، وأطال الكلام رحمه الله، فمن أراد المراجعة فعليه به.

وقال أيضاً في «الإقناع». وشرحه:

وحكم الهجرة. إلى آخره. فمن أراد المراجعة فليراجعه.

وكذلك ذكر في «المنتهى» وشرحه.

وكذلك ابن مفلح في «الفروع».

وكلام أهل العلم في هذه المسألة كثير: متفقون على الوجوب إذا عجز عن إظهار دينه، واستحبابه إذا كان قادراً على ذلك، وليس لأحد خروج عما قالوا واستدلوا عليه وعللوه.

يبقى علينا: ما هو إظهار الدين؟ وما هو الدين؟

فالإظهار ضد الإخفاء، فالمظهر لدينه هو الذي يتمكن من إعلانه ولا يضطهد على ذلك ولا يخفيه، والعاجز عن الإظهار هو الذي لا يقدر على إظهار إيمانه وتوحيده وعقائد دينه وشرائعه، والدين لا يحد ولا يفسر بتفسير أحسن ولا أوضح من تفسير النبي ﷺ، ولا أجمع، فإنه فسّره بمجموع عقائد الدين وشرائعه وحقائقه حيث بيَّن أنَّ الإيمان هو: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

والإسلام: هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقال في آخره: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ، أو [دِينَكُمْ])، رواه البخاري وغيره.

فجعل ذلك كله هو الدين، فمتى قدر الإنسان على إظهار هذه الأمور، وعدم إخفاء شيءٍ منها، فهو المظهر لدينه، ومتى عجز عن إظهارها أو إظهار شيءٍ منها فهو عاجز عن إظهار دينه، وهذا بحمد الله واضح لا إشكال فيه، فلو كان يقدر أن يصلي ويصوم، لكن لا يقدر أن يظهر توحيده وإيمانه وعقيدته، كان عاجزاً عن إظهار دينه، وقد تقدم أن بلاد الكفر نوعان:

بلاد حرب واضطهاد، وبلاد عهد وهدنة وأمن.

ويدل على هذا أن النبي ﷺ أذن لأصحابه أن يهاجروا من مكة ــ حيث كانت بلاد كفر واضطهاد وأذية وفتنة للمؤمنين ــ إلى بلاد الحبشة، وهي بلاد كفر، ولكنها بلاد أمن واطمئنان، وهي أخف بكثير من بلاد الفتنة، والشر القليل أهون من الكثير، ولهذا تمكن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ من إظهار دينهم فيها، حتى إن الوفد الذي أرسلته قريش إلى النجاشي بهدايا كثيرة عالجوا النجاشي في تسليم المؤمنين إليهم، فلم يفعله، حتى قالوا له: إنهم ليقولون في عيسى قولاً عظيماً، لتهييجه على الغضب عليهم، لعله يسلمهم إليهم. إنهم يقولون: إن عيسى عبد الله ورسوله. فلما دعا النجاشي جعفراً وأصحابه ليسألهم عما قالوه عنهم، فلم يسعهم رضي الله عنهم حتى صرحوا بمقالتهم بين يدي النجاشي، وأنه عبد الله ورسوله، فاعترف النجاشي بالحق. وطرد الوفد وأرجعهم خائبين، ولم يكن عند النجاشي قبل هذا المجلس علم بما كانوا يقولونه في عيسى.

والمقصود أنه لا بد من إظهار أصول الدين وشرائعه، فإذا نظرنا إلى ما حولنا من الممالك المذكورة في هذه الأوقات، وجدنا أنه يتمكن كل أحد من إظهار دينه ومعتقده، لانتشار الحرية، فصار المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كل يعلن بما اعتقده، وإن حصل تقصير أو افتتان فهو من كثرة الشر، ولا يؤتى العبد

إلا من قبل نفسه، ولهذا كان الدعاة لمذهب السلف، كالشيخ محمد رشيد، والألوسيين، والشيخ قاسم بن مهزع وغيرهم: يظهرون من مذهب السلف والدعوة إلى الدين الإسلامي ـ أصوله وشرائعه ـ ما هو معروف معلوم من غير معارض ولا ممانع، وكذلك مَنْ عنده دين من أهل نجد، إذا ذهبوا لتلك الأقطار المذكورة، فإنهم يتمكنون من إظهار ما هم عليه، وهذا أمر لا يشك فيه، ولكن من أعظم الأخطار الإقامة مع العائلة هناك، وإدخالهم في المدارس التي لا يخرج منها أحد إلا وهو مختل العقيدة، إلا ما شاء الله، وبهذا الذي ذكرناه يعلم أن من كان عاجزاً عن إظهار دينه لا يحل له المقام بلا شك، لكن بشرط قدرته على الهجرة. وأما السفر إلى هذه الأقطار للاتجار مع حفظ العبد لدينه وقدرته على إظهاره، فلا مانع من ذلك.

والمسلمون ما زالوا يسافرون للتجارة لبلاد الكفر في وقت الصحابة رضي الله عنهم، وقد ذكر ذلك أهل العلم رحمهم الله تعالى، وذكروا ما يدل عليه. فقال في «المغني»:

مسألة: وإذا دخل إلينا منهم تاجر حربي بأمان أخذ منه العشر. وقال أبو حنيفة: لا يؤخذ منهم إلا أن يكونوا يأخذون منا شيئاً، فنأخذ منهم مثله، لما روي عن أبي مجلز «لاحق بن حميد»: قال: قالوا لعمر: كيف نأخذ من أهل الحرب إذا قدموا علينا؟ قال: كيف يأخذون منكم إذا دخلتم إليهم؟. قالوا: العشر، قال: فكذلك خذوا منهم.

وعن زياد بن حدير، قال: كنا لا نعشِّر مسلماً ولا معاهداً، قال: من كنتم تعشرون؟ قال: كفار أهل الحرب، فنأخذ منهم كما يأخذون منا.

وكذلك ذكر صاحب «الشرح الكبير».

وهذا صريح في اتجار الصحابة ومن بعدهم من المسلمين إلى دار الحرب بالتجارة، فكيف دار الذين لهم عهد وأمان وهدنة.

وقال ابن مفلح في «الفروع»: وأهل الحرب إذا دخلوا إلينا تجاراً بأمان

أخذ منهم العشر دفعة واحدة، سواء عشَّروا أموال المسلمين إذا دخلوا إليها أم لا.

وعنه: إن فعلوا ذلك بنا فعلناه بهم، وإلا فلا.

وقد ذكر هذه المسألة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجمع بين «الشرح والإنصاف» فقال:

«ومن دخل دار الحرب رسولاً، أو تاجراً بأمانهم، فخيانتهم محرمة عليه، إنما أعطوا الأمان مشروطاً بترك خيانتهم».

وكذلك ذكر ذلك في «الإقناع» و«المنتهى» وغيرهما من كتب أهل العلم.

وكل هذا دليل على جواز الاتجار إلى بلدانهم بشرط أن يتمكن الإنسان من إقامة دينه وحفظه.

ومن فضل الله أن أهل نجد أعزاء في كل مكان يأتون إليه من هذه الأقطار، وذلك بفضل الله، ثم بفضل سعى حكومتهم، يتمكنون من إظهار دينهم ومعتقداتهم، ومن قصر في شيء من ذلك، فذلك من قبل نفسه، ومن تأمل الأمور وعرف الواقع لم يبق عنده ريب في هذا ولا شك، والله الموفق.

وأما قولك: وما يلزم الإنسان في الولاء والبراء والنطق بتكفير الكافر، فهذه مسألة مبنية على أصل كبير، وهو أن الله تعالى عقد الأخوة والموالاة بين المؤمنين كلهم، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم، من يهود ونصارى ومجوس ومشركين وملحدين ومارقين وغيرهم، ممن ثبت في الكتاب والسنة الحكم بكفرهم، وهذا الأصل متفق عليه بين المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة كثيرة معروفة، فكل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية.

فإنه تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك فإنه يجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته وجهاده باللسان واليد ـ بحسب القدرة ـ

فالولاء والبراءة تابع الحب والبغض، والحب والبغض هو الأصل، وأصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم.

وأن تبغض في الله أعداءه وأعداء رسله. وكل من حكم الشرع بتكفيره، فإنه يجب تكفيره ومن لم يكفِّر من كفَّره الله ورسوله فهو كافر مكذب لله ورسوله، وذلك إذا ثبت عنده كفره بدليل شرعي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وإن حصل لكم إشكال في هذا الكلام أو زيادة في البحث فالأحسن أن يكون شفهياً.

والله تعالى يتولانا وإياكم برحمته، ونسأله أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم.

* * *

# المسألة الرابعة

## في اختلاط المسلمين بالكفار

الاختلاط بين المسلمين والكفار الذي لا يحصل منه إلاَّ شر وضرر وتهاون بالدين، ورغبة في أمور الكفار وأحوالهم: فهذا من أعظم المنكرات وأشدها ضرراً.

وعلى ولاة الأمور ــ وفقهم الله لإقامة الدين ــ إذا ابتلوا بمثل هـذا الاختلاط: أن يراقبوا المسلمين وَيُلْزِمُوهُمْ بإقامة دينهم، ويمنعوهم أشد المنـع من مجاراة الكفار على التهاون بأمور الدين، ويتفقدوهم تفقداً دقيقاً، فإن خلطتهم لهم فيها حظر كبير، فيجب أن يتلافى هذا الحظر من لهم الأمـر ــ وهم المسؤولون عن ذلك، المتعين عليهم ــ نرجو الله تعالى أن يأخذ بنواصيهم إلى الخير، إنه جواد كريم.

* * *

## المسألة الخامسة

### في فائدة السؤال: لمن يوجه إليه؟

قال الشيخ رحمه الله في جملة جواب له:

ونحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات، لأنها قد تصير سبباً لبحث أمور لم تخطر على البال، ومراجعة مظانها، وهذا من طرق العلم، فلا تحرمونا ذلك، أرجو الله أن يجعل عملنا وإياكم خالصاً لوجهه. وينبغي للمفتي والعامل في مسائل الخلاف أن يتحرز غاية التحرز في الخروج من الخلاف، وأن يسلك طريق الاحتياط في فتواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفاً جداً لا ينظر إليه، وليس له حظ من النظر. هذا في ابتداء الأمر، وفي الأمر الذي يمكن تلافيه، فأما إذا مضى الأمر، وحصل العمل بقول مفت، والمسألة خلافية والخلاف فيها قولي له حظ من النظر والدليل؛ فينبغي عدم الحكم بنقضه وإبطاله؛ لأن الأمور لها أحوال وقت الابتداء وإمكان التدارك، وأحوال إذا تعذر ذلك.

* * *

## المسألة السادسة

### في أقسام العلوم

العلوم قسمان:

علوم نافعة تزكي النفوس وتهذب الأخلاق، وتصلح العقائد، وتكون بها الأعمال صالحة مثمرة للخيرات، وهي العلوم الشرعية وما يتبعها مما يعين عليها من علوم العربية.

والنوع الثاني: علوم لا يقصد بها تهذيب الأخلاق وإصلاح العقائد والأعمال، وإنما يقصد بها المنافع الدنيوية فقط، فهذه صناعة من الصناعات، وتتفاوت تفاوتاً بتفاوت منافعها الدنيوية، فإن قصد بها الخير، وبنيت على الإيمان والدين، صارت علوماً دنيوية دينية، وإن لم يقصد بها الدين، صارت علوماً دنيوية محضة، لا غاية شريفة لها، بل غاياتها دنيئة ناقصة جداً، وربما ضل أهلها من وجهين:

أحدهما: قد تكون سبباً لشقائهم الدنيوي وهلاكهم وحلول المُثلات بهم، كما هو مشاهد في هذه الأوقات، حيث صار ضرر العلوم التي أحدثت المخترعات والأسلحة الفتاكة شراً عظيماً على أهلها وغيرهم.

والثاني: أن أهلها يحدث لهم الزهو والكبر والإعجاب بها، وجعلها هي الغاية المقصودة من كل شيء، فيحتقرون غيرهم ويناوئون علوم الرسل التي هي العلوم النافعة، فيدفعونها ويتكبرون عنها، فرحين بعلومهم التي تميزوا بها عن كثير من الناس، فهؤلاء ينطبق عليهام أتم الانطباق قوله تعالى:

**﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَات فَرحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ منَ الْعِلْم وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**. [سورة غافر: الآية ٨٣]

فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

# المسألة السابعة

## عن انفراد بعض مسائل الفقه بحكم خاص

اعلم على وجه الإجمال: أنه لا يوجد في الشرع مسألة واحدة انفردت عن نظائرها بحكم خاص إلا لسبب ووصف امتازت به، وأوجب لها الخروج عن نظائرها، لأن من أصول الشرع المطردة أن الشارع لا يفرق بين المتماثلات من كل وجه، وإذا اتبعت هذا النوع وجدت الأمر كما ذكرنا.

من ذلك «باب العاقلة» فإن الأصل أن على المتلف ضمان ما أتلفه، ولكن لما كان قتل الخطأ وشبهه يكثر، والقاتل لم يتعمد تعمداً محضاً، وحمله جميع الدية شاق متعذر أو متعسر جداً، والعصبة كانوا يتعاونون ويتناصرون في كثير من الأمور، فكان من الحكمة الشرعية حملهم عن القاتل الدية في هذه الحال، تحقيقاً للمناصرة وحثاً على المعاونة. وتسهيل الأمر عليهم من وجوه: من جهة تعميمهم فيها، وتحميلهم بحسب حالهم، وتأجيلها عليهم ثلاث سنين كل عام ثلثها، فحينئذ تخف عليهم، ولا تهدر الدماء المعصومة. وأيضاً متى علمت العاقلة أنهم هم العاملون لذلك منعوا مجانينهم وصغارهم وسفهاءهم من الأسباب التي يحصل بها القتل، خوفاً من التحميل، وشفقة عليهم، فكان حمل العاقلة من المعاونات العرفية، ومن المحاسن الشرعية.

ومن ذلك «القسامة» فإن الأصل: المدَّعِي عليه البينة واليمين على المدَّعى عليه، وأما القسامة فلما تعذرت البينة على المدعَى، وحصل اللوث الذي هو: القرائن الظاهرة القوية، قوي حينئذ جانب المدعين، فصار القول قولهم، لكن على وجه لا يكاد يقدم عليه أحد إلا بعد التروي والتحقق واليقين، أو شبهة أن المدعى عليه هو القاتل، بأن يُقْسِمَ جميع رجال الأولياء خمسين يمينا على القاتل،

فمع وجود القرائن الظاهرة، ومع إقدام جميع الأولياء، ومع هذه الأيمان المكررة المغلظة، يتضح حينئذ أن قبول قول المدعين أقوى من كثير من البينات، كما هو ظاهر لكل أحد.

ومن ذلك «باب النذر» مخالف الأصل الذي هو أن الوسائل لها أحكام المقاصد، والنذر عقده مكروه، وهو الوسيلة، والوفاء به واجب، وهو المقصود، فالشارع نهى عن النذر، وقال: (إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ) وأمر بالوفاء به، ومدح الموفين، والسبب ظاهر، فإن إيجاب الإنسان على نفسه شيئاً من العبادات التي عافاه الله من وجوبها تعرض للبلاء، وتعرض للمعصية، والإنسان ينبغي له أن يسعى في أسباب العافية الدينية والدنيوية من كل وجه، فإذا نذر فقد حمّل نفسه أمراً لا يدري: هل يطيقه أم لا؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى: أن العبادة لله لا تتم ولا تكمل إلا بالإخلاص العام لله، والنذر فيه إخلال في الإخلاص، ونقص، فإنه إذا قال العبد: لله عليّ نذر إن شفاني أو شفى مريضي، أو أعطاني الشيء الفلاني لأفعلن كذا أو كذا من العبادات، ثم حصل له، كان ذلك يشبه المعاوضة والمقابلة، وأنه لم يفعل العبادة التي عينها إلا بالشرط الذي علقها عليه، والإخلاص المحض: أن يكون الداعي والحامل للعمل وجه الله خالصاً، لا الجزاء العاجل. ومن جهة أخرى: أن الناذر جزم على الفعل، ولم يعلقه بالمشيئة، وهو من هذا الوجه كالمتعالي على الله. ومن جهة أخرى: كثير من الناس يظن أن النذر سبب لحصول الأمر المنذور، وهذا كذب بنص الشارع، حيث قال: (إِنَّهُ لا يَأْتِي بِخَيْرٍ) وإنما يستخرج به من البخيل، فهو ليس من الأسباب التي نصبها الشارع لحصول مسبباتها. وفي قوله: (وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ) إشارة إلى ضعف إخلاص الإنسان، فإن البخيل الذي لا داعي قوياً عنده من الإيمان يقضي على بخله، وإنما يستخرج منه مثل النذر ونحوه، فكأن خيره الذي فيه ناقص رديء، فبهذه الأسباب كان عقد النذر مكروها والوفاء به واجباً.

ومنها «باب الشفعة» فإن الأصل أن مال الغير لا يتملكه الإنسان إلاَّ باختياره ورضاه، فالمشتري للشقص الذي تملَّكه بالشراء، جعل الشارع للشريك أن يتملكه منه قهراً عليه لسبب ظاهر، وهو إزالة ضرر الشركة من غير ضرر يكون على المشتري، فالمشتري يعود إليه الثمن الذي بذله ولم يكن قبل هذا مالكاً متصرفاً، فأباح الشارع للمالك الأصل الذي له من التصرفات السابقة والحاضرة والمستقبلة، والعمارات وتوابعها ــ أن يتملكه من هذا المشتري الحادث، إزالة لضرره وتتميماً لمقاصده، وحقق ذلك أن كانت الشفعة في العقارات التي لم تفسر، بخلاف المنقولات ونحوها؛ لأن ضرر العقارات أكثر من غيره.

ومنها «باب الوقف» فإن الأصل في الأموال جواز التصرفات المطلقة فيها من جميع الوجوه، والوقف قد علمت أحكامه الكثيرة الخاصة المترتبة على أنه بسبيل الأصل، وتوقيف المنافع، وذلك لما يترتب عليه من المصالح المتسلسلة النافعة للحاضرين والمستقبلين، وللأحياء والأموات، وللمصالح الخاصة والمصالح العامة.

ومنها «أحكام أمهات الأولاد» فإن الأصل أن الإماء يتصرف فيها سيدها في منافعها ورقبتها، وأم الولد تختص بأحكام تميزها عن سائر الإماء، لأنه لما تولد الولد الحرِّ فيها من سيدها سرى منه شيء اقتضى ثبوت هذه الأحكام المتبعضة في حال حياة سيدها، وأنه يتصرف في منافعها دون رقابها، وبعد موته يثبت لها الخروج التام عن ملكه، فهذه الخواص لهذا السبب أوجبت اختصاصها بأحكامها المعروفة. ومنها في العبادات (الحج والعمرة) فإن فيها خواصاً اختصت بها من بين سائر العبادات، فالعبادات لا يجب إتمام نوافلها، والحج والعمرة إذا شرع فيهما يجب إتمامهما، لأن الشروع في عقديهما بمنزلة إيجاب العبد على نفسه شيئاً من العبادات، ولذا قال تعالى:

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ، فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوق وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

أي أوجب على نفسه.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾. [سورة الحج: الآية ٢٩]

فسمى متعبدات النسك نذوراً، إلا أنه أوجبها على نفسه بعقد الإحرام.

ومنها: أنَّ من عليه حَجَّةُ الإسلام لا يصح أن يصرفها عن غيرها، ولا أن يحج عن غيره، فإن فعل ذلك انقلبت إلى نفسه عن حجة الإسلام، لأن أول نُسُك ـ بعد وجوبه على المكلف ـ غير قابل لغير الفريضة الإسلامية، التي هي فريضة العمر، فمهما نوى العبد فيها من النيات المنافية لهذا القصد، بطلت تلك النيات المعارضة، وبقي الأصل سالماً.

ومنها: أن المفرد أو القارن إذا طاف للقدوم، وسعى بعده سعي الحج، ثم قلب ذلك ونسخه إلى العمرة كان هذا المشروع، والأفضل أن ذلك الطواف الذي كان للقدوم، وذلك السعي الذي كان للحج ينقلبان للعمرة ركنين من أركانها، مع أنه أدى الطواف بنية النفل، وهو طواف القدوم، وأدى السعي بنية سعي الحج، ثم انقلبا كما ترى، وهذا يعد من الغرائب، والسبب في ذلك كما قال النبي ﷺ:

(دَخَلتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

والعمرة أيضاً هي الحج الأصغر، وأيضاً إذا فسخ القِرَان والإفرادَ ناوياً التمتع، فهو في الحقيقة لم ينقض ما سبق له من الأعمال والنيات وإنما أتى بها على وجه أكمل، فهو لم يصرفها إلى شيء آخر، وإنما أدارها من صفة إلى صفة أحسن منها وأتم، كما أمر به النبي ﷺ أصحابه، بعد ما طافوا وسَعَوْا أن يجعلوها عمرة، واكتفوا بذلك الطواف والسعي عنها، مع أن أكثرهم لم يفسخ إلا بعد ما كان السعي، فللحج والعمرة من الارتباط الوثيق ما ليس لغيرهما من العبادات فهذا الذي أوجب استغراب هذه المسائل التي لا نظير لها، بل تخالف نظائرها.

ومنها: لو أراد المحرم الخروج من إحرامه قبل الفراغ من نسكه بدون عذر: حصر أو نحوه، لم يتمكن من ذلك، وفسخه غير معتبر وغير مبطل للنسك، لما ذكرنا من لزوم إتمام فرضها ونفلها، وعدم قبول النسك لشيء آخر، والله أعلم.

ومن المسائل الغريبة ـ على ما فيها من الخلاف ـ مسألة منع الرجل من الماء الذي خلت به المرأة لطهارة الحدث دون الخبث، فهي غريبة من عدة وجوه، والقائلون بها لا يعلِّلُون ذلك، بل يقولون: إن هذا تعبدي، لأنهم لا يشاهدون لها تعليلاً وجيهاً، وأما الذين يرون ضعفها فتخرج المسألة عندهم من هذا الباب، وهو الصواب، لأدلة كثيرة مذكورة في غير هذا الموضع.

ومن المسائل الغريبة: أن المسبوق في الصلاة إذا زاد إمامه ركعة سهواً لا يعتد بها المسبوق، بل يأتي بركعة غيرها ويقولون: إذا لغيت في حق الإمام لغيت في حقه، وهذا تعليل فيه ضعف كثير، فإن الإمام إنما لغيت في حقه لكونها وقعت موصوفة بصفتي: السهو والزيادة على ما يجب عليه. أما المأموم فلا وجه لإلغائها إذا كان مسبوقاً بركعة فأكثر، لأنها أصلية في حقه، لا زائدة، وأيضاً فإنه وقع الإجماع على أنه من زاد في فريضة ركعة واحدة متعمداً فصلاته باطلة، ولم يستثن من هذا العموم صورة واحدة، فَلِمَ خَرَجَتْ هذه الصورة عن هذا العموم؟

وعدم اعتبارها في حق الإمام لا يوجب خروجها؟ والله أعلم.

ومن الغرائب أيضاً: بعض عيوب الأضاحي ـ عند القائلين بها مثل العضباء ـ التي ذهب أكثر أذنها أو قرنها، والعصماء التي انكسر غلاف قرنها دون أن يُحدث مرضاً أو جرحاً ونحوهما، فإن هذا مخالف للمعهود والمعقول من العيوب الضارة، وهي: المريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البيِّنُ عرجها، والعوراء البيِّن عَوَرُهَا، والهزيلة التي لا مخ فيها، وما كان مثلها وأولى منها،

وكذلك عيوب الرقبة في الكفَّارَة، وهو عيب واحد، وهو: كل عيب يضر بالعمل ضرراً بيِّناً، فكل هذا مما ينافي المقصود.

وأما بعض عيوب الأضاحي المذكورة فعند القائلين به، يقولون: تعبدي، لأن فَقْدَها لا يضر باللحم ولا بالقيمة لغير هذا الغرض، وأما من يقول: تجزىء وليست من العيوب المانعة، وإنما هي من الكماليات، كما هو القول القوي، فيزول هذا الاستغراب.

ونظير ذلك العيوب في النكاح: عينوا منها عدة أشياء، ونفوا منها عيوباً في الحقيقة هي مثلها، أو ربما كانت أعظم منها، فيعد هذا النفي من غرائب العلم عند القائلين به، مثل: الْعَمىٰ، والصمم، وقطع اليدين والرجلين والخرس، وحيث أن القول ضعيف لا يجيب القائلون به إلا بجواب ضعيف، وأما على القول الصحيح، وهو: أن هذه الأمور من العيوب للفسخ والخيار، فيزول هذا الاستغراب، لأن العيب الحقيقي ما نقص المقصود عليه، وما منع حصول المقصود كله أو بعضه، فإذا طردنا هذا ولم نستثن شيئاً لنا أخذنا بما هو معقول مستحسن عرفاً وشرعاً، والله أعلم.

ومن غرائب العلم الصحيحة: أمور اختص بها النكاح لأسباب قد ذكرناه في السؤال والجواب، وهي أحكام متعددة.

ومن غرائب العلم عند القائلين به: أن صلاة المأموم تبطل ببطلان صلاة إمامه، مع أنه إذا لم يعلم بالبطلان إلا بالصلاة، أعاد الإمام ولم يعد المأموم، ووجه الاستغراب أن الأصل الشرعي الفقهي: أن كل مُصَلٍّ لا تبطل صلاته إلا إذا ترك بعض الشروط أو الأركان أو الواجبات لغير عذر، أو فعل بعض المبطلات، وهذه المسألة عند القائلين بها أبطلت صلاة المأموم بأمر خارج عن فعله وعمده، بل ببطلان صلاة إمامه، ويعللون هذا بأن صلاة المأموم مرتبطة بصلاة إمامه، فإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم.

والصواب القول الآخر: أنها لا تبطل، فعلى هذا القول الصحيح

لا يصير من الغرائب، بل هي جارية على الأصل، والعبادة لا تبطل إلا بالأشياء التي أبطلها الشارع، وهذه ليست منها.

ولهذا: من لم يعلم إلا بعد الصلاة، فصلاة المأموم صحيحة، والارتباط الذي عللوا به إنما هو: وجوب المتابعة لا غير.

وأما بقية الأحكام، فكل مصل له ما كسب، وعليه ما اكتسب.

ومنها بعض مسائل الاستبراء، فإن الاستبراء الغرض منه معرفة براءة الرحم من ولد الغير، لئلا تختلط المياه وتشتبه الأنساب، وذلك ــ عند الشك في اشتغال الرحم ــ معقول، وأما عند اليقين ببراءة الرحم ــ كإذا ملك الأمة من امرأة، أو صبي، أو ممن يعلم أنه استبرأها ــ فإيجاب الاستبراء غريب، ولكن يعلِّلُون ذلك بالتعبد تارة، وبالاحتياط وسد الذريعة تارة أخرى، وطريق الاحتياط مطلوب شرعاً وعرفاً، ومن العلماء من قال: إنه في هذه المسائل التي يعلم يقينا براءة الرحم بها، لا يجب استبراء، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، فعلى قولهم لا غرابة في هذه المسائل.

وأما مسائل العِدَدِ، فليس فيها شيء غريب، لأنه ليس فيها علة واحدة، وهي طلب براءة الرحم، بل لها عدة علل إذا فقد بعضها فالبقية موجودة، فإنه يقصد منها براءة الرحم وأداء حق الزوج أو الزوجة، وتطويل العِدَّة للتمكن من الرجعة، ولجريان النفقة، وللاحتياط للولد، ولغير ذلك من الحكم الظاهرة للمتأمل، والله أعلم.

ومن ذلك انتقاض وضوء الماسح على الخفين بتمام المدة، وبخلع الممسوح عند القائلين به، فإنها من النواقض الغربية، لأنه لم يحصل شيء من نواقض الوضوء: لا حدث، ولا ما هو مظنة الحدث، لكنهم يعللون بأن المسح ضرورة، ولا يجتمع مع الغسل، وهي علة ضعيفة، ومن قال: لا ينقض

الوضوء بالخلـع ولا بتمام المدة فقوله أصـح، ولم يأت دليل شرعي يدل على النقض بهما، والأصل عدم النقض، وهذا القول هو الصواب، وبه تخرج المسألة عن الاستغراب، ولنقتصر من هذه الفائدة على هذه الأمثلة التي يحصل بها التوضيـح وفتـح هذا الباب، الله الموفق.

* * *

## المسألة الثامنة

### عن العصافير إذا وقعت في ماء الاستنجاء، ثم خرجت فانتفضت فأصاب رشاشها شيئاً، فهل يجب غسله؟

هذا متوقف على الحكم بنجاسة ما وقعت فيه، وماء الاستنجاء بمجرده لا يحكم بنجاسته، فإن (الحِسْو) مثلاً الذي يستنجي به الناس، أو يبولون ويغسلون فيه، ويجتمع ماؤه إما في حفرة أو حوض نخلة أو نحوها، فإنه محكوم بطهارته، ولو كان متغيراً ريحه، فإنه من رائحة الطين المتغير الذي يسمونه (القربة) لأن النجاسة إذا كانت على الأرض، فالغسلة الواحدة تكفي فيها وتطهرها، فإذا استنجى منه أو بالَ فيه، ثم جاءه لما طهره وصار طاهراً، فإذا صار طاهراً عرف أن ما أصابه لا ينجسه، بل لو مسحه الإنسان، فلا ينجسه، وإنما هو مستعذر عند الناس، وليس بنجس، نعم: لو كان يجتمع في حفرة فيها «عذرات» أو غيرها، ويتغير الماء بتلك النجاسة، فإنه يكون نجساً فما أصابه وجب غسله، والله أعلم.

* * *

## المسألة التاسعة

### عن شق بطن الميتة لإخراج الحمل الحي

يجوز: للمصلحة وعدم المفسدة، وذلك لا يعد مُثْلةً، ولقد سئلت عن امرأة ماتت وفي بطنها ولدٌ حي هل يشق بطنها ويخرج أم لا؟ فأجبت: قد عُلِمَ ما قال الأصحاب رحمهم الله وهو: أنهم قالوا: «فإن ماتت حامل وفي بطنها ولد حي حرم شق بطنها، وأخرجه النساء بالمعالجات وإدخال اليد على الجنين» من ترجى حياته «فإن تعذر لم تدفن حتى يموت ما في بطنها، وإن خرج بعضه حيًّا شق للباقي».

فهذا كلام الفقهاء، بناءً على أن ذلك مثلة بالميتة، والأصل تحريم التمثيل بالميت، إلا إذا عارض ذلك مصلحة قوية متحققة، يعني إذا خرج بعضه حياً فإنه يشق للباقي، لما فيه من مصلحة المولود، ولما يترتب على عدم الشق في هذه الحالة من مفسدة موته، والحي يراعى أكثر مما يراعى الميت، لكن في هذه الأوقات الأخيرة، حين ترقَّى فن الجراحة صارِ شق البطن أو شيءٍ من البدن لا يعد مُثلة، فيفعلونه بالأحياء برضاهم ورغبتهم، بالمعالجات المتنوعة. فيغلب على الظن أن الفقهاء لو شاهدوا هذه الحال لحكموا بجواز شق الحامل بمولود حي وإخراجه، وخصوصاً إذا انتهى الحمل وعلم ـ أو غلب على الظن ـ سلامة المولود، وتعليلهم بالمثلة يدل على هذا.

ومما يدل على جواز شق البطن وإخراج الجنين الحي، أنه إذا تعارضت المصالح والمفاسد، قَدَّمَ أعلى المصلحتين وارتكب أهون المفسدتين، وذلك أن سلامة البطن من الشق مصلحة، وسلامة الولد ووجوده حيًّا مصلحة أكبر،

وأيضاً فَشَقُّ البطن مفسدة وترك المولود الحي يختنق في بطنها حتى يموت مفسدة أكبر، فصار الشق أهون المفسدتين.

ثم نعود فنقول: الشق في هذه الأوقات صار لا يعتبره الناس مثلة ولا مفسدة، فلم يبق شيءٌ يعارض إخراجه بالكلية، والله أعلم.

* * *

# المسألة العاشرة

## في السؤال عن جواز أخذ جزءٍ من جسد الإنسان وتركيبه في إنسان آخر مضطر إليه برضا من أخذ منه.

جميـع المسائل التي تحدث في كل وقت سواءٌ حدثت أجناسها أو أفرادها، يجب أن تتصور قبل كل شيءٍ فإذا عرفت حقيقتها وشخصت صفاتها وتصورها الإنسان تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها، طبقت على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميـع المشكلات: مشكلات الجماعات، والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة، ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميـع نواحيه وجوانبه، الواقعية والشرعية.

فنحن في هذه المسألة ــ قبل كل شيءٍ ــ نقف على الحياد حتى يتضـح لنا اتضاحاً تاماً: الجزم بأحد القولين، فنقول:

من الناس من يقول: هذه الأشياء لا تجوز، لأن الأصل أن الإنسان ليس له التصرف في بدنه بإتلاف أو قطـع شيءٍ منه أو التمثيل به، لأنه أمانة عنده لله، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

وقال ﷺ: (وَالْمُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ).

أما المال فإنه يباح بإباحة صاحبه، وبالأسباب التي جعلها الشارع وسيلة لإباحة التملكات.

وأما الدم فلا يباح بوجه من الوجوه، ولو أباحه صاحبه لغيره، سواء كان نفساً أو عضواً أو دماً أو غيره على وجه القصاص [بشروطه] أو في الحالة التي أباحها الشارع، وهي أمور معروفة ليس منها هذا المسؤول عنه.

ثم إن ما زعموه من المصالح للغير: مُعَارَضٌ بالمضرة اللاحقة لمن قطع منه ذلك الجزء، فكم من إنسان تلف أو مرض بهذا العمل، ويؤيد هذا قول الفقهاء: من ماتت وهي حامل بحمل حي لم يحل شق بطنها لإخراجه ولو غلبت على الظن، أو لو تيقن خروجه حياً، إلا إذا خرج بعضه حياً، فيشق للباقي، فإذا كان هذا في الميتة. فكيف حال الحي؟

فالمؤمن بدنه محترم حياً وميتاً، ويؤخذ من هذا أيضاً: أن الدم نجس خبيث، وكل نجس خبيث لا يحل التداوي به، مع ما يخشى عند أخذ دم الإنسان من هلاك أو مرض، فهذا من حجج هذا القول.

ومن الناس من يقول: لا بأس بذلك، لأننا إذا طبقنا هذه المسألة على الأصل العظيم المحيط الشرعي صارت من أوائل ما يدخل فيه، وأن ذلك مباح، بل ربما يكون مستحباً، وذلك أن الأصل إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، فإن رجحت المفاسد وتكافأت منع منه، وصار درء المفاسد في هذه الحال أولى من جلب المصالح، وإن رجحت المصالح والمنافع على المفاسد والمضار اتبعت المصالح الراجحة، وهذه المذكورات مصالحها عظيمة معروفة، ومضارها إذا قدرت فهي جزئية يسيرة، منغمرة في المصالح المتنوعة، ويؤيد هذا أن حجة القول الأول، وهي أن الأصل: أن بدن الإنسان محترم لا يباح بالإباحة ــ متى اعتبرنا فيه هذا الأصل، فإنه يباح كثير من ذلك للمصلحة الكثيرة المنغمرة في المفسدة بفقد ذلك العضو أو التمثيل به، فإنه يباح لمن وقعت فيه الأكلة التي يخشى أن ترعى بقية بدنه، يجوز قطع العضو المتآكل لسلامة الباقي، وكذلك يجوز قطع الضلع التي لا خطر في قطعها، ويجوز التمثيل في البدن كشق البطن أو غيره للتمكن من علاج المرض، ويجوز قلع

الضرس ونحوه عند التألم الكثير، وأمور كثيرة من هذا النوع أبيحت لما يترتب عليها من حصول مصلحة أو دفع مضرة.

وأيضاً فإن كثيراً من هذه الأمور المسؤول عنها يترتب عليها المصالح من دون ضرر يحدث، فما كان كذلك، فإن الشارع لا يحرمه. وقد نبه الله ـ تعالى ـ على هذا الأصل في عدة مواضع من كتابه، ومنه قوله عن الخمر والميسر:

﴿قل فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾

[سورة البقرة: الآية ٢١٩]

فمفهوم الآية أن ما كانت منافعه ومصالحه أكثر من مفاسده وإثمه، فإن الله لا يحرمه ولا يمنعه، وأيضاً فإن مهرة الأطباء المعتبرين متى قرروا تقريراً متفقاً عليه: أنه لا ضرر على المأخوذ من جسده ذلك الجزء، وعرفنا ما يحصل من ذلك من مصلحة الغير كانت مصلحة محضة خالية من المفسدة، وإن كان كثير من أهل العلم يجوّزون [بل يستحسنون] إيثار الإنسان غيرَهُ على نفسه بطعام أو شراب هو أحق به منه، ولو تضمن ذلك تلفه أو مرضه ونحو ذلك، فكيف بالإيثار بجزءٍ من بدنه لنفع أخيه النفع العظيم من غير خطر تلف؛ بل ولا مرض، وربما كان في ذلك نفع له، إذا كان المؤثر قريباً أو صديقاً خاصاً، أو صاحب حق كبير، أو أخذ عليه نفعاً دنيوياً ينفعه أو ينفع من بعده.

ويؤيد هذا أن كثيراً من الفتاوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال والتطورات، وخصوصاً الأمور التي ترجع إلى المنافع والمضار.

ومن المعلوم أن ترقي الطب الحديث له أثره الأكبر في هذه الأمور، كما هو معلوم مشاهد، والشارع أخبر بأنه ما من داءٍ إلا وله شفاءٌ، وأمر بالتداوي خصوصاً وعموماً، فإذا تعين الدواءُ وحصول المنفعة بأخذ جزءٍ من هذا، ووضعه في الآخر من غير ضرر يلحق المأخوذ منه، فهو داخل فيما أباحه الشارع، وإن كان قبل ذلك، وقبل ارتقاء الطب فيه ضرر أو خطر، فيراعي كل وقت بحسبه.

ولهذا نجيب عن كلام أهل العلم القائلين بأن الأصل في أجزاء الآدمي: تحريم أخذها، وتحريم التمثيل بها، فيقال:

هذا يوم كان ذلك خطراً أو ضرراً، أو ربما أدى إلى الهلاك، وذلك أيضاً في الحالة التي ينتهك فيها بدن الآدمي، وتنتهك حرمته، فأما في هذا الوقت فالأمران مفقودان: الضرر مفقود، وانتهاك الحرمة مفقود، فإن الإنسان قد رضي كل الرضا بذلك، واختاره مطمئناً مختاراً، لا ضرر عليه، ولا يسقط شيءٌ من حرمته، والشارع إنما أمر باحترام الآدمي تشريفاً له وتكريماً، والحالة الحاضرة غير الحالة الغابرة، ونحن إنما أجزنا ذلك إذا كان المتولي طبيباً ماهراً، وقد وجدت تجارب عديدة للنفع وعدم الضرر، فبهذا يزول المحذور.

ومما يؤيد ذلك ما قاله غير واحد من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه إذا أشكل عليك شيءٌ: هل هو حلال، أو حرام، أو مأمور به، أو منهيٌّ عنه؟ فانظر إلى أسبابه الموجبة، وآثاره ونتائجه الحاصلة، فإذا كانت منافع ومصالح وخيرات، وثمراتها طيبة: كان من قسم المباح، أو المأمور به وإذا كان بالعكس، كانت بعكس ذلك، طبِّق هذه المسألة على هذا الأصل، وانظر أسبابها وثمراتها تجدها أسباباً لا محذور فيها، وثمراتها خير الثمرات، وإذا قال الأولون: أما ثمرتها فنحن نوافق عليها ولا يمكننا إلا الاعتراف بها، ولكن الأسباب محرمة كما ذكرنا في أن الأصل في أجزاء الآدمي التحريم، وأن استعمال الدم استعمال للدواء الخبيث، فقد أجبنا عن ذلك بأن العلة في تحريم الأجزاء إقامة حرمة الآدمي، ودفع الانتهاك الفظيع، وهذا مفقود هنا، وأما الدم فليس عنه جواب إلا أن نقول إن مفسدته تنغمر في مصالحه الكثيرة، وأيضاً ربما ندَّعي أن هذا الدم الذي ينتقل من بدن إلى آخر ليس من جنس الدم الخارج الخبيث، المطلوب اجتنابه والبعد عنه، وإنما هذا الدم هو روح الإنسان، وقوته وغذاؤه، فهو بمنزلة الأجزاء، أو دونها، ولم يخرجه الإنسان رغبة عنه، وإنما هو إيثار لغيره، وبذل من قوته لقوة غيره، وبهذا يخف

خبثه في ذاته وتلطفه في آثاره الحميدة، ولهذا حرّم الله الدم المسفوح، وجعله خبيثاً، فيدل على أن الدماء في اللحم والعروق، وفي معدنها قبل بروزها، ليست محكوماً عليها بالتحريم والخبث، فقال الأولون: هذا من الدم المسفوح، فإنه لا فرق بين استخراجه بسكين أو إبرة أو غيرها، أو ينجرح الجسد من نفسه فيخرج الدم، فكل ذلك دم مسفوح محرم خبيث، فكيف تجيزونه ولا فرق بين سفحه لقتل الإنسان أو الحيوان، أو سفحه لأكل، أو سفحه للتداوي به؟ فمن فرّق بين هذه الأمور فعليه الدليل.

فقال هؤلاء المجيزون: هب أنّا عجزنا عن الجواب عن حِلِّ الدم المذكور، فقد ذكرنا لكم عن أصول الشريعة ومصالحها ما يدل على إباحة أخذ جزءٍ من أجزاء الإنسان لإصلاح غيره إذا لم يكن فيه ضرر، وقد قال النبي ﷺ:

(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً[1]) و(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ[2])).

فعموم هذا يدل على هذه المسألة، وأن ذلك جائز.

فإذا قلتم: إن هذا في التوادُدِ والتراحم والتعاطف كما ذكره النبي ﷺ، لا في وصل أعضائه بأعضائه.

قلنا: إذا لم يكن ضرر ولأخيه فيه نفع فما الذي يخرجه من هذا؟ وهل هذا إلا فرد من أفراده كما أنه داخل الإيثار؟ وإذا كان من أعظم خصال العبد الحميدة مدافعته عن نفس أخيه وماله، ولو حصل عليه ضرر في بدنه أو ماله، فهذه المسألة من باب أولى وأحرى، وكذلك من فضائله تحصيل مصالح أخيه وإن طالت المشقة وعظمت الشقة، فهذه كذلك، وأولى.

---

(١) متفق عليه، ورواه الترمذي والنسائي عن أبي موسى.
(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم عن النعمان بن بشير.

ونهاية الأمر: أن هذا الضرر غير موجود في هذا الزمن، فحيث انتقلت الحال إلى ضدها، وزال الضرر والخطر، فلم لا يجوز؟ ويختلف الحكم فيه لاختلاف العلة، ونلاحظ أيضاً في هذه الأوقات التسهيل ومجاراة الأحوال، إذا لم تخالف نصاً شرعياً، لأن أكثر الناس لا يَسْتَفْتُونَ ولا يبالون، وكثير ممن يَسْتَفْتِي إذا أُفْتِيَ بخلاف رغبته وهواه تركه ولم يلتزمه، فالتسهيل عند تكافؤ الأقوال يخفف الشر، ويوجب أن يتماسك الناس بعض التماسك، لضعف الإيمان وعدم الرغبة في الخير، كما يلاحظ أيضاً أن العرف عند الناس أن الدين الإسلامي لا يقف حاجزاً دون المصالح الخالصة، أو الراجحة، بل يجاري الأحوال والأزمان ويتتبع المنافع والمصالح الكلية والجزئية، فإن الملحدين يُمَوِّهُون على الجهال أن الدين الإسلامي لا يصلح لمجاراة الأحوال والتطورات الحديثة، وهم في ذلك مفترون، فإن الدين الإسلامي به الصلاح المطلق من كل وجه: الكلي والجزئي، وهو حَلَّالٌ لكل مشكلة خاصة أو عامة، وغير قاصر من جميع الوجوه.

* * *

## المسألة الحادية عشرة

### عن الواجبات في مال الإنسان الذي يملكه، وهل لذلك حد في الشرع؟ وما مقداره وصفته؟

بين الشارع للعباد كل ما يحتاجونه، وخصوصاً الواجبات التي هي أهم المهمات: الواجبات على القلب، والواجبات على البدن، والواجبات من الأقوال والأعمال، وكذلك وضح الواجبات المالية توضيحاً تاماً مجملاً، فأمر بأداء الحقوق المالية، وحث عليها، ومدح القائمين بها، وذم المانعين لها أو لبعضها، وفصَّل ذلك بذكر الأموال التي تجب فيها الزكاة وشروطها ونصبها، ومقدار الواجب فيها، وهذا أعظم الواجبات المالية، وفصل كذلك ما في المال من النفقات على النفس والأهل والعيال والمماليك من الآدميين، والبهائم. وبيّن أيضاً وجوب الوفاء بالعقود والمعاملات ـ على اختلاف أنواعها وتباين أسبابها ـ وبين ما يتعلق بالمال من الحقوق العارضة لحاجة الغير، من ضعيف ونحوه، ولاضطرار الغير، فأوجب مواساة المضطرين ودفع اضطرارهم، ومن ذلك إلزام الناس بالمعاوضات التي تجب عليهم، فإن إلزام الناس بالمعاوضات والتسعير عليهم:

منها ما هو ظلم محرم، كإكراههم على البيع بثمن لا يرضونه، أو منعهم مما أباحه الله لهم.

ومنها ما هو عدل، مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل، ومنعهم مما يحرم عليهم من الزيادة على عوض المثل، ومثل التسعير على

العمال ومن يحتاج الناس إليهم، ومنعهم من أخذ الزيادة الفاحشة، كما يمنع الناس من هضمهم لحقوقهم.

ففي أمثال هذه المسائل، على الناس مراعاة العدل، ومنع أسباب الظلم:

وهذه الأمور منها أشياء واضحة لكل أحد، ومنها أشياء يكون فيها اشتباه والتباس يجب أن تحقق وتفحص فحصاً تاماً. لتعرف مرتبتها، فما دامت مشتبهة فالأصل تحريم أموال الغير، والأصل إبقاء الناس على معاملاتهم، واحترام حقوقهم حتى يتضح ما يوجب الخروج عن هذا الأصل لأصل شرعي أقوى منه وأولى، وأما ما يهذي به كثير في الناس عندما انتشرت الشيوعية وشاعت دعايتها، وأثرت على كثير من أهل العلم العصريين، وأنه يسوغ لأولياء الأمور أن يلزموا أهل الغنى والثروة أن يواسوا بذلك أهل الحاجة والفقراء، وأن يفتتوا ثروتهم على أهل الحاجات، وأن يسددوا بزائد ثروتهم جميع المصالح المحتاج إليها بغير رضاهم، بل بالقهر والقسر، فهذا معلوم فساده بالضرورة من دين الإسلام. وأن الإسلام بريء من هذه الحالة الشيوعية، ونصوص الكتاب والسنة على ذلك في القول صريحة جداً وكثيرة، وإجماع الأمة يبطل هذا المنافي لنصوص الكتاب والسنة، والمنافي للفطرة التي فطر الله عليها العباد، والفاتح للظلمة والطغاة أبواب الظلم والشر والفساد، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، وقد جعل العباد بعضهم فوق بعض درجات في كل الصفات: في العقل والحمق، وفي العلم والجهل، وفي حسن الخلق وسوء الخلق، وفي الغنى والفقر، وفي كثرة الأولاد والأموال والأتباع وضد ذلك، حكم بذلك قَدَراً ويسر كلًّا لما خلق له، وأوجب على كل من أعطاه الله شيئاً من هذه النعم وغيرها واجبات حدّدها وبينها وفصلها، وجعل لنيل المطالب الدنيوية والمطالب الأخروية أسباباً وطرقاً، من سلكها أفضت به إلى مسبباتها وأوصلته إلى نتائجها.

وهؤلاء المنحرفون يريدون أن يبطلوا قَدَر الله وشرعه، ويسوغوا لآرائهم شبهاً لا تسمن ولا تغني من جوع، ويضعون ذلك الشرع تحريفاً منهم، وقد اغتر بهذه الآراء الشيوعية كثير من العصريين، وكثر الداعون إلى هذه الطريقة الشنيعة تغريراً واغتراراً، ولكن البصير لا يخفى عليه الأمر. والمعصوم من عَصَمَهُ الله.

وقد يروجون هذا الباطل بأن تضخم المال في أيدٍ قليلة سبب لمفسدة الترف المفسد للأخلاق، وسبب لإثارة الأحقاد من الفقراء المعدمين، وهذا غلط فاحش، فإن الغنى قد يكون سبباً للطغيان، وقد يكون سبباً للتواضع والتزود من طاعة الرحمن.

وعلى فرض ما فيه من المفاسد فإن ما حاولوه من القضاء على الثروة سبب لشرود عظيمة، وسبب لإثارة فتن وشرور كثيرة، عكس ما قالوه.

وما قالوه في زيادة ثروة المال يقال في زيادة قوة الجسد وصحة البدن، فإنه قد يبعث على شرور، وقد يتوسل به إلى خيرات.

وهكذا كل ما أعطاه الله للعباد من المميزات والفضائل البدنية والمالية والرئاسات والأولاد والأتباع، كل ذلك لا بد منه.

ولا يمكن محاولة إبطاله وصرف سنن الباري التي أجراها على عباده، والله تعالى قد كفى العباد مؤونة وأضرار الثروة بما شرعه من الحقوق المالية الواجبة والمستحبة، التي لو قام بها أرباب الأموال لكانوا من خير البرية أخلاقاً وأعمالاً، وأشرفهم وأعظمهم اعتباراً، ولكن لما منع أكثر الخلق ما أوجبه الله عليهم سلط عليهم أنواع الظلمة، من ولاة ظالمين، ومن فتاوي الجاهلين المتجرئين.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٢٩]

واعلم أن الشبه التي تثار لنصر كل باطل ـ إذا فرض صحة بعضها ـ فإنها نظريات ضئيلة جداً، ونظر قاصر، حيث نظروا نظراً جزئياً، وملاحظة

جزئية، وعَمُوا عن الأصول التي تبنى عليها الأحكام، ويعتبرها الشرع، وتتولد عن المصالـح الكلية، وتنغمر فيها المضارّ الجزئية، وتوافق الفِطَرَ، وتدع الخليقة هادئة، والأسباب قائمة، والارتباط بين الناس قائماً.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٣٢]

* * *

# المسألة الثانية عشرة

## عن العمل بالبرقية، وأصوات المدافع، والبواريد في ثبوت الصوم والفطر

لا ريب أن كل أمر مهم عمومي ـ يراد إعلانه وإشاعته والإخبار به على وجه السرعة والتعميم ـ يسلك فيه طريق يحصل به هذا المقصود، فتارة ينادى فيه على وجه التصريح أو الإجمال القولي، وتارة يعبر عنه بأصوات عالية، كالرمي ونحوه مما له نفوذ وسريان إلى المحال والأماكن البعيدة، وتارة بالبرقيات المتنوعة، ولم يزل الناس على هذا: يعبرون ويخبرون على مثل هذه الأمور بأسرع وسيلة يتعمم ويشيع فيها الخبر. وهم على هذا المعنى مجتمعون، وبالعمل به في الأمور الدينية والدنيوية متفقون. وكلما تجدد لهم وسيلة أسرع وأنجح مما قبلها أسرعوا إليها، وقد أقرهم الشارع على هذا الجنس والنوع، ووردت أدلة وأصول في الشريعة تدل عليه، فكل ما دل على الحق والصدق والخبر الصحيح ـ مما فيه نفع للناس في أمور دينهم ودنياهم ـ فإن الشارع يقره ويقبله، ويأمر به أحياناً ويجيزه أحياناً، بحسب ما يؤدي إليه من المصلحة، فالشارع لا يرد خبراً صحيحاً بأي طريق وصل، ولا ينفي حقاً وصدقاً بأي وسيلة ودلالة اتصل، وخصوصاً إذا استعاض ذلك، واحْتَفَّتْ به القرائن المتنوعة، فاستمسك بهذا الأصل الكبير، فإنه نافع في مسائل كثيرة، ويمكنك ـ إذا فهمته ـ أن تطبق عليه كثيراً من الأفراد والجزئيات الواقعة، والتي لا تزال تقع، ولا تقصر فهمك عنه فيفوتك خير كثير، وربما ظننت كثيراً من الأشياء بِدَعاً محرمة إذا كانت حادثة ولم تجد لها تصريحاً في كلام الشارع، فتخالف بذلك الشرع والعقل وما فطر عليه الناس.

# فصل

فإذا فهمت هذا الأصل، فقد عُلِمَ وتقرر أن الناس في كل قطر وبلد: يجرون في أمورهم على الأحكام الشرعية في صومهم وفطرهم وعباداتهم، وعندهم حاكم شرعي، فإنه متى ثبت عنده بالطريق الشرعي وجوب الصوم والفطر، فإنه في الغالب لا يطلع على مستند هذا الحاكم الشرعي إلَّا من باشره من قاض ومباشر للقصة ومن حضرها؛ وأما من سواهم من أهل البلد ــ فضلاً عن أهل القطر، فضلاً عن بقية الأقطار ــ فإنما يصل إليهم الخبر بما يثبت به ذلك الخبر ويشاع من قالة يتناقلونه، أو نداء في الأمكنة المرتفعة وغيرها، أو رمي بمدافع ونحوها، أو ببرقيات: ليصل الخبر إلى القريب والبعيد، فهذا عمل متصل جنسه في جميع قرون الأمة من غير نكير، وإن كان بعض أفراده لم تحدث إلا من قريب، كالبرقيات ونحوها، فعلم أن الأمة مجمعة على العمل بهذا النوع من الأدلة المعتادة.

ومما يدل على ذلك: أن الاستفاضة في الأخبار من جملة الطرق الشرعية التي تفيد صدق مخبرها، حتى إن الفقهاء ــ رحمهم الله ــ جعلوا شهادة الشهود تارة تستند إلى ما يراه الشاهد ويسمعه من المشهود عليه، وتارة على ما يسمعه من أخبار الاستفاضة، فيشهد بما استفاض، مستنداً على الاستفاضة، وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة.

ومن المعلوم: أن الاستفاضة الحاصلة من رمي المدفع ونحوه، والبرقيات ونحوها أبلغ بكثير من الاستفاضات المفيدة للعلم، خصوصاً وقد أيّد ذلك شاهد الحال، واحتفت به القرائن الكثيرة التي تدل دلالة يقينية على ثبوت ذلك الخبر، وكذلك العادة المطردة والعرف المستقر الذي جرى عليه الناس في بث هذه الأخبار، مع قرينة تشوّف الناس، والاشتباه في الوقت، مع أن الأخبار بالرمي والبرق ونحوها من الأمور الرسمية التي لا يجري عليها أحد من العامة

إلا عن طريق أمر الحكام وأولياء الأمور وإذنهم، فمتى عرفتَ الواقع لم يبق عندك في ذلك الخبر شك، وعرفت أنه خبر يفيد العلم. وإذا كانت أخبار الآحاد إذا احتفت بها القرائن أفادت العلم، فكيف بمثل هذه الأخبار المستفيضة المؤيدة من الحكام الشرعيين؟!

ومما يدل على ذلك من الأصول الشرعية، أن النبي ﷺ لمَّا قدم المدينة وتشاور المسلمون في تعيين أمر يعرفون به الوقت والحضور للصلوات الخمس في أوقاتها، فمنهم من أشار بالبوق، ومنهم من أشار بالناقوس، ومنها من أشار بإيقاد النار، ومنهم من أشار ببعث من ينادي للصلاة والحضور إليها، فاختار الله هذا الأذان المبارك الذي لا تعد خيراته ومصالحه ولله الحمد.

والمقصود أنهم اتفقوا على أنَّ هذه الأشياء التي ذكروها متى اتفق الناس على واحد منها، أفادتهم العلم بدخول الوقت، وبعضها أصوات تسمع، وبعضها نار تشاهد، فَعُلِمَ أنَّه قد تقرر عندهم حصول المقصود بها، ولكنهم يبحثون أيّها أنسب، ومثل هذا لا يخفى على النبي ﷺ، فلو كانت هذه الأمور ونحوها لا يحصل بها العلم المطلوب الإعلام به، لأخبرهم بذلك ولما أقرهم على هذا البحث.

ونفس الأذان الذي اختاره الله للمسلمين لمعرفة دخول الوقت، هو من هذا القبيل، فإن المؤذِّنين ينادون في أوقات الصلاة بألفاظ الأذان، وهي ثناء على الله وشهادة له بالتوحيد، ودعاء مطلق للصلاة والفلاح، فيكون هذا كالتصريح بقولهم: دخل الوقت.

ومسألة رمي المدافع، وإرسال البرقيات المعتمدة في الخبر عن ثبوت الأشهر من هذا الجنس، وهي بسبب تحريرها والعناية التامة بها أقرب إلى الصواب، لأنها لا تكون إلاَّ بعد الثبوت والتروي من الخبر الذي لا تردد فيه، وبعد أن يعتمد عليها ولاة الأمر وحكَّام الشرع، فالتحقيق بها أتم، والغلط فيها أبعد.

يؤيد هذا: أن من قواعد الشريعة أنَّ «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» وما يحصل المأمور أو لا يتم إلا به فهو مأمور، وهذه الأمور متى ثبتت عند أولياء الأمر، تعين عليهم أن يخبروا بها الناس ويبثوها بينهم، بحسب قدرتهم بأسرع وقت يمكن، ليصوموا ويفطروا، ويصلوا ويقيموا الأمور الشرعية.

ومن المعلوم أن الرمي، وإرسال البرقيات أبلغ من مجرد نداء المصوّتين بثبوت الشهر، ويشيع الخبر بها بأسرع وقت، فأقل الحالات فيها أنها مستحبة، والقاعدة الشرعية تقتضي وجوبها ـ مع القدرة عليها ـ إذا تباعدت الأقطار ولم يحصل المقصود إلا بها.

هذا من جهتها في نفسها، وأما المبلَّغون المخْبَرون بها، فإنه يتعين عليهم العمل بمضمون ما دلت عليه من الصيام أو الفطر، ودخول الأوقات وغيرها.

ومما يدل على ذلك أن مقصود الإخبار بالرمي والإبراق ونحوه، هو: ترجمة وتعبير عما تقرر عليه الأمر عند أهل الحكم الشرعي، وهي ترجمة يفهمها كل أحد، لأنها تعبير عن أمر يتفق عليه أولو الأمر والحكام على الناس، ويعرفه الناس معرفة لا يشكون فيها وفي المراد منها، وما كان هكذا فالشريعة لا ترده، بل تقبله وتأمر به عند تيسره، والترجمة التي يحصل بها العلم لم يزل العمل بها على أي طريقة وصفة كانت، ويدل على هذا أن النبي ﷺ قد أمر بالتبليغ عنه، وتبليغ شرعه، وحث على ذلك بكل وسيلة وطريقة.

والتبليغ أنواع متعددة، فتارة: تبليغ ألفاظ الكتاب والسنة، وتارة تبليغ معانيها، وتارة تبليغ الأحكام الثابتة شرعاً ليصل علمها إلى الناس، فيتمكنون من العمل بما شرعه الله، والإخبار بالرمي والإبراق من هذا النوع، فإنه إذا ثبت بالطرق الشرعية وجوب الصيام أو الفطر على الناس، أو وجوب شريعة من الشرائع: تعين على ولاة الأمر تبليغ الناس بأسرع ما يقدرون عليه؛ ليقوم الناس بما أمر الله به ورسوله في الصيام والفطر والصلاة وغيرها، وكلما كان

الطريق للتبليـغ به أقوى وأسرع أو أشمل، كان أولى من غيره، وكان داخلاً في تبليـغ الأحكام الشرعية، فدخل في هذا تبليغهم بجميـع المقرِّبات، وبذلك يعلم حكم إيصال أصوات المبلِّغين عن الشارع من الخطباء والوعاظ وغيرهم بالآلات الموصلة للأصوات إلى مسامـع الخلق.

وهذه المسألة أوضـح من أن يحتـج لها، لكن لَمَّا حصل الاشتباه فيها على كثير من الناس احتيـج إلى بيان الأصول الشرعية التي أخذت منها.

ومما يؤيد ذلك ويوضحه: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر واجبات الدين، ومن أعظم ما يدخل في ذلك أنه إذا ثبتت الأحكام الشرعية التي يتوقف عمل الناس بها على بلوغ الخبر، فإنه يتعين على القادرين إيصالها إلى الناس بأسرع طريق، وأحسن وسيلة يتمكنون بها من أداء الواجبات وتوقِّي المحرّمات، ولا يشك أحد أن إشاعة الأحكام وتعميمها إذا ثبتت بالأصوات والرمي، فما هو أبعد مدىً منه، وأبلـغ انتشاراً: مما يدخل في هذا الأصل الكبير.

ومما يدل على ذلك أن صدور هذه الأخبار بالإبراق ونحوه تقـع محررة منقحة، يندر جداً وقوع الخطأ والغلط فيها فضلاً عن التعمد ومخالفة ما ثبت عند ولاة الأمر. والناس قد عرفوا واصطلحوا: أنها إذا حصلت فإنها لا تصدر إلَّا بعد عرضها على الحكام الشرعيين، وتنقيحها وثبوتها ثبوتاً لا تردد فيه، وأنها أبلـغ من شهادة الشهود التي تحتمل السهو والغلط أكثر من هذا، وهذه الأشياء لا يمكن التقول أو الافتئات فيها على ولاة الأمر، وإذا كان الناس يعتمدونها في أمور دينهم ودنياهم، كالولايات والوكالات في النكاح، والعقود، والمواريث، وموت الأزواج، ويثبتون مقتضى ذلك من: العدة، والإحداد، والميراث، وغير ذلك، وكإخراج الزكاة، والكفارات، وكالحوالات، والتنقّل من محل إلى محل، ونحو ذلك، مما لا يحصى، فما المانـع من قبولها في ثبوت الأشهر والصيام والفطر ونحوه، وهي في هذه الحال قد احتفت بها من القرائن المحققات، والضبط

والتحرير ما لا يوجد في غيرها خصوصاً الصادرة في مقر الحاكم الشرعي؟ وهذا واضح ـ ولله الحمد. فالشارع لا يرد خبراً صادقاً، ولا ينفي طريقاً يحصل به الثبوت، ولا يفرق بين المتماثلات، وإنما يتوقف في خبر المجهول ومن لا يوثق بخبره، أو من محل لا حاكم فيه، فهذا النوع يجب التثبت في خبره.

والحاصل أن إيصال الأخبار بالرمي والبرقيات، ونحوها مما يوصل الخبر إلى الأماكن البعيدة هو عبارة وتعبير عما اتفق عليه ولاة الأمر، وثبت عندهم مقتضاه، وهو من الطرق التي لا يرتاب الناس فيها، ولا يحصل لهم أدنى شك في ثبوت خبرها، ومن توقف فيها في بعض الأمور الشرعية، فلم يتوقف لشكه في أنها أفادت العلم، وإنما ذلك لظنه أن هذا الطريق المعيّن لم يكن من الطرق المعتادة في الزمان الأول، وهذا لا يوجب التوقف، فكم من أمور حدثت لم يكن لها في الزمان الأول وجود، وصارت أولى وأحق بالدخول من كثير من الأمور الموجودة قبل ذلك، والله أعلم.

* * *

# المسألة الثالثة عشرة

## عن سُبع البدنة أو البقرة، وهل يقوم مقام الشاة في الإجزاءِ والإهداءِ؟

اعلم أن الكلام في هذه المسألة يتحرر في فصلين:

الفصل الأول: في إجزاء الشاة عن سُبع البدنة وإجزاء سبع البدنة عن الشاة في الأضاحي والهدي والفدية.

ثبت في صحيح مسلم، من حديث جابر رضي الله عنه، قال: (أَمَرَنَا رسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ في الإبلِ والْبَقَرِ: كُلّ سَبْعَة مِنَّا بِبَدَنَةٍ).

فقد أقام ﷺ في هذا الحديث سبع البدنة، أو سبع البقرة عن شاة، فلا يجزىء سبع البدنة إلاّ عن واحدة في الهدْي والأضاحي، كما لا تجزىء الشاة فيهما إلا عن واحد. وكما هو مقتضى الحديث، فهو مذهب جمهور العلماء خلافاً لطائفة من أهل العلم كإسحاق بن راهويه وغيره، حيث قالوا: إن البدنة تجزىء عن عشرة، وعن عشر شياه، وهذا هو المتقرر في أذهان أهل العلم، ولهذا ترجم «المجد» في «المنتقى» لهذه المسألة فقال: «باب إجزاءِ البدنة والبقرة عن سبع شياه».

ثم ذكر حديث جابر وحديث ابن عباس في ذلك، فهذا الباب لا تجزىء فيه الشاة الكاملة عن أكثر من أُضحية، ولا يجزىء فيه سبع البدنة أو سبع البقرة كذلك عن أكثر من أُضحية.

الفصل الثاني: في إهداء الشاة أو إهداء سبع البدنة أو سبع البقرة لأكثر من واحد في الأضاحي، فقد ثبت أنه ﷺ ذبح كبشاً وقال:

(هَذَا عَنْ مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد). ج.

فأهدى ثواب الكبش لنفسه وآله، الحي منهم والميت، كذلك لو ذبح بعيراً وأهدى سبعه ضحية فيه لنفسه ولوالديه وغيرهم وصلهم ثوابه، كما يصل ثواب الشاة إذا أهداها للمذكورين أو غيرهم من غير فرق.

ولم يفرق الشارع بين الشاة وبين سبع البدنة في الأضاحي، فإذا فرقنا بينهما، وقلنا: الشاة يجوز إهداؤها لأكثر من واحد، صار هذا الفرق لا دليل عليه، بل هو مناقض للدليل، ومن قال: الشارع لم يجعل البدنة لأكثر من سَبْعَة، يقال له أيضاً: الشارع لم يجعل سَبْع شياه لأكثر من سبعة، وهذا في باب الإجزاء كما تقدم في الفصل الأول، وأما في باب الإهداء فالأمر فيه واسع، وكما أن هذا مقتضى الأدلة الشرعية، فهو منصوص فقهاء الحنابلة في عدة مواضع.

الموضع الأول: في آخر «كتاب الجنائز» قالوا في كتبهم المطولة والمختصرة، «الإقناع» و«المنتهى» و«المقنع» وشروحها وغيرها: وأي قربة فعلها المسلم وأهداها أو بعضها، كنصفها، وثلثها، وربعها، لمسلم حيٍّ أو ميِّت جاز وَنَفَعَهُ ذلك، ومثلوا بالصلاة والصيام والصدقة والحج والأُضحية، فمنهم من صرح في نفس هذه المسألة في الأضحية في هذا الموضع، ومنهم من عمم بجميع القُرَبِ. وهذا نص صريح منهم: أن مَنْ أهدى أضحية سواء كانت من الغنم أو من الإبل أو من البقر، أو أهدى بعضها كالنصف، والثلث، والربع، وأقل من ذلك أنه يصل إلى المهْدَى إليه، وينتفع به، فإذا قال في حياته: هذه أضحية عني وعن والدي، وذبحها من الغنم أو البدن، فحكمها واحد، وكذلك لو أهداها بعد وفاته، وجعلها في وصيته، وأمر أن ينفذ له أضحية له ولوالديه، أو غيرهما جاز، سواء كانت شاة أو سبع بدنة، أو بقرة،

ومن قال: إن أضحية الشاة تصل إليهم، وأُضحية سُبْع البدنة أو البقرة لا تصل، فقد أتى بشيءٍ من عنده، وخالف الأصحاب، كما خالف دليل السنّة بغير مستند شرعي؛ إلا أن يقول في هذا المقام: إن الأضحية لا تطلق إلا على شاة، وأما سبع البدنة أو سبع البقرة فلا يسمى أضحية، وهذا مخالف للنص والإجماع، وهذا مما يبين لك أن قول الأصحاب في الأضحية والهَدْي: وتُجزي البدنة والبقرة عن سبعة: أنها تكون سبع أضاحٍ، وأنها في باب الإجزاء لا تجزىء إلا عن سبعة كسبع شياه، ليس مرادهم أن سبع البدنة والبقرة لا يهدي لأكثر من واحد، لأنه لو كان كذلك لتناقض كلامهم، ولكنه ــ ولله الحمد ــ متفق في الموضعين، ففي باب إجزاء الأضاحي يقال: إن سُبْع البدنة والبقرة عن سبعة، وإنها سبع أضاحٍ لا أكثر، مما عليه النص الشرعي، وفي باب الإهداء يجوز إهداء سبعها لأكثر من واحد كما تهدى الشاة لأكثر من واحد، مع أنها أضحية واحدة لا تجزىء إلا عن أضحية واحدة، فالواجب الفرق بين البابين، وألا يخلط بين البابين، فيختلط الأمر على صاحبه، يوضح هذا: أنه لو أهدى صلاة واحدة، أو صيام يوم واحد، أو صدقة بدرهم واحد، ونحوه لأكثر من واحد: لوصل إليه، فما بال الأضحية لا تصل إلا إذا كانت من الغنم؟

من نظر إلى كلامهم في هذه المواضع جزم بلا امتراءٍ أن الطريق واحد في الأضاحي كلها، سواء كانت من الغنم أو الإبل أو البقر.

* * *

## المسألة الرابعة عشرة

### عن الحكم فيما إذا أراد أن يرد المبيع، وقد نقص السعر نقصاً فاحشاً فامتنع البائع إلا أن يقبل الأرش

ثبوت خيار الرد بالعيب لا ريب فيه، ولكن لا تخلو الحال: إما أن يكون البائع قد علم بالعيب وكتمه على المشتري، وإما أن لا يعلم.

فإن كان عالماً بالعيب وأخفاه على المشتري، فهذا حرام عليه، وهو آثم ظالم.

وقد ذكر الأصحاب أنه لو تلف في هذه الحالة كان ضمانه على البائع، ويرجع المشتري بكل الثمن، ومن باب أولى وأحرى إذا نقص السعر عند المشتري نقصاً فاحشاً، فإنه يذهب على البائع، فإن رده استحق المشتري على البائع ذلك النقص، وإن أعطى الأرش للعيب الذي لم يعلمه المشتري، فالأمر واضح، وإن لم يدلس البائع على المشتري العيب، ووجد المشتري بما اشتراه عيباً، وكانت السلعة بحالها لم تعب عنده، ولم ينقص سعرها نقصاً فاحشاً، فله الرد بلا إشكال ولا نزاع، وإن لم يتبين له العيب إلا بعد أن رخص السعر رخصاً ظاهراً، ثم أراد ردها، فعموم كلام الأصحاب: أن له الرد، يشمل هذه الحال، وعموم كلامهم الآخر في قولهم: إذا تعذر الرد تعين الأرش، يقتضي أنه في هذه الحال يتعين الأرش لتعذر رد المبيع على صفته وقت البيع، لأن من أعظم أوصافه رغبة الناس فيه، وارتفاع سعره.

فالذي أرى في هذه المسألة: أنه ليس له الرد، وإنما له الأرش للعيب على البائع، أو يردها ويرد معها نقص السعر، وذلك لعدة أوجه:

منها: أن الشارع إنما مكنه من الرد لأجل العيب الذي كان عند البائع، ولم يمكنه لعيب عند المشتري، أو لنقص سعر، وهذا الراد لم يرده لأجل العيب وحده، وإنما رده لأجل الأمرين، وربما كان معظم مقصوده بالرد لأجل نقص السعر.

ومنها أن كلام الأصحاب مطلق، ويتعين حمله على الرد الذي تكون السلعة بحالها لم تتغير بنقص ذاتي أو عيبي أو تقويمي، فكما أنه إذا نقصت ذات المبيع عند المشتري، أو حدث بها عيب عنده، فإن هذا النقص وهذا العيب إنما حدث على ملك المشتري، ليس له أن يرده أو يحسبه على البائع، فكذلك إذا نقص السعر، ولا فرق بين هذه الأمور الثلاثة، ويؤيد هذا أن إطلاق كلامهم الذي لا يختلفون فيه، أنه لا يرد السلعة لنقص السعر الحادث عنده، وأنه لو شرط ردها لنقص السعر، كان شرطاً لاغياً، فحِفْظُنَا هذا العموم الموافق للعدل أولى من الأخذ بعموم كلامهم السابق.

ومنها أنه لو اشترى فوجد فيه عيباً قديماً، وأراد رده بعد ما حدث عند المشتري عيب جديد، لم يمكَّن من الرد إلا إذا أعطى المشتري البائع أرش العيب الحادث. فكذلك النقص الحادث عند المشتري لنقص السعر، مثل حدوث العيب. فإن قلت: قد صرح الأصحاب في «باب الغصب» أن على الغاصب رد المغصوب ورد نقصه، إلا إذا كان النقصُ نقصَ سعر، فلا يرده.

قلت: هذا القول في غاية الضعف، فإن الصحيح من القولين ــ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ــ أن الغاصب يضمن المغصوب من كل وجه، حتى نقص سعره. فلو غصبه شيئاً يساوي ألفاً فرده بعد نقص سعره فصار يساوي خمسمائة، فعليه خمسمائة لما نقص من سعره، فهل من العدل أنَّ الغاصب لا شيء عليه ولا يضمن شيئاً في هذه الحال، ثم نقول: ليس من العدل أن يبيع سلعة تساوي ثمناً كثيراً وقت العقد، ثم إذا وجد فيها عيباً بعد مدة، وقد نزل السعر نزولاً فاحشاً، أنه يردها مجاناً، ونزول السعر إنما كان على

نصيب المشتري بالاتفاق، فكيف يعود النقص على البائع؟ وإنما على البائع نقص العيب السابق للبيع فقط.

يوضح هذا: أنه لو اشترى شيئاً يساوي مائة مثلاً، ثم زاد السعر وغلت السلع فوجد فيه عيباً، وأراد المشتري أرش العيب، وأراد البائع رد المبيع الذي زاد عند المشتري أضعاف أرشه، فإن الأصحاب لا يمكنونه من ذلك، ولا أحد يمكنه. ويقولون: الزيادة حصلت على ملك المشتري، فهي له، فله اختيار الأرش. فإذا كانت الزيادة له، فكيف لا يكون النقص عليه والجميع حادث في ملكه وعلى ملكه؟

ومنها: أن في تمكين المشتري من الرد في هذه الحال بلا شيءٍ إضراراً بالبائع، إذ فوت عليه البيع أوقات الغلاء وفرص المواسم، والضرر مدفوع شرعاً، وأما ضرر المشتري الذي يجب دفعه عنه، فهو نقص العيب، فله عنه الأرش.

ومنها: أن التمكين المذكور، يفتح باب النزاع والخصام فقل أحد يشتري سلعة ثم تكسد عنده، وينقص ثمنها نقصاً فاحشاً إلا تتبع ما فيها من العيب، وربما جعل ما ليس عيباً توصلاً إلى حصول غرضه من الرد حين حصلت.

ومنها أن الأعمال بالنيات، والحيل على إبطال الحقوق باطلة. فإذا عرفنا أن قصد المشتري من الرد إنما هو لأجل كساد الشيء عنده، ورخصه لا لأجل العيب وحده أو لأجل الأمرين، كان تمكينه من الرد لهذا الغرض غير سائغ، وحيلة لا تتمشى على القواعد الشرعية.

ومنها: أنه إذا تعذر الرد لتلف أو إتلاف أو تعيب، أو تصرف يمنع الرد، تعين الأرش. وهنا تعذر رد السلعة بالحال التي هي عليها وقت العقد، ونزلت قيمتها نزولاً فاحشاً فتعذر ردها كما هي، فتعين الأرش. فالذي ينبغي أن يقال هنا:

إما أن يقبل أرش العيب أو يردها ويرد معها نقص السعر، أو يبذلها له البائـع بمثلها سليماً من العيب إذا أمكن وهذه المسألة كلما تأملها البصير حق التأمل عرف أن هذا هو الصواب الذي لا ريب فيه، والله أعلم.

* * *

# المسألة الخامسة عشرة

## عن الحكم فيما إذا اشترى طعاماً بكيل وكال عشرة آصع ووزنها ثم أخذ الباقي وزناً مثل العشرة

أما المشهور من المذهب: فلا بد من اعتبار الجميع بمعياره الشرعي، وبالذي سمي به العقد، ويعللون ذلك بالجهالة، وعلى هذا القول فالتحريم في مثل هذه المسألة التي جهالتها يسيرة جداً أخف مما جهالته كثيرة، وهذا معنى ينبغي التفطن له، وهو أن الأصحاب رحمهم الله ذكروا تحريم جميع الصور والمسائل التي فيها جهالة، ولكن التحريم يتبع كثرة الجهالة وقلتها، فما كثرت جهالته دخل في أمور الميسر دخولاً ظاهراً، وصار من كبائر الذنوب، ولهذا كان هذا النوع مما لا يوجد فيه خلاف، إلا خلافاً شاذاً لا يعتبر، وما قلَّت جهالته فإنهم وإن قالوا: لا يحل، ولا يجوز، فلا يلحق بالأول: بأنه من كبائر الذنوب، بل تحريمه عندهم أخف، وهذا النوع يكثر التنازع فيه بين أهل العلم.

منهم من يدخله في الغرر فيمنعه نظراً لمجرد الجهالة، أو حسمًا وسداً للذريعة.

ومنهم من يجيزه، لأن جهالته لا تدخله في القمار، والحاجة تدعو إليه كثيراً. وما دعت إليه الحاجة وهو لا يخالف قاعدة شرعية مخالفة بينة، فالشارع ـ من حكمته ورحمته ـ لا يحرمه.

فهذه أصول مآخذ أهل العلم، ومسألتكم من النوع الأخير.

والذي أرى إذا كان الطعام جنساً واحداً فلا بأس به، وهو أحد القولين في المذهب، والوزن في الغالب أزيد تحريراً من الكيل في الأشياء التي من جنس ونوع واحد، بخلاف ما إذا كان بعضها ثقيلاً وبعضها خفيفاً، فإن التفاوت بين كيلها ووزنها ظاهر، والله أعلم.

* * *

# المسألة السادسة عشرة

## عن حكم الأنواط (أوراق النقد) المتعامل بها الآن. يتحرر الجواب عنها بفصلين:

# الفصل الأول

## في وجوب الواجبات بها، مثل الزكاة، والنفقات، وغيرها

وليس الإشكال المسؤول عنه في حكم هذا الفصل فإن أحداً من أهل العلم لا يشك ولا يستريب أن من ملك نصاب زكاة، وحال عليه الحول تجب عليه الزكاة، وكذلك تجب فيها الكفارات المالية، والنفقات على النفس والزوجات، والأقارب، والمماليك من الآدميين أو البهائم، كما يجب على المستطيع بها الحج وأداء الديون التي لله، أو للآدميين، وكذلك من عنده ما يحصل به الغنى منها لا يحل له أخذ الزكاة ونحوها، وذلك لأنها من الأموال الداخلة في النصوص الموجبة لهذه الأمور، مثل قوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بها﴾

[سورة التوبة: الآية ١٠٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

ونحوها من الآيات، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:

(فَإنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُم أَنَّ الله قَد افْتَرَضَ عَلَيْهِم صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلى فُقَرائِهِمْ).

فإنها من الأموال، ومما يحصل به الغنى. ومثل قوله تعالى:

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَة مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُه فَلْيُنْفِقْ مما آتاه الله﴾
[سورة الطلاق: الآية ٧]

ونحو ذلك وهذا واضح لا إشكال فيه ولا خلاف فيه.

## الفصل الثاني

### هل يجري فيها الربا أم لا؟

وهذه المسألة هي التي اختلفت فيها أنظار أهل العلم، فمنهم من أجراها مجرى الصكوك وبيعها وبيع الديون التي في الذمم، فمنع المعاملة بها رأساً، وهذا ـ مع ما فيه من الضيق والحصر الذي لا تأتي به الشريعة ـ ليس له دليل صحيح، ولا مأخذ قوي، ومنهم من أجراها مجرى النقدين وحكم عليها بحكم الذهب والفضة نظراً للقصد، فإن المقصود بها أن تكون بدلاً من الذهب والفضة، فأوراق الدينار بمنزلة الدينار، وأوراق الدراهم بمنزلة الدراهم، فيشترط فيها (على هذا القول) ما يشترط في النقدين، فإذا بيع نوط الفضة بنوط الذهب أو بيع بالذهب، اشترط التقايض من الطرفين، وإذا بيع نوط الفضة بمثله أو بفضة، ونوط الذهب بمثله أو بذهب: اشترط له شرطان: التماثل في الوزن، والقبض قبل التفرق، وهذا القول عند التأمل يتضح ضعفه، ويعلم أنه لا يتحقق فيه الشرط الشرعي، وهو الوزن، وتماثله إذا بيع بمثله من الأوراق، أو بمثله من النقدين، وفيه أيضاً ضيق شديد ينافي ما جاء به الشرع، ويوجب على من اعتقده أمرين:

إما أن يضيّق على نفسه وعلى غيره بالمعاملة إن التزمه وعمل به.

وإما أن يتجرأ به على الوقوع في الحرام إن اعتقده ولم يعمل به.

وهذا المأخذ الذي أخذ به صاحب هذا القول من أن المقصود من الأوراق هو المقصود بالنقدين صحيح، ولكن هذا القصد لا يكفي في المنع وجريان الربا، بل لا يدفع ذلك أن يكون داخلاً في النصوص الشرعية، فإن الشارع إنما نص على الذهب والفضة، وعلق عليها أحكام الربا واشترط فيها التماثل إذا اتفقا في الجنس مع القبض واكتفى بالقبض قبل التفرق من الطرفين إذا اختلف الجنس، وقد علم أن الأوراق ليست ذهباً ولا فضة، فكيف تثبت لها أحكامهما؟ فعلم بذلك أنه يتعين أنَّ الصواب هو القول الثالث، وهو أنه لا يحكم لها بأحكام النقدين.

ونهاية الأمر أن يحكم عليها أحكام الفلوس المعدنية، يمنع فيها أن يباع حاضر منها بمؤجل، وما سوى ذلك فإنه جائز، فيجوز مثلاً بيع أنواط الفضة بأنواط من فضة، أو بفضة متماثلاً أو متفاضلاً، بأن يبيع ألف درهم من الأوراق بألف وعشرة نقداً وبالعكس وبأقل، ويجوز التحويل فيها من بلد إلى بلد آخر، سواء حوّلت الأوراق على أوراق أو على نقد، كل ذلك جائز، وهذا القول هو الذي تكثر عليه الدلائل، وبه يحصل التعامل والتوسعة فيها، وذلك لأن الأصل في البيوع والمعاملات الحل، كما قال تعالى:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]

وقال:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾. [سورة النساء: الآية ٢٩]

وهذا شامل لكل بيع وتجارة جارية بين الناس، فمن منع شيئاً من ذلك فعليه الدليل، ولا دليل على المنع في هذه المسألة، وأيضاً فقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم الربا في النقدين: الذهب والفضة، واشترط إذا بيع بمثله التماثل والتقابض، وإذا بيع جنس منها بآخر: الشرط الأخير، وهذه الأوراق الأنواط ليست ذهباً ولا فضة، لا شرعاً ولا لغة ولا عرفاً، فكيف نلحقها بالذهب والفضة بمجرد أنه يقصد بها، ما يقصد بالذهب والفضة أن تكون قيم العروض وغيرها.

أرأيت لو حصل بدل الذهب والفضة لؤلؤ أو جوهر أو أمتعة، واتفق الناس على المعاملة بها، هل يحكم أنها ذهب وفضة؟

كذلك هذه الأوراق، وأيضاً الشارع أطلق الذهب والفضة، ولا يمكن قياس غير الذهب والفضة عليها في جريان الربا، وإلّا لأدخلنا في كلام الشارع ما ليس منه، لأن الذهب والفضة يجري الربا فيهما في كل أحوالهما، سواء كانت مضروبة أو تبراً أو مجعولة حلياً، فحكم الربا دائر معها حيث دارت.

وأيضاً من الأدلة الواضحة أن الشرط الذي شرطه الشارع في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة، وهو التماثل في الوزن، لا يمكن في الأنواط، والأنواط لا تساويها في شيءٍ من هذه الأمور، إلا أنها تشبهها في التقويم فقط، ولا يكفي هذا القياس الصحيح حتى تماثلها من جميع الوجوه باتفاق الأصوليين، فإذا بيع عشرة أنواط مما رقم فيه عشرة دراهم، فهي مائة ريال عربي مثلاً، فهل يشترط أن تماثل مع الأريل في الميزان. هذا لا يقوله ولا يمكن أن يقوله أحد، فعشرة الأنواط في الميزان يعادلها درهم واحد، وكذلك إذا بيعت الأنواط بالأنواط، نوط خمسة، ونوط عشرة، ونوط مائة، يتقاربن في الحجم فيتعذر فيها المماثلة، وهذا واضح، ولله الحمد.

فحيث تقرر وعلم لكل أحد أن الأنواط ليست بنفسها ذهباً ولا فضة، وأنه لا يمكن أن يتحقق فيها ما شرطه الشارع في الذهب والفضة من جهة الوزن: تعين القول بأنها بمنزلة العروض، وبمنزلة الفلوس المعدنية، وأنه لا يضر فيها وفي المعاملة بها الزيادة والنقص والقبض في المجلس أو عدمه، مع ما في هذا القول من التوسعة على الخلق، والمشي على أصول الشريعة المبنية على اليسر والسهولة، ونفي الحرج وتوسيع ما يحتاج إليه الخلق في عاداتهم ومعاملاتهم.

نعم: الذي لا يجوز شيءٌ واحد، وهو: أنه لا يحل أن يبيع مَثَلاً مائة منها حاضرة بمائة وعشرين مؤجلة، كما لا يجوز ذلك في الفلوس المعدنية على أصح الأقوال. والله أعلم.

## المسألة السابعة عشرة

### عما يفهم من قوله ﷺ: (ليس لعرق ظالم حق)

هذا يدل على أمرين مهمين فيمن بنى أو غرس في أرض الغير، أحدهما: يؤخذ من المنطوق، وأن من بنى أو غرس في أرض غيره وهو ظالم في ذلك كالغاصب ونحوه: أنه لا حق له في ذلك، وأن صاحب الأرض يلزمه بقلع غرسه وبنائه، إلا أن يختار تملكه بقيمته، أو اتفقا على التأجير ونحوه.

الثاني: يؤخذ من مفهوم الحديث أن غير الظالم في غرسه وبنائه له الحق، وذلك كالمؤجر ونحوه ممن وضع ذلك بحق، أنه لا يجبر على إزالة غرسه وبنائه، لأنه وضعه بحق، فيتفق هو وصاحب الأرض إما على التقويم أو على التأجير أو نحو ذلك.

بقي مسألة: وهي اليد المنتقل إليها من الغاصب كالمشتري والأجير ونحوه، إذا لم يعلم أن الأرض لغيره، فإنه في هذه الحالة معذور بلا شك. فمن أهل العلم من قال: إن الأرض إذا عادت إلى صاحبها فلصاحبها أن يلزم الغارس والباني بقلعه، ولو كان جاهلاً بالحال مغروراً، ويرجع المقلوع غرسه وبناؤه على الذي انتقلت إليه منه، لكونه غره، لأن الأرض ليس لأحد فيها حق، ولم يتفق صاحبها مع أحد بعقد يسوّغ له إبقاءه، وهذا هو المشهور من المذهب.

ومنهم من قال: إنه في هذه الحال كما أنه معذور في غرسه وبنائه، فإنه

وضعه معتقداً أنه ملكه أو مالك لمنافعه، وهو في هذه الحال لا يوصف بأنه ظالم، فلا يدخل في قوله:

(لَيْسَ لِعرق ظَالم حَقٌّ).

وهذا هو الصحيح، ويؤيده أنه في الغالب يكون أصلح للطرفين إبقاؤه بتقويم أو تأجير ونحوه، وربما إذا ألزمناه بقلع غرسه وبنائه يتعذر عليه الرجوع على من غره، فيصير فيه عليه ضرر كبير، وهو معذور، وقد اختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

* * *

# المسألة الثامنة عشرة

## عما إذا تعطل فعل الوقف سنين، ثم حصل ريع، فهل يعطى للسنين الفائتة؟

هذا السؤال مجمل، يحتمل أن مرادكم به إذا تعطل الوقف على الجهات الدينية كعلى أئمة المساجد والمؤذنين والمدارس ونحوها، وهو مرادكم لأنكم حولتمونا على نقل صاحب «الفروع» لكلام شيخ الإسلام، حيث قال:

ولو عطل فعل وقف مسجد سنة تقسطت الأجرة المستقبلة عليها، وعلى السنة الأخرى لتقوم الوظيفة فيهما، فإنه خير من التعطيل، ولا ينقص لإمام بسبب تعطل الزرع بعض العام.

هذا كلام الشيخ، ثم قال صاحب «الفروع» في توجيه كلام الشيخ: فقد أدخل **فعل** سنة في سنة.

مثال هذا: لو جعل لإمام المسجد مائة صاع كل سنة من مغل الأرض، ثم تعطلت في عام بالكلية، ثم حصل منها ريع في العام الآخر، فإن كان الريع يكفي لتسديد هذا العام الذي حصل فيه المغل وللعام السابق المتعطل، بأن كان الريع مائتين فأكثر، أعطي مائة للعام الماضي، ومائة للعام الحاضر، وإن كان لا يكفي لهما، بل كان الريع في العام الحاضر مائة فقط، قسطت المائة على السنة الماضية والمستقبلة، فيجعل لكل سنة خمسون صاعاً.

وهذا الذي ذكره عن الشيخ هو الذي يتعين المصير إليه في الأوقاف على الجهات الدينية، لأنها في مقابلة الأعمال، فريع العام الحاضر مثلاً يقابل عمل

السنة الماضية والسنة الحاضرة، وليس هذا بمنزلة وقف الريع على مجرد الأشخاص، والأوصاف الذين ليس منهم عمل كالوقف على بني فلان، وعلى زيد وعمر ونحوهما من غير مقابلة عمل، بل القصد مجرد بذلك الشخص أو تلك الأوصاف، فهذا يعتبر كل عام على حدته.

ثم قال صاحب «الفروع» مقرراً لهذا الذي نقل عن الشيخ: وأفتى غير واحد منا في زمننا فيما نقص عما قدّره الواقف كل شهر أنه يتمم مما بعد، وحكم به بعضهم بعد سنين، فهذا الكلام الذي نقله عن غير واحد من الحنابلة يؤيد ما قاله الشيخ.

ثم قال صاحب «الفروع» ناقلاً قول من يعتقد خلاف هذا القول فقال:

ورأيت غير واحد لا يراه، فهذا نقله مجرداً ليس فيه تعليل ولا استدلال، ومن المعلوم أن القول الأول الذي علله الشيخ بتلك العلل الحسنة الموافقة للقواعد الشرعية، ولمقاصد الواقفين، ولعموم مصلحة الجهات، وقيامها أنها أصح وأولى. فهذا آخر ما يتعلق بنقل صاحب «الفروع» في هذه المسألة، والذي أوجب لكم الاشتباه في كلامه: أنه رحمه الله حريص جداً على الاختصار ولو كان فيه غموض، فرحمه الله وغفر له.

* * *

## المسألة التاسعة عشرة

عن إشكال وجوابه في موضـع من كلام الأصحاب، حول اشتراط العلم بجهة الإرث، وهو قولهم من الفرائض: أحد شروط الميراث العلم بالجهة المقتضية للإرث، وقولهم في طريق الحكم وصفته إلا إن ادعى إرثه ذكر سببه، لاختلاف أسباب الإرث، ولا بد أن تكون الشهادة على معين، فكذا الدعوى، وقال في «المنتهى» وشرحه ـ في كتاب الشهادات ـ ومن ادعى إرث ميت فشهد الشاهدان أنه وارثه، لا يعلمان غيره، أو قالا: لا نعلم وارثاً غيره في هذا البلد، سواء كان من أهل الخبرة الباطنة أو لا، سلم المال إليه بغير كفيل، أو سلم بكفيـل لذا شهد بإرثه فقط، بأن لم يقولا: ولا نعلم وارثاً سواه.

تتمة: قال الأزجي فيمن ادعى إرثاً لا يحوج في دعواه إلى بيان السبب الذي يرث به، وإنما يدعي الإرث مطلقاً، لأن أدنى حالاته أن يرث بالرحم، وهو صحيـح على أصلنا. فإذا أتى ببينة فشهدت له بما ادعاه من كونه وارثاً حكم به. انتهى.

قال منصور: وفيه شيءٌ. وقال في «المنتهى» وشرحه أيضاً في «باب الإقرار»: المريض ولو مرض الموت المخوف يصـح إقراره بوارث.

قال ابن نصر الله: يسأل عن صورة الإقرار بوارث: هل معناه أن يقول: هذا وارثي، ولا يذكر سبب إرثه؟ أو معناه أن يقول: هذا أخي أو عمي أو ابني أو مولاي فيذكر سبب الإرث، وحينئذ إذا كان نسيباً اعتبر الإمكان والتصديق وأن لا يدفـع به نسباً معروفاً. انتهى. قلت: تقدم عن الأزجي أنه يكفي في الدعوة والشهادة، ثم ذكر كلامه السابق هذا من «المنتهى» وشرحه. ورأيت

بهامشه نقلاً عن ابن ذهلان: إذا أقر مَنْ هو من قبيلة معروفة أن أقربهم إليه فلان صح لأنه لم يدفع به نسباً معروفاً ولو كان له وارث بفرض، وقوله: فلان لحمة لي أو قريب لي، فلا يرث منه إلا على قول الأزجي.

الصواب الذي يظهر لي من كلامهم ومرادهم بحسب عباراتهم وتعليلهم أنه إذا ادعى أنه وارث فقط وأقام بيِّنة على أنه وارث من غير أن تبين البينة للسبب، وكذلك إذا أقر المريض بوارث ولم يعين جهته، فهذه البينة المطلقة لا تخلو الحال: إما أن يكون هناك عصبة أو أصحاب فرض تستغرق التركة أولاً. فإن كان هناك عصبة معروفون أو أصحاب فروض تستغرق فلا تكون تلك البينة التي شهدت لذلك الشخص أنه وارث، ولم تعين سبب إرثه، وكذلك ذلك الإقرار المطلق لا يكون ذلك مبطلاً لحقوق العصبة، المعروفين ولا لأصحاب الفروض المستغرقة، وذلك لوجهين:

أحدهما: أن استحقاق المذكور ـ وهم ـ لعصبة وأصحاب الفروض ثابت محقق، وثبوت ميراث المشهود به والمقربة متوهم مجمل غير واضح، والأصل عدم المزاحم والحاجب للورثة المفروقين المحقق.

الوجه الثاني: أن المشهود له والمقر له مدع مشاركة الورثة المعروفين أو حجبهم وهم منكرون، «والبينة على المدعي واليمين على من أنكر»، وتلك البينة التي أدلى بها، وذلك الإقرار لا يفيد رفع أيديهم ومزاحمتهم.

وثمة وجه ثالث وهو: اتفاق أهل العلم أن من شرط الإرث العلم بالجهة المقتضية للإرث، وتلك البينة المطلقة والإقرار لا تستفيد به العلم بالجهة المقتضية، فيتعين في هذه الحال الحكم بالإرث الذي علمت جهته وتحققت، وكلام الأصحاب الذي نقله السائل ليس في شيءٍ منه هذه الحال، بل إما موافق له أو يمكن حمله على الحال الأخرى الآتية مع موافقة ما ذكرت للقواعد والأصول.

الحالة الثانية: ألا يكون هناك عصبة ولا أصحاب فرض بالكلية

لا مستغرقة ولا غير مستغرقة، ففي هذه الحال كلامهم في الشهادات والإقرار ظاهر في أن هذا المدعي للإرث بالبينة التي شهدت أنه وارث فقط، من دون تعيين الجهة، وبالإقرار المذكور يقتضي ذلك أنه يستحق الميراث، وتعليلهم كذلك من أن هذه الشهادة وذلك الإقرار يفيد أنه وارث: إما بفرض، أو تعصيب، أو رحم.

وعلى كل من هذه الأحوال توافق القاعدة المشهورة أن من ادعى شيئاً لا يدعيه أحد، ولا يدعيه من هو في يده اكتفي فيه بأقل ما يكون من البينة أو القرينة، كما ورد ذلك في اللقطة إذا وصفها مدعيها اكتفي بوصفه، لكون من هي في يده لا يدعيها لنفسه، وكذلك من بيده مال جهل صاحبه.

ومن ادعى شيئاً بيد من يدعيه لنفسه، أو أظهر وجه استحقاقه له، فلا بد من البينة التامة الموضحة.

فالحالة الأولى: يدعي استحقاق أو مزاحمة ورثة معروفين قد ظهر استحقاقهم وبانت جهتهم، فلا يكتفى بتلك البينة المطلقة والإقرار المطلق.

والحالة الثانية: لا يدعي الميراث أحد لكون الميت ليس له وارث بفرض أو تعصيب. فإذا حصلت تلك البينة ـ ولو كانت مطلقة ـ فإنها تفيد الاستحقاق، وهذا واضح ولله الحمد.

الحالة الثالثة: إذا كانت هذه الدعوى المبنية على تلك البينة، وذلك الإقرار المطلق مع صاحب فرض لا يستغرق فرضه المال، فظاهر كلام ابن ذهلان المذكور في السؤال، يقتضي قبول هذه الدعوى، وأنه يرث مع صاحب الفرض المحقق، وكذلك عموم كلام الأزجي، وإن لم يكن ظاهراً في هذا، ولكن في هذا نظر كما قال الشيخ منصور ـ لما ذكر كلام الأزجي ـ قال: وفيه شيء ومراده والله أعلم: أنه مخالف لظاهر كلام الأصحاب، فإنهم كلهم اشترطوا العلم بالجهة المقتضية للإرث، وكلهم قالوا: إذا الفرد صاحب الفرض أخذ المال فرضاً ورداً، فصاحب الفرض هنا قد ثبت استحقاقه للمال كله قطعاً

بتقدير عدم المزاحم، ولم يثبت هنا ثبوتاً شرعياً يقتضي مزاحمته، ففي الحقيقة هذه الحال الثالثة لا فرق بينها وبين الحالة الأولى التي فيها عاصب، أو ورثة مستغرقون.

ثم نقول أيضاً: ما يظهر من كلام الأزجي ومن صريح كلام ابن ذهلان عند التأمل يعلم ضعفه الواضح، فهذا الذي ادعى بتلك البينة المطلقة الميراث: ما المقدار الذي نعطيه يتوقف على معرفة جهته.

فحاصل هذه الأقسام أنه إذا كان هنا وارث محقق بفرض أو تعصيب أو متفرع عليهما من ذوي الأرحام أو فرض مستغرق بدون رد أو مستغرق مع الرد أن البينة المطلقة والإقرار المطلق لم يبينا وجه الإرث، لا يثبت فيها حكم ولا ميراث، وإن لم يكن هناك ورثة بالكلية لا بفرض ولا تعصيب، ولا ما يتفرع عنهما اعتبرناهما، إذ هذا أولى من جعل التركة لبيت المال، لكن الاحتمالات المذكورة عند إطلاق الشهادة والإقرار تفيد الإرث المطلق على كل تقدير، وهذا التفصيل المذكور هو الذي نعتقده ونقول به، لما ذكرنا من بنائه على الأصول الشرعية والقواعد المرضية عند الأصحاب وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

# المسألة العشرون

## عن حكم تكرار عقد النكاح، والتزويج على مهر ريال

أما المسألة الأولى، فلا يشرع أن يقول الولي للزوج وقت العقد زَوَّجْتك: فلانة، ثم إذا قبل أعاد عليه وقال: أنكحتك فلانة، ثم يقبل، فلم يرد هذا التكرار عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، ولم يذكر ذلك أحد من الأصحاب فيما علمت، والذين يستعملونه من الناس لم يستدلوا على ذلك بدليل ولا بكلام أحد من أهل العلم المعتبرين، إنما يفعلونه على وجه الاستحسان منهم.

والأولى بلا شك ترك هذا التكرار والاكتفاء بإحدى اللفظتين في الإيجاب والقبول، لعدم وروده، ولأنه لا نظير له في جميع عقود المعاملات والتبرعات وغيرها، ولأنه إذا انعقد باللفظ الأول، فقد تم الزواج، وصارت زوجته بلا خلاف، فإعادتهم للعقد ثانياً من باب العبث.

هذا كله يقطع النظر عما يقترن به من الاعتقاد الفاسد، فإن الناس إذا داوموا على ذلك اعتقدوه مشروعاً واجباً ومستحباً، فتعين تركه، والله أعلم.

وأما المسألة الثانية: وهو ما اعتاده أكثر الناس: أنهم يسمون المهر والصداق، يقولون: على صداق ريال مثلاً، والحال أن الريال ليس هو الصداق، ولا جزءاً يسيراً من الصداق. والسبب الذي حملهم على هذا لما سمعوا أنه يسن تسمية الصداق في العقد، وكان الصداق المستعمل عند أهل نجد شيئاً من الكسوة والفرش ونحوها يدفعها الرجل إلى أهل المرأة فيرضون به

ويخجلون من التصريح بذكره وقت العقد، فاستحبوا تسمية الريال تبركاً بذكر التسمية.

هذا مبنى من استحب ذلك، ومن المعلوم أن هذا لا يوجب استحباب التسمية المذكورة، لأن الاستحباب حكم شرعي لا يجوز إثباته إلا بدليل شرعي، وأما مجرد الاستحسان الخالي من الدليل، بل المعارض للدليل، فلا يصلح أن تثبت به الأحكام الشرعية، ولهذا ينبغي أن يتعين ترك هذه التسمية لوجوه متعددة:

أحدها: أن هذا إثبات حكم بلا دليل شرعي.

الثاني: أنه لم يقله أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا من الأصحاب المتقدمين والمتأخرين.

وإنما ذكر استحباب المهر الحقيقي، وهو الذي يدفع الزوج لزوجته عوضاً في النكاح، حالاً أو مؤجلاً، وعللوا استحباب التسمية لئلا يقع النزاع فيه، فتسمية هذا المهر الحقيقي هو الذي يقطع النزاع.

وأما تسمية ما ليس بمهر، وإنما جيء به على وجه التبرك، فهذا لا يقطع النزاع.

الثالث: أن هذا من باب العبث وخلاف الحقيقة، فإنهم يسمون هذا الريال، وهم يعلمون أن الصداق غيره، فلهذا نقول: الرابع: إن هذا يخشى من دخوله في الكذب، فإن الكذب هو الإخبار بغير الواقع، وهذا من باب الإخبار بغير الواقع، كما هو معلوم لكل أحد، فكيف يدخل الإنسان في باب التبرك من باب الكذب والإخبار بغير الحقيقة.

الخامس: أنه لو كان هو الصداق لوجب أن تترتب عليه أحكام الصداق كلها، لأنه هو المسمى، فإذا مات الزوج قبل الدخول، أو دخل بها لم يثبت إلا ذلك الريال، وإذا طلق قبل الدخول وقد دفع لها ما يساوي عدة مئات، وقد

عقدوا على ريال، تنصف ذلك الريال، فصار نصفه للزوج ونصفه للمرأة، إلا أن يعفو أحدهما عن نصفه.

وأما ذلك المدفوع كله فيرجع إلى الزوج.

ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يقول أحد بشيء من ذلك، فعلم أن المهر الذي يستحب تسميته، وتترتب عليه الأحكام الشرعية من تقرره أو سقوط، أو ثبوت نصفه، هو الذي يسوقه ويدفعه الرجل إلى المرأة. وأما هذا الريال فهو لغو غير مقصود، ولا يتعلق به شيء، فكيف يعلق عليه استحباب التسمية؟

ولما كان متقرراً عند الناس: أنه لغو غير مقصود صار من يعقد لهم لا يسألهم عن المهر، بل هو من عند نفسه، يقول للولي: قل: زوجتك على صداق ريال، من غير أن يسألهم عن المهر ومقداره، لا فرق بين الغني والفقير عندهم. والذي حمل الناس على الاسترسال في هذه العادة جريان العادة، فإن العوائد المستمرة تقيد الأذهان عن النظر في الأدلة، وتوجب التسلم من المتأخر للمتقدم جرياً على العادة، والعادات المباحة لا بأس بها في العادات وغير الأحكام الشرعية. أما الأحكام الشرعية فالعباد مقيدون فيها بأحكام الشريعة، فلا يوجبون ولا يستحبون ولا يحرمون إلا ما دل الدليل الشرعي عليه، وأما مجرد الاستحسان فلا عبرة به إذا تجرد عن المعارضة، فكيف إذا عارضته الأدلة الشرعية؟ والله أعلم.

* * *

## المسألة الحادية والعشرون

### عن حكم تزويج الأب ابنه الصغير بأكثر من واحدة، وعن الصداق: هل هو عليه أو على الابن؟

إن الأصحاب لم يختلفوا في جواز إنكاحه واحدة، وإنما اختلفوا إذا زوجه أكثر من واحدة، والمشهور من المذهب أنه يجوز له أن يزوجه بأكثر من واحدة، لكن إذا رأى الأب مصلحته.

وبعض الأصحاب أطلق الكلام ولم يقيده بالمصلحة، فعلى المذهب باشتراط المصلحة: إذا زوجه لغير مصلحته أزيد من واحدة لم يكن له ذلك، أي لا يجوز له ذلك، وليس معناه أن نكاحه إياه فاسد، وإنما قالوا ذلك لأنهم عللوا ذلك بأنه إذا لم يكن في ذلك مصلحة، والنكاح يترتب عليه الصداق والنفقة وغير ذلك، ولا حاجة للولد بما زاد على ذلك، بل عليه مضرة من جهة نقص ماله لغير فائدة، وهذا التعليل يدل على أن النكاح صحيح، وإنما الأب أساء بما ركَّبَ على ابنه من الصداق والمهر.

وعلى كل حال فالمهر والنفقة وتوابع ذلك من مال الصغير، ليس على الأب منها شيء، إلا ما تبرع به، وسواء زوجه واحدة أو أكثر، لمصلحته أم لا، كل هذا الصداق في مال الابن.

## المسألة الثانية والعشرون

**عما إذا وكل الولي الغائب وكيلاً على نكاح موليته له ثلاث صور:**

إما أن يعينه فيقول: وكلتك في تزويج فلانة فلاناً، فهذا لا يستفيد به الوكيل إلا العقد الأول، فمتى حصلت فرقة فيه، وأريد تزويجها زوجاً آخر احتيج توكيل غير الوكيل الأول.

وإما أن يفوض له الوكالة، بأن يوكله أن يزوجها متى شاء على أي زوج شاء، فهذا يستفيد به الوكيل العقد الأول وما بعده.

الثالث: أن يوكله ويطلق لا يفوضه ولا يعين له زوجاً، بل يقول مثلاً: وكلتك في تزويج موليتي، فهل يستفيد به العقد الثاني وما بعده أم لا يستفيد به إلا العقد الأول؟ لم أر من صرح تصريحاً يزيل الإشكال في هذا ويتوجه أو يرجع في ذلك إلى قرائن الأحوال فإنهم قالوا: ينعقد التوكيل مما دل عليه، فإن دلت قرائن الأحوال على أنه وكيل بكل عقد تزوج به المرأة، وصار غرض الولي اتصال موليته بلا زوج، وأن لا يعطلها عن الزواج وصار بمنزلة التفويض، وإن كان غرضه ـ فقط ـ هذا الزواج الخاص، اختص به، والله أعلم.

* * *

## المسألة الثالثة والعشرون

### عما إذا وطىء ابن ثمان امرأة بالغة، أو وطىء بنت ثمان من يولد لمثله، هل يثبت به تحريم المصاهرة؟

إذا وطىء ابن ثمان سنين امرأة بالغة أو وطىء بنت ثمان من يولد لمثله، فإن الوطء المذكور، لا يخلو من حالين:

إما أن يكون الوطء حراماً، فالصحيح الذي لا ريب فيه أن الوطء الحرام لا ينشر الحرمة، سواء كان الواطىء أو الموطوءة كبيراً أو صغيراً، لأنه لا يمكن قياس السفاح على النكاح بوجه من الوجوه، ولا يدخل في لفظ النكاح ولا في معناه. والمشهور من المذهب انتشار التحريم، لكن في وطء ابن عشر سنين وبنت تسع: فعلى القولين كليهما. فإن وطء من دون تسع من ذكر أو أنثى إذا كان حراماً، لا ينشر على المذهب، لأنه لا يصلح للوطء، والقول الآخر لعدم ثبوته بالكلية.

والحال الثاني أن يكون الوطء في ابن دون عشر، أو بنت دون تسع، في نكاح أو ملك يمين، فهل ينشر حكم المصاهرة؟ الجواب على وجهين:

المذهب منهما: أنه لا ينشر، ولو وجد الوطء، لأنهما غير صالحين للوطء، ولو فرض وجوده، فالنادر لا حكم له. هذا تعليل المشهور من المذهب.

والوجه الثاني، وهو أصح: إذا وجد منهما وطء حقيقي ثبتت به المصاهرة وسائر ما يترتب على مجرد الوطء من غسل وغيره، وهو ظاهر النصوص الشرعية حيث علق هذه الأحكام بوجود الوطء من غير اشتراط شيء، لا للذكر ولا للأنثى، والناس يتفاوتون في هذه الحال جداً، فقد يوجد من له دون عشر

يصلح للوطء، ومن لها دون تسع كذلك، وقد يكون من له أزيد من عشر، أو لها أزيد من تسع، لا تصلح للوطء.

فالأحكام يجب أن تعلق على ما علقها عليه الشارع، كما يجب تعليق أحكام السفر على ما يسمى سفراً، وأحكام الحيض على وجوده، لا عبرة بسنها، قلة أو كثرة، ولا بزيادته ونقصه، أو تقدمه أو تأخره، أو قلته أو كثرته، فربط الأحكام بالنصوص الشرعية هو الواجب على المكلفين حتى يأتي من الشرع بالقيود التي يجب المصير إليها، والله أعلم.

* * *

## المسألة الرابعة والعشرون

### عما إذا مات الحمل: هل يسقط الاعتداد به؟

على كلام شارح «المنتهى» قوله: وظاهره ولو مات ببطنها لعموم الآية.

قلت: وقد يقال: إن قوله تعالى:

﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [سورة الطلاق: الآية ٤]

أنه الوضع المعتاد، فمتى وضعته حياً أو ميتاً خرجت من العدة، ومتى بقي في بطنها حياً أو ميتاً يرجى خروجه، فهي في العدة، فإن مات في بطنها ولم يبق رجاء بيِّن لخروجه، فهذه إن أمرت بالبقاء حتى يخرج من بطنها ـ وهو لا يظن له وقت يخرج فيه ـ كان عليها من الضرر شيء عظيم، فيظهر أنها متى تحققت موته وصار بحال لا يرجى له خروج: أنها تقيد بغير الحمل، لسقوط حكمه، كما سقطت نفقة الحامل بذلك.

يؤيد هذا الظاهر أن الحكمة في الاعتداد بالحمل لئلا تختلط المياه وتشتبه الأنساب، وهو مفقود هنا. فالذي يظهر لي أنه في هذه الحال يسقط حكمه بلا اعتداد، كما سقطت بقية أحكامه من الميراث واستحقاق الوصية ونحوها والنفقة، والله أعلم بالصواب.

* * *

## المسألة الخامسة والعشرون

### إذا أسقط حق زوجته عشر سنين ثم أرادت الرجوع إليه فاعتذر بأنه لا يتحمل امرأتين، وقصدها تعجيزه، فما الحكم؟

لا يسقط حق المرأة إذا رجعت إلى بيت زوجها وطاعته، ولو أسقطها الزوج لم تسقط، فهو يجبر على ضمها بإحسان أو تسريحها بإحسان، وعصيانها السابق لا يسقط حقها إذا عادت إلى طاعته.

* * *

## المسألة السادسة والعشرون

### عمن أحق بحضانة الأنثى بعد تمام سبع سنين

المشهور من المذهب: أنها لأبيها، والرواية الثانية أنها لأمها. وهذان القولان مع قيام كل منهما بما يجب ويلزم.

فأما إذا أهمل أحدهما ما يجب عليه من حضانة ولده، وأهمله عما يصلحه، فإن ولايته تسقط ويتعين الآخر.

والذي أرى في ترجيح أحد القولين: أنه ينظر للمصلحة الراجحة، فمن كانت المصلحة في حق الصبي بقاؤه عنده. رجح لأن هذا الباب منظور فيه إلى مصلحة المحضون.

حتى قال الفقهاء: ولا يقر المحضون بيد من لا يصونه ويصلحه، وقدموا من قدموا مراعاة للمصلحة. وبهذا الأصل يتضح ترتيب الفقهاء في الأحق بالحضانة، ومن هو أولى: أن هذا كله حيث كان للمحضون في تقديم المتقدم منهم. ومن ترك منهم ما يلزم سقط حقه. وأما أي القولين أصح في الترتيب، هل هم قرابة الأم، أو قرابة الأب؟ فشيخ الإسلام وابن القيم يقدمان قرابة الأب، لأنهم هم القرابة المقدمون في كثير من الأحكام. والمذهب تقديم قرابة الأم، والله أعلم بالصواب من القولين، فإني لم أعرف الراجح منهما، والله أعلم.

* * *

## المسألة السابعة والعشرون

### عن حكم ضمان ما تتلفه السيارات أو يتلف من جرائها من نفس أو مال

ينبغي في مثل هذه المسائل وشبهها أن تبنى على الأصول الفقهية ليكون أخذها منها متيسراً. فنقول: لا يخلو الإتلاف المذكور: إما أن يكون عمداً مثله يقتل غالباً أو خطأً، ولا يخلو الخطأ إما أن يحصل بتفريط من السائق والمدبر، أو تعد، أو لا يخلو إما أن يكون إتلاف من السيارة وصاحبها، أو يكون تلفاً بغير إتلاف.

أما إذا كان الإتلاف عمداً عدواناً ومثله يقتل غالباً، فإنه يدخل في أحكام القتل العمد الموجب للقصاص أو الدية ــ على حسب شروطه المذكورة في كتب الفقه ــ وهي معروفة، وكذلك إتلاف الأطراف والجروح كما هو معروف.

وأما إن كان تلف للنفوس المحترمة خطأً أو عمداً لا يقتل مثله غالباً، ففيه الدية، وهو داخل في كلام الأصحاب الحنابلة رحمهم الله. وهنا لا فرق بين إتلاف النفوس للقتل أو تلف الأموال، وإنما مثلاً الصبيان ونحوهم، إذا تعلقوا بها فسقطوا منها أو نزلوا اختياراً وتلفوا من شدة جريها، وصاحب السيارة لا يعلم بذلك، لعل الجواب: فلا ضمان.

أما إن تعلق صبي أو غيره، وعلم به صاحب السيارة السائق أو من له قدرة على منع سير السيارة في تلك الحال، فأجراها حتى تلف المتعلق، فإنه وإن لم يكن له تسبب في ابتداء الأمر، فإنه بعدما علم وجود ذلك الصبي ونحوه في سيارته، عليه أن يفعل الأسباب المانعة من تلفه، فإن لم يفعل كان ظالماً، وترتب

عليه الضمان، وليس له أن يقول: هو الذي تعلق بها من نفسه، فلا ضمان عليّ، فيقال له: وأنت بعدما علمت يجب عليك أن تسعى له في سبب السلامة، ويحرم عليك أن تعينه على سبب العطب. وأما من ركب في السيارة بأجرة أو غيرها ثم نزل منها، وهي تسير فحصل بذلك عطب أو تلف، فلا ضمان على السائق، لأنه لم يعلم بنزوله، وهو الذي جنى على نفسه، وأما إذا أمره السائق أو غيره بالنزول وهي تسير، وهو جاهل لا يدري، ثم نزل فإن القائل قد غره، فعليه ضمانه. فهذه المسائل وما أشبهها ينبغي لأهل العلم أن يطبقوها على الكلام الكلي للأصحاب، وينظروا ما يطابقه وينطبق عليه، ليتم لهم معرفة مأخذ الصور ويسهل عليهم تطبيق الحوادث الجزئيات على النصوص الكليات، ولا يأخذ المسائل مجردة عن الأصل الذي أخذت عنه، فإن هذا تصور ولا تكاد الجزئيات في هذه الحال تثبت في الذهن، ولا يزال الإشكال عند طالب العلم قائمًا، فإنَّ أهل العلم ـ رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء ـ قصدوا في كلماتهم المحكمة الكلية أن تحيط بجميع ما يحدث من الجزئيات، ولهذا لا يكاد البصير أن يجد مسألة خارجة عن دخولها في عباراتهم. نسأل الله أن يفتح علينا وعليكم كما فتح على أوليائه. فعليك بهذا الأصل النافع، فإنه يقضي لك حاجات كثيرة.

* * *

## المسألة الثامنة والعشرون

**عن الفرق بين قول الفقهاء: إذا قلع سنه أو أزال شعره، ثم عاد على حاله سقط ما وجب فيه من الدية، وإن كسر ضلعه ونحوه، ثم عاد مستقيمًا، أو أجافه ثم برىء لم يسقط ما وجب فيه.**

الفرق بين الأمرين أن الشعور والسن في حكم المنفصلات التي لا ثبوت لها، فإذا أزال الموجود، ثم عاد مثل الأول من غير نقص، فكأن الجناية ما كانت، فيسقط موجبها، وأما إذا كسر عظمه ثم جبر مستقيمًا وعاد كما كان أو أجافه ثم برىء من جائفته، وعادت صحته كما كانت، فإن موجب ذلك من الدية لا يسقط، لأن الدية لم تجب فيه بإذهاب عضو يعود بدله، وإنما وجبت لأجل اختلاله بالكسر. فإن عاد مستقيمًا كانت الدية الموجبة فيه في مقابلة ذلك الألم، عند الكسر وبعده، وعند الجرح وبعده، إلى تمام الاستقامة والصحة، فلو أسقطنا ذلك كان ظلمًا للمجني عليه، ولذلك إذا جبر غير مستقيم وجب فيه حكومة تشتمل على المقدر وزيادة، لنقصه المستمر، فإذا قال لنا قائل: فكذلك السن كسره فيه من الألم المقارن للكسر، وربما يعقب الكسر أيضاً ألم بدني وألم قلبي لفقد السن، وكذلك الشعر. فهذا الإيراد يعكس علينا التعليل الذي ذكرناه، وليس لهم عنه جواب إلا أن الشعر والسن منفصلات فقط، وغيرها متصل ليس فيه ذهاب شيءٍ. هذا أقصى ما تعلل به ومع هذا فهذا التعليل لا يشفي ما في النفس، واستشكالكم لهذه الصور في محله، والله أعلم.

* * *

## المسألة التاسعة والعشرون

### عن حكم شرب الدخان والاتجار به والمعاونة عليه

أما الدخان فشربه والاتجار به والإعانة على ذلك فهو حرام، لا يحل لمسلم تعاطيه شرباً واستعمالاً واتجاراً، وعلى من كان يتعاطاه أن يتوب إلى الله توبة نصوحا، كما يجب عليه التوبة من جميع الذنوب، وذلك أنه في عموم النصوص الدالة على التحريم داخل في لفظها وفي معناها، وذلك لمضاره الدينية، والبدنية، والمالية، التي يكفي بعضها في الحكم بتحريمه، فكيف إذا اجتمعت؟

## فصل

أما المضار الدينية ودلالة النصوص على منعه وتحريمه فمن وجوه كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

وقوله:

﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

وقوله:

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾

[سورة النساء: الآية ٢٩]

فهذه الآيات وما أشبهها حرم الله بها كل خبيث أو ضار، فكل

ما يستخبث أو يضر، فإنه لا يحل، والخبيث والضرر يعرف بآثاره وما يترتب عليه من المفاسد، فهذا الدخان مفاسده وأضراره كثيرة ومحسوسة، كل أحد يعرفها، وأهله من أعرف الناس بها، ولكن إرادتهم ضعيفة، ونفوسهم تغلبهم مع شعورهم بالضرر، وقد قال العلماء: يحرم كل طعام أو شراب فيه مضرة.

ومن مضاره الدينية أن يثقل على العبد العبادات والقيام بالمأمورات، خصوصاً الصيام وما كره العبد بالخير فإنه شر، وكذلك يدعو إلى مخالطة الأرذال ويزهد في مجالسة الأخيار، كما هو مشاهد، وهذا من أعظم النقائص أن يكون العبد مُؤالفاً للأشرار متباعداً عن الأخيار، ويترتب على ذلك العداوة لأهل الخير والبغض لهم، والقدح فيهم، والزهد في طريقهم، ومتى ابتلي به الصغار والشباب سقطوا بالمرة، ودخلوا في مداخل قبيحة، وكان ذلك عنواناً على سقوط أخلاقهم. فهو باب الشرور الكثيرة فضلاً عن ضرره الذاتي.

## فصل

وأما أضراره البدنية فكثيرة جداً، فإنه يوهن القوة ويضعفها ويضعف البصر، وله سريان ونفوذ في البدن والعروق، فيوهن القوى، ويمنع الانتفاع الكلي بالغذاء، ومتى اجتمع الأمران وهما: إضعاف القلب والصدر والكبد والأمعاء، شيئاً فشيئاً، ثم ينشأ عن ذلك الأمر الثاني، وهو سد منافذ الغذاء لانشغالها بما يتراكم عليها من الدخان المستمر متى اجتمع الأمران ـ نشأ عنهما أمراض عديدة:

منها إضعاف عروق القلب المؤدي إلى الهلاك والأمراض العسرة.

ومنها السعال والنزلات الشديدة، التي ربما أدت إلى الاختناق وضعف النفس، فكم له في هذا من قتيل أو مشرف على الهلاك، وقد قرر غير واحد من الأطباء المعتبرين أن لشرب الدخان الأثر الأكبر في الأمراض الصدرية، وهي:

السل وتوابعه؛ وله أثر محسوس في مرض السرطان، وهذه من أخطر الأمراض وأصعبها فيا عجباً لعاقل حريص على حفظ صحته، وهو مقيم على شربه مع مشاهدة الأضرار أو بعضها. فكم تلف بسببه خلق كثير، وكم يمرض منهم أكثر من ذلك، وكم قويت بسببه الأمراض البسيطة حتى عظمت وعز على الأطباء دواؤها، وكم أسرع بصاحبه إلى الانحطاط السريع في قوته وصحته. ومن العجب أن كثيراً من الناس يعتنون بإرشادات الأطباء في الأمور التي دون هذا بكثير، فكيف يتهاونون بهذا الأمر الخطير؟ ذلك لغلبة الهوى واستيلاء النفس على إرادة الإنسان وضعف إرادته عن مقاومتها، وتقديم العادات على ما تعلم مضرته.

ولا تستغرب حالة كثير من الأطباء الذين يدخنون وهم يعترفون بلسان مقالهم أو لسان حالهم بمضرته الطبية، فإن العوائد تسيطر على عقل صاحبها، وعلى إرادته، ويشعر كثيراً أو أحياناً بالمضرة، وهو مقيم على ما يضره، وهذه المضار التي أشرنا إليها إشارة مع ما فيه من تسويد الفم والشفتين والأسنان، ومن سرعة بلائها وتحطيمها وتآكلها بالسوس، ومن انهيار الفم والبلعوم ومداخل الطعام والشراب، حتى يجعلها كاللحم المنهار المحترق تتألم مما لا يتألم منه، وكثير من أمراض الالتهابات ناشئة عنه، ومن تتبع مضاره البدنية وجدها أكثر مما ذكرنا.

## فصل

وأما مضاره المالية فقد صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال، وأيُّ إضاعة أبلغ من صرفه في هذا الدخان الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا نفع فيه بوجه من الوجوه؟ حتى إن كثيراً من المنهمكين فيه يغرمون فيه الأموال الكثيرة، وربما تركوا ما يجب عليهم من النفقات الواجبة، وهذا انحراف

عظيم وضرر جسيم، فصرف المال في الأمور التي لا نفع فيها منهيٌّ عنه، فكيف يصرفه في شيءٍ محقق ضرره؟

ولما كان الدخان بهذه المثابة مضراً بالدين والبدن والمال، كانت التجارة فيه محرمة، وتجارته بائدة غير رابحة، وقد شاهد الناس أن كل متجر فيه وإن استدرج ونما في وقت مؤقت، فإنه يبتلى بالقلة في آخر أمره وتكون عواقبه وخيمة.

ثم إن النجديين ـ ولله الحمد ـ جميع علمائهم متفقون على تحريمه والعوام تبع لعلمائهم، ليسوا مستقلين وليس لهم أن يخرجوا عن أقوال علمائهم، وهذا واجبهم، كما قال تعالى:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة النحل: الآية ٤٣]

ولا يحل للعوام أن يتأوَّلوا ويقولوا: إنه يوجد من علماء الأمصار من يحله ولا يحرمه، وما نظير هذا التأويل الفاسد الجاري على ألسنة بعض العوام تبع الهوى لا تبع الحق والهدى، إلا كما قال بعضهم: يوجد بعض علماء الأمصار لا يوجبون الطمأنينة في الصلاة، فلا تنكروا علينا إذا تبعناهم، أو يوجد من يبيح ربا الفضل، فلنا أن نتبعهم، أو يوجد من لا يحرم أكل ذوات المخالب من الطير، فلنا أن نتبعهم. ولو فتح هذا الباب فتح على الناس شر كثير، وصار سبباً لانحلال العوام عن دينهم، ولكن كل أحد يعرف أن تتبع مثل هذه الأقوال المخالفة لما دلت عليه الأدلة الشرعية، ولما عليه أهل العلم من الأمور التي لا تحل ولا تجوز، والميزان الحقيقي هو ما دلت عليه أصول الشرع وقواعده، ولما يترتب على الأمور من المضار والمفاسد المتنوعة، فكل أمر فيه ضرر على العبد في دينه أو بدنه أو ماله، من غير نفع، فهو محرم، فكيف إذا تنوعت المفاسد وتجمعت؟!

أليس من المتعين شرعاً وعقلاً وطباً: تركها والتحذير منها، ونصيحة من

يقبل النصيحة، فالواجب على من نصح نفسه وصار لها عنده قدر وقيمة أن يتوب إلى ربه من شربه ويعزم عزماً جازماً مقروناً بالاستعانة بالله لا تردد فيه ولا ضعف عزيمة، فإن من فعل ذلك أعانه الله على تركه، وهوّن عليه ذلك.

ومما يهون الأمر أن يعرف أن من ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه، كما أن ثواب الطاعة الشاقة أعظم مما لا مشقة فيه، فكذلك ثواب ترك المعصية ـ إذا شق الأمر وصعب ـ أعظم أجراً، وأكثر ثواباً، فمن وفقه الله وأعانه على ترك الدخان، فإنه يجد مشقة في أول الأمر:

ثم لا يزال يسلو شيئاً فشيئاً حتى يتمم الله نعمته عليه ويغتبط بفضل الله عليه وحفظه وإعانته، وينصح إخوانه مما نصح به نفسه، والتوفيق بيد الله.

ومن علم الله من قلبه صدق النية في طلب ما عنده بفعل المأمور وترك المحظور: يسره لليسرى، وجنبه للعسرى، وسهل له طرق الخير كلها، فنسأل الله الذي بيده أزمّة الأمور أن يأخذ بنواصينا، ونواصي إخواننا إلى الخير، وأن يحفظنا وإياهم من الشر، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، وصلى الله على محمد وسلم.

# المسألة الثلاثون

## عن قوله ﷺ:
## (البينة على المدَّعي واليمين على من أنكر).

قوله ﷺ:

(الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ).

يا له من كلام، ما أبلغه وأجمعه لجميع الوقائع والجزئيات الواقعة بين الناس في الحقوق والأموال والديون عند الاختلاف والتنازع، وعند الإشكالات، فهذا أصل تنطبق عليه جميع هذه المشكلات، فحكم ﷺ أن السنة على المدعي شيئاً من ذلك، واليمين على من أنكر تلك الدعوى، ويدخل في هذا أمور:

**أحدها**: من ادعى حقاً على غيره: دماً، أو مالاً، أو غيرهما، وأنكر المدعى عليه.

**الثاني**: من ثبت عليه حق من الحقوق، ثم ادعى براءة ذمته بقضاءٍ أو إبراءٍ أو غيرهما وأنكر صاحب الحق.

**الثالث**: من ثبت له اليد على شيءٍ من الأشياء، وادعى آخر أنه له وأنكر صاحب اليد.

**الرابع**: من كان الشيء تحت يده على وجه الأمانة وادعى تلفاً أو تصرفاً وأنكر من له المال، وذلك الوكيل والوصي وناظر الوقف وولي اليتيم: وكذلك

الشريك في المضاربة والعنان وشركة الوجوه ونحوها، وأنكر الآخر التلف أو التصرف.

**الخامس**: الغارم إذا ثبت عليه غرم متلف أو مبيع أو غيره، واختلف مع صاحب معه الحق في مقدار ما يغرم فالقول قوله.

**السادس**: من يتصرف لنفسه ولغيره أو اشترى شيئاً أو استأجره وقال: إنه لنفسه، وقال الآخر: إنه تبع للمال الذي معه لي، فالقول قول المتصرف.

**السابع**: إذا اتفقا على عقد من العقود، وأنه صدر وقال أحدهما: إن العقد مختل لفقد شرط من شروطه أو ركن من أركانه، أو وجد مانع وأنكر الآخر، فالقول قول مدّعي السلامة.

**الثامن**: من ادعى شرطاً من الشروط أو قيداً أو شرط صفة أو أجلاً أو خياراً أو رهناً ونحوها، وأنكر الآخر، فالقول قول المنكر.

**التاسع**: من ادعى فسخ عقد من العقود من: بيع أو إجارة، أو رهن أو نكاح أو غيرها وأنكر الآخر فالقول قول المنكر.

**العاشر**: من ادعى زيادة أو نقصاناً في أمر اتفقا عليه وادعى الآخر خلافه، فالقول قول من ادعى عدم الزيادة أو عدم النقصان.

**الحادي عشر**: من ثبت عليه مال بعدة أسباب يتفاوت حكمها فقضى المدين البعض أو أبرأ من له الحق من البعض واختلفا بعد ذلك، فالقول قول القاضي والمبرىء.

**الثاني عشر**: من أدّى عن غيره واجباً بنية الرجوع رجع وإلاّ فلا. فإذا اختلفا فالقول قول المؤدي نوى الرجوع أم لا.

**الثالث عشر**: مسائل الإقرار بالمجملات عند الاختلاف. القول فيها قول المقر.

**الرابع عشر**: جميع الاختلافات الواقعة بين الناس إذا كان مع أصل، فالقول قوله، وفي جميع هذه الصور: من كان القول قوله إذا لم يُقِمْ الآخر بينة، فإنه يحلف ويبرأ.

**الخامس عشر**: الجعالات والمعلومات التي تجعل على من قام بعمل من الأعمال إذا وقع الخلاف فيها فالقول قول الجاعل. وكل من قلنا: القول قوله فشرط ذلك ألا يخالف الحس ويخرج عن العادة خروجاً يكذبه الواقع فحينئذ يسقط قوله. ويرجع في ذلك إلى قول أهل الخبرة والعرف.

**السادس عشر**: مسائل الكنايات في العتق والطلاق ونحوهما التي يرجع فيها إلى نية المتكلم إذا اختلف مع غيره في إرادة شيءٍ من ذلك فالقول قول المتكلم: نوى أو لم ينو.

**السابع عشر**: قول المرأة مقبول في الحيض والحمل: وجوداً وعدماً. وعند الاختلاف مع عدم البينة يقبل قولها.

**الحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على النبي الأمي**
**وآله وصحبه وسلم**
**تم بعون الله**

بسم الله الرحمن الرحيم

# ترجمة علامة القصيم الشيخ عبد الرحمٰن الناصري السعدي
# بقلم أحد تلامذته

هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر عبد الله آل سعدى التميمي الحنبلي.

## مولده:

ولد في مدينة عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧ من الهجرة وتوفيت أمه وله أربع سنين، ثم توفى والده وهو في الثامنة ١٣١٤ من عمره، وعطفت عليه زوجة والده وصارت تشفق عليه أشد من شفقها على أولادها وكذلك أخوه حمد عطف عليه فنشأ الشيخ نشأة حسنة فدخل مدرسة تحفيظ القرآن فحفظه وهو في الحادية عشرة من عمره، وحفظه عن ظهر قلب وهو في الرابعة عشرة من عمره.

## مشائخه:

بعد حفظه القرآن نظراً وعن ظهر قلب اشتغل بطلب العلم فقرأ على إبراهيم بن حمد بن جاسر في الحديث، وقرأ على محمد بن عبد الكريم الشبل في الفقه والنحو، وقرأ على الشيخ صالح بن عثمان قاضي عنيزة في التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو وهو أكثر من قرأ عليه، حيث لازمه ملازمة تامة حتى توفي، وقرأ على الشيخ عبد الله بن عائض وعلى الشيخ صعب بن عبد الله التويجري وعلى الشيخ علي السناني والشيخ علي بن ناصر أبو وادي قرأ عليه في الحديث والأمهات الست وأجازه في ذلك، وقرأ على الشيخ محمد الشنقيطي نزيل الحجاز قديماً ثم بلدة الزبير، قرأ عليه في التفسير والحديث ومصطلح الحديث أثناء إقامة الشنقيطي بمدينة عنيزة.

## جلوسه للتدريس:

ولما بلـغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس وكان يتعلم ويعلم ويقضي أوقاته في ذلك وفي الإكباب على مطالعة مؤلفات شيـخ الإسلام ابن تيمية ومؤلفات تليمذة ابن القيم بتمعن وتفهم فانتفـع بهذه المؤلفات غاية الانتفاع.

وفي عام ١٣٥٠ من الهجرة انتهت إليه المعرفة التامة ورئاسة العلم في القصيم فاشتهر علمه وارتفـع قدره فأقبل أهل ناحية القصيم على القراءة عليه وتلقي العلوم والمعارف عنه.

## تـلامـذتـه:

أخذ عنه العلم خلق كثير أعرف منهم هؤلاء المذكورين أدناه:

١ ــ الشيـخ سليمان بن إبراهيم البسام، درس في المعهد العلمي وعين قاضياً فرفض.

٢ ــ الشيـخ محمد بن عبد العزيز المطوع، تولى القضاء في المجمعة ثم في عنيزة.

٣ ــ الشيـخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، عضو هيئة التمييز في المنطقة الغربية.

٤ ــ محمد المنصور الزامل، درس بمعهد عنيزة العلمي.

٥ ــ علي بن محمد الزامل، مدرساً في معهد عنيزة وهو أنحى أهل نجد في زمنه.

٦ ــ محمد بن صالـح العثيمين، مدرساً بالمعهد وخليفة شيخه على إمامة الجامـع بعنيزة.

٧ ــ الشيـخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، عضو الإفتاء ورئيس الهيئة العلمية المستقلة بعد وفاة سماحة رئيس القضاة.

٨ ــ الشيـخ عبد الله المحمد العوهلي، مدرساً بالمعهد العلمي بمكة المكرمة.

٩ ــ عبد الله بن حسن آل بريكان، مدرساً بالمعهد العالي بعنيزة وله، رحمه الله، تلاميذ غير هؤلاء كثيرون لم يتسن لي معرفتهم.

## مـؤلفـاتـه:

ألف مؤلفات كثيرة نافعة نذكر منها ما يأتي:

١ ــ تفسير القرآن الكريم المسمى (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن) ثمانية مجلدات وقد فرغ من إكمال تأليفه عام ١٣٤٤هـ طبـع في المطبعة السلفية بمصر.

٢ ـ حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المتداولة والمؤلفة في المذهب الحنبلي (خ).

٣ ـ إرشاد أولي البصائر والألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، مرتبة على طريقة السؤال والجواب (ط).

٤ ـ تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله (ط).

٥ ـ الدرة المختصرة في محاسن الإسلام (ط).

٦ ـ الخطب العصرية (ط).

٧ ـ القواعد الحسان في تفسير القرآن (ط).

٨ ـ الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء المرسلين، وهو توضيح لنونية الإمام ابن القيم، رحمه الله.

٩ ـ توضيح الكافية الشافية (ط).

١٠ ـ وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني.

١١ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد (ط).

١٢ ـ منهج السالكين مختصر في أصول الفقه.

١٣ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ط).

١٤ ـ الرياض الناضرة (ط).

١٥ ـ بهجة قلوب الأبرار (ط).

١٦ ـ الإرشاد إلى معرفة الأحكام (ط).

١٧ ـ الفواكه الشهية في الخطب المنبرية (ط).

١٨ ـ منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين (ط).

١٩ ـ طريق الوصول إلى علم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول (ط).

٢٠ ـ الدين الصحيح يحل جميع المشاكل (ط).

٢١ ـ الفروق والتقاسيم البديعة النافعة (ط).

٢٢ ـ الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين (ط).

٢٣ ــ فوائد مستنبطة (ط).

٢٤ ــ الرسائل المفيدة: سؤال وجواب بأهم المهمات (ط).

٢٥ ــ شروح شيخ الإسلام ابن تيمية التي رد بها على القدرية (ط).

٢٦ ــ الفتاوى السعدية (ط).

٢٧ ــ التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

٢٨ ــ فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد.

٢٩ ــ الدلائل القرآنية.

٣٠ ــ التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية في المباحث المنفية (ط).

## مرضه:

أصيب عام ١٣٧١هـ بمرض ضغط الدم وضيق الشرايين وكانت أعراضه تبدو بعض الساعات في الكلام، فيقف ولو كان يقرأ القرآن ثم يتكلم ويرجع كعادته، فسافر إلى لبنان عام ١٣٧٢هـ على نفقة الحكومة السعودية، أيدها الله، وبقي في لبنان شهراً يعالج وشفاه الله، وبعد أن رجع إلى مدينة عنيزة باشر أعماله التي كان يباشرها قبل مرضه من تدريس وإفتاء وتصنيف وخطابة جمعة وإمامة فعاوده المرض، فلما كان في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ أحس بالذي فيه وكان معه مثل البرد والقشعريرة، وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور عام ١٣٧٦هـ بعد فراغه من الدرس المعتاد الذي يشبه محاضرة في المحاضرات والذي كان يقوم بإلقائه على الجماعة في المسجد، بعد فراغه من الدرس أحس بثقل وضعف حركة بعد الصلاة وفراغها فأشار إلى بعض تلامذته أن يمسك بيده ويذهب معه إلى داره ففعل، فهرع معه أناس من الحاضرين فلم يصل إلى داره إلا وقد أغمي عليه، وبعد ذلك أفاق، رحمه الله، وأثنى على الله وحمده وتكلم مع الحاضرين بكلام حسن طيب ثم عاوده الإغماء فلم يتكلم بعد ذلك، فلما أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أنه نزيف في المخ وإن لم يتدارك فوراً فإنه يموت، فأبرقوا إلى جلالة الملك.

فأصدر أمره الكريم عاجلاً بكل ما يلزم، فقامت الطائرة فوراً وفيها مهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة ولكن الجو كان ملبداً بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة فلم تستطع الطائرة الهبوط على أرض المطار، فتوفي، رحمه الله، قبل فجر يوم الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ فأصيب الناس لموته فانهمرت الدموع ووجفت القلوب وصلى عليه الناس بعد صلاة ظهر يوم الخميس في حشد عظيم لم يشهد في عنيزة

له مثيل، فامتلأ الجامع بالمصلين والمشيعين وانهمرت العيون بالدموع وانطلقت الألسن بالترحم عليه والدعاء له بالمغفرة والرضوان، فلما صلِّيَ عليه حملوه فوق الأعناق بزحام شديد إلى مقبرة الشهوانية المعروفة بمدينة عنيزة.

فبعد ذلك هتفت التعازي بالبرقيات من المعزين من جميع الجهات ورثي بمراثٍ كثيرة يصعب عدها وخلف ثلاثة أبناء هم: عبد الله ومحمد، وأحمد ـ غفر الله للشيخ المترجم عبد الرحمٰن ابن سعدى ورحمه وعفا عنه فإنه كان من العلماء الورعين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

# منظومة في أحكام الفقه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قد فَقّها
في دينه الأبرار أصحاب النهى

فعلِموا، وعملوا، وعلّموا
وصبروا على الأذى وأخلصوا

فكانوا في الدين القويم قاده
بهم يؤم الله من أراده

فهم نجوم الأرض للسلوك
وهم رجوم الملحد الأفوك

قد حفظوا شريعة الإسلام
وضبطوا قواعد الأحكام

جزاهم الرب الرحيم عَنًّا
وعن جميع المسلمين منا

* * *

وهذه منظومة قصدي بها
تيسير أحكام قد اعتنوا بها

**في** فقه أحكام تفيد المبتدي
من كتب أصحاب الإمام أحمد
أرجو من الرحمن تتميماً لها
في اللفظ والمعنى خلاصاً لها

* * *

## كتاب الطهارة

واعلم بأَن الماءَ طهور أو نجس
أو طاهر غير الطهور والنجس
فالأول: الماءُ الذي لم ينتقل
عن حاله الأولى بعارض نقل
والطاهر: الماء الذي تغيرا
بالطاهرات لا تراب غيرا
أو كان معصوراً من الأشجار
أو قد زال موجب الإطهار
والثالث: القليل لاقى للنجس
أو مطلقاً إذا تَغَيَّرْ بالنجس
فإن يَزُل بنفسه التغير
أو نزح أو إضافة فيطهر

## باب الآنية

كل إناءٍ طاهر مباح
ليس عليه فيه من جناح
سوى الذهب والفضة المشوب
والجزءُ للإنسان والمغصوب

أَوك السقا وخمر الإناءِ
مع ذكرك اسم الله تنفي السداءِ
وكل شيءٍ في الحياة طاهر
فشعره بعد الممات طاهر

## باب الاستنجاءِ وآداب التخلي

يكفي الفتى من نجوه أحجار
ثلاثة فصاعدا أطهار
ما فيها من روث ولا عظم ولا
نجاسة، ولا ما ليس منقيا
واستعمل الآداب عند الخارج
لتعتلي أعلى ذرى المناهج
سم الله واستعذ في المدخل
واجلس على اليسرى وبها فادخل
واقصد مكاناً ساتراً بعيدا
واسكت ولا تمكث به شديدا
وقدم اليمنى إذا خرجتَ
مستغفراً مولاك إذا خلصتَ
ويحرم استقبالُ بيتِ الله
أوعكسه فلا تكن بالساه
أوفي الطريق أوظلال نافع
أو مثمر الأشجار والمناقع

ويكره التخلي فوق النار
أو الرماد أو بذي الأحجار

## باب السواك

إن السواك سنة مؤكده
لا سيما أوقاته المؤكده
مثل الصلاة والوضوء أوله
والانتباه والتغيّر آخره
ومن عظيم منة الرحمن
تتميمه لفطرة الإيمان
بالطيب والنكاح والختان
والقص للشعور والبنان

## باب الوضوء

سم الإله وانو عند الطهر
وابدأْ بما به الرحمن يجزي
واستكملن شروطه الثمانيه
إن كنت تبغيها تجدها دانيه
العقل والإسلام والتمييز
طهور ماء كونه يجوز
كذا انقطاع موجب الطهاره
وقطعه بماءٍ أو حجاره

وكـــل هـــذا لازم اغـــتـــســـال
مـع الـثـلاث وحـضـور الـبـال
تقـديمـه اليمنى على الشـمـال
والـدلـك لـلأعضـاءِ بـالكمـال
سـوى الأخير فـاحفـظنّ قـالي
واحرص على المسنون كاستقبالِ
وامـسـح لـراس مـرة والأذن
تقـديم راسٍ قبلهـا مستـحسن
كـمـا استـحبـوا قـولـه لـلواردْ
بعـد الفـراغ فـافـهم الـمـواردْ

## باب المسح على الخفين

وامسح على الخفين إن لـبسـتَ
عـلى طـهـارة وقـد سـتـرتَ
ثـلاثـة الأيـام لـلـمـسـافـر
وثـلـثـهـن لـلمـقـيـم الـحـاضـر
وهـكـذا الخِـمـار والـعـمـامـه
والجبـر من شخص على عظامـه

## باب نواقض الوضوء

وينقض الوضوءَ كُلُّ ما خرج
من السبيل مطلقاً إذا خرج
والدم والقيء الكثير عُرْفا
وكل أمر فيه العقل يخفا
ومسّ فرج ومسيس أُنثى
لشهوة من دون مس الخنثى
وغسل ميْت ولحوم الجُزْرِ
وردةُ الإنسانِ نحوَ الكفرِ
واعمل على اليقين إن شككتَ
في الطهر والأحداث إذ جزمت
ثلاثة محظورة في الأصغر
أعني الحدث، وخمسة في الأكبر

## باب الغسل

ويلزم الغسل من الخروج
للماءِ دفقاً أو من الولوج
والحيض والنفاس والإسلامْ
والموت تتميماً لذي الأحكامْ
ويندب الغسل لكل عيد
وجمعة في قولنا الأكيد

والغسل للإحرام والإفاقه
من الغشْيِ والتي تهراقه
فمن نوى بغسله مندوبا
مع واجب يحصّل المطلوبا
ويندرج حكم الحدث في الأكبر
إذا نواه لم يجىءْ بالأصغر

## باب التيمم

ومن عظيم منة المعيد
إن لم نجد ماءً فبالصعيد
وهو التراب الطاهر المباح
به الذي بالماء يستباح
والفرض مسح الوجه والكفين
بضربة تكفي أو اثنتين

## باب إزالة النجاسة

تطهير أرض نجست تعميمها
بالماءِ حقاً أو يُزلْ رميمها
والبول للصغير يكفي نضحه
ومثل هذا يا خليل قَيِّدْ شرحه
واغسل من الكلب والخنزير
سبعًا مع التراب بالتخيير

ومسكر قد ماع كالنجاسه
واحكم على الميتات بالنجاسه
إلّا الجراد والسمكْ والآدمي
وكل نفس لا تسيل بالدم
والهر جزماً في الحياة قد طهر
وكل شيءٍ دونها كما اشتهر
وكل شيءٍ أكله محرّم
ففضلاته كلها تحرّم
وعكس هذا حكمه بعكسه
إلا الذي طعامه من نجسه

## باب الحيض

والحيض والنفاس يمنعان
للصوم والصلاة والقرآن
كذا الطواف ودخول المسجد
والحيض للطلاق فافهم مقصدي
والمستحاضة تجلسنّ العاده
أو تجلسنْ للتمييز بعد العاده
وتفعل الصوم مع الصلاةِ
مع عصبها والطهر للأوقاتِ

## باب الأذان

ويــلزم الأذان لــلصــلاة
بـكــل وقت غيــر ذي الفــوات
يقــاتل الإمــام قومــاً تــركــوا
إذ تــركه شعــار قــوم أشــركوا
وســن لــلفــرد وفــي الأســفــار
وكــون مــن أذن ذا جــهــارِ
مــستــقــبــلاً مــرتــلاً أمــيــنــاً
مــرتــبــاً مُــوَالِــيَ الــتــأَذيــنــا
وســن قــولُ ســامعٍ كــمــثــلــه
وقــولــه لــوارد مــن بــعــده

## باب شروط الصلاة

وتــســعــة شــروطــهــا تــمــام
الــعــقــل والــتــمــيــز والإســلام
طــهــارة مــع قــدرة وســتــره
والــوقــت واستــقــبــالــنــا لــلقــبــلــه
ونــيــة مــحــلــهــا فــي الــقــلــب
قــصــد الــعــمــل تقــربــاً لــلرب

## باب أركان الصلاة

أركـــانـهـــا تسـع وخـمس تكـمله
تكبيـــرة الإحـــرام ثم الـفـــاتحـــه
وبعـــدهـــا الـــركـــوع ثم الـــرفـع
مـن الـــركـــوع واعـتـــدال تـــبـع
وبعـدهـا السجـــود فـوق السبعـــهْ
والـــرفـع منـه، وكـــذاك الجلسـهْ
ورتـــب الأركـــان ركـنـــاً ركـنـــا
وكـن بهـــا جـمـيـعـــاً مـــطمئـنـــا
واخـتـم بـتسـليـم مـع الـتشـهـد
مصليـــاً عـلى الـــرســـول أحـمـــد

## فصل في الواجبات والسنن

وكـــل قـــول في انـتـقـــال واجب
وغـــيـــر هـــذا سـنـــة لا واجـــب
ويكـــره التـغـمـيض في الـصـــلاة
والـكـف لــلثـيـــاب والــتـفـــات
وهـــكـــذا تـــبـــســـم وفـــرقـعـــه
ووضعـك الكفين فوق الخـاصـره
وفـعـــل شيءٍ مـشبـــه الـبهـــائِـم
وكـــون قلب في ســواهـــا هـــائم

## فصل

وتبــطل الصــلاة إن لم تفـعــل
كـل الشـروط والأركـان فـاعقــل
أو فعــل شيءٍ كـان منهيــاً بهــا
لا فعــل شيءٍ قـد نُهي بغيــرهـا

## باب سجود السهو

وسجــدتــا السهــو فتشــرعــان
لـلشـــك والتــزيــد والنـقصــان
فـإن تـركت الـواجبـات فـاسجـدِ
أوزدت فعــلاً جئتــه عن عمــدِ
وإن تــركــت ركنــاً أوشـكـكـتَ
فــافعله ثم اسجــد إذا فــرغْـتَ
واعمـل على اليقين في الشكـوك
إلا مـع الإكــثــار لــلشــكــوك
واسجد سجود السهو قبل الإنقضا
إلا الذي عن نقصها: بعد القضا

## باب صلاة التطوع

واعلم بأَن النفل للفروض
مكملاً نقصاً بذي المفروض
والنفل منه مطلق وراتب
وسنة هذي لها مراتب
فالراتبات يا أخي عشر أتت
وسنة عشرون أيضاً فصّلت
وأفضل النفل على الإطلاق
صلاة ليل آخر الإغساق
والوتر في كل الليالي أَكِّدا
بين العشا وبين فجر قيدا
وحيٍّ بيتَ الله بالصّلاة
وبعد طهر تحظ بالصّلات
وسجدة القرآن فارغب فيها
حكم صلاة النفل يجري فيها
واسجد سجود الشكر بالسرور
أو دفع ما يؤذي من الشرور
واحذر من الصلاة وقت النَّهْي
ومثل هذا في بقاع النهي

## باب صلاة الجماعة

إن الصــلاة بـالجمــاعـة واجبـهْ
للفرض في وقت الصلاة الحاضره
أقــلهــا يــا صــاحبَـيَّ اثــنــان
مـن الــرجــال أو من الـنـســوان
واحذر من الصلاة خلف الفـاسق
إلا الـجمـعْ والـعيـدَ لا تـفــارق
ولا تصـلِّ خلف عاجـز عن ركن
أو شـــرط غـيــر مــالـه نستثني
وهـو الإمام الـراتب الـذي عجـز
عن القيــام لا عن غـيـره عجــز

## فصل في الإمامة

وقــدم الأقــرأَ فــي الإمــامــه
العــالمَ المعـروفَ بــالـديـانــه
وبـعــد هــذا السـنَّ والـنـسـيـب
ثم اعمــل القــرعــهْ إذاً تصـيب
وربّ بـيت، وإمــامُ الـمـســجــد
أولى من الضدين فافهم مقصدي
ولا صـــلاة لـــلذي قــد انفــرد
أو عــن يســـار لــلإمـــام منـفــرد

## فصل

ويعذر الإنسان عن جماعه
عند احتياج النجو والمجاعه
وكل أمر يوجب التضررا
في نفسه وماله فيعذرا

## باب صلاة أهل الأعذار

ويعذر المريض عن قيام
إلى القعود ثم للمنام
ومن يسافر جاز فيه القصر
والجمع للوقتين ثم الفطر
والخوف إن يعرض له صلاته
من ستة أوسبعة إثباته

## باب صلاة الجمعة

وتلزم الجمعة للذكور
البالغين الحلْم في الحضور
وأول الوقت كوقت العيد
والآخِرُ العصرُ بلا ترديد
والخطبتان فيهما الحمد والعظه
مع القراءَة والصلاة لازمه
واحذر من الكلام وقت الخطبه
إلا الإمام أو فراغ الخطبه

## باب العيدين

والعيد مثل جمعة لكنَّهْ
فرض كفاية والخطبتان سنَّه
وكبر الرحمن كل العشر
وليلةَ النحر وعيد الفطر

## باب صلاة الكسوف والاستسقاء

وللكسوف ركعتان كررتْ
في كل ركعة وحالها قد طولت
وإن يضر الناس فقد الماءِ
فليستقوا من فاطر السماء
ويخرجون للمصلَّى خُشَّعا
مستغفرين ملحفين في الدعا
ويفعلون ركعتين بعدها
يخطبْ إمام خطبة لا غيرها
ويكثر استغفاراً في أثنائها
ويقلب الرِّدى تفاؤلاً بها
واسأَلْ إذا هبَّت رياحُ خَيْرَهَا
أو جاءَتِ السحبُ وَدَفْعَ شرها
وعند صوت الكلب والحمار
عذ بالإله الحق من مَكَّارِ

## فصل في الجنائز

والــدفــن والتـكفـيـن لــلأمــوات
فــرض كــفــايــة مـع الـصَّــلاة
ويـلزم الصـبــر على الـمـصـيبــهْ
وتنــدب التعــزاة في الـمـصـيبــهْ

* * *

## كتاب الزكاة

وشرطها حريةٌ تمام
للملك، والنصاب والإسلامُ
وواجب حق الزكاة في الإبل
أن تبلغ الخمس وليست للعمل
وفي البقر أن تنصف الستينا
وفي الغنم أن تبلغ آربعينا
وليس في وقص البهائم حق
وغيرها ما زاد أو مستحق
وكل حب أو ثمار تدخر
مع كيلها ففيها العشر معتبر
هذا إذا كانت بغير كلفه
ونصفه، لا عشر إن تكن بكلفه
بشرط أن ترقى لخمسة أوسقهْ
غير الديون الثابتات الموثقهْ
وأَدِّ ربع العشر في النقدين
إن تبلغ الفضة مائتين
وقدرها عشرون مثقال ذهب
وهكذا العروض أيضاً تحتسب

إن هـيئت لـلربـح والـتـجـاره
دون الـتـي لـلقـنـو والإعـاره

وتـلزم الـفـطرة كـل شـخص
حفـظا لشهـر الصـوم من النقص

عـن نفسـه ومن يـمـون كلهـم
فـإن تـعـذر فـاخـصصْ لـهـم

صـاعـاً من الـزبيب ثم التمـر
والأقط والـشـعـيـر ثـم الـبـر

## فصل

ويـلزم الـبـدار فـي إخـراجـهـا
إلا لأمـر يـوجب استـيخـارهـا

وأهلهـا في النَّصّ هم ثمـانيـه
لا تصـرفَنْ في غيـرهم عـلانيـه

* * *

# كتاب الصيام

ويــلـزم الــصــيــام لــلأنــام
بــرؤيــة الــشــخص والإتــمــام
وإن يحــل ليـل التمــام مــانـع
فــاتبـع لقــاض خشيــة التنــازع
وشــرط إيجـاب الصــوم القـدره
والعقــل والبلوغ فـاعــرف قـدره
ومن عجــزْ عن صــومــه لكبــر
يـطعم لكـل يــوم فيـه مــا فـطر
وإن يـزل عذر الـذي قـد أفـطرا
في يومه يمسك ويقضي ما جـرى
وأُم طـفــل وجـنــيـن خــافــتــا
على الـولـد فليفــطرا مـا خــافتـا
وسن فطر في المرض وفي السفر
وواجب في الحيض أو خوفه مضر
ويـلزم الـتـكـفـيـر كــالــظهـار
لمن وطىءْ في الصــوم بـالنهـار

## فصْل في السنن والمفطرات

ويـنـــدب الـتــأخـيـــر لـلـسـحـــور
وهـكـــذا الـتـعـجـيـــل بـــالـفـــطـور
وكـثـــرة الـخـيـــرات والإحـســـان
وحـــبس عـبـــدٍ هـــذرَ الـــلسان
ويـفـــطر الإنـســـان فـــي إدخـــالـه
كـل المقيت الجـوفَ أو إخـراجـه
إلّا مـع الإكـــراه والـــنـســـيـــان
لـشـــرعـــه بـــالـعـــدل والإحـســـان

## باب الاعتكاف

وواجـب نـــذر اعـتـكـــاف ونُـــدِب
من غيـر نذر فهـو أفضل القُـرَبْ
فهـو انفصــال عن عَنَـــا الخَـلائِق
مـع اتـصـــال بـــالإلـه الـخـــالـق

* * *

## كتاب الحج

والعقل والبلوغ واقتدار
شرط وجوب الحج واعتمار
أركان حج: نية الدخول
وقوفه في وقته المجعول
طوافه بالبيت مَعْ أشراطه
وسعيه سبعاً تتم أشواطه
وواجب الإحرام من ميقاته
والرمي للجمرات في أوقاته
ووقفة لمن وقف نهارا
إلى الغروب فاحذر البدارا
وهكذا المبيت ليل النحر
بتنعيم ثم الحلق ثم النحر
وبيتة الناس اثنتين بمنى
لمن تعجل، وثلاثا مَنْ ونى
وغير هذا سنة لا يلزم
من يترك المسنون ليس يأْثم
ومن تركْ ركناً فلا يصح
أو واجباً يأْثمْ، ويلزمْ ذبح

## فصْل

وإن تــرد تــمــتــعــا أو قــرنــا
أو فــرد حــج فــالتمتــع أسمــى
وسن لــلإحــرام تنــظيف وطيبْ
وكثــرة الإهــلال للرب المجيبْ
وســمــي الإحــرام بــالإحــرام
لأنــه تــحــريـم ذي الأقــســام
وهي التـطيب والـدواعي للنكــاح
وهكــذا لبس المخيط والنكــاح
وقــتــل صيــد الـبــر والــدلالــه
والــظفــر والشعــور في الإزالــه

## فصل

قسم على التخييــر في الإحـرام
بين الـفــدا والصــوم والإطــعــام
مثـل اللبـاس والتــطيب عــامــدا
وأخـذ شعـر، نــاسيـاً أو عــامـدا
ومن قتــل صيــداً ففيــه المثــل
أو قيمـة الإطعـام أو صيــام عـدل
وفــديــة الــقِـرَان والــتــمــتــع
يلزمــه ذبـح مـا تيســر فــاسمـع

فإن عَدِمْهَا صام عنها عشرا
ثلاثة في الحج والبواقي تترى
ومثل هذا حكم من قد أُحصرا
فافهم هداك الله ما تقررا

## باب الْأُضحية وغيرها

والْأُضحيةْ من أفضل القربان
في يوم عيد بعده يومان
ولم يجز غير الجذع من ضان
وغيره منه الثنى الدانِ
واستحسن القربان مستسمنا
واحذر من العيب الذي تبينا
ويندب النسك عن المولودْ
في يوم سبع فافهم المقصودْ
واختر لَهُ أحسن الأسماءِ
واحلق به الراس مع الفداءِ

* * *

## كتاب الجهاد والجزية

وواجب عند النفير أن ينفروا
ومن إذا صف القتال حضروا
وغير هذا سنة مؤكده
لا سيما غزو ببحر فاقصده
ويندب الرباط في الجهاد
من أكبر الأسباب للرشاد
وينبغي لصاحب الجيش الحذر
عن كل ما يفضي إلى الخطر
ويُقْتل الكفار أجمعونا
حتى إلى الإسلام يرجعونا
وما أخذْ من مالهم بالقهر
فهو الغنيمهْ فاستمع واستبر
خمس الغنائم في الأنفال قسمت
وأربع الأخماس فيهم فرقت
للفارس الأعلى ثلاثة أسهم
وللهجين اثنان فاسمع وافهم
والفيء من أموالهم ما يؤخذ
من غير قهر في المصالح ينفذ

وتـؤخــذ الجــزيــة مـن كتــابـي
وشــرطهــا الصَّـغــار للكـتــابـي
وتـمـتـضـي أحـكــامـنــا عـليـهـم
فــي كــل أمــر مـلـزم عــليـهــم
ويـلـزم التـمـيـيـز فـي الـلبــاس
مـع الــركــوب حــذر الـتبــاس

* * *

## كتاب البيع

ومـــا دل عـــلى الـــمـــقـــصـــود
تـمضـي بــه الأحكــام لـلعقــود
لـكــل عقــد يــا أخـي شــروط
منهــا التبــايع هــذه الـشــروط
وهي: الـرضا من عـاقد والـرشد
والـمنـفعـهْ ومـلك عقــد حــدوا
وعلم مـا قـد بيع أو وصف جلي
وقــدرة التسليم فـافهم مقصــدي
ويحــرم البيــع الـذي بــالمسجد
وكــل مُلْهٍ عن فـروض فــاقصـد
وكــل مــا يقصــد بــه المحــرّم
فـبيـع هــذا بــاطـل مــحــرّم

## باب الشروط والبيع

وكــل شـرط فيــه حظ العــاقــد
يلزم بــه الإيفــاء كــالـمــواعــد
والفــاسـد الشـرط الـذي يخــالف
أو يشـرطـا عقـداً سـواه صــارف

ومن جمع في عقده شيئين
ذا فاسد، وهٰذا صحيح العين
فصحح الصحيح والغ الفاسدا
وقسط الأثمان فيها قاصدا
ويملك الشيء المبيع بالشرى
للمشتري غنم وغرم ما جَرى
إلا الجوائح فالغريم البائع
وما بوزن أو بكيل شائع

## باب بيع الأصول والثمار

ومن يبع أرضاً شمل بناها
أو باع داراً يدخلن فناها
ولا يصح البيع في الثمار
حتى تطيب حذر الأكدار
ومن يبع نخلاً بأصل أُبِّرَا
لبائع طلعه إلا بشرط قد جرى

## باب الخيار

وللخيار موضع الجلوس
أو شرطه في وقته المحسوس
والغبن والتدليس والعيوب
والاختلاف إن عدم مصيب

## باب السلم

وللسلم فاعلم شروط سبعةْ
منها انضباط راسه والسلعَةْ
والعلم في معياره ووقته
وكون مال ينتفع في وقته

## باب الربا

يجري الربا في كل ما يكال
وكل ما يوزن فهو المال
فإن يبع وزن بذي المكيل
جاز النسا والبيع بالقليل
وإن يبع ما تشتمله العله
فامنع من التأْخير فيه كله
وامنع من الفضل الذي من جنسه
وجوِّزَنْ ما لم يكن من جنسه

## باب القرض

من أفضل الأعمال قرض المال
يجوز قرض في جميع المال
وكل قرض جر نفعا لم يصح
وإن قضى خيراً بلا شرط يصح

## باب الضمان

وإن ضمن شخص لشخص ماله
فليطلبن من منهما بدا له
وإن يؤد ضامن فليرجعا
إن لم يكن مقصوده التبرعا
ومثل هذا من يؤدي واجبا
عن غيره فليرجعن مطالبا

## باب الرهن

يصح رهن مالك المرهونْ
أو كان في رهن له مأْذونْ
وكل عين فيها البيع لا يصح
فرهنها أيضاً حرام لا يصح
إلا الثمار قبل أن تطيبا
والعبد أن يصحب له قريبا
له الرجوع قبل قبض الرهن
وبعده يمضي فلا يستثني
وإن تَلِف رهنٌ بلا تَعَد
ما فيه من شيء فافهم القصد
ويركب المرهون، والمحلوب
يحلب بقدر ماله محسوب
ومن قبض عيناً لحظ نفسه
لم يقبل الرد بقول نفسه

## باب الحوالة

وشـــرطهـــا اتفـــاق ذي الـــدّيْنَيْـــنِ
من كــل وجــه، واعلم الـــدَّيْنَيْنِ
ويـــنـضـــبط ويســـتـقـــر الـــثـــانْ
ويسمـح المـديـون لا الـديـانْ

## باب الصلح وحكم الجوار

والـصلـح نـــوعـــان عـلـى إقـــرار
بـــالحق جـــزمـــاً أو مـع الإنكـــار
مقصـوده عـدل بـــذي الخصمـان
فـــالـظلم ممنـــوع مـع الكتمـــان
وأحسن إلى الجـار العظيم الحق
واحـذر من الـظلم الـذي للخلق

* * *

## كتاب الحجر

والحجر منع الشخص من أمواله
لحفظه أو من ينل من ماله
ويلزم الإنظار للإعسار
أو قبل وقت الدين واستقرار
ومن وجد عين الذي باع أحق
من غيره بشرط أن لا يستحق
يمنع الإنسان بالتمام
للسن والإنبات واحتلام
والحجر فاعلم تختلف أسبابه
ففي النكاح معرفة خطابه
ولرب الأموال حفظ المال
عن كل ما يفضي إلى الزوال
للولي الإذن للصغير
في البيع والشراءِ باليسير
وللولي الأكل من مالٍ يلي
بقدر ما قد كان فيه يعمل

## باب الوكالة

وهي على نـوعين: نـوع جـائـزه
في كـل عقـد وفسـوخ جـائـزه
أمـا الـتي لا يسـتنيـب الـغيـر
فهي الصـلاة والصيام الـطهـر
وكـل تـوكيـل يجـوز فسخـه
ويـبـطله مـوت وحجـر فِسْقُـهْ
فـرهـنـه في الـتلف لا يـضـمـن
إن لم يفـرط والعـواري تُضْمَنْ

## باب الشركة

وكـل أنـواع التشـارك جـائـزه
كـالضرب، والعنـان، والمفاوضـه
والـوجـه والأبـدان فيهـا يعمـلا
ومـا قسم: يقسم عليهم فـاعـدلا

## باب المساقاة

يـجـوز دفـع الأرض والأشجـار
لـمن يـعـمـرهـا بـجـزءٍ جـار
ويـلزم الـتـعـمـيـر بـالـمـعـروف
ويتبعـان العـرف في الـتكليـف

## باب الإجارة

وشــرطهــا علم الثمن والمنفعــه
وكــون نـفـع جـائــز لا يتـلفــه
ويتبـعــان العــرف فـي الإجــاره
فــيمــن عـليــه مـؤن الإجــاره
وهي من العقود اللازمات تنفسـخ
بــتـلف مــوتــهـم لا تــنـفــسـخ
ويــســتــقــر الأجــر بــالــفــراغ
أو بـمضـي الــوقت مع الـفــراغ

## باب المسابقة

والسبق من غير العوض يجــوز
وفـي الـعــوض ثـلاثـة تـجـوز
وهي الإبــل والخيــل والسهــام
يـعـيّـن الـمــركــوب والــسـهــام
ويتحــد نــوع، ويعلم الـعــوض
ولا يشبــه بـالقمــار في العـوض

## باب العارية والغصب

ويشتــرط كـون العــواري ينتفـع
نفعــاً مبــاحــاً والمعيــر مبتــرع
وأي وقــت لــلمــعــيــر يــرجــع
إلّا مع الإضــرار حتـى يـقـلـع

ويلزم الغاصب يؤدي ما غصب
ولو غرم ضِعافاً لما كان غصب
ويلزمه أرش لنقص قد حصل
وأجر نفع في يديه قد عطل
ومن يباشر تلفاً فيضمن
أو سبباً تعدياً، لا المحسن

## باب الشفعة

وتثبت الشفعة للشريك
في ملكه ما قد شاع للشريك
بشرط سبق الملك للشفيع
مع البدار وأخذه الجميع

## باب الوديعة

ويلزم الإحراز للوديعه
في حرز مثل، واحذرن تضييعه
وإن أخذها ظالم لا يضمن
أو افتدى بعضاً ببعض محسن

## باب إحياء الموات

وتملك الموات بالإحياءِ
بالحصن والحفر وجَرْيِ الماءِ

ومن سبق إلى مباح قدما
وإن تساوى اثنان فيه أسهما

## فصْل

وإن جعل مال على فعل عمل
فمن فعله استحق ما جعل

## باب اللقطة

ولقطة تملك بلا تعريف
كالسوط والحبال والرغيف
ولقطة الضوال لا تؤويها
معها حداها، والسقا يرويها
ولقطة الشياه والمتاع
لصاحب أو لاقطٍ أو ضياع
ويلزم التعريف حولاً كاملا
فإن عرف يعطى وإلَّا يؤكلا
وكل شيءٍ كان مجهولاً وصف
فيلزمن إعطاؤه لمن وصف

## باب اللقيط

وإن وجد طفل صغير قد نبذ
فأمره وحكمه لمن أخذ
وإن أقر فيه شخص ألحقا
وإن أقر اثنان قدّم اسبقا

## كتاب الوقف

والوقف أن تحتبس لأصل أبدا
لينتفع منه ويبقى مرصدا
وشرطه نفع مباح يجري
على الدوام في طريق الخير
والوقف عقد لازم لا ينقلْ
إلا مع الخراب والتعطلْ
ويرجع العرف إلى شرط عرف
إن قيدت بالشرع أو أمر عرف
ويلزم الناظر حفظ الوقف
مع العمار واجتهاد العرف
ومن يقرر في الوظائف لم يزل
إلا لأمر موجب فيه حصل

## باب الهبة والوصية

ويحرم الرجوع في الموهوب
إلا أباً يرجع بذي الموهوب
وللأب الحر التملك ما يشا
من مال أولاد بلا ضر نشا

ويحـــرم الحيف بـذي العــطايــا
وفـوق ثلث المـال في الـوصـايـا
ومثله الـمـــوصى بـشيءٍ يـجهــل
وهكـذا أعمـال شـــر، فـاســألـوا
وجهـــل مـــا وصى بـــه الـيسيـــر
مـــسـامـح فـيـــه لا الــكـــثـيـــر

* * *

## كتاب الفرائض

والعلم بـالميـراث نصف الـعلم
وفـقــده مـن قـبــل كــل عـلـم
فـاحـرص عليـه واستعن بـالــربْ
وأخلص لـــه إخـلاص من يحِبْ

## باب أسباب الميراث وموانعه

أسـبــابــه: عتـق نكــاح ونـسب
وبيت مـــال حـــافظ لـيس سبـب
مـــوانـعـــه: قـتــل بـغـيــر حـق
وكــل شخص كـامــل في الـرق
وخلف دين غيـر صـاحب الـــولا
ومـسـلم والـــمـــال لـم يـــخـــولا

## باب الورثة من الرجال والنساءِ

هــم الأصـــول من إنـــاث وذكـــر
مـع الفـــروع النـائلين بـــالـذكـــر
وفـــرع آبـــاء ذكـــور حـــقــقـــا
والأخـــوات والإخـــوان مـــطلقـــا

والــزوج والــزوجــة والـمــوالـي
فــاسمـع لتفصيلي على التــوالي

## باب أحوال الورثة

للزوج نصف المال مع فقد الولد
والربـع إن يوجـد بتنزيـل الصمد
واحكم على الزوجات بالحكم الجلي
بنصف مال الزوج في حكم الولي
لــلأم ثلث المــال في شــرطين
فـقــد الــولــد وإخــوة إثـنــيـن
فـإن وجـد أحــدْهمـا فــالسـدس
والـربـع في عُمَـرِيَّتَيْنِ أوسـدس
ولـلأب السـدس إن الإبن وجـد
والإرث بالتعصيب مـع فقد الولد
ويــرث الســدس مـع التعصيب
مـع الإنــاث الجـد كــالتــرتيب
وتــأْخـذ الجــدة سـدسَ المــال
وولــد الأم الــوحيـد الخــالـي
فــإن يكــونــوا اثنين ثلث بينهم
وتستــوي الإنـاث مـع ذكــورهم
للبنت نصف، وحدها قـد حازت
والــثـلـثــان لــلتـي قــد زادت

وبنت الإبن مثلها فإن تكن
مع بنت صلب فالسدس لها أكملن
والأخوات في ذا كالبنات
يعصبن ما بقي بعد البنات
فإن يكن معْ هؤلاءِ ذَكَرْ
عصبْهن: تعصيبه مشتهر
فأعط أصحاب الفروض حقهم
ثم يقدم بعدهم أحقهم
كل الذكور غير زوج عصبه
وإخوة الأم، وزدهم معتقه
فقدم الأقرب من جهاتهم
ثم المنازل فاعتبر قواتهم
وكل من أدلى بشخص حجبه
إلا ولَدْ أُم، وأُم والده
وأسقط بنات الإبن بابنتين
والأخوات لِأبٍ شقيقتين

## باب الرد وذوي الأرحام

فاردد على أهل الفروض بِقَدَرْ
بشرط فقد العصب والفرض قُصِرْ
فإن عدم عَصَبْ مع الفروض
فالمال للأرحام بالمفروض

وهم جميع الأقربا، غير الألى
تقدموا ينزلوا من هؤلا

## باب أصول المسائل

ثم الأصول: سبعة اثنان
ثلاثة مع أربع ثمان
وستة مع ضِعفِها، والضِعف
فهذه العول عليها يقف

## باب الانكسار

إن تجد كسراً على فريق
فاردد جميع الوفق من فريق
دفعة أو ضرب الروسا
جميعها إن باينت روسا
فإن يزد كسر على فريق
فاعمل كما تقدم في الفريق
انظرن إلى الفرق إن ماثلت
فخذ إحداها والكبير إن باينت
وحاصلا من ضرب ما تباينت
بعضاً ببعض والتي قد وافقت
وفقه واضربه فيها أصلا
ثم اقسمن كل الذي تحصلا

## باب المناسخة

فــإن يمت شخص من الــورّاث
قبــل اقتســام المــال والتــراث
فـاعرف من الأُولى سهـامَ الثـاني
ثــم اعــطه لــوارثيــن الثــانــي

## فصْل

وكــل مفقــود وخــنثى مشــكــل
وهكــذا الحمــل: يقين يـعمــل
وإن يمت قــوم بــأسبــاب تعـم
مـع جهلك التــرتيب ورث بينهم

* * *

## كتاب العتق

وأفضـــل العتق النفـيس الغـــالـي
فـعتـقــه مـن أشــرف الأعـمـــال
ومـن يمثــل بــرقـيقــه يـعـتـق
أو يملك الأرحـــام منــه يعـتقـوا
وإن غني يـعتـق جــزءَ مشـتَـرَكْ
يسري إلى الباقي ويغـرم ما هلك
ومـن يـعــلق عـتــقــه بــوصـف
لم يُعْتقَنْ إلى وجــود الــوصـف
يصـح نقــل الملك فيمـا علقـا
قبـل وجود الـوصف فيـه مـطلقـا
ومـــن يـعـــلق عــتـــقـــه بـمـــوت
فهـــو المـــدبــر يعتق بـــالمـــوت

## باب الكتابة والاستيلاد

فـــإن عـلمتـم بـــالــرقيـق خيــرا
فـكـــاتبـــوه تـــطلبـــون الـخـيـــرا
ويـــلزم إيـــتـــاؤه مـــن مـــالـــهـــا
ربعــاً إذا يؤتـى لكـــل مـــالـهـــا

وعقدها عقد صحيح يلزم
وهو رقيق ما عليه درهم
ويملك الكسب الذي به ينتفع
دون الذي فيه الهلاك والطمع
وإن تلد من سيد مملوكته
تعتق بموته وهي قبل ملكته

* * *

## كتاب النكاح

مــن اســتــطاع آلــة الــنــكــاح
فــلــيــفــعــلْــنــه حــذر الــســفــاح
ويــظــفــرنْ بــالــبــكــر ذات الــديــن
مــع الــودود الــوالــد الــمــعــيــن
واحفظ لفرج واغضضن من بصر
إلا لمن قــد جــاز منهم النــظر
مثل الرضاع والنسب والشاهد
ومن يعــامــل وقبيح الشــاهــد
وخــاطب ظن الإجــابــة ينــدب
ومن يــداوي أيّ عضــو يــطلب
لــزوجــتــه وأمــتــهْ لــكــلــهــم
أن يــنــظرن من آخــر أبــدانــهم

## باب أركانه وشروطه

وركــنــه الإيــجــاب والــقــبــول
وَجِــدّهُ كــالــهــزل يــا سؤُول
وشــرطــه تعيين زوج والــرضــى
مــع الشهــادة وولــي قــد مضــى

وَعِيبَ الزوجان من موانع
من نسب أو سبب قواطع
ويفهم التصريح للمعتده
بخطبة حتى تزول العده
وخطبة المرءِ على أخيه
وهكذا حكم الذي يليه

## باب المحرمات في النكاح

وتحرم الفروع والأصول
وفرع أُم وأب نزول
وفرع ما قد فوقهم لصلبه
فافهم لقول جامع في ضبطه
وتحرم الزوجات للأولاد
وهكذا الآباءُ والأجداد
وهكذا أُم مضت لزوجته
كذا الربيبةْ إن دخل في زوجته
ويحرم الجمع لذات المحرم
وهكذا معتدة لم تختم
وهكذا ذات الزنى حتى تَتُبْ
والمشركة إلَّا نِسَاءُ أهل الكتب

## باب الشروط في النكاح

أحق ما يوفى من الشروط
ما أحل فرجًا فافهم المشروط
من الشروط باطل مثل الشغار
ومتعة والتيس المستعار
وإن شَرَطْ وصفاً فبان أعلى
لم يملك الفسخ هَذَاكَ المولى

## باب العيوب فيه

ويفسخ النكاح بالعيوب
مع جهلها لا العلم بالعيوب
وكل فسخ فيه خلف عندنا
يحتاج للحكام فافهم قولنا
يقر كفار على نكاحهم
فإن أتونا فاعقدن نكاحهم

## باب الصداق

ليس في العقد أن يسمى المهر
على قليل أو كثير يجروا
ومن تزوج دون مهر يفرضُ
مهر المثل إلا بدون قد رضوا

تـقـرر الـصـداق بـالـدخـول
والـوطء والمـوت فكـن عقـول
ومـن دُعِـي لـدعـوة أجـابـا
في العرس إيجابـا غيره استجـابا
وتنبـغي الآداب عـنـد المـطعـم
لـيبتـغي فضـل الإلـه الـمنـعم

## باب عشرة النساءِ

وعـاشـر الـنسـاء بـالـمعـروف
بـالقول والفعـل الجميـل المـوف
يستـمتـعن بـكـل مـا استمتـاع
وتـنبـغـي الآداب فـي الـجـمـاع
كـالتسمية في الـوطء والمـلاعبـه
والأنس والـتقـبيـل والـمـداعبـه
ويـلزم الـقَـسْـم عـلى الـسـواء
بـيـن نـسـائـه لا فـي الإمـاءِ
ولـيـلـة مـن أربـع لـلحـره
والـوطء كـل ثـلث عـام مـره
ثـلاثـة لـلثـيِّـب الـجـديـده
وسبـعـة لـلبـكـر فـاستـفـيـده

## كتاب الخلع والطلاق

والخلع من زوج على فداء
ليس طلاقاً بل فسخ افتداء
وأبغض الحلال للرحمن
طلاق من غير ما نقصان
ولا يقع من نائم تطليق
أو مكره، أو كان لا يفيق
وسنة الطلاق في الطهاره
من غير ما وطءٍ بذي الطهاره
وبدعة في ضدها والآيسه
مع الصغيرة والحوامل جائزه
وللطلاق ألفاظ: صريح فيه
تطلق بها من غير أن تنويه
ولا يقع لفظ من الكنايه
إلا مزيدا، وقرين ذا نيه
يملك الحر ثلاثًا كامله
والعبد ثنتين وبعض كامله
يصح تعليق الطلاق بالصفه
فلا يقع حتى تحقق الصفه

## باب الرجعة

ومن يـطلق زوجتـه دون الثـلاث
له الرجوع في العدد على الإناث
ومـن يـطلق زوجتـه كـمـالا
لم يـرجعن حتى تـوطـأَ حـلالا

## باب الإيلاء والظهار واللعان

وإن حلف في تـركه الـوطءَ أبدا
أو فوق ثلث العام فعله هذا اعتدا
تضرب له ثلث السنة في الوطءِ
إمـا يـطلق أو يـفـي لـلوطءِ
إن الـظهـار مـنـكـر وزور
في «قـد سمـع» حُكْمُ لـه يـدور
إن الـلعـان يـدرءُ الـحـدودا
عنهـا وعنـه فـافهم المقصـودا

* * *

## كتاب العِدد

وعِــدة الأحمـال وضـع الحمـل
بـوضـع ما قـد بان خلق الحمـل
وثـلـث عــام لــلتــي تــوفــى
بــل لـهــا مـع عـشــرة تُــوَفـى
ومـــن تـحض بـثـلاث حــيض
وأشـــهــر لـلعــادمــه لــلحــيض
ويــجــب الإحــداد لــلوفــاة
بمنــزلــه عــن هــذه الــزينــات
ويــجــب اســتــبــراؤك الإمــاءَ
بـحـيـضــة أو شـهــر، أو إلـقــاءِ

## باب الرضاع

وثبت الــرضــاع فـي الحــولين
بخمس رضــاعــات لا بــاثـنتـين
وحكمه حكم النسب في الحرمـه
لا في الولا والإرث، فافهم حكمه

## كتاب النفقات

ويـجـب الإنـفـاق لـلـزوجـات
بـقـدر مـا يكـفي مـن الأقـوات
وهـكـذا الـكـسـوة والإسـكـان
بـالـعـرف لا ظـلم ولا عـدوان
وزوجـة رجـعـيـة ذي تـلـزم
وبـايـن ونـاشـز لا تـلـزم
ويـجـب الإنـفـاق لـلـقـريـب
مـع فـقـره وإرثـه الـقـريـب
ويـجـب الـمـعـروف لـلـمـلوك
وكـفـه الـعـدوان عـن مـمـلوك
وكـل مـا يـملك مـن الـبـهـائـم
يـلزمـه إطـعـام وسـقـي حـازم

## باب الحضانة

ويحضن الـطـفـلَ الصـغيـرَ الأُم
ثـم قـرابـات لـهـا تـؤم
فـإن بلـغ سبعـاً يخيـر بـالأب
والأُم، والأُنـثـى تـعـيـن لـلأب

## كتاب الجنايات

والعمد في العدوان يوجب الديه
أو القصاص جزماً، غير الديه
وشرط إيجاب القصاص العادل
عصم لمقتول وكفو قاتل
والعقل والبلوغ للذي قتل
وأن يكون غير ابن من قتل
ويؤمن الحيف بذي الجروح
مع صحة والاسم في المجروح

## باب الديات

ومائة البعير ضعفها البقر
وألفا شاةٍ دية للذكر
وألف دينار من فضة اثنا عشر
ودية الأُنثى على نصف الذكر
ودية العدوان تلزم قاتل
بغير عمد للولي العاقل
يكفِّر القتل بعتق الرقبه
أو صوم شهرين مع عسر الرقبه

* * *

## كتاب الحدود

وتلزم الحدود شخصاً كلفا
ملتزماً بالتحريم أيضاً يعرفا
حد الزنى رجم لمن قد أحصنا
والجلد والتغريب غير المحصنا
ويثبت الحد بقول أربعه
أو أربع الإقرار فيه مكمله
ويثبت القذف مع الإسكار
باثنين يشهدان أو إقرار
ويلزم التعزير في المعاصي
إن لم يكن حد ولا قصاص
ومن سرق من حرزه نصابا
تحتم القطع له عقابا
ويلزم القتال للبغاة
حتى يكون الجمع في أشتات

## باب أحكام الردة

ويحصل الخروج من إسلام
بسب رسل الله والعلاَّم

أو اعتقاد الند للرحمن
في الملك والتدبير والسلطان
أو صرفه نوعاً من العباده
لغير رب خالق عباده
أو يعتقد أن الذي قد حللا
محرماً وعكسه محللا
فمن كفر يلزم له ثلاثه
يمهل بها وإلّا لزم إتلافه

## باب الأطعمة

كل طعام طاهر غير مضر
فهو مباح دون ما فيه الضرر
وكل ذي ناب من السباع
ومخلب الطير حرام راع
عند الضرورة جائز محرم
ونفع مال الغير أيضاً يلزم

## باب الذبح والصيد

ويلزم الإسم على الذبيحه
والذبح في الآية المبيحه
والذبح من كفار لا يجوز
إلا اليهود والنصارى فيجوز

وتحصل الذكاة للجنين
بذبح أُمه فافهم اليقين
والسن والأظفار كالوقيذ
ويكره الذبح بكل موذي
ويكره الصيد بلا لزوم
وحكمه كالذبح في المحكوم
وللطير وكلاب علّمت
فصيدها حل إذا قد قتلت

## باب الأيمان

ويلزم الإقسام بالرحمن
أو وصفه أو فعل ذي الإتقان
ويحرم الإقسام بالمخلوق
إذ فعله من أعظم الفسوق
وشرط إيجاب بالجزا فيها
أن يحصل الحنث ويقصد فيها
وترجع الأيمان للنيات
ثم لأسباب مهيجات
ثم إلى التعيين ثم الإسم
فافهم هداك الله ما يؤم

## باب النذر

ويـكــره العـقــد لــذي النــذور
ويــلزم الإيــفــاء بــالــمــنــذور
فــإن يكن نـذر مَعَــاصٍ يحــرم
ومـن يـحــرّم طَـيِّـبــاً لا يـحــرُم

* * *

## كتاب القضاءِ وغيره

ويلزم القضاءُ بين الناس
بالعدل والإنصاف والقياس

ويلزم الإشهاد في النكاح
وغيره ندب فلا تلاح

ولا يجوز الشك في الشهادة
وَيَحْرُمُ الكتمان للشهادة

وشرط من يقبل: بلوغٌ إسلام
والحفظ والعقل وعدل تام

ومانع منها جميع التهمه
مثل القرابة والعداوه شركه

ويقبل الاثنان أو ثنتان
مع واحد في المال والمُدَان

وتقبل المرأة في الرضاع
وكلا أمر مشبه الرضاع

ومن يحمِّل غيره شهاده
فحكمه حكمه بذي الشهاده

والبينة على الذي قد ادعى
والحلف يلزم من عليه يُدّعَى

## باب الإقرار

ومن أقر بحقوق جازمه
لله أو للخلق فهي لازمه

إن يتفق اثنان في عقد جرى
ويدعي أَحَدهما نقضاً جرى

فالقول قول المدعي للصحة
إذ كل عقد أصله فالصحة

هذا الذي فضل من المنان
ذي الجود والإنعام والإحسان

ما منه قد تم فمن إلٰهي
والنقص من نفسي وقلبي اللاهي

والحمد لله على التيسير
من فضله وعدم التعسير

ثم الصلاة مع سلام تترى
على الذي قد شاع منه الذكرى

محمد وصحبه والتابعين
وتابع وتابع للتابعين

بلغت كتابة هذه المنظومة المفيدة على خط المؤلف بيده
في ٢٦ شوال سنة ١٣٣٣ بقلم عبده الراجي منه وفضله
الفقير عبد العزيز بن حمد المصيريع
غفر الله له ولوالديه آمين
وذلك في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٢

* * *

الإرشاد إلى معرفة الأحكام

# الإرشاد إلى معرفة الأحكام

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد، فهذا تأليف بديع المنزع سهل الألفاظ والمعاني حسن الترتيب يحتوي على مهمات مسائل الأحكام رتبتهُ بصورة السؤال المحرر الجامع والجواب المفصل النافع يحتوي على أصول وضوابط وتقسيمات تقرب أشتات المسائل وتضم النظائر والفوارق وكثير من هذه الأجوبة يتناول أبواباً من الفقه عديدة وأصولاً تنبني عليها أحكام مفيدة وتعرف القارىء من أي قاعدة أخذت وعلى أي أساس أثبتت وتوضح التعليلات والحكم ولعل هذه الأمور أكثر فائدة مما في الأجوبة من التفصيلات الفقهية لعموم نفعها وحسن موقعها وعند ذكر الأحكام أذكر المشهور من مذهب الإمام أحمد عند متأخري الأصحاب فإن كان فيه قول آخر أصح منه عندي ذكرته وصححته وأشرت إشارة لطيفة إلى دليل كل من القولين ومأخذهما إذ المقام لا يقتضي البسط وأستطرد في الجواب بذكر الأشباه والنظائر لتحصل الفائدة الكثيرة والأنس بكثرة ما يدخل في الأصل والضابط وأذكر أيضاً الفوارق بين المسائل التي يكثر اشتباهها ليحصل التمييز بينها وأسأل الله تعالى أن يكون الداعي له إرادة وجهه وثوابه وقصد النفع لعباده وأن يكون موافقاً لمحبته ورضاه وأن يسهل تتميم ما أنعم في ابتدائه. إنه جواد كريم.

# أسئلة في الطهارة

**السؤال الأول: ما حكم الماء المتغير؟**

الجواب وبالله التوفيق ومنه أستمد الهداية والإصابة يدخل تحت هذا السؤال أنواع كثيرة وأفراد متعددة لكنها تنضبط بأمور أما الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه بالنجاسة فهو نجس بالإجماع قليلاً كان أو كثيراً ــ وأما الماء الذي تغير بمكثه وطول إقامته في مقره أو تغير بمروره على الطاهرات أو بما يشق صونه عنه أو بما هو من الأرض كطينها وترابها فهذا طهور لا كراهة فيه قولاً واحداً ــ وأما الماء الذي تغير بما لا يمازجه كدهن ونحوه فهو مكروه على المذهب غير مكروه على القول الصحيح لأن الكراهة حكم شرعي يحتاج إلى دليل ولا دليل على الكراهة والأصل في المياه الطهورية وعدم المنع فمن ادعى خلاف الأصل فعليه الدليل وأما الماء المتغير لونه أو ريحه أو طعمه بالطاهرات كالزعفران ونحوه إذا كان التغير يسيراً فهو طهور قولاً واحداً وكذلك إن كان التغير في محل التطهير فهذا أو نحوه لا بأس به.

وإن كان المتغير بالطاهرات تغيراً كثيراً فهو طاهر غير مطهر على المشهور من المذهب وعلى القول الصحيح هو طهور لأنه ماء فيدخل في قوله تعالى:

**﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾**. [سورة النساء: الآية ٤٣]

ولعدم الدليل الدال على انتقاله عن الطهورية فبقي على الأصل وذلك أن العلماء رحمهم الله اتفقوا على نوعين من أنواع المياه واختلفوا في النوع الثالث. اتفقوا على أن كل ماء تغير بالنجاسة فهو نجس كما اتفقوا على أن الأصل في المياه كلها النازلة من السماء والنابعة من الأرض والجارية والراكدة أنها طاهرة مطهرة واختلفوا في بعض المياه المتغيرة بالأشياء الطاهرة أو التي رفع فيها حدث ونحوها: هل هي باقية على طهوريتها وإننا نستصحب فيها الأصل كما هو الصحيح لأدلة كثيرة ليس هذا موضعها أو أنها صارت في مرتبة متوسطة بين الطهور والنجس فصارت طاهرة غير مطهرة والاستدلال بهذا القول ضعيف جداً فإن إثبات قسم من المياه لا طهور ولا نجس مما تعم به البلوى وتشتد الحاجة والضرورة إلى بيانه فلو كان ثابتاً لبينه الشارع بياناً صحيحاً قاطعاً للنزاع فعلم أن الصواب المقطوع به أن الماء قسمان طهور ونجس.

**سؤال ــ ٢ ــ ما حكم الماء المستعمل؟**

الجواب: يدخل تحت هذا أنواع متعددة:

١ ــ مستعمل في إزالة النجاسة.

٢ ــ ومستعمل في رفع الحدث.

٣ ــ ومستعمل في طهارة مشروعة.

٤ ــ ومستعمل في نظافة.

٥ ــ ومستعمل في رفع حدث انثى.

٦ ــ ومستعمل في غمس يد النائم.

أما المستعمل في إزالة النجاسة فإن كان متغيراً فهو نجس وإن لم يتغير وهو كثير فهو طهور قولاً واحداً وإن كان قليلاً والنجاسة لم تزل عن المحل أو قبل السابعة فهو نجس على المذهب، وعلى الصحيح طهور لعدم تغيره بالنجاسة، وإن كان آخر غسلة زالت بها النجاسة فهو طاهر على المذهب غير مطهر، وهو طهور على القول الصحيح من باب أولى مما قبلها، وأما المستعمل في رفع الحدث فإن كان يغترف خارج الإناء فالباقي في الإناء طهور قليلاً كان

أو كثيراً قولاً واحداً وإن كان يستعمله وهو في موضعه بأن كان يغتسل أو يتوضأ في نفس الماء فإن كان الماء كثيراً فالماء طهور قولاً واحداً وإن كان يسيراً صار طاهراً غير مطهر على المذهب، وهو طهور على القول الصحيح لعدم الدليل الناقل له عن أصله، وإن كان مستعملاً في طهارة مشروعة كتجديد وضوء ونحوه فهو طهور مكروه على المذهب، غير مكروه على القول الصحيح لعدم الدليل، وإن كان مستعملاً في طهارة غير مشروعة فهو طهور لا كراهة فيه قولاً واحداً وإن كان مستعملاً في حدث انثى وهو كثير فهو طهور لا منع فيه مطلقاً قولاً واحداً وإن كان يسيراً ولم تخل به فلا منع أيضاً وإن خلت به فلا منع في طهارة النجاسة ولا في طهارة المرأة قولاً واحداً وإنما يمنع منه الرجل في طهارة الحدث على المذهب مع بقائه على طهوريته وعنه عدم غيره يجمع بين استعماله والتيمم احتياطاً وأما الصحيح فلا منع فيه مطلقاً لقوله ﷺ (إن الماء لا يجنب) وما استدل به على المنع فضعيف لا يدل على المنع، وأما المستعمل في غمس يد النائم فإن كان نهاراً أو نوماً لا ينقض الوضوء فلا يضر مطلقاً وإن كان نوماً كثيراً بالليل وغمسها كلها فإن كان الماء كثيراً لم يضر قولاً واحداً وإن كان دون القلتين صار طاهراً غير مطهر على المذهب ولكن عند الاضطرار إليه يستعمل مع التيمم وعلى القول الصحيح في المذهب يبقى على طهوريته لعدم الدليل على زوال طهوريته والحديث إنما يدل على الأمر بغسلها قبل إدخالها الإناء للعلة التي علل بها في الحديث (فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده).

**سؤال ــ ٣ ــ إذا كان الماء نجساً متى يطهر؟**

الجواب: أما على القول الصحيح وهو رواية عن أحمد فمتى زال تغير الماء على أي وجه كان بنزح أو إضافة ماء إليه أو بزوال تغيره بنفسه أو بمعالجته طهر بذلك وسواء كان قليلاً أو كثيراً لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ولا علة للتنجيس على التحقيق إلا التغير بالنجاسة فما دام التغير موجوداً فنجاسته محكوم بها ومتى زال التغير طهر. وأما على المذهب فلا يخلو الماء إمَّا أن يكون أقل من

قلتين أو يكون قلتين فقط أو يكون أكثر منهما فإن كان أقل من قلتين لم يطهر إلا بإضافة طهور كثير إليه وإن كان قلتين فقط طهر بأحد أمرين: إما بإضافة طهور كثير إليه مع زوال التغير وإما بزوال تغيره بنفسه وإن كان أكثر من قلتين طهر بأحد ثلاثة أشياء: هذين الأمرين أو بنزح يبقى بعده كثير غير متغير إلا إذا كان مجتمعاً من متنجس يسير فتطهيره بإضافة كثير إليه مع زوال التغير لا بد منه في الأحوال كلها. وهل يشترط شيء آخر معه أم لا قد ذكرنا تفصيله الجامع.

**سؤال ـ ٤ ـ إذا تطهر بالماء ثم وجده بعد ذلك نجساً أو صلى ثم وجد على بدنه أو ثوبه نجاسة ما حكم ذلك؟**

الجواب: لا يخلو الأمر من حالين أو ثلاثة لأنه إما أن يعلم أن النجاسة قبل طهارته وصلاته أو يعلم أنها بعدهما أو يجهل الأمر. فإن علم أنها قبل طهارته بسبب من الأسباب الموجبة للعلم ومنه خبر الثقة المتيقن حيث عين السبب أعاد طهارته وغسل ما أصاب النجاسة من بدن أو ثوب وكذلك يعيد الصلاة على المذهب وعلى القول الصحيح أن من نسي وصلى في ثوب نجس أو على بدنه نجاسة نسيها أو جهل ذلك ولم يعلم حتى فرغ صحت صلاته ولا إعادة عليه لأنه ﷺ خلع نعليه وهو في الصلاة حين أخبره جبريل أن فيهما قذراً وبنى على صلاته ولم يعدها فإذا بنى عليها في أثنائها فإذا وجدها بعد فراغ الصلاة فالحكم كذلك ولأن من قاعدة الشريعةإذا فعل العبادة وقد فعل محظوراً فيها هو معذور فلا إعادة عليه بخلاف من ترك المأمور. فتارك المأمور لا تبرأ ذمته إلا بفعله وفاعل المحظور الذي هو معذور لا شيء عليه وإن علم أن ذلك بعد الفراغ من طهارته فهذا واضح لا شيء عليه لأنه توضأ بماء طهور وليس عليه نجاسة وإنما ذكرنا هذا لأجل التقسيم وأما إن جهل الحال فلم يدر هل نجاسة الماء قبل استعماله أو بعده أو النجاسة قد أصابته قبل الصلاة أو بعدها فطهارته وصلاته صحيحتان قولاً واحداً لبنائه على الأصل لأن الأصل عدم النجاسة.

**سؤال ـ ٥ ـ إذا اشتبه ماء ممنوع منه بما ليس بممنوع ما حكمه؟**

الجواب: إن كان المشتبه ماء نجساً بطهور أو ماءً مباحاً بمحرم اجتنب الجميع وصار وجودهما وعدمهما واحداً لعدم قدرته على الوصول إلى الماء الطهور المباح ويعدل إلى التيمم إلا أن تمكن من تطهير الماء النجس بالطهور بأن يكون الطهور كثيراً وعنده إناء يسعهما فيخلطهما ويصيران مطهرين وعلى القول الصحيح يبعد جداً اشتباه النجس بالطهور لأنه لا ينجس الماء إلا بالتغير ولكن متى وقع الاشتباه في الصور النادرة كف عن الجميع، وإن كان الاشتباه بين ماء طهور وماء طاهر غير مطهر على المذهب توضأ منهما وضوءاً واحداً من كل واحد منهما غرفة وصحت طهارته لأن الطهور يطهره والطاهر لا يضره فإن احتاج أحدهما للشرب تحرى في هذه الحال وتطهر بما غلب على ظنه ثم تيمم احتياطاً وعلى القول الصحيح لا تتصور المسألة لأن الصحيح أن الماء إما نجس أو طهور كما تقدم.

**سؤال ـ ٦ ـ إذا شككنا في نجاسة شيء أو تحريمه فما الطريق إلى السلامة؟**

الجواب: الطريق إلى السلامة الرجوع إلى الأصول الشرعية والبناء على الأمور اليقينية فإن الأصل في الأشياء الطهارة والإباحة فما لم يأتنا أمر شرعي يقين ينقل عن هذا الأصل وإلا استمسكنا به. وأدلة هذا الأصل من الكتاب والسنة كثيرة فعلى هذا الأصل إذا شككنا في نجاسة ماء أو ثوب أو بدن أو إناء أو غير ذلك فالأصل الطهارة وكذلك الأصل جواز استعمال الأمتعة والأواني واللباس والآلات، إلّا ما ورد تحريمه عن الشارع ـ وما أنفع هذا الأصل وأكثر فائدته وأجل عائدته على أهل العلم وهو من نعم الله على عباده وتيسيره وعفوه ونفيه الحرج عن هذه الأمة فلله الحمد والثنا.

**سؤال ـ ٧ ـ ما حكم استعمال الذهب والفضة؟**

الجواب: وبالله التوفيق يتحرر جوابه بأنواع الاستعمالات ودرجاتها فباب اللباس أخف من باب الآنية وأثقل من باب لباس الحرب أما استعمال الذهب

والفضة في الأواني ونحوها من الآلات فلا يجوز لا للذكور ولا للإناث لا القليل منه ولا الكثير للعموميات الناهية عنه المتوعدة عليه وعدم المخصص إلا أنه يستثنى الشيء القليل من الفضة إذا احتيج إليه لأنه لما انكسر قدح النبي ﷺ اتخذ مكان الشعب سلسلة من فضة والحديث صحيح فهذا وما أشبهه من الفضة جائز لا من الذهب وأما باب اللباس المعتاد فأبيح ذلك للنساء لحاجتهن إلى التزين ولتميز النساء عن الرجال فجميع أنواع الحلي المستعمل للنساء جائز قليله وكثيره وأما الرجل فم يبح له شيء من ذلك إلا خاتم الفضة وحلية المنطقة من الفضة وكذلك من الذهب والفضة ما دعت إليه حاجته من انف أو رباط أسنان ونحوها وأما لباس الحرب فهو أخف من ذلك كله فإنه يباح تحلية السيف والرمح والبارود ونحوها بأنواع الذهب والفضة وكذلك الجوشن والخوذة ونحوها وهذا التفصيل المذكور في غير الضرورة أما الضرورة فتبيح الذهب والفضة مطلقاً ما دامت الضرورة موجودة فإن الضرورات تبيح المحظورات كما أباح الله للمضطر أكل الميتة ونحوها.

**سؤال ــ ٨ ــ ما حكم أجزاء الميتة؟**

الجواب: الميتة نوعان ميتة طاهرة كالسمك والجراد وما لا نفس له سائلة والآدمي فهذه أجزاؤها تبع لها طهارة وحِلاًّ والنوع الثاني الميتة النجسة وهي نوعان أحدهما ما لا تفيد فيه الذكاة كالكلب والخنزير ونحوهما فهذه أجزاؤها كلها نجسة ذكيت أم لا والثاني ما تفيد فيه الذكاة كالإبل والبقر والغنم والطيور فهذه أجزاؤها ثلاثة أقسام قسم نجس كاللحم والشحم والمصران ونحوها وقسم طاهر مطلقاً كالشعر والصوف والوبر والريش وقسم فيه خلاف وهو الجلد بعد الدبغ والعظام ونحوها المشهور من المذهب بقاؤها على نجاستها إلا أن الجلد بعد الدبغ يخف أمره فيستعمل في اليابسات دون المائعات والصحيح أن الجلد يطهر بالدباغ للأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها وكذلك الصحيح أن العظام طاهرة لأن العلة في تحريم الميتة الذي هو احتقان الفضولات الخبيثة فيها غير موجودة في العظام والله أعلم.

**سؤال ـ ٩ ـ ما هي الأشياء الموجبة للطهارة الشرعية وكيفية ذلك وما يتطهر له؟**

الجواب: الطهارة نوعان كبرى توجب غسل البدن كله والذي يوجبها الجنابة بوطء أو إنزال أو بهما والحيض والنفاس وإسلام الكافر وموت غير الشهيد فهذه الأشياء كل واحد منها يوجب غسل البدن كله والنوع الثاني الطهارة الصغرى والذي يوجبها شيئان أحدهما يوجب الاستنجاء والاستجمار مع غسل الأعضاء الأربعة وهو جميع الخارج من السبيلين من بول وغائط ونحوهما مما له جرم فهذا إذا حصل أوجب إما الاستجمار بثلاث مسحات منقية بأحجار ونحوها غير الروث والعظام والأشياء المحرمة وأما الاستنجاء بماء يزيل الخارج حتى يعود المحل كما كان قبل خروج الخارج والجمع بين الأمرين أكمل ويجوز الاقتصار على أحدهما، والشيء الثاني يوجب غسل الأعضاء الأربعة فقط وذلك كالريح والنوم الكثير ومس الفرج باليد ومس المرأة بشهوة وأكل لحوم الإبل وتجتمع الأحداث الكبرى بالمنع من الصلاة والطواف ومس المصحف وقراءة القرآن واللبث في المسجد وينفرد الحيض والنفاس منها بمنع الصوم والطلاق والوطء في الفرج وتشاركها الأحداث الصغرى في المنع من الثلاثة الأول ومتى تمت الطهارة بنوعيها أبيحت جميع الأشياء الممنوعة وقد علم بهذا التفصيل ما يتطهر له وجوباً وأما ما يتطهر له استحباباً فتستحب الطهارتان الكبرى والصغرى للأذان وأنواع الذكر والخطب وللإحرام ودخول مكة والوقوف بعرفة وللإفاقة من إغماء أو جنون وللأكل والنوم.

**سؤال ـ ١٠ ـ ما هي الأعضاء الممسوحة في الطهارة وكيفية ذلك؟**

الجواب: أما طهارة التيمم فتشترك الطهارتان الكبرى والصغرى بوجوب مسح التيمم بوجهه جميعه ويديه إلى الكوعين حيث تعذر استعمال الماء لعدمه ولضرر يلحق باستعماله على ما هو مفصل في بابه ولكنه راجع إلى هذا الضابط ومن الحكمة في أن الطهارتين في التيمم تساوتا في ذلك أن البدل لا يجب أن

يساوي المبدل منه بل يحصل فيه من التخفيف بحسب الحال المناسبة وهذا منه ولأن القصد التعبد لله بتعفير الوجه واليدين بالتراب وليس فيه نظافة حسية فاشتركا وأما طهارة الماء فالطهارة الكبرى لا مسح فيها لأي عضو أصلي ولا شيء من الحوائل الموضوعة على الأعضاء للحاجة إليها إلا الجبيرة الموضوعة على كسر أو جرح فإنها تمسح كلها في الطهارتين للضرورة ولذلك لا توقيت لها بل تمسح ما دامت على العضو المحتاج إليها، وأما الطهارة الصغرى فالممسوح فيها نوعان أصلي وحوائل عوارض أما الأصلي فهو مسح الرأس والأذنين فيجب مسح ذلك كله كلما وجبت الطهارة ويصير حكمه حكم الأعضاء المغسولة ببقاء الطهارة حتى ولو زال شعر الرأس بعد الطهارة لم تنتقض الطهارة إلا بنواقضها المعروفة وأما الحوائل العوارض فالعمامة على الرأس للرجل وكذلك الخمار للمرأة حيث حصل نوع مشقة بنزع ذلك وما يلبس في الرجل من خف ونحوه للرجل والمرأة فهذه للمسح عليها شروط وهي تقدم الطهارة بالماء بأن يلبسها وهو طاهر كامل الطهارة قولاً واحداً في هذا كله ويشترط أيضاً على المذهب أن يكون الخف ساتراً ستراً تاماً لا فتق فيه ولا خرق لا صغير ولا كبير والصحيح عدم اعتبار هذا الشرط لعمومات النصوص المبيحة للمسح عليها من دون قيد مع أنه لو كان شرطاً لبينه الشارع بياناً واضحاً لشدة الحاجة إليه ولأنه يعلم أن خفاف الصحابة رضي الله عنهم لا تخلو من فتق أو شق ولذلك عفا الأصحاب في العمامة عن بروز بعض الرأس الذي جرت به العادة فدل على أن العادة لها حكم واعتبار في هذا الوضع وأما كيفية مسح ذلك فلا يجب استيعابه بل يكفي فيه أكثر ظاهر الخفين وأكثر العمامة والخمار لأنه لما انتقل إلى المسح وسهل فيه زادت السهولة بعدم وجوب الاستيعاب وهذا النوع من المسح مختص بالطهارة الصغرى ولذلك وقت فيه للمقيم يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها والابتداء من الحدث على المشهور من المذهب لأنه السبب الموجب وعلى الصحيح الابتداء من أول المسح لأن النبي ﷺ جعل هذه المدة كلها تمسح ثم ما كان ممسوحاً لا يشرع فيه تكرار بل مرة واحدة كافية وهذا النوع الأخير هل إذا زال الممسوح

والطهارة باقية تبطل الطهارة بزواله كما هو المذهب أو الطهارة باقية ما لم يوجد ناقض شرعي وهذا هو الصحيح ولا فرق في الحقيقة بين زوال الخف وزوال شعر الرأس وكذلك الخلاف إذا تمت المدة هل تنتقض الطهارة أو تزول مدة المسح فقط وهو الصحيح وهذا القول الصحيح في المسألتين هذا هو أحد القولين في المذهب اختاره جماعة من الأصحاب والله أعلم.

**سؤال ـ ١١ ـ هل يجب إيصال الطهارة إلى ما تحت الشعر كاللحية ونحوها أم لا؟**

الجواب: أما التيمم فيكفي مسح ظاهر الشعر خفيفاً كان أو كثيفاً في الحدث الأكبر والأصغر وأما طهارة الماء فإن كان الحدث أكبر فلا بد من إيصال الماء إلى باطن الشعر كظاهره خفياً كان أو كان الحدث أصغر فيجب إيصاله إلى باطن الشعر الخفيف وهو الذي ترى البشرة من ورائه ويكفي ظاهر الشعر الكثيف ويسن إيصاله إلى باطنه في شعر الوجه دون شعر الرأس.

**سؤال ـ ١٢ ـ عن كيفية تطهير الأشياء المتنجسة وهل يجب للصلاة أم لا؟**

الجواب: النجاسات ثلاثة أنواع خفيف وثقيل ومتوسط فأما الخفيف من النجاسات فمثل بول الغلام الصغير الذي لم يأكل الطعام لشهوة فهذا يكفي فيه غمره بالماء مرة واحدة قولاً واحداً في المذهب كما صحت به الأحاديث وقيؤه أخف حكماً من بوله وكذلك على الصحيح الذي فإنه يكفي فيه النضح كما ثبت به الحديث وهو الموافق لحكمة المشقة ومثله النجاسة على أسفل الخف والحذاء ونحوه فيكفي مسحها بالأرض والتراب كما صحت به الأحاديث وهو الموافق للحكمة الشرعية ومثل هذا مسح السيف الصقيل وسكين الجزار ونحوها ولكن المشهور من المذهب في هذه الصور لا بد من غسلها وقد تقدم مما هو خفيف النجاسة الخارجة من السبيلين عليهما أنه يكفي فيها الاستجمار بالاتفاق فكلما شق واشتدت الحاجة إليه سهل فيه الشارع وكذلك النجاسة إذا

كانت على الأرض فيكفي فيها غسلة واحدة تذهب بعين النجاسة كما أمر النبي ﷺ في غسل بول الأعرابي أن يصب عليه ذنوب من ماء ومثله ما اتصل بالأرض من الأحواض والأحجار ونحوها يكفي فيها مرة واحدة قولاً واحداً في هذا كله وكذلك على الصحيح النجاسة التي في ذيل المرأة كما ثبت به الحديث والمذهب لا بد من غسله وكل هذه المسائل تعلل بالمشقة بل قد تكون المشقة موجبة لعدم إيجاب غسل المتنجس كقول الأصحاب رحمهم الله ولا يجب غسل جوانب بئر نزحت للمشقة وكذلك الإناء الذي تخمر فيه العصير ثم تخلل لا يجب غسله وكذلك الحفيرة التي فيها ماء نجس إذا طهر وكل هذا قول واحد في المذهب وكذلك على الصحيح لا يجب غسل ما أصابه فم كلب الصيد من الصيد لعدم أمر الشارع بغسل محل ذلك والمذهب لا بد من غسله وهو ضعيف وكذلك النجاسة والجنابة في داخل العين لا يجب غسلها وكل هذه يحكم لها بالطهارة مع وجود سبب التنجس للحكمة المذكورة وأما الاضطرار على بقاء النجاسة في بدن أو ثوب أو بقعة وصحة الصلاة مع ذلك فتلك مسألة أخرى ترجع إلى أصل صحة العبادة مع فقد شرطها المعجوز عنه كما يأتي: وأما الثقيل من النجاسات فنجاسة الكلب وما ألحق به من الخنزير فإنه لا بد فيها من سبع غسلات وأن يكون أحداها بتراب ونحوه كما أمر به النبي ﷺ في نجاسة الكلب وألحق العلماء فيه الخنزير لأنه شر منه، والنوع الثالث ما سوى ذلك من النجاسات على البدن أو الثوب أو الأواني ونحوها فلا بد فيها من زوال عينها قولاً واحداً، وهل يشترط مع هذا غيره أم لا؟ الصحيح أن النجاسة متى زالت على أي وجه كان بأي مزيل كان أن المحل يطهر من غير اشتراط عدد ولا ماء وهو ظاهر النصوص حيث أمر الشارع بإزالة النجاسة وأزالها تارة بالماء وتارة بالمسح وتارة بالاستجمار وتارة بغير ذلك ولم يأمر بغسل النجاسات سبعاً سوى نجاسة الكلب وكما أنه مقتضى النصوص الشرعية فإنه مناسب غاية المناسبة لأن إزالة النجاسة من باب إزالة الأشياء المحسوسة ولذلك قال الفقهاء إنها من باب التروك التي القصد إزالة ذاتها بقطع النظر عن المزيل لها ولهذا لم يشترطوا فيها

نية ولا فعل آدمي فلو غسلها من غير نية أو غسلها غير عاقل أو جاءها الماء فانصب عليها طهرت بخلاف طهارة الحدث التي هي عبادة لا بد من نيتها واشترط لها الشارع من الترتيب والموالاة والكيفيات والنية ما يوجب أن تكون عبادة مقصودة ولهذا شرع في هذا النوع العدد والتثليث في الوضوء وفي الغسل كله على المذهب وعلى الصحيح لا يشرع إلا تثليث إفاضة الماء على الرأس حيث ورد فيه الحديث وأما المشهور من المذهب في هذا النوع فلا بد من غسله بالماء سبع مرات قياساً على نجاسة الكلب ولكنه قول في غاية الضعف والقياس لا بد فيه من مساواة الأصل للفرع وأن يحكم على الأمرين بحكم واحد، فالمساواة منتفية بعدما خص الشارع الكلب بذلك والحكم مختلف فعند القائلين بهذا القياس لا يوجبون التراب وحيث تبين كيفية إزالة النجاسة باختلاف أحوالها فكل نجاسة يجب إزالتها فإزالتها من البدن والبقعة والثوب شرط لصحة الصلاة لأمر الشارع بتطهير البدن والثياب وذلك لا يجب لغير الصلاة فتعين وجوبه للصلاة. وقولنا كل نجاسة يجب إزالتها احتراز من أمرين أحدهما إذا اضطر الإنسان إلى بقائها بأن عجز عن الماء الذي يزيلها وغيره أو كان تضره إزالتها أو لم يجد إلا ثوباً نجساً يصلي به أو حبس ببقعة نجسة لا يستطيع الخروج منها فهذا مضطر والمضطر معذور اتفاقاً وعليه أن يصلي في هذه الحال ولا يعيد فيها كلها على القول الصحيح الذي تدل عليه الأصول الشرعية وأما المشهور من المذهب فيها فإنه أيضاً لا يعيد إذا حبس ببقعة نجسة ولا إذا صلى وعلى بدنه نجاسة يعجز أو يتضرر بإزالتها لكن يتيمم عنها إذا كانت على البدن قياساً على التيمم للحدث وأما نجاسة الثوب والبقعة فلا يتيمم لهما قولاً واحداً والصحيح أيضاً ولا نجاسة البدن لأن القياس على الحدث غير صحيح ولو كان صحيحاً لوجب أن يعم الذي على البدن والثوب والبقعة والشارع إنما شرع التيمم للإحداث فقط وأما إذا صلى في ثوب نجس فعليه الإعادة على المذهب وليس لهذا القول حجة أصلاً والصواب كما تقدم أنه يصلي ولا يعيد فإن الله لم يوجب على أحد أن يصلي الفرض مرتين إلا إذا أخل بما يقدر عليه من واجباتها

الشرعية، الأمر الثاني احتراز من النجاسات التي يعفى عنها أو يعفى عن يسيرها كالدم والقيء ونحوهما فإذا صلى مع وجودها حيث عفي عنها فإن صلاته صحيحة اتفاقاً وهذا معنى العفو عنها والله أعلم.

### سؤال ـ ١٣ ـ هل الأشياء النجسة محدودة أو معدودة وصفة ذلك؟

الجواب: أولاً يجب أن يعلم أن الأصل في جميع الأشياء الطهارة فلا ينجس ولا ينجس منها إلا ما دل عليه الشرع فهذا أصل محدود لا يشذ عنه شيء وأما ما ورد أنه نجس فمنه ما هو محدود ومنه صور معدودة ويجمعها جميعاً أنها كلها خبيثة ولكن محل الخبث قد يخفى علينا فنبهنا الشارع على ما يدلنا ويرشدنا إلى ذلك فمن المحدود أن الخارج من السبيلين الذي له جرم نجس إلا المني فإنه صح عن النبي ﷺ طهارته وأنه ينبغي فرك يابسه وغسل رطبه ومن المحدودة أن ما حرم أكله وهو أكبر من الهر خلقة فإنه نجس كالكلب والخنزير وسباع البهائم فهذه جميع أجزائها وما خرج منها نجس ولا يستثنى منها شيء على المشهور من المذهب والصحيح أن الحمار والبغل ريقه وعرقه وشعره وما خرج من أنفه طاهر بخلاف بوله وروثه وأجزائه فإنها خبيثة نجسة لأن النبي ﷺ كان يركبهما والصحابة رضي الله عنهم، ولم يأمر بتوقي عرقها وريقها وشعرها وهي أولى من طهارة سؤر الهر الذي ثبتت طهارته وعلله ﷺ: بأنهن من الطوافين عليكم والطوافات ومشقة ملامسة الحمير والبغال أشق من الهر بكثير وأولى بالإباحة والتطهير، وأما محرم الأكل مما هو مثل الهر أو أصغر منه فإن سؤره وريقه وعرقه طاهر وأما بوله وروثه وجميع أجزاء لحمه فإنه نجس سوى ما ليس له نفس سائلة فإن جميع أجزائه طاهرة كالعقرب والذباب ونحوهما، وأما مأكول اللحم فكل ما منه طاهر سوى الدم وما تولد من الدم من قيح وصديد، ومن المحدود من النجاسات جميع الميتات سوى ميتة الآدمي والسمك والجراد وما لا نفس له سائلة فإنها طاهرة ومن المحدود أيضاً كل مسكر مائع نجس من أي نوع كان. ومن المحدود أيضاً أن جميع الدماء نجسة إلا دم ما لا نفس له سائلة

وما يبقى بعد الذبح في العروق واللحم فهو طاهر وإلا دم الشهيد عليه خاصة ولهذا كان الدم ثلاثة أقسام طاهر كهذه المذكورات ونجس لا يعفى ولا يعفى عن يسيره كدم الكلب والسباع ونجس يعفى عن يسيره وهو ما سوى هذين فصار الدم أصله النجاسة كما بينا وقد علم من هذا ومما تقدم أن الخارج من بدن الإنسان ثلاثة أقسام: نجس لا يعفى عن يسيره كالبول والغائط، ونجس يعفى عن يسيره كالدم وما تولد منه والقيء على المذهب وكذا المذي على الصحيح، وما سوى ذلك فطاهر كالريق والبصاق والنخامة والمخاط والعرق وما سال من الفم وقت النوم وصمغ الأذنين وغير ذلك والله أعلم ومن النجس غير ما تقدم الحشيشة المسكرة.

**سؤال ـ ١٤ ـ ما هو الفارق بين دم الحيض ودم الاستحاضة ودم النفاس؟**

الجواب: وبالله التوفيق هذه الدماء المذكورة تخرج من محل واحد ولكن تختلف أسماؤها وأحكامها باختلاف أسبابها فأما دم النفاس فسببه ظاهر وهو الدم الخارج من الأنثى بسبب الولادة وهو بقية الدم المحتبس وقت الحمل في الرحم فإذا ولدت خرج هذا الدم شيئاً فشيئاً وما تولد بعد الولادة وتطول مدته وقد تقصر أما أقله فلا حد له قولاً واحداً وأما أكثره فعلى المذهب ما جاوز الأربعين ولم يوافق عادة حيض فهو استحاضة وعلى الصحيح لا حد لأكثره كما يأتي التنبيه على دليله في مسألة الحيض وأما الدم الذي يخرج بغير سبب الولادة فقد أجرى الله سنته وعادته أن الأنثى إذا صلحت للحمل والولادة يأتيها الحيض غالباً في أوقات معلومة بحسب حالتها وطبيعتها ولذلك من حكمة وجود الدم منها أنه أحد أركان مادة حياة الإنسان ففي بطن الأم يتغذى بالدم ولهذا ينحبس غالباً في الحمل وإذا كان هذا أصله وهو الواقع الموجود عرف أن أصل الدم الخارج من الأنثى حيض لأن وجوده في وقته يدل على الصحة والاعتدال وعدمه يدل على ضد ذلك وهذا المعنى متفق عليه بين أهل العلم بالشرع والعلم بالطب بل معارف الناس وعوائدهم وتجاربهم دلتهم على ذلك، ولذلك قال العلماء في

حده هو دم طبيعة وجبلة يأتي الأنثى في أوقات معروفة والتسمية تابعة لذلك والشارع أقر النساء على هذه التسمية لهذا الدم الخارج منهن وعلق عليه من الأحكام الشرعية ما علق، ففهم الناس عنه هذه الأحكام وعلقوها على وجود هذا الدم ومتى زال زالت لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً فلهذا كان الصحيح بل الصواب المقطوع به أنه لا حد لأقل الحيض سناً وزمناً ولا لأكثره ولا لأقل الطهر بين الحيضتين بل الحيض هو وجود الدم والطهر فقده ولو زاد أو نقص أو تأخر أو تقدم لظاهر النصوص الشرعية وظاهر عمل المسلمين ولأنه لا يسع النساء العمل بغير هذا القول، وأما المشهور من المذهب فإن أقل من تحيض فيه المرأة تسع سنين وأكثره خمسون سنة وأقل مدة الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً وما خرج عن هذا فهو دم فساد لا تترك له العبادة وإن زاد عن العادة أو تقدم أو تأخر لم تصر إليه حتى يتكرر ثلاثاً فيصير عادة تنتقل إليه ثم تقضي ما صامته أو اعتكفته ونحوه وحجتهم على هذا القول بعضه لا كله أن هذا الموجود الغالب وما خرج عنه نادر والأصل أن النادر لا يثبت له حكم وهذه حجة ضعيفة جداً فإن الوجود يتفاوت تفاوتاً كثيراً وبالإجماع أن النساء يتفاوتن في هذه الأمور تفاوتاً ظاهراً، والأسماء ثلاثة أقسام شرعية ولغوية وعرفية وكلها تتطابق على أن هذا الدم حيض وأن عدمه طهر فلا أبلغ من حكم اتفقت عليه الحقائق الثلاث فعلى المذهب الاستحاضة من تجاوز دمها خمسة عشر يوماً أو كان دماً غير صالح للحيض بأن نقص عن يوم وليلة أو كان قبل تسع سنين أو بعد خمسين سنة وأما على القول الصحيح فالحيض هو الأصل والاستحاضة عارض لمرض أو نحوه مثل أن يطبق عليها الدم أو تكون شبيهة بالمطبق عليها الدم بأن لا تطهر إلا أوقاتاً لا تذكر وعلى كل فإنه إذا ثبتت استحاضتها فإن كان لها عادة قبل ذلك رجعت إلى عادتها فصارت العادة هي حيضها وما زاد فهي استحاضة تغتسل وتتعبد فيه وإن لم يكن لها عادة وصار دمها متميزاً بعضه غليظ وبعضه رقيق أو بعضه أسود وبعضه أحمر أو بعضه منتن وبعضه غير منتن فالغليظ والأسود والمنتن حيض والآخر استحاضة ولكن على

المذهب يشترطون في المتميز أن يكون صالحاً للحيض لا ينقص عن يوم وليلة ولا يزيد على خمسة عشر يوماً ونحو ذلك مما هو على أصل المذهب والصواب عدم اعتبار ذلك كما تقدم فإن لم يكن لها عادة ولا تمييز جلست من كل شهر غالب الحيض ستة أيام أو سبعة للأحاديث الثابتة في ذلك ثم تغتسل إذا مضى المحكوم بأنه حيض وتسد الخارج حسب الإمكان وتتوضأ لوقت كل صلاة وتصلي بلا إعادة فظهر مما تقدم أن دم النفاس سببه الولادة وأن دم الاستحاضة دم عارض لمرض ونحوه وأن دم الحيض هو الدم الأصلي والله أعلم.

**سؤال ــ ١٥ ــ إذا جاز التيمم للعدم أو للضرر هل ينوب مناب طهارة الماء في كل شيء أم لا؟**

الجواب: حيث جاز التيمم لعذره الشرعي وهو عدمه أو خوفه باستعماله الضرر فإنه ينوب مناب طهارة الماء في كل شيء على الصحيح وهو ظاهر النصوص وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد فعلى هذا لا يشترط له دخول وقت ولا يبطل بخروجه بل بمبطلات الطهارة ولو تيمم للنفل استباح الفرض كما يستبيحه في طهارة الماء وذلك أن البدل يقوم مقام المبدل ويسد مسده إلا ما دل دليل على خروجه عن هذا الأصل ولم يرد والمشهور من المذهب أنه مثله في أكثر الأشياء فيستباح به ما يستباح بطهارة الماء من صلاة وغيرها ولكن يخالف طهارة الماء في أمور منها أنه يشترط له دخول الوقت وأنه يبطل بخروج الوقت مطلقاً وأنه لو تيمم للنفل لم يستبح الفرض وأنه لا يستبيح به إلا ما نواه أو كان مثله أو دونه لا أعلى منه واحتجوا على هذا بأنها طهارة اضطرار فتقدر بقدر الحاجة وهذا الاستدلال ضعيف وهو منقوض أيضاً أما ضعفه فلأن هذه الطهارة عند وجود شرطها المبيح طهارة كاملة كما سماها الله تعالى لما ذكر الطهارة بالماء ثم بالتيمم قال:

**﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم﴾** [سورة المائدة: الآية ٦]

فليست بمنزلة أكل الميتة للمضطر فإن التحريم باق ولكن لأجل اضطراره وخوفه التلف أبيح ذلك، وأما التيمم مع تعذر الماء فإنه عبادة نابت مناب عبادة أخرى عند العذر فيقتضي أنها مثلها من كل وجه نعم هي طهارة اضطرار بالنسبة إلى شرطها الذي هو تعذر استعمال الماء فما دام هذا الشرط موجوداً فطهارة التيمم صحيحة ومتى زال ووجد الماء وزال الضرر بطل التيمم هذا الذي دل عليه الدليل ثم قولهم أبيح بقدر الضرورة ممنوع بالإجماع فإنه لا يقول أحد إنه يجب أن يتيمم عند كل صلاة يصليها فرضاً أو نفلاً وأنه يقتصر على الفرض بل على الواجب منه كما قالوا فيمن تعذر عليه الطهارة بالماء والتراب مع أنه ضعيف أيضاً فإن من تعذر عليه ذلك فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها فإن جميع الواجبات الشرعية إنما تجب مع القدرة عليها فإذا عجز عنها سقط وجوبها على العبد وهذا مطرد في جميع أركان الصلاة وشروطها وواجباتها والحمد لله رب العالمين.

* * *

# أسئلة من كتاب الصلاة

## وقد يتناول غيرها من بقية العبادات

**سؤال ــ ١٦ ــ ما هي الشروط التي تشترك فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج أو يشترك فيها اثنان منها فأكثر والتي يتفرد بها كل واحد منها؟**

الجواب: وبالله التوفيق والإعانة ونسأله الهداية إلى الصواب. اعلم أن هذه العبادات الأربع هي مع الشهادتين أركان الإسلام التي ينبني عليها وهي أعظم مهمات الدين وأكبر ما يقرب إلى رب العالمين ورضاه وثوابه وفيها من الفضائل الإيمانية والأخلاقية والأعمال ومحاسن الدين ومصالح جميع المسلمين

ما لا يدخل تحت الحصر والحد وفيها من تكميل الإسلام وتحقيق الإيمان وقيام شعائر الدين وزيادة الإيمان وتكفير السيئات وزيادة الحسنات وعلو الدرجات وصلاح القلوب والأرواح والأبدان والدنيا والآخرة وغير ذلك مما هو معروف فكل هذه المصالح اشتركت فيها وإن اختصت كل واحدة منها بما اختصت به ثم إنها اشتركت كلها في وجوبها على المسلمين فالإسلام هو الشرط المشترك لأن المسلمين هم الذين التزموا ما جاء به الشرع وهذا أعظمه وأما غير المسلمين فيؤمرون بالإسلام ولا يخاطبون بهذه العبادات الأربع ابتداء وإن كانوا يعاقبون على تركها في الآخرة كما يعاقبون على ترك الإسلام واشتركت كلها أيضاً باشتراط القدرة عليها إذ القدرة هي مناط الأوامر والنواهي فمن لا يقدر على الشيء لا يلزمه فعله ومن لا يقدر على الترك بل هو مضطر فلا حرج عليه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولكن تختلف القدرة فيها بحسبها فالقدرة على الصلاة ثبوت العقل ولذلك قال الفقهاء ولا تسقط الصلاة ما دام العقل ثابتاً فيصلي قائماً فإن عجز فقاعداً فإن عجز فعلى جنبه ويومىء برأسه فإن عجز فيومىء بطرفه فإن عجز استحضر ذلك بقلبه هذا المذهب وعند الشيخ تقي الدين الإيماء بالرأس آخر المراتب لأن غيره لم يثبت به الحديث وهذا أصح والأول أحوط وأما القدرة في الزكاة فهو ملك نصاب زكوي وأما القدرة على الصيام فهي القدرة عليه من غير ضرر يلحقه ولهذا يسقط عن الكبير الذي لا يقدر عليه والمريض المأيوس من برئه ويطعم عن كل يوم مسكيناً وأما الذي يرجى برؤه فيؤخره إلى البرء وأما القدرة على الحج فهي ملك زاد وراحلة فاضلين عن ضروراته وحوائجه الأصلية فهذا الشرط اشتركت فيه كما ترى إلا أنه فسر بكل واحدة بما يناسبها شرعاً وأما التكليف وهو البلوغ والعقل فتشترك فيه الصلاة والصيام والحج لحديث: رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق. فمن لا عقل له أو لم يبلغ فلا صلاة عليه ولا صيام ولا حج لأن هذه أعمال بدنية محضة أو معها مال كالحج وهذا من حكمة الشارع أن من لا عقل له بالكلية أو له عقل قاصر كالصغير أنه لا يجب عليه شيء يفعله ولما

كان الصغير له عقل صحت عباداته إذا كان مميزاً لوجود العقل الذي ينوي به واختص الحج والعمرة بصحته ممن دون التمييز وينوي عنه وليُّه وأما الزكاة فلا يشترط لها التكليف عند جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وهو ظاهر النصوص الشرعية وظاهر المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم والسبب أن الزكاة عبادة مالية محضة متعلقة بالمال فوجبت في مال الصغير ومال المجنون المسلم كما يجب في ماله نفقة من تلزمه نفقته وهذه حكمة مناسبة وتشترك أيضاً الأربع في لزوم النية لحديث: إنما الأعمال بالنيات. فلا تصح صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج إلا بنية تقع من الفاعل لها تتقدم عليها إلا أن المجنون والصغير ينوي الزكاة عنهما وليُّهما وكذلك ينوي الحج عمّن لم يميز وليه. وتشترك الصلاة والصيام بوجوبهما على الأحرار والعبيد المكلفين بخلاف الزكاة والحج فإنهما يختصان بالأحرار والسبب في ذلك أنه تقدم أن القدرة شرط في الجميع والزكاة والحج عماد القدرة فيهما المال: والعبد المملوك لا مال له فهو كالفقير المعسر وكذلك العبادات المالية لا تجب على الأرقاء لهذا السبب فصارت الحرية شرطاً في الزكاة والحج فقط.

ومن الشروط المشتركة بين الأربع كلها الوقت وأنها كلها لا تلزم إلا بدخول وقتها والوقت يختلف باختلاف هذه العبادات فأوقات الصلوات الخمس الظهر العصر والمغرب والعشاء والفجر لا تلزم إلا بدخولها ولا تصح إلا بدخولها فالظهر من الزوال إلى مصير الفيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر من مصيره مثله إلى مثليه على المذهب وعلى الصحيح إلى اصفرار الشمس، والمغرب من الغروب إلى مغيب الحمرة والعشاء من مغيب الحمرة إلى ثلث الليل على المذهب أو نصفه على الصحيح، والفجر من طلوعه إلى طلوع الشمس. والزكاة لا تلزم إلا بدخول وقتها وهو تمام الحول في جميع الأموال الزكوية إلا المعشَّرات فوقتها حصادها وجذاذها كما قال تعالى:

**﴿وآتُوا حقه يوم حصاده﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

ولكنه يجوز تقديمها قبل ذلك حيث وجد السبب، والصيام صيام رمضان لا يلزم ولا يصح إلا بمجيء رمضان والحج لا يلزم ولا يصح إلا بوقته.

﴿الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

بخلاف العمرة فإنها تصح كل وقت. ومما تختص به الصلاة من الشروط الطهارة من الحدث والخبث ويشاركها في هذين من جزئيات الحج الطواف فقط وستر العورة واستقبال القبلة واجتناب النجاسة في البدن والثوب والبقعة فالحاصل أنها اشتركت في أربعة أشياء الإسلام والقدرة والنية والوقت واشتركت ما سوى الزكاة بالتكليف واشتركت الزكاة والحج باشتراط الحرية واختصت الصلاة بالبقية لشرفها وفضلها واعتناء الشارع بها والله أعلم.

**سؤال ــ ١٧ ــ بأي شيء تدرك الصلاة؟**

الجواب: الإدراكات متعددة إدراك الوقت للجماعة والجمعة وإدراك الجماعة وإدراك الجمعة ومن به مانع فزال وأدرك الوقت وكلها على الصحيح وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد لا تدرك إلا بركعة فمن أدرك من الوقت ركعة فقد أدركه ومن أدرك من الجمعة أو الجماعة ركعة فقد أدركهما ومن أدرك من الوقت ركعة بعد زوال مانعه لزمته تلك الصلاة ومن أدرك أقل من ركعة لم يدرك فيها كلها للحديث الصحيح: (من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدركها). متفق عليه. وهذا يعم جميع الإدراكات المذكورة ولم يعلق الشارع بأقل من الركعة إدراك ركعة ولا غيرها والمشهور من المذهب في هذه المسائل أنها تدرك بإدراك تكبيرة الإحرام في الوقت أو قبل انقضاء الجماعة وأما الجمعة صلاتها لا وقتها فلا تدرك إلا بركعة قولاً واحداً في المذهب والأول أصح كما تقدم.

**سؤال ــ ١٨ ــ ما حكم الصلاة بعد خروج وقتها وما حكمها في وقتها؟**

الجواب: لا يخلو إما أن تكون الصلاة فرضاً أو نفلاً فإن كانت فرضاً وكان المؤخر متعمداً غير معذور وليس للتأخير عذر فحكمه أنه آثم وإن كان غير متعمد فلا إثم وأما القضاء في تفويتها أو فواتها فمنها ما لا يقضى كالجمعة فإنها

إذا فاتت لم تقض وإنما يصلى بدلها ظهراً ومنا ما لا يقضى جماعة إلا في نظير وقته كالعيدين إذا فاتتا فعلت من الغد أو بعده قضاء ومنها ما يجب قضاؤه مطلقاً وهو الباقي ومن أحكام هذا القضاء وجوب الفورية فيه لأن الأمر المطلق يقتضي الفورية وإن كانت متعددات وجب أيضاً الترتيب فالفورية لا تسقط إلا مع الضرر والترتيب يسقط بالنسيان وبضيق الوقت قولاً واحداً في المذهب وبالجهل وخوف فوت الجماعة على الصحيح ومن أحكام هذا القضاء أيضاً أن من عليه فرائض متعددة وجهلها أبرأ ذمته واحتاط بما يعلم خروجه من التبعة. وإن كانت الفائتة صلاة نافلة استحب قضاؤها إلا الرواتب إذا فاتت مع فرائض كثيرة فإنه يشتغل بأداء الفرائض سوى سنة الفجر فيقضيها مطلقاً وإلا النوافل المشروعة لأسباب فتفوت بفوات تلك الأسباب فلا تقضى الكسوف ولا الاستسقاء ولا تحية المسجد ولا نحوها مما له سبب شرع لأجله ثم فاتت مع سببها فلا يشرع قضاؤها والله أعلم. وأما حكم الصلاة في وقتها فالأصل أنه يجوز أوله وأوسطه وآخره بحيث لا يخرج جزء منها عن الوقت هذا من جهة الجواز وأما من جهة الفضيلة والكمال فأول الوقت هو الأفضل إلا في شدة الحر فيسن تأخير الظهر مطلقاً أو مع غيم لمن يصلي جماعة ليكون الخروج لهما واحداً وكذلك يستحب تأخير العشاء الآخرة حيث لا مشقة ويستحب أيضاً لمن يرجو وجود الماء لعادمه إذا رجاه في آخر الوقت ويستحب التأخير للمغرب ليلة مزدلفة للحاج وكذلك كل جمع استحب تأخيره بأن يكون أرفق وضابط ذلك أن التقديم أولى إلا إذا كان في التأخير مصلحة شرعية وقد يجب تقديم الصلاة أول وقتها لمن يظن وجود مانع في آخر الوقت كالمرأة التي تظن الحيض ونحوه وقد يجب التأخير كمن يشتغل بتحصيل شرط الصلاة أو ركنها الذي لا يفرغ منه إلا في آخر الوقت وكتحصيل الجماعة الواجبة لها وكما قال الفقهاء لو أمره أبوه بالتأخير ليصلي بأبيه وجب عليه التأخير لكن هذه الصورة مبنية على منع النفل خلف الفرض والله أعلم.

**سؤال ـ ١٩ ـ هل تشترك صلاة الفرض وصلاة النفل في الأحكام أم بينهما فرق؟**

الجواب: الأصل اشتراك الفرض والنفل في جميع الأمور الواجبة والمكملة والمفسدة والمنقصة فما ثبت حكمه في أحدهما ثبت للآخر إلا ما دل الدليل على تخصيصه ولهذا أخذ العلماء أحكام صلاة الفرض والنفل من مطلق صلاته ﷺ وأمره ونهيه ولكن مع هذا فبينهما فروق كثيرة ترجع إلى سهولة الأمر في النفل والترغيب في فعله، فمنها أن القيام على القادر ركن في الفرض لا في النفل فيصح النفل جالساً للقاعد ولكن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ومنها جواز صلاة النفل للمسافر راكباً متوجهاً إلى جهة سيره وكذلك ماشياً وسواء كان السفر طويلًا أو قصيراً وأما الفرض فلا يصح على الراحلة إلا عند الاضطرار إليه كخوف على نفسه بنزوله أو خوف فوات ما يضره فواته أو إذا كانت الأرض ماشية ماء والسماء تهطل بالمطر ونحو ذلك من مسائل الاضطرار. ومنها أنهم اشترطوا في الفرض ستر الرجل أحد عاتقيه دون النفل مع أن الصحيح اشتراكهما في هذا الحكم وأن الجميع مشروع فيه ستر المنكب لا واجب لأنه غير عورة، والحديث: (لا يصلين أحدكم في ثوب ليس على عاتقه منه شيء) عام في الفرض والنفل، ومنها جواز النفل في جوف الكعبة بخلاف الفرض على المذهب، والصحيح عدم المنع أيضاً في الفرض لأن الحديث الذي احتجوا به على المنع غير صحيح، فبقي الأمر على الأصل ومنها أن أوقات النهي خاصة بالنهي عن النوافل دون الفرائض، ومنها ما قالوا بجواز يسير الشرب في النفل دون الفرض ومنها أن من دخل في فرض وجب إتمامه ولم يجز قطعه إلا لعذر بخلاف النفل إلا الحج والعمرة وهذا فرق عام بين الفروض والنوافل، واعلم أن هذه الفروق غير الفروق العامة الواقعة بين الفرائض والنوافل من تعين الفروض والإثم والعقوبة على تاركها لغير عذر وتقدمها عند المزاحمة وعظم أجرها ورفعة درجاتها فإن هذا معلوم من حد الفرض وحد النفل لا يحتاج إلى ذكره في المسائل المعينة وإنما يذكر عند الكلام على الأمور الكلية العامة.

**سؤال ــ ٢٠ ــ ما هي العورة التي يجب سترها؟**

الجواب: للعورة إطلاق في باب سترة الصلاة وإطلاق في باب تحريم النظر والحكم فيهما متفاوت أما العورة في باب سترة الصلاة فمنها مخففة وهي عورة ابن سبع سنين إلى تمام العشر فلا يجب أن يستر في الصلاة إلا الفرجين فقط، ومنها مغلظة وهي عورة الحرة البالغة فكلها عورة في الصلاة إلا وجهها وفي كفيها وقدميها عن أحمد روايتان المشهور وجوب سترهما، ومنها متوسطة وهو من عدا الذكورين فيدخل فيه عورة الأمة وإن كانت بالغة والحرة غير البالغة والرجل البالغ وابن عشر إلى البلوغ من حر وعبد فكل هؤلاء عورتهم في الصلاة من السرة إلى الركبة وأقل مجزي في ذلك ما يستر بشرة البدن ولا بد أن يكون الساتر مباحاً، وسيأتي إن شاء الله تفصيل الثياب المباحة من المحرمة في غير هذا السؤال والجواب، وثم قسم آخر وهو أنه يجب ستر جميع بدن الميت بثوب لا يصف البشرة صغيراً كان الميت أو كبيراً أو ذكراً أو أنثى.

الحال الثاني: عورة في باب النظر وهو النظر إلى ما وراء الثياب من بدن الإنسان فهو أيضاً ثلاثة أقسام: شديد وهو نظر الرجل البالغ ذي الشهوة للحرة البالغة الأجنبية غير القواعد فيحرم إلى شيء من بدنها لا وجهها ولا يديها ولا قدميها ولا شعرها المتصل لغير حاجة وخفيف وهو نظر الرجل إلى زوجته وسريته ونظرها إليه فيجوز لكل نظر جميع بدن الآخر وكذلك نظر عورة من دون سبع سنين وتسمية هذا النوع عورة تجوز لأجل التقسيم ونوع متوسط وهو نظر الرجل إلى الرجل ونظر المرأة للرجل وللمرأة ونظره لذوات محارمه نسباً ورضاعاً وصهراً والنظر لحاجة خطبة ومعاملة ونظر الأمة فيجوز من ذلك ما جرت به العادة وما احتيج إليه وشرط هذا أن لا يكون معه شهوة فإن كان لم يجز ومثله النظر للاضطرار كنظر الطبيب والمنقذ من مهلكة ونحو ذلك فهذا يجوز لما يحتاج إليه والله أعلم.

**سؤال ـ ٢١ ـ ما الفارق بين الثياب المباحة من المحرمة وإذا كان محرماً فهل تصح به الصلاة أم لا؟**

الجواب: الأصل في الثياب واللباس الإباحة قال تعالى:

**﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**
[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

فأَنكر على من حرم اللباس والمطاعم والمشارب التي أخرجها لعباده نعمة منه ورحمة فدل على أن أصلها الإباحة حتى يأتي من الشرع ما يدل على التحريم ودخل في هذا الأصل جميع ما تتخذ منه الأكسية من أي نوع كان فهو مباح ولم يحرم الشارع إلا أشياء مخصوصة ترجع إلى دفع الضرر وحفظ العباد في دينهم ومعاشهم. والمحرم من اللباس إما لمكسبه الخبيث كالمغصوب ونحوه فهذا تحريمه عام للذكور والإناث لاشتراك الجميع في المعنى الذي حرم لأجله. وإما محرم لهيئته المشتملة على مفسدة فكذلك هذا محرم على الصنفين فيدخل فيه اللباس الذي يحصل فيه التشبه الخاص بالكفار وتشبه الرجال بلباس النساء الخاص بهن وكذلك تشبه النساء بلباس الرجال الخاص بهم فهذا النوع الحكم فيه يدور مع علته فمتى وجد الشبه المحذور فالحكم بقاء المحظور ومتى زال زال ومن هذا النوع اللباس الذي فيه صور الحيوانات ولباس الفخر والخيلاء فهو محرم على الرجال والنساء.

ومن اللباس ما يكون محرماً على الرجال محللاً للنساء وذلك كالذهب والفضة وأكسية الحرير الخالصة أو التي غالبها حرير أو فيها أكثر من أربع أصابع من الحرير ويستثنى من هذا للرجل ما دون أربع أصابع من الحرير أو أربع فقط واستعماله في الحرب أو لمرض من حكة ونحوها وكذلك كسوة الكعبة والمصحف بالحرير كل هذا جائز. وأما تحريم الأكسية النجسة كجلود السباع فهذا من باب وجوب تجنب الخبائث كلها في كل شيء. وأما صحة الصلاة وعدمها في الثوب المحرم المتعلق بستر العورة فإنها لا تصح به الصلاة

فرضاً ولا نفلاً إلا معذوراً بجهل أو نسيان وكذلك المضطر فإن كل معذور إذا فعل محظوراً في العبادة فعبادته غير فاسدة كما أنه غير آثم.

**سؤال ـ ٢٢ ـ ما هي الصور التي تصح الصلاة فيها لغير الكعبة؟**

الجواب: الأصل أن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة وإن من ترك الاستقبال فصلاته باطلة لكن يستثنى من هذا صور منها المربوط والمصلوب لغير القبلة وفي شدة القتال وهذا يرجع لعدم القدرة على الاستقبال وكل من عجز عن شرط من شروط الصلاة أو ركن من أركانها سقط عنه ومنها المتنفل على الراحلة في السفر يتوجه جهة سيره ولا يلزمه الاستقبال في شيء من صلاته على الصحيح، وعلى المذهب يلزمه افتتاح الصلاة إلى القبلة إذا تمكن من ذلك وكذلك الماشي ويلزمه الركوع والسجود إليها على المذهب، ومنها من اشتبهت عليه القبلة في السفر واجتهد ثم تبين له بعد الفراغ أنه لغير القبلة فلا إعادة عليه، وعلى المسئلتين قوله تعالى:

**﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** [سورة البقرة: الآية ١١٥]

فسر بكل منهما والصحيح أن الآية تعم ذلك وما هو أعم منه ومما يسقط وجوب استقبال القبلة إذا ركب السفينة وهو لا يتمكن من الاستقبال لم يلزمه وإن تمكن لزمه في الفرض دون النفل فلا يلزمه أن يدور بدورانها والله أعلم.

**سؤال ـ ٢٣ ـ قد اشتهر عند أهل العلم أن لكل جارحة من أعضاء البدن عبودية خاصة في الصلاة فما هذه الخواص؟**

الجواب: وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الأصل في هذا أن تعلم أن الصلاة المقصود الأعظم بها إقامة ذكر الله والخشوع له والحضور بين يديه ومناجاته بعبادته وهذا المقصود للقلب أصلاً والجوارح كلها تبع له ولهذا يتنقل العبد في الصلاة من قيام إلى ركوع ومنه إلى

سجود ومنه إلى رفـع وهو في ذلك يتنوع في الخشوع لربه والقيام بعبوديته وينتقل من حال إلى حال ولكل ركن من الحكم والأسرار ما هو من أعظم مصالـح القلب والروح والإيمان ولهذا علق الله الفلاح التام على هذا في قوله:

﴿قد أفلـح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾

[سورة المؤمنون: الآيتان ١، ٢]

وجماع هذا أن يجتهد العبد في تدبر ما يقوله من القراءة والذكر والدعاء وما يفعله من هذه التنقلات، وكمال هذا أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يقو على هذا استحضر رؤية الله له وبحسب حصول هذا المقصود يحصل تأخيرها للعبد له من الأجر والثواب والقبول والقرب من ربه ما يحصل ولهذا ورد في الأثر: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها). معناه حصول هذه المقاصد الجليلة وإلا إبراء الذمة وزوال التبعة تحصل بأداء جميـع لازمات الصلاة ولكن يتفاوت المؤمنون في صلاتهم بحسب تفاوت إيمانهم فهذا المعنى الذي ذكرته وأشرت إليه تشترك فيه جميـع الجوارح الظاهرة والباطنة، ثم بعد هذا الإجمال فاللسان بعد القلب أعظمها وأكثرها عبودية لأنه يتنقل في صلاته من قراءة إلى أذكار متنوعة إلى أدعية بعضها أركان وبعضها واجبات وبعضها مكملات، أما الأركان المتعلقة باللسان فتكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة في كل ركعة على كل أحد إلا المأموم إذا جهر إمامه على القول الصحيح فيتحملها عنه وعلى المذهب حتى في السر والتشهد الأخير والصلاة على النبـي ﷺ والتسليمتان. وأما واجبات اللسان فالتكبيرات كلها غير تكبيرة الإحرام وغير التكبيرة الثانية للركوع في حق المسبوق إذا أدرك الإمام راكعاً ثم كبر للإحرام فإنها تجزيه عن تكبيرة الركوع لاجتماع عبادتين في وقت واحد من جنس واحد فاكتفي فيهما بفعل واحد فإن كبر للركوع فهو أكمل فتبين بهذا التفصيل أن التكبيرات ثلاثة أقسام ركن وهو تكبيرة الإحرام ومسنون وهو هذه الأخيرة وواجب وهو باقيها ومن واجباته قول سمـع الله لمن حمده للإمام والمنفرد وقول ربنا ولك الحمد للإمام والمنفرد والمأموم وقول سبحان ربـي العظيم مرة في الركوع وسبحان ربـي الأعلى مرة في السجود ورب اغفر لي بـين

السجدتين وما زاد على ذلك فهو مسنون مكمل والتشهد الأول وأما باقي القراءة بعد الفاتحة وباقي التسبيحات والأدعية وتكميل التشهد فإنها سنن مكملات فلا يشرع في الصلاة سكوت أصلاً إلا إذا جهر الإمام فيشرع للمأموم الإنصات لقراءته وكذلك لقنوته كما قال تعالى:

﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤]

وكما أن اللسان يتنقل في هذه الأنواع التعبدية فلا يحل أن يشغل بغيرها ولهذا كانت حركته بغير ما يتعلق بالصلاة مبطلة للصلاة كالكلام عمداً فإنه مبطل إجماعاً كما قال النبي ﷺ: (إن صلاتنا هذه لا يصلح ولا يحل فيها شيء من كلام الناس). فإن كان الكلام من جاهل الحكم أو جاهل الحال أو ناس فالمشهور من المذهب إبطال الصلاة به إلا إن نام فتكلم أو غلب الكلام عليه حال قراءته وعلى الصحيح كلام المعذور غير مبطل للصلاة لأن النبي ﷺ لم يأمر المتكلم في صلاته جاهلاً بالإعادة بل أخبره بالحكم فقط وكذلك لما تكلم المسلمون حين سها فسلم قبل إتمامها لم يأمرهم بالإعادة بل تكلم هو وهم وبنوا جميعاً على ما مضى وأما ما يتعلق باليدين فرفع اليدين إلى حذو المنكبين في إمكانها وهي عند تكبيرة الإحرام وعند تكبيرة الركوع وعند الرفع منه وكذلك على الصحيح عند الرفع من التشهد الأول كما ثبت به الحديث والمشهور الاقتصار على الثلاثة الأول وكذلك تكبيرات العيد اللاتي بعد تكبيرة الإحرام وبعد تكبيرة الانتقال للركعة الثانية وتكبيرات الجنازة كلها والاستسقاء كالعيد وكذلك على المذهب تكبيرة السجود للتلاوة والشكر، والصحيح لا يستحب رفعها بهما لأن النبي ﷺ كان لا يرفعهما في السجود. ومن عبادة اليدين أن يكون في حال قيامه قابضاً يسراه بيمناه واضعاً لهما على سرته أو تحتها أو فوقها وأن يجعلهما على ركبتيه في الركوع مفرقتين ولا يستحب تفريق أصابعهما في غير هذا الموضع وأن يجعلهما في سجوده حذو منكبيه مستقبلاً بهما القبلة مجافياً لهما عن جنبيه مبسوطتين مضمومتي الأصابع وأن يجعلهما على ركبتيه أو فخذيه في الجلوس بين السجدتين مبسوطتين

مضمومتي الأصابع موجهاً أصابعهما للقبلة، وكذلك في التشهدين إلا أنه ينبغي في التشهدين أن يقبض من اليمنى الخنصر والبنصر ويحلق الإبهام مع الوسطى وأن يشير بالسبابة إلى توحيد الله وذكره، ومن خواص اليدين في حق المرأة عند تنبيه الإمام إلى سهو أن تصفق بهما وأما الرجل فالمشروع في حقه التسبيح كما أمر بذلك النبي ﷺ والفرق بين الرجل والمرأة ظاهر لأن المطلوب منها الاستتار لشخصها وكلامها فهذا ما يتعلق باليدين.

ومن المشترك بينهما وبين بقية الأعضاء السبعة الركبتين والقدمين والجبهة مع الأنف إن السجود عليهما ركن لا تتم الصلاة إلا به. وأما ما يتعلق بالقدمين فالقيام في الفرض ركن لا تتم إلا به على القادر وينبغي أن يفرقها ولا يضم بعضها إلى بعض حيث أمكن بلا مشقة وأن يكونا في السجود منصوبتين وبطون أصابعهما على الأرض موجهة أطرافها إلى القبلة وأما في الجلوس فينصب اليمنى ويوجه أصابعها إلى القبلة ويفترش اليسرى ويجلس عليها إلا في التشهد الأخير فيتورك بأن يخرجها من تحته ويجلس على الأرض. وكذلك ينبغي موازنة الرجلين فلا يقدم إحداهما على الأخرى، وإذا كانوا جماعة سووا صفوفهم بمساواة المناكب والأكعب. وأما ما يتعلق بالعينين فالمشروع أن يكون نظره إلى موضع سجوده لأنه أعون له على الخشوع وعدم تفرق القلب كما شرع لأجل هذا المعنى أن يصلي الإنسان إلى سترة فإن في السترة فوائد عديدة منها هذا المقصد ويستثنى من هذا إذا كان في التشهد فإنه ينظر إلى سبابته عند الإشارة إلى التوحيد واستثنى الأصحاب إذا كان مشاهداً للكعبة فإنهم قالوا ينظر إليها والصحيح أنه لا يستحب في الصلاة النظر إلى الكعبة وإنْ كان النظر إليها خارج الصلاة عبادة لأنه في الصلاة يفوت الخشوع خصوصاً إذا كان المطاف مشغولاً بالطائفين ويستثنى من ذلك أيضاً صلاة الخوف فإنه ينبغي أن يكون نظره إلى جهة عدوه الذي في قبلته لكمال الاحتراز وليجمع بين الصلاة والجهاد وكما أنه يستحب نظره إلى موضع سجوده فيكره نظره في صلاته إلى كل ما يلهي قلبه ويشوشه ولهذا كره العلماء أن يكون في قبلة المصلي ما يلهي من زخرفة أو غيرها ويكره أن

يغمض عينيه أو يرفع نظره إلى السماء ويكره العبث بشيء من الأعضاء فإن كثر وتوالى لغير ضرورة بطلت به الصلاة، ويكره افتراش ذراعيه ساجداً وتخصره وتمطيه وإن تثاوب كظم فإن لم يستطع وضع يده على فيه ويكره من الجلوس الإقعاء وهو أن ينصب قدميه ويجلس عليهما وقيل هو أن ينصب قدميه ويجلس بينهما ويكره فرقعة الأصابع وتشبيكها وما يتلق بالأعضاء كلها الصفات المشروعة في هيئات الركوع والسجود والجلوس فهذا الجواب يأتي على غالب أو كل صفة الصلاة والله أعلم.

**سؤال ـ ٢٤ ـ ما هي المواضع التي لا تصح الصلاة فيها؟**

الجواب: الأصل في هذا قوله ﷺ: (جعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهوراً). متفق عليه فالأصل أن جميع المواضع من الأرض تصح فيها الصلاة كما هو صريح الحديث، فمتى ادعى أحد عدم الصحة في موضع منها من غير دليل شرعي صحيح فقوله مردود والذي يصح النهي عنه غير الأماكن النجسة والمغصوبة والحمام وأعطان الإبل والمقبرة سوى صلاة جنازة فيها فلا تضر والحش من باب أولى وأحرى وأما النهي عن المجزرة والمزبلة وقارعة الطريق وفوق ظهر بيت الله فهو ضعيف لا تقوم به حجة وأضعف من ذلك قولهم أسطحتها مثلها فالصواب جواز الصلاة في هذه الأماكن المجزرة وما بعدها وإن كان المذهب أنها كلها لا تصح فيها.

**سؤال ـ ٢٥ ـ ما هي النية المشترطة للصلاة وغيرها ؟**

الجواب: اعلم أن النية التي يتكلم عليها العلماء نوعان نية المعمول له ونية نفس العمل أما نية العمول له فهو الإخلاص الذي لا يقبل الله عملاً خلا منه بأن يقصد العبد بعمله رضوان الله وثوابه وضده العمل لغير الله أو الإشراك به في العمل بالرياء، وهذا النوع لا يتوسع الفقهاء بالكلام عليه وإنما يتوسع به أهل الحقائق وأعمال القلوب وإنما يتكلم الفقهاء بالنوع الثاني وهو نية العمل

فهذا له مرتبتان إحداهما تمييز العادة عن العبادة لأنه مثلاً غسل الأعضاء والبدن تارة يقع عبادة في الوضوء والغسل وتارة يقع عادة لتنظيف وتبريد ونحوها وكذلك مثلاً الصيام تارة يمسك عن المفطرات يومه كله بنية الصوم وتارة من دون نية فلا بد في هذه المرتبة من نية العبادة لأجل أن تتميز عن العادة ثم المرتبة الثانية إذا نوى العبادة فلا يخلو إما أن تكون مطلقة كالصلاة المطلقة والصوم المطلق فهذا يكفي فيه نية مطلق تلك العبادة وإما أن تكون مقيدة كصلاة الفرض والراتبة والوتر فلا بد مع ذلك من نية ذلك العين لأجل تمييز العبادات بعضها عن بعض فهذه ضوابط في النية نافعة مغنية عن تطويل البحث في النية وتحصيلها وكون هذا زمنها أو هذا أو نحو ذلك من الأمور التي إن صحت فهي من باب تحصيل الشيء الحاصل وكذلك مسائل الشكوك في النية التي إذا اهتم بها الإنسان فتحت عليه أبواب الوسواس ومن المعلوم أن من معه عقله لا يمكنه أن يباشر عبادة بلا نية حتى قال بعض العلماء لو كلفنا الله عملاً بلا نية لكان من باب تكليف ما لا يطاق، والله الموفق للصواب.

**سؤال ــ ٢٦ ــ المصلون إمام أو مأموم أو منفرد فهل يسوغ أن ينتقل أثناء صلاته من حالة إلى أخرى؟**

الجواب: أمّا من دون عذر فلا يسوغ أن ينتقل من إمامة إلى ائتمام أو انفراد ومن ائتمام إلى إمامة أو انفراد ومن انفراد إلى إمامة أو ائتمام ومن إمام إلى آخر وإما عند العذر والحاجة إلى شيء من ذلك فالصواب جواز ذلك كله لورود النص في أفراد من هذه الأمور ولم يرد ما يدل على المنع في هذه الحال وأما المشهور من المذهب فجوزوه في صور مخصوصة منها إذا صلى لغيبة الإمام الراتب ثم حضر الراتب في أثناء الصلاة جاز أن يرجع النائب من الإمامة إلى الائتمام بالراتب ومنها إذا سبق اثنان في الصلاة فائتم أحدهما بالآخر في قضاء ما فاتهما بعد سلام الإمام الأول فقد انتقل من إمام إلى إمام كالأولى ومنها إذا أحرم منفرداً ظاناً حضور مأموم ثم حضر المأموم فقد انتقل من انفراد إلى

إمامة وقد يقال إنه في هذه الحال كان قد نوى إمامة من سيدخل معه ومنها إذا عرض للإمام عارض يسوغ له الخروج من الصلاة أو الانفراد ثم استناب بعض المأمومين جاز فقد انتقل من ائتمام إلى إمامة عكس الأولى ومنها إذا عرض للإمام أو المأموم عذر أو شغل يبيح ترك الجماعة جاز أن ينفرد ويكمل صلاته وحده فقد انتقل من إمامة إلى انفراد ومن ائتمام إلى انفراد ومنها إذا صلى بمأموم ثم فارقه المأموم لعذر أو لا نوى الإمام الانفراد وكمل صلاته فقد انتقل من إمامة إلى انفراد والله الموفق للصواب.

## سؤال ــ ٢٧ ــ عن أسباب سجود السهو وكيفية حكم تلك الأسباب؟

الجواب: وبالله التوفيق هذا سؤال جامع يحتاج إلى جواب جامع لجميع تفاصيل سجود السهو وما يناسبها ويرتبط بها وهذا الباب من أصعب أبواب العبادات لانتشار مسائله واشتباهها وبحول الله سيأتي الجواب جامعاً لمتفرقاته مقرباً لبعيده مسهلاً لشديده. اعلم رحمك الله بالعلم النافع والعمل الصالح أن أسباب سجود السهو ثلاثة لا غير زيادة ونقصان وشك في الصلاة. أما الزيادة في الصلاة فلا تخلو من حالين إما أن تكون من جنس الصلاة كزيادة قيام أو قعود أو ركوع فهذه زيادة فعلية إنْ تعمدها المصلي بطلت صلاته وإن فعلها ناسياً أو جاهلاً صحت صلاته وعليه سجود السهو فهذه زيادة أفعال جنس الصلاة، وإن كانت الزيادة التي من جنس الصلاة زيادة أقوال كأن يأتي بقول مشروع في غير محله فإن كان سهواً استحب السجود له ولم يجب وإن كان عمداً فهو مكروه إن كان قراءة في ركوع أو سجود أو تشهد في قيام وإن كان غير ذلك فهو ترك للأولى وإن كانت الزيادة الفعلية أو القولية من غير جنس الصلاة مثال الفعلية الحركة والأكل والشرب فهذه لا سجود فيها ولكن يبحث عن حكمها من جهة إبطال الصلاة وعدمه. أما الحركة فهي ثلاثة أقسام حركة مبطلة وهي الكثيرة عرفاً المتوالية لغير ضرورة وحركة مكروهة وهي اليسيرة لغير حاجة وحركة جائزه وهي اليسيرة لحاجة أو الكثيرة للضرورة، وقد تكون مأموراً بها

كالتقدم والتأخر في صلاة الخوف ومثله التقدم إلى مكان فاضل، وأما الأكل والشرب فإن كان عمداً أبطلها إلا يسير الشرب في النفل وإن كان سهواً أبطلها الكثير.

ومثال القولية التي من غير جنس الصلاة الكلام فإن كان عمداً غير جاهل أبطلها وإن كان سهواً أو جهلاً فالصحيح أنه لا يبطلها والمذهب الإبطال كما تقدم، وأما النقصان فلا يخلو إما أن يكون نقص ركن أو نقص واجب أو نقص مسنون فإن كان نقص ركن وذكره قبل السلام وقبل شروعه في قراءة الركعة التي بعد المتروك منها لزمه أن يأتي به وبما بعده وإن كان بعد شروعه في قراءة التي بعدها فكذلك على الصحيح لأن الذي فعله بعد المتروك وقع لاغياً عفواً فيرجع فيأتي بالمتروك وبما بعده إن لم يصل إلى محله فلا حاجة إلى الرجوع لأنه قد حصل الوصول إليه، وعلى المذهب لا يرجع بعد الشروع في القراءة بل تقوم هذه الركعة مقام الركعة المتروكة منها الركن وتنوب منابها وتلغو تلك الركعة وعليه السجود للسهو في هذه الصور وإن ذكر المتروك بعد السلام. فكتركه قبله على الصحيح وعلى المذهب كترك ركعة كاملة فيأتي بركعة كاملة إلا أن يكون المتروك تشهداً أخيراً أو جلوساً له فيأتي به وعليه السجود في هذه الصور كلها، فهذا تفصيل القول في ترك الأركان ويستثنى منها إذا كان المتروك تكبيرة الإحرام فإن الصلاة وقعت غير مجزية فتعاد من أصلها، وأما نقص الواجب فإن ذكره قبل الوصول إلى الركن الذي يليه وجب عليه الرجوع وإن وصل إلى الركن الذي يليه لم يرجع مطلقاً على الصحيح وعلى المذهب يستثنى التشهد الأول إذا وصل إلى القيام قبل أن يشرع في القراءة يجوز له الرجوع والأولى عدم الرجوع وعليه سجود السهو في كل هذه الصور وإن كان ترك الركن والواجب عمداً بطلت الصلاة.

وأما نقصان المسنون فإذا ترك مسنوناً لم تبطل صلاته ولم يشرع السجود لتركه سهواً فإن سجد فلا بأس ولكنه يقيد بمسنون كان من عزمه أن يأتي به فتركه سهواً. أما المسنون الذي لم يخطر له على بال أو كان من عادته تركه فلا

يحل السجود لتركه لأنه لا موجب لهذه الزيادة وأما الشك فإن كان بعد السلام لم يلتفت إليه وكذلك إذا كثرت الشكوك لا يلتفت إليها وإن لم يكن كذلك فالشك إما في زيادة أو نقصان فالشك في زيادة ركن أو واجب في غير المحل الذي هو فيه لا يسجد له وأما الشك في الزيادة وقت فعلها فيسجد له وأما الشك في نقص الأركان فكتركها والشك في ترك الواجب لا يوجب السجود وإذا حصل له الشك بنى على اليقين وهو الأقل تساوى عنده الأمران أو غلب أحدهما أما ما كان أو غيره هذا المذهب وعن أحمد يبني على اليقين إلا إذا كان عنده غلبة ظن فيأخذ بغلبة ظنه وهذا القول هو الذي تدل عليه النصوص الشرعية فهذه أسباب سجود السهو وتفاصيلها لا يشذ عنها شيء وحيث وجب عليه سجود السهو أو شرع له فهو مخير إن شاء جعله قبل السلام وإن شاء بعده والله تعالى أعلم.

### سؤال ـ ٢٨ ـ ما حكم السجود على حائل؟

الجواب: السجود على حايل ثلاثة أنواع ممنوع وجائز ومكروه فالممنوع إذا جعل بعض أعضاء سجوده على بعض كأن يجعل يديه أو أحداهما على ركبتيه أو يسجد بجبهته على يديه أو يضع إحدى رجليه على الأخرى فهذا غير جائز وهو مبطل للصلاة لأن السجود على الأعضاء السبعة ركن وفي هذه الحال ترك منها ذلك العضو وصار الحكم للعضو الساجد وأما الحايل المكروه فأن يسجد على ثوبه المتصل به أو عمامته من غير عذر. وأما الجائز فإذا كان الحايل غير متصل بالإنسان فدخل في ذلك الصلاة على جميع ما يفرش من الفرش المباحة.

### سؤال ـ ٢٩ ـ ما حكم سترة المصلي؟

الجواب: لها حكمان حكم في حق المصلي وحكم في حق المار أمام المصلي فيسن أن يصلي إلى سترة شاخصة ويدنو منها ويجعلها يمينه أو يساره فإن لم يجد شاخصاً خط خطاً وفي ذلك فوائد منها اتباع السنة وطاعة الله ورسوله ومنها أنه يرد البصر عن مجاوزته فيمنع القلب من الالتفات ولها في هذا المعنى خاصية

عجيبة ومنها أنه يفيده أنه لا يقطع صلاته ولا ينقصها من مر وراءها فإن مر أحد دونها نقص صلاته إلا أن يكون المار امرأة أو حماراً أو كلباً أسود بهيماً فإنه يبطلها كما صح به الحديث والمشهور أن المرأة والحمار لا يبطلانها لكن الأول أولى. وأما في حكم المار فيحرم المرور بين المصلي وسترته فإن لم يكن سترة فإذا مر وبين يديه نحو ثلاثة أذرع فإنه يأثم المار إثماً عظيماً إلا أن يصلي في موضع يحتاج الناس إلى المرور فيه أو في المسجد الحرام خصوصاً فيما قرب من البيت والصحيح أنه يقيد ذلك بالحاجة والحاجة تختلف بحسب كثرة الناس في البيت الحرام وقلتهم وإذا مر بين يديه في الحالة التي لا يجوز له المرور دفعه عنه بالأسهل فالأسهل.

**سؤال ــ ٣٠ ــ ما هي الحالة التي يسقط فيها شيء من الأركان في الصلاة مع القدرة؟**

الجواب: يسقط القيام عن المأمومين إذا صلى بهم الإمام الراتب جالساً لعجزه عن القيام فيشرع لهم الجلوس وهو أولى من القيام إلا إذا ابتدأ بهم الصلاة قائماً ويسقط بالمداواة إذا كان القيام يمنع حصول المقصود ويسقط أيضاً إذا خاف عدواً ينظر إليه إذا قام وتسقط الفاتحة عن المأموم إذا جهر أمامه فيتحملها الإمام عنه ويسقط القيام أيضاً للعريان على المذهب، والصحيح عدم السقوط لعدم الدليل على سقوطه، وكذلك على المذهب إذا قدر أن يصلي في غير الجماعة قائماً وإذا حضر الجماعة لم يقدر على القيام، فالمذهب أنه يخير وقيل يقدم القيام، وقيل يقدم صلاة الجماعة وهو أولى لأن القيام في حقه يصير غير ركن لعجزه عنه ويدرك الجماعة التي لا تعد مصالحها.

**سؤال ــ ٣١ ــ ما هي السور والآيات المخصوصة المشروعة قراءتها في الصلاة ؟**

الجواب: يشرع قراءة قل يا أيها الكافرون بعد الفاتحة في الركعة الأولى وفي الثانية قل هو الله أحد في سنة الفجر وكذا المغرب وآخر الوتر وسنة الطواف

ويشرع أيضاً في ركعتي الفجر في الركعة الأولى بعد الفاتحة قولوا آمنا بالله إلى آخر الآية، وفي الثانية قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الآية ويسنُّ أن يقرأ في فجر الجمعة ألم تنزيل السجدة وفي الثانية هل أتى على الإنسان وفي صلاة الجمعة سبح والغاشية أوسورة الجمعة والمنافقين وفي العيدين بقاف والقرآن المجيد أو بسبح والغاشية فهذه الصلوات التي خصصت فيها هذه السور والآيات لحكم لا تخفى على من تدبرها مع جواز قراءة غيرها.

**سؤال ٣٢ ـ ما الذي يجوز من الصلوات أوقات النهي ؟**

الجواب: يجوز فيه الفرائض والمنذورات وسنة الظهر إذا جمع بينها وبين العصر وإعادة جماعة أقيمت وهو في المسجد على المذهب وعلى الصحيح ولو أقيمت وهو خارج المسجد وسنة الطواف وإذا دخل والإمام يخطب وكذلك على الصحيح ذوات الأسباب.

**سؤال ـ ٣٣ ـ عن الذي تجب عليه الجماعة والجمعة ؟**

الجواب: تجب الجماعة على الذكور المكلفين القادرين ويشترط أيضاً في وجوب الجمعة أن يكون مستوطناً بقرية وهل الحرية شرط لوجوب الجمعة والجماعة على قولين المذهب منهما اشتراطها فلا تجبان على عبد مملوك لاشتغاله بخدمة سيده والصحيح وجوب جميع التكاليف البدنية على المكلفين من الأرقاء جماعة أو جمعة أو غيرهما لأن النصوص الموجبة لذلك تتناول الأرقاء كما تتناول الأحرار ولأن وجوب الصلاة والصيام ونحوهما لم يختلف الناس أنها شاملة للصنفين فكذلك يجب أن تكون الجمعة والجماعة وقولهم العبد مشغول بخدمة سيده يجاب عنه بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق والخدمة الواجبة للسيد مؤخرة عن حق الله تعالى فالعبد وسيده داخلان في رق التكليف أما العبادات المالية كالزكاة والحج حيث احتاج للمال والكفارات والنذور المالية فالعبد فيها

في حكم المعسر لأنه لا يملك ولو ملكه السيد فالمال الذي بيده للسيد يتعلق بالسيد أحكامه والله أعلم.

**سؤال ــ ٣٤ ــ الذي يقضيه المسبوق هل هو أول صلاته أو آخرها ؟**

الجواب: ليس بأولها في ابتداء النية وتكبيرة الإحرام قولاً واحداً وكذلك إذا أدرك المسبوق من الثلاثية أو الرباعية ركعة فإنه إذا قام يقضي ما عليه لا يسرد ركعتين بل يصلي ركعة ثم يجلس للتشهد ثم يتم ما عليه وما سوى هذه الصور الثلاث فيها قولان في المذهب هما روايتان عن الإمام أحمد المشهور عند المتأخرين أن ما يقضيه أول صلاته فيستفتح له ويستعيذ ويقرأ مع الفاتحة غيرها قالوا لأن القضاء يحكي الأداء فيقتضي أن الذي يقضيه يكون بصفة ما فاته سوى الصور المتقدمة هذا حجة هذا القول، وأما استدلال بعضهم بأن في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة (فما أدركتم فصلوا أو ما فاتكم فاقضوا) فليس الاستدلال صحيحاً لأن القضاء بمعنى الإتمام كما هو طريقة الكتاب والسنة والقول الآخر أن الذي يقضيه هو آخر صلاته وهو الصحيح الذي تدل عليه الأدلة والأصول والواقع فإن الحديث صح بلا شك قوله: (وما فاتكم فأتموا) والإتمام بناء الآخر على الأول وتتميمه له ولفظة فاقضوا بمعناها، ويدل على ذلك الصور السابقة فلو كان ما يقضيه أول صلاته لوجب عليه ابتداء النية وتكبيرة الإحرام في قضائه وأيضاً هذا خلاف الواقع فليس آخر الشيء هو أوله لكن قال بعض القائلين بهذا القول إذا قام لقضاء أولتي الرباعية أو الثلاثية قرأ مع الفاتحة استدراكاً للقراءة الفائتة، وهذا قول حسن.

**سؤال ــ ٣٥ ــ إذا سبق المأموم إمامه فما حكم ذلك؟**

الجواب: المشروع أن المأموم لا يشرع في ركن حتى يصل إمامه إلى الركن الذي يليه كما دلت عليه الأحاديث وعمل الصحابة رضي الله عنهم، وأما سبق المأموم لإمامه فهذا محرم منهي عنه متوعد عليه بالعقوبة كما قال النبي ﷺ: (أما

يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار). . وقال: (إنما جعل الإمام ليؤتم به) والحديثان في الصحيحين وأما حكم سبقه له فلا يخلو الحال إما أن يكون السبق عمداً وإما أن يكون جهلاً أو نسياناً فالعمد يبحث فيه عن الإثم وعن بطلان الركعة وبطلان الصلاة والجهل والنسيان إنما يبحث فيهما عن بطلان الركعة فقط وبيان ذلك أنه إن سبقه عمداً ذاكراً بركن الركوع أو بركنين غير الركوع فإن صلاته تبطل بمجرد هذا السبق، مثال سبقه بركن الركوع أن يركع المأموم ويرفع من الركوع قبل أن يصل الإمام للركوع ومثال السبق بركنين أن يسجد المأموم قبل سجود إمامه ثم يرفع ثم يسجد السجدة الثانية قبل أن يصله الإمام فهذا تبطل صلاته ويعيدها من أولها وإن سبقه بركن غير ركوع أو إلى ركن الركوع بأن ركع مثلاً قبل ركوع إمامه فهذا عليه أن يرجع ليأتي بالركوع بعد إمامه فإن لم يفعل حتى أدركه الإمام فيه بطلت صلاته، ولا تبطل صلاته بمجرد هذا السبق إلى ركن الركوع أو بركن واحد غير الركوع على المذهب. وعن أحمد ما يدل على بطلان صلاته بمجرد السبق وهو ظاهر الأدلة فهذا حكم المتعمد وأما إذا وقع السبق نسياناً أو جهلاً فلا يخلو إمّا أن يرجع فيأتي بما سبق به مع الإمام أو لا فإن رجع صحت ركعته مطلقاً سواء كان السبق إلى ركن أو بركن أو بركنين أو أكثر فإن لم يرجع حتى لحقه الإمام فإن كان سبقه إلى ركن الركوع بأن ركع ساهياً أو جاهلاً قبل إمامه ثم ركع الإمام والسابق في ركوعه صحت ركعته واعتد بها ومثله السبق بركن واحد غير الركوع وإن كان السبق بركن الركوع أو بركنين غير الركوع فإن رجع قبل وصول الإمام له صحت أيضاً ركعته وإن لحقه الإمام لغت الركعة التي وقع فيها السبق.

هذا تفصيل جامع لأحوال المسابقة وقد تبين أن الجاهل لا تبطل صلاته على كل حال وكذلك الناسي وإنما التفصيل المذكور في ركعته هل يعتد بها أم لا.

**سؤال ـ ٣٦ ـ ما هي الصفات المعتبرة في الإمام في الصلاة اشتراطاً وأولوية؟**

الجواب: إذا جمع الإمام خمسة أمور: الذكورية والتكليف والإسلام والعدالة والقدرة على جميع شروط الصلاة وأركانها صحت إمامته في كل الأحوال إلا الجمعة فيشترط مع الخمسة الحرية والاستيطان في القرية فإن اختل من هذه الأمور شيء فإما أن لا تصح صلاته وإمامته كالكافر وإما أن تصح صلاته دون إمامته كالفاسق وإما أن تصح إمامته في النفل مطلقاً وفي الفرض بمثله كالصبي المميز وإما أن تصح إمامته بمثله فقط كالمرأة والعاجز عن شيء من الأركان والشروط ويستثنى الإمام الراتب إذا عجز عن القيام فتصح إمامته بالقادرين عليه وكذلك الرقيق والمسافر وغير المتوطن لا تصح إمامتهم في الجمعة هذا التفصيل المذكور هو المشهور في المذهب وفيه قول آخر وهو الأصح دليلاً إن كل من صحت صلاته لنفسه صحت إمامته بل من لم تصح صلاته لنفسه إذا لم يعلم به المأموم حتى فرغ فلا إعادة وليس ثم دليل يجب المصير إليه في إبطال إمامة الفاسق والعاجز عن الشروط والأركان والصبي البالغ بل عموم الأدلة تدل على جواز ذلك والنبي ﷺ قال في أئمة الجور: (يصلون لكم فإن أصابوا فلهم ولكم وإن أخطأوا فعليهم ولكم). والعاجز عن واجبات الصلاة لا يصير مخلاً بواجب عليه فكما أنه معذور فالمصلي خلفه كذلك وعموم قوله ﷺ (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا بالسنة سواء فأقدمهم هجرة) وهو في الصحيح يتناول العدل والفاسق والحر والعبد والكبير والصغير والمسافر والمقيم والجمعة والجماعة والقادر على جميع الأركان والشروط والعاجز عن بعضها وقد أم عمرو بن سلمة قومه وهو ابن سبع سنين في زمن النبي ﷺ هذا في صحة الإمامة بل فقط بقطع النظر عن الأولوية وأما من هو أولى بالإمامة فاعلم أن جميع الولايات والتقديمات الشرعية ينظر فيها إلى من هو أقوم بمقاصد تلك الولاية وأعظمهم كفاءة وقدرة عليها ومنها الإمامة وقد فصل النبي ﷺ فيها الأمر في الحديث السابق وجعل العلم

بالكتاب والسنة والدين هي أولى ما يقدم به الإمام فمن جمع القراءة والعلم والدين فهو أحق بالإمامة فإن اشترك اثنان فأكثر في هذه الصفات فالمتميز منهما والراجح يرجح والترجيحات متعددة قد ذكرها الفقهاء ومع الاستواء في وجودها أو عدمها الأسن وهذا في ابتداء الأمر وإلا من كان مترتباً في مسجد أو في بيته فهو أحق بالإمامة من غيره وإن كان الغير أفضل منه بتلك الصفات وهذا مطرد في جميع الولايات والوظائف الدينية إذا كان المتولي لها غير مخل بمقصودها فلا يفتات عليه ويقدم غيره ولو أفضل منه وأما الذي يعتبر التقديم به في الفضل في الصفات المقصودة ففي ابتداء الأمر لا في استمراره ودوامه فلا تؤخذ أحكام الابتداء من أحكام الدوام ولا بالعكس والله أعلم.

**سؤال ــ ٣٧ ــ ما الذي يعتبر في اقتداء المأموم بإمامه؟**

الجواب: الشرط الذي لا يختلف العلماء فيه أنه إذا أمكن المأموم متابعة إمامه فلا بد من هذا الشرط وإمكان متابعته برؤية للإمام أو لمن خلفه أو سماع صوته أو صوت المبلغ عنه فمتى فقد هذا الشرط لم يصح الاقتداء ومتى وجد والإمام والمأموم في المسجد لم يشترط غيره فإن كان أحدهما خارج المسجد فلا بد من رؤية المأموم للإمام أو لمن خلفه ولو في بعض الصلاة ولا بد أيضاً أن لا يكون بينهما طريق مسلوك أو نهر تجري فيه السفن على المذهب والصحيح عدم اعتبار الأمرين وهو أحد القولين في المذهب لعدم الدليل على إيجاب ذلك مع إمكان الاقتداء ولعدم المانع في موضع صلاتهما فلا يضر الحائل المانع هذا مع قولنا إن الصلاة لا تصح في الطريق وإن قلنا بصحتها وهو الصحيح فالأمر واضح.

**سؤال ــ ٣٨ ــ في موقف المأموم مع إمامه في الصلاة؟**

الجواب: الموقف أربعة واجب ومندوب وجائز وممنوع أما المندوب فهو وقوف المأمومين إذا كانوا اثنين فأكثر خلف الإمام ووقوف المرأة الواحدة خلف

الرجل والجائز وقوف المأمومين جانبي الإمام أو عن يمينه ووقوف المرأة عن يمين الرجل واختلف في الوقوف عن يسار الإمام مع خلو يمينه المذهب أنه ممنوع والصحيح أنه من الجائز وإدارة النبي ﷺ ابن عباس لما وقف عن يساره إلى يمينه يدل على استحباب ذلك واستحباب الإدارة لا وجوبها لأن فعله ﷺ يدل على الندب والموقف الواجب وقوف الرجل الواحد عن يمين إمامه والموقف الممنوع وقوف الرجل وحده خلف الإمام أو خلف الصف مطلقاً على المذهب وعلى القول الثاني في حال إمكان اصطفافه فإن لم يمكنه بأن لم يجد في الصف مكاناً سقط عنه وجوب الاصطفاف ووقف وحده وأمام العراة يقف بينهم وجوباً والمرأة إذا أمت النساء تقف وسطهن استحباباً فإن وقف معه من يعلم عدم صحة صلاته فهو منفرد وإن وقف معه محدث أو نجس لا يعلم منه ذلك فالاصطفاف صحيح وإن وقف معه صبي وهو رجل لم يصح على المذهب وعلى القول الصحيح يصح والله أعلم.

سؤال ــ ٣٩ ــ عن رخص السفر ما هي؟

الجواب: من قواعد الشريعة المشقة تجلب اليسر ولما كان السفر قطعة من العذاب يمنع العبد نومه وراحته وقراره رتب الشارع عليه ما رتب من الرخص حتى ولو فرض خلوه عن المشقات لأن الأحكام تعلق بعللها العامة وإن تخلفت في بعض الصور والأفراد فالحكم الفرد يلحق بالأعم ولا يفرد بالحكم وهذا معنى قول الفقهاء النادر لا حكم له يعني لا ينقص القاعدة ولا يخالف حكمه حكمها فهذا أصل يجب اعتباره فأعظم رخص السفر وأكثرها حجة:

١ ــ القصر ولذلك ليس للقصر من الأسباب غير السفر ولهذا أضيف السفر إلى القصر لاختصاصه به فتقصر الرباعية من أربع إلى ركعتين ومن معاني القصر قصر أركان الصلاة وهيئاتها ولذلك قال الفقهاء في قراءة قصار المفصل الفجر لا ينبغي إلا في السفر.

٢ ــ ومن رخصه الجمـع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء في وقت إحداهما والجمـع أوسـع من القصر ولهذا له أسباب أُخر غير السفر كالمرض والاستحاضة ونحوها من الحاجات والقصر أفضل من الإتمام بل يكره الإتمام لغير سبب. وأما الجمـع في السفر فالأفضل تركه إلا عند الحاجة إليه أو إدراك الجماعة به فإذا اقترن به مصلحة جاز.

٣ ــ ومن رخص السفر الفطر في رمضان.

٤ ــ والصلاة النافلة على الراحلة إلى جهة سيره.

٥ ــ وكذلك المتنفل الماشي.

٦ ــ ومنها المسـح على الخفين والعمامة والخمار ونحوها ثلاثةُ أيام بلياليها وأما التيمم فليس سببه السفر وإن كان الغالب أن الحاجة إليه في السفر أكثر منه في الحضر ولعل هذا السبب في ذكر السفر في آية التيمم:

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفـر﴾. [سورة النساء: الآية ٤٣]

الآية وإنما سبب التيمم العدم للماء أو الضرر باستعماله قال تعالى:

﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾. [سورة النساء: الآية ٤٣]

وكذلك أكل الميتة للمضطر عام في السفر والحضر ولكن الغالب وجود الضرورة في السفر.

٧ ــ ومن رخص السفر أيضاً أنه موسـع للإنسان أن يترك الرواتب في سفره ولا يكره له ذلك مـع أنه يكره تركها في الحضر.

٨ ــ ومن رخص السفر ما ثبت في الصحيـح عن النبـي ﷺ (من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً) فالأعمال التي يعملها في حضره من الأعمال القاصرة والمتعدية يجري له أجرها إذا سافر وكذلك إذا مرض فيا لها نعمة ما أجلها وأعظمها وأما صلاة الخوف فليس سببه السفر ولكنه فيه أكثر.

**سؤال ـ ٤٠ ـ ما هي الأمور التي اشتركت فيها الجمعة مع العيدين والتي افترقت؟**

الجواب: وبالله الإعانة والوصول إلى ما يحبه ويرضاه.

اعلم أن الشارع من حكمته ومحاسن شرعه شرع للمسلمين الاجتماع للصلوات وأنواع التعبدات. وهو إما اجتماع خاص كاجتماع أهل المحال المتقاربة لجماعة الصلوات الخمس وأما اجتماع عام يجتمع فيه أهل البلد في مسجد واحد للجمعة، وأما اجتماع أعم من ذلك كاجتماع أهل البلد رجالهم ونسائهم أحرارهم وارقائهم في الأعياد وأما اجتماع أعم من ذلك كله كاجتماع المسلمين من جميع أقطار الأرض في عرفة ومناسك الحج وفي هذه الاجتماعات من الحكم والأسرار ومحاسن الشريعة ومصلحة الأمة ما لا يعد ولا يحصر فمنها إظهار شعائر الدين وبروزها مشاهداً جمالها عند الموافقين والمخالفين فإن الدين نفسه وشعائره من أكبر الأدلة على أنه الحق وأنه شرع لوصول الخلق إلى صلاح دينهم ودنياهم وصلاح أخلاقهم وأعمالهم وسعادتهم الدنيوية والأخروية فوقوف الخلق على حقيقة دين الإسلام وشرحه لإفهام الناس كاف وحده لكل منصف قصده الحقيقة لمحبته وبيان أنه لا دين إلا هو وأن ما خالفه فهو باطل وإيصال هذا المعنى لأفهام الخلق له طرق كثيرة من أبلغها وأجلها إظهار هذه الشعائر وما احتوت عليه من التقربات وأصناف العبادات ولهذا كانت هذه الشعائر علماً على بلد الإسلام وظهور الدين وعلوه على سائر الأديان. ومنها أن حقائق هذه العبادات لا تحصل بدون الاجتماعات المذكورة فالحكم التي شرعت لأجلها متوقفة على هذا الاجتماع. ومنها أن اجتماع الخلق لهذه العبادات من أعظم محبوبات الرب لما فيها من تنشيط العباد إلى عبادة ربهم وزيادة رغبتهم وتنافسهم في قربه وحصول ثوابه وسهولة العبادة عليهم وخفتها وكثرة ما تشتمل عليه من الانكسار لعظمة الرب والتذلل له والتضرع وخشوع القلوب وحضورها بين يدي الله واجتماعهم على طلبهم من ربهم مصالحهم العامة المشتركة والخاصة ومنها ما في اجتماع المسلمين من قيام الألفة والمودة لأن الاجتماع الظاهر عنوان

الاجتماع الباطن وتفكيرهم في مصالحهم والسعي للعمل لها وتعليم بعضهم بعضاً وتعلم بعضهم من بعض فالعلم الذي لا بد منه للصغير والكبير والذكر والانثى قد تكفلت هذه الاجتماعات بحصوله ولولا هـذه الاجتماعات لم يعرف الناس من مبادىء دينهم وأصوله شيئاً إلا أفذاذاً منهم ولهذا كان الوافد يفد إلى النبي ﷺ ويسأله عن الصلوات الخمس فيأمره بحضور الصلاة معه يوماً أو يومين ثم ينصرف من عنده فاهما لصلاة النبي ﷺ وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي). وقد حج النبي ﷺ بعد فرض الحج مرة واحدة وحج معه المسلمون وقال: (خذوا عني مناسككم) فانصرف الناس آخذين عن نبيهم ﷺ أحكام الحج الكلية والتفصيلية والتعليم العملي أبلغ من التعليم القولي والجمع بينهما أكمل، ومنها أن في هذه الاجتماعات من معرفة مراتب المسلمين وما هم عليه من العلم والدين والأخلاق والمحافظة على الشرائع أو غير ذلك من أعظم الفوائد المميزة لتحصل معاملتهم بحسب ذلك ولـولا هذا الاجتماع لكان ناقص الدين قليل الاهتمام به يتمكن من ترك شرائعه ولا يمكن إلزامه بها وفي ذلك من مضرته ومضرة العموم ما فيه وفي الجملة فيها من صالح الدين والدنيا ما هو من الضرورات التي لا بد منها، فهذه الفوائد وغيرها قد اشتركت فيها وبأنها من شروط الدين وواجباته وبأنها ركعتان يجهر فيهما في القراءة وبمشروعية الخطبتين فيهما فالذي اشتركت فيه أكثر مما افترقت واستحباب التجمل والتطيب وتكبير المأموم إليهما وتأخر الإمام إلى وقت الصلاة والاستيطان والعدد على القول به وافترقت بأشياء بحسب أحوالها ومناسبة الحال الواقعة فمنها الوقت: الجمعة من الزوال إلى وقت العصر عند أكثر العلماء وعند الإمام أحمد من أول صلاة العيد إلى وقت العصر ووقت العيد من ارتفاع الشمس قيد رمح إلى قبيل الزوال ومنها أن صلاة الجمعة إذا فاتت لا تقضى بل يصلون ظهراً، وأما العيد فتقضى من الغد بنظير وقتها والفرق أن العيد لما كان لا يتكرر إلا بتكرر العام ولا يمكن تفويت ما في ذلك الاجتماع من المصالح شرع قضاؤه وأما الجمعة فتتكرر بالأسبوع فإذا فات

أسبوع حصل المقصود بالآخر مع حكمة أخرى وهي أن العيد كثيراً ما يعذر الناس بفواته لتعلقه بالأهلة بخلاف الجمعة ومنها أن الجمعة الخطبتان قبلها والعيدين بعدهما، وقد ذكر الحكمة في ذلك أنهما في العيد سنة وفي الجمعة شرط لازم فاهتم بتقديمه وهذا أيضاً فرق آخر. ومنها أنه يشرع في صلاة العيد تكبيرات زوائد في أول كل ركعة في الأولى ستًّا بعد تكبيرة الإحرام وفي الثانية خمساً بعد تكبيرة الانتقال، ومنها أن المشروع أن تكون صلاة العيدين في الصحراء إلا لعذر والجمعة المشروع أن تكون في قصبة البلد إلا لعذر، ومن الحكمة في ذلك لاشتهار العيد وزيادة إظهاره ولاشتراك الرجال والنساء فيه، وهذا أيضاً من الفروق بينهما. ولذلك كان النبي ﷺ يأمر النساء بالخروج للعيد حتى يأمر ذوات الخدور وحتى يأمر الحيض ليحضرن دعوة المسلمين فإن دعوتهم مجتمعة أقرب للإجابة كما أن العبادة المشتركة أفضل من المنفردة حتى فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفذ بسبع وعشرين ضعفاً وهذا من المعاني المشتركة، ومنها وجوب فطر يوم العيد دون الجمعة فإن إفراد صومه مكروه لكون العباد أضياف كرم الكريم فيهما.

ومنها أنه في العيد ينبغي أن يخرج من طريق ويرجع في آخر بخلاف الجمعة.

ومنها كراهة التنفل في مصلي العيد قبل الصلاة وبعدها بخلاف الجمعة.

ومنها أن الجمعة فرض عين بالإجماع وأما العيدان ففيهما خلاف معروف المشهور من المذهب أنهما كفاية والصحيح أنهما فرضا عين وهو إحدى الروايتين عن أحمد اختارها الشيخ تقي الدين.

ومنها ما يتعلق بالعيدين من زكاة الفطر والتكبير المطلق والمقيد ومن الأضاحي والهدي فلا تشاركها الجمعة فيها.

ومنها أن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم يدعو الله إلا استجيب له ولم يرد مثل هذا في العيدين وكذلك استحب العلماء زيارة القبور يوم الجمعة دون العيدين فالجمعة تتأكد فيها الزيارة والعيد استحباب مطلق كسائر الأيام.

ومن الفروق ما قاله الأصحاب أن خطبتي العيدين تستفتح الأولى بتسع تكبيرات والثانية بسبع بخلاف الجمعة فإنها تستفتح بالحمد والصحيح استواؤهما بالاستفتاح بالحمد كما كان النبي ﷺ يستفتح جميع خطبه بالحمد وتشترك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد النحر في جميع هذه الأحكام ويفترقان في أمور يسيرة بحسب وقتها ففي الفطر ينبغي أن لا يخرج من بيته حتى يأكل تمرات وتراً تحقيقاً للفرق بينه وبين الأيام التي قبله في وجوب الصيام ووجوب الفطر كما يكره أن يتقدم شهر رمضان بصيام يوم أو يومين وكما يكره قرن الفرائض بسننها وكره للإمام أن يتطوع موضع المكتوبة والحكمة في ذلك لأجل أن يتميز الفرض من غيره، وأما النحر فلا ينبغي أن يأكل إلا من أضحيته بعد الصلاة وعيد الفطر تتعلق به أحكام صدقة الفطر وعيد النحر تتعلق به أحكام الأضاحي ولهذا ينبغي في خطبة عيد الفطر أن يذكر أحكام صدقة الفطر وفي النحر أن يذكر أحكام الأضاحي وهذا من الفروق بل ينبغي لكل خاطب ومذكر أن يعتني بهذا المقصود فيذكر الناس ما يحتاجون إليه بحسب الزمان والمكان والأحوال والأسباب كما كانت خطب النبي ﷺ على هذا النمط لأن المقصود بالخطب أمران: تعليم الناس ماينفعهم من مهمات دينهم وترغيبهم وترهيبهم بالوعظ عن التقصير بالمأمور والوقوع في المحظور.

### سؤال ــ ٤١ ــ ما هي الأحكام المتعلقة بالميت على وجه الإجمال؟

الجواب: أحكامه نوعان، نوع يتعلق بذاته ونوع يتعلق بمخلفاته أما النوع الأول فهو تجهيزه بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه ودفنه وحمله وهي فرض كفاية لشدة حاجته وضرورته إلى هذه الأمور وتجهيزه إلى ربه بأحسن الأحوال من تمام النظافة وشفاعة أخوانه المسلمين ودعائهم له وإكرامه واحترامه الشرعيات وأما المتعلق بمخلفاته فيتعلق بتركته أربعة حقوق مرتبة. مؤن التجهيز تقدم على كل شيء ثم الديون التي عليه ثم تنفذ وصاياه من ثلثه ثم يقسم الباقي على ورثته والحمد لله رب العالمين.

# أسئلة تتعلق بالزكاة

**سؤال ــ ٤٢ ــ ما هي الأموال التي فيها الزكاة ومقدار ما تجب فيه ومقدار الواجب والحكمة في ذلك كله؟**

الجواب: وبالله أستعين في جميع أموري.

اعلم أن الزكاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام شرعها رحمة بعباده لكثرة منافعها الكلية والجزئية ولهذا سميت زكاة لأنها تزكي صاحبها فيزداد إيمانه ويتم إسلامه ويتخلق بأخلاق الكرماء ويتخلى من أخلاق اللؤماء وتطهره من الذنوب ويكثر أجره وثوابه وقربه من الله ويبارك الله في أعماله وتزكو حسناته وتقبل طاعاته ويدخل في غمار المحسنين فالزكاة أصل الإحسان إلى الخلق وكذلك تزكي المال المخرج منه بحفظه من الآفات واستخلاصه من مخالطة السحت الذي ينسحت ويسحت ما خالطه ويبارك فيه فإنه وأن نقصته الزكاة حساً فإنها زادته معنى لأنه ذهب خبثه وكدره وبقي صافياً صالحاً للنمو واستمر على الدوام كما ذكر النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: (ما نقصت صدقة من مال بل تزيده بل تزيده). قال تعالى:

**﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.**

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وتزكي المخرج إليه المدفوع له فإن المدفوع له نوعان نوع يعطى لحاجته كالفقير

والمسكين وابن السبيل والغارم لنفسه ونوع يعطى لحاجة المسلمين إليه وعموم نفعِه كالعامل عليها والمؤلفة قلوبهم والغارم لإصلاح ذات البين والإخراج في سبيل الله فهذه المصالح الكلية العامة وتلك المصالح الفردية الجزئية بها قوام الخلق ودفع حاجاتهم وحصول منافعهم وإعطاؤها على هذا الوجه من أعظم محاسن الإسلام وأنه الدين الذي يقوم للناس أمر دينهم ودنياهم ويدفع من الشرور والفوضى ما لا يندفع إلا بحصول هذه الأحكام الجليلة الجميلة ثم إن الشارع سهلها على الخلق جداً في الأموال التي أوجبها وفي مقدار الواجب فلم يوجبها في الأموال التي ترتبط بها ضرورات الإنسان وحاجاته كالمنزل الذي يسكنه والعقار الذي يحتاج إليه والأواني والفرش والأثاث التي يستعملها وعبيد الخدمة وحيوانات العمل في حوائج الإنسان وضروراته في غير التجارة بل ولم يوجبها في الخيل والبغال والحمير وأنواع الحيوانات غير الأصناف الثلاثة إلا إذا كانت للتجارة وهذا برهان أنها ما أوجبت إلا في الأموال الفضلية لا أموال القنية للحاجة وشرعها في أربعة أصناف من المال في بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم وفي الخارج من الأرض من الحبوب والثمار ونحوها وفي الأثمان وفي عروض التجارة ثم من تيسيره على عباده أنها لا تجب في هذه الأشياء حتى تبلغ نصاباً قدره الشارع الحكيم فجعل أول نصاب الإبل خمساً ولم يوجب فيها من جنسها لأنه يجتاح رب المال بل أوجب فيها شاة وهكذا كل خمس شاة حتى تبلغ ما يناسب أن يخرج من نوعها أقل سن وهي بنت مخاض في خمس وعشرين ثم بنت لبون في ست وثلاثين ثم حقة في ست وأربعين لها ثلاث سنين ثم جذعة لها أربع سنين في إحدى وستين ثم في ست وسبعين ابنتا لبون وفي إحدى وتسعين حقتان وفي إحدى وعشرين ومائة ثلاث بنات لبون ثم يستقر السن الأوسط في كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة ولم يوجب في الغنم حتى تبلغ أربعين وفيها شاة وفي مائة وإحدى وعشرين شاتان وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه ثم تستقر الفريضة في كل مائة شاة وأما البقر فلا يجب فيها بلوغ ثلاثين فإذا بلغتها ففيها تبيع له سنة وفي أربعين مسنة لها سنتان، ثم في

كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة ولم يوجب في الوقص الذي بين الفرضين شيء عفواً وترغيباً للملاك وشكراً لهم على أداء الحق والفرق بين بهيمة الأنعام وغيرها أن غيرها متى زاد ولو قليلاً على النصاب ففيه بحسابه أن بهيمة الأنعام قدر الشارع فيها أول النصاب وأوسطه وآخره وغيرها من الأموال قدر أول النصاب فقط فدل على أنهُ كلما زاد عنهُ زاد الواجب والله أعلم ثم من تسهيله لم يوجب في هذا النوع حتى تتغذى بالمباح وتسوم الحول أو أكثره فإذا كان صاحبها يعلفها فلا يجمع عليه بين مؤنة العلف وإيجاب الزكاة عليه وأما الخارج من الأرض من حبوب وثمار فلم يوجب فيها شيئاً قبل تمام ثلاثمائة صاع ستة أوسق وفرق بين الشارب بمؤنة فلم يوجب فيه إلا نصف العشر وبين ما لم يكن بمؤنة فجعل فيه العشر تاماً وجعل وجوب هذا النوع عند حصاده وجذاذه ليسر إخراجه على الملاك وتعلق الأطماع به في تلك الحال وأما النقدان وما تبعهما من الذهب والفضة فجعل نصاب الذهب عشرين مثقالاً ونصاب الفضة مائتي درهم وجعل فيها ربع العشر وكذلك النوع الرابع وهو عروض التجارة فهي تابعة للنقدين وبهذا عرف مقدار الواجب في جميع الأموال الزكوية والحكمة الشرعية فيه وهذه المذكورة هي الأموال النامية بالفعل أو المستعدة للإنماء بخلاف أموال القنية وما لا تجب فيه فليس فيها هذا العين وطرد هذا وجوب الزكاة في أنواع الإجارات كما هو قول في المذهب واختيار شيخ الإسلام لأن هذا أحد أنواع التجارة وطرد هذا المعنى عدم وجوب الزكاة في الديون التي لا قدرة لصاحبها على تحصيلها كالتي على المعسرين والمماطلين والأموال الضائعة ونحوها مما هو أولى بعدم وجوب الزكاة من أثاث القنية فإن أموال القنية بإمكان صاحبها أن يبيعها وينميها وينتفع بها وأما هذه فلا قدرة له على الانتفاع بها أصلاً فضلاً عن تنميتها وهذا القول إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وإن كان المشهور عند المتأخرين وجوب الزكاة في هذا المال إذا قبضه للسنين الماضية ولو استغرقته والصحيح الذي لا شك فيه الأول لأن الزكاة شرعها الشارع الحكيم مواساة في الأموال التي ينتفع بها وهي مرصدة للنماء

وهذا بخلاف ذلك ولأن في القول في إيجابها بها في الغالب منعاً للإنظار الواجب وتسبباً إما لقلب الدين الذي هو أعظم أنواع الربا وإما أذية المعسر المحرمة ومن رفق الشارع باهل الأموال أنـه لم يوجب الزكاة إلا بعد تمام الحول ليتكامل النماء ولا يضار غني ولا فقير إلا ربـح التجارة ونتاج السائمة فإنها تابعة لأصلها.

**سؤال ــ ٤٣ ـ هل يمنـع الدين وجوب الزكاة أم لا؟**

الجواب: في هذا تفصيل فـإن كان الدين بعد وجوب الزكاة لم يمنعها مطلقاً لأن الزكاة وجبت وصار أهل الزكاة كالشركاء لصاحب المال فكما أن شركاء الإنسان في المال لا يأخذ أهل الديون من حقهم شيئاً فكذلك أهل الزكاة إذا وجبت وإن كان الدين بسبب مؤنة الزرع والثمر كمؤنة الدياس والحصاد ونحوها وكذلك لو كان بسبب ضمان لم يسقط الزكاة لوجوبها في الصور الأولة ولكون الدين في الضمان له مقابل وإن كان الدين موجوداً قبل وجوب الزكاة منـع الزكاة بقدره في الأموال الباطنة كالنقدين والعروض لأنه في الحقيقة كأنه غير مالك لما تعلق به الدين وإن كان المال ظاهراً كالمواشي والحبوب والثمار فهو على قولين وهما روايتان عن أحمد المشهور منهما أيضاً المنـع والصحيـح عدم المنـع لأن أخذ الزكاة من الأموال الظاهرة جارية مجرى الشعائر للدين فإذا كان سـبب الزكاة وهو النصاب موجوداً فيها فالقول بأن الـدَّين يسقطها يمنـع هذا المقصود ولأن المنقول عن النبـي ﷺ وخلفائه إرسال السعاة لقبض زكاة الأموال الظاهرة ولا يستفصلون أهلها هل عليهم دين أم لا؟.

**سؤال ــ ٤٤ ــ ما الحكمة في زكاة الفطر وما نصابها ومن الذي تجب عليه؟**

الجواب: زكاة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر أو انثى صغير أو كبير حر أو عبد إذا فضل عن قوته وقوت عائلته يوم العيد وليلته صاع فأكثر وتلزمه عن نفسه وعن مسلم تجب عليه مؤنته عن كل شخص صاع تمر أو شعير أو زبيب أو بر أو اقط ولها عدة حكم منها أنها زكاة للبدن حيث أبقاه الله تعالى عاماً من الأعوام وأنعم عليه بالبقاء وهذا مضى عام لأجله وجبت للصغير الذي لا صوم

عليه والمجنون ومن عليه قضاء قبل قضائه ولأجله وجب في عبد التجارة زكاتان زكاة عروض لقيمته وزكاة بدن لنفسه ولأجله استوى الكبير والصغير والذكر والأنثى والغني والفقير والكامل والناقص في مقدار الواجب وهو الصاع ومن حكمها أنها فيها مواساة للمسلمين أغنيائهم وفقرائهم ذلك اليوم فيتفرغ الجميع لعبادة الله تعالى والسرور بنعمه ولهذا قال النبي ﷺ: (أغنوهم عن المسألة في هذا اليوم) ولهذا انحصر وقتها بيوم العيد وقبله بيوم أو يومين ولم يجز تقديمها ولا تأخيرها ومن أعظم حكمها أنها من شكر نعم الله على الصائمين بالصيام كما أن من حكم الهدايا شكر نعمة الله بالتوفيق لحج بيته الحرام فصدقة الفطر كذلك. ولذلك أضيفت إلى الفطر إضافة الأشياء إلى أسبابها ومن فوائدها أن بها تمام السرور للمسلمين يوم العيد وترفع خلل الصوم ولله في شرعه أحكام وأسرار لا تصل إليها عقول العالمين.

* * *

# أسئلة في الصيام

**سؤال ــ ٤٥ ــ ما حكم الصيام وما حكمته؟**

الجواب: وبالله التوفيق أما حكمة الصيام فقد ذكر الله في ذلك معنى جامعاً فقال:

**﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**

[سورة البقرة: الآية ١٨٣]

يجمع جميع ما قاله الناس في حكمة الصيام فإن التقوى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من المحبوبات وترك المنهيات فالصيام الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التي هي غاية سعادة العبد في دينه ودنياه وآخرته فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقديماً لمحبته على محبة النفس ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه في الحديث الصحيح وهو من أصول التقوى إذ الإسلام لا يتم بدونه وفيه من زيادة الإيمان حصول الصبر والتمرن على المشقات المقربة إلى رب السموات وأنه سبب لكثرة الحسنات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة ما يحقق التقوى وفيه من ردع النفس عن الأمور المحرمة من الأفعال المحرمة والكلام المحرم ما هو عماد التقوى وفي الحديث الصحيح: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه

وشرابه)، فيتقرب العبد إلى الله بترك المحرمات مطلقاً وهي قول الزور وهو كل كلام محرم والعمل بالزور وهو كل فعل محرم وبترك المحرمات لعارض الصوم وهي المفطرات ولما كان فيه من المصالح والفوائد وتحصيل الخيرات والأجور ما يقتضي شرعه في جميع الأوقات أخبر تعالى أنه كتبه علينا كما كتبه على الذين من قبلنا وهذا شأنه تعالى في شرائعه العامة للمصالح وأما أحكامه فتجري فيه جميع الأحكام التكليفية بحسب الأسباب أما الواجب والفرض فهو صيام شهر رمضان على كل مسلم مكلف قادر وكذلك صوم النذر والكفارة وأما المحرم فصوم أيام العيد وأيام التشريق إلا لمتمتع وقارن عدم الهدي ولم يصم قبل يوم النحر، ومن الصوم المحرم صوم الحائض والنفساء والمريض الذي يخاف التلف، وكذلك يجب الفطر على من يحتاجه لإنقاذ معصوم من هلكة. وأما الصوم المسنون فهو صوم التطوع المقيد والمطلق وأما المكروه فهو صوم المريض الذي عليه مشقة وأما الجائز فهو صوم المسافر يجوز أن يصوم وأن يفطر خصوصاً إذا سافر في يوم ابتداء صومه في الحضر.

**سؤال ــ ٤٦ ــ ما هي مفسدات الصوم؟**

الجواب: هي الأكل بجميع أنواعه والشرب كذلك والجماع فهذه مفطرات بالكتاب والسنة والإجماع وهذا المقصود الأعظم في الإمساك عنها وكذلك من المفطرات أن يباشر بلذة فيمني أو يمذي على المذهب والقول الآخر أنه لا فطر إلا بالإمناء وهو الصحيح لكن تحرم المباشرة بلذة للصائم والمصلي والمعتكف والمحرم بحج أو عمرة وتنقض الوضوء وكذلك القيء عمداً لا يفطر أن ذرعه القيء وكذلك الحجامة حاجماً كان أو محجوماً وأما الاكتحال والتداوي والاحتقان ومداواة الجروح إذا وصل ذلك إلى حلقه أو جوفه فالمذهب فطره بذلك واختار الشيخ تقي الدين لا فطر بذلك وهو الصحيح لأنه لم يرد فيه دليل صحيح ولا هو في حكم الأكل والشرب. أما إيصال الأغذية بالإبرة إلى جوفه من طعام أو شراب فلا يشك في فطره به لأنه في معنى الأكل والشرب من

غير فرق فإن فعل شيئاً من المفطرات ناسياً لم يفطر إلا في الجماع على المذهب وعلى الصحيح حكمه كالأكل والشرب وكذلك على الصحيح الجاهل كالناسي والله أعلم.

**سؤال ـ ٤٧ ـ من مات قبل أن يصوم الواجب عليه ما حكمه؟**

الجواب: إذا مات قبل أن يصوم الواجب عليه من رمضان أو غيره فلا يخلو إما أن يكون قد تمكن من أداء ما وجب عليه من غير عذر مرض ولا سفر ولا عجز أو لا يكون قد تمكن فإن كان قد تمكن من صيامه ولم يكن عذر يمنعه من أدائه فهذا لا يخلو إما أن يكون صيامه نذراً موجباً له على نفسه أو كان واجباً عليه بأصل الشرع كالقضاء لرمضان والكفارة فإن كان نذراً صام عنه وليه استحباباً وإن كان قد خلف تركة وجب أن يصام عنه، وكذلك جميع الواجبات بالنذر كلها تفعل عن الميت لأن النيابة دخلت فيها لخفتها لكونها أقل مرتبة من الواجبة بأصل الشرع وإن كان واجباً بأصل الشرع كمن مات وعليه قضاء رمضان وقد عوفي ولم يصمه فإنه يجب أن يطعم عنه كل يوم مسكين بعدد ما عليه وعند الشيخ تقي الدين إن صيم عنه أيضاً إجزاء أو هو قوي المأخذ.
الحال الثاني أن يموت قبل أن يتمكن من أداء ما عليه مثل أن يمرض في رمضان ويموت في أثنائه وقد أفطر لذلك المرض أو يستمر به المرض حتى يموت ولو بعد مدة طويلة فهذا لا يكفر عنه لعدم تفريطه ولأنه لم يترك ذلك إلا لعذر. وإن كان كفارة فكذلك وإن كان نذراً فإن عين له وقتاً ومات قبل ذلك الوقت كأن عين مثلاً عشر ذي الحجة ومات في ذي القعدة لم يكن عليه شيء فلا يقضي لعدم إدراك ما يتعلق به الوجوب وإن لم يعين وقتاً أو عين وقتاً وفرط ولم يصمه وجب أن يقضى عنه وإن لم يفرط بل صادفه الوقت مريضاً ونحوه فيقضى أيضاً على المذهب لأنه أدركه وقت الوجوب والصحيح أن حكمه حكم الواجب بأصل الشرع وهو أحد القولين في المذهب وهو الموافق لقاعدة المذهب فإن القاعدة أن الواجب بالنذر أنه يحذى به حذو الواجب بأصل الشرع فنهاية الأمر يلحق به إلحاقاً وأما كونه يكون أقوى منه فبعيد جداً والله أعلم.

# أسئلة في الحـج والعمرة وتوابعها

**سؤال ـ ٤٨ ـ من الذي يجب عليه الحج وما الحكمة فيه؟**

الجواب: وبالله التوفيق اتفق المسلمون على ما ثبت في الكتاب والسنة من وجوب الحـج وأنه أحد أركان الإسلام ومبانيه التي لا يتم إلا بها وعلى ما ورد في فضله وشرفه وكثرة ثوابه عند الله وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام وقد فرضه العليم الحكيم الحميد في جميـع ما شرعه وخلقه واختص هذا البيت الحرام وأضافه إلى نفسه وجعل فيه وفي عرصاته والمشاعر التابعة له من الحكم والأسرار ولطائف المعارف ما يضيق علم العبد عن معرفته وحسبك أنه جعله قياماً للناس به تقوم أحوالهم ويقوم دينهم ودنياهم فلولا وجود بيته في الأرض وعمارته بالحـج والعمرة وأنواع التعبدات لأذن هذا العالم بالخراب. ولهذا من أمارات الساعة واقترابها هدمه بعد عمارته وتركه بعد زيارته لأن الحـج مبني على المحبة والتوحيد الذي هو أصل الأصول كلها فمن حين يدخل فيه الإنسان يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. ولا يزال هذا الذكر وتوابعه حتى يفرغ، ولهذا قال جابر رضي الله عنه فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد لأن قول الملبـي لبيك اللهم لبيك التزام لعبودية ربه وتكرير لهذا الالتزام بطمأنينة نفس وانشراح صدر ثم إثبات جميـع المحامد وأنواع الثناء والملك العظيم لله تعالى ونفي الشريك عنه في ألوهيته

وربوبيته وحمده وملكه هذا حقيقة التوحيد وهو حقيقة المحبة لأنه استزارة المحب لأحبابه وإيفادهم إليه ليحظوا بالوصول إلى بيته ويتمتعوا بالتنوع في عبوديته والذل له والانكسار بين يديه وسؤالهم جميع مطالبهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية في تلك المشاعر العظام والمواقف الكرام ليجزل لهم من قراه وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وليحط عنهم خطاياهم ويرجعهم كما ولدتهم أمهاتهم، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ولتحقق محبتهم لربهم بإنفاق نفائس أموالهم وبذل مهجهم بالوصول إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس فأفضل ما أنفقت فيه الأموال وأعظمه عائدة وأكثره فوائد إنفاقها في الوصول إلى المحبوب وإلى ما يحبه المحبوب ومع هذا فقد وعدهم بإخلاف النفقة والبركة في الرزق قال تعالى:

**﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾** [سورة سبأ: الآية ٣٩]

وأعظم ما دخل في هذا الوعد من الكريم الصادق إنفاقها في هذا الطريق وأفضل ما ابتذل به العبد قوته واستفرغ له عمل بدنه هذه الأعمال التي هي حقيقة الأعمار، فحقيقة عمر العبد ما قضاه في طاعة سيده وكل عمل وتعب ومشقة ليست بهذا السبيل فهي على العبد لا للعبد، ثم ما في ذلك من تذكر حال العابدين وأصفيائه من الأنبياء والمرسلين. قال تعالى:

**﴿واتَّخِذُوا من مقام ابراهيم مصلى﴾** [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

والصحيح أنه مفرد مضاف يشمل جميع مقاماته في الحج من الطواف والسعي والوقوف بالمشاعر والهدي وأصناف متعبدات الحج وقال النبي ﷺ في كل موطن من مواطن الحج ومشاعره (لتأخذوا عني مناسككم) فهو تذكير لحال الخليل ابراهيم ﷺ وأهل بيته وتذكير لحال سيد المرسلين وإمامهم وهذا أفضل وأكمل أنواع التذكيرات للعظماء تذكيراً بأحوالهم الجليلة ومآثرهم الجميلة والمتذكر لذلك ذاكر لله تعالى كما قال النبي ﷺ(إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمي

الجمار لإقامة ذكر الله ففي هذا من الإيمان بالله ورسله الكرام وذكر مناقبهم وفضائلهم ما يزداد به المؤمن إيماناً والعارف إيقاناً ويحثه على الاقتداء بسيرهم الفاضلة وصفاتهم الكاملة ثم ما في اجتماع المسلمين في تلك المشاعر واتفاقهم على عبادة واحدة ومقصود واحد ووقوف بعضهم من بعض واتصال أهل المشارق بالمغارب في بقعة واحدة لعبادة واحدة ما يحقق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية ويربط أقصاهم بأدناهم ويعلمون أن الدين شاملهم وأن مصالحه مصالحهم وإن تناءت بهم الديار وتباعدت منهم الأقطار.

فهذا إشارة يسيرة إلى بعض الحكم والأسرار المتعلقة بهذه العبادة العظيمة فللّه الحمد والثنا حيث أنعم بها عليهم وأكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً وهذه الحكم من أقوى البراهين والأدلة على سعة رحمة الله وعموم بره وأن الدين الحق الذي لا دين سواه هو الدين المشتمل على مثل هذه الأمور والله تعالى أعلم.

وأما من يجب عليه فهو المكلف المستطيع السبيل القادر ببدنه وماله. هذا هو الشرط الخاص في الحج ولهذا اقتصر الله على ذكره في قوله:

**﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾**
[سورة آل عمران: الآية ٩٧]

ويدخل في الاستطاعة أمن الطريق والبلد وسعة الوقت ووجود محرم للمرأة لأنه من باب الاستطاعة الشرعية فمن عجز عنه ببدنه وماله لم يكن عليه شيء ومن عجز عنه ببدنه وقدر عليه بماله كالكبير الذي لا يستطيع الثبوت على الراحلة والمريض المأيوس من عافيته أناب عنه من يحج عنه وإن كان قادراً ببدنه وليس له مال والمسافة قريبة وجب عليه لأنه متحقق استطاعته وإن كانت المسافة بعيدة ففي وجوبه عليه قولان المذهب منهما عدم وجوبه والله أعلم.

**سؤال ـ ٤٩ ـ عن محظورات الإحرام وحكمها.**

الجواب: من فضل هذا البيت الحرام وشرفه عند الله وعظم قدره أنه

لا يأتيه زائر بحج أو عمرة إلا خاضعاً خاشعاً متذللاً في ظاهره وباطنه معظماً لحرمته مجلاً له ولقدره فشرع له ترك الترفه والعوائد النفسية التي الاشتغال بها مفوت لمقصود العبادة فيترك الثياب المعتادة ولبس المخيط ويلبس إزاراً ورداء أبيضين نظيفين ويكشف رأسه ويدع الجماع ومباشرة النساء للذة وما يتبع هذا من الطيب وإزالة الشعور والأظفار ويحترم فيه الصيد صيد البر ما دام محرماً فإذا قرب من البيت ودخل الحرم حرم عليه مع ذلك قطع الشجر الرطب وأخذ حشيشه، وحقق هذا التحريم أن المحل والمحرم في هذا سواء محرم عليهما صيد الحرم وشجره وحشيشه، فإذا كانت هذه الوسائل لهذا البيت الحرام بهذه المثابة من الاحترام فما ظنك بنفس البيت والمشاعر التابعة له فصار من أعظم المقاصد في محظورات الإحرام تعظيم البيت وتعظيم رب البيت وإجلاله وإعظامه والذل والخشوع له وهذه المذكورات كلها محظورات يأثم من أخل بها عالماً متعمداً فإن لم يكن كذلك فالإثم موضوع وأما الفدية فإن كان الإخلال بلبس مخيط أو تغطية رأس أو تطيب فلا فدية وإن كان غيرها ففيها الفدية على المذهب بحسب أحوالها فدية الوطء بدنة ويفسد حجه إذا كان قبل التحلل الأول وفدية الصيد مثله من النعم إن كان أو عدله صياماً أو إطعاماً وفدية الأذى فدية تخيير بين صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة وهي إزالة الشعر والأظفار ولبس المخيط والتغطية لرأس الرجل ووجه الأنثى عمداً والحكمة في الفدية أن النسك نقص وانجرح بفعل المحظور فيجبر بالدم وعن أحمد رواية أخرى في الجميع أن المعذور بنسيان أو جهل كما لا إثم عليه لا فدية عليه وهو ظاهر النصوص ومقتضى الحكمة وليس فيه إتلاف مال آدمي حتى يستوي عمده وسهوه وإنما الحق كله لله وحقه تعالى بني على المسامحة والمساهلة وقد قيد ذلك بالعمد في الصيد مع أن الصيد من أشدها.

**سؤال ــ ٥٠ ــ ما هي الدماء التي يؤكل منها والتي لا يؤكل منها؟**

الجواب: أما الفدية التي سببها فعل المحظور أو ترك مأمور كالمحظورات

السابقة وكفدية ترك واجب من واجبات الحج والعمرة لا يؤكل منها شيء لأنها جارية مجرى الكفارات وهي جبرانات لا دماء نسك، وكذلك على المذهب الدماء الواجبة بالنذر والتعيين فلا يؤكل منها، وما سوى هذا من الدماء فيجوز الأكل منه فدخل فيه هدي التطوع وهدي المتعة والقِران والأضحية والعقيقة وكذلك على الصحيح هدي النذر والمعين لأن المعين بالنذر يحذى به حذو الواجب بالشرع والمعين بالقول كالمعين بالذبح لأن كل نسيكة متى ذبحت تعينت بذبحها.

**سؤال ــ ٥١ ــ ما الحكمة في إيجاب الهدي على المتمتع والقارن دون المفرد بالحج وما تجتمع فيه الأنساك وتفترق؟**

الجواب: اعلم أن الدماء الواجبة لأجل النسك ومتعلقاته نوعان: أحدهما دم يجبر به النقص والخلل ويسمى دم جبران وهذا النوع سببه الإخلال بترك واجب أو فعل محرم كما تقدم والثاني دم نسك وهو عبادة مستقلة بنفسه من جملة عبادات النسك فدم المتعة والقران من هذا النوع وليس من النوع الأول فيزول الإيراد لأنه معلوم أن المتعة والقران لا نقص فيهما بل إما أن يكون أكمل من الأفراد كما تدل عليه الأدلة الشرعية وهو قول جمهور العلماء وإما أن لا يكون أفضل من الأفراد فعلى كل الأمور لا نقص فيهما يجبر بالدم فتعين أنه دم نسك فإذا قيل لم لم يوجب هذا الدم في الأفراد كما وجبت بقية الأفعال المشتركة بين النسكين، قيل الحكمة في شرع هذا الدم في حقهما أنه شكر لنعمة الله تعالى حيث حصل للعبد نسكان في سفر واحد وزمن واحد ولهذا حقق هذا المقصود فاشترط لوجوب الدم أن يحرم بالعمرة في شهر الحج ليكون كزمن واحد وأن يكون من غير حاضري المسجد الحرام لأن حاضريه لم يحصل لهم سفر من بلد بعيد يوجب عليهم هذا الهدي ولأنه ليس من اللائق بالعبد أن يقدم بيت الله بنسكين كاملين ثم لا يهدي لأهل هذا البيت ما يكون بعض شكر هذه المهنة، فهذا من أسرار الفرق بين المذكورات.

وأما ما تجتمع فيه الأنساك الثلاثة وما تفترق فإذا عرف ما به تفترق واستثني بالقاعدة الكلية علم أن الباقي مشترك بينها.

فأول ما تفترق به وجوب الدم على المتمتع والقارن دون المفرد كما تقدم.

والثاني أن المفرد لم يحصل له إلا نسك واحد، والعمرة إلى الآن لم يأت بها بخلاف المتمتع والقارن.

والثالث أن المتمتع عليه طوافان طواف لعمرته وآخر لحجته، والمفرد والقارن إنما عليهما طواف واحد طواف للحج فقط في المفرد ظاهر والقارن تدخل عمرته بحجته وتكون الأفعال واحدة ولهذا يترتب عليه.

الرابع أن المتمتع يحل من عمرته حلاً تاماً لا يمنعه من الحل إلا سوق الهدي. والمفرد والقارن يبقيان على إحرامهما.

الخامس أن الحائض والنفسآء إذا قدمتا للحج ولا يمكنهما الطهر إلا بعد فوات الوقوف تعين عليهما الإحرام بالأفراد أو القران أو قلب نية العمرة قراناً وتمتنع عليهما العمرة المفردة لتعذرها في هذه الحال وكذلك من لا يمكنه أن يأتي بالعمرة قبل فوات الوقوف وهذا الفرق الأخير راجع لعدم القدرة على هذا النسك.

السادس أن المفرد بالحج يشرع له أن يفسخ نيته ويجعلها عمرة والمتمتع والقارن لا يشرع لهما جعلها أفراداً إلا في حال التعذر للعمرة كما تقدم.

السابع أن المفرد والقارن يشرع لهما أول ما يقدمان البيت طواف قدوم والمتمتع يكفيه طواف العمرة عن طواف القدوم لاجتماع عبادتين من جنس واحد فتداخلتا كما أن أفعال القارن كلها واحدة لا يحتاج أن يفرد حجته بأفعال وعمرته بأخرى فالأفعال صارت للحج واندرجت العمرة فيه والله أعلم.

**سؤال ــ ٥٢ ــ ما الحكمة في انقطاع التلبية برمي جمرة العقبة وبالحل من**

**المحظورات كلها بفعل الرمي والحلق والطواف وبالحل الناقص بفعل اثنين منها مع أنه قد بقي من مناسك الحج الرمي والمبيت بمنى؟**

الجواب: من الحكمة في ذلك أنه إذا شرع في الرمي فقد شرع في أول الإحلال من إحرامه والتلبية شعار الدخول في النسك واستمرت في تضاعيفه فلما رمى الجمرة وآن حله من نسكه زال حكمها لأن ما كانت شعاراً له قد شرع في الخروج منه واشتغل بمكملات نسكه عن التلبية وأما إباحة المحظورات كلها بفعل الطواف والحلق ورمي جمرة العقبة وأنه يحل له كل شيء كان محظوراً حتى النساء لأنه كما تقدم قد شرع في الخروج من النسك والمحظورات المذكورة علامة على وجوده وشعار له وقد مضت جميع أجناس أفعال النسك ومتعبداته إلا أفعال قد فعل بعضها كالرمي والإقامة في منى فجرى فعل بعضها مجرى فعل جميعها بالنسبة إلى حل المحظورات وأيضاً ففي إباحتها من السهولة على الخلق واليسر عليهم والتخفيف الذي أحق الناس به وفود بيت الله الحرام وأضياف الله والدليل على أن الإنسان قد أخذ في الخروج من هذه العبادة أو قد خرج وبقي له تكملة.

إن الوطء قبل ذلك مفسد للنسك موجب للفدية الغليظة لأنه في نفس النسك والوطء ينافيه أشد المنافاة وبعد الحل كله زال هذا المعنى. بقي أن يقال لم انحلت المحظورات كلها بفعل اثنين من الثلاثة المذكورة دون الوطء فلا بد في حله من فعل الثالث؟ قيل لشدته وغلظه ومنافاته التامة للنسك وجب الإمساك عنه حتى يحصل الحل كله والله تعالى أعلم.

**سؤال ـ ٥٣ ـ عن الحكمة في الهدي والأضاحي والعقيقة وتخصيصها بالأنعام الثمانية.**

الجواب: وبالله التوفيق. الدماء نوعان دماء يقصد بها الأكل والتمتع فقط ودماء يقصد بها التقرب إلى الله تعالى وهي هذه الثلاثة ولا شك أن النحر لله تعالى من أجلِّ العبادات وأشرفها ولذلك قرنها تعالى بالصلاة في قوله:

﴿فَصَلِّ لربك وانحر﴾ [سورة الكوثر: الآية ٢]

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وهذه عبادة شرعت في كل شريعة لمحبة الله لها ولكثرة نفعها، ولكونه من شعائر دينه ولذلك اقترن الهدي والأضاحي بعيد النحر ليحصل الجمع بين الصلاة والنحر والإخلاص للمعبود والإحسان إلى الخلق، وشرع الهدي أن يهدى لخير البقاع في أشرف الأزمان في أجل العبادات فصار الذبح أحد أنساكها الواجبة أو المكملة وصار تمام ذلك أن تساق من الحل وأكمل من ذلك أن تساق قبل ذلك ويجعل لها شعاراً تعرف به من التقليد، والإشعار تعظيماً لحرمات الله وشرائعه وشعائر دينه وفيه من الحكمة الاقتداء بالخليل ﷺ حيث فدى ابنه بذبح عظيم وأمر الله هذه الأمة بالاقتداء به خصوصاً في أحوال البيت الحرام إذ هو بانيه ومؤسسه وفيه توسيع على سكان بيته الحرام حيث شرع لهم من الأرزاق وساق لهم من قدره وشرعه ما به يرتزقون وبه يتمتعون إذ قد تكفل بأرزاقهم بَرِّهِمْ وفاجرهم كما تكفل بأرزاق جميع خلقه كما في دعوة الخليل ﷺ ومن الحكمة فيها أنها شكر لنعمة الله تعالى بالتوفيق لحج بيته الحرام ولهذا وجبت في المتعة والقران وشملت توسعته فهيا للأغنياء والفقراء لمن ذبحها وغيرهم، قال تعالى:

﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

ثم إن هذه العبادة لم تختص بحجاج بيته الحرام بل شملت مشروعيتها جميع المسلمين في هذه الأيام، فشرع لهم الأضاحي تحصيلاً لفوائد هذه العبادة الفاضلة.

وأما العقيقة عن المولود فشرعت شكراً لله تعالى على نعمته على العبد بحصول الولد وضوعف الذكر على الأنثى إظهاراً لمزيته ولأن النعمة به أتم والسرور به أوفر وتفاؤلاً بأن هذه العقيقة فادية للمولود من أنواع الشرور وأدلال على الكريم برجاء هذا المقصد وتتميماً لأخلاق المولود كما في الحديث: (كل مولود

مرتهن بعقيقته): قيل مرتهن عن الشفاعة لوالديه وقيل مرتهن محبوس عن كماله حتى يعق له وحسبك من ذبيحة هذه ثمرتها فالعبد يسعى في تكميل ولده وتعليمه وتأديبه ويبذل الأموال الطائلة في ذلك وهذا من أبلغ الطرق إلى هذا التكميل والله الموفق. وأما تخصيصها بالأنعام الثلاثة الإبل والبقر والغنم فلأن هذه الذبائح أشرف الذبائح على الإطلاق وأكملها فشرع لها أن يكون المذبوح فيها أشرف أنواع الحيوانات والله أعلم بما أراد وحقق هذا المعنى بأن شرط فيها تمام السن الذي تصلح فيه لكمال لحمها ولذته وهو الثني من الإبل والبقر والمعز والجذع من الضأن لنقص ما دون ذلك ذاتاً ولحماً واشترط فيها سلامتها من العيوب الظاهرة فلم يجز المريضة البين مرضها والعوراء البين عورها والعرجاء التي لا تطيق المشي مع الصحيحة والهزيلة التي لا مخ فيها ليكون ما يخرجه الإنسان كاملاً مكملاً ولهذا شرع استحسانها واستسمانها وأن تكون على أكمل الصفات والله أعلم.

# أسئلة في البيـع وأنواع المعاملات

**سؤال ـ ٥٤ ـ هل يوجد أصول جوامـع فيما يحل ويحرم من المعاملات؟**

الجواب: وبالله التوفيق، وعليه نـتـوكـل في أسبـاب الهدايـة وسلوك مناهجها.

نعم الحلال من فضل الله محدود مضبوط، والحرام كذلك في المعاملات وغيرها وهذا أحد البراهين بل من أكبرها الدالة على صحة ما جاء به النبـي ﷺ وإنه من عند الله ولو كان من عند غيره لوجد متناقضاً غير مضبوط ليس له أصل يرجـع إليه ولا قواعد يضبط بها كما هو شأن كل باطل قال تعالى:

**﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريـج﴾** [سورة قٓ: الآية ٥]

أي مختلط متناقض.

وأما هذه الشريعة فمن تمامها وكمالها أن النبـي ﷺ أعطي جوامـع الكلم مما نزل عليه من الكتاب والحكمة واختصر له الكلام اختصـاراً مـع تمام التوضيـح والبيان فالأصل الجامـع لجميـع المأمورات والمنهيات أن الشارع لا يأمر إلا بخير وصلاح ونفـع للناس في دينهم وأبدانهم ودنياهم ولا ينهاهم ويحرم عليهم إلا كل شر وضرر عليهم في دينهم ودنياهم لا يشذ عن هذا الأصل شيء كما قال تعالى في وصـف النبـي ﷺ ووصـف شريعته:

**﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾** [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

وقال تعالى:

**﴿قل أمر ربي بالقسط﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

الآية والتي بعدها

**﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣٣]

الآية فكل أوامر الشريعة ومباحاتها خير وقسط وعدل وصلاح ومنافع وكل نواهيها ومحرماتها بضد ذلك ومن تتبع الشريعة لم يجد شيئاً شاذاً عن هذا الأصل.

فمن ذلك المعاملات وأنواع التجارات فالأصل فيها كلها الإباحة والحل فلا يمنع ويحرم منها إلا ما ورد الشرع بمنعه وتحريمه. قال تعالى:

**﴿وأحل الله البيع﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]

وقال:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾** [سورة النساء: الآية ٢٩]

أي فإنها مباحة لكم وهذا شامل لجميع أنواع التجارة تجارة الإدارة التي يعطي أحد المتعاوضين فيها العوض ويقبض المعوض في مجلسه وتجارة التربص وهي التي يشتري الإنسان فيها السلع وينتظر بها مواسمها وأوقات غلائها وفرصها وتجارة الديون الشاملة للمبيع المؤجل مثمنه والمعجل ثمنه المعبر عنه بالسلم

وللمؤجل ثمنه المعجل مثمنه ولتجارة الإجارات التي يتخذ فيها الإنسان أعيان الأشياء من عقارات وحيوانات وأثاث وغيرها فيؤجرها ويتجر بمنافعها فهذه الأنواع كلها داخلة في هذا الأصل العظيم الذي أباحه الله في قوله:

﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

فمتى جمعت التجارة والمعاملة الرضى المعتبر والصدق والعدل فقد أباحها الله تعالى بما اشتملت عليه من شروط ووثائق واستقلال واشتراك فهذا أصل عظيم يحيط بجميع المعاملات بشرط أن يهذب وينقح ويخلص منه ما ينافيه بتحرير قواعد وضوابط سيأتي إن شاء الله التنبيه عليها ولنذكر لهذا الأصل أمثلة يتقرر بها قبل ذكر القواعد والضوابط الجارية مجرى الاستثناء من هذا الأصل.

فمن أمثلة ذلك البيع الصحيح الجامع للشروط السبعة فإنها راجعة للرضى بين المتعاقدين المعتبر شرعاً الدال عليه ما ينعقد به البيع من ألفاظ وأفعال يراد بها تحقيق العقد والصدق والعدل لأنه لا بد أن يكون العوضان معلومين إذ عدم العلم عائد لضد العدل وأن يكونا مالين لأن المحرمات ظلم كلها وأن يكون مقدوراً عليها لأنه إذا لم يكن كذلك لا بد أن يحصل الظلم على أحدهما لأنه ما إن يغنم أو يغرم فيدخل في ظلم القمار وسيأتي إن شاء الله بسط وجه الظلم في هذا في القواعد فجميع الأشياء المبيعات من عقارات وحيوانات من آدميين أو بهائم وأمتعة وأطعمة وأشربة وغيرها داخلة فيما أباحه الله ورسوله وأحله للخلق ومن ذلك الإجارة الصحيحة اشترط فيها الرضى والعلم بالأجرة والعين المؤجرة واشتمالها على النفع المباح المقصود منها فكلها داخلة فيما أحله الله ورسوله.

ومن ذلك اشتراط أحد المتعاقدين في البيع والإجارة شرطاً مقصوداً معلوماً فذلك جائز ومن ذلك التوثق للحقوق بالرهون والضمانات وغيرها فكله مباح ومن ذلك أنواع المشاركات المبنية على الصدق والعدل فهي جائزة، فهذا

إجمال وتعميم لهذا الأصل الكبير يتضح لك بإخراج ما ينافيه من العقود المحرمة وتبيين حكمة تحريمها وأن الحكمة فيها منافاتها لهذا الأصل.

واعلم أن الشارع من حكمته ورحمته بعبادة حرم عليهم معاملات تضرهم في دينهم ودنياهم، وأعظمها قاعدة الربا وقاعدة الغرر والميسر، وقاعدة التغرير والخداع فلنذكرها وغيرها ثم نتبعها بضوابط تقصر عنها عموماً وجمعاً وبالله المستعان على كل الأمور.

## القاعدة الأولى

### قاعدة الربا

وقد ثبت في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين تحريم الربا وهو مقتضى العدل والقياس الصحيح وهو نوعان بل ثلاثة أنواع أحدها ربا الفضل وذلك إذا بيع مكيل بمكيل من جنسه ولو اختلف النوع أو موزون بموزون من جنسه ولو اختلف النوع فيشترط فيه التماثل بمعياره الشرعي والقبض قبل التفرق للعوضين ولا بد من تحقيق التماثل فيه فلو جهل قدرهما أو قدر أحدهما لم يصح لأنه لا بد من علمنا بوجود الشرط الذي شرطه الشارع فلذلك منعت المزابنة وهو بيع التمر على الشجر بتمر من جنسه إلا عند الحاجة في مسألة العرايا إذا لم يكن عنده إلا تمر وهو محتاج للرطب وكان أقل من خمسة أوسق وتقايضا قبل التفرق فالخرص ينوب مناب الكيل لأجل الحاجة والسعة.

والنوع الثاني ربا النسيئة وهو أشد أنواع الربا تحريماً وظلماً وهو بيع مكيل بمكيل إلى أجل أو غير مقبوض سواء كان من جنسه كبر ببر أو غير جنسه كبر بشعير وتمر بزبيب أو بيع الموزون بموزون من جنسه أو غير جنسه إلى أجل أو غير مقبوض فما جرى فيه ربا الفضل جرى فيه ربا النسيئة، وقد يجري ربا النسيئة بما لا يجري فيه ربا الفضل كبيع بر بشعير وتمر بزبيب ويشترط في هذا النوع

القبض قبل التفرق وأشد هذا النوع وأعظمه بيع ما حل في الذمة إلى أجل. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

وكانوا في الجاهلية إذا حل على أحدهم الدين قال له غريمه إما أن تقضيني ديني وإما أن تربي فنزيد في الأجل ونزيد ما حل في الذمة وسواء كان ذلك بصريح لفظه أو بالتحيل على قلب الدين بأنواع الحيل فالإثم والتحريم تابع للمعنى المقصود لا للفظ الذي لم يقصد.

النوع الثالث: ربا القرض وهو أن يقرضه دراهم مثلاً ويشترط النفع بإيفاء أكثر مما أقرضه أو أحسن وأكمل أو ينتفع بداره أو حيوانه أو غيره أو يبقيه عنده ويعطيه كل شهر أو سنة أو أسبوع شيئاً معروفاً لهما فهذا هو الربا بعينه وليس قرضاً في الحقيقة لأن المقصود بالقرض الإحسان والإرفاق وهذا معاوضة ظاهرة فهو في الحقيقة بيع دراهم بدراهم إلى أجل وربحها ذلك النفع المشروط أو المتواطأ عليه. فهذه الأنواع الثلاثة كلها من الربا الذي حرمه الله ورسوله، والحكمة في تحريمه أنه ظلم مناف للعدل الذي أمر الله به ورسوله كما نص الله على هذه العلة بقوله:

﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلمون﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٧٩]

أي لا تَظْلِمُون بأخذ الزيادة التي هي الربا ولا تُظْلَمون بنقص رؤوس أموالكم فكما أنه لو أخذ من رؤوس أموالهم وبخس منه شيء كان ظلماً ظاهراً فكذلك إذا أخذوا الزيادة التي هي ربا.

فإن قيل: كيف يكون ظلماً والحال أن المأخوذ منه راض بهذه المعاملة؟

فالجواب عن ذلك من وجهين أحدهما أن الظلم حقيقته أخذ المال بغير حق وذلك أن المعسر الذي حلَّ عليه الدين الواجب إنظاره من غير أخذ زيادة

على هذا الإنظار فإذا أخذت هذه الزيادة كان أخذاً بغير حق، والعباد تحت حجر الشارع ليس لهم الرضى بما لا يرضى به الشارع فرضاهم به على هذا الوجه غير معتبر.

الوجه الثاني: أنه غير راض في الحقيقة فهو شبيه بالمكره لأنه يخشى من الغريم إن لم يدخل معه في هذه المعاملة أن يحبسه أو يضره أو يمنعه من معاملة أخرى، فهو راض بلفظه غير راض بحقيقة حاله لأنه لا يرضى عاقل أن يتضاعف ما بذمته بغير انتفاع منه وكما أنه ظلم للمعسر فهو ظلم للغريم صاحب الدين لأنه ظالم لنفسه معرض لها للعقوبة وأيضاً قد ظلمها من وجه آخر ظلماً دنيوياً من حيث لا يشعر فإن المدين الذي يدخل معه في هذه المعاملات التي يتضاعف فيها ما في الذمة من غير نفع ومصلحة تعود عليه فلا يكاد يفعل ذلك إلا المتهاون بأمر دينه والذي لا يبالي بريت ذمته أو اشتغلت ومن كان بهذه المثابة فكثيراً ما يكون متسبباً لإتلاف ما بين يديه وتقويته على غريمه خصوصاً إذا رأى الدين تراكم ورأى موجوداته وكده وكسبه لا يفي به فهناك يرى فرصة في وجود شيء بين يديه يتمتع به في حياته غير مبال بعاقبة أمره وصاحب الدين يحمله الخرص والجشع الضائع ويظن بعقله الضعيف أن هذه المكاسب ستحصل له ويفوز بها وهو في الحقيقة يسعى لإتلاف نفسه وظلمها كما هو الواقع فيخسر دنياه وأخراه والمقصود أن الحكمة في تحريم الربا إنما هو لأنه ظلم وهو ظاهر كما ترى في ربا النسيئة وأما ربا الفضل فحرم تحريم الذرائع وسد الأبواب الموصلة إلى المحارم فإنه إذا رأى الكسب الحاضر ربما حمله الطمع على الكسب الغائب فسد فيه الباب كما تسد جميع الذرائع المفضية إلى كل محرم.

يدخل في الربا مسائل العينة بأن يبيع شيئاً مؤجلاً بمائة وعشرين ثم يشتريه من مشتريه حالاً بمائة أو يبيعه بمائة حالة ثم يشتريه من مشتريه بمائة وعشرين مؤجلة لأنه في الحقيقة إنما باع مائة وعشرين مؤجلة وهذا عين الربا كما قال ابن عباس دراهم بدراهم دخلت بينهما حريرة، وليست مسألة التورق من هذا الباب وهو أن يشتري ما يساوي مائة درهم بمائة وعشرين مؤجلة ليبيعها

ويتوسع بثمنها لأنه لم يبعها على البائع عليه وعموم النصوص تدل على جوازها وكذلك المعنى لأنه لا فرق بين أن يشتريها ليستعملها في أكل وشرب أو استعمال أو يشتريها لينتفع بثمنها وليس فيها تحيل على الربا بوجه من الوجوه مع دعاء الحاجة إليها وما دعت إليه الحاجة وليس فيه محذور شرعي لم يحرمه الشارع على العباد.

ولا يدخل أيضاً في الربا ولا التوسل إليه من أقال غيره بشرط أن يعطيه زيادة دراهم على إقالته كقوله أقلني وأعطيك مائة درهم لأن محذور الربا فيها بعيد كما قاله ابن رجب وغيره مع أن المشهور عند المتأخرين من الأصحاب في هذه المسألة المنع ولكن الجواز أقوى للعمومات وعدم المحذور.

وإنما يدخل في الربا الحيل الربوية وهي أن يظهرا عقداً صورته صورة المباح ومعناه المقصود به الربا المحرم كالحيل المستعملة في قلب الدين وهي كثيرة جداً معروفة عند الناس فهي خداع واستهزاء بآيات الله وهي الربا الصريح.

واختلف العلماء هل يدخل في الربا من باع طعاماً مثلاً بدراهم إلى أجل فلما حلت الدراهم أراد أن يعوضه عنها طعاماً لا يباع بالطعام الأول نسيئة المشهور المنع قالوا لأنه يتخذ وسيلة لبيع الطعام بالطعام إلى أجل. والقول الثاني واختاره الموفق: الجواز لأن محذور التوسل بعيد بل معدوم في هذه الحال غالباً. واختار الشيخ تقي الدين التوسط بين القولين وهو جوازه للحاجة مثل أن لا يكون عنده وقت الوفا دراهم وعنده طعام فيتفقا على أخذ حقه منه فإن لم يحتج إليه منع. واختيار الموفق أولى لما ذكرنا وليس من الربا إيفاء أحد النقدين عن الآخر كمن له على واحد دينار فأعطاه عنه دراهم وبالعكس لكن بشرط أن لا يتفارقا قبل القبض.

وكذلك ليس منه مصارفة ما في الذمة بما في الذمة ولو لم يحضر أحدهما على الصحيح كما إذا كان لزيد على عمرو دينار ولعمر على زيد عشرة دراهم فاتفقا على أن هذا الدينار يسقط عن الدراهم لعدم المحذور واشترط الأصحاب فيه

حضور أحدهما لئلا يصير بيع دين بدين وهو ضعيف وبيع الدين بالدين إنما حرم منه ما تضمن الربا أو تحيل فيه عليه وأما هذه المسئلة فلا تتضمن شيئاً من ذلك، وكذلك على الصحيح وهو قول في المذهب إذا اشترى منه مكيلاً أو موزوناً، طعاماً كان أو غيره لم يقبضه بدراهم لم يقبضها والجميع حالات فلا محذور فيه وهو بيع صحيح لازم لا يتضمن محذوراً شرعياً. والمشهور من المذهب منع هذه المسئلة لأنه دين بدين وقد علمت ضعف هذه الحجة.

## القاعدة الثانية
## تحريم المعاملات التي فيها غرر وخطر

وذلك أنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين تحريم الميسر وهو نوعان نوع في المغالبات والرهان فهذا كله محرم ولم يبح الشارع منه إلا ما كان معيناً على طاعته والجهاد في سبيله كأخذ العوض في مسابقة الخيل والركاب والسهام.

والنوع الثاني من الميسر في المعاملات وقد نهى النبي ﷺ عن بيع الغرر وهذا شامل للبيع بأنواعه والإجارات فالشيء الذي يشك في حصوله أو تجهل حاله وصفاته المقصودة داخل في الغرر لأن أحد المتعاقدين إما أن يغنم أو يغرم فهو مخاطر كالرهان ولأجل هذه القاعدة اشترط الفقهاء في البيع أن يكون الثمن معلوماً والمثمن معلوماً لأن جهالة إحداهما تدخله في الغرر. وقد ذكروا من أمثلة الجهالة في أحدهما شيئاً كثيراً لكن منها ما جهالته ظاهرة لا يختلف أهل العلم في منعه وتحريمه كبيع الحمل في البطن وحبل الحبلة وبيع الملامسة والمنابذة والحصاة ونحوها ومنها ما تكون جهالته يسيرة قد يدخلها بعضهم في الغرر ويمنعها ولا يدخلها آخرون فيبيحونها مثل البيع بما باع به زيد أو بما باع به الناس وبما ينقطع به السعر وبيع المقاني في الأرض التي المقصود منها مستتر ونحوها مما تختلف فيه أنظار العلماء مع اتفاقهم على أصل القاعدة لكن الخلاف في الصور المعينة هل تنطبق عليها القاعدة أم لا وأولاهم بالصواب فيها من وافق الواقع التي هي عليه في عرف الناس ومعارفهم. ولأجل هذه القاعدة ذكروا من

شروط البيع بأنواعه القدرة على تسليمه فمنعوا بيع الآبِق والشارد ونحوهما مما يشك في حصوله وكذلك في الإجارة اشترطوا العلم بالعين المؤجرة والقدرة على تسليمها والعلم بالأجرة لأنه إذا لم يحصل العلم بذلك دخل في الغرر وأدخلوا فيه استثناء المجهول من المعلوم قالوا لأنه يصيره مجهولاً، والنبي ﷺ نهى عن الثنيا إلا أن تعلم فدخل فيه استثناء جزء من المبيع غير مشاع ولا معين واشتراط حلول الثمن أو المثمن بمدة غير معلومة لهما كما ورد في الحديث الصحيح: (من أسلم في شيء فليسلم في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم) فجهالة ذلك يدخله في الغرر ومثله بيع الشيء واستثناء بعض منافعه فلا بد أن تكون معلومة إلى مدة معلومة كأن يبيع البعير ويستثني ظهره أو الدار ويستثني سكناها أو الآنية ويستثني الانتفاع بها أو العبد ويستثني خدمته فكلها لا بد أن تكون معلومة لهذا الأصل والفرق بين أبواب البيوع حيث لم تجز في هذه إلا تحرير النفع والمدة وبين باب الهبة والوقف والوصية حيث جاز استثناء بعض المنافع المجهولة: أَن باب التبرعات أوسع من باب المعاوضات لكونه حصل للمنتقل إليه بلا عوض فلا ضير عليه ولا ضرر في ذلك بخلاف المعاوضة فإنه أخذه ودفع عوضه فلا بد من العلم.

وهل من هذا الباب استثناء معلوم غير مشاع من مبيع مجهول القدر كاستثناء صاع أو عدة أوزان من هذه الشجرة أو قفيز من هذه الصبرة فمنعه الأصحاب المتأخرون وقالوا استثناء المعلوم من المجهول القدر يصير الباقي مجهولاً والصحيح جوازه وهو أحد القولين في المذهب لأنه لا جهالة فيه وليس أعظم جهالة من استثناء المشاع المعلوم بل هذا داخل في مفهوم نهي النبي ﷺ عن الثنيا إلا أن تعلم وهذا معلوم.

ومن الغرر في باب المشاركات والمساقاة والمزارعة ونحوها أن يشترط لأحدهما ربح أحد السلعتين أو السفرتين أو دراهم معينة من الربح أو زرع ناحية معينة أو شجراً معيناً ويقتسما الباقي على شرطهما فإن فيه من الغرر المنافي

لمقصود المشاركة ما هو ظاهر ومبنى هذه المشاركات على استواء المتشاركين فيما يحصل لهما من غنم وما عليهما من غرم.

ومن أنواع الغرر أن يكون له في ذمته أصواع مقدرة أو أوزان مقدرة فيعطيه عن ذلك جزافاً لأنه قد يكون قدر حقه وقد يكون أكثر أو أقل ففيه خطر فإن أعطاه عن جميع حقه شيئاً مجهولاً وهو أقل منه يقيناً وهو من جنسه ونوعه فلا بأس لأنه لا يحتمل أنه أكثر من حقه بل قد علما أنه دون حقه ولكنه سمح له بالباقي المجهول وكثيراً ما تدعو الحاجة إلى مثل هذه الحالة وأنواع الغرر كثيرة جداً وقد حصل المقصود بهذه الأمثلة.

فأما الحكمة في تحريم بيع الغرر ومعاملات الغرر فهي بعينها الحكمة التي ذكرها في الميسر حيث شارك الخمر في مفاسده حيث قال تعالى:

**﴿إنما الخمر والميسر والأَنصابُ والأَزلامُ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** [سورة المائدة: الآية ٩٠]

**﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾**.

[سورة المائدة: الآية ٩١]

فأخبر أنها رجس أي خبيثة وأنها من أعمال الشيطان وكل أعماله شر لا خير فيه بوجه وما كان شراً وجب اجتنابه ورتب الفلاح على اجتنابه وأخبر أنه يوقع البغضاء والعداوة بين الناس، وذلك لأن المتخاطرين في المغالبات والمعاملات لا بد أن يغلب أحدهما الآخر ويغبنه ويكون الآخر مغلوباً مغبوناً ويشاهد مظلمته بعينها عند من قهره فلا تسأل عما يحدث له من الهم والبغض له وإرادة الشر والعداوة لأنه ظلم واضح إلا أن الظلم في باب الربا قد تعين المظلوم فيه وهو المأخوذ منه الزيادة وهنا لم يتعين قد يكون الغني وقد يكون المحتاج وقد يكون هذا تارة وهذا أخرى فمن رحمة الشارع وحكمته النهي عن هذا النوع الذي قد تبين وظهر شره وزال خيره وصار سبباً لأضرار كثيرة وأنه لا تصلح

دنيا الخلق إلا بالتزام أحكام الشرع كما لا يصلح دينهم إلا بذلك، وإذا كانت الجهالة يسيرة ودعت الحاجة إليها فقد جوزها الأصحاب مع تشديدهم في هذا النوع وكذلك شددوا جداً في السلم واشتراط صفات المسلم فيه مع أنه خلاف ما نص عليه الإمام أحمد وخلاف ما عليه عمل الناس والميزان في هذا كلام النبي ﷺ حيث قال: (من أسلم في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم متفق عليه) ونهيه عن الغرر فحيث كان المسلم فيه معلوماً عند الناس لا يعدونه مخاطرة فهو جائز.

ومما يدخل في الغرر والمخاطرة نهي الشارع عن بيع الثمر قبل بدو صلاحها والزرع قبل اشتداد حبه لكثرة الآفات ولهذا إذا عدمت هذه العلة وشرط قطعه في الحال وكان مما ينتفع به جاز وإذا كان تابعاً للأرض والشجر جاز لدخوله بالتبعية وقد يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً. وأما بيع مالك الزرع لمالك الأرض أو بيع مالك الثمر لمالك الشجر فقد أجازه الأصحاب وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد والرواية الثانية أصح وهو أنه داخل في عموم اللفظ وعموم المعنى فلا معنى لتخصيصه وحقق الشارع هذا المقصود فأسقط عن مشتري الثمار بعد بدو صلاحها الجائحة وقال بم يستحل أحدكم مال أخيه فعلل ذلك بأنه يأخذه بغير حق ولا يقيد في هذا شرط الجائحة على المشتري لأنه شرط يخالف حكم الله وكل شرط يخالف حكمه فهو باطل ولأن الخطر والضرر فيه ظاهر جداً فقد يبيع ثمراً بمائة درهم ويشرط الجائحة على المشتري ثم يجتاح ولا يساوي بعد الجائحة إلا ثمناً قليلاً جداً وهو إنما رضي بالاشتراط إحسان ظن أنها لا تجتاح فلا يحل إلزامه بالجائحة ولو اشترطها وهذا ظاهر النصوص وظاهر كلام الأصحاب المتقدمين والمتأخرين لأنهم ذكروا الجائحة على البائع ولم يستثنوا حالة من الأحوال ولو كان في المذهب قول آخر وأنه ينفع فيه شرط لنبهوا عليه. وقد ظن بعض المتأخرين أن اشتراط وضع الجائحة بعد انعقاد البيع أنه نافع مثل لو ما اشترى حيواناً أو غيره من المعيبات ثم بعد العقد أسقط خيار العيب وهو يجهله وهذا وهم ظاهر فإن الفرق بين جوائح الثمار وبين عيوب السلع

ظاهر فإن السلعة من حين تدخل في ملك المشتري ثم يحدث فيها عيب فإن العيب على المشتري شرط أو لم يشرط بالاتفاق وليس له إلا رد العيب الموجود قبل الشراء إذا كان يجهله، فإذا أسقطه بعد العقد فقد أسقط عيباً موجوداً أو حقاً له ثابتاً مع الخلاف فيه وأما عيوب الثمار الحادثة بعد العقد فقد دل النص على أنه على البائع وإذا أسقطه المشتري فقد أسقط الحق قبل ثبوته وأيضاً فالحق للشارع فلا يحل تراضي المتبايعين على ما نهى الشارع عنه أرأيت لو تراضيا على مسائل الغرر والمخاطرة كبيع الآبق ونحوه فهل يكون رضاهما مسوغاً لصحة البيع كلا فإنه لا يسقط إلا الحق الثابت المتمحض للآدمي وأما حق الله تعالى فلا يحل التراضي على إسقاطه.

## القاعدة الثالثة

## بيع التغرير والخداع

وهذا محرم على المخادع بالكتاب والسنة والإجماع. وفي الحديث الصحيح (من غشنا ليس منا) فهذا عام في الغش في المعاملات كلها من التجارة والإجارة والمشاركة وكل شيء فإنه يجب في المعاملات الصدق والبيان ويحرم فيها الغش والتدليس والكتمان. والغش إما أن يظهر أن المبيع على صفة حسنة هو خالٍ منها وهو الذي يسمونه بخيار التدليس كتعرية اللبن في الضرع وتسويد شعر العجوز وجمع ماء الرحى وإرساله وقت عرضها للبيع.

ومن هذا أن يريه بعض المبيع وهو أحسن ما يكون في المبيع ويوهمه أن الباقي مثل الذي رأى كأنْ يزين وجه الصبرة وينقّيها أو يبيعه بالأنموذج ويريه أحسن مما باعه والضابط لهذا النوع ما قالوا أن يدلس المبيع بما يزيد به الثمن.

وإما أن يكون فيه عيب فيكتمه ولا يبينه وإما أن يغبنه بنجش أو إخبار أنه أعطي في السلعة كذا وهو كاذب أو تلقي الركبان ليشتري منهم أو يبيعهم أو يخدع من لا يحسن المماكسة أو نحو ذلك فالغار في هذه الأشياء آثم وللآخر المخدوع الخيار إن شاء أمسك وإن شاء رد وأخذ ما دفع.

وأما الأرش في هذه المسائل فإن كان قد تعذر الرد وجب للمخدوع الأرش وإن لم يتعذر الرد فالمشهور في المذهب أن المغرور مخير إن شاء أمسك بالأرش في العيب وإن شاء رد وفي الغبن والتدليس لا أرش مع الإمساك والصحيح أن الأرش معاوضة جديدة تتوقف على رضا المتعاقدين إن اتفقا عليها فذاك. وإن لم يخترها الغار بل اختار التراجع لم يجبر على الأرش وهو اختيار الشيخ وهو الموافق للقاعدة لأنه لا يلزم الإنسان شيئاً يلتزمه ولا تسبب في تغريمه. ومثل التغرير في المبيع التغرير في العين المؤجرة غبناً وتدليساً وكتم عيب إلا أن الأصحاب في الإجارة لم يخيروا الأجير بين الإمساك مع الأرش والرد بل بين الإمساك والرد فقط ولا فرق بين البابين كما قاله بعض الأصحاب.

ومما يدخل في هذه القاعدة من غر غيره فأخبره أنه عبد زيد وهو كاذب فاشتراه منه أو أخبره أن المال ماله فاشتراه أو أخبره بصفة مقصودة في المبيع لغيره فاغتر واشتراه ووجد الأمر على خلاف ما قال فإنه يرجع على من غره كما قاله صاحب الفروع وغيره وهو الموافق للقاعدة الشرعية وإن كان المتأخرون من الأصحاب رحمهم الله لا يرون رجوعه عليه فإنه قول ضعيف جداً مخالف لقولهم في مواضع، ولهذا قالوا يرجع بالغرم على من تسبب له ولهذا لو كذب عليه عند ولي أمر فأخذ ماله أو دل سارقاً أو من يأخذ ماله فهو ضامن والقاعدة أن المباشر والمتسبب كلاهما ضامن لكن إذا اجتمعا قدم تضمين المباشر فإن تعذر تضمينه فعلى المتسبب.

ومن هذا الباب رجوع الزوج المغرور بزوجة معيبة أو مجنونة على من غره من ولي وزوجة عاقلة وأجنبي.

ومما يدخل في هذه القاعدة الأيدي المترتبة على يد الغاصب فإن العين إذا انتقلت من الغاصب إلى من لا يعلم الحال فهو مغرور بالاتفاق. إن قرار الضمان على الغاصب إلا ما دخل على أنه مضمون عليه، ولكن هل يملك المالك مطالبة من حصل التلف للعين أو منافعها بيده كما هو المشهور والمذهب أو لا يملك لأنه معذور كما هو اختيار الشيخ تقي الدين الثاني أصح دليلاً.

ومن هذا الباب تضمين الكفيل إذا لم يف بما عليه وضمان المعرفة إن قلنا به فإن فيه قولين والتحقيق أنه لا يلزم إلا بتعريفه ولا بضامن إلا إذا أتى بلفظ يدل على الضمان.

ومن هذا الباب إطلاق الرهن في عرف النجديين وصورة ذلك أن يكون لزيد على عمرو مثلاً ألف درهم قد رهن فيها ملكه فيريد أن يستدين عمرو من خالد ألفاً أو نحوها ليوفي بها زيداً أو يطلق زيد لخالد رهنه في الملك المذكور رغبة منه في قبض الألف التي استدانها من خالد وخالد لا يرغب أن يدين عمراً إلا على هذا الوجه وقصدهم بذلك أن الرهن متى بان عدم صحته بأن يكون غصباً أو سبق فيه رهن آخر أن يستعيد خالد من زيد الدراهم التي قبضها زيد من عمرو لأنه دينه بهذا الشرط وهو جار عندهم وفي عرفهم مجرى الضمان فإذا تبين في الرهن المذكور تبعة رجع خالد على زيد بالدراهم التي قبضها ولهذا إذا أراد زيد أن يحترز عن هذا الضمان قال: لا أطلق لك الرهن ولكن أقر أنه ليس لي حق في هذا الرهن فلا يصير ضامناً للرهن والله تعالى أعلم بالصواب.

## القاعدة الرابعة

## صدور المعاملة عن رضى شرعي من المتعاملين

وهذا الأصل ثابت بالكتاب والسنة والإجماع وهو مقتضى العدل والإنصاف فدخل في هذا عقود البيع بأنواعه وعقود الإجارات والمشاركات والتوثقات والتبرعات وغيرها وكذلك الفسوخ؛ ويعلم هذا الرضى بالقول الصريح أو ما يدل على ذلك من الأفعال الجارية مجرى الأقوال أو بالكناية مع قرينة دالة على ذلك ولذلك قال الفقهاء في جميع أبواب العقود وينعقد بما دل عليه من قول أو فعل وكل هذا تحقيق لهذا الشرط ذكره الله ورسوله وهو الرضى وإنما استثنوا باب عقد النكاح فاعتبروا فيه النطق بالإيجاب والقبول لخطره واشتراط الشهادة عليه وقولنا رضى شرعي احتراز من لو صدر الرضى من صغير أو سفيه أو غير عاقل فإنه غير معتبر ولهذا اشترطوا في التصرفات أن تقع من

جائز التصرف لأن رضى من ليس كذلك عن غيره بصيرة ولا تمييز تام فصار لاغياً ولكن وليه ينوب منابه في التصرف والرضى وإما إذا كان جائز التصرف بالغاً عاقلاً رشيداً فالعبرة برضاء نفسه لاستقلاله بأموره كلها فلا يكرهه وليه على شيء من العقود بل ليس له في هذا الحال ولي، إلا مسألة واحدة وهي إذا كانت الأنثى بكراً بالغة رشيدة فإن أباها أو وصيه يجبرانها على النكاح وإن كرهت على المشهور من المذهب. وعن أحمد رواية ثانية اختارها شيخ الإسلام إنهما لا يجبرانها في هذه الحال. وهذا هو الصحيح كما دل عليه الحديث الصحيح في تخيير النبي ﷺ بكراً زوجها أبوها فلا استثناء على هذا القول فالكره على عقد من العقود أو فسخ من الفسوخ بلا حق عقده لاغ وفسخه لاغ وجوده كعدمه، فإن كان الإكراه بحق صح عقده وفسخه وضابط الإكراه بحق أن يمتنع عن عقد واجب عليه عقده أو فسخ واجب عليه فسخه لسبب من الأسباب فيلزم بالواجب لأنه في هذه الحال غير مظلوم بل هو الظالم بامتناعه عما وجب.

ومن أمثلة ذلك لو كان عليه دين لا وفاء له إلا ببيع ماله الواجب بيعه في الدين فامتنع ثم أكره على بيعه فالبيع صحيح فلو تعذر بيعه باعه الحاكم وكذلك الشركاء في الأملاك إذا احتيج إلى تعميره وامتنع أحد الشركاء أجبر بالحق، وكذلك الشركاء في الأملاك التي يتضررون بقسمتها إذا طلب أحدهم البيع وامتنع الآخر أجبر لأنه وإن كان الإنسان غير مجبور على بيع ماله الخاص فإنه لما تعلق به ملك الغير وكان امتناعه يضر شريكه وجب إزالة هذا الضرر ولا طريق له إلا بالبيع وكذلك ما قاله الأصحاب في الوصي على أداء الدين وعلى الصغار لو دعت الحاجة لبيع بعض عقار لقضاء الدين أو حاجة صغار وفي بيع بعضه ضرر وأبى الورثة الكبار أو غابوا باع الوصي على الجميع لأنه الطريق لأداء هذا الواجب بلا ضرر.

ومما يجب أن يعلم أن الرضى المعتبر من المتعاملين ونحوهم شرطه أن يكون بعد رضا الشارع وأن يكون ذلك الذي وقع عليه التراضي منهما قد أجازه الشارع وأباحه وأما إذا لم يجزه الشارع فلا عبرة برضاهما ولهذا لو تراضيا

على العقود المحرمة لم ينفع رضاهما لأن العبد ليس له أن يفعل ما يشاء وإنما له أن يفعل ما أجازه الشارع له لأنه مقيد بالعبودية غير خارج عن أحكام ربه والله أعلم.

## القاعدة الخامسة
## أن تقع العقود من مالك لها أو من يقوم مقامه

وهذه القاعدة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والميزان الذي هو العدل فمن كان مالكاً للشيء أو لمنافعه فهو الذي يوقع عليه من العقود والفسوخ والإسقاطات ما يملكه منها دون غير المالك فدخل فيه أنه لا يبيع ولا يؤجر ولا يرهن ولا يشارك ولا يتبرع ولا يوصي ولا يوقف ولا ينكح ولا يعتق ولا يفسخ شيئاً من ذلك سوى مالكه أو من يقوم مقام المالك من وكيل الحي الرشيد وولي الصغير وغير العاقل ووصي الميت وناظر الوقف والحاكم ولي الغائبين والممتنعين مما وجب عليهم فلو أوقع هذه الأمور غيرهم لم يصح وصار وجود ذلك العقد كعدمه إلا أنه يستثنى الفضولي إذا تصرف ثم أجازه المالك فهل العقد غير صحيح ويحتاج إلى تجديده كما هو المذهب لأن العبرة بتحقيق الشرط وقت العقد أو أنه إذا أجازه صح تنفيذه ولم يحتج إلى إعادته وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو الصحيح لأن العبادات هي التي تحتاج إلى نية صاحبها وإذا لم ينو فيها قبلها لا بنفسه ولا بنائبه لم تصح عبادته وأما المعاملات فالمقصود فيها رضى المالك وقد حصل وما تملك منافعه ولا تملك رقبته صح التصرف فيما يملك بحسب حاله دون رقبته فدخل فيه أم الولد تملك منافعها فيوقع عليها عقد الإجارة والإعارة دون رقبتها والوقف يتصرف في ريعه ومغله المملوك للموقوف عليه دون رقبته إلا في الحال التي يجوز فيها بيعه والمستأجر للعين مالك لمنافعها مدة الإجارة فيتصرف فيما يملكه دون رقبتها ودون المنافع التي لم تدخل في استئجاره بخلاف المستعير فإنه لم يملك لا العين ولا النفع وإنما أبيح له الانتفاع بنفسه فلا يؤجر ولا يعير إلا بأذن المالك،

وكذلك الأرض الخراجية على المذهب يمتنع بيع رقبة الأرض دون التصرف فيها بإيجار أو بيع مغل أو نحوه. وعلى الرواية الأخرى عن الإمام وهو مذهب جمهور العلماء جواز بيع الرقبة ويكون المشتري في أداء خراجها قائماً مقام البائع وهو الصحيح.

ومن تفريع هذه القاعدة أن الشيء إذا وقع عليه عقد واحتاج إلى حق لوفيه فليس للمشتري التصرف فيه حتى يتم ملكه له وذلك كالمبيع بكيل أو وزن أو عد أو ذرع قبل ذلك وكالمبيع بصفة أو رؤية سابقة فإذا تم الملك بإيفائه بالكيل والوزن والعد والزرع ووصول المبيع بصفة أو رؤية سابقة ليده أو يد وكيله صح التصرف ويتحقق هذا أن هذه الأشياء إذا تلفت قبل ما ذكر فمن ضمان البائع وألحق بها في الضمان جوائح الثمار لأنه وإن جاز له التصرف فيها فهي إلى الآن ما تمت الثمرة فيتم ملكه عليها فتلفها من ضمان بائعها.

ويتفرع أيضاً على هذه القاعدة أن المالك للشيء إذا تعلق به حق الغير لم يصح تصرفه مطلقاً إلا بأذن من له حق فيها كالعين المرهونة لا يتصرف بها مالكها إلا بإذن المرتهن ولا ينفذ إلا بإذنه حتى العتق على الرواية الأخرى عن الإمام لأن في تنفيذ ذلك إبطالاً لحق المرتهن الواجب والمحجور عليه لا يتصرف في ماله بعد الحجر إلا بإذن الغرماء.

والورثة لا يطلق لهم التصرف في التركة والميت مدين إلا أن وفوه أو ضمنوه إلا بإذن الغرماء.

وكذلك كل من له شركة في شيء لا يتصرف شريكه فيها جملة إلا بإذنه.

ولا يجوز بيع الديون التي في الذمم لغير من هي عليه فيعلل بأنه غير مقدور عليه فيدخل في القاعدة السابقة قاعدة الغرر ويعلل بأنه غير مملوك فيدخل في هذه القاعدة.

ويتفرع عليها أيضاً أن المنافع المستقلة عن العين إذا استثناها مدة معلومة

أنه صحيح لأنه أخرج العين ومنافعها عن ملكه إلا هذه المنفعة المستثناة إذ له في ذلك غرض ومصلحة بخلاف اشتراط البائع على المشتري أن لا يبيع المبيع ولا يتصرف فيه وإن أعتقه فالولاء له لأنها غير مملوكة ولا تابعة لملكه وشرطها مناف لمقتضى العقد، وأما اشتراط التصرف الذي له فيه مصلحة أو للمبيع كعتقه أو وقفه فهو صحيح.

## القاعدة السادسة والسابعة
## إذا تضمَّن العقد ترك واجب أو انتهاك محرم فإنه حرام غير صحيح

وقد دلت النصوص الشرعية على هذين الأمرين في عدة مواضع فمن ذلك البيع والشراء بعد نداء الجمعة وإذا ضاق وقت المكتوبة أو خاف فوت الجماعة وكذلك المعاملة التي تفوت الإنسان وتشغله عما أوجب الله عليه من الحقوق، قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾** [سورة المنافقون: الآية ٩]

وهذا إنما هو في الإشغال عن الواجبات لأنه نهى عنه ثم رتب عليه الخسارة.

ومن ذلك أن يبيع العنب والعصير ممن يتخذه خمراً أو البيض والجوز لأهل القمار أو السلاح في الفتنة وعلى أهل الحرب وقطاع الطريق وبيع الرقيق المسلم للكافر إذا لم يعتق عليه.

ومما يدخل في هذه القاعدة العقد عقد المسلم من بيع وشراء وإجارة ومساقاة ومزارعة ومشاركة وخطبة نكاح وخطبة الوظائف والولايات كمن هو في وظيفة آذان أو إمامة أو وقف أو وكالة أو ولاية كبيرة أو صغيرة فلا يحل لأحد أن يخطبها لنفسه أو غيره وصاحبها أهل قائم بولايته ووظيفته لما في ذلك من إدخال الضرر على أخيه وحصول العداوة والبغضاء فإذا تحررت هذه القواعد مع ما تبعها من الضوابط واستثنيتها من ذلك الأصل العظيم حصل لك في هذه

المواضع المهمة من العلم ما تهتدي به إلى هذه المسائل والصور المذكورة وما كان في معناها مما تدعو إليه الضرورة والحاجة لأنه إذا ذكرت أصول المسائل ومآخذها ومقاصد الشرع وبيان حكمها وأسرارها تقررت في الأذهان وصار هذا العلم على هذا الوجه أكمل بكثير من تعلم مجرد صور المسائل وأفرادها دون حكمها ومآخذها فإن هذا النوع قليل الثبوت في الذهن لا يكسب صاحبه تمرناً على المباحث العلمية والتفريعات النافعة ولا يهتدي إلى الفرق بين المسائل المتفرقة أحكامها ولا إلى الجمع بين المسائل المجتمعة أحكامها في أصل وعلة واتضح لك فائدة هذا الأصل وسعته وأن الأصل في المعاملات كلها الإباحة والتوسعة والسهولة إلا ما ضر الناس في أديانهم أو أخلاقهم أو دنياهم وبالله التوفيق.

**سؤال ــ ٥٥ ــ ما حكم اختلاف المتبايعين؟**

الجواب: الاختلاف الواقع بين البائع والمشتري أنواع متعددة: أحدها إذا اختلفا في قدر الثمن بأن قال البائع مثلاً الثمن مائة وقال المشتري ثمانون حلف البائع ما بعته بثمانين وإنما بعته بمائة، ثم حلف المشتري ما اشتريته بمائة وإنما اشتريته بثمانين ولكل واحد الفسخ ما لم يرض أحدهما بقول الآخر وإن كان المبيع قد تلف رجع إلى قيمته.

الثاني: اختلافهما في صفة الثمن فيؤخذ نقد البلد إن وافق قول أحدهما ثم غالبه رواجاً ثم الوسط.

الثالث: اختلافهما في عين المبيع أو قدره فكاختلافهما في الثمن على القول الصحيح وهو أحد القولين في المذهب لعدم الفرق بين الاختلاف في الثمن أو المثمن والمشهور من المذهب فيه القول قول البائع وهو ضعيف جداً.

الرابع: الاختلاف في شرط صحيح أو فاسد أو أجل أو رهن أو قدرهما أو ضمين فقول المنكر لأن الأصل عدم ذلك إلا ببينة.

الخامس: إذا اتفقا على العقد وادعى أحدهما فساده لاختلال شرطه

أو وجود مانعة وانكر الآخر وادعى صحته فالقول قـول مدعي الصحة لأن الأصل السلامة واتفاقها على العقد يدل على أنه شرعي فإنكار الآخر إنكـار لما اتفقا عليه.

السادس: إذا أحضر المبيـع بصفة أو رؤية سابقة فادعى المشتري أنه على غير الصفة وأنه متغير عن حالته وأنكر البائـع فالقول قول المشتري على المذهب قالوا لأن الأصل عدم لزوم الثمن للمشتري وقيل القول قول البائـع لأن الأصل بقاؤه على الوصف والحالة المرئية.

السابـع: إذا باعه شيئاً بثمن حال لكنه ليس مـع المشتري فامتنـع البائـع من تقبيضه حتى يحضر الثمن فهل يجبره المشتري على التسليم ثم المشتري يجبر بعد على الإيفاء كما هو المشهور في المذهب أو لا يجبره على التسليم بل يملك حبس المبيع على ثمنه وهو قول الموفق وطائفة من الأصحاب وهو الصحيح الذي لا شك فيه ومثله حبس العين على أجرتها الصواب أنه يملك حبسها لما عليه في التسليم من الضرر ولأنه لم يوافق على أخذها والذهاب بها حتى يلزم بما التزمه.

الثامن: اختلافهما عند من حدث العيب فالمشهور أن القول قول المشتري بيمينه لأنه منكر لقبض ما هو قابل السلامة من العيب والرواية الأخرى عن الإمام وعليها العمل قول البائـع بيمينه إلا إن أقام المشتري بينة بما قـال وهو الصحيـح لأن الأصل معه وأما تعليل الأصحاب المذكور ففيه نظر ظاهر.

التاسـع: إذا ترادا الثمن والمبيـع لعيب أو خيار أو نحوهما فادعى المردود عليه أنه غير العوض الذي دفعه أو غير المبيـع فالصحيـح أن القول قوله حتى يأتي الآخر ببينة تثبت ما قاله، سواء كان معيناً أو في الذمة، وسواء في خيار العيب أو خيار الشرط لأنه منكر والآخر مُـدَّع والبينة على المدعي واليمين على من أنكر ولأنّا لو قبلنا قول الآخر كان في ذلك من فتـح مفاسد وشرور كثيرة، وأما الأصحاب فإنهم فصلوا القول في ذلك فجعلوا القول قول البائـع إن المبيـع ليس المردود إلا في خيار الشرط فقول المشتري، وقول المشتري في الثمن إذا كان

معيناً وإن كان في الذمة فقول البائع وهذا التفصيل ضعيف جداً لعدم الفرق بين هذه الأقسام وكلها في نظر العارف واحد، واعلم أن هذا الاختلاف بل وكل اختلاف قيل فيه قول أحدهما إذا لم يكن بينة فإن كانت رفعت الاختلاف.

**سؤال ــ ٥٦ ــ ما هي الوثائق للحقوق وما فائدتها وأحكامها؟**

الجواب: وبالله التوفيق: من رحمة الله بعباده أن شرع الوثائق لحفظ حقوقهم واستحصالها وهي أربعة أشياء كلها ثابتة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس: الشهادات والرهن والضمان والكفالة. أما الشهادات فإنها تثبت بها الحقوق وهي أوسع الوثائق دائرة وأعظمها مصلحة وأقطعها للنزاع، وهي تثبت الحقوق في الذمم وتسقط ما ثبت بوفاء أو إبراء أو نحوها، ولكن الحق لا يستوفى منها وإنما هي آلة وسلاح للاستيفاء ممن عليه الحق ورد الظالم عن ظلمه وإذا كتبت قويت ووجدت مع وجود الشاهد وفقده كما ذكر الله تعالى حكمة ذلك في قوله:

**﴿ذالكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألَّا ترتابوا﴾**
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

ويختلف نصابها باختلاف الحقوق وقد ذكر الأصحاب أقسامها في باب المشهود به وعدد الشهود.

وأما الرهن فهو دفع من عليه الدين شيئاً من ماله لصاحب الدين ليتوثق به ويطمئن إليه ويأمن غدر صاحبه وليستوفي من الرهن إذا تعذر الوفاء من الغريم وأتم ما تكون أن تكون عيناً مقبوضة فإن كانت قيمتها أكثر من الدين تمت من جميع الوجوه فإن كانت الوثيقة ديناً أو غير مقبوضة أو أقل من قيمة الدين صارت ناقصة وحصل فيها من التوثقة بحسبها وأما منع التوثيق بها في هذه الحال وجعل وجودها كعدمها كما هو المشهور من المذهب في غير المقبوضة والدين كما في الناقصة فقول لا دليل عليه بل هو مناف للعمومات الدالة على أن المؤمنين على شروطهم وعلى وجوب الوفاء بما تعاقدوا عليه مع منافاتها لمصلحة

الناس وتمكين الغادر من غدره، فأما ذكر الله تعالى:

القبض للرهن ﴿فرهان مقبوضة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٣].

فهذا إرشاد منه تعالى لأقوى الطرق في التوثق بها ليس فيه أنه إذا لم يقبض فليس برهن بل مفهومه يدل على أنه يسمى رهناً وأما حكم الرهن فهو لازم في حق الراهن ليس له فكه ولا التصرف فيه ما دام متعلقاً به الدين والدين يتعلق به كله لا ينفك منه شيء بإيفاء بعض الدين بل بوفاء كله أو عند فك المرتهن وإذا حل الدين فإن حصل وفاء وإلا بيع الرهن وجوباً بطلب صاحب الدين ثم أوفي من ثمنه فإن وفى بالدين كله فذاك وإلا بقي باقي دينه على غريمه.

وأما الضمان والكفالة فالضمان يكون للدين والكفالة لإحضار بدن الغريم وفائدتها إلزام الضامن بالوفاء مع إلزام صاحب الحق فيتعلق الحق بذمة كل واحد منها فلصاحبه طلبهما جميعاً وطلب أحدهما إلا إذا شرط الضامن أنه لا يطالبه حتى يتعذر عليه أخذ الحق من صاحبه. والقول الثاني: إن هذا حكم الضمان لا يستوفى منه حتى يتعذر الأصيل وأما الكفيل فإنه إذا سلم المكفول لرب الحق برىء سواء استوفى منه صاحب الحق أم لا فإن عجز عن إحضاره صار ضامناً وإذا أدى الضامن والكفيل عن المدين بنية الرجوع رجعا وكذا كل من أوفى عن غيره ديناً واجباً وقد عرف بما ذكرنا حكمة الشارع في هذه الوثائق وأنها لمصالحهم وحفظ حقوقهم فللّه الحمد والمنةُ.

### سؤال ـ ٥٧ ـ عن حكم الصلح وفائدته

الجواب: الصلح من أعم الأمور وأوسعها دائرة ويدخل في أمور كثيرة وفوائده لا تعد كثرة. قال تعالى:

﴿والصلح خير﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

فيقع الصلح بين المسلمين وأهل الحرب فيجتنى منه راحة المسلمين وإجمامهم لقتال أعدائهم في وقت الفرصة ويحصل من اختلاط المسلمين بالكفار

من المصالح وبيان محاسن الإسلام ما يوجب لكثير من المنصفين الدخول فيه ويحصل من المصالح الدينية والدنيوية شيء كثير.

ويقع الصلح بين أهل العدل وأهل الظلم والبغاة فينكف بسببه شر كثير وربما حصل خير كثير.

ويقع بين الناس في الدماء والجروح ونحوها فيحصل من العفو والتغاضي عن الحقوق وإطفاء الشر وحصول مقابلة ذلك شيء من المال تأنس به النفوس ويسهل عليها ترك الأخذ بالثأر.

ويقع بين الزوجين عند المشاقة والمخاصمة فيحصل الالتئام وتزول أسباب الشر ويتراجع الزوجان إلى العشرة المأمور بها.

ويقع بين الأصحاب المتهاجرين المتنافرين فتتدانى القلوب بعد بعدها ويزول نفارها ولذلك لم يرخص النبي ﷺ في الكذب إلا في الحرب وحديث الرجل لها مؤانسة والإصلاح بين الناس لعظم نفعه وجزيل وقعه.

ويقع الصلح بين الناس حين تقوم الفتن فيحسم الفتن والشرور لهذا جعل الشارع للمصلح بين الناس نصيباً من الزكاة ولو كان غنياً حثاً لهم على الإصلاح بكل طريق وهذه الإصلاحات إذا وقعت عادلة لأجور فيها على واحد من الطرفين وأحسن الداخل فيها الطريق الموصلة إلى ذلك حصل المقصود بسرعة وانحسم الشر فإذا دخلها الهوى والظلم على أحد الطرفين أو سلكت طرق لا توصل إليها تعكست ولم يحصل منها المقصود وإن حصل فما أسرع زواله ولهذا أمر الله بالإصلاح بالعدل والإحسان فيه والله أعلم.

ويقع الصلح بين الناس في الأموال والمعاملات وهو مراد الفقهاء بذكر باب الصلح المتعلق بالمعاملات وهو كله جائز إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً كما ورد به الأثر فالحقوق المصالح عليها المالية أما أن يعترف بها من هي عليه وأما أن لا يعترف فإن اعترف بها وصالحه على بعضها لسرعة الوفاء كان مصلحة للطرفين وكان شبيهاً بالتبرع، وكذلك إذا ياسره على المال وجعله آجالاً

متعددة فالصواب أنه لازم، وقال أصحابنا إنه جائز فله أن يطالبه قبل الأجل المضروب لأن التأجيل غير لازم ثم ألزم به نفسه ووعده والمؤمن إذا وعد وفى خصوصاً إذا كان في هذه الحال سيجتهد المطلوب في بيع ما ليس عليه بيعه من مسكن وأثاث أو يستدين من الناس ما يوفي به فهنا يتعين الإلزام بالتأجيل بلا ريب.

وقد يصالحه عن المؤجل ببعضه حالاً، والمشهور من المذهب المنع قياساً على الربا وقلب الديون الحالة والرواية الأخرى عن أحمد أصح وهو جواز ذلك إذ في ذلك مصلحة للطرفين هذا ينتفع بتعجيل حقه والآخر بتخفيف ما عليه، وقد اشتهر أن النبي ﷺ لما أجلى بني النضير قالوا إن لهم مع الناس مداينات فقال: (ضعوا وتعجلوا) وقياسها على الربا ضعيف جداً بل هذا ضد الربا فإن الربا يزيد في الأجل ويزداد ما في ذمته وهذا يتعجل الوفاء ويخف ما في ذمته فما أبعد أحدهما من الآخر وكثيراً ما تدعو الحاجة بل الضرورة إلى هذه المسئلة وما دعت له الحاجة ولا محذور شرعيًا فالأصل جوازه.

وقد يصالحه عن الدين أو العين بغير جنسه فيصير معاوضة يثبت لها من الأحكام ما يثبت للبيع بل قد تكون أوسع.

وإن كان المدعى عليه الحق منكراً فالصلح أيضاً جائز وما أعظم فائدته للمدعي والمدعى عليه ويصير في حق المدعي بيعاً لأنه يعتقد ما صالح عليه عوضاً عن حقه وفي حق الآخر إبراء لأنه يزعم أنه دخل في الصلح لدفع الخصومة والنزاع وظهور براءة ذمته، فما دام كل منهما معتقداً ما يقوله فالصلح جائز ظاهراً وباطناً حلال لكل منهما ما دخل عليه، فإن اعتقد أحدهما خلاف ما يقول فالصلح في الظاهر جاز ونفذ وهو في الباطن حرام عليه ما أخذ مما لا يستحق أو أنكر ما عليه.

ومن الحقوق التي اختلف في جواز الصلح عليها حق الشفعة والخيار فالمذهب المنع لأنه ليس المقصود بها تحصيل مال وإنما هو النظر لأحظِّ الأمرين.

والقول الثاني: في المذهب الجواز لعموم قوله ﷺ: (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً). وهذا عام في الحقوق كلها ولا يتضمن هذا إحلال حرام ولا تحريم حلال وقولهم إن المقصود بهما وبإثباتهما للإنسان أن ينظر أي الأمرين أحظ صحيح ومن جملة ما يراعيه صاحب الحق في الإقدام على الشفعة وفي إتمام الخيار أو عدم ذلك النفع المالي بدل هذا أعظم ملاحظهم فإذا بذل له مال ليترك هذا الحق رجح هذا الجانب فلا مانع من ذلك.

وأما الصلح الذي لا يجوز فهو أن يتصالحا على أمور محرمة إما أن يصالح حراً يقر له بالعبودية أو أنثى تقر له بالزوجية فهذا الذي أجمع المسلمون على منعه.

**سؤال ــ ٥٨ ــ عن أحكام الجوار**

الجواب: أقل ما يجب على الجار لجاره أن يمنع عنه أذاه القولي والفعلي فلا يحدث بملكه المختص أو المشترك بينه وبين جاره ما يضر بالجار من كل وجه وذلك شيء كثير وأن يمكنه من وضع الخشب على جداره إذا احتاج إلى ذلك ولا ضرر على حائطه.

وكذلك على الصحيح ما أشبه ذلك مما لا يتضرر به والجار ينتفع به كإجراء الماء على أرضه لينتفع هذا بمرور مائه والجار يسقي ما يمر عليه ماؤه وهذا إحدى الروايتين عن أحمد وقد ألزم بذلك عمر رضي الله عنه.

ومن أنفع ما يكون وقوع الصلح بين الجيران في الأمور التي تتعلق بمصالحهم كالمرور على جاره وإجراء ماء سطوحه على سطحه أو أرضه أو نحو ذلك، وينبغي أن يتساهل مع جاره بكل طريق فإن النبي ﷺ قال: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أن سيورثه)؛ فإن لم يبذل له هذه الأشياء تبرعاً فلا أقل من محاباته في الصلح ويربح الإحسان إلى جاره إذا رأى المحروم أن الربح في مقاصاته ومن أحكام الجيران الاشتراك في تعمير ما يحتاج إلى تعمير من

جدار أو بير أو سقف على قدر الإملاك كما أن هذا الحق واجب بين الملاك وإن أحدهما يجبر على التعمير المحتاج إليه.

**سؤال ـ ٥٩ ـ من هو المحجور عليه وما أحكامه وفائدته؟**

الجواب: وبالله التوفيق حد الحجر منع المالك من التصرف في ماله والحجر الشرعي المقصود به حفظ الأموال وصيانتها وإيصال الحقوق إلى أهلها فهذا المعنى اشتركت فيه أنواعه كلها وهو ينقسم إلى قسمين: أحدهما من يحجر عليه لحظ نفسه لضعف عقله عن حفظ ماله وإحسان التصرف فيه وذلك كالصغير والسفيه والمجنون فيجب على وليهم منعهم من التصرف في مالهم ويتولى هو حفظه والتصرف فيه ولا يتصرف في مالهم إلا بما فيه مصلحة فيجري عليهم من النفقة من أموالهم بالمعروف وما احتاجوا إليه من تعلم علم أو صنعة ففي أموالهم ولا يأكل من مالهم إلا إذا كان فقيراً أقل من كفايته وأجرة عمله والضابط في الواجب عليه كما قال تعالى:

**﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلـغ أشده﴾**
[سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

وهو البلوغ والرشد فإذا بلـغ ذلك وجرب رشده فوجده حافظاً لمالـه محسناً للتصرف فيه دفـع إليه قال تعالى:

**﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأَشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾**.
[سورة النساء: الآية ٦]

والمشهور من المذهب أن الولاية في هذا الباب ليست كسائر الأبواب فلا تثبت إلا للأب أو وصيه ثم تنتقل بعدهم إلى الحاكم والفرق بين هذا وبين سائر الأبواب أن المال تتعلق به المطامـع النفسية والأغراض النفسانية فيقدمها الإنسان على مصلحة موليه فمنعت ولايتهم أصالة بخلاف الأب فإن ما معه من الشفقة والحنو وما له من التمول في مال ولده ما أثبت له الولاية.

والرواية الثانية عن الإمام أحمد إجراء هذا الباب كسائر الأبواب من الميراث والعقل والنكاح والحضانة وجميـع الولايات التي تثبت لجميـع العصبات

ولا فرق في الحقيقة وإذا شرطنا أن لا يتولى مالهم إلا من هو عدل مرضي صارت ولاية أقاربه الذين هم أشفق الناس عليه وأحرصهم على مصالحه أولى بلا شك من ولاية البعداء الذين لو وجدت عدالتهم لم توجد فيهم من الشفقة ما في الأقارب وهذا أرجح دليلاً.

الثاني في المحجور عليه لحظ غيره فمنهم المرتد يحجر عليه في ماله وقت استتابته لحظ المسلمين أو حظ ورثته على اختلاف القولين.

والمريض مرضاً مخوفاً يحجر عليه بما فوق الثلث لحظ ورثته والراهن يمنع من التصرف في الرهن بلا إذن المرتهن لحظ المرتهن.

والمشتري في الشقص المشفوع يمنع من التصرف فيه بعد الطلب لحظ الشفيع.

ومنهم المدين يحجر عليه لحظ غرمائه بثلاثة شروط: أن تكون ديونهم حالة، وأن تستغرق جميع موجوداته، وأن يطلبوا أو بعضهم من زائدة الحاكم الحجر عليه هذا المذهب وعند شيخ الإسلام لا يعتبر الشرط الثالث بل زائدة يصير محجوراً عليه بمجرد استغراقهم لموجوداته وإنما الحاكم يبين خافياً ويزيل مشتبهاً ويحل نزاعاً وإلا فلا يثبت حكماً شرعياً وهو أقوى وفي هذا القول من المصلحة للناس وحفظ حقوقهم ومنع الخونة من حصول مقاصدهم المحرمة ما يوجب القول به.

وإذا حجر عليه الحاكم امتنع عليه التصرف في ماله أعيانه وديونه وتعلقت حقوق الغرماء في ماله فمن وجد عيناً باعها زائدة أو أقرضها إياه بعينها ولم يأخذ من ثمنها شيئاً ولم يتعلق بها حق للغير أخذها وسقط عوضها عن المحجور عليه ومن كان له رهن اختص به وشارك الغرماء في الباقي إن بقي له شيء وإن بقي من ثمن الرهن شيء بعد حق المرتهن رد على بقية الغرماء ثم يقسم الباقي على الغرماء بقدر ديونهم بالحصص فهذا غاية الممكن من العدل لأن القاعدة أن الحقوق المشتركة الدلية على مال تشترك في الزيادة والنقص كل بحسب ماله

كزيادة أموال الشركة أو نقصانها ومن هذا الباب العول والرد في الفرائض، وإذا كان بعض الغرماء دينه مؤجلاً فهل يشارك الغرماء الحالة حقوقهم أم لا. فيه قولان في المذهب المشهور منها عدم المشاركة بل يبقى دينه في ذمة المفلس وليس له من موجوداته شيء لأن دينه لم يحل.

والثاني يشاركهم وهو أصح لاشتراك الجميع في وجوب الوفاء ولأنه إنما دخل معه في المعاملة بحسب ما عنده من الموجودات، بل قد يكون صاحب الدين المؤجل في الحقيقة أحق من أصحاب الديون الحالة لكون أصحاب الديون الحالة مدينهم معسر لازم عليهم إنظاره فلما استدان ديناً مؤجلاً صار ما عند المدين أعيان مال صاحب الدين المؤجل أو أعواضه فكيف يقال في هذه الحال يكون محروماً والأولون يتغبطون بمال هذا المسكين صاحب الدين المؤجل هذا لا يمكن أن تأتي به الشريعة أبداً، وهذا القول هو مقتضى اختيار شيخ الإسلام حيث رأى أنه يحجر عليه وإن لم يحجر الحاكم حفظاً لحقوق الناس ورداً للظلم بكل طريق.

**سؤال ـ ٦٠ ـ ما هي الصور التي يباح للإنسان فيها الأكل والتصرف بمال الغير بدون إذن؟**

الجواب: اعلم أن الأصل احترام أموال الناس فلا يحل لأحد مال غيره إلا بطيب نفسه وطيب النفس نوعان: إذن لفظي وهذا ظاهر وليس هو المسؤول عنه. ونوع عرفي وهو الذي وقع السؤال عليه، فمتى دل الدليل العرفي على رضا الإنسان في الأكل من ماله أو التصرف فيه جاز ذلك، وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى:

**﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم...﴾** إلى آخر الآية. [سورة النور: الآية ٦١]

فهذا الأكل من دون إذن صريح لأن هؤلاء المذكورين قد جرى العرف والعادة برضاهم ولذلك قال الأصحاب: ولزوجة وكل متصرف في بيت أن يتصدق منه

بما لا يضر كرغيف ونحوه، ومن هذا التقاط ما سقط من الحصاد للزرع وما سقط من النخيل حيث جرت به العادة؛ ومن هذا الباب الأكل من الأشجار التي لا حافظ عليها ولا حائط من غير صعود شجرة ولا رميها بحجر ومن الزرع الذي يمر به وشرب لبن الماشية كل هذا مقيد بالعرف فحيث جرى العرف بعدم المسامحة في شيء من ذلك منع لعدم وجود السبب المبيح ومن هذا ذوق الطعام عند الشراء تجربة له أو الأكل منه إذا جرت العادة بالمسامحة كمن يكتال تمراً فيأكل منه قبل أن يدخل ملكه فقد جرت عادة الناس في المسامحة به.

**سؤال ـ ٦١ ـ ما الفرق بين الأشياء التي تصح فيها الوكالة والتي لا تصح؟**

الجواب: من سعة الشرع أن أباح للإنسان أن يفعل الأشياء بنفسه أو يقيم مقامه من يتولى ذلك العمل وهذا مطرد في حقوق الله وحقوق عباده إلا ما لا يحصل المقصود إلا بمباشرة الإنسان له وتوليه بنفسه فإن هذا النوع لا تفيد فيه الوكالة وذلك كالصلاة والصيام والطهارة من الحدث والحلف ونحوها. وكذلك في أداء حقوق الزوجات المتعلقة ببدنه كالقسم ونحوه فهذا هو الفرق.

**سؤال ـ ٦٢ ـ من هو الأمين**

الجواب: وبالله الإعانة والهداية: أما الأمين فهو كل من ائتمنه الإنسان على ماله ورضي ببقائه بيده على وجه الإبقاء أو الاستعمال بعوض أو غيره، وأما حكمه فله أحكام كثيرة:

منها: أنه يجب عليه أن يحفظ ما بيده ولا يفرط فيه ولا يتعدى فإن فعل ذلك زال ائتمانه وتحتم عليه ضمانه وأنه يجب عليه الرد إلى صاحبه أو إلى من يقوم مقامه إذا طلبها إذا لم يبق للأمين حق فيها، وكل هذا مستفاد من قوله تعالى:

**﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾**. [سورة النساء: الآية ٥٨]

فأمر بأدائها إلى أهلها ومن لازم الأداء الحفظ فإنه لا يتم بدونه فدخل في الأمانات الودائـع والرهون والأعيان المؤجرة وأموال الشركة عـلى اختلافهـا والأعيان الموكل عليها حفظاً وتصرفاً والأموال التي هو ولي عليها كالولي على مال اليتيم والوقف والوصايا والوصي وما أشبه ذلك.

**سؤال ــ ٦٣ ــ وما حكمه؟**

ومن أحكام الأمناء قبول قولهم في التلف وعدم التفريط سواء كان لهم فيها حظ أو كانوا محسنين لأن هذا مقتضى كونهم أمناء وهو مقتضى ائتمان الإنسان لهم فإنه رضي أن تكون أيديهم على ماله كيده فقد أقامهم مقام نفسه فلا ضمان عليهم، لكن لو ادعوا التلف بأمر لا يخفى فلا بد من إثباته وإلا لم يقبلوا لأن الحس يكذبهم، وإذا تلفت وقبلنا قولهم لم يضمنوا شيئاً إلا العارية فإنها مضمونة على المذهب إلا إذا تلفت فيما استعيرت له أو كانت وقفاً ككتب علم وسلاح وإذا أعارها المستأجر لأنه فرع من الضمان عليه وإذا أركب دابته منقطعاً للثواب فهذه لا ضمان فيها حتى على المذهب والصحيـح الرواية الأخرى عن الإمام أن المستعير كسائر الأمناء لا ضمان عليه إلا إنْ شرط على نفسه الضمان ولو كان ضامناً لضمن في هذه المسائل الأربـع إذ لا فرق بين الجميـع.

وإذا ادعوا الرد فلا يخلو إما أن يدعوه إلى من ائتمنهم أو إلى غير من ائتمنهم فإن ادعوا الرد إلى غير من ائتمنهم لم يقبل قولهم إلا ببينة وإن ادعوا الرد إلى من ائتمنهم فإن كان لهم حظ في قبض تلك الأمانة كالعين المؤجرة أو المعارة والوكيل والدلال بجعل لم يقبل قولهم، وإن لم يكن لهم حظ بل هو محسنون إحساناً محضاً وادعوا الرد قبل قولهم بأَيمانهم وكل من قلنا القول قوله في حقوق الآدميين فلا بد من يمينه لأن هؤلاء محسنون وما على المحسنين من سبيل.

ومن أحكام أن إقرار الإنسان على ما ائتمن عليه مقبول لأن صاحبه نزله منزلة نفسه فإذا أقر على ما بيده من أنواع التصرفات وصفاتها كان مقبولاً.

ومن أحكامهم أنه إذا زال الائتمـان وانتقل الشيء إلى آخر وجب عليهم

الرد أو التمكين من الرد بالإعلام والإخبار ووقفوا التصرف المستفاد بالإذن الصادر من المؤتمن حتى يوجد بعد ذلك إذن جديد.

**سؤال ــ٦٤ــ ما هي شركة التصرف وما الحكمة فيها والحكم؟**

الجواب وبالله التوفيق: أما الفائدة والحكمة في المشاركات فإنها حصول التعاون بين الشركاء والتناوب في الأموال والأعمال والتعاون العقلي والتعاون العملي فمن رحمة الشارع وحكمته إباحتها جميعاً والحث عليها وعلى المناصحة كما في الحديث يقول الله تعالى: (أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما).

ومقتضى هذا الحديث وغيره أن جميع المشاركات في كل تصرف جائزة ما لم يمنع منه مانع شرعي، وأنواعها: إمّا أن يقع الاشتراك في المال والعمل منهما كشركة العنان والوجوه وإمّا أن يكونا شريكين في العمل وحده كشركة الأبدان، وإما أن يكون من أحدهما المال ومن الآخر العمل وهي المضاربة وإما أن يجمع ذلك كله فهي شركة مفاوضة وعلى كل حال فلا بد من العلم بالمال الذي وقعت فيه الشركة والعمل الذي وقعت عليه ولا بد فيها من العلم بما لكل منها من الكسب والربح ولا بد فيها من العدل وهي الاستواء فيما يحصل لهما من المكاسب والأرباح وما عليهما من النقص والإجاحة فإذا جمعت هذه الأمور كانت مباحة حلالاً وإذا اختل واحد منها اختلت الشركة وفسدت.
وإما اشترط غير هذا من الشروط التي لا دليل عليها وهي تضيق ما وسّعه الله كاشتراط المال فيها أن يكون من النقدين المضروبين أو أنه إذا اشترك ثلاثة واحد منه العمل والآخر منه الدابة والثالث منه المحل أو معهم رابع منه الطاحونة أو المعصرة لم تصح فإنها وإن كانت المشهور عند أصحابنا المتأخرين رحمهم الله وغفر لهم فإنها ضعيفه جداً والقول بصحة ذلك قول محققي الأصحاب والله أعلم.

واعلم أن المساقاة والمزارعة داخلان في أنواع الشركة يشاركانها في أكثر الأحكام لأن من أحدهما الأرض والشجر الذي لم يغرس ومن الآخر السقي والعمل والثمرة بينهما على حسب شرطيهما وكذلك المزارعة من أحدهما الأرض ومن الآخر البذر والسقي والإصلاح والغلة بينهما فيصحان بجزء مشاع معلوم من الثمر والزرع وبشيء معلوم مقدر مضمون فالأول مشاركة يشتركان في الزيادة والنقص، والثاني إجارة يلزم العامل ذلك المقدر من دراهم أو غيرها ولو من جنس الخارج من الأرض وله جميع الغلة وكلا الأمرين قد ثبت جوازهما مع مصلحه الناس وبعضهم يرغب هذا دون هذا وهذا على الصحيح، المذهب لا بد أن يكون البذر من رب الأرض.

**سؤال ـ ٦٥ ـ ما هي العقود اللازمة والجائزة والفرق بينهما؟**

الجواب: وعليه نتوكل ونسأله الهداية والصواب: اعلم أن العقود لما كانت تابعة لمنافع الخلق ومصالحهم المتنوعة اختلفت أحكامها باختلاف تلك المنافع وهي ثلاثة أقسام أو أكثر:

أحدهما: عقود لازمة وهذه نوعان أحدهما يلزم بمجرد عقده فلا يثبت فيه خيار مجلس ولا شرط وقد يثبت في بعضه خيار العيب وذلك كعقد الوقت والنكاح ونحوها.

والثاني: عقد لازم ولكن جعل له الشارع خيار مجلس وسوغ للمتعاقدين أن يمدا في ذلك بخيار شرط لكثرته وربما حصل من غير فكرة وترو فجعل الخيار فيه لاستدراك ما لعله فات على الإنسان من الحظوظ وذلك كالبيع بأنواعه إلا أن الأصحاب لم يجعلوا خيار شرط فيما قبضه شرط لصحتهُ كالسلم وبيع الربويات بعضها ببعض، وشيخ الإسلام رحمه الله يجوز فيها خيار الشرط لعدم المحذور في ذلك وللمصلحة في ذلك والإجارة وما أشبهها من العقود والصحيح أن المساقاة والمزارعة من هذا الباب عقود لازمة لأنها شبيهة

بالإجارة وهي إحدى الروايتين عن الإمام وعليه عمل الناس والمذهب أنها من القسم الثاني وهو العقود الجائزة من الطرفين والأول أصح.

القسم الثاني: العقود الجائزة من الطرفين لكل منهما فسخها وذلك كالوكالة والولاية وأنواع الشركة سوى المساقاة والمزارعة والجعالة قبل العمل وبعده فيه خلاف، فهذا النوع ينفسخ بموت أحدهما واختلال تصرفه بخلاف النوع الأول فإنه لازم ويقوم الوارث في الإجارة ونحوها مقام مورثه.

ويستثنى منه إذا أجر الموقوف عليه الوقف فانتقل إلى من بعده فالمشهور انفساخه والصحيح أنه لا ينفسخ كما لا ينفسخ إذا أجره الناظر الخاص أو العام لأنه وإن كان الريع والغلة ينتقل إلى البطن الثاني مثلاً فالتصرفات باقية أحكامها كسائر الإجارات ولو كانت تنفسخ لم يكن المستأجر على ثقة مما استأجره وهذا ظاهر ولله الحمد.

القسم الثالث: لازم من أحد الطرفين جائز في حق الآخر، وضابط هذا إذا كان حقاً على زيد وهو لعمرو، فعمرو الذي له جائز في حقه وزيد الذي عليه لازم في حقه وذلك كالرهن جائز في حق المرتهن لازم في حق الراهن، وكذا الضمان والكفالة في حق المضمون له والمكفول له جائز وفي حق الضامن والكافل لازم والله تعالى أعلم.

**سؤال ـ ٦٦ ـ من عمل لغيره عملاً فماله عليه؟**

الجواب: لا يخلو من أحوال إمّا أن يكون متبرعاً بعمله فهذا ليس له شيء عليه وإنما هو محسن وإن كان عمل له بعوض فإن كان محدوداً العمل ملزماً به العامل فأجارة يجب المسنى إذا عمل له العمل وهو عقد لازم من الطرفين وإن كان العمل غير محدود أو محدوداً غير ملزم به العامل فهو جعالة إذا حصل له العمل صار بمنزلة الإجارة وفي وجوب إيفاء الأجرة وقبل ذلك يكون العقد جائزاً من الطرفين وإن كان بإذنه من غير أجرة ولا جعالة فله أجرة المثل خصوصاً إذا كان مستعداً لذلك كالحمال والحمامي وصاحب سفينة والبنا ونحوه وهذا أيضاً

حكمه كالإجارة والفرق بين الإجارة والجعالة من وجوه أحدها أن الإجارة عقد لازم والجعالة عقد جائز.

ثانيها: أن الإجارة لا بد أن يكون العمل معلوماً كالعوض والجعالة قد يكون معلوماً كمن بنى لي هذا البيت فله كذا، وقد يكون مجهولاً كمن رد لقطتي فله كذا.

ثالثها: الإجارة تكون مع معين والجعالة تكون مع معين وغير معين.

رابعها: الجعالة أوسع من الإجارة ولهذا تجوز على أعمال القرب كالأذان والإمامة وتعليم القرآن ونحوها بخلاف الإجارة.

خامسها: الجعالة لا يستحق العوض حتى يعمل جميع العمل. وأما الإجارة ففيها تفصيل يرجع إلى أنه أن لم يكمل الأجير ما عليه فإن كان بسببه ولا عذر له فلا شيء له وإن كان التعذر من جهة المؤجر فعليه جميع الأجرة وإن كان بغير فعلهما وجب من الأجرة بقدر ما استوفى.

وإن كان عمله بغير أجرة لفظية ولا عرفية ولا جعالة بإذنه أو غير إذنه فلا شيء له إلا في تخليص ماله من مهلكة فله أجرة المثل.

وإن كان العمل الذي عمل لغيره أداء واجب عنه وقد نوى الرجوع فإنه يرجع عليه.

**سؤال ـ ٦٧ ـ ما هي الأشياء التي تضمن بها النفوس والأموال؟**

الجواب: الأسباب التي تضمن بها النفوس والأموال ثلاثة: يد متعدية ومباشرة إتلاف بغير حق وتسبب لذلك عدوانا.

أما اليد المتعدية فضابطها كل من وضع يده على مال غيره ظلماً ابتداء أو كان عنده أمانة فانتهت ووجب عليه الرد فإذا تلفت العين في هذه الحال أو تلفت ضمنها صاحب اليد ويدخل في هذا الغاصب على اختلاف أنواعه، ومن كانت عنده أمانة فطلبها صاحبها فامتنع من غير عذر أو انتلقت إلى غيره

وسلكت عليها فهذه الصور تضمن فيها العين وتضمن إجارتها بالتفويت سواء استوفاها الظالـم أو تركها من غير استيفاء.

وأما المباشرة فمن أتلف نفساً محترمة أو مـالاً بغير حق عمداً أو سهواً أو جهلاً فإنه ضامن بخلاف الإتلاف بحق.

وأما السبب فمن فعل ما ليس له فعله في ملك غيره أو في الطرق أو تسبب للإتلاف بفعل غير مأذون فيه فتلف بسبب فعله شيء نفس أو مال ضمنه لكن لو اجتمـع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر فإن تعذر تضمينه ضمن المتسبب ويدخل في السبب ما استثناه الفقهاء يرحمهم الله من إتلافات البهايم فإن الأصل في إتلافات البهائم أنه لا شيء فيه كما نص النبـي ﷺ على هذا الأصل في قوله: (والعجماء جبار) أي هدر واستثنوا من هذا العموم مسائل ترجع إلى تفريط صاحبها وعـدوانه كـالإتلافات الواقعة في الليل كما قضى النبـي ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وعلى أهل المواشي حفظها بالليل وكما إذا كان معها متصرف قادر عليها من راكب وسائر وقائد وكمن أخرج البهيمة الصائلة أو كان يرسلها نهاراً بقرب ما تتلفه والله أعلم.

### سؤال ــ ٦٨ ــ عن أحكام المغالبات وأخذ العوض عليها؟

الجواب: المغالبات بالنسبة إلى أخذ العوض ثلاثة أقسام: قسم يجوز بلا عوض ولا يجوز بعوض وهذا الأصل وهو الأغلب، فدخل في هذا المسابقة على الأقدام والسفن والمزاريق والمصارعة ومعرفة الأشد الأقوى في غير ما فيه تهلكة فهذا إن كان بغير عوض جاز لعدم محذور المقامرة ولأنه مباح في نفسه.

القسم الثاني لا يجوز بعوض ولا غير عوض وذلك كالشطرنـج والنرد وكل مغالبة ألهت عن واجب أو أدخلت في محرم والحكمة فيها ظاهرة لكونها تعين على الإثم والعدوان.

والثالث بالعكس يجوز بعوض وبغير عوض وهو المسابقة والمغالبة بين

السهام والإبل والخيل لصريح الحديث المبيح لذلك في قوله ﷺ: (لا سبق إلا في نصل أو حافر) والمراد أخذ العوض لأن المغالبات العوضية داخلة في الميسر والقمار فلذلك منعت، وهذه الثلاثة مستثناة لأن مصلحتها وإعانتها على الاستعداد للجهاد وتقوية المسلمين أرجح من مضرتها، ولكن الأصحاب اشترطوا فيها محللاً لا يعطى شيئاً إذا كان العوض من الطرفين لأجل أن تخرج عن شبه القمار واختار الشيخ تقي الدين أنه لا يحتاج إلى محلل وأنه يلحق بهذه الثلاثة ما كان في معناها مما يقوي على طاعة الله والجهاد في سبيله والمراهنة في المسائل العلمية لأن الحكمة المبيحة لأخذ العوض في الثلاثة السابقة موجودة فيما كان في معناها وهو الراجح دليلاً والله أعلم.

**سؤال ـ ٦٩ ـ إذا كان بيده مال لغيره وهو لا يعرف صاحبه فما يصنع؟**

الجواب: لا يخلو ذلك من أمرين:

أحدهما: أن يكون قد وجده فهذا لقطة له أحكام اللقطة.

الثاني: أن يكون غصباً أو أمانة أو عارية أو رهناً أو نحوها فهذا متى أيس من وجود صاحبه ومن يقوم مقامه من وكيل ووارث خير بين أمرين: إما أن يدفعه إلى ولي الأمر لأنه ولي من لا ولي له والمتعذر علمه كالمعدوم وإذا دفعه لولي الأمر برىء من عهدته حتى لو وجد بعد تسليمه لولي الأمر لم يلزمه بشيء لأن هذا نهاية ما يقدر عليه حيث دفعه للولي العام وإما أن يتصدق به عن صاحبه ويكون فضولياً لو جاء بعد ذلك فإن أجاز صدقته عنه فذاك وإلا فله تغريمه ويكون الأجر للمتصدق وإنما أبيح له في هذه الحال أن ينوب عنه من غير استنابة خاصة ولا عامة للحاجة إلى ذلك ولتعذر إيصالها إليه فبذلها في الصدقة عنه التي هي أفضل ما بذل الإنسان ماله فيه وللآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم.

**سؤال ــ ٧٠ ــ عن الحكمة في إثبات الشفعة وفي اختصاصها بالعقارات المشتركة.**

الجواب وبالله التوفيق:

اعلم أن الأصل أنه لا ينتزع من الإنسان ما هو ملكه إلا بطيب نفسه ولهذا اشترط الرضى في المعاوضات والتبرعات وهذا من محاسن الشريعة أنه حفظ حقوق الخلق ولم يقهرهم على أخذها إلا بحق والشفعة من الحق فإن النبـي ﷺ: (اثبت الشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة) فالحكمة فيها دفـع الضرر عن الشريك حيث نقل شريكه ملكه إلى غيره واختار انتقاله بذلك العوض والمشتري إلى الآن لم يثبت له من أحكام الاشتراك ما يتضرر بفقده، وأما الشريك الأول فـلأن شريكه لما رغب عن شركته وتبدل بآخر صار أحق بالشقص بذلك الثمن فإن شاء أخذ وأزال عن نفسه ما يظنه أو يستيقن من الضرر وإن شاء ترك والبائـع والمشتري لا ضرر عليهما لأن البائـع سيأخذ ذلك الثمن الذي باع به والمشتري سيرد ما أعطاه أو يخرج كما دخل من غير أن يناله ادنى ضرر فروعي حق الشريك الأول ودفـع ضرره بإثباتها فصار هذا الحكم من أحسن الأحكام وأرفقها بالناس وأبلغها دفعاً للإضـرار وثبت هذا للشريك في العقار لأنه الذي يطول ضرره وأما المنقولات ونحوها فلا شفعة فيها لعدم الضرر فيها وإن وجد فهو يسير بالنسبة إلى العقارات يستدفـع ضرره بالمقاسمة أو البيـع تارة أو التأجير أو نحو ذلك ومـع دفعه الضرر عن الشفيـع، وكذلك عليه أن لا يضر بأحدهما فلا يضر البائـع بتأخير الثمن ومطله بل عليه أن يبادر به ولا يمهل إلا بقدر ما يحضره ولا يضار المشتري بتأخير الأخذ فيبقيه معلقاً حتى أن كثيراً من الفقهاء ومنهم أصحابنا المتأخرون جعلوها على الفور الشديد فلا يمهل زمناً يتروى فيه بل إما أن يأخذ أو يدع وبعض الفقهاء يرى أنه من جملة الحقوق التي لا تسقط إلا بالرضى بإسقاطها بقول أو فعل دال على الرضى ومـع هذا فلا يمكن من تأخير يضر المشتري وهذا غاية العدل.

**سؤال ــ ٧١ ــ ما هو الذي يملك بالإحياء وما لا ؟**

الجواب: قد حد الفقهاء ضابطاً لهذا فقالوا في الذي يحيا وهي الأرض الخالية عن الاختصاصات وعن ملك المعصومين فدخل في هذا كل أرض لا مالك لها ولا لها اختصاص بالأملاك ولا للناس فيها اشتراك وخرج من هذا مما لا يملك ما يضاد هذا فالأرض المملوكة أو التي جرى عليها ملك لأحد معصوم معلوم لا تملك بالإحياء حتى ولو كانت دارسة عائدة مواتاً وكذلك ما تعلق بمصالح الأملاك كالمتعلق بمصالح الدور والبلدان مما يحتاجون إليه في مسيل مياههم ودفن أمواتهم ومحتطباتهم ونحو ذلك وكذلك ما الناس فيه شركاء كالمعادن الجارية أو الظاهرة وكموات الحرم فوجود الإحياء في هذه الأشياء لا يفيد صاحبه شيئاً بخلاف الأول فإن من أحياه ملكه.

**سؤال ــ ٧٢ ــ ما هي الأشياء التي الإنسان أحق بها ولا يملكها ولا ينقل الملك فيها لغيره؟**

الجواب: يدخل في هذه أشياء كثيرة:

منها السبق إلى الأوقاف من بيوت ودكاكين وجلوس بمساجد وطرق فالسابق أحق من غيره وهو غير مالك لذلك.

ومنها المتحجر للموات وهو الشارع بإحياء قبل تمام الإحياء مثل من يحفر بئراً لم يصل ماؤها أو يدور حول الأرض أحجاراً أو حائطاً غير منيع فهو أحق بذلك لكنه إلى الآن لم يملكه فلا يتصرف فيه ببيع ونحوه فإن وجد متشوق للإحياء فيأمره ولي الأمر إمّا أن يحيي أو يرفع يده ويجعل له مدة بحسب الحال.

ومنها المعادن إذا ظهرت بملكه صار أحق بها وهو لا يملكها بذلك ولا يمنع منها من لا يضره.

ومنها مرافق الطرق وافنية الدور ومصالح البلد أهلها أحق بها، وهم لا يملكون بتلك الأحقية، ويعبر عن هذه الأشياء بالاختصاصات.

ومنها من اقطعه الإمام أرضاً ليحييها فهو أحق بها لإقطاعه ولم يملكها إلا بوجود حقيقة الإحياء.

# أسئلة في عقود التبرعات
# من الوقف والوصية والهبة ونحوها

**سؤال ـ ٧٣ ـ عن فائدة الوقف وحكمته وشروطه.**

الجواب: وعلى الله نتوكل ونعتمد في الوصول إلى صواب الجواب وتيسير جميع الأسباب، اعلم أن الوقف الذي هو تحبيس الأصل وتسبيل المنافع من أعظم ما يدخل في الإحسان وأعمها وأكثرها فائدة وهو من الأعمال التي لا تنقطع بموت الإنسان من الآثار التي قال الله فيها:

**﴿إنَّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾.**

[سورة يس: الآية ١٢]

وقال النبي ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم، فالصدقه الجارية كالاوقاف الجارية نفعها كل وقت وزمان سواء كان وقفاً للمصالح العامة كالمجاهدين والمعلمين والمتعلمين ومن يقوم بوظيفة من الوظائف الدينية أو خاصة لطائفة أو أفراد أو على فقراء ومساكين فكل هذا من طرق الإحسان النافع وإن كان يتفاوت بتفاوت نفعه وحصول كمال وقعه، ولما كان بهذه المثابة والفضل اشترط له شروط بعضها يرجع إلى الواقف وهو صحة تبرعه بأن يكون مالكاً رشيداً غير محجور عليه لدين ونحوه وبعضها يرجع إلى نفس الموقوف وهو أن

تكون عيناً ينتفع بها وهي باقية كالعقارات من دور ودكاكين وأشجار وأراض والحيوانات والسلاح والأثاث وكتب العلم والمصاحف، وأما ما لا ينتفع به إلا بإتلافه فذاك يتصدق به صدقة لا يكون وقفاً.

وبعضها يرجع إلى الواقف والموقوف عليه كاشتراط أن يكون على جهة بر وقربة، فجهات المعصية كلها لا يصح الوقف عليها وجهات الأمور المباحة التي لا قربة فيها كذلك وهذا يدل على أن الوقف أعظم مقاصده أن يكون معيناً على البر والتقوى فيعلم من هذا أن الأوقاف التي يقصد بها حرمان بعض الورثة دون بعض أنها منافية لقصود الوقف كل المنافاة وأن قول بعض متأخري الأصحاب يصح وقف ثلث مال الإنسان على بعض ورثته قول شاذ مخالف لهذا الشرط الذي اتفق عليه الأصحاب بل ومناف لما انعقد عليه الإجماع من أنه لا وصية لوارث، وكذلك من عليه دين لم يحجر عليه إذا وقف ملكه وترك غريمه لا وفاء له فهذا مناف للوقف أشد المنافاة لأنه كيف يترك ما فرض الله عليه وفاء الدين ويفعل الإحسان الذي هو غير واجب بل ربما وقفه على نفسه وذريته وترك غريمه فلا يحل تنفيذ هذا الوقف بل ولا كل وقف ليس عليه أمر الله ورسوله بنص النبي ﷺ حيث قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) أي مردود فالعمل غير مقبول والتصرف غير نافذ.

**سؤال ـ ٧٤ ـ إذا احتاج الوقف إلى تعمير من أين يعمر؟**

الجواب: لا يخلو الموقوف إمَّا أن يكون ذا روح أو لا؛ وعلى كل فلا يخلو إمَّا أن يعين الواقف للنفقة والتعمير شيئاً أم لا فإن عين لذلك شيئاً تعين ما عينه وإن ذكر أن الغلة تقدم فيها العمارة على المستحقين تعين ذلك فإن لم يعين فإن كان له غلة كالحيوان الذي له كسب وأجرة فنفقته من ذلك مقدمة وإن كان عقاراً فهل تجب عمارته إذا لم يشرط الموقف ذلك أم لا أم يجب الجمع بين التعمير والتنفيذ بحسب المصلحة أرجحها هذا القول وهو اختيار شيخ الإسلام وأضعفها المشهور من المذهب حيث قالوا لا تجب العمارة مطلقاً، فإن لم يكن

للحيوان غلة فنفقته على الموقوف عليهم إذا كانوا معينين فإن تعذر أوجر منه ما ينفق عليه فإن تعذر بيع بعضه لنفقته باقية وكذلك إذا احتاج الخان أو الدكان الوقف إلى تعمير أوجر منه بقدر ذلك، قال الأصحاب ولا يعمر وقف من وقف آخر ولو اتحدت الجهة الموقوف عليها وأفتى الشيخ عبادة من أئمة الأصحاب المتأخرين بجواز عمارة وقف من وقف آخر إذا كانا على جهة واحدة، قال المنقح في التنقيح وعليه العمل والله أعلم.

### سؤال ـ ٧٥ ـ من هو الناظر على الوقف وما وظيفته وصفة تنفيذه؟

الجواب: الناظر عليه من شرط الواقف له النظر إما لشخصه كقوله الناظر زيد ومن بعده عمرو أو لوصفه كالناظر عليه المصلح من أهل الوقف أو من الطائفة الفلانية أو إمام المسجد أو قيم المدرسة فإن لم يشرط ناظر أو شرطه وتعذر لموت أو امتناع فإن كان الموقوف عليه معيناً فهو الناظر عليه إن كان مكلفاً وإلا فوليه وإن لم يكن الموقوف عليه معيناً بشخصه أو وصفه فالنظر للحاكم وليس له النظر مع وجود ناظر خاص أو مستحق لكن عليه تفقد الأوقات التي بعمله والإلزام بإجرائها مجراها الشرعي، وعلى الناظر حفظ الوقف وعمارته وإيجاره والمساقاة عليه وحفظ ريعه وتصريفها على ما نص عليه الواقف ما لم يخالف المقصود الشرعي وله الأكل منه بالمعروف ولو لم يكن محتاجاً وله التقرير في وظائفه وعزل من يستحق العزل لخلل أو إخلال بواجبه فإن نقص الريع عن جميع التنفيذات فإن كان فيها ترتيب قدم المقدم وآخر المؤخَّر وإن لم يكن فيها ترتيب نقصها كلها بالقسط وإنْ زاد الريع فإن كان يخاف نقصه في العام المستقبل أو ما يعده تعين إرصاده إذا كان الموقوف عليهم مقدراً استحقاقهم وإلا أعطاهم جميعه فإن كان لا يخاف نقصه فإن شاء زادهم على ما قدره الوقف وإن شاء وضعه في غيرهم من الفقراء والمساكين ونحوهم وعليه العمل بالأصلح فإن خرب وتعطلت منافعه بالكلية أو كان لا يغل إلا شيئاً لا يحصل به نفع وجب بيعه أو بيع بعضه لتعمير باقيه ووضعه في مثله أو بعض مثله وبمجرد شراء البدل

يصير وقفاً وإن لم يتعطل نفعه بل نقص وكان غيره أصلح وأنفع للموقوف عليهم فهل يباع في هذه الحال فيها روايتان عن الإمام أشهرها المنع. والثانية الجواز وهي اختيار شيخ الإسلام ولكن في هذه الحال لا ينبغي أن يستقل الناظر في بيعه بل يرفع الأمر للحاكم ويجتهد في الأصلح لأنه في هذه الحال يدخلها من الهوى والخطأ ما يحتاج إلى رفعه ورفع المسؤولية عنه بالحاكم والله أعلم.

**سؤال ـ ٧٦ ـ عن الفرق بين الهبة والوصية وما يجتمعان فيه.**

الجواب: يجتمعان في كونهما عقدي تبرع يثبت لهما أحكام التبرعات ومن أحكام التبرعات أن ما جاز إيقاع عقد البيع عليه جازت هبته والوصية به بل التبرع أوسع فإن الغرر لا يضر فيه فالصواب جواز هبة الذي لا يقدر على تسليمه والدين في الذمم كما يصح الإيصاء فيه وهو أحد القولين في المذهب ولكن المشهور عند المتأخرين جواز الغرر في الوصية لا في الهبة والفرق غير صحيح.

وأما الفروق بينهما فالهبة هي التبرع بماله حال الحياة والصحة والوصية التبرع به بعد الوفاة والهبة يعتبر لها القبول من حينها والوصية محل قبولها وردها بعد الموت.

ومنها أن الوصية تكون من الثلث فأقل لغير وارثه وأما الهبة فتجوز بجميع ماله للورثة وغيرهم إلا أنه يجب عليه أن يسوي في عطية أولاده بقدر إرثهم والمذهب: يجب التسوية في عطية الورثة كلهم غير الزوجات والحديث إنما يدل على وجوب العدل بين الأولاد.

ومنها أن الوصية مقدم عليها الدين على كل حال وأما الهدية فإن كان محجوراً عليه فكذلك وإلا نفذت إلا على اختيار الشيخ ولكنه يحرم عليه أن يتصدق ويهدي بما يضر غريمه.

ومنها صحة وصية الصغير المميز دون هبته والفرق بينهما أن الهبة

إنما امتنعت منه لحفظ ماله والوصية إنما تثبت بعد موته وفيها مصلحة محضة.

وأما العطية في مرض الموت المخوف فتشارك الوصية في أكثر الأحكام وإنما تفارقها بأمر يعود إلى نفس العقد من اشتراط قبولها حينها ومن تقديم الأول على الثاني عند المزاحمة وأحكام الهدية والهبة والصدقة والعطية متفقة إلا إذا كانت في مرض الموت فكما تقدم ويفرق بينها بفروق لطيفة فما قصد به إكرام المعطي ومحبته فهو الهدية وما قصد به ثواب الآخرة المجرد فهو الصدقة والغالب فيها أن المعطى يكون محتاجاً بخلاف الهدية والهبة والعطية والله أعلم.

**سؤال ــ ٧٧ ــ ما حكم الوصية وبأي شيء تثبت وما يبطلها؟**

الجواب وبالله التوفيق: الوصية تجري فيها أحكام التكليف الخمسة بحسب أسبابها فتجب الوصية على من عليه حق بلا بينة أو حق واجب لا تخرجه الورثة إلا بالوصية ويحرم على من له وارث بزائد على الثلث لأجنبي ولوارث بشيء إلا بإجازة الورثة بعد موته وتسن لمن ترك خيراً يغني ورثته وتكره لفقير له ورثة فقراء وتباح له إن كانوا أغنياء.

وأما ثبوتها فمن مكلف رشيد أو مميز يعقلها إذا وصى قبيل موته بلفظه أو خطه المعروف، وتبطل برجوعه وتلف المعين الموصى به وموت الموصى له قبل الموصي وقتله للموصي ورده لها بعد الموت واستغراق الدين للتركة والله أعلم.

* * *

# أسئلة في المواريث

**سؤال ــ ٧٨ ــ ما أقرب طريق يعين على فهم المواريث وكيفية ذلك؟**

الجواب: ونسأله تعالى أن يعيننا على إصابة الصواب إنه جواد كريم.
اعلم أن أحكام المواريث صنفت فيها التصانيف المستقلة من مختصرة ومطولة وقد ذكر العلماء من فضلها والاهتمام بشأنها ما لا يتسع هذا الموضع لذكره وهي من الأحكام التي بينها الله مفصلة في كتابه وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأَوْلى رجل ذكر) ولما كانت على هذه الصفة قل الخلاف فيها جداً بالنسبة إلى غيرها وحصل الاتفاق على أحكامها ولله الحمد لأن الآيات القرآنية المتعلقة بها مع الحديث المذكور تجمع مسائلها وتضم متفرقاتها وإلحاق الفرائض بأهلها ثم ما بقي يعطى أقرب العصبات هو الطريق لفهمها فلا أبلغ في التعليم من سلوك الطرق التي نبه الشارع عليها لكمال علمه وسعة حكمته ورحمته ولننشر ذلك وننبه عليه تنبيهاً يحصل به المقصود فاعلم أن أحكام الفرائض كلها تنبني على معرفة ثلاثة أمور أحدها في ذكر أهل الفروض والشروط المشترطة لإرث كل منهم فرضه المخصوص.

والثاني في ذكر العصبات ودرجاتهم وكيفية تقديم بعضهم على بعض.

الثالث: في ذكر الرد والعول، وأما إرث ذوي الأرحام فهو فرع عن ذلك.

أما الأمر الأول ففي ذكر أهل الفروض وشروط إرثهم لها.

أما الفروض فهي النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فرضها الله للزوجين وللبنات وإن نزلن والأخوات مطلقاً والإخوة من الأم والأصول مطلقاً فالزوج له حالتان: يرث النصف إذا لم يكن لزوجته ولد صلب ولا ولد ابن لا ذكر ولا أنثى لا منه ولا من غيره وهذا هو المراد بالولد عند الإطلاق، وله الربع مع وجود أحد من المذكورين.

والزوجة واحدة أو متعددة لها حالتان: ترث الربع مع عدم الولد والثمن مع وجوده.

وللأم ثلاث حالات: ترث السدس مع وجود الولد أو اثنين فأكثر من الإخوة والأخوات.

وترث الثلث مع فقد المذكورين، وترث ثلث الباقي في العمريتين وهما أب وأم مع زوج أو زوجة. أما الجدة أو الجدات فليس لها إلا حال واحدة حيث ورثت. ترث السدس بكل حال والأب يرث السدس مع وجود الأولاد ذكوراً أو إناثاً فمع الذكور لا يزيد عليه ومع الإناث إن بقي بعد الفروض شيء أخذه ومع عدم الأولاد مطلقاً يرث بلا تقدير والجد عند عدمه حكمه حكمه إلا في العمريتين فللأم مع الجد فيهما ثلث كامل والصحيح أن حكمه حكم الأب مع الإخوة مطلقاً وأنهم لا يرثون معه كما لا يرثون مع الأب وهو إحدى الروايتين عن أحمد اختارها الشيخ وهو أصح بل هو الصواب لأدلة كثيرة عليه.

وللبنت الواحدة النصف إذا لم يكن في درجتها أحد وبنت الابن كذلك بشرطين: أن لا يكون بدرجتها أحد ولا فوقها أحد. والأخت الشقيقة بثلاثة شروط: عدم الفروع مطلقاً وعدم الأصول الذكور وأن لا يكون بدرجتها أحد وللأخت للأب بهذه الشروط وعدم الأشقاء والثلثان لثنتين فأكثر من المذكورات بهذه الشروط وأن لا يكون بدرجتهن ذكر يعصبهن فإن كان بنت وبنت ابن فأكثر كان للبنت النصف ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين فإن استغرقت العاليات

الثلثين سقطت النازلات إلا أن يكون بدرجتهن أو أنزل منهن من أولاد الابن ذكر فيعصبهن ويسمى القريب المبارك ومثلهن الأخوات من الأب مع الشقيقات إلا أنه لا يعصبهن إلا أخوهن وأما ابن الأخ فلا يعصبهن بل يختص بالباقي تعصيباً لأنه من غير جنسهن وإذا كان بنات صلب أو بنات ابن معهن أخوات شقيقات أو لأب أخذت الأخوات ما فضل عن فرض البنات.

وأما الإخوة للأم ذكورهم وإناثهم فيرثون في الكلالة وهو من لا له فروع ولا أصول ذكور الواحد منهم السدس والاثنان فأكثر الثلث يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم لأنهم خالفوا باقي الورثة في مسائل منها هذه ومنها أن كل ذكر يدلي بأنثى فلا إرث له إلا الإخوة للأم ومنها أن كل من أدلى بوارث حجبه ذلك المدلى به إلا الإخوة للأم مع الأم إجماعاً وإلا الجدة أم الأب وأم الجد مع الأب والجد في قول جمهور العلماء إذا تقررت أحوال أهل الفروض.

الأمر الثاني في العصبات ودرجاتهم وكيفية ترتيبهم في الإرث وبما تقدم يعلم الحجب.

فالعصبات حدهم هم الذين يرثون بلا نصيب مقدر فيترتب على هذا أن الواحد منهم إذا انفرد أخذ المال كله وإذا بقي بعد الفروض شيء أخذه قليلاً كان أو كثيراً وإذا استغرقت الفروض التركة سقط العاصب حتى في المسألة التي يسميها الفرضيون الحمارية وهي: زوج له النصف، وأم لها السدس وإخوة لأم لهم الثلث وإخوة أشقاء عصبة يسقطون كما هو مذهب الإمام أحمد وجمهور العلماء وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر) مفهوم الحديث أنه إذا لم يبق شيء سقط العاصب من دون تفصيل فدخلت فيه هذه المسئلة ولهذه المسئلة أدلة ذكرت في غير هذا الموضع.

وأما درجات العصبة فالذي عليه المعول أن جهات العصبة خمس: (١) البنوة وإن نزلوا (٢) والأبوة وإن علوا بمحض الذكور (٣) والإخوة وأبناؤهم وإن نزلوا بمحض الذكور وإن نزلوا (٤) والأعمام لأب أو لهما وأبناؤهم وإن نزلوا

(٥) والولاء. فإن وجد عاصب واحد من هذه الجهات الخمس ثبتت له أحكام العاصب السابق يأخذ المال إذا انفرد أو ما أبقت الفروض أو يسقط بالاستغراق وإن وجد اثنان فأكثر فلا يخلو إما أن يكون كل واحد في جهة أو يكونوا في جهة واحدة فإن كان كل واحد في جهة قدم الأقرب جهة كما تقدم فإن كانوا في جهة واحدة قدم الأقرب منزلة على الأبعد ولو كان الأبعد شقيقاً فإن كانوا في المنزلة سواء قدم الأقوى وهو الشقيق على الذي لأب فتقديم الابن على باقي العصبات تقديم للجهة وتقديمه على ابن الابن من باب قرب المنزلة وتقديم الأخ الشقيق على الذي لاب من باب تقديم القوة فإن تساووا من كل وجه اشتركوا وهؤلاء العصبات مع أخواتهم قسمان: قسم للذكر مثل حظ الانثيين وهم البنون وبنوهم مع أخواتهم والإخوة الأشقاء أو لأب مع أخواتهم، وقسم ليس لأخته معه شيء لكونها من ذوي الأرحام وهم باقيهم فعلم مما تقدم أن الأخوات مع أخواتهم في المواريث ثلاثة أقسام: هذان القسمان والثالث الذكر والأنثى سواء وهم الإخوة للأم.

وقد علم أيضاً من هذا ومما سبق أن العصب ثلاثة أنواع عاصب بنفسه وهم جميع الذكور إلا الزوج والأخ للأم والمعتقة وعاصب بغيره وهن البنات وبنات الابن والشقيقات واللاتي للأب مع إخوتهن لأنهم يعصبونهن ويمنعونهن الفرض وعاصب مع غيره وهن الأخوات الشقيقات أو لأب مع البنات أو بنات الابن. وقد علم أيضاً مما سبق أن ابن الابن لا يسقط إلا بالابن أو باستغراق الفروض وأن الجد لا يسقط إلا بالأب أو بجد أقرب منه وأن الجدة تسقط بالأم وكل جدة قريبة تسقط البعيدة، وأن الابن وابن الابن والأب يسقطون جميع الإخوة والأخوات بالإجماع وكذلك الجد على الصحيح وأن الإخوة للأم يسقطون بالفروع مطلقاً ذكوراً كانوا أو إناثاً وبالأصول الذكور لتصير المسئلة كلالة وأن الإخوة للأب ذكوراً كانوا أو إناثاً يسقطون مع ذلك بالإخوة الأشقاء الذكور وبالشقيقة إذا كانت عصبة مع البنات لأنها تقوم مقام الأخ وأن بنات الابن يسقطن بالابن وباستكمال من فوقهن الثلثين إن لم يعصبهن من هو في

درجتهن أو أنزل منهن وكذا الأخوات للأب مع الشقيقات إلا أن الأخوات للأب لا يعصبهن إلا أخوهن وأن بني الإخوة يسقطون بجهة البنوة كلها وبالأبوة وبعصوبة الإخوة أشقاء أو لأب ويدخل في قولنا بعصوبة الإخوة الأخت شقيقة أو لأب إذا كانت عصبة مع البنات أو بنات الابن وأن النازل من بني الإخوة ولو شقيقاً يسقط بمن فوقه ولو كان لأب وأن الأعمام وإن قربوا يسقطون ببني الإخوة وإن نزلوا وبعدوا والعم للأب مقدم على ابن العم الشقيق. وهكذا على هذا الترتيب. وقد علم من ذكر الوارثين من الأقارب من أصحاب الفرض والتعصيب أن من عداهم من ذوي الأرحام كأولاد البنات وأولاد الإخوة للأم وأولاد الأخوات وبنات الإخوة وبنيهم والعمات وبنات العم والخال والخالة والجد من جهة الأم، فكل هؤلاء من ذوي الأرحام لا يرثون ما دام أحد من أهل الفروض أو العصبة لأنه إن وجد عاصب أخذ المال كله بجهة العصب وإن كان صاحب فرض أخذ المال فرضاً ورداً فإذا عدموا ورث ذوو الأرحام ونزلوا منزلة من أدلوا به بفرض أو تعصيب. ولذلك قلنا فيما سبق أنهم متفرعون عنهم وعلم أن الأب والأم والابن والبنت والزوجين لا يسقطان أبداً إلا بالوصف فالحجب بالوصف وهو أن يتصف الوارث بمانع كرق واختلاف دين وقتل يمنعه يمكن دخوله على جميع الورثة وحجب النقصان أيضاً يدخل على جميع الورثة وأما حجب الحرمان بالشخص فلا يدخل على الخمسة المذكورين.

الأمر الثالث: العول والرد.

أما العول فسببه ازدحام الفروض غير الساقطة حتى تزيد على أصل المسئلة فحينئذ يتعين التعويل وينقص كل صاحب فرض بحسب ما دخل على المسئلة من العول قلة وكثرة. وقد اتفق أهل العلم عليه اتباعاً للصحابة رضي الله عنهم وسلوكاً لطريق غاية ما يستطاع من العدل. وقد اشتهر خلاف ابن عباس رضي الله عنه ولكنه لم يتابع على هذا القول وإذا كان العول سببه ازدحام الفروض فلا يتصور في أصل اثنين ولا أصل ثلاثة ولا أصل أربعة ولا أصل ثمانية لأنها إما أن تكون فروضها ناقصة وإما أن تكون عادلة ولا يتصور أن تزيد فروضها عن أصلها وإنما يكون العول في أصل

ستة واثني عشر وأربعة وعشرين فتعول الستة إلى سبعة في زوج واختين لغير أم وإلى ثمانية إذا كان معهم أم وإلى تسعة إذا كان مع الجميع أخ لأم وإلى عشرة إذا كان أخوة الأم اثنين فأكثر.

وتعول الاثنا عشر إلى ثلاثة عشر كزوج وبنتين وأم وإلى خمسة عشر إذا كان معهم أب وإلى سبعة عشر في زوجة وأم وأختين لغير أم وأختين لها وتعول الأربعة والعشرون مرة واحدة إلى سبعة وعشرين في زوجة وأبوين وابنتين فتبين أن العول سببه زيادة الفروض على أصل المسئلة، حيث لا يمكن أن يكمل لكل واحد فرضه ولا حجب بعضهم بعضاً.

وأما الرد فسببه ضد سبب العول بأن تنقص الفروض عن أصل المسئلة ولا بد من عدم العصبات كلهم فيرد على أهل الفروض بقدر فروضهم وتؤخذ سهامهم من أصل مسئلتهم ويجعل المال على نسبة تلك السهام فجدة وأخ من أم من اثنين لأن لكل واحد منهما سدساً وهو واحد من ستة ومجموعهما اثنان فلكل منهما نصف المال وبنت وبنت ابن من أربعة وزوج وبنت من ثلاثة وزوجة وأم من سبعة فعلم من هذا أن الرد يشمل جميع أهل الفروض حتى الزوجين على القول الصحيح لأنه كما أجمع على دخول العول على فروضهم فالرد الذي دليله من جنس دليل العول كذلك والرد عليهم مروي عن أمير المؤمنين عثمان وبه قال شيخ الإسلام ولا دليل يدل على التفريق بينهم وبين سائر الفروض خصوصاً إذا فهمت أصل الحكمة في توزيع المال على الورثة فإنها لو وكلت قسمة المواريث إلى اختيار المورثين أو الوارثين أو غيرهم لدخل فيها من الجور والضرر والأغراض النفسية ما يخرجها عن العدل والحكمة ولكن تولاها الحكيم العليم فقسمها أحسن قسم وأعدله بحسب ما يعلمه تعالى من قرب النفع وحصول البر وإيصال المعروف إلى من يجب إيصال المعروف إليه ولذلك لما ذكر توزيعها قال:

**﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضةً من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾**. [سورة النساء: الآية ١١]

فدل على وقوعها في غاية العدل والحكمة التي يحمد عليها فكما دخل

العول على الزوجين ونقصت فروضهم مع سائر من معهم فليدخل الرد عليهم فتزيد فروضهم مع من زادت والله أعلم.

وقد علم مما سبق في ذكر الوارثين أن أسباب الإرث ثلاثة النسب ويدخل فيهم جميع القرابة قربوا أو بعدوا، ونكاح صحيح، وولاء، والمراد بالولاء من تولى عتاقة رقبتي بمباشرته للعتق أو عتق جزء منه فيسري إلى بقيته أو يملك ذا رحم محرم فيعتق عليه بالملك أو يمثل برقيقه فيعتق عليه، فالمباشر لذلك أو المتسبب له يثبت له ولاء الميراث ولو كان المعتق أنثى فإن لم يوجد المعتق صار ولاؤه لعصبته من النسب المتعصبين بأنفسهم لا بغيرهم ولا مع غيرهم ويترتبون ترتيب عصبة النسب فإذا عدمت هذه الأسباب الثلاثة كلها فالمشهور من المذهب أن تركته تكون لبيت المال، والمشهور من المذهب أن التعصيب فقط لعصبة الملاعنة، وعنه رواية أن الملاعنة عصبة لولدها وكذلك الملتقط ومن أسلم على يده ومن بينه وبينه محالفة ومعاقدة واختاره الشيخ تقي الدين وهو الصحيح.

وأما موانع الإرث فثلاثة القتل بغير حق عمداً أو خطأ والرق الكامل فإن كان مبعضاً تبعضت أحكامه واختلاف الدين وحكمتها ظاهرة، وشروط الإرث ثلاثة: العلم بالجهة المقتضية للإرث لأنه لا بد من تحقق السبب الذي ينال به الإرث وتحقق موت المورث أو إلحاقه بالأموات كالمفقود بعد مدة الانتظار وتحقق وجود الوارث أو إلحاقه بذلك فالحمل يرث إذا امتنع الزوج من وطئها قبل الموت وولدت ما يمكن أن يكون موجوداً وقت الموت فإن لم يمتنع فذكر أصحابنا أنه إذا ولدته لأقل من ستة أشهر وعاش فإنا نعلم وجوده قبل الموت، ويوقف للحمل إن اختار الورثة قسمتها قبل الولادة فإن ولد حياً حياة مستقرة ورث.

ومما يلحق بالورثة الموجودين المطلقة في مرض الموت المخوف إذا انقضت عدتها فإنها وإن كانت الآن غير زوجة لكنها تلحق بالزوجات لأنه متهم بطلاقها في مرضه المخوف لأجل حرمانها الميراث فلا تحرم منه ومما يلحق بالورثة المفقود في مدة الانتظار حكمه حكم الأحياء وبعد مضيها حكمه حكم الأموات في إرثه والإرث منه.

والصحيح أن الانتظار لا يقدر بمدة معينة لشخص لا مرجو السلامة ولا مرجو الهلاك بل يضرب له مدة بحسب حاله وحال الوقت الذي هو فيه إذا لم يغلب على الظن هلاكه، لأنه لما تعذر الوصول إلى اليقين وجب الاجتهاد في الوصول إلى ذلك فما دام فيه نوع رجاء فلا يحكم بموته، فإذا انقطع الرجاء فيه ألحق بالأموات. وأما المشهور من المذهب فيقدر لمن كان ظاهر غيبته الهلاك مدة أربع سنين ولمن ظاهرها السلامة تتمة تسعين سنة منذ ولد، وهذا التحديد بعيد من الصواب ومن العلل الشرعية.

* * *

# أسئلة في الأنكحة

## سؤال ـ ٧٩ ـ عن الأشياء التي اختص بها النكاح من الأحكام

الجواب: وبالله التوفيق إلى سلوك كل طريق يوصل إلى الهداية اعلم أن النكاح من نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة حيث شرعه الله لعباده وجعله وسيلة وطريقاً إلى مصالح ومنافع لا تحصر ورتب عليه من الأحكام الشرعية والحقوق الداخلية والخارجية شيئاً كثيراً وجعله من سنن المرسلين وطريقة عباده الصالحين بعدما جعله ضرورياً لجميع العالمين وله من الفضائل والمزايا ما تميز عن سائر العقود وثبت له أشياء مميزات يختص بها وربما شاركه قليلاً بعض الأشياء بحسب الأسباب الموجبة لذلك وجعل للدخول فيه شروطاً وآداباً وللخروج منه حدوداً وأبواباً.

فأول ذلك: ما تميز به من الفضائل والمصالح وأنه من الشرائع المأمور بها إيجاباً أو استحباباً.

ثانياً: ومنها: أنه يبيح للإنسان النظر إلى الأجنبية حين يريد خطبتها وتقع في قلبه محبتها ليحصل الالتئام ويتم الاتفاق.

ثالثاً: ومنها: أن الشارع حث على تخير الجامعة للصفات الدينية والصفات العقلية والأخلاق الجميلة فقال تعالى:

﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ [سورة النساء: الآية ٣].

وقال النبي ﷺ: (تنكح المرأة لأربع لحسبها ومالها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يمينك) فحث على مراعاة الدين قبل كل شيء لأن الدين يصلح الأمور الفاسدة ويعدل الأمور المعوجة، وتحفظ زوجها في نفسها وماله وولده وجميع ما يتصل به، فالصفات الأخر إنما هي أغراض منفردة نفسية وأما الدين فصفة جامعة نافعة حالاً ومالاً.

رابعاً: ومنها أن جميع المعقود عليه من أنواع المعاوضات وغيرها لا حجر على إنسان فيما أحله له الشارع من غير مراعاة عدد وأما النكاح فأباح للإنسان من الأزواج إلى أربع لا يتعداهن ولا يزيد عليهن جميعاً لخطره وشرفه ولئلا يترتب على الإنسان من الحقوق ما يعجز عنه، ولئلا يدخله في الحرام في أكثر أحواله ولمراعاة مصلحة المرأة، ومع ذلك فقال:

**﴿فإن خفتم ألَّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألَّا تعولوا﴾.** [سورة النساء: الآية ٣]

وهذا بخلاف الوطء بملك اليمين حيث لا يترتب على الإنسان من الحقوق ما يترتب على النكاح فأبيح فيه من غير تقييد بعدد.

خامساً: ومنها: أن النكاح لا يدخل فيه إلا بإيجاب وقبول قوليين وهما ركناه اللذين لا ينعقد إلا بهما، الإيجاب اللفظ الصادر من الولي من قوله زوجتك أو أنكحتك فلانة ونحوها والقبول الصادر من الزوج من قوله قبلت النكاح أو زواجها أو نحو ذلك، وأما سائر العقود فينعقد بما دل عليه من قول وفعل.

سادساً: ومنها: أنه لا بد فيه من تعيين الزوجين لفظاً فتعين الزوجة فيقول: زوجتك بنتي فلانة ويسميها بما تميز به أو يقول ابنتي الكبيرة أو الصغيرة أو الوسطى أو ابنتي فقط إذا لم يكن لها مشارك، وتعيين الزوج من وجهين أحدهما وقت القبول بأن يقول إن كان هو القابل قبلتها أو قبلت نكاحها وإن كان قد وكل من يقبل له فلا بد أن يقول الولي زوجت موكلك فلاناً فلا يقول للوكيل زوجتك ويقول الوكيل قبلت أو قبلتها لموكلي فلان فلا يقول قبلت فقط والثاني عند الخطبة للزوجة فلا يكفي أن يقول خطبتها لأحد أولادي أو إخوتي أو لأحد

بني فلان حتى يعين من يقع العقد والخطبة له، وأما سائر العقود فلا تعتبر هذه الأمور لها فلا يشترط تسمية المعقود له بوجه من الموجوه.

سابعاً: ومنها: إن النكاح أحد ما اشترط له العلماء الشهادة وهو المشهور من المذهب فلا بد فيه من شاهدين عدلين يشهدان به وقت العقد، وعلى الرواية الثانية عن أحمد الشرط فيه أن يكون معلناً فإن حصلت معه الشهادة كان نوراً على نور، وأما سائر العقود فالإشهاد فيها سنة لا واجب.

**ثامناً**: ومنها اشتراط الولي في النكاح فلا يصح النكاح إلا بولي للمرأة يعقده وهو أبوها فإن لم يكن فأقرب عصبتها فإن لم يكونوا فالحاكم ولا بد أن يتصف الولي بصفات الولاية التي ترجع إلى كفاءته وصحة عقده ولو كانت الأنثى من أعقل النساء وأرشدهن فلا تعقد النكاح لنفسها ولا لغيرها من باب أولى وأحرى وأما بقية الأشياء فالولاية إنما تكون إذا كان الإنسان قاصراً في عقله غير محسن لتدبير أحواله فينوب وليه منابه، وأما إذا كان راشداً فيستقل بأحواله في عقوده وتصرفاته والفرق ظاهر لخطر النكاح وانخداع المرأة وعدم معرفتها التامة غالباً وتعلق حقوق القرابة بهذا النكاح حتى أنهم يمنعونها من تزوج من ليس كفوءاً لها ولو كانت راضية بذلك بخلاف سائر العقود فمن رضي المعقود عليه ولو كان معيباً أو كان فيه غبن فاحش فلا حجر عليه من أوليائه إذا كان رشيداً والنكاح يحجرون عليها من تزوج غير الكفؤ وهذا فرق ثامن.

**تاسعاً**: أنه لا بد من استئذان الأولياء غير الأب لمن تم لها تسع سنين ولها إذن صحيح معتبر وأما بقية العقود فمن كان صغيراً قبل بلوغه ورشده فليس على وليه استئذانه في بيع سلعه أو الشراء له بل يستقل وليه بالتصرف له.

**عاشراً**: أن سائر العقود والأشياء يصلح فيها المعاوضة والتبرع التام وإعطاؤها مجاناً، وأما النكاح فلا يمكن أن يخلو من صداق قليل أو كثير فإن كان مقدراً مسمى وجب المسمى زاد عن مهر المثل أو نقص أو ساوى وإن كان لم

يشرط صداق وجب مهر مثلها من نسائها جمالاً ومالاً وديناً وعقلاً وسائر الصفات وإن شرط فيه أن لا مهر ولا صداق لها فالشرط باطل بالاتفاق وهل يبطل النكاح كإحدى الروايتين عن أحمد واختارها شيخ الإسلام أويصح النكاح ويبطل الشرط كما هو المشهور من المذهب وعلى كل فالعوض فيه لا بد منه كما رأيت ويصح بالمال والمنافع الدينية والدنيوية ويجب على الولي فيه أن لا يلحظ سوى مصلحة موليته، ولهذا نهى الشارع عن نكاح الشغار وهو أن يزوج كل واحد منهما موليته على أن يزوجه الآخر موليته ولا مهر أو بمهر قليل، لأن فيه مفاسد كثيرة منها أن الولي لا يلحظ إلا مصلحة نفسه وهي خيانة محرمة.

**الحادي عشر**: إن سائر المعقود عليه العقود الشرعية كله مباح جائز من جميع الأشياء الواقع عليها عقد بيع أو إجارة أو مشاركة أو تبرع. وأما النكاح فجعل الشارع فيه النساء قسمين محرمات على الإنسان لقرابة أو رضاع أو صهر ومباحات وهو من عداهن فالمحرمات في النسب ضابطهن الأصول من الأم والجدات والفروع من البنات وبنات الأولاد وفروع الأب والأم وإنْ نزلن من الأخوات وبناتهن وبنات الإخوة والعمة والخالة والباقي من الأقارب حلال. وإن شئت فقل الحلال من الأقارب بنات العم والعمة وبنات الخال وبنات الخالة ومن عداهِن فحرام، والمحرم في الرضاع نظير المحرم من النسب من جهة المرضعة ومن جهة من له اللبن من زوج وسيد بشرط أن يرضع خمس رضعات فأكثر في الحولين وقت الرضاع وأما من جهة الراضع فلا تنتشر الحرمة إلا عليه وعلى ذريته وإن نزلوا فليعلم ذلك وتحريم المصاهرة أن تحرم على الإنسان حلائل آبائه وإن علون وحلائل أبنائه وإن نزلن وأمهات نسائه وإن علون هؤلاء بمجرد عقد النكاح يترتب تحريمهن والرابعة بنات زوجاته إذا دخل بهن فإن لم يدخل بهن فلا جناح عليه والمقصود أن هذا التحريم خاص بالنكاح بل ثم غير هؤلاء محرمات فيه تحريماً مؤقتاً لإخلاله بما عليه من الحقوق كتحريم أخت زوجته وعمتها وخالتها ما دامت الزوجة في حياله، وكذلك تحريم زوجة الغير ومعتدة الغير لوجود بقية حق الزوج الأول عليها، وكذلك يحرم على من كانت في حج

أو عمرة حتى تحل من إحرامها، فكل هذه الأحكام مختصة بهذا العقد، وكذلك الكافرة غير الكتابية وتحرم المسلمة على الكافر مطلقاً.

**الثاني عشر:** أنه رتب على وجود هذا العقد تحريم المحرمات بالصهر كما تقدم فيصير تحريمهن مؤبداً عليه بسبب هذا الاتصال مع أنها ما دامت في حيال الزوج فهي زوجته وإذا فارقها صارت أجنبية، وأما سائر العقود فالأحكام من الملك والتصرف إنما تتعلق بالمعقود عليه فقط فلا يسري إلى غيره.

**الثالث عشر:** أنه كما يدخل فيه بشروط وحدود فلا يخرج منه إلا بحدود وقيود فإذا أراد أن يطلق زوجته فإنه يؤمر بالصبر عليها فعسى أن يكون فيه خير كثير، وأبغض الحلال إلى الله الطلاق مع أنه من نعمه على العباد، فكما أن من نعمه إباحة النكاح لما يترتب عليه من المصالح كما سبق فمن نعمه مشروعية الطلاق لما يترتب على إباحته من إزالة أضرار كثيرة فإن كان لا بد له من طلاقها فليطلقها لعدتها بأن يطلقها فتبتدىء من حين طلاقه بعدة متيقنة، فلذلك وجب عليه أن لا يطلقها وهي حائض أو في طهر وطىء فيه إلا إن تبين حملها فإنه إذا تبين الحمل وطلقها علم أنها تشرع في العدة وهو انقضاء وضع الحمل. وأيضاً فلم يملكه الله إلا ثلاث تطليقات واحدة بعد واحدة عند احتياجه إليها فلا يحل إرسالها جملة واحدة على الزوجة والمقصود من الفرقة حاصل بواحدة والمقصود أنه إذا طلقها وهي حامل طلقها مبتدية للعدة بالحمل وكذلك إذا طلقها طاهراً لم يمسها فقد طلقها لعدة متيقنة فإنها تبتدىء بعدتها بالإقراء من حين طلاقها وكذلك الصغيرة التي لم تحض والآيسة من المحيض يجوز طلاقها كل وقت لأنها تبتدىء في الحال بالعدة لأن عدتها ثلاثة أشهر وكما أبيح له طلاقها عند الحاجة إليه فيباح الخلع عند الحاجة إليه والخصومة قال تعالى:

**﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**
[سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

فلم يبح الله الخلع إلا في هذه الحالة وأنه يباح بكل ما تراضيا عليه من الفدية ودل ذلك على أن الخلع بينونة لأنه تعالى سماه افتداء ولا يحصل الافتداء

وخلاصها منه إلا بالبينونة ودل على أنه لا يحسب من الطلاق الثلاث وكل هذه الحدود والشروط في الخروج من النكاح لا يساويه فيها غيره من الفسوخ.

**الرابع عشر**: أن جميع الأشياء إذا نقل الإنسان ملكه منها ببيع أو هبة أو غيرها انقطعت علقه منها وصار الثاني المنتقلة إليه قائماً مقامه فيما له من الملك والتصرفات إلا النكاح فإنه متى فارق زوجته بقيت في علقه وتعلقه مدة العدة فإذا كان الطلاق رجعياً وهو ما كان دون الثلاث في نكاح صحيح على غير عوض فله أن يرتجعها إلى نكاحه من غير تجديد عقد ويعود النكاح كما كان، فهذه شروط الرجعة ولها أيضاً مدة العدة النفقة والكسوة والسكنى وإذا مات أحدهما فيها ورثه الآخر ولم يحل لغيره التعريض ولا التصريح بخطبتها وإن كان النكاح بائناً بقيت في علق عدته أداء لحق عقده واستبراء لرحمها عن ولده واحتياطاً للولد وللزوج الآخر فلم يحل لأحد نكاحها فيها ولا التصريح لها بالخطبة وأما التعريض الذي يبدي فيه رغبته للزواج وليس فيه تصريح في الخطبة فإنه يباح، وهذه الخصائص كلها لا يساوي النكاح فيها ولا في بعضها شيء من الفسوخ إلا من أعتق مملوكته أو مات عنها وكان يطؤها فإنها تشاركها في بعض مقاصد العدة وهو الاستبراء فقط لوجوب التمييز بين المياه والتخليص للأنساب وأنه لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره.

**الخامس عشر**: أن جميع الأشياء إذا انتقلت من ملك الإنسان ثم عادت إليه فإنه يباح له الاستمرار على ذلك من غير تقييد بعدد إلا النكاح فإنه نهاية ما يملك ثلاث تطليقات فإذا طلقها الثالثة لم تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر نكاح رغبة لا نكاح تحليل. وقد كانوا في الجاهلية يجرون في هذا العقد مجرى جميع العقود ولا يزال يطلق ويعيدها من غير تقييد بعدد فإذا أراد إضرار المرأة تمكن من ذلك يطلقها ثم يعيدها أبداً. ومن ذلك الحكم.

**السادس عشر**: أنهم في الجاهلية كانوا يرثون الزوجات مع جملة

المتروكات فكان إذا مات عنها كان ابن عمه أحقَّ بها فجاء الله بالإسلام وأنزل الله:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾
[سورة النساء: الآية ١٩]

فصارت تركة الميت جميع مخلفاته من نقود وأثاث وعقارات ومنافع ومملوكات وخرجت الزوجات عن هذا الحكم الجاهلي ولله الحمد.

**السابع عشر:** اغتفار الغرر غير الكثير جداً في النكاح عقداً وفسخاً فيغتفر الغرر في الصداق، وقد ذكر الأصحاب من أمثلة ذلك صوراً متعددة وكذلك يغتفر في فسخه في الخلع والسبب في ذلك أن العوض فيه ليس مقصوداً لنفسه وإنما المقصود إباحة الاستمتاع وانتفاع كل من الزوجين في الآخر بخلاف سائر عقود المعاوضات فإنه كما قصد فيها المعقود عليه، فكذلك العوض ولا يقصر إرادة أحدهما عن الآخر.

**الثامن عشر:** المذهب أن عقود المعاوضات لا يصلح أن يجعل العوض بعضه للمالك المعقود عليه وبعضه لأبيه، والنكاح يجوز فيه ذلك ويلزم فإذا شرط الصداق ألفاً لها وألفاً لأبيها صح ذلك ويترتب على هذا.

**التاسع عشر:** أنه ليس للأب أن يبيع أو يؤجر مال ولده بدون ثمن وأجرة المثل ولو وكله في مطلق العقد. وأما النكاح فيجوز أن يزوج ابنته بدون صداق مثلها ولا يلزم أحداً تتمته لا الزوج ولا الأب والفرق كما تقدم أنه ليس القصد من النكاح نفس الوصول إلى العوض وإنما القصد ما يحصل لأحد الزوجين من المنافع في الآخر، والأب لا يزوجها بدون صداق مثلها إلا لما يرى لها من المصلحة المربية على العوض.

**العشرون:** اختلف العلماء في الذي بيده عقدة النكاح هل هو الزوج كما هو المشهور من المذهب لأنه الذي يملك الإمساك والإرسال أو هو الأب العاقد كما هو الرواية الأخرى عن الإمام وهو ظاهر القرآن فعلى هذا جاز للأب أن

يعفو عما تستحقه الزوجة من نصف الصداق بلا إذنها ولم يجوز الأصحاب العفو عن الثمن ولا عن بعضه للأب، ولكن الذي أرى في هذه الصورة الأخيرة هو القول الآخر في المذهب وهو أن هذه الصور متفرعة عن جواز تملك الأب من مال ولده ما شاء، وأنه إذا جاز أن يتملك من ماله الموجود جاز أن يشرط بعض العوض في البيع والإجارة ونحوها لنفسه وجاز أن يعفو عن بعض الثمن والأجرة ولا فرق والله أعلم.

**الحادي والعشرون:** أن النكاح لا يثبت فيه خيار مجلس ولا خيار غبن ولا خيار شرط ولا غيرها إلا خيار العيب فإذا وجد أحد الزوجين الآخر معيباً عيباً ينفر الآخر منه من غير تقييد بشيء دون آخر على الصحيح ثبت له الخيار إن شاء أبقاه وأمضاه وإن شاء رده وهذا بخلاف عقود المعاوضات فيثبت فيها جميع أنواع الخيار.

**الثاني والعشرون:** أن العقود على المنافع لا بد أن يعين لها أمداً معلوماً وأما عقد النكاح فلا يحل أن يعين له أمد معلوم، فلو فعل صار نكاح المتعة المحرمة في السنة الصحيحة، بل أيد النكاح مدة العمر مع الاتفاق قل أو طال ومدة الاتفاق إذا حصل قبل الموت فراق ويترتب عليه.

**الثالث والعشرون:** أن الأعواض المؤجلة كلها لا بد فيها من أجل معلوم مسمى إلا النكاح فإنه إذا أجل الصداق أو أجل بعضه جاز أن يكون الأجل معلوماً وجاز أن يطلق في تأجيله وإذا أطلق صار حلوله الفراق بموت أو طلاق أو فسخ أو نحوه والسبب فيه العلة السابقة أن العوض مجعول وسيلة لا مقصوداً وأغرب منه.

**الرابع والعشرون:** ما قاله الأصحاب رحمهم الله أنه إذا عين أجله بموت أو فراق لم يصح وإنْ أطلق صح وصار ذلك أجله وفي هذا نظر والله أعلم.

**الخامس والعشرون:** أن السيد إذا ملك عبده شيئاً فله أن يسترده منه متى شاء وله أن يتصرف فيما ملكه إلا في النكاح فإنه إذا زوج عبده ملك العبد

منافع الزوجة وإبقاءها وإرسالها وصار الفراق بيده لا بيد سيده حتى ولو باعه السيد فالنكاح باق.

**السادس والعشرون**: أن من وجد بما عاوض عنه عيباً فله الفسخ وحده وليس لأحد أن يلزمه بالفسخ إذا كان رشيداً إلا النكاح فإن من تزوجت معيباً ولو رضيته فلوليها أبًا كان أو غيره الفسخ، والفرق أن عقود المعاوضات يختص نفعها وضررها المالك والنكاح يتصل نفعه وضرره بالأولياء.

**السابع والعشرون**: إطلاق المعاملة مع الكفار في جميع العقود إلا النكاح فلا يتزوج كافر مسلمة أبداً ولا يتزوج المسلم من الكفار إلا الكتابيات والحكمة فيه قوله تعالى:

**﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾**
[سورة البقرة: الآية ٢٢١]

فاتصال المسلمة بالكافر والمسلم بالكافرة يدعو إلى هذا الضرر الديني.

**الثامن والعشرون**: أن جميع العقود الفاسدة لا تحتاج إلى فسخ لفسادها بل يصير وجوده كعدمه إلا النكاح فإنه إذا عقد عليها عقداً فاسداً فيه خلاف فإنه يلزم بطلاقها ويجبر على ذلك لأجل زوال ما تعلق بها أو ظن تعلقه بها من هذا العاقد ولئلا ينفذه من يرى جوازه.

فهذه ثمانية وعشرون فرقاً بين النكاح وغيره من العقود يسرها الله تعالى وذكر في ضمن كل واحد منها أحكامه الخاصة فصارت مع إفادتها الفرق المذكور مشتملة على المهم من أحكام النكاح، الذي لا يستغني طالب العلم عن معرفته وبالله التوفيق وله المنة.

**سؤال ـ ٨٠ ـ ما هي أنواع الفرق والفسوخ في النكاح وحكمها؟**

الجواب: الأصل في النكاح بعد انعقاده بقاء الزوجية والعصمة وتبقى أحكام النكاح مع بقاء هذا الأصل حتى توجد الفرقة بسبب من أسباب متعددة

شرعية جعلها الشارع سبباً لزوال النكاح وكلها موافقة للحكمة والمصلحة وإزالة الضرر كما هو ظاهر للمتأمل.

الفرقة الأولى: فرقة الطلاق وهي أوسع الفرق دائرة ويقع من سبب وغيره وتقدمت أحكامه قريباً.

الثانية: فرقة الخلع والافتداء وسببها الشرعي إذا حصل بين الزوجين من النفرة والشقاق ما يخرجهما عن الاتفاق وتخاف أن لا يقيما حدود الله وأن لا يؤدي كل حق الآخر فهذه قد أباحها الله تعالى. وأما الخلع من دون سبب فهذا وإن وقع لكنه منهي عنه.

الثالثة: الفراق بموت أحدهما وهذا فراق لا اجتماع بعده في الدنيا، ويتعلق به الميراث من كل منهما من الآخر مع اتفاق الدين والعدة والإحداد منها إذا مات أربعة أشهر وعشر تجنب ما يدعو إلى نكاحها وتربص في بيتها الذي مات وهي فيه ولا تخرج منه بدون حاجة.

الرابعة: فرقة العيوب إذا وجد أحدهما بالآخر عيباً يجهله فله الفسخ فإن كان الفسخ قبل الدخول فلا مهر سواء كان منه أو منها وإن كان بعد الدخول فقد تقرر الصداق بالدخول كما يتقرر بالموت فإن كان العيب به فلا شيء له وإن كان بها رجع بالمهر على من غره بها من ولي وزوجة عاقلة وأجنبي غره بها والله أعلم.

الخامسة: إذا وجدت زوجها عنيناً وثبتت عنته ببينة أو إقرار ولم ييأس من الوطء أجل سنة هلالية لتمر به الفصول الأربعة فإذا مرت ولم يطأ فلها الفسخ، وهذا من خيار العيب لكن أفردوه بالذكر لاختصاصه بهذا الحكم.

السادسة: فرقة من عتقت كلها تحت رقيق كله فإنها تملك فسخ نكاحها إلا إن رضيت به بعد عتقها فلا فسخ لها بعد رضاها.

السابعة: فرقة الإيلاء إذا آلى من زوجته بأن حلف أن لا يطأها أبداً

أو مدة تزيد على أربعة أشهر وطلبت الوطء جعل له أربعة أشهر فإذا مضت فإما أن يطأ ويكفر كفارة يمين وإما أن يطلق أو يفسخ فإن امتنع ألزمه الحاكم بذلك فإن أصر فسخ الحاكم النكاح إزالة لضررها.

الثامنة: من سافر سفراً بعيداً طويلاً وطلبت قدومه لأجل الفراش روسل وضرب له من الأجل ستة أشهر فإن قدم وإلا فلها الفسخ إلا إذا كان سفره لواجب أو لما لا بد له منه فلا فسخ لها لهذا السبب.

التاسعة: فرقة من امتنع من النفقة الواجبة والكسوة الواجبة والإسكان الواجب مع قدرته على ذلك فإذا أصر على الامتناع مع قدرته فلها الفسخ بلا ريب، واختلف فيما إذا أعسر بذلك هل لها الفسخ وهو المشهور من المذهب أو لا تملك الفسخ، كما هو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو ظاهر القرآن فإن الله تعالى قال:

**﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾**.
[سورة الطلاق: الآية ٧].

وأوجب الله تعالى إنظار المعسر في جميع الديون.

العاشرة: فراق من أسلم وبقيت زوجته على كفرها غير الكتابية فإنه لا يحل له أن يمسك بعصمتها لكن إن أسلمت قبل انقضاء العدة فهما على نكاحهما وكذلك الحكم إذا أسلمت تحت كافر.

الحادية عشرة: إذا أسلم وتحته أكثر من أربع أو تحته أختان ونحوهما وجب عليه أن يختار أربعاً ويفارق الباقيات؛ ويختار إحدى الأختين ويفارق الأخرى.

الثانية عشرة: فرقة اللعان إذا قذف زوجته بالزنا وكذبته ولم يكن له بينة شرعية فعليه الحد إلا أن يلاعنها ويشهد عليها خمس مرات بالزنا ويلعن نفسه في الخامسة إن كان كاذباً فإن امتنعت من اللعان فقيل تحبس حتى تقر أو تلاعن وهو المشهور من المذهب، وقيل يقام عليها الحد وهو الصحيح وهو إحدى الروايتين

عن أحمد فإن لاعنت اندرأ العذاب وهو الحبس أو الحد عنها فتلاعن خمس مرات أنه من الكاذبين وتزيد في الخامسة إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فإذا تم لعانها ترتب عليه الفرقة المؤبدة التي لا اجتماع بعدها وانتفى الولد الذي وقع عليه اللعان ونفاه بلعانه.

الثالثة عشرة: امرأة المفقود إذا تربصت بعد انتظاره على حسب الخلاف السابق فيه حكم بموته واعتدت وورثته وبعد العدة يجوز لها النكاح فإذا تزوجت ثم قدم زوجها المفقود خيرت بين بقائها مع زوجها الثاني ويأخذ المهر ويرجع عليها وعلى غيرها بما أخذوه من الميراث لتبين عدم الاستحقاق وبين أن يأخذها من زوجها الثاني.

الرابعة عشرة والخامسة عشرة: إذا امتنع مما وجب عليه من الوطء أو من المبيت مع قدرته وطلبت ذلك فلها الفسخ فالوطء الواجب قيل في كل ثلث سنة مرة وهو المذهب وقيل بقدر كفايتها وعدم ضرره وهو أولى والمبيت الواجب إن لم يكن معه غيرها ففي كل أربع ليالٍ ليلة وإن كان معه غيرها وجب عليه العدل بينهن في المبيت وكذا في النفقة والكسوة على الصحيح، وقيل إذا قام بالواجب من النفقة والكسوة وفضل الأخرى عليها جاز وهو المذهب لكنه ضعيف يخالف ظواهر النصوص الموجبة للعدل بينهن إلا فيما لا يملك الإنسان.

السادسة عشرة: الفرقة إذا امتنع من المهر الحالّ أو إعساره به فلها الفسخ إلا إن مكنته من نفسها فليس لها الامتناع بعد التمكين على المذهب وعلى الصحيح لها ذلك ما لم ترض بتأخيره.

**سؤال ـ ٨١ ـ ما الحق الذي على الزوج لزوجته والذي عليها لزوجها؟**

الجواب وبالله التوفيق يلزم كل واحد من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف من الصحبة الجميلة وتوفيه حقه وعدم مطله فله عليها بذل نفسها وعدم التكره لبذل ما عليها من استمتاع وخدمة بالمعروف ويلزمها طاعته في ترك الأمور

المستحبة كالصيام وسفر الحج والحج الذي ليس بواجب وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ولا تدخله أحداً إلا برضاه وأن تحفظه في نفسها وولده وماله وأما طاعتها له في الأمور الواجبة فألزم وألزم وعليه لها النفقة والكسوة والسكنى بالمعروف والعشرة والمبيت والوطء إذا احتاجت إلى ذلك مع قدرته وعليه أن يؤدبها ويعلمها أمر دينها وما تحتاجه في عبادتها قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾

[سورة التحريم: الآية ٦]

قالوا معناه علموهم وأدبوهم وعليه أن لا يشاتمها ويسبها ويقبح ويهجر من دون سبب فإن حصل نشوز منها وعظها فإن أصرت هجرها في المضجع ما شاء فإن أصرت ضربها ضرباً غير مبرح فإن كان نشوزها لتركه حقها ألزم بما عليه ثم هي بما عليها وإن كان معه سواها وجب عليه أن يعدل بينهن في القسم والنفقة والكسوة والمسكن والسفر فلا يخرج بواحدة منهن إلا بإذن البواقي أو بقرعة وله أن يستمتع منها بما أباحه الله ورسوله استمتاعاً لا يضرها في دينها ولا بدنها وله السفر بلا إذنها ومن العدل إذا تزوج جديدة أن يقيم عندها في ابتداء الزواج ما يزيل وحشتها وقدره الشارع للبكر سبعاً وللثيب ثلاثاً وإن شاءت الثيب سبعاً ويقضي لباقي نسائه سبعاً سبعاً فعل.

**سؤال ـ ٨٢ ـ ما هي الأشياء التي يمتنع بها الزوج من الاستمتاع بزوجته بالوطء وتوابعه؟**

الجواب: هي عبادات وتحريمات أما العبادات فيمتنع الوطء في الصيام الفرض والاعتكاف والإحرام بحج أو عمرة منه أو منها وأما التحريمات فإما أن يكون التحريم بأصل الشرع كالحيض والنفاس وإما أن يكون هو الموقع لها وتختلف الإيقاعات فإن كان قد أوقع عليها إيلاء فهو حلف تحله كفارة اليمين وإن كان قد ظاهر منها وحرمها فلا يمسها حتى يكفر الكفارة الغليظة عتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً وإن كان

قد أوقـع طلاقاً فإن كان بائناً بالثلاث لم تحل له حتى تنقضي عدتها وتتزوج زوجاً آخر ويطأها ثم يطلقها وتنقضي عدتها ويشترط مـع ذلك كله أن لا يقصد بذلك التحليل وإن كان الطلاق بائناً بغير الثلاث إما على عوض أو قبل الدخول أو في نكاح فاسد لم تحل له إلا بعقد جديد تجتمـع فيه شروط النكاح وفي هذه الحال يجوز أن يتزوجها بعد العدة كغيره ويجوز في العدة لأن العدة إذا كانت للإنسان من وطء يلحق فيه الولد لم يكن فيه محذور أن يتزوجها صاحب العدة وإن كان قد طلقها رجعياً فلا يخلو إما أن تكون العدة قد فرغت فلا تحل له إلا بنكاح جديد مجتمعة فيه شروطه، وإما أن تكون في العدة فإن قصد بالوطء الرجعة صارت رجعة وصار الوطء مباحاً، وإن لم يقصد به الرجعة فعلى المذهب تحصل به الرجعة وعلى الصحيـح لا تحصل به رجعة فعليه يكون الوطء محرماً فهذه الأشياء التي يجب على الإنسان الامتناع من وطء زوجته بحسب أسبابها، ويختلف سبب الحل فيها على ما ذكرنا وقد يجب على الإنسان أن يمتنـع من وطء زوجته لغير الأسباب المذكورة وذلك إذا توقف عليه أمر واجب وله صور:

منها: إذا مات عن أمه المزوجة بأجنبـي وله ورثة لا يحجبون الحمل بل يرث ولد الأم معهم كإخوة وأعمام ونحوهم. فإذا مات ولدها وجب على زوجها أن لا يطأها حتى يحصل العلم بوجود الحمل وقت الموت أو عدمه فيتركها حتى يبين حملها أو حتى يستبرئها.

ومنها: من كان له زوجتان فأكثر ففي ليلة إحداهن لا يحل له أن يطأ الأخرى لأن وطأه يوجب ترك العدل الواجب.

ومنها: من كان له زوجة وهو في دار الحرب غير آمن على نفسه وزوجته لم يجز أن يطأها، حتى أنهم قالوا في هذه الحال لا يتزوج إلا لضرورة فإذا اضطر إلى الزواج عزل منها خوفاً من استيلاء الكفار على ما ينشأ من حملها المسبب عن الوطء.

**سؤال ـ ٨٣ ـ من الذي تجب نفقته وما مقدارها؟**

الجواب: يجب على الإنسان نفقة نفسِه ويجب عليه نفقة زوجته وسكناها وكسوتها بالمعروف بقدر يساره وإعساره وكذلك نفقته على مماليكه من الآدميين والبهائم وتوابع النفقة وهذه النفقة للزوجة والمماليك واجبة مع اليسار والإعسار ومع العجز عنها يجبر في نفقة المماليك على بيعهم أو إيجارهم لتحصيل النفقة الواجبة. وأما الزوجة فتقدم في الصحيح أنها لا تملك الفسخ في حال الإعسار وتجب عليه نفقة أولاده ووالديه من ذكور وإناث وارثين أو محجوبين، وأما الحواشي غير الأصول والفروع من الأقارب فأوجبوها عليه إذا كان وارثاً لهم بفرض أو تعصيب، وهذه النفقة المقصود بها المواساة ودفع الحاجة، ولهذا اشترط لها شرطان. غنى المنفق بماله أو كسبه، وفقر المنفق عليه، وكل هذه النفقات مع توابعها مقيدة بالمعروف ويختلف المعروف باختلاف الأوقات والبلدان والأحوال ومتى امتنع من وجبت عليه النفقة في هذه الأحوال أجبر على ذلك ولمن له النفقة مع امتناع المنفق الأخذ من ماله ولو بغير علمه ورضاه، وكذلك الضيف الواجب ضيافته إذا امتنع من ضيافته فله الأخذ قهراً أو بغير علمه مقدار ما يجب له من الضيافة وهذا بخلاف من له حق على آخر من الحقوق التي سببها غير ظاهر فلا يحل له أن يأخذ من ماله مقدار حقه لأنه خيانة أو ينسب إلى الخيانة والإثم حق بين يحال الأخذ عليه، فهذا القول المفصل هو المذهب، وهو أحسن الأقوال في المسألة التي يسمونها مسألة الظفر والله أعلم.

# أسئلة في الجنايات

**سؤال ـ ٨٤ ـ عن الفرق بين العمد وشبه العمد والخطأ وما يوجبه كل منهـا.**

الجواب: أما العمد فهو أن يقصده بجناية تقتل غالباً وهو يعلمه آدمياً معصوماً فدخل فيه جميـع ما قالوا واستثنوا من هذا الضابط إذا جرح ولو جرحاً خفيفاً يغلب على الظن عدم الموت به والصحيـح أنه لا يستثنـى من هذا الضابط شيء وأما شبهُ العمد فهو أن يقصد جناية لا تقتل غالباً فاجتمـع هو والعمد في قصد الجناية واختص العمد بأن الجناية يغلب على الظن موته بها وأما الخطأ فهو مضاد للأمرين كليهما فلا يقصد الجناية وإذا لم يقصد الجناية فقد لزم منه أن لا يقصد القتل أما أن يخطىء في قصده بأن يرمي ما يظنه صيداً فيبين آدمياً معصوماً أو يفعل ما له فعله فيقتل إنساناً وعمد الصغير والمجنون خطأ وأما أن يخطىء في فعله وهو أن يرمي صيداً أو هدفاً فيصيب آدمياً لم يقصده أو ينقلب وهو نائم على إنسان فيقتله فهذه أنواع القتل الثلاثة ولكن أحكامها مفترقة أما العمد العدوان إذا اجتمعت شروطه فيختص به القصاص فالولي مخير إن شاء اقتص وإن شاء أخذ الدية أو صالـح بأكثر منها أو عفى مطلقاً وليس فيه كفارة لعظم جنايته وشدة خطره فلا يقبل التخفيف. وأما الخطأ وشبه العمد فليس فيهما قصاص وإنما فيهما الدية إن لم يعف الولي وإذا كانت الدية من الإبل

غلظت في العمد وشبهه وخففت في الخطأ وإن كانت من غير الإبل فلا تغليظ ولا تخفيف وفيهما أيضاً الكفارة تحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ولا إطعام فيها والفرق أيضاً أن العمد الدية في مال القاتل والخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم الذكور العصبة من أولياء الجاني يحملونه بحسب يسارهم ونخفف عنهم من وجهين التعميم وأنه يكون مؤجلاً بثلاث سنين كل سنة يحل الثلث.

**سؤال ـ ٨٥ ـ ما هي شروط القصاص وشروط الاستيفاء وما الفرق بينهما؟**

الجواب: شروط القصاص والاستيفاء متعلقات بقتل العمد لأنه الذي يختص به القود ولما كان إتلاف النفوس من أعظم العقوبات اشترط له شروط في وجوبه وشروط إذا وجب في استيفائه أما شروط من يجب عليه القصاص فأربعة:

واحد: في القاتل وهو أن يكون مكلفاً فالصغير والمجنون عمدهما وخطؤهما واحد من جهة عدم ترتب القصاص لا من جهة أنه لا يعاقب، ويعزر فالصغير والمجنون يؤدبان ويعزران على كل محرم ليرتدعا ودفعا لصولهما وأذيتهما وواحد في المقتول وهو أن يكون معصوماً محترم الدم، فمن كان دمه لا حرمة له لم يتعلق به قصاص واثنان مشتركان بين القاتل والمقتول المكافأة بأن لا يفضل المقتول القاتل بواحد من ثلاثة أشياء: الإسلام، والحرية، والملك، فلا يقتل المسلم بالكافر ولا الحر بالعبد ولا المكاتب بعبده. والرابع كون المقتول ليس بولد للقاتل فمن كان مكلفاً غير والد للمقتول ولا فاضلاً له في الصفات الثلاث وكان المقتول محترم الدم وكان القتل عمداً وجب فيه القصاص بمعنى ثبت لا بمعنى تعين لأن الولي مخير فإذا اجتمعت هذه الشروط فلا يستوفى مع وجوبه حتى تجتمع ثلاثة شروط: تكليف المستحق الدم ومع صغره وجنونه يحبس القاتل حتى يبلغ ويفيق وفي هذا الموضع لا ينوب وليهما منابهما لخطر القتل ولما فيه من أخذ الثأر

والتشفي المتعلق بمستحق الدم ولا بد من اتفاق المستحقين على استيفائه لعدم تبعضه فإذا أراد بعضهم الانفراد بالقتل منع سواء جهلنا حالة البقية وهل هم عافون أم لا، وينتظر منهم من كان غائباً ومن كان صغيراً. وعن أحمد في هذه والتي قبلها أن الولي ينوب مناب موليه الصغير والمجنون كسائر الولايات لسائر الحقوق وعليه أن يفعل الأصلح من الانتظار أو الإقدام على أحد الأمرين القصاص أو العفو إلى الدية.

الثالث: أن يؤمن في استيفاء القصاص تعديه إلى غير الجاني فلو لزم القود حاملاً لم تقتل حتى تضع، فمتى وجدت الشروط الأربعة السابقة وكان أولياء الدم مكلفين متفقين كلهم على الاستيفاء ولا يتعدى الاستيفاء لغير الجاني وجب بمعنى تعين الفعل. فهذا هو الفرق بين الأمرين شروط وجوب القصاص توجبه بمعنى تثبته وأنه ثبت القصاص الذي خير الشارع مستحقه بين الأمرين الاقتصاص والدية وشروط الاستيفاء تعين الفعل بمعنى أنه انحصر الحكم في القتل لا غير والله أعلم.

**سؤال ـ ٨٦ ـ عن شروط القصاص في الأطراف والجروح ما هي وما حكمها؟**

الجواب: للقصاص في الأطراف والجروح شروط مشتركة مع القصاص في النفس وشروط مختصة فالمشتركة جميع الشروط السابقة في القصاص في النفس فإنها تشترط في الأطراف والجروح ويشترط زيادة على ذلك شروط ترجع إلى العدل والمساواة.

منها أن يكون قطع الأطراف من المفاصل أو ينتهي إلى حد كمارن الأنف وهو ما لان منهُ وفي الجروح أن تنتهي إلى العظام كالشجة والموضحة لأنه إذا لم يكن كذلك فلا بد أن يحصل الحيف وعدم العدل.

ومنها: المساواة في الاسم والموضع في الأطراف والجروح وهذا أيضاً يرجع إلى العدل فلا تؤخذ اليد بالرجل ولا اليمين باليسار ولا جرح الرأس

بجرح غيره ولا بد من مراعاة الصحة والكمال فلا تؤخذ كاملة الأصابع والأظفار بناقصتها ولا عين صحيحة بقائمة وكل هذه الشروط مراعاة للقصاص والعدل وخوف الحيف والجور. ويتعين أن لا يقتص في الأطراف والجروح حتى تبرأ ليستقر الواجب وأن يكون بآلة غير ضارة يحصل بها المقصود من دون ضرر، وأن يكون الاستيفاء للنفس وما دونها بحضرة سلطان أو نائبه خوفاً من الحيف.

أما حكمة مشروعية القصاص في النفس وما دونها فقد نبه الله عليها بقوله:

**﴿ولكم في القصاص حياة﴾** [سورة البقرة: الآية ١٧٩]

فلولا مشروعية القصاص لتجرأ المجرمون وكثر الشر والفساد.

**سؤال ــ ٨٧ ــ ما الحكمة في أن دية الحر مقدرة لا تزيد بزيادة فضائله ولا تنقص ودية العبد قيمته بحسب أوصافه؟**

الجواب: وبالله التوفيق حكمة الباري في تشريعه لعباده لا تحيطها العقول ولا تعبر عنها الألسن وما ظهر للعباد منها بالنسبة إلى ما خفي عنهم منها شيء قليل وما قدره وفرضه من المقدرات وحده من المحددات له في ذلك حكم وأسرار ترجع إلى مصالح العباد ودفع مضارهم فإنه تعالى أرحم بهم من أنفسهم ومن الخلق أجمعين وهو أرحم الراحمين يعلم من مصالحهم ما لا يعلمون ويريد ما لا يريدون ويقدر على ما لا يقدرون فإذا خفيت عليك حكمته في حكم من أحكامه فانظر إلى هذا الأصل العظيم الجامع لكل فرد من أفراد أحكامه وشرائعه ومع ذلك فمن تأمل وأحسن تأمله في ذلك وطبقه على الواقع انفتح له من معرفة حكمه بحسب استعداده وفهمه وذلك فضله وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في الفرائض وتقدير المقدرات فقال:

**﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾**. [سورة النساء: الآية ١١].

وقد تقدم شيء من حكمته في تقدير الفروض على أهلها ويوجد نظير ذلك في الديات، وأنها بقدر لا يزيد ولا ينقص دية الحر المسلم الذكر مائة من الإبل والأنثى على النصف من ذلك واختلف فيما سوى الإبل هل هو أصل كما هو المذهب في البقر أنها مائتان والغنم أنها ألفا شاة والذهب ألف مثقال والفضة اثنا عشر ألف درهم أو أن المذكورات تابعات للإبل وتقويمات تزيد وتنقص بحسب نقص الإبل كما هو الرواية الأخرى عن الإمام وهي الصحيحة لأن ديات الأعضاء والجروح لا يختلف القول إنها مقدرة بالإبل فقط والتغليظ والتخفيف في الإبل فقط ولا دلة أخرى ليس هذا الموضع محل ذكرها والمقصود أنه جعل دية الحر بمقدار لا يزيد ولا ينقص فلا يفضل عالم على جاهل ولا عاقل على عادمه ولا حسن الخلق والخلق على ضده ولا من اتصف بصفات الكمال العقلية والبدنية على من هو دونه بل جعل الجميع في الدية سواء وفي الفطرة وفي المواريث والأوقاف والوصايا وغيرها لأن هذه المعددات تشبه العبادات والتكليفات التي يشترك الناس فيها، ولأنه لو جعلت بحسب القيم والصفات فالأحرار لا يقومون شرعاً ولو فرض التقويم لحصل من الهوى والحيف والغلط والنزاع والشقاق ما يوجب اشتباك الناس في شرور كثيرة فتولى الحكيم الرحيم تقديرها فقدرها على لسان نبيه ﷺ وأراح الناس وقطع منازعاتهم ثم إن الصفات الموجودة في الأحرار فيها من التفاوت والفرق العظيم ما عد واحد بأمة عظيمة فلا يمكن انضباط ذلك وأيضاً فإن ما هم عليه من الصفات والأخلاق والأعمال ليس القصد تقويمها وتثمينها وإنما القصد اتصاف العبد بصفات الفضل والكمال ونيله من ربه على ذلك الفضل والثواب والأجر العظيم.

وهذا بخلاف العبيد المماليك فإنهم جارون مجرى الأموال وقيمهم مضبوطة معروفة فالحكمة في تفاوتهم في الدية كالحكمة في إتلاف بقية الأموال فكما أنه مركوز في فطر الناس الفرق بين الأموال النفيسة والدنية في الإتلافات فمركوز في فطرهم الفرق بين العبد النفيس والعبد الدنيء وهذا ظاهر ولله الحمد، ويدل على هذا المعنى أن الشارع أيضاً قدر في الأعضاء والأطراف كل

شيء بحسب منافعهِ فما في البدن منه شيء واحد ومنفعة واحدة أوجب فيه دية كاملة، وما فيه جنس متعدد جعل الدية بحسب تعدده وذلك مفصل وقد يجني عليه جناية واحدة تذهب عدة منافع فيكون عليه ديات بحسب تلك المنافع مع أنه إذا قتله وأذهب جملة منافعه وأطرافه فليس عليه إلا دية واحدة والله أعلم.

**سؤال ـ ٨٨ ـ ما الحكمة في الحدود المرتبة على المعاصي وفي مقدار كل منها؟**

الجواب: وبالله نهتدي إلى طريق الصواب، أما حكمة الباري في الحدود فأعظم من أن تذكر وأشهر من أن تنكر فإن فيها من الردع عن المعاصي والذنوب وأنواع الظلم ما هو من ضرورات الخلق فضلاً عن كمالياتهم، فلولا الحدود التي رتبها الله ورسوله على المعاصي لتجرأ الجناة وتزاحم على الشر العصاة ولكان كل من ليس في قلبه من الإيمان ما يردعهُ إذا قدر على شيء من المعاصي والظلم لم يحجزه عنه حاجز وهذا أمر فطرت عليه الخليقة برها وفاجرها أنه لا بد رادع من يردع المتجرئين على الشر والظلم والفساد، ولكن المقادير التي جاءت بها الشريعة أحسن الأحكام وأعدلها وأكفها للشرور فإن الشارع رتب على كل جريمة ما يناسبها من العقوبة فلما كان القتل أشد العقوبات رتبه على أعظم المعاصي وأكثرها ضرراً وفساداً على الكفر بأنواعه وعلى الزنا إذا تفاقمت شناعته بأن يقع من حر قد أنعم الله عليه بالنكاح الحلال فإذا أقر على نفسه أربع مرات أو شهد عليه أربعة رجال عدول وصرحوا بحقيقة الوطء المحرم فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت ليذوق كل عضو في بدنه من العقوبة ما ذاق من اللذة المحرمة وليكون خزياً وفضيحة ورادعاً لغيره عن جنايته وكذلك قطاع الطريق المفسدون على الناس طرقهم بالقتل ونهب الأموال وإخافة الخلق ضررهم عظيم وشرهم متفاقم، قال تعالى:

**﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾.**
[سورة المائدة: الآية ٣٣]

بعض العلماء جعل هذا الحكم مخيراً فيه الإمام بحسب ما يراه من المصلحة، وبعضهم رآه مرتباً على الجناية بحسبها وهو الصحيح الموافق لعدل الله وحده فإن قتل وأخذ المال قتل وصلب، وإن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى التي تبين أنه استعان بها على قطع الطريق، وإن أخاف الناس فقط نفي وشرد من الأرض إما بإجلائه حتى لا يترك يأوي إلى بلد إلى أن تظهر توبته أو بحبسه ومنعه من التصرف والجولان أما السارق فلما كان أخف من قاطع الطريق من جهتين إحداهما أنه يسرق خفية من دون مجاهرة وغصب، والثاني أنه يمكنه التحرر منه بالتحفظ والتيقظ صار أخف من قاطع الطريق وصار حده أن تقطع يمينه ثم إذا عاد قطعت رجله اليسرى إذا سرق من حرز نصاباً وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي ذلك وثبت فعله بالإقرار أو بشهادة رجلين عدلين فإن اختل شرط من هذه القيود لم يقطع.

وأما إذا كان الزاني غير محصن وهو حر فإنه يجلد مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى ويغرب عاماً عن وطنه ومألفه ليذوق ألم الضرب والاغتراب كما ذاق اللذة المحرمة.

وأما القذف بالزنا فإنه انتهاك لعرض أخيه وتعريضه لإساءة الناس به الظنون ولا يمكن المقذوف تكذيبه وإزالة ما لطخ به عرضه فصار حده ثمانين جلدة أعظم من الرمي بالكفر والنفاق والفسق ونحوهما لعدم وصولهما في الضرر إلى القذف بالزنا، فالقتل صيانة للأديان والأبدان والقطع في السرقة والمحاربة صيانة للأموال والضرب في القذف صيانة للأعراض وأما شرب الخمر فلما كان أخف من ذلك كله صار حده أربعين جلدة بحسب اختلاف الصحابة ومن بعدهم من العلماء وهون في ضربه ليحصل الردع من غير ضرر كبير وأما المعاصي الأُخَر التي لم يقدر فيها حداً معيناً فشرع للولاة من تعزيرهم وتأديبهم ما يوجب انقماع من تجرأ على معصيته والتزام من ترك واجباً وهذا يرجع إلى الاجتهاد بحسب الجريمة والفاعل لها والوقت الذي وقعت فيه فللَّه تعالى من النعمة على الخلق عموماً وعلى المؤمنين خصوصاً في الزواجر والروادع الأخروية

والدنيوية التي خوف بها العباد لئلا يكثر الفساد ويحصل الشقاء والعذاب ما لا يعد ولا يحصى.

**سؤال ـ ٨٩ ـ ما هي الأمور التي يحكم على الإنسان فيها بالردة ويخرج عن الإسلام؟**

الجواب: وبالله التوفيق قد كثر كلام أهل العلم في هذا الباب وكثرت تفصيلاتهم وإيراد أنواع بل أفراد من الأشياء المكفرة وربما تركوا ما هو نظير تلك الأفراد أو أولى منها والأولى في هذا الباب بل وفي غيره أن تذكر أجناس الأشياء والأصول التي ترجع إليها لأجل إذا ذكرت الأشياء تفصيلاً كانت تمثيلاً لا حصراً والمرجع إلى الأصل الثابت بالكتاب والسنة والإجماع، فالكافر وهو ضد المسلم والمرتد هو الذي كفر بعد إسلامه بقول أو فعل أو اعتقاد أو شك وحد الكفر الجامع لجميع أجناسه وأنواعه وأفراده هو جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه كما أن الإيمان اعتقاد ما جاء به الرسول والتزامه جملة وتفصيلاً فالإيمان والكفر ضدان متى ثبت أحدهما ثبوتاً كاملاً انتفى الآخر، وقد يكون مع الإنسان من الإيمان وفروعه ما يستحق به المدح والثواب ومعه من شعب الكفر والنفاق ما يستحق عليه الذم والعقاب. ومراد الفقهاء في الكلام على المرتد هو الذي لا يبقى معه من الإيمان ما يحقن دمه فنقول: الكفار نوعان أحدهما: الكفار الذين لم يدخلوا في دين الإسلام ولا انتسبوا اللإيمان بمحمد ﷺ من أميين ومشركين وأهل كتاب من يهود ونصارى ومجوس وعبدة أوثان على اختلاف أنواعها ودهريين وفلاسفة وصابئة وغيرهم من أصناف الكفار والمتحيزين عن دين الإسلام فهؤلاء الجنس دل الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً وإجماع المسلمين على كفرهم وشقائهم وخلودهم في نار جهنم وتحريم الجنة عليهم لا فرق بين عالمهم وجاهلهم وأمِّيِّهم وكتابيهم وعوامهم وخواصهم وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام فهذا القسم ليس الكلام فيه إنما الكلام في القسم الثاني الذين ينتسبون لدين الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون بمحمد ﷺ ثم

يصدر منهم ما يناقض هذا الأصل ويزعمون بقاءهم على دين الإسلام وأنهم من أهله فهؤلاء لتكفيرهم أسباب متعددة ترجع كلها إلى تكذيب الله ورسوله وعدم التزام دينه ولوازم ذلك.

فمنها: الشرك بالله تعالى والشرك بالرسول: فالشرك بالله إما شرك في الربوبية بأن يعتقد أحداً شريكاً له في الملك أو التدبير أو الخلق لبعض المخلوقات أو الرزق الاستقلالي وإما شرك في ألوهيته وعبادته بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادات لغير الله تعالى بأن يدعو غير الله من أنبياء أو أولياء أو غيرهم أو يسجد لغير الله أو يذبح لغير الله أو ينذر لغير الله أو يعتقد أن أحداً يستحق الألوهية والعبادة مع الله تعالى أو يجعل بينه وبين الله وسائط يتقرب إليهم ليقربوه إلى الله كما هو شرك المشركين الذين أخبر الله عنهم في كتابه وأمثلة هذا لا تحصى ولكن هذا أصله الذي يرجع إليه والنوع الثالث من الشرك الشرك بالرسول وذلك أنه لا يتم الإيمان بالرسول حتى يعتقد أنه رسول الله إلى الإنس والجن والعرب وغيرهم في أصول الدين وفروعه وفي جميع أبواب الدين وأنه خاتم النبيين لا نبي بعده فمن اعتقد أنه رسول إلى الإنس دون الجن أو إلى العرب دون غيرهم أو في بعض مسائل الدين دون بعضها أو في شرائع الدين دون حقائقه وباطنه أو ادعى لنفسه أنه رسول الله أو صدق من ادعاها فكل هذه الأمور وشبهها شرك بالرسول وكفر بالله وتكذيب لله ولرسوله وخروج عن الدين.

## السبب الثاني من أسباب الكفر
## عدم الإيمان بالكتاب والسنة

وذلك أنه لا يؤمن عبد حتى يعتقد أن القرآن كلام الله صدق كله وحق كله ويلتزم حكمه وكذلك كلام الرسول ﷺ يعتقد أنه صدق كله وحق كله وواجب التزامه كله فمن جحد القرآن أو شيئاً منه ولو آية أو امتهنه أو استهزأ به أو ادعى أنه مفترى أو مختلق أو ادعى فيه ما ادعاه زنادقة الملاحدة من أهل الوحدة

والفلسفة من أنه تشريع للجمهور والعوام وأنه تخييل للأمور ورموز إليها ولم يصرح بالحقيقة فكل هذا كفر بالقرآن وخروج عن الدين كذلك من زعم أن له خروجاً عما جاء به الرسول من الشرع العظيم والصراط المستقيم وكذلك من أنكر أحداً من الأنبياء الذين نص الله عليهم أو نص رسوله ﷺ عليهم أو شيئاً من كتب الله المذكورة في الكتاب والسنة فهو مكذب للقرآن والسنة بل طريقة المؤمنين الإيمان بجميع كتب الله المنزلة على أنبيائه وبجميع أنبيائه ورسله إلى الخلق لا يفرقون بين أحد من رسله ولا كتبه ومن أنكر البعث والجزاء والجنة والنار فهو مكذب للكتاب والسنة ومن جحد وجوب الصلاة أو وجوب الزكاة أو الصيام أو الحج فهو مكذب لله ورسوله لكتاب الله وسنة نبيه وإجماع المسلمين وهو خارج من الدين بإجماع المسلمين ومن أنكر حكماً من أحكام الكتاب والسنة ظاهراً مجمعاً عليه إجماعاً قطعياً كمن ينكر حل الخبز والإبل والبقر والغنم ونحوها مما هو ظاهر أو ينكر تحريم الزنا أو القذف أو شرب الخمر فضلاً عن الأمور الكفرية والخصال الشركية فهو كافر مكذب لكتاب الله وسنة رسوله متبع غير سبيل المؤمنين وكذلك من جحد خبراً أخبر الله به صريحاً أو أخبر به الرسول وهو حديث صحيح صريح فهو كافر بالله ورسوله وكذلك من شك في شيء من ذلك بعد علمه به ومثله لا يجهله فهو كافر لأنه تارك لما وجب عليه من الإيمان مكذب لكتاب الله وسنة رسوله.

### لكن هنا تقييد لا بد منه

وهو أن المتأولين من أهل القبلة الذين ضلوا وأخطأوا في فهم ما جاء به الكتاب والسنة مع إيمانهم بالرسول واعتقادهم صدقه في كل ما قال وأن ما قاله كله حق والتزموا ذلك لكنهم أخطأوا في بعض المسائل الخبرية أو العملية فهؤلاء قد دل الكتاب والسنة على عدم خروجهم من الدين وعدم الحكم لهم بأحكام الكافرين وأجمع الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن بعدهم أئمة السلف على ذلك ولنذكر لك أمثلة لهذا الأصل وهو أن الخوارج الحرورية الذين خرجوا

على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه من الصحابة والمسلمين وكفروهم واستحلوا دماءهم الثابت بالكتاب والسنة والإجماع عصمتها واحترامها فضللوهم واستباحوا قتالهم حيث خرجوا عليهم ولم يخرجوهم من دائرة الإسلام مع استحلالهم ما هو من ضرورات الدين ولكن التأويل الذي قام بقلوبهم وظنوا أنه مراد الله ورسوله منع الصحابة من الحكم عليهم بالكفر اتباعاً لقوله تعالى:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

قال الله قد فعلت وهذا عام في كل ما أخطأ فيه المؤمنون من الأمور العملية والأمور الخبرية بل أبلغ من ذلك أنهم يروون عنهم ويأخذون الأحاديث المتعلقة بالدين إذا تبين صدقهم مع أن مذهبهم غير تكفير المسلمين إنكار الشفاعة في أهل الكبائر مع ثبوتها وتواترها ولكنهم مع عدم تكفيرهم لهم قد حكموا عليهم بالضلال والمروق من الشريعة ومخالفة المسلمين واستحلوا قتالهم بل رأوه من أفضل الأعمال المقربة منه لشدة ضررهم في عقيدتهم وسيفهم وكذلك المعتزلة ونحوهم معروف معاملة الأئمة لهم وأنهم مع شدة إنكارهم لبدعهم لم يخرجوهم من دائرة الإسلام ويحكموا لهم بأحكام الكافرين مع أن بدعهم مشتملة على تكذيب نصوص كثيرة من الكتاب والسنة ونفي صفات الله وعلوه على خلقه وما أشبه هذا من الأصول العظيمة التي قررها الكتاب والسنة ومع إنكارهم وتحريفهم ومعاملتهم لأئمة أهل السنة تلك المعاملة القبيحة لم يكفروهم مع أنهم صرحوا أن مقالاتهم كفر ومشتملة على الكفر وذلك لأجل تأويلهم وجهلهم وكذلك كثير ممن شاركهم في كثير من أصولهم كالأشعرية والماتريدية ونحوهم ولهذا القول الفصل في أمثال هؤلاء المبتدعة المخالفين لما ثبتت به النصوص الصريحة والصحيحة أنهم في هذا الباب أنواع من كان منهم عارفاً بأن بدعته مخالفة للكتاب والسنة فتبعها ونبذ الكتاب والسنة وراء ظهره وشاقّ الله ورسوله من بعد ما تبين له الحق فهذا لا شك في تكفيره ومن كان منهم راضياً

ببدعته معرضاً عن طلب الأدلة الشرعية وطلب ما يجب عليه من العلم الفارق بين الحق والباطل ناصراً لها راداً ما جاء به الكتاب والسنة مع جهله وضلاله واعتقاده أنه على الحق فهذا ظالم فاسق بحسب تركه ما أوجب الله عليه وتجرئه على ما حرم الله تعالى ومنهم من هو دون ذلك ومنهم من هو حريص على اتباع الحق واجتهد في ذلك ولم يتيسر له من يبين له ذلك فأقام على ما هو عليه ظاناً أنه صواب من القول غير متجرىء على أهل الحق بقوله ولا فعله فهذا ربما كان مغفوراً له خطأه والله أعلم، والمقصود أنه لا بد من هذا الملحظ في هذا المقام لأنه وجد بعض التفاصيل التي كفر أهل العلم فيها من اتصف بها وثم أخر من جنسها لم يكفروه بها والفرق بين الأمرين أن التي جزموا بكفره بها لعدم التأويل المسوغ وعدم الشبهة المقيمة لبعض العذر والتي فصلوا فيها القول لكثرة التأويلات الواقعة فيها ومما يدخل في هذا الأصل الكفر بالملائكة والجن فإن الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان الستة وهو في سور كثيرة من القرآن والسنة مملوءة منه فمن لم يؤمن بذلك لم يؤمن بالكتاب ولا بالسنة وكذلك الجن ذكرهم الله في القرآن في عدة مواضع وذكر من تكليفهم وصفاتهم ما ذكره فالكفر بهم كفر بالكتاب والسنة. وكذلك الاستهزاء بالقرآن أو بالسنة أو الدين فإنه كفر وزيادة فالكفر عدم الإيمان سواء أعرض أو عارض وهذا معارض وكذلك من لم يكفر. من دان بغير دين الإسلام من أي دين كان أو شك في كفرهم لمناقضته ذلك نصوص الكتاب والسنة وكذلك من قذف عائشة بما برأها الله منه أو أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ لتصريحه بتكذيب الكتاب والحاصل أن من كذب الله أو كذب رسوله في شيء مما أخبر به فهو كافر أو لم يلتزم ما أمر الله به ورسوله لأن هذا كله مناقض للإيمان بالقرآن والسنة وكل ما ذكره الفقهاء من تفاصيل المكفرات الصحيحة فإنه يعود إلى هذا السبب فالكفر حق الله ورسوله فلا كافر إلا من كفره الله ورسوله فهو جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه والله تعالى أعلم.

**سؤال ـ ٩٠ ـ عما يحل ويحرم من الأطعمة والأشربة؟**

الجواب: وبالله التوفيق الأصل في هذا قوله تعالى في وصف النبي ﷺ ووصف شريعته:

**﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾.**

[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

وهذا يتناوله جميع الأشياء من مطاعم ومشارب وغيرها فكل ما ليس بخبيث فهو طيب حلال ولهذا ذكر الفقهاء هذا الأصل وبنوا عليه فقالوا: يباح كل طعام طاهر لا مضرة فيه فدخل فيه أنواع الحبوب والثمار وهي أوسع الأصناف حلاً ودخل فيه حيوانات البحر صيده الذي صيد حياً وطعامه ما مات فيه والصحيح حل عموم حيوانات البحر وأنه لا يستثنى منها شيء كما هو القول الصحيح في مذهب الإمام أحمد لأن نصوص الكتاب والسنة في حله عامة حتى أن حله عام للمحل والمحرم ويتاح الأنعام الثمانية والخيل وأنواع الصيود والدجاج والطاووس ونحوها من جميع الحيوانات ولا يحرم من الحيوانات البرية إلا ما كان خبيثاً وخبثه يعرف بأمور:

١ ـ إما أن ينص الشارع على عينه كالحمر الأهلية.

٢ ـ أو على حده كما حرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.

٣ ـ وإما أن يكون خبثه معروفاً إما عند العرب ذوي اليسار كما هو المشهور عند الأصحاب أو لا عبرة بهذا الحد بل العبرة بخبثه بنفسه وذلك كالفارة والحية والحشرات.

٤ ـ وإما أن يأمر الشارع بقتله ويسميه فاسقاً.

٥ ـ أو ينهى الشارع عن قتله.

٦ ـ أو كان معروفاً بأكل الجيف كالنسر والرخم ونحوهما.

٧ ـ أو متولداً بين حلال وحرام كالبغل والسمع والعسبار.

٨ ـ أو يكون تحريمه عارضاً بسبب تولد الخبائث في بدنه كالجلالة التي تتغذى

بالنجاسة فإنها تكون خبيثة اللحم واللبن والبيض وجميع ما تولد منها حتى تمنع أكل النجاسة وتأكل الطاهر ثلاثاً.

٩ ــ وإمّا أن يكون محرماً لنجاسته كالدهن واللبن المتغير بالنجاسة.

١٠ ــ وأما أن يكون محرماً لضرره البدني كأنواع السموم.

١١ ــ أو محرماً لضرره العقلي كالخمر والحشيشة.

١٢ ــ أو محرماً لأن طيبه وحله شرطه الذكاة الشرعية فيموت حتف أنفه.

١٣ ــ أو يذكى في غير محل التذكية.

١٤ ــ أو بغير آلة الذكاة التي تحله.

١٥ ــ أو المذكي لا تباح تذكيته كالكافر غير الكتابي.

١٦ ــ أو يذكى ويذكر عليه اسم غيرالله فهذه الأسباب كلها تجعله خبيثاً محرماً وما لم يوجد فيه سبب الخبث فهو حلال.

واعلم أن الخبث نوعان: أحدهما الخبيث لذاته كهذه الأنواع المذكورة فهذا هو المحرم والنوع الثاني الخبيث لرداءته أو دناءته أو رائحته فهذا النوع لا يحرم وإنما يكره بعضه في بعض الأحوال فالأول مثل قوله تعالى:

**﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾**. [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

فإن المراد به الردي وذلك لا يحرم أكله والثاني مثل ما سمى النبى ﷺ كسب الحجام خبيثاً لدناءة مكسبه ولو كان حراماً لم يعط الحجام أجره والثالث كتسمية الثوم والبصل الشجرتين الخبيثتين ولم يأكل منها وأمر أن تقرب لبعض أصحابه ولو كان حراماً لم يقر على أكلها والله أعلم.

**سؤال ــ ٩١ ــ ما هي شروط الذكاة؟**

الجواب: المذكى نوعان مقدور عليه وغير مقدور عليه كصيد ومعجوز عنه

والثاني أوسع من الأول كما يأتي والشروط للذكاة والصيد بعضها في الذابح الصائد وهو أن يكون عاقلاً مسلماً أو كتابياً وأن يقول بسم الله عند تحريك يده بالذبح وعند رمي سلاحه وعند إرسال الجوارح في الصيد وأن يكون قاصداً للفعل وبعضها في الآلة وهو أن تكون محددة تنهر بحدها لا بثقلها ويدخل فيها كل آلة لها حد أو نفوذ كالرصاص ونحوه إلا أنه يستثنى من هذا الظفر والسن وكذلك جميع العظام على الصحيح كما هو إحدى الروايتين وكما دل عليه الحديث في قوله ﷺ: (أما السن فعظم)، فعلله بأنه عظم فدل على أن جميع العظام لا يحل الذبح بها ويشارك الصيد الذبح في الآلة واشتراط التحديد والنفوذ ويزيد عليه أن يكون أيضاً بالجوارح المعلمة من الكلاب والفهود والصقر ونحوها مما يصيد بنابه ومخلبه ويشترط في هذه الآلة أن تكون معلمة تسترسل إذا أرسلت وتنزجر إذا دعيت ولا تأكل من الصيد إذا كان كلباً وبعض الأصحاب قال التعليم ما يعد بالعرف تعليماً وهو أقرب لظاهر الآية ولسهولة الأمر وأن يذكر اسم الله عند إرسالها والحكمة في حل صيدها نبه الله عليها بقوله:

﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾. [سورة المائدة: الآية ٤]

فإنها إذا كانت معلمة فإنها بمنزلة النائب عن صاحبها ويصير قصدها المدلول عليه بالتعليم موجباً للحل ومنها شرط متعلق بالمذبوح وهو أن يذبحه وفيه حياة مستقرة وأن يكون الذبح في عنقه ويقطع حلقومه ومريه فإن قطع الأوداج فهو أكمل فإن كان صيداً أو معجوزاً عنه فبأن يجرن في أي مكان من بدنه.

فائدة: تبين مما تقدم أن الحيوانات ثلاثة أقسام: قسم يحل ذكي أو لم يذك وذلك كحيوانات البحر والجراد وقسم لا يحل ذكي أو لم يذك وهي الحيوانات المحرم أكلها والثالث باقي الحيوانات المباحة تباح بالتذكية الشرعية وتحرم إذا لم توجد.

**سؤال ــ ٩٢ ــ ما هي اليمين المحترمة التي فيها الكفارة بالحنث؟**

الجواب: وبالله التوفيق؛ حد اليمين والقصد بها تأكيد الأمر المحلوف عليه

بذكر معظم ولما كان موضوعها لم يصح الحلف إلا بالله تعالى ولم يصح بالمخلوق لأنه يجب تخصيص الباري بالتعظيم وأن تعقد الأمور باسمه وما في معناه والأيمان التي يحلف بها الناس أقسام أحدها محرمة غير محترمة كالحلف بالمخلوقات والأنبياء والكعبة ونحو ذلك فهذا محرم بل شرك ولا تنعقد به اليمين ولا كفارة لأن الكفارة بالأيمان المعقدة ولأن القصد بها التكفير عن انتهاك الحرمة وهذه لا حرمة له من هذا الوجه. والثاني: مشروعة منعقدة بالإجماع وهي اليمين بالله على أمر مستقبل قاصداً لعقدها فهذا إذا فعل المحلوف على تركه أو ترك المحلوف على فعله غير ناس ولا جاهل فعليه كفارة يمين إما عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام والثالث: يمين محرمة محترمة بالكتاب والسنه والإجماع وهي الظهار فإنه مع تحريمه وأنه منكر من القول وزور فإن يمينه فيه الكفارة عتق فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع إطعام ستين مسكيناً. الرابع: يمين محرمة وهي محترمة على المذهب وهو الصحيح ويدخل فيه أن يحرم الإنسان على نفسه طيباً من سرية أو طعام أو شراب مباح أو لباس فإنه يحرم عليه أن يحرم ذلك كما قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.**

[سورة المائدة: الآية ٨٧]

ثم ذكر بعده الكفارة وهي محترمة فيها الكفارة وهذه اليمين وإن لم تكن باسم الله تعالى فإنها تضمنت إلزام نفسه بتحريم ما أحل الله عليه من المباحات فكأنه عقدها بالله ونظير ذلك إذا قال إنْ فعل كذا فهو يهودي أو نصراني ونحوه فإنه محرم جداً ومع ذلك فإذا حنث فعليه كفارة يمين وقيل لا كفارة في هذا والله أعلم. الخامس: أيمان الطلاق التي بصورة التعاليق وهي أيمان يقصد بها الحث على فعل أو على تركه أو التصديق أو التكذيب فالأصحاب أجروها مجرى التعاليق المحضة حيث وجدت وقع الطلاق المعلق بها وهو المفتى به في المذاهب الأربعة وشيخ الإسلام ابن تيمية وطائفة من أهل العلم أدخلوها في عموم الأيمان لأن عقدها عقد الأيمان والقصد بها ما يقصد بالأيمان فجعلوا فيها إذا حنث كفارة

يمين لا وقوع طلاق وقد نصر هذا المذهب شيخ الإسلام في كثير مما كتبه وقررها ورد حجج من خالف فيها. السادس: نذر اليمين وهو نذر اللجاج والغضب فهذا النوع لا يختلف المذهب أنه جار مجرى اليمين فيه الكفارة كفارة اليمين وكل الأيمان المنعقدة لا كفارة فيها إلا بالحنث والحنث قد يكون مأموراً به إذا حلف على ترك البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد يكون منهياً عنه إذا حلف على فعل هذه الأشياء وقد يكون مباحاً في المباحات.

**سؤال ـ٩٣ ـ ما الفرق بين اليمين والنذر؟**

الجواب: القصد باليمين والنذر تأكيد الأمر المعقود عليه الحلف والنذر ولكن بينهما فروق أحدها: أن النذر التزام جازم لله تعالى فيلتزم الناذر طاعة لله قاصداً به القرب من ربه والوصول إلى ثوابه واليمين عقدها بالله وباسمه وقصد بها مجرد تأكيدها حلفاً على فعله أو على تركه فالنذر عقده لله واليمين عقدها بالله. الثاني: أن النذر الشرعي لا بد من فعله سواء أطلقه أو علقه على حصول شيء فحصل أو زوال مكروه فزال فلا ينفع فيه كفارة ولا غيرها كما قال النبي ﷺ: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)، وهو في الصحيح وأما اليمين فتحله الكفارة ولهذا سماها الله تحلة فقال:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾: [سورة التحريم: الآية ٢]

الثالث: أن عقد الحلف غير منهي عنه بل قد يكون واجباً أو مسنوناً بحسب أسبابه وأما عقد النذر فإنه مكروه فقد نهى النبي ﷺ عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل. الرابع: أن الوفاء بالنذر محمود بل واجب والوفاء بموجب اليمين فيه تفصيل تقدمت الإشارة إليه وبهذين الوجهين علم أن النذر من غرائب العلم حيث كان عقده منهياً عنه ووفاؤه محموداً مأموراً به والقاعدة في جميع الأمور أن الوسائل لها أحكام المقاصد إلا هذه المسئلة.

## سؤال ــ ٩٤ ــ ما المرجع في أيمان الحالفين؟

الجواب: الأصل في مرجع الأيمان إلى النية والقصد فمتى عرف قصد الحالف بيمينه تعلقت يمينه بما قصده وأراده فقدم على كل شيء فيقدم على موجبات الألفاظ وعلى الأسباب ولهذا تقع في اليمين التورية والتعريض لغير ظالم فيقصد شيئاً ويفهم السامع شيئاً آخر فإن عدمت النية أو نسيت أو تعذر الوصول إليها إلى أقرب ما يدل عليها فيرجع إلى السبب الذي هيج اليمين وحمل الحالف على حلفه ثم إلى مدلول لفظه وذلك يختلف باختلاف الأحوال كلها والحاصل أنه يقال ماذا أراد بحلفه ثم أقوى دليل يدل على إرادته والله أعلم.

# أسئلة في الأقضية والشهادات

**سؤال ـ ٩٥ ـ ما الفرق بين القاضي والمفتي وما شروط كل منهما؟**

الجواب: الفرق بينهما أن القاضي يبين الحكم الشرعي ويلزم به والمفتي يبينه فقط والفرق الثاني أن المفتي أوسع دائرة من القاضي لأنه يفتي في الأمور المتنازع فيها وغيرها والقاضي لا يتعلق قضاؤه إلا بالمسائل المتنازع فيها بين الناس فيبيِّن الحكم الشرعي فيفصل به نزاعهم.

وأيضاً المفتي يفتي على وجه العموم والقاضي يحل القضية المعينة المترافع فيها إليه وترتب على هذا أنه لا يحكم القاضي لنفسه ولا لمن لا تقبل شهادته له ولا على من لا تقبل شهادته عليه والمفتي بخلاف ذلك كله.

ومن الفروق أن القاضي اشترطوا فيه عشر صفات والمفتي إنما اشترطوا له العلم بما يفتي به مع أن الشروط التي ذكروا في القاضي كثيراً ما يتعذر اجتماعها ولذلك قال الشيخ تقي الدين إن هذه الشروط تعتبر حسب الإمكان والقدرة وعماد الشروط التي تشترط في القاضي والمفتي العلم وهو أصل لحل القضاء والفتوى واشتراط الاجتهاد في القضاء ثم ذكرهم تلك الصفات التي تشترط في المجتهد فيها نظر فإن العلم الذي يصلح به الإنسان للفتوى هو الذي يشترط للقضاء. وحد العلم الشرعي هو معرفة الهدى بدليله والعلم الذي يحتاج

إليه نوعان مجمع عليه بين العلماء وهو أغلب مسائل الدين والأحكام فهذا يكفي فيه التصور التام لمسائله مع أدنى التفات إلى أدلته أو بعضها لأن بذلك يحصل له العلم الاستدلالي والنوع الثاني المسائل المختلف فيها فهذه إذا تصورها ذلك التصور التام وعرف أدلتها من الجانبين وأجوبة كل من المتنازعين فإذا كان يحسن الاستدلال بأن كان له نوع ملكة في معرفة أصول الفقه وكيفية الاستدلال بالأدلة ومراتبها تمكن بذلك من معرفة الراجح من المرجوح بحسب ما عنده من الفطنة والفهم فبذلك يصلح للفتيا والقضاء ويحتاج المفتي والقاضي أحوج منه إلى معرفة أحوال الناس ومقاصدهم بألفاظهم واصطلاحاتهم وعرفهم وتمييز صادقهم من كاذبهم فإنه أعظم عون على النهوض بوظيفته ولا بد للقاضي من سلوك طريق العدل ولا يتمكن من العدل إلا بمعرفة الحقوق الثابتة والمنفية ولا يمكنه ذلك إلا بسلوك الطريق الشرعي وأعظم كليات الشريعة في هذا الباب أنه حكم بأن من ادعى حقاً من الحقوق التي لم يتقرر ثبوتها أو ادعى الخروج من حق كان ثابتاً أنه لا يثبت ذلك بمجرد دعواه حتى يأتي بالبينة الشرعية المثبتة للحق أو الناقلة له فإن لم يأت بذلك فاليمين على من أنكر ثبوت ما ادعى به أو نفي ما ادعى بنفيه بعد الثبوت ومن الكليات النظر في قرائن الدعاوي والمدعين والمدعى عليهم وشواهد الأحوال التي تعينه على فهم القضية في القضية المعينة والبحث عن أحوال الشهود وعدالتهم وإذا كان الشيء مهما وحصلت الريبة من الشهادة فما أحسن الاستعانة على تحقق ما شهدوا به أن يستعيدهم صفة ما شهدوا به وأن يفرقهم عند إمكان ذلك ويسأل كلاً على انفراده كيف شهد وأين وعلى أي حال ولا يفعل ذلك إلا عند الحاجة إليه ولا يشدد في تعنت الشهود ويحضر مجلسه الفقهاء وأهل العلم والعقل ويشاورهم وحاجته إلى التأني واستيراد كلام كل واحد من الخصمين وأن يبدي كل جميع ما عنده أعظم من حاجة غيره لأن الخطر عظيم وكل يدعي أن الحق له.

**سؤال ــ ٩٦ ــ ما الطريق إلى التخلص من شركة الشريك؟**

الجواب: لا يخلو المشترك إما أن يكون وقفاً أو ملكاً فإن كان وقفاً فله

طريقان موقتان أحدهما أن يتهايا ويتناوبا الانتفاع بالموقوف كل على حسب استحقاقه زماناً مقدراً.

الثاني أن يؤجراه بينهما لأجنبي أو لأحدهما ويقتسما الأجرة على قدر الاستحقاق وثم طريق ثالث وهو المهاياة بالمكان بأن يقتسما الدار أو نحوها وكل ينتفع بما صار إليه وهي باقية على شركة الوقف فمتى مضت هذه المهاياة عادت إلى حالها.

النوع الثاني الأملاك غير الوقف والطرق المخلصة لضرر الشركة أكثر من الأوقاف فما يجري في الأوقاف من الطرق الثلاثة تجري في الأملاك عند التراضي منهما إن شاءا أجّرا أو هايا بالزمن أو بالمكان والملك على شركته وله طريق رابع وهو أن يبيعا برضاهما مطلقاً سواء في قسمته ضرر أو رد عوض أم لا فإذا تراضيا على بيعه في جميع الأملاك فهي أوسع طريق لإزالة الضرر وإذا باعا إما أن يشتري أحدهما أو أجنبي اقتسما الثمن على قدر الأملاك وقد يجبر الممتنع منهما على البيع وذلك إذا كان في القسمة ضرر أو رد عوض فإذا طلب أحدهما البيع فيها بيع المشترك.

الطريق الخامس القسمة وهي أيضاً نوعان نوع يتراضيان عليه فعند التراضي ولو فيما فيه رد عوض وقيل حتى مع الضرر إذا رضي من عليه الضرر لأن الحق له فإذا رضي به جاز وإن لم يتراضيا على القسمة بأن امتنع أحدهما فإن كان لا ضرر على واحد ولا رد عوض من أحدهما على الآخر أجبر الممتنع وقدم قوله على قول من يريد إبقاء الشركة أو يريد البيع أو التأجير وإن كان فيها ضرر أو رد عوض لم يجبر الممتنع هذا تفصيل القول في القسمة.

**سؤال ــ ٩٧ ــ ما حكم الشهادة وصفة الشاهد وبأي شيء يشهد وعدد الشهود؟**

الجواب: أما حكم الشهادة تحملاً وأداء فإنها فرض كفاية وتتعين على من

لا يوجد وقت الحاجة إلى الشهادة غيره ولا ضرر عليه وتتعين على من تحملها وهذا في حقوق الآدميين وأما في حقوق الله تعالى ففيها تفصيل.

وأما صفة الشاهد فأن يكون مسلماً عدلاً ظاهراً وباطناً مكلفاً ناطقاً غير معروف بكثرة غلط ولا سهو غير والد للمشهود له ولا ولداً ولا زوجاً ولا زوجة ولا شريكاً ولا يجلب بشهادته له نفعاً ولا يدفع بها عنه ضرراً ولا عدوًّا لمن شهد عليه. وأما ما يشهد به فلا يشهد إلا بما يعلمه برؤية أو سماع من المشهود عليه أو من الاستفاضة فيما يقبل فيه بالاستفاضة وأما عدد الشهود فيتفاوت المشهود عليه بحسب تقدير الشارع فمن الأشياء ما لا يقبل فيه إلا أربعة رجال عدول كالزنا.

ومنها ما لا يقبل فيه إلا ثلاثة كدعوى الإعسار لمن عرف بغنى ليأخذ من الزكاة.

ومنها ما لا بد فيه من شاهدين عدلين رجلين كبقية الحدود والقصاص والطلاق والنكاح والرجعة ونحوها.

ومنها ما يقبل فيه رجلان أو رجل وامرأتان أو رجل ويمين المدعي وذلك كالمال وما يقصد به المال.

ومنها ما يقبل فيه شهادة امرأة واحدة كالرضاع والحيض والحمل وما لا يطلع عليه الرجال غالباً.

ومنها ما بينته أَيْمان المدعين وحلفهم على وجه المبالغة وهي القسامة في دعوى القتل إذا حصل لوث وقرينة حلف المدعون على القاتل خمسين يميناً وثبت موجب القتل. ومنها ما بينته دعوى المدعي ونكول المدعى عليه عن اليمين في الحقوق المالية.

ومنها ما بينته مجرد الوصف كاللقطة والأموال التي لا يدعيها من هي في يده.

ومنها ما بينته القافة في تنازع الولد.

ومنها ما بينته وضع اليد واتصال الشيء بملك الآخر وأنواع البينات وهي المرجحات كثيرة.

**سؤال ــ ٩٨ ــ إذا حكم الحاكم ما الذي يتعلق بحكمه؟**

الجواب: إذا حكم الحاكم بطريق الحكم الشرعي ترتب على حكمه أمور مهمة منها وهو المقصود الأعظم قطع الخصام وثبوت الحق لمن حكم له به وثبوت الحق على من حكم به عليه.

ومنها أنه كما يقطع النزاع فإنه يرفع الخلاف فمتى حكم في قضية مختلف فيها رفع الخلاف ولم يبق في حكمه تعلق ولا معارضة.

ومنها أن حكمه محترم فلا ينقض حكم الحاكم الأهل حتى ولو تغير اجتهاده فلا ينقضه هو ولا ينقضه غيره ولا يستأنف المدعي أو المدعى عليه الدعوى لحاكم آخر فإنه لولا هذا الحكم لم يثبت حكم ولتلاعبت أيدي الشهوات بحسب الأوقات بأحكام الحكام ولكثر النزاع وانتشر من حيث قصد حسمه بالحكم ولهذا لو رجع الشهود عن شهادتهم المبني عليها الحكم لم ينقض ورجع الغارم على الشهود الراجعين إلا إذا خالف الحكم نص كتاب الله ونص سنة رسوله أو إجماعاً فهذا يتعين نقضه.

ومنها أنه إذا حكم الحاكم بقضية نفذها الحاكم الآخر سواء كان قريباً أو بعيداً.

**سؤال ــ ٩٩ ــ متى تصح الشهادة على الشهادة؟**

الجواب: عند تعذر شهود الأصل بموت أو غيبة أو عجز أو خوف أو غير ذلك من الأسباب فالشهادة على الشهادة بمنزلة التيمم مع طهارة الماء عند الحاجة والاضطرار وهذا من أعظم فوائد الشهادة على الشهادة أنه يحتاج إلى

حفظ الحقوق وقد يتعذر شهود الأصل الذين يثبت الحق بشهادتهم فاحتيج إلى شهود الفرع والله أعلم.

### سؤال ـ ١٠٠ ـ ما حكم الإقرار وبأي شيء يحصل؟

الجواب: حكم الإقرار إذا حصل من مكلف مختار أنه يثبت عليه ما أقر به ولا عذر لمن أقر وهو من أقوى البينات ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو نسياناً لم يقبل قوله وأما ما يحصل به الإقرار فقد ذكر الأصحاب رحمهم الله ألفاظاً كثيرة بما يحصل به الإقرار كما ذكروا ألفاظاً كثيرة في أبواب متعددة ويرتبون عليها من الأحكام ما يناسبها واعلم أن المقصود من الألفاظ ما دلت عليه من المعاني وأن المدار في الحكم إنما هو على المعنى المفهوم من اللفظ وعلى هذا فلا ينبغي حصر الألفاظ الدالة على المعاني بألفاظ مخصوصة بل يقال كل لفظ دل على هذا المعنى ترتب عليه الحكم فكل لفظ دل على عقد بيع أو إجارة أو نحوها من المعاوضات انعقد به وكل لفظ دل على وقف أو وصية أو خلع أو طلاق أو رجعة حصل به وكل لفظ دل على اعتراف الإنسان بحق عليه انعقد به.

* * *

هذا آخر ما يسر الله إتمامه وقد حوى من فضل الله وكرمه مع اختصاره ووضوحه أهم المهمات من الفقه في الدين في أبواب العبادات والمعاملات والمشاركات والتبرعات والمواريث والانكحة وتوابعها والجنايات وتوابعها والأقضية وتوابعها مع التنبيه على وجه الحكم والأسرار التي شرعت الأحكام لأجلها وانبنت عليها وفيه من الأصول والضوابط وجمع المتفرقات في موضع واحد وردها إلى قاعدة جامعة ما يهيِّىء طالب العلم إلى الارتقاء إلى أعلى درجاته من طريق مختصر سهل ولله الحمد والمنة والفضل وهو الذي يسره وسهله وما توفيقي

إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فـرغت من كتـابتـه في ١٧ رمضـان سنـة ١٣٥٨ عـلى يـد جـامعـة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميـع المسلمين أمين.

* * *

# فهرس المجموع الرابع
# الفقه
# المجلد الثاني

## منهج السالكين
### وتوضيح الفقه في الدين

## المختارات الجلية من المسائل الفقهية

## مباحث كتاب المناظرات الفقهية

## مختارات من الفتاوى

## منظومة في أحكام الفقه



### كتاب الطهارة

## كتاب الزكاة



## كتاب الصيام



## كتاب الحج

## كتاب الجهاد



## كتاب البيع



## كتاب الحجر



## كتاب الوقف



## كتاب الفرائض

## كتاب العتق



## كتاب النكاح



## كتاب الخلـع والطلاق



## كتاب العِدد



## كتاب النفقات



## كتاب الجنايات

## كتاب الحدود



## كتاب القضاء



## الخاتمة



# الإرشاد إلى معرفة الأحكام



## أسئلة في الطهارة

## كتاب الصلاة

## أسئلة تتعلق بالزكاة



## أسئلة في الصيام



## أسئلة في الحج والعمرة وتوابعها



## أسئلة في البيع وأنواع المعاملات

## أسئلة في عقود التبرعات من الوقف (والوصية) والهبة ونحوها



## في المواريث



## أسئلة في الأنكحة

## أسئلة في الجنايات



## أسئلة في الأقضية والشهادات

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي

رحمه الله

- المواهب الربّانيّة من الآيات القرآنيّة
- فوائد مستنبطة من قصّة يوسف
- الجهاد في سبيل الله
  أو واجب المسلمين
- وجوب التعاون بين المسلمين
  وموضوع الجهاد الدّيني
- الدّلائل القرآنيّة
  في أن العلوم والأعمال النافعة العصريّة داخل في الدّين الإسلامي
- الدُّرّة المختصرة
  في محاسن الإسلام
- الدّين الصّحيح يحل جميع المشاكل
- الرياض الناضرة والحدائق النّيّرة الزاهرة
  في العقائد والفنون المتنوّعة الفاخرة

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربيّة السّعوديّة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# المواهب الربانية
# من
# الآيات القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه. هذه فوائد فتح الله عليَّ بها في هذا الشهر المبارك، نسأله المزيد من كرمه آمين (قوله تعالى):

﴿فلما أسلما وتَلَّه للجبين﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٣]

لما كان قوله: «أسلما» توطيناً لنفسه على أمر الله، وعزماً مقروناً بالإخلاص والامتثال، والعزمُ ربما تخلّف عنه الفعل ذكر الفعل بقوله: «وتله للجبين» فاجتمع العزم والفعل، ولكن تخلَّف أثر الفعل وهو وقوع الذبح، فذكر تعالى أنه أبدله بذِبح عظيم فداء له. (قوله تعالى):

﴿فعدة من أيام أخر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤]

يدل على أن المعتبر مجرد العدة لا مقدارها في الطول والقصر، والحر والبرد، ولا وجوب الفور وعدمه ولا ترتيب ولا تفريق، ويقرر هذا قوله:

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥]

(قوله تعالى): ﴿أو على سفر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤]

أعمُّ من قوله «في سفر» ليدخل فيه من أقام في بلد أو برية ولم يقطع سفره، بل هو على سفر؛ وإن لم يكن في سفر. (قوله تعالى):

﴿يودّ المجرمُ لو يفتدي من عذابِ يومئذٍ ببنيه﴾

[سورة المعارج: الآية ١١]

فيه أن غير المجرم لا يودّ ذلك، لأنه قد افتدى في الدنيا من عذاب يومئذ بالتقوى والإيمان، وإنّما هو في هذا اليوم لا يحزنه الفزع الأكبر، ويؤمل اجتماعه بمن صلح من آبائه وأبنائه وأحبابه في جنات النعيم. (قوله تعالى):

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [سورة المعارج: الآية ٣٢]

أي يكونون لذلك رعاة متعاهدين مجتهدين في كل سبب تقوم به الأمانات والعهود، وتكمل وتتم، مبعدين عن كل سبب يناقض ذلك، وكذلك قوله:

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ [سورة المعارج: الآية ٣٣]

(قوله تعالى): ﴿يا أيها المدَّثِّر * قم فأَنذِرْ﴾

[سورة المدَّثِّر: الآيتان ١، ٢]

نبَّه الله تعالى فيها على حال رسوله وكماله، وإتمام نعمة الله عليه، وكم بين ابتداء أمره وانزعاجه من الوحي وتدثُّره من شدة ما لقيَ، وبيْن آخر أمره حين أتم الله أموره كلها؛ ولهذا أمره بتكميل نفسه وتكميل غيره، وأرشده إلى ما ينال به ذلك: وهو القيام التامّ على وجه النشاط والتعظيم لربه، وتكبيره في باطنه، وتطهير أعماله وثيابه الظاهرة، وترك كل شر ودنس، واستعمال روح الأعمال، وهو الإخلاص في كل شيء، حتى في العطاء. فلهذا قال:

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [الآية ٦]

ثم أرشده إلى ما يعينه على كل الأمور، وهو الصبر لوجه الله، فقال:

﴿ولربك فاصبر﴾ [الآية ٧]

ثم تكفّل له بحفظه من الأعداء وحفظِ ما جاء به بتوعُّدهم بالعذاب خصوصاً لأكبرهم عِناداً وأعظمهم عداوةً وهذا تمام النعمة. (قوله تعالى):

﴿والمطلّقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروءٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وكذلك قوله: ﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

التربص المذكور هو الانتظار والمكث في العدة، فما الفائدة في قوله «بأنفسهن» مع أنه يغني قوله «يتربصن ثلاثة قروء» و«يتربصن أربعة أشهر وعشراً» فاعلم أن في قوله «أنفسهن» فائدةً جليلة، وهي أن هذه المدة المحدودة للتربص مقصودة لمراعاة حق الزوج والولد، ومع القصد لبراءة الرحم فلا بد أن تكون في هذه المدة منقطعة النظر عن الرجال، محتسبة على زوجها الأول، لا تُخطب ولا تتجمَّل للخطَّاب ولا تعمل الأسباب في الاتصال بغير زوجها. ويدل على هذا المعنى قوله:

**﴿فإذا بلغن أجلَهن فلا جُناح عليكم فيما فعلنَ في أنفسهن بالمعروف﴾**
[سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

أي من التجمل والتبهّي، ولكن بالمعروف على غير وجه التبرج المحظور. ويدل على هذا قوله في الآية الأخرى:

**﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٤٠]

فلم يأمر هذه المرة أن يتربصن بأنفسهن، بل جعلها وصية تتمتع بها المرأة سنةً بعد موت زوجها جبراً لخاطرها؛ ولهذا رفع الحرج عنها بالخروج، وأنها بعد الخروج لها التجمل المعروف، وقبل ذلك، كما جبر الورثة قبلها لأجل زوجها فعليها العدل وترك التجمُّل. وهذا يبيِّن أن الآية الأولى ليست بناسخة لهذه الآية، بل تلك عدة لازمة وهذه وصية تمتيع غير متحتمة والله اعلم.

(الإيمان والاحتساب) يخفف المصائب ويحمِلُ على الصبر دليله قوله تعالى:

**﴿إنْ تكونوا تألَمون فإنهم يألَمون كما تألَمون وترجُون من الله ما لا يرجُون﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٤]

أي فليكن صبركم أعظم ومصيبتكم أخف. كما أن عدم الإيمان يصعِّب المصيبة ويحمِل على الجزع؛ دليله قوله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا**

في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا لِيجعَلَ اللَّهُ ذلك حسرةً في قلوبهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٦]

ومما يدل على الأمرين قوله تعالى:

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرضِ ولا في أنفسكم إلاَّ في كتاب من قبلِ أَنْ نبرأها إنّ ذلك على الله يسير * لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [سورة الحديد: الآيتان ٢٢، ٢٣]

وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمنْ بالله يهدِ قلبَه﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

وغير ذلك من الآيات.

شرع الله الدين والعبادات والأوامر والنواهي لإقامة ذكره، ولهذا يذكر أن العبادات ناشئة عن ذكره، كما قال تعالى:

﴿قد أفلح من تزكَّى * وذَكَر اسم ربِّه فصلّى﴾

[سورة الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]

فجعل الصلاة ناشئة عن الذكر ومسبَّبةً عنه، كما جعل الصلاة لإقامة ذكره، فقال:

﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ [سورة طه: الآية ١٤]

وقال في ترك الذنوب والاستغفار منها:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥]

فجعل الاستغفار ناشئاً عن الذِّكر، فدل ذلك على أن الذكر لله هو الأصل الجامع الذي يتصف به المؤمن الكامل، فيصير الذكر صفةً لقلبه، فيفعل لذلك المأموراتِ ويترك المنهياتِ ناشيء عن تعظيم الله تعالى وذكره، وهو دليل على ذلك وهو أعظم المقصودات في العبادات. قال تعالى:

﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وقال تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرَىٰ للذاكرين﴾

[سورة هود: الآية ١١٤]

وقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبِهم﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١]

فكل من كان في عبادة فهو في ذكر الله، ومن ترك منهيًّا لله فهو في ذكر الله، وهذا هو المعنى الذي خلق الله لأجله، وشَرَع الشرائع لأجله، وجعل النعم الظاهرة والباطنة مقصودة لأجله ومعينة عليه، فنسأله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، آمين.

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

## فصــل

الراسـخ في العلم الذي مدحه الله هو المتمكن في العلم النافـع، المزكِّي للقلوب، ولهذا وصف الله الراسخين في العلم بأنهم يؤمنون بمحكم الآيات ومتشابِهها، ويردون المتشابَه المحتمل للمحكم الصريـح، فيؤمنون بهما جميعاً وينزِّلون النصوص الشرعية منازلَها، ويعلَمون أنها كلها من عند الله، وأنها كلها حقّ، وإذا ورد عليهم منها ما ظاهِرُهُ التعارضُ اتهموا أفهامَهم وعلِمُوا أَنها حقٌّ لا يتناقض لأنه كله من عند الله؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وهم دائماً يتضرعون إلى ربهم في صلاح قلوبهم واستقامتهم وعدم زيغها، ويعرفون نعمة الله عليهم بعظيم هدايتـه وتمام البصيرة التي مَنّ الله بها عليهم. ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها أنهم يدورون مـع الحق أينما كان، ويطلبون الحقائق حيثما كانت، ولهذا وصف الله الراسخين من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بما أنزل الله على جميـع أنبيائه، ولا يحملهم الهوى على تكذيب بعض الأنبياء وبعض الحق، فقال تعالى:

**﴿لكِنِ الرَّاسخون في العلم منهُم والمؤمِنونَ يؤمنونَ بما أُنزِل إليكَ وما أُنزِلَ من قَبلكَ﴾** [سورة النساء: الآية ١٦٢]

توطين النفس على عدم الانقياد للحق لا ينفـع معه تذكير ولا وعظ. قال تعالى:

**﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذْ يستمعون إليكَ وإِذْ هُمْ نَجْوَى إذْ يقولُ الظالمون إِنْ تتبعونَ إلاَّ رجُلًا مسحوراً﴾** [سورة الإسراء: الآية ٤٧]

ولهذا يذكر الله المعنى في سياق الإخبار عن عدم إيمان الكفار وانقيادهم؛ وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة فكما قال تعالى:

**﴿إن الذين حَقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَروُا العذابَ الأليم﴾** [سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]
ويذكر تعالى أن الذي ينتفع بالتذكير هو الذي يطلب الحق والإنصاف، فهذا إذا تبين له الحق انقاد له؛ والله أعلم.

لما قتلِ من قُتِل من الصحابة شهداءَ في سبيل الله أنزل الله على المسلمين: بلِّغوا إخواننا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه. فتلوها مدة فأنزل الله بدلها:

**﴿ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون * فَرِحين بما آتاهُمُ اللَّهُ من فَضلِه ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهمْ من خلفِهِم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * يستَبْشِرون بنعمة من اللَّهِ وفضلٍ وأنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين﴾**
[سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ ـ ١٧١]
وفي هذا حكمة ظاهرة. فإنه مناسب غاية المناسبة أن يُخبر اللَّهُ عنهم إخوانَهم وأصحابَهم وأحبابهم بخصوصهم ليفرحوا وتطمئن قلوبُهم وتسْكُنَ نفوسُهم ويُقْدِموا على الجهاد. فلما حصل هذا المقصود، وكان هذا الحكم ثابتاً: من قتل في سبيل الله إلى يوم القيامة، وكان من بلاغة القرآن وعظمته أنه يخبر بالأمور الكلية، ويذكُر الأصول الجامعة أنزل الله هذه الآيات العامّات المُحْكَمات حكمةً بالغة ونعمة من الله على عباده سابغة.

ونظير هذا أنه كان ممّا يتلى: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته إلخ، فنسخ لفظها وجعل الشارع الرجم بوصف الإحصان، لأنه هو الصفة الموجبة لا وصف الشيخوخة. ولكن في ذكر الشيخ والشيخة من بيان شناعة هذه الفاحشة ممن وصل إلى هذه الحال وقبحها ورذالتها ما يوطِّن قلوب المؤمنين في ذلك الوقت الذي كانت القلوب يصعب عليها هذا الحكم على الزنى، الذي كانوا آلفين له في الجاهلية فلم يفجأهم بحكم الرجم دفعة واحدة، بل حكم به على الشيخ والشيخة اللذين ماتت شهوتهما ولم يبق لهما

إرادة حاملة عليه إلا خبث الطبـع وسوء النية؛ فلما توطنت نفوسهم على قبحه شرع لهم الحكم العام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا يَنفـعُ نفساً إيمانُها﴾
[سورة الأنعام: الآية ١٥٨]

فسّر النبـي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغرِبها، فالأحاديث الصحيحة دلّت على أن أول الآيات طلوعُ الشمس من مغربها، والآية دلّت على أن أي آية من آيات الله التي هي مقدمات الساعة وبها يكون الإيمان اضطراريًّا أتت فإنه لا ينفـع الإيمان لأنه إنما ينفـع إيمانُ الاختيار وإيمان الغيب. وإذا أتى بعض الآيات صار الإيمان بشهادة واضطرار فلا ينفـع، فالآية دلّت على التعليل، والأحاديث دلت على الأولية؛ والله أعلم. قوله تعالى:

﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

والآية الأخرى:

﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ [سورة النساء: الآية ١٢]

والأخرى:

﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ [سورة النساء: الآية ١٢]

فاتفقت على إطلاق الدَّيْن وتقييد الوصية بحصول الإيصاء بها؛ وهذا يدل على أن الدَّيْن مقدَّم على حقوق الوَرَثة وغيرِهم مطلقاً، سواءً وصَّى المدين بقضائه أو لم يُوصِّ، وسواءً كان ديناً لله أو للآدميين، وسواء كان به وثيقةٌ أم لا. وأما الوصيةُ فشرطُ الله في ثبوتها أن يوجد الإيصاء بها، فإن لم يُوَصِّ الميت لم يجب على الورثة شيء من التركة لغير الدَّين، ولا بد من تحقق الإيصاء. فلو وجد منه قول في حال عدم شعور وعلم بما أوصى به لم يتحقق أنه أوصى. ودلت الآيات على ثبوت الوصية التي يوصي فيها الميت وقيدتها السُّنة بأنها الثلث فأقل، لغير وارث؛ بل آيات المواريث وتقدير أنصباء الورثة مـع قوله في آخرها:

**﴿تلك حدودُ الله ــ إلى قوله ــ ومَنْ يعصِ اللَّهَ ورسولَه ويتعدَّ حدودَه يُدخِلْه ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾** [سورة النساء: الآيتان ١٣، ١٤]

تدلّ على أن الوصية لوارث من باب تعدِّي الحدود.

فوائد: لا يمنـع الله تعالى عبدَه شيئاً إلاّ فتـح له باباً أنفـعَ له منه وأسهل وأوْلى. قال تعالى:

**﴿ولا تتمَنَّوا ما فضَّل الله به بعضَكم على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسَبْن واسْأَلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾** [سورة النساء: الآية ٣٢]

فمنـع الله من تمنِّي ما فضّل الله به بعضَ العبيد على بعض، وأخبر أن كل عاملٍ منَ الرجال والنساء له نصيبٌ وحظٌّ من كَسْبه، فحضّ الصِّنفين على الاجتهاد في الكسب النافـع، ونهاهم عن التمنِّي الذي ليس بنافـع، وفتـح لهم أبواب الفضل والإحسان، ودعاهم إلى سؤال ذلك بلسان الحال ولسان المقال؛ وأخبرهم بكمال علمه وحكمته، وأن مِنْ ذلك أنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُنال المطالب العالية إلا بالسعي والاجتهاد، والله الموفق لكل خير. قوله تعالى:

**﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً مِنهُم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لنفتنَهم فيه ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى﴾** [سورة طَه: الآية ١٣١]

تضمنت التزهيد في الدنيا، وأن غضارتَها وحسنَها الذي متّـع به المُترفين ليس لكرامتهم عليه وإنما ذلك للابتلاء والاختبار، لينظر أيهم أحسن عملاً، وأيهم أكمل عقلاً، فإن العاقل هو الذي يُؤثِرُ النفيس الباقي على الدنيِّ الفاني، ولهذا قال: ﴿ورزق ربك﴾ أي الذي أعده للطائعين الذين لم يذهبوا مـع أهل الإتراف في إترافهم ولم يغرَّهـم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة بل نظروا إلى باطن ذلك، حين نظر الجهال إلى ظاهرها وعرفوا المقصود ومقدار التفاوت ودرجات الأمور فرِزْقُ الله لهؤلاء خيرٌ وأبقى، أي أكمل في كل صنف من أصناف

الكمال. وهو مـع ذلك باقٍ لا يزول. وأمَّا ما متـع به أهلَ الدنيا فزهرةُ الحياة الدنيا، تمرُّ سريعاً وتذهب جميعاً؛ ولهذا نهى الله رسوله أن يمد عينيه إلى ما متّـع به هؤلاء؛ ومدُّ العين هو التطلـعُ والتشرفُ لذلك، لا مجرد نظر العين وإنما هو نظر القلب، ولهذا لم يقل: ولا تنظر عيناك إلى ما متعنا به أزواجاً الآية فمدّ العين متضمن لاستحسان القلب وتطلعه إلى ذلك. ومثل قوله:

﴿واْصبرْ نفسَك مـع الذين يَدعُون ربهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدّنيا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨]

فهذه الآية بينت المراد من تلك الآية. وأن نظر العين المقرون بإرادة زينة الحياة الدنيا. ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿ولقد آتيناك سبعاً من المَثَاني والقرآنَ العظيم * لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً مِنهم ولا تحزنْ عليهم واْخفِض جناحك للمؤمنين﴾

[سورة الحِجْر: الآيتان٨٧، ٨٨]

فنبّهه الله تعالى على الاغتباط بما آتاه الله من المثاني والقرآن العظيم، وامتنّ عليه بذلك، وأنه الخير والفضل والرحمة الذي يحق الفرح والسرور به، فإن ذلك خير مما يجمـع أهل الدنيا ويتمتعون به؛ وإنما الذي ينظرون ويغبطون هم المؤمنون الذين لم يغتروا بما اغتر به المعرضون، فلهذا قال: (واخفض جناحك للمؤمنين).

لعل من فوائد تأخير ذكر ذلك القتيل عن ذكر الأمر بذبـح البقرة في قصة موسى مـع بني إسرائيل لأن السياق سياق ذم لبني إسرائيل، وتعدادِ ما جرى لهم مما يقرر ذلك. فلو قَدَّم ذكر القتيل على الأمر بذبـح البقرة لصارت قصة واحدة وقضية داخل بعضها في ضمنِ بعض، فَفَصَل هذا من هذا ليتبين ذمُّهم وسوءُ فعالهم في القضيتين. ولهذا أتى في ابتداء كل منهما «بإذْ» الدالّةِ على تذكّر تلك الحال وتصويرها، فقال:

﴿وإذْ قال موسى لقومه إنّ اللّهَ يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾

[سورة البقرة: الآية ٦٧]

ثم قال: ﴿وإذ قتلتم نفساً فٱدَّارَأْتُمْ فيها﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٢]
وليرتب عليه أيضاً ما ذكر بعده من قوله:
﴿فقلنا آضربوه ببعضها﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٣]
إلى آخر الآيات، والله أعلم.

ويقارب هذا ما ذكر الله في قصة مريم حين أثنى عليها بالنعم الظاهرة والباطنة هي ووالدتها، فذكر حالها وكمالها أولاً، وأن الله جعلها في كفالة زكريا لتتربى تربية حسنة، وتتأدب وتتعلم، وذكر اجتهادها في ملازمة مِحرابها واستجابة دعاء أمها، وأنه تقبَّلها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً قبل ذكر اختصام بني إسرائيل فيها واقتراعهم عليها لينبه تعالى: أن هذا مقصود، وهذا مقصود، وأن لها مدحاً وكمالاً في حال اختصامهم عليها، ومدحاً وكمالاً في حال نشأتها وعبادتها وتيسير الله لها أمورَها. ومن فوائد ذلك أن تقديم الغايات والمقاصد والنهايات أهم من تقديم الوسائل، فالاختصاص من باب الوسائل وما ذكر قبله من باب المقاصد، والله أعلم وأحكم.

(ذِكْرُ الله تعالى) مُرْقِـعٌ للخَلَل، مُتَمِّمٌ لما فيه نقصٌ، ودليله قوله تعالى ـ بعدما ذكر صلاة الخوف وما فيها من عدم الطمأنينة ونحوها ـ قال:
﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٣]
أي لينجبر نقصكم وتتم فضائلكم. ويشبه هذا أن الكمال هو الاستثناء في قول العبد: إني فاعل ذلك غداً، فيقول: إن شاء الله؛ فإذا نسي فقد قال تعالى:
﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٤]

وهذا أعم من كونه يستثني بل يذكر الله تعالى تكميلاً لما فاته من الكمال؛ والله أعلم. فعلى هذا المعنى ينبغي لمن فعل عبادة على وجه فيه قصور، أو أَخَلَّ بما أمر به على وجه النسيان أن يتدارك ذلك بذكر الله تعالى ليزول قصوره ويرتفـع خَلَلُهُ.

(احتجاج الفقهاء) على أنه لا يجب على الزوج أن يطأ زوجته إلا في كل ثلث سنة مرة بقوله تعالى:

﴿للّذين يُؤْلُون من نسائهم تَرَبُّصُ أربعةِ أشهرٍ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٦]

فيه نظر، وإنما فيها الدلالة على أن للمُؤلي خاصة هذه المدة لأجل إيلائه، وأما غير المُؤْلي فمفهومها يدلّ على خلاف ذلك، وأنه ليس له أربعة أشهر وإنما عليه ذلك بالمعروف، لأنه من أعظم المعاشرة الداخلة في قوله تعالى:

﴿وعَاشروهن بالمعروف﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

فمن آلى زوجها منها فله أربعة أشهر لا تملك المطالبة إلّا أن يتبين أن قصده الضِّرار فيمنع من ذلك.

# فصـــل

يؤخذ من نهي الله عن نكاح المشركة وإنكاح المؤمن للمشركة، وتعليل الله لذلك أنه ينبغي اختيار الخلطاء والأصحاب الصالحين الذين يدعون إلى الجنة بأقوالهم وأفعالهم وتجنبُ ضِدّهم من الأشرار، الذين يدعون إلى النار بحالهم ومقالهم، ولو كانوا ذوي جاه وأموال وأبهة، ولو كان الأوّلون فقراء ولا جاه لهم ولا قدر عند كثير من الناس؛ لأن اختيار السعادة الأبدية أوْلى بالعاقل من حصول حظ عاجل يعقب أعظم الحسرة وأشد الفوت، فتخيرُ الخلطاء والأصحاب من شيم أولي الألباب.

قوله تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الذين يُزكُّون أنفسهم بَل الله يزكِّي من يشاء ولا يُظلَمُون فتيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ٤٩]

أي إذا كانوا إنما حملهم على تزكية نفوسهم ومدحها خوفُ أَنْ لا يُعرف مقدارُهم ومنزلتُهم فليعلموا أن الله هو المزكِّي لمن يشاء من خلقه، وهو الذي تزكَّى بترك القبائح وفعل الخيرات، والله تعالى شكور حكيم، فإن كانوا أزكياء حقيقة فلا بد أن يُظهِر الله ذلك وإن لم يظهروه؛ فإنه لا يَظْلم فتيلاً. ولكن قد علم أن الحامل لهم على هذه التزكية الدعوى الباطلة والافتراء والكذب، فلهذا قال:

﴿انظر كيف يفترون على الله الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً﴾
[سورة النساء: الآية ٥٠]

(اتفاقُ المقاصد) والاجتماع من أكبر الأسباب لحصول المطالب المهمة، كما أن اختلاف الإرادات وحصول التنازع من أسباب الفشل وتفويت المصالح. ويدل على هذا قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ـ إلى قوله ـ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهَبَ ريحكم واصبروا إن الله مـع الصابرين﴾
[سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]

وإذا كان هذا في قتال الأعداء الذي هو أشد الأشياء وأصعبها فغيره من الأمور من باب أولى وأحرى.

من المناسبات الحسنـة أن أكبر البراءة وهو بـراءة الله ورسولـه من المشركين أمر الله بإعلانها في يوم الحـج الأكبر؛ فالذنوب والمعاصي جميعها تشترك في البراءة من الله ورسوله وعدم الموالاة، ولكن البراءة التامة التي ليس معها من الموالاة مثقال ذرة إنما هي من كل مشرك وكافر بالله العظيم؛ وتمام موالاة المؤمن بالله ورسوله الموافقة التامة على هذه البراءة ولهذا كانت سورة:

﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [سورة الكافرون]

إلى آخرها متضمنة لهذه البراءة، مستلزمة للإخلاص لله تعالى في جميـع الدين.

قوله تعالى: ﴿لا يرقُبُوا فيكم إلاًّ ولا ذمةً﴾ [سورة التوبة: الآية ٨]

وفي الآية الأخرى:

﴿لا يرقُبُون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمةً وأولئك هم المعتدون﴾
[سورة التوبة: الآية ١٠]

دليل على معاداتهم للصحابة: خصوصاً، وعموماً؛ فخصوصاً: لما بينكم وبينهم من العداوة وآثارها، وخصوصاً لإيمانهم فلم تكن هذه العداوة لهم إلا لأجل الإيمان فهم أعداء الإيمان وأعداء كل مؤمن؛ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وهذا هو الاعتداء التام، فلذلك حصر الاعتداء فيهم بقوله:

﴿وأؤلئك هم المعتدون﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمةَ الكُفر إِنهم لا أَيْمانَ لهـم لعلهم ينتهُون﴾

[سورة التوبة: الآية ١٢]

أوقـع الظاهر، وهو قوله أئمة الكفر، موقـعَ المضمَر، فلم يقل: فقاتلوهم ـ ليدل على الحض على قتالهم، وأنهم تمكنوا من الكفر، ودل على أن بهذه الأشياء يكون الإنسان من أئمة الكفر وهو نقض العهود والدعوة إلى دين الكفر والطعن في دين الإسلام. ويدل هذا على أن أئمة الإيمان ضدهم، فهم المؤمنون الملتزمون لشرائـع الإيمان الموفون بعهوده، الداعون إلى الله، الذابُّون عنه، المبطلون لما ناقضه ظاهراً وباطناً، وأنهم الموثوق بهم ومحل القدوة والأمانة. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نَجَسٌ [سورة التوبة: الآية ٢٨]

دليل على أن قوله تعالى:

﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ [سورة الحج: الآية ٢٦]

عامٌّ لتطهيره من النجاسات الحسية والنجاسات المعنوية.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأَحبارِ والرُّهبانِ لَيَأْكُلون أموال الناس بالباطل ويصُدون عن سبيل الله والذين يكنِزُون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونَها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤]

ذكر الله فيها جُمّاع الأموال المحرّمة، وأن الآكلين لها صنفان: أحدهما مَنْ أخذها بغير حقها وأخذُ أموال الناس بالباطل من الغُصوب ونحوها والرشاء ونحوها وتناول من له مستحق يبذل له ويأخذه بحسب قيام الوصف به وليس به فدخل في ذلك مصارف الصدقات والأوقاف والزكوات والكفارات والنفقات ونحو ذلك؛ والصنف الثاني من منـع الحق الذي عليه من ديون الله وديون الآدميين وكلاهما أكل للمال بالباطل. قوله تعالى:

﴿يـوم يُحمى عليها في نـار جهنم فتُكوى بهـا جباهُهم وجنـوبُهم وظُهورُهم هذاما كَنزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنِزُون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٥]

قال: يوم يحمى عليها ولم يقل يوم تحمى في نار جهنم ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية، كالمنافيخ ونحوها، فيضاعف حرّها ويشتد عذابها وذكر المفسرون، رحمهم الله تعالى، مناسبةً لتخصيص كَيِّ جباههم وجنوبهم وظهورهم، وذلك لأنه إذا جاءهم الفقير السائل صَعَّر أحدهم بوجهه فإذا أعاد عليه ولّاه جنبه، فإذا ألحَّ عليه ولّاه ظهره فاختصت هذه الثلاث لذلك جزاءً وفاقاً، وظهر لي معنى أَوْلَى من هذا: وهو أن كَيَّ هذه المواضع الثلاثة هي أشد على الإنسان من غيرها، وهي متضمنة لجهاته الأربع: الأمام والخلف واليمين والشمال؛ وهذه الوجوه التي يخرج منها الإنسان، فلما منعوا الواجب عليهم منعاً تامًّا من جميع جهاتهم جوَّزوا بنقيض مقصودهم، فإن مقصودهم من المنع التمتع بتلك الأموال، وحصول النعيم بها وخوف وحرارة فقدها لو بذلوها فصار المنع هو عين العذاب فلو أنهم أخرجوها وقت الإمكان لسَلِموا من كَيِّها وفازوا بأَجْرها. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٥]

ويدل عليه أيضاً قول النبي ﷺ: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلّا من قال: هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. وفي اللفظ الآخر هم الأخسرون ورب الكعبة، فمن خسارتهم أنهم فاتهم ربح أموالهم وسلامتهم من تَبِعتها وكيِّها ويؤيد هذا أن المعنى الذي ذكره المفسرون ليس في اللفظ ما يدلّ عليه، وليس أيضاً لازماً لكل مانع فقد يمنع الفقير والسائل، وهو بغير تلك الصفة وقد يكون عنده حق واجب لا يطلب ويسأل أن يعطاه فيستحق هذا الجزاء والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إنَّ عدَّةَ الشُّهور عندَ اللَّهِ آثْنا عَشَرَ شهراً في كتاب الله﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٦]

دليل على أن هذه الشهور المعروفة قد ألهم الله العباد لها وفطرهم عليها، وأن

ذلك موافق لقدره وشرعه ويستدل بها من قال: إن اللغة إلهام من الله، لا اصطلاح اصطلح عليه العقلاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافةً واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٦]

في هذه الآية الكريمة فوائد: إحداها: وجوب قتال المشركين؛ لأن الأمر الأصلُ فيه الوجوب؛ الثانية: أن ذلك فرض على جميع المؤمنين؛ وهذا مأخوذ من قوله: «وقاتلوا» لا من قوله «كافة» فإن كافة حال المشركين على الصحيح، فخطاب الله للمؤمنين جميعاً بقوله: «وقاتلوا» يدل على ذلك، ولكن هذا الغرض على الكفاية على القادر لقوله تعالى:

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافةً﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢]

وقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

الآية الثالثة: إن هذا القتال لجميع المشركين، لا يختص به أحد دون أحد. الرابعة: أن المستكبرين عن عبادة الله من أنواع الملاحدة والدهرية أولى بالقتال من المشركين. الخامسة: أن قتالهم مستحق بشرطين: كونهم مشركين وكونهم مقاتلين. فمتى زال أحد الوصفين لم يقاتَلوا، فالمسلم لا يقاتل لوصفه الذي اتصف به من الظلم والمعاصي وإنما يقاتل المفسد منهم، كالبغاة والخوارج ونحوهم؛ وكذلك من لم يقاتل المسلمين من المشركين لا يقاتلون إما لكونه ليس أهلاً للقتال كالنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ونحوهم، وإما لكونه أخلد للمسلم وأقر بالجزية ففيه دليل أيضاً على أن الجزية تقبل من كل مشرك بذلها؛ ولو صح لم يكن من أهل الكتاب لهذا العموم وهذه الفائدة. السادسة، والسابعة: فيه التنبيه على الإخلاص في الجهاد وأنهم يقاتلون لوجه الله، ولكونهم اتصفوا بما يبغضه الله وهو الشرك. فليكن الحامل لكم أيها المؤمنون على قتالهم موافقةَ ربكم في بغضه وعداوته لهم، لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا. الثامنة: التهييج للمؤمنين على قتال المشركين، وذلك

أنهم يقاتلون المؤمنين كافة؛ فكل من اتصف بالإيمان فطبعهم الخبيث معاداته وقتاله لأجل إيمانه. أفلا تقاتلون أيها المؤمنون من كفروا بما جاءكم من الحق وعاندوه وحاربوه فلتكونوا في عداوتهم متفقين وعلى حربهم جاهدين.
التاسعة: الاجتهاد على التحقق بتقوى الله لتنال بذلك معونة الله ومعيته.
العاشرة: إن معية الله نوعان: عامة، يدخل فيها البر والفاجر، كقوله:

**﴿ما يكونُ من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلاّ هو سادِسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾**

[سورة المجادلة: الآية ٧]

وما أشبهها من الآيات الدالة على كمال العلم والمجازاة، وخاصة لمن قام بمحبوبات الله: من الإيمان والإحسان والصبر والتقوى، كقوله: **﴿إن الله مع المحسنين﴾**، و**﴿مع الصابرين﴾** و**﴿مع المؤمنين﴾** وهذه المعية تقتضي مع العلم والجزاء الحسن العون والنصرة والتأييد والقرب الخاص. الحادية عشرة: بلّغ فيها التنبيه على أسباب الانتصار على الأعداء، وهو الاتفاق على قتالهم، وعدم المنازعة، والإخلاص لله تعالى، وشدة العداوة التي من لازِمِها أن يبذل ما يستطاع ويمكن في قتالهم: ويدخل في ذلك إعداد السلاح والخيل والقوة بجميع أنواعها، وكذلك حصول اليقين بمعية الله والاتصاف بالتقوى، فمتى اجتمعت هذه الأسباب لم يتخلّف عنها النصر؛ وبحسب ما يفوت منها يفوت من النصر وبهذا ونحوه يُعلم أن الشريعة الإسلامية كاملة من جميع أبوابها منتظمة لمصالح الدنيا والآخرة وبالله التوفيق.

قوله تعالى: **﴿إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كَفَروا يُحِلُّونَه عاماً ويحرِّمونه عاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فيُحِلُّوا ما حَرّم الله﴾**

[سورة التوبة: الآية ٣٧]

فيها دلالة على تحريم الحيل المتضمنةِ تغييرَ دين الله بإسقاط الواجبات وإحلال المحرّمات بالتوصل إلى ذلك بصورة المباح؛ ووجه هذا أن الله تعالى ذمّ أهل النسيء، وجعل هذا من زيادة كفرهم، وهم يقدّمون شهراً

أو يؤخِّرونه ويبدِّلون الشهر الحرام بالشهر الحلال وبالعكس، ويجعلونه العدد الذي يصطلحون عليه ويسمونها بالأشهر الحُرُم ويتجنبون فيها ما يتجنبون في الأشهر الحرم فهم غيَّروا صورها وأسماءها وعلّقوا التحريم والتحليل على الصورة والاسم، لا على الحقيقة والمعنى، وهذه الحيل بعينها من غير فرق، والله أعلم.

الـداعي إلى الله وإلى دينه لـه طريق ووسيلة إلى مقصـوده، ولـه مقصودان: فطريقة الدعوة بالحق إلى الحق للحق فإذا اجتمعت هذه الثلاثة، بأن كان يدعو بالحق أي بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وكان يدعو إلى الحق وهو سبيل الله تعالى وصراطه الموصل لسالكه إلى كرامته، وكانت دعوته للحق، أي مخلصاً لله تعالى، قاصداً بذلك وجه الله ــ حصل له أحد المقصودين لا محالة، وهو ثواب الداعين إلى الله، وأجرُ ورثة الرسل بحسب ما قام به من ذلك. وأما المقصود الآخر، وهو حصول هداية الخلق وسلوكهم لسبيل الله الذي دعاهم إليه، فهذا قد يحصل وقد لا يحصل؛ فليجتهد الداعي في تكميل الدعوة كما تقدّم، وليستبشرْ بحصول الأجر والثواب. وإذا لم يحصل المقصود الثاني، وهو هداية الخلق أو حصل منهم معارضة أو أذية له بالقول أو بالفعل فليصبرْ ويحتسب، ولا يوجب له ذلك ترك ما ينفعه، وهو القيام بالدعوة على وجه الكمال ولا يضيق صدره بذلك فتضعف نفسه وتحضره الحسرات بل يقوم بجد واجتهاد ولو حصل ما حصل من معارضة العباد. وهذا المعنى تضمنه إرشاد الله بقوله تعالى:

**﴿فلعلك تاركٌ بعضَ ما يوحَى إليك وضائقٌ به صدرُك أَنْ يقولوا لولا أُنزلَ عليه كنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ إنما أنتَ نذيرٌ واللَّهُ على كل شيء وكيل﴾**
[سورة هود: الآية ١٢]

فأمره بالقيام به بجد واجتهاد مكملاً لذلك غير تارك لشَيء منه، ولا حرج صدره لأذيتهم، وهذه وظيفته التي يطالب بها؛ فعليه أن يقوم بها؛ وأما هداية العباد ومجازاتهم فذلك إلى الله، الذي هو على كل شيء وكيل.

قوله تعالى: ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذَا فريقٌ منهم بربهم يُشركون﴾ [سورة الروم: الآية ٣٣]
ونحوها من الآيات التي فيها هذا المعنى؛ فإذا كان هذا ثابتاً في أصل الدين أن الناس أكثرهم إذا مسهم الضر أنابوا إلى الله لعلمهم أنه كاشف الكربات وحدَه، لا شريك له، وللضرورة التي تضطرهم إليه، ثم إذا زالت الضرورة عادوا إلى شِركهم فكذلك الأمر ثابت في فروع الدين وفي سائر الأمور تجد الناس مستجيبين لداعي الغفلة، مقيمين على ما يكرهه الله، غافلين عن ذكر ربهم ودعائهم، فإذا مستهم نائبة من نوائب المحن أقبلوا إلى ربهم متضرِّعين، ولكشف ما بهم داعين، فأَقبَلوا وأنابُوا، ثم إذا أزال الله شدتَهم وكشفَ كُربَتَهم عادوا إلى غفلتهم وغيِّهم يعمهون، ونسُوا ما كانوا يدعونه إليه من قبل، كأنه ما كان. وهذه الحال من أعظم الانحرافات وأشد البليات التي يبتلى بها العبد، لا يعرف ربه إلا في الضرورة، وهذه شعبةٌ من شُعَبِ الشِّرك، ومن كان فيه هذا الأمر ففيه شبهٌ ظاهر من حال المشركين. وإنما المؤمن الكامل الذي يعرف ربه في السَّراء والضراء والعسر واليسر، فهذا هو العبد على الحقيقة، وهذا الذي له العاقبة الحسنة والسعادة الدائمة، وهذا الذي يحصل له النجاة من الكروب إذا وقع فيها. قال تعالى بعدما ذكر عن ذي النون أنه بسبب عبادته في الرخاء عرفه الله في الشدة:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين * لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾
[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]

وقال: ﴿ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

وقال النبي ﷺ: (تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة) وقريب من هذا المعنى ما ذكر الله من حال المترفين الرادين لدعوة المرسلين، حيث قال:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٤]

فأخبر أن السبب في ردهم لدعوتهم كونهم مترفين، فدل على أن الترف هو

الانغماس في نعيم الدنيا ولذاتها، والانكباب عليهـا والتنوّق في مـآكلها ومشاربها ومراكبها، والإسرافُ في ذلك يُحدث في الإنسان خُلُقاً خبيثاً يمنعه من سرعة الانقياد لأمر الله والاستجابة لداعي الله، وكما أنه ثابت واقـع في أصل الدين فإنه واقـع أيضاً في شرائعه وفروعه؛ فكم منـع الترف من عباداتٍ وكم فوّت من قُرُبات، وكم كان سبباً للوقوع في المحرّمات، فإن الترف وكثرة الإرفاه تصيِّر الإنسان شبيهاً بالأنعام التي ليس لها هم إلاّ التمتـع في الأكل والشرب؛ وكذلك يرهل البدن ويكسله ويثقله عن الطاعات، ويشغل القلب في مـرادات النفس، ومراداتهـا كم حمَلت صاحبَهـا على جمـع الأموال من غير حِلّها، وحملت النفس على الأَشَر والبَطَر والرياء والفخر والخُيلاء والاستكثار من قُرَناء السوء. وفي الجملة، في الترف والسرف من المضار أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، فعلى العبد أن يكون مقتصداً في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وغير ذلك من حوائجه التي لا بدّ منها، فلا يعلق قلبُه إلا بما يحتاجه منها، ولا يستعمل زيادة عن حاجته ويعوِّد نفسه على ذلك لتتمرن النفس على الأخلاق الجميلة ويسلَمَ من كثير من الآفات والشرور المترتبة على الترف. ولهذا لما فتحت الدنيا على المسلمين أيام عمر، رضي الله عنه، وكَثُرَت الأموال كان رضي الله عنه ينهى المسلمين أشد النهي عن الترف، ويأمرهم بالخشونة والاقتصاد الذي به صلاح المعاش، والمعاد، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: **﴿فآنظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيـي الأرضَ بعد موتِها، إنَّ ذلك لمحيـي الموتَى وهو على كل شيء قدير﴾** [سورة الروم: الآية ٥٠]

فإذا كانت الأرض الخاشعة الخالية من كل نبت، إذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وَرَبَتْ وأنْبتت من كل زوجٍ بهيـج، واختلط نبتُها وكثرت أصنافه ومنافعه جعله الله تعالى من أعظم الأدلة الدالّة على سعة رحمته وكمال قدرته، وأنه سيحيـي الموتى للجزاء فالدليل في القلب الخالي من العلم والخير حين ينزل الله عليه غيث الوحي فيهتز بالنبات وينبت من كل زوج بهيـج من العلوم

المختلفة النافعة، والمعارف الواسعة، والخير الكثير والبر الواسع، والإحسان الغزير والمحبة لله ورسوله، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة لله وحدَه لا شريك له، والخوف والرجاء والتضرع والخشوع لله، وأنواع العبادات وأصناف التقربات، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وغير ذلك من العلوم والأعمال الظاهرة والباطنة والفتوحات الربانية، مما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر: أعظم من الأرض بكثير، على سعة رحمة الله وواسع جوده وتنوع هباته وكمال اقتداره وعزته، وأنه يحيي الموتى للجزاء، وأن عنده في الدار الأخرى من الخيرات والفضل ما لا يعلمه أحد غيرُه، وقد نبّه الله على أن حياة القلوب بالوحي بمنزلة حياة الأرض بالغيث، وأن القلوب الخالية من الخير بمنزلة الأرض الخبيثة، فقال تعالى:

**﴿والبلدُ الطيبُ يَخْرُجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلّا نَكِداً كذلك نُصرِّف الآياتِ لقومٍ يشكرون﴾** [سورة الأعراف: الآية ٥٨]

نية العبد تقوم مقام عمله؛ وإذا أحسن العبد في عبادة ربه ووطّن نفسه على الأعمال الفاضلة الشاقّة سهّل الله له الأمور وهوّن عليه صعابَها، وربما انقلبت المخاوف أمناً وتبدّلت المحنة منحة، وربما حصل من آثار ذلك خيرُ الدنيا والآخرة؛ ويدل على ذلك قوله تعالى:

**﴿الذين استجابوا لله والرسولِ منْ بعدِ ما أصابهُمُ القَرْحُ ـ إلى قوله ـ فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾** [سورة آل عمران: الآيات ١٧٢ ـ ١٧٤]

فلا يستنكر هذا الخير على ذي الفضل العظيم. وفي هذه الآية دليل أيضاً على أن الله يحدث لعبده أسباب المخاوف والشدائد ليحدث العبد التوكل على ربه والإخلاص والتضرع فيزداد إيمانه وينمو يقينه، كما قال تعالى:

**﴿الذين قالَ لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لكم فاخشَوْهم فزادَهُم إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٧٣]

قوله تعالى: ﴿وأنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربهم﴾
[سورة الأنعام: الآية ٥١]

ليس فيه نقص كما توهَّمه بعضُهم، وجعل الخوفَ بمعنى العلم، وإنما فيه زيادة معنى نفيس، وهو أنه: كما كان العلم نوعين، علمٌ لا يثمر العمل بمقتضاه، وإنما هو حجة على صاحبه، وهو غير نافـع؛ وعلمٌ يُثمر العمل وهو علم المؤمنين بأن الله سيبعثهم ويجازيهم بأعمالهم؛ فأحدث لهم هذا العلم الخوف فخافوا مقام ربهم وانتفعوا بنذارة الرسل، وعلموا أنه ليس لهم من دون الله وليٌّ ولا شفيـع، فهؤلاء الذين أمر الله رسولَه بنذارتهم لأنهم يعرفون قدرَها ويقومون بحقها. وأما حالة المعرِضين الغافلين والمعرِضين المعانِدِين فهؤلاء لا ينفـع فيهم وعظٌ ولا تذكيرٌ لعدم المقتضى والسبب الموجب، وهذا المعنى يأتي بما أشبه هذا الموضـع من القرآن والله ولي الإحسان.

# فصل

العزم الذي مدح الله به خيارَ خلقه، كقوله:

﴿فاصبرْ كما صبر أُولو العزم من الرسل﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٣٥]

هو قوة الإرادة وحزمها على الاستمرار على أمر الله، والهمة التي لا تني ولا تفتر في طلب رضوان الله وحسن معاملته، وتوطين النفس على عدم التقصير في شيء من حقوق الله، ولذلك لام الله آدمَ عليه السلام بعدم استمراره على الأمر وحصول الاغترار منه لعدوِّه بأكل الشجرة التي عهد الله له بالامتناع من أكلها، فقال تعالى:

﴿ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قَبلُ فنسي ولم نجدْ له عزماً﴾

[سورة طه: الآية ١١٥]

فحصول الفتور وفلتات التقصير منافٍ كمال العزم، ولهذا لم يكن كمال هذا الوصف إلّا لمن بلغوا الدرجة العالية في الفضائل. والنقصُ إنما يصيب العبدَ من أحد أمرين: إما من عدم عزمه على الرشد، الذي هو الخير؛ وإما من عدم ثباته واستمراره على عزمه. ولهذا كان دعاء النبي ﷺ: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر. والعزيمةُ على الرشد من أنفع الأدعية وأجمعها للخيرات؛ فمن أعانه الله على نية الرشد والعزيمة عليها والثبات والاستمرار فقد حصل له أكبرُ أسباب السعادة. والناس في هذا المقام درجات بحسب قيامهم بهذين الأمرين؛ وحَسْبُ ذي الفضل فضلاً أن تكون العزيمة على الرشد وصفُه وآثارَها من العلم والعمل نعتُه، وإذا حصل له نوع فتور وخلل في هذا المأمور رجع إلى أصله وأخيته، وداوى هذا الداء بالتذكر والاستغفار. قال تعالى:

﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تـذكَّروا فـإذا هم مبصرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

أي تذكروا الخلل الذي دخل عليهم من الشيطان والنقصَ الذي حصل لهم به الخسرانُ فأبصروا ذلك فبادروا إلى سَدِّه والعودِ إلى ما عودهم وليُّهم من لزوم الصِّراط المستقيم. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمَنِّه وكرمه، آمين.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فٱفْسَحُوا يفسَحِ اللَّهُ لكمْ وإذا قيل ٱنشُزُوا فٱنشُزُوا يرفَـع اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجاتٍ واللَّهُ بما تعملون خبير﴾
[سورة المجادلة: الآية ١١]

فيها فضيلةُ التأدب بالآداب الشرعية، ورفعةٌ عند الله ولو ظنها الإنسان منقصةً، فليس النقص غير الإخلال بآداب الله لعباده؛ ومن فوائد إيقاع الظاهر موقـع المُضْمَر في هذه الآية حيث قال: ﴿يرفـع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ ولم يقل يرفعكم، ليدل ذلك على فضيلة الإيمان والعلم عموماً، وأنَّ بهما تحصل الرِّفعة في الدنيا والآخرة، ويدل على أن من ثمرات العلم والإيمان سرعة الانقياد لأمر الله، وأن هذه الآداب ونحوها إنما تنفـع صاحبَها، ويحصل له بها الثوابُ إذا كانت صادرة عن العلم والإيمان، وهو أن تكون خالصة لوجه الله لا لغير ذلك من المقاصد.

الظاهر أن قوله تعالى: ﴿ولوْ أنّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٦]

تفسير لقوله في الآية الأخرى:

﴿لأكلوا مِنْ فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلهم﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦]

فالسماء منها مادةُ الأرزاق، والأرضُ محلُّها وموضعها.

## فصل

قوله تعالى: ﴿إذ يبيِّتون ما لا يرضَى مِن القول﴾

[سورة النساء: الآية ١٠٨]

ذمٌّ لهم من وجهين: من جهة فعل الذنب، والإصرار على الذنب؛ وثم وجهٌ ثالث، من الذم وهو: أن الله ذمهم على المكر؛ لأن التبييت هو التدبير ليلاً على وجه الخديعة للحق وأهله من كلامهم وقولهم بما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال المحرمة ومن الإصرار على ذلك؛ فقولهم إثمٌ وظلم، وبياتُهم على ذلك وإصرارهم عليه إثمٌ آخرُ، وهذا أبلـغ من لو قال: «وهو معهم إذ يقولون ما لا يرضى من القول» فعلى العبد التوبة إلى الله من فعل الذنوب والإصرار عليها؛ فكما أن فعلها معصية فالاستمرار عليها ونية فعلها متى سنحت له الفرصة معصية أخرى، وعلى العبد أن يُبَيِّت ما يُرضي الله تعالى من الأقوال والأفعال، فيفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل الخير الذي لم يحضر وقته، والذي لا يقدر علي؛ وبذلك يتحقق العبد أن يكون ممن اتبـع رضوانَ الله، فيدخل في هذه المعاملة المذكورة في قوله:

﴿أفمن اتبـع رِضوانَ الله كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٦٢]

وتحصل له الهداية في أموره كلها يهدي به الله من اتبـع رضوانه سبلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم صراط مستقيم.

قوله تعالى: ﴿وإنْ يتفرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وكان الله واسعاً حكيماً﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

في هذه الآية فائدة عظيمة، وهي أن العبد عليه أن يعتمد على الله، ويرجو

فضله وإحسانه، ويعمل ما أُبيح له من الأسباب؛ وأنه إذا انغلق عليه باب وسببٌ من الأسباب التي قدّرها الله لرزقه فلا يتشوَّش لذلك ولا ييأس من فضل الله، ويعلم أن جميع الأسباب مستندة إلى مسببها، فيرجو الذي أغلق عليه هذا الباب أن يفتح له باباً من أبواب الرزق أوسع وأحسن من الباب الأول. وهذه العبودية من أفضل عبوديات القلب، وبها يحصل التوكّل والكفاية والراحة والطمأنينة. فهذه المرأة المتصلة بزوج ينفق عليها ويقوم بمؤنتها فإذا حصل لها فرقةٌ منه وتوهّمت انقطاع النفقة والكفاية فلتلجأْ إلى فضل الله ووعده بأَنه سيغنيها وقال: ﴿يغني الله كلاًّ من سعته﴾ ولم يقل «يغنيها» مع أن السياق يدلّ عليه لئلاّ يُتَوهَّمُ اختصاصُها بهذا الوعد، وإنما الوعد لها وله، فالله أوسع وأكثر، ولكن هباته وعطاياه تبع لحكمته، ومن الحكمة أن من انقطع رجاؤه من المخلوقين، ومن كل سبب، واتصل أمله بربه ووثق بوعده ورجا بره فإن الله يُغنيه ويقنيه؛ والله الموفق لمن صلح باطنه وحسنت نيته فيما عند ربه.

# فصل

ينبغي لمن طمحت نفسه لما لا قدرة له عليه أو غير ممكن في حقّه، وحزنت لعدم حصوله، أن يسلّيها بما أنعم الله به عليه مما حصل له من الخير الإلّهي الذي لم يحصل لغيره. ولهذا لما طمحت نفس موسى عليه السلام إلى رؤية الله تعالى، وطلب ذلك من الله، فأعلمه الله أن ذلك غير حاصل له في الدنيا وغير ممكن، سلّاه بما آتاه، فقال:

**﴿يا موسى، إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتُك وكن منَ الشاكرين﴾** [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وكذلك نبه الله رسوله وعباده المؤمنين على هذا المعنى بقوله:

**﴿أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهم أَنْ يقاتلوكم أو يقاتِلوا قومَهم ولو شاءَ اللَّهُ لسلَّطهم عليكُم فَلَقَاتَلُوكم﴾** [سورة النساء: الآية ٩٠]

فإن النظر إلى هذه الحالة: وهو كَفُّ أيديهم عن المؤمنين ومسالمتهم بالنسبة إلى الحالة الأخرى، وهي أن لو شاء الله لسلّطهم على المؤمنين فقاتلوهم، مما يهون بها الأمر فَهُم وإن لم يكونوا معاوِنين للمؤمنين، فكذلك لم يكونوا معاونين عليهم أعداءهم. ومما يشبه هذا أن العبد مأمور أن ينظر إلى من دونه في المال والجاه والعافية ونحوها، لا إلى من فوقه؛ فإنه أجدر أن لا يزدري نعمة الله عليه. وكذلك إذا ابتلي ببلية فليحمدِ اللَّهَ أنْ لمْ تكنْ أعظمَ من ذلك، وليشكر الله أن كانت في بدنه أو ماله لا في دينه؛ وصاحب هذه الحال مطمئن القلب مستريح النفس صبور شكور.

الإتيان بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تستأنِسوا﴾** [سورة النور: الآية ٢٧]

أحسن من قوله «تستأذنوا» لأن ﴿تستأنسوا﴾ تتضمن الاستئذان وزيادة التعليل، وأن الحكمة التي شرع الله الاستئذان لأجلها هي حصول الاستئناس من عدم الوحشة، ويدل على ذلك أيضاً على أنه يحصل الإذن والاستئذان بكل ما يدل عليه عادة وعرفاً، لكن قد يقال: إن الاستئذان أيضاً يدخل فيه الاستئذان اللفظي والعرفي؛ والله أعلم.

الإتيان باللفظ العام في قوله:

﴿ولا يَأْتَلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أَنْ يُؤتُوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل الله، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [سورة النور: الآية ٢٢]

مع أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حين تألى أن لا ينفق على مسطح حين شايع أهل الإفك، مما يحقق أن القرآن العظيم نزل هداية عامة، وأنه يتناول من لم ينزل عليهم من الأمة ومن نزلت وهم موجودون ومن كان له سبب بنزولها وغيره، وهكذا يقال في جميع الآيات التي نزلت في قضايا جزئية خاصة ولفظها يتناول القضايا الكلية العامة؛ وبهذا ونحوه تعرف أن معرفة أسباب نزول الآيات وإن كان نافعاً فغيره أنفع وأهم منه؛ فتدبُّرُ الألفاظ العامة والخاصة والتأملُ في سياق الكلام والاهتمام بمعرفة مراد الله بكلامه وتنزيله على الأمور، كلُّها هو الأمر الأهم، وهو المقصود، وهو الذي تَعَبَّد اللَّهَ العبادُ به، وهو الذي يحصل به العلم والإيمان. ومما يدل على أن معرفة أسباب النزول ليس كمعرفة معنى ما أراد الله بكلامه أنه لا يتوقف معرفة معاني القرآن على معرفتها، ولذلك تجد المفسرين يذكرون في أسباب النزول أقوالاً كثيرة مختلفة، لا يهتدي الإنسان إلى معرفة الصحيح منها في الغالب؛ وكذلك المعتنين بها تضعف معرفتهم بتفسير القرآن كما ينبغي، ولست أقول إن الاعتناء بأسباب النزول ليس بنافع، بل هو نافع، وقد يتوقف فهم كمال المعنى عليه، وإنما قولي إن الاعتناء بتدبر الألفاظ والمقاصد هو الأهم ومع ذلك فإذا عرض للإنسان سبب نزول بعض الآيات ببعض الواقعات فلا يذهب وهمُه إليه وحده، بل يكون مرجعه إلى هذا الأصل

الكبير، فيعرف أن القضية الجزئية التي نزلت الآية فيها بعضُ المعنى وفردٌ من أفراده؛ فالمعنى قاعدةٌ كلية يدخل فيها أفرادٌ كثيرة، ومن جملة تلك الأفراد تلك الصورة، والله المستعان في جميع الأمور، المرجوُّ لتسهيل كل صعب والإعانة على كل شديد.

ما يجري على الأخيار يحصل لهم فيه النفع، خصوصاً، ولغيرهم عموماً؛ وهذا من بركة الله لهم وبركته فيهم، ومن نصحهم للخلق. ولهذا لما رأى سليمان، عليه الصلاة والسلام، عرشَ ملكة سبأ مستقرًّا عنده قد أُحضر في أسرع وقت قال:

**﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أمْ أكفرُ ومن شكر فإنّما يشكرُ لنفسه ومن كَفَرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم﴾** [سورة النمل: الآية ٤٠]

ألا ترى كيف اعترف بفضل الله، وشكر الله على ذلك، وأقر لله تعالى بالحكمة وأخبر عن كرم الله وسَعة غناه، وكان في ضمن كلامه هذا الحضُّ للعباد على هذه الأمور، ولهذا أتى باللفظ العام «ومن شكر ومن كفر». وإذا تأملت جميع القضايا التي تجري على الأنبياء وأتْباعهم وورثتهم وجدتَها بهذه الحالة، ينتفعون بها وينفع الله بها الخلق بسببهم، فنسأل الله تعالى أن يبارك لنا فيما أعطانا من نعم الدين والدنيا، فإن بركة الله لا نهاية لها وجودَه لا حدَّ له، والقليل إذا بارك الله فيه صار كثيراً ولا قليل في نِعَمِ ربِّنا، فله الحمد والشكر بجميع أنواعهما حمداً على ما له من أنواع الكمالات وشكراً على ما أسدى إلى الخلق من الإفضالات والهبات، بالقلب واللسان والجوارح كثيراً طيباً مباركاً فيه.

إبطال قول الخصم قد يكون بإبطال الدليل الذي اَستدلّ به، أو بإبطال دلالته على مطلوبه، وقد يكون بإبطال نفس المقالة التي ينصرها وإفسادها، وقد يكون بإثبات نقيض ما قاله الخصم قولاً ودليلاً لأن النقيض للشيء متى

صح أحدهما بطل الآخر. وقد اجتمعت هذه الأمور في قول يوسف عليه السلام محتجًّا على صحة التوحيد وإبطال الشِّرك:

**﴿يا صاحِبَي السِّجن أأَرْبابٌ متفرِّقون خيرٌ أَمِ اللَّهُ الواحد القهار * ما تعبدون من دونِهِ إلاّ أسماءً سمَّيتُموها أنتُم وآباؤكُمْ ما أنزل الله بها من سُلطان إنِ الحُكْمُ إلاّ لله أَمَرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاه ذلكَ الدينُ القيِّم ولـكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون﴾** [سورة يوسف: الآيتان ٣٩، ٤٠]

فأبطل الشِّرك وصوّر قبحه عقلاً ونقلاً وأنّ ما يُدعى من دونِ الله آلهةٌ متفرِّقة، كلٌّ فريق يزعم صحةَ قوله وإبطالَ الآخر، والحال أنه لا فرق بينهما، وأن المشرَكَ فيه شركاءُ متشاكسون، وأن هذه المعبودات من دون الله ليس فيها شيء من خصائص الإلٰهية، فليس فيها كمال يوجب أن تُعبد لأجله، ولا فِعال بحيث تنفع وتضرّ فتُخَاف وتُرجى، إنما هي أسماءُ لا حقائق لها، ومع ذلك ما أنزل الله بها من سلطان على عبادتها، فليس في جميع الحجج الصحيحة ما يدل على صحة عبادتها، بل اتفقت الحجج والبراهين كلها على إبطالها وفسادها، وعلى إثبات العبادة الخالصة لله الواحد الذي انفرد بالوحدانية والكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي ليس له شبيه ولا نظير ولا مقارب، وهو القهار لكل شيء، فكل شيء تحت قهر الله، وناصيته بيد الله، فالواحد القهار هو الذي يستحق الحب والخضوع والانكسار لعظمته، والذل لكبريائه.

قوله تعالى: **﴿واللَّهُ يقولُ الحقَّ وَهُوَ يهدِي السبيلَ﴾**
[سورة الأحزاب: الآية ٤]

هذه الآية جمعت كل علم صحيح، وذلك أن العلم إما مسائل نافعة وإما دلائل مصيبة؛ فأنفع المسائل المشتملة على الحق ـ وهو الصدق والعدل والقسط والاستقامة ظاهراً وباطناً ـ أهدى الدلائل وأرشدُها ما هدى السبيل الموصل إلى المطالب العالية والمراتب السامية. فالكتاب والسنة كفيلان بهذين الأمرين على أكمل الوجوه وأتمها وأبينها، وما سوى ذلك فهو باطل

وضلال؛ فماذا بعد الحق إلاّ الضلال، وما بعد الهداية إلى السبيل المستقيم إلاّ الهداية إلى سبيل الجحيم؟

**﴿ولا يأتونَك بمَثَلٍ إلاّ جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾**

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

إن قلتَ إن الله أخبر في غير موضع أنه لا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الفاسقين، والقوم الكافرين، والمجرمين، ونحوهم، والواقع أنه هدى كثيراً من الظالمين والفاسقين والقوم الكافرين والمجرمين، مع أن قوله صدق وحق لا يخالفه الواقع أبداً.. فالجواب: أن الذي أخبر أنه لا يهديهم هم الذين حقّت عليهم الشِّقوة وكلمة العذاب، فإنها إذا حقت وتحقّقت وثُبتت ووَجَبت فإن هذا لا يتغير ولا يتبدل. قال تعالى:

**﴿وكذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك على الذين كفروا أَنَّهم أصحابُ النار﴾**

[سورة غافر: الآية ٦]

**﴿كذلك حَقّت كلمةُ ربِّك على الذين فَسَقُوا أَنهم لا يؤمنون﴾**

[سورة يونس: الآية ٣٣]

**﴿إنَّ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتْهُم كلُّ آيةٍ حتَّى يَرَوُا العذابَ الأَليم﴾** [سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

وغير ذلك من الآيات الدالاّت على هذا المعنى. وهؤلاء هم الذين اقتضت حكمة الله تعالى أنه لا يهديهم لكونهم لا يصلُحون للهداية ولا تليق بهم، فلو علم فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون، وهم الذين مَرَدُوا على أسباب الشقاء ورضُوها واختارُوها على الهدى، وأما من سبقت لهم من الله الحسنى، فإن الله تعالى يهديهم ولو جرى منهم ما جرى، فإنه تعالى هدى كثيراً من أئمة الكُفر المحاربين له ولرسوله وكتبه فصاروا من المهتدين، والله عليم حكيم؛ فالذين أخبر عنهم أنه لا يهديهم هم الذين حقّت عليهم الشِّقوة، والذين هداهم هم الذين سبقت لهم منه الحسنى، فصار النفي واقعاً

على شيء ووقوع الهداية واقع على شيء آخر، فلم يحصل تناقض ولله الحمد.

سعيُ الإنسان في دفع أسباب التهمة السيئة عن نفسه والعار والفضيحة ليس بعار، بل ذلك من سيماء الأخيار، ولهذا لم يجب يوسف عليه الصلاة والسلام الداعي حين دعاه إلى الخروج من السجن والحضور عند الملك حتى يتحقق الناس براءة ما قيل فيه.

**﴿فلما جاءه الرسول قال: آرجِع إلى ربِّك فاسأله: ما بالُ النِّسوة اللاتي قطَّعن أيدِيَهُن﴾** [سورة يوسف: الآية ٥٠]

لما كان التوكّل به حياةُ الأعمال والأقوال وجميع الأحوال، وبه كمالها، قال تعالى:

**﴿وتوكَّلْ على الحي الذي لا يموت﴾** [سورة الفرقان: الآية ٥٨]

فأمر بالتوكل والاعتماد على الحي كامل الحياة، فإذا حقق العبد التوكل على الحي الذي لا يموت أحيا الله له أموره كلَّها، وكمّلها وأتمَّها، وهذا من المناسبات الحسنة التي ينتفع العبد باستحضارها وثبوتها في قلبه، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا توكّلاً يحيي به قلوبنا وأقوالنا وأفعالنا وديننا ودنيانا، ولا يكلنا إلى أنفسنا ولا إلى غيره طرفة عين ولا أقل من ذلك، إنه جواد كريم.

قوله تعالى: **﴿إنّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون﴾**
[سورة الحِجْر: الآية ٩]

اشتملت على فوائد عديدة. **الأولى، والثانية**: أن القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق، وأن الله تعالى عليٌّ على خلقه، وهذا مأخوذ من قوله: **﴿نزلنا الذكر﴾** فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم؛ فكونه نازلاً من عند الله يدل على علو الله، وكونه أيضاً من عنده يدل على أنه كلام الله، فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته. **الثالثة**: عظمة القرآن ورفعة قدره وعلو شأنه حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر أنه الذي تولى إنزاله وحفظَه، ولم يَكِلْ

ذلك إلى أحد من خلقه. **الرابعة**: أن القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين، ومن الأحوال الظاهرة والباطنة، فإن معنى الذِّكر أنه متضمِّن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه وتتعلق به منافعهم ومصالحهم. والأمر كذلك. فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما على أكمل وجه وأشمله، بحيث لو تذكر الخلق بتذكيره ومشوا على إرشاده لاستقامت لهم جميع الأمور ولاَنْدَفعت عنهم الشرور. ولهذا أكثر الله في القرآن من حثِّ العباد على الاهتداء به في كل شيء، والتفكر والتدبر لمعانيه النافعة ويترتب على هذا المعنى، الفائدة **الخامسة**: وهي أن من قام بالقرآن وتذكّر به كان رفعةً له وشرفاً وفخراً وحُسْنَ ذِكرٍ وثناء. وبهذا أُوِّلَ قوله تعالى:

﴿وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك﴾ [سورة الزخرف: الآية ٤٤]

أي شرف ورفعة لمن تذكّر به واستقام عليه. **السادسة**: إن التذكّر بغيره غير مفيد ولا مُجْدٍ على صاحبه نفعاً؛ لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع عُلمَ أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف؛ ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم. **السابعة**: أنه أتى بما يوافق العقل الصحيح والفِطَر المستقيمة، فليس فيه شيء مخالف ولا مناقض للمحسوس، ولا معاكس للقياس الصحيح، ولا مضاد للعدل والقسط والميزان والحق، لأن الله سماه ذِكراً، والذِّكر هو الذي يذكِّر العباد ما تقرر من فِطَرهم السليمة وعقولِهِم الصحيحة، من الحق والحث على الخير والنهي عن الشر، فهو مذكر لهم ما عرفوه مجملاً ولم يهتدوا إلى كثير من تفاصيله فبه تزداد العقول وتتفتق الأذهان وتَزْكو الفِطَر. ولشيخ الإسلام «ابن تيمية» ــ رحمه الله ــ في هذا المعنى كتاب: «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح». **الثامنة والتاسعة**: إن الله تكفل بحفظه حال إنزاله، فلا يمكن أن يقربَه شيطان فيغيِّره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القويّ الأمين جبريل على قلب

الرسول محمد، ﷺ، القلبِ الزكيِّ الذكي، الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق. وضمن الله لرسوله قرآنه وبيانه:

﴿فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه * ثم إنّ علينا بيانه﴾

[سورة القيامة: الآيتان ١٨، ١٩]

وتكفل الله أيضاً بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكّلهم به وآئتمنهم عليه فكل قرن حمل عدو له وأزكياؤه الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم ألفاظه ومعانيه غضة طرية لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه قيّض الله من يذبّ عنه ويحفظه، وهذا من حفظه. ويؤيد هذا **الفائدة العاشرة**: أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه وصدق من جاء به، وهو محمد ﷺ، فإنه تعالى خبر بأنه أنزل وأنه حافظ له فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آية وبرهاناً على صدقه وصحة ما جاء به كما يشهد بذلك الواقع.

فائدة عظيمة: لما كان الدعاء مُخَّ العبادة ولبَّها وخالصَها لكونه متضمناً للافتقار التام لله، والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوع عبوديات القلب، وكثرةِ المطالب المهمة كان أفضله وأعلاه ما كان أنفع للعبد وأصح من غيره وأجمع لكل خير، وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار التي كان سيد المرسلين يختارها على غيرها. ولما كان من شروط الدعاء وآدابه حضور قلب الداعي واستحضاره لمعاني ما يدعو به أحببت أن أُنبِّه تنبيهاً لطيفاً على معاني أدعية القرآن ليسهل استحضارها فيعظم انتفاع العبد بها.

فأفضل أدعية القرآن وأفرضها قوله تعالى:

**﴿اهدنا الصِّراطَ المستقيمَ * صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين﴾** [سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧]

أي عَلِّمْنا يا ربّنا وألْهِمْنا ووفِّقنا لسلوك الصراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، المشتملِ على علم ما يحبه الله ورسوله ومحبته، وفعلِهِ على وجه الكمال وعلمِ ما يكرهه الله ورسوله ويغضِبه وتركِه من كل وجه. وحقيقة ذلك أن الداعي بهذا الدعاء يسأل الله تعالى أن يهديَه الصِّراط المستقيم المتضمِّن لمعرفة الحق والعمل به ويجنِّبَه طريقَ المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريقَ الضَّالين الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

ومن أجمع الأدعية وأنفعها دعاء أرباب الهمم العالية، الذين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة.. قال تعالى:

**﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٠١]

فصدّروا دعاءهم بقولهم: «ربنا» وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية الله العامة، وهو الخَلْق والتدبير وإيصال ما به تستقيم الأبدان والتربية الخاصة لخيار خلقه، الذين ربّاهم بلطفه وأصلح لهم دينهم ودنياهم، وتولّاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا متضمن لافتقارهم إلى ربِّهم، وأنهم لا يقدِرُون على تربية نفوسهم من كل وجه، فليس لهم غير ربهم يتولّاهُم ويُصلح أمورَهم، ولهذا كانت أغلبُ أدعية القرآن مصدَّرة بالتوسُّل إلى الله بربوبيته، لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق التي تحصل بها المحبوبات وتندفع بها المكروهات. وحسنة الدنيا اسمٌ جامعٌ للعلمِ النافعِ والعمل الصالح وراحة القلب والجسم والرزقِ الحلالِ الطيبِ من كل مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن، ونحوها، فهي اسم جامع لحسن الأحوال وسلامتها من كل نقص. وأما حسنة الآخرة فهي كل ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ولما كانت حسنة الدنيا والآخرة تمامها وكمالها الحفظُ من عذاب النار والحفظ من أسبابه وهو الذنوب والمعاصي قالوا: **﴿وقنا عذاب النار﴾** فاشتمل هذا الدعاء على كل

خير ومطلوب محمود ودفع كل شر وعذاب، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيراً.

ومن ذلك الدعاء الذي في آخر «البقرة» الذي أخبر الله على لسان رسوله أنه قبله من المؤمنين حين دَعَوْا به:

**﴿ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأْنا ربَّنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملتَه على الذين مِنْ قَبْلِنا ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به وآعفُ عنا وآغفِرْ لنا وآرْحَمْنا أنتَ مولانا فانصُرنا على القوم الكافرين﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

ولما كان إخلال العبد بأمر الله قد يكون عمداً على وجه العلم، وقد يكون نسياناً وخطأً، وكان هذا القسم غير ناشىء عن عمل القلب الذي هو محل الإثم وعدمه سألوا ربهم أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ وذلك عامٌّ في جميع الأمور. قال الله تعالى: «قد فعلت». ولما كانت بعض الأفعال فيها شدة ومشقة وآصار وأغلال، لو كُلِّف العباد بها لأحْرى أن لا يقوموا بها، سألوا الله تعالى ألّا يحملهم إياها ولا يكلّفهم بما لا طاقة لهم به ليسهل عليهم أمر ربهم وتخفَّ عليهم شرائعُه الظاهرة، فقال الله تعالى: «قد فعلت». ولما كانت أيضاً الشرائع التي شرعها الله لعباده لا بد أن يحصل منهم التقصير فيها: إما بفعل محظور، أو بترك مأمور، وذلك موجبٌ للشر والعقوبة إن لم يغفره الله ويُزِلْه قالوا: **﴿وآعفُ عنّا وآغْفِرْ لنا﴾** فبهذه الأمور تندفع المكروهات والشرور كلها. ثم سألوا الله بعد ذلك الرحمة التي ينشأ عنها كل خير في الدنيا والآخرة. ولما كان أمر الدين والتمكين من فعل الخير وترك الشر لا يحصل ولا يتم إلا بولاية الله وتولّيه ونُصْرته على الأعداء الكافرين من الشيطان وجنوده قالوا: **﴿أنت مولانا فآنصرنا على القوم الكافرين﴾** قال تعالى: «قد فعلت». فالله تعالى يتولى عبده ويُيَسِّرُه لليسرى في جميع الأمور، فيدفع عنه الشرور، فهو نِعْم المولى ونعم النصير.

ومن هذا دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التامّ:

**﴿ربنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إذْ هديْتَنا وَهَبْ لنا من لَدُنْك رحمةً إنك أنت الوهّاب﴾** [سورة آل عمران: الآية ٨]

فسألوا ربهم وتوسَّلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب على ما يُحِبّه الله ويرضاه، والثبات على ذلك وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد، وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه الوهّاب، أي كثير العطايا، واسع الكرم: فمن كرمك يا وهّاب نسألك الاستقامة وعدم زيغ القلوب، وأنْ تَهَبَ لنا من لَدُنْك رحمة، لأن الرحمة التي من لَدُنه لا يقادر قدرها ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلاّ الذي وَهَبهم إيّاها.

ويشبه أن يكون قولهم:

**﴿ربنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنّ اللَّهَ لا يُخلف الميعاد﴾**
[سورة آل عمران: الآية ٩]

توسُّلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم وتصديق ربهم في وعده ووعيده، فإن التوسل إلى الله بالإيمان ومِنّةَ الله به من الوسائل المطلوبة فيكون هذا من تمام دُعائِهم. كذلك دعاء المتقين الذين أعد لهم الجنة وما فيها الذين يقولون:

**﴿ربنا إننا آمنا فاغفِرْ لنا ذنوبنا وقِنَا عذاب النار﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٦]

فتوسلوا بربوبية الله لهم وبإيمانهم أن يغفر لهم الذنوب وأن يَقِيهم عذاب النار. وإذ غُفرت ذنوبهم ووقاهم الله عذاب النار زالَ عنهم الشرُّ بأجمعه، وحصل لهم الخير بأجمعه لأن الأدعية هكذا تارة تأتي مطابقةً لجميع مطالب العبد وتارة يُذكر نوعُ منها ويدخل الباقي باللزوم، كهذا الدعاء.

ومِمَّا أتى فيه الدعاء بجميع المطالب على وجه المطابقة دعاء أولي الألباب وخواص الخلق حيث قالوا بعدما تفكروا بما في ملكوت الله:

**﴿ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَك فَقِنا عذابَ النار * ربَّنا إنك من**

**تُدخِلِ النارَ فقد أخزيتَه وما للظالمين من أنصار * ربَّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمانِ أَنْ آمِنوا بربِّكم فآمَنَّا ربَّنا فاغفِرْ لنا ذنوبَنا وكفِّر عنا سيئآتنا وتوفَّنا مع الأبرار * ربَّنا وآتنا ما وعدتَّنا على رُسُلك ولا تُخْزِنا يومَ القيامةِ إنك لا تخلف الميعاد﴾** [سورة آل عمران: الآيات ١٩١ ـ ١٩٤]

فتوسّلوا بربوبية الله، وكَرَّروا هذا التوسُّل. وإقرارهم بحكمة الله وصدق وعده ووعيده، وإيمانهم برسل الله حين دعوهم إلى الإيمان ومنةُ الله عليهم بالمبادرة بذلك أن يَقِيَهم عذابَ النار وأن يغفرَ ذنوبهم الكبار، ويكفِّر عنهم سيئآتِهم الصِّغار فيدفع عنهم أعظمَ العقوبات، وهو عذاب النار، ويزيلَ عنهم أسباب الشُّرور كلِّها، وهي الذنوب والسيئآت، وأن يرزقَهم اللّهُ ويوفِّقهم لأعمال البرِّ كلِّها فيصيروا بذلك من عباد الله الأبرار، وأن يثبِّتهم عليها حتى يموتوا عليها فيدخلوا في معية الأبرار، وأن يؤتِيَهم ما وعدهم على ألسنة رسله وذلك شامل لعطايا الدنيا وخيراتِها وعطايا الآخرة وكراماتها، وأن يكرمهم في يوم القيامة ولا يُخْزهم.

وحقيق بقوم دَعَوْا بهذه الأدعية الجليلة بحيث ما بقي خير إلّا سألوه ولا شرٌّ إلّا آستدفعوه أنْ يسمِّيَهم الله أولي الألباب. فهذا من لُبِّهم وعقلهم وتمام فطنتهم، نسأله تعالى أن يوفقنا لما وفَّقهم له، إنه جواد كريم.

ومن ذلك دعاء أتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المِحَن:

**﴿وما كان قولَهم إلّا أن قالوا ربَّنا آغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا وثبِّتْ أقدامَنا وآنصرنا على القوم الكافرين * فآتاهُمُ اللّهُ ثوابَ الدُّنيا وحسنَ ثواب الآخرة والله يُحبُّ المحسنين﴾** [سورة آل عمران: الآيتان ١٤٧، ١٤٨]

فدلّ هذا على الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله، وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسّلوا إلى الله بربوبيته فافتقروا إليه وطلبوا أن يُرِبَّهم بما يُصلح أحوالهم، وأن يغفر لهم الذنوب، وهي المعاصي المستقلة، وإسرافنا في أمرنا، وهي تعدِّي ما حَدّ للعبد ونُهِي عن مجاوزته؛ فكما أن التقصير يُلام

عليه الإنسان فكذلك المجاوزة للحدِّ، وأن يُثَبِّتَ أقدامهم فيرزقهم الصبر والثبات والقوة التي هي مادة النصر، وأن يُمِدهم بمدده الإلّهي وهو نصره على القوم الكافرين. فسألوا ربهم زوال المانع من النصر، وهي الذنوب والإسراف، وحصول سبب النصر وهو نوعان: سبب داخلي، وهو ثبات الأقدام والصبر عند الإقدام، وسبب خارجي، وهو نصره. ويشبه أن يكون قولهم: ﴿**على القوم الكافرين**﴾ توسلاً إلى الله، وأننا يا ربَّنا آمنَّا بك وآتبعنا رسلَك وحارَبْنا أعداءك الذين كفروا بك وبرسلك، فمعاداتنا لهم وقتالنا إياهم لأجلك وفي سبيلك، فآنصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوك الشيطان الرجيم.

ومن ذلك دعاء عباد الرحمن الذين وصفهم الله بكل خُلق جميل، وأعد لهم المازل العالية فدعَوْا بدعوتين: دعوة استجيبت لجميعهم، كامل الدرجة ومن دونه، ودعوةٍ استجيبت لخواصهم وأئمتهم وقدوتهم. قال تعالى:

﴿**وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ــ إلى أن قال عنهم ــ والذين يقولون ربَّنا آصرِفْ عنَّا عذابَ جهنم إن عذابها كان غراماً**﴾

[سورة الفرقان: الآيات ٦٣ ــ ٦٥]

فتوسّلوا بربوبية الله لهم وإيمانهم وخوفهم من عذابه أن يَقِيَهُم عذاب النار، وإذا وقاهم الله عذاب النار كان من لازم ذلك مغفرةُ ذنوبهم وتكفيرُ سيئآتهم ودخولُهم الجنة. وقال تعالى عنهم:

﴿**والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنا وذرّيّاتنا قُرةَ أعينٍ واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

فتوسلوا بربوبية الله أن يهب لهم من أزواجهم وقرنائهم وذرياتهم ما تقر أعينهم به، وهو أن يكونوا مطيعين لله عاملين بمرضاته، وذلك دليل على أن طاعة الله قرةُ أعينهم ومحبتَه نعيمُ قلوبهم فقويت هذه الحالة إلى أن سألوا الله تعالى أن يجعل قرناءهم بهذه الحالة الكاملة، وذلك من فضل الله عليهم، فإن الله إذا أصلح قرناءهم عاد من هذا الخير عليهم شيء كثير، ولهذا جعلوا هذا من

مواهب ربهم فقالوا ﴿ربنا هب لنا﴾ إلـخ، ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعاً لله، وأن يكون قريناً للمطيعين، سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلَّها وهي الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين، وذلـك أن يجعلهم علماء ربانيين، راسخين في العلم مجتهدين في تعلُّمه وتعلِيمه والدعوة إليه، وأن يكون علمهم صحيحاً بحيث أن من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمة للمتقين. وجماع ذلك الصبر على محبوبات الله وثبات النفس على ذلك والإيقان بآيات الله وتمام العلم بها قال تعالى:

**﴿وجعلنا منهم أئِمةً يَهدُون بأمرنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقِنون﴾**
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

فالحاصل أنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكمِّلين لغيرهم، هادين مُهتَدين وهذه أعلى الحالات فلذلك أعد الله لهم أعلى غرف الجنان:

**﴿أولئك يُجْزَون الغرفة بما صَبروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حَسُنَت مستقرًا ومُقَاماً﴾** [سورة الفرقان: الآيتان ٧٥، ٧٦]

ومن ذلك دعاء آدم عليه السلام حين تاب إلى الله وتلقّى منه هذه الكلمات هو وزوجه:

**﴿قـالا ربَّنا ظلمنـا أنفسنا وإنْ لَمْ تغفِـرْ لنا وتـرحمْنا لنكـونَنَّ من الخاسرين﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٣]

فتوسلا بربوبية الله واعترافهم بالظلم وإقرارهم بالذنب أن يغفر لهما فيزيل عنهما المكاره كلَّها وأن يرحَمهما فيعطيَهما أنواع المطالب وأنه لا وسيلة لهما ولا ملجأ منه إلا إليه، وأنه لئِنْ لم يرحمْهما ويغفرْ لهما خَسِرا الدنيا والآخرة؛ فقبل الله دعاءهما وغفر لهما ورحمهما.

ومثل قول نوح لما لامَه الله بسؤال نجاة ابنه الكافر، الذي ليس من أهله، وأن هذا عمل غير صالـح، فقال:

﴿ربِّ إنِّي أعوذُ بك أنْ أسألَك ما ليس لي به علمٌ وإلَّا تَغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]

فتوسل بربوبية الله واستعاذ به أن يسأله سؤالاً ليس له به علم، وإنما حمله عليه مجردُ محبة النفس لا إرادة رضى الله واعترف بأن هذا الذي جرى منه يوجب التضرُّع والاستغفار، وأنه إن لم يغفر له ربُّه ويرحمْه كان من الخاسرين. فالناس قسمان: رابحون، وهم الذين تغمَّدهم الله بمغفرته ورحمته؛ وخاسرون، وهم الذين فاتتهم المغفرة والرحمة، ولا يحصل ذلك إلا بالله.

ومن ذلك دعاء إبراهيم خليل الرحمن، وابنه اسماعيل، وهما يرفعان قواعد البيت:

﴿ربَّنا تقبَّلْ منا إنّك أنتَ السميع العليم * ربَّنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذرّيتنا أُمةً مسلمة لك وأَرِنَا مناسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٢٧، ١٢٨]

فتضرّعا إلى ربهم في قبول الله عملَهما، وأن يكون كاملاً من كل وجه وتحصلَ منه الثمرات النافعة، وتوسَّلا إليه بأنه السميع لأقوالهما العليم بجميع أحوالهما. ولما دَعَوَا بهذا الدعاء الخاص في قبول عملهما سألا الله أجلَّ الأمور وأعلاها، وهو أن يَمُنَّ الله عليهما وعلى من شاء من ذريتهما بالإسلام لله ظاهراً وباطناً والعمل بما يُحبه ويرضاه، وأن يُعلِّمهما العمل الذي شرعا فيه ويكمِّلَ لهما مناسكَهما علماً ومعرفةً وعملاً وأن يتوب عليهما لتتم أمورُهما من كل وجه. فاستجاب الله هذا الدعاء كلَّه وبارك فيه وحقق رجاءهما، والله ذو الفضل العظيم.

وكذلك دعاء يوسف عليه السلام:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطِرَ السموات والأرضِ أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسلِماً وأَلْحِقْني بالصالحين﴾

[سورة يوسف: الآية ١٠١]

فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمة الله عليه بنعمة الدنيا وهي المُلك وتوابعه، ونعمة الدين وهي العلم الكامل، وبولاية الله وانقطاعه عن غيره، وتولي الله له في الدنيا والآخرة أن يثبِّته على الإسلام الظاهر والباطن حتى يلقاه عليه، فيدخله في خُلَّص عباده الصالحين.

ومن ذلك دعاء سليمان عليه السلام:

**﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**

[سورة النمل: الآية ١٩]

فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمته عليه وعلى والديه أن يوزعه أي يلهمه ويوفقه لشكرها بالاعتراف بها ومحبته لله عليها والثناء عليه والإكثار من ذكره وأن يوفقه عملاً صالحاً يرضاه ويدخل في هذا جميع الأعمال الصالحة ظاهرها وباطنها وأن يدخله برحمته في جملة عباده الصالحين وهذا الدعاء شامل لخير الدنياوالآخرة ومثل هذا دعاء الذي بلغه الله أشده وبلغه أربعين سنة ومن عليه بالإنابة إليه فقال:

**﴿ربِّ أوْزِعْنِي أنْ أشكُرَ نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمَلَ صالحاً ترضاهُ وأَصلِحْ لي في ذريتي إني تُبتُ إليكَ وإنّي من المسلمين﴾** [سورة الأحقاف: الآية ١٥]

فتوسل بربوبية ربه له وبنعمته عليه وعلى والديه وبالتزام ترك ما يكرهه ربه بالتوبة وفعل ما يحبه بالإسلام أن يمن عليه بالشكر المتضمن لاعتراف القلب وخضوعه ومحبته للمنعم، والثناء على الله مطلقاً ومقيَّداً، وأن يوفقه لما يُحبه الله ويرضاه، ويُصْلِحَ له في ذريته. فهذا دعاء مُحتوٍ على صلاح العبد وإصلاح الله له أمورَه كلَّها وإصلاح ذريته في حياته وبعد مماته، وهو دعاء حقيق بالعبد خصوصاً إذا بلغ الأربعين أن يداوم عليه بذلٍّ وافتقار لعله أن يدخل في قوله:

﴿أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهـم أحسنَ ما عملوا ونتجاوزُ عن سيِّئآتهم في أصحاب الجنة وَعْدَ الصِّدقِ الذي كانوا يوعدون﴾
[سورة الأحقاف: الآية ١٦]

قوله تعالى: ﴿ثم تولَّى إلى الظِّلِّ﴾ مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب فقال في تلك الحالة مسترزقاً:

﴿ربِّ إني لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقير﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤]

أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليّ وتُيَسِّره لي؛ وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال قد يكون أبلـغَ من السؤال بلسان المقال؛ فلم يزل في هذه الحالة راجياً ربه متملقاً مفتقراً إليه معلِّقاً رجاءه بالله وحده حتى فرج كربَه وجلا همه والله هو الرزّاق.

ومن ذلك الأدعية التي أمر الله بها رسولَه وعبادَه المؤمنين فقال:

﴿وقُلْ ربِّ اغفِرْ وآرحمْ وأنت خير الراحمين﴾
[سورة المؤمنون: الآية ١١٨]

فهذا توسل إلى الله بربوبيته ورحمته الواسعة في حصول الخير ودفـع الشر كله، وهي المغفرة التي تندفـع بها المكروهات والرحمة التي تحصل بها جميـع المحبوبات.

وكذلك قوله:

﴿وقلْ ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدقٍ وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي من لدُنْك سلطاناً نصيراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠]

فهذا توسل إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقاً، وذلك أن تكون صالحة خالصة لوجه الله، مقرونةً بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلُّها ظاهرُها وباطنُها طاعةً لله وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل؛ وأما الكمال من جهة العلم، فإنه يجعل الله له سلطاناً نصيراً، أي حجة ظاهرة ناصرة وقوة

يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل، فيحصل باستجابة هذا الدعاء العلمُ النافع والعمل الصالح والتمكينُ في الأرض. وقال تعالى لرسوله: ﴿وقُل ربِّ زدني علماً﴾ [سورة طه: الآية ١١٤]

فالعلم أجلّ الأشياء، وبه تعرف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزيادة منه من أفضل ما سأل السائلون.

ومن أجمعِ الأدعية وأحسنها توسُّلاً دعاء موسى عليه السلام حين تضرع إلى ربه فقال:

**﴿أنتَ وليُّنا فاغفر لنا وآرحمنا وأنت خير الغافرين * واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنّا هُدْنا إليكَ﴾**

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٥، ١٥٦]

فتوسّل إلى وليِّه بولايته لعبده وحسن تدبيره وتربيته ولطفه على حصول المغفرة والرحمة؛ وكذلك توسل بكمال مغفرة الله وسعة جوده على هذا ورتّب على هذا حصول حسنة الدنيا والآخرة، فإنه إذا حصلت المغفرة زالت الشرور كلُّها والعذابُ كلُّه، وإذا حصلت الرحمة حلَّ الخير وحسناتُ الدنيا والآخرة، فيكون قوله:

**﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾**

نظيرَ قوله:

**﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

مع زيادة التوسل بولاية الله وكمال غفرانه ومع طلب مغفرته ورحمته اللذين بهما تنال حسنة الدنيا والآخرة. ثم ختم دعاءه بالتوسل إلى ربه بالإقبال إليه والإنابة إليه والتذلّل لعظمته فقال: **﴿إنّا هُدْنا إليك﴾** أي رجعنا إليك في مهماتنا وأمورنا، لا نرجع إلى غيرك لعلمنا أنه لا يكشف السوء ولا يجيب المضطر إلا أنت، ورجعنا إليك في عباداتنا الظاهرة والباطنة.

ومن ذلك دعاء أصحاب الكهف إذ فرُّوا إلى الله بدينهم فقالوا ملتجئين إليه:

﴿ربَّنا آتِنا من لدُنْك رحمةً وهيِّىءْ لنا من أمرنا رَشَداً﴾

[سورة الكهف: الآية ١٠]

فتضرعوا إليه في أن يؤتيهم من لدُنه رحمة بحيث إذا حلّت عليهم سَلِمَ لهم دينهم وحفظهم من الفتن وأنالهم بها الخير، وأن يهيِّىء لهم من أمرهم رَشَداً أي يُيَسِّرهم لليُسرى ويسهِّل لهم الأمور ويرشدهم إلى أرفق الأحوال؛ فاستجاب لهم هذا الدعاء ونشر عليهم رحمته وحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعل فيهم بركة على أنفسهم وعلى غيرهم.

ومن ذلك دعاء حَمَلة العرش ومَن حولَه مِنَ الملائكة المقرَّبين حين دعوا للمؤمنين:

﴿ربَّنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً فآغفِرْ للَّذين تابوا وآتَّبَعُوا سبيلَك وقِهِمْ عذاب الجحيم * ربَّنا وأدخِلْهم جناتِ عدنٍ التي وعدتَّهُمْ ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم إنّك أنتَ العزيزُ الحكيم * وقِهِمُ السيئآت ومَنْ تَقِ السيئآتِ يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾

[سورة غافر: الآيات ٧ ــ ٩]

وهذا دعاء جامع وتوسل نافع، فتوسَّلوا بربوبية الله تعالى وسعة علمه ورحمته المتضمن علمه بحال المؤمنين، وما خلقهم عليه من الضعف ورحمته إياهم لكونه جعل الإيمان أعظم وسيلة تنال بها رحمته أن يغفر للمؤمنين الملتزمين للإيمان، وهم الذين تابوا مما يكرهه الله واتبعوا سبيله بالتزام ما يحبه ويرضاه، فيغفر ذنوبهم ويقيهم أشد العذاب وهو عذاب الجحيم، وأن ينيلهم أعظم الثواب، وهو دخول جنات عدن التي وعدهم على ألْسِنة رسله، وتمام ذلك: أن يُقِرَّ أعينهم باجتماعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم الصالحين. ثمَّ توسَّلوا بكمال عزة الله وكمال حكمته لأن المقام يناسب هذا؛ فمن كمال عزته واقتداره أن يحفظهم ويَحُول بينهم وبين السيئآت، ويصرف عنهم السيئآت، وينيلهم أنواع المثوبات. ومن كمال حكمته أن الموصوفين بتلك الصفات هم

أهلٌ لأن يغفر لهم ويرحمهم ويدفع عنهم السوء وينيلهم الأجر. ولما دعوا أن يغفر لهم السيئآت التي فعلوها دعوا الله أن يقِيَهم سيئآت أنفسهم الأمّارة بالسوء بأن يحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكَرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلهم من الراشدين، وأنَّ من لاَزِمِ وِقايةِ السيئآت حصول رحمة الله، وهذا دعاء عظيم صادر من أعظم الخلق معرفة بالله ولذلك وصف الله من حصلت له هذه الأمور بالفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب. فقال: ﴿**وذلك هو الفوز العظيم**﴾.

وكذلك دعاء الذين اتبعوا المهاجرينِ والأنصار بإحسان، حيث قال تعالى عنهم:

﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنَّك رؤوف رحيم**﴾

[سورة الحشر: الآية ١٠]

فتضرَّعوا إلى ربهم وتوسلوا إليه بربوبيته ونعمته عليهم بالإيمان وبسعة رحمته ورأفته أن يغفر لهم ولجميع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن يُصلح الله قلوبهم بالاجتماع على الإيمان ومحبة بعضهم بعضاً، وأن لا يجعل في قلوبهم أدنى غلٍّ لكل من اتصف بالإيمان. وهذا الدعاء يتضمن حصول الخير لهم ولإخوانهم، ودفع الشر عنهم وعن إخوانهم؛ وقد أخبر الله أن أنبياءَه تضرّعوا إليه في مطالب خاصة ومطالب عامة، وتوسّلوا بكمال أسمائه وصفاته وبما مَنّ الله عليهم به من الإيمان والنعم الدينية والدنيوية وبما كانوا عليه من الفقر والضعف وشدة الضرورة إلى ربهم في جميع أمورهم؛ فهذه الأدعية التي أمر الله بها وحث عليها ومدح أهلها هي الأدعية النافعة التي لا يليق بالعبد أن يختار عليها غيرَها من الأدعية المصطلحة والألفاظ المخترعة التي لا نسبة لها إلى هذه الألفاظ القرآنية. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الأعمال والأقوال، الباطنة والظاهرة، ومن ذلك الأدعية؛ وكم في السُّنة من الأدعية النبوية مما يوافق الأدعية القرآنية فنسأله تعالى أن يهديَنا لأحسن الأمور ويصرف عنا جميع الشرور، إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

# فصل

إذا وفق الحاكم أن يحكم بالحق والعلم، لا بالجهل والباطل، وبالعدل وحسن القصد لا بالظلم واتباع الهوى، فقد سلك سبيل الأنبياء. قال تعالى لداود:

**﴿يا داودُ إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكُمْ بين الناس بالحقِّ ولا تتبعِ الهوى فيضلَّك عن سبيل الله إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوم الحساب﴾** [سورة ص: الآية ٢٦]

قوله تعالى: **﴿ويُنجِّي اللَّهُ الذين اتقَوْا بمفازَتِهم لا يَمَسُّهم السُّوء ولا هم يحزنون﴾** [سورة الزّمر: الآية ٦١]

فوعد الله المتقين بنفي العذاب عنهم ظاهراً وباطناً، كما أثبت لهم في آخر السورة النعيم ظاهراً وباطناً من قوله:

**﴿وسِيقَ الذين اتقَوا ربهم إلى الجنة زُمَراً﴾** [سورة الزّمر: الآية ٧٣]

إلى آخرها.

الإخلاص لله تعالى أعظم الأسباب لعون الله للعبد على جميع أموره، ولثبات قلبه وعدم انزعاجه عند المقلقات والشدائد. قال الله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكم ويثبِّتْ أقدامكم﴾**

[سورة محمد: الآية ٧]

أي إذا كان قصدكم في جهاد الأعداء نصرَ الله، وأن تكون كلمتُه هي العليا، نَصَرَكُمُ الله على أعدائكم وثبَّتَ أقدامَكم في مواطن اللقاء، فالنصر سببٌ خارجي وتثبيت الأقدام سبب داخلي، وبهذين الأمرين يتم الأمر.

كثيراً ما يدور على ألسنة الناس: «إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه». دليلُ ذلك في القرآن قولُه:

**﴿إذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ في منامك قليلاً ولو أراكَهُم كثيراً لفَشِلْتُم ولتنازعتم في الأمر ولـٰكِنَّ اللَّهَ سلَّم إنه عليم بذات الصدور * وإذْ يُريكُمُوهُم إذِ التقيتُم في أَعينكم قليلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعيُنِهم لِيَقْضِيَ اللَّهُ أمراً كان مفعولاً﴾**

[سورة الأنفال: الآيتان ٤٣، ٤٤]

قوله تعالى: **﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لِأول الحَشر ما ظننتُمْ أن يخرُجوا وظنُّوا أنهم مانعتهم حصونهُمُ مِنَ الله فأتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حيثُ لم يحتسِبوا وقذفَ في قلوبهم الرُّعبَ يُخرِبُون بيوتَهم بأيدِيهم وأيدِي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾** [سورة الحشر: الآية ٢]

ما أضعف اليقين في قلوب كثير من المؤمنين! تجدُهُمُ الآن قد استولى عليهم اليأس، وظنّوا أن أمر الإفرنـج الغربيين الآن سيظهر وسيدوم، وأن أهل الإيمان لا قيام لهم، وأنهم لا بدّ مغلوبون وأعداؤهم لا بد غالبون.. وسبب هذا: نظرُهم إلى الأسباب المدرَكة بالحس، وقصَروا النظر عليها ولم يقـع في قلوبهم أن وراء الأسباب المشاهَدَة أسباباً غيبية أقوى منها، وأموراً إلٓهية لا تعارَض ولا تمانَـع، وآفات تطري وقوات تزول وضعفاً يزول وأمور لا تدخل تحت الحساب.. فهؤلاء أهل الكتاب، ذوو القوة والشوكة، قـد غرَّتهم أنفسهم، وظنُّوا أن حصونَهم مانعتُهم، وأنهم يمتنعون فيها، ولم يخطر في قلوب المؤمنين خروجُهم منها حتى جاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، واستولى عليهم الضعف والخراب من حيث لا يشعرون، وللكافرين أمثالها، فالمؤمن حقًّا هو الذي ينظر إلى قَدَر الله وقضائه وما له من العزة والقدرة، ويعلم أن هذا لا تعارضُه الأسباب وإن عَظُمَتْ وأن نمو الأسباب ونتاجَها إذا لم يعارِضْها القَدَر فإذا جاء القدر اضمحل عذرُه كل شيء ولكن الأسباب محل حكمة الله وأمره؛ فَأَمَرَ المؤمنين بالاستعداد لعدوهم ظاهراً وباطناً، فإذا فعلوا المأمور ساعدهم المقدور.

قوله تعالى: ﴿والذين تبوؤوا الدّارَ والإيمان من قبلِهِم يُحبّون من هاجَرَ إليهم﴾ [سورة الحشر: الآية ٩]

لا يمكن أن تكون القبلية في قوله ﴿من قبلهم﴾ راجعة إلى الدار دون الإيمان، لأن اللفظ لا يساعد على هذا، لأن الوصف بالجارِّ والمجرور ولا يصلح إلا أن يعود على المعطوف والمعطوف عليه، فإلى أين يعود، وقد عُلم وتَقَرَّر أن المهاجرين قد تقدَّم إيمانُ كثيرٍ منهم على الأنصار؟ فالجواب: أن هذا عائدٌ إلى الدار، والإيمان على اللفظ المصرّح به، وهو التبوُّء والاستقرار. ومعنى هذا أن أهل الإيمان لهم حال تبوُّء وتمكين يتمكنون فيه من إقامة دينهم وقيامه في أنفسهم وفي غيرهم، ولهم حال وجود للإيمان منهم دون تمكين، فلم يحصل التمكين إلاّ بعدما هاجروا إلى المدينة، وصار لهم دار إسلام. وأما قبل ذلك، فهم وإن كانوا مؤمنين، لكنهم في حالة ذِلة وقِلة، محكومون مقهورون خائفون على أنفسهم، وبهذا يتبين المعنى.

التجارات نوعان: **أحدهما**، تجارة ربحُها الجناتُ وأنواعُ الكرامات وصنوفُ اللذات، وهي تجارة الإيمان والجهاد في سبيل الله؛ قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسولِه وتُجاهدون في سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم﴾**
[سورة الصف: الآيتان ١٠، ١١]

إلى آخر الآيات، فهؤلاء هم الرابحون حقًّا وهم الذين تحققوا بالإيمان، ظاهراً وباطناً، فاجتهدوا في علوم الإيمان ومعارف الإيمان، في أعماله الباطنة كمحبة الله ورسوله وخشية الله وخوفه ورجائه، وفي أعماله الظاهرة، كالأعمال البدنية والمالية والمركّبة منهما، وجاهدوا أنفسهم على هذا، وجاهدوا أعداء الله بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

**وثانيهما** تجارةٌ ربحُها الخسران وأصنافُ الحسرات، وهي كل تجارة مُشغِلة عن طاعة الله ومفوِّتة لتلك التجارة الرابحة. قال تعالى:

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً آنفضُّوا إليها وتَرَكُوكَ قائماً قُلْ ما عندَ اللّهِ خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ [سورة الجمعة: الآية ١١]

وكم في القرآن من مدح تلك التجارة والحثِّ عليها والثناء على أهلها، ومن ذمٍّ التجارة الأخرى والزجر عنها والذم لأهلها. وأهل التجارة الرابحة إذا اشتغلوا بتجارة المعاش لم تكن قاطعةً لهم عن تجارتهم، بل ربما كانت عوناً لهم عليها. إذا أحسنوا فيها النية، وسَلِموا من المكاسب الرديّة وأخذوا منها مقدار الحاجة. قال تعالى:

﴿رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاءِ الزكاة﴾ [سورة النور: الآية ٣٧]

فلم يقل: إنهم لا يَتَّجرون ولا يبيعون، بل أخبر أنهم لو فعلوا ذلك لم يشغلهم عن المقصود، وهو ذكر الله، وأمهات العبادات. وعَطَفَ البيعَ على التجارة، وإن كان البيع داخلاً فيها لأنه أعظم الأسباب التي تحصل بها التجارة وأنواع المكاسب وأبركها، والله أعلم.

سورة مريم عليها السلام قد اشتملت على تفاصيل عظيمة من ذكر رحمة الله بأنبيائه وأصفيائه وأحبابه وما مَنَّ عليهم به في الدنيا من نِعَم الدين والدنيا، والنِّعم الظاهرة والباطنة، وما يكرمهم به من الذِّكر الجميل والثناء الحسن، ووصفهم بأحسن أوصافهم ونعتهم بأشرف نعوتهم، وما يُكرمهم به في الآخرة من الثواب والفضل العظيم. وذكر رحمته أيضاً بأعدائه، حيث عاملهم بالحلم والصفح، وتصريف الآيات لعلهم يرجعون ما عظم ما أَتوا به من الشرور وعظائم الأمور؛ ولذلك أكثر الله فيها من ذكر اسمه الرحمن، الذي هذه آثارُهُ، ومن ذكر الرحمة، فنسأله تعالى أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وَيَصُدُّون عن سبيل الله والمسجِدِ

**الحرامِ الذي جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِ ــ إلى قوله ــ وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السجود﴾** [سورة الحج: الآيتان ٢٥، ٢٦]

فيه الذم للذين كفروا وصدُّوا عن المسجد الحرام عبادَه المؤمنين من وجهين: من جهة أنهم اختصوا به ومنعوا غيرهم، مع أن الناس فيه سواء؛ ومن جهة أن المؤمنين أحقُّ به منهم؛ وهذه مرتبة ثانية فأباحوه للأبعدين ومنعوه الأقربين. فإن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن يطهِّره للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجُود، فهؤلاء أحق الخلق به لأنهم حزب الله وأولياؤه، وما كان المشركون أولياءه:

**﴿إن أولياؤه إلَّا المتقون﴾** [سورة الأنفال: الآية ٣٤]

لولا فضل الله ورحمته لما شرع لعباده الأحكام؛ ولولا فضله ورحمته لما فصّلها وبيّنها؛ ولولا فضله ورحمته وأن الله تواب حكيم لما وَضّح ما يحتاج إليه العباد ويسّره غاية التيسير؛ ولولا فضله ورحمته لما شَرَع أسباب التوبة والمغفرة ولما تاب على التائبين؛ ولولا فضله ورحمته لما زكّى منكم من أحدٍ أبداً، ولكن الله يزكّي من يشاء، والله سميع عليم، كما فصل ذلك في صدر سورة النور.

قوله تعالى: **﴿وأَنكِحوا الأيامى منكم والصالحين مِنْ عِبادكم وإمائكم إِن يكونوا فقراء يُغنِهم اللَّهُ من فضله والله واسع عليم * ولْيَسْتَعْفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً حتى يغنِيَهم الله من فضله ــ إلى قوله ــ ولا تُكرِهوا فتياتِكم على البِغاء إِنْ أردنَ تحصُّناً لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا﴾**

[سورة النور: الآيتان ٣٢، ٣٣]

اشتملت هذه الآيات على الأمر بالسعي بالأسباب المباحة التي يُنال بها الرزق كالنكاح ونحوه؛ وعلى أن من لم يحصل له سعة فليلزم تقوى الله تعالى والكف عن محارمه، وينتظر فضلَ الله ورزقه وغناه، وعلى تحريم السعي بالأسباب المحرّمة في قوله: **﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء﴾** والله أعلم.

«الأعراف»: موضع بين الجنة والنار، يشرف على كل منهما. وليس هو موضع استقرار إنما هو موضع أناس تساوتْ حسناتُهم وسيئآتهم يمكثون فيه مدة كما يشاء الله ثم يدخلون الجنة. وفي ذلك حِكَمٌ نبَّه الله تعالى عليها. منها: أن هذا منزل به يُستدل على كمال عدل الله وحكمته وحمده، حيث جعل الله تعالى أسباب الثواب والعقاب تتجاذب وتتعارض ويقاوم بعضُها بعضاً؛ فحسناتهم منعتهم من النار وسيئآتهم منعتهم الجنة في ذلك الوقت فصاروا وسطاً بين الدارين، وفي برزخ بين المحلين، لتظهر الحكمة أولاً ثم يأتيها الفضل من ذي الفضل العظيم، الذي أحاط بالخلق من جميع الوجوه فيغمرها، ويكون الحكم له. ففي هذا من تنويع حمده وتصريفه لعباده ما به يَعرِفُ العبادُ كمالَه وكمال أسمائه وصفاته، وحكمته وعدله وفضله، ومنها أن حالَهم من جملة الأدلة على سعة رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه وغلبَتْه بحيث إذا تعارض موجب هذا وموجب هذا صار الحكم قطعاً لموجب الرحمة على موجب الغضب. ومما يدل على هذا أنه إذا كان في العبد من موجب الرحمة مثقالُ ذرة من إيمان فإنه لا بدّ أن يصير الحكم له ولو عمل موجب الغضب عمله فالعاقبة لموجب الرحمة. ومنها أن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه؛ فلما قضى تعالى أنهم سيدخلون الجنة جعل الطمع والرجاء في قلوبهم والدعاءَ أن يُجيرهم من النار، ولا يجعلهم مع القوم الظالمين على ألسنتهم والدعاء مع الرجاء والطمع لا تتخلف عنه الإجابة. ومنها أن أهل «الأعراف» جعلهم الله سبباً يعرف به ما يصير إليه أهل الدارين، وما كان عليه أهل الشقاء من النكال والوبال وما عليه أهل الجنة من السرور والغبطة، ولهذا ذكر الله توبيخهم لرجال يعرفونهم بسيماهم من أهل النار.. إلى غير ذلك من الحِكَم الإلَهية فيما يجريه من الأحكام على البرية.

قول شعيب عليه السلام:

﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربُّنا وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيء عِلماً على الله توكَّلْنا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٩]

بعد قوله: ﴿قد آفترينا على الله كذِباً إنْ عُدنا في مِلَّتِكم بعدَ إذ نجانا اللَّهُ منها﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٩]

من أعظم الأدلة على كمال معرفته بربِّه، فإنه: أولاً، لما بين امتناع عَوْدهم في ملة الكفار بحسب ما كان عليه من منة الله عليه بكراهته الشديدة لملّتهم، واغتباطه بإنجاء الله له منها، وأنهم لو عادوا في ملتهم بعد هذا كان من أعظم الافتراء على الله الذي يمتنع غاية الامتناع ممن هذا وصفه، وكان هذا الامتناع أثراً عمّا يسَّر الله له من الأسباب ـ استدرك الأمر بعد ذلك، وعلم أن هذا الامتناع بحسب ما وصلت إليه علوم البشر، وأن علم الله تعالى محيط بعلومهم؛ فقد يعلمون شيئاً ويخبرون ما يترتب على عملهم مما يكون بحسب حكمة الله تعالى. ومع ذلك فالله غالب على أمره وقد يتخلف العلم الذي علموه وأثرُه الذي حكموا به فقال:

﴿إلَّا أنْ يشاء الله ربنا﴾. ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيء عِلماً﴾ ثم لجأ إلى أعظم الأسباب الصادرة من العبد، التي بها ينال ما عند الله من خير الدنيا والآخرة ودفع شرورهما وهو التوكل على ربه، فقال: ﴿على الله تَوَكَّلْنا﴾ ثم بيَّن ثقته التامة بوعد الله له بالنجاة، هو ومن تبعه، وهلاكِ مَنْ خالَفَه فقال:

﴿ربَّنا آفتَحْ بينَنا وبين قومِنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾
[سورة الأعراف: الآية ٨٩]

قوله تعالى: ﴿أمْ يقولون به جِنَّةٌ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبعَ الحقُّ أهواءَهم لفسدتِ السمواتُ والأرضُ ومَنْ فِيهِنّ بَلْ أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٧١]

دلت على أن مخالفتهم للرسول لأجل ما جاء به من الحق؛ وأن عداوتهم الحقيقية للحق لذاته، وأنه السبب في ذلك، لأن الحق خالف أهواءهم وأن أهواءهم فاسدة يمتنع أن يَرِدَ الحق بما يوافقها، لأن الحق هو صلاح السموات

والأرض ومن فيهن، ولو وافق الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فدل هذا على أن الحق جاء بما تشهد العقول الصحيحة والفِطَرُ المستقيمة بصحته واستقامته، واعتداله وكماله، وأن من خالف الحق فلفسادٍ في عقله وانحرافٍ في فطرته، وأنه اختار الضارَّ على النافع، فلهذا قال: ﴿**بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾.

قوله تعالى: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾ [سورة مريم: الآية ١٢]

ذكر كثير من المفسرين أن تقديره: «فوهبنا له يحيى، وقلنا يا يحيى ألخ». ولا يحتاج إلى هذا؛ فإنه صرّح أولاً بهبته يحيى في قوله:

﴿**يا زكريا إنّا نبشِّرك بغلام اسمه يحيى**﴾ [سورة مريم: الآية ٧]

فلو ذكر بعد ذلك لكان تكريراً لا يحتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوفَ يلقون غَيًّا**﴾ [سورة مريم: الآية ٥٩]

عذاباً مضاعفاً شديداً ـ اتبعوا الشهوات بمعنى أرادوها وصارت هي همهم، وانقادوا لها وصاروا مطيعين لها، فلذلك قال: ﴿**اتبعوا**﴾ ولم يقل «تناولوا، وأكلوا» ونحوه لهذا المعنى، لأن هذا الذم إنما يتناول متّبعي الشهوات، فمهما اشتهت نفوسهم فعلوه على أنه المقصود المتبوع. ومن المعلوم أن النفس من طبعها أنها أمَّارة بالسوء، فإذا كان هذا طبعها علم أن ذمهم على اتِّباع الشهوات يدخل فيه المعاصي كلُّها، فلذلك رتب على هذا العقابَ البليغ في قوله: ﴿**فسوف يلقون غياً**﴾ وهذا بخلاف المؤمن المطيع لله، فإنه ـ وإن تناول الشهوات ـ فإنه لا يتبعها ولا تصير أكبر همه، ولا مبلغ علمه، بل يتناولها على وجهٍ تكون هي تابعة لغيرها لا متبوعه. وخواص المؤمنين يتناولون الشهوات بقصد التوسُّل بها إلى القُرُبات فتنقلب طاعاتٍ. ونظير هذا: أن الذي تناوله الذم هو اتباع الهوى وهو كونه متبوعاً بأن يتخذ العبد إلّهه هواه

لا مجرد أن يكون للعبد هوى، فكل أحد له هوى ولكن المؤمن كما قال تعالى:

**﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإنّ الجنة هي المأوى﴾** [سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]

قوله تعالى: **﴿ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فاعبُدْه واصطبرْ لعبادته هل تعلَمُ له سميًّا﴾** [سورة مريم: الآية ٦٥]

اشتملت على أصول عظيمة على توحيد الربوبية، وأنه تعالى ربُّ كل شيء وخالقُه ورازقُه ومدبرُه، وعلى توحيد الإلَهية والعبادة، وأنه تعالى الإلَه المعبود، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء قوله **﴿فاعبده﴾** الدالّة على السبب، أي فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقًّا فاعبده؛ ومنه الاصطبار لعبادته تعالى، وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى. فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر، وهو الصبر على الواجبات والمستحبات، والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات، فإن الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: **﴿واصطبر لعبادته﴾**. واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيمُ النعوت جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، ودلّ على هذا أكبر الأدلة على أنه الذي لا تنبغي العبادة الظاهرة والباطنة، القلبية والبدنية والمالية، إلّا لوجهه الكريم، خالصة مخلصة؛ كما خلص له الكمال والعظمة والكبرياء والمجد والجلال.

ومنها بطلان الشرك عقلاً ونقلاً، فكيف يليق بالعاقل أن يجعل المخلوق الناقص، الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضُرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً نِدًّا لمن لا كفء له ولا سميّ، ولا مشابه بوجه من الوجوه؟ فهل هذا إلا من السَّفَه والضلال، والجهل المفرط والضرر من كل الوجوه؟ ودلّت على

أن الشِّرك قد تقرر في العقل قبحُه، وأن التوحيد قد تقرر في العقل حسنُه؛ فكما لا سَمِيَّ لله، فلا أحسن من عبادته وإخلاص العمل له، ولا أنفـع للعبد من ذلك، ولا أصلـح ولا أزكى؛ ومن المتقرر شرعاً أن الإحسان في عبادة الله تعالى ـ الذي هو سبب كل خير عاجل وآجل، بل سبب لأعلى المراتب وأكمل الثواب ـ هو كما قال النبـي، ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فكلما حقق العبد هذا الأمر كان له نصيب وافر من العبادة، بل هو أهم الأمور؛ ولهذا أمر النبـي ﷺ مُعاذَ بن جَبَل أن يسأل الله تعالى أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، وهذا أمر يقل من الخلق من يحقق ويتصف به على وجه الكمال، لمشقة ذلك على النفوس، فإذا امتثل العبد لأمر ربه بالاصطبار، ولعبادته وحبس النفس وتوطينها على إحسان العبادة خصوصاً أفضل العبادات وأعظمها وهي الصلاة، كما أمر الله بالاصطبار عليها خصوصاً فقال:

﴿وأْمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [سورة طه: الآية ١٣٢]

استنار قلبه بالإيمان وأشرق نور العرفان في ضميره وذاق طعم الإيمان وباشر حلاوته فانجذب إلى عبادة الله وإخلاص العمل له، وعلم أن هذا هو الفلاح الدايم والربـح المتضاعف، الذي لا خسارة فيه، فصبر نفسه قليلاً ليستريـح بأعظم اللذات طويلاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

# فصل

**قوله تعالى: ﴿كلُّ نفس بما كَسَبت رَهِينة * إلاّ أصحاب اليمين﴾**

[سورة المدَّثِّر: الآيتان ٣٨، ٣٩]

أي كل نفس مرتهنة محبوسة وموثقة بكسبها السيِّىء وحبسها في العذاب السيِّىء، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكما حبس المجرمون ما لديهم لله ولخلقه من الحقوق اللازمة، فلم يؤدوا الصلاة التي هي أكبر العبادات المتضمنة للإخلاص للمعبود، ولا أطعموا المساكين من الحق الذي أوجبه الله لهم في أموالهم، ولا حبسوا نفوسهم على ما شَرَع وقيَّدوها بقيود الدين بل أَطلقوها فيما شاؤوا من المرادات الفاسدة فخاضوا بالباطل مع الخائضين ولا صدقوا ربهم ورسُلَه مع تواتر الآيات، بل كانوا يكذِّبون بيوم الدين.. فلذلك حبسوا في هذا المحبس الفظيع، وأُدخلوا في سَقَر.

ولما كان أصحاب اليمين قد حبسوا نفوسهم في الدنيا على شَرْع الله تصديقاً وعملاً، وأطلقوا أَلْسِنتهم وجوارحَهم في طاعة الله ومرضاته أطلق الله أَسَارهم وفكّ رَهنهم، فلم يكونوا في ذلك اليوم مرتهنين، بل كانوا مُطْلَقين فيما اشتهت أنفسهم ولذّت عيونهم. فعمل العبد في الدنيا إمّا أن يكون سبباً لارتهانه أو سبباً لخلاصه، بل الأصل أن الإنسان في حبس، وأن عمله سَيُرْتَهَن لأنه ظلوم وجهول طبعاً إلاّ من خلّصه الله من هذا ومَنَّ عليه بالصبر وعمل الصالحات، فلهذا جعل الارتهان عامًّا واستثنى منه أصحاب اليمين، فقال تعالى: **﴿كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾**.

كلما ازداد العبدُ قرباً من الله بالإيمان به والتحقق بحقائقه ومعرفته بالله ومحبته والإنابة إليه وإخلاص العمل له ـ حصل له الخير والسرور، واندفعت

عنه أنواع الشرور، وزالت عنه المخاوف، وسهلت عليه صعاب الأمور؛ وهذا هو المعنى الذي أراد الله بقوله لموسى:

﴿لا تخفْ إني لا يخاف لديَّ المرسَلون * إلاّ من ظَلَمَ ثم بَدَّل حُسناً بعد سوء فإنِّي غفورٌ رحيم﴾ [سورة النمل: الآيتان ١٠، ١١]

ويدل على هذا قوله ﴿لا يخاف لديّ﴾ ولم يقل «لا يخاف مني» أي لا خوفَ ينالُ مَنْ مَنَنْتُ عليه بأكمل الحالات وأشرف المراتب، وهي الرسالة، ولكل مؤمن نصيب من هذا بحسب ما قام به من آتّباع المرسَلين. ويدل أيضاً أن المراد هذا المعنى العام الحسن الجليل أن السياق والقرينة تدل عليه دلالة بيِّنة، فإن الخوف الصادر من موسى إنما وقع لما رأى عصاه تهتزُّ كأنها جانٌّ فخاف حينئذ من تلك الحية بحسب الطبيعة البشرية، فأعلمه الله تعالى: أن هذا محل القرب من الله، لا يليق ولا يكون فيه خوف، وإنما فيه الأمن التام. ولهذا قال في الآية الأخرى:

﴿أَقبِلْ ولا تَخَفْ إنّك من الآمنين﴾ [سورة القصص: الآية ٣١]

ويدل على هذا المعنى ما دل عليه الاستثناء في قوله: ﴿إلاّ من ظَلَم ثم بَدّل حُسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ فإن الاستثناء مِيزان العموم، والأصل أن يكون من جنس المستثنى منه، فالمعنى:

﴿الـذين آمنوا ولـم يَلْبِسـوا إيمانَهم بـظلمٍ أولئك لهمُ الأمنُ وهُم مهتدون﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]

فإن ظلموا أنفسهم ثم رجعوا إلى ربهم وبدّلوا سيئآتهم حسنات رجعوا إلى مرتبتهم وأزال عنهم الغفور الرحيم موجب الظلم والإساءة؛ والله أعلم.

**فائدة**: وهي في الحقيقة تابعة للإيراد السابق فيَ إخبار الله: لا يهدي الظالمين والكافرين ونحوهم، مع أنه وقع منه هداية لمن اتصف بذلك الوصف، وجوابه السابق: وهو أن النفي واقع على من حقَّ عليه أنه مجرم من أهل النار، وأن الهداية الحاصلة لمن لم يكن كذلك، ثم تبين لي في يومي

هذا وتوضح معنى ما زال مشكلاً علي: وضّحه الله وله الحمد، وهو حل هذه الآية الكريمة:

**﴿وإذا وَقَعَ القولُ عليهم أخرَجْنا لهم دابَّةً من الأرض تكلِّمُهُم إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾** [سورة النمل: الآية ٨٢]

وأنها تقرير للآية التي قبلها فإن الله تعالى قال لرسوله مسلّياً بعدم إيمان المعاندين وأن هذا لا يضر الحق شيئاً،

**﴿إنّك لا تسمعُ الموتى ولا تسمعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولَّوْا مُدبرين * وما أَنتَ بهادِي العُمي عن ضلالَتِهم إنْ تُسمِعُ إلّا من يؤمنُ بآياتنا فهمْ مُسلمون﴾**
[سورة النمل: الآيتان ٨٠، ٨١]

فلما بين له أن اجتهاده ﷺ في هداية الضالين إنما ينتفع به ويسمعه سَمْعَ قَبولٍ وانقيادٍ مَنْ يؤمن بآياتنا فهم مسلمون، وأما الموتى الذين ليس في قلوبهم أدنى حياة لطلب الحق: فكما أن صوتك لا تسمع به الأموات موتاً حسِّيًّا فصوتك أيضاً في الدعوة والإرشاد لا تَسمع به موتى القلوب ولا الصُّمُّ المعرضون المدبرون عن الحق، ولا الذين صار العمى لهم وصفاً والغيُّ لهم نعتاً، فهؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون، وهؤلاء هم الذين حقَّ عليهم القول، وإذا حق القول على الأشقياء لم تنفعْهم الآيات المسموعة والتذكير، كما لا تنفعهم الآيات التي يصير الإيمان عندها اضطراريًّا، وهي الآيات الكبار، التي تكون مقدِّمة الساعة، فإنها إذا طلعت الشمس من مغربها لم ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، حينئذ حق القول على الأشقياء أنهم لا يزالون على شقائهم، فيخرجُ لهم دابةً من الأرض تكلِّمهم وتبيِّن المسلم من الكافر. فالقول إذاً حقٌّ لا يتغير ولا يتبدل، ويحصل اليأس من إيمان الكافرين ولو كانت الآيات أكبر الآيات، فالآية تقرر ما قبلَها، وتدلُّ على العِلة الجامعة، وهي أن مَنْ حَقَّ عليه القول لو جاءته كلُّ آية لم يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يكن لهم آيةً أنْ يعلَمَه علماءُ بني إسرائيل﴾
[سورة الشعراء: الآية ١٩٧]

تدلّ على أن أهل العلم بهم يعرف الحق من الباطل، والحلال من الحرام، فهم الوسائل بين الله وبين عباده، ولهذا استشهد الله بهم على التوحيد وعلى النبوة وعلى صحة القرآن، كما في هذه الآية، وعلى التوحيد في قوله:

﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هُوَ والملائكةُ وأُولو العلم﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٨]

وعلى القرآن قوله:

﴿بلْ هُوَ آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أُوتُوا العلم﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٤٩]

وتدلّ هذه الآيات على أن العلم الحقيقي هو ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وما فَرَّقَ بين الحق والباطل؛ وما سوى ذلك ـ وإن كان صحيحاً ـ فلا يستحق صاحبه أن يكون من أهل العلم الذين أمر الله بالرجوع إليهم، وإنما هو من أهل الذِّكر الذين قال الله فيهم:

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣]

حقيق بمن مَنّ الله عليهم بشيء من العلم أن يكونوا أسرع الناس انقياداً للحق، وأبعدَ الناس عن الباطل، ولهذا شدّد الله الذمَّ بمخالفة هذين الأمرين على أهل العلم، كقوله:

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت﴾
[سورة النساء: الآية ٥٠]

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة﴾
[سورة النساء: الآية ٤٤]

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله لِيَحْكُم بينهم ثم يتولَّى فريقٌ منهم وهم معرضون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٣]

**فائدة عظيمة**: بل هي أعظم الفوائد على الإطلاق: الإيمان هو أعلى

الخصال وأشرف المراتب وأكمل المناقب؛ بل لا يمكن أن تكون فضيلة ولا ثواب إلا بالإيمان وحقوقه، ولذلك أثنى الله به على خيار خلقه والمصطفَيْن من عباده، فقال في كلٍّ من نوح وإبراهيم وموسى وهرون وإلياس وغيرهم من الأنبياء: إنه من عبادنا المؤمنين. فعَلَّل ما حصل لهم من الخيرات وزوال الشرور بإيمانهم. وقد علّق الله الفلاح ودخولَ الجنان على الإيمان في قوله:

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١]

ثم ذكر صفاتِهم الناشئةَ عن إيمانهم، ثم قال:

﴿أولئك هم الوارثون * الذين يَرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١٠، ١١]

وقال تعالى: ﴿وبشِّر المؤمنين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٣]

وقال: ﴿ألاَ إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [سورة يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣]

وقال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [سورة الحج: الآية ٣٨]

والله يحب المؤمنين. إن الله لمع المؤمنين.. وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على فضله وفضل أهله، وأن الخير كله فيه فعلى العبد الذي يريد نجاة نفسه ويقصد كمالها وفلاحها أن يسعى غاية جهده ويبذل مقدوره في هذا الوصف، وهو الإيمان علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً ووصفاً، وهو كما قال النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبه أعلاها قول: لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق). والحياء شعبة من الإيمان، فوصفه بأقوال اللسان التي يحبها الله ورسوله، وذكر أعلاها بالإحسان إلى عباد الله، أيِّ إحسانٍ كان، حتى إماطة الأذى عن طريقهم، وبأعمال القلوب التي أصلها الحياء، فإن من اتصف بالحياء من الله فقد انصبغ قلبه بمعرفة الله وحبه، وخوفه ورجائه، والتحبب إليه مهما أمكن.

وحقيقة هذا أن الإيمان اسم جامع للشرائع الظاهرة والباطنة، ولأقوال

اللسان وأقوال القلب، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأن من قام بهذه الأمور ونصحَ فيها وأحسن كان أكمل إيماناً، وأن من نقص منها معرفة وعلماً وعملاً وحالاً صالحاً نقص من إيمانه بقدر ذلك. والناس في الإيمان درجاتٌ متفاوتة، فأكملهم مَنْ وَصَل في علوم الإيمان إلى علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله من وفى مرتبة الإحسان، وَعَبَدَ الله على وجه الحضور والمراقبة، وفي أحوال الإيمان من كانت آدابه وأخلاقه صبغة لقلبه وحالاً غير حائلة، بل إنْ عَرَضَ له ما يُشَوِّش عليه إيمانه بادر بالحال لإزالته، ورجع إلى نعته ووصفه صَبَغَه الله، ومن أحسن من الله صبغة! ولهذا قال النبي ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) فإن لم يتغير إيمانه عند المعارضات، كالشهوات والإرادات السيئة وإتيان الأمر مخالفاً لمراد النفس، كان هذا المؤمن حقًّا. ولهذا قال تعالى:

**﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**

[سورة الحجرات: الآية ١٥]

ولهذا كان من كمال الإيمان أن تَصِلَ مَنْ قَطَعَك، وتُعطيَ مَنْ حَرَمك، وتعفوَ عمَّن ظَلَمَك؛ ولهذا أيضاً كان إخراج محبوب النفس، وهو المال، لله تعالى دليلاً على الإيمان، كما قال النبي ﷺ: (والصدقة برهان) ولهذا أيضاً كان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

ومن علامات الإيمان ما ذكره الله بقوله:

**﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتُهُ زادَتْهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾** [سورة الأنفال: الآيات ٢ - ٤]

فوصف المؤمنين بأنهم الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم، أي خضعت

وخشعت وذلت لعظمته وانكسرت لكبريائه فتركت معاصِيَه وخافت عقـابه واطمأنت بذكره،

﴿الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبُهم بذكر الله ألاَ بذكرِ الله تطمئن القلوب﴾.
[سورة الرعد: الآية ٢٨]

وإنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، أي ازدادوا بها علماً وبصيرة ورغبة في الخير ورهبة من الشر، فنما الإيمان في قلوبهم، وكان إيماناً ناشئاً عن أعظم الأدلة والبيانات، كما قالوا:

﴿ربَّنا إننا آمنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنَا عذاب النار﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٦]

وقالوا: ﴿ربَّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أنْ آمنوا بربِّكم فآمنَّا﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

وكما قال مؤمنو الجن:

﴿وأنَّا لمَّا سمعنا الهُدى آمنَّا به﴾ [سورة الجنّ: الآية ١٣]

فبحسب إيمان العبد يزداد إيمانه عند تلاوة كتاب الله والحكمة، وهذا أعلى ما يكون من الإيمان، فإنه إيمانٌ عن أكبر البراهين، وإيمان على بصيرة، لا كإيمان ضعفاء المؤمنين، الناشىء عن العادات والتقليد، الذي هو عرضة للعـوارض والعوائق. وأمـا هذا الإيمـان فهو إيمـانٌ لا تزعـزعـه الشُّبُهـات ولا تعارضه الخيالات بل يزداد مـع صاحبه مدى الأوقات. وَوَصَفَهُم بتحقيق التوكل عليه، فأعظم الناس إيماناً أعظمهم توكُّلاً على الله، خصوصاً التوكل العالي الذي هو الاعتماد التام على الله في تحصيل محابِّه ومراضيه، ودفـع مساخطه؛ ولهذا يجعل الله التوكل ملازماً للإيمان في كثير من الآيات. كقوله:

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

فالمؤمن حقًّا تجدُه قائماً بما أمر الله به من الأسباب، معتمداً على مسبِّبها ومصرِّفها واثقاً بربه، لا يقلقه تشوُّشُها ويحزنه إتيانها على غير مراده، قد هدى

الله قلبه فاطمأن إلى ربه ورضي به وفوّض إليه أمره؛ ومن يؤمن بالله يهد قلبه؛ قد تحقق قوله تعالى:

**﴿ألمْ تعلمْ أنّ الله يعلم ما في السماء والأرض إنَّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على الله يسير﴾** [سورة الحج: الآية ٧٠]

**﴿لكي لا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرَحُوا بما آتاكم﴾**
[سورة الحديد: الآية ٢٣]

قد رضي بكفاية ربه وسلّم إليه الأمر، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه. ووصف المؤمنين حقًّا في هذه الآية بأنهم الذين يقيمون الصلاة، أي يقيمونها بقيام مكمِّلاتها، ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، فالصلاة فيها الإخلاص للمعبود والزكاة فيها الإحسان إلى عباد الله تعالى؛ فبحَسَب إيمان العبد يكون قيامه بالصلاة والزكاة اللتين هما أم العبادات وأجلها وأعلاها وأعظمها نفعاً وثمراتٍ. وكذلك وصف الله المؤمنين في قوله:

**﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللَّغْو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أَيْمَانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صَلَواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون﴾**
[سورة المؤمنون: الآيات ١ ــ ١٠]

فهذه الأوصاف العظيمة بها يكمل الإيمان ويتحقق، وهو ميزان للخلق، فالمؤمنون المفلحون، أهل الفردوس، هم الذين أقاموا الصلاة ظاهراً وباطناً بحقوقها وخشوعها، الذي هو لبُّها، وآتوا الزكاة المأمورَ بها، وحفظوا ألسنتهم من الكلام السيِّىء والفحش ومن اللغو والكلام الباطل، ولهذا نبَّه بالأدنى الذي هو اللغو على ما هو أولى منه، فإخبار الله أنهم عن اللغو ــ الذي هو الكلام الذي لا منفعة فيه ــ يدلّ على أنهم تركوا الكلام المحرَّم وحفظوا

فروجهم عن الحرام لله تعالى؛ وتمامُ حفظها حفظُ البصر وعدمُ قُرْبان الفواحش ومقدماتها، كما قال تعالى:

﴿قلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجَهم﴾
[سورة النور: الآية ٣٠]

ووصفهم بمراعاة عهودهم وأماناتهم، وهذا عام للعهود والأمانات التي بينهم وبين ربهم، فإنهم قد عقدوا بينهم وبين ربهم عقدَ الطاعةِ والسمع والالتزام، ولهذا ذكّرهم الله بهذا العهد في قوله:

﴿واذكروا نعمةَ الله عليكم وميثاقَه الذي واثَقَكم به إِذْ قلتم سمِعْنا وأطعنا﴾ [سورة المائدة: الآية ٧]

والعهود والأمانات التي بينهم وبين الخلق ألّا ينقضوها وأن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ أن علامة الإيمان أن يكون العبد مؤتمَناً على الدماء والأموال فقال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم) وقال: (لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقه) ووصف المنافق بضد ذلك ووصف المؤمنين بالإيمان بجميع الحق الذي نَزَّله الله وبالرسل الذين أرسلهم الله فقال:

﴿آمنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربَّنا وإليك المصير﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥]

فالمؤمن لما كان وصفه أنه متطلب لرضوان الله، متَّبعٌ هداه أينما كان، آمن بجميع الإلّهية والرُّسل والتزم الدخول في طاعة الله وطاعة رسوله في كل شيء، وسأل الله أن يغفر له ما قَصَّر فيه وأن يتجاوز عنه إذا قدم عليه. ومن صفات المؤمنين أنهم يحكِّمون الله ورسوله في جميع أمورهم..

﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويُسَلِّموا تسليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]

﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ

لمْ يذهبوا حتى يَسْتأْذِنوه إنَّ الذين يستأذِنُونَك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا آستأذنوك لبعض شأنهم فأذَنْ لِمَنْ شئتَ منهم واستغفِرْ لهم اللَّهَ إن الله غفور رحيم﴾ [سورة النور: الآية ٦٢]

﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سَمِعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ [سورة النور: الآية ٥١]

﴿فإنْ تنازعتم في شيء فرُدُّوه إلى اللَّهِ والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

فالمؤمن أخلص دينَه لله، واجتهد في الاقتداء برسول الله، ولم يُقَدِّم على قوله وحكمه قولَ غيرِه وحكمِه، بل إذا تبينت له سُنَّةُ رسول الله لم يعدل عنها إلى غيرها، وبحسب تحقيقه لهذين الأصلين يتحقق إيمانه ويقوى يقينه وعرفانه.

ومن صفات المؤمنين أنهم متحابون متوالون متراحمون متعاطفون، كما قال تعالى:

﴿والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهُم أوليـاءُ بعضٍ يأمـرون بالمعـروف وينهَوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ويُؤْتون الزكاة ويطيعون الله ورسولَه﴾
[سورة التوبة: الآية ٧١]

وقال: ﴿إِنَّما ولِيُّكم اللَّهُ ورسولُهُ والذين آمنوا﴾
[سورة المائدة: الآية ٥٥]

وقال تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا آغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾ [سورة الحشر: الآية ١٠]

وكما قال النبـي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وكلما ازداد الاتصال بقرابة أو جوار أو حق من الحقوق ازداد هذا المعنى وتأكد الإحسان إليه كما قال النبـي ﷺ في الحديث الصحيـح: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وقال: (من غشَّنا فليس منا) و (الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهَم) فالمؤمنون يدينون الله بالنصيحة له في عبوديته ولكتابه في تعلم وتفهم والعمل به والدعوة لذلك، ولرسوله في الاجتهاد في متابعته في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، ولأئمة المسلمين وعامتهم بإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية ومعاونتهم على البر والتقوى وكفهم عن الإثم والعدوان بحسب القدرة. كما قال تعالى في الآية السابقة في وصفهم: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن صفاتهم الحميدة ومناقبهم السديدة ما قاله النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (ثلاث من كُنَّ فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلاّ لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) فجعل تحقيق الإيمان ووجد حلاوته بكون المحبة لله ولرسوله، وتقديمها على سائر المحابّ وجعل المحابّ تبعاً لها، فيحب المرء لما قام به واتصف به من محابِّ الله وما مَنَّ الله به من الأخلاق الفاضلة، فكلما قويت فيه ازدادت محبته له فتكون محبة المؤمن دائرة مع محبة الله، فيحب الله ورسوله ويحبّ من يحبُّه من الأعمال والأشخاص، وتكون كراهته للكفر المضادّ للإيمان أعظم من كراهته للنار التي سيقذف فيها. ومثل ذلك قوله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رَبًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا). وقد تقدم قول هرقل الذي في صحيح البخاري: وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سَخَطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. اهـ. ـ فلعل النقص سقط من كلام المؤلف رحمه الله ـ.

وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا

المسلمين ولا تتبعوا عوراتِهم فإنه من يتبع عورةَ أخيه يتبع الله عورتَه يفضحه ولو في جوف بيته).

ومن علاماتهم أن الله قد شرح صدورهم للإسلام فانقادوا لشرائعه طوعاً واختياراً ومحبةً، قد اطمأنت لذلك نفوسهم وصاروا على بيِّنة من أمرهم، فهم يمشون بنورهم بين الناس. قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صدرَه للإسلام فهو على نورٍ من ربِّه﴾

[سورة الزمر: الآية ٢٢]

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. وقال ﷺ: (إذا دخل الإيمان في القلب اتسع وانشرح) قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: (نعم! الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله). ولما قال له حارثة: «أصبحت مؤمناً حقًّا» قال: (وما حقيقة إيمانك) قال: «عزفت النفس عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وإلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار يتعاوون فيها» فقال: (عبدٌ نَوّرَ الله قلبه. فالزم!) فتحقيق الإيمان علامته سهولة العبادات والتلذذ بالمشقات في رضى رب الأرض والسموات، والتصديق التام بالجزاء والعمل بمقتضى هذا اليقين. وكذلك قال الحسن، رضى الله عنه: «ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ولكن ما وَقَر في القلب وصدّقته الأعمال». ولهذا من أجَلِّ علاماتهم أن الإيمان يصل بهم إلى حد اليقين والصِّدِّيقين، كما قال تعالى:

﴿والذين آمنوا بالله ورُسُله أولئك هم الصِّدِّيقون﴾

[سورة الحديد: الآية ١٩]

ولما ذكر النبي ﷺ ارتفاع غرف الجنة وعلوَّها العظيم قالوا: «يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرُهم» فقال: (بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين) ولهذا كانت الصِّدِّيقة التي أثنى بها على خواصّ خلقه هي تكميل مراتب الإيمان علماً وعملاً ودعوةً.

وكما أن من تحقيق الإيمان أن تكون الأعمال الصالحة مصدِّقة له فمن تحقيقه أيضاً أن يكون المؤمن متنزهاً عن الإثم والفسوق وأنواع المعاصي الداخلة في قوله تعالى:

﴿الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانهم بظلم أولئك لهمُ الأمن وهم مُهتدون﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وذَرُوا ما بقي من الرِّبا إنْ كنتمْ مؤمنين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٨]

ومن موجبات الإيمان صرفُ الأموال في مصارفها الشرعية ووضعها مواضعها وإقامة الحدود التي حدّ الله ورسوله. قال تعالى:

﴿واعلموا أنَّ ما غَنِمتُم من شيء فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إنْ كنتُمْ آمنتمْ باللّهِ وما أَنزلنا على عبدِنا يومَ الفُرقان﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤١]

وقال تعالى: ﴿الزانيةُ والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِائَةَ جَلْدةٍ ولا تأخُذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [سورة النور: الآية ٢]

وقال: ﴿... وَحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ [سورة النور: الآية ٣]

إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة الدالّة على وصف المؤمنين. وأن العبد لا يستحق حقيقة الإيمان حتى يتصف بها.

وفي الجملة فكلَّما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو: اتركوا كذا، كان امتثالُ ذلك الأمر واجتنابُ ذلك النهي من مقتضيات الإيمان وموجباته، الذي لا يتم إلّا بها. فبهذا ونحوه تعرف حقيقة الإيمان الذي جعله الله عنوان السعادة ومادة الفلاح وسبب الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب، فنسأله تعالى إيماناً كاملاً يَهدِي به قلوبَنا إلى معرفته ومحبته، والإنابة إليه في كل أمر وألسِنَتَنا إلى ذكره والثناءِ عليه، وجوارحَنا إلى طاعته... قال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربُّهم بإيمانهم﴾
[سورة يونُس: الآية ٩]

ومن صفاتهم الجليلة أن الله يهديهم إلى الحقِّ في المواطن المُشْتَبَهات وللصوابِ في محال المتاهات التي لا تحتملها عقول كثير من الناس، ويزدادون إيماناً ويقيناً في المواضع التي يزداد بها غيرُهم ريباً وشكًّا. قال تعالى:

﴿إن الله لا يَسْتَحْيِي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقَها فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربِّهم وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ اللَّهُ بهذا مثلاً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]

وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا مِن قَبلِك مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنَّى أَلقى الشيطان في أُمنيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله ما يُلقِي الشيطانُ ــ إلى أن قال ــ ولِيَعْلَمَ الذين أُوتُوا العِلمَ أنهُ الحقُّ من ربِّك فيُؤْمِنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم﴾ [سورة الحج: الآية ٥٤]

وقال تعالى: ﴿وما جعلْنا أصحابَ النار إلاّ ملائكةً وما جَعَلْنا عِدَّتَهم إلاّ فتنةً للذين كفروا لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يَرتابَ الذين أُوتُوا الكتابَ والمؤمنون﴾ [سورة المدَّثِّر: الآية ٣١]

وقال تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنَّا به كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا﴾
[سورة آل عمران: الآية ٧]

فما معهم من الإيمان واليقين يهديهم إلى الحقائق وأقومِ الطرائق وأرشدِ الأمور وأصلحِ الأحوال، ولهذا كان القرآن تذكرة ورحمة وبشرى للمؤمنين. وقال تعالى:

﴿إن الذين هم من خَشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربِّهم يؤمنون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٥٧، ٥٨]

إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فلما مشوا في نور إيمانهم في ظلمات

الجهالات والشرور وتولاهم مولاهم الله، وليّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور، والله ولي المؤمنين مَشَوْا في نورهم يوم القيامة

**﴿يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهم وبأَيْمَانهم بُشْرَاكُمُ اليومَ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾**

[سورة الحديد: الآية ١٢]

ولما كانت تجارتهم أجلَّ التجارات كان ربحها النعيم المقيم في غرف الجنان:

**﴿يا أيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارة تُنْجِيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله﴾** [سورة الصف: الآيتان ١٠، ١١]

ومن صفاتهم أن الله ينزل في قلوبهم السكينة والطمأنينة في مواضع الحرج والقلق. قال تعالى:

**﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾** [سورة الفتح: الآية ٤]

كل من قام بحق أو دعا إليه، أو سعى في إنكار منكر وإبطال باطل وجبت معاونته ومساعدته على ذلك. وهو داخل في قوله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله﴾** [سورة الصفّ: الآية ١٤]

ودلت هذه الآية ونحوها باللزوم على الأمر بالسعي بالأسباب التي تتم بها نصرة الحق، كالتعلم والتعليم للعلوم النافعة ونحوها.

الإخلاص والالتجاء إلى الله على الدوام والرجوع إليه في كل أمر هو السبب الأعظم في حصول الهداية إلى الصراط المستقيم: علماً وعملاً. قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام:

**﴿وقال إِني ذاهبٌ إلى ربي سيهدينِ﴾** [سورة الصافات: الآية ٩٩]

وقال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾**

[سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

**﴿قال ربِّ آغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾**
[سورة صٓ: الآية ٣٥]

قد استجاب الله له هذا الدعاء ووقـع الأمر. كذلك فإنه مهما تَنَقَّلَتْ بالخَلْق الأحوالُ وأُعطُوا الأسبابَ العظيمة من التمكين في الأرض والاقتدار على مصالحها فلا بلغوا ولا يبلغون ما بلغه سليمان عليه السلام: من الرِّيـح التي غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وَتجري بأمره رُخاء حيث أصاب؛ ومن تسخير الشياطين كل بَنَّاءٍ وغواص، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد ومن تسهيل الأسباب التي تدرك فيها المطالب.

**﴿قال يا أيها الملأ أَيُّكُمْ يأتِيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مُسْلِمين * قال عفريتٌ مِن الجِنِّ أنا آتيك به قبلَ أن تقومَ مِنْ مَقامك وإنِّي عليه لقويٌّ أَمين * قال الذي عندَه عِلمٌ مِنَ الكِتاب أنا آتيكَ به قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُك فلمَّا رآه مستقرًّا عندَه قال: هذا من فَضْلِ ربي لِيبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾**
[سورة النمل: الآيات ٣٨ ــ ٤٠]

ومن تسخير الطير والوحوش، وتعلُّم منطِقها، مما هو من أعظم الأدلة على أن هذا أمر سماوي، ليس في قدر المخلوقات استطاعته.

في أمر الله تعالى لزكريا بالذِّكر بالعشي والأبكار، بعد البشارة له بيحيـى عليهما السلام، وفي أمر زكريا لقومه بتسبيـح الله بكرة وعشيًّا تنبيهٌ على شكر الله تعالى على النِّعم المتجددة، لا سيما النِّعم التي يترتب عليها خير كثير ومصالـح متعددة، وأنه ينبغي للعبد كلَّما أحدث الله له نعمةً أحدث لذلك شكراً، وأن أفضل أنواع الشكر الإكثار من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه.

كمالُ العبد في تمام النِّعمتين: نعمة الدين ونعمة الدنيا، فيهما تحصل السعادة العاجلة والآجلة. فنعمة الدين بالعلم الهادي إلى الصراط المستقيم، وبتقوى الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه؛ ونعمةُ الدنيا بأن ينقطـع العبد

عن رجاء المخلوقين والافتقار إليهم، ويرزقه الله العفة عن القبائـح، ثم يغنيه بالحياة الطيبة والخير الذي يكون عوناً له على عبادة ربه. قال تعالى:

﴿والذين آهْتَدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم﴾

[سورة محمد: الآية ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً حتى يغنِيَهم اللَّهُ من فضله﴾ [سورة النور: الآية ٣٣]

وقد تضمن هذه الأمورَ الأربعة الدعاءُ الذي ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى).

إذا صدق العبد في حبه ما أمر الله به وكراهَتِهِ لِمَا نهى الله عنه، وبذل جهده في فعل المحبوب وترك المكروه، واستعان بالله وتضرَّع إليه في التوفيق لفعل ما يحبُّه والحفظ مما يكرهه، فإن الله أكرمُ الأكرمين، ولا يخيبُ عبداً. . هذا شأنه. ولو توالت وتكاثرت الأسباب المعارِضةُ فإن هذا السبب المجتمع من ثلاثة هذه الأشياء لا يتخلّف عنه عند مسبِّبه وإنما يأتي العبد النقص من إخلاله بها أو بأحدها؛ ولهذا لما اجتهد يوسف الصديق، عليه السلام، في السلامة من شرِّ مراودة امرأة العزيز ومَنْ أعانها على مرادها وصَدَق في حبه وإيثاره طاعة الله على طاعة النفس، وتضرّع إلى الله تعالى وتوكل عليه في حفظه وصيانته استعصم وحفظَه الله، وصرف عنه السوء والفحشاء، فقال عليه السلام:

﴿رَبِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلَّا تَصْرِفْ عنّي كيدَهن أَصْبُ إليهِن وأكُنْ من الجاهلين﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٣]

فاختار السجن المتضمن للعقوبة والإهانة على مراد النفس الدني المثمر للخسران الدائم، وتملّق إلى الله وتضرَّع في صرف كيدهن واجتهادِهن في فتنته، وفوَّض الأمر إلى ربّه وعَلِمَ أنّ الله إنْ وَكَلَه إلى نفسه ولم يصرِفْ عنه كيدَهن فلا بد أن يصبُوَ إليهن ويفعل أفعال الجاهلين، لأن هذا طبـع النفس، إلّا من رحم الله.

قوله تعالى: ﴿ما لَهُم به مِنْ عِلمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههم إِنْ يقولون إلاّ كَذِباً﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

أبطل به قول من زعم أن لله ولداً، من ثلاثة أوجه، بل من أربعة:

**أحدها**: أنه قول بلا علم؛ ومن المعلوم أن القول بلا علم من أعظم المختلَقات، وأن ذلك من الجهالات والضَّلالات، خصوصاً في أعظم المسائل وأهمها وهي مسألة التوحيد وتفرُّد الباري جل جلالُه بالكمال وتنزُّهِهِ عن كل ما لا يليق بجلاله من أنواع النقائص المنافية لكمال الربوبية وعظمة الإلٓهية، فنفى عنهم العلمَ ونفى عنهم التقليدَ لأهل العلم فلم يقولوا شيئاً يعلمونه، ولا ٱقْتَدَوْا بالعالِمين، بل هم وآباؤهم في ضلال مبين.

**والوجه الثاني**، قوله: ﴿كَبُرت كلمةً تخرُج من أفواههم﴾ أي عظمت وزادت في الشناعة إلى حدٍّ يستعجب كيف نطقوا به، وكيف خرجت هذه الكلمة الشنيعة من أفواههم، التي:

﴿تكادُ السمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبال هدًّا * أَنْ دَعَوْا للرحمن ولداً﴾ [سورة مريم: الآية ٩١]

وإنما كانت شنيعة جدًّا لأنها متضمنة لشتم رب العالمين وسبِّه، كما قال في الحديث الصحيح: (شتمني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وكذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك: أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد، الفردُ الصَّمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد) إلخ فأي شتم أعظم من هذا الشتم الذي مضمونه حاجة رب العالمين إلى اتخاذ الصاحبة والولد، ومنافاة وحدانيته وتفرده بالكمال.

**الوجه الثالث**، قوله: ﴿إِنْ يقولون إلاّ كذباً﴾ فسجل على أن قولهم هذا هو الكذب الصراح والإفك المبين. وتأمل كيف ارتقى في إبطاله من وجه يُبطله ويُفسده، إلى وجه آخر يزيد في إبطاله، إلى وجه ثالث لا يبقى ريبٌ ولا شك لكل ذي بصيرة في إبطاله. فنفى العلم بوجوهه وشنّع ما قالوه

وعظّمه وأخبر عن مرتبته وأنه قول في أخس المراتب وأسفلها، وهو الكذب والافتراء.

**والوجه الرابـع**: ما يحصل به من مجموع هذه الأوجه، فإن الهيئة الاجتماعية يحصل منها أثر ودلالة غير ما حصل لكل وجه على انفراده، ويحصل بها من تصريح الدلالة ما يتضح به الحق وينجلي؛ وهكذا كل مسألة عليها عدة أدلة، فإنه يحصل بكل دليل على انفراده علم، ثم يحصل بالدليل الآخر علم آخر، ثم يحصل باجتماعهما علم آخر؛ وهكذا كلما كثرت وتعددت. وبهذا ونحوه يُعلم أن المسائل الكبار كمسألة التوحيد وفروعه ومسألة المعاد ومسألة النبوة أن من تتبع أدلتها واستقرأ براهينها فإنه يحصل له من حق اليقين ومن العلم الكامل فيها ما لا يحصل في غيرها من المسائل التي هي دونها، وهذا من أجَلِّ قواعد الإيمان، وأفضل العلوم النافعة، وأعظم ما يقرِّب إلى رب العالمين.

## فصل

**سؤال**: ما هو الغيب الذي أثنى الله على المؤمنين به، وأخبر عن سعادتهم وفلاحهم واستحقاقهم النعيم المقيم. فلعل العبد يعرفه ويتعرف محالَّه ومواضعَه فيجتهد في تحقيق الإيمان ليكون من المفلحين. فإن أكثر الناس، بل أكثر المؤمنين، ليس عندهم في هذا الباب إلا أمور مجمَلة وألفاظ غير محقّقة، وهذا نفعه دون نفع التنويع والتفصيل والتوضيح والتبيين بكثير كثير. فأفتونا بحسب قدرتكم واستطاعتكم، فإنَّا لا نطلب منكم شَطَطاً، وإلا فقد تقرر أن هذه المسألة لا يتمكن خواص الخلق من إيفاء حقها وبيان أمرها فأفتونا مأجورين.

**الجواب**: وبالله أستعين، وإليه أضرع في الهداية فيها وفي غيرها: الغيبُ هو خِلاف الشهادة، ولهذا تُقسم الأشياء قسمين: غيبية ومحسوسة.

**فالأمور المحسوسة** المشاهَدة لم يعلِّق الشارع عليها حكماً من أحكام الإيمان، الذي يفرق به بين أهل السعادة وغيرهم، وذلك كالسماء والأرض وما فيها من المخلوقات المشاهدة والطبائع المعلومة المعقولة؛ إنما يذكر الله تعالى من هذا النوع الأدلة والبراهين على ما أخبر به وأخبرت به رُسُله.

القسم الثاني: وهو الغيب الذي أمَرَ بالإيمان به ومَدَح المؤمنين به في غير موضع من كتابه؛ وضابطُ هذا القسم أنه كلُّ ما أخبر الله به وأخبرت به رُسله على وجه يدعو الناس إلى تصديقه والإيمان به. وذلك أنواع كثيرة: أجلها وأعلاها وأفضلها وأنفعها وأيسرها ما أخبر به في كتبه وأخبرت به رسله من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته الجليلة الجميلة، وأفعاله الحميدة، وفي الكتاب والسنة من هذا النوع شيء كثير جدًّا بحسب الحاجة

إليه، فإنه لا أعظم حاجة وضرورة من معرفة النفوس بربِّها ومليكها الذي لا غنى لها عنه طرفة عين، ولا صلاح لها ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته. وكلما كان العبد أعرفَ بأسماء ربه وما يستحقه من صفات الكمال، وما يتنزه عنه مما يضادّ ذلك، كان أعظمَ إيماناً بالغيب، واستحق من الثناء والمدح بحسب معرفته. وموضـع هذا تدبُّر أسمائه الحسنى التي وصف وسمَّى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسله، فيتأملها العبد اسماً اسماً، ويعرف معنى ذلك، وأن له تعالى في ذلك الاسم أكملَه وأعظمَه وأن هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى. ويعرف أن كلَّ ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه فإن الله تعالى منزَّه مقدَّس عنه. لما كان هذا النوع هو أصل الإيمان بالغيب وأعظمه وأجله قال النبـي ﷺ في الحديث الصحيـح: (إن لله تسعـة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، مَن أحصاها دخل الجنة) أي ضبط ألفاظها وأحصى معانيها وتعقّلها في قلبه وتعبَّد الله بها، وتقرب بمعرفتها إلى رب العـالمين؛ فينبغي للمؤمن الناصـح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهمَّ المسائل عنده وأولاها بالإيثار وأحقها بالتحقيق ليفوز من الخير بأوفر نصيب. ولهذا لما سأل النبـي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ في صلاته فقال: «لأنها صفة الرحمن، فأحب أن أقرأ بها» فقال: (حبُّك إياها أدخلك الجنة) ــ متفق عليه.

ثبـت أن حب العبد لصفات الرحمن وملازمة تذكُّرها واستحضارَ ما دلّت عليه من المعاني الجليلة والتفهم في معانيها من أسباب دخول الجنة؛ وطريق ذلك أن يجمـع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسماً ــ وفي السُّنَّة زيادة على ذلك ــ فيتدبرها ويعطي كلَّ اسم منها عموم ذلك المعنى وكمالَه وأكملَه، فإذا تدبر اسمَ الله عرف أن الله تعالى له جميـع معاني الإلٰهية، وهي كمال الصفات والانفراد بها، وعدم الشريك في الأفعال، لأن المألوه إنما يؤلَه لما قام به من صفات الكمال فيحب ويخضـع له

لأجلها. والباري جل جلاله لا يفوته من صفات الكمال شيء بوجه من الوجوه، أو يؤلَه ويعبد لأجل نفعه وتولّيه ونصره فيجلب النفع لمن عَبَده ويدفع عنه الضرر.

ومن المعلوم أن الله تعالى هو المالك لذلك كله، وأن أحَداً من الخلق لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضُرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا تقرر عنده أن الله وحدَه المألُوه أوجب له أن يُعَلِّقَ بربه حبَّه وخوفَه ورجاءَه، وأناب إليه في كل أموره، وقطع الالتفات إلى غيره من المخلوقين، ممَّن ليس له من نفسه كمال ولا له فعالٌ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

ويتدبر مثلاً اسم العليم، فيعلم أن العلم كله بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فيعلم تعالى الأمور المتقدمة والأمور المتأخرة، أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيرَها، وصغيرها وكبيرها، ويعلم تعالى ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منها وما لا يعلمون؛ ويعلم تعالى الواجبات والمستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السُّفلَى كما يعلم ما فوق السموات العُلى، ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض تعالى لعلمه خفاء ولا نسيان، ويتلو على هذه الآيات المقررة له: كقوله في غير موضع والله بكل شيء:

﴿**عليم بذات الصدور**﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٣]

﴿**يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تُسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور**﴾ [سورة التغابن: الآية ٤]

﴿**وإِنْ تجهَرْ بالقول فإنه يعلم السِّرَّ وأخفى**﴾ [سورة طَه: الآية ٧]

﴿**سواءٌ منكم مَنْ أَسَرَّ القولَ ومَنْ جَهَر به وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وسارِبٌ بالنهار**﴾ [سورة الرعد: الآية ١٠]

﴿أَلَمْ تعلمْ أن الله يعلم ما في السماء والأرض إنّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على الله يسير﴾ [سورة الحج: الآية ٧٠]

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاءُ لا إلَهَ إلّا هو العزيز الحكيم﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ٥، ٦]

﴿إن الله عنده علمُ الساعة وينزِّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت إن اللَّهَ عليم خبير﴾
[سورة لقمان: الآية ٣٤]

﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقُطُ من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

﴿ألَمْ تَرَ أنّ اللَّهَ أنزلَ من السماء ماء فتصبحُ الأرضُ مُخضرَّةً إن الله لطيف خبير﴾ [سورة الحج: الآية ٦٣]

﴿عالمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً * إلّا مَنِ ارتضى من رسول﴾
[سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧]

﴿يعلم ما يَلِجُ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرُجُ فيها﴾ [سورة سبأ: الآية ٢]

﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ الله إن الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧]

﴿والله بما تعملون خبير﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

﴿والله خبير بما تعملون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٣]

﴿أَلَمْ تَرَ أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلّا هو سادسُهُم ولا أدنى من ذلك ولا أكثَرَ إلّا

هو معهم أينما كانوا ثم ينبِّئُهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾
[سورة المجادلة: الآية ٧]

﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعينٍ﴾
[سورة السجدة: الآية ١٧]

وغير ذلك من النصوص الكثيرة على هذا المعنى، فإن تَدَبَّرَ بعض ذلك يكفي المؤمن البصيرَ معرفةً بإحاطة علم الله تعالى وكمال عظمته وجليل قدره، وأنه الرب العظيم المالك الكريم؛ وكذلك يتدبر اسمه الرحمن، وأنه تعالى واسع الرحمة، له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة، ويتدبر الآيات الدالَّةَ على هذا المعنى كقوله تعالى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣]

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

﴿ألَمْ تَرَوْا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٠]

﴿وما بكم من نعمة فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجأَرون﴾
[سورة النحل: الآية ٥٣]

﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾
[سورة النحل: الآية ١٨]

ويتلو سورة النحل الدالة على أصول النعم وفروعها التي هي نفحة وأثرٌ من آثار رحمة الله، ولهذا قال في آخرها:

﴿كذلك يُتِمُّ نعمته عليكم لعلَّكم تُسلِمُون﴾ [سورة النحل: الآية ٨١]

ثم تدبر سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فإنها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالى؛ فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان من

رحمة الرحمن، ولهذا اختتمها في ذكر ما أعد الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل الذي هو أثر من رحمته تعالى؛ ولهذا يسمي الله الجنة الرحمة كقوله:

﴿وأما الذين آبيضَّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٧]

وفي الحديث أن الله قال للجنة أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي. وقال: وهو أرحم الراحمين. وفي الحديث الصحيح (للَّهُ أرحمُ بعباده مِن الوالدة بولدها). وفي الحديث الآخر (إن الله كتب كتاباً عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي) وفي الجملة: فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودبَّرهم أنواع التدبير وصرّفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور ولا تيسّرت الأشياء ولا حصلت المقاصد وأنواع المطالب إلّا برحمته، ورحمته فوق ذلك وأجلُّ وأعلى وللمحسنين المتقين من رحمته النصيبُ الوافر والخير المتكاثر:

﴿إنّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وهكذا يتدبر العبد صفاتِ ربه وآثارَها وأحكامَها حتى ينصبغ قلبه بمعرفته، ويستنير فؤاده ويمتلىء من عظمة خالقه وشواهد صفاته. ولنقتصر على هذا التنبيه اللطيف على هذه الأسماء الثلاثة ليحتذي في باقيها على هذا الحذو ويتدبر مثلاً آية الكرسي وأول سورة آل عمران وأول سورة الحديد وغافر وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص ونحوها من الآيات المشتملة على هذا العلم العظيم، وما يتأيد بها من الأحاديث النبوية لينال حظًا جزيلاً من الإيمان بالغيب، وليكون من الذين يخشون ربهم بالغيب.

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بجميع رسل الله الذين أرسلهم على وجه الإجمال والتفصيل لأشخاصهم ولدعوتهم وشرعهم؛ وكذلك الإيمان بجميع

الكتب التي أنزلها الله هداية للعباد على ما اجتباهم برسالته، ولهذا سمى الله الوحي الذي أنزله على رسوله غيباً، فقال:

﴿وما هو على الغيب بضَنِين﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٤]

ويذكر تعالى من أدلة رسالة محمد ﷺ الأخبار بوقائع الأنبياء المتقدمين وما جرى لهم فيقول:

﴿تلكَ من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنتَ تعلَمُها أنت ولا قومُك من قَبْلِ هذا﴾ [سورة هود: الآية ٤٩]

﴿وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مَرْيَمَ وما كنتَ لديهم إذْ يختصمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

﴿وما كنت بجانب الغربي إِذْ قضينا إلى موسى الأمرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

وما أشبه هذا مما فيه التبيان لصحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه الغيوب. فتمام الإيمان بالغيب أن يؤمن العبدُ بجميع رُسُل الله ويعرفَ من صفاتِهم ومن دعوتهم ما يحقق به هذا الأمر، وكذلك يؤمنُ بجميع الكتب، خصوصاً هذا القرآن العظيم، الذي كُلِّف العبد بالإيمان به إجمالاً وتفصيلاً. وكيفية الإيمان على وجه الإجمال والتفصيل أن يؤمن ويصدق بأنه كلام الله، أنزله مع جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ بهذا اللسان العربي لينذر الخلق ويهديَ إلى الحق في جميع المطالب، ويلتزم العبد آلتزاماً لا تَرَدُّد فيه تصديقَ إخباراته كلِّها وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وإحلال حلاله وتحريم حرامه؛ ثم يحقِّق هذا الأصل بتفاصيله، فيتفهم ما دلّت عليه أخباره ويجعلها عقيدةً لقلبه راسخة، لا تزلزلها الشُّبَهُ ولا تغيِّرها العوارض، ويجتهد في كل ما أُمر به من أعمال القلوب والجوارح أن يقوم به على وجه الكمال والتكميل، علماً وعملاً وحالاً؛ وما لا يقدر عليه ينوي فعله لو قدر عليه.

وكذلك النواهي: يأخذ نفسه في كل ما نهي عنه أن لا يقربه ولا يحوم حوله، امتثالاً لأمر الله، ورجاءً لثوابه. فبحسب قيام العبد بهذا يكون إيمانه

بالغيب: فمستقِلٌّ ومستكثرٌ ومتوسطٌ. ويدخل في هذا النوع الإيمان بأخباره بما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة. ومن أنواع الإيمان بالغيب الإيمانُ باليوم الآخر، وبما وعد الله العباد من الجزاء فدخل في هذا الإيمانُ بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأحواله، ومن صفات يوم القيامة وأهوالِه، ومن صفات النار وأهلها، وما أعد الله لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها، وما أعد الله فيها لأهلها، فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته البيِّنة، ومن السُّنّة الصحيحة ودلالتها الظاهرة. فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب، وفهمها على وجهها، يكون إيمان العبد بالغيب. وإذا استقر الإيمان بالوعد والوعيد في قلب العبد وحصل فيه من ذلك تفاصيل كثيرة أوجب له الرغبة في فعل ما يُقرِّبه إلى ثواب الله والرهبة من الأسباب الموجبة للإهانة وعلم أن الله تعالى قائم على كل نفس بما عملت من خير وشر وأنه واسع الفضل، كامل العدل، قال تعالى:

﴿جناتِ عدنٍ التي وَعَدَ الرحمنُ عبادَه بالغيبِ إنَّهُ كان وعدُهُ مأتِيًّا﴾
[سورة مريم: الآية ٦١]

﴿ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قِيلا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩]

ومن الإيمان بالغيب الإيمانُ بالملائكة الكرام، الذين جعلهم الله عباداً مكرَّمين، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنه تعالى جعلهم يدبِّرون بأمره وإذنه أمور الدنيا والآخرة، فهم أكثر جنود الله، وهم رُسُله في أحكامه الدينية وأحكامه القَدَرية، وأن الله جعل للعبد منهم معقباتٍ يحفظونه من أمر الله، ويحفظون عليه أعماله:

﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾ [سورة قٓ: الآية ١٨]

**﴿كلَّا بل تُكَذِّبون بالدين * وإنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلَمُون ما تفعلون﴾** [سورة الانفطار: الآيات ٩ ـ ١٢]

ولهم صفات وأفعال مذكورة في الكتاب والسُّنّة لا يتم الإيمان بالغيب إلّا بالإيمان بها، فرَجِع الإيمان بالغيب إلى أصولِ الإيمان الستة بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره، على هذا الوجه الذي ذكرنا والأصل الذي نبهنا أدنى تنبيه عليه فمن حقق الإيمان بذلك كله كان من المؤمنين بالغيب حقيقة المتقين المفلحين.

**فائدة**: ما هو الخشوع الذي أمر الله به ومدح أهله وذمَّ من قسا قلبه فلم يخشع، فما حقيقة ذلك؟ وما علامته ودلالته؟

**قلت**: قد مدح الله الخشوع عموماً في جميع الأوقات والحالات والعبادات، مثل قوله تعالى:

**﴿والخاشعين والخاشعات﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

**﴿أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وما نَزَل من الحق﴾** [سورة الحديد: الآية ١٦]

**﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأَخْبتُوا إلى ربهم أُولئك أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون﴾** [سورة هود: الآية ٢٣]

ومدح الخشوع خصوصاً في الصلاة، مثل قوله:

**﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾** [سورة المؤمنون: الآية ٢]

فخشوع القلب عنوان الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوته وعدم خشوعه عنوانُ الشقاوة؛ فالخشوع انكسار القلب وذُلُّه بين يدي ربه، وأنْ يبقى هذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته: إن غفل رجع إليه وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبُّد وقُرْبة من القُرُبات خضع فيها وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أم العبادات، والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان: وهي الصلاة؛ فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة

ومرتبة الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يره فإنه يراه، فيجهد نفسه على التحقيق بهذه العبودية الكاملة، فيحضر قلبه فيناجي ربه بقلبه قبل لسانه، ويستحضر ما يقوله ويفعله فتسكن حركاته ويقل عبثه، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلاً يصلّي وهو يعبث في لحيته فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) وبهذا يعرف أن من أعظم علامات الخشوع سكونَ الجوارح والتأدبَ في الخدمة الذي هو أثر سكون القلب، ولهذا وصف الله عباده الذين أضافهم إلى رحمته في قوله:

﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشُون على الأرض هَوْناً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٦٣]

المراد: خاضعين متواضعين. ومن أَمارات هذا الخشوع أن يطمئن القلب بذكر الله، ويخشع ويخضع للحق الذي أنزله الله، فيعتقد ما دلّ عليه من الحق، ويرغب فيما دعا إليه من الخير، ويرهب عمَّا حذّر منه من الشر، كما قال تعالى:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكر الله ألَا بذكر الله تطمئن القلوب﴾

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

وقال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦]

وقال تعالى: ﴿فويلٌ للقاسية قلوبُهُم من ذكرِ الله أولئك في ضلال مبين * اللَّهُ نَزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانِيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشَوْنَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء ومَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فما له من هاد﴾ [سورة الزمر: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فالقلب القاسي لا تؤثر فيه الآيات شيئًا ولا يزداد مع التذكير إلا تمادياً في غيه وطغيانه وضلاله، والقلب الخاشع، لما كان حسن القصد متواطئاً على الحق طالباً له مستعدًّا لقبوله لما وصل إليه الحق عَرَفه، وعرف الحاجة بل الضرورة إليه ففرح به واطمأن به، وزادت رغبته وأثَّر في قلبه خضوعاً وفي عينيه دموعاً

وفي جلده قشعريرةً ثم يلين قلبه ويطمئن إلى ذكر الله تعالى. فهذا من هداية الله لعبده وتوفيقه إياه إلاّ من أعرضوا فأعرض الله عنهم. وقال تعالى:

**﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعُمياناً﴾**
[سورة الفرقان: الآية ٧٣]

أي بل خرُّوا سامعين مبصرين، منقادين لها طوعاً واختياراً. وقال تعالى:

**﴿إن الذين أوتوا العلم من قَبله إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدا * ويقولون سبحانَ ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولاً * ويَخِرُّون للأذقان يبكونَ ويزدُهُم خشوعاً﴾** [سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩]

فهذا تأثير آيات الله في أهل العلم الخاشعين، يجمعون بين خشوع القلب وخضوع اللسان وتضرّعه وخضوع الجوارح حيث خرُّوا للأذقان يبكون. وقال تعالى بعدما ذكر أصفياءه الخاضعين:

**﴿أولئك الذين أنعمَ اللَّهُ عليهم من النبيين مِنْ ذُرِّية آدمَ ومِمَّن حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ومِن ذُرِّية إبراهيمَ وإسرائيلَ وممَّنْ هدينا وآجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكيًّا﴾** [سورة مريم: الآية ٥٨]

ومن أعظم علامات الخاشعين ما ذكر الله بقوله وبشر المخبتين ثم وصفهم فقال:

**﴿الـذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم والصـابرين على مـا أصابهم والمقيمِي الصلاةِ وممّا رزقناهم ينفقون﴾** [سورة الحج: الآية ٣٥]

فلما اخبتت قلوبهم إلى ربهم فَذَلَّت له وانكسرت وتبتّلت إليه تبتيلاً وَجِلت عند ذِكرِه وصبرت على ما أصابها من ابتلاء الله وأدّت ما أُمرت به من الصلاة وأنواع النفقات فجمع بين وصف المخبتين وبين أعمال القلوب وهو الصبر والوجل وأعمال الجوارح كلها ـ وأقوال اللسان وهو الصلاة التي تجتمع فيها أنواع التعبد والأعمال المالية وتقديم محبة الله على محبة المال فأخرجت المال المحبوب للنفوس في الوجوه التي يحبها الله تعالى إيثاراً لربها فهذه أوصاف المخبت الخاشع التي لا يستحق هذا الاسم من لم يتصف بها.

وكذلك وَصَفهم بأنهم الذين يعرفون الحق في مواضع الشُّبَهِ فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم كما قال تعالى:

**﴿وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتوا العلم أنه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنّ اللَّهَ لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾**

[سورة الحج: الآية ٥٤]

وقوله تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات وأَخْبَتُوا إلى ربهم﴾**

[سورة هود: الآية ٢٣]

يتضمن وصف المخبتين الخاشعين بالرجوع إلى ربهم في جميع الحالات والإنابة إليه في كل الأوقات، لأن تعدية الفعل بإلى يدلّ على هذا المعنى، فإنهم لما أخبتوا إلى ربهم وخضعوا لعظمته أخبتوا إليه في التعبد متذلّلين فتقبَّل منهم، وأوصلهم إلى مقصودهم وجعلهم أصحاب الجنة خالدين فيها، فلما خشعت قلوبهم خشعت أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وجوارحهم للرحمن. ومما يدل على أن هذه الأشياء تابعة للقلب في خشوعه ما تقدم من قوله ﷺ: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) وقوله تعالى:

**﴿وَعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القَيُّوم﴾** [سورة طه: الآية ١١١]

**﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾** [سورة طه: الآية ١٠٨]

ولهذا فَسَّر كثير من المفسرين:

**﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾** [سورة المؤمنون: الاية ٢]

أنه غَضُّ البصر وقلة الحركات وعدم الالتفات، ولا شك أن هذا أثر الخشوع ودليلُه، فالخاشع هو الذي سكن في قلبه تعظيمُ الله ووقارُه وتصديقُ وعده ووعيده، فذل وخضع، وانقادت جوارحُه لما أُمرت به وترك الأشر والبطر والمرح المنافي للخشوع؛ وكلما بَعُدَ القلب عن هذا الوصف قسا وغلظ فلم يخضع لأمر الله ولا أثَّرَ فيه الذكر، بل ربما زاد خساراً وافتتن عند المحن والشبهات، وفسق عن أمر به. . .

يا لطيفاً بالعباد، لطيفاً لما يشاء، ٱلْطُفْ بنا في جميع الأمور. ما معنى لطف الله بعبده ولطفه لعبده الذي تتعلق به آمال العباد ويسألونه من ربهم، وهو أحد معنيي مقتضى اسمه اللطيف، فإن اللطيف بمعنى الخبير العليم قد تقرر معناه، ولكن المطلوب هنا المعنى الثاني، الذي يضطر إليه العباد. ولنذكر بعض أمثلته وأنواعه، ليتضح. فاعلم أن اللطف الذي يطلبه العباد من الله بلسان المقال ولسان الحال هو من الرحمة، بل هو رحمة خاصة. فالرحمة التي تصل العبد من حيث لا يشعر بها أوْ لا يشعر بأسبابها هي اللطف، فإذا قال العبد: يا لطيف ٱلْطُفْ بي أوْ لِيَ وأسألك لطفَك.. فمعناه تولَّني ولاية خاصة، بها تصلُحُ أحوالي الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عني جميع المكروهات: من الأمور الداخلية والأمور الخارجية. فالأمور الداخلية لطف بالعبد والأمور الخارجية لطف للعبد. فإذا يَسَّر الله عبده وسهّل طريق الخير وأعانه عليه فقد لطف به، وإذا قيض الله له أسباباً خارجية غير داخلة تحت قدرة العبد، فيها صلاحُه، فقد لطف له. ولهذا لما تنقلت بيوسف عليه الصلاة والسلام تلك الأحوال، وتطوّرت به الأطوار من رؤياه وحسد إخوته له وسعيهم في إبعاده جدًّا واختصاصهم بأبيهم، ثم محنته بالنسوة، ثم بالسجن، ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة وانفراده بتعبيرها، وتبوئه من الأرض حيثُ يشاءُ، وحصول ما حصل على أبيه من الابتلاء والامتحان، ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السارُّ وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع، والاجتباء العظيم ليوسف ــ عرف عليه الصلاة والسلام أن هذه الأشياء وغيرها لطفٌ لَطَفَ الله لهم به، فاعترف بهذه النعمة فقال:

﴿إن ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

أي لطفه تعالى خاصٌّ لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالى محلاً لذلك، وأهلاً له، فلا يضعه إلاّ في مَحَلِّه، والله أعلم حيث يضع فضلَه، فإذا رأيت الله تعالى قد يَسَّر العبد لليُسرى وسهَّل له طريق الخير، وذلّل له صعابه وفتح

له أبوابه ونهج له طُرُقه ومَهَّد له أسبابه وجَنَّبه العُسرى فقد لَطَفَ به، ومِنْ لُطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والبِدَع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة. ومن لطفه أنه يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمَّارة بالسُّوء التي هذا طبعها وديدنُها فيوفِّقهم لنهي النفس عن الهوى ويصرف عنهم السوء والفحشاء، فتوجد أسباب الفتنة وجواذب المعاصي وشهوات الغي، فيرسل الله عليها برهان لطفه ونور إيمانهم الذي مَنَّ به عليهِم فيدعونها مطمئنين لذلك، منشرحة لتركها صدورهم. ومن لطفه بعباده أنه يقدِّر أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيرُه أصلحُ فيقدِّرُ لهم الأصلحَ وإن كرهوه، لطفاً بهم وبِرًّا وإحساناً. اللَّهُ لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز. ولو بسط الله الرزقَ لعباده لَبَغَوْا في الأرض، ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير.

ومن لطفه بهم أنه يقدِّر عليهم أنواع المصائب وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاقّ، رحمة بهم ولطفاً، وسوقاً إلى كمالهم وكمال نعيمهم:

**﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهَّله للمراتب العالية والمنازل السامية التي لا تدرك إلَّا بالأسباب العظام التي لا يدركها إلا أرباب الهمم العالية والعزائم السامية أن يقدر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أهل لها ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ولتتمرن نفسه ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر. وهذا كما قَدَّرَ لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، في ابتداء أمرهم رعايةَ الغنم ليتدرَّجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلى رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم. وكذلك يذيق عبده حلاوة بعض الطاعات فينجذب ويرغب ويصير له ملكة قوية بعد ذلك على

طاعات أجلّ منها وأعلى، ولم تكن تحصل بتلك الإرادة السابقة، حتى وصل إلى هذه الإرادة والرغبة التامة.

ومن لطفه بعبده أن يُقَدِّر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان، وبين أهل الخير، ليكتسب من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم كما امتنَّ الله على مريم في قوله تعالى:

﴿فتقبّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

إلى آخر قصتها. ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح أو وفّقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم أو لتربية العلماء الربانيين فإن هذا من أعظم لطفه بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسبابٍ كثيرة: منها، بل من أكثرها وأعظمها نفعاً، هذه الحالة. ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السُّنة والجماعة فإن هذا لطف له، وكذلك إذا قدّر الله أن يكون مشائخه الذين يستفيد منهم الأحياءُ منهم والأموات أهلَ سُنّة وتُقىً فإن هذا من اللطف الربَّاني. ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، في أثناء قرون هذه الأمة وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات، فلا شك أن هذا من لطف الله لمن انتفع بها، وأنه يتوقف خير كثير على وجودها، فلله الحمد والمِنَّة والفضلُ.

ومن لطف الله بعبده أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة، يحصل به المقصود ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل، بل يعينه على ذلك ويفرغه ويريح خاطره وأعضاءه، ولهذا من لطف الله تعالى لعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظن فيها إدراك بغيته فيعلم الله تعالى أنها تضرّه وتصدّه عما ينفعه فيحول بينه وبينها، فيظل العبد كارهاً ولم يدرِ أن ربه قد لَطَف به حيث أبقى له الأمر النافع وصرف عنه الأمر الضارّ. ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومن لطف الله بعبده إذا قَدّر له طاعة جليلة لا تنال إلّا بأعوان أن يُقَدِّر له أعواناً عليها ومساعدين على حملها. قال موسى عليه السلام:

**﴿واجعلْ لي وزيراً من أهلي * هارونَ أخي * اشْدُدْ به أزري * وأَشْرِكْهُ في أمري * كي نُسَبِّحَك كثيراً * ونذكُرَك كثيراً﴾**

[سورة طه: الآيات ٢٩ ــ ٣٤]

وكذلك امتنَّ على عيسى بقوله:

**﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمِنوا بـي وبرسولي قالوا آمَّنا واشْهَدْ بأنَّنا مسلمون﴾** [سورة المائدة: الآية ١١١]

وامتن على سيد الخلق في قوله:

**﴿هو الذي أيَّدَكَ بنصره وبالمؤمنين﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٢]

وهذا لطف لعبده خارج عن قدرته. ومن هذا لطف الله بالهادين إذا قيض الله من يهتدي بهداهم ويقبل إرشادهم فتتضاعف بذلك الخيرات والأجور التي لا يدركها العبد بمجرد فعله بل هي مشروطة بأمر خارجي. ومن لطف الله بعبده أن يعطي عبده من الأولاد والأموال والأزواج ما به تَقَرُّ عينه في الدنيا ويحصل له به السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك ويأخذه ويعوضه عليه الأجر العظيم إذا صبر واحتسب، فنعمة الله عليه بأخذه على هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي منه. وهذا أيضاً خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه، بل هو لطف من الله له قيَّض له أسباباً أعاضه عليها الثواب الجزيل والأجر الجميل.

ومن لطف الله بعبده أن يبتليه ببعض المصائب فيوفِّقَه للقيام بوظيفة الصبر فيها فينيلَه درجاتٍ عالية لا يدركها بعمله. وقد يشدِّد عليه الابتلاء بذلك، كما فعل بأيوب عليه السلام، ويوجد في قلبه حلاوة روح الرجاء، وتأميل الرحمة، وكشف الضُّرّ، فيخف ألمه وتنشط نفسه؛ ولهذا من لطف الله بالمؤمنين أنْ جَعَل في قلوبهم احتسابَ الأجر فخَفَّت مصائبهم وهان ما يلقَوْن من المشاق في حصول مرضاته.

ومن لطف الله بعبده المؤمن الضعيف أن يعافيَه من أسباب الابتلاء التي تُضعِف إيمانَه وتنقصَ إيقانَه؛ كما أن من لطفه بالمؤمن القوي تهيئةَ أسبابِ الابتلاء والامتحان ويعينه عليها ويحملها عنه ويزداد بذلك إيمانه ويعظم أجره، فسبحان اللطيف في ابتلائه وعافيته، وعطائه ومنعه.

ومن لطف الله بعبده أن يسعى لكمال نفسه مع أقرب طريق يوصله إلى ذلك، مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه، فَيُيَسِّر عليه التعلم من كتاب أو معلم يكون حصول المقصود به أقربَ وأسهل، وكذلك ييسره لعبادةٍ يفعلها بحالة اليسر والسهولة وعدم التعويق عن غيرها مما ينفعه، فهذا من اللطف.

ومن لطف الله بعبده قدر الواردات الكثيرة والأشغال المتنوعة والتدبيرات والتعلقات الداخلة والخارجة، التي لو قسمت على أمة من الناس لعجزت قُواهم عليها، أن يَمُنَّ عليه بخلق واسع وصدر متسع وقلب منشرح بحيث يعطي كل فرد من أفرادها نظراً ثاقباً وتدبيراً تامًّا وهو غير مكترث ولا منزعج لكثرتها وتفاوتها، بل قد أعانه الله تعالى عليها ولطف به فيها ولطف له في تسهيل أسبابها وطرقها. وإذا أردت أن تعرف هذا الأمر فَٱنظرْ إلى حالة المصطفى ﷺ الذي بعثه الله بصلاح الدارين وحصول السعادتين وبعثه مكمِّلاً لنفسه ومكمِّلاً لأمة عظيمة هي خير الأمم، ومع هذا مكّنه الله ببعض عمره الشريف في نحو ثُلُثِ عُمُره أن يقوم بأمر الله كلِّه على كثرته وتنوّعه، وأن يقيم لأمته جميعَ دينهم ويعلّمَهُمْ جميع أصوله وفروعه، ويخرج الله به أمة كبيرة من الظلمات إلى النور، ويحصل به من المصالح والمنافع والخير والسعادة للخاص والعام ما لا تقوم به أمة من الخلق.

ومن لطف الله تعالى بعبده أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سبباً لرحمته، فيفتح له عند وقوع ذلك باب التوبة والتضرّع والابتهال إلى ربه وازدراء نفسه واحتقارها وزوال العُجب والكِبْر من قلبه ما هو خير له من كثير

من الطاعات. ومن لطفه بعبده الحبيب عنده إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة واسترسلت في ذلك أن ينقصها عليه ويكدرها، فلا يكاد يتناول منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدِّرات محشوًّا بالغصص لئلا يميل معها كل الميل؛ كما أن من لطفه به أن يلذذ له التقرُّبات ويحلِّي له الطاعاتِ ليميلَ إليها كلَّ الميل.

ومن لطيف لطف الله بعبده أن يأجره على أعمال لم يعملها بل عزم عليها، فيعزم على قُرْبة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا يفعلها، فيحصل له أجرها. فانظر كيف لطف الله به فأوقعها في قلبه وأدارها في ضميره وقد علم تعالى أنه لا يفعلها سوقاً لبِرِّه لعبده وإحسانه بكل طريق. وألطفُ من ذلك أن يقيِّض لعبده طاعة أخرى غير التي عزم عليها هي أنفع له منها فيدع العبد الطاعة التي ترضي ربّه لطاعة أخرى هي أرضَى لله منها، فتحصل له المفعولة بالفعل والمعزوم عليها بالنية؛ وإذا كان من يهاجر إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على الله مع أن قطع الموت يغيِّر اختياره فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعة قد عزم على فعلها؟ وربما أدار الله في ضمير عبده عدة طاعات، كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد لكمال رغبته، ولا يمكن فعل شيء منها إلا بتفويت الأخرى فيوفّقه للموازنة بينها وإيثار أفضلها فعلاً مع رجاء حصولها جميعها عزماً ونيةً.

وألطف من هذا أن يقدر تعالى لعبده ويبتلِيَه بوجود أسباب المعصية ويوفِّر له دواعِيَها وهو تعالى يعلم أنه لا يفعلها، ليكونَ تركُه لتلك المعصية التي توفرت أسبابُ فعلها مِن أكبر الطاعات، كما لطف بيوسف عليه السلام في مراودة المرأة، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال:

﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ [سورة الحشر: الآية ١٦]

ومن لطف الله بعبده أن يقدر خيراً وإحساناً من عبده ويجريَه على يد عبده

الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحق، فيثيب الله الأولَ والآخرَ.

ومن لطف الله بعبده أن يجري بشيء من ماله شيئاً من النفع وخيراً لغيره فيثيبه من حيث لا يحتسب. فمن غرس غرساً أو زرع زرعاً فأصابت منه روح من الأرواح المحترمة شيئاً آجر الله صاحبَه وهو لا يدري، خصوصاً إذا كانت عنده نية حسنة وعقد مع ربه عقداً في أنه مهما ترتّب على ما له شيء من النفع فأسألك يا ربِّ أن تأجرني وتجعله قربةً لي عندك. وكذلك لو كان له بهائم انتفع بدَرِّها وركوبها والحَمْل عليها أو مساكن انتفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً أو ماعون ونحوه انتفع به أو عين شُرب منها، وغير ذلك ككتاب انتفع به في تعلّم شيء منه أو مصحف قرىء فيه والله ذو الفضل العظيم.

ومن لطف الله بعبده أن يفتح له باباً من أبواب الخير لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلة رغبته فيه وإنما هو غفلة منه وذهول عن ذلك الطريق، فلم يشعر إلّا وقد وجد في قلبه الداعي إليه واللافت إليه، ففرح بذلك وعرف أنها من ألطاف سيّده وطرقه التي قيض وصولها إليه فصرف لها ضميرَه ووجه إليها فكرَه وأدرك منها ما شاء الله، وفتح قوله تعالى:

**﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحاتِ ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتَّقَوْا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾** [سورة المائدة: الآية ٩٣]

تأملتُ في فائدة تكرار التقوى في هذه الآية ثلاث مرات فوقع لي أحد وجهين: **أحدهما**، أن الأول للماضي، والثاني للحال، والثالث في المستقبل، وبيان ذلك، أن قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾** أن جناح نكرة في سياق النفي فتعم الماضي والمستقبل والحال، لأنه نفي الجناح عن المؤمنين مطلقاً وهذا النفي العام لا ينطبق إلّا على الأحوال الثلاثة، ويكون هذا التكرار من محترزات القرآن، التي يحترز الباري فيها عن كل حال تقدَّر وتُمْكن لأنهم لو اتقوا في الماضي

أو في الحال أو فيهما دون المستقبل لم يصدق عليهم نفي الجناح، ولا بد في كل حالة من الأحوال التي تقام فيها التقوى من الإيمان والعمل الصالح؛ ومن الإيمان والإحسان يؤيد هذا الاحتمال قوله:

**﴿فمن تعجَّل في يومين فلا إِثمَ عليه ومن تأخَّر فلا إِثمَ عليه لِمَنِ اتقى واتّقُوا الله﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٠٣]

فإن قوله **﴿فلا إثم عليه﴾** نظير قوله **﴿جناح﴾** ولما كانت هذه الآية لا يتصور فيها الماضي كما هو بَيِّنٌ لأنه شرط وجزاء للمستقبل ويصلح للحال قال: **﴿فلا إثم عليه﴾** يعني في الحال لمن اتقى الله فيها ثم ذكر ما يصلح للمستقبل فقال **﴿واتقوا الله﴾** فإذا قرنت هذه بتلك بانت لك فائدة التكرار، وأن ذلك لأجل عموم الأزمنة.

**الوجه الثاني**: أن الأول في مقام الإسلام والثاني في مقام الإيمان والثالث في مقام الإحسان: والمؤمن لا تكمل تقواه حتى يترك ما حرّم الله ولا يتم دينه إلّا بهذه المقامات الثلاثة لأن مقام الإسلام يقتضي وجود الأعمال الظاهرة مع الإيمان والتقوى، فقال فيها: **﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾** ومقام الإيمان لا بدّ فيه من القيام بأركان الإيمان مع التقوى، فقال فيه: **﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾** ومقام الإحسان لا بد فيه من المقام بالإحسان مع التقوى، فقال فيه: **﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾** فنفي الجناح العام لا يكون إلا لمن قام بمقامات الدين كلها؛ وعلى هذين الوجهين ففي الآية الكريمة من بيان جلالة القرآن وعظمته وإحكام معانيه ورصانتها وعدم اختلالها واختلافها، ما يشهد به العبد أنه كلام الله حقًا وصدقاً وعدلاً وأنه محتوٍ على أعلى رتب البلاغة التي لا يقاربه فيها أي كلام كان. وقد يقال إن كلا الوجهين مراد، لأن اللفظ لا يأباه والمعنى مفتقر إليه؛ وطريقة القرآن أن يحمل على أعم الوجوه المناسبة لأنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. اللهم ذكِّرنا منه ما نسينا، وعلِّمنا منه ما جَهِلنا، واجعلنا ممن يتلونه حق تلاوته.

أقول: ولما ختم المؤلف رحمه الله كلامه على معنى (اللطيف) قال: وأرجو من الله أن يكون ما نحن فيه من هذا النوع؛ فإن جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله فأتهاون بها ولم أقيدها فيضيع شيء كثير. فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك أوقع في قلبي أن أقيد ما يمرّ علي من الفوائد والمعاني المتَّضِحة التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملت على هذا النمط حتى كان الانتهاء إلى لطف الله كما كان الابتداء بلطف الله بهذه الرسالة اللطيفة، وكان ذلك موافقاً للثامن والعشرين من هذا الشهر المبارك الذي حصل به الابتداء في ٢٨ من شهر رمضان سنة ١٣٤٧ سبع وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وصلى الله على محمد وسلم.

وقد تمت هذه الرسالة على يد جامعها الفقير إلى ربه من كافة الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي المتوفى سنة ١٣٧٦ في ليلة الخميس الموافق ٢٣ من شهر جمادى الآخرة غفر الله له وتغمده برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب.

# فوائد مستنبطة من قصة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدّمة

الحمد لله، وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. أما بعد، فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالى قصّها علينا مبسوطة، وقال في آخرها:

﴿لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لِأولي الألبابِ﴾

[سورة يوسف: الآية ١١١]

والعبرة ما يعتبر به ويعبر منه إلى معانٍ وأحكام نافعة وتوجيهات إلى الخيرات وتحذير من الهلكات؛ وقصص الأنبياء كلها كذلك، لكن هذه القصة خصّها الله بقوله:

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

ففيها آيات وعبر منوّعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقّلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة، ومنه ومن ذلة ورِقٍّ إلى عزّ ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة. إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة، فتبارك من قصها ووضّحها وبيّنها.

فمن فوائد هذه السورة أن فيها أصولاً لعلم تعبير الرؤيا، فإن علم تعبير

الرؤيا علم عظيم مهم، مبناه على حسن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات أو ما يناسبها بحسب حال الرائي وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا، وقد أثنى الله على يوسف عليه الصلاة والسلام بعلمه بتأويل الأحاديث، تأويل أحاديث الأحكام الشرعية والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمله لبعض الأمور، فإنه كثيراً ما يرى في منامه من جنس ما يفكر به في يقظته، فهذا النوع الغالب عليه إنه أضغاث أحلام لا تعبير له؛ وكذلك نوع آخر ما يلقيه الشيطان على روح النائم من المرائي الكاذبة والمعاني المتخبطة فهذه أيضاً لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكرَه، بل ينبغي له أن يلهى عنها.

وأما الرؤيا الصحيحة فهي إلْهامات يُلهمها الله للروح عند تجرُّدها عن البدن وقت النوم، أو أمثالٌ مضروبة يضربها المَلِك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها. وقد يرى الشيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه، فيوسف ﷺ أعطاه الله من العلم ما يميز به بين المرائي الصحيحة والباطلة، الحق والباطل منها، وهذه القصة فيها الدلالة على تعبير الرؤيا من وجوه: أحدها رؤيا يوسف التي قصَّها على أبيه يعقوب ﷺ:

**﴿إذْ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحد عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين﴾** [سورة يوسف: الآية ٤]

ففسّرها يعقوب ﷺ بغاياتها وما تؤول إليه، وبوسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميع ليسجدون ليوسف ويخضعون له. ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر، ورَفَع أبويه على العرش خرَّ الجميع له سجَّداً وقال يوسف متذكراً ذلك التعبير والتفسير:

**﴿يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قَبْلُ قد جعلها ربي حقًّا﴾**
[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

وهذا أمر عظيم تصل بيوسف الحال إلى أن يكون معظّماً تعظيماً بليغاً عند أبويه وإخوته، وكذلك عند الناس. وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدِّمات لا تحصل إلاّ بها، وهو العلم الكثير العظيم والعمل الصالح والإخلاص والاجتباء من الله والقيام بحق الله وحقوق الخلق. فلهذا قال في ذكر السبب الموصل لهذه الغاية الجليلة:

**﴿وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتَه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ إن ربَّك عليم حكيم﴾** [سورة يوسف: الآية ٦]

يعني لا بدّ أن يُتِمَّ اللَّهُ عليك نعمته بتعليم العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاجتباء من الله، وحصول الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فتبشره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلى الرفعة في الدنيا والآخرة. وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف بشارة له وتسهيل لما سيناله من المشقّات والكروب مع إخوته وفي السجن؛ فإن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلى الخير والراحات تسلّى وهانت عليه مشقتها وسهلت عليه وطأتها، وحصَّل بذلك من اللطف والروح بشيء عظيم. وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله:

**﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾** [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

وهذا من مقتضى حكمة الله أن المراتب العاليات لا تُنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال إن ربك عليم حكيم.

ومن فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير، فيعقوب ﷺ من أكابر الأنبياء وأفاضل الأصفياء، وأمه لها من الخير والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة حيث شبهت بالشمس أو بالقمر، على اختلاف القولين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم في حق أبيهم وأخيهم من الأذية والعقوق والقطيعة ما جرى

ولكنَّ أباهم وأخاهم عفيا عنهم واستغفر الله لهم والله تعالى أرحم الراحمين.

فالشمس والقمر والنجوم تضمّنت النور والارتفاع، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوين وبين الإخوة، فالحاصل أن هذه الرؤيا تضمّنت ما حصل ليوسف ﷺ من خير الدنيا والآخرة والمقامات العظيمة والوسائل والمنن التي أوردتها هذه الأمور وما حصل لأبويه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم.

**عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي**

# الفصل الأول

وأما رؤيا الفتيين حيث قال أحدهما:

**﴿إني أراني أَعصِرُ خمراً وقال الآخر إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكل الطيرُ مِنه﴾** [سورة يوسف: الآية ٣٦]

فتلطفوا ليوسف أن يبلغهما بتأويل رؤياهما لما شاهدوا من إحسانه للأشياء وإحسانه إلى الخلق. ففسر رؤيا من رأى أنه يعصر خمراً أنه ينجو من سجنه ويعود إلى مرتبته وخدمته لسيده، فيعصر له العنب الذي يؤول إلى الخمر، وفسّر رؤيا الآخر فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه. فالأول رؤياه جاءت على وجه الحقيقة، والآخر رؤياه جاءت على وجه المثال وأنه يقتل، ومع قتله يُصلب ولا يدفن حتى تأكل الطيور من رأسه. وهذا من الفهم العجيب والغوص على المعاني الدقيقة، وذلك أن العادة أن المقتول يدفن في الحال ولا تتمكن السباع والطيور من الأكل منه. ففهم أن هذا سيقتل ولا يدفن سريعاً حتى يصل إلى هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيته وسوء مصيره الدنيوي ما تقشعر منه الجلود وحيث علم أن هذه الرؤيا صحيحة، لا بد من وقوعها، قال لهما:

**﴿قضي الأمر الذي فيه تَسْتَفْتِيان﴾** [سورة يوسف: الآية ٤١]

وهذا من كمال علمه للتعبير الذي لا يعبر عن ظن وتوهّم وإنما يعبّر عن علم ويقين. وأما المناسبة في ذلك في أن الطيور لا تقرب الحي وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه. ومن كمال

يوسف ونصحه وفطنته العجيبة أنهما لما قصّا عليه رؤياهما تأنّى في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها بأسرع وقت، فقال:

﴿لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقَانِهِ إلاَّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيَكما﴾
[سورة يوسف: الآية ٣٧]

فوعدهما بتعبيرها قبل أول طعام يأتيهما من خارج السجن ليطمئنا ويشتاقا إلى تعبيرها، وليتمكن من دعوتهما قبل التعبير ليكون أدعى لقبول الدعوة إلى الله لأن الدعوة لهما إلى الله أهم من تعبير رؤياهما. فدعاهما إلى الله بأمرين: أحدهما بحاله وما هو عليه من الوصف الجميل الذي أوصله إلى هذه الحال الرفيعة، بقوله:

﴿ذلكما مما علّمني ربي إنّي تركتُ ملةَ قومٍ لا يُؤْمنون باللَّهِ وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملةَ آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوبَ ما كان لنا أن نُشرِك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثرَ الناس لا يشكرون﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٧، ٣٨]

الأمر الثاني: دعاهما بالبرهان الحقيقي الفِطري فقال:

﴿يا صاحبَي السجنِ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أمِ اللَّهُ الواحدُ القهارُ * ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماءً سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللَّهُ بها من سلطان إنِ الحُكمُ إلاَّ للَّهِ أَمَرَ ألاَّ تعبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذلك الدِّين القَيِّمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٩، ٤٠]

فإن من توحّد بالكمال من كل وجهٍ، وبالقهر للعالم العلوي والسفلي، المستحق للألوهية الكاملة، الذي خلق الخلق لعبادته وأمرهم بها وله الحكم على عباده في الدنيا والآخرة هو الذي لا ينبغي العبادة إلاَّ له وحدَه دون المعبودات الناقصة المتفرقة، التي كلُّ قوم يدَّعون إلـهيتها، وليس فيها من معاني الإلـهية شيء ولا استحقاق، وإنما هي أسماءٌ اصطلحوا على تسميتها أسماءً بلا معانٍ فرأى ﷺ دعوتهما إلى الله أولى بالتقديم على تفسير رؤياهما وأنفع لهما ولغيرهما.

# الفصل الثاني

وأما رؤيا الملك فإنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر يأكلهن ويستولي عليهم سبع سنبلات يابسات ضعيفات فهالته، وجمع لها كل من يظن فيه المعرفة فلم يكن عند أحد منهم علم بتعبيرها، وقالوا:

**﴿أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالمين﴾**

[سورة يوسف: الآية ٤٤]

وبعد هذا تفطن الذي خرج من السجن لحالة يوسف وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتعبير، وتفطن لوصيته التي أنساه الشيطان ذكر ربه لحكمة قد فصح أمرها، وأنه لا يخرج من السجن إلا بعد اشتهاره وتميزه العظيم على الناس كلهم بتعبير رؤيا الملك، فطلب هذا الرجل من الملك أن يرسله إلى يوسف، وأنه كفيل بمعرفة تفسيره فلما جاء يوسف قال له:

**﴿يوسفُ أيها الصِّدِّيق أفتِنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَر يابساتٍ﴾**

فإن الملك والناس معه أرسلوني إليك لتفسرها لهم وهم في انتظار ذلك متشوقين إليه غاية التشوق، ولهذا قال:

**﴿لعلي أرجعُ إلى الناس لعلهم يعلمون﴾** [سورة يوسف: الآية ٤٦]

ما أهم الملك وأزعجه ولاعه، ففي الحال فسّرها يوسف ﷺ، وزادهم مع التفسير حسنَ العمل بها وحسن التدبير، فأخبرهم أن البقر السمان والسنابل السبع الخضرات هي سنون رخاء وخصب متواليات تتقدم على السنين المجدبات؛ وأن البقر العجاف والسنابل اليابسات سنون جدبٌ تليها، وأن بعد

هذه السنين المجدبات عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصِرون. وأنه ينبغي لهم في السنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة ويعدوا العدة للسنين الشديدات فيزرعون زروعاً هائلة أزيد بكثير من المعتاد، ولهذا قال:

﴿تزرعون سبعَ سِنينَ دَأَباً﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٧]

ومن المعلوم أن جميع السنين يزرع الناس، لكنه أراد منهم أن يزرعوا زروعاً كثيرة ويبذلوا قُواهم في كل ما يقدرون عليه، وأنهم يحتاطون في الغلّات إذا حصلت بالتحصين والاقتصاد. فقال:

﴿فما حصدتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ إلاَّ قليلاً مما تأكلون﴾

[سورة يوسف: الآية ٤٧]

أي احفظوا الحاصلات من الزرع حفظاً تسلَمُ به من الفساد والسوس بأن تبقى في سنابلها ويقتصدون في هذه المدة مدة الرخاء فلا يسرفون في الإنفاق، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير. وإن بعد هذه السنين المخصبات سيأتي عليكم سبعُ سنين مجدبات شديدات، تشمل الديار المصرية وما حولها، وإنها تأكل ما قُدم لها مما حفظ في سنين الخصب إلا قليلاً مما تحصنون. ووجه المناسبة أنه كما تقدم أن الرؤيا تعبر بحال رائيها، والمناسبات المتعلقة بها فكالرائي لها الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورُها، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصة له، بل تشمل الناس والرعية.

ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسنابل بالسنين ظاهراً في البقر من وجهين: أحدهما أنها هي التي في الغالب يحرث عليها الأرض، والحروثُ والزروعُ وتوابعها تبعٌ للسنين في خصبها وجدبها. والوجه الثاني: البقر من المواشي التي سمنها وعجفها تبعٌ للسنين أيضاً، فإذا أخصبت سمنت وإذا جدبت عجفت وهزلت؛ وكذلك السنابل تزهو الزروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسنين المخصبات، وتضعف وتيبس مع السنين المجدبات، فكانت رؤياه في البقر والسنابل من أوصاف السنين وآثارها ومن ذكر الوسائل والغايات. فالحرث للأراضي وسيلة، ونمو الزرع وحصول السمن في المواشي هو الغاية من ذلك والمقصود.

وأما قوله: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاثُ الناس وفيه يعصِرون﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٩]

أي يحصل للناس فيه غيث مغيث، تعيد الأراضي خصبَها، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السنين المجدبات بالسبع؛ فدل هذا القيد على أنه يلي هذه السبع ما يزيل شدتَها، ويرفع جدبَها؛ ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يبقي في الأرض من آثار الخضر والنوابت والزروع ونحوها لا قليلاً ولا كثيراً، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم؛ وهذا ظاهر جداً، أخذه من رؤيا الملك ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفتُ عليها لم يذكروا هذا المعنى، مع وضوحه، بل قالوا: لعل يوسف ﷺ جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر من مفهوم العدد، وأيضاً ظاهر من السياق. فإنه جعل هذا التعبير والتفسير توضيحاً لرؤيا الملك.

ثم اعلم أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها وتدبيره ذلك التدبير العجيب من رحمة الله العظيمة على يوسف وعلى الملك وعلى الناس. فلولا هذه الرؤيا وهذا التعبير والتدبير لهجمت على الناس السنون المجدبات قبل أن يُعِدّوا لها عدتها فيقع الضرر الكبير على الأقطار المصرية، وعلى ما جاورها، فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق. ألا ترى كيف شمل الجدب البلادَ المصرية وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرَها حتى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يقدر للجميع، ويوزع عليهم توزيعاً عادلاً فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم؟ وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن وتقريب الملك له من اختصاصه به وتمكينه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وهذا من إحسانه، والله لا يضيع أجر المحسنين. ومع هذا الفضل فضلُ الله أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختص ويجمع له خير الدنيا والآخرة.

# الفصل الثالث

ومن فوائد هذه القصة أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده. وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثرَ من غيره أن يخفيَ ذلك ما أمكنه، وأن لا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولادِ وبِرِّهم به واتفاقهم فيما بينهم؛ ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعَوْا في أمرٍ وخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه. فقالوا:

**﴿لَيُوسُفُ وأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عصبةٌ إنَّ أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرضاً يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾** [سورة يوسف: الآيتان ٨، ٩]

وهذا صريح جدّاً أن السبب الذي حملهم على ما فعلوا بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تميزه بالمحبة، خلاف ما ذكر كثيرٌ من المفسرين أن يوسف أخبرهم برؤياه ــ فحسدوه لذلك فإنه منافٍ للآية الكريمة، وسوء ظن بيوسف حيث استكتمه أبوه فقال:

**﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾**
[سورة يوسف: الآية ٥]

فيوسف أبرُّ وأعقلُ من أن يخبرهم بها، ولكن كثير من الإسرائيليات تروج على كثير من الناس، مع أن أقل تأمُّل في النصوص الشرعية يعلمهم ببطلانها. والمقصود: أن الذي حمل إخوة يوسف على ما فعلوا هو تمييز يعقوب ليوسف؛ ومع هذا فلا يحل هذا الأمر الشنيع. وهم يعلمون أنه لا يحل

لهم، ولكنهم قالوا: افعلوا هذا الجرم العظيم وتوبوا إلى الله بعده. فلهذا قالوا:

﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [سورة يوسف: الآية ٩]

وهذا لا يحل أن يواقع العبد الذنب بأي حالة يكون، ولو أضمر أنه سيتوب منه، فالذنب يجب اجتنابه فإذا وقع وجبت التوبة منه. ولعل من حكمة الله ورحمته بيعقوب ما قدره عليه من الفرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعةً لمقاماته في الدنيا والآخرة، ولتكون النعمة عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشكر الكثير والثناء على الله بها، وليصل ولدُه يوسف إلى ما وصل إليه من المقامات الجليلة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ومن فوائد الحث على التحرز مما يخشى ضره لقوله:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾

[سورة يوسف: الآية ٥]

وما فيها من التأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم ثم عند إرسال أخيه بنيامين بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك. فالإنسان مأمور بالاحتراز، فإن نفع فذاك، وإلّا لم يَلُمِ العبدُ نفسَه. ومنها أن من الحزم إذا أراد العبد فعلاً من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه ويقدر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسوء الظن لا يضرّ إذا لم يحقق بل يحترز من كل احتمال يخشى ضرره، ولو تضمن ظن السوء بالغير إذا كانت القرائن تدل عليه وتقتضيه، كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن في قوله:

﴿هَلْ آمَنُكُم عليهِ إلاّ كما أَمِنْتُكُم على أخيه من قبلُ﴾

[سورة يوسف: الآية ٦٤]

فإنه سبق لهم في أخيه ما سبق فلا يلام يعقوب إذا ظنّ بهم هذا الظن، وإن كانوا في الأخ الأخير لم يجرِ منهم تفريط ولا تعدٍ.

ومنها الحذر من الذنوب، خصوصاً الذنوب التي يترتب عليها ذنوب أُخَر ويتسلسل شرُّها، كما فعل إخوة يوسف بيوسف، فإنه نفس فعلهم فيه عدة جرائم في حق الله وفي حق والديه وقرابته وفي حق يوسف؛ ثم يتسلسل كذبهم كلما جرى ذكر يوسف وقضيته أخبروا بهذا الكذب الفظيع ولهذا حين تابوا وخضعوا وطلبوا من أبيهم السماحَ:

**﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنّا خاطئين﴾**

[سورة يوسف: الآية ٩٧]

ومنها أن بعض الشَّرِّ أهون من بعض؛ فحين اتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه ورأى أكثرهم أن القتل يحصل به الإبعاد الأبدي:

**﴿قالَ قائلٌ منهم: لا تقتلوا يوسُفَ وأَلْقُوهُ في غيابة الجب يلتقطْهُ بعضُ السيارة إن كنتم فاعلين﴾** [سورة يوسف: الآية ١٠]

فخفّف به الشَّرُّ عنهم ولهذا لما وردت السيارةُ الماءَ وأدلى واردهم دلوه تبشر بوجوده وقال:

**﴿هذا غلام﴾** [الآية ١٩]

وكان إخوته حولَه فقالوا: إنه غُلامٌ أَبِقَ مِنَّا؛ وتبايعوا معهم:

**﴿وشَرَوْهُ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين﴾**

[الآية ٢٠]

وإنما قصدهم إبعاده والتأكيد على مشتريه منهم، صورةً، أنْ يحتفظ به لئلا يهرب. ومن لطف الله أن الذي أخذه باعه في مصر على عزيزها، فحين رآه رغب فيه جداً وأحبه وقال لامرأته:

**﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذَه ولداً﴾** [الآية ٢١]

فبقي مكرَّماً عندهم معفًى عن الأشغال الشاقة وغيرها متجرداً للخير. وهذا من اللطف بيوسف ولهذا قال:

﴿وكذلك مَكَّنَّا ليوسُفَ في الأرضِ وَلِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديث﴾ [الآية ٢١]

فكان تفرغه عند العزيز من أسباب تعلُّمه للعلوم النافعة ليكون أساساً لما بعده من الرفعة في الدنيا والآخرة. كما أن رؤياه مقدمة اللطف، وكما أن الله أوحى إليه حين ألقاه إخوته في الجب:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بأمرِهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [الآية ١٥]

وهذه بشارة له بالنجاة ممّا هو فيه، وأنه سيصل إلى أن ينبِّئهم بأمرهم وهم لا يشعرون. وقد وقـع ذلك في قوله:

﴿هلْ علمتم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيه إذْ أنتم جاهلون﴾ [الآية ٨٩]

إلى آخر الآيات. وألطاف المولى لا تخطر على البال، ومنها أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، وذلك أن إخوة يوسف جرى منهم ما جرى من هذه الجرائم، لكن في آخر أمرهم ونهايته تابوا إلى الله، وطلبوا السماح من أخيهم يوسف ومن والديهم الاستغفار، فحصل لهم السماح التام والعفو الكامل فعفا الله عنهم وأوصلهم إلى الكمال اللائق بهم. قيل إن الله جعلهم أنبياء، كما قاله غير واحد من المفسرين في تفسير الأسباط: إنهم إخوة يوسف الاثنا عشر. وقيل بل كانوا قوماً صالحين؛ كما قاله آخرون؛ وهو الظاهر، لأن المراد بالأسباط قبائل بني إسرائيل، وهو اسم لعموم القبيلة لأولاد يعقوب الاثني عشر فهم آباء الأسباط وهم من الأسباط ولهذا في رؤيا يوسف رآهم بمنزلة الكواكب في إشراقها وعلوها، وهذه صفة أهل العلم والإيمان والله أعلم. ولهذا تفسر رؤيا الشمس والقمر والكواكب بالعلماء والصالحين وقد تفسر بالملوك، والمناسبة ظاهرة ومنها تكميل يوسف صلوات الله عليه لمراتب الصبر، الصبر الاضطراري: وهو صبره على أذيَّة إخوته وما ترتب عليها من بعده عن أبويه وصبره في السجن بضـع سنين؛ والصبر الاختياري: صبره على مراودة سيدته امرأة العزيز مـع وجود الدواعي القوية من جمالها وعلو منصبها وكونها هي التي راودته عن نفسه وغلقت الأبواب

وهو في غاية ريعان الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليين أحد. ومع هذه الأمور، ومع قوة الشهوة، مَنَعهُ الإيمان الصادق والإخلاص الكامل من مواقعة المحذور. وهذا هو المراد بقوله:

﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ [الآية ٢٤]

فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميع القوى النفسية فكان هو مقدم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله، وهو رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. ثم بعد ذلك راودته المرأة وراودته، واستعانت عليه بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن فلم تحدّثه نفسه، ولم يزل الإيمان ملازماً له في أحواله حتى قال بعدما توعدته بقولها:

﴿ولئن لم يفعلْ ما آمرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين * قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه﴾ [الآيتان ٣٢، ٣٣]

فاختار السجن على مواقعة المحظور؛ ومع ذلك فلم يتكل على نفسه بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم.

وكما أنه كمل مراتب الصبر فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم حين قال له إخوته:

﴿تاللَّهِ لقد آثرك الله علينا وإنْ كنَّا لخاطئين * قال لا تثريبَ عليكُمُ اليومَ يغفرُ اللَّهُ لكم وهو أرحم الراحمين﴾ [الآيتان ٩١، ٩٢]

فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير والصدق والكمال، ونشر الله له الثناء بين العالمين.

# الفصل الرابع

ومنها أن الإخلاص لله تعالى أكبر الأسباب لحصول كل خير واندفاع كل شر، كما قال تعالى:

﴿كذلك لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادِنا المخلَصين﴾
[الآية ٢٤]

وفي القراءة الأخرى المخلصين، أي الذين أخلصهم الله بخالصة ذكر الدار وهما متلازمتان، فأخلصهم لإخلاصهم له، فمن أخلص لله أخلصه وخلّصه من الشرور، وعَصَمه من السوء والفحشاء.

ومنها ما دلت عليه القصة من العمل بالقرائن القوية من عدة وجوه؛ منها: حين ادعت امرأة العزيز أن يوسف راودها، وقال: هي راودتني عن نفسي؛ فشهد شاهد من أهلها؛ أي حكم حاكم بهذا الحكم الواضح، وكانت قد شقت قميص يوسف وقت مراودتها إياه:

﴿إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذبين﴾ [الآية ٢٦]

لأنه يدل على إقباله عليها وأن المراودة صادرة منه.

﴿وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين﴾ [الآية ٢٧]

فكان هذا هو الواقع، لأنها تريده وهو يفرُّ منها ويهرب عنها فَقَدَّتْ قميصه من خلفه، فتبين لهم أنها هي المُرَاوِدَة في تلك الحال؛ وبعد ذلك اعترفت اعترافاً تاماً حيث قالت:

﴿الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودتُّهُ عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنِّي لم أَخُنْهُ بالغيبِ وأنَّ اللَّهَ لا يَهدِي كيدَ الخائنين﴾
[الآيتان ٥١، ٥٢]

ومن العمل بالقرائن وجود الصواع في رحل أخيه وحكمهم عليه بأحكام السرقة لهذه القرينة القوية.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يبعُدَ عن أسباب الفتن، ويهربَ منها عند وقوعها، كما فعل يوسف حين راودته امرأة العزيز. واعلم أن كثيراً من المفسِّرين ذكروا في تفسير البرهان الذي رآه يوسف حين اعتصم عن الفاحشة إسرائيليات تنافي العقل والدين، وتنافي ما عليه الرسل من الكمال حيث قال بعضهم: تبدَّى له جبريل في الهوى، أو تبدَّى له يعقوب عاضّاً على إبهاميه أو ما أشبه ذلك من الأمور، التي لو حصلت على أفجر الناس لامتنع من فجوره، فكُلها باطلة. وكذلك من الأقوال الباطلة ما قاله بعضهم في قوله:

﴿ولقد هَمَّتْ به وهمَّ بها﴾ [الآية ٢٤]

أي هم أن يضربها ــ وهذا تحريف ظاهر. وصاحب هذا القول أراد الفرار من الهم المعروف خَشية أن يكون فيه نقص وتنقيص للأنبياء محذور في ذلك، فإن الهم والهوا ونحوها إذا قاومه العبد وقدّم عليه الخوف والإيمان فهو كمال، كما قال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خافَ مقامَ ربِّه جنتان﴾ [سورة الرحمن: الآية ٤٦].

وكما ثبت في الصحيح مرفوعاً: من هَمَّ بسيئة فلم يعملْها كتبها الله حسنة كاملة ــ فإنه إنما تركها من جرائي، أي تركه لها لأجل الله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه من أكبر العبادات والله أعلم.

ومنها ما عليه يوسف، صلوات الله عليه، من الجمال الظاهر الذي أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها حبّاً. وحين رأتهُ النسوة قطعن أيديهن وأكبَرْنه وقلن:

﴿حاشا لله ما هذا بشراً إنْ هـٰذا إلاّ مَلَكٌ كريم﴾ [الآية ٣١]

ومن الجمال الباطن وهو العفة والإخلاص الكامل والصيانة.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلتجىء إلى الله عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، مع الصبر والاجتهاد في البعد عنها، كما فعل يوسف ودعا ربه قال:

﴿وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدَهن أَصْبُ إليهِنَّ وأكُنْ من الجاهلين﴾
[الآية ٣٣]

وإن العبد لا حول له ولا قوة ولا عصمة إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور مع الاستعانة بالملك الشكور.

# الفصل الخامس

ومنها فضل الإيمان الكامل واليقين والطمأنينة بالله وبذكره حيث اتصف بها يوسف ﷺ فأوجبت له الثبات في أموره كلها والاشتغال فيما هو يصدره من وظائفه الحاضرة، وهو في أحواله وتنقلاته مطمئن القلب ثابت النفس ليس عنده قلق لبعده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمه من شدة الشوق والحب المفرط بينه وبين والديه خصوصاً أبوه يعقوب، وهو يعلم المكان الذي هو فيه ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله أن لا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيَّده بروح منه، وهذا من أجل ثمرات الإيمان.

ومنها أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره كما قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما:

**﴿اذكرني عند ربك﴾** [الآية ٤٢]

ومن كمال إخلاص يوسف وكمال خلقه أنه لم يعاتب هذا الذي وصّاه أن يذكره عند ربِّه فنسي، وجاءه يسأله عن رؤيا الملك، فأجابه، ولم يعاتبه أو يعنِّفْه أو يعامله بسوء خلق. وبحسن الخلق تحصل للعبد الحياة الطيبة العاجلة والآجلة.

ومنها أن اللسان إذا وجهت له تهمة هو بريء منها لا يلام على طلب الطرق والوسائل التي يحصل بها الوضوح والبيان العام للناس، كما

فعل يوسف ﷺ مع طول مكثه لما جاءه الرسول يستدعيه للحضور عند الملك، قال:

﴿ارجع إلى ربِّك فآسأله ما بالُ النِّسوة اللاتي قَطَّعن أيدِيَهن. . .﴾

[الآية ٥٠]

إلى آخر الآية، حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شُبهة فيها فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته وهيبته ورفعته وتعظيم منهم لعلمه وفضله ونزاهته عليه الصلاة والسلام.

# الفصل السادس

ومن ذلك أن يوسف ﷺ جمع لهم بين تعبير رؤيا الملك وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويدبّروه في سنين الخصب، للاستعداد لسنين الجدب؛ وحين قال له الملك:

﴿إنَّك اليومَ لدينا مكينٌ أمينٌ﴾ [الآية ٥٤]

أي تتمكن من أمور المملكة وتدابيرها، مفوضٌ إليه الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثقة به، فالملك هو الذي ابتدأ توليته وتفويض الأمور إليه، وهو الذي آقترح أن يكون على خزائن الأرض وجبايتها وتصريفها لأجل عموم المصلحة، ولهذا قال:

﴿إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [الآية ٥٥]

أي أحفظ الحاصلات والغلاَّت وأعلم كيفية تصريفها وتدبيرها، فحينئذٍ أعتني في سنين الخصب بالزروعات الهائلة وجباها في مخازنها، وفي سنبلها، وأجتهد في الاقتصاد في أكلهم أيام السنين الخصيبة لتتوفر الغلال ويكون لها النفع العام. فحين جاءت السنون المجدبات وعم الجدب للأقطار المصرية وما جاورها من الأقطار، وفني ما عند الناس جعلوا يقصدون مصر من كل جهة، جعل يكيل لهم كيل العدل والاقتصاد بحسب الحاجة، لا يزيد كل واحد على حمل البعير خوفاً من ألَّا يحتاجه المحتكرون ويحصل الضرر على المحتاجين المعوزين. ولهذا من جملة ما عالج إخوة يوسف أباهم لإرسال بنيامين معهم أن قالوا:

﴿ونزدادُ كيلَ بعيرٍ﴾ [الآية ٦٥]

أي إذا كان معنا حصل لنا زيادةُ كيل بعير لأن عائلة يعقوب كثيرون، يحتاجون إلى ميرة كثيرة، فحصل لهذه الأعمال الجليلة على يد يوسف نفع للخلق عظيم، وإزالة ضرورات ودفع حاجات وتهوين للشدات والكربات.

ومنها مشروعية الضيافة، وأنها من سنن الرسل، وقررتها هذه الشريعة لقول يوسف:

**﴿ألا ترون أني أوفي الكيلَ وأنا خير المُنزِلِين﴾** [الاية ٥٩]

ومنها أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع بل جائز، أو مستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدامغة من قضاء الله وقدره، بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد على مسبِّبها، لأن يعقوب عليه السلام حين أراد أن يوصي بنيه لما أرسل بنيامين معهم، قال:

**﴿يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخُلُوا من أبوابٍ متفرقة، وما أُغْني عنكم مِنَ اللَّهِ مِنْ شيء إِنِ الحُكْمُ إلاَّ لله، عليه توكَّلت﴾** [الآية ٦٧]

وأخبر تعالى أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يُغن شيئاً إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو شفقة الوالد على أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: (إحرص على ما ينفعك واستعن بالله).

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائد التي يُتَوصَّل بها إلى حقٍّ من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة، كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه، حيث وضع السقاية في رحل أخيه، ثم أذَّن مؤذِّنٌ بعد رحيلهم:

**﴿أيتها العيرُ إنكم لسارقون ــ إلى قوله ــ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدْنا ليوسُفَ ما كان لِيأخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ﴾** [الآيات: ٧٠ ــ ٧٥]

فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصل به إلى بقائه عنده من غير شعور منهم. فلما تقرر عندهم أنه هو الذي أخذ الصواع استفتاهم عن حكم السارق في دينهم فقالوا:

﴿جزاؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزاؤه﴾ [الآية ٧٥]

أي جزاء السارق أن يتملكه المسروق منه؛ فحكموا على أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوسف. ولو أجرى عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر. فيسّر الله هذا العمل وهذا الحكم ليبقى أخوه عنده. فالحيل التي على هذا النوع لا حَرَج فيها وإنما المحرمُ الحيلُ والمكائدُ التي يُتوصل بها إلى إحلال المحرَّمات أو إسقاط الواجبات.

ومنها استعمال المعاريض عند الحاجة إليها؛ فإن في المعاريض مندوحةً عن الكذب، وذلك من وجوه، منها قوله:

﴿ثمَّ استخرجها من وعاءِ أخيه﴾ [الآية ٧٥]

ولم يقل سرقها؛ وكذلك قوله: ﴿معاذَ اللَّهِ أَنْ نأخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عندَه﴾ [الآية ٧٩]

ولم يقل: «من سرق متاعنا». وإذا قيل: إن هذا اتّهام للبريء. قيل: إنما فعل ذلك بإذن أخيه ورضاه؛ وإذا رضي زال المحذور.

ومنها أن الإنسان لا يحلّ له أن يشهد إلاَّ بما يعلم لقولهم:

﴿وما شهدنا إلاّ بما علمنا﴾ [الآية ٨١]

وإن العلم يحصل بإقرار الإنسان على نفسه، وبوجود المسروق ونحوه معه وفي يده أو رحله.

وفيها أن وجود المسروق بيد السارق بيِّنة وقرينة على أنه السارق، ولذلك حكم وحكموا على أخي يوسف بحكم السارق.

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيَّه وصفيه يعقوب عليه

السلام، حيث قضى بالفراق، بينه وبين يوسف، هذه المدة الطويلة التي يغلب على الظن أنها تبلـغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن في الإمكان أن تكون من سبـع السنين إلى العشر أو نحو ذلك، على وجه الحرص والحزر، ثم مكث بضـع سنين في السجن، والأكثر أنها سبـع سنين، ثم بعد خروجه دخلت السبـع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبـع المجدبات وتردد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تقارب الثلاثين ونحوها؛ وهو في هذه المدة لم يفارِق الحزنُ قلبه، وهو دائم البكاء حتى آبيضت عيناه من الحزن وفقد بصره وهو صابر لأمر الله، محتسب الثواب عند الله، قد وعد من نفسه الصبر، ولا شك أنه وفى بذلك. ولا ينافي ذلك قوله:

**﴿إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله﴾** [الآية ٨٦]

فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنمـا ينافي الصبـر الشكوى إلى المخلوق.

ومنها: إن الفرج مـع الكرب. فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب وقال: يا أسفي على يوسف، قال:

**﴿يا بَنِيَّ آذهبوا فتحسَّسُوا مِنْ يوسُفَ وأخيهِ ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنَّه لا ييأسُ من روحِ الله إلاّ القومُ الكافرون﴾** [الآية ٨٧]

وهم حين دخلوا على يوسف وقفوا بين يديه موقف المضطر، فقالوا:

**﴿يا أيها العزيزُ مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ [أي قليلة حقيرة لا تقـع الموقـع] فَأَوْفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا إنَّ الله يَجْزِي المتصدِّقين﴾** [الآية ٨٨]

فحينئذ لما بلـغ الضر منتهاه من كل وجه، عرّفهم بنفسه، فحصل بذلك البشارة الكبرى لأبويه وإخوته وأهلهم، وزال عنهم الضُّرُّ والبأساءُ، وخَلَفَه السرور والفرح والرخاء.

ومنها أن الله يبتلي أنبياءه وأصفياءه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين بالشكر عند الرخاء والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء كما ابتلى يعقوبَ ويوسفَ، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه.

ومنها جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط، لقول إخوة يوسف: مسَّنا وأهلنا الضُّر - وأقرهم يوسف على ذلك.

ومنها فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثارهما، وأن عاقبة أهلهما أحسنُ العواقب، لقوله:

**﴿قد مَنَّ اللَّهُ علينا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضيّعُ أجر المحسنين﴾** [الآية ٩٠]

وإن إخبار العبد من نفسه بحصول التقوى والصبر إذا كان صدقاً وفي ذلك مصلحة من باب التحدث بنعمة الله. قال الله تعالى:

**﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾** [سورة الضحى: الآية ١١]

تشمل نِعَم الدنيا ونِعَم الدين، وأن الله يجمع للمتقين بين خير الدنيا والآخرة، كما في هذه الآية والآية السابقة وهي قوله:

**﴿نصيبُ برحمتنا مَنْ نَشاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين * ولَأجْرُ الآخِرةِ خيرٌ للَّذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** [الآيتان ٥٦، ٥٧]

وأنه ينبغي على العبد أن يتذكر في حال الرخاء والسرور حالةَ الحزن والشدة، ليزداد شكره وثناؤه على الله. ولهذا قال يوسف:

**﴿وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن وجاءَ بكم من البَدْو﴾**

[الآية ١٠٠]

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يتضرع إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل

الأسباب لذلك: يسأل الله حسنَ الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يُتمها عليه، ويحسن له العاقبة، كما قال يوسف ﷺ:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلَّمتَني مِنْ تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمٰواتِ والأرضِ أَنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرة توفَّني مُسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [الآية ١٠١]

وليس هذا من يوسف تمنِّياً للموت، كما ظَنَّه بعضُهم، بل هو دعاء لله أن يحسن خاتمته ويتوفاه على الإسلام، كما يسأل العبد ربَّه ذلك كل وقت.

ومنها ما مَنَّ الله به على يوسف من حسن عَفْوه عن إخوته، وأنه عفا عمّا مضى ووعد في المستقبل أن لا يُثَرِّب عليهم، ولا يذكر منه شيئاً لأنه يجرحهم ويحزنهم وقد أبدوا الندامة التامة ولأجل هذا قال:

﴿مِنْ بعدِ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي﴾ [الآية ١٠٠]

ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلى الشيطان، الذي فرَّق بينه وبين إخوته. وهذا من كمال الفتوة وتمام المروءة.

ومنها ما في هذه القصة العظيمة من البراهين على رسالة محمد ﷺ حيث قَصَّها على الوجه المطابق، وهو لم يقرأ من الكتب السابقة شيئاً، ولا جالَسَ مَنْ لَهُ معرفةٌ بها، ولا تعلّم من أحدٍ، إنْ هو إلّا وحي أوحاه الله إليه. ولهذا قال:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلَمُها أنتَ ولا قومُك مِنْ قَبلِ هذا﴾ [سورة هود: الآية ٤٩]

كما ذكر الله هذا المعنى في قصته وغيره من الأنبياء، لأن الغيوب نوعان؛ أمور سابقة قد آندرس علمها نبَّأه الله بها، وأمور مستقبلة قد نبَّأه الله بها قبل أن تقع، فوقعت، ولا تزال تقع شيئاً بعد شيء مطابقةً لما أخبر به ﷺ في كتاب الله وفي سنة رسوله، وكلها براهين على رسالته.

# الفصل السابـع

**وفي قوله تعالى: ﴿إن النفس لَأمَّارةٌ بالسوء إلَّا ما رَحِمَ ربـي﴾**
**[الآية ٥٣]**

دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلَّا برحمة من الله وعناية منه، لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كل شر، فإن رحم الله العبد ومَنَّ عليه بالعلم النافـع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلى طاعة الله وذكره، ولم تأمر صاحبها إلّا بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه. قال تعالى:

**﴿يا أيتها النفسُ المطمئنةُ * ارجِعِي إلى ربِّكِ راضيةً مَرضِيَّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾** [سورة الفجر: الآيات ٢٧ ــ ٣٠]

فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم، وهو أنها أمَّارة بالسوء، وذلك بالاجتهاد وتخلُّقها بأحسن الأخلاق وسؤال الله على الدوام، وأن يكثر من الدعاء المأثور: اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وآصرف عني سيِّىء الأعمال والأخلاق، لا يصرفُ عني سيِّئها إلا أنت.

وفي تضاعيف القصة فضيلة العلم من وجوه كثيرة، وبيان أنه سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، وسبب صلاح الدين والدنيا. فيوسف ﷺ لم ينل ما نال إلّا بالعلم، ولهذا قال له أبوه:

﴿وكذلك يَجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ [الآية ٦]

وامتنَّ عليه وقت مكثه عند عزيز مصر بالتجرد للعلم، وحاز مقام الإحسان بالعلم، وخرج من السجن في حال العز والكرامة بالعلم، وتمكن عند ملك مصر واستخلصه لنفسه حين كلّمه وعَرَف ما عنده من العلم ودبّر أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم وحُسن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسّل إلى ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلم، حيث قال:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ وعلمتني من تأويلِ الأحاديث، فاطِرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرة تَوفَّني مُسلماً وأَلحِقْني بالصالحين﴾ [الآية ١٠١]

ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تعد ولا تحصى.

وفيها أن شفاء الأمراض، كما يكون بالأدوية الحسية يكون بأسباب ربانية، بل يحصل بهذا النوع من أنواع الشفاء ما لا يحصل بغيره. فيعقوب عليه السلام، قد ابيضت عيناه من الحزن وذهب بصره، فجعل الله شفاءه وإبصارَه بقميص يوسف حين ألقاه على وجهه، فارتد بصيراً لِمَا كان فيه من رائحة يوسف الذي كان داء عينيه من حزنه عليه، فصار شفاؤه الوحيد مع لطف الله في قميص جسده. ومن قال: إن القميص من الجنة فليس عنده بذلك دليل، والله قادر على أن يشفِيَه من دون سبب، ولكنه حكيم، جعل الأمور تجري بأسبابٍ ونظامات قد تهتدي العقول إلى معرفتها وقد لا تهتدي. ونظير ذلك أيوب ﷺ؛ وصل به المرض والضُّرُّ إلى حالةٍ تعذّر منها الشفاء وأعيت الأطباء، فحيث أراد الله شفاءه أمره أن يركض برجله الأرض فأنبع له عيناً باردة وأمره أن يشرب منها ويغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من هذا الضرر، وعاد كأحسن ما أنت راءٍ. قال تعالى:

﴿اركُضْ بِرجلِكَ هذا مُغتسلٌ باردٌ وشراب﴾ [سورة صٓ: الآية ٤٢]

فهو تعالى يشفي العباد بأدوية وأسباب حسّية وبأسباب ربّانية معنوية:

﴿وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ إلاَّ هو﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٧]

كما أنه تعالى يوجِد الأشياء بأسباب حسّية معلومةٍ وبأسباب ربّانية لا تهتدي العقول إليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وآياته النفسية والكونية، وهو المحمود على هذا وعلى هذا.

ومنها جواز سؤال الخلق، خصوصاً الملوك عند الضرورة لقول إخوة يوسف:

﴿يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ فأوفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا إنَّ اللَّهَ يَجزِي المتصدِّقين﴾ [الآية ٨٨]

فإنهم سألوا المحاباة في المعاملة والصدقة بدون عوض، وإنما قلت: خصوصاً الملوك لأن الملوك لا يُسألون من أموالهم الخاصة وإنما يسألون من بيت المال الذي هو للمصالح العمومية، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ومن فوائد القصة أن الجهل ـ كما يطلق على عدم العلم ـ فإنه يطلق على عدم الحِلم، وعلى ارتكاب الذنب، لقوله تعالى:

﴿وإلاَّ تَصْرِفْ عني كيدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وأَكُنْ من الجاهلين﴾

[الآية ٣٣]

وقوله: ﴿هل علمتمْ ما فعلتُمْ بيوسُفَ وأخيهِ إذْ أنتُم جاهلون﴾ [الآية ٨٩]

ليس المعنى في ذلك عدم العلم وإنما هو عدم العمل به، واقتحام الذنوب، ومنه قول موسى ﷺ:

﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٧]

وقوله: ﴿إنما التوبةُ على اللَّهِ لِلَّذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يَتُوبون من قريب﴾ [سورة النساء: الآية ١٧]

وكل من عصى الله فهو جاهل باعتبار عدم العمل بالعلم، لأن العلم الحقيقي ما زال الجهل به وأوجب العمل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولمن جاء به حِملُ بعيرٍ وأنا به زعيم﴾ [الآية ٧٢]

استدل به على ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة. لأن قوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من نوع الجعالة، وهو أن يجعل شيئاً معلوماً أو مقارباً للمعلوم كحمل البعير، لأنه متعارفٌ لمن يعمل له عملاً معلوماً وعملاً مجهولاً وهي جائزة لما فيها من مصلْحة الجاعل والعامل، وقوله: ﴿وأنا به زعيم﴾ أي ضامن وكفيل، وهي من عقود التوثقة بالحقوق التي يتم بها توسيع المعاملات وإصلاحها.

ومنها: أن العمل بالشريعة فيه إصلاح الأرض والبلاد، واستقامة الأمور؛ والعمل بالمعاصي من سرقة وغيرها فيها فساد ذلك؛ لقولهم:

﴿تاللَّهِ لقدْ علمتُم ما جِئنا لنُفْسِد في الأرض وما كنا سارقين﴾ [الآية ٧٣]

وكم في القرآن من التصريح أن العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل فساد للأرض، ومتابعة الرسل هو الصلاح المطلق، صلاح الدين والدنيا.

ومنها الدلالة على الأصل الكبير الذي أعاده الله وأبداه في كتابه: أن لكل نفس ما كسبت من الخير والثواب، وعليها ما اكتسبت من الشر والعقاب، وأنه لا تَزِر وازرة وزرَ أخرى، لقوله:

﴿معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجَدْنا متاعَنا عنده إنَّا إذاً لظالمون﴾

[الآية ٧٩]

ومنها الحث على فعل الأسباب الجالبة للخيرات والحافظة من الكريهات؛ وفي القصة مواضع تدل على هذا الأصل الكبير؛ وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مستعيناً بالله، واثقاً به؛ وقد عمل يعقوب عليه السلام الأسباب التي

يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف، ثم لأخيه حين أرسله معهم، وقال مع ذلك:

﴿فاللَّهُ خيرٌ حافظاً وَهُوَ أرحمُ الراحمين﴾ [الآية ٦٤]

وكذلك على العبد إذا هَمَّته المصائب وحلت به النكبات عليه أن يصبر ويستعين بالله على ذلك. قال يعقوب ﷺ حين عمل إخوة يوسف ما عملوا بيوسف، وحلت به المصيبة الكبرى:

﴿واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون﴾ [الآية ١٨]

وذلك أن الصبر على الطاعات والصبر عن المحرمات والصبر على المصيبات لا يتمّ وينجح صاحبه إلَّا الاستعانة بالله، وأن لا يتكل العبد على نفسه. قال يوسف:

﴿وإلاَّ تَصْرِفْ عني كيدَهنَّ أَصْبُ إلَيهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلين﴾ [الآية ٣٣]

# الفصل الثامن

ومن فوائد القصة الإرشاد إلى طريق نافع من طرق الجدال، والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك. قال تعالى في دعوة يوسف للتوحيد:

﴿يا صاحِبَي السِّجْنِ أَأَربابٌ متفرِّقونَ خيرٌ أَمِ اللَّهُ الواحدُ القَهَّارُ﴾

[الآية ٣٩]

فذكر ما في الشرك من القبح وسوء الحال واتّباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من الشرك لهم معبودٌ، إمّا نارٌ أو صنمٌ أو قبر أو ميت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعاً ولا ضُرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً. وكل طائفة تُضَلِّل الأخرى، وكلهم ضالّون هالكون، فهل هذه الأرباب والمعبودات خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار؟ فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة: أنه الله الذي له الأسماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها وبذلك استحق أن يكون الله المألوه، إله أهل الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وأنه الواحد المتفرد بكل صفة كمال، المتوحِّد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شريك له في شيء من الأفعال؛ وأنه القهار لكل شيء؛ فجميع العالم العلوي والسفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، متذلِّلون لعزَّته وجبروته، فَمَنْ هذه صفاتُه العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له وحدَه، لا شريك له.

ومنها: أن الدين المستقيم، الذي عليه جميعُ الرُّسل وأتباعُهم هو عبادة الله وحدَه لا شريك له، لقوله:

﴿إنِ الحُكمُ إلاَّ لله أمَرَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه ذلكَ الدينُ القَيِّم﴾
[الآية ٤٠]

فهو الدين المستقيم، المقيم للعقائد والأخلاق والأعمال، الذي لا تستقيم أمور الدين والدنيا إلاّ به.

ومنها وجوب الاعتراف بنعم الله الدينية والدنيوية، لقوله:

﴿ذلك مِن فضلِ الله علينا﴾ [الآية ٣٨]

فهو الذي مَنَّ بالعافية والرزق وتوابع ذلك، وهو الذي مَنَّ بنعمة الإسلام والإيمان والطاعة وتوابع ذلك، فعلى العبد أن يعترف بها بقلبه، ويتحدَّث بها ويستعين بها على طاعة المنعم.

ومنها أن الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى العباد سبب ينال به العلم وتنال به خيرات الدنيا والآخرة؛ لقوله:

﴿ولما بلغَ أشُدَّه آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾
[الآية ٢٢]

وقوله: ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * وَلَأجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [الآيتان ٥٦، ٥٧]

فجعل الله الإحسان سبباً لنيل هذه المراتب العالية.

ومنها أن النظر إلى الغايات المحبوبة يهوِّن المشاق المعترضة في وسائلها، فمتى علم العبد عاقبة الأمر وما يؤول إليه من خير الدنيا والآخرة هانت عليه المشقة، وتسلى بالغاية، لقوله تعالى:

﴿وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [الآية ١٥]

فأوحى إلى يوسف في هذه الحال المزعجة أن الأمر سيكون إلى خير وسعة، وبعد هذه الإهانة الصادرة من إخوتك لك ستكون لك الأثرة عليهم والعاقبة الحميدة؛ وفي هذا من اللطف والتسلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نِعَم

الله على العبد، ولهذا المعنى الجليل يذكِّر الله عباده عند المشاق والأمور المزعجة ما يترتب على ذلك من الثواب والخير والطمع في فضله. قال تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمُونَ فإنهم يألَمون كما تألمونَ وترجونَ من الله ما لا يَرْجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقوله تعالى: ﴿وأجمعوا أنْ يجعلوه في غَيَابةِ الجُبِّ﴾ [الآية ١٥]

دليلٌ على رجوعهم كلِّهم إلى رأي من قال:

﴿لا تقتُلُوا يوسُفَ وألقُوهُ في غَيابَةِ الجب﴾ [الآية ١٠]

كما أن قوله: ﴿وإلاّ تَصْرِفْ عَنّي كيدَهُنّ أَصْبُ إلَيهِنَّ وأَكُنْ من الجاهلين * فاستجاب له ربُّه فصرف عنه كيدَهن﴾ [الآيتان: ٣٣، ٣٤]

دليل على أن النسوة ساعدن امرأة العزيز على يوسف، وجعلن يُغْرِينه بهذا العمل، فبعد ما رأَين من جمال يوسف الباهر ما رأين أصبحنَ لِامرأةِ العزيز مساعداتٍ بعد أن كُنَّ قبل ذلك عاتباتٍ عليها بقولهن:

﴿امرأةُ العزيزِ تُراودُ فتاها عن نفسِهِ قد شَغَفَها حُبّاً إنَّا لَنَراها في ضلال مبين﴾ [الآية ٣٠]

ومنها أن العقود تنعقد بما يدل عليها من قولٍ وفعلٍ، لا فرقَ بين عقودِ التبرُّعات وعقود المعاوضات، لأن يوسف ﷺ ملَّك إخوته بضاعتهم التي اشتروا بها ميرتهم من حيث لا يشعرون، ولما فَتَحُوا متاعَهُم وجدوا بِضَاعتهم في رحالهم، الآية، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي، لأن الفعل والرضى يدلّ على ذلك.

# الفصل التاسع

إذا قيل: كيف خفي موضع يوسف على يعقوب وما بينه وبينه إلّا مسافة قليلة مع طول المدة وقوة الداعي المُلِحِّ وعلمه أنه على الوجود وحرصه الشديد على لقياه؟ فالجواب: ليس ذلك بغريب على قدرة الله، فإن الأسباب، وإن قويت جداً، لا خروج لها عن قضاء الله وقدره؛ فإن الله تعالى أراد ألّا يحصل الاجتماع إلّا في الوقت الذي أجّله والحالة التي أرادها، لما له في ذلك من الحِكَمِ العظيمة، ومتى أراد الله شيئاً في وقت مخصوص قَدَّر من الأسباب الحسّية أو المعنوية ما يمنع حصوله قبل ميقاته، كما يقدر من الأسباب ما يحصل به ما أراد؛ فالأسباب بيد العزيز الحكيم.

وليس هذا بأغرب من قضية بني إسرائيل في التيه، وهم أمة عظيمة، والتيه مسافة قصيرة، وهم بين أظهري قرى ومدن كثيرة. والمدة أربعون سنة، لم يهتدوا طريقاً إلى مقصدهم، ولم يتيسّر لهم من يرشدهم إلى قصدهم.

وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين وهم في غار قريب من مدينة عظيمة لم يصل إليهم أحد في هذه المدة الطويلة لأمرٍ يُريده الله. فهذه الأمور وما أشبهها دليل على كمال قدرة الله وحكمته، مع أن يوسف ﷺ بقي مدةً اللَّهُ عَلِمَ بها وهو في بيت العزيز، ثم مدةً وهو في السجن، ثم ترقّى إلى تدبير الملك. ومتى يخطر ببال أحد أن ينتقل من الرق والسجن إلى الملك العظيم؟ ثم إنه وقت تولّيه يغلب على الظن أنه اشتهر عند الناس باسم المنصب والوزير للملك، ولا يكاد أحد يعرف اسمه، كما هو الغالب على الملوك وأشباههم، ولهذا تردد إخوته عليه فعرفهم وهم

لا يعرفونه، لما هو فيه من بهجة الولاية؛ وأيضاً قد فارقوه وهو صغير ولم يروه إلا بعد ما كبر. ومعلوم أن أوصاف الإنسان تتغير إذا وصل إلى سن الكهولة، واللَّهُ أعلم.

هذا من جهة يعقوب وأولاده، أما من جهة يوسف فإنه قد علم وقصد التأخير ليبلغ الكتاب أَجَلَه، ولهذا تردد عليه إخوته وقد عرفهم ولم يعرِّفْهم بنفسه، ولم يستدعِ بأبويه وأهله إلاّ في نهاية الأمر.

# الفصل العاشر

قوله تعالى عن يعقوب ـ في أول ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف ـ :

**﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون﴾** [الآية ١٨]

وقوله عندما اشتد به الأمر، حين احتبس الابن الآخر، :

**﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتِيَني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾** [الآية ٨٣]

في هذا دليل على أن أصفياء الله إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات قابلوها في أول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولى، وعند ما ينتهي وتبلغ الشدة منهاها، يقابلونها بالصبر والطمع في الفرج والرجاء فيوفقهم الله للقيام بعبوديته في الحالتين؛ ثم إذا كشف عنهم البلاء قابلوا ذلك بالشكر والثناء على الله وزيادة المعرفة بلطفه لقول يوسف:

**﴿يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِنْ قَبْلُ قد جعلها ربي حقًّا وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن وجاءَ بكمْ مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي إنَّ ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾** [الآية ١٠٠]

ومنها قوله تعالى: **﴿معاذَ اللَّهِ أَنْ نأخذَ إلاَّ مَنْ وجدنا متاعَنا عندَه إنَّا إذاً لظالمون﴾** [الآية ٧٩]

يدل على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ ويؤخذ منه مسألة دقيقة، وهو أن الإحسان إنما يكون إحساناً إذا لم يتضمن فعل محرَّمٍ أو تركَ واجب، فإنهم

طلبوا من يوسف أن يُحسن إليهم بترك هذا الأخ أن يذهب إلى أبيه ويأخُذَ أحدهم بَدَلَه؛ فآمتنـع وقال:

﴿معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنَّا إذاً لظالمون﴾

[الآية ٧٩]

فالإحسان إذا تضمَّن تركَ العدل كان ظلماً، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد على بعض، وبعض الزوجات على بعض ـ وإن كان إحساناً إلى المخَصَّص والمفضَّل ـ لا يجوز لأنه تركٌ للعدْل، وكذلك ما أشبه ذلك، والله أعلم.

ومنها أن آيات الله أيَّما ينتفـع بها السائل المستهدي الذي قَصْدُه معرفة الحق واتباعه لقوله:

﴿لقد كان في يوسُفَ وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ [الآية ٧]

أما الغافلون المعرِضون أو المعارضون المعانِدون فإنه يصدق عليهم قوله تعالى:

﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتَّى يَرَوُا العذاب الأليم﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

فالنظر في آيات الله المتلُوَّة وآيات الله الكونية تنفـع من قَصْدُه الحق، كما قال تعالى:

﴿يهدي به اللَّهُ مَنِ آتَّبـع رضوانَه سُبُلَ السَّلام﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وكم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد مثل: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، لآيات للموقنين، لآيات لأولي الألباب، لأولي الألباب والأبصار.

ومنها أن المشاورة نافعة في كل شيء حتى في تخفيف الشر؛ لهذا تشاور إخوة يوسف فيما يعملون به: قتل أو طرح في الأرض، ثم قَرَّ رأيهم على رأي من أشار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة. ففيه شاهد

للقاعدة المشهورة: ارتكاب أخف المفسدتين أولى من أغلظهما. ولما قَرَّ القرار على أخذ من وجد الصواع في رحله وعالجوا يوسف على أخذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فامتنع خَلُصوا نجيا يتشاورون فقرَّ رأيهم على رأي كبيرهم أن يبقى هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه وهم يذهبون يميرون أهلهم ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها. ولا شك أن بقاءه في مصر أهون على يعقوب وأرجى لتحصيل المطلوب وفيه نوع مواساة منه بأخويه يوسف وبنيامين، ولهذا قال:

**﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾**

[الآية ٨٣]

# الفصل الحادي عشر

إنما لم يصدق يعقوب بنيه حين قالوا: أكله الذئب، وعملوا تلك القرائن المبرِّرة لقولهم لأن المعلوم لا يعارضه الشك والوهم، فإنه قد علم برؤيا يوسف، وربما بغيرها ما يؤول إليه حال يوسف من تمام النعمة التي تشمله وتشمل آل يعقوب؛ وفيها أيضاً أنه لا ينبغي أن يغترَّ بمجرد صورة القرائن. ولما أتي إلى شريح امرأة مع خصمها أرسلت عينيها بالبكاء فقال لشريح بعض الحاضرين: ما أظن البائسة إلاَّ مظلومة. فقال شريح: ألم تسمع قصة إخوة يوسف إذ أتوا أباهم عشاء يبكون، هل كانوا مظلومين أو ظالمين؟ فكم حصل بمثل هذه التمويهات من الاغترار وقلب الحقائق. لهذا كان الأذكياء يجعلون كل احتمال على بالهم، وينظرون إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها.

وتدل القصة على أن الولايات الكبار والصغار لا بدَّ لمتولِّيها أن يكون كُفُواً في قوته وأمانته وعلمه بأمور الولاية، لأن المَلِك لما كلَّم يوسف ورأى من علمه وخبرته بالأمور وحسن نظره استخلصه لنفسه وقال:

﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [الآية ٥٤]

وقال يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [الآية ٥٥]

فعلل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرفه، وكمال علمه بوجوه المستخرج والمنصرف، وحسن التدبير، وليس في هذا طلب الولاية ابتداءً كما قاله كثير من أهل العلم، بل إنه لما رأى الملكَ استخلصه ومكَّنه من

الأمور، وأن الأمور كلَّها تحت طوعه وتدبيره، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض، فقط لأنها أهم، ولأنه يعلم أن ولايته لها أنفـع للملك وللخلق، وهذا من كمال نصحه وصدق نظره.

# الفصل الثاني عشر

لما قص الله تعالى علينا هذه القصة العجيبة بتفاصيلها قال في آخرها:

**﴿ما كان حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيء وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾** [الآية ١١١]

فنفى عن هذا القرآن الكذبَ والخطأَ من جميع الوجوه، ووصفه بثلاث صفات، كل واحدة منها فيها أكبر برهان على أنه من عند الله، وأنه الحق الذي لا ريب فيه.

**الصفة الأولى**: أنه تصديق الذي بين يديه أيٌّ من الكتب المنزلة من السماء ومن كلام الرسل المعصومين الذي أوحى الله إليهم، كما قال تعالى:

**﴿بل جاء بالحق وصدَّق المُرسَلين﴾** [سورة الصافات: الآية ٣٧]

فهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ جاء بالحق وهو الصدق في إخباره عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل في أحكامه، فلا يأمر إلاَّ بخير ولا ينهى إلاَّ عن الشر، كما قال تعالى:

**﴿وتمَّت كلمةُ ربِّك صِدقاً وعدلاً﴾** [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في أخبارها عدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها.

وأيضاً، فإن هذا القرآن صدَّق جميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة والشرائع الكبار العامة الشاملة؛ وأيضاً فإن

الرسل أخبروا وبشَّروا بمحمد ﷺ وبما جاء به محمد ﷺ فصدق مخبرها وحقت بشارتها.

**الصفة الثانية**: أنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل لجميع ما يحتاجه الخلق في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم، فقد شرح الله به وفصَّل التوحيد والرسالة والجزاء، وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحاً وتفصيلاً عظيماً لا يساويه في ذلك أي كتاب كان. وفصَّل فيه الحثَّ على حقائق الإيمان، وعلى التخلّق بالأخلاق الجميلة والتنزّه من الأخلاق الرذيلة، وبيَّن الطريق والأسباب التي يحصل حسنها والتي يدفع به سيِّئها؛ كما فصَّل الشرائع الظاهرة والأعمال الصالحة والحلال والحرام والخير والشر. وفصَّل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية؛ وفصَّل ما يتوصل به إليها؛ وفصَّل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

**الصفة الثالثة**: أنه هُدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة؛ يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين وتتم السعادة. والفرق بين الهدى والرحمة أن الهدى هو الوسائل والطرق الموصلة إلى خيرات الدنيا والآخرة، والرحمة هي نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل. فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتِّباع هذا القرآن علماً وعملاً. وخص الله المؤمنين بالهدى والرحمة لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم، بصَّرهم جميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلاَّ دلَّهم عليه، ولا شرٌّ إلاّ حذَّرهم منه، فقامت به الحجة على كل أحد. ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون. اللهم تفضَّل علينا

بالإيمان الصادق، وآجعل هذا القرآن لنا هدًى ورحمة، إنك أنت القريب المجيب. وصلَّى الله على محمد وسلَّم.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميـع المسلمين آمين.

وافق الفراغ منه في صفر سنة ١٣٧٥ هجرية.

# الجهاد في سبيل الله

## أو واجب المسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# تقـْديـُم

**بقلم: علي الحمد الصالحي**

في كل يوم من تاريخنا تبرز مآثر أسلافنا الأفاضل الذين كرّسوا جهودهم ومقدراتِهم على النصح لله ولعبادِه. والـذين سَمَت نفوسهم إلى معـالي الأخلاق، فأصبحت آثارهم كالنجوم في الهداية والإشراق. وهكذا ينبغي أن تكون همم الرجال والله يختص برحمته من يشاء.

نزفّ إليك أيها القارىء الكريم هذه الرسالة التي تعتبر في الحقيقة (سياسة شرعية) لسلوك الأمة والفرد في الجهاد والمشورة وفوائدها. ورسم الخطة في الاستعداد الداخلي والخارجي. وفيها بيان واجب أهل العلم. وأوضحت وسائل التعاون والعدالة والعهود، وأسباب النصر والعزة، وكشفت أسباب أمراض المسلمين المعنوية وخاصة الشباب، وبينت أسباب صلاحهم، وحثّت على تولية الأكفاء وذكرت صفات القواد وغير ذلك من بيان محاسن الإسلام بالدعوة إليه، وبينت أن الدعوة إلى الدين أعظم سلاح وأكبر جيش وشرحت فوائد الدعوة: فهي بحق واضحة المعاني، قوية المباني، مشعل وضاء ينير الطريق، ومجهر كاشفٌ ما فيه أكثر المسلمين من جهل مركّب عميق، فمن تَرَسَّم ما دعت إليه فقد حالفه التوفيق، ومن تنكَّبه وسار في ركاب الهواء، واستجاب لدعاة السوء والحاقدين وأذناب المستعمرين فقد ترك جادة الصواب، ومآله المحتوم إلى المكان السحيق.

هذه الرسالة من كتابات الشيخ العلامة (عبد الرحمن الناصر بن السعدي) وجدها أبناؤه ضمن أوراقه بخطّه وهي غير مؤرخة.

كان رحمة الله عليه كثير الكتابة، يكتب كل ما يدور بخاطره على ضوء الكتاب والسنّة فتحول دون إبراز ما كتبه ظروف قاهرة.

ذلك لأنه كان مثال العفة والورع في زمانه.

وليس بنا حاجة إلى تعداد فضائله فهو معروف لدى الجميع بما قدّمه في حياته وبما خلّفه بعد وفاته.

وها نحن الآن ننشر هذه الرسالة النادرة الوجود في مغزاها. وحاجة الناس اليوم إلى العمل بها كحاجة الأرض العطشى إلى الماء، فهي جديرة بأن تكتب بماء الذهب. ولو كانت فكرة القومية العربية موجودة في وقته لقلنا إنه يرد عليها من طرف خفي.

أما وقد كانت هذه الفكرة الكاذبة الخاطئة قد جاءت بعد وفاته.. وأرغى دعاتها وأزبدوا وملأوا الجو صياحاً وعويلاً. ثم لم يلبثوا أمام عواطف الحق إلّا قليلاً فكانت نهايتهم الانهزام أمام الحجج القواطع وبالتالي عرف الناس مضرتها بذاتها، وعرفوا أيضاً أهداف دعاتها. وصدق الله العظيم

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١].

أيها القارىء؛ بين يديك هذه الرسالة النيرة التي تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين حكومات المسلمين وأفرادهم، وتخطط لهم المخططات التي توصلهم إلى ساحل النجاة، والسعادة، على ضوء قول الله تعالى:

﴿وٱعتصِموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ البيِّنات﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

﴿ولا تَنَازَعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحُكُم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٤]

ولئن كانت هذه الرسالة مسوَّدة غير منقحة. فهي نجم الهداية لطلاب الحق، وحسن النهاية في أمر الدين والدنيا.

ولا يسعنا إلّا أنْ نبرزها على ما هي عليه لأن العلم أمانة.

والله المسؤول أن يجزي كاتبها عن الأمة الإسلامية خير الجزاء بما أبداه من النصح، وأن يوفقنا جميعاً لقبول نصحه جماعاتٍ وأفراداً، وأن ينصر الأمة الإسلامية، وأن يقيض لها الزعماء الناصحين لدينهم وأمتهم، وأن ينصر من في نصره نصرةُ الإسلام، والمسلمين، ويخذل من في خذلانه صلاح الإسلام والمسلمين، إنه سميع الدعاء.

وصلى الله على هادينا ونبينا سيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً

# الجهاد في سبيل الله

## أو واجب المسلمين، وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم، وهيئتهم، الاجتماعية

قد أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه الذي هو حبلُه، والدعوة إلى ذلك، والألفة، والاجتماع، والتعاون على الخير والبِر والتقوى والاستعانة بالله في جميع أمورهم، وقوة التوكل عليه والقيام بالمستطاع المقدور عليه من الدين والتقوى، وتعلُّمَ ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من العلوم والفنون النافعة التي يحصل بها قيام الدين والأمة، والتمرن على القوة المعنوية، والشجاعة الإيمانية، وبالأسباب المقوية للإيمان كلها، وبالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة المبطلين والضالّين بالتي هي أحسن، والجهاد في الله حق جهاده.

فهذه الأوامر الإلّهية في القرآن في مواضع كثيرة، وكلها داخلة في الجهاد في سبيله، لأن معنى الجهاد في سبيل الله بذلُ المجهود في تقوية المسلمين، تقوية معنوية، وتقوية مادية. وبذل المجهود في مقاومة الأعداء. وفي سلوك كل طريق يحصل به دفع شرهم والنكاية بهم، فعلى هذا يكون مجموع أصول الجهاد نوعين:

أحدهما، السعي الحثيث في تقوية المسلمين، والسعي في إزالة الضغائن والعدوات الواقعة بين أفرادهم وجماعاتهم وحكوماتهم بالدعايات والمواعظ المناسبة للحال.

وأن يكون صوت المسلمين واحداً يتكلم ويدعو إليه العلماء والكبراء وجميع طبقات الناس كلهم يتفقون لهذه الدعوة بحسب إمكانهم.

ومما يسهّل عليهم هذا الأمر مع صعوبته في بادىء الأمر، أن يعلموا أن هذا السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال، وأنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة، وأنه من أعظم وأجلِّ الجهاد في سبيل الله، فإن أصل الجهاد الذي لا يستقيم إلّا به اتفاقُ الكلمة وارتباط المسلمين بالأخوة الدينية ارتباطاً وثيقاً قال تعالى:

﴿إنّما المؤمنون إخوةٌ فأَصلِحُوا بين أخَويْكُم﴾

[سورة الحجرات: الآية ١٠]

وبه يحصل أسباب النصر؛ قال تعالى:

﴿هو الذي أَيَّدكَ بنصره وبالمؤمنين * وأَلَّف بين قلوبِهِم لو أَنْفَقْتَ ما في الأرضِ جميعاً ما أَلَّفتَ بينَ قُلوبِهِم ولكِنَّ اللَّهَ أَلَّف بينهم﴾

[سورة الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣]

فبيّن أنه يجب على المؤمنين الارتباط بالْأُخوَّة الدينية، وإن تحقيق هذا الأمر من مقتضيات الإيمان وشروطه، وإنه كلما قوي إيمان العبد عرف مقدار نفع هذا الأمر وعمل واجتهد عليه، وإن الله نصر نبيه بأمرين:

أمر سماوي، وهو نصره الذي ينزله على المتقين القائمين بدينهم.

وأمر معنوي، وهو اجتماع المسلمين وتآلف قلوبهم وحصول التحابِّ الذي يوجب لكل منهم أن يرى مصلحته ومصلحة إخوانه واحدة والغاية واحدة.

فالواجب على جميع طبقات الأمة ـ لا سيما الرؤساء، رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ـ أن يجاهدوا أنفسهم وإخوانهم المسلمين لتحقيق الأُخوّة الإيمانية؛ وإذا سلكت طرقه وأبوابه التي تسهله، وشعر كل واحد بما يجب عليه لربه ودينه ولإخوانه، واستعانوا بالله ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس، أفلحوا.

فإن هذين الأمرين أعظم الموانع لحصول المصالح ودفع المضار.

فإنّ الكسل والخَوَرَ ينافي الرغبة في الدين، وينافي الجهاد الحقيقي؛ وأما اليأس من حصول المصالح ومن دفع المضار فإنه الهلاك بعينه. وهل أَخَّر المسلمين عن الأمم، إلّا تفرقهم وكسلهم وجبنهم وخورهم ويأسهم من القيام بشؤونهم حتى صاروا بذلك عالة على غيرهم.

ودينهم قد حذّرهم عن هذه الأمور أشد التحذير.

وأمرهم أن يكونوا في مقدمة الخلق في القوة، والشجاعة، والصبر، والملازمة للسعي في كل أمر نافع، والعزم، والحزم، والرجاء وحسن الثقة بالله في تحقيق مطالبهم. والدواعي لهم في ذلك متوفرة، فإن مجرد السعي في ذلك بحسب الإمكان من أفضل الأعمال المقرِّبة إلى الله.

والقوة الإيمانية والأُخوّة الدينية ووجوب النصيحة وارتقاب مواعيد المولى الصادقة التي لا تتخلف عن أسبابها، حيث وعد المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان بالعون والنصر والتسديد والتأييد.

كل واحد من هذه الأمور يكفي وحدَه في حث المؤمنين على القيام بشؤونهم ومصالحهم الكلية. فكيف وهي كلها حاصلة؟

ثم إن الكسلان الذي مَلَكَهُ الخَوَرُ واليأس، أيَّ شيء يرتَقِبُ وأيَّ خير ينتظر؟ أليس الوهن والضعف والجبن أكبر سلاح للأعداء، وهي الطريق الوحيد للذل والإهانة والسقوط إلى أسفل سافلين من تسفل النفس وهبوط

الأخلاق؟ فأين الأنفة النفسية وأين الحمية الدينية، وأين الشهامة الإنسانية؟ فوالله إن موت هؤلاء خير من حياتهم حياة الذُّلِّ وموت الأخلاق الطيبة. أليس هذا ميراثنا تلقَّوه عن المنافقين الذين قال الله عنهم:

**﴿وإِذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ ورسولُهُ إلَّا غُروراً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ١٢]

أين هؤلاء ممن قال فيهم وفي نفوسهم الجميلة والجليلة:

**﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا اللَّهَ عليهِ فمنهُم من قضى نحبَه ومنهمْ مَنْ ينتظرُ وما بَدَّلُوا تبديلاً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

ولكل قوم وارث، فقد ورثهم في الأرض رجال من المؤمنين من ملوكهم، ورؤسائهم وعلمائهم وأشرافهم وذوي النجدات منهم، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث عاهدوا ربهم على التمسك بدينه والقيام به أتم القيام والجهاد في سبيله.

فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله.

ومنهم الحاثُّ لإخوانه المسلمين على القيام بما يقدرون عليه.

ومنهم الساعي بينهم النصيحةَ والتأليفَ.

ومنهم المنشِّط للمؤمنين بقوله وماله وجاهه.

ومنهم الفذُّ الجامع لذلك كله.

فهؤلاء رجالات المؤمنين وخيار المسلمين الذين بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الرواسي في إيمانهم وجهادهم، ولا يردهم عن مرادهم رادّ. ولا يصدُّهم عن المضي في سبيلهم صادّ. لا تزعزعهم الحوادث، ولا تفزعهم الكوارث، تتوالى عليهم المصائب فيثبتون لها ثبوت الجبال، وتتنابهم الأهوال المفظعة فيتلقَّوْنها بصدور منشرحة وأنفس مطمئنة فعلَ الكُمَّلِ من الرجال.

فواها لهؤلاء الأبطال، ما أعلى قدرهم، ولله درُّهُم ما أعظم ثوابهم، وأجزل أجرهم.

ومما يجب على المؤمنين أن يحذروا غاية الحذر من المخذلين المرجفين ومن المفسدين بينهم في السعي في الفتن والتفريق بينهم؛ إنّ هؤلاء أضرُّ عليهم من العدو المحارب، قال تعالى في وصف أمثال هؤلاء:

﴿لَوْ خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبْغُونَكُمُ الفتنةَ وفيكُمْ سمَّاعونَ لهم﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٧]

أي مستجيبون لهؤلاء المفسدين لا يفهمون مغزى مرادهم فيغترّون بهم، فتحصل الفرقة بين المؤمنين.

فعلى المؤمنين أن ينتبهوا لهؤلاء المفسدين.

وعلى المسلمين أيضاً أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب وفي الملك، والسياسات والأغراض الشخصية حائلاً يحول بينهم وبين تحقيق الأُخوَّة الدينية الدينية والرابطة الإيمانية، بل يجعلون الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعاً لهذا الأصل الكبير، لأن مصلحة ذلك الكلية وما يطلبهم دينهم منهم من الوحدة والأُلفة وما يمنعهم منه من التفرق المفكك لوحدتهم وقوتهم يأتي على ذلك أجمع، ويُقَدَّم على كل شيء.

فالمصالح الكلية تتدرج فيه الأغراض الجزئية، فمتى صار الغرض الوحيد المصالح العامة تبعتها المصالح الخاصة.

قال تعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنافقون والذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجِفُون في المدينةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٠]

فهذه الآية: وما اشبهها من الآيات بيَّنت أن أمثال هؤلاء المرجفين

ضررهم عظيم، وشرهم مُستطير، وما أكثر ورَّاثهم في هذه الأوقات التي اضطُر المسلمون فيها إلى نُصرة الأولياء حيث يوجد طائفة من الناس يثبِّطون عن الجهاد في سبيله، ومقاومة الأعداء، ويخذِّرون أعصابهم ويؤيسون المسلمين، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا فائدة فيه، فهؤلاء لا خير فيهم؛ لا دين صحيح، ولا مروءة ولا إنسانية، ولا حمية قومية وطنية.

ومع ذلك فهم صاروا أضرَّ على المسلمين من الأعداء.

فليعلمْ أمثال هؤلاء ومن يستجيبُ لهم أن الله لم يكلِّف المؤمنين إلّا وسعهم وطاقتهم، وأن لهم في رسول الله أسوة حسنة.

فقد كان ﷺ له حالان في الجهاد والدعوة.

أَمَر في كل حال بما يليق بها ويناسبها.

أمر لما كان في مكة والمسلمون قليل والقوة ضعيفة والأعداء كثيرون بالاقتصار على الدعوة إلى الدين وبيان محاسنه وجذب الناس إليه وجهادهم بالدعوة.

وأمر أن يكف يده عن القتال باليد لما فيه من الضرر وخلاف الحكمة كما هو ظاهر لكل أحد، وأن يُسَالِمَ الأعداءَ ويستدفع ضررهم بكل طريق ويتحمل كثيراً مما يعملون معه ومع الإسلام.

فلما هاجر إلى المدينة وقوي المسلمون وكثروا وعظمت وطأة الأعداء ومقاوماتهم العنيفة للإسلام والمسلمين، أمر بجهاد اليد مع جهاد الدعوة. فللمسلمين برسول الله أسوة حسنة. من كانت المصلحة تقتضي مهادنتهم ومسالمتهم من الأعداء سالموه وهادنوه، وتحمّلوا أضرارهم القليلة لدفع ما هو أعظمُ منها، ومن تعينت المصلحة في قتالهم بالسلاح لعدوانهم وشرِّهم وضررهم الكبير قاوموه بالسلاح والقوة، فيتبعون ما تعينت مصلحته الدينية ويستعينون على المضي في أحد الأمرين بالمشاورة والمراودة.

والمشاورة أحد أصول السياسة الدينية بل هي أهم قواعدها، كما قال تعالى:

﴿وأَمرُهُم شُورَىٰ بينَهُم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

﴿وشاوِرْهم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وهذا من أهم ما فَرَضَه الله على المؤمنين في إصلاح وتدبير أمورهم الكلية، وله من الفوائد ما لا يُحصى.

منها: امتثال أمر الله والاقتداء برسول الله ﷺ إذ كان يشاور أصحابه في كل أمر مهمّ.

ومنها: أن المشاورة من أكبر الأسباب لإصابة الصواب وسلوك الطرق النافعة لاجتماع آراء المؤمنين وأفكارهم، وتنقيحها وتصفيتها، مع أن الله معهم في هذه الحال يسددهم ويؤيدهم.

ومنها: أن المشاورة تتنوَّر فيها الأفكار وتترقَّى فيها العقول والآراء لأنها تمرين للأذهان، واستعمالٌ للقوة العقلية فيما خُلقت له وهيئت، واقتباسٌ بعضهم من آراء بعض.

ومنها: أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو عدة آراء ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمشاورة.

ومنها أن المشاورة من أسباب المحبة بين المؤمنين، وتآلف قلوبهم وشعور جميعهم أن مصلحتهم واحدة، وتنبُّه الأذهان للفكر في ذلك، فإن من لا يشاور في الغالب فإنه لا يعمل فكره في هذه الأمور فضلاً عن أن يهتدي إلى الصواب.

ففتح باب المشاورة بين المؤمنين في تعيين مصالحهم الكلية ودفع مضارهم، وفي أنسب الوسائل، والطرق التي يسلكونها لتحصيل ذلك عون كبير على القوة والصلاح والفلاح والنجاح.

وقد آتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يسعَوْا إلى مصالحهم، وعلّمهم كيفية الوصول إليها بإعمالهم لأفكارهم مجتمعين، فإذا تعينت المصلحة في طريقٍ سلكوه، وإذا ظهرت المضرَّةُ في أمر من الأمور سَعَوْا إلى دفعها ومدافعتها، وإذا اشتبهت المصالح بما ينافيها من المضار وتعارضت قدّموا راجحها على مرجوحها، فلا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية صغيرة ولا كبيرة إلاّ تشاوروا فيها وقدموا ما تقتضيه المصلحة.

وقد أوجب الله على المسلمين أمرين عظيمين عليهما مدار الجهاد.

الاستعداد لعدوهم بما يستطيعون من قوة عقلية ومعنوية ومادية.

ويدخل في ذلك تعلم الفنون الحربية من الرمي والركوب وعمل السلاح المناسب للوقت والمكان، وبما لا تتم هذه الأمور إلاّ به من تعلُّم الصناعات المعينة على هذا الأمر.

وأَمَرَهُم بأخذ الحذر من عدوهم وهو التحرز والتحصن منهم.

وأن يكونوا منهم أبداً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب، وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم لنعلم كل حركاتهم العلمية والحربية حتى لا يسبقونا إلى الأعمال والصنائع النافعة، فإن ضعف المسلمين وقصورهم وجهلهم بالصنائع وعمل الأسلحة من فرص الأعداء. فلنأخذ عليهم هذا الطريق الذي منه يدخلون علينا. لعل الله أن يَكُفَّ بأسَ الذين كفروا. ولا نكون عالة فيها وفي غيرها عليهم، فإنهم بذلك يتمكنون مما يريدون. فإنّ لله في هذه الدنيا سُنَنًا لا تتغير، وإن الحياة العزيزة لا تكون لمن أذلَّ نفسه وخَذَلَها وتسوَّل غيره.

ولئن قال متحذلق مُخْدِل، إنّ أمة المسلمين الآن متعذر عليهم أن

يسلكوا هذا الطريق فذاك من جهله وجبنه وخَوَره، فالله تعالى حكيم، وأمرنا بسلوك طرق الحكمة وليست الأمور العظيمة يقفز إليها قفزاً.

وقد علّمنا تعالى أن نبدأ بما نقدر عليه. ولا نتركَ المقدور لعجزنا عن الكمال. فمتى أَدَّينا ما علينا وقمنا بما فرض علينا وما نستطيعه، كنا مجاهدين ومحمودين وعزيزين، فإن مَنْ يسعى لعزه ولغاية مجده فطريقه وإن كان ضعيفاً فهو طريق المجد وطريق الحزم وطريق القوة والشجاعة.

فرحم الله من أعان على الإسلام ولو بشطر كلمة.

وقد أمر الله بالجهاد بالنفس، والمال وبالأقوال، والأفعال وبالمباشرة وإعانة المباشرين بالمال، والدعوة، والتشجيع، والتحريض؛ فكل من لم يَغْزُ ولم يحدِّثْ نفسه بالغزو مات على شُعبةٍ من النفاق، كما صح الحديث بذلك.

فأهل الحَلِّ والعقد والرياسة من الملوك، والأمراء، والوزراء، ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحثَّ السعي لتحصيل القوتين، القوة المعنوية، والقوة المادية، بإزالة جميع الحواجز، والموانع التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وتآلف قلوبهم، وأن يفهموا الأسباب التي فَرَّقَتْهم من الأغراض الشخصية والمطامع والأغراض الردية، والأيدي الأجنبية، فإنهم متى فهموها حقَّ الفهم عرفوا أنها تنافي مصالحهم الدينية والدنيوية، ومنافعهم الكلية، وتنافي ما يحثُّ عليه العقل والحزم من وجوب تقديم المصالح العامة على الأغراض الخاصة.

وقد قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كان آباؤكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأَموالٌ آقْتَرَفْتُمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها ومساكنُ تَرْضَوْنها أَحبَّ إليكم مِنَ اللّهِ ورسولِه، وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ اللّه بِأَمْره واللَّهُ لا يهدي القومَ الفاسِقين﴾. [سورة التوبة: الآية ٢٤]

فتوعَّدَ اللَّهُ مَنْ كانت هذه الأمور أحبَّ إليه من الله ورسوله ومَنَعَتْهُ من الجهاد في سبيله وقدمها عليه.

وهذه المذكورات في هذه الآية الكريمة هي الموانع والحواجز عن القيام بالجهاد في سبيله قولاً وفعلاً. ومن أكبر أسباب الجبن، فلا يتحقق الإيمان إلاّ بتقديم حبِّ الله ورسوله والجهاد في سبيله عليها. فإن الله قد وعد على الجهاد في سبيله مغفرة الذنوب والسيئات وحصول الخيرات ودخول الجنات والفتح في الدنيا والعز والنصر القريب.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا هلْ أَدلُّكم على تجارةٍ تُنجِيكمْ مِنْ عذابٍ أليم﴾ إلى قوله ﴿وبشر المؤمنين﴾ [سورة الصف: الآيات ١٠ ــ ١٣]

فأخبر تعالى أنّ من قام بالإيمان والجهاد فقد حصَّل التجارة الرابحة وأدرك الصفقة والغنيمة والخيرات المتتابعة.

تالله لقد حرم الناكلون عن الجهاد خيراً كثيراً، ولقد سَعَوْا فيما يُكْسِب الذُّل وخَسِروا خُسراناً كبيراً، فأين الشهامة الدينية وأين الغارية الإيمانية، وأين الرغبة في الخير؟..

يا عجباً لمؤمن يرى أهل الباطل يجهدون ويألمون في نصر باطلهم، وهم لا غاية لهم شريفة يطلبونها، وهو مُخْلِدٌ إلى الكسل عن نَصْر الحق الذي يترتب على نَصرِهِ من الخيرات العاجلة والآجلة ما لا يمكن التعبير عنه، كل ذلك خوفاً من المشقة وزهداً في إعانة إخوانه المسلمين في ماله أو بدنه وقوله وفعله، بل زهداً في مصالح نفسه الحقيقية.

قال تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمونَ فإنّهم يألَمونَ كما تَألَمونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه وتبيين منافعه ومصالحه الضرورية وحضّ الناس على ذلك أعظمُ مما على غيرهم.

وعليهم أن يوضحوا للمسلمين أن جميع حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوِّية للدين ودفع ضرر الأعداء، كلها داخلة في هذا الواجب العظيم. وأن يفهموهم أن الاختلاف في المذاهب والتباين في المشارب لا يمنع من اتفاقهم جميعاً على هذا الأصل الذي يجمع قاصيهم لدانيهم. وأن المصالح العامة الكلية مقدمة على الأغراض الجزئية والمنافع الشخصية وأن هذا العمل مصلح لدين المسلمين ودنياهم.

ثم على كل فرد أن يبدي مجهوده في نصر الدين وتقوية المسلمين بما استطاع من نفقة أو قول أن ينهض المسلمين ويقوي عزائمهم ويبعث هممهم.

وعلى الرؤساء، والمرؤوسين الترغيب في تعلم الفنون الحربية والصناعات النافعة، وعمل الأسلحة والحصون الواقية واستجلاب ما تعذرت صناعته، والسعي في تنمية المصالح والمنافع الاقتصادية بالعمل بالأسباب الميسَّرة لها، المُعِينَة على تحصيلها، فإن المصالح الاقتصادية هي العون على المصالح الدينية، فكل ما فيه تقوية المسلمين ودفع الأضرار والشرور من الأعدا عنهم فهو من الجهاد.

وعليهم أن يدرسوا أحوال الأمم الأجنبية وسياساتهم فإن معرفة ذلك من أسباب أخذ الحذر منهم والتوقِّي لشرهم.

وعليهم مع فعل الأسباب النافعة أن يتوكَّلوا على الله ويستعينوا به ولا يتَّكِلوا على حولهم وقوتهم، ولا يغتروا بحالهم ويعجبوا بأنفسهم ولا يستهينوا بأعدائهم بل يحسبون لهم كل حساب.

ومن أعظم الجهاد، الجهاد المالي. والله تعالى قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق وبها

يستعان على قتال الأعداء بتحصيل الأسلحة وصناعتها. والمراكب المناسبة لزمانهم. وإقامة جميع مؤن الجهاد.

حتى إن دفع المال الذي يدفع للأعداء لوقاية شرهم من الجهاد بالمال. فبذل المال للأجانب، عند الاضطرار، مقدَّمٌ على ما هو أخطر منه وأشد ضرراً.

وقد أمرهم الله أن يتعاونوا على البر والتقوى.

فالبِرُّ اسم جامع لفعل الخير كله ووسائله وطرقه.

كما أن التقوى اسم جامع للتعاون على اتقاء ما يخشى ضرره في الدين والدنيا والآخرة. أي تعاونوا على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات. وتعاونوا على كل وسيلة تعين على ذلك. فالعالم بوعظه وتذكيره وتعليمه. والغني بماله. وذي السداد برأيه وعقله وتدبيره وسياسته. وأهل النجدة والشهامة بقوتهم وتحضيضهم لغيرهم والعامل بعمله وصناعته، وكل فرد يُعين بنفسه ورعايته وتشجيعه وصاحب الجاه بجاهه. فيكون المؤمنون كالجسد الواحد والبنيان الذي يشد بعضه بعضاً قال تعالى:

﴿فاتَّقوا اللَّهَ ما ٱسْتطعتُم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وهذا يشمل جميع الأوامر الدينية، فليس لأحدٍ عذرٌ في القيام بالمستطاع منها.

وقال تعالى:

﴿وجاهِدوا في الله حقَّ جهادِهِ هو ٱجْتباكُم وما جعلَ عليكُم في الدينِ من حرج﴾

[سورة الحج: الآية ٧٨]

فإنه لما أمر بالجهاد أخبر بالطريق التي تسهِّله، والدواعي التي تدعو إليه، فَكَوْنُ الله ٱختارَ المؤمنين وٱجْتَبَاهُم وٱختارَ لهم هذا الدينَ العظيم الذي

هو دينه الذي يوصل إليه وإلى كل كرامة، وهذا من أكبر الدواعي إلى الجهاد حيث كان هذا العمل الجليل يوصل إلى كل خير ويدفعُ كلَّ شر، ومع ذلك فما جعل عليكم في الدين من حرج، فلم تُكَلَّفوا من الجهاد إلاّ ما تستطيعون ويَهونُ عليكم، كلٌّ على قدر حالِه ومقدرتِه.

وقد أمرهم الله بالقيام بالقسط والوفاء بالعهود قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقِسطِ شُهداءَ للَّهِ﴾

[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿وأَوْفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسْؤُولاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤]

فهذان الأصلان العظيمان وهما:

القيام بالقسط، الذي هو العدل التام على الأنفس والأقربين والأبعدين..

والوفاء بالعهود كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبالقيام بهما يتم الدين وتحصل الهداية والإعانة من الله والنصر والمدافعة، فما ارتفع أحد إلاّ بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلاّ بالظلم والجور والغدر.

وهذه الأمور كلها مضطرة إلى قوة التوكل على الله والاقتداء بسيد المرسلين فيه، فهو سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يعمل بجميع الأسباب النافعة ويحض عليها. فالتوكُّل هو الثقة بالله والاعتماد على قوته وحوله في تيسير الأمور التي يباشرها العبد، والالتجاء إلى الله في حصولها، وطمأنينة القلب فيكون المتوكل يعمل بجدٍّ واجتهاد، مطمئنًا بالله واثقاً به لا يخاف سواه، ولا يرجو غيره؛ لا يملكه اليأس، ولا يساوره القنوط، غير هياب ولا وَجِل ولا متردِّد لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصِي العباد وأزمَّة أمورهم تحت تدبيره ومشيئته فإنّه القوي العزيز.

بهذا التوكل نال المسلمون الأوَّلون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال، ولم يكن زادهم في مضيهم في سبيلهم إلاّ قوة التوكل على الله.

فهذه حال المسلمين، لا الخور والمهانةوالتواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة، فإنه ينافي التوكل كل المنافاة، كحال كثير من الناس في هذه الأوقات: يرون عدوَّهم يحاربُهم وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يقاومونه فتكون النتيجة ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، وحلول المصائب المتنوعة عليهم من كل جانب، ويزعمون أنهم متوكلون! كلاَّ والله..

ومن أعظم وسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية، المحتوية على كمال الصداقة، وعدم الاعتداء، واحتفاظ كل حكومة بشخصيتها الدولية، وإدارتها داخلًا وخارجاً، والتكافل بينها والتضامن، وأن يكونوا يداً واحدة على من تعدَّى عليهم أو على حقوقهم؛ وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلباً لمصلحة الكل، وتقريباً لقلوبهم، وأن يعملوا لهذه الأسس والأصول أعمالها اللائقة بها، والمناسبة لها، ويسعَوْا أحثَّ السعي لتحقيقه وإزالة العقبات الحائلة دونه، وهذه وإن كانت في بادىء الرأي صعبة فإنها يسيرة بتيسير الله والتوكُّل عليه.

واليوم، وإن كان المسلمون مصابين بضعفٍ شديد، والأعداء يتربَّصُون بهم الدوائر ــ هذه الحالة أوجدت من بينهم أناساً ضعيفي الإيمان ضعيفي الرأي والقوة، يتشاءمون أن الأمل في رِفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين إلى ذهابٍ واضمحلال، ولقد غلطوا في هذا أعظم غلط فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، كما تعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضَعُف المسلمون إلاّ لأنَّهم خالفوا كتابَ ربهم وسُنَّة نبيهم ﷺ وتنكبوا

السُّنن الكونية التي جعلها الله مادة حياة الأمم ورقيِّها، فإذا رجعوا إلى ما مَهَّده لهم دينُهم فإنهم لا بدَّ أن يصلوا إلى الغاية، كلِّها أو بعضها.

وهذا المذهب المهين، وهو التشاؤم والكسل، لا يعرفه الإسلام، ولا يرتضيه، بل يحذِّر عنه أشد تحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول وأن مع العسر يسراً، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسراً، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط.

فَلْيَتَّقِ هؤلاء المتشائمون ربَّهم، ولْيَعْلَموا أن المسلمين أقربُ الأمم إلى النجاح الحقيقي.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤمِّلون آمالاً عظيمة، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدّثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن له العاقبة الحميدة. وأن الرجوع إلى تعاليمه وهدايته هو السبب الوحيد لعلو أهله ورفعتهم، ولكن لا يقدمون لدينهم أدنى منفعة، بدنية ولا مالية، ولا يقدِّمون مساعدة جدِّية لتحقيق ما يقولون؛ فإن الأقوال لا تقوم إلاّ إذا قارنتها الأفعال.

ويا طوبى لطائفةٍ هُم غُرةُ المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، قَرَنوا الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبأقوالهم وبإنهاض إخوانهم، وتبرأوا من مذهب المتشائمين ومن أهل الأقوال دون الأفعال، فهؤلاء هم الذين يُناط بهم الأمل، وتُدْرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

ومن أعظم أصول الجهاد والتربية، الاعتناء والاهتمام التام بشبان الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ومادة قوتها وعزتها؛ وبصلاح تربيتهم تصلح الأحوال كلها، فعليهم أن يعتنوا بتربيتهم العالية، وأن يبثُّوا فيهم روح الدين وأخلاقَه الجميلة والحزمَ والعزمَ، وجميعَ مبادىء الرجولة، وتدريبهم على المصاعب والمشاق والصبر على الأمور النافعة والثبات عليها، وتحذيرهم من

الجبن والخور والسير وراء المادة والطمع، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر العظيم. وشباب الحاضر هم رجال المستقبل؛ وبهم تعقد الآمال، وتدرك الأمور المهمة. فاجتهدوا أن يكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروءة والكمال القدوة المثلى.

ومن أهم أمور الجهاد، وخصوصاً في هذه الأوقات، التعاونُ بين المسلمين في جميع شؤونهم: الدينية، والسياسية، والاقتصادية، واتصال بعضهم ببعض في تحقيق ذلك، لأن عددهم كثير وأعداؤهم جادون في الحيلولة بينهم في هذه الأمور، وقد تفننوا في تفريقهم وأقاموا الحواجز والسدود في اتصال بعضهم ببعض، حتى أوهنوا قُواهم وساءت حالهم وهم مجدون في هذا الأمر.

فمن أكبر الجهاد السعيُ في الأسباب التي بها يتعارف المسلمون ويتفاهمون، حتى يعرفوا كيف يتعاونون على الحصول على حقوقهم، ودفع المعتدين عنهم بكل وسيلة؛ ولا ينبغي إذا رأوا أنهم لا يدركون كلَّ ما يريدون أن يضعفوا عن بعض ما ينفعهم ويحصل به الدفاع؛ فمن جد واجتهد واستعان بالله فلا بد له من النجاح.

ومن أهم الجهاد السعي في إصلاح التعليم، وأن تكون المدارس يُعَلَّمُ فيها الأهم فالأهم من العلوم النافعة للدنيا والدين، وأن يكون الدين هو الأصل الأعظم فيها والأساس الأقوم، وأن يكون غيره وسيلة وتبعاً له، وأن يكون الغرض الوحيد من الناجحين فيها المتخرجين أن يكونوا صالحين في أنفسهم، مصلحين لغيرهم، مُتَرَبِّين بالأخلاق النافعة، مهتمِّين بتربية الأمة؛ فإن أكثر المدارس الآن إنما هي بالعكس من هذا الأمر: الفنون الدنيوية هي الأصل، وعلوم الدين يجعل لها جزء ضعيف من التعليم، ولا يُعتنى بأخلاق التلاميذ وآدابهم. وإنما الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا أكبر نقص، وأكبر الدواعي للضعف والانحلال.

ولا شك أن السعي في إصلاح التعليم من أهم الأمور، وبه ترتفع الأمة الإسلامية وتنتفع بعلمائها وعلومها، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون للعلوم مقصوداً، بها حصول المنافع والصلاح والإصلاح.

ومن أهم أمور الجهاد، بل هو أصله وقاعدته، أنه كما يلزم الاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش العاملة والأُهَبِ الوافرة، فينبغي أن تُوَلى الأكفاء من ذوي الرأي والحكمة والخبرة والتدبير والحزم والحذق. وأن يكونوا أهل دين وأصل راسخ يقومون على شؤون المملكة. يوطئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا المنزلة التي تليق بها بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانات تولية غير أهل الحمية الناصحين، أو غير الأكفاء الخبيرين قال تعالى:

﴿إنّ اللّهَ يأمُركم أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وأعظم الأمانات أمانةُ الولايات كلِّها، صغيرها وكبيرها.

والحذر من تولية الأجانب، فإنهم إذا ائتُمِنوا خَانُوا وإذا عَزُّوا أَهانوا، يقابلون الإحسان بضدِّه ويتحيَّنُون الفرص ويكُونُون أعواناً لأبناء قومهم عند أول حادث:

﴿قَدْ بَدَتِ البغضاءُ مِنْ أَفواهِهِم وما تُخفِي صُدورُهُم أكبرُ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١١٨]

وأهم صفات قواد المسلمين الاقتداء بنبيهم ﷺ والاهتداء بسنَّته وهَدْيه

في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة، وتربية أخلاقهم وأن يكون على جانب من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفةٍ بتاريخ الإسلام ورجاله، ومعرفة الأسباب المضعِفة للأمة والسعي في إزالتها وتحقيقها حسب الإمكان، والسعي في طرق الإصلاح كلها.

وأن يكون ذا قوة وأمل ورجاء واسع، لا يملكه اليأس ولا يتطرقه الفتور. وأن يتصل بأفراد المسلمين، وجميع طبقاتهم اتصالاً وثيقاً، ويتعرف شؤونهم ويسأل عن أحوالهم ويأخذ بآرائهم الصائبة، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكرَه لهم ما يكرَهُ لنفسه، وأن يكون ذا فكر ثاقب وسياسة تامة، وانتهاز للفرص النافعة، وأن لا يزال نُصْبَ عينيه نفعُ المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، ودفع الشر عنهم بكل طريق؛ وأن يكون خالياً من الطمع والجشع، موصوفاً بالكرم والجود في محله، في إعلاء كلمة الحق ورفعة الإسلام، وأن يكون حسن العلاقات مع جميع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم، يبدي لهم ودَّه، ويستشيرُهم ويأخذ بالناضج من آرائهم.

وأن يكون بصيراً بسياسات الأجانب، عارفاً لحقوقهم آخذاً الحذرَ من مَكْرِهم وخِداعهم، يعامِلُهم لمصلحة المسلمين، ويأخذ حذره منهم خوف الضرر.

وأن يكون في ذلك كله مخلصاً لله، مستعيناً به، متوكِّلاً عليه.

ومن أعظم وأجلِّ الجهاد في سبيل الله الدعوةُ إلى الدين والإسلام، بشرح محاسنه وإظهار جماله، في عقائده، وأخلاقه، وآدابه، وتعاليمه العالية الراقية؛ فإن في ذلك قوةً معنوية للمسلمين، فإنهم كلما فهموا دينهم وعرفوا ما يحتوي عليه من المحاسن التي تفوق الحد والإحصاء، ازداد إيمانهم وقوي يقينُهم واندفعت عنهم شبه الملحدين، وعَظُمَ تمسكهم التام به، وعلموا أن السعادة والفوز منوط بإرشاداته وهدايته، وكان ذلك أيضاً جهاداً للأعداء من جهتين:

إحداهما: أن المنصف منهم أو مَنْ لم يملكه التعصُّب الشديد إذا أبصر حقائق الدين وهدايته، التي فاقت كل هداية، وصلاحه وإصلاحَه للبشر كان من أكبر الدواعي لدخوله به إذا لم يحصل له موانـع قوية.

الثانية: أن في ذلك إقامة الحجة على المعاندين من الأجانب وعلى الملحدين، الذين قلّدوهم وخضعوا لهم، وفي ذلك من كفِّ شرِّهم كله أو بعضه من المصالـح ما لا يعد ولا يحصى.

فأكبر الجهاد الجهاد بالدين وهو أعظم سلاح للمسلمين، وأكبر جيش، إليه يلجأون، وبه يعتصمون، تبين أصوله الكلية ومصالحه العامة، وأنه يدعو إلى كل خير وصلاح وسعادة في المعاش والمعاد، وفي الظاهر والباطن، ويحثّ على إقامة العدل والقسط بكل طريق، ينهى عن كل شر وضرر وفساد، ويدعو إلى المقاصد النافعة، وإلى جميـع وسائلها، وأن جميـع أصوله وفروعه في غاية الإحكام والحُسْنِ

﴿ومن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقومٍ يُوقِنُون﴾

[سورة المائدة: الآية ٥٠]

ومن تتبـع أصول الدين وفروعه وآدابه وأخلاقه وتعاليمه وإرشاداته العالية وَجَدَها تدعو إلى كل خير وصلاح وفلاح، وعرف أنه لا يمكن الصـلاح والإصلاح البشري إلاّ بالدين، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميـع المسلمين.

# وجوب التعاون بين المسلمين

## وموضوع الجهاد الديني

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدّمة

الحمد لله رب العالمين * أحمده على ما له من صفات العظمة والكبرياء والجلال * وأشكره على نعمه الظاهرة والباطنة في جميع الأوقات، وفي الغدوّ والآصال * وأصلي على محمد أكمل الخلق في جميع الخصال * اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه خير صحب وأشرف آل * وعلى التابعين لهم في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال * وسلم تسليماً.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن التنبيه على واجب المسلمين نحو دينهم، ووجوب التعاون بينهم في جميع المصالح والمنافع الكلية الدينية والدنيوية، وعلى موضوع الجهاد الشرعي، وعلى تفصيل الضوابط الكلية في هذه المواضيع النافعة الضرورية، وعلى البراهين اليقينية في أن الدين عند الله هو دين الإسلام.

**عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي**

# وجوب التعاون على جميع المنافع الكلية وخصوصاً الجهاد

قال الله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فالبر اسم جامع لكل ما أمر الله به ورسوله، وأحبه الله ورسوله، من التحقق بعقائد الدين وأخلاقه، والعمل بآدابه وأقواله وأفعاله، من الشرائع الظاهرة والباطنة، ومن القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ومن التعاون على الجهاد في سبيله إجمالاً وتفصيلاً، فكل هذا داخل في التعاون على البر.

ومن التعاون على التقوى التعاون على اجتناب وتوقِّي ما نهى الله ورسوله عنه من الفواحش الظاهرة والباطنة، ومن الإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، بل على ترك الكفر والفسوق والعصيان. ويدخل في ذلك التعاون على جميع الوسائل والأسباب التي يُتَّقى بها ضرر الأعداء، من الاستعداد بالأسلحة المناسبة للوقت، وتعلم الصنائع المعينة على ذلك، والسعي في تكميل القوة المعنوية والمادّية المعينة على ذلك. قال تعالى:

﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة**﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذركم**﴾

[سورة النساء: الآية ٧١]

فيدخل في هذا الاستعدادُ بكل المستطاع من قوة عقلية وسياسية وصناعية، وتعلم الآداب العسكرية، والنظام النافع، والرمي والركوب، والتحرُّز من الأعداء بكل وسيلة يدركها المسلمون، واتخاذ الحصون الواقية. وقد أمر الله

ورسوله بجهاد الكفار المعتدين ـ في آيات كثيرة وأحاديث متنوعة ـ بالنفس والمال والرأي، وفي حال الاجتماع، وفي كل الأحوال. والأمر بذلك أمر به وبكل أمر يعين عليه ويقوّيه ويقوّمه، وأخبر بما للمجاهدين في سبيله من الأجر والثواب العاجل والآجل، وما يدفع الله به من أصناف الشرور، وما يحصل به من العزّ والتمكين والرفعة، وما في تركه والزهد فيه من الذلّ والضرر العظيم؛ وتوعد الناكلين عنه بالخذلان والسقوط الحسي والمعنوي؛ وبَيَّـنَ لهم الطرق التي يسلكونها في تقوية معنويتهم، فإنه حثهم على التآلف والاجتماع، ونهاهم عن التباغض والتعادي والافتراق. وذلك أن حقيقة الجهاد هو الجد والاجتهاد في كل أمر يقوّي المسلمين ويصلحهم ويلمّ شعثهم، ويضم متفرِّقهم ويدفع عنهم عدوان الأعداء أو يخففه بكل طريق ووسيلة.

## أقسام الجهاد وأنواعه

الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهادٌ يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم. وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان.

هذا مجمل أنواعه على وجه التأصيل. أما التفصيل فنقول:

## الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة

قال تعالى: ﴿وآعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وآذكروا نعمة الله عليكم إِذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألّف بين قلوبهم، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبِهم ولكِنَّ اللَّهَ ألَّف بينهم﴾ [سورة الأنفال: الآيتان: ٦٢، ٦٣]

وقال: ﴿وإنْ طائفتانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فأَصلِحُوا بينهما، فإِنْ بغتْ إحداهُما على الأخرى فقاتلوا التي تبغِي حتى تفيءَ إلى أمر الله، فإنْ فاءتْ فأَصلِحوا بينَهما بالعدلِ وأَقْسِطوا إنَّ اللَّهَ يحبُّ المقسطين * إنّما المؤمنون إخوةٌ فأَصلِحوا بين أخويكم﴾ [سورة الحجرات: الآيتان ٩، ١٠]

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (وكونوا عبادَ الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله)؛ وقال: (مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالّة على هذا الأصل العظيم، فإنّ من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، في جمع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة.

ومن أنفع الأمور أن يتصدّى لهذا الأمر جميعُ طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم، كل أحد يجدُّ بحسب إمكانه. فمتى كانت غاية المسلمين واحدة وهي (الوحدة الإسلامية) وسلكوا السبل الموصلة إليها، ودافعوا جميع الموانع المعوقة والحائلة دونها، فلا بد أن يصلوا إلى النجاح والفلاح.

ومما يُعين على هذا الإخلاصُ وحسنُ القصد فيما عند الله من الخير والثوابِ، وأن يعلموا أن كل سعي في هذا الأمر من الجهاد، وفي سبيل الله ومما يقرب إليه وإلى ثوابه. وأن المصلحةِ في ذلك مشتركة، فالمصالح الكليات العامة تقدم على المصالح الجزئيات الخاصة. ولهذا يتعين عليهم أن لا يجعلوا الاختلاف في المذاهب أو الأنساب أو الأوطان داعياً إلى التفرق

والاختلاف؛ فالرب واحد، والدين واحد، والطريق لإصلاح الدين وصلاح جميـع طبقات المسلمين واحد، والرسول المرشد للعباد واحد، فلهذا يتعين أن تكون الغاية المقصودة واحدة. فالواجب على جميـع المسلمين السعي التام لتحقيق الأخوّة الدينية والرابطة الإيمانية، فمتى علموا وتحققوا ذلك، وسعى كل منهم بحسب مقدوره، واستعانوا بالله وتوكلوا عليه، وسلكوا طرق المنافـع وأبوابها، ولم يخلدوا إلى الكسل والخوَر واليأس، نجحوا وأفلحوا. فإن الكسل والخور واليأس من أعظم موانـع الخير، فإنها منافية للدين وللجهاد الحقيقي. فمن استولى عليه الكسل والخور لم ينهض لمكرمة. ومن أيس من تحصيل مطالبه انشلّت حركاته ومات وهو حي. وهل أخّر المسلمين في هذه الأوقات إلاّ تفرقهم، والتعادي بينهم، وخوَرهم، وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم، حتى صاروا عالة على غيرهم؟ ودينهم قد حذّرهم عن هذا أشد التحذير، وحثهم على أن يكونوا في مقدمة الأمم في القوّة والشجاعة، والصبر والمصابرة، والمثابرة على الخير، والطمـع في إدراكه، وقوة الثقة بالله في تحقيق مطالبهم، ودفـع مضارّهم، وكمال التصديق بوعد الله لهم بالنصر إذا نصروه، وبالنجاح إذا سلكوا سبله، وبالإعانة والتسديد إذا كمل اعتمادهم عليه:

**﴿إنْ تكونوا تألَمون فإنهم يألَمون كما تألَمون، وتـرجُون من اللَّهِ ما لا يرجُون﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٤]

## الفرق العظيم بين رجال الدين وبين المخذِّلين المرجفين

قال تعالى: **﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللَّهَ عليه، فمنهُم مَنْ قضى نحبَه ومنهُم من ينتظرُ، وما بَدَّلوا تبديلا﴾**

[سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

هذا نعتُ رجال الدين: الصدقُ الكامل فيما عاهدوا الله عليه، من القيام بدينه

وإنهاض أهله، ونصره بكل ما يقدرون عليه، من مقالٍ ومالٍ وبَدَنٍ وظاهر وباطن. ومن وصفهم الثباتُ التامُّ على الشجاعة والصبر، والمضيُّ في كل وسيلة بها نصرُ الدين. فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله، ومنهم الحاثُّ لإخوانه على القيام بكل مستطاع من شؤون الدين، والساعي بينهم بالنصيحة والتأليف والاجتماع، ومنهم المنشِّط بقوله وجاهه وحاله، ومنهم الفذُّ الجامعُ لذلك كله، فهؤلاء رجال الدين وخيار المسلمين: بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الجبال الرواسي في إيمانهم وصبرهم وجهادهم، لا يردُّهم عن هذا المطلب رادٌّ، ولا يصدُّهم عن سلوك سبيله صادٌّ؛ تتوالى عليهم المصائب والكوارث، فيتلقَّونها بقلوب ثابتة، وصدور منشرحة لعلمهم بما يترتب على ذلك من الخير والثواب والفلاح والنجاح.

وأما الآخرون، وهم الجبناء المرجفون، فبعكس حال هؤلاء. لا ترى منهم إعانة قولية ولا فعلية ولا جدّية؛ قد ملكهم البخل والجبن واليأس، وفيهم الساعي بين المسلمين بإيقاع العداوات والفتن والتفريق. فهذه الطائفة أضرّ على المسلمين من العدوّ الظاهر المحارب، بل هم سلاح الأعداء على الحقيقة. قال تعالى فيهم وفي أشباههم:

**﴿لَوْ خَرَجوا فيكم ما زادوكمْ إلاّ خَبالاً، وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبغُونكم الفتنةَ، وفيكم سمَّاعون لهم﴾** [سورة التوبة: الآية ٤٧]

أي يستجيبون لهم تغريراً أو اغتراراً. فعلى المسلمين الحذرُ من هؤلاء المفسدين، فإن ضررهم كبير وشرهم خطير، وما أكثرَهم في هذه الأوقات، التي اضطر فيها المسلمون إلى التعلّق بكل صلاح وإصلاح، وإلى من يُعينهم وينشِّطهم. فهؤلاء المفسدون يثبِّطون عن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء، ويخدِّرون أعصاب المسلمين ويؤيسونهم من مجاراة الأمم في أسباب الرقي، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا يفيد شيئاً ولا يجدي نفعاً. فهؤلاء لا خيرَ فيهم بوجه من الوجوه. لا دين صحيحاً، ولا شهامة دينية، ولا

قومية ولا وطنية. لا دين صحيحاً، ولا عقل رجيحاً. فليعلم هؤلاء ومن يستجيب لهم أن الله لم يكلفِ الناس إلّا وسعهم وطاقتهم، وأن للمؤمنين برسول الله أسوةً حسنة، فقد كان له ﷺ حالان في الدعوة والجهاد: أُمِر في كل حال بما يليق بها ويناسبها؛ أُمِرَ في حال ضعف المسلمين وتسلط الأعداء بالمدافعة، والاقتصار على الدعوة إلى الدين، وأن يكفَّ عن قتال اليد، لما في ذلك من الضرر المرْبي على المصلحة. وأُمِرَ في الحالة الأخرى أن يستدفع شرور الأعداء بكل أنواع القوَّة، وأن يسالم من تقتضي المصلحة مسالمته، ويقاومَ المعتدين الذين تقتضي المصلحة، بل الضرورة، محاربتهم. فعلى المسلمين الاقتداء بنبيهم في ذلك، وهو عين الصلاح والفلاح.

## وجوب المشاورة في كل الأمور الكلية وفوائدها

قال تعالى: ﴿وشاورْهم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال في وصف المؤمنين:

﴿وأَمرُهم شُورَى بينهم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا يشمل جميع الأمور التي يحتاجونها، وتتعلق بها منافعهم الدينية والدنيوية. فعلى المسلمين أن يتشاوروا في تقرير المصالح والمنافع، وفي كيفية الوصول إليها، وفي تقرير الخطط التي يتعين سلوكها في صلاح أحوالهم الداخلية، وإصلاحها بحسب الإمكان، وفي الحذر من أعدائهم، ومقاومتهم، وسلوك الطرق السلمية أو الحربية بحسب ما تقتضيه المصلحة وبحسب الأحوال والظروف الحاضرة، وأن يعدُّوا لكل أمر عدَّته، وتجتمع قواهم كلها وعزائمهم على ما اتفقت آراؤهم على نفعه ومصلحته، فإن المشاورة من أعظم الأصول والسياسات الدينية، وفيها من الفوائد: امتثالُ أمرِ الله، وسلوك الطريق التي يحبها الله حيث نعت المؤمنين بها، وفيها الاقتداء برسول الله ﷺ فإنه ـ

مـع كمال عقله ورأيه وتأييده بالوحي ــ كان يشاور أصحابَه في الأمور المهمة.

ومن فوائد المشاورة أنها من أكبر الأسباب لإصابة الصواب، وسلوك الوسائل النافعة لاجتماع آراء الأمة وأفكارها، وتنقيحها وتصفيتها. مـع أن الله يُعينهم في هذه الحال التي فعلوا فيها ما أَمَرهم به ويسدّدهم ويؤيدهم * ومنها أن المشاورة تتنوَّر فيها الأفكار، وتترقّى المعارف والعقول، فإنها تمرين للقوة العقلية وتربية لها، وتلقيـح للأذهان واقتباس لبعضهـم من آراء بعض * ومنها أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو أكثر، وإذا تقابل الصواب والخطأ ووزنتها العقول السليمة بـالموازين العقليـة التي لا تركن إلّا إلى الحقائق الصحيحة ظهر الفرق بين الأمرين، ولا سبيل لذلك إلا بالمشاورة * ومنها أن المشاورة من أسباب الألفة والمحبة بين المؤمنين، وشعور جميعهم أن مصالحهم واحدة مشتركة، وتنبيه للأفكار والآراء على النافـع والأنفـع، وعلى الصالـح والأصلـح، فإن ترك المشاورة يخمد الأفكار ويضيـع الفرص التي يضر تضييعها. ففتـح باب المشاورة عون كبير في إصلاح الأمور وإكمالها وتجنب المضار.

وقد اتفق العقلاء على أن الطريق الوحيد لتحقيق الصلاح الـديني والدنيوي هو طريق الشورى؛ والله قد أرشد المسلمين إلى هذا الطريق، وأن يسعوا في ترقية أحوالهم بها. وعلّمهم كيفية الوصول إلى كل أمر نافـع، فإذا تعينت المصلحة في أمرٍ سلكوه، وإذا ظهرت المضرّة في طريق تركوه، وإذا تشابهت عليهم المسالك وتقابلت المنـافـع والمضارُّ رجَّحـوا ما تـرجَّحت مصلحته من فِعلٍ وتَرك، فلا يَدَعون مصلحة داخلية ولا خارجية إلّا بحثوا فيها وتشـاوروا عليها وعملوا على مـا اتفقت عليه آراؤهم، وبـذلك يحمـدون ويشكرون ويفلحون.

# وجوب الاستعداد للأعداء بكل قوة وأخذ الحذر منهم

قال تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومِن رِباطِ الخيل تُرهِبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم فانفِرُوا ثُباتٍ أو انفِرُوا جميعاً﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

تضمنت هاتان الآيتان جميع ما يلزم المسلمين في مدافعة الأعداء ومقاومتهم، وذلك بالاستعداد بالمستطاع من قوة عقلية وسياسية ومعنوية ومادية، فدخل في ذلك تعلمُ أنواع الفنون الحربية، والنظامُ السياسي والعسكري، والاستعدادُ بالقوّاد المحنّكين المدرّبين، وصناعة الأسلحة، وتعلمُ الرمي والركوبُ بما يناسب الزمان، وبأخذ الحذر من الأعداء بالتحرز والتحصن، وأخذ الوقاية من شرهم، ومعرفة مداخلهم ومخارجهم، ومقاصدهم وسياساتهم، وعمل الأسباب والاحتياطات للوقاية من شرّهم وضررهم وأن نكون منهم دائماً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب، فإنَّ جهل المسلمين بشيء من المذكورات نقص كبير فيهم، وقوة لعدوّهم، وإغراء له بهم. فعلى المسلمين الأخذ بكل معنى من معاني الحذر، وبكل وسيلة من وسائل القوَّة والاستعداد، عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا. فإنَّ جهل المسلمين بشيء من ذلك وكسلهم عن العمل ضرره كبير، وبذلك يكونون عالة على غيرهم، وهذا عنوان الذل، فإنّ لله سنناً كونية جعلها وسائل للعزّ والرقي، مَنْ سَلَكها نجح، ودين الإسلام يحثّ عليها غاية الحث.

# الوجوب يتعلق بقَدْرِ القدرة والاستطاعة

قال تعالى: ﴿فاتَّقوا اللَّهَ ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم). فالله تعالى أمر بالجهاد بالنفس والمال، وبالأقوال والأفعال، وبالمباشرة وإعانة المباشرين، وبالدعوة والتحريض والتشجيع. وقد صح عنه ﷺ أنه قال (من لم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) فكلُّ مَنْ في قلبه إيمانٌ فلا بد أن يكون له نصيب من هذا الجهاد، وكل أحد فُرِض عليه أن يقوم بما يستطيعه من ذلك، ولا يكلِّف الله نفساً إلاّ وسعها. فأهل الحل والعقد والرياسة من الملوك والأمراء والوزراء ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحثَّ السعي لتحصيل القوتين: القوة المعنوية والقوة المادية، وذلك بالسعي لإزالة الموانع والحواجز التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وأن يفهموا العوامل التي فرّقتهم والأغراض المتباينة التي شتَّتَتْهم، وأن الأيدي الأجنبية تتوسل بذلك لتحصيل أغراضها، فمتى فهموها وعملوا على إزالتها بجدٍّ واجتهاد فلهم نصيب وافر من الجهاد في سبيل الله.

وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه، وتبيين منافعه الضرورية، وحضّ الناس عليه، والوعظ العام والخاص، أعظمُ مما على غيرهم. وعليهم أن يبيِّنوا للناس أن جميع حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوية للدين المعينة للمسلمين في دفع اعتداء المعتدى، كل ذلك، داخلٌ في الجهاد في سبيل الله؛ فمتى عرف المؤمنون موضوع الجهاد، وأنه اسم جامع لسلوك كل سبب ووسيلة في إعلاء كلمة الدين، وفي مقاومة الأعداء والحذر والتحرّز منهم، نشطوا للقيام به وأخلصوا لله فيه والعمل الخالص نفعه كبير، وأجره عظيم.

وكذلك يجب على كل فرد من أفراد المسلمين أن يبدي مجهوده في نصر المسلمين بما يقدر عليه من قول وفعل ودعاية وحض لإخوانه عليه *

وكل أحد عليه من القيام بوظيفته الخاصة ما ليس على الآخر: فـالملوك والأمراء وقواد الجيوش: عليهم من الواجبات بحسب مراتبهم ومقاماتهم، والجيوش العاملة عليها النهوض بوظيفتها والتزام القوة والشجاعة والصبر؛ وعلى أهل الأموال بذل ما يحتاج المسلمون إليه في المنافـع الكلية، وعلى أهل الصنائـع النصـح والجد في تعليم الصناعات النافعة للجهاد، فمتى قام كل أحد بوظيفته لم يزالوا في رقي وصعود في دينهم ودنياهم، وعزهم وشرفهم.

## وجوب الاجتهاد في فعل الأسباب النافعة مـع التوكل على الله والاستعانة به

قد أمر الله في عدة آيات بالقيام بجميـع الأسباب النافعة، والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال. كما أمر في عدة آيات بالتوكُّل عليه والاعتماد على حوله وقوته. فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتمّ وتكمل. والنقص والقصور إنما يجيء من الإخلال بهما أو بأحدهما، فالتوكل الذي لا يصحبه جدٌّ واجتهاد ليس بتوكل، وإنما هو إخلاد إلى الكسل وتقاعد عن الأمور النافعة؛ كما أن العمل بالأسباب من دون اعتماد وتوكّل على مسبِّبها واستعانة به مآله الخسار والزهو والإعجاب بالنفس والخذلان. فالجمـع بين التوكّل على الله وبين الاجتهاد في فعل الأسباب هو الذي حثّ عليه الدين، وهو الذي كان عليه سيد المرسلين، وبهما يتحقق الإيمان، وتقوى دعائـم الدين، وبهما تقوى معنوية المسلمين، حيث اعتمدوا على رب العباد، وأدَّوا ما في مقدورهم من جد واجتهاد.

## معرفة أحوال الأمم ودرسها ومعرفة سياساتها داخل في الجهاد

قد عُلم من قواعد الدين أن ما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد. ولا يخفى أنه لا يتم التحرّز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقِّي لشرورها إلّا بالوقـوف على مقاصـدهم، ودرس أحوالهم وسياساتهم، وخصوصاً السياسة الموجهة منهم للمسلمين؛ فإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع، وعدم الوفاء، واستعباد الأمم الضعيفة بكل وسائل الاستعباد؛ فجهل المسلمين بها نقص كبير وضرر خطير؛ ومعرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفعه عظيم، وفيه دفع للشر أو تخفيفه، وبه يعرف المسلمون كيف يقابلون كل خطر. ولهذا كان من أركان السياسة والقيادة المعرفةُ والوقوفُ التامُّ على أحوال الأعداء، فالسياسة الداخلية لا تتم إلا بأحكام السياسة الخارجية.

## من الجهاد القيام بالقسط والوفاء بالعهود

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [سورة المائدة: الآية ١]

﴿ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بعدِ قُوةٍ أنكاثاً﴾
[سورة النحل: الآية ٩٢]

فهذان الأصلان العظيمان ـــ وهما القيام بالقسط الذي هو العدل التام، على الأنفس والأقربين والأبعدين والأصدقاء والمعادين، والوفاء بالعهود والمعاقدات كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبها يتم الدين، ويستقيم طريق الجهاد الحقيقي، وتحصل الهداية والإعانة من الله تعالى، والنصر والمدافعة. فما

ارتفع أحد إلّا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلّا بالظلم والجور والغدر. وبهذين الأمرين ـ مع بقية أصول الدين ـ حصل للدين الإسلامي من العزّ والشرف والرقي وقهر الأمم الطاغية ما لم يحصل لغيره.

وبهذه الروح ـ روح الرحمة والعدل والوفاء ـ وصل الدين الإسلامي إلى مشارق الأرض ومغاربها، ودانت منه الأمم المتباينة طوعاً وانقياداً ورغبة، وبتركه انتقض الأمر، ولم يزل الهبوط مستمرًا، إلّا أنه يحصل نفحات في بعض الأوقات بها ينتعش الدين إذا تشبثوا بشيء من هذه المقوّمات النافعة. ولهذا تجد القوّاتِ والحضاراتِ الهائلةَ، التي يزعم أهلها أنها راقية في كل أحوالها لما كانت مبنية على الظلم والجشع والطمع وعدم المبالاة في ظلم الأمم الضعيفة، وكانت إذا قطعت عهودها ونفذت معاهداتها لم تبالِ بعد ذلك وفّت أو غدرت، وإنما تلاحظ أطماعها الخاصة وأغراضها الردية ولسان حالهم يقول: السياسة مبنية على المكر والخدع والختر والغدر. لما كانت مع قوتها الهائلة مبنية على هذه الأصول المنهارة كانت هذه المدنية المزعومة والحضارة المدَّعاة مهدّدة كل وقت بالفناء والهلاك والتدمير؛ والواقع أكبر شاهد على ذلك؛ فلو أنها بنيت على الدين الحق والعدل واتباع الحق والوفاء بالمعاقدات ونصر المظلومين لكانت مدنية آمنة، ولكنها في الحقيقة مادية محضة، والقوة المادية إذا لم تبن على الحق فإنها منهارة لا محالة، وربما كان سلاحها الفتاك هو مادة هلاكها وعقوبتها.

والمقصود، أن المسلمين بالمعنى الحقيقي لا يغترّون بقوة هؤلاء الماديين، وإنما يقومون بالعدل التام في جميع أمورهم، وبالوفاء الكامل في حق الصديق والعدو. وهذه الأمور كلها مضطرة إلى التوكل على الله، والاعتماد على حوله وقوته، وكمال الثقة به في تيسير الأمور وتذليل الصعاب، فيكون المتوكل يعمل بجدّ واجتهاد، مطمئنًا بالله، واثقاً بوعده وكفايته، لا يرجو غيره ولا يخاف سواه، لا يملكه اليأس ولا يساوره القنوط؛ غير هياب

ولا وجل ولا متردّد، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصي الخليقة في قبضته وتحت تدبيره.

بهذا التوكل التام والعمل الكامل نال المسلمون الأولون العزّ والشرف والسلطان وصلاح الأحوال. وهذا الذي يجب أن يكون عليه المسلمون الآن، وأن يكون العمل والتوكل نصب أعينهم، فلا يميلوا إلى التواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة والكسل، فإن هذا ينافي التوكل الحقيقي غاية المنافاة؛ كحال كثير من الناس في هذه الأوقات: يشاهدون عدوّهم يحاربهم، ويسلبهم حقوقهم، وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يبدون ما يقدرون عليه من مقاومته التي لا يُعذرون عن القيام بها، فتكون النتيجة من هذا السكوت والتقاعد الضارّ ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، والسيطرة على حقوقهم وحلول المصائب المتنوعة بهم من كل جانب، ويقولون: نحن متوكلون. كلاَّ والله، بل هم كسالى متواكلون، قد استولى عليهم الخور، وأعقبه الذل واستعباد الأجانب لهم.

## ربط الصداقات وعقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله

قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾
[سورة الحجرات: الآية ١٠]

فمن أهم مسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات، وتوثيق المودّة والصداقة بين الحكومات الإسلامية، مع احتفاظ كل حكومة بشخصيتها وحقوقها الدولية وإدارتها داخلاً وخارجاً، والتكافل بينها والتضامن، وأن يكونوا يداً واحدة على من تعدّى عليهم أو على شيء من حقوقهم، وأن يكون صوتهم واحداً، وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلباً لمصلحة الكل وتقريب بعضهم من بعض، وأن يعملوا لهذا الموضوع أعماله اللائقة به،

المناسبة للظروف الحاضرة، وأنْ يسعَوْا كل السعي لتحقيق هذا وإزالة جميع العقبات الحائلة دونه، والمعوقة له.

وهذه الأمور وإن كانت في بادىء الرأي صعبة، وقد وضع الأعداء لها العراقيل المعوّقة، فإنها يسيرة بتيسير الله وقوة العمل مع التوكل عليه. واليوم وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد، والأعداء يتربصون بهم الدوائر، وهذه الحالة قد أوجدت في المسلمين أناساً ضعيفي الإيمان، ضعيفي الرأي والقوة والشجاعة، قد ملكهم اليأس والخور، يتشاءمون بأن الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين يتنقلون من ضعف إلى ضعف، فهؤلاء قد غلطوا أشد الغلط، فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، وتعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعف المسلمون إلا لأنهم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيه ﷺ، وتنكّبوا السنن الكونية التي جعلها الله بحكمته مادة لحياة الأمم ورقيها في هذه الحياة. فإذا رجعوا إلى ما مهّده لهم دينهم، وإلى تعاليمه النافعة وإرشاداته العالية، فلا بد أن يصلوا إلى الغاية كلها أو بعضها. وهذا المذهب المهين ـ مذهب التشاؤم ـ لا يرتضيه الإسلام، بل يحذّر عنه أشد التحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسراً، وأن المسلمين إذا عملوا بتقوى الله وبالأسباب التي أرشدهم الله إليها واقتدوا بنبيهم فيها، وصبروا، فلا بد أن يفلحوا وينجحوا. فليتق الله هؤلاء المتشائمون، وليعلموا أن المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي والرقيّ الصحيح، لأن دينهم كله عروج وصعود في عقائده وآدابه، وأخلاقه ومقاصده وأسبابه، وجمعه بين مصالح الدنيا والآخرة، ومنافع الروح والجسد.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤملون الآمال بلا قوة ولا أعمال، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن الرجاء والطمع في ذلك غير بعيد، ولكنها أقوال بلا أفعال، ولا يصحبها سعي لا قوي ولا

ضعيف، ولا يقدّمون لدينهم منفعة بدنية ولا مالية، ولا يساعدون على مصلحة عامة كلية. وهذا كله غرور واغترار، ويترتب عليه أنواع من الشرور والمضارّ.
وأما رجال الدين الذين هم غرة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، فهم الذين أبدوا جدهم واجتهادهم، وقرنوا بين الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأقوالهم ودعاياتهم، وإنهاض إخوانهم، وتبرأوا من مذهب المتشائمين، ومن أهل الأقوال الخالية من الأعمال. قد نهضوا بأمتهم، وقصدوا في سعيهم الغايات الحميدة، وسلكوا طريق المجد. فهؤلاء الرجال الذين يناط بهم الأمل، وتدرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

## الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهلِيكُم ناراً﴾
[سورة التحريم: الآية ٦]

وذلك بالتعليم والتأديب والتربية؛ وقال تعالى:
﴿قُلْ هل يستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وذلك أن من أعظم أصول الإصلاح والجهاد التربيةُ الدينية والاهتمام التام والاعتناءُ الكامل بشباب الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها، ومادّة قوتها وعزها. وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال، ويكون المستقبل خيراً مما قبله. فعليهم أن يربوهم تربية عالية، ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقَه الجميلة، والحزمَ والعزم، وجميعَ مبادىء الرجولة والفتوّة والمروّة، وأن يدرّبوهم على الصبر وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع، ويحذروهم من الجبن والكسل، والسير وراء الطمع والمادة، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير. وشباب الحاضر هم

رجال المستقبل، وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة، فعليهم أن يجتهدوا ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروّة والكمال القدوة المثلى.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة إصلاح التعليم، والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين والأساتذة الصالحين الذين يتعلم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة قبل ما يتلقون من معلوماتهم العالية. ويختار لها من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين. وأن تكون العلوم الدينية هي الأصل والأساس الأقوم، ويكون غيرها تبعاً لها ووسيلة إليها؛ وأن يكون الغرض الوحيد من المتخرجين في المدارس الناجحين في علومها أن يكونوا صالحين في أنفسهم وأخلاقهم وآدابهم، مصلحين لغيرهم، راشدين مرشدين، مهتمين بتربية الأمة. فإن كثيراً من المدارس الآن التعليمُ فيها قاصرٌ جداً، لا يُعتَنى فيه بأخلاق التلاميذ، ويكون تعليم الدين فيها ضعيفاً، ويكون الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة؛ وهذا ضرره كبير، وسبب للضعف والانحلال. ولا ريب أن السعي في إصلاح التعليم من أهم المهمات، وبه ترتفع الأمة وتنتفع بعلمائها وعلومهم، فالتعاليم النافعة، والتربية الصالحة، تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصوداً بها الصلاح والإصلاح.

# من الجهاد ورعاية الأمانة تخيُّرُ الأكفاء من الرجال في الولايات والأعمال

قال الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وقال: ﴿إنَّ خيرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾

[سورة القَصص: الآية ٢٦]

وأعظم وأَوْلى ما يدخل في الأمانات الولاياتُ كلها، كبيرة كانت أو صغيرة؛ وتخيُّر الرجال الكُمَّل من أعظم التعاون على البر والتقوى، ومن قواعد الجهاد وأصوله؛ فإنه لا يتم الجهاد إلّا بذلك، بل لا تتم الأحوال كلها إلّا بذلك. وكما أنه يلزم الاعتناء والاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش المنظَّمة العاملة والأهب الوافرة فكذلك يلزم الاستعداد بالرجال الأكفاء على جميع الأعمال، وأن يولى في الولايات كلها أهل القوة والكفاءة والعقل، والرأي والسياسة والحزم والعزم، والتدبير الموفق والدين القوي والنصح الكامل، وأن يكونوا من أصل راسخ في الكمال، ومن أهل الشجاعة التامة؛ وإذا لم يدرَك الرجل الكامل في هذه الأوصاف فيختار الأمثل فالأمثل. فهؤلاء الرجال هم الذين يقومون بشؤون المملكة، ويوطِّئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية، ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها، بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانة والخطر تولية غير الناصحين أو غير الأكفاء العارفين، فإن تمام الولاية مجموع بشيئين: أحدهما، الخبرة والكفاية التامة بالقيام بشؤون ذلك العمل، أيَّ عمل كان، فيولى في كل عمل أكملُ من يحصل به مقصود تلك الولاية، وإن كان ناقصاً في غير ذلك العمل. الثاني، الأمانة والنصح، فمتى اجتمع الأمران ــ القوة على ذلك العمل، والأمانة التامة ــ

تمت الأمور، واستقامت الأحوال. ومتى فقد الأمران أو أحدهما وقـع النقص والخلل بحسب ما نقص منهما.

وتتعين المشاورة في انتخاب الرجال الكُمّل الذين أخصُّ صفـاتِهم الاقتداءُ بنبيهم، والاهتداءُ بسيرته وهديه، في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة وتربية أخلاقها، وأن يكونوا على جانب من العلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، ومعرفة تاريـخ الدول الإسلامية ورجالها، والعلم بأسباب الضعف والانحلال الداخل على الأمة، والسعي بإزالتها أو تخفيفها، مهما أمكن الأمر. وأن يكونوا ذوي قوة وأمل ورجاء واسـع، لا يملكهم اليأس ولا يتطرق إليهم الفتور. وأن يكونوا متّصلين بأفراد المسلمين وجميـع طبقاتهم اتصالاً وثيقاً، ويتعرفون بشؤونهم ويسألون عن أحوالهم ويأخذون بآرائهم الصائبة ويستمدون من عقولهم القوية. وأن يحبوا لهم من الخير ما يحبون لأنفسهم، ويسعوا في ذلك الخير لهم. وأن يكونوا أصحاب فكر ثاقب، وسياسة وخبرة، وانتهاز للفرص النافعة، وكثرة مشاورة للرجال الناصحين. وأن لهم علاقات مـع جميـع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم: يبدون لهم ودّهم، ويستشيرونهم، ويستنيرون بآرائهم، ويأخـذون بالنـاضـج المصيب منها. وأن يكونوا مـع ذلك عارفين بسياسات الأجانب، عارفين بحقوقهم، آخذين الحذر من مكرهم وكيدهم وخداعهم، يعاملونهم لمصلحة المسلمين، ويأخذون الحذر منهم خوف الضرر على المسلمين، عملهم كله لمصلحة الإسلام والمسلمين وهم مـع ذلك كله مخلصون لله متوكلون عليه معتمدون في جميـع أمورهم عليه.

فهذه أوصاف الرجال الذين ينبغي تخيرهم؛ والواحد من أمثال هؤلاء يعدل أمة. وعلى أهل الحل والعقد أن يتقوا الله ما استطاعوا، ويولُّوا الأكملَ فالأكمل. والله أعلم.

# شرح محاسن الدين الإسلامي
# وبيان عقائده وأخلاقه، وأحكامه وإصلاحه، من أعظم الجهاد

قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبـيُّ جاهِدِ الكفّارَ والمنافقين﴾
[سورة التوبة: الآية ٧٣]

وقال تعالى: ﴿وجاهِدْهُم به جهاداً كبيراً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٢]

أي بهذا القرآن، وبما جئت به من الدين، وذلك بالدعوة إليه وتبيين أنه دين العدل والرحمة والحكمة والخير والصلاح، للظاهر والباطن، والدين والدنيا.

وأعظم جهاد النبـي ﷺ للخلق بهذا النوع، فإنه مكث مدة طويلة يدعو إلى الله، ويبين للعباد محاسن الدين، ويقابل بينه وبين ضدّه من أديان أهل الأرض المنحرفة، ومن جاهليتهم الجهلاء، حتى دخل الخلق العظيم فيه متبصّرين، مقتنعين أنه الدين الحق، وأن ما سواه باطل، بالبراهين العقلية والفطرية، والآيات الأفقية والنفسية. قال تعالى:

﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يَتَبَيَّـنَ لهم أنَّه الحقُّ﴾
[سورة فصِّلت: الآية ٥٣]

وهذا الجهاد هو الأصل، وقتال اليد والسلاح تَبَـعٌ لهذا لكل معتدٍ على الدين. قال تعالى:

﴿وقاتِلُوهم حتى لا تكون فتنةٌ، ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾
[سورة الأنفال: الآية ٣٩]

فهذا الدين الإسلامي، بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأعماله، وما جاء به من القرآن، أكبرُ البراهين القواطـع الضرورية الدالّة على أن الله هو الحق، ورسوله حق، ودينه حق، وما عارض ذلك هو الباطل. وهو بنفسه جذّاب لكل من قصدُه الحق ومعه إنصاف. فإنه إذا نظر وحقّق عقائده فإنه يدعو إلى الإيمان الصحيـح بالله، وبأوصافه العظيمة، وأسمائه الحسنى، وبكل كتاب

أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبكل حق أخبر الله به ورسوله. وبذلك تمتلىء القلوب إيماناً ويقيناً ونوراً وطمأنينة بالله، وقوة توكل واعتماد عليه.

وذلك يوجب كمال الإخلاص لله، والقيام بعبوديته الظاهرة والباطنة والتبري من الشرك كبيره وصغيره. وإذا نظر إلى أخلاق الإسلام وجدّه رآه يحث على كل خلق جميل، ويحذّر عن كل خلق رذيل، ويدعو إلى القيام بحقوق الله وحقوق عباده وبالمعاملة الحسنة. وإذا نظر إلى تعاليمه وإرشاداته العالية رآه يحث على كل علم نافع مُزَكٍّ للقلوب، مطهّر للأخلاق، نافع للدين والدنيا، وأنه مرشد إلى كل صلاح وإصلاح. فشرحُ هذه الأمور للناس من أعظم الجهاد، فإنه يقوّي إيمان المؤمنين، وتزداد به بصائرهم ورغبتهم، ويحمدون الله الذي منَّ عليهم بهذا الدين الكامل الذي حوى كل خير علمي وعملي، وكل هداية ورحمة، وهو السبب الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة. وكذلك هو أكبر داع لمن وقف على حقيقته من الأجانب، وخصوصاً المنصفين منهم: فمُريدُ الحق إذا وقف على حقيقته لم يتوقف في تفضيله على كل دين، والمكابر يزلزل عقيدته ويخفف شرّه، وبه تندفع شُبَه المبطلين من الملحدين وغيرهم، فإن الحق يستولي على القلوب ويزهق الباطل، فإنه من عرف الحق معرفة صحيحة امتنع أن يقوم بقلبه باطل يقدّمه عليه، إلا إذا عارض ذلك غرض فاسد من كبر أو حسد أو رياسة أو تعصب أو غيرها.

ومن تأمل هذا الدين رآه يدعو إلى الصلاح والرشد والفلاح، والكتاب والسنة كفيلان ببيان ذلك كفالة تامة، فيهما الآيات والبراهين على أنه محال أن يحصل الصلاح الحقيقي، ولا سبيل للبشر إلى الإصلاح والخير والسعادة إلّا بهذا الدين، فإنه ما من مصلحة دقيقة ولا جليلة إلا أرشد إليها هذا الدين، ولا خير إلّا دلّ عليه، ولا شرٌ إلّا حذّر عنه: يأمر بتوحيد الله والإيمان به، ويحثّ على العلم والمعرفة والإذعان، ويأمر بالعدل والصدق في الأقوال والأفعال، وبالبر والصلة والإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وجميع

الخلق، وينهى عن الكذب، والظلم والقسوة، والعقوق والبخل، وسوء الخلق مع الأولاد والأهل والأصحاب وغيرهم، ويأمر بالوفاء بالعقود والعهود والمحالفات، وينهى عن النكث والغدر، ويأمر بالنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وينهى عن الغش يأمر بالاجتماع والتآلف والتحابب والاتفاق، وينهى عن التعادي والتباغض والافتراق. يأمر بالمعاملات الحسنة وأن توفِّي ما عليك كاملاً موفَّرًا لا بخس فيه ولا نقص ولا مماطلة، وينهى عن المعاملات السيئة والمطل والغش والبخس والتطفيف وأكل المال بالباطل وبغير حق. يأمر بأداء الحقوق الخاصة والمشتركة، ينهى عن ضدها، وعن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم بغير حق. يأمر بكل معروف وطيب ونافع ومستحسن شرعاً وعقلاً وفطرة. يبيح كل طيب، ويحرم كل خبيث. يأمر بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان. يأمر بعبادة الله وحده، وخوفه ورجائه وحده، والطمع في جوده وفضله، والتنوّع في فعل الأسباب المحصلة لخيره وثوابه، وينهى عن التعلق بالمخلوقين والعمل لأجلهم. يأمر بنبذ الوثنيات والخرافات المفسدة للعقول والأديان.

وبالجملة يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وضرر فشرح الدين على نحو هذه الطريقة شرحاً وافياً، وتطبيق تعاليمه وهدايته على أحوال البشر، وبيان أنها صالحة لكل زمان ومكان ولكل أمة، وأن الانحراف والشرّ والضرر إنما يكون بفقد روح الدين أو نقصها، وكذلك شرح أوصاف النبي ﷺ ونعوته وأخلاقه التي من تدبَّرها وعَرَفها وفهمها حق الفهم علم أنه ﷺ أعلى الخلق في كل صفة كمال، وأن كل صفة كمال له منها أعلاها وأكملها، وأن الكمالات الموجودة في الرسل، صلى الله عليهم وسلم، قد جمعت فيه على الوجه الذي لا يماثله فيه أحد، وبذلك صار سيدَ الخلق ومقدَّمَهم وإمامَهم وأرفعَهم عند الله قدراً وأعظمهم جاهاً.

# نبذة من أخلاقه وأوصافه ﷺ وشيء من سيرته الدالّة على أنه رسول الله حقًّا وأنَّ ما جاء به من الدين هو الحق على وجه الإيجاز

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لَفِي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤]

ومن نظر إلى سيرته ﷺ في مبدأ أمره ومنتهاه وبين ذلك وتطورات أحواله، وما حصل بذلك من الأحوال والانقلاب العجيب في العقائد والأخلاق والآداب والتشريع العادل الرحيم والخير والرحمة مما لم يعهد له نظير في تاريخ البشر، وبعد ما كانت الأرض مملوءة من الشرك والوثنية المستولية على عقول أكثر الخلق، والإلحاد والظلم والشر والفساد وسفك الدماء وقطيعة الأرحام والمعاملات السيئة بكل وجوهها، استبدلت بأضدادها من عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بعبوديته التي خلق لها الخلق، وبالقسط والعدل في جميع الحقوق، وبصلة الأرحام، والإحسان إلى جميع طبقات الخلق ــ عَرَفَ أن هذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، وكمال دينه وشريعته، وأنه أعظم مرشد ومصلح للبشر على الإطلاق.

فقد كان ﷺ معروفاً بين قومه بشرف النسب، وأن بيته أعظم بيوت العرب وخيرها. وكان معروفاً بين قومه قبل بعثته بالصدق الكامل، والأمانة التامة، والبر والعدل ومكارم الأخلاق، متربِّياً على الأخلاق الجميلة، متنزهاً عن الأخلاق الرذيلة، لا يعرف له شيء يعاب به لا قليل ولا كثير، ولا جُرِّب عليه كذبة واحدة ولا خيانة ولا ميل في شيء من أقواله وأفعاله. وكان نقي القلب، ناصحاً للقريب والبعيد، وَصُولاً للأرحام، موفِّياً بالعهد والذمام، حاملاً للكلّ، معيناً على نوائب الحق، متواضعاً لله ولعباد الله. حليماً صبوراً

عفوّاً محسناً، كامل العقل والرأي، حازماً مسدِّداً موفَّقاً في حركاته وسكناته، مـع أنه قد نشأ مـع أمة أمية لا تعرف الكتب ولا تدرس الشرائـع، وهو في نفسه لا يقرأ ولا يكتب:

﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينك، إذاً لارتاب المُبْطِلون﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٨]

﴿وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلاّ رحمةً من ربك﴾
[سورة القصص: الآية ٨٦]

فلم يزل محبباً له الخير، فعّالاً له، متنزهاً عن جميـع الشرور، حتى فاجأته الرسالة والوحي من الله تعالى، ورحم الله به الخلق فجاءهم برسالة عظيمة عامة فيها صلاح البشر كلهم وسعادتهم، وجاءهم بكتاب كريم لم يطرق العالم كتاب أعظم منه ولا أجلّ ولا أجمـع لكل خير ولا أغزر علماً منه. وأخبرهم بأمور عظيمة وتفاصيل جمة لم يكن في قومه من كان يعرفها، ولا في الأرض أحد عنده علم صحيـح ينافيها وينكرها. وأعلن بهذه الرسالة غاية الإعلان لعلمه اليقيني الذي لا ريب فيه أنها الحق، واعتماده على الحق، ووثوقه بوعد الله بالظهور. مـع كثرة الأعداء وتوفر المعارضين، من أهل الكتاب والأميين وغيرهم، فبادأهم وصرّح لهم بإنكار ما هم عليه من الشرك والشرور والأخلاق الرذيلة، وأن شريعته نسخت جميـع الكتب، وهيمنت على كل الشرائـع السابقة. فرماه الجميـع بقوس العداوة، وجدّوا واجتهدوا في ردّ ما جاء به، ونصر باطلهم. وتحدَّى قاصيهم ودانيهم وأولهم وآخرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فما استطاعوا ذلك، ولا قدروا على ردّ شيء من دينه، مـع أنهم مكروا مكراً كباراً، وأتوا بكل وسيلة وحيلة، فرجعوا منهزمين أمام الحق خائبين، والمنصف منهم لم يجد بُـدًّا من الاعتراف، والجاهد المكابر طفق ينصر باطله، فلم يبد حجة ولا برهاناً، بل ولا شبهة يتكيء عليها. ومن أكبر أدلة الحق معرفة ما قاله أعداؤه ومعرفة حججهم التي لا تغني من الحق شيئاً.

وجاء ﷺ للخلق وحده، لم يكن له في أول الأمر أعوان ولا أنصار، إلا الحق الذي هو نعم العونِ على الأمور كلها، فلم يزل يتبعه الواحد بعد الواحد من أولي البصائر والألباب والعقول الرزينة، على شدة عظيمة، ومقاومات من الأعداء عنيفة، فلم تزعجهم الكوارث، ولا عوّقهم عن قبول الحق خوف ولا ضغط من الأعداء، وأعداؤه هم أهل الرياسة ولهم السيطرة، فعادوه وعادوا أتباعه، وآذوهم أشد الأذية، وحرصوا على صرفهم عن دينهم، فلم يكن لهم بذلك طاقة ولا اقتدار، لأن إيمانهم صحيح ويقينهم تام لم يؤمنوا لرغبة بذلها الرسول ولا رهبة، وإنما الرغبة والرهبة في ذلك الوقت عند أعدائه، ولكن هو الإيمان الحق متى وقر في القلوب لم يرتدّ عنه صاحبه سخطة له، بل يراه أحب الأشياء إليه، وألذها لقلبه، وأعظمها فوزاً وسعادة.

فلم يزل ﷺ يدعو إلى هذا الدين بعزم صادق، وهمة لا تني ولا تضعف، ويقين وثقة بوعد الله، مع قوة المعارضات وشدة المقاومات من جميع الأعداء، ويتتبع العرب في مواسم الحج وغيره في منازلهم يدعوهم إلى الله وإلى دينه، والمتبع له إذ ذاك أفراد من الموفقين أولي البصائر، وأكثرهم معرضون ومعارضون مقاومون، وهو صامد لأمر الله، مصمم على الدعوة لعباد الله، مستقيم على أكمل طريقة من الصدق والعدل، والوفاء بالعهد، لا يتزعزع عن الاستقامة والأخلاق الفاضلة، والنصح والقوة في أمر الله، والشجاعة التي لا نظير لها في الأولين والآخرين، مع اختلاف الأحوال عليه من خوف وأمن، وفقر وغنى، ويسر وعسر، وضيق وسعة.

فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مكة مع الضغط العظيم، وانتشر في المدينة أكثر من ذلك، فأذن لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ليتمكنوا من إقامة دينهم، فجعلوا يهاجرون إليها أفراداً وجماعات. وفي ذلك الوقت عقد الرؤساء من قومه المجالس المتعدّدة للإيقاع به، وإطفاء النور الذي جاء به، ومكروا المكرات العظيمة، والله يكلؤه ويحفظه. وحين

بلـغ الأمر أشدَّه، وعزموا على الإيقاع والفتك به، ورتّبوا أمرهم وأجمعوا كيدهم أذن الله له بالهجرة فخرج في تلك الحال الحرجة إلى الغار هو وأبو بكر مختفيين وبوعد الله واثقين.

واشتدَّ الطلب، وعز التخلص والهرب، ولكن لطف الله ونصر الله فوق مكر الماكرين، قال تعالى:

**﴿وإذْ يمكُرُ بك الذين كفروا ليُثْبتوك أو يقْتُلوك أو يُخْرِجوك، ويمكرونَ ويمكُرُ اللّهُ واللّهُ خيرُ الماكرين﴾** [سورة الأنفال: الآية ٣٠]

**﴿إلّا تنصُروهُ فقد نصره اللّهُ إِذْ أخرجَهُ الذين كفروا ثانيَ آثنينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبه: لا تحزنْ إنّ اللّهَ معنا فأنزلَ اللّهُ سكينَتَهُ عليه وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْها﴾** [سورة التوبة: الآية ٤٠]

وهذا النصر من أكبر الآيات والبراهين على عناية الله به وحفظه إياه ووعده الصادق بتمام أمره ودينه. ثم هاجر إلى المدينة وعناية الله تصحبه، وحفظه وتوفيقه يرافقه، فتلقاه المسلمون، وكل قبيلة من قبائل الأنصار تدعوه إلى النزول عندها وتقول: هلمَّ يا رسول الله إلى العدد والعديد، فاختار الله له ذلك المنزل الذي بركت فيه ناقتُه ليكون مسجداً له ومساكن لنسائه، فاختطّ مسجده هناك، وعمل فيه مـع المسلمين، وبنى مساكن زوجاته بجوارِه، وسُرّ المسلمون بقدومه. ولم يزل الله يشرع له الشرائـع الكبار شريعة بعد أخرى بحسب المناسبات، ثم أذن له في القتال لما اشتدت مقاومات الأعداء بكل طريق، فلم يزل معهم يُدال عليهم ويدالون عليه حتى صارت له العاقبة والنصر عليهم.

ودخل الناس في دين الله أفواجاً حين شاهدوا أنوار الإسلام وهداية القرآن وإرشادات الدين، وكان دينه الحق وما جاء به من أكبر الأسباب لدخول الخلق في الدين، فإنه يدعوهم بنفس الحق الذي جاء به، والذي تنقاد له القلوب السليمة والعقول الصحيحة، وتلين له الصعاب، ويختاره أولو البصائر

والألباب الرزينة والآراء الصائبة، لما يرون من إصلاحه العقائد والأخلاق والأعمال كلها، ودعوته للصلاح المطلق بكل وجه واعتبار. وهذا وجه إدخاله في الجهاد، إذ هو أصله وأساسه، فإن الغرض من الجهاد انقياد الخلق للحق، ودخولهم في الدين الحق، وأكبر وسيلة لذلك معرفة ما جاء به الرسول، والوقوف التام على حقائق الدين.

وما زال ﷺ يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل طريق يوصل إلى الهداية، ويجادل المبطلين بالتي هي أحسن، حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين، وجمع الله به أمماً متباينة وقلوباً متفرقة وأهواء متشتتة، وأصلح الله به الظواهر والبواطن وكل أمر فاسد. وبعد ما كانت الأرض مملوءة من جميع أصناف الشرور، محقها الحق الذي جاء به، حتى امتلأت من الحق والعدل والرحمة والخير والنور، فمحا الظلمات المتراكمة، وحق الحق، واضمحل الباطل وزهق، إن الباطل كان زهوقا. فمعرفة الآثار والمنافع العامة العظيمة التي حصلت لأهل الأرض برسالته ودينه من أكبر البراهين الدالة على رسالته، وصحة ما جاء به من الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو دين جميع الرسل وأتباعهم، فهو الدين الذي أخباره في أعلى درجات الصدق، وهو الذي ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به، بل لو اجتمعت عقول الحكماء وسائر العقلاء على اقتراح دين أحسن منه وأصلح وأنفع للعباد لعجزت أفكارهم عن أن تصل إلى ما يقاربه. وأكمل الناس عقلاً من حصلت له به الهداية والرشاد، فإنه تنزيل من حكيم حميد. ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله هدىً ورحمةً ونوراً وحكمةً ورَشَداً، وحثّ فيه على كل إصلاح في أصوله وفروعه، وأرشد إلى المنافع الدينية والدنيوية.

ثم إنك إذا تأملت أحوال النبي ﷺ وتنقّلاته في دعوة الخلق ومعاملاتهم من أوليائه وأعدائه رأيت فيها الهدى الكامل والنصح التام، ورأيت

آثار دعوته ملأت قلوب المسلمين علماً ويقيناً ومعارف ربانية، واهتدَوْا بها إلى كل خلق جميل وتنزَّهوا عن كل خلق رذيل، فكما كانت آثار رسالته في نفسه أكمل الآثار فتجمعت فيه أصناف الفضائل والكمالات على أكمل وجه، وصار بذلك أكمل البشر في كل الأمور مطلقاً، فكذلك كانت آثار رسالته في أصحابه وأمته أكمل الآثار وأفضلها وأجلها، فلم يصل أحد من الأمم إلى ما وصل إليه أصحابه وأئمة الهدى من أمته وطبقات أهل العلم والإيمان من المعارف الصحيحة، والعلوم النافعة، والمعارف الربانية، والإيمان الصحيح، واليقين الكامل، والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، والرحمة بالخلق، والإحسان والعدل، وهذا من براهين صدقه وصحة ما جاء به.

وكذلك من براهين رسالته أنه في هذه المدة القصيرة مكّنه الله وبارك في عمره الشريف حتى أسس هذا الدين الذي هو أكمل الأديان وأعمها وأهداها للخلق، فقرر أصوله وفروعه، وحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا، وصار المثل الأعلى والقدوة للخلق فيما يأتون وما يذرون، وما يقولون ويفعلون. إنْ حُققت العقائد الصحيحة، والأخلاق الرجيحة النافعة المصلحة للقلوب، جُعل الميزان فيها عقيدته وأخلاقه، وإنْ فُصلت علوم الشريعة على سعتها وتنوعها كانت كلها مأخوذة من شريعته وتعليمه، وإنْ أريد الوصول إلى علم السياسة وفنون الحرب والسلم ومعاملة الأعداء من جميع الوجوه كان المدار فيها على هديه وعمله وإرشاده، وإنْ طلب علم الولايات كلها صغارها وكبارها: من الإمامة العظمى إلى ولاية الإنسان على عائلته وأهل بيته لم يوجد أكمل من طريقته فيها، وإن حصل البحث في أحوال القلوب ووسائل إصلاحها ودائها ودوائها لم يكن لذلك سبيل إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها. فلا يوجد علم صحيح ولا عمل ظاهر ولا باطن إلا وقد هدى الخلق إليه وأرشدهم إليه.

فهذه جمل مختصرة تدل على رسالته ﷺ، وصحة دينه، وأنه الدين

الحق الذي لا يصلح البشر غيره، وأنه لا دين إلا دينه، ولا طريق إلا طريقه، ولا تصلح الأمور كلها إلا باتباعه.

## ذكر البراهين من الكتاب والسنة الدالة على ربوبية الله ووحدانيته وصدق رسوله وصحة دينه

لما كان توحيد الباري أعظمَ الأمور وأكملها وأفرضها وأفضلها، وضرورة العباد إليه وحاجتهم فوق كل ضرورة تقدر، فإن صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم تتوقف عليه، نوَّع الله الأدلة والبراهين عليه، وكانت أدلةً واضحات وبراهين ساطعات.

فمن أوضح ذلك وأجلاه لكل أحد الاستدلال باعتراف الخلق بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، فإنهم يعترفون أن الله هو الخالق الرازق المالك للعالم العلوي والسفلي، المدبِّر لجميع الأمور، كما ذكر الله ذلك عنهم في آيات من القرآن كثيرة كقوله:

﴿ولئن سألتهم مَنْ خلَق السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللَّهُ﴾

[سورة لقمان: الآية ٢٥]

فإنه برهان واضح ينتقل الذهن منه بأول وهلة بأن من هذا شأنه وعظمته أنه هو المنفرد بالوحدانية الذي لا تصلح العبادة إلاّ له. وفي مقابلة ذلك يخبر أن من سواه مخلوق فقير عاجز غاية العجز، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينفع من دعاه في الدنيا ولا في الآخرة، بل يضره أعظم الضرر، وآثار الخلق والفقر التام على الخليقة كلها ظاهرة لكل أحد، وبذلك يعلم افتقارَ جميعهم إلى عبودية الله وإخلاص العمل له، كما كانوا مفتقرين في وجودهم وما به يكمل وجودهم إلى الله غاية الافتقار.

ومن براهين التوحيد ما يشاهده العباد من كرمه وجوده وإحسانه المتنوع، وأنه ما بالعباد نعمة دينية ولا دنيوية ظاهرة أو باطنة إلا من الله، وأنه لا يأتي بالحسنات إلاّ هو، ولا يدفع السيئات إلاّ هو. فمن كان هذا فضله وكرمه فهو المستحق للحب الكامل، والذل والعبودية، والثناء والحمد، والشكر المتنوع بالقلب واللسان والجوارح.

ومن براهين توحيد الله وصدق رسله ــ وهو دليل على البعث والجزاء بالأعمال ــ آياته في عباده المتبعين للرسل والمكذِّبين لهم: يبعث رسولاً إلى قبيلة عظيمة، فيدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العمل له، وينهاهم عن الشرك وأصناف الشرور، ويبعث على يديه من البراهين ما على مثله يؤمن البشر، فيؤمن به القليل منهم، ويكفر أكثرهم ويعاندون، ويتوعدهم بالعقوبات الدنيوية، قبل الأخروية، فإذا تم طغيانهم وتمرّدهم على الله وعلى رسله، أرسل عليهم عقوبات متنوعة: إما طوفان يغرقهم، أو ريح تحصبهم، أو صيحة تهلكهم، أو ظلة تحرقهم، أو يفلق البحر فيغرقهم، أو يقلب عليهم ديارهم ويمطر عليهم الحجارة التي تهلكهم، فلا يبقى من المكذّبين باقية، وينجو الرسول ومن تبعه:

**﴿إن في ذلك لآية، وما كان أكثرُهُم مؤمنين * وإنّ ربَّك لهو العزيزُ الرَّحيم﴾** [سورة الشعراء: الآيتان ٨، ٩]

وخاتمة ذلك ما نَصَر به خاتمَهم وإمامَهم محمداً ﷺ حيث بعثه بما بعث به الرسل من التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك والشرور. فقاومه أهل الأرض كلهم قريبهم وبعيدهم، ومكروا في نصر باطلهم وردّ ما جاء به محمد ﷺ مكراً عظيماً، فخذلهم ونصر نبيه، وأظهر دينه على الدين كله نصراً لا مثيل له، حتى وصل هذا الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا يزال هذا النصر الرباني من الله لأمته بحسب تمسكهم بما جاء به، إن في ذلك لآية على أن دين الله الذي هو الإيمان والتوحيد هو الحق، وأن ما عارضه باطل، وأن كل ما جاء به حق.

## من براهين الدين الإسلامي ما أخبر به من الغيوب المتنوعة

وقد قصّ الله في كتابه كثيراً من أنباء الغيب الماضية والحاضرة والمستقبلة المتعلقة بالخالق والمتعلقة بالخلق، وهي كلها حق وصدق مطابقة للواقع.

فمن ذلك ما أخبر به عن تفصيل الوقائع العظيمة الماضية، في قصص الرسل في أنفسهم، ومع أقوامهم من أتباعهم وأعدائهم، تفصيلاً تامًّا ليس لأحد طريق إلى الوصول إليه إلاّ من جهة الوحي الذي جاء به محمد ﷺ؛ ونهاية ما عند خواص أهل الكتاب من هذه الأمور نتف وقطع يسيرة لا يحصل منها قريب مما يحصل بالقرآن. ولهذا يخبر في أثناء هذه القصص المفصلة المبسوطة أن إتيان الرسول بها دليل على رسالته، كقوله عند ما ذكر قصة موسى مبسوطة:

**﴿وما كنتَ بجانب الغربيِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدين * ولـٰكِنَّا أنشأنا قُروناً فَتَطاوَلَ عليهِمُ العُمُرُ، وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتْلو عليهم آياتِنا ولـٰكِنَّا كُنَّا مُرسِلِين﴾**

[سورة القصص: الآيتان ٤٤، ٤٥]

أي إنه لا سبيل إلى معرفة هذه الأمور مفصّلة بتلقٍّ عن أحد، ولا وصول لك إليها إلاّ بالوحي رحمة من الله بعباده. وكذلك ذكر الله هذا المعنى في قصة يوسف المطوّلة في قوله:

**﴿وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم﴾** [سورة يوسف: الآية ١٠٢]

وفي قصة زكريا مع مريم:

**﴿وما كنتَ لديهم إذْ يلْقُون أقلامَهم أَيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذْ يختصِمون﴾** [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

وحين جاء ﷺ بهذه القصص مفصلة مبسوطة موافقة للواقع بطريق لا يُدرك إلاّ بالوحي عُلِم أنه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به حق.

ومثل ذلك خبره عن الملائكة والملأ الأعلى وقصة آدم وسجود الملائكة له بعد تلك المراجعات بينهم وبين ربهم قال:

﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾

[سورة صٓ: الآية ٦٩]

وأعظم من ذلك كله وأجلُّ إخبارُه عن الرب العظيم وأسمائه وصفاته مفصلة، بحيث جاء هذا القرآن بما لم يأتِ به كتاب قبله، وأخبر عن الله أخباراً عظيمة تعجز قُدَرُ الأوَّلين والآخرين وعلومهم ومعارفهم أن يأتوا بما يقاربها أو ينقضها أو بعضها، فجميع الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء والمأثور عنهم كل ما في ذلك فإنه في القرآن، وفي القرآن زيادات عظيمة وتوضيحات تدلّ أكبر دلالة وأقواها على أن من جاء بها إمامُ الرسل وسيد الخلق، وأن هذا القرآن مهيمن على ما قبله من الكتب. وأن كل حق قاله أو تكلم به أحد من الخلق فهو في ضمن القرآن ودلالته.

فإن قيل: كيف تجعلون هذا البرهان الذي هو خبر عن الله وأسمائه وصفاته من براهين هذا الدين، وحقية رسالة محمد ﷺ، وأدلة التوحيد والبراهين لا بد أن يعترف بها الموافق والمخالف، وتكون مبنية على الأصول التي يعترف بها العقلاء؟ قيل: الجواب عن هذا الإيراد يتضح بأمور:

منها أن الذي جاء به رجل أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، وقد نشأ بين أمة أميين، لم يجالس أحداً من أهل العلم، ولم يدرس كتاباً، ولم يزل على هذا الوصف حتى جاء بهذا القرآن العظيم، الذي معظمه هذه الإخبارات العظيمة المحكمة المتناسبة. فمجرد النظر إلى هذه الحال التي هو عليها، ومجيئه بهذا الكتاب المحتوي على هذه العلوم، برهان قويٌّ يضطر الناظر إليه ويعترف أنه حق، وأنه لا سبيل إليه إلاّ بالوحي والرسالة.

ثانياً أنه صدَّق المرسلين والكتب السابقة، فالذي جاء به موافق ومطابق لخبر الله وخبر رسله، شاهد له مهيمن عليه مع وصفه ﷺ بالأمية.

ثالثاً أن ما فيه من الأسماء الحسنى والصفات العليا كلها متناسبة متصادقة، لأن كل اسم منها ووصفٍ يدلّ على الكمال المطلق بكل وجه واعتبار كمال لا يقاربه كمال، ولا يمكن لعقول العقلاء أن تحيط بمعنى واحد من تلك المعاني والأوصاف العظيمة، فهو أكبر دليل على التوحيد والرسالة.

رابعها أن آثارها ومتعلقاتها في الوجود والخلق والأمر مشهودة محسوسة: آثار ما أخبر به من العظمة والملك والسلطان، وآثار ما أخبر به من الحكمة الشاملة والعلم المحيط، وآثار ما أخبر به من الرحمة والجود والكرم، وآثار ما أخبر به من إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإزالة الشدّات، وآثار ما أخبر به من شمول القدرة ونفوذ الإرادة وكمال التصرف والتدبير، إلى غير ذلك مما أخبر به عن الله، فإن آثار ذلك في الخلق مشهودة لكل أحد، لا ينكرها أو يتوقف فيها إلا مكابر مباهت. وكذلك آثارها في الأمر والشرائع فهو ﷺ يخبر عن أمر محكم، وغيب مشاهدة آثاره، محسوسة مقتضياته. وذلك يدل دلالة قاطعة أنه حق، وأن من جاء به هو النبي الصادق المصدوق.

خامساً هذه النعوت التي أخبر بها عن الله لا يمكن التعبير عن آثار كنه معرفتها في قلوب العارفين بها من التعظيم والإجلال الذي ليس له نظير، ومن الود والسرور والابتهاج الذي لذّات الدنيا بأسرها بالنسبة إليه أقل من قطرة بالنسبة إلى البحر، وهم خلق لا يُحصي عددهم إلاَّ الله، وهم خلاصة الخلق، والطبقة العالية من الناس، وأكملهم أخلاقاً واداباً، وأرجحهم عقولاً وأصوبهم آراء وأتمهم علوماً ومعارف، وقد اتفقوا على هذا الأمر العظيم ليس اتفاقاً اعتقادياً علمياً فحسب، بل اتفاق علمي يقيني وجدانيّ ضروري، فهذا الاتفاق الذي ليس له نظير، وهو من أعظم البراهين على رسالته، وصحة ما جاء به من التوحيد والحق، وهو من آثار ما أخبر به ونتائجه وثمراته الجليلة.
فإن قلت إنه قد يتفق طوائف من الخلق على بعض الأمور التي ليست بحق، ويكثرون جِدًّا، وقد لا يكون حقًّا إن لم يكن لهم بذلك برهان علمي،

فالجواب: أن الأمر كذلك، فكم يتفق على الباطل أمم لا يحصيهم إلا الله، ولكن ما ذكرنا من اتفاق أهل المعرفة بالله الموصوفين بأعلى الصفات لا يشبهه شيء من تواطؤ الطوائف واتفاقها، لأن هذا مبنى على علم يقيني واتفاق وجداني صادر من هؤلاء الكمل الذين هم أرفع البشر في كل فضيلة وخصلة كمال، وذلك عن بصيرة تامة وذوق كامل، ولهذا استشهد الله بهؤلاء على توحيده وصدق رسله فقال:

**﴿شهدَ اللَّهُ أنه لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسط لا إلَهَ إلاّ هو العزيز الحكيم * إنَّ الدينَ عند الله الإسلامُ﴾**

[سورة آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩]

فذكرَ شهادة أولي البصائر من الأنبياء والعلماء الربانيين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى على توحيده وعلى العدل، فدلّ أن هذا من البراهين الواضحة. وكذلك أخبر عن الملائكة وأحوال الملأ الأعلى وعن الجنة والنار وصفاتهما وصفات أهلهما والأعمال الموصلة إلى كل منهما بأمور يستحيل أن يأتي بها إلاّ نبي صادق بوحي من الله إليه، فإن معارف الخلق وعلومهم تقصر غاية القصور عن معرفة تفاصيل ذلك وبيانه، ولكنها رحمة الله وهدايته لعباده بعثها على يد خاتم الرسل وأكملهم رسالة.

## نوع من الإخبار بالغيوب

وأما الغيوب الحاضرة والمستقبلة الدالّ كل واحد منها على صدق الرسول وحقّية ما جاء به من الدين، فكيف بجميعها، فكيف إذا انضمت إلى براهين رسالته التي لا تحصى أجناسها فضلاً عن أفرادها.

فمن ذلك ما في القرآن من وعده لرسوله ﷺ أن يتم أمره، وينصره ويُعلي دينه ويظهرَه على الدين كله، ويخذل أعداءه ويجعلهم مقهورين أذلين. وهو كثير جداً مثل قوله تعالى:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣]

﴿واللَّهُ مُتـمُّ نورِهِ ولو كرِه الكافرون﴾ [سورة الصف: الآية ٨]

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ [سورة الفتح: الآية ٣]

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كله لله﴾
[سورة البقرة: الآية ١٩٣]

﴿قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنمَ وبئسَ المِهاد﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٢]

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسيُنْفِقُونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثم يُغْلبون﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٦]

﴿يا أيها النبـي حسبُك اللَّهُ ومَنِ اتَّبعك من المؤمنين﴾
[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْـعُ ويُوَلُّون الدُّبُر﴾ [سورة القمر: الآية ٤٥]

إلى غير ذلك من الوعود الصادقة التي وقعت طبق ما أخبر الله به، وأكثرها نزل قبل الهجرة والمؤمنون في غاية الضعف والقلة، كما قال تعالى:

﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ فآواكم وأيَّدَكُم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٦]

وكذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها النبـي قل لمن في أيدِيكم من الأسرى إنْ يَعلَمِ اللَّهُ في قلوبكم خيراً يُؤْتِكُم خَيراً مما أُخِذ مِنكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٠]

الآية. وقد فعل ذلك، وقوله:

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّلَ لكم هذه وكفَّ أيدِيَ الناس عنكم﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٠]

وقد فعل ذلك وله الحمد وأخبر أن صلح الحديبية فتح مبين مع ما حصل فيه من تلك الشروط التي كرهها كثير من المؤمنين ثم تبين لكل أحد بعد ذلك ما فيه من المصالح للإسلام والمسلمين مما لا يمكن حصره، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يَقْربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهِم هذا، وإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فسوفَ يُغنيكُمُ اللَّهُ من فضله إن شاءَ إنّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨]

وقد وقع كل ذلك. وأخبر أنه سيتوب على كثير من أئمة الكفر وينصر عباده عليهم كقوله:

﴿قاتِلُوهم يعذبْهُمُ اللَّهُ بأيدِيكُم ويُخْـزِهِم وينصُرْكم عليهم ويشفِ صدورَ قومٍ مؤمنينَ * ويُذهبْ غيظَ قلوبِهِم ويتوبُ اللَّهُ على من يشاءُ واللَّهُ عليم حكيم﴾ [سورة التوبة: الآيتان ١٤، ١٥]

﴿عسى اللَّهُ أنْ يجعلَ بينَكم وبينَ الذين عاديتم منهم مودةً واللَّهُ قديرٌ والله غفور رحيم﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٧]

وقد فعل ذلك وقوله:

﴿سيقول السفهاءُ من الناس ما ولاَّهم عن قِبْلتهم التي كانوا عليها﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٢]

وقد قالوا ذلك وقوله:

﴿فسيكفيكَهُمُ الله﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٧]

﴿والله يعصمك من الناس﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧]

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

﴿وإذْ يمكُرُ بك الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أو يقتلوك أويُخرِجوك ويمكرون ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠]

﴿إنهم يكيدون كيداً * وأكيدُ كيداً * فمهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [سورة الطارق: الآيات ١٥ ـ ١٧]

وقد أوقـع بهم من الأخذات مصداق ذلك، وقوله:

﴿وللآخِرَةُ خيرٌ لك مِنَ الأولى﴾ [سورة الضحى: الآية ٤]

أي كل حالة متأخرة من أحوالك خير لك من سابقتها، ومن تتبَّـع سيرته وأحواله ﷺ وجد ذلك عياناً في كل وقت من أوقاته، يزداد قوة وتمكيناً وتكميلاً، حتى قال له في آخر حياته:

﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

وقال تعالى: ﴿ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سيَغْلِبُون * في بِضْـع سنينَ﴾ [سورة الروم: الآيات ١ ـ ٤]

وقد وقـع ذلك كما أخبر، وقال تعالى:

﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبون﴾ [سورة الشعراء الآية ٢٢٧]

﴿وسيعلم الكفار لِمَنْ عُقبى الدار﴾ [سورة الرعد: الآية ٤٢]

وقد وقـع ما توعدهم به من العواقب الوخيمة، وقال:

﴿فستبصرُ ويبصرون * بأيِّكم المفتون﴾ [سورة القلم: الآيتان ٥، ٦]

وقد أبصر الجميـع أنهم المفتونون، وقوله:

﴿فإنّ مـع العُسرِ يُسراً * إنَّ مَـعَ العُسْرِ يُسراً﴾

[سورة الشرح: الآيتان ٥، ٦]

﴿سيجعـل اللّهُ بعد عُسرٍ يُسْراً﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقد يَسَّر الله الأمور بعد عسرها ووسعها بعد ضيقها وشدتها، وقال تعالى:

﴿وَعَدَ اللّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كمـا استخلف الـذين من قبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الـذي آرتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعدِ خوفهم أَمناً يعبُدُونني لا يُشرِكون بـي شيئاً﴾

[سورة النور: الآية ٥٥]

وقد أنجز وعده ولله الحمد. وقال:

﴿ولقد كتبنا في الزَّبُور مِنْ بعدِ الذِّكرِ أَنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥]

وقال: ﴿وَلَينصُرَنَّ اللَّهُ من ينصُرُهُ إن اللَّهَ لقويٌّ عزيز﴾

[سورة الحج: الآية ٤٠]

﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تَنصُروا اللَّهَ يَنصُرْكم ويثبتْ أقدامَكم﴾

[سورة محمد: الآية ٧]

وقد أنجز لمن قام بالشرط هذا الوعد، وقال:

﴿قلْ للمخلَّفِين من الأعراب ستُدعَون إلى قومٍ أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [سورة الفتح: الآية ١٦]

وقد دُعوا لذلك في وقت الخلفاء الراشدين ومَنْ بعدَهم من ملوك الإسلام الصالحين. وقال تعالى:

﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأَشهاد﴾

[سورة غافر: الآية ٥١]

﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧]

﴿أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإنّ اللَّهَ على نصرهم لقدير﴾

[سورة الحج: الآية ٣٩]

﴿لقد صَدَقَ اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحَلِّقين رؤوسَكم ومُقَصِّرين لا تخافون، فَعَلِم ما لَم تَعْلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٧]

فحصلت هذه الأمور كلها. وقال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لهبٍ وتبَّ * ما أغنى عنه مالُهُ وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأَتُهُ حمَّالَةَ الحطبِ * في جيدِها حبلٌ من مَسَدٍ﴾

[سورة المسد: الآيات ١ ــ ٥]

وقوله: ﴿ذَرْني ومَنْ خلقتُ وحيداً * وجعلتُ له مالاً ممدوداً﴾

[سورة المدّثر: الآيتان ١١، ١٢]

الآيات، إلى قوله:

﴿سأصليه سقر﴾ [سورة المدّثر: الآية ٢٦]

فأخبر عن أبـي لهب وامرأته وهذا الوحيد يَصْلى النار ومن لازم ذلك بقاؤهم على التكذيب والكفر إلى الهلاك فبقُوا على ذلك حتى هلكوا. وقوله:

﴿إنّا كَفَيْناك المستهزِئين﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٥]

فكفاه إياهم وأوقـع بهم العقوبات المتنوعة، وهي معروفة بين أهل السير. ولما ذكر مكر رؤساء الأحزاب والكُفر قال:

﴿جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ [سورة صٓ: الآية ١١]

﴿فَذَرْهُم يَخُوضوا ويلعَبُوا حتّى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يوعدون﴾
[سورة الزخرف: الآية ٨٣]

فوقـع ما أخبر الله به.

# فصل

ومن ذلك تحدّيه للخلق كلهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سُوَر منه أو سورة واحدة، وأنه لو اجتمعت الإنس والجِن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ فلم يقدرْ ولن يقدرَ أحدٌ من الأولين والآخرين على شيء من ذلك، مـع كثرة الأعداء وجدِّهم البليـغ في إطفاء نور الله، وردّ ما جاء به الرسول، ومن نزول القرآن وإلى أن تقوم الساعة والتحدِّي قائم، والبشر عاجز وفي غاية العجز عن ذلك؛ ومن طفق من بعض المكابرين أن يجاريه أو يعارضه أو يأتي بمثله ظهر عيُّه وصار ضحكة لأولي البصائر والألباب، وقال:

﴿قُلْ إنْ كانت لكمُ الدَّارُ الآخرةُ عندَ اللّهِ خالصةً مِنْ دونِ الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إنْ كنتم صادِقين * ولن يتمنَّوْهُ أَبداً بما قدَّمت أيديهم﴾
[سورة البقرة: الآيتان ٩٤، ٩٥]

فلم يقعْ منهم هذا التمنّي في وقت التحدّي الدالّ عليه السياق؛ وقوله في دعوة النصارى إلى المباهلة حين كابروا وجحدوا وعاندوا:

**﴿فمن حاجَّك فيه مِنْ بعدِ ما جاءك من العلم فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأَنفسَنا وأَنفسَكم ثم نَبتهلْ فنجعلْ لعنةَ اللَّهَ على الكاذبين﴾** [سورة آل عمران: الآية ٦١]

الآيات، وقال:

**﴿إذا جاء نصرُ اللَّهِ والفتح * ورأيتَ الناسَ يدخلون في دينِ اللَّهِ أفواجاً * فسبِّحْ بحمدِ ربِّك واستغفره إنّه كان توّاباً﴾**

[سورة النصر: الآيات ١ ــ ٣]

فأخبر عن هذه الأشياء فوقعت كما أخبر. وقال تعالى:

**﴿إنّا أعطيناكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لربك وآنْحَرْ * إنّ شانِئَكَ هو الأبْتر﴾**

[سورة الكوثر: الآيات ١ ــ ٣]

أي مقطوع الذكر الجميل، مقطوع من الخير، عواقبه وخيمة. فوقع ذلك بشانئيه. وقوله:

**﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقاً﴾**

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

**﴿وقلْ ربِّ أدخلني مُدخَل صِدقٍ وأخرجني مُخرَجَ صِدق وآجعلْ لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾** [سورة الإسراء: الآية ٨٠]

وقد فعل الله ذلك. وقوله:

**﴿إنّا نحن نَزَّلنا الذِّكرَ وإنّا له لحافظون﴾**، [سورة الحِجر: الآية ٩]

وهذا شامل لحفظ ألفاظه ومعانيه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا مشاهد محسوس. وقوله:

**﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللَّهُ بقومٍ يحبهم ويحبونه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾** [سورة المائدة: الآية ٥٤]

وقد فعل ذلك.

## فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وآيةٌ لهم أنَّا حملنا ذريَّتَهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مِثْله ما يركبون﴾

[سورة يس: الآيتان ٤١، ٤٢]

وقال: ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتَرْكبوها وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

وهذا شامل لكل ما يخلقه الله ويحدِثُه مما خلقه وعلَّمه الإنسان من أصناف المخترعات التي لا تزال تحدث: من المراكب البحرية والبرية والهوائية، ومن المخترعات الكهربائية والمغناطيسية، الحاملة للأصوات من الأماكن الشاسعة، وللأنوار والأثقال المرقية للصناعات ونحوها؛ فكل ما يحدث من دقيق وجليل فإنه داخل في هذه الآية ونحوها. قال تعالى:

﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بأس شديد ومنافعُ للناس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

﴿عَلّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

﴿واللَّهُ خلقكم وما تعملون﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦]

وإنما لم يصرح القرآن بمثل أسماء هذه الأشياء وأوصافها الخاصة لأنه لا فائدة في ذلك في ذلك الوقت، بل فيه مضرّة، لأن الناس لم يشاهدوا لها نظيراً، والنفوس مولعة بالتكذيب والإنكار لما لم يشاهدوه أو يشاهدوا نظيره، قال تعالى:

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أَرَيْناكَ إلاّ فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٠]

فإنه لما أخبرهم بالإسراء إلى بيت المقدس من المسجد الحرام وبالمعراج

إلى الله وبأن في النار شجرةً تخرج في أصل الجحيم حصل بذلك فتنة، مع أنها من المعجزات، وبعضها من أمور الغيب المتقرر مخالفتها لما يعرف الناس، فكيف لو صرح لهم وأخبرهم أن الناس سيطيرون في الهواء ويغوصون في البحار ويتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها، ونحو ذلك من الأمور الواقعة المدهشة، لو أخبرهم ببعضه لسمعت من الإنكار والتكذيب شيئاً كثيراً، ولكن أتى بكلمات جوامع يدخل فيها كل ما سيحدث إلى قيام الساعة، حتى إذا وقعت تبين دخولها في دلالة القرآن فازداد المؤمنون بذلك إيماناً، وقامت الحجة على المعاندين. ولهذا كلما توسعت معارف الناس في علوم الكون والطبيعة عرفوا من دقيق حكمة اللهوعظيم قدرته وحسن خلقه ونظامه العجيب في تدبير المخلوقات ومطابقة ذلك لما أخبر به شيئاً عظيماً. ولكن أبى المتمرِّدون إلا عتوًّا ونفوراً. وهذا من آيات الله، حيث تجد أناساً في غاية المهارة والذكاء في المخترعات وعلوم الكيمياء والطبيعة ونظام الكون، ومع ذلك لم ينتفعوا بعقولهم في أظهر الأشياء، ولم يهتدوا بها إلى أجل المعارف، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة دينه ورسوله وعبوديته الظاهرة والباطنة التي علومهم كلها من أولها إلى آخرها لا نسبة لها بوجه من الوجوه، ونهاية الأمر أن تكون من الوسائل:

**﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** [سورة الروم: الآية ٧]

مع أنك تشاهد فيهم من الكبر والزهو واحتقار الرسل وعلومهم ما يدلك أكبر دلالة أن الأمر كله لله، وأن من تكبر على الله وعلى رسله وتاه بعقله وكل إلى نفسه وعقله، فلم ينتفع إلا بأمور ضئيلة دنيوية حاضرة، وهذا مصداق قوله تعالى:

**﴿فلمّا جاءتهم رُسُلُهم بالبينات فَرِحوا بما عندهم من العلم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة غافر: الآية ٨٣]

وقال تعالى: ﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم أوْ مِنْ تحتِ أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٥]

وقد وقع العذاب من فوقهم بالقنابل المهلكة والدخان الخانق، ومن تحت أرجلهم بالديناميت الناسف المهلك والألغام المتلفة وما أشبه ذلك. ولنذكر هنا آية كبرى تشتمل على آيات فيها مصداق ما أخبر الله به وأخبر رسوله من التوحيد والرسالة والمعاد وأمور الغيب، وفيها أخذ الخناق بالمكذبين الماديين الملحدين فنقول:

## الكهرباء وأعمالها ونتائجها

قال الله تعالى: ﴿سَنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّـنَ لهم أنَّهُ الحقُّ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

وقال تعالى: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

لم تزل حقيقة الكهرباء ونتائجها الباهرة وأعمالها العجيبة في طي الخفاء والكتمان، ولم يصل إليها في غابر الزمان علم الإنسان، حتى ترقّت معارف الناس في العلوم الطبيعية والكيماويـة وعلوم الكون، فوصلوا إلى هذا العلم العظيم والكنز الثمين. وهو استخراج الكهرباء من المواد الأرضية والمائية والنارية وغيرها من المواد المتنوعة. فحققوا علمها، وفرّعوا أعمالها ونتائجها، بعد ما أتقنوا أصولها، فأوجدوا بها الصنائـع المتنوعة والمخترعات الباهرة وأوصلوا بها الأنوار والأصوات من المحال المتباعدة الشاسعة في أسرع من لمحـح البصر. وما زالوا ولا يزالون في ترقية مخترعاتها وتفريعها. أفليس الذي علّم الإنسان ما كان ناقصاً في علمه، ناقصاً في إرادته وقدرته وعمله وجميـع أحواله، أليس الذي علّمه هذه الأمور التي لم تكن تخطر ببال أحد من البشر بقادر على أن يحيـي الموتى، وأن يجمـع الأولين والآخرين بنفخة واحدة؟

﴿ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلّا كنفسٍ واحدة﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٨]

لم تزل كتب الله المنزلة على رسله، ولم تزل الرسل الكرام، تقرّر التوحيد والمعاد وأمور الغيب بأنواع البراهين والأدلة المتنوعة التي تجعلها من الأمور التي هي أعلى درجات اليقين، فلا تقبل ريباً وشكًّا بوجه من الوجوه. وأعداؤهم المكذِّبون برسالاتهم ليس عندهم ما يعارض هذه الأمور العظيمة إلّا مجرّد استبعادات استبعدوها بعقولهم القاصرة وآرائهم الكاسدة. يقولون: كما أنّ هذه الأمور متعذرة على قُدَر المخلوقين فكذلك هي متعذرة على الخالق.

هذا حاصل ما ردّوا به ما جاءت به الرسل من أمور الغيب والمعاد. ولم تزل هذه الطائفة المادية في نموّ وازدياد حتى طم بحرُهم في هذه الأوقات الأخيرة وانسلخوا عن أديان الرسل بالكلية، وكذّبوا ما جاءت به الرسل من أمور الغيب بهذه الشبهة وفشا الإلحاد وطغى الماديون الذين ينكرون بجهلهم وسفاهة عقولهم ما لم تصل إليه حواسهم، فأظهر الله هذه الآية الكبرى والحجة العظمى الدالّة دلالة يقينية عينيَّة على صدق ما أخبرت به الرسل ونزل به الوحي من أمور الغيب والمعاد فرأى كل من عنده أدنى عقل وإنصاف أنّ ما جاء به الرسول ونزل به القرآن هو الحق الصريح، الذي صدقت له الآيات الأفقية الكونية، فكل شبهة يُدلي بها المنكرون لما جاءت به الرسل يستندون فيها إلى المشاهدات الحسّية فقط، وأن الذي جاءت به الرسل يخالف ما زعموه من المحسوسات فيتعين في زعمهم إنكارُه، بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه. وهذه الآية من أكبر ما يزلزل شبهتهم ويدحض باطلهم ويردهم على أعقابهم مقهورين مغلوبين بالحق المؤيد بالمنقول والمعقول والمحسوس، فهذه المخترعات الناشئة عن الكهرباء ونحوها قد كان الرسل، صلى الله عليهم وسلم، يخبرون من أمور الغيب بما هو دونها أو فوقها أو مثلها، فيظل هؤلاء الضُّلّال يسخرون بها وبمن أخبر بها، فأراهم الله من عمل الآدميين ما لم يكن لهم في بال ولا حساب:

﴿وَقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إِنَّ الباطلَ كان زَهُوقاً﴾
[سورة الإسراء: الآية ٨١]

فالمؤمنون يزدادون بها إيماناً ويعلمون أن الذي أقدرَ الآدميين ـ على ضعفهم ونقصهم من كل وجه ـ على مثل هذه الأمور قادر على كل شيء، لا يُعجِزه شيء ولا يفوته شيء، وأن جميع ما أخبر به وأخبرت به رسله فهو الحق، والله له المثل الأعلى. فكل علم وقدرة في المخلوقين فالله هو الذي علّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرَهم على ما لم يكونوا عليه قادرين، وبذلك تقوم الحجة التي لا يستطيع أحد إنكارها على الجاحدين، وأن تكذيبهم الرسل محضُ مكابرة واستكبار صِرف، وأنه لا شبهة لهم فضلاً عن أن تكون لهم حجة. . أليس الذي أقدر البشر على هذه المقدورات ـ مع أن قدرة جميع الخليقة ليس لها نسبة إلى قدرة الخلاق العليم ـ قادراً على أن يحيي الموتى ويجمع الأولين والآخرين ويعلم ما تفرق من أوصالهم وما تلاشى من أجزائهم في أسرع من لمح البصر؟ أليس التنادي والتخاطب الذي ذكره الله في القرآن بين أهل الجنة وأهل النار مع البعد العظيم الذي كان المنكرون في ذلك الوقت يرونه محالاً ممتنعاً فجاءهم ما لا قِبَلَ لهم بدفعه؟ إلى غير ذلك من أمور الغيب التي قرّبتها للجاحدين بها هذه المخترعات غاية التقريب، ولكنهم كما قال تعالى:

﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ [سورة يُونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

فالمؤمن ينظر إلى هذه الآيات بنور إيمانه ويستفيد بها هدى ورحمة وإيقاناً:

﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمَّا الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهُم رجْساً إلى رِجْسهم﴾

[سورة التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥]

## فصل

ومن ذلك إخباره أن سنته في خليقته في نظام العالم وفي الأسباب والمسببات والجزاء بالحسنى للمحسنين وبالسُّوْءى للمسيئين لا تتغير ولا تتبدل، وهي كلها جارية على مقتضى الحكمة التي يحمد عليها؛ وهذا مشاهد في الشرع وفي الخلق والقدر. وقد يغيِّر الله بعض الأسباب عن نظامها المعتاد ليعرِّف العباد أنه المتفرد بالقدرة والتصرف، وأن جميع الحوادث خاضعة لمشيئته وقدرته، وأن ما أخبرت به الرسل من أمور الغيب حقّ، ومفردات هذا النوع من معجزاته ﷺ وكرامة أوليائه لا تُعد ولا تحصى، ولكن أبى الجاحدون إلّا أن يُنكروا ما أخبر الله به على ألسنة رسله مما صاروا الآن يفعلون نظيره، فآمنوا بقدرة الإنسان وكفروا بقدرة من هو على كل شيء قدير، فانقلب الأمر عليهم، وقلب الله قلوبهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، واستكبروا بعقولهم عن الحق فسلبت خاصيتها وفضيلتها الحقيقية.

## فصل

ومن أعظم علوم الغيب التي أخبر بها الله ورسوله بما أبداه الله وأعاده في كتابه وسنة رسوله أنه لا سبيل إلى هداية البشر وصلاحهم وسعادتهم الحقيقية إلّا بآتِّباع هذا الدين والأخذ بإرشاداته وتعاليمه. وهذا أمر لا يستريب فيه منصف، وهو مشاهد محسوس، فإن هذه الأمة في عصر الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين لما كانوا مهتدين بعلمه وإرشاده وتربيته الخاصة والعامة صَلُحَت دنياهم كما صَلُح دينهم، وصاروا المثل الكامل في العزة والقوة، والعدل والرحمة، وجميع الكمالات المستعد لها البشر، ثم لما ضيَّعوا هدايته العلمية والعملية لم يزالوا في نقص وضعف وذل مُطَّرد لا يزول ذلك حتى يراجعوا دينهم ويرجعوا إلى العمل بهدايته كلها، فهو الذي فيه الشفاء التام من هذا الداء العضال.

ثم في مقابلة ذلك، من العجب العجيب الذي ليس بغريب، أن الأمم الأخرى ارتقت في هذه الأوقات في الصناعات الضخمة والمخترعات المدهشة والسلاح الفتاك والقوة والسياسة والفنون العلمية المادية التي لم يشاهد الخلق لها نظيراً، وأنهم لم يزدادوا بها إلّا شقاء وهلاكاً وتدميراً، حتى صارت حضارتهم التي يعجبون بها ويخضع لها غيرهم مهدّدةً كل وقت بالتدمير العام، وجميع علمائهم وساستهم في حيرة من تلافي هذا الخطر، فهو خطر واقع ما له من دافع، ولن يتلافى ويدفع إلّا باتباع ما جاء به دين محمد ﷺ، المهيمن على جميع الأديان، الكفيل بكل خير وسعادة وفلاح، الجامع بين العلم والعمل، وبين سعادة الدنيا والآخرة. فالعلوم والفنون المادية والقوة المادية المحصنة التي لم تؤسس وتبن على الدين الحق خطرها عظيم، وشرها مستطير. فانظر أحوال الأمم تر العجائب. فهذا الارتقاء المادي الذي لم يشاهِدِ الخلق له نظيراً لما خلا من روح الدين كان هو الحبوطَ والهبوط، والسقوطَ الحقيقيَّ في الدنيا والآخرة، بل هو الشقاء والعذاب. والدنيا الآن كلها في خطر مزعج لا يعلم مدى ضرره وفظائعه إلّا الله، فلا حول ولا قوة إلّا بالله.

## فصل

ومن البراهين على أن دين الإسلام هو الحق، وأن ما سواه باطلٌ، أن تعاليمه العالية وتربيته السامية في أقصر مدة قد جمعت بين أمم متباينة وطوائف متعادية، وألّفت بين قلوبهم، وجمعت قاصِيَهم لدانِيهم، حتى صاروا إخواناً متحابِّين، وقُرَناء وأصفياء متعاونين، فحملوا بهذا الدين وبهذه الروح العظيمة المعنوية التي نفخ فيها الروح هذا القرآن على الأمم الضخمة والدول الكبرى والملوك الجبابرة فمزّقوا الجميع كل ممزّق، واحتلُّوا ممالكهم المملوءة بالظلم والعدوان والشرور، وملأوها بالعدل والرحمة والخير، فهذا من أعظم

براهين القرآن المشاهدة، ودين الإسلام مع ذلك يدعو إلى كل علم نافع في الدين والدنيا، ويدعو إلى كل خلق كامل وأدب جميل، كالإخلاص لله والنصح لعباد الله والتوكل على الله والالتجاء إليه في جميع النوائب، والطمأنينة بذكره، والشكر له على آلائه ونعمه، والصدق التام، والقيام بالقسط في حقوق الله وحقوق عباده، والندب إلى الفضل والإحسان الزائد عن الفرض، والشجاعة والكرم، والوفاء بالعهود والعقود، وحسن المعاملة وسلوك طريق التوسط في الأمور كلها، والعفو وحسن الخلق، وتربية الأهل والأولاد وكل من للمسلم عليهم ولاية، وينهى عن أضداد ذلك. فمعرفة ما يدعو إليه هذا الدين ويحثّ الخَلْقَ عليه من البراهين على أنه الحق.

## فصل

ومن براهينه التي وقعت مطابِقةً للواقع والمشاهدة، أنه أخبر أنه آيات لأولي الألباب، لقوم يعقلون، للموقنين. وهي آيات كثيرة تبين أن أهل العقول الوافية والبصائر النافذة بقدر ما أعطوا من هذه النعمة الكبرى واللب الكامل يكون حظهم من هدايته وإرشاداته ومقدار الانتفاع به، فتأملْ هداةَ هذه الأمة ومُرشِدِيها، هل تجد أكمل منهم عقولاً وألباباً، وأصوب آراء؟ وتأمّلْ هل تجد مسألة أصولية أو فروعية في هذا الدين قد شهد أحد من المعتبرين على فسادها أو ضعفها أو مخالفتها للواقع؟ وكل من قدح في شيء منها بُيّن بالبراهين المعترف بها بين العقلاء أن الخلل في دينه وعقله وفهمه أو في سوء إرادته.

وإذا أردت تفصيل هذه الجملة الكبيرة فاقرأ كتاب «العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكيف بين بالبراهين الواضحة العقلية على ضعف عقول القادحين في شيء من مسائل هذا الدين، وأن الذي زعموه عقلياتٍ هو جهلٌ وضلالاتٌ. وقد تحدّى الباري الخلقَ أن يأتوا بمثل كتابه أو ببعض مثله.

وهذا هو عين هذه المشكلة. فَلْيُرِنَا المنكِرون مسألة واحدة منه خارجة عن الحق والعدل والصلاح والرحمة والحكمة إن كانوا صادقين. .

فهذا الدين هو الذي يُصلح الأمم إصلاحاً حقيقيًّا، ولا يصلحهم سواه أبداً، وقد أكمل الله هذا الدين: فليس فيه نقص بوجه من وجوهه، لا في عقائده وأصوله، ولا في أخلاقه وآدابه، ولا في أعماله ومنافعه المتنوّعة، ولا في شرائعه وأحكامه وحكمه بين الخلق، ولا في ظاهره ولا في باطنه. فكل ضرر أو قصور أو تقصير أو إسراف ومجاوزة فَلِفَقْدِهِ أو نقصه. وهذه الأصول والجمل العظيمة نتحدَّى بها جميع البشر، وأنه محال أن يجدوا فيما جاء به الرسول نقصاً أو خللاً بوجه من الوجوه، فإنه جمع المحاسن والكمالات والمنافع كلها، ونهى عن القبائح والمضارِّ والمفاسد كلها، فليأتوا بمثال واحد يسلمه العقلاء مخالفاً لهذه الأصول التي أسَّسها هذا الدين، وجعلها قواعد خالدة نافعة يرجع إليها البشر في هدايتهم ورشدهم.

## فصل

ومن براهين القرآن وهذا الدين إخباره المتنوع بما تفعله هداية الكتاب والسنة في القلوب والأرواح والأخلاق، وأن الأمور المذكورة لا تَكْمُلُ ولا تتم ولا تصلح ولا تترقى إلا بهدايته، فوجد مخبره كما وصف. فهذا معروف لا ينكر، يشهد به أولو الألباب والبصائر، وهم أذكى الناس وأزكاهم وأصدقُهم وأورعُهم وأصحهم علوماً ومعارفَ وأذواقاً صحيحة، وأعدلُهم شهادة عن علم ويقين ووجدان، وذوق صحيح موافق للعلم واليقين. قال تعالى:

﴿يَهدي به اللَّهُ مَنِ اتَّبعَ رِضوانَه سُبُلَ السَّلام﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

فكل من قصد رضوان الله واجتهد في معرفته واتباعه هداه سُبُل السلام التي

أضافها إلى نفسه، لأنه الذي نصبها لوصول سالكها إلى الله عز وجل. والهداية المذكورة في الآيتين وغيرهما تشمل الهداية العلمية لكل علم نافع صحيح، والهداية العمل لسلوك طريق الصلاح باطناً وظاهراً. قال تعالى:

﴿من عمل صالحاً مِنْ ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

وأصل الحياة الطيبة طيب القلب وراحته وسروره، والقناعة والرضى عن الله، وهذا مشاهد أن من حقق الإيمان والعمل الصالح حصل له ذلك بحسب كمال ما قام به من الوصفين أو نقصه، فإن المؤمن الصادق لو كان في أضيق عيش وأشقِّ حالة فإن هذه الحياة الطيبة حاصلة له بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد. وقال تعالى:

﴿ألَا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٨]

وهذه الطمأنينة بذكر الله هي ما يجده أهل الإيمان والإحسان الصادقين من ذوق حلاوة الإيمان وحقائق اليقين والأنس بالله وانشراح القلب لطاعته وخدمته، والأحوال الزكية التي هي أحلى في قلوبهم من كل لذة يجدها الناس؛ وهذه براهين ذوقية وجدانية تكون في حقِّ هؤلاء، حق اليقين، وهي أعلى من عين اليقين. وقال تعالى:

﴿ومن يؤمنْ بالله يَهْدِ قلبَه﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

فقد تكفل الله بهداية القلوب لكل من حقق الإيمان بصدق، فإن إيمانه بالمأمور يقتضي فعله. وإيمانه بالمحظور وخوفه التام يقتضي تركه، وإيمانه بالمقدور الذي لا يلائم النفوس بأن يعلم أنه من عند الله فيرضى ويسلّم لأمره. فهذه الهداية التامة في هذه الأمور مشاهدة لمن حقق الإيمان، وهذا أمر معلوم مشاهد بالبصائر والأبصار.

# فصـــل

ومن ذلك ما تواترت بـه نصوص السُّنـة من إخباره ﷺ عن الأمـور المستقبلة، فوقعت طبق ما أخبر، ولا تزال بقيتها تحدث شيئاً فشيئاً، ولا بدَّ أن يقـع كل ما أخبر به، فإنه أخبر بالخلافة بعده، وأنها تكون ثلاثين سنة، ثم يعقبها المُلْكُ الذي فيه خير وشر وصلاح وفساد. وإخباره بأن الله زوى له الأرض، مشارقَها ومغاربَها، وأن مُلْكَ أمته سيبلـغ ما زوى له منها، فوصلت الفتوحات الإسلامية إلى المحيط الغربـي وإلى الشرق الأقصى من حدود الصين. وإخباره بما يقـع بعده من الفتن التي في صدر الإسلام وبعده. وإخباره بأن خير القرون قرنُه، ثم الذين يلونهم، فوجد مصداق ذلك في علومهم وأعمالهم وثمرات أعمالهم وإخباره بأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم مَنْ خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله، وظهر مصداق ذلك. وإخباره بفشوّ الزنا والخمر والحرير والذهب والجهل وقلة العلم وكثرة الهرج والمرج وتداعي الأمم على المسلمين كتداعي الأَكَلَةِ على الصحفة مـع كثرة المسلمين، ولكنهم غثاءٌ كغُثاء السَّيل لتفرُّقهم وتعادِيهم وذلِّهم وخضوعهم واستعبادهم للأجانب وفقد معنويتهم لإعراضهم عن هداية دينهم. وإخباره بتقارب الزمان، الذي من لازِمِه تقاربُ المكان، فكان هذا عين ما وقـع من قرب المواصلات الزمانية والمكانية بالمخترعات الحادثة. كما أن إخباره بمواقيت المناسك للأقطار قبل فتحها فيه الإخبار بفتحها، وأن أهلها سيُسلمون ويحجون؛ وتصريحه بأن أمته سيهزمون الأكاسرة والقياصرة، وتنفق خزائنها في سبيل الله. وإخباره بالكذابين المتنبئين بعده وأنهم سيبلغون ثلاثين كذّاباً فوقـع كل ذلك.

وإخباره بقتال أمته للترك، وأن أمته ستركب البحر غزاة في سبيل الله. وإخباره بأن أمته ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، والمراد هنا أمة الإجابة الذين آمنوا بالرسول وأجابوا دعوته، فمنهم اثنتان وسبعون فرقة

أهل بدع وواحدة أهل سُنة متمسكون بما عليه النبي ﷺ وأصحابه؛ وإخباره بخروج الخوارج المارقين، ووصفه لهم بالصفات المتعددة المطابقة لأحوالهم، وإخباره بظهور الخيانة، وفقد الأمانة، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وإخباره بقتال أمته لليهود، وأن العاقبة لهم وقد ظهرت مبادىء ذلك، وأنه لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، وقد بدت مبادئُ ذلك ولا بد أن يتم ذلك كله، وأنه لا تقوم الساعة حتى يقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون قيم خمسين امرأة رجل واحد، وقد وقعت أوائل ذلك بالحروب العالمية المهلكة، وأخبر بوجود خليفة في آخر الزمان يحثو المال حثياً ولا يعدُّه عدًّا، وأخبر عن النار التي تخرج في الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى فوقعت منذ مئين من السنين، وإخباره أنه لا بد أن يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما فعله أهله بعده، ومصداقه ما ظهر من الأعمال الكهربائية والمخاطبات التليفونية والهوائية والراديات المتنوعة التي لا تزال في نمو وازدياد، إلى غير ذلك من الإخبارات عن الوقائع في أحاديث صحيحة متعددة، وهي أحاديث معروفة لا يمكن إحصاؤها في هذا الموضع، وهذا من براهين الرسالة وآيات نبوته ﷺ.

وأما معجزاته التي شاهدها أصحابه في حياته من انشقاق القمر، وتسليم الجمادات والحيوانات عليه ومخاطبتها إياه، وإجابة دعواته الخاصة والعامة، وحصول بركة الطعام والشراب بملابسته، ونبع الماء من بين أصابعه في قضايا متعددة وشفاء المرضى وغير ذلك فقد صنفت فيها التصانيف الكثيرة وذكرت أجناسها وأنواعها وأفرادها، وكل واحد منها برهان على رسالته فكيف بجميعها، والعلم الضروري اليقيني حاصل ببعض تلك الآيات، وليس قصدنا في هذه الرسالة، وإنما مقصودنا بيان البراهين المشتركة التي بقيت مشاهدةً إلى يوم القيامة لتكون آية وبصيرة للمؤمنين وحجة على المعاندين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

## فصــل

قال الله تعالى: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأَخَذْنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوَتِين﴾ [سورة الحاقَّة: الآيات: ٤٤ ـ ٤٦]

وهذا من أعظم براهين رسالته ﷺ أن الله أخبر أنه لو تقوَّل عليه بعض الأقاويل ـ أي افترى على الله الكذب ـ أنه لا بد أن يهلكه، فإذا كان قد ادعى هذا الدعوى العظيمة أنه أرسل إلى الإنس والجن، وأن شريعته كاملة نسخت وهيمنت على شرائـع الأنبياء قبله، وأن من خالفه فهو ضالٌ غاوٍ، وعاداه على ذلك أهل الأرض عربُهم وعَجَمُهم، ورموه عن قوس العداوة، وأبدَوْا من مقاوماته القوليـة والفعلية مـا انتهت إليه قُـدَرُهم واستحل بـذلك دمـاءهم وأموالهم، والله مـع ذلك يؤيده بقوله وبفعله، وبنصره وخذلان أعدائه، حتى أظهر الله دينه الحق على سائر الأديان، فكانت هذه الحالة العظيمة أعظم وأكبر شهادة من الله شهد بها الحس والعيان، واضطرت العقول إلى العلم اليقين أنه رسول الله حقًّا، فإن الله بحكمته وقدرته ورحمته لا يؤيد الكذّاب المفتري عليه، فكيف والله قد أيده بتأييد ونصر لم يحصل لأحد من الأولين والآخرين، ويظهر صدقه بالآيات الأفقية والنفسية التي شهدها أولُ هذه الأمة وآخرُها، وشهد بها وسَمِعَها الموافقُ والمخالِف، قال تعالى:

﴿قُلْ أيُ شيءٍ أكبرُ شهادةً قُلِ اللَّهُ شهيدٌ بيني وبينَكم﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٩]

هذا بقطـع النظر عن حالته الخاصة مـع قومه وأهل بلده ونحوهم ممن كانوا لا يشكون في صدقه وأمانته وكمال أوصافه، التي لا يماثله ولا يقاربه فيها أحد، فإنهم لا يستريبون في ذلك قبل أن يقول لهم إني رسول الله، فلما قال ذلك كذَّبوه بل كذّبوا بها جَحداً منهم لآيات ربهم واستكباراً عن الانقياد لها، كما قال تعالى:

﴿فإنهم لا يكذِّبونك ولـكنَّ الظالمين بآياتِ اللَّهِ يجحَدُون﴾

[سورة الأنعام: الآية ٣٣]

فأراهم الله خاصة وأرى الخلق عامة من آيات رسوله وبراهين دينه آيات بينات وبراهين قاطعات، اضمحلت معها كل مقاومة قولية أو فعلية من كل معارض ومعاند وجاحد وملحد، وهي باقية قائمة على الدوام، تزول السموات والأرض والجبال وهي لا تزول، وتتحول كل حال من الأحوال وهي مستمرة لا تتحول ولا تحول.

## فصـــل

قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمَثَلٍ إلَّا جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

وهذا من آيات الله وبراهينه على صدق رسوله وصحة ما جاء به من هذا الدين المحفوظ في معانيه وألفاظه؛ فكما أن معاني الكتاب والسنة يستحيل أن يقوم دليل صحيح على كذب شيء من أخبارها، أو فساد ومنافاة للحكمة والعدل والرحمة في أوامرها ونواهيها ــ كما هو مقرر مبسوط في جميع أصول الدين وفروعه ــ فكذلك ألفاظ الكتاب والسنة معصومة جامعة بين دلالتها على الحق والوضوح التام، وأنه يتعذر أن يوجد في كلام أصناف الخلق مثلها في الإحكام والإتقان، وصلاحيتها لكل زمان ومكان وحال من الأحوال، ومتى ذكرت وبينت معانيها بياناً شافياً فإنها تجمع كل ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الخلق، وهي محفوظة مما دخل في كلامهم من الباطل، وفيها من دلائل الوحدانية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من الناس، ففيها أصول الدين المفيدة لليقين، وهذا أمر يعرفه من تتبع الكتاب والسنة وعرف ما قاله الناس من أصناف الكلام، فإنه يرى من النقص والزيادة والاختلاف والتناقض العجب العجاب.

# فصـــل

ومن أعظم براهين الدين الإسلامي التي لا يمكن إنكارها ولا المكابرة في ثبوتها أنه حكيم، محكم في أصوله وفروعه، لا فيه نقص ولا فساد ولا تناقض ولا اختلاف، قال تعالى:

**﴿أفلا يتدبَّرون القرآنَ ولوْ كان من عندِ غيرِ اللَّهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** [سورة النساء: الآية ٨٢]

فانظر إلى إخباراته المتنوعة عما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العليا والأفعال الحميدة على تنوُّعِها وتصريفِها في كل أسلوب ومعنى من المعاني تجدْها كلَّها متوافقةً متصادقة دلَّت كلها على غاية الكمال الذي تقصِّر الأفكار عن تصور كنهه، والألسن عن التعبير عنه ووصفه، وأنه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، وكذلك أخباره عن الآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب وأصناف النعيم والعذاب، وأخباره عن أنبيائه وقصصهم المختصرة والمبسوطة، كلها متشابهة في الحسن والصدق والاتفاق وعدم التناقض والاختلاف، قال تعالى:

**﴿ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قيلاً﴾** [سورة النساء: الآية ١٢٢]

وكذلك إذا نظرت إلى الشريعة في أصولها وفروعها، ظاهرها وباطنها، رأيت ما تأمر به كلُّه خيرٌ وإصلاحٌ للقلوب والأرواح والأبدان، وكلها خيرات ومنافع ومصالح. وما تنهى عنه فهو بضد ذلك شر وضرر. وإذا تعارضت المصالح والمفاسد قدم الشارع أهمها وأرجحها، وهذا من أعظم الآيات وأكبر البراهين. فتتبعِ الدينَ كلَّه مسألةً مسألةً تجدْهُ على هذا الوصف المحكم المتقن الذي قصد به سعادة البشر في معاشهم ومعادهم، وأن يزول عنهم الشقاء والضرر، قال تعالى:

**﴿أَفحكمَ الجاهليةِ يبغُونَ ومنْ أحسنُ من اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنون﴾** [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وإذا أردت تحقيق هذا الأمر الكلي فانظرْ كل إصلاح موجود واقع من أحد من

البشر، سواء من الموافقين أو من المخالفين: إصلاح في الأخلاق أو الآداب أو العلوم أو العمل أو الدنيا أو غير ذلك مما هو إصلاح.. انظرْ من أين مصدره، ومن أي طريق وصل إليهم، تجدْه بلا ريب من هذا الدين الكامل، وإنْ صَبَغَه الأعداء بغير صبغته، وغيروا وجهته، فليقولوا عن شيء من الإصلاح إنه ليس من دين الإسلام إن كانوا صادقين، كما أنه لا يوجد فساد وضرر وظلم وقبيح وسقوط إلّا ودين الإسلام أبعد شيء عنه، وهو يحذر عنه غاية التحذير.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا فاعلم أن دين الإسلام أَمَرَ بكل ما فيه ترقية للعقائد والأخلاق والآداب التي تكمل بها القلوب والأرواح وتحصل السعادة الكاملة، ويأمر أيضاً بكل ما يُرقِّي الأمم من أصناف العلوم والأعمال النافعة، فما من منفعة وخير ديني ولا دنيوي إلّا جاء به وأرشد إليه وحثَّ عليه بكل وسيلة، فمن قام بالأمرين سَعد في معاشه ومعاده، وتم له الفلاح والصلاح والكمال المتنوع، وسلم من كل شرٍّ وضرر، ونقصٍ عاجل وآجل، ومن فقد الأمرين ـ الرقي الروحي والدنيوي ـ حصل له الشقاء التام وخسر الدنيا والآخرة، ومن اعتنى بالرقي الدنيوي المادّي وحدَه ولم يبن رقيَّهُ على الحق والدين الصحيح فإن مادّته كثيراً ما تكون هي مادة ضرره العاجل، كما يشاهده البشر من أمم الحضارة المادية المحضة كيف وقع بها من الهلاك والفناء والتدمير ما لم يوجد له مثيل ولا نظير، وذلك بأيديها وأعمالها، وهي مجدة كل وقت في الاستعداد لإهلاك بعضهم بعضاً واستعباد الأمم الضعيفة، وهم مهددون بالحروب التي تقضي القضاء التام على هذه الحضارة المزعومة المزخرفة المزوقة بالأقوال الكاذبة والأفعال المزورة التي يظهرون أنها صلاح وإصلاح وهي عين الشرّ والضرر، فلو أنها بنيت على الدين الحق الذي هو دين الإسلام، وصار العدلُ والحكمة والرحمة روحَها، وطلبُ التقرُّب إلى الله والقيام بعبوديته التي خلقوا لأجلها، والاستعانة بالنعم الجسيمة على طاعة من أنعم بها، واحترام حقوق البشر، لو أنها كانت كذلك لسعد بها البشر

سعادة لا شقاء فيها، ولحصلت لهم الحياة الطيبة واطمأنوا من الأخطار الفادحة، والشرور المدلهمة المتنوعة، والقوارع التي تنتابهم في كل ساعة، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون!..

## فصل

قال تعالى: **﴿شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نُوحاً والذي أوحَينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسَى وعِيسى أنْ أَقِيموا الدِّين﴾**
[سورة الشورى: الآية ١٣]

وقال: **﴿قولوا آمنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ واسمٰعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيون مِنْ رَبِّهِمْ لا نفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

فمِنْ أعظمِ الأدلة على رسالة محمد ﷺ، وأنَّ دينَه هو الحق أنه أمر بالإيمان بجميع الرسل، وبكل ما أوتوه من الله من الكتب والشرائع والحق، مع تضمُّنِه الاستسلام الكامل والإخلاص التام لله، وهو مصدِّق لجميع الأنبياء، وشريعته وكتابه مهيمنٌ على الكتب والشرائع كلها شاهداً عليها وحاكماً مؤتَمناً، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة، وقرر ما فيها من أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، وهي صالحة لكل زمان ومكان، وجاء بالأصول الكلية التي يهتدي بها جميع طبقات البشر إلى مصالحهم. فهذا القرآن وهذه السنة كفيلان بذلك كفالة تامة.

وقد تتبع المحققون المنصفون ذلك فوجدوا جميع أصول الإصلاح التام مذكورةً وموضحة في الكتاب والسنة، منها ما هو منصوص عليه بعينه، ومنها ما جعلت له القواعد والأصول التي لا يمكن تحصيل الإصلاح ولا حصوله إلَّا بها. مثال ذلك على وجه التقريب أنها أصلحت العقائد الإصلاح

الأكبر بمعرفة الله معرفة تفصيلية تملأ القلوب تعظيماً وإجلالاً ومحبة وتألُّهاً لله وإيماناً به ويقيناً وإخلاصاً؛ وأصلحت الأخلاق والآداب بأمرها بكل خلق جميل، كالصبر والعفة والحياء والكرم والشجاعة وحسن الخلق، والعفوِ عن المسيئين والإحسان المتنوع إلى جميع الخلق، وصلةِ الأرحام والقيام بحقوق الأصحاب والجيران والمعاملين وجميع من بينك وبينه معاملة أو صحبة أو اتصال؛ وأصلحت الأحكام الكلية والجزئية بالأمر بالقسط والعدل في حق الكبير والصغير والقوي والضعيف، والنهي عن الظلم من كل وجه، وقمعت المجرمين والمفسدين بالحدود المناسبة للجرائم بحسبها، وكفلت الحياة الزوجية والمنزلية بإيجابها للحقوق المتنوعة التي لا تتم الراحة والحياة الطيبة إلّا بها.

وأصلحت السياسة وتدبير الأمة بالأمر بالشورى والحثِّ عليها، والأمر بردّ الأمر الذي تخشى عواقبه إلى أهل الحل والعقد لينظروا فيه ويقرروا ما ثبتت مصلحته، ويدفعوا ما ظهرت مفسدته، وبالأمر بالاستعداد الممكن والتحرز التام من كيد الأعداء والتحصن من أضرارهم، وبقوة الإيمان بالله والتوكل على الله في دفع الأعداء ومقاومة جميع الشرور، مع الصبر والطاعة لأولى الأمر، ونهت عن كل ما ينافي ذلك من التفرق والتعادي والكسل والخوَر والجبن واختلال النظام الطيب، كما أمرت أن ينتدب لكل أمر مهم من جمع بين الكفاءة والأمانة، وكما أمرت بالمعاهدات السلمية النافعة الدافعة، وأمرت بالوفاء وأداء الأمانة والصدق في كل معاملة عامة أو خاصة، وبمكافأة المحسنين من كل أحد على قدر إحسانهم قولاً وفعلاً، وأمرت بالتوسط في الأمور كلها، ونهت عما يضادّ ذلك من غلو وتقصير ومن إسراف أو تقتير، وأباحت كل طيب من مآكل ومشارب وملابس ومناكح وغيرها، وحرمت كل خبيث منها.

ومما يبين هذا أن دين الإسلام كلما نظر فيه الناظر وناظر عنه المناظر

ظهرت براهينه وقوي يقينه وازداد نوره وقوي به إيمان المؤمنين؛ وإذا قابله ما يضادُّه من كل باطل ظهر فساده وقبحه وبناؤه على ظنون وشبهات لا تسمن ولا تغني من جوع، وظهر الكذب في أخباره والباطل في أحكامه، فإن الحق والباطل ضِدّان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان. قال تعالى:

﴿فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال﴾ [سورة يونُس: الآية ٣٢]

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمَغُهُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٨]

وهذا النوع الذي هو الاستدلال بنفس ما جاء به النبي ﷺ وأنه آيات وبراهين على رسالته وصحة ما جاء به أبلغ بكثير من دلالة المعجزات الظاهرة المتنوعة، فإن هذا برهان عظيم يخضع له جميع العقلاء، ولهذا كان في دعوة النبي ﷺ وأصحابه إلى هذا الدين بيان ما يدعو إليه وما يأمر به وينهى عنه، كما استدل الصحابة رضي الله عنهم بذلك عند ملك الحبشة لما دعاهم وسألهم عما يدعو إليه محمد ﷺ فأخبروه أنه كان ينهى عن عبادة الأوثان، وعن الفواحش والظلم وقطيعة الأرحام، وأنه يأمر بعبادة الله وحدَه وبصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وبالزكاة والصلاة والصيام فصدّقهم بذلك واعترف برسالته وآمن به.

وكذلك هرقل ملك الروم الذي هو من أعلم النصارى في وقته لما جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام سأل أبا سفيان بن حرب ومعه قومه عن صفات النبي ﷺ فأخبره بها فأقرّ واعترف أنها صفات الأنبياء، وأن مَنْ هذا وصْفُه فلا بد أن يظهر دينُه، فقال هرقل لأبي سفيان في جوابه عن أسئلته: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها؛ وسألتك: هل قال أحد قبله هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت هذا رجل يتأسّى بقول قيل قبله.. إلى أن قال: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ فذكرت أنَّ ضعفاءَهم اتَّبعوه وهم أتباع

الرسل، أي في أول دعوتهم لمخالفتهم لأغراضهم، ولا ينافي بعد ما يقوم دين الرسل اتباع الأشراف له كما هو الواقع؛ وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ؛ وسألتك: أَٱرْتَدَّ أحد سخطة عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا؟ وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. فذكر من علامات النبوَّة زيادة الإيمان وزيادة الداخلين فيه ومحبة أهله له وإيثارهم إياه على كل ما سواه إذا ذاقوا حلاوته وخالط نوره قلوبهم. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا؛ وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فعرف بهذه الخصال أنه رسول الله، فإنها من أبلغ الأدلة وأجلى البراهين على ذلك، وكذلك ملك مصر وغيره من الملوك الذين عرفوا صحة نبوته وكمال دينه بكمال ما يدعو إليه من كل خلق حميد وفعل سديد وعمل رشيد، ونهيه عما يضادّ ذلك أو يكون فيه ضرر على العبيد.

## فصل

قال تعالى: ﴿بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين﴾

[سورة الصَّافَّات: الآية ٣٧]

وأخبر في عدة آيات عن هذا المعنى، وهذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، فإن جميع النبوات لا يمكن إثباتها بطريق من الطرق العلمية إلاّ بعد إثبات نبوة محمد ﷺ، فمن زعم أنه مصدِّق ومتَّبِع لأحد من الأنبياء، كموسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء الكرام، مع تكذيبه لمحمد ﷺ فإنه يقال له: بأي طريق وأي برهان أثبت به نبوة هذا الذي آمنت به؟ فإنه لا يذكر طريقاً ودليلاً على ما يقول إلاَّ ومثلُه وأعظمُ منه يدل على نبوة محمد ﷺ؛ فإن طرد دليله لزمه حتماً أن يعترف بمحمد ﷺ، وإن قال: اثبتُّ بهذا الدليل نبوة الرسول الذي آمنت به دون إثباتي به نبوة محمد، ظهر عناده ومكابرته واتباعه هواه، وأن

تكذيبه لمحمد ﷺ في الحقيقة تكذيب للرسول الذي يزعم أنه مؤمن به، فإذا قال: علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، قيل لهم: معجزات محمد ﷺ أعظم وتواترها أكثر والكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أكمل وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن، وموسى شريعته مبنية على العدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، ومحمد، صلى الله عليه وعليهم، قد جمع في شريعته بين العدل والفضل، فكل برهان أيد به رسالة النبيين الكريمين فبراهين رسالة محمد ﷺ أكمل وأقوى وأجلى، وكل شبهة وجهها أهل الكتاب على رسالة محمد ﷺ يلزمهم ما هو أبلغ منها في توجيهها إلى رسالة النبيين الكريمين، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ لم يصح له إيمان بأحد من الرسل لا نقلاً ولا عقلاً، فرسالته ﷺ أيدت رسالة المرسلين وصدَّقتها وثبَّتتها، فإثبات الفرع بدون أصل محال وممتنع.

## فصل

ومن براهين الأديان ومحاسنها عموماً وبراهين الإسلام ومحاسنه خصوصاً أنها أخبرت عن أمور الغيب أخباراً مفصّلة عظيمة ينتفع بها الخلق في عقائدهم وإيمانهم ويقينهم وفي إصلاح أخلاقهم، أخباراً تفيد القطع واليقين كالأخبار عن الله ونعوته وأفعاله، وعن الملائكة والجن وعن اليوم الآخر والجنة والنار، وفرضت على الخلق اليقين التام بكل ما أخبر الله به وما أخبرت به رسله، وأن يقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه، وبين لهم أنه لا طريق لهم إلى معرفة كُنه ذلك وحقيقته، ونهى عن التكلّف بطلب معرفة كُنْهِ ذلك، وأنه لا سبيل للبشر إليه في هذه الدار التي هي دار الابتلاء والامتحان ودار العمل، فإن مقصود الإيمان بالله وبكتبه ورسله لا يتم إلا بالإيمان بالغيب، وتسليم أمور الغيب وتفاصيلها إلى ما ذكره الله في كتابه وأخبر به رسوله، فإن الكتاب والسنة يحويان من أمور الغيب ما لا يوجد ما يقاربه في جميع العلوم المأثورة عن الأنبياء، وبالوقوف على ذلك وعدم تعدّيه يحصل المقصود من التكليف

والامتحان بالشرائع، ولو صار الغيب مشاهَداً ومعروفاً للناس في هذه الدار زال هذا المقصود الأعظم ولم يحصل الإيمان الاختياري المثمر للسعادة الأبدية، ومهما ارتقت معارف البشر في علوم الكون فلن يصلوا إلى معرفة حقيقة هذا الغيب، قال تعالى:

﴿عالِمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول﴾

[سورة الجنّ: الآيتان ٢٦، ٢٧]

وبهذا يعرف أن أمور الغيب خارجة عن طور المحسوسات، وأنه لا سبيل للعقول إلى التوصل لإدراكها، وأنه يجب التسليم التام فيها إلى الشارع بلا قيد ولا شرط. وبهذا نعرف أن من شرط في الإيمان بهذا النوع أنه لا بد أن يدخل في علوم البشر وفنون المعارف الكونية والمادية فهو في الحقيقة لم يؤمن بالأنبياء وبما أوتوه من الله، ونعرف بذلك غلط المجارين للماديين من العلماء العصريين واعتذارهم بأن قصدهم التقريب للأمور الغيبية من الأمور المادية المدركة بالحواس اعتذار فيه خطل وغلط كبير، فإن الماديين الذين لا يؤمنون بغير المادة والطبيعة هم منكرون للرب ولرسله ولليوم الآخر، فالواجب التكلم مع أمثال هؤلاء في براهين التوحيد والرسالة والمعاد، وبراهين وجوب تصديق الأنبياء في كل ما أخبروا به، وفيه من الأضرار أنه يضر المسلمين ولا ينفع في مجادلة المعطلين، أما ضرره في حق المؤمنين فإنه يُضعف الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله إضعافاً ظاهراً، فإن من لا يقنع بخبر الله وخبر رسله في أمور الغيب حتى يقوم عنده وبزعمه دليل عقلي على ذلك فهذا فتح لباب الاستغناء عن الرسل ومشابهة لمن قال الله فيهم:

﴿لَن نؤمن حتى نُؤتَى مثلَ ما أوتيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٢٤]

﴿فلما جاءتهم رُسُلُهم بالبيناتِ فَرِحوا بما عندهم مِن العلم﴾

[سورة غافر: الآية ٨٣]

فكل من لم يؤمن بالرسول إيماناً تامًّا ــ سواء قام عنده دليل عقلي أو حسي على ما قاله الرسول أو لم يقم ــ فليس بمؤمن إيماناً صحيحاً. وأما المنكرون

المعطِّلون فالدخول معهم في هذه المباحث والانهماك في تمثيل أمور الغيب بأمور المادة معهم إغراءٌ لهم على لزوم ما هم عليه من الإنكار، لأن هذا الذي يزعم أنه ينصر الدين نهاية ما يصل إليه أن يجعله تابعاً لعلومهم، وقد خالف إجماع المسلمين والسلف الماضين فإنهم أجمعوا على أن أمور الغيب يجب على الخلق فيها أن ينتهوا فيها إلى ما عرَّفهم الله منها وما عرَّفهم رسوله، وأن يكونوا بذلك موقنين، وأن لا يتكلفوا معرفة الوقوف على الكُنه والكيفية والتفاصيل الخارجة عن خبر الله وخبر رسوله، وإنما الواجب أن يُجعل الكتاب والسنة أصلاً والعلوم العقلية والطبيعية والكونية تابعة، وبذلك يحصل الإيمان الصحيح ويعلم أن جميع العلوم تابعة له وأنه لا يرد شيء من العلوم الصحيحة مناقضاً للكتاب والسنة، بل جميع الحقائق الصحيحة والعلوم الناضجة والمعارف التي اتفقت عقول العقلاء عليها كلها تابعة وخاضعة لعلوم الدين، وقد تتبع المحققون ذلك مسألة مسألة فوجدوها كلها كذلك، والله أعلم.

ومن غرائب الجهل الفاضح حصر كثير من الماديين السنن الإلّهية التي يسمّونها سنن الطبيعة في نوع ماديٍّ محض، يدخل تحت علومهم وإدراكاتهم التي هي في غاية القصور، وأنها كلها مندرجة تحت التفاعل بين المواد والجواهر الكيماوية والتجارب المكررة، وبهذا الطريق الجهلي لا العلمي نَفَوْا أمور الغيب، ونَفَوْا معجزات الأنبياء، ونفوا تغيير الباري للأسباب عن نظامها الذي يعرفون، وهذا من أعظم مضارّ الجهل وقبائحه؛ وقد دلّت البراهين اليقينية والكتب السماوية كلها، بل والمحسوسات والمشاهدات التي لا يمكن إنكارها، على أن لله سنناً متنوعة، وأن عناصر العلم العلوي والسفلي منقادةٌ لإرادة الله وحكمته وعلمه المحيط، وأنه يُجري المقادير والحوادثَ على سنن حكيمة متنوعة، فقد تُعقل أسبابها، وقد لا يَعقل من العباد أسبابَها إلاّ من ارتضاهم الله لرسالته واختصهم بوحيه، فيطلعهم على ما شاء منها، كما أشهد

عباده ما فعله بأنبيائه وأتباعهم من أصناف الإكرام والنجاة الدنيوية، وكما فعل بأعدائه من العقوبات المتنوعة.

وجميع معجزات الأنبياء وبراهين رسالاتهم من سنن إلّهية ونوع غير النوع الذي تجري عليه الأمور العادية وآثار الأعمال، وكما جعل الأدعية من أكبر الأسباب لحصول المطالب ودفع المكاره وجعل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم، وفلق البحر لموسى وقومِه، فأخذوا منه طريقاً للنجاة وسلكه فرعون وجنوده فأدّى بهم إلى الهلاك، وكما جعل على يد عيسى إبراءَ الأَكْمَهِ والأَبرص وإحياء الموتى، وشق القمر آية لنبيه محمد ﷺ، وكلّمته الجمادات، وحصل على يديه من المعجزات المتنوعة أمور كثيرة لا يمكن إحصاؤها ليعرف العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه حكيم عليم، وأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

## فصل

قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نُوحي إليه أنه لا إلّه إلّا أنا فاعبدونِ﴾** [سورة الأنبياء: الآية ٢٥]

وقال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزُّبُر﴾** [سورة النحل: الآيتان ٤٣، ٤٤]

وغيرها من الآيات الدالة على أن ما أتى به محمد ﷺ من أصول الدين والشرائع العامة هو ما جاءت به الرسل، وأنه متقرر ذلك عند كل عارف منصف من أهل الكتاب، وهذا من البراهين على أنه رسول الله حقًّا، فالكتب السابقة والرسل متفقة على الأمر بعبادة الله وحدَه والنهي عن الشِّرْك به، وعلى أن الدين عند الله الإسلام المحتوي على الأمر بإخلاص الدين لله، والصدق والعدل، وبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام، والنهي عن الظلم والفواحش والمحرّمات القولية والفعلية، ومتفقة أيضاً على أن جميع الرسل بشرٌ

لا ملائكة، وأن ما جرى لهم مع أممهم من التكذيب وإنكار دعوتهم وتنويع الأقوال فيهم وكانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة جرى أعظم منها لسيِّدهم وإمامهم محمد ﷺ، ومتفقة على أن محمداً موصوف بما وُصف به الأنبياء من جميع الكمالات اللائقة بالرسل، وله منها أكملها وأتمها، وقد تواترت البشارات والشهادات بنبوّة محمد ﷺ، وقد ذكرها أهل العلم بألفاظها ومعانيها من الكتب السابقة وشهادة المنصفين من علمائهم الراسخين حتى من لم يُسْلِمْ منهم ذَكَرَ أهل العلم من شهاداتهم واعترافهم بالنقول الثابتة شيئاً كثيراً لا يمكن حصره، والله أعلم.

## فصل

قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس﴾

[سورة آل عمران: الآية ١١٠]

من براهين رسالة محمد ﷺ وأن دينه هو الحق النعوتُ والأوصافُ التي منَّ الله بها على أمته واختصهم بخصائص، وفضَّلهم بفضائل لم تكن لغيرهم، فإنَّ مَنْ وَقَفَ على أحوال الأمم تماماً عرف يقيناً أنّ أمة محمد ﷺ أعظمُ الأمم عقولاً وأفهاماً، وأتمُّهم معرفةً وبياناً، وأحسنُ قصداً وديانةً وإخلاصاً لله وتحرِّياً للصدق والعدل، وأنه لم يحصل في النوع الإنساني أمة أكمل منهم، ولا ناموس من الناموس الذي جاء به نبيهم، وقد جمع الله لهم طرق المعارف الإنسانية كلها، فإن العلوم والمعارف تُنال بالوحي والوحي الذي جاء به نبيهم أكمل شريعة طرقت العالم، والعلوم النبوية لم تدع أصلاً ولا فرعاً إلّا فيها بيانه، ولا أبقت شيئاً يحتاجه العباد إلّا وضحته؛ وتنالُ المعارفُ والعلوم أيضاً بالحس والعقل والفطرة ولهذه الأمة منها أكملُها وأصحها، وعلومهم كلها تحتوي على توضيح جميع الحقائق النافعة، وتشتمل على هداية الخلائق لما يحتاجونه. هذا مع ما لهم من الأخلاق والآداب العالية والمناقب الكاملة والتفوق في كل خصلة حميدة؛ وهم إنما نالوا ذلك كلَّه، وحصل لهم من جهة

رسولهم ودينهم، فالرسول والدين الذي هذه آثاره في أمة محمد ﷺ في علومهم وأعمالهم وأخلاقهم وجميع أوصافهم هو رسول الله حقًّا، ودينه الحق صدقاً، فالآثار تدل على المؤثر. ولما كانوا في القرون الفاضلة وصدر الإسلام على هذا الوصف ترتب على الكمال الروحي والرقي في الدين والأخلاق الرقيُّ الدنيوي، إذ خضعت لهم الأمم وأخضعوهم بالعدل لا بالظلم، وبالرحمة والحكمة لا بالقسوة والطمع والجشع واختلال النظام، فلما تناقصت الأمور وضعف تمسكُهم الحقيقي بالدين تبع ذلك التدهور وتسلط الأمم الأجنبية، وهذا أيضاً من الآيات، وهو أن الرقي المطلق في كل شيء روحي ومعنوي، وما يتبعه من القوة، تبعٌ لاتِّباع ما جاء به دين الإسلام من العلوم والهدى والرشاد والإصلاح في كل شيء، والعكس بالعكس.

## فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نحن نزَّلنا الذكرَ وإِنَّا له لحافظون﴾

[سورة الحجر: الآية ٩]

وهذا شامل لتكَفُّله تعالى بحفظ ألفاظ القرآن ومعانيه؛ وهذا من أعظم براهين الدين الإسلامي، فإن هذا الحفظ الذي تكفل الله به قد تقرر عند الخلق لهذا الكتاب العظيم ولمعانيه ولأحكامه الكلية، فالقرآن نقله المسلمون، نقلوا ألفاظه ومعانِيَهُ نقلاً متواتراً، قَرْناً بعد قرن، يحفظه المسلمون حفظاً يستغنون به عن المصاحف، كما ثبت في صحيح مسلم مرفوعاً (إن ربي قال لي إني منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظاناً) يقول ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب المتقدمة، فإنها لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلاً متواتراً، ولم تكن محفوظة في الصدور؛ والقرآن كان محفوظاً في الصدور نقلاً متواتراً حتى لو أراد مريد أن يغير شيئاً من المصاحف وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غيّر المصحف، لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف وأنكروا ذلك.

ومن خصائص المسلمين أن لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين وجليله، وكليات دينهم وضرورياته من الواجبات والفرائض والمحرمات، قد نقلت بالتواتر واشترك في علمها العالم والجاهل والصغير والكبير. وأمة محمد ﷺ إجماعُهم حجةٌ قاطعة، فلا تجتمع ولله الحمد إلاّ على الحق في باب الأخبار وفي باب الأحكام، وفيهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى العلماء الربانيون الذين تضمحل علوم غيرهم إذا نسبت لعلمهم، قد جمع الله لهم أصناف المعارف وفنون الكرامات وزكّاهم بالأخلاق الفاضلة وأنواع الكمالات.

## فصل

قال الله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٢]

﴿أَمْ خُلِقوا من غيرِ شيء أم هُمُ الخالقون﴾ [سورة الطور: الآية ٣٥]

﴿وكلُّ شيء عندَه بمقدار﴾ [سورة الرعد: الآية ٨]

﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [سورة يسٓ: الآية ١٢]

قالت الملائكة والرسل أفضل الخلق وأعلمهم:

﴿سبحانَك لا عِلمَ لنا إلاّ ما علمتنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢]

من كمال هذا الدين وعظمته وإحاطته، وأن القرآن ما فرط الله فيه من شيء، وأنه تبيان لكل شيء ـ قد تقدم في الفصول السابقة ما يشتمل عليه من علوم التوحيد والعقائد الصحيحة والأخلاق والآداب الكاملة والكمال المطلق الذي لا يقال فيه «لولا» و«لوما» وأنه المسيطر على الحق والصدق، بحيث لا يعارضه معارض إلاّ اضمحلت معارضته، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأن العلوم العقلية والنقلية والحسية الصحيحة محال وممتنع أن ترد بما يخالف هذا الدين بوجه من الوجوه.

وفي هذه الأوقات توسّعت المخترعات وتوسّعت علوم الطبيعة والرياضيات، وشاعت بين أهل الفلسفة كثير من النظريات التي تشبه الفوضى، وكثر تعظيمُ الملحدين وتقليدُهم في منتهى نظرياتهم التي بنوها على ظنونٍ وتخرُّصات وقياسات وتجارب يكثر خطأها، وهم في تلك النظريات مضطربون حائرون بل هم فيها متناقضون؛ ومن وقف على نظرياتهم الخاطئة أخذه العجب من كثرة اضطرابها وتناقضها؛ ويرى فريق منهم رأياً ثم يأتي فريق وينقضه ويثبت له نظرية غيرَها، ثم يأتي غيره ويبطل نظريته وحدسه. ومن العجب أنه لم يتفق منهم أحد على نظرية واحدة، تخالف ما دل عليه الكتاب والسنة.

وغاية ما يصل إليه الملحدون المنكرون المعطِّلون وصولهم إلى علل بعض الموجودات، أو ما يسمُّونه أسباباً أو موادَّ أو أصولاً، فمتى وصلوا إليها بعد الكد والتعب وإتعاب الأفكار ظنوا أنهم وصلوا إلى جميع علل الموجودات، وأنه ما بعد ذلك شيء، فأنكروا الخالق واستولت عليهم الطبيعة. وعند التحقيق تجد هؤلاء القوم وإن مهروا في علوم الطبيعة وحذقوا في الرياضيات فمنتهى ما وصلوا إليه من العلم الصحيح في هذه الأشياء هو من جملة مخلوقات الله الذي خلق جميع العالم العلوي والسفلي بنظام وحِكَمٍ تقصر عقول الخلائق عن الإحاطة بحكمة الله فيها.

وكلما أمعن الفكر الصحيح في حِكَمه وحُسن نظامه رأى من كمال النظام واقتران الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها ما يدله على الخضوع لله والانكسار لعظمته؛ ولكن هؤلاء ما زادهم هذا النظر إلّا عُتُوًّا ونفوراً، والسبب الذي أدّاهم إلى هذا معروفٌ، وهو استكبارهم عن الحق واحتقارهم للخلق، وأنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات في المسائل والدلائل والبراهين اليقينية فرحوا بما عندهم من العلوم الطبيعية التي لا تُرَقِّي القلوب والأرواح، ولا تزكِّي

الأخلاق، فقصور هؤلاء واقتصار علومهم وانتهاؤها إلى ما ذكرنا من بعض علوم الطبيعة وعجبهم بأنفسهم هو الذي صيرهم إلى هذا الإلحاد.

هذا في علومهم الصحيحة، وأما النظريات المخالفة للكتاب والسنة فلم يتفقوا ولله الحمد على نظرية واحدة منها بل تجدهم فيها متناقضين يرد بعضهم على بعض، وهذا شأن الباطل:

﴿بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مَرِيج﴾

[سورة قٓ: الآية ٥]

وأما جميع الحقائق التي دلّ عليها دين الإسلام فهي كلها حق وصدق، ثابتة لا تغيرها الأوقات ولا تقدح فيها الشُّبه، بل كلما عُورضت ظهر من حقها ونورها وبرهانها أمرٌ عظيم يبيِّن أنها من عند مَنْ هُو بكل شيء محيط، ويبين أن جميع الحقائق الثابتة الصحيحة مندرجة في ضمن الدين الإسلامي.

## فصل

ومن براهين شريعة دين الإسلام أنها الشريعة التي جاءت بالعدل والقسط بين الناس في جميع الحقوق والمعاملات المتنوعة، ونَدَبت وحثَّت على الإحسان والفضل، كما قال تعالى:

﴿وأقسطوا إن الله يحب المُقسطين﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩]

وقال: ﴿والذين إذا أصابهم البغيُ هُمْ ينتصرون * وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحبّ الظالمين * وَلَمَنِ انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنّما السبيلُ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * وَلَمَنْ صبر وغفر إنَّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾ [سورة الشورى: الآيات ٣٩ ـ ٤٣]

فهذا أحسن شرع وأجمله، يرغب في الصبر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة، ويرفع عن المنتصف

ممن ظلمه الملام، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظُلم، ويذكر الحق الواجب اللازم ثم يقول:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

فيذكِّر العباد أن يجعلوا للفضل والإحسان في معاملاتهم موضعاً ومحلاً لينالوا بذلك حسن الجزاء، ويتصفوا بأكمل الأخلاق، ويتودَّدوا إلى من بينهم وبينهم علقة حق من أي وجه كان، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

## فصل

قال شيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعِلمُ أمته ودينُهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته. وذلك يظهر بتدبُّر سيرته من حين وُلِد إلى أن بُعث، ومن حين بُعث إلى أن مات، وتدبُّر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبيٌّ من بعد إبراهيم إلاّ من ذريته، وجعل له ابنين اسمعيل وإسحاق، وذكر في التوراة هذا، وهذا وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسمعيل، ولم يكن في ولد اسمعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية اسمعيل أن يبعث فيهم رسولاً منهم ثم من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى، وبلده البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حِجه، ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ممن آمن وكفر، لا يعرف له شيء يعاب به

لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جُرِّبت له كذبة قط، ولا ظلمٌ لأحد ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله.

وكان أمِّيًا من قوم أميين، لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والإنجيل، ولم يعرف شيئاً من علوم الناس، ولا جالس أهلها ولم يدّع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمور لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثلَها ولم يعرف قبله ولا بعده في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته، ولا من ظهر دينه على الأديان بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره.

ثم إنه اتَّبَعَه أَتباعُ الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذّبه أهل الرياسة وعادَوه وسعَوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأَتْباعهم، والذين اتّبعوه لم يتّبعوه لرغبة ولا لرهبة فإنه لم يكن عنده مالٌ يعطيهم ولا جهاتٌ يولِّيهم إياها، ولا كان له سيف بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسِبون، لا يرتدّون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فتجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلّغهم الرسالة، ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذّب وجفاء الجافي وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخبارَه منهم وعرفوه، فلما دعاهم علِموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإن أَمْره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة

دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم.

ثم أُذِن له في الجهاد، ثم أُمِر به، ولم يزل قائماً بأمر الله على أحسن طريقة وأكملها وأتمها من الصدق والعدل والوفاء، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلمٌ لأحد ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلَهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم وأمن وخوف وغنى وفقر وقلة وكثرة وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه تارة، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معاداً، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين، وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، ولا شاة ولا بعيراً ولا متاعاً، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين وَسْقاً من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يُوَرِّث ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك.

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلّا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء

فقيل ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرّم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يُحلّ منها شيئاً كما استحله غيرُه.

وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل، وقضاء بفصل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات، إلاّ وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شَرَعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإن قيس شجاعتهم وقتالهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجعُ قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلّموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ، فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلاّ من جهته، فهو الذي

أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله فقال:

﴿قولوا آمنا بالله﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

و﴿آمن الرسول..﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥]

إلى آخرها. وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصه الله عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدّثهم به أهل الكتاب موافقاً لما عندهم صدّقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطل كذّبوه، ومن أَدْخَلَ في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة. إلى أن قال: ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون أمته، فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمته أخذوه عن نبيهم مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع فهو من الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله إني رسول الله إليكم جميعاً. انتهى ما أردنا نقله من كلام شيخ الإسلام، فإنه نفيس جداً.

# فصل آخر من كلام شيخ الإسلام
# من «الجواب الصحيح . .» بسطه فلخصنا منه ما يلي :

لما ذكر الأحاديث الكثيرة في آيات النبي ﷺ ومعجزاته وبراهين رسالته، وما أخبر به من العيوب الماضية والمستقبلة، وما حصل بسببه من أصناف القدرة وأنواع الأفعال وإجابة الدعوات وغيرها قال : وعامة ما ذكرناه من آيات النبي ﷺ التي في الصحاح هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم التي يجزمون بصدقها، ليست من موارد نزاعهم، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء، ويعلم خيرة أهله من كان خبيراً بهم. فهذه طريقان في تصديق هذه الآثار: التواتر العام والتواتر الخاص. الطريق الثالث: التواتر المعنوي، وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف، فإن الناس قد يسمعون أخباراً متفرقة يشترك مجموعها في أمر واحد.

ثم مثّل بالأخبار عن مشاهير الرجال المتقدمين والمتأخرين ثم قال:

فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هي أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء المشاهير، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة هؤلاء، وهي كلها تتضمن أن محمد بنَ عبد الله ﷺ كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يُعرف نظيرُه عن أحد من الناس، وعِلمُ المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه عن آيات موسى وعيسى وغيرهما، فإن نقلة آيات محمد ﷺ غير القرآن أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل فضلاً عن غيرهما من أخبار الأنبياء.

ثم ذكر الطريق الرابع، وأن كثيراً من هذه الآيات تكون بمحضر الخلق الكثير، كتكثير الطعام يوم الخندق، ونبع الماء من بين أصابعه يوم الحديبية، وتكثير الماء والطعام في غزوة خيبر وفي تبوك، وكانوا ألوفاً مؤلفة، وكانوا يتناقلونها متفقين عليها مصدّقين لها من غير إنكار أحد منهم لذلك، فعُلم قطعاً

أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك كما هم متفقون على نقل القرآن والشريعة المتواترة.

ثم ذكر الطريق الخامس، وهو أن مصنفات أهل العلم من أهل التفسير والحديث والفقه والسير والتواريخ مشحون كل منها بذكر الآيات متواتر فيها، ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقيني، فكيف بما ينقله كل طائفة من هذه الطوائف.. وهذه الطريق وغيرها يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة وهذا أقل ما يكون، ويستدل بها على تواتر جنس جنس كتواتر تكثير الطعام وتواتر تكثير الطهور والشراب، وعلى تواتر نوع نوع منها كتواتر نبع الماء من بين أصابعه وتواتر إشباع الخلق العظيم من الطعام القليل، وتواتر شخص شخص منها كتواتر حنين الجذع إليه وأمثال ذلك، وكلما أمعن الإنسان في ذلك النظر واعتبر ذلك بأمثاله وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ازداد بذلك علماً ويقيناً، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع ما يطلب من العلم بالأخبار المتواترة، فليس في الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك، وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد ﷺ أظهر من العلم به وأبين، ونقله أكمل وأتم، وهذا مما يبين أنه ليس في الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقاً لقوله:

**﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾** [سورة الفتح: الآية ٢٨]

وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بما ينقل عن محمد ﷺ من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول المقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره علماً وحجة وبياناً

على كل دين، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً على كل دين، كما أنه ما من دليل عقلي يستدل به على مدلول إلا والأدلة على آيات الرب أكثر وأكثر.

ثم ذكر الطريق السادسة أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة في آياته وبراهينه المنقولة في الأخبار وجردوا لذلك كتباً وذكر طائفة منها، إلى أن قال: والمقصود هنا أن تواتر أنواع آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من تواتر أمور كثيرة هي متواترة عند الأمة أوعند علمائها وعلماء أهل الحديث، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة من القرآن، فإن تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع، حتى بيّنوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على عشرات ألوف من الآيات، وهذان غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به، وهذه الأجناس الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها وغير صفات أمته وغير ما يدل من المعرفة بسيرته وأخلاقه وصفاته وأحواله وهذا كله غير نصر الله وإكرامه لمن آمن به، وعقوبته وانتقامه ممن كفر به، كما فعل بالأنبياء المتقدمين، فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن لبشرٍ الإحاطة به، إذ كان الإيمان به واجباً على كل أحد، فبين الله لكل قوم بل لكل شخص من الآيات والبراهين ما لا يبين لقوم آخرين، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول. وأطال الكلام، فمن أراد بسط هذه المواضع فليرجع إليه في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) فإنه بسط فيه الكلام وشرحه شرحاً تامًّا رحمه الله.

## فصــل

قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونَكَ بمَثَلٍ إلاّ جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣٣]

وقال تعالى: ﴿وتمت كلمةُ ربك صدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

﴿والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

والآيات في هذا كثيرة، وهذا من أعظم براهين الدين وأنه كله حق وأن مسائله الأصولية والفروعية حق ومحتوية على الحق، وأن دلائله وبراهينه تهدي السبيل وتوضح الحقائق، وأن النقل فيه هو أعلى درجات الصدق، خبر الله وخبر رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى. وقد تواتر نقل كتاب الله تواتراً لا نظير له بحيث نقلته الأمة كلها كل قرن أدّاه إلى القرن الذي بعده محفوظاً لا تغيير فيه بوجه من الوجوه، وتواترت عن النبي ﷺ أصول الدين كلها والشرائع الكبار، والنقلة أصدق الخلق وأعظمهم تحرياً للصدق وأبلغهم معرفة بطرق الصدق من الكذب، ولهم من العناية التامة في معرفة الصحيح من الضعيف والحق من الباطل والخبرة والمعرفة ما لا يقاربهم فيه أحد، فهذا نقل هذا الدين.

وأما نظريات هذا الدين فكلها حقائق ثابتة حقة اتفق عليها النقل والعقل الصحيح، فجميع الحقائق الثابتة في دين الإسلام لا يستريب أهل العقول الصحيحة في صحتها، ومن ظن سوى ذلك بيّن بالأدلة الصحيحة فساد نظره وعقله. ومن تتبع هذا الأصل في جميع موارده ومصادره في أصول الدين وفروعه وتأمله حق تأمله عرف بذلك عظمة هذا الدين وأنه الحق في مسائله وبراهينه، وأنه محكم متقن لا اختلاف فيه ولا تناقض، بل يصدّق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ومن امترى في هذا أو كابر فليأت بمثال واحد من حقائق هذا الدين يخالف هذا الأصل، ولن يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

وأما الأمور المناقضة لهذا الدين فإنها إما نقول كاذبة، وإما نظريات خاطئة. واعتبر هذا بجميع النظريات التي راجت في هذه الأوقات في التكلم عن سلسلة الموجودات بمجرد الخرص والقياسات المختلّة والتجارب التي تطرد ثم تنتقض، هل تجد فيها نظرية واحدة استقر عليها رأى جميع العقلاء، بل يقولها المبتدىء لها ظنًّا واستنباطاً، ويتلقاها المقلدون له المعظمون له لا عن بصيرة، ثم يأتي من بعدهم فيفنّدها ويحدث له نظرية من هذا القبيل، وهكذا تنتهي بهم هذه الأفكار إلى المكابرة والسفسطة، وهذا شأن كل ما خالف الحق. قال تعالى:

﴿بل كذَّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ [سورة ق: الآية ٥]

وهذه النظريات التي ابتكروها والتحليلات التي ابتدعوها وعارضوا بها ما جاءت به الرسل من البراهين القطعية من أكبر ما يدل على جهلهم البليغ ومكابرتهم للمعلومات، وهي من أكبر الأساسات التي تعود على علومهم بالإبطال، فإن من بعدهم يأتي على نظرياتهم التي إذا وجه إليها أدنى نظر فيبطلها فلا يبقى للعلوم قيمة ولا للحقائق الصحيحة قدر، وتصير المعلومات فوضى تقذف بها زبد الأفكار ولا يستقر لها قرار، وهذا معروف بالتتبع والاستقراء.

أما حقائق ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم من أصول الدين وفروعه فإنها ثابتة الأصول محكمة، دلت عليها البراهين القطعية المتنوعة، ووجّه الله عقول العقلاء وذوي الألباب والبصائر إلى النظر فيها، فازدادت بها معارفهم ورجحت عقولهم، واطمأنت قلوبهم بما عرفوا من الحق، وعلموا علم اليقين إجمالاً وتفصيلاً أنَّهُ مستحيل أن يرد الشرع بما يخالف العقل وينافيه أو توجد المحسوسات والمعقولات مناقضة لما أخبر الله به في كتابه، وأخبر به رسوله محمد ﷺ الذي هيمنت شريعته على جميع الشرائع واحتوت على جميع الحق الذي فيها وأبطلت ما حرّف منها وزيد ونقص، وصدّقت

جميع المرسلين، وصار أكبر طريق حصل به تصديق الرسل وصحة رسالتهم هو ما جاء به إمامهم وسيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وتَبَيَّنَ لكل عارف منصف أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق في أخباره وأحكامه، فكما أن جميع أخباره صدق وحق ويقين، فأحكامه كلها حق وعدل وقسط وصلاح للدنيا والدين، قال تعالى:

﴿وتمت كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

﴿ومن أصدقُ من اللَّه حديثاً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

﴿ومن أصدقُ من الله قيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

﴿ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

والحمد لله الذي جعل كتابه وشريعته هدى من الجهالات، وشفاءً من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات، ورحمة تحصل بها جميع الخيرات، وتبياناً لكل شيء يحتاجه البشر في الأمور الجليات والخفيات.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. ببلدة عنيزة من الديار النجدية في ٢٠ رمضان سنة ١٣٦٧.

# الدَّلائِل القرآنيَّة

## في أن العُلوم والأعمال النافِعَة العَصريَّة داخِل في الدّين الإسْلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدّمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهدِ اللَّهُ فلا مُضلّ له، ومن يضلَلْ فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إلّه غير الله، وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، ﷺ تسليماً.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن البراهين القواطع الدالّة على أنّ الدين الإسلامي وعلومَه وأعمالَه وتوجيهاتِه جمعتْ كلَّ خير ورحمة وهداية، وصلاحٍ وإصلاحٍ مطلقٍ لجميع الأحوال، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة في ضمن علوم الدين، وأعماله ليست منافية لها، كما زعم الجاهلون والماديّون، ولا جاءت الفنون العصرية النافعة بشيء جديد، كما ظنَّه الجاهلون أو المتجاهلون، بل النافع منها للدين والدنيا وللجماعات والأفراد داخل في الدين، والدين قد دلّ عليه وأرشد الخَلْقَ إليه وإلى كل أمر نافع إلى أن تقوم الساعة؛ وبيان أن الفنون العصرية ـ إذا لم تبن على الدين وتربط به ـ فضررها أكثر من نفعها، وشرُّها أكبرُ من خيرها، ولكن هذا الأصل الكبير يحتاج إلى أمرين: أحدهما معرفة ما دل عليه الكتاب والسُّنة إجمالاً وتفصيلاً. والثاني معرفة بالأمور الواقعة والحقائق الصحيحة التي يعرفها ويعترف بها العقلاء المنصفون؛ فمتى عرف الإنسان الأمرين عرف أنه لا يشذُّ عن علوم الدين الإسلامي، وأعماله وفنونه شيءٌ فيه خيرٌ وصلاح أصلاً،

واستدل العارف بكلٍّ من الأمرين على الآخر، وعرف أن النقص بالإخلال بهما أو بأحدهما، ومتى عرفت الأصول الكلية ردت إليها الجزئيات، ومتى تكلم متكلم بشيء من الجزئيات قَبْلَ أن يعرف الكليات حصل الغلط الفاحش وقامت الشُّبَهُ التي لا تروج إلّا على الجاهلين، أو يروِّجها المعاندون.

**عبد الرحمـٰن بن الناصر بن سعدي**

# فصل

## معنى قوله: ﴿والله يقول الحق﴾

قال الله تعالى: ﴿واللَّهُ يقولُ الحقَّ وَهُوَ يَهدِي السَّبيلَ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٤]

فهذه الآية الكريمة صرّحت بأن الله تعالى يقول الحق، وهو الصدق واليقين في أخباره، والعدل والحكمة في أوامره ونواهيه، فكلُّ ما أخبر به فهو حق وصدق، ونافـع للعباد في إصلاح عقائدهم وأخلاقهم، ودينهم ودنياهم، وكلُّ ما أمر به فهو بِرٌّ وخيرٌ وإحسان ونفـع وبركة؛ وكلُّ ما نهى عنه فهو شر وضرر وفساد، لا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية. وشريعة الإسلام كلُّها تفصيل لهذا الأصل العظيم، الذي ذكره الله في هذه الآية وغيرها.

ثم قال: ﴿وهو يهدي السبيل﴾

وهو الطريق الموصل إلى الحق الذي يقوله ويحكم به، فتكفَّل الله لعباده أنه لا بد أن يبيِّـن لهم هذا الحق النافـع بالأدلة الواضحة العقلية والنقلية، كما قال في الآية الأخرى:

﴿سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يتبيَّـن لَهُم أنَّه الحقُّ﴾
[سورة فصلت: الآية ٥٣]

فإنه تعالى لما أخبر بتوحيده وتفرده بالكمال المطلق من جميـع الوجوه، وأمر بعبادته وحدَه لا شريك له، وإخلاص الدين له، وإن قوله حق ووعدَه ووعيدَه حقٌّ، ورسولَه وكتابَه حقٌّ، أخبر أنه لا بد أن يريَهُم من الآيات في أنفسهم وفي الآفاق ما يتبين لهم أنه الحق وأن ما سواه باطل؛ فالآيات الأفقية الكونية

والآيات النفسية كلها تحقق هذه الأصول العظيمة ويعرف بها أن الله هو الحق.

وقوله وكتابه ودينه حق فالآيات الأفقية مثل قوله تعالى:

**﴿إنّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]

وفي قوله تعالى: **﴿إنّ في خلقِ السّمٰوٰتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ الّتي تَجرِي في البَحْرِ بما يَنفَعُ الناسَ وما أنزلَ اللّهُ مِنَ السّماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وبَثَّ فيها من كلِّ دابّة وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون﴾**

[سورة البقرة: الآية ١٦٤]

وآيات كثيرة يخبر فيها عن أحوال الكون، وأنه آيات وأدلة على وحدانية الله وصدقه، وصدق رسله؛ فالذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، بهذه الأوصاف البديعة، وعلى هذا النظام العجيب والخلق الكامل والإحكام والحُسن، هو المتفرد بالربوبية والإلّهية، واسع الرحمة والحكمة، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً؛ ومن كان هذا شأنه فهو الذي يجب أن يُعبد وحدَه لا شريكَ له، ويشكر ويذكر لما له من عميم الإحسان وسوابغ النعم فما فيها من عظيم الخلق دالٌ على كمال قدرته وعظمة سلطانه، وما فيها من النظام البديع الحُسْن والخلق الكامل دالٌ على شمول حكمته وحمدِه، وما فيها من التخصيصات المتنوعة دالٌ على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، التي لا يمكن إحصاؤها ولا تعداد أجناسها، فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أفرادِها، دليلٌ على سعة رحمته وعموم فضله وكرمه وجوده وإحسانه؛ وكل ذلك دليل على وجوب عبادته وإخلاص العمل له، وأن الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة قادر على أن يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

## الآيات النفسية والأفقية

وأما الآيات النفسية فإن الله قال:

﴿وفي أنفسكم أَفَلَا تبصرون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١]

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خلقناهُ مِنْ نُطفةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبين﴾

[سورة يٓس: الآية ٧٧]

﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ﴾

[سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦]

ونحوها من الآيات التي ينبّه الله فيها الإنسان على التأمل والنظر في ابتداء خلقه، وتطوره، وكيف تنقّلت به الأحوال من النطفة إلى أن صار إنساناً كاملاً في بدنه وفي عقله، وكيف أحسن الله خلقَه ونَظَمَه هذا النظام العجيب فوضع فيه كل عضو يحتاج إليه في منافعه كلها، ووضع كل عضو في محله اللائق به، الذي لا يحسن ولا يليق أن يوضع إلاَّ في محله، ثم ليتأمل في غذائه، وما أودع الله فيه من قوة الشهوة للطعام والشراب وتوابعها، وما وضع فيه من الآلات المعينة على الأكل والشرب، وما أودع فيه من الحرارة العظيمة التي تطبخ الأطعمة الغليظة والخفيفة، ثم تنفذها إلى جميع أجزاء البدن، فيأتي كل عضو وحاسة حظها ونصيبها من الغذاء، الذي لولاه لتلاشى الإنسان وهلك، وجعل الله لثفل الأغذية وما لا ينفع في الغذاء مجارِيَهُ تندفع إليها وتخرج من البدن لئلا تبقى فيه فتضره أو تهلكه.

ثم لينظر الإنسان ما وضع الله فيه من العقل، الذي يتميز به عن الحيوانات كلها، وهدى الله فيه الإنسان إلى هدايات دينية ودنيوية لا يمكن عدُّها ولا إحصاؤها؛ وكما هداه بالعقل إلى الانقياد لعلوم الرسل وأديانهم هداه به إلى تسخير المواد الكونية والمعادن والمخترعات والصناعات، التي لا تزال تتجدد كل وقت. وقد أخبر تعالى أنه سخَّرَ لنا جميع ما في السموات والأرض، ننتفع بآياتها ونستخرج منافعها وكنوزها ونشكره على ذلك التسخير والهداية والنعم، التي لولا فضله وكرمه لم يحصل لنا منها شيء.

ومن آياته الأفقية النفسية إخباره تعالى أنه سخّر للإنسان جميع ما في السموات والأرض ومعادن الكون وعناصره، ثم إخباره بأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وعلّمه ما لم يكن يعلم فحمل بهذا التسخير وبهذا التعليم ـ من فنون العلم وفنون المخترعات الباهرة ـ ما هو مشاهد معلوم، ترقّت به الصناعات، وتوسّعت به المخترعات، وتنوّعت به المنافع وتقاربت به الأقطار الشاسعة، وتخاطب به أهل المشارق والمغارب.

أما يدل ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرة الله وصدق ما أخبر به من الغيوب التي كان المكذبون ينكرونها استبعاداً لها، وقياساً منهم لقدرة من يقول للشيء كن فيكون، على قدرة الآدمي الضعيف: في علمه وفي قدرته وفي أحواله كلها، فأراهم الله من آثار قدرته على يد هذا الآدمي ما دلهم على كمال قدرة خالقه ومعلمه وعَلَى وحدانيته وصدق رسله، وهو لا يزال يريهم آياتِه شيئاً فشيئاً في الآفاق وفي أنفسهم فانتفع بذلك الذين يريدون الحق واتِّباعه وقامت الحجة البالغة على المعاندين المكابرين وصار علمُهم وَبَالاً عليهم إذْ تكبَّرُوا به وامتلأوا غروراً باطلاً، فالله الذي خلق الإنسان وأعدّه وأمدّه بكل وسيلة يدرك بها أنواعَ العلومِ النافعة والفنون المتنوعة الدينية والدنيوية، وربط هذا بهذا فأمر بالقيام بالدين والاستعانة بهذه الوسائل على قيام الدين والدنيا قال تعالى:

﴿يا أيها الرسلُ كُلُوا مِنَ الطَّيباتِ واعملوا صالحاً﴾
[سورة المؤمنون: الآية ٥١]

وأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:
﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكُمْ وٱشْكُروا لِلَّهِ إنْ كنتمْ إياه تَعْبُدون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٢]

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هي للذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامةِ﴾
[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

فالمؤمنون تَمَّتْ عليهم النعمة في الدنيا والآخرة، واستعانوا بالطيبات وأصناف المنافع التي لا تحصى على عبادة الله وطاعته، وصار اشتغالهم بهذه المنافع التي يُتَوَسَّلُ بها إلى إصلاح الدين والدنيا، عبادةً من العبادات وقربةً من القربات. وأما من سواهم من الماديين والضالين الغافلين، فإنهم عرفوا ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون. واشتغلوا بالدنيا عن الدين ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وأنساهم مصالحها فتمتعوا فيها تمتع الأنعام السائمة، فخسروا الدنيا والآخرة، أَلَا ذلكَ هُو الخسرانُ المبينُ، فانقطعوا بالأسباب عن مسبِّبها، وانقطعت صلتهم بالله حين قام الكِبْرُ في قلوبهم كما قال الله عنهم:

﴿إن الذين يجادلون في آياتِ اللَّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم إنْ في صدورهم إلَّا كِبْرٌ ما هم ببالِغيهِ فاستعِذْ باللَّهِ إنه هو السميع البصير﴾
[سورة غافر: الآية ٥٦]

استعذ بالله من هذا الكِبرِ الذي حال بين الإنسان وبين سعادته:

﴿فلما جاءتهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ فَرِحوا بما عِنْدَهم مِنَ العِلمِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

## فصل

### التفكير في كيفية جريان الطعام والشراب

وإذا فكر العبد في قُوْته، طعامِه وشرابِه، كيف يدخل من مدخل واحد ويستقرُّ في موضع واحد، وهو المعدة، فيقيض الله له في ذلك الموضع من الحرارة والأسباب الأُخَرِ ما يُنْضجه ويتميز جوهره وصافيه ونافعه، فيتفرق في

جميع أجزاء البدن لتغذيتها وتنميتها وما يبقى من الثفل، جعل له مخارجَ يخرج منها لئلا يبقى فيضر ويقتل؛ ولا يزال هذا المعمل العظيم يعمل عمله بإذن الله ويؤدي مهماته: فهل هذا من مقتضى الطبيعة والمصادفة، كما يقوله الماديون، أم هذا تقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والأبصار والأفئدة فتبارك الله أحسن الخالقين؟

وقد نبه الله على البعث بالتفكر في أطوار الإنسان وتنقلاته فقال:

**﴿يا أيها الناسُ إنْ كنتم في ريبٍ مِنَ البعث فإنَّا خلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطفةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضغةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّـنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحـام مـا نشاءُ إلى أجلٍ مسمًّى ثمّ نُخرِجُكُمْ طِفلاً ثم لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكم ومنكُم مَنْ يُتَوفَّى ومنكُم مَنْ يُردُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكيْ لاَ يعلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلمٍ شيئاً وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيـج * ذلك بأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقُّ وأَنَّهُ يُحْيِـي الموتى وأنَّه على كل شيء قدير * وأَنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأَنَّ اللَّهَ يبعثُ مَنْ في القُبُور﴾**

[سورة الحج: الآيات ٥ ــ ٧]

فجعل الله تَنَقُّلَ الإنسانِ في هذه الأطوار وإحياءَهُ الأرضَ بعد موتِها دليلاً وبرهاناً على هذه الأمور الخمسة التي يتميز بها المؤمنون ويثبتونها تصديقاً لله ولِرُسُله وآستدلالاً بهذه البراهين العقلية الحسية.

## فصل

## نعم الله الظاهرة والباطنة

قال الله تعالى: ﴿وما بِكُم مِنْ نعمةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْأَرون﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣]

وعَدَّدَ اللَّهُ على العبادِ في كتابه أصنافَ النِّعم وأجناسَها وقال:

﴿يعرفونَ نعمةَ اللَّهِ ثم ينكرونها وأكثرُهُم الكافرون﴾

[سورة النحل: الآية ٨٣]

فالنعم الظاهرة والباطنة كلها من الله الحاصلة بغير سبب منهم، والحاصلة بالأسباب التي هداهم إليها ويسَّرها لهم، وهو الذي أوجدها وأوجد أسبابها ووسائلها، وذلك شامل لِنِعَم الدين ونِعَم الدنيا، فعلوم الكون وفنونه كلها من نِعَمه وتيسيره، وهو الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأقدره على ما لم يقدر عليه لولا إقداره، فعليه أن يشكره على ذلك كلِّه، ومن الشكر اعترافه أنها من الله ومن تيسيره، والاستعانة بها على ما خلق له العبد.

## فصل

قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم آلر كتابٌ أنزلناه إليكَ لتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربِّهم إلى صِراط العزيز الحَميد * اللَّهِ الذي له ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ١، ٢]

أخبر تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ في وقت تراكم فيه الجهلُ والظلم والظلمات، وأنواع الشرور، ليُخرِجَ الناسَ به من هذه الظلمات المتراكمة فيعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ويحرِّكَ عزائمهم ويثيرَ هِمَمَهم وحواسَّهم إلى الخير، وإلى الإيمان به وبرسله، وطاعته وطاعة رسوله، فتستنير معارفهم وتتضح طريقهم ويستقيم سلوكهم، وتتم لهم بذلك الخيرات،

وتندفع عنهم الشرور والمضرات، فمن تلقَّى هذا الكتاب الذي هو أكبر النعم بفهم وقبول وانقياد لأوامره وإرشاداته المتفرعة المصلِحة للدين والدنيا، فقد استقام على الصراط المستقيم، ومن أعرض عنه أو عارضه فهو الكافر الذي فسدت أحواله، وويل للكافرين من عذاب شديد؛ فإنه لم يكن كفرهم عن اشتباه وخفاء للحق أو اتباع طريق هُدى، بل كُفْرُهم صَدَرَ عن رغبة في الترف وحبِّ الدنيا الذي صدّهم عن الهدى والحق فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، أولئك في ضلال بعيد. وأي ضلال أعظم من ضلالِ مَنْ آثَرَ الهوى على الهدى والشقاء على السعادة والشر على الخير ـ وقال تعالى:

**﴿إنّ في ذلك لَذِكرَى لمن كان له قلبٌ أوْ ألقى السمعَ وهو شهيد﴾**
[سورة قٓ: الآية ٣٧]

وذلك أن العقل وحدَه لا يستقلُّ بمعرفة الله، ولا يعرف عبادته وتفاصيلها، ولا تفاصيل يوم الآخر، حتى يهتديَ بنور الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله، ويكون له قلب يجعل الأفكار والتصورات إراداتٍ وهمماً تحثُّ صاحبَها على اختيار النافع على الضارّ، والخير على الشر، والهدى على الضلال، والأخلاق الجميلة على ضدها، فالقلب الحي إذا نظر في الوحي، وتأمَّل ما جاء به الرسل من الحق في عقائده وأخلاقه وأعماله لم يؤثر على ذلك شيئاً، فإنه يعلم أنه ليس بعد الحق إلاّ الضلال، فالتصورات والعلوم وحدَها بلا قلب يتطلع إلى الخير والحق لا تكفي وحدَها، بل قد يكون ضررها كثيراً لخلوها عن الإيمان، وخلوها عن التوجيهات الصحيحة، ولتكبُّر أهلها بها، كما قال الله عن أمثال هؤلاء:

**﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيءٍ إذْ كانوا يجحَدُون بآياتِ اللَّهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

فَجَحْدُهُم لآيات الله واستكبارُهم عنها واستهزاؤهم بها واحتقارهم لأهلها أوجب لهم فَقْدَ الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، فلم يزل هذا دأبهم

حتى حقَّ عليهم العقاب، فانظر كيف كانت علومهم التي لم تُبن على الإيمان وإنما هي علوم جافة منحرفة صارت سبباً لمعارضتهم الرسل، وبقائهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب بالحق؛ فنعوذ بالله من علم لا ينفـع.

## فصل

## الله أعطى كل شيء خلقه

وقال الله تعالى: ﴿قالَ ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمّ هدى﴾
[سورة طه: الآية ٥٠]

أي أعطى كل مخلوق خِلْقَتَه اللائقة به، المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هَدَى كل مخلوق لما خُلِق له؛ وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها: فالحيوانات غير الإنسان هدى كل صنف منه إلى ما يناسبه مما لا تتم حياته الحيوانية إلاّ به، من جلب المنافـع الخاصة، ودفـع المضار عن نفسه؛ وأما الإنسان فهداه الله هذه الهداية، واختصَّه بهدايات أُخَرَ استكمل بها دينَه ودنياه إذا استعملها كلَّها، وأمّا إذا استعملها في غير ما خُلقت له فهذا قد استحبَّ واختار العَمَى على الهدى. كما قال تعالى:

﴿وأمَّا ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ١٧]

وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخر له جميـع ما وصلت إليه قدرته من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجمَلة والمفصَّلة في علوم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعمالـه، فعلّمه العلوم الشـرعية وهـداه إلى معرفتها، ثم إلى العمل بها، وعلّمه علوم الكون، ثم يسَّر له سبلها فسلكها، وكل أحد أعطاه من هذه الأمور ما هو اللائق به، وما تقتضيه حكمته التي منها إنْ عَرَف الأمور النافعة وحرص عليها وعلى اتباع الحق، واستعان الله عليها، يسّرها عليه وفتـح عليه منها بحسب حاله وقوته وكفاءته كما قال ﷺ (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) وهذا الحديث في الصحيـح؛ فقوله

(احرص على ما ينفعك) دخلت فيه الأمور الدينية والدنيوية، فمن حرص عليها واجتهد في تحصيلها وسلك الطرق الموصلة إليها واستعان الله عليها تمَّ له ما أراد؛ ومن لم يحرص على الأمور النافعة، أو لم يستعن بالله في تحصيلها، خاب وخسر. وقد أخبر الله في عدة آيات أن القرآن هدي للناس، وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويهدي للتي هي أقوم، فكلُّ أمر فيه خير وصلاح ونفع فالقرآن يهدي إليه، ويرشد العباد إليه.

## فصل
## إرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان والحديد

وقال تعالى: ﴿**لقدْ أرسلْنا رسلَنا بالبيناتِ وأنزلنا معهُمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلَمَ اللَّهُ مَنْ ينصرُهُ ورسلَه بالغيبِ إنّ الله قويٌّ عزيزٌ**﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]
فأخبر تعالى أنه أرسل الرسل لهداية الخلق وأيّدهم بالآيات البينات، المبيِّنة للحقائق، الدالَّة على صدقهم وحقيقة ما جاؤوا به؛ وأنزل معهم الكتابَ الذي فيه الهدى والرحمة، وأنزل معهم أيضاً الميزان الذي هو العدل وما يعرف به العدل من أصول العدل وفروعه، وذلك ليقوم الناس بالقسط إذا عملوا بها في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وسلوكهم وجميع أمورهم، فمتى عملوا بما أنزله الله من الكتاب والميزان صلحت منهم هذه الأمور واستقامت أحوالهم.

وأخبر تعالى أنه أنزل الحديد، فيه بأس شديد ومنافع للناس، فخص منافعه في أمور الحرب ثم عممها في سائر الأمور؛ فالحديد أنزله الله لهذه المنافع الضرورية والكمالية، الخاصة والعامة، فجميع الأشياء إلّا النادر منها تحتاج إلى الحديد؛ وقد ساقها الله في سياق الامتنان على العباد بها، ومقتضى ذلك الأمر باستخراج هذه المنافع بكل وسيلة، وذلك يقتضي تعلُّم الفنون العسكرية والحربية، وصناعة الأسلحة وتوابعها والمراكب البحرية

والبرية والهوائية، وغير ذلك مما ينتفع به العباد في دينهم ودنياهم. كما قال تعالى:

**﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: **﴿وخُذوا حِذركم﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فهذا يتناول الأمر بإعداد المستطاع من القوة العقلية والسياسية والمادية والمعنوية، وأخذ الحِذر من الأعداء بكل وسيلة وبكل طريق، فجميع الصناعات الدقيقة والجليلة والمخترعات والأسلحة والتحصنات داخلةٌ في هذا العموم؛ فهذا الدين الإسلامي يحثّ على الرقي الصحح، والقوة من جميع الوجوه، عكس ما افتراه أعداؤه أَنه مخدِّر مفتِر وهم يعلمون كذبهم وافتراءهم عنه، ولكن المباهتات والمكابرات سَهُلت عليهم وظنوا من جهلهم أنها تروج على العقلاء، وكل عاقل يعلم كذبهم وافتراءهم، وإنما يغتر بهم الجاهلون الضالّون، الذين لا يعرفون عن الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً، بل يصوِّر لهم هؤلاء الأعداءُ الإسلامَ بصور شنيعة ليروِّجوا ما يقولونه من الباطل، وإلاّ فمن عرف الإسلام معرفة صحيحة عرف أنه لا يستقيم أمور البشر دينُها ودنيويُّها إلاّ به، وأن تعاليمه الحكيمة أكبرُ برهان على أنه تنزيل من حكيم حميد، عالم بالغيب والشهادة، رحيم بعباده، حيث شرع لهم هذا الدين الذي قال فيه:

**﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإِنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقال: **﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلامَ ديناً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣]

وقال تعالى: **﴿إنّ الدينَ عندَ اللّهِ الإسلام﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٩]

وقال: ﴿وَمَنْ يبتـغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منه﴾

[سورة آل عمران: الآية ٨٥]

وقال تعالى: ﴿ومَنْ أحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لقومٍ يُوقِنون﴾

[سورة المائدة: الآية ٥٠]

وقال في وصف النبي محمد ﷺ ووصف ما جاء به من الدين:

﴿الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندَهم في التوراة والإنجيل يأمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عنِ المنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويضـعُ عنهم إصرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونَصَرُوه واتَّبَعوا النورَ الذي أُنزِلَ معه أولئك هم المُفْلِحون﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

فأخبر أنه لم يبق معروف عقلاً وشرعاً إلا أمر به، ولا منكر إلّا نهى عنه، ولا طيب نافـع إلا أَحلَّه ولا خبيث ضار إلّا نهى عنه، وأنه مـع ذلك سهلٌ ميسرٌ قد وضعت عن أهله الآصار والأغلال وأنواع المشاقّ، وأنَّ من التزمه وآمن به واتبـع النور الذي أنزل معه فهو المفلـح في دينه ودنياه. والفَلَاح هو الفوز بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل هلاك ومرهوب، لأنه يهدي للتي هي أقوم من الأخلاق والأعمال وصالـح الأحوال. وقال تعالى:

﴿وقل جاء الحق وزَهَقَ الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

فالحق هو ما جاء به الرسول ﷺ في أصول الدين وفروعه، وفي أمور الدين والدنيا؛ والباطل ما خالفه وناقضه؛ فكل ما خالف الدين الإسلامي فهو باطل لا يثبت للحق عند المقابلة، وإنما يروج إذا غاب الحق عنه عند الجهال بدين الإسلام، وإلّا فمتى عرف الدين الإسلامي على ما هو عليه فإن أهل العقول الوافية والألباب الصافية لا يبتغون به بدلاً ولا يختارون عليه سواه، لأنه يدعو إلى سعادة الدنيا والدين، فيجمـع بين السعادتين. فهؤلاء يقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وهم الذين وصفهم الله بقوله:

﴿مَنْ عمل صالحاً مِنْ ذَكرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿وعدَ اللَّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما ٱسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بعدِ خوفِهِم أمناً يعبُدُونَنِي لا يُشْرِكونَ بي شيئاً﴾

[سورة النور: الآية ٥٥]

وهم حين قاموا بالإيمان والعمل الصالح الذي يشمل شرائع الدين كلَّها أنجز لهم ما وعدهم من الاستخلاف في الأرض، والتمكين والعز والكمال، وحين قَصّروا في ذلك عُوقِبوا بتسلط الأعداء، فكان هذا العز إذْ قاموا بدينهم وهذا الذلّ الذي أصابهم حين ضيَّعوه أكبرَ برهان على أن الدين هو الحق، وأنه مدار السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وأن الشقاء والخذلان بتضييعه، وأما ما حصل لأعدائه من عزٍّ موقّت على وجه الاستدراج فكما قال الله عنهم:

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تقلّبُ الذين كفروا في البلاد * متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهُمْ جهنمُ وبِئْسَ المِهاد﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦، ١٩٧]

﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء حتَّى إذا فرِحوا بما أُوتُوا أخذناهُم بَغتةً فإذا هم مُبْلِسون * فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَموا والحمدُ للَّهِ رب العالمين﴾ [سورة الأنعام: الآيتان ٤٤، ٤٥]

# فصل

## أمر الله بالتفكر والتدبر

وقد أمر الله بالتفكر والتدبُّر في السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وحثَّ على استعمال الفكر في آياته المخلوقة وفي آياته القرآنية:

﴿قُل ٱنْظُروا ماذا في السمواتِ والأرضِ﴾

[سورة يونُس: الآية ١٠١]

﴿قُلْ سِيروا في الأرضِ فٱنظروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلُ﴾
[سورة الروم: الآية ٤٢]

﴿كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِه ولِيتذكَّرَ أولو الألباب﴾
[سورة صٓ: الآية ٢٩]

فقد أمر باستعمال العقل والفكر في آياته المخلوقة وفي آياته المتلُوَّة ليدرك العبد بعقله ما في المخلوقات من المنافع والآيات فيفقهها، ويستعملها وينتفع بها بحسب أحوالها؛ وأخبر أنها آيات لقوم يؤمنون، ولقوم يعقلون، ولقوم يوقنون؛ فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكّروا فيها وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة:

﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذرُ عنْ قومٍ لا يؤمنون﴾ [سورة هود: الآية ١٠١]

فالذين لا ينتفعون بآيات الله إمّا رجل في غاية الجهل والضلال، قد حُرم نعمة العقل والفهم، وإما رجل معاند مكابرٌ قد غرّه عقله وذكاؤه، وتكبّر عن آيات الله؛ فالعاقل الموفَّق كلما تفكر في الكون وفهم أسراره وحِكَمه امتلأ قلبه إيماناً ويقيناً؛ وقال: سبحان الله عن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سدى، وسبحانه أن تكون أفعاله البديعة خاليةً من الحِكَم والغايات الحميدة، وسبحان من خلق هذا الكون العجيب المحكم في نظامه واتساقه وارتباط بعضه ببعض ما بين أرضه وسمائه وإنسانه وحيوانه ونباته فعرف أن خالقها ومدبِّرها ربٌّ واحد وإلَه واحد فتوجه إليه بالإيمان والاعتراف والشكر والطاعة، وخضع لحكمته وعظمته وسلطانه، ولم يكن ككثير ممن انقطعوا بالمخلوقات عن خالقها، وبالمسببات عن مسببها، ولم ينفذوا في علمهم من السبب إلى المسبب، ومن الخلق إلى الخالق، كحالة أكبر المادّيين القاصرين في علمهم وعقلهم، والعاقل يحمد الله على العافية من هذا الداء العضال الذي هلك فيه كثير من الخلق.

# فصل

## أمر الله بالمشورة

قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال عن المؤمنين:

﴿وأمرُهم شُورَى بينهم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا الأمر الذي أمر الله نبيَّهُ فيه بالمشاورة وأخبر عن المؤمنين أنهم يتشاورون فيه يشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية المتعلقة بهم وبغيرهم، فدل ذلك أن الأمور، التي توضحت مصلحتها ومنفعتها، تتعين المبادرة إلى فعلها؛ وما وَضُحَت مضرته يتعين البعد عنه؛ وما اشتبه منها يستعينون عليه بالمشاورة والمراودة حتى يتضح فيه الصواب، ويتبين فيه النفع أو الضرر. ولا يستريب عاقل أن هذا الأصل العظيم الذي أمر الله به ومدحه، وهو المشاورة في الأمور، هو السبيل الوحيد لصلاح الأحوال كلِّها، وأنه كما تدخل فيه العلوم والأعمال الشرعية فكذلك العلوم والأعمال المادية، وكما تدخل فيه أمور الأفراد تدخل فيه أمور الجماعات. وفوائد المشاورة الضرورية والكمالية لا تُعدُّ ولا تُحصى، وتوقُّف كثير من الأمور عليها أمر معلوم لكل أحد، وكل أمر من الأمور يشاور فيه أهله وأهل الخبرة به والمعرفة والقوة عليه. وقال تعالى:

﴿وإنك لَتَدْعوهُم إلى صراطٍ مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٧٣، ٧٤]

﴿وإنك لتهدي إلى صِراطٍ مُستقيم﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

والصراط المستقيم الذي يدعو إليه الرسول محمد ﷺ ويدعو إليه هذا القرآن العظيم هو الطريق المعتدل الذي يتضمن استقامة العقائد والأخلاق والأعمال المصلِحة للدين والدنيا، وللأفراد والأمة، وهي تتضمن العلوم والأعمال

الشرعية والكونية، لأن جميعها لا تتم الاستقامة إلّا بها؛ وأمور المادة وحدها لا تغني شيئاً وضررها أكبر من نفعها ولهذا قال:

﴿وإنّ الذينَ لا يُؤمنون بالآخرة عن الصِّراط لناكبون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٧٣]

## فصل

### ضلال الملحدين القائلين بوجود الحوادث صدفة

إذا أردت أن تعرف ضلال الملحدين الماديين الذين يقولون: وُجِدت الموجودات والحوادث مصادفةً بلا خالق خلقها، ولا مبتدع أحدثها، وأنهم مع ضلالهم المبين في حمق وجنون لا يخفى إلّا على من ليس له عقل ولا سمع ولا بصر.. إذا أردت أن تعرف ذلك منهم، وتعرف أن الأمور كلّها بخلق الله وتقديره وتدبيره، فانظرْ إلى هذا العالم العظيم: شمسِه وقمرِه وكواكبِه وأرضِه وما فيها من الحوادث، وتأملْها ببصرك وبصيرتك تجدْها كلّها في غاية الحُسن والإحكام، والنظام البديع الدّال دلالةً قاطعة أن خالقها واحدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، حكيم عليم وأنه على كل شيء قدير، وأن العقول والألباب لَتَحارُ إذا توجهت إلى حكمته وبديع نظامه في بعض مخلوقاته، فضلاً عن جميعها، فتبارك الذي أحسن كل شيء خَلَقه وقدَّره تقديراً. انظر إلى الشمس والقمر ومقدار بعدِهما من الأرض، وأنهما لو قربتا من الأرض زيادةً عن هذا الواقع أو بعدتا كذلك لحدثَ الضررُ الكثير في الأبدان والنباتات، وجميع ما على وجه الأرض؛ وانظر ما يترتب على سيرهما من تعاقب الفصول الأربعة، المضطر إليها الإنسان والحيوان والنبت، وما فيها من منافع الضوء والإنضاج والمنافع الأُخَر، وانظر إلى نفسك وما فيها من العبر العظيمة، وكيف وضع كل عضو في موضعه اللائق به بحيث لو وضع في غيره لتشوشت الخلقة وفاتت المنفعة، وكذلك جميع الحيوانات بهذا الوصف، فهل يتصور أن يكون ذلك مصادفة بلا خالق خلقها؟ ولا مبتدع ابتدعها؟

إن تناسب عناصر الحياة وأنها كلَّها بوزن ومقدار لو زاد أو نقص لاختلّت الحياة لأكبرُ دليل على توحيد الباري وعلى إبطال مذهب الماديين ــ وأن الذي أوجد الحياة في الأشياء الحية وجعل من آثارها ما جعل لهو على كل شيء قدير. ومن نظر إلى الحيوانات الكبار والصغار، وإلهامِ الله لها كلَّ ما تحتاجه وتحيُّلِها على مصالحها وما أعطاها من الفطنة والذكاء والأعمال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، عرف بذلك أن هذا لا يصدر إلّا من إلهام من أعطى كل شيء خَلَقه ثُمّ هَدى.

# فصل

## الإصلاح والصلاح

قال الله تعالى: ﴿إنّا لا نُضِيع أجرَ المصلحين﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

﴿فمنْ آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾

[سورة الأنعام: الآية ٤٨]

﴿إنْ أريدُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعتُ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

والآيات في الثناء على الصلاح والإصلاح والأمر به كثيرة، وكذلك في النهي عن الفساد وذم المفسدين في الأرض بعد إصلاحها؛ والإصلاح يشمل إصلاح الأمور الدينية والدنيوية؛ فكل أمر هو صلاح وإصلاح أو يتوسل به إلى ذلك فهو داخل في هذه النصوص، كما أن ضده الإفساد: يدخل فيه النهي عن الشر والفساد والضرر في الدين والدنيا، والأعمال كلها؛ ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿إنّ هذا القرآنَ يَهدي للتي هي أقومُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

وقال تعالى: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ [سورة طَه: الآية ١١٤]

﴿قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾

[سورة الزمر: الآية ٩]

وغير ذلك وحيث أطلق العلم شمل العلوم الشرعية وهي الأصل وهي أشرف العلمين وشمل العلوم الكونية فكل علم نافـع في الدين أو في الدنيا فهو داخل في مدح العلم وأهله.

## فصل

## جلال أحكام الشرع وعدالتها

قال الله تعالى في بيان جلال أحكام الشرع وحُسنها وعدالتها ورحمتها:

**﴿إنّ اللَّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يَعِظُكم لعلّكم تَذَكَّرون﴾** [سورة النحل: الآية ٩٠]

وقال تعالى: **﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكُم أَلّا تُشْرِكوا به شيئاً ـ إلى قوله ـ لعلكم تتقون﴾** [سورة الأنعام: الآيات ١٥٠ ـ ١٥٣]

**﴿قلْ أَمَرَ ربِّي بالقسطِ وأَقِيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وآدْعُوهُ مُخلصينَ لَهُ الدين﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

وقال تعالى: **﴿وآعْبدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾**
[سورة النساء: الآية ٣٦]

وقوله: **﴿إنّ اللَّهَ لا يُحبُّ منْ كانَ خَوَّاناً أثيماً﴾**
[سورة النساء: الآية ١٠٧]

وقال تعالى: **﴿ليس البِرَّ أنْ تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغرِبِ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللَّهِ ـ إلى قوله ـ وأولئك هم المتقون﴾**
[سورة البقرة: الآية ١٧٧]

إلى غير ذلك من الآيات المفصّلة للأحكام الشرعية، المأمور بها والمنهى عنها، وبيان أن اللَّهَ ما أمر إلاّ بالأوامر النافعة، المحتوية على كل خير وبركة ورحمة، ولا نَهى إلاَ عن كل خبيثٍ ضارٍّ ليس فيه نفـع. وتَتَبُّـعُ أوامِـر الشريعة، من الكتاب والسنة، وتأَمُّلُ حكمِها وحسنِها من أكبر البراهين على أن

الدين الإسلامي هو الدين الحق الصحيح، حيث أمر بما هو حسن نافع طيب، ونهى عن ضِدّه وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتوا واذكُروا اللَّهَ كثيراً لعلّكم تُفلحون * وأطيعوا اللَّهَ ورسولَه ولا تنازَعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكُم واصبِرُوا إن اللَّهَ مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]

وقال في الاقتصاد:

﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا ولا تُسْرفُوا إِنَّه لا يُحبُّ المُسْرِفِين﴾

[سورة الأعراف: الآية ٣١]

﴿والذين إذا أنفَقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَوَاماً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

وقال في الجمع بين مصلحة الدين والدنيا:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ فاسعَوْا إلى ذكرِ اللَّهِ وذَرُوا البيعَ ذلكُمْ خيرٌ لَكُم إنْ كنتمْ تعلمون * فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فٱنتشِروا في الأرضِ وابتَغُوا مِن فضلِ اللَّهِ واذكُروا اللَّهَ كثيراً لعلّكم تُفلحون﴾

[سورة الجمعة: الآيتان ٩، ١٠]

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم...﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

## فصل

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الذي يرسل الرياح فتثيرُ سحاباً﴾

[سورة الروم: الآية ٤٨]

﴿سبحانَ الذي خلق الأزواجَ كلَّها مما تنبتُ الأرضَ ومن أَنفسِهِم ومِما لا يعلمون﴾ [سورة يٓس: الآية ٣٦]

﴿وأرسلْنا الرِّياحَ لَوَاقِحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأَسقيناكُمُوهُ وما أنتم له بخازنين﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢]

وقال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

﴿ألم تَرَوْا أنَّ اللَّهَ سخَّرَ لَكُم ما في السمواتِ وما في الأرضِ وأسبَغ عليكُم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٠]

وقال: ﴿اللَّهُ الذي سخَّرَ لَكم البحر لتجريَ الفلكُ فيه بأَمرِه﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٢]

﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

فهذه الآيات الكريمات وغيرها مما يشبهها إذا تأملها العبد، وعرف ما دلّت عليه وما شملته من العلوم الشرعية والكونية وأعمالها، وعرف سُنَّة النبي ﷺ الجارية مجرى التفسيرلكتاب الله، وتأمل هديَه في جميع شؤون حياته، عرف أنه لا يشذ عن دين الإسلام مصلحةٌ من المصالح ومنفعة وخير وصلاح وعُرفٌ. إن القرآن تبيانٌ لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وإن الأمور إذا بنيت عليه تمت مصلحتها، وكلُّ أمر فَقَدَهُ فَسَدَ ونقص، والواقع يشهد بذلك؛ وقد دلّت أيضاً هذه الآيات وغيرها أن العقل الصحيح مؤيدٌ للشرع وشاهد له، وأن مَنْ خالف الشرع فقد خالفه بغير عقل صحيح، بل بجهل وضلال، كما قال تعالى عن جميع من حكم عليهم بالخلود في النار ممن عاندوا الشرع أنهم قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير؛ فأخبر أنهم فقدوا السمع، وهو الأدلة النقلية، وفقدوا العقل، وكيف يكون له عقل من أشرك بالله الخالق الرازقِ المدبرِ للأمور كلها، المتفردِ بكل كمال أحداً من المخلوقين الناقصين من كل وجه؟ بل كيف يكون عقلٌ لمن حجّه الباري الذي لو شكَّ الإنسان بكل شيء من المحسوسات والمعقولات لم يكن له أن يستجيز عقله الشك في الله؟ ولهذا قالت الرسل لأممهم: أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟ وهذا استفهام إنكار، متقرر عند كل من له مسكة من عقل، أن الشكر في الله حمق وجنون ومكابرة، ليس أكبر منها مكابرة.

وقول بعضهم: إذا تعارض العقل والشرع قدَّمنا العقل. هذا جهل عظيم بما دلت عليه عقول العقلاء، فإن العقل مؤيِّد للشرع، شاهد له، وهل

يظن العاقل أن الشارع الحكيم يحكم بأحكام تخالف العقل الصحيح، فضلاً عن أن يخبر بأخبار ينافيها الواقع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم؛ ولهذا ينبه الله العقول والفطر على المطالب العظيمة والتوحيد والنبوة والمعاد مثل قوله تعالى:

**﴿قل ادعُوا الذين زعمتم مِنْ دونِ اللَّهِ لا يملِكُون مثقالَ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ وما لهم فيهما مِنْ شِرْكٍ وما لَهُ منهمْ من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عندَه إلّا لِمنْ أذِنَ له﴾** [سورة سبأ: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فنبه العقول على أمر تعرفه ولا تُنكره، وهو أن كلَّ ما عُبِد من دونه ليس له ملكٌ ولا شِركةٌ في الملك، ولا مظاهرة ولا شفاعة. وإذا انتفت هذه الأمور الأربعة ثَبُتَ بطلان عبادة مَن سوى الله؛ وكذلك قوله تعالى:

**﴿ومنْ أضلُّ مِمَّنْ يدعُو مِنْ دونِ اللَّهِ مَنْ لَا يستجيبُ لهُ إلى يومِ القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذَا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** [سورة الأحقاف: الآيتان ٥، ٦]

وكذلك قوله تعالى:

**﴿ما اتخذَ اللَّهُ من ولدٍ وما كان معه من إله إذاً لَذَهَبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهم على بعض سبحانَ اللَّهِ عما يصفون﴾**

[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

كما نبه على تفرده بالخلق والربوبية والوحدانية بقوله:

**﴿أمْ خُلقوا من غير شيء أمْ همُ الخالقون * أم خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ بل لا يوقنون﴾** [سورة الطور: الآيتان ٣٤، ٣٥]

وكما نبّه على المعاد بالخلق الأول وخلقِه السمواتِ والأرضَ التي هي أكبر من خلق الناس، وبإحياء اللَّهِ الأرضَ بعد موتها، وكما برهن على صدق الرسول، وما جاء به من القرآن بتحدِّيه الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعَشر سورٍ مثلِه أو بسورة واحدة، واحتج على الخلق بحسن ما جاء به الرسول من

أخباره الصادقة وأحكامه العادلة وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً، وإن كنت في ريب من ذلك فتتبـع كل خبر أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله محمد ﷺ تجدها أعلى درجات الصدق، وأنفـع ما يكون للعباد، فإن تصديقها واعتقاد مخبرها من أكبر مغذيات الإيمان؛ وتأمل ثانياً: هل في خبر الله وخبر رسوله شيء يخالف الحسَّ والواقـعَ والعقلَ الصحيـح، أم تجد هذه الأمور من أكبر الشواهد على تحقيق خبر الله ورسوله؟ وتأمّل ثالثاً: هل تجد في أحكام الله ورسوله الأوامرِ منها والنواهي شيئاً ينافي الحكمة والمصلحة للعباد؟ أم تجدها هي الغاية في كمال الخَلْق وعلوِّ مراتبهم وتخلُّقهم بالأخلاق الجميلة وتنزُّههم من الأخلاق الـرذيلة؟ فهي التي ترفـع أهلهـا إلى أعلى مراتب الكمال، ولا يكون النقص والضرر إلاّ بالإخلال بها أو ببعضها؛ وقد اعترف بذلك الأولياء وألقى شبهة روجها على الجاهلين بالإسلام وبالواقـع متى فعل ذلك في بعض فروعه النادرة ظهر كذبه وافتراؤه، وظهرت المصلحة للخلق والفوائد الكثيرة في القول الذي دلت عليه شريعة الإسلام، لأنها شريعة أحكم الحاكمين عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم من مصالـح عباده ما لا يعلمون، وشرع لهم ما يصلحهم في كل زمان ومكان: في دينهم ودنياهم، وهو الحكيم العليم الرحيم.

## فصل

## من أدلة القرآن العقلية والنقلية

ومن الأدلة العقلية النقلية الأمثال التي ضربها الله في القرآن، فإنها كلَّها تنبِّه العقول وتوضـح البراهين العقلية على وحدانية الله وتوحيده، وعلى صدق رسوله وصحة ما جاء به؛ فمن زعم أن شيئاً من الأدلة العقلية التي يسلمها العقلاء تخالف ما جاء به محمد ﷺ فهو مغترٌّ، وليأتِ بمثالٍ واحد ولن يستطيـع ذلك. نعم، قد يأتي بنظريات وخيالات إذا حُقِّقت عقلاً وُجِدَت

جهليَّات وضلالاً مبيناً. مثل قول كثير من الملحدين: إن العقوبات والحدودَ التي جاء بها دين الإسلام على الجرائم غير لائقة ولا مناسبة للقوانين. والأحسن عندهم أن يستبدل بها الحبسُ والغرامة المالية. وهذا سفسطة ومكابرة للواقع، فإن القوانين التي يسنُّها الملحدون ومَنْ قلَّدهم على الجرائم لم تُغْنِ شيئاً، وظهرَ نقصُها وفشلُها العظيم، وأنه لا أثر لها في ردع المجرمين، وأن السبب الوحيد لردع كل مجرم تطبيقُ الحدود الشرعية والعقوبات الدينية، فهي الكفيلة بردع المجرمين، إذ هي عقوباتٌ ونكال وموعظة لو طُبقت في قطر من الأقطار لصَلُحت أحوالهم وقلَّ الجناة والمجرمون وحصل الأمن على الدماء والأموال والأعراض، لأنها تشريعٌ من حكيمٍ بأحوال العباد وما يصلحهم ويقيهم الشرور.

ومثل قول كثير من الماديِّين الملحدين ومن قلّدهم تقليداً أعمى: إنه يجب أن تكون الأفكار حرة، وأن لكل أحد حريته في الرأي الذي يرتئيه، والاقتراح الذي يبديه على أي حال يكون، وهذا قد ظهر أيضاً ضرره العظيم، وأن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد حريته فيها قد تبين أنها السبب الوحيد في الفوضوية، وأنها أعظم من حرية الأفعال، بل هي أصلها فإنه متى أعطي الناس حريتهم فيها انحلّت أخلاقهم وعقائدهم، ومَرَجت أعمالهم وصارت البهائمُ أحسنَ حالاً منهم. وهذا هو الواقع في كل قطر أطلقت فيه الحريات، ولم تقيد بالقيود الشرعية العقلية، فإن النفوس أمَّارة بالسوء، وطبيعتها الأشر والبطر والانطلاق خلف كل شهوة ضرت الأفراد والجماعات أَوْلم تضرَّهم، فكما أن إطلاق الحريات في الأفعال مطلقاً لا يمكن البقاء معه ـــ فلو ترك لكل أحد حريته، وأن له أن يقتل أو يجرح أو يضرب أو يأخذ أموال الناس وأعراضهم لفسدت الأحوال، واختلت الدنيا، ووقع الهرج والمرج، والضرر الكبير. . فكذلك حريات الأفكار: متى أطلقت، أتت بالمنكرات والفظائع الشنيعة، وكان من ثمرتها الخبيثة الاستغناء عن الدين وعن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وإنكار ما جاءوا به، وكذلك إنكار ما دلت عليه العقول

الصحيحة من وجوب التقيُّد والتحرُّز عن الأمور الضارة في الاعتقادات والأخلاق والأعمال.

ومن جرّاء حريات الأفكار ما تسمعه في الصحف الإلحادية والصحف الخليعة من المقالات التي تقشعر منها قلوب العقلاء وقد ضَرَّت ضرراً كبيراً في العقائد والأخلاق، بل ضرت الحكومات والجماعات والأفراد. أما شريعة الإسلام فإنها ولله الحمد جاءت بتنبيه العقول، والحثِّ على التفكر في الأمور التي ينفع التفكير فيها: كآيات الله المخلوقة وآياته المتلوَّة، وسلكت في تفكرها ونظرها المسالك الصحيحة فأقرت العلوم النافعة والمعارف الصادقة والحثّ على كل خلق جميل والحذر عن كل خلق رذيل، وجعلت للأفكار حدًّا صحيحاً إنْ تجاوزَتْه وقعتْ في المهالك وأنواع الضلالات. فالأفكار إن لم تقيِّدها العقولُ الصحيحة والدين الصحيح الذي وضعه الله للعباد ــ فيه صلاح شؤونهم وكمال أحوالهم ــ فإنها تُحدث الفوضى والخطأ، والضلال والشقاء والحمق والجنون.

وكذلك ما افتراه كثير من أعداء الإسلام والمنافقين أن الإيمان بقضاء الله وقَدَره يحدث الفتور والاستسلام وعدم الحركة؛ وهذا الزعم منهم افتراء ظاهر وكذب صريح؛ فإن الدين الإسلامي قد أمر بأصْلَين عظيمين لا تتمُّ الأمور كلُّها إلّا باجتماعهما؛ أحدهما: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الأمورَ كلَّها والأسباب مربوطةٌ بالقضاء والقدر، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ الأصل الثاني: الأمر بالأعمال النافعة في الدين والدنيا، والبعد عن الأسباب الضارّة. وكل واحد من الأصلين يُمِدُّ الآخر؛ فالإيمان بالقضاء والقدر يُمد العاملين وينشِّطهم ويوجب لهم اقتحام الأمور الصعبة اتِّكالاً على الله واستمداداً مِنْ حَوْلِهِ وقوَّته، ويُزيل من قلوبهم خوفَ المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضُرًّا، والسعي والعمل هو من قضاء الله وقَدَره، فإنه أخبر أنه يُوجِد الأشياء بأسبابها، ولهذا يجمع الله بين الأصلين في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله:

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلّا أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمين﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

وقوله: ﴿إنَّهُ تذكرةٌ * فمنْ شاءَ ذَكَرَه * وما يَذْكُرُون إلّا أَنْ يشاءَ اللَّهُ﴾ [سورة المدّثر: الآيات ٥٤ ـ ٥٦]

وقوله تعالى: ﴿فأمّا من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسِّره لليُسرى * وأمّا من بَخِلَ وآستغنى * وكذّب بالحسنى * فسنيسِّره للعُسرى﴾ [سورة الليل: الآيات ٥ ـ ١٠]

فأَمَرَ بالأعمال ورغَّب فيها، وَوَعَدَ التيسيرَ لليُسرى لمن قام بالأسباب النافعة، والتيسيرَ للعُسرى لمن ترك الأسباب النافعة.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: (احرص على ما ينفعك، وآستعِنْ باللَّهِ ولا تعجز) وهذا شامل للحرص على الأمور النافعة في الدين والدنيا، فعُلم أن دين الإسلام يكذِّب ما افتراه عليه أعداؤه من أنه مثبِّط مخدِّر، وإنما هو منشِّط وحاثٌّ على كل عمل نافع، وأن الإيمان بالقَدَر من أعظم المنشِّطات لكل عمل نافع، وأعظم المسهِّلات لها؛ ولهذا قال ﷺ: (اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له؛ أمّا من كان من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فسيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة) وتلا ﷺ عند ذلك هذه الآية: ﴿فأمّا من أعطى واتّقى، وصدَّق بالحسنى﴾ الآيات. ولهذا كان الدين الإسلامي يعتبِرُ من يترك العمل اتِّكالاً على القَدَر أحمقَ مجنوناً، ويُنكِرُ على المشركين الذي يحتجون على تركهم الأمور النافعة بالقَدَر والمشيئة، ويخبر أنّ الاحتجاج بذلك دأْبُ الأمم الطاغية، الذين عُوقبوا بأنواع المثلات، فما من عمل نافع دقيق أو جليل إلّا حثَّ الشارع عليه وعلى وسائله ومكمِّلاته، ولا عملَ ضارًّا وكسل وتقاعد إلّا حذّر عنه غاية التحذير؛ ونصوص الشرع في هذا الأصل لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن أنكر ذلك فهو مكابر مباهت وهو من أعظم الناس ضلالاً.

# فصل

## العلوم المخالفة للدين

ومما روّج به الملحدون باطلَهم وعلومَهم المخالفةَ للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسمَّوْها تجديداً ورقياً وتقدماً، ونحوها من الأسماء التي يغرِّرون بها من لا بصيرةَ عنده؛ وتسميتهم للحق الذي جاء به الرسول محمد ﷺ جموداً ورجعية وتحذيراً ورجوعاً إلى الوراء، كما قال تعالى عن أسلافهم:

**﴿وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجِنِّ يوحِي بعضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً ــ إلى قوله ــ ولِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ ولِيَرْضَـوْه ولِيَقْتَرِفُوا ما هم مُقْتَرِفُون﴾**

[سورة الأنعام: الآيتان ١١٢، ١١٣]

فأخبر تعالى: أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان، وأنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصَوْن بذلك ويفترون على الله الكذب، وأنه يغترُّ به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان فهؤلاء أخذوا كلَّ ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذِّبين، وزادوا زيادات كم اصطادوا بها ضعفاء البصائر. وليس ما جاء به الرسول جحوداً ولا رجوعاً إلى الوراء، وإنما هو الحق والنور، والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب ولا للدنيا إلاّ به، ولا نور إلاّ باقتباس نوره، وهو الموقِظ للهمم والعزائم.. إلى كل خصلة حميدة وإلى كل رقي صحيح وتقدُّم نافع، فإن من أصول الشريعة الكبرى وجوب العمل بالأسباب النافعة مقاصدها ووسائلها، والحثّ على كل عمل صالح ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك مع بذل الجهد. ومن المعلوم أن من تحقق بهذه الأصلين بذل المجهود في كل أمر نافع والاستعانة بالمعبود فإنه لا يزال في تقدم ورقيّ مطّرد في إصلاح الدين وفي إصلاح الدنيا المعينة على الدين كما قال ﷺ (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله) وكم في كتاب الله وسنة الرسول من الأمر بكل عمل نافع والحث على التقدم الصحيح النافع للأفراد والجماعات والشّعب

والحكومات. وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين ورحمته فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدِّم إلى هدم كل خلق جميل والاتّصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على ذلك. فإنه محال أن يحصل التقدم الصحيح إلاّ إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق، فإن الباطل، وإن كان له نوع صولة فعاقبته الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسارة والهلاك. فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب، أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبُّه بهم في أخلاقهم ولباسهم، وحركاتهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، فيرون الانسلاخ من دين الله، الذي هو الحق، ومن أخلاقه الجميلة هو التقدم والرقي فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، وصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وكانوا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، ولهذا كانوا يقلّدون الأجانب في الأمور الضارّة. وأمّا ما عندهم من الأمور التي تنفع إذا انضم إليها الدين فهم أبعدُ الناس عنها، كما هو معروف من أحوالهم.

## فصل

## من ترويج المنحرفين عن الحق

ومما يروِّج به المنحرفون باطلَهم لهجُهُمُ الشديد بالثقافة العصرية، زاعمين أن الأخلاق لا تتهذب ولا تتعدل إلاّ بها. ويطنبون في مدحها ومدح المثقفين فيها، وفي ذمٍّ من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منهم؛ وهم يفسِّرونها تفاسير متباينة منحرفة: كلٌّ يتكلم بما يخطر له، لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها، هكذا يكون أهلها: لا يتفقون في آرائهم ونظرياتهم على شيء، وكل أقوالهم ترجع إلى هبوط الدين والأخلاق، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي الذي هذّب العقائد عن الشِّرك والوثنيات، وهذّب الأخلاق عن كل خُلُقٍ رذيل، وهذّب الأعمال

والآداب حتى استقامت بها الأمور، وصَلُحت بها الأحوال، وجَمَعَتْ بين الدين والدنيا، وبين تقويم المعنويات النافعة والماديات المعينة عليها.

وذلك أن المشاهدة شاهدة بما ذكرنا. فإن العلوم العصرية والمخترعات ـ مع توسُّعها وتبحّرها ـ حيث كانت خالية من الدين عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها للفضائل الصحيحة، وعن ترفّعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولّى هذا التهذيب النافع، ويوجِّه إلى كل خيرٍ ويزجُر عن كل شرٍّ هو دين الإسلام؛ فإنه مصلحٌ للظاهر والباطن، لأمور الدين والدنيا، ومَنْ نظر إلى أصوله وفروعه، وإلى ما دعا إليه وحثَّ، وإلى ما زجر عنه، وجد الأمر كما ذكرنا، بل فوق ذلك والله الموفق.

ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره وتحتجَّ به على الإسلام والمسلمين، في ضعته وجموده وهبوط أخلاقه، فإن الإسلام بريء ممن هذه حاله، وإن تسمّى بالإسلام فليس له منه إلا رسمه، فإن دين الإسلام دين الرِّفعة والرقي الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام، في وسائلها ومقاصِدها، وهي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح، كما هو معروف من حال أول هذه الأمة القائمين به حقيقة، الذين ملأوا الدنيا عدلاً ورحمة وصلاحاً وإصلاحاً، للأحوال كلها، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني، فمن أراد أن يعرف آثار الدين فلينظر إلى أمثال هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغرير فله نظر آخر.

# فصل

## قول بعض الناس: هذا وقت العلم والمعارف

يقول كثير من الناس: هذا وقت العلم والمعارف والرقي؛ ومقصودهم بهذا: الإعراضُ عن الماضي، وعن علوم الدين والتزهيد فيها؛ وقد صدقوا من جهة، وكذبوا من جهات أُخَر: قد صدقوا أنه وقت ترقَّت فيه علوم الصناعات والمخترعات، وما يرجع إلى الماديات والطبيعيات، وقد كذَبوا أفظعَ الكَذِب حيث حصروا العلم بهذا النوع، ولم يعلموا أن العلم الحقيقي النافع هو العلم بما جاء به الكتاب والسّنة، الكفيلُ بكل خير ديني ودنيوي وأخروي. والعلم النافع من علوم الصناعات والمخترعات داخلٌ في ضمن هذا، بل العلم الديني هو الذي يصيِّر العلوم الطبيعية والصناعية نافعة نفعاً صحيحاً، وهو الذي يوجهها إلى نفع النوع الإنساني ويمنعها من التهور المهلك. ولهذا نقول: وقد كذبوا أيضاً من جهة أن هذه العلوم التي افتخروا بها لم يوجهوها التوجيه النافع، بل استعملوها فيما يضر الخلق في الإهلاك والإفناء والتدمير؛ فهي من أعظم النِّعَم ولكنها باستعمالهم إياها كانت من أكبر النكبات والنِّقَم وهذا من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الشيء الذي لا يتولى الدين الصحيح توجيهه فهو منعكس، ضرره أكبر من نفعه.

وقد صدقوا أنه زمان ترقِّي الماديات الجافة، وقد كَذَبوا في إطلاقهم الترقي فيظُنُّ الظانُّ أنه ترقٍّ في كل شيء، وهو إنما هو تَرَقٍّ في الصناعات والمخترعات، لا في الأخلاق الفاضلة والديانات، فلا ينفع الترقِّي في الماديات إذا هبطت الأخلاق التي عليها المدار في كل شيء، وهي التي تصلح الأشياء ولا تصلح الأمور بدونها، كما هو مشاهد محسوس، فأي ترقٍّ صيَّر أهله بمنزلة السباع الضارية دأبُها الظلم والفتك والاستعمار للأمم الضعيفة وسلبها حقوقها؟ فالترقي الصحيح الذي هو من آثار الدين من آثاره العدل والرحمة والوفاء بالحقوق والحثّ على كل خير والتحذير من كل شر.

هذا هو الترقي الذي لم يشمُّوا له رائحة، ولا خطر بقلوبهم؛ وكيف يخطر بقلوبهم وقلوبهم ملآى بالهلـع والجشـع والزهو والكبر والغرور، ومن كل خلق رذيل؟

وقد كذبوا أيضاً في زعمهم أن العلوم العصرية والفنون الاختراعية النافعة هم الذين ابتدأوها، وأن الشريعة الإسلامية لم تهدِ إليها ولم تُرشدْ إلى أصولها. . وهذا بهتٌ عظيم، ومكابرةٌ يعرفها من له أدنى نظر في الدين الإسلامي. وكيف أصّل للعباد أصولاً عظيمة نافعة بها صلاح دنياهم كما أصّل لهم أصولاً نافعة فيها صلاح دينهم، وقد ذكرنا بعض النصوص من الكتاب والسّنة الدالة على هذا الأصل كما سبقت الإشارة إليه. نعم، لو قالوا: إن الناس في هذا الوقت انتفعوا بهذه الأصول والتعـاليم الدينيـة في ترقيـة الصناعات وابتكار المخترعات ومعرفة طرق الاقتصاديات، وما أشبه ذلك، ولكنهم رقَّوها ترقيةً مبتورة مقطوعة الصلة بالله، وبدين الله، فلهذا نفعت من جهة وضرَّت من جهات. نفعت بما اشتملت عليه من منافـع العباد الدنيوية، ونفعت من استعان بها على الدين والخير. وضرّت من جهة: أنها سببت لأهلها الوحشية والهمجية الذي من آثاره الإهلاك والتدمير، والشرور التي لم يوجد لها نظير، فيما سبقت وضرّت أيضاً من جهة ما أحدثت في نفوس أهلها من الزهو والغرور والكبرياء، واستعباد الضعفاء وظلمهم، وهضم الحقوق والشرور المتنوعة، فلو أن هذه المخترعات تولّى الدين توجيهها لحصل فيها من المنافـع أضعاف أضعاف ما شوهد، ولاندفعت مضارُّها وشرورها، ولكانت مبنيةً على الخير والصلاح، وآثارها الخير والإصلاح للدين والدنيا، ولكن لله في خلقه شؤون. .

# فصل

## أعظم آفات العلم

أعظم آفات العلم وقواطعه الانخداع بالوقوف مع المخلوقات دون خالقها، وبالآثار عن مؤثرها، وبالأسباب عن مسببها، وبالوسائل عن مقاصدها، وهذا النوع نقصه كثير وضرره كبير؛ فإن كثيراً من الملحدين والمغترين بهم يمهَرون في العلوم الطبيعية، ولكنهم يقفون معها ويعمَوْن عن ارتباطها بخالقها ومسببها، والذي أودع فيها من العجائب والأسرار ما أودع، فيرون أنفسهم قد عرفوا من عجائب علوم الطبيعة ما لم يعرفه غيرهم، ومن الأسرار التي أودعها الله في الطبائع ما زادوا به على غيرهم فيأخذهم الزهو والغرور، ويقفون معها ويرونها هي الحاصل وهي المقصود، وهي الغاية، فيحصل الانحراف العظيم والنقص في العلم والعقل. فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبِّر للأمور كلِّها وربطوا الأسباب بقضائه وقَدَره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم، يضع الأمور مواضعها، ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب، وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سبباً ووسيلة، وطريقاً يوصل إليه. ولذلك نتيجة وثمرة بحسب قوة الأسباب وضعفها، وبحسب قوة العامل بها وضعفه. ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقَدَر الله وقضائه.. لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لتمَّ علمُهم وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه. ولكنهم فرحوا بما عرفوه من الوسائل التي يعرفون نتائجها الدنيوية ملموسة وتكبروا بها فانطبق عليهم قوله تعالى:

**﴿فلما جاءتهم رُسُلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة غافر: الآية ٨٣]

وقوله تعالى: **﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا**

**أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيء إذْ كانوا يجحدون بآيات اللّهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

وهذا أعظم آفات العُجْب والكِبْر على الإطلاق، وأعظم الطرق التي اغترّ بها وانخدع كثير من الخلق، فنسأل الله أن يرزقنا العلم الصحيح، المؤيَّد بالعقل والنقل والفطرة، وهو العلم النافع الذي يعرفه العبد من جميع نواحيه، وهو العلم الذي يربط الفروع بأصولها، ويرد الأسباب وآثارها ونتائجها إلى مسببها، وإلى الذي جعلها كذلك وهو العلم الذي لا ينقطع صاحبه بالمخلوق عن خالقه وبالآثار عن مؤثِّرها وبالحِكَم والأسرار والنظامات العجيبة عن محكِمِها ومنظِّمها ومبدِعها، وهذا العلم هو الذي يثمر اليقين وتحصَلُ به الطمأنينة وتتم به السعادة والفلاح، ويثمر الأخلاقَ الجميلة والأعمالَ الصالحة المصلحة للدين والدنيا.

أما علوم المنحرفين، فإنها ـ كما ذكرنا ـ مقطوعة مبتورة، جافة، نهاية نفعها كنفع الصناعات المادية، كما هو مشاهد محسوس، لا تثمر إيماناً ولا أمانة، ولا رحمة ولا أخلاقاً جميلة، بل ثمراتها ضد ذلك؛ يؤسف غاية الأسف لكل ذي عقل كبير وذكاء مفرط أن تكون هي غايته وثمراته فإن العقل الصحيح فهم الأشياء والإحاطة بها من جميع نواحيها، ثم العمل بالأمور النافعة واستغلال الخيرات والمواهب التي وُهِبَها العبد، والجمع بين مصالح الدارين ومنافع البدن والروح، والنظر الصحيح للمبادىء والعواقب، وربط الأمور المتصلة بعضها ببعض، فكل من لم يتصف بهذه الأوصاف نقص من عقله بحسب ذلك فكيف بدينه؟

# فصل
## من علامات المنحرفين في أديانهم

ومن علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم اغترارُهم بآرائهم وعقولهم السخيفة، واحتقارهم لعقول صفوة الخلق وخلاصتهم من الأنبياء وأتْباعِهم وأهل الهدى، وبهذا تعرف مكابرتهم ومبالغتهم وإنكارهم ما لا يمكن إنكاره وجحدهم فضلَ مَن قَبْلَهم ليتوصلوا بذلك إلى رد الحق؛ يصدون العباد عن دين الله وسبيله فيعبرون عن الحقائق التي جاءت بها الرسل. يقولون: هذا عقل قديم؛ وهذا رأي عتيق؛ هذا أساطير الأولين؛ كما قابلت الرسل أعداؤهم بهذه الأقوال الخبيثة الساقطة. وقد اغتر بأقوالهم هذه كثير من النشأة والشبيبة الذين لا بصيرة لهم ولا عقول ناضجة. أما علموا أن العقول لا تكمل ولا تزكو إلا بالوحي والقرآن، ولا تكون عقولاً نافعة حتى تغتذي بالهدى واليقين الذي جاء به الرسول؟ قال تعالى:

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [سورة طه: الآية ٥٤]

﴿لآيات لأولي الألباب﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]

وهم أهل العقول الوافية والآراء السديدة والأخلاق الزاكية، فهل يوجد عقول صحيحة تقارب عقل النبي ﷺ الذي لم تستنر العقول والآراء إلاَّ بعقله ورأيه وعلمه وتعليمه وإرشاده؟ فحسب العقول الكاملة أن تستمد من عقله ﷺ وآرائه وهداه ورشده وتغتذي بنوره وتوجيهه وإرشاده: قال تعالى:

﴿والنجم إذا هَوَى * ما ضلَّ صاحبُكم وما غوَى * وما ينطِقُ عن الهوى * إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ يوحى﴾ [سورة النجم: الآيات ١ـ ٤]

وهذا وصف للنبي ﷺ بكمال العلم والهدى، وكمال الرشد، وكمال العصمة، في أقواله وأفعاله، وبذلك يعلم أن كل ما خالف هديَه ورشدَه وإرشاده فهو ضلال وغي وسفاهة وشر وهلاك. والواقع أكبر شاهد على ذلك، فهل حصل لأحد مثقالُ ذرة من الخير الظاهر والباطن، ومن الثمرات النافعة الجليلة إلا على يده وبتعليمه صلوات الله وسلامه عليه؟ وهل اهتدى أحد إلاّ بامتثال أمره

واجتناب نهيه؟ وهل صَلُح شيء من أمور الدين والدنيا صلاحاً لا فسادَ معه إلّا بالمشي خلفه، واتّباعِهِ في أصول الدين وفروعه، وفي الوسائل والمقاصد؟ فلا خير وهدى ورحمة وصلاح وإصلاح للظاهر والباطن إلّا دلَّ الخلقَ عليه وأرشدهم إلى مسالكه، ولا شر وضرر إلّا حذَّرهم عنه.

## من كمال الدين الإسلامي صلاحه لكل زمان ومكان

قال تعالى: ﴿**اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً**﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

فمِن كمالِهِ أنه هدى للتي هي أقومُ في عقائده وأخلاقه وأعماله، فكَمُلت به العقائد والأخلاق والأعمال، فلا يعتريه النقصُ بوجه من الوجوه؛ ومن كماله أنه صالحٌ لكل زمان ومكان، وحالٌّ لجميع المشاكل الاجتماعية والشخصية؛ ومن كماله أن جميع الحقائق العقلية والحسية، والتجارب الصادقة، كلَّها داخلة فيه وفي ضمنه؛ ومن كماله أن النظريات المتباينة والاختلافات المتضادّة يُبيِّن صحيحَها من سقيمها، وصالحَها من فاسدها، وعدلَها من ظُلمِها وحقَّها من باطلها؛ ومن كماله أنه كملت به العقول واستنارت به الآراء واستمدّت من هدايته ما أصلحت به دينها ودنياها، فكل خير ديني ودنيوي وظاهر وباطن من نتائجه وثمراته؛ ولذلك تمت به النعمة على المؤمنين وحصل به الخير المنوّع على جميع العالمين.

والحمد لله الذي تفضل به على العباد وجعله هدى ورحمة في مصالح المعاش والمعاد، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

كتبه الفقير إلى الله عبد الرحمن الناصر بن سعدي

في ١٠ محرم سنة ١٣٧٥.

# الدُّرَّة المُخْتَصَرَة
## في محَاسِن الإسْلَام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلَه إلّا الله، وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ أكمل الأديان وأفضلها، وأعلاها وأجلّها، وقد حوى من المحاسن والكمال والصلاح والرحمة والعدل والحكمة ما يشهد لله تعالى بالكمال المطلق وسعة العلم والحكمة، ويشهد لنبيه ﷺ أنه رسول الله حقًّا، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى

﴿إنْ هُوَ إلَّا وحيٌ يوحى﴾ [سورة النجم: الآية ٤]

فهذا الدين الإسلامي أعظم برهان، وأجل شاهد لله بالتفرُّد بالكمال المطلق كله ولنبيه ﷺ بالرسالة والصدق.

وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم؛ فإني وإن كان علمي ومعرفتي تقصر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال، وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال، فضلاً عن التفصيل في المقال، وكان ما لا يدرك جميعه ولا يوصل إلى غِايته ومعظمه، فلا ينبغي أن يترك منه ما يعرفه الإنسان لعجزه عما لا يعرفه، فلا يكلّف الله نفساً إلا وسعها

﴿فاتّقُوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وذلك أن في معرفة هذا العلم فوائد متعددة:

منها: أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف المواضيع وأجلها من أفضل الأعمال الصالحة. فمعرفته والبحث عنه والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل إلى معرفته خير ما شغل العبد به نفسه، والوقت الذي تنفقه في ذلك هو الوقت الذي لك لا عليك.

ومنها: أن معرفة النِّعَم والتحدث بها قد أمر الله به ورسوله؛ وهو من أكبر الأعمال الصالحة؛ ولا شك أن البحث في هذا اعترافٌ وتحدُّثٌ وتفكُّرٌ في أجلّ نِعَمه، سبحانه، على عباده. وهو الدين الإسلامي الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فيكون هذا التحدث شكراً لله، واستدعاءً للمزيد من هذه النعمة.

ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتاً عظيماً، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشدَّ تعظيماً له وسروراً به وابتهاجاً كان أكمل إيماناً وأصحَّ يقيناً. فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده.

ومنها: أن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي يقبلها ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة؛ فلو تصدى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه ويبيّنون للخلق مصالحه، لكان ذلك كافياً كفايةً تامة في جذب الخلق إليه، لما يرون من موافقته للمصالح الدينية والدنيوية؛ ولصلاح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض لدفع شُبَهِ المعارضين والطعن في أديان المخالفين؛ فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه، لأنه حق مقرون بالبيان الواضح، والبراهين الموصلة إلى اليقين. فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داع إلى قبوله ورجحانه على غيره.

وَاعْلَمْ أن محاسن الدين الإسلامي عامةٌ في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما دل عليه من علوم الشرع والأحكام، وما دلّ عليه من علوم الكون والاجتماع. وليس القصد هنا استيعاب ذلك وتتبعه، فإنه يستدعي بسطاً كثيراً. وإنما الغرض ذكر أمثلة نافعة يُستدلُّ بها على سواها، وينفتح بها الباب لمن أراد الدخول؛ وهي أمثلة منتشرة في الأصول والفروع والعبادات والمعاملات.

فنقول، مستعينين بالله، راجين منه أن يهدينا ويعلِّمنا، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما تصلح به أحوالنا وتستقيم به أقوالنا وأفعالنا:

عبد الرحمـٰن بن ناصر السعدي

## المثال الأول

دين الإسلام مبني على أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى:

**﴿قولوا آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ ربِّهم لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

فهذه الأصول العظيمة التي أمر الله عبادَه بها هي الأصول التي اتفق عليها الأنبياء والمُرسَلون، وهي محتوية على أجلِّ المعارف والاعتقادات، من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه على ألسنة رسله، وعلى بذل الجهد في سلوك مرضاته. فدينٌ أَصلُهُ الإيمانُ بالله وثمرتُه السعيُ في كل ما يحبّه ويرضاه وإخلاص ذلك لله، هل يُتَصَوَّرُ أن يكون دينٌ أحسنُ منه وأجلُّ وأفضل؟ ودينٌ أَمَرَ بالإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء، والتصديق برسالاتهم، والاعتراف بالحق الذي جاؤوا به من عند ربهم، وعدم التفريق بينهم، وأنهم كلَّهم رسلُ الله الصادقون، وأمناؤه المخلصون، يستحيل أن يتوجه إليه أي اعتراض وقَدْح. فهو يأمر بكل حق، ويعترف بكل صدق، ويقرر الحقائق الدينية المستندة إلى وحي الله لرسله، ويجري مع الحقائق العقلية الفطرية النافعة، ولا يرد حقاً بوجه من الوجوه، ولا يصدق بكذب ولا يروج عليه الباطل فهو مهيمن على سائر الأديان: يأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ومصالح العباد؛ ويحث على العدل والفضل والرحمة والخير، ويزجر عن الظلم والبغي ومساوىء الأخلاق.. ما من خصلةِ كمالٍ قررها الأنبياء والمرسلون إلّا وقررها وأثبتها،

وما من مصلحةٍ دينية ودنيوية دعت إليها الشرائع إلّا حثّ عليها، ولا مفسدة إلّا نهى عنها وأمر بمجانبتها.

والمقصود: أن عقائد هذا الدين هي التي تزكو بها القلوب، وتصلح الأرواح، وتتأصل بها مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

## المثال الثاني

شرائع الإسلام الكبار بعد الإيمان: هي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

تأمل هذه الشرائع العظيمة وجليل منافعها وما توجبه من السعي في مرضاة الله والفوز بثوابه العاجل والآجل.

وتأمل ما في الصلاة من الإخلاص لله والإقبال التامِّ عليه، والثناء والدعاءِ والخضوع، وأنها من شجرة الإيمان بمنزلة الملاحظة والسقي للبستان. فلولا تكرر الصلاة في اليوم والليلة ليبست شجرة الإيمان، وذوى عودُه ولكنها تنمو وتتجدد بعبوديات الصلاة.

وانظر إلى ما تحتوي عليه الصلاة من الاشتغال بذكر الله الذي هو أكبر من كل شيء وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وآنظر إلى حكم الزكاة وما فيها من التخلق بأخلاق الكرام من السخاء والجود والبعد عن أخلاق اللئام، والشكر لله على ما أولاه من الإنعام، وحفظ المال من المنغصات الحسية والمعنوية، وما فيها من الإحسان إلى الخلق ومواساة المحتاجين، وسداد مصالح المحتاج إليها. فإن في الزكاة دفع حاجة المضطرين المحتاجين، وفيها الاستعانة على الجهاد والمصالح الكلية

التي لا يستغني عنها المسلمون، وفيها دفع صولة الفقر والفقراء، وفيها الثقة بخلَف الله والرجاء لثوابه وتصديق موعوده.

وفي الصوم من تمرين النفوس على ترك محبوبها، الذي أَلِفَتْه، حبًّا لله، وتقرباً إليه، وتعويد النفوس وتمرينها على قوة العزيمة والصبر. وفيه تقوية داعي الإخلاص وتحقيق محبته على محبة النفس، ولذلك كان الصوم لله، اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال.

وأما ما في الحج من بذل الأموال وتحمل المشقات والتعرّض للأخطار والصعوبات، طلباً لرضى الله والوفادة على الله والتملّق له في بيته وفي عرصاته، والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر التي هي موائد مدها الله لعباده ووفود بيته، وما فيها من التعظيم والخضوع التام لله والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين والأصفياء والمخلصين وتقوية الإيمان بهم، وشدة التعلق بمحبتهم، وما فيه من التعارف بين المسلمين والسعي في جمع كلمتهم واتفاقهم على مصالحهم الخاصة والعامة مما لا يمكن تعداده، فإنه من أعظم محاسن الدين وأجلّ الفوائد الحاصلة للمؤمنين. وهذا على وجه التنبيه والاختصار.

## المثال الثالث

ما أمر به الشارع وحثّ عليه من وجوب الاجتماع والائتلاف ونهيه وتحذيره عن التفرق والاختلاف، على هذا الأصل الكبير من نصوص الكتاب والسنّة شيء كثير. وقد علم كل من له أدنى معقول منفعة هذا الأمر، وما يترتب عليه من المصالح الدينية والدنيوية، وما يندفع به من المضار والمفاسد.

ولا يخفى أيضاً أن القوة المعنوية المبنية على الحق، هذا أصلها الذي تدور عليه؛ كما أنه قد علم ما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام من استقامة الدين وصلاح الأحوال والعزة التي لم يصل إليها أحد سواهم إذ كانوا مستمسكين بهذا الأصل قائمين به حق القيام؛ موقنين أشد اليقين أنه روح دينهم.

يزيد هذا بياناً وإيضاحاً:

## المثال الرابـع

أن دين الإسلام دين رحمة وبركة وإحسان، وحثٌّ على منفعة نوع الإنسان.

فما اشتمل عليه هذا الدين من الرحمة وحسن المعاملة والدعوة إلى الإحسان، والنهي عن كل ما يضادّ ذلك هو الذي صيّره نوراً وضياءً بين ظلمات الظلم والبغي وسوء المعاملة وانتهاك الحرمات، وهو الذي جذب قلوب من كانوا قبل معرفته ألدّ أعدائه حتى استظلوا بظله الظليل، وهو الذي عطف وحنا على أهله، حتى صارت الرحمة والعفو والإحسان يتدفق من قلوبهم على أقوالهم وأعمالهم، وتخطاهم إلى أعدائه، حتى صاروا من أعظم أوليائه. فمنهم من دخل فيه بحسن بصيرة وقوة وجدان، ومنهم من خضـع له ورغب في أحكامه وفضّلها على أحكام أهل دينه، لما فيها من العدل والرحمة.

## المثال الخامس

دين الإسلام هو دين الحكمة ودين الفطرة ودين العقل والصلاح والفلاح.

يوضح هذا الأصل: ما هو محتوٍ عليه من الأحكام الأصولية والفروعية، التي تَقْبَلها الفِطَرُ والعقول، وتنقاد لها بوازع الحق والصواب، وما هي عليه من الأحكام وحسن الانتظام، وأنها صالحة لكل زمان ومكان. فأخباره كلها حق وصدق، لم يأت ـ ويستحيل أن يأتي ـ علم سابق أو لاحق بما ينقضها أو يكذبها، وإنما العلوم الحقة كلها تؤازرها وتؤيدها، وهي أعظم برهان على صدقها.

وقد حقق المحققون المنصفون أن كل علم نافع، ديني أو دنيوي أو سياسي، فقد دلّ عليه القرآن دلالة لا ريب فيها. فليس في شريعة الإسلام ما تحيله العقول، وإنما فيه ما تشهد العقول الزكية بصدقه ونفعه وصلاحه. وكذلك أوامره ونواهيه كلها عدل لا ظلم فيها، فما أمر بشيء إلّا وهو خير خالص أو راجح، وما نهى إلّا عن الشر الخالص أو الذي مفسدتُه تزيد على مصلحته. وكلما تدبَّر اللبيب أحكامه ازداد إيماناً بهذا الأصل أو علم إنه تنزيل من حكيم حميد.

## المثال السادس

ما جاء به هذا الدين من الجهاد، والأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

فإن الجهاد الذي جاء به مقصود به دفع عدوان المعتدين على حقوق هذا الدين وعلى ردِّ دعوته، وهو أفضل أنواع الجهاد. لم يُقصد به جشع ولا طمع ولا أغراض نفسية. ومن نظر إلى أدلة هذا الأصل، وسيرة النبي ﷺ وأصحابه مع أعدائهم، عرف بلا شك أنَّ الجهاد يدخل في الضروريات ودفع عادية المعتدين. وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما كان لا يستقيم هذا الدين إلّا باستقامة أهله على أصوله وشرائعه، وامتثال أوامره التي هي الغاية في الصلاح واجتناب نواهيه التي هي شر وفساد. وكان أهله ملتزمين لهذه الأمور، ولكيلا تزيِّن لبعضهم نفوسُهم الظالمة التجرُّؤ على بعض المحرّمات والتقصير عن أداء المقدور عليه من الواجبات. وكان ذلك لا يتم إلا بأمر ونهي بحسب ذلك. كان ذلك من أجل محاسن الدين ومن أعظم الضروريات لقيامه. كما أنّ في ذلك تقويم المعوجِّين من أهله وتهذيبهم وقمعهم عن رذائل الأمور وحملهم على معاليها. وأما إطلاق الحرية لهم ـ وهم قد التزموه ودخلوا تحت حكمه وتقيدوا بشرائعه ـ فمن أعظم الظلم والضرر، عليهم وعلى المجتمع، خصوصاً الحقوق الواجبة المطلوبة شرعاً وعقلاً وعرفاً.

## المثال السابع

ما جاءت به الشريعة من إباحة البيوع والإجارات والشركات وأنواع المعاملات التي تتبادل فيها المعاوضات بين الناس في الأعيان والديون والمنافع وغيرها.

فقد جاءت الشريعة الكاملة بحِلِّ هذا النوع وإطلاقه للعباد، لاشتماله على المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، وفسحت للعباد فسحاً صلحت به أمورهم وأحوالهم واستقامت معايشهم. وشرطت الشريعة في حِلِّ هذه الأشياء الرضا من الطرفين واشتمال العقود على العلم، ومعرفة

المعقود عليه وموضوع العقد ومعرفة ما يترتب عليه من الشروط. ومنعت من كل ما فيه ضرر وظلم من أقسام الميسر والربا والجهالة.

فمن تأمل المعاملات الشرعية رأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا؛ وشهد لله بسعة الرحمة وتمام الحكمة، حيث أباح سبحانه لعباده جميع الطيبات، من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة.

## المثال الثامن

ما جاءت به الشريعة من إباحة الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغيرها.

فكل طيب نافع فقد أباحه الشارع من أصناف الحبوب والثمار ولحوم الحيوانات البحرية مطلقاً والحيوانات البرية، ولم يمنع من هذا إلَّا كلَّ خبيث ضارٍّ على الدين أو العقل أو البدن أو المال. فما أباحه فإنه من إحسانه سبحانه ومحاسن دينه. وما منعه فإنه من إحسانه، حيث منعهم مما يضرُّهم، ومن محاسن دينه، حيث إن الحسن تابع للحكمة والمصلحة ومراعاة المضار. وكذلك ما أباحه من الأنكحة وأن للعبد أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع، لما في ذلك من مصلحة الطرفين ودفع ضرر الجانبين. ولم يبح للعبد الجمع بين أكثر من أربع حرائر لما يترتب على ذلك من الظلم وترك العدل، مع أنه حثَّه عند خوف الظلم وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية، على الاقتصار على واحدة، حرصاً على نيل هذا المقصود؛ وكما أن الزواج من أكبر النعم ومن الضروريات فإباحة الطلاق كذلك، خشية عيشة الإنسان مع من لا تلائمه ولا توافقه واضطراره للبقاء في ضنك الحال وشدة العسر

﴿وإِنْ يَتفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

## المثال التاسع

ما شَرَعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي هي صلاحٌ وخير وإحسان وعدل وقسط وترك للظلم. وذلك كالحقوق التي أوجبها وشرعها للوالدين والأولاد والأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين، ولكل واحد من الزوجين على الآخر. وكلها حقوق ضروريات وكماليات، تستحسنها الفِطَرُ والعقول الزاكية، وتتم بها المخالطة، وتتبادل فيها المصالح والمنافع، بحسب حال صاحب الحق ومرتبته. وكلما تفكرت فيها رأيت فيها من الخير وزوال الشر، ووجدت فيها من المنافع العامة والخاصة والألفة وتمام العشرة ما يشهدك أن هذه الشريعة كفيلة بسعادة الدارين. وترى فيها هذه الحقوق تجري مع الزمان والمكان والأحوال والعرف، وتراها محصلة للمصالح، حاصلاً فيها التعاون التام على أمور الدين والدنيا جالبة للخواطر، مزيلة للبغضاء والشحناء. وهذه الجمل تعرف بالاستقراء والتتبع لها في مصادرها ومواردها.

## المثال العاشر

ما جاءت به الشريعة من انتقال المال والتركات بعد الموت، وكيفية توزيع المال على الورثة.

وقد أشار تعالى إلى حكمة ذلك بقوله:

﴿لا تدرون أَيُّهُمْ أقربُ لكم نفعاً﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

فوضعها الله بنفسه بحسب ما يعلمه من قرب النفع وما يحب العبد عادة أن يصل إليه مالُه، وما هو أولى ببره وفضله، مرتباً ذلك ترتيباً تشهد العقول

الصحيحة بحسنه، وأنه لووَكَلَ الأمر إلى آراء الناس وأهوائهم وإراداتهم لحصل بسبب ذلك من الخلل والاختلال وزوال الانتظام وسوء الاختيار ما يشبه الفوضى. وجعل الشارع للعبد أن يوصي في جهات البر والتقوى بشيء من ماله فيما ينفعه لآخرته، وقيد ذلك بالثلث فأقل لغير وارث، لئلاَّ تصير الأمور التي جعلها الله قياماً للناس ملعبةً يتلاعب بها قاصرو العقول والديانة عند انتقالهم من الدنيا. أما حالهم في حالة صحة الأجسام والعقول، فما يخشونه من الفقر والإفلاس مانـع لهم من صرفه فيما يضرهـم غالباً.

## المثال الحادي عشر

ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الحدود، وتنوُّعها بحسب الجرائم.

وهذا لأن الجرائم والتعدِّي على حقوق الله وحقوق عباده من أعظم الظلم الذي يُخِلُّ بالنظام، ويختل به الدين والدنيا. فوضـع الشارع للجرائم والتجرُّؤات حدوداً تردع عن مواقعتها؛ وتخفف من وطأتها، من القتل والقطـع والجلد وأنواع التعزيرات. وكلها فيها من المنافـع والمصالـح الخاصة والعامة ما يعرف به العاقل حسن الشريعة وأن الشرور لا يمكن أن تقاوم وتدفـع دفعاً كاملاً إلاّ بالحدود الشرعية التي رتّبها الشارع بحسب الجرائم قلةً وكثرة وشدةً وضعفاً.

## المثال الثاني عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالحجر على الإنسان عن التصرف في ماله إذا كان تصرفه مضرًّا به أو بغيره. وذلك كالحجر على المجنون والصغير والسفيه ونحوهم، والحجر على الغريم لمصلحة غرمائه. وكـل هذا من

محاسن الشريعة، حيث منعت الإنسان من التصرف في ماله الذي كان في الأصل مطلق التصرف فيه، ولكن لما كان تصرُّفه ضررُه أكثرُ من نفعه وشره أكبر من خيره حجر عليه الشارع حجراً للتصرفات في ميدان المصالح، وإرشاداً للعباد أن يسعَوا في كل تصرف نافع غير ضارّ.

## المثال الثالث عشر

ما جاءت به الشريعة من مشروعية الوثائق التي يتوثق بها أهل الحقوق.

وذلك كالشهادة التي تُستوفى بها الحقوق، وتَمنع التجاحد، ويزول بها الارتياب، وكالرهن والضمان والكفالة التي إذا تعذّر الاستيفاء ممن عليه الحق رجع صاحب الحق إلى الوثيقة التي يُستوفى منها. ولا يخفى ما في ذلك من المنافع المتنوعة؛ وحفظ الحقوق وتوسيع المعاملات وردها إلى القسط والعدل، وصلاح الأحوال، واستقامة المعاملات. فلولا الوثائق لتعطّل القسم الأكبر من المعاملات، فإنها نافعة للمتوثق، نافعة لمن عليه الحق من وجوه متعددة معروفة.

## المثال الرابع عشر

ما حثّ الشارع عليه من الإحسان الذي يكسب صاحبه الأجر عند الله والمعروف عند الناس؛ ثم يرجع إليه ماله بعينه أو بدله، فيكون مكسب هذا النوع أجل المكاسب دون أن يلحق صاحبه ضررٌ وذلك كالقرض والعارية ونحوهما. فإن في ذلك من المصالح وقضاء الحاجات وتفريج الكربات وحصول الخير والمبرات ما لا يعد ولا يحصى، وصاحبه يرجع إليه ماله وقد استفاد من ربه أجراً جزيلاً، وبذر عند أخيه إحساناً وجميلاً، مع ما يتبع ذلك

من الخير والبركة وانشراح الصدر، وحصول الأُلْفة والمودة.

وأما الإحسان المحض الذي يعطيه صاحبه مجاناً ولا يرجع إليه فقد تقدمت الإشارة إلى حكمته في الزكاة والصدقة.

## المثال الخامس عشر

الأصول والقواعد التي جعلها الشارع أسساً لفصل الخصومات وحل المشاكل وترجيح أحد المتداعيين على الآخر. فإنها أصول مبنية على العدل والبرهان، واطِّراد العرف وموافقة الفِطَر. فإنه جعل البينة على كل من ادّعى شيئاً أو حقًّا من الحقوق، فإذا أتى بالبينة التي ترجح جانبه وتقوِّيه ثبت له الحق الذي ادعى به، ومتى لم يأت إلاّ بمجرد الدعوى حلف المدعى عليه على نفي الدعوى ولم يتوجه للمدعى عليه حق. وجعل الشارع البينات بحسب مراتب الأشياء وجعل القرائن المبينة والعرف المطرد بين الناس من البينات. فالبينة اسم جامع لكل ما يبين الحق ويدل عليه، وجعل عند الاشتباه وتساوي الخصمين طريق الصلح العادل المناسب لكل قضية طريقاً إلى حل المشاكل والمنازعات. فكل طريق لا ظلم فيه ولا يدخل العباد في معصية الله، وهو نافع لهم، فقد حثّ عليه إذا كان وسيلة إلى فصل الخصومات وقطع المشاجرات. وساوَى في هذا بين القوي والضعيف، والرئيس والمرؤوس في جميع الحقوق وأرضى الخصوم بسلوك طرق العدل وعدم الحيف.

## المثال السادس عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالشورى والثناء على المؤمنين بأن جميع أمورهم الدينية والدنيوية الداخلية والخارجية شورى بينهم.

وهذا الأصل الكبير قد جمع العقلاء على استحسانه، وعلى أنه هو السبب الوحيد في سلوك أصلح الأحوال وأحسن الوسائل لحصول المقاصد وإصابة الصواب، وسلوك طرق العدل، وأنه أرقى للأمم العاملة عليه في تحصيل كل خير وصلاح. وكلما ازدادت معارف الناس واتسعت أفكارهم عرفوا شدة الحاجة لهذا ومقداره.

ولما كان المسلمون قد طبقوا هذا الأصل في صدر الإسلام على أمورهم الدينية والدنيوية كانت الأمور مستقيمة والأحوال في رقي وازدياد فلما انحرفوا عن هذا الأصل ما زالوا في انحطاط في دينهم ودنياهم حتى وصلت بهم الحال إلى ما ترى. فلو راجعوا دينهم في هذا الأصل وغيره لأفلحوا ونجحوا.

## المثال السابع عشر

أن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين وإصلاح الدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد، وهذا الأصل في الكتاب والسنّة منه شيءٌ كثير، يحثّ الله ورسوله على القيام بالأمرين، وأن كل واحد منهما مُمِدٌّ للآخر ومُعينٌ عليه؛ والله تعالى خلق الخلق لعبادته والقيام بحقوقه وأَدَرَّ عليهم الأرزاق ونوَّع لهم أسباب الرزق وطرق المعيشة ليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قياماً لداخليتهم وخارجيتهم. ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد؛ كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات وتقوية مصالح القلب والروح. ويتضح هذا بأصل آخر. وهو هذا:

## المثال الثامن عشر

أن الشرع جعل العلم والدين والولاية والحكم متآزرات متعاضدات.

فالعلم والدين يقوم الولايات وتنبني عليه السلطة والأحكام، والولايات كلها مقيَّدة بالعلم والدين، الـذي هو الحكمـة، وهو الصـراط المستقيم، وهو الصلاح والفلاح والنجاح، فحيث كان الدين والسلطة مقترنين متساعدين فإن الأمور تصلـح والأحوال تستقيم، وحيث فصل أحدهما عن الآخر اختل النظام وفقد الصلاح والإصلاح ووقعت الفرقة وتباعدت القلوب وأخذ أمر الناس في الانحطاط.

يؤيد هذا: أن العلوم مهما اتسعت والمعارف مهما تنوعت والاختراعات مهما عظمت وكثرت، فإنه لم يرد منها شيء ينافي ما دلّ عليه القـرآن، ولا يناقض ما جاءت به الشريعة. فالشرع لا يأتي بما تحيله العقول وإنما يأتي بما تشهد العقول الصحيحة بحسنه أو بما لا يهتدي العقل إلى معرفته جملةً أو تفصيلاً. وهذا ينبغي أن يكون مثالاً آخر. وهو:

## المثال التاسـع عشر

أن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولا بما ينقضه العلم الصحيـح. وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت صالـح لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبـع والاستقراء لجميـع الحوادث الكونية وحوادث علوم الاجتماع وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

# المثال العشرون

نظرة مجملة في فتوحات الإسلام المتسعة الخارقة للعوائد، ثم لبقائه محترماً مع تكالب الأعداء ومقاوماتهم العنيفة ومواقفهم المعروفة معه.

وذلك أن من نظر إلى منبع هذا الدين، وكيف ألَّف جزيرة العرب على افتراق قلوبها وكثرة ضغائنها وتعاديها، وكيف أَلَّفَهُمْ وجمع قاصيَهم لدانِيهم، وأزال تلك العداوات، وأحلّ الأُخوَّة الإيمانية محلَّها. ثم اندفعوا في أقطار الأرض يفتحونها قطراً قطراً، وفي مقدمة هذه الأقطار أمة فارس والروم أقوى الأمم وأعظمها ملكاً وأشدها قوة وأكثرها عدداً وعُدَداً، ففتحوهما وما وراءهما بفضل دينهم وقوة إيمانهم ونصر الله ومعونته لهم، حتى وصل الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، فصار هذا يعد من آيات الله وبراهين دينه ومعجزات نبيه، وبهذا دخل الخلق فيه أفواجاً ببصيرة وطمأنينة لا بقهر ولا إزعاج.

فمن نظر نظرة إجمالية إلى هذا الأمر عرف أن هذا هو الحق الذي لا يقوم له الباطلُ مهما عظمت قوته وتعاظمت سطوته. وهذا يعرف ببداهة العقول، ولا يَرتاب فيه منصفٌ، وهو من الضروريات بخلاف ما يقوله طائفة من كتاب هذا العصر الذين دفعهم الرضوخ الفكري إلى مشايعة أعداء الإسلام، فزعموا أن انتشار الإسلام وفتوحه الخارقة للعادة مبنيٌّ على أمور مادية محضة، حللوها بمزاعمهم الخاطئة. ويرجع تحليلها إلى ضعف دولة الأكاسرة ودولة الرومان وقوة المادة في العرب، وهذا مجردُ تصوره كافٍ في إبطاله. فأي قوة في العرب تؤهلهم لمقاومة أدنى حكومة من الحكومات الصغيرة في ذلك الوقت؟ فضلاً عن الحكومات الكبيرة الضخمة، فضلاً عن مقاومة أضخم الأمم في وقتها على الإطلاق وأقواها وأعظمها عدداً وعدةً في وقت واحد، حتى مزقوا الجميع كلَّ مُمَزَّق، وحلت محل أحكام هؤلاء

الملوك الجبابرة أحكامُ القرآن والدين العادلة، التي قَبِلَها وتلقّاها بالقبول كل منصف مريد للحق. فهل يمكن تفسير هذا الفتح المنتشر المتسع الأرجاء بتفوق العرب في الأمور المادية المحضة؟ وإنما يتكلم بهذا من يريد القدح في الدين الإسلامي أو من راج عليهم كلام الأعداء من غير معرفة للحقائق.

ثم بقاء هذا الدين على توالي النكبات وتكالب الأعداء على محقه وإبطاله بالكلية من آيات هذا الدين وأنه دين الله الحق، فلو ساعدته قوة كافية تردُّ عنه عادية العادين وطغيان الطاغين لم يبق على وجه الأرض دين سواه ولَقَبِلَهُ الخلق من غير إكراه ولا إلزام، لأنه دين الحق ودين الفطرة ودين الصلاح والإصلاح، لكن تقصير أهله وضعفهم وتفرقهم وضغط أعدائهم عليهم هو الذي أوقف سيره؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

## المثال الحادي والعشرون الجامع لكل ما سبق.

دين الإسلام مبني على العقائد الصحيحة النافعة وعلى الأخلاق الكريمة المهذِّبة للأرواح والعقول، وعلى الأعمال المصلِحة للأحوال، وعلى البراهين في أصوله وفروعه، وعلى نبذ الوثنيّات والتعلق بالمخلوقين والمخلوقات وإخلاص الدين لله رب العالمين، وعلى نبذ الخرافات والخزعبلات المنافية للحس والعقل المحيرة للفكر، وعلى الصلاح المطلق، وعلى دفع كل شرٍّ وفساد، وعلى العدل ورفع الظلم بكل طريق، وعلى الحث على الرقي لأنواع الكمالات.

وهذه الجمل يطول تفصيلها، وكل من له أدنى معرفة يهتدي إلى تفصيلها على وجه الوضوح والبيان الذي لا إشكال فيه.

ولنقتصر على هذا الكلام على اختصاره فإنه يحتوي على أصول وقواعد يعرف بها ما للإسلام من الكمال والعظمة والإصلاح الحقيقي لكل شيء. وبالله التوفيق.

وقع الفراغ من تعليقها غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ وصلى الله على محمد وسلم وعلى آله: بقلم معلقها عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

# الدِّينُ الصَّحِيحُ يَحُلُّ جَمِيعَ المَشَاكِل

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

الحمد لله، وأصلِّي وأسلِّم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشِد العباد في عقائده وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم. وبيان أنه لا سبيل إلى إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلاّ به. وبيان أن جميع النظم المخالفة لدين الإسلام لا يستقيم بها دين ولا دنيا إلاّ إذا استمدت من تعاليم الدين.

وهذا الذي قلناه قد برهنت المحسوسات والتجارب على صدقه وصحته كما دلت الشرائع والفِطَرُ والعقول السليمة على حقيقته. فإن الدين كله صلاح وإصلاح، وكله دفع للشرور والأضرار، وكله يدعو إلى الخير والهدى، ويحذِّر من الشر وأنواع الردى.

وعند عرض بعض النماذج من تعليماته وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هذا، وأن الخلق كلهم مضطرون إليه. وأنهم لا يستغنون عنه في حالة من أحوالهم.

ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بمشكلات الحياة، والبشر كلهم يتخبطون في دياجير الظلمات: فيهتدون من وجه واحد ويضلُّون من وجوه أخرى. وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوهه ويقع الانحراف في بقية أنحائه. وهذا ناتج من أحد أمرين: إما جهل بما دلَّ عليه الدين وما أرشد إليه. وإما مكابرة وغي، ومقاصد سيئة وأغراض فاسدة، حالت بينهم وبين الصلاح الذي يعرفونه، كما هو الواقع كثيراً.

لهذا ينبغي أن نذكر بعض مشاكل الحياة المهمة، مثل مشكلة الدين، ومشكلة العلم، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والاجتماع والافتراق، والمحابِّ والمكاره. وغير ذلك مما اختلفت فيها أنظار الناس وتوجيهاتهم، وما سلكه الدين الإسلامي فيها من المسالك الصالحة السديدة، وما أولاه نحوها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى.

# المشكلة الأولى

## مشكلة الدين والعقيدة

وهذه المشكلة أهم مشاكل الحياة وأعظمها، وعليها تنبني الأمور كلها. وبصلاح الدين أو فساده أو عدمه تتوقف جميع الأشياء. وقد تفرق فيها البشر وسلكوا في دينهم وعقائدهم طرقاً شتى، كلها منحرفة معوجَّة ضارّة، غير نافعة إلّا من اهتدى إلى دين الإسلام الحقيقي، فإنه حصلت له الاستقامة والخير والراحة من جميع الوجوه. فمن الناس من تلاعب بهم الشيطان فعبدوا غير الله من الأشجار والأحجار والصور والأنبياء والملائكة والصالحين والطالحين، مع اعترافهم بأن الله ربُّهم ومالكهم وخالقُهم، وحدَه لا شريك له. فاعترفوا بتوحيد الربوبية وانحرفوا عن توحيد الإلّهية الذي هو إفراد الله بالعبادة، وهؤلاء هم المشركون على اختلاف مذاهبهم وتباين طوائفهم. وقد دلّت الكتب السماوية على شقائهم وهلاكهم، واتفق جميع الرسل على الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك، وأن من أشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار. كما دلّت العقول السليمة والفِطَرُ المستقيمة على فساد الشِّرْك والتألُّه والتعبد للمخلوقات والمصنوعات، فالشِّرك باطل في الشرع، فاسد في العقل، عاقبة أهله الهلاك والشقاء. ومن الناس من آمن ببعض الرسل والكتب السماوية دون بعض، مع أن الرسل والكتب يصدِّق بعضُها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، وتتفق في الأصول الكلية. فصار هؤلاء ينقض تكذيبهُم تصديقَهم، ويُبطل اعترافُهم ببعض الأنبياء وبعض الكتب السماوية تكذيبَهم لِلآخرين من الرسل،

فبقُوا في دينهم منحرفين، وفي إيمانهم متحيِّرين، وفي علمهم متناقضين. قال تعالى:

**﴿إن الذين يكفرون باللَّهِ ورُسُلِه ويريدونَ أَنْ يُفرِّقوا بين اللَّهِ ورُسُلِهِ ويقولون نُؤمِنُ ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ ويريدونَ أَنْ يتخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًّا﴾** [سورة النساء: الآيتان ١٥٠، ١٥١]

فحكم بالكفر الحقيقي لأنه عرف أن دعواهم للإيمان دعوى غير صحيحة، ولو كانت صحيحة لآمنوا بجميع الحقائق التي اتفقت عليها الرسل، ولكنهم قالوا:

**﴿نُؤمنُ بما أُنْزِلَ عَلَينَا ويكفرون بما وراءَهُ وهو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم﴾** [سورة البقرة: الآية ٩١]

ولهذا دعواهم الإيمان دعوى كاذبة، فقال عنهم عز وجل:

**﴿فَلِمَ تَقْتُلون أنبياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كنتمْ مُؤْمِنين﴾**

[سورة البقرة: الآية ٩١]

ومن الناس طائفة آدَّعت الفلسفة والعلم بالمعقولات، فجاءت بأكبر الضلالات وأعظم المحالات، فجحدت الربَّ العظيم وأنكرت وجوده، فضلاً عن الإيمان بالرسل والكتب وأمور الغيب، وجحدوا آيات الله واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعلوًّا واستكباراً: فكذبوا بعلوم الرسل وما دلّت عليه الكتب المنزَلة من عند الله، واستكبروا عنها بما عرفوا من العلوم الطبيعية وتوابعها، وأنكروا جميع الحقائق إلاّ ما أدركوه بحواسِّهم وتجاربهم القاصرة الضيقة بالنسبة إلى علوم الأنبياء. فعبدوا الطبيعة وجعلوها أكبرَ هَمِّهم ومبلغ علمهم، واندفعوا وراء ما تقتضيه طبائعهم، ولم يتقيَّدوا بشيء من الشرائع الدينية ولا الأخلاق الإنسانية. فصارت البهائم أحسنَ حالاً منهم، فإنهم نضبت منهم الأخلاق، واندفعوا وراء الشهوات البهيمية. فلم يكن لهم غاية يرجونها، ولا نهايةٌ يطلبونها:

﴿وقالوا ما هِيَ إلّا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيا وما يهلِكُنا إلّا الدَّهرُ﴾.
[سورة الجاثية: الآية ٢٤]

وصار المشركون على شركهم وكفرهم أحسن حالاً منهم، وأقلَّ شرًّا منهم بكثير. والعجب الكثير أن هذا المذهب الخبيث جرف بتياره في الأوقات الأخيرة جمهورَ البشر، لضَعف الدين وقلة البصيرة، ولما وضعت له الأمم القوية الحبائل والمصايد التي هلك بها الخلق.

أما الدين الإسلامي فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلى نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات.

﴿لقدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنين إذْ بعثَ فِيهم رسولاً من أنفُسِهم يتلُو عليهِمْ آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يَعِظُكُمْ لعلَّكُم تَذَكَّرُون﴾. [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممتُ عليكُمْ نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾. [سورة المائدة: الآية ٣]

﴿وَتَمَّتْ كلمةُ ربِّك صِدقاً وعَدْلاً﴾. [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

أي كلماته الدينية التي شرع بها الشرائع، وسَنَّ الأحكام. وقد جعلَها اللَّهُ تامَّة من جميع الوجوه، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، صدقاً في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسُله في أمور الغيب، عدلاً في أحكامها، أوامِرُها كلُّها عدلٌ وإحسان وخيرات وصلاح وإصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة، تنهى عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة:

﴿وَمَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنُون﴾. [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر الذي تقرر حدوثه في العقول والفِطَر. فما

أمَرَ بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليتَه أَمَر به. لقد أباح هذا الدين كلَّ طيب نافـع، وحرَّم كل خبيث ضار.

﴿الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النَّبـيَّ الْأُمِّيَّ الذي يَجدونه مكتوباً عندَهُم في التوراةِ والإنجيلِ يأْمُرُهُمْ بالمعروفِ وينهاهُم عن المُنْكَر ويُحِلُّ لهُمُ الطيباتِ ويُحرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ ويَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والْأَغلالَ التي كانت عليهم﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

فهو الدين الذي يوجه العباد إلى كل أمر نافـع لهم في دينِهِم ودُنياهم، ويحذِّرهم عن كل أمر ضارٍّ في دينهم ومعـاشِهِم، ويأمـرهـم عند اشتبـاه المصالـح والمفاسد والمنافـع والمضارِّ بالمشاورة في استخراج ما ترجحت مصلحته، ودفـع ما ترجحت مفسدته.

وهو الدين العظيم الشامل، الذي أمَر بالإيمانِ بكلِ كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله.

﴿فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ولا تَتَّبِـعْ أهواءَهم وقُلْ آمنْتُ بما أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كتابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بينَكُم واللَّهُ رَبُّنا وربُّكم لَنَا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم لا حُجَّةَ بينَنا وبينَكُمُ اللَّهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنَا وإِليهِ المصير﴾
[سورة الشورى: الآية ١٥]

وهو الدين العظيم الذي شهد الربُّ العظيم بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّلُ من الخلق وخلاصتهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّه لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُولُو العِلم قائماً بالقسط لا إِلَه إلاَّ هو العزيزُ الحكيم. إِنَّ الدينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلامُ﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩]

وهو الدين الذي من اتَّصَف به جَمَـعَ الله له جمال الظاهر والباطن، وكمال الأخلاق والأعمال:

﴿ومَنْ أحسنُ ديناً مِمَّنْ أسلَمَ وجْهَه لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ﴾
[سورة النساء: الآية ١٢٥]

فلا أحسن ممن هو مخلصٌ لله، محسنٌ إلى عباد الله، مخلصٌ لله متبع لشريعة الله التي هي أحسن الشرائع وأعدل المناهج، فانصبغ قلبه بالإخلاص والتوحيد، واستقامت أخلاقه وأعماله على الهداية والتسديد:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ صِبغةً ونحنُ لَهُ عابِدون﴾
[سورة البقرة: الآية ١٣٨]

وهو الدين الذي فتح أهلُه، القائمون به، المتصفون بإرشاداته وتعاليمه، القلوبَ بالعلم والإيمان، والأقطارَ بالعدل والرحمة والنصح لنوع الإنسان. وهو الدين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به الحياة الدنيا والآخرة، وألّف به القلوب المتشتّتَة، والأهواء المتفرقة.

وهو الدين العظيم المحكم غايةَ الإحكام في أخباره كلها، وفي أحكامه، فما أخبر إلَّا بالصدق والحق، ولا حكم إلّا بالحق والعدل، فلم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أخباره، ولا حكمٌ أحسن من أحكامه. أصوله وقواعده وأسسه تساير الزمان السابق واللاحق، فحيثما طبقت المعاملات المتنوعة بين الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان على أصوله تَمَّ بها القِسطُ والعدل، والرحمة والخير والإحسان، لأنها تنزيل من حكيم حميد:

﴿كتابٌ أُحكِمتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلت منْ لدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾
[سورة هود: الآية ١]

﴿لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا من خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ﴾
[سورة فصلت: الآية ٤٢]

﴿إنّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ وإنّا لَهُ لحافِظُون﴾ [سورة الحِجر: الآية ٩]

حافظون لألفاظه عن الزيادة والنقص والتغيير، وحافظون لأحكامه عن الانحراف والنقص، بل هي في أعلى ما يكون من العدل والاستقامة والتيسير.

وهو الدين العظيم الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الصدقُ

شعارُه، والعدْلُ مدارُه، والحقُّ قوامُه، والرحمةُ روحُه وغايته، والخيرُ قرينُه، والصلاحُ والإصلاح جمالُه وأعمالُه، والهدى والرشد زاده.

وهو الدين الذي جمع بين مطالب الروح والقلب والجسد، أمر الله به المؤمنين بما أمر المرسلين، بعبادته والعمل الصالح الذي يرضيه، وبالأكل من الطيبات، واستخراج ما سخّر اللَّهُ لعباده في هذه الحياة، فدفع القائمين به حقيقة إلى كل علوٍّ ورقيٍّ وتقدم صحيح، من عرف شيئاً من أوصاف هذا الدين عرف عظيم مِنَّةِ الله به على الخلق، وأن من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخسران، لأن الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات، وما بين إلحاد وماديات، تجعل قلوب أهلها وأعمالهم كالبهائم بل هُمْ أضل سبيلاً، لأن الدين إذاً ترحَّل من القلوب ترحَّلت الأخلاقُ الجميلة، وحلَّ محلَّها الأخلاقُ الرذيلة. فهبطت بأهلها إلى أسفل الدركات، وصار أكبرُ همهم ومبلغُ علمهم التمتُّعَ بعاجل الحياة. والحمد لله رب العالمين.

# المشكلة الثانية
## مشكلة العلم

لقد غلط كثير من الناس في مُسمًّى العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعين طلبه والسعي إليه على قولين متطرِّفين: أحدهما أخطر من الآخر. فالأول: قول من قَصَر العلمَ على بعض مسمًّى العلم الشرعي، المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات، دون ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة: من أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها، وعلوم الكون. وهذا قول طائفة ممن لم تتبصر بالشريعة تبصراً صحيحاً، ولكنهم الآن بدأوا يتحللون من هذا الإطلاق، لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون، وحين تنبّه كثير منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني قول من قَصَر العلم على العلوم العصرية، التي هي بعض علوم الكون. وهذا القول إنما نشأ من انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه. وهذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد؛ وحيث نَفَوْا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تنسب إليه العلوم العصرية بوجه من الوجوه، غرّهم ما ترتب عليها من الصناعات والمخترعات. وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى:

﴿فلما جاءتهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُوا بما عِندَهم مِنَ العِلْمِ وحاقَ بهمْ ما كانوا بِهِ يستهزئون﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٨٣]

فهم فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل، حتى نزل بهم ما كانوا به يستهزئون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وُعِد به من كَذَّبَ الرسل، عُذِّبوا في الدنيا بالختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وعَمُوا عن الحق.

﴿ولعذابُ الآخرةِ أشَدُّ وأبقى﴾ [سورة طه: الآية ١٢٧]

﴿وما كان لهم مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٢١]

أما مدلول العلم النافع ومُسَماه الذي دلّ عليه الكتاب والسُّنة: فهو كل علم أوصل إلى المطالب العالية، وأثمر الأمور النافعة، لا فرق بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة، فكل ما هَدَى إلى السبيل ورقَّى العقائد والأخلاق والأعمال، فهو من العلم.

وقَسَّم العلوم إلى قسمين: مقاصد، ووسائل توصل إليها وتعين عليها. فالمقاصد: هي العلوم المصلحة للأديان؛ والوسائل: ما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، ومن علوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته وكماله، ومعرفة صدق رسله. وثمرتها: الاستعانة بها على عبادة الله وشكره، وعلى قيام الدين. فإنه تعالى أخبر أنه سخّر لنا هذا الكون، وأمرنا أن نتفكر فيه ونستخرج منافعه الدينية والدنيوية. والأمر بالشيء أمرٌ به وأمرٌ بما لا يتم إلّا به، وذلك حثٌّ على معرفة علوم الكون التي يستخرج بها ما سخره الله لنا، لأن منافعَها لا تحصل لنا عفواً من دون طلب وفكر وتجارب. قال تعالى:

﴿وأنزلْنا الحديدَ فيه بأْسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

فهذه المنافع لا تحصل إلّا بالمعرفة بفنون الصنائع حتى يتمّ إنتاجها.

وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنّة على الثناء على العلم وأهله وتفضيلهم على غيرهم. قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يستوِي الذين يعلَمُونَ والذين لا يعلمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وإنهم أهل الخَشية لله والمعرفة به:

﴿إنَّما يخشى اللَّهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

وأمر الجهال بسؤال أهل العلم.

وقد أمر بعبادات كثيرة، وعفا عن محرَّمات؛ والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلاّ بعد علمه ومعرفته فجميع الأوامر شرعية، والنواهي تدل على وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه. كما أنه أباح معاملات، وحرَّم معاملات، لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلاّ بالعلم. وقد ذمَّ من لم يعرف حدود ما أَنزلَ على رسوله من الكتاب والحكمة.

ومن ذلك أنه أمر بالجهاد في عدة آيات، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء، وأخذ الحذر منهم. ولا يتم ذلك إلاّ بتعلم فنون الحرب والصنائع التي تتوقف القوة والحذر منهم عليها. وأمر بتعلم أمور التجارة والأصول الاقتصادية، حتى إنه أمر أن يبتلى الأولاد الصغار اليتامى ويعلموا التجارة وطلب المكاسب. قال تعالى:

﴿وآبْتَلُوا اليتامى حتّى إذا بلَغُوا النِّكاحَ فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشداً فادفعوا إليهم أموالَهم﴾ [سورة النساء: الآية ٦]

فلم يأمر بدفع أموالهم إليهم حتى يُعلم رشدُهم، ومعرفتُهم لأمور المكاسب والتجارة.

فهذه الشريعة الكاملة أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة: من العلم بالتوحيد، وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن علوم العربية، ومن

العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن العلوم التي تصلح بها الجماعات والأفراد.

فما من علم نافع في الدين والدنيا إلا أَمرتْ به هذه الشريعة وحثَّت عليه ورغَّبت فيه. فاجتمع فيها العلوم الدينية، والعلوم الكونية، وعلوم الدين، وعلوم الدنيا. بل إنها جعلت العلوم الدنيوية التي تنفع من علوم الدين.

وأما المتطرفون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الدين، فقصَّروا وغلطوا غلطاً فاحشاً.

وأما الماديون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سواها، فألحدوا ومَرَجَتْ أديانهم وأخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء، لا تزكِّي العقول والأرواح، ولا تغذِّي الأخلاق. فكان ضررها عليهم أعظم من نفعها، فإنهم انتفعوا بها من جهة ترقية الصنائع والمخترعات وتوابعها، وتضرَّروا بها من جهتين: إحداهما: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلى جميع البشر، لِمَا ترتَّب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير. الثانية: أنهم أُعجِبُوا بها واستَكْبروا، فحقَّروا لذلك علوم الرسل وأمور الدين.

**﴿إنّ الذينَ يجادِلُون في آياتِ اللّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهُمْ إنْ في صدورِهِم إلّا كِبْرٌ ما هُمْ ببالِغِيهِ، فاستعذْ باللّهِ إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾**
[سورة غافر: الآية ٥٦]

**﴿وجعلْنا لهمْ سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهمْ سمعُهُم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ إذ كانوا يجحَدُون بآياتِ اللّهِ وحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

﴿فلمَّا جاءتهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فَرِحُوا بما عندَهم مِنَ العلمِ وحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة فصِّلت: الآية ٨٣]

فتبيَّـن مما ذكرنا أن العلوم النافعة في العاجل والآجل: هي العلوم التي جاءت في كتاب الله وسنَّة رسول الله، وأنها احتضنت كل علم نافـع، ومعرفة صحيحة، لا فرق بين الأصول والفروع، ولا بين الدينية والـدنيويـة، كما احتضنت عقيدتها الإيمان بكل حق وحقيقة، وبكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله. والحمد لله.

# المشكلة الثالثة

## مشكلة الغِنىَ والفَقْر

تنوَّعت مقاصد الخلق وسياساتهم في مسألة الغنى والفقر، بحسب أغراضهم النفسية، لا بحسب اتِّباعهم للحق ونظرِهم للمصالح العامة الكلية. وكلهم أخطأوا الطريق النافع، حيث لم يتقيدوا بهدايات الدين الإسلامي؛ وتنوَّعت بهم الأفكار، وعملوا على مقتضى ذلك، فحصل بذلك شر مستطير، ووقعت فتن كبرى بين من يدعي نُصرة الفقر والفقراء والعمال، وبين من يتمسَّك التَّمَسُّكَ المُزري بالثروات والأموال. ولهم في ذلك كلام طويل كله خطأ وضلال. وهدى الله المؤمنين إلى صراط مستقيم في جميع أمورهم عامة، وفي هذه المسألة خاصة.

جاء الشرع ولله الحمد بصلاح الأغنياء والفقراء بحسب الإمكان.

لما حكم الله تعالى قضاء وقدراً أن الخلق درجات، فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الشريف ومنهم الحقير، لحكم عظيمة، وأسرار يضيق التعبير عن وصفها. فربط بعضهم ببعض بالروابط الوثيقة، وسخَّر بعضهم لبعض، وتبادلت بينهم المصالح العادلة، واحتاج بعضهم إلى بعض.

شرع الشارع الحكيم أولاً: أن يكونوا إخواناً، وأن لا يستغل بعضهم بعضاً استغلالاً شخصياً. بل أرشد كلًّا منهم أن يقوم نحو الآخر بواجباته الشرعية، التي يتم بها الالتئام وتقوم بها الحياة.

أمر الجميع أن يتوجَّهوا بأجمعهم إلى المصالح العامة الكلية التي

تنفع الطرفين، كالعبادات البدنية، والمشاريع الخيرية، وجهاد الأعداء ومقاومتهم، ودفع عدوانهم بكل وسيلة، كل منهم بحسب وسعه وقدرته. هذا ببدنه وماله، وهذا ببدنه، وهذا بماله، وهذا بجاهه وتوجيهه، وهذا بتعلمه وتعليمه. لأن الغاية واحدة، والمصالح مشتركة، والغاية شريفة، والوسائل إليها شريفة.

ثم أوجب في أموال الأغنياء فرضاً الزكاة، بحسب ما جاء في تفاصيلها الشرعية. وجعل مصرفها دفع حاجات المحتاجين، وحصول المصالح الدينية المقيمة لأمور الدنيا والدين، وحث على الإحسان في كل وقت وفي كل مناسبة، وأوجب دفع ضرورة المضطرين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين، ودفع الضرورات عن المضطرين. وكذلك أوجب النفقات الخاصة للأهل والأولاد، وما يتصل بهم، والقيام بواجبات المعاملات كلها الواقعة بين الناس. وأمرهم مع ذلك أن لا يتكلوا في كسب الدنيا على حَوْلِهِمْ وقوتهم، ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلى ما عندهم. بل يكون نظرهم على الدوام إلى الله وإلى فضله، وتيسيره والاستعانة به. وأن يشكروه على ما تفضل به عليهم وميَّزهم به من الغنى والثروة. وأوجب عليهم أن يقفوا عند الحدود، فلا ينغمسوا في الترف والإسراف انغماساً يضر بأخلاقهم وأموالهم وجميع أحوالهم، بل يكونون كما قال الله تعالى:

**﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُرُوا وكانَ بينَ ذلك قَوَاماً﴾**
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

وأمرهم مع ذلك أن يكون طلبهم للغِنَى والدنيا طلباً شريفاً نزيهاً، فلا يتلوثون بالمكاسب الخبيثة التي هي ما بين رباً أو قمار أو غَرَرٍ أو غش أو خداع، بل يتقيدون بقيود الشرع العادلة في معاملاتهم، كما تقيدوا بذلك في عباداتهم. وأمرهم أن ينظروا إلى الفقراء نظر الرحمة والإحسان، لا نظر القسوة والغلظة والأثرة والبطر والأشر والكبر.

ولهذه الإرشادات الحكيمة تكون الثروة الدينية في غاية الشرف وكمال الاعتبار، ويكون الغِنَى على هذا الوجه وصفاً محموداً، ونعتَ كمالٍ ورفعة وعلو، لأن الشرع هذَّبه وصفَّاه، فحثَّ على التباعد عن رذائله، ورغَّب في اكتساب فضائله.

وأما ما صنعه الدين الإسلامي مع الفقراء، فقد أمرهم وكلَّ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ محبوباتِه النفسية أنْ يصبروا ويرضَوْا بقضائه وتدبيره، وأن يعترفوا أن الله حكيم له في ذلك حكم، وفيه مصالح متنوعة.

﴿وعسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لَكُم وعسى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهُوَ شَرٌّ لكم واللَّهُ يعلَمُ وأنتمْ لا تعلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

فنظرهم هذا يذهب الحزن الذي يقع في القلوب فيحدث العجز والكسل.

ثم أمرهم أن لا ينظروا في دفع فقرهم وحاجاتهم إلى المخلوقين، ولا يسألوهم إلَّا حيث لا مندوحة عن السؤال عند الضرورة إلى ذلك، وأن يطلبوا دفع فقرهم من الله وحدَه لا شريك له، بما جعله من الأسباب الدافعة للفقر الجالبة للغنى. وهي الأعمال والأسباب المتنوعة، كل واحد يشتغل بالسبب الذي يناسبه، ويليق بحاله، فيستفيد بذلك تحرره من رِقِّ المخلوقين وتمرنه على القوة والنشاط، ومحاربة الكسل والفتور. ومع ذلك لا يقع في قلوبهم حسد للأغنياء على ما آتاهم الله من فضله.

﴿ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّل اللَّهُ به بعضَكُم على بعضٍ، للرجالِ نصيبٌ ممَّا اكتَسَبوا وللنساءِ نصيبٌ مما اكْتَسَبْنَ، وٱسْأَلوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِه، إنَّ اللَّهَ كانَ بكلِّ شيءٍ عليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢]

وأمرهم أن ينصحوا في أعمالهم ومعاملاتهم وصناعاتهم، وأن لا يتعجَّلوا الرزق بالأنغماس في المكاسب الدنيئة التي تُذْهب الدِّين والدنيا.

وأمرهم بأمرين يعينانهم على مشقة الفقر: الاقتصاد في تدبير المعاش، والاقتناع برزق الله؛ فالرزق القليل مع الاقتصاد الحكيم يكون كثيراً، والقناعة كنز لا ينفد وغنىً بلا مال.

فكم من فقير وُفِّق للاقتصاد والقناعة لا يَغْبِطُ الأغنياءَ المترفين، ولا يتبرَّم بقلة ما عنده من الرزق اليسير.

فمتى اهتدى أهل الفقر بإرشادات الدين مِنَ الصبر والتعلُّق بالله، والتحرُّر من رِقِّ المخلوقين، والجد والاجتهاد في الأعمال الشريفة النافعة، والاقتناع بفضل الله، هانت عليهم وطأة الفقر وعناؤه. ومع ذلك فهم لا يزالون يسعَوْن في تحصيل الغنى ويرجون ربهم وينتظرون وعده، ويتقون الله، فإنه

﴿وَمَنْ يتَّقِ اللَّهَ يَجْعلْ له مخرجاً. ويرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

فهذه التعاليم الدينية والإرشادات من الله ورسوله لأهل الغنى والفقر تجلب لهم الخيرات، وتمنعهم من الشرور والمضرات، وتنتج لهم أجمل الثمرات العاجلة والآجلة.

فهذا الحل الوحيد من الرب المجيد لمشكلة الغِنَى والفقر، وما سوى ذلك فعناء وشقاء، وضرر وهلاك. والله الموفِّق.

ونظير هذه المسألة: مسألة الصحة والمرض، فإنّ الشريعة الإسلامية جاءت بأكمل الأمور فيها: أمرت بكل ما يحفظ الصحة وينمِّيها، وما يدفع الأمراض أو يخففها بحسب الإمكان. وفَصَّلَتْ في هذا الموضوع تفاصيلَ نافعة، تدور على حفظ الصحة وتنميتها، والحِمّية من جميع المؤذيات والأمور الضارّة، وعلى السعي في التحرز من الأمراض قبل نزولها، ومداواتها بعد نزولها.

وأمرت مع ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والعلم بأنه تعالى هو المعطي للنِّعَم، الدافع للنقم؛ بلطفه وقدرته ورحمته، وبما جعله من الأسباب الكثيرة التي علَّمها اللَّهُ العباد، وأَمَرَهم بسلوكها. وأمر أيضاً بمقاومة الأمراض بأمور أخرى غير الأدوية الحسية، أمر بالصبر لله على المكاره إيماناً به، واحتساباً لثوابه، فإنه بذلك تخفُّ مشقة الأمراض بما يحصل للصابر المحتسب من الإيمان واليقين والثواب العاجل والآجل.

وكذلك أمر بقوة الاعتماد على الله عند نزول المصائب والمكاره، وأن لا يخضع الإنسان ويضعف قلبه وإرادته وتستولي عليه الخيالات التي هي أمراض فتّاكة. فكم من مرض يسير بسيط عظمت وطأته بسبب ضعف القلب وخورِه وانخداعه بالأوهام والخيالات، وكم من مرض عظيم هانت مشقته وسهلت وطأته حين اعتمد القلب على الله، وقوي إيمانه وتوكله، وزال الخوف منه. وهذا أمر مشاهد محسوس.

فالدين الإسلامي أمر بالأمرين في وقت واحد: أمر بفعل الأسباب النافعة، وبالاعتماد على الله في نفعها، وتحصيل المنافع ودفع المضار، بحسب الاستطاعة. وكذلك النعم، والمسارّ، والمكاره، والمصائب، جاءت شريعة الإسلام فيها بأكمل الحالات.

أمر الله ورسوله بتلقِّي النِّعم بالافتقار إلى الله فيها، والاعتراف التام بفضل الله بتقديرها وتيسيرها، وشكر المنعم بها، شكراً متتابعاً، وتصريفها فيما كانت لأجله، والاستعانة بها على عبادة الله، وأن لا يكون العبد عندها أَشِراً، ولا بَطِراً، بل متواضعاً شاكراً.

وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النعم، فيربح عندها أرباحاً عاجلة وآجلة. يغتنم فرصة العافية والصحة والقوة والجدة والجاه والأولاد، فلا يغبن فيها بحيث تكون نعماً حاضرة مؤقتة، بل يستخرج منها نعماً باقية، وخيراً متسلسلاً، ونفعاً مستمراً.

وفي الحديث: (اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك).

فمتى عرف العبد المقصود من النعم، وأنها مجعولة وسائل إلى خيرات الآخرة، اجتمع له الأمران: التمتع بها عاجلاً، والاستفادة من خيراتها آجلاً. فيؤدي واجبها ومستحبَّها، وبذلك تكون نعماً حقيقية دينية ودنيوية. عكس حالة المنحرفين عما جاءت به الشريعة، الذين يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام السائمة، ويتناولونها بمقتضى الشهوة البهيمية. فالنعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال، لا تعقبهم إلا الحسرة والندامة. والأولون يشاركونهم في التمتع العاجل، وربما زادوا عليهم براحة القلب، وطمأنينة النفس، والسلامة من الهلع والجشع.

وأما المصائب، فلما كانت لا بد منها للخلق، ولا أحد يسلم منها، أعد الشارع الحكيم لها عُدَّتَها، وأرشد عباده إلى الصبر والتسليم، والاحتساب لثوابها، وأن لا يتلقاها العبد بجزع وخور وضعف نفس، بل بقوة وتوكل على الله وإيمان صادق. وبذلك تخف وطأتها، وتهون مشقتها، ويحصل من الثواب وزيادة الإيمان أضعاف أضعاف ما حصل من المصيبة. قال تعالى:

**﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيْءٍ مِنَ الخوفِ والجُوعِ ونقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبشِّر الصابرين. الذين إذا أَصابَتْهُم مصيبةٌ قالُوا إنّا للَّهِ وإنَّا إليهِ راجعون. أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هُم المُهْتَدون﴾**
[سورة البقرة: الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧]

وقال تعالى:

**﴿إنّما يُوَفَّى الصابرون أجرَهُم بغيرِ حساب﴾** [سورة الزُّمر: الآية ١٠]

**﴿إنْ تكونوا تَأْلَمُونَ فإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٤]

فانظر هذه الإرشادات الحكيمة في هداية الشريعة إلى تلقِّي النِّعَمِ والمَسَارِّ والمصائب والمضارِّ، كيف ترى القلوب فيها مطمئنة، والحياة طيبة، والخير حاصلاً ومأمولاً، والربح مستمراً. عجباً لأمر المؤمن: إنَّ أمره كلَّه خيرٌ؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاء صَبَر فكان خيراً له؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. فأين هذه الحالة الجليلة العالية من حالة المنحرفين عن الدين، الذين إذا أصابتهم النِّعَم بَطِروا ومَرَحُوا مَرَح البهائم، وتجبروا على عباد الله، وطَغَوْا وبَغَوا، وإذا أصابتهم المكارهُ جَزِعوا وضَعُفُوا، وربما أدّتْ بهم الحال إلى الانْتحار، لعدم الصبر وللهلع والجزع الذي لا يحتمل. نسأل الله العافية.

# المشكلتان الرابعة والخامسة

## السياسة الداخلية والخارجية وتوابعها

قد قررت شريعة الإسلام مسائل السياسة أكملَ تقرير، وهَدَتْ إلى جميع ما ينبغي سلوكُه مع المسلمين ومع غيرهم بأحسن نظام وأعدلِه، وجمعت فيه بين الرحمة والقوة، وبين اللِّين والشفقة، والرحمة بِالخَلْق، مهما أمكنت الأحوال. فإذا تعذر ذلك استعملت القوة بحكمة وعدل، لا بظلم وعنف. قال تعالى:

**﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى وينهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرون. وَأَوْفُوا بعهدِ اللَّهِ إذا عاهَدتُّم ولا تنقُضُوا الأَيْمَانَ بعدَ توكيدِها وقد جَعَلْتُمُ اللَّهَ عليكُمْ كفيلاً﴾**

[سورة النحل: الآيتان ٩٠، ٩١]

فأمر الله بالعدل مع كل أحد، وبالإحسان والرحمة لكل أحد، وخصوصاً القرابة ومن لهم حقٌّ على الإنسان. ونهى عن الفحشاء والبغي على الخلق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم. وأمر بوفاء العهود والمحافظة عليها، وحذر من نقضها. وهذه الأمور المأمورُ بها والمنهيّ عنها، منها ما هو واضحٌ جليٌّ عُيِّنت على المسلمين سلوكُها، ولم تجعل لهم في ذلك خيرة ولا معارضة. وهي التي نص الشارع على أعيانها ولم يكل بيانها إلى أحد. فهذا النوع يدخل في قوله تعالى:

﴿وَمَا كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذَا قَضَى اللَّهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ومن يَعْصِ اللَّهَ ورسولَهُ فقدْ ضَلَّ ضلالاً مبيناً﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٣٦]

﴿فَلَا وربِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لاَ يَجِدُوا في أَنْفسِهِم حَرَجًا مما قضيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]

﴿فإنْ تنازَعْتُمْ في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرَّسُولِ﴾
[سورة النساء: الآية ٥٩]

﴿وما آخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شيءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللَّهِ﴾
[سورة الشورى: الآية ١٠]

وقد تُتُبِّعَ هذا النوع العظيم فَوُجِدَ، ولله الحمدُ، مطابقاً للعدلِ والحِكمة، موافقاً للمصالح، دافعاً للمفاسد.

والقسم الثاني: الأمور المشتبهة في أصلها، أو في تطبيقها على الواقع، وإدخال الأمور الواقعة فيها نفياً وإثباتاً، وطلباً وهرباً، فهذا قد أُمروا أَن يتشاوَرُوا فيه، وينظروا فيه من جميع نواحيه، ويتأملوا ما يتوقف عليه من الشروط والقواعد، وما يترتب عليه من الغايات والمقاصد، ومقابلة المصالح والمضارِّ وترجيح الأصلح منها. قال تعالى:

﴿وشاوِرْهُم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال تعالى عن جميع المؤمنين:

﴿وأَمْرُهُم شُورَى بَيْنَهم﴾
[سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا النوع قد وسَّع الشارع فيه الأمر، بعدما قَرَّرَ القواعد والأُسس الموافقةَ لكلِّ زمان ومكان، مهما تغيرت الأحوال وتطورت الأمور. فالقواعد الشرعية إذا سُلِكت في كليات الأمور وجزئياتها، صَلُحت بها الأمور،

واستقامت الدنيا والدين، وصَلُحت أمور العباد، واندفعت الشرور والمضارُّ عنهم. ولكنها تحتاج إلى عقد مجالس تجمع الرجال العقلاء الناصحين، أولي العقول الرزينة والأحلام الواسعة والرأي المصيب والنظر الواسع، وتبحث فيها القضايا الداخلية واحدة بعد واحدة، بحثاً يشمل نواحي القضية، وتصوُّرَها كما ينبغي، وتصورَ ما تتوقف عليه وتتم به إن كانت مقصوداً تحصيلها، وتصورَ ما يترتب عليها من الفوائد والمصالح الكلية والجزئية، وبحث أحسن طريق لتحصيلها وأسهله، وبحث القضايا الضارة التي يطلب دفعها، بتتبع أسبابها وينابيعها التي تسربت منها، وحسمها بحسب الإمكان، ثم السعي في إزالتها بالكلية إن أمكن، وإلا بتخفيفها وتلطيفها. قال تعالى:

﴿فاتّقوا اللَّهَ ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم).

ومن أعظم الأصول الشرعية حثُّ المسلمين على القيام بدينهم، والقيام بحقوق الله وعبوديته، والقيام بحقوق العباد، والحث على الاتفاق واجتماع الكلمة، والسعي في أسباب الألفة والمحبة، وإزالة الأحقاد والضغائن. قال تعالى:

﴿إنَّما المؤمنونَ إِخوةٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠]

﴿واذْكُروا نعمةَ اللَّهِ عليكُمْ إذْ كنتمْ أعداءً فألَّف بينَ قلوبِكُمْ فأصبحتُمْ بنعمَتِهِ إِخواناً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

﴿فاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وأطيعُوا اللَّهَ ورسولَهُ إنْ كنتم مُؤْمِنين﴾ [سورة الأنفال: الآية ١]

﴿ولا تكونوا كالذين تَفَرَّقُوا واختَلَفُوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهم البيِّنات﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

﴿وَٱعْتَصِمُوا بحبلِ اللَّهِ جميعاً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

إلى غير ذلك من النصوص الدالّة على هذا الأصل العظيم، الذي به تستقيم الأحوال، ويرتقي به المسلمون إلى أعلى الكمال. وقال تعالى:

﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ ورسولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتذهَبَ رِيحُكُمْ وٱصْبِرُوا إنّ اللَّهَ مع الصابرين. ولا تكونُوا كالذين خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً ورِئَاءَ الناسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ اللَّهِ واللَّهُ بما يعمَلُون مُحيطٌ﴾

[سورة الأنفال: الآيتان ٤٦، ٤٧]

فأمر بطاعته وطاعة رسوله. ويدخل في ذلك جميع الدين. ونهى عن التنازع الذي يُوجِبُ تفرُّقَ القلوب، وحدوثَ العداوات المحلِّلة للمعنويات. وأمر بكثرة ذكره المعين على كل أمر من الأمور، وبالصبر الذي يتوقف عليه كل أمر.

وأمر بالإخلاص والصدق، ونهى عما يضادُّ ذلك من الرياء والفخر والبطر والمقاصد السيئة وإرادة إضلال الخلق. وقال تعالى:

﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ ما ٱسْتَطَعْتُمْ من قوةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبونَ بِهِ عدوَّ اللَّهِ وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فأمر بإعداد المستطاع من القوة، فيشمل القوة السياسية والعقلية، والصناعاتِ، وإعدادَ الأسلحة، وجميعَ ما يتقوى به على الأعداء، وما به يرهبونهم. وهذا يدخل فيه جميع ما حدث ويحدث من النظم الحربية، والفنون العسكرية، والأسلحة المتنوعة، والحصون والوقايات من شرور الأعداء. قال تعالى:

﴿يا أَيُّها الذين آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُم﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ولكل وقت ومكان من هذه الأمور ما يناسب ذلك. فانظر كيف كانت هذه التعاليم الشرعية هي السبب الوحيد والطريقة المثلى لسلوك أقوى

السياسات الداخلية والخارجية، وأن الكمال والصلاح بالاهتداء بها، والاسترشاد بأصولها وفروعها. وأن النقص الحاصل والنقص المتوقع إنما يكون بإهمالها وعدم العناية بها.

ومن السياسة الشرعية أن الله أرشد العباد إلى قيام مصالحهم الكلية بأن يتولى كل نوع منها طائفةٌ تتصدى للإحاطة علماً بحقيقتها وما تتوقف عليه، وما به تتم وتكمل، وتبذل جهدها في ترقيتها بحسب الإمكان. قال تعالى:

**﴿وَلْتَكُنْ منكم أمةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ ويأْمُرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وقال تعالى:

**﴿وما كان المؤْمِنونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُون﴾**
[سورة التوبة: الآية ١٢٢]

ولا شك أن القيام بالمصالح العامة على هذا الوجه الذي أرشد الله إليه هو السبب الوحيد للكمال الديني والدنيوي، كما هو مشاهد يعرفه كل أحد. ومن ذلك قوله تعالى:

**﴿ٱدْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والمَوْعِظَةِ الحسنةِ وجَادِلْهُم بالَّتي هِي أَحْسَنُ﴾** [سورة النحل: الآية ١٢٥]

وهذا يشمل دعوة المسلمين الذين حصل منهم إخلال ببعض أمور الدين، ويشمل دعوة الكفار: الأولون يُدْعَوْن إلى تكميل دينهم، والآخرون يُدْعَوْن إلى الدخول في دين الإسلام الذي به صلاح البشر. وتكون هذه الدعوة بالحكمة، التي هي سلوك أقرب طريق وأنجح وسيلة يحصل بها تحصيل الخير أو تكميله، وإزالة الشر أو تقليله، بحسب الزمان والمكان، وبحسب الأشخاص والأحوال والتطورات. وكذلك بالموعظة الحسنة، والموعظة بيان

وتوضيح المنافع والمضار، مع ذكر ما يترتب على المنافع من الثمرات النافعة عاجلاً وآجلاً، وما يقترن بالمضارٍ من الشرور عاجلاً وآجلاً. ووصفها الله بأنها موعظة حسنة لأنها في نفسها حسنة وطريقها كذلك. وذلك بالرفق واللين والحلم والصبر وتصريف أساليب الدعوة. وكذلك إذا احتيج في الدعوة إلى مجادلة لإقناع المدعو، فلتكن المجادلة بالتي هي أحسن، يدعى المجادل إلى الحق، ويبين محاسن الحق ومضار ضِدِّه، ويجاب عمّا يعترض به الخصم من الشبهات. كل ذلك بكلام لطيف، وأدب حسن، لا بعنف وغلظة، أو مخاشنة أو مشاتمة، فإن ضرر ذلك عظيم. قال تعالى:

﴿فَبِما رحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَولِك فاْعفُ عنهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

ولنقتصر على هذا الأنموذج، فإنه يحصل به المقصود. والله أعلم. وصلى الله على محمد وسلم.

حرر في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥

# الرِّيَاضُ النَّاضِرَةُ وَالحَدَائِقُ الزَّاهِرَةُ

## فِي العَقَائِدِ وَالفُنُونِ المُتَنَوِّعَةِ الفَاخِرَةِ

# ترجمة المؤلف
## بقلم أحد تلاميذه

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفيت أمه وله أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين، فتربى يتيماً، ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره إحدى عشرة سنة، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجدّ حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس، فكان يتعلم ويعلِّم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك، حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعاً إليه؛ ومُعَوَّل جميع الطلبة في التعلُّم عليه.

## بعض مشايخ المؤلف

أخذ عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، وهو أول من قرأ عليه، وكان المؤلِّف يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده رحمه الله، ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما، ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي، رحمه الله؛ ومنهم الشيخ عبد الله بن عايض، ومنهم الشيخ صعب القويجري، ومنهم الشيخ علي السناني ومنهم الشيخ علي الناصر أبو وادي، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عنه الأمهات الستّ وغيرها وأجازه في ذلك، ومنهم الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع (مدير المعارف في المملكة العربية السعودية) في وقتنا الحالي، وقد قرأ عليه المؤلف في عنيزة؛ ومن مشائخه الشيخ محمد الشنقيطي (نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير) لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس؛ قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية، كالنحو والصرف ونحوهما.

## نبذة من أخلاق المؤلف

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية، ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث

النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى، وكثيراً ما يحلّ المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء، مادًّا يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات؛ وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله؛ وكان من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً، مرتِّباً لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصِّلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون؛ وكل من حفظه أعطي الجعل ولا يحرم منه أحد. ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال، لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصِّلين عدد كثير ولا يزال كذلك، متع الله بحياته؛ وبارك الله لنا وله في الأوقات ورزقنا وإياه التزود من الباقيات الصالحات.

## مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه، أصوله وفروعه. وفي أول أمره متمسكاً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشائخه، وحفظ بعض المتون من ذلك، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه، نظم رجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحاً مختصراً، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقده أولاً.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي؛ بل يرجِّح ما ترجَّح عنده بالدليل الشرعي.

ولا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوّسين، هدانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين. وله اليد الطولى في التفسير، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه، وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات، فسّره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت لتصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسِّره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده؛ ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة، حتى إن سامعه يـود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسُّعه في سياق الأدلة والقصص، ومن اجتمـع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات، وكذلك من قرأ مصنّفاتـه وفتاويه.

# مصنفات المؤلف

أكمله

١ ــ تفسير القرآن الكريم المسمّى «تيسير الكريم المنّان» في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع.

٢ ــ حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي. ولم تطبع.

٣ ــ إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، رتّبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقّي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزّعه مجاناً.

٤ ــ الدرة المختصرة في محاسن الإسلام. طبع في مطبعة أنصار السُّنَّة عام ١٣٦٦.

٥ ــ الخطب العصرية القيمة؛ لـمَّا آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمّة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع «الدرة المختصرة» في مطبعة أنصار السُّنة على نفقته ووزعها مجاناً.

٦ ــ القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها في مطبعة أنصار السُّنَّة عام ١٣٦٦. ووزع مجاناً.

٧ ــ تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندي نصيف» عام ١٣٦٦.

٨ ــ الحق الواضح المبين، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

٩ ــ توضيح «الكافية الشافية». وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم.

١٠ ــ وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزّعها مجاناً.

١١ ــ القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧.

١٢ ــ مختصر في أصول الفقه، لم يطبع.

١٣ ــ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن. طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين، وُزِّع مجاناً. طبع بمطبعة الإمام.

١٤ ــ الرياض الناضرة، وهو هذا ــ طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين ويوزع مجاناً. طبع بمطبعة الإمام.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب. وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً. ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور؛ وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فرآه شاقًّا عليه؛ فجمع بينه وبين «الإنصاف» بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له؛ ولهذا لم نعدَّه من مصنفاته.

## غايته من التصنيف

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا لينال منها عرضاً زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلّى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وأسأل الله العون والتوفيق والسداد بمنّه.

أما بعد، فهذه كلمات طيبات نافعات، ومقالات متنوعة في المهم من أصول الدين وأخلاقه وآدابه. وهاك فصولاً منثورة في مواضيـع متعددة نافعة.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

# الفصل الأول

## في عقائد الدين الكلية

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمنَّا باللَّهِ ومَا أُنزِلَ إلَينا وما أُنـزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ مُوسَى وعِيسى ومـا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهم لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهُمْ ونحنُ لَهُ مُسْلِمون﴾

[سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وفي القرآن آيات كثيرة تشرح هذه الأصول الكلية وتفصِّلها، وتبيِّـن أسماء الله وصفاتِه، وأفعاله وآلاءه، وتفصِّل أحوال اليوم الآخر وما فيه من الحساب والعدل والفضل، والثواب والعقاب، وتبيِّـن أحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام وأوصافَهم وهداهم، وما دَعَوْا إليه، والكتب المنزلة عليهم وما فيها من الحقائق النافعة والهداية المتنوعة.

وقد جمـع الله في هذه الآية بين الأمر الموجَّه إلى الظاهر والباطن قول اللسان والاعتراف والتحقق بالقلب بجميـع هذه الأصول، وبين الخضوع والانقياد في الباطن والظاهر والإخلاص التام لله بجميـع حقوق الدين؛ فهذه العقائد الصحيحة النافعة تملأ القلوب أمناً وإيماناً ويقيناً ونوراً وهداية، وتعبُّداً لله وتألُّهاً له، وإنابةً إليه في كل الأحوال، ولجوءًا إليه في كـل النوازل والمهمات، وطمأنينة بمعرفته، وسكوناً إلى ذكره والثناء عليه، وتوجب للعبد قوة التوكل على الله والاعتماد الكامل والاستعانة به في مزاولة الأعمال الدينية والدنيوية؛ وكلما ضعفت إرادة العبد ووهت قوته في محاولة المهمات، أمده

هذا الإيمان الصادق بقوةٍ قلبية تتبعها الأعمال البدنية، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان حصناً حصيناً يلجأ إليه المؤمن فيطمئن قلبه وتسكن نفسه؛ قال تعالى:

﴿الذين قالَ لَهُم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكُم فاْخشَوْهُم فزادَهُم إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ. فانقلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وفضلٍ لم يَمْسَسْهُم سوءٌ واتَّبعوا رضوانَ اللَّهِ واللَّهُ ذو فضلٍ عظيمٍ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٧٤]

وهذا الإيمان الصادق واليقين الصحيح يحمل صاحبه على العزة والقوة، والشجاعة القولية والفعلية؛ فإنه متى يتيقن العبد أن الله هو النافع الضَّار المعطي المانع؛ وأن من اعتز به فهو عزيز، ومن التجأ لغيره فهو الذليل؛ وأن الخلق كلَّهم فقراءُ إلى الله لا ينفعون ولا يضرون، أوجب له ذلك القوة بالله والالتجاء إليه، وأن لا يخاف ولا يرجو أحداً غير الله؛ ولا يطمع إلّا في فضله؛ وبهذا يتم له التَّحَرُّر من رِق المخلوقين، وأن لا يعلق قلبه بأحد منهم في نفع ولا دفع ضُر، بل يكون الله وحده مولاه وناصره يتولّاه في طلب المنافع، ويستنصره في دفع المضار، فيتمّ له من كفاية المولى وتيسير أموره ما لا يتم لمن لم يكن معه هذا الإيمان، ويحصل له من قوة القلب وشجاعته ما لا يصل إليه من لم يبلغ درجته، وهذا كله من ثمرات الإيمان الصحيح.

ومن ثمراته أيضاً أنه يسلِّي العبد عند المصائب؛ ويهوِّن عليه الشدائد والنوائب؛ ومن يؤمن بالله يُهدَ قلبه، وهو العبدالذي تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم للأقدار المؤلمة، وتهون عليه المصائب المزعجة لصدورها من عند الله وإيصالها إلى ثوابه؛ قال تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمونَ فإِنَّهم يأْلَمونَ كما تَأْلَمونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

ولهـذا يوجـد عند المؤمنين الصـادقين ـ حين تصيبهم النوازل والقـلاقل والابتلاء ـ من الصبر والثبات والطمأنينة والسكون والقيام بحق الله ما لا يوجد عشرُ معشاره عند من ليس كذلك، وذلك لقوة الإيمان واليقين.

ومن ثمرات الإيمان الصادق أنه يقوِّي الرغبة في فعل الخيرات، والتزود من الأعمال الصالحات، ويدعو إلى الرحمة والشفقة على المخلوقات وذلك بسبب داعي الإيمان وبما يحتسبه العبد عند الله من الثواب الجزيل.

ومن ثمراته أيضاً أنه يَنهَى عن الشرور والفواحش كلِّها ما ظهر منها وما بطن، ويحذّر من كل خلق رذيل؛ قال تعالى:

**﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهُم وإذا تُلِيتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون. الذين يُقيمونَ الصلاةَ ومما رَزَقناهُمْ يُنفِقون. أولئك هُمُ المؤمنونَ حقًّا﴾** [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

فذكر في هذه الآية ما يثمره الإيمان من أعمال القلوب والجوارح والقيام بحق الله وحق الخلق، فهذه الأخلاق الحميدة هل يتوصل إليها بغير الإيمان؟ وهل يعصم العبد من انحلال الأخلاق المؤدية إلى الهلاك إلّا الإيمان؟ وهل أَودَتْ بكثيرٍ من الخلق الأمور المادية والشهوات البهيمية والأخلاق السبعية، وهبطت بهم إلى الهلاك إلّا حين فقدت روح الإيمان؟ وهل تؤدَّى الأمانات والحقوق الواجبة بغير وازع الإيمان؟ وهل تثبت القلوب عند المزعجات وتطمئن النفوس عند الكريهات إلا بعدّة الإيمان؟ وهل تقنـع النفوس برزق الله وتتم لها الراحة والحياة الطيبة في هذه الدار، إلّا بقوة الإيمان؟ وهل يتحقق العبد بالصدق في أقواله وأفعاله ومعاملاته ويكون أميناً شريفـاً معتبراً عنـد الله وعند خلقـه إلّا بالإيمان؟

فكلُّ أسٍّ تنبني عليه هذه الأمور الجليلة سوى الإيمان فهو منهار، وكل رقي ماديٍّ لا يصحبه الإيمان فهو هبوط ودمار، أَلَا وإِنَّ الإيمان يحمل العبد على الصبر على قضاء الله والشكر لِنَعَمِ الله، والشفقة على عباد الله والتخلق

بكل خُلق جميل، والتخلِّي من كل خلق رذيل، ومصداق ذلك ما هو موجود في كل متصف بالإيمان ومفقود ممن لم يكن كذلك، فإن وجدت موصوفاً ببعض هذه الصفات وهو غير ملتزم للإسلام، فعن الدين الإسلامي قد أخذها وقد يصبغها بغير صبغة الدين، فليأت المعترض بمثال واحد يخرج عن هذا الأصل إن كان صادقاً، فإن الدين يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى كل خير.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ارْكَعوا واسجُدُوا واعبـدوا ربَّكم وافعلوا الخيرَ لعلَّكم تفلحون﴾ [سورة الحج: الآية ٧٧]

﴿وَلْتَكُنْ مِنكُم أُمةٌ يَدعُونَ إلى الخيرِ، ويَأمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ وأولئكَ هم المفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

ومن ثمرات الإيمان أنه يأمر بالعدل والقسط في جميـع المعاملات وأداء الحقوق المتنوعة الواقعة بين الناس؛ وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والحقوق كلها، وهل يمكن صلاح هذه الأمور إلّا بالعدل والقسط الذي هو روح الدين وقوامه؛ قال تعالى:

﴿إنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربـى وينهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسكُم أَوِ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ، إنْ يَكُنْ غنيّاً أو فقيراً فالله أَولَى بِهِما﴾

[سورة النساء: الآية ١٣٥]

وإذا اعتبرت تفاصيل العدل في الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقود والمعاملات من معاوضات وشركات وحقوق المواريث والزوجية والأقارب والمعاملين، وجدتها في غاية العدل والانتظام المصلِح للأحوال الجالب للمنافـع، الدافـع للمضار والمفاسد.

## فصل تابع لما قبله

وهذا الإيمان الصحيح الشامل لأصول الإيمان وحقائقه يتضمن الخضوع الكامل لله والإنابة إليه في كل الأحوال الذي هو غاية صلاح القلوب والأرواح، فيدخل فيه الإخلاص لله في عبوديته والإحسان المتنوع بكل وجه لله الخالق، ويدخل فيه الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله، وبكل حقٍّ نزلت به الكتب وجاءت به الرسل واتفقت عليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة؛ وهو الدين المزكِّي للقلوب المطهِّر للنفوسِ المنمِّي للأخلاق، دين الحكمة والفطرة، دين العقل الصحيح والنقل الصريح، دين يبرأ من الوثنيات والإلحاد وانحلال الأخلاق، دين قد جاء بإباحة جميع الطيبات والمنافع وتحريم الخبائث والمضارّ، يأمر بكل معروف شرعاً وعقلاً، وينهى عن كل منكر، وبغي وعدوان، دِين فيه صلاح القلوب والأجساد، والسعي لكل منفعة دينية ودنيوية مُعِينة على الدين، دينٌ نزل من عند العزيز الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، لا يتمكن مبطل من نقض أصلٍ من أصوله، ولا يخبر بما تحيله العقول، بل بما تشهد به العقول الصحيحة، أو لا تهتدي إلى تفصيله وبيانه؛ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، وعليه جميع الأصفياء والعلماء الربانيين، أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ونبذه كل مشرك وجاحد ممن مرضت عقولهم، وانحلت أخلاقهم وطغت عليهم المادة فدمرت أديانهم تدميراً.

المؤمن بالله حقاً قد تَنَعَّمَ بعبادة الله راجياً ثوابه، وتنعَّمَ بنصيبه من الدنيا على الوجه الأكمل، فإنه تناوله من حله ووضعه في محله، قاصداً به قيام ما عليه من الواجبات مستعيناً به على عبادة ربه.

المؤمن: وصفه التواضع للخلق وللحق، يتبع الحق أين كان، ويَدِينُ بالنصيحة لعباد الله على اختلاف مراتبهم، والجاحد وصفه التكبر على الحقِّ وعلى الخَلْقِ والإعجاب بالنفس، لا يدين بنصيحة أحد من الخلق.

المؤمن: سليم القلب من الغش والغل والحقد، صدوق اللسان، حسن المعاملة، وصفُهُ الحلم والوقار والسكينة والصبر والرحمة والوفاء والثبات، لا يذل إلّا لله، قد صان قلبه ووجهه عن بذله وتذلُّلِه لغير ربه، قد جمع بين السعي في فعل الأسباب النافعة، والتوكل على الله والثقة به وطلب العون منه في كل الأمور، وبقوة توكله وثقته وطمعه بربه قد يسره الله لليسرى وجنّبه العسرى، إذا أتته الدنيا والنعم والمحابُّ تلقّاها بالشكر وصرفَها فيما ينفعه ويعود عليه بالخير، وإذا أصابته المكاره تلقّاها بالصبر والاحتساب وارتقاب الأجر والثواب والرجاء لفرج الله بزوالها، فيكون ما عُوِّض من الخير والإيمان والطمأنينة أعظمَ مما فاته من محبوب، أو حصل له من مكروه، فهذه الخصال الجميلة من عقائد صادقة وأخلاقٍ راقية وآداب سامية هل يمكن أن يتصف بها إلّا المؤمن حقاً؟ وهي من أكبر البراهين على أن الدين بعقائده وأخلاقه هو الدين الحق الذي يؤول إليه أولو الألباب والحجى وأرباب البصائر والنُّهى، ولا يزهد فيه إلّا الأرذال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والشقاوة بالسعادة.

لهفي على المؤمنين الأخيار، وحنيني المتتابع على الصادقين الأبرار الذين عمرت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، ولهجت ألسنتهم بذكر الله والثناء عليه، وعمرت أوقاتهم بطاعته وخدمته، وحنوا بهذا الإيمان الحقيقي على الخَلْق بالرأفة والرحمة والنصح، ومنعهم هذا الإيمان من كل خُلُقٍ رذيل كما حثهم على كل خلق جميل.

أين الإيمان الصحيح من أهل الرياء والتملّق والنفاق؟ وأين الإيمان ممن دَأْبُهُمُ الفسوقُ والعصيان والشقاق؟ أين الإيمان من المُعْرِضين عن معرفة الله ومحبته، الناكبين عن طاعته وخدمته؟ وأين الإيمان ممن مُلئت قلوبهم بالتعلق بالحب والتعظيم، والخوف والرجاء للمخلوقين، وخلت من تعلقها برب العالمين؟ أين الإيمان من الطعانين اللعانين؟ وأين الإيمان من الكذابين

والنمامين، وأين الإيمان من المعاملين بالربا والغشاشين؟ فليس الإيمان بالتحلي والتمني، وإنما الإيمان ما وَقَرَ في القلوب وصدّقته الأعمال عند التمحيص والتحقيق، والامتحان يظهر الكاذب وصادقَ الإيمان.

## الفصل الثاني

### في فوائد الصلاة

فرض الله على الأمة خمس صلوات كل يوم وليلة، ومن النوافل والرواتب والوتر وغيرها ما هو تبع لها، لما في ذلك من الفوائد الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية، قال تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلاةِ لدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كانَ مَشْهوداً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٨]

فهذه الآية تدخل فيها الصلوات الخمس، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في الصلوات الخمس وتفصيل أوقاتها وشروطها ومكمّلاتها، وفي فضلها وكثرة ثوابها، فمن فضائلها أنها أعظم عبادةٍ يحصلُ فيها الخضوع والذُّلُّ لله وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادة سعادة القلب الأبدية ونعيمه ولا يمكن تغذيته بمثل الصلاة؛ والصلاة أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان، فالصلاة تثبِّت الإيمان وتنمِّيه، وتنمِّي ما يثمره الإيمان من فعل الخير والرغبة فيه، وكذلك تنهَى عن الشر، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنْهى عنِ الفحشاءِ والمُنكرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكبرُ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

فأخبرَ أَنَّ فيها الغذاءَ بذكرِ الله والشفاءَ بنهْيِهَا عن الفحشاء والمنكر، وأي شيء أعظم من هذا وأجل وأكمل؟

ومن فضائلها أنها أكبر عون للعبد على مصالح دينه ودنياه، قال تعالى:

﴿وآسْتعينوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على كل الأمور؛ أما عونها على المصالح الدينية فإن العبد إذا داوم على الصلاة وحافظ عليها قَوِيت رغبته في فعل الخيرات وسهلت عليه الطاعات وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب، وتذهب أو تضعف داعيته للمعاصي، وهذا أمر محسوس مشاهد، فإنك لا تجد محافظاً على الصلاة، فروضِها ونوافِلها، إلاّ وجدتَّ تأثير ذلك في بقية أعماله، ولهذا كانت الصلاة عنواناً على الفلاح؛ قال تعالى:

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر...﴾ الآية

والمراد عمارتها بالصلاة والقربات، وقال ﷺ: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله يقول:

﴿إِنّما يَعْمُرُ مساجدَ اللَّهِ مَنْ آمنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٨]

وأما عونها على المصالح الدنيوية فإنها تهوِّن المشاقَّ وتسلِّي عن المصائب ويجازي الله صاحبَها بتيسير أموره، ويبارك له في ماله وأعماله وجميع ما يتصل به ويباشره.

ومن فضائلها أنّ من أَكْمَلَها وأتقَنَها فقد فاز وسعد، وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً: (أول ما يحاسب عنه العبد صلاته، فإن كان قد أتمها فقد أفلح وأنجح)، الحديث في السنن.

وللصلاة خمس فوائد، كل واحدة خير من الدنيا وما عليها: تكميل الإسلام التي هي أكبر أركانه، وتكفيرُ السيئات وزيادةُ الحسنات ورفعةُ الدرجات، وزيادةُ القُرب من رب السموات، وزيادةُ الإيمان في القلب ونورِه. وقد شَرَعَ الشارع الاجتماع للصلوات الخمس والجمعة والعيد لما في الاجتماع من حصول التنافس في الخيرات والتنشيط عليها، والتعلم والتعليم لأحكامها، فإن العالم يُنبِّه الجاهل؛ والجاهل يتعلم بالقول والفعل من العالم ويقتدي الناس بعضهم ببعض، وكذلك ما في الاجتماع من التوادّ والتواصل

بين المسلمين وعدم التقاطع، وما في ذلك من معرفة حال المصلِّين والمحافظين على الصلاة والمتهاونين، ومضاعفة الأجر بالاجتماع، وكثرة الخطا إلى المساجد وما يتبع ذلك من قراءة وذكر وعبادات تفعل في المساجد بأسباب الصلوات.

ومن فوائدها الطِّبِّية البدنية وهي مصلحة تابعة لغيرها ما فيها من الرياضة المتنوعة النافعة للبدن المقوية للأعضاء والحركة المذيبة للأخلاط الغليظة وذلك من وجهين:

**أحدهما:** ما في الصلوات ووسائلها وتوابعها من المشي والذهاب والمجيء والقيام والقعود والركوع والسجود المتكرر، وكذلك الطهارة المتكررة، كل هذه الحركات نفعها محسوس مشاهد لا يمارِي فيه إلّا جاهل.

**الوجه الثاني:** أن روح الصلاة ومقصودها الأعظم حضور القلب بين يدي الله ومناجاته بكلامه وذكره والثناء عليه ودعائه والتضرّع إليه وطلب القربة عنده ورجاء ثوابه، وذلك بلا ريب ينير القلب ويشرح الصدر ويفرح النفس والروح؛ ومعلوم عند جميع الأطباء أن السعي في راحة القلب وسكونه وفرحه وزوال غمه وهمه من أكبر الأسباب الجالبة للصحة الدافعة للأمراض المخففة للآلام، وذلك مجرب مشاهد وخصوصاً صلاة الليل أوقات الأسحار فإن النبي ﷺ ذكر في الحديث الصحيح أن العبد إذا قام من الليل فذكر الله وتوضأ ثم صلّى ما كتب له انحلّت عنه عقد الشيطان كلُّها فأصبح طيب النفس نشيطاً، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان؛ ومصالح الصلاة الدينية والاجتماعية والبدنية لا تعد ولا تحصى.

# الفصل الثالث

## في فوائد الزكاة والصدقة

قد فرض الله على المؤمنين ذوي الأموال الزكوية زكاة تدفع للمحتاجين منهم، وللمصالح العامة النفع كما قال تعالى:

**﴿إنّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهُم، وفي الرِّقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللَّهِ وابنِ السبيل، فريضةً مِنَ اللَّهِ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** [سورة التوبة: الآية ٦٠]

وفي القرآن آيات كثيرة في الأمر بإيتاء الزكاة والنفقة مما رزق الله والثناء على المنفقين والمتصدقين وذكر ثوابهم، وتواترت بذلك كله الأحاديث عن النبي ﷺ، وبيَّـن ما تجبُ فيه الزكاة من المواشي والحبوب والثمار والنقود والأموال المعدَّة للتجارة، وذَكَر أَنْصِباءها ومقدارَ الواجبِ منها وذَكَر الوعيدَ الشديد على مانعها؛ واتفق المسلمون على نقصان إيمان تاركها ودينهِ وإسلامِه، وإنما اختلفوا هل يكفَّرُ تاركُها أمْ لا، وذلك لما في الزكاة والصدقة والإحسان من الفوائد الضرورية والكمالية والدينية والدنيوية.

فمنها أنها من أعظم شعائر الدين وأكبر براهين الإيمان: فإنه ﷺ قال: (والصدقة برهان). أي على إيمان صاحبها ودينه ومحبته لله إذ سخى لله بماله المحبوب للنفوس.

ومنها أنها تزكِّي وتنمِّي المعطي والمعطَى والمالَ الذي أخرجت منه، أما تزكيتها للمعطي فإنها تزكِّي أخلاقَه وتطهِّرُه من الشُّحِّ والبخل والأخلاق الرذيلة، وتنمِّي أخلاقَه فيتصف بأوصاف الكرماء المحسنين الشاكرين، فإنها من أعظم الشكر لله، والشكر معه المزيد دائماً، وتنمِّي أيضاً أَجْرَهُ وثوابه، فإن الزكاة والنفقة تضاعف أضعافاً كثيرة بحسب إيمان صاحبها وإخلاصِه ونفعها ووقوعها موقعها، وهي تشرح الصدر وتفرح النفس وتدفع عن العبد من البلايا

والأسقام شيئاً كثيراً؛ فكم جلبت من نعمة دينية ودنيوية، وكم دفعت من نِقَمٍ ومكارِهَ وأسقام، وكم خفّفت الآلام وكم أزالت من عداوات وجلبت مودة وصداقات، وكم تسببت لأدعية مستجابة من قلوب صادقات. وهي أيضاً تنمّي المال المخْرَج منه، فإنها تقيه الآفات وتحل فيه البركة الإلّهيةَ، قال ﷺ: (ما نقصت صدقة من مال)، بل تزيده وقال تعالى:

﴿وما أنفقتم مِنْ شَيءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرَّازقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ما من صباح يوم إلاّ وينزل ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً)، والتجربة تشهد بذلك، فلا تكاد تجد مؤمناً يُخرج الزكاة وينفق النفقات في محلها إلاّ وقد صبّ الله عليه الرزق صبا، وأنزل له البركة ويسَّر له أسباب الرزق.

وأما نفعها للمعطَى فإن الله قد أمر بدفعها للمحتاجين من الفقراء والمساكين والغارمين وفي الرقاب وللمصالح التي يحتاج المسلمون إليها، فمتى وضعت في محلها اندفعت الحاجات والضرورات واستغنى الفقراء أو خفّ فقرُهم وقامت المصالح النافعة العمومية، فأي فائدة أعظم من ذلك وأجلّ، فلو أن الأغنياء أخرجوا زكاة أموالهم وَوُضعت في محلها لقامت المصالح الدينية والدنيوية وزالت الضرورات واندفعت شرور الفقراء وكان ذلك أعظم حاجزٍ وسدٍّ يمنع عبث المفسدين، ولهذا كانت الزكاة من أعظم محاسن الإسلام لما اشتملت عليه من جلب المصالح والمنافع ودفع المضار.

# الفصل الرابع

## في فوائد الصوم

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لعلَّكم تَتَّقون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فذكر تعالى للصوم هذه الفائدة العظمى المحتوية على فوائد كثيرة وهي قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي ليكون الصيام وسيلةً لكم إلى حصول التقوى ولتكونوا بالصيام من المتقين، وذلك أن التقوى اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من فعل المحبوبات لله ورسوله، وترك ما يكرهها الله ورسوله. فالصيام هو الطريق الأعظم لحصول هذه الغاية الجليلة التي توصل العبد إلى السعادة والفلاح، فإن الصائم يتقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من طعام وشراب وتوابعها تقديماً لمحبة الله على محبة النفس، وكذلك اختصه الله من بين الأعمال فقال: (الصوم لي وأنا أجزي به).

وبالصيام يزداد الإيمان ويتمرّن العبد على الصبر النفسي الدافع لاندفاع النفس البهيمية في شهواتها الضارة. وبالصيام يستعين العبد على كثير من العبادات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة، ويردع النفس عن الوقوع في الأمور المحرَّمة من أقواله وأفعاله، وذلك من أصول التقوى.

وبالصيام يعرف العبد نعمة الله عليه في أقداره على ما يتمتع به من مأكل ومشرب ومنكح وتوابعها، فبالامتناع منها في وقت وحصول المشقة بذلك، وإباحته في بقية أوقاته يذوق طعم الجوع والظمأ ويعرف مقدار النعمة، ويحنو على إخوانه المعدمين الذين لا يكادون يجدون القوت دائماً.

وبالصيام يكون العبد صابراً على الطاعات، وعن المخالفات، وعلى أقدار الله المؤلمة بصبره عن المفطرات التي يؤلم النفس تركها، ويكون من الشاكرين لله بمعرفة مقدار نعمة الله عليه بالسعة والغنى، وبنعمته الكبرى

بتوفيقه للصيام، فإن نِعَمَ الله الدينية أكبرُ من نِعَمِهِ الدنيوية، وقد أخبر ﷺ أن الصيام أحد مباني الإسلام الخمسة، وأنه يكفِّر الذنوب المتقدمة كلها، وأن الله يحبه ويرضى عن صاحبه ويعطيه أجراً عظيماً، وأن من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر، ومن صام من كل شهر ثلاثة أيام فكذلك، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك يعدل صيام الدهر، فضلاً من الله ومِنّة، ومن تيسير الله للصيام وتسهيله أن الله شرعه في وقت واحد وشهر واحد ليتفق المسلمون كلهم على صيامه وتهون المشقة باشتراكهم في الصيام، فإن الاشتراك في العبادة له نفع عظيم ومساعدة جسيمة، ولله في العبادات حكم وأسرار ولطف كبير. وأما منافع الصيام البدنية فقد ذكر الأطباء أنه يحفظ الصحة ويذيب الفضلات المؤذية ويريح القُوى ويردّ إليها قوتَها، وهو من أفضل أنواع الحمية عن تناول ما يؤذي البدن، فهو جامع لمصالح الدين والدنيا والآخرة. والله أعلم.

## الفصل الخامس

### في فوائد الحج

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ على الناس حِجُّ البيتِ مَنِ ٱسْتطاعَ إليهِ سبيلاً وَمَنْ كَفَر فإنَّ اللَّهَ غنيٌّ عن العالَمِين﴾
[سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وأخبر ﷺ أنه أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، وأن من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولَدَتْهُ أُمُّه، وأن الحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة، وكل هذا في الصحيحين، وأخبر أن الحج والعمرة ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة. وورد في فرضه

وفضله وثوابه أحاديثُ كثيرة وذلك لما فيه من المنافع العامة والخاصة، وقد بيَّـن تعالى مُجمَل حِكَمِهِ ومنافعه في قوله:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِـعَ لَهُم﴾ [سورة الحـج: الآية ٢٨]

أي منافـع دينية واجتماعية ودنيوية، وقال:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِياماً للناسِ، والشَّهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقَلاَئِدَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٧]

فإن به تقوم أحوال المسلمين ويقوم دينهم ودنياهم، فلولا وجود بيته في الأرض وعمارته بالحـج والعمرة والتعبُّدات الأخر لآذنَ هذا العالَمُ بالخراب؛ ولهذا، من أمارات الساعة واقترابها هدمُهُ بعد عمارته، وتركُه بعد زيارته، فإن الحـج مبنيٌّ على المحبة والتوحيد الذي هو أصل الأصول كلها، فإن حقيقته استزارة المحبوب لأحبابه وإيفادهم إليه ليحظوا بالوصول إلى بيته ويتمتعوا بالتذلُّل له والانْكسار له في مواضـع النسك، ويسألوه جميـع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، فيجزل لهم من قراه ما لا يصفه الواصفون، وبذلك تتحقق محبتهم لله ويظهر صدقهم بإنفاق نفائس أموالهم، وبذل مُهجهم في الوصول إليه، فإن أفضل ما بذلت فيه الأموال وأتعبت فيه الأبدان، وأعظمه فائدة وعائدة ما كان في هذا السبيل وما توسل به إلى هذا العمل الجليل، ومـع ذلك فقد وعدهم بإخلاف النفقات والحصول على الثواب الجزيل والعواقب الحميدة.

ومن فوائد الحـج أن فيه تذكرة لحال الأنبياء والمرسلين ومقـامات الأصفياء المخلصين كما قال تعالى:

﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

والصحيـح في تفسيرها أن هذا عام في جميـع مقاماته في الحـج: من الطَّواف وركعتيه والسعي والوقوف بالمشاعر ورمي الجمار والهَدْي وتوابـع ذلك، ولهذا كان ﷺ يقول في كل مشعر من مشاعر الحـج (خذوا عني

مناسككم) فهو تذكرة بحال إبراهيم الخليل والمصطَفَيْن من أهل بيته، وتذكير بحال سيد المرسلين وإمامهم ومقاماته في الحج التي هي أجل المقامات، وهذا التذكير أعلى أنواع التذكيرات، فإنه تذكير بأحوال عظماء الرسل إبراهيم ومحمد ﷺ ومآثرهم الجليلة وتعبداتهم الجميلة، والمتذكر بذلك مؤمِنٌ بالرسل معظِّمٌ لهم متأثِّرٌ بمقاماتهم السامية مُقتدٍ بآثارهم الحميدة ذاكرٌ لمناقبهم وفضائلهم فيزداد به العبد إيماناً ويقيناً.

وشرع أيضاً لما فيه من ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ويصل به العبد إلى أكمل مطلوب كما قال ﷺ: (إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله).

ومن فوائد الحج أن المسلمين يجتمعون في وقت واحد وموضع واحد على عمل واحد ويتصل بعضهم ببعض ويتم التعاون والتعارف ويكون وسيلة للسعي في تعرف المصالح المشتركة بين المسلمين والسعي في تحصيلها بحسب القدرة والإمكان، وبذلك تتحقق الوحدة الدينية والأخوة الإيمانية، ويرتبط أقصى المسلمين بأدناهم فيتفاهمون ويتعارفون ويتشاورون في كل ما يعود بنفعهم؛ وبذلك يكتسب العبد من الأصدقاء والأحباء ما هو أعظم المكاسب ويستفيد بعضهم من بعض.

وأما توابع ذلك من المصالح الدنيوية بالتجارات والمكاسب الحاصلة في مواسم الحج ومواضع النسك فإنها تفوت العد، وكل هذا داخل في قوله:

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

موسم عظيم لا يشبهه شيء من مواسم الأقطار؛ كم أنفقت فيه نفائس الأموال، وكم أتعبت في السعي إليه الأبدانُ وكم حصل فيه شيء كثير من أصناف التعبُّدات، وكم أُرِيقت في تلك المواضع العبراتُ، وكم أقيلت فيه العثراتُ، وغفرت الذنوب والسيئات، وكم فرجت فيه الكربات وقضيت الحاجات، وكم

ضج المسلمون فيه بالدعوات المستجابات، وكم تمتع فيه المحبون بالافتقار إلى رب السموات، وكم أسبغ الباري فيه عليهم من ألطاف ومواهب وكرامات، وكم عاد المسرفون على أنفسهم كيوم ولدتهم الأمهات، وكم حصل فيه من تعارف نافع واستفاد به العبد من صديق صادق، وكم تبادلت فيه الآراء والمنافع المتنوعة، وكم تمّ للعبد فيه من مآرب ومطالب متعددة، ولله الحمد على ذلك.

## فصل تابع لكل ما تقدم

هذه الشرائع المتقدم ذكرها قد تبين أنها من أعظم الضرورات، وأنه لا غنى للخلق عنها للفوائد الجليلة المترتبة عليها والأضرار الكثيرة الناشئة عن فقدها، وأنها أعظم منن الله على عباده، وأعظم محاسن الدين الإسلامي، وأن كل دين خلا منها وكلَّ طريق فُقِدت منه فإنه شرٌّ محض وضررٌ صِرْف، وأنه إذا وجد خير في شخص أو طائفة من الناس فانظر وتأمل تجد بلا شك أصلَه ومنبَعه مأخوذاً من الدين الإسلامي وإن غُيِّرت صبغتُه وسُمِّي بغير اسمه، كما أنك لا تجد شرًّا ولا ضرراً إلاَّ وجدت منبعه من مخالفة الدين الإسلامي لا يشذ عن هذا شيء؛ فالخير حيث كان الدين؛ والشرُّ حيث فُقِد الدين الصحيح؛ فليأتِ المرتابُ بمثالٍ واحدٍ يخالف هذا الأصل إن كان صادقاً، وإلا فَلْيُذْعِنْ إلى هذا الدين الذي أذعن له صفوةُ الخلق وأولو الألباب من الأنبياء وأتباعهم وأهل العقول الوافية والأخلاق العالية.

# الفصل السادس

## في الصدق والأمانة

قد أمر الله بالصدق وأداء الأمانات في عدة آيات، وأثنى على الصادقين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونوا مَعَ الصَّادقين﴾**

[سورة التوبة: الآية ١١٩]

**﴿هـٰذا يومُ ينفعُ الصَّادقينَ صِدقُهم لَهمْ جَنَّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً رَضِيَ اللَّهُ عنهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذلك الفوزُ العظيمُ﴾**

[سورة المائدة: الآية ١١٩]

**﴿إِنَّ اللَّهَ يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أهلِها﴾**

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وهذا شامل لجميع الأمانات من الولايات الصغار والكبار، وأمانات الأموال والحقوق والأسرار وغيرها؛ وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدِي إلى الفجور وإن الفجور يهدِي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكْتب عند الله كَذَّاباً)، وإنما حث الشارع على الصدق وأداء الأمانة ورعايتها، لأنها مقدمة الأخلاق الجميلة، وهي الداعية إليها كما نص عليه في الحديث في قوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر). والبِرُّ اسمٌ جامع لكل خير وطاعة الله وإحسان إلى الخلق.

والصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان وأُسُّ الدين وعلامة على كمال المتَّصِف به، وأن له المقامَ الأعلى في الدين والدنيا، وهو صريح الإخلاص، فإن المخلص قد استوى ظاهره وباطنه، والصادق كذلك،

وبالصدق يصل العبد إلى منازل الأبرار، وبه تحصل النجاة من جميع الشرور، وبالصدق وأداء الأمانة تحصل البركة والطمأنينة، ويكون صاحبها معتَبَراً عند الله وعند الخلق قال ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)، متفق عليه؛ فأخبر وهو الصادق المصدوق: أن البركة مقرونة بالصدق والبيان، وأن المَحْقَ والتَّلَف مقرونٌ بالكذب والكتمان، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنك لا تجد صادقاً في معاملته مؤتمناً في أماناته، وقد استوى ظاهره وباطنه إلّا وجدت رزقه رغداً، وأسبابه جارية على السداد ومعاملاته مستقيمة، وقد حاز مع ذلك الشرف وحسن السمعة والاعتبار وتسابق الناس إلى معاملته، وبذلك تتم له سعادة الدنيا والآخرة؛ كما أنك لا تجد كذاباً غشاشاً سيء المعاملة إلّا وجدته بعكس حال الصادق. لا ترى صادقاً إلّا مرموقاً بين الناس بالمحبة والثناء والتعظيم، ولا كاذباً إلّا ممقوتاً بهذا الخلق الأثيم؛ الصادق يطمئن إلى قوله العدو والصديق، والكاذب لا يثق به الصديق والقريب.

ما أحلى أحاديث الصادقين وما أقبح أقوال الكاذبين؛ الصادق الأمين مؤتمن على الأموال والحقوق والأسرار، ومتى حصل منه كبوة أو عثرة فصِدْقُه شفيع مقبول، والكاذب لا يؤمن على مثقال ذرة ولو قُدِّر صدقه أحياناً لم يكن لذلك موقع ولا حصل به ثقة ولا طمأنينة. بالصدق تبرم العهود الوثيقة، وتطمئن لها القلوب على الحقيقة.. ما كان الصدق في شيء إلّا زَانَه، ولا الكذب في شيء إلّا شَانَه؛ الصدق طريق الإيمان، والكذب بريد النفاق ــ اللهم تفضل علينا بالصدق في أقوالنا وأفعالنا وجميع أحوالنا؛ يا جواد يا كريم!

# الفصل السابع

## في العدل وفوائده وتوقف الصلاح عليه

قد أمر الله بالعدل في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر بالعدل بين الناس في المقالات والمذاهب والدماء والأموال والأعراض وسائر الحقوق، ونهى عن الظلم في كل شيء وذَمَّ الظالمين وذكر عقوباتهم الدنيوية والأُخروية في آيات متعددة، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإِيتاءِ ذِي القُربى وَيَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعلَّكم تَذَكَّرون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ علىٰ أنفُسِكُمْ أوِ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ، إِنْ يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولَى بهما﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّـي بالقِسْطِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

﴿واللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٧]

﴿إنّ الظالمين لهم عَذابٌ أليمٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٢]

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: (يا عبادي إنِّي حَرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) والشريعة المحمَّدية كلها عدلٌ وقسط ورحمة لا جورَ فيها بوجه من الوجوه، لا في أصولها ولا في فروعها فالتوحيد أصل العدل، والشِّرك ضِده أَصلُ الظُّلم ــ قال تعالى:

﴿إنَّ الشِّركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣]

فالعدل وضع الشيء موضعه وأداء الحقوق كاملة، فأعظم الحقوق على الإطلاق حقُّه تعالى على عباده ــ أن يعبدوه وحدَه ويخلصوا له الدين. قال تعالى:

﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاّ ليعبدون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦]

﴿وما أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا اللَّهَ مُخلصِين لَهُ الدّين﴾

[سورة البَيِّنَة: الآية ٥]

وفي حديث معاذ المتفق عليه: (حق الله على عباده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً).

فمن قام بهذا الحق فعبد الله وحدَه وأدّى هذا الحق، وقام بحقوقه مخلصاً له فقد قام بأعظم العدل، ومن جعل هذا الحق لغير مستحقه، بأن عبد غير الله وتعلق بغيره رغبةً ورهبةً وتألُّهاً فقد ظلم وعدل عن العدل؛ قال تعالى:

﴿ثُمَّ الذين كَفروا بربِّهم يَعْدِلُون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١]

أي يعدِلُون به غيرَه ويسوُّونه بسواه ممّن ليس فيه من أوصاف الأُلوهية شيء، ولا يملك لنفسه ولا لغيره مثقالَ ذرة من النفع أو الدفع، فمن أظلم ممن سَوَّى المخلوقاتِ الفقيرةَ الناقصة من كل وجه بالرب الغني الكامل من جميع الوجوه. وقال ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظِلّ إلاّ ظله) فذكر أولهم الإمام العادل، وقال: (المقسطون على منابر من نور، الذين يعدلون في أهلهم وحكمهم وما ولوا..).

فعلى الإمام الأعظم أن يقيم العدل في جميع رعيته، قريبهم وبعيدهم غنيهم وفقيرهم؛ وأن يكونوا عنده في هذا سواء، وعليه أن يستنيب لكل عمل الكفءَ الأمين ويوصيهم على إقامة العدل، ويحذرهم الجور وظلم العباد في الدماء والأموال والأعراض، ويتفقدهم في ذلك الأمر الذي هو أساس الصلاح الديني والدنيوي، فلا يصلح الدين إلاّ بالعدل، ولا تصلح الدنيا وتستقيم الأمور على السداد إلاّ بالعدل، ويوم واحد من إمام عادل خير العباد من أن يُمْطَروا أربعين صباحاً، لأن العدل يَسْعد به الراعي والرعية، وبالعدل تعمر الأسباب الدنيوية ويحصل التعاون على المصالح الكلية والجزئية، وبالظلم

خراب الديار وفساد الأحوال وفتح أبواب الفتن وحصول العداوات والبغضاء.

وعلى القضاة والحكام بين الناس أن يحكموا بينهم بالعدل؛ قال تعالى:

﴿يا داودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فَٱحكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦]

وأكثر الأحكام والخصومات ترد على القضاة، فإذا عرفوا الحق وحكموا بالعدل استحقّوا الثواب وسَلِموا من العقاب ووصلت الحقوق إلى أهلها واستقامت الأمور، وإذا حكموا بالجهل أو بالهوى فقد باؤوا بالخسران وضاعت الحقوق وانتصر الظلمة على المظلومين وانحلت الأمور وتفاقم الشر والفساد واختلت أحوال العباد.

والعدل أيضاً واجب في جميع المعاملات بين الناس، وهو أن تؤدِّي ما عليك كاملًا كما تطلبُ حقَّك كاملًا، فمتى بُنيت المعاملات على هذا الأصل تحسّنت المعاملات وتمت الثقة والتبادل العادل بين المتعاملين، فاتسعت دائرة الأسباب والتجارات والصناعات والحرف النافعة، ووثق المتعاملون بعضُهم ببعض، وقلَّت الخصومات والمشاجرات وانحسم النزاع كله أو معظمه، وكل ذلك بسبب العدل.

ومتى كان الأمر بعكس هذه الحال، ورفع من المعاملات روح العدل وحل محله البخس والتطفيف، واستقصى الإنسان على حقه وإن أمكنه الزيادة فعل، وبخس الحق الذي عليه وغشّ وطفف، فمنع ما عليه وأخذ ما له: فويل للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. وويل لهم مما يترتب على البخس والتطفيف من العقوبات الدنيوية التي أولها نزع البركة ومحق الرزق وسوء المعاملة وتوقف كثير من المعاملات والأسباب النافعة.. كل معاملة فقدت روحها ــ وهو العدل ــ فهي معاملة ضارة غير نافعة، قال تعالى:

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٥]

﴿ولَا تَعْثَوْا في الأرض مُفْسدين﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠]

وقال ﷺ: (من غشنا فليس منا)، فالغش والمعاملات الجائرة الظالمة ليست من الدين، وصاحبها متعرض لعقوبة الله العاجلة والآجلة، قد سقط بين الناس شرفه واعتباره واتضحت سفالة أخلاقه وتبين خساره والعدل يكون في الحقوق الزوجية، فعلى كل واحد من الزوجين من الحقوق الشرعية العادلة للآخر ما يناسبه، فمتى قام كل منهما بما عليه التأمت الزوجية وتمّ للزوجين حياة سعيدة طيبة وحصلت الراحة والبركة ونشأت العائلة نشأة حميدة؛ ومتى لم يقم كل منهما بالحق الذي عليه تكدرت الحياة وتنغصت اللذات، وطال الخصام، وتعذر أو تعسّر الالتئام، واختلّت التربية النافعة وتضرر كل منهما في دينه ودنياه كما قال تعالى:

﴿وعاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وقال: ﴿وَلَهُنَّ مثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروفِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وقال: ﴿الرجالُ قَوَّامونَ على النساءِ بما فَضَّلَ اللَّهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أَنْفقوا من أَمْوالِهم؛ فالصَّالحات قانِتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللَّهُ، واللاتي تخافونَ نُشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ واهجُرُوهُنَّ في المضاجِع واضرِبُوهن، فإِنْ أَطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عليهِنَّ سبيلا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

فمدح الله الحافظة لنفسها؛ الحافظة لمال زوجها وما عليها من حقوق الله وحقوق الزوج، وذَمَّ من عكست القضية، وأباح لزوجها القائم بحقها تقويمَها بالأسهل فالأسهل بالوعظ النافع ثم بالهجر إن لم ينفع الوعظ ثم بالضرب الخفيف إن كان فيه نفع، وذلك كله بشرط أن يكون قائماً بحقها، فمتى أراد منها القيام بحقّه وهو مانع لحقِّها فإنه مطفف لا يمكن من تقويمها بالهجر

والضرب حتى يستقيم، والمقصود أن العدل بين الزوجين وقيام كل منهما بواجب الآخر فيه الخير العاجل والآجل، وفقد العدل فيه الضرر الحاضر والمستقبل.

وكذلك العدل في القيام بحقوق الأولاد والأقارب على اختلاف مراتبهم والقيام بصلتهم الواجبة والمستحَبَّة به تتم الصلة بين الأقارب والمنافع الدينية والدنيوية المتبادلة بينهم، وبذلك يكتسبون الشرف عند الله وعند الخلق، وبه تنظر هذه البيوت التي قامت على هذه الروح الطيبة بعين التعظيم وبه يتساعدون على مصالح الدين والدنيا؛ والقطيعة بعكس ذلك كله وذلك راجع إلى العدل وجوداً وعدماً قال ﷺ: (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فالإمام راع على الناس وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته).

فذكر ﷺ الولايات كلها كبارها وصغارها؛ وأَنَّ كلَّ من تولى أي ولاية يكون مسؤولاً عن رعيته وعليه سلوك العدل المتعلق بتلك الولاية بحسبها، فإن كان قائماً بالعدل مؤدِّياً للحقوق فليُبْشِرْ بثواب الله، وإن كان مقصّراً مفرطاً أو متعدياً فلا بد أن يجازى على عمله الذي أضاع.

العدل به تقوم الولايات وتصلح الأفراد والجماعات وتمشي الأمور على الاستقامة في كل الحالات.

# الفصل الثامن

## في وجوب النصيحة وفوائدها

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (الدِّين النصيحة (ثلاثاً)). قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولكِتَابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم) ـ أخبر ﷺ خبراً متضمناً للحث على النصيحة والترغيب فيها، أن الدين كله منحصر في النصيحة، يعني ومَنْ قامَ بالنصيحة فقد قام بالدين وفسّره تفسيراً يزيل الإشكال ويعمُّ جميع الأحوال؛ وأن موضوع النصيحة خمسة أمور باستكمالها يكمل العبد:

أما النصيحة لله فهي القيام بحقّه وعبوديته التامة، وعبوديته تعم ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان كلها وأعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان من الفروض. والنوافل فعل المقدور منها ونية القيام بما يعجز عنه. قال تعالى في حق المعذورين:

**﴿ليسَ على الأَعمى حَرَجٌ ولا على الأعرجِ حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾** [سورة النور: الآية ٦١]

**﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾** [سورة التوبة: الآية ٩١]

فاشترط في نفي الحرج عن هؤلاء أن يكونوا ناصحين لله ورسوله، وذلك بالنيات الصادقة والقيام بالمقدور لهم.

ومن أعظم النصيحة لله الذبُّ عن الدين وتفنيدُ شُبَهِ المبطلين وشرح محاسن الدين الظاهرة والباطنة، فإن شرح محاسن الدين، وخصوصاً في هذه الأوقات التي طغت فيها الماديات وجرفت بزخارفها وبهرجتها أكثر البشر، وظنوا بعقولهم الفاسدة أنها هي الغاية ومنتهى الحسن والكمال، واستكبروا عن آيات الله وبيناته ودينه، ولم يخطر بقلوب أكثرهم أن محاسن الدين الإسلامي فاقت بكمالها وجمالها وجلالها كلَّ شيء، وأنَّ محاسن غيرها إن

فرض فيه محاسن فإنه يتلاشى ويضمحل إذا قيس بنور الدين وعظمته وبهائه، وإنه الطريق الوحيد إلى صلاح البشر وسعادتهم، ومحال أن تحصل السعادة بدونه.

أما سعادة الدين فواضح لكل أحد منصف، وأما سعادة الدنيا فإن الأمور المادية المحضة إذا خلت من روح الدين فإنها شقاء على أهلها ودمار، والمشاهدة أكبر شاهد على هذا، فإن أمور المادة قد ارتقت في هذه الأوقات ارتقاء هائلاً يعجز الفصيح عن التعبير عنه، ومع ذلك فهل عاش هؤلاء مع أنفسهم ومع غيرهم ومع بقية الأمم عيشة سعيدة هنيئة طيبة؟ أم الأمر بالعكس؟ ما يخرجون من طامَّة إلَّا تَلَقَّتْهم طامة أكبر منها، ولا خَلُصوا من كوارث وعذاب إلّا دخلوا في عذاب أفظع منه، ولا والله ينجيهم من هذا غير الدين الصحيح، وسيعلمون ويعلم غيرهم عواقبهم الوخيمة.

وأما النصيحة لكتاب الله فهي الإقبال بالكلية على تلاوته وتدبُّره وتعلم معانيه وتعليمها، والتخلق بأخلاقه وآدابه والعمل بأحكامه واجتناب نواهيه والدعوة إلى ذلك.

وأما النصيحة للرسول محمد ﷺ فهو الإيمان الكامل به وتعظيمه وتوقيره وتقديم محبته واتباعه على الخلق كلهم، وتحقيق ذلك وتصديقه باتباعه ظاهراً وباطناً في العقائد والأخلاق والأعمال؛ قال تعالى:

﴿قُلْ إنْ كُنتم تُحبّون الله فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

والحرص على تعلم سنته وتعليمها واستخراج معانيها وفوائدها الجليلة وهي شقيقة الكتاب، قال تعالى:

﴿وأنزلَ اللَّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣]

وجملة ما تقدم أن النصيحة لله ورسوله هي الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، وهذا يَعُمُّ كل ما تقدم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتُهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظمَ من غيرهم وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم ووجوبِ طاعتهم بالمعروف وعدمِ الخروج عليهم وحثِ الرعية على طاعتهم ولزومِ أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله، وبذلِ ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم وتوضيحِ ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله والدعاءِ لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم واجتنابُ سبِّهم والقدحِ فيهم وإشاعةِ مثالبهم، فإن في ذلك شرًّا وضرراً وفساداً كبيراً، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سرًّا لا علناً بلطف وعبارة تليق بالمقام ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص؛ واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت، فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أُخَرُ معروفة.

وأما النصيحة لعامة المسلمين فقد وضحها النبي ﷺ بقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه)، وذلك بمحبة الخير لهم والسعي في إيصاله إليهم بحسب الإمكان، وكراهة الشر والمكروه لهم، والسعي في دفع ذلك ودفع أسبابه، وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم ونصحهم في أمور دينهم ودنياهم وكل ما تحب أن يفعلوه معك من الإحسان فافعله معهم، ومعاونتهم على البر والتقوى، ومساعدتهم على كل ما يحتاجونه، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه المسلم، وهذه الأمور كلها بحسب القدرة، قال تعالى:

﴿فاتَّقُوا اللَّهَ ما آسْتَطَعْتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

فعلمت مما تقدم أن الأمر كما ذكره ﷺ: أن النصيحة تشمل الدين كله أصوله وفروعه، حقوق الله وحقوق رسوله، وحقوق الخلق كلهم، أهل الحقوق العامة والخاصة، فمن قام بالنصيحة على هذا الوجه فقد قام بالدين، ومن أخل بشيء مما تقدم، فقد ضيّع من دينه بقدر ما ترك، فأين النصيحةُ ممن تهاون بحقوق ربه فضيعها، وعلى محارمه فتجرأ عليها؟ وأين النصيحة ممن قَدَّمَ قولَ غير الرسول على قوله، وآثر طاعة المخلوق على طاعة الله ورسوله؟ وأين النصيحة من أهل الخيانات والغش في المعاملات، وأين النصيحة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وممن يتبعون عورات المسلمين وعثراتهم؟ أين النصيحة من أهل المكر والخداع، وأين النصيحة فِيمَنْ يسعى في تفريق المسلمين وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم؟ وأين النصيحة ممن يتملّقون عند اللقاء بالمدح والثناء ويقولون خلاف ذلك في الغيبة عند الأعداء وعند الأصدقاء؟ وأين النصيحة ممن لا يحترم أعراض المسلمين ولا يرقب فيهم إِلًّا ولا ذِمة؟ وأين النصيحة من المتكبرين على الحق والمستكبرين على الخلق المعجبين بأنفسهم المحتقرين لغيرهم؟ فهؤلاء كلهم عن النصيحة بمعزل، ومنزلهم فيها أبعدُ منزل، وكل هؤلاء قد اختل إيمانهم واستحقوا العقوبات المتنوعة وحُرِموا من الخير الذي رُتِّب على النصح، حُرِموا من الأخلاق الفاضلة وابتُلُوا بالأخلاق السافلة، أولئك هم الخاسرون.

طوبى للناصحين حقيقة ما أعظم توفيقهم وما أهدى طريقهم. لا تجد الناصح إلّا مشتغلاً بفرض يؤديه، وفي جهاد نفسه عن محارم ربه ونواهيه، وفي دعوة غيره إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي التخلق بالأخلاق الجميلة والآداب المستحسنة، إن رأى من أخيه خيراً أذاعه ونشره، وإن اطلع منه على عيب كتمه وستره، إن عاملْتَه وجدته ناصحاً صدوقاً، وإن صاحبْتَه رأيته قائماً بحقوق الصحبة على التمام، مأموناً في السر والعلانية، مباركاً على الجليس كحامل المسك، إما أن يحذيك أو تجد منه رائحة طيبة

إذا وجدت الناصح فاغتنم صحبته، وإذا تشابهت عليك المسالك فاستعن بمشاورته، جاهد نفسك على التخلق بخلق النصح تجد حلاوة الإيمان وتكون من أولياء الرحمن أهل البر والإحسان، لو اطلعت على ضمير الناصح لوجدته ممتلئاً نوراً وأمناً ورحمة وشفقة، ولو شاهدت أفكاره لرأيتها تدور حول مصالح المسلمين مجملة ومفصلة، ولو تأملت أعماله وأقواله لرأيتها كلها صريحة متفقة. أولئك السادة الأخيار وأولئك الصفوة الأبرار؛ لقد نالوا الخير الكثير بالنيات الصالحة والعمل اليسير.

## الفصل التاسع

### في فوائد الشجاعة وذم الجبن والتهور

حقيقة الشجاعة هي الصبر والثبات والإقدام على الأمور النافع تحصيلها أو دفعها، وتكون في الأقوال وفي الأفعال، فأصلها في القلب وهو ثباته وقوته وسكونه عند المهمات والمخاوف، وثمرته الإقدام في الأقوال والأفعال وعند القلق والاضطراب، وكماله وزينته أن يكون موافقاً للحكمة، فإنه إذا زاد عن حدّ الحكمة خشي أن يكون تهوراً وسفهاً وإلقاءً باليد إلى التهلكة، وذلك مؤموم. كما يذم الجبن، فالشجاعة خلق فاضل متوسط بين خلقين رذيلين، وهما الجبن والتهور.

والشجاعة خلق نفسي، ولكن له مواد تمده، فأعظم ما يمده وينمّيه الإيمان وقوة التوكل على الله وكمال الثقة بالله، وعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ ويمده أيضاً الإكثار من ذكر الله والثناء عليه؛ قال تعالى:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً فاثبُتوا وآذْكُروا اللَّهَ كثيراً لعلَّكم تفلحون﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٥]

فمتى قوي إيمان العبد بالله وبقضائه وقدره وقوي يقينُه بالثواب والعقاب، وتمَّ توكُّله على الله وثقته بكفاية الله، وعلم أن الخلق لا يضرّون ولا ينفعون، وأن نواصِيَهم بيد الله، وعَلِمَ الآثار الجليلة الناشئة عن الشجاعة، متى تمكنت هذه المعارف من قلبه قوي قلبه واطمأن فؤاده وأقدم على كل قول وفعل ينفع الإقدام عليه؛ ولا بد لمن كانت هذه حاله أن يُمِدَّه الله بمدد من عنده لا يدركه العبد بحوله ولا قوته، فإن مَنْ كان الله معه فلا خوف عليه؛ ومن كان الله معه هانت عليه المصاعب ودفع الله عنه المكاره قال الله تعالى:

**﴿كَمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبت فئةً كثيرةً بإِذنِ اللَّهِ واللَّهُ مع الصابرين﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

انظر إلى حالة نبينا صلوات الله وسلامه عليه وقد أحاطت به المخاوف المزعجة وهو في الغار، والأعداء منتشرون في طلبه، ويقول له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو نظر أحدهم موضع قدميه لأبصرنا؛ فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، مطمئناً ثابتاً غير مبال ولا قلق، يقول الله عنه في تلك الحال:

**﴿إلَّا تَنصرُوه فقدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرجه الذين كفروا ثانِيَ آثْنينِ إِذْ هُما في الغارِ إِذْ يقولُ لصاحبه لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ معنا، فأنزلَ اللَّهُ سكينَتَه عليه﴾**

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

وانظر إلى جميع مقاماته في الدعوة وجهاد الأعداء، وهو صادع بأمر الله معلِنٌ بدعوته للقريب والبعيد والعدو والصديق، لا تصدُّه معارضة الأعداء ولا قلة الأنصار والأولياء، لم يفتر ولم يضعف، ولم يَنِ ولم يَخَفْ مخلوقاً، ولم يُثْنه خذلانُ الخاذلين، ولا لومُ اللائمين، بل ثبت على الدعوة والجهاد المستمر، أعظم من ثبوت الرواسي وهو مع ذلك مطمئن الضمير ثابت الجأش، واثقاً بوعد الله؛ مستبشراً بنصر الله، حتى أنجز الله له ما وعده، وأكمل دينَه وأعزَّ جنده وهزم أعداءه وجعل له العاقبة الحميدة، وتبعه على ذلك خلفاؤه

وأصحابه، فمضوا على ما مضى عليه نبيهم بإيمان ويقين، وثبات كامل وقوة في الدين، حتى فتحوا الأمصار ودانت لَهم الأقطار، وأظهر الله بهم الدين، وأتم نعمته على المؤمنين.

والله ما أدركوا ذلك بكثرة عدد ولا قوة عُدد؛ كيف وأقل دولة في ذلك الوقت وأضعفها تَلْتَهِمُ العربَ كلَّهم التهاماً، إنما أدركوا ذلك بقوة الإيمان واليقين، وبعدّة الشجاعة الإيمانية المؤيدة بالثقة بنصر رب العالمين وبإعداد المستطاع من القوة المعنوية والمادية للأعداء، وبالصبر العظيم في مواطن اللقاء، وبالنصر الرباني.

ويمد هذا الخلق الفاضل أيضاً التمرين، فإن الشجاعة وإن كانت في القلب فإنها تحتاج إلى تدريب النفس على الإقدام وعلى التكلم بما في النفس وإلقاء المقالات والخطب في المحافل، فمن مَرَّنَ نفسه على ذلك لم يزل به الأمر حتى يكون ملكة له، وزالت هيبة الخلق من قلبه فلا يبالي، ألقى الخطب والمقالات في المحافل الصغار والكبار على العظماء وغيرهم – وكذلك تمرين النفس على مقارعة الأعداء ولقائهم والجسارة في ميادين القتال، تقوى به النفس والقلب، فلا يزال به الأمر حتى لا يبالي بلقاء الأعداء، ولا تزعجه المخاوف، وقد حثّ الله على هذا الدواء النافع بقوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا آصبِروا وصابِروا ورابطوا وآتَّقوا الله لعلَّكُم تُفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠]

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقِيتم فئةً فاثبُتوا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٥]

وأثنى على المتصفين بهذا الوصف الجليل في قوله:

﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لَكُم فَآخْشَوْهُم، فزادَهُم إيماناً وقالُوا حَسْبُنا اللَّهُ ونِعمَ الوكيلُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٣]

فهكذا يكون حال الرجال، لا كمن خلع الرعب قلوبَهم، وصار خوفُ الخلق عندهم أعظمَ من خوف الخالق؛ قال تعالى في وصف هؤلاء:

﴿يَحْسَبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم﴾ [سورة المنافقون: الآية ٤]

﴿يحسَبُون الأحزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وإنْ يأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لَوْ أنهم بادُونَ في الأَعرابِ يسألونَ عن أنبائِكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٢٠]

﴿أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتَهُم ينظرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ١٩]

واعلم أن الشجاعة المحمودة إذا كان المقصود بها نصرَ الحق وردَّ الباطل وتحصيل المنافع العامة والمصالح المشتركة، فأما إذا كانت في حظوظ النفس الدنيئة، لا في حقوق الله وحقوق الخلق فإنها ذميمة، ولهذا تجد هذا الصنف من الناس، يقاتل أشد القتال في الخصام على أقل قليل من أمور الدنيا، فأمّا في الأمور النافعة فإنه في غاية الجبن عنها والاهتمام بشأنها، وسبب ذلك ضعف الوازع الديني وقوة وازع الشهوة البهيمية والسبعية فهؤلاء هم الأرذلون.

ومما يمد هذا الخلق الجليل الإخلاص لله وعدم مراءاة الخلق، فإن المخلِصَ الذي لا يريد إلّا وجه الله وثوابه لا يبالي بلوم اللائمين إذا كان في ذلك رضا لرب العالمين، فيُقْدِم على قول الحق غير مبال بانتقاد من انتقده في موضوعه أو لفظه أو فصاحته أو عدمها، لا يعد المدح من الناس شيئاً في جانب قيامه بالحق.

أما المرائي المتزيِّن للناس، الواقف في همته على مدحهم وذمهم، فما أسرع خَوَرَهُ في المقامات الرهيبة، وما أعظمَ هلعَه وهيبته إذا رماه الناس بأبصارهم، وما أقل ثبوته عند اعتراض المعترضين وذمِّ الذامِّين، والسبب في

هذا أنه جعل تعظيم الخلق ومدحهم وثناءهم نصب عينيه وقبلة قلبه، وهو غايَتُه التي يطلب، ومعلوم أن من كانت هذه حاله أن أقواله وأفعاله تقع على هذا النحو الذي ينحو، والطريقة التي إليها يصبو، ومع ذلك لو قام في مقامٍ من مقاماته الوضيعة، لكانت أقواله وأفعاله قليلة البركة، غير مأمون من ثبوته عليها، ولو تأملت الغاية التي يسعى إليها، وهي إرادة تعظيم الخلق لوجدت هذا التعظيم أو الثناء إذا فرض وجوده نفاقاً وتزيناً واتباعاً للأغراض المتنوعة، فما أسرع ما ينقطع ويتبدل بضده.

أما المخلص لله القاصد لوجهه الذي غرضُه نفعُ عباد الله، فإن الله يجعل في أعماله وكلامه الخير والبركة، ولو قدر أن يعترضه في هذا الطريق لوم اللائمين وطعنهم، فيا سرعان ما يزول، فأما الزَّبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كل عمل لغير الله فهو مضمَحِلّ باطل، وكل سعي لله ولنفع الخلق فإنه باقٍ ونفعه متواصل، ما أخسر المرائين، وما أسوأ حظ المتشبعين بالبهرج المتزينين، وما أعظم حظ المخلصين، وما أعظم درجاتهم عند رب العالمين.

الإخلاص والتوكل والشجاعة أخلاقٌ متلازمة يُمِدُّ بعضُها بعضاً، ويستعين بعضها ببعض، وصاحبها في علو مطرد، وأضدادها بالعكس. كم بَينَ مَنْ هِمَّتُهُ الكبرى دائرة حول مراضي الله، والسعي في نفع عباد الله واستحلاء المشاقّ في هذا السبيل، وبَينَ مَنْ هِمَّتُه الدنيئة حول الأمور الدنيئة، وغايته التقرب إلى الخلق والتزين لهم، قال تعالى:

﴿هَلْ يستوي الأعمى والبصيرُ أَمْ هَلْ تَستَوِي الظُّلماتُ والنورُ﴾؟

[سورة الرعد: الآية ١٦]

# الفصل العاشر

## في فوائد الرحمة والشفقة على الخلق

كم في كتاب الله من الآيات، وكم في السُّنَّة من النصوص المحكمات التي فيها الحث على الرحمة والشفقة على الخلق، صغيرهم وكبيرهم، وغنيهم وفقيرهم، قريبهم وبعيدهم، بَرِّهِمْ وفاجِرِهم، بل وعلى جميع أجناس الحيوان؛ وكم فيها من الترغيب في الإحسان، وأن الراحمين يرحمهم الرحمن والمحسنين يحسن إليهم الديَّان، وأن الله كتب الإحسان على كل شيء حتى في إزهاق النفس من الإنسان والحيوان، وشرع الله كل رحمة وحكمة وبِرٍّ وفضل وامتنان، لقد وسعت رحمة الله كل شيء، وأمر بإيصال المنافع إلى كل حي.. أَمَا أمر بإعطاء المحتاجين وحثَّ على إزالة الضرر عن المضطرين، وعلى الحنو على الصغار والكبار وجميع العالمين؟ أَمَا قال ﷺ مرغباً غاية الترغيب في الإحسان: (ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء)؟ وقال: (إنّ اللَّهَ كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة، وليحدَّ أحدُكم شفرته وليرح ذبيحته).

أَمَا نَدَبَك أن تعفُوَ عمَّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتحسن إلى من أساء إليك؟ وقال:

**﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيِّئةُ ٱدفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم. وما يُلقَّاها إلاّ الذي صبروا وما يُلقَّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيم﴾** [سورة فُصِّلَت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

أَمَا أباح للمظلوم أن يأخذ حقَّه بالعدل، ونَدَبه إلى طريق الإحسان والفضل فقال:

**﴿وإنْ عاقَبْتُم فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتم به، وَلَئِن صبرتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين﴾** [سورة النَّحل: الآية ١٢٦]

﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمنْ عَفَا وأَصلحَ فأَجرُهُ على الله﴾
[سورة الشورى: الآية ٤٠]

أَمَا أَمَرَ اللَّهُ بشكر نِعَمه المتنوعة، وجعل من أجلّ شكره الإحسانَ إلى الخلق؛ قال بعد ما ذكر مِنّته على نبيه بشرح صدره وَوَضْعِ وِزْره ورفع ذكره:

﴿فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهر. وأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وأَمَّا بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ﴾
[سورة الضحى: الآيات ٩ ــ ١١]

أما حث المتعاملين على أعلى المناهج فقال:

﴿ولاَ تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

وهو البذل والسماح في المعاملة. أمَا شَرَح عقوبة العاصين، وقمع المجرمين المفسدين بالعقوبات المناسبة لجرائمهم رحمة بهم وبغيرهم ليطهرهم، ولئلا يعودوا إلى ما يضرهم وردْعاً لغيرهم، ولهذا قال في عقوبة القتل الذي هو أكبر الجرائم:

﴿ولَكُمْ في القصاص حياةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٩]

وقال بعدما شرع قطع أيدي السارقين صيانة للأموال:

﴿جزاءً بما كَسَبا نَكَالاً مِنَ الله﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨]

فالشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء حقوق الله وحقوق الخلق، فإن الله لم يكلِّفْ نفساً إلاّ وُسعها، وقال:

﴿يُريدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسرَ ولاَ يُريدُ بِكُمُ العُسْر﴾
[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

ولمّا ذَكر أحوال الطهارة وتفاصيلها قال:

﴿ما يُريدُ اللَّهُ لِيجعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ، ولـكِنْ يُريدُ لِيُطهِّرَكُم، وَلِيُتِمَّ نِعمتَه عليكم لعلَّكم تَشْكُرون﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وإذا تدبَّرْتَ ما شَرَعه في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والقرابة، وجدتَّ ذلك كله خيراً وبركة، لتقوم مصالح العباد وتتم الحياة الطيبة، وتزولَ شرورٌ كثيرة، لولا القيام بهذه الحقوق لم يكن عنها محيص، ثم من رحمة الله بالجميع أن من أخلص عمله منهم ونوى القيام بما عليه من واجبات ومستحبَّات كان قُرْبةً له إلى الله، وزيادة خير وأجر، وكان له ثواب ما كسب وأنفق وقام به من تلك الحقوق، قال ﷺ: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في في امرأتك) فإذا كان هذا في القيام بمؤونة الجسد وتربيته، فما ظنك بثواب القيام بالتربية القلبية بتعليم العلوم النافعة والأخلاق العالية؟ فهذا أعظم أجر وثواب قال ﷺ: (لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم).

وأفضل ما نحل والد ولده أدب حسن، وكذلك رحم الله المعلمين والمتعلمين للعلوم النافعة الدينية وما أعان عليها، فالمعلمون جعل نفس تعليمهم أجلَّ الطاعات وأفضلَها، ثم ما يترتب على تعليمهم من انتفاع المتعلمين بعلمهم، ثم تسلسل هذا النفع فيمن يعلمونه ويتعلم ممن علموه مباشرة أو بواسطة، فكلُّ هذا خيرٌ وحسنات جارية للمعلمين، ونفع مستمر في الحياة وبعد الممات، قال ﷺ: (إذا مات العبد انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له)، وكذلك رحم الله المتعلمين، حيث قيض لهم من يعلِّمهم ما يحتاجونه في أمور دنياهم ودينهم، ويصبر على مشقة ذلك، ولهذا وجب عليهم أن يكافئوا المعلِّمين بالقيام بحقوقهم ومحبتهم واحترامهم وكثرة الدعاء لهم، وعلى الجميع أن يشكروا الله بما قيض لهم ويَسَّر من الأسباب النافعة التي توصلهم إلى السعادة.

ومن رحمة هذه الشريعة توصيتها وحثُّها على الإحسان إلى اليتامى والمضطرين والبائسين والعاجزين والحنوّ عليهم والقيام بمهامهم وإعانتهم

بحسب الإمكان؛ وأوصى الله ورسوله بالمماليك من الآدميين والحيوانات أن يقام بكفايتهم ومصالحهم، وأن لا يكلفوا من العمل ما لا يطيقون؛ ففي هذا رحمة للمماليك والبهائم، ورحمة أيضاً للملاك والسادة من وجهين:

أحدهما: أن قيامهم بما يملكون هو عين مصلحتهم ونفعه عائد عليهم فإنهم إذا قصروا عاد النقص والضرر الدنيوي على الملاك، ولهذا كثير من الملاك لولا هذا الوازع الطبيعي النفعي لأهملوا مماليكهم وبهائمهم، ولكن المصلحة الدنيوية وخوف الضرر على أنفسهم ألجأتهم إلى ذلك رحمة من الله وجوداً وكرماً.

الوجه الثاني: أن الملاك إذا احتسبوا في نفقاتهم على ما يملكون ونووا القيام بالواجب ورحمة المملوك والبهيمة، أثابهم الله وكفر به من سيئاتهم وزاد في حسناتهم، وأنزل لهم البركة في هذه المماليك، فإن كل شيء دخلته النية الصالحة والتقرُّبُ إلى الله لا بد أن تحِلَّ فيه البركة، كما أن من أهمل مماليكه وبهائمه، وترك القيام بحقهم استحق العقاب، ومن جملة ما يعاقب به أن ينزع البركة منها، فكما حبس وقطع رزق من يملكه، قطع الله عنه من الرزق جزاءً على عمله، وهذا مشاهد بالتجربة، وكل هذا من آثار الرحمة التي اشتملت عليها الشريعة الكاملة، ولهذا من آوى إلى ظلها الظليل فهو المرحوم، ومن خرج عنها فهو الشقي المحروم.

لقد وسِعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدوَّ والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين كلُّ موفق رشيد، ولقد قامت البراهين أنها من أكبر الأدلة على أنها من عند العزيز الحميد، كيف لا يكون ذلك وأكبر من ذلك وقد شَرَعها البَرُّ الرَّحيم، العليمُ الكريم؛ الرؤوفُ الجوادُ ذو الفضل العظيم، شَرَعها الذي هو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، بل رحمة جميع الوالدين وحنانهم جزء يسير جدّاً جدّاً جدّاً من رحمة الله الذي أنزل بين عباده رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة؛ فبها تتراحم الخليقة كلها، حتى

أن البهائم والسباع الضارية لتعطف على أولادها وتحنو عليهم حنواً لا يمكن وصفه، فلا يمكن الواصفين أن يعبروا عن جزء يسير جدّاً من رحمة الله التي بثّها ونشرها على العباد، فتبّاً لمن خرج عن رحمة الله التي وسعت كل شيء، وزهد بشريعته، واستبدل عن هذا المورد السلسبيل بالمر الزعاف والعذاب الوبيل.

طوبَى لِمنْ كان له حظ وافر من رحمة الله. ويا سعادة من اغتبط بكرم الله وسلك كل سبيل ووسيلة توصله إلى الله علماً وعملاً، وإرشاداً ونصحاً، ودعوة وإحساناً إلى عباد الله، فإنه تعالى لما ذكر أن رحمته وسعت كل شيء؛ ذكر أهل الرحمة الخاصة المتصلة بالسعادة الأبدية والنعيم السرمدي فقال:

**﴿ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ فَسأَكْتُبها للذين يتّقونَ ويُـؤتونَ الزَكاةَ والذينَ هُم بآياتنا يـؤْمنون. الذين يتّبعونَ الرسولَ النبـيَّ الأُمِّيَّ﴾**

[سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

وقال: **﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلَّكم تُرحمون﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فذكر تعالى الطرق العظيمة الكلية التي تنال بها رحمة الله والرسول؛ وتفاصيل هذه الأمور هـو القيام بجميـع الـدين، أصولـه وفروعـه، وأعمال القلوب والجوارح وقول اللسان، فمن لم يقم بهذه الأصول لن يكون له نصيب من هذه الرحمة الخالصة المتصلة بسعادة الأبد، وعلى قدر اتصافه وقيامه بهذه الأمور يكون له نصيب من هذه الرحمة، فكما أنه تعالى واسع الـرحمة فإنه شامل الحكمة، ومن حكمته أن الأمور متعلقة بأسبابها وطرقها، والأسباب ومسبباتها كلها من رحمة الله. قال ﷺ: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل). متفق عليه. وقال: (اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له)؛ ولهذا على العبد أن يشكر الله على الخير والثواب، ويشكره على التوفيق لمعرفة الأسباب وسلوكها التي رتب عليها الثواب؛ قال تعالى عن أهل الجنة:

**﴿الحمدُ للَّهِ الذي هدانا لِهـٰذا وما كُنَّا لنَهْتَدِيَ لَولاَ أنْ هدانا الله﴾**
[سورة الأعراف: الآية ٤٣]

وفي الحديث الصحيح يقول الله: (يا عبادي كلُّكم ضالّ إلاَّ من هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم). وهذا يشمل الهداية العلمية والهداية العملية، وقد أمرنا الله أن ندعو في كل ركعة من ركعات الصلاة بحصول هاتين الهدايتين في قوله:

**﴿آهدِنا الصِّراطَ المستقيم. صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** آمين [سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧]

## الفصل الحادي عشر

### في حثّ الشارع على الائتلاف والاتفاق. ونهيِه عن التعادي والافتراق.

قال تعالى: **﴿واعتصموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً ولا تَفَرَّقُوا واذكروا نعمةَ اللَّهِ عليكمْ إِذْ كنتمْ أعداءً فألَّف بين قلوبِكم فأصبحتُم بنعمته إِخواناً، وكنتمْ على شَفَا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

وقال ﷺ: (لا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). متفق عليه، وفي الكتاب والسنّة من الحث على هذا الأصل نصوص كثيرة. يأمر بكل ما يقوّي الألفة ويزيد في المحبة، ويدفع العداوة والبغضاء، وما ذاك إلا لِمَا في الاجتماع والاتفاق من الخير الكثير والثمرات الجليلة والبركة والقوة، ولما في ضده من ضد ذلك. قال تعالى:

**﴿ولا تَنازَعوا فَتَفْشَلُوا وتذهَبَ رِيْحكُم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

يعني تخلوا وتذهب روحكم الحقيقة ومعنويتكم النافعة، وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالسعي لتحصيل القوة المعنوية بالإيمان والثبات، والصبر والاجتماع وعدم التنازع والتفرق، وبالقوة المعنوية أيضاً والمادية في قوله:

﴿وأَعِدُّوا لَهم ما ٱسْتَطَعْتُمْ من قُوةٍ ومن رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبُون به عَدُوَّ الله وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فمتى امتثل المسلمون أمر الله فسعوا في حصول الاتفاق وإزالة العداوات وأسبابها، وكانوا يداً واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم، متى عملوا على ذلك كلِّه حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء ويستجلبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك إلى دينهم وجماعاتهم وأفرادهم، ولم يزالوا في رقي مطّرد في دينهم ودنياهم، ومتى أخلُّوا بما أمرهم به دينهم عاد الضرر العظيم عليهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وقد وعد الله العز والنصر لمن قاموا بالتقوى واعتصموا بحبله وتمسكوا بدينه، وأخبر أن هذا دين جميع المرسلين قال:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ما وَصَّى به نوحاً، والذي أوحَيْنا إليكَ وَمَا وصَّيْنا به إبراهيمَ ومُوسى وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدينَ ولا تَتَفرَّقوا فيه﴾

[سورة الشورى: الآية ١٣]

وقال: ﴿وَلَا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلَفوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ البيِّنات﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

أيها المسلمون: عليكم بلزوم ما حثَّكم عليه دينُكم من المحبة والائتلاف، وإِيَّاكُمْ والتفرق والاختلاف، عليكم بعمل جميع الأسباب المقربة للقلوب، وإياكم والعداوات والضغائن التي لا تكسب إلاّ شرًّا، احذروا سماسرة الأعداء الذين يلقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق ويدَّعون أنهم مسلمون، وإنما هو غلٌّ ونفاق. المسلم هو الذي يسِعى في جمع كلمة

المسلمين واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم، ما طمع الأعداء وتسلطوا إلاّ بسلاح الفرقة الفتاك، ولا استعمروا أقطاركم وسيطروا على مصالحكم إلا بعدما انحلت معنويتكم التي هي الحصن الحصين، الواقية من الوقوع في الأشراك.

يا أيها المسلمون: قُوْا أنفسَكم وقومَكم مصارعَ الهلاك، وتسابقوا إلى استنقاذهم من هوة الدمار. أَمَا علمتم أن الأعداء إذ كنتم يداً واحدة ينظرون إليكم نظر التعظيم والرهبة والإكبار، فما زالوا يلقون بينكم الشقاق والفرقة، ويضربون بعضكم ببعض حتى قضوا على معظم مقوِّماتكم وما بقي إلاّ رمق حياة، إن أنتم عالجتموها وسعيتم في تنميتها وتقويتها رُجِيَت لكم السلامة والأمن على مستقبلكم، وقد آن الأوان للجد وشد المئزر والتعاضد بين المسلمين وبين حكوماتهم وجماعاتهم على وجه الحكمة ورعاية المصلحة، فقد وَقَفوا على الداء، وعرفوا كيفية الطريق إلى العلاج والدواء، وقد تقارب ما بين حكومات المسلمين، واضطرتهم الأحوال إلى انضمام بعضهم إلى بعض، وعرفوا أن هذا هو الطريق الوحيد لعزهم ونرجو الله أن يوفقهم للعمل الناجح والسعي النافع.

أيها المسلمون: أنتم الآن في مفترق الطرق بين الأمم، فإمّا تمسُّكٌ بدينكم واجتماعٌ به يحصل الفلاح، وإما إعراضٌ وتفكُّكٌ لا يُرجَى بعده عز ولا نجاح.

أيها المسلمون: قوموا لله، واعتصموا بحبل الله، واطمعوا واثقين بنصر الله؛ فالله مع الصابرين المتقين، وهو المولى فنعم المولى ونعم النصير. طوبى للرجال المخلصين، وَوَاشوقاً إلى الألباء الصادقين، الذين ينهضون همم المسلمين في أقوالهم وأفعالهم، ويحذرون مسالك الشر في كل أحوالهم يسعون في تقريب القلوب، ويجاهدون أحق الجهاد في هذا السبيل، دأبُهم القيامُ بدين الله، والنصيحةُ لعباد الله، كل امرىء منهم بحسب مقدوره، هذا

بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوته وماله. وهـذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافـع، قد تعددت طرقهم، واتفقت مقاصدهم. أولئك هم المفلحون.

## الفصل الثاني عشر

### في الحثِّ على المشاورة في كل الأمور

قال تعالى مخبراً عن المؤمنين مثنياً عليهم:

﴿وأَمرُهُم شُورى بينهم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا يشمل جميـع أمورهم الدينية والدنيوية، الداخلية والخارجية، العامة والخاصة، وأمر رسول الله ﷺ مـع كمال عقله وسداد رأيه وعلو مكانته فقال:

﴿وشاوِرْهم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وكان ﷺ يشاور أصحابه في كل ما يحتاج إلى المشاورة من دقيق وجليل، ويأخذ برأيهم المصيب، وربما ابتدأوه بالرأي الذي يرونه فيرجـع إليه إذا اتضـح له صوابُه، وإنما كانت المشاورة لها هذا المقام الجليل لما يترتب عليها من المصالـح الكلية العامة في الشؤون الدينية والشؤون الدنيوية وأمور السياسة وتوابعها.

فمن فوائد المشاورة امتثال أمر الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله خير وسعادة، ولو فرض أننا لم نشعر بفائدتها، بل هذه الفائدة أعظم الفوائـد وأساسها.

ومن فوائدها أنها تقوِّي الألفة بين المسلمين، وتـوثِّق الروابط بين المتشاورين جماعات أو أفراداً، فإن المتشاورين يشعرون أن مصلحتهم واحدة وطريقهم إلى تحصيلها واحد، فيفكرون في هذا الطريق وعلى أي وجه

يسلكونه لتحقيق مصلحتهم، ومتى شعروا بارتباط المصالح قويت المحبة وتوثقت الصداقة، وهذا من الفوائد المحسوسة، فكم كان أناس متباينين متباعدين، فلما جمعتهم بعض الشؤون وشعروا بوحدة مصلحتهم تقاربوا بعد التباعد وتصادقوا بعد التعادي.

ومن فوائدها أن مصلحة المشاورة محسوسة في العلوم والآراء والأعمال وإصابة الصواب، فالرأي الواحد والعمل الواحد يعتريه النقص كثيراً، فإذا كثرت الآراء واتفقت، وحصل التعاون على الأعمال النافعة أصابوا الصواب وأدركوا النجاح.

ومنها أن الآراء والأفكار تحتاج إلى رياضة وتمرين، فإن تمرين الذهن على التدبر والتفكر وتقليب الأمور على كل وجه ممكن مما يرقِّي الذهن وينمِّيه ويوسع دائرة المعارف، وعدم ذلك أو قلته مما يضعف القريحة ويخمد الفكر ويحدث البلادة، فكثرة المشاورات هو التمرين الوحيد والرياضة للأفكار، فإن تبادل المناظرات واحتكاك الأفكار بعضها ببعض واستعانة بعضها ببعض، وتعديل بعضها بعضاً له فائدته العظيمة الملموسة فكما أن الأعمال العظيمة لا تدرك إلّا باجتماع قوى متعددة بحسب تلك الأعمال، فكذلك الأمور المشكلة والأحوال المشتبهة لا يقوم بها فكر واحد ونظر واحد، بل لا بد من عدة أفكار تتراود عليها، فإن العمل تابع للعلم، والله أعلم.

ومنها أن الأعمال المشتركة التي لا يمكن قيام واحد من المشتركين فيها، سواء كانت أموراً دينية أو دنيوية إذا بنيت على المشاورة ثم وزعت بينهم بما يناسب أحوالهم، كان أرجى لحصول النجاح، فإن كلًّا منهم يمد الآخر برأيه ومساعدته وعمله، ونفع هذا معروف.

ومنها أن الإنسان إذا شاور في أموره وتأنّى فوقعت على خلاف مراده لم يندم، لأنه أبدى المجهود ولم يدّخر من أسباب النجاح شيئاً يقدر عليه، فيوجب له الطمأنينة والسكون والرضا والتسليم، ويستدرك ما يمكن استدراكه،

ويعرف الأسباب الناجحة والمحققة. وإذا لم يشاور فـوقعت على خلاف ما يجب ندم ندامة شديدة وجعل يقول: لولا ولوما.

ومنها أن المشاورة تنفي عن العبد العُجْب والغرور بالنفس، فإن المعظِّم لنفسه المعجَب برأيه لا يكاد يشاور أحداً ولا يلين لمن ينصحه، وهذا الخلق رذيل جداً وضرره كبير، فالمعجب برأيه لا بد أن يضِلّ ويظنه على هدى لأن خيالات الغرور لا تدع الإنسان ينظر إلى عيوبه فيصلحها، ولا إلى نقصه فيكمله، فعنوان العقل والتواضـع كثرة المشاورة وقبول قول الناصحين وعنوان الجهل والغرور الاستبداد ورفض نصـح الناصحين.

واعلم أن المشاورة تختلف باختلاف مواضيعها، فأمور السياسة يشاور فيها أهل الحل والعقد والـرجال المتميـزين في عقولهم وآرائهم وكمـال نصحهم.

وأمور العلم والدين يشاور فيها أهل العلم والدين، الجامعين بين العلم والحلم والعقل والدين.

والأمور الدنيوية يشاور فيها أهل الخبرة فيها والرأي بحسب أحوالها ولا بد في ذلك كله من قصد النصـح.

ومن ألطف أنواع المشاورات الخاصة وأنفعها للإنسان الأمور المتعلقة بالعائلة وأمور البيت؛ فينبغي للوالد أن يشاور أولاده في الأمور المتعلقة بهم ويستخرج آراءهم ويعوِّدهم على تربية أفكارهم وتنمية عقولهم، فإن هذا فيه نفـع وتعليم وتوسيـع لدائرة معارفهم، وحملٌ لهم على النصيحة لوالدهم. وكذلك يشاور زوجته في أحوال البيت وكيفيـة تدبيره. وإذا رأى منها الأمانة والأهلية جعل لها الاستقلال في تدبير مصارف البيَت لتهتم وتشعر بمسؤوليتها وتجتهد في الأعمال الاقتصادية، ويستفيد رب البيت الراحة والطمأنينة، فمتى كانت الأنثى أصيلة أمينة ورأت من زوجها هذه الثقة بذلت النصـح التام وعزّ

عليها أن يذهب شيء في غير محله، ومتى أخذ على يدها وحفظ عليها وقتر قوتها وحوائجها الأصلية والعالية لم يستفد بهذا العمل إلّا العناء والتعب وكثرة النزاع وتكدر العيش، وكم رأينا ورأى غيرنا من هذا شيئاً كثيراً. فالهناء والسعادة والخير العاجل والآجل تبع للدين وأخلاقه، والشقاء والشرحيت فقد الدين وفقدت آدابه.

المشاورة تنور الأفكار وتحل الاشتباه والإشكال وتبلغ العبد الآمال، المشاورة عنوان العقل، والاستبداد من نتائج الجهل. ما ندم من استعان بالله واستخاره وشاور الناصحين.

## الفصل الثالث عشر

### في الحثِّ على القيام بحق الأولاد والوالدين

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوْا أنفسَكم وأهلِيْكُم ناراً﴾
[سورة التحريم: الآية ٦]

وذلك بالقيام التام في تربيتهم في دينهم وأخلاقهم ودنياهم، وقال تعالى:
﴿والذين هُمْ لأماناتهم وعهدِهِم راعون﴾
[سورة المؤمنون: الآية ٨]

الأولاد أمانات عند الوالدين، عليهم القيام بحفظ هذه الأمانات وكفهم عن جميع المضار والمفاسد، وتعليمهم العلوم النافعة وأخذهم بالأخلاق الفاضلة. بشِّر الذين يربون أولادَهم تربية صالحة بالخير والثواب والانتفاع، وحذر الذين يهملونهم بالضرر العاجل والآجل والضياع؛ لو كان لك بستان فيه غراس وأشجار فلاحظته وحفظته ونميته لجاء منه ما تؤمله وترجوه، ولو أهملته وضَيَّعْته فلا تلومن إلا نفسك يوم يحصد الزارعون ما زرعوه، كذلك الأولاد وهم غراسك الذي تؤمل نفعه، فقمْ عليهم بما تستطيعه من التربية الصالحة والملاحظة، وإياك أن تهملَهم وتضيعَهم فتبوء بسوء العاقبة، كم اغتبط

الوالدون بصلاح الأولاد، وكم ندم المفرطون حين تعذر الإصلاح وحاق الفساد، ذلك بما قدمت أيديهم وما الله يريد ظلماً للعباد.

أيها الأولاد، احمدوا ربكم الذي قيض لكم الوالدين فحنُّوا عليكم حنواً عظيماً، أسهروا في مصالحكم ليلهم، وأتعبوا نهارهم، وكنتم همهم الأكبر في سرهم وجهارهم، غذوكم بأطيب الطعام وأهنأ الشراب ووالوا عليكم الكسوة وتوابعها في جميع الأوقات وعلموكم الكتابة والقرآن ولاحظوكم بالعناية التامة والشفقة والبر والإحسان، فقوموا ببرهم أحياءً وأمواتاً وتضرّعوا إلى الله أن يغدق عليهم الرحمة والكرم ــ رحم الله الآباء المشفقين، وأحسن الله جزاء الأولاد البارين.

وقد أمر الله بالتعاون على البر والتقوى. فعلى الوالدين أن يعينوا أولادهم على برهم بأن يوطنوا أنفسهم على شكر ما جاء منهم من البر اليسير، ويغضوا النظر عن التقصير والتفريط الكثير، فما استجلب البرّ والصلاح بمثل هذه الحال، ولا صفت حياة عن الخلل الواقع من أولادهم والإخلال، إلّا بالتساهل معهم وتمشية الأحوال، وعلى الأولاد أن يتحملوا من والديهم ما قصروا به من حقوقهم وأن يحتسبوا ببرهم وجه الله وثوابه ليهون عليهم ما يلقونه من شراسة أخلاقهم، فهذه الطريقة أقوم الحالات لصلاح الأمور ــ فمن لم يقنع إلّا بحقه كله فاته كله ــ ومن اكتسب البر القليل وغض النظر عن النقص الكثير فقد أراح واستراح، واغتبط في كل أحواله.

# الفصل الرابع عشر

## في العلم وفوائده

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَستَوِي الذين يعلَمون والذينَ لا يعلَمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وقال: ﴿يَرْفَعِ اللّهُ الذينَ آمنوا منكُمْ والذينَ أُوتُوا العلمَ درجاتٍ﴾
[سورة المجادَلة: الآية ١١]

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ــ حد العلم ما قامت عليه الأدلة والبراهين، والنافع منه ما تعلق بالدين وكان من العلوم المعينة على الدين، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على فضل العلم وشرفه وفضل أهله؛ وإن كل شيء يفتقر إليه، وأن الناس كلهم في الظلمات إلا من استنار بنور العلم، وجعل الله طريق الجنة والصراط المستقيم مركباً من العلوم النافعة ومن الأعمال الصالحة.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال؛ العلم يصحبك في دُورك الثلاث: في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد. والمال إن فرض وجوده صحبك صحبة منكدة في حال الحياة الدنيا؛ العلم نور يُهتدى به في ظلمات الشكوك والجهالات، وحياة تقيم العبد وتوصله إلى الجنات، ما زال علم العالِم يعلم أو يعمل به أو يستفاد منه، فصحيفة حسناته في ازدياد في حال الحياة وبعد الممات، بأي شيء يعرف الله ويهتدي إلى صراط الله، وبأي شيء يهتدي إلى الفرق بين الأحكام الخمسة التابعة لجميع الحركات والسكنات وبأي شيء يهتدي إلى الفرقان بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وبأي شيء تعرف الأعمال النافعة؟ والله لا يتمكن من شيء من ذلك إلّا بالعلم؛ العلم هو الأساس الأعظم لجميع المعاملات، وهو الشرط لصحة

الأقوال والأعمال؛ الجهل داء قاتل، والعلم حياة ودواء نافع؛ حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات وأجل القربات. مذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضا رب العباد. قال ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة). وقال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)، فرياض العلوم النافعة فيها من المعارف من كل زوج بهيج.

فيها أجل المعارف وأفضلها، وهو العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه.

وفيها علم الحلال والحرام، والنافع والضار.

وفيها علم الأخلاق التي ترقِّي صاحبها إلى أعلى المقامات، وعلم الآداب التي تجعل العبد من أكبر البريات.

وفيها تشخيص ما في النفوس من الخير والشر والرغبات والرهبات.

وفيها كيفية توجيهها إلى فعل الخيرات وترك المنكرات وإلى ما يناسبها من الأمور النافعات.

فيها علوم العربية الجليلة على اختلاف منافعها وفوائدها وثمرتها، تقيم لك اللسان وتهديك إلى أوضح العبارات وحسن البيان، وتستعين بها على معرفة معاني كلام الله وكلام رسوله، وتكون آلة لك في كل علم وعمل تسلكه.

وفي هذه الرياض علم أحوال التواريخ والدول وأصناف الأمم، تتمكن فيها من اجتلاء القرون السالفين ومعاصرة الأمم الغابرين، ثم هكذا تنتقل من قرن إلى قرن حتى تتصل بأحوال الأمم الموجودين، وتعتبر فيها حكمة الله وسنته في السالفين واللاحقين، فترى الخير والفضل عنوان شرف وسعادة

وذكرى جميلة حيث كان، والشر والظلم عنوان شقاء وفضيحة وخزي في جميع الأزمان.

ثم تتجلى فيها عقول الأولين والآخرين، وكيف كان التفاوت الذي لا ينضبط ولا يُدرك منتهاه بين أفراد البشر، فهذا لا يتميز عن البهائم إلّا بالشكل والنطق من خسته ودناءته، وهذا يفوق أمة عظيمة في عقله ومعارفه وأخلاقه العالية، وهذا قد سيطرت عليه الشهوات البهيمية فانقاد لها عقله وهواه، وهذا قد ارتفعت همته فوق الثُّريَّا فلم تملكه العادات ولم يقدم شيئاً على رضا مولاه.

وهكذا تجد في رياض العلوم كثيراً من نصوص الكتاب والسُّنَّة بنصِّها أو فحواها أو لَازِمِها، ما يدل على اعتبار جميع العلوم النافعة للدنيا والدين.

وفيها الحثُّ على تعليم الصناعات والمخترعات وامتنان الله علينا بتسخير ما على الأرض وما في باطنها لنستخرج منه جميع ما نقدر عليه من المنافع التي لا يزال الله يعلِّمُها الإنسانَ شيئاً بعد شيء.

وتجد أن الله أمرنا أن نعلِّم الجُهَّال والسفهاء كيفية حفظ الأموال وكيفية التكسب فيها واستحصال منافعها، قال تعالى:

**﴿وَٱبْتَلُوا اليتامَى حتَّى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ، فإِنْ آنَسْتُمْ منهُم رَشَدًا فَٱدْفَعوا إليهم أموالَهم﴾**

[سورة النساء: الآية ٦]

فأمرنا أن نعلِّمهم ونختبرهم فيما يليق بأحوالهم، فإذا مَهَرُوا في هذا العلم وأبصرنا رشدهم دفعنا إليهم أموالهم؛ وما داموا في جهلهم يعمهون وفي سفههم يتيهون لا نمكِّنهم من أموالهم حذر الضياع والنقص، ففي هذا دليل على أن العلم نافع حتى العلوم الدنيوية، وأنه حفاظ للمنافع ودافع للمضار.

لولا العلم لكان الناس كالبهائم في ظلمات الجهالة، ولـولا العلم لما عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم ما عرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل؛ العلم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات وهو المميز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق؛ بالعلم يرفـع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات.

## الفصل الخامس عشر

### في فضائل حُسن الخلق

وهو خلق فاضل عظيم النفـع؛ أساسه الصبر والحلم والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو والصفـح عن المسيئين، وإيصال المنافـع إلى الخلق أجمعين، فهـو احتمال الجنـايات والعفـو عن الزلات، ومقـابلة السيئـات بالحسنات؛ وقد جمـع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله:

﴿خُذِ العفوَ وَٱءْمُرْ بالعُرفِ وأعرِضْ عَنِ الجاهلين﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

أي خذْ ما عفا وصَفا لك من أخلاق الناس، واغتنم ما حصل منها وغضَّ النظر عما تعذّر تحصيله منهم وعن نقصها وكدرها، ومعنى ذلك أن تشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان، وما سَمَحت به طباعهم من الخلق الطيب، ولا تطلب منهم ولا تطالبهم بما زاد عما حصل، ولو كان لازماً لهم، فإنك بذلك تستريـح وتريحهم.

أما من كان يريد من الناس أن يكونوا كاملين مكمَّلين لكـل ما يجب ويستحب، وإذا أخلوا بشيء من ذلك عاتبهم وأهدر ما جاء منهم من الخير والإحسان، فَهُوَ عن حسن الخلق بمعْزِل، ولا يزال معهم في نزاع ولجاج وعتاب، وإنما الحازم من يوطِّن نفسه على تقصير المقصِّرين ونقصان

الناقصين، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الخلق الفاضل في معاملة الزوج لزوجته فقال: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر) ـ فأمر بالإغضاء عما فيها من العيوب، وأن يكون نظره إلى ما فيها من المحاسن والمنافع، ويجعل هذا شفيعاً لهذا، لأنه بذلك تدوم الزوجية وتتم الصحبة الطيبة والصفاء ويقل النزاع والخصام، وقس على هذا الذي ذكره ﷺ جميع المعاملات والحقوق، فالمعاملة بين الوالدين وأولادهم إذا كانت على هذا الوصف حصل البر وأديت الحقوق، إذا وطن الوالد نفسه على شكر ما حصل من ولده من البر ولو قليلاً، وعفا عن تقصيره ازداد البر وحصل للوالدين راحة، فرحم الله من أعان أولاده على بره.

وكذلك الأولاد عليهم القيام ببر والديهم. وأن يوطِّنوا أنفسهم على ما ينالهم من الوالدين من سوء الخلق وشراسته وسيء الأقوال والأفعال التي تصدر منهم ليوطِّنوا أنفسهم على احتمالها وأن يشكروهم على ما نالهم منهم من الإحسان مهما كان، فهذا من البر والصلة التي لا يُوَفَّق لها إلاّ ذو حظ عظيم.

وكذلك حقوق الأصحاب والجيران والمعاملين ينبغي أن يسلك معهم هذا المسلك، القناعة بما جاء منهم وتحمل ما لا يوافق الإنسان من قول أو فعل أو معاملة، فبذلك تدوم الصحبة وتقوى.

أما من كان إذا جاءه من أصحابه أو معامليه ونحوهم سيئةٌ واحدة أهدر بها ما سبقها من المحاسن، فهذا من أعظم الحُمق وقلة الوفاء وعدم الإنصاف، ومن كان بهذا الوصف فهو أبعد الناس من حسن الخلق، والمقصود أن المعاملة بين المختلطين والمرتبطين بحق من الحقوق إذا بنيت على قوله: ﴿خذ العفو﴾ فوطّن العبد نفسه على أخذ المنافع والصفح عن ضده أوصلت صاحبها إلى كل خير، وسَلِمَ بها من شرور كثيرة، وإذا بنيت على الاستقصاء وطلب جميع الحق المستوفى؛ حصل النقص والخلل.

وقوله: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي إذا جهل أحد عليك بقول أو فعل فأعرض عن مقابلته بجهله، وقابله بما تقابله به إذا كان محسناً. فتكسب السلامة والأجر وحسن الذكر والاتِّصاف بمكارم الأخلاق وأعاليها، وكل من عصى الله أو قَصَّر في حقه أو تعدَّى على أحد فهو جاهل؛ سواء كان متعمداً أو غير متعمد، وذلك أن العلم الذي يعمل الإنسان به هو العلم النافع، والذي لا يعمل به جهل وضلال وقد تعوذ ﷺ من علم لا ينفع.

وأما قوله في هذه الآية: ﴿وأْمُر بالعُرْف﴾ أي ليكن أمرك لغيرك موصوفاً بوصفين:

أحدهما: أن يكون برفق وحكمة وأقرب طريق يوصل إلى هذا المقصود، وذلك يختلف باختلاف العرف.

والثاني، ليكن مأمورك الذي تأمر به من الأمور المحبوبة شرعاً وعرفاً، وهو الأمر بالواجبات والمستحبات من العقائد والأخلاق والأعمال المتعلقة بحق الله وحقوق خلقه، فمن قام بهذه الأمور فقد اتَّصف بحسن الخلق الذي قال فيه النبي ﷺ: (إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم)؛ وأعظم ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق وقد فسَّره ﷺ بما يوافق هذه الآية في قوله لمُعاذ وغيره: (اتّق الله حيثما كنت وأَتْبِعِ الحسنة السيئة تمحها وخالق الناس بخلق حسن).

حُسْن الخلق ومكارم الأخلاق تحبِّب العبد إلى أعدائه، وسوء الخلق ينفِّر عنه أولاده وأصدقاءه. من مزايا حسن الخلق أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم. كل من جالسه وخالطه أحبه، لا يمله الجليس. قال ﷺ: (إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم؛ ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق).

صاحب الخلق الحسن يسهُلُ عليه إدراك المطالب، وتلين له برفقه وتحببه إلى الخلق المصاعبُ. كم فات سيء الأخلاق من مطلوب، وكم جلب عليه الحمق من شرّ مرهوب.

كل أحد يود الاتّصاف بحسن الخلق لما يشاهده من ثمراته الجليلة ولكن لا يدركه إلا أهل الهمم العالية النبيلة. اللهم آهدنا لأحسن الأخلاق وجنِّبْنَا مساوئها.

## الفصل السادس عشر

### في فضل الصبر على المكاره والشكر على المحابّ

العبد لا يخلو في تنقلاته في الحياة وأطواره فيها من حالتين لا ثالث لهما:

إما أن يحصل له ما يحب ويندفع عنه ما يكره. وهذا حبيب للنفوس، ملائم للقلوب، مطلوب لكل عاقل، وهو من أعظم نعم الله على العبد، فوظيفته في هذه الحال الشكر والاعتراف أنَّ ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها، متحدثاً بها مستعيناً بها على طاعة المنعم وهذا هو الشاكر، فإن ألهته النعمة وأبطرته وأوصلته إلى الأشر والبطر وغفل عن الشكر، فهذا الذي كفر نعمة الله واستعمل منن الله في غير واجبها وطريقها.

الحالة الثانية: أن يحصل للعبد المكروه أو يفقد المحبوب، فيحدث له همًّا وحزناً وقلقاً، فوظيفته الصبر لله فلا يتسخط ولا يضجر ولا يشكو للمخلوق ما نزل به، بل تكون شكواه لخالقه، ومن كان في الضرَّاء صبوراً وفي السرّاء شكوراً لم يزل يغنم على ربه الثواب الجزيل، ويكتسب الذكر الجميل؛ قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أَمْرَه كلَّه خير: إن أصابته سرّاء شكر كان خيراً له؛ وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

النعم والنقم، والمحابّ والمكاره، أضيافٌ فأكرم قِراها بالقيام بوظيفتها ليستريح قلبك وتُرضِيَ ربَّك، وينقلب ضيفُك شاكراً ولمعروفك ذاكراً ــ متى حصل لك محبوب من رياسة أو مال أو زوجة أو ولد أو صحة أو رزق، أو توابع ذلك، أو اندفع عنك مكروه: فاعلم أنّ هذه نعم من الله فاعترف بها بقلبك، واخضع لربك الذي أوصلها إليك، وازدد له حبّاً وثناءً، فإن النفوس

مجبولة على محبة من أحسن إليها، فكيف بمن منه جميع الإحسان؟ وأكثِر من الثناء على الله بها جملةً وتفصيلاً:

أما الإجمال فأنْ تقول: اللهم ما أصبح ـ أو ما أمسى ـ بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدَك، لا شريك لك؛ فلك الحمد ولك الشكر.

وأما تفصيلاً فقل: أنعم الله عليّ بالنعمة الفلانية ـ دينية أو دنيوية ـ وصرف عنّي كذا وكذا، وتوسَّلْ بها إلى طاعة المنعم، وسَلْهُ أن يجعلها معونة على الخير؛ وأن يعيذك من صرفها في غير ما يحبه الله ويرضاه، وآحْمد الذي وفّقك لشكرها، فالتوفيق للشكر نعمة أخرى.

ومتى أصابك مكروه في بدنك أو مالك أو حبيبك فاعلم أن الذي قَدَّرَهُ حكيمٌ لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يُقَدِّرُ شيئاً سدى، وأنه رحيم، قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه ثم يرحمه فيوفقه للصبر. فرحمةُ الله عليك، متقدِّمةٌ على التدابير السارّة والضارّة، ومتأخرة عنها.

ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء لذنوبه كفارات، ولمقامه خيراً ورفعة ودرجات. ويرحمه بأن يجعل ذلك المكروه منمياً لأخلاقه الجميلة، مربياً على الأعمال والأقوال الزكية، فإذا فهم العبد في التقدير هذه الرحمات، ولحظ هذه الألطاف المتنوعات، لم تتأخر نفسه إن كانت نفساً حرة عن الصبر على المكاره والاحتساب ورجاء الأجر والارتقاب، ثم رجاء السلامة والفرج من الملك الوهاب.

من استكمل مراتب الصبر والشكر فهو الكامل في كل أحواله، فإن الصبر آلة عظيمة تعين العبد على جميع الأمور الصعبة. قال تعالى:

﴿وآسْتَعِينوا بالصَّبرِ والصَّلاة﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على جميع أموركم.

فمن شرع في عملٍ من الأعمال وصبر عليه وثابر رجي له النجاح، ومن ضعف صبره وثباته لم يتم له فلاح.

إذا أصيب العبد بمصيبة فلجأ إلى الصبر والاحتساب خفّت وطأتُها وهانت مشقتها، وتم له أجرُها وكان من الفضلاء الكرام. ومن ضعف صبره وحضر جزعه اشتدت مصيبته، وتضاعفت آلامه القلبية والبدنية وفاتَه الثواب، واستحق العقاب. ولا بد أن يعود في آخر أمره فيسلو سلو البهائم، وذلك من أخلاق اللئام.

بَشِّرِ الصابرين، على مشقة الطاعات وترك المخالفات وآلام المصيبات، بتوفيةِ أجرِهم بغير حساب. وأنذِر الجازعين المتسخطين لأقدار الله بتضاعف المكاره وفوات الأجر، وحلول الوزر والعقاب.

إن الجزع لا يرد الفائت، ولكنه يحزن الصّديق ويَسرُّ الشامت.

الصبر مؤذن بالقوة والشجاعة والثبات والإيمان، والجزع عنوان الجبن والضعف والهلع والخسران.

ما نال من نال من خير الدنيا والآخرة إلاّ بالصبر، ولا حُرم من حرم إلاّ بفقده. قال تعالى:

﴿والملائكةُ يدخلون عليهم مِن كلِّ باب. سلامٌ عليكُم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبى الدار﴾ [سورة الرعد: الآيتان ٢٣، ٢٤]

بالصبر يرتقي العبد إلى أعلى المقامات؛ وهومقام الشاكرين الذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء واليُسر والعُسر. يشكرون الله في كل أحوالهم. يشكرونه على نعمة العافية والصحة؛ وسلامة الأبدان، ويشكرونه على نعمة الإسماع والإبصار والعقول والبيان، ويشكرونه على تيسير الرزق والأسباب المتنوعة التي بها تكتسب الأرزاق، وخصوصاً إذا يَسَّر الله للعبد سبباً مريحاً لقلبه معيناً على الخير، فإن هذا من بركة الرزق وكماله. ويحمدون الله على دفع المكاره والملمات.

وكذلك يحمدون الله أبلـغ حمد على نعمة الإسلام والإيمان، والهداية إلى الخير والتوفيق للإحسان. نعمة الله بالتوفيق للتقوى أجل النعم وأعلاها:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إِذْ بَعثَ فيهم رسولاً مِنْ أَنفسهم يتلو عليهِم آياتِه ويُزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

من حصلت له نعمة العلم والإيمان فقد تمّت عليه النعمة من جميـع الوجوه، وقد نال من ربه كل ما يؤمله ويرجوه.

فيا من توالت عليه النِّعَمُ وصُرِفت عنه النقم، اشكر الله على ذلك، لتبقى وتكمل. فالشكر مقرون بالمزيد، وكفران النعم مقرون بالمحق والعذاب الشديد. وشكرانُك للنِّعمِ نِعَمٌ أخرى تحتاج إلى شكر آخر وتجديد. ولكن الله تعالى رضي منّا بالاعتراف بالعجز عن شكره، وأن نفعل ما نستطيعه من الثناء والتمجيد.

الشاكرون أطيب الناس نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرهم عيوناً، فإن قلوبهم ملآنة من حمده والاعتراف بنعمه والاغتباط بكرمه والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيبة ونعيم الأرواح، وحصول جميـع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوَى ويزيد.

لو علم العباد ماذا أُعِد للشاكرين من الخيرات لاسْتَبَقُوا إلى هـذه الفضيلة العليا، ولو شاهدوا أحوالهم في السرور والابتهاج لعلموا أنهم في جنة الدنيا.

إذا قضيت المصائبُ والمكاره على الخلق انقسموا فيها أربعة أقسام:

أحدهم: الظالمون وهم أهل الجزع والسخط.

والثـاني: الصابـرون وهـم الذين حبسـوا قلوبهم عن التسخط على المقدور وألسنتهم عن الشكوى، وجوارحهم عن أفعال الساخطين؛ فهؤلاء لهم أجرهم بغير حساب.

والثالث: الراضون عن الله الذين كملوا مراتب الصبر، واطمأنت قلوبهم لأقدار الله المؤلمة، ورضوا بها، ولم يَوَدُّوا أنهم لم يصابوا بها، بل رَضُوا بما رَضِيَ الله به لهم، فَرَضُوا عن الله ورضي الله عنهم.

والرابـع: الشاكرون وهم من ارتفعت على هؤلاء كلهم درجاتهم، فصبروا لله ورضوا بقضاء الله ولكنهم شكروا الله على الضرَّاء كما شكروه على السرَّاء، وحمدوه على المصائب والمضارّ كما حمدوه على المحابّ والمسارّ، فهؤلاء الشاكرون الأصفياء الأبرار، وهم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً. قال تعالى:

﴿وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣]

وقد ورد عن النبـي ﷺ حديثان صحيحان فيهما بشارة وخير عظيم للصابرين والشاكرين:

أحدهما: قوله: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ـ إلا أجَره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها).

فهذا يشمل أي مُصيبة كانت، وأن من قال هذا القول بصدق جمـع الله له بين الخلف العاجل، والثواب العاجل والآجل.

والثاني: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها؛ ويشرب الشربة فيحمده عليها) فهذا وعد بأن من حمد الله بعد الأكل والشرب حصل له من الله الرضا الذي هو أكبر من نعيم الجنات. وعموم العلة يقتضي أن جميـع النعم إذا حصلت للعبد فحمد الله عليها حصل له هذا الثواب، فاجتمـع له نعمة الدنيا والدين.

ومن لطفه أن العبد إذا استغنى بما أحله الله له عما حرمه، وتناول الحلال الملائم للنفوس بهذه النية كان له حسنات كما قال ﷺ حين ذكر أنواعاً من الصدقات حتى قال: (وفي بُضـع[1] أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكون له أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).

فتبارك الكريم الوهاب!

## الفصل السابع عشر

### في الحث على سلوك طريق الحكمة والرفق في كل الأمور

قال تعالى: **﴿يُؤتي الحكمةَ من يشاءُ، ومنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقدْ أُوتي خيراً كثيراً﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

والشريعة كلها حكمة. قال تعالى:

**﴿وأنزلَ اللَّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ﴾** [سورة النساء: الآية ١١٣]

وأثنى على لقمان بالحكمة، ولما ذكر أصول الشرائـع ومُهماتها قال:

**﴿ذلكَ مما أوحَى إليكَ ربُّك مِنَ الحكمةِ﴾** [سورة الإسراء: الآية ٣٩]

فما جاء به الرسول من الكتاب والسنة كلُّه حكمة، بل هو أعلى أنواع الحكمة على الإطلاق. لأن الحكمة معرفة الحق والصواب والعمل بذلك والشريعة تدور على ذلك، لا تخرج عنه. فمن عرف الحق فاتبعه، والباطل فاجتنبه، فهو حكيم.

والغرض هنا أخص من هذا، وهو حث الإنسان أن تكون أقواله وأفعاله

---

(١) يطلق على الجماع وعلى الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا. نووي.

وتدبيراتُه تابعةً للحكمة؛ موافقةً للصواب، غيرَ متقدمةٍ على أوَانها ولا متأخرة، ولا فيها زيادة عما ينبغي، ولا نقص. وأن يكون في كل فرد من أفراد حركاته المذكورة مجتهداً في معرفة نفعه وصلاحه، سالكاً أقرب طريق موصل له إلى ذلك.

وبتحقيق هذا يعرف كمال عقل الإنسان ورزانَتُهُ ولُبُّه، وبه تدرك الأمور وتنجح المقاصد. قال تعالى:

﴿وَأْتُوا البيوتَ مِن أبوابِها﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

أي ائتوا كل أمر من طريقه الموصل إليه المسهِّل لحصوله، وضد ذلك أمران: إما ترك للمنافع وإهمال لها، وإما سلوك طرق ضارة في تحصيلها. إما تقصير عن بلوغ الغاية أو التواء في الطريق أو سلوك طرق وعرة ومسالك صعبة مع التمكن من سلوك ما هو أسهل منها.

واعلم أن طريق كل أمر ما يناسبه. قال تعالى:

﴿ٱدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحِكمة﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فالدعوة إلى الله وإلى سبيله تشملُ تعليم الجاهلين ووعظ الغافلين، وتشمل النصيحة الخاصة لآحاد الناس وأفرادهم، في الأمور الدينية والدنيوية، فإذا سلك الداعي فيها طريق الحكمة كان أقرب وأرجى لحصول مقصوده، ولهذا ينبغي تعليم كل أحد ما هو أنفع له، وبعبارة أو دلالة أقرب إلى ذهنه وفهمه، ولهذا قيل في تفسير «الربانيين» هم الذين يُعلِّمون الناس صغار العلم قبل كباره.

ومن الحكمة أن لا تُلقى على المتعلم العلوم المتنوعة التي لا يتحمَّلها ذهنه أو يضيع بعضُها بعضاً، واتفق أهل المعرفة بطرق التعليم أن هذا ضار ومفوِّتٌ للعلم، وأن الطريق الأقرب أن يجعل للمتعلم من الدروس ما يسهل عليه حفظها وفهمها وعقله، والتفكر التام فيها، فإن هذا من الدعوة إلى الله بالحكمة التي هي الطريق الوحيد للنجاح.

ومن الحكمة أن ترمق المتعلم وتقوِّي رغبته في التعلم بكل طريق، فإن قوة الرغبة تزيد في الحفظ والفهم، وكلما كانت رغبة طالب العلم فيه أقوى كان محصوله أكثر وأتم.

ومن الحكمة في تعليم العوامّ وإرشادهم أن يُعلَّموا ما يحتاجونه بألفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم، قريبة من أفهامهم، فهذا فيه نفـع كبير.

وكذلك ينبغي لأهل العلم في مجالسهم مـع الناس العامة والخاصة أن يبحثوا بما يناسب الحال عند المناسبات من المسائل العلمية، فكم حصل فيها من منافـع كثيرة من غير تشويش ولا قطـع عن مقصودها. وهذا من الحكمة.

ومن الحكمة في حق الناصـح أن يكون رفيقاً متأنياً متوخِّياً للحالة المناسبة للمنصوح بلين، قال تعالى:

﴿آذهبا إلى فِرْعَونَ إنّه طغى. فَقُولاَ لَهُ قولاً ليِّناً لعله يتذكَّرُ أو يَخشى﴾
[سورة طَهَ: الآيتان ٤٣، ٤٤]

﴿فذكِّرْ إنْ نفعتِ الذِّكْرى﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

ومما يُعين المعلم والمذكِّرَ معرفةُ طبائـع الناس وأخلاقهم والوسائل التي يُؤْتَوْن من جهتها.

والرفق أصل كبير في هذا وغيره، قال ﷺ: (ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه، ولا كان العنف في شيء إلاّ شانه).

وكـذلك تسلك الحكمـة في تقويـة الصداقـات وتخفيف العداوات وما سلكت في شيء أبلـغ ولا أنفـع من قوله تعالى:

﴿آدْفَـعْ بالَّتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

فإذا كان العفو والإحسان إلى العدو يصيِّره صديقاً حميمـاً، فما ظنك بعَمَلِه

مع الصديق والقريب والخليط الذين لهم الحق الأوكد، وعندهم من أسباب الروابط الودية ما هو أوثق؟

وكذلك تسلك الحكمة في معاملة الأولاد ومعاشرة الزوجات، فإنه يراد منهم أمران عظيمان مهمان:

**أحدهما**: إصلاحهم وتقويمهم وتهذيبهم لتقوية دينهم وتربية أخلاقهم فهؤلاء يُسلك معهم كل طريق يسلك مع غيرهم، وطرق خاصة تناسب لأحوالهم، ويوجههم وليُّهم فيه إلى كل خير بترغيب ولين وحسن معاملة، وكل أحد يعرف من أحوال أولاده وأهله ما لا يعرفه غيره.

**الأمر الثاني**: إنه يراد منهم القيام بحق الوالدين وبالعشرة الواجبة والمستحبة بين الزوجين، وذلك أيضاً بدعوتهم إليه بالحال والمقال وبالحكمة والرفق. ومن أنجح ذلك أن يكون الوالدان قائمين بحق الأولاد، والزوج قائماً بحق زوجته، فإذا طلب منهم القيام بما عليهم في هذه الحال سَهُل عليهم بخلاف ما إذا لم يقم الوالدان والزوج بحقوقهم، فإن تقويمهم يصعب جداً، وكيف تطالب ما لك وأنت مانع الحق الذي عليك؟

وكذلك تُسْلك الحكمة في النفقات والتدبيرات البيتية التي روحها وقوامها قوله تعالى:

**﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكانَ بين ذلك قَواماً﴾**

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فالاقتصاد في النفقات وسلوك طُرُقه له نفعه المعروف ومحله الأكبر.

وألطف من ذلك كله أن تسلك الحكمة مع نفسك، وتراقبها في أعمالها، وتجتهد في تنمية وازع الرغبة فيها إلى الَخير وإضعاف الدواعي إلى الشر، وتلاطفها ملاطفة الطفل في تحصيل الأمور المطلوبة منها، وفي تنمية أخلاقها، وتعطيها من الراحات والطيبات ما يسهل عليها معه القيام

بالطاعات، وتغتنم أوقات نشاطها وتريحها في فترات الكسل، وإياك أن تجمح بك في الانهماك في اللذات التي تشغل عن الأمور النافعة، ولكنْ جاهِدْها وحاسِبْها وآعرِض عليها الموازنة بين الإخلاد إلى الكسل وبين المطالب العالية التي تَفُوت بالكسل ولا تدرك إلا بالعمل، وعرِّفْها ما أمامها من النعيم لمن آمن وعمل صالحاً وسَلَك الصِّراط المستقيم، وقل لها: «لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». قل لها يا نفس: «أيُّما أولى: تقديم لذة قليلة حشوها الأكدار وطيُّها الغموم والهموم والخسار، على لذات متواصلات كاملات بلا كدر ولا منغص في دار القرار؟ وأيّما أولى: تحصيل لذة الإيمان أو اللذات البهيمية التي مآلها الخيبة والحرمان؟

يا نفس ابذلي اليسير من القوة فيما يعود عليك بالخير والبركات ولك مني أن أرضِيَك بما تحبِّين من اللذات المباحات، قومي بما عندك من الحقوق الواجبات والمستحبات، أَقُمْ لك بما تحبين من الراحات وتناول الطيبات. . يا نفسُ قد أَرشَدَك معلمُ الخير ﷺ إلى أعمال نافعة عظيمة النفع يسيرة على النفس فقال: (استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا). وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه: تعبد الله ولا تشركْ به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت)؛ ثم قال: (ألا أَدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل)، ثم تلا قوله:

﴿تتجافَى جنوبُهُم عنِ المضاجـع ـ إلى قوله ـ يعملون﴾

[سورة السجدة: الآيتان ١٦، ١٧]

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)، ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: (كُفَّ عليك هذا)،

قلت: وإنا لمؤاخَذُون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟).

انظري إلى هذه الأعمال الموصلة إلى غاية الغايات وفوائدها الجليلة مع سهولتها على النفس، ثم اعلمي أن من قام بما عليه من حقوق الله وحقوق عباده لم يفتْ عليه نصيبه من الدنيا. قال ﷺ: (من كانت الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه شَتَّت الله عليه شمله، وجعل فقرَه بين عينيه ولم يأْتِه من الدنيا إلا ما كتب له.

يا نفس ما هي إلَّا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... وخلِّ عنها فإن العيش قُدَّامي

فلا يزال الحكيم مع نفسه في ملاطفة وتدريب وترغيب وترهيب وإنذار وتبشير حتى يَلِينَ صعبُها ويستقيمَ سيرُها وتتبدلَ صفاتُها الرديئة بالصفات الطيبة، ولا يتمكن من هذا إلا بسلوك الحكمة.

الحكمة جمال العلم وآلة العمل وأقرب الوسائل لحصول المقاصد؛ الحكمة تهون الصعاب، وبها تندفع العوائق؛ كم نَدِمَ عجولٌ طائش، وكم أدركَ المطلوبَ متأنٍّ رفيق، لا تساس الولايات الكبار ولا الصغار بمثل الحكمة، ولا تختَلُّ إلا باختلال طريقها.

الحكيم إذا لم يدرك جميع المطلوب تنازل إلى بعضه، وإذا لم يحصل ما قصده من الخير قنع باندفاع الشر، وإذا لم يندفع كل الشر دفع بعضه وخفّفه، وإذا لم يكن الصعب الشديد وأمكنه تلطيفه لطّفه، يساير الأمور والأحوال فينتهز فرصها ويأتي الأمور مع كل باب ووسيلة، لا يملّ السعي ولا يدركه الضجر والسآمة، قد تَلَقَّى الأمور بصدر منشرح وقلب ثابت يقلِّبها بفكره على كل وجه، ويستعين برأي أهل الخبرة من الناصحين على ما يريده،

لا تستفزه البدوات وأوائل الأمور، حتى ينفذ فكره إلى باطنها، ولا تغرُّه الظواهر حتى يتغلغل في مطاويها وعواقبها؛ ومع كثرة تفكيره وتقليبه الأمور من جميع وجوهها ومشاورته عند التوقف والاشتباه، لا بد أن ينكشف له ما كان خافياً ويتضح له ما كان مشتبهاً.

واعلم أن من عوّد نفسه هذه الأمور ولازمها في أغلب أحواله فلا بد أن يحصل له من التمرين والاختبار والتجارب أصولٌ يترقّى بها عقلُه وتتسع دائرة معارفه وينمو ذكاؤه وفطنته، وربما وصل إلى حالة يصير بها عَلماً يؤتمُّ به في متاهات العقول مرجوعاً إليه في ذلك، والله أعلم.

## الفصل الثامن عشر

### في واجبات أهل العلم فيما بينهم وفيما يتعلق بالناس

أما الواجب على أهل العلم من العلماء الكبار ومن دونهم، والطلبة فيما بينهم، فعلى كل منهم أن يحب للآخر ما يحب لنفسه، وهذا واجب عمومي على جميع المسلمين، لكن أهل العلم عليهم من هذا الحق أعظم مما على غيرهم لما تميزوا به، ولما خصهم الله به. وعلى كل منهم أن يدين لله ويتقرب إليه بمحبته جميع أهل العلم والدين؛ فإن هذا الحب من أعظم ما يقرب إلى الله ومن أكبر الطاعات، وهذا الحب يتبع ما اتصف به الإنسان من الأمور التي يحبها الله ورسوله من العلم والاشتغال به والعمل؛ فإن نفس الاشتغال بالعلوم الشرعية وتوابعها من أجلّ الطاعات، ثم حصول العلم للشخص هو من الأوصاف التي يحب لأجلها، ثم تعليمه للناس وعمله مما يجب أن يحب عليه؛ فكل هذه الأمور موجودة في أهل العلم، فلهم من الحق على أهل العلم وعلى غيرهم، وأن يميزوا بهذا عن غيرهم لما لهم من المميزات، وإذا عثر أحدهم وغلط في مسألة علمية تعين ستر ما صدر منه ونصيحته بالتي هي أحسن.

ومن أعظم المحرّمات وأشنع المفاسد إشاعة عثراتهم والقدح فيهم في غلطاتهم، وأقبح من هذا وأقبح إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك، وربما يكون ـ وهو الواقع كثيراً ـ أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائغ ولهم اجتهادهم فيه، معذورون والقادح فيهم غير معذور؛ وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين والمنتسبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتدين، فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم التعاون على البر والتقوى؛ والسعي في إعانة بعضهم بعضاً في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين وعدم إشاعة غلطاتهم والحرص على تنبيههم بكل ممكن من الوسائل النافعة، والذب عن أعراض أهل العلم والدين؛ ولا ريب أن هذا من أفضل القُرُبات، ثم لو فرض أن ما أخطأوا أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عذر، لم يكن من الحق والإنصاف أن تُهدر المحاسن وتُمحى حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير وفساده مستطير؛ أي عالم لم يخطىء، وأي حكيم لم يعثر؟

وقد علمت نصوص الكتاب والسنة التي فيها الحث على المحبة والائتلاف والتحذير من التفرق والاختلاف، وأعظم من يوجه إليهم هذا الأمر أهل العلم والدين، فمتى لزموا هذه الأوامر الشرعية الحِكَمِية تبعهم الناس واستقامت الأحوال، ومتى أخلُّوا بذلك وحل محله البغي والحسد والتباغض والتدابر تبعهم الناس وصاروا أحزاباً وشيعاً، وصارت الأمور في أطوار التغالب وطلب الانتصار ولو بالباطل، ولم يقفوا على حد محدود، فتفاقم الشر وعظم الخطر وصار المتولِّي لكبرها من كان يرجى منهم قبل ذلك أن يكونوا أول قامع للشر، وإذا تأملت الواقع رأيت أكثر الأمور على هذا الوجه المحزن.

ولكنه مع ذلك يوجد أفراد من أهل العلم والدين ثابتين على الحق قائمين بالحقوق الواجبة والمستحبة، صابرين على ما نالهم في هذا السبيل من قدح القادح واعتراض المعترض وعدوان المعتدين، فتجدهم متقربين إلى الله

بمحبة أهل العلم والدين جاعلين محاسنهم وآثارهم وتعليمهم ونفعهم نصب أعينهم، قد أحبوهم لما اتصفوا به وقاموا به من هذه المنافع العظيمة غير مبالين بما جاء منهم إليهم من القَدْح والاعتراض؛ حاملين ذلك على التأويلات المتنوعة، ومقيمين لهم الأعذار الممكنة، وما لم يمكنهم مما نالهم منهم أن يجدوا له محملاً عاملوا الله فيهم، فَعَفَوْا عنهم لله، راجين أن يكون أجرهم على الله، وعَفَوْا عنهم لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم، فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية التي لا يكاد يصل إليها إلّا الواحد بعد الواحد نزلوا إلى درجة الإنصاف، وهو اعتبار ما لهم من المحاسن ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه، فلا بد أن يجدوا جانب الإحسان أرجحَ من جانب الإساءة أو متساوِيَيْنِ أو ترجح الإساءة، وعلى كل حال من هذه الاحتمالات فيعتبرون ما لهم وما عليهم.

وأما من نزل عن درجة الإنصاف فهو بلا شك ظالم ضارٌّ لنفسه تارك من الواجبات عليه بمقدار ما تعدَّى فيه من الظالم، فهذه المراتب الثلاث: مرتبة الكمال ومرتبة الإنصاف ومرتبة الظلم تميِّز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم ومن هو القائم بالحقوق ومن هو التارك، والله تعالى هو المعين الموفق.

وأما واجب أهل العلم المتعلق بالخُلُق فإن مهمتهم أعظم المهمات، وعليهم من القيام بالحقوق أضعاف ما على غيرهم، فإن الله أوجب على أهل العلم أن يبيِّنوه للناس ولا يكتمونه، فيعلِّمون الجاهلين وينصحون، ويعظون ويُذَكرون، ويصدعون بأمر الله، ويُظهرون دين الله، فكما أمر الله الجهال أن يتعلموا فقد أمر أهل العلم أن يُعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم، وأن يحنُوا عليهم ويعلموهم مما علمهم الله. قال تعالى:

﴿وإذْ أخـذ اللَّهُ ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتُمُونه﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٨٧]

وقال تعالى: ﴿ولكنْ كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلِّمونَ الكتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُون﴾ [سورة آل عمران الآية ٧٩]

وأمر بالتبليـغ والتذكير في عدة آيات. وقال ﷺ: (بلِّغوا عنّي ولو آية) وذم الله الكاتمين للحق في عدة آيات. وأكثر الشرائـع الظاهرة والباطنة لا يمكن قيامها ولا العمل بها إلا بتعليم أهل العلم وتذكيـرهم بكل وسيلة وبكـل طريق ومناسبة.

ما أمر الله الجهال والمسترشدين أن يتعلموا حتى أمر أهل أهل العلم أن يرشدوا ويعلموا.

التعليم له طرق كثيرة سوى طرق التعليم في المدارس على اختلاف أنواعها، وسوى طرق تعليم الطلبة المستعدين للتعلم في أوقات مرتبة وعلى طرائق مختلفة. وهؤلاء المتعلمون هم المستعدون للترقي في العلم بحسب ما يسَّر الله لهم من طرق التعليم النافعة بحسب قرائحهم وأذهانهم، وهم الذين يرجى أن يبلغوا مبلغاً يكونون المرجوع إليهم، وأن يكونوا معلِّمين بعد ما كانوا متعلمين.

وليس المقصود هنا شرح حالة التعليم في المدارس وتعليم الطلبة المستعدين وكيفية ذلك فإن لها محلاً غير هذا، وإنما المقصود الوسائل والطرق الأخرى التي يجب على أهل العلم أن يسلكوها في إيصال العلم إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ورفـع الجهل بحسب الإمكان، فمنها إلقاء العلوم في المساجد، وينبغي أن يُلقى إليهم من العلوم ما يكون فهمه أقرب إلى أذهانهم، وأن يكون أهم الأشياء وأنفعها، وتكون بعبارات مناسبة لأذهان السامعين، وأن يلقى في كل موسم ومناسبة ما يليق ويتعلق به فإن فهمَ الأشياء الحاضرة أقربُ وأشوق للأذهان من أن تكون بغير وقتها. وكذلك ينبغي أن يفهِّموا تدخيل الصور والتفاصيل الموجودة التي يعرفونها ويعرفون وقوعها،

يبين لهم موضعها ومحلها من العلم. وهل هي محبوبة للشارع أو مكروهة، وما الطريق إلى تحصيل المحبوب وإلى دفع المكروه أو تخفيفه؛ وأن تطبق الأمور الواقعية على القواعد الشرعية حتى يتم فهمها. فإن أكثر السامعين إذا ألقيت عليهم المسائل الشرعية مجرَّدةً عن بيان الأمور الواقعة لا يدرون عن دخولها أو خروجها.

وكذلك ينبغي إلقاء العلوم النافعة في النوادي الكبار والصغار، وفي المجامع التي يجتمع فيها أهل العلم بالعوام؛ إما بإلقاء أمورٍ تخف عليهم ولا يستثقلونها إذا رأى أذهانهم قابلة وقلوبهم مصغية، وأما إذا حصل مناسبة عند المخاطبات بين الناس فإنهم يخوضون في كل حديث وكل موضوع دنيوي، وقل موضوعٌ منها إلاَّ ويجد العالم البصير موضعاً ومحلاً لإلقاء ولو بعض المسائل، فبيان القليل خير من الترك بالكلية، والعالم الحاذق يتمكن أن يجري مع العوام في أحاديثهم العادية، ويلقي ما شاء الله من المسائل التي تنفعهم في أثناء تلك الأحاديث والناصح لنفسه ولغيره يحصل في هذا خيراً كثيراً.

ومن ذلك أيضاً النصائح الخاصة بالأشخاص باختلاف رتبهم، من رآه مقصراً في واجب من واجبات الله وحقوق الخلق، نصحه سرًّا وعلَّمه الواجب وكيفية سلوكه والفوائد والثمرات المترتبة على فعله. ومن رآه متجرئاً على محرم متعمداً أو جاهلاً نَصَحه وَوَعَظَه وبيَّن له الوجهة التي يجب عليه سلوكها في ترك ذلك المحرَّم وما لتاركه من الخير والثواب، وما على فاعله من الوِزر والعقاب، ولا يحقر صغيراً ولا كبيراً، ولا شريفاً ولا وضيعاً، فكم حصل بهذه الطريقة من تعليمٍ للجاهلين وإرشادٍ للغافلين، وتوجيهٍ للخير للمعرضين أو المعارضين.

وأَوْلَى مَنْ عَلى العالِمِ تعليمُه ونصحُه وإرشادُه بكل وسيلة مناسبة وطريقة ناجحة: الأهلُ والأولادُ والأقاربُ والأصحابُ والمعاملون والخلطاء؛

فكما أن حقوق هؤلاء مقدمة على غيرهم، فأحق الحقوق وأَوْلَاها التعليم والنصح ، والإرشاد والتوجيه للأمور النافعة والتحذير من الأمور الضارّة ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

إذا وُفِّق من عنده علم لهذه الأمور التي ذكرناها بحسب اقتداره لم يزل يغنم من الخيرات والثواب من الله كلما تسلسل نفعه وعمل بإرشاده، ثم ما ترتب على هذه الأعمال من الدعوات المستجابات ممن انتفعوا بإرشاده ونصائحه، فكم شاهدنا وشاهد غيرنا ممن وُفِّقوا للقيام بشكرٍ من أحسن إليهم ببعض هذه الأمور من التشكّرات والدعوات المتكررة كلما تذكروا نصائحه القيمة وإرشاده النافع، وهذه أمور لا يستهان بها، وإني أَذْكُر وأَتَذَكّر كثيراً من الإرشادات التي وصلتني وأتحفني بها بعض إخواني ومشائخي الموجودين والمفقودين، بعضها من أعوام لا تقل عن خمس وأربعين سنة، كلما ذكرتها واستحضرت نفعها لي ولغيري، عرفتُ سعة فضل الله على أولئك المرشدين؛ وأن نفس إرشادهم من أجلّ العبادات ثم ما ترتب على آثارها عبادات متسلسلة، فجزى الله من وصل إلينا إحسانه، القليل والكثير، أفضلَ الجزاء، وتقبل الله سعيهم وضاعف لهم الأجور ونحمد الذي أوصل إلينا على أيديهم من الخير والفضل حمداً كثيراً طيباً مباركاً، لا يعدُّ ولا يحصى، فإنه تعالى المنعم المطلق على الجميع، أنعم بالأسباب ومسبباتها، ونسأله أن يتم نعمه على الجميع.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين، وأوزعني أن أشكر المحسنين والمرشدين ومن انتفعت بهم مشافهة أو مكاتبة، أو استفدت من كتبهم، فإن شكرهم من شكره، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله .

# الفصل التاسع عشر

## في الثناء على التواضع وذمِّ الكِبْر

تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في الأمر بالتواضع للحق والخلق والثناء على المتواضعين وذكر ثوابهم العاجل والآجل؛ كما تكاثرت بالنهي عن الكِبْر والتَّكَبُّر والتعاظم وبيان عقوبات المتكبرين، وقال تعالى:

﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣]

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

فاستقيموا إليه واستغفروه فالعبودية لله وحدَه، وطاعته في أمره ونهيه، كل ذلك خضوع للحق، فإن أعظم الحقوق حقُّ الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فمن خضع لهذا الحق في أصول الدين وفروعه، فهو المتواضع الخاضع لله، ومن أَعْرَض عنه أوعارضه، فهو متكبر، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً، والنار قد أعدها الله مثوى للمتكبرين عليه المستكبرين عن العبودية لله، فالتواضع هو أصل الدين وروحه، والتكبر مناف للدين، وبهذا نستطيع أن نفهم حق الفهم قول ﷺ في الحديث الصحيح: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كِبر)، وقوله عن الله تعالى أنه قال: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته).

فكل من لم يخضع لله ولعبوديته وطاعته وطاعة رسوله فهو مستكبر؛ وقد فسّر النبي ﷺ التواضع والكبر تفسيراً عاماً شاملاً واضحاً يزيل كل إشكال ولا يحتاج بعده إلى مقال، فقال حين سئل عن الكبر: (الكبر بطر الحق وغمط الناس). ومفهومه أن التواضع ضده وهو قبول الحق والانقياد له وعدم احتقار الناس، فمن قبل الحق وانقاد له ولم يحقر أحداً وتواضع لعباد الله، فهذا هو المتواضع للحق وللخلق، وهو القائم بحقوق الله وحقوق الخلق؛ ومن

بطر الحق فردَّه ولم ينقد له وغمط الناس فاحتقرهم وازدراهم بقلبه وقوله وفعله، فهذا هو المتكبر؛ فعليك بهذا الحد الجامع المانع وطابق بينه وبين أحوال الخلق عموماً وأخلاقك خصوصاً. وعليك أن تجتهد وتجاهد نفسك على التحقق والاتصاف بخلق التواضع لله ولعباد الله لتكون من المفلحين، وإلّا كنت من الخاسرين.

أصل التواضع هو الالتزام الذي التزمه المؤمنون في قولهم: سمعنا وأطعنا، أي سمعنا يا ربنا ما قلته في كتابك وقاله نبيك، سَمْعَ قَبولٍ وإذعان، وأطعنا أمرك وأمر رسولك المنادي للإيمان، وهو الذي توسل به أولو الألباب عند ربهم في حصول ما يحبون وفي دفع ما يكرهون في قولهم:

**﴿ربَّنا إنّنا سمِعنا مُنادياً ينادي للإيمان أنْ آمِنُوا بربِّكم فآمَنَّا﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

أي إيماناً قلبيًّا بالتصديق واليقين والرغبة في العبودية، مستلزماً لأعمال الجوارح بالقيام بحقوق الله وحقوق الخلق، فهذا هو الإيمان الذي توسلوا به إلى مغفرة ذنوبهم وحصول مطلوبهم، وبهذا التواضع الكامل كَمُلَتْ أخلاقهم وأحوالهم كلها، وبترك هذا التواضع والاتصاف بضده استحق المتكبرون العقاب، وحُرموا من الصواب، قال تعالى:

**﴿إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنمَ داخِرِين﴾**

[سورة غافر: الآية ٦٠]

أي ذليلين، فكما استهانوا بعبادة الله أذلهم الله بالعذاب جزاء من جنس عملهم.

والتواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، قال تعالى:

**﴿فَبِمَا رحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لهم، ولوْ كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حولِك﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال تعالى: **﴿وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾** [سورة القلم: الآية ٤]

وهو قيامه ﷺ بعبودية الله المتنوعة وبالإحسان الكامل للخلق، فكان خلقه ﷺ التواضع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه.

فعلى كل عبد أن يلتزم التزاماً عاماً بلا استثناء تصديقَ الله ورسوله في كل أمر ونهي، بامتثال الأمر بحسب القدرة واجتناب النهي، قال ﷺ: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فاءتوا منه ما استطعتم). ومَنْ كان كذلك فقد سلك طريق الاستقامة والصراط المستقيم، ولكن لا بد للعبد من تفريط في بعض الواجبات أو تجرؤ على بعض المحرمات، ولكن عليه المبادرة عند ذلك للتوبة والاستغفار كما قال تعالى:

﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٦]

وعلى العبد أن يتواضع لعباد الله ويلين لهم، ويحبَّ لجميعهم الخير، وينصحَ لهم في كل حالة من أحوالهم، ويحترمَ الكبير ويحنُوَ على الصغير ويوقِّرَ النظير ولا يحتقرَ الناقص في عقله وشرفه ولا الفقير: طوبى للمتواضعين وويل للمتكبرين المتجبرين.

للمتواضع والمتكبر علامات لا تخفى على المتأملين.

المتواضع ينقاد للحق مع من كان، ولا يبالي بترك قول كان يقوله وينصره إذا اتضح له الصواب؛ والمتكبر يتعصب لأقواله وأفعاله ويعجب بقوله ومقاله؛ يبين له الحق فيشمخ بأنفه متكبراً عنه عجباً بنفسه وتيهاً، وبهذا الخلق نزل إلى أسفل الدركات.

المتواضع يسلِّم على الصغير والكبير، والشريف والوضيع، ويُقْبل بوجهه وقوله على من تصدى له حتى يقضي حاجته، ويعاشر كل أحد أكمل معاشرة؛ والمتكبر لا يسلم ولا يقبل بوجهه على الفقير والحقير وينأى بجانبه عن مجالستهم، ولا يهتم بشأنهم، وإنما يتصدّى ويعظم الرؤساء والكبراء

خاضعاً لهم بقلبه، معظِّماً لهم بلسانه، وهذا أكبر برهان معبرٍ عن رذيلته. ما أقل حظ المتكبرين، وما أعظم خسرانهم المبين؛ خسروا بتكبرهم الإيمان والأخلاق الجميلة، وخسروا ما أعده الله للمتواضعين من الثواب وحصلوا على الوبال والعقاب، خسروا محبة الخلق على اختلاف طبقاتهم، فالناس جبلوا على محبة المتواضعين ومقت المتكبرين؛ ومن أظهر من الناس تعظيمهم ومحبتهم، فذلك زور ونفاق يذهب سريعاً.

ويح المتكبرين ما أعظم حمقهم وما أضلهم وأجهلهم، بأي وصف يتكبرون، وبأي عمل يتجبرون، من عَلِمَ أنه مخلوق فقير ناقص من كل وجه، فبأي شيء يتكبر، ومن فهم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة، فبأي شيء يعجَب ويفتخر؟ تالله إن الفخر كل الفخر بالتواضع لله ولعباد الله.

ما وصل للمنازل العالية إلّا بالتواضع، ولا أدركت الأخلاق الجميلة إلا بالانقياد للحق وتعظيم حقوق الخلق.

المتواضع حبيب إلى الله، حبيب إلى عباد الله، قريب من الخيرات بعيد من الشرور والمنكرات، والمتكبر بغيض إلى الله بغيض إلى عباد الله، بعيد من الإحسان والخيرات، قريب من الشرور والمنكرات؛ كم حصل للمتواضع من مودة وصداقات، وكم تم له من ثناء وأدعية من الناس مستجابات؛ كم جبر بتواضعه من فقير، وكم حصل له بالتواضع من خير كثير، ما تواضع أحد لله إلا رفعه، ولا تكبرأحد إلّا وضعه.

التواضع خلق الأنبياء والمرسلين، ونَعْتُ المتقين والمهتدين، والتكبر خُلُق الجبابرة الظالمين. التواضع يزيد الشريف شرفاً، ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء.

ما أحلى خلق التواضع، وخصوصاً من الأغنياء والأشراف والرؤساء، وما أقبح الكبر من كل أحد، وبالأخص من الضعفاء والفقراء.

لقد سعد المتواضعون في الدنيا والآخرة، ولقد رجع المتكبرون بالذل والصفقة الخاسرة، قال تعالى:

**﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس ولا تَمش في الأرضِ مَرَحاً إن الله لا يُحب كلَّ مختال فخور. واقصِدْ في مَشيك واغْضُضْ من صوتك إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير﴾** [سورة لقمان: الآيتان ١٨، ١٩]

وقال تعالى: **﴿واصبِرْ نفسَك مع الذين يَدعُون ربَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدون وجهَه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زِينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قلبَه عن ذِكْرنا واتَّبَعَ هواهُ وكان أمْرُهُ فُرُطاً﴾**

[سورة الكهف: الآية ٢٨]

فأمر في هذه الآيات بالتواضع، وذَكَر صفاتِ المتواضعين وهم الذين يريدون وجه الله، المخلصون لله المتضرعون لربهم في الغداة والعَشِيّ، الذين يمشون على الأرض هوناً ويخالقون الناس بخلق حسن، ولا يأنفون من أحد ولا يتعاظمون على أحد، ونهى عن التكبُّر وذَكَر من صفات المتكبرين أنهم الذين غفلت قلوبهم عن الله واتَّبعوا أهواءَهم وانفرطت عليهم أمورهم وخسروا دينهم، ودنياهم، وأنهم من تكبِّرهم يمشون في الأرض مرحاً وبطراً ويصعِّرون خدودَهم على عباد الله ويختالون في قلوبهم وأفعالهم ويفتخرون بأقوالهم، فما أبعد الفرق بين الفريقين، وما أشد التفاوت بين الطائفتين في مقاصدهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم..

مَنْ تواضَعَ لله ولعباد الله كانت جميع اجتماعاته بالناس على اختلاف درجاتهم مغنماً يكسب بها الخيرات والمثوبة من الله، فإنه يلاقي الناس ويخاطبهم ويجتمع بهم ويعاشرهم بهذه النية الصالحة الفاضلة، وبالكلام

اللَّيِن الطيِّب للغني والفقير، والشريف والوضيـع، لا يرى لنفسه عليهم فضلاً، ويوطِّن نفسه على ما استطاع من نفـع من اجتمـع به؛ فهذه النية وهذا العمل وهذه المعاشرة من هذا المتواضـع جميعُه قربة يتقرب بها إلى الله، ثم يترتب على ذلك محبة الناس وكثرة ثنائهم وأدعيتهم له، وهذا أفضل ما اكتسبه المكتسبون ونافس فيه المنافسون، وكل من سمـع بأخلاقه ولو لم يجالسه أحبه ودعا له، فمن أعظم الغبن والخسران الاستهوان بهذه الأمور الجليلة والخصال الجميلة التي لا تُدرَك وتُنال إلاّ بخلق التواضـع والإخلاص.

## الفصل العشرون

### في ذكر بعض الأسباب التي أعان الله بها المؤمنين على أداء الفرائض وعلى اجتناب المحرَّمات على وجه الإجمال والاختصار.

هذا الدين كلُّه رحمة وفضل من الله، وكله تسهيل وتيسير، وكله يشتمل على أشرف الوسائل وأعلى المقاصد؛ فأول رحمته وتسهيله أنه جعل عقائده وأخلاقه غذاء للقلوب والأرواح، وبها صلاحها واستقامتها، وأعماله أكمل الأعمال وأهداها وأعدلها وأسهلها، قال تعالى:

﴿يريدُ اللَّهُ بِكُمُ اليسرَ ولا يُريد بكمُ العُسْر﴾
[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

﴿وَمَا جَعلَ عليكم في الدين من حرج﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٧٨]

وقال: ﴿طَهَ. مَا أنزلْنا عليكَ القرآنَ لتشقَى. إلاّ تذكرةً لمنْ يَخشى﴾
[سورة طَهَ: الآيات ١ ــ ٣]

فأخبر أنه لم يُنزلِ القرآن ليشقى العباد ويتكلفوا ويشقَّ عليهم ويحرجوا، وإنما أنزله للتذكير بكل خير وصلاح كما قال:

﴿ونُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤْمنين﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨٢]

وقال: ﴿قُلْ بفضلِ اللَّهِ وبِرَحمتهِ فَبِذلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ ممّا يجمعون﴾

[سورة يونس: الآية ٥٨]

فأمر بالفرح بفضله وبرحمته، وهي العلوم والمعارف الدينية والشرائع والأعمال التي أمر العباد بسلوكها، والفرح لا يكون إلّا بمحبوب للنفوس، بل هي أعظم من فرح أهل الدنيا واللذات والرئاسات، وسائر ما يتمتع به الخلق بما يجمعون.

ولما ذكر شرائع الطهارة من الأحداث والأخباث والتيمم والماء بيَّن حكمته، وأنها خير ورحمة عاجلة وآجلة لا مشقة فيها، فقال:

﴿ما يُريد اللَّهُ لِيجْعَلَ عليكُم مِنْ حَرج، ولكن يُريدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمتَه عليكم لعلّكم تَشْكُرون﴾

[سورة المائدة: الآية ٦]

فعلى العباد شكرُ اللَّهِ على ما شَرَعه لهم من الشرائع الظاهرة والباطنة التي يحصل بها لهم مقصودان عظيمان: التطهير من الذنوب والسيئات، وتمام نعمته بالثواب والأجر والخير والدرجات، وكم ذكر الله من الآيات التي شرح فيها ما في شريعته وأوامره من الخير والبركة والثواب العاجل والآجل، وما فيها من دفع البلايا والشرور والمكاره الحاضرة والمستقبلة، وكل هذا أعظم عون منه لعباده على التزام شريعته والانقياد الكامل لها بطمأنينة وفرح وسرور؛ وكلما كانت معرفة العبد أكمل وإيمانه أتم ظهر له من بركة هذه الشريعة وخيرها ما يوجب له أن يعلم أنها أكمل مِنَّة وأفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأنها أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون ويغتبط به المغتبطون.

ومما يعين على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ما رتَّب على ذلك من

الثواب واندفاع العقاب العاجل والآجل، الديني والدنيوي والأخروي، ولهذا يذكر الله هذا المعنى في طاعته وطاعة رسوله عموماً، وفي بعض الشرائع المهمة خصوصاً، فمن الأول قوله تعالى:

﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلكم تُرحمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فأخبر أن الرحمة والخير والمنافع العاجلة والآجلة ناشئةٌ عن طاعته وطاعة رسوله، ونظيرها قوله تعالى:

﴿ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ، فسأكْتُبها للذينَ يَتَّقُون ويُؤتونَ الزكاةَ والذينَ هُم بآياتِنا يؤمنون. الذينَ يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأمِّيَّ﴾

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]

فبيَّن أن هذه الأمور التي تحتوي على الشريعة كلها سيكتب الله لأهلها رحمته المتصلة بالسعادة الأبدية:

﴿إنَّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

أي في عبادة الله وإلى عباد الله؛ وأخبر أنه يحب المؤمنين والصابرين والمتقين، وحين ذكر أوصاف المسلمين عامة في قوله:

﴿إنَّ المسلمين والمسلمات﴾ ـ ثم عدَّدها، ثم قال في ثوابهم ـ: ﴿أعدَّ اللَّهُ لَهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

وقال: ﴿وَمَنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً. ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتَسِبُ ومن يتوكَّلْ على اللَّهِ فهو حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

﴿ومن يَتَّقِ اللَّه يجعَلْ لهُ مِنْ أمرِه يُسراً. ذلكَ أمرُ اللَّهِ أنزلَهُ إليكمْ ومن يَتَّقِ اللَّهَ يكفِّرْ عن سيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْراً﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٤، ٥]

فهذا صريح أن القيام بفرائض الله وترك محارمه الذي هو التقوى سبب لتفريج الكربات والمخارج من كل ضيق وشدة، وسبب لتيسير الأمور كلها

وتيسير الأرزاق المتنوعة، وتكفير السيئات وتعظيم الأجور، فخيرات الدنيا والآخرة وزوال الشرور في الدنيا والآخرة سببه الوحيد الذي لا سبب له سواه، القيام بالتقوى والشريعة الدينية، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة على هذا المعنى العام.

ومن الثاني ما تقدم من ذكر ما يترتب على الطهارة من التطهير وتمام النعمة من الله، وقوله بعد أن حث على الجهاد مع المشاق فقال:

﴿إِنْ تكونوا تألَمونَ فإنهم يألَمونَ كما تألَمُونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقال في الحث على النفقات:

﴿وما أنفقتُم مِنْ نفقةٍ أوْ نَذرتُمْ من نَذْرٍ فإنَّ اللَّهَ يَعْلَمُه﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٧٠]

﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُهُ وَهُوَ خيرُ الرَّازقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

ومَثَّل نفقات المجاهدين ومضاعفة أجرهم بقوله:

﴿مَثَلُ الذين يُنْفِقون أموالَهُم في سبيلِ اللَّهِ كمثلِ حبةٍ أَنبتتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حبّة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١]

إلى آخر الآيات.

ولما ذكر فرض الصيام بيَّن حكمته وفضله فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لعلّكم تَتَّقُون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فبيَّن أنّ بالصيام تنال التقوى، والتقوى سبب خيرات الدنيا والآخرة ومن الأمرين قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اركَعوا واسْجُدوا واعبُدوا ربَّكم وافعلوا الخيْرَ لعلكم تفلحون﴾ [سورة الحج: الآية ٧٧]

فرتَّب حصول الفلاح، الذي هو الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب، على الصلاة خصوصاً؛ وعلى العبادة وفعل الخير عموماً. ومن ذلك ما رتّبه على الحج في قوله:

﴿لِيَشْهدُوا منافِعَ لهم﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

وهذا يشمل المنافع الدينية والدنيوية، الحاضرة والمستقبلة، والآيات في هذه المعاني كثيرة جداً يُرَغِّب الله العباد في العبادات عموماً وخصوصاً، وفي ترك المحرّمات بما يحصل بها من الخيرات المتنوعة. ومن ذلك قوله ﷺ: (مَنْ أحب أن يُنسأ له في أثره ويُبسط له في رزقه فَلْيَصِلْ رَحِمَه)، متفق عليه، وقوله: (ينزل كل صباح ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)، متفق عليه. وقوله: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)، والحديث في الصحيح، وكذلك نصوص لا تحصى فيها ترتيب الثواب الحاضر والمؤجل على القيام بطاعة الله امتثالاً للأمر واجتناباً للنهي والإخبارُ بأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره:

﴿وَمَا تُقَدِّموا لأنفُسِكم مِنْ خيرٍ تجدوهُ عندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وأَعْظَمَ أجراً﴾
[سورة المزَّمِّل: الآية ٢٠]

فكلها إعانة من الله لعباده على أعمال الخير كلها، فإنه متى آمن المؤمن ووثق بوعد الله، وقوي طمعه في فضله، هانت عليه الطاعات، وهانَ عليه ترك المحرمات، وكثيرٌ من المؤمنين يستحلي طاعة الله لإيمانه بالله وقوة محبته له، وطمعه في فضله وثوابه واعتياده للطاعة.

ومن الأمور المعينة على ذلك ما شَرَعَهُ الله من المشاركة في أداء الفرائض، كما شرع الاجتماع في الجمعة والجماعة والأعياد، وكما شرع المشاركة في صيام رمضان؛ وفي حج بيته الحرام، وكل أحد يفهم أن هذه المشاركات تخففها على العاملين، وتهون مشقتها مع ما يحصل في الاجتماع من التنافس في الخيرات وقوة الرغبة التي هي أكبر الأسباب لسهولة العبادة.

ومن المسهلات ما شَرَعه الله من العقوبات والتعزيرات الشرعية على من ترك الواجبات؛ أو تجرَّأ على المحرمات، وذلك بحسب الجرائم، فالحدود رحمة من الله وزجر ومنـع عن وقوع المحرمات وكثرتها. فالحدود والعقوبات الشرعية، وكذلك الموانـع القدرية معونة كبيرة من الله لعباده على اجتناب الجرائم، قال تعالى في الموانـع القدرية:

**﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعبادِهِ لَبَغَوْا في الأَرْضِ﴾**

[سورة الشورى: الآية ٢٧]

فأخبر أن تَوَفُّرَ اللذات وحصولَ الأرزاق الرغيدة لكل أحد سبب للبغي في الأرض، ولكن من لطفه ينزل بقدر ما يشاء.

ومن لطفه بعبده أن محبوباته النفسية المحرّمة لا يكاد يقدر عليها حفظاً له وحماية.

ومن لطفه أنه ما من محبوب محرَّم إلاَّ ويوجد نظيره، أو ما هو أعلى منه من المباح ليَكتفي العباد بحلاله عن حرامه.

ومن لطفه أنه يدفـع عن عبده من أسباب الفتن أموراً يشعر بها وأموراً لا يشعر بها إعانةً منه وكرماً وحفظاً، فكم صرف عن العبد أموراً يسعى لتحصيلها ويرى حظه في حصولها، والله تعالى قد صرف عنه ما يضره قال تعالى:

**﴿وعسى أَنْ تكرَهُوا شيئاً وَهُوَ خيرٌ لَكُمْ، وعسى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم، واللَّهُ يعلَمُ وأنتُمْ لا تعلَمون﴾** [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

ومن أنواع الإعانات أنّ الله يوقـع العبد في الحاجات والضرورات لتضطره الأحوال للالتجاء إلى الله والإقبال على طاعته وكثرة ذكره ودعائه فقد بورك لك في أمر وحاجة وضرورة كانت سبباً لصلاح دينك.

ومن إعانته لعبده في القيام بواجباته الحياءُ الذي اختص به الآدمي، فإن

الحياء خُلقٌ جعله الله في العبد يمنعه من كثير من الجرائم ويحمله على أداء الحقوق التي لله والتي للعباد، ولهذا كان الحياء شعبة من شعب الإيمان وكان الحياء لا يأتي إلّا بخير؛ وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت). فأخبر ﷺ أن هذا مما اتفق عليه الرسل، وأن الله وضعه في العباد رحمة بهم، لِيَزَعَهُمْ عن المنكرات والفواحش، وأن من نُزع منه الحياء لم يبالِ بما صنع. وهو نوعان: حياء من الله وحياء من الخلق، ومن تم له الأمرانِ تمت أموره ومن فقد الأمرين انحلت أخلاقه بالكلية.

وكما أن منعه للعبد محبوباتِه قد يكون سبباً باعثاً له على الخير حاجزاً له عن الشر، كذلك إعطاؤه لعبده ما يُحبه من صحة وعافية وسعة رزقٍ وولدٍ وتوابعَ ذلك قد يكون أكبرَ باعث له على الخير والقيام بالواجبات؛ وخصوصاً أصحاب النفوس الأبية والهمم العلية، فإنهم كلما توفرت عليهم النعم ازداد شكرهم ورأوها من أكبر الفرص وأعظم الغنائم لاغتنام الخيرات بهذه النعم التي من بركتها أن تكون زاداً للعبد إلى السعادة الأبدية، ولهذا قال ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)؛ فأكثر الناس فوّتوا هذه النعم فيما لا يجدي عليهم إلّا الندم والخسارة، والقليل منهم وهم الأعظمون عند الله قدراً لم يغبنوا فيها، بل صرفوها فيما يعود عليهم بالنفع والسعادة والفلاح، فتبارك من يُنْعم بالعطاء والمنع والوجود والفقد، عجباً لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلَّه خير، إن أصابته سرّاء شكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

ومن أعظم عنايته للعبد أن يوفقه لقوة التوكل عليه، فإن من توكل عليه كفاه وسهَّل عليه أمور دينه ودنياه، فمتى أُيِّد العبد بقوة التوكل، ورُزِق صبراً أعانه الله على كل مطلوب، والله الموفق.

ومن أعظم الرحمة والإعانة ترجيح جانب الفضل والمجازاة على

الحسنات على جانب العدل، والمجازاة على السيئات ترجيحاً عظيماً؛ ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، فإن عملها كتبها الله عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبها سيئة واحدة)، وقال: (من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مُقيماً، ونزل من نوى الخير وعمل ما يقدر عليه منه بمنزلة الفاعل له)؛ قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بيتِه مُهاجِراً إلى اللَّهِ ورسولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ، فَقَدْ وَقَعَ أجرُه على الله﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠]

وجعل آثار الأعمال التي تعمل بسبب دعاية العبد، أو بداعي الاقتداء به جعلها من الأعمال التي تكتب للعبد في حياته وبعد مماته، قال تعالى:

﴿إنّا نحنُ نُحْيِي الموتَى ونكتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُم﴾
[سورة يٓسٓ: الآية ١٢]

وقال ﷺ: (إذا مات العبد انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية؛ أو علم ينتفع به من بعده؛ أو ولد صالح يدعو له)، والحديث في الصحيح.

فهذه النعم والمضاعفات من المولى الكريم التي لا يدركها العبد بعمله ومباشرته من أكبر العون منه لعباده على التزود من الخيرات واغتنام الفرص فيها وخفتها على العاملين.

وكذلك من لطفه أنّ من ترك شيئاً لله عَوَّضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة. ومن ترك شيئاً لله لم يجد فقده، وجعل تعالى كثيراً من الطيبات النافعة المباحة يستغني بها المؤمن عن الأمور المحرمة، فيسهل عليه جدًّا ترك المحرمات لدواع كثيرة: داعي الإيمان، وداعي الخوف من الله وخوف العقوبات المتنوعة، وداعي الرغبة في حصول الخيرات، والثواب المترتب على ترك المعاصي، وداعي الحياء من الله ومن خَلْقِه، وداعي المحبة والإنابة

إلى الله، وداعي صرف الشهوات والهوى والغضب إلى الأمور التي أباحها الله وأمر بها. ثم الإعانة الربانية والتسهيلات والتيسير منه على عبده وحفظه الخاص، وألطافه المتنوعة لها أعظم الوقـع وأعظم النفـع في التوجيه إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فلا يهلك بعد ذلك على الله إلاّ الفاسقون الذين دُعُوا إلى الرحمة فشردوا، ونُهِجَت لهم الطرق الواضحة فنَكَبوا عنها وتمرَّدوا.

كم لله تعالى على العباد من نِعَم وألطاف، وكم له من التخفيفات المتنوعة على الأقوياء والضعاف، وكم أقام الموانـع والحواجز القوية عن اقتحام المحرَّمات، وكم سهَّل التسهيـلات الداخليـة والخارجيـة في نيل الخيرات والوصول إلى الكرامات، فسحقاً وبعداً للمعرضين والمعارضين، ويا ويـح الغافلين والمتجرِّئين والظالمين، ويا سعادة المقبلين على محبوبهم، ويا نجاحهم وفلاحهم بنيل مرادهم ومطلوبهم، لقد فازوا بالغنائم الرابحة، ولقد اغتبطوا في الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

تبارك الله ما أعظم التفاوت بين العباد، وما أشد التباين بينهم في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. هذا قلبه ملآن من الإخلاص والصِّدق واليقين، وسعيه كله فيما يقرِّبُهُ إلى رب العالمين، قد عرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاجتنبه، وهذا قلبه متعلق بالشهوات البهيمية ولم يكن له في الخير رغبة بالكلية، أعرض عن النافـع وأقبل على الضارِّ، ولم يبال بالعواقب الوخيمة والخزي والخسار، وعند الغاية يتبين الفرق بين الفريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون.

# الفصل الحادي والعشرون

## في دلالة الكتاب والسنة على الفنون والمخترعات العصرية

قال تعالى: ﴿ما فَرَّطْنا في الكتاب مِنْ شيء﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

وقال تعالى: ﴿تبياناً لكُلِّ شيء﴾ [سورة النحل: الآية ٨٩]

وقال تعالى: ﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلون﴾ [سورة الصَّافَّات: الآية ٩٦]

وقال تعالى: ﴿عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الذي خَلَقَ لكُم ما في الأرضِ جميعاً﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٩]

وقال: ﴿وسَخَّر لكم ما في السمٰواتِ وما في الأرض﴾
[سورة الجاثية: الآية ١٣]

وقال: ﴿إنّ في خلقِ السَّموات والأرض... لآيات﴾
[سورة البقرة: الآية ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿وأَنزَلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس﴾
[سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقال تعالى: ﴿والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لتركَبوها وزينةً ويخلُقُ ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل.

اعلم أن علوم البشر السابقة واللاحقة وما يترتب عليها من المعارف والأعمال والنتائج والثمرات نوعان:

علوم دينية وعلوم دنيوية؛ وكل رقي ديني ودنيوي وأخلاقي وجسدي فإنه من ثمرات العلوم؛ ولكن الرقي يتفاوت تفاوتاً عظيماً.

فأعظم أنواع الرقي وأعلاه وأصلحه وأكمله إذا اتفق العِلمان المذكوران

واتفقت آثارهما وتعاونا على الخيرات كلِّها وعلى زوال الشرور كلها، وكلها متفاوتات متساعدات يؤزر بعضُها بعضاً، ويهذِّب بعضُها بعضاً؛ فمن تأمل هذا القرآن العظيم وهديَ النبي الكريم وخلفائه وأصحابه عرف أنه بَيَّـنَ النوعين، وحثَّ عليهما ودعا إليهما، وأخبر أن النجاح والفلاح والسعادة والهناء متوقف عليهما، وأنه يساير الأوقات والعصور والأحوال كلها، ويطبق تعاليمه العالية على جميع ما حدث ويحدث ويستجد مهما كان، وأن كل علم ومعرفة وآثار ونتائج مهما عظمت وترقَّت، إذا لم تكن مبنية على الدين، فإنَّها ناقصة نقصاً عظيماً، وأن شرَّها أعظم من خيرها، بل تكون خيراتها سبباً لشرور عظيمة كما هو معروف للناظرين.

وقد أخبر في هذه الآيات أنه خلق لنا جميع ما في الأرض، وسخَّره لنا نستمتع به وننتفع، وأنه خلقنا وخلق أعمالنا، بما يسَّر وسخَّر لنا من الأسباب، وأنه علم الإنسان ما لم يعلم، وأن الإنسان جعله الله قابلاً لتعلُّم العلوم التي جاءت بها الكتب السماوية ودعت إليها الرسل، وللعلوم الكونية التي نبَّه عليها القرآن في عدة آيات، وأنه امتنَّ على الإنسان بهذا التعليم وظهور آثاره ونتائجه، وأمره بسلوك كل طريق لتحصيل هذه المنافع، وهذا العموم والشمول في هذه الآيات يأتي على جميع الفنون والعلوم العصرية، وما ينشأ من هذه الفنون من المخترعات الهائلة وما يترتب عليها من المنافع الحاصلة، وكلها من نعم الله؛ فإن الله تعالى هو الذي علم الإنسان بالأسباب التي حصل له فيها العلم، كما أنه هو الذي رزقه بالأسباب التي جعل الله رزقه فيها؛ وهو الذي جعل في الأرض المنافع المتنوعة، وهو الذي يَسَّر الأسباب التي تُدرك بها هذه المنافع، وأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والتأمُّل الذي يوصلهم إليها ويهديهم إلى كيفية استخراجها، وربط البشر بعضهم ببعض في علومهم ومعارفهم، وفي آثارها ونتائجها، وجعل تعالى هذا الارتباط المتنوع من أقوى الأسباب التي يدركون فيها كل مقدور للبشر وكل ما هو في إمكانهم.

وهم في هذه الحالة بين أمرين: إما أن يستعينوا بهذه النعم على شكر المنعم وعلى القيام بحقوقه وحقوق سائر النوع الإنساني، بل على القيام بحقوق جميع المخلوقات، وعلى العدل والرحمة والحكمة والصلاح والسعادة الحاضرة والمستقبلة، إن فعلوا ذلك لم يزالوا في صعود إلى الخيرات وسلامة من جميع الشرور والمهلكات، وتمت عليهم النعمة وأمكنهم أن يحيوا حياة طيبة سعيدة هنيئة، وبهذا أمر القرآن ولهذا دعا القرآن وأرشد العباد.

وحذَّرهم من ضده: وهو أنهم إن اشتغلوا بالنِّعم عن المُنعم، وجعلوا هذه النعم غاية مطلوبهم ونهايةَ مرادهم، ولم يقوموا بحقوق المُنعم، ولا حَنُّوا بها على الخلق بالرحمة والعدل، كانت وبالاً عليهم وضرراً لازماً، وصارت آلاتٍ ووسائل للهلاك والدمار والشقاء، ولم يمكنهم أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة هنيئة، بل عيشة شقاء وتنقل من شرور إلى شرور، كما هو مشاهد لكل أحد.

أخبر تعالى في هذه الآيات أنه سخّر لنا جميع الأحوال الكونية لننتفع بها في ديننا ودنيانا، ولنعتبر بها على ما أخبر به من أمور الغيب ومن لوازم هذا التسخير أنه لا بد أن يُيَسِّرَ للبشر علوماً وأعمالاً وآلاتٍ يدركون بها منافعهم، وهذه الآيات فيها أكبر شاهد ودلالة على أن في الأرض قوى ومنافعَ وخزائنَ لا زال البشر يدركونها ويحصّلونها شيئاً بعد شيء؛ فكل ما تمَّ للبشر من المخترعات والمستخرجات فإنه داخل في هذه الآيات، فإنه أخبر أن جميع منافعها مسخّرة مستعدة للإنتاج إذا سلكوا طرقها، وأن منها ما كان موجوداً في الأزمنة الغابرة ومنها شيء سيحدث ويستخرج بعد ذلك في قوله:

**﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** [سورة النحل: الآية ٨]

فإنه جاء بهذه الصيغة الدالّة على الاستقبال، وإنه سيخلق في مستقبل الزمان

بتعليم الخلق وإقدارهم وتمكينهم من الأسباب المتنوعة ما لا يعلمه العباد في ذلك الوقت.

ولم يعين هذه الأشياء بأعيانها وأوصافها، بل أخبر باللوازم الدالّة على الملزوم لحكمة يفهمها كل متدبر متأمل، فإنه لو أخبرهم في ذلك الوقت بأوصافها وقال لهم أنها ستكون الطيارات والمراكب البخارية بأنواعها، وأن الناس سيتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها في أسرع من لمح البصر، وأنه سيكون كذا وكذا مما هو واقع ولا يزال يقع، لو أخبرهم ببعض ذلك لارتاب الناس من خبره، ولكان ذلك داعياً قوياً إلى التكذيب لأن الناس لا يصدقون بأمر لم يشاهدوا له نظيراً، انظر لما أخبرهم بالإسراء والمعراج والشجرة الملعونة في القرآن، كيف كان ذلك فتنة للمكذبين، مع أن معجزات الأنبياء قد عرف الناس أنها من خوارق العادات، وأنها تقع على خلاف المعهود، فكيف لو أخبرهم بما حدث ويحدث في هذه الأوقات؟ ولكن ولله الحمد أخبر بنصوص متعددة بإخبارات عامة وبلوازم تدلّ على جميع ما حدث ويحدث.

وكل المخترعات، وإن عظمت، يسهل جداً تطبيق النصوص عليها، وإذا وُجِدَتْ ظَهَرَ بها معجزة القرآن حيث أخبر بأمور ولوازم لها ملزومات من أبعد الأشياء في عقول الخلق ثم وقعت طِبق ما أخبر، فازداد المؤمنون بها إيماناً بالله ورسوله، وازداد المكذبون إعراضاً ونفوراً وتمرُّداً قال تعالى:

**﴿إنّ الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون. ولو جاءتْهُمْ كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾**

[سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

**﴿سأصرِفُ عن آياتي الذينَ يتكبَّرونَ في الأرض بغيرِ الحق﴾**

[سورة الأعراف: الآية ١٤٦]

وكما أن الأرض محتوية على منافع عظيمة سخّرها الله للآدميين،

كذلك أخبر أن الحديد فيه منافع للناس، ولم يقل المنفعة الفلانية والفلانية ليشمل جميع المنافع التي تستخدم بالحديد سابقاً أو لاحقاً؛ فكل منفعة استخرجت من الأرض أو من الحديد منفردة أو مقرونة بغيرها أو مساعدة لغيرها من الأسباب، فإنها داخلة في هذه الآيات، وكل تعليم حصل للبشر في العلوم الدينية والدنيوية والكونية، فإنه داخل في قوله:

﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

فلا يمكن أن يشذَّ عن هذه العمومات شيء من العلوم والفنون والمنافع والمخترعات والمستخرجات والنتائج والثمرات؛ وكلها من الله بما يسَّر للعباد من الوسائل التي يدركونها بها، فمن الذي علّمهم، ومن الذي أقدرهم عليها، ومن الذي جعل فيها القُوى والمنافع الكامنة وهداهم إلى استخراجها إلاّ الله تعالى، كما أنه هو الذي يحيي ويميت ويرزق الخلائق ويدبِّرُ أنواع التدابير بما خلق ويسَّر من الأسباب الموصلة إلى هذه الأمور، ولكن الجاحد قاصر النظر يقف عند الأسباب ولا يتجاوزها إلى مسببها ومقدرها والمنعم بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبيَّـنَ لهمْ أنه الحقُّ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

فهذا خبره تعالى عن أمور مستقبلة أنه يُرِي عبادَهُ من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس ما يدلهم على أن القرآن حقٌّ والرسول حقّ وما جاء به هو الحقّ، وقد أراهم من آثار تعليم الله لهم وإقدارِه لهم وتيسيرِه للأسباب المتنوعة في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به لكل منصف أن خبر الله وخبر رسله حق، فإن المكذبين يستبعدون خبر الله وخبر رسله عن الغيوب التي لا تدركها عقولُهم وأفهامهم القاصرة فأراهم في هذه الأوقات أموراً فيها الدلالة الواضحة على ذلك، فإن الذي أقدر الآدميَّ الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فعلَّمـه وأَقْدَرَهُ ويَسَّر له الأسباب التي تنتـج له الأعمال الباهرة بعدما كانت هذه الأمور من المحالات عندهم. ذلك برهان على صدقه وصدق

رسله؛ فقد كان المكذبون يستبعدون إحياءه الموتى وجمعَهم ليوم لا ريب فيه، ولا يصدقون بالإسراء ومِعراج الرسول، ولا بأنه تعالى ينادي الخلق بصوت يسمعه القريب والبعيد، وينكرون التخاطب بين أهل الجنة والنار مع البعد المفرط، مع أن أمور الغيب مخالفة لأمور الشهادة، فأراهم الله في الآفاق وفي أنفسهم من مخترعاتهم وعلومهم وفنونهم، من المراكب الهوائية والبحرية والبرية بأصنافها ومن المخترعات الجهنمية ومن المخاطبات المتنوعة بين أهل الأقطار ما يدلهم على أن الله هو الحق ورسوله ودينه ووعده ووعيده، ولكن أبى الظالمون إلّا نفوراً واستكباراً.

والحديث الثابت في الصحيح صريحٌ في هذا فإنه أخبر ﷺ أنه يتقارب الزمان، فظهر مصداقه في هذه الأوقات بقرب المواصلات واتصال الأخبار بجميع أهل الأقطار، حتى كأن الدنيا كلها بلد واحد من تقارب ما بينهما، وتقارب الزمان يلزم منه تقارب المكان، وقد كان هذا الحديث مشكلاً معناه على أهل العلم قبل هذا الوقت، فلما تَمَّ للبشر ما تَمَّ لهم من هذا التقارب الباهر لم يشكّ أحد أن هذا مراد الحديث، وأن من لوازم إخباره ﷺ بذكر وجود الأسباب المتنوعة التي يحصل بها التقريب، لأن إخبار الشارع بالشيء إخبار به وبما لا يتم إلّا به، كما أن أمره بالشيء أمر به وبما لا يتم إلّا به، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وكذلك إخباره بأنها لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، والحديث في صحيح مسلم. من ذا الذي يخطر بباله قبل هذه الأوقات أن هذه الجزيرة القاحلة تكون على هذا الوصف، حتى ظهر مصداق ذلك ومباديه بتيسير أمور الحراثة واستخراج المياه بالآلات الحديثة، فخبره بذلك خبر عن الأمرين: عما يقع وعما به يقع عن الجزيرة أنها ستكون مروجاً وأنهاراً، وعن الآلات التي تستخرج بها المياه ونحرث بها الأراضي وتتيسر الأعمال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ ما آسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة﴾
[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقوله: ﴿وخُذوا حِذْرَكم﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فهذا الأمر في كل زمان ومكان، وفي كل حال بما يليق بها، وهو أمر بتعلم العلوم والفنون العصرية التي فيها التحصُّن من الأعداء والحذر منهم وإعداد القوة بحسب الاستطاعة، والأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلّا به، فلا ريب أن هذا أمر بتعلم الصناعات والمخترعات ولكل ما يحصل به إعداد القوة المُرْهِبة للأعداء، من القوة المادية والمعنوية، فمن ظن أنها لا تدخل فيها فلقصور علمه وعقله، ولهذا أطلق الله في الآيتين إعداد القوة والأخذ بالحذر ليشمل كلَّ ما حصل به هذا الأمر الضروري النافع. بل جميع الأوامر التي يأمر الله فيها بدفع عدوان الأعداء ومقاوماتهم بكل طريق تدلُّ على وجوب تعليم الفنون الحربية والصناعية وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، وذلك داخل في الجهاد، جهاد المقاومة وجهاد المدافعة.

ومن ذلك إخباره بأنهم ﴿من كل حدب ينسلون﴾
[سورة النساء: الآية ٩٦]

الحدب الموضع المرتفع ـ والنسلان الإسراع ـ فإذا أخبر أنهم من كل حدب، أي مكان مرتفع ومنخفض، لأن الإخبار بالمرتفعات الصعبة المتعسِّرة يدل من باب أَوْلَى وأحرى أن السهول كذلك، وهذا دليل على أمرين عظيمين:

**أحدهما:** الإخبار بقرب المواصلات، فإن ﴿كل حدب﴾ من أدوات العموم، وإن هذا الحديث سيشمل جميع الأقطار في غاية ما يكون من السرعة.

**والثاني:** الإخبار بحدوث ما به يحصل هذا الإسراع الشامل لكل حدب، وهو هذه المخترعات الحديثة؛ فإن الإخبار باللازم إخبار بالملزوم

وبالعكس، والإخبار بالشيء إخبار بالوسائل والأسباب التي توصل إليه وهذا واضح، فالوسائل تدل على المقاصد، والمقاصد يعرف بها حصول الوسائل. ومن ذلك امتنانه على العباد بما يَسَّره لهم من الفلك البحرية، وأنها من أكبر نعمه التي تحملهم وتحمل أثقالهم وأمتعتهم؛ ويحصل فيها تبادل المنافع المتعددة، وذلك يدل دلالة واضحة أن الصناعات التي يحصل بها هذا الجنس النافع ـ بل الضروري ـ الذي نفع العباد في أمور دينهم ودنياهم أن تعلُّمَها مما يُحِبُّه الله ومما يأمر به.

وهنا آيات كثيرة في هذا، ولكن هنا آية تشاركها في هذا المقصد وتمتاز عنها بشمولها لجميع أصناف الفلك البحرية والبرية والهوائية، وهي قوله تعالى:

﴿وآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذريَّتَهُم في الفُلكِ المشحون﴾

[سورة يّس: الآية ٤١]

أي وآية للعباد على كمال قدرة الله وتفرده بالوحدانية وسعة رحمته وصدق رسله، أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون فإنه لما كان القرآن خطاباً لأول هذه الأمة وآخرها، والقرآن أوسع المعاني وأشملها، وقد علم الباري جل جلاله بعلمه المحيط أن الفلك المتنوعة، من سفن بحرية ومن قطارات وسيارات برية، ومن طائرات هوائية بجميع أنواعها ـ علم تعالى أنها تتسع جداً في آخر الزمان، وأنه لا يدركها هؤلاء المخاطبون أولاً، وإنما تدركها ذرياتهم، قال: ﴿ذريتهم﴾ فإنه لما كان جنس الفلك موجوداً وهي السفن التي يعرفونها صرح به كما صرح بما كان أصله موجوداً في ذلك الوقت، ولكن الصناعة رقَّته ونوَّعته وفرّعته.

وهذا التفسير في هذه الآية نظير التفسير الذي أشرنا إليه في قوله ﷺ يتقارب الزمان، وأن أهل العلم قبل وقوعه تضاربت أقوالهم فيه بمحتملات بعيدة، كذلك هذه الآية الكريمة، فسروا الذُّرِّية بوجوه بعيدة عن اللفظ

والمعنى، حتى حملها كثير من المفسرين، على أن المراد بالذرية الآباء والأجداد، وأنه من الأضداد، وهذا لا يعرف في اللغة، ولكن ولله الحمد القرآن عربـي اللفظ والمعنى صريـح فيما ذكرنا، وأن الله إذا ذكر المعاني الجليلة ذكر أوسعها وأعلاها وأشملها، وقد يذكر الله قصة خاصة، فإذا أراد أن يحكم عليها ذكر حكماً عاماً يشملها ويشمل ما هو نظيرها كما ذكرنا هذا في القواعد القرآنية وذكرنا أمثلته هناك، والمقصود أن الآية الكريمة تشمل النعمة بجميـع الفلك على اختلاف أنواعه البري والبحري والهوائي، وهذا متضمن للحث على الوسائل التي تدرك بهـا هذه الأشيـاء وذلك بـالتعلم للفنون والصناعات العصرية، فإنه لا وسيلة لها سوى ذلك كما هو معروف لكل أحد.

## فصل

ومن ذلك أمره تعالى بفعل الأسباب التي تحصل فيها الأرزاق من تجارات وصناعات وحِراثات وحرف وغيرها، وامتنانه على العباد بتيسيرها والاستعانة بها على طاعة الله والقيام بالواجبات المتعددة كقوله تعالى حين أمر بالسعي إلى الجمعة وتقديمها على المكاسب التي هي وسائل لها ولغيرها من الفروض:

**﴿فإذا قُضيتِ الصلاةُ فَانتَشِروا في الأرض وٱبتَغُوا مِن فَضلِ اللَّهِ﴾**
[سورة الجمعة: الآية ١٠]

أي ببيـع وشراء وصناعة وحراثة وغيرها من أسباب الرزق. وقال تعالى:

**﴿هُوَ الذي جعلَ لكم الأرضَ ذَلُولاً فٱمشُوا في مناكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رزقِه وإِليه النُّشُور﴾** [سورة المُلك: الآية ١٥]

أي جعلها مذلَّلَة لأسفاركم، مذللة لحروثكم، مذللة لاستخراج معادنكم المتنوعة، مهيَّأة لكل ما تحتاجونه منها، فامشوا في مناكبها، أي في طلب الرزق والسعي في تحصيله، وذلك يشمل جميـع الطرق التي يُنال بها الرزق

من جميع الاقتصاديات التي أباحها الله ورسوله التي كانت موجودة في ذلك الزمان، والتي لا تزال تحدث أسبابها شيئاً بعد شيء، وينفتح للعباد من أسباب الرزق وطرقه أمور لم تكن موجودة قبل ذلك، فعلمها وتعلمها وسلوك طرقها مما أمر الله به ورسوله، حتى أنه تعالى أمر الناس أن يَحْجُروا على سُفهائهم في أموالهم الخاصة عن التصرفات الضارّة لِقِصَرِ عقولهم ومعارفهم وتجاربهم حتى يعلموهم ويختبروهم بالتجربة التي هي الطريق لمعرفة أحوالهم، وهذا يدلُّ على أن الله يحب من عباده هذا الأمر ويأمرهم به، ولهذا علل ذلك بقوله:

﴿ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكُمُ التي جعل اللّهُ لكُمْ قياماً﴾

[سورة النساء: الآية ٥]

فأخبر أنه جعلها قياماً تقوم بها الأمور الدينية والأمور الدنيوية، تقوم بها الضروريات والحاجيات والكماليات، فلقد علّمنا ربنا العناية التامة بحفظ الأموال والاقتصاد في إنفاقها، وعلّمنا كيف نسلك الطرق المتنوعة لتحصيلها، ولم يحرِّمْ علينا منها طريقاً واحداً إلّا الطرق المحرمة التي تضرُّنا وتكون سبباً لهلاكنا.

فمن هذه نعمته الكبرى على العباد ورحمته بهم، أليس يدلُّ على أن تَعَلُّمَ الفنون الاقتصادية الخاصة بالأفراد والعامة للحكومات والأقطار، التي تنال بها الأرزاق مما يحبه الله ويرضاه، ويأمر به ويوجبه؟ فهل شذّ عن هذا الأصل فن وطريق، أو وسيلة من وسائل الرزق؟ فتبارك الرزاق الحكيم، الذي من حكمته جعل الأرزاق وغيرها تنال بأسبابها، ومن حكمته أن جعل لكل نوع منها أناساً يرغبون، وله يعملون، لتقوم المصالح كلها ويرتبط الناس بعضهم ببعض؛ فأهل التجارات وأهل الصناعات وأهل المهن والحرف وأهل الحراثات وغيرهم، كل منهم محتاج إلى الآخر لا يستغني أحدٌ منهم عن أحد؛ بل أهل الأقطار النائية لما توسعت أسباب المكاسب اضطر بعضهم إلى

بعض وانفتحت طرق كثيرة لتحصيل الرزق، والكل من فضل الله وتيسيره ورزقه وإحسانه.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: (إن أطيب ما أكلتم من كسبكم). وهذا يشمل المكاسب كلها، وسئل أي الكسب أطيب؟ فقال: (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور). وقال: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيصيب منه إنسان أو طير أو دابة إلّا كان له حسنات). وقد حثّ ﷺ في عدة أحاديث على التكسب والاستغناء به عن مسألة الناس وسؤالهم والواجبات الدينية من الزكوات والكفارات ودفع الحاجات، والضرورات لا تقوم إلّا بالأموال، وكذلك الجهاد والمصالح الكلية والنفقات على النفس والعائلة والمماليك والصدقات المتنوعة كلها، لا تقوم إلّا بالأموال، والأموال لا تُحَصَّل إلا بالكسب، فعلم أن السعي في تحصيل هذه الأمور تبع لها: ما كان منها واجب فوسيلته واجبة، وما كان منها مندوب فوسيلته مندوبة.

## الفصل الثاني والعشرون

### في أن النظم الإسلامية فيها صلاح الأحوال كلها

من أكبر الأغلاط وأعظم الأخطاء استمداد الحكومات الإسلامية والجماعات والأفراد نُظُمَهم وقوانينَهم المتنوعة من النظم الأجنبية، وهي في غاية الخلل والنقص وتركهم الاستمداد من دينهم، وفيه الكمال والتكميل ودفع الشر والفساد.

ما بقي من الإسلام إلّا اسمه ورسمه، نتسمى بأننا مسلمون ونترك مقومات ديننا وأُسُسَه وأعماله ونذهب نستمدُّها من الأجانب، وسبب ذلك الجهل الكبير بالدِّين وإحسان الظن بالأجانب، ومشاهدة ما عليه المسلمون

الآن من الاختلال والضعف في جميع مواد الحياة الروحية والمادية. نشأ عن ذلك كله توجيه الوجوه إلى الاستمداد من الأجانب. فلم نزد بذلك إلّا ضعفاً وخلَلاً وفساداً وضرراً، وإلّا فلو علمنا حق العلم أن في ديننا ما تشتهيه الأنفس وتمتد إليه الأعناق من المبادىء الراقية والأخلاق العالية والنظم العادلة والأسس الكاملة، لعلمنا أن البشر كلهم مفتقرون غاية الافتقار أن يأْوُوا إلى ظله الظليل الواقي من الشر الطويل، فأي مبدأ وأصلٍ وعمل نافع للبشر إلّا ودين الإسلام قد تكفل به كفالة المليء القادر على تيسير الحياة التامة على قواعده وأسسه، وفيه حل المشكلات الحربية والاقتصادية وجميع مشاكل الحياة التي لا تعيش الأمم عيشة سعيدة بدون حلها.

أليست عقائدُه أصحَّ العقائد وأصلحَها للقلوب، ولا تصلح القلوب إلا بها؟ فهل أصح وأنفع وأعظم براهين من الاعتقاد اليقيني الصحيح أن نعلم علماً يقيناً أن لنا رباً عظيماً تتضاءل عظمة المخلوقات كلها في عظمته وكبريائه، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، قدير على كل شيء، عليم بكل شيء، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، رحيم وسعت رحمته كل شيء، وملأ جوده أقطار العالم العلوي والسفلي؛ حكيم في كل ما خلقه وفي كل ما شرعه، قد أحسن ما خلق، وأحكم ما شرعه، يجيب الداعين، ويفرج كرب المكروبين، ويكشف هَمَّ المهمومين، من تَوكَّل عليه كَفَاه، ومن أناب إليه وتقرب إليه قرَّبه وأدناه، ومن آوى إليه آواه، لا يأتي بالخير والحسنات إلّا هو، ولا يكشف السوء والضُّرَّ إلّا هو، يتودد إلى عباده بكل طريق، ويهديهم إليه كل سبيل، لا يخرج عن خيره وكرامته وَجُوده إلّا المتمردون، فهل تصح القلوب والأرواح إلّا بالتألُّه والتعبُّد لمن هذا شأنه، فمن يشارك الله في شيء من هذه الشؤون التي يختص بها؟

وكذلك الأخلاق لا يهدي هذا الدين إلّا لأحسنها، فهل ترى من خلة

كمال إلّا أمر بها؟ ولا خصلة نفـع وانتفاع إلّا حثَّ عليها، ولا خير إلّا دلّ عليه، ولا شرّ إلّا حذر عنه.

أَمَا حثَّ على الصدق والعدل في الأقوال والأفعال؟ أَمَا أَمر بالإخلاص لله في كل الأحوال؟ أما حثّ على الإحسان المتنوع لأصناف المخلوقات؟ أما أَمَر بنصر المظلومين وإغاثة الملهـوفين وإزالة الضُّـرِّ عن المضطرين؟ أما رغب في حسن الخلق في كل طريق، مـع القريب والبعيد، والعدو والصديق فقال:

﴿ٱدفَـعْ بالتي هِي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حَمِيم﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

أما نهى عن الكذب والفحش والخيانات، وحثَّ على رعـاية الشهـادات والأمانات، أما حذّر عن ظلم الناس في الدماء والأموال والأعراض، فما من خلق فاضل إلا أمر به ولا خلق رذيل ساقط إلّا نهى عنه، ولذلك كانت القاعدة الكبرى لهذا الدين رعاية المصالـح كلها ودفـع المفاسد..

ثم إذا نظرنا مسايرته للحياة ومجاراة الأمم، فإذا فيه جميـع النظم النافعة والنظم الواقية؛ أليس فيه الأمر بطلب الأرزاق من جميـع طرقها النافعة المباحة من تجارات وصناعات وزراعات وأعمال متنوعة، فلم يمنـع سبباً من الأسباب النافعة بوجه من الوجوه، وإنما منـع المعاملات الضارة، وهي التي تحتوي على ظلم أو ضرر أو قمار.. ومن محاسنه تحريمه هذه الأنواع التي لا تخفَى مفاسدها وأضرارها؛ أليس فيه الأمر بأخذ الحذر من الأعداء وتوقِّي شرورهم بكل وسيلة؟ أليس فيه الأمر بإعداد العدة للأعداء بحسب الزمان والمكان والاستطاعة؟ أليس يحث على الاجتماع والائتلاف الذي هو الركن الأصيل للتعاون والتكافل على المصالـح ومنافـع الدين والدنيا والنهي عما يضاده من الافتراق؟ أليس فيه تعيين القيام بما بانت مصلحته وظهرت منفعته، والأمر بالمشاورة فيما تشابهت فيه المسالك؟ أليس فيه الإرشاد إلى جميـع طرق

العدل والرحمة المتنوعة، والحث على تنفيذها في حق جميع الخلق؟ أليس فيه الحث على وفاء العقود والعهود والمعاملات الكبيرة والصغيرة التي بها قوام العباد؟ أليس فيه الأخذ على أيدي السفهاء والمجرمين بحسب ما يناسب جرائمهم وردعهم بالعقوبات والحدود المانعة والمخففة للجرائم.. فأي مصلحة تخرج عن إرشادات هذا الدين، وأي أصل وأساس فيه الخير والصلاح إلاّ وقد أرشد إليه الدين، لا فرق بين دينيها ودنيويها..

وجملة ذلك أن هذا الدين بيَّـن الله فيه للعباد أنه خلقهم لعبادته الجامعة لمعرفته، والتقرب إليه بكل قول أو عمل أو مال أو منفعة، وخلق لهم ما في الكون ممهَّداً مسخَّراً لجميع مصالحهم، وأمرهم أن يستحصلوا هذه النعم بكل طريق ووسيلة تمكِّنهم منها، وأن يستعينوا بها على طاعة المنعم. فهل أوضع وأظلم وأجهل ممن أعرض عن هذا الدين الذي هو الغاية والنهاية في الكمال، وهو المطلب الأعلى لأُولي العقول والألباب، ثم ذهب يستمد الهدى والنفع من غيره وهو يدَّعي أنه مسلم؟ لقد زاده هذا الاستمداد غياً وضلالاً. ومن احتج بما يرى من حالة المسلمين وتأخرهم عن مجاراة الأمم في مرافق الحياة فقد ظلم باحتجاجه، فإن المسلمين لم يقوموا بما دعا إليه الدين، ولم يحكِّموه في أمورهم الدينية والدنيوية، ونبذوا مقومات دينهم وروحه واكتفوا بالاسم عن المسمى وباللفظ عن المعنى، وبالرسوم عن الحقائق، والواجب أن ينظر إلى تعاليم الدين وتوجيهاته وأصوله ومقاصدها ودعوته لجميع البشر إلى ما فيه خيرهم المتنوع، ولهذا كان المنصفون من الأجانب، على ما هم عليه، يعترفون بكماله، وأنه لا سبيل إلى زوال الشرور عن العالم إلا بالأخذ بتعاليمه وأخلاقه وإرشاده.

وكما أن الدين هو الصلة الحقيقية بين العباد وبين ربهم، به إليه يتقربون ويتحببون، وبه يغدق عليهم خير الدنيا والآخرة، فإنه الصلة بين العباد بعضهم لبعض، تقوم به حياتهم، وتنحل به مشكلاتهم السياسية والاقتصادية والمالية؛

فكلُّ حلٍّ بغيره فإن ضرره أكثر من نفعه، وشرُّه أعظمُ من خيره، فإن فرض إصلاح بعض المشكلات ببعض النظم إصلاحاً حقيقياً فتأمل ذلك الحل، فلا بد أن تجده مستنداً إلى الدين، لأن الدين يهدي للتي هي أقوم: كلمة عامة جامعة لا تبقي شيئاً، والواقع يشهد بذلك.

وبالدين يتم النشاط الحيوي، ويستمد كل واحد من الآخر مادة الدين ومادة الحياة، لا كما يزعمه المنكرون والمغرورون والمأجورون أنه مخدر مؤخِّر لمواد الحياة؛ لقد، والله، كذبوا أشنع الكذب وأوقحه؛ فأي مادة من مواد الحياة أخَّرها أو وَقَفَها أو لم يبلغ فيها نهاية ما يدركه البشر؟ فليأتوا بمثال واحد من الدين لا بالتمثيل بأحوال من ينتسب للدين وهو منه خلي إن كانوا صادقين.

فإن قيل: أليست الأديان الصحيحة كلها من رب العالمين؟ فما بال دين المسيح روحه وحقيقته هو الصلة فقط بين العبد وبين ربه، وليس فيه التعرض إلى أمور مواد الحياة الحاضرة ونظمها، مع أن الله واسع الرحمة؟ فالجواب عن هذا سهل لمن عرف كيف نشأ الدين المسيحي في ظروف طغت فيها المادة اليهودية وبنو إسرائيل طائفة قليلة وجزء يسير بالنسبة إلى دولة الرومان ذات النظم الأرضية، فالأمة الإسرائيلية قليلة والمدة يسيرة، لأن دين المسيح مؤقت إلى مجيء الدين الكامل الشامل لعموم الخلق وعموم المصالح، فكما أن محمداً ﷺ بُعث إلى الخلق كلهم، إنسهم وجنهم، فكذلك قد تكفل دينه بإصلاح الخلق إصلاحاً روحياً وماديًّا، واستعان بكل واحد على الآخر، وبه تم الكمال وحصل، فكما تولى تهذيب القلوب والأرواح فقد تولى تهذيب الحياة، وضمن لمن قام به الحياة الطيبة من كل وجه، لا من وجه واحد أو وجوه محصورة، وهذا من كمال حكمة الله، ومن شمول رحمة الله وهو الحكيم الرحيم.

ومن الأدلة على هذا أن الله قد يجمع في موضع واحد من كتابه بين العبادات المحضة وبين أمور المعاش والنظم الاجتماعية كما قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتُوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأَطِيعُوا اللَّهَ ورسولَه ولا تَنازَعوا فتفْشَلوا وتذهب ريحُكُم واصبِروا إن الله مع الصابرين﴾** [سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]

ـ ثم قال بعد آيات ـ

**﴿وأَعِدّوا لهم ما ٱسْتطعتم مِنْ قوةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرهِبونَ به عدو الله وعدوَّكم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: **﴿يا أَيُّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِنْ يَومِ الجمُعةِ فَٱسْعَوْا إلى ذِكرِ اللَّهِ وذَرُوا البيع، ذلكم خيرٌ لَكُم إنْ كُنتم تَعلَمون. فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فٱنْتشروا في الأرضِ وٱبتغُوا من فضلِ اللَّهِ واذكُرُوا اللَّهَ كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [سورة الجمعة: الآيتان ٩، ١٠]

أَلاَ تَرى كيفَ جَمع بين الأمر بذكر الله وبالصبر والثبات، وبالقوة المعنوية بالاجتماع وعدم التنازع، وبالقوة المادية بقوله: **﴿وأَعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** فإنه يشمل الأمرين، كما أمر في آية الجمعة بالإقبال على الصلاة والذكر في وجوب السعي إلى الجمعة، ثم بعدها بالانتشار لطلب الرزق. وقال ﷺ: (إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:

**﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيِّباتِ ما رزقناكُم واشكُرُوا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٧٢]

وقال تعالى: **﴿يا أيها الرسلُ كُلوا من الطَّيبات واعملوا صالحاً﴾**
[سورة المؤمنون: الآية ٥١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة وشرائع الدين ومعاملاته التفصيلية شاهدة

بذلك، وهي أحسن الشرائع وأحسن الأحكام والمعاملات التي بها تستقيم الأحوال وتزكو الخصال.

واعلم أن العبادات ليست مجرد الصلاة والصيام والصدقة؛ بل جميع الأعمال التي يُتَوسل بها إلى القيام بواجبات النفس والعوائل والمجتمع الإنساني، كل عمل يقوم بشيء من ذلك ويعين عليه فهو عبادة، فالكسب للعيال عبادة عظيمة، وكذلك الاكتساب الذي يراد به القيام بالزكوات والكفارات والنفقات العامة والخاصة كله عبادة، وكذلك الصناعات التي تعين على قيام الدين وردع المعتدين من أفضل العبادات، وكذلك التعلم للسياسات الداخلية والخارجية، والتعقل والتفكر في كل أمر فيه نفع للعباد وكل ذلك من العبادات، ولم يرغب الله في أمر الشورى في الأمور كلها إلّا لتحقيق أمثال هذه المقاصد العالية النافعة، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة جداً.

واعلم أن التطورات التي لا تزال تتجدد في الحياة والمجتمع قد وضع لها هذا الدين الكامل قواعدَ وأصولاً يتمكن العارف بالدين وبالواقع من تطبيقها مهما كثرت وعظمت وتغيرت بها الأحوال، وهذا من كمال هذا الدين ومن البراهين على إحاطة علم الباري تعالى بالجزئيات والكليات وشمول رحمته وحكمته.

أما غيره من النظم والأسس وإن عظمت وآسْتُحْسِنت فإنها لا تبقى زمناً طويلاً على كثرة التغيرات، واختلاف التطورات، لأنها من صنع المخلوقين الناقصين في علمهم وحكمتهم، وجميع صفاتهم. لا من صنع رب العالمين.

أرأيت هذه المدنيات الضخمة الزاخرة بعلوم المادة وأعمالها لو جمعوا بينها وبين روح الدين، وحكموا تعاليمه الراقية الواقية الحافظة ـ أرأيت

لو فعلوا ذلك أمَا تكون هذه المدنية الزاهرة التي يصبو إليها أولو الألباب وتتم بها الحياة الهنيئة الطيبة السعيدة؟ وتحصل فيها الوقاية من النكبات المزعجة. والقلاقل المفظعة. فحين فقدت الدين، واعتمدت على ماديتها الجوفاء الخرقاء جعلوا يتخبطون ويطلبون حياة سعيدة، ولم يصلوا إلاّ إلى حياة الأشقياء، الحياة المهددة في كل وقت بالحروب، وأصناف الكروب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

## الفصل الثالث والعشرون

### في الجمع بين إثبات عموم القدر وإثبات الأسباب

قال تعالى: ﴿إنما أَمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كن فيكون﴾
[سورة يٓس: الآية ٨٢]

﴿يدبِّرُ الأمرَ يُفصِّل الآيات﴾ [سورة الرَّعْد: الآية ٢]

﴿إنَّا كُلَّ شيء خلقناه بِقَدَر﴾ [سورة القمر: الآية ٤٩]

﴿ومن آياتِه أنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بأمره﴾ [سورة الروم: الآية ٢٥]

﴿إنّ اللَّهَ يُمسكُ السمواتِ والأرضَ أنْ تَزُولاَ ولئِنْ زالَتا إنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١]

﴿وما مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ إلاّ على اللَّهِ رزقُها ويعلَمُ مُستقَرَّها ومُسْتَوْدَعَها﴾ [سورة هود: الآية ٦]

والآيات في هذه المعاني كثيرة تدل دلالة يشهد بها الكون والواقع أن جميع الكائنات مفتقرات إلى ربها في خلقها ورزقها وتدبيرها، وأنه لا واسطة

بينه وبين الخلق، فبإرادته وقدرته العامتين الشاملتين خلق الموجودات كلها، وبإرادته وقدرته حَفِظَها، وبإرادته وقدرته وحكمته سيَّرها ودبَّرها، وبعنايته ورحمته وسعة علمه أعطى كل شيء خلقه وهداه لمصالحه المتنوعة. واعتنى بتدبيره الخاص وسوق الأرزاق والمنافع والمصالح كلها إلى مفرداته وكلياته، والكون كله بانتظامه واتساقه واحتياج بعضه إلى بعض، وارتباط بعضه ببعض، وتعاونه المتنوع جميعه يشهد شهادة واضحة بالقدرة والإرادة التي لا يشذُّ عنها شيء، والحكمة التي شملت جميع الكائنات والعلم المحيط.

ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا غلط فاحش جداً، وهو عائد على القدر بالإبطال، وهو إبطال أيضاً للحكمة. وكأن هذا الظانَّ يقول ويعتقد: أن الإيمان بالقدر هو اعتقاد وقوع الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية. وهذا نفي للوجود لها، فإنها كما ذكرنا أن الله ربط الكون بعضه ببعض، ونظم بعضه ببعض، وأوجد بعضه ببعض.

فهل تقول أيها الظانُّ جهلاً إنّ الأَوْلَى إيجاد البناء من دون بنيان، وإيجاد الحبوب والثمار والزروع من دون حرث وسقي، وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح، وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح، وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟

بهذا الظن والتقرير أبطلت القدر وأبطلت معه الحكمة..

أمَا علمت أن الله بحكمته وكمال قدرته جعل للمسببات أسباباً، وللمقاصد طرقاً ووسائل تحصل بها؟ وقرّر هذا في الفِطَرِ والعقول؛ كما قرّره في الشرع؛ وكما نفذه في الواقع، فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خُلق له من أصناف السعي والحركة والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب، الذي شهد أولاً لله بكمال القدرة وكمال الحكمة، وأشهد العباد ثانياً أن بهذا التنظيم

والتيسير والتصريف وجّه العاملين إلى أعمالهم ونشّطهم على أشغالهم. فطالب الآخرة إذا علم أنها لا تُنال إلّا بالإيمان والعمل الصالح، وتَرْكِ ضِدِّها، جد واجتهد في تحقيق الإيمان وكثرت تفاصيله النافعة، واجتهد في كل علم صالح يوصله إلى الآخرة، واجتنب في مقابلة ذلك الكفر والفسوق والعصيان، وبادر للتوبة من كل ما وقع منه من ذلك..

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا ينال إلّا بحرث وسقي وملاحظة تامة جَدّ واجتهد في كل وسيلة تنمِّي حراثته وتكملها، وتدفع عنها الآفات..

وصاحب الصناعة إذا علم أن المصنوعات على اختلاف أنواعها ومنافعها لا تحصل إلّا بتعلم الصناعة وإتقانها ثم العمل بها جَدَّ في ذلك..

ومن أراد حصول الأولاد أو تنمية مواشيه عمل وسعى في ذلك، وهكذا جميع الأمور.

ولهذا لما قال بعض المسلمين للنبي ﷺ حين أخبرهم أن الأمور كلها قد علمها الله وكتبها وقدّرها: أفلا نتكل على كتابنا الأول وندع العمل؟ فقال ﷺ: (آعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له: أما أهل الجنة فييسَّرون لعمل أهل الجنة، وأما أهل النار فييسرون لعمل أهل النار)، وتلا قوله تعالى:

**﴿فأمَّا من أعطى واتقى. وصَدَّق بالحسنى. فَسَنُيَسِّره لليسرى. وأمَّا من يخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فَسَنُيَسِّره للعسرى﴾**

[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

وفي خلقه تعالى الأشياءَ بأسبابها من الحِكم والمنافع والأسرار ما لا يدركه الوصف. وهذا من الأمور الجلية والحقائق الواضحة التي فطرت الخليقة كلها، حتى الحيوان البهيم، عليها.

# الفصل الرابــع والعشرون

## فيما جاء به الإسلام من المساواة بين الناس في الحقوق

جاء الإسلام بالمساواة الصحيحة المستقيمة التي روحها العدل والرحمة والتكافل في الحقوق: يساوي بين طبقات الخلق في العدل في كل شيء. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ على أنفسِكم أو الوالِدَيْن والأَقْرَبينَ، إن يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أَوْلى بهما﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

وقال ﷺ: (إن الله كتب الإحسان في كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة) رواه مسلم. وأوجب النصح لكل أحد، قال ﷺ: (الدين النصيحة) ثلاثاً. رواه مسلم.

وساوى بين طبقات العباد في الحقوق الواجبة عليهم تبعاً لقدرتهم واستطاعتهم. قال تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه ومَنْ قُدِرَ عليه رزقُه فلينفِقْ مما آتاه الله لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلَّا ما آتاها﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلَّا وُسْعها﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

وساوى بينهم في وجوب إيتاء الحق الذي عليهم، وفي إيجاب إيصال الحق إليهم: فكل من عليه حق ـ عليه أن يؤتيه كاملاً بلا نقص ولا بخس ولا تطفيف. وكل من له حق على أحد أعانه على استخراجه بكل طريق ممن هو عليه.

كما ساوى بين المكلفين في إيجاب العبادات وتحريم المحرمات، وكما ساوى بينهم في الفضل والثواب بحسب أعمالهم:

﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم بأحسنِ ما كانوا يَعْملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿إِنَّ المسلمين والمسلمات ـ إلى قوله ـ أَعدَّ اللَّهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

وساوى بينهم بالتملكات المالية بجميع طرقها ووجوهها، وبصحة التصرفات كلها وإطلاقها حيث اشتركوا في العقل والرشد.

وساوى بينهم بأن الرضا في المعاملات العوضية، والتبرعات والإحسان شرط لصحتها ونفوذها، وأن من أُكره منهم لا ينفذ له معاملة ولا يستقيم له تبرع.

وساوى بينهم في كل حق ديني ودنيوي، ولم يجعل لأحد منهم ميزة في نسب أو حسب أو مال أو حسن صورة، إنما الميزة والتفضيل بالمعاني العالية في التقوى وتوابعها

﴿يا أيها الناسُ إنّا خلقناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائلَ لِتعارَفُوا إِنَّ أكرمَكُم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]

وإنما التفاوت والتفاضل والتفضيل يكون بأسبابٍ من كمال الدين التفضيلُ بها. كما فضّل الذكر على الأنثى في الميراث؛ وجعل الرجال قوَّامين على النساء بما فضَّل الله به بعضَهم على بعض، فإن الرجل عنده من الاستعدادات والتهيُّؤ للكمال والقوة على الأعمال ما ليس عند المرأة، وعليه من الواجبات النفسية والعائلية ما حَسَّن تفضيله على المرأة. ولهذا علل ذلك بقوله تعالى:

﴿وبما أَنفقُوا مِنْ أَمْوالهم﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

فشكرَهم على إنفاقهم على غيرهم وأعانهم على تلك النفقات بالتفضيلات المناسبة لها.

وهذا كما أوجب العبادات المالية كالزكوات والكفارات وغيرها على أرباب الأموال دون من ليس عنده مال، تعليقاً للحكم بعلته وسببه، وكما فرق بين الناس في مقدار الواجبات وأجناسها بحسب قدرتهم واستعدادهم وبهذا يُعرف كمال حكمة الله وشمول رحمته وحسن أحكامه

﴿ومَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وما خالف هذه المساواة التي يتشدق بها المنحرفون بين الرجال والنساء وبين الأغنياء والفقراء، فإنها مادية ضارّة لا يستقيم عليها دين ولا دنيا لخلوها من الدين والروح الإنسانية الشريفة ومخالفتها لِسُنَّة الله التي لا تبديل لها ولا صَلَاحَ إلّا بها، التي تَكْفَلُ للآدميين كرامتهم وشرفهم وحقوقهم الدينية والمادية، وإذا أردت معرفة فساد ما خالفها فانظر إلى آثارها كيف انحلّت منهم الأخلاق الجميلة وتبدَّلوا بها الأخلاق الرذيلة، وذهبت معها الرحمة والشفقة والنصح، وكيف كانت تسير بهم إلى الهلاك وهم يشعرون أو لا يشعرون.

ساروا مستصحبين الحرية المطلقة من جميع القيود، وهي عبارة حرية الشهوات البهيمية والسبعية؛ فلم يوقفهم عنها دين ولا أخلاق ولا مصلحة عمومية بل ولا فرادية، فوقعوا في الفوضى وتصادمت الإرادات ومَرَجَت العقول، فارتكسوا في غيِّهم يعمهون، وفي ضلالهم يترددون، فإن الله بحكمته ورحمته خلق الإنسان ووضع فيه الشهوة التي تدعوه إلى جميع ما تشتهيه النفس، وعند الاسترسال مع هذه القوة لا يقف عند حد الاعتدال الواجب، بل توقعه في فساد عريض. ولكن من رحمته وضع فيه العقل الذي يميز به بين الأمور النافعة التي ينبغي إيثارها والأمور الضارة التي عليه اجتنابها، فوقف العقل الصحيح معدِّلاً للشهوة ومانعاً لها من الاسترسال

المهلك بما يشاهده من أضرار وأخطار، ورغب في خير الدنيا والآخرة لمن آثر ما يدعو إليه العقل والشرع من الخير والاحتماء من الشر وتقديم الوازع الديني العقلي على الوازع البهيمي بما له من الآثار الجميلة عاجلاً وآجلاً؛ قال تعالى:

**﴿فأمّا من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى﴾**

[سورة النازعات: الآيات ٣٧ ـ ٣٩]

فهذا جزاء الطاغي المسترسل مع الشهوات البهيمية الداعية إلى الطغيان، ثم قال:

**﴿وأمّا من خافَ مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾** [سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]

فهذا جزاء من قَدّم خوف الله على رغباته المطلقة الضارة، وراقب نفسه عن جماحها في الهوى المُردي، فإن الهوى يدعو صاحبه إلى ترك الواجبات والمستحبات طلباً للراحة الحاضرة وإيثار الكسل، وإلى التجرّؤ على المحرمات التي في النفس داعٍ قويٌّ إليها، فإذا لم يكبحه بخوف الله وخَشية العقوبة استرسل به إلى الطغيان فلم يتورّع عن محرَّم ولم يقم بواجب وهذا هو الهلاك الأبدي، فإذا خاف ربه وراقبه وعلم ما عليه من الواجبات وما هو محتّم عليه من ترك المحرمات، وجاهد نفسه وهواه على القيام بذلك فقد أفلح وأنجح؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

# الفصل الخامس والعشرون

## في أن القرآن شفاء لما في الصدور من الأمراض ورحمة جالبة للخير

قد أخبر الله في عدة آيات من كتابه أن القرآن شفاء من الأمراض وخصوصاً الأمراض القلبية، وأنه رحمة تحصل به الخيرات والكرامات: فبه تزول المكاره، وبه تحصل المحابّ. أخبر بذلك في عدة مواضع، وشرح الواقع المفصّل لهذا الأمر العام في مواضع عند كلامه على التشريع وتفصيل الأوامر والنواهي؛ فصّل الأمراض القلبية وشخّصها وبيّن أضرارها ومفاسدها الكثيرة، وذكر العباد كيف يسعون في إزالتها واقتلاعها وتوجيهها إلى ما ينفع ولا يضر، ولنذكر لهذا الأصل أمثلة يتضح بها الأمر.

فمنها أن الشح طبيعة نفسية ومرض داخلي في قوله:

﴿وأحضرت الْأَنفسُ الشُّحَّ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

وأن الإنسان مجبول على محبة المال، وأنه لحب الخير لشديد، وذلك يقتضي إمساكه من كل وجه؛ فهذا المرض موجود في كل النفوس البشرية متغلغل في الضمائر، ولكنه تعالى عالجه بعلاجات قوية نافعة؛ عالجه بقوة تقهر جميع القوى النفسية إذا تمت، وهي قوة الإيمان، وبيّن أن الإيمان يدعو المؤمنين إلى القيام بجميع حقوق الإيمان، وخصوصاً الواجبات الكبار والحقوق الضرورية، كالنفقة في الزكاة، والجهاد وعلى المحتاجين وعلى من لهم حق على الإنسان. وأخبر في عدة آيات أنّ الإنفاق من حقوق الإيمان الكلية الكبار، وأنه لا يتم إيمان عبدٍ حتى يؤدِّي الزكاة، وحتى يُنفق النفقاتِ المأمور بها، وأنَّ مَنْ قَوِيَ إيمانُه لا يتمانع معه خلق البخل والشح، بل يأتي تبعاً منقاداً لداعي الإيمان، وهذا أقوى علاج لهذا الداء. ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: (والصدقة برهان) أي برهان ودليل على صحة إيمان صاحبها، فإن الإيمان

محبوب، ويجب تقديم هذا المحبوب على جميع محابّ النفوس. فمتى تعارض الداعي الطبيعي ـ وهو الشح ـ وداعي الإيمان فعند هذا التعارض يتضح مَنْ هو المؤمن حقاً الذي يؤدِّي كل ما عليه، لا يلتفت إلى شح وبخل ومحبة للمال، ممن لم يصل الإيمان إلى قلبه، وهو الذي يعبد الله على حرف، إنْ سَلِمَ من المعارضات ثبت على دينه، وإنْ عارضه أي هوى يكون انحاز مع الهوى وترك الدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

وعالج هذا الخلق أيضاً بالترغيب المتنوع في النفقات، في الثواب العاجل والآجل، وما فيه من الخُلْف وتنمية خلق الكرم والجود في العبد والأجر المتضاعف الذي لا يدع المؤمن يتجارى مع بخله وشحّه، ويفوت المغانم الجليلة والآثار الجميلة.

وأيضاً يرهب من عقوبات الممسكين وعواقب البخلاء المانعين، فكم حَدَا هذا الترغيب والترهيب إلى البذل في الواجبات والمستحبات بنفوس مطمئنة وقلوب واثقة بوعد الله، خائفة من وعيده، وقرّر ذلك بذكر مآل المحسنين وما نالوا من الخير العاجل والآجل، ومآل الممسكين وكيف كانت عواقبهم أسوأ العواقب، كيف زالت نعمهم ومحابُّهم وحلّت بهم النِّقم والمكاره، ولم يزل يرغبهم في الإنفاق بكل وسيلة، ويخبرهم أن من أطاع الشُّحَّ فقد أطاع الشيطان الذي يعد بالفقر، ويخرج من القلب الثقة بالله، والرحمة بعباد الله، وأن من أنفق فقد أطاع الله وحصلت له المغفرة الشاملة، والرحمة العامة، والفضل والخُلف العاجل، والبركة في الرزق، لم يزل يعالجهم بهذه الأدوية النافعة حتى انقادت نفوس المؤمنين راغبة طائعة مختارة، مؤثرة ما عند الله، مطمئنة بفضله، وربما وصلت الحال بكثير منهم إلى أن ما يعطون أحبُّ إليهم مما يأخذون.

لأهل الكرم هنا حكايات جميلة في بذلهم وإيثارهم، وكيف انقلب ذلك الطبع الجِبِلِّيُّ بالعلاجات الشرعية والأدوية الربانية إلى ضده.

ومن ذلك أنه أَبدى وأعاد في ذمِّ الرياء ومصانعة الخلق، وأنه خُلُق رذيل ساقط دنيء جداً، من أخلاق المنافقين الارذلين المنقطعين عن رب العالمين في تعلقهم به وبما يحبه ويرضاه، فلم يزل يبيِّن لهم رذالة هذا الخلق وإنه لا يتصف به إلا الأراذل من المنافقين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار كما كانوا في الدرك الأسفل من الأخلاق، ويبين أن المرائي مع ضعف دينه قد ضعف عقله. فإنه راءى المخلوقين الفقراء العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من عمل لأجلهم فقد اعتمد على غير معتمد، واتكأ على شفا جرف هار، وأن المخلصين هم أهل الهمم العالية والأجور الفاضلة، وأن الجزاء بحسب الإخلاص، والأعمال بالنيات، وأن العمل القليل من المخلص يزن الأعمال الكثيرة ممن لم يكن كذلك، وأن المخلصين هم الذين يخلصهم في الدنيا من الفتن والآثام؛ ومن العقوبات والآلام، وأنه بإخلاصهم يحلهم المقامات العالية في دار السلام.

لم يزل يعالجهم بهذه العلاجات العالية حتى علموا علم اليقين أنه لا عمل إلاّ بالإخلاص، وأن الإخلاص هو السبب الوحيد المُنْجِي من المكاره المحصِّل للمحابّ كلها، وأن الله لم يخلقهم إلا ليُخْلِصُوا له الدين ويقوموا بعبوديته وحدَه لا شريك له، وأن من راءى الناس بعمله فقد خسر دينه وعقله وعلمَه، وتعلَّقَ بغير متعلق، فأي مرض يبقى مع هذه العلاجات الناجحة الراقية التي هي علاج العزيز الحكيم، الرب الرحيم الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها؟ فتبارك الله رب العالمين.

ومن ذلك داء الكِبْر الذي هو أشرّ الأدواء وأخسُّها وأسقطها، وهو ردّ الحق، واحتقار الخلق والتعاظم عليهم، أخبر في عدة آيات أن هذا ليس من صفات الأزكياء ولا الأخيار من العباد، وأنه من صفات الجبابرة الذين لم يعرفوا ربهم ولم يعرفوا حقيقة أنفسهم، وأن قلوبهم امتلأت من هذا الخيال

الباطل، وهو التعاظم على الحق الذي يجب على جميع الخلق الدخول تحت رِقّه وهو غاية شرفهم، فعبودية الله والافتقار له والخضوع له أكمل خلعة خلعت على العبد، وأفضل عطية يعطاها. فالمتكبر خلع هذه الخلعة العالية، واستبدل بها الخلعة الخسيسة. الكِبْر الذي هو خيال لا يبلغه العبد بالكلية ولهذا قال تعالى:

**﴿إنّ الذين يُجادِلون في آياتِ اللَّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم إنْ في صدورِهم إلاّ كِبْرٌ ما هم ببالغيه، فاستعذْ بالله إنه هو السميع البصير﴾**

[سورة غافر: الآية ٥٦]

وكذلك الكبر على الخلق واحتقارهم وازدراؤهم؛ لا ريب أنه شرُّ الأخلاق كما قال ﷺ: (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم)؛ ولو علم المسكين ماذا فاته من الخير وماذا حصل له من الشر والمقت لناح على نفسه ونَدَبها، وعلم أنه وضعها في أسقط المواضع، وعرّضها للعقوبات المتنوعة. حذَّرهم من هذا الخلق الرذيل بأنه لا يحب المستكبرين، بل يمقتهم أشد المقت ويوقع عليهم اللعنة منه ومن عباده، وأن النار مثوى المتكبرين؛ وأن من تكبر أهانه اللَّهُ وخذله، ومن تواضع أكرمه ورفعه، وبما في خلق التواضع من الخير والبشارة والثواب العاجل والآجل، وأن المتواضع قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الرحمة، قريب من الجنة، بعيد من النار، والمتكبر بضده. فما زال الله يشرح لهم عن هذا الخلق ويصوره بأشنع صورة ويذكر آثاره القبيحة حتى اقْتلعه من قلوب المؤمنين، واستبدلوا به خلق التواضع الجميل، خلق الأنبياء والأصفياء والأولياء.

ومن ذلك داء الحسد، والغل، والحقد، والغش، للعباد؛ أخبرهم أنه خلق الأراذل وأنه موجب لسخط الله وعقابه ونقص الإيمان وخلو القلوب من النصح الذي هو أساس الخير. وأنه خلق الجبابرة الذين أوقع بهم العقوبات

كقوم شعيب وغيرهم، وأنها من البغي الذي يعود ضرره على الباغي، وأن القلوب المتصفة به قلوب منحرفة عن الخير مقبلة على الشر، وكفى بهذا شراً وضرراً. وبمقابلة ذلك أخبرهم بأن النصح وسلامة الصدور من أخلاق الأنبياء وأوصاف الأصفياء، وأن الدين هو النصيحة بأكملها، وأن من خلا من النصيحة فقد فقدَ دينه وفقد أخلاقه، وأن خواص المؤمنين هم الذين يدعون ربهم ويجتهدون في زوال هذا الخلق عنهم فيقولون:

**﴿ربَّنا اغفرْ لَنا ولإخواننا الذينَ سَبَقُونا بالإيمان، ولا تجعلْ في قلوبِنا غِلًّا لِلَّذين آمنوا، ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾**

[سورة الحشر: الآية ١٠]

وبأن من جمع الله له بين محبة الله والنصح لعباد الله فقد جمع كل خير.

ما زال الله في كتابه وعلى لسان رسوله يعالج العباد عن هذا الخلق بهذه العلاجات العالية الناجحة المضمون لها الشفاء، حتى ظهرت آثارها على المؤمنين وبدت أنوارها وخيراتها على المستجيبين.

ومن ذلك داء الغفلة والإعراض عن الله وعن طاعته: بيَّن أنه مناف لما خُلِق له العباد، فإن الله خلقهم ليعبدوه، وأسدى عليهم النِّعم ليشكروه، فينقلهم بذلك من نعم إلى أكبر منها وأن الغافلين المعرضين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم: أنساهم مصالحها ومنافعها حتى أهملوها وضرُّوها غاية الضرر، وأن غاية المعرض أنه أعرض عمن كل السعادة والخير والفلاح في الإقبال عليه، إلى من كل الشقاء والخيبة والخسران في الإقبال عليه؛ استبدل الخسيس بالنفيس، والأمور الدنية عن الأمور العلية، وأن المعرضين يُيَسَّرُون للعُسرى ويجنَّبون اليُسرى، ولا يزالون ينتقلون من شقاء إلى آخر، وأنهم حرموا الخيرات وحصلوا على الشرور والحسرات، ونَعَى على المعرضين أحوالَهم كلها، وأن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ما أغنت عنهم شيئاً، ولا استفادوا منها إلّا قيام الحجة، فتبّاً للمعرضين، وما أقبح أحو ل الغافلين.

ثم في مقابلة ذلك يذكر حالة المُنِيبين المقبلين عليه الراجين لفضله الطامعين في بره، وأنه تعالى سيجازيهم من خيره وبره العاجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنهم في حياة طيبة ونعيم عاجل وطمع في نعيم آجل. وأخبر أن لهم الفوز المطلق والسعادة الأبدية، فبهذه الأدوية الجليلة أقبلت القلوب إليه، وصغت إليه الأفئدة وتزودت من طاعته أكمل حظ وأوفر نصيب، وقَوَّى ذلك أن القلوب الصحيحة مجبولة على محبة الكمال، وعلى محبة من أحسن إليها، والله تعالى له الكمال المطلق التام من جميع الوجوه، لا غاية لكماله ولا منتهى لجلاله، ومنه النعم كلها، ظاهرها وباطنها، فياويح المعرضين الغافلين عنه، ويا سعادة المقبلين.

فهذه أمثلة توضح لك وجه أن هذا القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور، ورحمة وهدى، قِسْ عليها كل داء قلبي وبدني، وبالله التوفيق.

## الفصل السادس والعشرون

### الإسلام مستقل كامل في عباداته ومعاملاته ونظمه كلها

قال الله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

وهذا يشمل الكمال من كل وجه، وقال تعالى:

﴿إنَّ هذا القرآن يَهدي للتي هي أقوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

أي أكمل وأتم وأصلح من العقائد والأخلاق والأعمال والعبادات والمعاملات والأحكام الشخصية، والأحكام العمومية وقال تعالى:

وهذا يشمل جميع ما حكم به، وأنه أحسن الأحكام وأكملها وأصلحها للعباد، وأسلمها من الخلل والتناقض، ومن الشر والفساد، إلى غير ذلك من الآيات البينات العامة والخاصة.

أما عقائد هذا الدين وأخلاقه وآدابه ومعاملاته، فقد بلغت من الكمال والحُسن والنفع والصلاح، الذي لا سبيل إلى الصلاح بغيره، مبلغاً لا يتمكن عاقل من الريب فيه، ومن قال سوى ذلك فقد قدح بعقله وبين سَفَهَهُ ومكابرته للضرورات.

وكذلك أحكامه السياسية ونظمه الحكمية والمالية مع أهله ومع غيرهم فإنها نهاية الكمال والأحكام والسير في صلاح البشر كلهم، بحيث يجزم كل عارف منصف أنه لا وسيلة لإنقاذ البشر من الشرور الواقعة، والتي ستقع، إلا اللجوء إليه والاستظلال بظله الظليل، المحتوي على العدل والرحمة والخير المتنوع للبشر، المانع من الشر، وليس مستمداً من نظم الخلق وقوانينهم الناقصة الضئيلة، ولا حاجة به إلى موافقة شيء منها؛ بل هي في أشد الضرورات إلى الاستمداد منه، فإنها تنزيل العزيز العليم الحكيم العالم بأحوال العباد، ظاهرها وباطنها، وما يصلحها وينفعها، وما يفسدها ويضرها؛ وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وأعلم بأمورهم، فشرع لهم شرعاً كاملاً مستقلاً في أصوله وفروعه، فإذا عرفوه وفهموه وطبّقوا أحكامه على الواقع صَلُحت أمورهم، فإنه كفيل بكل خير، ومتى أردت معرفة ذلك فانظر إلى أحكامه، حكماً حكماً، في سياسة الحكم والمال والحقوق والدماء والحدود، وجميع الروابط بين الخلق تجدها هي الغاية، التي لو اجتمعت عقول الخلق على أن يقترحوا أحسن منها أو مثلها تعذر عليهم واستحال.

وبهذا وشَبَهِهِ نعرف غلط من يريد نصر الإسلام بتقريب نظمه إلى النظم التي جرت عليها الحكومات ذات القوانين والنظم المنصورة، فإنها هي التي تتقوّى وتقوّى إذا وافقته في بعض نظمها، وأما الإسلام فإنه غني عنها، مستقلٌ بأحكامه، لا يضطر إلى شيء منها؛ ولو فرض موافقته لها في بعض الأمور، فهذا من المصادفات التي لا بدّ منها، وهو غني عنها في حال موافقتها أو مخالفتها. فعلى من أراد أن يشرح الدين ويبين أوصافه أن يبحث فيه بحثاً مستقلاً لا يربطه بغيره أو يعتز بغيره، فإن هذا نقص في معرفته وفي الطريق التي يبصر بها، وقد ابتلي بهذا كثير من العصريين بنية صالحة، ولكنهم مغرورون مغترُّون بزخارف المدنيّة الغربية التي بنيت على تحكيم المادة وفصلها عن الدين، فعادت إلى ضد مقصودها، فذهب الدين ولم تصلح لهم الدنيا، ولم يستطيعوا أن يعيشوا فيها عيشة هنيئة ولا يحيوا حياة طيبة، ولله عواقب الأمور.

أما الإسلام فقد ساوى بين البشر في كل الحقوق، فليس فيه تعصبُ نسب، ولا عنصر، ولا قطر ولا غيرها، بل جعل أقصاهم وأدناهم في الحق سواء، وأمر الحكام بالعدل التام على كل أحد في كل شيء، وأمر المحكومين بالطاعة التي يتمُّ بها التعاون والتكافل، وأمر الجميع بالشورى التي تستبين بها الأمور وتتضح فيها الأشياء النافعة فتُؤثَر، والضارة فتترك.

# الفصل السابع والعشرون

## في الرياضة

وهي التمرن والتمرين على الأمور التي تنفع في العاجل والآجل، والتدريب على سلوك الوسائل النافعة التي تدرك بها المقاصد الجليلة، وهي ثلاثة أقسام:

رياضة الأبدان، ورياضة الأخلاق، ورياضة الأذهان؛ ووجه الحصر أن كمال الإنسان المقصود منه تقوية بدنه لمزاولة الأعمال المتنوعة؛ وتكميل أخلاقه ليحيا حياة طيبة مع الله ومع خلقه، وتحصيل العلوم النافعة الصادقة وبذلك تتم أمور العبد، والنقص إنما يكون بفقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

والأقسام الثلاثة مما حثّ عليها الشرع والعقل، ولو لم يكن إلّا الاستدلال بالقاعدة الشرعية العقلية الكبيرة، وهي أن الوسائل لها أحكام المقاصد، وأن الأمر الذي يتم به المأمور به مأمور به، أمر إيجاب أو استحباب: لكفى دليلًا وبرهاناً على العناية بالرياضة بأنواعها.

أما الرياضة البدنية فبتقوية البدن بالحركات المتنوعة وبالمشي والركوب وأصناف الحركات المتنوعة، ولكل قوم عادة لا مشاحة في الاصطلاحات فيها إذا لم يكن فيها محذور. وإذا تدبرت العوائد الشرعية في الحركات البدنية عرفت أنها مغنية عن غيرها، فحركات الطهارة والصلاة والمشي إلى العبادات ومباشرتها، وخصوصاً إذا انضاف إلى ذلك تلذُّذُ العبد بها وحركات الحج والعمرة والجهاد المتنوعة، وحركات التعلم والتعليم والتمرين على الكلام والنظر والكتابة وأصناف الصناعات والحرف كلها داخلة في الرياضة البدنية. ويختلف نفع الرياضة البدنية، باختلاف الأبدان قوة وضعفاً ونشاطاً وكسلا،

ومتى تمرن على الرياضة البدنية قويت أعضاؤه واشتدت أعصابه وخفت حركاته وزاد نشاطه واستحدث قوة إلى قوته يستعين بها على الأعمال النافعة، لأن الرياضه البدنية من باب الوسائل التي تقصد لغيرها لا لنفسها، وأيضاً إذا قويت الأبدان وحركاتها ازداد العقل وقوي الذهن وقلّت الأمراض أو خفت، وأغنت الرياضة عن كثير من الأدوية التي يحتاجها أو يضطر لها من لا رياضة له.

ولا ينبغي للعبد أن يجعل الرياضة البدنية غايته ومقصودَه فيضيع عليه وقته، ويفقد المقصود والغاية النافعة الدينية والدنيوية، ويخسر خسراناً كثيراً كما هو دأب كثير من الناس الذين لا غاية لهم شريفة، إنما غايتهم مشاركة البهائم فقط، وهذه غاية ما أحقرها وأرذلها وأقل بقاءها.

وأما رياضة الأخلاق فإنها عظيمة صعبة على النفوس، ولكنها يسيرة على من يسّرها الله عليه، ونفعها عظيم وفوائدها لا تنحصر، وذلك أن كمال العبد بالتخلق بالأخلاق الجميلة مع الله ومع خلقه، لينال محبة الله ومحبة الخلق، ولينال الطمأنينة والسكينة والحياة الطيبة، وشُعبها كثيرة جداً. ولكن نموذج ذلك أن يمرن العبد نفسه على القيام بما أوجب الله عليه ويكمله بالنوافل على وجه المراقبة والإحسان كما قال ﷺ في تفسير الإحسان في عبادة الله: (أن تعبُدَ اللَّهَ كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنه يَراك)، فيحاسب العبد نفسه على القيام بها على هذا الوجه الكامل أو ما يقاربه، ويقاطعها على تكميل الفرائض، والجد على إيقاعها على أكمل الوجوه، وكلما رأى من نفسه قصوراً أو تقصيراً في ذلك جاهدها وحاسبها وأعلمها أن هذا مطلوب منها؛ ويجاهدها على تكميل مقام الإخلاص الذي هو روح كل عمل، فالعمل إذا كان الداعي لفعله وتكميله وجهَ الله وطلب رضاه والفوز بثوابه، فهذا العمل المقبول الذي قليله كثير، وغايته أشرف الغايات ونفعه مستمر دائم، فإذا رأى من نفسه إخلالاً وتقصيراً بهذا الأمر، لم يزل بهاحتى يقيمها على الصراط

المستقيم، بحيث تكون الحركات الفعلية والقولية كلُّها خالصة لله تعالى، مراداً بها ثوابه وفضله، فلا يزال العبد يمرن نفسه على ذلك حتى يكون الإخلاص له طبعاً، ومراقبة الله له حالاً ووصفاً؛ وبذلك يكون من المخلصين المحسنين، وبذلك تهون عليه الطاعات، وربما استحلى في هذا السبيل مشاق الطاعات، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء.

وكذلك يمرِّن نفسه على التخلق بالأخلاق الجميلة مع الخَلْق على اختلاف طبقاتهم؛ فيحسن خلقه للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ويعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه، بقول أو فعل، ويمتثل ما أرشده الله إليه بقوله:

﴿ادفَعْ بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌ حميم. وما يُلقَّاها إلَّا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلَّا ذو حظٍّ عظيم﴾

[سورة فُصِّلت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

أخبر تعالى أنهـا من أعظم الحـظوظ المطلوبـة، وأنه لا يـوفق لها إلا الصابرون الذين مَرَّنوا نفوسهم وراضـوها على التـزام هذه الأخـلاق، ووطَّنوها على الاتِّصاف بها، فتوطين النفس على كل أمر ممكن حدوثه من الناس، من أقوال وأفعال، وعلى الصبر عليه عون كبير على التوفيق لهذا الخلق الجليل. وكذلك يمرِّن نفسه ويروضها على النصـح لجميـع الخلق بقوله وفعله وجميـع حركاته، فإن النصـح هو غايـة الإحسان إلى الخلق وهو الدين الحقيقي، ويمرِّنها على الصدق والعدل واستواء الظاهر والباطن. فهذه الرياضة لا يتم القيام بحقوق الله وحقوق عباده إلاّ بها، وكل أمر من الأمور يحتاج إليها فيه، فإن النفس مجبولة على الكسل وعدم النهوض إلى المكارم، فلا بد من مجاهدتها على ما تصلـح به أمورها.

وأما رياضة الأذهان فهو الاشتغال بالعلوم النافعة وكثرة التفكـر فيها والابتداء فيما يسهل على العبد منها؛ ثم يتدرج به إلى ما فوقه، وتعويد الذهن

السكون إلى صحيح العلوم وصادقها، وذَوْدِهِ عن فاسدها وكاذبها وما لا نفع فيه منها، فإن من تعوّد السكون إلى الصدق والصحيح، والنفور من ضده، فقد سلك بفكره وذهنه المسلك النافع، وليداوم على كثرة التفكّر والنظر، كما حثَّ الله على ذلك في كتابه في عدة آيات.

وأنفع ما ينبغي تمرين الذهن عليه كلام الله وكلام رسوله، فإن فيهما الشفاء والهدى، مجملاً ومفصَّلا، وفيهما أعلى العلوم وأنفعها وأصلحها للقلوب والدين والدنيا والآخرة.

فكثرة تدبُّر كتاب الله وسنة رسوله أفضل الأمور على الإطلاق، ويحصل فيها من تفتيح الأذهان، وتوسع الأفكار والمعارف الصحيحة، والعقول الرجيحة، ما لا يمكن الوصول إليه بدون ذلك، وكذلك التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، من السموات والأرض وما أودع فيهما من المخلوقات والمنافع ليستدل بها على التوحيد والمَعَاد والنُّبوة وبراهين ذلك، وليستخرج منها ما فيها من المنافع النافعة للناس في أمور دينهم ودنياهم، فمن عوّد نفسه ودرَّبها على كثرة التفكر في هذه الأمور وما يتبعها، فلا بد أن تترقى أفكاره وتتسع دائرة عقله وينشحذ ذهنه؛ ومن ترك التفكر جمدت قريحته وكلّ ذهنه، واستولت عليه الأفكار التي لا تسمن ولا تُغني من جوع، بل ضررها أكثر من نفعها.

ومن الأفكار النافعة الفكر في نعم الله، الخاصة بالعبد والعامة، فبذلك يعرف العبد أن النعم كلها من الله، وأنه لا يأتي بالخير والحسنات إلّا الله، وأنه لا يدفع الشر والسيئات إلّا هو، وبذلك تستجلب محبة الله وبه يوازن العبد بين النعم والمحن، وأن المحن لا نسبة لها إلى النعم بوجه من الوجوه، بل إنها تكون في حقِّ المؤمن القائم بوظيفته. الصبر نعمة من الله، فكل ما يتقلب فيه المؤمن فهو خير له، لأنه يسعى بإيمانه ويكتسب به في جميع تنقلاته، وهذه أفضل حلى الإيمان وثمراته البهيجة، وكذلك من أنفع الأفكار

الفكر في عيوب الناس وعيوب الأعمال والتوصل إلى الوقوف عليها، ثم السعي في طريق إزالتها، فبذلك تزكو الأعمال وتكمل الأحوال، وبالله التوفيق.

## الفصل الثامن والعشرون

### في أن الأنبياء، صلى الله عليهم وسلم، بيّنوا للناس غاية البيان العلوم العقلية والنقلية، وأن علومَهم هي الصحيحة النافعة في جميع المطالب العالية: العقائد والأخلاق والأعمال

وبيان ذلك على وجه الإجمال والاختصار أن العلوم قسمان: علوم سمعية تنبني على صدق المتكلم وبيانه، وعلوم عقلية تنبني على صحة الفطرة وسلامتها وعدم انحرافها:

أما الأول فإنه لا أصدَق من الله ورسوله قِيلًا وحديثاً، ولا أعظم وأوضح من بيان الله ورسوله؛ وقد تكفّل الكتاب والسنة على وجه التفصيل ببيان جميع ما يحتاجه العباد من العقائد والأخلاق والأعمال والحقوق والمعاملات تفصيلاً وتوضيحاً لو اجتمعت العقلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم لم يقدروا أن يأتوا بشيء يقاربه في الحسن والتوضيح والإحكام والتفاصيل الصادقة عن أمور الغيب وعن الأحكام الشرعية، والمعاملات بين الخلق على اختلاف مراتبها. وكلما أمعن العقلاء بمعرفة الكتاب والسُّنة عرفوا من ذلك ما تخضع له العقول، وتعترف أنه حاوٍ للكمال المطلق من جميع الوجوه.

وأما بيان الله ورسوله للعلوم العقلية فإن في الكتاب والسنة من البراهين العقلية والأدلة الحسية، وتنبيه العقول على جميع المطالب العالية ما لو جمعت جميع ما عند النظار والمتكلمين من البراهين لكان جزءاً يسيراً بالنسبة لما في الكتاب والسنة؛ مع وضوح دلالته وسلامته من الغلط والنقص

والاختلال بوجه من الوجوه؛ وهي براهين يفهمها العالم والجاهل والذكي والبليد؛ وإذا أردت نموذجاً لهذا الأصل فانظر إلى أهم الأصول وهي التوحيد والرسالة وإثبات المعاد. انظر ماذا في الكتاب والسُّنة على كل واحد من هذه الأصول الثلاثة، من الأدلة العقلية الفطرية الواضحة البينة.

أما التوحيد فانظر إلى هذا الحصر العقلي الذي يفهمه كل أحد ويعترف به كل أحد، إلاَّ من كابَرَ الحس والواقع، حيث قال للمتكبرين:

**﴿أَمْ خُلقوا من غير شيء أَمْ هم الخالقون. أم خَلَقُوا السمٰواتِ والأرضَ﴾** [سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦]

فإن كل أحد يعلم علم يقين أنهم قد خُلِقُوا وأنهم لم يَخْلُقُوا أنفسهم، فإن هذه أعظم المحالات، ولا وُجدوا من غير موجد، فتعين أن الله هو الذي خلقهم، فاضطر العقول إلى الاعتراف بهذا الأمر البين الواضح.

وكذلك إخباره بأن له المثل الأعلى؛ فكل كمال موجود في المخلوقات لا يتضمن نقصاً، فالذي أعطَى الكمال أحقُّ بالكمال، وكل نقص تنزه عنه المخلوق المربوب فالله أحق بالتنزه عنه. وهذا برهان عقلي فطري واضح، فإن معطي الكمال أحقُّ بالكمال من غيره.

وكذلك تنبيه العباد في عدة مواضع من كتابه على النظر في عظمة السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وحسنها وانتظامها وكثرة ما فيها من المنافع.. أليس هذا من أبلغ الأدلة على عظمة خالقها وكمال قدرته، وشمول حكمته ورحمته، وإحاطة علمه بالكليات والجزئيات.. وأخص من ذلك أنه أمرنا أن ننظر ونتفكر في أنفسنا وما فيها من العجائب الدالة على وحدانية الله وعظمته، وأنه لا يستحق العبادة إلاّ هو، ولا رب سواه.

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنه واحد

وكذلك دلّهم دلالة عقلية على توحيده، وأنه لا يستحق العبادة والتأله إلّا هو، بأنه المتفرد بالخلق للمخلوقات وتدبيرها ورزقها وتسخيرها وأنه ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكن، فمن كان هذا وصفه المعترف به بين الخليقة: بَرِّها وفاجِرِها، كان من المعلوم بالعقل والفطرة أنه الواحد الذي لا يستحق العبادة إلا هو.

وكذلك دلَّهم في عدة مواضع بكثرة نعمه وخيراته على العباد؛ وأن جميع النعم منه، وأن رحمته وسعت كل شيء، دلهم بذلك على أن من هذا شأنه فهو الذي يتعيَّن أن يكون هو المحمود المشكور المحبوب المخضوع له المعبود.

وبالجملة فإن الآثار تدلّ على المؤثر، والصنعةُ تدلُّ على صانعها، والمخلوقاتُ تدل على خالقها، فهي أدلة واضحات وبراهين بيِّنات دالَّات على وحدانيته وانفراده بالألوهية والعبودية، كما دلَّت على انفراده بالخلق والرزق والربوبية. وأدلة التوحيد الفعلية كثيرة جداً، بل جميع الموجودات وحركاتها وصفاتها وتنقلاتها كلها براهين على توحيده.

وأما براهين الرسالة العقلية؛ فإننا إذا عرفنا أن ربنا عليم حكيم رحيم واسع الرحمة وعظيم الإحسان، وأن جميع الإحسان المتنوع فهو منه تعالى، وهو الدافع للمكاره كلها، عرفنا أن من أعظم إحسانه ورحمته بَعْثَهُ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ليبيِّنوا للناس ما يحتاجونه ويعرفوهم بربهم وبدينه، ويذكروهم بأيامه. قال تعالى:

**﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهمْ آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

ولقد أيّد الله رسله بالآيات البينات والأدلة القاطعات، جعل تعالى نفس

بعثتهم وما بعثوا به من الدين الحق والهدى والخير والرحمة الشاملة من البراهين العقلية على بعثتهم وصدقهم، وجعل أخلاقهم وما هم عليه من الصفات العظيمة التي لا تكون إلا للكُمَّلِ من الخلق براهينَ على رسالتهم وجعل معجزاتهم المتنوعة الخارقة للعادة، التي لا تكون إلّا بتأييد منه من البراهين على رسالتهم، فما بعث الله نبياً إلاَّ جعل على يده من الآيات ما على مثله يؤمن البشر. وشاركهم محمد ﷺ في جنس براهينهم واختص من بينهم بآيات عظيمة، أعظمها وأبرها هذا القرآن العظيم، الذي مَنْ تأمَّله وعرفَه عرف أنه من عند الله، وأن من جاء به أكملُ الرُّسُلِ وأعمُّهم رسالة، وأن البراهين التي قامت على رسالة محمد ﷺ من حسِّية وعقلية ونقلية لا يقاربها شيء من الآيات والبراهين، فازداد بها المؤمنون إيماناً ويقيناً، وتمَّ بها إيمانهم ويقينهم وعلمهم، وارتفعت بها درجاتهم.

وأما براهين المعاد العقلية، فقد أخبر الله في كتابه بعدة قصص ممن أحياهم الله بعد موتهم، وذلك برهان عقلي حسي على البعث، وذكر خلقة الإنسان، وأن الذي ابتدأ خلقه فإعادتُه أهونُ عليه وأسهل، وذكر من البراهين خلق السموات والأرض، وأنها أكبر من خلق الناس، وذكر إحياء الأرض بعد موتها، وذكر كمال حكمته، وأنه لا يليق به أن يَترُكَ خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون؛ فكمال قدرته وحكمته من أكبر الأدلة على المعاد، وذكر سعة علمه وقدرته في مواضع كثيرة. وأن من جزئيات ذلك بعثة الأموات ومجازاتهم بأعمالهم، خيرِها وشرِّها. وذكر تعالى الاستدلال بالموتة الصغرى، وهي النوم، على الموتة الكبرى، ورد الأرواح في الأجساد؛ على ردِّ الأرواح في الأجساد، وأعاد هذه البراهين في الكتاب وأبداها لوضوحها وقوتها، وأن المنكِرين للبعث ليس عندهم إلّا مجرد استبعادات من عقول سخيفة مبنية على قياس الرب العظيم وقدرته وعظمته بالمخلوق الناقص الضعيف في كل أوصافه. وهذه أجناس الأدلة؛ فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أفرادها التي لو بسطت لبلغت مجلدات، وهي براهين عقلية حسية مشاهدة.

وأما البراهينُ النقلية فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام أخبروا بذلك وفصلوه؛ وقرروا توحيد الله وصدق رسله والجزاء والبعث. والقرآن يكاد يكون كله في تقرير هذه الأصول الثلاثة وتفصيلها؛ والسُّنّة فيها من التفاصيل والتوضيحات لهذه الأصول شيء كثير يشفي ويكفي. وبالله التوفيق.

## الفصل التاسع والعشرون

### في العفّة والغنى

ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله). هذا خبر منه ﷺ ووعد وترغيب في الاستعفاف والاستغناء عن الخلق. والفرق بين الأمرين فرق ما بين الوسيلة والمقصود وما بين اللازم والملزوم. فإنّ من استغنى بالله وبرزقه وما قسم له الله وأعطاه ولم يلتفت إلى غير ربه وغير فضله وإحسانه استعف عن الخلق ولم يعلق بهم قلبه لا خوفاً ولا رجاءً ولا طمعاً ولا رغبة؛ وهذه المرتبة أعلى المراتب وأشرفها. ولهذا خلق الله العباد ليعبدوه وحدَه، ويطلبوا الرزق والنصر منه وحدَه، ويعلّقوا رجاءهم وطمعهم وسؤالهم بالله وحدَه، ويرضَوْا بقضائه وقسمه وقدره ولا يعلّقوا شيئاً من ذلك بالمخلوق، مع بذلهم الأسباب التي يدركون بها هذه الأمور الجليلة. ولهذا قال ﷺ: (ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله). أي من اجتهد على تحصيل العفة والاستغناء بحسب ما يقتدر عليه ويستطيعه من الأسباب، وبذل جهده وجاهد نفسه على ذلك أعانه الله ووفقه ويسَّر له هذا الأمر الذي طلبه ورغب فيه وبذل فيه مقدوره لعلمه بمحبة الله له، ولعلمه أنه بهذا يكسب الرزق الحقيقي والمراتب العالية فأراح الله قلبه من تعلُّقه بالخلق وأراحه من تشوُّش الأسباب وإتيانها على غير مراده، واطمأن قلبه

وحَيِيَ حياة طيبة سعيدة، فإنه لا أهنأ حياة ولا ألذّ ممن قطع رجاءه عن الخلق واستغنى عمّا في أيديهم ولم يتطلع إلى ما عندهم بل قنع برزق الله واستغنى بفضل الله، وعلم أن القليل من الرزق إذا كسب القناعة خيرٌ من الكثير الذي لا يغني، فليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى في الحقيقة غنى القلب، غناه بالله وبرزقه المتيسِّر عن رجاء الخلق وسؤالهم والاستعباد لهم في مطالب الدنيا والرضوخ لرقهم.

وهذه المرتبة العالية كلٌّ يحب الوصول إليها والاتِّصاف بها، ولكن أكثر الخلق متخلف عنها، غير عامل بالأسباب الموصلة إليها، ولا متجرد من الموانع المانعة من تحصيلها جهلاً وتهاوناً واشتغالاً بما يضر عما ينفع. وبالمراتب الدنيئة عن المراتب العلية.

فإن قلت: فما هي الأسباب التي تنال بها هذه المرتبة الجليلة؟ قلت: قد ذكرها النبي ﷺ في نفس هذا الحديث، وهي قوله: (يستعفف ويستغني)، أي يسعى في ذلك وفي طلبه، ويسلك كل سبب يوصله إليه.

فأول ذلك مجاهدة نفسه على الاتِّصاف بذلك، ثم سؤال الله والإلحاح عليه أن يُعِينه على الوصول إلى هذه المرتبة، فإن من اجتهد واستعان بالله وألَّح عليه في السؤال لم يخيبه الله، فإنه أمر بالدعاء ووعد عليه الإجابة في جميع الأدعية التي أَفْضَلها وأعلاها أن تدعو الله بالتوفيق لمراضيه، وبالحفظ والوقاية عن مناهيه، فما خاب من سأله ورجاه، ولا من طمع في تحصيل فضله وخيره وهداه.

وإذا علم العبد أن الله تعالى عنده جميع مطالب السائلين، وبيده خزائن الخيرات والبركات، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له، وأن النعم كلها منه لا يأتي بالحسنات إلاّ هو، ولا يدفع السيئات إلاّ هو، وأنه هو النافع الضار، المعطي المانع، وأنَّ

الخلق ليس بيدهم من هذه الأمور شيء، وأنهم جميعاً مهما كانت أحوالهم ومراتبهم فإنهم فقراء إلى الله في كل شؤونهم. . مَنْ عرفَ هذا حق المعرفة: اضطرته هذه المعرفة الجليلة الواصلة إلى القلب إلى تعليق الأمور كلها على الله. وتعلق القلب به وانقطاعه عن الخلق. وعلم العبد أنه كلما قوي تعلُّقه وطمعهُ في فضله أتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا يخطر ببال.

ثم إذا علم حق العلم أن تعلق القلب بالمخلوق يهبط بصاحبه إلى أسفل الدَّرَكات ويجعله حقيراً ذليلاً مَهيناً مُهاناً، وأن ذلك غير نافع ولا مفيد، بل ضرُّه كبير وشره مستطير، متى علم ذلك حق العلم لم يركن إلى أحد من الخلق، ولم يرجهم ولم يملكوا عليه ضميره، حتى يكون أسيراً لهم، عبداً ذليلاً، يأنف من ذلك كله.

ومما يعين على الاستعفاف قوله ﷺ لرجل أوصاه بوصايا فقال: (واجمع اليأس مما في أيدي الناس): أي اعزم عزماً مصمِّماً لا تَرَدُّدَ فيه على انقطاع أملك وقلبك ورجائك عما في أيدي الناس، فإن من يئس من شيء استغنى عنه. فما أنفع هذه الوصية وأحلاها؛ فإن العزم الجامع المصمم الذي لا تردد فيه خير آلة ووسيلة لإدراك جميع المطالب، والخلل يأتي إمّا من عدم العزم أو من ضعفه وتردده، أو من عدم ثبوته واستمراره، فمتى عزم على قطع أمله من الناس وقطع استشراف قلبه وسؤاله لهم، حصلت له العفة التامة والغنى التام؛ ومتى رأى نفسه مفتقرةً إلى ما بين أيديهم ملتفتاً إليه المرة بعد المرة، فإنه لا يزال مفتقراً إليهم ذليلاً لهم خاضعاً لهم، وذلك هو الخسران المبين. ومن أيس من شيء استغنى عنه.

ومما يوجب للعبد الاستعفاف والاستغناء علمُه بأن افتقاره إلى الخلق وتعلقه بهم واستشرافه لما بين أيديهم أو سؤالهم يجلب الهم والغم والأكدار والقلق، وأن استغناءه عنهم وعدم تعلقه بهم يوجب راحة القلب وروحه وطمأنينته. ثم إنه كلما قوي طمع العبد بالله، وقوي رجاؤه لربه، وقوي

توكله، يسَّر الله له كل عسير، وهوّن عليه كل صعب، ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه الهموم كلها وكسب الحرية التي لا أرفع منها ولا أنفع.

## الفصل الثلاثون

### في الصحيحين مرفوعاً: (يسّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا)

ما أجلّ هذا الحديث وأنفعه وأجمعه لكل خير؛ وهو يجمع جميع الأسباب التي تنشط العاملين وتبعث عزائمهم على الخير؛ وذلك أن الداعي إلى الخير لا تتم له الدعوة ولا تحصل ثمراتها المطلوبة منها إلّا بترغيب المدعوين وتذكيرهم بالأسباب المرغبة، الداخلية والخارجية وإبعاد الأسباب المثبِّطة حسب الإمكان، وهي كلها مجتمعة في هذا الحديث الجليل، فإن التيسير لأعمال الخير وتهوينَها على العاملين والاقتناع بما تيسر وسمحت به هممهم وعزائمهم، وأمر كل عبر ودعوته بما يناسب حاله وتقتضيه نفسه وطبيعته ويهون عليه، لا ريب في نفعه وسهولة الإجابة إليه، وخصوصاً إذا ضم إلى التيسير: التبشير بخيره وثمراته العاجلة والآجلة، ونفعه اللازم والمتعدي، فسلوك طرق التيسير والسهولة، وتبشير العاملين وترغيبهم لا ريب في نفعه.

وأما سلوك الطريق المضادة لهذا من التعسير وتصعيب الأمور على الناس، وعدم قبول ما جاء منهم حتى يكمل من كل وجه، فإنه أعظم منفِّر عن الخير، وأعظم مثبِّط ومكسل عن الخير، والواقع والتجربة خير شاهد لهذا.

ألا ترى أن الصلاة، وهي أعظم شرائع الدين، وهي العمل الذي يشترك فيه جميع المسلمين، قد أمر النبي ﷺ فيها بما يكون سهلاً حتى على العاجزين حيث قال: (أيها الناس، أيكم أمَّ الناسَ فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والضعيف وذا الحاجة) وقال لإمام أمرَه بأحكام

الصلاة حتى قال: (واقتد بأضعفهم) وقال أنس: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاه ولا أتم صلاة من النبي ﷺ.

فالتخفيف الذي تتم به الصلاة، ولا يحصل منه إخلال بشيء من أمورها، لا شك في نفعه وترغيبه للمصلِّي ولمن يُصلِّي خلفه ويقتدي به؛ وقال في الخطبة: (إن طول صلاة الرجل ـ أي مع عدم التثقيل على الناس ـ وقِصر خطبته مَئِنَّة[1] من فقهه، فأطيلوا الصلاة وقصروا الخطبة).

وكان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم؛ وقال ﷺ منكراً على المتبتِّلين الذين يريدون استغراق زمانهم بالصلاة والصيام والخشونة: (أما أنا فأُصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)؛ وقال: (إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزَوْرِك عليك حقًّا، فآت كلَّ ذي حق حقَّه).

ولما بال الأعرابي الجاهل في المسجد وانتهره الناس، زجرهم ﷺ وتركه حتى قضى بوله ثم دعاه وعلمه بلطف ورفق وقال: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا القذر، إنما بنيت للصلاة والقراءة والذكر والعبادة).

ولما أغلظ له بعض الأعراب الجافين بالقول، وهمّ به الصحابة رضي الله عنهم قال: (دعوه) ثم ألان له القول وبذل له شيئاً من المعروف، فانقاد إلى الحق وحصل المقصود منه، وقال للناس: (إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل له راحلة انفلتت منه، فذهب الناس في طلبها سراعاً من كل جانب، فلم يزدها ذلك إلا نفوراً. فقال صاحبها للناس: دعوني وراحلتي، فلم يزل يناديها ويأخذ من نبات الأرض ليعطيها، فلم يزل كذلك حتى أخذ بزمامها).

وكان ﷺ في دعوته للخلق يدعو كل أحد بما يناسب حاله، وبالطريق التي يعلم حصول المقصود منه بها. وأمر أصحابه أن يدعوا الناس بذلك،

---

(١) المئنة: العلاَمة.

وقال لمعاذ حين بعثه إلى اليمـن: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم). وهكذا شريعته كلها مبنية على السهولة واليسر في ذاتها وأحكامها وشرائعها وفي دعوتها للخلق والأمر والنهي.

ومن النصوص الجامعة في هذا النوع قوله تعالى:

﴿ٱدعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظة الحسنة﴾

[سورة النحل: الآية ١٢٥]

﴿ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلاّ بالتي هي أحسن﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٦]

﴿ٱذهبا إلى فِرعونَ إنّه طغى. فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى﴾

[سورة طه: الآيتان ٤٣، ٤٤]

﴿وقولوا للناس حسنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٣]

وغيرها من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعلى هذا فعلى من أراد التعليم أن يراعي أذهان الطلبة ويعطيهم من الدروس ما يتيسر عليهم فهمه، ويربيهم بصغار العلم قبل كباره، ولا يحمل أذهانهم ما لا يتحملون، وكذلك تعليم الجهال وإلقاء العلوم ينبغي مراعاة الأمور التي يحتاجونها، وأن تشرح لهم شرحاً يسهِّل عليهم فهمه.

وكذلك تمرين الصغار من الأولاد الذكور والإناث على الصلاة وأمور الخير، ينبغي مراعاة قُواهم ورغباتهم، وترغيبهم بالقول والفعل والاكتفاء بما تيسّر مما سمحت به طبائعهم، وتدريجهم من شيء إلى آخر. بل وكذلك دعوة المخالفين للدين ينبغي مراعاة هذا الأصل فيها لما يحصل فيه من النفع العظيم، ولهذا أيضاً جاءت الترغيبات المتنوعة على أعمال الخير وأقوال

الخير، وعلى ترك المحرَّمات، لأنها من أقوى الدواعي إلى توجيه الخلقِ إلى طاعة الله ورسوله.

## الفصل الحادي والثلاثون

### أصول الفضائل ثلاثة: العلم والدين والجهاد

أما العلم: فهو الذي تقوم عليه الأدلة والبراهين، فكل ما دخل في هذا الحد الجامع قيل له علم؛ فيدخل في ذلك العلوم التي يُتَوَسَّل بها إلى الدين وإلى الدنيا وإلى كل مقصود وحقيقة؛ ولكن النافع من هذا ما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنَّة، وما تفرَّع على ذلك، فلا تخرج العلوم النافعة عن الكتاب والسنة. وأمّا الدين الصحيح: فهو طاعة الله وطاعة رسوله بتصديق خبرهما والاعتراف به والتعبد لله بذلك وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فكل من كان أكملَ طاعةً لله ورسوله كان أكمل ديناً.

والجهاد: وحدُّه بذلُ الجهد القولي والفعلي بتنفيذ أمر الله وأمر رسوله في النفس وفي الغير. وذلك تبع القدرة والاستطاعة؛ فمن كان أكمل في هذه الصفات الثلاث العلم، والدين، والجهاد، كان أكملَ وأفضلَ وأرفعَ عند الله درجة؛ وللصحابة منها النصيب الأوفر والحظ الأكمل؛ والآثار أكبر شاهد على ذلك؛ فإن الصحابة، رضي الله عنهم، هم الواسطة بين الأمة وبين نبيِّهم في إيصال جميع العلوم النافعة وفي تنفيذ دينه، فما وصل للأمة من علم ودين إلّا على أيديهم وبسببهم، ولا انتشر الدين في مشارق الأرض ومغاربها إلّا بعلمهم ودينهم وجهادهم، وهم في ذلك الفضل على مراتبهم، وكذلك من بعدهم من أئمة الدين والهدى الذين كانت لهم الآثار الحميدة، والنفع الكثير، والفضائل الغزيرة، إنما ينبوع ذلك ومادته وأصله من هذه الفضائل الثلاث.

ووجه الحصر ورجوع الفضائل كلها إلى هذه الثلاث، أن النقص الحاصل على الإنسان، إما أن يكون لفقد العلم وحصول الجهل، وذلك ضلال، وفقد للهداية التي تنير للعبد جميع الطرق الدينية والدنيوية، ولا يعرف الوسائل ولا المقاصد، ولا يهتدي إلى كيفية المنافع والمضار.

وإما أن يكون عارفاً بذلك ولكن لا يعمل بمعرفته، يعرف الخير فيتركه، ويعرف الشر فيفعله، يرى المنافع الدينية والدنيوية فينحرف عنها ويشاهد المضار المحققة فلا تدعه الأغراض الضارة حتى يقتحمها، فهذا حصل له النقص الكبير، لا لعدم معرفته، بل لعدم دينه، فإن الدين الصحيح هو الذي يسيِّر العبد في مسالك الخيرات والمنافع، ويمنعه من المضار والمهالك.

وإما أن يكون عارفاً بالأمور، سالكاً مقتضاها، عاملاً بعلمه، لكنه مقتصر على نفسْه لا يسعى في هداية غيره ولا إصلاح سواه؛ قد ملكه الكسل، واستولى عليه الجبن والخور عن الجد والاجتهاد في إصلاح الغير، والسعي في دفع الصائل؛ فهذا نقصه لفقد اتصافه بالجهاد الصحيح؛ فمن كملت له هذه الأمور الثلاثة فهو السابق إلى الخيرات، المستولي على كل الفضائل، حيث عرف الحق فاتَّبَعَهُ والباطل فاجتَنَبَهُ، وجاهد نفسه وغيره للاستقامة على الصراط المستقيم، فأي فضيلة لم تحصل له، وأي خصلة حميدة لم يدركها. . من فاته العلم وقع في الجهل والضلالات، وفاتته الخيرات والمنافع التي لا تستقيم أموره إلّا بها. من فاته العلم كيف يهتدي إلى مصلحة، وكيف يتخلص من مضرة؟ من فاته العلم كيف يتعبد وكيف يعامل، وكيف يتمكن من إقامة الحقوق والقيام بها؟ وكما هو محمود في أمور الدين، فهو محمود في أمور الدنيا.

أما المكاسب والتجارات والحراثة والزراعة والصناعات كلها والأعمال مفتقرة إلى العلم، فهل يتوصل إليها وإلى وسائلها ومقاصدها إلّا بالعلم؟ بالعلم يُرفَعُ العبد درجات، وبالجهل ينزلُ دركات، ثم العلم روحه وزينته

وقوامه وخيره الدين، فلا خير في علم لا دين معه، فأي فضيلة فيمن يعرف الخير والمنافـع فيتركها، ويعرف المضارَّ فيتبعها؟

بالدين تحصل السعادة والفلاح، وبالدين تدرك المطالب الطيبة ويتم النجاح. اللهم أَرِنَا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. من حصل له مقتضى هذا الدعاء وأجيبت دعوته فقد تمَّ علمه ودينه، ولا يتم ذلك ولا يكمل إلاّ بالجهاد. أليس التعلم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟ أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة للخلق من الجهاد؟ أليس تنفيذ الحق ونصره، ورد الباطل وقمعه من الجهاد؟ أليس تعليم الجـاهلين وتنبيه الغـافلين وإيقاظ المعـرضين وموعـظة المعـارضين ومجادلتهم من الجهاد؟ هل تتم الأمور بدون الجهاد؟ وهل يستقيم الهدى والاهتداء ويحصل الصعود والارتقاء إلاّ بالجهاد. .

طوبى لأهل العلم والدين والجهاد. ويا هناءهم بما نالوا من الخيرات والمصالـح والرشاد. لقد نالوا شرف الدنيا وفوز الآخرة، وتمَّت عليهم النعمة الباطنة والظاهرة.

وإذا أردت أن تعرف فضلهم العظيم وارتفاع منازلهم، فَقِسْ كل واحد بضده، اعرف الفرق بين الجاهل والعالم، وبين المؤمن والجاحد، وبين المجاهد والمخلد إلى الكسل:

﴿قُلْ هَلْ يَستوي الذين يعلمون والذينَ لا يعلمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

﴿أمْ مَنْ هُوَ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجُو رحمةَ ربِّه﴾ [سورة الزُّمر: الآية ٩]

أي كمن ليس كذلك؟

كم بين من مليءَ قلبه من معرفة الله ومحبته والإنابة إليه وإخلاص الدين

له، وعمل بمقتضى ذلك من القيام بحقوق الله وحقوق عباده، وبين من قلبُه من التقوى خرابٌ، وأعماله كلها رياء وسمعة، قد خلا قلبه من الإخلاص لله، ومن النصيحة لعباد الله؟

وكم بين من عرف الله وعرف السبيل الموصلة إلى الله؛ وعرف كيف يهدي وينصح عباد الله وجاهد في تحقيق ذلك، وبين الخالي من هذه المعارف التي لا صلاح للعبد ولا للخلق إلاّ بها؟ إنك بمجرد ما تصور أحوالهم وتعرف صفاتِهم، تعرف الفرقَ العظيم بين من أخذ من هذه الصفات الثلاث بأوفر حظ وأكمل نصيب ممن ليس له منها حظ ولا نصيب؛ فنسأل الله أن يمنَّ علينا بالعلم النافع والإيمان الصحيح والجدِّ والاجتهاد في معرفة الحق والعمل به والقيام بحقه وحق عباده.

## الفصل الثاني والثلاثون

### في الوسائل إلى أهم المقاصد

قد جعل الله لكل مطلوب طريقاً وسبباً، متى سلكه العبد أوصله بإذن الله ومشيئته إلى ذلك المطلوب، وبهذا يعلم افتقار الإنسان إلى معرفة الأسباب والوقوف عليها، ثم يستعين الله على سلوكها ليتمَّ له المطلوب؛ فمتى بذل المجهود واستعان بالمعبود وأتى الأمور من أبوابها أفلح وأنجح. والخلل والنقص يأتي من فوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها.

#### الإيمان بالله حقيقة والتقوى

جعل الله هذين الأمرين سببين وطريقين تُنالُ بهما خيراتُ الدنيا والآخرة ويعصمان من شرورها ومن كل مكروه؛ وكم لهذين الأمرين من الثمرات

والفوائد والنتائج الطيبة التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن تدَّبر الكتاب والسُّنة رأى الشارع رتّب عليهما أموراً كثيرة وخيرات غزيرة ورتب على فقدهما ضد ذلك.

حُسن السؤال، وحُسن الإصغاء والتفكر، وكثرةُ التأمل مفاتيح للعلوم كلها. السعيُ في طلب الرزق في السبب المناسب لحال العبد مع الاتكال على الله، والثقة به سبب لحصول الرزق وبركته.

الإلحاح في الدعاء كل وقت مع قوة الرجاء سبب لحصول مطالب الدنيا والآخرة.

الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن نَفَّسَ عن مسلم كربة من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن شاق شاق الله به، ومن ضارَّ ضارَّ الله به، ومن تفرغ لعيوب الناس تفرغ الناس لعيوبه؛ ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن قوي توكله على الله كفاه أمر دينه ودنياه، ومن توكَّل على نفسه أو على غيره، وَكَلَهُ الله إلى ما توكل عليه وخذله ولم يتمَّ له مطلوبه؛ ومن نوى الخير والنصيحة للخلق يسَّر الله أمره وأثابه بالجزاء الجزيل، ومن نوى الشر والغش للخلق تعسرت عليه أموره وجوزي بالعقاب الوبيل.

التواضع وحسن الخلق تنال بالرغبة في مكارم الأخلاق ومعرفة ما لها من الثمرات الجليلة. ومعرفة النفس ومجاهدتها وتمرينها على ذلك يدرك به كل خلق جميل. كما أن إعجاب الإنسان بنفسه وسكر الرياسة والحمق جالبات لسوء الخلق.

المثابرة على الأعمال والصبر عليها، والثباتِ وعدم اليأس أسباب لحصول نتائج الأعمال وثمراتها ـ وضد ذلك سبب للخيبة ـ توطين النفس

على الواردات الكريهة سبب لسهولتها وعدم الانزعاج لوقوعها، ومن القواعد الأساسية قول الشاعر:

وقلّ من جد في أمر تطلَّبَهُ واستصحب الصبر إلّا فاز بالظفر

تعلُّق القلب بالله وحدَه واللهجُ بذكره والقناعة، أسبابٌ لزوال الهموم والغموم وانشراح الصدر والحياة الطيبة، والضدُّ بالضد؛ فلا أضيق صدراً وأكثر همًّا ممن تعلّق قلبه بغير الله، ونسي ذكر الله ولم يقنع بما آتاه الله، والتجربة أكبر شاهد.

حُسن النية والإخلاص لله سببٌ لتيسير الأمور ونجاح الأعمال وكثرة فوائدها وثمراتها، والضدّ بالضد.

الدعوة بالحكمة والتربية بالحكمة، والتعلم بالحكمة سبب للنجاح. ومعنى الحكمة وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، وإتيان الأمور من أبوابها وطرقها، ودعوة كل أحد بما يليق به ويناسب حاله. وتعليمه ما يستطيع فهمَه ويتحملُه ذهنه، وتربيتُه بالتدريج بالأسهل فالأسهل والتوفيق بيد الله.

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإن اليقين يبصِّرُ العبدَ في عقائده وأخلاقه وأعماله، والصبرُ يحمله على السعي والعمل والجد والاجتهاد في الأمور النافعة، وبهما الكمال ـ والنقص من فقد الصنفين أو أحدهما.

الشكر مقرون بالمزيد وسبب بقاء النعم وبركتها ونموها، وهو الاعتراف بنعم المولى والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، وضدُّ ذلك بضده.

أكبر الأسباب للاهتداء بما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنة والوصول إلى الحق في جميع الحقائق والمطالب العالية، العلم اليقينيُّ أن النبي ﷺ هو الغاية في العلم والنصح والبيان؛ فهو أعلم الخلق على الإطلاق وأنصحُهم للخلق، وأعظمُهم بياناً للحق؛ ومتى علم المنصف كمالَ الرسول

في هذه الأمور علم أن كل ما جاء به هو الحق، وأن كل ما خالف ذلك فهو باطل بلا ريب، يعلم ذلك بهذا الأصل الكبير الذي لا يسع مؤمن إلّا الاعترافُ به، ثم يعرف بطلانه بتصوره والأدلة الدالة على بطلانه، فإنه محال أن يكون الحق في غير ما جاء به الرسول، وهذا يتضح بتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه، وقد بيَّن أهل العلم ذلك غاية البيان.

أقوى الأسباب للسلامة من كيد الشيطان وطرقه قوةُ الإيمان بالله وقوة التوكل على الله، وكثرة ذكر الله، والاستعاذة بالله منه، والابتعاد عن جميع أسباب المعاصي والمبادرة للتوبة النصوح إذا وقع منها شيء.

أسباب صحة الأبدان تدبير الأغذية بأن لا يأكل مضرًّا، بل يأكل المناسب له بقصد، بغير إسراف وبغير إدخال طعام آخر قبل انهضامه، والحِمْية عن جميع المؤذيات الداخلية والخارجية، والابتعاد عن أسباب الهم والغم ومعالجة الواقع منها، والابتعاد عن الروائح الخبيثة، وتنظيف البدن من الأوساخ والمسكن العذي والهواء الطري والرياضة كما تقدم شرحها والسعي في الأسباب الجالبة للحياة الطيبة وسعة الصدر واستعمال الأدوية عند الضرورة إليها، وأما دوام استعمالها ولو لأقل سبب، فإنه ينفع من جهة ويضرُّ من جهة أخرى، وقد يكون الضرر أكثر. فينبغي أن يجعل الدواء بمنزلة الأمور الضرورية.

ومن أسباب تحكُّم الآلام ووقوع الأسقام كثرةُ الأوهام وضعف القلب؛ كما أن قوة القلب والطمع في فضل الله والتوكل عليه في رفع النازل من البلاء، ودفع ما لم ينزل سببٌ قويٌّ جدًّا في الصحة ودفع المؤذيات.

أعظم الأسباب لنيل مغفرة الله ورحمته: الإيمان والتوبة والأعمال الصالحة والإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق والعفو عن الناس؛ وجماع ذلك كله طاعة الله ورسوله، قال تعالى:

﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلكم تُرحمون﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

شفاعة النبي ﷺ تُنال بكمال الإخلاص لله وبكثرة الصلاة والسلام عليه، وبحسب اتباعه في أقواله وأفعاله وهديه، وبمحبته وتوقيره ﷺ وتقديم طاعته على طاعة كل أحد من الخلق.

أسباب قبول الأعمال كثيرة، وكلها ترجع إلى شيئين: الإخلاص لله والاتِّباع لرسول الله، فكل من كان أقوى إخلاصاً وأحسن اتِّباعاً كان أعظمَ قبولاً وأكثر مضاعفة وأجل ثواباً وأجراً.

الصبر والثبات والمشاورة والتوكل أكبر الأسباب لحصول النصر على الأعداء، لا سيما إذا انضم إلى ذلك القوة المادية والاستعداد بعلوم الحرب وفنونه، كما ذكر الله هذه الأسباب كلها في سورة الأنفال.

الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، والصدق في المعاملات تقترن به البركة ويقارنه الشرف والاعتبار، وضد ذلك بضده.

الكسل مفتاح الحرمان، والكِبْرُ مفتاح كل شر.

الشُّح والحِرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم، والسماحة مفتاح لكل خير وسبب لكثرة الخير والفضائل، وخصوصاً إذا انضم إليها الصبر، فالصبر والسماحة آثارها جليلة وثمراتها جميلة.

ومن ذلك أن النية أكبر الأسباب وأنفعها وأقربها لحصول المقاصد النافعة، وينبغي أن تفرد بفصل فنقول:

# الفصل الثالث والثلاثون

## في أن النية أساس الأعمال وبها صلاحها

قال تعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه:

﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩]

وقال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرىء ما نوى). فأخبر أن صلاح الأعمال وفسادها بالنيات، وأنه يحصل للعبد من الثمرات والنتائج بحسب نيته؛ ومعلوم أن جميع العبادات لا تصح إلّا بالنية، بأن ينوي ذلك العمل، ويميز بين العادة والعبادات، وبين مراتب العبادات؛ ثم لا بد مع ذلك أن يكون القصد منها والغرض وجه الله وثوابه، وينبغي للعبد في العبادات أن يكون له فيها نية مطلقة عامة، ونية خاصة مقيدة.

فأما النية العامة، فإنه يعقد بقلبه عزماً جازماً لا تردد فيه، أن جميع ما عمله من الأعمال الاعتقادية والبدنية والمالية والقولية، والمركبة من ذلك مقصودُه بها وجهُ الله، والتقرب إليه وطلب رضاه، واحتساب ثوابه، والقيام بما فرضه وأحبه الله لعبده، وأنه عبد مطلق يتصرف تصرف العبد المملوك فهذه النية العامة التي تأتي على عقائد الدين وأخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة، ينبغي أن يجدِّدها في قلبه كل وقت وحين، لتقوى وتتم ويكمل الله للعبد ما نقص من عمله، وما أخل به وأغفله من حقوق العبادات، لعل الله تعالى يجزيه على تلك النية الشاملة للدقيق والجليل من عمله أجراً وثواباً.

ثم بعد تحقيق هذا الأصل الكبير الذي هو أساس الأعمال، ينبغي للعبد أن يتعبد لله بإخلاص في كل جزء من أعماله، فيستحضر بقلبه أن يعمله لله متقرِّباً به إليه، راجياً ثوابه من الله وحدَه، لم يحمله على ذلك العمل غرض من الأغراض سوى قصد الله وثوابه، ويسأل ربه تعالى أن يحقق له الإخلاص

في كل ما يأتى وما يذر، وأن يقوِّيَ إيمانه ويخلصه من الشوائب المنقصة، وبهذه النية الصادقة يجعل الله البركة في أعمال العبد ويكون اليسير منها أفضلَ من الكثير من عمل من خلا قلبه من هذه النية. ثم إذا عرضت له العوارض المنقصات، كالرياء وإرادة تعظيم الخلق، فليبادر بالتوبة إلى الله ويصرف قلبه عن هذه العوارض المنقصة لحال العبد التي لا تغني عنه شيئاً ولا تنفعه نفعاً عاجلاً ولا آجلاً.

ثم إذا حقق النية في العبادات، فليغتنم النية في المباحات والعادات، فليجعلها بالنية الصالحة عبادة أو قريبة منها، وذلك بأمرين:

أحدهما: أن ينوي أن كل مباح يشتغل به، من أكل وشرب وكسوة ونوم وراحة وتوابعها يقصد به الاستعانة على طاعة الله، والقيام بواجب النفس والأهل والعائلة والمماليك، ويقول: اللهم ما رزقتني مما أحب من عافية وطعام وشراب ولباس ومسكن وراحة بدن وقلب وسعة رزق، فاجعل ذلك خيراً لي ومعونة لي على ما تحبه وترضاه، واجعل سعيي في تحصيل القوت وتوابعه أداءً للأمر وقياماً بالواجب واعترافاً بفضلك ومنتك عليَّ، فإني أعلم أن الفضل فضلُك، والخيرَ خيرُك، وليس لي حول ولا قوة ولا اقتدار على شيء من منافعي ودفع مضاري إلاّ بك. فيتقرب إلى ربه بالاستعانة بالله في ذلك وبالاعتراف بنعمه، ويقصد القيام بالواجب وباحتساب الأجر والثواب، حتى يتحقق بمعنى قوله ﷺ: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في فيّ امرأتك). وقوله: (الساعي على الأرملة والمساكين، كالمجاهد في سبيل الله)، وأحسبه قال: (وكالصائم لا يفطر، وكالقائم لا يفتر).

ثم مع هذه النية العامة التي تحيط بجميع مباحاته وعاداته فليستحضر عند كل جزء من أجزاء عاداته تلك المقاصد الجليلة ليكون قلبه على الدوام ملتفتاً إلى ربه منيباً إليه متعبداً، ويكون اشتغاله بذلك الجزء من عاداته

مصحوباً بحسن القصد، ليتم له الأجر وتحصل له المعونة من الله وينزل الله له البركة، ويكون مباركاً أينما كان.

وليجاهد نفسه على ذلك، فإنه لا يزال يمرِّنها حتى تألفَ الخيرَ وترغب فإذا ذهب إلى دكانه نوى مباشرة البيع والشراء المباح، وقصد الصدق والنصح في بيعه وشرائه، وفعل ما يسهل عليه من محاباة وإحسان إلى من يعامله، وتجنب الغشَّ بكل أنواعه، ونوى بذلك كله قوامَ نفسه وعائلته ومن له حق عليه، وسأل ربه أن يبارك له في معاملته.

وكذلك إذا باشر حرثه أو صناعته أو مهنته التي يتعاطاها فليستصحب النية الصادقة؛ وليستعن ربه في حركاته كلها ويرجو رزقه وبركته، فإن الرجاء وانتظار الفضل من الله من أجل عبادات القلب، وأكبر الأسباب للبركة هذه النية الصادقة، والصدق والتوكل على الله.

وليعلم العبد أن الله مسبب الأسباب وميسِّرُها، فإيَّاك أن تعجب بنفسك وحذقك وذكائك، فإن هذا هو الهلاك، وإنما الكمال أن تخضع لربك وتكون مفتقراً إليه مضطراً إليه على الدوام.

ثم إنه لا بد أن تكون الأمور على ما تحب تارة وعلى ما تكره أخرى؛ فإذا جاءتك على ما تحبُّ فأكثِرْ مِنْ حَمدِ الله والثناء عليه وشكره، لتبقى لك النعم وتنمو وتزداد؛ وإذا أتتك على ما تكره فوظيفتك الصبر والتسليم والرضا بقضاء الله وتدبيره لتكون غانماً في الحالتين، في يُسرك وعُسرك.

ومن هذا ما ذكرناه بقولنا:

# الفصل الرابع والثلاثون

## في ذكر مفاتيح الخير ومفاتيح الشر

قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثمِ والعُدْوان﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقال تعالى: ﴿ولتكُنْ منكم أمةٌ يَدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكرِ وأولئك هم المفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وورد عنه ﷺ أنه قال: (إن هذا الخير والشرَّ خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويلٌ لمن كان مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير).

لا ريب أن الناس في الخير والشر درجات، ولكل درجات مما عملوا ولا ريب أن أعلاهم درجة من سعى في الخير لنفسه ولغيره، كما أن أسفلهم من هو بالعكس.

فينبغي للعبد أن يكون مباركاً على نفسه وعلى غيره؛ باذلاً مستطاعه في الدعوة إلى الخير والترغيب فيه بالقول والفعل والتحذير من الشَّرِّ بكل طريق، ولا يُحَقِّرَنَّ من المعروف شيئاً.

فمن أهم ذلك تعليم العلوم النافعة وبثُّها، فإنها مفتاح الخيرات كلها: ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفق ولين وحلم وحكمة، ومن ذلك أن يسن العبد سنة حسنة، ويشرع مشروعاً طيباً نافعاً يتبعه الناس عليه، فكل من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، كما أن من سنَّ سنة سيئة فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن ذلك بذل النصيحة النافعة في الدين أو في الدنيا، فإن الناصحين مفاتيح للخيرات مغاليق للشر.

وينبغي للعبد عند اختلاطه ومعاشرته لهم ومعاملتهم أن ينتهز الفرصة في إشغالهم بالخير، وأن تكون مجالسه لا تخلو من فائدة أو من تخفيف شرٍّ ودفعه بحسب مقدوره، فكم حصل للموفَّق من خيرات وخير وثواب، وكم اندفع به من شرور كثيرة، وعماد ذلك رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرغبة في الخير نصب عينيه، ونيته مصممة على السعي بحسب إمكانه، واستعان بالله في ذلك، وأتى الأمور من أبوابها ومناسباتها فإنه لا يزال يكسب خيراً ويغنم ثواباً.

وضد ذلك عدم رغبة العبد في الخير يفوِّته خيراً كثيراً؛ فإن كان مع ذلك عادماً للنصح للعباد، لا يقصد نفعهم بوجه من الوجوه، وربما قصد إضرارهم وغشهم لأغراض نفسية، أو عقائد فاسدة، فقد أتى بالسبب الأعظم لحصول المضرّات وتفويت الخيرات، وكان هذا الذي يصدق عليه أنه مفتاح للشر، مغلاق للخير، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن أعظم الأصول فتحاً للخيرات وإغلاقاً للشرور الإيمان التام بالرسول ﷺ، فإذا آمن به إيماناً تاماً، وفهم كلامه ومراده تحقق ما قاله قطعاً، وعلم أن ما ناقض ذلك أو خالفه فإنه باطل، فماذا بعد الحق إلّا الضلال؟ فهذا يغلق على العبد أبواباً من الشرور فَتَحَها أهلُ الكلام الباطل: عارضوا بها ما جاء به الرسول؛ ولكن الإيمان التام وفهم مراد الرسول تماماً يرد كل ما ناقضه. سواء تمكن المؤمن من حل تلك الشبهة التي عورض بها الحق أو لم يتمكن، فإنه قد علم الحق يقيناً بلا تردد، فمحال مع هذا أن يقوم شيء ينقض هذا الدين؛ وهذا أصل نافع جداً قرره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه، ومن ذلك ما ذكرناه بقولنا:

# الفصل الخامس والثلاثون

## إن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته

قال تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً. ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

فرتَّب على التقوى التي أساسها الصدقُ وأداء الأمانة في المعاملة التيسيرَ والخروجَ من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما). وفي السنن مرفوعاً (يقول الله: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه، خرجت من بينهما).

وإنما كان الصدق والبيان وأداء الأمانة في جميع المعاملات سبباً للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين:

**أحدهما**: وعد الله ووعد رسوله والله لا يخلف الميعاد، أَنَّ مَنْ سَلَكَ الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه ما لا يناله الناس بسعيهم وجدّهم وحذقهم، وهذا أمر رباني وجزاء إلهي مشاهد معلوم بالتجربة.

**والثاني**: أن من عامل الناس وعرفوا منه الصدق والنصح اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه، لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أُسِّست المعاملات النزيهة الطيبة، وبذلك مشت أسبابه مع الناس.

وكذلك عقد الشركات بين الشركاء إذا بنيت على الصدق والأمانة أفادت

أهلها خيراً كثيراً، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال مع ما يقترن بذلك من التعاون البدني والسعي المشترك من المنافع ودفع ما يخشى ضرره، كل هذه الأمور أسباب ومفاتيح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب وعدم النصح وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته، ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة، وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب.

## الفصل السادس والثلاثون

### فيما ينبغي سلوكه في معاشرة المؤمنين

أصل ذلك قوله ﷺ: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً)؛ وقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)؛ واعلم أن الناس في معاشرة بعضهم لبعض درجات في الخير والشر لا تنضبط درجاته، وأغلب المعاشرات قليلة الجدوى عديمة الفائدة، بل كثير منها مؤدٍّ إلى الخسران والأضرار الدينية والدنيوية.

ونذكر في هذا الموضع أعلى الأقسام وأنفعَها وأبقاها ثمرة، فإن أدركها المؤمن بتوفيق الله وجدِّه واجتهاده، فقد أدرك كلَّ خير، وإن لم تقوَ نفسه على بلوغها فليجاهِدْها ولو على بعضها، وهي يسيرة على من يسّرها الله عليه؛ فأصل ذلك أن تعقد عزماً جازماً وعقيدة صادقة على محبة جميع المؤمنين، والتقرب إلى الله في هذه المحبة، وتجتهد على تحقيقها على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص، وعلى قلع كل ما يضادها أو ينقصها، فتعتقد أن تحقق القلب بمحبة المؤمن عبادة من أَجلِّ العبادات وأفضل الطاعات؛ فتتخذ جميع

المؤمنين إخواناً، تُحِبُّ لهم ما تحب لنفسك من الخير، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك من الشر، وتَفَقَّدْ قلبَك في تحقيق هذا الأمر الجليل والاتصاف به، والاحتراز من ضده، من الغل والحقد والحسد، والبغض لأحد منهم: ومتى رأيت من قلبك شيئاً من ذلك فبادر بقلعه؛ وسَلِ الله أن لا يجعل في قلبك غِلاً على أحد من المؤمنين، خاصتهم وعامتهم، وميِّز من له في الإيمان مقامٌ جليل، كعلماء المسلمين وعُبَّادِهم بزيادة محبة بحسب مقاماتهم لتكون موافقاً لله في محبته، وتعاهدْ ذلك بالتحبب إلى المؤمنين بطلاقة الوجه، وحسن الخلق، والمعاملة الجميلة، فإنها في نفسها عبادة، وهي جالبة لتحقق القلوب بينك وبين المؤمنين بالمودة والرحمة.

وَوَطِّنْ نفسَك على ما ينالك من الناس من أذى قولي، أو أذى فعلي أو معاملة منهم بضد ما عاملتهم به من الإحسان، فإن توطين النفس على ذلك يسهِّل عليك الأمر وتتلقى أذاهم بضده؛ وليكن التقرب إلى الله عند ذلك على بالك، فإن التقرب إلى الله هو الذي يهوِّن عليك هذا الأمر الذي هو شديد على النفس، واعلم أن هذا الوصف من أوصاف الكُمَّل من أولياء الله وأصفيائه فبادر للاتصاف به، فمن أبغضك وعاداك وهَجَرَك فعامله بضد ذلك لتكسب الثواب، وتكتسب هذا الخلق الفاضل، وتتعجل راحة قلبك، وتخفف عن نفسك هم المعاداة، وربما انقلب العدو صديقاً، والمبغضُ مُحبًّا، كما هو الواقع، وآعفُ عما صدر منهم لله، فإن مَن عفا عن عباد الله عفا الله عنه، ومن سامحهم سامحه الله، ومن تفضل عليهم تفضل الله عليه، والجزاء من جنس العمل؛ ولينصبغ قلبك كل وقت بالإنابة إلى الله، ومحبة الخير لعباد الله، فإن من كان كذلك فقد تأصَّلت في قلبه أصول الخير التي تؤتي أُكُلَها وثمراتِها كل حين بإذن ربها، وبهذا يكون العبد أوّاباً

﴿إنه كان للأوَّابين غفوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥]

وإذا اجتمعت مع الناس فخالقهم على حسب درجاتهم، الصغير

والكبير والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، كل أحد تكلم معه بالكلام الذي يناسبه ويليق بحاله، ويدخل السرور عليه، وبالكلام الذي له به ميدان معلماً للجاهل متعلِّماً ممن هو أعرف منك، متشاوراً مع نظيرك فيما هو الأحسن والأصلح من الأمور الدينية والدنيوية، آخذاً لخواطرهم موافقاً لهم على مطالبهم التي لا محذور فيها، حريصاً على تأنيسهم وإدخال السرور بكل طريق مضمناً كلامك لكل أحد بما يناسبه من النصائح التي تنفع الدين والدنيا ومن الآداب الجميلة وحثهم على قيام كل منهم بما هو بصدده من الحقوق التي لله والتي للخلق، موضحاً لهم الطرق المسهلة لفعل الخير والأسباب الصارفة عن الشر، واقنع بالقليل إذا عجزت عن الكثير؛ واعلم أن قبولهم وانقيادهم مع الرفق والسهولة أبلغ بكثير من سلوك طريق الشدة والعنف، إلا حيث تلجىء الضرورة إلى ذلك فللضرورة أحكام.

## الفصل السابع والثلاثون

### في قصة الرجل المثري مع صاحبه

كان رجل مثرياً قد أعطاه الله من أصناف المال المتنوع من عقار ونقود وعروض وأموال كثيرة، وكان له صاحب يعرف منه النصح والعلم فقال لصاحبه شاكياً له الحال: ألم تر ما أنا فيه من الغنى الواسع والأموال الكثيرة، والناس كالمتفقين على أن من كان كذلك فقد حصلت له السعادة الدنيوية والعيش الهين والحياة السعيدة، وأنا فيما أنا فيه لم أدرك ما ذكروا ولم أزل أتنقل من همّ إلى كدر، ولم تحصل لي اللذة الصحيحة في حياتي؟ فأُحِبُّ أن ترشدني يا صاحبي إلى الحياة السعيدة وإلى الراحة في حياتي. فقال له صاحبه: يا أخي، اعلم أن من أتى الأمور من غير أبوابها وطرقها وسلك للمنافع غير مسالكها لم يدرك المطلوب ولم ينجُ من المرهوب، وأنت

جعلت الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك وحبيبك الوحيد الذي ملك عليك ظاهرك وباطنك ومشاعرك وحواسك كلها، ومن كان كذلك فهو طبعاً لا يستريح في دنياه، فإنه إن حصل عليه كساد أو خسارة في بيع وشراء أو نقص في ثمارٍ أو تشوشت عليه الأسباب في جهة من جهات دنياه، فإنه في كدر فضلاً عن الأكدار التي تنتابه من جهة الأهل والعائلة والمعاملين والمعاشرين واختلاف الإرادات وتعذر الاتفاق والانسجام بينهم من كل وجه أو تعسر ذلك.

فقال له المثري صدقت من هذه الجهات كلها ومن غيرها يأتيني الكدر والهم ملازم لي في كل أحوالي، فهل من سبيل إلى تخفيف ذلك أو زواله بالكلية؟ فقد ضاقت عليّ الحيل والمحاولات وأنا حريص على راحة نفسي بأي سبيل.

فقال له صاحبه يا أخي: السبيل واضح، ولكن ما دامت خطتك على هذا المنوال، فغير ممكن لك العيشة الهنيئة، فإن غيرتَ خطتك وفهمت ما أقول لك، وعملت عليه رجوت لك الخير والحياة الطيبة السعيدة.

فأول ذلك أن تعلم علم اليقين أن الدنيا والأموال المتنوعة ليست هي المقصود لذاتها، وإنما هي مقصودة لغيرها، ووسيلة يتوسل بها العبد إلى منافعه الحقيقية ومطالبه الأبدية وسعادته الأخروية.

فاجعل يا أخي هذا المعنى الذي لا يستريب فيه العقلاء نُصبَ عينيك وقِبلةَ قلبك، ثم اسع في تحصيل الدنيا وفي تصريفها وفي تدبيرها من كل جهة على هذا الأساس، واستصحب النية الصادقة في جميع نواحي حياتك سعياً وتدخيلاً وتصريفاً؛ فإذا عاملت الناس ببيع وشراء وتأجير ومشاركات وغيرها، فاقصد بذلك القيام بالواجبات والمستحبات والاستغناء عن الخلق، واقتصر على المعاملات الطيبة الحلال، واجتهد في أن تكون مكاسبُك كلُّها

حلالاً، ثم تصريفها في الواجبات من الزكاة والنفقات والمستحبات وتوابعها؛ تقرَّبْ بذلك إلى الله، واحتسب عنده الأجر والثواب، واحمد ربك الذي أقدرك على المال ثم وفقك في صرفه في الوجوه النافعة التي تُبرىء بها ذمتك وتكتسب بها الأجر العظيم عند الله، وتكون لك مغنماً لا مغرماً فإنك إن فعلت ذلك هانت عليك النفقات وبذلتها بسماحة ورغبة وعلم بأنها تكسب لها أمثالها أضعافاً مضاعفة.

ومع ذلك فإذا حصل فيها ما تحب من زيادة ونمو وكمال فأكثر من حمد الله وشكره، وإذا حصل فيها ما تكره فاحتسب ذلك عند الله واعتبرها من المصائب التي يعوِّض الله الصابرين عليها من الأجر أضعاف أضعاف ما فاتهم، فإنك إن وُفِّقت لذلك حصلتْ لك الحياة الطيبة، وهي راحةُ القلب وطمأنينته، وطمعه في فضل الله وثوابِهِ في كل حالة وفي كل وقت. ومع ذلك فإنه لا يفوتك من نصيبك من الدنيا ولا من لذاتها شيء بل تستوفيها كاملة هنيئة، تفوق فيها لذة المترفين ونعيمهم، ويجمع الله لك بين خيري الدنيا والآخرة. واعلم أن هذا ليس بعسير، بل هو يسير على من يسّره الله عليه، ومن ذاق طعم هذه الحياة علم أن هذه الحياة التي يسعى لها الخلق وأرباب الدنيا وجمهورهم لم يدركها، بل مات بغمِّه ولم يذقْ لها طعماً، ولكنك يا أخي تحتاج إلى تمرين كثير، وتغيير لطبيعتك الأولى التي مَلَكَتِ الدنيا عليك مشاعرك وأمورك كلها، وتستعين الله على ذلك، فمن توكَّل عليه أعانه وكفاه. فوا أسفاً لمن أُعطوا نصيباً من الدنيا فخسروها، وأعطوا الأسباب التي تدرك بها الخيرات فلم يستعملوها، ووهبت لهم المواهب المتنوعة فلم ينتفعوا بها ويستغلوها؛ وما أحسن ما قاله الحكيم في شعره:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

# الفصل الثامن والثلاثون

## في قصة الفقير مع صاحبه

كان رجل فقير قد طال فقره، وكان فيه بقية من إنسانية، فشكا إلى صاحبه الذي يعرف فيه النصح والرأي السديد حاله، فقال: قد كنت تعرف حالي في الفقر، وأنا متواطىء على الفقر، ولكني أريد منك نصيحة تخفّف عني بعض ما أجده من الهموم والغموم التي لازمتني في ليلي ونهاري، وهي زيادة عما أجد من ألم الفقر وبأسائه وعنائه.

فقال له صاحبه: يا أخي اعلم أن الفقر نوعان:

أحدهما فقير شريف، والآخر فقير وضيع، فاجتهد أن تكون من الشرفاء الذين فقرهم لا يتعدّى فقر الإفلاس من الموجودات المالية، وإياك أن تتصف بصفات الفقراء الساقطين الذين افتقرت أيديهم وقلوبُهم، كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: (ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس أو غنى القلب).

فعلم بهذا الحديث الشريف أن المدار كله على ما في القلوب من الأوصاف الطيبة أو الدنيئة في حق الغني والفقير، فمن كان قلبه غنيّاً بالله فهو الغني حقيقة، ولو كان فقيراً. ومن كان قلبه فقيراً إلى الأغراض، وإلى الخلق فهو الفقير حقيقة ولو كان مثرياً.

فمتى علمت أن الله تعالى حكيم في جميع تدبيراته، وأنه لطيف بعباده المخلصين، قد يقدِّر عليهم من الأقدار الكريهة للنفوس ما يكون سبباً ووسيلة لخيرهم وثوابهم، وأن الله قد ابتلَى بالفقر كثيراً من أوليائه وأصفيائه، وأن من صبر على شدته واحتسب ذلك عند الله لم يزل في زيادة في إيمانه وثوابه، وخصوصاً إذا ضم إلى هذا الوصف قوة الرجاء والطمع في فضل الله؛ وأن الله سيزيل فقره، وسيجعل الله بعد عُسر يُسرا. متى تحقق بذلك هانت عليه

وطأة الفقر وشدته لما حصل له في مقابلته من الخير، ولما يرجوه من الفضل والثواب.

ومما يخفف ذلك أن يعلم أن حزنه وهمه لا يخفف من فقره ومصيبته بل يزيد ذلك، فكيف يسعى العاقل في زيادة عنائه، وكيف لا يتسبب في تخفيف بلائه..

ثم أعلم أيها الفقير أن أكبر العلل التي توجب الهم والغم وتُسقط إنسانية العبد وحريتَه تعلُّقُه بالمخلوقين، سؤالاً لهم، وذلاً ورجاء، وطمعاً فيما يناله منهم، وأن من كان كذلك فإنه مقيد النفس رقيق القلب لغير الله قد انقطع رجاؤه ممن كلُّ خير في رجائه، وكل الأمور عنده، ومفاتيحُ الأرزاق بيده، إلى من لا يملك له نفعاً ولا ضراً، ولا يريد له الخير، وليس له من الأمر شيء، وهو فقير مثله، فمتى علقت رجاءَك كلَّه بالله واحتسبت الأمل عند الله، وسَلِمْتَ من التعلق بالمخلوقين، ورجوت زوال عسرك، أبدلك الله بهمك فرحاً، وبكدرك راحة، ويسَّر الله لك الأمور، وأوقع في قلبك القناعة التي مَنْ مَلَكَها مَلَكَ الكنزَ الأكبر، وقد ضمن الله للمتقي أن يجعل له من كل هم فرجاً؛ ومن كل ضيق مخرجاً.

وأما قولك يا أخي إني متواطىء على الفقر، فهو كلام غالط من وجهين. أحدهما: أنه لا ينبغي لك أن تيأس من روح الله ورحمته وفضله وإحسانه؛ الثاني: يجب عليكَ أن تسعى بكل سبب يزيل فقرك أو يخففه، فاعمل بالأسباب النافعة من بيع أو شراء أو حرفة أو خدمة أو ما يناسب حالك وتحسنه من الأسباب، فقد قال ﷺ: (لأنْ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيعه فيكف الله وجهه، خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه). ومتى عملت بالأسباب بهذه النية، نية الاستعفاف والاستغناء عن الناس يسَّر الله أمرك وبارك لك في الشيء القليل، وسلمت من الفقر الوضيع وهو فقر القلب لغير الله،

ودخول الفقير في معاصي الله، وفي الأمور الدنيئة الضارة التي إذا ابتلي بها العبد عوقب بعدة عقوبات، أقلها أنها سبب لبقاء فقره وزيادته، كما هو مشاهد مجرب، وأكثر الفقراء قد جمعوا بين فقر الدنيا والآخرة، فقر القلوب وفقر الإفلاس والافتقار إلى المخلوقين وتعلق القلوب بهم، والذل الوضيع لهم، وهذا نهاية الهبوط والسقوط. فالموفق الحازم يستعيذ بالله من هذه الحال، ويعمل الأسباب الواقية والدافعة كما ذكرنا، والله تعالى هو الموفق المعين.

## الفصل التاسع والثلاثون

### في التنبيه على أصول وقواعد وضوابط جامعة نافعة

من محاسن الشريعة وكمالها وجمالها وجلالها أن أحكامها الأصولية والفروعية، والعبادات والمعاملات، وأمورها كلها لها أصول وقواعد تضبط أحكامها وتجمع متفرقاتها وتنشر فروعها، وتردها إلى أصولها. فهي مبنية على الحكمة والصلاح، والهدى والرحمة، والخير والعدل، ونفي أضداد ذلك، فمن أصولها الجوامع:

١ ــ أن الشارع لا يأمر إلاّ بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلاّ عما مفسدته ومضرته خالصة أو راجحة، لا يشذُّ عن هذا الأصل الكبير شيء من أحكامها.

٢ ــ الوسائل لها أحكام المقاصد، ويتفرّع على هذا الأصل أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلاّ به فهو مسنون. وطرق الحرام والمكروه تابعة لها، ويتفرع عليها أن توابع العبادات والأعمال حكمها حكمها.

٣ ــ المشقة تجلب التيسير وجميع رخص الشريعة وتخفيفاتها متفرعة عن هذا الأصل.

٤ ـ الوجوب يتعلق بالاستطاعة، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

٥ ـ الشريعة مبنية على الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فهذان الأصلان شرط لكل عمل ديني، وينبني عليهما أن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى؛ وينبني عليهما أيضاً أن الأصل في العبادات الحظر والمنع، فلا يشرع منها إلّا ما شرعه الله ورسوله؛ والأصل في العادات والمعاملات الإباحة؛ فلا يحرَّم منها إلّا ما حرَّمه الله ورسولُه، ويتفرع أيضاً على ذلك أن الحيل التي تسقط الواجبات والحقوق أو تدخلُ في المحرَّمات ممنوعة لا تحل ولا تنفذ، كما أن الحيل التي يتوصل بها إلى الحقوق ويدفع بها الظلم مباحة بل حسنة.

٦ ـ التكليف وهو البلوغ والعقل، شرط لوجوب العبادات كلها، والتمييز شرط لصحتها، إلا الحج والعمرة فيصح عمن لم يميز.

٧ ـ الأحكام الأصولية والفروعية لا تتم إلا بأمرين: وجود شروطها وأركانها، وانتفاء موانعها؛ وهي مبطلاتها ومفسداتها. ويتفرع على هذا الأصل أن مفسدات العبادات وغيرها ترجع إلى أحد أمرين: إما فقد شرط وركن وواجب، وإلّا ارتكاب محظور يختص تلك العبادة وتلك المعاملة.

٨ ـ العادة والعرف يرجع إليه في كل حُكم حَكم به الشارع ولم يَحُدَّه بحد، فإنه يرجع فيه إلى ما يتعارفه الناس بينهم في جميع المعاملات والحقوق وغيرها.

٩ ـ البينة على المدَّعِي واليمينُ على من أنكر في جميع الحقوق والأموال والمعاملات وتوابعها.

١٠ ـ الأصل بقاء ما كان على ما كان، واليقين لا يزول بالشك في كل شيء من عبادة أو معاملة أو حق من الحقوق.

١١ ـ لا بد من التراضي في جميع العقود، سواء كانت معاوضات أو تبرعات.

١٢ ـ لا بد أن يكون العاقد جائزَ التصرُّف.

١٣ ـ تنعقد العقود كلها بما دل عليها من قول أو فعل، ويستثنى من ذلك بعض العقود التي لا بد فيها من القول.

١٤ ـ الإتلاف يستوي فيه المتعمد والجاهل والناسي.

١٥ ـ التلف في يد الأمين غير مضمون إذا لم يتعدَّ أو يفرِّط، وفي يد الظالم مضمون مطلقاً، أو يقال ما ترتب على المأذون فهو غير مضمون والعكس بالعكس.

١٦ ـ لا ضَرر ولا ضِرار.

١٧ ـ العدل واجب في الحقوق كلها والفضل مستحب.

١٨ ـ من تعجّل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

١٩ ـ تضمن المثليات بمثلها والمتقوِّمات بقيمتها.

٢٠ ـ يرجع إلى القيمة إذا تعذّر المسمى.

٢١ ـ جعل المجهول كالمعدوم.

٢٢ ـ الغَرَر والميسر ممنوع في المغالبات وفي المعاوضات.

٢٣ ـ الصلح جائز في كل المعاملات وفي الحقوق إلا إذا تضمن محذوراً من إسقاط واجب أو دخول في محرم.

٢٤ ـ من سبق إلى المباحات فهو أحق بها.

٢٥ ـ القرعة مشروعة إذا تعذر معرفة عين المستحق.

٢٦ ـ قبول قول الأمناء في الذي تحت أيديهم من التصرفات والإتلافات وغيرها إلّا ما خالف الحس والعادة.

٢٧ ــ من وجب عليه أمر من الأمور أو حق من الحقوق ألزم به وأجبر عليه وكان الإجبار والإكراه بحق.

٢٨ ــ من ترك المأمور جهلاً أو نسياناً لم تبرأ ذمته، ومن فعل المحظور وهو معذور بجهلٍ أو نسيان برئت ذمته وتمت عبادته.

٢٩ ــ البدل يقوم مقام المبدل ويحل محله، ولكن لا يرجع إليه إلّا إذا تعذَّر الأصل.

٣٠ ــ يجب تقييد الكلام بملحقاته من وصف أو شرط أو استثناء أو غيرها.

٣١ ــ الشركاء في الأملاك والحقوق والمنافع يلزم الممتنع منهم بما يعود على المشترك من الأمور الضرورية والمصارف والتعميرات ونحوها.

٣٢ ــ الشركاء يشتركون في زيادات الأملاك المشتركة وفي نقصانها بحسب أملاكهم.

٣٣ ــ الأحكام تتبعض بحسب تباين أسبابها، فيعمل كل سبب في مقتضاه، ولو باين الآخر.

٣٤ ــ من أدى عن غيره واجباً بنية الرجوع رجع عليه.

٣٥ ــ الوصف كاف في الأموال المجهول صاحبها.

٣٧ ــ أسباب الضمان ثلاثة: مباشرة الإتلاف بغير حق، أو التسبب لذلك، أو اليد الظالمة.

٣٧ ــ إذا تزاحمت المصالح قُدِّم الأعلى منها، فيقدم الواجب على المستحب، والراجح مصلحة على المرجوح، وإذا تزاحمت المفاسد ارتكب الأخف منها إذا اضطر أو احتيج للتناول، فيرتكب المكروه تفادياً عن الحرام، والمشتبه عن الواضح، وما كان أخف تحريماً على ما عظم تحريمه.

٣٨ ــ الأصل في الأشياء الطهارة، فلا ينجس منها إلّا ما تيقنّا نجاسته.

٣٩ ـ الأصل في الأشياء الحل والإباحة، فلا يحرم منها إلاّ الخبيثة التي نهى الشارع عنها.

٤٠ ـ إذا خُيِّرَ الإنسان بين أمور، فإن كان واجباً عليه لمصلحته فهو تخيير تَشَهٍّ واختيار، وإن كان لمصلحة غيره، فهو تخيير اجتهاد في مصلحة الغير.

٤١ ـ من سقطت عنه العقوبة لموجب ضوعف عليه الضمان.

٤٢ ـ من أتلف شيئاً لينتفع به ضمنه، ومن أتلفه دفعاً لمضرته فلا ضمان عليه.

٤٣ ـ عند اختلاف المتعاملين في صفة من صفات المعاملة يرجح أقواهما وأرجحهما دليلاً.

٤٤ ـ إذا اختلف المتعاملان في شرط أو أجل، أو ادعى أحدهما فساده، فالقول قول من ينفيه حتى يقيم الآخر بينة.

٤٥ ـ إذا عاد التحريم إلى نفس العبادة أو شرطها فسدت، وإذا عاد إلى أمر خارج صحت مع التحريم.

٤٦ ـ يجوز تقديم العبادات أو الكفارات على سبب الوجوب، ويجوز تقديمها بعد وجود السبب وقبل شرط الوجوب وتحققه.

٤٧ ـ يجب فعل المأمور به كله، فإن قدر على بعضه وعجز عن بعضه وجب عليه فعل ما قدر عليه، وسقط عنه ما عجز عنه، إلاّ أن يكون المقدور عليه وسيلة محضة، أو كان بنفسه لا يكون عبادة، فلا يجب فعل ذلك البعض.

٤٨ ـ إذا اجتمع عبادتان من جنس واحد تداخلت أفعالهما واكتفي منهما بفعل واحد.

٤٩ ـ الأصل أن الأثر للعلة الموجودة ولو احتمل وجود غيرها.

٥٠ ـ الأصل براءة الذمم.

٥١ ـ الأصل بقاء ما في الذمم حتى نجزم بزواله.

٥٢ ـ إذا اشتغلت الذمة بوجوب عبادة أو حق وجب الاحتياط حتى يتيقن البراءة من ذلك الواجب والحق.

٥٣ ـ استثناء المنافع المعلومة جائز في باب المعاوضات، ويجوز الاستثناء للمنفعة المجهولة في باب التبرعات.

٥٤ ـ من قبض العين لحظّ نفسه لم يقبل قوله في الرد، فإن قبضه لحظ مالكه وإحسانه إليه قبل قوله في الرد.

٥٥ ـ إذا أدّى ما عليه وجب له ما جعل له عليه.

٥٦ ـ من ملك المنفعة فله المعاوضة عليها؛ ومن ملك الانتفاع دون المنفعة فليس له المعاوضة إلّا بإذن.

٥٧ ـ من لا يعتبر رضاه في عقد أو فسخ لا يعتبر علمه.

٥٨ ـ من بيده مال تعذر عليه عِلم صاحبه تصدق به عن صاحبه بشرط الضمان إذا وجده، أو سلمه للحاكم وبرأ من تبعته.

٥٩ ـ من له الحق على الغير وكان سبب الحق ظاهراً فله الأخذ من ماله بقدر حقه عند الامتناع أو التعذر، وإن كان السبب خفياً فليس له ذلك.

٦٠ ـ الواجب بالنذر يلحق بالواجب بالشرع في شروطه.

٦١ ـ الفعل الواحد ينبني بعضه على بعض مع الاتصال المعتاد دون ما زاد على العادة.

٦٢ ـ الأصل أن الشركاء متساوون في أملاكهم بقدر رؤوسهم حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك.

٦٣ ـ الحوائج الأصلية ليست بمال.

٦٤ ـ يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً.

٦٥ ـ الأسباب والدواعي للعقود والتبرُّعات معتبرة.

٦٦ ـ القرائن إذا قويت قد يكون الحكم لها وتقدم على الأصل.

٦٧ ـ العبرة في المعاملات بما في نفس الأمر.

٦٨ ـ إذا تبين فساد العقد بطل ما بني عليه، وإن فسخ فسخاً تمت العقود الطارئة قبل الفسخ.

٦٩ ـ لا عذر لمن أقرّ ولو ادَّعى غلطاً أو كَذِباً.

٧٠ ـ يقوم الوارث مقام مورثه وينوب عنه في كل ما له وما عليه إلا ما استثني وهو خيار الشرط والشفعة على خلاف قوي في ذلك.

٧١ ـ المسلمون على شروطهم إلاّ شرطاً أَحلَّ حراماً، أو حرَّم حلالاً.

٧٢ ـ ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح.

٧٣ ـ إذا تضمن العقد ترك واجب أو دخولاً في محرَّم حُرِّم ولم يصح وهذه مستخرجة من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

٧٤ ـ يجب حمل كلام الناطقين في العقود والفسوخ والإقرارات وغيرها على مرادهم مهما أمكن.

فهذه قواعد عظيمة نفعها لأهل العلم كبير لو بسطت وفصلت بعض التفصيل لجاء منها مجلد ضخم، والله أعلم.

# الفصل الأربعون

## في تفسير ألفاظ مهمة ينتفع بها كثيراً في الكتاب والسُّنة

«الإيمان» هو التصديق الجازم بأصول الإيمان المعروفة مع انقياد القلب والجوارح.

«والإسلام» كذلك عند الإطلاق، ومتى جمع بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلوب من عقائد الإيمان وإقراراته، والإسلام اسماً لأعمال القلوب والجوارح.

(البِرُّ) اسم جامع يدخل فيه العقائد الإيمانية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، يدخل فيه جميع المأمورات وترك المنهيات.

(التقوى) كذلك عند الإطلاق للبر والتقوى، فإذا جمع بينهما كان البر اسماً لفعل الطاعات، والتقوى اسماً لترك المناهي.

(النفاق) مخالفة الظاهر للباطن، فإن كان في أصل الإيمان كان نفاقاً أكبر مخرجاً عن الدين، وإن كان في فروعه كان حاله بحسب ذلك.

(الإثم والعدوان) الذنوب والمحرّمات المتعلقة بحق الله هي الإثم وهي المعاصي؛ والذنوب والسيئات المتعلقة بظلم الخلق هي العدوان، هذا عند الاجتماع؛ فإذا أطلق كل واحد من هذه الألفاظ دخل فيه الآخر.

(الصِّدق والصِّدِّيقية واليقين) هي العلم الراسخ الذي لا ريب فيه ولا شك، المثمر لطمأنينة القلب علماً وطمأنينته سكوناً لعبودية الله ولأعمال الجوارح، فيدخل في ذلك العقائد الصادقة والأخلاق الحميدة الفاضلة، والأعمال الصالحة والعلوم الصحيحة النافعة علم اليقين وأعلى منه عين اليقين وأعلى منهما حق اليقين.

(الخشوع والإخبات) سكون القلب وخضوعه لله، وخصوصاً وقت تلَبُّس العبد بعبودية الله.

(الإنابة) هي انجذاب القلب في محبة الله وعبوديته والرجوع إليه في كل حالة.

(التوبة) هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً.

(الهداية والاستقامة) هي لزوم الصراط المستقيم ظاهراً وباطناً فهي العلم بالحق والعمل به.

(الحكمة) هي إصابة الصواب في القول والفعل، وهي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

(العدل والقِسط) بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم.

(الظلم) ضد ذلك.

(الصراط المستقيم) هو الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في كل أحواله.

(المحسنون) في عبادة الله بتكميلها ظاهراً وباطناً، وإلى عباد الله في بذل المستطاع من نفعهم.

(الصبر) حبس النفس على ما يحبه الله ورسوله وهو ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله حتى يؤديها، وصبر عن معصيته حتى يدعها، وصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها.

(الشُكر) وهو الاعتراف بالنعم الظاهرة والباطنة، عموماً وخصوصاً، مع التحدث بذلك والاستعانة بها على طاعة المنعم مع حبه والخضوع له.

(العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال

الظاهرة والباطنة، فعقائد الإيمان وأعمال القلوب والجوارح كلها داخلة في اسم العبادة.

(حدود الله) تطلق على المحرَّمات، فيقال فيها لا تقربوها، وتطلق على حدود الحلال والأحكام الشرعية، فيقال فيها لا تعتدوها أي لا تجاوزوا الحلالَ إلى الحرام.

(الطيبات) تشمل كل ما ينفع ولا يضر، من مآكل ومشارب ومناكح وملابس وغيرها.

(الخبيثات) ضدها.

(المعروف) اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعَقلاً.

(المنكر) ضده.

(الفَلَاح) هو اسم جامع لكل مطلوب محبوب، وسلامةٌ من كل مكروه.

(اللّغو) كل كلام لا نفع فيه في الدين ولا في الدنيا.

(العقل والحجز والحجى والنهي) هو الرزانة وعقل ما ينفع وترك ما يضر، والنظر للعواقبَ وترجيح ما ترجحت مصلحته، وأولو الألباب أهل العقول الوافية.

(الحليم) من الخلق هو المتخلق بالأخلاق الجميلة الذي لا يستفزه جهل الجاهلين، صاحب الثبات والتأنّي في أموره كلِّها.

(الكِبْر والتواضع) فسر النبي ﷺ الكِبْرَ بأنه بطر الحق وغمط الناس، والتواضع ضده، قبول الحق مع من كان، ولين الجانب، وحسن الخلق مع الخلق والتواضع لهم.

(الشِّرك والكفر) الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو بعضه بلا تأويل فهو كافر، سواء كان كتابياً أو مجوسياً أو وثنياً أو ملحداً أو مستكبراً أو غيرهم؛ وسواء كان معانداً أو كافراً ضالاً أو مقلِّداً، والشرك

نوعان: شرك في ربوبيته، كشرك الثنوية المجوس، الذين يعتقدون مع الله خالقاً، وشركٌ في ألوهيته، كشرك سائر المشركين الذين يعبدون مع الله غيره، ويصرفون له شيئاً من العبادة، ويشركون بينه وبين المخلوقين، ويسوُّونهم بالله في خصائصه التي لا يوصف بها غيره.

(القَوام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال؛ فالقوامُ الذي أمر الله به ورسوله، بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب وطريق نافع على الوجه الذي ينبغي، فهذا قوام واقتصاد وتوسط واعتدال، فإن منع هذه الحقوق فهو البخيل، وإن أسرف أو زاد في النفقة عما ينبغي فهو التبذير والإسراف.

(الشجاعة والجبن والتهور) الشجاعة هي الإقدام في محل الإقدام، والتهور الإقدام في غير محل الإقدام، فالشجاعة محمودة والجبن والتهور مذمومان لمنافاتهما لطريق الحكمة وانحراف خلق صاحبهما.

(الإخلاص) أن يقصد العبد بعمله رضا ربه وثوابه، لا غرضاً آخر من رئاسة أو جاه أو مال أو غيرها.

(الذِّكْر) إذا أطلق ذكر الله شمل كل ما يقرب العبد إلى الله: من عقيدة أو فكر، أو عمل قلبي، أو عمل بدني، أو ثناء على الله، أو تعلم علم نافع وتعليمه، ونحو ذلك، فكله ذكر الله تعالى.

(أوصاف القلب) إذا كان القلب عالماً بالحق مريداً للحق مقدماً له على غيره، فهو القلب الحي الصحيح، وإذا كان بضد ذلك كله فهو القلب الميت، وإذا كان شاكًّا في الحق مرتاباً فيه فهو القلب المريض، مرض الشبهات والشكوك، وإذا كان مريداً للشر ميالاً إلى المعاصي، فهو المريض مرض الشهوات، وإذا كان القلب فيه غِلٌّ أو حقدٌ على الخلق، فهو المريض بالغش وعدم النصح، فنسأل الله أن يعافينا عافية تامة يصلح بها قلوبنا بالعلم

والإيمان والهدى والتقى؛ ومن عرف الحق وتركه فهو معاند متكبر مغضوب عليه، ومن تركه جاهلاً به فهو جاهل ضالٌّ أعمى غير مهتد.

## الفصل الحادي والأربعون

### في الإشارة إلى البراهين العقلية الفطرية على ربوبية الله وإلهيته

اعلم أن هذه المسألة أعظمُ المسائل على الإطلاق وأكبرُها وأفضلُها وأوجبُها وأنفعُها وأوضحُها؛ وعليها اتفقت جميع الكتب المنزَلة وجميع الرسل، وهي أول وأهم ما دعت إليه الرسل أممهم، وأولُ ما يدعون قومهم يقولون:

﴿اعبُدُوا اللَّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُه﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ويذكرون لهم من أسمائه وأوصافه ونعَمِه وآلائه وألطافه ما به يَعرفون ربَّهم ويخضعون له ويعبدونه، والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة، ويذكر لها البراهين المتنوعة، ويصرف لها الآيات، والسّنة كذلك.

وليس القصد في هذا الفصل ذكر الأدلة النقلية عليها؛ فإنها واضحة جلية متقررة عند الخواص والعوام، وهي وحدَها كافية وافية بالمقصود معرفة بالله جملة وتفصيلاً، ولكن نريد أن نشير إشارة يسيرة إلى أدلتها وبراهينها العقلية التي يخضع لها كل عاقل منصف، وينكرها كل مستكبر مكابر مباهت؛ وهذه المسألة أوضح وأظهر من أن يحتج لها وتذكر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمن براهينها قويت في قلبه وازداد إيمانه ونما إيقانه وحمد الله على هذه النعمة التي هي أعظم المنن وأجلها، ولهذا قالت الرسل عليهم السلام لأممهم: أفي الله شك، فاستفهموهم استفهام تقرير وأنه متقرر في قلوب جميع العقلاء، الاعتراف بالله وبربوبيته وتوحيده.

اعلم رحمك الله أنك إذا نظرت إلى هذا العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة، والحوادث المتجددة، فتأمل تأملاً صحيحاً أن الأمور الممكن تقسيمها في العقل ثلاثة:

١ ـ إما أن توجد هذه المخلوقات بنفسها من غير محدث ولا خالق فهذا محال ممتنع يجزم العقل ببطلانه ضرورة، ويعلم يقيناً أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل، لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد ولا محدث.

٢ ـ وإما أن تكون هي المحدثة لنفسها الخالقة لها، فهذا أيضاً محال ممتنع بضرورة العقل، كل عاقل يجزم أن الشيء لا يُحدِثُ نفسَه، وإذا بطل هذان القسمان عقلاً وفطرة تعين القسم الثالث:

٣ ـ وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالق خلقها ومحدث أحدثها وهو الرب العظيم الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء المدبِّر للأمور كلها، ولهذا نبّه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل فقال:

﴿أم خُلقوا من غير شيء أمْ هُمُ الخالقون؟. أمْ خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ بَلْ لا يُوقِنون﴾ [سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦]

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل.

هذه قضايا بديهية جلية يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي أعظم القضايا العقلية. فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله.

تفكَّرْ في نفسك وانظر في مبدأ خلقك من نطفة إلى علقة إلى مضغة

حتى صرت بشراً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة. أمَا يضطرك هذا النظر إلى الاعتراف بالربِّ القادر على كل شيء، العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيم في كل ما خلقه وصنعه، فلو اجتمع الخلق كلهم على النطفة التي جعلها الله مبدأ خلقك على أن ينقِّلوها في تلك الأطوار المتنوعة ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوا لها سمعاً وبصراً وعقلاً وقُوى باطنة وظاهرة، وينموها هذه التنمية العجيبة، ويركِّبُوها هذا التركيب المنظم، ويرتِّبوا الأعضاء هذا الترتيب المحكم، لو اجتمعوا على ذلك فهل في علومهم، وهل في اقتدارهم، وهل في استطاعتهم الوصول إلى ذلك؟ فهذا نظر يوصلك إلى الاعتراف بعظمة الله واقتداره والخضوع له والتصديق بكتبه ورسله، وهو دليل وبرهان عقلي وفطري اضطرت فيه الفطر إلى معرفة ربها وعبوديته.

تأمل في حفظ الله للسموات والأرض وما فيهما من العوالم، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها من الأسباب المتنوعة، أَمَا يدلُّك ذلك على كمال الرب وكمال قيوميته وربوبيته؟ وقد نبه تعالى على ذلك بقوله:

**﴿ومن آياته أَنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بِأَمْرِه﴾**

[سورة الرُّوم: الآية ٢٥]

**﴿إنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السمٰواتِ والأرضَ أن تَزولاَ وَلَئِنْ زالتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِـنْ أحدٍ مِنْ بعدِهِ إنهُ كانَ حليماً غفوراً﴾** [سورة فاطر: الآية ٤١]

تدبرْ يا أخي في هذا الفلك الدَّوَّار، وفي تعاقب الليل والنهار، وفي تصريف الأوقات بفصولها ومنافعها، وفي كمال انتظامها لمصالـح الخلق التي لا يمكن إحصاؤها، هل ذلك صدفة الطبيعة؟ وهل هذا حصل اتفاقاً؟ أم الذي خلق ذلك ودبّر ذلك التدبير المتقن: هو الذي أحسن كل شيء خلقه، وصنـع الله الذي أتقن كل شيء؟

وانظر، هداك الله، إلى أنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه وحوائجه وضروراته، حتى البهائم العُجْم صغيرها

وكبيرها قد ألهمها وهداها لكل أمر فيه نفعها. ويسَّر لها أرزاقها وأقواتها؛ فمن نظر في هدايته العامة، وبثه في كل مخلوق إلهاماً عجيباً يهتدي به إلى منافعه وضروراته، علم بذلك عنايته العظيمة، وعلم أنه الرب لكل مربوب، الخالق لكل مخلوق، الذي علّم المخلوقات وأعطاها من الأذهان ما يُصلحها ويدفع عنها المضار، وذلك برهان عقلي عظيم على وحدانية الله وكماله، ولذلك لما أنكر فرعون رب العالمين وقال:

﴿فَمَنْ ربُّكما يا موسى؟. قال ربُّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هَدَى﴾ [سورة طٰه: الآيتان ٤٩، ٥٠]

فاستدلَّ عليه بهذا البرهان المشاهد لكل أحد؛ فهل في طبيعة الحيوانات كلها هذه الهداية إلى مصالحها التي لا تحصى أنواعها، وحنوها على أولادها، وقيامها بهم حتى يستقلوا بأنفسهم؟ وهل هذا الحنان والرحمة إلّا من أكبر الأدلة على عظمته وسعة رحمته التي وسعت كل شيء؟

ثم انظر، رحمك الله، إلى سعة رحمة الله التي ملأت أقطار العالم، وشملت كل مخلوق في كل أحواله: برحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته حفظها وأمدها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النعم الظاهرة والباطنة التي لا يمكن لمخلوق أن يخلق منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه: نعم العلم والتعليم لأمور الدين والدنيا، ونعم العافية للأبدان عموماً، وللأعضاء كلها على وجه الخصوص، ونعم الأرزاق ونعم الأولاد والأتباع، ونعم الحروث والزروع والثمار، ونعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونعم الدور والقصور، ونعم اللذات والحبور، النعم التي فيها جلب المنافع كلها، والنعم التي فيها دفع المضار كلها، تدل أكبر دلالة على وحدانية مُسْدِيها والمنعم بها، وعلى وجوب شكره والإخلاص له، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفمن منه النعم كلها كمن هو فقير محتاج مضطر؟

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك والمشرفين على

الأخطار والبائسين من فقرهم المفظع أو مرضهم الموجع، وكيف تضطرهم الضرورات وتلجئهم الحاجات إلى ربهم وإلههم داعين ومفتقرين، وسائلين له مستعطين فيجيب دعواتِهم، ويكشف كرباتِهم، ويرفع ضروراتِهم، أليس في هذا أكبر برهان على وحدانيته وسعة علمه، وشمول رحمته، وكمال عطفه، ودقيق لطفه:

**﴿أَمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السوءَ، ويجعلُكُم خلفاءَ الأرض؟ أإله مع الله؟ . . . تعالى الله عما يشركون﴾**

[سورة النمل: الآيتان ٦٢، ٦٣]

**﴿فإذا ركبوا في الفُلكِ دَعَوُا الله مخلِصِين لَهُ الدِّينَ﴾**

[سورة العنكبوت: الآية ٦٥]

**﴿لئنْ أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغُون في الأرض بغير الحق﴾** [سورة يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]

وهذا قد شاهده الخليقة ورأوا بأعينهم من الوقائع ما لا يعد ولا يحصى، وهذا يضطرهم إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته، فانظر إلى حالة المضطرين إذا كربتهم الشدائد كيف تجد قلوبهم متعلقة بالله، وألسنتهم ملحَّة في سؤاله وأفئدتهم مستشرفة لنواله، لا تلتفت عن الله يمنة ولا يسرة لعلمها الضروري أنه كاشف الشدائد، جالب الخير والفوائد، لا ملجأ منه إلّا إليه، ولا معول للخليقة في جميع أمورها إلّا عليه، فهل هذه الأمور إلّا لأن الخليقة مفطورة على الاعتراف بوحدانية ربها؟ وأنه النافع الضارّ، وأن ملكوت كل شيء بيديه؟ إلّا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة والإرادات السيئة؟..

وانظر إلى فقر الخلائق كلهم إلى الله في كل شيء، فقراء إليه في الخَلْقِ والإيجاد، وفقراء إليه في البقاء والرزق والإمداد، وفقراء إليه في جلب المنافع وفي دفع المضار، فهم يسألون الله بلسان المقال، ولسان الحال، يسأله مَنْ في السموات والأرض فيعطيهم مطالبهم، ويسعفهم في كل مآربهم،

إن رغبوا لم يرغبوا إلّا إليه، وإنْ مستهم الضرّاء لم يلجأوا إلّا إليه، فكم كشف الضر والكروب، وكم جبر الكسير ويسَّر المطلوب، وكم أغاث ملهوفاً، وكم أنقذ هالكاً، ففقرهم إليه في كل الأحوال ظاهر مشاهد، وغناه عنهم في جميـع الأمور لا ينكره إلا مكابر جاحد.

ومن براهين وحدانية الباري وربوبيته إجـابته للدعـوات في جميـع الأوقات، فلا يحصي الخلق ما يُعطِيه السائلين، وما يجيب به أدعية الداعين من بَرٍّ وفاجر، ومسلم وكافر، تحصل المطالب الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب، سوى الدعاء والطمـع في فضل الله، والرجاء لرحمته وهذا برهان مشاهد محسوس، لا ينكره إلّا مباهت مكابر، يدعونه في مطالب دينهم فيجيبهم، وفي مطالب دنياهم فيجيبهم:

**﴿فمن الناسِ من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا وَمَا لَهُ في الآخرةِ مِنْ خلاق. ومِنهم من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنَا عذاب النار. أولئكَ لهم نَصيبٌ مما كسبوا﴾** [سورة البقرة: الآيات ٢٠٠ ــ ٢٠٢].

ومن براهين وجود الله ووحدانيته وربوبيته ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذل أعداءهم ويعذبهم بأصناف العذاب، وهذا قد تواتر تواتراً لا يتواتر شيء مثله، وكل أحد يعرف ذلك. وآيات الأنبياء ومعجزاتهم وكرامات الله لهم نقلتها القرون والأجيال وصارت أعظم من برهان الشمس والقمر، وهي كلها براهين على ربوبية من أرسلهم وعظمة سلطانه وكمال قدرته وسعة علمه وحكمته، وما ينكرها إلّا كل متكبر جبـــار.

ومن أعظم براهين وحدانيته ما أنزله على أنبيائه عمومـاً من الكتب والشرائـع العظيمة التي فيها صلاح الخلق وبها استقام دينهم وصلحت دنياهم وخصوصاً هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، خاتمهم وإمامهم، وفيه من

البراهين والآيات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، وآياته قائمة في جميع الأوقات متحدية للخلق كلهم على اختلاف أصنافهم، وقد تبين عجزهم ووضح غيهم:

**﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**
[سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

**﴿ونـزَّلْنا عليـكَ الكتابَ تبيـاناً لكـلِّ شيءٍ وهدًى ورحمـة وبشرَى للمسلمين﴾**

[سورة النحل: الآية ٨٩]

فمن نظر إلى ما احتوى عليه القرآن من الأخبار الصادقة والأحكام العادلة والشرائـع المحكمة والصلاح العام وجلب المنافـع الدينية والدنيوية ودَفْـع المضارِّ والخير العظيم، اضطر إلى الاعتراف بأنه تنزيل من حكيم حميد، ورب كريم.

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع الكامل والدين القويم والصراط المستقيم في كل شؤونه اضطره بعض ذلك، ـ فكيف بكله؟ ـ إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الرب العظيم الحكيم في شرعه ودينه، كما هو حكيم في خلقه وتقديره.

ومن براهين وحدانية الله أن الفِطَرَ والعقول مضطرة إلى معرفتها بباريها والاعتراف بوحدانيته، فـإن الخلق مفطورون على جلب المنـافـع ودفـع المضار، ومن المعلوم لكل عاقل أن حاجة النفوس إلى خالقها وإلٰهها أعظم من جميـع الحاجات، وضروراتِها إليه تفوق كل الضرورات، فهي مضطرة إلى علمها بأنه خالقها وحدَه، مالكها وحدَه ومبقيها وحدَه، وممدها بمنافعهـا وحدَه، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القَيِّم ولم يخرج عن هذه الفطرة إلَّا من اجتالتهم الشياطين وحوَّلت فِطَرَهم وغيَّرَتْها بالعقائد الفاسدة والخيالات الضالّة والآراء الخبيثة والنظريات الخاطئة، فلو خَلَوا وفِطَرَهم لم

يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيبين إليه في التألُّه والانكسار، قال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها).

ومن براهين وحدانيته وكرمه ما هو مشهور في حوادث لا تعد ولا تحصى، من إكرام الله تعالى للواصلين لأرحامهم، وخُلْفِه العاجل على المحسنين على المضطرين والمنفقين لأجله على المحتاجين وتعويضه لهم وفتحه لهم أبواباً وأسباباً وطرقاً بسبب ذلك الإحسان الذي له الموقع الطيب؛ وقد علم الخلق أن ذلك سببه تلك الأعمال الصالحة والمقدمات الحسنة، ألا يدلُّك ذلك على أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر، نموذج لثواب الآخرة؟ وأفراد ذلك وأنواعه لا تدخل تحت الحصر، وهذا أمر لا يمتري فيه أحد، قد رأى الناس من هذا عجائب.

ونظير هذا البرهان العقوبات التي يعجلها الله للباغين والظالمين والمجرمين بحسب جرائمهم عقوبات يشاهدها الناس رأي العين ويعلمون ويتيقنون أن ذلك جزاء لتلك الجرائم. فمن تأمل وسمع الوقائع وأيام الله في الخلق وعلم ارتباطها بأسبابها الحسنة أو السيئة، علم بذلك وحدانية الله وربوبيته وكمال عدله وسعة فضله، فضلاً عن وجوده ووجوب وجوده. فإن كل ما دلّ على شيء من أوصافه أو أفعاله فإنه يتضمن إثبات ذاته ووجوب وجوده، وعلم استناد العوالم العلوية والسفلية إليه في إيجادها وإبقائها وحفظها وإمدادها وجميع أحوالها.

واعلم أن طرق معرفة الله واسعة جداً بحسب حاجة الخلق وضرورتهم إليها، وكل يعبر عنها بعبارات إما كلية وإما جزئية، بحسب الحال التي تحضره وبحسب الأمور التي تغلب عليه، وإلاّ فكل ما خطر في القلوب وشاهدته

الأبصار وأدركته المشاعر، وكل متحرك وساكن أدلةٌ وبراهينُ على وحدانية الله.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان وتفهمها القلوب ويحصل بها النفع العاجل لسهولتها وبساطتها وكونها تدرك بالبديهة، فلنذكر أمثلة وحكايات من هذا النوع للمتقدمين ولأهل هذا العصر:

سئل بعضهم: بمَ عرفت ربك؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير وآثار السير تدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟

واجتمع طائفة من الملاحدة ببعض أهل العلم ـ أظنه أبا حنيفة ـ فقالوا له: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال لهم دعوني، فخاطري مشغول بأمر غريب. قالوا له: ما هو؟ قال: بلغني أنّ في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها. فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل؛ فقال لهم: فكيف صدقت عقولُكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيار يجري، وتحدث هذه الحوادث بغير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفة التي يلقيها الفحل برحم الأنثى فيطوِّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها فيكون بشراً سويًّا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، له سمع يسمع به المسموعات، وبصر يبصر به، وعقل يهتدي به إلى مصالحه، ويدان يبطش بهما، ورجلان يمشي بهما، وله منافذ يدخل فيها ما يغذي البدن وينفعه،

ومنافذ أُخر يخرج منها ما يضره، وقد ركب هذا التركيب العجيب الذي لو اجتمعت الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم على إيجاد شخص واحد على هذا الوصف المحكم الغريب لعجزت معارفهم وقُدَرهم عن ذلك، أليس ذلك دليلاً وبرهاناً على وجود الخالق وعظمته وكبريائه؟ قلت: وقد كرر الله هذه الآية في كتابه في أساليب متنوعة.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال بنقض العزائم؛ ومعنى ذلك أن العبد يعزم عزماً مصمِّماً على أمر من الأمور، وليس عنده فيه أدنى تردُّد، ثم بعد ذلك تنتقض همته وعزمه إلى أمر آخر قد يرى فيه مصلحته وما ذاك إلّا لأن الله على كل شيء قدير، يصرف القلوب كما يدبر الأبدان وإنه لطيف بعبده فيصرفه عما يضره إلى ما ينفعه؛ ويدبر قلبه إلى ذلك.

وسئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: كنت مكروباً فدعوته ففرج كربتي، وكنت فقيراً فسألته فأغناني، وكنت مريضاً فدعوته فشفاني، وكنت ضالاً عن الهدى فلطف بـي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي، فكم له على عباده من أصناف النعم المشاهدة المحسوسة، من هذه الأنواع شيء كثير، وهذا يضطر إلى معرفته والاعتراف بربوبيته وتربيته.

وسئل آخر: بم يعرف الله؟ فقال: قد رأينا ورأى الناس في الدنيا مصارع البغاة المجرمين وعواقبهم الوخيمة، وكما رأوا حسن عواقبـه في المحسنين.

وقيل لآخر: بم يعرف الله؟ فقال: بإيصاله النعم إلى خلقه وقت الحاجة والضرورة إليها، هذا الغيث يُنزله وقت الحاجة ويرفعه إذا خيف منه الضرر، وهذا الفرج يأتي بعد الشدة، والمطالب بعد الاضطرار إليها، وهذه أعضاء الإنسان وقواه يعطيه الله إياها شيئاً فشيئاً بحسب حاجته إليها، فهل يمكن أن تكون هذه الأمور صدفة بغير اتفاق، أم يعلم بذلك علم اليقين أن الذي أعطاهم إياها وقت الحاجة والضرورة هو الرب المعبود الملك المقصود؟

قلت: ومِنْ هذا الباب ما نحن فيه؛ فإنه لما كانت معرفة الله يضطر إليها العباد ويحتاجونها في كل وقت فوق جميع الحاجات يسَّرها الله وفتح لعباده طرقها وأوضح لهم أدلتها، وليست حاجتهم إليها من الحوائج العارضة، وإنما هي من الحوائج الملازمة لهم في كل لحظة وساعة، فنسأله أن يمنّ علينا بمعرفته وبالإيمان الكامل؛ إنه جواد كريم.

وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال: يعرف بأنه عَلَّم الإنسان ما لم يعلم، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فأعطاه آلات العلم ويسَّر له أسباب العلم، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتى صار عالماً ربانياً، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتى صار ماهراً مخترعاً للعجائب، ويسَّر له كل سبب يوصله إلى ذلك. ومن عجيب الأمر أن اللوح إذا كتب فيه وشغل بشيء من الأشياء لم يسعْ غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيء آخر قبل محو ما كتب فيه أولاً، وقلب الإنسان لا يزال يحفظ ويعقل من العلوم والمعارف المتنوعة، وكلما توسَّعت معارفه قويت حافظته واشتدت ذاكرته وتوسعت أفكاره، فهل هذه الأمور في طوق البشر وقدرتهم؟ أم هذا أكبر برهان على عظمة الله ووحدانيته وكماله وسعة رحمته؟

وقيل لبعضهم: بم يُعرف الله؟ فقال: هذه النواة يغرسها الناس فيأتي منها النخيل والأشجار، وتخرج من الثمار العظيمة ما به ينتفع الخلق، وهذه الحبوب تُلقى في الأرض فتخرج أصناف الزروع التي هي مادة أقوات العباد؛ ثم لا تزال تعاد وتغل كل عام. أليس هذا أكبر برهان ودليل على وجود الله وقدرته وعنايته ورحمته؟

قلت: وقد نبَّه الله على هذا المعنى الجليل في عدة آيات، مثل قوله: فالق الحب والنوى، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟

وقيل لمن بادر إلى الإيمان بمحمد ﷺ: لمَ فعلت ذلك؟ فقال: رأيته ما أمر بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته

أمر به، فاستدل بنور عقله وقوة بصيرته على صدق الرسول بصلاح ما جاء به وموافقته للعقول السليمة وللحكمة.

وقيل لآخر من العارفين: بأي شيء يعرف الله؟ فقال: بذوق حلاوة الطاعات، وهذا استدلال برهاني وجداني يضطر العبد إلى كمال الإيمان واليقين، فإن من وجد حلاوة الإيمان وذاق لذة اليقين، فقد بلغ الذروة العليا من الإيمان.

وقيل لآخر: بأي شيء يعرف الله؟ قال: بانتظام الأسباب، ثم بتحويله الأسباب ومنع مسبباتها؛ وبإيجاده الأشياء بغير أسباب يعقلها الخلق. وهذا صحيح فإنه أجرى الأمور على أسبابها ومسبباتها قدراً وشرعاً حكمةً بالغة، ومنع بعض الأسباب من ترتُّب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وكذلك يُوجِدُ كثيراً من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجد عيسى من أم بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولد لمثلهما، وأشياء كثيرة من هذا النوع ليعرف العباد أنه المتصرف التصرفَ المطلق، وأنه كما يتصرف في الأشياء بأسباب مربوطة معلومة، كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة، ولذلك كان جمهور هذا النوع من المعجزات والكرامات، وهي كلها براهين على وحدانية الله وإلهيته وربوبيته.

وقيل لبعضهم: بم يُعرف الله؟ قال: من نظر في مواد الرزق وتأمل حالة من لهم موجودات وعقارات وغلات كثيرة؛ ولكنهم قد اتكلوا عليها فضاقت عليهم الأمور وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يؤملون، ثم انظر إلى أناس كثير ليس لهم عقارات ولا غلات؛ وإنما عندهم أسباب بسيطة قد بارك الله لهم وبسط لهم الرزق، وذلك بأن قلوبهم على الدوام متطلعة إلى ما عند الله، راجية منه تسهيل الرزق، متوكلين عليه حق التوكل؛ بذلك يُعرف الله، وبذلك يُعلم أن الأمر كلَّه لله، كما ننظر إلى القَويِّ من الناس الذي جمع بين القوة والذكاء، وبين السعي الحثيث ورزقه مقتر، ونرى الضعيف

البليد الذي ليس عنده من الذكاء والقوة عشر معشار ما عند الأول، والله قد بسط له الرزق ويسّر له أمره. وهذه أمور مشاهدة محسوسة تضطر العاقل إلى الاعتراف بوحدانية الله وقيامه على كل نفس بما كسبت.

وقيل لآخر: بأي شيء تعرِفُ ربَّنا؟ فقال: بمداولته الأيام بين العباد في العز والذل، والغِنَى والفقر، بأسباب وبغير أسباب.

وقيل لآخر: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال بقوله تعالى:

**﴿وَما مِنْ دابةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقُها﴾**

[سورة هود: الآية ٦]

فننظر مصداقها بين الخليقة وأن كل أحد قد يسَّر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش، هذا بتجارته وهذا بصناعته وهذا بحراثته، وهذا بخدمته، وهذا بمخلَّفات من قَبْلَه، وهذا بتنميته للمواشي، وهذا بإحسان غيره عليه، وهذا بكدِّ غيره. إلى آخر الأسباب التي قدّرها العزيز الحكيم ونوّعها العليم الرحيم، فسبحان من وصل رزقه إلى الذرات في مهامه البراري وقعور المظلمات.

قلت: وهذه الأجوبة كلها عن الكليات والجزئيات صحيحة تضطر العقول إلى الاعتراف بربها، وبوحدانيته ويمكن مضاعفتها إلى أضعاف أضعاف كثيرة، فإنك إذا نظرت نظرة عمومية إلى العالم العلوي والسفلي وعظيم هذه المخلوقات وانتظامها العجيب وترتيبها المحكم وما يترتب على ذلك وينتج عنه من مصالح العالم أو المخلوقات، علمت أن لهذا العالم رباً عظيماً وملكاً كبيراً قادراً مقتدراً قد خضعت له الأكوان ودانت له الخليقة، وأخذ بنواصي العباد، وعلمتَ أن هذه النيرات وما يتبعها مُدْبِرات ليس لها من الأمر شيء، وإنما هي عبيد لله مسخرات بتسخيره مدبَّرات بتدبيره. ثم إذا نظرت لكل مخلوق على حدته وتأملت في ابتداءَ خلقته وفي بقية صفاته وأحواله وتنقلاته، دَلَّكَ ذلك على أن له إلهاً مدبِّراً وربًّا متصرِّفاً وأن جميع

ما هو عليه من الوجود والصفات ليس من نفسه، ولا من إيجاده، وإنما ذلك خلق رب عظيم وتدبير ملك حكيم.

ثم إذا تأملت في أحوال نفسك، وفي صفات بدنك الظاهرة والباطنة، وفي محسوساتك ومعقولاتك علمت بلا ريب أنك مخلوق، عبدٌ فقير إلى ربك في كل أمورك، فقير إليه في الإيجاد، وفقير إليه في الإمداد بالقُوى والعقل والأرزاق، وفقير إليه في حفظك وبقائك، وفقير إليه في ابتدائك وانتهائك.

ثم إذا نظرت في خوارق العادات وفي معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء التي لا يُحصي عددَها العادُّون، علمت بذلك عظمة الباري، وأنه مقدر الأمور ومسبب الأسباب وربّ كل شيء ومليكه؛ وكذلك إذا نظرت كثرة إجابته للدَّاعين، وكشفَه الضُّرَّ عن المضطرين، وإغاثته للملهوفين وهي وقائع كثيرة لا حصر لها، اضطرك الأمر إلى الاعتراف بالربوبية والوحدانية.

ثم إذا نظرت إلى أيامه في الناس، وقيامه بالعدل والفضل، وتعجيله ثواب المحسنين وعقوبات المجرمين، علمتَ أنها براهين محسوسة وأدلة مشاهدة، تشهد لله بأنه قائم على كل نفس بما كسبت، مجازٍ كل عامل بعمله.

ثم إذا نظرت في دينه وشرعه وما فيه من الخير العظيم والمصالح الطاهرة والثمرات الجليلة، وأنه مصلح للعقائد مصلح للأخلاق؛ مصلح للأعمال مصلح للدنيا والدين، محكم الأصول ثابت القواعد، لا يمكن عقلاء الأمم أجمعين أن يأتوا بمثله في إصلاح أحوال البشر ودفع الشرور عنهم، وأنه لم يأتِ ولن يأتيَ علمٌ صحيح يناقض شيئاً من أخباره، بل كلها مطابقة للعقول وفيها تفصيلات لا تهتدي إليها العقول إلّا بإرشاده وهدايته، وشاهدتَّ أحكامَه في العبادات والمعاملات وغيرها، وما فيها من الخير والعدل والصلاح المتنوع؛ وشاهدت كل نفع وإصلاح وُجِد ويوجد موجودة أصوله وأسسه في هذا الدين، وعلمت أنه عصمة للبشر عن الشرور والمضارّ، عرفت

بذلك وحدانية الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه شرع شرعه العـزيز الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا علمت أخباراً كثيرة أخبر بها الله ورسوله، فَشَاهَدَ الخلقُ وقوعَها جهراً طِبقَ خبر الله وخبر رسوله، دلك ذلك على الاعتراف بالله وعظمته وكمال سلطانه وكبريائه.

فهذه كلها أدلة عقلية ضرورية، وهي براهين قاطعة على وجود الله ووجوبه ووحدانيته؛ وهي في الحقيقة أعظم الحقائق الصحيحة التي تتفق عليها العقول الصحيحة والفطر السليمة، وكلها تنبيهات وإشارات لو بسطت بعض البسط لبلغت مجلدات، والمؤمن يزداد بها إيماناً ويقيناً، وإلّا فهو مكتفٍ غاية الاكتفاء ومستغنٍ غاية الاستغناء في هذه المسألة الكبيرة وغيرها بخبر الله ورسوله، ويعتقد بلا ريب أنه لا أصدق من الله قِيلاً، ولا أصدق من الله حديثاً، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مـع الشاهدين.

ولكن العقل مؤيد للشرع ومعترف بكمال الشرع وهدايته، وأنه مضطر إلى الشرع ومتكمل بإرشاداته ومهتد بأنواره، فالعقول لا تستنير ولا تستقيم حق الاستقامة إلا بالدين والشرع، ولهذا يكثر تعالى في قوله:

﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ [٢: ١٦٤ ـ ١٣: ٤ ـ ١٦: ١٢ ـ ٣٠: ٢٤]

ويأمر بالتفكر والتدبر لآياته المسموعة وآياته المشهودة. والله أعلم.

# الفصل الثاني والأربعون

## في آداب وفوائد منثورة لا تدخل تحت نوع واحد
## إنما هي بحسب ما يسنح بالبال

من الآداب الطيبة إذا حدثك المحدث بأمر ديني أو دنيوي أن لا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاءَ مَنْ لم يعرفه ولم يمرَّ عليه، وتريه أنك استفدته منه، كما كان ألبَّاء الرجال يفعلونه؛ وفيه من الفوائد تنشيط المحدث وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العُجْب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب، فإن منازعة المحدِّث حديثه من سوء الأدب.

ومن الآداب أن تشكر من صَنَع إليك معروفاً قولياً أو فعلياً أو مالياً ولو يسيراً وتبدي له الشكر، وبهذا أمر الله ورسوله، وعلى هذا اتفق العقلاء.

ومن الآداب الطيبة الكلام مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه، مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظراء بالكلام الطيب ومطارحة الأحاديث الدينية والدنيوية والانبساط الباسط للقلوب المزيل للوحشة المزيِّن للمجالس؛ ويحسن المزح أحياناً إذا كان صِدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد، ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم مما يبسطهم ويؤنسهم، ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدنيوية والتربية البيتية وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم، مع المباسطة والمفاكهة، فإنهم أحق الناس بِبِرِّك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة، ومع الفقراء والمساكين بالتواضع وخفض الجناح وعدم الترفع والتكبر عليهم، فكم حصل بهذا من خيرات وبركات، وكم حصل بضده من شرٍّ وفوات خير، ومع من تعرف منه البغض والعداوة

والحسد بالمجاملة وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله تعالى:

**﴿آدفَعْ بالتي هي أحسنُ، فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم﴾** [سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

فما أكمله من مقام لا يوفق له إلّا ذو حظ عظيم.

واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع طبقات الناس وازدرائه والاستهزاء به قولاً أو فعلاً، تصريحاً أو تعريضاً، فإن فيه ثلاثة محاذير:

أحدها: التحريم العظيم والإثم على فاعل ذلك.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه وسفاهة عقله وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب إثارة الشر والضرر على نفسه.

إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدِّراً لكل كلام، وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس وصرت أنت الخطيب والمتكلم دون غيرك، وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكل من الحاضرين يكون له نصيب من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار فعليهم لزوم الأدب وأن لا يتكلموا إلّا جواباً لغيرهم.

متى أخبرك صاحبك أو غيره أنه أوقع تصرفاً أو عقداً أو عملاً من الأعمال، وكان قد مضى وتم، فينبغي أن تبارك له وتدعو له بالخير والبركة وتصوِّبه إذا كان باعتقادك صواباً، فإن هذا يؤنسه ويشرح صدره، وإياك في هذه الحال أن تخطئه فتحدث له الحسرة والندامة، وقد فات الاستدراك إلّا إذا كان غرضك تعليمه ونصيحته النافعة للمستقبل؛ وأما إذا أخبرك بشيء مما

سبق، وهو كالمستشير لك، ولم يتم الأمر، فعليك في هذه الحال أن تبدي له ما عندك من الرأي وتمحِّض له النصيحة؛ ففرقٌ بين ما أمكن استدراكه وتلافيه مما ليس كذلك، والله أعلم.

من الآداب الشرعية الوفية الطبية تنظيف الجسد والثياب والأواني المستعملة والفرش والمجالس عن الأوساخ كلها وما يقبح مرآه، فقد ورد الحديث: (أن الله نظيف يحب النظافة).

ينبغي تخير الأصحاب أهل الدين والعقل والأدب والمروءة، ثم الأمثل فالأمثل، فالمرء على دين خليله وعقله وأدبه فلينظر من يخالل، وعلى العاقل أن يرمق أحوال الناس؛ فما رآه منتقداً عندهم من العادات والأخلاق والكلام والأفعال تركه إن لم يخالف عرفهم للأمور الشرعية؛ وما رآه محموداً من هذه الأشياء فعله، وحينئذ ينتفع بمخالطة الناس، وتعرف ما يحمدونه من العوائد وما يذمّونه، وكل هذا بشرط أن لا يكون في الفعل أو الترك محذور شرعي، فإن كان محذور شرعي تعين تقديم الأمر الشرعي على كل عادة وعرف، وقد علمنا بالتتبع والاستقراء أن كل عرف خالف الشرع فإنه ناقص مختل، وهذه قاعدة مطردة لا تنتقض.

من الغلط الفاحش الخَطِرِ قبولُ قولِ الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حبًّا وبغضاً، ومدحاً وذماً، فكم حصل بهذا الغلط أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية أو لها بعض الحقيقة فنميت بالكذب والزور، وخصوصاً من عرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عرف منهم الهوى، فالواجب على العاقل التثبت والتحرّز وعدم التسرع، وبهذا يعرف دين العبد ورزانته وعقله.

إياك والإصغاء إلى قول النمّام فتصدقه، ثم إياك أن تبني على كلامه ما يضرُّك، ثم إياك أن تُبدي له ما لا تحب اطلاع أحد عليه، فإن فعلت فلا تلومن إلّا نفسك، وابتعد غاية البعد عنه مهما أمكنك، فإن كان لا بد منه ــ

ولن يسلم أحد من هذا ـ فاسمع منه غير واثق بكلامه ولا مؤسسٍ عليه، ولا تعطه من الكلام إلا الذي توطِّنُ نفسك على إشاعته وظهوره، واخزن من هذا النوع ما تخشى مغبته؛ وتخشى أن يزاد فيه وينقص.

كن حافظاً للسر ومعروفاً عند الناس بحفظه، فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضَوْا إليك بأسرارهم وعذروك إذا طويت عنهم سرَّ غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين، فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً، واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقة ومسالك خفية، فاجعل كل احتمال وإن بعد على بالك، ولا تؤتَ من جهة من جهاتك فإن هذا من الحزم، واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر والندم في العجلة والتسرع والوثوق بالناس ثقة تحملك على ما يضر، والأصل والميزان في هذا وغيره قوله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت). متفق عليه.

العاقل من اغتنم الفرص فإنها تمر مرَّ السحاب، كما قال ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك. وفراغك قبل شغلك. وصحتك قبل سقمك. وغناك قبل فقرك. وحياتك قبل موتك).

النظر إلى العواقب معونة عظيمة في سهولة الأعمال النافعة، وفي الاحتراز مما يُخاف ضرره، فإن العواقب الطيبة يسهِّل على العبد كلَّ طريق يوصل إليها وإن كان شاقاً لما يرجو من الثمرة.

مَنْ بَذَلَ المجهودَ في السعي في الأمور النافعة واستعانَ بالمعبود عليها وأتاها من أبوابها ومسالكها أدركَ المقصودَ، فإن لم يدركه كلَّه أدرك بعضَه، وإن لم يدرك منه شيئاً لم يلمْ نفسه ولم يذهب عمله سدى، وخصوصاً إذا ثابر على العمل ولم يتضجر.

وقـلَّ من جـد في أمــر تـطَلَّبــه    واستصحَبَ الصبر إلاّ فاز بالظفـر

تم والحمد لله رب العالمين، بخط عبـد الله بن سليمان العبـد الله السلمان نقله من خط مؤلفه في ٢٠ رجب سنة ١٣٧٠ .

وصلى الله على محمد وسلم تسليماً.

# فهرس المجموع الخامس
# ثقافة إسلامية



## فوائد مستنبطة من قصة يوسف

# وجوب التعاون بين المسلمين
## وموضوع الجهاد الديني

## الدلائل القرآنية
## في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخل في الدين الإسلامي





## الدين الصحيح يحل جميع المشاكل

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

# الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي

رحمه الله

- طريق الوصول إلى العلم المأمول
  بمعرفة القواعد والضّوابط والأصول
- الأدلة القواطع والبراهين
  في إبطال أصول الملحدين
- انتصار الحقّ
  محاورة دينيّة اجتماعيّة
- تنزيه الدّين وحملته ورجاله
  ممّا افتراه القصيمي في "أغلاله"
- الوسائل المفيدة للحياة السّعيدة

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربيّة السّعوديّة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# طريق الوصول إلى العِلْم المأمُول

## بمَعرفة القوَاعِد والضّوابط والأُصُول

بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقدِّمَة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإنه لما كانت كتب الإمام الكبير شيخ الإسلام والمسلمين، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، قدس الله روحه، جمعت فأوعت: جمعت جميع الفنون النافعة، والعلوم الصحيحة؛ جمعت علوم الأصول والفروع، وعلوم النقل والعقل، وعلوم الأخلاق، والآداب الظاهرة والباطنة؛ وجمعت بين المقاصد والوسائل، وبين المسائل والدلائل، وبين الأحكام وبيان حكمها وأسرارها، وبين تقرير مذاهب الحق والردّ على جميع المُبطلين، وامتازت على جميع الكتب المصنّفة بغزارة علمها، وكثرته وقوته وجودته وتحقيقه، بحيث يجزم من له اطلاع عليها وعلى غيرها أنه لا يوجد لها نظير يساويها أو يقاربها، وقد منّ الله تعالى بنشرها في هذه الأوقات، ونفع الله بها النفع العظيم، وصار كل مصلح منها يستمد، وعليها يعتمد.

ومن أعظم ما فاقت به غيرها وأهمّه، وتفرّدت على سواها أن مؤلفها، رحمه الله، يعتني غاية الاعتناء بالتنبيه على القواعد الكلّية، والأصول الجامعة والضوابط المحيطة في كل فن من الفنون التي تكلم بها. ومعلوم أن الأصول

والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان، والأصول للأشجار لا ثبات لها إلاّ بها، والأصول تُبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمى نماء مطرداً، وبها تعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفُرْقان بين المسائل التي تشتبه كثيراً، كما أنها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العلم جمعُها، ولها من الفوائد الكثيرة غير ما ذكرنا.

وقد يسّر الله الوقوف على كتبه الموجودة، فتتبعت ما وجدته في كتب هذا الإمام من الأصول والقواعد والضوابط النافعة وأثبتّها في هذا المجموع، ونقلتها بعبارات مؤلِّفها إلاّ شيئاً يسيراً منها أوجب تغيير بعض الألفاظ إذا كانت القاعدة والأصل متفرقاً في كلامه، غير متصل بعضه ببعض، فجمعته من متفرقات كلامه في موضع واحد ونضطر فيه إلى التغيير اليسير الذي يوضح المعنى ولا يغيره.

ولشيخ الإسلام كتاب يقال له (قواعد الاستقامة) طالما بحثنا عنه لتحصيله في مظانّه فلم يتيسّر لكثرة فوائده، وإني أرجو أن يكون ما جمعته في هذا المجموع من كلامه في الأصول والقواعد مغنياً عن ذلك الكتاب، ومتضمناً زيادات كثيرة لا توجد فيه ولا في غيره وسميته (طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد المنوعة والضوابط والأصول) إذ هو اسم يطابق مسماه، وفيه من العلوم الجمة والفوائد المهمة ما يعرفه أهل العلم الراغبون.

فرحمه الله من إمام رحم الله به المسلمين، وكان قدوة للمحققين والمصلحين وهي قواعد وأصول منوعة في أصول الدين، وفي أصول الفقه، والتفسير والحديث، وفي أصول الأحكام وفي أصول الأخلاق والمناظرات، والردّ على أهل الباطل، ويوجد في يسير منها نوع تكرار، إذا كان الأصل مهماً جدًّا وكان فيه زيادة فائدة. وأسأل الله تعالى أن يجعل العمل خالصاً لوجهه، وأن يعم نفعه ويعظم وقعه، إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

وقد فَصَلت بين كل أصل وآخر، فجعلت كل أصل في أول السطر

ووضعت له رقماً مسلسلاً. وقد ألحقتها بعد ما أكملتها بقواعد وأصول أُخر من كتب شمس الدين ابن القيم، فبلـغ الجميـع ما يزيد على الألف ما بين أصل وقاعدة وضابط وكلام جامـع.

**عبد الرحمن بن ناصر السعدي**

# أصول من العقيدة المسماة «بالتدمرية» لشيـخ الإسلام

(١) فلا بد للعبد أن يُثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال، وينفي عنه ما يجب نفيه مما يضادّ هذه الحال؛ ولا بد له في أحكامه أن يثبت خلقه وأمره، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خالياً من الزلل، وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحدَه لا شريك له، وهو التوحيد في القصـد والإرادة والعمل، والأول يتضمن التـوحيد في العلم والقول.

(٢) والله سبحانه بعث رسله بإثبات مفصَّل، ونفي مجمل، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلـح له من التشبيه والتمثيل.

(٣) القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقـة لا تماثـل سائـر الصفات.

(٤) القول في بعض الصفات كالقول في بعض.

(٥) فالسلف والأئمة وأتباعهم آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر مـع علمهم بالمباينة التي بين ما في الدنيا والآخرة، وأن مباينة الله لخلقه أعظم.

(٦) والله تعالى لا تضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه، فإن الله لا مثل له، بل له المثل الأعلى، فلا يجوز أن يشرك هو والمخلوقات في قياس تمثيل، ولا في قياس شمول تستوي أفراده، ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلى، وهو أنه كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزيه عنه.

(٧) وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه كمال ولا مدح إلّا إذا تضمن إثباتاً، وكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد له في خصائصه فإنها تدل على إثبات ضدها من أنواع الكمالات.

(٨) ما أخبر به الرسول عن ربه فإنه يجب الإيمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه، لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها، مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصاً عليه في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة، وما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً فليس على أحد، بل ولا له، أن يوافق على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده، فإن أراد حقًّا قُبل، وإن أراد باطلاً رُدّ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يُردّ جميع معناه بل يوقف اللفظ، ويفسّر المعنى.

(٩) سئل الإمام مالك رحمه الله وغيره من السلف عن قوله:
﴿الرَّحمـٰنُ على العرشِ ٱسْتوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]
كيف الاستواء؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فبين أن الاستواء معلوم وأن كيفية ذلك مجهول، وهكذا يقال في كل ما وصف الله به نفسه.

(١٠) والله تعالى لا يَعلَم عباده الحقائق التي أخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر، ولا يعلمون حقائق ما أراد بخلقه وأمره، فيجب الإيمان

بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، وقد علم ما سيكون قبل أن يكون، وقدّر المقادير وكتبها حيث شاء.

(١١) ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحدَه لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته، وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه، وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له، وذلك يتضمن كمال طاعته.

(١٢) فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر، وأمرت به من تفاصيل الشرائـع لا يعلمه الناس بعقولهم، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا يعلمون بعقولهم جُمل ذلك.

(١٣) المؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويصبر على المقدور.

(١٤) وجماع ذلك أنه لا بد له في الأمر من أصلين، ولا بد له في القدر من أصلين: ففي الأمر: عليه الاجتهاد في امتثال الأمر علماً وعملاً؛ فلا يزال يجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك، ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في الأمر وتعدّيه للحدود؛ وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب إليه ويستعين به، ويكون مفتقراً إليه في طلب الخير، وترك الشر. وعليه أن يصبر على المقدور، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه وإذا أذاه الناس علم أنه مقدر عليه.

(١٥) على العباد أن ينظروا إلى القدر في المصائب، وأن يستغفروا من المعائب.

(١٦) وقد جمع الله بين هذين الأصلين: العبادة والتوكل في غير موضع كقوله:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

فاعبدْهُ وتوكلْ عليه، فما لم يكن بالله لا يكون، فإنه لا حول ولا قوة إلّا بالله؛ وما لم يكن لله لا ينفع ولا يدوم؛ ولا بد في عبادته من أصلين: إخلاص الدين لله وموافقة أمره الذي بعث به رسله.

# ومن كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام

(١٧) ونحن نذكر من كلام الله وكلام رسوله محمد ﷺ فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله وكلام رسوله، فإن هذا هو المقصود، فلا نذكر اختلاف الناس ابتداءً بل نذكر من ذلك في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله وكلام رسوله ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله ورسوله خير وأحسن تأويلاً، خير في الحال وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة.

(١٨) اسم «الإيمان» تارة يذكر مفرداً غير مقرون بغيره فيدخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، وتارة يقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح، أو بالذين أوتوا العلم، فيكون «الإيمان» اسماً لما في القلب، وما قُرن معه اسماً للشرائع الظاهرة؛ ثم إنْ نُفِي «الإيمان» عند عدمها دل على أنها واجبة، لأنه لا تُنفى إلا لنفي بعض واجباته، وإن ذكر فضل «إيمان» صاحبها ولم ينف إيمانه دل على أنها مستحبة.

(١٩) ﴿إنما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

والخَشية أبداً متضمِّنة للرجاء؛ ولولا ذلك لكانت قُنوطاً؛ كما أن الرجاء يستلزم

الخوف، ولولا ذلك لكان أمْناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

(٢٠) لما ذكر قولهم في العقل أنه العلم، قال: فلا بد مع ذلك أنه علم يعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً إلّا من عرف الخير فطلبه، والشرَّ فتركه.

(٢١) ومن أتى الكبائر مثل الزِّنا والسرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخَشية، والخشوع والنور، وإنْ بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي ينزع عنه عند فعل الكبيرة.

(٢٢) والمقصود هنا أنه ينبغي للمسلم أن يقدر كلام الله ورسوله، بل ليس لأحد أن يحمل كلام كل أحد من الناس إلّا على ما عرف أنه أراده، لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد، فإن كثيراً من الناس يتأوَّل النصوص المخالفة لقوله، يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ وقصده به دفع ذلك المحتج بذلك عليه، وهذا خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الإيمان به، فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وليس الاعتناء في مراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس، فإذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الله ورسوله فكذلك النص الآخر الذي تأوّله، فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراد الله ورسوله بكلامه، وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل.

(٢٣) فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بيَّن الله فيه الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البيِّن، وأما إذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به فهنا أيضاً قد لا يقطع بأنها مما تبيَّن فيه الهدى من جهة الرسول، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر، والإجماع هل هو قطعي الدلالة أو ظنِّيُّ الدلالة.

(٢٤) ومن لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر

الذي حرّمه، من الكفر والفسوق والعصيان، لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن من لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات أصلاً لم يكن معه إيمان أصلاً.

(٢٥) «الإيمان» إذا أطلق في كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرَّمات، ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلا بد أن يكون ترك واجباً أو فعل محرَّماً فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد.

(٢٦) وكل مقصود إمّا أن يقصد لنفسه وإما أن يقصد لغيره؛ فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحدَه لا شريك له وهو إلّهه الذي يعبده لا يعبد سواه، وهو أحبّ إليه من كل من سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادته وجهَ الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد بها الاستعانة على الطاعة؛ وإن كان أصل مقصوده عبادةَ غير الله لم تكن الطيبات مباحةً له، فإن الله إنما أباحها للمؤمنين من عباده، بل الكفار وأهلُ الجرائم والذنوب وأهلُ الشهوات يحاسبون يوم القيامة على نِعم الله التي تنعَّموا بها فلم يشكروه ولم يعبدوه بها، ويقال لهم:

﴿أَذْهبتُمْ طيِّباتِكم في حياتِكُمُ الدُّنيا وٱسْتَمْتَعْتمْ بها﴾

[سورة الأحقاف: الآية ٢٠]

وأما إذا فعل المؤمن ما أبيح له قاصداً للعدول عن الحرام إلى الحلال لحاجته إليه فإنه يثاب عليه، وأمّا ما لا يحتاج إليه الإنسان من قول وعمل بل يفعله عبثاً فهذا عليه لا له، لحديث (كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله) «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» فأمر المؤمن بأحد أمرين: إما قول الخير أو الصمات ولهذا كان قول الخير خيراً من السكوت عنه. والسكوت عن الشر خيراً من قوله، إذ ليس

من شرط ما عليه أن يكون مستحقًّا لعذاب جهنم وغضب الله بل نقص قدره ودرجته عليه.

(٢٧) ولفظ الصالح والشهيد يذكر مفرداً فيتناول النبيين والصِّدِّيقين والشهداء، ويذكر مع غيره فيفسر بحسبه.

(٢٨) ولفظ الفسوق والعصيان والكفر، فإذا أطلقت المعصية والفسوق تناول الكفر فما دونه، وإذا قيِّدت أو قرنت مع غيرها كانت على حسب ذلك.

(٢٩) فالشفاعة الحسنة الإعانة على الخير الذي يحبه الله ورسوله من نفعِ مَنْ يستحق النفع، ودفعِ الضرِّ عمن يستحق دفع الضرِّ عنه؛ والشفاعة السيئة الإعانة على ما يكرهه الله ورسوله، كالشفاعة التي فيها ظلم الإنسان أو منع الإحسان لمن يستحقه.

(٣٠) الإلّه هو المستحق للعبادة، فكل ما يعبد به فهو من تمام تأله العباد له، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره لم يحقق قول لا إله إلا الله في هذا المقام.

(٣١) وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّ الله على وجهين: (أحدهما) أن يعلموا أنهم بدَّلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شِركاً وإن لم يكونوا يصلُّون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء. (الثاني) أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحلال وتحريم الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب .

(٣٢) ثم ذلك المحرِّم للحلال، والمحلِّل للحرام، إن كان مجتهداً قصدُه اتباعُ الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه؛ ولكنْ من علم أن هذا خطأٌ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمّه الله، لا سيما إنِ اتَّبـع في ذلك هواه، ونَصَرَه باللسان واليد مـع علمه أنه مخالف للرسول، فهذا شِرْك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عُرِف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق، وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤَاخَذُ بما عجز عنه.

(٣٣) وأما إن كان المتبـعُ للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة؛ وأما إن قلّد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونَصَره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً.

(٣٤) الظلم المطلق يتناول الكفر، ولا يختص بالكفر، بل يتناول أيضاً ما دونه، وكلٌّ بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية، فإن هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان.

(٣٥) إذا أطلق الصلاح تناول الخير كله، وإذا أطلق الفساد تناول الشرَّ كله، وكذلك المصلـح والمفسد.

(٣٦) ليس لفظ «الإيمان» في دلالته على الأعمال المأمور بها دون لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحـج في دلالته على الصلاة الشرعية والصيام الشرعي والزكاة الشرعية والحـج الشرعي سواء قيل إن الشارع نقله أو زاد

الحكم دون الاسم، أو زاد الاسم وتصرّف فيه تصرف أهل العرف، أو خاطب بالاسم مقيَّداً لا مطلقاً.

(٣٧) أهل البدع لا يعتمدون على الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة والتابعين، وإنما يعتمدون على العقل واللغة؛ وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة، والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم وهذه طريقة الملاحدة أيضاً: إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأوّلون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه. قال أحمد: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس.

(٣٨) إذا تدبرتَ حجج أهل الباطل رأيتها دعاوى لا يقوم عليها دليل.

(٣٩) إذا أُمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله به، وكذلك الطاعة والتقوى والبر والهدى؛ وإذا قُرن كل منها بغيره فُسِّر بما يناسب المقام، ومن ذلك تعبير السلف عن «الإيمان» أنه قول وعمل ونية، أو قول وعمل ونية واتباعُ سنة، مع شمول كل تعبير منها.

(٤٠) لفظ «الإيمان» إذا أطلق في الكتاب والسنة يراد به ما يراد بلفظ البِرّ، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدِّين فكل ما يحبه الله ورسولُه يدخل في اسم «الإيمان».

(٤١) لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو دعا الناس إليها، كافراً في الباطن إلا إذا كان منافقاً، فأمّا من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلط فيما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً.

(٤٢) وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة: من كان منهم منافقاً فهو

كافر بالباطن، ومن لم يكن منافقاً بل مؤمناً بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافراً بالباطن وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه؛ وقد يكون في بعضهم شعبة من النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن قال إن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، رضوان الله عليهم، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفَّر كل واحدة من الثنتين والسبعين فرقة وإنما يكفِّر بعضهم بعضاً ببعض المقالات.

(٤٣) إذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فإذا ذهب بعض ذلك فنصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، ولهذا كان السلف يقولون: إنه يتفاضل ويزيد وينقص، والناس فيه متفاوتون بحسب قيامهم به وبلوازمه ومكملاته.

(٤٤) وزيادة الإيمان من وجوه (أحدها): الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، (الثاني): الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، (الثالث): أن العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد من الشك والريب، (الرابع): أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله. (الخامس) و(السادس): أن أعمال القلوب والجوارح تتفاوت تفاوتاً عظيماً ويتفاضل الناس بها، (السابع): ذكر الإنسان ما أمر به بقلبه واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلاً عنه أكمل ممن صَدّق به وغفل عنه. (الثامن): قد يكون عند بعض المؤمنين كثير من التفصيلات التي ينكرونها لجهلهم أنها مما جاء به الرسول فيكون ذلك نقصاً عمن ليس كذلك.

(٤٥) فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك.

(٤٦) المؤمن المطلق الممدوح الذي إيمانه يمنعه من دخول النار هو الذي أدّى الواجبات وترك المحرَّمات؛ وأما من أطلق عليه اسم «الإيمان»

ودخل في الأمر والنهي وفي ذم الشارع له على بعض الأفعال أو التُّرُوك، فهذا الذي معه أصل الإيمان ولكنه يتجرأ على بعض المحرمات، ويترك بعض الواجبات؛ فهذا إيمانه يمنعه من الخلود في النار.

(٤٧) ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم، ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حدُّه بالشرع، كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة، كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض، والمعروف في قوله:

﴿وعاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

(٤٨) والتحقيق أن النبي ﷺ حين اقتصر على الشهادتين وبقية الخمس مع أنه يوجد واجبات كثيرة غيرها أنه ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين، وهذه هي الخمس، وما عدا ذلك فإنه يجب بأسباب لمصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس.

(٤٩) قد يكون من «الإيمان» ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه ويفضل الله ذاك بهذا «الإيمان» وإن لم يكن المفضول ترك واجباً، وكذلك في الأعمال الظاهرة قد يُعطى الإنسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده، ولكن بدنه عاجز.

(٥٠) فضل الله يؤتيه من يشاء بالأسباب التي تفضّل الله بها عليهم وخصّهم بها، وهكذا سائر من يفضّله اللَّهُ فإنه يفضِّله بالأسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء، كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والإخلاص، وغير ذلك مما يفضّل الله به.

(٥١) أخبر الله في غير موضع أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء

وقد بين في مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب وقد عرف أنه يخص من يشاء بأسباب الرزق.

(٥٢) الإنسان قد يكون فيه شعبة إيمان ونفاق وكفر وإسلام وخير وشر، وأسباب الثواب وأسباب العقاب بحسب ما قام به من أصول «الإيمان» ولوازمه وفروعه وما ضيعه منها.

(٥٣) فالمسلمون، سُنِّيُّهم وبِدْعِيُّهم، متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة ولا يعذب، وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله فهو كافر، وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد «الإيمان» التي اتفق عليها المنتسبون للإسلام و«الإيمان» فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد وبعض معاني بعض الأسماء أمرٌ خفيف بالنسبة إلى ما اتفق عليه؛ مع أن المخالفين للحق البيِّن من الكتاب والسُّنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة مشهود عليهم بالضلالة، ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم، وإنما يتنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس، ولكن يجب ردُّ ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، والله أعلم.

## ومن رسالة «العبودية»

(٥٤) وأصل ضلالِ من ضَلّ هو تقديم قياسه على النص المنزَلِ من عند الله واختياره الهوى على اتباع أمر الله.

(٥٥) فالمخالف لما بعث الله به رسله من عبادته وطاعة رسله لا يكون متبعاً للدين الذي شرعه الله بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله.

(٥٦) والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك

من الأسماء مقصودها واحدٌ ولها أصلان، أحدهما: أن لا يعبد إلا الله، والثاني، أن يعبد بما أمر لا بغير ذلك من الأهواء والبدع.

(٥٧) كمال المخلوق في تحقيقه عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

(٥٨) والناس يتفاضلون تفاضلاً عظيماً وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان، وهم ينقسمون فيه إلى خاصٍّ وعام، ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عمومٌ وخصوصٌ وضروبٌ.

(٥٩) من كان متعلقاً برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبدُ مَا يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده.

(٦٠) العبد لا بد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه.

(٦١) كلما قوي طمعُ العبد في فضل الله ورحمته، ورجاؤه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته لله وحريته ممن سواه وبالعكس.

(٦٢) إعراض القلب عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه كمالكه ومَلِكِه وشيخه ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالى:

﴿وتوكَّلْ عَلَى الحيِّ الذي لا يموت﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨]

(٦٣) عبودية القلب وأسرُهُ هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

(٦٤) والقلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن شيء قط عنده أحلى من ذلك ولا أطيب ولا ألذ؛ والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أوخوفاً من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر.

(٦٥) والقلب خُلِقَ يُحِبُّ الحق ويريده ويطلبه، فلما عَرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من دغل.

(٦٦) ومطالب النفوس وأغراضها نوعان: منها ما هو محتاج إليه كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيكون المال عنده يستعمله في حوائجه بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي حاجته فيه من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً:

﴿إذا مَسّه الشَّرُّ جزوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ منوعاً﴾

[سورة المعارج: الآيتان ٢٠، ٢١]

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها كان مستعبداً لها وربما صار معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبادة ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

(٦٧) وحقيقة الجهاد الاجتهاد في حصول ما يحبُّه الله من «الإيمان» والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

(٦٨) وكلما قويت المحبة في القلب طلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادراً عليها حَصَّلها وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل.

(٦٩) إذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه.

(٧٠) كلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه.

(٧١) القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر، ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبودُه ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة:

﴿إِيّاكَ نعبدُ وإِيَّاكَ نَستعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود، ومن حيث هو المستعانُ به المتوكَّلُ عليه، فهو إلَهه لا إلَه له غيره، وهو ربه لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته إلاّ بهذين.

(٧٢) والله سبحانه هو رب العالمين، وكل ما سواه فهو مربوب مفطور فقير محتاج معبد مقهور، وهو الواحد القهار الخالق البارىء المصور، وهو وإن كان خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدِّر له، وهذا مفتقر إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه، وإلى ما يدفع عنه الضرر الذي يعارضه ويمانعه، وهو سبحانه وحده الغنيّ عما سواه ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه.

(٧٣) اتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدعي محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته أو متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته.

(٧٤) إذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضادّ ذلك من السوء والفحشاء بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلباً وإرادة وحبًّا مطلقاً فيهوَى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن، أي نسيم مر بعطفه أماله.

## ومن رسالة «الواسطة»

(٧٥) حاصل جواب الشيخ في إثبات الواسطة بين الله وبين عباده أنها على قسمين: واسطة من تمام الدين والإيمان إثباتها، وهي أن الرسول ﷺ وغيرَه من الرسل وسائطُ بين الله وبين عباده في تبليغ دينه وشرعه، وواسطة شِرْكية وهي التقرب إلى أحد من الخلق ليقربه إلى الله وليجلب له المنافع التي لا يقدر عليها إلا الله أو يدفع عنه المضار، فهذا النوع من الشِّرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فالخلق مضطرون إلى وساطة الرسل في تبليغ الدين وليس بهم حاجة إلى وساطة أحد في طلب الحوائج من الله، فليس بين العبد وبين الله حجاب ولا واسطة.

(٧٦) على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور: (أحدها) أن يعلم أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب بل لا بد معه من أسباب أُخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله. (الثاني) أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلّا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً، مثل أن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء أو حصول النعماء. (الثالث) أن الأعمال البدنية لا يجوز أن يتخذ منها سبباً إلّا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف.

## ومن رسالة «الحسبة»

(٧٧) إذا كانت حاجة الناس لا تندفـع إلّا بالتسعير العادل سُعِّر عليهم تسعير عدل، لا وكس ولا شطط.

(٧٨) ومن امتنـع من معاوضة تجب عليه أُلزم بها بقيمة المثل.

(٧٩) العقوبة لا تكون إلا على ذنب ثابت، وأما المنـع والاحتراز فيكون مـع التهمة.

(٨٠) العقوبة على ترك الواجبات أو فعل المحرمات نوعان: مقدرة في الشرع لا يزاد فيها ولا ينقص، وراجعة إلى اجتهاد الوالي بحسب ما يحصل به المقصود، وتكون بالضرب وبالحبس وبالتوبيـخ وبالمال، كل أحد بحسب ذنبه وبحسب حاله.

(٨١) إذا أمكن أن تكون العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الإمكان.

(٨٢) رسالة الله لرسله، إما إخبار وإما إنشاء، فالإخبار عن نفسه وعن خلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد؛ والإنشاء الأمر والنهي والإباحة، وهذا كما ذكر الله في سورة:

﴿قُلْ هو الله أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١]

التي تعدل ثلث القرآن لتضمنها ثلث التوحيد، إذ هو قصص وتوحيد وأمر، وقوله في صفة نبينا محمد ﷺ:

﴿يأْمُرُهم بالمعروفِ وَينْهاهُم عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لهُمُ الطَّيباتِ ويُحرِّمُ عليهِمُ الخبائث﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

هو بيان لكمال رسالته، فإن الله أمر على لسان نبيه بكل معروف، ونهى عن كل منكر وأحلَّ كل طيب، وحرَّم كل خبيث، وكذلك وصف الأمة بما وصف

به نبيًّها، فهذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس، فهم أنفعهم لهم وأعظمهم إليهم إحساناً، لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهذا كمال النفع للخلق، وسائر الأمم لم يَأْمُروا كل أحد بكل معروف ولا نَهَوْا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك بل منهم من لم يجاهد، والذين جاهدوا من بني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم كما يقاتل الصائل الظالم لا لدعوة المجاهَدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

(٨٣) ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة، لأن الله أخبر أنهم يَأْمرون بكل معروف وينهَوْن عن كل منكر، فلو اتفقوا على إباحة محرَّم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبار عن الله أو عن خلقه بباطل لكانوا متصفين بالأمر بمنكر والنهي عن معروف من الكلم الطيب والعمل الصالح.

(٨٤) كلُّ ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين:

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٢]

وذَمَّ المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم.

(٨٥) من أصول أهل السنة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة.

(٨٦) إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات يجب ترجيح الراجح منها، فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد، ويجب احتمال أدنى المفسدتين لدفع أكبرهما، وذلك

بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.

(٨٧) ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه فإن ذلك لا يُمْلَك وإنما يلام على اتباعه بغير هدى من الله.

(٨٨) الواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه، هل هو موافق لأمر الله ورسوله، وهو هدى الله الذي أنزل على رسوله، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض، لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله فإنه قال:

﴿لا تُقدِّموا بين يَدَيِ اللهِ ورسولِهِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١]

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله، ومجرد الحب والبغض هوى، لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله.

(٨٩) لا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهي، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولا بد في ذلك من الرفق، ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإنه لا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال.

(٩٠) ومن المعلوم بما أرانا الله في الآفاق وفي أنفسنا من آياته وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من جنس سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله.

(٩١) أسباب الضلال والغي؛ البِدَع في الدين والفجور في الدنيا وهي مشتركة تعمُّ جميع بني آدم لما فيهم من الظلم والجهل.

(٩٢) أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة.

(٩٣) الباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة.

(٩٤) يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات، كما يقابل الطبيب المرض بضده، فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه، وذلك بشيئين: بفعل الحسنات وترك السيئات مع وجود ما ينفي الحسنات ويقتضي السيئات، وهذه أربعة أنواع، ويؤمر أيضاً بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه كما قال تعالى:

﴿والعصر * إنّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآيتان ١، ٢]

إلى آخرها.

(٩٥) ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذي به وهو اليقين.

(٩٦) القضايا التي يتفق عليها بنو آدم لا تكون إلّا حقًّا كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل، وذم الكذب والظلم.

## ومن رسالة «المظالم المشتركة»

(٩٧) المشتركون في الأموال والحقوق زيادتها لهم ونقصها عليهم بقدر أملاكهم وحقوقهم، وعليهم التزام العدل فيما يؤخذ منهم بغير حق كما عليهم

التزام العدل فيما يؤخذ منهم بحق، فإن الكلف التي تؤخذ بغير حق من الشركاء بسبب نفوسهم وأموالهم هي بمنزلة غيرها بالنسبة إليهم، وإنما يختلف حالها بالنسبة إلى الآخذ.

(٩٧أ) وليس لبعضهم أن يمتنع عن أداء قسطه امتناعاً يؤخذ به قسطه من سائر الشركاء فيتضاعف الظلم عليهم، ومن تغيب منهم أو امتنع فأخذ قسطه من شريكه فله الرجوع عليه، كالذي يؤدي عن غيره ديناً واجباً.

(٩٨) ومن له ولاية على مال غيره أدى ما ينوبه مما لا بدَّ منه، سواء كان بحق أو بغير حق، بل يجب عليهم إذا خافوا إن لم يؤدوه أن يؤخذ أكثر منه.

(٩٩) وإذا كان الإعطاء لدفع ضرر هو أعظم منه، فمذهب مالك وأحمد المشهور عنه وغيرهما، أن كل من أدى عن غيره واجباً فله أن يرجع به عليه إذا لم يكن متبرعاً بذلك وإن أداه بغير إذنه.

(١٠٠) ومعلوم أن الناس تحت أمر الله ورسوله، فليس لأحد أن يضر نفسه وماله ضرراً نهاه الله عنه، ومن دفع ذلك الضرر عنه بما هو أخف منه فقد أحسن إليه، وفي فِطر الناس جميعهم: أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو معتد، وما عده المسلمون ظلماً فهو ظلم.

## ومن رسالة «معارج الوصول»

(١٠١) الرسول ﷺ بيَّن الدينَ: أصولَه وفروعَه، وباطنَه وظاهرَه، علمَه وعمَلَه، وهذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملاً، ومن كان أبعد عن الحق علماً وعملاً كان بُعده عن هذا الأصل بحسب حاله فمستقل ومستكثر من الباطل.

(١٠٢) وقد دلَّ الرسول الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون المطالب الإلهية، وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيتِه وصفاته وصدق رسوله، وغير ذلك مما يحتاج إليه وإلى معرفته بالأدلة العقلية، وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية، وإن كان لا يحتاج إليها، فإن كثيراً من الأمور يعرف بالخبر الصادق، ومع هذا فالرسول بيَّن الأدلة العقلية الدالَّة عليها فجمع بين الطريقين: السمعي والعقلي، ودلالة الكتاب والسنة ليس بمجرد الخبر بل ولا الخلق، وهديهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين.

(١٠٣) تكرير القصص في عدة مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر، كما يسمي الله نفسه ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدلَّ عليه الاسم الآخر، وليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات.

(١٠٤) والصلاح منحصر في نوعين: في العلم النافع والعمل الصالح. وقد بعث الله محمداً ﷺ بأفضل ذلك، وهو الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. فالعلم النافع هو الإيمان، والعمل الصالح هو الإسلام، العلم النافع من علم الله، والعمل الصالح هو العمل بأمر الله. هذا تصديق الرسول فيما أخبر وهذا طاعته فيما أمر، وضد الأول أن يقول على الله ما لا يعلم، وضد الثاني أن يشرك بالله ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً. والأول أشرف، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

(١٠٥) ولا بد من العلم بما أخبر به الرسول والنظر في الأدلة التي دل بها الرسول وهي آيات الله، ولا بد مع ذلك من إرادة عبادة الله وحده بما أمر، ومن طلب علماً بلا إرادة أو إرادة بلا علم فهو ضال. ومن طلب هذا بدون اتباع الرسول فيهما فهو ضال.

(١٠٦) والعلم والمعرفة مدارها على أن يعرف ما جاء به الرسول ويعرف أن ما أخبر به حق، إما لعلمنا أنه لا يقول إلا حقاً، وهذا تصديق عام، وإما لعلمنا أن ذلك الخبر حق بما أظهر الله من آيات صدقه، فإنه أنزل الكتاب والميزان، وأرى الناسَ آياتِه في الآفاق وفي أنفسِهِم حتى يتبين لهم أنه الحق وأن القرآن حق.

(١٠٧) الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين، وأما الإجماع فهو في نفسه حق لا تجتمع الأمة على ضلالة، وكذلك القياس حق، فإنه بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب، والميزان يتضمن العدل وما به يعرف العدل.

(١٠٨) ودين الأنبياء كلهم الإسلام كما أخبر به في غير موضع، وهو الاستسلام لله وحده، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت، فطاعة كل نبي هي من دين الإسلام إذ ذاك.

(١٠٩) واليهود والنصارى خرجوا عن دين الإسلام، فإنهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله، واعتاضوا عن ذلك بمبدَل أو منسوخ. وهكذا كل مبتدع ديناً خالف به سنة الرسول لا يتبع إلا ديناً مُبدلاً أو منسوخاً، والشرك كله من المبدل لم يشرع الله الشرك قط، وكذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه مما ذكره الله في القرآن، كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك من الدين المبدل.

(١١٠) من صدَّق محمداً ﷺ فقد صدَّق كل نبي، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي، ومن كذَّبه فقد كذَّب كل نبي، ومن عصاه فقد عصى كل نبي.

(١١١) وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة. إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا

منها ما لم يرد منها وإما لرأي رأوه. وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله:

﴿ربَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أَخْطأْنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

## ومن رسالة «زيارة القبور»

(١١٢) يكفي المؤمن أن يعلم أن ما أمر الله به فهو لمصلحة محضة أو غالبة وما نهى الله عنه فهو مفسدة محضة أو غالبة، ولا أمرهم إلّا بما يُصْلحهم ولا نهاهم إلّا عما يَضُرّهم.

(١١٣) وقد بيَّـن الله في كتابه حقوقه التي لا تصلـح إلَّا له، كوحدانيته وعبادته وحدَه لا شريك له، وحقوق رسله، وحقوق المؤمنين بعضهم لبعض.

## ومن رسالة «رفـع الملام»

(١١٤) يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين عموماً كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمـع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

(١١٥) وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًّا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلّا رسول الله ﷺ. ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيـح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه، وجميـع الأعذار

ثلاثة أصناف. أحدها: عدم اعتقاده أن الرسول ﷺ قاله. الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول. الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

ثم فصّل هذه الأصناف إلى عشرة أنواع. ثم قال: فهذه الأسباب العشرة ظاهرة، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل في الحديث لم نطلع نحن عليها، فإن مدارك العلم واسعة ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه، سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا، لكن نحن وإن جوزنا هذا فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول آخر قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجة وإن كان أعلم، إذ تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية، فإن الأدلة الشرعية حجة الله على جميع عباده بخلاف رأي العالم، والدليل الشرعي يمتنع أن يكون خطأ إذا لم يعارضه دليل آخر، ورأي العالم ليس كذلك، ولو كان العمل بهذا التجويز جائزاً لما بقي شيء من الأدلة التي يجوز فيها مثل هذا، لكن الغرض أنه في نفسه قد يكون معذوراً في تركه، ونحن معذورون في تركنا لهذا الترك.

(١١٦) وإذا كان الترك يكون لبعض هذه الأسباب، فإذا جاء حديث صحيح فيه تحليل أو تحريم أو حكم فلا يجوز أن يعتقد أن التارك له من العلماء الذين وصفنا أسباب تركهم يعاقب لكونه حلّل الحرام أو حرّم الحلال أو حكم بغير ما أنزل الله؛ وكذلك إن كان في الحديث وعيد على فعل، من لعنة أو غضب أو عذاب ونحو ذلك، فلا يجوز أن يقال إن ذلك العالم الذي أباح هذا أو فَعَلَه داخل في هذا الوعيد، وهذا مما لا نعلم بين الأمة فيه خلافاً إلّا شيئاً يحكى عن بعض معتزلة بغداد مثل المريسي وأضرابه أنهم زعموا أن المخطىء من المجتهدين يعاقب على خطئه، وهذا لأن لحوق الوعيد لمن فعل المحرم مشروط بعلمه بالتحريم أو بتمكنه من العلم بالتحريم.

(١١٧) وهذا الشرط في لحوق الوعيد لا يحتاج أن يذكر في كل خطاب لاستقرار العلم به في القلوب، كما أن الوعد على العمل مشروط بإخلاص العمل لله وبعدم حبوط العمل في الردة؛ ثم إن هذا الشرط لا يذكر في كل حديث فيه وعد، ثم حيث قدر قيام الموجب للوعيد فإن الحكم يتخلف عنه لمانع، وموانع لحوق الوعيد متعددة، منها التوبة، ومنها الاستغفار، ومنها الحسنات الماحية، ومنها بلاء الدنيا ومصائبها، ومنها شفاعة شفيع مطاع، ومنها رحمة أرحم الراحمين، فإذا عدمت هذه الأسباب كلها ولن تعدم إلا في حق من تمرد، فهنالك يلحق الوعيد به.

## من رسالة «تنوع العبادات»

(١١٨) العبادات التي فعلها النبي ﷺ على أنواع يشرع فعلها على جميع تلك الأنواع من غير كراهة لشيء منها.

(١١٩) وينبغي أن يفعل هذا تارة وهذا أخرى.

(١٢٠) وقد يستحب بعضها لسبب شرعي.

(١٢١) المفضول قد يصير فاضلاً لمصلحة راجحة تقترن به أو زوال مَفْسدة.

## من «التسعينية»

(١٢٢) على الناس أن يجعلوا كلام الله ورسوله هو الأصلَ الإمامَ المقتدَى به، سواء فهموا معناه أو لم يفهموه، فيؤمنوا بلفظ النصوص، وإن لم يعرفوا حقيقة معناها، وأما ما سوى كلام الله ورسوله فلا يجعل أصلاً بحال.

(١٢٣) ليس لأحد أن يلزم الناس أو يوجب عليهم إلّا ما أوجبه الله

ورسوله، ولا يحظر عليهم إلا ما حظره الله ورسوله، ومن فعل ذلك فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله.

(١٢٤) الاعتقاد الذي يجب على المؤمنين خاصتِهم وعامتِهم، ويعاقب تاركوه هو ما بيَّـنه النبـي ﷺ فأخبر به وأمر بالإيمان به دون ما قاله غيره.

(١٢٥) لا ريب أن من لقي الله بالإيمان بجميـع ما جاء به الرسول مجملاً مقرًّا بما بلغه من تفصيل الجملة غير جاحد لشيء من تفاصيلها، أنه يكون بذلك من المؤمنين، إذ الإيمان بكل فرد من تفصيل ما أخبر به الرسول وأمر به غير مقدور للعباد، إذ لا يوجد أحد إلّا وقد خفي عليه بعض ما قاله الرسول، ولهذا يسـع الإنسان في مقالات كثيرة لا يقرُّ فيها بأحد النقيضين لا بنفيها ولا يثبتها، إذ لم يبلغه أن الرسول نفاها أو أثبتها.

(١٢٦) ومن أعـظم أسباب بـدع المتكلمين من الجهمية وغيـرهم قصورهم في مناظرة الكفار والمشركين، فإنهم يناظرونهم ويحاجونهم بغير الحق والعدل لينصروا الإسلام، زعموا، بذلك فيتسلط عليهم أولئك لما فيهم من الجهل والظلم ويحاجُّونهم بممانعات ومعارضات فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به الرسول، والظلم والعدوان لإخوانهم المسلمين بما استظهر عليهم أولئك المشركون، فصار قولهم مشتملاً على إيمان وكفر، وهدى وضلال، ورشد وغي، وجمـع بين النقيضين وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين.

(١٢٧) من أظهر العلوم الفطرية الضرورية التي علمها بنو آدم وجوب قيام الأوصاف بالموصوف وامتناع قيامها بغيره.

(١٢٨) الذي يجب على الإنسان اعتقاده في كلام الله أن القرآن الذي أنزله على رسوله كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

(١٢٩) وهو كلام الله حروفه ومعانيه.

(١٣٠) ولم يقل أحد من السلف إن القرآن قديم وإنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، بل هو صفة لله يتعلق بمشيئته وقدرته.

## من «السبعينية»

(١٣١) قد بيّـنا أن المؤمن الذي لا ريب في إيمانه قد يخطىء في بعض الأمور العلمية الاعتقادية، فَيُغْفر له كما يُغفر له ما يخطىء فيه من الأمور العلمية، وأن حكم الوعيد على الكفر لا يثبت في حق الشخص المعيَّن حتى تقوم عليه حجة الله التي بعث بها رسله، وأن الأمكنة والأزمنة التي تفتر فيها النبوة لا يكون حكم من خفيت عليه آثار النبوة حتى أنكر ما جاء به خطأ، كما يكون حكمه في الأمكنة والأزمنة التي ظهرت فيها آثار النبوة.

(١٣٢) وفتنة «الدجَّال» لا تختص بالموجودين في زمانه، بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقرّ بما يخالف الشريعة لخارقٍ فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان، لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها ـ سواء أدركه أو لم يدركه ـ كان معصوماً مما هو دون هذه الفتنة.

(١٣٣) وأما المؤمنون وولاة الأمور من العلماء والأمراء، ومن يدخل في ذلك من المشايـخ والملوك فلهم حقوق بحسب ما يقومون به من الدين فيطاعون في طاعة الله، ويجب لهم من النصيحة والمعاونة على البر والتقوى، وغير ذلك ما هو من حقوقهم ولعموم المؤمنين أيضاً من المناصحة والموالاة وغيرها من الحقوق ما دل عليه الكتاب والسنة.

(١٣٤) وكل من جعل غير الرسول بمنزلة الرسول في خصائص الرسالة فهو مُضاهٍ لمن جعل معه رسولاً آخر كمسيلمة ونحوه، وإن افترقا في بعض الوجوه.

# من شرحه على «الإصفهانية»

(١٣٥) وقد علم بالعقل أن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، فلو كان المخلوق مماثلاً للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع، والخالق يجب وجوده وقدمه، والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه، بل يجب حدوثه وإمكانه.

(١٣٦) الله سمّى نفسه بالرحمن الرحيم، ووصف نفسه بالرحمة والمحبة، وليست رحمته ومحبته كرحمة المخلوق ومحبته، ومعلوم أن صفاتنا بالنسبة إلينا كصفات الله بالنسبة إليه، فكما لا مثل لذاته لا مثل لصفاته.

(١٣٧) وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسولُه من صفاته ليس موقوفاً على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها، فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مثلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٢٤]

ومَنْ سَلَكَ هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمناً بالرسول ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به، بل يتأوله أو يفوضه، وما لم يخبر به إن عَلِمَه بعقله آمن به، وإلّا فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وإخباره وبين عدم الرسول وعدم إخباره، وكان ما يذكره من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده، وقد صرح به أئمة هذا الطريق.

(١٣٨) من عرف حقائق أقوال الناس وطرقَهم التي دعتهم إلى تلك الأقوال حصل له العلم والرحمة، فعلمَ الحق ورَحِم الخلق، وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وهذه خاصة أهل السنة المتَّبعين للرسول ﷺ، فإنهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله، وأهل البدع يبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها.

(١٣٩) الفاضل إذا تأمل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصوابَ منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق أمور عظيمة لا يقاربها بيان ولا تحقيق.

(١٤٠) الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل فكان هو الموصوف بها ولا يعود إلى غيره، واشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفة مما يشتق لمحلها منها اسم ولا يشتق الاسم لمحل لم يقم به تلك الصفة.

(١٤١) التمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة، ومعلوم أن من ادّعى النبوة إما أن يكون من أكمل الناس وأفضلهم، وإما أن يكون من أنقص الناس وأرذلهم.

(١٤٢) والكذّاب يظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه ويفعله يظهر به صدقه من وجوه كثيرة.

(١٤٣) فمن عرف الرسول وصدقَه ووفاءَه ومطابقة قوله لعمله علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب.

(١٤٤) والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها

وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب. والعالم لا يخلو من آثار النبوة والرسالة، ومحمد ﷺ قد جمع الله فيه أكمل الصفات وأفضلها التي يوصف بها الأنبياء في نفسه وأخلاقه، وفي دينه وشريعته وما جاء به، وفي آياته وبراهينه المتنوعة التي هي أكثر وأقوى وأوضح من جميع البراهين اليقينية الدالّة على صدقه وصحة ما جاء به.

(١٤٥) ومن تأمل ما جاء به علم أن مثل هذا لا يصدر إلّا عن أعلم الخلق وأصدقهم وأبرّهم، وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفترٍ على الله بالكذب الصريح، أو مخطىء جاهل ضالٍّ يظن أن الله أرسله ولم يرسله، لأن فيما أخبر به وما أمر به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة، ويعجز عن معرفته تفصيلاً ما يبين أنه من العلم والخبرة والمعرفة في الغاية التي باين بها أعلم الخلق وأكملهم.

(١٤٦) وفيه من الرحمة والمصلحة والهدي والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بارٍّ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق، ومن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله يَدَّعي هذه الدعوى العظيمة، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

(١٤٧) إذا استقرأ الإنسان ما علمه مما يجده في نوع الإنسان من أن كل من عظم ظلمه للخلق وضرره لهم كانت عاقبته عاقبة سوء وأتبع اللعنة والذم، ومن عظم نفعه للخلق وإحسانه إليهم كانت عاقبته عاقبة خير، استدل بما علم على ما لم يعلم.

(١٤٨) كذلك سُنَّته في الأنبياء الصادقين وأتباعهم من المؤمنين، وفي الكذابين والمكذبين بالحق، إن هؤلاء ينصرهم ويبقى لهم لسان صدق في الآخرين، وأولئك ينتقم منهم ويجعل عليهم اللعنة.

(١٤٩) إذا علم أن محمداً رسول الله وأن الله مصدقه في قوله:

﴿إني رسول الله إليكم﴾ [سورة الصَّفّ: الآية ٦]

فالرسول هو المخبر عن المرسِل بما أمره أن يخبر به علم بذلك أنه صادق فيما يخبر به عن الله.

(١٥٠) فتكذيبه في الأمور المعينة كتكذيبه في أصل الرسالة والطرق التي بها يعلم صدقه في المطلق يعلم بها صدقه في المعين والله أعلم.

## من رد الشيخ على تأسيس الرازي

(١٥١) ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف عما يروى عن معلم المبدِّلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنفية الثابتة بالعقل والدين.

(١٥٢) وقد علم جميع الذين خبروا كلام «أرسطو» وذويه في العلم الإلّهي أنهم من أقل الناس نصيباً في معرفة العلم الإلّهي وأكثر اضطراباً وضلالاً، وهو مع قلته كثير الضلال عظيم المشقة، وهذا يعرفه كل من له نظر صحيح في العلوم الإلّهية، فكيف يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلّهي وحالهم هذه الحال؟

(١٥٣) والله خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة، وهؤلاء الفلاسفة بدّلوا وغيَّروا فطرة الله وشرعته، خَلْقَه وأمرَه، وأفسدوا اعتقادات الناس وإراداتِهم، إدراكَهم وحركاتِهم، قولَهم وعملَهم وأمروهم أن يتركوا الفطرة الربانية والعلوم النبوية ويمحوا من قلوبهم ذلك ويستبدلوا به العلوم الفلسفية المخالفة للعقل والنقل، وأطال في رد هذا الأصل الخبيث.

## من كتاب «العقل والنقل»

(١٥٤) وفساد المعارض لما جاء به الرسول قد يعلم جملةً وتفصيلاً. أما الجملة فإنه من آمن بالله ورسوله إيماناً تاماً وعلم مراد الرسول قطعاً تيقن ثبوت ما أخبر به وعلم أن ما عارض ذلك من الحجج فهي حجج داحضة:

﴿والذين يحاجون في الله﴾ [سورة الشورى: الآية ١٦]

وأما التفصيل: فبعلم فساد تلك الحجة المعارضة.

(١٥٥) والرسول بلغ البلاغ المبين وبيّن مراده، فكل ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه إنه يحتاج فيه إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فلا بد أن يكون الرسول قد بيّن مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبيِّنه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم، فإن هذا قدح في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين، الذي هدى الله به العباد وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، وفرّق الله به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الرشاد والغي وبين أولياء الله وأعدائه وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات وما يُنَزَّه عنه من ذلك حتى أوضح الله به السبيل وأنار به الدليل وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه:

﴿واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مستقيم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٣]

(١٥٦) والرسول أعلم الخلق بالحق، وأقدر الناس على بيان الحق، وأنصح الخلق للخلق، وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد.

(١٥٧) أصول الدين: إما أن تكون مسائلَ يجب اعتقادها ويجب أن

تذكر قولاً أو تُعمل عملاً، كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد، أو دلائل هذه المسائل.

أما القسم الأول: فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلّغه الرسول البلاغ المبين وبيّـنه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بيَّـنوه وبلَّغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظَه ومعانِيَه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب، والحمد لله الذي بعث فينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، الذي أنزل الكتاب تفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وأما القسم الثاني: وهو دلائل هذه المسائل، فإن الله بيّـن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم ما لا يقدر أحد من هؤلاء أهل الكلام والفلاسفة وغيرهم قدره؛ ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا للناسِ في هـٰذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾

[سورة الروم: الآية ٥٨]

فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية، سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل، ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين، وهو القياس الشمولي المؤلَّف من المقدمات اليقينية.

(١٥٨) وفي القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين من المسائل والدلائل.

(١٥٩) ذَمُّ السَّلف والأئمة للكلامِ وأهلِه متناولٌ لمن استدل بالأدلة الفاسدة أو استدل على المقالات الباطلة؛ فأما من قال الحق الذي أذن الله فيه

حكماً ودليلاً فهو من أهل العلم والإيمان، والله يقول الحق ويهدي السبيل. وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه.

(١٦٠) فإذا عرفت المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة وعبر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالف فهذا عظيم المنفعة وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، ونهى الكتاب والسنة عن أمور، منها القول على الله بغير علم، وقول غير الحق، والجدل بغير علم، والجدل في آياته، والتفرق والاختلاف.

(١٦١) يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً مجملاً عامًّا. ولا ريب أن معرفة ما جاء به على التفصيل فرض كفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبُّر القرآن وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين؛ فهو واجب على الكفاية منهم، وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم وحاجتهم ومعرفتهم وما أُمِر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك؛ ويجب على من سمع النصوص وفَهِمَها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي والمحدِّث والمجادِل ما لا يجب على من ليس كذلك.

(١٦٢) وما أوجب الله به اليقين وجب فيه ما أوجبه الله كقوله:

﴿وٱعلَموا أنّ الله شديدُ العِقابِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

فاعلم أنه لا إلّه إلاّ الله، وكذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به، وقد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق باستطاعة العبد.

(١٦٣) وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قول غالب على

ظنه لعجزه عن تمام اليقين، بل ذلك هو الذي يقدر عليه، لا سيما إذا كان مطابقاً للحق، فالاعتقاد المطابق للحق ينفع صاحبه ويثاب عليه ويسقط به الفرض إذا لم يقدر على أكثر منه.

(١٦٤) وقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتِّباع ما أنزله، وإن كان له نظر جدل واجتهاد في عقلياتٍ وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين.

(١٦٥) فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتِّباع القرآن والإيمان مثلاً، أو لتعدِّيه حدود الله بسلوك السبيل التي نهي عنها أو لاتِّباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً، الذي يطلب الحق باجتهاده، فهذا مغفور له خطؤه.

(١٦٦) إذا تعارض دليلان، سواء كانا سمعيين أو عقليين، أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان، وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال، بل كلما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية، فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين، وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإن الظن لا يدفع اليقين، وأما إن كانا ظنيين فإنه يصار

إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعياً أو عقلياً.

(١٦٧) وبهذا التفصيل المحقق المتفق عليه بين العقلاء يتبين أن إثبات التعارض بين الدليل العقلي والسمعي، والجزم بتقديم العقلي معلوم الفساد بالضرورة وهو خلاف ما اتفق عليه العقلاء.

(١٦٨) عدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها، فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ هو ثابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقه أو لم نعلم، ومن أرسله الله إلى الناس فهو رسوله، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموا، وما أخبر به فهو حق وإن لم يصدقه الناس، وما أمر به عن الله فهو أمر به وإن لم يطعه الناس، فثبوت الرسالة في نفسها، وثبوت صدق الرسول، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفاً على وجودنا، فضلاً عن أن يكون موقوفاً على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا، وهذا كما أن وجود الرب وما يستحقه من الأسماء والصفات ثابت في نفس الأمر سواء علمناه أو لم نعلمه، فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع ولا معطياً له صفة لم تكن له ولا مفيداً له صفة كمال، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم، فالعلم تابع له ليس مؤثراً فيه، فإن العلم نوعان:

أحدهما: العملي، وهو ما كان شرطاً في حصول المعلوم، كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به، محتاج إليه.

والثاني: الخبري النظري، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم، كعلمنا بوحدانية الله وأسمائه وصفاته وصدق رسله، وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلك، فإن هذه المعلومات ثابتة، سواء علمناها أو لم نعلمها فهي مستغنية عن علمنا بها، والشرع مع العقل هو من هذا الباب؛ فإن الشرع المنزَّل من عند الله ثابت في نفسه، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه؛ وهو مستغنٍ في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه

بعقولنا، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته، وانتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً.

(١٦٩) كل من أثبت ما أثبته الرسول ونفى ما نفاه كان أولى بالمعقول الصريح كما كان أولى بالمنقول الصحيح، وكل من خالف صحيح المنقول فقد خالف أيضاً صريح المعقول، وكان أولى بمن قال الله فيهم:

﴿وَقَالوا لَوْ كُنَّا نَسْمعُ أوْ نَعقِلُ مَا كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ﴾

[سورة المُلْك: الآية ١٠]

(١٧٠) قد علم قطعاً أن الرسول لم يَدعُ الناس بطرق أهل البدع والفلسفة والكلام، وإنما دعاهم بالبراهين الصحيحة والآيات البينة وأدلة الهدى والحق.

(١٧١) إذا علم الرجل أن محمداً رسول الله بالعقل والنقل والبراهين اليقينية، ثم وجد في عقله ما ينازعه في خبره كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه، وأن لا يقدم رأيه على قوله، ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب عليه أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص، مع ما في ذلك من الكلفة والألم لِظَنِّه أنه أعلم منه وأنه إذا صدّقه أقرب لحصول الشفاء مع علمه أن الطبيب يخطىء كثيراً وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب بل يكون استعماله لما يصفه سبباً لهلاكه، ومع هذا يقبل قوله ويقلّده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل صادقون مُصَدّقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، ومن عارضهم ففيه من الجهل

والضلال ما لا يحصيه إلّا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض من لم يخطىء قط بمن لم يصب في معارضته قط؟

(١٧٢) ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط؛ وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهاتٍ فاسدةً يُعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع؛ وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه، إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول، ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته، والكلام على هذا الأصل على وجه التفصيل مذكور في موضعه، فإن أدلة النفاة للصفات والقدر ونحو ذلك إذا تدبرها العاقل الفاضل وأعطاها حقها من النظر العقلي علم بالعقل فسادها وثبوت نقيضها.

(١٧٣) ولا يعلم عن النبي ﷺ حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه، فضلاً عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البيِّن لعامة العقلاء؛ فإن ما يعلم بالعقل الصريح البين أظهر مما لا يعلم إلّا بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية، فإذا لم يوجد في الأحاديث الصحيحة ما يعلم نقيضه بالأدلة الخفية كالإجماع ونحوه، فأن لا يكون فيها ما يعلم نقيضه بالعقل الصريح الظاهر أولى وأحرى، ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشتبهة التي يحار فيها كثير من العقلاء، كمسائل أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما بعد الموت من الثواب والعقاب والجنة والنار، والعرش والكرسي وعامة ذلك من أنباء الغيب التي تقصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق

معرفتها بمجرد رأيهم، ولهذا كان عامة الخائضين فيها بمجرد رأيهم، إما متنازعين مختلفين وإما حيارى متهوكين، وغالبهم يرى أن إمامه أحذق منه في ذلك، ولهذا تجدهم عند التحقيق مقلِّدين لأئمتهم فيما يقولون من العقليات المعلومة بصريح العقل، فتجد أتباع «أرسطو» يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلّهيات مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله نقيض ما قاله «أرسطو» وتجده لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته أو ينسب النقص في الفهم إلى نفسه، مع أنه يعلم أهل العقل المتصفون بصريح العقل أن في المنطق من الخطأ البين ما لا ريب فيه، كما ذكر في غير هذا الموضع.

وأما كلام «أرسطو» وأتباعه في الإلّهيات فما فيه من الخطأ الكثير والتقصير العظيم ظاهر لجمهور عقلاء بني آدم، بل في كلامهم من التناقض ما لا يكاد يستقصى، وكذلك رؤوس المقالات البِدعية جمعت بين مخالفة النقل والعقل المعلومين.

(١٧٤) ومما يدل على فساد معقولات الفلاسفة وأهل الكلام الباطل بقطع النظر عما يدل على فسادها عقلاً ونقلاً كثرة التناقض والاضطراب بين أهلها وعدم الاستقرار والاتفاق على رأي واحد، بل ربما قال الواحد من أئمتهم ورؤسائهم القول وقال إنه مقطوع به، ثم في كتاب آخر يقول إنه مقطوع بخلافه، فعقول هذه حالها لا يصلح أن تكون معتبرة في الأمور الجزئية، فضلاً عن تقديمها على نصوص الأنبياء والمرسلين في الأمور العظيمة من أصول الدين.

(١٧٥) وكثير من أذكياء أهل الباطل ورؤسائهم تراجعوا عن باطلهم واعترفوا بالضلال والحيرة، فمنهم من وفق بعد ذلك لسلوك طرق أهل العلم والإيمان فصار إماماً في الهدى بعد ما كان إماماً في الضلال، ومنهم من لم يتيسر له ذلك فاعترف ببطلان ما كان عليه أولاً وبقي على دين العجائز وأهل الفطر الصحيحة، وكثير منهم في طغيانهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وذلك

أن الهدى هو ما بعث الله به رسوله، فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدم مناقضه عليه؟

(١٧٦) والمقصود هنا أنه لو سُوِّغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى، فإن الذين سلكوا هذا السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه، والمسلمون يشهدون عليه بذلك؛ فثبت بشهادته وإقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن إليه، ولا معرفة يسكن بها قلبه.

والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولاً صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات، فقالوا إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعى معارضة للكتاب والسنة من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح، إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات،لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على الأخرى بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى، فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الأقوال التي يسمونها معقولات، وإن كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها، ولم يبق إلا أن يقال إن كل إنسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه وما وجده معارضاً لأقوال الرسول من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومعلوم أن هذا أكثر ضلالاً واضطراباً.

وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر

إلى الغاية، وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات، فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب، فالأول:

﴿كسرابٍ بِقِيعةٍ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شيئاً وَوَجَدَ اللهَ عندَهُ فوفّاهُ حسابَهُ واللهُ سريعُ الحِسابِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٩]

والثاني: كظلمات في بحر لجي إلى نور، وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور، ثم ذكر الآيات المتعلقة بذلك.

(١٧٧) والمتناقضون في العقليات من هؤلاء قد يكون كلا الاعتقادين باطلاً، وقد يكون الحق فيه تفصيل يبين أن مع هؤلاء حقًّا وباطلاً ومع هؤلاء حقًّا وباطلاً، والحق الذي مع كل منهما هو الذي جاء به الكتاب الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

(١٧٨) الآيات والبراهين دالّة على صدق الرسل، وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلِّغون عن الله من الخبر والطلب لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ، كما اتفق على ذلك جميع المُقرِّين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن جميع ما يخبر به الرسول عن الله صدقٌ وحقٌّ لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي، لا عقلي ولا سمعي، وأن كلَّ ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة وشُبَهٌ من جنس شُبَهِ «السوفسطائية»؛ وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك

وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليلٌ صحيح كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع.

(١٧٩) والكلام هنا إنما هو لمن علم أن الرسول صادق، وأن ما جاء به ثابت، وأن إخباره لنا بالشيء يفيد تصديقنا بثبوت ما أخبر به، فمن كان هذا معلوماً له امتنع أن يجعل العقل مقدَّماً على خبر الرسول ﷺ. وأما من أفصح بحقيقة قوله وقال: «إن كلام الله ورسوله في التوحيد وأمور الغيب لا يستفاد منه علمٌ بالحقيقة» فهذا لكلامه مقام آخر.

(١٨٠) ففي الجملة لا يكون الرجل مؤمناً حتى يؤمن بالرسول إيماناً جازماً ليس مشروطاً بعدم معارض، فمتى قال أومن بخبره إلا أن يظهر له معارض يدفع خبره لم يكن مؤمناً به.

(١٨١) العلوم ثلاثة أقسام: منها ما لا يعلم إلّا بالعقل، ومنها ما لا يعلم إلّا بالسمع، ومنها ما يعلم بالسمع والعقل.

(١٨٢) وطرق العلم ثلاثة: الحسُّ والعقل والمركَّب منهما كالخبر. فمن الأمور ما لا يمكن علمه إلا بالخبر، كما يعلمه كل شخص بإخبار الصادقين كالخبر المتواتر وما يعلم بخبر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا التقسيم يجب الإقرار به، وقد قامت الأدلة اليقينية على نبوات الأنبياء وأنهم قد يعلمون بالخبر ما لا يعلم إلّا بالخبر. وكذلك يعلمون غيرهم بخبرهم ونفس النبوة تتضمن الخبر، فإن النبوة مشتقة من الإنباء، وهو الإخبار بالمغيب، فالنبي يخبر بالغيب ويمتنع أن يقوم دليل صحيح على أن كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون الخبر، فلا يمكن أن يجزم بأن كل ما أخبرت به الأنبياء يمكن غيرهم أن يعرفه بدون خبرهم، ولهذا كان أكمل الأمم علماً المقرون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية، فمن كذّب بطريق منها فاته من العلوم بحسب ما كذب به من تلك الطرق.

(١٨٣) وجماع هذا أن يعلم أن المنقول عن الرسول ﷺ شيئان: ألفاظه وأفعاله، ومعاني ألفاظه ومقاصده بأفعاله وكلاهما منه ما هو متواتر عند العامة والخاصة، ومنه ما يختص بعلمه بعض الناس وإن كان عند غيره مجهولاً أو مظنوناً ومكذوباً به؛ وأهل العلم بأقواله كأهل العلم بالحديث والتفسير المنقول والمغازي والفقه يتواتر عندهم من ذلك ما لا يتواتر عند غيرهم ممن لم يشركهم في علمهم، وكذلك أهل العلم بمعاني القرآن والحديث والفقه في ذلك يتواتر عندهم من ذلك ما لا يتواتر عند غيرهم من معاني الأقوال والأفعال المأخوذة عن الرسول.

(١٨٤) المعارضون لكلام الله ورسوله من المشهورين بالإسلام ينتهي أمرهم إلى التأويل أو التفويض.

(١٨٥) والتأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم، فإن لم يكن التأويل كذلك كان من باب التحريف والإلحاد لا من باب التفسير وبيان المراد، وأما التفويض فمن المعلوم أن الله أمرنا أن نتدبر القرآن وحضَّنَا على عقله وفهمه ومعرفته.

(١٨٦) وحقيقة قول الطائفتين أن المخاطب لنا لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده، بل دل ظاهره على الكفر والباطل، وأراد منا أن لا نفهم منه شيئاً أو نفهم منه ما لا دليل عليه فيه، وهذا مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد، وبهذا احتج عليهم زنادقة الفلاسفة وألزموهم بطرد هذا في المعاد وغيره، فلو آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت معارضتهم ودحضت حجتهم.

(١٨٧) ما هو مطلق كلي في أذهان الناس لا يوجد إلا معيناً مشخصاً مخصوصاً متميزاً في الأعيان، وإنما سمي كليًّا لكونه في الذهن كليًّا، وأما في الخارج فلا يكون في الخارج ما هو كلي أصلاً، وهذا الأصل ينفع في عامة العلوم، فلهذا يتعدد ذكره في كلامنا بحسب الحاجة إليه فيحتاج أن يفهم في

كل موضـع يحتاج إليه فيه، وبسبب الغلط فيه ضَلَّ طوائف من الناس حتى في وجود الرب.

(١٨٨) كل من تكلم بألفاظ لم ترد في الكتاب والسنة نفياً أو إثباتاً فإن كان في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزامهم به أمكن أن يقال لهم لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلاّ إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ولو كان ذلك المعنى حقًّا.

(١٨٩) وإن كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره من هذه الألفاظ استفسر عن مراده بذلك، فإن أراد معنى صحيحاً قُبِل، وإن أراد باطلاً رُدَّ، وإن اشتمل على حق وباطل قُبِل ما فيه من الحق ورُدَّ الباطل.

(١٩٠) ويقال لمن يتقيد بالشريعة إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة وفي كل من الإثبات والنفي تلبيس. وإنما العصمة في إطلاق ألفاظ الشارع من الكتاب والسنة.

(١٩١) نعلم أن كل حق يحتاج الناس إليه في أصول دينهم لا بد أن يكون مِمَّا بيَّـنه الرسول إذ كـانت فروع الدين لا تقوم إلا بأصوله، فكيف يجوز أن يترك الرسول أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلاّ بها لا يبيِّـنها للناس؟ ومن هنا يُعرف ضلالُ من ابتدع طريقاً أو اعتقاداً زعم أن الإيمان لا يتم إلاّ به، مـع العلم بأن الرسول لم يذكره، وهذا الأصل مما احتـج به علماء السُّنة على من دعاهم إلى قول الجهمية وغيرهم.

(١٩٢) والإنسان في نظره مـع نفسه ومناظرتهُ غيره إذا اعتصم بالكتاب والسُّنة هداه الله إلى صراطه المستقيم.

(١٩٣) وأمّا إذا كان الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له وفي مقام النظر أيضاً فعليه أن يعتصم أيضاً بالكتاب والسنة ويدعو إلى ذلك، وله أن يتكلم مـع ذلك ويبيِّـن الحق الذي جاء به الرسول بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله ضرب الأمثال

في كتابه وبيَّـن بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله، وأمر المعاد وغير ذلك من أصول الدين، وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى:

﴿وَلَا يأْتونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جئناكَ بِالحقِّ وأَحسَنَ تَفْسيراً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

وكذلك كان الرسول ﷺ في مخاطباته.

(١٩٤) وإذا كان المتكلم في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل وادعى أن العقل يعارض النصوص فإنه قد يحتاج إلى حل شُبْهَته وبيان بطلانها بإبطال الواضحات والاستفصال عن المشتبهات من الألفاظ واستفسار صاحبها ماذا يريد بها، فإن أراد بها حقاً قبل أو باطلاً رُدّ، وإن أراد حقاً وباطلاً قبل الحق ورد الباطل.

(١٩٥) والأصل في هذا الباب أن الألفاظ نوعان، نوع مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع، فهذا يجب اعتبار معناه وتعليق الحكم به، فإن كان مدحاً استحق صاحبه المدح وإن كان ذمًّا استحق الذمّ، وإن أثبت شيئاً وجب إثباته، وإن نفى شيئاً وجب نفيه، لأن كلام الله حق وكلام رسوله حق وكلام أهل الإجماع حق، وذلك كما ذكر الله في كتابه من أسمائه وصفاته وأفعاله أو ذكره رسوله، ومن دخل في اسم مذموم في الشرع كان مذموماً، كاسم الكافر والمنافق الملحد ونحو ذلك، ومن دخل في اسم محمود في الشرع كان محموداً، كاسم المؤمن والتقي والصديق ونحو ذلك، وأما الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها إلاّ أن يبين أنه يوافق الشرع، والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب، كلفظ الجسم والحيز والجهة والجوهر والعرض ونحوها.

(١٩٦) لا كفر بمخالفة العقليات مهما كانت، وإنما يكون الكفـر بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مـع العلم بصدقه، وفي الجملة فالكفر متعلق بما جاء به الرسول.

(١٩٧) فلا إيمان مع تكذيب الرسول ومعاداته، ولا كفر مع تصديقه وطاعته.

(١٩٨) وأهل البدع يبتدعون بدعاً تخالف الكتاب والسنة ويكفِّرون من خالفهم.

(١٩٩) ومن أراد أن يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلا يلتزم لفظاً بِدْعيًّا ولا يخالف دليلاً شرعيًّا ولا عقليًّا، فإنه يسلك طريق أهل السُّنَّة والحديث والأئمة الذين لا يوافقون على إطلاق النفي والإثبات في الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة، بل يستفصلون ويستفسرون كما تقدم.

(٢٠٠) أهل البدع من الجهمية ونحوهم في تحريفهم لنصوص الصفات ارتكبوا أربع عظائم: ردَّهم لنصوص الأنبياء، وردَّهم لما يوافق ذلك من عقول العقلاء، وجعلَ ما خالف ذلك من أقوالهم المجملة الباطلة هي أصول الدين وتكفيرَهم أو تفسيقَهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة للعقل والنقل.

وأما أهل العلم والإيمان فهم على نقيض هذه الحال، يجعلون كلام الله ورسولِهِ هو الأصل الذي يعتمد عليه، وإليه يُردُّ ما تنازع الناس فيه، فما وافقه كان حقًّا، وما خالفه كان باطلاً، ومن كان قصده متابعته من المؤمنين وأخطأ بعد اجتهاده الذي استفرغ فيه وسعه غفر الله له خطأه، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية الخبرية أو المسائل العملية.

(٢٠١) القرمطة في السمعيات والسفسطة في العقليات هما مجمع الكذب والبهتان.

(٢٠٢) إذا خاطبنا الرسول ﷺ فعلينا أن نتأدب بأدب الله لنا حيث قال:

﴿لَا تَجعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بَينكُمْ كدُعاءِ بَعضِكُم بعضاً﴾

[سورة النور: الآية ٦٣]

فلا نقول: يا محمد، يا أحمد، بل نقول: يا رسول الله، يا نبيَّ الله؛ وإذا كنا في مقام الإخبار عنه قلنا: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسولُ الله، فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل، وبه يظهر الفرق بين ما يُدعى الله به من الأسماء الحُسنى وبين ما يُخبِر عنه عز وجل بما هو حق ثابت لإثبات ما يستحقه من صفات الكمال ونفي ما يُنزَّه عنه من العيوب والنقائص.

(٢٠٣) ولفظ التسلسل يراد به التسلسل في العلل والفاعلين والمؤثِّرات: بأن يكون للفاعل فاعل وللفاعل فاعل إلى ما لا نهاية له، وهذا متفق على امتناعه عند العقلاء، والثاني: التسلسل في الآثار بأن يكون الحادث الثاني موقوفاً على حادث قبله، وذلك الحادث موقوف على حادث قبله وهلم جرًّا، فهذا في جوازه قولان مشهوران للعقلاء وأئمة السنة والحديث مع كثير من النظار أهل الكلام والفلاسفة يجوزون ذلك، وعلى هذا دلالات الكتاب والسنة الكثيرة والعقل الصحيح، وأما التسلسل في الشروط ففيه قولان مشهوران للعقلاء والصواب المنع كالتسلسل في العلل.

(٢٠٤) وينبني على القول بجواز التسلسل في الآثار الذي هو الصواب المقطوع به أن الله لم يزل متكلماً فعَّالاً لما يريد، ولا يزال كذلك.

(٢٠٥) قد ثبت بالسمع اتصاف الباري بالأفعال الاختيارية القائمة به، كالاستواء على العرش والقبض والبسط والنزول والخلق والرزق المتعلقة بنفسه والمتعدِّية إلى الخلق. والفعل المتعدِّي واللازم لا بُدَّ أن يقوم بالفاعل ويمتنع عقلاً وشرعاً أن يقوم بغيره في الحالين؛ وهذه الأفعال الاختيارية تَبَعٌ لقدرته ومشيئته، فما شاء قاله وتكلم به وما شاء فعله في الحال والماضي والمستقبل؛ هذا أصل متفق عليه بين السلف وعليه دلَّ الكتاب والسنة.

(٢٠٦) من القضايا الكلِّية الضرورية أن كل محدَث لا بد له من محدِث وكل مفعول ومصنوع لا بدَّ له من فاعل وصانع، وكل ممكن لا بدَّ له

من واجب، والآية الدلالة يجب أن يكون ثبوتها مستلزماً لثبوت المدلول الذي هو آية له وعلامة عليه إلى أن تندرج تحت قضية كلية، وإذا كان كذلك فجميع المخلوقات مستلزمة للخالق بعينه، وكل منها يدل بنفسه على أن له محدثاً بنفسه، والعلم بأفراد ذلك لا يحتاج إلى العلم بالقضية الكلية، وهو أن كل محدَث فلا بد من له من محدِث.

(٢٠٧) فالفعل يستلزم القدرة، والإحكام يستلزم العلم، والتخصيص يستلزم الإرادة، وحسن العاقبة يستلزم الحكمة، فلهذا كانت المخلوقات آيات عليه وسمَّاها الله آيات.

(٢٠٨) الإقرار بالصانع ضروريٌّ فطري، فإنه لا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق للخالق، فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته إذ كان هو الذي خلقهم وهو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار، وكلُّ ما يحصل من أحد فإنما هو بخلقه وتقديره وتسببيه وتيسيره، وهذه الحاجة التي توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم، كما يخاطبهم بذلك في كتابه، وهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته، فإنه لا صلاح لهم، إلا أن يكون هو معبودهم الذي يحبّونه ويعظّمونه ولا يجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله، بل يكون ما يحبون كأنبيائه وصالحي عباده، إنما يحبونهم لأجله. ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم والاعتراف بالحاجة والافتقار ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسؤول المحبوب المرجو المخوف المعظم الذي تعترف النفوس بالحاجة إليه والافتقار الذي تواضع كل شيء لعظمته واستسلم كل شيء لقدرته، وذلَّ كل شيء لعزته، فإذا كانت هذه الأمور مما تحتاج النفوس إليها ولا بدَّ لها منها بل هي ضرورية فيها كان شرطها ولازمها وهو الاعتراف بالصانع والإقرار به أَوْلَى أن يكون ضرورياً في النفوس وأصل الإيمان قول القلب وعمله، أي علمه بالخالق وعبوديته للخالق، والقلب مفطور على هذا وهذا.

(٢٠٩) الطريقة الشرعية تتضمن الخبر بالحقِّ والتعريف بالطريق الموصلة إليه النافعة للخلق، وأما الكلام على كل ما يخطر ببال كل أحد من الشُّبهات «السوفسطائية» فهذا لا يمكن أن يبيِّنه خطاب على وجه التفصيل، والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها، وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها فيرى الحق باطلاً كما في البدن، والقرآن فيه شفاء لما في الصدور من الأمراض، والنبي ﷺ علم أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس، وأنه معلوم الفساد بالضرورة، فأمر عند وروده بالاستعاذة بالله منه والانتهاء عنه كما في حديث أبي هريرة المعروف: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله، فمن وجد شيئاً من ذلك فليقل: آمنت بالله وليستعذْ بالله ولْيَنْتَهِ، وهذا مجامع البراهين التي يرجع إليها غاية النظار، فأمر بالاستعاذة وأمر بالانتهاء ثم أرشده إلى الإيمان الذي فيه حفظ الأصل الديني ودفع المعارض، فعالجه بالانتهاء الذي فيه دفع التسلسل في الفاعل وبالاستعاذة التي فيها اللجأ إلى الله بدفع الشيطان الموسوس بهذه الوساوس الباطلة ثم ليقل: آمنت بالله، وهذا من باب دفع الضدِّ بضدّ النافع، فإن قوله آمنت بالله يدفع عن قلبه الوسواس الفاسد.

(٢١٠) ومما ينبغي أن يُعلم أن كثيراً من العلوم تكون ضرورية فطرية فإذا طلب المستدل أن يستدل عليها خفيت ووقع فيها الشك، إما لما في ذلك من تطويل المقدمات، وإما لما في ذلك من خفائها، وإما لما في ذلك من كلا الأمرين، والمستدلّ قد يعجز عن نظم دليل على ذلِك، إما لعجزه عن تصوره، وإما لعجزه عن التعبير عنه، وإما لعجزه عن دفع الشبهات المعارضة، إما في المستدل، وإما في السامع.

(٢١١) وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشدَّ وأكثر كانت معرفتهم به وذكرُهم له أعظمَ وأكثر، وكانت طرق معرفته أظهرَ وأكثرَ،

وكانت الأسماء المعرِّفة له أكثرَ وكانت على معانيه أدلَّ. ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظمَ من طرق معرفة ما سواه، وكان ذكرهم لأسمائه أعظمَ من ذكرهم لأسماء ما سواه، وله سبحانه في كل لغة أسماء، وله في اللغة العربية أسماء كثيرة، والصواب الذي عليه جمهور العلماء أنها لا تنحصر في تسعة وتسعين كما في أحاديث أُخر.

(٢١٢) إذا عرضنا على العقل الصريح ذاتاً لا علم لها ولا قدرة ولا حياة ولا تتكلم ولا تسمع ولا تبصر، أو لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات، وذاتاً موصوفة بالحياة والعلم والقدرة والكلام والمشيئة كان صريح العقل قاضياً بأن المُتَّصفة بهذه الصفات التي هي صفات الكمال، بل القابلة للاتصاف بها أكمل من ذاتٍ لا تتصف بهذه ولا تقبل الاتّصاف بها؛ ومعلوم بصريح العقل أن الخالق المبدع لجميع الذوات وكمالاتها أحقُّ بكل كمال وأحق بالكمال الذي باين به جميع الموجودات؛ وهذا الطريق ونحوه مما سلكه أهل الإثبات للصفات، فيقال: وإذا عرضنا على العقل الصريح ذاتاً لا فعل لها ولا حركة، ولا تقدر أن تصعد ولا تنزل، ولا تأتي ولا تجيء ولا تقرب ولا تقبض، ولا تطوي ولا تحدث شيئاً بفعل يقوم بها، وذاتاً تقدر على هذه الأفعال وتحدث الأشياء بفعل لها، كانت هذه الذات أكمل، فإن تلك كالجمادات أو كالحيِّ الزِّمِنِ المجْدَع، والحي أكمل من الجماد، والحي القادر على العمل أكمل من العاجز عنه.

هذا آخر ما يسر الله نقله من كتاب «العقل والنقل».

# فصل في ذكر القواعد والأصول

## والضوابط الجامعة من كتاب «منهاج السنة»

هجرانُ أهل البدع وتركُ عِيادتهم وتشييعِ جنائزهم من باب العقوبات الشرعية؛ وهو يختلف باختلاف الأحوال من قلة البدعة وكثرتها، وظهور السُّنة وخفائها، وأن المشروع هو التأليف تارةً والهجرانُ أخرى، كما كان ﷺ يفعله، لأن المقصود دعوة الخلق بأقرب طريق إلى طاعة الله، فيستعمل الرغبة حيث تكون أصلحَ والرهبةَ حيث تكون أصلحَ، وهو ﷺ أمره شامل عام لكل مؤمن شهده أو غاب عنه في حياته وبعد مماته وإذا أمر أناساً معينين بأمور، وحكم في أعيان معينة بأحكام لم يكن حكمه وأمره مختصًّا بتلك المعيَّنات، بل كان ثابتاً في نظائرها وأمثالها إلى يوم القيامة.

(٢١٣) والقول كل ما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق والله فطر عباده على معرفة الحق والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة، قال الله تعالى:

﴿سَنُرِيهِم آياتِنَا في الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِم حتَّى يتبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ﴾
[سورة فصّلت: الآية ٥٣]

فأخبر أنه سيريهم الآياتِ الأفقيةَ والنفسية المبينة، لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول.

(٢١٤) والنص والعقل دلّ على أن كل ما سوى الله مخلوق حادث، كائن بعد أن لم يكن، ولكن لا يلزم من حدوث كل فرد فرد مع كون الحوادث متعاقبة حدوث النوع، فلا يلزم من ذلك أن يكون الفاعل المتكلم معطلاً عن الفعل والكلام، ثم حدث ذلك بالسبب كما لم يلزم مثل ذلك في المستقبل، فإن كل فرد فرد من المستقبلات المنقضية فانٍ وليس النوع فانياً.

(٢١٥) أهل السُّنة يقولون: ينبغي أن يُولَّى الأصلح للولاية إذا أمكن، إمَّا وجوباً أو استحباباً، ومن عدل عن الأصلح مع القدرة لهوى فهو ظالم، ومن كان عاجزاً عن تولية الأصلح مع محبته لذلك فهو معذور؛ ويقولون: من تولَّى فإنه يستعان به على طاعة الله بحسب الإمكان، ولا يعان إلاّ على طاعة الله ولا يستعان به على معصية الله، ولا يعان على معصية الله.

(٢١٦) من طرق المناظرة أن يقع التفضيل بين طائفتين ومحاسن إحداهما أكثر وأعظم، ومساوئها أقل وأصغر، فإذا ذكر ما فيها من ذلك عورض بأنَّ مساوىء تلك أعظم كقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحرَامِ . . .﴾ الآية [سورة البقرة: الآية ٢١٧]

وإن كان كل من الطائفتين ممدوحاً لا يستحق الذمّ، بل هناك شبه في الموضعين، وأدلة في الموضعين، وأدلة أحد الصنفين أقوى وأظهر، وشبهته أضعف وأخفى، فيكون أولى بثبوت الحق ممن تكون أدلته أضعف وشبهته أقوى، وهذا حال النصارى واليهود مع المسلمين، وهو حال أهل البدع مع أهل السنة.

(٢١٧) والله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل، فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها، منزه عن النقص بكل وجه ممتنع أن يكون له مَثَلٌ في شيء من صفات الكمال، فأما صفات النقص فهو منزّهٌ عنها مطلقاً، وأما صفات الكمال فلا يماثله ــ بل ولا يقاربه ــ فيها شيء من الأشياء والتنزيه يجمعه نوعان: نفي النقص ونفي مماثَلَةِ غيره له في صفات الكمال، كما يدل على ذلك النصوص والعقل.

(٢١٨) وأسماؤه سبحانه تتضمن صفاته، ليست أعلاماً محضة، وهو مستحق للكمال المطلق لأنه واجب الوجود بنفسه يمتنع العدم عليه ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه، إذ لو افتقر إلى غيره بوجه

من الوجوه لكان مفتقراً إلى ذلك الغير؛ والحاجة إمّا إلى حصول كمالٍ له وإما إلى دفع ما ينقص كماله، ومن احتاج في شيء من كماله إلى غيره لم يكن كمالُه موجوداً بنفسه بل بذلك الغير، وهو بدون ذلك الكمال ناقص، والناقص لا يكون واجباً بنفسه بل ممكناً مفتقراً إلى غيره.

(٢١٩) فأي شيء اعتبرتَه من العالم وجدتَه مفتقراً إلى شيء آخر من العالم، فيدلّك ذلك مع كونه ممكناً مفتقراً ليس بواجب بنفسه إلى أنه مفتقر إلى فاعل ذلك الآخر حتى ينتهي الأمر إلى الرب الخالق لكل شيء، ويمتنع أن يكون للعالم فاعلان، مفعول كل منهما مستغن عن مفعول الآخر، كما قال تعالى:

﴿ما ٱتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلَه﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٩١]

ويمتنع أن يكونا مستقلين، لأنه جمع بين النقيضين، ويمتنع أن يكونا متعاونين متشاركين كما يوجد ذلك في المخلوقين لاستلزام ذلك العجز والحاجة إلى الآخر.

(٢٢٠) وهو تعالى مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، إذ كل غاية تفرض كمالاً إما أن تكون واجبة له، أو ممكنة، أو ممتنعة؛ والقسمان الأخيران باطلان فوجب الأول، فهو منزه عن النقص وعن مساواة شيء من الأشياء له في صفات الكمال، بل هذه المساواة هي من النقص أيضاً، وذلك لأن المتماثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، فلو قُدِّر انه ماثل شيئاً في شيء من الأشياء للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الشيء، وكل ما سواه ممكن قابل للعدم، بل معدوم مفتقر إلى فاعل، وهو مصنوع مربوب محدث، فلو ماثله لزم اشتراكهما في هذه الأمور، وقد تبين أن كماله من لوازم ذاته لا يمكن أن يكون مفتقراً فيه إلى غيره، فضلاً عن أن يكون ممكناً أو مصنوعاً أو محدثاً.

(٢٢١) وأما المخالفون للرسل من المشركين والصابئة ومن اتَّبَعهُم من

الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم، فطريقتهم نفي مفصل وإثبات مجمل: ينفون صفات الكمال ويثبتون ما لا يوجد إلّا في الخيال، فيقولون: ليس بكذا ولا بكذا.. إلى آخر ما يقولون.

(٢٢٢) والله سبحانه ضرب الأمثال في كتابه لما في ذلك من البيان؛ والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره، ولهذا ضرب الملكان المثل لداود، وضرب الأمثال مما يظهر به الحال، وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده.

(٢٢٣) العبد كماله في حاجته إلى ربه وعبوديته وفقره وفاقته، فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل، وصدور ما يحوجه إلى التوبة والاستغفار مما يزيده عبودية وفقراً وتواضعاً.

(٢٢٤) ومن أراد أن يمدح أو يذم فعليه أن يبين دخول الممدوح والمذموم في الأسماء التي علق الله ورسوله عليها المدح والذم، فأما إذا كان الاسم ليس له أصل في الشرع ودخول الداخل فيه مما ينازع فيه المدخل بطلت كل من المقدمتين.

(٢٢٥) فعل الحسنات له آثار محمودة في النفس وفي الخارج، وكذلك السيئات، والله تعالى جعل الحسنات سبباً لهذا والسيئات سبباً لهذا، كما جعل أكل السم سبباً للمرض والموت، وأسباب الشّر لها أسباب تدفع بمقتضاها، فالتوبة والأعمال الصالحة يمحى بها السيئات، والمصائب في الدنيا تكفر بها السيئات.

(٢٢٦) ومن العلوم علوم لو علمها كثير من الناس لضرّهم ذلك، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وليس اطلاع كثير من الناس بل أكثرهم على حكمة الله في كل شيء نافعاً لهم، بل قد يكون ضارًّا قال تعالى:
﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠١].

(٢٢٧) والاحتجاج بالقَدَرِ حجة داحضة باطلة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، والمحتج به لا يقبل من غيره هذه الحجة إذا احتج به في ظُلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه، بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه عليه، وإنما هو من جنس شُبَهِ «السوفسطائية» التي تعرض في العلوم، ولا يحتج به أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله، فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور وهو الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقَدَر، وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به لم يحتج بالقدر، بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم احتج بالقَدَر.

(٢٢٨) فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فأَتْبَاع الرسل أكمل الناس في ذلك والمكذِّبون للرسل انعكس الأمر في حقهم فصاروا يتبعون المفاسد ويعطّلون المصالح، فهم شرُّ الناس.

(٢٢٩) تكليف ما لا يطاق على وجهين: الأول، ما لا يطاق للعجز عنه، كتكليف الزَّمْنَى المشْيَ، وتكليف الإنسان الطيرانَ ونحو ذلك، فهذا غير واقع في الشريعة؛ والثاني، ما لا يطاق للاشتغال بضده كاشتغال الكافر بالكفر، وهذا واقع، ولا ينبغي أن يعبَّر عنه أنه لا يطاق.

(٢٣٠) أهل السنة يقولون: إن العبد له قدرة وإرادة وفعل؛ وهو فاعل حقيقةً والله خالق ذلك كلِّه، كما هو خالق كل شيء، كما دل على هذين الأصلين نصوص الكتاب والسنة، وهو الواقع.

(٢٣١) وفعل العبد حادث ممكنٌ، فيدخل في عموم خلق الله للحوادث، واتفق أهل السنة أن الله خص المؤمنين بنعمة دون الكافرين بأن

هداهم للإيمان، ولو كانت نعمته على المؤمنين مثل نعمته على الكافرين لم يكن المؤمن مؤمناً كما قال تعالى:

﴿ولـكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُم وكرَّه إليكُمُ الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ أولئك هُمُ الرّاشدون﴾ [سورة الحجرات: الآية ٧]

والله خالق الملائكة والأنبياء وخالق الشياطين والحيات والعقارب وغيرها من الفواسق، فهذا محمود معظم، وهذا فاسق يقتل في الحل والحرم، وهو سبحانه خالق في هذا طبيعة كريمة تقتضي الخير والإحسان، وفي هذا طبيعة خبيثة توجب الشر والعدوان.

(٢٣٢) الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة تتعلق بالأمر وإرادة تتْعلق بالخلق، فالإرادة المتعلقة بالأمر أن يريد من العبد فعل ما أمره، وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو، فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا، وهي الإرادة الدينية، والإرادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية القدرية؛ فالكفرُ والفسوقُ والعصيانُ ليس مراداً للرب بالاعتبار الأول، والطاعة موافقة لتلك الإرادة أو موافقة للأمر المستلزم لتلك الإرادة، فأما موافقة مجرد النوع الثاني فلا يكون به مطيعاً.

(٢٣٣) وكما على العبد أن يؤمن بقَدَرِ الله وقضائه فعليه أن يوافق الله في حبِّه وبغضه، فقضاء الشرور من جهة خلقة الرب لها محبوبة مرضية لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة، والعبد فعلها وهي ضارة له موجبة له العذاب، فنحن ننكرها ونكرهها ونناى عنها، وإذا أرسل الله الكافرين على المسلمين، فعلينا أن نرضى بقضاء الله في إرسالهم، وعلينا أن نجتهد في دفعهم وقتالهم، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر.

(٢٣٤) أهل السنة متفقون على أن الأنبياء معصومون في تبليغ الرسالة، ولا يجوز أن يستقر في شيء من الشريعة خطأ باتفاق المسلمين، وكل ما يبلغونه عن الله من الأمر والنهي فهم مطاعون فيه باتفاق المسلمين،

وما أخبروا به وجب تصديقهم فيه بإجماع المسلمين، وما أمروهم به ونهوهم عنه فهم مطاعون فيه عند جميع فرق الأمة، والجمهور الذي يجوزون عليهم الصغائر ومن يجوز الكبائر يقولون إنهم لا يقرون عليها، بل يحصل لهم بالتوبة منها من المنزلة أعظم مما كان قبل ذلك.

(٢٣٥) القياس نوعان: مذموم إما لفوات شرطه، وهو عدم المساواة في مناط الحكم، وإما لوجود مانعه، وهو النص الذي يجب تقديمه عليه، وصحيح محمود وهو الذي يستوي فيه الأصل والفرع في مناط الحكم، ولم يعارضه ما هو أرجح منه.

(٢٣٦) الصِّدّيق قد يراد به الكامل في الصدق، وقد يراد به الكامل في التصديق، وكمال ذلك علم ما أخبر به النبي ﷺ جملة وتفصيلاً، وتصديق ذلك تصديقاً كاملاً في العلم والقصد والقول والعمل، وأكمل الناس في هذا الوصف أبو بكر الصِّدّيق، رضي الله تعالى عنه.

(٢٣٧) فمن تكلّم في هذا الباب، أي مدح الصحابة أو القدح فيهم بجهل أو بخلاف ما يعلم كان مستوجباً للوعيد، ولو تكلم بحقٍّ لقصد الهوى لا لوجه الله أو ليعارض به حقًّا آخر لكان أيضاً مستوجباً للذم والعقاب، ومن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم ورضي الله عنهم واستحقاقهم الجنة، وأنهم خير هذه الأمة التي أُخرجت للناس لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة، منها ما لا يعلم صحته، ومنها ما يتبين كذبه، ومنها ما لا يعلم كيف وقع، ومنها ما يعلم عذر القوم فيه، ومنها ما يعلم توبتهم منه، ومنها ما يعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره، فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله، وكان من أهل الحق والاستقامة والاعتدال وإلّا حصل في جهل ونقض وتناقض كحال هؤلاء الرافضة الضُّلال.

(٢٣٨) والرجل الصالح المشهود له بالجنة قد يكون له سيئات يتوب منها أو تمحوها حسناته أو تكفر عنه بالمصائب أو غير ذلك، فإن العبد إذا

أذنب كان لدفع عقوبة النار عنه عشرة أسباب، ثلاثة منه وثلاثة من الناس وباقيها من الله: التوبة والاستغفار والحسنات الماحية ودعاء المؤمنين واهداؤهم له العمل الصالح وشفاعة نبينا ﷺ، والمصائب المكفِّرة في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة ومغفرة الله له بفضل رحمته.

(٢٣٩) ومما ينبغي أن يُعلم أن الأمة يقع فيها أمور بالتأويل في دمائها وأموالها وأعراضها، كالقتال واللعن والتكفير، وجماهير العلماء يقولون: إن أهل العدل والبغاة إذا اقتتلوا بالتأويل لم يضمن هؤلاء ما أتلفوا لهؤلاء ولا هؤلاء ما أتلفوا لهؤلاء، كما قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب محمد متوافرون، فأجمعوا أن كل دم أو مال أصيب بتأويل القرآن، فإنه هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية في الدماء والأموال، فكيف بالأعراض كاللعن والتكفير والتفسيق...

(٢٤٠) ومما ينبغي أن يُعلم أن أسباب الفتن تكون مشتركة فَيَرِدُ على القلوب من الواردات ما يمنع القلوب عن معرفة الحق وقصده، ولهذا تكون بمنزلة الجاهلية، والجاهلية ليس فيها معرفة الحق وقصده، والإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق وقصده.

(٢٤١) ويترتب على هذا الأصل أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومَنْ بَعْدهم إلى يوم القيامة قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتّباعه فيه وإن كان من أولياء المتقين ويصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمّه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجِه من الإيمان؛ وكل هذين الطرفين فاسد، ومن سلك طريق الاعتدال عظَّم من يستحق التعظيم وأحبَّه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم

ويثاب ويعاقب ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم.

(٢٤٢) الناس قد تكلموا في تصويب المجتهدين وتخطئتهم وتأثيمهم وعدم تأثيمهم، ونحن نذكر أصولاً جامعة نافعة:

**الأصل الأول:** هل يمكن كل أحد أن يعرف باجتهاده الحق في كل مسألة فيها نزاع؟ وإذا لم يمكنه فاجتهد فاستفرغ وسعه فلم يصل إلى الحق، بل قال ما اعتقد إنه هو الحق في نفس الأمر، هل يستحق أن يعاقب أم لا؟ هذا أصل هذه المسائل، ثم ذكر أقوال أهل البدع فيه، ثم قال: ليس كل من اجتهد واستدل يتمكن من معرفة الحق ولا يستحق الوعيد إلّا من ترك مأموراً أو فعل محظوراً، وهذا قول الفقهاء والأئمة وإن الناس يتفاوتون في معرفة الحق بحسب الأسباب التي يعرف بها الحق ولا يعذب الله إلّا من عصاه بفعلِ محظورٍ أو تَرك مأمورٍ من غير فرق بين المسائل الأصولية والفروعية، وكلُّ ما ذُكر من الفروق فإنه غير صحيح ولم يدل عليه كتابٌ ولا سنة، بل دلالتهما على عدم الفرق، ثم ذكر الأدلة على ذلك.

(٢٤٣) فالمجتهد المستدلّ من إمام وحاكم وعالم وناظر ومناظر ومفتٍ وغير ذلك إذا اجتهد واستدل واتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع ولا يعاقبه الله ألبتة، خلافاً للجهمية المجبِّرة، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه خلافاً للقَدَرية.

(٢٤٤) وهل تلزم الشرائع من لم يعلمها، أم لا تلزم أحداً إلّا بعد العلم بها، أو يفرّق بين الشرائع الناسخة والمبتدأة؟ فيه ثلاثة أقوال، الصواب منها أن الحكم لا يثبت إلّا مع التمكن من العلم، وانه لا يقضى ما لم يعلم وجوبه، فالواجب مشروط بالقُدرة والعقوبة لا تكون إلّا على ذنب بعد قيام الحجة.

(٢٤٥) فإذا تشاجر مسلمان في قضية ومضت ولا تعلق للناس بها، ولا يعرفون حقيقتها كان كلامهم فيها كلاماً بلا علم ولا عدل يتضمن أذاهم بغير حق، ولو عرفوا انهما مذنبان أو مخطئان لكان ذكر ذلك من غير مصلحة راجحة من باب الغيبة المذمومة.

(٢٤٦) ودين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة، فهم وسط في التوحيد بين اليهود التي تصف الرب بالنقائص ويشبهون الخالق بالمخلوق وبين النصارى التي تصف المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها ويشبهون المخلوق بالخالق؛ فالمسلمون وحدوا الله ووصفوه بصفات الكمال ونزهوه عن جميع النقص، ونزهوه أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات فهو موصوف بصفات الكمال لا بصفات النقص، وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

(٢٤٧) وكذلك في النبوات، فاليهود تقتل الأنبياء وتستكبر عن اتباعهم وتكذِّبُهُم وتتَّهمهم بالكبائر، والنصارى يجعلون من ليس بنبي ولا رسول نبياً ورسولاً.

(٢٤٨) وأما الشرائع فاليهود منعوا الخالق أن يبعث رسولاً بغير شريعة الرسول الأول، والنصارى جوزوا لأحبارهم أن يغيروا من الشرائع ما بعث الله به رسله.

(٢٤٩) وكذلك في العبادات: النصارى يعبدونه بِبِدَع ما أنزل الله بها من سلطان، واليهود معرضون عن العبادات، والمسلمون عبدوا الله بما شرع ولم يعبدوه بالبِدَع، وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به جميع النبيين: وهو أن يستسلم العبد لله، لا لغيره، وهو الحنيفية، دين إبراهيم.

(٢٥٠) وكذلك في أمر الحلال والحرام، في الطعام واللباس وما يدخل

في ذلك من النجاسات، فالنصارى لا تحرِّم ما حرم الله ورسوله ويستحلون الخبائث المحرمة ولا يتطهرون، واليهود حرمت عليهم طيبات أحلت لهم.

(٢٥١) وكذلك أهل السُّنة في الإسلام متوسطون في جميع الأمور، فهم في «عليٍّ» وسطٌ بين الخوارج والروافض، وفي «عثمان» بين المروانية والزيدية، وفي سائر الصحابة بين الغلاة فيهم والطاعنين عليهم، وهم في الوعيد وسط بين الخوارج والمعتزلة وبين المرجئة، وهم في القدر وسط بين القدرية من المعتزلة ونحوهم وبين القدرية المجبِّرة من الجهمية ونحوهم، وهم في الصفات وسط بين الممثلة والمعطِّلة.

(٢٥٢) والذين رفع الله قدرهم في الأمة هو بما أحيوه من سُنته ونُصرته، وهكذا سائر طوائف الأمة، بل سائر طوائف الخلق كل خير معهم فيما جاءت به الرسل عن الله وما كان معهم من خطأ أو ذنب فليس من جهة الرسل.

(٢٥٣) وأداء الواجب له مقصودان: أحدهما، براءة الذمة بحيث يندفع عنه الذم والعقاب المستحق بالترك، فهذا لا تجب معه إعادة الصلاة التي ترك الخشوع فيها، فإن الإعادة يبقى مقصودها حصول ثواب مجرد وهو شأن التطوعات، لكن حصول الحسنات الماحية للسيئات لا يكون إلّا مع القبول الذي عليه الثواب، فبقدر ما يكتب له من الثواب يكفر عنه به من السيئات الماضية، وما لا ثواب فيه لا يكفر وإن برئت به الذمة.

(٢٥٤) ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين، كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروط وموانع.

(٢٥٥) والنبي ﷺ لم يخرج الثنتين والسبعين فرقة من الإسلام، بل جعلهم من أمته ولم يقل انهم يخلدون في النار.

(٢٥٦) ومع مروق الخوارج وبدعتهم وضررهم العظيم واتفاق الصحابة على وجوب قتالهم، ومع هذا فقد صرح عليٌّ رضي الله عنه بأنهم مؤمنون ليسوا كفاراً ولا منافقين، وكان الصحابة يصلون خلفهم، فمن كفَّر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

(٢٥٧) والعقوبة في الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين، وإن كان في الآخرة خيراً ممن لم يعاقب، وأيضاً فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة ويصد عن الحق الذي لا يتابع هواه، فهذا يعاقبه الله على هواه ومثل هذا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة.

(٢٥٨) فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفِّرون، وسبب ذلك أن أحدهم قد يظن ما ليس بكفر كفراً، وقد يكون كفراً، لأنه تبين له أنه تكذيب للرسول وسبٌّ للخالق، والآخر لم يتبين له ذلك فلا يلزم إذا كان هذا العالم بحاله يكفر إذا قاله أن يكفر من لم يعلم بحاله.

(٢٥٩) والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحدَه لا شريك له وطاعة رسوله يدور على ذلك ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاماً إلا لرسول الله ﷺ ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً إلا للصحابة رضي الله عنهم، فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط.

(٢٦٠) والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي:

فالطريق الشرعي: هو النظر بما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها، فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما، وهذا الطريق متضمِّن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فإن الرسول يبيّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته.

وأما الطريقان المبتدعان:

فأحدهما: طريق أهل الكلام البِدعي والرأي البِدعي، فإن هذا فيه باطل كثير، وكثير من أهله يفرِّطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة.

والثاني: طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادات البِدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة.

(٢٦١) والعلم والجهاد والصلاة أفضل الأعمال بإجماع الأمة؛ والتحقيق أن كلًّا من الثلاثة لا بد له من الآخَرَيْن، وقد يكون هذا أفضلَ في حال، وهذا أفضلَ في حال كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يفعلون هذا وهذا وهذا كل في موضعه بحسب الحاجة والمصلحة.

(٢٦٢) المتصرِّف لغيره كولي اليتيم وناظر الوقف والوكيل والمضارب والشريك، وأمثال ذلك يتعين عليه الاجتهاد في الأصلح بخلاف المخيَّر في الكفارات والدِّيَات ونحوها فإنه تبع لإرادته، إذ هذا التخيير لقصد السهولة عليه.

(٢٦٣) الجاهل في كلامه على الأشخاص والطوائف والمقالات بمنزلة الذُّباب الذي لا يقع إلا على العقر ولا يقع على الصحيح، والعاقل يزن الأمور جميعاً هذا وهذا.

(٢٦٤) والأعمال ثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً.

(٢٦٥) والصحابة رضوان الله عليهم لم يختلفوا في شيء من قواعد الإسلام، لا في الصفات ولا في القَدَر ولا مسائل الأحكام ولا مسائل الإمامة، لم يختلفوا في ذلك بالاختصام بالأقوال، فضلاً عن الاقتتال بالسيف، بل كانوا مثبتين لصفات الله التي أخبر بها عن نفسه، نافين عنها تمثيلها بصفات المخلوقين، مثبتين للقَدَر، كما أخبر الله به ورسولُه مثبتين للأمر والنهي، والوعد والوعيد، مثبتين لحكمة الله في خلقه وأمره مثبتين لقُدْرة العبد واستطاعته ولفعله مع إثباتهم للقَدَر إلى غير ذلك من أصول الإسلام وقواعده.

(٢٦٦) الأمور نوعان: كلية عامة وجزئية خاصة؛ فأما الجزئيات الخاصة نحو ميراث هذا الميت وعدل هذا الشاهد ونحوها فهذا مما لا يمكن لا نبيًّا ولا إماماً ولا أحداً من الخلق أن ينصَّ على كل فرد فرد منه، وإنما الغاية الممكنة ذكر الأمور الكلية العامة، فينص على قواعد كلية، ثم ينظر في دخول الأعيان تحت تلك الكليات أو دخول نوع خاص تحت أعم منه وإن اكتفى بالكليات، فقد نص ﷺ على كليات من كتاب الله ومن الحكمة يدخل فيها من الجزئيات ما لا حصر له، وقد أعطى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً.

(٢٦٧) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أظلمُ مِمَّن كَذَبَ عَلى اللَّهِ وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية ٣٢]

إذا تدبرتَ هذا علمت أن كل واحد من الكذب على الله والتكذيب بالصدق مذموم، وأن المدح لا يستحقه إلا من كان آتياً بالصدق مصدِّقاً للصدق علمت أن هذا مما هدى الله به عباده إلى صراطه المستقيم. وإذا تأملت هذا تبين لك كثيراً من الشر أو أكثره يقع من أحد هذين، فتجد إحدى الطائفتين والرجلين

من الناس لا يكـذب فيما يخبر به من العلم لكن لا يقبل ما تأتي به الطائفة الأخرى وربما جمـع بين الكذب على الله والتكذيب بالصدق.

(٢٦٨) الخلفاء الأربعة الراشدون لهم في تبليـغ كليات الدين ونشر أصوله وأخذ الناس عنهم ذلك ما ليس لغيرهم وإن كان يُروى عن صغار الصحابة من الأحاديث المفردة أكثر مما يروى عن بعض الخلفاء، فالخلفاء لهم عموم التبليـغ وقوته الذي لم يشاركهم فيه غيرهم، ثم لما قاموا بتبليـغ ذلك شاركهم فيه غيرهم، فصار متواتراً كجمـع أبـي بكر وعمر القرآن في المصحف ثم جمـع عثمان لها في المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار، فكان الاهتمام بجمـع القرآن وتبليغه أهم مما سواه، وكذلك تبليـغ شرائـع الإسلام إلى أهل الأمصار ومقاتلتهم على ذلك واسْتنابتهم في ذلك الأمراء والعلماء وتصديقهم لهم فيما بلغوه عن الرسول فبلـغ من أقاموه من أهل العلم حتى صار الدين منقولاً نقلاً عامًّا متواتراً ظاهراً معلوماً قامت بـه الحجة ووضحت به المحجة، وتبين به أن هؤلاء كانوا خلفاءه المهديين الراشدين، الذين خلفوه في أمته علماً وعملاً، وهو ﷺ كما قال الله في حقه:

﴿والنَّجْمِ إذا هَوَى * ما ضلَّ صاحِبُكم وما غوى﴾

[سورة النَّجم: الآيتان ١، ٢]

وكذلك خلفاؤه الراشدون الذين قال فيهم: عليكم بسنتي وسنة الخلفـاء الراشدين المهديين من بعدي ـ فإنهم خلفوه في ذلك فانتفى عنهم بالهدى الضلال وبالرشد الغي وهذا هو الكمال في العلم والعمل.

ثم قال:

## فصـــل
## في الطرق التي يُعلم بها كذب المنقول

(٢٦٩) منها أن يروى خلاف ما علم بالتواتر والاستفاضة، ثم ذكر أمثلة لها، ومنها أن ينفرد الواحد والاثنان بما يُعلم أنه لو كان واقعاً لتوفرت الهمم والدواعي على نقله، وله أمثلة، ومنها أن يروى خلاف المعلوم المقطوع به في الشرع.

(٢٧٠) والسفسطة ثلاثة أنواع: **أحدها**: النفي والجحد والتكذيب للمعلوم لوجوده أو للعلم به. **الثاني**: الشك والريب فيما لايشك فيه ولا يرتاب. **الثالث**: من يجعل الحقائق تبعاً للعقائد.

(٢٧١) كثير من طلبة العلم ليس مقصودهم به إلّا تحصيل رئاسة أو مال، ولكل امرىء ما نوى، وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله فهو مقصود عندهم لمنفعته لهم وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة، ولهذا تجد أهل الانتفاع به يزكُّون به نفوسهم ويقصدون فيه اتّباع الحق لا اتّباع الهوى، ويسلكون فيه سبيل العدل والإنصاف ويحبُّونه ويلتذّون به ويحبُّون كثرته وكثرة أهله، وتنبعث هممهم على العمل به وبموجبه وبمقتضاه بخلاف من لم يذق حلاوته وليس مقصوده إلّا مالاً أو رئاسة، فإن ذلك لو حصل له بطريق آخر لسلكه وربما رجحه إذا كان أسهل عليه.

هذا آخر ما أردنا نقله من القواعد والأصول من المنهاج.

# ومن رسالة «نقض المنطق»

(٢٧٢) ذِكرُ الله يُعطي الإيمـان وهو أصل الإيمـان، والله سبحانـه هو رب كل شيء ومليكه، وهو معلم كل علم وواهبه، فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود، فذكره والعلم به أصل لكل علم، وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جُنْدب[1] وغيره من الصحابة: «تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً».

(٢٧٣) والعبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى طالب سائل، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله.

(٢٧٤) ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم ـ بالنظر والاستـدلال والتفكر والتدبر ـ لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيده العلم بالمدلول عليه؛ ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر فلا بدّ أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر؛ فيكون ذلك المعلوم أصلاً وسبباً للتفكر الذي يطلب به معلوماً آخر، ولهذا كان الذكر متعلقاً بالله لأنه سبحانه هو الحي المعلوم، وكان التفكر في مخلوقاته، لأن التفكيـر والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات؛ وأما الخالق فليس له شبيه ولا نظير؛ فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنـع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد، وبالذكر، وبما أخبر به عن نفسه، يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير، أعني من العلم به نفسه، فإنه الذي لا تفكير فيه، فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة.

---

(١) جندب بن جنادة هو أبو ذرٍّ الغفاري.

(٢٧٥) لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علوم المنطق ويناظر به إلاَّ فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علمه وبيانه.

(٢٧٦) والحذَّاق من أهله لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم، بل يُعرضون عنها إما لطولها وإما لعدم فائدتها وإما لفسادها وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتباه؛ وما زال علماء المسلمين يذمونه ويذمون أهله وينهَوْن عنه وعن أهله.

(٢٧٧) ومن المعلوم أن الأمور الدقيقة، سواء أكانت حقًّا أو باطلاً، إيماناً أو كفراً، لا تعلم إلاّ بذكاء وفطنة، وأهله يستجهلون من لم يشركهم في علمهم وإن كان إيمانه أحسن من إيمانهم، إذا كان فيه قصور في الذكاء والبيان وهم كما قال تعالى:

﴿إن الذين أجرموا. . .﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٩]

إلى آخر السورة، ولهذا لما تفطن كثير منهم لما فيه من الجهل والضلال صاروا يقولون: النفوس القدسية تفيض عليها المعارف بدون الطريق القياسية، وهم متفقون على أنَّ من النفوس من يُستَغنى عن وزن علومها بالموازين الصناعية في المنطق، لكن قد يقولون هو حكيم بالطبع.

(٢٧٨) وعلوم الأنبياء ـ إذا اعترفوا أنها حق ـ فإنهم يعترفون أنه لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم؛ فقد اعترفوا أن من الحق ما لا يوزن بميزان منطقهم، وإن قالوا: لا ندري أحق هي أم باطل، اعترفوا بأن أعظم المطالب وأجلها لا يوزن بميزان منطقهم؛ ومن المعلوم أن موازين الأموال لا يقصد أن يوزن بها الحطب والرصاص دون الذهب والفضة، وأمر النبوات وما جاءت به الرسل أعظم في العلوم من الذهب في الأموال، فهو ميزان جاهل جائر بحسب اعتراف أهله، يجور في وزنه، وأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس دون

الحقائق النافعة، والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض وليس سعادتها إلا فيه؛ فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم ولم يستدلُّوا بالآيات البينات، التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها، وخاب بالشقاوة جاهلها.

(٢٧٩) وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلَّا أموراً كلية مقدرة في الذهن، لا يفيد العلم بشيء موجود محقق في الخارج إلَّا بتوسط شيء آخر غيره؛ والأمور الكلية الذهنية ليست هي الحقائق الخارجية ولا هي أيضاً علماً بالحقائق الخارجية، إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها عن غيره هو بها هو، وتلك ليست كلية؛ فالعلم بالأمر المشترك لا يكون علماً بها، فلا يكون في القياس المنطقي علم بحقيقة شيء من الأشياء وهو المطلوب. ويطعنون في قياس التمثيل، وهو في التحقيق أبلغ في إفادة العلم واليقين من قياس الشمول، وإن كان علم قياس الشمول أكثر فذاك أكبر، فقياس التمثيل في القياس العقلي كالبصر في العلم الحسي، وقياس الشمول كالسمع في العلم الحسي، ولا ريب أن البصر أعظم وأكمل، والسمع أوسع وأشمل.

(٢٨٠) وأيضاً، فلا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم، وصار إماماً فيه، مستعيناً بصناعة علم المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيرها.

(٢٨١) وخصوصاً العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً، فهي أجلّ وأعظم من أن يكون لأهلها التفات إلى المنطق، كحال الصحابة والتابعين وأئمة الهدى.

(٢٨٢) وإدخال المنطق في العلوم الصحيحة يطوِّل العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيداً واليسير منه عسيراً، ولا يفيد إلَّا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق، فَعُلِم أنه من أعظم حشو الكلام وأبعد الأشياء عن طريق ذوي الأحلام.

(٢٨٣) وقد ذكر الله في القرآن كثيراً من الآيات التي يذكر فيها أقوال

أعداء الرسل وأفعالهم، وما أُوتوه من قوى الإدراكات والحـركات، وأنهم لم تنفعهم لَمّا عارضوا بها ماجاءت به الرسل، فما أغنت أسماعهم وأبصارهم ولا أفئدتهم من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تتبيب.

(٢٨٤) الأمور الموجودة المحققة تعلم بالحسّ الباطن والظاهر، وتعلم بالقياس التمثيلي، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية، ولا شمول ولا عموم، بل تكون الحدود الثلاثة فيه ــ الأصغر والأوسط والأكبر ــ أعياناً جزئية، والمقدمتان والنتيجة قضايا جزئية، وعلم هذه الأمور المعينة بهذه الطرق أصـح وأوضـح وأكمل.

## من رسالة «شرح حديث النزول»

(٢٨٥) قال بعضهم: إذا قال لك السائل كيف ينزل؟ أو كيف استوى أو كيف يعلم؟ أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق؟ فقل له كيف هو في نفسه. فإذا قال: أنا لا أعلم كيفية ذاته، فقل له: أنا لا أعلم كيفية صفاته، فإن العلم بكيفية الصفة يتبـع العلم بكيفية الموصوف.

(٢٨٦) لا نعرف ما غاب عنا إلّا بمعرفة ما شهدناه، فنحن نعرف أشياء بحسب الظاهر أو الباطن، وتلك معرفة معينة مخصوصة، ثم إنا بمعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد، فيبقى في أذهاننا قضايا كلية عامة، ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلّا بمعرفة المشهود لنا، فلولا أنّا نشهد من أنفسنا جوعاً وعطشاً وشبعاً ورياً وحباً وبغضاً ولذة وألماً وسخطاً ورضاً لم نعرف حقيقة ما نخاطَب به إذا وصف لنا ذلك، وأُخبرنا به عن غيرنا؛ وكذلك لو لم نعلم في الشاهد حياةً وقدرةً وعلماً وكلاماً لم نفهم ما نُخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك، وكذلك لو لم نشهد موجوداً لم نعرف وجود الغائب عنّا فلا بد فيما شهدناه وغاب عنا من قدر مشترك لنفهم الغائب.

(٢٨٧) ثم إن الله أخبرنا بما وعدنا في الدار الآخرة من النعيم، وأخبرنا بما يؤكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم نفهم ما وُعِدنا به، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل هذه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلّا الأسماء.

(٢٨٨) فمعنى الاستواء معلوم، وهو التأويل والتفسير الذي يعرفه الراسخون في العلم، والكيفية هي التأويل المجهول لبني آدم وغيرهم الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك ما وُعِدنا به في الجنة، تعلم العباد تفسير ما أخبر الله به وأما كيفيته فقد قال تعالى:

﴿فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لَهمْ من قُرَّةِ أَعْينٍ﴾

[سورة السجدة: الآية ١٧]

فإذا كان هذا في المخلوقات، فالخالق والمخلوق أعظم، فإن مباينة الله لخَلْقه وعظمته وكبريائه وفضله أعظمُ وأكثر مما بين مخلوق ومخلوق.

(٢٨٩) فمن نفى النزول أو الاستواء أو الرضى والغضب، أو العلمَ والقدرةَ أو اسم العليم أو القديرِ أو اسم الموجود فراراً بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم فإنه يلزمه فيما أثبته نظير ما ألزمه لغيره فيما نفاه هو وأثبته المثبت.

(٢٩٠) وأمّا النزول الذي لا يكون من جنس نزول أجسام العباد فهذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثيرين، ويكون قدره لبعض الناس أكثر أو أقل، بل لا يمتنع أن يقرب إلى خلقٍ من عباده دون بعض، فيقرب إلى هذا الذي دعاه دون هذا الذي لم يدعه، وجميع ما وصف الرب به نفسه من القرب فليس فيه ما هو عام لجميع المخلوقات كما في المعية، فإن المعية وَصَفَ نفسَه فيها بعموم وخصوص، وأما قربه ما يقرب منه فهو خاص لمن يقرب منه كالداعي والعابد، وكقربه عشية عرفة ودنوه إلى السماء الدنيا لأجل الحُجّاج، وإن كانت تلك العشية قد تكون وسط النهار في بعض البلاد،

وتكون ليلاً في بعض البلاد، فإن تلك البلاد لم يَدْنُ إليها ولا إلى سمائها الدنيا، وإنما دنا إلى السماء الدنيا التي على الحجاج؛ وكذلك نزوله بالليل، وهذا كما أن حسابه لعباده كحسابهم كلهم في ساعة واحدة وكل منهم يخلو به كما يخلو العبد بالقمر ليلة البدر فيقرره بذنوبه، وذلك المحاسب لا يرى أنه محاسب غيره كذلك في حديث أبـي رزين.

وكذلك حديث أبـي هريرة في صحيـح مسلم، إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي... إلى آخر الحديث، فهذا يقوله سبحانه لكل مُصَلٍّ قرأ الفاتحة ممن لا يحصي عدده إلاّ الله، وكل واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا، كما يحاسبهم كذلك فيقول لكل واحد ما يقول من القول في ساعة واحدة، وكذلك سمعه لكلامهم يسمـع كلامهم كله مـع اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم يسمـع دعاءهم سمـع إجابة، ويسمـع كلَّ ما يقولـون سَمْـعَ عِلمٍ وإحاطـة، لا يشغله سمـعٌ عن سمـع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحِّين، فإنه ــ سبحانه ــ هو الذي خلق هذا كله، وهو الذي يوصل الغذاء إلى كل جزء من البدن على مقداره وصفته المناسبة له، وكذلك من الزرع، وكرسيُّه وَسِـعَ السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، فإذا كان لا يؤوده خلقه ورزقه على هذه التفاصيل، فكيف يؤوده العلم بذلك أو سمـع كلامهم أو رؤية أفعالهم وإجابة دعائهم، سبحـانه، وتعالى علواً كبيراً:

﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حقَّ قَدْرِه﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩١]

وذكر نصوصاً أُخَرَ بهذا المعنى، فمن كانت هذه عظمته كيف يحصره مخلوق من المخلوقات، سماءٌ أو غير سماء، حتى يقال إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه، ويصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه، وهو قادر أن ينزل سبحانه وهو على عرشه، فقوله: إنه ينزل مـع بقاء عظمته

وعلوه على العرش أبلغ في القدرة والعظمة، وهو الذي فيه موافقة الشرع والعقل.

(٢٩١) وفي الحديث المتفق عليه: (إنكم لا تَدْعُون أَصمَّ ولا غائباً، إنما تَدْعُون سميعاً قريباً أقربَ إلى أَحدِكم من عنق راحلته)، وذلك لأن الله قريب من قلب الداعي، فهو أقرب إليه من عنق راحلته، وقربه من قلب الداعي له معنىً متفقٌ عليه عند أهل الإثبات، الذين يقولون: إن الله فوق العرش، ومعنى آخر فيه نزاع، فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعي، كما يُقَرِّبُ إليه قلب الساجد، فالساجد يقرب إليه قلبه فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض، ومتى قرب أحد الاثنين من الآخر صار الآخر إليه قريباً بالضرورة، وإن قُدِّر أنه لم يصدر من الآخر تحركٌ بذاته، كما أن من قَرُبَ من مكة قربت مكة منه، وقد وصف الله أنه يقرِّب إليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال:

﴿لن يستنكف المسيح﴾ [سورة النساء: الآية ١٧٢]

وأما قرب الرب قرب يقوم به بفعله القائم بنفسه فهذا تنفيه الكلابية. ومن يمنع قيام الأمور الاختيارية بذاته، وأمّا السلف وأئمة الحديث والسنة فلا يمنعون ذلك، فنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا وعشية عرفة هو من هذا الباب، وقال تعالى:

﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]

(ومن تقرّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً) الحديث. وهذا بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاءً على تقرُّبه باختياره، فكلّما تقرَّب العبد باختياره قدرَ شبر زاده الرب قرباً إليه حتى يكون المتقرِّب، فكذلك قرب الرب من قلب العابد وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والإيمان به وله المثل الأعلى، فهذا أيضاً لا نزاع فيه.

(٢٩٢) إذا عرفت تنزيه الرب عن صفات النقص فلا يوصف بالسفول ولا علو شيء عليه بوجه من الوجوه، بل هو العلي الأعلى الذي لا يكون إلا أعلى، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، وأنه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من الأفعال اللازمة والمتعدّية، لا النزول ولا الاستواء ولا غير ذلك، فيجب مع ذلك إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، والأدلة العقلية توافق ذلك لا تناقضه، ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة، والسلف من الصحابة والتابعين يقرُّون أفعاله كالاستواء والنزول وغيرهما على ما هي عليه.

(٢٩٣) فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه كذلك، فأما الاستواء فهو فعل يفعله تعالى بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيه:

﴿ثم استوى على العرش﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية والعلو من الصفات السمعية العقلية.

## من تفسير سورة «الإخلاص»

(٢٩٤) ذكر نصوصاً كثيرة من القرآن في الأمر بالرجوع إلى القرآن في كل شيء، ثم قال: فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل، وبيان ما اختلف فيه الناس، وأن الواجب على الناس اتباع ما أُنزل إليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه إلى الكتاب والسنة، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً، وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضلُّ ولا يشقى، ومن أعرض عن ذلك حشر ضالاًّ شقيّاً معذباً، وأن الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم.

(٢٩٤أ) ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل

أو الحس إلاَّ وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور، وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول، إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعاً، كالفتن التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والفعلية من الجاهلية بسبب خفاء النور عنهم، فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم.

(٢٩٥) يحتاج المسلمون إلى شيئين: معرفة ما أراد الله ورسوله بألفاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين في معاني تلك الألفاظ، وهذا أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول فتقبل والمخالفة فترد، فيجعل كلام الله ورسوله ومعانيهما هي الأصل، وما سواها يرد إليها.

(٢٩٦) التأويل هو بيان العاقبة ووجود العاقبة، وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به، فالآية التي مضى تأويلها قبل نزولها من باب الخبر يقع فيذكره الله كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له، وهي وإن مضى تأويلها فهي عبرة ومعناها ثابت في نظيرها، وإذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لا بدّ من معرفة تأويله لأنه لا بد من فعل المأمور وترك المحظور، وذلك لا يمكن إلا بعد العلم، لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهاً، فإن قوله:

﴿وأُخَرُ متشابهاتٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

قد يراد به من الخبر مثلما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والحرير ونحو

ذلك، كأن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى، ومع ذلك فحقيقة هذا مخالفة لحقيقة هذا، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا.

(٢٩٧) ومن أعظم الاختلاف: الاختلاف في المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالإيمان بالله واليوم الآخر، فلا بد أن يكون الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك، ويمتنع أن يكون حاكماً إن لم يكن معرفة معناها ممكناً، وقد نصب الله عليه دليلاً وإلاّ فالحاكم الذي لا يتبين ما في نفسه لا يحكم بشيء.

(٢٩٨) أهل البدع الذين ذمهم الله نوعان: أحدهما عالم بالحق، يتعمد خلافه، والثاني جاهل متبع لغيره؛ فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله، إما أحاديث مفتريات، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل، ويعضدون ذلك بما يدعون من الرأي والعقل وقصدهم بذلك الرئاسة والمأكل؛ وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلّهية وقيل لهم: هذه تخالفكم.. حرّفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة، وأما النوع الثاني فهم الأمّيون الجهّال الذين لا يعلمون الكتاب إلاَّ أمانيّ وإن هم إلا يظنون.

(٢٩٩) فهو تعالى أحدٌ لم يكن من جنس شيء من المخلوقات، وأنه صمدٌ كامل الصفات مقصود في كل الحاجات، وليس هو من مادّة بل هو صمدٌ، لم يلد ولم يولد، وإذا نفي عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد فَلأَنْ يُنفى عنه أن يكون مولوداً من سائر المواد أولى وأحرى، فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى، كما خلق آدم من الطين، فالمادة التي خلق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو ولهذا كان خلقه أعجب، فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيهاً، كما أنه إذا كان منزَّهاً عن أن يكون أحدٌ كفواً له فَلأَنْ يكون منزهاً عن أن يكون أحدٌ أفضلَ منه من باب أولى وأحرى؛ وهذا ما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد على النفي والإثبات، ولهذا كانت

تعدل ثلث القرآن، فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقص، والأحدية تثبت الانفراد بذلك.

(٣٠٠) يعتبر متابعة الرسول في قصده في أموره العادية إذا علمنا أنه فعلها لقصد القربة صارت مستحبة وإلّا فلا.

## ومن رسالة «الرد على الفصوص»

(٣٠١) حقيقة الدين والإيمان واليقين أمران:

أحدهما: كون الله في قلب العبد بالمعرفة والمحبة؛ فهذا فرض على كل أحد، ولا بد لكل مؤمن منه، فإن أدَّى واجبه فيه فهو مقتصد، وإن ترك بعض واجبه فهو ظالم لنفسه، وإن تركه كله فهو كافر بربه؛ والثاني: موافقة ربه فيما يحبّه ويكرهه، ويرضاه ويسخطه، فهذا على الإطلاق إنما هو للسابقين المقرَّبين الذين تقربوا إلى الله بالنوافل التي يحبها ولم يفرضها بعد الفرائض التي يحبها ويفرضها ويعذب تاركها، ولهذا كان هؤلاء لما أتوا بمحبوب الحق من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المنتظمة للمعارف والأحوال أحبهم الله، فعلوا محبوبه فأحبهم، فإن الجزاء من جنس العمل، مناسب له مناسبة المعلول لعلته، ولا يتوهم أن المراد بذلك أن يأتي العبد بعين كل حركة يحبها الله، فإن هذا ممتنع وإنما المقصود أن يأتي منها ما يقدر عليه من الأعمال الباطنة والظاهرة، والباطنة يمكنه أن يأتي منها بأكثر مما يأتي به من الظاهرة كما وردت بذلك النصوص.

(٣٠٢) عموم خلقه وربوبيته وعموم إحسانه وحكمته أصلان عظيمان في الكتاب والسنة، والنصوص الدالّة عليهما شيء كثير، وجميع الكائنات آيات له شاهدة مُظهِرة لما هو مستحقٌّ له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وعن مقتضى أسمائه وصفاته وخلقه الكائنات، وكما علينا أن نشهد ربوبيته

وتدبيره العام المحيط وحكمته ورحمته، فعلينا أن نشهد إلٓهيته العامة؛ فإنه الذي في السماء إلٓه وفي الأرض إلٓه، إلٓه في السماء وإلٓه في الأرض، ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه، فإنه باطل، إلاّ وجهه الكريم.

كما نشهد أنها كلها مفتقرة إليه في مبدئها نشهد أنها مفتقرة إليه في منتهاها، وإلاَّ كانت باطلة، والكائنات ليس لها من نفسها شيء، بل هي عدم محض ونفي صرف، وما بها من وجود فمنه وبه، ثم إنه إليه مصيرها ومرجعها، وهو معبودها وإلٓهها، لا يصلح أن يعبد إلاّ هو كما لم يخلقها إلاّ هو لما هو مستحقه في نفسه ومتفرِّد به من نعوت الإلٓهية التي لا شريك له فيها ولا سمي له، وليس كمثله شيء، وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، وهو معنا أينما كنا، ونعلم أن معيته مع عباده على أنواع وهم فيها درجات، وكذلك ربوبيته لهم وعبوديتهم التي هم بها متعبدون له، وكذلك ألوهيتهم إياه وألوهيته لهم وعبادتهم التي هم بها عابدون، وكذلك قربه منهم وقربهم منه.

(٣٠٣) الحق له معنيان: أحدهما الموجود الثابت، والثاني المقصود النافع كقوله ﷺ: (الوتر حق).

(٣٠٤) والباطل نوعان أيضاً: أحدهما: المعدوم، وإذا كان معدوماً كان اعتقاد وجوده والخبر عن وجوده باطلاً، لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد المخبر عنه يصح بصحته ويبطل ببطلانه، فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلاً كان الاعتقاد والخبر كذلك، وهو الكذب.

والثاني: ما ليس بنافع ولا مفيد، وما لا منفعة فيه فالأمر به باطل وقصده وعمله باطل، إذ العمل به والقصد إليه والأمر به باطل.

(٣٠٥) فَنَفَى عن نفسه تعالى في «سورة الإخلاص»، الأصولَ والفروع

والنظراء، وهي جماع ما ينسِبُ إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات وغير ذلك، فإنه ما من شيء من المخلوقات إلاّ ولا بدّ أن يكون له شيء يناسبه، إما أصل وإما فرع وإما نظير، أو اثنان من ذلك أو الثلاثة.

## ومن رسالة العقود وقتال الكفار

(٣٠٦) وأصل هذا أن كل ما نهى الله عنه وحرمه في بعض الأحوال وأباحه في حال أخرى، فإن الحرام لا يكون صحيحاً نافذاً كالحلال، ولا يترتب عليه الحكم كما يترتب على الحلال، ويحصل به المقصود كما يحصل بالحلال، وهذا معنى قولهم النهي يقتضي الفساد.

(٣٠٧) لما ذكر النصوص من الكتاب والسنة في قتال الكفار قال: فهذا الأصل الذي ذكرناه، وهو أن القتال لأجل الحرب لا لأجل الكفر، هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وهو مقتضى الاعتبار، فإنه لو كان الكفر هو الموجب للقتل، بل هو المبيح له لم يحرم قتل النساء، كما لو وجب أو أبيح قتل المرأة بزنا أو قَوَد أو ردة فلا يجوز مع قيام الموجب للقتل أو المبيح له أن يحرم ذلك لما فيه من تفويت المال، بل تفويت النفس الحرة أعظم وهي تقتل لهذه الأمور، والأمة المملوكة تقتل للقصاص وللردة.

## ومن كتاب النبوات

(٣٠٨) والآيات الخارقة جنسان: جنس في نوع العلم، وجنس في نوع القدرة؛ فما اختص به النبي ﷺ من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن، وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس والجن، وقدرة

الجن في هذا الباب كقدرة الإنس، لأن الجن هم من جملة من دعاهم الأنبياء إلى الإيمان وأرسلت إليهم الرسل، ومعلوم أنه إذا دعا الجن إلى الإيمان فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدورهم.

(٣٠٩) والتحقيق أنّ من كان مؤمناً بالأنبياء لم يستدلّ على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفسّاق، وإنما يستدلّ بمتابعة الرجل للنبـي، فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بيَّـنها الله ورسوله.

(٣١٠) وأما من لم يكن مقرًّا بالأنبياء فهذا لا يعرف الولي من غيره، إذ الولي لا يكون وليًّا إلاّ إذا آمن بالرسل، لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبياء، كما قـد يتنازع المسلمون والكفار فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدلّ على صحة دينهم، كما كانت النار على أبـي مسلم برداً وسلاماً ونحوه.

(٣١١) وحقيقة الأمر أن مـا يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصاً بها لا يكون مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه.

(٣١٢) ويجب أن لا يعارضها من ليس بنبـي، فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم.

(٣١٣) والرسـول بيَّـن الحق الـذي جـاء بـه مـن الخبر والأمـر، فبيَّـن البراهين على صدق الخبر وعلى صحة الأمر ونفعه، قال الإمام أحمد: الأصول أربعة: دالّ ودليل ومبيِّـن ومستدلّ؛ فالدالّ هو الله والدليل هو القرآن والمبيِّـن الرسول والمستدلّ أولو العلم الذين أجمـع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

(٣١٤) من الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم أن النبـي صادق فيما

يخبر به عن الكتب، لا يكذب قط، ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد أن يكذبوا؛ ومنها أن الأنبياء لا يَأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده، ولا يفعلون إلا البر والتقوى، ومخالفوهم بضد ذلك؛ ومنها أن السحر والكهانة ونحوهما أمورٌ معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم، وآيات الأنبياء لا تكون إلّا لهم ولمن اتبعهم. ومنها أن غير النبوة ينال بالتعلم والسعي، والنبوة فضل الله لمن اختاره من خلقه.

ومنها أن ما يأتي به غير الأنبياء من الخوارق لا يخرج عن كونه مقدوراً للإنس والجن، وما يأتي به الرسل بخلاف ذلك، بل قد تكون لا يقدر عليها مخلوق، لا الملائكة ولا غيرهم. ومنها أن كل نبـي لا بدّ أن يتقدمه أنبياء لا يخبر ولا يأمر إلا بجنس ما أخبرت به الرسل وأمرت، فله نظراء يعتبر بهم، وكذلك السحرة والكهان ونحوهم لهم نظراء يعتبرون بهم.

ومنها أن النبـي لا يأمر إلاّ بمصالـح العباد في المعاش والمعاد، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق، وينهى عن الشرك والكذب والظلم، فالعقول والفطر توافقه كما توافقه الأنبياء قبله فيصدقه صريـح المعقول وصحيـح المنقول الخارج عما جاء به، والله أعلم.

(٣١٥) أصول الدين الذي بعث الله به محمدًا ﷺ قد بيّنها الله في القرآن أحسن بيان، وبيَّـن دلائل الربوبية والوحدانية، ودلائل أسماء الرب وصفاته، وبيَّـن دلائل نبوة أنبيائه، وبيَّـن المعاد، بيَّـن إمكانه وقدرته عليه في غير موضـع، وبيَّـن وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية، فكان في بيان الله أصول الدين الحق، وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة تتضمن بيان العلم النافـع والعمل الصالـح، الهدى ودين الحق، وأهل البدع ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، وكل ما خالفوا فيه الشرع فقد خالفوا فيه العقل، فإن الذي بعث الله به محمداً ﷺ وغيره من الأنبياء هو حق وصدق

وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل، والذين خالفوا الرسل ليس معهم سمع ولا عقل كما أخبر الله عنهم:

﴿وقالوا لو كُنّا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنّا في أصحاب السعير﴾
[سورة المُلك: الآية ١٠]

﴿فإنها لا تَعْمى الأبصارُ ولـٰكِنْ تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور﴾
[سورة الحج: الآية ٤٦]

فالشرع هو الحق والعدل والقسط والصدق، وما بعد الحق إلّا الضّلال.

(٣١٦) وقد دلّ القرآن على أنه لا يؤيد الكذاب، بل لا بد أن يظهر كذبه وينتقم منه.

(٣١٧) والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولاً حكمته ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوِّي بين الصادق بما يظهر به صدقه وبأن ينصره ويعزه، ويجعل له العاقبة ويجعل له لسان صدق في العالمين، والكاذب عليه يبين كذبه ويخذله ويذله ويجعل عاقبته عاقبة سوء، ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين كما قد وقع هذا، وهذا هو الواقع.

## ومن رسالة الفرقان بين الحق والباطل

(٣١٨) فمن الفرقان ما نعت الله به رسوله ﷺ في قوله:

﴿ورحمتي وسعتْ كلَّ شيء﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

إلى آخرها، ففرّق بين المعروف والمنكر: أمر بهذا ونهى عن هذا؛ وبين الطيب والخبيث: أحلّ هذا وحرّم هذا. ومن الفرقان أنه فرّق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين، أهلِ الحسناتِ، وبين أهل الباطل، الكفّار والضّالّين المفسدين أهل السيئات؛ ثم ذكر الآيات في ذلك، فهو سبحانه بيَّن الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول والمعصية لله والرسول، كما بيَّن

الفرق بين ما أمر به وما نهى عنه. وأعظم من ذلك أنه بيَّن الفرق بين الخالق والمخلوق، وأن المخلوق لا يجوز أن يُسوِّي بين الخالق والمخلوق في شيء، فيجعل المخلوق نِدًّا للخالق. قال تعالى:

﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يتخذُ مِن دُونِ اللَّهِ أنداداً﴾

[سورة البقرة: الآية ١٦٥]

هل تعلم له سمياً، ولم يكن له كفواً أحد. ليس كمثله شيء. وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرّق بل عَدَل بربه وسوَّى بينه وبين خلقه، فهو سبحانه الخالق العليم الحقّ الحي الذي لا يموت، ومَنْ سِوَاه لا يخلق شيئاً، وذكر الآيات في هذا المعنى الجليل.

(٣١٩) فمن عَدَلَ بالله شيئاً من خصائصه فهو مشرك بخلاف من لا يعدل به ولكنه يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحدَه وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب، فهذا يفرِّق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك. وهو سبحانه كما يفرِّق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوِّي بين الأمور المتماثلة فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله، لا يفرق بين متماثلين ولا يسوِّي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسوِّ بينهما.

(٣٢٠) وقد بيَّن تعالى أن السُّنَّة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع، والسُّنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل بالثاني مثلما فعل بنظيره الأول. ولهذا أمر تعالى بالاعتبار، والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله، فيعلم أن حكمه حكم مثله وقال: لقد كان في قَصَصِهم عبرة لأولي الألباب. أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء.

(٣٢١) ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة. ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حدُّه بالشرع، كالصلاة والزكاة،

ونوع يعرف حده باللغة، كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعُرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله:

**﴿وعاشِروهن بالمعروف﴾** [سورة النساء: الآية ١٩]

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده، فإنه ثبت عندهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهُدى ودين الحق وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم.

**(٣٢٢)** فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلّا تبعاً لما جاء به الرسول؛ ولا يتقدم بين يديه، بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعاً لقوله وعمله تبعاً لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، فلهذا لم يكن فيهم من يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة، وهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة وأهل النفاق والبدعة فإنهم يخالفون هذا الأصل كل المخالفة.

**(٣٢٣)** فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم، ودقَّ على كثير من الناس ما كان جليًّا لهم، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف، وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ويثيبهم على اجتهادهم، وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملون في ذلك الزمان لأنهم يجدون من يعينهم على ذلك، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك، لكن تضعيف الأجر في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة، ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة فإن الذي سبق إليه

الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته، وتظهر كلمته، وتكثر أعوانه وأنصاره، وتنتشر دلائل نبوته، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد.

**(٣٢٤)** جمهور مسائل الفقه التي يحتاج الناس إليها ويفتون بها ثابتة بالنص أو الإجماع، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج إليه، وهذا موجود في سائر العلوم.

**(٣٢٥)** العلم ما جاء به الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علمٌ من غير الرسول، لكن في أمور دنيوية: مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة، وأما الأمور الإلَهية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول، فالرسول أعلم الخلق بها وأرغبهم في تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود، وغير الرسول لا يقاربه في شيء من ذلك. وبيان الرسول على وجهين: تارة يبيِّن الأدلّة العقلية الدالّة عليها والقرآن مملوء من ذلك؛ وتارة يخبر بها خبراً مجرداً.

**(٣٢٦)** ومثَّــل:

**﴿كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ﴾** [سورة إبراهيم: الآية ٢٤]

والكلمةُ الطيبة هي عقيدة جازمة وقضية جامعة، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء

**﴿إليه يصعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفَعُه﴾**

[سورة فاطر: الآية ١٠]

فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان في قلبه ثابت مستقرٌّ وهو في نفسه ثابت على الإيمان لا يتحول عنه.

(٣٢٧) والله تعالى قد ذكر قولَه:

﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حقَّ قَدْره﴾ في ثلاثة مواضـع من كتابه:

[سورة الأنعام: الآية ٩١ وسورة المؤمنون: الآية ٧٤ وسورة الزمر: الآية ٦٧]

ليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحـدانيته وأنـه لا يستحق العبادة إلّا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فعلى المؤمن أن يَقْدُرَه حقَّ قدره كما يتقيه حقَّ تُقاته ويجاهد في الله حق جهاده.

(٣٢٨) ومن أصرّ على فعل البدع وتحسينها فإنه ينبغي أن يُعَزَّر تعزيراً يردعه وأمثاله عن مثل ذلك؛ ومن نسب إلى رسول الله ﷺ الباطل خطأ فإنه يعرّف فإن لم ينته عوقب، ولا يحل لأحد أن يتكلم في الدين بلا علم ولا يعين من تكلم في الدين بلا علم أو أدخل في الدين ما ليس منه.

## ومن رسالة الإرادة والأمر

(٣٢٩) والناس في الشرع والقدر على أربعة أنواع: فشر الخلق من يحتـج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره، يستند إليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن إليه في المصائب.

(٣٣٠) وبـإزاء هؤلاء خير الخلق الـذين يستغفـرون من المعـائب ويصبرون على المصائب. والثالث من لا ينظر إلى القدر لا في المعائب ولا في المصائب التي هي أفعال العباد، بل يضيفون ذلك إلى العبد، وإذا أساؤوا استغفروا، وهذا حسن، لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذي مضى بها عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه لو قضي شيء لكان، لا سيما وقد تكون المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها؛ قال تعالى:

﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أَصبتُمْ مِثْلَيْها﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٦٥]

ورابعهم من يحتج بالقدر لكل أحد، وهذا مذهب غلاة الجبرية، وقد بين فساده شرعاً وعقلاً.

## ومن الرسالة الواسطية

(٣٣١) اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقَدَرِ خيره وشره؛ ومن الإيمان بالله الإيمانُ بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرِّفون الكلم عن مواضعه وَيُلْحدون في أسماء الله وآياته ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، وقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، وقد دخل في هذا الأصل الكبير جميع ما في الكتاب والسنة من تفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله وما ينزه عنه، وذكر طائفة منها ودخل في ذلك الإيمان باستوائه على عرشه ونزوله إلى السماء الدنيا ورؤية المؤمنين له كما تواترت بذلك النصوص، وبأنه قريب مجيب، وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، ومن الإيمان به وبكتبه ورسله، الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمانُ بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت من أحوال البرزخ والقيامة والجنة والنار وتفاصيل ذلك.

(٣٣٢) والإيمان بالقدر على درجتين: كل درجة تتضمن شيئين: الدرجة الأولى، الإيمان بأن الله عَلِمَ ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي

هو موصوف به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق.

(٣٣٣) والدرجة الثانية مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والعباد هم الفاعلون لطاعتهم ومعاصيهم والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ولم يجبرهم على ما لا يريدون.

(٣٣٤) ومن أصول الفرقة الناجية أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، ويقولون إنه مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم؛ ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من فضائلهم ومناقبهم ومراتبهم، ويحبُّون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولَّوْنهم وأزواج رسول الله ﷺ أمهاتِ المؤمنين ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة وأنّ لهم من الفضائل والسوابق ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر.

(٣٣٥) ويصدقون بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، ويتبعون آثار النبي ﷺ ظاهراً وباطنًا ويدعون إلى كل خلق جميل وينهَوْن عن كل خلق رذيل، وهم في ذلك كله متبعون للكتاب والسنة، فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لَدُنْه رحمة إنه هو الوهاب.

# ومن الرسالة الحموية

(٣٣٦) لما ذكر نصوص الصفات قال: وجماع الأمر في ذلك أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، قسمان يقولون: تجري على ظاهرها، وهم السلف الصالح الذين يقولون إنها تثبت على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه، والمشبهة الذين يشبِّهون صفاته بصفات المخلوقين؛ وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها فهم الجهمية ومن تفرع عنهم، فقسم منهم يؤولها بمعانٍ أخر، وقسم منهم يقولون: الله أعلم بما أراد منها؛ وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون: يجوز أن يكون المراد بظاهرها اللائق بالله ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم. وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات، فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عنها، والصواب في آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة السلفية والله أعلم.

# ومن رسالة الإكليل وفتواه في تعذر أكل الحلال والاحتجاج بالقدر وسنة الجمعة

(٣٣٧) قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلِكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنَّى ألقى الشيطانُ في أمنيَّتِه [. . .] صراط مستقيم﴾**

[سورة الحج: الآيات ٥٢ ــ ٥٤]

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام: قاسية وذات مرض ومؤمنة مُخْبِتَة، وذلك أنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً، أو لا تكون يابسة جامدة؛ فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر، لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرتسم فيه العِلْم، لأن ذلك يستدعي محلاًّ ليناً قابلاً،

والثاني لا يخلو: إمّا أن يكون ثابتاً فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال، فالثاني هو الذي فيه مرض والأول هو القوي اللِّين.

(٣٣٨) ليس كلُّ ما اعتقد فقيه معين أنه حرام كان حراماً، إنما الحرام ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة أو الإجماع أو قياس مرجح لذلك، وما تنازع فيه الناس لم يكن لأحدهم أن يحمل الناس على أحد هذه الأقوال.

(٣٣٩) إذا عامل المسلم معاملة يعتقد هو جوازها وقبض المال جاز لغيره من المسلمين أن يعامله في مثل ذلك المال وإن لم يعتقد جواز تلك المعاملة.

(٣٤٠) الحرام نوعان: حرام لوصفه، كالميتة والدمِ ولحم الخنزير، فهذا إذا اختلط بالماء والمائع وغيره من الأطعمة فغيَّر طعمه أو ريحه أو لونه حرَّمه وإن لم يغيره ففيه نزاع، والثاني الحرام لكسبه، كالمأخوذ غصباً أو بعقد فاسد، فهذا إذا اختلط بالحلال لم يحرِّمه، بل إن أمكن قسمه قسم ويأخذ كل قدر حقه.

(٣٤١) المال إذا تعذر معرفة مالكه صُرِف في مصالح المسلمين عند جماهير العلماء.

(٣٤٢) المجهول في الشريعة كالمعدوم والمعجوز عنه، فإن الله قال:

﴿لا يكلف الله نفساً إلاَّ وُسْعَها﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

إذا ثبتت هذه الأصول فيقال: ما في الوجود من الأموال المغصوبة والمقبوضة بعقود لا تباح بالقبض إن عرفه المسلم اجتنبه، فمن علمت أنه سرق مالاً أو خانه في أمانته أو غصبه فأخذه من المغصوب فهذا بغير حق لم يجزْ لي أن آخذه منه، لا بطريق الهِبة ولا بطريق المعاوضة ولا وفاءً عن أجرة وثمن مبيع ولا وفاء عن قرض، فإن هذا عين مال ذلك المظلوم. وأما إن كان المال قبضه بتأويل سائغ في مذهب بعض الأئمة جاز لي أن استوفيه من ثمن المبيع

والأجرة والقرض وغير ذلك من الديون، فالمجهول كالمعدوم، والأصل فيما بيد المسلم أن يكون له ملكاً إن ادَّعى أنه ملكه، أو يكون ولياً عليه، كناظر الوقف وولي اليتيم وولي بيت المال أو يكون وكيلاً فيه، وما تصرف فيه المسلم أو الذمِّي بطريق الملك أو الولاية جاز تصرفه، فإذا لم أعلم حال ذلك المال الذي بيده بنيتُ الأمر على الأصل والتبعة إن كان فيه تبعة عليه.

(٣٤٣) والقاعدة الكلية في شرعنا أن الدعاء إن كان واجباً أو مستحبًّا فهو حسن يثاب عليه الداعي، وإن كان محرَّماً كالعدوان في الدعاء فإنه محرَّم ومعصية، وإن كان مكروهاً فهو ينقص مرتبة صاحبه وإن كان مباحاً مستوي الطرفين فلا له ولا عليه فهذا هذا..

(٣٤٤) وباب تفضيل بعض الأعمال على بعض إن لم يعرف فيه التفضيل وإن ذلك يتنوع بتنوع الأحوال في كثير من الأعمال وإلا وقع فيه اضطراب كثير، والواجب أن يعطى كل ذي حق حقه، ويوسع ما وسعه الله ورسوله ويؤلِّف ما ألَّف الله بينه ورسوله، ويراعى في ذلك ما يحبه الله ويرضاه من المصالح الشرعية والمقاصد الشرعية، ويعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وإن الله بعثه رحمة للعالمين بسعادة الدنيا والآخرة في كل أمر من الأمور وأن يكون مع الإنسان ما يحفظ به هذا الإجمال، وإلا فكثير من الناس يعتقد هذا مجملاً ويدعه عند التفصيل، إمَّا جهلاً وإمَّا ظلماً وإمَّا ظناً وإمَّا اتِّباعاً للهوى، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم.

## ومن تفسير المعوِّذتين ورسالته في القياس

(٣٤٥) الذي يوسوس في صدور الناس نفسه وشياطين الجن وشياطين الإنس، والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ووسوسة الإنس وإلا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضرً عليه من وسوسة الجن.

(٣٤٦) والشيطان تارة يحدث وسواس الشر وتارة يُنْسِي الخير، وكان ذلك مما يشغله به من حديث النفس.

(٣٤٧) والنسيان للحق من الشيطان، والخطأ من الشيطان.

(٣٤٨) القياس نوعان: صحيح وفاسد، فالصحيح أن تكون العلة التي علق بها الحكم في الأصل موجودة في الفرع من غير معارض في الفرع يمنع حكمها، ومثل هذا القياس لا تأتي الشريعة بخلافه فقط، وكذلك القياس بإلغاء الفارق، وهو أن لا يكون بين الصورتين فرق مؤثر في الشرع، فمثل هذا القياس لا تأتي الشريعة بخلافه، وحيث جاءت الشريعة باختصاص بعض الأنواع بحكم يفارق به نظائره، فلا بد أن يختص ذلك النوع بوصف يوجب اختصاصه بالحكم ويمنع مساواته لغيره لكن الوصف الذي اختص به قد يظهر لبعض الناس وقد لا يظهر، وليس من شرط القياس الصحيح المعتدل أن يعلم صحته كل أحد، فمن رأى من الشريعة شيئاً مخالفاً للقياس، فإنما هو مخالف للقياس الذي انعقد في نفسه، ليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت في نفس الأمر، وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف قياس علمنا قطعاً أنه قياس فاسد، بمعنى أن صورة النص امتازت عن تلك الصورة التي يُظَن أنها مثلها بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحكم؛ فليس في الشريعة ما يخالف قياساً صحيحاً، لكن فيها ما يخالف القياس الفاسد، وإن كان من الناس من لا يعلم فساده. ثم ذكر على هذا الأصل أمثلة كثيرة.

(٣٤٩) العمل الذي يقصد به المال ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يكون العمل مقصوداً معلوماً مقدوراً على تسليمه. فهذه الإجارة اللازمة؛ والثاني أن يكون العمل مقصوداً لكنه مجهول أو غَرَر، فهذه الجعالة، وهي عقد جائز لا لازم؛ والثالث ما لا يقصد به العمل بل المقصود المال، وهو المضاربة، وهذه من جنس المشاركات، هذا بنفـع بدنه وهذا بنفـع ماله وما قسم الله من الربـح بينهما على الإشاعة، فهذا كمال العدل فيها، ولو شرط لأحدهما شيء خاص خرجت من العدل إلى الظلم.

(٣٥٠) وما نهى عنه النبـي ﷺ من المعاملات كبيـع الغَرَر والثمرة قبل بدو صلاحها وبيـع السنين وحبل الحبلة وبيـع المزابنة والمحاقلة، ونحو ذلك، فهي داخلة إما في الربا أو الميسر.

(٣٥١) وأما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر بل هي من أقوم العدل.

(٣٥٢) الحكم إذا ثبت بعلة زال بزوالها.

(٣٥٣) إذا تعارضت المصلحة والمفسدة قدم أرجحها.

(٣٥٥) القبض في الأعيان والمنافـع كالقبض في الدين، تارة يكون موجب العقد قبضه عقبه بحسب الإمكان، وتارة يكون موجب العقد تأخير التسليم لمصلحة من المصالـح.

(٣٥٦) وقد ذكر الله في آخر «البقرة» أحكام الأموال وهي ثلاثة أصناف: عدل، وفضل، وظلم؛ فالعدل البيـع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرابين وبيّـن عقابهم، وأباح البيـع والتداين إلى أجل مسمى.

(٣٥٧) ومن الأصـول الكلية أن المعجـوز عنه في الشـرع سـاقط

الوجوب، وأن المضطر إليه بلا معصية غير محظور، فلم يوجب الله ما يعجز عنه العبد، ولم يحرم ما يضطر إليه العبد.

(٣٥٨) ومن أدّى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع رجع، لا سيما إذا كان له فيه حق.

(٣٥٩) من غيّر مال غيره بحيث يفوته مقصوده، فله أن يضمنه إياه بمثله.

(٣٦٠) وجميع المتلفات تُضمن بالجنس بحسب الإمكان مع مراعاة القيمة حتى الحيوان.

(٣٦١) معرفة الحِكَم والمعاني التي تضمنتها الشريعة من أشرف العلوم، فمنه الجلي الذي يعرفه أكثر الناس، ومنه الدقيق الذي لا يعرفه إلّا خواصهم.

(٣٦٢) التطوُّعات لا تلزم يالشروع فيها إلَّا الحج والعمرة.

(٣٦٣) والأصل الذي دلّ عليه الكتاب والسنة أنّ من فعل محظوراً ناسياً لم يكن قد فعل منهيًّا عنه، فلا يبطل بذلك شيء من العبادات، ومن ترك مأموراً فعليه إعادة ما أمكن إعادته.

(٣٦٤) إذا تصرف الرجل في حقِّ الغير بغير إذنه، فظاهر مذهب أحمد أن المتصرف إذا كان معذوراً لعدم تمكُّنه من الاستئذان وحاجته إلى التصرف وقف على الإجازة بلا نزاع، وإن أمكنه الاستئذان أَوْ لم يكن له به حاجة إلى التصرف ففيه نزاع: المشهور عدم النفوذ، والشيخ يميل إلى الصحة ويقف على الإجازة.

## ومن رسالة فتواه في السماع والغناء

(٣٦٥) الذوق والحال والوجد محكوم عليه من جهة الشرع، ما وافق الشرع منها قبل، وما خالفه رُدّ.

(٣٦٦) إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال أو ذوق هل هو صحيح أو فاسد أو حق أو باطل وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله من كتاب الله وسنة رسوله، فهذا هو الأساس، ومن لم يَبنِ على هذا الأصل فعلمه وسلوكه ليس على شيء.

(٣٦٧) إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء، هل هو الإباحة أو التحريم، فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملاً على مفسدة ظاهرة راجحة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل يقطع أن الشرع يحرِّمه لا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يبغضه الله ورسوله.

(٣٦٨) وفصل الخطاب في هذا الباب ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك، والغناء اسم يطلق على أشياء: منها غناء الحجيج، فإنهم ينشدون أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وغير ذلك، فسماع تلك الأشعار مباح، وفي معنى هذا الغزاة فإنهم ينشدون أشعاراً يحرضون على الغزو بها وإنشاد المتبارزين، وقد قال ﷺ لحاديه: رويداً رفقاً بالقوارير.

(٣٦٩) وتكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو، هل هو حرام أو مكروه أو مباح، وذكر أصحاب أحمد لهم ثلاثة أقوال.

# ومن كتاب الاختيارات

(٣٧٠) الطهارة تكون من الأعيان النجسة كقوله:

﴿وثيابك فطهِّرْ﴾ [سورة المدّثّر: الآية ٤]

وتارة تكون من الأفعال الخبيثة:

﴿إنّما يريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ ويطهِّرَكُم تَطْهيراً﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٣٣]

وتارة من الأحداث المانعة كقوله:

﴿وإِنْ كُنتمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦].

(٣٧١) وتجوز طهارة الحدث والخبث بكل ما يسمى ماء، وتزال النجاسة بكل ما يزيلها ويذهب أثرها من ماء أو غيره؛ الأصل أن الماء طهور حتى يتغير أحدُ أوصافه بالنجاسة.

(٣٧٢) يجب بذل المنافع المحضة للمحتاج، كسكنى داره والانتفاع بإنائه بلا أجرة لذلك.

(٣٧٣) جميع ما يدعى من السنة أنه ناسخ للقرآن فهو غلط.

(٣٧٤) والناس إذا اعتادوا القيام، وإن لم يقم لأحدهم، أفضى إلى مفسدة، فالقيام دفعاً لها خير من تركه، وينبغي للإنسان أن يسعى في سنة رسول الله ﷺ وأصحابه وعادتهم واتباع هديهم، وإذا اعتاد الناس قيام بعضهم لبعض، فقيامهم لكتاب الله أولى.

(٣٧٥) الاستدامة أقوى من الابتداء.

(٣٧٦) قد يعرض للعمل المفضول ما يجعله أفضل من غيره.

(٣٧٧) الدعاء سبب لجلب المنافع ودفع المضار، مع أنه عبادة

يثاب عليها الداعي، وإذا ارتاضت نفس العبد على الطاعة وانشرحت بها وتنعمت بها وبادرت إليها طَوَاعية ومَحبةً كان أفضل ممن يجاهد نفسه على الطاعات ويُكرِهُها عليها.

(٣٧٨) والجنُّ ليسوا كالإنس في الحدِّ والحقيقة، فلا يكون ما أُمروا به مساوياً لما على الإنس في الحد والحقيقة، لكنهم يشاركونهم في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم بلا نزاع بين العلماء.

(٣٧٩) ويجب تقديم ما قدّمه الله ورسوله ولو مع شرط الواقف بخلافه، فلا يلتفت إلى شرط يخالف شرط الله ورسوله.

(٣٨٠) ما أطلقه الشارع يعمل بمقتضى مسماه ووجوده ولم يجز تقديره وتحديده بمدة، فلهذا كان الماء قسمين: طهوراً أو نجساً، ولا حدّ لأقل الحيض وأكثره ما لم تصر مستحاضة، ولا لأقل سنه وأكثره، ولا لأقل السفر ولا حد للدرهم والدينار، قل غِشُّه أو كَثُر في الزكاة والسرقة وغيرها، ولا تأجيل في الدية إلا إن رأى الإمام ذلك، والخلع فسخ مطلقاً والكفارة في كل أَيْمان المسلمين، وفروع هذه القاعدة كثيرة.

(٣٨١) ما لا يسن له الجماعة والاجتماع إذا فُعل أحياناً لعارض فلا بأس ما لم يتخذ عادة.

(٣٨٢) وأعمال القلوب من التوكل والخوف والرجاء والصبر ونحوها واجبة بالاتفاق.

(٣٨٣) وينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهما غلب هلك صاحبه.

(٣٨٤) ولا يشهد بالجنة إلاّ لمن شهد له الرسول ﷺ أو اتفقت الأمة على الثناء عليه.

(٣٨٥) وتواطؤ الرؤيا كتواطؤ الشهادات.

(٣٨٦) الصحيح أن الميت ينتفع بجميع العبادات البدنية من الصلاة والصيام والقراءة، كما ينتفع بالعبادات المالية من الصدقة والعِتق ونحوهما باتفاق الأئمة، وكما لو دعا له واستغفر له، والصدقة عن الميت أفضل من عمل ختمة وجمع الناس.

(٣٨٧) ومذهب أهل السنة أن العذاب أو النعيم لروح الميت وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعّمة أو معذّبة، وأيضاً تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم أو العذاب، ولأهل السنة قول آخر: إن ذلك على البدن وحدَه.

(٣٨٨) ولا يحل الاحتيال لإسقاط الزكاة، ولا غيرها من حقوق الله تعالى.

(٣٨٩) وإعطاء السُّؤَّال فرض كفاية إن صدقوا، ومن سأل غيره الدعاء لنفع ذلك الغير أو نفعهما أثيب وإن قصد نفع نفسه فقط نهي عنه كسؤال المال وإن كان لا يأثم.

(٣٩٠) الصحيح من العبادة ما أبرأ الذمة، لا ما ليس فيه ثواب، فقد يعمل العمل الصالح ثم يفسده أو يَفسُد لمبطل ويثاب مع ذلك على ما فعله منه ونواه.

(٣٩١) والغنيّ الشاكر والفقير الصابر أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن استويا في التقوى استويا في الفضل.

(٣٩٢) الكلام الحرام يجب الصمت عنه، وفضول الكلام ينبغي الصمت عنه.

(٣٩٣) يلزم الإنسان طاعة والديه، وإن كانا فاسقين في غير معصية.

(٣٩٤) ولا يشرع تقبيل المقام ومسحه إجماعاً، فسائر المقامات أولى.

(٣٩٥) وكل ما عده الناس بيعاً أو هبة من متعاقب أو متراخ من قول أو فعل انعقد به البيع والهبة.

(٣٩٦) ويحرم بيع ما قصد به الحرام إن علم ذلك أو ظنه أو تضمن ترك واجب.

(٣٩٧) الشهادة على العقود المحرَّمة على وجه الإعانة عليها حرام، وأما الشهادة في العقود المختلف فيها التي يسوغ فيها الخلاف فتجوز لمن اعتقد حلها.

(٣٩٨) العين والمنفعة التي لا قيمة لها في العادة لا يصحُّ أن يرد عليها عقد بيع أو إجارة اتفاقاً.

(٣٩٩) والمضاررة مبناها على القصد والإرادة أو على فعل ضرر وهو غير محتاج إليه، فمتى قصد الإضرار ولو بالمباح أو فعل الإضرار من غير استحقاق فهو مضار، وأما إذا فعل الضرر المستحق للحاجة إليه والانتفاع به لا لقصد الإضرار فليس بمضار.

(٤٠٠) لا تتقى شبهة بترك واجب.

(٤٠١) تستحق أجرة المثل في سائر العقود الفاسدة وتخليص الأموال من الهلاك.

(٤٠٢) من تصرّف بلا إذن ولا ملك ثم تبين أنه كان مالكاً أو وكيلاً صح تصرفه.

(٤٠٣) من تصرف لغيره بولاية أو وكالة ففاتت المصلحة مع اجتهاده وعدم تفريطه فلا ضمان عليه.

(٤٠٤) إقرار الأمناء على ما ائتمنوا عليه صحيح ثابت.

(٤٠٥) يصح تعليق العقود كلها كما يصح تعليق الفسوخ.

(٤٠٦) الربح الحاصل من مال لم يأذن مالكه في التجارة فيه بين العامل وصاحب المال على قدر النفعين بحسب معرفة أهل الخبرة، وهو أصح الأقوال.

(٤٠٧) يجوز التصرف فيما في يده بالوقف وغيره حتى تقوم حجة شرعية أنه ليس ملكاً له، لكن لا يحكم بالوقف حتى يثبت الملك.

(٤٠٨) هل تفويت المعدوم الذي انعقد بسبب وجوده كإعدام الموجود؟ يفهم من كلامه استواء الأمرين.

(٤٠٩) ويتبع العرف في الكلف السلطانية وغيرها ما لم يكن شرط فيتبع.

(٤١٠) إذا شرط المؤجر على المستأجر شروطاً له فيها غرض صحيح صحت ولزمت.

(٤١١) إلحاق الزيادات والشروط المقصودة في العقود اللازمة بعد لزومها لا تلحق في مذهب أحمد، ومن التزمها على وجه لا تلزمه خوفاً من ظلم الآخر له لم تلزم.

(٤١٢) أجور المثل ليست شيئاً محدوداً، وإنما هي ما تساوي الشيء في نفوس أهل الرغبة في وقت التقويم.

(٤١٣) كتمان العيوب تغرير والغارّ ضامن، فإنّ ترك الواجب كفعل المحرم.

(٤١٤) يجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة، وكل ما أفضى إلى المحرّم كثيراً حرّمه الشارع إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة، كأنْ يكون سبباً للشر والفساد، وما ألهى وشغل عما أمر الله به فهو منهيٌّ عنه وإن لم يحرَّم جنسه كالبيع والتجارة، وأما سائر ما يتلهى به البطّالون من أنواع

اللهو وضروب اللعب مما لا يستعان به في حقٍّ شرعي فكله حرام ويرخص للصغار ما لا يرخص للكبار.

(٤١٥) ما أُخذ من الأموال والنفوس أو أُتلف منهما في حال الجاهلية أقر قراره ولم يضمن.

(٤١٦) المال المشترك المختلط زيادته ونقصه بين الشركاء على قدر أملاكهم، وإذا تعذر معرفة قدر ما لكل منهما أو منهم فالأصل المساواة.

(٤١٧) أسباب الضمان: الإتلاف بغير حقّ، والتلف بيد الأمين بتعدّ أو تفريط، واليد المتعدية فيضمن الشيء بمثله إذا أمكن، ولو غير مكيل أو موزون وإلا فبقيمته.

(٤١٨) وقدر المتلف إذا لم يمكن تحديده عمل فيه بالاجتهاد، كما يفعل في قدر قيمته بالاجتهاد في معرفة مقدار ثمنه.

(٤١٩) ومن لم يقم بوظيفته غيَّره من له الولاية لمن يقوم بها إلى أن يتوب الأول ويلتزم بالواجب، ويجب أن يولى في الوظائف وأئمة المساجد الأحقُّ بها شرعاً، وأن يعمل ما قدر عليه من عمل الواجب، وليس للناس أن يولوا عليهم الفاسقَ وإن نفذ حكمه وصحت الصلاة خلفه.

(٤٢٠) ويجوز تغيير شرط الواقف إلى ما هو أصلح منه وإن اختلف ذلك باختلاف الزمان، ولا يلزم الوفاء بشرط الواقف إلا إذا كان مستحبًّا.

(٤٢١) ويجب عمارة الوقف بحسب البطون، والجمع بين عمارة الوقف وأرباب الوظائف حسب الإمكان أولى بل قد تجب.

(٤٢٢) التحقيق أن لفظ الواقف والموصي والناذر والحالف وكلِّ عاقدٍ يُحْمل على مذهبه وعادته في خطابه ولغته التي يتكلم بها، وافق لغة العرب أو لغة الشارع أو لا، والعادة المستمرة والعرف المستقر في الوقف يدل على شرط الوقف أكثر مما يدل لفظ الاستفاضة.

(٤٢٣) وإن نزل تنزيلاً شرعياً لم يجز صرفه بلا موجب شرعي، وكل متصرف بولاية إذا قيل له: افعل ما تشاء، فإنما هو لمصلحة شرعية، حتى لو صرّح الواقف بفعل ما يهواه أو يراه مطلقاً فهو شرط باطل لمخالفته الشرع.

(٤٢٤) ويد الواقف ثابتة على المتصل بالوقف ما لم تأتِ حجة تدفع موجبها.

(٤٢٥) وعلى الناظر فعل المصلحة، ومع الاشتباه إن كان عالماً عادلاً ساغ له الاجتهاد، ومن قسم شيئاً يلزمه أن يتحرّى فيه العدل ويتبع ما هو أرضى لله ولرسوله، سواء استفاد القسمة بولاية أو عقد.

(٤٢٦) ومن نزل في مدرسة ونحوها استحق بحصته من المغل، ومن جعله كالولد فقد أخطأ.

(٤٢٧) وإذا انتفت الشروط في الطبقة الأولى أو بعضها لم تحرم الثانية مع وجود الشروط فيهم إجماعاً.

(٤٢٨) وإذا جهل شرط الواقف صرف إلى المستحقين بالتسوية.

(٤٢٩) يجوز إبدال الوقف بخير منه للمصلحة.

(٤٣٠) إذا قام المستوفي بما عليه من العمل استحق ما فرض له.

(٤٣١) إذا اختلف النقد أعطي المستحق من نقد البلد ما قيمته قيمة المشروط الملغى.

(٤٣٢) عمدة التصرف على غلبة الظن بخلاف الأحكام، فإن طرقها مضبوطة.

(٤٣٣) من كان له حق في مال من يتهمه بإتلافه أو تفويته عليه فله أن يضم إليه يداً تمنعه.

(٤٣٤) الإعراض عن الأهل والأولاد ليس مما يحبُّه الله ورسوله، ولا هو دين الأنبياء.

(٤٣٥) إن كانت العبادات فرض كفاية كالجهاد والعلم قدمت على النكاح إن لم يخش العَنَت.

(٤٣٦) يجوز نقل المِلك عن الشيء مع استثناء المنفعة إن كان العقد معاوضة، وإن كان عقد تبرع جاز استثناء المعلوم من المنفعة والمجهول.

(٤٣٧) وإذا دخل النقص على الزوج لعيب بالمرأة أو فوات صفة أو شرط صحيح أو باطل فإنه ينقص من المسمى بنسبة ما نقص، وهذا النقص من مهر المثل.

(٤٣٨) والذي ينبغي في أصناف سائر المال: كالعبد والشاة والبقر والثياب ونحوها إذا أصدقها شيئاً من ذلك أن يرجع فيه إلى مسمى ذلك اللفظ في عرفها، وإن كان بعض ذلك غالباً أخذ به، كالبيع أو كان من عادتها اقتناؤه أو لبسه فهو كالملفوظ به.

(٤٣٩) كل من أُهدي أو وهب له شيء بسبب يثبت بثبوته ويزول بزواله ويحرم بحرمته ويحل بحله.

(٤٤٠) ويتوجه صحة السلف في العقود كلها.

(٤٤١) إذا تعارض الأصل والظاهر رجح أرجحهما، ومن الترجيحات كثرة القرائن وقوتها.

(٤٤٢) بيع الكفار ما يعملونه كنيسة أو تمثالاً أو يعينهم على شيء من شعائر دينهم محرَّمٌ وهو من التشبه بهم، والتشبُّه بهم منهيٌّ عنه إجماعاً.

(٤٤٣) وتكره المواسم الخاصة كالرغائب وليلة النصف من شعبان ونحو ذلك.

(٤٤٤) وتجب معاشرة الزوجة بالمعروف، وكذلك النفقة والكسوة والتسلم والخدمة ونحوها.

(٤٤٥) الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه.

(٤٤٦) إذا اختلف اثنان وتنازعا شيئاً بلا بينة قدم قول من يشهد له العرف.

(٤٤٧) والقيافة في الأموال معتبرة كما تعتبر في الأنساب.

(٤٤٨) إذا ادعت المرأة ما يخالف الظاهر في النفقات والعُدَد وغيرها فلا بد من بينة.

(٤٤٩) العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده، فهي صادرة عن رحمة الخالق وإرادة الإحسان إليهم، ولهذا ينبغي لمن يعاقِب الناس على ذنوبهم أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والترحمة لهم كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض.

(٤٥٠) ويجري القصاص في اللطمة والضربة ونحو ذلك.

(٤٥١) وغلظ المعصية وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان، والكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات لكن قد تحبط ما يقابلها.

(٤٥٢) والتعزير يكون على فعل المحرَّمات وترك الواجبات.

(٤٥٣) والجهاد، منه ما يكون باليد ومنه ما هو بالقلب والحجة والدعوة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه، ويجب على القَعَدة لعذر أن يخلفوا الغزاة في أهليهم ومالهم.

(٤٥٤) قد يكون ثواب بعض المستحبات أو واجبات الكفاية أعظم من ثواب واجب.

(٤٥٥) والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح

الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين.

(٤٥٦) المضطر إلى طعام الغير إن كان فقيراً فلا يلزمه عوض، إذ إطعام الجائع وكسوة العاري فرض كفاية، ويصيران فرض عين على المعين إذا لم يقم به غيره، وإن كان غنياً لزمه العوض، إذ الواجب معاوضته.

(٤٥٧) ما وَجَبَ بالشرع إذا نذره العبد أو عاهد الله عليه أو بايع عليه الرسول أو الإمام أو تحالف عليه جماعة، فإن هذه العقود والمواثيق تقتضي له وجوباً ثانياً غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول، فيكون واجباً من وجهين، وكان تركه موجباً لترك الواجب بالشرع والواجب بالنذر؛ هذا هو التحقيق.

(٤٥٨) والصواب على أصلنا أن العبادات والكفارات وسائر الواجبات يجوز تقديمها إذا وجد سبب الوجوب ولا يتقدم على سببه.

(٤٥٩) ويلزم الوفاء بالوعد.

(٤٦٠) قد أوجب النبي ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر فهو تنبيه على أنواع الاجتماع.

(٤٦١) وإذا فعل الوالي ما يمكنه لم يلزمه ما يعجز عنه، وما يستفيده المتولي بالولاية لا حدَّ له شرعاً، بل يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف وأجمع العلماء على تحريم الحكم والفتيا بالهوى، وبقول أو وجه من غير نظر في الترجيح، ويجب العمل بموجب اعتقاده فيما له وعليه إجماعاً، والولاية لها ركنان: القوة والأمانة، فالقوة في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل بتنفيذ الحكم، والأمانة ترجع إلى خَشية الله.

(٤٦٢) وشروط القضاء تعتبر حسب الإمكان، ويجب تولية الأمثل فالأمثل.

(٤٦٣) وأكثر من تميز في العلم من المتوسطين إذا نظر وتأمل أدلة

الفريقين بقصد حسن ونظر تام ترجح عنده أحدهما، لكن قد لا يثق بنظره، بل يحتمل أن عنده ما لا يعرف جوابه، فالواجب على مثل هذا موافقته للقول الذي ترجح عنده بلا دعوى للاجتهاد، كالمجتهد في أعيان المفتين، والأئمة إذا ترجح عنده أحدهما قلده، والدليل الخاص الذي يرجح به قول على قول أولى بالاتباع من دليل عام، على أن أحدهما أعلم وأدين وعلم الناس بترجيح قول على قول أيسر من علم أحدهم بأن أحدهما أعلم وأدين، لأن الحق واحد ولا بد، ويجب أن ينصب على الحكم دليلاً.

(٤٦٤) وليس للحاكم وغيره أن يبتدىء الناس بقهرهم على ترك ما يَسُوغ وإلزامهم برأيه اتفاقاً، ولو جاز هذا لجاز لغيره مثله وأفضى إلى التفرق والاختلاف.

(٤٦٥) وفي لزوم التمذهب بمذهب وامتناع الانتقال إلى غيره وجهان: في مذهب أحمد وغيره، وفي القول بلزومه طاعة غير النبي ﷺ في كل أمره ونهيه وهو خلاف الإجماع وجوازه فيه ما فيه، ومن أوجب تقليد إمام بعينه استتيب فإن تاب وإلّا قتل، وإن قال ينبغي كان جاهلاً ضالاً، ومن كان متّبعًا لإمام فخالفه في بعض المسائل لقوة الدليل أو لكون أحدهما أعلم وأتقى فقد أحسن، وفي موضع آخر قال يجب عليه.

(٤٦٦) وليس للإنسان في مسائل النزاع أن يعتقد أحدَ القولين فيما له والقول الآخر فيما عليه باتفاق المسلمين.

(٤٦٧) ومن كان له عند إنسان حق ومنعه إياه جاز له الأخذ من ماله بغير إذنه إذا كان سبب الحق ظاهراً لا يحتاج إلى إثبات، وإن كان الحق خفيًا يحتاج إلى إثبات لم يَجُز.

(٤٦٨) والعدل في كل زمان ومكان وطائفة بحسبها، فيكون الشاهد في

كل قوم من كان ذا عدل فيهم، وإن كان لو كان في غيرهم لكان عدله على وجه آخر، وبهذا يمكن الحكم بين الناس.

(٤٦٩) ويتوجه أن تقبل شهادة المعروفين بالصدق وإن لم يكونوا ملتزمين للحدود عند الضرورة مثل الحبس وحوادث البدو وأهل القرية التي لا يوجد فيهم عدل.

(٤٧٠) وينبغي أن نقول في الشهود ما نقول في المحدِّثين، وهو أنه من الشهود من تقبل شهادته في نوع دون نوع أو شخص دون شخص، كما أن المحدِّثين كذلك.

(٤٧١) إذا ادعى أحدهما صحة التصرف والأخير بطلانه فالقول قول مدَّعي الصحة لأن الأصل السلامة.

(٤٧٢) الرجوع عن الدعوى مقبول والرجوع عن الإقرار غير مقبول:

هذا آخر ما نقلنا من الأصول والقواعد من الاختيارات.

## ومن الفتاوي المصرية

(٤٧٣) النية المجردة عن العمل يثاب عليها، والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه، ومن نوى الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن إكماله كان له أجر عامل.

(٤٧٤) أعمال القلوب المجرّدة أفضل من أعمال الجوارح المجردة.

(٤٧٥) جرت عادة الشارع أن يقدِّر المقدَّرات بأوعيتها.

(٤٧٦) إن الله حرَّم الخبائث لما قام بها من وصف الخبث، كما أنَّه أباح الطيبات، لما فيها من وصف الطيب.

(٤٧٧) ترك الاستفصال في مقام الاحتمال ينزل منزلـة العموم في المقال.

(٤٧٨) المفهوم لا عموم له.

(٤٧٩) الاستحالة تقلب الطيب خبيثاً والخبيث طيباً على الصحيـح.

(٤٨٠) قد أمر الله في كتابه بغضّ البصر وهو نوعان: غض البصر عن العورة وغضها عن محل الشهوة، والثاني أشد من الأول.

(٤٨١) من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه.

(٤٨٢) ومن أراد السلامة من فتن التعلق بـالعشق والنظر المحـرَّم فليستعن بالله وليداوم على الصلوات الخمس والدعاء والتضرُّع وقت السحر، وتكون صلاته بحضور قلب وخشوع، وليكثر الدعاء: بيا مُقَلِّبَ القلوب ثبِّتْ قلبـي على دينك، يا مصرِّف القلوب صرِّف قلبـي إلى طـاعتك وطـاعة رسولك، وليبعُد عن مواضـع الفتن وليتعوض عنها بالحلال الطيب.

(٤٨٣) الذي يتوفر الهمم والدواعي على نقله هو الأمور الوجودية، وأما الأمور العدمية فلا، إلاّ إذا احتيـج إليها.

(٤٨٤) ما لا يشرع قد يستحب لمصلحة راجحة كتعليمٍ ونحوه.

(٤٨٥) الإكراه على الأفعال المحرمة يبيحها عند أكثر العلماء؛ وذهب طائفة إلى أنه لا يباح إلاّ الأقوال دون الأفعال، وعلى المكره على شيء من ذلك أن يَكْرَه ذلك بقلبه ويحرص على الامتناع بحسب الإمكان؛ ومن علم الله منه الصدق أعانه الله، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك.

(٤٨٦) ومن كان له وِرد مشروع من صلاة الضحى أو قيام الليل أو غير

ذلك فإنه يصلّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع وِردَه المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سراً لله مـع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص.

(٤٨٧) الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة من أوصاف المنافقين وفيه فتـح الباب لأهل الشر والفساد.

(٤٨٨) من شأن أهل العرف إذا كان الاسم عامًّا لنوعين فإنهم يفردون أحد نوعيه باسم ويبقى الاسم العام مختصاً بالآخر، كما في ذوي الأرحام والجائز ونحوها من الأسماء.

(٤٨٩) العمل الواحد قد يكون فعله مستحبًّا تارةً وتركُهُ تارةً باعتبار ما يترجـح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجـح على مصلحته.

(٤٩٠) والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظة لم يكن من أهل العلم والدين.

(٤٩١) ما احتاج إليه العموم لم يحظر عليهم.

(٤٩٢) إذا كان القلب مشغولاً بالله عاقلًا للحق مفكِّراً في العلم فقد وضـع موضعه، وحينئذ يكون له وجهان: وجه مقبل على الحق، وهذه الصفة وجود وثبوت؛ ووجه مُعرض عن الباطل، ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم وطاهر، لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر والخبث والدغل، وهذه الصفة عدمٌ ونفي؛ وعكسه إذا انصرف إلى الباطل، فله وجهان: وجه الوجود أنه منصرف إلى الباطل مشغول به، ووجه العدم أنه معرض عن الحق غير قابل له؛ ثم إن الباطل نوعان، أحدهما: تشغل عن الحق ولا تعانده، مثل الأفكار والهموم التي من علائق الدنيا وشهوات النفس، والثانية تعاند الحق وتصدّ عنه، مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك.

(٤٩٣) السُّنَّة في أسباب الخير والشر أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة من الأعمال الصالحة ما يجلب الله به له الخير، وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر.

(٤٩٤) كل ما أمر الله به راجع إلى العدل، وما نهى عنه راجع إلى الظلم.

(٤٩٥) الذي يُعِين على حضور القلب في الصلاة شيئان: قوة المقتضى وضعف الشاغل؛ أما الأول فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله ويفعله، ويتدبر القرآن والذكر والدعاء، ويستحضر أنه مناجٍ لله كأنه يراه، ثم كُلَّما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليه أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان، والأسباب المقوية للإيمان كثيرة.

(٤٩٦) وأما زوال المعارض فهو الاجتهاد في دفع ما يشغل القلب من تفكر الإنسان فيما لا يعنيه، وتدبر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة، وهذا في كل عبد بحسبه.

(٤٩٧) والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله بذكر أو غيره لا بد له من ذلك، فينبغي للعبد أن يثبت ويصبر ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة ولا يضجر، فإنه بملازمة ذلك ينصرف عنه الشيطان.

(٤٩٨) التحريم يدور مع المضار وجوداً وعدماً.

(٤٩٩) جميع الأقوال والعقود مشروطة بوجود التمييز والعقل، فمن لا تمييز له ولا عقل، ليس لكلامه اعتبار في الشرع أصلاً.

(٥٠٠) الأموال المجهول أهلها تصرف لِأَوْلى الناس بها إن لم يمكن ردّها إلى مستحقها فتصرف في مصالح المسلمين.

(٥٠١) الأصل المستقر في الشريعة أن اليمين مشروعة في جنبة أقوى

المتداعيين، سواء ترجح ذلك بالبراءة الأصلية أو اليد الحسّية أو العادة العملية.

(٥٠٢) جميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله وأن نطيع رسوله، والدين كله داخل في هذا، في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله، وكل ما يجب أو يستحب داخلٌ في طاعة الله ورسوله.

(٥٠٣) والإشراك في الحب والعبادة والدعاء، غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار.

(٥٠٤) والسبب في أن فرج الله يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق هو تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلّهية، ومن كمال نعمة الله على عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشِّرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد.

(٥٠٥) وأما هديه ﷺ في الأكل فإنه يأكل ما تيسّر إذا اشتهاه ولا يردّ موجوداً ولا يتكلّف مفقوداً، وكذلك في اللباس.

(٥٠٦) ومخالطة الناس إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهيّ عنها.

(٥٠٧) ومن كان قادراً على السبب ولا يشغله عما هو أنفع له في دينه فهو مأمور به مع التوكل على الله، وهذا خير له من أن يأخذ من الناس ولو جاءه بغير سؤال وسبب، مثل هذا عبادة، وهو مأمور أن يعبد الله ويتوكل عليه.

(٥٠٨) لن يقوم الدين إلا بالكتاب والميزان والحديد، كتاب يهدي وحديد ينصره كما قال تعالى:

﴿لقد أرسلْنا رُسُلَنا بالبينات﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]

فالكتاب به يقوم العلم والدين، والميزان به تقوم الحقوق في العقود المالية والقبوض، والحديد به تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين.

(٥٠٩) أوجب الله في المعاملات خاصة وفي الدين عامة النصيحةَ والبيانَ، وحرّمَ الخَلابة والغش والكتمان.

(٥١٠) فإن الله ورسوله سدَّ الذرائع إلى المحارم بأن حرَّمها، والذريعة ما كان وسيلة وطريقاً إلى الشيء.

(٥١١) تصرُّفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فاستقراء أصول الشريعة أن العبادات التي أوجبها الله أو أباحها لا يثبت الأمر بها إلاّ من الشرع؛ وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله ورسوله.

(٥١٢) حرّم الله أكل الأموال بالباطل، وهذا يعمُّ كلَّ ما يؤكل بالباطل في المعاوضات والتبرعات وما يؤخذ بغير رضى المستحق والاستحقاق.

(٥١٣) الأصل في العقود والشروط الصحة، إلا ما أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً، أو كان غَرَراً أو رِباً أو ظلماً.

(٥١٤) الشرط المتقدم بمنزلة الشرط المقارن.

(٥١٥) جميع الأَيْمان تكفَّر من غير استثناء.

(٥١٦) الأموال التي لها أصل في كتاب الله التي يتولى قسمها ولاة الأمر ثلاثة: مال المغانم، وهذا لمن شهد الوقعة إلا الخُمس، فإن مصرفه ما ذكره الله بقوله:

**﴿واَعلَموا أنَّما غَنمتُمْ مِنْ شيءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولِذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل﴾** [سورة الأنفال: الآية ٤١]

والمغانم ما أخذ من الكفار بقتال، فهذه المغانم وخمسها، والثاني الفيء، وهو الذي ذكره الله في سورة الحشر:

﴿وما أفاء اللَّهُ على رسولِهِ منهم﴾ [سورة الحشر: الآية ٦]
وهو ما صار للمسلمين بغير إيجاف خيل ولا ركاب، لأن الله أفاءه على المسلمين، فإنه خلق الخلق لعبادته، وأحلّ لهم الطيباتِ ليأكلوا طيبًا ويعملوا صالحًا، والكفار عبدوا غيره فصاروا غير مستحقين للمال، فأباح للمؤمنين الذين عبدوه أن يسترقُّوا أنفسَهم وأن يسترجعوا الأموال منهم، فإذا أعادها الله للمؤمنين فقد فاءت، أي رجعت إلى مستحقيها؛ وهذا الفيء يدخل فيه الجزية والعشور وأنصافها، وما يصالح عليه الكفار من المال، وما تركوه خوفاً من المسلمين، وذكر الله مصارف الفيء في قوله تعالى:

﴿ما أفاءَ اللَّهُ على رسولِه منْ أهلِ القُرى ـ إلى قوله ـ ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [سورة الحشر: الآيات ٧ ـ ١٠]

فهؤلاء المهاجرون والأنصار ومن جاء من بعدهم إلى يوم القيامة، ومن الفيء الخراج ويصرف منه للمجاهدين ولجميع المصالح الإسلامية ممن يحتاجون أو يحتاج إليهم، وما فضل منه قُسِّم بين المسلمين.

وأما المال الثالث: فهو الصدقات التي هي زكاة أموال المسلمين، زكاة الحرث وهي العشور وأنصاف العشور المأخوذة من الحبوب والثمار، وزكاة الماشية وهي الإبل والبقر والغنم، وزكاة التجارة، وزكاة النقدين فهذا المال مصرفه ما ذكره الله بقوله:

﴿إنّما الصدقاتُ للفقراء﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]
إلى آخرها.

(٥١٧) العطاء إنما هو بحسب مصلحة دين الله، فكلما كان لله أطوعَ وَلِدِينِ اللَّهِ أنفعَ كان العطاءُ فيه أولى؛ وعطاء محتاج إليه في دين الله، وقمع أعدائه وإظهاره وإعلائه أعظم من إعطاء من لا يكون كذلك.

(٥١٨) الأموال التي بأيدي الظلمة التي لا يمكن ردُّها إلى أهلها، ودار

الأمر بين إقرارها بأيدي الظلمة أو صرفها في المصالح، كان الثاني هو اللازم وكان النهي عنه زيادة ظلم، فكما يجب إزالة الظلم يجب تقليله إذا وقع عند العجز عن إزالته بالكلية.

(٥١٩) الشُّبهات ينبغي صرفها في الأبعد فالأبعد عن المنفعة، فالأقرب ما دخل الجوف من الطعام والشراب ونحوه، ثم ما ولي الظاهر من اللباس ثم ما ستَرَ مع الانفصال من البناء، ثم ما عرض من الركوب ونحوه، فهكذا ترتيب الانتفاع بالرزق، وكذلك أصحابنا يفعلون.

(٥٢٠) من خلّص مالَ غيره من مهلكة إن نوى التبرُّع فأجره على الله وإلا فله أجرة مثل عمله، لأنه وإن لم يُؤذَن فيه لفظًا فقد أُذِن فيه شرعاً وعرفاً.

(٥٢١) يجب العمل بالمقتضى أو بالدليل السالم عن المعارض المقاوم.

(٥٢٢) الإنسان إذا كان سائلاً بلسانه أو مستشرفاً في قلبه إلى ما يُعطاه فلا ينبغي له أن يقبله إلّا حيث تباح له المسألة والاستشراف، وأمّا إذا أتاه من غير مسألة ولا إشراف فله أخذه إن كان الذي أعطاه حقه. وإن كان أعطاه ما لا يستحقه عليه، فإنْ قَبِلَه وكان من غير إشراف له عليه فقد أَحسَن، وأما الغني فينبغي له أن يكافىء بالمال من أسداه إليه.

## ومن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم

(٥٢٣) اليهودُ مقصِّرون عن الحق والنصارى غالون فيه؛ فأمّا وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضّلال فله أسباب متعددة، ليس هذا موضعها؛ وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً، أو لا قولاً ولا عملاً، وكُفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله،

ويقولون على الله ما لا يعلمون، وكان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى.

(٥٢٤) يجب على كل مسلم أن لا يتشبه بأهل الكتاب والمشركين والملحدين، والتشبه الظاهر يدعو إلى الموافقة في الباطن.

(٥٢٥) جميع أعمال الكافر وأموره لا بدَّ فيها من خلل يمنعه أن تتم له منفعة، ولو فرض صلاح شيء من أموره على التمام لاستحق بذلك ثواب الآخرة، ولكن كل أموره إما فاسدة وإما ناقصة، فالحمد لله على نعمة الإسلام التي هي أعظم النعم وأمُّ كل خير كما يُحب ربنا ويرضى، فنفسُ مخالفة الكفار أمرٌ مقصود للشارع في الجملة.

(٥٢٦) وكما أمر الشارع بمخالفة الكفار فقد أمر بمخالفة الشياطين في عدة أشياء.

(٥٢٧) اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قويًّا بيّناً بحسب تلك اللغة.

(٥٢٨) علينا أن نعرف المنكر معرفة تميز بينه وبين المباح والمكروه والمستحب والواجب حتى نتمكن بهذه المعرفة من اتقائه واجتنابه، كما نعرف سائر المحرّمات، إذ الفرض علينا تركُها، ومن لم يعرف المنكر لا جملةً ولا تفصيلاً لم يتمكن من قصد اجتنابه، والمعرفة الجملية كافية بخلاف الواجبات، فإن الغرض لما كان فعلها، والفعل لا يتأتى إلاّ مفصَّلاً وجبت معرفتها على سبيل التفصيل.

(٥٢٩) لو أقام العلماء كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله محمداً ﷺ وهي سنته لوجدوا فيها من أنواع

العلوم النافعة ما يحيط بعلم الناس، ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول:

﴿وكذلكَ جعلناكُمْ أُمةً وَسَطًا لتكونوا شهداءَ على الناس﴾

[سورة البقرة: الآية ١٤٣]

ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يُتِمُّون به فروع الدين، وما كان من الحجج صحيحاً ومن الرأي سديداً فذلك له أصلٌ في كتاب الله وسنة رسوله فهمه من فهمه وحرّمه من حرًمه.

(٥٣٠) ولا ريب أن من فعل البدع متأوِّلاً مجتهداً أو مقلِّداً كان له أجر على حسن قصده وعلى عمله من حيث ما فيه من المشروع، وكان ما فيه من المبتدع مغفوراً له إذا كان في اجتهاده أو تقليده من المعذورين، لكن هذا القدر لا يمنع كراهتها والتحذير منها والاعتياض عنها بالمشروع.

(٥٣١) وفي البدع مفاسد كثيرة وإثمها أكبرُ من نفعها.

(٥٣٢) طريقة الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أنهم يأمرون الخلق بما فيه صلاحُهم وينهَوْنهم عما فيه فسادُهم، ولا يشغلونهم بالكلام في أسباب الكائنات كما تفعل المتفلسفة، فإن ذلك كثير التعب قليل الفائدة أو موجب للضرر، ومثَلَ النبي ﷺ مثل طبيب دخل على مريض فرأى مرضه فعلمه فقال له: اشرب كذا واجتنب كذا، ففعل ذلك، فحصل غرضه من الشفاء، والمتفلسف يطول معه الكلام في سبب ذلك المرض وصفته وذمه وذم ما أوجبه، ولو قال له مريض: فما الذي يشفيني منه؟ لم يكن له بذلك علم تام.

# ومن الردِّ على البكري

(٥٣٣) الأحاديث المنقولة في زيارة قبر النبـي ﷺ كلها ضعيفة بل موضوعة، وليس في السنن منها حديث واحد، فضلاً عن الصحيحين، ولا احتج بها أحد من الأئمة.

(٥٣٤) الأمور التي تُفْعل عند زيارة القبور مراتبُ، أبعدها عن الشرع أن تسأل الميتَ حاجةً أو تستغيثَ به، وهو من جنس عبادة الأصنام. الثاني: أن يظن أَن الدعاء عند قبره مستجابٌ، أو أفضل من الدعاء في المساجد، فيقصد زيارته لذلك، أو للصلاة عنده، أو لأجل حوائجه منه، فهذا أيضاً من المنكرات باتفاق الأئمة. الثالث: أن يسأل صاحب القبر أن يدعو الله له، وهذا بدعة باتفاق المسلمين.

(٥٣٥) أما كون النبـي ﷺ يشعر بالسلام عليه فهذا حقٌّ وهو يقتضي أن حاله بعد موته أكمل من حاله قبل مولده، وهذا لا ريب فيه.

(٥٣٦) وليحذر العبد مسالكَ أهل الظلم والجهل الذين يسلكون مسالك العلماء تسمع من أحدهم جعجعة ولا ترى طحناً، فترى أحدَهم أنه في أعلى الدرجات، وإنما هو يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا ولم يَحُمْ حول العلم الموروث عن سيد ولد آدم، وقد تعدّى على الأعراض والأموال بكثرة القيل والقال.

(٥٣٧) والمأمور به أمران: عملٌ باطن وهو إخلاص الدين لله، وعملٌ ظاهر وهو ما شرعه الله لنا من واجب ومستحب؛ وخلق كثير يعبدون غير الله، وخلق كثير يبتدعون عبادة لم يأذن بها الله، وكثيرٌ من الناس عملهم ليس خالصاً لله ولا موافقاً لشريعة الله، مبتدِعة ضُلّال يُشَرِّعون ديناً لم يأذن به الله.

(٥٣٨) العلم شيئان: إما نقل مصدَّق، وإما بحث محقَّق، وما سوى ذلك فهذيان مزوق.

## ومن الرد على الإخنائي

(٥٣٩) فمسجد الرسول نفسه يشرع إتيانه، سواء كان القبر هناك أو لم يكن، وكل ما يشرع في غيره من العبادات فإنه مشروع فيه، وسواء تعلق بالرسول، كالصلاة والسلام عليه، وسؤال الله له الوسيلة، والثناء عليه، والمحبة والتعظيم والتوقير وغير ذلك من حقوقه ﷺ أو لم يتعلق بالرسول، كالصلاة والاعتكاف، مع أنه لا بد في ذلك من ذكر الرسول بالشهادة له والسلام عليه وكذلك الصلاة عليه؛ وهذه العبادات، وغيرها، وحقوقه وغير حقوقه هي مشروعة في جميع المساجد، وإن لم يكن هناك قبره، بل في جميع البقاع إلا ما استثناه الشرع.

(٥٤٠) من قامت عليه الحجة من أهل البدع استحق العقوبة وإلّا كانت أعماله البدعية المنهيُّ عنها باطلة لا ثوابَ فيها، وكانت مُنقصة له خافضة له مسقطة لحرمته ودرجته، فإن هذا حكم أهل الضَّلال وجزاؤهم، والله حكم عَدْل لا يظلم مثقال ذرة وهو عليم حكيم.

(٥٤١) ولما كانت حاجة الناس إلى الرسول والإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته وتعظيمه وتعزيره وتوقيره عامةً في كل زمان ومكان، كان ما يؤمر به من حقوقه عامًّا لا يختص بغيره، فمن خَصَّ قبره بشيء من الحقوق كان جاهلاً بقدر الرسول ﷺ وقدر ما أَمر الله به من حقوقه، وكل من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شَغَله ذلك عما نهى عنه من البدع المتعلقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهيِّ عنها ترك ما أمر به الرسول من حقه فطاعته هي مناط السعادة والنجاة.

(٥٤٢) وقد أمرنا الله بالإيمان بالأنبياء وما جاؤوا به، وفرض علينا طاعة الرسول الذي بُعث إلينا، ومحبته وتعزيره وتوقيره والتسليم لحكمه، وأمرنا أيضاً أن لا نعبد إلا الله وحدَه ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً،

وفرّق بين حقه الذي يختص به، الذي لا يشركه فيه لا ملك ولا نبـي، وبين الحق الذي أوجبه علينا لملائكته وأنبيائه عموماً ولمحمد خاتم الرسل وخير مرسل، الذي جاءه بالوحي، خصوصاً؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فاصطفى من الملائكة جبريل ومن البشر محمداً وأخبر أن هذا القرآن نزل به هذا الرسول إلى هذا الرسول مبلِّغاً عن الله.

(٥٤٣) وسائر الأنبياء علينا أن نؤمن بهم مجملاً، وأما محمد ﷺ فعلينا أن نطيعه في كل ما أوجبه وأمر به، وأن نصدِّقه في كل ما أخبر به، وغيره من الأنبياء عليهم السلام علينا أن نؤمن بأن كل ما أخبروا به عن الله فهو حق، وأن طاعتهم فرض على من أُرسلوا إليهم، ومحمد أمرنا بما أَمَرَتْنا به الرسل من الدين العام، مثل عبادة الله وحدَه لا شريك له، والإيمان بالملائكة والنبيين وجمل الشرائـع، مثلما ذكره في سورة الأنعام والإسراء «أي سبحان» بل وعامة السور المكية، فإن ذلك مما اتفق عليه الرسل، ولكن بعض الأمور التي يقـع في مثلها النسـخ، وخص الله محمداً بأفضل الشرائـع والمناهـج.

(٥٤٤) فالأنبياء وسائط بين الله وبين عباده في تبليـغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وما أخبر به عن نفسه وملائكته وغير ذلك مما كان ويكون، وأما محمد فهو الذي أُرسل إلينا وإلى جميـع الخلق، وقد ختم الله به الأنبياء وأتاه من الفضائل ما فضله به على غيره وجعله سيد ولد آدم وخصائصه وفضائله كثيرة وعظيمة لا يسعها هذا الموضـع، وهو مـع هذا قد نهانا عن الشرك بهم والغلو فيهم، وميز بين حقه وحقهم.

(٥٤٥) والملائكة والأنبياء والصالحـون يستحقون المحبـة والموالاة والتكريم والثناء، مـع أنه يحرم الغلو فيهم والشرك بهم.

# ومن الرد على أهل المنطق

(٥٤٦) إن الأمم جميعهم من أهل العلم والمقالات وأهل العمل والصناعات يعرفون الأمور التي يحتاجون إلى معرفتها ويحققون ما يعانونه من العلوم والأعمال من غير تكلم بحد منطقي، ولا نجد أحداً من أئمة العلوم كلها يتكلم بهذه الحدود، مع أنهم يتصورن مفردات علمهم، فعُلم استغناء التصور عن هذه الحدود.

(٥٤٧) فائدة الحدود التمييز بين المحدود وبين غيره ولا يفيد تصور المحدود وحده، ولكنه قد ينبه تنبيها.

(٥٤٨) المخاطبون بالأسماء الشرعية قد يعلمون معناها على سبيل الإجمال، لكن لا يعلمون مسمّاها على وجه التحديد إلاّ من جهة الرسول ﷺ وهي التي يقال لها الأسماء الشرعية.

(٥٤٩) سائر الصفات المشتركة قد لا يمكن الإحاطة بها، ولا ريب أنه كلما كان الإنسان بها أعلم كان بالموصوف أعلم، وأنه ما من تصور إلاّ وفوقه تصور أكمل منه، ونحن لا سبيل إلى أن نعلم شيئاً من كل وجه، ولا نعلم لوازم كل مربوب ولوازمه إلى آخرها، فإنه ما من مخلوق إلاّ وهو مستلزم للخالق، والخالق مستلزم لصفاته التي منها علمُه، وعلمه محيط بكل شيء، فلو علمنا لوازم الشيء للزم أن نعلم كل شيء، وهذا ممتنع من البشر، فإن الله تعالى هو الذي يعلم الأشياء كما هي عليه من غير احتمال زيادة، وأما نحن فما من شيء نعلمه وإلا ويخفى علينا من لوازمه وأموره ما لا نعلمه.

(٥٥٠) منع المنطقيين الاحتجاج بالمتواترات والمجرّبات والحدْسيات باطل من وجوه كثيرة.

(٥٥١) حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم، فليس من شرط

حجة الله علم المدعوين بها، ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعاً من قيام حجة الله عليهم، وكذلك إعراضهم عن المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنـع الحجة إذ المكنة حاصلة.

(٥٥٢) عدم العلم ليس علماً بالعدم، وعدم الوجود أن لا يستلزم عدم الوجود.

(٥٥٣) شِرْكُ الفلاسفة أشنـع من شرك المشركين، لأن شرك الفلاسفة بالتوحيدين: توحيد الربوبية والإِلّهية.

(٥٥٤) وكذلك كُفرهم بما يقولون بالشفاعة وتفسيرها بالفيض أخبثُ من كفر المشركين بقولهم: يقربوننا إلى الله زلفى.

(٥٥٥) لا يلزم للعلم من المقدمات إلاّ ما يحتاج إليه واحدة أو اثنتين أو أكثر بحسب المقام والعبارة، لا كما زعمه الفلاسفة أنه يحتاج إلى مقدمتين فقط لا أقل ولا أكثر.

(٥٥٦) واعلم أن بيان ما في كلامهم من الباطل والنقص لا يستلزم كونهم أشقياء في الآخرة إلاّ إذا بعث الله إليهم رسولاً فلم يتّبعوه، بل يعرف به أن من جاءته الرسل بالحق فعدل عن طريقهم إلى طريق هؤلاء كان من الأشقياء في الآخرة، والقوم لـولا الأنبياء لكانوا أعقل من غيرهم، لكن الأنبياء جاؤوا بالحق وبقاياه في الأمم وإن كفروا ببعضه، حتى مشركي العرب كان عندهم بقايا من دين إبراهيم، فكانوا بها خيراً من الفلاسفة المشركين الذين يوافقون «أرسطو» وأمثالهم على أصولهم.

(٥٥٧) النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدرّبه ويقوّيه على العلم فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب وركوب الخيل تعين على قوة الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقت قتال، وهذا مقصد حسن وخصوصاً العلوم الصادقة، كالعلم الرياضي.

(٥٥٨) والرياضة ثلاثة أنواع: رياضة الأبدان بالحركة والمشي، ورياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة، ورياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة.

(٥٥٩) لا يعرف بين الصحابة والتابعين والأئمة العارفين خلاف أن الفلك مستدير كروي.

(٥٦٠) والله تعالى أمرنا أن لا نكذب ولا نكذّب بحق، وإنما مدح سبحانه من يصدق فيتكلم بعلم ويصدق ما يقال له من الحق.

(٥٦١) ما أخبرت به الرسل من الغيب فهي أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن في هذه الدار، وتلك أمر محسوسة تشاهد وتُحَس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك، ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقوله الفلاسفة، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشهدها أن تلك غيبٌ وهذه شهادةٌ، وكون الشيء غائباً وشاهداً أمر إضافيٌّ بالنسبة إلينا، فإذا غاب عنا كان غيباً، وإذا شهدناه كان شهادة، وليس هو فرقاً يعود إلى أن ذاته تُعقل ولا تُشهد ولا تُحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يُشهدوا ويُروا، والربّ تعالى يمكن رؤيته بالأبصار والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص.

(٥٦٢) والمَعَاد يقرره الرب بالبراهين العقلية، إما بذكر نظيره كإخباره بإحياء من أحياهم في هذه الدار، وتارة يستدل على إمكان ذلك بخلق السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من إعادة الإنسان، وتارة يستدل على ذلك بخلق النبات ونحو ذلك.

(٥٦٣) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب: التبصرة بعد العمى وهو الجهل، والتذكرة بعد النسيان وهو ضد العلم، وذلك أن العلم يحصل

بالعلم بالدليل لمن لم يكن عالماً به قط، ولمن يذكره بعد النسيان إذا كان قد علمه ثم نسيه.

(٥٦٤) النظر نوعان: نظر في المسائل المطلوبة التي يراد الحكم عليها، ونظر في الدلائل المثبتة لها المبرهنة على حقيقة الحكم عليها، ولهذا كان التصديق مسبوقاً بالتصور، والقول مسبوقاً بالعلم، فليس لأحد أن يتكلم بما لا يعلم، كذلك لا يصدق ولا يكذب لما لا يتصوره، والتصور التام مستلزم للتصديق، والتصور الناقص يحتاج معه إلى دليل يثبت الحكم.

(٥٦٥) والقرآن والحديث مملوء من تبيين الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طرق التسوية بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج على ذلك.

(٥٦٦) استدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله: ولن تجد لسنة الله تبديلاً وتحويلاً. على أن العالم لا يتغير بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، فيقال لهم انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً، بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة، كما أخبر به من نصر أوليائِهِ وعقوبةِ أعدائِه، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السُّنَّة، وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السُّنَّة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابته أولياءه ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل كما قال:

**﴿فهلْ ينظرونَ إلاَّ سنةَ الأولينَ، فَلَن تجدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً، ولنْ تجدَ لسنَّةِ الله تحويلاً﴾** [سورة فاطر: الآية ٤٣]

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة، فتسوِّي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السُّنَّة تبديل ولا تحويل وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونَصْر رسله والذين آمنوا على المكذبين فهذه السُّنَّة

تقتضيها حكمته سبحانه، فلا انتقاض لها بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره، فذاك تغييره من الحكمة أيضاً، ومن سنته التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل، لكن في هذه الآيات ردٌّ على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح، فإن هؤلاء ليس عندهم له سُنَّة لا تتبدل ولا حكمة تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول، فإن السُّنة تقتضي تماثل الآحاد، وإن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات، وهذا خلاف قولهم.

(٥٦٧) من المعلوم بالضرورة أن تواتر خروج محمد ﷺ ومجيئه بهذا القرآن أعظم عند أهل الأرض من تواتر وجود الفلاسفة كلهم، فضلاً عما يخبرون به من القضايا التجريبية والحدْسية التي استدلوا بها على الطبيعيات والفلكيات، وكذلك ما تواتر من سائر معجزاته، وما تواتر من أخبار موسى والمسيح صلوات الله عليهما، هذا معلوم عند الناس أعظم من تواتر وجود أولئك، فضلاً عن تواتر ما يخبرون به، ولهذا صار ظهور الأنبياء مما تؤرخ به الحوادث في العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة، فإن التاريخ يكون بالحادث المشهور الذي يشترك الناس فيه ليعرفوا به كم مضى قبله وبعده.

(٥٦٨) ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلٓهية، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلٓهية هي التي لم يشمُّوا رائحتها ولا في علومهم ما يدلُّ عليها، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظمُ من أَنْ يُذكر في ترجيحه على الفلسفة.

(٥٦٩) فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به لزم أمران:

أحدهما: أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه.

الثاني: أن ما علموه خسيس بالنسبة إلى ما جهلوه، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة، والرسول أخبر عن أمور معينة: مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل ابراهيم وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم: لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيستهم لا تفيد إلا أموراً كلية، وهذه أمور خاصة، وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في الصحيحين من غير وجه أنه قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ذلف الأنوف حمر الخدود ينتعلون الشعر كأن وجوههم المجان المطرقة، فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة، فضلاً عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة، وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك إنما يدل على أمر مطلق كلي لا على شيء معين.

(٥٧٠) وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجودَ ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن، كالملائكة والجن، بل ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجساماً حتى تُرى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بإخبار الأنبياء وببراهين أُخر إلا الجهل المحض، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرُّون بذلك، وكذلك أئمة الأطباء.

(٥٧١) وطريقهم لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء.

# ومن جواب أهل العلم والإيمان

(٥٧٢) السلف متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب وهو أعلى منها درجة، فإنه قرر ما فيها من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبيَّن الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم، وجادل المكذِّبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيّن عقوبات الله لهم ونصرَه لأهل الكتب المتَّبعين لها، وبيَّن ما حُرِّف منها وبُدِّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكلَّ ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما قبله من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات، وكذلك معنى الشهادة، والحكم يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم، وإبطال ما أبطله من كذب وفسوخ.

ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله، ففيه دعوة الرسول وهداية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته، وفيه ما جاء به الرسول، وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون من أصناف العلماء في أصناف العلوم والفنون لم يجد عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن، ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر ولا كتاب آخر فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره، سواء كان من علوم النقل أو علوم العقل ولله الحمد.

(٥٧٢أ) كلام الله يتفاضل وصفاته تتفاضل، وعلى هذا تدل النصوص الكثيرة.

(٥٧٣) إنما كانت:

﴿قل هو الله أحد..﴾ [سورة الإخلاص: الآيات ١ ـ ٤]

تعدل ثلث القرآن، لأن معاني القرآن ثلاثة: توحيد وقصص وأحكام، وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحدَه.

(٥٧٤) ومما ينبغي أن يُعلم أن فضل القراءة والذِّكر والدعاء والصلاة وغير ذلك يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك.

## ومن الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

(٥٧٥) معلوم بالضرورة أن محمداً ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به، كما دعا من لا كتاب لهم من العرب وسائر الأمم، وهو الذي أخبر عن الله بكفر من لم يؤمن من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يَصْلَوْن جهنم وساءت مصيراً، وهو الذي أمر بجهادهم ودعاهم بنفسه ونوابه، فمن قال غير ذلك فهو مبطل كذاب.

(٥٧٦) من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال، فبيان الإسلام وآياته واجب مطلقاً وجوباً أصلياً، وأما الجهاد فمشروع للضرورة، وإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداءً ودفعاً فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى.

(٥٧٧) ومعجزاته ﷺ تزيد على ألف معجزة: مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به، ومثل إخبار الكهان والهواتف به، ومثل قصة الفيل التي جعلها الله آية في عام مولده من العجائب الدالّة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه،

ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله من غير أن يعلِّمه إياها بشر، فأخبرهم بالماضي مثل قصص الأنبياء مع قومهم، وبالمستقبلات، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلَّمْ من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربي، ولا كان هو يحسن لساناً غير العربي، ولا كان يكتب كتاباً ولا يقرأ كتاباً مكتوباً، ولا سافر قبل نبوته إلّا سفرتين: سفرة وهو صغير مع عمه أبي طالب لم يفارقه ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم، وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب، وأخبر من كان معه بأخبار أهل الكتاب بنبوته مثل أخبار «بحير الراهب» بنبوته وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته، وهذه الأمور مبسوطة، ومثل نبع الماء من بين أصابعه عدة مرات، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير وهذا قد جرى غير مرة، وله ولأمته من الآيات ما يطول وصفه، ومثل نصره ونصر أمته القائمين بدينه إيماناً وعملاً نصراً لا نظير له.

وما يذكره بعض أهل الكتاب والكفار من نصر «فرعون ونمرود وسنحاريب وجنكيز خان» وغيرهم من الملوك الكافرين جوابه ظاهر، فإن هؤلاء لم يدَّع أحد منهم النبوة، وإن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك، فإنه لا يكون إلّا رسولاً صادقاً ينصره ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذَّاباً فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاء به ليس من البراهين والآيات التي لا تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها إنه لا يقدر أحد أن يعارضها ويأتيَ بمثلها بخلاف غيرها فإن معارضتها ممكنة فتبطل دلالتها، والمسيح الدجال يدَّعِي الإِلٓهية ويأتي بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوى ممتنعة في نفسها، ويرسل الله

المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه متعددة كما ذكر في الأحاديث الصحيحة.

(٥٧٨) الدلائل الدالة على صدق محمد ﷺ أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتاب الذي أُرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره، والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلّا وهو في القرآن أو مثله أو أكمل منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد في التوراة والإنجيل، فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يُطعن به على محمد ﷺ إلّا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد ﷺ، ولا يفعل ذلك إلّا من هو من أجهل الناس وأضلِّهم، أو من أعظمهم عناداً واتّباعاً لهواه.

(٥٧٩) الشرائع ثلاث: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل فتوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث وهي شريعة القرآن الذي يجمع فيه بين العدل والفضل، ولهذا كانت شريعة التوراة يغلب عليها الشدة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا.

(٥٨٠) وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته وأمته من آياته وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبّر سيرته من حين وُلِد إلى أن بُعِث، ومن حين بُعِث إلى أن مات؛ وبتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً، من صميم سلالة ابراهيم، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبيٌّ من بعد ابراهيم إلّا من ذريته، وجعل له ابنين: إسماعيل

وإسحق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشّر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشّرت به النبوّات غيرُه؛ ودعا إبراهيم لذرية اسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم.

ثم هو من قريش صفوة بني ابراهيم. ثم من بنى هاشم صفوة قريش ومن مكة أم القرى وبلدة البيت الذي بناه ابراهيم ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجًا من عهد ابراهيم مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف، وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممّن آمن به وكفر بعد النبوة، لا يعرف له شيء يُعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جرت عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة. وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله.

(٥٨١) وكان أمياً من قوم أميين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب «التوراة والإنجيل» ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ولا جالس أهلها ولم يَدَّع بنبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمر لم يكن في بلده ولا في قومه من يعرف مثله ولم يعرف قبله ولا بعده، لا في مصرٍ من الأمصار ولا عصرٍ من الأعصار، من أتى بمثل ما أتى به ولا من ظهر كظهوره، ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره.

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء وهم الضعفاء من الناس وكذّبه أهل الرئاسة وعادَوْه وسَعَوا في هلاكه وهلاك من تبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون مع الأنبياء وأتباعهم، والذين اتبعوه لم يتّبعوه لرغبة ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال

يعطيهم ولا جهاتٌ يولّيهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون، محتسبون، لا يرتدّون عن دينهم لما خالط قلوبهم حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجّها العرب من عهد إبراهيم فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذِّب وجفاء الجافي وإعراض المُعْرِض إلى أن اجتمع بأهل يثرب، وكانوا جيران اليهود، قد سمعوا أخباره منهم وعرفوه، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه. فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلّا قليلاً من الأنصار، أسلموا في الظاهر ثم حَسُن إسلام بعضهم.

ثم أُذِن له في الجهاد ثم أمر به، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل والوفاء، لا يُحفظ عليه كذبة واحدة ولا ظُلمٌ لأحد ولا غدرٌ بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلَهم وأبرَّهم وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم، وأمن وخوف، وغنى وفقر، وقلة وكثرة، وظهوره على العدو تارةً وظهور العدو عليه تارة.. وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام؛ لا يعرفون آخرة ولا معاداً فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو، ﷺ، مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس

والأموال مات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، ولا متاعاً ولا دابة إلّا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله؛ وكان بيده عقار يُنفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته منه شيئاً. وهو في كل وقت يظهر على يديه من الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ويخبرهم بما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرِّمُ عليهم الخبائث ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء، حتى أكمل الله دينَه الذي بعث به وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أَمر به ولا منكرٌ تعرف العقول أنه منكر إلّا نهى عنه؛ لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه..

إلى آخر ما ذكر في هذا الفصل العظيم الجامع النافع.

## ومن كتاب «السياسة الشرعية»

**(٥٨٢) قوله تعالى: ﴿إنّ اللَّهَ يأمُرُكم أَنْ تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أَهْلها﴾**
[سورة النساء: الآية ٥٨]

يدخل في هذا نوعان:

أحدهما: الولايات الكبار والصغار، فيجب أن يُوَلّى فيها أفضلُ مَنْ يوجد كفاءةً وأمانة وغيرهما من الصفات المقصودة، ومن ولَّى فيها الناقصَ مع وجود من هو أفضل منه أو حابى فيها صاحباً أو قرابة أو نحوها فلم يؤدِّ الأمانة؛ وكذلك على من تولى إمارة أو حكماً أو ولايةَ وقفٍ أو يتيمٍ أنْ يعمل بالأصلح ويجتهد في القيام بعمله بحسب إمكانه. والمهم في هذا الباب معرفة الإصلاح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية ومعرفة طريق المقصود، فإذا عرفت الوسائل والمقاصد تمّ الأمر، والمقصود الواجب

بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلّا به من أمر دنياهم. وهو نوعان: قسم المال بين مستحقيه وعقوبات المعتدين، فمن لم يعتدِ أصلح له دينه ودنياه.

والمقصود أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه.

القسم الثاني: أمانات الأموال، ويدخل في هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة، مثل ردِّ الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك، وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصدقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك، ومن باب أولى أداء الغصوب والسرقات والخيانات ونحو ذلك من المظالم وكذلك العارية؛ وقال ﷺ إن الله أعطى كلَّ ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، وهذا القسم يتناول الرعاة والرعية، فعلى كل منهم أن يؤدي إلى الآخر ما يجب أداؤه إليه.

(٥٨٣) وليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكَه، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء.

(٥٨٤) والأصل أن كل من عليه مال يجب أداؤه: كرجل عنده وديعة أو مضاربة أو شركة أو مال لموكله أو مال يتيم أو مال وقف أو مال لبيت المال أو عنده دين هو قادر على أدائه، فإنه يستحق العقوبة حتى يظهر المال أو يدل على موضعه، فإذا عرف المال وصبر على الحبس فإنه يستوفى الحق من المال ولا حاجة إلى ضربه وإن امتنع من الدلالة على ماله، ومن الإيفاء ضرب حتى يؤدي الحق أو يمكن من أدائه، وكذلك لو امتنع من النفقة الواجبة عليه مع القدرة عليها، وهذا أصل متفق عليه أن كل من فعل محرَّماً

أو ترك واجباً استحق العقوبة، فإن لم تكن مقدّرة في الشرع اجتهد ولي الأمر فيها.

وأما قوله: ﴿وإذا حَكمتُم بينَ النَّاس أَنْ تحكُموا بالعدل﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

فإن الحكم بين الناس يكون في الحدود والحقوق، وهو قسمان:

فالأول: الحدود والحقوق التي ليست لأحدٍ معيَّن، بل منفعتها لمطلق المسلمين أو نوع منهم وكلهم يحتاج إليها، وتسمى حدود الله وحقوق الله، مثل حد قطاع الطريق والسراق والزناة ونحوهم، فهذه من أهم أمور الولايات. وهذا القسم يجب على الولاة البحث عنه وإقامته من غير دعوى أحدٍ به، وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى أحد به ويجب إقامته على الشريف والوضيع، والقوي والضعيف، ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرهما، ولا يحل الشفاعة فيه، ومن عطَّله لذلك وهو قادر على إقامته فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وهو ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

(٥٨٥) العقوبات التي جاءت بها الشريعة نوعان: لمن عصى الله ورسوله.

أحدهما: عقوبة المقدور عليه من الواحد والعَدَد بحسب ما جاءت به الشريعة.

والثاني: عقوبة طائفة ممتنعة كالتي لا يقدر عليها إلاّ بقتال، فأصل هذا هو جهاد الكفار أعداء الله ورسوله، فكلُّ من بَلَغَتْهُ دعوة رسول الله إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وكذلك كلُّ من امتنع من شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة قوتل حتى يلتزمها.

(٥٨٦) وكما أن العقوبات شُرِعت داعيةً لفعل الواجب وتركِ المحرَّم فقد شُرع أيضاً كلُّ ما يعين على ذلك، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن، مثل أن يبذل لولده أو أهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره؛ ولهذا شُرعت المسابقة بالخيل والإبل والسهام وإعطاء المؤلَّفة قلوبُهم، وكذلك الشر والمعصية فينبغي حسم مادته وسد ذريعته وما يفضي إليه.

(٥٨٧) وأما الحدود والحقوق التي لآدميٍّ معين، فمنها القتل وقطع الأطراف والشجاج ونحوها. ففي العمد العدوان المحض يجب تمكين صاحب الحق من حقه الذي يختاره. إما قصاصاً وإما مالاً، وإن كان ذلك خطأ أوجب الدية. وعلى الوالي إلزام من عليه دية بها كما يلزم من عليهم ديون واجبة ثابتة.

(٥٨٨) وكذلك يجب الحكم بين الزوجين في الحقوق عند التنازع وإلزام كل منهما بأداء ما عليه، وكذلك الأموال وبقية الحقوق يجب الحكم فيها بين الناس بالعدل وهذا النوع تدخله المسامحة، فمن عفا عن حقه أو بعضه فأجره على الله، ولا بأس بالسعي في الصلح بينهم في تسهيل أداء هذه الحقوق بل هذا من الأعمال الفاضلة.

(٥٨٩) ويجب أن يعرف أن ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين والدنيا إلّا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلّا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بُدَّ لهم عند الاجتماع من أمر، ويجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً يتقرب إلى الله بها ليقام بها العدل.

## ومن كتاب «التوسل والوسيلة»

(٥٩٠) قال الله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا آتَّقوا الله وآبتغُوا إليه الوسيلَةَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٥]

فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسّل إلى الله بالإيمان بمحمدٍ وآتِّباعه، وهذا واجب على كل أحد في كل حال، ظاهراً وباطناً، في حياة رسول الله وبعد موته، في مشهده ومغيبه، لا يسقط التوسل بالإيمان به وطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه، ولا بعذر من الأعذار ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هَوَانه وعذابه إلّا بالتوسل بالإيمان به وطاعته؛ ويتوسل إلى الله بدعاء الرسول في الدنيا وشفاعته في الآخرة، وهذا إنما ينفع مع الإيمان. والتوسّل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى.

(٥٩١) فكلٌّ من مات مؤمناً بالله ورسوله، مطيعاً لله ورسوله، كان من أهل السعادة قطعاً، ومن كان كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً؛ وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع.

(٥٩٢) وكما يراد بالتوسُّل هذان النوعان المتفق عليهما وهما: الإيمان بالرسول، وطاعته والتوسل بدعائه وشفاعته، فقد يراد بالتوسّل في عرف كثير من المتأخرين دعاء الرسول والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وطلب الحوائج منه بعد موته: فهذا من الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله؛ وقد يراد بالتوسل التوسل بذاته وجاهه، فهذا قد يفعله بعض الناس، والصواب أنه محرم لأنّه لا يتوسل إلى الله إلّا بأسمائه وصفاته لا بمخلوقاته.

(٥٩٣) وأولياء الله هم المؤمنون المتَّقون، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم لا ثمرة الشِّرك والبِدعة والفسق؛ وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو حاجة للمسلمين، والمقتصدون قد يستعملونها في

المباحات، وأما من استعان بها على المعاصي فهو ظالم لنفسه متعدٍّ حد ربه وإن كان سببها الإيمان والتقوى.

(٥٩٤) فالدين الذي شرعه الله ورسوله توحيدٌ وعدلٌ وإحسانٌ وإخلاصٌ وصلاحٌ للعباد، في المعاش والمعاد، وما لم يشرِّعْه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شركٌ وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد، فإن الله أمر بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال:

﴿واْعْبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾
[سورة النساء: الآية ٣٦]

(٥٩٥) فالصِّراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمر وترك ما حظر، وتصديقه فيما أخبر. لا طريق إلى الله إلاّ ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين.

(٥٩٦) وبين الخالق والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على ذي بصيرة؛ منها: أنّ الرب غنيٌّ بنفسه عما سواه ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه، والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية؛ ومنها أن الربَّ وإن كان يُحب الأعمال الصالحة، ويرضى ويفرح بتوبة التائبين، فهو الذي يخلق ذلك وييسِّره، فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلاّ بقدرته ومشيئته، والمخلوق قد يحصل له ما يحبُّه بفعل غيره. ومنها أن الرب أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم، بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه عنه بخلاً عليه.

ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده فلا حول ولا قوة إلاّ به، ولهذا قال أهل الجنة:

﴿الحمدُ للَّهِ الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هدانا الله﴾
[سورة الأعراف: الآية ٤٣]

وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك. ومنها أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى، فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر القليل منها، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً؟ ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته، فلن يدخل أحد الجنة بعمله، وما من أحد إلاّ وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله.

## أصول منقولة من كتبه وفتاويه المتفرقة ومطاوي كتبه، شيئاً فشيئاً بحسب التتبع والوقوف عليها

(٥٩٧) الفرقان والسلطان يكون بالحجة والعلم ويكون بالنصر والتأييد كقوله تعالى:

﴿هُوَ الّذي أَرسلَ رسولَهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ على الدينِ كلِّه﴾
[سورة التوبة: الآية ٣٣]

(٥٩٨) من أمره الشارع بعبادة وطاعة يفعلها فهو أفضل من هذا الوجه ممن لم يؤمرْ بها ديناً وإيماناً وإن لم يكن الآخر عاصياً ولا معاقباً، وذلك أن أصل أهل السنة والجماعة أن الإيمان يتفاضل من وجهين: من جهة أمر الله ومن جهة فعل العبد الواقع منه.

(٥٩٩) فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلاّ تَبَعاً لما جاء به الرسول، ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال، فيكون قولُه تَبَعاً لقوله وعملُه تَبَعاً لأمره، فمن قول الله وقول رسوله يتعلم وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة؛ وأهل البدع بخلاف ذلك؛ وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل بل لا يكون عنده إلاّ جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى. فإن ما أخبر به الرسول حق ظاهراً أو باطناً فلا يناقضه إلاّ الباطل والضَّلَال.

(٦٠٠) الوحي وحيان: وحي رحماني، وهو إلهام الخير والواردات الموافقة للحق، ووحي شيطاني، وهي الواردات والأذواق المنافية لما جاء به الرسول.

(٦٠١) استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس طاعة كل منهم للآخر وخدمته فيما يحب، واستخدام الإنس للجن مثل استخدام الإنس للإنس منهم من يستخدمهم في المحرَّمات، ومنهم من يستخدمهم في المباحات، ومنهم من يستعملهم في طاعة الله ورسوله؛ وهذه حال نبينا ﷺ ومن اتَّبعه وهم أفضل الخلق، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله ورسوله وينهَوْنهم عما نهاهم الله ورسوله، إذ كـان مبعوثاً إلى الإنس والجن، وورثته يدعون إلى ما يدعو إليه.

(٦٠٢) والخير والشر درجات فيقتنـع بالخير اليسير إذا لم يحصل ما هو أكثر منه ويدفـع الشر الكبير بالشر اليسير، وقـد ذهب كثير من مبتـدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خير من أن يكونوا كفاراً، والنبـي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان، ولكل درجات مما عملوا، وقد بعث بتحصيل المصالـح وتكميلها وتعطيل المفاسد أو تقليلها.

(٦٠٣) على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجـح من غيره، وهو العمل بأرجـح الدليلين المتعارضين، وحينئذ فما عمل إلاّ بالعلم؛ وجمهور مسائل الفقه التي يحتاج الناس إليها ويفتون بها ثابتة بالنص أو الإجماع، وإنما يقـع الظن أو النزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس.

(٦٠٤) جعْل الدين قسمين: أصـولاً وفروعـاً لم يكن معروفـاً في الصحابة والتابعين، ولم يقل أحدٌ من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم، لا في الأصول ولا في الفروع،

ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة، وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم، وكل مجتهد لا يأثم عند عامة الأئمة أبي حنيفة والشافعي وأحمد ومالك وغيرهم، والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطاً يعتمد عليه.

(٦٠٥) والسلف لم يذمُّوا جنس الكلام، فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذَمُّوا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به ورسولُه، والاستدلال بما بينه الله ورسوله، بل ولا ذمُّوا كلاماً هو حق، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل.

(٦٠٦) الطرق الباطلة توصل إلى الجهل والضلالِ لمن اعتقد صحتها، وإلى الحيرة والشك لمن تبين له تناقضُها من حُذّاق أهلها، وإلى اليقين لمن عرف الحق وسَلَكَهُ بالطرق الصحيحة فإنه بمعرفته الباطل يزداد بصيرة بالحق، وبضدها تتبين الأشياء.

(٦٠٧) من ضيع الأصول حُرِم الوصول، والأصول اتباعُ ما جاء به الرسول.

(٦٠٨) والدليل يدل ويقوم على أن كلام الله صفةُ ذاتٍ وصفةُ فعلٍ، صفةُ ذاتٍ يقوم بذات الرب والله متصف به، وصفةُ فعل يتكلم بمشيئته وقدرته متى شاء وحيث شاء أزلاً وأبداً.

(٦٠٩) والله تعالى أخبر أنه ينصر رسله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والله سبحانه يجزي الإنسان من جنس عمله، فالجزاء من جنس العمل، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه وأرى عباده ذلك عياناً، وإذا ظهرت البدع التي تخالف الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لرسله.

(٦١٠) والإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبب لخيرِ الدنيا والآخرة، وبالعكس: البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به ـــ سبب لشر الدنيا والآخرة.

(٦١١) التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان، والشرك وتكذيب الرسل جماع الكفر.

(٦١٢) فمن دفع النصوص التي يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج هو به صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

(٦١٣) وإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه، بل تقطّعوا أمرهم زُبَراً، كلُّ حزب بما لديهم فرحون.

(٦١٤) ودين الأنبياء كلهم الإسلام، وهو الاستسلام لله وحده، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت، فطاعة كل نبي هي من دين الإسلام إذ ذاك، وكل مبتدع خالف سنة الرسول لا يتبع إلّا ديناً مبدلاً أو منسوخاً.

(٦١٥) خطاب النصارى ومناظرتهم في مقامين:

أحدهما: تبديلهم لدين المسيح.

الثاني: تكذيبهم لمحمدﷺ.

واليهود خطابهم في مقامين: في تكذيب مَنْ بَعْدَ موسى إلى المسيح، ثم في تكذيب محمد مع عدم عملهم بدينهم وتغييره وتحريفهم إياه، كما ذكر الله خطاب الطائفتين في كتابه.

(٦١٦) لا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلّا وفيها بيان من الرسول، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الإجماع، فيستدلّ به، كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص، وهو دليل ثانٍ مع النص.

(٦١٧) الخلق العظيم الذي وصف به محمد ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله بطيب نفس وانشراح صدر.

(٦١٨) وتقوى الله تجمع فعل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً، وترك ما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً، وذلك يجمع حقوق الله وحقوق العباد.

(٦١٩) وجُماع حسن الخلق مع الناس أن تَصِلَ من قَطَعَك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال وتعفوَ عمَّن ظلمك في دم أو مال أو عِرض وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

(٦٢٠) كلُّ ما تكلم به اللسان وتصورَهُ القلب مما يقرِّب إلى الله من تعلُّمِ علم وتعليمه، وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر فهو من ذكر الله.

(٦٢١) ما اشتبه على العبد أمره فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله.

(٦٢٢) أرجح المكاسب التوكُّل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به ويأخذ المال بسخاوة نفس من غير أن يكون له في القلب مكانة، ولكنه يسعى في تصليحه وتنميته لإقامة ما عليه من واجبات ومستحبات، وللاستغناء عن الخلق.

(٦٢٣) وأكمل أنواع طلب العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقِّي العلم الموروث عن النبي ﷺ، وفهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه، واتباع ذلك وتقديمه على غيره وليعتصم في كل باب من أبواب العلم بحديث عن الرسول ﷺ من الأحاديث الصحيحة الجوامع.

(٦٢٤) وقد أمر ﷺ المسلمين باتباعه وأن يعتقد وجوب ما أوجبه واستحباب ما أحبه، وأنه لا أفضل من ذلك، فمن لم يعتقد هذا فقد عصى أمره.

(٦٢٥) السُّنَّة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون

الموضوعة، فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عموماً ولمن يدَّعي السُّنة خصوصاً.

(٦٢٦) دين الله وسطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، والله تعالى ما أمر بأمر إلّا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر: إما إفراط فيه وإما تفريط فيه، وأمثلة هذا الأصل كثيرة معروفة.

(٦٢٧) لا يحل امتحان الناس بأسماءٍ ليست في الكتاب والسُّنة، فإن هذا خلاف ما أمر الله به ورسوله، وهو مُحدِثٌ للفتن والتفريق بين الأمة. فأكرم الخلق على الله أتقاهم من أي طائفة كانت؛ وقد جاءت نصوص الكتاب والسّنة بحثّ الأمة على الائتلاف وتحذيرهم من الافتراق، فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله، وقد برأ الله نبيه ممن كان هكذا، وإنما هذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلوا دماءهم، وأقل ما في هذا من الشر أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان الآخر أتقى منه، وإنما الواجب أن يُقَدِّم من قدّم الله ورسولُه، وهذا التفريق الذي حصل من الأمة، علمائها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، فمتى ترك الناس بعض ما أمر الله ورسوله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فَسَدوا وهَلَكوا، وإذا اجتمعوا صَلحوا ومَلَكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.

(٦٢٨) إذا عُوقِب المعتدون من جميع الطوائف، وأُكرِم المتقون من جميع الطوائف كان ذلك من أعظم الأسباب التي تُرضي الله ورسوله وتصلح أمر المسلمين.

(٦٢٩) ويجب على أُولي الأمر أن يأمروا بالمعروف وينهَوْا عن المنكر.

**فالأول**: مثل شرائع الإسلام، كالصلوات الخمس وما يتبعها من واجبات وسُنن لأسباب وغير أسباب، والصدقات والصوم والحج، فرض ذلك ونفله، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومثل الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وكل معروف صدقة مثل سائر ما أمر الله به من الأمور الباطنة والظاهرة كإخلاص الدين لله والتوكل على الله وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، والرجاء لرحمة الله والخَشْية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها وبرٍّ الوالدين وصلة الأرحام والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والصاحب والزوجة والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق كلها.

**والثاني**: مثل الشِّرك والقتل، والزِّنا والسحر، والرِّبا والميسر وأكل الأموال بالباطل، والمعاملات التي نهى عنها الرسول ﷺ وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وتطفيف المكيال والميزان، والإثم والبغي بغير الحق والقول على الله بلا علم، كالبدع الاعتقادية والبدع العملية والإفتاء بغير علم والتعاون على الإثم والعدوان وهو جميع المعاصي وجميع الظلم للعباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

(٦٣٠) الأمور العامة التي يفعلها الباري تكون لحكمة عامة ورحمة عامة، وحكمته تعالى يعلمها العباد، وقد يخفى عليهم كثير منها، والأضرار اليسيرة المغمورة تُغْتَفر في جنب المصالح العامة، فالمحافظة على الكليات في الشرع والقدر مقدم على مراعاة الجزئيات، لأنها لو لم توجد تلك الأضرار الجزئية اليسيرة فاتت المصالح الكلية الكبيرة الكثيرة.

(٦٣١) الشر لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله، إضافته وحدَه إلى

الله، ولكنه يأتي على أحد ثلاثة أوجه: إما على وجه العموم، أو يحذف فاعله كقوله:

﴿وَأَنَّا لَا نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [سورة الجنّ: الآية ١٠]

أو يضاف إلى فاعله من المخلوقين.

(٦٣٢) وإذا علم العبد من حيثُ الجملةُ أنَّ لله تعالى فيما خلقه وفيما أَمَر به حكمةً عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقلَه ويبين له تصديق قوله تعالى:

﴿سنرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِم حتّى يتبيَّـنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾

[سورة فصِّلت: الآية ٥٣]

(٦٣٣) طريق النبـي ﷺ في النظر إلى القَدَر، ففي أمر الله ونهيه يسارع إلى الطاعة ويقيم الحدود على من تعدّى، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإذا أذاه مؤذٍ أو قصَّر أحدٌ في حقّه عفا عنه، ولم يؤاخذه نظراً إلى القدر.

(٦٣٤) يجب أن يكون الخطاب في المسائل المشكلة بطريق ذكر كل قول ومعارضة الآخر له حتى يتبين الحق بطريقه لمن يريد الله هدايته، فإن الكلام بالتدريـج مقاماً بعد مقام هو الذي يحصل به المقصود وإلّا فإذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم أدلتها وطرقها، والجواب عما يعارضها كان إلى دفعها والتكذيب بها أقرب منه إلى التصديق بها.

(٦٣٥) محالٌ ــ مـع تعليم النبـي ﷺ لأمته كل شيء لهم فيه منفعةٌ في الدين وإن دقّت ــ أن يُترك تعليمُهم ما يقولون بألسنتهم وقلوبهم في ربهم ومعبودهم ورب العالمين، الذي معرفَتُهُ غايـةُ المعارف وعـبادتُـهُ أشـرفُ المقاصد والوصولُ إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلّهية. فكيف يَتَوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن

لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام، وقد علم بالبراهين الكثيرة والحس أن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهُدى قد تَلَقَّوا هذا الباب وغيره عن نبيهم وأحكموه وفاقوا به من قبلهم ومن بعدهم؟ وأنه يستحيل أن يكون غيرُهم ممن لا يدانيهم في شيء من العلوم والمعارف أولى بالحق منهم؟ هذا معلوم بالأدلة والبراهين المتنوعة، وكلام الله من أوله إلى آخره وكلام رسوله من أوله إلى آخره، وكلام أصحابه والتابعين وسائر الأئمة مملوء بالنصوص الكثيرة على ذلك.

(٦٣٦) الضِّدُّ يُظهر حسنَه الضِّدُّ، فكل من كان بالباطل أعلمَ كان للحق أشدَّ تعظيماً وأعرفَ بقدره، فأما المتوسط من المتكلمين فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه، وعلى من قد أنهاه نهايته، فإن من لم يدخل فيه في عافية، ومن أنهاه قد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فمتوهم بما تلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً المعظمة تهويلاً.

(٦٣٧) تأويل الأمر امتثاله والعمل به، وتأويل الخبر نفس وقوعه فقوله:

﴿وما يعلَمُ تأويلَهُ إلاّ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي لا يعلم حقيقته وكيفيته قدراً ووقتاً ونوعاً إلا الله، ولا ينافي أن نعلم من صفات ذلك ما أخبرنا الله به ورسوله.

(٦٣٨) ضمان النفوس والأموال في الإتلاف من باب العدل الواجب في حقوق الآدميين، وهو يجب في العمد والخطأ، فقاتل النفس خطأ لا يأثم ولا يفسق بذلك، ولكن عليه الضمان، وكذلك من أتلف مالاً خطأ فعليه بدلُه ولا إثم عليه.

(٦٣٩) قال الإمام أحمد رحمه الله: أصول الإسلام تدور على ثلاثة أحاديث، قوله: الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وقوله: إنما الأعمال بالنيات،

وقوله: من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ، فإن الأعمال إما مأمورات وإما محظورات، والأول فيه ذكر المحظور، والمأمورات إما قصد القلب والنية وإما العمل الظاهر وهو المشروع الموافق للسنة.

(٦٤٠) من خرج عن القانون النبوي الشرعي المحمدي الذي دل عليه الكتاب والسنة احتاج أن يضع قانوناً آخر متناقضاً يردُّه العقل والدين، لكن من كان مجتهداً في طاعة الله ورسوله، فإن الله يُثيبُه على اجتهاده ويغفرُ له خطأه:

﴿ربَّنا ٱغفرْ لَنا وَلإخواننا الذِين سَبَقُونا بِالإيمانِ﴾

[سورة الحشر: الآية ١٠]

(٦٤١) الإرادة في كتاب الله على نوعين:

أحدهما: الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

والثاني: الإرادة الدينية الشرعية، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاؤهم بالحسنى، ولهذا كانت الأقسام الأربعة: ما اجتمعت فيه الإرادتان، وهو ما وقع من الإيمان والطاعات كلها، وما انتفت عنه الإرادتان، وهو ما لم يكن من المباحات والمعاصي، فإن الله لم يردها ديناً لأنه لا يحبها، ولم يردها كوناً لأنه لم يقدرها، وما تعلقت به الإرادة الدينية وحدها، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فإن الله أرادها محبة ولكنه لم يقضها ويقدِّرْها، وما تعلقت به الإرادة الكونية وحدَها، وهو ما قدره من الحوادث التي لم يأمر بها، كالمباحات والمعاصي وهذا واضح.

(٦٤٢) الرضا بالقضاء على قسمين:

أحدهما: الرضا بفعله تعالى وتدبيره وتقديره الذي هو فعله، فهذا علينا

أن نرضى به لأنه حمد وحكمة وعدل، ويدخل في هذا وجوب الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فهذا لا يتم الإيمان إلَّا به.

(٦٤٣) والثاني ما يقضي من أفعال العباد؛ فهذا فيه تفصيل علينا أن نرضى بما يحبه الله ويرضاه منها كالإيمان والطاعات، ولا يحل لنا أن نرضى بما يكرهه ويسخطه من المعاصي على اختلاف أنواعها؛ وأما ما يقدر علينا من المصائب فالصواب أن الرضا مستحبٌّ، وإنما الواجب فيها الصبر.

(٦٤٤) والله تعالى مدح في كتابه الصبر والشكر:

﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لكُلِّ صبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٥]

فالصبر والشكر على ما يقدره الرب بعبده من السرّاء والضـرّاء من النعم والمصائب التي يبلوه بها والسيئات فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر والنِّعم بالشكر، ومن النِّعم ما يُيَسِّره له من أفعال الخير، ومنها ما هي خارجة عن أفعاله فيشهد القدر عند فعله للطاعات، وعند إنعام الله عليه فيشكره ويشهده عند المصائب فيصبر، وأما عند الذنوب فيكون مستغفراً تائباً، وأما من عكس شهد القدر عند ذنوبه وشهد فعله عند الحسنات، فهو من أعظم المجرمين، ومن شهد فعله فيهما فهو قدري، ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفر فهو من جنس المشركين، وأما المؤمن فيقول: أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبـي.

(٦٤٥) قد يصيب الناس مصائب بفعل أقوام مذنبين وتابوا، مثل كافر يقتل مسلماً ثم يسلِمُ ويتوب الله عليه، أو يكون متأوِّلاً لبدعة ثم يتوب من البدعة، أو يكون مجتهداً أو مقلِّداً مخطئاً، فهؤلاء إذا أصاب العبد أذى بفعلهم فهو من جنس المصائب السماوية التي لا يطلب فيها قصاص من آدمي، ومن هذا: القتال في الفتنة وقتال المرتدّين، وما أشبه ذلك.

(٦٤٦) فَمَـنْ كان مجاهداً لله باللسان بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر وبيان الدين وتبليغ ما في الكتاب والسنة من الأمر والنهي والخبر وبيان الأقوال المخالفة لذلك والرد على من خالف الكتاب والسنة أو باليد كقتال الكفار، فإذا أوذي على جهاده بيد غيره أو لسانه فأجره في ذلك على الله لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلمته، بل هذا الظالم إن تاب وقبل الحق الذي جوهد عليه، فالتوبة تجبّ ما قبلها، وإن لم يتبْ بل أصرّ على مخالفة الكتاب والسُّنة فهو مخالف لله ورسوله والحق في ذنوبه لله ورسوله، وإن كان للمؤمنين أيضاً حق تبعاً لحق الله، وهذا إذا عوقب لحقٍّ الله ولتكونَ كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله لا لأجل القصاص فقط.

(٦٤٧) ما ثبت من الموقتات بشرع أو شرط، فالهلال ميقات له، فبالهلال يكون توقيت الشهر والسنة ولا يقوم شيء مقام الهلال البتة لظهوره وظهور العدد المبني عليه وتيسر ذلك وعمومه وغير ذلك من المصالح الخالية من المفاسد.

(٦٤٨) ما نهي عنه من العقود ونحوها لحق الغير إذا عفا صاحب الحق نفذ العقد وصار صحيحاً، وإلاّ ففيه علقة خيار، ونحوه لصاحب الحق، يكون عقداً غير لازم، وتفاصيل هذا الأصل كثيرة معروفة.

(٦٤٩) المِلك الذي لا يحصل للعبد إلاّ بمعصية الله إمّا مقابلة ترك واجب أو مقابلة فعل محرم مكسبُ خبيث حرام، وعليه أن يتصدق به أو يجعل في المصالح ولا يرده إلى من أخذه منه.

(٦٥٠) والأصل في العقود جميعها هو العدل، فإنه بعثت به الرسل وأنزلت الكتب قال تعالى:

**﴿لقدْ أرْسَلْنا رسلَنا بالبيِّنات وأنزَلْنا معهُمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسط﴾** [سورة الحديد: الآية ٢٥]

وما نهى عنه النبي ﷺ من المعاملات كبيع الغَرَر والثمرة قبل بدو صلاحها

والسنين والمزابنة والمحاقلة وغيرها داخل إمّا في الربا وإمّا في الميسر، وكلاهما ظلم وأكل للمال بالباطل.

(٦٥١) قوله ﷺ (مَطْلُ الغنيِّ ظلمٌ وإذا أُتبع أحدكم على مليء فليتبع) من جوامع الكلم، جمع فيه بين حسن الوفاء وحسن الاستيفاء، ونهى عما يضاد ذلك، فأمر المدين بالوفاء ونهاه عن المطل وبيَّن أنه ظالم إذا مطل، وأمر الغريم بقبول الوفاء إذا أحيل على مليء، وهذا كقوله: فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، أمر المستحق أن يطالب بالمعروف وأمر المدين أن يؤدي بإحسان.

(٦٥٢) الأعيان التي تستخلف شيئاً بعد شيء بمنزلة المنافع على الصحيح.

(٦٥٣) من الأصول أن تقاس مسائل النزاع على مسائل الإجماع، ومن عكس فقد غلط غلطاً فاحشاً كما توضح المسائل الغامضة بتمثيلها وتشبيهها على المسائل الواضحة، وكما يرد المتشابه على المحكم ليصير الجميع محكماً.

(٦٥٤) الإحسان إلى المحتاجين كأبناء السبيل والفقراء والمساكين والأقارب المحتاجين من الواجبات ومن أصول الشرائع التي بها قيامُ مصلحة العالم، فإن الله لما قسم عباده بين غنيٍّ وفقير ولا تتم مصلحتهم إلاّ بسد خلة الفقراء، فأمر بالصدقة وحرّم الرِّبا الذي يضرّ بالفقراء.

(٦٥٥) أسباب الرد في المعاوضات ثلاثة: العيوب، وفقد الصفات المشروطة لفظاً أو عرفاً، والتدليس؛ وتفاصيل هذا الأصل كثيرة جداً.

(٦٥٦) إدراك الصفات التي رتّب الشارع عليها الأحكام على الوجه التام ومعرفة الحكم والمعاني التي تضمنتها الشريعة من أشرف العلوم، فمنه الجلي الذي يعرفه كثير من الناس، ومنه الدقيق الذي لا يعرفه إلاّ خواصهم

وهذا ونحوه مما يعرف به كمال الشريعة وموافقتها لمصالـح العباد في معادهم ومعاشهم، في أمورهم الكلية والجزئية.

(٦٥٧) كل من اشتغل بالأمور الضارّة فهي مـع ضررها تصدّ عن الأمور النافعة.

(٦٥٨) إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً.

(٦٥٩) الولي لله كل مؤمن تقي وارتكـاب الولي المحـظور متأوِّلاً أو عاصياً لا يخرجه عن ولاية الله ولا يمنـع الإنكار عليه، فإن تاب رجـع إلى ولايته وإلّا نقص من إيمانه وولايته بحسب ما ترك من المأمور أو تجرأ على المحظور.

(٦٦٠) إذا علمنا استحقاق كل واحد من الأشخاص وجُهِل المقدار فالأصل أن يقسم بالسوية، وإنْ عُلِمَ أن المستحق أحدهما أو أحدهم دون الآخر وجهلنا أو ٱنْبَهَمَ علينا أُعْمِلَتِ القرعة في العبادات والأموال والحقوق والعتق والطلاق، وغيرها.

(٦٦١) أمر الله المؤمنين بأمرين يجمعان الخير كله: بالتقوى التي مدارها على تصديق الله ورسوله وطاعة الله ورسوله، وبالقول السديد وهو المطابق الموافق، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لخبره لا يزيد ولا ينقص، وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص.

(٦٦٢) الإعـادة بعد الممـات: يعيد الله الخلق بعـد ما استحـالت أجسامهم إلى غيرها فيعيدها من تلك الأجزاء التي انقلبت واستحالت إليها خلقه كامله مخلوقة للبقاء، والنشأة الأولى خلقة فساد وفناء، فالنشأة الأولى والثانية نوعان تحت جنس: يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، لهذا جعل المُعاد هو المبدى وجعل مثله أيضاً،

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله.

(٦٦٣) ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلّا وفي القرآن بيان معناه، فإن الله جعله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ، إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يكونون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشر وتفريق الدين شيعاً، كالفتن التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، فإذا انقطع نور النبوة عنهم وقعوا في البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم، فمسائل النزاع في الأصول والفروع إذا لم تُرَدَّ إلى الله ورسوله لم يتبين فيها الحق بل يصير المتنازعون فيها على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقرَّ بعضهم بعضاً ولم يبغِ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في زمن عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقرُّ بعضهم بعضاً ولا يعتدي عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين، وكذلك سائر أهل الأهواء فإنهم يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها كما يفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، فالناس إذا خفي عليهم بعض ما جاء به الرسول، إما عادلون وإما ظالمون، فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم الذي يعتدي على غيره.

(٦٦٤) من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزاً عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخل في

علمه نفاها فخسر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالاً عليه؛ وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه. وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه، قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبوا بما لَمْ يُحيطُوا بعلمِهِ ولَمَّا يأْتِهِمْ تَأْويلُه﴾

[سورة يونُس: الآية ٣٩]

وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل فإذا أثبتوا شيئاً وصدّقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفوه، فإن غالبهم أو كثير منهم ينفُون ما لا يعلمون ويكذّبون بما لم يحيطوا بعلمه؛ ويتفرع على هذا الأصل الباطل الجهلُ بالإلّهيات وبما جاء به الرسول، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضلّ زنادقة الفلاسفة وغيرُهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب، إذْ لم تدخلْ تحت علومهم القاصرة فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

(٦٦٥) معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المرادة بذلك الكلام.

(٦٦٦) أنزل الله القرآن كتاباً متشابهاً مثاني يذكُر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام فيكون مثاني ويذكر الأمثال فيكونَ متشابهاً.

(٦٦٧) متابعة النبي ﷺ يعتبر فيه القصد، فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سُنّة، وأما إذا صلى فيه اتفاقاً من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سُنة.

(٦٦٨) وكلما كان الرجل أَتبعَ لمحمد ﷺ كان أعظمَ توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين، وإذا أبعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك،

فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول.

(٦٦٩) الأصل بقاء ما كان على ما كان والاحتياط في المياه بمجرد الشك ليس مستحبًا ولا مشروعاً، والمائعات كالماء لا تنجس إلّا بتغيرها بالنجاسة.

(٦٧٠) ما كان من باب التروك التي يقصد تركها واجتنابها لم يشترط فيه القصد، وفعل العبد كإزالة النجاسات ونحوها، لكن إذا فعلها العبد بنية التقرب إلى الله أثيب على ذلك، ومثل ذلك ردُّ الأمانات والغصوب والحقوق ونحوها.

(٦٧١) ما حُرِّم تحريمًا خفيفًا بأنْ حُرِّم لغير ذاته، بل لأنه وسيلة إلى مفسدة، أبيح من هذا النوع ما تدعو الحاجة إليه، كما استثني من لباس الحرير ومن ربا الفضل ونحوهما.

(٦٧٢) وملابسة النجاسة جائز للحاجة إذا طهر ثوبه وبدنه للصلاة.

(٦٧٣) من عاب شيئاً فعله رسول الله ﷺ أو أقرّ عليه عُرِّفَ، فإنْ أَصرَّ قُتِلَ كافراً.

(٦٧٤) الصحيح أن كل من صلّى في الوقت بحسب إمكانه لا يعيد، كالعاجز عن شيء من واجبات الصلاة أو شروطها أو عن بعضه.

(٦٧٥) من اعتقد ما لم يَدُلَّ عليه دليلٌ شرعيٌّ قربةً فهو مخطىء ظالم.

(٦٧٦) والتحقيق أن كل عمل في الظاهر من مؤمن لا بد أن يصحبه عمل القلب بخلاف العكس، فلا يتصور عمل البدن منفرداً إلّا من المنافق الذي يصلِّي رياءً وكان عمله باطلاً حابطًا، فَفَرْقٌ بين المؤمن والمنافق، فيظهر الفرق بين المؤمن الذي يقصد عبادة الله بقلبه مع الوسواس وبين المنافق الذي لا يصلي إلّا رياء الناس.

(٦٧٧) وفي تكفير أهل البدع والأهواء نزاع هما روايتان عن أحمد، وحقيقة الأمر أن القول قد يكون كفراً فيطلق القول بتكفير صاحبه، لكن الشخص المعين لا يُكَفَّر حتى تقام عليه الحجة، فنفس القول قد يكون كفراً لكن قائله معذور، فإذا كان من المؤمنين فلا يُكفَّر لأنه قد يعذره الله بأمور، إما أنه لم يعقله أو أنه لم يثبت عنده، أو أنه لم يفهمه لمعارضة شُبهة، فمن كان قصده الحق فأخطأه فإن الله يغفر له، فمذاهب الأئمة الفرق بين النوع والعين، ومن حكى الخلاف لم يفهم غور قولهم. فطائفة تحكي عن أحمد في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين، وليس هذا مذهباً لأحمد ولا لغيره من الأئمة، وكذلك تكفير الشافعي لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق، فقال: كَفَرت، أي قَولُك كفر، ولهذا لم يسع في قتله، ولو كان عنده كافراً لسعى في قتله، وأما قتل الداعية إلى البدع فقد يكون لكفٍّ ضرره عن الناس، كقطّاع الطريق ونحوهم.

(٦٧٨) ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضالٌ مخالف للكتاب والسُّنة والإجماع، وإنما يستحق دخول الجنة والنجاة من النار مع الشهادتين بالقيام بالواجبات وترك المحرّمات.

(٦٧٩) ظلم العبد نفسه يكون بترك ما ينفعها وهي محتاجة إليه وذلك فعل ما أمر الله به، وبفعل ما يضرُّها وذلك المعاصي كلها؛ كما أن ظلم الغير كذلك، إما بمنع حقه أو التعدِّي عليه، فإن الله أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، وجاء القرآن بالأمر بالإصلاح والنهي عن الفساد، والصلاح كله طاعة والفساد كله معصية، وقد لا يعلم كثير من الناس ذلك على حقيقته، فعلى المؤمن أن يعلم أن الله يأمر بكل مصلحة وينهى عن كل مفسدة، وكلُّ ما أمر الله به راجعٌ إلى العدل، وكلُّ ما نهى عنه راجع إلى الظلم. والظلم الذي حرمه الله على نفسه أن يترك حسناتِ المحسن فلا يجزيه بها، أو يعاقب البريء على ما لم يفعله من السيئات، أو يعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم

بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك، وذلك لكمال عدله وحمده.

(٦٨٠) أصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار العبد بالتصديق والحب والانقياد، ولا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، فالأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ودليل عليه وشاهد له وشعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له، وما في القلب أصل لها وهو الملك والأعضاء جنوده، فالتحقيق أن اسم الإيمان المطلق قد يتناول الأصل مع الفرع، وقد يخص بالاسم وحده وبالاسم مع الاقتران بعمل الجوارح، وهو كالشجرة يتناول الأصل والفرع إذا وجد، وقد يقطع من الفروع شيء فتبقى شجرة ناقصة بحسب ما زال منها، وكذلك الإيمان كما مثله الله بالشجرة.

(٦٨١) من أسباب نور الإيمان وقوته سماع القرآن وتدبُّرُهُ ومعرفةُ أحوال النبي ﷺ ومعجزاتِه والنظرُ في آيات الله والتفكر في ملكوت السموات والأرض والتأمل في أحوال نفس الإنسان، ومثل رؤية أهل الإيمان والنظر في أحوالهم والضرورات التي يحدثها الله للعبد يضطره بها إلى ذكر الله تعالى والاستسلام له واللجأ إليه، وقد يكون هذا سبباً لشيء من الإيمان، وهذا سبباً لشيء آخر؛ وسبب الإيمان وشعبه تارة من العبد وتارة من غيره، مثل من يقيض له من يدعوه إلى الإيمان ويأمره بالخير وينهاه عن الشر.

(٦٨٢) العلم النافع المقصود وغيره وسيلة ثلاثة أنواع: علم بأسماء الله وصفاته وما يتبع ذلك، وعلم بما أخبر الله به من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، وعلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله، ومن معارف القلوب وأحوالها وأحوال الجوارح وأعمالها.

(٦٨٣) ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً ولا مباحاً،

وإنما يكون مشروعًا إذا غلبت مصلحته على مفسدته مما أذن فيه الشرع، والمسلم يعلم أن الله لم يحرِّم شيئًا إلاّ ومفسدته محضة أو غالبة.

(٦٨٤) النبي أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، فهو الأب الروحاني، والوالدُ الأبُ الجثماني؛ وهو ﷺ سبب السعادة الأبدية للمؤمن في الدنيا والآخرة والأب سبب لوجوده في الدنيا؛ وأزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين في الحرمة لا في المحرمية، ولهن من الاحترام ما ليس للوالدة، ومعلوم أن الإنسان يجب أن يطيع معلِّمه الذي يدعوه إلى الخير ويأمره بما أمر الله به ولا يجوز أن يطيع أباه في مخالفة هذا الداعي لأنه يدله على ما ينفعه ويقرِّبه إلى ربه ويحصل له باتباعه السعادة الأبدية، فظهر فضل الأب الروحاني على الأب الجثماني، فهذا أبوه في الدين، وهذا أبوه في الطين، وأين هذا من هذا..

(٦٨٥) للعبد حالان: حال قبل القدر فعليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، وحال بعد القدر، فعليه أن يحمد الله في الطاعة ويصبر ويرضى في المصيبة ويستغفر في الذنب وفي الطاعة من النقص.

(٦٨٦) وردت نصوص كثيرة في الوعد بالجنة والنجاة من النار على أعمال لا تكفي وحدها في ذلك بالإجماع، ووردت أيضاً نصوص في الوعيد على أعمال بالخلود في النار، أو تحريم دخول الجنة، وهي لا تُخرج من الإسلام بإجماع السلف، فأصح الأقوال فيها وأحسنها ما فيه تصديق للنصوص كلها، وهي أنها من باب الموجبات والأسباب التي لا بدّ فيها من وجود الشروط وانتفاء الموانع، وبهذا يزول الإشكال وينتفي التعارض بين النصوص الصحيحة.

(٦٨٧) يعامل الناس في الحب والبغض بما يظهر منهم مما يوجب ذلك.

(٦٨٨) عِلْمُ الله بالأشياء وآثارها لا ينافي ما علّقها عليه من الأسباب،

ولهذا أمثلة كثيرة، كحصول المغفرة ودخول الجنة وحصول النصر، كل هذا لا يمنـع قيام العبد بأسباب ذلك وأَمْرَه به.

(٦٨٩) من رحمة الله تعالى أن النفل مثل الفرض في جبر خلل الفريضة عند التعذر، كالمحاسبة على الصلاة وغيرها، ومن أحرم بحـج نفل وعليه فرضه فإنه ينقلب فرضاً، ومن عليه طهارة واجبة ونسيها ونوى المسنون ونحو ذلك والله أعلم.

(٦٩٠) قد تقرر أن بيـع الغَرَر حرامٌ وأنه من الميسر، وقد يجوز بعضه إذا احتيـج إليه وكان الغرر يسيراً أو كان تبعاً لغيره فإنه يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالا، وكذلك إذا عارض ذلك ضرر أعظم منه أبيـح دفعاً لأعظم الفسادين بارتكاب أدناهما.

(٦٩١) من أتلف شيئاً من مال غيره لإصلاح الباقي أو سلامته فليس بضامن، إذ هذا مأذون فيه شرعًا وعُرفًا، وهو محسن وما على المحسنين من سبيل، وخرق الخُضْرِ للسفينة الصالحةِ لتَسْلَمَ من الملك من هذا الباب.

(٦٩٢) المال المكسوب بعقد فيه إعانة على مُحرّم لا يطيب لصاحبه ولا يرد على من أخذ منه بل يصرف في المصالح العامة.

(٦٩٣) المنفعة التي لا قيمة لها في العادة بمنزلة الأعيان التي لا قيمة لها لا يصلـح أن يرد عليها عقد إجارة ولا بيـع بالاتفاق.

(٦٩٤) كل من اعتقد شيئاً وجب العمل به له وعليه، وليس لأحد أن يعتقد أحدَ القولين فيما له دون ما عليه.

(٦٩٥) وأصول الشريعة تُفَرِّق في المنهيات بين المحتاج وغيره كما في المأمورات، ولهذا يقال: كسب فيه دناءة خير من مسألة الناس، ويجب قضاء الواجبات بمال مشتبه، وأخذ المحتاج من مال اليتيم ومن عطايا السلطان وأجرة التعليم وغير ذلك.

(٦٩٦) بذل المال لا يجوز إلاَّ لمنفعة في الدين والدنيا وهذا متفق عليه بين العلماء، ومن خرج عن هذا كان سفيها مبذِّراً لماله، فالحي ينفق مالَهُ في منافع دينه أو مباحات دنياه، وأما الميت في أوقافه ووصاياه فتتعين منافع الدين في حقه، ولهذا اشترط في الوقف القربة فلا يصير إلى جهة محرَّمة أو مكروهة أو مباحة، بل إمّا إلى واجب أو مستحبّ، وعلى هذا فالشروط المتضمنة للأمر بما نهى الله عنه ورسوله أو النهي عما أمر الله به ورسوله مخالفة للنص والإجماع.

(٦٩٧) نصب المستوفين في الأعمال والمحاسبين والقابضين والمتصرفين قد يجب إذا لم تتم مصلحة قبض المال وصرفه إلاّ به، وإذا قام المستوفي بما عليه وجب له ما فرض له.

(٦٩٨) ولا ريب أن السعي في تمييز المستحقين للأوقاف والأرزاق من بيت المال وغيره من غيرهم وإعطاء الولايات والأرزاق من هو أحق بها، والعدل بين الناس وفعله بحسب الإمكان هو من أفضل عمل ولاة الأمور بل من أوجبها عليهم، فإن الله يأمر بالعدل والإحسان، والعدل واجب على كل واحد في كل شيء.

(٦٩٩) صرف الأموال التي أُخِذت بغير حق في المصالح العامة أولى من إبقائها بأيدي الظلمة وصرفها فيما لا ينفع، لكن إذا أمكن ردُّها إلى أهلها كان هو الواجب.

(٧٠٠) جميع الأيْمان إذا حنث فيها ففيها كفّارة يمين سواء كانت بصيغة القسم أو التحريم أو الشرط أو غيرها لقوله تعالى:

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُم﴾ [سورة التحريم: الآية ٢]

وروح اليمين ومقصودها هي التي يقصد بها الحث على الشيء أو المنع منه. ويتوسل إلى ذلك باليمين بأي نوع تكون.

(٧٠١) من أكره على عَقْدٍ أو فسخٍ أو شرطٍ أو غيرها فأوقع ما أكره عليه، فإن كان بحق بأن امتنع مما وجب عليه فأكره عليه صار كالاختيار ونفذ ما أكره عليه من ذلك، وإن كان بغير حق لم يثبت ولم ينفذ شيء من ذلك.

(٧٠٢) ويجوز للإنسان أن يبذل ما يتوصل به إلى أخذ حقه الممنوع أو دفع الظلم عنه مع أنه لا يحل للأخذ.

(٧٠٣) أمور الغيب علينا أن نؤمن بما أخبرالله به ورسولُه منها، وما زاد على ذلك من التعريض لكيفياتها وصفاتها فإنه من باب القول بلا علم ومن باب التكلُّف الضار، ويدخل في هذا صفات الملائكة والجن وهيأتها وكيفياتها، بل نؤمن بما في النصوص منها، ونعلم أنه حق على حقيقته ونسكتُ عما سوى ذلك، وبهذا يحصل الإيمان الصحيح والعصمة.

(٧٠٤) محبة الإنسان للأمور الدنيوية لا يلام العبد عليه ولا يعاقب، إلّا إذا دعا إلى معصية الله، أو تضمّن تركَ واجب، وجمع المال ـ إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام ـ لا يعاقب عليه، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم، وأفرغ للقلب وأجمع للهم، وأنفع للدنيا والآخرة.

(٧٠٥) ما تشتهيه النفوس من المحرَّمات جعل له الشارع حدوداً وزواجر معينة، وما لا تشتهيه النفوس اكتفى بالزاجر الطبيعي واقتصر فيه على التعزير في عقوبة فاعله.

(٧٠٦) الألعاب المباحة والعوائد المباحة إذا اشتملت كثيراً على محرمات أو تفويت واجبات حُرِّمت ووجب اجتنابها والنهي عنها لما اقترن بها من هذه المفاسد التي لا تخلو هذه المباحات منها.

(٧٠٧) لا يَحِلُّ لأحد أن يحضر مجالس المنكرات باختياره لغير ضرورة، وعليه أن ينكر ولو بقلبه.

(٧٠٨) لا تَحِلُّ الغيبة إلاّ عند الحاجة إليها لمصلحة دينية، أو تعريف بالشخص بشرط أن يكون القصد النصيحة وتلك المصلحة لا قصد الغيبة، وكل ما قيل في تجويزه منها فإنه داخل في هذا الضابط.

(٧٠٩) كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة وجب قتالهم حتى يلتزموا ما خرجوا منه حتى يكون الدين كله لله.

(٧١٠) يجب على جميع المسلمين أن يكونوا يداً واحدة على الكفار، وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ويدعو المسلمين إلى ما كان عليه سلفه من الصدق وحسن الأخلاق، فإن هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الإيمان التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه. . أَمَرَ عباده عموماً بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف.

(٧١١) وإذا كان اليهودي أو النصراني ونحوهما خبيراً بالطب ثقة عند الإنسان جاز له أن يستطبه كما يجوز له أن يودعه المال وأن يعامله، وإذا وجد طبيباً مسلماً فهو أولى، وأما إن لم يجد إلاّ كافراً فله ذلك، وإذا خاطبه بالتي هي أحسن كان حسناً.

(٧١٢) الدين الصحيح هو عبادة الله وحدَه بما شرّع الله ورسوله، والدين الفاسد هو عبادة غير الله أو عبادة الله بعبادة فاسدة ابتدعها بعض الضالِّين، فالأول مُشرك والثاني مبتَدِع.

(٧١٣) الأعمال التي تكون بين اثنين فصاعداً يطلب كل منهم أن يغلب الآخر ثلاثة أصناف: صنف أمر الله به ورسوله، كالسباق بالخيل والرمي بالنبل ونحوه من آلات الحرب لأنه مما يعين على الجهاد في سبيل الله؛ وصنف نهى الله ورسوله عنه، كالميسر من النرد والشطرنج ونحوهما، فإن كانت بعَوَض تضاعف التحريم والنهي عنها، ويدخل في هذا بيوع الغَرَر لما فيه من أكل المال بالباطل؛ وصنف مباح كالمصارعة والمسابقة على الأقدام،

فهذا مباح باتفاق المسلمين إذا خلا عن العوض وعن مفسدة راجحة، وقد يؤمر به إذا ترتب عليه مصلحة شرعية.

(٧١٤) والاجتهاد يقبل التجزء والانقسام فيكون الرجل مجتهداً في مسألة أو صنف من العلم دون غيره، والقياس الذي يسوغ مثل رد القضايا إلى نظيرها الثابت بالكتاب والسنة بعلة تجمع بينهما.

(٧١٥) وأفضل الخلق النبيون ثم الصِّدِّيقون ثم الشهداء ثم الصالحون وأفضل كل صنف أتقاهم، وأفضل الخلق في الطبقات القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وتنازعوا في الفقير الصابر والغني الشاكر أيهما أفضل؟ والصواب أن أفضلهما أتقاهما قال تعالى:

﴿إنّ أكرَمَكم عندَ اللّهِ أتقاكُم﴾ [سورة الحُجُرات: الآية ١٣]

(٧١٦) أعمال القلوب التي تسمى المقامات والأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له، وما يتبع ذلك، كلُّ ذلك واجبٌ على جميع الخلق المأمورين بأصل الدين باتفاق أئمة المسلمين؛ والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات؛ فالظالم: العاصي بترك مأمور وفعل محظور، والمقتصد: المؤدي للواجبات، والتارك للمحرمات، والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه؛ وكل من السابقين والمقتصدين من أولياء الله الذين قال الله فيهم:

﴿ألا إنّ أولياءَ اللّهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يَتَّقُون﴾ [سورة يونُس: الآيتان ٦٢، ٦٣]

فحد أولياء الله هم المؤمنون المتقون، وأما الظالم لنفسه فهو من أهل الإيمان،

فمعه ولاية بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ولاية الشيطان بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد يجتمع فيه الحسنات والسيئات؛ وأصل الدين هو الأمور الظاهرة والباطنة من العلوم والأعمال، فإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدون العقائد الصحيحة كما في الحديث (إن في الجسد مضغةً إذا صَلُحَت صَلُحَ الجسد كله)، الحديث.

(٧١٧) كلُّ من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له، بل إما أن يرفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب.

(٧١٨) يعاقب غير المكلف: لتقويمه وتهذيبه، أو لدفع عدوانه، أو للاقتصاص من اعتدائه، ولذلك أمثلة كثيرة.

(٧١٩) من ابتلي ببلاء قلبي أزعجه فأعظم دواء له قوة الالتجاء إلى الله ودوام التضرع والدعاء، بأن يتعلم الأدعية المأثورة ويتوخى الدعاء في مظان الإجابة مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وأدبار الصلوات. ويضم إلى ذلك الاستغفار، وليتخذ ورداً من الأذكار طرفي النهار وعند النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا بد أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس بباطنه وظاهره فإنها عمود الدين، وليكن هجيراهُ: لا حولَ ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم فإنه بها يحمل الأثقال ويكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يُسرا، ولم ينل أحد شيئاً من عميم الخير إلا بالصبر، والله الموفّق.

(٧٢٠) لم ينفرد أحد من أهل البدع بقول لم يقل به أهل السنة إلّا كان خطأً قطعاً، وقد يكون الحق مع طائفة من أهل البدع مختلطاً بباطل، وطائفة

من أهل البدع تقابلها كذلك، والحق الخالص الذي لا باطلَ فيه مع أهل السنة والجماعة، وهذا معروف بالتتبع في كثير من العقائد والأصول.

(٧٢١) تجب طاعة النبي ﷺ لكونه رسول الله في حياته وبعد مماته؛ فكما يجب على الغائب عنه في حياته طاعة أمره ونهيه يجب ذلك على من يكون بعد موته، وهو ﷺ أمره شامل عام لكل مؤمن شهده أو غاب عنه في حياته وبعد مماته، وإذا أمر أناساً معينين بأمور أو حكم بأعيان معينة بأحكام لم يكن حكمه وأمره مختصاً بتلك المعينات، بل كان ثابتاً في نظائرها وأمثالها إلى يوم القيامة، بل بعد مماته أوكد لأن الدين كمل واستقر بموته فلم يبق فيه نسخ، ولهذا جمع القرآن بعد موته لكماله واستقراره بموته، فطاعته شاملة لجميع العباد شمولاً واحداً وإن تنوعت طرقهم في البلاغ والسماع والفهم، فهؤلاء يبلغهم من أمره ما لم يبلغ هؤلاء، وهؤلاء يسمعون من أمره ما لم يسمعه هؤلاء، وهؤلاء يفهمون من أمره ما لم يفهمه هؤلاء وكل من أمر بما أمر بهِ الرسول وجبت طاعته طاعة لله ورسوله لا له، وأحق الناس به أقربهم إلى معرفة دينه واتِّباعِه.

(٧٢٢) الله تعالى عَمَّ عبادَه بخلقه ورزقه، وأعطاهم كلَّ ما يحتاجونه لقيام دينهم ودنياهم وهداهم النجدين: طريقي الخير والشر، وبيَّن لهم ما يتَّقُون، ولكن خص بفضله بمزيد علم وإيمان ومزيد عافية ورزق وقوة، قال تعالى:

﴿أَهُمْ يقسِمُون رحمةَ ربِّك نحنُ قَسَمْنا بينَهم معيشَتَهُم في الحياة الدنيا وَرَفَعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢]

وإذا خص أحد الشخصين بقوة وطبيعة تقتضي غذاءً صالحاً خصّه بما يناسب ذلك من الصحة والعافية وإن يُعطِ الآخر نَقَصَ عنه وحصل له ضعف ومرض، وكذلك إذا خص أحداً بالأمور الدينية خصَّه ووفَّقه للأسباب التي يدرك بها العلم والإيمان ولوازمه وأعماله.

(٧٢٣) والله تعالى قد وسَّع طرقَ الهُدى لعباده فيعلم أحدُ المستدلِّين المطلوبَ بدليلٍ ويعلَمُه الآخَرُ بدليل آخر، ومن علم صحة الدليلين معاً كان كل منهما يدلّه على المطلوب، وكان اجتماع الأدلة يوجب قوة العلم وكل منهما يخلفه الآخر إذا غاب الآخر عن الذهن.

(٧٢٤) دلت جميع نصوص الأنبياء واتفق على ذلك أتباعهم أن الله خالق كل شيء من الأعيان والصفات والأفعال، فخلق الأعيان بصفاتها وأفعالها بأفعاله الاختيارية القائمة بنفسه، فهو الذي يلهم العباد أن يدعوه فيدعونه فيستجيب لهم ويلهمهم أن يطيعوه فيطيعونه فيثيبهم، فهو سبحانه الفاعل للإجابة والإثابة كما أنه أولاً جعل العباد داعين مطيعين ولم يكن في شيء من ذلك مفتقراً إلى غيره ألْبتة، بل هو الغني الحميد.

(٧٢٥) كلُّ من أقرَّ بشيء من الحق من المنكرين كان ذلك أدعى له إلى قبول غيره، وكان يلزمه من قبوله ما لم يلزم من لم يعرف ذلك الحق، ولهذا كل من كان أقرب إلى الحق من أهل البدع والكفار، أولى بهذا الوصف المذكور.

(٧٢٦) والنص والعقل دلّ على أن كل ما سِوَى الله مخلوقٌ حادثٌ كائنٌ بعد أن لم يكن، ولكن لا يلزم من حدوث كل فرد فرد مع كون الحوادث متعاقبة حدوث النوع، فلا يلزم من ذلك أنه لم يزل الفاعل المتكلم معطلاً عن الفعل والكلام، ثم حدث ذلك بالسبب كما لم يلزم مثل ذلك في المستقبل، فإن كل فرد فردٌ من المستقبلات المنقضية فانٍ، وليس النوع فانياً كما قال تعالى:

﴿أُكُلُهَا دائِمٌ وظِلُّها﴾ [سورة الرَّعد: الآية ٣٥]

وقال: ﴿إنّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [سورة صّ: الآية ٥٤]

والدائم الذي لا ينفد أي لا ينقضي هذا النوع وإلاّ فكل فرد من أفراده نافدٌ منقضٍ

ليس بدائم، وذلك أن الحكم الذي توصف به الأفراد إن كان لمعنىً موجودٍ في الجملة وصفت به الجملة مثل وصف كل فرد بوجود أو إمكان أو بعدم، فإنه يستلزم وصف الجملة بالوجود والإمكان والعدم، لأن طبيعة الجميع طبيعة كلٍّ واحدٍ واحدٍ وليس المجموع إلا الآحاد الممكنة والموجودة أو المعدومة بخلاف العكس.

(٧٢٧) فالدِّيْنُ الحقُّ لا بدَّ فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر كما قال تعالى:

**﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكتابَ والمِيزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ، وأَنزلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ ينصُرُه ورُسُلَه بالغَيْبِ إنّ اللَّهَ قويٌّ عزيز﴾** [سورة الحديد: الآية ٢٥]

فالكتاب يبيِّن ما أمر الله به وما نهى عنه، والسيف ينصر ذلك ويؤيده.

(٧٢٨) وفي الجملة فكلُّ ما ذُكِرَ في القرآن من خطاب المؤمنين والمتقين والمحسنين ومدحهم والثناء عليهم، فالصحابة رضي الله عنهم أول من دخل في ذلك من هذه الأمة، وأفضل من دخل في ذلك من هذه الأمة، كما استفاض عنه ﷺ من غير وجه أنه قال: (خير القرون قرني الذي جئت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم). وما تواتر في الكتاب والسنة من فضائلهم ومناقبهم والشهادة لهم بعلو الدرجات وكمال الصفات أمرٌ معلوم من الدين بالضرورة، فلا يناقضه شيء مما قاله الضالُّون المفترون من الرافضة وغيرهم.

(٧٢٩) والأقوال إذا حكيت عن قائلها أو نسبت الطوائف إلى متبوعها فإنما ذاك على سبيل التعريف والبيان، وأما المدح والذم والموالاة والمعاداة، فعلى الأسماء المذكورة في القرآن كاسم المسلم والكافر والمؤمن والمنافق والبَرِّ والفاجر والصادق والكاذب والمصلح والمفسد، وأمثال ذلك، وكون القول صواباً أو خطأً يعرف بالأدلة الدالّة على ذلك، المعلومة بالعقل والسمع

والأدلة الدالة على العلم، لا تتناقض، وهو أن يكون أحد الدليلين يناقض مدلول الآخر.

(٧٣٠) ولا يُتصور عند أهل السُّنَّة تعارض الأدلة الصحيحة العلمية: لا السمعية ولا العقلية، والكتاب والسّنة يدل بالأخبار تارة، ويدل بالتنبيه تارة، والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة؛ وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلّهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلّهية قد جاء به الكتاب والسُّنة مع زيادات وتكميلات لم يهتدِ إليها إلاّ من هداه الله بخطابه فكان ما جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين، وهذه الجملة لها بسط عظيم قد بسط من ذلك ما بسط في مواضع متعددة.

(٧٣١) من أنكر من أهل الإلحاد وجود الرب قيل له معلوم بصريح العقل إن الموجود إما واجب بنفسه وإما غير واجب بنفسه وإما قديم أزلي وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غني عما سواه. وغير الواجب بنفسه لا يكون إلاّ بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلاّ بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغني عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه وما سواه بخلاف ذلك، وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه ولا قديماً أزلياً ولا خالقاً لما سواه ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودَيْن: أحدهما غني والآخر فقير، وأحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كلٍّ منهما شيئاً موجوداً ثابتاً وليس أحدهما مماثلاً للآخر في حقيقته. إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه، وأحدهما غني عن كل ما سواه والآخر ليس بغني، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق،

فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجوداً بنفسه ليس موجوداً بنفسه غنياً عما سواه ليس بغني عما سواه خالقاً ليس بخالق فيلزم اجتماع النقيضين على تقدير تماثلهما وهو منتفٍ بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع مع اتفاقهما في أمور أخرى، كما أن كلًّا منهما موجود ثابت له حقيقة وذات هي نفسه، فعلم بهذه البراهين اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطِّلاً قائلاً للباطل، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً للباطل والله أعلم، وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمًّى ما اتفقا فيه فإن الله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، والعبد لا يشركه في شيء من ذلك، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالى منزَّه عن مشاركة العبد في خصائصه.

(٧٣٢) الأقوال نوعان: فما كان منصوصاً في الكتاب والسنة وجب الإقرار به على كل مسلم، وما لم يكن له أصل في النص والإجماع لم يجب قبوله ولا رده حتى يعرف معناه.

(٧٣٣) ما من طائفة من أهل الانحراف إلَّا ومعها حق وباطل، فإذا خوطبت بيّـن لها أن الحق الذي ندعوكم إليه أولى بالقبول من الحق الذي وافقناكم عليه.

(٧٣٤) التوبة والاستغفار لا يوجب تنفيراً ولا يزيل وثوقاً بل لا يتم كمال العبد إلّا بذلك، بخلاف دعوى البراءة مما يتاب منه ويستغفر، والسلامة مما يحوج إلى الرجوع إلى الله والالتجاء إليه، فإنه هو الذي ينفر القلوب ويزيل الثقة، فإن هذا لم يعلم أنه صدر إلّا عن كذّاب أو جاهل، وأما الأول فإنه يصدر عن الصادقين العالمين.

(٧٣٥) وأصحاب النبـي ﷺ، ولله الحمد، من أصدق الناس حديثاً عنه، لا يُعرف منهم من تعمد عليه كذباً مع أنه يقع من أحدهم من الهنات ما يقع، ولهم ذنوب وليسوا معصومين، ومع هذا فقد جرَّب أصحاب النقد

والامتحان أحاديثَهم واعتبروها بما تُعتبر به الأحاديث، فلم يوجد عن أحد منهم تعمُّدُ كذبة بخلاف مَنْ بَعْدَهم فإنهم لا يساويهم ولا يقاربهم أحد رضي الله عنهم، ولهذا كان الصحابة كلهم ثقاتٍ باتفاق أهل العلم بالحديث والفقه حفظاً من الله لهذا الدين.

ولم يتعمد أحد الكذب على رسول الله ﷺ إلاّ هتك الله ستره وكشف أمره، وقد كان التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة لا يكاد يعرف فيهم كذاب، لكن الغلط لم يسلم منه بشر.

(٧٣٦) قد يقال إن الإيمان أرجح من الكفر إذا احتيج إلى المفاضلة عند من يظن أن ذلك أرجح كقوله:

﴿وَمَنْ أَحسنُ ديناً مِمَّنْ أَسلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وهو محسِنٌ﴾

[سورة النساء: الآية ١٢٥]

وقوله: ﴿وذروا البيع ذلكم خير لكم﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩]

﴿ذلك أزكى لكم وأطهر﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٢]

بل قد يفضل الله نفسه على من عبد من دونه، كقوله:

﴿آللَّهُ خيرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٩]

وقول السحرة: ﴿واللَّهُ خيرٌ وأَبقَى﴾ [سورة طَه: الآية ٧٣]

وما أشبه ذلك من ذكر أفعل التفضيل مما ليس في المفضَّل عليه شيء، لأن التنزل في المناظرات ونحوها من تمام الإنصاف، ومن الداعي للنظر في الأدلة والبراهين المرجحة وفيها دعوة لطيفة لأهل الانحراف كما هو معروف بالتأمل.

(٧٣٧) والله منزَّه أن يوصف بشيء من الصفات المختصة بالمخلوقين وكل ما اختص بالمخلوق فهو صفة نقص، والله تعالى منزَّه عن كل نقص ومستحق لغايات الكمال، وليس له مثل في شيء من صفات الكمال، فهو

منزّه عن النقص مطلقاً، ومنزّه في الكمال أن يكون له مثل، وقد دلّ على ذلك سورة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١]

فبيّن أنه أحد صَمَدٌ واسمه الأَحَدُ يتضمن نفي المِثل، واسمه الصَّمَدُ يتضمن جميع صفات الكمال.

(٧٣٨) جميع الرسل عليهم السلام وجميع أهل الملل يعلمون قطعاً أن الملائكة ليست كما يقوله زنادقة الفلاسفة: «إنها قُوًى معنوية»، وإنما هم مخلوقون من نور كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وإنهم كما وُصِفوا في الكتاب والسنة. ومن زعم أن جبريل هو العقل الفعال، وهو ما يتخيل من نفس النبي ﷺ من الصور الخيالية. وكلام الله ما يوجد في نفسه كما يوجد في نفس النائم فهذا مما يعلم كل من علم ما جاء به الرسول أنه من أعظم الأمور تكذيباً للرسول، ويعلم أن هؤلاء أبعد عن متابعة الرسول من كفّار اليهود والنصارى وأن هذا مذهب زنادقة الفلاسفة.

(٧٣٩) التشبيه الممتنع تشبيه الخالق بالمخلوق، أو تشبيه المخلوق بالخالق، فيمتنع اتصاف الرب بشيء من خصائص المخلوقين، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق، ويمتنع أن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الربَّ، وأمّا إذا قيل حيّ وحيّ وعالم وعالم وقادر وقادر، وقيل لهذا قدرة ولهذا قدرة، ولهذا علم ولهذا علم كان نفس علم الرب لم يشركه فيه العبد، ونفس علم العبد لا يتصف به الرب، تعالى عن ذلك، وكذلك سائر الصفات، وليس في إثبات هذا محذور، فإن المحذور إثبات شيء من خصائص أحدهما للآخر.

(٧٤٠) ونحن نعلم أن الله خالق كل شيء وأنه لا حول ولا قوة إلاَّ به، وأن القوة التي في العرش وفي حملة العرش هو خالقها، بل نقول إنه خالق أفعال الملائكة الحاملين، فإذا كان هو الخالق لهذا كله، ولا حول ولا قوة إلا

به، امتنع أن يكون محتاجاً إلى غيره، ولا قال أحد إنه محتاج إلى شيء من مخلوقاته، فضلاً عن أن يكون محتاجاً قوةَ شيء من مخلوقاته؛ ولا يقول أحد إنه محتاج إلى العرش مع أنه خالق العرش، والمخلوق مفتقر إلى الخالق لا يفتقر الخالق إلى المخلوق، وبقدرته قام العرش وسائر المخلوقات، وهو الغني عن العرش، وكل ما سواه فقير إليه.

(٧٤١) وقد استقر في بداية العقول أن الأفعال الاختيارية من العبد تكسب نفس الإنسان صفات محمودة وصفات مذمومة بخلاف لونه وطوله وعرضه، فإنها لا تكسبه ذلك؛ فالعلم النافع والعمل الصالح والصلاة الحسنة وصدق الحديث وإخلاص العمل لله، وأمثال ذلك، تورث القلب صفات محمودة، ففعل الحسنة له آثار محمودة في النفس وفي الخارج، وكذلك السيئات، والله تعالى جعل فعل الحسنات سبباً لهذا والسيئات سبباً لهذا؛ كما جعل أكل السم سبباً للمرض والهلاك وأسباب الشر لها أسباب تدفع بمقتضاها، فالتوبة والأعمال الصالحة يمحى بها السيئات، والمصائب في الدنيا تكفَّر بها السيئات، والله تعالى يخلق الاختيار في المختار والرضا في الراضي والمحبة في المحب وهذا لا يقدر عليه إلّا الله، ولهذا أنكر الأئمة على من قال: جبر الله العباد.

(٧٤٢) ومما يبيِّن هذا أن الله تعالى جهةُ خَلقه وتقديره غيرُ جهة أمره وتشريعه، فإن أمره وتشريعه مقصوده بيان ما ينفع العباد إذا فعلوه وما يضرهم بمنزلة أمر الطبيب للمريض بما ينفعه، فأخبر الله على ألسنة رسله بمصير السعداء والأشقياء، وأمر بما يوصِلُ إلى السعادة ونهى عما يُوصِل إلى الشقاوة، وخَلقُه وتقديره يتعلق به وبجملة المخلوقات، فهو يفعل لما فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه كالمطر، وإن كان في ضمن ذلك تضرر بعض الناس بسقوط منزله وانقطاعه عن سفره وتعطيل معيشته. وكذلك رسالة محمد ﷺ لما في إرساله من الرحمة العامة وإن كان في ضمن ذلك سقوط رئاسة قوم

وتألمهم بذلك، فإذا قَدَّر على الكافر كفرَه قدَّره لما في ذلك من الحكمة والمصلحة العامة وعاقَبَهُ لاستحقاقه ذلك بفعله الاختياري، وإن كان مقدَّراً ولما له في عقوبته من الحكمة والمصلحة العامة.

(٧٤٣) الإنسان حي حسّاس متحرِّك بالإرادة، ولهذا قال النبـي ﷺ: (أصدق الأسماء الحارث وهمام)، فالحارث الكاسب العامل والهمام كثير الهم، والهم مبدأ الإرادة والقصد فكل إنسان حارث همام وهو المتحرك بالإرادة، وذلك لا يكون إلاّ بعد الحس والشعور، فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا اختيار ولا طلب إلاّ بعد الشعور، وما هو من جنسه، كالحس والعلم والسمـع والبصر والشم والذوق واللمس، ونحو هذه الأمور، فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب.

والحي مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه وبغض ما يكرهه ويضره، فإذا تصور الشيء الملائم النافـع أراده وأحبه، وإذا تصور الشيء الضارّ أبغضه ونفر عنه، لكن ذلك التصور قد يكون علماً وقد يكون ظنًّا وخَرَصاً، فالفطرة مجبولة على حب ما تحتاج إليه ودفـع ما يضرها، وأنها تستعين بالله على ذلك، وهذا موجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده وإيجابها ذلك، ولهذا أمر الله العباد أن يسألوه أن يعينهم على فعل ما أمر.

(٧٤٤) أهل السنة والجماعة متفقون على أن الله خالق أفعال العباد، وعلى أن العبد قادر مختار يفعل بمشيئته وقدرته، والله خالق ذلك كله وعلى الفرق بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية، وعلى أن الرب يفعل بمشيئته وقدرته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لم يزل قادراً على الأفعال موصوفاً بصفات الكمال متكلماً إذا شاء، وإنه موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فيثبتون علمه المحيط ومشيئته النافذة وقدرته الكاملة وخلقه لكل

شيء، ومن هداه الله لفهم قولهم علم أنهم جمعوا محاسن الأقوال وأنهم وصفوا الله بغاية الكمال، وأنهم المتمسكون بصحيح المنقول وصريح المعقول، وأن قولهم القول السديد السليم من التناقض الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه.

(٧٤٥) أنعم الله على المكلفين بنعم أصولية وفروعية مشتركة بين البَرِّ والفاجر وخص المؤمنين بنعم أخرى بها تمت عليهم النعمة، فأوجدهم بعد العدم وخلق لهم الأسماع والأبصار والعقول وجميع ما تتم به العافية، وأعطاهم قوتين عظيمتين بها يوجدون أفعالهم ويختار كل منهم ما أراد من الأفعال الحسنة والقبيحة: وهما المشيئة والإرادة والقدرة. وباجتماع القوتين تتم الأقوال والأفعال، ثم إنه كمل على جميعهم النعمة بأن أمرهم أن يصرفوا مشيئتهم وإرادتهم إلى ما ينفعهم مما يحبه الله ويرضاه وأن يمتنعوا عما يكرهه الله وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لتفصيل ما يحبه الله مما يكرهه والترغيب في هذا والترهيب من هذا بكل وسيلة وطريق، وأخبرهم بما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب وأشهدهم أنموذجاً من ذلك في دار الدنيا، وكل هذه الأمور وتوابعها اشترك فيها كل أحد فلم يبق لأحد على الله حجة، بل حجته ورحمته وصلت إليهم كلهم.

ثم إنه تعالى خَصّ المؤمنين بخصائص من رحمته، بها آمنوا واهتدوا وعملوا الصالحات، وهو أنه حبب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم كلما فعلوا شيئاً من الهداية وقصدوا مراضي ربهم أمدهم بهدايات متنوعة ولطف بهم ويسرهم لليسرى وجنبهم العسرى، وحفظهم ودافع عنهم ــ بإيمانهم ــ السوء والفحشاء فاستقاموا على الصراط المستقيم بمنته ورحمته، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؛ فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، أفبعد هذا يبقى حجة للمعاند وشغب للمكابر يحتج فيه بالقدر، ولم يبق إلاّ أن يقول: كيف خَصَّ

المؤمنين بما خصَّهم به دوننا، فيقال: هذا فضله وإحسانه يؤتيه من يشاء، فلم يمنع الكافر والفاجر حقًّا له يستحقه، بل منع عنه فضله الذي خصّ به المؤمنين لكمال حكمته ولعلمه أنه لا يستحق هذا الفضل لإعراضه عن ربه واعتراضه عليه ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون.

(٧٤٦) خلق الله إبليس كما خلق الحيّاتِ والعقاربَ والنار وغير ذلك، لما في خلقه ذلك من الحكمة؛ وقد أمرنا أن ندفع الضرر عنا بكل ما نقدر عليه، ومن أعظم الأسباب استعاذتنا منه، فهو الحكيم في خلق إبليس وغيره، وهو الحكيم في أمرنا بالاستعاذة منه، وهو الحكيم إذ جعلنا نستعيذ به، وهو الحكيم في إعاذتنا منه، وهو الرحيم بنا في ذلك كله، المحسن إلينا المتفضل علينا، إذ هو أرحم بنا من الوالدة بولدها، وهو الخالق لتلك الرحمة، فخالق الرحمة أولى بالرحمة من الرحماء.

(٧٤٧) قد ضمن الله السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله، وتوعَّد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك، فطاعة الرسول هي مناط السعادة وجوداً وعدماً، وهي الفارقة بين أهل الجنة والنار، ومحمد ﷺ فرق بين الناس، فدل الخلق بما بيَّنه لهم، وقال تعالى:

﴿فاتَّقُوا اللَّهَ ما ٱسْتَطَعْتُم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

فمَن اجتهد بطاعة الله ورسوله بحسب الاستطاعة كان من أهل الجنة، والله يرفع درجات المتقين المؤمنين بعضهم على بعض بحسب إيمانهم وتقواهم.

(٧٤٨) الإمام هو من يُقتدى به، إما أن يُرجع إليه في العلم والدين بحيث يطاع باختيار المطيع لكونه عالماً بأمر الله آمراً به فيطيعه المطيع لذلك، وإن كان عاجزاً عن الإلزام بالطاعة، وإما أن يكون صاحب يد وسيف

بحيث يطاع طوعاً وكرهاً قادراً على إلزام المطيع بالطاعة، وهؤلاء القسمان هم المراد بقوله:

﴿يا أيُّها الذين آمنُوا أطيعُوا اللَّهَ وأطيعُوا الرسولَ وأُولِي الأمرِ مِنكُم﴾
[سورة النساء: الآية ٥٩]

ولا يَتمُّ كل واحد منهما إلاّ بالآخر، ولا يستقيم الدين والدنيا إلا باجتماعهما، ووجود الظلم والمعاصي من بعض المسلمين، ولاة الأمور وعامتهم لا يمنع أن يشارك فيما يعمله من طاعة الله فيعاونون على الخير ولا يطاع أحد من الخلق في معصية الله؛ وملوك المسلمين حسناتهم كثيرة وسيئاتهم كثيرة، فلهم من الحسنات ما ليس لآحاد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وجهاد العدو وإيصال كثير من الحقوق إلى مستحقيها، ومنع كثير من الظلم وإقامة كثير من العدل.

(٧٤٩) ما ثبت في حقّ النبي ﷺ من الأحكام ثبت في حقٍّ أمته وبالعكس، فإن الله إذا أمره بأمر تناول الأمة، كما قد عرف في عبارة الشرع، قال تعالى:

﴿فَلَمّا قَضَى زيدٌ مِنها وَطَراً زَوَّجْنَاكَها لِكَيْلَا يَكونَ على المؤمنينَ حَرجٌ في أزواجِ أَدْعِيائِهِمْ إذا قَضَوْا منهُنَّ وَطَراً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٧]

إلا إذا دلّ دليل خاصٌّ على اختصاصه دون الأمة.

(٧٥٠) باب الإحسان إلى الناس والعفو عنهم مقدَّم على باب الإساءة والانتقام، كما في الحديث: (ادرأوا الحدود بالشبهات)، فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة، فالخطأ في المدح أهون من الخطأ في القدح، وإعطاء المجهول الذي يَدَّعِي الفقر من الصدقة أهونُ من حرمان الفقير، فالخطأ في إعطاء الغني خير من الخطأ في حرمان الفقير، والعفو عن المجرم خير من عقوبة البريء.

(٧٥١) والصواب الجامع في هذا الباب أنّ من حكم بعدل أو قَسَم بعدل نفذ حكمه وقسمته، ومن أمر بمعروف ونهى عن منكر أُعِين على ذلك إذا لم يكن في ذلك مفسدة راجحة، وأنه لا بد من إقامة الجمعة والجماعة، فإن أمكن تولية إمام بَرٍّ لم يجز تولية فاجر ولا مبتدع يظهر بدعته، فإنّ هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الإمكان، ولا يجوز توليتهم، فإن لم يمكن إلّا تولية أحد رجلين كلاهما فيه بدعة وفجور كان تولية أصلحهما ولاية هو الواجب، وإذا لم يمكن في الغزو إلا تأمير أحد رجلين، أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له كان تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين خيراً من تولية من ولايته أضر على المسلمين، وإذا لم يمكن صلاة الجمعة والجماعة وغيرها إلا خلف الفاجر والمبتدع صُلِّيَتْ خلفه ولم تُعَد، وإن أمكن الصلاة خلف غيره وكان في ترك الصلاة خلفه هجرٌ له ليرتدع هو وأمثاله عن البدعة والفجور فُعِل ذلك، وإن لم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة دينية صُلِّي خلفه، وليس على أحد أن يصلي الصلاة مرتين، ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان كما قال تعالى:

﴿فاتَّقوا اللَّهَ ما آسْتطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

(٧٥٢) والله سبحانه لا يأمر بشيء لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا، ولو كان فاعل ذلك من عباد الله الصالحين؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم لما في لزوم أمره من صلاح العباد في المعاش والمعاد، ومن خالف ذلك متعمِّداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد، كما استفاضت بذلك الأحاديث.

(٧٥٣) لَعنُ الفاسق المعين لا يجوز، وإنما جاء الشرع بلعن الأنواع مثل: لعن الله الظالمين، لعن الله من غيّر منار الأرض ونحو ذلك، ونحن نعلم أن أكثر المسلمين لا بُدَّ لهم من ظلم، فإن فتح هذا الباب ساغ أن يلعن

أكثر موتى المسلمين، والله تعالى أمر بالصلاة على موتى المسلمين وبالدعاء بالمغفرة والرحمة لعموم المؤمنين، لم يأمر بلعنتهم، فمن لعن أحداً من المسلمين فقد ترك المأمور وفعل المحظور، وخصوصاً الأموات فإن لعنهم أعظم من لعنة الأحياء كما قال ﷺ: (لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا).

(٧٥٤) ولا ريب أن لآل النبي ﷺ حقًّا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشاً يستحقون من المحبة والموالاة ما لا يستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر أجناس بني آدم؛ وتفضيل الجملة على الجملة لا يقتضي تفضيل كل فرد على كل فرد، كما أن تفضيل القرن الأول على الثاني والثاني على الثالث لا يقتضي ذلك، بل في القرن الثالث خير من كثير من القرن الثاني، ومن خصائص بني هاشم تحريم الصدقة عليهم واستحقاقهم من الفيء، وبنو المطلب معهم في الأخير، وكذلك الصلاة على أهل البيت كلهم، وأما ترتيب الثواب والعقاب والمدح والذم فهذا لا يؤثر فيه النسب، وإنما يؤثر فيه الإيمان والعمل الصالح وهو التقوى:

﴿إِنَّ أكرَمَكُمْ عندَ اللَّهِ أتقاكُم﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]

لكن قال النبي ﷺ: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)، فالعرب في الأجناس وقريش فيها ثم هاشم في قريش مظنة أن يكون فيهم الخير أعظم مما يوجد في غيرهم كما هو الواقع، فلا بد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل.

(٧٥٥) ومحمد ﷺ قد أخبر الله عنه أنه يُصَلِّي عليه هو وملائكته فلم

تكن فضيلته بمجرد كون الأمة يصلُّون عليه، بل إن الله وملائكته يصلون عليه بخصوصه وإن كان الله وملائكته يصلون على المؤمنين عموماً:

﴿هُوَ الذي يُصلِّي عليكُمْ ليخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّور﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٤٣]

ويصلون على معلم الناس الخير كما في الحديث: (إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير)، ومحمد ﷺ لما كان أكمل الناس فيما يستحق به الصلاة من الإيمان وتعليم الخير وغير ذلك كان له من الصلاة عليه خبراً وأمراً خاصية لا يوجد مثلها لغيره ﷺ.

(٧٥٦) والله تعالى إذا أمر الإنسان بما لم يأمر به غيره لم يكن أفضل من غيره بمجرد ذلك، بل إنِ امتثل ما أمر الله به كان أفضلَ من غيره بالطاعة، كولاة الأمور وغيرهم ممن أمر بما لم يؤمر به غيره، من أطاع منهم كان أفضلَ لأن طاعته أكمل، ومن لم يطع منهم كان من هو أفضلُ منه بالتقوى أفضلَ منه.

(٧٥٧) وإذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة أو مثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه.

(٧٥٨) لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يَرُد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعَدْلٍ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلّا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم.

(٧٥٩) مَنْ بَلَغَتْهُ دعوة النبي ﷺ من الكفار في دار الكفر وعلم أنه رسول الله فآمن به وآمن بما أنزل عليه وآتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره ولم يمكنه الهجرة إلى دار الإسلام ولا التزام جميع شرائع الإسلام لكونه ممنوعاً من الهجرة وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يعلِّمه

جميع شرائع الإسلام، فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون وآسية امرأة فرعون، وكما كان يوسف ﷺ مع أهل مصر فإنهم كانوا كفّاراً ولم يكن يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، فإنه دعاهم إلى التوحيد فلم يجيبوه، وكذلك النجاشي، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً بل وإماماً وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك بل هناك من يمنعه من ذلك:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها؛ وبالجملة لا خلاف بين المسلمين، أن من كان في دار الكفر وقد آمن وهو عاجز عن الهجرة لا يجب عليه من الشرائع ما يعجز عنها، بل الوجوب بحسب الإمكان، وكذلك ما لم يعلم حكمه، فلو لم يعلم أن الصلاة واجبة عليه وبقي مدة لم يُصَلِّ لم يجب عليه القضاء في أظهر قولي العلماء، وكذلك سائر الواجبات من صوم شهر رمضان وأداء الزكاة وغير ذلك ولو لم يعلم تحريم الخمر لم يُحَدَّ عليها إذا شربها باتفاق المسلمين، وكذلك لو عامل بما يستحلّه من رِبا أو ميسر ثم تبين له تحريم ذلك بعض القبض وما أشبه ذلك، وأصل هذا كله: هل تلزم الشرائع من لم يَعْلَمْها، أم لا تلزم إلا بعد العِلم، أم يُفرق بين الشرائع الناسخة والمبتدأة؟ والصواب في ذلك كله أن الحكم لا يثبت إلّا مع التمكن من العِلم، وأنه لا يقضى ما لم يُعلم وجوبه، وهذا يطابق الأصل الذي عليه السلف والجمهور أن الله لا يكلف نفساً إلّا وسعها، فالوجوب مشروط بالقدرة، والعقوبة لا تكون إلّا على ترك مأمور أو فعل محظور بعد قيام الحجة.

(٧٦٠) وإذا تكلّمنا على الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشائخ المختلفين في العلم والدين وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل،

لا بجهل وظلم؛ فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرَّم مطلقاً لا يباح قط بحال، والعدل محبوب باتفاق أهل الأرض مركوز حبه في القلوب، تحبه القلوب وتحمده، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب، والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه، والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكْمُ به عَدْلٌ كلُّه ليس في الشرع ظلم أصلاً، بل حكم الله أحسن الأحكام، والشرع هو ما أنزل الله، فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج.

(٧٦١) قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤمنونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثم لا يجدُوا في أَنفُسِهِم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾
[سورة النساء: الآية ٦٥]

فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم، فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله ظاهراً وباطناً لكن عصى واتبع هواه، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة، فمن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر، وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية والعملية فالأمور المشتركة بين الأمة لا يَحْكُمُ فيها إلّا الكتابُ والسُّنة ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك، وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة لا يحكمون في الأمور الكلية، وإذا حكموا في المعينات فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله، فإن لم يكن فَبِما في سنة رسول الله فإن لم يجدوا اجتهد الحاكم برأيه.

(٧٦٢) الذنوب التي هي دون الكفر لا توجب كفر صاحبها ولا تخليده في النار ولا منع الشفاعة فيه، والمتأول الذي قَصْدُهُ متابعةُ الرسول لا يُكَفَّر ولا يُفَسَّق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفّروا المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف

عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، وقد ينقل عن أحد الأئمة أنه كَفَّر من قال بعض الأقوال ويكون مقصوده أنّ هذا القول كفرٌ ليحذَر، ولا يلزم إذا كان القول كُفْراً أن يُكَفَّرَ كلُّ من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه وله شروط وموانع.

(٧٦٣) الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تعتبر في وجه العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والتوكّل معنى يلتئم من التوحيد والعقل والشرع، فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن بها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها، فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه، وله موانع وعوائق تمنع موجبه وما ثم سبب مستقل بالأحداث إلا مشيئة الله وحدَه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما شاء خَلَقَهُ بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع فلا يجوز التوكل إلّا عليه.

(٧٦٤) وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن ما في قلوبهم من محبة الله لا يماثله فيها غيرها، ولهذا كان الرب محموداً حمداً مطلقاً على كل ما فعله، وحمداً خاصاً على إحسانه إلى الحامد، فهذا حمد الشكر، والأول حمده على ما فعله كما قال:

﴿الحمدُ للّهِ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١]

﴿الحمدُ للّهِ فاطِرِ السمواتِ والأرضِ﴾

[سورة فاطر (أو الملائكة): الآية ١]

والحمد ضد الذم، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته، ولا يكون حمد لمحمود إلّا مع محبته، ولا ذمّ لمذموم إلّا مع بغضه، وهو سبحانه له

الحمد في الأولَى والآخرة، فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود، ولا يكون حمد إلّا بحب المحمود، وهو سبحانه المعبود المحمود، ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين: تحميده وتوحيده، وأفضل الذكر: لا إله إلّا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله.

(٧٦٥) لا ريب أن الأحكام النجومية مذمومة بالشَّرع مع العقل، وأن الخطأ فيها أضعاف الصواب، وأن من اعتمد عليها في تصرفاته وأعرض عما أمر الله به ورسوله خسر الدنيا والآخرة.

(٧٦٦) وقد بيَّنَّا أن الأفلاك مستديرة عند علماء المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، بل قد نقل إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من علماء المسلمين الذين هم من أخبر الناس بالمنقولات، كأبي الحسين بن المناوي وأبي محمد بن حزم وأبي الفرج بن الجوزي، وكذلك المطر معروف عند السلف والخلف أن الله تعالى يخلقه من الهواء ومن البخار المتصاعد، لكن خلقه للمطر من هذا كخلق الإنسان من نطفة، وخلقه للشجر والزرع من الحب والنوى، وإثبات المادة التي خلق منها المطر والشجر والإنسان والحيوان مما يدل على حكمته، ونحن لا نعرف شيئاً قط خُلِق إلّا من مادة ولا أخبر الله في كتابه بمخلوق إلّا من مادة، والله قد وكل الملائكة بتدبير هذا العالم بمشيئته وقدرته كما دلت على ذلك الدلائل الكثيرة من الكتاب والسُّنة، وكما يستدل على ذلك أيضاً بأدلة عقلية، والملائكة أحياء ناطقون ليسوا أعراضاً قائمة بغيرها كما يزعمه كثير من المتفلسفة.

(٧٦٧) الوسائل لا تراد إلّا لمقاصدها، فإذا جزمنا بانتفاء المقاصد كان الكلام في الوسيلة من السعي الفاسد، كما إنها إذا حصلت المقاصد لم يكن بنا حاجة إلى الوسائل، وتقدم في الأصول السابقة أن الوسائل لها أحكام المقاصد إن كانت المقاصد مأموراً بها فالوسائل تابعة لها، وإن كانت منهيًّا عنها، فكذلك وسائلها، والله أعلم.

(٧٦٨) النبـي ﷺ قد نص على كليات الأحكام ما يُحرَّم من النساء وما يَحِل، فجميـع أقارب الرجل من النساء حرام عليه إلاّ بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته، وحرم في الأشربة كلَّ ما يُسكر، وقد حصر المحرَّمات في قوله:

**﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّـي الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإِثْمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأَنْ تُشـرِكوا بـاللَّهِ ما لم يُنـزِّلْ به سلطانـاً وأَنْ تَقـولـوا على اللَّهِ ما لا تعلَمون﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣٣]

فَكُلُّ ما حُرِّم تحريماً مطلقـاً عامـاً لا يُباح في حـال فهو داخـل في هذه المذكورات وجميـع الواجبات في قوله:

**﴿قُلْ أَمَر ربِّـي بالقِسطِ وأَقيمُوا وجوهَكم عندَ كُلِّ مسجِدٍ وَٱدْعُـوهُ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

فالواجب كله محصور في حق الله وحق عباده، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقوق عباده العدلُ كما في حديث مُعاذ، ثم إنه تعالى فَصَّل أنواع الفواحش والبغي وأنواعَ حقوق العباد في مواضـع أُخر، ففصَّل المواريث ومن يستحق الإرث ممن لا يستحقه وما يستحق الوارث بالفرض والتعصيب، وبيِّن ما يحلّ من المناكـح وما يُحرَّم وغير ذلك من نصوصه الكلية التي لا يشذّ عنها شيء.

(٧٦٩) من استكبر على الحق أو ادَّعى ما ليس له من المراتب أو أشرك بالله وتعلق بغيره ابتلي بالذل والهوان والخوف من المخلوقين، فتراه مفتقراً إلى لقمة خائفاً من كلمة، قال تعالى:

**﴿سَنُلْقي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعبَ بما أشركُوا بالله﴾**
[سورة آل عمران: الآية ١٥١]

(٧٧٠) والردة قد تكون عن أصل الإسلام، كالغالية من الإسماعيلية

والنُّصَيرية ونحوهم، وقد تكون الرِّدَّةُ عن بعض الدين كحال كثير من أهل البدع، والله تعالى يقيم قوماً يحبونه، يجاهدون من ارتد عن الدين أو عن بعضه في كل زمان.

(٧٧١) تشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل عليه السياق لا يقتضي المساواة في كل شيء.

(٧٧٢) وكذلك إذا كان التخصص لسبب يقتضيه فلا يحتج به باتفاق الناس.

(٧٧٣) البلاغة المأمور بها في مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ في أَنفُسِهِم قولاً بليغاً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٣]

هي علم المعاني والبيان، فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب، ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني، فالبلاغة بلوغ غاية المطلوب أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان، فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة وبين تبيينها بأحسن وجه.

(٧٧٤) وأصل الشجاعة قوة القلب وثباته عند المخاوف وكمال اليقين والثقة بوعد الله، وشجاعة الفعل والقول تابعة لهذا، والاستنصار بالله والاستغاثة به والدعاء له من تمام ذلك، وهي من أعظم الأسباب في تحصيل المأمور ودفع المحذور، ومما ينبغي أن تعلم أن الشجاعة إنما فضيلتها في إقامة الدين وحصول المصالح العامة والخاصة للمسلمين.

(٧٧٥) وليس لأحد أن يدفع ما كان علم يقيناً بالظن، سواء كان ناظراً أو مناظراً، بل أن تبين له وجه فساد الشبهة وبينه لغيره كان ذلك زيادة علم ومعرفة، وتأييد في الحق في النظر والمناظرة وإن لم يتبين ذلك لم يكن له أن يدفع اليقين بالشك والله أعلم.

(٧٧٦) ومن نوّر الله قلبه فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير وإلاّ فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وليس له معارضته برأيه وهواه.

(٧٧٧) لما كان محمد ﷺ خاتم النبيين ولم يكن بعده رسولٌ ولا مَنْ يُجَدِّد الدِّين لم يزلِ الله يُقيم لتجديدِ الدِّين مِنَ الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره كما وعد به في الكتاب، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ويعرف به مساوىء الكفر ومفاسده، ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أنباء الأنبياء والمرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين، كما قال تعالى:

﴿وكذلكَ جَعلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً شياطينَ الإنسِ والجِنِّ﴾
[سورة الأنعام: الآية ١١٢]

فإنَّ الحقَّ إذا جُحد وعُورض بالشبهات أقام الله له مما يحقق الحق ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة، وهذا كالمحنة التي تميز بين الخبيث من الطيب، والفتنة هي الامتحان والاختبار، فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن زاد جودة، والباطل كالمغشوش المغشّى إذا امتحن ظهر فساده.

(٧٧٨) فبمعرفة حقيقة دين اليهود والنصارى وبطلانه يعرف به بطلان ما يشبه أقوالهم من أقوال أهل الإلحاد والبدع، فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه.

(٧٧٩) الصدق أصل الخير ويَهدي إلى الخير، والكذب أصل الشر ويَهدي إلى الفجور، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر) الحديث، وأعظم ذلك الصدق على الله أو الكذب على الله، فالصدق في أعلى الدرجات، والصادق أفضل الخلق، والكذب في أسفل الدرجات، والكاذب أظلم الخلق، وبين الصدق والكذب والصادق والكاذب فروق كثيرة معروفة.

(٧٨٠) كثيراً يَذْكُرُ تعالى في كتابه حكمةً للأحكام الشرعية أو القدرية ولا يلزم من ذلك أن لا تكون له حكم أخرى غيرها، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبة.

(٧٨١) وكذلك نفي الدليل المعيَّن لا يقتضي نفيَ المدلول ولا يقتضي نفيَ دليل آخر غيره يدل على المقصود.

(٧٨٢) وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول، فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد لم يكن مستلزماً فلا يكون دليلاً.

(٧٨٣) ما أمر الله به أمراً عاماً هو ما نقلته الأمة عن نبيها محمد ﷺ نقلاً متواتراً وأجمعت عليه، مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس أُمّيِّهم وغيرِ أمّيِّهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلاً، وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة، ولا يحتاج الإنسان في معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن أو يتكلم بلغة العرب.

(٧٨٤) إذا أوجب الله على العباد شيئاً واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شيء من العلم كان تعلمه واجباً لأن ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب.

(٧٨٥) المضافات إلى الله نوعان: أعيان وصفات:

**فالصفات** إذا أضيفت إليه، كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك، دلّت الإضافة على أنها إضافةُ وصفٍ له قائمٍ به ليست مخلوقة، لأن الصفة لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من موصوف تقوم به فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له.

وأما **الأعيان** إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التي

يشترك فيها المخلوق، مثل كونها مخلوقة ومملوكة ومقدورة ونحو ذلك فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله: هذا خلق الله. وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره، مثل بيت الله وناقة الله وعبد الله وروح الله فهذه تقتضي التشريف والعناية، وأنها امتازت عن غيرها من الأعيان بما يناسب السياق.

(٧٨٦) والحسُّ الباطن أو الظاهر إن لم يقترن به العقل الذي يميز بين المحسوس وغيره وإلّا دخل فيه من الغلط من جنس ما يدخل على النائم أو الممرور والمبرسم ونحوهم ممن يحكم بمجرد الحس الذي لا عقل معه.

(٧٨٧) المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بِفِطَرِهِمُ التي فُطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضادد والتباين فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذم الله من خالفها بقوله:

﴿وقالوا لَو كُنَّا نَسمعُ أَوْ نعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعير﴾

[سورة الملك: الآية ١٠]

وأما ما يسمّيه بعض الناس معقولات ويخالفه فيه كثيرٌ من العقلاء، فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها ردّ الحس والسمع، وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية تُرَدُّ إلى معقولات بديهية أولية بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلوم بفطرة الله، فإذا جاء في الحس أو في الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك عُلِم أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط وإن كان صادقاً فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات، والأنبياء صلوات الله عليهم معصومون: لا يقولون على الله إلا الحق، ولا ينقلون عنه إلّا الصدق، فمن ادعى في

أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذباً، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح، أو ذلك المنقول ليس بصحيح، فما علم يقيناً أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقيناً أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه.

(٧٨٨) نِعَمُ الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم وذلك نوعان:

**أحدهما**: أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم مثل رزقهم الذي لولاه لماتوا جوعاً، ونصرهم الذي لولاه لأهلكهم عدوُّهم، ومثل هداهم الذي لولاه لضلُّوا ضلالاً يضرُّهم في آخرتهم، وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه، وإن فقدوه حصل لهم ضرر إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة وإمَّا فيهما.

**والنوع الثاني**: النِّعم التي يحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ما لا يحصل بدونها، كما أنهم في الآخرة نوعان: أبرارٌ أصحابُ يمين ومقرَّبون سابقون، ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم، وإذا كانت النعمة نوعين فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد ﷺ من هذين الوجهين وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة، فإن الناس كانوا بدونه جُهَّالاً ضالِّين أُمِّيّهم وأهل الكتاب منهم، فكان إرساله أعظم نعمة على أهل الأرض من نوعي النعم، ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرسال محمد ﷺ، وإن الذين ردوا رسالته ممن قال الله فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ بَدَّلوا نِعمةَ اللَّهِ كُفْراً وأَحَلُّوا قومَهم دارَ البَوَار﴾
[سورة إبراهيم: الآة ٢٨]

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى:

﴿وكـذلـكَ فَتَنَّـا بعضهم ببعضٍ ـ إلى قـولـه ـ أَلَيْسَ اللَّهُ بـأعلَمَ بالشَّاكِرِين﴾ [سورة الأنعام: الآة ٥٣]

وقال: ﴿وسَيَجزي اللَّهُ الشَّاكِرينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

(٧٨٩) العجب الذي لا ينقضي أنَّ كل عاقل يَعْجَبُ ممن عَرَف دين محمد ﷺ وقصدُه الحق ثم اتبع غيرَه ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلاّ مُفرطٌ في الجهل والضلال أو مفرطٌ في الظلم واتباعِ الهوى، فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلاّ وهم مقرون، إن محمداً ﷺ دعا سائر الطوائف غيرهم إلى خيرٍ مما كانوا عليه، وهذه شهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلى خيرٍ مما كانوا عليه، فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم إذ كانوا غير متّهمين عليهم، فإنهم معادون لمحمد وأمته ومعادون لسائر الطوائف، وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة فإنهم خصومه، وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة، وقد اعترف الفلاسفة أنه لم يقرع العالم ناموسٌ أفضل من ناموسه، واعترفوا بأنه أفضل وأكمل من نواميس الأنبياء الكبار.

(٧٩٠) قد دلَّت النصوص على أن الله لا يعذب إلاّ من أرسل إليه رسولاً تقوم به الحجة عليه؛ والحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه؛ قال تعالى:

﴿لأنذِرَكُمْ بهِ ومَنْ بَلَغ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٩]

فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة فيما بلغه دون ما لم يبلغه، فإذا اشتبه معنى بعض الآيات وتنازع الناس في تأويل الآية وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فإذا اجتهد الناس في فهم ما أراده الرسل فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد؛ ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة، كالأطفال والمجانين وأهل الفترات فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يُمتحنون يوم القيامة فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب وإن عصَوْه استحقوا العقاب.

(٧٩١) وكُتُبُ الله تدلّ على ذم الضالّ والجاحد ومقتِه مع أنه لا يعاقب إلاّ بعد إنذاره.

(٧٩٢) وسبب ضلال الضُّلَّال من الأمم ثلاثة أشياء:

**أحدها**: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعُدولُهم عن الألفاظ الصريحة المحكمة، فإما أن يفوِّضوها أو يحرِّفوها.

**والثاني**: خوارق ظَنُّوها من الآيات وهي من أحوال الشياطين.

**والثالث**: أخبار منقولة إليهم ظنّوها صِدقاً وهي كذب.

(٧٩٣) العلم يُنال بالحسِّ والعقل وما يحصل بهما، وبوحي الله على أنبيائه الذي هو خارجٌ عما يشترك فيه الناس من الحس والعقل، فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النبوة مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية والعقلية، والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم وامتازوا عنهم بما لا يعرفه الأمم وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذّبوه لفظاً ومعنى حتى صار أحسن مما كان عندهم، ونفوا عنه من الناموس وضمُّوا إليه من الحق مما امتازوا به على من سواهم، وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله منها ما لم يعطه أمةً قبلَهم، وهذا ظاهر لمن تدبَّر القرآن مع تدبر التوراة والإنجيل، فإنه يجد من فضل علم القرآن ما لا يخفى إلّا على العميان.

(٧٩٤) والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتِّباع ما تبين له أنه باطل والكلام بلا علم، فإذا ظهر له الحق فَعَنِدَ عنه كان ظالماً وذلك مثل الألَدِّ في الخصام.

(٧٩٥) كلما قويت حاجة الناس إلى الشيء ومعرفته يسَّر الله أسبابه كما يُيَسِّر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشدّ، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثرَ من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر لذلك، فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظمَ كانت آياتُه ودلائل ربوبيته وقدرتِه

وعلمِه ومشيئته وحكمتِه أعظمَ من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظمَ من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله من دلائل صِدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم، وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبّحَ حال من خالفهم، وشقاوتَهم وجهلَه وظُلمه ما يَظْهر لمن تدبَّر ذلك، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

(٧٩٦) والشيء يعرف تارة بما يدل على ثبوته، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه وهو الذي يسمى قياس الخلف، فإن الشيء إذا انحصر في شيئين لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر. ومُدَّعي النبوة إمّا صادق وإما كاذب، وكل منهما له لوازم يدل انتفاؤها على انتفائه، وله ملزومات يدل ثبوتها على ثبوته، فدليل الشيء مستلزم له كإعلام النبوة ودلائلها، وآيات الربوبية وأدلة الأحكام الشرعية وغير ذلك، وانتفاء الشيء يُعلم بما يَستلزم نفيه كانتفاء لوازمه، مثل صدق الكذّاب، يقال: لو كان صادقاً لكان متّصفاً بما يتصف به الصادقون.

(٧٩٧) شهادة الكتب لمحمد ﷺ إما شهادتها بنبوته، وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله، وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غيرهم من المشركين والملحدين.

(٧٩٨) ولما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثَّقَلَيْن، إنسِهم وجِنِّهم، عَرَبِهم وعَجَمِهم، وهو خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعدَه، كان من نعمة الله على عباده ومن تمام حجته على خلقه أن تكون آيات نبوته وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذي بعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء، وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق.

(٧٩٩) يجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصِّغَر كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ولا نسبة لها إلى

عظمة الباري بوجه من الوجوه، وهي في قبضته أصغر من الخردلة في كف الإنسان، والخليقة مفطورة على أنها تقصد ربها في جهة العلو لا تلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة، وجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة بخلاف ما عليه أهل الضَّلال من المشركين والصابئين من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم غيروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً.

(٨٠٠) والسُّنة والإجماع منعقد على أن من بَلَغته دعوة النبي ﷺ فلم يؤمن فهو كافر لا يُقْبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة، وإذا كان كذلك فالمخطىء في بعض هذه المسائل إما أن يُلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب، مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان، وإما أن يُلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم، مع أنها أيضاً من أصول الإيمان، فإن الإيمان الذي يوجب الواجبات الظاهرة المتواترة، وتحريم المحرّمات الظاهرة المتواترة هو أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين والجاحد لها كافر بالاتفاق، مع أن المجتهد في بعضها إذا أخطأ ليس بكافر بالاتفاق، وإذا كان لا بد من إلحاقه بأحد الصنفين فإلحاقه بالمخطئين المؤمنين أشدُّ شبهاً من إلحاقه بالمشركين وأهل الكتاب، مع العلم بأن كثيراً من أهل البدع منافقون النفاق الأكبر، وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس، ولهذا أكثر السلف على قتل الداعي إلى البدعة لما يجري عليه من الفساد في الدين، سواء قالوا هو كافر أو غير كافر، وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه أنه مع الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلّا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة بالرسالة التي يبين لهم بها أنهم مخالفون للرسول، وإن كانت مقالتهم فيها لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في جميع تكفير المعينين مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان والعمل الصالح ما ليس في بعض، والله أعلم.

(٨٠١) واعلم أن المذهب إذا كان باطلاً في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله بوجه يتصور تصوراً حقيقياً فإن هذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل فإذا بُيِّن فبيانه يُظهر فسادَه، فيقال: كيف اشتبه هذا على أحد، فتصوُّره كافٍ في فساده.

(٨٠٢) العلمُ بالكائنات وكشفها له طرقٌ متعددة: حسية، وعقلية، وكشفية، وسمعية، ضرورية ونظرية، وغير ذلك؛ وينقسم إلى قطعي وظنّي، وغير ذلك؛ أما العلم والدين وكشفه، فالدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية وأمور طلبية عملية.

**فالأول**: كالعلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار، وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك، وقد يسمى هذا النوع أصول الدين، ويسمى العقد الأكبر، ويسمى الجدال فيه بالعقل «كلاماً»، ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية، ويسمى علم المكاشفة.

**والثاني**: الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب، كالواجبات والمحرّمات والمستحبّات والمكروهات والمباحات، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد، فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهيّاً عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذه الشهادة ــ من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها ــ فهي من القسم الأول ومن جهة إنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب وبعدمها يصير كافراً يحل دمه وماله فهي من القسم الثاني؛ وقد يتفق المسلمون على

بعض الطرق الموصلة إلى القسمين، كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة، وقد يتنازعون في بعض الطرق.

(٨٠٣) طرق الأحكام التي أجمع عليها المسلمون:

**الطريق الأول: الكتاب** لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

**والطريق الثاني: السّنة المتواترة التي لا تخالف ظاهر القرآن بل تفسِّره،** مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، ونُصُب الزكاة وفرائضها، وصفة الحج والعمرة وغير ذلك من الأحكام التي لا تعلم إلّا بتفسير السُّنة؛ وأما السُّنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال تخالف ظاهره، كالسُّنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جمهور السلف العمل بها أيضاً إلّا الخوارج، فإن من قولهم أو قول بعضهم مخالفةَ السُّنة، وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعناً في النقل لا ردًّا للمنقول، كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم، كالشفاعة والحوض والصِّراط والقدر وغير ذلك.

**الطريق الثالث:** السُّنن المتواترة عن رسول الله ﷺ، إما متلقاةً بالقبول بين أهل العلم بها أو برواية الثقات لها؛ وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتّباعها من أهل الحديث والفقه والتصوّف، وقد أنكرها بعضُ أهل الكلام، وأنكر كثيرٌ منهم أن يحصل العلم بشيء منها.

**الطريق الرابع:** الإجماع وهو متّفق عليه بين عامة المسلمين، وأنكره بعضُ أهل البدع من المعتزلة والشِّيعة، لكن المعلوم منه ما كان عليه الصحابة، وأمّا ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً.

**الطريق الخامس:** القياس على النَّصِّ والإجماع، وهو أيضاً حجة عند جماهير الفقهاء لكن بعضهم أسرف فيه فاستعمله قبل البحث عن النص وردَّ

به شيئاً من النصوص أو استعمل منه القياس الفاسد، ومن أهل الكلام والحديث من ينكره رأساً، وتفاصيل هذا كثيرة.

**الطريق السادس**: الاستصحاب وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق، وهل هو حجة في اعتقاد العدم؟ فيه خلاف. ومما يشبه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي.

**الطريق السابع**: المصالح المرسلة. وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب مصلحة منفعة راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه، فهذه الطريق فيها خلاف مشهور، فالفقهاء يسمونها المصالح المرسلة، ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها إنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان، وليس كذلك؛ بل المصالح المرسلة في جلب المنافع ودفع المضار وما ذكروه عن دفع المضارّ عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين، وجلب المنفعة يكون في الدنيا والدين، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير خطر شرعي، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي، فمن قَصرَ المصالح على العقوبات التي فيها دفعُ الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قَصَّر، وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، ثم ذكر من انتقد هذه الأمور ومن قررها واعتمدها. ثم قال:

والقول الجامع أن الشريعة لا تُهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرِّب إلى الجنة إلّا وقد حدَّثنا به النبي ﷺ وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدَه إلّا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له:

إمّا أن الشرع دل عليه من حيث لا يعلم هذا الناظر، أو إنه ليس بمصلحة أو اعتقد مصلحة مرجوحة، لأن المصلحة هي الخالصة أو الغالبة؛ وكثيراً ما يتوهم للناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة كما قال تعالى في الخمر والميسر:

﴿قُلْ فيهما إثْم كبيرٌ ومنافعُ للناسِ وإثمُهُمَا أكبرُ مِنْ نفعِهِما﴾

[سورة البقرة: الآية ٢١٩]

وكثير من بدع العقائد والأعمال من هذا الباب؛ وقد زين لهم سوء عملهم فَرَأَوْهُ حسناً، وقد يكون عمداً فيكون ظلماً وقد يقع جهلًا فيكون ضلالاً، وهذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول وبين أهل الإرادة والعمل.

(٨٠٤) فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو حابط باطل، لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه، فكل عمل لا يُراد به وجه الله فهو باطل لأن ما لم يُرَدْ به وجهُه، إما أن لا ينفع بحال، وإما أن ينفع في الدنيا دون الآخرة. فالأول ظاهر والثاني فقد ينتج للإنسان في الدنيا لذاتٍ وسروراً، وقد يجزى بأعماله في الدنيا لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضرراً أعظم منها أو تفوت أنفع منها وأبقى فهي باطلة أيضاً، فثبت أن كل عمل لا يُراد به وجه الله فهو باطل وإن كان فيه لذة ما.

(٨٠٥) والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم، ولا هو محتاج إلى أمرهم، وإنما أمرهم إحساناً منه ونعمة أنعم بها عليهم؛ فأمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم؛ وإرسال الرسل وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه.

(٨٠٦) ومن تأمل نصوص الكتاب والسُّنة وجدها في غاية الإحكام والإتقان، وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص والإثبات لكل كمال. وأنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله وأنه إذا كان كاملًا بذاته وصفاته وأفعاله، لم يكن كاملًا بغيره ولا مفتقراً إلى سواه، بل هو الغنيُّ ونحن الفقراء، وهو سبحانه ــ في محبته ورضاه، ومقته وسخطه، وفرحه وأسفه، وصبره وعفوه

ورأفته ـ له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد، وله الثناء الحسن الذي لا يحصيه العباد، وإنما هو كما أثنى على نفسه له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه

**﴿إنْ كُلُّ مَنْ في السمٰوات والأرض إلاّ آتِي الرحمن عبداً * لقد أحصاهُمْ وعدَّهُمْ عدًّا * وكُلُّهم آتِيه يومَ القيامةِ فَرداً﴾**

[سورة مريم: الآيات ٩٣ ـ ٩٥]

(٨٠٧) يجب أن يعلم أن الكمال ثابت لله، بل الثابت له أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلّا وهو ثابت للرب تعالى، يستحقه بنفسه المقدسة؛ وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه، فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز وأن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك.

(٨٠٨) ودلالة القرآن على الأمور نوعان:

**أحدهما**: خبر الله الصادق، فما أخبر الله ورسولُه به فهو حق كما أخبر الله به.

**والثاني**: دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالَّة على المطلوب فهذه دلالة شرعية عقلية، فهي شرعية لأن الشرع دلَّ عليها وأرشد إليها. وعقلية لأنها تعلم صحتها بالعقل.

وثبوت معنى الكمال لله قد دلّ عليه القرآن بعبارات متنوعة دالَّة على معانٍ متضمِّنة لهذا المعنى؛ فما في القرآن من إثبات الحمد له وتفصيل محامده وأنّ له المثل الأعلى، وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك دالٌّ على هذا المعنى، وقد ثبت لفظ الكامل في تفسير ابن عباس للصَّمد، أَنَّ الصَّمد المستحق للكمال، وهو السيد الذي كمل في سؤدده والعليم الذي قد كمل في علمه والعظيم الذي كمل في عظمته، وهكذا سائر أسمائه الحسنى على هذا

المنوال، وهذا المعنى هو المستقرُّ في فِطَرِ الناس، فكما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فإنهم مفطورون على إنه أجلُّ وأكبرُ وأعلى وأعلم وأكملُ من كل شيء.

ومن ثبوت الكمال لله بالعقل أنه قد ثبت وجوب وجوده وقَيُّوميَّتِه وقِدَمه وسائر أوصافه وإن له المثل الأعلى، وبيانُ نقص ما عُبِد من دونه من المخلوقات وتفصيلُ حمده الذي يستحقه من صفاتِ كماله وحمدِه الذي فيه الإحسان المتنوع على خلقه وعلى كمال حكمته وسعة علمه ورحمته، وبيانُ كمال ألوهيته واستحقاقه الجلال والإكرام، فله صفاتُ الجلال والعظمة ويستحق من عباده أن يكون مألوهاً معظَّماً أعظم من كل شيء وأحبَّ إليهم من كل شيء تبارك وتعالى.

(٨٠٩) وإذا علم العبد من حيث الجملة أنّ لله فيما خلقه وما أمر به حكمةً عظيمة كفاه ذلك؛ ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقلَه ويتبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال:

﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتَّى يتبينَ لهمْ أنَّهُ الحَقُّ﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

(٨١٠) الواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلِّيَ معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاًّ أو غاوياً وأمكن أنْ يهديَه ويرشدَه فعل ذلك، وإلاّ فلا يكلِّف الله نفساً إلاّ وُسعها؛ وإن كان قادراً على أن يولِّي في إمامة المسلمين الأفضل ولّاه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور مَنَعه، وإن لم يقدر على ذلك، فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل، وإن كان في هجره لمُظهر البدعة والفجور مصلحةٌ راجحة هَجَرَه، وأما إذا وَلِي غيره بغير إذنه، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً، وكان قد رَدَّ بدعةً

ببدعة والصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلُّوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحداً إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة.

(٨١١) قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تأْكُلوا أموالَكُم بينكم بالباطل﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

مِن أكل أموال الناس بالباطل أخذ أحد العِوَضين بدون تسليم العوض الآخر، لأن المقصود بالعهود والعقود المالية هو التقابض، فإن المعاوضة كالمبايعة والمؤاجرة مبناها على المعادلة والمساواة من الجانبين لم يبذل أحدهما ما بذله إلّا ليحصل له ما طلبه، فكل منهما آخذٌ معطٍ طالبٌ مطلوب، فإذا تلف المقصود بالعقد قبل التمكن من قبضه مثل تلف العين المؤجرة قبل التمكن من قبضها أو تلف ما بيع بكيل أو وزن أو عد أو زرع قبل تمييزه بذلك وإقباضه ونحو ذلك لم يجب على المؤجر أو المشتري أداء الأجرة أو الثمن، وهذا الأصل مستقرٌ في جميع المعاوضات: إذا تلف المعقود عليه قبل التمكن من القبض تلفاً لا ضمان فيه انفسخ العقد، وإن كان فيه الضمان كان في العقد الخيار؛ وكذلك سائر الوجوه التي يتعذر فيها حصول المقصود بالعقد من غير أياس ووضع الجوائح وغيرها مبنيٌّ على هذا الأصل، وليس من شرط القبض أن يستعقب العقد بل القبض يجب وقوعه على حسب ما اقتضاه العقد لفظاً وعرفاً، ولهذا يجوز استثناء بعض منفعة المبيع مدةً معلومةً وإن تأخر بها القبض على الصحيح. وسر ذلك أن القبض هو موجب العقد فيجب في ذلك ما أوجبه العاقدان بحسب قصدهما الذي يظهر بلفظهما وعرفهما.

(٨١٢) والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبُهُم واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين، معاديةٌ لأعداء الله ورسوله وأعداء الدين، فما دام هذا وصفهم فقلوبُهم الصادقة وأدعيتهم الخالصة هنّ العسكرُ الذي لا يُغلب والجند الذي لا يُخذل، فإنهم هم الطائفة المنصورة إلى قيام

الساعة؛ وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين وصلاح الدين، ثم العادل، كيف مكَّنهم الله وأيدهم وفتح لهم البلاد وأذلّ لهم الأعداء لما قاموا بذلك بما قاموا به من الدين، وليعتبر بسيرة من والَى النصارى كيف أذلَّه الله وكَبَته.

(٨١٣) وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ، صلى الله وسلم عليهم، وأفضل أولو العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون والآخرون، وصاحب لواء الحمد والحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمتَه خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرّقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقاً وأولهم بعثاً، ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون وليًّا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه ظاهراً وباطناً، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أوليائه، بل من خالَفَه كان من أعدائه وأولياء الشيطان.

(٨١٤) اسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربِّه وإن كان نذراً، وللعهد الذي بينه وبين المخلوقين.

(٨١٥) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٨١٦) أصل الإيمان والنفاق في القلب، وإنما القول والفعل فرعان لهما.

(٨١٧) حقُّ الله وحق رسوله متلازمان. وجهة حرمة الله ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله ومن أطاعه فقد أطاع الله.

(٨١٨) الأعمال إنما يُحبِطها ما يُنافِيها.

(٨١٩) وإذا علم الرجل من حال صديقه أنه يطيب نفسه بما يأخذ من ماله فله أن يأخذ وإن لم يستأذنه نطقاً.

(٨٢٠) الكلمة التي تصدر عن محبة وتعظيم تغفر لصاحبها بل يحمد عليها وإن كان مثلها لو صدر بدون ذلك استحق صاحبها النكال، وكذلك الفعل.

(٨٢١) الحكم المعلَّق بشرط لا يثبت بعينه عند عدمه باتفاق العقلاء.

(٨٢٢) لما ذكر آيات الأمر بالصبر وآيات القتال قال: فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف وفي وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر، والصفح والعفو عما يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين؛ أما أهل القوة فيعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

(٨٢٣) سبُّ غير الرسول ــ مع كونه معصيةً ــ يوجب الجلد، وسبُّ الرسول مع كونه كُفراً يوجب القتل.

(٨٢٤) الظاهر إنما يكون دليلاً صحيحاً معتمداً إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام الدليل على الباطن لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه.

(٨٢٥) الحكم إذا لم يثبت بأصل ولا نظير كان تحكُّماً.

(٨٢٦) قاعدة شريفة جامعة في وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ووجوب عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسله على كل أحد في كل حال بحسب الاستطاعة؛ وإن كل ما خالف ذلك فهو باطل، والتنبيه على إبطال الاعتقادات والعقود المخالفة لذلك، وبيان أن مراتب الخير والشر بحسب الدخول في ذلك والخروج منه، فأفضلهم أكملهم

قياماً بذلك، كالنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وشرُّهُم أبعدُهم عنه، كالكفار المعطِّلين والمُشْركين مثل فرعون وغيره من أصناف الكفار والمنافقين، وأفضل الخلق من حين بعث محمد ﷺ وأقومهم بذلك أتبعهم له، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وشر الخلق أعظمهم مخالفة لهؤلاء، كالزنادقة الملحدين من القرامطة الباطنية العبيدية وغيرهم.

ثم فصّل هذه الجملة الكبيرة برسالة مستقلة رحمه الله وقدس روحه.

فهذه أكثر من ثمانمائة من الأصول الجوامع والقواعد والضوابط كلها قد انتقيتها من كتب هذا الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي كما ترى في جميع العلوم النافعة والفنون الضرورية.

ولما كان شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية قد سلك مسلك شيخه المذكور بالتحقيق للعلوم الأصولية والفروعية والظاهرة والباطنة، وكان أعظم من انتفع بشيخ الإسلام وأقومهم بعلومه وأوسعهم في العلوم العقلية والنقلية أحببت أن أنقل من كتبه من الأصول والقواعد والضوابط والفوائد الجليلة وأتبعها لهذا الكتاب، وسأحذو بحول الله حذو ما فعلته بما نقلته من كتب شيخ الإسلام أذكر نفس عبارة المؤلف من غير تغيير لها إلا إذا اقتضى السبب ذلك، إما اقتصاراً على نفس المقصود من عبارته أو جمع القاعدة التي توزعت وتفرقت في كلامه في عدة مواضع لا تتم الفائدة المطلوبة إلّا بضم بعضها إلى بعض، وأسأل الله أن ييسر ذلك وأن يجعل العمل خالصاً لوجهه نافعاً لعباده، ومن نظر فيها علم أنها من أنفع ما يكون وأنها جمعت من العلوم والمعاني ما لم يجمعه أي كتاب، فإنها صفوة كتبهما الموجودة، رحمهما الله وقدس أرواحهما آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**قواعد وضوابط منقولة من كتب شمس الدين ابن القيم**

## (من البدائـع)

(٨٢٧) حقوق المالك شيء، وحقوق المِلك شيء آخـر، فحقوق المالك تجب لمن له على أخيه حق، وحقوق المِلك تتبـع الملك ولا يراعى بها المالك.

(٨٢٨) تمليك المنفعة شيء وتمليك الانتفاع شيء آخر، فالأول يملك به الانتفاع والمعاوضة، والثاني يملك به الانتفاع دون المعاوضة.

(٨٢٩) الفرق بين الشهادة والرواية، أن الرواية يعم حكمها الراوي وغيره على ممر الزمان، والشهادة تخص المشهود عليه ولا يتعداهما إلّا بطريق التبعية المحضة، فالشهادة اشترط فيها العدد وانتفاء التهمة الخاصة، والرواية لا يشترط فيها العدد إنما يشترط الحفظ والعدالة وهنا فـروع مترددة بين الأمرين: مِنَ العلماء مَنْ ألحقها بالشهادة، ومنهم من ألحقها بالرواية كرؤية الهلال. والقافة والجرح والتقويم والقسم ونحوها.

(٨٣٠) قول الصبـي والمرأة والكافر مقبول فيما جرت به العـادة، كالهدية ونحوها لما احتف بذلك من القرائن المرجحة.

(٨٣١) الخبر إن كان عن حكم عام يتعلق بالأمة فإمّا أن يكون مستندَه السماعُ فهو الرواية؛ وإن كان مستندَه الفهمُ من المسموع فهو الفتوى؛ وإن كان خبراً جزئياً يتعلق بمعيَّن مستندُه المشاهدَة أو العلم فهو الشهادة؛ وإن كان خبراً عن حق يتعلق بالمخبر عنه، والمخبر به هو مستحقه أو نائبه فهو الدعوى؛ وإن كان خبراً عن تصديق هذا الخبر فهو الإقرار؛ وإن كان خبراً عن كذبه فهو الإنكار؛ وإن كان خبراً نشأ عن دليل فهو النتيجة وتسمى قبل أن يحصل عليها الدليل مطلوباً؛ وإن كان خبراً عن شيء يقصد منه نتيجته فهو دليل وجزؤه مقدمة.

(٨٣٢) المجاز والتأويل لا يدخل في النصوص وإنما يدخل في الظاهر المحتمل له.

## فوائد تتعلق بالأسماء والصفات

ما يجري صفة أو خبراً على الرب أقسام:

ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء؛ وما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع، وما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق الرازق وما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس السلام.

وما يدل على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة كالعظيم المجيد الصمد.

وما أفاد صفة تحصل باقتران أحد الاسمين للآخر نحو الغني الحميد، العفوّ القدير، الحميد المجيد، العزيز الحكيم، الغفور الودود، وما يدخل في باب الإخبار عن الله أوسع مما يدخل في باب أسمائه.

(٨٣٣) الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها

في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها وذلك كالمُريد والصَّانع والفاعل فإنها لا تدخل في أسمائه بل تقيّد بالكمال.

(٨٣٤) أسماؤه الحسنى أعلام وأوصاف، وللاسم ثلاث دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم؛ ولها اعتباران فهي باعتبار الذات ودلالتها عليها مترادفة، وباعتبار الصفات متباينة. أفعال الرب صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله من فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، والرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته.

(٨٣٥) إحصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن أسماء الله وصفاته، ولهذا كانت في غاية الإحكام والصلاح والنفع.

(٨٣٦) ومراتب إحصاء أسماء الله التي من أحصاها دخل الجنة ثلاثة: حفظها وفهمها ودعاء الله بها دعاء عبادة ودعاء مسألة.

(٨٣٧) الإلحاد في أسماء الله يدخل فيه نفيها وتعطيلها أو تشبيهها بصفات المخلوقين أو تسمية المخلوقات بها على الوجه الذي يختص بالله، ويدخل في ذلك التحريف الباطل.

(٨٣٨) القول الجامع في تفسير الصراط المستقيم هو الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله وجعله مُوصِلاً لعباده إليه ولا طريق لهم سواه، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وتُرْضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلاّ معمور بحبه ولا تكون لك إرادة إلاّ متعلقة بمرضاته وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق

والعمل به، وهو معرفةُ ما بعث اللَّهُ به رسُلَه والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها.

(٨٣٩) ينبغي لمن دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي يستشفع إليه متوسل إليه به.

(٨٤٠) البركة المضافة إلى الله نوعان: بركة هي فعله تعالى والفعل منه بَارك وبركة هي وصفه والفعل منها تبارك فتبارك دالٌّ على كمال بركته وعظمها وسعتها والبركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تعالى.

(٨٤١) ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

(١) التعوّذ بالله من شره والتحصّن واللجأ إليه.

(٢) تقوى الله وحفظه عند أمره.

(٣) الصبر على عدوه بأن لا يقابله بأذى أصلا.

(٤) قوة التوكل على الله.

(٥) فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه.

(٦) الإقبال على الله.

(٧) التوبة من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه.

(٨) الصدقة والإحسان مهما أمكنه.

(٩) وأخص من ذلك الإحسان إلى الحاسد الباغي.

(١٠) السبب الجامع لذلك وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم.

(٨٤٢) أَتْباع الرسل وأهلُ الحق أقرُّوا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقرّوا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله ورسوله من صفاتهما

وشرهما واستعاذوا بالله منه وعلِموا أنه لا يعيذهم إلاّ الله، ومن خاف شيئاً غير الله سلط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته.

(٨٤٣) وينحصر شر الشيطان في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر:

(١) شر الكفر والشرك.
(٢) ثم البدعة.
(٣) ثم كبائر الذنوب.
(٤) ثم صغائرها.
(٥) ثم الاشتغال بالمباحات عن الخير.
(٦) ثم بالعمل المفضول عن الفاضل.

والأسباب التي يعتصم بها العبد من الشيطان عشرة:

(١) الاستعاذة بالله منه.
(٢) قراءة المعوِّذتين.
(٣) قراءة آية الكرسي.
(٤) قراءة البقرة.
(٥) قراءة خاتمة البقرة.
(٦) قراءة أول (حم) المؤمن إلى إليه المصير.
(٧) ولا إلهَ إلاّ الله وحدَه لا شريك له، لَهُ الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة.
(٨) كثرة ذكر الله.
(٩) الوضوء مع الصلاة.
(١٠) إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس.

وليعلم أن الناس أربعة أقسام:

**أحدها**: مَنْ مخالطته كالغـذاء، لا يُستغنى عنه في اليـوم والليلة، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا في مخالطته الربـح كله.

**الثاني**: مَن مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه.

**الثالث**: مَن مخالطته كالداء، على اختلاف مراتبه وأنواعـه وقوتـه وضعفه، وهم من في خلطته ضرر ديني أو دنيوي، ومتى ابتليت بواحد من هؤلاء فلتعاشره بالمعروف حتى يجعل الله لك فرجاً، ومتى تمكنت من نقله إلى الخير فهي فرصة تغتنم.

**الرابـع**: من مخالطته الهلك كله بمنـزلة السم، وهم أهـل البدع والضلاله.

(٨٤٤) أكثر الخلق إذا نالوا الرئاسات تغيرت أخلاقهم ومالوا إلى الكبر وسرعة الانفعال، فمن الغلط أن تطالبه بالأخلاق التي كان يعامل بها قبل الرئاسة؛ ومخاطبة الرؤساء بالقول اللين مطلوب شرعاً وعقلاً، وهكذا كان ﷺ يخاطب العشائر والقبائل.

(٨٤٥) فـإن الله أرسل رسله وأنـزل كتبه ليقـوم النـاس بـالقِسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان، فَثَمَّ شرعُ الله ودينُه؛ ولم يحصر الله ورسوله طرقَ العدل في أمور معينة، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهو من الدين.

(٨٤٦) حذارِ حذارِ من أمرين لهما عواقب سوء:

(١) رد الحق لمخالفـة هَواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب، وردّ ما يرد عليك من الحق رأساً.

(٢) التهاون بالأمر إذا حضر وقته فإنك تعاقب بالتثبيط والإقعاد والكسل.

فمن سلم من هاتين الآفتين فَلْتَهْنِه السلامة.

(٨٤٧) الفعل إن كان منشأ المفسدة الخالصة أو الراجحة فهو المحرّم، فإن ضعفت تلك المفسدة فهو المكروه، ومراتبه في الكراهة بحسب ضعف المفسدة؛ هذا إذا كان منشأ للمفسدة، وأما إذا كان مفضياً إليها، فإن كان الإفضاء قريباً فهو حرام أيضاً كالخلوة بالأجنبية والسفر بها ورؤية محاسنها، فهذا القسم يسلب عنه اسم الإباحة وحكمها. وإن كان الإفضاء بعيداً جدّاً لم يسلب اسم الإباحة ولا حكمها كخلوة ذي رحم المحرَم بها وسفره بها ونظر الخاطب، فإن قرب الإفضاء قرباً ما فهو الورع وهو في المراتب على قدر قرب الإفضاء وبعده، وكلما قرب الإفضاء كان أولى بالكراهة والورع حتى ينتهي إلى درجة التحريم.

(٨٤٨) حمل المطلق على المقيد مشروط بأن لا يقيد بقيدين متنافيين، فإن قيد بذلك امتنع الحمل وبقي على إطلاقه، وعلم أن القيدين تمثيل لا تقييد، ومشروط أيضاً إذا لم يستلزم تأخير البيان عن وقت الحاجة، فإن استلزمه حمل على إطلاقه.

(٨٤٩) القياس وأصول الشرع يقتضي أنه لا يصح رفض شيء من الأعمال بعد الفراغ منه، وأن نية رفضه وإبطاله لا تؤثر شيئاً، فإن الشارع لم يجعل ذلك إليه.

(٨٥٠) الأسباب الفعلية أقوى من الأسباب القولية.

(٨٥١) النكرة في سياق النفي أو النهي أو الاستفهام أو الشرط، تعم والمفرد المحلى «بأل» والمفرد المضاف وعموم الجمع المحلى «باللام» وأدوات الشرط كلها تعم وشواهدها كثيرة.

(٨٥٢) الأمر المطلق للوجوب، والنهي والتحريم إلاّ إذا دلّ على خلاف ذلك.

(٨٥٣) ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من ذمه لمن خالفه وتسميته إياه عاصياً وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل. ويستفاد كون النهي للتحريم من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته إياه عاصياً وترتيبه العقاب على فعله، ويستفاد الوجوب بالأمر تارة وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب ولفظة (على) ولفظة (حق) على العباد وعلى المؤمنين وترتيب الذم والعقاب على الترك وإحباط العمل بالترك وغير ذلك.

ويستفاد التحريم من النهي والتصريح بالتحريم والحظر والوعيد على الفعل وذم الفاعل وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله (لا ينبغي) فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً وشرعاً، ولفظة (ما كان لهم كذا ولم يكن لهم) وترتيب الحد على الفعل ولفظة (لا يحل ولا يصلح) ووصف الفعل بأنه فساد وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله لا يحبه وأنه لا يرضاه لعباده ولا يزكِّي فاعله ولا يكلِّمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة: من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجُنَاح والحَرَج والإثمِ والمؤاخذةِ والإخبارِ بأنه معفوّ عنه، وبالإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإنكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا، وجعله لنا، وامتنانه علينا به وإخباره عن فعل مَنْ قَبْلَنَا له؛ غير ذامٍّ لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدحُ فاعله لأجله دلَّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً، وكل فعل عظَّمه الله ورسوله ومَدَحه أو مدح فاعله لأجله أو فرح به أو أحبَّه أو أحبَّ فاعلَه أو رضي به أو رضي عن فاعله أو وصفه بالطيِّب أو البركة أو الحسن أو نصبه سبباً لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سبباً لذكره لعبده أو لشكره له أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته أو لقبوله أو لنصرة فاعله أو بشارة فاعله بالطيب أو وصف الفعل بكونه معروفاً

أو نفي الحزن والخوف عن فاعله أو وعده بالأمن أو نصبه سبباً لولايته أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله أو وَصَفه بكونهِ قُرْبة أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها أو ضَحِك الرب جل جلاله من فاعله أو عجبه به.. فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب، وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذم فاعله أو عتب عليه أو لعنه أو مقته أو مقت فاعله أو نفى محبته إياه أو محبة فاعله أو نفى الرضا به أو الرضا عن فاعله أو شبّه فاعله بالبهائم أو الشياطين أو جعله مانعاً من الهدى أو القبول أو ما يقارب هذه المعاني... دلّ على تحريمه.

(٨٥٤) ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المواد للعقل وتصويره في صور المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذمّ وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر.

(٨٥٥) السِّياق يُرشد إلى بيان المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوُّع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالّة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته.

(٨٥٦) الحاكم محتاج إلى ثلاثة أمور لا يصح له الحكم بدونها: معرفة الأدلة والأسباب والبينات.

(٨٥٧) فالأدلة تعرِّفه الحكم الشرعي الكلي، والأسباب تعرِّفه ثبوته في هذا المحل المعين وانتفاؤه عنه. والبيِّنات تعرِّفه طريق الحكم عند التنازع، ومتى أخطأ في واحد من هذه الثلاثة أخطأ في الحكم، وجميع خطأ الحكام مداره على الخطأ فيها أو في بعضها.

(٨٥٨) الفرق بين دليل مشروعية الحكم وبين دليل وقوع الحكم، فالأول متوقف على الشارع، والثاني يُعلم بالحس أو الخبر أو العادة؛ فالأول الكتاب والسُّنة، وكل دليل سواهما يستنبط منهما، والثاني مثل العلم بسبب الحكم وشروطه وموانعه، فدليل مشروعيته يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث، ودليل وقوعه يرجع فيه إلى أهل الخبرة بتلك الأسباب والشروط والموانع.

(٨٥٩) الأمر المطلق والجرح المطلق والعلم المطلق والترتيب المطلق والبيع المطلق والماء المطلق والملك المطلق غير مطلق الأمر إلى آخرها، والفرق بينهما أمور:

منها أن الأمر المطلق إلى آخرها لا ينقسم إلى أمر الندب وغيره، فلا يكون مورداً للتقسيم، ومطلق الأمر ينقسم إلى أمر إيجاب وأمر ندب فمطلق الأمر ينقسم والأمر المطلق غير منقسم.

ومنها أن الأمر المطلق فرد من أفراد مطلق الأمر ولا ينعكس.

ومنها أن نفي مطلق الأمر يستلزم نفي الأمر المطلق دون العكس.

الخامس: أن الأمر المطلق نوع لمطلق الأمر ومطلق الأمر جنس للأمر المطلق إلى أن قال:

التاسع: إنّ من بعض أمثلة هذه القاعدة الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق لا يطلق إلّا على الكامل الكمال المأمور به، ومطلق الإيمان يطلق على الناقص والكامل، فالنصوص التي علقت الأحكام الدنيوية على الإيمان هي مطلق الإيمان، والنصوص التي فيها المدح واستحقاق الثواب والسلامة من العقاب للإيمان المطلق. وسرد نصوصاً في ذلك.

(٨٦٠) ما تبيحه الضرورة يجوز الاجتهاد فيه حال الاشتباه، وما لا تبيحه الضرورة فلا.

(٨٦١) ما بطل حكمه من الإبدال بحصول مبدله لم يبق متعبداً به بحال، فإن وجود المبدل بعد الشروع فيه كوجوده قبل الشروع فيه.

(٨٦٢) من وجب عليه شيء وأمر بإنشائه فامتنع فهل يفعله الحاكم عنه أو يجبره عليه؟ فيه خلاف.

(٨٦٣) من أصول **مالك**: اتباع عمل أهل المدينة وإن خالف الحديث، وسد الذرائع، وإبطال الحيل، ومراعاة القصود والنيات في العقود، واعتبار القرائن وشواهد الحال في الدعاوى والحكومات، والقول بالمصالح والسياسة الشرعية.

ومن أصول **أبي حنيفة**: الاستحسان وتقديم القياس وترك القول بالمفهوم، ونسخ الخاص المتقدم بالعام المتأخر والقول بالحيل.

ومن أصول الشافعي: مراعاة الألفاظ والوقوف معها وتقديم الحديث على غيره.

ومن أصول أحمد: الأخذ بالحديث ما وجد إليه سبيلاً، فإن تعذر فقول الصحابي ما لم يخالف، فإن اختلفوا أخذ من أقوالهم أقواها دليلاً، وكثيراً ما يختلف قوله عند اختلاف أقوال الصحابة، فإن تعذر عليه ذلك كله أخذ بالقياس عند الضرورة. وهذا قريب من أصول الشافعي، بل هما عليه متفقان.

(٨٦٤) شروط العمل بالظّنِّيات الترجيح عند التعارض؛ فإن وقع التساوي ففيه قولان: التخيير والتوقف.

(٨٦٥) الحقوق المالية الواجبة لله أربعة أقسام:

أحدها: حقوق المال كالزكاة، فهذا يثبت في الذمة بعد التمكن من أدائه، فلو عجز عنه بعد ذلك لم يسقط، ولا يثبت في الذمة إذا عجز عنه وقت الوجوب وألحق به زكاة الفطر.

**القسم الثاني**: ما يجب بسبب الكفّارة، فإذا عجز عنها وقت انعقاد أسبابها ففي ثبوتها في ذمته إلى الميسرة أو سقوطها قولان مشهوران في مذهب الشافعي وأحمد.

**القسم الثالث**: ما فيه معنى ضمان المتلف؛ كجزاء الصيد وفدية الأذى، فإذا عجز عنه وقت وجوبه ثبت في ذمته تغليباً لمعنى الغرامة وجزاء المتلف.

**القسم الرابع**: دم النسك، كالمتعة والقِران، فهذه إذا عجز عنها وجب عنها بدلها من الصيام.

وأما حقوق الآدميين فإنها لا تسقط بحال، لكن إن كان عجزه بتفريط منه في أدائها طولب بها في الآخرة، وإن كان بغير تفريط ففي إشغال ذمته بها وأخذ أصحابها من حسناته نظر.

(٨٦٦) إذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكراً وافياً اطلعت فيه من أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشُّبَه الفاسدة وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي، ويكفي لمن بَصَّره الله وأنعم عليه بفهم كتابه.

(٨٦٧) من ادعى صرف لفظ عن ظاهره إلى مجازه لم يتمّ له ذلك إلاّ بعد أربع مقامات:

**أحدها**: بيان امتناع إرادة الحقيقة.

**الثاني**: بيان صلاحية اللفظ لذلك المعنى الذي عيَّنه، وإلاّ كان مفترياً على اللغة.

**الثالث**: بيان تعيين ذلك المجمل إن كان له عدة مجازات.

**الرابع**: الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة، فمن لم يقم

بهذه الأمور الأربعة كانت دعواه (صرف اللفظ عن ظاهره) دعوى باطلة. وإن ادعى مجرد صرف اللفظ عن ظاهره ولم يعين مجملاً لزمه أمران:

**أحدهما**: بيان الدليل الدالّ على امتناع إرادة الظاهر.

**والثاني**: جوابه عن المعارض.

(٨٦٨) الاستدلال شيء والدلالة شيء آخر فلا يلزم من الغلط في أحدهما الغلط في الآخر.

## ومن «أعلام الموقعين»

التبليـغ عن الله ورسوله نوعان:

تبليـغ ألفاظ الكتاب والسُّنة والقائمون بذلك هم القراء والحفاظ.

وتبليـغ معانيهما والقائمون بذلك هم الأئمة والفقهاء والتبليـغ يعتمد العلم بما يبلـغ والصدق فيه فيكون عالماً بما بلـغ صادقاً فيه، ويكون مـع ذلك حسن الطريقة مرضيَّ السيرة.

(٨٦٩) هل للمقلد أن يفتي؟ فيه ثلاثة أقوال: المنـع والجواز، والثالث أنه يجوز ذلك عند الحاجة، وعدم العالم المجتهد وهو أصـح الأقوال وعليه العمل.

(٨٧٠) الرأي ثلاثة أقسام: رأي باطل، ورأي صحيـح، ورأي هو موضـع اشتباه، والسلف استعملوا الرأي الصحيـح وعملوا به وذموا الباطل ومنعوا من العمل به، والثالث سوَّغوه عند الاضطرار. فالرأي الباطل:

١ ـ الرأي المخالف للنص.

٢ ـ والكلام في الدين بالخَرْص.

٣ ـ والرأي المتضمن تعطيل أسماء الله وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع.

٤ ـ والرأي الذي أحدثت به البدع.

٥ ـ والقول بالاستحسان والظنون والاشتغال بحفظ المعضلات ورد الفروع بعضها على بعض قياساً دون ردِّها إلى أصولها.

والرأي المحمود أنواع:

١ ـ رأي الصحابة رضي الله عنهم.

٢ ـ والرأي الذي يفسر النصوص ويبيّن وجه الدلالة منها إذا كان مستنداً إلى استدلال واستنباط دون ما استند على مجرد التخرص.

٣ ـ والرأي الذي اتفقت عليه الأمة.

٤ ـ والرأي الذي يكون بعد طلب الواقعة من الكتاب والسُّنة وأقوال الصحابة يجتهد فيه إلى قربه من معاني النصوص.

(٨٧١) الطرق التي يحكم فيها الحاكم أوسع من الطرق التي أرشد الله صاحب الحق إلى أن يحفظ حقه بها.

(٨٧٢) الذي جاءت به الشريعة أن اليمين تُشرع من جهة أقوى المتداعيين وأي الخصمين ترجَّح جانبه جعلت اليمين من جهته.

(٨٧٣) الصلح جائز بين المسلمين إلّا صلحاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً؛ والمسلمون على شروطهم إلّا شرطاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً. والحقوق نوعان: حق لله لا مدخل للصلح فيه، كالحدود ونحوها، وأما حقوق الآدميين فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعاوضة عليها، والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله، والجائر هو الظلم بعينه، وهو الميل مع

أحد المتصالحين بغير نفـع للآخر، فالصلـح الجائز هو الذي يعتمد فيه رضى الله ورضى الخصمين.

(٨٧٤) أصل مبنى تعبير الرؤيا على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس، فالرؤيا أمثال مضروبة يضربها الملك الذي وَكَله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بما ضرب له من المثل على نظيره ويعبر عنه إلى شبهه.

(٨٧٥) وكما أن محمداً ﷺ عامُّ الرسالة إلى كـل مكلف، فرسالته عامة في كل شيء من الدين، أصولِه وفروعِه، دقيقِه وجليلِه، فكما لا يخرج أحد عن رسالته، فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمة عنها وعن بيانه لها.

(٨٧٦) نصوص الكتاب والسنة عامة شاملة لا يخرج عنها حكم من الأحكام ولكن دلالة النصوص نوعان، حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامـع وإدراكه وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك.

(٨٧٧) ليس في الشريعة ما يخالف القياس. وما ظن فيه مخالفته للقياس فأحد الأمرين لازم فيه: إما أن يكون القياس فاسداً أو يكون ذلك الحكم لم يثبت بالنص كونه من الشرع؛ ثم ذكر ما قيل إنه على خلاف القياس وبيّـن بالدلالة الواضحة مطابقته للقياس الصحيـح.

(٨٧٨) والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه: (١): أن يعلم أولاً هل هو طاعة للّه أم لا، فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلاّ أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة؛ (٢): فإذا بان له أنه طاعة لله فلا يُقدم عليه حتى ينظر هل هو مُعانٌ عليه أم لا، فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه؛ وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نظر آخر، (٣): وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرّط فيه أو أفسد منه شيئاً، فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه وهو معنى قول العبد:

**﴿إياك نعبد وإياك نستعين، اهدِنا الصِّراط المستقيم﴾**
[سورة الفاتحة: الآيتان ٥، ٦]

فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عَدِمَ الأمور الثلاثة؛ ومنهم من يكون له نصيب من أحدها دون الأُخَرِ.

(٨٧٩) العمل لله وحده مقبول ولغيره مردود، فإذا كان العمل لله ولغيره فهو ثلاثة أقسام:

**أحدها**: أن يكون الباعث الأول على العمل الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله، فهذا المعول فيه على الباعث الأول، ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع استصحاب حكمها.

**الثاني**: عكس هذا فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل ويحتسب له من حين قلب نيته، ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلاّ بصحة أولها وجبت الإعادة كالصلاة وإلاّ لم تجب، كم أحرم لغير الله؛ ثم قلب نيته لله عند الوقوف أو الطواف.

**الثالث**: أن يبتديها مريداً بها الله والناس، فيريد أداء فرضه، والجزاء والشكور من الناس، وكمن يصلِّي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلّى، ولكنه يصلِّي لله وللأجرة، وكمن يحجّ ليسقط الفرض عنه، ويقال: فلان حج أو نحو ذلك فهذا لا يقبل منه العمل، وإن كانت النية شرطاً في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل هو تجريد القصد طاعة للمعبود ولم يؤمر إلاّ بهذا وهو لم يأت به فبقي في عهدة الأمر.

(٨٨٠) التقليد المحرَّم ثلاثة أنواع:

**أحدها**: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاءً بتقليد الآباء.

**الثاني**: تقليد من لا يعلم المقلِّد أَنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

**الثالث**: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

**(٨٨١)** الواجب على كل عبد من العلم أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه إليه الحاجة إلى معرفته، وهو بحمد الله أيسر شيء كتاب الله وسنة رسوله، وهي بحمد الله مضبوطة محفوظة أصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث.

**(٨٨٢)** طريقة الصحابة والتابعين إنهم يردون المتشابه إلى المُحْكَمِ ويأخذون من المُحْكَم ما يفسِّر لهم المتشابه ويبيِّنه، فتتفق دلالته مع دلالة المُحْكَم، وتُوافِق النصوص بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً، فإنها كلها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض؛ وإنما الاختلاف والتناقض في غيره، ولهذا الأصل أمثلة كثيرة، أصولية وفروعية.

**(٨٨٣)** وبيان النبي ﷺ أقسام: بيانه لألفاظ الوحي ولمعانيه بقوله أو فعله أو إقراره بيانٌ للقرآن، وبيانٌ ابتدائي يبتدىء الناس أو يسألونه وبيانه بالقول والفعل لمجملات القرآن.

**(٨٨٤)** قد تتغير الفتوى وتختلف بحسب الأحوال الأصلية والعارضة؛ والأصل أن يتبع فيها أرجح المصالح ويدفع أعظم المفاسد، ولذلك أمثلة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجب تركه لما هو أهم منه، وإقامة الحدود في الغزو ودرء القطع عام المجاعة، وإيجاب قوت البلد في الفطرة والكفّارات ونحوها، والمطرة وينبني عليه جواز طواف الحائض للضرورة والإلزام بالثلاث وعدمه وموجبات الأيمان والنذور وغيرها من الإقرار وغيره، والإلزام بالصداق الذي اتفق الزوجان على تأخيره وقد تنبني عليها كثير من مسائل الحيل والذرائع ونحوها.

(٨٨٥) ينبغي للمفتي أن يجيب السائل عن غير ما سأله إذا كان يتعلق بسؤاله أو تشتد إليه حاجته وأن يستفصل عما يظن فيه احتمالات، وأن ينبِّه السائل على موضع الاحتراز وأن يصور له الجواب ويوضحه ويذكر دليلَه ومأخذه، وإذا كان مستغرباً فليقدم أمامه ما يكون مُؤْذِناً به ودليلاً عليه، وله أن يحلف على ثبوت الحكم إذا كان فيه مصلحة وأن يفتي بلفظ النص ما وجد إليه سبيلاً، وإذا سئل فلينبعث من قلبه باعث الإخلاص والافتقار التام إلى ربه أن يلهمه الصواب ويسدده ولا يفتي إلّا بعلم ولا يجوز له أن يشهد على الله ورسوله أنه أحلَّ كذا أو حرّم كذا، أو أوجبه أو كرهه إلّا لما يعلم أن الأمر فيه كذلك، مما نص الله ورسوله على حكمه.

ذكر ابن بطة عن الإمام أحمد أنه قال: لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

**أولها**: أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور.

**الثانية**: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة.

**الثالثة**: أن يكون قوياً على ما هو عليه وعلى معرفته.

**الرابعة**: الكفاية وإلاَّ مضغه الناس.

**الخامسة**: معرفة الناس.

وهذا مما يدل على جلالة أحمد ومحله من العلم والمعرفة، فإن هذه الخمسة هي دعائم الفتوى، وأي شيء نقص منها ظهر الخلل من المفتي بحسبه.

## ومن كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»

لما ذكر الأثر أن مفتاح الجنة «لا إله إلا الله» وأن أسنانه شرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، وقد جعل الله لكل مطلوب مفتاحاً يفتح به، فجعل مفتاح الصلاة الطهور، ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر ومفتاح المزيد الشكر، ومفتاح الولاية المحبة والذكر، ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا، ومفتاح الفلاح التقوى، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده للتفكر فيه، ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته والإخلاص له في الحب والبغض، والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب تدبُّر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده، ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.

وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم، وهو معرفة مفاتيح أبواب الخير والشر لا يوفق لمعرفته ومراعاته إلّا من عَظُم حظه وتوفيقه، فإن الله سبحانه جعل لكل خير وشر مفتاحاً وباباً يدخل منه إليه، كما جعل الشرك والكِبْر والإعراض عما بعث الله به رسوله، والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحاً للنار؛ وكما جعل الخمر مفتاح كل إثم، وجعل الغناء مفتاح الزِّنا، وجعل إطلاق النظر في الصور مفتاح الطلب والعشق، وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، وجعل المعاصي كلها مفتاح الكفر، وجعل الكذب مفتاح النفاق، وجعل الشّح والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم، وأخذ

المال من غير حله، وجعل الإعراض عما جاء به الرسول مفتاح كل بدعة وضلالة، وهذه الأمور لا يُصَدِّق بها إلاّ كلُّ من له بصيرة صحيحة وعقل يعرف به ما في نفسه وما في الوجودِ من الخير والشر، فينبغي للعبد أن يعتني كل الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جُعِلت مفاتيح له، والله من وراء توفيقه وعدله، له الملك وله الحمد، وله النعمة والفضل، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

(٨٨٦) لما ذكر النصوص العديدة في عظمة نعيم الجنة وتنوعه قال: هذا الكلام العظيم الجامع لأصناف نعيم الجنة بغاية البيان والوضوح؛ وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده؛ وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهّرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة إلا وساقها من فضة وذهب، لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال، ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها، فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّى؛ وإن سألت عن طعامهم ففكاهة مما يتخيّرون ولحم طير مما يشتهون؛ وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية من الذهب والفضة في صفاء القوارير، وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام. وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره

وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار؛ وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار، وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإنْ سألت عن فرشهم فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلى الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات وهي الحجال مزرورة بأزرار الذهب، فما لها من فروج ولا خلال، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم أبي البشر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيين؛ وأعلى منهما خطاب رب العالمين؛ وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها فنجائب أنشأها الله حيث شاء من الجنان؛ وإنْ سألت عن حليهم وأساورتهم فأساور الذهب واللؤلؤ وعلى الرؤوس ملابس التيجان، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون، ثم ذكر أزواجهم وأن الله قد جمع فيهن كمال الحسن الباطن والظاهر بكل وجه واعتبار، ثم ذكر نعيمهم الأكبر برؤية الله وخطابه وحلول رضوانه الذي هو أكبر من الجنات كلها.

(٨٨٧) لما ذكر الأوصاف التي ذكر الله ورسوله فيمن يستحق الجنة قال: وهذا في القرآن كثير مداره على ثلاث قواعد: إيمان وتقوى وعمل خالص لله على موافقة السُّنة، فأهل هذه الأصول هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله وإحسان إلى خلقه؛ وضدها يجتمع في الذين يراءون ويمنعون الماعون؛ وترجع إلى خصلة واحدة، وهي موافقة الرب في محابه؛ ولا طريق إلى ذلك إلّا بتحقيق القدوة ظاهراً وباطناً برسول الله ﷺ، وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع

وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به وطاعته في جميع ما أمر به إيجاباً واستحباباً.

## ومن «مدارج السالكين»

(٨٨٨) مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد ويترتب عليهما داآن قاتلان: الغضب والضلال، فالضلال ينتجه فساد العلم والغضب ينتجه فساد القصد، وهذان المرضان ملاك أمراض القلوب جميعها، ثم ذكر أن شفاء ذلك بالهداية العلمية والهداية العملية معرفة الحق واتباعه، والقرآن كله شفاء لهذين المرضين ولغيرهما وفيه الهداية التامة.

(٨٨٩) وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع فقول القلب اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه وعن خلقه وعن الغيوب، وقول اللسان الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه والقيام بذكره وتبليغ أوامره؛ وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر له على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضا به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه والذل له والخضوع والإخبات والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح، كالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى مواضع العبادة، ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك، «فإياك نعبد» التزامٌ لأحكام هذه الأربعة، و«إياك نستعين» طلب الإعانة عليها والتوفيق لها،

و«إهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

(٨٩٠) مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله؛ فالأول يعصم من الهلكة والثاني يعصم من الضلالة، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها؛ فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والسلاح بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

(٨٩١) الإنصاف في معاملة الله أن يُعطي العبودية حقَّها وأن لا ينازع ربَّه صفاتِ إلهيته، وأن لا يشكر على نعمه سواه، ولا يستعين بها على معاصيه، ولا يحمد غيره ولا يعبد سواه.

وأما الإنصاف في حق العبيد فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به.

(٨٩٢) القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى عدم الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

(٨٩٣) سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها؛ وقال الإمام أحمد: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام ــ وهو زهد العوام، والثاني ترك الفضول من الحلال ــ وهو زهد الخواص، والثالث ترك ما يشغل عن الله ــ وهو زهد العارفين، وهذا من أجمع الكلام وأحسنه تفصيلاً.

(٨٩٤) الفرق بين الرجاء وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكّل؛ فالأول كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها،

والثاني كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع؛ فمن عمل بطاعة الله ورجاء ثوابه أو تاب من الذنوب ورجا مغفرته فهو الراجي، ومن رجا الرحمة والمغفرة بلا طاعة ولا توبة فهو مُتَمَنٍّ ورجاؤه كاذب؛ وللسالك إلى ربه نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف، ونظر إلى سعة رحمة الله وفضله العام والخاص به يفتح عليه باب الرجا، وقال شيخ الإسلام: الخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

(٨٩٥) ومراتب العلم والعمل ثلاثة: رواية، وهي مجرد النقل وحمل المروى؛ ودراية، وهي فهمه وتعقل معناه؛ ورعاية، وهي العمل بموجب ما علمه.

(٨٩٦) مراقبة الرب علم العبد وتيقنه باطلاع الحق على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله ومطلع على عمله كل وقت وكل لحظة ونَفَس وكل طرفة.

(٨٩٧) المعترضون على الله ثلاثة أقسام: معترضون على أسمائه وصفاته، ومعترضون على شرعه ودينه، ومعترضون على قضائه وقدره؛ ولا يتم للعبد دين وإيمان إلّا بترك هذا الاعتراض والتسليم لحكمه الديني والقدري.

(٨٩٨) تعظيم حرمات الله ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها توفيتها حقها وحفظها عن الإضاعة.

(٨٩٩) حقيقة الإخلاص توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق توحيد الطلب والإرادة ولا يثمران إلّا بالاستسلام المحض للمتابعة، فهذه الأركان الثلاثة هي أصول الطريق التي من لم يَبْنِ عليها سيرَه، فهو مقطوع، ومن اجتمعت له فهو السابق الذي لا يُجارى، وذلك فضل الله.

(٩٠٠) المطلوب من العبد الاستقامة على عبودية الله، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة.

(٩٠١) ولا يتمُّ التوكُّل الكامل إلا بمعرفة الله وصفاته وأفعاله وإثبات الأسباب والاجتهاد فيها، وقوة الاعتماد على الله والاستناد إليه والسكون، بحيث لا يبقى القلب مضطرباً من تشويش الأسباب، ولا بد من حسن الظن والثقة بالله في نيل ما توكل العبد على الله فيه، والتفويض إلى الله واستسلام القلب له، ويتوكل على الله في كل مطلوب حصوله أو دفع مكروه، وأفضل التوكّل ما كان في حصول خير ديني خاص أو عام.

(٩٠٢) الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله؛ فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب؛ والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه؛ وصبر الاختيار أكمل من صبر الاضطرار، وتمام الصبر أن يكون كما قال الله تعالى:

﴿والذين صَبَروا ابتغاء وجهِ ربِّهم﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٢]

وأقواه أن يكون بالله معتمداً فيه عليه لا على نفسه ولا على غيره من الخلق.

سمعت شيخ الإسلام يقول: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه؛ والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه؛ والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه.

(٩٠٣) قال النبي ﷺ: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وقال من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، غفرت له ذنوبه. وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنها الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له فهو الصِّدِّيق حقاً.

(٩٠٤) من أراد أن يحصل له الرضا عن الله الذي هو من أفضل الدرجات فليلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا.

(٩٠٥) الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور له، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

(٩٠٦) الحياء خلق ناشىء عن حياة القلب ورؤية الآلاء الغزيرة ورؤية التقصير في حقوق ربه، ويثمر اجتناب المحرمات والقيام بالواجبات، ولهذا قال ﷺ: (الحياء لا يأتي إلا بخير).

(٩٠٧) قال تعالى: ﴿والذي جاء بالصِّدقِ وصَدَّق به﴾
[سورة الزمر: الآية ٣٣]

فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، وأعلى مراتب الصدق مرتبة الصِّدِّيقيَّة، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسل.

(٩٠٨) البخل ـ وهو منع الحقوق الواجبة ـ ثمرة الشح، والإيثار ثمرة الجود، والجود عشر مراتب: الجود بالنفس، والجود بالراحة، والجود بالعلم، والجود بالمال، والجود بالجاه، والجود بنفع البدن، والجود بالعرض، والجود بالعفو عن جنايات الخلق، والجود بالخلق والبشر والبسطة؛ والجود بتركه ما في أيدي الناس وهذا غير الجود بالمال، ولكل واحدة من هذه ثمرات جليلة طيبة.

(٩٠٩) الدين كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين، وحسن الخُلُق يقوم على أربعة أركان: الصبر والعفة والشجاعة والعدل؛ فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، والحلم والأناءة والرفق وعدم الطيش والعجلة. والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل. والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق

والشيم وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخـراج المحبوب ومفارقتـه وتحمله على كظـم الغيظ والحلم، فـإنه بقـوة نفسه وشجاعتها، أمسك عنانها عن النزع والبطش، وحقيقة الشجاعة ملكة يقتدر بها على قهر خصمه. والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فمنشأ جميـع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة. ومنشأ جميـع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب.

(٩١٠) في النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داعٍ يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشياطين من الكِبْر والحسد والعلو والبغي والشر والأذى والفساد والغش؛ وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان وهي داعي الشهوة؛ وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الملك من الإحسان والنصـح والبر والعلم والطاعة، فحقيقة المروءة بغض الداعيين الأولين وإجابة الداعي الثالث، وقلة المروءة أو عدمها هو الاسترسال مـع ذينك الداعيين والتوجه لدعوتهما.

(٩١١) الأدب اجتماع خصال الخير في العبد، وهو ثلاثة أنواع: أدب مـع الله بأن يصون قلبه أن يلتفت إلى غيره أو تتعلق إرادته بما يمقته عليه ويصون معاملته أن يشوبها بنقيضه. وأدب مـع الرسول بكمال الانقياد وتلقي خبره بالقبول والتصديق وأن لا يعارضه بغيره بوجه من الوجوه، وأدب مـع الخلق بمعاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ويناسب حالتهم.

(٩١٢) الغنى نوعان: غنى بالله وغنى عن غير الله، وحقيقة الغنى غنى القلب وهو تعلقه بالله وحده، وحقيقة فقره المذموم تعلقه بغيره.

(٩١٣) والحكمة نوعان: علمية وعملية، فالعلمية الاطِّلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً، والعملية وضـع الشيء في موضعه.

(٩١٤) وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا خلا أحدهما عن الآخر فسدت العبودية، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد.

(٩١٥) وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي يُنزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يَرِد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات، والطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه، فالطمأنينة أثر السكينة.

(٩١٦) المحبة لله هي روح العبودية والأسباب الجالبة لها عشرة:

(١) قراءة القرآن بالتدبر. (٢) التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. (٣) دوام ذكره على كل حال. (٤) إيثاره على محابِّ النفس عند غلبات الهوى. (٥) مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومعرفتها. (٦) مشاهدة بره ونعمه الظاهرة والباطنة. (٧) انكسار القلب بين يديه. (٨) الخلوة به وقت النزول الإلهي. (٩) مجالسة المحبين الصادقين. (١٠) مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله.

ومراتبها عشر:

(١) العلاقة. (٢) الإرادة. (٣) الصبابة. (٤) الغرام. (٥) الوداد. (٦) الشغف. (٧) العشق. (٨) التتيُّم. (٩) التعبد. (١٠) الخلة، ولها آثار وثمرات جليلة جميلة كثيرة: كالشوق والأنس واليقين والرغبة في الطاعة وكراهة المعصية ونحو ذلك.

# ومن «كتاب الصلاة» لابن القيم

(٩١٧) لما ذكر شيئاً من شعب الإيمان قال: فكل شعبة منه تسمى إيماناً حتى تنتهي إلى إماطة الأذى عن الطريق؛ وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها، كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كإماطة الأذى عن الطريق؛ وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى عن الطريق، ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية؛ ومن شعب الإيمان القولية شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالاتيان بكلمة الكفر اختياراً وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه، كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف فهذا أصل، وههنا أصل آخر، وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة،

وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعترك بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرّاً وجهراً ويقولون ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعمل القلب لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد. وهكذا الهدى، ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتِّباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هدى تاماً، وههنا أصل آخر، وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضادّ الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضادّ الإيمان وإلى ما لا يضاده؛ فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه يضادّ الإيمان، وأما الحكم بغير ما أنزل الله. وترك الصلاة، فهو من الكفر العملي قطعاً، ولا يمكن أن يُنفَى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، وقد نفى ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر ومن لا يأمن جاره بوائقه، وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد وأشياء كثيرة من هذا النوع، ومعلوم أنه إنما

أراد الكفر العملي لا الاعتقادي، وهذا الكفر لا يخرجه عن الدائرة الإسلامية والملة بالكلية، كما لم يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان، وهذا التفصيل هو قول الصحابة، فههنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم. وههنا أصل آخر وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً، وإن كان ما قام به إيماناً ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفراً، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً ونحو ذلك إلى أن قال: فيبقى النظر في الصلاة هل هي شرط لصحة الإيمان. هذا سر المسألة، والأدلة التي ذكرناها وغيرها تدل على أنه لا يقبل من العبد شيء من أعماله إلّا بفعل الصلاة.

(٩١٨) دلّ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. والحبوط نوعان: عام وخاص؛ فالعام حبوط الحسنات كلها بالردة والسيئات كلها بالتوبة، والخاص حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي.

## ومن «الوابل الصَّيِّب»

(٩١٩) تفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، فهذا العمل الكامل يكفر تكفيراً كاملاً والناقص بحسبه.

(٩٢٠) المقبول من العمل قسمان:

**أحدهما**: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلق بالله عز وجلّ ذاكراً الله على الدوام فعمله في أعلى المراتب.

الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله، فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاه عن ذكر الله وكذلك سائر أعماله. فهذا عمله مقبول ومثاب عليه بحسبه.

(٩٢١) وفي ذكر الله أكثر من مائة فائدة: يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهم، ويجلب السرور، ويقوِّي القلب والبدن، وينوِّر القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب، وحياة القلب، وذكر الله للعبد وهو قوت القلب وروحه، ويجلو صدأه، ويحط الخطايا، ويرفع الدرجات ويحدِثُ الأنس، ويزيل الوحشة، ويذكِّر بصاحبه، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنزل السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر، ويشغل عن الكلام الضارّ، ويسعد الذاكر، ويسعد به جليسه، ويؤمن الحسرة يوم القيامة، وهو مع البكاء سبب إظلال الله للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله، وهو أيسر العبادات وأفضلها، وهو غراس الجنة، ويؤمن العبد من نسيان ربه، وانفراط أمور العبد، ويسير بصاحبه في كل حال من أحواله، وهو نور للعبد في دنياه وقبره ويوم حشره، وبه تخرج أعمال العبد وأقواله ولها نور، وهو رأس الولاية وطريقها، ويزيل خلة القلب ويفرق غمومه وهمومه، وينبه القلب من نومه، ويثمر المعارف والأحوال الجليلة، والذاكر قريب من مذكوره والله معه.

وأكرم الخلق على الله من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله، ويزيل قسوة القلب، وما استُجْلبت نِعَمُ الله واستُدفِعت نِقَمه بمثل ذكره، ويوجب صلاة الله وملائكته على الذاكر ومجالس الذكر مجالس الملائكة ورياض الجنة وجميع الأعمال إنما شرعت لإقامة ذكر الله. وأفضل كل عامل أكثرهم لله ذكراً. وإدامة الذكر تنوب مناب كثير من الطاعات البدنية والمالية والمركّبة منها؛ وهو يعين على طاعة الله ويسهِّل كلَّ صعب وييسِّر الأمور ويعطي الذاكر قوة في

قلبه وبدنه، والذاكرون أسبق العمال وهو سدٌّ بين العبد وبين نار جهنم، وتستغفر الملائكة للذاكر وتتباهى الجبال وبقاع الأرض بمن يذكر الله عليها وتشهد له. والذكر أمان من النفاق، ويدخل في ذكر الله ذكر أسمائه وصفاته والثناء عليه بهما وتنزيهه عما لا يليق به، والخبر عن أحكام ذلك وذكر أمره ونهيه، ويكون الذكر بالقلب واللسان وهو الأكمل ثم القلب وحدَه، ثم اللسان وحده.

(٩٢٢) وأفضل أنواع الذكر القرآن، ثم الذكر والثناء على الله، ثم أنواع الأدعية.

## ومن «زاد المعاد في هدى خير العباد»

(٩٢٣) وربك يخلق ما يشاء ويختار؛ وإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه ويختار كاختياره ويدبِّر كتدبيره، ثم ذكر أمثلة من هذا النوع. وإن أكمل مختار من الخليقة محمد ﷺ. ثم قال: ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر به، فإنه سبب السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلاّ هدى الرسل وما جاؤوا به، وخصوصاً خاتمهم، وبهديه توزن العقائد والأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا كان الأمر كذلك فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين ويدخل فيه في أعداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ ومستكثرٍ ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٩٢٤) مراتب دعوة النبي ﷺ خمس: النبوّة، ثم إنذار عشيرته الأقربين، ثم إنذار قومه، ثم إنذار العرب، ثم إنذار الخلق كلهم، وهذه الأربعة من آثار الرسالة.

(٩٢٥) الأسباب لشرح الصدر أمور: قوة التوحيد، والهدى والنور الذي يقذفه الله بقلب العبد، والعلوم النافعة، والإنابة إلى الله تعالى، ودوام ذكر الله، والإحسان إلى الخلق والشجاعة، وإخراج دغل القلب، وترك فضول النظر والكلام، والاستماع والمخالطة والأكل والنوم. وأضداد هذه الصفات سبب الهم والغم والضيق والحصر، ولنبينا محمد ﷺ من هذه الصفات الكاملة وغيرها أعلاها وأكملها، ولأتباعه منها بحسب اتِّباعهم له.. وبالله التوفيق.

مراتب الجهاد أربع:

١ ـ جهاد النفس على تعلّم الهدى والعمل به والدعوة إليه والصبر على مشاق الدعوة.

٢ ـ جهاد الشيطان على دفع ما يلقيه إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان، وجهاده على ما يلقي إليه من الإرادات والشهوات، فالأول يثمر اليقين والثاني بعده الصبر، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

٣ ـ جهاد الكفار والمنافقين بالقلب واللسان والمال والنفس.

٤ ـ جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات باليد إذا قدر، ثم باللسان ثم بالقلب، فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق.

(٩٢٦) قواعد طب الأبدان تدور على ثلاثة أصول: حفظ الصحة والحمية عن المؤذي واستفراغ المواد الفاسدة، ومن أصول الطب تدبير الغذاء

والحركة والنوم وجميع التصرفات ولا يعدل إلى استعمال الأدوية إلّا للضرورة أو الحاجة.

وأربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير والنوم الكثير والأكل الكثير والجماع الكثير؛ وأربعة تهدم البدن: الهم والحزن والجوع والسهر؛ وأربعة تفرح: النظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري والمحبوب والثمار؛ وأربعة تظلم البصر: المشي حافياً والتصبّح والمساء بوجه البغيض والثقيل والعدو، وكثرة البكاء وكثرة النظر في الخط الدقيق؛ وأربعة تقوي الجسم: لبس الثوب الناعم ودخول الحمام المعتدل وأكل الطعام الحلو والدسم وشم الروائح الطيبة؛ وأربعة تيبس الوجه وتذهب بهاءه وبهجته وطلاقته: الكذب والوقاحة وكثرة السؤال عن غير علم وكثرة الفجور؛ وأربعة تزيد في ماء الوجه وبهجته: المروءة والوفاء والكرم والتقوى؛ وأربعة تجلب البغضاء والمقت: الكبر والحسد والكذب والنميمة؛ وأربعة تجلب الرزق: قيام الليل وكثرة الاستغفار بالأسحار وتعاهد الصدقة والذكر أول النهار وآخره؛ وأربعة تمنع الرزق: نوم الصبيحة وقلة الصلاة والكسل والخيانة؛ وأربعة تضر بالفهم: إدمان أكل الحامض والفواكه والنوم على القفا والهم والغم؛ وأربعة تزيد في الفهم: فراغ القلب وقلة التملي من الطعام والشراب، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوة والدسمة وإخراج الفضلات المثقلة للبدن؛ ومما يضر بالعقل إدمان أكل البصل والباقلا والزيتون والباذنجان وكثرة الجماع والوحدة والأفكار والسكر وكثرة الضحك والغم.

# ومن «إغاثة اللهفان»

(٩٢٧) القلوب ثلاثة: صحيح وهو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فَسَلِمَ من عبودية ما سواه وسَلِمَ من تحكيم غير رسوله.

والقلب الميت ضد هذا، وهو الذي لا حياة به فلا يعرف ربَّه ولا يعبده بأمره.

والقلب الثالث قلب له حياة وبه علة، ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والأخلاق الرذيلة ما هو مادة عطبه، وهو ممتحن بين هذين الداعيين، فالقلب الأول حي مُخْبِتٌ لَيِّن واعٍ ، والثاني يابس مَيْت، والثالث مريض، فإما إلى السلامة وإما إلى العطب.

وأمراض القلوب ترجع كلها إلى أمراض الشُّبُهات والشهوات، وحياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرٍّ فيه، ولا يكون صحيحاً حياً إلا بمعرفة الحق وإيثاره، ولا سعادة له ولا نعيم ولا صلاح حتى يكون الله وحدَه هو معبودَه وغاية مطلوبه، ولا يتم له ذلك إلا بزكاة قلبه وتوبته واستفراغه من جميع المواد الفاسدة والأخلاق الرذيلة ولا يحصل له ذلك إلا بمجاهدة نفسه الأمَّارة بالسوء ومحاسبتها ومجاهدة شياطين الإنس والجن، شياطين الإنس بالإعراض ومقابلة الإساءة بالإحسان وشياطين الجن بالاعتصام بالله منهم ومعرفة مكائدهم وطرقهم والتحرز منها.

(٩٢٨) وتمام الكلام في مسائل المصائب والمحن يتبين بأصول نافعة جامعة:

**الأول**: إن ما يصيب المؤمنين من الشرور دون ما يصيب الكافرين.

**الثاني**: إن ما يصيب المؤمنين مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم فَمُعَوَّلُهُمْ على الصبر وعلى الاحتساب، وذلك يخفف البلاء بلا ريب.

**الثالث**: إن المؤمن محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان في قلبه، بحيث لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن.

**الرابع**: إن محبة الله إذا تمكَّنت في القلب كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلًى غير مسخوط.

**الخامس**: إن ما يصيب الكافر والفاجر من العز وتوابعه مقرون بضده.

**السادس**: إن ابتلاء الله لعبده المؤمن كالدواء يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه.

**السابع**: إن ذلك من الأمور اللازمة للبشر.

**الثامن**: إن لله في ذلك حِكَماً عظيمة معروفة.

**التاسع**: إن ذلك من الابتلاء والامتحان الذي يظهر به الصادق مَن الكاذب.

**العاشر**: إن الإنسان مدني بالطبع ولا بد من الاختلاط واختلاف التصورات والإرادات التي تنشأ عنها كثير من الأكدار والمؤمن مأمور أن يقوم بوظيفته فيها، وذلك مما يهون المصيبة.

**الحادي عشر**: إن البلاء الذي يصيب العبد لا يخرج عن أربعة أقسام: إما أن يكون في نفسه أو في ماله أو في عرضه أو في أهله ومن يحب، والناس مشتركون في حصولها، فغير المؤمن التقي يلقى منها أعظم مما يلقى المؤمن كما هو مشاهد.

## ومن «سفر الهجرتين»

(٩٢٩) فهو تعالى الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات والآخِرُ الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يُقْصَد ويُعْبد ويُتَألَّه، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرىء.. فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تألُّهك إليه. وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء. وهو الباطن الذي ليس دونه شيء. فالتعبد بها أن يعلم أنه العلي الأعلى وأنه محيط بالعوالم كلها وأنها في يده كخردلة في يد العبد أو أصغر فظهر على كل شيء فكان فوقه وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة، وأما القرب الخاص من عابديه وسائليه وداعيه، فهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، فأَوَّليّة الله سابقة على أولية ما سِوَاه، وآخريته ثابتة بعد كل شيء، وظاهريته فوقيته وعلوه على كل شيء وبطونه إحاطته بكل شيء. بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

(٩٣٠) كل من التوحيد والذكر والصلاة وسائر القرب نوعان: خاصِّي، وهو ما بذل فيه العامل نصحه وقصده، بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها؛ والعامية، ما لم يكن كذلك؛ فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وتفاوتُهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم بحقها ظاهراً وباطناً أمرٌ لا يحصيه إلا الله.

(٩٣١) قاعدة شريفة نافعة: اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه في دينه ودنياه وإلى دفع ما يضره فيهما، فلا بد من أمرين أحدهما هو: المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به، والثاني هو المعين الموصِل المحصِّل لذلك المقصود والمانع لحصول المكروه

والدافع له بعد وقوعه، فههنا أربعة أمور: أمر محبوب مطلوب الوجود، وأمر مكروه مطلوب العدم ووسيلة إلى حصول المطلوب، ووسيلة إلى دفع المكروه. فالله هو المطلوب المعبود المحبوب وحدَه لا شريك له، وهو المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بُعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد:

**﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** [سورة الفاتحة: الآية ٥]

فإن العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه.

**(٩٣٢)** وهذا مبنيٌّ على أصلين:

**أحدهما:** إن نفس الإيمان بالله والتقرب إليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، لا كما يقوله المتكلفون: إنه تكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذته، بل لمجرد الامتحان والابتلاء، بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلوب.

**الأصل الثاني:** كمال النعيم في الدار الآخرة أيضاً برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه، فلذتهم ونعيمهم في حظهم من الخالق أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسُّنة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلم عليهما العارفون، وهما من فطرة الله التي فطر الناس عليها.

**(٩٣٣)** قاعدة كمال العبد وصلاحه يتخلَّف عنه من أحد جهتين: إما أن تكون طبيعته قاسية غير ليِّنة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالُها وفلاحُها، وإما أن تكون لينة منقادة سلسة الانقياد لكن غير ثابتة، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب؛ فمتى رزق العبد انقياداً للحق وثباتاً عليه فليُبْشِرْ، فقد بُشِّر بكل خير وذلك فضل الله.

(٩٣٤) قاعدة: إذا ابتلَى الله عبده بشيء من أنواع البلاء فإنْ ردَّه إلى ربه وصار سبباً لصلاح دينه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، ولا بدّ أن تقلع الشدة وقد عوض عنها أجلَّ عوض، وإن لم يَرُدَّه ذلك البلاء إليه بل شرّد قلبه عنه وردَّه إلى الخلق وأنساه ذكر ربِّه فهو علامة الشقاء، وإذا أقلع عنه البلاء ردَّه إلى طبيعته وسلطان شهوته، فبلية هذا وبال، وبلية الأول رحمة وتكميل والله الموفق.

(٩٣٥) قاعدة في الإنابة التي تكَرر ذكرُها في القرآن أمراً ومدحاً وترغيباً وآثاراً جميلة، وهي الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخَشية، والناس في إنابتهم درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي والحامل عليها الخوف والعلم، ومنهم المنيب إلى الله في أنواع العبادات، فهو ساع بجهده ومصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب، وهؤلاء أبسط نفوساً من الأولين وكل منهما منيب بالأمرين، ولكن يغلب الخوف على الأوّلين والرجاء على الآخرين، ومنهم المنيب إليه بالتضرع والدعاء وكثرة الافتقار وسؤال الحاجات كلها مع قيامهم بالأمر والنهي، ومنهم المنيب إلى الله عند الشدائد فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار.

وأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة المُغْنِية لهم عما سوى محبوبهم، وحين أنابت إليه لم يتخلف منهم بشيء عن الإنابة، فإن الأعضاء كلها رَعِيَتْهَا وأدّت وظائفها كاملة، فساعة من إنابة هذا أعظم من إنابة سنين من غيره وذلك فضل الله.

(٩٣٦) قاعدة في ذكر طريق قريب يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأفعال وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها من الأفكار والإرادات الضارّة حياء

من الله وإجلالاً له وخوفاً من سقوطه من عينه، وحذراً من تولد الخواطر بالشرور.

والثاني: إشغال القلب بخواطر الإيمان التي هي أصل الخير ومادته من المحبة والإنابة والتوكّل ومحبة الخير للمسلمين ونحوها؛ ومن أبلغ ما تحصل به الاستقامة صدق التأهب للقاء الله.

(٩٣٧) قاعدة شريفة. الناس قسمان: علية وسفلية، فالعلية من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً للوصول إليه، والسفلية من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، والطريق إلى الله واحد لا تعدُّد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إلى الله، فمن الناس من يكون سيد عمله، وطريقه إلى ربه طريق العلم والتعليم قد وفّر عليه زمانه، مبتغياً به وجه الله فلا يزال عاكفاً على طريق العلم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه.

ومنهم من يكون سيد عمله الذكر، ومنهم من يكون سيد عمله الصلاة. ومنهم من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدِّي، ومنهم من يكون طريقه الصوم، ومنهم من يكون طريقه كثرة تلاوة القرآن، ومنهم من طريقُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من طريقه الحج والاعتمار، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة، ومنهم الجامع الفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينيه، وقد شارك أهل كل عمل، وذلك فضل الله.

(٩٣٨) قاعدة: السائر إلى الله لا يتم سيره إلا بقوتين: قوة عملية يبصر بها منازل الطريق ويجتنب مهالكها، وقوة عملية بها يسير ويعمل، وذلك العلم النافع والعمل الصالح.

(٩٣٩) قاعدة نافعة: العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره، والأيام والليالي مراحل فلا يزال يطويها حتى ينتهي السفر، فالكيّس لا يزال مهتماً بقطع المراحل فيما يقرِّبه إلى الله ليجد ما قَدَّم مُحْضَراً، ثم الناس منقسمون إلى أقسام، منهم من قطعها متزوِّداً ما يقرِّبه إلى دار الشقاء من الكفر وأنواع المعاصي، ومنهم من قطعوها سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام: سابقون أَدَّوُا الفرائض وأكثروا من النوافل بأنواعها وترك المحارم والمكروهات وفضول المباحات ومقتصدون أدوا الفرائض وتركوا المحارم، ومنهم الظالم لنفسه الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهم في ذلك درجات متفاوتون تفاوتاً عظيماً.

## طبقات المكلفين

(٩٤٠) طبقات المكلفين في الآخرة ثماني عشرة طبقه؛ أعلاها مرتبة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهم ثلاث طبقات أعلاهم أولو العزم الخمسة، ثم من عداهم ثم الأنبياء الذين لم يرسلوا إلى الأمم.

الرابعة: الصِّدِّيقون ورثة الرسل القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم.

الخامسة: أئمة العدل وولاته.

السادسة: المجاهدون في سبيل الله.

السابعة: أهل الإيثار والإحسان والصدقة.

الثامنة: من فتح الله عليه باباً من أبواب الخير القاصر على نفسه من صلاة وصيام وحج وغيرها.

التاسعة: طبقة أهل النجاة وهم من يؤدي فرائض الله ويجتنب محارمَه.

العاشرة: طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم وغَشُوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت فماتوا على توبة صحيحة.

الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولَقُوا الله مصرِّين غير تائبين، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضاً ناجون فائزون.

الثانية عشرة: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وهو موضع بين الجنة والنار ولكن مآلهم إلى دخول الجنة.

الثالثة عشرة: طبقة أهل البلية والمحنة وهم قوم مسلمون خفّت موازينهم ورجحت سيئاتهم على حسناتهم وهؤلاء الذين ثبتت فيهم الأحاديث إنهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم، ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين.

الرابعة عشرة: قوم لا طاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولا إيمان؛ وهم أصناف منهم من لم تبلغهم الدعوة بحال، ومنهم المجنون الذي لا يعقل، ومنهم الأصم الذي لا يسمع شيئاً أبداً، ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميزوا شيئاً، فاختلفت الأمة فيهم على ثمانية مذاهب أرجحها إنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وبهذا تتفق الأحاديث وتوافق الحكمة والعدل، وقد فصل أحكام كل طبقة وما ورد فيهم من نصوص الكتاب والسنة بكلام طويل جدًّا، رحمه الله.

(٩٤١) ثم قال: إن الله سبحانه لا يعذّب أحداً إلاّ بعد قيام الحجة فيعرض العبد عنها أو يعاندها، وقيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وأفعال الله تابعة لحكمته التي لا يخل بها.

الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وهم في الدرك الأسفل من النار.

الطبقة السادسة عشرة: رؤساء الكفر وأئمته ودعاته ويتغلظ الكفر بغلظ العقيدة وبالعناد وبالدعوة إلى الباطل.

الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلِّدين وجهال الكفرة وقد اتفقت الأمة على أنهم كفار.

الثامنة عشرة: طبقة الجن وهم مكلَّفون مُثابون ومعاقَبون بحسب أعمالهم، ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وهم لا يظلمون.

## ومن كتاب «عدة الصابرين»

**(٩٤٢)** قال الله تعالى: ﴿**والذين يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ**﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١]

يدخل في هذا ظاهر الدين وباطنُه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين الله بالقيام بحق عبوديته والاجتهاد في تكميلها ظاهراً وباطناً. وأُمِرْنا أن نَصِل ما بينَنا وبين الرسول بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، واتِّباعه وتقديم محبته على كل أحد، وأُمِرْنا أن نَصل ما بيننا وبين الوالدين بِبِرِّهم وبِصلة الأرحام، والقيام بحق الجيران والأصحاب والعيال والمعاملين وجميع المخالطين بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحيي منهم.. فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل.

**(٩٤٣)** من أعظم ما يعين على الصبر أن يدرك العبد ما في المأمور من الخير واللذة والكمال وما في المحظور من الشر والضرر، فإذا أدركهما كما ينبغي أضاف إلى ذلك عزيمة صادقة وتوكُّلاً على الله.

ومما يعين على ذلك أن يعلم أن الصبر مصارعة داعي العقل وداعي

الشهوة، وكلٌّ متصارِعَين أُريد أن يغلب أحدُهما الآخر أعِينَ على ذلك وأُضعِف الآخر. فَلْيَسْعَ بإضعاف دواعي الشهوة بأسباب معروفة وبتقوية داعي العقل فإنه لا يزال كذلك حتى يكون الحكم لداعي العقل ويضعف داعي الشهوة المهلك.

(٩٤٤) الكمال الإنساني في ثلاثة أمور. علوم يعرفها وأعمال يعمل بها وأحوال تترتب له على علومه وأعماله؛ وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته وما ترتب عليها من الأخلاق الجميلة والأوصاف الحميدة، فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه أشرف ما في الآخرة.

(٩٤٥) ثبت أن الإيمان نصفان: نصفُ شكرٌ ونصفُ صبرٌ باعتبار أن الإيمان إما فعلٌ مأمورٌ فهو الشكر، أو تركُ محظور وذلك هو الصَّبر، وإما بأن العبد بين أمرين إما حصول محابٍ ومسار فوظيفته الشكر، وإما حصول مكاره ومضار فوظيفته الصبر فمن قام بالأمرين استكمل الإيمان، وقد ذكر عدة اعتبارات أحسنها ما ذكرنا.

(٩٤٦) ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل فقد أحل الله رسولَه ﷺ في أعلاها وخَصَّه بذروة سنامها، فهو سيد الشاكرين وإمام الصابرين وأعظم المجاهدين وأشرف المتواضعين وأكمل النبيين وأقوى المتوكلين وأعلى العابدين؛ وهكذا جميع خصال الفضل والخير، قد جمعها الله فيه وتبوَّأ أكملها وأعلاها.

## ومن كتابه «الفوائد»

(٩٤٧) قاعدة جليلة ـ إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألْقِ سمعك وآحْضَرْ حضورَ من يُخاطبه به من يتكلم به منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله. قال تعالى:

﴿إنَّ في ذلك لَذِكْرَى لِمَنْ كان له قلبٌ أو أَلقَى السَّمعَ وهو شَهيدٌ﴾

[سورة ق: الآية ٣٧]

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتقاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

(٩٤٨) الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرَّبِّ وكمال أسمائه وعلمه وحكمته وقدرته وصفاته تقتضيه وتوجبه، وإنه منزه عما يقوله منكروه كما يستنزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

(٩٤٩) الرب يدعو عباده إلى معرفته من طريق تدبر آياته المتلوة، فإن القرآن قد حوى من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته شيئاً عظيماً، ويدعوهم إلى النظر في مفعولاته، فإنها دالَّة على أفعاله، والأفعال دالَّة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته، ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دالٌّ على إرادة الفاعل وإن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دالٌّ على حكمته، وما فيها من النفع والإحسان، والخير دالٌّ على رحمته، وما فيها من البطش والعقوبة والانتقام دالٌّ على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دالٌّ على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دالٌّ على بغضه ومقته، وما فيها

من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف تم سوقه إلى نهايته، وتمامه دالٌّ على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان، وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليلُ على أن معطي تلك الكمالات أحقُّ بها، فمفعولاته من أدلِّ شيء على صفاته، وصدق ما أخبرت به رسله عنه.

(٩٥٠) قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع. كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلّا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح، إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلّا إذا فرغها من ضدها.

(٩٥١) قال يحيى بن مُعاذ: من جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يرده، قلت إذا اجتمع عليه قلبه وصدقت ضرورته وفاقته وقوي رجاؤه فلا يكاد يرد دعاؤه.

(٩٥٢) ما أخذ العبد ما حرم عليه إلّا لسوء ظنه بالله، أو لعدم صبره.

(٩٥٣) التوحيد مَفْزَعُ أعدائه وأوليائِه، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، فلا يُلقِي في الكِرَبِ العِظام إلّا الشرك ولا ينجي منها إلّا التوحيد.

(٩٥٤) جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله يُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته، وجمع ﷺ بين الاستعاذة من المأثم والمغرم، لأن المأثم يوجب خسارة

الآخرة والمغرم يوجب خسارة الدنيا، وجمـع ﷺ في قوله: (فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) بين مصالـح الدنيا والآخرة، فإن من اتقى الله أدرك نعيم الآخرة ومن أجمل في الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها.

(٩٥٥) احترزْ من عدوَّين هلك بهما أكثر الخلق: صادٌّ عن سبيل الله بشبهاته ومفتونٍ بدنياه ورئاسته. من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته في استعمال تلك القوة فيه، قلت: وكذلك كان نجاحه فيه أعظم من غيره حرم صيد الجاهل والممسك على نفسه، فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه. مصدر ما في العبد من الخير والشر والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطي المانـع، فهو يصرف عباده في ذلك، فحظُّ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء والافتقار عند المنـع، فهو سبحانه يعطيه ليشكره ويمنعه ليفتقر إليه، فلا يزال شكوراً مفتقراً.

(٩٥٦) أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية؛ وهي الشرك، والظلم، والفواحش، فغاية التعلق بغير الله شركٌ، وغاية القوة الغضبية القتلُ، وغاية القوة الشهوانية الزنا، ولهذا جمـع الله الثلاثة في قوله:

﴿والذين لا يَدْعونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ ولا يقتلونَ النَّفسَ التي حَرَّم اللَّهُ إلّا بالحقِّ ولا يَزْنُون﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

(٩٥٧) هجر القرآن أنواع: هجرُ سماعه والإيمان به، وهجرُ العمل به، وهجرُ تحكيمه، وهجر تَدَبُّره، وهجر الاستشفاء به في أمراض القلوب والأبدان، وكل هذا داخل في قوله:

﴿وقال الرسول: يا ربِّ إنّ قومِي اتَّخَذُوا هذا القرآن مهجوراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٠]

(٩٥٨) كمال النفس المطلوب أن تتصف بصفات الكمال، وأن تكون

هيأة راسخة، وذلك ليس إلّا معرفة بارِيها وإرادة وجهه، فهذا الكمال الإنساني الحقيقي وما سواه من مطالب النفوس كمالاتٌ تشارك الإنسان فيها البهائم.

**(٩٥٩)** قاعدة: الإيمان له ظاهر وباطن: فظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته؛ فلا ينفع ظاهر لا باطن له، ولا يجزي باطنٌ لا ظاهرَ له إلّا إذا تعذر بعجز أو إكراه أو خوف هلاك، فتخلُّفُ العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوِّه من الإيمان؛ ونقصُه دليل نقصه، وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولُبُّه، واليقين قلب الإيمان ولُبُّه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول.

**(٩٦٠)** **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا آسْتَجِيبُوا للَّهِ وللرَّسولِ إذا دعاكم﴾**
[سورة الأنفال: الآية ٢٤]

لمّا ذكر أقوال المفسرين فيها قال: والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان والجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة.

**(٩٦١)** لا يجعل العبد المعيار على ما ينفعه ويضره حبه وبغضه، بل المعيار ما اختاره الله له بأمره ونهيه، قال تعالى:

**﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ وعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم، واللَّهُ يَعلَمُ وأَنتُمْ لا تعلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

**(٩٦٢)** أساس كل خير أن تعلم: أنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وإن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها.

(٩٦٣) للقلب ستة مواطن يجول فيها: ثلاثة سافلة، دنيا تتزين له، ونفس تحدثه وعدو يوسوس له، وثلاثة عالية: علمٌ يبين له وعقل يرشده ورب يعبده، والقلوب جوّالة في هذه المواطن.

(٩٦٤) إنما يجد المشقة في ترك المألوفات من تركها لغير الله، فأمّا من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلاّ في أول وهلة ليمتحن أصادقٌ هو في تركها أم كاذب، فإن صبر على تر المشقة استحالت لذة؛ من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، والعوض أنواع مختلفة، وأجلّ ما يعوض به الأُنْس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه.

(٩٦٥) مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلاّ بتوحيده؛ فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام بطاعته، فذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمِّن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خُلق لأجلها الجن والإنس.

(٩٦٦) قال أبو الدرداء، رضي الله عنه: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذَّرَّة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترِّين، وهذا من جواهر الكلام وأدلِّه على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير، رضي الله عنهم.

(٩٦٧) لا شيء أفسد للأعمال من العُجْب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد مِنة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل له.

(٩٦٨) العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرون على تركها ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم؛ وكيف يؤمر بفضيلة من ترك الفريضة، فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وصفات كماله فإن القلوب مفطورة على محبته، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإقلال منها.

(٩٦٩) قاعدة جليلة: مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادت تقتضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار وفسادها بفسادها.

(٩٧٠) العبد يترقى من معرفة أفعال الله إلى الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدلّ به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات، فما ظنك بجمالٍ حُجب بأوصاف الكمال، وسُتِر بنعوت العظمة والجلال؟ ولهذا كان له الحمد كله من جميع الوجوه.

(٩٧١) أنفع الناس لك مَنْ نَفَعَكَ في دينك أو دنياك، ومكّنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً والعكس بالعكس.

(٩٧٢) للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه؛ فمن قام بحق الموقف الأول هوّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفِّه حقه شدد عليه ذلك الموقف.

## ومن كتاب «الطرق الحكمية»

(٩٧٣) يعمل بالقرائن القوية وتُقدم على الأصل إذا قويت ورَجَحت ولم يزل حُذّاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والأمارات، فإذا ظهرت لم يُقَدِّموا عليها شهادة تخالفها ولا إقراراً، وذكر لهذا أمثلة كثيرة.

(٩٧٤) الحكم نوعان: إثبات وإلزام، فالإثبات يعتمد الصدق والإلزام يعتمد العدل، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، وكلا القسمين له طرق متعددة:

(١) اليد المجردة. (٢) الإنكار المجرد. (٣) اليد مع يمين صاحبها. (٤) الحكم بالنكول وحده. (٥) أو به مع رد اليمين. (٦) التحليف إما للمدَّعِي. (٧) أو للمدَّعَى عليه أو للشاهد. (٨) الحكم بالرجل الواحد والمرأتين. (٩) الحكم بالنكول مع الشاهد الواحد. (١٠) الحكم بشهادة المرأتين ويمين المدعي في الأموال. (١١) الحكم بشهادة امرأتين فقط من غير يمين. (١٢) الحكم بثلاثة رجال. (١٣) الحكم بأربعة رجال أحرار. (١٤) الحكم بشهادة العبد والأمة في كل ما يقبل فيه شهادة الحر والحرة. (١٥) الحكم بشهادة الصبيان المميزين. (١٦) الحكم بشهادة الفُسّاق. (١٧) الحكم بشهادة الكافر. (١٨) الحكم بالإقرار. (١٩) الحكم بالتواتر. (٢٠) الحكم بالاستفاضة. (٢١) الحكم بالإخبار آحاداً بدون شهادة. (٢٢) الحكم بالخط المجرد. (٢٣) الحكم بالعلامات الظاهرة. (٢٤) الحكم بالقرعة. (٢٥) الحكم بالقافة؛ وذكر مواضع هذه الطرق وتفاصيلها وأدلتها واختلاف أهل العلم حتى استوعبت جمهور الكتاب، رحمه الله ورضي عنه وقدّس روحه.

## ومن كتاب «الفروسية»

(٩٧٥) المغالبات ثلاثة أقسام: **محبوب مرضي لله ورسوله**، معين على محابِّه كالسباق بالخيل والإبل والسهام، فهذا يشرع مفرداً عن الرهن، ويشرع فيه كلما كان أدعى إلى تحصيله، فيشرع فيه بذل الرهن من هذا وحده ومنهما معاً، ولو لم يكن فيه محلل على الصحيح، ومن الأجنبي، وأكل المال به أكل بحق ليس أكلاً بباطل، وليس من القمار والميسر في شيء.

**والنوع الثاني**، مبغوض مسخوط لله ورسوله، موصل إلى ما يكرهه الله ورسوله، كسائر المغالبات التي توقع العداوة والبغضاء وتصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، كالنرد والشطرنج وما أشبهها، فهذا محرّم وحدَه ومع الرهان وأكل المال به ميسرٌ وقمار كيف كان، سواء كان من أحدهما أو كليهما أو من ثالث، وهذا باتفاق المسلمين، فأما إن خلا عن الرهان فهو حرام عند الجمهور، نرداً كان أو شطرنجاً، هذا قول مالك وأصحابه وأبي حنيفة وأصحابه وأحمد وأصحابه وقول جمهور التابعين، ولا يحفظ عن صحابي حِلُّه، وقد نص الشافعي على تحريم النَّرد وتوقف في تحريم الشطرنج.

**الثالث**، ليس بمحبوب لله ولا مسخوط له، بل هو مباح لعدم المضرة الراجحة، كالسباق على الأقدام والسباحة وشيل الأحجار والصراع ونحو ذلك، فهذا النوع يجوز بلا عوض، وأما مع العوض فلا يحل لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى إشغال النفوس به واتخاذه مكسباً، لا سيما وهو من اللهو واللعب الخفيف على النفوس فتشتد رغبتها فيه من الوجهين، فأبيح بنفسه لأنه إعانة وإجمام للنفس وراحة لها، وحرم أكل المال به لئلا يتخذ صناعة ومتجراً، فهذا من حكمة الشريعة ونظرها في المصالح والمفاسد ومقاديرها.

(٩٧٦) المسابقة على حفظ القرآن وأخذ الرهان فيه، وفي الحديث والفقه وغيره من العلوم النافعة والإصابة في المسائل، جوّزه أصحاب أبي

حنيفة وشيخنا، وهي صورة مراهنة الصديق لكفار قريش على صحة ما أخبرهم به وثبوته ولم يقم دليل على نسخه، وقد أخذ الصديق رهنهم بعد تحريم القمار، والدين قيامه بالحجة والجهاد فإذا جازت المراهنة على آلات الجهاد فهي بالعلم أولى بالجواز، وهذا القول هو الراجح.

(٩٧٧) ما جاز فعله من دون شرط جاز اشتراطه على الصحيح.

## ومن «الصواعق المرسلة»

### وفيها عدة أصول تقدمت من كتب «شيخ الإسلام»

(٩٧٨) إذا خص من العموم شيء لم تبطل دلالته في الثاني، وإذا خص من العموم شيء لم يصر اللفظ مجازاً فيما بقي.

## ومن «تهذيب سنن أبي داود»

### للمؤلف رحمه الله

(٩٧٩) قاعدة: ما أوجبه الشارع أو جعله شرطاً للعبادة أو ركناً فيها أو وقف صحتها عليه هو مقيد بحال القدرة لأنها الحال التي يؤمر فيها، وأما في حال العجز فغير مقدور ولا مأمور، فلا تتوقف صحة العبادة عليه.

(٩٨٠) العجز عن البدل في الشرع كالعجز عن المبدل منه سواء، هذه قاعدة الشريعة.

(٩٨١) قول النبي ﷺ: (مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم) هو فصل الخطاب في جميع المسائل طرداً وعكساً، فكلُّ ما كان تحريمه التكبير وتحليله التسليم، فلا بد من افتتاحه بالطهارة.

(٩٨٢) قوله ﷺ (خذوا عني مناسككم) هو أن يفعل كما فعل على الوجه الذي فعل، فإن كان قد فعل فعلاً على وجه الاستحباب فهو مستحبّ، وإن كان على وجه الوجوب فهو واجب.

(٩٨٣) الاحتياط يكون في الأعمال التي يترك المكلف منها عملاً لآخر احتياطاً، وأما الأحكام الشرعية والإخبار عن الله ورسوله فطريق الاحتياط فيها أن لا يخبر عنه إلّا بما أخبر به، ولا يثبت إلا ما أثبته، واللازم أن يقال في باب المياه ما ثبت تنجيسه بالدليل الشرعي نجسناه وما شككنا فيه رددناه إلى أصل الطهارة.

(٩٨٤) الأحاديث كلها الواردة في وصف صلاته ﷺ تدل على معنى واحد، وهو إنه كان يطيل الركوع والسجود ويخفف القيام، وإن صلاته متوازية متقاربة إن أطال القيام أطال الركوع والسجود وإن خفف القيام خفف الركوع والسجود.

(٩٨٥) إذا اجتمعت عبادتان، صغرى وكبرى، فالسُّنة تقديم الصغرى على الكبرى، كالوضوء مع الغسل والعمرة مع الحج.

(٩٨٦) وقد اشتملت ألفاظ التلبية على قواعد عظيمة وفوائد جليلة لأن قوله «لبيك» يتضمن إجابة داع دعاك ومناد ناداك وهو الله، وذلك يتضمن المحبة والتزام دوام العبودية والخضوع والذل والإخلاص والتقرب من الله والإقرار بسمع الرب، وجعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال ومن منسك إلى منسك، كما جعل التكبير في الصلاة شعاراً للانتقال من ركن إلى آخر، ولهذا كان السُّنة أن يلبي حتى يشرع في الطواف فيقطع التلبية ثم إذا سار لبّى حتى يقف بعرفة فيقطعها، ثم يلبي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها.

فالحاج كلما انتقل من ركن إلى ركن قال «لبيك اللهم لبيك» فإذا حل من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلي قاطعاً لتكبيره، ومنها إنه شعار

للتوحيد الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلها والمقصود منها، ومتضمنة لمفتاح الجنة الذي هو كلمة الإخلاص، ومشتملة على الحمد لله الذي هو من أحب ما يتقرب به إلى الله وعلى الاعتراف بالنعمة كلها لموليها وبأن الملك كله لله، فلا ملك على الحقيقة لغيره، وأكدت هذه الأمور بأن المقتضية تحقيق الخبر وتثبيته، ومتضمنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله عز وجل، وهذا نوع آخر من الثناء غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العلية، فله سبحانه من أوصافه العلى نوعاً ثناء: نوع متعلق بكل صفة، صفة على انفرادها، ونوع متعلق باجتماعها، وهو كمال مع كمال وهو غاية الكمال.

وأيضاً فقد اشتملت التلبية على معنى هذه الكلمات، وهو قول النبي ﷺ (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلَه إلاّ الله.. إلخ) ومتضمنة للرد على كل مبطل في صفات الله وتوحيده، مبطلة لقول المشركين على اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ولقول الفلاسفة وإخوانهم من الجهمية المعطّلين لصفات الكمال التي هي متعلق الحمد، فهو سبحانه محمودٌ لِذَاته ولِصِفاته ولأفعاله، فمن جحد صفاتِه وأفعالَه فقد جحد حمده، ومبطلة لقولِ القَدَرية فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطلة.

(٩٨٧) أمره ﷺ بالاحتجاب من ابن أمة زمعة يدل على أصل وهو تبعيض أحكام النسب، فيكون أخاها في التحريم والميراث وغيره، ولا يكون أخاها في المحرمية والخلوة والنظر إليها لمعارضة الشبه للفراش، فأعطى الفراش حكمه من ثبوت الحرمة وغيرها، وأعطى الشبه حكمه من عدم ثبوت المحرمية لسودة، ولهذا نظائر كثيرة، وهو من أسرار الفقه ومراعاة الأوصاف التي تترتب عليها الأحكام وترتيب مقتضى كل وصف عليه، ومن تأمل الشريعة أطلعته من ذلك على أسرار وحكم تبهر الناظر فيها.

(٩٨٨) قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وذرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٨]

فأمرهم بترك ما لم يقبضوا من الربا ولم يتعرض لما قبضوه بل أمضاه لهم، وكذلك الأنكحة لم يتعرض لما مضى ولا لكيفية عقدها بل أمضاها وأبطل منها ما كان موجب إبطاله قائماً، وكذلك الأموال لم يسأل أحداً بعد إسلامه عن ماله ووجه أخذه، ولم يتعرض لذلك، وهذا أصل من أصول الشريعة.

(٩٨٩) لما ذكر حديث عبد الله بن عمر وقال، قال رسول الله ﷺ لا يحل سلف وبيع، ولا شرطان في بيع، ولا ربح ما لم يضمن، ولا بيع ما ليس عندك، قال هذا الحديث أصل من أصول المعاملات والصواب في تفسير الشرطان في بيع إنه يعود إلى مسائل العينة، وكل قرض جر نفعاً فهو داخل فيه، والمنفعة التي تجر إلى الربا في القرض هي التي تخص المقرض وأما المنفعة المشتركة بينهما، كالسفتجة ونحوها فهي من جنس التعاون والمشاركة، ويدخل في ربح ما لم يضمن أن يأخذ الدنانير عن الدراهم وعكسها بسعر يومها وأن لا يتفرقا وبينهما شيء لئلا يربح فيها، وكذلك لا يتفرقا إلّا عن تقابض لأنه شرط في صحة الصرف، وأما قوله ولا تبع ما ليس عندك فمطابق لنهيه عن بيع الغَرَر.

(٩٩٠) إذا وردت نصوص يظهر لبعض الناس منها التعارض، فحمل كل شيء على نوع يناسبه هو المسلك السديد دون دعوى النسخ من غير دليل، وقد يظهر ذلك في كثير من المواضع، وقد يدق ويلطف ويقع الاختلاف بين أهل العلم، والله يسعد بإصابة الحق من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## ومن «الجواب الكافي»

(٩٩١) الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفعل أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية. وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات: إما أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه، أو يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً، وإما أن يتقاوما ويمنع كل منهما صاحبه. والدعاء من جملة الأسباب بل من أعظمها التي يحصل بها المقدور، كما أنه قد دل العقل والنقل والتجارب إن التقرب إلى الله، والإحسان إلى الخلق من أكبر الأسباب الجالبة لكل خير، وضدها من أعظم الأسباب الجالبة للشرور.

(٩٩٢) وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله:

منها حرمان العلم والرزق وحصول الوحشة بين العاصي وبين الله وبينه وبين الخلق وتعسير أموره وظلمة القلب والوجه والقبر ووهن القلب والبدن وحرمان الطاعة ومحق العمروتولد أمثالها وتضعف إرادة القلب وإنابته إلى الله ويزول عن القلب استقباح الذنوب، وهي سبب لهوان العبد على الله ويلحق ضرره غيره من الآدميين والحيوانات، وتورث الذل وتفسد العقل ويطبع على قلب صاحبها وتدخله تحت لعنة رسول الله ﷺ وتحرمه الدخول في أدعيته لمن فعل أفعالاً كثيرة، وهي سبب لعقوبات البرزخ المتنوعة وتحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن، وتذهب الحياء والغيرة وتعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله للعبد، وهناك الهلاك، وتخرج العبد من دائرة الإحسان وتحرمه ثواب المحسنين وتزيل النعم

وتحل النقم، وتوجب خوف صاحبها ورعبه، ويصير القلب مريضاً أو ميتاً بعد أن كان حياً صحيحاً، وتعمي البصيرة، ولا يزال العاصي في أسر الشيطان وأسر النفس الأمارة بالسوء، وتسلبه أسماء المدح وتكسبه أسماء الذم وتمحق بركة العلم والعمل والرزق والعمر وكل شيء، وتخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، وتباعد عن العبد وليه من الملائكة، وتقرب إليه أعداءه الشياطين وتؤثر في القلوب الآثار القبيحة من الرين والطبع والختم والنفاق وسوء الأخلاق كلها. وبالجملة جميع شرور الدنيا والآخرة التي على القلوب والتي على الأبدان العامة والخاصة، أسبابها الذنوب والمعاصي.

(٩٩٣) الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وهو شرك التعطيل، وهو أقبح أنواعه، كشرك فرعون وأشباهه، فالشرك والتعطيل متلازمان، والتعطيل ثلاثة أنواع: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيله عن كماله المقدس، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، وهذا هو النوع الثاني وهو الشرك في عبادته كشرك جميع المشركين الذين يعترفون أن الله هو الخالق وحدَه، المالك وحدَه، ولكنهم يعبدون معه سواه، وأما الشرك الأصغر فكالشرك في الألفاظ، كالحلف بغير الله وقول ما شاء الله وشاء فلان، كالرياء والعمل الذي قصد به غرض من الأغراض النفسية ولم يرد به وجه الله.

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إلى الله وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم.

(٩٩٤) هذه الأربعة: وهي اللحظات، واللفظات، والخطرات، والخطوات، من حفظها فقد حفظ دينه ومن أهملها وقع في المعاصي

والشرور، وحفظُها أن يجاهد العبد نفسه أن يسلك بها سبل الخير وإهمالُها أن يسترسلَ معها حتى تمادي به فتهلكه.

## ومن «مفتاح دار السعادة»

(٩٩٥) كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابع لشرف معلومه؛ وكان أشرف المعلومات العلم بالله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأكمل المرادات إرادة وجهه الأعلى، والإخلاص له قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، فكان العلم بالله والإرادة له هي غاية العبد وسعادته، ولا سبيل له إلى هذا إلّا بالعلم الموروث عن محمد ﷺ الذي هو الواسطة بين الله وبين عباده في تبليغ دينه، والطرق كلها مسدودة إلّا طريقه ﷺ، فلهذا كان حقاً على من يحب نجاة نفسه وسعادتها أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأفعاله. العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق.

(٩٩٦) كمال العبد أن يكون كاملاً في نفسه مكمِّلاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه: العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان؛ وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات؛ وتكميله غيره بتعليمه إيّاه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل؛ وقد تضمن ذلك ما دلت عليه سورة العصر.

(٩٩٧) مراتب العلم: سماعه ثم عقله ثم تعاهده ثم تبليغه، وقد تواترت النصوص إن أفضل الأعمال الإيمان. والإيمان له ركنان: معرفة ما جاء به الرسول وعلمه وتصديقه بالقول والعمل. والصِّدِّيقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل.

(٩٩٨) وقوع الذنب من العبد محفوف بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه؛ وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة، فما عصي الله إلا بجهل وبهذا فسر قوله تعالى:

﴿إنّما التوبةُ علَى اللَّهِ لِلَّذينَ يعملونَ السُّوءَ بِجَهَالة﴾

[سورة النساء: الآية ١٧]

وتوبة العبد محفوفة بتوبتين: من ربه توبة قبل وقوعها من العبد إذناً وتوفيقاً، وتوبة بعدها قبولاً وإنابة؛ فطاعات العباد كلها متقدمة عليها منة الله بالتوفيق لها ثم منة بعدها بقبولها وحصول آثارها الجليلة.

(٩٩٩) أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وكماله بكمال البصيرة وقوة العزيمة.

(١٠٠٠) العلم شجرة تثمر كل خلق جميل وعمل صالح ووصف محمود والجهل شجرة تثمر كل خلق رذيل وعمل خبيث ووصف ذميم.

(١٠٠١) العقل عقلان: عقل غريزي، وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا فهو الكمال والنقص بنقصانهما أو نقصان أحدهما.

(١٠٠٢) من قواعد الشرع إنه يسامح الجاهل ما لا يسامح العالم، ومن قواعده أن من عظمت حسناته وارتفعت مقاماته بالعلم وثمراته أنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

(١٠٠٣) الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليثمر منهما معرفة ثالثة كاستحضار الدنيا وصفاتها والآخرة وصفاتها ليثمر من ذلك أيهما أحق بالإيثار واستحضار الأخلاق والأعمال الصالحة والفاسدة هل وجودها خير أو عدمها ثم يؤثر العاقل أنفع الأمرين وهكذا. والتفكر في القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب. وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكُّر فيه، وإذا تأملت ما دعا سبحانه عباده إلى التفكُّر فيه أوقعك على العلم به وبأسمائه وصفاته

ورحمته وإحسانه وبره ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته، ثم ذكر أمثلة كثيرة واسعة تنطبق على هذا الأصل الكبير.

(١٠٠٤) قد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين، والعالم بكل شيء، والغني عن كل شيء، والقادر على كل شيء، ومَنْ هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة، وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وإبداعه وأمره وشرعه، فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام إن تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها، وإن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به فيكفيهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم، وأن الله بنى أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقهما وتفاصيلهما، وهذا مطرد في الأشياء، أصولها وفروعها.

(١٠٠٥) حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء؛ ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها؛ فإن الشريعة مبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، والشرائع كلها مركوز حسنها في العقول ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة. ثم ذكر لذلك أمثلة من الشرائع الكبار كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها وما فيها من المصالح والمنافع التي لا تُعَد ولا تُحصى.

(١٠٠٦) والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية، فعلم العبد بتفرد الرب بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل

ظاهراً، وهكذا بقية الصفات علم العبد بها يثمر من أنواع العبودية ما يناسب ذلك.

(١٠٠٧) لما ذكر أن الفلاسفة طَغَوْا بما علموه من علوم الطبيعة وجحدوا ما جاءت به الرسل من توحيد الله وغيبه قال: والمقصود أن هؤلاء لما أوقفتهم أفكارهم على العلم بما خفي على كثير من أسرار المخلوقات وطبائعها وأسبابها ذهبوا بأفكارهم وعقولهم وتجاوزوا ما جاءت به الرسل وظنُّوا أن إصابتهم في الجميع سواء، وصار المقلِّد لهم في كفرهم إذا خطر له إشكال على مذهبهم أو دهمه ما لا حيلة له في دفعه من تناقضهم وفساد أصولهم يحسن الظن بهم ويقول: لا شك أن علومهم مشتملة على حكمة والجواب عنه يعسر عليّ.

وأما الاعتراض عليهم فهو عندهم من المحال الذي لا يُصَدَّق به، وهذا من خدع الشيطان وتلبيسه بغروره لهؤلاء الجهال مقلِّدين أهل الضلال، كما لبس على أئمتهم بأن أوهمهم أن كل ما قالوه صواب، كما ظهر من إصابتهم في الرياضات وبعض الطبيعات، فتركب من ضلال هؤلاء وجهل أتباعهم ما اشتدت به البلية وعظمت لأجله الرزية وخرِب لأجله العالم وجحد ما جاءت به الرسل وكفر بالله وصفاته وأفعاله، ولم يعلم هؤلاء أن الرجل يكون إماماً في فن من فنون العلم ويكون من أجهل الخلق بالفن الآخر من الرياضات والطب والحساب والهيئة والمنطق، وهي علوم متقاربة فكيف بعلوم الرسل، فإذا كان الرجل يكون إماماً في هذه العلوم ولم يعلم بأي شيء جاءت الرسل ولا تحلى بعلوم الإسلام، فهو كالعامي بالنسبة إلى علومهم، بل أبعد منه.

(١٠٠٨) آيات الله التي دعا العباد إلى النظر فيها دالَّة عليه بأول النظر دلالة يشترك فيها كل سليم العقل والحاسة، وأما أدلة هؤلاء الفلاسفة ونحوهم فخيالات وهمية وشُبَهٌ عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الأصول غير مؤدِّية إلى معرفة الله ورسله، والتصديق بها مستلزم للكفر بالله وجحد ما جاءت

به رسله ولا يصدق بهذا إلا من عرف ما عند هؤلاء وما عند هؤلاء ووازن بين الأمرين.

(١٠٠٩) أهل الهدى آمنوا بقدر الله وشرعه ولم يعارضوا بينهما بل كل منهما يصدق الآخر، فالأمر تفصيل للقدر وكاشف له وحاكم عليه والقدر أصل للأمر ومنفذ له وشاهد له ومصدق له، فلولا القدر لما وجد الأمر ولا تحقق ولا قام على ساقه، ولولا الأمر لما تميز القدر ولا تبينت مراتبه وتصاريفه، فالقدر مظهر للأمر، والأمر تفصيل له والله له الخلق والأمر، فلا يكون إلّا خالقاً آمراً، فأمره تصريف لقَدَره وقَدَرُه منفِّذ لأمره، ومن أبصر هذا تبين له سرُّ ارتباط الأسباب بمسبباتها وأن القَدْحَ فيها إبطال للأمر وإن كمال التوحيد إثباتها.

(١٠١٠) الحكمة في محبة النبي ﷺ للفأل وكراهته للطيرة مع إنه قد يخطر لبعض الأفهام أن مقاصدها متقاربة لأن الفأل يفتح باب السرور والاستبشار والنشاط عند سماعه الألفاظ الحسنة والأسماء المستحسنة ومشاهدة الكمال وهو داخل في إحسان الظن بالله في تيسير الأمور ففائدته عظيمة، وأما الطيرة فبالعكس تفتح باب الحزن والكآبة وسوء الظن بالله والخوف من غير الله إذا سمع أو رأى ما يكره، ففرقٌ بين أمر يفتح على العبد باب الخير والسرور، وأمر يفتح له باب الشر والغم، وأما إخباره ﷺ أن الشؤم قد يكون في ثلاث: المرأة والفرس والدار، فليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته إن الله قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر؛ وهذا كما يعطي الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً نذلاً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها قد يكون فيها بركة أو ضدها.

## ومن «روضة المحبين»

(١٠١١) ما حرم الله على عباده شيئاً إلاّ عوَّضهم خيراً منه، كما حرم الاستقسام بالأزلام وعوَّضهم عنه الاستخارة، وحرَّم الربا وعوَّضهم عنه التجارة الرابحة، وحرَّم القمار وأعاضهم عنه المسابقة النافعة، وحرَّم عليهم الحرير وعوَّضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة، وحرم الزِّنا واللِّواط وأعاضهم منها بالنكاح والتسرِّي بالنساء الحِسان، وحرّم عليهم شرب الخمر وأعاضهم عنه الأشربة اللذيذة المتنوعة، وحرم آلات اللهو وعوضهم عنه سماع القرآن، وحرم عليهم الخبائث في المطاعم وغيرها وعوضهم عنها الطيبات فمن تلمح هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المردي واعتاض عنه بالنافع المجدي وعرف حكمة الله ورحمته في الأمر والنهي.

(١٠١٢) كل لذة أعقبت ألماً أو منعت لذة أعظم منها فليست بلذة في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، وهذه هي لذة الكفار والفسّاق بعلوّهم في الأرض وفسادهم وفرحهم بغير الحق ومرحهم.

وأما اللذة التي لا تعقب ألماً في دار القرار ولا توصل إلى لذة هناك فهي لذة باطلة إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمنها يسير ليس لتمتع النفس بها قدرٌ ولا بد أن تَشْغَلَ عما هو خير وأنفع منها؛ وكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهي محبوبة مرضية للرب، فصاحبها يلتذّ بها من وجهين: من جهة تنعمه بها، ومن جهة إيصالها إلى مرضاة ربه وإفضائها إلى لذة أكمل منها.

## ومن «جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام»

(١٠١٣) مواطن الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة فرضها ونفلها، وصلاة الجنازة ودعاء القنوت، وفي الخطب وإجابة المؤذن والدعاء وعند دخول المسجد والخروج منه وعلى الصفا والمروة وعند ذكره وفي المجالس التي يجتمع فيها وعند الفراغ من التلبية، وإذا خرج إلى السوق أو إلى دعوة، وإذا قام من نوم الليل وعقيب ختم القرآن ويوم الجمعة وعند القيام من المجلس وعند المرور على المساجد ورؤيتها وعند الهم والشدائد وعند كتابة اسمه، وعند إلقاء العلم إلى الناس من تدريس أو قصص أو وعظ ونحوها وعقب الذنب إذا أراد أن يكفر عنه، وعند إلمام الفقر والحاجة أو خوف وقوعه، وعند خطبة الرجل المرأة في النكاح، وعند العطاس وبعد الفراغ من الوضوء، وعند دخول المنزل، وكل موطن يذكر الله فيه، وإذا نسي الشيء، وعند الحاجة تعرض للعبد، وعند طنين الأذن وعقيب الصلاة وعند النوم وعند كل كلام ذي بال، وفي أثناء صلاة العيد وفي الصلاة عند ذكره، وذكر تفاصيل ذلك وما فيه من الخلاف.

(١٠١٤) وأما فوائد الصلاة على النبي ﷺ فكثيرة: امتثال أمر الله وموافقة الله وموافقة ملائكته وتكفير السيئات وزيادة الحسنات ورفعة الدرجات، وكونه سبباً لإجابة الدعاء ولشفاعة محمد ﷺ والقرب منه، ولكفاية الهم والغم وقضاء الحوائج، وسبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته، وهي زكاة للمصلي وطهرة له وسبب للتبشير بالجنة والنجاة من النار، وسبب لرد النبي ﷺ السلام، ولتذكير العبد ما نسيه، ولطيب المجلس، وأن لا يعود على أهله حسرة، ولنفي الفقر والبخل، وللنجاة من نتن المجلس الذي لا يذكر الله فيه ولا رسوله، ولتمام الكلام وبركته ولوفور نور العبد على الصراط، وللخروج من الجفاء، ولإبقاء الثناء الحسن للمصلي عليه بين

السماء والأرض، وللبركة في ذات المصلي وعمره وعمله وأسباب مصالحه، ولنيل رحمة الله له، ولدوام محبته ﷺ وزيادتها وتضاعفها ولمحبة الرسول للعبد وسبب لحياة القلب وهدايته وسبب عرض اسم المصلي على النبي ﷺ وسبب لتثبيت القدم على الصراط والجواز عليه ولأداء أقل القليل من حقه، ومتضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعام الله على عبيده بإرساله، وهي دعاء من العبد، وسؤاله نوعان:

أحدهما: سؤال مطالبه وما ينوبه.

والثاني: سؤاله أن يثني على حبيبه وخليله ويزيد في تشريفه وتكريمه ورفعة ذكره، ولا ريب أن الله يحب ذلك ورسوله يحبه، فالمصلي قد صرف سؤاله لما يحبه الله ورسوله، وآثر ذلك على طلب حوائجه ومحابِّه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، وههنا نكتة حسنة لمن علَّم أمتَه دينَه وما جاء به ودعاهم إليه وصبر على ذلك: وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر أمته مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه، والمعلمُ الخيرَ للأمة إذا قصد توفيرَ هذا الحظ لرسول الله ﷺ وصرفه إليه، وكان مقصوده بدعاء الخلق إلى الله التقرب إليه بإرشاد عباده وتوفير أجور المطيعين له على رسوله مع توفيتهم أجورهم كاملة كان له من الأجر بدعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

## ومن «الكافية الشافية»

(١٠١٥) قيل للمؤلف: ما تقول في القرآن، ومسألة الاستواء؟ فقال: نقول فيها ما قاله ربنا تبارك وتعالى، وما قاله نبينا محمد ﷺ: نَصِفُ الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، فمن شبّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه أو وَصَفَه به رسوله تشبيهاً فالمشبِّه يعبد صنماً والمعطِّل يعبد عدماً والموحِّد يعبد إلهاً واحداً صمداً ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ والكلام في الصفات كالكلام في الذات؛ فكما أنا نثبت ذاتاً لا تشبه الذوات، فكذلك نقول في صفاته إنها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا نشبِّه صفات الله بصفات المخلوقين، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لأجل تشنيع المشنِّعين.

وأما القرآن فإني أقول إنه كلام الله منزل غير مخلوق. منه بدا وإليه يعود، تكلم الله به صدقاً، وسمعه جبريل منه حقاً وبلغه محمداً ﷺ وحياً وإنه عين كلام الله حقيقة، وأن جميعه كلام الله وليس قول البشر، ومن قال إنه قول البشر فقد كفر والله يُصْلِيه سقر، ومن قال: ليس لله بيننا كلام فقد جحدَ رسالة محمد ﷺ ونقول: إن الله فوق سمواته مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وهو العلي الأعلى بكل اعتبار.

ولنذكر من غرر أبياته وجواهرها ما هو جمال بعد جمال:

يا أيها الرجل المريد نجاته	اسمع مقالة ناصح معوان
كن في أمورك كلها متمسكاً	بالوحي لا بزخارف الهذيان
وانصر كتاب الله والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالقرآن

وتعرَّ من ثوبين من يلبسْهما	يلقى الردى بمذمة وهوان
ثوب من الجهل المركّب فوقه	ثوب التعصب بئست الثوبان
وتَحلَّ بالإنصاف أفخر حلة	زينت بها الأعطاف والكتفان
وآجعل شعارك خَشية الرحمن مع	نُصحِ الرسول فحبذا الأمران
وتَمَسَّكَنْ بحبله وبوحيه	وتوكَّلَنْ حقيقة التكلان

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم	فهما على كل امرىء فرضان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالأخلاص في سرٍّ وفي إعلان
فالقصد وجه الله بالأقوال والأعمال والطاعات والشكران
فبذاك ينجو العبد من إشراكه	ويصير حقًّا عابد الرحمن
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالحق المبين وواضح البرهان
فيدور مع قول الرسول وفعله	نفياً وإثباتاً بلا روغان

واحذر كمائِنَ نفسك اللاتي متى	خرجت عليك كُسِرْتَ كَسْرَ مهان
وإذا انتصرت لها فأنت كمن بغى	طفي الحريق بِمَوْقِدِ النيران

شهدوا بأن الله جل جلاله	متفرّد بالملك والسلطان
وهو الإله الحق لا معبود إلاّ وجهه الأعلى العظيم الشان
بل كل معبود سواه فباطل	من عرشه حتى الحضيض الدان
وعبادة الرحمن غاية حبه	مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان

والله لا يرضى بكثرة فعلنا لكن بأحسنه مع الإيمان
فالعارفون مرادهم إحسانه والجاهلون عموا عن الإحسان

وله الحياة كمالها فلأجل ذا ما للممات عليه من سلطان
وكذلك القيّوم من أوصافه ما للمنام لديه من غشيان
وكذاك أوصاف الكمال جميعها ثبتت له ومدارها الوصفان

وله الكمال المطلق العاري عن التشبيه والتمثيل بالإنسان

والله ربي لم يزل متكلماً وكلامه المسموع بالآذان
صدقاً وعدلاً أحكمت كلماته طلباً وإخباراً بلا نقصان

أوليس قد قام الدليل بأن أفعال العباد خليقة الرحمن
من ألف وجهٍ أو قريب الألف يحصيها الذي يُعنَى بهذا الشان

فتدبَّرِ القرآن إن رُمتَ الهدى فالعلم تحت تدبُّرِ القرآن

إن الذي هو في المصاحف مثبت بأنامل الأشياخ والشبان
هو قول ربي آيُهُ وحروفُهُ ومدادُنا والرِّق مخلوقان

أوليس فعلُ الرب تابعَ وصفه وكمالِه أفذاك ذو حدثان

وكمالـه سبب الفعال وخلقه | أفعالهم سبب الكمال الثاني
والله ربي لم يزل ذا قدرة | ومشيئة ويليهما وصفان
العلم مع وصف الحياة وهذه | أوصاف ذات الخالق المنان
وبها تمام الفعل ليس بدونها | فعل يتم بواضح البرهان
فلأي شيء قد تأخر فعله | مع موجب قد تَمّ بالأركان

وشواهد الأحداث ظاهرة على | ذا العالَمِ المشهودِ بالبرهان
وأدلة التوحيد تشهد كلها | بحدوث كل ما سوى الرحمن

والرب باستقلاله متوحد | أفممكن أن يستقل اثنان

والقهر والتوحيد يشهد منهما | كل لصاحبه هما عدلان
فالواحد القهار ليس في الإمكان أن تحظى به ذاتان
ولقد أتانا عشر أنواع من المنقول في فوقية الرحمن
مع مثلها أيضاً تزيد بواحد | ها نحن نسردها بلا كتمان

* * *

ثم سرد أنواعها المذكورة فضلاً عن أفرادها فذكر الإجماع ومن نقله ثم قال:

فالمرسَلون جميعهم مع كتبهم | قد صرّحوا بالفوق للرحمن
هذا ونقطع نحن أيضاً إنه | إجماعهم قطعاً على البرهان
وكذاك نقطع إنهم جاءوا بإثبات الصفات لربنا الرحمن
وكذاك نقطع إنهم جاءوا بإثبات الكلام لخالق الأكوان
وكذاك نقطع إنهم جاءوا بإثبات المعاد لهذه الأبدان

وكــذاك نـقــطـع إنهـم جــاءوا بتــوحـيــد الإلــه ومــا لــه من ثــان
وكــذاك نـقــطـع إنهـم جــاءوا بــإثبــات القضــاء ومــا لـهم قــولان
فــالــرســل مـتـفـقــون فـي أصــول الــديـن دون شــرائـع الإيـمــان
كــل لــه شــرع ومــنـهــاج وذا في الأمـر لا التوحيـد فَٱفْهَمْ ذان

* * *

وكــذاك نـقــطـع إنهـم جــاءوا بـعــدل الله بـيـن طـرائـف الإنـســان
وكــذاك نـقــطـع إنهــم دعــوا للخمس وهي قــواعــد الإيمــان
إيــمــانـنــا بــالله ثــم بــرسـله وبــكـتـبـه وقـيــامــة الأبــدان
وبجنــده وهم المــلائكــة الأُلى هــم رسله لـمـصــالـح الأكــوان
هــذي أصـول الـديـن حقـاً لا أصــول الخمس للقـاضي هــو الهمـذان

واشـهــد عليهم إنـهم وصـفــوا الإلــه بكــل مــا جــاء فـي الـقــرآن
وبكـل مـا قـال الـرسـول حقيقـة من غيــر تـحـريف ولا عــدوان
واشهــد عليهم أن قــول نـبيـهم وكــلام رب العــرش ذا التبيــان
نص يـفـيــد لــديـهـم عـلم الـيـقـيـن إفــادة الـمـعـلوم بــالـبـرهــان

* * *

واشـهــد عليـهــم إنـهــم قــد أثبـتــوا الأسـمــاء والأوصــاف لـلديّــان
وكــذلــك الأحـكــام أحكــام الـصـفــات وهــذه الأركــان لــلإيـمــان
قــالــوا عــليـم وهــو ذو عــلم ويـعــلم غــايــة الإســرار والإعــلان
والــوصــف قــائــم بــالــذات والأســمــاء أعــلام لــه بــوزان
أسـمــاؤه دلـت عـلى أوصــافــه مشتقــة منـهــا اشتـقــاق معــان
وصفــاتــه دلت عـلى أسمــائــه والـفـعــل مــرتـبط بــه الأمــران
والـحـكـم نـسـبـتـهــا إلى متـعـلقــات تـقـتـضـي آثــارهــا بـبـيــان

واشهد عليهم أن إيمان الورى | قول وفعل ثم عقد جنان
ويزيد بالطاعات قطعاً هكذا | بالضد يُمسي وهو ذو نقصان

واشهد عليهم إنهم لم يخلدوا | أهل الكبائر في حميم آن
بل يخرجون بإذنه بشفاعة | وبدونها لمساكن بجنان
واشهد عليهم أن ربهُمُ يُرى | يوم المعاد كما يرى القمران
واشهد عليهم أن أصحاب الرسول خيار خلق الله من إنسان
حاشا النبيين الكرام فإنهم | خير البرية خيرة الرحمن
وخيارهم خلفاؤه من بعده | وخيارهم حقاً هما العُمَران
والسابقون الأولون أحق بالتقديم ممن بعدهم ببيان
كل بحسب السبق أفضل رتبة | مِنْ لاَحِقٍ والفضل للمنّان

إن كان ربك واحداً سبحانه | فاخصصه بالتوحيد مع إحسان
أوكان ربك واحداً أنشاك لم | يشركه إذ أنشاك ربٌّ ثان
فكذاك أيضاً وحده فاعبده لا | تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ | ل الجهد لا كَسِلاً ولا مُتَوان
والسّنة المثلى لسالكها فتو | حيد الطريق الأعظم السلطان
فَلِوَاحِدٍ كن واحداً في واحد | أعني طريق الحق والإيمان
هذي ثلاث مُسْعِدات للذي | قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرة | بلغت من العلياء كل مكان

والشِّرك فاحذره فشرك ظاهر | ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النِّدِّ للرحمن | أيّاً كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه | ويحبُّهُ كمحبة الديّان

شــرط المحبــة أن تــوافق من تحب على محبتــه بـلا عصيـان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا     فـك ما يحب فـأنت ذو بهتان

ليس العبـادة غيـر تـوحيـد المحبـة مع خضـوع القـلب والأركـان

الــرب ربٌّ واحــد وكــتــابــه     حق وفهـم الحـق منـه دان
ورســولــه قـد أوضح الحق المبين بغـايـة الإيضـاح والتبيـان
مـا ثم أوضح من عبـارتـه فـلا     يحتـاج سـامعهـا إلى تبيـان
والنصـح منه فوق كل نصيحة     والعلم مـأخـوذ عن الـرحمن
فلأي شيء يعدل الباغي الهدى     عن قـولـه لـولا عمى الخذلان
فـالنقل عنه مصدق والقـول من     ذي عصمـة ما عندنـا قـولان
والعكس عند سـواه في الأمرين يا من يهتدي هل يستوي النقلان

والعلم أقســام ثـلاث مـا لهـا     من رابع والحـق ذو تـبـيـان
عـلم بـأوصـاف الإلـه وفعـلـه     وكـذلـك الأسمـاء للرحـمـن
والأمــر والنهي الـذي هــو دينه     وجــزاؤه يــوم المعـاد الثـاني
والكــلّ في القـرآن والسنن التي     جاءت عن المبعوث بـالفـرقـان
والله مــا قــال امــرؤ متحـذلق     بســواهمــا إلاّ من الهــذيـان

وهنـا ثـلاثـة أوجه فـافطن لهـا     إن كـنت ذا علم وذا عـرفـان
بـالــضِّـدِّ والأَوْلــى كـذا بـالامـــتنـاع لعلمنـا بـالنفس والـرحمن
فـالضـد معـرفـة الإلّـه بضـدّ مـا     في النفس من عيب ومن نقصان
وحقيقـة الأولى ثبوت صفـاتـه     إذ كـان معطيـه على الإحسان

أو قلتُمُ قِسنا عليه نظيره فقياسكم نوعان مختلفان
نوع يخالف نصه فهو المحال وذاك عند الله ذو بطلان
وكلامنا فيه وليس كلامنا في غيره أعني القياس الثاني
ما لا يخالف نصه فالناس قد عملوا به في سائر الأزمان
لكنه عند الضرورة لا يصار إليه إلاّ بعد ذا الفقدان

لكن هنا أمران لو تمّا لما احتجنا إليه فحبذا الأمران
جمع النصوص وفهم معناها المراد بلفظها والفهم مرتبتان
إحداهما مدلول ذاك اللفظ وضعاً أو لزوماً ثم هذا الثاني
فيه تفاوتَتِ الفُهومُ تفاوتاً لم ينضبط أبداً له طرفان
فالشيء يلزمه لوازم جمة عند الخبير به وذي العرفان
فبقدر ذاك الخبر يحصى من لوازمه وهذا واضح التبيان
وكذاك من عرف الكتاب حقيقة عرف الوجود جميعه ببيان
وكذاك يعرف جملة الشرع الذي يحتاجه الإنسان كل زمان
علماً بتفصيل وعلماً مجملاً تفصيله أيضاً بوحي ثان
وكلاهما وحيان قد ضمنا لنا أعلى العلوم بغاية التبيان

والله ما تسوى عقول جميع أهل الأرض نصاً صح ذا تبيان
حتى نقدمها عليه معرضين مؤولين محرفي القرآن
يا مبغضاً أهل الحديث وشاتماً أَبْشِرْ بعقد ولاية الشيطان
أَوَمَا علمت بأنهم أنصار دين الله والإيمان والقرآن
هل يبغضُ الأنصارَ عبدٌ مؤمن أو مدركٌ لروائح الإيمان

فالجاهلون شرار أهل الحق والعلماء سادتهم أولو الإحسان

والجـاهلون خيار أحزاب الضـلا ل وشيعـة الشيـطان والـكفـران
وشـرارهـم عـلمـاؤهـم هـم شـر خـلق الله آفـة هـذه الأكـوان
وسـل العيـاذ من التكبـر والهـوى فهمـا لكـل الشـر جـامـعتـان
وهما يَصُدّان الفتى عن كـل طُرْ قِ الخيـر إذ في قلبـه يلجـان
فـتـراه يـمـنـعـه هـواه تـارة والكِبْـرُ أخـرى ثم يشتـركـان
والله مـا فـي الـنـار إلاّ تـابـع هـذين فـاسـأل سـاكني النيـران
والله لـو جـردت نفسـك منهمـا لأتت إليـك وفـود كـل تـهـان

يـا من يـريـد ولايـة الـرحمن دو ن ولايـة الـشيـطان والأوثـان
فَارِقْ جميع الناس في إشراكهم حتـى تـنـال ولايـة الـرحـمـن
يكفيك من وسـع الخلائق رحمـة وكفـايـة، ذو الفضـل والإحسـان
والـقـلب لـيس يـقـر إلاّ بـالـتـعـبـد فـهـو يـدعـوه إلـى الأكـوان
فتـرى المعـطّل دائمـاً في حيـرة متـنـقـلاً فـي هـذه الأعـيـان
يـدعـو إلهـاً ثم يـدعـو غيـره ذا شـأنُـه أبـداً مـدى الأزمـان
وتـرى المـوحِّـد دائمـاً متنقّـلاً بمنـازل الـطاعـات والإحسـان
مـا زال ينـزل في الـوفـاء منـازلاً وهي الـطريق لـه إلى الـرحمن
لكِـنَّـمـا مـعـبـودُه هـو واحـد مـا عـنـده ربـان مـعـبـودان
فـالفضـل عنـد الله ليس بصـورة الأعمـال بـل بحقـائـق الإيمـان
وتفـاضـل الأعمـال يتبـع مـا يقـو م بقلب صـاحبهـا من البـرهـان
يا خاطب الحـور الحسان وطـالبـاً لـوصـالـهن بـجـنـة الـحـيـوان
في جنـة طـابت وطـاب نعيمهـا فـنـعـيـمـهـا بـاق ولـيس بـفـان

لا يـلهينـك منـزل لـعبت بـه أيـدي البـلا في سـالف الأزمـان
فلقـد تـرحَّـل عنـه كـل مسـرة وتـبـدّلـت بـالـهـم والأحـزان

طبعت على كَدَرٍ فكيف تنالها ... صفواً أهذا قط في الإمكان
فاسمع صفاتها وصفات ها ... تيك المنازل ربة الإحسان

هذا وفتح الباب ليس بممكن ... إلّا بمفتاح على أسنان
مفتاحه بشهادة الإخلاص والتوحيد تلك شهادة الإيمان
أسنانه الأعمال وهي شرائع الإسلام والمفتاح بالأسنان
لا تُلْغِيَنْ هذا المثال فكم به ... من حل إشكال لذي العرفان
هذا وأول زمرة فوجوههم ... كالبدر ليل السِّتِّ بعد ثمان
والزمرة الأخرى كأضوأ كوكب ... في الأفق تنظره به العينان
أمشاطهم ذهب ورشحهم فمسك خالص يا ذلة الحرمان
ويرى الذين بذيلها من فوقهم ... مثل الكواكب رؤية بعيان
ما ذاك مختصاً برسل الله بل ... لهم وللصِّدِّيق ذي الإيمان
غُرُفَاتها في الجو ينظر بطنها ... من ظهرها والظهر من بطنان
سكانها أهل الصيام مع القيا ... م وطيب الكلمات والإحسان
ثنتان خالص حقه سبحانه ... وعباده أيضاً لهم ثنتان

للعبد فيها خيمة من لؤلؤ ... قد جوفت هي صنعة الرحمن
ستون ميلاً طولها في الجو في ... كل الزوايا أجمل النسوان
يغشى الجميع فلا يشاهد بعضهم ... بعضاً وهذا لاتساع مكان
فيها مقاصير بها الأبواب من ... ذَهَبٍ ودُرٍّ زُيِّن بالمرجان
وخيامها منصوبة برياضها ... وشواطىء الأنهار ذي الجريان
ما في الخيام سوى التي لو قابلت ... للنَّيِّرَيْنِ لقلت منكسفان
لله هاتيك الخيام فكم بها ... للقلب من علق ومن أشجان
فيهن حور قاصرات الطرف خيرات حسان هُنّ خير حسان

خيرات أخلاقاً حسان أوجهاً فالحسن والإحسان متفقان
وثمارها ما فيه من عجم كأمثال القلال فَجَلَّ ذو الإحسان
وظلالها ممدودة ليست تقي حراً ولا شمساً وأنى ذان
أو ما سمعت بأصل ظل واحد فيه يسير الراكب العجلان
مائة سنين قدرت لا تنقضي هذا العظيم الأصل والأفنان
أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ولحوم طير ناعم وسمان
وفواكه شتى بحسب مناهم يا شبعة كملت لذي الإيمان
لحم وخمر والنسا وفواكه والطيب مع روح ومع ريحان
وصحافهم ذهب تطوف عليهم بأكف خدام من الولدان
وهم الملوك على الأسرة فوق ها تيك الرؤوس مرصع التيجان
ولباسهم من سندس خضر ومن استبرق نوعان معروفان

لا تقرب الدَّنس المقرِّب للبلى ما للبلى فيهن من سلطان
والفرش من استبرق قد بطنت ما ظنكم بظهارة لبطان
مرفوعة فوق الأسرة يتكي هو والحبيب بخلوة وأمان
يتحدثان على الأرائك ما ترى حِبَّيْن في الخلوات ينتجيان
هذا وكم زَرْبِيَّة ونَمَارقٍ ووسائد صفت بلا حسبان
والحليُ أصفى لؤلؤ وزبرجد وكذاك أسورة من العقيان
ما ذاك يختص الإناث وإنما هو للإناث كذاك للذكران
أو ما سمعت بشأنهم يوم المزيد وإنه شأن عظيم الشان
هو يوم جمعتنا ويوم زيارة الرحمن وقت صلاتنا وأذان
والسابقون إلى الصلاة هم الأُلى فازوا بذاك السبق بالإحسان

ولهُمُ منائر لؤلؤ وزبرجد ومنابر الياقوت والعقيان
هذا وأدناهم وما فيهم دنى من فوق ذاك المسك كالكثبان
ما عندهم أهل المنابر فوقهم مما يرون بهم من الإحسان
فيرون ربهم تعالى جهرة نظر العيان كما يرى القمران
هذا وخاتمة النعيم خلودهم أبداً بدار الخلد والرضوان
يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنتِ غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلاّ واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقُكِ كاسِدٌ بين الأراذل سفلة الحيوان
يا سلعة الرحمن أين المشترِي فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن كيف تصبَّر العشاق عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا إنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ليصدَّ عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى رب العلى بمشيئة الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجدْ راحاتِه يوم المعاد الثاني

تم نقل المقصود من غرر أبياتها الجارية مجرى الأصول والضوابط الجوامع والفوائد الضرورية لتكون غرة وختاماً لهذا المجموع الجليل الذي حوى من الأصول المهمة والقواعد المتنوعة ما لم يحوه كتاب، وذلك بفضل الله وتيسير الملك الوهاب، جعل الله هذا العمل لوجهه خالصاً ولديه مقرباً وللعباد نافعاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وعلى التابعين لهم إلى يوم الدين، قال جامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي غفر الله له ولوالديه ومشائخه وجميع المسلمين، وذلك في ١٧ شعبان سنة ١٣٧٠هـ.

وقد نافت ولله الحمد على الألف ما بين أصل وقاعدة وضابط جامع وتعريف مهم، وفائدة ضرورية، وترغيب في كمال وتحذير من نقص، وتوجيه إلى المنافع الظاهرة والباطنة، وترهيب من المضار الدينية والدنيوية ومخبره يغني عن وصفه.

وجملة ذلك أن هذا المجموع قد انتقيته بعد التروي الكثير وكثرة التأمل والتفكير من جميع الكتب الموجودة من كتب الشيخين فتضمن صفوتها، واحتوى على جواهرها وغررها والحمد لله والفضل لله.

# الأدلة القواطع والبراهين

## في إبطال أصول الملحدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله. اللهم صلِّ وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كل علم صحيح نافع ودين صحيح، وإلى كل صلاح وخير. وخص محمداً ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة: فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية، إليهما ينتهي كل علم وحق وكمال.

وقد وضَّح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقي ونال الصفقة الخاسرة. وأعظم الناس انحرافاً عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وهم شرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدَّوا لمحاربة الأديان كلها، وزيَّن لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقد أصَّلوا

لباطلهم أصولاً يقلِّد فيها بعضهم بعضاً، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصوُّرها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق.

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول «أرسطو» اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله.

وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمحُ من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشكَّ في الأشياء ثم ليكتفِ بعقله وخياله ورأيه. وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نَفَوْه. وهذا أصلٌ أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم. وقد بيَّن الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

ومن أبلغ من تكلّم عليها وأبطلها شرعاً وعقلاً شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بيَّن عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كلُّ وجهٍ منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت. فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله.

قال رحمه الله في نقض (التأسيس) لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث «والكلام على هذا من وجوه:

## (أحدها)

أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال، من كلام أهل العلم والعقل والبيان. وهو أشبه بكلام قُصّاص الجهال، والمغالطين، من كلام العلماء والمجادلين بالحق. وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي: كان صاحب خطب، ولم يكن صاحب حجج. بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج.

## (الوجه الثاني)

أن يقال: ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يُستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية.

## (الوجه الثالث)

أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيباً في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطراباً وضلالاً؛ فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس والغلط في ذلك قليل نادر وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك وكلامهم في ذلك غالبه حق وفيه باطل، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح في العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال. وقد اعترف أساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه وإنما يؤخذ فيه بالأوْلَى والأَخْلَق والأحرى فيه، فإذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علم ولا يقين في العلم الإلهي كيف يستدل بكلامهم فيه؟

## (الوجه الرابع)

ما معنى قوله: فليستحدثْ لنفسه فطرة أخرى، والفطرة هي الخلقة التي فطر الله عباده عليها؟ أتريد أن تبدّل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة؟ فهذا غير مقدور للبشر فإن الله فطر عباده عليها، أم تريد أن يترك ما فطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك؟ وهذا الذي يصلح أن تريده، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التي فطر عباده عليها، وهي طريقة المبتدعين المبدِّلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة.. الحديث؛ فأهل الكتاب المنزل بدّلوا وحرّفوا من كتاب الله ما بدّلوه وحرّفوه، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي بدّلوا من فطره الله التي فطر العباد عليها وغيّروا منها ما غيّروا، ولهذا قيل: إن أرسطو هذا بدّل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم

القرآن. والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة. وهؤلاء بدّلوا وغيّروا فطرة الله وشرعته ـ خَلقَه وأمره ـ وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم ـ إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم ـ من هذا وهذا، كما بدل بنو إسرائيل القول الذي أمروا به، والعمل الذي أمروا به».
قال:

## (الوجه الخامس)

أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقرَّ بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله فيهم:

﴿قالوا لنْ نُـؤمنَ حتى نُـؤتَىٰ مِثلَ ما أُوتيَ رُسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أعلمُ حيثُ يَجعلُ رسالَتَه﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٤]

ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمن بالرسول. ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمْه بعقله لا يصدِّق به. انتهى كلامه رحمه الله.

## (الوجه السادس)

أن يقال: هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسلَه وأنزل كتبَه، فإنه بعث رسله مذكِّرين للعباد ما فُطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر

نعمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله، المتفضِّل بالنعم الظاهرة والباطنة، ومذكِّرين لهم بالأمر بما فُطرت العقول على استحسانه، كالصدق والبرِّ والإحسان والأخلاق الجميلة، وبالنهي عما فُطرت العقول على استقباحه من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة، فكيف يؤمر الناس أن يمحُوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟ وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد؟ وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، ما لا منتهى لشره وضرره..

## (الوجه السابع)

أن يقال: هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغي، ورفض الإيمان بالكلية. فإن الإنسان في الأصل خلق ظلوماً جهولاً: ليس فيه هدى، ولا علم صحيح، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه. ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر إليها المكلفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية. فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدي الله، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالاً ومآلاً، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة

﴿لَقَدْ منَّ اللَّهُ على المؤمِنين إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسهِمْ يَتلُو عليهم آياتِهِ ويُزكِّيهم ويعلِّمهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإِنْ كانوا من قَبلُ لفي ضلال مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

فمن تمسَّك بوصية هذا الملحد الضالِّ فقد أمر بمحو ما جاءت به الكتب، وأُرسِلت به الرُّسُل، وأن يُستبدلَ بذلك وساوسُ النفوس ووحيُ الشيطان، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحدُ ما جاءت به الرسل، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى:

﴿الذين كَذَّبوا بالكتابِ وَبِما أَرسَلْنا به رُسُلَنا، فسوفَ يعلَمونَ * إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم والسَّلاسلُ..﴾ الآية ـ [سورة غافر: الآيتان ٧٠، ٧١]

## (الوجه الثامن)

أن يقال: هذا الكلام باطلٌ شرعاً وعقلاً. أما الشرعُ فجميع الكتب المنزَّلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فِطَرِ الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقِه وصدقِ رُسُله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب اعتقاداً وتخلقاً وتصديقاً ودعوةً إليها وهداية لها من جميع الوجوه. ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمركَّبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصَّل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية.

وأما العقل، فإن أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق والأخلاق العالية، التي من اتَّصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقاماً، فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب

والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه، بل ينكرونه أشد الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلاّ العقائد الباطلة؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلاّ الأخلاق الرذيلة السافلة؟ وماذا بعد الرشد إلاَّ الغي والفساد؟

## (الوجه التاسع)

أن يقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم مِعْوَلٍ لهدم العلوم كلها. لأن لازم ذلك يوجب أن لا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد.

## (الوجه العاشر)

أن يقال على وجه التنزل: أيهما أولى؟ محو ما يقارب في القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه إلى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقاداً وتخلقاً تأتي

بالغرائب المزعجة والخيالات المضحكة، أي هذه الحالة التي لا يرتضيها من له مسكة من عقل، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوي المستمد من مَعِين الرسالة ومن هدى الله الذي هدى به الخلق، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهه صاحبه إلى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدي به إلى المطالب العالية، فمن سوَّى بين الحالتين والقلبين فليبك على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه.

والعلوم التي لها أساس قوي تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدي بها وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل: هي التي يعتبرها أولو الألباب، وينافسون في تحصيلها، ويرون إدراكَها أجلَّ نعمة أنعم الله بها عليهم. وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب حتى يلجّ الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمان. فالعلوم والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور الوحي وبرهان الحقيقة، وتبني علومها وأعمالها على الإيمان.

## (الوجه الحادي عشر)

أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة، فالله يقول:

﴿قُولُوا آمَنَّا باللَّهِ وما أُنزِلَ إلينَا وما أُنـزِلَ إلى إبراهيمَ وإسمٰعيلَ وإسحٰقَ ويعقوبَ والأسْباطِ وما أُوتِيَ مُوسَىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النبيّونَ من رَبِّهِمْ لا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنهمْ ونحنُ لَه مسلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وقال تعالى:

﴿إنَّ الذينَ قالُوا رَبُّنا اللَّهُ ثُمَّ استقامُوا فَلا خوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزَنُون﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٣]

وفي الصحيح أنه ﷺ قال لمن قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنهُ أحداً بعدك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) أي على الإيمان. وهؤلاء الملحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد ـ التي لا أصحَّ منها ولا أنفع ولا يُسْعِدُ العبد غيرها ـ من قلوبكم وشكُّوا لتستحدثوا علوماً وعقائدَ جديدة تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله.

## (الوجه الثاني عشر)

أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشك فيها محال غير ممكن، ومن حاول ذلك فهو مكابر، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه، لأن الحق إذا تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل باطل، وزهق الباطل عند مقابلته. ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه:

﴿وجَحَدُوا بها وآسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهم﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

وقال:

﴿لَقدْ عَلِمتَ ما أَنزلَ هَـٰؤلاءِ إلَّا ربُّ السمـٰواتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾

[سورة الإسراء: الآية ١٠٢]

وقال عن اليهود:

﴿الّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كما يَعرِفُونَ أَبْناءَهُمْ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٤٦]

وقال عن كفار المشركين:

﴿فإنَّهمْ لا يُكذِّبونَكَ ولـكنَّ الظالمين بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

[سورة الأنعام: الآية ٣٣]

فهؤلاء الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل، ومقاومة ذلك بكل طريق، فرأوا هذا طريقاً راجَ على الأغمارِ وضُعفاءِ البصائر،

﴿وقدْ مَكرُوا مَكرَهُمْ وعندَ اللَّهِ مَكرُهُمْ وإنْ كانَ مَكرُهُمْ لِتَزْولَ منهُ الجِبالُ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٦]

أما أُولو البصائر والألباب فإنهم يسعون لإزالة ما وقـع ويقـع في القلوب من الشبهات والشهوات المعارضة للحق؛ فإن الشبهات والشهوات الواردة على القلوب تضعف علمَها ويقينَها وإيمانَها. ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيـح والبراهين الصادقة، فإن الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك قال تعالى:

﴿فأَمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأَما ما ينفـعُ الناسَ فَيمكُثُ في الْأَرْضِ﴾

[سورة الرعد: الآية ١٧]

وكذلك إزالة ما يقـع في القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التي يقدمها صاحبها على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيـح، فدواء ذلك بتوجيه القلب لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس، فهذا هو المطلب الصحيـح لكل موفق: أن يكون فَطِناً في إدراك الحق وفي نفي الشبهات المنافية له، وأن يكون حسن القصد في ترجيـح ما يرجحه الدليل الصحيـح من المقالات.

## (الوجه الثالث عشر)

أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه، وإلاّ فأهله من أكذب الناس، فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أَئِمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندَهم على ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقِّين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أَقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليداً أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين.

## (الوجه الرابع عشر)

قال الشيخ: ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يُحب الدين والعلم واليقين. وقد ذم الحيرة بقوله:

**﴿قُلْ أَندعُو مِنْ دونِ ٱللَّهِ مَا لَا ينفعُنا ولا يضُرُّنا ونُرَدُّ على أَعقابِنا بعدَ إذْ هَدانا اللَّهُ كالَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأرض حَيرانَ لَهُ أصحابٌ يدعونَه إلى الهُدَى قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُو الهُدَى﴾** [سورة الأنعام: الآية ٧١]

وقد أمرنا أن نستهديَه الصِّراطَ المستقيمَ المتضمنَ للعلمِ بالحقّ والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أنّ من لم يكن عنده علم بالشيء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طُرُقِه، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحقِّ الذي في القلوب لِتَتَوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسنّة ولإجماع العقلاء المعتبرين، متابعون لأئِمتهم الضالين. انتهى.

## (الوجه الخامس عشر)

أنه لو فرض وقُدِّر أَن الإِنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خالياً من الحق والباطل، ثم يزن بعقلِه المستقيمِ العقائدَ الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادُّها من العقائد الْأُخَر ويزنُها بحقٍّ وعـدل وإنصاف وفهم صحيـح فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضـح له أن مَنْ سوَّى بين ما جاءت به الرسلُ وبين غيرِه كالمسوِّي بين الليـل والنهار والضيـاء والظلمة، فكيف بمن فضّل الإِلْحادَ على دين رب العباد، فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار.

## (الوجه السادس عشر)

أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل أن تقدح فيها الشبهاتُ والتشكيكات بوجه من الوجوه، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة، نقلاً وعقلاً وفطرة، أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحاً، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقُرن معه آضمحل وبطل، ولم يكن له إليه نسبة بوجه من الوجوه. فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه ليس بعد الحق إلاّ الضلال والمحال، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يـدل على فساد أديـانهم، وسفاهـة عقولهم، وسـوء مقاصدهم.

## (الوجه السابع عشر)

أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين:

أحدهما أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر وسائِرِ الغيوب، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون، ويعتقد ذلك ويعمل به.

الثاني معرفة براهين ذلك العقليةِ والسمعيةِ والنظريةِ، والوقوفُ على أسرارها وحِكَمها. فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقّة ومحاربة لله ورسله، وإنّما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها. فتبًّا لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله.

## (الوجه الثامن عشر)

أن الرسل صلوات الله وسلامُه عليهم، جاءوا بمحق ما يقع في القلوب مما ينافي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل أو تخلّ به بالبراهين القاطعة الواضحة، ليكون الإيمان صحيحاً والقلب سليماً من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة، والقرآن والسُّنّة مملوآن من ذلك، وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك، فهم أئمة الكفر والجحود حادّوا الله ورسله أعظم محادة.

## (الوجه التاسع عشر)

أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل، خصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ الإيمان بالقضاء والقدر، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا. والكتاب والسنة مملوآن من ذلك. وإن جميع الحوادث مربوطة بقضاء الله وقدره، ونواصي العباد بيده، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يأتي بالحسنات إلّا الله، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله. فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير. وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأساً، لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة. وكفى بقول جهلاً وضلالاً أن يصل إلى هذا الحد الفظيع.

## (الوجه العشرون)

أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة، فما أدركوه بحواسِّهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه. فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذْ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة. وهذا باطل شرعاً وعقلاً:

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق

النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.

قال الشيخ: وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض، وليس سعادتها إلاّ فيه. فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم، ولم يستدلّوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالِمُها وخاب بالشقاوة جاهِلُها. وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلاّ أموراً كلية مقدرة في الذهن لا في الخارج، والعلوم الموروثة عن الأنبياء أجلُّ وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة إلى علمهم، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطوّل العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيداً، واليسيرَ منه عسيراً، ولا يفيد إلاّ كثرة الكلام والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق. والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحسّ الباطن والظاهر، وتعلم بالقياس التمثيلي، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم. انتهى.

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحسّ، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة. فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدي للخلائق، وتوضيح للحقائق، وتنبيه للعقول على توجيهها لكل علم نافع. ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطالُ ذلك كله حتى يدركوه بحواسِّهم، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل الذين رَدُّوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، وأنكروا ما لم يحيطوا به علماً، وهم لا يزالون ينقُضون دليلهم الذي تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفي ما أثبتوه وتثبت ما نفوه، ولا يزالون هكذا في أمر مريج حين كذبوا بالحق.

وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه، والتبجُّح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين. فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكنت هؤلاء من لزوم الباطل.

## (الوجه الحادي والعشرون)

أن هؤلاء الماديين الملحدين لمّا سدُّوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكملَ الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها، وهي العلوم التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب وفطر الله عليها عقول العباد إلاّ من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة، فسدَّ هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم، وحصروا علومهم ومعارفهم في الأسباب المادية فقط، وتوسَّعوا فيها ومهروا واخترعوا وبلغوا حيث انتهت إليه معارفهم وأفهامهم، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وبعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة، فوقعوا في أمر مريج، وتخبطت نظرياتهم. وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا في المواد الأولية وفي سبب الأسباب، فينقضون ما اتفقوا عليه، ويبطلون ما كانوا أسسوه، ولا يزالون كذلك ما داموا لم يَنْفَذُوا من الأسباب إلى مسببها، ومن المخلوقات إلى خالقها. فما داموا كذلك فإنهم لا يستطيعون الاستقرار على رأي جامع لجماعتهم ومسعد لهم في الدنيا والآخرة. ونهاية ما يصلون إليه

**﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهمْ عَنِ الآخرةِ هُمْ غافلون﴾**
[سورة الروم: الآية ٧]

نسوا الله فنسيهم وتركهم في طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون

﴿فلمّا جاءتهُم رُسُلُهم بالبيناتِ فَرِحوا بما عِندَهم من العِلمِ وحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يَستهزِئُون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

## (الوجه الثاني والعشرون)

أنهم حين أصَّلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها تجرَّأوا جراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل، وتَجَرْهَمُوا بعقولهم الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القدح بالرُّسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السمَّاعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحيَ والرسالةَ والمعادَ، وأنكروا الربَّ تصريحاً وتعريضاً، وتدرَّجوا بذلك إلى القدح في جميع الأديان، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم، بل فضَّلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم. فأصلٌ هذه آثارُه الخبيثة، وهذه ثمراته السّمية المنتنة الحنظلية، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يُصغي إليه أو يبني عليه شيئاً من علومه ومعارفه؟ فإنه مفسد للأديان والعلوم، ومخبط للأذهان، فهو أعظم أصول الغي والضلال. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

## (الوجه الثالث والعشرون)

أن العلوم المدرَكة بالحس إذا نسبت إلى علوم الرسل ــ كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء على الخير والشرِّ وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يسعد النفوس ويشقيها ــ: كانت كقطرة في بحر لُجِّيٍّ. فأمور الغيب التي تتوقف على إخبار الرسل ووحي الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة، إذْ ضَيَّقوا دائرة المعلومات جدّاً في مدركات حواسهم، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم

قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم، لأنهم أنكروا العلم الحقيقي النافـع الذي يزكّي النفوس ويسعدها ويرقيها في مدارج الكمال.

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به علوم الفلسفة وما نتـج عنها، ونَفَوْا العلم عما سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلاّ فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير، وما سواها فإما علوم ضارَّة، وإما قليلة النفـع، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين. وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا، فما أضرها وأضر ثمراتها، ونعوذ بالله من علم لا ينفـع.

## (الوجه الرابـع والعشرون)

أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكماً فظيعاً باطلاً، وهو أن الرجوع إلى الماضي رجعية فاسدة، وأنه يجب إهدار كل قديم. وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وقالوا: إن البَشَر لم يبلغوا سن الرشد إلاّ في هذا الوقت الذي طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارَّة المهلكة، حتى تفاقم الشر وعمَّ الطغيان واضمحلَّ الخير، وهذا من أعجب العجائب، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ـ وخصوصاً سيِّدهم وإمامهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين ـ ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصابيـح الدُّجا وخواصّ الخلق لم يبلغوا سن الرشد، وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى اللَّهُ البشرَ وأرشَدَهم إلى كل علم نافـع صحيـح وعمل صالـح وخير ورشد وصلاح، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك

طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة هم الذين بلغوا سن الرشد؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. ويكفي تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة ببطلانه، فإن أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفيه تصرفاته ونتائج أعماله وثمراتها.

انظر إلى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هُدُوا إلى كل عقيدة صالحة نافعة وإلى كل خلق جميل وعمل صالح، وكيف نُهُّوا وحُذِّروا عما يضاد ذلك ويناقضه، وكيف نَشَروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد، وكيف تم بإرشادهم الصلاحُ الذي ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح، فهل تجد علماً نافعاً أو خلقاً فاضلاً أو خيراً نامياً أو شرًّا مدفوعاً أو ضرراً مرفوعاً إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم؟..

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك، فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشَقُوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم. وهذه المخترعات التي تكبَّروا بها وطغوا وبغوا هل توسّلوا بها إلى الخير والحياة الطيبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحداً إنكاره؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور. فيا من عافاه الله من هذه البلية ومنَّ عليه بهداية الرسل، احمد الله حمداً كثيراً، واشكره شكراً متتابعاً، فإن الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرُها ولا يُبلغ كنهها، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة.

## (الوجه الخامس والعشرون)

أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السَبُعِية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها.

وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم، وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات النفسية، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس مناها، ولم تقف عند حد فاستباحت كل قول وفعل محرم، ووقعوا في الإباحية المحصنة، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالاً منهم. ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فجعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة

**﴿إنّ الذين حَقَّتْ عليهِمْ كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنون * ولَوْ جاءتهُمْ كلُّ آيةٍ حتّى يَرَوُا العذابَ الأليمَ﴾**

[سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون.. كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل! ولا يغرَّنك تقلبُ الذين كفروا في البلاد، ولا تغترر بما أُعطيهِ هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال، فإنّ الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبُهُ أوضحَ الأشياء وأحقَّها، كان ضرراً كبيراً على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء:

**﴿وجَعلْنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً، فما أغنى عنهمْ سمعهُمْ ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ إذْ كانوا يجحَدون بآياتِ ٱللَّهِ وحاقَ بهمْ ما كانوا بهِ يستهزئُون﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

فذكر أنَّ جُحودهم لآياته أوجَبَ لهم أن لا ينتفعوا بما أوتوا من هذه الإدراكات، وصارت النعم جالبة للنقم. وقال تعالى:

﴿فلما جاءتهم رسلُهم بالبيناتِ فرِحوا بما عندَهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

فهم عظَّموا علومَهم التي تبجّحوا بها وتكبَّروا وقاوموا الرسل وسخِروا بما جاءتهم به الرسل فانحرفت علومُهُم إلى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون.

## (الوجه السادس والعشرون)

قال الشيخ: ما أخبرتْ به الرسل من الغيب فهي: أمور موجودة ثابتة أكملُ وأعظمُ مما نشْهَدُه نحن في هذه الدار، وتلك أمور محسوسة تُشاهَد وتُحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكنِ أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك. ليست عقليةً قائمة بالعقل كما تقوَّله الفلاسفة، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسّيات التي نشهدها أن تلك غيبٌ وهذه شهادة، وكون الشيء غائباً أو شاهداً أمرٌ إضافي بالنسبة إلينا، فإذا غاب عنا كان غيباً وإذا شهدناه كان شهادة. وليس هو فرقاً يعود إلى أنّ ذاتَه تُعقل ولا تشهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يُشهدوا ويُروا، والربّ تعالى يمكن رؤيته بالأبصار، والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص. انتهى.

وهذا يبطل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة، فإنه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام، وقد

تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم، فإنكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها، وذلك مكابرة منهم ومباهتة.

وقال الشيخ: واستدلال الملاحدة علَى إلحادهم بقوله تعالى:

﴿فَلَنْ تجدَ لسنة الله تبديلاً ولَنْ تجدَ لسنَّةِ ٱلله تحويلاً﴾

[سورة فاطر: الآية ٤٣]

على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلُعُ وتغرِبُ لأنها عادة الله، فيقال لهم: انخراق العادات أمرٌ معلوم بالحسِّ والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائِهِ وعقوبةِ أعدائِهِ، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة، وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال:

﴿فَهلْ ينظرون إلاَّ سُنةَ الأوَّلين، فَلَن تجدَ لسُنةِ ٱللَّهِ تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٣]

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة: فتسوِّي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته، سبحانه وتعالى، فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضاً، ومن سننه التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح، فإن هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تتبدل ولا حكمة

تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول، فإن السنة تقتضي تماثل الآحاد وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم. اهـ.

## (الوجه السابع والعشرون)

قال الشيخ: ما جاءت به الرسل، صلواتُ الله عليهم، لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشمُّوا رائحتها، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها. وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة ـ فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به، لزم أمران:

أحدهما: أنه لا حجة لهم على ما يكذّبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه.

الثاني: أن ما علموه خسيسٌ بالنسبة إلى ما جهلوه، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة؟ والرسول أخبر عن أمور معينة، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم: لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيستهم لا تفيد إلا أموراً كلية، وهذه أمور خاصة. وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في الصحيحين من غير وجه أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ذلف الأنوف حمر الخدود ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجانّ

المطرقة) فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة فضلاً عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة؟

وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شيء معين، وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن، ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجساماً حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بأخبار الأنبياء وببراهين أُخَر إلّا الجهل المحض، فقد كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرُّون بذلك، وكذلك أئمة الأطباء. وطريق هؤلاء الملاحدة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى.

وقال في سبب إلحاد بعض الملحدين: من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزاً عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخل في علمه نفاها فخسر دينَه وصار علمُهُ الجزئيُّ لبعض المعلومات وبالاً عليه. وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه، وبنوا آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدَّقوا به وأثبتوه. قال تعالى:

﴿بَلْ كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمِه ولمَّا يأْتِهِمْ تأويلُهُ﴾

[سورة يونس: الآية ٣٩]

وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئاً وصدَّقوا به كان حقًّا بخلاف ما نَفَوْه، فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذّبون بما لم يحيطوا به علماً. ويتفرع على هذا الأصل الباطل: الجهل

بالإلهيات وبما جاء به الرسل، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضلَّ زنادقةُ الفلاسفة وغيرُهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمورَ الغيب، إذْ لم تدخل تحت علومهم القاصرة، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. انتهى.

## (الوجه الثامن والعشرون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر اللَّهُ بها ورسوله: لِمَ أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب. فيقال لهم قدِّروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلَّها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقية العوالم، عوالم السماوات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة.

وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال: إن أئمتكم ورؤساءَكم قالوا ذلك وأنكروه، فيقال: أولاً: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم

على الإنكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطؤهم في ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم، وهم متفقون على ذلك؟ والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم ،وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم، فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الحائرين

**﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَ اللَّهِ وآياتِهِ يؤمنون﴾** [سورة الجاثية: الآية ٦]

ويلٌ لكل أفَّاك أثيمٍ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمَعْها، وكأن في أذنيه وقراً فبشِّره بعذاب أليم.

**﴿إنّ الذين حَقَّت عليهِم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولَوْ جاءتهُمْ كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ﴾** [سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

## (الوجه التاسع العشرون)

أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم، فإنه قد تواترت آياتُ الرُّسلِ وشاهَدَها الخلقُ العظيمُ، واعترفوا وخضعوا لها وشاهدوا ما فعله الله في الأرض، من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المكذبة. وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها،

ولم يشتهر ويتواتر شيء كاشتهارها وتواترها، ولم يعترف البشر بشيءٍ من الأشياء أعظم من اعترافهم بها لأنهم شاهدوها رأيَ عين ونقلَتْها الأمم قرناً بعد قرن، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم:

﴿وجَحَدُوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفسُهُم ظلماً وعُلُوّاً﴾

[سورة النمل: الآية ١٤]

## (الوجه الثلاثون)

أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها: حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلة محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والاتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم، وهَذَوْا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم، فضلاً عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكلٍّ كمال، وأنه الفاعل لما يُريد، وأنه مبدع السموات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيئته، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه، والحمد لله على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد، وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين.

## (الوجه الحادي والثلاثون)

أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم ـ فضلاً عن عوامِّهم ومقلِّديهم ـ: أنتم لا تزالون في علومكم التي افتخرتم بها، لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقرِّرونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها، ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكُّون فيها، وربما تجزمون ببطلانها وتحدِثُون ما يضادها من النظريات التي باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها، وهي عرضة للاضمحلال.. وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقاً، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها.. كيف يسوّغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون؟..

## (الوجه الثاني والثلاثون)

قد تقرر عند جميع الأمم ـ سوى هذه الطائفة التي كابرت وباهتت ـ صدقُ الرّسل بما كانوا عليه من الأخلاق العلية والأوصاف الرفيعة، وبما جاءوا به من الدين الحق الذي أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد إلى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التي تواترت تواتراً لم يقاربه شيء من المتواترات، حتى تناقلتها الأمم والقرون، وصارت في مقدمة الحقائق وفي أعلى مراتب الصدق، وخصوصاً إمامهم وسيدهم محمد ﷺ فإن جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا: أولياؤه وأعداؤه، ولو لم يجىء إلّا بهذا القرآن الذي تحدَّى الله به الأنس والجن: أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجميل الجليل وأحكامه التي هي أحسن

الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق، فمن عرف شيئاً من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم عَرَف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات وباهتوا المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية، وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للمعاندين تقليداً أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم:

**﴿وجَحَدوا بها وٱسْتَيْقَنَتْها أنفسُهُم ظلماً وعُلُوّاً فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدين﴾** [سورة النمل: الآية ١٤]

فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل

**﴿فبِأيِّ حديثٍ بعدَ اللَّهِ وآياتهِ يُؤمِنون﴾** [سورة الجاثية: الآية ٦]

أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم:

**﴿ربَّنا إنَّنا سمِعنَا منادِياً ينادِي للإيمانِ أنْ آمِنوا بربِّكم فآمنّا﴾**
[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

**﴿ربَّنا آمَنَّا بما أنزلْتَ وٱتّبعْنا الرسولَ فٱكْتُبنا مَعَ الشاهدين﴾**
[سورة آل عمران: الآية ٥٣]

## (الوجه الثالث والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحي من الله، جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهو مؤيدٌ بشهادة الآيات والبراهين القاطعة، والعقول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه، وتعترف بحاجتها وضرورتها

العظيمة إلى إرشاده وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقول بُنِيَتْ على الشُّبَهِ والخيالات، فإنها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لَم يكن لها إليها نسبة، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفِّلة بتعريف الخليقة ربَّها وفاطرَها المحسنَ إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وإبطال ما يضادّ ذلك وينافيه، فابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه سالمة من هذيانات الملحدين وافتراء المفترين، وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته إلى عقل ونقل سواه، قال تعالى:

﴿اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكُم وأتممتُ عليكُم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق.

ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقولُ جملةً وتفصيلاً، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله، أو تخبر بأمور لا تهتدي إليها العقول بمجرَّدِها لا جملةً ولا تفصيلاً، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة. وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم، وقد تتبع كبار العلماء وأساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها فهو ضلالات وجهالات وخيالات، حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلاً عن أولي الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المغتذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية

والجزائية فهو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهـدوا به الخليقة، قال تعالى:

﴿شَهِد ٱللَّهُ أنهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ والملائكةُ وأُولُو العلم قائماً بالقِسطِ لا إلَه إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨]

﴿ومَنْ أحسنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكماً لِقَوم يوقنون﴾

[سورة المائدة: الآية ٥٠]

﴿ويَرَى الذينَ أُوتُوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هُو الحقَّ ويَهْدِي إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ﴾ [سورة سبأ: الآية ٦]

﴿أولئكَ الّذينَ أنعمَ ٱللَّهُ عليهِمْ مِنَ النبيِّين مِن ذُرِّيةِ آدمَ ومِمَّنْ حَمَلْنَا مَـعَ نُوحٍ ومِنْ ذُريةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وممّن هدَيْنا وٱجْتَبَيْنا إذا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٨]

ولما ذكر صفات أولي الألباب قال عنهم:

﴿ربَّنا إنّنا سمِعْنا منادِياً ينادِي للإيمانِ أنْ آمِنُوا بِربِّكم فآمنَّا﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

## (الوجه الرابـع والثلاثون)

أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحلّ غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى

عظمة الله وجلاله وكماله، وإلاّ فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات، أعيانها وأوصافها وأفعالها، ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق ومن سواه عبد مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على كل شيء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعاً وقدراً وجزاء، إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئاً من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل، وأشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة

**﴿تُسَبِّح لَهُ السماواتُ السبعُ والأرضُ وَمَنْ فيهنَّ وإنْ مِنْ شيء إلاّ يُسبحُ بحمدِهِ ولكنْ لا تفقهونَ تسبيحَهُم إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً﴾**
[سورة الإسراء: الآية ٤٤]

**﴿إنْ كلُّ مَنْ في السماواتِ والأرضِ إلاّ آتي الرحمنِ عبداً * لقدْ أحصاهُمْ وعدَّهم عدّاً * وكلُّهمْ آتيهِ يومَ القيامةِ فرداً﴾**
[سورة مريم: الآيات ٩٣ ــ ٩٥]

فهؤلاء الملحدون لما لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبِّب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها، ظنّوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلاً وضلالاً، ومنهم من كان كذلك ظلم وعناداً. فيا أيها المؤمن بالله آحمدِ اللَّهَ على هذه النعمة التي هي أكبر النعم، والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم.

## (الوجه الخامس والثلاثون)

أن هؤلاء الدهريين، لما كانوا يقولون: ما هي إلاّ حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر، وما هي إلاّ الطبيعة تتولّد عنهـا الموجـودات والحوادث، حَصَروا مداركهم في هذه الحياة الدنيا، فأدركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل، وساءت قصودهم، وختم الله على مداركهم القلوب والأسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها، كما قال تعالى:

**﴿وجعلنـا لهمْ سمعـاً وأبصــاراً وأفئـدةً فمــا أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهُم مِنْ شيءٍ إذْ كانوا يجحَدُون بآيات الله﴾**

[سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

**﴿إنّ الذين يجادلون في آياتِ آللَّهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهُم، إنْ في صدورِهم إلَّا كِبْرٌ ما هم ببالغيه، فاستعِذْ باللَّهِ إنّه هو السّميـعُ البصيرُ﴾**

[سورة غافر: الآية ٥٦]

فنعوذ بالله من هذا الكبْرِ الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات ومنعه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسَّن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح. ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: المعلومات المعايَنَة التي لا تدرك إلَّا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تـدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمـع أعمَّ وأشملَ من إدراك البصر، فإنه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة. والمعلومات التي لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرة من بحر، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق.

وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء،

وأطلعهم منها على ما لم يُطْلِعْ عليه غيرَهم، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علماً أتباعُ الرسل وإنْ كان غيرهم أحذقَ منهم: في علم النجوم والهندسة وعلم الكمِّ المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل، وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلباً وخبراً، فهو العلم المزكي للنفوس، المكمِّل للفطر، المصحِّح للعقول، الذي خصه الله باسم «العلم» وسمى ما عارضه «ظنّاً» لا يغني من الحق شيئاً وخرصاً وكذباً. وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كلَّه خرصاً، وعلمت أنهم هم الخرَّاصُون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى بـه أنبياءَه وأتباعَهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا. انتهى.

## (الوجه السادس والثلاثون)

أن آياتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومعجزاتِهم التي شاهدها الخلق العظيم، وتناقلتها القرون، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة: دلالةُ العقل، ودلالةُ الحس، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه، تهدم الأصلَ الذي أصله الملاحدة حيث لم يثبتوا إلاّ ما دل عليه الحس، فإن أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبة من هذه الجهة، فضلاً عن بقية الاستدلالات عليها، فهي من أقوى الطرق وأوضحها وأدلِّها على الصانـع وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم رحمه الله: وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من

ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله «آياتٍ بيناتٍ»: فإنّ انقلاب عصاً تُقلُّها اليد: ثعباناً عظيماً يبتلعُ ما يمرُّ به ثم يعود عصاً كما كانت، وكذلك اليد، وفلقُ البحر طرقاً، والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجرٍ مربعٍ بعصاً فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفي أمة عظيمة، وإخراج الناقة لصالحٍ، وتصوير طائرٍ من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وإنزال العقوبات المتنوعة على المكذّبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جداً، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلَّهم بها، كما دلَّهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو، وأحوال العلويات: من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النطفة وتقلبها طبقاً بعد طبق. انتهى.

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويجاري الملحدين في تحليلها تحليلاً يعلم بالضرورة بطلانُه، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة، ومنقول نقلاً متواتراً لا يشبهه شيء من المتواترات، والله تعالى ينوّع آياتِه ويجعلها في كل فنٍّ وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرّف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لا يعرفون وجهها، وإنما

يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالّة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل. والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

## (الوجه السابع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم:

﴿أفي آللَّهِ شكٌّ فاطِرِ السَّمٰوات والأرضِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٠]

فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات، وهو واجب الوجود، وغيره وُجِدَ بعد العدم. وهو تعالى فاطر السموات والأرض، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة، وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه، أوجدها بعد العدم، أمدَّها بكل ما تحتاج إليه، وحفظها من الزوال والاضمحلال، وهو يحييها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات، وخضعت لعظمته جميع الكائنات وافتقرت إليه جميع البريات في كل شؤونها، كل يوم هو في شأن: شؤون يبديها ويبتديها، وقد قامت البراهين القواطع التي لا تُعدُّ ولا تُحصى على هذا الأمر، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، لا يمكن أحداً له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلاَّ هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مريد، كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى:

﴿لقد عَلمتَ ما أنزلَ هؤلاءِ إلاَّ ربُّ السَّمٰوات والأرض بَصَائِرَ وإنِّي لَأظُنُّكَ يا فِرعونُ مثْبورا﴾

[سورة الإسراء: الآية ١٠٢]

﴿وجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفسُهُم ظلماً وعلوًّا، فآنظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالإيمان:

**﴿قال: فمن ربُّكما يا موسى؟ * قالَ: ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيء خلقَه ثمّ هَدَى﴾** [سورة طه: الآيتان ٤٩، ٥٠]

فاستدلّ عليه بجميع الكونِ، ناطقِه وصامتِه، وأنه الذي انفرد بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة. فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، ولا ينكرُه إلّا كل مكابر مباهت، مثل فرعون وأئمةِ هؤلاء، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه

**﴿قال فِرعونُ: وما ربُّ العالمين * [إنكاراً له] قَالَ [ـ موسى ـ] رَبُّ السَّمٰواتِ والأرض وما بينَهُما إنْ كنتمْ موقنين﴾**

[سورة الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤]

فكل عاقل لا بد أن يعترف به، ومن لم يعترف به فإنه إمّا مجنون أو معاند مباهت، أو ضالٌّ مقلِّد تقليداً أعمى، فقال فرعون، مموِّهًا على أهل مجلسه: ألَا تسمعون ما يقول موسى؟ فقال موسى: ربكم ورب آبائكم الأولين، إنكاراً عليهم أنهم أنكروا أمراً لم يزالوا إليه ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأولين التي لا يمكن إنكارها، فهو الذي رباهم بخلقه ونعمه صغاراً وكباراً، هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخلق، ولكنهم باهتوا.

ومن مباهتتهم ومكابرتهم رميُه لموسى بالجنون، وهو يعلم أنّه أكملُ الناس عقلاً، وهو الذي أقامه وأقعده وأحرجه في أحواله كلها، فقال: إن رسولَكم الذي أرسل إليكم لمجنون. فلما رآه يكابر ويجحد ربوبية الله للخلق التي لا يمكن المكابرة فيها قال له: أولوجئتك بشيء مبين ظاهر واضح قوي دالّ على صدقي وصحة ما جئت به وإن الجاحدين هم المبطلون، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة كلهم أنه من عند الله وأثّر فيهم وآمنوا الإيمان الصحيح الصادر عن قوة وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون.

فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرسل. ولقد قصَّ الله علينا من نبأهم ما فيه عبرةٌ للمعتبرين وحجةٌ على المعاندين، وكم في الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك، فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأي حقيقة يعترف؟ ومن أنكره فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم.

## (الوجه الثامن والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين الماديين: هاتوا برهانَكم وميزانَكم الذي تزعمون أنه ميزان الحقائق، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين. زِنُوا الحقائقَ مفصّلة حقيقةً حقيقةً، واعرضوها على ذوي العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فإنه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين.

أول ذلك أن يقال: قابلوا بين أي موجود من الموجودات التي اختصصتم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها وبين وجود الخالق، فإن وجود الخالق، جلَّ جلالهُ وتقدست أسماؤه، وجودٌ واجب، مستحيل وممتنع ثبوت نقيضه، فهو أعظم الموجودات وأظهرها، بل لا وجود لشيء من الأشياء إلّا بإيجاده، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه، ليس لشيء منها من نفسه وجود، فليس لها إلا العدم، فهي حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود، لو قطع عنها الأمور التي حفظها بها وأبقاها لاضمحلّت، والله تعالى وجوده مركوز في العقول والفطر، معلوم بالضرورة وبالطرق التي هي أقوى الطرق الدالة على الحق

﴿ذلك بأنَّ ٱللَّهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يَدْعُونَ من دونِه هُو الباطِلُ﴾
[سورة الحج: الآية ٦٢]

فحصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا حق لشيء من الأشياء إلّا باستناده إليه، فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود.

فواعجبا كيف يعصى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها، ولكن العلة والسبب الذي حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم:

﴿الذين كذّبوا بالكتابِ وبما أرسلنا به رسلَنا﴾ [سورة غافر: الآية ٧٠]

فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله، وبجميع الرسل، منعهم من قبول الحق الذي لا حق غيره وتركهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذكر وعيده لهم بقوله:

﴿فسوف يعلمون * إذِ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسلُ. . .﴾ الآية
[سورة غافر: الآيتان ٧٠، ٧١]

زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم العظيم من الوحدانية في أوصاف الكمال، والتفرد بكل جلال وجمال، والتفضل بكل خيرٍ ونِعَمٍ جِزَال، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حسب العقول والأفهام، إذْ تهتدي إلى ما بثه في المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تحصى المترتبة على ذلك، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التي وسعت كل شيء، فما من مخلوق يستغني عن رحمة خالقه طرفة عين، فما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خفية أو جلية إلا من الله، وهو الذي لا يأتي بالخير والحسنات إلّا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلاّ هو، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره.

وانظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة، وما تدلّ عليه من عظمة مدبِّرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنه المتفرِّد بالوحدانية والكمال الذي لا غاية له. وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة، فهل يستوي من أثبت ما دلّت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل؟ وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، والقيام بحمده وذكره وشكره والإنابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب؟ أم الأمر بضد ذلك من الشِّرْك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها.

وهل يستوي ما أُمرتْ به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك؟ وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟ وهل تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلّا بالتزام ذلك والعمل به؟ وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة، والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلّا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟ وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد:

﴿لقد مَنّ اللهُ على المؤمِنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

﴿وآذكروا نعمةَ اللهِ عليكُم إذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبِكُمْ فأصبحتمْ بنعمتِه إخواناً، وكنتمْ على شَفَا حُفرةٍ مِنَ النارِ فأنقذكُم منها، كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكمْ آياتِهِ لعلّكم تهتدون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

وقال تعالى:

﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

﴿ومنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكماً لقومٍ يوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه، من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد، عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والباطن، مع ما دعت إليه الرسل؛ وأن الملحدين ترمي دعوتُهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل، ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرفَ منهم وأنفعَ؛ وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرِّح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نِعَمَه، وأن يثبِّتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه.

ومن أعجب العجائب أنَّ كثيراً من الكتاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي ومشكلة الإلحاد الذي جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلها ومداواتها

بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وازدادت المشاكل التي يريدون حلها مشاكل أخرى تعذر حلُّها كما هو المأمول، فكل مشاكل الحياة إذا لم تُبْنَ على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقداً وعظم ضررها وبعد خيرها، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح، ووجَّهوا النشء إلى عقيدته والتخلق بأخلاقه، لأثمرت مساعيهم كلَّ زوج كريم، ولتوجَّهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشر والإضرار والأعمال القباح، فالفساد لا يسود إلّا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجامعه.

## (الوجه التاسع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين: من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها؟ فسيجيبون إن هذا كله أثرُ المصادفة، وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف وهذا قولهم الذي صرَّحوا به واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالّين، فحينئذ يتَّضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون؛ فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية، لزالت السموات والأرض واختبطت العوالم:

**﴿إنّ الله يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تَزُولاَ ولَئِنْ زالتا إِنْ أمسكَهُما مِنْ أحدٍ من بعدِهِ، إنّه كانَ حليماً غفوراً﴾** [سورة فاطر: الآية ٤١]

وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا. . احتمالات في غاية الضعف والوها. فيا عجباً لمن اغترَّ باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتُهم وهجومُهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فأبطلوها وأنكروها، ولا يغرَّنَّك كما غرَّهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية فإنها لا تغني من الحق شيئاً ولا تدل على فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم:

**﴿لا يُغَرَّنَّكَ تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد * متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنمُ وبئس المهاد﴾** [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦، ١٩٧]

**﴿وجعلْنا لهمْ سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أَغنى سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم منْ شيءٍ إذْ كانوا يَجحَدُون بآيات اللهِ وحاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

والله تعالى جعل للعقول حدًّا لا تتعدّاه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليلٌ جداً في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟ ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالقٍ خَلَقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها. . . سبحانك هذا بهتانٌ وجرم عظيم:

﴿تكادُ السمواتُ يَتَفطَّرن منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبال هدًّا * أنْ دَعَوْا للرحمـٰن وَلَداً﴾ [سورة مريم: الآيتان ٩٠، ٩١]

فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية.

## (الوجه الأربعون)

أن يقال: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والموادُّ والعناصرُ مبتورةً مقطوعةَ الصلة بالله وبدينه، فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثاً ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها، حتى يظن الظانون، بل يظنُّ كثيرٌ من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها، فيقعون في الجحود والإنكار الصريح، ويصيرون في خبط وخلط من جهة العقيدة الصحيحة:

﴿بلْ كذَّبوا بالحقِّ لما جاءَهم فهمْ في أمرٍ مَرِيجٍ﴾ [سورة قٓ: الآية ٥]

فإهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضل خلقاً كثيراً؛ فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها، والموجودات على موجدها، والنعم على مسديها والمتفضل بها لهدوا إلى صراط مستقيم، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم.

## (الوجه الحادي والأربعون)

أن الله أيّد رسوله محمدًا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله، أحدهما شهادة الله له، والثانية هذا القرآن، قال تعالى:

﴿قُلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً؟ قُلِ اللهُ شهيدٌ بيني وبينَكم، وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذركمْ بهِ ومن بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٩]

فأما شهادته لرسوله ولِمَا جاء به فبقوله الذي أنزله في كل كتاب وعلى لسان

كل رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيّده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كله، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصلاح المطلق في جميع الأمور، فما بقي خيرٌ إلاّ أَمَر به ولا شرٌّ إلاّ نهى عنه وحذّر، ولا طيِّبٌ إلا أحلّه، ولا خبيث إلا حرَّمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسولَه عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقاً في الكُمَّلِ من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لا يمتري فيها إلاّ جاهل أو مكابر.

وأما شهادة هذا القرآن فإن الله منذ أنزله إلى أن تقومَ الساعةُ قد تحدَّى به الإنس والجن، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به في هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الديني والدنيوي، وما حذّر عنه من الشرِّ والأضرار والعقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان، وما شرّع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن التي لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع، وكل خير لا شر فيه فإنه من أحكامه ومما دل عليه، فليأت المُنْكِرُ بمثالٍ واحد صحيح خارج عن هذا الأصل. فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينا أن ما خالفه باطل، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال:

**﴿وَيَرى الذين أُوتُوا العلمَ الذي أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ هو الحقَّ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾** [سورة سبأ: الآية ٦]

﴿سنريهم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتّى يتبيّن لهمْ أنَّه الحقُّ أوَ لَمْ يَكْفِ بربِّك أنّه على كل شيءٍ شهيد﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة، شاهدة بصدقه وصدق رسله، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله.

## (الوجه الثاني والأربعون)

النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقي أحوال الحياة والتطورات المتنوعة، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة. فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نِعَمٍ ومسارّ ومحن ومضارّ، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النِّعَم والمسارِّ بشكرِ المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النِّعم من كل وجه، وعند المكاره يأمر بالصبر والرِّضا والاحتساب ورجاء الأجر، مع السعي في دفعها قبل نزولها، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل.

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم: لها يعملون، ولها يطلبون، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها، فإنهم يتلقون التطورات المختلفة كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونَهَمٍ كَنَهَمِ الأنعام أو أعظم: لا يشكرون على النَّعماء، بل يكفرون ويبطرون ويطغون، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة. قال تعالى:

﴿والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ والنَّار مثوى لهم﴾ [سورة محمد: الآية ١٢]

فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خيرٌ وسعادة وفلاح، وآثار الجحود شرٌّ وضرر وعواقب وخيمة.

## (الوجه الثالث والأربعون)

يقول الملحدون: الترقِّي شامل لكل شيء. وقصدهم بذلك إبطال الأديان، وأنّ أفكارهم المنحرفة عن الحق ما زالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود، وهذا تكذِّبه الأديان كلها، والواقع يشهد بكذبه، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقي المشاهَدَ الآن إنما هو منحصر في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية، وأما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس: فإن المادة التي يشترك فيها البَرُّ والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقّت ترقياً عظيماً وخصوصاً في هذا القرن، وأما الأديان والأخلاق فإنها في هذا الوقت هبطت هبوطاً عظيماً. ولهذا لما كان النوع الأول خالياً من الدين والإيمان صار هذا الترقِّي الدنيوي الصناعي ضَرَرُهُ كبيراً من وجهين:

أحدهما: أنه صار سبباً لاغترار كثير من الخلق، وظنُّوا بجهلهم أن الترقّي الدنيوي دليل على أن أهله أَوْلى بكل خير من غيرهم. وجهلوا بل ضلُّوا ضلالاً مبيناً، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات ــ حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته ــ صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتَّب عليها من الحروب التي لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعَجَزَ ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر، وهذا أمر حتمٌ لا بدَّ منه، وجريان الأحوال يدل عليه،

فالخير كله في الدين الصحيح، والشرُّ كله في الإنكار والجحود. والله أعلم. يؤيد هذا ويوضحه توضيحاً بيِّناً واقعاً:

## (الوجه الرابع والأربعون)

وهو أن الماديين ـ رؤساءَهم وعلماءَهم ـ لا زالوا مكرِّسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حلِّ مشاكل الحياة وقد عَجَزُوا عنها كل العجز، فكلما حلوا مشكلة نتج عنها مشاكل، وكلما وجَّهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب. أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو الطريق الوحيد الذي تنحلُّ به جميع مشاكل الحياة، واحدة بعد الأخرى، وتزول به الشرور والأضرار، وتحصل به الخيرات.

ولنذكر نموذجاً من المشاكل التي اضطرب فيها الخلق اضطراباً عظيماً ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين. فمن أعظمها مشكلة العلم، فإنه إذا صحَّ صحَّت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه، وقد كانت شريعة الإسلام تحضّ على العلم وترغِّب فيه، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم، ومع حضِّها وترغيبها في العلوم فقد تكفَّلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بيَّن الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلاً بعد ما أصَّلتها تأصيلاً، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهَدَتْ إليها وأرشدت لها العباد، فما من علم نافع إلاّ بينته. وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد:

﴿إنَّ هذا القرآنَ يَهْدي للتي هي أقومُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

﴿واللهُ يقولُ الحقَّ وهُوَ يَهدي السبيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

فجمع في هاتين الآيتين بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف.

وأما الماديون فهم يخصّون بالعلم: علومَ الدُّنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التي لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرِّها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم وبَقُوا في أمر مريج متناقضين، متضاربة آراؤهم غير مستقرّة أفكارهم، فلم يحلّوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطغتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين.

ومن المشاكل: مشكلة الغنى والفقر، وقد تقدّم أن هذا الدين حلَّها حلاًّ تتمُّ به الأمور وتحصل الحياة الطيبة، وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة في أسباب الرزق، المناسبة لكل زمان ومكان وشخص، فقد أمر بالاستعانة بالله في تحصيلها، وأن تُجتنب الطرق غير المشروعة، وأن نقوم بواجبات الغِنَى المتنوعة، وكذلك عند حلول الفقر: أمر بالصبر وتلقّي ذلك بالتسليم وعدم التسخُّط، مع السعي في طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال، ونَهى عن البطالة والكسل الذي يضر في الدين والدنيا، ومع أَمْره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظُلم الخلق في دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثُّب على حقوقهم بغير حق، كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم.

ومن ذلك مشاكل السياسات الكبار والصغار أَمَر بحلِّها، وذَكَر الطرق الموصلة إلى ذلك بفِعْل ما توضَّحت مصلحته وتَرْك ما تبينت مفسدته،

والمشاورة في الأمور المشكلة والمشتبهة في كل قليل وكثير، وهذه: أصول لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب.

ومن ذلك مشاكل الحقوق والمعاملات، فقد أتى الدِّين فيها بغاية العدل، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها: الحقوق الراتبة والحقوق العارضة، وهي في أكمل ما يكون من الحُسْن، وبها يندفع الضرر والشر والخصام:

﴿وَمَنْ أَحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لقومٍ يُوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلّا إذا بنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها، وصَلُحت من جميع الوجوه، لا فرق بين مكافأة المحسنين في الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك. والله أعلم.

## (الوجه الخامس والأربعون)

أن هؤلاء الملحدين روَّجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصافٍ إذا سمعها الجاهل هالَتْهُ واغترَّ بها وظنّ صدقَها، وكل منصف عارف يعرف كذبَها وبطلانَها، فزعموها تجديداً ورقيًّا وتقدُّماً إلى الأمام، وما أشبهَ ذلك من العبارات التي يغترُّ بها الجاهلون. وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدمٍ ورقيٍّ روحيٍّ وماديٍّ فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر بإصلاح الدنيا الإصلاحَ الحقيقيَّ النافع، عاجلاً وآجلاً، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدّر مفتّر. فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل في موضع آخر، فمحاسن الدين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من

النجوم الدراري، وأجلى نوراً من الشمس المشرقة، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها الباطل المبهرج:

﴿وَقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطلَ كانَ زَهُوقاً﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

ولولا أن الباطل قد زُخرِف ورُوِّج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونَصَرَتْهُ الدول المنحرفة لم يقبلْه عَاقِل ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظُلْمةً من الليل وأضعف من كل ضعيف. وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغّب فيه وما يحذّر عنه، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد، تجد أقوالهم تضمحلُّ وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة، فإن الضدّ يُعرف بضده، فلولا الليل ما عرف النهار، ولولا الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها، وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد:

﴿ليهلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنة، ويَحْيا من حَيَّ عن بَيِّنة﴾

[سورة الأنفال: الآية ٤٢]

وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحقَّ يشبه بعضُه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان:

﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختـلافاً كثيراً﴾

[سورة النساء: الآية ٨٢]

وتجد الباطل يُبطل بعضُه بعضاً وأهلهُ في غاية التناقض، بل تجد الواحد منهم متناقضاً متهافتة أقواله.

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى:

﴿وَلَا يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جِئْنَاكَ بالحقِّ وأَحْسَنَ تَفْسيراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

فالحق مسائله هي الصادقة النافعة، وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأمّا ضده فإنّ مسائله باطلة وضلال، وحدودَه في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يحصِّلها القارىء بسهولة، وإذا وصل إليه وجده:

﴿كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءَهُ لمْ يجدْه شيئاً ووجَدَ اللهَ عندَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَه، واللهُ سريعُ الحساب * أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ موجٌ مِنْ فَوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِه سَحَابٌ، ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ﴾
[سورة النور: الآيتان ٣٩، ٤٠]

ظُلمة الضلال والجهل المركب والبسيط، وظُلمة الكبر والغرور.

## (الوجه السادس والأربعون)

أن يقال: إنه ممتنعٌ كلَّ الامتناع، ومستحيلٌ أن تتهذَّب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك، فإنها مع تطوُّرها وتبحُّرِها عَجَزَت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها والذي يتوقف عليه صلاح البشر، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولّى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذّب للأفكار وحاثٌّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل، فَرُوحُ ما دعا إليه الدين الإيمانُ بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله وبما له من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسنها وسيئها التي لا تُعرف إلا من جهة الرسل، فَعُلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح

الحقيقي بغير الإيمان الصحيح والدين الإسلامي، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعلمه الناس أضعافاً مضاعفة فإنها لا تبلغ قريباً من علوم الأنبياء، ولا تصل إلى ما وصلت إليه، ولا تذعن لها النفوس، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإن النفوس لا تُذعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية.

## (الوجه السابع والأربعون)

القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله، وصدق رسله، بأنواع إعجازه: ببلاغته وأسلوبه وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتفاقه وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر، وأنه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أصوله، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه ولا تعلَّم من أحد، بل زكَّى به العباد، وكَمَّل به الفضائل، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وهذه المُجْمَلات تحتاج إلى تفصيل كثير، فمن نظر إلى هذا جزم جزماً لا يُمْترى فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلاباً عظيماً لم يعهد له مثيل، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح، فهو الدليل والبرهان، وهو الحجة على توالي الزمان

﴿هُوَ الّذي أرسل رسولَه بالهُدى ودينِ الحقِّ لِيُظهرهُ على الدِّين كلِّه ولو كَرِه المشركون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣]

وبدّل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعُها، وأخلاقٍ هي أحسن الأخلاق وأحمدها، وأعمال هي أكمل الأعمال.

## (الوجه الثامن والأربعون)

من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أعطى من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق، وما أُيِّد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعدّ ولا تحصى، كل جنس من آياته، بل كل نوع، بل كل فرد منها، يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقاً وأن ما جاء به حقّ وما خالفه باطل، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شرعه وفيما أُيِّد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسله ودينه، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين، وتفصيل هذا الوجه يستدعي مجلدات، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيماناً وقامت الحجة على المعاندين المنكرين، وقد قال تعالى:

﴿سَنُرِيهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتّى يتبيَّنَ لهُمْ أنّه الحقُّ﴾
[سورة فصلت: الآية ٣٣]

ولكنّ هؤلاء الماديين يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمَّسُون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليدخلوها في علمهم القاصر وينكروا بذلك قدرة الله، خصوصاً في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاءً هائلاً وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم:

﴿إِنَّ الذين حَقَّتْ عليهِم كلمةُ ربِّكَ لا يُؤْمنون * وَلَوْ جاءتْهُم كلُّ آيةٍ حتّى يَرَوُا العذابَ الأليمَ﴾ [سورة يونس: الآيتان: ٩٦، ٩٧]

فصارت علومهم ضرراً عليهم، وخطراً عظيماً على جميع البشر: ضرراً عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزأوا بما جاءت به الرسل، وصارت خطراً على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير: تدمير النفوس وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنّه وكرمه.

## (الوجه التاسع والأربعون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين القادحين في الدين: قد علم أُولُو الألباب والنُّهى وأهلُ البصائر والعقول أن دين الإسلام، الذي جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملاً متمماً معمِّمًا هو: دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة وأخبار صحيحة، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة، يعلم به علماً يقينياً لا شك فيه أنه الحق، وما ناقضه فهو الباطل، فهذه الأوصاف التي وصف بها الدين وحققتها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء إلى الجزم بأخباره، والتحقق بأخلاقه وآدابه، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

## (الوجه الخمسون)

أن الإصلاح العلمي الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملاً من أكبر الأدلة على وحدانية الله، وأنه الحقّ، وقوله حق، ورسله حق، ودينه هو الحق؛ فإن البشر ـ الأمم السابقين واللاحقين ـ لم يشهدوا لهذا الإصلاح نظيراً ولا مقارباً بوجه

من الوجوه، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد لهذا الأمر. وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحلّ معه جميع أصول الملحدين، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين. وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليه من الشرور التي تفاقم شرُّها وتعذَّر حسمُها وعظمت فجائعها وقَلّت رحمتها وعدلُها، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم، لأنها بنيت على الكفر والإلحاد، والجحد لدين رب العباد، فصارت ملازمة للشرور والفساد.

## (الوجه الحادي والخمسون)

قال الله تعالى:

﴿إلهكُمْ إلهٌ واحدٌ، فالذين لا يُؤمنونَ بالآخـرةِ قلوبُهُم مُنكرةٌ وهُمْ مُستكبرون﴾ [سورة النحل: الآية ٢٢]

فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها، وأن الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين: قسمٌ سدّ على نفسه باب الإيمان بالآخرة فانسدَّت حوله أبوابُ الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذي وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهراً وباطناً فهم ملحدون متمرّدون، وصفهم الإنكار والاستكبار، ومن كان على هذا الوصف فإنه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد.

وأما القسم الثاني: فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سُدىً مهملين، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم، فهؤلاء

قلوبهم معترفة بالله مؤمنة بوحدانيته: وحدانية الذات ووحدانية الصفات، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهراً وباطناً، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ، والمحسوس من الكمال العلمي والعملي والرشاد والإرشاد، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين في أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدقِ ما بنوا عليه إيمانَهم وأعمالَهم

﴿رَبَّنا آمنَّا بما أنزلْتَ واتَّبعْنا الرسولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهدين﴾
[سورة آل عمران: الآية ٥٣]

ففي هذا الجانب الرُّسلُ العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم صَلُحَت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه. وفي الجانب الأخير: كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله في وصفهم

﴿وجعلناهم أئمةً يَدْعُون إلى النارِ ويومَ القيامةِ لا يُنْصرون * وأَتْبَعْنَاهُمْ في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ هُم مِنَ المقْبُوحين﴾
[سورة القصص: الآيتان ٤١، ٤٢]

فمن لم يؤمن بالله وبآياته فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون

﴿وَيْلٌ لكلِّ أَفَّاك أثيمٍ * يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلَى عليه ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْه بعذابٍ أليمٍ * وإذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شيئاً اتَّخذَها هُزُوًا أولئكَ لهمْ عذابٌ مُهِينٌ﴾ [سورة الجاثية: الآيات ٧ ــ ٩]

جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها، وبهذا الإنكار والاستهزاء سُلِبوا منافعَ عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفُهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم أذهانٌ وذكاءٌ وعقولٌ كما قال الله عن أمثال هؤلاء:

﴿وجعلنـــا لهم سمعاً وأبصـارًا وأفئـدةً فمـا أَغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم مِنْ شيءٍ إذْ كانوا يَجحَدُون بِآياتِ اللَّهِ وحاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئون﴾. [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

## (الوجه الثاني والخمسون)

ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولـوا هذا: خَلَقَ اللَّهُ الخَلْق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوَّذْ باللَّهِ مِنَ الشيطان الرجيم وليقل: آمنت بالله).

وهذا مصداقه ما وقـع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظريات متنوعة كلها خاطئة، لأن مبناها على الخَرْص والظَّنِّ الذي لا يغني من الحق شيئاً بل على خلاف المعلوم شرعاً وعقلاً وفطرةً فيتكلّمون في علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجرئين أنه علة العلل، فقطـع النبـي ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبَّه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطـع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميـع الموجودات كلها تنتهي إلى موجدٍ واحد أحد، فَرْدٍ صَمَدٍ، الأولِ الذي ليس قبله شيء، الموجدِ لكل شيء... وأمر بالتعوُّذ من الشيطان الذي يدفـع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثيل ولا نديد ولا مشارك في شيء من كماله. وبما أرشد إليه ﷺ يندفـع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرِّصُون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون، وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم في غيهم يعمهون.

# (الوجه الثالث والخمسون)

أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادُهم وغرورُهم وضلالُهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويَقدِر على كل شيء، ووصفوه بأوصاف الرب: وهذا أمر لم يصل إليه أحدٌ من بني آدم إلّا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهتة المشاهدات، فإنّ كل أحد يعلم حق العلم أن الإنسان ناقص من كل وجه، وأنّ ما به من علم وقدرة فبتعليم الله وإقداره، وإن الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حدًّا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه، لأنه في طور البشر. فكما أن الله هو الذي خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً فهو الذي أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية. وأما القدرة الربانية والعلم الإلـهي فمن زعم أن أحداً من الخلق يشارك الله في شيء منها فهو مبرسم مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر ولا لتعليمه لهم فيها أثر فالله خلقكم وما تعملون والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فبإقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه.

ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فإنها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق:

﴿لا عِلْمَ لَنا إلّا ما علَّمتنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢]

وقال موسى للخضر حين رأى عصفوراً نقر بمنقاره من البحر: ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور. وفي الصحيح مرفوعاً أنّ الله يقول:

(يا عبادي، لو أنّ أولَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسان منكم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلاّ كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر)

فتبًّا لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه، وما أعظم جهلَهم وضلالَهم وعنادَهم وجراءتَهم، والله تعالى للطاغين بالمرصاد.

## (الوجه الرابع والخمسون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين، ما قاله اللَّهُ لإخوانهم المكذِّبين، الذين هم دونهم بدرجات مبطلاً كل احتمال يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى:

﴿فذكِّرْ فما أنتَ بنعمةِ ربِّك بِكاهِنٍ ولا مجنونٍ * أمْ يقولونَ﴾
[سورة الطور: الآيتان ٢٩، ٣٠]

إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعرٌ أو كاهنٌ أو متقوِّلٌ أو ساحرٌ أو ما أشبه ذلك، مما تضاربت به أقوالهم؟ أو هو أصدقُ الخلقِ وأبرُّهم وأنصحُهم وأعلمُهم، وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر وهذا هو الواقع؟ أم الذي أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامُهم وعقولُهم فبئست الأحلامُ والعقولُ التي تجحد أكبرَ الأشياء وأوضحها، وتكذِّبُ بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار؟ فعقولٌ وأحلامٌ هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر، أم الذي حملهم على هذا التكذيب لا حَدَّ له ولا يتورع صاحبه عن محرَّم ولا يمتنع عن جريمة.. والطغيانُ مُرْدٍ لأصحابه مهلك لهم لا محالة؟

أم يقولون إنه ﷺ تقوّل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿فَلْيَأْتُوا بحديثٍ مِثلِهِ إنْ كانوا صادِقِين﴾ [سورة الطور: الآية ٣٤]

وهذا التحدي قائم من حين نَزَّله الربُّ العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كلُّ مُنكر له مكذِّب له أن يأتي بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية. أم الذي حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة، فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل، أم خلقوا السمٰوات والأرض وما فيها من العوالم التي لا يعلَمها إلَّا الله، فإنهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أمْ عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة..

كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراءُ مماليكُ لا يملِكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا دفعاً للمكاره ولا جلباً للمصالح، أم الذي حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التي يعرف كل عاقل بطلانها، وهذا هو الواقع، وأن الذي ينتصر للباطل وقد صمّم على ذلك لو جاءته كلُّ آية لم يؤمن ولم يهتد، لأنه وطّنَ نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق، أم الذي حملهم على ذلك أن لهم إلهاً غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله، فسبحان الذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون، فهو الإلٰه الحق المبين الذي لـه جميع أوصاف الكمال، وبيده التدبير للعالم العلوي والسفلي الذي لا يستحق العبادة إلّا هو، والذي لا يأتي بالحسنات والخيرات إلّا هو، ولا يدفع السوء والسيِّئات إلّا هو، الذي ليس له ند ولا كفو بوجه من الوجوه، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه

أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة. وهذه الاحتمالات التي ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم، فلا دين ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التي قالوها، فلم يبق إلّا أنْ يعذِّبَهم الله، قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ويلْعَبوا حتى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يُوعَدُون﴾
[سورة الزخرف: الآية ٨٣]

## (الوجه الخامس والخمسون)

أنْ يقال لهم: مَنِ الذي خلق الأرضَ والسمواتِ والشمسَ والقمرَ والكواكبَ وجميع ما بثَّ فيهما من دابة، والذي أنزل من السماء رزقاً فأنبت به مِنْ كلِّ زوج كريم متاعاً للعباد ولأنعامهم، ومن الذي أحكمها غاية الإحكام، وأودع فيها مِنْ بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته، ومَنِ الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكمَّل ظاهره وباطنه بالقوى المتعدّدة التي يحتاج إليها، وعلَّمه كيف يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، فعلمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي حتى تمَّ له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره، وسخر له ما في السموات وما في الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها؟ فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذي لم يبلغه ضلال أحد، فأي عمل للطبيعة التي توجب هذه الآثار العظيمة؟ وأي أثر جعلها تعمل هذه الأعمال؟ وأي عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب، بل وجميع من له نوع من العقل،

فسيقولون: هذا تقدير العزيز العليم، وهذا صنع الله الذي أتقنَ كلَّ شيء وأحسن خلقه، بديعِ السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

## (الوجه السادس والخمسون)

قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين، وهم الرسل وأتباعهم، وعقابه للعاصين المكذِّبين له ولرسله، آياتٍ بيناتٍ وبراهين قاطعاتٍ، شاهدوها رأي عين، ومنْ لم يشاهدها فقد تناقَلَتْها القرون قرناً بعد قرن وتواترت تواتراً لم يتواتر له نظير من كل وجه، فَمَنِ الذي أرسل الطوفان العظيم الذي غشي الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين ونجّاه ومن معه في الفلك المشحون؟ ومَنِ الَّذي أرسلَ على عادٍ الريحَ العقيمَ ما تَذَرُ مِنْ شيءٍ أتت عليه إلّا جعلته كالرميم، ونجى الله من هذا العذاب هوداً ومن معه من المؤمنين؟ ومَنِ الذي أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجّى اللَّهُ صالحاً وَمَنْ تَبِعَه من المؤمنين؟ وَمَنِ الذي جعل النارَ بَرْداً وسلاماً على إبراهيم، وقلب على قوم لوط ديارهم، وأهلك قوم شعيب بعذاب الظُّلَّةِ؟ ومن الذي فلق البحر حتى صار اثني عشر طريقاً وعبره موسى وقومه ناجين، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين؟ ومن أيّد موسى بالعصا واليد والجراد والقُمّل والضفادع والدم، وفجّر له الحجر اثنتي عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم، وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين؟ ومَن الذي أعطى عيسى آياتٍ بيناتٍ مشاهَدَاتٍ جعله يُبرِىءُ الْأَكْمَهَ والأبرص ويحيـي الموتى بإذن الله؟ ومنِ الذي أيَّد محمداً ﷺ بالآيات البينات والنصر العظيم، وشق له القمر، وسلم عليه الشجر والحجر، وكم أجاب الله دعوته في إنزال الغيث وإمساكه، وفي شفاء الأمراض المتنوعة، وأنبع الماء من بين أصابعه فروى الخلق الكثير، وبارك في الطعام الذي باشره حتى أشبع الخلق الكثير، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب، وحفظه وحفظ ما جاء به؟

فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان. وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقريره وببيان أدلته الواهية وشُبَهِهِ الساقطة، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات. فإذا علم الحق علم أن ما سواه باطل، فماذا بعد الحق إلاّ الضلال. فأنَّى يصرف الملحدون، وإلى أي شيء يذهبون؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضي إلى العذاب الأليم.

## (الوجه السابع والخمسون)

أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بِشُبَهٍ باطلة تروج على من لا بصيرة له، ويروِّجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنهم متأخرون في أمور الحياة، والذي أخرهم دينهم. فيروِّجون هذا من وجوه متنوعة، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الإسلامي في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحُسْنِ العظيم، وما فيه من الهدايات إلى كل خير والذَّود عن كل شر وضرر. وتنظر أيضاً إلى حالة القائمين به المنفِّذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول، فإنك ترى فيه ما يبهج الناظرين، وتقوم به الحجة على المعاندين. وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوه كثيرة، فهذا ظلمٌ ووضعٌ للشيء في غير موضعه؛ فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادَّعاها من لم يتَّصفْ بها ولا يحتج بحالهم على ذم العلم، فهذا أبلغ وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود

المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم عودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية

﴿رَبَّنا لا تَجعلْنا فتنةً للذين كَفَروا، وٱغفِرْ لنا ربَّنا إنّك أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٥]

فحال المسلمين اليوم في تفرُّقهم وتشتُّتهم وتركِهم جمهور مقومات دينهم حتى انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين، وحِجَاباً حائلاً وشُبْهة لمن يريد التلبيس، فلا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم.

## (الوجه الثامن والخمسون)

قال تعالى:

﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ ٱللَّهِ إنْ يَتَّبعون إلّا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٦]

وهذا أمر مشاهد محسوس: أكثر أهل الأرض ضُلَّال منحرفون دُعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله:

﴿إنْ يَتَّبعونَ إلّا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلّا يَخْرُصُون﴾ [الآية السابقة]

فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرّصات ونظريات فاسدة. واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لا يزالون يحدِّثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يُحْدِثُون نظرياتٍ وتجرباتٍ في علة العلل فيبطلونها لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادةٌ لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيء،

وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقي لكل موجود عموماً وللإنسان خصوصاً في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخذها المغترُّون عنهم قضية مسلمة، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير، بل يعلم بالبداهة والضرورة أن الترقّي إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغترّوا وغرّوا غيرهم.

أما الترقي في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فإنها هبطت هبوطاً لا يمكن التعبير عنه؛ وإذا أردت أن تعرف ذلك يقيناً فخذ نموذجاً من الأمثلة وقِسْ أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة. مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جَحْدَ ما سواها وضيقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل. وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحدَه لا شريك له، وأنهم إذا قاموا بذلك أتمَّ الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحاً دائماً. ومع ذلك فقد سخّر لهم ما في السموات والأرض، وأدرَّ عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خُلِقوا له فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا في هذه الدار حياة طيبة، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية؟

وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة، فالماديُّون قَصَرُوها على علوم المادة فتم لهم منها ما تم، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه، ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الأُخَر. ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودنياهم، فإن دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالاً ذائباً حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخسّ، مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحت كل محرم، وانطلقوا في شهوات الغي لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياء من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة؛ خسروا الدنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإن أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلاً وشرعاً وعُرفاً، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم، مشاهد.

## (الوجه التاسع والخمسون)

أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكاماً جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلّا بها، لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير، وتذودهم عن الشرور، أما باطنها فلأن المتَّصِفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين، واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات، راجين بذلك فضل الله وثوابه، محتسبين خيره؛ ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء. وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم.

وأما القوانين الملحدة فإن غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم: إباحيين، فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وتفضي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل.

ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التي أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر، صالحة لكل زمان ومكان، بل لا تصلح الأمور إلا بها؛ وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تُبْنَ على الدين فإنها موقَّتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارِّهم في الوقت الذي هم فيه، ثم تتغير وتتبدل وربما غيَّرها واضعوها لأنها من صنيع البشر، وصُنْعُهم كله ناقص، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل بكل شيء علمًا، وعَلِمَ مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فَشَرَعها صالحة لهم موافقة لمصالحهم دافعة لمضارهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين، والله أعلم.

واعلم أنه لا يوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلاّ وهو في الدين على أكمل ما يكون وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص، فليأت المرتاب بمثال واحد خارجٍ عن هذا الأصل إن كان صادقاً..

## (الوجه الستون)

قال الله تعالى:

﴿وَكيفَ تَكْفُرونَ وأنتمْ تتلَى عليكُمْ آياتُ ٱللَّهِ وفيكُمْ رسولُهُ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٠١]

فَذَكَرَ ـ جلَّ جلالُه ـ أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلاّ من معاند ومكابر، فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آيات الله التي تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه، فمن عرف القرآن وتأمَّلَهُ، ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامَه وبلاغَتَه وصدقَ ما أخبرَ به من الغيب والشهادة وحسنَ ما شرَّعه وحكم به عرف أنه من عند الله، وأن البشر بَلِ الإنْسَ والجِنَّ

والخلائقَ لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وكذلك من عرف الرسول محمداً ﷺ وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل في روحه وخلقه، الكامل في عقله ومعرفته، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه، من عرفه على هذ الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقًّا ونبيه صدقاً، وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم. وقال تعالى:

﴿كيفَ تَكفُرُون بِٱللَّهِ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨]

﴿قُلْ أئِنَّكم لَتَكْفُرونَ بالذي خَلَق الأرضَ في يومين﴾
[سورة فُصّلت: الآية ٩]

الآيات، فتعجَّب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد ـ وكل أحد له عقل يشاهِد ـ أنه الخالق للموجودات عموماً وللآدمي خصوصاً الموجِد له بعد العدم، المتصرِّف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكفر والإنكار؟ أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض وهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الغني بذاته والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه..

## (الوجه الحادي والستون)

أنّ هؤلاء الملاحدة الماديين فَسَدت عقولُهم ـ مداركُها وأعمالُها وسلوكُها ـ وذلك أن صحة العقل أن يدرِكَ الحقَّ، وأنْ يعمل به ويسلك الطريق النافع، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق، فإن الله هو الحق، وقوله حقّ ودينه حق ووعده ووعيده حق، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التي

هي أقوى البراهين وأصدقها، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وشهد به جميع العقلاء، وعليه فطرت الخليفة. فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التي هي ثمرة العقل، وإما مشتبه عليه الأمر.. فهذا أعظم الناس على الإطلاق جهلاً وضلالاً، لأنه ضلّ بأوضح الأشياء واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علوًّا في الأرض وفساداً، أو جامع بين الوصفين. وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم:

﴿فَٱستخفَّ قومَه فأطاعوه﴾ [سورة الزخرف: الآية ٥٤]

وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون اهـ.

## (الوجه الثاني والستون)

إن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تُصُوِّرَ على حقيقته جزم العاقل ببطلانه وقال: كيف اشتبه هذا على أحد؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه. قال شيخ الإسلام: ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلّا وقد ذهب إليه فريق من الناس. ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فهم لا يفقهون ولا يعقلون، وأنهم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك، وأنهم في ريبهم يترددون ويعمهون. انتهى كلامه. فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شيء من

الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي، فلو صُوِّرَت المحالات والممتنَعات بأوضح من هذا التصوير وأشده مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء من جاءه الحق فرده، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.

## (الوجه الثالث والستون)

أنه قد تقرر في الفِطَرِ والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع. وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وهذا متقرر مستقرٌّ في قلوب جميع أهل الأديان، وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله، وأنه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وأفعاله، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات؛ فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت ديانتهم وتنازعوا في الأصول أو في الفروع؛ فهذا الأصل لا ينكره منهم منكر، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة، وإن كان لهم عقول وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة حيث وجَّهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها، ولكنهم لم تُغْنِ عنهم هذه العقول شيئاً في أنفع الأشياء، بل كانت حجة عليهم، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلي، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه، فانقطعوا في الوسائل عن المقاصد، وبالدليل عن المدلول، وبالكون عن المكوِّن، وبالصنعة عن صانعها، وبقوا في غيهم وضلالهم وطغيانهم يعمهون.

والله تعالى له المثل الأعلى، وهو معطي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات، وهو أحق بالكمال من كل موجود، فالذي علَّم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة، وأقدَرَه على كثير من مواد

الطبيعة وعناصرها، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره، أفبهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون، ويجحده الجاحدون.

﴿فبأي حديثٍ بعدَ اللَّهِ وآياتهِ يُؤمنون﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

## (الوجه الرابع والستون)

أَنَّ كلَّ برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود، لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة:

منها: أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلٓهية والعبادة.

ومنها: أن الله تعالى، كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات، فهو الذي يجب أن يعبد وحدَه لا شريك له، ويُحمد ويُشكر ويُثنى عليه.

ومنها: أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه، فهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتي بالإيجاد والإمداد إلا هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

ومنها: أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحابَّ، ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الإخلاص

للَّهِ ثبت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحلّ قول الجاحـدين كما اضمحلّ قول المشركين.

## (الوجه الخامس والستون)

أن البراهين الدالّة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عموماً ومحمد خصوصاً لا تعدّ ولا تحصى، متنوعة من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، فلا يجتمـع الإيمان بالرسل مـع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر. والله أعلم.

## (الوجه السادس والستون)

البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين، وقد استدلّ تعالى على البعث بقوله:

﴿لخَلْقُ السَّمـٰوات والأرضِ أكبرُ مِنْ خَلقِ النِاس﴾

[سورة غافر: الآية ٥٧]

وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فإنه سيعيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدلّ بكمال قدرته، واستدلّ بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى: لا يُؤمرون ولا يُنْهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون، وبغير ذلك من البراهين؛ وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيـد، والرسـالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول لو بسطت براهينه لبلغت شيئاً كثيراً، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي

تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحدَه لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله.

## (الوجه السابع والستون)

قال الله تعالى:

**﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ على المؤْمنين إذْ بَعَثَ فيهم رَسولاً مِنْ أَنْفُسِهِم يَتلُو عليهِم آياتِهِ ويزكِّيهِم ويُعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

هذه الآية دلَّت على كمال علم الرسول محمد ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر ــ الأولين والآخرين ــ وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخص واحد، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع؟.

ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده ــ أو وجود ما يقاربه ــ في شخص واحد نفَّذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إنَّ في ذلك لعبرة للمعتبرين، وآياتٍ لأولي الألباب، حيث بعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه ولا جَالَسَ أحداً من العلماء السابقين فتعلم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين، فزالت به الجهالات والضلالات، وتقشعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى، شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على

أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلاّ كُلُّ مباهت مكابر.

﴿والذين يُحاجُّونَ في ٱللَّهِ مِنْ بَعدِما استجيبَ لَهُ حُجَّتُهُم داحضةٌ عندَ ربِّهم وعليهِم غضبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٦]

## (الوجه الثامن والستون)

لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين الإسلامي أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حملات متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيراً، وعرفوا حق المعرفة أنه من المُحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجِّنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام، وقالوا: إنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه.

ولـٰكنْ ــ ولله الحمد ــ قد علم أهل البصائر مقاصدَهم وعرفوا الخوَنة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم

نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء.

فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين: إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل ونبذ ما جاؤوا به، وإما مغرور مخدوع مقلِّد لهم، قد غرّته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء، وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد لصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملاً على كل خير، هادياً إلى كل رشد وصلاح، حاثًّا على كل فلاح؟

## (الوجه التاسع والستون)

من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائدَ وأخلاقاً فقط، وإنما هو ــ مع ذلك ــ مُوجِّهٌ وحاكم وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي ــ بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة، كما هو مشروح مفصل ــ، من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يُبْقِ خيراً إلا دلّ عليه وحثَّ عليه، ولا شرًّا إلا حذَّر منه، ولاحقًّا إلاّ أقامه، ولا عدلاً إلاّ جعل له مسالك وطرقاً يقوم عليها. فهو دين ودولة، وجامع بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محادٍّ

معادٍ للدين وأهله، عكس ما نبزه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كَذَبوا وظلموا وكادُوا للإسلام وأهله وكانوا أُجَرَاء وسماسرة للأعداء، والله أعلم.

## (الوجه السبعون)

أن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلَّا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع منه الإلحاد جهلًا وضلالًا، فإن الدين ــ بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين ــ يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك، فلا تجد ملحداً إلّا مُعرِضاً من أعظم الجاهلين أو معانداً عارفاً من أكبر المباهتين المكابرين.

ومن المصائب الكبيرة أن كثيراً من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتملة على الخير والشر، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدُّهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادي، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة، وليس لهؤلاء دواء إلّا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه، فنسأل الله السلامة والعافية، ولا يعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه، فإن هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر، وقد صار هذا المسلك طريقاً لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياءَ

منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حِجاب للمغترِّين وأعظم حجة للمعاندين العارفين.

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلي، وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد، فإنّ هذا هو الدين، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الإنصاف. أمّا من يريد الاعتساف، وقصده معروف، فإنه يُزَوِّرُ على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات، وينسب إلى الدين ما هو منه بريء، وإذا كانت فنون العلم ـ كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها ـ لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها، فكيف بهذا الدين الذي تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة؟ فَتَبًّا لمن قَدَح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه، سبحانك هذا بهتان عظيم.

## (الوجه الحادي والسبعون)

أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها، فهذا الأصل الذي بَنَوْا عليه كل شيء أصلٌ منهارٌ متهافت في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للناس المغترِّين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة، بل كل شخص منهم، يدّعي أن الصواب معه والخطأ مع غيره، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به

الرسل ونزلت به الكتب السماوية، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية المحضة، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق، وخيف أن يقع ـ ولا بد من وقوعه ـ ما أخبر به النبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال:

(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. ولا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق) وصرنا في وقتٍ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والمَيل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويحرِّفون لذلك نصوص الكتاب والسنة، فانحرفوا بهذا انحرافاً عظيماً وضلُّوا وأَضلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سبيل الله، ولو أنهم دَعَوُا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسُّل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التي خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له، لكان خيراً لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل، ولنالوا السعادتين، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً، إنهم كانوا قبل مترفين، وكانوا يصرون على الحنث العظيم، وكانوا يقولون:

﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٨٢]

ولهذا نسأل الله العافية، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوي والأخروي ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم في الحقيقة أعلى الناس علوماً وأخلاقاً وأعمالاً ومقامات، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما متع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد، ويتلون عند ذلك قوله تعالى:

﴿أيحسبون أَنَّما نُمِدُّهم به من مال وبَنين * نُسارِعُ لهمْ في الخيراتِ بل لا يَشْعرون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٧]

﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أَنَّما نُمْلي لهمْ خيرٌ لأنفسِهِم إنَّما نُمْلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب أليم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٨]

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد * متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهُمْ جهنمُ وبِئسَ المهاد﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦،١٩٧]

## (الوجه الثاني والسبعون)

إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجاً من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحثُّ عليه وما يُحذِّرُ عنه تعرف بها أن المنكرين لها في فسادٍ من عقولهم، وانعكاس من آرائهم، وسفاهةٍ من علومهم وخسةٍ من أخلاقهم، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعاً وعقلاً وفطرة.

ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي ـ الذي هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل ـ يدعو إلى الإيمان باللّهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرُّده بكل كمال، وتفرُّده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهراً وباطناً، والتوجه إليه وحدَه، وخوفه ورجائه وحدَه، والإنابة إليه في جميع النوائب والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعائه، والتعلق به وحدَه في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين.. فهل هذا خيرٌ أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر

نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاءً كما هو حال الملحدين؟

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلى البر والنصح للخلق كلهم. والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للإنسان بهم تعلقٌ وصلة، ومن لهم حقٌّ عليه، ويأمر بإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفِّيَها حقَّها ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفاً من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله، وإنما هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعاً يجدي.

وبالجملة، الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبارات الوسخة التي هي أكبر معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم في كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن وما جاء به:

﴿إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٥]

﴿إنْ هذا إلاّ سحر مبين﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠]

﴿وإذا رَأوكَ إنْ يَتخذونَكَ إلاّ هُزُواً، أهـٰذا الذي بَعَثَ اللهُ رسولاً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤١]

﴿وَلقدِ استُهزِىءَ برُسُلٍ مِنْ قَبلِكَ فحاقَ بالَّذينَ سَخِروا مِنهُم ما كانوا به يَستهزِئُون﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤١]

## (الوجه الثالث والسبعون)

ذكرنا فيما سبق أنّ أعظمَ ما يُبطِلُ الإلحاد معرفةُ دينِ الإسلام والعمل به، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحلُّ معه كلُّ باطل من كل وجه، خصوصاً أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاة للعقل والدين وهو الإلحاد؛ وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن المتعلّمين، وأبعدوه عن المدارس، فإن لم يتمكّنوا جعلوا التعليمَ في الدين ضعيفاً أو اسماً بلا مسمّى، فهم عند التمكن يُنَحُّون الدين جملة ويدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد فيخرج المتعلمون مُلحدين صِرْفاً، فإن لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حبُّ الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضِدَّه، فإن البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجهت، انهارت الأديان والأخلاق كما هو مشاهد معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا.

فيتعين على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء في علوم الدين وأخلاقه، فإن هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر، فإن الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكّنوا من

علوم الدين وصار عندهم بصيرة صحيحة فيه فإنهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم، وإلاّ فليعلموا أنهم رعاة، وكل راع مسؤول عن رعيته، فهم مسؤولون عن الناشئة المتعلمين في المدارس فإذا لم يثقفوهم ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم، فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم؟ فإنه ما شاع الإلحاد في البلاد الإسلامية إلاّ بهذه الطريقة، فكيف إذا نَصَرَتْها قوةُ الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطردوا عنها الدين أو أضعفوه؟ فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم الذي خطره كبير وشره مستطيل، وإلا فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا، والله المستعان.

## (الوجه الرابع والسبعون)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: الربُّ تعالى أعرفُ مِنْ أن يُنكر، وأعظمُ من أن يُجحد، ولهذا قالت الرسل لأممهم: أفي الله شك؟ وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، فإن افتقار كلِّ ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت لما سواه، فكل ما سواه ــ سواء سمي محدثاً أو ممكناً أو مخلوقاً أو غير ذلك ــ هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم ذاتها، وهي لا حقيقة لها إلا إذا كانت موجودة، فإن المعدوم ليس بشيء، فكل ما هو موجود سوى الله فإنه مفتقر إليه دائماً حال حدوثه وحال بقائه وهذا يوجب افتقاره إليه دائماً. انتهى.

فَعُلِمَ بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه القائم بكل موجود، أو إنكار وحدانيته أو حقٍّ من حقوقه من أسخف

الجنايات وأطمِّها، وأن هذا المخلوق الفقير من وجه قد تعدَّى حدَّه وطورَه. .
قال الشيخ: وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتَّبعهم ـ وهم أمم لا يحصي عددهم إلا الله ـ قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه، وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أي تواتر قدّر، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك، علم أنه هو الحق الذي لا ريب فيه وما سواه باطل. انتهى.

## (الوجه الخامس والسبعون)

قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم: إن العقل يجب تقديمه على السمع، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع لأن العقل مصدّق للشرع في كل ما أخبر به، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة. انتهى.

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطراراً لا محيد لهم عنه أن محمداً رسولُ الله حقًّا، فلو قدمنا شيئاً مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد، لئلّا يلزم تناقض قضايا العقل، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل، كما أنهم معاندون للشرع، وإذا تقرر أن العقل دلّ دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول في كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيء يقضي على جميع الجزئيات، ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الإشكال من المشتبهات،

والمشتبهات يتعين ردُّها إلى المُحْكَمات، وهو الأصل العظيم المحكَم الذي تواردت عليه جميـع البراهين اليقينية، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به. والله أعلم.

قال الشيـخ: وإذا كان الأمر كذلك فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه، وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهّلات واستعمالها على وجه مخصوص ـ مـع ما في ذلك من الكلفة والألم ـ لظنِّه أن هذا أعلم بهذا منّي وأنِّي إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لي، مـع علمه بأن الطبيب يخطىء كثيراً، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سبباً في هلاكه، ومـع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه، فكيف حال الخلق مـع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل صادقون مُصَـدَّقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطىء قط بما لم يصب في معارضة له قط؟ انتهى.

وقال أيضاً: والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولاً صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريـح المعقول، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيـح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة،

وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى، وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟

فهذا وأمثاله مما يبين أن مَنْ أَعْرَضَ عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركّب، فالأول: كسرابِ بِقيعةٍ. . . الآية، والثاني: كظلماتٍ في بحر لُجِّيٍّ. . الآية، وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور ــ وذلك لأن الآيات والبراهين دالّة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلاّ الحق، وأنهم معصومون فيما يبلِّغون عن الله من الخبر والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المُقِرِّين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدقٌ وحقٌّ لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ولا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة، وشُبَهٌ من جنس شُبَهِ السوفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح، كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شَهِدا ببطلان العقل المخالف للسمع. انتهى.

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة: ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين، فيكفي في ذلك إخبار الرسل عن خلق السموات والأرض وحدوث هذا العالم، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها، وأنهم أعلم بالأمور الإلّهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقيها منهم، وتدلُّهم على أن من اتبع الرسل كان سعيداً في الآخرة ومن كذّبهم كان شقيًّا في الآخرة، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيًّا، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيداً في الآخرة وإن لم يعلم شيئاً من ذلك.

ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة، وكان الشرك مستحوذاً عليهم، وكان منتهى عقلهم أموراً عقلية كلية، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علم بموجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا يُنَجِّي النفوس من عذاب الله فضلاً عن أن يوجب لها السعادة.

## (الوجه السادس والسبعون)

قال شيخ الإسلام: من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي وردُّ ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم

عقلي على ما أخبر به الرسول مـع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع. وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر، وهو ممن قيل به:

﴿وإذا جاءَتْهُم آيةٌ قالوا لَنْ نؤْمِنَ حتّى نُؤتَى مِثْلَ ما أوتيَ رُسُلُ اللهِ، اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَه﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٤]

وقوله:

﴿فلمّا جاءَتْهم رُسلُهم بالبيِّناتِ فَرِحوا بما عِندَهُم مِن العِلمِ وحَاقَ بهِمْ ما كانوا به يَستَهْزِئون﴾ [سورة غافر: الآية ٤٠]

ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله:

﴿كذلك يُضِلُّ آللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مرتابٌ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٤]

﴿إنّ الذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغيرِ سُلطانٍ أتاهُمْ إنْ في صُدُورِهم إلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبَالِغيهِ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٦]

والسلطانُ هو الكتاب المنزَلُ من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزَل بغير كتابِ الله الذي قد يكون ناسخاً له أو مفسِّراً له كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه. انتهى.

## (الوجه السابـع والسبعون)

جميـع الأمم ــ أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين ــ متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الخالق لكل شيء، الرَّازق المدبِّر لكل شيء، وأَئِمتهم في هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين أهل العلوم الغزيرة والعقول

الوافية والمعارف الصافية الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم، متفقون على علم وبصيرة ويقين، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها.

وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون:

﴿ما هِيَ إلّا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحْيا وما يُهْلِكُنا إلّا الدَّهْرُ﴾

[سورة الجاثية: الآية ٢٤]

وسلك سبيلَهم زنادقةُ الماديين، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلّهم عليه ولا سمعٍ ولا عقلٍ ولا فِطرة، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول في العلل غير متفقة، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فَرِحون، ولإخوانهم من الزنادقة معارضون، فدعهم في طغيانهم يعمهون، وفي اضطرابهم وتخالفهم يترددون، وفي غيهم وجهلهم وسفاهةِ عقولهم وما انتهت إليه معارفهم في هذا الأمر من المضحكات يمرحون، وآحمدِ الله الذي عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامّة الكبرى، وقل معترفاً بنعمة الله متبجحاً بفضل الله: آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه:

﴿شَهِدَ اللهُ أنه لا إلـهَ إلّا هو العزيزُ الحكيم﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٧]

﴿ربَّنا آمنَّا بما أنزلتَ واتَّبعنا الرسولَ فاكتُبنا مَعَ الشَّاهدين﴾

[سورة آل عمران: الآية ٥٣]

## (الوجه الثامن والسبعون)

إن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعادِ وإبطالِ قول من يَنفيها أو يقدحُ في شيء منها، والأمثال أقيسة عقلية تنبِّه العقول والفِطَرَ على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذِّبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله:

**﴿ومنْ يُشركْ باللهِ فكأنَّما خرَّ مِنَ السماءِ فَتَخْطفُهُ الطيرُ أو تَهوِي به الريحُ في مكان سحيق﴾** [سورة الحجّ: الآية ٣١]

وقوله:

**﴿يا أيُّها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستمِعُوا له، إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يخلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجتمعُوا لَهُ، وإنْ يسلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئاً لا يستنقِذُوه مِنهُ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾** [سورة الحجّ: الآية ٧٣]

وقوله:

**﴿ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاءُ مُتشاكِسون ورجلاً سَلَماً لرجُلٍ، هل يَستويانِ مَثَلاً﴾** [سورة الزُّمَر: الآية ٢٩]

إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المُبْطِلة لأقوال المُبطِلين والمعطِّلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والكتاب والسنة يدلّ بالأخبار تارة ويدل بالبيِّنة تارة والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلّهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلّهية قد جاء به الكتابُ والسنةُ مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلاّ من هداه الله بخطابه. فكل

ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميـع العقلاء من الأولين والآخرين. انتهى.

وقال أيضاً: معلومٌ بالسمـع اتصافُ اللهِ بالأفعالِ الاختيارية القائمة به: كالاستواءِ إلى السماءِ وعلى العرشِ والقبضِ والـطيِّ والإتيان والمجيء والنزول، ونحو ذلك، بل والخَلقِ والإحياءِ والإماتة، فإن الله وصف نفسه بالأفعال «اللازمة» و«المتعدِّية»، والفعل «المتعدِّي» مستلزم للفعل «اللازم»، فإن الفعل لا بد له من فاعل، سواء كان متعدياً إلى مفعول أو لم يكن. والفاعل لا بد له من فعل سواء كان فعله مقتصراً عليه أو متعدياً إلى غيره؛ والفعل المتعدِّي إلى غيره لا يتعدَّى حتى يقوم بفاعله إذ كـان لا بد من الفاعل، وهذا معلوم سمعاً وعقلاً، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما شاءَ فعَّالٌ لمايشاء. انتهى.

## (الوجه التاسـع والسبعون)

قال الله تعالى:

﴿والله يقولُ الحقَّ وهو يَهدِي السبيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

وقال:

﴿وَلَا يأتونَك بِمَثَلٍ إلاّ جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

فأخبر أنه يقول الحق وهو الصدق فيما أخبر به، والعدل فيما حكم به، وأنه يهدي السبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالّة على الحق، ويُرِي العباد آياتِه في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وما أخبر به من الحق، ودلّ عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر بـه جميـع الأصول التي هدى بها عباده على ألسنة رسله، وما أجاب به كل مبطل أورد

الشُّبَهَ على الحق الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته، فهو ظاهر واضح للعباد، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها. بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانَه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال فالله يقول الحق:

﴿وتمّتْ كلمةُ ربِّك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فماذا بعد الحق إلّا الضلال..

وأما على وجه التفصيل، فما يأتي المُبْطِلون بمثَلٍ يقدحون فيه بالحق إلا أبطله اللهُ وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله. وقد تتبّع العلماء الأعلامُ جميعَ ما أورده المبطلون مسألةً مسألةً فوضّحوا بطلانَها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية، وتحدَّوْا أهل الباطل تحدِّياً صحيحاً أنهم لا يأتون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية والله أعلم.

## (الوجه الثمانون)

قال تعالى:

﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللّهُ لَفَسَدتا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢]

وقال تعالى:

﴿ما اتخذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معهُ مِنْ إلَهٍ إذاً لذهب كلُّ إلَهٍ بما خَلَقَ وَلَعَلاَ بعضُهمْ على بعضٍ سبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

وهذا برهان عقلي قاطع صَوَّرَهُ اللهُ لعقول العقلاء، وأنه يدل على ربوبية الله

ووحدانيته وتوحُّده وتفرُّده بالتدبير، فإنه لو فرض معه إله آخر فأما أن يعارضه ويقاومه، وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب، أو يمتنـع مرادُ كلٍّ منهما وهو محال لأنه يدل على عجز كلٍّ منهما، أو يوجد مراد الجميـع وهذا محال لأنه يقتضي عجز كل واحد منهما مـع الانفراد لا مـع الاجتماع. فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار، فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مـع الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميـع الموجودات ذواتها وأفعالَها وصُورَها، وهي مـع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يتصور أبلـغ من هذا الضلال؟

## (الوجه الحادي والثمانون)

قال تعالى:

**﴿الله الذي خلق السَّموات والأرضَ وما بينَهُما في ستةِ أيَّامٍ ثم آستوَى على العرش﴾** [سورة السجدة: الآية ٤]

**﴿يدبِّر الأمرَ يُفصِّلُ الآياتِ لعلَّكم بلقاءِ ربِّكمْ تُوقِنُون﴾**
[سورة الرعد: الآية ٢]

فهاتان الآيتان العظيمتان، اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعةً، توصلُ إلى كمال العلم واليقين، وصحةِ ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتبطلُ كلَّ شِركٍ وإلحادٍ وجحودٍ آياته المشهودة وآياته المسمـوعة، فمن تـأمّل هـذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير الحكيمة، وتفكَّر في آيات الله القرآنية التي فصّلهـا الله أحسن تفصيل، وأحكم فيهـا الأحكام وأصَّـل الأصـول المحكمة، وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة، ودعوة إلى كل خير وصلاح،

وسبباً إلى كل رشد وهدى وفلاح، عَلِمَ علماً لا يُمْتَرَى فيه أن الذي دبر المخلوقات وفصّل الآيات هو الرب العظيم، الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والإلّهية وسائر صفات الكمال، وأن رسله صادقون مصدَّقون، وأنّ أعداء الرسل في مكابرة ومباهتات وعناد، وفي غي وجهل وضلال.

ففي كل شيء له آيةٌ تدلّ على أنه واحد

أفي الله شكٌّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ على أحسن خلق وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته؟ فتبارك الله رب العالمين، وقد ألزم الله المكذِّبين وقرّرهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى:

**﴿قُلْ مَنْ يرزُقُكم مِنَ السماءِ والأرضِ أَمْ مَنْ يملِكُ السمعَ والأبصارَ ـ إلى قوله ـ فما لَكُمْ كيفَ تحكُمون﴾**

[سورة يونس: الآيات ٣١ ــ ٣٥]

كما أخبرَ أنّ في إنزال القرآن يُتلَى عليهم كفايةً تامَّةً عن جميع البراهين، كفايةً لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى:

**﴿أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزلْنا عَلَيْكَ الكتابَ يُتلَى عَلَيْهِم إنَّ في ذلك لرحمةً وذِكْرَى لقومٍ يؤمنون﴾** [سورة العنكبوت: الآية ٥١]

## (الوجه الثاني والثمانون)

نذكر كلاماً جامعاً مفصَّلاً يعترفُ به كلُّ مَنْ له معقولٌ صحيحٌ في القول في المعقولات، قاله شيخ الإسلام، به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلاّ مجرد دعاوٍ باطلة.

قال رحمه الله: المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفِطَرِهِم التي فُطِروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضُهم عن بعضٍ، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضادِّ والتَّباين، فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذمَّ الله مَنْ خَالَفَها بقوله:

﴿وقالوا لَوْ كُنَّا نسمَعُ أوْ نعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السعير﴾

[سورة المُلْك: الآية ١٠]

وأما ما يسميه بعض الناس «معقولات» ويخالفه فيه كثير من العقلاء فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها ردُّ الحس والسمع وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية تُرد إلى معقولات بديهية أولية، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلوم بفطرة الله، فإذا جاء في الحس أو في الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك عُلِمَ أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقاً فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحسَّ ليس فيه علم بنفي أو إثبات، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون، لا يقولون على الله إلا الحق. ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذباً، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح، فما علم يقيناً أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقيناً أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه. انتهى.

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكياء العقلاء المنصفين، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كلَّ ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل، وقد تكفل بهذا التحدي على وجه التفصيل هذا الشيخ الإمام في

كتابه «العقـل والنقل» وأبـطل كلَّ مسـألة أصـولية أوفـروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقـل، وبيّن أنّ العقل الصريـح موافق للنقل الصحيـح في جميـع المسائل والدلائل، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن، فإنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، ومن أصدق من الله قيلا، وأحسن منه حديثاً؟ ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يوقنون، الذي أحسن كل شيء خلقه، صنـع الله الذي أتقن كل شيء.

## (الوجه الثالث والثمانون)

قد تقرّر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلاّ إلى جهل مركّب أوجهـل بسيط أوجحود مـع العنـاد، لأن رؤساءهم وأساطينهم، أهلَ الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحـوث، لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم. فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلّديهم الذين لم يبلغوا عُشرَ معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث؟.. فهم كما قال عنهم:

﴿والذينَ كَفَرُوا أعمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقيعَةٍ﴾ [سورة النور: الآية ٣٩]

إلى آخر الآيات. والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم، حيث بنوا علومهم ومعـارفهم وإيمانهم وأعمـالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء ونصوصَ الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجـع الآخرون بالصفقة الخاسرة؛ فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علماً ويقيناً وإيماناً وطمأنينة، به وبذكره، وسلوكاً للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به، الموصل إلى كل خير وأن لا يزيـغ

قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وأن يصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وأتمها، ويسلم عليه تسليماً كثيراً هو وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحصل البركات.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢.

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢، بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه.

# تعريف بكتاب
# «الأدلة القواطع والبراهين
# في إبطال أصول الملحدين»

هذا الكتاب عظيم، ليس له مثيل فيما نعلم في موضوعه وحسنه ووضوحه ومناسبته للوقت الحاضر، والحاجة والضرورة قد اشتدت إليه، لأن تيار الإلحاد وطغيان المادة جَرَف جمهور الخلق، فمنهم الدعاة والرؤساء المخادعون المغَرَّرون، ومنهم أهل السياسة المستعمرون. ومنهم ضعفاء البصائر المغترون. ومنهم السماسرة المأجورون المنافقون، فعمت المصيبة، واشتد الخطب، وعاد الدين الصحيح غريباً كما بدأ غريباً، وصار القابض على دينه الحق كالقابض على الجمر.

وهذا الكتاب قد نازل جميع طوائف الملحدين، وتحدّاهم، وأبطل أصولَهم، وفنّد مآخذهم، وهدم قواعدهم، وزلزل بنيانهم، وبيّن مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة، كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة، وتكلم معهم بكل طريق: فتارة يصور مقالاتهم تصويراً واضحاً واقعياً يعرف به كل عاقل بطلان أقوالهم بمجرد تصويرها على وجهها، وتارة يبطل الأصول التي بنوا عليها إلحادهم بالبراهين اليقينية، ويبين أنها أصول في غاية الضعف والانهيار، وتارة يذكر ما يقابلها من الحق وأصوله، وبراهين الصدق واليقين التي يعرف بها أن ما سواها باطل وضلال، وتارة يذكر تمويهات الملحدين وما زخرفوه من الألفاظ الخادعة لنصر باطلهم وترويجه بين ضعفاء البصائر أتباع كل ناعق، وتارة يشير إلى المسالك التي سلكها من خادع أو انخدع من المنافقين والملبسين، فهو سلاح للمؤمنين، وغذاء للموقنين ودواء لمن قَصْدُهُ

الحقُّ من الحائرين، ونور يهتدى به في متاهات الحيرة والضلال، وعلم يأوي إليه كل طالب حق في جميع الأحوال، ومع ذلك فقد سلك مع طوائفهم مسلك الإنصاف، وعرض الحقائق على العقول عرضاً واضحاً يقبله كل عاقل سليم الفطرة والنظر، فهو كتاب يصلح لجميع طبقات الناس على اختلاف مذاهبهم، فكلّ منه يستمد، وكل قارىء به ينتفع، ومخبر الكتاب والوقوف عليه يغني عن وصفه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الحكيم، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم، الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فهذا كتاب جليل، يتضمّن أدلةً قاطعة وبراهين ساطعة هي نجوم زاهرة في سماء المشكلات، وهي شهب تنقضُّ فتدحض شبه الملحدين، بل هذه الأدلة وهذه البراهين خير معاول لهدم أصولهم وتقويض صروح قواعدهم التي أسست على شفا جرف هار، وانبنت على دعائم ما أوهنها من دعائم!

فحقيق بالقارىء أن يتأمل الكتاب حق التأمل، ليرى النور كيف يكتسح الظلمات، وليرى العلم كيف يصرع الجهل، وليرى الحق كيف يحمل على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

جزى الله الشيخ عبد الرحمن عن الدين وحامليه، وعن العلم وذويه خير الجزاء بِمَنِّه تعالى وكَرَمِه.

**عبد الله السلمان**

# انتصار الحقّ

## مُحاوَرة دينيّة اجتماعِيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد،

فهذه محاورة دينية اجتماعية قيِّمة سبق نشرها في أعداد متفرّقة من مجلة «المنهل» الغرّاء في عام ١٣٦٧هـ لعلامة القصيم فضيلة الشيخ المرحوم عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفًى عام ١٣٧٦هـ.

ولما كانت هذه المحاورة القيِّمة تَمَسّ حياة الكثيرين ممن بهرتهم مدنية الغرب أو الشرق الزائفة،

فإلى هؤلاء الأحبة ـ نقدِّم هذه المحاورة سائلين المولى عز وجل أن ينفع بها الجميع.

**عبد الله العلي السلطان**

# محاورة دينية اجتماعية

## لفضيلة الأستاذ
## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعاً، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدْعُون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون. فحاوله صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب فأعيته الحيلة في ذلك، وعرف أن ذلك علة عظيمة ومرض يفتقر إلى استئصال الداء ومعالجته بأنفع الدواء وعرف أن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته والطرق التي أوصلته إلى هذه الحالة المخيفة وإلى فحصها وتمحيصها وتخليصها وتوضيحها، ومقابلتها بما يضادّها ويقمعها على وجه الحكمة والسداد، فقال لصاحبه مستكشفاً له عن الحامل له على ذلك:

يا أخي، ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه؟ فإنْ كان خيراً كنت أنا وأنت شريكين، وإن كان غيرَ ذلك فأَعرفُ من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك.

فأجابه صاحبه قائلاً: لا أكتمك أني قد رأيت المسلمين على حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية: رأيتهم في جهل وذلّ وخمول، وأمورهم مُدْبرة وأحوالهم سيِّئة وأخلاقهم منحلّة، وقد فقدوا روح الدين والدنيا جميعاً ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقَّوْا في هذه الحياة وتفنّنوا في الفنون الراقية والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة. رأيتهم قد دانت لهم الأمم، وخضعت لهم الرقاب، وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاؤوا ويعدّونهم كالعبيد والأُجَراء، فرأيت فيهم العز الذي بهرني، والتفنن الذي أدهشني فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء القوم هم القوم وأنهم على الحق والمسلمون على الباطل لما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرتُ لك. فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خيرٌ لي وأحسن عاقبةً فهذا الذي صيَّرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبه حين أبدى ما كان خافياً: إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا ليس من الأسباب التي يَبني عليها أولو الألباب والعقول عقائدَهم وأخلاقهم وأعمالهم ومستقبل أمرهم، فاسمع يا صديقي تمحيص هذا الأمر الذي غرّك وحقيقته:

إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئاً عن دينهم، فإنه قد عَلِمَ كلُّ من له أدنى نظر وبصيرة أن دين الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح، في أمور الدين وفي أمور الدنيا؛ ويحثّ على الاستعداد، من تعلّم العلوم والفنون النافعة، ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء، والسلامة من شرِّهم وأضرارهم، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية فضلاً عن المنافع الدينية إلّا من هذا الدين؛ وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هَلُمَّ إلى الاشتغال بجميع الأسباب النافعة التي تُعْلِيكم وترقّيكم في دينكم ودنياكم. أفبتفريط المسلمين تحتجّ على الدين؟!... إن هذا لهو الظلم المبين! أليس من قصور النظر ومن الهوى والتعصب، النظر في أحوال المسلمين في هذه

الأوقات التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفقدوا فيها جميع مقومات دينهم، وتركُ النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغاً ما وصل إليه ولن يصل إليه أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارقها إلى مغاربها وخضعت لهم أقوى الأمم وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها؟!.

أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدُّهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفاً، ويقوموا بكل ما في وسعهم لينالوا المقامات الشامخة ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟ أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذا الحال؟ فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟ فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته. ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين وهو أنفعهما وأفضلهما..

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية، الداخلية والخارجية، لمناوءتهم والسلامة من شرهم! أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجاً تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخالفين؟ فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين!.. الله الله يا أخي، لا تكن أقل ممن قيل فيهم:

﴿تَعالَوْا قاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أوِ ٱدْفَعُوا﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٦٧]

قاتلوا لأجل دينكم أو ادفعوا لأجل قومكم ووطنكم. لا تكن مثل هؤلاء المنافقين، فأُعيذك يا أخي من هذه الحال التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات. . فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعنصرهم، وتفارِقَهُم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلَهم في وقت اشتدت فيه الضرورة إلى نصرة الأولياء ورد عدوان الأعداء؟ فهل رأيت قوماً خيراً من قومك أو شاهدت ديناً أفضل من دينك؟

فقال المنصوح: الأمر هو ما ذكرت لك، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات، وترقَّوْا في هذه الحياة.

فقال له صاحبه وهو يحاوره: رفضت ديناً قَيِّماً كامل القواعد ثابت الأركان مشرق البرهان، يدعو إلى كل خير ويحثّ على السعادة والفلاح، ويقول لأهله هَلُمَّ إلى كل صلاح وإصلاح، وإلى كل خير ونجاح، واسلكوا كلَّ طريق يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والآخروية. ديناً مبنيًّا على الحضارة الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والعلم والشفقة وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وسَلِمَتْ من الظلم والجشع والأخلاق السافلة، وشَمَلت بظلها الظليل وإحسانها الطويل وخيرها الشامل، وبهائها الكامل، ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمنصف المخالفُ. . أتتركها راغباً في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسةٍ على الطمع والجشع والقسوة وظلم العباد، فاقدةٍ لروح الإيمان ورحمته، عادمةٍ لنور العلم وحكمته؟ حضارة ظاهرها مزخرف مزوق، وباطنها خراب، وتظنها تعمِّر الموجود، وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتدمير؟ أَلَمْ تر آثارها في هذه الأوقات، وما احتوت عليه من الآفات والويلات، وما جلبته للخلائق من الهلاك والفناء والتدمير؟

فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر البشرية التي انتهى إليها شوط هذه الحضارة نظيراً أو مثيلاً، وهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم

من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمر ربك، وما زادتهم غير تتبيب؟ فلا يخدعنك ما ترى من المناظر المزخرفة والأقوال المموهة، والدعاوي الطويلة العريضة، وانظر إلى بواطن الأمور وحقائقها، ولا تَغُرَّنَّك ظواهرُها، وتأمل النتائج الوخيمة، والثمرات الذميمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها؟! أم تراهم يتنقلون من شر إلى شرور؟! ولا يسكنون في وقت إلاّ وهم يتحفزون إلى شرور فظيعة ومجازر عظيمة؟ فالقوة والمدنية والحضارة والمادة بأنواعها إذا خلت من الدين الحق فهذه طبيعتها وهذه ثمراتها وويلاتها ليس لها أصول وقواعد نافعة، ولا لها غايات صالحة.

ثم هب أنهم مُتِّعوا في حياتهم واستُدْرِجوا فيها بالعز والرياسة ومظاهر القوة والحياة، فهل إذا آنحزْتَ إليهم وواليتَهُم يُشْركونك في حياتهم ويجعلونك كأبناء قومهم؟ كلاّ والله، إنهم إذا رضُوا عنك جعلوك من أرذل خدامهم! وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم، وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم، ولم ترهم رفعوك حتى ساووا معك أدنى قومهم وبني جنسهم!! فالله الله يا أخي في دينك وفي مروءتك وأخلاقك وأدبك!! واللهَ اللهَ في بقية رَمَقك!! فالانضمام إلى هؤلاء والله، هو الهلاك.

فقال له المنصوح: لقد صدقتَ فيما قلتَ، ولكن لي على هذا المذهب أصحابٌ مثقَّفون... ولي على هذا الرأي شبيبة مهذبون، قد تعاقدت معهم على التمسك بالإلحاد واحتقار المستمسكين بدين رب العباد، قد أخذنا نصيباً وافراً من اللّذات، واستبحنا ما تدعو إليه النفوس من أصناف الشهوات فأنَّى لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغُرُر؟ وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟! فالآن يتنازعني داعيان: داعي الحق ـ بعد ما بان سبيله واتضح دليله ـ وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة، فكيف الطريق الذي يريحني ويشفيني، وما الذي عن هذا الأمر يسلِّيني؟.

فقال له صاحبه الناصح: ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر

فضائل الرجل اللبيب أن يتّبع الحق الذي تبيَّن له ويدعَ ما هو فيه من الباطل، وخصوصاً عند المنازعات النفسية والأغراض الدنيوية؟ وأن الموفَّق، إذا وقع في المهالك، طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية؟ أما علمت أن من نعمة الله على العبد أن يقيِّض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهَوْنه عن المنكر ويسعون في سعادته وفلاحه؟ ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم:

﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٩]

ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغيِّ والضلال ثم تراجع إلى الحق، الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه! فارجع إلى الحق صادقاً وثِقْ بوعد الله:

﴿إنّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩]

فقال المنصوح: لا يخفى عليك يا أخي أن الباطل إذا دخل في القلوب وتمكّن منها لا يخرج بسهولة، فأريد أن توضّح لي توضيحاً تامًّا بطلانَ ما عليه هؤلاء الملحدون، فإنهم يقيمون الشُّبَهَ المتنوعة في ترويج قولهم ليغترَّ به من لا بصيرة له.

فقال له الناصح: اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان، وبمعرفة واحد من الضِدَّين يظهر حسنُ الآخر أو قبحُه، فأُنَبِّئُكَ على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف إذا أردت أن تقابل بين الأشياء المتباينات فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه، وإلى قواعدها التي انبنت عليها، وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها، وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت، وانظر إلى ما تحتوي وتشتمل عليه من الصلاح والمنافع ومن المفاسد والمضار، فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح، ظهر لك الأمر عياناً، فإذا عرفت هذه الأصول فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عموماً وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ خصوصاً، قد بُني وأُسس على

التوحيد والتألّه لله وحده، لا شريك له حُبًّا وخوفاً ورجاءً وإخلاصاً وانقياداً وإذعاناً لربوبيته واستسلاماً لعبوديته قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية، ودلت عليه جميع الكتب السماوية، وقرّره جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعُهم من أهل العلوم الراسخة والألباب الرزينة والأخلاق العالية والآداب السامية، كل أولئك اتفقوا على أن الله منفرد بالوحدانية منعوت بكل صفة كمال، موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه منزه عن كل صفة نقص، وعن مماثلة المخلوقين، وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلّا هو، فالدين الإسلامي على هذا الأصل أسس وعليه قام واستقام.

وأما ما عليه أهل الإلحاد فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة، فإنه مبنيٌّ على إنكار الباريء رأساً، فضلاً عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض وهو عبوديته وحدَه لا شريك له، فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرةً وإنكاراً لأظهر الأشياء وأوضحها فمن أنكر الله فبأي شيء يعترف؟

﴿فبأَيِّ حديثٍ بعدَ اللهِ وآياتِه يُؤمنون﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية الله والإنابة إليه، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع، وتخضع لها العقول الصحيحة. ومع خلو قلوبهم من توحيد الله والإيمان به وتوابع ذلك فهم أجهل الناس، وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه، فتجدهم يكتبون ويتكلمون ويدَّعُون لأنفسهم من العلم والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء، ولو طُلب من أحدهم أن يتكلم عن أصل من أصول الدين العظيمة الذي لا يسع أحداً جهلُه، أوعلى حكم من الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة لَظَهَرَ عجزه ولم يصل إلى ما وصل إليه كثير من صغار طلبة العلم الشرعي؛ فكيف يثق العاقل ــ فضلاً عن المؤمن ــ بأقوالهم عن الدين؟ فأقوالهم في مسائل الدين لا قيمة لها أصلاً.

ولو سبرت حاصل ما عليه رؤساؤهم لرأيتهم قد اشتغلوا بشيء يسير من علوم العربية، وتردّدوا في قراءة الصحف التي على مشربهم، وتمرَّنوا على الكلام الذي من جنس أساليب كثير من هذه الصحف الرديئة الساقطة فظنُّوا بأنفسهم وظنَّ بهم أتباعهم الاضطلاع بالمعـارف والعلوم.. فهذا أسمى ما يصلون إليه في العلم.

أما الأخلاق فلا تسأل عن أخلاق من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يعتقد الأديان الصحيحة، فإن الأخلاق نتائـج الاعتقادات الصحيحة والفاسدة، فغاية ما عند هؤلاء التملُّق القولي والفعلي، والخضوع الكاذب للمخلوقين؛ وهم مـع هذا الخضوع السافل تجد عندهم من العُجْب والكِبْر واحتقار الخلق والاستنكاف عن مخالطة من يستنقصونهم شيئاً كثيراً؛ فهم أوضـع خلق الله وأعظمهم كِبراً وتِيهاً.

ثم إنهم يستعينون على هذا الخلق المسمى عندهم بالثقافة، بالتصنـع، والتجمّل بالملابس، والفرش، والزخارف، ويُفْنُون كثيراً من أوقاتهم بذلك وقلوبهم خرابٌ خاليةٌ من الهدى والأخلاق الجميلة، فالجمال الظاهر الباطل ماذا يغني عن الجمال الحقيقي؟ ثم إذا لحظت إلى غاياتهم ومقاصدهم فإذا هي أغراض دنية ومقاصد سفلية ومطامـع شخصية، وإذا سبرت أحوالهم رأيتهم إذا اجتمعوا تظنهم أصدقاء مجتمعين فإذا افترقوا فهم الأعداء:

﴿تحسَبُهُم جميعاً وقلوبُهُم شتَّى ذلك بأنهم قومٌ لا يَعقِلون﴾

[سورة الحشر: الآية ١٤]

وما وصفتُ لك من أحوالهم ـ وأنت تعرف ذلك ـ قليلٌ من كثيرٍ فكيف ترضى أن يكون هؤلاء أحبابَك وأصدقاءَك ترضى لرضاهم وتسخط لسخطهم وتقدمهم على حظوظك الحقيقية وسعادتك الأبدية؟ فانظر إلى صفاتهم نظر التحقيق والإنصاف، وقارِنْ بينها وبين نعوت البَرَرة الأخيار الذين امتلأت قلوبهم من محبة الله والإنابة إليه والإيمان وإخلاص العمل لأجله، وفاضت ألسنتهم بذكر الله والثناء عليه، واشتغلت جوارحهم في كل وسيلة تقرِّبهم إلى

الله وتدنيهم من رضوانه وثوابه ونفع الخلق، أشجع الناس قلوباً وأصدقهم قولاً وأطهرهم أخلاقاً وأزكاهم عملاً وأقربهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر، يكفّون عن الخلق الأذى ويبذلون لهم ويصبرون منهم على الأذى، أفتقدِّمُ على هؤلاء الأنجاب الغُرُر مَنْ مُلئت قلوبهم من الشكّ والنفاق وفاضت على ظاهرهم، فاكتسبوا لذلك أرذل الأخلاق، يقومون بالنفاق والرياء ويقعدون بالتملق والإعجاب والكبرياء، وصفُهُم القسوةُ والطمعُ والجشعُ، ونعتُهُم الكذبُ والغشُّ والبهرجة والخنوع، قد منعوا إحسانهم لكل مخلوق واتصفوا بكل فسوق، قد خضعوا في بحوثهم العلمية لكل مارق، وتبعوا في أخلاقهم كل رذيل وفاسق؟..

قال المنصوح: والله ما تعدَّيت في وصفهم مثقالَ ذرة، ولكنِّي أريد أن تدلني على طريق يجمع بين السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، لأن نفوس من تربَّى وتخلَّق بأخلاق هؤلاء لا ترجِعُ عمَّا ألِفَتْه إلا بأمر قوي: إما بترغيب وهوى يجذبها، وإما بترهيب وخوف يقمعها.

فقال له صاحبه الناصح: والله لقد أدركت في هذا الدِّين مطلوبك، وفيه واللّهِ كلُّ مرادك ومرغوبك، فإنه الدين الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة، وفيه اللذات القلبية والروحية والجسدية، ولا تفقد من مطالب النفوس الحقيقية شيئاً إلا أدركْتَه، ولا من أنواع المسرات شيئاً إلا حَصَّلتَه، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وسأوضح لك ذلك. فاعلم أن أصول اللذات المطلوبة: أولاً، راحة القلوب وسكونها وطمأنينتها، وفرحها وبهجتها وزوال همومها وغمومها. ثانياً، القناعة والطمأنينة بما أوتيه العبد من المطالب الجسدية، ثالثاً، استعمال ذلك على وجه يحصل به السرور والاغتباط. فهذه الأمور الثلاثة، مَنْ رُزِقَها واستعملَها على وجهها فقد نال كلَّ ما تعلق به طمعُ الطامعين، فإن جميع اللذات ترجع إلى ما ذكرنا.

فأما لذات القلوب وحصول سرورها وزوال كدرها فإنما أصل ذلك

بالإيمان التام بما دعا الله عباده الإيمان به من الإيمان بتوحده بجميع نعوت الكمال وامتلاء القلب من تعظيمه وجلاله ومن التألّه له وعبوديته والإنابة إليه وإخلاص العمل الظاهر والباطن لوجهه الأعلى، وما يتبع ذلك من النصح لعباد الله ومحبة الخير لهم وبذل المقدور من نفعهم والإحسان إليهم والإكثار من ذكر الله والاستغفار والتوبة فمن أوتي هذه الأمور فقد حصل لقلبه من الهداية والرحمة والنور والسرور وزوال الأكدار والهموم والغموم ما هو نموذج من نعيم الآخرة، وأهل هذا الشأن لا يغبطون أرباب الدنيا والملوك على لذاتهم ورياساتهم بل يرون ما أُعطُوه من هذه الأمور يفوق ما أُعطِيَهُ هؤلاء بأضعاف مضاعفة. وهذا النعيم القلبي لا يعرفه حق المعرفة إلّا من ذاقه وجرّبه فإنه كما قيل:

من ذاق طعم نعيم القوم يدريه ... ومن دراه غَدَا بالروح يشريه

فهذا إشارة لطريق هذا النعيم القلبي الذي هو أصل كل نعيم.

وأما الأمر الثاني فإن الله أعطى العباد القوة والصحة وما يتبع ذلك من مال وأهل وولد وخَوَلٍ وغيرها؛ والناس بالنسبة لهذه الأشياء نوعان: قسم صارت هذه النعم في حقهم مِحَناً ونقماً؛ وقسمٌ صار في حقهم نَهَماً وخيراتٍ ومنحاً. أما أهل الدين الحقيقي فقد قابلوا هذه النعم وتلقّوها على وجه الشكر لله والاغتباط بفضله وتناولوها على وجه الاستعانة بها على طاعة المنعم، وعلموا أنها من أكبر الوسائل لهم إلى رضى ربهم وخيره وثوابه إذا استعملوها فيما هُيئت له وخُلقت لأجله وقد رضوا بها عن الله كل الرضى، فإنهم علموا أنها من عند الله الذي له الحكمة التامة في جميع أقضيته وأقداره، وله الرحمة الواسعة في جميع تدابيره، وله النعمة السابغة في كل عطاياه وهو أرحم بهم من الخلق أجمعين فحيث علموا العلم اليقيني صدورها مِمَّن هذا شأنه قنعوا بما أعطوه منها، من قليل وكثير، كل القناعة، وسكنت قلوبهم عن التطلع والتطلب لما لم يقدر لهم.

ومتى حصلت الطمأنينة والقناعة والرضى عن الله بما أعطى فقد حصلت

الحياة الطيبة، فإذا أدركت حق الإدراك نعتَهم هذا عرفتَ أن نعيم الدنيا في الحقيقة هو نعيمُ القناعة برزق الله، وطمأنينة القلوب بذكر الله وطاعته، وأن الواحد من هؤلاء لو لم يكن عنده من هذه الأمور ــ وهي القوة والصحة والمال والأهل والولد وتوابع ذلك ــ إلاّ الشيء القليل لكان في راحة وسرور من جهتين:

جهة القناعة وعدم تطلع النفس وتشوفها للأمور التي لم تحصل.

وجهة ما ترجوه من ثواب الله العاجل والآجل على هذه العبادة القلبية التي تزيد على كثير من العبادات البدنية؛ فإن التعبد لله بمعرفة نعمه والاعتراف بها والرضى بها والرجاء لله أن يديمها ويُتمَّها وأن يجعلَها وسيلة إلى نعم أخرى وأن يجعلها طريقاً للسعادة الأبدية لا ريب أن هذه الأحوال القلبية من أفضل الطاعات وأجلِّ القربات، فكم من فَرقٍ بين سرور هذا الذي تعبد بروح الدين وحصلت له الحياة الطيبة، وبين من تلقى هذه النعم بالغفلة وعدم الاعتراف بنعمة المنعم وشقي بهمومها وغمومها، وكان إذا حصل له شيء من مطالب النفوس لم يرض به بل تشوّف إلى غيره وتطلّع لسواه فهذا يتنقل من كدر إلى كدر آخر، لأن قلبه قد تعلق تعلقاً شديداً بمطالب الجسد، فحيث جاءت على خلاف ما يؤمِّلُه ويريده قَلِقَ أشدَّ القلق، وهو لا يزال في قلق مستمر، لأن المطالب النفسية متنوعة جدًّا، فلو وافقه واحد لم يوافقه الآخر وربما اجتمع في الشيء الواحد سرورٌ من وجه، وحزنٌ من وجه آخر، فصفوه ممزوج بكدره، وسروره مختلط بحزنه، فأين الحياة الطيبة لهذا؟! وإنما الحياة الطيبة لأرباب البصائر والحِجَى الذين يتلقَّوْنها كلها بالقبول والقناعة والرضى.

وأما الأمر الثالث، وهو جهة استعمال هذه النعم، فصاحب الدين الصحيح يتناولها على وجه الشكر لله على نعمه والفرح بفضله، وينوي بها التقوى على ما خلق له من عبادة الله وطاعته، وينفقها محتسباً بها رضى الله وفضلَه وخلفَه العاجل والآجل، ويعلم أنه إذا أنفق على نفسه وأهله أو ولده

أو من يتصل به فإنما نفقته صادفت محلًها ووقعت موقعها فلم يتثاقل كثرةَ النفقة في هذا الطريق لأنه يقول معتقداً: هذا أولَى ما بذلتُ فيه مالي، وهذا ألـزمُ ما قمتُ بـه من الواجبـات والفروض، وهـذا خير مـا قمت به من المستحَبَّات، وهذا أعظم ما أرجو له الخَلَف من الله حيث يقول وهو الكريم الوفي:

﴿وما أنفقتُم مِنْ شيءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وَهُوَ خيرُ الرّازقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

ولا يزال نصب عينيه احتساب الأجر في سعيه بكسبه وفي مصرفه أجناس ذلك وأنواعه وأفراده متفطّناً لقوله (على أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في فيّ امرأتك) فمن كان هذا وصفه فإن لذاته الدنيوية هي اللذات الحقيقية السالمة من الأكدار معما يرجو من الثواب العاجل والآجل من الله، ومن كانت هذه صفته سهل عليه الأخذ من حِلِّها ووضعها في محلها، ويسرت له أموره غاية التيسير.

وأما من استعمل هذه النعم على وجه الشَّرَه والغفلة، ولم يفكر في الاعتراف بفضل الله في كل الأوقات وبنعم الله، ولم يفرح بالنعم لأنها من فضل الله بل فرح بها فقط لموافقة عرضه النفسي ولا نَوَى بها الاستعانة على طاعة الله، ولا احتسب في نيلها وصرفها على المُنْفَقِ عليهم الأجر والثواب.. فمن كان هذا وصفه فإن الكدر والحزن له بالمرصاد؛ فإنه إذا فاتته بعض الشهوات النفسية حزن، وإن أدرك ما أدركه منها ولم يكن على ما في خاطره من كل وجه حَزِن، وإن أراد منه ولدُه ومن يتصل به نفقة أو كسوة واجبة أو مستحبة حَزِن، ولم تخرج منه إلّا بشق الأنفس، وإن خرجت منه خرج معها بضعة من سرور قلبه، لأنه يحب بقاء ماله ويحزن لنقصه على أي وجه كان، وليس عنده من الاحتساب ما يهون عليه الأمر، هذا إن كان غير بخيل، فإن كان شحيح النفس مطبوعاً على البخل فإن حياته مع أولاده وأهله والمتصلين به حياة شقاء وعذاب وأكدار متواصلة وأحزان مستمرة، لا إيمان عنده يهوِّن

عليه النفقات، ولا نفس سخية لا تستعصي عن نيل المكرمات فيا له من عذاب حاضر وعذاب مستمر، فأين هذا من ذاك الذي حصلت له الحياة الطيبة بأكملها.

هذا كله بالنظر إلى هذه الأمور الثلاثة التي هي أصل اللذات عند العقلاء، قد اتضح لنا أن صاحب الإيمان الصحيح هو الذي فاز باللذات الحقيقية وسلم من المكدرات..

ثم إذا عطفنا النظر إلى الطوارىء البشرية التي لا بد لكل عبد منها، وهي المصيبات التي تعتري العباد: من الأمراض المتنوعة وموت الأحبة وفقد الأموال ونقصها ووقوع المكاره بمن تحب وزوال المحابّ، وغيرها من أنواع المصائب، دقيقها وجليلها، رأيت المؤمن حقًّا قد تلقّاها بقوة وصبر واحتساب، وقد قام لها بارتقاب الأجر والثواب، وعلم أنها تقدير العزيز العليم، وأنها أقضيته صدرت من الرب الرحيم، فهان عليه أمرها وخفت عليه وطأتها فإنه إذا فكر فيما فيها من الآلام الشاقة قابلها بما تتضمنه من تكفير السيئات وتكثير الحسنات ورفعة الدرجات والتخلق بأخلاق الكرام والقوة والشجاعة، وإذا أنهكت بدنه وماله رآها مُصْلِحةً لقلبه وروحه، فإن صلاح القلوب بالشكر لله على نعمائه والصبر على بلائه، وانتظار الفرج من الله إذا أَلَمَّت الملمات، واللجوء إلى الله عند جميع المزعجات المقلقات. فأقل الأحوال عند هذا المؤمن أن تتقابل عنده المصائب والمحابّ والأفراح والأتراح، وقد تصل الحال بخواص المؤمنين إلى أن أفراحهم ومسراتهم عند المصيبات تزيد على ما يحصل فيها من الحزن والكدر الذي جبلت عليه النفوس.

فأين هذه الحال من حال من تلقى المصيبات التي لا بد للخلق منها بقلب منزعج مرعوب وخشعت نفسه المهينة لما فيها من الشدائد والكروب، فبقيت الحسرات تنتاب قلبه وروحه، وزادت مصائب قلبه على مصائب بدنه،

ليس عنده من الصبر وارتقاب الثواب ما يخفف عنه الأحزان، ولا من الإيمان ما يهوِّن عنه الأشجان؛ تعتريه المصائب فلا تجد عنده ما يخففها، فتعمل عملها في قلبه وروحه وبدنه وأحواله كلها.. القلب مليء من الهم والغم والألم، والخوف السابق واللاحق قد ملأ نفسه فانحل لذلك لبُّه وانحطم، وقد ضعف توكله على الله غاية الضعف، حتى صار قلبه يتعلق بمن يرجو نفعه من المخلوقين؟ فيا لها من مصائب دنيوية اتصلت بالمصائب الدينية والخلقية وتراكم بعضها فوق بعض حتى صار عنده أعظم من الجبال الرواسي.

فوالله لو علم أهل البلاء والمصائب بما في الإيمان والروح والتسلية والحياة الطيبة لسارعوا إليه، ولو في هذه الحال التي هم فيها مضطرون إلى ما يخفف عنها آلامهم، ولا يجدونه إلا في الإيمان الصحيح الحقيقي وما يدعو إليه.

ومما يتعلق به سرور الحياة، ونعيمها، أو همها وغمها، معاشرة الخلق على اختلاف طبقاتهم، فمن عاشرهم بما يدعو إليه الدين استراح، ومن عاشرهم بحسب ما تدعو إليه الأغراض النفسية، فلا بد أن يكون عيشه كَدِراً، وحياته منغصة.. وتوضيح ذلك أن الناس ثلاثة أصناف: رئيس، ومرؤوس، ونظير.

أما من له رياسة حكم، أو ثروة، وله أتباع وحاشية، فله معهم حالان: حالة فيما يفعله معهم، وحالة فيما يصيبه من أتباعه من خير وشر، وموافق للطبع ومخالف له؛ فإن هو حكّم الدين والشرع، في الحالتين استراح، وله أجر من الله، إذا استعمل العدل معهم، واستعمل النصح والإحسان، وقابل المسيء منهم بالعفو، وشكرهم على فعل المعروف والخير، مبتغياً بذلك وجه الله، وأيضاً فإنه إذا تأمل فيما فعله من خير اطمأنت نفسه وانشرح صدره، فأين هذا من الرئيس الذي لا يبالي بظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يبالي بسلوك طرق العدل والإنصاف، وليس له صبر على أية

أذية تصيبه من رعيته؟ فهو من أتباعه في نكد مستمر، ورعيته قد ملئت قلوبهم من مقته وبغضه، يتربصون به الدوائر والفرص، حتى إذا وقع في أقل شيء أعانوا عليه أعدى أعدائهم، فهو معهم غير مطمئن على حياته ولا على نعمته، لا يدري متى تفجؤه البلايا، ليلاً أو نهاراً.. هذه حالة الرئيس على وجه الإجمال..

وأما حالة المرؤوس، فإن أطاع الدِّين في وظيفته وأطاع حاكمه أو سيده، أو والده، واستعمل الآداب الشرعية في معاملته، والأخلاق المرضية، فهو مع طاعته لله ولرسوله قد استراح وأراح، وطابت عنه نفس رئيسه، وأمِنَ عقوبته، وأمَّل إحسانه وبِرّه ومحبته، وأمّا من تعدّى طوره، وعصى متبوعه والتوى، فإنه لا يزال متوقعاً لأنواع المضار، يمشي خائفاً وَجِلاً لا يَقرُّ له قرار، ولا يستريح له خاطر..

وأما حالة النظير المساوي فإن جمهور من تعاشرهم من الخلق إذا خالقتهم بالخلق الحسن، اطمأنت نفسك، وزالت عنك الهموم، لأنك تكتسب بذلك مودتهم، وتخمد عداوتهم، مع ما ترجوه من عظيم ثواب الله على هذه العشرة التي هي من أفضل العبادات، فإن العبد يبلغ بحسن خلقه، درجة الصائم القائم. وحسن الخلق له خاصية في فرح النفس، لا يعرف ذلك حق معرفته إلّا المجرِّبون.. فأين حال هذا ممن عاشر الناس بأسوأ الأخلاق؟ فخيره ممنوع، وشره غير مأمون، وليس له أقل صبر على ما يناله من المكدرات، فهذا قد تنغصت عليه حياته، وَحَضَرَتْهُ همومه وحسراته، فهو في عناء حاضر، ويخشى من الشقاء الآجل.. وأما معاشرته مع أهله وأولاده ومن يتصل به فإنه يتأكد عليه القيام بالحقوق اللازمة، تامّة لا نقص فيها ولا تبرم؛ فمن عامل هؤلاء بما أمر الله ورسوله، راجياً بقيامه به ثواب ربه ورضاه، عاش معهم عيشة راضية، ومن كان معهم في نكد وسوء خلق مع الصغير والكبير، يخرج من بيته غضبان ويدخل على أهله وولده متكدراً ملآن، فأي حياة لمن كانت هذه حاله؟ وما الذي يرجوه حيث ضيع ما فيه فرحه ومسراته؟ وأما

عشرته مع معامليه، فإن استعمل معهم النصح والصدق وكان سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى ـ حصلت له الرحمة، وفاز بالشرف والاعتبار، واكتسب مودة معامليه ودوام معاملتهم، ولا يخفى ما في ذلك من طيب الحياة، وسرور النفس، وما في ضدها من سوء الحال وسقوط الشرف، وتنغص الحياة.

والفارق بين الرجلين هو الدين، فصاحب الدين منبسط النفس، مطمئن القلب.. فقد تبين لك أن السعادة واللذة الحقيقية بجميع أنواعها تابعة للدين.. واعلم يا أخي أن الدين نوعان:

أحدهما أعمالٌ وأحوال وأخلاق دينية ودنيوية، وكما ذكرنا أنه لا سبيل إلى حصول الحياة الطيبة إلا بالدين..

والثاني: علوم ومعارف نافعة، وهي علوم الشرع والدين، وما يعين عليها ويتوصل إليها به، فالاشتغال بها من أجَلِّ العبادات، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية، واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم، فيمضي الوقت الطويل، وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن، وهذا عنوان اللذة، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل، ومن ضاق صدره بشيء يطول عليه الوقت القصير.

وصاحب العلم في كل وقت مستفيد علوماً يزداد بها إيمانه، وتكمل بها أخلاقه، والمتصفح للكتب النافعة، لا يزال يعرض على ذهنه عقول الأولين والآخرين ومعارفَهم وأحوالهم الحميدة، وضدها، ففي ذلك معتبرٌ لأُولي الألباب.. فكم من قصة تمرُّ عليك في الكتب تكتسب بها عقلاً جديداً، وتسلّيك عند المصائب، بما جرى على الفضلاء، وكيف تلقَّوها بالرضا والتسليم، واغتنموا الأجر من العليم الحكيم.

والعلم يعرِّفك طرقاً تدرك بها المطالب، وتدفع بها المكاره والمضار،

والعقل عقلان: عقل غريزي، وهو ما وضعه الله في الإنسان من قوة الذهن في أمور الدين والدنيا، وعقل مكتسب، إذا انضم إلى العقل الغريزي ازداد صاحبه حزماً وبصيرة. فكما أن العقل الغريزي ينمو بنمو الإنسان حتى يبلغ أشده، فكذلك العقل المكتسب له مادتان للنمو: مادة الاجتماع بالعقلاء والاستفادة من عقولهم وتجاربهم، تارة بالاقتداء، وتارة بمشاورتهم ومباحثتهم، فكم ترقى الرجل بهذه الحال إلى مراقي الفلاح، ولهذا كان انزواء الرجل عن الناس يفوته خيراً كثيراً، ونفعاً جليلاً، مع ما يحدثه الاعتزال من الخيالات وسوء الظن بالناس، والإعجاب بالنفس الذي يعبر عن نقص الرجل، وربما ضر البدن، فإن مخالطة الناس تفتح أبواباً من المصالح، وتسلّيك، وتقوّي قلبك، وفي ضعف القلب ضرر على العقل، وضرر على الدين، وضرر على الأخلاق وضرر على الصحة.

وينبغي للإنسان أن يعامل الناس، بحسب أحوالهم، كما كان النبي ﷺ يحسن خلقه مع الصغير والكبير قال تعالى:

﴿خذ العفو﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

أي خذ ما صفا لك من أخلاق الخَلْق، ودع عنك ما تعسّر منها.. فيجالس أبناء الدنيا بالأدب والمروءة، والأكابر بالتوقير، والإخوان والأصحاب بالانبساط، والفقراء بالرحمة والتواضع، وأهل العلم والدين بما يليق بفضلهم.. فصاحب هذا الخلق الجليل تراه مبتهج النفس في حياة طيبة..

وأما المادة الثانية للعقل المكتسب فهي الاشتغال بالعلوم النافعة، فتستفيد بكل قضية رأياً جديداً، وعقلاً سديداً، ولا يزال المشتغل بالعلم يترقى في العلم والعقل والأدب. والعلم يعرّفك بالله، وكيف الطريق إليه، يعرّفك كيف تتوسل بالأمور المباحة إلى أن تجعلها عبادة تقرّبك إلى الله. والعلم يقوم مقام الرياسات والأموال. فمن أدرك العلم فقد أدرك كل شيء، ومن فاته العلم فاته كل شيء. وكل هذا في العلوم النافعة. وأما كتب الخرافات

والمجون فإنها تحلّل الأخلاق وتفسد الأفكار والقلوب، بحَثّها على الاقتداء بأهل الشر، وهي تعمل في الإيمان والقلوب عمل النار في الهشيم. .

فلما تلا النصيح لصاحبه هذه المواضيع، وبرهن عليها، قال له المنصوح: والله لقد انجلى عني ما أجد في أول موضوع تلوته علي، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول. وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تَعْدِلُ عندي الدنيا وما عليها، فأَحْمدُ الله أولاً حيث قيضك لي، وأشكرك شكراً كثيراً حيث وفَّيت بحق الصحبة، ولم تصنع ما يصنعه أهل العقول الذين إذا رأوا من أصحابهم ما يسوؤهم قطعوا عنهم حبل الوداد في الحال، وأعانوا الشيطان عليهم، فازداد بذلك الشر عليهم، وضاع بينهم التفاهم. وإني لا أنسى جميل معروفك حيث رأيتني سادراً في المَهَامِهِ مغروراً بنفسي معجَباً برأيي، فأريتني بعيني ما أنا فيه، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه، فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه، وأسأله الإعانة على سلوك مرضاته، وأفزع إليه أن يختم بالصالحات أعمالي، وأحمد الله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، فإنه مولى النعم، دافع النقم، غزير الجود والكرم.

انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

# تنزيه الدين وحملته ورجاله

## مما افتراه القصيمي في "أغلاله"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإني قد وقفت على كتاب صنَّفه عبد الله بن علي القصيمي سماه (هاذي هي الأغلال) فإذا هو محتوٍ على نَبْذ الدين والدعاية إلى نبذه والانحلال عنه من كل وجه؛ وكان هذا الرجل قبل كتابته وإظهاره لهذا الكتاب معروفاً بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة، فلم يرعَ الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب، الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقاً.

وبعد ما كان في كتبه السابقة معدوداً من أنصار الحق، انقلب في كتابه هذا من أعظم المنابذين له، فاستغرب الناس منه هذه المفاجأة الغريبة لسوابقه؛ ولسنا بصدد التعرض للأسباب التي دعته لكتابة هذا الكتاب، وكثير من الناس يظنون به الظنون التي تدل عليها القرائن، وليست بعيدة من الصواب، لِظَنِّ بعضهم أنه ارتشى من بعض جهات الدعاية الأجنبية اللادينية، ولكن لَمَّا كتب هذا الكتاب وطبعه ونشره بين الناس وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام، بله

غيره من الديانات والمبادىء الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوى عليه كتابه من العظائم خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه حيث كان معروفاً قبل ذلك من علماء المسلمين ولم يدر ما طرأ عليه من الانقلاب.

وإننا نعلم أن الذين يقرؤون كتابه ويقفون عليه ثلاثة أقسام:

(القسم الأول) من له بصيرة ومعرفة وتفريق بين الحق والباطل، ومعرفة بحقيقة الدين، فهذا لا يحتاج إلى التنبيه بل مجرد وقوفه على كلامه وفهمه يكفيه معرفة ببطلانه وفساده، لأن هذا القسم من الناس لا تغرهم الألفاظ المزخرفة ولا الاستدلالات المزورة المبهرجة.

(القسم الثاني) من وقف على كتبه السابقة، ثم على كتابه هذا ورأى ما فيها من الاضطراب والتناقض والتضارب وعدم الاستقرار على قول ورأي واحد، يقول القول اليوم فيهدمه بالغد ويبني ما هدمه ويهدم ما بناه، فبينما تراه يدعي أنه ينصر الدين ويغار على المسلمين إذ تراه ملحاً في هدم أصول الدين وقواعده حاملاً على حَمَلته متهكماً بالعلماء والمرشدين مؤيساً لهم من الرقي في الحياة ما داموا متمسكين بدين الإسلام. وبينا تراه يحط على أئمة الدين ومصابيح الدجى إذ يصب الثناء والمدح على أئمة الكفر وزنادقة الملاحدة ويعظمهم غاية التعظيم، وبينا تراه يذم القديم ويحث على رفضه ومراده به ما جاء به الدين علوماً وأخلاق وأعمالاً، ويحث على الأخذ بكل جديد، إذ تراه متناقضاً يحث على اتباع المنحرفين كأرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من المتقدمين والمتأخرين، إلى غير ذلك من مناقضاته التي توجب للناظر فيها أن يهدر كلامه ويسقطه من الاعتبار ولو لم يكن من أهل العلم والإبصار.

وأما (القسم الثالث) الذين لا بصيرة لهم يميزون بها بين الحق والباطل ولا وقفوا على تناقضه وعدم استقراره على رأي واحد فإنهم يخشى عليهم من الاغترار بكلامه، لأنهم يسمعون عبارات مزخرفة واستدلالات مموهة، لأنه يردد

المعنى الضئيل بعبارات كثيرة وأساليب متنوعة، ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها من الحثّ على تعلُّم العلوم وفنون الصنائع النافعة، وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية وما فيه وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل ولم يبين ما بيَّنوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقة ولا كيفية الدواء.

والمقصود أن ما في كتابه من الحقائق لم يكن هو أول من قالها بل لم يزل أهل المعرفة يقولون ما هو أتم منها، وإنما المنكر الفظيع والطامّة الكبرى ترويجه بهذه الأمور على من لم يعرف الحقائق، وجعلها له كالأساس الذي يحمل منه على الدين وأهله الحملات المنكرة المتكررة.

**عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي**

# مقدمة ونظرة إجمالية
# في محتويات ومواضيع هذا الكتاب

من نظر فيه وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كتب أشد وطأةً وأعظم عداوةً ومحاربةً للدين الإسلامي ومنفراً منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه ولا حرّف أحد له نظير تحريفاته، وما صرح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحَمَلته كاستهزائه وسخريته؛ فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته ثلاثة لا تبقي من الشر شيئاً إلا تضمنته فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية وخروج تام عن عقائده وأصوله فضلاً عن فروعه وهو أكبر دعاية للإلحاد. ومقاومة للدين وأهله وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في صورة نصر الدين ما يعد من أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله

﴿ولا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٣]

وجملة ذلك أنه تلقى عن جميع أعداء الدين ما وجّهوه إلى الدين وإلى أهله من جميع ألوان الشُّبه التي تدعو إلى الكفر والتكذيب بالدين، وزاد عليهم زيادات واستدرك أموراً لم يصلوا إليها؛ فإن النافين للباري الجاحدين له: كزنادقة الدهرية وفرعون وأشياعه، الذين صرحوا بجحد رب العالمين بالكلية وتكذيب رسله جهراً وعلناً، ثم أظهره زنادقة الاتحاديين بأسلوب آخر: وهو أن الوجود كله ــ واجبُهُ وممكنُهُ ــ واحد بالعين، فلا ثم رب ولا مربوب ولا خالق

ولا مخلوق، الجميع شيء واحد، ثم أظهره هذا الكاتب ـ صاحب كتاب «الأغلال» ـ بأسلوب أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان فهو غالط ضالٌّ عنده. أعداء الرسول تنوَّعوا في تكذيبه فقالوا ساحر وشاعر وقالوا مفتر كذاب. وزنادقة الفلاسفة قالوا إن الرسل كذبوا لمصلحة الناس وخيلوا للناس تخييلات خالية من الحقائق.

وهذا صاحب «الأغلال» جاء بوجه آخر، حيث حلّل بزعمه حياة النبي ﷺ ذلك التحليل الخبيث الباطل بأنه يخلو بالطبيعة ويناجيها، وتأخذ بلبه وعقله ويظل ليله ونهاره نازعاً إليها، وقد افتتح بها رسالته، بخلوته بها ومناجاتها في غار حراء، وختمها به حيث كان ينزع إليها وهو في سياق الموت، ويقول في الرفيق الأعلى. فهذا التحليل الخبيث الذي لا يروج على الصبيان قد أخذه بعينه من دعاة النصارى ومضلليهم، إذ قالوا هذا القول الذي هو التكذيب المحض، فعند صاحب «الأغلال»: ليس ثمَّ وحي ولا مناجاة لله، ولا نزول جبريل بالوحي من عند الله، وإنما ذلك خيال لا حقيقة فظن بجهله أنه بهذا الكلام المموه يسلم من الشناعة.

أعداء الرسل من الدهريين قالوا:

﴿ما هِيَ إلاَّ حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيا ومَا يُهلِكُنا إلاَّ الدهر﴾

[سورة الجاثية: الآية ٢٤]

وهذا القصيمي يقول: «ما هي إلا الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم وتدبِّره وتنظِّم الأمور الجلية والدقيقة»؛ وأنكر قضاء الله وقدره، ورجَّع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة، وهذا إنكار منه لله ولأفعاله ولصفاته. وكما أنكر توحيد الربوبية فقد أنكر توحيد الإلٓهية والعبادة، ولم يرتَض بما قاله المشركون بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه، وتهكَّم بالمفتقرين إلى ربهم الداعين لله المخلصين لربهم، وملأ كتابه من السخرية بهم. وكما أنكر الربوبية والإلٓهية

والرسالة ـ إذ فسّرها بذلك التفسير الخبيث الذي يرجع إلى نفي الرسالة ـ فقد أنكر عقوبات الله ومثوباته الدنيوية والأخروية، وأنكر أسبابها وسخر بالمؤمنين بها. وكذلك رمى جميع طبقات الأمة وخصّ منهم العلماء الأعلام وهداة الأنام بضعف العلم والعقل والرأي، وأوجب الكفر بهم وبعلومهم، وبما قالوه وصنفوه من كتب الحديث والتفسير والفقه والأصول والفروع، وجعلهم مجرمين يستحقون العقوبة وأهدر فضائلهم بالكلية.

وأكبر من ذلك وأطمُّ أنه باهَتَ وصرَّح بتحقير الأنبياء تحقيراً لم يصل إليه ملحد، إذ صرّح بأن جميع الرسل والأنبياء والهداة من أتباعهم لم ينفعوا الناس في الحياة بشيء من النفع، ولم يقدروا أن يصيروا فيها مخلوقات متألقة لهم فضائل يهتدى بها. وكما رمى الأنبياء وأهل الأديان الصحيحة كلهم ولم يستثن منهم أحداً فإنه عظم زنادقة الملحدين، الأولين منهم والآخرين، وأوجب الأخذ عنهم والحذو على منوالهم، وحتم نبذ القديم الذي في مقدمته «الكتاب» و«السنة» وما عليه الصحابة والتابعون، وأوجب أن تتخذ ثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها الدين الصحيح ويكفر به وبحملته ويعتقد أن الصحابة في طور الأطفال أو طور قريب من طور الحيوانات السذج، وأنهم لا يعلمون الأمور على حقيقتها وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. وإنما العلم والفضل منحصر عنده في الأجانب الإفرنج.

وسلك مسلك الإباحيين في التهتك والإباحة، وكذّب ما جاء في الكتب وعلى ألسنة الرسل من قصّة آدم وزوجه وذريته، فزعم أن الإنسان الأول مخلوق شبيه بالحيوان لا يقدر على النطق ولا التخاطب بوجه من الوجوه، ثم انتقل إلى طور الإشارات في مدد طويلة ثم بعد مدد طويلة جداً تدرج شيئاً فشيئاً حتى انتقل إلى طور التخاطب بالألفاظ المبهمة الساذجة.

وكذب ما جاءت به الرسل أن الله علم آدم الأسماء كلها وأسجد له ملائكته، واتبع سفهاء الخرافيين، وكذّب جميع النصوص من الكتاب والسنة

الواردة في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وفي فضل الصبر على المصائب وثواب أهلها واستهزأ بها وبأهلها وملأ كتابه من السخريات والاستهزاءات وكل هذه الحقائق وما هو أكثر منها قد تضمنها كتابه المذكور كما سنشير إليها مفصلة مشاراً إلى صفحاتها من كتابه المذكور.

# فصل

ولما كان هذا الكتاب موجهاً إلى قلب الدين وروحه، وإلى هدم علومه وأصوله وقواعده وجميع مقوماته، وكان هذا الدين ـ بذاته وحقيقته، واشتماله على أعظم الحقائق وأجلها وأنفعها، وعلى البراهين الساطعة والأنوار المتلألئة ـ يدفع ويبطل كل ما يقوم في وجهه من الشُّبُهات ويقاومه من الأقوال الباطلة، أحببت أن أشير إشارة لطيفة قبل إبطال قول هذا الكتاب إلى بعض محاسن هذا الدين، وأنه لا سبيل لأحد من الخلق أن يبطل شيئاً من أصوله وقواعده وأسسه، وأن هذا الدين العظيم تزول السموات والأرض والجبال وأصوله راسيات وقواعده ثابتات وأنواره مشرقة وبراهينه للباطل محرقة، فهو الميزان الأعظم الذي توزن به الأمور الدينية والأمور العقلية والأمور الدنيوية، وأبين عند ذلك منافاتها لقول هذا الكاتب.

وهذا الرجل لا بد قد شعر أن الناس لا يشكّون ولا يمترون في منافاة كتابه وأقواله للدين، فتراه في مطاوي كتابه يعتذر ويدَّعي أنه مؤمن بالله ورسوله وبريء من الإلحاد. أفيظن أن الناس يقيمون لاعتذاره وزناً؟ وكيف تقع اعتذاراته الطفيفة التافهة في جانب حملاته الشديدة على الدين والحث البليغ على نبذه وعلى سلوك طريق الملحدين؟ كيف يقبل اعتذار من هو مجدٌّ مجتهد في هذه المواضيع الخبيثة الباطلة، فهل هذا إلا من باب السخرية والتمويه على الأغرار؟ ونحن نكتب ما يجب علينا كتابته من رد اعتداءاته على الدين والتنبيه على بطلانها كما هو الواجب المتعين على كل مسلم، ونرجو الله أن يعيده إلى الحق بالتوبة والتنصل ونقض ما كتبه واجترأ عليه.

(واعلم) أن مدار ما بَنَى عليه بحوثه الباطلة واحتج لها وبرهن عليها ورددها أمران:

(أحدهما) أن المسلمين في هذه الأوقات الأخيرة متأخرون عن غيرهم في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات الراقية وعلوم الطبيعة بأنواعها.

(والثاني) أن غيرهم مَهرَ في هذه الأمور مهارة لا تتصورها الأفكار. ثم بنى على هذين الأمرين جميع بحوثه الباطلة، ورتّب على ذلك أنه يجب رفض ما عليه المسلمون من عقائد وأخلاق وعلوم وأعمال؛ وقرر في كتابه: أن الدين الإسلامي أغلال وقيود تقيد الإنسانية عن التقدم والارتقاء في درج الكمال؛ وفي مقابلة ذلك حث ورحّب بكل ما أتى به الآخرون، من مفاسد وعقائد وأخلاق وأعمال وخير وشر، وقرر أن هذا هو الرشد والفلاح وبدء النجاح. وكتابه كله يدور على هذا الأصل الذي يعرف كل من له أدنى بصيرة أنه بنيان على شفا جرف هار، وأن أقل نظر يوجه إليه وأقل برهان يقابله يبطله، وأن هذا الاستدلال هو بالتّرهات والبهرجات أولى منه بالحقائق الثابتة؛ فإذا تبين بطلان أصله الذي بنى عليه جميع بحوث كتابه بطل كل ما بنى عليه، فنشير هنا إلى هذا ثم نتتبع ما اشتمل عليه كتابه من المواضيع الفاسدة (فنقول):

الدين الإسلامي هو دين العدل والرحمة والعلم والحكمة، وهو دين المدنية الزاهرة المبنية على صلاح القلوب والأرواح وصلاح الدين والدنيا، وعلى السعي إلى الكمال والرقي في معارج السعادة والفلاح، وهو الدين الذي حثّ على كل خير ونَفْع وصلاح وإصلاح، وهو الدين الذي ساوى بين طبقات الخَلْق في القيام بالعدل والحقوق فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه: الغني والفقير والشريف والوضيع والقوي والضعيف والعزيز والذليل، كلهم عنده سواء، قد شملهم عدلُه ورحمتُه وهو الدين الذي يحث على القيام بما خلق الله الخلق لأجله، وهو عبادة الله وحده والإنابة إليه والتعبُّد له ظاهراً وباطناً ودوام الافتقار إليه، وهو الدين الذي يأمر بجميع معالي الأخلاق ومحاسنها وينهى عن جميع مساويها وأراذلها.

وهو الدين الذي تصلح به الأحوال: فكما حثّ على القيام بإصلاح الدين فقد حث على القيام بمصالح الدنيا النافعة، وكما أمر بتعلم العلوم والفنون التي ترجع إلى الإنابة إلى الله وعبوديته فقد حثّ على تعلّم العلوم والفنون التي تعين على قيام حياة الأمة وإصلاح أحوالها واستعدادها لمقاومة الأمم الأخرى ومغالبتها والوقاية من شرورها وأضرارها، وكما أمر بتعلم علوم التوحيد والعقائد والأخلاق التي ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح فقد أمر بالتعلم والتفقّه في الأحكام التي ترجع إلى القيام بالعبادات الظاهرة والمعاملة العادلة والقيام بجميع الحقوق المتنوعة على وجه الوفاء والعدل وموافقة الحكمة.

وكذلك أمر بتعلم الفنون الحربية والآداب العسكرية، والاستعدادات السياسية والصناعات النافعة فقال تعالى في جانب مقاومة الأعداء ومهاجمتهم:

﴿وأعدُّوا لهمْ ما ٱسْتَطَعْتُم مِنْ قُوة﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وهذا شامل لكل ما تتعلق به الاستطاعة من أنواع العلوم والفنون العسكرية الموجودة في وقت التنزيل، والتي تحدث إلى يوم القيامة من قوة عقلية وسياسية، داخلية وخارجية، وصناعات نافعة وتعلم رمي وركوب، وسائر الفنون التي لا تتم مقاومة الأعداء إلا بها، وقال في جانب المدافعة:

﴿يأَيُّها الذين آمَنُوا خُذوا حِذْرَكُم﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

فأمر المؤمنين بأخذ حذرهم من عدوهم، وهو التَّوقِّي والوقاية، والاحتماء من عدوان الأعداء بكل وسيلة وسبب تحصل به الوقاية من شرهم ومكائدهم وأسلحتهم ومداخلهم ومخارجهم، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان. وكل آية أو حديث فيه الأمر بالجهاد والحث عليه فإنه يدخل فيه القيام بجميع الشؤون التي تعين على الجهاد، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة، وهذا من البراهين على أن هذا الدين والشريعة تنزيل من حكيم حميد عليم بكل شيء فإن إرشاداته العالية كما ترى تصلح لكل زمان ومحل بل لا تصلح الأمور إلا بها.

وكما أنه أمر بالاستعداد بالقوة المادية فقد أمر بالاستعداد بالقوة المعنوية، حيث أمر الناس وحثّهم على الاجتماع والألفة بين المسلمين والاتفاق على جميع مصالحهم الكلية، كما أمر بذلك في المصالح الجزئية في كل ما يأتون وما يَذَرُون في أحوالهم الداخلية وأحوالهم الخارجية، وأمرهم بالإيمان الكامل والتوكّل القوي على الله، وتمرين النفوس على القوة والشجاعة والتدرب في كل أمر نافع في الدين والدنيا؛ فالدين يحثّهم على القيام بجميع الأسباب النافعة التي تصل إليها قواهم واستطاعتهم، وعلى التوكل على مُسبِّب الأسباب وخالقها ومدبِّرها، ويبين لهم أن الأمرين متلازمان لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فالأسباب وإن عظمت وقويت فإنها محكومة بقضاء الله وقدره، ولا يتم للقائم بها أمره من كل وجه إلاّ بتوكله واعتماده على الله تعالى، مسبِّبها ومصرِّفها، والقابض على ناصيتها وأزمتها.

ويخبركم الدين مع ذلك أن التوكل وحده بدون فعل الأسباب وبدون القيام بالمقدور من الشؤون الدينية والدنيوية ليس بتوكُّل حقيقي بل هو ضعف وعجز، فكلما قوى تَوكُّلُ المسلمين على ربهم قويت أعمالهم النافعة وقويت هممهم، وانبعثت عزائمهم إلى جميع مصالحهم، والربُّ تعالى لقيامهم بالأمرين وتحقيقهم للتوكل عليه واجتهادهم في فعل الأسباب يُعِينُهم، وييسر لهم أمورهم، ويحقق لهم رجاءهم، وينزِّل عليهم من نصره ومعونته وتأييده بحسب قيامهم بالأمرين.

والنصوص من الكتاب والسنة تحثُّ على الأمر بالتوكل على الله في كل الأمور، والأوامِر بالأخذ بجميع الأسباب النافعة لا تنحصر، بل الدين كلُّه قيامٌ بالأسباب وتوكل على مسببها ومصرفها. وهذا الذي نُبِّهنا عليه من الدين الإسلامي هو من الكمال الذي لا يقاربه كمال، ويسقط به ويضمحل قول هذا الكاتب الذي يقول: إن الإيمان بقضاء الله وقدره والتوكُّلَ على الله يوهن المسلمين ويضعفهم، وأنه يجب عليهم ترك ذلك، وأن التوكل على الله هو العلم

بنظام الطبيعة، وكذلك الإيمان بالقضاء والقدر كما صرح بذلك في صفحات (١٧) و(٢٩) و(٢٦٨) و(٣١٥) من كتابه. ويتضح بذلك أن المسلمين حقيقةً، المتبعين لإرشادات دينهم وتعاليمه، هم المتوكلون على الله حقيقةً، وأنهم أقوى الخلق على فعل الأسباب امتثالاً لأمر ربهم وطلباً لمصالحهم واستمداداً من قوته وارتقاباً لثوابه، وأن الدين الإسلامي يبطل الطريقين الذميمين: طريق العجز والضعف، الذي يتعلل صاحبه أنه متوكل على الله وإنما هو مهين، ساقط الهمة، معتذر بما لا يعذر به، وطريق الملحدين المعطِّلين، الذين يعتمدون على الأسباب، ويرونها مستقلة منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله لا يتصرف في الأسباب عندهم بإيجاد ولا تقوية ولا إضعاف ولا بمنعها ولا له قدرة على معارضتها، كما قرره صاحب هذا الكتاب في ثنايا كتابه خصوصاً في الفصل الأخير المعنون بمشكلة لم تحل.

وهذا هو التعطيل المحض والنفي لربوبية الله ولأفعاله، وهو في الحقيقة مذهب الدهريين الطبائعيين الجاحدين لله بالكلية، وقد سلك أيضاً مسلك الدهريين في هذا الذين يقولون ما هي إلَّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، المنكرين للثواب والعقاب، حيث أنكر أن الإيمان والتقوى والعمل الصالح سبب للثواب العاجل والآجل، وأن الكفر والفسوق والعصيان أسباب للعقوبات العاجلة والآجلة، وتهكم بذلك وبالقائلين به المعتقدين له، كما صرح به وردَّده في الصفحات (٣٥) و(١٦٥) و(١٧٨) و(٣١٥) و(٣١٩) و(٣٢٥) والسبب الوحيد عنده في المصائب الدنيوية وضدها إنما هي الأسباب المادية فقط، وعمل الطبيعة.

ثم لم يزل يقرر هذا الأصل الخبيث حتى زعم أن الإيمان بالله وباليوم الآخر يمنع الرقي، ويمنع كون العبد سبباً محضاً منتفعاً بأعماله، وأنه غِلٌّ ورباط يمنع من الخير والصلاح، وأن الأديان السماوية أكبر المصائب على البشر. وقولٌ وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل والجحود لرب العالمين والخروج من الديانات السماوية كلها.

وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها وأجلاها براهينَ وأدلةً، وهي إثبات أنه هو الفعال لما يريد، الخالق لكل شيء، .الذي يدبر الأمور كلها ويكرم الطائعين ويعاقب العاصين فلا ينكر ذلك إلا مكابر مباهت منحل من العقل الحقيقي بعد انحلاله من الدين.

والمقصود أن صاحب الدين الصحيح هو أقوى الناس توكُّلا على الله تعالى وعملاً بالأسباب النافعة، لأنه يعلم أن دينه يحثُّه على ذلك، وقد استصحب التوكل على الله والثقة به، وأن الله لا بد أن يتم أمره، وخصوصاً الأسباب الدينية والأسباب المعينة على الدين فإنها من الدين في الحقيقة؛ لأن الدين هو جميع ما دل عليه الكتاب والسنة مطابقة والتزاماً وتضمناً، فهذا الدين لم يدع خيراً إلاّ دعا إليه، ولا منفعة إلا حثَّ عليها، ولا طريقاً يوصل إلى إصلاح الأحوال الدينية والدنيوية النافعة إلا رغَّب فيه، ولا مفسدة وشرًّا وضرراً إلاّ حذَّر منه، وأمر بأخذ الوسائل الواقية والدافعة له، فيا ويح هذا الكاتب القصيمي الذي زعم هذا الزعم الباطل أنه مانع من التقدم والرقي ومجاراة الأمم الراقية في الحياة. وهل رقت هذه الأمم وسبقت غيرها في الاختراعات والفنون الصناعية المدهشة إلا بعد ما أدخلت عليها تعليمات هذا الدين(١) واقتبسوا أصل هذه الصناعات من المسلمين بعد الحروب الصليبية وغيرها؟ ألم يكونوا في غابر الزمان والقرون التي يسمونها القرون المظلمة في غاية الجهل والوحشية والهمجية في معرفة هذه الفنون والصناعات؟ ألم يكن المسلمون وقت

---

(١) يريد الشيخ حرية الفكر وعدم التقليد، والخروج على سلطة الظلم الكنسية والزمنية وحرية البحث، إلى ما استفادوه من المسلمين أيام الحروب الصليبية وبعدها، وكذلك في أيام الأندلس الزاهرة.

قال فلامريون الفلكي الأمريكي: قد استولت الكنيسة ستة قرون فلم تنجب فلكياً واحداً، وقد أنجب الإسلام في قرنين الكثير من علماء الفلك والطب والطبيعة والكيمياء. نقله الأستاذ الإمام في رسالته: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية».

قيامهم الحقيقي بهذا الدين هم سادات الخلق الذين قهروا ــ بفضل دينهم وأخلاقه وتعاليمه العالية ــ جميع الأمم، وحطّموها وأفنوا صروح أكبر دول الأرض يومئذ؟ ألم تكن مدنية الدين الإسلامي هي المدنية الزاهرة الحقيقية حيث كان روحها الدين والعدل والرحمة والحكمة، وقد شملت بظلها الظليل وإحسانها المتدفق الموافق والمخالف والعدو والصديق؟ فهل أخرهم دينهم ومنعهم الرقي الحقيقي؟ وهل نفع الآخرين كفرهم بالله وبربوبيته وإلهيته في تلك القرون الطويلة، إذ كانوا هم الأذلين المخذولين في مواقف الحياة كما زعم هذا الكاتب الذي يهرج على من لا يعرف الحقائق.

ثم لما ترك المسلمون الاستمساك بتعاليم دينهم وتفرقوا شيعاً، وارتقى الأجانب في علوم المادة وفنون الصناعات والاختراعات ووصلوا إلى أمر لم يسبق له مثيل فهل أغنت عنهم هذه المدنية وهذا الرقي؟ وهل وَقَتْهُمُ الشرورَ إذ كانت مدنيتهم مبنية على الظلم والجشع والطمع المفرط وطلب استعباد الخلق ولم يكن معها من روح الدين ورحمته شيء؟ فهل ردت عنهم هذه الملاحم والمجازر البشرية والإهلاك والتدمير الذي لم يسبق له نظير ولا مقارب في تاريخ الخليقة؟ وهذا من أكبر البراهين على أن الرقي في هذه الحياة، إذا خلا عن الدين الحق، صار ضرره أكبر من نفعه وشره أكثر من خيره إذا كان فيه خير كما زعمه هذا الكاتب. فلو كانت هذه الأمم الراقية في الفنون العصرية معهم دين صحيح وبنوا حضارتهم على الرحمة والعدل والحق والتسوية بين الخلق وبين الأمم القوية والأمم الضعيفة في الحقوق فما ظنك أن تصل بهم هذه الحضارة وما ظنك بما ينكف بها من الشرور العظيمة التي جرت وهي جارية وستجري ما داموا على حالهم.

أما تأخر المسلمين الآن في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات وأشباهها فليس هذا التأخر منسوباً إلى دينهم، فليس في دين الإسلام أصل من الأصول أو فرع من الفروع يوجب على أهله التأخر بوجه من الوجوه، وإنما الأمر بالعكس ــ كما تقدم التنبيه عليه ــ بأن الدين الإسلامي قد جمع بين المصالح

الدينية والدنيوية، وحثّ على جميع المنافع وعلى الأعمال النافعة والعلوم النافعة عكس ما رماه به هذا الكاتب من الجمود والتأخر ومنافاة الحضارة والتقدم وخدمة الحياة بزعمه، وإنما السبب الوحيد الذي أخرهم في هذه الفنون هو ترك الاستمساك بروح الدين ومقوماته، وترك الأخذ بما يحث عليه من الاجتماع والائتلاف واتفاق الكلمة، والتشاور في الأمور كلها، وترك الأغراض الشخصية للمصالح الكلية، وبتركهم الجهاد القولي والبدني والمالي وهو مقاومة الأعداء بكل وسيلة تناسب الزمان والمكان بحسب الاستطاعة.

فالدين يحث على الأخذ التام بهذه الأمور التي لا قوام للأمم بدونها وهم كسلوا وغفلوا عنها علماً وعملاً، وأهملوا مصالحهم ومالوا إلى الترف والدعة والرضوخ والاستعباد للأجانب، فلما رآهم الأجانب بهذه الحالة المؤلمة لعبت بهم سياساتهم وفكّكتهم وفرقتهم زيادة على ما اتصفوا به من التنافر والاختلاف، وعلى ما زهدوا فيه من الجهاد ومقاومة الأعداء، واستعبدوهم بكل حيلة، وحللوا معنويتهم وروحهم الدينية، وصاروا يضربون بعضهم ببعض، ويقيمون لهم من جنسهم ومن بني قومهم ممن يتسمى بالإسلام من يقيم الدعايات الباطلة في تزويدهم من هذه الحال الحرجة وممن يفت في أعضادهم ويخدر أعصابهم ويسعى بكل مقدوره في تأييسهم من التقدم وفي إماتة هممهم كما ترى هذا الكاتب الذي توسل باسم الدين والغيرة على المسلمين، وسعى في نبذ الدين ومحاربته بهذه الطريقة التي أربت على طرق المنافقين. وزعم من بهرجته التي لا تروج على أحد أن المسلمين على اختلاف طبقاتهم من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأصناف المحدِّثين والمفسِّرين والفقهاء والأصوليين وسائر طبقات الأمة كلهم، زعم أنهم لم يفهموا الدين وأنه مستحيل أن يسعوا في مصالحهم، وغير ممكن لهم ذلك إلا بنبذه، وأنه قيود تمنع التقدم كما صرح بذلك في صفحات (١٧) و(٣٦) و(٥٨) و(٦٧) و(٧٧) و(٩٧) و(١٤٠) و(٣١٥) من كتابه، وهذه دسيسة خبيثة، فإن كل أحد عنده أدنى تمييز يعلم حق العلم أن هذه المباحث التي اشتمل عليها كتابه منافية للدين بالكلية ومناقضة له من كل وجه، ولكنه

جاء بهذه الوسيلة ليقول المفترون: ليس دين الإسلام ما فهمه المسلمون والأئمة والعلماء على اختلاف طبقاتهم وإنما هو شيء آخر مجهول عندهم، وقد علمه هذا الكاتب وهو ما أراده وسعى إليه من معانقة دين الملحدين ورفض دين المسلمين وسائر المرسلين.

ثم إن هذا الكاتب لم يَكْفِهِ أن يقدح في هؤلاء المتأخرين من المسلمين بل وصلت به الحال إلى أن قدح في خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأئمة الدين والهدى حيث زعم أنهم لم يفهموا من دينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وأن معارفهم وعلومهم النافعة كلها بالنسبة إلى معارف المستأخرين من الملحدين كنسبة معارف الأطفال إلى العقلاء الراشدين أو أقل من ذلك؛ وحث غاية الحث على رفض مقالات هذه القرون المفضلة، وأنه يجب تعليم الناس الكفر بهؤلاء الأئمة وبمعارفهم وفضائلهم وما قالوه وعملوه أو ورثوه، وتهكم بمن يدعو إلى الأخذ بما أخذ به الأولون وملأ كتابه من هذه المواضيع الخبيثة والوقاحة والجراءة التي لم يرتكبها غيره كما صرح به في صفحات (١٤) و(١٦) و(٢٩) و(٦١) و(٦٤) و(٦٦) و(٦٧) و(٦٩) و(٧٠) و(٨٥) و(١٢٠) و(١٤٠) و(١٧٠) و(٢٩٣) و(٢٩٦) و(٢٩٨) و(٣٠٢) و(٣٠٣) و(٣٠٨) و(٣١١) و(٣١٥) فيا ويحه ما أخسر صفقته وأقل حياءه.

وهل يشك أحد أو يرتاب مسلم أو منصف ــ ولو كان من غير المسلمين ــ أنه لم يوجد ولن يوجد أحد أكمل علماً وفضلاً وأخلاقاً وعدلاً ورشداً وعقلاً وكمالاً في كل الخصال العالية من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنه ما وصل لأحد غيرهم خير وفضل وعلم إلا على أيديهم؟

وقد كذّب في كتابه هذا ما كتبه عنهم في كتبه السابقة، وقد شهدت الأمم الأجنبية بكمال فضلهم وشمول رحمتهم وعدلهم. قال جوستاف لوبون فيلسوف فرنسا الشهير: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحمَ من العرب. وكانوا إذا فتحوا البلدان وجرت عليها أحكامهم العادلة وشفقتهم على بني الإنسان امتلأت

قلوب الأجانب من محبتهم، وتمنّوا دوام ملكهم وسلطانهم واختاروهم على قومهم وأهل دينهم، مع أن النفوس مجبولة على التعصب لما ألفت من الأديان والأوطان والأنساب والمذاهب. فلولا أنهم رأوا من رحمتهم وعدلهم ما لم يشاهدوا له نظيراً لم يخضعوا كل هذا الخضوع ويعطوا ما بأيديهم مُذعنين راغبين غير مقهورين على إرادتهم، فإنهم يجدون الفرص الكثيرة لحدوث الثورات، ولكن الرحمة والعدل من المسلمين أوجبا لهم السكون والطمأنينة لظل هذا الدين القويم.

وهذا الكاتب يعلم حق العلم أنّه كَذَّب نفسَه بنفسه، وأنه ناقض في كتابه هذا ما كتبه في كتبه السابقة، ولهذا جعل يندب نفسه ويندم ويتحسر وينوح على زمانه الماضي وكيف قضاه في عبادة الله ومتعلقاتها، لأنه لا يجهل أن الناس يعرفون منه هذه الحالة، ولهذا كان الكلام معه في هذا الكتاب لا يشبه الكلام مع المبتدعين من المسلمين الذين يعظمون الدين ويؤمنون بالله ورسله، وإنما يتكلم معه كما يتكلم مع الأجانب عن الدين والكافرين به، ويناظر كما يناظرون لأنه في كتابه هذا كشف الغطاء وصرح بالعظائم الكبرى المنافية لدين الإسلام بالكلية.

ثم إن هذا الكاتب يزعم أن تلك القرون المفضَّلة ـ التي لم يشاهد الناس لها مثيلاً في الجلال والجمال والكمال ـ لم تبلغ رشدها بل هم في طور الطفولة، وعنده أن الرشد والكمال المفضل منحصر في الماديين من الملحدين، كما صرّح به في تلك الصحائف آنفة الذكر. والسبب الذي أداه إلى هذه المقالات الجائرة المنحرفة أن الفضل منحصر عنده في شيء واحد: وهو عبادة الطبيعة ووجوب إعطائها القلب والقالب والظاهر والباطن، والانصراف بالكلية إلى هذه الحياة فقط والتمتع بزهرتها والانحلال عن القيود الدينية، وإباحة جميع ما تشتهيه النفوس وإطلاق العنان لها. كما أطال في هذا الموضوع وردد فيه الكلام الساقط ثم في مقابلة ذلك التحامل على كل ما يعارض هذا الطريق والتهكم بالدين وحملته، فإذا كان هذا هو الكمال عند هذا المنحرف لم يستغرب بعد هذا قدحه

في خير العالمين وسخريته من علومهم وأخلاقهم وأعمالهم وما هم عليه في جميع الأحوال فصار منطبقاً عليه وعلى أمثاله غاية الانطباق قوله تعالى:

﴿فلمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبيِّناتِ فرِحُوا بما عِندَهُم مِن العِلمِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَستَهزئُون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

ولهذا ارتكب العظائم في تحليله لحياة النبي ﷺ وشخصيته الكريمة بكلام طويل مردَّد، كقوله: كان يعبد الطبيعة، وأنها قد أخذت بقلبه وقالبه ولبّه، وأنه كان يناجي الليل والنهار والضياءَ والظلمةَ، والنسيم ونحوها مما يشاهد، وأنه افتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلوة بها في غار حراء، وختم رسالته وحياته بشدة النزوع إليها وقت السياق حيث كان يقول في الرفيق الأعلى. وهذا بعينه قد أخذه من دعاة النصارى المفترين الذين لما بهرهم ما جاءهم به محمد ﷺ من الدين الحق والتعاليم العالية والرقي الكامل والفتوح الباهرة والآثار التي لم يحصل عشر معشارها لأحد من الخلق طفقوا يموِّهون على الناس ويحللون حياته ﷺ تحليل أحد رجال الطبيعة يَعنِي الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وعالم الغيب من الأرواح والجن بَلْهَ الدارَ الآخرة وما وراء المحسوسات والملموسات فأخذ عنهم هذا المأخذ الخبيث وأنكر الوحي والرسالة بهذا التحليل.

ورمى النبي ﷺ بأنه طبيعي، لا يعرف الله، ولا يعرف الوحي، فلم ينزل عليه جبريل من عند الله ولا كان يناجي الله ولا يعبده، ولا كان عند السياق إلا مشتاقاً إلى الطبيعة فقط، لأنه لا يعرف الله ولا يريده ولا يحبه ولا يطلبه عند هذا الكاتب الذي تجرأ على ما لم يتجرأ عليه من يتسمى بالإسلام من الملحدين. ولا تستغرب هذا عليه فإنه سيأتي أنه صرح تصريحاً لا تردُّد فيه بالكفر بالأنبياء والرسل كلهم، وصرَّح أنهم لم ينفعوا الخلق بوجه من الوجوه، فمن كانت هذه وقاحته وتصريحاته فلا يستبعد عليه شيء. وظهر بهذا غرضه الوحيد وهو الدعاية البليغة إلى نبذ الدين وأصوله ومحاربته بكل طريق.

ومن فضل الله أن طريقته في كتابه قد عرفها الناس، وعرفوا ما ترمي إليه

من الغايات، وعرفوا الأيدي المحرِّكةَ لها، ويأخذهم العجب الكبير كيف صار هذا الرجل ـ بعد سوابقه ـ فريسةً لأعداء الدين، وآلةً لهم صماءَ في طريق مآربهم ومقاصدهم، فنسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين وأن لا يزيغ قلوبنا بعد الهداية.

والمقصود أن هذا الكاتب جعل الفضل كله في جانب الأجانب الكفار، ولم يدر ـ أو درى وتجاهل وهو الأحرى بمثل هذا الرجل ـ أن الفضل الحقيقي هو السعي في طرق الكمال والتخلق بكل خلق جميل والتنزه عن كل خلق رذيل، وهو الفضل الذي يُرَقِّي القلوب والأرواح ويوصل أهله إلى أعلى الغايات وأشرف السعادات الذي أصله وأساسه العقائد القلبية المؤسسة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَرِ خيرِه وشرِّه والأعمال القلبية التي مدارها على الإنابة إلى الله، وانجذاب دواعي القلب كلها إلى الله رغبةً ورهبةً، ومحبةً وخوفاً ورجاء وقصداً وطلباً وتعبداً وتألهاً وإخلاصاً صادقاً لله وحده لا شريك له. ثم القيام بالشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام والجهاد في سبيل الله، وما يتبع ذلك من القيام بحقوق الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وتوفية الحقوق كلها بالعدل والإنصاف، وعدم الظلم والجور على القريب والبعيد والعدو والصديق، وبذل الجهد بالقيام بكل ما يعين المسلمين على أمر دينهم والاستعداد الكامل لمقاومة الأعداء والسعي في جمع كلمة المسلمين ومحبة الخير لهم وتحصيله بكل مقدور، فإذا كان هذا هو الفضل الحقيقي، وهو كذلك، فقد علم كل من له أدنى تمييز أن للصحابة والتابعين لهم بإحسان من هذا أوفرَ الحظ والنصيب، وأن الصحابة، رضي الله عنهم، فوق جميع طبقات الأمة في كل فضل وعلم وعمل، كما أن الأمة أكمل الأمم في كل فضل وخير، وأكمل الأمم المنتسبة إلى الأديان فكيف بالأمم المنحلة المعطلين لرب العالمين الذين انحلوا من عبادة الرحمن فعبدوا الطبيعة فتبًا لمن آثرها بظاهره وباطنه على الله بئس للظالمين بدلا.

وزعم هذا الكاتب أن التقيد بالإيمان بالله وبما أخبر الله به على ألسنة

رسله قيدٌ وغلٌّ يحول بين الإنسان وبين المطالب العالية النافعة، ويقيِّده عن عبادة الطبيعة التي هي الغاية عند أمثال هؤلاء، فيحقُّ لمن كان هذا منتهى مراده وطلبه أن يكون أول من يدخل في قوله تعالى:

**﴿إنَّ الذين لا يَرْجُون لِقاءَنا ورَضُوا بالحياةِ الدُّنْيا واطمأَنُّوا بِهَا والذِّينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلون * أُولـٰئِكَ مأْواهُمُ النَّارُ بما كانوا يكسِبون﴾**

[سورة يونس: الآيتان ٧، ٨]

وفي قوله تعالى:

**﴿مَنْ كانَ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها نُوَفِّ إلَيْهم أعمالَهم فيها﴾**

[سورة هود: الآية ١٥]

إلى آخر الآيات، ثم إن هؤلاء المنحرفين الملحدين الذين انخدع هذا الكاتب بدعاياتهم الخبيثة يدعون إلى نبذ كل قديم واعتناق كل جديد، وقد أبدى هذا الكاتب في هذا وأعاد، وكَرَّرَ ذلك مريداً بهدم القديم هدمَ أصولِ الدِّين وقواعدِه، كما تجده في صفحات (١٦) و(٣٧) و(٦٤) و(٦٩) و(٧٠) و(٩٦) و(١٦٠) و(٣٠٢) و(٣١١) من كتابه وغيرها من الصفحات. وهذه الدعاية الخبيثة مقصودها الأعظم وأساسها الذي بنيت عليه رفض الشرائع والأديان، والانحلال من قيود الدين وحله وتحريمه، وجميع أحكامه، والانخراط في سلك المعطِّلين لرب العالمين المنحلِّين من جميع شرائع الدين؛ وأول ما يدخلون في هذا الأصل الباطل رفضُ ما جاء به الرسول ﷺ من أصولٍ وأخلاقٍ وأعمالٍ وغيرِها؛ وتوصَّلوا بهذا إلى الطعن في خير القرون وإهدار أقوالهم وعقائدهم وعلومهم، بل وجميع محاسنهم والحمل على حَمَلة الشريعة وأئمة الهدى ومصابيح الدجى كما أشرنا إلى الصفحات الموجود فيها ذلك.

ثم إن هذا الكاتب يهرج على من لم يعرف الحقائق بالاستدلال بأحوال المنحرفين من الصوفية والخرافيين ومن تسمَّى بالدين وهو منه بريء، وأورد من خرافاتهم وخزعبلاتهم ما يَظُنُّ أنه يروِّج به باطله حيث نسبه إلى حملة الدين وهو يعلم حق العلم أن الدين وأهله الذين هم أهله هم أبعد الناس عن هذه

الخرافات وأعظم المنكرين لها، وأنهم يبرءون منها وينزهون الدين الإسلامي عنها، فكيف لا يستحي أن يستدل بأحوال ابن عربي وخرافات الشعراني وشطحات المتصوفة على الدين وأهله ويتوسل بذلك إلى القدح في الدين وحملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الإسلام بريء من هذه الأمور والشطحات والخرافات؟

وكيف لا يستحي من هذه البهرجة والتناقض؟ أيظن الناس كالبهائم العجم التي لا تفهم شيئاً، أم سُحِر عقله فصار يهذي بالباطل وبما يغلي به صدره من الغل والإلحاد؟ ألم يعلم أن الدين وأهله الذين هم أهله الذين عرفوا الحقائق وميّزوا بين الحق والباطل والمحقِّين والمبطِلِين ينفون عنه انتساب كل مبطل كما ينفون عن حقائقه كل باطل؟ وأن المبطل لا يروج أمره عليهم بمجرد انتسابه إلى الدين، فكم انتسب إلى الدين من الزنادقة والمشركين والمنافقين من هو شر من اليهود والنصارى، فمن احتج بأحوال من انتسب إلى الدين وأهله فهو من المزورين المبهرجين وكذلك من احتج بالآثار والحكايات الباطلة على الدين فهو مفتر كذاب، كما فعل هذا الكاتب وملأ كتابه من الخرافات والحكايات الكاذبة ونسبها لأهل الدين ليتوصل بذلك إلى القدح فيه وفي أهله، والدين كما يعلم كل من له بصيرة أنه نقي خالص حق في أصوله وفي فروعه وفي أخلاقه وآدابه، وتعاليمه جميعها في غاية العلو والسمو والمكانة العالية التي لو اجتمع جميع العقلاء أن يقترحوا أحسن منها أو ما يقاربها لعجزت أفكارهم وقدرتهم عن ذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويعرف هذا بتتبع أصوله وفروعه

﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]
أي يهدي لأصلحِ الأمور، من العقائد والأخلاق والآداب والأعمال للأسباب وغيرها، فليأتِ هذا الكاتبُ أو غيرُه بمثله إن كانوا صادقين، فإن الدين الإسلامي قد فصَّل الحقائق، وبيَّن المناهج الصحيحة والطرائق، وميَّز بين الحق

والباطل، وبيَّن أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وبيَّن الخير والشر، وبيَّن العلوم النافعة التي تنفـع الخلق في دينهم ودنياهم من العلوم الضارة التي هي بضـد ذلك، وهذا الرجل يدَّعي أن العلوم كلها نافعة وليس فيها شيء ضار بوجه من الوجوه، والله يقول:

﴿ويتعلَّمون ما يَضُرُّهُم وَلاَ يَنْفَعُهُم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٢]

فالدينُ هو الميزانُ الذي توزن به الأقوال والأفعال، ويعرف به الطيّب من الخبيث والنافـع من الضار، فمن رفض من هؤلاء الملاحدة القديمَ، وعنى به هذا الدينَ الحقَّ، فإنه في حقيقة الأمر قد رفض جميـع الحقائق الثابتة ورفض العلوم والأعمال النافعة. فمن أين لهذا النشء الحديث علوم نافعة وأعمال نافعة إلا من معين هذا الدين؟ من أين لهم أن يعرفوا رب العالمين بأسمائه وصفاته الذي هو أجل المعارف وأكبرها وأصلها؟ ومن أين لهم أن يوحِّدوه ويؤمنوا به وبما جاءت به الرسل إلاَّ من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يقوموا بحقوقه وحقوق خلقه العادلة الفاضلة؟ ومن أين تأتيهم إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يهتدوا للأخلاق الجميلة ويتنزهوا عن الأخلاق الرذيلة إلاَّ من هذا الدين؟

ومن أين لهم أن يعرفوا الصِّراط المستقيم المحتوي على الحق علماً وعملاً إلاَّ من هذا الدين القويم؟ ومن أين لهم معرفة الشرائـع والأحكام والحلال والحرام والعقود والعهود والشروط والحدود والمواريث وتوابعها إلاّ من هذا الدين؟ ومن أين لهم الطريق الذي أدركوا به تعلم الصناعات وأنواع الفنون والمخترعات النافعة إلا بعد أن نشر هذا الدين ظله على الخلق فأشرقت على الأرض أنواره فاقتبس من هذا النور كل أهل علم نافـع في الدين والدنيا كل أحد بحسب مشربه، فإن هذا الدين هـو الذي أسس أصـول الصناعـات وقواعدها النافعة، وأمر بها حيث يكون فيها مصلحة للدين ومنافـع للناس كافة كما تقدمت الآية الكريمة:

﴿وأَعِدُّوا لَهُم ما ٱستَطَعْتُم مِن قُوة...﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقوله: ﴿خُذُوا حِذْرَكم﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

وقوله: ﴿وأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنّاس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

وامتن على الإنسان بأن عَلَّمه ما لم يَعْلَم من جميع العلوم والفنون النافعة، فهذه علوم الشريعة على وجه التنبيه والاختصار، كما ترى، هل بقي علم نافع إلا دخل فيها، وهل بقيت معارف يحتاج الخلق إليها في أمور دينهم ودنياهم إلا احتوى عليها، وهل ندّ عنها وسيلةٌ وسببٌ وطريقٌ من الطرق النافعة إلا واشتمل عليها؟ فإذا رفض هؤلاء الملحدون القديم وعنوا به «دين الإسلام» فقد رفضوا جميع الأمور النافعة... فأي شيء يبقى بأيديهم يؤسسون عليه علومهم وأعمالهم؟ فهؤلاء الذين يذمون «القديم» ـ ومؤلف كتاب «الأغلال» حامل رايتهم ـ مرادُهم بذلك التوسُّل إلى رفض الدين الإسلامي، بل صرَّحوا بمرادهم، ومع ذلك فهم كَذَبةٌ يتناقضون في هذا الإطلاق، فإنهم يذهبون إلى تقليد أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهِم من ملاحدة الأوَّلين والآخرين: فهؤلاء، وإن كان لهم مهارة في علوم المادة المحضة، فإن كلامهم في الدين وأصوله أضعف بكثير من كلام أدنى طلبة العلم الديني، كما هو معروف من أحوالهم.

ومن أراد الوقوف على جهل هؤلاء الذين عظمهم هذا الكاتب فلينظر إلى المناظرات بين أقوالهم وأقوال أئمة الإسلام، ولينظر إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، خصوصاً «العقل والنقل» الذي وضّح به بالبراهين العقلية، فضلاً عن النقلية، جهلَهم البليغ ومعارفَهم الضئيلة في أصول الدين وضلالهم العظيم فيها. وإنما الذي رفع شأنهم عند أتباعهم معرفتهم في علوم الطبيعة الذي يشترك فيه البَرُّ والفاجر، فهؤلاء وأمثالهم يقدمهم هذا الكاتب على ما جاءت به الرُّسل، ويقدمهم بلا خوف ولا خجل على ما جاء به محمد ﷺ وما ذهب إليه

الصحابة والتابعون وأئمة الدين والهدى. وحسبُك بقولٍ هذا منتهاه وهذا حاصله بطلاناً وفساداً وجهلاً وضلالاً، بل مكابرةً وعناداً.

وهذا الكاتب سلك في نصر هذا المذهب الخبيث مسلك الأجانب، أي الأجانب عن الدين يريد أعداءه ورافضيه الذي ليس الغرض منه إلّا إضلال الخلق وهو كما ترى منافٍ للعقل والدين، أما الدين فلا يمتري فيه أحد كما نبهنا عليه، وأما العقل فإن العقل والدين متآزران لا يرد الدين بما ينافي العقل الصحيح، ولا يمكن أن يرد شيء معقول مقطوع به يخالف الدين بوجه من الوجوه. وقد أخبرناك بأن الدين قد نبَّه على الأصول النافعة كلها، وأن نهاية ما فعله المتأخرون هو ترقية الصناعات وتفريع المخترعات والمهارة العظيمة في أمور الطبيعة التي كانت أصولها يتناقلها الخلف عن السلف.

ثم إن هذا الكاذب موّه على الناس، وزعم أن الذي أوصل هؤلاء المتفننين في العلوم العصرية والاختراعات نبذُهُم للدين، وكل أحد يعلم أن نبذَهم الدينَ لم يوصلهم إلى مصلحة دنيوية، فضلاً عن المصالح الدينية، وإنما الذي أوصلهم إلى الترقي في هذه الفنون جدُّهم البليغ واجتهادهم ومواصلتهم الليل مع النهار في تعلمها وإدراكها وتفريعها وترقيتها، وقد تقدم لك أن الدين الإسلامي يحثّ على تعلم كل نافع منها، ويأمر بكل علم يعين الأمة على مقاومة الأمم ويوصلها إلى مصالحها؛ فمن استدلّ بتفوق الأجانب في علوم المادة على صلاح دينهم وفساد دين غيرهم فهو من أجهل الخلق وأبعدهم عن المعارف بالكلية، أو مغرِّر مموِّه يقصد الترويج على من لم يعرف الحقائق كما هو دأب هذا الكاتب الذي يسعى فيه.

ومن تمويهاته الشنيعة التي يريد بها محاربة الدين وأهلِه أن يزعم أن المسلمين يحثُّون على الفقر والبأساء والضَّرّاء وأنواع المصائب، ويطلبونها ويسعون في تحصيلها بكل طريق، ويسخر منهم ومن ذِكْر الأدلة من الكتاب والسُّنَّة الدالّة على فضيلة الصبر على الفقر والأمراض وأنواع المصائب كما صرح بذلك في

صفحات (١٢٦) و(١٤٠) و(٣١٩) وكذلك جميع النصوص الدالّة على ذلك من الكتاب والسنة، وهذا من باب قلب الحقائق؛ فإن ذلك من أعظم محاسن الدين الإسلامي، حيث أرشد أهله إلى التربية العالية التي هي أنفع التربيات وأجلها وأكثرها آثاراً حميدة، فقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في فضل الصبر على المصائب والأمراض وأنواع المحن التي لا بد للخلق كلهم منها في هذه الدار، وذكر فضائل الصابرين وما لهم من عِندِ الله من الثواب، وذلك ليوطنوا أنفسهم على تقلّبات هذه الحياة الدنيا من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن بأساء وضرَّاء إلى خيرٍ وسرَّاء، ومن عافية إلى مرض؛ ويعلمهم كيف يتلقَّوْن هذه الأمور الملازمة للبشر في أطوار حياتهم، فهي من ضرورات الحياة والوجود:

أَمَرَهم أن يتلقَّوُا النِّعم والخيرات بالشكر والاعترافِ بنعمة المنعم وصرفِها في الأمور النافعة في أمر الدين والدنيا وعدم الطغيان والبطر فيها، وأن يتلقوا المكاره والمصائب بالصبر والاحتساب، والرِّضى بما مَنّ المولى والرجاء لثوابها العاجل والآجل، فهم يتقلَّبون في أحوالهم كلها مسروين مغتبطين: إن أصابتهم سراء شكروا وقاموا بحق المنعم وصرفوها فيما يعود عليهم بالنفع عاجلاً وآجلاً، وإن أصابتهم الضرّاء صبروا وتضرَّعوا؛ فهم أقوى الخلق وأجلدهم عند المصيبات والمكاره التي لا يسلم منها بَرٌّ ولا فاجر، بل كثير منهم يتلقَّونها بالرضى والطمأنينة والشجاعة التامة وعدم الكراهة، حيث تخور عزائم المنحرفين عن الدين عند المصائب، ويجري لهم من التسخُّطات والجزع والهلع والآلام القلبية والزلازل الروحية والفظائع والفجائع التي قد توصلهم إلى الانتحار، الذي يبرهن على ضعف النفوس وخَوَرها وأنه بلغ معها المكروه مبلغاً لا تصبر معه على الحياة.

فقارن بين هذه الحال الفظيعة وحالة المسلمين القائمين بوظائف دينهم تجد الفرق العظيم بين النفوس والهمم القوية مِنَ المهينة، ويشهد بذلك قوله تعالى:

**﴿إنّ الإنسانَ خُلِقَ هلوعاً * إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعاً * إلاَّ المصلين﴾** [سورة المعارج: الآيات ١٩ ــ ٢٢]

وقوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثم نَزَعْناها مِنهُ إِنَّهُ لَيَئوسٌ كفور * وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إنَّه لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إلاَّ الذِّين صَبَروا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ أُولئكَ لَهُمْ مَغفرةٌ وأجرٌ كبير *﴾

[سورة هود: الآيات ٩ ــ ١١]

وتعرف بذلك أن النصوص التي فيها فضائل الفقر والفقراء والأمراض والمصائب المتنوعة والحثُّ على الصبر والمرض، وبيانُ ما في ذلك من الثواب لقصدِ حثِّ النفوس على مقابلتها خير مقابلة، وأنّ ذلك من محاسن دين الإسلام، حيثُ يُمَوِّه هذا الكاتب أنَّ نقل أهل العلم وهداة الأمة هذه النصوص يدلُّ على سوء حال المسلمين، وأنهم بذلك يسعون ويطلبون هذه الأمور بجدِّهم، وهذا من التمويه الذي لم يصل إليه أحد من الأجانب، فأين دعواه أنه ينصر الدين وهو من أكبر المحاربين له؟ ولقد علم كلُّ أحد أن هذه النصوص قُصِد بها تربيةُ المسلمين على مجابهة هذه البلايا بصدور منشرحة ونفوس مطمئنة، وكلُّ عارف بدين الإسلام يعرف أنه يأمر بالأخذ بجميع أسباب الصِّحة: من تدبير الأغذية، والنوم، والنظافة الإيمانية، والحركة الرياضية، ونظافة الأبدان والثياب والفرش والمساكن وغيرها، حيث يَدَّعي هذا الكاتب عكس ذلك فليأتنا بمثالٍ واحد ونصٍّ واحد من الدين يدل على ما قاله من رميه الدين وأهله بالدَّنس والوسخ والأخلاق والآداب المزرية فيا ويحه ما أعظم جرأته!

وكذلك هذا الدين يحثُّ على التداوي إذا وقعت الآلام، ويخبرهم الشَّارِعُ أنَّه ما من داء إلاَّ وله شفاء ودواء، عَلِمَهُ مَنْ عَلمَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِله لئلا يخلدوا إلى الكسل عن مداواة بعض الآلام ويظنوا أنه لا دواء لها. فإنهم إذا علموا أن لها دواء جدُّوا في تعلمه وطلبه، وكذلك المسلمون يسعون في دفع مضرات الفقر والأمراض والبلايا ويسألون الله العافية منها فهم يدافعون أقدارَ الله المكروهةَ شرعاً وطبعاً بأقداره المأمور بها شرعاً وطبعاً، وليسوا كما رماهم به هذا الكاتب أنهم يسعون لتحصيلها؛ فهم أصبر الخلق على المصيبات وأعظمهم سعياً في

جميع الأسباب النافعات، وليسوا كمن صرف جميع هِمَّتِه في السلامة من الأمراض البدنية والفقر، ولا يبالي بدفع الأمراض الروحية التي هي أشد فتكاً وأعظم هلاكاً وأدوم شقاءً وهي أمراض القلوب، ولا في دفع الفقر الحقيقي وهو الإفلاس من الباقيات الصالحات كما يدعو إليه هذا الرجل ويحث عليه في كتابه ويحث على صرف الهمة كلها للوسائل ويزهد ويثبِّط عن المقاصد النافعة التي لا تنفع الوسائل بدونها.

فهل ينفع إصلاح الأبدان فقط مع فساد القلوب؟ وهل يفيد إصلاح الدنيا فقط مع تخريب الآخرة؟ فالآخرة والعمل لها ليس عند هذا الكاتب لها ذكر ولا خبر؛ وإذا انهار الأصل تداعت الأركان والفروع. فالمسلمون بالمعنى الحقيقي يقومون بعبودية الله التي خلقوا لأجلها، ويستعينون بما في هذه الدنيا على هذا المطلوب الأعظم؛ فهم أطيب الخلق نفوساً وأغناهم قلوباً وأشكرهم لله عند النعم والمحبوبات، وأصبرهم عند البلايا والمكروهات، فدين الإسلام من محاسنه أنه يدعو إلى هذه الحياة الطيبة، ويجمع بين الوسائل النافعة والمقاصد المطلوبة حيث تدعو الآراء المنحرفة التي يدعو إليها هذا الكاتب إلى اللذات الحاضرة الجزئية والشهوات والأغراض السفلية.

ومن تأمل كتاب هذا المنحرف رأى أنه يُبدي ويُعيد في صرف القلوب بالكلية إلى الشهوات واللذات، وإطلاق السراح للنفوس، وأنه لا ينبغي أن تتقيد بشيء يصدُّها عن تحصيل مآربها السفلية؛ ثم في مقابلة ذلك يهوِّن الجزاء الأُخروي وقد يستهزىء به ويجيء بأساليب استهزاء وسخرية محزنة كما ذكره في صفحات (١٧) و(٣٥) و(٣٧) و(٦٦) و(٧٨) و(٨٥) و(١٢٦) و(١٧٨) و(٣١٩) و(٣٢٥) فيا ويحه ماذا أبقى على دينه، بل ماذا أبقى على عقله، فإن الاستهزاء والسخرية بوعد الله ووعيده ـ كما أنه مخرج من الدين ـ فإنه مخرج من طور العقل، فهل في القضايا والحقائق أعظم وأكبر من وعد الله ووعيده؟ وهل في جميع المسائل الكلية والجزئية أجلى برهاناً وأوضح أدلةً من أدلَّةِ هذا الأصل العظيم الذي اجتمع على تحقيقه وتصديقه جميع الأنبياء والرسل والأدلة

السمعية والعقلية بل والأدلة الحسية المشاهدة؛ فمن أنكر ذلك واستهزأ به فقد نادى على عقله بالسَّفَه والخروج عن طور العقلاء بعد ما خرج من الدين، فكل من استهزأ بالإيمان وبوعد الله ووعيده فإنه داخل في قوله تعالى:

**﴿قُلْ أباللَّهِ وآياتهِ ورَسُولهِ كُنتمْ تَسْتَهزئُون * لا تَعْتذِرُوا قَدْ كَفرتُمْ بَعْدَ إيمانِكُم﴾** [سورة التوبة: الآيتان ٦٥، ٦٦]

ومن بحوث هذا الكاتب الخبيثة أنه أنحى على خيار الخلق، وحَمَل عليهم في قيامهم بخالص العبودية وروح الدين والإسلام، وهو الافتقار التام إلى الله وتفويض العبد أموره كلها إلى الله، ونقل كلام ابن القيم في حقيقة الفقر ــ ذلك الكلام النفيس القيِّم في تحقيق العبد افتقارَه إلى ربِّه وتعلق قلبه التام بربه، الذي جاءت به الكتب ودعت إليه الرسل وتنافس في نيله أرباب الصدق والإخلاص وأولو الألباب ــ فساقه مع غيره، نافياً له، متهكماً ساخراً بعباد الله المخلصين، هازئاً بالأخيار المفتقرين إلى الله خالقهم الغنيِّ الحميد... وهو في الحقيقة المسخور منه المبتلَى ببلوى يسألون الله منها العافية.

وهذه السخرية في الحقيقة والتكذيب موجَّه إلى روح الدين، فإن روح الدين هو التواضع والذُّلُّ التامّ لرب العالمين، ورؤية العبد افتقاره الحقيقي إلى ربه واضطراره إليه في جلب مصالحه ودفع مضاره، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً بوجه من الوجوه، وأن من تمام عبوديته إلى ربه أن يلجأ إليه ويضرع إليه في جميع شؤونه ويعلم أنه في غاية العجز والضعف عن القيام التام بفعل الأوامر واجتناب النواهي وعن القيام بجميع الوسائل النافعة وأنه وإن لم يُعِنْه ربه لم يتم له أمر. فالمسلمون يعلمون أن افتقارهم إلى ربهم لا ينافي قيامهم بالأسباب النافعة، كما أن القيام بالأسباب لا ينافي الافتقار إلى الله تعالى، بل كل واحد من الأمرين يُمدُّ الآخر؛ فكلما ازداد العبد افتقاراً إلى ربه والتجاءً إليه جاءه من معونة ربه وتيسير أموره ما لا يحصل له بدون ذلك؛ وكلما قام بالأسباب، مستعيناً بالله، أمده بإعانته وتوفيقه، فهذا الكاتب ظن أو جعل افتقار المسلمين إلى ربهم يوجب الضعف والكسل وموت الهمم وصوّره بهذه الصورة الشنيعة،

ثم طَفِق يحطّ على خيار المؤمنين ويرميهم بضعف الرأي والهمة والعقل ولم يعلم المسكين أنه ينادي على نفسه بسفاهة العقل وقلة الإدراك إذ كان هذا ظنه وإن كان الأمر غير ذلك فهو يبرهن على خداعه وبهرجته وتصويره حالة المسلمين بحالة شنعاء ليتوسل إلى القدح فيهم وفي دينهم عند من لا يعرف الحقائق.

ويح هذا الرجل! إذا أنكر روح الدين ومقوماته وأصوله العظيمة ــ التي لا تستقيم جميع الأمور إلا بها ــ فماذا يعترف به؟ وإذا ذمّ الافتقار إلى الله والرجاءَ له في كل الأحوال والاعترافَ بأنه هو الميسِّرُ للأمور المسهِّل للصعاب الذي ما بالعباد من نعمة وخير وتوفيق فليس إلاّ منه، ولا يأتي بالحسنات إلاّ هو ولا يدفع السيئات إلا هو، وهو الذي يجيب دعوات المضطرين ويرحم ضعف المفتقرين ويجبر قلوب المنكسرين لجلاله، الطامعين كل الطمع في فضله ونواله. . . إذا ذم هذا، فأي شيء يَحمَد ويمدَح؟ أيحمد النفسَ الضعيفة المهينة العاجزة عن مصالحها إلا بإعانة ربها؟ أو يثني على الطبيعة ويأمر بالافتقار إليها وصرف الهمم والقلوب إليها وهذا ما يدعو إليه. . فيا ويحه ما أخسر صفقته ويا ليت شعري ماذا يقول في أكمل الخلق في جميع الصفات الكاملة، وسيد المتوكلين وقدوة المفوضين وأعظم الخلق افتقاراً إلى ربه بكل معنى واعتبار حين يقول ﷺ:

(اللهم رحمتك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك، وأصلحْ لي شأني كلّه؛ اللّهم إن تَكِلْني إلى نفسي تكلْني إلى ضعف وعورة وعجز وخطيئة، وإني لا أثق إلاّ برحمتك فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة مَنْ سواك).

لا بد أن يقول إنّ هذه حالة ذميمة، صاحبها مهين ضعيف النفس كسلان، كما صرّح به حيث وجه الذّم إلى المسلمين المفتقرين إلى ربهم، وحسبك بقولٍ فساداً وبطلاناً وشناعة أن يبلغ هذا المبلغ.

ولقد تمّ كلامه في الافتقار إلى الله كلامُه في التوكل، حيث فسّر التوكُّلَ بتفسيرٍ طويل مردَّد يرجع حاصله إلى أن معناه العلم بنظام الكون، وأنه لا يتغير

ولا يمانعه ممانـع ولا يغير الله أسبابه بإيجاد أو تقوية أو زيادة أو نقص، فأبطل التوكُّل من أصله ونفاه من أُسِّه؛ والتوكُّلُ هو من أعظم أصول الدين وأعمال القلوب التي لا تتمُّ شروطُها إلاَّ بالإيمان التامِّ بالله تعالى، والإيمان بقضائه وقَدَره، وأنه تعالى هو المتصرف، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمور كلَّها بيده وتحت تدبيره، وأن نواصي العباد بيدِه تعالى، وأن أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وجميـعَ شؤونهم الجليلة والحقيرة منتظمة في قضائه وقَدَره، وأن أفعالهم، من طاعات ومعاصٍ، داخلةٌ في مشيئته وقَدَره، وأن الله جعل لهم الاختيار فيها ولم يجبرهم عليها، فإذا علم العبد ذلك حقَّ العلم اعتمد على ربه اعتماداً حقيقياً في جلب مصالحه وفي دفـع مضارِّه الدينية والدنيوية، ووثق بتحقيق مطلوبه وأنّ الله كافٍ مَنْ توكل عليه.

فهذا التوكل الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب واتفق عليه جميـع أهل الملل والأديان الصحيحة، وهذا قد أبطل ذلك كلَّه لأن من كان أصله نبذَ الإيمان والحثَّ على نفيه وزعمَه أنه لا تقوم الأسباب إلاّ برفض الإيمان.. ومن كان مذهبه أن التدبيرات في العالم العلوي والسفلي كلها من تدبيرات الطبيعة ونظامها وتفاعلها وتطورها، ومن كان مذهبه في الوحي ذلك التفسيرَ الذي نَبَّهْنَا عليه، ومن كان رأيه في الجزء الدنيوي والأخروي ما أشرنا إليه، ومن كان يدعو إلى رفض «القديم» الذي هو كتاب الله وسنة نبيه، ومن كان يأمر الناس بثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها تعاليمَ الدين وأخلاقَه كلها، ومن صرّح بالكفر بجميـع الأنبياء تصريحاً لا يُمترى فيه كما سيأتي إن شاء الله نص كلامه، ومن كانت هذه الأصول الخبيثة وغيرها أصولَه التي يبني عليها فلا تستغربْ عليه إنكارَه للتوكُّل على الله، وتكذيبَه جميـعَ نصوص الكتاب والسنة في معناه.

وكذلك من مباحث هذا الكتاب الضارة، التي بلغت في الفظاعة ووصلت في الخلاعة مبلغاً ما وصل إليه ولا تجرأ عليه أحد له أدنى عقل وبصيرة من الأولين والآخرين، ما يبديه ويعيده ويكرِّره أنّ الإنسانية لا تزال في تطورها وترقِّيها حتى تصل إلى الاتِّصاف بصفات الرب العظيم ــ إن كان يثبته بلفظه،

فالإنسان بزعمه يمكنه أن يكون بكل شيء عليماً، وعلى كل شيء قديراً، وأنه قد علم ما كان في أول الموجودات وما يكون من آخرها، وأنه علم مبدأ هذه الخليقة وخلَّف علومَ الرُّسُل خلف ظهره؛ وهو يحاول علم ما سيكون في هذا العالم بل علم مقدارِ ما بقي من عمر هذا العالم، وقد علم حالة العالم السفلي وهو يحاول وسيدرك علم العالم العلوي وصنع الصور والأجسام وهو يحاول أن ينفخ فيها الروح فهو لا يستبعد إيجاده للحيوان الصناعي والإنسان الصناعي غير مبال بتكذيبه لله ورسله.

لقد زعم أنه قد يتمكن أن يوجد الحيوانات، ويزعم أن التفريق بين الخالق والمخلوق أكبر الأغلاط، وأنه يجب أن لا يُفَرَّق بين الرب العظيم وبين الإنسان، وأنّ من فرق بينهما فلجهله وضلاله وغلطه كما صرح بذلك في هذه الصفحات من كتابه المذكور (٣٨) و(٥٨) و(٦٧) و(٧٠) و(٧٧) و(٧٨) و(٩٧)، فانظر كيف رمى بهذا الأمر الفظيع ـ وهو تضليله للمفرِّقين بين الله وبين خَلقِه ـ كلَّ رسول أرسله الله إلى الخلق، وفي مقدمتهم محمد ﷺ، فضلاً عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى.. فإن زبدة ما جاءت به الكتب السماوية والرسل العظام هو توحيد الباري واعتقاد انفراده بجميع معاني الكمال المطلق الذي لا تدركه العبارات ولا تتصوره الأفكار، وأن جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي لا يمكن ـ بل يستحيل ويمتنع ـ أن يساووا رب العالمين، وأن يماثلوه في صفةٍ من صفاته ولا نعتٍ من نعوته، وأن أظهر القضايا الدينية والعقلية والفطرية هو التفريق بين الخالق والمخلوق في كل النعوت؛ فالرب هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرزَّاق المدبِّر وما سواه مرزوق مدبَّر، وهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، والعليم بكل شيء والقدير على كل شيء والعزيز بكل معاني العزة، والحكيم الجامع لمعاني الحكمة والعظيم الذي له جميع صفات الكبرياء والعظمة.. إلى غير ذلك من نعوت جلاله وصفات كماله. والمخلوق حادث بعد العدم، له أول وآخر، وهو ضعيف العلم ضعيف القدرة والله تعالى هو الذي أعطاه ما أعطاه من علم وقدرة، فلا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم، فأعظم الخلق وهم الرسل والملائكة قد اعترفوا أنه لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، فَمَنْ سَوَّى بين الله وبين خلقه فلا يَعْدُو إما أن يكون أعظم الخلق جهلاً وضلالاً واغتراراً وإما أن يكون منكراً لرب العالمين، جاحداً له من كل وجه يريد أن يخادع ويماكر بإظهار الإيمان به.

فهذا الكاتب خادع ومخدوع بما رآه في تفوق الأمم المتقدمين في الصناعات والاختراعات والفنون العصرية، وأنهم لما مهروا في علوم المادة والطبيعة فلا بد أن يصلوا إلى العلوم التي لايعلمها إلا الله، ويقدِرُوا على ما ليس في وسع الخلق وطاقتهم القدرةُ عليه، إن جاز أن يظن هذا البطن؛ فليعلم ــ إن كان لم يعلم ــ أن الله تعالى خلق الإنسان في هيئة وخلقة قابلة للترقي في العلوم والأعمال التي هي في طوره وطاقته، وأمدّه بالعقل والفكر وإرشادات الرسل ومن سلك سبيلهم في هداية الخلق، وهيأ له الأسباب التي توصله إلى أعلى ما يمكن الوصول إليه من الأطوار البشرية وجعل له حدًّا ينتهي إليه ويتعذَّرُ عليه مجاوزته. . . جعله يترقى في أشرف العلوم، وهو علم التوحيد والعقائد، والأخلاق والأحكام، وفي علوم السياسة وتدبير الأمم وطبقات الناس، وسخَّر له هذا الكون: يستخرج آثاره، ويستمد بقواه على صنائعه ومخترعاته، فحصل للناس في هذه الأمور ارتقاء إلى حيث هُيِّىء لهم كلٌّ على حسب مشربه. أما الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين والأئمة المصلحين الهادين المهديين فشربوا من العلوم الدينية وتغذَّوا بالمعارف الربانية المصلحة للقلوب والأرواح المرقِّية لها إلى أعلى الدرجات وأكمل السعادات، وكمَّلوا ذلك بعلوم الأحكام ومعرفة الحلال والحرام، وعلوم المعاملات والحقوق المتنوعة بين الخلق المبْنية على كمال العدل والقسط والصلاح والإصلاح، ومعرفة الفنون السياسية، وجميع العلوم المعينة على الدين، المصلحة للأحوال الجالبة للمنافع الدافعة للمضار، حتى صاروا هادين مهتدين، بهم يَهتدي المهتدون وبإرشاداتهم يقتدي الصالحون، فلم يصل لأحد علم ولا معرفة ولا خير إلا على أيديهم؛ وبهدايتهم وعلومهم ومعارفهم توزن العلومُ والمعارف، وبأخلاقهم وأعمالهم يتبين الصالح من الفاسد، فبلغوا شأواً

وغاية لم يصل إلى قريبٍ منها أحدٌ من الأولين والآخرين، وصار الواحد من أتباع الرسل وأئمة الهدى لو قيس به جميع من يعظِّمُهُم هذا الكاتب ويخضع لمعارفهم وأحوالهم من أئمة الملاحدة لم يصل إلى عُشرِ معشار ما أوتيه من القوة العلمية، فضلاً عما يترتب على ذلك من أحوال القلوب والإنابة إلى الله تعالى.

وكل من له معرفة يشهد بذلك والكاتب اعترف به وشهد به حيث ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الصراع» ترجمة حافلة، وفَضَّله على جميع العلماء، وأنه بَزَّهم بسعة علمه وقوة إرشاده وسعة اطلاعه ومهارته العجيبة، لا فرق بين المسلمين منهم والمبْطِلين، ولكنه كذَّب نفسه وتناقض في هذا الكتاب. فيا ويحه المسكين أَنَّى يُؤفَكُ ويُصْرَف عن الحق.

وأما في هذا الوقت الأخير فقد جدّت الأمم الأفرنجية والأمريكية ومن تَبِعهم واجتهدت في الفنون العصرية وصرفت لها أوقاتها وراحاتها، وأقبلت عليها إقبالاً عظيماً فبلغت هذا المبلغ الذي لم يصل إليه أحد، وهي جادة في السير إلى تكميل فنونها، وستصل بحسب ما يرى إلى ما تصل إليه قواها ومداركها. وأما كون معارفهم لا منتهى لها وأعمالهم لا حدّ لها وأنّها ستزاحم رب العالمين، وستعلم كلَّ شيء وتقدر كل شيء فهذا أمر يعرف بطلانه ببداهة العقول. نعم، هي قد توصَّلت من علوم المادة الأرضية والحيوية وتسخير القوى السفلية إلى أمور لا يمكن إنكارها، أما كونها تتصل إلى عالم السموات والعالم العلوي وعلم ما كان وما سيكون، مما لا سبيل لها إليه بوجه من الوجوه، أو أنها ستتمكن من إيجاد الحيوانات ونفخ الروح فيها، فهذا ممتنع في العقول الصحيحة كما أنه ممتنع في الشريعة، فإن الله تفرد بغيوب لا يعلمها نبيٌّ مرسل ولا ملك مقرّب، فضلاً عن غيرهم، وتفرّد تعالى بأنه هو الذي يميت ويحيي، لا يشاركه في ذلك مشارك من أهل السماء وأهل الأرض، فهنا يقال على سبيل التحدي لأي مخلوق يكون:

قد صنع هؤلاء المخترعون وأهل المهارة في علوم المادة الصور والصنائع

المدهشة، فهل في إمكانهم إيجاد بعوضة أو غيرها، أو يردوا الروح إذا بلغت الحلقوم إلى موضعها؟ ويقال: هذه الأمم قد أوجدت المراكب البرية والبحرية والهوائية، وسخروا مادة الكهرباء حيث يريدون ويشاؤون، وفعلوا كذا وكذا مما هو داخل في قدرة الإنسان، وحللوا العناصر الكبار والصغار، فهل في إمكانهم أن يوجدوا أصغر مخلوق؟ وهل لهم طريق إلى العلوم الغيبية التي انفرد الله بعلمها؟ فهل عندهم علم متى يجيء المطر، ومتى يموت الصحيح، وما مقدار عمره، وماذا يكسب الخلق في مستقبلهم على سبيل العلم الجازم؟ ونهاية ما عندهم التكهناتُ والتخرصاتُ بحسب ما يشاهد من الأسباب. وهل لهم سبيل إلى العلم بأحوال البرزخ والآخرة مما أخبرت به الرسل وكيفية ما فيهما؟

وعند هذا الكاتب أن الإنسان لا يتعذر على علمه ولا على قدرته شيء؛ فتأمّل هذا القول الذي لم يصل إليه أحد من العقلاء ولا الحمقى.

وفي كتابه في مواضع متعددة اعترافٌ بانفراده عن الناس بكثير مما ذكرناه ونذكره عنه من الأقوال الباطلة، وأنه أدرك ما لم يدركه الرسل وأتباعهم؛ وهذا، مع ما فيه من العُجْب والاغترار البليغ والكذب الصّراح اعترافٌ بالشذوذ ومخالفة العقلاء كلِّهم؛ وهذا من التجرِّي والافتراء بمكان سحيق. فالمشركون واليهود والنصارى لم يجرؤوا على ما يقارب هذا القول. وقد اتفق جميع المثبتين للخالق من أهل الأديان وغيرها أن المخلوق لا يمكن أن يساوي الخالق بوجه من الوجوه، ونهاية ما بلغ شِرك المشركين أنهم جعلوا لهم آلهة يزعمون أنها يعمل لها من العبودية ما يستحقُّ الله، مع اعترافهم أنها مخلوق عاجزة ناقصة، وأنهم ما عبدوهم إلاّ ليقربوهم إلى الله زلفى فَتَبًّا لمن صرح بمقالة يتحاشى ويتنزه عنها اليهود والنصارى والمشركون.

وأما قصور هؤلاء المتأخرين في علوم التوحيد والدين مع مهارتهم في فنون الطبيعة فهذا من آيات الله وبراهين قدرته أن تجد أناساً في غاية الذكاء والبراعة وقد أدرَكوا من العلوم والفنون العصرية ما عجز عنه الأولون وحار فيه

الآخرون، ثم هم مع هذه البراعة والذكاء المفرط في هذه الأشياء تجدهم في غاية الجهل والقصور العظيم والضلال البعيد عن العلم بالله وتوحيده، وما يستحقه من العظمة والجلال؛ وتجدهم يشاهدون من خوارق علم الإنسان ما تخبرهم به الرسل عن الله وأخباره وغيوبه وأحوال الجزاء وهم مقيمون على الكفر والتكذيب. . أفبقدرة الإنسان يؤمنون، وبقدرة الملك العظيم يكفرون؟ فهؤلاء برعوا في أمور خاصة ضئيلة بالنسبة إلى العلوم النافعة والمطالب العالية، التي لا سعادة للخلق ولا فلاح لهم إلا بها، وعَمُوا عن المقاصد، فبذلك يُعلم أن الأمر أمر الله، والقضاء قضاؤه، وأن إعجاب الإنسان بنفسه وتيهه بمعارفه الضئيلة أكبر حجاب بينه وبين الله، وأنه إن تخلّى عنه طرفة عين هلك وشقي.

ومن فروع غُلُوِّه في الطبيعة أَن ٱدَّعى وكابَر وَكذَّب ما جاءت به الرسل وأخبر الله به في كتابه ورسولُه محمد ﷺ عن آدم أبـي البشر وزوجه وعدوهما إبليس، وما قصَّ الله من أنبائهم، فتجرّأ هذا الرجل وترك ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية وسلك مسلك ملاحدة الطبائعيين، الذين نظروا نظرية خرافية تسمى نظرية دارون الإنكليزي، مآلُها تسلسلُ الإنسان عن القرد، والقردِ عن كلبٍ أو حيوانٍ دونه، وهكذا خَطَّأهم فيها قومُهم فضلاً عن الرُّسل وأتباعُهم، حيث زعم أن الإنسان الأول في طور شبيهٍ بالحيوان أو هو الحيوان، وأنه بقي مدداً طويلة؛ ملايين أو ملايين الملايين حساباً جزافًا لا ينطقُ ولا يُحسن الخطاب ولا يرد الجواب، وإنما يتناعتون ويتصايحون تصايح الأجنّة في أول وضعهم من بطون أمهاتهم، وأنَّهم مَكَثوا تلك المدد العظيمة وهم على هذا الوصف. ثم إنهم ارتقوا عن هذا الانحطاط فتمكّنوا من الإشارات وصار بعضهم يشير إلى بعض من غير أن يهتدوا إلى نطق؛ ثم مكثوا ما شاءت الطبيعة ــ إلاّ ما شاء الله عنده ــ حتى ترقّوا فصاروا يتمكنون من النطق، فلم يصلوا إلى هذا الطور حتى مضت عليهم أحقاب بعد أحقاب. .

وهذا ــ مع ما فيه من تكذيب جميع الكتب والرسل ــ فإنه أخبث

التخرُّصات وأبعدها عن الحقائق؛ فأي طريق دلَّهم على هذا التخرص الباطل، وأي سندٍ أوصلهم إلى هذه الجراءة؟ ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفْضح النابذين لدينه المكذِّبين له ولرسله.. تركوا علوم الرسل والحقائق اليقينية وتبعوا التخرُّصات، وما خرصوه وتخرصوه في الحفريات وما يجدونه من جثث بعض الحيوانات.. فبعداً لمن اختار هذه الخرافات والخزعبلات على ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يكذبون الله ورسله ويؤمنون بكل شيطان مريد.

ثم انظر إلى المبحث الأخير من كتابه الذي عنوانه (المشكلة التي لم تحلّ) في صفحة (٣١٥) وما بعدها إلى آخر كتابه كيف أتى فيه بالطّامّات والفظائع، وأنكرِ المنكرات، وكيف حاول وصرّح بأن الإيمان بالله وإثباتَ وجوده وربوبيته وأفعاله من أشكل المشكلات، وهي أصل الأمور وأوضحها وأجلاها براهين. ثم صرّح بهذه الجراءة التي ما وصل إليها أحد من البشر إلاّ فرعون وأشباهُه الذين أنكروا رب العالمين وجحدوه بالكلية. وقد صرّح أن الأولين والآخرين لم يحلُّوا هذه المشكلة، فجميع الكتب المنزلة من الله: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وجميع ما قالته الرسل عموماً، وقاله سيدهم وإمامهم خصوصاً، وجميعُ العلماء الربانيين والهداة المهتدين والحكماء والأساطين.. الجميع عنده لم يعرفوا الإيمان بالله، ولم يحلوا هذه المشكلة التي زعمها، فبقيت عند هؤلاء مشكلة الإيمان في غاية الإشكال والتعقيد عند هذا الكاتب. فيا ويحه وما أعظم هذه الطامة وما أشنع هذه الجراءة على الله وعلى رسله وكتبه وعلى جميع أهل العلم، كيف طاوعته نفسه على هذه الطامة الكبرى، وكيف لم يكن له عقل يحجزه ويردعه عن هذه الشناعة التي صار بها مضرب المثل في الإلحاد الجنوني والزندقة المتفننة..

سبحان الله العظيم وصدق رسوله النبي الكريم، هذا الدين العظيم: الذي وضّح الحقائق الأصولية والفروعية وعلوم الباطن والظاهر، والعلوم

المتعلقة برب العالمين والمتعلقة بالمخلوقين، بيَّن كلَّ شيء وأوضح كل شيء، وهذا الرسول الكريم الذي هو أعلم الخلق على الإطلاق وأكملهم في جميع المعاني والصفات، إذا قصر هذا الدين وهذا الرسول عن بيان هذا الأصل الذي هو أصل الأصول والأساس الأكبر لأمور الدنيا والآخرة فأي شيء بَيَّنَ ووضَّح، وإلى أي شيء هدى وأرشد؟ وإذا لم يحل ما زعمه هذا المفتري مشكلاً، فأي مشكل حلَّه وأي علم أبانه ووضحه؟

لقد كان هذا الدين على زعم هذا الكاتب من أعظم النكبات على البشر، نقول: «على زعمه» على وجه الإلزام، وقد صرح بذلك في مواضع من كتابه، و«على زعمه»: ما زاد الناس هذا الدين الكامل ولا الرسول العظيم إلاّ شرًّا، ولا أوقعهم إلاّ في أعظم الضرر.. فسبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

هذا الأصل الكبير قد وضّحه الله في كتابه، ووضّحه رسوله توضيحاً حتى بلغ من وضوحه أَنْ كان أظهر من الشمس في رابعة النهار، وأبلغ من جميع المسائل كلِّها؛ فلا يوجد في الدنيا أي مسألة إلاّ وكان بيان هذا الأصل أعظمَ من بيانها، وبراهينه وأدلته أكبر من براهينها وأدلتها. لقد كاد الكتاب والسنة أن يكونا تأصيلاً وتفصيلاً لهذا الأصل العظيم. وأما البراهين العقلية والفطرية فكلها متفقة على الاعتراف بالله، حتى المشركون ـ الذين يجعلون معه مخلوقات يدعونها ويصرفون لها شيئاً من العبادة ـ معترفون أن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وقد قالت الرسل أفي الله شك وقد عظمت هذه المسألة أن يبرهن عليها كما قيل:

وليس يصحُّ في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وهذا المفتري ـ بعد المحاولة والمجادلة وترديد الكلام والهذر الذي لا حاصل له ـ زعم أنه انفرد بحلِّها، فاستنتج بعقله الجنوني وجراءته العظيمة أن حلَّها الوحيد هو: أن ينبذ الناس الإيمان وراء ظهورهم، ويكونوا معانقين للطبيعة، منسلخين من الدين والشريعة بالكلية، وأنهم إذا فعلوا ذلك فقد حلّوا

هذا اللغز المعقد، وإن بقي عليهم بقايا من الإيمان فإنهم في قيود وأغلال قد تُعَذِّر عليهم النهوض والرقي. فيا ويحه! أين قوله إنه مؤمن بالله وبكل ما أخبر به؟ وهل بلـغ أحد من الملحدين هذه الهاوية السحيقة؟ لقد وضـح كل الوضوح وزال الإشكال أن هذا الرجل مخادع، قد سلك نهجاً جديداً في الدعاية الإلحادية، أتى على جميـع الأديان من أصلها ليزيلها ويقلعها، فهو بهذه الدعاية قد تصدَّى لمحاربة الأديان السماوية كلها.. ويحه! المسكين الذي أضحى فريسة الملحدين، إذا لم يثبت أصل الإيمان فأي شيء يثبت، وإذا لم يؤمن بالله فبأي شيء يؤمن

﴿فَبِأَيِّ حديثٍ بعدَ اللَّهِ وآياتِهِ يؤمنون﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

فمن وصلت به الحال إلى هذا الحد من الجحد لم يبق للكلام معه فائدة، لأن المكابر المباهت تريه أظهـر الأشياء فينكرها.

يزعم هذا الكاتب أن إيمان المتدينين يمنعهم من مباشرة الأسباب، وإن باشروها فعلى وجه ضعيف. هذا حاصل المعنى الذي طوّل فيه الكلام وردَّده واستنتـج منه أنه يتحتّم على الناس رفضُ الإيمان بالله وبأقداره حتى يخرجوا من غلهم وحبسهم وينطلق سراحهم. لقد صدق هذا الكاتب في أن الإيمان حبسٌ لهم، ولكن عن التهتـك في الأخلاق الـرذيلة وعن الانغماس في الفجـور والفواحش الظاهرة والباطنة، وقيدٌ لهم عن التجرِّي على الظلم للخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميـع حقوقهم، وأن أهله لا يمكن أن يكونوا إباحيين ما داموا متمسكين به؛ لكن بتركه والإعراض عنه تنحلُّ عنهم القيود الشرعية فيصيروا كالبهائم وتكون أمورهم فوضى، وهذا ما أراده هذا الكاتب وهو يعلم حق العلم أن هذه الثمرات الجليلة من أعظم محاسن الدين وأجلّ ثمراته ولكنه يسعى أحثّ السعي لقطعها

﴿ويأْبـى اللَّهُ إلَّا أَنْ يُتِمَّ نورَه ولَوْ كَرِهَ الكافرون﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٢]

وهذا الرجل لم يسلك مسلك الحذّاق من الملحدين، الذين يموهون بأشياء

تروج على كثير من الناس، ولكنه جاء إلى أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها فأنكره غاية الإنكار، وكابر فيه أعظم مكابرة. زعم أن الإيمان بالله يضعف القُوى ويوهن العزائم؛ والحال أنه لا تقوم القُوى كلها ولا تنهض إلا بالإيمان بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فكل حول وقوة مستمدة من حول الله وقوته، والعبد إذا وُكِلَ إلى نفسه فقد وُكِلَ إلى ضعف وعجز ونقص من جميع الوجوه. فالمؤمنون بالله حقاً هم أقوى الخلق قلوباً وأبلغهم شجاعة وأصبرهم على المكاره، وأثبتهم في المواطن الحرجة لإيمانهم الكامل بالله ورجائهم لثوابه وخوفهم من عقابه. فالإيمان هو مادة كل خير وكل صلاح وإصلاح وبه تندفع شرور الدنيا والآخرة.

ثم مع ذلك الترويج، والجحد للإيمان بالله، يباهتُ فيزعمُ أن أهل الدين لا يمكنهم فهمه على وجهه. فعلى قوله لم يفهمه الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان ولا العلماء الربانيون ولا سائر أهل العلم من المسلمين؛ وحيث لم يفهموه عنده يتعين عليهم رفضُه، والأخذ بطريقة الملحدين.. فأين الإيمان والإسلام الذي يدَّعيه هذا الرجل؟ ويزعم أنه يغار على المسلمين وهو متصد لمحاربتهم ومحاربة دينهم؟ وأين العقل الذي يبقى على صاحبه ويجعله متماسكاً بين الناس.. فإن هذا تهور واستهتار، ومناداة على عقله بالسفه والجنون

﴿وَمَنْ يَرغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَه﴾

[سورة البقرة: الآية ١٣٠]

وهو مع هذا يُبْدي ويُعيد في الاستهزاء بشرائع الدين، وبأهله وحملته، على وجه الوقاحة، كدأب الحمقى والمجانين؛ فالمؤمن يحمد الله على العافية من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، ويسأل الله أن لا يزيغ قلبه ولا يجعله مثلة بين الخلق، وأن لا يكون كمن آتاه الله آياته فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

ومن بهرجات هذا الكاتب حين قرر أن المسلمين لا يفهمون دينهم

ولا يمكنهم فهمه على حقيقته استشهد على ذلك بما قصه عن الرازي والآمدي وابن أبـي الحديد، وأمثالهم من الحائرين في معرفة الله، وإن كان بعضهم قد تراجـع عن حيرته. فزعم هذا الكاتب أن المسلمين كذلك حائرون لا يهتدون إلى أصول دينهم؛ ولم يعلم ــ أو علم وتجاهل ــ أن هؤلاء الحيارى إنما حاروا في معرفة الله حين رفضوا علوم الدين في هذا الباب وتركوا ما دلّ عليه كتاب الله وسنّة رسوله؛ وأن حيرتهم في هذه الحال من أدلِّ الدلائل على كمال الدين، وأن كل من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهذه صفة لكل من كذب بالحق وتركه لا بد أن يمرج أمره كما قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبوا بالحقِّ لَـمَّا جاءَهُم فهمْ في أَمرٍ مريـجٍ﴾

[سورة ق: الآية ٥]

فانظر إلى هذا الرجل، كيفَ لما كَذَّب بالحق وتركَ الإيمان بالله وَرَفَضَه ودعا الناس إلى رفضه كيفَ تقلَّبت به الأحوال ولعبت به الأهواء، وصار ينادي ويدعو إلى الإلحاد بعدما كان يدعو إلى دين رب العباد. فالمسلمون، ولله الحمد، قد فهموا الإيمان فهماً كاملاً أعظم من فهم أي قضية كانت، فهم أعظم الناس يقيناً وأثبتُهم إيماناً وأصحُّهُم اعتقاداً لأنهم آمنوا وصدَّقوا المرسَلين واستقاموا على الصراط المستقيم حيث عدل غيرهم عن هذا الطريق.

ومن فروع نَبْذِهِ الإيمانَ بالله وبما أخبر به على ألسنة رسله إنكارُ الملائكة والجن والأرواح، وسياقُهُ لهذا الإنكار بأساليب تهكُّمية وعبارات سخرية بما أخبر الله به وأخبرت به رسله، ونطقت به الكتب واعترف بهِ عليةُ الخلق وسائرُ أهل الأديان السماوية وجاءت به نصوص الكتاب والسنّة في نصوص كثيرة زادت على التواتر، فأقر بها المسلمون واعترفوا بها وبكل ما أخبر الله به ورسولُه عن الملائكة والجن، وعن أحوال الروح في البرزخ وغيره، ولم ينكر ذلك إلا جاحد ملحد مكذِّب لله ورسوله؛ وقد تحاذق هذا الرجل حين نَصَرَ قولَ من كَذَّب بهذه الأصول العظيمة، فجمـع كل ما يقدر عليه في كتابه من خرافات الخرافيين عن الجن والأرواح ونسب ذلك إلى المسلمين ليتوسل به إلى القدح في الدين ظنًّا منه

أنه يروّج على الناس، ثم لما قرر هذا التكذيب بعبارات كثيرة في صفحة (٣٠٠) وما بعدها شعر أن الناس لا بد أن يقولوا هذا كلام مكذب بالملائكة والجن والأرواح فقال نفاقاً: ليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجان، وبما أخبر الله به إلى آخر ما قال. فانظر إلى هذا التناقض والبهرجة التي لا تخفى على من له أدنى عقل، ولكن من غروره بنفسه يحسب أن الناس كالبهائم.

ومن كَذَّب «بالمدبِّرات أمراً» وتهكّم بما يُذكَر في الكتاب والسنّة، ويذكره أهلُ العلم من «أنواع التدبيرات» في العالم العلوي والسفلي التي تتولاها الملائكة بأمر الله، لم يُستغرب بعد ذلك تكذيبُه «بتأثير العين» وتحريف النصوص الواردة فيها، وتفسيرها بما لم يفسِّرها به مسلم بل ولا عاقل؛ ومن كانت هذه الأصول عنده تُرّهاتٍ وخيالاتٍ لم تستغرب عليه ما نصره من سفور النساء وإيجابه لمخالطتهن الرجال الأجانب في جميع المجامع الصغار والكبار، وأنه ليس للرجال عليهن درجة ولا لهم فضل عليهن، وأن هذا السفور والتهتك يزعمه هو عين الصلاح، وأنه لا يكن إصلاحهن وثقافتهن وتعليمهن إلا بهذه الطريقة السافلة، وأن خيار المسلمين من القرون الماضية، من الصحابة والتابعين ومن تمسَّك بهديهم إلى اليوم من خيار المسلمين، أن هؤلاء كلَّهم من أولهم إلى آخرهم من الجهلة الهمج حيث صانوا نساءهم عن التبرج والتهتك.

ثم باهت في ذلك ناقلاً مستحسناً أن الشر الحاصل من النساء المصونات المحفوظات بحفظ الله ثم بحفظ أوليائهن أهل الغيرة على الدين وشرائعه أعظم من الشر الحاصل من النساء المتهتكات المزاحمات للرجال في جميع ميادين الحياة. ثم نقله القبيح، واستحسانه في هذا الموضوع كلام الساقطين من الإباحيين، الذين لا يرون شيئاً حراماً خبيثاً بل ما اشتهاه الإنسان فَعَلَه ولا قبيح عندهم إلا ما لم تشتهه النفوس، كما نقله في صفحة (١٠٣) وما بعدها. . فيا ويح هذا، ماذا ترك للفضائل الدينية والآداب الدينية والصيانة الإنسانية؟ لقد رفضها كلها؛ وهذه الطريقة التي استحسنها هي الطريقة الوحيدة للإباحية، إباحة جميع ما حرَّم الله من الشرك والفواحش والمنكرات.

إذا تقررت هذه المباحث الخبيثة والمنافية للدين من كل وجه، الدالة على انحراف عقل صاحبها بعد انحراف دينه، فلا تستغرب بعد هذا ردَّه وتكذيبه للأدلة الشرعية، وتحريفه لنصوص الكتاب والسنة، وترويجه بجمع الأحاديث الصحيحة مع آثار باطلة، فيرد الجميع وتفسير النصوص بغير تفاسير المسلمين نصرةً لباطله، وإنما هي من جنس تحريفات القرامطة الباطنية، ولنذكر نموذجاً يسيراً من هذا النوع ليعرف بذلك إلحاد هذا الرجل. فمن ذلك قوله في قوله تعالى:

﴿وفي أنْفُسِكم أَفَلَا تُبصرون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١]

ذكر في صفحة (٤٤) أن معناها أن الله نَعَى على المسلمين الموجودين وقتَ نزول القرآن، ويعاتِبُهم كيف لا يُبصرون ما في أنفسهم من الآيات، وأن الصحابة والقرون المفضلةَ وَمَنْ بعدهم من علماء المسلمين انطوت قرونُهم، والعتابُ موجَّه إليهم واللوم يقرَعُهم لكونهم لم يُبصروا ما في أنفسهم من الاستعداد لاستخراج كنوزها، ولا لاستخراج كنوز الأرض حتى جاء هذا الوقت فانطبقت عليهم هذه الآية:

﴿وكانوا أحقَّ بِهَا وأَهلَها﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٦]

لكونهم العاملين بها حيث عَمِيَ عنها الأولون، وعَلِمُوها حيث جَهِلَها السابقون. فهذا التطبيق تحريف لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا ممن يدَّعي الإسلام. ومعناه الجلي عند هذا أن ملاحدة الأمم أكملُ وأفضلُ وأعظمُ عملاً بهذه الآية من السابقين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى آخر وقت. سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن تحريفه لحديث: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به...) إلى آخر الحديث. قال في صفحة (٤٠): إن الحديث يدل على أن العبد غير مقيَّد، وأنه لا يمتنع على قدرته شيء، وأنه لا حدَّ يقف عنده علمُهُ وقدرتُه. نزله على ذلك المبحث الخبيث السابق أن العبد في إمكانه مزاحمة رب العالمين؛ فهذا الإلحاد والتحريف

لكلام الله وكلام رسوله لم يقل أحدٌ ما يشبهه إلا الملاحدة من أهـل وحدة الوجود؛ ومعنى الحديث معروف، ولله الحمد، بين المسلمين، أن ذلك يدل على تسديد الله وتوفيقه ومعونته الخاصة لعبده، القائم بمحبوباتـه من الفرائض والنوافل. ومن ذلك ما قاله على قوله تعالى:

﴿ما أشهدتُّهم خَلقَ السمواتِ والأرضِ ولا خَلْقَ أَنفسِهم﴾

[سورة الكهف: الآية ٥١]

في صفحة (٦١) محتجًّا بها على قوله الباطل، حيث زعم أن علم الإنسان محيط بمبادي خلق هذا العالم، فإنه يزعم أن الآية لا تنفي العلم، حيث قال: «ما أشهدتُّهم» ولم يقل «ما أعلمتهم». وزعم أنهم كانوا عالِمين وإن لم يكونوا مُشاهِدين، وهذا لم يقله أحد من المفسرين. أما تفسيرها المعروف عند المسلمين فهو أن الله أنكر على الكافرين به المكذِّبين لرسله الذين زعموا أن أحداً من المخلوقين يستحق من العبادة والخضوع ما يستحقه الله، فكذَّبهم الله، وأخبر أن جميـع الخلق ليس لهم مشاركة لله بوجهٍ من الـوجوه، فلم يُشْهِـدْهم خلقَ السمٰواتِ والأرض، ولا خلقَ أنفسهم، وهذا نفي لطرق العلم كلها، يعني: فليس لهم سبيل إلى ذلك، فإنهم إذا لم يشهدوا ذلك فهم لم يعلموه، وإذا لم يعلموه فشهادتهم ودعواهم لاستحقاقها العبادة دعوى في غاية البطلان والتقول على الله تعالى، وهي نظير قوله تعالى:

﴿وما كُنتَ بجانبِ الغَـرْبِـيِّ﴾ [سورة القصص: الآية ٤٤]

ومن تحريفاته التي تقشعر منها الجلود ما ذكر في صفحة (٦١) و(٦٧) على قوله تعالى:

﴿يَعلمونَ ظاهِراً مِنَ الحياةِ الدُّنيا وهُمْ عَنِ الآخرةِ هُمْ غافلون﴾

[سورة الروم: الآية ٧]

أن المراد بذلك القرنُ الذي أنزل عليهم وأوائل هذه الأمة القرون المفضلة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن معناها أن علومهم لم تصل إلى بواطن الأشياء وإنما علمهم بسيط جداً، وأنهم في ذلك الوقت في طور الطفولية، بل في

طور قريب من طور الحيوانات ولم يبلغوا رشدهم، وإنما الذين بلغوا رشدهم عنده ملاحدة هذا الزمان الذين علموا من علوم المادة ما لم يعلمه الأولون، لأن العلوم النافعة عنده هي الفنون العصرية فقط، وأما الأصول والعقائد وعلوم الأخلاق وتوابعها التي عِلمُ الطبيعة فرعٌ من فروعها فإنها على قول هذا ليست من العلوم التي يؤبه لها، وكفى به خذلاناً أن تصل به الحال إلى هذا والآية ولله الحمد واضحة لا إشكال فيها، وأن هذا وصف للكافرين المكذِّبين لمحمد ﷺ: أخبر تعالى أن علومهم ظاهرة، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا دون باطنها، وأنهم في غفلة عن الآخرة، فهذا السبب الذي أوجب لهم ردَّ ما جاء به محمد ﷺ. وإلّا فلو علموا ظاهرها وباطنها المقصود منها لبادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ كما فعله أهل العلم الحقيقي، الذين بادروا لمّا رأوا الآيـات البينات إلى الإيمان به؛ لكن هذا الرجل يطبِّق هذه الآية على خيار الخلق وأكمل القرون على الإطلاق، ويسخر من العالِمين بباطن الدنيا، المستعدِّين للآخرة، القائمين بعبودية الله الجاعلين الدنيا وسيلة إلى الدين، وهو يريد ويحاول في كتابه هذا أن تكون الدنيا هي المقصودة والغرض الأصلي وأما الآخرة فإن كتابه هذا كفيل بتزهيد الناس فيها وفي عبودية الله وفي الجزاء الأخروي؛ فأي إيمان وأي إسلام وأي عقل صحيـح بقي بعد هذا.

ومن ذلك تفسيره لحديث (كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة) بأن الفطرة هي الخبث والشَّرُّ، وأن الإنسان بطبعه خُلِق شِرِّيراً، وأن الفطرة معناها أنه مفطور على الشَّرِّ، ويرفض جهاراً تفسير أئمة الهدى لهذا الحديث بأن معناه هو: أن الله فَطَر عبادَه على قبول الخير عِلماً وعملاً، وأنّ الله تعالى جعل في خلقتهم استعداداً تاماً لقبوله نعمة منه وفضلاً كما قال تعالى:

**﴿فأَقِمْ وَجهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تَبديلَ لخلقِ اللَّهِ ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَـكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون * مُنِيبِينَ إليهِ﴾**

[سورة الروم: الآيتان ٣٠، ٣١]

ويلزم على قوله أن يُستَدْرَكَ على النبـيّ ﷺ حيث قال: (فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه

أو يمجِّسانه) فيقال: وأيضاً لم قلت: (أو يجعلانه مسلماً) لأن قبوله للجميع على حد سواء عند هذا، وفي نفس الحديث والآية الكريمة حيث قال: كالبهيمة الجمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها أي كالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق كاملة الأعضاء حتى يجدَعها الناس بقطع الآذان أو بعض الأعضاء، كذلك الآدمي، خلقه الله مفطوراً على الاستعداد لمعرفة الحق وقبوله، فلو تُرك وفطرته ولم يَعرِضْ له ما يغيِّرها من التربية السيئة لما اختار غير الدين الحق. وعند هذا أن الفطرة معناها الشر والهمجية وهذا مناف للآية والحديث.

ومن أعظم الجرأة جراءته على قوله تعالى في صفحة (٦٦):

﴿وتراهُم ينظرونَ إليكَ وهُمْ لا يُبصِرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٨]

قال: يعني بذلك الذين اجتمعوا بالنبي ﷺ وآمنوا به من الصحابة، الذين هم خيار الخلق وأعلمهم، جعلهم هذا الرجل ينظرون الظواهرَ ولا يُبصرون البواطنَ فهم في طور الأطفال، كما تقدم التنبيه على هذا مراراً، وهذا من جنس تفاسير الزنادقة من الباطنية والإسماعيلية والقرامطة والآية الكريمة عند جميع المسلمين معناها ظاهر، وأن هذا وصف للكافرين بالرسول أو وصف للأصنام فمعناها: أن الكفار تراهم ينظرون إليك نظراً ظاهراً وهم لا يبصرون ما فيك من المعاني الجليلة والأوصاف الجميلة والآيات التي تدل أكبر دلالة أنك رسول الله حقاً؛ أو أن هذه الأصنام صُوَرٌ بلا أرواح، تراها كأنها تنظر إليك وهي لا تبصر لأنها جمادات.

ومن ذلك حقٌّ للراوين عن النبي ﷺ الحديثَ الذي في مسند البزار (أكثر أهل الجنة البله). فزعم أنهم بذلك يمدحون البلاهة ويحثُّون عليها، وجمع في هذا خرافات الخرافيين ونسبها لِحَمَلَةِ الشريعة ورجال الدين، وكذّب الحديث المذكور. وتفسير الحديث ظاهر عند المسلمين: فإن النبي ﷺ لم يقل: (أهل الجنة البله)؛ أو: (لا يستحق الجنة إلا البله)، بل قال: (أكثر أهل الجنة البله)، فهم لسلامتهم من الغل والحقد والصفات الذميمة صاروا مستحقين للجنة، لئلا

يظن الناس أن أمثال هؤلاء أن الله لا يرفع قدرهم؛ مع أن في كتاب الله وسنّة رسوله من الثناء على أهل العقول وأولي الألباب، والأحلام والنهى والآراء الرزينة والحثّ على كل أمر فيه زيادة اللب والعقل؛ فكم في كتاب الله وسنّة رسوله من ذلك من النصوص ما يدل على ذلك فلا منافاة بين الأمرين؛ فالدين يحث على السعي في تكميل العقول ويثني غاية الثناء على أولي الألباب ويخبر أنهم خواص الخلق، ومع ذلك فكل من آمن وعمل صالحاً ولو لم يصل إلى درجتهم من البله الأغرار فإنهم سعداء فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ومن العجائب تنزيله الحروب الحاضرة بين الأمم الأفرنجية والأمريكية وتوابعهم على قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

فجعلها المراد من الآية، وقد أجمع المسلمون على أن المراد قتالُ المسلمين للكفار، فهو المكتوب المفروض وهو الذي له الآثار الطيبة، وأما هذه الحروب التي بنيتِ على الجشع والظلم والقسوة وعدم الرحمة فأين خيرُها وآثارُها الطيبة وقد عمّت البسيطة هلاكاً وفناءً وتدميراً، وهي لا تسكُنُ في وقتٍ إلا للاستعداد لمجازر وشرورٍ ينسى آخرُها أوَّلها، فيا ويح من ألحد في آيات الله.

ومن تحريفاته لحديث أنس: أنه ﷺ كان يطوف على نسائه بغُسلٍ واحد. قال في صفحة (١٢٠): «إن ذلك مجرَّد دورانٍ لا مسيسَ معه»، وتهكَّم بأنسٍ وغيرِه ممَّنْ يفسرون ذلك بالمسيسِ الذي هو معنى الحديث عند جميع المسلمين، حتى جاء هذا الرجل فأنكر عليهم وكَذَّبهم. وهذا الوهم الكاذب منشأه أنه ميراث ممَّن ورثوا القَدْح في الأنبياء بكثرة الأزواج، فأنزل الله ـ منكراً ومكذباً لهم ـ قوله تعالى:

﴿ولقدْ أرسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبلِكَ وجعلْنَا لَهُم أزواجاً وذُرِّيةً﴾

[سورة الرعد: الآية ٣٨]

وأي نقص في كثرة أزواجه وفي قيامه التامّ بحقوقهن، وذلك من أَجَلِّ مناقبه،

حيث كَمَّلَ الحقوق الكثيرة التي عليه وحيث كان في زوجاتـه من المنافـع والمصالـح للأمة ما لا يعدُّ ولا يحصى.

ومن جرأته العظيمة ما ذكره في صفحة (١٢٦) وما بعدها من الصفحات من تكذيبه لجميـع النصوص الواردة في الزهد في الدنيا والصبر على البلاء والفقر، وهي جزء كبير من أجزاء الدين. كَذَّبَ ذلك أجمـع، وباهت بأمرٍ يعرف كذبَه به كلُّ أحد؛ ثم روّج كعادته القبيحة بذكر أحاديث لا زِمام لها ولا خطام، حَشَدها في كتابه وتوسَّل بها إلى ردَّ النصوص الصحيحة. ورمى جميـع المسلمين ــ من أولهم إلى آخرهم ــ بقبول تلك الآثار الساقطة؛ وتقدمت الإشارة إلى محاسن هذا الدين، وأنه يحثُّ على جميـع الوسائل والمقاصد وإصلاح الدين وما يعين عليه من الدنيا، بعكس ما كان يسعى إليه هذا الكاتب يحض على الزهد في الآخرة بل يسخر بأهلها العاملين، وبما يذكر من الجزاء الدنيوي والأخروي.

ومن انحرافاته الفظيعة ما نقله تفصيلاً عن التوراة، ليس في التوراة بل في الأمثال المنسوبة لسليمان عليه السلام، في الترغيب في الدنيا، ثم قابل بينه وبين ما جاء به القرآن والدين الإسلامي في صفحة (١٧٧) وما بعدها، وغلط القرآن والكتب الدينية حيث علقت السعادة والفوز والفلاح في العاجلة والآجلة على العبادة والتقوى والصلاح، وفضّل ما نسب إلى التوراة في هذا الموضوع، على الكتاب والسنّة، تفضيلاً عظيماً، بل لم يجعل لهذا الأخير فضلاً بوجه من الوجوه، بل حمل على هذه النصوص وزعم أنها هي التي خدَّرت هِمَمَ الناس وثبَّطتهم ومنعتهم من الرقي، وفيه كالتصريـح بإنكار عقوبات الله للدنيوية والأخروية.

ومن ذلك في صفحة (٢٩٦) تهكمه بحديث أنس: (لا يأتي عليكم زمان إلاّ والذي بعده شر منه)، وهو في الصحيـح، صحيـح البخاري، وتهكم به وبِنَقَلَتِهِ وأنكره إنكاراً عظيماً. والسبب في ذلك أصله الخبيث، حيث فضّل ملاحدة الزنادقة من الأولين والآخرين على الصحابة وخير القرون، وعرف أن هذا الحديث من الأدلة الكثيرة الدالّة على كذبه وبطلان قوله. وزعم أن اعتقاد

فضيلة الأولين من الصحابة والتابعين منعت الرقي، فهذه الدعاية لنبذ الدين التي يسعى لها هذا الرجل سعياً حثيثاً ويؤصل أصولاً خبيثة يردّ لأجلها الأصول الشرعية، فهذا في كتابه نهج لهذه الدعاية الإلحادية دعايات كثيرة: تارة بتحريفه لنصوص الكتاب والسنة وتارة بالقدح في الصحابة والتابعين وَحَمَلَةِ الدين من خير القرون، الذين لم يصل للناس هذا الدينُ إلاّ على أيديهم، وقد أكثر فيه من الاستهزاء والسخرية العظيمة حتى كادت جميع مباحثه المنحرفة تكون سخرية واستهزاء وتهكُّماً بالدين والشريعة وحملة الدين.

هنا يقف العاقل وقفة تعجب فيقول: هل ترى هذه السخريات والتهكّمات الصادرة من هذا الرجل الحامل عليها الإعجاب العظيم بالنفس واحتقار غيره؟ فإنه لا يستغرب. فإن الخيالات متى استحكمت في النفوس تجسَّمت وصارت لها السيطرة على عقل الإنسان، وعدم الإبقاء منه على مكانته بين الناس فلا يستغرب بهذا أن ذكاءه وفطنته اضمحلّت في ضمن هذه السيطرة حتى تلاشت فلم يكن له إحساس بما يصدر منه، وأنه وصلت به الحال إلى ما يشبه الجنون وعدم الشعور. فإن الذين معهم مسكة من العقل المعيشي ـ دع العقل الديني ـ يُبْقُون على أنفسهم وعلى مكانتهم عند الناس وفي قلوب من يعظِّمهم فلا يرضى أحدهم أن تكون السخريةُ والاستهزاء ديدنَه في الأمور العادية، فضلاً عن أن تُوجَّه إلى دين الله وإلى رسله وأتباعهم. ولكن يأبى الله إلا أن يفضح من تعرَّض لدينه وشرعه وأوليائه في الدنيا والآخرة. وإذا كان من جملة مقالاته الشنيعة الفاضحة ما صرح به في صفحة (٣١٧) بقوله الصريح: «إن المتديِّنين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة»، فهل بعد هذا التصريح بنبذ الديانات السماوية كلها، والكفر بجميع الأنبياء وتحقيرهم وتفضيل غيرهم عليهم شيءٌ؟ وهل وراء هذا التقدم إلى الكفر غاية ونهاية؟ وكم له في كتابه هذا من هذا النوع شيء كثير. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

(واعلمْ) أن عباراته في هذه المواضيـع التي نبَّهْنا عليها كثيرة مكرَّرة بعبارات متنوعة لم ننقلها خوف طول الكلام لغير فائدة، ولكننا أتينا بمقاصدها. وأرشدنا لمن يحب الوقوف عليها إلى صفحاتها من كتابه «الأغلال» المطبوع. وكذلك في رسالتنا هذه لم نكثر من ذكر الآيات والأحاديث الرادّة لقوله. لأن الكتاب والسُّنَّة كلها رد لقوله، لأنه نفى جميـع أصول الكتاب والسنّة وأراد قَلْعها من أساسها ولأن المقام يقتضي ذلك فإن المناظرة مـع من يعظم الكتاب والسنّة نوع ومـع من لا يراهما نوع آخر. ونحمد الله على ما نبَّهنا عليه في كتابه من الفظائـع والشنايـع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفرُه لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعاً للكتاب والسنّة في خطاب المحاربين المنحرفين أن يقال: قال فلان وفعل فلان. وأما عند ذكر الأقوال الشنيعة فيذكر ما احتوت عليه من الضرر والمناقضة للأديان ومرتبتها في البعد من الدين وبيان ما على قائلها من الضلال والغي فيكون القدح فيه موجهاً عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي. وليس لنا غرض في شخصية هذا الرجل ولكن لما آعتدَى على ديننا الإسلامي وعلى قواعده وأصوله وأسسه وتهكم به وبحملته وفضل عليهم زنادقة الملحدين وصنـع مـع المسلمين أعظم من صنيـع دعاة النصارى من المبشِّرين، وجب على كل مسلم مدافعته ودفـع شره وتبيين أمره والتحذير من طريقته ودعايته بحسب القدرة. وإلا فوالله إننا لنأسف أشد الأسف على انقلاب هذا الرجل، ونعدُّ ذلك من الخسائر علينا حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق ما لا ينكر، بل لنا أن نقرأ قول الله تعالى:

**﴿يأيُّها الذين آمَنُوا مَنْ يَرتَدَّ مِنكُم عَن دِينِه فَسوفَ يأْتي اللَّهُ بقومٍ يُحِبُّهمْ ويُحِبُّونَه أَذِلَّةٍ على المؤمنينَ أَعِزَّةٍ على الكافِرينَ يُجاهِدُونَ في سبيلِ اللَّهِ ولا يَخافُون لَوْمَةَ لائِمٍ﴾** [سورة المائدة: الآية ٥٤]

ونسأل الله أن يرده إلى الحق وأن يعيده إلى الإسلام، بالتوبة والتنصل مما وقـع منه، وأن يكتب كتاباً في رجوعه عن هذه المباحث الخبيثة، ونسأل الله تعالى أن

يثبتنا على دينه، وأن لا يزيـغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهّاب. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

حـرر في ٣ من ربيـع الآخر سنـة ١٣٦٦ ونقلتُـه من خط الشيـخ عبد الرحمن بن سعدي. أنا الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن محمد العوهلي، وحرر في ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦.

بلـغ مقابلة على يد شيخنا الشيـخ عبد الرحمن بن سعدي في ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦.

# الوَسَائل المفُيدَة للِحَيَاة السَّعيدَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد: فإن راحة القلب وطمأنينته، وسروره وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج؛ ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين؛ وأما من سواهم، فإنها وإن حصلت لهم من وجه وسبب يجاهد عقلاؤهم عليه، فاتتهم من وجوه أنفع وأثبت وأحسن حالاً ومآلاً.

ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الذي يسعى له كل أحد، فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشة هنيئة، وحيي حياة طيبة، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التعساء، ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له. والله الموفق، المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

## فصـــل

وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسها هو الإيمان والعمل الصالـح ، قال تعالى :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

فأخبر تعالى، ووعد من جمـع بين الإيمان والعمل الصالـح ، بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار. وسبب ذلك واضـح ، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيـح ، المثمر للعمـل الصالـح ، المصلـح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يتلقَّون فيها جميـع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهمّ والأحزان؛ يتلقون المحابّ والمسارّ بقبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفـع ، فإذا استعملوها على هذا الوجه، أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمـع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمراتها.

ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بُدٌّ، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضمحلّ معها المكاره، وتحل محلها المسارّ والآمال الطيبة، والطمـع في فضل الله وثوابـه، كما عبـر

النبي ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال: (عَجَباً لِأَمْرِ المؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كلَّهُ خَيْرٌ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَد إلاَّ لِلْمُـؤْمِنِ). فأخبر ﷺ أن المؤمن يتضاعف غُنْمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر، فيتفاوتان تفاوتاً عظيماً في تلقيها، وذلك بحسب تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالـح. هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم، والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار، والآخر يتلقى المحابّ بأَشر وَبَطَر وطغيان، فتنحرف أخلاقه، ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشـع وهلـع، ومـع ذلك فإنه غير مستريـح القلب، بل مشتته من جهات عديـدة، مشتت من جهة خـوفه من زوال محبـوباتـه، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حدٍّ بل لا تزال متشوقة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضاً قلق من الجهات المذكورة.

ويتلقى المكاره بقلق وجزع وخوف وضجر، فلا تسأل ما يحدث له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات، وأفظـع المزعجات، لأنه لا يرجو ثواباً، ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثل واحد من هذا النوع، إذا تدبرته ونزّلته على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك. وهو أن الدين يحثّ غاية الحثّ على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع؛ فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضةٌ لها، فإنه بإيمانه وبما عنده

من القناعة والرضى بما قسم الله له، تجده قرير العين، لا يتطلب بقلبه أمراً لم يقدر له؛ ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو محصل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يؤت القناعة. كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان، إذا ابتلي بشيء من الفقر، أو فقد بعض المطالب الدنيوية، تجده غاية في التعاسة والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسباب الخوف وأَلَمَّتْ بالإنسان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئنَّ النفس، متمكناً من تدبيره، وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه، بما هو في وسعه من فكر وقول وعمل؛ وقد وطَّن نفسه لهذا المزعج الملمّ، وهذه أحوال تريح الإنسان وتثبت فؤاده؛ كما تجد فاقد الإيمان بعكس هذه الحال، إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتوتّرت أعصابه، وتشتتت أفكاره، وداخله الخوف والرُّعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه؛ وهذا النوع من الناس، إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير، انهارت قواهم وتوترت أعصابهم، وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر، خصوصاً في المحال الحرجة، والأحوال المحزنة المزعجة، فالبَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، يشتركان في جلب الشجاعة الاكتسابية، وفي الغريزة التي تلطف المخاوف وتهونها، ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانه وصبره، وتوكله على الله، واعتماده عليه، واحتسابه لثوابه: أموراً تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف، وتهون عليه المصاعب، كما قال تعالى:

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف. وقال تعالى:

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ومن الأسباب التي تزيل الهمَّ والغمَّ والقلق، الإحسانُ إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان. وبها يدفع الله عن البَرِّ والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى:

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤]

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتيه أجراً عظيماً، ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

# فصـــل

ومن أسباب دفـع القلق الناشىء عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة، فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهمَّ والغمّ، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضاً مشترك بين المؤمن وغيره، ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه أو يعلمه، وبعمل الخير الذي يعمله، إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلاً دنيويًا وعادة دنيوية أَصْحَبَها النية الصالحة، وقصد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أَثره الفعّال في دفـع الهمِّ والغموم والأحزان، فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فأَحلَّتْ به الأمراضَ المتنوعة فصار دواؤه الناجـعُ نسيانَه السببَ الذي كدره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته.

وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه، فإن هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافـع والله أعلم.

ومما يدفـع به الهمّ والقلق اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبـي ﷺ من الهم والحزن؛ فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردّها ولا استدراكها، والهمّ الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فيكون العبد ابن يومه، يجمـع جِدَّه واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإنّ جمـعَ القلب على ذلك يُوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن.

والنبـي ﷺ إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء، فهو يحثّ مـع الاستعانة بالله، والطمـع في فضله، على الجدِّ والاجتهاد في التحقق لحصول

ما يدعو بحصوله، والتخلّي عما كان يدعو لدفعه، لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده، ويستعينه على ذلك كما قال ﷺ: (إحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ، وَإِذا أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذا كَانَ كَذَا وكَذا، وَلٰكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاء فَعَلَ، فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)، فجمع ﷺ بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال، والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار، وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره، وجعل الأمور قسمين: قسماً يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعه أو تخفيفه، فهذا يبدي فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده؛ وقسماً لا يمكن فيه ذلك، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم، ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور ولزوال الهم والغم.

## فصل

ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه؛ قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٨]

فلذكرِ الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره. وكذلك التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة، فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهمَّ والغمّ، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها، حتى لو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا، فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه التي لا يُحْصَى لها عدٌّ ولا حساب، وبين ما أصابه من مكروه، ولم يكن للمكروه إلى النعم نسبة،

بل المكروه والمصائب إذا ابتلى اللَّهُ بها العبدَ، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها، والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى، يدع الأشياء المرة حلوة، فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارةَ صبرها.

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: (أُنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ولا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق قطعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه، مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمُّه وغمُّه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها. وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً كثيراً، ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور.

## فصـــل

ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهمِّ والغمِّ، السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم، وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردُّها، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال، وأن ذلك حمق وجنون، فيجاهد قلبه عن التفكُّر فيها، وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله، مما يتوهمه من فقر أو خوف، أو غيرهما من المكاره التي يتخيلها في مستقبل حياته، فيعلم أن الأمور المستقبلة مجهولٌ ما يقع فيها من خير وشر، وآمال وآلام، وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلّا السعي في تحصيل خيراتها،

ودفع مضراتها، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره، واتكل على ربه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك اطمأن قلبه وصلحت أحواله، وزال عنه همه وقلقه.

ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي ﷺ يدعو به: (اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي في كلِّ خَيْرٍ، وَالمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرّ).

وكذلك قوله: (أَللَّهُمَّ رَحْمَتَك أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)، فإذا لهج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك، حقّق الله له ما دعاه ورجاه وعمل له، وانقلب همه فرحاً وسروراً.

## فصل

ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد من النكبات، أن يسعى في تخفيفها بأن يقدر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطِّن على ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليسع إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان، فبهذا التوطين، وهذا السعي النافع، تزول همومه وغمومه، ويكون بدل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي رفع المضار الميسورة للعبد، فإذا حلت به أسباب الخوف، وأسباب الأسقام، وأسباب الفقر والعدم لما يحبُّه من المحبوبات المتنوعة، فليتلقَّ ذلك بطمأنينة وتوطين للنفس عليها، بل على أشد ما يمكن منها، فإن توطين النفس على احتمال المكاره، يهونها ويزيل شدتها، وخصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره، فيجتمع في حقه توطين النفس مع السعي النافع الذي يشغل عن

الاهتمام بالمصائب، ويجاهد نفسه على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتماده في ذلك على الله، وحسن الثقة به، ولا ريب أن لهذه الأمور فائدتها العظمى في حصول السرور وانشراح الصدور، مع ما يؤمله العبد من الثواب العاجل والآجل، وهذا مشاهد مجرب، ووقائعه ممن جرَّبه كثيرة جداً.

## فصـــل

ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضاً للأمراض البدنية: قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة، لأن الإنسان متى استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات: من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحابّ، أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة، التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة.

ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله، وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزال عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثّرت هذه الأمور على قلوب كثير من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلى الحمق والجنون، والمعافَى من عافاه الله ووفقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]

أي كافيه جميع ما يهمه من أمر دينه ودنياه، فالمتوكل على الله قوي القلب

لا تؤثر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث، لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخَوَر والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفَّل لمن توكَّل عليه بالكفاية التامة، فيثق الله ويطمئن لوعده، فيزول همُّه وقلقه، ويتبدّل عسرُه يسراً، وترحُه فرحاً، وخوفُه أمناً، فنسأله تعالى العافية، وأن يتفضَّل علينا بقوة القلب وثباته، وبالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير، ودفع كل مكروه وضير.

## فصل

وفي قول النبي ﷺ: (لَا يَفْرَكْ [يبغض] مُـؤْمِنٌ مُـؤْمِنَةً إنْ كَرِهَ مِنْهَا خلقاً رَضِيَ مِنْهَا خلقاً آخرَ) فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكلِّ مَنْ بينَك وبينَه علقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطِّن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب أو نقص، أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك، فقارن بين هذا، وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة؛ وبهذا الإغضاء عن المساوىء وملاحظة المحاسن، تدوم الصحبة والاتصال وتتم الراحة، وتحصل لك الفائدة الثانية، وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين، ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي ﷺ، بل عكس القضية فَلَحَظَ المساوىء، وعمي عن المحاسن، فلا بد أن يقلق، ولا بد أن يتكدَّر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، ويتقطَّع كثير من الحقوق التي على كل منهما المحافظة عليها.

وكثير من الناس ذوي الهمم العالية، يوطِّنون أنفسهم عند وقوع

الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة، لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون، ويتكدّر الصفاء، والسبب في هذا أنهم وطّنوا نفوسهم عند الأمور الكبار، وتركوها عند الأمور الصغار، فضرَّتهم وأثرت في راحتهم، فالحازم يوطن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، فعند ذلك يسهل عليه الصغير، كما سَهُل عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحاً.

## فصـــل

العاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياة السعادة والطمأنينة وأنها قصيرة جدًّا، فلا ينبغي له أن يقصّرها بالهم والاسترسال مع الأكدار، فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة، فيشح بحياته أن يذهب كثير منها نهباً للهموم والأكدار، ولا فرق في هذا بين البَرِّ والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصف الحظ الأوفر، والنصيب النافع العاجل والآجل.

وينبغي أيضاً إذا أصابه مكروه، أو خاف منه، أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينية أو دنيوية، وبين ما أصابه من مكروه، فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم واضمحلال ما أصابه من المكاره، وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوث ضرر عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها، فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثيرة القوية، وبذلك يزول همه وخوفه، ويقدر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيوطِّن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يقع منها، وفي رفع ما وقع أو تخفيفه.

ومن الأمور النافعة أن تعرف أن أذيّة الناس لك، وخصوصاً في الأقوال السيئة، لا تضرُّك، بل تضرُّهم، إلا إنْ أشغلت نفسك في الاهتمام بها،

وسوَّغت لها أن تملك مشاعرك، فعند ذلك تضرُّك كما ضرَّتهم، فإن أنت لم تصغ لها بالاً لم تضرَّك شيئاً.

واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيما يعود عليك نفعه في دين أو دُنيا، فحياتك طيبة سعيدة، وإلاّ فالأمر بالعكس.

ومن أنفع الأمور لطرد الهمِّ أن توطِّن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله، فإذا أحسنت إلى من له حق عليك، أو من ليس له حق، فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله، فلا تبال بشكر من أنعمت عليه، كما قال تعالى في حق خواص خلقه:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾

[سورة الإنسان: الآية ٩]

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد ومن قوي اتصالك بهم، فمتى وطّنت نفسك على إلقاء الشر عنهم، فقد أرحت واسترحت. ومن دواعي الراحة أخذ الفضائل، والعمل عليها بحسب الداعي النفسي، دون التكلف الذي يقلقك، وتعود على أدراجك خائباً من حصول الفضيلة، حيث سلكت الطريق الملتوي، وهذا من الحكمة، وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية حلوة، وبذلك يزيد صفاء اللذات، وتزول الأكدار.

اجعل الأمور النافعة نصب عينيك، واعمل على تحقيقها، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة، لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهمّ والحزن، واستعن بالراحة وإجمام النفس على الأعمال المهمّة.

ومن الأمور النافعة حسم الأعمال في الحال، والتفرغ للمستقبل، لأن الأعمال إذا لم تحسم اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة، فتشتد وطأتها، فإذا حسمت كل شيء بوقته، أتيت الأمور المستقبلة بقوة تفكير وقوة عمل.

وينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة الأهم فالأهم، وميز بين ما تميل نفسك إليه وتشتد رغبتك فيه، فإن ضده يحدث السآمة والملل والكدر، واستعن على ذلك بالفكر الصحيح والمشاورة، فما ندم من استشار، وادرس ما تريد فعله درساً دقيقاً، فإذا تحققت المصلحة وعزمتَ فتوكل على الله إن الله يُحِبُّ المتوكِّلِين.

تمت هذه الرسالة

والحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

# فهرس المجموع الخامس
# (ثقافة إسلامية)
# المجلد الثاني

## طريق الوصول إلى العلم المأمول ٣ ـ ٢٩٢
## (قسم: المختار من كتب شيخ الإسلام)

## (قسم: المختار من كتب العلامة ابن القيم)



## الأدلة القواطع والبراهين ٢٩٣ ـ ٣٩٦

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

٦ الخُطب

# المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- الخطب المنبرية على المناسبات
- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية
- مجموع خطب الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في المواضيع النافعة

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# الخُطبُ المنبريَّة على المناسَبات

بسم الله الرحمن الرحيم

# إيضاح

الحمد لله على ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والنعم الظاهرة والباطنة، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد: فهذه خطب منبرية سوى الخطب التي نشرناها سابقاً تبع المناسبات.

# خطبة
# في الاعتصام بالله من الشيطان

الحمد لله الذي جعل لنا من الإيمان والتوكل السبب العاصم الأقوى، ومن الأوراد الشرعية حصناً حصيناً نستدفع به الأعداء، وحذّرنا مسالك الشيطان وطرقه. فهو نعم النصير ونعم المولى.

وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، ذو العظمة والكبرياء، وذو الفضل العظيم والرحمة الواسعة والنعمى.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد الرسل وإمام الأصفياء. اللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه النجباء. وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. واستعدوا كل وقت لمحاربة عدوكم مستعينين بالملك الكافي، فقد أخبركم بما توعدكم به عدوكم الملازم لكم كل وقت وحين:

**﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** [سورة الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧]

وقال: **﴿يا بني آدم لا يَفْتِنَنَّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾** [سورة الأعراف: الآية ٢٧]

**﴿ولا تَتَّبعوا خطواتِ الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**

[سورة البقرة: الآية ١٦٨]

فحققوا رحمكم الله الإيمان بالله والتوكل عليه لتعتصموا به من هذا العدو المبين. فـ

**﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولَّوْنه والذين هم به مشركون﴾**

[سورة النحل: الآيتان ٩٩، ١٠٠]

فمن صدق الله ورسوله وأطاعهما، فقد حقق الإيمان. ومن قوَّى اعتماده وثقته بالله فقد حقق التوكل عليه، والله نعم العون لمن به استعان. وقال تعالى آمراً بهذين الأصلين:

**﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾** [سورة المُلْك: الآية ٢٩]

**﴿قل هو ربي لا إله إلّا هو عليه توكلت وإليه متابِ﴾**

[سورة الرعد: الآية ٣٠]

فالزموا هذين الأمرين ظاهراً وباطناً، فما خاب من توكل عليه وإليه أناب. وحافظوا على قراءة المعوذتين عند المساء والصباح. وأكثروا من ذكر الله فإنه دافع للأعداء ومحصل للفلاح. وليقل أحدكم: «ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربِّ أن يحضرونِ». «أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن طوارق الليل وطوارق النهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رب». فلقد سعد من اعتصم وتوكل على الرحمن، فسلم بحفظ الله من نزغات الشيطان. ولقد خاب من أعرض عن ربه فافترسته الأعداء.

**﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا﴾** [سورة الكهف: الآية ٥٠]

بارك الله لي ولكم.

# خطبة
# بعد نزول الغيث

الحمد لله الذي أجزل لعباده الفضل والإنعام. وغمرهم بجوده وإحسانه العام.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له، ذو الجلال والإكرام. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنام. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله حق تقواه. واشكروه على آلائه وكرمه ونعماه. قال تعالى:

**﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** [سورة إبراهيم: الآية ٧]

**﴿الله الذي يرسل الرياح﴾** [سورة الروم: الآية ٤٨]

إلى آخر الآيات. وقال تعالى:

**﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾** [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقال ﷺ: (إن الله ينظر إلى عباده أزلين قنطين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب). فهو سبحانه يبتلي عباده بالمكاره وحبس الغيث لعلهم أن يرجعوا إليه ويثوبوا، ويلجأوا إليه ويتضرعوا ويتوبوا. فيكون ذلك كفارة لخطاياهم، وداعياً لهم إلى الانكسار لمولاهم. فإنه لا ملجأ ولا منجى للعباد منه إلا إليه، ولا معول لهم في كل الأمور إلا عليه. فهو ينعم عليهم بتقدير بلائه، ثم يتفضل ببسط جوده وعطائه. يبتليهم بالمصائب ليصبروا، ثم يبدلها بالنعم ليحمدوه ويشكروا. اذكروا حالكم السابقة إذ كنتم أزلين قد حسبتم للجدب كل حساب. فأصبحتم مغتبطين بمنة الملك الوهاب. أنزل عليكم غيثاً مغيثاً هنياً. فعم الأراضي بعد الجدب والعطش الشديد رياً. ولم يزل

بعباده رؤوفاً رحيماً لطيفاً حفيًا. ولم يزل يوالي خيراته على عباده شيأً فشيا. فطوبى لمن كان لنعمه شاكراً وبعهده وفيّاً. وويل لمن توالى عليه النعم فيصبح طاغياً متمرداً عصيّاً.

عباد الله، تأملوا هذه النعم التي تتوالى عليكم تترى. فكلما جدد لكم ربكم نعماً فجددوا له حمداً وشكراً. وكلما صرف عنكم المكاره فقوموا بحقه طاعة له وثناء وذكراً. وسلوا ربكم أن يبارك لكم فيما أعطاكم، وأن يتابع عليكم منافع دينكم ودنياكم، فإنه الجواد المطلق الرؤوف بالعباد، فليس لخيره ولا لخزائنه نقص ولا نفاد. بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## في الحث على تكميل الصلاة

الحمد لله الذي جعل الصلاة أعظم شرائع الإسلام. ووعد من حافظ عليها بالثواب الجزيل في الدنيا وفي دار السلام. وأوعد من ضيعها بالعقوبات المتنوعة والآلام.

وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحدَه لا شريك له ذو الجلال والإكرام.

وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله سيد الأنام. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله وحافظوا على الصلوات في أوقاتها، وإياكم والتفريط في واجباتها ومكملاتها. حافظوا على الطمأنينة والسكون في القيام والقعود، والركوع والسجود. واجتهدوا في حضور القلب والخشوع للملك المعبود. وإياكم والالتفات، فإنه نقص واختلاس من الشيطان. واحذروا كثرة الحركة، فإنها موجبة للخلل والنقصان. وإياكم ورفع البصر وإقعاء كإقعاء الكلب في القعود، ولا تفترشوا الذراعين، ومكنوا الأعضاء

السبعة في السجود. ولا تضعوا اليدين على الخاصرة أو تتمايلوا تمايل اليهود. ولا تستقبلوا أو تستصحبوا ما يشغل ويلهي، ولا تمسحوا الجباه ومواضع السجود. فإن كان لا بد فواحدة تكفي. ولا تسابقوا الإمام، فمن سابق إمامه فلا وحدَه صلى، ولا بإمامه اقتدى، ولا بنبيه اهتدى. وإذا ركع الإمام فاركعوا، وإذا سجد الإمام فاسجدوا، وإذا رفع الإمام فارفعوا، واقتدوا بإمامكم، ولا تتقدموا عليه ولا تأخروا. وإذا قرأ القرآن جهرة فاستمعوا له وأنصتوا. وإياكم والمرور بين يدي المصلين، فمن فعل ذلك فهو من الآثمين الظالمين. ومن أراد أن يمر بين يدي أحدكم فليدافعه فإنه معه القرين، يريد أن يؤثم الفاعل وينقص أجر المصلين. فإن مر بين يدي المصلي حمار أو امرأة أو كلب أسود بطلت الصلاة، إلا لمن هو وراء السترة أو مع الإمام، فإن سترته سترة لمن خلفه، وهذا من فوائد الجماعات. ومن كان حاقناً أو محتاجاً إلى طعام أو غيره فليذهب لحاجته، فإن أدرك الجماعة وإلا فقد تمَّ أجره بنيته وعذره وراحته. ومن جاء والإمام راكع فليكبر تكبيرة الإحرام وهو قائم، فمن كبرها أو أكملها وهو يهوي فصلاته باطلة، وهو آثم. ومن فاته شيء من الصلاة مع الإمام، فلا يستعجل بالقيام لقضاء ما فاته قبل تكميل السلام، وذلك لوجوب الاقتداء والائتمام. فمن حافظ على الصلاة وأكملها قبلت وصعدت إلى الله ولها نور وبرهان. ومن أخلّ بها ضرب بها وجه صاحبها وآلت إلى البطلان أو النقصان. كيف تهون صلاتك وهي رأس مالك وبها يصح الإيمان. كيف تقدم عليها حظوظ النفس وهي أكبر حظ لمن وفق للإحسان:

**﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٣٨]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## في التعرف إلى الله بالأعمال الصالحة

الحمد لله الذي جعل الأعمال الصالحة سبباً لحصول الخيرات، ومنقذة من الهلكات والشدّات.

وأشهد أن لا إلّه إلّا الله وحدَه لا شريك له في الأسماء والصفات.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل المخلوقات. اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرامات.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى وتعرفوا إليه بالأعمال الصالحة في حال الرخاء يعرفكم في الشدة، وقوموا بحقوق ربكم في كل حال ينقذكم من كل مشقة. فقد قال الله تعالى في ذكر السبب الذي أنقذ به يونس عليه السلام من بطن الحوت إذ نادى وهو مكظوم:

**﴿فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾**
[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]

وقال ﷺ: (دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلّا فرج الله كربته:

**﴿لا إلّـه إلّا أنتَ سُبحانَك إني كنتُ من الظالمين﴾**
[سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

قال تعالى: **﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**
[سورة الأنبياء: الآية ٩٨]

وقد قال يوسف عليه السلام حيث أزال الله عنه المكاره والمشقات، وأوصله إلى الخير العاجل والعز والتمكين، وجمع له بين خير الدنيا وخير الدين:

**﴿إنه من يَتَّقِ ويصبرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين﴾**
[سورة يوسف: الآية ٩٠]

وقال موسى عليه السلام لقومه:

﴿استعينوا بالله واصبِرُوا، إنّ الأرضَ للَّهِ يُورِثُها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]

فلما امتثلوا أمره واستعانوا بالله وصبروا قال الله مخبراً عما إليه وصلوا:

﴿وتمتْ كلمةُ ربِّكَ الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٣٧]

وقال تعالى مذكراً للمؤمنين حالهم مع نبيهم عليه الصلاة والسلام بعد الشدائد والاضطهاد وإبدال الخير والسكون بها:

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس فآواكم وأَيَّدَكم بنصره ورَزَقَكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٦]

وقد ذكر النبي ﷺ أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة العظيمة فسدت عليهم باب الغار، فتوسلوا بأعمالهم الصالحة إلى الملك الغفار، فأحدهم توسل ببره الكامل لأبويه، والثاني بعفته العظيمة حين ترك محبوبه مع القدرة عليه، والثالث بالوفاء بالمعاملة الذي لا نظير له فيقاس عليه، ففرج الله عنهم بهذه المقدمات الطيبة حين لجأوا إليه. وقال ﷺ (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة). فمن حفظ الله في حال الصحة والقوة والشباب، حفظه الله في كبره وأحسن له الخاتمة والمآب. فكم لله على المحسنين من فضل عظيم، وكم له على المطيعين من ألطاف وخير جسيم.

# خطبة
## في التحذير من المدارس الأجنبية المنحرفة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، تفرد بصفات الكمال وتنزه عن النقائص والأشباه والأمثال.

وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وحدَه لا شريك له، الكبير المتعال. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل العالمين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجَّلين، اللهم صلِّ وسلِّمْ على نبينـا محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين.

أما بعد: أيها الناس اتَّقوا الله بفعل أوامره وترك نواهيه، وتحببوا إليه بفعل ما يحبه ويرضيه. واعلموا أن الله مَنَّ عليكم بدين الإسلام، الذي فيه السعادة والفلاح والخير كله على التمام. أنقذكم به من الضلالة والشقا، وأرشدكم به إلى كل خير ورشد وهدى.

**﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرَّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فأَلَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حُفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**
[سورة آل عمران: الآيـة ١٠٣]

إلى **﴿عظيم﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

واحذروا أعداء الإسلام، فإنهم لا يزالون يبغون لكم الغوائـل، وينصبون لإضلالكم المصائد والحبائل. فأعظم حبائلهم مدارسُهم التي لم تؤسس إلا لإضلال الناس، ولا بُنيت إلّا لإفساد العقائد والأخلاق، فبئس الأساس. انظروا إلى آثارها ومن يتخرَّج منها كيف انسلخوا وانحلوا من الدين، وكيف كان الاستهزاء واحتقـار الدين مهنـة هؤلاء الأرذلين. فكم أخرجت هـذه المدارس المنحرفة من أبناء المسلمين من كانوا للإسلام أكبر الأعداء، ويظن

الغالطون أنها أدوية لأمراضهم، وكانت والله أعظم الداء، ويعتبرونها نافعة لهم في دنياهم، فكانت هي الشرَّ والبلاء، خرجوا منها منسلخين من أخلاقهم وآدابهم وإيمانهم، متهكمين ومستهزئين بأسلافهم وآبائهم وإخوانهم، مستبدلين من الأخلاق الجميلة كل خلق رذيل، منحرفين من الصراط السويِّ إلى منحرف السبيل.

كيف يرضى مسلم أن يختارها لأولاده وهم عنده ودائع وأمانات. وكيف يضعهم في شبكة الهلاك. فهذا أكبر الخيانات. وكيف يرضى أن يخسر ولده بسعيه واختياره، ويذهب عمله سدى بل ضرراً إذا باء بغبنه وخياره. ألم يكن عندكم وفي بلادكم من مدارس الحكومة ما يحصل به المقصود، وفيها الأساتذة المعروفون بالعلم والدين وبذل المجهود. ألم تبذل الحكومة لراحة الجميع خير مجهود. ألم تروا من آثار أعمالهم ومنفعة المتعلمين ما هو محسوس ومشهود. ففيم الرغبة بعد هذا في مدارس الأجانب التي نفعها الدنيوي طفيف بالنسبة إلى ما فيها من الأضرار، وعاقبة المتخرجين منها في الغالب الهلاك والبوار. كل تعليم لا يقوم على الدين فهو ساقط منها، وكل سعي لا يصلح الأخلاق فهو سفه وخسار، إذا ذهب الدين فبأي شيء تفرح. وإذا خسرت الأخلاق الفاضلة فبأي سلعة تربح. وإذا اضمحلت الآداب فمتى تفلح وتنجح.

**﴿ويلٌ لكل أفَّاكٍ أثيم * يسمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتلَى عليه ثم يُصِرُّ مستكبراً كأنْ لم يسمعْها، فَبَشِّرْه بعذاب أليم﴾** [سورة الجاثية: الآية ٨]

# خطبة

## في وجوب ملاحظة الأولاد

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعم الدنيا والدين، وجعلنا من أمة محمد المسلمين. ونسأله أن يعيننا على القيام بالحقوق، فإياه نعبد وإياه نستعين.

ونشهد أن لا إلّه إلاّ الله الملك الحق المبين.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين. اللهم صَلِّ وسلِّمْ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى بالقيام بحقِّه وحق من لهم حقٌّ من العباد. واتَّقُوا النار التي أعدت لمن أهمل الواجبات وارتكب الفساد. واعلموا أن مِنْ أوجب الواجبات عليكم ملاحظة الأهل والأولاد. قال ﷺ: (مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع). وقال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر). وقال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلاَّ الله، وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك فقد عَصَمُوا منِّي دماءهم وأموالهم).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلاَّ الصلاة. والصلاة هي آخر ما أوصى به النبي ﷺ في حياته. وهي آخر ما يفقد من الدين. فمن لم يصلِّ فهو من الكافرين. وقد عظم الشرُّ والبلاء في إهمالكم لأولادكم، وذلك أصل وأساس لفسادهم وفسادكم. فانظروا هل ترون أحداً منهم في المساجد إلا النادر، وكثير منهم قد لا يصلِّي أصلا، ومن لا يصلِّي فهو كافر.

عباد الله، الأمر عظيم، والخطر جسيم، والإهمال يترتب عليه شر عميم، يترتب عليه تضييع حق الله وحق الأولاد، الذين هم ودائع عندكم

وأمانات. وينشأ الجيل القادم قد اضمحل الدين منهم بتركهم الصلاة. وهذا معلق بذمة أوليائهم ومعلميهم، وبذمة الولاة. فعلى الجميع أن يقوموا بواجباتهم نحوهم، ويتساعدوا على تقويمهم وإصلاحهم، وأن يصدقوا الله في فعل الأسباب التي تعود إلى تهذيبهم ونجاحهم. فالقيام بهذا أجره عظيم، ومصالحه عظيمة. والإهمال إثمه كبير، ومفاسده جسيمة. إنكم الآن قادرون عليهم فاستدركوا الأمر قبل الفوات، قبل أن ينشأوا على ترك الصلاة وفعل الشر فيتعذر الاستدراك. كيف ترضون لأولادكم أن يؤسسوا الأساسات الضارَّة لحاضرهم ومستقبلهم القادم. وكيف تتهاونون بهذا الأمر وفيه سخط الله وعقوبته، وهو أكبر الجرائم. لئن تمادينا على هذا الإهمال فالمستقبل وخيم، ولئن لم نقم بواجبنا فالخطر عميم، ولئن لم يفعل كل منا مقدوره فالضرر جسيم، ولئن لم نتساعد على إصلاح الأولاد فالإثم لازم والعذاب أليم. يا عجباً لنا، نسعى في إصلاح الدنيا ونهمل الدين، ونضيع رأس المال فيفوت الأصل والربح، أَلَا ذلك هو الخسران المبين. عبادَ الله، أَلَا قائمٌ بما أوجب الله عليه! أَلَا مستيقظٌ لما بين يديه! أَلَا خائفٌ من سوء الحساب! أَلَا راجٍ لفضل الملك الوهاب! أَلَا مستدركٌ للفائت قبل حلول المصائب! أَلَا منتبهٌ لحاضره ومستعدٌّ للعواقب، قبل

﴿أَنْ تقولَ نفسٌ يا حسرتَىٰ على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ﴾
[سورة الزمر: الآية ٥٦]

## خطبة
## في معنى

﴿يا أيها الذين آمنوا آتَّقُوا اللَّهَ وقُولوا قولاً سديداً﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٧٠]

الحمد لله الولي الحميد. الواسع المجيد. المطَّلع على خفايا الأمور وأسرار العبيد.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَه لا شريك له ولا نديد.

وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، ورسوله المقتفى، ونبيه المجتبى. اللهم صلِّ وسلِّمْ على نبينا محمد وعلى آله الشرفا، وأصحابه البررة النجبا، وعلى كل من بهديه اقتدى.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى.

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويَغْفِرْ لكم ذنوبَكم ومن يُطِعِ اللَّهَ وسولَه فقد فازَ فوزًا عظيماً﴾**

[سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١]

لقد أمركم الله في هذه الآية بتقواه وبالقول السديد. ووعدكم على ذلك المغفرة وإصلاح الأحوال والتوفيق والتسديد. فمن اتَّقاه بفعل الأوامر واجتناب النواهي فقد فاز فوزاً عظيماً. ومن ضَيَّع تقواه واتبع هواه بغير هدى من الله أعدَّ له عذاباً أليماً. من استقام على التقوى ولزم في منطقه القولَ السَّديد، هُدِي إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد. لقد رتَّب الله على هذين الأمرين خير الدنيا والآخرة. وأنعم على من قام بهما بالنعم الباطنة والظاهرة. من اتقى الله وأعمل لسانه بذكر الله، واستعمل الخُلُق الجميل مع عباد الله، جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن اتَّقى الله ولزم القول السديد يَسَّره الله لليسرى، وجنَّبه السوء والعسرى، وغفر له في الآخرة والأولى.

**﴿ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عنهُ سيئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْراً﴾**

[سورة الطلاق: الآية ٥]

من اتقى الله زاده الله علماً وفرقاناً، وملأ قلبه طمأنينة إليه وثقة به وأمناً وإيماناً، وأسبغ عليه آلاءه فضلاً منه وإحساناً. كيف يكون متقياً لله من أهمل فرائض الله وضيعها. وتجرَّأ على محارمه وانتهكها. كيف يكون متقياً من

تجرأ على الرِّبا والغِش والبَخْس وأكل الحرام. وأطلق لسانه في الغيبة والنميمة والكذب والآثام. كيف يكون متَّقياً من لا يخفى له طمع إلّا خانه، ومن لا يراعي العهود ويؤدي الأمانة. لقد عُرِضَت الأمانة التي هي القيام بحقوق الله وحقوق خلقه على السموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأشفقن من هذه الحال، وطلبن العافية وتضرَّعْن إلى ذي العظمة والجلال. وحملها الإنسان على ظلمه وجهله وتلقَّى ما فيها من الأوامر والأثقال. فمنهم من سعد بحملها وبلغ بالقيام بها الآمال. ومنهم من ضيَّعها فباء بالخسران والنكال. أعانني الله وإياكم على القيام بالواجبات والسنن. وهدانا إلى أقوم طريق وأوضح سنن. وأعاذنا من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن. قال الله تعالى:

﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢]

إلى آخر السورة.

## خطبة
## في ختام العام

الحمد لله منشىء الأيام والشهور، ومفني الأعوام والدهور، وميَسِّر الميسور ومقدِّر المقدور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وأشهد أن لا إله إلّا الله الغفور الشكور.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفضل آمر وأجل مأمور.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه، وضاعف اللهم لهم الأجور.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى حقَّ تقواه، وتوبوا إليه وأطيعوه تدركوا رضاه.

عباد الله تصرَّمَتِ الأعوام عاماً بعد عام، وأنتم في غفلتكم ساهون نيام. أما تشاهدون مواقع المنايا، وحلول الآفات والرزايا. وكيف فاز وأفلح المتقون، وكيف خاب وخسر المبطلون المفرِّطون. ألَا وإنَّه قد تصرَّم من أيام الحياة عامٌ قد ودَّعتموه، شاهداً لكم أو عليكم بما أودعتموه. فمن أودعه صالح العمل فالخير بشراه، ومن فرط فيه فأحسن الله في عمره عزّاه. فياليت شعري على أي شيء تُطوى صحائف هذا العام: أعلى أعمال صالحة وتوبة نصوح تمحى بها الآثام، أم على ضدها فليَتُبِ الجاني إلى ربه، فالعمل بالختام؟ فاتقوا الله عباد الله واستدركوا عمراً ضيعتم أوَّلَه، فإن بقية عمر المؤمن لا قيمة له. فرحم الله عبداً اغتنم أيام القوة والشباب، وأسرع بالتوبة والإنابة قبل طي الكتاب، وأخذ نصيباً من الباقيات الصالحات، قبل أن يتمنى ساعة واحدة من ساعات الحياة. أين من كان قبلكم في الأوقات الماضية؟ أما وافتهم المنايا وقضت عليهم القاضية؟ أين آباؤنا وأين أمهاتنا أين أقاربنا؟ وأين جيراننا، أين معارفنا وأين أصدقاؤنا؟ رحلوا إلى القبور. وقلَّ والله بعدهم بقاؤنا. هذه دورهم فيها سواهم، هذا صديقهم قد نسيهم وجفاهم. أخبارهم السالفة تزعج الألباب، وادِّكَارهم يصدِّع قلوب الأحباب. وأحوالهم عبرة للمعتبرين. فتأمَّلوا أحوال الراحلين، واتعظوا بالأمم الماضين، لعل القلب القاسي يلين. وانظروا لأنفسكم ما دمتم في زمن الإمهال، واغتنموا في حياتكم صالح الأعمال، قبل أن تقول نفس يا حسرتَىٰ على ما فرَّطْت في جنب الله، فيقال: هيهات فات زمن الإمكان، وحصل الإنسان على عمله من خير أو عصيان. فنسألك اللهم يا كريم يا منَّان، أن تختم عامَنا هذا بالعفو والغفران، والرحمة والجود والامتنان، وأن تجعل عامنا المقبل عاماً مباركاً حميداً، وترزقنا فيه رزقاً واسعاً وتوفيقاً وتسديداً. اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، وأصلح لنا جميع أحوالنا. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا كل خير، والموت راحة لنا من كل شر. اللهم

اختم لنا بخاتمة السعادة، واجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة. يا كريم يا رحيم.

## خطبة
## في قوله تعالى: ﴿إنما حرّم ربـي الفواحش﴾

[سورة الأعراف: الآية ٣٣]

الحمد لله الذي أمر عباده بكل ما فيه خير لهم وصلاح، ونهاهم عن جميـع المضارِّ والأعمال القباح.

وأشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له الكريم الفتاح.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي نهى عن كل خبيث وأَذِنَ في كل طيب وأباح. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمد وعلى آله وأصحابه أولي الرَّشَد والتقى والنجاح.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بترك مساخطه ومناهيه، والقيام بفرائضه ومراضيه. فقد جمـع لكم أصول ما حرَّم عليكم في آية واحدة، وهي قوله تعالى:

**﴿قلْ إنّما حَرَّم ربِّـي الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بَطَنَ والإِثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشْـرِكوا بـاللَّهِ ما لمْ يُنَـزِّلْ بـه سلطانـاً وأن تقـولـوا على الله ما لا تعلمون﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣٣]

فهذه الآية لم تُبقِ شيئاً من المحرَّمات إلاّ شملته، ولا شرًّا وضرراً إلاّ حذَّرَتْه. حرّم الله بها الفواحش وهي كبائر الذنوب وعظائمها، ما ظهر منها: كالقتل والزنا والربا والخمر والميسر وأكل مال اليتيم. وما بطن منها: كالكبر والنفاق والحقـد والغش للمسلمين. حرم منهـا ما ظهـر للناس وشـاهدوه عيـاناً، وما اختفى صاحبه به وأسرَّه كتماناً. وحرم الإِثم، وهو كل معصية تعلقت بحق

الله. والبغي، وهو الظلم والتجرّي على عباد الله. وحذّر فيها من الشرك، وهو صرف شيء من العبادات لغير الله.

**﴿إنه من يُشْرِكْ بالله فقد حَرَّمَ اللَّهُ عليه الجنةَ ومأواهُ النارُ وما للظالمين من أنصار﴾** [سورة المائدة: الآية ٧٢]

وحرم القول عليه بغير علم في أسمائه وصفاته، وفي شرعه ودينه وقَدَره. فهذه المحرّمات التي حذّر الله منها تُهوي بصاحبها إلى أسفل الدركات، لما فيها من الشرِّ والضّرر والفساد والهلكات. فالفواحش تحلِّل الأخلاق، وتوجب غضب الخلاق، ويعجل لصاحبها الفضيحة والخزي في الدنيا، مع ما ادخر له من العقوبة في الأخرى. والمعاصي والمآثم تخرب الديار العامرة، وتسلب النعم الباطنة والظاهرة. والمشرك بالله قد خسر دينه وعقله ودنياه، فإنه محرم عليه الجنة، والنارُ مصيرُه ومأواه. خلقه ربه فعبد سواه، ورزقه فشكر غيره واتبع هواه، وأنعم عليه بأصناف النعم فتمرد عن طاعة مولاه. ومن تقوَّل على الله بغير علم فقد تجرأ على أمر فظيع، ولم يخش من هو مطلع عليه سميع. فاعرفوا رحمكم الله حدود هذه المحرمات، واجتنبوها فإنها تفضي إلى الهلكات. وتوبوا إلى ربكم من مقارفة الخطيئات. فكل من تاب تاب الله عليه، وكل من أقبل على ربه آواه وقربه إليه. فيا من عافاه الله منها هنيئاً لك السعادة والفلاح، ويا فوزك بالخيرات الكثيرة والأرباح. أجارني الله وإياكم من الفواحش والمآثم والعدوان، وحَفِظَنَا من الشك والشِّرك والتجرِّي والطغيان، وغمرنا بالعافية والرحمة والإحسان، فإنه الرب الكريم المنان.

# خطبة
# في حفظ اللسان

الحمد لله الذي له الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله.

وأشهد أن لا إلَه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل مخلوقاته.

اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمد وعلى آله وأصحابه المقتدين به في كل حالاته.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بالمحافظة على مراضيه، وحفظ الجوارح كلها عن مساخطه ومناهيه. واعلموا أن أهم ما يجب حفظه والعناية به اللسان، فإنه يكب صاحبه إذا لم يحفظه في النيران، وقد يرقيه إلى أعلى مراتب الإيمان. قال ﷺ: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه؛ وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يظن أن تبلغ ما بلغت، يُهوِي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب). وقال ﷺ: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتبَ عند الله كذّاباً). وقال ﷺ: (تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه). وقال ﷺ: (أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق. أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ الأجوفان: الفم والفرج). وقال ﷺ: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، وتقول: اتق الله فينا، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا). وقال ﷺ: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش

ولا البذيء). وقال ﷺ: (لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضب الله، ولا بالنار). وقال ﷺ: (لا تُظْهِرِ الشماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك). وقال ﷺ: (اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، وأوفوا إذا وعدتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم). وقال ﷺ: (ما تعدون المفلس فيكم)؟ قالوا: «من لا درهم له ولا متاع»، فقال: (إن المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وصدقة، ويأتي وقد ظلم هذا، وضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، أخذ من سيئاتهم فألقيت عليه، ثم طرح في النار).

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وقُولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أعمالَكُم ويغفِرْ لكُمْ ذنوبَكُم، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيمًا﴾**
[سورة الأحزاب: الآية ٧٠، ٧١]

## خطبة
## في آداب الأكل واللباس

الحمد لله الملك الوهاب، الذي شرع لنا أكمل الشرائع وأحسن الآداب، في العبادات والمعاملات واللباس والطعام والشراب.

وأشهد أن لا إلَه إلَّا الله وحدَه، لا شريك له، الملك التوّاب.

وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله خير الخلق ولبّ الألباب.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم إلى يوم الحشر والمآب.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله حقَّ تقواه، وراقبوه مراقبة من يعلم أنه يسمعه ويراه، وتأدَّبوا بآداب نبيِّكم واهتدوا بهداه. فقد قال ﷺ: (اجتمعوا

على طعامكم وسمُّوا الله يبارك لكم فيه). وقال ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها). وقال ﷺ: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله، وإنه ليستحل الطعام الذي لا يذكر اسم الله عليه). وقال ﷺ: (إذا دخل أحدكم بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء). وأمر ﷺ بلعق الأصابع بعد الطعام. ونهى عن الأكل والشرب والإنسان متكىء. وكان لا يذم الطعام، بل إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وقال: (كلوا من جوانب الصحفة، ولا تأكلوا من وسطها، فإن البركة تنزل في وسطها). وكان ﷺ إذا فرغ من طعامه قال: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين). وكان يتنفس إذا شرب ثلاث مرات، يُبِين الإناء من فمه ويحمد الله ويسمِّي. وقال: (أغلقوا الأبواب إذا أمسيتم واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم واذكروا اسم الله، وخمروا أوانيكم واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليه عوداً وأطفئوا مصابيحكم واذكروا اسم الله). وقال ﷺ (من جرّ إزاره خُيَلاء لم ينظر الله إليه. وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، ومن أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام وَرَزَقَنيه من غير حول منِّي ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا وَرَزَقَنيه من غير حول منِّي ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه). وقال ﷺ (من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي خَلَق فتصدق به: كان في كنف الله وفي حفظ الله وفي ستر الله حيًّا وميتاً). وقال (كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة، إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه، إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود:

**﴿يا بني آدمَ خذوا زينتَكم عند كل مسجد، وكُلوا وآشْربوا ولا تُسْرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ )** [سورة الأعراف: الآية ٣١]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة

## في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٨]

الحمد لله الذي جعل القيام بطاعته خير الوسائل. وحصول مغفرته ورحمته أفضل المقاصد والمطالب الكوامل.

وأشهد أن لا إلَه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له، ولا نِدَّ ولا مماثل.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوثُ بالحق الظاهـر وأوضـح الدلائل. اللهم صلِّ وسلِّم على محمد، وعلى آله وأصحابه أُولي المقامات العالية والفضائل.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به ويغفرْ لكم واللَّهُ غفورٌ رحيم﴾**

[سورة الحديد: الآية ٢٨]

فوعد من قام بالإيمان والتقوى ثلاثة أمـور: وعدهم المغفـرة؛ والرحمـة المضاعفة؛ والعلم الذي هو النور. فيالها من ثلاثة، ما أجلَّها وأعلاها، وما أعظم حظّ من نالها وتبوَّأ علاها. أتدرون ما هو الإيمان، وما هي التقوى؟ اللذين من قام بهما نال النجاة وفاز برضى المولى؟

الإيمان: أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وأما التقوى: فأَنْ تعملوا بطاعة الله على نور من الله ترجون ثواب الله، وأن تتركوا معصية الله على نورٍ من الله تخشَوْن عقاب الله. إذا وقر الإيمان في القلب: صدقته الأعمال. وإذا استقام العبد: صَلُحت له جميع الأقوال والأفعال. ليس الإيمان بالتسمِّي الخالي من الحقيقة والبرهان. إنما الإيمان هو اعتقاد القلوب وأعمالها، وأعمال الأركان، والقيام بشرائع الإسلام وأصول الإيمان وحقائق الإحسان. قال تعالى:

**﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم وإذا تُلِيت عليهم آياتُهُ زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يُقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾** [سورة الأنفال: الآيات ٢ ــ ٤]

رزقنا الله وإياكم إيماناً كاملاً ويقيناً. وَوَهَبَ لنا من نعمه ما يقربنا إليه ويدنينا. إنه جواد كريم.

## خطبة
## في تزكية النفس

الحمد لله الذي فتح لأوليائه أبواب الخيرات، وأسبغ عليهم الهباتِ الواسعةَ والمبراتِ، وخذل المعرِضِين عنه فبقيت قلوبهم في الظلم والضلالات.

وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله، فاطر الأرض والسموات، الغني بذاته المغني لجميع المخلوقات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أكملُ البريات. اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرامات.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى بإصلاح البواطن والظواهر، وتقرَّبوا إلى ربكم بطيب المقاصد وحسن السرائر. قال تعالى:

﴿قد أفلـح من زكَّاها * وقد خاب من دسَّاها﴾
[سورة الشمس: الآيتان ٩، ١٠]

وقال ﴿قد أفلـح من تزكَّى * وذكر اسم ربه فصلَّى﴾
[سورة الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]

فعلّق الفَلَاح على من زكَّى نفسه وطهَّر قلبه من كل خلق سافل. وذكر اسم ربه فصلّى وتحلّى بالفضائل، وجعل الخيبة والخسارة على من دسَّ نفسه فخمسها بالرذائل، ما جعل الفَلَاح لمن زكَّى نفسه إلَّا لأنه عظيم. وبحصوله للعبد يتم كل خير عميم. فرحم الله عبداً اعتز بصلاح قلبه فنقَّاه من مرآة الخلق. وزكَّاه بالصدق والإخلاص للحق. نقَّاه من العُجب والتعاظم والتكبر على الناس. وحلَّاه بحلية التواضـع التي هي خير لباس. نقَّاه من الغش والغِل والحقد. وجَمَّلَهُ بإرادة الخير والنصـح لكل أحد. نقَّاه من الميل إلى المعاصي. وهو مرض الشهوات. ومن أمراض الشكوك والريب والشبهات. وجَمَّلَه بالعقل الراجـح لفعل الخيرات. والإقلاع المصمِّم الصادق عن المحرمات. وسعى في العلوم النافعة الجالبة لليقين وتحصيل الأدلة الصحيحة والبراهين.

فبذلك يتم شفاؤه من الأهواء والأدواء، وبذلك يحصل فلاحُه ويستقيم على الهدى. ولا يحصل له ذلك إلَّا بتوفيق وإعانة من المولى. قال تعالى:
﴿ولولا فضلُ اللَّهِ عليكم ورحمتُهُ ما زَكَى منكم من أحدٍ أبداً ولكنَّ اللَّهَ يزكِّي من يشاءُ واللَّهُ سميـعٌ عليم﴾ [سورة النور: الآية ٢١]

وكان ﷺ يتضرَّع إلى ربِّه في طلب التقوى وتزكية النفس من كل رديء فيقول (اللهم آتِ نفسي تَقْواها وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها). فحقيق بك أيها العبد الجدُّ في تزكية نفسك لتنالَ الفلاح، وتستعينَ الله على إصلاح قلبك فإنه الجواد الفتَّاح. فإن الله لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنما ينظر برحمته إلى القلوب الطاهرة وصادق الأعمال.

# خطبة
# في الحثِّ على إكرام البهائم والنهي عن أذيتها

الحمد لله الرحيم الرحمن. الملك الكريم الديَّان.

وأشهد أن لا إلّه إلّا الله وحدَه لا شريك له في الملك والربوبية والسلطان، ولا نِدَّ له في الألوهية ولا في الكرم والإحسان، ولا مِثلَ له في كمال العدل والقسط والميزان.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى الإنس والجان. اللهم صلِّ وسلِّم على محمدٍ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله بالإحسان في عبادته، وآحْنُوا على المخلوقات. واتَّقوا الظُّلم فإن الظلم يوم القيامة ظلمات، وآرحموا هذه المخلوقات التي سخَّرها لكم المولى. فمن رَحِمَهَا وأحسن إليها: جُوزي بالحسنى. ومن أساء إليها أوعذَّبها: فله عاقبة الشرِّ والسوْأى. فقد أخبر ﷺ أن امرأة عُذبت في هرة حَبَسَتْها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض. كما أخبر أن بَغِيًّا غفر الله لها جرمَها بكلبٍ رحمته فَسَقَتْهُ وأنقذته. وقال ﷺ (في كل كبدٍ رطبة أجرٌ).

وإنَّك لن تنفقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلَّا آجَرَكَ الله عليها. فهذه حال من رحم أو أهان البهائم التي لا ملك له عليها. فكيف ببهائمه التي يجب عليه القيام لها. فخير الناس: أحسنهم ملكةً وقياماً بالواجب، وشرهم: سيِّىء الملكة الذي لا يخشى العواقب.

واشتكى إلى النبي ﷺ جملٌ بأن صاحبه يجيعه ويتعبه. فقال ﷺ (ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إيَّاها. قد شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه. فكل من أجاع بهائمه وآذاها. فإنها تشتكي إلى ربِّها وناصرِها ومولاها).

وقال ﷺ (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة. ومن لا يرحم لا يرحم).

فالسعيد من حنا على هذه البهائم المسخَّرات، وقام عليها بما عليه من واجب النفقات.

والشقيُّ من نُزِعَت الرحمة من قلبه فآذاها وشتمها، وأجاعها وأتعبها بغير حق وظلمها. فمن لعن شيئاً من البهائم عادت لعنته عليه. ومن أجاعها أو شَقَّ عليها شَقَّ الله عليه. ومن رحمها فأكرمها: أكرمه ربه وأنعم عليه. فسبحان من أكرم هذا الآدمي وسخَّر له الأنعام يتمتع بمنافعها وألبانها، ولحومها وظهورها على الدوام. فمن شكر الله على هذه النعم بارك له فيها وزاده من الخير والإنعام. ومن لم يعترف بنعمة الله فيها سلبها وحَلَّت عليه الآلام.

أوزعنا الله وإياكم شُكْرَ أياديه. ومنَّ علينا بالاعتراف بها بالقلب واللسان واستعمالها في مراضيه. وعافانا من حال من كفر بنعم الله وجحد آلاء الله فحل به البوار. ووقع في الخيبة والخسار. إنه كريم رحيم غفَّار.

## خطبة
## لرمضان وفضله غير ما تقدم

الحمد لله على ما له من الأسماء الحسنى والمُثُل الأعلى، وما خلقه وحكم به في الأولى والأخرى.

وأشهد أن لا إلٓه إلَّا الله وحدَه لا شريك له، وله تُرفع الشكوى.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه المصطفى، ونبيُّه المجتبى.

اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمد، وعلى آله وأصحابه العلماء الفضلاء النجباء.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله حقَّ تقواه. وذلك باجتناب مساخطه وتتبع رِضاه. وبالشكر له على ما أولاه من النعم وأسداه. فقد أمدَّكم الله بهذا الشهر الكريم. وأسبغ عليكم فيه كرمه العميم. أنزل الله فيه القرآن. محتوياً على الهدى والخير والبيان. فيه تفتح أبواب الرحمة والخيرات. وفيه تغلق أبواب الجحيم وتتوب العصاة من السيئات، وينادي فيه منادي الخير: يا باغي الخير أَقْبِلْ على الطاعات. ويا باغي الشر أَقْصِرْ وتُبْ عن المخالفات. ولله عتقاءُ مِنَ النار، وذلك في كل ليلة عند الإفطار. فتعرَّضوا لنفحات المحسن الغفَّار. فمن جمع بين الإمساك عن المفطرات، وأمسك عن الأقوال والأفعال المحرَّمات، واحتسب الثواب عند فاطر الأرض والسموات غفر له ما تقدم من ذنبه ورفعت له الدرجات، ومن تجرأ على المعاصي والمظالم. وانتهك فيه الأعراض وخاض المآثم. فليس لله حاجة في أن يدع الطعام والشراب والشهوات.

فإن الله كتب الصيام على هذه الأمة ليكونوا من المتَّقين، وليستعينوا بترك شهواتهم على إصلاح الدين. قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فأخبر أن الصيام أكبر الوسائل لتحقيق التقوى. وفيه كمال الثواب ورضى المولى. فقد اختصه الله لنفسه من بين سائر الأعمال. فقال ﷺ (كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. يقول الله: إلاّ الصيام فإنه لي وأنا أجزي به. يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي). (وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه). و(لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائم أطيبُ عند الله من ريح المسك).

الصوم جُنّة: أي وقاية من المعاصي ووقاية من العذاب وسبب لنيل

الفضائل وحصول الثواب. فيا له من عمل عظيم تولّى جزاءَه الرحمـان. وغمر أهلَه بالجود والكرم والإحسان. وهيأ عند دخولهم الجنة لهم باب الريان. يُفْضُونَ منها إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، في جوار الرب الكريم. قد أعد لهم من كرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على القلوب. وهيأ لهم ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين من كل مطلوب ومرغوب. أعدّه نُزُلاً وضيافة للصائمين. وكرامة ومنحة للمتقين. كما قال تعالى في حق هؤلاء المحسنين:

**﴿كُلُوا وٱشْرَبوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾**

[سورة الحاقّة: الآية ٢٤]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## حينِ حلَّ الجراد على الناس واجتاح كثيراً من أثمارهم

الحمد لله الذي يبتلي عبادَه بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، ويختبرهم في المنـع والعطاء. وله الحكمة والرحمة فيما قَدَّر وقضى. وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله الذي لا ترفـع الشكوى إلاّ إلَيه. وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه المصطفى، وخليلُه المرتضى. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ، وعلى آله وأصحابه الأتقيـاء.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى وكونوا لنَعْمائِه شاكرين، ولابتلائه واختباره صابرين محتسبين. فإن الله قضى أن يبتليَ عبـادَه فيما يحبُّـون ويكرَهُون، لينظرَ كيف يعملون: هل يصبرون أو يجزعون. قال تعالى:

**﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبَشِّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلواتٌ مِنْ رَبِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾**

[سورة البقرة: الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧]

فأخبر أنه لا بد أن يبتليَ عبادَه بشيء من هذه المذكورات. ووعد الصابرين بالرحمة والهدى والصلوات. فله الحكمة التامة والرحمة السابغة في تقديره المصيبات.

انظروا إلى هذا الجند الضعيف كيف يستبدُّ بأرزاق الآدميين والبهائم، ليعرف العبادُ فقرَهم إلى ربِّهم وضعفهم عن هذا الجند الغاشم، فليس له سوى لطف الكريم دافع ومقاوِم، ومع ذلك على كثرته لو سُلِّط لَضَرَّهم ضررًا كبيرًا، ولكن الله لطف وخفف. فكان الضرر يسيرا، فلئن أتلف كثيراً من الخضر والثمار. فلقد بقي للعباد خير كثير ونعم غزار، ومع ذلك فليبشر الصابرون المحتسبون بالثواب الأجل والخلف العاجل، وبالبر والإحسان والخير المتواصل وليتضرعوا إلى ربهم في دفع المكاره والنوازل، وليتوبوا إليه من جميع الذنوب، ويلجأوا في أمورهم كلها إلى علَّام الغيوب. قال تعالى:

**﴿ظهر الفسادُ في البر والبحر بما كَسَبَتْ أيدي الناس ليذيقَهم بعضَ الذي عملوا لعلَّهم يرجعون﴾** [سورة الروم: الآية ٤١]

وقال: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكُم ويعفو عن كثير﴾**
[سورة الشورى: الآية ٣٠]

اللهم يا ذا الجلال والإكرام، يا بديع السموات والأرض، يا حيّ يا قيوم. خذ بأفواه هذا الجند عن معائشنا ولا تكلنا إلى حولنا وقوتنا. فإنا فقراء عاجزون، محتاجون إلى دفعه ومضطرون.

اللهم ادفع عنا من البلاء ما لا يدفعه سواك، فإنا لا نستعين بغيرك ولا نرجو إلّا إياك.

اللهم أجبر مصيبة من أصيب بشيء من الخضر والثمار، وتفضَّل عليه بالخلف العاجل والخير المدرار.

اللهم بارك لنا في أموالنا وحروثنا وثمارنا، وبارك لنا في أعمالنا وأولادنا وأعمارنا.

اللهم أغدق علينا من كرمك العميم. وأسبغ علينا من فضلك العظيم، يا جواد يا كريم.

## خطبة
## في وجوب الاستعداد بالفنون الحربية

الحمد لله الذي أمرنا بأخذ العدة للمعتدين، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء الكافرين، وبالاستعداد الكامل لحماية الدنيا والدين، وبالاحتياط من كل وجه لحفظ بلاد المسلمين، نحمده ونستنصره، وهو نعم المولى ونعم المعين، ونستغفره من الخطايا وهو خير الغافرين.

ونشهد أن لا إله إلاَّ الله، الملك الحق المبين.

ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، الصادق المصدوق المصطفى الأمين.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: أيها الناس: اتقوا الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبالتقرب إليه في كل ما يُحبُّه ويرضيه. واعلموا أن القيام بالدين والجهاد. فيه قوام الأمور وصلاحها. وأخذ الحذر ومقاومة الأعداء به كمال الأحوال ونجاحها. فقد أمر الله رسوله بالجهاد في نصوص كثيرة، ورتَّب عليه خيرات وأجوراً غزيرة، وما لا يتم المأمور به من وسائله فهو داخل في المأمور، ومترتب عليه ما فيه من الخيرات والأجور، لا يقوم الجهاد إلاّ بتعلم العلوم الحربية، والتفنن بالفنون العسكرية والتدريب على القوة والشجاعة، والحزم في أمور الحرب وعدم الإضاعة. قال الله تعالى:

**﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخَرِين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

تلا رسول الله ﷺ هذه الآية على المنبر وحثَّ الناس على العمل بها وقال: (ألا إنّ القوة الرمي ـ ثلاث مرات). وقال ﷺ حاثًا لأمته على القوة والشجاعة والتداريب العسكرية ووسائلها (ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا).

يا عجبًا لنا معشر المسلمين كيف أهملنا هذا الأصل العظيم من أصول ديننا، وكيف ضيَّعنا هذا الفَرْض الذي لا تستقيم الأمور إلاَّ به، تجدنا لا نحسن الرمي والركوب ولا فنون الجهاد، وليس عندنا اهتمام بتنظيم الجيوش التي تحمي الدين والبلاد، بهذا يقع التخاذل والضعف والهوان، وبهذا يتسلط علينا الأعداء في كل مكان. قال ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد. سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه حتى تراجعوا دينكم). أخبر ﷺ أن الناس إذا اشتغلوا بالدنيا وانكبوا على أسبابها وأهملوا الاستعداد للجهاد وأخذ الحذر من عدوهم: وقع في قلوبهم الجبن والوهن والضعف، وسلطت عليهم الأعداء؛ لقد وقع ما أخبر به ﷺ. فعلى المسلمين أن يتوبوا إلى ربهم ويستدركوا أمرهم، ويستعدوا لعدوهم بكل ما استطاعوا من قوة مادية وقوة معنوية. ومن أهم الأمور في هذه الأوقات تعلم النظم الحربية، والفنون العسكرية التي تهيىء للمسلمين جيشاً مخلصاً منظماً مدربًا تتم به حماية الدين. ويوقف المعتدين عند حدِّهم ويرهب الكافرين، ولا يكونون عالة على غيرهم، عُزَّلاً من السلاح والتعاليم النافعة والاجتهاد. فإنه لا تحصل القوة إلاَّ بتنظيم الجيوش وتدريبها على الشجاعة وفنون الحرب والجهاد، ومقاومة الأعداء لحماية الدين والبلاد.

فاجتهدوا رحمكم الله في تحقيق هذا الأصل الذي أهملتموه، وتعلَّموا

وعلِّموا أولادَكم هذا الفرضَ الذي طالما أضعتموه، لعل الله يمدكم بعونه وعنايته، ويحفظكم بلطفه وحفظه ورعايته. قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا معهُمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بالغيب إن الله قويٌّ عزيز﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]

أخبر الله تعالى أن دين الإسلام إنما يقوم بالعلم الشرعي، والجهاد، والقوة، والسلاح، والحديد. فكل واحد منها يمد الآخر بمعونة العزيز الحميد. أما ترون أهون الأمم حين أهمل المسلمون هذه الأوامر قد استولوا على كثير من أوطانهم، ولا يزالون طامعين فيهم؟ إن بقوا على تفرقهم وتخاذلهم وهوانهم؟

فاتقوا الله عباد الله، وقوموا بهذا الفرض الذي تنبني عليه جميع الواجبات، وبوسائله ومكملاته من جميع النواحي والجهات. فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين (ومن مات ولم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو: مات على شعبة من النفاق). قال الله تعالى:

﴿ولا تَهِنُوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تأْلَمُونَ فإنَّهم يألَمُون كما تألَمُون وتَرْجُون مِنَ اللَّهِ ما لا يرجون وكان اللَّهُ عليمًا حكيمًا﴾

[سورة النساء: الآية ١٠٤]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## في الفرق بين العلم النافع والعلم الضارّ

الحمد لله الذي جعل العلوم النافعةَ رافعةً لأهلها إلى أعلى الدرجات. كما أن العلومَ الضارَّةَ هابطةٌ بهم إلى أسفل الدركات.

وأشهد أن لا إلَه إلاَّ الله وحدَه، لا شريك له، كامل الأسماء والصفات.

وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسولُه أشرف المخلوقات.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آله وأصحابه أُولي الفضائل والكرامات.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله وتعلَّموا ما ينفعكم في الدنيا والدين. قال تعالى:

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟﴾

[سورة الزمر: الآية ٩]

وقال: ﴿إنما يخشى اللَّهَ مِنْ عبادِه العلماءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

وقال: ﴿وقل ربِّ زِدْني عِلمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤]

ومن دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع). قسم ﷺ العلم إلى نوعين: نوع نافع لأهله في الدنيا والدين. ونوع ضارٍّ لحامليه وهابط بهم أسفل سافلين. إنما تعرف العلوم والمعارف بآثارها، وبما يترتب عليها من منافعها أو مضارِّها. للعلوم النافعة والضارَّة علامات سأبديها:

العلوم النافعة تطهر القلوب وتزكِّيها، وتُكَمِّل الأخلاق الفاضلة وتنمِّيها، تدعو أهلها إلى الإيمان والرغبة في الخيرات، وتحذِّرهم من الشرور ومصارع الهلكات؛ تدعو إلى الإخلاص وخفض الجناح للمؤمنين، وتحمل على التواضع ومحبة الخير لكافة المسلمين.

أما العلوم الضارَّة: فإنها تدنِّس النفوس وتُوسِيها، وتميت الأخلاق الفاضلة ولا تحييها. تحمل أهلها على الكِبْرِ والعُجْبِ والغرور، وتوجب الأشَرَ والبَطَرَ وأنواعَ الشرور. صاحبها معجب بنفسه وبعقله الناقص المهين. مضرٌّ

لأهل الفضل والخير من المؤمنين. مهدر لحق من له حق وفضل على غيره وعليه، وربما احتقر من سفاهته وسقوط أخلاقه والديه. تعرف هذا النوع من الناس بسيماهم وأحوالهم، وتستدلُّ على سفاهتهم بما يبـدو من أفعالهم وأقوالهم. إذا أبدى غيرهم رأياً سديدًا، قالوا: هذا عقل عتيق سقيم، وقد أُعجبوا بعقولهم الفاسدة الداعية لكل خلق ذميم. أما علموا أن العقول لا تزكو ولا تكمل إلاَّ بالوحي والقرآن؟ ولا تكون عقولاً نافعةً حتى تغتذي باليقين والإيمان؟ قال تعالى:

**﴿إن في ذلك لآيـاتٍ لأولي النُّهى﴾** [سورة طه: الآيتان ٥٤ و١٢٨]

وقال: **﴿لآيات لأولي الألباب﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]

وهم أهل العقول الوافية والأخلاق الزاكية. محال أن توجد عقول تقارب عقل النبـي ﷺ الذي تستمد منه العقول والآراء، أو عقول أصحابه الكُمَّلِ النجباء، أو عقول السلف والأئمة الصالحين. الذين أصلحوا بعقولهم ودينهم الدنيا والدين. حَسْبُ العقول الكاملة أن تستمد من عقل النبـي ﷺ وآرائه، وتستنير بنور هديه وتوجيهه وإرشاده.

كيف تستقيم العقول إذا أعرضت عن الرشد والهدى والنور، وأقبلت على شهوات الغي والباطل والغرور؟ قال تعالى:

**﴿فلمّا جاءتهم رُسُلُهُمْ بالبيِّنات فَرِحوا بما عندهم مِنَ العِلمِ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [سورة غافر: الآية ٨٣]

# خطبة
# في الحث على أسباب الرحمة

الحمد لله ذي الفضل العظيم، والإحسان الجسيم، والبِرِّ الواسع العميم.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحدَه العزيز الحكيم.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد، وعلى آلِهِ وأصحابه ومن سَلَكَ الصراط المستقيم.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى وتعرَّضُوا لنفحات المولى الكريم، واعملوا كل سبب يوصلكم إلى فضله العظيم. قال تعالى:

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

فكلما كان العبد أكملَ إحساناً في عبادة الله، وأعظَم نفعًا لعباد الله: كان نصيبُه وافراً من رحمة الله، وأعظم الأسباب لنيل رحمته في الدنيا والآخرة: امتثالُ الأمور واجتناب المحظور مع الإيمان ومتابعة الرسول؛ كما قال الله تعالى:

﴿ورحمتي وَسِعَت كل شيء فسأكتبها للذين يَتَّقُون ويُؤْتُون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]

وقال الله تعالى:

﴿وأَطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

وقد فتح المولى أبواب الرحمة للتائبين والعابدين، وبسط فضله وإحسانه

للداعين والمتضرعين، ولهذا لما تبوَّأ أهلُ الجنة منِازلَهم في جنات النعيم. قالوا: مبينين السبب الذي أوصلهم إلى هذا الخير العميم

﴿إنَّا كُنَّا مِنْ قبلُ ندعوه إنه هُوَ البَرُّ الرّحيم﴾

[سورة الطور: الآية ٢٨]

وقال ﷺ، معرِّفًا للعباد بربهم حاثًّا لهم على عبادته وسؤاله، والتعرض في كل وقت إلى نواله (يد الله ملأى سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يقض ما في يمينه). وفي بعض الآثار يقول الله تعالى:

(أَيُؤَمَل غيري للشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم. ويُرجَى غيري ويُطرأ بابُه بالتكبرات وبيدي مفاتيح الخزائن وبابي مفتوح لمن دعاني؟ من ذا الذي أَمَّلني لنائبة فقطعت به؟ أم من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت رجاه؟ أم من ذا الذي طرق بابي فلم أفتح له وأنا غاية الآمال؟ فكيف تقطع الآمال دوني؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة، والكرم والفضل كله لي فما يمنع المؤملين أن يؤملوني؟ لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع، وبلغت كل واحد أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة. كيف ينقص ملك أنا قيومه فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني وتوثب على محارمي. أنا الجواد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق، وأين عن بابي يتنحى العاصون).

قال الله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ــ الآية﴾

[سورة التوبة: الآية ١١٨]

بارك الله لي ولكم.

# خطبة
## في الاعتدال باستعمال العلاجات

الحمد لله الذي مَنْ توكَّلَ عليه كفاه، وَمَنْ طلب الشفاء منه شَفَاه، ومن عمل بالأسباب النافعة صَلُحَ دينُه ودنياه.

وأشهد أن لا إلّه إلَّا الله وحدَه، لا شريك له ولا رب سواه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله في جميع الأوقات. وتوبوا إلى ربكم من الذنوب والهفوات. واعلموا أن التوسط في الأمور هو العدل والخير المرغوب، وأن التطرف شذوذ وآنحراف عن المطلوب، فما ندم من توسَّط في أموره ولا خاب، ولا سَلِمَ مَنْ شَذَّ وتطرَّف فَغَلاَ أو قَصَّرَ من سوء المآب. قال تعالى:

**﴿وكُلُوا وآشْرَبوا ولا تُسْرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**

[سورة الأعراف: الآية ٣١]

وقال تعالى: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قواماً﴾** [سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فقد حثَّ المولى على الاقتصاد في الأكل والشرب والإنفاق. وكل ما كان في معنى ذلك ففي ذلك الخير والبركة والارتفاق. وراعُوا ــ رحمكم الله ــ صحة أبدانكم وقلوبكم براحة القلب وحسن الغذاء، واستعملوا النظافة والرياضة تَسْلَموا من كثير من الأدواء، واعتمدوا على ربكم ولا تستعملوا العلاج إلاّ عند الحاجة إلى الدواء. فما أنزل الله داءً إلَّا جعل له شفاء، ولكن الأمور كلها بقصد وحكمة وميزان، فكما أن ترك التداوي مع الضرورة نقصٌ وتهور من الإنسان. فكثرة العلاجات مع الصحة أو المرض البسيط نقص وضرر على

القلب والأبدان، لقد ابتلي كثير من الناس بكثرة الخيالات والتوهمات وصار الخوف نصب أعينهم في كل الحالات يعتقدون أن الأمراض البسيطة ثقيلة، وربما توهموا وجود المرض وليس لذلك حقيقة؛ وسبب ذلك ضعف القلب وعدم التوكل وكثرة الأوهام؛ فأمراض القلوب وخوفها وضعفها جالب لكثرة الأسقام. قال تعالى:

**﴿ومن يتوكَّلْ على الله فَهُوَ حسبُهُ﴾** [سورة الطلاق: الآية ٣]

أي: كافيه أمورَ دينِهِ ودنياه؛ وقال:

**﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فلا كاشفَ لهُ إلاَّ هُوَ، وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لِفَضْلِهِ يصيبُ به مَنْ يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفورُ الرحيمُ﴾**

[سورة يونُس: الآية ١٠٧]

فاحذروا أن تنقطع صلتكم بالله، وتضعف قلوبكم، فإنه المتكفل بجميع حاجاتكم، وهو إلَهكم ومطلوبكم. فمن توكل على ربه في دفع ما نَزَلَ به كفاه ولطف به، وشفاه وعافاه، وأذهب عنه ضعف القلب وخوفه، الذي هو الداء، وجلب له الأسباب النافعة والدواء. ألم تعلموا أن ضعف القلب وكثرة أوهامه هو الداء العضال، وقوة القلب مع التوكُّل على الله صفة أقوياء الرجال؟ فكم من أمراض ضعيفة صيَّرتها الأوهام شديدة؟ وكم من معافىً لعبت به الأوهام فلازمه المرض مدة مديدة؟ وكم ملئت المستشفيات من أمراض الأوهام والخيالات؟ وكم أثرت على قلوب كثير من الأقوياء فضلاً عن الضعفاء في كل الحالات؟ وكم أدت إلى الحمق والجنون؛ والمعافى من عافاه من يقول للشيء كن فيكون. فصحة القلوب هي الأساس لصحة الأبدان. ومرض القلوب هو المرض الحقيقي والله المستعان. فَسَلُوا ربَّكم أن يعافيكم من الأمراض الباطنة والظاهرة، وأن يُتِمَّ عليكم نِعَمَ الدِّين والدنيا والآخرة. قال الله تعالى:

**﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وَهُوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾** [سورة النحل: الآية ٩٧]

# خطبة
## في صفة السابقين إلى الخيرات

الحمد لله الذي مَنَّ على من شاء من عباده بفعل الخيرات وترك المنكرات.

وأشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وحدَه، لا شريك له، كامل الأسماء والصفات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أشرفُ المخلوقات.

اللَّهم صَلِّ وسلِّم على محمدٍ وعلى آله وأصحابه، والتابعينَ لهم في الأقوال والأفعال والاعتقادات.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بتصديق خيره وامتثال أمره واجتناب نهيه، فقد وصف الله الأخيار من خلقه بهذه الصفات. قال تعالى:

**﴿إن الذين هم من خَشية ربهم مُشفقون * والذين هُمْ بآياتِ ربِّهم يُؤْمنون * والذين هم بربِّهم لا يشركون * والذين يُؤْتُون ما آتَوْا وقلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى ربِّهم راجعون * أولئك يُسارعون في الخيرات وهُمْ لها سابقون﴾** [سورة المؤمنون: الآيات ٥٧ ــ ٦١]

وَصَفَهم بكمال الإيمانِ به وبآياته، وبالإخلاص الكاملِ وتركِ الشِّرك من جميع جهاته، وبالوَجَل والخَشْية من علَّام الغيوب، بـه يُؤَدُّون الحقوق وَيَدَعُونَ الذنوب؛ أولئك الذين سارَعوا إلى كل خَيرٍ فَسَبقوا، وأولئك الذين نافَسُوا في كل فضيلة فأدركوا. قال رسول الله ﷺ حين سئل عنهم (هم الذين يُصَلُّون ويصومـون ويَتَصَدَّقون ويحجُّون ويُعْتِقُون ويخافون أن لا يُتَقَبَّلَ منهم) فقد جمعوا بين القيام بأحسن الأعمال وبين الوَجَل والخَشْية من ذي الجلال، أولئك الذين آمنوا بربهم وعرفوا ما له من الحقوق والواجبات، فاجتهدوا في أَدائها وتحقيقها، وحَذِرُوا من التقصير والهفوات، وقاموا بشروط التوبة من الندم على ما مضى والإقلاع عن المحارم، وعزموا عزماً جازماً على ترك المآثم والمظالم، وسارعوا إلى ربهم بين الخوف من عقابه وعدله، وبين

الرجاء والطمع في ثوابه وفضله، فالخوف يَرْدَعُهم عن المعاصي، والتقصير والرَّجاء يحثُّهم على الطاعة ويطيب لهم المسير، والله مرادُهم ومقصودُهم، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، والرسول إمامهم وقائدهم وهو البشير النذير والسراج المنير، فهؤلاء هم السادة الأبرار، وأولئك هم المتقون الأخيار. مَنَّ الله عليَّ وعليكم بهذه الصفات الجميلة، وحَفِظَنَا من كل خصلة رذيلة، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

## خطبة
## بعد نزول الغيث سوء ما تقدم

الحمد لله المنفرد بالعظمة والكبرياء والجلال، المتوحِّد بالربوبية والوحدانية وصفات الكمال، الذي أسبغ على عباده النِّعَمَ الجِزَال، وتعرَّف إليهم بآياته ومخلوقاته، فهي براهين على الحق دَوَال.

وأشهد أن لا إلَه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له، الكبير المتعال.

وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه أفضلُ الخلق في كل الخلال.

اللَّهم صلِّ وسلِّم على محمدٍ وعلى آله وأصحابه خيرِ صَحْبٍ وأشرفِ آل.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله وأطيعوه، واذكروا آلاءَهُ وتحدَّثوا بنعمه واشكروه، فما بكم من نعمة باطنة أو ظاهرة إلاَّ مِنَ الله، وما دفع عنكم السوء والضَّرَّاء أحدٌ سواه، ألم تروا كيف أنزل عليكم سحاباً، فروى به أودية وهضاباً. وسقى به زروعاً وأشجاراً، وأنبع به عيوناً وأنهاراً، وأخرج حبًّا وأَبًّا وثماراً، وأغدق به عليكم نعماً غِزاراً، ذلكم الله ربكم فاعبدوه، وذلكم الكريم الجواد فاعترفوا بِنِعَمِهِ واشكروه، وذلكم بأنه هو الحق في ذاته وأسمائه وصفاته فاعرفوه. قال تعالى:

﴿وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنْزَلْنا عليها الماءَ آهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيـجٍ * ذلك بأنَّ اللَّهَ هُوَ الحقُّ وأنه يُحْيِـي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ اللَّهَ يبعثُ مَنْ في القبور﴾
[سورة الحج: الآيات ٥ ــ ٧]

فأَكثِرُوا من ذكره وشكره والثناء عليه، وتوسَّلوا بنعمـه إلى طاعته وما يُقَرِّبُكم إليه، فبذلك يواصل عليكم نعمه، وبذلك يُجْزِلُ لكم عطاياه وكرمه. وقال تعالى:

﴿وإِذْ تأَذَّنَ ربُّكم لَئن شَكَرْتُم لَأزِيدَنَّكُم ولَئن كفرتُم إنَّ عذابـي لشديد﴾
[سورة إبراهيم: الآية ٧]

وإياكم أنْ تستعينُوا بالنِّعَمِ على الأشَرِ والبَطَرِ والطغيان، فإن هذا سبب العقوبة والحرمان والخسران. حفظ الله عليَّ وعليكُم نِعَمَهُ بالقيام بشكره وطاعته، وأعاننا على ذكره وشكرِه وحسن عبادته، وجعل ما أنعم علينا من الخيرات معونةً على ما أمر به من الطاعات.

## خطبة
## في رسالة محمد ﷺ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى والعلم واليقين، وأيَّدَهُ بالأدلَّة القواطـع والبراهين، وجعله هُدًى ورحمة للعالمين.

وأشهد أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ الملكُ الحق المبين.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه إمام المتقين وأشرف المرسلين.

اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله بمعرفة الحق وآتِّباعِه، ومعرفة الباطل واجتنابه. فإن اللَّهَ أرسلَ محمداً ﷺ رحمةً لجميـع العالمين، وهدًى لجميـع

المتقين. أرسله بكل علمٍ نافـع، ودليلٍ صادق. وهدًى نافـع. علَّم به بعد الجهالة، وَهَدَى به من الضَّلالة. ما بقي علمٌ من أصولِ الدين وفروعه إلاَّ بَيَّنَهُ، ولا قاعدةٌ وأصلٌ من علوم الكون إلاَّ أسَّسه واحتله. فالعلم الصحيـح ما قام عليه الدليل. والنافـع من العلوم والمعارف ما جاء به الرسول. شريعته الكاملة هيمنت على جميـع الشرائـع السابقة وتَمَّمَتْها. وسنَّتُه وضَّحت أمورَ الدين والدنيا وبَيَّنَتْها. فهي في غاية العدل والحسن لقوم يعقلون

﴿وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنون﴾

[سورة المائدة: الآية ٥٠]

فأحكامه في العبادات والمعاملات أحسنُ الأحكام، حَكَمَ بأنَّ كلَّ طيِّب حَلالٌ نافـعٌ، وكلَّ خبيثٍ فهو مُضِرٌّ حَرَام. وقد احتضنت علومُه وشريعَتُه كلَّ علمٍ وعملٍ نافـعٍ صحيـحٍ. وأتت بما يوافق العقول الصحيحة والفِطَرَ المستقيمةَ. فلم يأتِ ولَنْ يأتي علمٌ صحيـحٌ ينافي ما جاء به الرسول، بل جميعها تشهد له بالحق والصدق. وكلها تعترف له بالكمال والفضل والسبق.

فالعقول تهتدي وتقتدي بأقواله وأفعاله. وتعترف بافتقارها إليه في كل أحواله. فهو ﷺ أعظم الخلق حلماً وصبراً. وأكثـرهم عفواً عن الخلق وصفحـاً، وأجمعهم لجميـع المحاسن والكمـالات، وأكرمهم في الخيـر والمعروف وبذل الهبات. وهو الذي جمـع الكرم والإحسان بعلمه وعمله وحاله وماله.

وهو الذي أرشد العباد للحق في جميـع أحواله، وبذلك ملأ قلوب أمته رحمة وبرًّا وإحساناً، وأوصلهم إلى الفلاح والسعادة سرًّا وإعلاناً. لم يبقَ خيرٌ إلّا علَّمهمْ به ودلَّهم عليه، ولا شرٌّ إلاَّ حذَّرَهُم منه. دلهم على مكارم الأخلاق وحذرهم من الكريهات، وأحبَّ لهم البصيرة النافذة عند حلول الشبهات. واستعمال العقل الكامل عند ورود الشَّهَوات. والشجاعة في كل شيء، ولو على قتل المؤذِيات، والسماحة ولو بكفٍّ من تَمرات.

# خطبة
# في شُعَبِ الإيمان

الحمد لله الذي جعل الإيمان به أصلَ الأصول، وبَلَّـغَ مَنْ قام به غايةَ المُنى والقَبُول.

وأشهدُ أن لا إلَه إلاَّ اللَّهُ الذي سمَّى نفسَه المؤمن. فإنه الحامد المُثْنِي على نفسه المُتَفَرِّد بالكمالات، المصدِّق لأنبيائه ورسله بالأدلـة القواطـع والبراهين الساطعات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه أكملُ من قام بأصول الإيمان، ودعا إلى حقائق اليقين ومقامات الإحسان. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه على توالي الزمان.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بالقيام بأصول الإيمان وشرائـع الدين. وأَصْلِحوا بذلك ظواهركم وبواطنكم كل وقت وحين.

فقد قال ﷺ (الإيمان بضـعٌ وسبعونَ شعبة فأعلاها قول: لا إلَه إلاّ الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).

فذكر ﷺ العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ. ومثَّل مِنْ كلٍّ واحدٍ منها بمثال. فأصل الأصول قولُ العبدِ صادقاً مخلصاً: لا إلَه إلاَّ الله. فهي أصل الدين وأساسه ومنتهاه؛ نعترف بأنه المستحق للألوهيـة، وهي جميـع المحامـد والكمالات، وللإخلاص في العبودية في كل الحالات. ومثَّل بالحياء الذي عليه تستنير أعمال القلوب، ومراقبة علام الغيوب، فيستَحْيِـي العبدُ من ربِّه أن يراه حيث نهاه، أو يفقِدَه حيثُ أمره. فمن استحيا مِن ربِّه حقَّ الحياء حَفِظَ القلبَ وما وعى. والرأسَ وما حوى. وعرف ما خُلِقَ لَهُ مِنْ عبادةِ ربِّه، فآثر ما يبقى على ما يفنى. ومثل بإماطة الأذى عن الطريق تنبيهاً على أن الإحسان إلى الخلق يجلب مصالِحَهم ودفـع أذاهم، من أعظم ما يقرب العباد إلى ربهم ومولاهم.

فجميع شعب الإيمان ترجع وتدور على ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف، فهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليومِ الآخر، والقدر خيره وشره، والقيام بشرائع الإسلام من الشهادتين، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومِ رمضان، وحجٍّ البيت الحرام، والإحسانِ إلى الوالدين والأقارب والجيران والمماليك. والحُنُوِّ على اليتامَى والمساكين والغرباء وجميع العالمين، والبعد عن جميع المربقات واستعمال المعروف مع كل أحد في كل الحالات.

قال تعالى: ﴿**إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربَى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون**﴾
[سورة النحل: الآية ٩٠]

بارك الله لي ولكم.

# خطبة
## في سير الشريعة

الحمد لله الذي جعل القيام بالشريعة طريقاً للنجاة، وضَمِنَ للمطيعين له ولرسوله كمالَ الأجرِ وعُلُوَّ الدَّرجات.

وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، المتفرد بالكمالات.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أكملُ المصطَفَيْنِ من جميع البريَّات.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين له في كل الحالات.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقُوا الله تعالى بفعل ما أَمَرَ بِهِ، وتَرْكِ ما عنه نهى. فقد حكم الله لمن قام بذلك بالنجاة من المهالك وحسن الجزاء. ورَتَّبَ الفَلاَحَ وَوِرَاثَةَ الجنَّاتِ لمن آمن به واتَّقى. قال الله تعالى:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * قَدْ أفلحَ المؤمنون * الذين هُمْ في صلاتهم خاشِعُون * والذين هُمْ عَنِ اللَّغْوِ معرضون * والذين هم للزَّكاة فاعلون * والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون * إلاّ على أزواجِهم أو مَا مَلَكَتْ أيْمانُهم فإنَّهُمْ غيرُ ملومين * فمنِ آبتغَى وراءَ ذلِكَ فأولئكَ هم العادُون * والذين هُمْ لأماناتهم وعهدِهِمْ راعون * والذين هم على صَلَواتِهِمْ يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفِرْدوسَ هُمْ فيها خالِدون﴾
[سورة المؤمنون: الآيات ١ ــ ١١]

وقال مُعاذُ بنُ جَبَل: (يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنـةَ ويباعِدُني عن النار. قال: لقد سألتَ عن عظيمٍ وإنه ليسيرٌ على من يَسَّرَ الله عليه. تعبدُ اللَّهَ ولا تشرِكُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ. وتُؤْتي الزكاة، وتصومُ رمضانَ، وتَحِـجُّ البيتَ. ثم قال: ألَا أَدُلُّكَ على أبواب الخير: الصوم جُنَّة، والصَّدَقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل. ثم تلا قوله تعالى:

﴿تتجافَى جنوبُهُم عن المضاجـعِ يَدْعُـونَ رَبَّهُم خوفاً وطمعاً، وممَّا رزقناهم يُنفِقون * فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [سورة السجدة: الآيتان ١٦، ١٧]

ثم قال: ألَا أُخْبِرُكَ برأسِ الأمرِ وعمودِه وذُروةِ سَنامِه؟ قلت: بلى. قال: رأسُ الأمرِ الإسلام، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سنامِه الجهادُ في سبيل الله. ثم قال: ألا أخبرك بِمَلَاكِ ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسان نفسه، فقال: كُفَّ عليك هذا. قلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذ، وهل يَكِبُّ النـاسُ في النارِ على وجـوهِهِم أو مناخِرِهم إلّا حصائد ألسنتهم؟).

فانظروا رحمكم الله إلى هذه الأعمال التي جعلها الله ورسولُه وسيلةً لجميـع الخيرات. فإنها في غاية السهولة خالية من الصعوبة والمشقَّات.

فاجتهدوا في الاتصاف بها فهي أفضل الزاد. واستعينوا بربكم في العمل بها، فما خاب من استعان برب العباد، وما نجح من نجح إلّا بالقيام بهذه الأعمال، وبها السعادةُ في الدنيا والآخرة وصلاحُ الأحوال.

وفَّقَنِي اللَّهُ وإياكُم لأحسنِ الأعمال والأخلاق، وَحَفِظَنَا من مساوئها فإنه الجوادُ الخلاَّق.

## خطبة
## في أصول الدين

الحمد لله المعروف بأسمائه وصفاته، المتحبِّبِ إلى خلقِهِ بجزيلِ هباتِه.

وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللَّهُ وحدَه لا شريك له، المُتَفَرِّد بالألوهية والوحدانية، المتوحد في العظمة والكبرياء والمجد والربوبية.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أكملُ الخلق في مراتب العبودية، وأعلاهم في كل خصلة حميدة فهو خير البرية.

اللهم صلِّ وسلِّم على محمدٍ وعلى آله وأصحابه الأخيار. وعلى التابعين لهم بالأقوال والأفعال والإقرار.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، وآعْلَموا أَنَّ الله خلَقكُم وأَمَرَكُم بمعرفته وعبادته، وحثَّكم على إخلاص الدين وتحقيق طاعته.

قال تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُونِ﴾
[سورة الذاريات: الآية ٥٦]

وقال: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربَّكُمُ الذي خلَقَكُمْ والذين مِنْ قَبلِكُم لعلَّكم تتقون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

وقال: ﴿اللهُ الذي خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لِتَعْلَموا أَنّ اللَّهَ على كل شيء قدير وأنّ الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً﴾

[سورة الطلاق: الآية ١٢]

وقال: ﴿فاْعلمْ أنَّه لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ، واستغْفِرْ لِذَنْبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ واللَّهُ يعلمُ متقلَّبَكُمْ ومَثْواكم﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]

وذلك أنه يجب علينا أن نؤمنَ ونعترفَ أنَّ اللَّهَ هُو الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ لجميع الأمور، المتفضِّلُ على عباده بالنِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ، نِعمِ الدُّنيا ونعمِ الدين. وأنه الموصوف بسعةِ الرحمة وشمولِ الحِكمة والعلمِ المحيط الشامل. المنعوتِ بالعظمةِ والكبرياءِ والعزِّ الكاملِ. الحيِّ القيومِ الذي لا ينام ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القِسطَ ويرفَعُهُ ويرفعُ إليه عملَ الليلِ قبلَ عمل النهار، وعملَ النهار قبلَ عملِ الليل على الكمال والتمام. حجابُه النورُ لو كَشَفَهُ لأحرقَتْ سبحاتُ وجهِهِ ما آنتهى إليه بصرُه مِنْ خَلْقِه، فهو الغنيُّ المطلقُ، وَمَنْ سِواهُ إليه فقير، وهو القويُّ العزيزُ، ومن سواه عاجز ذليل. وهو الجوادُ الكريم، فلا غنًى لأحدٍ عن كرمه طرفة عين

﴿وهو اللَّهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ لَهُ الحمدُ في الأولى والآخرةِ وَلَهُ الحكمُ وإليه تُرْجعون﴾ [سورة القصص: الآية ٧٠]

ونؤمن أن الله الذي لا إلّه إلا هو فهو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

فكما أنه لا ربَّ ولا خالقَ ولا مُنعِمَ سِواه، فليس للعباد إلّهٌ ومعبودٌ إلَّا الله. فمن أخلص له الدين في ظاهرِهِ وباطنِهِ فهو الموحِّد حقًا. ومن صَرَفَ شيئاً من العبادة لغيره فهو المشرك صِرْفاً قال تعالى:

﴿إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ باللَّهِ فقدْ حرَّمَ اللَّهُ عليهِ الجَنَّةَ ومأواهُ النارُ وما للظالمين مِنْ أنصار﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢]

وقال: ﴿فَٱدْعوهُ مُخلصينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٥]

الحمد لله رب العالمين.

فليس لنا معبودٌ سواه، فلا نستعينُ إلّا به، ولا نَعْبُدُ إلّا إياهُ، فهو الإلهُ المقصودُ بالتألُّهِ والحبِّ والتَّعْظِيم. وهو المقصود لقضاء الحاجات وتفريج الكربات وكل أمر عظيم

﴿يسألُهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ كلَّ يومٍ هُوَ في شأنٍ﴾

[سورة الرحمن: الآية ٢٩]

﴿أَمْ مَنْ يجيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ويجعلكُمْ خُلفاءَ الأرضِ؟ أ إلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قليلاً ما تَذَكَّرون﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢]

ونؤمن بنزول ربِّنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا، كما أخبر به الصادقُ المصدوقُ الذي لا ينطق عن الهوى. مع أنه العليّ الأعلى. الذي على العرش استوى. وعلى الملك احتوى

﴿وإنْ تَجهرْ بالقولِ فإنَّهُ يعلَمُ السِّرَّ وأخفى * اللَّهُ لا إلَهَ إلَّا هُوَ لَهُ الأسماء الحُسنى﴾ [سورة طه: الآيتان ٧، ٨]

ونؤمنُ أنَّ المؤمنين يرونَ ربَّهم في جنة المأوى، فرؤيته ورضوانُه أكبرُ نعيم يُجزِلُ لهم المولى.

ونشهدُ أنَّ القرآنَ تنزيلُ ربِّ العالمين، نَزَلَ به الروحُ الأمين، على قلب النبيِّ الكريمِ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، فهو كلامُ اللَّهِ حقًّا مُنزَلٌ غيرَ مَخْلوق. فهو الهدى والرحمة والشفاءُ والنورُ، وعليه المدارُ في الأصولِ والفروعِ والأحكامِ كلِّها وجميعِ الأمور.

ونشهدُ أنَّ اللَّهَ حقٌّ، وقولَهُ حقٌّ، ووعدَهُ حقٌّ، ولقاءَه حقٌّ، والنبيِّينَ حقٌّ، ومحمدًا حقٌّ.

﴿وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ اللَّهَ يبعثُ مَنْ في القُبُور﴾
[سورة الحج: الآية ٧]

فيجازيهم بأعمالهم إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، فيثيبُ الطائعينِ بفَضْله، ويعاقبُ العاصينَ بحكمته وعَدله

﴿والوزنُ يومئذٍ الحقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فأولئك هُم المُفْلِحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينُهُ فأُولئكَ الذين خَسِرُوا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يظلِمُون﴾
[سورة الأعراف: الآيتان ٨، ٩]

ونؤمنُ بجميعِ ما جاء به الكتابُ والسُّنةُ من أحوال اليوم الآخر، والشفَاعة، والحوض، والميزان، والصراط، وصحائف الأعمال. وما ذكر من صفات الجنة والنار. وصفات أهلهما؛ كل ذلك حقٌّ لا ريب فيه. وكلُّه داخلٌ في الإيمان باليومِ الآخر.

والحاصلُ أَنَّنا نؤمنُ باللَّهِ وملائكَتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخر. والقدرِ خيرِه وشرِّه. إيماناً مجملاً شاملاً. وإيماناً مفصَّلاً في كتابِ ربِّنا وسُنَّةِ نبينا.

ونسأله تعالى أن يثبتنا على ذلك. ويميتنا ويحيينا عليه. إنه جواد كريم.

## خطبة
## حين زادت الأمطار وخيف الضرر
## ثم أقلعت واستبشر الناس

الحمد لله اللطيف المنان، الرؤوف الرحيم الرحمن، ذو الكرم الواسع والجود، والخير المتتابع الممدود.

وأشهد أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له المعبود، الواحدُ الأحدُ الفردُ الصَّمَدُ المقصود.

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، خيرُ مُرْسَلٍ وأشرفُ مولود. اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمد وعلى آله وأصحابِه والتابعين لهم في الصدور والورود.

أما بعد: أيها الناس، اتّقوا الله تعالى لعلكم ترحمون. واذكروا آلاء اللَّهِ لعلكم تُفْلحون، وآشكروه على تتابع فَضْله لعلكم تُكْرَمون. أَنعمَ عليكُم بهذا الغيث الغزير، وأسبغَ عليكُم بهذا الكرم الواسع الكثير. فلم يزل يتابعُه حتى رُوِيت الأراضي وامتلأت الغُدران. حتى إذا خَشِيَ الناس منه الضَّرر والطغيان، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ من الخوف والهموم والأحزان. أَمَرَهُ المولى أن يُقلِعَ عنكم بلطفه وإحسانه، ونَشَرَ عليكم رحمَته برأفَتِه وحنانِه. فأصبح الناس بهذا وبهذا مستبشرين. وبنزوله ثم بإقلاعه فَرِحين. فكانتِ النعمةُ في إمساكه كالنِّعمة في إنْزَاله، فلم يزل العبدُ يتقَّلبُ بنِعَمِ ربِّه في كل أحواله. فاشكروا ربَّكم شكراً كثيراً، وسبِّحوه بُكرةً وأصيلا، وتوسَّلُوا بنِعَمِهِ وإحسانِهِ إلى طاعته واتِّباع رِضْوانِه. فمن شَكَرَ اللَّهَ بقلبه ولسانِه وعملِه فليُبْشِرْ بالمزيد. ومن قابل النِّعم بالغفلة والمعاصي فالعقاب شديد. والعباد في غاية الضعف والفقر والاضطرار. ولا ثباتَ لهم على حالةٍ ولا قوةَ ولا آصْطِبار، إذا تباطأ الغيثُ يَئسوا وقَنِطوا. وإذا تَتَابَعَ عليهم قَلِقُوا وجَزِعُوا. فعليهم أن يلجأوا في أمورهم كلِّها إلى المولى. ويسألوه اللطف في مواقع القدر والقضاء. فتعرضوا لألطاف المولى بالتضرُّعِ والدُّعاء. وآقصدُوهُ في حالةِ السَّراء والضَّرَّاء.

دخل رجلٌ والنبيُّ ﷺ يخطُبُ يومَ الجمعة فشكا إليه الضرر. فقال: يا رسول الله، هلكتِ الأموال، وجاعتِ المواشي، وتقطعتِ السُّبُل. فآدْعُ اللَّهَ أن يغيثَنَا. فرفع ﷺ وهو يخطب، فقال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا. قال أنس: فلا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، حتى نشأت سحابة من وراء سلع مثل التِّرس، فانتشرت وأمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس من الجمعة إلى الجمعة.

ثم دخل رجل وهو يخطب في الجمعة الأخرى. فقال: يا سول الله. هلكت الأموال، وانقطعت السبل، وتهدمت الأبنية، فادع الله أن يمسكها.

فرفع يديه وهو يخطب. فقال: اللهم حوالينا ولا علينا. اللهم على الآكام والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر. فانجاب السحاب عن المدينة، مثل الإكليل. فخرجوا يمشون في الشمس.

فانظروا هذه الآيات، الدالّة على كمال قدرة الله وتوحيده، وعلى سعة رحمته وصدق رسوله

﴿اللَّهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ فتثيرُ سحاباً ـ الآيات﴾
[سورة الروم: الآية ٤٨]

## خطبة
## حين وضع مكبِّرُ الصوت في المسجد واستنكره بعض الناس

الحمد لله الذي خلق الخلائق وأحكَمَ، وشَرَع الشرائع وحلل وحَرَّمَ، وعلَّم الإنسانَ ما لم يكن يعلم.

وأشهد أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهَ، وحدَه لا شريكَ لهُ في ملكه وتدبيره، ولا ظهيرَ له في إحكام الأشياء وحسنِ تقديره.

وأشهدْ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وحبيبُه وخليلُه.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمد وعلى آله وأصحابه ومن يفعل الخيرَ ويقوله.

أما بعد: إيها الناس، اتقوا الله وأطيعوه. واعرفوا ما أنزل من الحق واتَّبعوه، فمن عرف الحَقَّ واتَّبعه فهو السعيد، ومن عرف الحق وتركه فهو الشقي الطريد. واعلموا أنّ الله أَمَرَ بتبليغ الدِّين، ويَسَّر كلَّ سببٍ يوضِحُ الحقَّ ويَبِين، فكما أن استعمال الأسلحة القوية العصرية والعناية بها داخل في قوله تعالى:

﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم مِن قُوة﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

واستعمال الوقايات والتحصينات عن الأسلحة الفتاكة، داخلٌ في قوله تعالى:

﴿وخذوا حذركم﴾

[سورة النساء: الآية ١٠٢]

والقدرة على المراكب البحرية والجوية والهوائية، داخل في قوله تعالى:

﴿ولِلَّهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنِ ٱستطاعَ إليهِ سَبيلاً﴾

[سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وجميع ذلك وغيره داخل في الأوامر بأخذِ جميع وسائل القوة والجهاد. فكذلك إيصال الأصوات والمقالات النافعة إلى الأمكنة البعيدة، من برقياتٍ، وتليفوناتٍ وغيرِها، داخلٌ في أمر الله ورسوله بتبليغ الحقِّ إلى الخلق، فإن إيصال الحقِّ والكلامِ النافعِ بالوسائِل المتنوعة مِنْ نِعَمِ الله، وترقيةَ الصَّنائعِ والمخترعاتِ لتحصيلِ المصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ مِنَ الجِهادِ في سبيل الله.

وقد أخبر ﷺ أنه لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان. ومن ضرورة تقارب الزمان تقارب المكان، وذلك بالوسائل التي قربت المواصلات بين البلدان والسكان. وقال تعالى:

﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنهُ الحقُّ﴾

[سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

يتضح بذلك أنَّ ما جاء به الرسولُ هُوَ الحقُّ والرَّشَدُ والصِّدق.

وقال تعالى:

﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُون﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦]

وقال: ﴿عَلَّم الإِنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

فسبحانَ من أخرجَ الآدميَّ مِنْ بَطنِ أُمِّه لا يعلَمُ شيئًا ولا يقدر على

شيء، وجعل لهم السمعَ والأبصارَ والعقولَ، ويَسَّر لهم كل سبب ينالون به من العلم والعمل كلَّ مأْمول.

أليس هذا من أكبر الأدلة على عظمته توحيدِه وسلطانِه، وعلى شمولِ رحمتِهِ وفضلِهِ وإحسانِه.. علَّمهم العلومَ الدينيةَ حتى صاروا هداةً مُهتدين، وعلَّمهم العلوَم الكَوْنية حتى كانوا جهابذةً مَهَرَةً مخترعين؟ فمن شكر لمولاه وخضع لجلاله كان ذلك عنوان فضله وكماله، ومن طغى وتمرد على ربه فيا سوء منقلبه ومآلِه.

## خطبة
## في الحث على لزوم الصراط المستقيم

الحمد لله الذي نَوّر بهدايته قلوب العارفين، وأقامَ على الصِّراط المستقيم أقدامَ السالكين.

ونشهد أن لا إلَه إلاّ الله وحدَه لا شريكَ له، فاياه نعبدُ وإياهُ نَستعين.

ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيِّدُ المُرسَلين وإمامُ المتَّقين وقائدُ المهتدين.

اللهم صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله بلزوم طاعتِهِ وطاعةِ رسولِه، وذلك بتصديقِ الخبرِ وامتثالِ الأمْرِ واجتنابِ الزَّجْر، فمن فعل ذلك: فقد آستقامَ على الصِّراطِ المستقيمِ، وهوالطريق المعتدل الموصل إلى جنات النعيم. فقد أمركم الله بسلوكِ هذا الصِّراطِ والاستقامة عليه. قال تعالى:

﴿وأنَّ هذا صِراطي مستقيمًا فاتَّبِعوهُ ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣]

وأَمَرَكُم أنْ تسأَلُوه وتَتَضَرَّعوا إليه في كلِّ رَكعةٍ من ركعاتِ الصلاة أنْ يهديَكُم إليه. وفي الحديث القدسي (يا عبادي، كُلُّكم ضالٌّ إلاَّ من هديْتُهُ فاستهدونِ أَهْدِكم) فكلُّ أحدٍ مضطرٌ إلى هدايةِ ربِّه في جميع أحوالِه بأن يُسَدِّدَهُ في أخلاقه وأقواله وأفعاله. قال تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِي﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٨]

ومن يتبع نبيه فهو الراشد المقتدي.

ومن دعاء النبيّ ﷺ: (اللهم آهْدِني لأحسنِ الأعمالِ والأخلاقِ، لا يهدي لأحسنها إلاّ أنتَ، وآصرفْ عنّي سيِّء الأعمالِ والأخلاقِ، لا يصرف عني سيِّئَها إلاّ أنت). وقد دعا بأربع كلمات تَجْمعُ للعبد خيرَ الدين والدنيا (اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الهُدَى والتُّقى والعَفافَ والغِنَى). فالهداية التامة هي الهداية للعلم النافع والعلم الصالح، وهو الهدى ودين الحق. فمن عرف الحقَّ فَآتَّبَعَهُ وعَرَفَ الباطلَ فآجتنَبَهُ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِراط مستقيم، ومن قام بحقوق اللَّهِ وحقوقِ عبادِهِ فهو المهتدي إلى جنات النعيم. ولهذا لمّا ذكر الله ما أَمَرَ به وما نَهَى عنه من الشرائع الكبار في قوله تعالى:

﴿قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكم عَلَيْكُم﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٠]

فعدَّدها وقال في آخرها

﴿وأَنَّ هذا صِراطي مستقيمًا فاتَّبعوه﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣]

من لَزِمَ هذا الصراطَ قَبِلَ اللَّهُ مِنه اليسيرَ مِنَ العملِ، وغَفَرَ لَهُ الكثيرَ مِنَ الزَّللِ، وجعلَ له من كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجًا، ومن كل بلاء عافيةً، وَرَزَقَهُ من حيثُ لا يَحْتَسِبُ، ومَرَّ على جِسرِ جهنَّم كلمحِ البَصرِ، وهَدِيَ إلى الطيِّبِ مِنَ القولِ وهُدِيَ إلى صراط الحميد، وإذا تبوَّا أهلُ الجنةِ منازِلَهم قالوا مغتبطين بهذه الهداية ومُثْنِينَ على ربهم بالتوفيق بها:

**﴿الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنَهْتَـدِيَ لَـوْلا أنْ هدانا اللَّهُ لَقَدْ جاءتْ رُسُلُ ربِّنَا بالحقِّ ونُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنةُ أورِثْتُمُوهَا بما كنتم تعملون﴾**
[سورة الأعراف: الآية ٤٣]

# خطبة
## في بعثة النبـي الكريم

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالنبـيِّ الكريم، وهدانا به إلى الصِّراط المستقيم، وآستنقذنا به من الضلال والعذاب الأليم.

وأشهدُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، الملك العظيم.

وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله الذي قال الله فيه:

**﴿لقد جاءكم رسولٌ مِنْ أَنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكُم بالمؤمنين رَؤُوفٌ رَحيم﴾** [سورة التوبة: الآية ١٢٨]

اللهم صلِّ وسلِّم على محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهَم في هَدْيِهِمُ القويم.

أما بعد: أيها لناس. اتَّقوا الله حقَّ تقاته، وذلك بكمال محبة النبـيِّ ﷺ وآتِّباعِ هُداه، فلقدْ بَعَثَهُ الله رحمةً للعالمين، وهُدى للمتَّقين، وحجةً على العالمين.

وكانت ولادته وهجرته ووفاته في شهر ربيع الأول، فقال ﷺ: (ألا أُخبركم بأول أمري: أنا دعوة أبـي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي).

دعوة أبـي إبراهيم إذ قال:

**﴿ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِكَ ويعلمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهم إنّك أنتَ العزيزُ الحَكيم﴾** [سورة البقرة: الآية ١٢٩]

وبشارة عيسى، إذ يقول الله عنه

**﴿وإذْ قالَ عيسى ٱبنُ مريم: يا بَني إسرائيـلَ إنّي رسولُ اللَّهِ إليكُم مُصَدِّقاً لما بين يديَّ مِنَ التـوراةِ ومبشِّراً برسولٍ يأتي مِنْ بعدي اسمُه أَحمدُ﴾**
[سورة الصف: الآية ٦]

ورؤيا أُمِّي: رأتْ أُمُّه آمنةُ بنتُ وَهْبٍ، كأنَّه خَرَجَ منها نورٌ عظيمٌ أضاءتْ به قصورُ الشَّام. وذلك تنبيهٌ على عظيم مِنَّةِ اللَّهِ به، وعموم رسالاتِه، وشمولِ نفعِه للعالمين.

**﴿قَدْ جاءكُمْ مِنَ اللَّهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ * يهَدِي به اللَّهُ مَنِ ٱتَّبـعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهم من الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ويَهْدِيهِم إلى صِراط مستقيمٍ﴾** [سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦]

فهذا النور العظيم الذي فاض على العالم برسالته أعظمُ من نـورِ الشَّمسِ والقَمر، وأنفـعُ للعبادِ من الغَيثِ الكثيرِ المُنهمر؛ نورٌ ٱستنارتْ مِنهُ المشارقُ والمغاربُ والأقطار. ملأ اللَّهُ به القلوبَ علماً ويقيناً وإيماناً، وشملَ البسيطةَ عدْلاً ورحمةً وخيراً وحناناً، طَهَّرَ اللَّهُ به الأخلاقَ مِنْ جميع الرذائل، وٱستُكْمِلَتْ به جميـعُ الفضائل، ٱستبدَلَ بِهِ المؤمنونَ بعدَ الشِّركِ إخلاصاً لله وتوحيدًا، وبعد الانحرافِ عنِ الحقِّ هدايةً واستقامةً وتوفيقاً. وبعد الفتنِ والافتراق ألفةً واعتصاماً بحبل الله، وبعدُ القطيعة والعقوقِ برًّا وصلةً، ورحمةً بعباد الله، وبعد الظلم والجور وسوءِ المعاملات، عدلاً ووفاءً بجميـع الحقوقِ والمعاملات، نور كتب به العباد بعد الفساد صلاحًا. وبعد الشقاء والهلاك فلاحًا ونجاحًا.

نور نشر عدلَه ورحمتَه على الأقطار فَصَلُحَتْ بـه الأحوالُ وكَثُـرَتِ الخيراتُ وٱنجلت به الشرورُ والهلكات. لم يزل ذلك النورُ سراجاً وهَّاجاً، إذْ أَهْلُهُ به متمسِّكون. وبِنُـوره مُقْتدون فلمـا استبدَلـوا بهذا النـور الظُّلَمَ

والـظُّلُمات. وانفصلوا أو كـادوا أن ينفصلوا من حبله المتين، وتقـاطعـوا وتدابروا، وتباغضوا وتنافروا، وذهبت عنهم الغيرة الدينية، والنَّخوة القومية، وتباينت الأغراض، وكثرت الأضرار. جاءهم ما كانوا يوعدون به من العقوبات العاجلة، وتكالبت عليهم الأعداء، وتشتّت الأصدقاء. فلم يزالوا في نزول مطرد، ما داموا معرضين عن تعاليم هذا الدين. ولا يزالون في هبوط ما داموا متعشقين لأحـوال المنحرفين، ولا والله ينقـذهم مما هم فيـه من الشقاء إلاّ الرجوعُ إلى دينهم الكفيل لهم بكل خير وصلاح، ولا ينجيهم مما وقعوا فيه إلا التمسك بحبل الله، والاجتماع على القيام بدين الله.

فاتقوا الله عباد الله، وقوموا حق القيام بدين الله. فمن اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه قائماً بالأسباب النافعة كفاه، ومن آعْتَصم به وبحبله حَفِظَه من الشرور وحَمَاه، ومن أخلص له الأعمال بلَّغه مِنْ كُلِّ خيرٍ غايتَه ومُنْتهاه، ومن أعرضَ عن أمرِهِ فلا يَلُومَنَّ إلاّ نفسه إذا لقي حَتفَه وذلك بما قَدَّمَتْ يداه.

والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

# الفواكه الشهية في الخطب المنبرية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مقدّمَة

الحمْدُ للَّهِ عَلَى نِعمه وأشهدُ أنّهُ اللَّهُ الذي لا إلـه إلا هو وأنَّ محمداً عبدهُ ورسُولهُ. وبعدُ، فهذه خطبُ استجدَّتْ، بعدَ ما جَمعْنا الخُطَبَ السابقَةَ ونشرناها، أحْبَبنا جَمعها ونَشْرهَا لِتعمَّ الفائِدةُ، ولوْ كانَتْ في موضوعٍ واحدٍ أو مواضيعَ متقاربةٍ. اكتَفيْنا بالخُطَبِ الأُوَل لما فيها وللَّهِ الحْمدُ منْ حُصُولِ المقصودِ؛ ولكنْ هذه الخطبُ كالأولِ جمعتْ بين الوعظِ والتعليمِ والتوجيهاتِ للمنافِع ودفعِ المضارِّ الدينيةِ والدنيويةِ بأساليبَ متنوعةٍ والتفصيلاتِ المضطرِّ إليها كما ستَراهُ.

ونسألهُ تعالى أنْ يجعلَ عمَلَنا خالصاً لوجهِهِ موافقاً لما يحبُّهُ ويرضاهُ نافعاً لنا ولغيرنا إِنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

## ١ ـ خطبة

### في الحث على التقوى وبيان حدِّها وفوائدها

الحمدُ للَّهِ المتَفَرِّدِ بعظمَتِه وكبريائه ومجدِه * المدبِّرِ للأمور بمشيئته وحكمته وحمده * وأشهدُ أن لا إلـه إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في ألوهيتِه وربوبيتِهِ وفضلهِ ورِفدِهِ * وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسُولهُ خيرُ داعٍ إلى هداهُ ورشدِه * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارك على محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ وأتباعِه وجندِهِ * أما بعدُ: أيها الناسُ، اتقوا اللَّهَ تعالى، فإنَّ تقوى اللَّهِ خيرُ لباسٍ وزادٍ * وأفضَلُ وسيلةٍ إلى رِضى ربِّ العبادِ * قال تعالى:

**﴿ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعَلْ لهُ مخرجاً * ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحْتسِبُ﴾**
[سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

فَوعَدَ المتَّقي بالفَرَجِ والخروجِ من كلِّ همٍّ وضيقٍ * وبالرِّزق الواسعِ المتيسرِ من كل طريقٍ * وقالَ تعالى:

**﴿ومنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعلْ لهُ من أمرهِ يُسراً * ذلك أمرُ اللَّهِ أنْزَلَهُ إليكُم ومن يتَّقِ اللَّهَ يُكفِّرْ عنه سيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لهُ أجْراً﴾**
[سورة الطلاق: الآيتان ٤، ٥]

فوعدَ من آتَّقاهُ أن يُيَسِّرَهُ لليُسْرى في كلِّ الأمورِ * وأن يُكفِّرَ عنْهُ السيئاتِ ويُعْظِمَ لهُ الأجورَ * وقالَ تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يجعلْ لكم فُرقاناً ويكفِّرْ عنكمْ سيئاتِكم ويغفرْ لكمْ واللَّهُ ذو الفضلِ العظِيم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٢٩]

فبشِّرِ المـؤمنين إذا اتَّقَوْه بالفُرقان * وهو العلمُ النافـعُ المفرِّقُ بين الحلالِ والحرامِ * وبتكْفيرِ السيئَاتِ ومغْفِرَةِ الآثامِ * وبالفضلِ العظيمِ من الملكِ

العلاّمِ * فإن سألتمْ عن تفسير التَّقوى التَّي هذهِ آثارُها وهذه ثمراتها وفوائِدُها * فإنَّ أسَاسَها التَّوبةُ النصُوحُ من جميعِ الذُّنوبِ ثم الإنابةُ منكمْ كلَّ وقتٍ إلى علاّمِ الغيوبِ * وذلك بالقصدِ الجازِم إلى أداء الفرائض والواجباتِ * وتركِ جميعِ المناهي والمحرَّماتِ * وهوَ القيامُ بحقوقِ اللّهِ وحقوقِ المخلوقينَ * والتَّقرُّب بذلك إلى رب العالمينَ.

علامةُ المتَّقي أن يكونَ قائماً بأصولِ الإيمان * مقيماً لِشرائعِ الإسلام وحقائِق الإِحْسانِ * محافظاً على الصلواتِ في أوقاتها مؤدِّياً للزكاة لمستحقِّيها وجهاتِها * قائماً بالحج والصِّيامِ * بارًّا بوالديه واصلاً للأرحامِ * محسناً إلى الجيرانِ والمساكين * صادقاً في معامَلتِه مع جميع المعاملِينَ * سَليمَ القلبِ منَ الكبرِ والغِلِّ والحقدِ والحسدِ * مملوءاً من النصيحةِ ومحبةِ الخيرِ لكلِّ أحدٍ * لا يسألُ إلا اللّهَ * ولا يستعينُ إلا بالله * ولا يرجُو ولا يخشى أحداً سواهُ * وقَدْ وصفَ اللّهُ المتقي وبيَّنَ ثَوابهُ في قوله:

**﴿وسَارعوا إلى مغفرةٍ من ربِكم [إلى قولِه] ونعمَ أجرُ العاملينَ﴾**

[سورة آل عمران: الآيات ١٣٣ ـ ١٣٦]

منَّ اللّهُ عليَّ وعليكمْ بتحقيقِ التَّقْوى وجَعَلَنا وإيَّاكم ممَّن اسْتَمْسكَ بالعروةِ الوُثْقى وبارَكَ لي ولكمْ في القرآنِ العَظيمِ.

## ٢ ـ خطبة

### في الحثِّ على الإحسان بمناسبة الجدْب الذي ضرَّ البوادِيَ وتَلَفَتْ به أموالهم

الحمدُ للّهِ الَّذي وعَدَ المنْفِقِينَ أجراً عظيماً وخلفاً * وأوعدَ المُمْسِكينَ لأمْوالهِمْ عنِ الخير عطباً وتلفاً * وأشهدُ أن لا إلـهَ إلا هوَ الملكُ الجوادُ * الرؤوفُ بالعبادِ * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ أفضلُ الرسلِ وخلاصةُ العبادِ * اللهم صلِّ وسلمْ وبارِك على محمَّد وعلى آلِهِ وأصحابه أولي الفَضْلِ والعِلمِ والانقيادِ.

أمّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتقوا اللّهَ حقَّ تقْواهُ * وارحموا عباده تفُوزوا بثوابـهِ وَرِضاهُ * قال تعالى:

﴿وما أنْفَقْتمْ مِنْ شيءٍ فهوَ يُخلِفُهُ وهو خيرُ الرازِقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

﴿وما تُقدِّموا لأنفُسِكم مِنْ خيرٍ تجدوهُ عندَ اللّهِ هُوَ خيراً وأعظم أجراً﴾

[سورة المزّمّل: الآية ٢٠]

وقال ﷺ: (يَنزِلُ كُلَّ صباحِ يومٍ ملكانِ يقولُ أحدُهما اللّهمَّ أعْطِ منفقاً خلفاً ويقولُ الآخَرُ اللّهمَّ أعْطِ ممْسِكاً تَلَفاً).

أيُّها الغنيّ الذي عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنْ رِزْقِهِ ومالِهِ * عُدْ على أخِيكَ المُعدمِ وترفَّقْ لحالِه * فالرَّاحمونَ يـرحمُهُم الرحمنُ * ارْحَمـوا منْ في الأرضِ يرحمكُمْ من في السماء * ارْحمـوا إخوانكمْ الـذينَ تَلِفَتْ مَواشيهمْ وقلتْ أموالهُمْ * ارْحموا عباداً اخْتلت أمُورُهم وتضعْضعَتْ أحوالهم * ارحمُوا أناساً كانُوا بالأمْسِ أغنياءَ واجدين * فأصْبحُوا منْ كلِّ ما يملِكُونَهُ مُعدمِين * ارحموا أناساً أصَابَهُم الجهدُ والفقدُ والضَّرَّاءُ * يرحمْكم الرحمنُ في حالة السراء والضراء * أيُّها المؤمنونَ ألا تثقُونَ بوعدِ من لا يُخْلفُ الميعادَ * ومنْ ليس في خيرهِ وفضلهِ نَقْصٌ ولا نفَادٌ * فإن اللّهَ وَعَدَ على الإنفاقِ الأجْرَ ومضاعَفةَ الثَّوابِ * ومدافَعةَ البلايا والنقَمِ والعذابِ * بالخلفِ العاجِلِ في المالِ والبركَةِ في الأعمالِ * ووعدَ بفتْـحِ أبوابِ الرِّزقِ وصلاحِ الأحْوالِ * فكونوا بوعْدِه واثقين * وببرِّه ومعروفِه طامِعين * فالقليلُ من الإنفاقِ مـع النيَّةِ الصالحةِ يكونُ كثيراً * وينيلُ اللّهُ صاحِبَهُ مغْفِرةً وأجراً كبيراً * قال ﷺ: (مَنْ تَصدّقَ بعِدلِ تمرةٍ من كسْبِ طيبٍ ـ ولا يقْبلُ اللّهُ إلّا الطيّبَ ـ فإنَّ اللّهَ يتقَبَّلُها بيمينه ثم يُربيها لأحدِكم كما يُربـي أحدُكمْ فُلُوَّهُ حتى تكونَ مثلَ الجبلِ العظيمِ واتَّقوا النارَ ولو بِشِق تمرةٍ. لِيتَصدَّق أحَدُكمْ من درهمهِ من دينارِه من صاعِ بُرّه من صاعِ شعيرِه. كيفَ يشبـعُ أحدُنا وأخوهُ المسلمُ جائـعُ * كيفَ يتَقلبُ أحدُنا في نَعيمِ الدُّنيا وأخوهُ معدمٌ فاقدٌ * أينَ أهلُ الرَّحْمةِ والشَّفقَةِ.

وأين منْ يقْتَحِمُ العَقَبَةَ * وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ فكُّ رقبَةٍ أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغبةٍ * يتيماً ذا مقربةٍ أو مسكيناً ذا متربةٍ * لقدْ قَستْ قلوبُنا فما ينفعُ فيها وعظٌ ولا تذكيرٌ ولقدْ قلَّتْ رغْبتُنا في الخير فما يؤثِّرُ فيها تشويقٌ ولا تحذيرٌ * أين نحن مِنْ أهْلِ الصَّدقَةِ والإحسانِ * الذينَ حنّوا بما في قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّحْمةِ على نوعِ الإنسانِ * يُسارعون إلى الخيْراتِ وإخراجِ المجئوباتِ * ويفرحونَ بالمالِ الذي يَدْفعون به الحاجاتِ والضروراتِ * ويتقربونَ بذلك إلى ربِّ السَّموات * أولئكَ الذينَ يُظِلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ الظَّليلِ * وأولئكَ الذينَ حازوا الأجْرَ والثوابَ الجَزيلَ * وسَلِموا مِن العقابِ والعذابِ الوبِيل * فليُبشروا بالخَلَفِ العاجلِ من المولى الجلِيل * وبالبرَكةِ في أعمالهمْ وأعمارِهمْ وأرْزاقِهمْ والخيرِ الجميلِ *

**﴿إنَّ الذينَ يتلونَ كتابَ اللَّهِ وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفقوا مما رزقْناهُمْ سرًّا وعلانيةً يرجونَ تجارةً لنْ تبورَ * لِيُوَفِّيَهُم أُجورَهمْ ويَزيدَهُمْ منْ فضلِه إنَّهُ غفُورٌ شكُورٌ﴾** [سورة فاطر: الآيتان ٢٩، ٣٠]

بارك اللَّهُ لي ولَكم في القرآنِ العظيم.

## ٣ ــ خطبة

### في بيانِ لطفهِ بالعبادِ عند المكارهِ

الحمدُ للَّهِ الرؤوفِ الرَّحيم * البَرِّ الجوادِ الكريم * وأشهدُ أن لا إلّه إلَّا اللَّهُ الملكُ العظيمُ له الأسماءُ الحُسنى والصفاتُ العُليا والإحسانُ العميمُ * ولهُ الرحمةُ الواسعةُ والحكمةُ الشاملةُ وهوالعليمُ الحكيمُ * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسُولُهُ الذي قالَ اللَّهُ فيه:

**﴿وإنَّك لَعلَى خُلُقٍ عظِيم﴾** [سورة القلم: الآية ٤]

اللَّهُمَّ صلِّ وسلمْ وباركْ على محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ الذينَ هُدُوا إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيمٍ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقُوا اللَّهَ تعالى فإنَّ روح التَّقْوى شكرُ المولى على نعمائِهِ * والصبرُ والرضى بمرِّ قضائِهِ * شكرهُ على المحابِّ والمسارِّ * والتضرُّعُ إليه عندَ المكارِهِ والمضارِّ * قالَ ﷺ: (عجباً لأمر المؤمنِ إنَّ أمرهُ كلَّهُ خيرٌ * إنْ أصَابتْهُ سرّاءُ شَكَرَ فكانَ خيراً لهُ؛ وإن أصابتْهُ ضراءُ صَبرَ فكانَ خيراً لهُ، وليْسَ ذلكَ لأحدٍ إلاَّ للمُـؤْمن) * واعلمُوا أنَّ في تقديرهِ للضرَّاء والمكارِهِ حِكمَاً لا تخْفى * وألْطافاً وتخفيفاتٍ لا تحدُّ ولا تسْتَقْصى * والمؤمنُ حين تصيبُهُ المكارهُ يَغْنمُ عَلَى ربِّه فيكونُ من الرَّابحينَ * يغنمُ القيامَ بوظيفةِ الصَّبرِ فيَتِمُّ لهُ أجـرُ الصَّابـرين * ويرجُـو الأجرَ والثـوابَ فيحْظى بثـوابِ المحْتسبينَ * وينتظرُ الفَرَجَ منَ الله فيحُوزُ أجرَ الرَّاجينَ لفضْلِهِ الطامعينَ * فإن أفْضلَ العبادَةِ انتظارُ الفَرَجِ العاجِلِ * ورجاءُ الثوابِ الآجِلِ * واللَّهُ تعالى يَبتَلي عباده فإذا ابْتَلى لطفَ وأعانَ * وإذا تصَعَّبَت الأمُورُ منْ جانِبٍ تسَهَّلتْ مِن نواحٍ أخرى فيها الرأفةُ والامتنانِ * أما ترونَ حينَ قـدرَ اللَّهُ بحكمتِهِ انحباسَ الغَيثِ ووقوعَ الجدْبِ في النَّباتِ * كيفَ لَطَفَ بِكم في حشْوِ هذا البلاء بِنعَمٍ متتابعاتٍ * وأيادٍ وآلاء سابغاتٍ * أنعمَ عليْكمْ بالآلاتِ الحديثَةِ التي قامتْ بها الزروعُ والحروثُ واستُخْرجَت المياهُ * وتتَابَعتْ بها النقلياتُ لجميـعِ المُؤنِ من الضروريَّاتِ والكمالياتِ ومرافِقِ الحياةِ * فلو أنَّ هذا الجدْبَ صادفَ النَّاسَ بغيرِ هذهِ الحالةِ لهلكَت الحروث وتعطَّلت النقْليات لِقِلَّةِ المواشي وعجزها * ولَوَقـعَ بالعبادِ مجاعاتٌ وأضْرارٌ وقاهُم اللَّهُ شَرَّها * كما أنَّ من ألطافه ما يَسَّرهُ للعبادِ مِنْ كثرةِ الأعمالِ المُعينَةِ على الرِّزقِ والمعاشِ * فقامَتْ بها أمُورُ الأغنياءِ والفقراءِ وتمَّ بها الانتعاشُ * فكمْ لِلَّهِ علينا مِن فضْلٍ عظيمٍ * وكم أسبـغَ علينا مِن إحْسانٍ عميمٍ * فعلينا أنْ نَشكُرَ اللَّهَ بالاعترافِ بنعمِه وأياديه * وأنْ نَتحدَّثَ بها في كلِّ ما يُسِرُّهُ أحدُنا ويبديه * وأن نسْتعينَ بها على طاعتِه ونتَّبـعَ مراضيه * وعلينا أنْ نصْبرَ ونرضى فيما يُدبِّرُهُ مولانا ويقضيه * وأن يكونَ الفرَجُ نصبَ أعيننا وقِبلةَ قلوبنا * والطمـعُ في فضْلِه غايةَ قصدنا ونهايةَ مطلوبِنا فإننا لَمْ نرجُ مخلوقاً ولا مُمْسِكاً ولا عديماً * وإنما نرجُو

ربًا غَنيّاً جواداً كريماً * لا يتَبرَّم بإلحاحِ الملحِّينَ * ولا يُبالي بكثرة العطايا وإجابةِ السائِلين * عمّ الْبرايا كلَّها بفضلِهِ وخيرِه وعطائِه * ووسِـعَ الخليقَة كلَّها بنعَمِه وآلائِه * أَمرنا بالدُّعاء والسُّؤالِ * ووعدنا عليه الإجابَةَ وكثرةَ النَّوالِ *

﴿اللَّهُ لطيفٌ بعبادِه يرزقُ مَنْ يشاء وهو القويُّ العَزيز﴾

[سورة الشورى: الآية ١٩]

باركَ اللَّهُ لي ولَكمْ في القرآنِ العظِيم.

## ٤ ــ خطبة

### في تذكيرِ الناس بنعم الدين

الحمدُ لِلَّهِ الذي مَنَّ بظاهرِ النِّعَمِ وباطِنها وفرُوعِها وأصولها * فأعْطى النفوسَ من سوابِـغِ نَعمائِهِ غايةَ مُنيتِها ومنْتهى سولِها * وأشهدُ أنْ لا إلـه إلا اللَّهُ الذي تفرَّدَ بإيصالِ الخيراتِ والمسارِّ * ودَفَـعَ العقوباتِ والمكروهاتِ والمضارِّ * وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ المُصطفى المختار * اللهمَّ صلِّ عَلَى محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه الأخيارِ وعلى التابِعينَ لهمْ بإحْسانٍ بالأقوالِ والأفْعالِ والإقرارِ * وسَلِّم تسليماً.

أما بعدُ: أيُّها الناسُ اتقوا اللَّهَ تعالى واشْكرُوا مولاكُمْ على ما خصَّكُمْ بِهِ من النِّعَمِ والآلاء * واعْلموا أنكم لا تقدرُونَ على العدِّ لهَا والإحْصاء * فاشتَغلوا بالتفكرِ بأصولِ النعَمِ وقواعِدها * وما ترتَّبَ على ذلك من ثمراتِها ونتَائجها وفوائِدها * فإنَّكُمْ إذا ألقيتمْ نظرةً على حالةِ الأمَمِ وانجرافِهِمْ عن دينِ الإسْلامِ القَويم * امْتلأتْ قلوبُكُمْ مِنْ شكرِ الرَّبِ الرحيم * الذي مَنَّ عليْكُمْ بدين الإسْلام وبالسُّنَّةِ والصراطِ المُستقيم *.

ثم إذا نظرتُمْ في المُنْتسبِينَ إلى دينِ الإسْلامِ وتفرُّقِها على ثلاثٍ وسبْعين فرقَةً كُلّها هالكةٌ إلاَّ أهْلَ السُّنَّةِ التي مَنَّ اللَّهُ عليكُمْ بها فيا لها أكبرُ مِنحةٍ وأسبـغُ مِنَّةٍ. ونقَّى لكم دِينكمْ من البِدَعِ والإشْراكِ. وسَلَّمَكُمْ مِنْ وسائِلَ الشركِ

وطرقِ الغيّ والهلاكِ. بوسائل وأسبابٍ يَسَّرها الرَّبُّ الكريمُ. حيثُ أقامَ لكمْ كلَّ إمامٍ قد استقام على الصراطِ المستقيم. فكان إمامُكم الإمامَ أحمد بن حنبَل أكبرَ إمامٍ نصرَ السُّنَّةَ والكتابَ * وبِهِ وبأصحابِهِ وأتباعِهِ ونُظرائِهِ يعرفُ السُّني مِنَ البدَعي من سائر الطَّوائِفِ والأحْزابِ. حتَّى أقام اللَّهُ شيخَ الإسْلامِ والمُسْلمينَ، أحمد بن تيْميَةَ تَقِيَّ الدّين. فجاهدَ الكُفار والمنافقينَ وسائرَ الملحِدينَ وفرَّقَ المُبْتدعينَ. وأظهرَ من صريح السنَّةِ وأعْلامها وعُلومِها ما عَجزَتْ عنْهُ مدارِكُ الأولين والآخرينَ. وسلَكَ طريقتَهُ تلامِذتُهُ وأتباعُهُ من فحولِ العلماءِ المحقِّقينَ.

حتَّى جاءت النَّوْبَةُ لِشيخ الجزيرة وإمامِها الأوَّابِ شيخِ الإسْلامِ محمَّد بن عبدِ الوهَّابِ. فقام بهذا الأمرِ أتمَّ القيامِ ولمْ يزلْ في جهادٍ مع الأعداءِ وجلادٍ. حتَّى نشرَ التوحيدَ الخالِصَ والسنَّةَ المحضةَ بينَ العبادِ. وقمعَ الشِّركَ ووسائِلهُ والبِدَعَ والفسادَ، فخلَصَت الجزيرةُ ولِلَّهِ الحَمدُ وانصبَغت بالسُّنَّة والتوحيد. وسلمَتْ بِمَساعيهِ المشكورةِ ومساعي تلاميذِهِ وأحفادِه وأنَصارِهِ من الشركِ والتَنديدِ. فلم تجدْ فيها ولِلَّهِ الحَمدُ قبة على قبرٍ ولا مشْهداً. ولا توسُّلاً بالمخلوقينَ ولا مولداً ولا معبداً. أو ليْسَ مِن أكبرِ مِننِ اللَّهِ عليْكُم وأجلِّ إحْسانِهِ الواصلِ إليكُمْ أنْ قيَّضَ لكُمْ هؤلاء السَّادةَ الغُرَرَ الذينَ حَفِظَ اللَّهُ بهم الدين الصَّحيحَ وتحقَّقَ وانتشرَ حتَّى نشأتُم أنتُمْ وآباؤُكُمْ وأولادُكُمْ تشربونَ مِن معينِ الشريعةِ أصفى شراب. وتغترِفونَ من زُلالِها أحْسن اغترافٍ. لم تدرِكوا هذا بوسيلة منْكُمْ ولا قوةِ عِلم ولا ذكاء. وإنما ذلك فضلُ اللَّهِ الذي ليسَ لهُ غايةٌ ولا انتهاء. بينما ترونَ الأقطار الأخرى محشوَّةً بالشِّركِ والكفرِ والإلحادِ الصراحِ مملوءةً مِن البدع وبناءِ المشاهِدِ على القبورِ والأخْلاقِ القِباح. فاحمدوا ربَّكمْ على هذه النِّعمِ التي لا تسْتطيعونَ لها عدًّا ولا شُكوراً واستغفروه من تقصيركم وتوبوا إليه إنَّهُ كانَ عفوّاً قديراً. وسلوه أنْ يحْفَظ عليْكُمْ أديانَكمْ. وأنْ يثبِّتكمْ على الحقِّ إلى المماتِ * وأنْ يحيِيَكُمْ في

عافيةٍ مما أحاطَ بكُم منَ الشرورِ والأمورِ المهلِكـاتِ. إنَّهُ قـريبٌ مجيبُ الدعوات

﴿فادعوهُ مخلصينَ لهُ الدِّينَ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمِينَ﴾

[سورة غافر: الآية ٦٥]

باركَ اللَّهُ لي ولكُم في القرآنِ العظِيم.

## ٥ ـ خطبة

### في أنَّ الجزاء من جنس العملِ وأسباب شرح الصَّدْر

الحمدُ للَّهِ الذي شرحَ صُدور الموفقِينَ بألـطافِ برِّه وآلائـه. ونوَّرَ بصائرهم بمشاهدةِ حِكَمِ شرعِهِ وبديـع صنْعِه ومحكَمِ آياتِه. وألهَمهُمْ كلمةَ التقْوى وكانوا أحقَّ بها وأهْلَها. فسبحانَهُ من إلَه عظيم. وتباركَ من ربٍّ واسـعٍ كريم. وأشهدُ أن لا إلـه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وخيراتِه. وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ أشْرفُ رسُلِه وخير بريَّاتِه. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ في غُدُواتِ الدَّهرِ ورَوْحاتِه.

أمَّا بعْدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى واعلموا أنَّ سعَادَةَ الدُّنيا والآخرةِ بصلاحِ القلوب وانشراحِها. وزوالِ همُومِها وغُمومها وأتراحها. فالزمُوا طاعة اللَّهِ وطاعةَ رسُولِهِ تُـدْركُوا هـذا المطلوبَ. واذكُـروا الله كثيراً ألَا بـذِكرِ اللَّهِ تطمئنُّ القلوبُ. أما علِمْتُم أنَّ الإقبالَ على اللَّهِ رغبةً ورهبةً وإنابةً في جميـع النوائبِ والحـالاتِ أعظمُ الأسبابِ لانشراحِ الصدورِ وطمـأنينة النفـوسِ وإدراكِ الغاياتِ. وأنَّ الإعراضَ عن اللَّهِ والإكبابَ على الشهواتِ نارٌ تَلظَّى في القلوب وخسرانٌ وحسراتٌ. وأنَّ السعْيَ في طلب العِلْمِ النَّافـعِ مـع النِّيَّةِ الصَّـادقة من أكبْـر الطاعـاتِ. وبـهِ تـزولُ التَّبِعـاتُ والجهـالاتُ والأمـورُ المعضلاتُ. وأنَّ تَنوُّعَ العبْدِ في السعْي في نفـع المخلوقينَ، في قوله وفعْلِه ومالِه وجاههِ، يُصلـحُ اللَّهُ به أمُورهُ في الدُّنيا والدِّين. ومن كانَ في حاجةِ أخيه

كانَ اللَّهُ في حاجتِهِ. ومن نفَّسَ عن مُـؤمنٍ كُرْبةً من كربِ الدُّنيا نفَّس اللَّهُ عنهُ كربة منْ كُرَبِ يومِ القيامةِ. ومنْ يسَّر على مُعْسر يسَّرَ اللَّهُ عليْه في الدُّنْيا والآخرة، ومنْ سترَ مسْلماً سترَهُ اللَّهُ في الدُّنْيا والآخرة؛ واللَّهُ في عونِ العبْدِ ما كانَ العبدُ في عونِ أخيه. ومنْ تَواضـعَ للَّه رفعَهُ. ومنْ تكبَّرَ عليْهِ أو على الخلقِ وضعَهُ. ومن عفا وسامـحَ سامحَهُ اللَّهُ. ومن استقْصَى استقْصَى اللَّهُ عليْه ومن تَتَّبـعَ عوْراتِ المسلمينَ تَتَّبـعَ اللَّهُ عورتَهُ وفضَحهُ. ومن ستر عن عيوبِ الخلقِ كفَّ اللَّهُ عن عرضِهِ؛ ومنْ تقرَّب إلى اللَّهِ تقرَّبَ اللَّهُ منهُ. ومن أعرضَ عن اللَّهِ أعرض اللَّهُ عنْهُ. والجزاء من جنْس العمَلِ وما رَبُّكَ بِظلَّامٍ للعَبيد. أعوذُ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيم بسم اللَّهِ الرحمنِ الرحيم.

**﴿قدْ أفلحَ المؤمنونَ ــ إلى قولهِ ــ الذينَ يرِثُونَ الفِردوس هُمْ فيها خالدُونَ﴾** [سورة المؤمنون: الآيات ١ ــ ١١].

## ٦ ــ خطبة

### في وجوبِ العنايةِ بحقوق اللَّهِ

الحَمْدُ للَّهِ الذي أيقظَ الغافِلينَ. ونفـعَ بالتَّذكِرَةِ المؤمنينَ. فلم يَشتغلُوا بالدُّنيا وحدَها بل جمعُوا بينَ الدُّنيا والدينِ. وعرفُوا ما لرَبِّهم من الحقِّ فقامُوا به قيامَ الصادقينَ. أحمدُهُ حمدَ الحامِدينَ وأشكُرُهُ وأستعينُهُ فهو نعمَ المولى ونعمَ المعين. وأشهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ الملكُ الحقُّ المبينُ. وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسُولُهُ النبـيُّ المصْطفى الأمين. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعينَ.

أمَّا بعدُ: أيها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ حقَّ تقْواهُ. فإنَّ اللَّهَ خلقَكُمْ لمعرفتِهِ وعبادَتِه فطُوبـى لِمَنْ قامَ بحقِّ مولاهُ. فحقُّهُ عليكُمْ أنْ تعبدُوهُ ولا تشركُوا بهِ شِركاً خفيّاً ولا جليًّا. وأنْ تحقِّقُوا المتابعةَ والإِخلاصَ ويكونُ اللَّهُ وحدَه لكمْ ناصراً ووليًّا. فتداركوا أعمارَكم بالتوبةِ النصوح وإصلاحِ الأعمال قبل اخترام

النفوسِ وحضورِ الآجالِ. قبل أن تقولَ نفسٌ يا حَسْرتي على ما فرَّطْتُ في جنبِ اللَّهِ وطاعةِ ذي الجلالِ. كيف تغترُّون بالدُّنْيا وقد أمدَّكُم بعمرٍ يتذكرُ فيهِ من تَذكَّرَ وجاءكم النذيرُ. وقدْ علمتمْ أنَّ الأجل ينْطوي والإنسانُ في كل لحظة يرحلُ ويسيرُ. يا عجباً لنا! نُضيّـعُ أوقاتَنا وهي أنفس ما لدينا باللهو والبطالاتِ. وقد جعَلْنا الدُّنْيا دارَ قرارٍ وإنما هي دار العمل والتزوُّدِ واغتنامِ الخيراتِ. يا عجباً تَسْتوفي جميـع مراداتك من مولاكَ. ولا تَسْتوفي حقَّهُ عليكَ وأنتَ متَّبـعٌ لَهْوَكَ وتُعرض عن مولاكَ وقتَ الرخاءِ والسَّراء. وتلجأ إليهِ حينَ تصيبُكَ الضَّرَّاء. أكرمَكَ وقدَّمَكَ على سائرِ المخلوقاتِ. فقدِّمْهُ في قلبكَ وقدِّم حقَّهُ على كلِّ المراداتِ. من أقبلَ على ربِّهِ تلقَّاهُ. ومن تركَ لأجْلِه وخالفَ هواهُ عوَّضهُ خيراً مما تركَهُ ورَضِيَ عنه مولاه، ومن قَدَّم رضى المخلوقينَ على رضاهُ فقد خسرَ دينَهُ ودُنْياهُ، ومن أعرض عن ذكره فإنَّ له معيشة ضنكاً وذلك بما قدَّمت يداهُ * ومن توكَّلَ عليْهِ صادقاً من قلبهِ يسَّرَ لهُ أمرَهُ وقوَّاهُ.

**﴿ومنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعلْ لهُ مخرجاً * ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتسِبُ﴾**
[سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

وحَفِظهُ من الشَّرِّ وحماهُ

**﴿مَنْ عَمِـلَ صالحـاً فلِنَفْسِهِ ومَنْ أسـاءَ فعلَيْهـا ومـا ربُّـك بـظلَّامٍ للعبيد﴾** [سورة فصلت: الآية ٤٦]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم...

## ٧ ـ خطبـة
### في التوكل

الحَمْدُ للَّهِ القَويِّ المتين * الملكِ الحقِّ المُبين * وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ فـإيَّاهُ نعْبـدُ وإيَّاهُ نستعين * وأشهـدُ أنَّ محمداً عبـدُهُ ورسُولُـهُ سيِّدُ

المرسلينَ * وإمامُ المتَّقينَ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ أجمعِين * وعلى التَّابعينَ لهُمْ بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ * واعتَصِمُوا بحبلِ اللَّهِ * وتوكَّلُوا في أمُورِكُمْ كُلها على اللَّهِ * قال تعالى:

﴿وعلى اللَّهِ فليتوكَّل المؤمنون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٢]

﴿فاعبدْهُ وتوكَّلْ عليْهِ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣]

﴿واعْتصِمُوا باللَّهِ هُوَ مولاكُمْ فنِعْمَ المَوْلى ونِعم النَّصير﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨]

﴿وما توفيقي إلَّا باللَّهِ عليْهِ توكَّلتُ وإليهِ أنيبُ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

﴿إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

وقالَ ﷺ: (إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنْتَ فاستَعنْ باللَّهِ) فالاستعانةُ باللَّهِ والتوكلُ عليْهِ من أعْظمِ واجِباتِ الإيمانِ * وأفضلُ الأعمالِ المقرِّبةِ إلى الرحمنِ * فإنَّ الأمُورَ كلَّها لا تحصُلُ ولا تَتِمُّ إلَّا بالاستعانةِ باللَّهِ، ولا عاصمَ للعبدِ سوى الاعْتمادِ على اللَّهِ، فإنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ وما لَمْ يشَأْ لم يكنْ * ولا تحوُّلَ للعبادِ من حالٍ إلى حال إلَّا باللَّهِ * ولا قدرةَ لهُمْ على طاعةِ اللَّهِ إلَّا بتوفيقِ اللَّهِ * ولا مانِعَ لهُمْ من الشَّرِّ والمعاصي إلَّا عصمةُ اللَّهِ * وكذلكَ أسبابُ الرِّزقِ لا تحصل وتَتِمُّ إلَّا بالسَّعْي في الطَّلَبِ مَعَ التوكُّلِ على اللَّهِ * قال ﷺ: (لَوْ توكلْتُمْ على اللَّهِ حقَّ توكُّلِهِ لرَزَقكُمْ كما يرزُقُ الطَّيرَ تغدو خِماصاً وترُوحُ بِطاناً) فوصَفَ ﷺ المتوكِّل عَلَى اللَّهِ بوصْفَينِ: السعْي في طلَبِ الرِّزقِ والاعتمادِ القويِّ على مُسبِّبِ الأسبابِ * فمن فقدَ الوصْفينِ أو أحدَهُما خَسِرَ وخابَ؛ ومَنْ سعى في الأسبابِ المُباحةِ واعتمَدَ على ربِّهِ وشَكرَ المولى إذا حَصَلتْ لهُ المحبُوبات * وصَبَر لحُكمهِ عِندَ المصائِبِ والكَريهات * فقد فاز وأنجحَ واستولى على جميع الكمالاتِ *.

مَنْ علِمَ أنَّهُ فقيرٌ إلى ربِّهِ في كلِّ أحْوالِه كيفَ لا يتوكَّلُ عليهِ * ومَنْ علِمَ أنَّهُ عاجزٌ مضطرٌ إلى مولاهُ كيفَ لا يستعينُ بهِ وينيبُ إليهِ * ومنْ تَيَقَّنَ أنَّ الأمُورَ كُلَّها بيدِ اللَّهِ كيفَ لا يطلُبها ممَّنْ هي في يَدَيْهِ * ومنْ علِمَ بِسعَةِ غناهُ وجوده كيفَ لا يلجأ في أمورهِ كلِّها عليهِ * ومن اسْتَيْقَنَ أنَّهُ أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدها كيفَ لا يطمئنُّ قلبُهُ إلى تدبيرهِ * ومن عَلِمَ أنَّهُ حكيمٌ في كلِّ ما قضاهُ كيفَ لا يرضى بتقديرهِ * فيا أيُّها العبدُ المقبلُ عَلَى الخيرِ: إنكَ لنْ تنالَهُ إلاَّ ببذلِ المجهودِ * والاستعانةِ والاعتماد على المعبودِ * ويا أيُّها المجاهد نفسَهُ عن المعاصي والذنوبِ * إنه لا يتيَسَّرُ لكَ تركُها إلاَّ بقوَّة الاعتصامِ بعلاَّمِ الغيوبِ * فإنَّهُ منْ توكَّلَ عليهِ كفاهُ * ومِن استعانَ به واعْتَصَمَ أصْلحَ لهُ دينَهُ ودنْياهُ * ومنْ أُعْجِبَ بِنَفْسِهِ وانقَطَعَ قلبُهُ عنْ ربِّهِ خابَ وخَسِر أُولاهُ وأُخراهُ * فكمْ مِنْ ضَعيفٍ عاجزٍ عنْ مصَالِحِه قوي توكلُهُ على ربِّهِ فأعانَهُ عليها * وكمْ من قويّ اعتَمدَ على قوَّتِهِ فخانَتْهُ أحوجَ ما يكونُ إليها * ما ثَمَّ إلا عونُ اللَّهِ وتوفيقه فهو عدَّةُ المؤمنينَ * ولا فلاحَ ولا سعادةَ إلاَّ بعبادةِ اللَّهِ والاستعانةِ بهِ فهوالمعبودُ حقًّا وهو نعم المعينُ *

**﴿ربنا عليكَ توكَّلْنا وإليكَ أنَبْنا وإليكَ المصيرُ﴾**

[سورة الممتحنة: الآية ٤]

**﴿وكأيِّن مِنْ دابَّةٍ لا تحملُ رزقَها اللَّهُ يرزُقُها وإيَّاكُمْ وهو السميعُ العليمُ﴾** [سورة العنكبوت: الآية ٦٠]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكُم...

## ٨ ـ خطبة
## في الحياة الطيبةِ

الحَمْدُ للَّهِ الربِّ الغفورِ * العفوِّ الرؤوفِ الشكورِ * الذي وفَّقَ مَنْ شاءَ من عبادِه لتَحْصيلِ المكاسِبِ والأجورِ * وجعَلَ شُغلَهُمْ بتحقيقِ الإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ يرجونَ تجارةً لنْ تبورَ * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ الذي بيدِه تصاريفُ الأمورِ * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسُولُهُ أفضلُ آمرٍ وأجلُّ مأمورٍ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابِه والتابعينَ لهُم بإحْسانٍ إلى يومِ البعثِ والنُّشور.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى وذلك بالقيامِ بحقوقِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فرضِها ونفْلِها * قالَ تعالى:

**﴿من عمِلَ صالحاً مِنْ ذكرٍ أو أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بأحْسنِ ما كانوا يعْمَلونَ﴾** [سورة النحل: الآية ٩٧]

فوَعدَ مَنْ جَمعَ بَيْنَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ بالحياةِ الطَّيِّبةِ في هذه الدارِ * وبالأجْرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ في دارِ القرارِ * ـ أمَّا الإيمان فهو الإقرارُ والاعترافُ بأصولِه المبْني على العِلْمِ واليَقينِ، والإذعانِ المقْتضي للعَمَلِ الصَّالحِ وهو القيامُ بحقوقِ اللَّهِ أو حقوقِ الوالدينِ والأقاربِ والأصحابِ وذوي الحقوقِ والجيرانِ * فكلُّ واجبٍ ومُسْتَحبٍّ فهو داخلٌ في العمل الصَّالحِ * ويدخل في ذلك تركُ الفسوقِ وجميعِ القبائحِ؛ فمَنْ قامَ بذلك فَلْيُبْشر بالحياةِ الطَّيِّبةِ فهو المفلحُ النَّاجحُ * لا تحسبنَّ الحياةَ الطَّيِّبَةَ مجرَّدَ التمتُّعِ بالشَّهواتِ * ولا الإكثارَ من عَرَضِ الدُّنيا وتشييدِ المنازلِ المزخرفاتِ * إنما الحياةُ الطَّيِّبةُ راحةُ القلوبِ وطمأنينتُها * والقناعةُ التَّامَّةُ برزقِ اللَّهِ وسُرورُها بذكرِ اللَّهِ وبهجتُها * وانصباغُها بمكارمِ الأخْلاقِ وآنشراحِ الصدورِ وسعتِها * لا حياةَ طيِّبةً لغيرِ الطائعينَ * ولا لذَّةَ حقيقةً لغيرِ الذاكرينَ * ولا راحةً ولا طمأنينة قلبٍ لغيرِ المكتفينَ برزْقِ اللَّهِ القانعينَ * ولا نعيماً صحيحاً لغيرِ

أهْلِ الخُلُقِ الجَّميلِ والمحسنينَ * لقدْ قالَ أمثال هؤلاء الأخيارِ لو علِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه من لذَّة الأنسِ باللَّهِ لجالدُونا بالسيوفِ عليه * ولو ذاقَ أربابُ الدُّنْيا ما ذقناهُ مِنْ حلاوةِ الطَّاعةِ لغَبَطونا وزاحمُونا عليه * ما ظنـك بِمَنْ يُمْسي ويُصبحُ ليْس لَهُ همٌّ سـوى طاعَـةِ مولاهُ * ولا يخشى ولا يرجُو ولا يتعَلَّقُ بأحدٍ سواهُ * إنْ أُعطي شكـرَ * وإنْ مُنِـعَ صبرَ * وإذا أذْنبَ استغفَرَ وتابَ مما جناهُ * هذا واللَّهِ النعيمُ الذي مَنْ فاتَهُ فهو المغبون * وهذه الحياةُ الطَّيِّبةُ الَّتي لمثْلها يعْملُ العاملون * أيُّ نعيمٍ لمن قلبُهُ يغْلي بالخطايا والشهواتِ؟ وأيُّ سرورٍ لمن يتَلهَّبُ فؤادهُ بحُبِّ الدُّنْيا وهو ملآنُ من الحسراتِ؟ وأيُّ راحةٍ لمنْ فاتَهُ عيشُ القانعينَ؟ وأيُّ حياةٍ لِمَنْ تعلَّقَ قلبُهُ بالمخلوقينَ؟ وأيُّ عاقبةٍ وفلاحٍ لِمن انقطَـعَ عن ربِّ العالمين؟ ومـعَ ذلك لا يرجُو العقْبـى وثواب العامِلينَ بالله. لقدْ فازَ الموفقُونَ بعزِّ الدُّنْيا والآخرة * ورجـعَ أهْلُ الدَّناءةِ بالصَّفْقَةِ الخاسرةِ.

## ٩ ــ خطبة

### في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل...﴾ إلـخ

[سورة النحل: الآية ٩٠]

الحمـدُ لِلَّهِ الَّذي جَعَـلَ القرآن تبْيـاناً لكـلِّ شيء وهدىً ورحمـةً للمؤمِنين * وجمـع فيه أصولَ الدينِ وفروعَهُ وأصلـحَ بهِ الدُّنْيا والدين * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ الملكُ الحقُّ المُبين * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ أكملُ الخلْقِ وسيدُ المُرسلينَ * اللَّهمَّ صلِّ وسلمْ وباركْ على محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومن تَبعَهُم إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ بامتثالِكُمْ لأوامره واجتِنَابِكُمْ لِمناهيهِ * وتودَّدوا إليْهِ بالتَّقربِ إليْهِ واتِّباع مراضيه * فقدْ جَمَـعَ اللَّهُ الخيرَ في آيةٍ واحدةٍ من كتابِه وهي قولُهُ:

﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدْلِ والإِحْسانِ وإيتاء ذي القُرْبى وينهى عن الفحْشاء والمُنكرِ والبغي يَعِظُكُمْ لعَلكُمْ تذكرُّون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]
فتأمَّلوا كيفَ جمعَتْ كلَّ مأمورٍ * ونهتْ عن كلِّ شرٍّ ومحظورٍ. أَمَرَ اللَّهُ فيها بالعدْلِ الذي قامتْ بِهِ الأرضُ والسَّمٰوات وصلحت الأمورُ واستقامتْ بِهِ الموجوداتُ * أكبرُ العدلِ القيامُ بالعبوديةِ وتحقيق التوحيدِ * وأعظمُ الظُّلمِ الشركُ باللَّهِ واتِّخاذُ العديلِ بِهِ والنَّديدِ * ومِنَ العدْلِ إقامُ الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكاةِ والقيامُ بشرائِعِ الدين * والقيام بحقِّ الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ والمعاملين * ومِن العدلِ القيامُ بالقسْطِ في الأحْكامِ والولاياتِ بأنْ يكونَ النَّاسُ كلهم عندكَ سَواء: البعداءُ والأقرباءُ والأعداءُ وأهْلُ المودَّاتِ * ومن العدْلِ معاملةُ النَّاسِ بالوفاء والصدقِ والإنصاف وأنْ تعطيهُمْ ما لهُمْ عليكَ كاملاً كما تسْتوفي حقَّكَ بلا نقصٍ ولا إجحافٍ.

﴿ويلٌ للمُطفِّفِينَ * الَّذينَ إذا اكتْالوُا على النَّاسِ يَسْتوفُونَ * وإذا كالوهُمْ أوْ وَزَنوهُمْ يُخْسِرون * ألا يظُنُّ أولئكَ أنَّهُم مبعوثونَ * ليومٍ عظيم﴾

[سورة المطففين: الآيات ١ ــ ٥]

ومِنَ العدلِ القيامُ عَلَى نفْسِكَ والأقربينَ والأبعدينَ * وأنْ لا يُضلكَ الهوى عن طريقِ الشرعِ والدين * ومنَ العدلِ أن تساوي بينَ زوجاتِك في النَّفقةِ والكسوةِ والعشرةِ فعلَ أهْلِ الكمالِ * وأن لا تفضلَ بعضَ أولادِكَ عَلَى بعْضٍ في عطِيَّةٍ أو بِرٍّ أو وصالٍ * وأمرَ تعالى بالإحْسان في عبادتِهِ وذلكَ بمراقبتِهِ وخوفِهِ ورجائِه والإخلاصِ لهُ في الأقْوالِ والأعمالِ * وبالإحْسانِ إلى عبادِ اللَّهِ بالنصْحِ والتَّعْليمِ وبذْلِ الجاهِ والمالِ * ومن الإحْسانِ بذلُ المعروفِ والعفوُ عنِ المسيئين * ولينُ الكلامِ وطلاقةُ الوجهِ وحسنُ الخُلُقِ مع كافَّةِ المسْلمين * ومن الإحْسانِ إكرامُ الجيرانِ وإيتاء ذي القرْبى * ولهذا خصَّهُ اللَّهُ بالذِّكرِ لشَرفِه ومَصلحتِه العظمى * ومن الإحسانِ الرِّفْقُ بالمماليكِ والخدمِ والبهائمِ * وأنْ لا يشْتُمَهُمْ ولا يُحَمِّلَهُمْ ما لا طاقةَ لهمْ بِهِ فِعْلَ المسْرفِ الظالم.

ونهى في الآيةِ عنِ الفحْشاء * وهي الكبائِرُ من الجرائم كالقَتْلِ والزناء والرِّباءِ والغِشِّ وسائِرِ العظائمِ * وكذلك الرياءُ والكِبْرُ والسُّخْرِيةُ بالخَلقِ فإنَّ ذلك مِنْ أشْنَعِ المآثمِ * وزجَرَ عنْ منكراتِ الأخْلاقِ والأعمالِ والأهواء والأدوى * وعن البغْي على الخلقِ في أنفُسِهمْ وأموالِهمْ وأعراضِهمْ، فالباغي لا بدَّ أن يصْرعَهُ بغيُهُ وتكونَ لهُ العاقِبَةُ الوخيمةُ السَّوْأى * منَّ اللَّهُ عليَّ وعليْكُمْ بالعدْلِ والإحسانِ وجَنَّبَنا الفواحِش والمنكراتِ والعدوان * وبارَكَ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ١٠ ــ خطبة

### في: (إنما الأعمال بالنيات)

الحمْدُ للَّهِ العالمِ بالبواطِنِ والظَّواهِرِ والخفيَّاتِ والجليَّاتِ * المُطَّلعِ على مَكنونِ الصدورِ وخبايا الأمُورِ ودقيقِ المخلوقاتِ في زوايا الظلماتِ * يعلمُ السِّر وأخفى * اللَّهُ لا إلـهَ إلَّا هو لهُ الأسماءُ الحُسْنى وكاملُ الصِّفاتِ * وأَشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شريكَ لهُ الذي شَهِدَتْ له بالرُّبُوبيَّةِ جميعُ الموجوداتِ * وأَذْعَنَ لهُ بالأُلوهيَّةِ والإِخْلاصِ خلاصةُ المخلوقات * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ الرُّسُلِ وسيّدُ البريَّاتِ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه أهْلِ السرائرِ الصَّافياتِ * وعَلَى التَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ في صحةِ العقيدةِ وزكاء النيَّاتِ * أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى وأَطيعوهُ * واعلمُوا أنَّ اللَّهَ يعلم ما في أنفسِكُمْ فاحذَرُوهُ. قالَ ﷺ: (إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى) * وهذا مِنْ جوامِع كلماتِه الشريفَةِ * ومِنْ أعظمِ أصولِ الشريعةِ المُنيفَةِ * فيدخلُ في هذا جميعُ العباداتِ والعاداتِ * ويتناولُ المعَاملاتِ والمعاوضاتِ والتبرعاتِ * فلا يصحُّ لِأحدٍ صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا صيامٌ ولا حجٌّ إلَّا بالنِّيَّة * ولا تكملُ عباداتُه كلها ويَنْمو ثوابُها إلَّا بكمالِ الإِخْلاصِ وصحةِ الطويَّةِ * والنيَّةُ بها تُميزُ فروضَ العباداتِ من نَفْلِها * وبإخْلاصها للَّهِ يَعظُم أجرُها ويفوزُ العامل بفضْلِها * أيُّها

الناسُ وطِّنوا نفوسَكُمْ على الاحتِسابِ في كلِّ شيءٍ وإرادة وجه اللَّهِ * ومرِّنوها على محبَّةِ الخيرِ للمسلِمِينَ والنصحِ لعبادِ اللَّهِ * فإنَّ اللَّهَ لا ينْظُرُ إلى صُورِكُم الظاهرة وأعمالِكُمْ * وإنَّما ينظُرُ إلى بواطِنِ قُلوبِكُمْ وما اشْتملَتْ عليهِ مِنْ أحْوالِكُمْ * وعَوِّدوا أنفُسَكُمُ الإخْلاصَ في كلِّ ما تأْتُونَ وما تَذَرون * واحْتسابَ الأجْرِ فيما تُسِرُّونَ وما تعلنُون * ليكونَ الإخلاصُ لَكمْ قريناً، وارتقابُ الثوابِ على الخيرِ لكُم عويناً. فمنْ كانَ مشتغِلاً بتجارةٍ أو صناعةٍ أو حِرفةٍ أو فِلاحةٍ أو غيرها من الأعمال. فَلْيَنْوِ بِذلك القيام بواجب النَّفْسِ والأهْلِ والعيالِ. فإنَّ ذلك جهادٌ واشتغالٌ بالواجِبِ وهو منْ أفْضلِ الأعمالِ. وإذا أطْعَم أحدُكُمْ أهلَهُ أو مَنْ يمُونُهُ فَليقصُدْ بذلك وجْهَ اللَّهِ. فإنَّهُ إذا رفَعَ اللُّقمَةَ إلى في آمرأتِه أو ولدِه وكساهُمْ محتسباً كان لهُ رفعةً وثواباً عند اللَّهِ. ومن أكلَ أو شرب أو نامَ أو استراح ينوي بذلك التَّقوى على الطاعَةِ فهو في عبادةٍ. ومن طَلبَ العِلم يبتغي بِه وجْهَ اللَّهِ ونفْعَ نفسِه والمسلمينَ فهو في جهادٍ ورفعة وزيادَةٍ. ومن عَجزَ عنْ فعْلِ الخيرِ فنواهُ بصدقٍ فلهُ أجْر ما نواهُ. ومن كانَ لهُ عادةُ خيرٍ وطاعةٍ فمرِضَ أو سافَرَ كُتِب لهُ ما كانَ يعْملُ صحيحاً مقيماً؛ فما أحقَّ العبْدَ بشكرِ مولاهُ. ومنْ هَمَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها كتَبَها اللَّهُ عنْدَه حسنةً كاملةً. ومن همَّ بسيِّئةٍ فتركها لله كتَبها اللَّهُ عنده حسنةً كاملةً. ومن حرصَ على فِعْلِ المعصيةِ فعَجز عنها فهو بمنزلةِ الفاعلِ. ومنْ سعى في خيرٍ فأدركَهُ الموتُ قبلَ تكميلِهِ وقَعَ أجْرُه على اللَّهِ الذي أكْرمَهُ بلطفِهِ الشَّامِلِ. ومن أخذَ أموالَ الناسِ وعامَلهُمْ، يريدُ الوفاءَ، أدَّاها اللَّهُ عنْهُ. ومنْ أخَذَها يريدُ إتلافَها أتلفَهُ اللَّهُ. ومنْ توسَّلَ بحيلةٍ إلى مُعَاملةٍ محرَّمةٍ فهو مخادع ظالمٌ. ومنْ وقَفَ وقفاً أوْ أوصى بوصيةٍ يريدُ حرمانَ غريمِهِ أو مضارَّةَ ورَّاثِهِ فهو معتدٍ آثمٌ. ومنْ عَضَل زوجَتَهُ وظلَمها لتَفْتَديَ منهُ نفْسَها فذلك مِنْ أَعْظمِ الجرائمِ * فطوبى لأهلِ الهِمَمِ العاليَةِ! لقد انْقلبتْ عاداتُهمْ بالنِّيَّة الصالحةِ عباداتٍ * ويا ويحَ أهلَ الجهلِ والهِمَمِ الدَّنِيَّةِ.. لقدْ كادَتْ عباداتُهمْ لِضَعْفِ النِّيَّةِ تكونُ عاداتٍ * قال تعالى:

﴿ومَنْ أرادَ الآخِرة وسَعى لها سَعْيها وهو مؤمنٌ فأولئِك كان سعيهُم مشكوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٩]

## ١١ ـ خطبة
### في الحثِّ على الدعاء

الحمْدُ للَّهِ الذي أمرَ بالدعاءِ ووعَدَ عليْه الإجابَةَ * وحثَّ على أفْعالِ الخيرِ كلِّها وجعَلَ جزاءها القبُولَ والإثابةَ * فسبحانَهُ من كريمٍ جوادٍ رؤوفٍ بالعبادِ * يأمرُ عبادَهُ بالتقرُّبِ إليْهِ بالدعاءِ ويخبرهُمْ أنَّ خزائِنَه ليْس لَها نفادٌ * وأشْهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ ولا نِدَّ ولا مضادَّ * وأشْهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ سيِّدُ الرُّسُلِ وخلاصةُ العبادِ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه العلماءِ العُبَّادِ وعلى التَّابعين لهُم بإحْسانٍ إلى يومِ التَّنادِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ؛ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * وتعَرَّضوا لِنفحاتِ المَوْلى في جميعِ الأوقاتِ بالـدُّعاءِ والـرجا * واعلمُـوا أنَّ الدُّعـاءَ يجلبُ الخيراتِ ويُستدفـعُ به البلا * وأنَّهُ ما دَعا اللَّهَ داعٍ إلَّا أعْطاهُ ما سألَهُ معجَّلاً أو ادَّخَرَ لهُ خيراً منْهُ ثواباً مؤجَّلاً * وصرَفَ عنْهُ مِنَ السوءِ أعْظَمَ مِنْهُ، كرماً مِنْهُ وإحْساناً وتفَضُّلاً * وفي الصَّحيحِ مَرْفوعاً: (يُسْتَجابُ للْعَبدِ ما لَمْ يدعُ بإثْمٍ أو قطيعَةِ رَحمٍ ما لَمْ يعجِّل) قيلَ: «يا رسُولَ اللَّهِ، ما الاستِعْجالُ؟» قال: (يقولُ: قدْ دعوتُ وقدْ دعوتُ فلمْ أرَ يُسْتَجابُ لي، فَيتحسر عنْدَ ذلك ويَدَعُ الدُّعاءَ) * وفي حديثٍ: (مَنْ فتـحَ اللَّهُ لهُ بابَ الدُّعاءِ فُتحَتْ لهُ أبوابُ الرَّحمة وليْسَ شيءٌ أكرمَ على اللَّهِ من الدُّعاءِ، هُو العبادةُ) ثمَّ قرأ قولَهُ تعالى:

﴿وقال ربُّكُم ٱدْعُوني أسْتَجِبْ لكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

إنَّ الدُّعاءَ ينفـعُ ممَّا نزَلَ وممَّا لمْ ينزِلْ؛ فعَليكُمْ عبادَ اللَّهِ بالدُّعاءِ * ليَسْألْ أحدُكمْ ربَّه حاجتَه كلَّها. وكيفَ لا يكونُ الدُّعاءُ مـخَّ العبادةِ وخالِصَها وهو مِنْ أعْظمِ القُرَبِ لربِّ العالمينَ؟ وبِه يُدرِكُ العَبْدُ الدُّنْيا والدِّين؟ وبكثرةِ الإلحاحِ

فيه على اللَّهِ يَنْقطـعُ الرجاءُ من المخلوقينَ * ويكمُلُ رجاؤهُ وطمَعُهُ في رحمةِ أرحمِ الراحمين. . ألا وإنَّ الدُّعاءَ ينبِـىءُ عن حقيقةِ العبُوديةِ وقوةِ الافْتقارِ * ويوجِبُ للعبْدِ خضوعَهُ وخشوعه لربِّهِ وشِدةَ الانْكسار * فكمْ مِنْ حاجةٍ دينيَّةٍ ودُنيَويَّه ألجأتْك إلى كثرةِ التضرُّعِ واللَّجاءِ إلى اللَّهِ والاضطرار * وكمْ مِنْ دعوة رفـع اللَّه بها المكارهَ وأنواعَ المضارِّ * وجَلَبَ بها الخيراتِ والبركاتِ والمسارَّ * وكمْ تعرَّضَ العبْدُ لنفحاتِ الكريم في ساعاتِ اللَّيْلِ والنَّهارِ. فأصابه نفحةٌ منها في ساعةِ إجابةٍ فسعِدَ بها وأَفلحَ والتحَقَ بالأبْرار. وكمْ تضرَّعَ تائبٌ فتابَ عليْه وغفرَ لهُ الخطايا والأوزار. وكم دعاهُ مضْطرٌ فكشَفَ عنْهُ السوءَ وزالَ عنه الاضطرار. وكم لجأ إليْه مستغيثٌ فأغاثَهُ بخيره المدرار. فمن وفِّقَ لكثرةِ الدُّعاءِ فليُبشِر بقربِ الإجابة. ومن أنزلَ حوائجه كلّها بربِه فليطْمئن بحصولها من فضله وثوابِه. فحقيقٌ بك أيُّها العبدُ أنْ تلـحَّ بالدُّعاءِ ليلاً ونهاراً. وأن تلجأ إليْه سِرًّا وجهاراً. وأنْ تعلمَ أنَّهُ لا غنـىً لك عنْه طرفَةَ عينٍ في دينكَ ودُنْياكَ. فإنَّهُ ربُّكَ وإلَهُكَ ونَصيرُكَ ومولاكَ.

﴿وإذا سألكَ عبادي عني فإنِّي قريبٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]

## ١٢ ــ خطبة

### في التوسل إلى الله بالوسائل النافعة

الحمْدُ للَّهِ الرَّبِّ العظيم. الرَّؤوفِ الـرَّحيم. ذي الفضْلِ العـظيم والإحْسانِ العميم. وأشْهدُ أن لا إلـه إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريـكَ لَهَ الملكُ الكريمُ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي قال اللَّهُ فيه:

﴿وإنَّكَ لَعَلى خلقٍ عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤]

اللَّهمَّ صلِّ وسَلِّم وباركْ على محمَّد وعلى آلهِ وأصحابِه ومن تبِعَهُم في هديهمْ القويم.

أمَّا بعدُ: أَيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى:

﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا اتَّقوا اللَّهَ وابْتغوا إليه الوسيلةَ وجاهِدوا في سبيلهِ لعلَّكُمْ تُفلِحون﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٥]

أمَّا التَّقْوى هُنا فهي اجتنابُ الكُفْرِ والفسوقِ والعصيانِ. وأمَّا الجهادُ في سبيلهِ فهو بذْلُ الجُهْدِ في مقاومَةِ أهْلِ الانحرافِ والإلحادِ والكفرانِ. وأمَّا ابتغاءُ الوسيلةِ إليه فهي التقرُّب إليه بأصول الإيمان وشرائِع الإسْلامِ وحقائِق الإحْسانِ. من تعبَّد لهُ أو دعاهُ بأسمائِه وصفاتِه فذاكَ أفْضلُ الوسائِلِ. ومن توسَّلَ إليه بإحْسانِه ونِعَمِهِ وجودِه وكرمِهِ فقدْ سلَكَ مَسْلكَ الأصفياءِ الأفاضل. ومن تقرَّبَ إليْه بتركَ معاصِيهِ والعملِ بما يُرضيهِ فهو الذي لا شَكَّ إلى كلِّ خيرٍ واصلٌ * ومن توسَّلَ إليْه بحاجتِه وفقرِه وضرورَتِه فقدْ توسَّلَ إليه بخيرِ الوسائِلِ. ومن توسَّلَ إليه بذواتِ المخلوقينَ وجاهِهِمْ فهو مُبْتَدِعٌ ظالمٌ. ومن دعا مخلوقاً أو استغاثَ بِه وزَعَمَ أنَّهُ يتوسَّلُ بِه إلى اللَّهِ فهو مشركٌ آثِم. فتوسَّلوا إلى ربِّكُمْ بكثرةِ السُّجودِ والرُّكوعِ. وتوسَّلوا إليه بتلاوةِ كلامِه بتدبُّرٍ وخشوعٍ. وتوسَّلوا إليهِ بالإحْسانِ إلى الخلقِ. إنَّ اللَّهَ يُحبُّ المحسنين * وببرِّ الوالدين وصِلةِ الأرْحامِ فإنَّ اللَّهَ يَصِلُ الواصِلينَ * ويقطعُ القاطعينَ. توسَّلوا إليْهِ بخَوفِه ورجائِه والتَّوكُّلِ عليْه فإنَّ اللَّهَ يُحبُّ المتوكلينَ * وتوسَّلوا إليْهِ باللَّهْجِ بذِكرِه واستغفارِه فيا سعادةَ الذَّاكِرين * توسَّلوا إليه بمحَبَّةِ نَبيِّكُمْ. وكثْرةِ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليه * فمَنْ أكثرَ الصَّلاةَ عليه كفاهُ اللَّهُ همَّهُ وقضى حاجتَهُ * ومنْ صلَّى عليهِ صلى اللَّهُ عليْه عشر أضعافِها ونالَ حُبَّهُ وشفاعَتَهُ * توسَّلوا إليهِ بالحُنُوِّ على اليتامى والضُّعفَا. وتقرَّبوا إليه برحْمَةِ البهائمِ فإنَّما يرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عبادِه الرُّحما * توسَّلوا إليه بِسلامَةِ الصُّدورِ من الفِسقِ والغلِّ والحقْدِ على المسْلمين * وبالنَّصيحةِ والشَّفَقَةِ على الخلقِ أجمعين. توسَّلوا إلى اللَّهِ بتركِ ما تدعو لهُ النَّفْسُ الأمّارَةُ بالسوء من الهوى والتَّبعاتِ وبغضِّ الأبْصارِ وصيانَةِ اللِّسانِ والبعدِ عن جميعِ المحرَّماتِ * توسّلوا إلى اللَّهِ بكمالِ الإخْلاصِ للمعْبود والمتابَعَةِ للرّسُول. لِتُدْرِكُوا كلَّ مطلوبٍ ومرغوبٍ ومأمولٍ. بَارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

# ١٣ ـ خطبة

## في قوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك)

الحمْدُ لِلَّهِ الذي جَعَلَ الشريعَةَ محتويةً على الهدى والشِّفا والنُّورِ. وأوْصَلَ مَنِ اسْتَرْشَدَ بكلامِهِ وكلامِ رسُولِه إلى كُلِّ خيرٍ وسُرور. أحمدُهُ على أوصافِه الكامِلةِ وأسمائِه الحُسْنى. وأشكرُه على آلائِهِ الباطِنَةِ والظَّاهرةِ وما لهُ من عمِيمِ النعمى. وأشْهدُ أن لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في أُلوهِيَّتِه وربُوبيَّتِهِ. ولا نَديدَ لهُ في عظمَتِه وكبريائِه ومجدِه وأحديَّتِهِ. وأشْهدُ أَن محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ خيرُ بريَّتِهِ. اللَّهمَّ صلِّ وسَلِّم وبارك على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه القائمينَ بحقُوقِهِ ونُصْرَتِه.

أمَّا بعد: أيُها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ حَقَّ تقواهُ * وتمَسَّكوا بإرْشادِ نَبيِّهِ وهدْيِه وهُداهُ * فقدْ قالَ ﷺ: (احْرصْ على ما يَنْفعُكَ واستعِنْ باللَّهِ). فيا لهُما من كلمَتينِ عظيمَتين جمَعَ فيهما خيرَ الدُّنْيا والآخرةِ لمَنْ فهمهُما وعمِلَ بهما من العبَادِ * فأمَّا الحِرْصُ فهو الجدُّ في تحْصيلِ الأمورِ النَّافِعَةِ في المعاشِ والمعادِ. وذلك بالاجتهادِ في القيامِ بعبوديَّةِ اللَّهِ التي خلقَ اللَّهُ المكلَّفِينَ لِأجْلِها * وبما يُعينُ عَلَى ذلك من كسبِ الحلالِ المساعدِ على أمرِها. ولا يتمُّ ذلك إلَّا بِسُلوكِ طُرُقِها النَّافعَةِ وأبوابها * ولا يحصلُ إلَّا بقوَّةِ الاستِعانَةِ باللَّهِ والتَّوكُّلِ عليه لا على الأسبابِ بل على مُسبِّبِها. فلا يفوتُ أحداً الخيرُ إلَّا بِترك واحدٍ من هذه الأمورِ * إمَّا أنْ لا يحرص بَلْ يسْتولي عليهِ الكسلُ والفتورُ * أو يكونُ حريصاً على غيرِ الأمورِ النَافعةِ أو لا يستعين بميسِّرِ الأمورِ * أعظمُ الأمور النافِعةِ أن تتَعلَمَ ما يقيمُ دينكَ وعباداتِكَ ومعاملاتِكَ * وأن تؤدي الشرائِعَ الظَّاهرة والباطِنة مجتهداً في تكميلِ عباداتِكَ * قائماً بحقوقِ الخالِقِ وحقوقِ الخلْقِ * مستعيناً بربِّكَ في طَلبِ الحلالِ من الرِّزقِ * فيا طُوبى لِمَنْ قوي توكُلهُ عَلَى ربِّهِ في تيْسِير أمرِ دينِه ودُنْياهُ * ويا سعادتَهُ إذا شاهدَ النَّجاحَ والفلاح عند تمامِ مسعَاهُ * إِذا أَرَدْتَ أنْ تختارَ عملاً نافعاً تصلحُ بِهِ دُنْياك *

فاسْلُكِ الطَّريقَ الموصِلَ إليه برفْقٍ واستعِن بمولاكَ * فإنَّك إذا حقَّقْتَ التَّوكُّلَ عليه سَهَّلَ لكَ الأمرَ ويسَّرَهُ وكفاكَ * وإنْ أُعْجِبْتَ بِنفْسكَ ورأيكَ خذلكَ ووَكَلَكَ إلى ضَعْفِكَ فَوَهَتْ قُوَّتك وقُواك * فَلو توكَّلتم على اللّهِ حقَّ توكلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ: تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً * ولكنَّ كثيراً مِنكمْ يعْجَبُ بنفْسهِ فيرهِقُهُ وهْناً وهواناً وخذلاناً * واعتصموا باللّهِ هو مولاكُمْ فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصيرُ.

## ١٤ ــ خطبة
### في انتظار الفرج وقتَ الشِدَّة

الحمْدُ للّهِ الحميدِ في وصفِه وفعله * الحكيم في خلقِهِ وأمرِه. الرَّحيم في عطائهِ ومنعه * المحمود في خفْضِهِ ورفعهِ * وأشهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ في كمالهِ وعظمتِه ومجدِه * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ مرسلٍ من عندِه. اللَّهمَّ صلِّ وسلم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحْبِهِ وجنْدِه.

أمَّا بعد: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * وتفَكَّروا في حُكْمِ المولى في تصريفِ الأمورِ * وأنَّهُ المحمودُ على ذلك المُثْنى عليه المشكورُ * واعلموا أنَّ ما أصابكُمْ من مُصيبةٍ فبما كَسبتْ أيديكُمْ ويعْفُو عن كثيرٍ * وأنَّ هذه الشِّدَّة واللأواءَ لا بدَّ أنْ يفرِّجها منْ هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ * ولا بدَّ أنْ يُبدِّلَ الشِّدَّة بِضِدِّها والعُسْرَ بالتَّيْسيرِ. بذلك وَعَدَ وهو الصادِقُ السميـعُ البصيرُ. فعُودوا على أنفسِكُمْ بالاعْترافِ بِمعاصيكُمْ وعيوبِكُمْ. وتوبوا إليه توبةً نصوحاً من جميعِ ذنوبكُمْ. وقوموا بما أمرَكُم اللَّهُ بِهِ وهـو الصبرُ عنـدَ المصائبِ. واحتسِبوا الأجرَ والثَّوابَ إذا أنابتْكُم المكارِه والنوائِب. وكونوا في أوقاتكُمْ كلِّها خاضعينَ لرَبِّكُمْ مُتضرِّعينَ. وفي كلِّ أحوالكُم سائلينَ لـهُ كشْفَ ما بكُمْ ولِكرَمِهِ مُستعرِضين. ووجِّهوا قلوبكُم إلى مَنْ بيدِه خزائنُ الرَّحمةِ والأرزاقِ. وانتظروا الفرَجَ وزَوَالَ الشِدَّةِ من الرؤوفِ الرحيم الخلَّاقِ. فإنَّ أفضلَ العبادةِ

انتظارُ الفرَجِ من الرَّحيم الرزَّاقِ. وإيَّاكُم أن يسْتولي على قلوبِكُم القُنُوطُ واليأسُ * أو تفوهوا بالكلامِ الدَّالِّ على التَّضجُّر والتَّسخُّط والإبْلاسِ * فإنَّ المؤمنَ لا يزالُ يسْأل ربَّهُ ويطْمَعُ في فضْلهِ ويرجُوهُ * ولا يزالُ مفْتقِراً إليه في جلب المنافـع ودفْـع المضارِّ من جميـعِ الوجوهِ * إن أصابتْهُ السرَّاءُ كان في مقدمةِ الشاكرينَ * وإن نالتهُ الضرّاءُ فهو من الصابرين * يعلم أنَّهُ لا رَبَّ لهُ غيرُ اللَّهِ يقصدُه ويدعوهُ * ولا إلـهَ لهُ سواه يؤمِّلهُ ويرجُوهُ * ليْسَ لهُ عن بابِ مولاهُ تحوُّلٌ ولا انصراف ولا لقَلْبِهِ تلفُّتٌ إلى غيرهِ ولا تعلقٌ ولا انحِرافٌ * لا تخرجُه السراءُ والنِعمُ إلى الطغيانِ والبطرِ * ولا يكونُ هلوعاً عند مس الضرّاءِ مُتسخِّطاً للقضاءِ والقدرِ * يتمشّى مـع الأقدارِ السارَّة والمحزنةِ بطُمأنينَة وسكونٍ * ويهدي اللَّهُ لها قلبَهُ لِعلمه أنها تقديرُ من يقولُ للشَّيء كُنْ فيكُون.

فهذا عبدٌ مُوفقٌ قد ربـحَ على ربِّه وقام بعبوديَّتهِ في جميـع التقلبات * وقد نالَ السعادتينِ: راحةَ البال وحُسنَ الحالِ والمآل. واكتسَبَ الخيراتِ ما أصابَ من مصيبةٍ إلّا بإذْنِ اللَّهِ ومن يؤمنْ باللَّهِ يهدِ قلبَهُ:

﴿واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

بارك اللَّهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيم.

## ١٥ ــ خطبة

### في الزجر عن إضاعة الصلاة

الحمْدُ للَّهِ الرَّبِ العظيم * الواسـعِ الحليم الرؤوفِ الرحيم * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ الجوادُ الكريمُ * وأشهدُ أَنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ ومن هو بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ * اللَّهمَّ صلِّ وسلمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومن تبعَهم في الصراط المستقيم.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * وإيَّاكُم أن تكونوا ممَّنْ قالَ اللَّهُ فيهم:

**﴿فخلَفَ من بعْدِهمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعُوا الشهواتِ فسَوْفَ يلقَوْنَ غيًّا﴾** [سورة مريم: الآية ٥٩]

أضاعوا الصَّلاةَ بأنْ فوَّتوها عن الأوقاتِ * وتهَاونُوا بالجُمَعِ والجماعاتِ * ولم يخْشوا ربَّهُمْ ولا حَذروا من العقوباتِ * إذا صَلّوها نقَروها نقرَ الغُرابِ * فلا سُكونَ ولا طُمأنينة ولا احْتسابَ * تحسبُهُم إذا شرَعُوا فيها مطْرودينَ * وتشاهِدُهمْ لأرْكانها وشُروطِها مُهْمِلينَ * وتُبْصِرُهم عن جميع كمالاتها غافلين. نَسُوا اللَّهَ فنَسِيَهُم وضيعوا مصالحَ الدُّنْيا والدِّين * ضيَّعوا الصَّلاةَ واتَّبعوا لِغَيِّهِم الشَّهواتِ * وقدَّموا أغراضَ النُّفوسِ على القيامِ بالواجباتِ. إنْ بدا لهُمْ طمعٌ طاروا إليه جماعاتٍ ووحداناً. وإذا جاءَ أمرُ اللَّهِ فهُمْ كُسالى عنه فحسبهُم بذلك هواناً وخسْراناً. فيا ويحَ من قدَّمَ شهواتِ الغيِّ عن طاعةِ مولاهُ. وما أخسرَ منْ زهدَ في الخيرِ واتبع هواهُ فأهْلَكَهُ وأرداهُ.

أين الإسْلامُ والإيمان يا منْ يدعيه. وأين الخوفُ من يومٍ يجد فيه كلُّ عاملٍ عمَلَهُ ويُلاقيه. يومَ لا يجدُ هذا المُفْلِسُ من أعماله ما ينْجيهِ من عذابِ ربِّهِ ويقيهِ. فويْلٌ يومئذٍ للمُضيِّعين للصَّلاةِ منْ يومٍ يَفرُّ فيه المرء من أخيه وأمِّهِ وأبيهِ. وصاحبَتِهِ وبنيهِ. لكلِّ امرىءٍ منهُمْ يومئذٍ شأنٌ يغْنيهِ. فأينَ هؤلاء الأراذلُ من أقوامٍ يرونَ الصَّلاةَ أكبرَ نعمةٍ من اللَّهِ وأجلَّ غنيمةٍ. فيتلقَّونها بصدورٍ مُنشرحَةٍ وهممٍ صادقةٍ وأعمالٍ مُستقيمةٍ. لا تفقدَهْم في جمعة ولا جماعة إلَّا إذا كانَ لهم عذر من الأعْذار.

**﴿رجالٌ لا تُلهيهمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللَّهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاء الزكاةِ يخافونَ يوماً تتقلَّبُ فيه القُلوبُ والأبصارُ * ليجْزيَهمُ اللَّهُ أحْسنَ ما عملوا ويزيدَهُمْ مِنْ فضلهِ واللَّهُ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب﴾**
[سورة النور: الآيتان ٣٧، ٣٨]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمْ.

# ١٦ ـ خطبة
## في النار وصفتها وأهلها

الحَمْدُ للَّهِ الذي جَعَلَ النَّارَ مثْوى للكافرينَ * وعاقبةَ المجرمين والمتكبرين والمتجبرين. فهو الحَكَمُ العدْلُ شديدُ العِقابِ وأحكمُ الحاكمين. وأشهدُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ الملكُ الحقُّ المبينُ * وأشْهدُ أن محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ الذي حذَّرَ وأنذَرَ وأخبرَ أن جهنَّم مثوى الظالِمينَ * اللَّهمَّ صلِّ وسلم عَلَى محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه أئمَّةِ المتَّقين * وعلى التابعينَ لهُمْ بإحْسانٍ إلى يوم الدِين.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمْ واتَّقوا النارَ التي أعدَّتْ للكافرين * وأطيعوا الله ورسُولَه إنْ كُنْتُمْ مؤمنين * فإنَّ اللَّهَ أخبر أنَّهُ لا يَصْلَى النـارَ إلَّا الأشْقى * الذي كذَّبَ وتولَّى * وجمـعَ فأوعى * ونَسِيَ المُبْتَدأ والمُنْتهى * فهي دارُ منْ طغى وبغى * وتجبَّر على الخلْقِ وآثرَ الحياةَ الدُّنْيا * دارَ الشقاء الأبدِيّ * والعذابِ الشـديدِ السـرمَدِيّ * دارٌ جَمـعَ اللَّهُ فيهـا للطَّاغينَ أصناف العذابِ * وأَحلَّ عَلَى أهْلِها السُّخطَ والسعيرَ والحجابَ * دارٌ اشتَدَّ غيْظُها وزفيرُها * وتفاقَمتْ فظاعتُها وحمي سعيرُها * قَعْرُها بعيدٌ * وعذابُها شديدٌ * ولباسُ أهْلِها القَطِرانُ والحديـدُ * وطعامُهُم الغِسْلينُ وشـرابُهُم الصَّديدُ * يتجرَّعهُ المجرمُ ولا يكادُ يُسيغُهُ ويأتيـهِ الموتُ من كـل مكانٍ وما هو بميِّتٍ فيستريـحَ من التَّنْكيدِ * يترَدَّدُ أهْلها بين الزمهريرِ المفْرطِ بردُهُ وبين السعير * ويلاقونَ فيها العنا والشقا فيا بئْسَ المثْوى ويا بئْسَ المصيرُ * ويُلقى عليهم الجـوعُ الشديـدُ المُفْظِـعُ * والعـطشُ العـظيمُ المـوجِـعُ * فيستغيثُونَ للطعامِ والشرابِ * فيغاثونَ من هذا العذابِ بأفظـعِ عذابٍ * يغاثونَ بماء كالمُهلِ وهو الرصاصُ المذابُ * خبيثُ الطَّعمِ منْتنُ الرِّيـح حرُّهُ قدْ تَناهى * إذا قرُبَ من وجُوهِهِم أسْقَطَ جلدَها ولحمها وشواها. وإذا وقـعَ في بطُونِهِمْ صَهرَها وقطَـعَ معَاها * يغلي طعامُ الزَّقُّومِ في بُطُونِهِم كغلي

الحميمِ فشاربونَ عليهِ من الحميمِ. فشاربون شُرْبَ الإبِلِ العِطاشِ الهِيم. هذا نزلهُمْ فبئْسَ النُّزُلُ غيرُ الكريم.

ينادونَ مالكاً خازنَ النَّارِ: «ليقْضِ علينا ربُّك» فيقولُ: «إنَّكُمْ ماكثون. لقد جِئْناكُمْ بالحقِ وأكثرُكُمْ للحَقِّ كارهُون. ويُنادونَ مُسْتَغِيثِينَ بربِّهِم:

**﴿ربَّنا غلبَتْ علينا شقْوتُنا وكنّا قوماً ضالين * ربَّنا أخْرِجْنا منها فإنْ عُدنا فإنَّا ظالِمون * قال: آخْسَأُوا فيها ولا تُكلِّمونِ﴾**

[سورة المؤمنون: الآيات ١٠٦ ــ ١٠٨]

فحينئذٍ ييْأَسُونَ من كلِّ خيرٍ ويأخذونَ في الزَّفيرِ والشهِيقِ. وكلما رفعَهم اللهَبُ أرادوا أن يخْرجوا منْها فأعيدوا فيها وقيلَ لهُمْ: ذُوقُوا عذابَ الحريقِ. لا يُفَتَّر عنهم من عذابها وهُمْ فيه مُبْلِسونَ ويبْكونَ دماً بعد الدُّموعِ فلا يُرحمون جزاءً بما كانوا يكْسِبون. قد فاتهم مرادُهْم ومطلوبُهمْ. واعترفوا بذنُـوبِهم وأحاطتْ بهم ذُنوبهم يدعون بالويْلِ والثبورِ: يا ثُبوراه! يـا حسرتنـا على ما فَرَّطْنا في جَنْبِ اللَّهِ. واحُزْنَنَا من فظيعَةِ العذابِ والشَّقا. واكرْبَنا من دارِ العِقابِ وتجدُّدِ العَنا. وافجيعتَنَا من الخلودِ في الجحيمِ ويا عِظَمَ البَلا. فما لنا من شافِعين. ولا أولياء وأخلاء دافعين. قد نسينا الرحمن في العذابِ كما نسيناهُ. وكما جحدْنا آياته وجزَاءَهُ ولقاهُ. فواللَّهِ إنَّ أفئدَتنا لَتُفَتَّتُ من قوةِ العقابِ. وإنَّ قلوبَنا لتتقَطَّـعُ من الكروبِ وعِظَمِ المصابِ. سواء علينا أجزِعْنا أمْ صبرنا فالعذابُ دائمٌ. وسواء دعوْنا أو سكتْنا فلَيْسَ لنا مُشْفِقٌ ولا وليٌّ ولا راحمٌ. باركَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

# ١٧ ـ خطبة
## في ذكر صفة الجنةِ وأهلها

الحَمْـدُ للَّهِ البَرِّ الكـريم. الرؤوفِ الـرَّحيم. ذي الفَضْلِ العـظيم والإِحْسانِ الشَّامِلِ الكامِلِ العميمِ. وأشهدُ أنْ لا إلـه إلَّا اللَّهُ وحدهُ لا شريك له الملكُ العظيم. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسُولهُ المصطفى الكريمُ. اللَّهمَّ صـلِّ وسلِّم وبارِكْ على محمَّـدٍ وعلى آلهِ وأصحـابهِ السَّـالِكين للصِّـراطِ المستقيم.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى فإنَّ الله أعدَّ الجنَّة للمُتَّقين.

**﴿الذين يُنْفقونَ في السَّراء والضرَّاء والكاظِمينَ الغيظَ والعافِينَ عنِ النَّاسِ واللَّهُ يحبُّ المحسنين * والَّذين إذا فعلوا فاحِشةً أو ظلموا أنْفُسَهمْ ذكرُوا اللَّهَ فاستغْفَروا لذنوبهم ومنْ يغْفِرُ الذنوبَ إلَّا الله ولمْ يُصِرُّوا على ما فعلوا وهمْ يعْلمون * أولئك جزاؤُهُم مغْفرةٌ منْ ربهمْ وجنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعمَ أجْرُ العاملين﴾**

[سورة آل عمران: الآيات ١٣٤ ــ ١٣٦]

فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قُلوبِ العالمين.

**﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشَّاربين وأنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى، ولهُمْ فيها من كُلِّ الثَّمراتِ﴾**

[سورة محمد: الآية ١٥]

والفواكه المتنوِّعة لذيذة الطَّعْمِ سهلة المنالِ على المتناولينَ.

**﴿وفاكهةٍ ممَّا يتخيرون * ولحمِ طيرٍ ممَّا يشتهون﴾**

[سورة الواقعة: الآيتان ٢١، ٢٢]

ظلُّها ممدودٌ وخيرُها غزيرٌ غيرُ محدُودٍ * وأنهارُها تجري في غيرِ أُخدودٍ * فتبارَك الرَّبُّ المعبودُ * دارٌ جَلَّ منْ سوَّاها وبناها * دارٌ طابتْ للأبرارِ منازلُها المزخرفةُ وسُكْناها. دارٌ تبلـغُ النُّفوسُ فيها مُنْيَتَها ومُناها * رياضُها النَاضِرةُ مجمـعُ الأصفياء المُتَحابِّين * وبَساتينُها الزاهرةُ نُزهَةُ المُشْتَاقين * وخيامُ اللُّؤلؤِ

والدُّرّ على شواطىء أنهارِها بهجةٌ للنَّاظرين * فيها خيراتُ الأخلاقِ حسانُ الوجوهِ قد جمَعَ اللَّهُ لهُنَّ الجمالَ الباطِنَ والظَّاهر من جميعِ الوجُوهِ * أبكاراً عرباً أتراباً كأنَّهُنَّ اللُّؤلؤ المكنُونُ * قاصِراتُ الطَّرفِ مِنْ حُسْنهنَّ الَّذي قَصَّرَ عنْ وصفِهِ الواصِفونَ * مقصوراتٌ في خيامِ اللُّؤلؤ والزَّبـرْجَدِ عن رؤيـةِ العُيُونِ * يتمتَّعُ أهْلُها في كرم الرَّبِّ الرَّحيم * وينظرونَ بأبصارِهْم إلى وجْهِه الكريم فإذا رأوا رَبَّهُمْ تعالى نسُوا ما همْ فيه من النَّعيم.

يُنادي المُنادي في أرجاء الجنَّةِ مُبَشِّراً لأهْلِها بدوامِ النعيم سَرْمَداً * إنَّ لكم أَنْ تحيوا فلا تموتُوا أبداً * وإنَّ لكم أنْ تصِحُّوا فلا تمرضوا أبداً * وإنَّ لكم أن تَشبُّوا فلا تهرموا أبداً * وإنَّ لكم أنْ تنْعَموا فلا تيأسوا أبداً * وإنَّ لكم أنْ يُحلَّ الكريمُ عليكُمْ رِضْوانَه فلا يسْخَطُ عليْكم أبداً * يتزاورُ فيها الأصحابُ والأقاربُ والأحباب ويجْتَمعُونَ في ظِلِّها الظَّليل * ويتعاطَوْن فيها كؤوسَ الرَّحيق والتَّسنيم والسَّلْسَبِيلِ * ويتَنَادَمُونَ بأطْيبِ الأحاديث مُتحدِّثينَ بِنِعَمِ المولى الجليل * قد نُزعَ من قلوبِهِم الغلُّ والهمُّ والأحْزانُ * وتوالتْ عليهم المسرَّاتُ والخيراتُ والكرمُ والإحْسانُ * لمِثْلِ هذه الدَّارِ فليَعْمَل العاملون * وفي أعمالِها الموصِلةِ إليها فَليتنَافسِ المُتنافِسُونَ * فواعجباً كيْفَ نام طالِبُها * وكيفَ لم يسْمَـحْ بمهْرها خاطِبُها * وكيْفَ طاب القرارُ في هذه الدَّار بعْد سماع أخبارها * وكيفَ قرَّ للمشْتاقِين القرارُ دونَ معانَقة أبْكارها * طريقُها يسيرٌ عَلَى من يسَّرهُ اللَّهُ عليْه * وهو امتِثالُ الأوامرِ واجتنابُ النَّواهي والتَّوبةُ والإنابةُ إليْه.

اللَّهُمَّ إنَّا نسْألكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليْهـا مِنْ قولٍ وعمَـلٍ واعتقادٍ * ونعوذُ بكَ من النَّارِ وما قرَّبَ إليْها منْ قولٍ وعمَلٍ واعتقادٍ * إنَّكْ أَنْتَ الكريمُ الجوادُ.

# ١٨ ــ خطبة

## في تيسير الله المعايش لعباده

الحمدُ للَّهِ ذي الفواضِلِ الجليلةِ والعوائدِ. الذي خفَّفَ عن عبادِه المعضلاتِ الشدائد. بما قيَّضَهُ من أرزاقٍ متَنوعةٍ وبركاتٍ مُتَتَابِعةٍ وفوائد * وأشهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ، الملكُ العظيمُ الواجدُ الماجِدُ * الَّذي تفرَّدَ بالكمالِ المطلقِ فهو الإلـه السَّيِّدُ الصَّمد الأحد الواحدُ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ أفضلُ محمودٍ وأكملُ مُثنٍ على اللَّهِ وحامدٍ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ المحسِنينَ في الأعمالِ والمقاصدِ *

أمَّا بعدُ: أيُّهـا النَّاسُ اتَّقـوا اللَّهَ تعالى. وتفكَّـروا في نِعَمِ ربِّكُم واشكُروهُ * واذْكروا آلاء اللَّهِ وتحدَّثوا بفضلهِ ولا تكفُروهُ * واذكروا إذْ كنْتُمْ من قبلِ أن يَنزلَ عليكُم هذا الغيْثُ مُبْلِسين * فأمدَّكمْ بغيْثِهِ فأصبَحْتُم بِرزْقِهِ فرحين مُسْتبشِرين * ولئنْ شكَوْتم غلاء الأسْعـارِ وصُعوبَـة المُـؤنَةِ وتعـذُّرَ المطلوب فانظروا ما في ضِمْنِ ذلـك من الألطافِ التي وضعهـا اللَّهُ في القلوبِ *.

أما ذلك من ألطافِ الباري ليُخفِّفَ بِهِ عنكم الشدائدَ والكروبَ * ألَيْسَ من إحْسانِه إليْكم أنْ سَهَّلَ لَكم كلَّ مطلوبٍ * فكم للَّهِ من خيراتٍ وبركاتٍ ربانيةٍ * وكمْ لهُ من أسرارٍ وألطافٍ ظاهرةٍ وخَفيةٍ * أما قدَّر أسباباً وأعمالاً مُتنوعةً لتقومَ بها معائِشُ الخلْقِ ويرتفقوا * أما سخَّرَ الغنيَّ للفقير والفقيرَ للغني لينتفِـع الجميـعُ ويرتزقوا * أما خَصَّكُم بما فجَّرَ لكم من ينابيـعِ الأرضِ والعيونِ الجاريةِ * أما أفادَكُمْ من بركاتِ أرضِه ونعمِهِ المُتتابعةِ المتوالية * أما ذلك نِعْمةٌ في حقِّ الأغنياء وزيادةُ فَضلٍ عليهم وامتنان * ونعمةٌ في حقِّ الفقراء لتكْثُرَ الأعمالُ والحرفُ ويتوفر الإِحْسانُ * فاذكروا آلاء اللَّهِ لعلَّكُمْ تُفلِحون * وأكْثِرُوا من ذكرِه وشكرِه لعَلَّ النِّعَمَ تدومُ عليْكُمْ وتُرحمون. جَعلنَا اللَّهُ وإيَّاكُم منَ الشَّاكرينَ لِنَعْمائِهِ * الصَّابرين على أقْدارِه وبلائِه * وجعَلَ ما أنعَمَ بِهِ علَيْنا معونةً على الخيرِ * ودَفَـعَ عنَّا وعن المسْلمينَ كلَّ شرٍّ وضيرٍ

﴿اللَّهُ لطيفٌ بعبادِهِ يرزقُ من يشاء وهو القويُّ العَزيز﴾
[سورة الشورى: الآية ١٩]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآن العظيم.

## ١٩ ـ خطبة
### في فضيلة الذكر

الحمدُ للَّهِ الَّذي أعْطى الذَّاكرينَ ما لَمْ يُعْطِ أحداً من العالمين * ورَفَعَ لهُم المنازِلَ العالية وجعَلَهُمْ صَفْوةَ المؤمنين * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا هو ولا ضِد ولا مُعين * وأشهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ الذَّاكِرين * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِم إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاس اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واسْتعِينوا على ذلك بِذِكْرِ المَلِكِ العظيم * فإنَّ ذِكْرَهُ يُوصِلُ العبدَ إلى كلِّ خيرٍ جسيم * ويُنجيه من العذابِ الأليم * فبذِكْرِ اللَّهِ تطمئنُّ القلوبُ * وتزولُ المكارهُ والكروب * أما علمْتُمْ أنَّ منْ ذكرَ اللَّهَ في نفسِه ذكرَهُ اللَّهُ في نفسِه * ومن ذكرهُ في ملأٍ ذكرهُ في ملأ خيرٍ منهُم في حضرةِ قدسِهِ * وأنَّ الذَّاكرينَ اللَّهَ كثيراً والذَّاكراتِ هُمُ المفردُونَ * وأنَّهُمْ إلى كلِّ خيرٍ وكرامةٍ ونعْمةٍ سابقُون * فذِكْرُ اللَّهِ مجلبةٌ للغنى وأنواع الفوائدِ مطرِدةٌ لِلْهَمِّ والغَمِّ والأنكادِ والشدائدِ * أما سمعْتُم أنَّ الإكثارَ من ذكرِ اللَّهِ خيرٌ لكمْ منْ إنفاقِ الذَّهبِ والفِضَّةِ والجهادِ * وما شُرعتْ العباداتُ كلُّها إلَّا لإقامة ذكرِ ربِّ العبادِ * وأنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التربةِ عذبةُ الماء وأنَّها قيعانٌ * وغراسُها العملُ الصالحُ والإكثارُ من ذكرِ الملِكِ الديَّان * فمنْ قالَ سبحانَ اللَّهِ والحمدُ للَّهِ ولا إلـهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ العليِّ العظيم غُرِس لهُ بِكلِّ واحدةٍ شجرةٌ في رياضِ الجنانِ * ومن أكثَرَ من ذكر اللَّهِ غُفِرَتْ لَهُ الذُّنوبُ وجُبرَ ما فيه من نقْصانٍ.

فيا فوزَ الذَّاكرينَ بمحبَّةِ اللَّهِ في الدُّنيا وذوقِ حلاوةِ الإيمانِ *

ويا سعادتَهُمْ يومَ لقائِه حينَ يُحلُّ عليهم الكرامةَ والرِّضوانَ. ويا غبطتَهُمْ في قبورِهم حين يفْتَرِشُونَ الرَّوْحَ والرّيحانَ. ويا فرحَهُمْ حينَ تتلقَّاهُم الملائكةُ مُهنئِينَ لهُمْ بالخيرِ والكراماتِ والإحسانِ. ويا خسارة الغافلين ماذا فاتهمْ من النِّعم والسُّرورِ وماذا حصل لهم من العقوبات والشُّرور. لقد حُرمُوا خيرَ الدُّنيا والآخرة وباؤوا بالخيْبَةِ والحسْرة والصَّفْقةِ الخاسِرة

**﴿يا أيُّها الذِينَ آمنوا لا تُلْهِكُمْ أموالُكم ولا أولادُكْم عن ذكر اللَّهِ ومن يفعلْ ذلك فأُولئكُ هُمُ الخاسرون﴾** [سورة المنافقون: الآية ٩]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٢٠ ـ خطبة

### في التوكل على الله والاستعانة به

الحمدُ للَّهِ الذي وعدَ المتوكِّلِينَ عليه بالكِفايةِ التَّامَّةِ والمعُونة وهوَّنَ عليهم الأثقالَ وحمَلَ عنهُم المشقةَ والمؤنةَ. وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى الذي خلقكُمْ ورزقَكُم وربَّاكُم. والذي أطْعَمكُمْ وكفاكُم وآواكُم. والذي أنقذكُمْ مِنَ الرَّدى وهداكُم. وتوكَّلوا حقَّ التَّوكُّلِ عليه في إصْلاح دينِكُمْ ودُنياكُمْ. واعْلمـوا أنَّ التوكُّلَ على اللَّهِ من لوازمِ الإيمانِ. وبه يتَحقَّقُ للعَبْدِ كلُّ خيرٍ وبرٍّ وامتِنانٍ. فأنْتُمْ تعلمون أنَّكُمْ فقراء مضطرُّونَ إلى ربِّكُمْ في كلِّ الأحوالِ والشؤون. والربُّ هو الفعّالُ لما يُريد؛ إذا قضى أمراً قالَ لهُ كُن فيكون. وهو الذي يعْلمُ منْ مصالِحِكُم ما لا تعلمون. ويريدُ مِنها ما لا تُريدون * ويقدِرُ على ما ليْسَ عليه تقْدِرُون. فقوموا بالأسبابِ مُتوكِّلِينَ على اللَّهِ لا على سواه * فأدُّوا أمرهُ واجْتنبُوا نهْيَهُ طالبينَ منه أنْ يُعينَكم على محبَّتِه ورضاه. وقوموا بالأسبابِ الدنْيويَّةِ من تجارةٍ

أو صناعةٍ أو فلاحةٍ أو غيرها من الأسباب قائمين بالسَّببِ متوكِّلِينَ ومعتَمدين على مسبِّب الأسباب. فإنَّكم إذا اتَّصَفْتُمْ بذلك لم تزالوا في عبادةٍ وأعانكم المولى ويسَّرَ لكم الطُّرُقَ والأبوابَ.

وثـلاثُ كلماتٍ هنَّ روح التَّـوكُّلِ والاستِعـانَةِ. فمنْ قـالها بلِسـانِه مستحضِراً لمعْناها في قلبه فقدْ حقَّق التوكُّلَ واستقامَ بُنْيانُهُ. إيَّاكَ نعْبدْ وإيَّاكَ نَستعين. وحسْبـي اللَّهُ لا إلـهَ إلاَّ هو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم. ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللَّهِ العليِّ العظيم. التي هي كنزٌ من كنوزِ الجنَّةِ توصِلُ العبدَ إلى كل خيرٍ عميم. فمتى عَلِم العبدُ أنَّهُ لا حولَ لأحدٍ ولا قوَّةَ إلاَّ باللَّه. فاعتمدَ كُلَّ الاعتمادِ على ربه في جلبِ مصالـح دينهِ ودنْياهُ. وفي استدفاعِ المضارِّ والمكاره واثقاً بمولاهُ. عالماً أنَّهُ النافـعُ الضارُّ. وأنَّهُ الواقي للشرورِ الجالبُ للمحابِّ والمسارِّ * وأنَّ الخلقَ كلَّهم في غايةِ الاضطرار إلى ربِّهم ونهايةِ الافْتِقارِ فَقَطَـعَ رَجاءَهُ وتَعَلُّقَهُ بالمخلوقينَ * وأنزَلَ حوائجَهُ وشؤونَه كلَّها باللَّهِ ربِّ العالمين * فلْيُبْشِرْ بالكفايةِ التَّامةِ وتيْسِير الأمُور * ويا قُرَّةَ عيْنِه بالحياةِ الطَّيِّبةِ في كلِّ ما يجري به المقدورُ * ومَن انْقَطَـعَ تعلُّقه باللَّهِ وتعَلَّقَ بِمَنْ سواهُ * خذَلَهُ ووكلَهُ إلى غيره وولاهُ ما رضِيَهُ لِنَفْسهِ وتولاهُ * فاتَّقُوا اللَّهَ عبادَ اللَّهِ وأجمِلوا في السَّعْي والطَّلَبِ * وتوكَّلوا على المسبِّبِ لا على السبب *

﴿ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ يجْعَل لهُ مخرجاً * ويرْزُقْهُ منْ حيْثُ لا يحْتَسِبُ ومنْ يتوكل على اللَّهِ فهو حسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بالـغُ أمرِه قدْ جَعلَ اللَّهُ لِكلِ شيء قدراً﴾
[سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآن العظيم.

# ٢١ ـ خطبة

## في النهي عن الإسراف في النفقات

الحمْدُ للَّهِ الذي دبَّرَ عبادَهُ في كلِّ أُمورهِمْ أَحْسَنَ تدبيرٍ * ويَسَّرَ لهُم أحوالَ المعيشَةِ وأَمَرَهمْ بالاقْتصادِ ونهاهُمْ عنِ الإسْرافِ والتَّقْتيرِ * وأشْهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ البشيرُ النذيرُ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه الذين سلَكُوا طرقَ الاعْتدالِ والتيْسير.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى ودَعوا مجاوَزَةَ الحدِّ في كل الأمورِ * واسْلكُوا طريقَ الاقتصادِ في الميسورِ والمعسور * فقدْ قالَ تعالى:

**﴿والذِينَ إذا أَنفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يقْتُرُوا وكانَ بينَ ذلكَ قواماً﴾**

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فيدخلُ في هذا الإرشادِ النفقاتُ الواجبةُ والمستحَبَّاتُ * كما يدخـلُ فيه النوائبُ التي تنوبُكُم عند عوارض الحاجات *

وقد حدثَ التوَاسـعُ الزائدُ في هذه الأوقاتِ * في الولائم ومحافلِ النساءِ وغيرها من الدعواتِ * وهذا ضررٌ عظيمٌ مخالفٌ للشرعِ والعرفِ وحسنِ التدبير * ومضارُّه شاملةٌ للغنيِّ والفقير * فالإسرافُ مخالفٌ لما أمرَ بِه الشارعُ * فقد جَعَلَ اللَّهُ الأموالَ قياماً للنَّاسِ تقومُ بها المصالـحُ والمنافـعُ فمَنْ صرَفَها في غيرِ وجهِها أو تجاوزَ بها حدّها * فقدْ ضيَّـعَ ما جعلهُ اللَّهُ قواماً حيثُ صرَفَها عن المصلحةِ وصدّها * وهذا النوعُ من النفقةِ لم يضمن اللَّهُ للمنفِقِ خلفَها ورفدَها * أَلَا وإنَّ الإسْرافَ في النفقات لا يستجيزُه أهـلُ العقولِ الوافيةِ * ولا يبْني مكرُمةً عندَ ذوي الهمَمِ العاليةِ * ولا يصيرُ لهُ موقـعُ يذكرُ * ولا معروفٌ وإحسانٌ يشكرُ * بل نُشاهدُ المدعوِّين القادِحَ منْهمْ أكثرَ من المادحينَ * وذلكَ ضارٌّ لصاحِبِه ولِمَنْ أرادَ مقابَلتهُ من الفاعلين *

أَلَا ترونَ العاجزِينَ ومنْ ليس لهُمْ مقدرةٌ يلتزمُونَ ذلك مجاراةً للأغنياءِ القادرينَ * فلو أنَّ رؤساءَ النَّاسِ التزَموا واتَّفقوا على الاقتصاد * لَشُكِروا على ذلك وكانَ خيراً لهُمْ ولأهلِ البلادِ.

أما تُشاهِدونَ أفراداً مِنَ الرِّجالِ الذين لا يشكُّ في كرمِهِمْ وعَقْلِهِمْ إذا سلَكُوا طريق الاقتصادِ اتَّفَقَ النَّاسُ على الثَّناءِ عليهِمْ * ويروْنَهُ منْ محاسِنهمْ وإحْسانِهِمْ إلى الَّذِينَ ينْتَمُونَ إليهِمْ * وخُصُوصاً في هذه الأوقـاتِ التي اشْتدَّتْ بها المؤنَةُ وارتَفعت الأسعارُ. وصارَ الواحدُ إذا جارى النَّاسَ في توسُّعِهِمْ حمَّل ذِمَّتَهُ ما لا يُطيقُ وتحَمَّلَ المضارَّ. فلو بَذَلَ ذلك في ضرُورَاتِه وحاجاتِهِ لكانَ خيراً لهُ مِنْ بَذْلِه في أُمورٍ ليْسَت مِنْ كمالاتِهِ. وقد تُشاهِدونَ مَنْ يُسرفُ في هذه النَّفقاتِ. فهو مُقصِّرٌ غايةَ التَّقصيرِ في قيامِه بما عليه من الواجباتِ. فانظروا رَحِمَكُمُ اللَّهُ ماذا يجبُ عليكُمْ في أَمْوالِكم وما يحسنُ شرْعاً وعقْلاً. واسْلكوا هذا السَّبيلَ ولا تُصْغوا لِمَنْ يُريدُ غيرَ ذلكَ أصْلاً. ولا تضطروا عبادَ اللَّهِ بإسْرافِكم في أُمورٍ لا يحبونها ولا تُدخِلوهُم في أحْوالٍ ونفقاتٍ لا يرتدونها. باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآن العظيم.

## ٢٢ ــ خطبة

### واعظة

الحمد للَّهِ الجليل وصفُهُ * الجميلِ لُطْفُهُ * الجزيلِ ثوابُه. الشديد عِقابُه. الحيِّ القيومِ. الذي أوجدَ الكونَ مِن عدَمٍ ودَبَّرَهُ. وخلقَ الإنسانَ من نطفةٍ فقدَّرَهُ. ثم السبيلَ يسَّرهُ ثمَّ أماتهُ فأقْبرَهُ. ثمَّ إذا شاءَ أنْشرَهُ. فسبحانهُ من إلـهٍ ما أعزَّهُ وأقدرهُ وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ شهادةَ معْترفٍ بوحدانيَّته. مُقِرٍّ بألوهِيَّته وربوبيَّته. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ بَرِيَّتِهِ. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمدٍ وعلى آله وأصحابِهِ صفوةِ اللَّهِ من خلقِهِ وخيرتِهِ.

أمّا بعدُ، أيُّها النَّاس، آتَّقوا اللَّهَ ولا تغْتروا بإمهالِهِ وحلمِهِ. وأصلحوا أعمالكُم فإنها محصاةٌ عليْكُمْ ومجازونَ عليها بحكمته وعلمِهِ. وآحذروا الدُّنْيا فإنها كثيرةٌ آفاتُها وعِللُها * مدبرٌ مُقْبِلُها ومائلٌ معتدِلُها * إنْ أضحكتْ بزخرفها قليلاً * أبكَتْ بأكدارِها طويلاً * انظروا مَنْ جَمَعَها ومنعَهَا * كيفَ انتقَلت إلى غيرِه وصارَ عليه تعبُها ومأثمُها * فتفكَّروا في عواقِبِ مَنْ دانَتْ لهم الأمورُ * وأسكرَهُمُ الجهلُ والغرورُ * وصنَعوا فيها ما آشتهوا وأرادوا * ووصلوا مَنْ أرادوا وصْلهُ وقطعوا وعادوا * كيف هَجمَ عليهم الموتُ بغتَةً وهمْ لا يشْعرون * وكيفَ انتزع أرواحَهُم العزيزة وهمْ في غفلةٍ نائمون * عوضهمْ مُوحِشاتِ القبورِ * بعد متَنَزَّهاتِ القُصُورِ * وصنعَ بهم الدود مُسْتَبْشَعَ الأمورِ * وتراكيبهم المعتدلة أمالها * ومفاصِلَهم المتَّصلة أزالها * وعيونَهُم المليحةَ أطفأ نُورها وأحالها. ووجوههُم الصَّبيحةَ المليحةَ غيَّرها * وألسِنَتَهُم الفصيحةَ أسْكتها وقطعها. وشعورهم الحالكةَ مزَّقها * وأبدانهم النَّاعِمةَ لَعِبَ البلاءُ بها وفرَّقها * يتمنَّونَ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا وهيهاتَ لهُم الرُّجوعُ * ويودُّونَ أنْ يُرَدُّوا ليستدركوا ما يقْدِرون عليه من التَّوبةِ والنُّزوعِ * فلو سألْتهم عمَّا وصلوا إليهِ مِنَ الأحوالِ * لقالوا قدْ لقِينا الشدائدَ والقلاقِلَ والأهوالَ * ولقد حُوسِبنا على الدَّقيقِ والجليلِ مِنَ الأعمالِ * فلم نفقِد مِن أعمالِنا قليلاً ولا كثيراً * ولم نجد لنا شافِعاً ولا وليًّا ولا نصيراً * فيا حسرتنا على ما فرَّطْنا في جَنْبِ اللَّهِ * ويا ندامتنا على ما تجرَّأنا عليه من محارم الله * ويا شقاءنا من العذابِ الدائمِ * ويا فضيحتَنا من الحزنِ والخزي المتراكِمِ. لقدْ جاءتْنا الآياتُ والنصائحُ فردَدْناها. ولقدْ توالتْ علَيْنا النعمُ من ربِّنا فما شكرْناها. ولقدْ قدَّمْنا الدُّنيا على الآخرةِ وآثرْناها. فالآن أصبحْنا بأعْمالنا مُرْتهنين. وعَلَى ما قدَّمَتْ أيدينا من الجرائم نادمين.

**﴿أفرأيتَ إنْ متَّعْناهُم سِنين﴾** [سورة الشعراء: الآية ٢٠٥]

الآياتِ. بارك الله لي ولكم.

# ٢٣ ـ خطبة

## في سؤال العبد عن النعم

الحمدُ للَّهِ الذي أعْطى عبادهُ الأسماعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّهُم يشكرون. وأسْدى عليهم أصنافَ النِّعمِ وسَيُحاسِبهم عليها وعنْها يُسْألون. فمنِ استعانَ بها على طاعةِ المنعِم فأولئك هُم المفلِحون. ومن صرفها في معاصِيه فأولئكَ الَّذِينَ خسِروا أنفسَهُم وأهلهم يومَ القيامة ألا ذلكَ هو الخسران المُبين. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لـه الذي إذا أرادَ شيئاً قالَ لهُ كُنْ فيكون. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي خُتِمَتْ بِهِ الأنبياءُ والمرسَلون. وبهدْيِهِ وسيرتِهِ يهْتدي المهتدون. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِه ومن تبِعَهُم في الأقوالِ والأفعالِ والحركةِ والسُّكونِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ آتَّقوا اللَّهَ وآعرفوا مِقدار نِعَم الله. فقَد قالَ ﷺ: (لا تزولُ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسأَلَ عن خمْسٍ: عن عُمُره فيم أفناهُ وعن شبابِه فيم أبلاهُ. وعن مالِه مِن أينَ اكتسَبهُ وفيم أنفقَهُ. وماذا عمِلَ فيما عَلِمَ). فكلُّنا معْشرَ المسْلمينَ. مسؤولٌ عن هذه الخمس كما أخبر بِه الصادقُ في المقالِ. فلْينظرِ العبدُ موقِعَ حالِهِ وماذا يجيبُ به هذا السُّؤال. فمن قالَ بصدقٍ يا رب قد أفنيتُ عمري في طاعتك. وأبْليتُ قُوَّتي وشبابي في خدمتك. ولم أزلْ مقلِعاً تائِباً عن معْصِيتِك واكتسَبتُ مالي من طُرُقِ الحلالِ واجتنبت المكاسِبَ الرَّديَّة الموجِبةَ للهلاكِ والنكال. وأنفقْتهُ فيما تُحبُّ واجتنبْتُ إنفاقه في الفُسوقِ. ولم أبخلْ بالزكاةِ ولا في النفقاتِ الواجبةِ وأدَّيْتُ الحقُوقَ. وعَلِمتُ الخيرَ ففعلْتُهُ. وعرفْتُ الشَّرَّ فتركتُهُ. فليُبْشِرْ عندَ ذلك برحمةِ اللَّهِ وأمانِهِ. والفوزِ بجنَّتِه ورضْوانِه. ومنْ قالَ قدْ تقضَّى عمري وشبابي في الذُّنوب والغفلات. ولمْ أُبالِ بالمكاسبِ الخبيثةِ ولا بالغشِّ والخياناتِ. وعلمتُ الخير والشَّرَّ فلم أنتفع بعلمي. ولا أغنَتْ غني معْرفتي ولا فهْمي.

فذلكَ العبدُ الذي هلكَ مـعَ الهالكين. وسلكَ سبيلَ الظالمينَ المعتدين. فيا سَوْأَتَاهُ حينَ ينْدبُ الشَّابُّ شبابَهُ. ويفتضـحُ الشيـخُ إذا قرأ كتابهُ * ويا ندامةَ المفرطين حين يُحْشرُ المتَّقونَ إلى الرحمن وفداً. ويساقُ المجرمونَ إلى جهنم ورداً * لا يملكون الشفاعةَ إلاَّ من اتخذَ عندَ الرحمنِ عهداً. يُنادونَ مالكاً خازِنَ النَّار: يا مالكُ ليقضِ علَيْنا ربُّك! قالَ: إِنَّكُم ماكِثُونَ لقد جئناكُم بالحقِّ ولكنَّ أكثرَكم للحقِّ كارهُون. ويقولون:

﴿ربَّنا أخرجْنا منها فإِنْ عُدنا فإِنَّا ظالمون * قالَ آخسأوا فيها ولا تُكلمونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١٠٧، ١٠٨]

الآياتِ. باركَ اللَّهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيم.

## ٢٤ ــ خطبة

### في وجوب معرفة الله وتوحيده

الحمدُ للَّهِ المتوحِّدِ بصفاتِ العـظمةِ والجلالِ. المتفردِ بـالكبريـاءِ والكمالِ. المُولي على خَلقهِ النِّعَمَ السابغةَ الجزالَ. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الكبيرُ المتعالُ * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسُولُهُ أفضلُ الرُّسلِ في كلِّ الخِصالِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ خيرِ صحبٍ وأشرفِ آلٍ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ واعبدوهُ فإِنَّ اللَّهَ خلقكم لذلك قال تعالى:

﴿وما خَلقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاَّ ليعْبدونِ﴾

[سورة الذاريات: الآية ٥٦]

خلقهُم ليعبدوه ويدينُوا بعبادتِه الجامِعة لمعْرفتِه والإنابةِ إليه والتوجه في كل الأمـورِ إليهِ * خلقَهُم ليعْـرفوا ويعْتـرفوا أنَّـهُ الـربُّ الـذي أوجـدَ جميـعَ المخلوقاتِ * وأعدَّها وأمدَّها بكلِّ ما تحتاجُ إليْه من كُلِّ الجهاتِ. وهي

الفقيرةُ إليْه بالذَّاتِ وكلِّ الصفاتِ * خلقَهمْ ليعْرفوا ويعْترفوا أنَّهُ الملكُ المالكُ لجميع الموجوداتِ والعوالمِ والممالكِ * الذي لـهُ الحكمُ والحمدُ في الأولى والآخرةِ وإليْهِ يُرجعون. وإليه تَنْتهي الأقدارُ ومنْهُ تبْتدىء. وإذا أرادَ شيئاً قالَ لهُ كُنْ فيكون. خلَقَهم ليعْرفوا أحْكامَهُ الشَّرْعية والقدريَّةَ والجزائيَّة ولها يخْضعون. فيعْلموا أنَّ كُـلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقـدر وأنَّ ما أصـابَهُمْ لم يكنْ ليُخْطِئَهُمْ. هو مولانا وعليه فليتَوكَّلِ المؤمِنون * فنرضى باللَّهِ ربًّا وسيِّداً ومدبِّراً وحاكماً * وبمحمَّدٍ نبيّاً رسولاً ومُبشِّراً ومُنْذراً * وبالإسْلامِ ديناً وطـريقاً ومسلكاً. خلقَهُمْ ليعْرفوا ويعْترفوا أنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلَهَ إلَّا هو فليْسَ لهُ شريكٌ في أُلوهِيَّتِه * كما ليْس لَهُ شريكٌ في رُبوبيَّتِه وملكه. فكما أنَّهُ الخالقُ الرَّزَّاقُ المدبِّرُ لجميـع الأُمورِ. فهو الإلـهُ المعبودُ المحمودُ المشكورُ. وكما أنَّ جميـعَ النِّعمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ مِنهُ لطفاً وإحْساناً. فهو المستحِقُّ لكمالِ الشكرِ إخلاصاً ومحبةً لهُ وخضوعاً وإذعاناً. وكما أنَّهُ الذي لطَفَ بِكُمْ وعَدَلَكم وسوَّاكمْ فليكُنْ وحدَهُ معبودَكُم ومرجوَّكُم ومولاكُم *

وكما شرع لكُمْ ديناً حَنيفاً مُيسَّراً موصِلاً للْفلاحِ. فاسلُكوا الصِّراطَ المستقيمَ مُتقرِّبينَ إليهِ في الغدوِّ والرَّواحِ. فليْس لكمْ ربٌّ سواهُ. ولا معْبودَ ومقصودَ إلَّا اللَّهُ. ولا ملْجأ ولا منجاً مِنهُ إلَّا إليْه. ولا معولَ في الأمورِ إلَّا عليه. فقُوموا بعبوديَّتِه ظاهراً وباطناً لعلَّكم تُفْلِحون. واستَعِينوا بِهِ وتوكلوا عليْه لعلَّكُمْ تُرحمون. إذا سألْتُم فلا تسألوا إلَّا اللَّه. وإذا آستعنْتُم فلا تستَعينوا بأحدٍ سواهُ. فإنَّ الخلْقَ كلَّهم فقراءُ عاجـزون. وجميعهم إلى ربِّهم مضطرون مُفْتقِرون. أعانني اللَّهُ وإيَّاكم على ذكرهِ وشكرهِ وحسنِ عبادته. ووفقنا لمحبَّتِه ومعْرفتِه والقيامِ بطاعتِه. ولا حرمَنا خيرَ ما عندَه من الإحْسانِ. بشرِّ ما عندنا من الإساءَة والعصيانِ.

**﴿يا أيُّها الناسُ اعبدوا ربَّكُمُ الذي خَلَقَكُم والذينَ من قبلِكم لعلَّكُم تتَّقون﴾** [سورة البقرة: الآية ٢١]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٢٥ ـ خطبة

## في بعض حقوق النبي ﷺ

الحمْدُ للَّهِ الذي أوجبَ لرسُولِه حقوقاً هي من لوازِمِ الإيمان * وفضَّله وخصَّهُ بخصائِصَ لا يشاركُهُ منها ملكٌ ولا إنسانٌ * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ المتفرِّدُ بالوحدانية والكبرياء والسلطان * الذي لهُ كلُّ اسمٍ حسنٍ ووصفٍ جميلٍ وهو الرَّحيمُ الرحمنُ * وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسُولُهُ المبعوثُ إلى الإنسِ والجانِّ. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم وباركْ على محمدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ.

أمَّا بعدُ أيُّها الناس اتَّقوا اللَّه تعالى فإنَّ اللَّهَ كتَبَ الرحْمةَ الكامِلَةَ للمؤمنين. فقال:

**﴿ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فسأكْتُبُها للَّذينَ يتَّقونَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ والذينَ هُمْ بآياتنا يؤمِنونَ * الذينَ يتَّبعونَ الرَّسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونَهُ مكتوباً عِندَهُم في التوراةِ والإنجيل يأمرُهمْ بالمعروفِ وينهاهُمْ عن المنْكرِ ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ ويحرِّمُ عليهمُ الخبائِثَ ويضَعُ عنهمْ إصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهمْ فالذينَ آمنوا به وعزَّرُوهُ ونصروهُ واتَّبعوا النورَ الذي أُنزِلَ معهُ أولئكَ هم المفلِحون﴾** [سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]

فهذِه الآياتُ الكريمةُ قد تضمَّنتْ ما يجبُ لهذا النبيِّ الكريم من الحقوقِ التي لا يحصلُ ولا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بها * حقُّهُ الأصيلُ أن نُؤمِنَ به ونعترفَ بِصدقِهِ وأنَّ كلَّ ما جاءَ به حقٌّ لا ريبَ فيه * وأنْ نتَّبِعهُ في أُصولِ الدين وفروعِهِ * ونُقدِّم قولهُ وطاعتَهُ على طاعة كلِّ أحدٍ * ونعْلمَ أنَّهُ لا يأمرُ إلَّا بالمعروفِ الذي هو الخيرُ والهدى والبِرُّ والصلاحُ * ولا ينهى إلَّا عنِ المنْكرِ الذي هو كلُّ شرٍّ وفسادٍ وأعمالٍ قِباحٍ * وأَنَّهُ أحلَّ لنا جميع الطَّيِّباتِ. من المآكلِ والمشاربِ والملابِسِ والمناكحِ وجميعِ التصرفاتِ. وحرَّمَ كلَّ خبيثٍ من هذِه الأشياءِ فرسالتُهُ احتوتْ على كلِّ الكمالاتِ * وكان دينهُ مبنيّاً

عَلَى اليُسْرِ والسُّهولةِ ورفـعِ الأغلالِ. قرةَ العيونِ وحياةَ القلوبِ ووسيلةً إلى كلِّ خيرٍ وكمالٍ * وعلينا أن نُعَزِّرَهُ بنصرهِ ونصرِ شريعتِه في حياتِه وبعد مَماتِه * فهو أَوْلى بنا من أنفُسِنا في أُمورِ العبدِ وحالاتِه * وعلينا أنْ نخضـع لهدْيِهِ ونقتدي بِه في جميـعِ حركاتِه وسكناتِه * وعلينا أنْ نوقرَهُ بالإِجْلالِ والإكرامِ * والتوقيرِ التَّامِ والاحترامِ * وأنْ يكونَ أحبَّ إلينا من والدينـا وأولادنا ونفوسِنا والنَّاسِ أجمعين * وأنْ نكثر من الصَّلاةِ والتَّسليم عليْه في كلِّ وقتٍ وحين * وأن لا ندعُوَهُ باسمه بلْ إذا خاطبْناه فعَلى وجْهِ الإجلالِ والتكريم * وقد رفـعَ اللَّهُ لهُ ذِكرَهُ فلا يُذْكَرُ اللَّهُ إلَّا ذُكِرَ معهُ الرَّسُولُ كما في الخطَبِ والشهادتينِ اللَّتينِ هما أساسُ الإسلامِ * وفي الأذانِ الذي هو شعارُ الإسلام * وفي الصَّلاةِ التي هي عمادُ الدين. لما لهُ من الحقِّ الأكبرِ عَلَى النَّاسِ أجمعين.

وكما أنَّهُ ﷺ تميزَ عنِ الخلقِ بكلِّ أوصافِ الكمالِ المُمْكنِ، الذي لا يساويهِ فيهِ مخلوقٌ، فكانَ حقُّهُ بعدَ حقِّ اللَّهِ أوكَدَ الحقوقِ * منَّ اللَّهُ عليَّ وعليكُمْ بمعرفَةِ نبيِّنا والقيامِ بحقِّهِ والاقتداء به في كلِّ حالٍ. وثبَّتنا بالقولِ الثابتِ على سنَّتِه في الحالِ والمآلِ. وحَشَرنا في زمرتِه وأدْخلنا في شفاعتِه. وأوردنا حوضَهُ العذْبَ الشَّهيَّ الزُّلالَ. إنَّهُ جوادٌ كريمٌ واسـعُ النوالِ. بارِكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآن العظيم.

## ٢٦ ــ خطبة

### في حديث: (إني حرَّمت الظلم..)

الحمْدُ للَّهِ الغنيِّ الحميدِ الواسـعِ الكرمِ ذي الخيرِ المديدِ. يسألُهُ مَنْ في السَّمٰواتِ والأرض وقد تكفَّلَ بشؤونِ العبيدِ فسبحانَهُ من إلَٰهٍ كريمٍ وسِـعَ كلَّ شيءٍ رحمةً ولطفاً. وتبارك مَنْ أَوْلَى عبادهُ عفواً ومغفرةً وحلماً. ونشهدُ أنْ لا إلٰـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في جميـعِ النعوتِ والصفاتِ. ونشهدُ أنَّ

محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ أفضلُ الرُّسُلِ وخيرُ المخلوقاتِ. اللَّهم صَلِّ وسلِّمْ وبارك على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه أولي الفضائل والكرامات.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى بامتثالِ أوامرهِ واجتنابِ نواهيهِ. واشكروهُ على سوابـغ نعمِهِ وأياديه. وأَشْعِرُوا قلوبَكم الافتقـار إليه عَلَى الدوام. في هدايةِ قلوبِكُمْ. وحصولِ مطلوبِكم على التمام فقد سَعِدَ من تعلقَ قَلْبُهُ خوفاً ورجاءً بالملك المولى. وقد خابَ من طغى وأعْرَضَ واستغْنى فمنْ تعلَّق بغير اللَّهِ وُكِلَ إليه. ومن تعلَّقَ بربِّهِ أسْعَفَهُ بمُرادهِ وقرَّبَهُ إليْه * قال ﷺ:

(قال اللَّهُ تعالى: يا عبادي. إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلْتُهُ بيْنكمْ محرَّماً فلا تَظالمُوا. يا عبادي، كلكُمْ ضالٌّ إلاَّ من هدَيْتُهُ فاستهدوني أُهْدِكُمْ. يا عبادي كُلكم جائـعٌ إلَّا منْ أطْعَمْتُهُ فاستَطْعِموني أطْعمْكم. يا عبادي كُلّكُم عارٍ إلَّا من كَسَوْتُهُ فاستكْسُوني أُكْسِكُم. يا عبادي إنكم تُخطِئونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعاً فاستغفروني أغفِرْ لكُمْ. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رجُلٍ واحد منكم ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً.

(يا عبادي. لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قلْبِ رجُلٍ منكم ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنْسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعْطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألَتَهُ ما نقص ذلك مما عندي إلَّا كما ينْقُصُ المخيطُ إذا غُمس في البحْر. ذلك بأني جوادٌ واجدٌ ماجدٌ، عطائي كلامٌ، وعذابـي كلامٌ، إنَّما أمري لشيءٍ إذا أردْتُ أنْ أقولَ لهُ كُنْ فيكُون * يا عبادي إنَّما هي أعمالكمْ أحصيها لكمْ ثمَّ أوفِّيكمْ إيَّاها فمنْ وجدَ خيراً فليحمدِ اللَّهَ ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نَفْسهُ:

﴿يا أيُّها النَّاسُ أنتم الفقراءُ إلى اللَّهِ واللَّهُ هو الغنيُّ الحميدُ﴾ )
[سورة فاطر: الآية ١٥]

بارك اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٢٧ ـ خطبة
### في التحذير من حلق اللحاء

الحمْدُ للَّهِ الذي مَنَّ علينا بالنبـي الكريم * وهدانا به إلى الصراط المستقيم * واستنقَذنا بهِ من طرق الجحيم * وأشهدُ أن لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ الربُّ الرحيمُ الملكُ الجوادُ الكريمُ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسُـولُهُ الـذي هو بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه ومن تبعَهُم في كلِّ هَدْيٍ قويم.

أمَّـا بعـدُ: أيُّهـا النَّـاسُ اتَّقـوا اللَّهَ تعـالى وتمسَّكـوا بهـدْي نَبِيِّكم المصطفى * وامتثلوا أوامِرَهُ واجتنبوا ما عَنْهُ زَجَرَ ونَهى، فقدْ أمَركُمْ بحفِّ الشوارِبِ وإعفاء اللِّحا وأخبركُمْ أنَّ حلْقَ اللِّحا وقصَّها من هـدْي الكفارِ والمشركين * ومن تشبَّهَ بقومٍ فهو منهمْ فاحذروا مُشابهةَ الظالمين * يا عجباً لِمنْ يؤمن باللَّهِ واليومِ الآخرِ كيفَ يزهدُ في هَدْي نبيِّهِ وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ * ويختارُ هديَ كلِّ كافرٍ وفاسق فأينَ الإيمانُ * لقد أكرمَ اللَّهُ الرجالَ باللِّحا وجعلها لهم جمالاً ووقاراً * فيا ويـحَ من حلَقها وأهانها وعصى نبيَّهُ جهاراً * أيظنُّ هٰؤلاءِ أن حلْقَها يُكسِب صاحبها بهاءً وجمالاً * كلاَّ واللَّهِ إنَّهُ ليَشينُ الوجوهَ ويذهبُ نورَهُ ويزدادُ به إثماً ووبالاً * ولكنَّهُ الاقتداءُ الضارُّ يحسِّنُ كلَّ قبيـحٍ * ويُوقِـعُ صاحِبَهُ في الشرِّ الصريـحِ * أما قال أهلُ العلم: مَنْ جنى على لحية غيرهِ فأزَالها أو أزالَ جمالها على وجهٍ لا يعودُ فعليه الديةُ كاملةً * ثمَّ هو مـعَ ذلك يجني على نفْسِه ويجحدُ نعمةَ اللَّهِ الشامِلَةَ *

أما ترونَ وجوهَ الحالِقين لها كيفَ يذهبُ بهـاؤُها وخصـوصاً عنـدَ

المشيبِ * وتكونُ وجوهُهُمْ كوجوهِ العجائزِ قد ذهبت محاسنها وهذا من الشيءِ العجيب. فاللَّهَ اللَّهَ عبادَ اللَّهِ في لزومِ دينِكُم ولا تختارُوا عليه سواهُ * فإنَّ فيه الخيرَ والسعادةَ وكلَّ جمالٍ قد حواهُ * فواللَّهِ ما في الاقتداءِ بأهل الشَّرِّ إلَّا الخزيُ والندامةُ * ولا في الاقتداءِ بنبيِّكم ﷺ إلَّا الصلاحُ والفلاحُ والكرامةُ * وإيَّاكم أنْ تصبغوها بالسوادِ * فقدْ نهى عنْ ذلك خيرُ العبادِ * فتوبوا إلى اللَّهِ واستغفروهُ وتمسَّكوا بالخيرِ ولازموه * قبلَ أن تقول نفسٌ يا حسْرتى على ما فرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ * يا ليتني حذِرْتُ من أهلِ الشَّرِّ واقتديتُ برسولِ اللَّهِ * يا ليتني أعودُ إلى الدُّنْيا لأعمَلَ صالحاً وأتوبَ فالآن فاتَ كلُّ مطلوبٍ * وحَصَلَ كلُّ مرهوبٍ * وأحاطت بأهلِ المعاصي الخطايا والذنوبُ:

**﴿ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديْهِ يقولُ: يا ليتني اتخذتُ مع الرسولِ سبيلًا * يا ويلتَى ليتنِي لمْ أتخذْ فلاناً خليلًا * لقدْ أضلَّني عن الذِّكرِ بعدَ إذْ جاءني وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خذولًا﴾** [سورة الفرقان: الآيات ٢٧ ـ ٢٩]

## ٢٨ ـ خطبة

### في كل معروف صدقة

الحمْدُ للَّهِ المعروفِ بالخيرِ والكرمِ والامتنانِ. المجازي البرَّ بالبرِّ وعلى الإِحْسانِ بالإِحْسانِ * وأشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللَّهُ الرحيمُ الرحمـٰن * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ سيدُ الرسُلِ وخلاصةُ الإنسانِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبِه والتابعينَ لهُم بإحْسانٍ.

أمَّا بعدُ؛ أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واعلموا أنَّ مدارَ التَّقوى على فِعلِ الخيرِ واجتنابِ الشرِّ والفسادِ * وعلى إخْلاصِ الدِّينِ لِلمولى والإحْسانِ إلى العبادِ * وقد قالَ مِنْ أُعْطي جوامع الكَلِمِ: (كلُّ معروفٍ صدقةٌ) فيا لها مِنْ كلمةٍ عظيمةٍ جامعةٍ للخيراتِ * ويا لهُ من كلامٍ بليغٍ محيطٍ بأصنافِ البرِّ والبركاتِ * فكما دخَلَ في هذا الإحسانُ الدينيُّ يدخُلُ فيه

الإحسانُ الدنيويُّ. وكما يدخلُ فيه المعروفُ بالجاهِ والمقال * يدخلُ فيه المعاوناتُ البدنيةُ والإحسانُ بالمالِ * ويتناولُ المعروفَ إلى الصاحِبِ والقريبِ * والمعروفَ إلى العدوّ والبعيدِ * فمنْ عَلَّمَ غيرَه علماً أو أهدى لهُ نصحاً * فقد تصدَّق عليه * ومن نبَّهَهُ على مصلحةٍ دينيَّةٍ أو دُنْيويَّةٍ أو حذَّرَهُ منْ مضَرَّةٍ فقد أحسنَ إليْه.

أيُّها العبدُ. لا تحقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ولو أنْ تلقى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ * وتباشِرَ جليسَكَ بالبشاشةِ وحسْنِ الخُلقِ * ولو أنْ تُفرغَ الدلوَ للمستقي والمتوضّي * ولو أنْ تعطيَ صِلةَ الحبلِ وتعيرَ الإناءَ للمستجدي * وكلما كانت العاريةُ أنفعَ كان أجرُها أفضَل * ومن المعروفِ: إماطةُ الأذى عن الطريقِ، وعزلُ العظْمِ والشوكةِ وجميعِ ما يؤذي * ومن المعروفِ هدايةُ الأعمى في المساجدِ والطرقِ وهدايةُ الحيران * وأنْ تُسمِعَ الأصَمَّ وتطعِمَ الجائعَ وتسْقي الظمْآنَ * وتُغيثَ المكروبَ واللَّهْفانَ * ومِن المعروفِ إعانَةُ أصحابِ الحوائجِ من الأقاربِ والأباعِدِ والجيرانِ * والعفوُ عمَّنْ ظلمَكَ ومقابلةُ الإساءةَ بالإحْسانِ * ومِنَ المعروفِ الدعوةُ إلى طعامٍ أو قهوةٍ أو شرابٍ * للأغنياءِ والفقراءِ والبعداءِ والأقرابِ * وسماحُكَ لِمنْ ينتفعُ بشيءٍ منْ مُلكِكَ من ماشيةٍ ونخلٍ وأشجارٍ * بلبنٍ أو خوصٍ أو حطبٍ أو ثمارٍ *

وإعانةُ المسلمِ بكتابةٍ وعملِ صنعةٍ ونقلِ متاعٍ * ومن المعروفِ بذلُ الفضلِ في المعاملاتِ والمحاباةُ فيها فما شيءُ يتركُ ثوابهُ ولا يضاعُ * ومن المعروفِ الإحسانُ إلى المماليكِ من الآدَمِيّينَ وسائرِ الحيواناتِ * ففي كلّ كبدٍ حراءَ أجرٌ واكتسابٌ للخيَراتِ * ومنَ المعروفِ أن تبذُلَ لغيرِكَ دواءً نافعاً أو تباشرَه بطِبٍّ أو تصفَ لهُ حميةً أو دواءً ناجعاً * فكلُّ ما أوصلتَهُ إلى الخلقِ من البرّ والإحسانِ والتكريمِ فإنَّهُ داخلٌ في خطابِ النبيِّ الكريمِ:

﴿وما تقدِّموا لأنفسِكم منْ خيرٍ تجدُوه عِندَ اللَّهِ هو خيراً وأعظمَ أجراً﴾
[سورة المزمّل: الآية ٢٠]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٢٩ ــ خطبة
### في العقل

الحمْدُ للَّهِ الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَهُ وبدأ خلقَ الإنسانِ من طينٍ * ثمَّ جعَلَ نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ * ثمَّ سواهُ ونفخ فيه من روحه فتباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ إلَهُ الأوَّلينَ والآخرينَ * وأشهد أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ سيِّدُ المرسلينَ وإمامُ المتَّقينَ * اللَّهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِه والتابعينَ لهُم أجمعين، وسلِّمْ تسليماً.

أمَّا بعدُ. أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واذكروا ما تفضَّل بِه عليكم مِنَ العَقْلِ الذي تميزْتُمْ بِه على كثيرٍ من المخلوقاتِ * واحذروا أنْ تُضيعُوهُ أو تهمِلوهُ في وضعهِ في الأمورِ الضارَّةِ أو غيرِ الأمورِ النافعاتِ * فما أنعمَ اللَّهُ على عبدٍ نعْمةً فاسْتعملها فيما خُلِقَتْ لهُ إلاَّ حفِظَهَا اللَّهُ ونمّاها * ولا أهملها ووضعَها في غيرِ موضِعِها إلاَّ سَلبها وبقيَ عليه شقاها *

فهذا العقْلُ الَّذي منحكم اللَّهُ إيَّاه من أفضلِ العطايا * فما بالكم تستَعمِلونَهُ في ركوبِ الدَّنايا؟ خلَقَ اللَّهُ لكم العقولَ لتعقِلوا بها ما ينفَعُكم من المعارفِ والعلومِ النافِعَةِ * وترتقوا بها إلى مدارج الفلاحِ بهممٍ قويةٍ وقلوبٍ واعيةٍ. فقاوِموا بها ما يضرُّكم مِنَ الأخلاقِ الرَّذيلة. فلا خيرَ فيمنْ غلَبَتْ شهوتُهُ عقلَهُ فألقَتْهُ في المهالِك الوبيلةِ. فكِّروا في المصالحِ والمنافِعِ فإذا توضَّحَتْ فاسلُكوها. وزاحموا بها النُّفوسَ العاليةَ المقبِلةَ على الخيرِ ونافِسوها. وإيَّاكم أنْ تكونَ هِممُكُمْ في تحصيلِ الأغراضِ الدَّنيئةِ فتخسروا عقولكم وتضيِّعوها. طوبى لمن كانت أفكاره حائمةً حولَ ما يُحبُّهُ اللَّهُ. دائرةً حولَ ما ينفعُ عباد الله. الإخلاصُ للَّهِ في كلِّ الأمورِ شعارهُ. والإحسانُ المتنوعُ على الخلْقِ دثارهُ. طوبى لِمنْ كانتْ شَهْوتُهُ تبعاً لِعَقْلهِ فآثر النَّافعَ وفازَ بالسعادتينِ. وويْلٌ لِمنْ غلَبَتْ شَهْوتُهُ عقْلَهُ فاختارَ الرَّذائِلَ فخسِرَ الدُّنْيا

والدين. من تركَ ما تهواهُ نفسهُ للّهِ لم يجدْ فقدَه وعوَّضهُ اللّهُ الإيمانَ والثّوابَ. ومنْ تبعَ هواهُ وأعرضَ عما يُحبُّهُ مولاهُ ابتلاهُ بالهمُومِ وأنواع الأوصابِ. سبحانَ مَنْ فاوتَ بين عبادهِ بالعقولِ والهِمَمِ والأعمالِ. وباينَ بينهُم في صفات النقْصِ والكمالِ. وقسمَ بينهُمْ الأخلاق كما قسَم بينهُم الأرزاقَ. فتباركَ اللّهُ الواحدُ الملكُ الخلاقُ. منَّ اللّهُ عليَّ وعليْكمْ بمحاسِنِ الأعمالِ وأحاسِنِها * وحَفِظَنَا مِنْ أسافِلِ الأخْلاقِ وأرذَلِها:

﴿إنَّ في ذلكَ لَذِكرى لِمنْ كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ﴾

[سورة قٓ: الآية ٣٧]

باركَ اللّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٣٠ ـ خطبة

### في قوله ﷺ: (قد أفلح من هُدي للإسلام.. الخ)

الحمْدُ للّهِ الملكِ القهارِ العزيزِ الجبارِ * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللّهُ الرحيمُ الغفارُ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ إمامُ المتَّقينَ الأبرارِ * اللّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه البرَرَةِ الأطهارِ * أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللّهَ تعالى فإنَّ تقوى اللّه عمادُ الدين * وحقُّهُ الواجبُ على الخلقِ أجمعين * قالَ ﷺ (قدْ أفلحَ من هُدي للإسْلامِ وكان عيشه كفَافاً وقنَّعَهُ اللّهُ بما آتاهُ) فجَعَلَ ﷺ هذه الثلاثَ عنوانَ الفلاحِ * وبها يحصلُ الخيرُ والنجاحُ * فإنَّ مَنْ جمَعَ اللّهُ لهُ هذه الثلاثَ فقد جمَعَ لهُ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ * وتمَّتْ عليه النِعمُ الباطِنةُ والظاهرة * وبها الحياةُ الطَّيِّبةُ في هذه الدارِ. والسعادةُ الأبديةُ في دارِ القرارِ. أمَّا الهدايةُ للإسلامِ فإن الإسلام به العصمةُ والنجاةُ مِنْ طرقِ الجحيم ولَنْ يقبَلَ اللّهُ من أحدٍ ديناً غيرَ الاستسلامِ للرَّبِّ العظيم. الإسلامُ هو الاستسلامُ الباطنُ والظاهرُ للّهِ. وهو الانقيادُ الكاملُ لطاعةِ اللّهِ. الإسلامُ مقصودهُ القيامُ بحقِّ اللّهِ وحقِّ العبادِ. ورُوحُهُ الإخلاصُ للّهِ والمتابعةُ للرَّسُولِ في الهدي والرَّشادِ. المسلمُ من سَلِمَ

المسلمونَ مِنْ لِسانِه ويدِه. والمؤمنُ مَنْ أمَّنَهُ النَّاسُ على دِمائِهِمْ وأموالِهِمْ. لا يُؤمِنُ أحدُكمْ حتَّى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لِنَفْسِه. وأمَّا الكفافُ مِنَ الرِّزق فهو الذي يكفي العبدَ ويكفُّ قلبَهُ ولِسانَهُ عَنِ التَّشوفِ وسؤالِ الخلْقِ. واغتباطُهُ برزقِ اللَّهِ والثَّنا على اللَّهِ بما أعْطاهُ مِنْ ميْسُورِ الرِّزقِ. فإنَّ مَنْ أصْبَحَ آمناً في سربِه معافىً في بَدَنِه. عِنْدَهُ قُوت يومِهِ وليلَتِه فكأنما حيِزَتْ لهُ الدُّنْيا بحذافيرها. وأَغبطُ النَّاسِ مَنْ عِندَهُ رِزْقٌ يكفيهِ. وبيتٌ يُؤويه وزوجةٌ تُرضيه. وسَلِم مِنَ الدَّيْنِ الذي يُثْقِلُه ويُؤذيهِ. فَليْس الغنيُّ عن كثرة العَرَضِ إنَّما الغنيُّ غِنى القلب قالَ ﷺ: (مَنْ كانَتْ نِيَّتَهُ الآخرةُ جمَعَ اللَّهُ عليْه أمره. وجعَلَ غِناهُ في قلْبِه. وأتَتْهُ الدُّنْيا وهي راغمة. ومَنْ كانتْ نِيَّتَهُ طَلبُ الدُّنْيا جعَلَ اللَّهُ فقْرَهُ بين عينيهِ. وشتَّتَ عليهِ أمرَهُ ولمْ يأتِه مِنَ الدُّنْيا إلاَّ ما كُتِبَ لهُ * فاتَّقوا اللَّهَ وأَجملوا في الطَّلَبِ * فإنَّ ما عِنْدَ اللَّهِ لا يُنالُ بمعْصِيتِه * وإنَّما يُنالُ بطاعتِه وخِدمتِه * فاَحمدوا اللَّهَ عبادَ اللَّهِ على الهدايةِ للإسلامِ. واشكُروهُ عَلَى الكفايةِ من الرِّزقِ والغنى عن الأنامِ * وانظروا إلى من فُضِّلْتُمْ عليه بالعافيةِ والرِّزقِ والعقْلِ والتوفيقِ فإنَّهُ أحرى لِشكرِ النِّعَمِ والهدايةِ لأقْوَمِ طريقٍ * مَنَّ اللَّهُ علَيْنا وعليكم بالقيامِ بحقِّهِ والقناعةِ بميسورِ رزقِه * إنَّهُ جوادٌ كريمٌ *

**﴿مَنْ عمِلَ صالحاً مِنْ ذكرٍ أَوْ أُنثَى وهو مؤمنٌ فلنحيينَّهُ حياةً طيِّبَةً ولَنَجْزينَّهُمْ أَجْرَهمْ بأحسنِ ما كانوا يعْملون﴾** [سورة النحل: الآية ٩٧]

بارك اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

# ٣١ ـ خطبة
## في نصائح نبوية

الحمْدُ للَّهِ الذي مَنَّ على المؤمنينَ إذْ بعَثَ فيهم رسولاً مِنهم يتْلو عليهم آياتِه ويُزكِّيهمْ ويُعلمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مُبين وخصَّهُ بجوامِـع الكلمِ وغرر الحِكمِ وجعَلَ قبولَ وصاياهُ واتِّباعَ هديهِ داعياً لمحبَّةِ ربِّ العالمين. وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ الملكُ الحقُّ المُبين * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُه الصادقُ الناصِـحُ البارُّ الأمينُ * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ الطَّيِّبينَ وأصحابِه الطَّاهرين * ومنْ تَبِعَهُمْ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ وكونوا مـعَ الصادقين * وأطيعوا اللَّهَ ورسُولَهُ إنْ كُنْتم مؤمنينَ * وكونوا مِمَّنْ يَسْتمـعُ القولَ فيتَّبـعُ أحْسنَهُ أولئكَ الذِّينَ هداهُمُ اللَّهُ وأُولئك هُمْ أُولـو الألبابِ * فلقدْ جاءَكم رسُولٌ مِنْ أنفُسِكم عزيزٌ عليْه ما عَنِتُّم حريصٌ عليْكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ * فَمنْ قَبِلَ نصائحهِ استقامَ على الصِّراطِ المستَقيم * وأوصَلهُ ذلكَ إلى جنَّاتِ النَّعيم فقد قالَ ﷺ: (اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ وأَتْبِـعِ الحسنَةَ السَّيئَة تمحُها، وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ * ثلاثٌ مُنْجياتٌ وثلاثٌ مُهلِكاتٌ فأَمَّا المُنجياتُ فتقْوى اللَّهِ في السِّرِّ والعلانيةِ والقولُ بالحقِّ في الرِّضى والغَضَبِ والقصدُ في الغِنى والفقْرِ * أمَّا المُهلِكاتُ فهوىً مُتَّبـعٌ وشُـحٌّ مطاعٌ وإعجابُ المرءِ بنفسِه وهي أشدُّهُنَّ) ومَنْ تواضَـعَ للَّهِ رفعَهُ فهو في نفسِه صغيرٌ وفي أعينِ النَّاسِ عظيمٌ. ومَنْ تكبَّر وضَعَهُ اللَّهُ فهو في أعينِ النَّاسِ صغيرٌ وفي نفسِه كبيرٌ. حتَّى لهُو أهونُ عليهمْ مِنْ كلبٍ وخنزيرٍ. بئسَ العبدُ عبدٌ تخيَّلَ واخْتالَ * ونَسيَ الكبيرَ المتعالَ. بئْسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واعتدى * ونَسي الجبارَ الأعلى. بئْسَ عبدٌ سهى ولهـا ونَسي المقابِرَ والبلى. بئسَ العبد عبدٌ عتا وطغى ونسي المُبتَدأ والمُنْتهى * بئْس العبدُ عبدٌ يختلُ الدُّنْيا بالدِّين * بئسَ العبدُ عبدٌ طَمَـعٌ يقودُه * بئْس العبـدُ

عبدٌ هوىً يُضِلُّهُ * بئْسَ العبدُ عبدٌ رغَبٌ يُذِلُّهُ. مَنِ التَمَس رضى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وكَلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ. ومَن التَمَس رِضى الله بِسَخَطِ النَّاسِ كفاهُ الله مؤنَةَ النَّاسِ * الدواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لا يغفِرُهُ اللَّهُ وهو الإشراكُ بالله يقولُ اللَّهُ:

﴿إنَّ اللَّهَ لا يغفِر أنْ يُشْرَكَ به﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨]

وديوانٌ لا يتركهُ اللَّهُ وهو ظُلمُ العبادِ فيما بينهم حتَّى يقتَصَّ بعْضُهُمْ مِنْ بعضٍ * وديوانٌ لا يعْبأ اللَّهُ به ظُلمُ العبادِ فيما بينهُمْ وبينَ اللَّهِ فذاكَ إلى اللَّهِ: إنْ شاءَ عذَّبَهُ وإنْ شاءَ تجاوزَ عنْهُ * مَنَّ اللَّهُ عليَّ وعليكم بِقَبولِ النَّصائحِ * وحمانا منْ جميعِ الشُّرور والقبائحِ.

﴿وإذْ قالَ لقمانُ لابْنِه وهو يَعِظُهُ: يا بُني لا تشْرِكْ باللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عظيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم...

## ٣٢ ـ خطبة
## في الاهتمام بصلاح القلب

الحمْدُ للَّهِ الذي أصلحَ بلطفِهِ الصالحين. وخلعَ عليهم خِلَعَ الإيمان واليقين. وحفِظَهُم بعنايتهِ ممَّا يُقْبِحُ ويُشين. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ. مالكُ يومِ الدين. وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُه النبيُّ الأمينُ * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وصحْبِه والتابعينَ لهُمْ إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاس اتَّقوا اللَّهَ تعالى وآعلموا أنَّ مدَار التَّقْوى على إصلاحِ القلوبِ. فقدْ قالَ ﷺ: (إنَّ في الجسدِ مضْغةً إذا صلحتْ صَلُحَ الجسَد كلهُ وإذا فَسدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كلهُ ألَا وهي «القلب») فمتى صلحَ

القلبُ بالإيمان باللَّهِ وملائِكتهِ وكُتُبِهِ ورسله واليوم الآخر والقدرِ خيرِه وشرِه. وصحـحَ ذلك بالمعرفةِ وحسْنِ الاعتقادِ * ثمَّ توجَّه القلب إلى ربهِ بالإنابةِ والقصدِ وحسْنِ الانقياد. فإنَّ الجوارحَ كلهـا تستقيمُ على طريقِ الهـدى والرشاد * فصلاحُ الجوارحِ ملازم لصلاحِ القلوبِ * فاغتنموا رحمَكُمُ اللَّهُ إصلاحَها بحسنِ النِّيَّةِ في كلِّ مـطلوبٍ. فإنَّ اللَّهَ لا ينـظرُ إلى صُورِكم وأعمالِكم ولكنْ ينظرُ ما أكنَتْهُ القلوبُ * فأخلصوا الأعمالَ للَّهِ في كلِّ ما تأتونَ وما تذرونَ * وأنيبُوا إلى ربِّكم وٱطْمعوا في رحمتِه لعلكمْ تُرحمونَ. فالعملُ اليسيرُ مـعَ الإخلاصِ خيرٌ من الكثيرِ مـعَ الرِّياءِ * والثمراتُ الطَّيِّبةُ إنَّما تحصلُ لِمنْ حقَّقَ النِّيَّةَ واتَّقى * فمنْ أصلـحَ باطِنَهُ أصلـحَ اللَّهُ لهُ الأحوالَ * وسدَّدهُ في الأقوالِ والأفعالِ *

**﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللَّهَ وقولوا قولاً سديداً * يُصْلِـحْ لكمْ أعمالكمْ ويغفِرْ لكُمْ ذنوبكُمْ ومَنْ يُطِـعِ اللَّهَ ورسُولَهُ فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾**
[سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١]

وسَلوا موْلاكمْ أنْ يطهِّرَ قلوبكم من الغِلِّ والحِقدِ * ومِنَ الكبرِ والتعاظمِ على العبادِ والحَسدِ * فقد قال ﷺ: (لا يؤمنُ أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِه). . . ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ للَّهِ ومناصحةُ من ولاَّهُ اللَّهُ أمركم ولزومُ جماعة المسلمينَ فإنَّ دعوتهم تحيطُ من ورائهم * لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عبادَ اللَّهِ إخْواناً المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلمُهُ ولا يخذلُه ولا يكْذبُه ولا يحقِّرُه. بحسْب امرئٍ من الشرِّ أن يحقِرَ أخاهُ المسلمَ. كُلّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمهُ ومالهُ وعرضهُ * طوبى لمنْ أخلصَ للَّهِ في أقوالِه وأفعالهِ * ورجا فضلهُ في حالهِ ومآلهِ * وطهَّرَ قلبَهُ من البغضاءِ والعدواة للمسلمين * وتعاونَ معهم في أُمورِ الدُّنيا والدِّين * وويلٌ لمنْ تعلَّقَ قلبُهُ بأحدٍ من المخلوقينَ أو امتلأ من الغلِّ والحقدِ على المؤمنين: أمَّا الأولُ فإنَّهُ يسْعى في علوِّ الدرجاتِ * وأمَّا الآخرُ فإنَّهُ يتردَّى في مهاوي الهَلكاتِ * اللَّهُمَّ يا مُصْلِـحَ الصالحين؛ أصلـحْ فسادَ

قلوبنا * ويا مَنْ بيدِه خزائنُ كلِّ شيءٍ أسْعِفنا بمطلوبنا ويا منْ يغفرُ الذنوبَ جميعاً اغفرْ ذنوبنا * واستُر عوراتِنا وعيوبَنا. إنكَ أنتَ الجوادُ الكريمُ.

﴿ربُّكمْ أعلمُ بما في نفوسِكم إنْ تكونوا صالحين فإنَّهُ كانَ للأوَّابين غفوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٣٣ ـ خطبة

### عن الآيات المخوفة والتحذير من الذنوب

الحمْدُ للَّهِ الحكيمِ في خلقِهِ ورزقِه وتدبيرِه * الحميدِ في خفضِه ورفعِه وعطائِه ومنعِهِ وجميعِ تقديرِه * الغفورِ الرحيم لمن خشيهُ واتَّقاهُ * شديدِ النكالِ والعقوبة عَلَى من عاندهُ وعصاهُ * وأشهدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ولا نعبدُ إِلَّا إِيَّاهُ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ومختارُه ومصطفاهُ. اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وباركْ عَلَى محمَّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِه ومَن اهتدى بهداه.

أمَّا بعدُ، أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ، فإنَّ تقوى اللَّهِ بها حصولُ الخيراتِ. وفيها دفعُ الشرورِ والمكروهاتِ. قالَ تعالى:

﴿ولو أَنَّ أَهلَ القُرى آمنوا واتَّقَوْا لفتَحْنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض ولكنْ كذَّبوا فأخذناهمْ بما كانوا يكسِبُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٩٦]

وقالَ تعالى: ﴿ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدي النَّاسِ ليُذيقَهُم بعضَ الذي عَمِلوا لعَلَّهُمْ يرجِعُون﴾ [سورة الروم: الآية ٤١]

وأخبرَ أن الدُّعاءَ سَبَبٌ للإجابَةِ بحصولِ المطلوبِ. وأنَّ الذُّنوبَ أكبرُ الموانِعِ لنزولِ الغَيْثِ ونزعِ البركةِ من الأرضِ والثمارِ والحبوبِ. كيْفَ تطمعون في حصولِ ما تحبُّونَ وأنتمْ مُصرُّونَ على الذنوبِ والجناياتِ؟ كيفَ ترجونَ حصولَ الغيثِ وأنتم مُقيمونَ على الغشِ والخياناتِ؟ وقد بَرِيء ﷺ من أهلِ

الكذبِ والغِشّ في كلّ المعاملات. أما سمعتم أنَ بخْسَ المكاييل والموازين وبخْسَ النَّاسِ أشياءَهمْ أَهْلَكَ اللَّهُ بهِ أهلَ مَدْينَ بالعذابِ في الدُّنْيا قبلَ الآخرة؟ وأنَّ منْ لمْ يتُبْ منها فعاقِبَتُهُ أفظعُ العواقِبِ. وقدْ باءَ بالصفْقَةِ الخاسِرَةِ. فواللَّهِ إنَّ الحرامَ والغشَّ ليستدرجُ صاحِبَه ثمَّ يُمحقُ محقاً. وأن المكاسِبَ الخبيثةَ مع إثمِ صاحبها لتُنزعُ منها البركة حقًّا وصدقاً. وأنَّ المكاسِبَ الطيّبةَ لَيُصلِحُ اللَّهُ بها الأحْوالَ. والورعُ عن الحرامِ خيرٌ لصاحِبهِ في الحالِ والمآلِ. أما ترونَ اللَّهَ يَسْتَعْتِبُكُمْ ويخوِّفُكُمْ بما يُريكُمْ مِنَ الآياتِ والشِّدَّةِ والنَّكالِ. ويُرْسِلُ الصواعِقَ فيصيبُ بها من يشاءُ ويصرفُها عمَّنْ يشاءُ وهو شديدُ المحال. أما ترونَ اللَّهَ يصرفُ عنكُمْ أُموراً وشروراً قد انعقدتْ أسبابُها بما كَسَبتْ أيدي العبادِ. لِتَتُوبوا إِلَيْهِ وتَرجعوا عن الشَّرِّ والفسادِ. أما علمتُمْ أنَّ المعاصي تخربُ الديارَ العامرةَ، وتسلب النِعمَ الباطِنةَ والظَّاهرةَ؟ فكمْ لها من العقوبات والعواقِبِ الوخيمةِ * وكم لها من الآثارِ والأوصافِ الذميمةِ * وكم أزالتْ من نعمةٍ * وأحلَّت من محنةٍ ونقمةٍ فاتّقوا اللَّهَ عبادَ اللَّهِ وآحذَروهُ * وآعلموا أنَّكُمْ لا بدَّ أن تلاقوهُ * فيحاسبَكُمْ وينبِئكمْ بما قدَّمتُموه وأخَّرتُموه * باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٣٤ ــ خطبة

### في التوحيد

الحمْدُ للَّهِ الذي خلقَ المكلَّفينَ ليعبدوهُ * وأدرَّ عليهم الأرزاقَ ليشكرُوه * ووضَّحَ لهم الأدلةَ والبراهينَ ليعرفوهُ. وأشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الذي يتَعينُ علينا أن لا ندعو غيرهُ ولا نخافَهُ ونرجُوهُ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُهُ الذي فاقَ الرسُلَ من جميعِ الوجوهِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ وجميعِ الذين اتبعُوه.

أمَّا بعدُ أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ وأطيعوهُ * وآحذروا جميعَ ما يُسْخِطُهُ وتَتَّبعوا مراضِيَه * أما دلَّكُمْ على وحدانيَّتِه بالآيات البيِّناتِ؟ أما وضَّحَ لكمْ

معْرفتَهُ بالحجـجِ والبراهينِ القاطعاتِ: تعَرَّفَ لكُمْ بأسمائِه الحسنى * وصفاتِه العليا ونِعَمِهِ الواسِعَةِ العظْمى *

**﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربكَ الكريم * الذي خلَقَكَ فسوَّاكَ فعدَلك * في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركَّبَك﴾** [سورة الانفطار: الآيات ٦ ــ ٨]

**﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين * وفي أنفُسِكُمْ أفلا تبصرون﴾**
[سورة الذاريات: الآيتان ٢٠، ٢١]

**﴿وبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ * ثم جَعلَ نَسله من سُلالةٍ من ماءٍ مهينٍ * ثمَّ سَوَّاهُ ونفخَ فيهِ من روحِه﴾** [سورة السجدة: الآيات ٧ ــ ٩]

وجعَلَ لهُ السَّمْـعَ والبَصرَ والفؤادَ وجميـعَ القُوى فتباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين. أحسن بقدرتِه المخلوقاتِ. وزيَّنَ السماءَ بالشَّمْسِ والقمرِ والكواكبِ النَّيِّراتِ. ومهدَ الأرضَ وأودعَ فيها منافِعَها المتَنوِّعاتِ. وثبَّتها بالجبالِ الشُّمِ الشاهقاتِ. أجرى فيها العيونَ والأنهارَ. وأخرجَ أصنافَ الـزروعِ والأشجارِ والثمـارِ. وجَعلَها متاعاً للبشرِ وأنعامِهمْ فتباركَ الكريمُ القهارُ. أسبـغَ عَلَى عبادِه النِّعمَ. وصرفَ عنهمْ المكارهِ والنِّقمَ. فكمْ لهُ على عبادِه من الخيرِ المدرارِ. فهو المتفردُ بالعطاءِ والمنـعِ والخفضِ والرفـعِ وهـو الواحـدُ الغفارُ. مجيبُ الدعواتِ وفارجُ الكرُباتِ ومغيثُ اللهفاتِ وسامـعُ الأصواتِ بِتفنُنِ اللغاتِ فسبحـانَ الحليمِ الستَّارِ. يعلمُ السِّـرَّ وأخفى. وإليـهِ تـرفَـعُ الحـاجـاتُ والشكوى * وإليهِ ينتهي السَّائلون * وهو محلُّ النجوى. ومزيل المكـاره والشدائدِ والأخطارِ * يقولُ تعالى: (إني والجنَّ والإنسَ في نبأٍ عظيم: أخْلُقُ ويعبَدُ غيري وأرزُقُ ويُشْكرُ سواي. خيري إليهم نازلٌ وشرُّهمْ إليَّ صاعدٌ. أتحبَّبُ إليهم بالنِّعمِ وأنا الغنيُّ الحميدُ. ويَتمتَّعونَ إليَّ بالمعاصي وهم الفقراءُ إليَّ) فاتَّقوا اللَّهَ عبادَ اللَّهِ وراقبوهُ * وتوبوا إليهِ كلَّ وقتٍ واستغفروهُ * وانظروا إلى كثرةِ نعمِه عليكمْ فاشتغلوا بالثناءِ عليه * وآلجأوا إلى اللَّهِ وتوكلوا عليه * أجارنا اللَّهُ وإيَّاكمْ من النَّارِ. وغفرَ لنا الذنوب والأوزارَ. وبارِكَ لنا ولكمْ في القرآنِ العظيم.

# ٣٥ ـ خطبة

## في نعيم البرزخ وعذابه

الحمْدُ للَّهِ الذي لَمْ يزلْ قائماً بشؤون الخليقةِ على أحسنِ نظامٍ. لا ينامُ ولا ينبغي لهُ أنْ ينامَ * يخْفِض القِسطَ ويرفعُهُ، يُرفَعُ إليْه عمل اللَّيْلِ قبلَ عملِ النَّهارِ وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيْلِ على الكمالِ والتمامِ * فهو الملكُ العظيم القدوسُ السلام * ونشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ذو الجلالِ والإكرامِ * ونشهد أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ سيِّدُ الأنامِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه البررةِ الكرامِ.

أمَّا بعدُ، أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا اللَّهَ * واعلموا أنَّ الموتَ الذي تفِرُّونَ منْهُ فإنَّهُ مُلاقيكم. وأنَّكم عِندَ انتقالكمْ من الدُّنْيا لا بدَّ أَنْ يمْتَحِنَكم ويسألكم ويجازيكم * فَمنْ كانَ في الدُّنْيا ثابتاً على الصِّراطِ المستقيم * ثَبَّتَهُ اللَّهُ عندَ مماتِه وفي قبرِه وبُشِّرَ بالفوزِ والنعيمِ * ومَنْ كانَ في هذه أعمى مُعْرِضاً عن اللَّه * فلا بدَّ أن يلاقي ما قدَّمتْ يداهُ * قال ﷺ: (إذا قُبِرَ الميتُ أتاهُ ملكانِ فيجلسانِه فيقولانِ لهُ: منْ ربُّك؟ فيقولُ المؤمِنُ: ربـيَ اللَّهُ. فيقولانِ لهُ: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ. فيقولانِ لهُ: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللَّه. فيقولان لهُ: وما يدريكَ؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللَّهِ فآمنْتُ بِه وصدَّقْتُ. فينادي منادٍ مِنَ السَّماءِ أنْ صدقَ عبدي فافرشوهُ من الجنَّةِ وأَلبسُوهُ من الجنَّةِ وافتحوا لهُ باباً إلى الجنَّةِ فيأتيهِ من روحِها وطِيبِها ويفسـحُ لهُ في قبرِه مدَّ بصَره * وأمَّا الفاجرُ أو الكافرُ فإذا سألَهُ الملكانِ من ربُّكَ وما دينُك ومَنْ نبيُّك قال: هاه، هاه، لا أدرى.. سمعتُ النَّاسَ يقولون شيئاً فعلتُهُ. فيضربانِه بمطرقةٍ من حديد، فيصيـحُ صيحةً يسمعُها كلُّ شيءٍ إلاَّ الإِنسُ والجنُّ ولو سمِعوها لصَعِقوا. فينادي منادٍ: أنْ كَذَبَ عبدي فافرشوهُ من النَّارِ وألبسوه من النار وافتحوا لهُ باباً إلى النَّارِ. فيأتيه من حرِّها وسَمومِها ويضيقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفُ أضلاعُهُ. فلا يزالُ معذباً إلى أنْ تقومَ الساعةُ. أَمَا واللَّهِ

لو نُشِرَ لكم أهلُ القبورِ فحدَّثوكم بما وصلوا إليْه منْ عظائمِ الأمورِ لقالوا: قدْ وجدنا ما وعَدنا اللَّهُ ورسُولُهُ حقًّا. ولمْ نفقِدْ من أعمالنا مثقالَ ذرَّةٍ من خيرٍ أو شرٍّ فأصبَحْنا مرتَهَنِين صِدقاً * أمَّا طائِعُنا فقدْ اغتبَطَ بعمَلِه ولقي الفوزَ والرَّوْحَ والريحانَ * وأمَّا عاصينا فقدْ باءَ بالخيبةِ والحسْرةِ والهوانِ * يتمَنَّونَ الرجوعَ إلى الدُّنْيا ليتوبوا * ويودُّونَ أَنْ لو مُكِّنوا لِيعْمَلوا صالحاً ويُنيبُوا * وأنتم إلى ما صاروا إليْهِ صائرون * وبكأسِ الحمامِ الذي يدورُ على الخليقةِ شاربون. فتوبوا إلى ربِّكم ما دُمتُم في زمنِ الإمهالِ. وتقرَّبوا إليهِ بما استطعتُم من صالحِ الأعمالِ.

﴿فلولا إذا بلغتِ الحلقُومَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٣]

إلى آخر السورة. باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٣٦ ــ خطبة
### في فضل الإسلام

الحمْدُ للَّهِ الذي جعَلَ الإسلامَ ملجأ الخليقَةِ في دينها ودُنْياها. وأرْشدَ فيه النُّفوسَ إلى هُداها وحذَّرها مِنْ رداها * وأشهدُ أنَّهُ الرَّبُّ العظيمُ الذي لمْ يَزلْ ربًّا وإلَهاً. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ أعظمُ الخلْقِ عند اللَّهِ فضلاً وقدراً وجاهاً * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً وسلاماً وبركةً لا تنقضي ولا تتناهى.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ، وآعلموا أنَّ دينَ الإسلام هو الدِّين القَيِّمُ الذي فيه صلاحُ العبادِ وهو أعظمُ المننِ عليهمْ من الكريمِ الوهّابِ * ولا يقبلُ اللَّهُ من العبادِ سواهُ * وقدْ تكَفَّلَ لسالكه بخيرِ دينِه ودُنياه * فيه من المبادىء الساميةِ * والأخلاقِ العاليةِ والنُّظمِ العادلةِ * ما تشتهيهِ الأنفُسُ وتمتدُّ إليهِ الأعناقُ * وقد تكَفَّلَ بالحياةِ الطَّيِّبةِ لمتَّبعيهِ لحُسْنِه وجمالِه وفضائلهِ التي فَضَلَ بها غيرَهُ وفاقَ. أليْسَتْ عقائدُهُ الصَّحيحةُ أصَحَّ العقائدِ وأصلَحها للقلوبِ

وأنفعَها للأرواحِ ؟ أليْسَتْ أخلاقُهُ أجمل الأخلاقِ وبراهينُهُ في غايةِ القُوَّةِ والبيانِ والإيضاحِ ؟ فهل أعظمُ وأنفعُ وأكملُ من الاعتقادِ اليقيني الذي لا ريب فيه: أنْ تعلمَ أنَّ لنا ربًّا عظيماً تتضاءلُ عظمةُ المخلوقاتِ كلها في عظمتِهِ. وتضْمَحِلُّ إذا نُسِبتْ إلى كبريائِه ومجْدِه وحكمتِه. لـهُ الأسماء الحسنى. والصفاتُ الكامِلةُ العليا. أحاطَ بكلِّ شيء علماً ورحمـة وقدرةً وحكمـةً وحُكماً. وشملَ كلَّ موجودٍ بحسنِ تدبيرِهِ أحكاماً ونظاماً وحسناً. قدْ أحسنَ ما خلقَهُ. وأبدعَ ما صنعَهُ. وأحكـمَ ما شَرَعَهُ. لهُ العلوُّ المطلقُ من جميـعِ الوجوهِ. وهو الغايةُ في الكمالِ فلا نخشى غيرهُ ولا نرجوه. يجيبُ الداعين. ويفرجُ الكرُباتِ عَنِ المكروبين. مَنْ توكل عليه كفاهُ. ومَنْ أنابَ إليْه وتقرَّبَ إليْـه قـرَّبَـهُ وأدنـاهُ. ومن آوى إليـه آواه. لا يـأتي بــالخيرِ والحسنــاتِ إلَّا هو ولا يكشفُ السُّوءَ والضرَّاءَ سِواهُ. يتودَّدُ إلى عباده بكلِ سبيلٍ. ويُسْبـغُ عليهمْ من عطائِه وكرمِه الجزيلِ. لا يخْرُجُ عن خيرهِ وَجُودِهِ إلَّا المتمَرِّدونَ. ولا يعرضُ عن طاعتِه إلَّا الظالِمون. فهل تصلـحُ القلوبُ والأرواحُ إلَّا بالتألُّه إليْه؟ وهل للعبادِ معاذُ وملجأُ إلَّا إليْه؟ وكذلك يَهْدي هذا الدينُ لأحسن الأخلاقِ والأعمالِ. ويحثُّ على محاسنِ الآدابِ وطرقِ الكمال. لا خيرَ وفلاحَ وهدى إلَّا دلَّ عليه. ولا شرَّ وضررَ وفسادَ إلَّا حذَّرَ عنهُ. أما حثَّ على الصِّدق والعدلِ في الأقوالِ والأفعالِ؟ أما أمرَ بـالإخْلاصِ لـهُ في كُلِّ الأحوال؟ أما حثَّ على الإحْسان المتَنوع لأصنافِ المخلوقاتِ؟ وبالتَّواضُـع للحقِّ وللخلْقِ في كُلِّ الحالاتِ؟ أمَا أمرَ بنصرِ المظلومينَ وإغاثة الملهوفينَ؟ وإزالةَ الضُّرِّ عن المضطرينَ؟ أما رغِبَ في حسن الخُلُقِ بكل طريقٍ؟ على القريبِ والبعيدِ والعدوِّ والصديقِ؟ أما نهى عنِ الكذبِ والفُحْشِ والخياناتِ؟ وحثَّ على رعايَةِ الشهاداتِ والقيامِ بالأماناتِ؟ أما حذَّرَ مَنْ ظَلَمَ الخَلْقَ في الدماء والأموالِ والأعراضِ والحقوقِ؟ أما زَجَرَ عن القطيعَة والإساءةِ والعقوق؟ أما أمر بفعْلِ الأسبابِ النَّافِعَةِ مـعَ التَّوكُّلِ على المولى؟ أما حثَّ على التآلفِ والاجتماعِ والمودَّةِ والإخاء؟ أما أمرَنا أنْ نُعِدَّ لأعْدائنا ما نسْتَطيعُهُ من قوةٍ نافِعَةِ

وواقيةٍ؟ وأنْ نقومَ بكُلِّ ما يُقيمُ الدِين ويصلِحُ الدُّنْيا بالوسائل الكافية؟ أما أباحَ لنا الطَّيِّباتِ مِنَ المآكلِ والمشارب والملابسِ والمعاملاتِ؟ وحرَّمَ علَيْنا الخبائثَ والمضار والمفاسِدَ في كُلِّ الحالات؟ فأيُّ صلاحٍ دينيٍ ودنيويٍّ لمْ يرشِدْ إليه هذا الدينُ؟ وأيُّ ضررٍ وشرٍّ إلاَّ بيَّنَ طُرقَهُ وحذَّرَ عنْهُ العالمين؟

**﴿اليومَ أكْمَلْتُ لكمْ دينَكمْ وأتمَمْتُ عليْكمْ نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٣٧ ـ خطبة

### في عمل اليوم والليلة

الحْمدُ للَّهِ الذي جعَلَ اللَّيْلَ والنهارَ خلْفَةً لِمَنْ أرادَ أنْ يذَّكرَ أو أرادَ شكوراً * وَأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ فما أعْظَمَهُ ربّاً ومَلكاً قديراً * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي أرْسَلهُ إلى جميعِ الثَّقَلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللَّهِ بإذنِه وسراجاً منيراً * اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ وسَلِّمْ تسليماً كثيراً.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واعلموا أنَّ اللَّهَ تعالى جعَلَ الأوقاتَ والشُّهور تتكرَّرُ عَلَى العبادِ لتَقُوم وظائفُ الطَّاعاتِ * وتنْشَطَ النفوسُ على الخيراتِ * لما مضَت الأشهرُ الثلاثةُ الكرامُ * أوَّلُها رجَبُ وآخرها شهرُ الصِّيامِ * أعْقَبها بالشُّهورِ الثلاثةِ شهورِ الحجِ إلى بيْتِهِ الحرامِ * فكما أنَّ منْ صام رمَضانَ وقامَ * غُفِرَتْ لهُ جميعُ الذُّنوبِ والآثامِ * فمنْ حجَّ البيْت أو اعْتمرَ غُفِرَتْ ذنوبُهُ فضلاً من الملكِ العلاَّمِ * فما يمضي على المُؤمنِ وقتٌ من الأوقاتِ * إلاَّ وللَّهِ عليه وظيفةٌ منْ وظائفِ الطَّاعاتِ. فإذا قامَ بها ووفَّاها كان من الذَّاكرينَ اللَّهَ كثيراً والذَّاكرات * المعدِّ لهم المنازلُ العاليةُ الطيباتُ * أليْسَ مِنْ أجلِّ نِعَمِهِ على العبادِ أنْ جعَلَ اللَّيْلَ والنهارَ يتناوبان كلما ذهبَ

أحدُهما خَلفَهُ الآخرُ لإنهاضِ هممِ العاملينَ إلى الخيراتِ. فمنْ فاتَهُ الموردُ باللَّيْلِ استدركَهُ بالنهارِ ومنْ فاتَهُ بالنَّهارِ استَدركَهُ باللَّيْلِ على مدى الأوقاتِ.. ألاَ وإنَّ شجرةَ الإيمانِ قدْ غرسها اللَّهُ في قلوبِ المؤمنين. ورتَّبَ العباداتِ على اختلافها لتَنْمِيتها وتكمِيلها كُل وقتٍ وحينٍ. فلولا أعمالُ اليومِ والليلةِ لذَوَى غرسُ الإيمانِ * فإليه يصْعدُ الكلمُ الطَّيِّبُ والعملُ الصالحُ يُرفعُ ذلك إلى الملكِ الدَّيَّانِ * فلقَدْ سبَقَ المفرِدونَ الذين لا تزالُ ألسنتهُمْ تلهجُ بذكرِ اللَّهِ إلى جنَّاتِ النَّعيم * ولقد فازَ المسارعونَ إلى الخيراتِ برفعَةِ الدَّرجاتِ والقُربِ مِنَ الرَّبِّ الكريم * فيا ويحَ المعرضِينَ عن ربِّهِمْ ما أشدَّ دمارَهم وأشْقاهُمْ. ويا ندامةَ الغافِلينَ لقدْ انفَرطَتْ أمورُ دينهم ودُنْياهُمْ * فواللَّهِ إنَّ ذِكْرَ اللَّهِ لِحياةُ الأرواحِ والقلوبِ * وإن القيامَ بخدمَتِه لَيُوصِلُ العبدَ إلى أجّلِ مطلوبٍ * أعانني اللَّهُ وإيَّاكم على ذكره وشكرِه وحسْنِ عبادتهِ * ووقانا مِنْ شرورِ أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالنا بلطفِه ورعايتِه *

**﴿ولا تكونوا كالذينَ نسُوا اللَّهَ فأنساهمْ أنفسَهُمْ﴾**

[سورة الحشر: الآية ١٩]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٣٨ ـ خطبة

### في النصيحة

الحمدُ للَّهِ الذي أوجَبَ عَلى عبادِه النُّصْحَ في العباداتِ والمعاملاتِ * وحذَّرَهُمْ من الغِشِّ والغِلِّ والخياناتِ * وأشهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ المعروفُ بجَميلِ الهباتِ وعظيم الصفاتِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُـهُ سيِّدُ الرُّسُلِ الذي رفَعهُ اللَّهُ درجاتٍ * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وبارك عَلَى محمَّدٍ وأصحابهِ ومَنْ تبعَهُمْ في كُلِّ الحالاتِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ؛ اتَّقوا اللَّهَ بفعلِ أوامرِه واجتنابِ نواهيهِ * وبتركِ

مساخطِهِ والإقبالِ على مراضيه * وتقرَّبوا إليْه بالنَّصيحةِ فيما يُظْهِرُهُ أحَدكمْ أو يُخفْيهِ * قال ﷺ: (الدينُ النصيحةُ) ثلاثاً قالوا: «لِمَنْ يا رسول الله»؟ قال: (للَّهِ ولكتابهِ ولرسولِه ولأئِمةِ المسلمين وعامَّتِهم) * فأخبر ﷺ خبراً متضمِّناً للبحثِ على النَّصيحةِ والترغيبِ فيها أنَّ الدينَ كلَّهُ منحصرٌ في النَّصيحَةِ * أيْ ومَنْ قامَ بالنَّصيحَةِ كلِّها فقد قامَ بالدين * وفسَّرَهُ تفسيراً يزيلُ الإشكالَ * ويعمُّ جميعَ الأحوالِ *

(أمَّا النَّصيحَةُ للَّهِ) فهي القيامُ بحقِّهِ وعبوديَّتِه، وذلك يشْملُ ما يجبُ اعتقادُهُ من أصولِ الإيمانِ * وما يَتعينُ القيامُ بهِ من شرائعِ الإسلامِ وحقائقِ الإحْسانِ * من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ وأقوالِ اللِسانِ. وهو فِعلُ المأمورِ مِنَ الفرائضِ والنوافِلِ ونِيَّةِ القيامُ بما يعْجزُ عنهُ منها. وأمَّا النَّصيحَةُ لِكتابِ اللَّهِ فهي الإقبالُ بالكُليةِ على تِلاوتِه وتدبُّرِهِ وتَعلُّمُ معانيهِ * وتعليمُها والتخلُّقُ بالأخلاقِ والأعمالِ التي دعا إليها القرآنُ * وأمَّا النَّصيحةُ للرَّسُولِ فهي الإيمانُ الكاملُ بِه وتعْظيمُهُ وتوقيرهُ وتقديمُ محبَّتِهِ واتباعهِ على كلِّ أحدٍ وتحقيقُ ذلك باتباعهِ باطناً وظاهراً والحرصِ على تعلُّمِ سنَّتِه وتعليمِها * وجملةُ ذلك وحاصِلهُ هو الإيمانُ باللَّهِ ورسُوله وطاعةُ اللَّهِ ورسُولِه *

وأمَّا النَّصيحَةُ لأئِمَّةِ المسلمينَ وهمْ ولاتهُمْ مِنَ السلطانِ الأعظمِ إلى الأميرِ إلى القاضي إلى جميعِ مَنْ لهم ولايةٌ كبيرةٌ أو صغيرةٌ: فهؤلاء لما كانت مُهمَّتهُمْ وواجباتهُمْ أعظمَ من غيرِهم وجبَ لهُمْ مِنَ النَّصيحَةِ بحسَبِ مراتبِهم ومقاماتِهم وذلك باعتقادِ إمامَتِهِمْ والاعترافِ بولايتِهِمْ * ووجوبِ طاعتِهم في المعروف * وحثِّ الرَّعيَّةِ على طاعتهِمْ ولزومِ أمرهِمْ * وبذلِ ما يستطيعُهُ الإنسانُ من نصيحَتِهم * وتوضيحِ ما خفي عليهِمْ ممَّا يحتاجونَ إليه في رعايتِهِمْ كلَّ أحدٍ بحسَبِ مرتبَتِه والدعاء لهمْ بالتَّوفيقِ والصَّلاحِ. فإنَّ صلاحَهُمْ صلاحٌ للرَّعيَّةِ وصلاحٌ للأمورِ * واجتنابُ سَبِّهم والقدحِ فيهم وإشاعةِ مثالِبهمْ. فإنَّ في ذلك شرًّا وضرراً وفساداً كبيراً * ومنْ رأى مِنهم

ما لا يَحِلُّ فعليه أن يُنَبِّهَهُم سِرًّا لا علناً، بلطْفٍ وعبارةٍ تليقُ بالمقام * فإنَّ هذا مطلوبٌ في حقِّ كُلِّ أحد وبالأخصِّ ولاةُ الأمورِ فتنبِّهُهُم على هذا الوجهِ فيه خيرٌ كثيرٌ.

وأمَّا النَّصيحَةُ لعامةِ المسلمين فبمحبَّةِ الخيرِ لهُم وإيصالهِ إليهم بحسَبِ الإمكان، وكراهة الشرِّ لهُم والسعي في دفعِه بحسبِ القدرة * وتعليمِ جاهِلهِم ووعْظِ غافلِهِم * ونصحِهمْ وإرشادِهم في أمورِ دينهم ودُنْياهُم * وكلما تحِبُّ أنْ يفعلوُه معك من الإِحْسانِ فافعلْهُ معَهُمْ * ومعاونتهِم على البرِ والتَّقوى * ومساعدتِهمْ في كُلِّ ما يحتاجونَهُ فَمن كانَ في حاجةِ أخيهِ كانَ اللَّهُ في حاجتِه. فتبينَ بهذا أنَّ النَّصيحَةَ تشْملُ الدينَ كلَّهُ: أصولَهْ وفروعَهُ * وحقوقَ اللَّهِ وحقوق عبادِه. فأينَ النَّصيحَةُ ممَّنْ تهاونَ بحقوقِ اللَّهِ فضيَّعها، وعلى محارمهِ فتجرأ عليها؟ وأينَ النَّصيحَةُ من أهلِ الخياناتِ وأصحابِ الغِشِّ في المعاملاتِ؟ وأينَ النصيحَة ممَّنْ يحبُّونَ أنْ تشيـعَ الفاحِشةُ في الذينَ آمنوا ومنْ يتتبَّعونَ عوراتِ المسلمين وعثراتِهم. فهؤلاء عن النَّصيحَةِ بمعزلٍ. ومنزلُهُمْ منها أبعدُ منزلٍ. طوبى للنَّاصحينَ. ويا خسارةَ الغشاشِين. منَّ اللَّهُ عليَّ وعليكُمْ بالقيامِ بالنَّصيحَةِ. وحفظَنا من أسبابِ الخزْيِ والفضيحة. أعوذُ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيم

**﴿فَمَنْ يَعْملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ * وَمَنْ يعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شرّاً يرَهُ﴾**
[سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]

باركَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

# ٣٩ ـ خطبة

## في سنن الفطرة

الحَمْدُ للَّهِ الذي شرَع لنا ما يقرِّبنا إليه ويُدنينا. ونَهـجَ لنا من الطُّرقِ ما يكفينا عَنْ غيرها ويُغنينا. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلـهنا ومليكنا وناصرنا وهادينا. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ، بعثَهُ اللَّهُ بالهُدى ودين الحقِّ شرعةً وتوحيداً وديناً. اللَّهُمَّ صلِّ وسلمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه والتابعينَ لهُمْ بإحسانٍ أفضلِ النَّاسِ أخلاقاً وأعمالاً وعلماً ويقيناً.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاس، اتَّقوا اللَّهَ واشكُروهُ على آلائِه الباطنةِ والظاهرة. وتقرَّبوا إليه بما يُحبُّهُ ويرضاهُ من العقائدِ والأعمالِ والأخلاقِ الفاضِلةِ. فقد شرع لكمْ من فطرةِ الإسلامِ ما يُطهِّر الظواهِرَ ويُزكِّي القلوب. ويَسَّرَ لكُمْ كلَّ سَببٍ تُدركونَ بِهِ المطلوب. قال تعالى:

**﴿فأقِمْ وجهَكَ للدِّينِ حنيفاً فِطرةَ اللَّهِ التي فَطَر النَّاسَ عليها لا تبديلَ لخلْقِ اللَّهِ. ذلك الدينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون * مُنيبين إليه واتَّقوهُ وأقيموا الصلاةَ ولا تكونوا من المشركِين﴾**

[سورة الروم: الآيتان ٣٠، ٣١]

فهذه الفطرةُ الباطِنةُ التي عمادُها على الإخلاصِ والإقبالِ بـالقَلْبِ عليه. وتمامُها بتركِ الشركِ قليله وكثيره وتحقيقِ الإنابةِ إليه. قولوا بألسنَتِكم وقلوبكم إذا أصبحتمْ وأمسَيتمْ: أصبحْنا وأمسَيْنا على فطرةِ الإسلامِ وكلمة الإخلاصِ وملَّةِ أبينا إبراهيم ودينِ نَبيِّنا محَّمدٍ ﷺ. هذه الفطرةُ الباطِنةُ التي تطهِّرُ القلْبَ مِنَ الشِّركِ والشكِّ والشِّقاق، والنِّفاقِ. وتُنَقِّيـهِ مِنَ الغلِّ والغشِّ والحقـدِ ومساوىء الأخلاقِ. وتملأ القَلْبَ علماً ويقيناً وعرفاناً. وتُوجِّهُهُ إلى ربِّـهِ إخلاصاً وطمأنينةً وبِرّاً وإيماناً.

«أمَّا الفطرةُ الظاهرةُ» فقدْ حثَّ الشارِعُ على تنقية الجسد منَ الأوساخِ والأنجاسِ والأوضارِ. ورغَّبَ في حلْقِ العانةِ ونتفِ الإبطِ وحفِّ الشاربِ

وإعفاء اللحيةِ وتقليمِ الأظفارِ. وأخبر أنَّ الطُّهُورَ الشرعيَّ وهو إزالةُ الأخباثِ والأحداثِ شطرُ الإيمان، لِما في ذلك من طهارة البدنِ مِنَ الأوضارِ والأدْرانِ. وأخبر ﷺ أنَّ النكاحَ والحِناءَ والتطيُّبَ مِنْ سننِ المرسلينَ. وأنَّ استدامةَ الطهورِ والمداومةَ عليهِ منْ أوصافِ المؤمنينَ * وقالَ تعالى * بعْدَ ما ذكرَ الطَّهارةَ بالماء والتراب

﴿ما يُريدُ اللَّهُ ليجْعَلَ عليكمْ مِنْ حرَجٍ ولكنْ يُريدُ لِيُطَهركمْ وليُتِمَّ نعْمتَهُ عليكمْ لعلَّكمْ تشكرون﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

فهذه الطَّهارةُ التي شرَعَها مِنْ أكبرِ نِعَمِه على العبادِ * وبها تُكفَّرُ الخطايا وتُحصَّلُ العطايا الكثيرةُ يومَ التنادِ. فمَنْ توضَّأ وضوءاً كاملاً خرَجَتْ خطاياهُ مع الماء منْ تحتِ الأظفارِ * ومنْ أحسنَ الوضوء ثمَّ صلَّى ركعتين لا يحدثُ فيهما نفسهُ غُفِرتْ ذنوبُهُ واستحقَّ رضى الغفَّارِ * ومَنْ توضَّأ فأحسنَ وضوءهُ ثمَّ قال: «أشهدُ أن لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ؛ اللَّهُمَّ اجعلني مِنَ التَّوَّابِينَ واجعلني مِنَ المتطهِّرين» فُتِحَتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةِ يدخلُ من أيِّها شاءَ وما ذلك بعزيزٍ على فضلِ الكريمِ الغفَّارِ * وقالَ ﷺ: (ألاَ أخبرُكمْ بما يمحُو اللَّهُ بِه الخطايا ويرفـعُ بِه الدرجات؟ إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ وكثرةُ الخطى إلى المساجدِ وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ فذلِكمُ الرِّباطُ فذلِكمُ الرِّباطُ ـ إنَّ أمتي يدعونَ غرّاً مُجملينَ مِنْ آثارِ الوضوء فمَن استطاعَ مِنْكم أن يُطيلَ غرّتَهُ فليفْعَلْ) * وقال: (تبلُـغُ الحليةُ مِنَ المؤمِنِ حيثُ يبلـغُ الوضوء) * رزَقَنا الله الاعترافَ بِنعَمِه وأياديهِ * ووفَّقَنا للعمل بما يحبُّهُ ويُرضيه.

﴿واذْكروا نِعْمةَ اللَّهِ عليكمْ وما أنزلَ عليكم من الكتاب والحكمة يعِظُكُمْ به﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

بارك اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٤٠ ـ خطبة

### في البداءة باليمين

الحمدُ للَّهِ الذي فضَّلَ بعضَ المخلوقاتِ عَلَى بعضٍ بحكمتِه الشَّامِلةِ * وخصَّصَ بعضَها بأوصافٍ تميزتْ بها فسبحانَ مَن اختصَّ بالأوصافِ الكامِلةِ * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في نُعوتِه وفي أياديهِ التَّامَّةِ وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسُولُهُ المصطفى * ونبيُّهُ المقْتفى * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه النجبا.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واعلموا أنَّ كمالَ التَّقوى وزينَتها الاجتهادُ في التأدُّبِ بالآدابِ الشَّرعِيَّةِ. والتحقُّقِ بالإرشاداتِ النَّبويَّة * قالتْ عائِشةُ رضي اللَّهُ عنها: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يُعْجبُهُ التيمُّن في طهورِهِ وترجُّلِهِ وتَنَعُّلهُ وفي شأنِه كلِّه * قال العلماء ينبغي للعْبدِ إذا تطهَّرَ أنْ يبدأ باليمين من اليدين والرِّجلينِ قبلَ اليسار * وأنْ يجعَلَ يُمْناهُ لأكلِه وشُربِه وأخذِه وعطائِه * فَمنْ سمّى اللَّهَ عندَ أكلِه وشُربِه وتناولَ أكلَهُ وشُربَهُ بالأدبِ باليمينِ وحمدَ اللَّهَ إذا فرغَ نالَ رضى ربِّ العالمين * أو ناولَ أحداً شيئاً أو تناولَ منهُ فليكنْ ذلك باليمين * ومنْ صافحَ غيرَهُ صافحهُ باليمين * ومنْ أدارَ على جماعةٍ طعاماً أو شراباً أو طيباً أو غيرَها بدأ بالأيمن فالأيمن ولو كانَ الأيسرُ فاضلاً والأيمنُ مفضولاً * إلاَّ أنْ يُؤثِر صاحبُ الحقِّ غيره بالتَّقْديم * واحذروا مِنَ الأكلِ والشُّربِ باليسارِ من غيرِ عذرٍ * فإنَّ الشيطانَ يأكُلُ بشمالِه ويشربُ بِشمالِه * فاحذروا من مشابهةِ الشيطانِ في أعمالِه * وإذا دخلَ أحدُكم المسجدَ فليقدمْ رجلَهُ اليُمنى ويقول * بسم اللَّهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسُولِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ اغفرْ لي ذنوبي وافتحْ لي أبوابَ رحمتِك * فمنْ غُفِر له ورُحِم، وفَّقَهُ اللَّهُ لتكميلِ العباداتِ * ومنَّ عليه بما يفعلُ في المسجدِ مِنَ الطَّاعاتِ * وإذا خرَجَ مِنَ المسجدِ قدَّمَ رجْلَهُ اليُسْرى وقالَ: بسم اللَّهِ والصَّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللَّهِ اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنوبي وافتحْ لي أبواب فضلِكَ ليكونَ متعلِّقاً رجاؤهُ

بربِّهِ في أمورِ دينِهِ ودُنْياهُ * فإنَّ منْ سألَ ربَّهُ وتوكَّلَ عليه رزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ وكفاهُ * وإذا لبسَ لباساً بدأ بالجنبِ الأيمنِ فإنْ كانَ جديداً قال: الحمدُ لله الذي كساني هذا اللِّباس ورزَقَنيهِ من غيرِ حولٍ منِّي ولا قوَّةٍ، اللَّهُمَّ كما سترتَ وجَملْتَ ظاهري باللباسِ فجمِّل باطِني بلِباسِ التَّقوى * وإذا خَلعَ ذلك بدأ بالجانبِ الأيْسرِ وليَجْعل يدَهُ اليُسرى لمباشَرةِ النجاساتِ والأوساخِ والأقذارِ * كالاستنجاء والاستجمار والاستنثارِ.

﴿ذلك ومنْ يعظِّم شعائرَ اللَّهِ فإنها منْ تقوى القلوبِ﴾

[سورة الحج: الآية ٣٢]

## ٤١ ـ خطبة

### فيها آداب الشرع في السلام والتحية وغيرها

الحمدُ للَّهِ الذي جعَلَ الأدبَ الشرعيَّ عُنوانَ التوفيقِ. وهدى مَنْ شاءَ من خلقِهِ لأقومِ طريق. وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ شهادةً مبنيَّةً على الإخلاصِ والمحبَّةِ والتحقيق. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ الذي أخرَجَ اللَّهُ بِه المؤمنين مِنَ الكرُباتِ والظلماتِ والضِّيق * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه أولي الفضائلِ والسوابقِ والتَّوفيقِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * واعلموا أَنَّ الآدابَ الشرعِيَّةَ أفضل الآدابِ * فاسلكوا سُبُلَها لِتَحظَوا مِنْ ربِّكم بجزيلِ الثَّوابِ. أَلَا وإِنَّ أصلَ الأدبِ مراقبةُ اللَّهِ في السرِّ والعلانية * والقيام بحقُوقِه وحقُوقِ خلقِه بنيَّةٍ وهمةٍ عاليةٍ * فقدْ قالَ ﷺ: (حقُّ المسلمِ على المُسلمِ سِتٌّ بالمعروفِ: يسلِّمُ عليه إذا لقيهُ؛ ويُجيبُهُ إذا دعاهُ؛ ويُشمِّته إذا عطَسَ؛ ويعودُهُ إذا مرض؛ ويشهَدُ جنازتَهُ إذا ماتَ؛ ويُحبُّ لهُ ما يُحبُّ لنفسه). إنَّ أولى النَّاسِ باللَّهِ مَنْ بدأَهُمْ بالسَّلامِ * إذا لقي أحدُكُمْ أخاهُ فليسلِّم عليه فإنْ حالتْ بينهما شجرةٌ أو جدارٌ أو حجرٌ ثمَّ لقِيَهُ فليُسلِّم عليه * والذي نفسي بيدِه لا تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تُؤمنوا ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا أَوَلَا أدُلُّكمْ على شيءٍ إذا فعلتُموه تحابَبْتمْ؟

أُفشوا السَّلامَ بينكُمْ * سلموا على مَنْ عرفتم ومَنْ لَمْ تعْرفوا * واعلموا أنَّ السَّلامَ الشرعيَّ بالمشافَهَةِ والمكاتبَةِ: السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه؛ فاستبدل بِه الجهّالُ، الذين لا يعرفونَ قدرَ الآدابِ الشرْعيَّةِ، ألفاظاً استَحسنُوها وهي غيرُ مُرضيةٍ * فأينَ هذه الألفاظُ التي لا فائدة فيها أصلاً مِنْ تحيَّةِ المسلمين التي تجمعُ أكمل الدُّعاءِ وأنفع الخيرِ والثَّناءِ؟ وليُسلِّم الرَّاكِبُ على الماشي، والقليلُ على الكثيرِ، والصغيرُ على الكبيرِ، والماشي على الجالِس * وإذا عطسَ أحدُكمْ فليَقُلْ: الحمدُ للَّهِ. وليقلْ سامعُه: يرحمُكَ اللَّهُ. فإذا قالَ ذلك فليَقُلْ: يهديكُمْ اللَّهُ ويُصلِحْ بالكمْ. فإن حَمِدَ اللَّه فشمِّتُوه، وإن لم يحمد اللَّهَ فلا تشمِّتوه. وقال ﷺ: (لا خير في الجلوسِ في الطُّرقاتِ [أي التي لا بيعَ فيها ولا شراء] إلَّا لِمَنْ هدى السَّبيلَ وردَّ التحيَّة وغضَّ البصَرَ وأعان على الحمولة ولمْ يؤذِ النَّاسَ ولمْ يتتبع عوراتهمْ ويشتغلْ بالتَّفتيش عنْ أحوالِهمْ فإنَّ مَنْ تتَبَّعَ عورات المسلمينَ يَتَتَبَّع اللَّهُ عورتَه وفضحَهُ بينَ العبادِ وأظهرَ النَّاس عيوبَهُ التي كانَ يُخفيها. ومَنْ تغافَلَ عن عيوبِ النَّاسِ وأمسكَ لِسانَهُ عنْ تتَبُّعِ أحوالِهِمْ التي لا يُحبونَ إظهارَها سَلِمَ دينُهُ وعِرْضُهُ * وألقى اللَّهُ محبَّتَهُ في قلوبِ العبادِ وسترَ اللَّهُ عورتَهُ * فإنَّ الجزاءَ مِنْ جنْسِ العَملِ وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيد:

**﴿والذينَ يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمنات بغيرِ ما اكتسبوا فقدِ آحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٥٨]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٤٢ ــ خطبة
### في حسن الخلق

الحمدُ للَّهِ الرؤوفِ الرَّحيم. البَرِّ الجوادِ الكريم. وأشهدُ أنْ لا إلَٰهَ إلَّا اللَّهُ الملكُ العظيم * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ الهادي إلى صراطٍ مستقيم * اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وبارك على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومَنْ تبِعهُمْ في كلِّ أمرٍ قويم.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى بالقيامِ بحقُوقِه وحقوقِ العبادِ. وبكمالِ المتابعَةِ للرَّسولِ وقوَّةِ الإخلاصِ للرَّبِّ الجوادِ. قال ﷺ: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهمْ خلقاً) فعاشروا ــ رحمكُمُ اللَّهُ ــ الخلْقَ بالخُلُقِ الجميلِ * وبالتَّواضُـعِ لهُمْ في كلِّ كثيرٍ وقليلٍ * واعقدوا قلوبَكُمْ عقداً جازماً على محبَّةِ جميـعِ المسلمينَ. والتَّقَرُّبِ بذلك إلى ربِّ العالمين * واجتهدوا في تحقيقها ودفـعِ ما ينافيها * واعملوا على كلِّ ما يحقِّقُها ويكمِّلُها وينمِّيها * واتخذوا المؤمنينَ إخواناً * وعلى الخيرِ مساعدينَ وأعواناً * ومتى رأيتُمْ قلوبَكُمْ منطويةً على خلافِ ذلك فبادروا إلى زوالِه * وسَلوا ربَّكمْ أنْ لا يجعلَ فيها غلًّا للذينَ آمنوا تحظوا بنوالِه * وميزوا في هذه المحبَّةِ مَنْ لهُمْ في الإسلامِ مقامٌ جليلٌ كعلمائهمْ وولاتهم العادلينَ وعبادهمْ. فتمامُ محبَّةِ اللَّهِ محبَّةُ أوليائِه بحسبِ مقاماتهمْ وعمَلِهِمْ واجتهادهمْ * ووطِّنوا نفُوسَكمْ على ما ينالُكم مِنَ النَّاسِ من الأذى وقابلوهُ بالإحسانِ. وتقرَّبوا بذلك إلى اللَّهِ راجينَ فضْلَ الكريم المنَّان. فمِنْ كمالِ حُسنِ الخُلُق أنْ تعطيَ مَنْ حرَمَكَ * وتعْفو عمَّنْ ظلمكَ * وتُحسنَ الخُلُقَ لِمنْ أبغضَكَ وهجركَ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العملِ * فمَنْ عفا عنْ عبادِ اللَّهِ عفا اللَّهُ عنهُ. ومنْ سامحهمْ سامحهُ اللَّهُ. ومنْ أغْضى معـائبَهم ومساوئَهم سترَ اللَّهُ عليه. فاجعلْ كبيرَ المسلمينَ بمنزلة أبيكَ. وصغيرَهمْ بمنزلةِ ابنكَ ونظيرَهُمْ محلَّ أخيكَ. وتكلَّمْ مـعَ كُلِّ أحدٍ مِنهُمْ بما يناسِبُ الحالَ. فمـعَ العلماءِ بالتعلّمِ وبالتعليمِ مـعَ الجهال.

ومـعَ الصغارِ باللُّطْفِ. ومـعَ الفقراءِ بالرَّحمةِ والعطفِ ومـعَ النظراءِ بالأدبِ والظَّرفِ.

**﴿فَبِما رحمةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لهُمْ ولَوْ كنتَ فظًّا غليظَ القلْبِ لانفضُّوا مِنْ حولِكَ فاْعفُ عنهُمْ واستغفِرْ لهُمْ وشاوِرْهم في الأمر فإذا عزَمْتَ فتوكَّلْ على الله إنَّ اللّهُ يُحبُّ المُتوكلين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

بارك اللّهُ لي ولكم في القرآن العظيم.

## ٤٣ ــ خطبة
## في مفاتيـح الخير والشر

الحمدُ للّهِ الفتاحِ العليم * الملكِ العظيم * الرَّبِّ الحكيم * وأشهد أنْ لا إلّهَ إلاَّ اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ البَرُّ الرحيم * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ الذي قالَ اللّهُ فيه:

**﴿وإنّك لعلى خلقٍ عظيم﴾** [سورة القلم: الآية ٤]

اللّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومَنْ تبعَهُمْ في هديهم القويم.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاس اتَّقوا اللّهَ تعالى بفعلِ الخيرِ وتركِ العصْيانِ * وتعاونوا عَلى البرِّ والتَّقْوى ولا تعاوَنوا على الإثمِ والعدوانِ * فقد قال ﷺ: (إنَّ هذا الخيرَ والشرَّ خزائنُ ولهذه الخزائن مفاتيـحُ فطوبـى لِمنْ كان مفتاحاً للْخيرِ مِغلاقاً للشرِّ وويلٌ لِمنْ كان مِغلاقاً للخيرِ مفتاحاً للشَّرّ) * بهذا الذي ذكرَ المُصْطفى تُوزَنُ الرجالُ * وبِه يُعرفُ أهلُ النَّقْصِ منْ أهلِ الكمالِ * فكونوا رحمَكُم اللّهُ مفاتِيـحَ للخيراتِ مغاليقَ للشرورِ والآفات. فمَنْ كان مِنكم مخلِصاً للّهِ * ناصحاً لعبادِ اللّهِ * ساعياً في الخيرِ بحسب إمكانه فذاكَ مفتاحُ للخيرِ حائزٌ للسعادةِ * ومَنْ كان بخلافِ ذلك فهو مغلاقٌ للخيرِ وقد تحقَّقَتْ لهُ الشقاوةُ * مِنَ النَّاسِ مَنْ إذا اجتمَـعَ بهمْ في مجالِسِهمْ حرصَ على إشغالهِمْ

فيما ينفعُهُمْ في دينهِمْ ودنْياهُمْ * ومِنْهُمْ مَنْ يَشْغَلُهُمْ بما يَضُرُّ وما لا يُغني فهذا قدْ حرَمَهُم الخيرَ وأشقاهُمْ * ومِنْهُم مَنْ يسْعى في تقريبِ القلوبِ وجمعِ الكلمةِ والائتلافِ * ومنهُمْ مَنْ يسْعى في إثارةِ الفتنِ والشِّقاقِ والتَّنافُرِ والخلافِ * ومِنهُمْ مَنْ يجتهدُ في قلعِ ما في قلوبِهِمْ من البغضاء * ومِنهُمْ من يَلْهَبُ في قلوبِهِم الشحناء * ومنهُم من يحثُّ عَلَى الجودِ والكرمِ والسماحَةِ. ومِنهُمْ مَنْ يدعو إلى البُخْلِ والشُّحِّ والوقاحةِ * ومِنهُمْ مَنْ يتنوَّعُ في فعلِ المعروفِ في بدَنِه وقولِه ومالِه * ومِنهُمْ مَنْ لا يعرفُ المعروف ولو قلَّ فلا تسألْ عن سوءِ حالِه * ومِنهُمْ مَنْ مجالِسُهُ مشغولةٌ بالغيبةِ والنَّميمَةِ والوقيعَةِ في النَّاسِ * ومِنهُمْ مَنْ يُنَزِّهُ نفسَهُ عن ذلك وينزِّهُ الجُلاَّسَ * ومِنهُمْ من تُذَكِّرُ روايتُهُ باللَّهِ * ويُعينُ العبادَ في مقالِه وحالِه على طاعةِ اللَّهِ * ويأمرُهمْ بالقيامِ بالحقوقِ الواجِبَةِ والمسنُونَةِ * ومِنهُمْ المثبِّطُ عن الخيرِ وأحوالُه غيرُ مأمونةٍ * فتباركَ الذي فاوتَ بين العبادِ هذا التَّفاوت العظيم * فهذا كريمٌ على اللَّهِ وعلى خَلْقِه وهذا لئيمٌ * وهذا مباركٌ على مَن اتَّصلَ به وهذا داعٍ إلى كلِّ خُلُقٍ ذميمٍ * وهذا مفتاحٌ للْبرِّ والتَّقوى وطرقِ الخيراتِ * وهذا مغلاقٌ لها ومفتاحٌ للشُّرُور والآفاتِ * وهذا مأمونٌ على النفوسِ والأعراضِ والأموالِ * وهذا خائنٌ لا يوثقُ بِه في حالٍ من الأحوالِ * وهذا قد سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِهِ. وهذا لمْ يسلمْ مِنهُ أحدٌ وربما سَرَتْ أذيَّتُهُ على أهلِه وولدِهِ. أجارني اللَّهُ وإيَّاكمْ مِنْ منكراتِ الأعمالِ والأخلاقِ والأهوا. وعافانا مِنْ كُلِّ شرٍّ قاصرٍ ومتعدٍّ ومن البلوى * ورزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى *

**﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللَّهَ وقولوا قولاً سديداً﴾**

[سورة الأحزاب: الآية ٧٠]

بارك اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٤٤ ــ خطبة

### في الحث على مؤنة الأقارب وغيرهم

الحمدُ للَّهِ الذي كرَّمَ بني آدم وفضَّلَهُم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ * ويسَّر لهُم من ألطافِ برّه وأسبابِ كرمِهِ ما بِه ينتفعونَ ويرتفعُونَ درجاتٍ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ كاملُ الأسماءِ والصِّفاتِ * وأشهدُ أَنَّ محمَّداً عبدُه ورسُولُهُ المصْطفى من جميعِ البريَّاتِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه الذينَ فَضلوا الأمةَ بالعلومِ النَّافِعةِ والأعمالِ الصالحاتِ.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى واعلموا أنَّ مِنْ أجلِّ القُرباتِ. وأفضلِ الطاعاتِ القيامَ بمؤنةِ البنينَ والبناتِ * والإخوانِ والأخواتِ. والأعمامِ والعماتِ. والأخوالِ والخالاتِ وجميعِ القراباتِ. فقدْ قالَ ﷺ: (إنَّك لن تُنْفقَ نفقةً تبتغي بها وجه اللَّهِ إلاَّ أُجرتَ عليها حتَّى ما تجعلُهُ في في امرأتكَ. ومَنْ عالَ جاريتين حتَّى يغنيهما اللَّهُ كُنَّ لهُ حجاباً منَ النَّارِ. السَّاعي على الأرْمَلةِ والمسكينِ كالمجاهدِ في سبيلِ اللَّهِ وأحسبُهُ قالَ: وكالقائمِ لا يفترُ وكالصائمِ لا يُفْطرُ. أنا وكافلُ اليتيمِ لهُ أولغيرِه في الجنَّة كهاتين) وأشارَ بالسَّبابةِ والوسْطى وفرَّجَ بينهما شيئاً * خيرُ بيتٍ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليهِ وشرُّ بيتٍ فيهِ يتيمٌ يُساءُ إليهِ * فما أعظمَ توفيق منْ قامَ بكفالةِ أحدٍ من أقارِبهِ العاجزينَ. وما أولاهُ بالأجرِ والثَّوابِ والخَلَفِ من ربِّ العالمين. فإنَّهُ في عبادةٍ وثوابٍ متزايدٍ كُلَّما أطعَمَهُمْ وكساهُم وهو في جهادٍ كلَّما سَعى في الكسبِ لهُمْ وضمَّهم إليهِ وآواهُم. وقدْ يَفتَحُ اللَّهُ لَهُ بِسَبَبهم طُرُقاً من الخيرِ وأبواباً. ويُنزلُ لَهُ البرَكة ويُعْطيهِ خلَفاً عاجلاً وأجراً وثواباً. فإنَّما يُنصرُ الناسُ ويُرزَقونَ بعاجِزِيهم وضعفائِهم. وإنَّما يُرحمونَ بِرَحمَتِهم إياهم وكثرة سؤالهم ودُعائِهم. أما تُحِبُّونَ أنْ يُحسِنَ اللَّهُ إليكم إذا أحسنتم إليهم؟ أما ترغبون أن يكرمكم مولاكم إذا آويْتُموهم وتفضَّلتُم عليهم؟ أما تَغْتَنِمونَ أدْعِيَتَهُم لكمْ في كلِّ

**الأحوال؟ أما علمْتُمْ أنَّ منْ فرَّجَ عنهُم كُرْبةً فرَّجَ اللَّهُ عنهُ يومَ القيامةِ الشدائدَ** والأهوالَ؟ ومن كانَ في حاجةِ أخيهِ كانَ اللَّهُ في حاجتِهِ، ومن شرَحَ صدرَ قريبِهِ المحتاجِ يسَّر اللَّهُ أمرَهُ وغفَرَ لهُ يومَ فقره وفاقَتِهِ.

**﴿وأنفِقُوا في سبيلِ الله ولا تُلقُوا بأيدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ وأحسِنوا إنَّ اللَّهَ يحبُّ المحسنين﴾** [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

بارِكَ الله لي ولكم في القرآنِ العظيم.

## ٤٥ ــ خطبة
## في الحثِّ على تدبُّرِ القرآن

الحمدُ للَّهِ الذي قالَ لنَبيِّه المصطفى * منوِّهاً بعظمةِ القرآنِ وما فيهِ من الرَّحمةِ والنُّورِ والهُدى:

**﴿طه * ما أنزَلنا علَيْكَ القرآنَ لتشْقى * إلَّا تذكِرَةً لمن يخْشَى * تنزيلاً ممَّن خلَقَ الأرضَ والسمٰواتِ العلى * الرحمنُ عَلَى العرشِ استوى * لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تحتَ الثَّرى * وإنْ تجهرْ بالقولِ فإنَّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفى * اللَّهُ لا إلَه إلاّ هو لَهُ الأسماءُ الحسنى﴾**

[سورة طه: الآيات ١ ــ ٨]

وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الملكُ المولى * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ المختارُ منَ الخليقَةِ المجتبى * اللهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِهِ البَرَرَة الأخيار النجبا.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّه تعالى بمراعاة العلمِ وتحقيقِ التُّقى. وتدبَّرُوا هذا الكتابَ العزيزَ فإنَّهُ مباركٌ فيهِ الرحمةُ والشِّفا. فهوَ الهُدى الَّذي يهدِي منَ الضَّلالَةِ. وينيرُ الحقائقَ الصحيحةَ في ظُلَمِ الجهالةِ. يهدي إلى معرفةِ اللَّهِ بأسمائِهِ وصفاتِـه وأفعالِـهِ. ويُبَيِّنُ الطريقَ المـوصِلَ إلى فضلهِ وأفضالِهِ. ويوضـحُ الأحكام كلَّها في العباداتِ والمعاملاتِ. ويبيِّنُ الحقوق في

جميعِ التعلُّقاتِ. وهو الشِّفاءُ منَ الأمراضِ البَدنِيَّةِ والقلْبيَّةِ. وبِهِ العصمةُ والنجاءُ في الأمورِ الدِّينيَّةِ والدنيويةِ. وهوَ المُزيلُ لأمراضِ الشُّبهات وأمراضِ الشَّهواتِ. بما فيه من البراهين القاطِعَةِ والمواعِظِ المؤثِّرةِ والتَّذكيرات. وهوَ الموصِلُ إلى المَعارِفِ الجليلة والعلمِ واليقينِ. الكاشِفِ للحقـائقِ كلِّها بالتوضيـحِ الكاملِ والبراهينِ. فيهِ نبأ الأوَّلينَ والآخرينَ. وفيهِ الحكمُ العادلُ بين الخلقِ أجمعينَ. وفيهِ منْ دلائلِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والمعَادِ ما تطمَئِنُّ بهِ القلوب. وفيهِ التفاصيلُ العظيمةُ النافعةُ الموصلةُ إلى كل مطلوبٍ. كتابٌ عظيمٌ هيمَنَ على الكُتُبِ السابقةِ حتَّى أحاطَ بها وحواها. وحكَمَ بالحقِّ في كلِّ ما تنازَعتْ فيهِ الأممُ أُولاها وأُخراها. أعيا ببلاغَتِهِ وحسنِ نظمه جميـعَ البُلغاء. وحيَّر بحسْنِ أسلوبهِ وما كَشفَهُ منْ غيوبهِ أفئدَةَ العقلاء. وأصلـحَ بهدايتِهِ العقائِدَ والأخلاقَ والأعمالَ. وهدَى للَّتي هيَ أقومُ وأصلـحُ وأنفَـعُ، في كلِّ الأحوالِ. كتابٌ حَفِظهُ اللَّهُ منَ التَّغْييرِ والتَّبديلِ والزيادَةِ والنُّقصانِ. لا يأتيهِ الباطِلُ من بين يديه ولا منْ خَلْفِهِ تنزيلٌ من حميدٍ رحيمٍ رحمانٍ. منْ قالَ بهِ صَدَق. ومنْ عملَ بهِ أُجر. ومنْ حكمَ بهِ عدَل. ومنْ دَعا إلَيْهِ فقَدْ هدى إلى صراطٍ مستقيمٍ. اللهمَّ اجعَل القرآنَ العظيمَ لقلوبنا ضياءً، ولأسقامِنا دواءً ولذنوبنا مُمحِّصاً. وعنِ النَّارِ مخلِّصاً. واجعلْنَا منْ أهلِ القرآنِ الذين هُمْ أهلُكَ وخاصَّتُكَ يا ربَّ العالمين.

## ٤٦ ـ خطبة
### في وجوب العدل في كل شيء

الحمدُ لله الَّذي أوجَبَ العدل في كلِّ الأحوالِ، وحرَّمَ الظُّلْمَ في الدِّماءِ والأعراضِ والحقوقِ والأموالِ. وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللَّهُ كامِلُ الأوصافِ وواسعُ النَّوالِ. وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الذَّي فاقَ جميعَ العالَمينَ في العدْلِ والفضلِ والأفضالِ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّد وعلى آلِهِ وأصحابِهِ خيرِ صحبٍ وأشرف آلٍ.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى واعلَمُوا أنَّ مدار التَّقوى على القيامِ بالعدلِ في حقوقِ اللَّهِ وحقوق العباد. فإنَّ التَّوحيد غايةُ العدلِ والشِّركُ أعظمُ الظُّلمِ وأشنعُ الفساد. إذا كانَ اللَّهُ هو الذي خلقكَ ورَزَقَكَ وعافاكَ وأعطاكَ فمِنَ العدْلِ الواجِبِ أنْ يكونَ معبودَكَ، وإليهِ ترجِعُ في رغباكَ ورَهْباكَ فمن أظْلمُ ممَّنْ سَوَّى المخلوق الناقصَ الفقيرَ، بالرَّبِّ الغنيِّ الكاملِ القديرِ. إذا سألتَ فاسألَ الله. وإذا استَعَنْتَ فاستعِنْ باللَّهِ. قالَ تعالى:

**﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا كونُوا قوَّامينَ بالقِسْطِ شهداء للَّهِ ولو على أنْفُسِكُمْ أوِ الوالدَينِ والأقربِين﴾** [سورة النساء: الآية ١٣٥]

قد أمرَ اللَّهُ ورسولُهُ بالعَدْلِ بين النَّاسِ في جميعِ الحُقوقِ. ونهى عنِ الظُّلمِ والجوْرِ والفُسُوقِ. بالعدْلِ تُعمرُ الأسبابُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ. ويتمُّ التَّعاوُنُ على المصَالحِ الكلِّيةِ والجزئيَّةِ. والعدلُ واجبٌ في الولاياتِ كلها والمعاملاتِ. «وَهوَ أنْ تؤدِّي ما عليكَ كاملاً كما تطْلُبُهُ تامّاً من كلِّ الجهات». فمتى عَدَلَ الرُّعاةُ والمُعامِلونَ في المُعاملاتِ. صَلُحَتِ الأمورُ، واتَّسَعتْ دائرةُ الأسبابِ والتِّجاراتِ. ومتى رُفِع منَ المعامَلةِ روحُ العدْل والأمانَةِ وحلَّ محلَّهُ البَخْسُ والغِشُّ والتَّطفيفُ والخيانةُ. فمَنَعَ الإنسانُ ما عليْهِ واستوفى ما لَهُ. فـ:

**﴿ويلٌ للمطفِّفينَ * الذينَ إذا اكتالوا على النَّاسِ يستوفون * وإذا كالوهم أَوْ وزَنُوهُمْ يُخْسِرون * ألا يَظُنُّ أولئِكَ أنَّهُم مبعوثونَ * ليومٍ عظيم﴾**
[سورة المطففين: الآيات ١ ـ ٤]

وَيْلٌ لهُمْ ممَّا يترَتَّبُ عَلَى البَخْسِ والتطفيفِ من العقوباتِ. وما يُرفَعُ بذلِكَ من الخيراتِ والبرَكاتِ. وما يَتوَقَّفُ بسبَبِهِ كثيرٌ من المعاملاتِ النَّافعاتَ. كل معاملةٍ فقَدَتِ العدْلَ فهِيَ مُعاملةٌ ضارَّةٌ. قالَ تعالى:

**﴿ولا تَبْخسُوا النَّاسَ أشياءَهُمْ ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مفسدين﴾**
[سورة هود: الآية ٨٥]

وقال ﷺ: (ليسَ منَّا منْ غشَّنا). فالغِشُّ والمُعامَلاتُ الجائرةُ ليست من الدِّينِ وصاحبُها متعرِّضٌ لعُقوبةِ ربِّ العالمينَ. والعدلُ يكونُ في الحقوقِ الزوجيَّةِ. فعلى كلٍّ واحدٍ من الزَّوجَينِ معاشرةُ الآخرِ بالمعروفِ. فَمتى قامَ كلٌّ منهما بما عليه التأمَتِ الزوجيَّةُ وتمَّ لهُما حياةٌ سعيدةٌ طيبةٌ. وحصَلت الراحةُ وحلَّتْ البركةُ. ونشأت العائلةُ نشأةً حميدةً. ومتى لمْ يقُمْ كلٌّ منهُما بالحَقِّ الذي عليه. تكدَّرَت الحياةُ. وتنغَّصَت اللَّذَّاتُ. وطال الخصامُ. وتعذَّرَ الوئامُ. قال ﷺ: (كلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُمْ مسؤولٌ عنْ رَعِيَّته. فالإمامُ رَاعٍ عَلَى النَّاسِ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ والرَّجُلُ راعٍ على أهل بيتهِ وهو مسؤولٌ عن رعيَّته. والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيَّتِها والعبدُ راعٍ على مالِ سيِّدِهِ وهو مسؤولٌ عنْ رعيَّتِهِ فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته) فذكر ﷺ الولايات كلَّها كبارَها وصغارَها. وأخبرَ أنَّ منْ تولَّى ولايةً فهوَ مسؤولٌ عنها. وهلْ عدلَ فيها وسلَكَ المأمورَ به فلهُ الثَّوابُ. أو ظلمَ فيها وجارَ فعليْهِ العقابُ. العدلُ تقومُ بهِ الولاياتُ. وتصلحُ بهِ الأفرادُ والجماعاتُ. وتمشي بهِ الأحوالُ في كلِّ الأوقاتِ. سلَكَ اللَّهُ بنا وبكُمْ سبيلَ العدلِ والإنصافِ. وأعاذَنا وإيَّاكم من الجورِ والاعتساف. وبارَكَ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ.

# ٤٧ ــ خطبة

## في معرفة الله وتوحيده

الحمدُ للَّهِ أوْجَبَ على العباد معرفتَهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ * وأسبَغَ عليهِمْ نِعَمهُ وأمرَهم أنْ يستدِلُّوا بآياتِهِ * وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ الذي لا يلجأ العبدُ إلاَّ إليهِ في كلِّ مهمَّاتِهِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ أشرفُ بَرِيَّاتِهِ. اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ مدى الدَّهرِ وأوقاتِهِ.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ. اتَّقُوا الله وأنيبُوا إليهِ * واستَغْفِرُوهُ من جميعِ الذُّنُوبِ ثمَّ توبوا إليهِ * فإنَّهُ الوَدودُ الغَفورُ لمنْ لجأ إليهِ * وتعرَّفُوا إليهِ بمَعرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ * وتحبَّبُوا إليهِ بطاعتِهِ والثَّناء عليه وذكرِ آلائه * فإنَّهُ الرَّبُّ العظيمُ الذي ملأت عظَمتُهُ قلوبَ أوليائِهِ * وحنَّتْ إلى ودادِهِ ومحبَّتِهِ أفئدةُ أصفيائه * موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ * منعوتٌ بنعوتِ الجلالِ والجمالِ * منزَّهٌ عن العيوبِ والنقائصِ والمثالِ * هو كما وَصَفَ به نفسهُ في كتابِهِ وعلى لسانِ رسولِهِ وفوقَ ما يصفُهُ أحدٌ منَ الخلْقِ في كل الأحوالِ * حيٌّ لا يموتُ. قيُّومٌ لا ينامُ. عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء * بصيرٌ يرى دبيب النملةِ السَّوْداء في اللَّيلةِ الظلماء على الصخرة الصمَّاء * سميعٌ يسمعُ ضجيْجَ الأصواتِ باختلافِ اللُّغاتِ على تفنُّن الحاجات * تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً * وجلَّت صفاتُهُ أنْ تُقاس بصِفات خلقِهِ شبهاً ومثلاً * وتعالتْ ذاتُهُ أن تُشْبهَ شيئاً منَ الذَّواتِ أصلاً * ووسِعت الخليقةَ أفعالهُ حكمةً ورحمةً وعدلاً * وعمَّ البريَّة جودهُ ومواهبُهُ رحمةً وإحساناً وفضلاً * لهُ الخَلْقُ والأمرُ ولهُ الملكُ والحمدُ * ولهُ الثناء والمجدُ * أوَّلٌ ليسَ قبلَهُ شيءٌ * آخرٌ ليسَ بعدهُ شيءٌ * ظاهرٌ ليسَ فوقهُ شيءٌ * باطنٌ ليس دونَهُ شيءٌ * أسماؤهُ كلُّها أسماءُ مدحٍ وحمدٍ وثناء وتمجيدٍ * ونعوتُهُ أوصافُ كمالٍ وجلالٍ وجمالٍ وتحميدٍ * كلُّ شيء من مخلوقاتِه دالٌّ عليهِ * ومرشدٌ للعقولِ إلى الوصولِ إليْه * لم يخلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما باطلاً * ولا تركَ

الإنسانَ سدىً ولا عاطِلاً * وإنَّما خلَق الخلْقَ لقيامِ توحيدِهِ وعبادتِهِ * وأسبَغ عليهِمْ نِعمَهُ ليتَوَسَّلوا بشكرِهِ إلى كرامَتِهِ * تعرَّف إلى عبادِهِ بأنواعِ التعرُّفات * وصرَّف لهُم الآياتِ ونوَّعَ الدَّلالات * ودعاهُمْ إلى محبَّتِهِ من جميعِ الأبوابِ * ومدَّ بينَهُ وبينهُمْ من عهْدِهِ أقوى الأسبابِ * فأتمَّ عليْهِم نعمهُ السَّابغة * وأقامَ عليهِمْ حجَّتهُ البالِغةَ * وأفاضَ عليْهِم النعمةَ * وكتبَ على نفسِهِ الرَّحمةَ * فتبارَكَ اللَّهُ الملكُ الجوادُ * وتعالى منْ شَمل خيرُهُ جميعَ العبادِ.

﴿ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعدهِ سبعةُ أبْحُرٍ ما نفِدَتْ كلماتُ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧]

لا ينامُ ولا ينبغي لهُ أن ينامَ * يخفِضُ القِسْطَ ويرفعُهُ. يُرْفعُ إليهِ عمَلُ اللَّيْلِ قبل عمل النَّهارِ وعمل النَّهار قبل عمل اللَّيْلِ * حجابُهُ النُّورُ لو كشفهُ لَأحْرَقَتْ سبحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليهِ بصرُهُ من المخلوقاتِ * ولو كانَ فيهما إلـهٌ غيرُ اللَّهِ لفسدَتِ الأرضُ والسمٰواتُ * ملجأ المُضْطرِّينَ * وملاذُ المستجيرينَ * وغياثُ المستغيثينَ * ومجيبُ دعواتِ الدَّاعينَ * وقرَّةُ عيونِ المحبِّينَ * وأنيسُ المُسْتوحِشِين * وهو الغنيُّ عنْ جميعِ العالمين * ميسِّرُ الأمورِ * وشارحُ الصُّدُورِ * ومحْكمُ الأحكامِ والمقدورِ * ومدبِّرُ المخلوقاتِ ومصرِّف الدُّهورِ * اضمحلَّت في عظمتِهِ وكبريائهِ عظمةُ الملوكِ والعُظماء * وتلاشَتْ لدَيهِ مقدرةُ الأقوياء * وعلومُ العُلماء * وافتقرَتْ إليهِ جميعُ الخليقةِ في كلِّ شؤونها: الأغنياء منهُم والفقراء * من تَوَكَّلَ عليهِ كفاهُ * ومنْ دعاهُ أجابهُ وأفاضَ عليه عطاهُ * ومن اعتزَّ بهِ أسْعَدَهُ وتولاَّهُ * ومن انتصرَ بهِ نصرهُ على عِداهُ * ومن اتَّقاهُ جعل لهُ مخرجاً وفرجاً وسهَّل أمورَ دينهِ ودنياهُ.

﴿وإنْ تجهَرْ بالقولِ فإنَّهُ يعلم السِّرَّ وأخفى * اللَّهُ لا إلَه إلاَّ هوَ لهُ الأسماء الحُسْنى﴾ [سورة طه: الآيتان ٧، ٨]

بارك اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآن العظيم.

## ٤٨ ـ خطبة
### في أحكام فقهية

الحمدُ للَّهِ الملكِ الحقِّ المبينِ. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ مالك يوم الدين. وأشهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ سيِّدُ المرسلينَ وإمامُ المتَّقين. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ والتَّابعينَ لهُمْ إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وانتبِهوا ونبِّهوا إخوانكم على ما يحتاجُونهُ منْ مسائِلِ الأحكام. فمنْ ذكَّر أخاهُ مسألةً واحدةً كُتِبَ لهُ الأجرُ عندَ الملكِ العلاَّم. واعلموا أنَّ الأصل طهارةُ الأشياء كلها. فمنْ أصابهُ ماء منْ ميزابٍ أو رطوبةٍ. أو وطىءَ روثاً أو أرضاً لا يدري عنها فجميعُ ذلك محكومٌ لهُ بالطهارة. ومنْ صلَّى وهو محدثٌ ناسياً حدثهُ أعادَ الصَّلاةَ. ومنْ صلَّى وعلى ثوبهِ أو بدَنهِ نجاسةٌ جهِلهَا أو نسيَها ولمْ يدر عنْها حتَّى فرَغَ فلا إعادة عليه. ومن عدِمَ الماء أو تضرَّرَ باستعمالهِ تيمَّمَ بالتراب. وعليه أن يستوعبَ بالمسح جميعَ وجهِه وكفَّيه وينوي بتيمُّمِه جميعَ حدَثٍ عليه. ومن كانَ مريضاً وقد تلوَّثَ بدَنُهُ وثيابُهُ بالنجاسةِ فإن كانَ يقدرُ على خلعِها وجبَ عليهِ ألا يُصلِّي إلَّا على طهارةٍ. ومنْ كانَ لا يقدرُ على ذلكَ فليُصَلِّ على حسبِ حالهِ وصلاتُهُ تامَّةٌ لا إعادةَ عليه. ومن أدرك من صلاةِ الجمعة ركعةً أتمَّها جمعةً وإنْ أدركَ أقلَّ من ركعةٍ نواها وصلَّاها ظهراً. ومنْ كانت عليه فوائتُ يقضيها فليُبادر إلى قضائِها مرتَّباً.

وقد نهى ﷺ عنِ النَّفْلِ في ثلاثةِ أوقاتٍ: من الفجر حتَّى ترتفعَ الشمسُ قيدَ رمحٍ ومن صلاةِ العصر إلى غروب الشَّمْس وعندَ زوال الشَّمْس حتَّى تزولَ إلَّا ما استثناهُ الشَّارعُ. ومَنْ جاء منكُمْ والإمامُ راكعٌ فعلَيْه أنْ يُكَبِّرَ تكبيرةَ الإحرام وهو قائمٌ قبلَ أنْ يهوي إلى الرُّكوع. فإنْ كبَّرَ وهو يهوي ففريضَتُهُ غيرُ صحيحةٍ. ومنْ فاتَهُ شيءٌ منَ الصلاة فلا يحِلُّ لهُ أنْ يقومَ لقضاء ما فاتَهُ حتَّى يفرغَ الإمامُ منَ التَّسليم. فإنْ قامَ قبلَ أنْ يسلِّمَ التسليمةَ الثَّانيَةَ

ولـمْ يعد انقلبَتْ صلاتُهُ نفلًا. ومن جاء منكُمْ والإمامُ يخطُبُ فلا يجلسْ حتَّى يصلي ركعتين وكذلكَ في غير الخطبةِ.

**﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا أطيعوا اللَّهَ ورسولَهُ ولا تَوَلَّوْا عنهُ وأنتُمْ تسمعون﴾**
[سورة الأنفال: الآية ٢٠]

## ٤٩ ـ خطبة

### الجزاء من جنس العمل

**الحمدُ لله الذي منْ حكمَتِهِ جعلَ الجزاء منْ جنْس الأعمال * وأرى العبادَ منْ ذلك نموذجاً ليحذُوهمْ به إلى أكمل الخصالِ * وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ذو الكرمِ والجلالِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ الذي فاقَ الخلق في كلِّ كمالٍ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ خير صحبٍ وأشرفِ آلٍ ***

**أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ * واعلموا أنَّ اللَّهَ بحكمتِهِ قضى أنَّ الجزاء من جنسِ العمل في الخيرِ والشرِّ ليعرفَ العبادُ أنَّهُ حليمٌ عليمٌ رؤوفٌ رحيمٌ * وليَرغبُوا في الخيـرِ ويحذرُوا منْ أسبـابِ العذابِ الأليم * فقـدْ قالَ ﷺ: (الرَّاحمون يرحمهُمُ الرحمـٰنُ، ارحمُوا منْ في الأرضِ يرحَمْكم من في السَّماء) * إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ من الأعمالِ والأقوالِ والنفقاتِ إلا طيِّباً * إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ نظيفٌ يحبُّ النظافةَ * جوادٌ يحبُّ الجودَ * كريمٌ يحبُّ الكرمَ * وما نقُصتْ صدقةٌ من مالٍ بل تزيدُهُ * وما زاد اللَّهُ عبداً بعفوٍ إلا عـزّاً * وما تواضـع أحدٌ إلا رفَعَهُ اللَّهُ * ومنْ أحسنَ إلى الخلقِ أحسن اللَّهُ إليهِ * ومنْ عفا عنهُمْ عفا اللَّهُ عنْهُ * ومنْ غفرَ لهُمْ غفرَ اللَّهُ لهُ * ومنْ تكبَّرَ عليهِمْ وَضَعَهُ اللَّهُ * ومنْ يسَّرَ عن معسِرٍ يسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنيا والآخرة * ومنْ فرَّجَ عن مسلمٍ كربةً من كُربِ الدُّنيا فرَّجَ اللَّهُ عنهُ كُربةً من كُربِ يوم القيامةِ * واللَّهُ في حاجة العبدِ ما كانَ العبدُ في حاجةِ أخيه * ومنْ سلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهَّلَ اللَّهُ لهُ به طريقاً إلى الجنَّةِ * ومنْ أنْفقَ للَّهِ أخلفَ اللَّهُ عليه * ومنْ**

أمسَكَ عمَّا عليهِ أتلفَهُ اللَّهُ * وما ظهرَ الفلولُ وأكلُ المالِ بغير حقٍّ في قومٍ إلاّ أوقـعَ في قلوبِهم الرُّعبَ وابتلاهُمُ اللَّهُ بالذُّلِّ * وما نَقص قومٌ المكيال والميزان إلاّ قطَـعَ عنهُم الرِّزقَ. وما نكَثَ قومٌ العهْدَ إلا سُلِّط عليهِم الأعداء * وما فشى في قومٍ الزِّنا إلاّ كثُرَ فيهِمُ الوبا والموتُ * وما حكَم قومٌ بغيرِ ما أنزلَ اللَّهُ إلاّ جعلَ اللَّهُ بأسَهُمْ بينهُمْ * ومنْ وصلَ رَحِمَهُ وصلهُ اللَّهُ * ومنْ قطعَها قطعهُ اللَّهُ * ومنْ آوى إلى اللَّهِ آواهُ اللَّهُ * ومنْ استحيا منَ الله استحيا اللَّهُ منْهُ* ومنْ أعرض عنِ اللَّهِ أعرضَ اللَّهُ عنه* ومنْ تقرَّب إلى اللَّهِ تقرَّب اللَّهُ منْهُ أكثر منْ ذلك * ومنْ أشبَـع مسلماً من جوعٍ أطعمَهُ اللَّهُ منْ ثمارِ الجنَّة * ومن سقاه على ظمأ سقاهُ من حُللِ الجنَّة * ومنْ نصرَ أخاهُ المسلمَ نصرهُ اللَّهُ * ومنْ خذلهُ خَذَلَهُ اللَّهُ * ومنْ تتبَّـعَ عوراتِ المسلمين تتبَّـع اللَّهُ عورتهُ وأظهرَ عيوبهُ * ومنْ سترهُمْ وأغضى عنْ معائِبِهمْ سترهُ اللَّهُ * ومنْ يستعفِفْ يعفُّهُ اللَّهُ * ومنْ يستغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ * ومنْ يصبر يصبِّرهُ اللَّهُ * ومنْ أقالَ مسلماً بيعتَهُ أقالهُ اللَّهُ عثرتهُ يوْمَ القيامةِ * ومنْ أخذَ أموال النَّاسِ يريدُ أداءَها أدَّاها اللَّهُ عنهُ، ومنْ أخذها يريدُ إتلافَها أتلفهُ اللَّهُ * ومنْ فرَّقَ بينَ والدةٍ وولدها فرَّق اللَّهُ بينهُ وبين أحبتِهِ * ومنْ جمـعَ بين متحابينِ جمـعَ اللَّهُ بينَهُ وبين أحبَّتِهِ * منَّ اللَّهُ عليَّ وعليْكُمْ بالقيامِ بالأسبابِ النافعةِ وحمانا وإيَّاكُمْ منَ الأسبابِ الضارَّةِ

﴿فمَنْ يعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ * ومنْ يعمَل مثقالَ ذرَّةٍ شرّاً يرهُ﴾
[سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]

باركَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآن العظيم.

# ٥٠ ـ خطبة

## في الصدق

الحمدُ للَّهِ الذي أمرَ بالصـدقِ في الأقوالِ والأفعـال. وأثنى على الصادقينَ بالفضلِ والكمال. وأشهد أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ الكبيرُ المتعال. وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه أفضلُ منْ نطقَ وقال * اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ خير صحبٍ وآل.

أما بعدُ: يا أيُّها الذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وكونوا مـعَ الصَّادقين. قدْ أمرَ اللَّهُ بالصدقِ في عدَّةِ آياتٍ. وأثنى على الذينَ يرْعَوْنَ العَهْدَ والأماناتِ. وأخبرَ بما لهُمْ من الثوابِ الجسيم.

**﴿قالَ اللَّهُ هذا يومُ ينفـعُ الصادقينَ صِدقُهُمْ لهُم جنَّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضيَ اللَّهُ عنهم ورَضُوا عنهُ ذلكَ الفوزُ العظيمُ﴾**
[سورة المائدة: الآية ١١٩]

وقالَ ﷺ: (عليكُمْ بالصِّدق فإنَّ الصِّدْقَ يهْدي إلى البرِّ وإن البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ ولا يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكْتَب عندَ اللَّهِ صدِّيقاً). فأخبر ﷺ أنَّ الصدقَ يهْدي إلى البرِّ والبرُّ اسمٌ جامـعٌ لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ وإحسانٍ إلى الخلْقِ. والصدقُ عنوانُ الإسلامِ. وميـزان الإيمانِ وعـلامةُ الكمالِ * وإنَّ لصاحبه المقامَ الأعْلى عند الملِكِ المتعال * بالصِّدقِ يصلُ العبدُ إلى منازلِ الأبرار * وبِه تحصَلُ النَّجاةُ من الآفاتِ وعذابِ القبرِ وعذابِ النّار * بالصِّدق يكونُ العبدُ معتبَراً عندَ اللَّهِ وعند الخلق * قال ﷺ: (البيِّعانِ بالخيار فإنْ صدَقا وبيَّنا بُورِكَ لهما في بيعِهما وإنْ كذَبا وكتَما مُحِقتْ بركةُ بيعِهما) * فالبركةُ مقرونةٌ بالصدقِ والبيانِ * والتلفُ والمحقُ مقرونٌ بالكذبِ والكتمانِ * والمشاهدةُ أكبرُ شاهدٍ عَلَى ذلكَ والعيانُ. لا تجدُ صادقاً إلّا مرموقاً بينَ النَّاس بالمحبَّةِ والثَّناء والتعظيمِ * ولا كذَّاباً إلّا ممقوتـاً بهذا الخُلُقِ الأثيم * الصادقُ يطمئنُّ إلى قولِهِ العدوُّ والصَّديق * والكاذبُ لا يثقُ به بعيدٌ

ولا قريبٌ * الصادقُ الأمينُ مؤتمَنٌ على الأموالِ والحقوقِ والأسرار * ومتى حصلَ منْهُ كبْوَةٌ أو عثرةٌ فصِدْقُهُ شفيـعٌ يقيهِ العِثار * والكاذبُ لا يؤمَّنُ عَلَى مثقالِ ذرَّةٍ ولو فُرِضَ صِدْقُهُ أحياناً لم تحصُلْ بهِ الثقةُ والاستقرارُ * ما كانَ الصدقُ في شيء إلّا زانهُ * ولا الكذبُ في شيءٍ إلّا شانهُ * الصدقُ طريقُ الإيمانِ * والكذبُ بريدُ النِّفاقِ * اللَّهُمَّ تفضَّلْ علينا بالصِّدقِ في أقوالِنـا وأفعالِنا وجميـعِ أحوالِنا إنَّك جوادٌ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ.

## ٥١ ـ خطبة
### في الاستقامة

الحمدُ للَّهِ الواحدِ الأحدِ. الفردِ الصمدِ. الذي لم يلدْ ولم يولَدْ ولمْ يكُنْ لهُ كفواً أحدٌ. وأشهَدُ أن لا إلـهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الذي ليسَ لفضلهِ منتهى ولا مدد. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُهُ خيرُ مولودٍ وأشرفُ ولد. اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ صلاةً وسلاماً بغيرِ عدد.

أمَّا بعد، أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى وتقرَّبوا إليهِ. وآستقيمُوا إليه. وآسلكُوا كلَّ طريقٍ يوصلكُم إليه. فقد جاء رجلٌ إلى النَّبـيِّ ﷺ فقال: «يا رسولَ اللَّهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أَسألُ عنهُ أحداً بعدَك»، قال: (قُلْ: آمنتُ باللَّهِ ثمَّ استَقِمْ). فَجَمَـعَ ﷺ في هذهِ الوصيَّةِ أصولَ الخيرِ وفروعَهُ بلفظٍ موجزٍ واضـحٍ مثمرٍ للسعادةِ والفلاحِ. وجميـعِ المصالـحِ. فقولُه: آمنتُ باللَّهِ أي أعترفُ من صميمِ قلبـي أنَّهُ ربـي وإلَهي الذي لا ربَّ لي سواهُ. ولا معبودَ لي إلّا إيَّاهُ. وأنَّهُ الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ. المنزَّهُ عن العيوبِ والنقائصِ والمثالِ. الأوَّلُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ. الآخرُ الذي ليسَ بعدهُ شيءٌ. الظاهرُ الذي ليسَ فوقهُ شيءٌ. الباطنُ الذي ليسَ دونَهُ شيء. المحيطُ بكلِّ شيءٍ رحمةً وعلماً وقدرةً ومشيئةً وحكماً. الحميدُ في أسمائهِ وأوصافهِ

**وأفعاله**. الحكيمُ في خلقهِ وشرعهِ وعطائِهِ ومنعِهِ. الرحمنُ الرحيمُ الجوادُ الكريمُ الذي شمَلَ العباد بواسِع نوالهِ. يسألُهُ منْ في السمواتِ والأرض كلَّ يوم هو في شأنٍ. يغفرُ ذنباً ويفرِّجُ كرباً. ويُعْطي سائلاً ويرفعُ أقواماً ويضَعُ آخرين. بيَدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ. وإليهِ مرجِعُ كلِّ حيّ. ليسَ للعبادِ غنىً عن طاعته والافتقارِ إليهِ. ولا لهُمْ ملجأ ومعاذٌ وملاذٌ ولا اضطرارٌ إلّا إليهِ. فمَن آمنَ باللَّهِ على الوجهِ الذي جاء عنْ رسولِ اللَّهِ واستقامَ على شرعِ اللَّهِ فقد استقام على الصراطِ المستَقيم. واستحقَّ الفوزَ في جنَّاتِ النَّعيم. ليسَ الإيمانُ بالتحلِّي ولا بالتمنِّي. ولا بمجردِ الأقوالِ الخاليةِ من الأعمالِ. إنَّما الإيمانُ ما وقَرَ في القلوبِ وصدَّقَتْهُ الأعمال. وأثمرَ الخَشيةَ من علَّام الغيوب:

**﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهُم وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهم يتوكَّلون * الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وممَّا رزقناهم يُنْفِقون * أولئِك هُمُ المؤمنونَ حقًّا لهُمْ درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾** [سورة الأنفال: الآيات ٢ ــ ٤]

المسلمُ مَنْ سَلمَ المسلمونَ منْ لسانهِ ويدهِ والمؤمن مَنْ أمِنَهُ النَّاسُ على دمائِهِم وأموالِهِم. وتمامُ الاستقامَةِ بمعرفةِ الخيرِ والاجتهاد في فعلِه. ومعرفةُ الشرِّ والاجتهاد في تركِهِ. فليجاهدِ العبدُ نفسَهُ في تحقيقِ التَّقوى. ويستعنْ بالملكِ الأعلى. ويسألِ اللَّهَ الثباتَ إلى المماتِ. وأنْ يحفظَهُ اللَّهُ من فتَنِ الشُّبُهاتِ والشهواتِ:

**﴿إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللَّهُ ثمَّ استقامُوا تتَنَزَّلُ عليهِمُ الملائكةُ ألَّا تخافُوا ولا تحزنُوا وأَبْشِروا بالجنَّةِ التي كنتُم تُوعَدُون﴾** [سورة فصلت: الآية ٣٠]

بارك اللَّهُ لي ولكُمْ. . .

## ٥٢ ـ خطبة
### في التعرف إلى الله

الحمدُ للَّهِ ذي الألطافِ الواسعةِ والنِّعمِ * وكاشفِ الشدائدِ والمكارهِ والنِّقمِ * وأشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ذو الجودِ والكرمِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولُه الَّذي فَضُل على جميعِ الأَمَمِ * اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ ومَنْ تبِعَهُمْ في طريقِهم الأمم.

أما بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى * وتعرَّفوا إلى اللَّهِ في الرَّخاء يعْرفكم في الشدَّة * وتقرَّبوا إليهِ بطاعتِه يجلبْ لكُم السَّعادةَ ويدفَع عنكم المشقَّة * فمن اتقى الله وحفِظَ حدودَهُ وراعى حقوقَهُ في حالِ رخائِه * عرفَهُ اللَّهُ في شدَّتِه ورعى لهُ تعرُّفَهُ السابقَ وكانَ معهُ ومحلَّ طمعِه ورجائِه * قال تعالى:

﴿فلولا أنَّهُ كان منَ المسبِّحينَ * لَلَبِثَ في بطنِه إلى يومِ يبعثُون﴾
[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]

فكانَ ليونُسَ مقدِّمةَ صدقٍ نُجّيَ بها * ويعين اللَّهُ ما يتحمَّلُه المتحمِّلون * فمَنْ عاملَ اللَّهَ في حالِ صحَّتِه وشبابِهِ وقوَّته * عاملهُ اللَّه باللُّطْفِ والإعانةِ في حال شدَّتِهِ * ومنْ كان مطيعاً للَّهِ لاهجاً بذكرِهِ في حال السرَّاء * أغاثهُ اللَّهُ وأنقذهُ منَ المكارهِ والضرَّاء * لا سيَّما عند انتقالهِ من الدُّنيا في تلك الشَّدائدِ والكروب فإنَّ الله يلطُفُ بهِ ويُثَبِّتهُ فيَخْرُجُ من الدُّنيا على غاية المطلوب ولقيَ ربَّهُ وهو راضٍ عنْهُ حيثُ قدَّمَ رضى ربِّهُ على كلِّ محبوبٍ * ومنْ نسي اللَّهَ في حالِ قوَّته وصحَّتِه * ولمْ يتُبْ إلى ربِّهِ ولا تابَ من زلَّتِه * فلا يلومَنَّ إلاّ نفسَهُ حينَ وقوعِه في كرْبِه وشدَّتِهِ وشِقْوتِهِ * قال ﷺ فيما يحْكي عنْ ربِّهِ: (مَنْ عادى لي وليًّا فقدْ آذنْتُهُ بالحرب وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممَّا افترَضْتُ عليهِ. ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّهُ فإذا أحْبَبْتُهُ كنتُ سمْعهُ الذي يسمعُ بهِ وبصرهُ الذي يُبْصِرُ به ويدهُ التي يبْطُشُ بها ورجْلهُ

التي يمْشي بها ولئِنْ سألني لأعْطيْتهُ ولئن استعاذَني لأعذتهُ. وما تردَّدْتُ عنْ شيءٍ أنا فاعلُهُ تردُّدي عنْ قبضِ نفس عبدي المؤْمِن يكرَهُ الموتَ وأكرهُ مساءتَهُ ولا بدَّ لهُ منْهُ) * والمؤمِنُ المتَّقي إذا حضرَهُ الموتُ فَبُشِّر بالسَّعادةِ أحبَّ لقاءَ اللَّهِ وأحبَّ اللَّهُ لقاءهُ * والمعرضُ الغافِلُ إذا بشِّرَ بالشَّقاءِ كره لقاء اللَّه وكرهَ اللَّهُ لقاءهُ *

**﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ولتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لِغَدٍ واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خبيرٌ بما تعمَلُون﴾** [سورة الحشر: الآية ١٨]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيمِ.

## ٥٣ ـ خطبة

### في وجوب دفـع الأذية عن الناس

الحمدُ للَّهِ الذي جعلَ الإحسانَ أكبرَ الأسبابِ لنيْلِ الكراماتِ * وأذيةَ الخلقِ والإضرارَ بهم موجباً للعقوباتِ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ كاملُ الأسماء والصفاتِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ أشرفُ المخلوقاتِ. اللهمّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أولي الفضلِ والكرامات.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا الله تعالى * واعلمُوا أنَّ من توفيق العبدِ وسعادتهِ كفُّ أذيَّتِه عن المسلمين * ومن شقاوتِه عدمُ مبالاتِه في إيصالِ الضررِ للعالمين * وقد أخبرَ ﷺ أنَّ إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ من شُعبِ الإيمان * ومنْ عزلَ حجراً أو شوكةً أو عظماً عن طريقِ النَّاسِ فقد سعى لنفسِه بالأمان * وقال ﷺ: (بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ إذْ وجدَ غُصْن شوكةٍ فأزالهُ فشكر اللَّهُ لهُ فغفرَ لهُ وأدخلهُ الجنَّة) * فرحمَ اللَّهُ عبداً كفَّ أذيَّتَهُ عن الناسِ فلمْ يؤذِهِمْ بالتخلي في طُرقهِمْ ومساجدِهمْ ومجالسِهمْ * وما أحسنَ توفيقَ منْ رفَـعَ الأذى عنْهُمْ في جميـعِ أحوالِهِمْ وتصرُّفهم * وآزْجُروا من رأيْتُمُوه يتخلَّى في مغاسلِ المساجدِ فإنَّهُ موجبٌ للَعنةِ اللاعنينَ * وقدْ باء فاعلُ ذلكَ بـالإثمِ وأذيَّةِ

المؤمنينَ * قال ﷺ: (اتَّقوا الملاعنَ الثّلاثَ: البرازَ في المواردِ وقـارعَةِ الطَّريقِ والظلِّ) * وإيَّـاكُم وكشفَ العوراتِ بمـرآى أحدِ أوقـات التخلي والاغتسال * كما يفعلُ ذلكَ من لا يخشى اللَّهَ من المتهاونينَ الأرذال * فقدْ لعنَ النَّاظرَ والمنظورَ * وحُقَّ عليهِمُ الوبال * أفلا يسْتحي أحدُكم أنْ يكون أسوأ حالةً من البهائم فيُبْدي عورتهُ والناسُ ينظرون * وهذا منْ أعـظمِ الجرائمِ فإنَّ الله يمْقُت أشدَّ المقْتِ على كشفِ العوراتِ * فمَنْ فعَلَ ذلك فقدْ باء بغضبٍ من اللَّهِ وحقَّتْ عليهِ العقوباتُ * عافاني اللَّهُ وإيَّاكُمْ من جميـع البليَّاتِ * وسترَ منَّا العيوبَ والعوراتِ وأمَّننَا من المخاوفِ والرَّوعاتِ * وسلكَ بنا مسْلكَ أهلِ الأدبِ والحيا والصِّياناتِ *

﴿والذين يؤذُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيْرِ ما اكتَسبوا فقدِ آحْتَملوا بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٨]

﴿قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارهِمْ ويحفظُوا فروجَهُمْ﴾

[سورة النور: الآية ٣٠]

الآية. بارك اللَّهُ لي ولكُمْ.

## ٥٤ ـ خطبة

### في الوتر وغيره

الحمدُ للَّهِ مفضِّلِ الأعمال بعضها على بعضٍ. والمتصرفِ في الأمورِ كلِّها بالأحكامِ والحكمِ في الطُّولِ والعَرْضِ. مالكِ السَّموات والأرضِ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ولا يقدرُ أحدٌ على القدحِ في حكمتِهِ ولا النقضِ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبْدُه ورسوله سيِّدُ أهلِ السمواتِ والأرضِ. اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على محمَّد وعلى آلهِ وأصحابهِ ومنْ تبعهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الحسابِ والعرضِ.

أما بعدُ: أيُّها الناس اتَّقوا اللَّهَ. فإنَّ أصلَ التّقى القيامُ بالواجباتِ. وكمال التَّقوى وزينتَها تحليتُها بالمستحبَّات. وخصوصاً ما حثَّ عليهِ الشارعُ منْ نوافِلِ الصلاةِ المؤكداتِ. فقدْ حثَّ على الوترِ وفضَّلهُ تفضيلاً. وأمرَ بهِ وأخبرَ عن فضلهِ وثوابهِ إجمالاً وتفصيلاً. فقال: يا أهلَ القرآنِ أوتروا فإنَّ اللَّهَ وترٌ يحبُّ الوترَ فمَنْ لمْ يوتِرْ فليْسَ منَّا. وإِنَّ اللَّهَ قد أمدَّكُمْ بصلاةٍ هيَ خيرٌ لكمْ من حُمُر النَّعَمِ وهي الوترُ وهيَ ما بينَ أنْ تُصلُّوا العشاء والفجر فمَنْ شاء أن يُوتِرَ من أوَّلِ اللَّيْلِ أو وسطِه أوْ آخرِهِ. ومن طمِعَ أن يقُومَ من آخرِ اللَّيْلِ فلْيُوتِرْ آخِرَهُ فإنَّ صلاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مشهودةٌ وذلكَ أفضلُ. ومن شاء أنْ يوتِرَ بواحدَةٍ أو ثلاثٍ أو خمسٍ أو سبعٍ أو تسعٍ أو إحدى عشرةَ ركعةً فلا بأسَ. ولهُ أنْ يَسْرُدَها وأنْ يُسَلِّمَ منْ كلِّ ركعتين فكلُّهُ ثبتَ عنِ النَّبـيِّ ﷺ. ومنْ نامَ عن الوِتْرِ أو نسِيَهُ أو غيرَهُ من الصَّلواتِ قضاهُ إذا اسْتَيْقَظَ وذكَرَهُ. ومنْ دخلَ المسْجِدَ فلا يجْلِسْ حتَّى يُصلي ركعتين. ليتعجَّلَ من ربِّه أجْرَهُ مرَّتين. ومن توَضَّأ في ليْلٍ أو نهارٍ فليُصلِّ ركعتين خفيفتينِ. ومنْ حافظَ على ثِنْتي عشرةَ ركعةً في يومٍ وليْلةٍ تطوُّعاً بنـى اللَّهُ لهُ بيتاً في الجنَّةِ أربعٌ قبْلَ الظُّهْرِ وركعتان بعْدَها وركْعتانِ بعْدَ المغْربِ وركعتانِ بعْدَ العشاء وركعتانِ قبلَ الفجْرِ. فهذهِ الرواتِبُ التي لا ينْبغي للعبْدِ أن يترُكها ومنْ تركها لعُذرٍ قضاها. ومنْ همَّ بأمرٍ دينيّ أو دنْيَوي فَلْيُصلِّ ركعتين من غيرِ الفريضَةِ. وليدْعُ ربَّهُ بدعاء الاستخارةِ المعروف. ولْيَسْتَشِرْ في ذلكَ مَن هوَ بالنُّصْحِ والخبرةِ معروفٌ. فلا ندِمَ من استشار. ولا خابَ من استخارَ.

**﴿فمنْ يعملْ من الصَّالحاتِ وهوَ مؤمنٌ فلا كُفرانَ لسعيهِ وإنَّا لهُ كاتبُون﴾** [سورة الأنبياء: الآية ٩٤]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٥٥ ـ خطبة

### في الصلاة على النبـي صلى الله عليه وسلم

الحمدُ للَّهِ الذي جعَلَ حقَّ نبيِّهِ مقدَّماً على حُقوقِ العالمينَ. وأوجبَ علينا الإيمانَ بهِ وطاعتَه وتقديمَ محبَّتِهِ على الخلق أجمعين. وأشهدُ أن لا إلـهَ إلّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ إلـهُ الأوَّلينَ والآخرين. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسُولُهُ سيِّدُ المرسلين. اللهُمَّ صلِّ وسلم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه أجمعين.

أما بعدُ: أيُّها النَّاس اتَّقُوا الله تعالى قال تعالى:

**﴿لقدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهِمْ رسولاً من أنفسِهم يتْلو عليْهِمْ آياتِه ويُزكِّيهِم ويُعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا منْ قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

لهذا وجبَ لنبيِّنَا عليْنا حقوقٌ كثيرةٌ. ومِنْ تلكَ الحقوقِ الإكثارُ منَ الصَّلاةِ والسلامِ عليهِ في جميعِ الأوقات. وتجبُ الصلاةُ عليْهِ في الخطبةِ والصلاةِ. وتتأكَّدُ في يومِ الجمعةِ وليلتها. وفي أوَّلِ الدُّعاءِ وآخِره. وعِنْدَ ذكرِ سيِّد المخلوقات. ومَنْ سمعَ المؤذِّنَ قالَ مثلَ ما يقولُ ثمَّ قالَ: اللَّهمَّ رَبَّ هذِهِ الدَّعوَةِ التَّامَّةِ والصَّلاةِ القائمةِ آتِ محمَّداً الوسيلةَ والفضيلةَ وآبعثهُ مقاماً محموداً الذي وعَدْتَهُ. ومن صلّى على النبـيِّ ﷺ حلَّتْ عليْـهِ شفاعتُهُ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم. وأولى النَّاس بهِ وأحَقُّهُمْ بشفاعتِهِ أعظَمُهُمْ إخلاصاً للَّهِ وأكثرُهُمْ صلاةً وسلاماً عليه. ومن دخَلَ المسجِدَ فليقُلْ: بسمِ اللَّهِ والصلاةُ والسلامُ عَلَى رسولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغفِر لي ذنوبـي وافتَـحْ لي أبوابَ رحمتِك. وعنْد الخُروج يقولُ ذلكَ ويقولُ: وافتَـحْ لي أبوابَ فضْلِكَ. وما جَلَسَ قومٌ مجلساً ثمَّ تفرَّقُوا ولمْ يذْكُروا اللَّهَ ويصلُّوا على النَّبـيِّ ﷺ إلَّا قامُوا عَنْ مثلِ جيفةِ حمارٍ وكان عليهِم حسرة يومَ القيامةِ. ومَنْ أكثَرَ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليْهِ كفاهُ اللَّهُ همَّهُ وقضى حاجتَهُ وغفَر لَهُ ذَنْبَهُ. ومَنْ صلّى عليْه مرَّةً واحدةً صلى

اللَّهُ عليْهِ عَشْرَ صلواتٍ ورفَعَ لهُ عَشْرَ دَرَجات. وكلُّ أمر ذي بال خُلي بذكرِ الله والصَّلاةِ على النَّبيِّ صلى الله عليْهِ وسلم أحلَّ فيهِ البركةَ. وكلُّ أمرٍ ذي بال لا يُذكَرُ اللَّهُ فيهِ ولا يُصلَّى فيهِ على النبيِّ صلى اللَّهُ عليه وسلم فهوَ أجذمُ ممحوقُ البركةِ. فالإكثارُ منَ الصَّلاةِ عليه فيها غفرات الزّلاتِ وتكفيرُ السَّيِّئاتِ وإجابةُ الدَّعواتِ وقضاءُ الحاجاتِ. وتفريجُ المُهمَّات والكُرُباتِ. وحلولُ الخيراتِ والبركات. ورضى ربّ الأرض والسمواتِ. وهيَ نورٌ لصاحبِها في قبْرهِ مُنْجِيَةٌ من الشُّرورِ والآفاتِ. وفيها القيامُ ببعض حقِّه وتنميَةُ محَبَّتِه في القلْبِ التي هيَ منْ أشرَف القُرباتِ. وهيَ منْ أسبابِ الهداية إلى صراطٍ مستقيم. وهيَ دُعاءٌ وسؤالٌ للرَّبِّ الرَّحيم.

**﴿إنَّ اللَّهَ وملائِكتَهُ يُصَلُّونَ على النبيِّ يا أيُّها الذينَ آمنُوا صَلُّوا عليه وسلِّمُوا تسْليماً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٥٦]

باركَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيم.

## ٥٦ ـ خطبة

### في تيسير طريق الجنة والنجاة من النار

الحمدُ لله الذي فاوت بيْنَ عبادهِ في العُقُولِ والهِمَمِ والإرادات. ورفَعَ بعْضَهُمْ فوْقَ بعضٍ درَجات. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ كاملُ الأسماء والصفاتِ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ أكملُ المخلوقات. اللهُمَّ صلِّ وسلم على محمَّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابِه ومنْ تبِعَهُمْ في كلِّ الحالات.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ تعالى، فتَقْوى اللَّهِ وقايةٌ منَ العذاب * وطريقٌ إلى الفوزِ والثَّواب * عبادَ الله؛ قدْ بيَّنَ اللَّهُ ورسولُهُ لكمْ مراتِبَ الخيرِ والشرِّ وثوابَه * وفتح لكمْ طريقَ البِرِّ وأبوابَهُ * وأبانَ لكمْ أنَّ منْ قصَدَ رضْوانهُ وسلكَ السَّبيل * فلا بُدَّ أنْ يوفِّقهُ ويوصلَهُ إلى كلِّ فضلٍ جزيلٍ * ومنْ تولَّى عن مولاهُ واتَّبَعَ شيطانهُ وهواهُ * ولَّاهُ اللَّهُ ما تولَّى لِنفْسِهِ، وخَذَلهُ وأَضَلَّهُ

وأعماهُ * فلا يهْلِكُ على اللَّهِ إلاَّ الطغاةُ المتمرِّدون * ولا يخْرُجُ عنْ رحْمَتِهِ إلاَّ منْ أبـى أنْ يسْلكَ ما سَلَكَهُ الصادقون. فهذهِ الشرائـعُ التي شَرَعها لكم المولى ويسَّرَها لكُمْ * قومُوا بها بجدٍّ واجتهادٍ يصلـحْ لكُم أحوالَكم * قال مُعاذُ بنُ جبَل: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنَّةَ ويُباعدُني من النَّار. قالَ: (لقَدْ سألتَ عن عظيمٍ، وإنَّهُ ليسيرٌ على من يسَّرَهُ اللَّهُ عليْه: تعبُدُ الله لا تُشركُ بهِ شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزَّكاة، وتصومُ رمضانَ، وتحـجُّ البيت)، أيْ فمن قام بهذهِ الشَّرائِـعِ الخمس وكمَّلها استحقَّ دخول الجنَّةِ والنَّجاة من النَّارِ * ثمَّ قال لهُ مبيِّناً لِأمَّتِهِ أبوابَ الخير: (ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخير: الصومُ جُنَّةٌ * والصَّدقَةُ تطفىء الخطيئةَ كما يُطفىء الماء النَّار * وصلاةُ الرَّجُلِ في جوفِ اللَّيل)، ثم تلا قوْلَهُ:

**﴿تتجافى جُنُوبُهُمْ عنِ المضاجـع ـ إلى قوله ـ يعملون﴾**

[سورة السجدة: الآيات ١٦ ــ ١٩]

ثمَّ قال: (ألاَ أخبرُكَ برأس الأمر وعمودهِ وذِروةِ سنامِه: رأسُ الأمرِ الإِسلامُ وعمودهُ الصلاةُ وذروةُ سِنامِه الجهادُ في سبيلِ الله) * ثمَّ قال: (ألاَ أخْبِرُكَ بملاكِ ذلك كلِه)؟ قلتُ: «بلى يا رسولَ اللَّهِ» قال: (فأخَذَ بلسان نفسِهِ فقال: كفَّ عليكَ هذا). قلتُ: «يا رسولَ الله، إنَّا لمُـؤاخذونَ بما نتكلَّمُ بهِ»؟ قال: (ثكلَتْكَ أمُّكَ يا معاذُ، وهلْ يَكِبُّ النَّاسَ في النَّارِ على مناخيرِهِمْ إلاَّ حصائِدُ ألسنتِهِم) * فَمَنْ ملكَ لسانَهُ فأشْغلهُ بما يقربُ إلى اللَّهِ من قِراءةٍ وذكرٍ ودعاءٍ واستغفارٍ * وحَبَسَهُ عن الكلامِ المحرَّم من غيبـةٍ أو نميمةٍ أو كـذبٍ وكلِّ ما يسخِطُ الجبَّارَ * فقدْ وُفِّق للخيرِ والثَّوابِ * وسَلِمَ من الشرِّ والعقابِ * فانظُروا، رحمكُم اللَّهُ، ما أسهلَ هذه الشرائـع وأيْسرَها * وما أعظمَ ثوابَها وأجرَها وما أكمَلها.

**﴿وما تقدّموا لأنفُسِكمْ من خيرٍ تجدوهُ عندَ اللَّهِ هو خيراً وأعظمَ أجراً﴾**

[سورة المزمّل: الآية ٢٠]

باركَ اللَّهُ لي ولكم.

## ٥٧ ـ خطبة
### في الرضى بالقدر

الحمدُ للَّهِ الذي خلَقَ كلَّ شيء فقدَّرَهُ تقْديراً * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وكفى باللَّهِ وليّاً ونصيراً * وأشهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ أرسَلهُ إلى جميعِ الثَّقَلَينِ بشيراً ونذيراً * وداعياً إلى اللَّهِ بإذنِهِ وسراجاً منيراً * اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ الذين أذهبَ اللَّهُ عنهُمُ الرِّجْس وطهَّرَهُمْ تطهيراً.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ فقدْ فازَ المتَّقُون * واعتمِدُوا على ربِّكمْ في كل ما به تتصرَّفُونَ * واعلمُوا أنَّ كلَّ شيء بقضاء قدَّرَهُ من يقُولُ للشَّيء كُنْ فيكون * ألاَ وإنَّ الاعتقادَ في القضاء والقدرِ أحدُ أصولِ الإيمانِ * وبتحقيقِهِ يتحَقَّقُ للعَبدِ الرِّبحُ ويسْلمُ منَ الخسرانِ * فإنَّ هذا الاعتقادَ إذا وقرَ في القُلوبِ نشَّطَ العاملينَ في أعمالِهِمْ * ورقَّاهُمْ إلى مدارجِ الكمالِ في كلِّ أحوالِهِمْ * فَمنْ آمَنَ حقَّ الإيمانِ باللَّهِ وعلم أنَّ كلَّ شيءٍ بقدرِه وقضاهُ * ثَبَّتَ اللَّهُ قلبَهُ للرضى والتَّسليمِ وهداهُ * ومن استعانَ باللَّهِ معتمِداً بقلْبِهِ عليْهِ أعانهُ * ومنْ لجأ إليْهِ واحتمى بحماهُ حماهُ وعصمَهُ وصانهُ * ومنْ تَحمَّلَ في سبيلِه الأثقالَ والمشاقَّ سهَّلَها عليْهِ وهوَّنها * ومنْ قصد نحوهُ صادقاً كفاهُ كلَّ مؤْنَةٍ وزيَّن في قلْبِه مسالك الخيْرِ وحسَّنها * كيْفَ يرهبُ الخلقَ في رضى الخالقِ منْ يعْلَمُ أنَّ الأجل محتومٌ؟ وكيفَ يخشى الفَقْر فيما يُنْفِقُ مِن مالهِ في الخيرِ منْ تيقَّنَ أنَّ الرزقَ مقسومٌ * كيفَ لا يطمئِنُّ إلى كفايةِ اللَّهِ ورزقِه من يعلمُ أنَّ الله تكفَّلَ بأرزاقِ الخليقة؟ كيفَ لا يثِقُ بوعْد منْ قالَ:

﴿وما أنْفقْتُم من شيء فهو يخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٩]

وهو الذي بيدِهِ خزائنُ المُلك على الحقيقةِ * كيف يتسَخَّطُ العبدُ المصائبَ والمكارهَ واللَّهُ هُو الذي قدّرها؟ كيف لا يحتسب لهُ ثوابُها ويرجو ذخرها منْ يعلَم أن الله هو الذي أجْراها ودبَّرَها؟ ألاَ وإنَّ الإيمانَ بقضاء اللَّهِ وقدرِهِ يوجِبُ

الطُّمأنينةَ إلى الله في كلِّ الحالاتِ * ويُسهِّلُ على العبْدِ اقتحامَ الصِّعابِ والأهوالِ المُلمَّاتِ * قال ﷺ: «إذا سألْتَ فاسألِ اللَّهَ وإذا اسْتَعَنْتَ فاستعِنْ بالله» * واعْلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجْتمعوا على أنْ ينفعُوكَ بشيءِ لم ينفعُوكَ إلاّ بشيءِ كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضرُّوكَ بشيء لم يضرُّوكَ إلاَّ بشيءِ كتَبَهُ اللَّهُ علَيْكَ * رُفِعَت الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحُفُ * واعلمْ أنَّ ما أصابكَ لمْ يكُنْ ليُخطئكَ وما أخْطأكَ لم يكُنْ ليُصيبكَ * واعلمْ أنَّ النَّصرَ مع الصَّبْرِ وأن الفرَجَ مع الكربِ وأنَّ معَ العُسرِ يُسْراً.

﴿ما أصاب منْ مُصيبَةٍ إلا بإذْنِ اللَّهِ ومنْ يُؤمِنْ باللَّهِ يَهْدِ قلبَهُ واللَّهُ بكُلِّ شيء عليمٌ﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

باركَ اللَّهُ لي ولكُمْ.

## ٥٨ ـــ خطبة

### في التقوى

الحمدُ للَّهِ الذي فاوت بيْنَ عباده في العُقُولِ والهِمَمِ والإراداتِ. ورفعَ بعْضَهُم فوقَ بعْضٍ بالإيمانِ والعلمِ ولوازمهما درجاتٍ. وأشهدُ أن لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في الذَّات ولا سميَّ لهُ في الأسماء ولا مثيلَ لهُ في الصِّفاتِ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولُهُ أشرفُ البريَّات. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تبعَهُمْ في كلِّ الحالات.

أما بعْدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى فتقْوى الله وقايةٌ من الشَّرِّ والعذابِ. وسببٌ موصلٌ للخيْرِ والثَّواب. عبادَ اللَّهِ قد بيَّنَ اللَّهُ لكمْ مراتِبَ الخيرِ وثوابَهُ. وحضَّكمْ على ذلك وسهَّلَ لكُمْ طُرُقَهُ وأسبابَهُ. فقالَ تعالى:

﴿وسارعُوا إلى مغْفِرةٍ منْ ربِّكُمْ ـــ إلى قوْله ـــ ونعمَ أجْرُ العامِلينَ﴾

[سورة آل عمران: الآيات ١٣٣ ـــ ١٣٦]

فوصَفَ المتَّقينَ بالقيامِ بحُقوقِهِ وحقوقِ عبادهِ وبالتَّوبةِ والاستغفارِ. ونفى عنهمُ الإقامةَ على الذُّنوبِ والإصرارِ. وقالَ معاذُ بنُ جبل رضي اللَّهُ عنهُ: «يا رسولَ

الله أخبرني بعملٍ يدخِلُني الجنَّةَ، ويُنجيني من النَّارِ» قالَ ﷺ: (لقدْ سألْتَ عن عظيمٍ وإنَّهُ ليسيرٌ على منْ يسَّرَهُ اللَّهُ عليهِ: تعبُدُ اللَّهَ لا تُشرِكُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتـؤْتي الزَّكـاة، وتصومُ رمضانَ، وتحـجُّ البيتَ). أيْ فَمن قامَ بهذهِ الشَّرائـعِ الخمسِ حقَّ القيامِ. استحقَّ النجاة من النارِ ودخولَ دار السلام. ثمَّ لما رآهُ شديدَ الرغبةِ في الخيرِ وضَّحَ لهُ ولِلأمَّةِ الأسبابَ التي تُوصِلُ إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. والأبوابَ التي تُفضي إلى النِّعمِ الباطِنَةِ والظاهرةِ. فقالَ: (ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ [أي] وقايةٌ في الدُّنيا منَ الذُّنُوبِ. ووقايةٌ في الآخرةِ من جميـعِ الكروب. والصَّدقةُ تطفىءُ الخطيئة كما يطفىء الماءُ النَّارَ. وصلاةُ الرَّجُلِ في جوفِ اللَّيلِ [ثم تلا قولَهُ تعالى]:

﴿تتجافى جنوبُهُمْ عنِ المضاجِـع ـ [حتى بَلـغَ] ـ يعملون﴾

[سورة السجدة: الآيات ١٦ ـ ١٩] )

ثم قالَ: (ألا أخْبرُكَ برأسِ الأمر وعمودهِ وذروةِ سنامِهِ؟ رأسُ الأمرِ الإسلامُ وعمودُهُ الصلاةُ وذروةُ سنامِهِ الجهادُ في سبيلِ اللَّهِ). ثم قالَ: (ألاَ أخبرُكَ بملاكِ ذلكَ كلهِ؟ قلتُ: «بلى يا رسولَ اللَّهِ» فأخذَ بلسانِ نفسِهِ وقال: (كُفَّ عليكَ هذا). قلت: «يا رسولَ اللَّهِ، وإنَّا لمـؤاخذونَ بما نتكلَّمُ به»؟ قال: (ثَكلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ، وهلْ يَكِبُّ النَّاسَ في النَّارِ على مناخيرِهِمْ إلَّا حصائدُ ألسِنتهِم؟) فَمنْ ملَك لسانَهُ فأشْغَلَهُ بما يُقَرِّبُهُ إلى اللَّهِ مِنْ علمٍ وقراءةٍ وذكرٍ ودعا واستغفارٍ. وحَبَسَهُ عنِ الكلامِ المحرَّمِ منْ غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشتمٍ وكلِّ ما يُسخِطُ الجبَّارَ. فقَدْ ملَكَ أمرَهُ كلَّهُ واستقامَ على الصِّراطِ المستقيمِ. ومَنْ أطْلَقَ لِسانَهُ فيما يَضُرُّهُ استحَقَّ العذاب الأليم). فانظرُوا، رحِمَكُم اللَّهُ، ما أسهَلَ هذه الشرائـعَ وأيسرها. وما أعظَمَ ثوابَها عندَ اللَّهِ وأكْمَلَها. فجاهدُوا نفوسَكم على تحقيقِها وإكمالِها. وسَلوا رَبَّكُمُ الإعانَةَ على أقوالِها وأفعالِها. بارَكَ اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ.

# ٥٩ ـ خطبة

## في المنجيات والمهلكات

الحمدُ للَّهِ الواحدِ الأحدِ. الفردِ الصَّمد. الذي لم يلِدْ ولم يولدْ. ولم يكنْ لهُ كفواً أحد * وأشهدُ أنَّ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في ملكِهِ وسلطانِه. ولا مِثْل لهُ في أسمائِهِ وصفاتِهِ وبرِّه وإحسانه. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ المؤيَّدُ ببرهانِهِ * اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّـدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِ وأعوانِهِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقوا اللَّه تعالى * واسلُكُوا سبيلَ السَّلامةِ والنجاةِ * واحذرُوا سُبُلَ العطَبِ والأمورَ المهلكات. فقدْ قالَ ﷺ: (ثلاثٌ منجياتٌ وثلاثٌ مهلكاتٌ * فأما المنجياتُ فتقوى اللَّهِ في السرِّ والعلانيةِ * والقولُ بالحقِّ في الرضا والسخط * والقصدُ في الغِنى والفقرِ * وأمَّا المُهلكاتُ فهوىً متَّبَـعٌ وشـحٌّ مطاعٌ وإعجابُ المرء بنفسِهِ وهي أشدُّهُنَّ) * فيالَهُ منْ كلامٍ جامـعٍ لمسالكِ الخيراتِ * محذِّرٍ عن مواقـعِ الهلكاتِ * أما تقوى اللَّهِ في السرِّ والعلانيةِ فهي ملاكُ الأمورِ * وبها حصولُ الخيراتِ واندفاعُ الشُّرور * فهيَ مراقبةُ اللَّهِ على الدوام * والعلمُ بقُربِ الملكِ العلاَّم * فيستحي منْ رَبِّهِ أنْ يراهُ حيثُ نهاه * ويفقدَهُ في كلِّ ما يقرِّبُ إلى رضاهُ * وأمَّا قول الحق في الغضبِ والرِّضى * فإنَّ ذلكَ عنوانٌ على الصِّدقِ والعدل والتوفيقِ * وأكبرُ برهانٍ عَلَى الإيمانِ وقهرِ العبدِ لغضبِهِ وشهوتِهِ * فإنَّهُ لا ينجُو منْها إلا كُلُّ صديق * فلا يخْرجُهُ الغَضبُ والشَّهْوةُ عن الحقِّ * ولا يُدخِلانِهِ في الباطِلِ * بل الصدقُ عامٌّ لأحوالِهِ كلِّها وشامِلٌ * وأما القصدُ في الفقرِ والغنى فإن هذا علامةٌ على قوَّة العقلِ وحسن التَّدبيرِ * وامتثالٌ لإرشادِ الـرَّبِّ القديـر * في قولِهِ:

﴿والذينَ إذا أنفقُوا لمْ يُسْرِفُوا ولمْ يَقْتُرُوا وكانَ بين ذلك قَوَاماً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فهذهِ الثَّلاثُ جمعتْ كلَّ خيْرٍ متعلّقٍ بحقِّ اللَّهِ وحقِّ النَّفْسِ وحقوقِ العباد * وصاحبُهَا قد فازَ بالقدحِ المعلَّى والهدى والرشادِ * وأمَّا الثَّلاثُ المهلكاتُ فأوَّلُها هوىً متَّبَعٌ

﴿ومنْ أَضلُّ ممن اتَّبَعَ هواهُ بغير هُدىً من اللَّهِ﴾

[سورة القصص: الآية ٥٠]

فإنَّ الهوى يهوي بصاحبِهِ إلى أسفلِ الدركاتِ * وبالهَوى تندفعُ النفوسُ إلى الشهواتِ الضارَّةِ المهلكاتِ * وأما الشحُّ المطاعُ فقدْ أُحضِرتِ النفوسُ شُحَّها

﴿ومنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك همُ المفلحونَ﴾ *

[سورة الحشر: الآية ٩]

ومن انقادَ لشُحهِ فأولئكَ همُ الخاسرونَ * فإنَّ الشُّحَّ يحملُ عَلَى البخلِ ومنع الحقوقِ * ويدعُو إلى الضَّرَر والقطيعةِ والعقوق * أمرَ الشحُّ أهلهُ بالقطيعةِ فَقَطَعُوا * ودعاهُم إلى منْعِ الحقوق الواجبَةِ فامتثلوا * وأغراهُم بالمُعامَلاتِ السَّيِّئَةِ منَ البَخْسِ والغش والرِّبا ففعَلوا * فهو يدْعُو إلى كلِّ خُلقٍ رذيل * وينهى عن كلِّ خُلقٍ جميل * وأمَّا إعجابُ المرء بنفسِهِ فإنَّهُ من أعظمِ المهلكاتِ وفظائعِ الأمورِ * فإنَّ العُجْب بابٌ إلى الكِبْر والزَّهو والغرورِ * ووسيلةٌ إلى الفخرِ والخيلاء واحتقارِ الخلق الذي هو من أعظمِ الشُّرور * فهذه الثَّلاثُ: الهوى المتبعُ، والشحُّ المطاعُ، والإعجابُ بالنَّفسِ: من جمعَها فهو من الهالكينَ * ومنِ اتَّصفَ بها فقدْ باء بغضبٍ منَ اللَّهِ واستحقَّ العذابَ المهين. فطوبى لمن كان هواه تبعاً لمراضي الله * وطُوبى لمَنْ وُقي شُحَّ نفسِه فكان منَ المفلحِينَ * وعرفَ نفسَهُ حقيقةً فتواضعَ للحق وخَفَضَ جنَاحهُ للمُؤمِنينَ * مَنَّ اللَّهُ عليَّ وعليكمْ بمكارمِ الأخلاقِ ومعاليها * وحَفِظَنَا منْ مضارِّها ومساويها * ونعوذُ باللَّهِ مِنْ شرورِ أنفُسنا وسيِّئاتِ أعمالِنا.

# ٦٠ ـ خطبة

## واعظة

الحمدُ للَّهِ الخالقِ ومَن سِواهُ مخلوقٌ. الرازقُ وغيرهُ عبدٌ فقيرٌ مرزُوقٌ. أحمدُهُ على ما لَهُ من الصِّفاتِ وأسألهُ أن يُعينَنا عَلَى أداء الحقوقِ. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ في ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ أفضلُ بريَّتِهِ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابهِ ومنْ تبعهُمْ في سُنَّتِهِ.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ تعالى وإياكم والاغترارَ بالأمانيِّ والآمالِ. فإنَّكمْ على وشَكِ النُّقْلةِ والارْتحال. أينَ مَنْ جَمعَ الأموالَ ونمَّاها. وافتَخَرَ على أقْرانِهِ وتمَتَّعَ بلذَّاتِهِ وباهى. أما تَروْنَ القَبْرَ قدْ حواهُ والترابَ قدْ أكلَهُ وأبلاهُ. ولمْ يبْقَ إلاّ ما قدَّمتْ يداهُ

**﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّكَ كدْحاً فُملاقِيه * فأمّا مَنْ أوتيَ كتابَهُ بيمينِهِ * ـ إلى قولِهِ ـ ويصْلى سعيراً﴾**

[سورة الانشقاق: الآيات ٦ ـ ١٢]

كتابٌ ينطِقُ بما جَرَى شفَاهاً. كتابٌ عرَّفَ بجميعِ الأعمالِ، حسنِها وسيِّئها، وجلاَّها. تُعرَضُ خائِنَةُ الأعينِ على منْ قدْ رآها وخافيةُ الصُّدُور وصاحبها قدْ أخفاهَا. لا يُغادرُ كبيرةً ولا صغيرةً إلاَّ أحصاها. فحينَئذٍ يغْتبِطُ المتَّقُون بكتُبِ أعمالهم التي قدّمُوها. ويقولونَ لمعارفِهمْ مُبْتهجينَ بالأعمالِ الصالحةِ التي أسلَفوها.

**﴿هاؤُمُ اقرأُوا كتابِيَه * إني ظَنَنْتُ أَنِّي ملاقٍ حسابِيَه * فهو في عيشة راضيةٍ * في جنَّة عاليةٍ * قُطوفُها دانيةٌ * [ـ ويقالُ لهُمْ ـ] كلُوا واشربُوا هنيئاً بما أسلفْتُمْ في الأيَّامِ الخاليةِ * وأمَّا منْ أوتي كتابَهُ بشمالهِ فيقولُ [ـ حينَ أيقنَ بالشقاء الأبديِ. والعذابِ السرمديِّ ـ] يا ليتَني لمْ أوت كتابِيَهْ * ولمْ أدْرِ ما حسابيَه * يا ليْتَها كانت القاضِيَة * ما أغْنى عنِّي ماليَـهْ ***

**هلَكَ عنِّي سُلْطانِيهْ * [فيُقالُ للزَّبانيَةِ عِنْدَ ذلكَ:] خُذُوهُ فغُلُّوهُ * ثمَّ الجحيمَ صَلُّوهُ * ثمَّ في سلْسلةٍ ذَرْعُها سَبْعُون ذراعاً فاسلُكُوه﴾**

[سورة الحاقَّة: الآيات ١٩ ــ ٣٢]

والسَّببُ الذي أوصلَهُ إلى هذا العذاب الفظيـع. والعقابِ الشَّديد والموضـع المريـعِ أنَّهُ كانَ لا يُـؤْمِنُ باللَّهِ العظيم ولا يحُضُّ على طعامِ المسكين. ضيَّـعَ حقَّ الله فتجرَّأ على الكفر والفسوق والعصيانِ. وضيَّـعَ حقُوق المحتاجِين بالقسْوةِ والبُخْل وعدمِ الإحسانِ. يا لهُ مِنْ يومٍ يخْسَرُ فيهِ المُبْطلون. ويفوزُ فيهِ المتَّقون. ويربـحُ فيهِ العاملون. وتُوفَّى كلُّ نفْسٍ ما عمِلَتْ وهُمْ لا يُظْلمُون. أجارني اللَّهُ وإيَّاكُمْ من النَّارِ ومنَّ علينا بالرحمةِ والمغفرةِ فإنَّهُ الكريم الستارُ.

## ٦١ ــ خطبة

### في معرفة الله

الحمدُ للَّهِ الوليِّ الحميدِ. المبدىءِ المعيد. الفعَّالِ لما يريدُ. الذي تفرَّدَ بكُلِّ كمال وجلال وجمالٍ. فهو الغنيُّ المجيدُ. وتوحَّدَ بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ فلا ضدَّ لهُ في ذلكَ ولا نديد. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ذو الجلالِ في عظمته وكبريائِه وأوصاف التمجيدِ. وذُو الإكرامِ الذي ملأتْ مهابَتُهُ ومحبَّتُهُ قلوبَ صفوةِ العبيد. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ الذي هدى أُمَّتَهُ إلى كُلِّ فعل جميلٍ وقول سديدٍ. اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابه وأتباعِهِمْ في الهدى الرَّشيد.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا الله وراقبُوهُ. واعلمُوا أنَّ اللَّهَ يعْلمُ ما في أنفُسِكُمْ فاحْذَرُوهُ. لقدْ تعرَّفَ لكُمْ بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِه. وتحبَّبَ إليْكُمْ بنِعَمِهِ المُتواترةِ وآلائِهِ. أخبرَكُمْ أنَّهُ أحاط بكلِّ شيءٍ رحمةً وعلماً وحكمةً واقتداراً. وأَنَّهُ غافرُ الذَّنْبِ وقابلُ التَّوْبِ شديدُ العقاب إعذاراً لكمْ وإنذاراً وأنَّهُ يحِبُّ المحسنينَ والمتَّقينَ كيْ نُسـارِعَ إلى تحقيق التَّقـوى ونتسـابقَ إلى

الإحسانِ. ويحبُّ الصَّابرينَ ترغيباً لنا في الصَّبْرِ على المكارهِ وعلى الطاعاتِ وعنِ العِصيانِ. وأنَّهُ المتفرّدُ بِسوابـغِ النِّعَمِ لِيَجْذبَ العباد إلى محبَّتِهِ وشكره والثناءِ عَلَيْهِ. وصارفُ المكارهِ والنِّقَمِ ليعْلموا أنَّهُ لا ملجأ ولا منجى مِنْهُ إلاّ إليْهِ. وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلَهَ إلاَّ هوَ ولا يسْتحقُّ العبادة سواهُ. ليعبُدُوهُ ويستعينُوا بهِ فإنَّهُ مَنْ توكَّلَ على اللَّهِ كفاهُ. ويسَّرَ لهُ أمور دينِه ودنياهُ. أخبرَهُمْ أنَّهُ المانـعُ المعطِي والنافـعُ الضارُّ وأنَّهُ الغفـور الرحيمُ الحليمُ الستَّارُ. كيْ يسْتدْفِعُوا بهِ المكاره ويستجلِبُوا مِنْهُ المنافـعَ والمسارَّ. ويرغَبُوا إليْهِ في كل ما نابَهُمْ في الإعلانِ والإسرارِ. وأخبَرَهُمْ أنَّهُ العزيزُ المقتدر الملكُ الجبَّارُ. ليخضعوا لعظمته ويسْتوليَ عليهم الذلُّ والانكسارُ. وتعرَّف إليهِمْ باسمِهِ الباسِطِ الفتَّاحِ الرزَّاقِ. ليتعلَّقُوا بخزائنِ جودهِ الواسـعِ الذي لا ينقُص على تنوُّعِ الإنفاقِ. سبحانهُ وتعالى وتقدَّسَ عنْ كلِّ نقْصٍ وعنْ نِدٍّ وضدٍّ ومثالٍ * وتبارك منْ عظُمَتْ صفاتُهُ وكثُرتْ خيراتُهُ وتوالتْ آلاؤُهُ دون مثال * ولا إلَهَ إلاّ اللَّهُ الذي لا شريكَ لهُ في ربُوبيَّتِهِ * ولا نِدَّ لهُ في ألوهِيَّتِهِ * ولا سمِيَّ لهُ في أسمائِهِ * ولا مثيلَ لهُ في صفاتِهِ * ولا نظيرَ لهُ في حِكْمَتِهِ * ولا عديلَ لهُ في سعَةِ علمِهِ ورحمَتِهِ * ولا سبيلَ للعِبادِ للإحاطَةِ ببَعْضِ أوصافِهِ * ولا يُحصي أحدٌ ثناءً عليهِ مِنْ أهْلِ أرضِهِ وسمائِهِ * بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ:

**﴿طه * ما أنْزَلْنا عليكَ القرآنَ لتشْقى * إلاّ تذكِرةً لمنْ يخْشى * تنزيلاً ممَّنْ خلقَ الأرضَ والسمٰواتِ العُلى * الرَّحمنُ على العرشِ استوَى * لهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأرضِ وما بينهُما وما تحْتَ الثَّرى * وإنْ تجْهَرْ بالقَولِ فإنَّهُ يعلمُ السرَّ وأخفى * اللَّهُ لا إلَهَ إلاّ هوَ لَهُ الأسماءُ الحُسْنى﴾**

[سورة طه: الآيات ١ ــ ٨]

باركَ اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ.

# ٦٢ ـ خطبة

## في التوحيد

الحمدُ لله الواحد الأحدِ. الفرد الصمدِ. الذي لم يلدْ ولم يُولدْ ولم يكُنْ لهُ كفواً أحدٌ. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللَّهُ الواحدُ القهَّارُ العزيزُ الغفَّارُ. مكوِّرُ النهارِ على اللَّيْلِ وعلى اللَّيْلِ النهار. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ سيدُ الرُّسُل وإمامُ الأبرارِ. اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابـهِ الأطهار.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اعبُـدوا ربَّكُم الذي خلقكُمْ والَّذينَ مِن قبلِكُمْ لعلَّكُمْ تتَّقون. الذي جعل لكُمُ الأرضَ فراشاً والسماء بناءً وأنزلَ من السَّماء ماءً فأخرجَ بهِ من الثَمراتِ رزقاً لكُمْ فلا تجعلُوا للَّهِ أنداداً وأنتم تعلمُون. مَنِ الذي أوجدَكم من العدم، وغَمَرَكُم بسوابـغ النِّعمِ؟ مَنِ الذي صرفَ عنكم المكارهَ والمضارَّ والنِّقَم؟ مَنِ الَّذي أعطاكُمُ العقولَ والأسماعَ والأبصارَ؟. من الَّذي سخَّر لكُم اللَّيْلَ والنَّهار؟. مَنِ الَّذي فلَقَ الحبَّ عنِ الزُّروع وعن الأشجار النوى؟. مَنِ الَّذي أحيا الأرْضَ بعـدَ موتِها بما أنْزلَ علَيْها منْ غيْثِ السَّما؟. منِ الَّذي يُصَوِّرُكُم في الأرحامِ كما يشا؟ مَنِ الَّذي أمسك السمٰواتِ والأرضَ عن الزَّوالِ؟ مَنِ الَّذي أحكمَ خلْقَها وأحسن نظامَها فلا يُرى فيها خللٌ ولا إخلال؟ من الذي فجَّر الأرضَ بالأنهار والعيون؟ وأخرجَ الثمار اللذيذةَ والفواكه الشهيَّةَ من يابس الغصونِ؟ أما ذلكَ إبداعُ من يقولُ للشَّيء: كُنْ فيكون؟ من الَّذي خلقَ المخلوقات فعدَّلها وأحسنها وسوَّى؟ وقدَّر أقداراً وإليها وجَّه أهْلَها وهدى؟ منِ الَّذي خلَقَ السَّماء وبناها؟ ورفـع سمكهـا فسوَّاها؟ وأغطشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها؟ والأرضَ بعد ذلكَ دحاها؟ أخرجَ منْها ماءها ومرعاها؟ والجبالَ أرساها متاعاً لكُم ولأنعامكُمْ؟. فجلَّ مِلكاً عظيماً. وربًّا وإلَهاً. إلَهٌ قامت البراهينُ القاطعةُ على وحدانِيَّتِهِ. وشهِدت الموجوداتُ ببديـعِ حكمتِهِ وسعَةِ علمِهِ ورحمتِهِ! وخلق المكلَّفينَ لعبادتهِ ومعرفتِهِ فقومُوا رحمَكُم اللَّهُ بما خُلقْتُمْ لهُ فإنَّكم عنْ ذلكَ مسؤولون. واستعدُّوا للقاء ربِّكُمْ

فإنَّكم إليْهِ راجعون. وخُذوا ما استطعْتُمْ من الباقياتِ الصالحاتِ. وتوبُوا إلى اللَّهِ توبة نصوحاً عسى ربُكمْ أنْ يُكفِّر عنكم السَّيِّئاتِ. ويدخلكُمْ جنَّاتٍ تجري منْ تحتِها الأنهارُ فيها المساكنُ الطيِّباتُ. أما ترونَ اللَّهَ يُتابـعُ عليكُمْ نِعَمَهُ لتشكروهُ؟ ويذكركمْ بآلائهِ لتعرفوهُ وتذكروهُ؟ ألاَ بذكرِ اللَّهِ تطمئنُّ القلوبُ. وبذكرهِ تغفرُ الخطايا ويحصلُ كلُّ مطلوبٍ. ومن أقبَلَ على ربِّهِ وتقرَّبَ إليه تلقاهُ. ومن استعانَ بهِ وتوكلَ عليهِ كفاهُ. ومن رجـعَ إليْهِ في الرَّخاء عرفَهُ في الشدَّةِ. ومن قام بتقواهُ جعلَ لهُ فرجاً ومخرجاً من كلِّ مشقَّةٍ. فسبحان منْ فتَـح لعبادهِ من رحمتِهِ كلَّ بابٍ. ويسَّر لهُم الوسائِلَ إلى الخيراتِ والأسبابَ. باركَ اللَّهُ لي ولكم.

## ٦٣ ــ خطبة

### في فضل الدين الإسلامي

الحمدُ للَّهِ الذي شرعَ لنا من الدِّينِ ما وصَّى بهِ المرسلينَ * وأكملهُ وأتمَّ بهِ النِّعمةَ على المؤمنين * وجعلهُ حجَّةً قاطعةً وآيةً ساطعةً على المعاندينَ * وأشهدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ فإيَّاهُ نعبدُ وإياه نستعينُ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ سيِّدُ المرسلينَ * اللهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ الذينَ أصلـحَ اللَّهُ بهِم الدُّنيا والدِّين.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ واذكُروا نعمةَ اللَّهِ عليْكم إذْ كنتُمْ قبلَ هذا الدينِ أعداءً فألَّفَ بينكُمْ بهذا الدينِ القويم. وكنتُمْ قبْلَهُ غواةً ضالِّينَ فهداكمْ بِهِ الصراط المستقيم * فهوَ الدينُ الحاوي لروحِ الرحمةِ والعلمِ والحكمةِ * المساوي في أحكامهِ بينَ أصنافِ الأممِ على وفقِ العدالةِ والرأفةِ والرحمةِ * هدى اللَّهُ بهِ من الضَّلالةِ * وأنقذَ به من الجهالةِ * فكم ألان قاسياً * وهذَّب خشناً * وعلَّم جاهلاً * ونبَّه غافلاً * وكمْ أزالَ من تقاعُدٍ وكسلٍ. وكمْ أصلـحَ منٍ فاسدٍ وإخلالٍ وخللٍ * وكمْ حثَّ على الخيراتِ والفضائلِ * وحذَّر من الشُّرور والرذائلِ * وكمْ جمَـعَ الأشتاتَ والمتفرِّقات * وكمْ أزالَ من ظُلمٍ

وأصلحَ المنْصَدعات * وكمْ مكَّن لأهلِهِ من نُظُمٍ منوعةٍ فيها صلاحُهُمْ * وكمْ حداهُمْ إلى ما فيهِ ربحُهُمْ وفلاحُهم * فهوَ السِّراجُ الذي بنورهِ إلى كلِّ مشكلةٍ يَسْترشدون * وهو الأساسُ الأعظمُ الذي عليه بنيانُهُمْ وعليهِ يعتمدُون * صحَّحَ العقائِدَ وهذَّبَ العلومَ وأصلحَ الأعمالَ * وإليهِ يلجأ الخصوصُ والعمومُ * نهَجَ لأهلِهِ السَّعي لإدراكِ السعادتينِ * وجمَعَ بينَ ترقِيَةِ الأرواحِ والأجسادِ بوجْهَيْنِ مُتَّفِقَيْن * وأعانَ كلًّ منهُما للآخرِ فمشيا مصطحبيْن * فأمرَ المؤمنينَ بما أمَرَ بهِ المُرسلين * فقال ابْتَغُوا فضْلَ ربِّكم بالأسباب النافعةِ * واستعينُوا بها على عبادَةِ ربِّ العالمينَ * الإخلاصُ للَّهِ شعارُهُ * والنُّصْحُ والإحسانُ للعبادِ دِثارُهُ * والنَّشاط إلى الأمورِ النافعَةِ أنيسُهُ * والعلمُ الصحيحُ والعمَلُ الصالحُ جليسُهُ. دَعا إلى المعارفِ الشرعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ * وإلى المعارفِ الأُفُقيَّةِ الكونيَّةِ * ومعَ ذلكَ أمرهُمْ أنْ لا يكتفُوا بالعلمِ عنِ العمل * ولا يدعُوا استثْمارَ المواهِب والاستعداداتِ التي فيهمْ ويخْلُدُوا إلى الكسَلِ * فالدِّينُ كلُّهُ جدٌّ وعملٌ وتأملٌ وتفكيرٌ * وكلُّهُ ترقٍّ إلى الفضائِل معَ الاستعانة بالملِكِ القدير * ونُظُمُهُ تُسايرُ في سيْرها الأعصارَ * وتسابقُ في سيْرِها اللَّيْلَ والنهارَ * وتَغْلبُ في خيرِها السُّحُبَ الغِزار * خَضَعَت العُقُولُ الصَّحيحةُ لحُكْمِهِ وأحكامِهِ * واسْتَرْشَدَتْ بِهِ واهتَدَتْ إلى علْمِهِ وأعلامِهِ * فقَوَّمَ الدِّينُ معوَجَّها المائِلَ * وأوْضَحَ المشكلاتِ وحلَّ المشاكلَ * وتكفَّل بإصلاحِ العاجلِ والآجلِ. وعصمَ من الشُّرورِ وأنواعِ المهالكِ * فليسَ لهُ نِدٌّ في شيءٍ من ذلكَ ولا مُشارِك * وهو معَ ذلكَ يحثُّ عَلَى التعاونِ بينَ الرَّاعي والرَّعِيَّة * ويُعرِّفُهُمْ أنَّ المنافِعَ مشتركةٌ بيْنَهُمْ محفوظةٌ مرعيَّةٌ * ويُحَذِّرُهُمْ منَ اليأسِ والكسل * وينفُخُ فيهِمْ روحَ الرَّجاء وقوَّة الأملِ * ويربطُ بالرَّوابِط المعنَويَّةِ والماديَّة أدناهُمْ بأقصاهُمْ * ويجْمَعُ لهُمْ بين مصالحِ دنْياهُمْ وأُخراهُمْ. فما منْ خيرٍ ونفعٍ وصلاحٍ إلَّا دعا إليْهِ * وبيَّنَ الوسائِلَ والطُّرُقَ الموصِلةَ إليْه *

**﴿اليومَ أكملتُ لكمْ دينكُمْ وأتمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتي ورضيتُ لكُمُ الإسْلامَ ديناً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣]

# ٦٤ ـ خطبة
## في فضل ليلة القدر

الحمدُ للَّهِ البَرِّ الرَّحيمِ. الجوادِ الكـريمِ. ذي الفضلِ العـظيمِ. والإحسانِ المتواترِ العميمِ. وأشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ المتفرِّدُ بالكمالِ وحُسْنِ الأفعالِ والبرِّ الجسيمِ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ الذي هو بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ. اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومنْ تبعهمْ فسلك الصِّراطَ المستقيم.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتقُوا اللَّهَ تعالى. قالَ تعالى:

**﴿حمٓ * والكتابِ المبينِ * إنَّا أنزلناهُ في ليلةٍ مباركةٍ إنَّا كنَّا منذرينَ * فيها يُفرقُ كلُّ أمرٍ حكيم * أمراً منْ عندنا إنّا كنَّا مرسِلين * رحمةً من ربِّكَ إنَّهُ هو السميـعُ العليم﴾** [سورة الدخان: الآيات ١ ـ ٦]

وقالَ تعالى: **﴿إنَّا أنزلناهُ في ليلةِ القدرِ * وما أدراكَ ما ليلةُ القدرِ * ليلةُ القدرِ خيرٌ منْ ألفِ شهرٍ * تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوح فيها بإذنِ ربِّهِمْ منْ كلِّ أمرٍ * سلامٌ هي حتى مطلـعِ الفجر﴾** [سورة القدر: الآيات ١ ـ ٥]

انظروا ـ رحمكُم اللَّهُ ـ ما احتَوت علَيْهِ هذه الآياتُ من فضيلةِ هذه اللَّيلةِ وشرفِها. وما تضَمَّنَتْهُ من بِرِّها وخيرِها وتُحفِها. ليلةٌ خصَّها اللَّهُ بإنْزالِ القرآنِ. الذي فيه الهُدى والرحمةُ والفرقانُ. وفيهِ أنقذَ اللَّهُ العبادَ من الشَّقا والخسرانِ. ليلةٌ مباركةٌ في كثرة خيراتها. مباركةٌ في سَعَةِ فوائدِها ومبرَّاتها. منْ برَكتِها أنَّها تفوقُ ليالي الدَّهر. ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألف شهرٍ. ومن بركتِها أنَّ مَنْ قامَها إيماناً واحتساباً غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنُوبِهِ. ومنْ قامَها محتسباً أصلـحَ اللَّهُ أحوالَهُ وسترَ عُيُوبهُ. ومنْ دعا اللَّهَ فيها بقَلْبٍ حاضر خالصٍ أجابَهُ وأتاهُ مطلوبهُ. قالتْ عائشةُ رضيَ اللَّهُ عنها: يا رسُولَ اللَّهِ، إنْ وافَقْتُ ليلة القدرِ فيمَ أدعُو؟ قال: (قولي: اللهُمَّ إنَّكَ عفُوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني) فهكذا كانَتْ حالةُ الصفوةِ الأخيارِ* ينافسونَ في هذهِ اللَّيلةِ ويلتجون إلى الملك الغفَّارِ.

أما يحقُّ لكَ أَيُّها المؤمنُ أنْ تجرِّدَ قلبكَ في هذه الليلة من جميعِ الأشغالِ. وأنْ تُقْبِلَ بكلِّيتك إلى طاعةِ ذي العظمةِ والجلالِ. وأنْ تعترِفَ بذنوبِك وفاقتِك وافتقارِكَ. وأن تتوسَّل إليْهِ مخلصاً في خضوعِكَ وانكسارك. تقولُ: يا ربِّ قدْ عظُمَتْ مني الذنوبُ. يا ربِّ قد تكاثرَتْ عليَّ الخطايا والعيوبُ. يا ربِّ أنا الفقيرُ المعدمُ المضطرُّ إليك. يا ربِّ لا ملجأ لي منكَ إلاَّ إليْكَ. إنْ ردَدْتني، من يقبَلُني؟ وإِنْ خيَّبْتني منْ يصلُني؟ وإنْ حرمْتني من يُعْطيني؟ وإن أبعَدتني فمنِ الذي يُقرِّبُني ويُدنيني. لا رَبَّ لي غيرُكَ ولا إلَهَ لي سواكَ. ولا أستَعينُ بغيرِكَ ولا أعبُدُ إلاّ إيَّاكَ. أنتَ الذي خلَقْتني ورزقْتَني. وأنت الذي والَيْتَ عليَّ النِّعمَ وعافَيْتني. آلاؤكَ تتوالى عليَّ اللَّيْلَ والنَّهار. ونِعَمُكَ ليسَ لها حدٌّ ولا منتهى ولا انحصار. أرجوكَ في هذهِ الليلةِ الكريمةِ أن تغفِر ذُنوبـي. وأن تُصلِـح فاسدي وناقِصي وعُيُوبـي. وأنْ تسعِفَني يا مولايَ بمطلوبـي. ويحقُّ لك أن تدعُو بدعاء النبـيِّ ﷺ الذي جمَـعَ خيرَ الدُّنْيا والآخرةِ. وشمل حصولَ النِّعمِ الباطنةِ والظاهرةِ. فتقول:

(اللَّهُمَّ أصْلِـحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري. وأصلِـحْ لي دنيايَ التي فيها معاشي. وأصلِـح لي آخرتي التي إليها معادي. واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ. والموتَ راحةً لي من كلِّ شرٍّ. اللهُمَّ رحمتَكَ أرجُو فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ وأصلـحْ لي شأني كلَّهُ. لا إلـهَ إلاَّ أنتَ)، لعلَّك تصادفُ ساعةَ إجابةٍ تسعدُ فيها سعادةً لا تشقى بعدَها. ولعلَّكَ توافِقُ نفحةً من نفحاتِ الكريم تَصلُـحُ أمـورُكَ بها. فكمْ سَعِدَ في هذهِ اللَّيلةِ أقوامٌ. وكمْ للَّهِ فيها من جزيلِ الفضلِ وواسعِ الأنعام. وكم أعتَقَ فيها المسرفونَ من النَّارِ. حينَ أخلَصُوا لربِّهِمْ وأكثرُوا منَ التوبةِ والاستِغفارِ. وكمْ صفى فيها للصفوةِ من قلوبٍ نيرةٍ وأسرار. وكمْ أغْدقَ على قلوبِهِمْ من المعارِفِ العاليةِ فصارُوا من خيرةِ الأبرار. اللَّهُمَّ وما قسمتَ في هذه اللَّيالي المباركةِ من خير وبرٍّ وفضلٍ وإحسانٍ. فاجعلْ لنا منهُ أوفرَ الحظِّ وأشملَ الامتنانِ. وما قسمْتَ فيها من شرٍّ

وبلاءٍ فآصرِفْهُ عنَّا في كلِّ وقتٍ وأوانٍ. اللهُمَّ خُذْ بنواصينا إليكَ. وأقْبِلْ بقلوبِنا إليكَ. ولا تحرمْنا خيرَ ما عندكَ بشرِّ ما عندنا يا أرحمَ الراحمين!

## ٦٥ ــ خطبة
### في إصلاح التعليم

الحمدُ للَّهِ الذي أمرَنا أنْ نأتيَ البيوتَ منْ أبوابِها * وأَنْ نسيرَ في طريقِ مصالحِنا بتعَرُّفِ مناهجِها وأسبابِها * وأشهدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ الذي أخرجَنا منْ بطونِ أُمَّهاتِنا لا نعلمُ من العلومِ قليلاً ولا كثيراً * وجعلَ لنا الأسماعَ والأبصارَ والأفئدةَ لنشكرَهُ بصَرْفِها إلى المعارفِ النافعةِ وكانَ ربُّك قديراً. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي أُرسِلَ إلى جميعِ الثَّقَلينِ بشيراً ونذيراً. وداعياً إلى اللَّهِ بإذنِهِ وسراجاً منيراً * اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً وسلاماً كاملاً كثيراً.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتقُوا اللَّهَ بمعرفةِ الخيرِ واتِّباعِهِ * ومعْرفَةِ الشرِّ وتركِهِ واجتنابِهِ * واعلمُوا أنَّ العِلمَ هو الأساس الذي يسْتَقيمُ عليه البنيانُ * وبِهِ الصَّلاحُ والفسادُ والكمالُ والنقصانُ * فليكن تأسيسُكم على علوم نافعة صحيحةٍ * ومعارفَ قويَّة صادقة رجيحةٍ * فالعلومُ النافعةُ كلها تنقسمُ إلى مقاصدَ ووسائل * فالمقاصدُ هي الأصولُ المُصلِحةُ للعقائدِ والأخلاقِ والفضائِلِ * وهي العلومُ الدينيَّةُ التي بيَّنَها الرسولُ وحثَّ عليها * وهي التي لا تنفَعُ العلومُ كلُّها إلا إذا بنيتْ عليها * فوجِّهُوا رحمَكُم اللَّهُ وجوهكُم ووجوهَ المتعلِّمينَ إلى علومِ الدينِ * واغرِسُوا هذا الغراسَ الجميلَ الباقيَ في أذهان الناشئينَ * فبذلكَ تصلحُ الأحوالُ * وتزكُو الأعمالُ * وبذلكَ يتمُّ النجحُ في الحالِ والمآلِ * وبذلكَ تصلُحُ العقائدُ والأخلاقُ * وبهِ يسيرُ التعليمُ إلى كلِّ خيرٍ وينساقُ * ولا يتمُّ ذلكَ إلَّا بتخيُّرِ الأساتذةِ الفضلاء النَّاصِحينَ * وملاحَظَتِهم التامَّةِ لأخلاقِ المُتعَلِّمين * وأنْ يعلِّقَ النجاحُ والشهاداتُ الراقيةُ

لمنْ جمَـعَ بينَ العِلمِ والدِّينِ * فإنَّ العلمَ الخاليَ منَ الدِّين لا يزكي صاحِبَهُ وإنما هو صنعةٌ مِنَ الصِّناعات * ولا بدَّ أنْ يهبِطَ بـأصحابِـهِ إلى أسفَلِ الدَّركاتِ * أما رأيتُمْ حالةَ المدارِسِ المنحرِفَةِ حينَ أُهمِلَ فيها تعليمُ الدِّينِ كيفَ انساقَ أهلُها إلى الشرِّ والإلحاد * وكيفَ كانَ الكِبَرُ ملأ قلوبَ أهلِها وأعرضُوا عنْ ربِّ العبادِ... فالعلومُ العصريَّةُ إذا لم تُبْنَ على الدينِ شرُّها طويلٌ * وإذا بُنِيَت على الدينِ أينعتْ بكلِّ ثمرة جميلةٍ وعمل جليلٍ * لقد افترى منْ زعمَ أنَّ العُلومَ تتقوَّمُ بغيرِ الدينِ * ولقدْ خابَ منْ توسَّلَ بعلومِ المادَّةِ المحضَةِ وخسِرَ الخسرانَ المبينَ * أما ترونَ المادِّيِّينَ كيفَ انحلَّتْ منهمُ الأخلاقُ الجميلةُ، وحصَلوا عَلَى كلِّ خَصْلةٍ رذيلة؟ أما تَرَونَهُمْ يسْعَونَ خلْفَ أغراضِ النفوسِ وخسيسِ الشَّهواتِ؟ أما تشاهدون أحوالَهُم فوضى قدْ مرِجَتْ فيهِمُ المعنويَّاتُ والصِّفات؟ أما ترَوْنَهُمْ حينَ عرفُوا شيئاً من علومِ الطَّبيعة أُعجبُـوا بأنْفُسِهِم فهُمْ مُستكبِـرونَ * وحينَ جاءَتْهُمْ علومُ الـرُّسُلِ احتقروها وحاقَ بهِمْ ما كانوا بهِ يستهزئون * فنعوذُ باللَّهِ منْ علمٍ لا ينفـعُ ونفسٍ لا تشبَـعُ ودعاءٍ لا يجابُ ويشفـعُ * قال تعالى:

﴿آدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمَة﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

﴿ولكنْ كونُوا ربَّانِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمُونَ الكتابَ وبما كنْتُمْ تَدْرُسُون﴾
[سورة آل عمران: الآية ٧٩]

لقد أرشدنا ربُّنا إلى الطَّريقَةِ المثلى في تعليمِ المتعَلِّمين * وأنْ نسْلُكَ أقربَ طريقٍ يوصِلُ المعارفَ إلى أذهانِ المشتغِلين * فلا نزحمها بكثرةِ الفُنُونِ فإنَّ الأذهانَ لا تتحَمَّلُها * ولا تُلقي عليها منَ المسائِلِ ما لا تُطيقُها ولا تحفظُها * بلْ تلقي على كلِّ أحد ما يتحمَّلُهُ ذهنُهُ وما يشتاقُ إليهِ * ونتعاهَدُهُ بالدَّرسِ والإعادةِ وكثرةِ المرور عليه، فالقليلُ الثَّابتُ الراسـخُ البنيانِ * خيرٌ من الكثير الذي هو عرضةٌ للزَّوالِ والنِّسيان * فتزاحُمُ العلومِ يضيـعُ بَعْضُها بعضاً وتوجِبُ الكسلَ والملَلَ * وذلك من أعظمِ الأضرارِ والإخلالِ وشدَّة الخللِ * فكمْ منْ تلميذٍ عَلَى هذا الوصْف مكث المدةَ الطَّويلةَ بغيْر معرفةٍ صحيحةٍ

ونجاحٍ. وكمْ منْ تلميذٍ سلكَ الطريقَ النافعةَ ففاز بكلِّ خيرٍ وفلاح * فكما أنَّ القُوى لا تُكلَّفُ من الأعمال والأشغال إلَّا ما تطيقُ وتستطيعُ، فكيفَ بالأذهانِ الصغيرةِ إذا زُحِمَتْ بما لا طاقةَ لها بهِ وذلكَ عبءٌ ثقيلٌ مريعٌ *

﴿وإذْ أخذَ اللَّهُ ميثاقَ الذينَ أُوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمُونَهُ فنبذوهُ وراءَ ظهورِهِمْ واشْتَرَوْا بهِ ثمناً قليلاً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٧]

## ٦٦ ـ خطبة

### في الحث على العلم

الحمدُ للَّهِ الذي رفعَ من أرادَ بهِ خيراً بالْعلمِ والإيمان. وخذلَ المعرضينَ عن الهُدى وعرَّضَهُمْ لكلِّ هلاكٍ وهوانٍ. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ الكريمُ المنَّانُ. وأشهدُ أن محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ الذي كمَّل اللَّهُ لهُ الفضائلَ والحُسن والإحسان. اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ والتابعينَ لهُمْ مدى الزَّمانِ.

أما بعدُ: أيُّها الناسُ اتَّقُوا اللَّهَ تعالى واعلمُوا أنَّ التقوى لا تتمُّ لكمْ إلَّا بمعرفةِ ما يُتَّقى من الكفْر والفسوق والعصيان. ولا تستقيمُ لكمْ إلَّا بقيامِكم بأصولِ الإيمانِ وشرائع الإسلام وحقائقِ الإحسانِ. فطلبُ العلمِ إذاً مِنْ أفرضِ الفرائضِ وأوجَبِ الواجباتِ. فإنَّ عليهِ المدارَ في قيامِ الطاعات وترك المخالفاتِ. فمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خيراً يُفقِّهْهُ في الدين. ومنْ لمْ يُرِدْ بهِ خيراً أعرضَ عن طلبِ العلمِ وسماعِه فكان من الهالكينَ الجاهلينَ. فما بالُكم مُعْرِضِينَ عن العلمِ وهو من الفروضِ الواجبة. وما لكُمْ مُقْبلينَ على ما يضُرُّكم تاركينَ ما يَنْفَعُكمْ راضين بالصفقة الخاسرة قال ﷺ: (إذا مرَرْتُم برياضِ الجنَّةِ فارتَعُوا) قالوا: «وما رياضُ الجنَّة؟» قالَ: (حلقُ الذكر). فهذهِ الرِّياضُ البهيجةُ فيها من العلوم كلُّ زوجٍ كريم. فيها يُعرَفُ اللَّهُ ويهتَدى إلى الصِّراطِ المستقيم. وفيها يعرفُ الحلالُ من الحرامِ والصلاحُ من الفسادِ. وفيها يعرفُ

سبيلُ الغيّ والضلالِ وسبيلُ الهُدى والرشاد. فكيفَ تعتاضُونَ عنْها مجالِسَ اللَّهْوِ وتضييع الأوقاتِ أو مجالسَ الشرِّ والفساد. أَمَا إِنَّ طلبَ العلمِ قربةٌ وثوابٌ عندَ ربِّ العالمينَ. والإعراضُ عنهُ شرٌّ وخسرانٌ مبينٌ. فيا أيُّها المُعرضُون عنْ طلبِ العلمِ، ماذا عُذْركم عند اللَّهِ وأنتُمْ في العافية تتمتعونَ؟ وماذا يمنَعُكم منْهُ وأنتُمْ في أرزاق ربِّكم ترتعون؟ أترضَونَ لأنفُسِكم أن تكونوا كالبهائمِ السائمةِ؟ أتختارُونَ الهَوى على الهُدى والقلوبُ منكمْ ساهيةٌ هائمةٌ؟ أتسلُكُون طُرُقَ الجَهْل وهي الطرقُ الواهيةُ. وتَدَعُون سبُل الهُدى وهي السُّبُلُ الواضحةُ النافعةُ. أترضى إذا قيلَ لك: مَنْ ربُّك، وما دينُك، ومن نبيُّك؟ لَمْ تحِرِ الجواب. وإذا قيلَ: كيف تُصلي وتتعَبَّدُ؟ أجَبْتَ بغيرِ الصواب. وكيفَ تبيعُ وتشتري وتعامِلُ ولمْ تعرِف الحلالَ من الحرامِ؟ أَمَا واللَّهِ إنَّها حالةٌ لا يرضاها إلاَّ أشباهُ الأنعامِ. فكونُوا رحمَكُمُ اللَّهُ متعلِّمينَ. فإنْ لمْ تفعلوا فاحضرُوا مجالسَ العلمِ مستمعينَ ومستفيدين. واسألوا أهلَ العِلْمِ مسترشدين متبصِّرين. فإنْ لمْ تفْعَلُوا وأعرَضتُمْ عن العلمِ بالكلِّيَّةِ فقدْ هلكتُمْ وكُنْتُمْ من الخاسرين. أما علمْتُمْ أنَّ الاشتِغال بالعلم منْ أجَلِّ العبادات؟ وأفضَل الطاعاتِ والقرباتِ؟ وموجِبٌ لرضى ربِّ الأرضِ والسمواتِ؟ ومجلسُ علمٍ تجلِسُهُ خيرٌ لكَ مِنَ الدُّنيا وما فيها؟ وفائدةٌ تستفيدُها وتنتفعُ بها لا شيءُ يزنُها ويساويها؟ فاتَّقُوا الله، عبادَ اللَّهِ، واشتغِلوا بما خُلِقْتُمْ لهُ مِنْ معرفَةِ اللَّهِ وعبادتِهِ. وسَلُوا ربَّكُمْ أنْ يمُدَّكُمْ بتوفيقِهِ ولُطْفِهِ وإعانتِهِ.

**﴿أَمَّنْ هوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّهِ قُلْ هَلْ يستَوي الذينَ يعلمُونَ والذينَ لا يعلمون؟ إنما يتَذكَّرُ أُولو الألباب﴾** [سورة الزمر: الآية ٩]

بارِكَ اللَّهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ.

## ٦٧ ـ خطبة

### في التعلق بالله دون غيره

الحمدُ للَّهِ الذي بيدهِ أَزِمَّةُ الأمورِ ومقاليدُها * وبإرادتهِ حصولُ الأسبابِ والمسبِّباتِ ومفاتيحُها * وتباركَ مَنْ لمْ يُشاركْهُ في الخلقِ والرزقِ والتدبيرِ أحدٌ منَ العالمينَ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ ولا ضدَّ ولا ظهيرَ ولا معين * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ سيِّدُ المرسلينَ وإمامُ المتَّقين * اللهُمَّ صلِّ وسلمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ والتَّابعينَ لهُمْ إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ واخشَوْهُ ولا تخْشَوْا أحداً سِواهُ * ولا تتعلَّقُوا بتَأَلُّهِكُمْ ونفعِكم وضرِّكم وأموركم كلِّها بغيرِ اللَّهِ * فإنَّهُ المالكُ القادرُ الذي بيدهِ الحياةُ والإماتَةُ وأمورُ الأرزاقِ. وبيدهِ الإعزازُ والإذلالُ والإغناءُ والإملاق *

﴿ما يفْتحِ اللَّهُ للناسِ منْ رحمةٍ فلا ممسكَ لها وما يمسكْ فلا مرسِلَ لهُ مِنْ بعدِه وهوَ العزيزُ الحكيمُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢]

﴿يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا نعمةَ اللَّهِ عليكمْ هلْ منْ خالقٍ غيرُ اللَّهِ يرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ لا إلَهَ إلاّ هُو فأنَّى تؤفكون﴾ [سورة فاطر: الآية ٣]

﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشفَ لهُ إلاّ هوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِه يصيبُ بهِ منْ يَشاءُ من عبادهِ وهوَ الغفورُ الرَّحيمُ﴾

[سورة يونُس: الآية ١٠٧]

فمتى علِمْتَ أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللَّه فَلِمَ التعَلُّقُ بالمخلوقينَ؟ ولِمَ الخوفُ والرجاء والرَّغبةُ والرهبةُ لغيرِ ربِّ العالمين؟ أليسَ الخلقُ كلُّهُمْ عنْ مصالحِهِمْ ومنافعِهم عاجزين؟ أليسَ الملوكُ والرَّعايا الأغنياءُ والفقراءُ والضعفاءُ والأقوياء إلى ربِّهم مضطرِّين؟ فما منْهُمْ من أحدٍ يملِكُ لنفْسِهِ فضلاً عن غيرِه نفعاً ولا ضُرًّا ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً * فتعيَّن علينا أن لا نستنصرَ ولا نسترزقَ إلاَّ مِنْ ربِّنا وكفى به ناصراً ورازقاً ووليًّا ونصيراً * كيفَ نَذِلُّ ونبذلُ كرامتَنا لمَمْلُوكٍ

مثلِنا عاجزٍ فقيرٍ؟ كيف نخشى ونخافُ غيرَ ربِّنا ونَواصِي العبادِ بيدِهِ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؟ أما تَوَلَّى خلقَنَا وتَدْبيرَنا ونحنُ في الأصلابِ والأرحامِ أطواراً أطواراً؟ أمَا ربَّانا بأصنافِ نِعَمِهِ وغَمَرَنا بِبِرِّه صغاراً وكِباراً؟ أما صرفَ عنَّا السوءَ والآفاتِ؟ ولطفَ بِنا في كلِّ الحالاتِ والتنَقُّلاتِ؟ أما أطْعمنا من جوعٍ وكسانا من عرْيٍ وأمَّنَنا المخاوفَ؟ أمَا يسَّرَ لنا الأرزاقَ ووقانا المحاذيرَ والمتالفَ؟ فيحقُّ لنا أنْ لا نحمَدَ ولا نشكرَ ولا نُثْنيَ إلاّ عليْهِ * وأنْ نذكرَهُ آناء اللَّيلِ والنهار ونتوَكَّلَ عليهِ * ويكونَ خوفُنا ورجاؤنا ورغبتُنا مقصورةً عليه.

## ٦٨ ــ خطبة

## في الحج

الحمدُ للَّهِ الذي رتَّبَ على حجٍّ بيتِهِ الحرامِ كلَّ خيرٍ جزيلٍ. وجعلَ قصْدَهُ منْ أجَلِّ القُرُباتِ الموصلةِ إلى ظلِّه الظليل. ويسَّر أسبابَه وهوَّن الوصولَ إليهِ والسبيل. وسهَّلَهُ بلطْفِهِ وكرمِه غايةَ التَّسهيل. وأشهدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ الملكُ الجليلُ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ أكملُ الخلقِ في كلِّ خلُقٍ جميل. اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى محمَّد وعَلَى آلهِ وأصحابِهِ والتَّابعينَ لهُمْ في كلِّ عمل نبيل.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّه تعالى واغتنمُوا الفرصَ إلى حجِّ البيت العتيقِ قال تعالى:

﴿وأَذِّنْ في النَّاسِ بالحَجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأْتِينَ مِنْ كل فَجٍّ عميق﴾ [سورة الحج: الآية ٢٧]

وقال ﷺ: (منْ حجَّ هذا البيتَ فلمْ يرفُثْ ولمْ يفسُقْ خرجَ منْ ذنوبِهِ كيوم ولدَتْهُ أُمُّهُ). والحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلاَّ الجنَّة. تابِعُوا بين الحجِّ والعُمرةِ فإنَّهُما ينفيانِ الفقر والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خُبْثَ الحديدِ والذهب والفضَّةِ. الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللَّهِ: إنْ سألوهُ أعطاهُمْ وإنْ دعَوْهُ أجابَهُمْ وإنِ استَغْفروهُ غفر لهُمْ. يا لها منْ وفادةٍ عظيمة على مَلِكِ الملوكِ وأكرمِ

الأكرمينَ. وعلى منْ عندهُ ثوابُ الدُّنْيا والآخرةِ وجميعُ مطالبِ السائلينَ. ليستْ وفادةً على أحد من المخلوقينَ الفقراءِ المساكين. وإنَّما هيَ وفادةٌ على بيتِهِ الذي جعلَهُ مثابةً للنَّاسِ وهدىً ورحمةً للعالمينَ. قد غَنِمَ الوافِدونَ فيها منافِعَ الدُّنيا والدِّين. غنِموا تكميلَ إيمانِهِمْ وتتميمَ إسلامِهِمْ، ومغفرةَ ذنوبِهِمْ وستر عيُوبِهم وحطَّ آثامِهِمْ. غنمُوا الفوز برضى ربِّهِمْ ونيلِ رحمتِهِ وثوابِهِ. والسلامةِ منْ سخطِهِ وعقوبتِهِ وعذابِهِ. قد وُعِدُوا الثواب على المشقَّاتِ وما ينالُهُمْ منَ الصُّعوباتِ. ووعِدُوا إخْلافَ ما أنفَقُوا ومضاعفته ورفعَةَ الدَّرجاتِ. ووعِدُوا بالغِنى ونفي الفقرِ وغفرانِ الذُّنُوبِ وصلاحِ الأحوالِ وحصول كلِّ مطلوب ومرغوب. والسلامةِ من كلِّ سوءٍ ومكروهٍ ومرهوب. يا لها مِنْ وفادةٍ تشتمِلُ على تلكَ المواقفِ العظيمةِ. والمشاعرِ الفاضلةِ الكريمةِ. وفادةٌ أهلُها في مَغْنمٍ عظيمٍ في كلِّ أحوالِهِم. وتنوُّعٍ في طاعةِ المولى في جميعِ أعمالِهِم. إذا أنفَقُوا ضوعِفَ أجرهُم بغيرِ حسابٍ. أو نالهُم نَصَبٌ ومشقَّةٌ فذلك يهونُ في طاعةِ الملكِ الوهَّاب. أو تَنَقَّلُوا في مناسِكِهِم ومواقِفِهم نالوا بهِ الخيرَ والثَّوابَ. فهُمْ في كرمِ الكريمِ يتمتَّعُون. وفي خيرهِ وبرِّه المتواصلِ يرتعون. إذا فرح الوافِدُون على المُلُوك بالعطايا الدَّنيةِ الفانيَةِ. فقد اغتَبَطَ هؤلاء الأخيارُ بالعطايا الجزيلةِ الباقيَةِ. وإذا سارعَ المُتْرفُونَ إلى المَصيفِ والنُّزْهَةِ في البلادِ النَّائِيَةِ مع كثرةِ النَّفَقات. تسابَقَ هؤلاء الصَّفْوةُ إلى المواقِفِ الكريمةِ التي وُعِدَ أهْلُها بالخيراتِ الكثيرة والبركات. فهَلْ يستَوي من قدَّمَ أغراضَهُ الدنيَّةَ واتَّبَع هواهُ. ممَّنْ تركَ محبوباتِه وسارع لرضى مولاهُ؟..

**﴿قُلْ هَلْ يستوي الذينَ يعلمُونَ والذين لا يعلمُونَ إنما يتذكَّرُ أولُو الألباب﴾** [سورة الزمر: الاية ٩]

## ٦٩ ـ خطبة

## في الحث على المساهمة في عمارة المساجد بمناسبة عمارة جامع البلد

الحمدُ للَّهِ الذي جعَلَ عمارةَ بيوتِهِ منْ أعظم شواهدِ الإيمان * وأَذِنَ اللَّهُ أنْ تُرفَع وتُعظَّم تعظيماً للرَّحيمِ الرحمن * وأخبر ﷺ أنْ من بنى للَّهِ مسجداً بنى اللَّهُ لهُ بيتاً في منازلِ الجنانِ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريك لهُ الكريمُ المنَّانُ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولُه السابقُ إلى كلِّ خيرٍ ومعروفٍ وبِرٍّ وإحسان. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ والتَّابعين لهُمْ ما دامَت الملوان.

أما بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ * واعْلمُوا أن أفضل الأعمال ما عَظُم نفعُهُ وحسُنَ وقعُهُ * واستمرَّ ثوابُهُ وتسلسلَ خيرهُ * وذلك مثل المشاريعِ الخيريَّةِ * والسُّبُلِ النافعةِ الدّينيَّةِ * التي منْ أفضلِها وأجلِّها ثواباً ما عادَ إلى عمارةِ المساجدِ التي أمرَ اللَّهُ أنْ تُرفَع وتعظَّم * ويُذكرَ فيها اسمُهُ ويُتقرَّبَ إلى اللَّهِ فيها وتحترم. وتكفَّر بعمارتها السيِّئاتُ * وتضاعف بها الحسناتُ * وترفَع بها الدرجاتُ * قالَ تعالى:

﴿إنما يعمُرُ مساجِدَ اللَّهِ من آمَن باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٨]

وقال ﷺ: (منْ بنى للَّهِ مسجداً ولو كمِفْحَص قطاةٍ بنى اللَّهُ لهُ بيتاً في الجنَّة) * وهذا المثالُ من النبيِّ ﷺ يدُلُّ على أنَّ منْ ساعدَ على عمارةِ المسجدِ ولو بشيءٍ قليلٍ بحيثُ تكونُ حصَّتُهُ من المسجدِ هذا المقدارَ وهو مِفحصُ القطاةِ استحقَّ هذا الثوابَ الجزيلَ * وما ذلكَ على فضلِ اللَّهِ وكرمهِ بعزيزٍ ولا جليل * لهذا نُذكِّركم رحمَكُم اللَّهُ للمساهمةِ في بنيانِ هذا المسجدِ الذي هو منْ أفضلِ المشاريـع النافعةِ * وأجلِّ الأعمال المدَّخرة الصَّالحةِ * فكلُّ منْ يحبُّ المشاركةَ في الخيرِ فالطريقُ لهُ مفتوحٌ * وسواءٌ قلَّ ما بذلهُ أو كثُر فإنَّهُ مقبولٌ * وذلك لقصد تعميمِ النَّفْعِ في المشاركةِ في الخيرات *

وأنْ لا يحرَم منهُ مَنْ يقصِدُ الثَّوابَ والمبرَّات * وأنْ يكونَ هذا العملُ مؤسَّساً مِنْ مجموعِ نيَّاتِ المشـاركين فيه وأمـوالِهِمْ * ومنْ توجُّهـاتهم إلى اللَّهِ بالإخلاصِ في أعمالِهِم * فإنَّ آثار الأعمالِ تكونُ مباركةً مضاعفةً بحسَبِ نيَّاتِ العاملينَ وإخلاصِهِمْ * فما ظنُّكمْ بعملٍ يحبُّهُ اللَّهُ وقد تولَّد من مجموعِ نيَّات صادقةٍ وهمم خالصةٍ * وإرادات وتوجيهات في الخيرِ راغبةٍ * فلِمِثْلِ هذا فليَعْمَلِ العامِلون * وفي ذلكَ فليتَنافسِ المتنافِسُون * لهذِهِ الأسبابِ فإنَّا نحثُّكم على التَّبرُّعِ في عمارتِهِ بما سهُل وتيسَّر منَ النَّفقاتِ * ولوْ بدرْهم واحد ولوْ بأعواد من خشب أو غيرها من الآلات * ليدوم للمُنفِق ثوابُها ويستمرَّ لهُ أجرُها * ويتسلسلَ لهُ خيرُها ونفعُها * فإنَّهُ ما دامت آثارُ النفقةِ موجودة فالثوابُ دائمٌ * وما استمرَّتْ آثارهُ فالأجرُ ثابتٌ قائمٌ * وكثيرٌ من أهلِ الخيرِ يبحثُ عن أفضلِ عمل يبذلُ فيهِ نفقة في حياتِه * أو وصيَّة يوصي بها بعد مماتِه. فلا يجدُ أفضلَ من هذا العملِ الجليل * ولا يدركُ أكمل من هذا الأمرِ الخالد الجميلِ * فإنَّ المُنفقَ فيهِ قد شاركَ المصلِّين في صلاتهِم * والمتعبِّدين في عباداتهم. فإنَّ اللَّهَ يكتبُ ما قـدَّمهُ العبـادُ وباشـروهُ وآثار أعمالهِم * وذلك منْ تعظيمِ اللَّهِ وتعظيمِ شعائرهِ الذي هو غايةُ المطلوبِ * ومنْ يعظِّمْ شعائر اللَّهِ فإنَّها منْ تقوى القلوبِ * وإذا مات العبدُ انقطـعَ عملهُ إلا منْ ثلاث: منها الصدقةُ الجاريةُ التي يدومُ الانتفاعُ بها * ويتمُّ الاغتباطُ بثوابِها *

﴿وما تقدِّمُوا لأنفسِكم منْ خير تجدوهُ عند اللَّهِ هو خيراً وأعظمَ أجراً وآستغفرُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [سورة المزمّل: الآية ٢٠]

باركَ اللَّهُ لي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ.

## ٧٠ ـ خطبةٌ
### لشهر «صفر»

الحمدُ للَّهِ مصرِّفِ الأوقاتِ والدهـور. ومدبِّـر الأحوالِ في الأيـام والشهور. ومسهِّلِ الصِّعابِ ومُيسِّرِ الأمور. وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وإليهِ المنتهى والمصيرُ. وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولهُ البشيرُ النذيرُ. اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعَلَى آلهِ وأصحابهِ وضاعِفِ اللَّهُمَّ لهُمُ الأجور.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا الله تعالى. واعلمُوا أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ العزيز الحكيم. فما شاءَ اللَّهُ كان، وما لم يشأْ لم يكُن: من صغيرٍ وعظيمٍ. ما يفتـحُ اللَّهُ للناسِ من رحمةٍ فلا ممسِكَ لها وما يُمسك فلا مرسِلَ لهُ من بعدِه وهو العزيزُ الحكيمُ.

**﴿قُلْ لنْ يُصيبنا إلاَّ ماكتبَ اللَّهُ لنا هو مولانا وعَلَى الله فليتوكَّلِ المُـؤمنون﴾** [سورة التوبة: الآية ٥١]

**﴿وإنْ يَمسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشفَ لهُ إلاَّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ يصيبُ بِهِ من يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفورُ الرحيمُ﴾**
[سورة يونُس: الآية ١٠٧]

فالأمرِ كلُّهُ بيدِ اللَّه. والتصاريفُ كلُّها منقادةٌ لقدرِ اللَّهِ. والأسبابُ والمسبَّباتُ تبـعٌ لحكمةِ اللَّهِ. ليسَ لشيءٍ منَ الأوقاتِ والشهورِ عملٌ ولا تأثيرٌ. وإنما الأوقاتُ تجري مسخَّرات بتقديرِ الملكِ الكبيرِ. إنما جعلها اللَّهُ رحمةً وخلفة لمنْ أرادَ أنْ يذَّكَّرُ أو أرادَ شكوراً. وظروفاً للأعمالِ نافعها وضارِّها فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ تيسيراً. فأوقاتُ الموفَّقينَ زاهرةٌ بالأعمالِ النافعةِ والخيراتِ. وأوقاتُ المجرمينَ قدْ مُلِئَتْ من الشُّرور والآفاتِ. ليسَ لشهرِ صفر وغيرِه نحسٌ ولا سعدٌ ولا شؤمٌ. فلا هامة ولا صفر وإنما هي تدابيرُ الحيِّ القيُّوم. فلقدْ أبطَلَ هذهِ الخرافات الساقطة النبيُّ المعصوم. وأخبر أنَّ الأسباب النافعة

قسمان: أسبابٌ دينيَّةٌ ترجعُ إلى الأعمالِ الصالحةِ الحسانِ. المبنيَّةُ على الإخلاصِ والتَّقوى والإيمانِ. وأسبابٌ دنيويَّةٌ تصلحُ المعاشَ يقومُ بها العبدُ مستعيناً بالرحمنِ. وكلُّ هذا داخلٌ في قولهِ ﷺ: (احرصْ على ما ينفعك واستعنْ باللَّه ولا تعجز) ـ كما يفعلُ الأحمقُ الكسلان ـ. فليس شيء من الخرافاتِ سبباً لخيرٍ ولا شر ولكنها خللٌ في العقولِ والأديان. فمنْ علَّقَ بشيء منها أملَهُ فهو جاهلٌ ضالٌّ. وإنما المؤمنُ يتعلَّقُ بربه الكبيرِ المتعال. يسَّرَ اللَّهُ لنا ولكُمْ كلَّ خيرٍ ومطلوبٍ. وحَفِظَنا منْ كلِّ سوءٍ وشرٍّ ومرهوبٍ. ومنَّ علينا بالهُدى والتُّقى والعفافِ والغِنى. وغَفَر لنا في الآخرةِ والأولى.

## ٧١ ـ خطبة

### في الحث على التوبة

الحمدُ للَّهِ الذي فتحَ لعبادهِ أبوابَ الرَّحمةِ والمتَاب * ويسَّر لهمُ الخروجَ من التَّبعاتِ وسهَّلَ الأسبابَ * وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ عليهِ توكلتُ وإليه متابِ * وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولهُ أكملُ مخلِّصٍ أوَّابٍ * اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أشرفِ آلٍ وأكرمِ صحابٍ.

أمَّا بعدُ: أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمْ وتُوبُوا إليْهِ ولا تَلْتَفِتوا بقُلوبكُمْ ولا تعوِّلوا إلَّا عليهِ * فقَدْ أَمرَكُمْ بالتَّوبةِ ويسَّر لكمْ أسبابَها * ونهجَ لكم السُّبُلَ النَّافعةَ وفتحَ أبوابَها * قال تعالى:

**﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا توبوا توبةً نصُوحاً ـ إلى قوله ـ قديرٌ﴾**

[سورة التحريم: الآية ٨]

وتوبوا إلى اللَّهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلَّكُمْ تفلحُونَ * وقالَ تعالى:

**﴿وإني لغفَّارٌ لمنْ تابَ وآمنَ وعمل صالحاً ثمَّ اهتدى﴾**

[سورة طه: الآية ٨٢]

فأخبرَ أنَّهُ غفَّارٌ لمَنْ تابَ من السيِّئاتِ * وآمن بوحدانيَّةِ اللَّهِ وما لَهُ من عظيمِ

الصفاتِ * وسارعَ إلى مرْضاةِ ربِّه بالأعمالِ الصالحاتِ * ثمَّ اهتدى وداومَ على الإنابةِ إلى الممات. فمَنْ ندِمَ على ما مضى من الزَّلاتِ * وأقْلَعَ في الحالِ عن الخطيئات. وعزم أنْ لا يعودَ في مُسْتقبلِهِ إلى الجناياتِ * فقَدْ قامَ بشروطِ التَّوبةِ واللَّهُ يقبلُ التَّوبةَ عَنْ عبادهِ ويعفُو عن السيِّئاتِ * ومنْ تطهَّرَ طهراً كاملاً وقال بعدهُ: أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولُهُ؛ اللهُمَّ اجْعَلْني من التَّوابينَ واجْعَلني من المتطهِّرينَ، وصلَّى ركْعَتينِ لا يحدِّثُ فيهما نفسهُ غفَرَ اللَّهُ ذنوبهُ * وأنالهُ مرادهُ ومطلوبَهُ وقال تعالى:

﴿ومنْ يعمَلْ سوءاً ويظلمْ نفسَهُ ثمَّ يستغفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غفوراً رحيماً﴾
[سورة النساء: الآية ١١٠]

وفي الحديث القدسي يقولُ اللَّهُ تعالى: (يا عبادي إنَّكم تخطِئونَ باللَّيْلِ والنهارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً فاستغفروني أغفرْ لكمْ) * وجعلَ اللَّهُ الصلاةَ في جوفِ اللَّيل والصدقةَ على المحتاجينَ مطفئاً للخطايا كما يُطفىءُ الماء النارَ * كما جعَلَ كظْمَ الغيظِ والعفوَ عن النَّاس منْ خصال التَّقوى وماحياً للأوْزارِ * وما يُصيبُ المؤمِنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذىً إلاّ كفَّرتْ بها عَنْهُ الخطيئات * وقدْ جعلَ تعالى جميعَ الحسناتِ تُذْهِبُ السيِّئات * فتُوبُوا إلى ربِّكم قبلَ تعذُّرِ الإيابِ * وقبل طيِّ الصحائِفِ وغلقِ الباب قبْلَ:

﴿أنْ تقُولَ نفسٌ يا حسرتَى على ما فرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ﴾
[سورة الزمر: الآية ٥٦]

بارَكَ اللَّهُ لي ولكمْ في القرآنِ العظيمِ.

## بيـــان

تمّ نقل هذه المجموعة من خطب الشيخ «عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي» سنة ١٣٧٢هـ ، غفر الله له ولوالديه، في ١٢ من شهر ربيع الأول المبارك من خط المؤلف بقلم الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الله بن سليمان بن عبد الله السلمان، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وصلَّى الله عَلَى محمَّد وآله وصحبه.

* * *

# إيضــاح

الحمدُ للَّهِ الذي أتْرع قلوبَ أوليائِهِ بمحبته فهامُوا بالدَّعوة إلى سبيلهِ * والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا ونبيِّنا محمَّدٍ الذي أبانَ الحقَّ بفعلِهِ وقيلِهِ. وعلى آلِهِ وأصحابهِ ومَن اتَّبعهُمْ على طريقتِهِ وسبيلِهِ.

أمَّا بعدُ: فهذهِ خطبٌ قيمةٌ جامعةٌ وكلماتٌ طيِّبةٌ نافعةٌ في أصولِ الدِّينِ وفروعهِ وعقائدهِ وآدابهِ هيَ لمَنْ أصاخَ إلَيْها نِعمَ الباعِثِ لهُ على الخير والموقظ منْ سِنَةِ الغفلة بما تبديهِ منْ وعظ وتذكيرٍ وتشويقٍ وتحذيرٍ. ولمَنْ تدبَّرها وتأمَّلها نعمَ الموجِّهِ إلى الصَّلاحِ المرشدُ إلى طريقِ السعادةِ والفلاحِ. وضَعها الشيخُ الجليلُ عبدُ الرحمن بنُ ناصرِ السعدي ترغيباً في الخيرِ وحثًّا على الصَّلاحِ والإصلاحِ. ودعوةً إلى التمسُّكِ بالدينِ الحنيفِ. وإلى كلِّ عملٍ وخُلقٍ شريفٍ. نسألُ اللَّهَ تعالى أن يَنْفَعَ بها بقدْرِ ما هنالكَ من نيَّةٍ صالحة. وأنْ يَجزيَ مُؤلِّفها خيرَ الجزاء إنَّهُ جواد كريمٌ.

وصلَّى اللَّهُ على محمَّدٍ وآلهِ وصحْبِهِ وسلَّمَ.

* * *

# مجموع خطب

# الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

## في المواضيع النافعة

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله، وصلّى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أما بعد: فقد كان النبي ﷺ يخطب الناس خطباً عامة وخطباً خاصة، وخطباً راتبة في الجُمَعِ والأعياد ونحوها، وخطباً عارضة بحسب الأسباب والدواعي.

وكانت خُطَبُهُ كلُّها دعوةً إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، وتوضيحاً للأصول النافعة والأعمال الصالحة، وترغيباً في أصناف الخيرات والإحسان إلى المخلوقات، وترهيباً من الأعمال الضارة والأخلاق السيئة. وكان الغالب على خطبه الاختصار والاقتصار على ما يحصل به المقصود. ويقول: (إن طول صلاة الرجل وقِصَرَ خطبته مِئِنّة من فقهه؛ فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة).

وكانت مواعظه على نوعين: نوع يعظ الناس وعظاً مطلقاً يُرَغِّب في الخير ويُرهِب من الشر، ويشوِّق إلى ما أعد الله للطائعين من الكرامة، ويحذِّرهم ما أعدَّ الله للعاصين من الإهانة، ليثير في القلوب الإيمان، والرغبةَ في الخير والرهبة من الشر. ونوع من وعظه يفصِّل ما يحتاج الناس إلى تفصيله، ويوضِّحه لهم توضيحاً.

فالنوع الأول: وعظ وإيقاظ وتذكير. والنوع الثاني: تبيين وتعليم وتفصيل.

وكان يراعي في كل وقت وحال ما يحتاج الناس إلى بيانه. وكان لا يتكلف السجع ولا التعمق. بل جُلُّ قصده ﷺ إبلاغ المعاني النافعة بأوضح العبارات وأقصرها. ولقد أوتي ﷺ جوامع الكلم. وكان يردد اللفظ أو المعنى حسب ما يحتاج المقام إلى ترديده. وهذا أولى ما اعتمده الخطيب. ولا بأس مع ذلك بمراعاة تحسين الألفاظ من غير تكلف.

ولما كنت في الخطابة كنت أُنشىءُ جهدَ طاقتي خطباً على هذه الطريقة، مراعياً لأحوال الناس والوقت.

فأحببت أن أقيِّدها هنا خوف الضياع ورجاء الانتفاع، ولهذا تقع هذه الخطب منثورةً غيرَ مرتبةٍ على الأشهر.

وأرجو الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعامله وغيره، إنه جواد كريم.

**عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي**

# خطبة
# تحتوي على شرح بعض الأسماء الحسنى
# على وجه الاختصار والتنبيه

الحمد لله، ذي الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، الرب الذي ربَّى جميع خلقه بأصناف النعم والتدبير والتقدير، وربَّى أولياءَه بتيسير لليسرى وإصلاح أحوالهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ الأول الذي ليس قبله شيء؛ الآخِرُ الذي ليس بعده شيء؛ الباطنُ الذي ليس دونه شيء؛ الظاهرُ الذي ليس فوقَهُ شيء؛ وهو اللطيف الخبير، لطف عليماً خبيراً فأخرج الخبايا والخفايا، وما أضمرته السرائرُ وأَكَنَّتْهُ الصدور؛ ولطف بأصفيائه، فأوصلهم إلى المنازل العالية والكرامات الغالية، بأسباب وطرق وهم لا يشعرون. ولطف لهم فقدر أموراً خارجة عن قدرهم وإرادتهم فيها رفعتهم وهم لا يعلمون؛ الكبير العظيم، الذي له الكبرياء والعظمة والجلال والمجد، فتعالى عن النِّدِّ والنظير، وسبحان الله عما يقول الظالمون مما ينافي عظمتَه وكبرياءَه علواً كبيراً:

**﴿وقُلِ الحمدُ للَّهِ الذي لم يتخذْ ولداً؛ ولم يَكُنْ لَهُ شريكٌ في المُلك، ولم يَكنْ له وليٌّ منَ الذُّلِّ وكبِّره تكبيرا﴾** [سورة الإسراء: الآية ١١١]

القدّوس السلامُ السالمُ من كلِّ عيبٍ ونَقْص. الذي ملأت مهابته وعظمته قلوبَ العارفين به، المُذعنين لكبريائه، الخاضعين لجلاله. الملكُ المالكُ للعالَمِ العُلْويّ والسُّفلي؛ فهو المدبِّر لهم بأحكامه القَدَرِية والشَّرْعِية والجزائية بعدله وفضله وحكمته، وإتقان نظامه، الرحمنِ الرحيمِ الرؤوف الكريم.

الذي وسعت رحمته كل شيء، وغمر جميع المخلوقات بآلائه وفضله وإنعامه. وخصَّ المؤمنين برحمته، فهداهم إلى الصراط المستقيم. وأَوْصَلَهم بذلك إلى السعادة الأبديةِ والفلاحِ السَّرمديِّ في دار النعيم. الحميد الذي له المحامدُ كلُّها والمدائحُ لما له من صفات الكمال. ولما أوصله إلى خلقه من العدل والأفضال، والعطاء المتنوع وأصناف النوال؛ الواحد الأحد المتفرد بالوحدانية، وهو الكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات؛ فليس له فيها مثيل ولا شريك من جميع الموجودات؛ الصَّمَدُ الذي قصدته المخلوقات في حاجاتها، وفزعت إليه في مهماتها وملمَّاتها، لعظمته وسؤدده وسعة أوصافه التي انتهت إليها الغايات والنهايات؛ الغنيُّ بذاته عن جميع مخلوقاته، فكل الخلق فقير إليه في جميع حالاته؛ وأشهد أن لا إلٓه إلّا اللّهُ، وحدَه لا شريك له، الغفور الشكور؛ العَفُوُّ عن السيئات الصَّبُور، مولى النعم على الطائع وعلى العاصي الكفور؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، أَعرفُ الخلقِ بالله وأتقاهم وأكرمُهم وأفضلُهم في كل وصف حميد، وكل عمل مبرور وسعي مشكور. اللهم صلِّ على محمَّد، وعلى آله وأصحابه أولي الجِدِّ في طاعة مولاهم والأخذ بعزائم الأمور.

أما بعدُ أيها الناس، اتقوا الله تعالى، وآعلموا أنٰ الله خَلَقَكُم لمعرفته وعبادته، والقيامِ بحقوقه وطاعته، فتعرفوا إليه في الرخاء يعرفكم في الشدة؛ وتودَّدُوا إليه بذكره والتحدث بِنِعَمِه والإحسان إلى خَلْقِه، يُحْبِبْكم ويكشفْ عنكم كلَّ شدة ومشقة؛ وآعلموا أنه معكم حيثما كنتم، يسمع كلامكم، ويرى حركاتِكم وسكناتِكم، ويطَّلع على جميع أحوالكم؛ فاستحيوا من ربِّكم أن يراكم حيث نهاكم؛ أو يفقدَكُم حيث أمركم؛ فمن حاسب نفسه في الدنيا وألزمها طاعة الله وَرَدَعَها عن معصيته، وجاهدها على ذلك، وجدَ ذلك عند الله مُدَّخراً؛ ومن ضيَّعها وأهملَها فلا يلومَنَّ إلّا نفسَه إذا تبين له عمله فظيعاً مُحْضَراً، وظهر خسرانُه إذا ربح المتقون، وشقاؤه إذا سعد المؤمنون، وخيبته إذا فاز المفلحون؛ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وذكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين * وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ﴾ [سورة الذاريات: الآيتان ٥٥، ٥٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكْرِ الحكيم. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولكافة المسلمين، من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

## خطبة
## في الإشارة إلى التوحيد ووجوب الشكر

الحمد لله المعروف بآياته وبصفاته، المشكورِ على عطاياه وهِباتِه، تفرّد بالربوبية والخَلْق والتدبير، وتوحَّد بالكمال فليس له سميٌّ ولا مثيل ولا نظير، وتفرّد بالألوهية فهو نِعْم المولى ونعم النصير؛ فهو الإلّه المستحق لغاية الحب وكمال الخضوع والتعظيم، وله نهاية الإكبار الإجلال والتمجيد، فليس لنا مرجُوٌّ ولا مدعوٌّ سواه، ولا نقصد في جميع حوائجنا ومهماتنا إلاّ إياه؛ ونشهدُ أن لا إلّه إلاَّه، وحدَه لا شريكَ له، فإياه نعبدُ وإياه نستعين؛ ونشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه المؤيَّد بالحق المبين؛ اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، أيها الناس آعبدوا ربَّكم وآتَّقوه، وآعلموا أن أصلَ ذلك وأساسَه أن تُخلصوا له العمل وتوحِّدوه؛ فتعتقدوا من صميم قلوبكم أن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وتُفْرِدُوه بأنواع العبودية وتُخلصوا له جميع شرائع الدين؛ فتوجَّهوا بقلوبكم لربكم حبًّا وخوفاً ورجاء، فلا ترجُوا غيرَه ولا تَدْعُوا سواه، ولا تلتفتوا إلى أحد من المخلوقين، فإنهم لن يُغْنوا عنكم شيئاً ولن ينقذوكم من عذاب الله؛ فكما تفرّد بخَلقِكم ورِزْقِكم وتدبِيركم في جميع الأمور، فَلْيكن هو معبودَكم ومقصودَكم ومدعوَّكم في كل قليل وكثير؛ فإن الخلق كلهم فقراء إلى الله، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضُرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ وإن الله هو الغني بذاته، المُسْدِي فضلَه على

جميع مخلوقاته، فالسعيد من قَصَدَه في جميع مهماته ومُلِمَّاته، والشقي من أعرض عنه وعلّق قلبه بمخلوقاته؛ أَمَا ربَّاكم بِنِعَمِهِ صغاراً وكباراً؟ ووالى عليكم فضله وخيره مدراراً؟ أما عطف عليكم الآباء والأمهات؟ أما غمركم بفضله ودفع عنكم الكربات؟ أما عافاكم وأغناكم وأقناكم؟ أما أعطاكم جميع ما سألتموه وتعلّقت به أمانيُّكم ومُنَاكم؟ أما عصيتموه مراراً فَسَتَركم ولو شاء لفضحكم وأخزاكم؟ أما تتابعت منكم أسباب العقوبة ثم دَفَع عنكم ووقاكم؟ فكم له عليكم من الخيرات ما لا يعد ولا يحصى. وكم وقاكم من شرورٍ لا تُحدُّ ولا تستقصى. خيره على الدوام إليكم نزل. وشرُّكم في كل وقت إليه صاعد. يتحببُ إليكم بالنِّعم مع كمال غناه عنكم. وتتبغَّضُون إليه بالمعاصي مع شدة فقركم واضطراركم إليه.

أيها الناس، مَنْ أَقبَلَ على الله تلقّاه من بعيد. ومن ترك شيئاً لأجله أعطاه من فضله المزيد. ومن أنزل به حوائجه وتوكّل عليه كفاه وأعطاه كل ما يشتهي ويريد. ومن اتقاه جعل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب، وهو الولي الحميد. فاستحيوا من ربكم وتُوبوا إليه. وأَسْلِموا له وأنيبوا إليه. وإياكم أن تستعينوا بِنِعَمِهِ على معاصيه، أو تقيموا مُصِرِّين على شيء من معاصيه. أعانَني الله وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته. ووفقنا للإخلاص والمتابعة والنصح لعباده والجد في عبادته.

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين مِنْ قَبْلِكُم لعلكم تتقوُن﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

الآيات. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

# خطبة
# في بعض شمائل النبـي ﷺ

الحمد لله الذي مَنّ على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، ونشهد أن لا إلَه إلاّ الله وحدَه لا شريك له، الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأَقْسَمَ في كتابه أن رسوله لعلى خلق عظيم. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي وَفَّى مقامَ العبودية الكاملة حقَّه، ولم يزل على ذلك حتى أتاه اليقين. اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى، واقتَدُوا بأخلاق نبيِّه الكاملةِ التامة، واعرِفوا ما جَبَلَهُ اللَّهُ عليه من الأخلاق الفاضلة، وائتسُوا بشمائله وسيره العالية، فبذلك يزداد إيمانكم، وتزكو به أخلاقكم وتتم أعمالكم، فإنه ﷺ كان أكملَ الخلق أدباً، وأجودَ الناس وأشجـعَ الناس وأصبر الناس على أنواع الأذى والمحن؛ وكان خلقَه القرآنُ، يتخلّق بآدابه، ويسارع إلى ما حث عليه؛ وكان أسمـحَ الناس وأطيبَهم نفساً، لا يواجه أحداً بما يكره؛ وكان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورُهم ويعودُ مرضاهم ويتفقدُ أصحابه، ولا يأنفُ من المشي مـع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي حاجَتَهم. وكان أعدلَ الناس وأحلمَهم وأعفَّهم، وأشدَّهم تواضعاً، وأسكنهم من غير كِبر، وأبلغهم من غير تطول، وأحسنهم بِشْراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا. وكان يكرم أهلَ الفضلِ، ويتألّف أهلَ الشَّرف، ويَصِلُ رَحِمَهُ وجيرانَه، ويقبل اعتذارَ من آعتذر إليه، ويمزح ولا يقول إلا حقًّا. وكان يكثر الذكر ويُعرِض عن اللغو، وكان لا ينتقم لنفسه إلاّ أن تُنْتَهَكَ حُرُماتُ الله، وما خُيِّرَ بين أمرين إلاّ اختار أيسرَهما ما لم يكن إثماً فيكون أبعدَ الناس عنه. وكان أوسـع الناس صدراً وأصدقَهم لهجةً وأوفاهم ذِمة وألينهم عريكةً وأكرمهم عشرة، مـن رآه بديهةً هابَهُ، ومن خالطه

معرفةً أحبه؛ وكان يقول (لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً أكرهه، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر).

وكان يُحَسِّن الحَسَن ويقوِّيه ويشجِّع عليه، ويقبِّح القبيحَ ويُوَهِّيه وينفرُ عنه. كان دائم البِشْرِ في جلسائه، سهلَ الخلق ليِّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ، لا يذمُّ أحداً ولا يتطلب عوراتِه. كان إذا تكلَّم أطرقَ جُلَساؤه كأنَّ على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلَّموا؛ وكان إذا بَعَثَ أحداً في أمر من الأمور قال: (بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا)، وكان يحلب شاته ويخدم نفسه؛ وكان أحبَّ الطعامِ إليه ما كثرت عليه الأيدي، وكان لا يستأثر بشيء مما يجيء على كثرته، ويقتصر من ملبسه ونفقته ومسكنه على ما تدعو إليه ضرورته ويزهد فيما سواه، ولم يُعرف له زلة ولا حُفظ له هفوة؛ وكان مجلسه مجلس حلم وحياء وخيرٍ وأمانة. لم يزل على الأخلاق العالية والحكمة السامية حتى أقام الدين ومَحَقَ الوثنية والباطل، وألّف بين أمم متعادية، وأزال الضغائن من قلوبهم، وأحلَّ فيهم الفضائلَ والعلومَ النافعة والأعمال الصالحة. بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، فأكمل الله به الدين، وأتمَّ به النعمة على المؤمنين، وشرح له صدره ووضع عنه وِزْرَه ورَفَعَ له ذِكْره، وجعل الذلة والصَّغَارَ على من خالف أمره. رزقنا الله وإياكُم محبَّتَه، وعرَّفنا قدرَه وأَحْيَانا على سُنّته وأماتَنا على مِلّته وحَشَرنا في زمرته. أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم:

**﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [سورة التوبة: الآية ١٢٨]

# خطبة
# في الحث على التوبة

الحمد لله الملكِ الوهّابِ، العفُوِّ الغفورِ التَّواب، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وذلّت لجبروته وكبريائه الصِّعاب، ورجع إليه بالتوبة والاستقالة كلُّ مُوفَّق أوَّاب، وشرد عن بابه كلُّ مُسرفٍ مُرتَاب؛ وأشهد أن لا إلَه إلّا الله وحدَه لا شريكَ له، غافرُ الذنب وقابلُ التَّوب شديدُ العقاب؛ ذو الطَّوْلِ لا إلَه إلّا هو، عليه توكلت وإليه متابِ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، نبيُّ الرحمة وفاتح أبواب المتاب. اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه، الذين فتحوا القلوب بالعلم والإيمان؛ والبلدان بالسيف والسِّنان فَوَقَى الله بهم من الشرِّ والعذاب.

أما بعد: أيها الناس؛ اتَّقوا الله تعالى، وآحذروا الإقامة على المعاصي والذنوب، فإنها تُسْخِطُ علاَّم الغيوب، وتوجب خِزْيَ الدنيا والآخرة وتسلِبُ النِّعم الباطنة والظاهرة، فتوبوا إليه جميعاً، أيها المؤمنون، لعلكم تفلحون، واتقوه في جميع أحوالكم لعلَّكم تُرحمون، وآقرِنوا لذلك نَدَماً على ما مَضى وفات، وعزماً على ترك الذنوب فيما تستقبلون من الأوقات؛ وعملاً صالحاً تُنَال به السعادة والكرامات؛ فمن كان منكم تاركاً لحقٍّ من حقوق الله فعليه أن يستدرك بفعله ما فات؛ ومن كان مُصرًّا على شيء من المعاصي، فليتب إلى ربه ويستغفرْه قبل الأخذ بالأقدام والنواصي، ومن كان بينه وبين أحد مظلمةٌ في دَمٍ أو عِرضٍ أو مال فليخرجْ منها وليتحلَّله قبل أن يتعذر الوفاء إلّا من الأعمال. فبادروا شبابكم قبل هَرَمِكم، وصحَّتكم قبل سَقَمكم، وفراغَكم قبل شُغْلكم، وحياتَكم قبل موتِكم. وقد وعد المولى الكريم بالمغفرة لمن أتى بأسبابها واجتنب الردى فقال:

**﴿وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾**

[سورة طه: الآية ٨٢]

وقال على لسان نبيه المصطفى: (يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم) فأنتم ـ رحمكم الله ـ في جميع الأوقات مضطرون إلى المغفرة والرحمة من عالم الخفيّات، فاسلكوا ـ رحمكم الله ـ طرقَها وأسبابَها، وآلْهَجُوا بالاستغفارِ والتوبةِ، فكم من توبةٍ قَبِلَها الكريم، وكم من دعوة أجابها؛ فهو السميع لمن ناداه وناجاه، وهو المجيب لدعوة الداعي إذا دعاه، وهو الذي لا يخيب رجاء من رجاه؛ فمنكم الدعاء والتوبة، ومن الله الإجابة؛ وعليكم إخلاصُ الأعمال وتكميلُها وعلى الله القبول والإثابة. فتح الله لي ولكم أقفال القلوب، وغفر لنا كلَّ ذنب وحَوْبٍ، وأنالنا وإياكم من كرمه وجودِه كلَّ مطلوبٍ قال الله تعالى:

**﴿قُلْ يا عبادِيَ الذينَ أسرفُوا على أنفسهم لا تَقْنَطُوا من رحمة الله إنّ اللَّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** [سورة الزمر: الآية ٥٣]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

## خطبة
## في وجوب النصح في المعاملة والترهيب من البخس والغش

الحمد لله الذي خلق الخَلْقَ ليعبدوه، وأدَرَّ عليهم الأرزاقَ ليحمدوه، وشَرَعَ لهم ديناً كاملاً وشرعاً وافياً بمصالح الدين والدنيا ليتبعوه. وأشهد أن لا إلّه إلّا اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له في ألوهيته وربوبيته، ولا مثيلَ له في عظمة النعوت والصفات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المؤيَّدُ بالبراهين الدالّة على صدقه وكمالِه وأوضح الآيات؛ الذي حَرّم على أمته الخبائثَ وأحلَّ لهم الطيبات، من المآكل والمشاربِ والملابسِ والمكاسبِ وأنواع المعاملات. اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرامات.

أما بعد أيها الناس: آتقوا الله تعالى، وآعلموا أنه لا تتمُّ التقوى إلاَّ بِاتِّباع شَرْعه في العبادات والمعاملات، بأن تُوقعوها على الوجوه الشرعية والطرق الصحيحة المرضية. فقد أوجب الشارعُ عليكم في الدِّين عموماً وفي المعاملاتِ خصوصاً الصدقَ والبيان. ونهاكم عن الغشِّ والخديعةِ والكتمانِ. فقال: (الدين النصيحة، ثلاثاً، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). وقال: (من غشنا ليس منا) فمن كتم عيباً في سلعته أو غشَّ في حرفته أو صنعته، أو دلس في ثمنه أو مثمنه، أو كَذَب في إظهار وصف يرغِّب وهو على غير صفته، فقد تبرأ منه سيد المرسلين. وأخبر أنه ليس من المسلمين في تركه واجباً من واجبات الدين. وقال ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإنْ صَدَقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإنْ كذبا وكَتَما مُحِقَت بركة بيعهما) فقد أخبر أن الصدق والبيان واجب للمعاملة، موجب للبركة؛ وأن الكذب والكتمان مُحرَّم ماحقٌ للبركة؛ فكيف يليق بالمسلم المصدِّق للرسول أن يتجرّأ على خلاف ما أمر به؟ أم كيف يُقْدم على ما يضره في دنياه وآخرته؟ وقال: (لا يَحِلُّ لمسلم باع من أخيه بيعاً إلاّ بيَّنه، ومن باع غيباً لم يبيِّنْهُ لم يزل في مقتِ الله، ولم تزل الملائكة تلعنه) فاتقوا الله، عبادَ الله، وإياكم أن تختاروا مقتَ الله وغضبَه وعقابَه ولعنةَ ملائكته بحطامٍ يسير من الدنيا، ممحوقِ البركة، ماحقٍ لِمَا خالَطَه وحلَّ به؛ فمن فعل ذلك باء بخسران الدنيا والآخرة، ورجع بالصفقة الخاسرة غير الرابحة.

وقد رأيتم بأعينكم كيف كثرت الخيانات، وقلّت الأمانات، وكثر الغش في المعاملات، فحل بسبب ذلك بالخلق المُثُلات، وتوالت عليهم العقوبات والنكبات. أما رأيتم البركات قد انتُزعت واضمحلت، والنعم قد تنافرت وتولت، والنِّقم قد تتابعت واستمرت، والقطيعة قد كثرت وشاعت، والخديعة قد انتشرت وذاعت، والغش قد ابتلي به أهل الحرف والمكاسب والمعاملون، وبذلك تفسد الأمور؟. فإنا لله وإنا إليه راجعون. واعلموا أن وعد الله ورسوله حقٌّ لا ريب فيه، وأن الخير والبركة وتيسير الرزق ونموَّه في النصح الذي

لا غش فيه، وأن القليل مع تقوى الله من ذلك كثير، وأن عاقبة المتَّقي الناصح حلولُ البركة والخير الغزير، وأن من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّاها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله. وأن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان. مَنّ الله عليَّ وعليكم بالقيام بحقوقه وحقوق خلقه، وأوسعَ علينا من كرمه وواسع رزقه.

﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً * ويرزُقْهُ مِن حيثُ لا يحتسبُ ومن يتوكلْ على اللَّهِ فهو حَسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بالغُ أمرِهِ قَدْ جَعلَ اللَّهُ لكلِّ شيءٍ قَدْراً﴾

[سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

## خطبة
## في عقائد وأخلاقٍ وأعمالٍ نافعة

الحمد لله الذي مَنّ على المؤمنين بصَلَاح دينهم ودُنياهم، وزكَّاهم بالعلومِ النافعةِ والعقائدِ الصالحةِ وجعلَ أكرَمَهم عندَه أتقاهم؛ وأشهدُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ وحدَه، لا شريك له، ذو الجلال والإكرام، والنعم الجسيمة العظام؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، الداعي إلى دار السلام. اللهمّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الكرام، ومصابيح الظلام، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى بتصديق أخبارِه، واتِّبَاع مراضِيه، وزكُّوا نفوسكم بترك ما يُسخطه من مناهيه. وآعلموا أن صلاحَ القلوب هو أساسُ الصَّلاح، وتزكيتَها بالبرِّ وتركِ الرذائل هو مقدمةُ الفلاح؛ فاعتنوا بصلاح بواطِنِكم وظواهركم. وتقرَّبوا بذلك إخلاصاً وتعبدوا لِفَاطِرِكم. فأول ذلك أن تقولوا:

﴿آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إِبراهيمَ وإِسماعيلَ وإِسحقَ

**ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ مُوسى وعِيسى وما أوتِيَ النبيُّونَ من ربِّهم لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

فتحققوا بهذه الأصول معرفة وتصديقاً، واتخذوا الانقياد والإذعان لطاعة الله لكم رفيقاً. فأحبوا مولاكم لما له من صفات الكمال، ولما يغذوكم به من نِعَمِه، ولازموا الرَّجا لفضله وكرمه، والخوفَ من عَدْله وعقوبَتـه ونِقَمِه. واستعينوا بربكم على صلاح دينِكم ودُنياكم، وقوُّوا اعتمادَكم وحسنَ ظنِّكم به، وَسَلُوهُ أنْ لا يخيِّبَ رَجَاكم وآعلموا أن الأعمالَ بـالنيَّات، فـاقصدوا بأعمالكم رضى ربِّكم وطلبَ ثَوابه؛ واتركوا ما نهى عنه حَذَرَ سَخَطَه وعِقَابه؛ وأقيموا الصلواتِ الخمسَ بحقوقِها وشروطِها، وأدُّوا زكاةَ أموالِكُمْ لمستحقِّيها. وصُوموا رمضان وحِجُّوا البيت الحرام. فمن لم يقم بذلك لم يكن له إيمانٌ ولا إسلام.

وعليكم ببر الوالدين، وصلةِ الأرحامِ، والإحسان إلى الجيران وأبناء السبيل والمساكين، والحنوِّ على جميـع الخلق؛ إن الله يحب المحسنين. وإياكم والكذب والغيبة وقول الزور، واجتنبوا الحِقـدَ والحَسدَ ومنكـراتِ الأمور. وإياكم وظلمَ العبادِ في الدماء والأعراض والأموال. وعليكم بالإنصاف والعدلِ في جميـع الأحوال. فمن طَهَّرَ قلبَه من الأخلاق الرذيلة، وألزمه الأخلاقَ الجميلة، كان ذلك عنوانَ سعادته، ومنشورَ سيادته؛ ومن غلبت عليه الغفلةُ عن ربه والجفا، وترحَّل عنه الخوفُ للّهِ والرّجا، وامتلأ بمساوي الأخلاق القبيحة، وتَرَك ما يجبُ عليه من الصدق والنصيحة، فَلْيُبْشِرْ بخسارةِ الدنيا والآخرةِ، وزوالِ النِّعم الباطنةِ والظاهرة. بسم الله الرحمن الرحيم:

**﴿قد أَفلـح المؤمنون * الذين هم في صلاتِهم خاشعون ــ إلى قوله ــ أولئك هُم الوارثون * الذين يَرِثون الفردوسَ هم فيها خالدون﴾**
[سورة المؤمنون: الآيات ١ ــ ١١]

# خطبة
## في حث الأغنياءِ على الإحسان، والفقراءِ على الصبر

الحمد لله الذي ضَمِن للمتَّقين في مرضاته أجراً عظيماً وخُلفاً، وتوعَّد المُمْسِكين في أموالهم وأحوالهم عَطَباً وتَلَفاً، وأشهدُ أنْ لا إلَه إلّا اللَّهُ وحدَه لا شريك له، إلـهٌ عَمَّ بجوده جميـع البَرِيّات، وقد يمسك أحياناً بعضَ فَضْله عن بعضِ خَلقه لأسرار حِكَمٍ بالغات، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، الذي قال الله فيه:

﴿لقد جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكُم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨]

الَّلهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه، أولي الفضائل والبِرِّ والتّكْريم، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى، واعلموا أن الله يَبتَلِيكم بالضَّراء لِيُظْهر صَبْرَكم، وبالسَّراءِ لِيُثْبتَ شُكركُم، فقوموا بعبادة ربِّكم في الحالتين؛ لتفوزوا بالفلاح وسعادة الدَّارَين. أيها الفقير العاجز: آجعلِ الصبـرَ لك شِعاراً، واحتسابَ الأجرِ وانتظارَ الفَرَج لك دِثاراً، ليكونَ ما حصلَ لكَ من الثوابِ والخيرِ أعظمَ مما فاتَك؛ وما أصابك من المشقة يخففه صبرك ورجاؤك وارتقابك.

أيها الغني الذي عنده فضلٌ في رزقه وماله: عُدْ على أخيك المُعدِم ببرِّك وترفَّق لحاله. فالراحمون يرحمهم الله، ويعوِّضهم الخُلْف العاجِـل والبركةَ والأجرَ والإحسان. قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وما أَنفقتُمْ مِنْ شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خيرُ الرازقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وقال ﷺ: (ما من صباحٍ يومٍ إلا وينزل ملكان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خُلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمسِكاً تَلَفاً). وقال: (ما نقصت صدقة مالاً بل تَزيدُه؛ بل تزيده) فأنتَ أيها المؤمنُ، لا شكَّ واثقٌ بوعدِ اللَّهِ، الملكِ الوهَّابِ، وقد وَعَدَكَ الأجرَ على النفقة ومضاعفة الثواب، وأن يدفع عنك بذلك البلاء وأنواعَ العِقاب، ويُخْلِف ما أنفقتَ بالبركةِ في الأعمالِ والأموال، ويفتحُ لك من رزقِه وفضلِه ما يصلُحُ لك به الحالُ والمآلُ، فكنْ بوعدِه أوثقَ منكَ بوعدِ المخلوقين، راجياً لكرامةٍ كلَّ وقتٍ وحين؛ فالقليلُ من الإنفاقِ مع الإخلاص يكون كثيراً، ويعطي الله صاحبَه مغفرةً وأجراً كبيراً؛ ففي الصحيحين أنه ﷺ قال: (ومن تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدُكم فُلُوَّه حتى تكونَ مثل الجبل)؛ وقال: (لا تَحْقُرَنَّ من المعروف شيئاً)، (واتّقوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرة) (أيُّما مُسلمٍ كسا مسلماً ثوباً على عُرْيٍ كساه الله من خضر الجنة، وأيما مُسلم أطعمَ مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيُّما مسلمٍ سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم) قال الله تعالى:

**﴿إنّ الذين يَتْلُونَ كتابَ اللَّهِ وأقامُوا الصلاةَ وأنفقوا ممَّا رزقناهُم سرًّا وعلانيةً يَرْجُونَ تجارةً لَنْ تَبورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجورَهم ويزيدَهم من فَضله إنه غفورٌ شكور﴾** [سورة فاطر: الآيتان ٢٩، ٣٠]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

# خطبة
# في العفو والإعراض عن الجاهلين

الحمدُ للَّهِ على نِعَمِه التي لا تُعد ولا تُحصى، وعلى عفوِه ومغفرتِه وسِترِه المُرخَى؛ فكم له علينا من برٍّ وتكريم، وكم أسدى إلينا من خيرٍ عميم، وكم هدانا إلى الصراط المستقيم؛ أما سَتَر علينا القبيحَ وأظهر الجميل؟ أما أَطعمنا من جوعٍ وكسانا من عُرْيٍ وأَدَرَّ علينا الرزقَ الجزيل؟ أحمدُه على ما أولانا وهَدَانا، وأشكرُه على ما تفضَّلَ به علينا وأغنانَا وأقنانَا، وأشهدُ أن لا إلّه إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيدُ الأنام، ومصباح الظلام؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الكرام، وعلى التابعين لهم بإحسان، وتابـعْ عليهم كلَّ فضلٍ وإكرامٍ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً.

أما بعد أيها الناس، اتقوا الله تعالى؛ وتخلّقوا بكل خُلُقٍ جميلٍ، ونزِّهوا نفوسكم عن كلِّ خُلُقٍ رذيل، فإن العبد لا يزال يترقّى بأخلاقه العالية، ويتربّـى بآدابه السامية، حتى يصلَ إلى أعلى الدرجات؛ ولا يزال يسفل في أخلاقه، وينزل في آدابه، حتى يهبط إلى أسفل الدركات؛ فخذوا ــ رحمكم الله ــ بما وصّاكم به الملكُ الحقُّ المبينُ؛ فقد جمـع لكم مكارمَ الأخلاق في قوله:

﴿خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالمعروفِ وأَعرِضْ عن الجاهلين﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

فأمرنا أن نأخذ من أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم ما عَفَا منها وسَهُل وتيسَّر، وأن نغضَّ الطَّرْفَ عما تعذّر منها أو شقَّ أو تعسَّر، فنعفو عمن ظلمنا، ونعطي من حَرَمنا، ونغفر لمن أساء إلينا، ونقبل اعتذار من اعتذر إلينا، وأن نوقِّر الكبير، ونرحم الضعيف والصغيـر، ونحسن المعاملة والصحبـة مـع النظير؛ وأن لا نكلف الناس فوق ما يطيقون، ولا نطالبَهم بما يشق عليهم وما

منه يضجرون وينفرون، بل نأخذ صفو أخلاقهم وندع كَدَرها، ونثني على خيرها وحسنِها ونعرض عن قبيحِها وسيئِها، وأَمَرنا أن نأمرَ بالعُرف، وهو المعروفُ شَرْعاً وعرفاً وعقلاً، المستحسن في الفطر قولاً وفعلاً، فنأمر غيرنا بالإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله، والقيام بحقوق الله وحقوق عباده؛ وأن نُعرض عن مقابلة الجاهلين بجهلهم، ومناقشة الحَمْقَى في قولهم وفعلهم، فمن قام بذلك بحسب قدرته واستطاعته، فقد نال الفلاحَ وفاز من الله بكرامَتِه؛ قال الله تعالى:

**﴿ولا تَستوي الحسنةُ ولا السيِّئةُ ٱدْفَعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميمٌ﴾** [سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

## خطبة
## في الحث على القناعة

الحمد لله اللطيفِ بعبادِه فيما يجري به المقدور، المدبِر لهم بحكمته وعلمِه في الميسور والمعسور، والمفاضِل بينهم في الغِنى والعقلِ والعافيةِ والدينِ وفي جميع الأمور، ليبلوهم أَيُّهم أحسنُ عملاً وهو العزيز الغفور؛ فسبحانَ الله أحاطَ علمُه بالبواطنِ والظواهرِ والضمائِر، فَعَلِمَ ما تحتوي عليه من سيِّىء النيات وَحَسنِها وصفاءِ السرائر؛ فيسَّر كلًّا لما خُلِق له، وأَعَدَّه لما هيِّىء له، وجعل إراداتِ القلوبِ تدعو إلى ما يشاكلها من أقوال اللسان وأعمالِ الظواهر؛ وأشهدُ أن لا إلَه إلّا اللَّهُ، وحدَه لا شريك له، الأول الآخر الباطن الظاهر؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه المؤيد بالبرهان الباهر، والحقِّ الواضِح والسلطان القاهر؛ اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أولي العزائم العالية والمناقب والمفاخر، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا ربَّكم الذي خلقكم ورزقكم وعافاكم،

والذي أطعمكم وسَقَاكم وكساكم وآواكم؛ والذي أرشدكم إلى صلاح دينكم ودنياكم، ألا وإن التقوى لا تتم إلا بشكر نِعَم الله، والرضى بما قسم الله، والقناعةِ كلِّ القناعة بما يسَّر الله، فإن القناعة من أجلِّ الطاعات المقرِّبة لعلام الغيوب، وإنها كَنزٌ لا ينفَدُ وذخرٌ لا يفنى، وغِنى بلا مال، وعزٌّ بلا جنود ولا رجال؛ فليس الغنى عن كثرة الأموال والأعراض، ولا بالإكباب على الشهوات المفسدةِ للقلوب بأنواع الأسقام والأمراض، إنما الغِنى غِنى النفسِ بما قَسَم الله؛ وطمأنينتُها إلى ذكر الله، فمرِّنوا ــ رحمكم الله ــ نفوسكم على القناعة بسلوك طرقها وأسبابها، وعوِّدوها الرضى والسكون.

وآتوا البيوتَ من أبوابها، فانظروا إلى من هو دُونَكم في العافية والعقلِ وضيقِ الأرزاق، ولا تنظُروا إلى من هو فوقَكم لئلا تزدروا نِعمةَ الخلّاق، فالمعافى في بدنه وسمعه وبصره وعقله ينظر إلى من ابتلي بشيء منها، والمبتلى بشيء من ذلك ينظر إلى من هو أعظم منه ابتلاء، فإنه ما من مصيبة تصيب العبد إلّا ويوجد أكبر منها؛ فالغنيُّ يتأمل المعسِرَ الفقيرَ الذي لا يجد من قوته وكسوته وضروراته إلا الشيء اليسير، والمعسر الفقير متى التفت وجد من هو أفقر منه ومن هو عادم للفتيل والقطمير، والمُسْلمُ المبتلى بأنواع الأمراض والأسقام، يحمدُ الله على سلامته من الكُفر وموبقات الآثام؛ فما من بلوى يُبتلى بها المؤمنُ في بدنه أوحبيبه أو ماله إلّا وهي خير له وأولى، إذا اقترنت بالقيام بالصبر والثناء والشكر للمولى، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغنِ يُغنِه الله؛ ومن يتصبر يصبِّره الله؛ وليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى القلب، ولقد أفلح من هُدِيَ للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنعه الله بما أتاه؛ ومن أصبح وله بيت يؤويه ومؤنة في يومه وليلته تكفيه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وقد اكتفى بكفايته عن كثرة أموالها وقناطيرها:

﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

# خطبة
# في التعاون على البرِّ والتقوى

الحمد لله الذي فاوَتَ بين عبادِه في الصفات وجميـع الأمور، فمنهم طائعٌ وعاصٍ ومنهم شاكرٌ ومنهم كفورٌ؛ وَمَنَّ الله على خيارهم بأن جعلهم مفاتيـح للخير مغاليق للشرور؛ فسبحان من له الحكمةُ البالغةُ والنعمةُ السابغةُ في المشروع والمقدور؛ وتبارك من جعل لكل شيء سبباً، ولكل مقصود طريقاً ومذهباً؛ وأشهد أن لا إلّه إلّا اللَّهُ وحدَه، لا شريك له في الربوبية والإلّهية؛ ولا نِدَّ له في المحبة والتعظيم والعبودية؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أفضل الأنبياء والمرسلين، وإمام الخلق وقائد الغُرّ المُحَجَّلين. اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آله الطيِّبين الطاهرين؛ وعلى أصحابه الذين هم صفوة العالمين؛ وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، أيها الناس، اتقوا الله تعالى، واعلموا أن الله بحكمته جعل الخير والشرَّ في خزائن. فطوبـى لعبدٍ جعله الله مفتاحاً للخير مِغلاقاً للشر؛ وويلٌ لمن كان مغلاقاً للخير مفتاحاً للشر. فكونوا ـ رحمكم الله ـ مفاتيـحَ للخير والقُرُوبات، لتكونوا مباركين أينما كنتم، وتنالوا الخير وعلو الدرجات. وقوموا بالنصيحة بالرفق والحكمة لكل من تخالطونه؛ وبشِّروا ولا تُنفِّروا، وآبذلوا كلَّ ما في وسعكم من المساعدة القولية والفعلية في الخير والمعونة. فمن رأيتموه راغباً في حضور المساجد والصلوات، مؤدِّياً الزكاة، قائماً بما عليه من النفقات، بارًّا بوالديه، وَصُولاً لأَرحامِه، مُوفِياً بعهده وحسنِ معاملته ووفائه وذمامِه، فعاونُوه على ذلك رجاء الأَجْر، وشجِّعوه، وآشرحوا له مصالـح ذلك وثمراتِه العاجلةَ والآجلةَ وبشِّروه. فإن النفوس تَقْوَى وتنشَطُ بالبشرى. وذلك من باب التعاون على البر والتقوى.

ومن رأيتم فيه توانياً في حقوق الله وحقوق العباد، أو تهاوناً بانتهاك الشَّرِّ والفساد، فآدْعُوه إلى الخير بالحكمة واليسرِ والسَّداد. أما علمتم أن من أعانَ

مُقبلاً أو رَدَّ شارداً، أو أيقظ كسلان أو أنهض قاعداً، أو كان على الخير معيناً ومساعداً، كان له ـ مع أجرِه الخاص ـ مثلُ أجورِ من نَبَّههم وذكَّرهم من غير أن ينقُصَ من أجورهم شيء؟ وَلأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ. واعلموا أن أحقَّ الناس بهذا الأمر منكم أهلُكم وأولادُكم، ومن يتصلُ بكم من أتباعكم وأحفادكم؛ فعلِّموهم الخيرَ ورغِّبوهم فيه، وحذِّروهم من الشر بذكر مضارِّه ومساوِيه؛ واعلموا أن حسن التربية والتقويم للأهل والأولاد خيرٌ لهم وأنفعُ من إعطائهم نفائس الأموال والعتاد؛ وأفضل ما نحل الوالدُ والوليُّ لمن يتولَّاه، أن يحسنَ آدابَه وأخلاقَه، وأن يحضَّه على طاعة مولاه. فبهذا يتسلسل الخير والبرُّ، وينمو الإحسان، ويحصل الأجرُ الكثير للمذكِّر والمذكَّر من الرَّحيم الرحمن؛ فيا من أهملَ أهلَه وأولادَه ومن له عليه ولاية لقد فاتَكَ الخيرُ الكثيرُ، وحَصَلْتَ على الإثم والخسارة في البداية والنهاية. . أما علمتَ أنَّ الله إنَّما أَمَر بالقيام بحق الوالدين والدعاءِ لهما لِمَا لَهُمَا من الحق والشّفقة والبرِّ والتربيةِ النافعةِ مكافأةً لهما وتيسيراً؟ فقال تعالى:

**﴿إمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أوْ كلاهما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُلْ لهما قولاً كريماً * وآخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقلْ ربِّ آرحمْهما كما رَبَّياني صغيراً﴾**

[سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤]

كيف يطمع المهمل لهم في برهم ونفعهم في الحياة وبعد الممات؟ لقد أخطأ ظنُّه. . فهيهات أن يحصدَ الزارعُ غيرَ ما زرع، هيهات. قال الله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يَعْصُون الله ما أَمَرَهُم ويفعلون ما يُؤْمَرُون﴾**

[سورة التحريم: الآية ٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

# خطبة
# فيما يشرح الله به الصدر

الحمد لله الذي شرح صدورَ المؤمنين بألطاف بِرِّه وآلائه؛ ونَوَّر بصائرَ المُتَّقين بمشاهدة حِكَمِ شَرْعه وبديعِ صنعِه والتأملِ في آياته؛ وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها؛ وأغفلَ قلوب المعرِضين عن النُّذُرِ والآيات؛ المتَّبعين أهواءَ النفوسِ وفتنةَ الشَّهواتِ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللّهُ وحدَه، لا شريك له في أسمائه وأفعاله وصفاته؛ وأن محمداً عبدُه ورسولُه، أشرفُ خلقِه وخيرُ بَرِيَّاته. اللّهُمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه مدى توالي غَدَوات الزمان وروحاته، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى؛ واعلموا أن سعادة الدنيا والآخرة مقرونةٌ بصلاح القلوب ونعيمها وانشراحها، وزوال همومها وغمومها وأتراحها؛ فالزموا طاعة الله ورسوله تدركوا هذا المطلوب. واذكروا الله كثيراً، أَلَا بذكر الله تطمئن القلوب؛ أما علمتم أن الإقبال على الله رغبةً ورهبةً وإنابةً إليه في جميع النوائب والحالات أعظمُ سببٍ يُنال به انشراح الصدور وطمأنينةُ النفوس وإدراك المقاصد الجليلة والغايات؟ وأن الإعراض عن الله والإكباب على الشهوات نارٌ تلظَّى في القلوب وخُسرانٌ وحسرات؟ وأن السعي في طلب العلم النافع مع النية الصالحة من أَجَلِّ الطاعات؟ وبه تزول الجهالةُ والضيقُ، وجميعُ الأمور المعضلات؟ وأن تنوعَ العبد في السعي لنفع المؤمنين، بقوله أو فعله أو جاهه أو ماله، أكبرُ معين على مصالح الدنيا والدين؟ فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته؛ ومن نَفَّس عن مُؤمن كربةً من كُرَبِ الدنيا نَفَّس الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة؛ ومن يسَّر على مُعسر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة؛ ومن ستر مُسلماً سَتره اللّهُ في الدنيا والآخرة؛ ومن تواضع لله رَفَعَه اللّهُ؛ ومن تكبّر وتجبّر وضعه الله وقَسَمه، ومن عفا عن أخيه عفا الله عنه، ومن تَتَبَّع عوراتِ المسلمين تتبع الله عورته، ومن

تتبع الله عورته فضحه في جوف بيته. وآعلموا أن إصلاح الباطن سببُ صلاح الظاهر؛ وأن الله مُطَّلع على الضمائر والسرائر، فأصلحوا قلوبَكم بالنية الصالحة وصدق الإخلاص، والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم تنالوا الفوز والفلاح والخلاص. قال الله تعالى:

﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وَلَدَارُ الآخرة خيرٌ، وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقين﴾ [سورة النحل: الآية ٣٠]

## خطبة
## فيما يتبع الميت

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديراً. وتبارك الذي نَزَّلَ الفُرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريك له وكفى به وليًّا ونصيراً. وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، بعثه الله رحمةً للعالمين، وداعياً إلى الله بِإِذْنِهِ وسِرَاجاً مُنيراً، اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه السالكين أقوم الطرق وأهدى السبل، وأعدَلَها وأبلغها سهولةً وتيسيراً، وسلِّم تسليماً.

أما بعد أيها الناس، اتقوا الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا آتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لكم أعمالَكم ويَغفرْ لكم ذنوبَكم ومن يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه فقدْ فازَ فوزاً عظيماً﴾
[سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١]

وقد قال النبي ﷺ: (يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله). فآثروا، رحمكم الله، الصاحبَ الدائمَ نفعُه على صاحبٍ لا ينفعُ ولا يدومُ نفعُه، وعُضُّوا بِنَواجِذِكُم على الأعمال الصالحة المقرِّبة إلى رب العالمين، فمن جعلَ أهلَه وأولادَه ومالَه وشهواتِه غايتَه المقصودة، وضالَّته المنشودة تمتَّع بذلك قليلاً،

ثم أورثه حزناً طويلاً، فإنك لا بد أن تفارقَه وعليك التعبُ ولغيرك مَهْنَؤه، ولغيرك مَغْنَمُه، وعليك تبعتُه وهمُّه وشقاؤه؛ فمن قَدَّم أهلَه ومالَه على عمله فاتته الثلاثة سريعاً، ومن آثر عمله الصالح انتظم الأهلُ والولدُ والمالُ والعملُ جميعاً، وابتهجَ بعملِه في الدنيا وصار نِعْمَ المؤنِسِ له في قبره إذا فارقه الأهل والخلان ثم لازمه أحسن ملازمة حتى يصل به إلى أعلى غرف الجنان.
أَلَا وإنَّ العملَ أقلُّ الأصحابِ الثلاثة كلفةً ومؤونةً، وأكبرُها مصلحةً وأبركُها معونةً، فإنه أعظمها نفعاً وأحسنُها وقعاً، وخيرُها شفعاً؛ وذلك أن العبد إذا صَحَّتْ نيته وحَسُنَ قصدُه فيما عند الله، وقام بحسب استطاعته بتقوى الله، فأدّى الفرائض واجتنب المناهي واستقام على ذلك إلى آخر العمر المتناهي، لم يفته التمتع بالأهل والمال، وكانت حياته حياة هناء، واغتبط بما أوتيه من أهل ومال، وجعل ذلك فرصة للتقرب إلى ذي العظمة والجلال؛ فهذا إذا اكتسب واشتغل بضيعته وماله، فكسبه يحتسبه للقيام بواجب نفقته ونفقة عياله، وإن أنفق منه فنفقته يرجو خُلْفَها عاجلاً وذخرُها يوم مآله.

والمالُ الصالح نِعْمَ العَوْن للرجل الصالح، فإنه يقيم به الواجبات الدينية المالية، ويستغني به عن التشوُّف والسؤال لأحدٍ من البرية؛ فكم أقيم بالمال من واجبات، ودُفِع به من ضرورات، وسدت به حاجات؛ وكم حصلت به ألفةٌ وانحلَّت عداوات، وكم وُصِل به أرحام، وتُعطِّف به على مساكين وجيران وأيتام، وكم أقيمت به المشاريع الدينية وكملت به المصالح الدنيوية والأخروية؛ فمن حفظ الله وحافظ على فرائضه، واجتنب محارمه وآتقاه حفظه الله في أهله وماله ودينه ودنياه؛ ومن ضيع الله نسيه فأنساه نفسه، وانفرطت عليه مصالحه وحضره خسرانُه وشقاه. وفقني الله وإياكم لما يحبُّه ويرضاه، وجعلنا ممن اعتصم بحبله. بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
# في أن الجنة حُفّت بالمكاره والنار بالشهوات

الحمد لله الذي جعل لكل شيء طريقاً وسبباً؛ ووفّق أولي الألباب لطرق الخيرات فلم يرتضُوا بغيرها بدلاً ولا بسواها مسلكاً ومذهباً؛ وخذل المعرِضين عن الهدى فقادتهم شهوات الغي إلى الردى؛ وصعّبت عليهم النفس الأمَّارة بالسوء مسالكَ الخير وطرق الهدى. وأشهدُ أَنْ لا إِلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ له في ألوهيته ولا في ربوبيته، ولا نِدَّ له في أسمائه وصفاته، وسعة علمه وحكمته وشمول رحمته؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه خيرُ بريته. اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم علىٰ عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه على طريقته وسنته. وسلِّمْ تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا غضب الله وعقابه، وابتغوا رضوانَه وفضلَه وثوابَه، وتعرّضوا لكل سبب يعينكم على الوصول إلى هذا المقصد الأسنى، واستعينوا بالله على دفع الدوافع والعوائق السَّوْأَى، وسَلُوا ربَّكم الهدى والتقى والعفاف والغنى؛ واعلموا أن الجنة محفوفةٌ بالمكاره والنارَ محفوفةٌ بالشهوات، فمتى صبرتم على ما تكرهون نِلتُم ما تُحبون؛ ومتى نهيتُم النفوس عن هواها، وجاهدتُّموها عن معصيتها لمولاها فقد سعيتم في حصول نعيمها وسرورها ومناها؛ فقد أفلح من بطاعةِ ربه زكَّاها، وقد خاب من بمعصية الله قمعها ودسَّاها؛ فدرِّبوا نفوسكم على الخير وعوِّدوها، ورغِّبوها فيما أعد للطائعين الصابرين وشوِّقوها، وناقشوها على الصغير والكبير وحاسبوها؛ فإن المؤمن لا يزال مع نفسه في ترغيب وترهيب، وملاطفة ومحاسبة وتدريب، حتى تحيا ويلين قيادُها ويزول صعبُها ويحصل مرادُها، وتسقى شجرة الإيمان في قلب صاحبها فتؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها؛ فمن حاسب نفسه في هذه الدار، وألزمها الإنابة والتقوى والإكثار من الاستغفار، وتفكر في نِعَمِ الله

وخيرِه المِدرار، وأكثر من ذكر الله آناء الليل والنهار، فاز بالنَجاح والمُـلْكِ الكبير في دار القرار.

ومن أهمل نفسه وضيّـع وقته لازمه الندمُ والحسرة والخسار؛ ومن تعب قليلاً استراحِ طويلاً، ومن أطلق لنفسه في الشهوات مراحها، فقد أشقاها وأتعبها، واللَّهِ، وما أراحها؛ فلا يدرك ما عند الله من الخير والمنى والأمانيّ، إلاّ بالجد بطاعة الله وترك الكسل والتواني:

**﴿فإذا جاءتِ الطامةُ الكبرى * يومَ يتذَكَّرُ الإنسانُ ما سعى * وبُرِّزَتِ الجحيمُ لمن يرى * فأمَّا من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأمّا من خاف مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنةَ هي المأوى﴾** [سورة النازعات: الآيات ٣٤ ــ ٤١]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## في الحث على الجمعة والجماعة

الحمد لله الذي شَرَع الشرائـع وحَدّ الحدود وأوضـح الأحكام، وفرض الفرائض وأوجب الواجبات لينال العبادُ بها أعلى المقامات في دار السلام، وتوعّد من ضيّعها بخزي الـدنيا وعـذابِ الآخرة، وجعله نـاقص الإيمان والإسلام؛ وأشهد أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ له، الملكُ القُدّوس السَّلَام؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، سيدُ الأنام، ومن هو في مقامات العبودية على الكمال والتمام؛ اللَّهم صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه خير الخلق بعد النبيين وسادات الأنام، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس اتقوا الله تعالى، وآعلموا أنّ الله فرض عليكم فرائضَ فقوموا بها ولا تضيِّعوها؛ وحَرَّم أشياءَ، صيانةً لكم فلا تنتهكوها؛ ألَا

وإنَّ أَفْرَضَ الفروض بعد الإيمان إقامةُ الصلاة بشروطها وأركانها وحقوقها؛ ومن أعظم حقوقها وواجباتها حضورُ الجُمُعَة والجماعة، فلا يحلُّ لرجلٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أنْ يتهاون بحضورهما، فمن ترك ثلاثَ جُمعٍ تهاوناً طَبعَ اللَّهُ على قلبه، وقد هَمَّ ﷺ بتحريق بيوت المتخلفين عن الجماعة عليهم، ولم يُرَخِّص في تركها للأعمى الذي لم يجد قائداً يلائمه؛ أفَلا يستحيي ربه من عافى الله بدنَه وأوسع عليه في رزقه، وهو لا يهتم بما أوجب الله عليه من حضور الجماعة والجمعة؟ ولو عرض له طمعٌ أو حاجة دنيوية لبادَرها؛ فحقوق الله قد تهاون بها وضيّعها، وأغراضُه وشهواتُه قد عَضّ عليها بالنواجذ وما أهملها؛ أفليس هذا عنوانَ الشقاء، وأكبرَ أسبابِ الهلاك والردى؟ أَمَا واللَّهِ لو عَلِمَ المضيِّع للجمعة والجماعة ماذا عليه من الإثم والعقوبة، وماذا فاته من الأجر والخير والمثوبة، لَعَرَفَ أنه قد خسر دينه ودنياه، وأنه لا يستنقذه من ذلك إلا أن يقلع ويتوب إلى مولاه؛ فيا من آثر الكسل والنوم على الصلاة والخيرات، آذكرْ ما تَوَعَّد اللَّهُ المضيِّعين لها من أليم العقوبات، وما أعدَّ للمحافظين عليها من عظيم الكرامات:

﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢١]

فإن من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نُزُلاً في الجنة كلما غدا أو راح.

﴿في بيوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُه يُسبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذِكرِ اللَّهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله واللَّهُ يرزُقُ من يشاءُ بغير حساب﴾
[سورة النور: الآيات ٣٦ ــ ٣٨]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
# في الترغيب في كسب الحلال

الحمد لله المتكفِّل بأرزاق جميع العبيد، الذي هدى الآدَميَّ إلى تحصيل الرزق بالأسباب المتنوعة من سَهْل وشديد، وقريب وبعيد؛ نحمده على ما له من الكمال والأَفْضَال وهو الحميد المجيد، ونشكره على نِعَمِه المتوفِّرة راجين منه الفضل والمزيد؛ ونشهد أَنْ لا إِله إِلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ له، المبدىءُ المعيدُ الفعالُ لما يريد؛ ونشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه سيدُ الرُّسُل وأكملُ العبيد؛ اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه السالكين صراط العزيز الحميد.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى وأجملوا في طلب الرزق الحلال، ولا تُجاوِزُوا ما أحلَّه إلى ما حرَّمه فتقعوا في الخَسَار والنِّكال. وآعلموا أن السعي في طلب الرزق للقيام بواجبات النفس والأهل والعيال، من أفضل الأعمال الصالحة وأجَلِّ الخصال؛ وأن خيرَ الأسبابِ على الإطلاق كلُّ سببٍ مُباحٍ يُعين العبدَ على طاعة المَلِكِ الرَّزَّاق؛ فقد بورك لك أيها المؤمن في كسبٍ تقوم به في سهولة وراحة، ولا يقطعك عن واجبٍ ولا عن جمعة وجماعة؛ فقد سئل ﷺ عن الكسب الطيب؛ فقال: (عملُ الرجل بيدِه وكلُّ بيعٍ مبرور). فإذا مَنَّ اللَّهُ على المتكسِّب بالنُّصح والصِّدق وتَرْكِ الغِشّ والكِتمان؛ وشاب ذلك بالسماحة والصَّدَقة والإحسان، بارك الله في عمله وسعيه ورزقه، وجعله موفقاً سعيداً في مسالكه وطُرُقه؛ فقد قال ﷺ:

(رحم الله عبداً سَمْحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى) وقال: (يا معشر التُّجّار، إنّ البيـع يحضُره اللَّغْوُ والحَلَف، فشوبوه بالصِّدق)؛ وقال: (البيعان بالخيارِ ما لم يتفرَّقا؛ فإن صَدَقا وبيَّنا بوركَ لهما في بيعهما، وإن كَذَبا وكَتَما مُحِقَت بركةُ بيعهما)؛ وقال: (اتقوا الله، وأَجْمِلوا في الطلب، ولا يَحْمِلَنَّكُمُ استبطاءُ الرِّزق أن تطلبوه بمعصيةِ اللَّهِ،

فإنه لا يُدْرك ما عند الله إلاّ بطاعته). فمن أقوى الأسباب لحصول الرزق وبركته لزومُ تقوى الله، وحسن النية في المعاملات، والنصح، وصلة الرحم والإحسان إلى المخلوقات؛ قال تعالى:

**﴿ومنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعلْ لهُ مخرجاً * ويرزُقْهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ﴾**

[سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

وقال ﷺ: (من أحب أن يُبْسَط له في رزقه ويُنْسَأَ له في أَثَره فَلْيَصِلْ رَحِمَه). فطوبى لعبدٍ جمع الله له بين صلاح دينه ودنياه، فاستعان بكسبه وماله على طاعة مولاه، وويل لمن جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وغاية مناه، فشتت الله عليه شمله، وفرق عليه أمره، وفاته رَشَدُه وحَضَرَهُ شقاه:

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾**

[سورة التوبة: الآية ١١٩]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في بر الوالدين وصِلَةِ الأرحام

الحمد لله الرؤوف الرحيم، الواسع العليم، ذي الفضل العظيم، والإحسان العميم؛ نحمده على ما أولانا من النِّعم، ونشكره على ما دفع من النِّقم، ونستغفره ونتوب إليه، ونعول في جميع أمورنا عليه؛ ونشهد أن لا إلّه إلّا الله، وحدَه لا شريكَ له، ذو الجلال والإكرام، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، سيد الأنام ومصباح الظلام؛ اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه المرتقين في الخير إلى أعلى مقام.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأعطاكم؛ والذي مَنَّ عليكم بالنِّعم كلِّها واختاركم من بين الأمم واصطفاكم؛ وآعلموا أنه لا تستقيم لكم التقوى حتى تقوموا بواجبات الحقوق، وتَدَعُوا ما زَجَركم الله

عنه وتَسْلَموا من القطيعة والعقوق؛ أَلَا وإنّ برَّ الوالدين وصلةَ الأرحام منجاةٌ للعبد من شرور الدنيا والآخرة، وموصلةٌ إلى دار السلام؛ وإن الصلة تصل الأرزاق والأعمار، والقطيعةَ توجب سخطَ الله وقطعَ العمر والرزق والخزي والبوار. قال النبي ﷺ: (رِضَى الله في رِضَى الوالدين وسخطُ الله في سخط الوالدين). (من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، وإن كان واحداً فواحد. فقال رجل: وإن ظَلَمَاه؟ قال: وإنْ ظلماه، وإن ظَلَماه، وإنْ ظَلَماه) (كلُّ الذنوب يغفر الله منها ما يشاء إلّا عقوق الوالدين، فإنه يعجِّل لصاحبه في الحياة قبل الممات) (من أحبَّ أن يبسط له في رزقه ويُنسأ في أثره فَلْيَصِلْ رَحِمَه) (الرَّحِمُ معلّقةٌ بالعرش؛ تقول: من وَصَلني وصله الله، وَمَنْ قطعني قطعه الله) (لا يدخل الجنة قاطعُ رَحِم) وقال رجل: يا رسول الله، هل بقي من برِّ الوالدين شيء أبِرُّهما به بعد موتهما؟ قال: (نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما؛ وإنفاذ عهدهما بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما؛ وإكرام صديقهما). (إن العبد ليموت والداه أو أحدهما وإنه لهما عاقٌّ فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه الله بارًّا) فطوبى لعبد عرف ما لوالديه من العطف والحنو والإشفاق، وما أبدياه من التربية والإحسان والإنفاق، فرأى من نعم الله عليه أن أدركهما أو أحدَهما فتمكن من بِرِّهما وأحسنَ إليهما ببدنه وخدمته وماله، وتحرَّى رضاهما وتجنَّب سخطهما في جميع أحواله، وتلطف لهما في أقواله وأفعاله، فقرت عيون والديه ببره وإحسانه، ونال بذلك فضل ربه وابتهج برضوانه، فيا سعادة البارِّ الواصل للرَّحِم بطولِ العمر وصلاح العمل وبركته وسعة الرزق؛ ويا خيبةَ القاطعِ ما أعظم ظلمَه وأوبقَ إثمَه وأولاه بالعقوبة والمحق.. أما تذكر رحمة الآباء والأمهات، وما قاسته الأم من ثقل الحمل وكرب الولادة وأنواع المشقات؟ فكم أسهرتْ ليلَها وأتعبت نهارَها وكم منعتْها راحتَها وأزعجت قرارها، وإذا نَابَك الألمُ لازمت أحزانَها وأكدارها؛ وكم للأب عليك من إحسان وإنعام، وكم له عليك من أياد جسام. أما كرّر عليك النفقة والكسوة؟

وغذّاك بأطيب الطعام؟ أما تربّيت بنعمته صغيراً، وتقلبت بمعروفه كبيراً، وأنت لا تملك فتيلاً ولا نقيراً؟ أما علّمك الكتابة وأقرأك القرآن، وبذل مالَه وبدنه في تهذيبك وتأديبك وأحسن إليك غاية الإحسان؟ أَفَيَجْمُلُ بك أن تقابل الإحسان بغير الإحسان؟ أم يليق بمن له عقل ودين أن يستبدل ذلك بالقطيعة والعدوان؟

﴿وقضى ربُّك أن لا تعبدوا إلاّ إياه﴾

[سورة الإسراء: الآيات ٢٣ ــ ٢٥]

الآيات. بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الجَمْـعِ بين الخوف والرجاء

الحمد لله العزيز الحكيم السميـع العليم، غافر الذنب وقابلِ التوب شديدِ العقاب، ذي الطول لا إلَه إلاّ هو، عليه توكلت وإليه متاب؛ وأشهد أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريك له فلا يُرغب إلاّ إليه ولا يُرهب إلاّ منه ولا يُخشى سواه، ولا يُرجى غيره في الحال والمآب. ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، الذي رغّب أمته في الثواب وحذّرهم من العقاب؛ اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه خير آل وأفضل أصحاب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المآب، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى وآعلموا أنه لا صلاحَ للقلوب والأعمال إلاّ بأن يكون العبد خائفاً راجياً، مشفِقاً طامعاً، راغباً راهباً؛ وأن من غَلَب عليه الخوفُ لم يُؤمن عليه اليأسُ والقنوطُ من رحمة الله، ومن استولى عليه الرجاء خُشي عليه العُجب والإدلال والأمن من مكر الله، ومن كان خوفه ورجاؤه معتدلين فقد استقام سيره وسلك الطريق الموصلة إلى الله. فاطمعوا غاية الطمـع في فضله وإحسانه، وعلقوا قلوبكم ببره ولطفه وامتنانـه، وكونوا خائفين من عدله وعقوبته وهوانه، خاشعين لعظمته وعزه وسلطانه، فإذا نظرتم

إلى رحمته وفضله المتنوع ونِعَمِه الخاصة والعامة انفتح لكم باب الرجاء والطمع في دوام فضله وتمام إحسانه ونواله؛ وإذا تأملتم ما أنتم عليه من الظلم والتقصير أوجب لكم الخوف من عقوبته ونكاله، وإذا تلمحتم صفات الجاحدين لله، الكافرين بآيات الله، المكذبين لرسل الله، الساعين في محاربة دين الله، وأن الله عافاكم من أحوالهم، ومَنَّ عليكم بالإيمان بالله ورسوله وٱلْتِزَام طاعة الله ورسوله، استبشرتم وحمدتُّم الله على هذه النعمة العظمى التي لا يقاومها شيء من النعم، ورجوتم الله أن يتمها عليكم بالتوفيق للقيام بشرائع الدين، والثبات على ذلك إلى أن يأتيكم اليقين.

ثم إذا رأيتم أنفسكم متخلفين عن رُتب السابقين مقصِّرين غاية التقصير عن أحوال المتقين، أوجب لكم الخوف والخَشية من رب العالمين، فرأيتم التفريط ملازماً لكم في جميع أحوالكم، والنقص مستولياً عليكم في أقوالكم وأفعالكم، والذنوب واقعة منكم في ليلكم ونهاركم، وذلك يدعوكم إلى التوبة والاستغفار وملازمة الندم والخوف والانكسار، وأن تفتقروا إلى ربكم غاية الافتقار، لعل ربكم أن يفتح لكم من رحمته أبواباً، وينهج لكم إلى مراضيه وكرامته أسباباً، فإن رحمة الله قريب من المحسنين، وعفوه مكتوب للمتقين، وأبواب التوبة والمغفرة مفتوحة للتائبين.

**﴿ٱدعوا رَبَّكم تضرعاً وخُفْيَةً إنه لا يُحِبُّ المعتدين * ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحِها وٱدعوهُ خوفاً وطمعاً إنَّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ مِن المحسنين﴾** [سورة الأعراف: الآيتان ٥٥، ٥٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
## مقدمة الاستسقاء

الحمد لله الملك المجيد، الفعّال لما يريد، له الحكمة البالغة فيما يبدىء ويعيد، وله الحمد الكامل والغنى التام وهو الحكيم الرشيد؛ وأشهد أن لا إلّه إلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريك له في خلقه ورزقه وتدبيره، ولا معين له في خفضه ورفعه وعطائه ومنعه وتقديره؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، وخليلُه المبعوث بالحكمة والقرآن. اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، وتابع عليهم بركاتِك ورحمتَك ما دامت الأوقات والأزمان، وسلم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، آتقوا الله تعالى، فإن تقواه تُنجي من الكروب والشدائد، وإن طاعته توجب الخير والسعادة وكثرة الفوائد والعوائد؛ واعلموا أن ربكم هو الجواد الكريم الرحيم الغفّار، وأن يد الله ملأى من الخيرات سحاء الليل والنهار؛ لكنه مع نِعَمه وأياديه السابغة، له الحكم في تدبير خلقه والحكم البالغة، يبتليهم بالسرّاء لعلهم يشكرون، وبالشدة والضراء لعلهم يتوبون ويستغفرون، ويقلعون عن ذنوبهم وإلى ربهم في كل أمورهم يرجعون، فتوبوا إلى ربكم من ذنوبٍ مَنَعَتْكم من نزول الغيث والخيرات، ومن جرائم غَلَقت عنكم كثيراً من البركات؛ وتعطفوا على فقرائكم بالرحمة والإحسان، فإن الجزاء من جنس العمل وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان.

واعلموا أن أفضل العبادة انتظار الفرج من الرب الرحيم، وقوة الرجاء والطمع في فضله العظيم؛ فاجعلوا رجاء ربكم نُصبَ أعينكم وقِبلة قلوبكم، فإنه نعم المولى والمرتجى لمغفرة ذنوبكم وكشف كروبكم، وإياكم أن يملك قلوبكم اليأسُ من روح فضله وأفضاله، أو تظنوا به غير ما يليق بجلاله وكماله، فإنه لم يزلْ بالكمال موصوفاً، وبالبِرِّ والجود والكرم معروفاً؛ أليس هو الذي خلق فسوّى وقَدّر فهدى، وأخرج بفضله المرعى، وأغنى وأقنى؟ أَمَا

أوصل إليكم رزقه وأنتم أجِنّة في بطون الأمهات، وتابع عليكم برّه في جميع الأوقات؟

﴿وما بكم مِنْ نعمة فمن الله ثم إذا مسَّكُم الضُّرُّ فإليه تجأرون﴾

[سورة النحل: الآية ٥٣]

وإذا كان يوم كذا فاخرجوا متخشعين متضرِّعين إلى المُصلّى لتسألوا ربكم أن يزيل عنكم الشدة والبلوى، وقدِّموا بين يدي ذلك توبةً نصوحًا من جميع الذنوب، وآخرجوا من مظالم العباد ليعطف عليكم علام الغيوب وليقدم كل واحد منكم ما تيسَّر من الصدقة والإحسان على المحاويج من الأقارب والمساكين والجيران، فما منا معشر الحاضرين أحد بمعذور، سواء كان غنياً أو متوسطًا أو عنده بعض الميسور، فليتصدق الغَنِيُّ من طَوله وسعته، وليُخْرِج مَنْ دُونَه على حسب مقدرته.

﴿لِيُنفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه ومن قُدِرَ عليه رزْقُه فلينفِقْ مما آتاه اللَّهُ لا يكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلاّ ما آتاها سيجعل اللَّهُ بعدَ عُسرٍ يُسرا﴾

[سورة الطلاق: الآية٧]

فاتقوا النار ولو بشِق تمرة أوبعض درهم أو متاع،

﴿فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧]

فما هو بمنسيٍّ ولا مهملٍ ولا مُضاعٍ

﴿وما تُقَدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند اللَّهِ هُوَ خيرًا وأعظم أجرًا وآستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [سورة المزّمّل: الآية ٢٠]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة الاستسقاء

الحمد الله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إلٓه إلّا الله وحدَه، لا شريك له، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ الحمدُ لله غافرِ الخطيئات، وكاشفِ الشِّدَّات، وفارجِ الكَربات، ومجيبِ الدعوات؛ وأشهدُ أن لا إلٓه إلّا اللّهُ، وحدَه لا شريك له، المتكفلُ بأرزاق جميع المخلوقات، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها في قعر البحور ومفاوز الفلوات، فيوصل إليها ما تحتاجه من الأرزاق والأقوات؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، سيد المرْسَلين وإمامُ المتقين؛ اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين؛ نستغفر الله العظيم الذي لا إلٓه إلّا هو ونتوب إليه؛ ونعول في أمورنا كلها عليه.

أما بعد أيها الناس، اتقوا الله وتوبوا إليه؛ وإنكم قد نكرتم جَدْب دياركم، وغلاء أسعاركم، واستئخار المطر عنكم؛ وقد علمتم أنه لا يُنْزِل الغيثَ إلّا الرحيمُ الرزّاق، ولا يكشف الشدة والبلوي إلا الملك الخلاق؛ وهو الرب الذي تحمد إليه جميع المخلوقات، وتفزع إليه الخليقة في المهمات والملمّات، فيكشف بقدرته ورحمته شدتَها، ويزيل بلطفه وإحسانه ضرورتَها، ويدفع بإحسانه شقاءها؛ فليس لكم ربٌّ يغنيكم سواه، ولا إلٓه لكم يُرجى إلّا إياه؛ وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه؛ فإذا سُئلتم معشر المؤمنين ماذا تعتقدون أن يفعل بكم الرب الرحيم، وماذا ظننتم أن يعاملكم المولى الكريم؟ فقولوا: لا نظن بربنا إلّا كلَّ جميل، ولا نعتقد ونؤمِّل منه إلّا كلَّ خير جزيل.

أليس هو الذي ساق إلينا الأرزاق ونحن أجنةٌ في البطون، وأَخْرَجَنا من تلك المضايق والظلمات من يقول للشيء كن فيكون؟ ألم يجعل لنا العينين واللسان والشفتين؟ ألم يُجْرِ لنا الغذاء من مجارٍ لطافٍ إلى الثديين؟ ويهدينا بفضله طريقي النجدين؟ أما ربانا بنعمته صغاراً، وغمرنا بكرمه كباراً، وأعطانا

نِعَماً غزاراً؟ أما تراكمت الكروب فكشفها وأزالها؟ أما حلَّت الجدوب فأبدلها بالخصب وأحالها؟ أما أطعمنا وسقانا وكسانا؟ أما جعل لنا المساكن وآوانا وكفانا، أما خوّلنا من أصناف فضله وأغنانا، فَنِعَمه علينا لا تحصى، وأياديه لا تعدُّ ولا تستقصى؛ فهو الذي يأتي بالخير والحسنات.

وهو الذي يدفع السوء والسيئات.. فكم قصدناه في ضروراتنا وحاجاتنا فقضاها، وكم طلبنا منه ما لا غِنى لنا عنه فجبر قلوبنا وأرضاها؛ فليس لنا رب سواه فندعوه، ولا لنا ملجأ غيره فنؤمله ونرجوه، ولا لنا راحم غير أرحم الراحمين، فهو أرحم بنا من أولادنا ووالدينا وأنفسنا ومن الناس أجمعين؛ فوالله لولا الذنوب ومضارها، ووالله لولا الجرائم والعيوب وآثارها، لانْهمرت علينا من السماء أمطارُها، ولبادَرَنا غيثها ومِدرارها، ولكن ربنا حكيم حليم، رؤوف رحيم، يمنع عنا أحياناً ليذيقنا بعضَ الذي عملنا لنرجع بالتوبة إليه، ويؤدبنا كي نستقيله وندعوه ونرجوه ونتوكل عليه؛ فنسألك اللهم في مقامنا هذا توبة نصوحاً تمحو بها عنا الذنوب، ومغفرة تكشف بها عنا الكروب؛ ورحمة تجلب لنا بها الخيرات والبركات.

اللهم إنّا نستغفرك إنك كنت غفّاراً، فأرسل السماء علينا مدرارًا؛ نستغفرُ الله العظيم ونتوب إليه؛ نستغفر الله الرب الرحيم ونتضرع إليه؛ نستغفر الله الملك الكريم ونلجأ في كل أمورنا إليه؛ اللّهُمّ آسقنا غيثاً مُغيثاً هنيئاً مريئاً غدقاً مجللاً سحًّا دائماً طبقاً يا رب العالمين، اللهم أسقنا الغيث والرحمة ولا تجعلنا من القانطين، اللهم اسقنا غيثاً تحيي به البلاد وتنتعش به العباد ويكون قوتاً حاضراً ومستقبلاً للحاضر والباد؛ اللهم إن بالعباد من اللأواء والضنك والجهد ما لا نشكوه إلاّ إليك؛ اللهم أَنبتْ لنا الزرع وأدرّ لنا الضرع وأسقنا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض؛ اللهم يا من بيده خزائن الرحمة والأرزاق، ويا من لا يرجى سواه لدفع الكروب وإزالة الملمات والمشاق؛ يا من عَمَّ برزقه الطائعين والعاصين، وغمر بجوده وكرمه جميع

العالمين، جُدْ علينا برحمتك وإحسانك؛ وتفضل علينا بغيثك ورزقك وامتنانك؛ وفرِّجْ عنا ما نحن فيه من الشدة؛ وارفع عنا كل مكروه ومشقة. أنت الغني المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، ونحن الفقراء المضطرون إليك في جميع الحالات؛ اللهم ارحمنا رحمة تكشف بها اضطرارنا، وتزيل شدتنا وترخص أسعارنا، وتصلح بها أحوالنا وتعمر ديارنا، إن منعتنا فمن ذا الذي يعطينا؟ وإن رددتنا فَمَنِ الذي يجيبنا ويكفينا؟ فلم تزل فواضلك تغمرنا وتكفينا

**﴿ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنَا عذابَ النار﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

**﴿ربَّنا ظلمنا أنفسَنا وإنْ لمْ تغفرْ لنا وترحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾**

[سورة الأعراف: الآية ٢٣]

**﴿ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمانِ ولا تجعلْ في قلوبِنا غِلًّا للذين آمنوا ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾** [سورة الحشر: الآية ١٠]

اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

## خطبة
## بعد نزول الغيث والرحمة

الحمد لله الواسع الجواد، الرؤوف بالعباد. الذي شمل لطفُه وكرمُه المتحركَ والساكنَ والحاضرَ والباد: يُغني ويُفقر، ويُعز ويُذل، ويُعطي ويمنع، ويَقْبض ويَبْسط، ويَغفر الذنوبَ العظيمةَ والعصيانَ. فسبحان من يسأله أهلُ السمواتِ والأرضِ كلَّ يومٍ هو في شان. ونشهد أن لا إلٓه إلّا اللّٰهُ، وحدَه لا شريكَ له، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذو الطَّول لا إلٓه

إلّا هو إليه المصير وإليه المآب؛ وأن محمدًا عبدُه المرتضى ورسولُه المجتبى، وحبيبه المصطفى؛ سيدُ وُلد آدم وسلالةِ مَعد بْنِ عدنان. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه ذوي المناقب الجميلة والأخلاق الحسان.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا ربكم واشكروه، واعرفوا نِعمه واعترفوا بها واذكـروه، واعلموا أن الشكـر قيد وثبـات للنعم الموجـودة وجلب للنعم المفقودة، فكلما جَدّد لكم ربُّكم نعمةً وإحسانا، فجدِّوا حمداً له وثناءً عليه وشكرانًا؛ أما كنتم في أول عامكم هذا ممحلين أزِلين من رحمته قنطين؟ وقد اعترى كثيراً من الناس اليأسُ، ووطنت نفوسَها على الفقر والكرب والإفلاس. وكلُّ هذا بما قدَّمت أيدي الناس. ليـذيقَهم بعضَ الذي عملوا، لعلهم يرجعون؛ وليؤدِّبهم لعلّهم يستقيلون من ذنوبهم ويستغفرون؛ ويلحون في الدعاء ويجأرون ويتضرعون.

فبينما القلوب بين الخوف والرجا، والقلق والطمـع في فضل الكريم المرتجى، إذْ أنشأ لكم من غيثه سحاباً وفتـح لكم من رحمته أبوابا: فعم بغيثه سهلَ الأرض وحَزْنَها، وكشف به الكروب ورفـع من القلوب خوفها وحَزْنَها، فأصبحتم برزقه مستبشرين، وبخيره وموائد برِّه فَرِحين، ولمستقبل وقتكم راجين، ولآثار رحمته من حياة البلاد والعباد مؤملين؛ فاشكروا ربكم شكراً كثيراً، وسبِّحوه بُكرةً وأصيلا، وسلوا ربَّكم أنْ يباركَ لكمْ فيه ويجعلَه صيِّبًا نافعاً، وأن يكون ما بعده تابعاً له وشافعاً؛ وأن يكون معونة لكم في أمور الدنيا والدين، فإنه أرحم الراحمين وأجود الأجودين.

وهو تعالى الذي ليس لجوده حدٌّ ولا مقدار، وإنما يمنـع عباده أحيانًا لحِكَمٍ عظيمة وأسرار، فيجمـع لعباده في ذلك خمسة أشياء من حكمه: إلجاؤهم وتأديبهم ليرجعوا إليه بالتوبة والضراعة؛ وتكفيرُ خطاياهم ومغفرةُ ذنوبِهم بما يصيبهم من الشدة والفاقة والحاجة؛ وتفريـجُ كروبهم حين ينيلهم الخير والإحسان؛ وتعريفُهم بربهم وما له من الحمد الكامل والحجة البالغة

والرحمة والامتنان؛ وقيامُهم بعبوديته في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ فيكونون شاكرين صابرين معرضين عن غيره وإليه مقبلين خاضعين، وبفضله ومعروفه طامعين. جعلني الله وإياكم ممن إذا أُعطي شَكَرَ، وإذا ٱبْتُلِيَ صَبَر، وإذا أذنب تاب واستغفر

﴿وهو الذي ينزِّل الغيثَ من بعدِ ما قَنَطُوا وينشُرُ رحمتَه وهو الوليُّ الحميد﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٨]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحث على العلم

الحمد لله الذي فاوت بحكمته بين المخلوقات، ورفع المؤمنين الذين أُوتُوا العلم درجات، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما لا تستوي الأنوار والظلمات؛ وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وما له من الأسماء الحسنى وكامل الصفات؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، خلاصةُ الخلق وأكمل البريّات، اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الذين فَضَّلهم الله بالعلم النافع والأعمال الصالحات، وسلِّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس. ٱتقوا الله تعالى، وذلك بمعرفة الحق واتِّباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه؛ واعلموا أن طلبَ العلم فريضةٌ على كل مسلم مكلَّف، وأن على العبد أنْ يعرفَ الحقَّ والباطلَ ويتعرفَ؛ فإن الله أمر بالتعلُّم والتدبُّر والتذكُّر والسؤال، والنبي ﷺ حثَّ أمته، وقال: (ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيِّ السؤالُ) ويجب على كل أحد أن يتعلم ما لا يُستغنى عنه من أمر دينه، وما يحتاجه في عباداته ومعاملاته، ليصير على بيِّنة من إيمانه ويقينه؛ ويتعلمَ التوحيدَ وأصولَ الإيمانِ وشرائعَ الإسلام، فلا

يستقيم الفرعُ إلا إذا تم الأساس واستقام، وتعلموا من العبادات ما يُصلحها ويُكَمِّلها وما يُنقصها ويُفسدها؛ ومن المعاملات والعقود ما يُقَومها ويُصَحِّحها وما يُبطلها؛ فإن الجهل ظلمة والعلم نور وضياء، والجهلَ داءٌ قاتل، والعلمَ حياةٌ ودواء وشفاء؛ وحاجة الناس إلى العلم أعظمُ من حاجتهم إلى الطعام والشراب، ليعرفوا الحلال والحرام وأحكام ربهم في الذهاب والإياب.

وكما أن السعي في طلب العلم [الضروري لاتباع الأوامر وآجتناب المنهيات] من الواجبات، فإنه من أجلِّ القُرُبات وأفضل الطاعات؛ والاشتغال به أفضل من نوافل الصوم والصلاة؛ فإنه من الجهاد في سبيل الله الذي هو رأس العبادات؛ لا سيما في هذه الأوقات التي كثر فيها الجهل والجهلاء، وقل فيه العلم والعلماء، وتداعى بهم داعي الموت والفناء. فالداعي مُلِحٌّ لا يُقْلع، والذاهب منهم لا يرجع، ولا يخلفه من يقوم مقامه فيلتئم الخرق ويقمع. كذلك يموت العلم بموت حامليه، ويفقد بفقدان أهله ومعلميه؛ ولا يعرف قدر العالم إلا بعد ارتحاله، ولا تعرف شدة الحاجة إليه إلا بعد انتقاله؛ لكن أهل العلم، رضي الله عنهم، يذهبون وتبقى آثارهم، ويموتون وتحيا أخبارهم؛ أجسامهم مفقودة، وأفعالهم وصفاتهم ومناقبهم الجميلة في القلوب موجودة؛ تجردوا طول حياتهم للتعلم والتعليم، وأَنفقوا نفائس أعمارهم في نفع الخلق رجاءً لِرضَى الربِّ الكريم؛ فشكر الله لهم، ولم يزل لأوليائه شكوراً، ونشر لهم لسان صدق بين عباده، محبة وثناء ودعاء لهم وشكوراً؛ مات غيرُهم فطويت صحائف حسناتِهم، فلا ينقص فيها ولا يزاد؛ والعلماء ما دام ينتفع بعلمهم وآثارهم، فهم في أجرٍ ورِفعةٍ وازدياد؛ فإذا حُشر الناس اغتبطوا بعلمهم، وما أسلفوه يوم يقوم الأشهاد.

فآعرفوا ــ رحمكم الله ــ قدرَ العلم وآثاره الحميدة، وثابروا على تعلّمه، والازدياد من أنواره المفيدة؛ فإنه ينوِّر القلوب والأبصار، ويوجب الأجر والقرب من الملك الغفار؛ ولازموا مجالس العلم والعلماء، فإن الله

يباهي بهم أهلَ السماء في الملأ الأعلى، ويشهدهم أنه قد غفر لكل حاضر لمجلس الذكر من مستمع ومتعلم، فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسُهم، ولو جاء لحاجة ولم يكن قصده التعلم. فكونوا عالمين أو متعلمين أو مستمعين أو سائلين، ولا تكونوا الخامس المعرض، فتصبحوا هالكين.

كيف يليق بالعبد أن يعرض طول عمره عن حضور الخير وطلبه؟ وهو لا يزال في تعب الدنيا وفي نصبها، وفي ذهابه ومنقلبه يحسن أمور دنياه، وهو غافل عن العلم الذي يقربه إلى مولاه. فما أخسرَ عبدٍ في أمور دنياه من أعرف الناس وأحذقهم، وفي أمور دينه من أبلدهم وأجهلهم. قد جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وغاية مناه، وأعرض عن العلم الذي فيه صلاح دينه ودنياه

**﴿أمَّنْ هو قانتُ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربه؟ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكّر أولو الألباب﴾** [سورة الزمر: الآية ٩]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في العلم أيضاً

الحمد لله الذي وَسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وقضى بشرعه على المكلَّفين، ومَنْ أحسنُ منه قضاءً وحكماً؟! وَوَفَّق من اختارهم، فأعطاهم إيماناً ويقيناً وعلماً، وحَبَاهم من فضله عرفاناً وفقهاً وفهماً؛ وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل عليه

**﴿وقلْ ربِّ زدني علماً﴾** [سورة طه: الآية ١١٤]

اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الذين هم أبرُّ الخلق قلوباً وأغزرهم علوماً وأكملهم حزماً وعزماً، وسلِّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس. اتّقوا ربكم، واعلموا ـ رَحِمَكم الله ـ أن طلب العلم من أعظم الواجبات، وأنه شفاء للعيّ، وسلامةٌ من جميع الآفات؛ وأن من أراد الله به خيراً فَقَّهَهُ في الدين، ومن لم يرد به خيراً أعرض عن طلبه، فأصبح من الخاسرين. فإن الله فرض عليكم فرائض لا تتمكنون من أدائها إلّا بتعلم أحكامها، ولا تدركون سلوك الطريق المستقيمة إلا بالتمييز بين حلالها وحرامها؛ وعلى كل عبد معرفة ما يهتدي به إلى الصواب، وحاجة العبد إلى العلم أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب؛ ألَا وإنّ الْاشتغال به من أجل الطاعات وأفضل الحسنات المذهِبَةِ للسيئات؛ فإن مذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضى رب العباد. فقد قال ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة؛ وما جلس قوم مجلس ذكر إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذَكَرهم الله فيمن عنده) وقال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حَلَق الذكر).

أفيحسن بالحازم أن يزهد في رياض فيها من العلوم والمعارف كل زوج بهيج؟ ويستبدل بها مجالس اللغو واللهو وكل أمر مريج؟ أيرضى المؤمن أن يكون في أمر دنياه من أحذق الحاذقين، وفي أمر دينه من الهمج الرعاع الذين لا يعرفون شيئًا من أمور الدين؟ لقد اختار الأدنى الخسيس على الحظ الأعلى النفيس، ورضي بمشاركة البهائم وزهد في خصال أهل المكارم؛ فوالله لَمَسْألةٌ يسمعها أحدكم فيفهمها ويعمل بها خير له من الدنيا وما فيها؛ وَلَحُضورُكُمْ في مجالس الذكر خير لكم وأنفس من مجالس لا فائدة فيها، فإن العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال؛ العلم يؤنسك فى حياتك وفي قبرك ويوم نشرك، والمال يملأ قلبك همًّا وغمًّا ويكون وزراً على ظهرك؛ العلم يقرِّبك من رب العالمين، ويوصلك إلى أعلى علِّيين، ويكون نوراً لك تمشي به في الظلمات، وحرزاً لك يقيك الآفات والمهلكات؛ به

تفرِّق بين الكفر والإيمان، وبه تميِّز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ وبه تخرج عن أوصاف الأراذل الجُهَّال، وبه تعرف الحق والحرام والحلال؛ وبه تعرف كيف تصلِّي وتصوم وتتعبد، وكيف تبيع وتشتري وتعامل وتنكح وتأكل وتشرب وتقوم وتقعد

**﴿والذين آجتنبوا الطاغوتَ أَنْ يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البُشرى، فبشر عبادِ * الذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم اللَّهُ وأولئك هم أُولو الألباب﴾** [سورة الزمر: الآيتان ١٧، ١٨]

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم.

# خطبة

## في القيام بالحقوق

الحمد لله الذي بقدرته أنشأ الأشياء وأوجدها، وبإرادته باين بين المخلوقات في الصفات وميَّزها وخصَّصها، وبحكمته أحكم الأحكام، وأتقن ما صنعه على أحسن نظام وأكمل حالة وأبدعها. فسبحان من وَسِع كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وأعطى كل شيء خَلَقَه ثم هداه إلى مصالحه، وأسبغ على عباده عطاء جمًّا؛ وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله الواحدُ الأحدُ الفردُ الصَّمدُ الذي تفرّد بكل كمال، وقَصَدَتْه المخلوقاتُ في جميع الأحوال. وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه الذي خصصه وفضَّله بأشرف الخصال. اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله، وآعلموا أن الله أوجب لبعضكم على بعض حقوقًا متنوعة بحسب القرب والاتصال، وَوَعَدَكم على القيام بها أفضلَ ثوابٍ وأجلَّ نوال، فأمر الأولاد ببرِّ الوالدين كما وصَّى الوالدين بحق الأولاد، وأوصى الأقارب فيما بينهم بالبر والصلة والإحسان، كما حثّ على حقوق

الجيران والأصحاب والإخوان؛ وألزم كلَّ واحد من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف، وأمر الناس بالقسط في المعاملة وعدم البخس والتطفيف؛ فمن قام بهذه الحقوق وأكمَلَها، فقد ارتقى أعلى الدرجات وأفضلَها؛ ومن تهاون بها وأهملها، فقد خسر دينَه ومروءتَه ونسي مصالح نفسه وضيعها.

أَلَا فاستعينوا ربَّكم على القيام بما عليكم مع احتساب الأجر والثواب، ونافسوا باكتساب أعلى الأخلاق وأكمل الآداب؛ وَلْيُعِنْ مَنْ له الحقُّ الآخرَ بالإغضاء عن التقصير، وأن لا يرهقه من أمره الشيء العسير؛ فإن التفريط ملازم للإنسان، وَمَنِ الذي يكْمُلُ ويسْلَمُ من النقصان؟ فرحم الله والدًا أعانَ أولادَه على بِرِّه، بتحمل بعض تفريطهم والعفو عن شيء من تقصيرهم، وتعظيمِ إحسانِهم إليه وشكره. وما أعظم توفيقَ من أغضى عن هفوة الزوجةِ والصديق والجار والقريب، فلقد أخذ من مكارم الأخلاق بأكمل حظ وأوفر نصيب. وما أَوْلَى بالعبد إذا كره من قرينه خُلُقًا ذميما، أنْ يلحظَ ويرضى في مقابلته خلقًا كريما. فبذلك تدوم الصحبة والوصلة والاجتماع، وبذلك تحصل الراحة والألفة والمودة وينقطع النزاع.

أما إذا كلف كل واحد منهما الآخر بتكميل مراده بصعوبته وشدته ولم يرض إلا بحصول جميع مطالبه وتكميل كل رغبته، فلا بد أن يبوء بالفشل والخيبة والخسران، وينتهي الأمر بدوام النزاع والفرقة والحرمان؛ فالحازم من داوى العلة بما يناسبها ويلطِّفها ويُطفيها، والجاهل الأحمق من قاومها بالعنف والمشقة فكأنّه في فعله ينميها ويقويها، وفقني الله وإياكم لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. وأعاننا على القيام بحقوقه وحقوق ذوي الحقوق والأصحاب والجيران والآل.

﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ آدفعْ بالتي هي أحسن﴾
[سورة فصلت: الآية ٣٤]

بارك الله لكم ولي في القرآن.

# خطبة

## في استقبال رمضان بما يناسبه

الحمد لله الذي جعل مواسم الخيرات نُزُلًا لعباده الأبرار؛ وهيأ لهم فيها من أصناف نِعَمِه وفنون كرمه كلَّ خير غزير مدرار؛ وجعلها تتكرر كل عام ليوالي على عباده الفضل ويحطَّ عنهم الذنوب والأوزار؛ أحمده أن جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد التيقظ والشكر والادّكار. وأشكره أن جعل شهر رمضان أفضل المواسم الكريمة التي تضاعف فيها الأعمال وتربح بضائع التجار. وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله وحدَه، لا شريك له العزيز الغفار. وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه النبي المختار، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأطهار.

أما بعد: أيها الناس اتقوا الله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وَلْتَنْظُر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ واتَّقوا اللَّهَ إن اللَّهَ خبيرٌ بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللَّهَ فأَنْساهُمْ أنفسَهم أُولـئك هم الفاسِقون﴾** [سورة الحشر: الآية ١٩]

واعلموا أنه قد أَظلَّكم شهر عظيم، وموسمٌ مبارك كريم، جعل الله صيامَه أحدَ أركان الإسلام، ونَدَب إلى قيامه: فمنْ أكملَهُا إيماناً واحتسابًا تَمَّ له دينُه واستقام. به يغفر الله الذنوبَ ويَحُطُّ الأوزارَ، وفيه تربح بضائعُ المُتَّقين الأبرار؛ سوقُ المُتَّجِرين وغنيمة المفلحين وسرور العابدين، وفرصة التائبين المُنِيبين؛ من صامَه وقامَه إيماناً واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من الذنوب؛ ومن اجتهد فيه بالخيرات فقد ظفر بأوفِر حظٍّ وأكمل نصيب؛ فاحمدوا ربكم الذي أحياكم وأبقاكم حتى بَلَّغَكُمُوه، وسَلُوه أنْ يُعينكم على القيام بحقوقه حتى تُتِمُّوه وتستَكْمِلُوه؛ واستقبلوه بتوبةٍ نَصوح صادقة، وإنابةٍ إلى الله في جميع أوقاته متواصلة، فقد فاز عبدٌ عَرفَ قَدْرَه فَغَمَرَه بأنواع القُرُبات، ما بين صيامٍ

وصدقةٍ وقراءةٍ وذكرٍ وصلاة، فاستقبله فَرِحًا به مَسْرُورا، مُستعينًا بربِّه على صيامه وقيامه لينالَ منُه فضلًا كبيرًا.

واعلموا أنه كلما عَظُمت المشقةُ بالحرِّ والجوعِ والظَّمأ وتَرْكِ المألوفات، عَظُم الأجرُ والثواب فلهذا اختصه الله لنفسه من بين سائر العبادات؛ فمن صام لله في يوم صائفٍ شديدٍ ظمؤُه سقاه الله من الرَّحيق المختوم، ومن ترك شيئاً لِلَّه عَوّضه خيراً منه ووجده مُدَّخراً عند الحي القيوم؛ فيا أيها المؤمن التاركُ لشبهواته على شدَّتها ومشقَّتها، أبشِرْ فقد سعيتَ في راحةِ نفسك وسعادِتها؛ أما علمت أن الله يجزي الصابرين أجرَهم بغير حساب، وأن الصيام من أَجَلِّ أنواع الصبر بلا شك ولا ارتياب؟ فيا طالباً للخيرات هذه أوقاتها، ويا منتظراً لنفحات الكريم وطرق الرحمة ها قد دنت نفحاتها؛ ويا حريصاً على التوبة هذا زمانها، ويا راغباً في الطاعة والإنابة هذا إبَّانها؛ فأكثروا فيه ذكرَ الله وقراءةَ القرآن والتوبةَ والاستغفار، وأَعْمروا أوقاتَهُ بطاعة الملك الغفار؛ فالسعيد من عرف شرف أوقاته فاغتنمها، والشقي المحروم من ضَيَّعها وأهملها؛ فلقد رُغِمَ أنفُ آمْرِىءٍ أدرك رمضانَ فلم يغفرْ له لتفريطه وتضييعه، وطوبى لمن ظفر فيه بالمغفرة والرحمة لحسن صنيعه

**﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
## لرمضان أيضاً

الحمد لله الذي جعل شهر رمضان أفضلَ شهور العام، واختصَّه بوجوب الصيام، وحثَّ فيه على الطاعات كلِّها ليصل المُجِدُّ بها إلى أكمل حالة وأرفع مقام؛ وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، الملك القدوس السلام؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أجودُ الناس وكان أجودَ ما يكون في رمضان؛ اللهمَّ صلِّ على محمدٍ الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ويهدي للتي هي أقوم من الخير والبر والإحسان، وعلى آله وأصحابه وأتباعه في كل عصرٍ وأوان؛ وسلِّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس، اتّقوا الله تعالى وآعرفوا نعمةَ الله عليكم في هذا الشهر الكريم، فلقد أمدكم فيه بكل خير وفضل عميم؛ فَتَح الله لكم به أبواب الخيرات، وضاعف لكم فيه الأجور والبركات؛ فيه تستنير بالتعبُّدات المساجد، ويخشع فيه الراكع والساجد؛ فيه تطمئن القلوب وتنشرح الصدور، فيه تستقيم الأحوال وتتم الأمور.

وقد مضى يا قوم كثيرٌ منه فمن منكم تفقّد صيامه؟ ومن منكم اغتنم الفرصة فبادر بالطاعات أوقاتَه وأيامَه؟ ومن منكم تفقد المساكين والجيران والقرابات؟ ومن منكم أخرج ما عليه من الزكاة؟ وشفعها بالإحسان والصدقات؟ ومن منكم ترك الغيبة والنميمة والحقد والرياء؟ ومن منكم ارتدى بالصدق والإخلاص والبر والحياء؟ من منكم صَلَّى التراويحَ بقلوب نقية، وأفئدة طاهرة وهمم عليّة، لتكون لكم نوراً وبرهاناً وحصناً من العذاب وأمانا . . . فمن كان منكم كذلك فليستبشر بالخير والثواب، ومن ليس كذلك فلا يلومنَّ إلاّ نفسه إذا فاته الثواب وحلّ عليه العقاب؛ فحاسبوا أنفسكم: هَلْ أنتم من المحسنين في عبادة الله المحسنين إلى عباد الله فطوبى لكم عند ذلك

بجنة عرضها الأرض والسموات، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الأفراح واللذات والمشتهيات؟

أم أنتم من المسيئين المقصّرين، فيا حسرتاه لكم.. لقد أتعبتم أنفسكم عبثاً وأَجَعْتم بطونكم سدى، وضيعتم أوقاتاً ثمينة، يغفر الله فيها الذنوب العظيمة، ويُجْزِل فيها المواهب الجسيمة؛ فكيف يرضى مؤمن حازم أن يمرّ عليه هذا الشهر الكريم والمغنم الجسيم، فيخرج منه صفر اليدين، قد خسر جميع الصفقتين.. يقول عند تعذر التلافي: يا حسرتاه على ما فرطت في جنب الله! يا ندمي على ما فَوَّتُّ من طاعة الله؛ يا أسفي كيف فات الشهر بل العمر ولم أتب من ذنبي! وكيف رضيت بالإعراض والغفلة ولم أتب إلى ربي! أم كيف قَدَّمت حظوظَ نفسي وشهواتي، ولم أقدِّم عملاً صالحاً لحياتي؟ يا ليتني حفظت صيامي وأتقنت صلاتي؛ يا ليتني عصيت الشحّ والشيطان فأخرجت زكاتي؛ يا ويلتي، لقد صار مالي طوقاً من العذاب في عنقي، وقد صُفِّحَ صفائحَ من نار يُكوى بها جَنْبي وظهري وجبهتي، كلما بَرَدت أُحميت وأعيدت في النار علي. وكلما رجوت الفرج شدد العذاب علي.

فاليوم ليس لي شافع يشفع، ولا مال وولد رحيم ينفع. ولا دعاء ولا طلب ولا غوث يسمع؛ قد تقطعت بي الأسباب، واشتدّ عليّ العقاب، وغَضِب عليَّ ربُّ الأرباب؛ والذنب في الحقيقة ذنبي، فليس لي حجة ولا عذر عند ربي؛ فكم منعت خيري من الأقارب والجيران، وكم قسا قلبي فأعرضت عن جائعٍ وعُريان. وكم رأيت معسراً فلم أخفف عسرته، وكم عاينت مضطراً فلم أفرج كربته؛ وكم شكا إليّ المسكين الشدة فلم أهوِّنْ شدَّته، ولم أُعِدَّ لهذا اليوم العظيم عدَّته. وكم أعطاني ربي ووسّع عليَّ فبذلتُه في شهواتي وحظوظي، ولم أقم بما علي من واجباتي وفروضي. واليت

عدوِّي فأشقاني، وأهواني وأرداني. وعصيت وليِّـي فواشدةَ حزني ويا عظيم خسراني.

وكل هذا وما هو أعظم منه سيلقاه المفرطون، فابتدروا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، الفرصةَ قبل فواتها معشر المسلمين، وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون. بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في فضل العشر الأخيرة من رمضان

الحمد لله الذي فَضّل عشرَ رمضان الأخيرة، وأودعها الفضائل والمفاخر والمزايا الكثيرة، وأعطى فيها هذه الأمة ما لم يُعطِ غيـرها من المـواهب الشهيرة؛ وخصَّها بليلة لا يساويها شيء من ليالي الدهر، ليلة القَدْر خيرٌ من ألف شهر؛ وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له في الملك والتدبير، ولا نِدَّ له في الحب والتعظيم والتأليه، فهو نعم المولى ونعم النصير؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، البشير النذير والسراجُ المنير، اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه أولي الجد في طاعة المولى والتشمير.

أما بعدُ أيها الناس، ٱتَّقوا الله تعالى وتعرَّضوا في هذه العشر المباركات لنفحات المحسن الكريم، فتوبوا إلى ربكم توبةً نصوحًا لعل الله أن يمحو كل ذنب عظيم، وأعْمِروا أوقاتَها في طاعة المولى الرحيم؛ وتحرُّوا ليلةَ القَدْر في جميعها وخصوصًا في أفرادها، فإن من قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، فما أجلَّها من ليلة لراغبيها وقصادها؛ فاستقبلوا كلَّ ليلة من ليالي العشرِ بنِيَّةٍ صالحة، وعزيمة إلى فعل الخير صادقة، وقوموا ليالِيهَا طالبين للخير المقصود، وأحضروا قلوبكم للتدبر عند تلاوة كلام الملك المعبود، واجتهدوا في إحسان العمل وإكماله وٱخشعوا في الركوع والسجود، وابتهلوا

إلى ربكم بكثرة التضرع والإلحاح في السؤال، فقد وعد الداعين بالإجابة والإسعاف بالنوال، وأكثرُوا فيها من الاستغفار والتوبة واللهج بذلك الكبير المتعال؛ وأكثروا من قولكم في الصلاة وخارجها: اللّهم إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني، اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وتقبل مني.

واعلموا أنّ من حكمة الله ورحمته بكم أنه أخفى عنكم غيبَها لتُكْثِروا من العمل المقرب إليه، وتنالوا الأجور الكثيرة والحظوة لديه؛ وإن من أحسن نيته وقصدَه وطلبَها محتسبًا فلا بدّ أن ينالَه من خيرها، فما من مؤمن ولا مؤمنة إلّا وله نصيبٌ بحسب حاله من نفحاتها وبرها؛ فما مَنَّ الله بها على هذه الأمة إلا ليعطيهم من فضلها العميم، ولا دعاهم إلى الاجتهاد في الطاعة إلّا ليرفع منازلهم في جنات النعيم؛ فلو علم العبد ببعض ما فيها من الثواب لجدَّ في طلبها، ولو باشر قلبه ما فيها من الأسرار والمعارف لاستحلى المشقة في نصبها؛ ليلة تخشع فيها القلوب، ويغدق فيها الرب على عباده كل خير ومطلوب؛ فيها يقبل على المولى كلُّ عبد مُنيب، ويأخذ من مولاه بأوفر حظٍّ وأكمل نصيب، فيها تغفر الذنوب والأوزار، ويُكتب كل ما يجوز على العبد في عامه من خير وشر وطاعات وأوزار

**﴿بسمِ الله الرحمن الرحيم. حم * والكتابِ المبينِ * إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنَّا كُنَّا منذرين﴾** الآيات [سورة الدخان: الآيات ١ ـ ٣]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
# في الحث على صدقة الفطر

الحمد لله الخلاّق، الواحدِ المتفرِّدِ بالتدبير والاختيار والأرزاق؛ وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله الربُّ العظيم، وأن محمداً عبدُه ورسولُه النبي الكريم؛ اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه، وتابعيهم على الصراط المستقيم، وسلِّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس، آتّقوا الله، وآلتمسوا من العمل ما يُحبه ويرضاه لعلكم ترحمون، واجتنبوا ما يُسخطه ويَكرهه لعلكم تتقون؛ عبادَ الله، هذا شهرُ رمضان قد تقارب تمامُه، وتصرَّمت لياليه الفاضلة وأيامُه، فمن كان منكم محسنًا فيه فعليه بالإكمال والإتمام، ومن كان مقصِّرًا فليختمْه بالتوبةِ والاستدراكِ، فالعمل بالختام؛ وآعلموا أن رسول الله ﷺ قد فرض صدقة الفطر على الذكر والأنثى، والحر والعبد، والصغير والكبير، صاعًا من بُرٍّ أو أَقط أو تمر أو زبيب أو شعير، وأمر أن تُؤدى قبل صلاة العيد.

وكان الصحابة ـ وهم النهاية في المسابقة والفضائل ـ يؤدُّونها قبلَ العيد بيوم أو يومين، فطهِّروا صيامكم بإخراجها رغبةً في اتِّباع النبي الكريم، واغتناما لأجرها العظيم؛ وحسِّنوها وكمِّلوها، ولْتَكُنْ من أطيب أموالِكم الذي تجدون، فلن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون، ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ وهو الرديء منه تنفقون، فكيف ترضَون لربكم ما ليس لأنفسكم ترضَون، فمن فهم ما في زكاة الفطر من المنافع والحكم والأسرار، وما تُوجبه من الثواب وتحطّه من الأوزار، لم يتوقف في اختيار الأجودِ وتحسينها، ولم يطع الشحَّ في العدول إلى رديئها ودونها؛ فإن الله وقف عليها الفلاح، والنبي ﷺ جعلها من الفرائض العامة لعظيم ما تحتوي عليه من الصلاح؛ فهي من أجلِّ القُرَبِ إلى رب العالمين، ومن أفضل ما حض عليه سيد المرسلين؛ وهي طُهرة للصائم من اللغو والرفث والنقصان، وترقيع لما حصل في الصيام من النقص وكفارة

للعصيان، وهي من جملة شكر نعمة الله بالتوفيق لصيام رمضان؛ وتزكية للنفوس من الأخلاق الرذيلة، وتحلية لها بالأخلاق الجميلة؛ وفيها إغناء للفقراء في ذلك اليوم الكريم، الذي يتكرر على المسملين بالخير والسرور والفضل العميم، وهي شكر لنعمة الله بسلامة الأديان والأبدان، وفداء وكفارة لنوع الإنسان؛ فكيف تشح النفس بإخراج الطيب شكرًا لنعمة المنان، أم كيف يطيع الشح وعدوه الشيطان..

فالمؤمن الموفق يحمد ربه حيث أقدره على أداء هذه الفريضة الجليلة، فيختار لها من أجود ماله ما يدرك به الأجور الجزيلة، ويرى من نعمة الله عليه أن جعل يده هي العليا حيث علّق به جميع من يحبونه من المسلمين، ليحوز أجرهم من غير أن ينقص من أجرهم شيء ويزداد بذلك الإيمان ويكمل الدين؛ وأنت أيها المُخْرَج عنه، عليك أن تحمد الله إذ كنت عاجزًا عنها فأوجبها على من لك عليه لا عليك، وعليك أن تشكر من قام بها وتدعو له في حياته وبعد مماته. فمن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخلاق، فأي معروف أجل من معروف من أدى عنك فريضة تزكّي بدنك وأخلاقك، وتطهر صيامك ويكمل بها إسلامُك، وإياكم أن تضعوها في غير مستحقها الفقير المحتاج؛ فمن أعطاها من يعرف أنه غير محتاج لم يُجْزِهِ هذا الإخراج، ومن علم من نفسه أنه غير محتاج فإنه لا يحل له الأخذ فإنْ أَخذها فهي حرام، ولا تفرغ الصلاة وأنتم لم توصلوها إلى مستحقها أو وكيله الذي وَكّله في قبضها؛ فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات

﴿قد أفلح من تزكّى * وَذَكَرَ آسم ربِّه فصلّى﴾

[سورة الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]

# خطبة
# لعيد الفطر، يكبِّر تسعًا

الحمد لله الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والآلاء والنعم العظمى؛ خلق المخلوقات بقدرته فأتقنها، وشَرَع الشرائع بحكمته فأكملها وأحسنها؛ وسهّل لعباده الطائعين طرق الخيرات لينيلهم من فضله ألوان الكرامات، وجعل مواسم الأعياد موردًا للبر والجود وإغداق العطايا والهبات، وأشهد أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له في ألوهيته وربوبيته، وما له من سعة النعوت وعظمة الصفات؛ تفرّد بالوحدانية والقدرة والبقاء وتوحَّد بالعظمة والجلال والمجد والعزِّ والكبرياء، وملأت رحمته أقطار الأرض والسماء؛ اللَّهُ لا إلَه إلاّ هو له الأسماء الحسنى، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، وحجة على العباد أجمعين؛ افترض على العباد الإيمان به ومحبته وتعزيره وتوقيره، والقيام بحقوقه، وسد إلى جنته كل طريق فلم يفتح لأحد إلاّ من طريقه؛ وشرح له صدره ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره؛ فتح برسالته أعينًا عُميا وآذانًا صُمًّا، وقلوبا غلفا، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة. وعَبَدَ اللَّهَ حتى أتاه اليقين؛ فما بقي خير إلاّ دلَّ أمته عليه، ولا سوءًا إلاّ حذّرهم عنه؛ فصلّى الله وملائكته وأنبياؤه وصفوة خلقه عليه وعلى آله وصحبه ومتابعيهم إلى يوم الدين وسلَّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى، وقولوا قولاً سديداً يصلحْ لكم أعمالَكم ويغفرْ لكم ذنوبَكم، ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا؛ واذكروا نعم الله عليكم بهذا الدين القويم، والشرع الكامل المستقيم، والرسول المصطفى الكريم؛ واحمدوا ربكم: حيث جعل لكم عيدًا عظيمًا، وموسمًا جليلاً كريمًا، يتميز عن أعياد الكفّار بنوره وبهائه، ويختص بخيره ومصالحه وبركاته؛ عيد عظيم مبني على التوحيد والإيمان، قائم بالإخلاص والتمجيد والثناء والشكر للرحمٰن، عيدنا أهل الإسلام والإيمان، ليس فيه ولله

الحمد شيء من شعائر الشرك والكفران. عيد الإفطار، عيد الفرح والاستبشار؛ عيد يملأ القلوب فرحًا وسرورًا، ويتلألأ في الإفطار فيه بهاءً وضياءً ونورا، عيدٌ يذكر المؤمنون فيه نِعَمَ مولاهم ويرشدهم إلى صلاح دينِهِم ودنياهُم؛ عيد جعل الله فيه للمسلمين مقصودَيْن عظيمَيْن:

**أحدهما**، وهو المقصد الأجل الأكبر، أنهم يحمدون الله على القيام بما فرض عليهم من الصيام، وما مَنَّ به من الطاعات والقيام، الموصلة لهم إلى دار سلام، فيشكرون الله حيث وفّقهم لإتمام صيامه وقيامه، وما تفضل عليهم من الطاعات في لياليه وأيامه، فيغدون فيه إلى المصلى مكبرين، رافعين أصواتهم بالتكبير والتهليل لربهم خاضعين، مبتهلين فيه بسؤال الكريم وملحين، راجين بذلك فضل ربهم ومغفرته ورحمته ومؤملين؛ قد فرحوا بتكميل صيامهم وقيامهم واستبشروا، وطلبوا من ربهم العتق من النار والقبول وتمام النعمة وطمعوا بذلك وانتظروا. وهو خير من أمَّله المؤملون. وطمع في فضله الطامعون.

**والمقصود الثاني**: الفرح بما أباحه الله وأطلقه لعباده من التمتع بالطيبات، من المآكل والمشارب والملابس والنعم المتنوعات؛ أمرهم بالصيام فامتثلوا راغبين، وصبروا؛ وأباح لهم الفطر فحمدوا ربهم على فضله وشكروا. الله أكبر الله أكبر لا إلَه إلاّ الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

واعرفوا، رحمكم الله، نِعَمَ الله عليكم وفضلَه في هذا اليوم السعيد، فإنه اليومُ الذي يفيضُ الله فيه على المؤمنين سوابغ نَعْمائه، ويعمهم بواسع عطائه ويوالي عليهم جوده وامتنانه، ويعمُّهم بفضله وإحسانه، تفضلَ عليهم بالتوفيق لصيام هذا الشهر وقيامه، ووفّقهم للتنوع في معاملته وتلاوة كلامه. ولم يزل يوالي عليهم بِرَّهُ حتى أتمّوه وأكملوه، ثم دعاهم للخروج إلى هذه الصلاة ليعظموه ويشكروه؛ ومد لهم موائد البِرِّ والفلاح ليسبقوا إليه ويدركوه، لما أنعم عليهم بهذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة، خرجوا في هذا اليوم

الكريم، يطلبون من ربهم الرحيم أن ينجز لهم ما وعدهم، وأن يتمَّ عليهم من نِعمه ما به ابتداهم، فيغفر زلاتِهم، ويجزل هِبَاتِهم، وأن يتقبل منهم الصيام والصلاة، ويضاعف لهم الحسنات ويرفع لهم في غرفة الجنة عالي الدرجات؛ وأن يغني فقيرهم ويجبر كسيرَهم ويجودَ على مُعسرهم ويتجاوزَ عن موسِرهم؛ وأن يجمع شملهم ويصلح ذات بينهم وأن يوفقهم لجميع الخيرات، وترك المنكرات.

فأحسِنُوا ظنَّكم بربكم وآطمعوا غاية الطمع في فضله العظيم. وآشكروه على ما أولاكم وهداكم، وما ساقه إليكم من مواسم الخيرات وأعطاكم؛ وأَكْثِروا من ذكره والثناء عليه، وأخلصوا له العمل لتنالوا جزيل ما لديه؛ وإياكم أن تقابلوا هذه النِّعم بضدِّها، فَتَبُوؤُوا بمحقِها وضدِّها. أعاد الله عليَّ وعليكم من بركات هذا العيد، وأمَّنَنَا وإياكم من فضائح يوم الوعيد؛ وجعل مواسم الخيرات لنا مربحاً ومَغنماً، وأوقات البركات والنفحات لنا إلى رحمته طريقاً وسُلَّماً. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

**﴿وسارِعُوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

## خطبة
## في الحج

الحمد الله الذي فرض الحج لبيته الحرام، وجعل قصده مكفِّراً للذنوب والآثام، ولم يرضَ لمن أكمله وقام بحقوقِه جزاءً إلّا الفوز برضوانه في دار السلام؛ أحمده أن جعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليه محبة وشوقاً، فهم يترددون إليه ويزدادون لهفاً عليه وتوقاً؛ فقلوبهم على الدوام تحن إليه، وعاجزهم يتأسف لانقطاعه عن الوصول إليه؛ فسبحان من دعا عباده لحج بيته الحرام، ليسبغ عليهم جزيل الإحسان وأوفر

الإنعام، فأقبلوا إليه من كل فجٍّ عميق رجالاً وركبانًا، وتركوا لأجله أولادًا وأهلاً وأوطانا وأخدانا، وبذلوا نفوسهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا: ليشهدوا منافعَ لهم فيها صلاحُ دينهم ودنياهم، ويحضروا مشاهدَ يدركون بها مأربَهم ومُناهم، فتبارك الذي مَنَّ عليهم وهداهم، وأوفدهم إلى كرامته وحداهم؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحدَه، لا شريكَ له في ألوهيته وربوبيته وصفاته وأفعاله، وهو المنفرد بأنعامه على الخلق وأفضاله؛ وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلىّ الله عليه وعلى أصحابه وآله، وعلى التابعين له في أقواله وأفعاله، وجميع أحواله.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى، وقوموا بما أوجب الله عليكم من حجِّ بيته وقصد حرمه، وارغبوا فيما يفيضه على قُصّاد بيته من جوده وكرمه، ومن الفضائل والمواهب المتنوعة والنوافل. قال تعالى، ومن أصدق من الله قيلاً:

**﴿ولِلَّهِ على الناسِ حِجُّ البيت مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً، ومن كفر فإنّ اللَّهَ غنيٌّ عن العالمين﴾** [سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: (إن الله فرض عليكم الحج فحِجُّوا). وسُئِل: (أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: إيمان بالله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور). وقال: (من حَج هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسِق خرج من ذنوبه كيومِ ولدته أمه)؛ (العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينها. والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة)؛ (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقرَ والذنوبَ كما ينفي الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة؛ وليس للحجة المبرورة ثواب إلاّ الجنة)؛ (الحجاج والعُمّار وَفْدُ الله: إنْ دَعَوْهُ أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم)؛ (إذا كان يومُ عَرَفَة فإن الله يَنزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكةَ فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُعثاً غُبراً، ضاحين من كل فج عميق؛ أشهدكم أني قد غفرت لهم. فتقول

الملائكة: فيهم فلان يُرَهِّق وفلان وفلانة. قال: يقول الله إني قد غفرت لهم. فما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم ِ عرفة)؛ (وما رئي الشيطان أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحرَ ولا أغيظَ من يوم عرفة).. وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظائم. أَلَا راغبٌ في مشاركة الوافدين لبيت الله إلى هذه الكرامات والإحسان.. أَلَا مشتاقٌ إلى تلك المشاعر العظيمة وما يُعطي الله فيها من الخيرات وإجابة الدعوات والامتنان.. أَلَا تاركٌ محبوباتِ نفسه لمحبة الرحيم الرحمن.. فمن ترك شيئاً لله عَوَّضَهُ الله خيراً منه في غرف الجنان؛ فما أعظم الأسف على من يشاهد الراحلين إلى بيت الله وهو مقيم مـع المتخلفين، وما أشد الحرمان على من فاتته الأرباح في مواقف البركات فأصبـح من الخاسرين،

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُمْ أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكر الله ومن يَفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون * ـ إلى آخر السورة﴾**

[سورة المنافقون: الآيات ٩ ــ ١١]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحـج

الحمد لله الذي أوجب حِـجَّ بيته في العمر مرَّة على من استطاع إليه سبيلاً، وأوجب المغفرة والجنة لمن حجَّه فلم يرفِث ولم يفسِق وقام بحقوقه إجمالاً وتفصيلاً؛ وأشهد أن لا إِلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له، كلمة عليها قيام الدين والملة، وعليها أسس الجهاد وشرعت القبلة، ولأجلها دعا الرب عباده لحـج بيته الحرام، ليغفر ذنوبهم ويتمم عليهم الفضائل والأنعام؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، أعظم داعٍ لقصد هذا البيت الكريم، وأفضل ساعٍ إلى مراضي الرب الرحيم؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، آتقوا الله تعالى، وآعلموا أن مِنْ أعظم حقوق الإسلام حـجَّ هذا البيت العتيق؛ قال تعالى:

**﴿وأذِّنْ في الناس بالحَـجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فَـجٍّ عميق﴾** [سورة الحج: الآية ٢٧]

فلا يتمُّ إسلام العبد حتى يقوم بهذا الفرض العظيم، حيث جعل الله إسلام العبد المستطيع متوقفاً على تكميله والتتميم، وجعْله طريقاً إلى حصول المغفرة والوصول إلى جنات النعيم؛ وقد جعل الله هذا البيت مثابة للناس إليه كل عام يترددون، ولا يقضون منه أوطارهم ولا ما كانوا يريدون، فهم بالإحرام والتلبية يعجّون، وبأنواع الأذكار والأدعية في تلك المشاعر يلهجون، وحول بيت ربهم يطوفون ويسعون ويتقربون، ولحوائـج دينهم ودنياهم يطلبـون ويسألون، وبمراضي مولاهم ومحبوباته يقومون، ولدماء القربـان والهدايـا يثجون، وبالخشوع والخضوع والانكسار يضجّون، ولإحسان الكريم يرجون ويؤملون؛ وهو الذي لهذه المشاعر دعاهم، ومنّ عليهم ووفقهم وهداهم، وهو الذي أوفدهم بتوفيقه وحداهم، أفتظن مـع هذا أن يخيبَ رجاهم، أم تحسبه يرد سؤالهم ودعاهم. . فحاشا جود أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وخير الغافرين، فإنه ما أوفدهم ووفقهم للقيام بهذا النسك الجليل، إلا ليغمرهم بفضله الجزيل، ولا حثَّهم إلى الوصول إلى تلك العرصات، إلا لينوِّع لهم أصناف العطايا والكرامات، ولا أمرهم بالدعاء والاستجابة، إلا ليرتِّب على ذلك القبول والإجابة والإثابة.

فبالله لو دعاكم ملك من ملوك الدنيا للوفود إليه، ليهب لكم شيئاً من حطام الدنيا ويقرِّبَكم إليه، ولو ذُكر لكم موضـع قريب أو بعيد، تربـح فيه البضائـع وتستفيد، لسارعتم إلى ذلك مشاة وركباناً، ولتسابقتم إليه زرافات ووحداناً، مـع قلة حاصل ما يحصل لكم وفنائه، وتعب كل منكم وعنائه، ومشقته وشقائه، والرب قد دعاكم، ليحسن قِراكم ويكرم مثواكم، ويغفر

ذنوبكم، ويزيل شقاكم، ويجزل لكم الخيرات ويحقق رجاكم، ويصلح لكم دينكم ودنياكم، وأنتم عن هذه المطالب الجليلة معرضون، وفي المصالح والمنافع الحقيقية زاهدون، فكيف لا يخجل من يسابق إلى الوفود إلى المخلوقين، من التخلف عن الوفود إلى رب العالمين، وقد وعدكم وهو لا يخلف الميعاد، وضمن لكم منافع الدنيا والآخرة وخيره ليس له نفاد؟ وأمركم أن تشهدوا منافع لا تستغنون عنها، وفوائد جسيمة أنتم مضطرون ومفتقرون إليها؛ فيا فوز المسابقين إلى هذه الخيرات والكرامات، ويا أسف المفرطين حين يتحقق الخسران عليهم وتتتابعهم الحسرات. وفقني الله وإياكم إلى الوصول إلى حرمه وأجزل لي ولكم من موائد جوده وكرمه:

**﴿إنّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ للذي ببكةَ مبارَكاً وهُدىً للعالمين﴾**

[سورة آل عمران: الآية ٩٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحج أيضاً

الحمد لله جعل الوفود لبيته حاطًّا للذنوب والأوزار، موجباً لرضى الله ودخول دار القرار، منجياً من المهالك وعذاب النار؛ وأشهدُ أن لا إله إلّا الله، وحدَه لا شريكَ له العزيز الغفار؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، النبيُّ المختار؛ اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الأطهارِ، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى واعلموا أن دين الإسلام مبني على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام؛ ومن استطاع السبيل فلم يحجَّ فإسلامه وإيمانه ودينه في اختلال، وهو أعظم جُرماً من الزاني والسارق

وشارب الخمر والمختان؛ قال عمر رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث إلى هذه الأمصار رجالاً فمن وجدوا عنده سعة للحج فلم يحجَّ فليضربوا عليهم الجزية: ما هم بمسلمين! ما هم بمسلمين!».

وكيف يكون العبد عنده إسلام وإيمان وهو يسمع داعي الحج قد أسمع القريب والبعيد، وتوعد التاركين له بالعقوبات الصوارم وأكده غاية التأكيد، فجعل قصده متمِّماً للإسلام مؤدِّياً لفرض من أعظم فروض الإسلام، حاطًّا للذنوب والأوزار والآثام، موجباً لدخول دار القرار، مخرجاً للعبد من نعت الفُجَّار إلى صفة الأبرار، وقد جعله الله موسماً ومثابة للناس يطلبون فيه من الله حاجاتهم، ويلجأون إليه في مهمّاتهم وملمّاتهم، ويتنوعون فيه بأنواع العبادات، وأصناف البِرِّ والقُرُبات، وموائد أمدها لوفود بيته وحَرَمه، ليفيض عليهم من ألوان جوده وكرمه، فهم متعبدون خاضعون لربهم في مقاماته وعرصاته، متضرعون في أرجائه وجهاته، مقيمون لذكر ربهم والثناء عليه في تلك المشاعر العظام، بأنواع التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير للملك العلام، ليملأ قلوبهم أمناً وإيماناً وصدقاً وإخلاصاً وإيقاناً.

والحج ليس له نظير من العبادات ولا مشابه من القربات، فحسبكم من عبادة مبنية على الإيمان والإخلاص والتوحيد، مشتملة على التلبية والخضوع والخشوع والإنابة للولي الحميد، محتوية على عقائد وإرادات نافعة قلبية، وعلى أعمال صالحة بدنية، وعلى أذكار وتضرعات وتلبية متعلقة بالقلب واللسان، وعلى نفقات مالية وذبح للقربان، وعلى ترك للمألوفات والمحبوبات، التي مَنْ تَرَكَها للَّهِ عَوَّضه الله خيراً منها في دار الكرامات. فما ظنك بعبادة تستغرق من عمر العبد زماناً طويلاً، فيعوَّض عن ذلك أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً.. فهو في عبادة من حين يخرج من بيته ومقرِّه ومثواه، حتى يصل منتهى سيره ثم يعود إلى مبتداه؛ فهو في عبادة إن قام أو قعد، أو مشى أو ركب أو استيقظ أو نام، أو سار في سفره أو أقام، أو كان في ذكر أو دعاء

أو صلاة، أو في راحة أو غفلة أو سبات، ولا فرق بين كونه سائراً في الطريق، أو واصلاً إلى البيت العتيق، أو في عشرة الصاحب والملازم والرفيق؛ فكل ما هو فيه من جميع أحواله؛ فهو متقرب به إلى مولاه راجٍ لنواله:

**﴿ذلك بأنهم لا يصيبُهُم ظمأٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله﴾**

[سورة التوبة: الآية ١٢٠]

وفقني الله وإياكم للجد وحسن القصد في طلب رضوانه، وغَمَرَنا بجوده وإحسانه. قال الله تعالى:

**﴿وأَذِّنْ في الناس بالحَجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كل ضامِرٍ يأتينَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عميق * ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا آسمَ اللَّهِ في أيامٍ معلوماتٍ على ما رَزَقهم من بهيمةِ الأنعام﴾** [سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

## خطبة
## في الحج أيضاً

الحمد لله الولي الحميد الفعّال لما يريد، الذي خضعت له الرقاب وذَلَّت له جميع العبيد، وأشهدُ أن لا إله إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريك له ولا نديد، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، سيدُ الرسل وخلاصة العبيد؛ اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أولي الأخلاق الفاضلة والقول السديد، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الوعد والوعيد، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، آتَّقوا الله الملكَ العلاَّم، وبادروا إلى حج بيته الحرام، واغتنموا ما فيه من الأجور العظيمة ومغفرة الذنوب والآثام؛ أما علمتم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة، وأنه ينفي الفقر والذنوب ويوجب كل خير من ذي الكرم والمنة؟ أتدرون ما هو الحج المبرور؟ هو الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة: الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول؛ أما

الإخلاص: فأن يقصد العبد بحجه وجهَ ربِّه وطلبَ رضوانه، والفوز بمغفرته وثوابه وجنانه، فيكون العبد محتسباً في هَمِّـه ونَصَبه ونفقاته، راجياً للثواب في حله وترحاله وسعيه وخطواته، عالماً أنه في عبادةٍ متصلةٍ من خروجه من وطنه ـ بل من شروعه في استعداده وجمـع آلاته، فهو في عبادةٍ في جميـع حركاته وسكناته، إلى أن يرجـع إلى مقره حائزاً للسلامة والقبول والغنيمة الرابحة ومضاعفة حسناته؛ وأما المتابعة للرسول: فأن يقتدي به في حجه وعمرته في أقواله وأفعاله، فإنه قال: (خذوا عني مناسككم) وهذا شامل لجميـع أحواله.

وقد أمر أصحابه الذين لم يسوقوا الهدي أن يُحرموا بالعمرة، متمتعين بها إلى الحـج، فعندما يأتي أحدُكم الميقاتَ فليغتسلْ ويتنظفْ ويتطيبْ، ثم ليتجرد من اللباس المعتاد ويلبس إزاراً ورداء أبيضين نظيفين ونعلين؛ ثم إذا صلى الصلاة الحاضرة نوى الإحرام بالعمرة متمتعاً بها إلى الحـج، فيقول على وجه الإخلاص والتعظيم، والخضوع للملك العظيم: لبيك عمرة، ثم ليهل بالتلبية والتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. هذه تلبية النبـي ﷺ، فلا يزال أحدكم يلبِّـي بها، وكلما كرر التلبية عدة مرات ذكر فيها نُسُكَه. لَبَّيك عُمرة.

ثم اعلموا أن المقصود من كشف الرأس ولبس الإحرام ونزع المخيط، هو الانكسار والذل والإنابة للرب المحيط، فليكن الخشوع ملازماً لكم في ظاهركم وباطنكم، وفي أقوالكم وأفعالكم، الإهلال بالتلبية شعاركم، وآثار الذل من هيئة الإحرام وصفته دثاركم، والخشوع والخضوع مـلء قلوبكم، والطمـع في مغفرة الله ورحمته وأجره غاية مطلوبكم.

وعند وصولكم ودخولكم للمسجد الحرام، فارفعوا قلوبكم وأكفكم وأصواتكم للملك العلام، قائلين: «اللهم أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرام؛ اللَّهمَّ زِدْ هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبِرّاً، وزِدْ من عظّمه ممن حجّه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبرّاً. الحمد لله

رب العالمين»، ثم أسرعوا في طواف العمرة خاشعين، واستلموا الحجر الأسود مقبلين، قائلين: «بسم الله والله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك، واتِّباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ»، وأفضل ما ينبغي أن يقال في الطواف والسعي وسائر المناسك: أن يكثر من ذكر الله والتسبيح والتحميد والتكبير، فإنما شرعت جميع المناسك لإقامة ذكر الملك الكبير، وَلْيَدْعُ أحدُكم بما أحبَّ من خير الدنيا والآخرة، فإن الله يسبغ على عباده في تلك المشاعر والمواقف النِّعَمَ الباطنة والظاهرة، فإذا فرغتم من الطواف فصلُّوا ركعتين خلف المقام. ثم عودوا إلى البيت والحجر بالاستلام. واخرجوا إلى السعي من باب الصفا، ناوين سعي العمرة بالتمام والوفاء، وقولوا:

﴿إنّ الصَّفا والمروةَ من شعائر الله﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

وقِفوا على الصَّفا والمروةِ مستقبلي القِبلة، وكبِّروا الله وهلِّلوه ثلاثاً، وقولوا: «لا إله إلّا الله وحدَه، لا شريكَ له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير؛ لا إله إلّا الله، وحدَه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» كرِّروا ذلك ثلاثاً، ثم انزلوا ماشين متضرعين، ساعين بين الميلين الأخضرين، بنبيكم مقتدين، ثم احلقوا وقَصِّروا عند الفراغ والتمام، راجين من ربكم القبول والمغفرة وحسن الختام.

وبهذا قد تمت عُمرتكم، فالبسوا ثيابكم، وآحمدوه وسلوه أن يغفر لكم ويُجزلَ ثوابكم؛ ثم لا تزالون بحلكم مستمتعين، حتى يكون يوم التروية فتخرجوا إلى منى وعرفات بالحج محرمين، واقفين في تلك المشاعر داعين مستغفرين، متمِّمين لنُسككم قاضين تَفَثَكم ببيت ربكم مطوِّفين، تسألون ربكم أن يجعله حجًّا مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وعملاً مقبولاً وأجراً موفوراً:

﴿الحج أشهر معلومات ـ الآيات﴾

[سورة البقرة: الآيات ١٩٧ وما بعدها]

# خطبة
# في الحج أيضاً

الحمد لله الملك الغفّار، الرحيم الكريم الستّار، ذي الفضل والكرم والخير المدرار؛ وأشهد أنْ لا إلَه إلاّ اللّهُ، وحدَه لا شريكَ له في الخلق والاختيار، ولا نظير له في صفات العظمة ونعوت الاقتدار؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه المصطفى المختار؛ اللّهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله تعالى فقد دعاكم مولاكم إلى ما فيه منافعكم ومُناكم: دعاكم إلى أم القرى، ليجزلَ لكم الضيافة والقِرى؛ دعاكم إلى أمكنة عظيمة، ومشاعر كريمة، ليسبغ عليكم نعمه العميمة؛ فطوبى لمن استجابوا فأجابوا داعي الله، فلقد بلّغ كل منهم غاية مناه؛ هانت عليهم في جانب رضى ربهم المشقّات، وبذلوا في طاعته نفائس الأموال وجزيل النفقات، واحتسبوا الأجر وجزيل الحسنات؛ قصدوا ربًّا كريماً حسيباً، وأمُّوا إلَهاً قريباً مجيباً، وقفوا في تلك المشاعر خاشعين، ورفعوا أكفَّ الافتقار إليه متضرِّعين، وأسبلوا العبرات متذللين، يقولون: يا ربنا لقد تعاظمت منا المعاصي والذنوب، وتراكمت علينا النقائص والعيوب، وتوالت على قلوبنا الغفلات فأَمْرَضَتْها، وقيدت نفوسَنا الشهواتُ فأهلكتها، ونحن يا مولانا في عفوك طامعون، ولخيرك وكرمك وجودك مؤملون؛ فنحن الفقراء إليك، الأسرى بين يديك، إن قطعْتَنا فمن يَصِلُنا؟ وإن أَعْرضْت عنّا فمنْ يقبلُنا ويتقبَّلنا؟ وإن منعتنا فمن يعطينا؟ وإن لم تغفرْ لنا وترحَمْنا فمن الذي يرحمُنا ويكفينا؟

ليس لنا رب سواك فندعوه، ولا لنا مولى غيرك فنؤمله ونرجوه، ولا لنا ملجأ ولا منجى ولا ملاذ نلتجي إليه وندعوه؛ إليك نفزع في مهماتنا وملماتنا، وإليك نضرع في قضاء حاجاتنا. لم تزل آلاؤك تتكرر علينا على الدوام، ولا

زالت ألطافك تدفع عنا البلايا والأسقام، فكم قصدناك في حاجة فقضيتها، وكم فزعنا إليك في شدة فكشفتها، وكم لجأنا إليك في مهمة فسهَّلْتها ويسَّرْتها، فها نحن واقفون بين يديك، رافعون أكف الضراعة والابتهال إليك؛ اللهم فآرحمْ خضوعنا، وآقبَلْ خشوعنا، وآجبر قلوبنا، وآغفر ذنوبنا، وأنلنا يا مولانا مطلوبنا، فهم في كرم الكريم طامعون، يرجون من ربهم أن يعطِيَهُمْ فوق ما يؤملون، وأن يعيذهم من شرور أنفسهم وسيئات ما كانوا يعملون.

هذه حال ضيوف الله ووفودِه، وقولُهم في سيدهم ومضيفهم يرجون جودَه، فلو رأيتهم في تلك المواقف وقد خضعت منهم الرقاب، وعنت قلوبهم ووجوههم لرب الأرباب، قد تنوعت مآربهم ومطالبهم، وتباينت غاياتهم ومشاربهم، والله لا يتبرم بإلحاح الملحِّين، ولا يبالي لكثرة أسئلة السائلين، لا يشغله سمع صوت مدنف سقيم، عن صوت داعٍ وراجٍ لكرم الكريم، ولا تغلطه المسائل على كثرتها؛ ولا تكرثه الحوائج على عظمتها:

﴿وإذا سألك عبادِيْ عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشُدُون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

## خطبة
## في فضل الصحابة

الحمد لله الذي فضّل أصحاب رسوله محمدٍ بالعلم والعمل وسائر الفضائل، وحماهم من مساوىء الأخلاق وموبقات الرذائل؛ أحمده على كمال صفاته ونعوته وخيره الكثير، وأُثني عليه بإحاطة علمه وسَعة رحمته وبديع حكمته في التفضيل والتشريع والتقدير؛ وأشهد أنه الإلّه حقًّا المعبودُ صِدقاً، فلا شريك له في ربوبيته ولا نديد له في ألوهيته ولا سميَّ له ولا كفء ولا

نظير؛ وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار. اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء النبلاء الأخيار.

أما بعد: أيها الناس، آتقوا الله وأطيعوه، واعرفوا قَدْرَ أصحاب نبيِّكم وما وصفهم الله به من المناقب، وعلو المراتب، فإن محبتهم واعتقادَ ما آتاهم الله من الفضائل داخل في الإيمان بالله ورسوله؛ فإنهم الواسطة بين الأمة وبين نبيها في نقل الشرع والدين؛ نقلوا الشريعة عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً، وبَلَّغوها لكافة الأمة تبليغاً كاملاً ومقالاً فَصْلاً؛ وفتحوا القلوب بالعلم والإيمان، كما فتحوا البلاد بالسيوف والسنان. فوصل الخير بأسبابهم لأول الأمة وآخرها، ونشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وكانوا هم الغاية في العلوم النافعة والأخلاق العالية والآداب السامية والأعمال الصالحة؛ وهم النهاية في البصيرة وحسن السياسة والآراء الصائبة، وقد وصفهم الله بأكمل الصفات، فقال:

﴿محمدٌ رسولُ الله ــ إلى قوله ــ أجراً عظيماً﴾

[سورة الفتح: الآية ٢٩]

فوصفهم بالشدة على الكافرين والرحمة للمؤمنين، وذلك عنوانٌ على كمال محبتهم وموافقتهم لرب العالمين، وأنهم مع قيامهم بحق العباد فهم قائمون بحقوق الله ظاهراً بإقام الصلاة وفعل الخيرات، وباطناً بحسن النية وابتغاء الفضل من الله والرضوان والكرامات، وبالخضوع والخشوع الذي أَثَّر في وجوههم بعد تأثيره في القلوب وأنهم في التوادِّ والتَّناصح والتآلف والاجتماع على دينهم والقيام به على غاية المطلوب؛ وقال ﷺ مبيناً كمال إيمانهم وصدقَ إيقانِهم وإخلاصهم ووفورِ فضلهم، (لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، وكيف يبلغ الغيرُ مبلغَهم وقد سبقوا إلى كل خير، وفازوا بصحبة الرسول، وشاهدوا المعجزات ومحكم التنزيل، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده وكان الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي، ولهم من الفضائل والسوابق ما فاقوا به جميع الأمم، دانيهم والقاصي.

ولهم من المنن على الناس ما يوجب عليهم محبتهم واعتقاد فضلهم ونشر محاسنهم والسكوت عما جرى بينهم، وأن السابقين الأولين منهم أفضل ممن بعدهم، وكلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسني فيشهدون بالجنة لجميعهم خصوصاً أهل بدر وبيعة الرضوان، وأخص من ذلك العشرة الكرام وذوو الإحسان، وأن زوجات نبيهم أمهات المؤمنين في الاحترام والمحبة واعتقاد ما لهن من الفضل المبين وأنهن زوجات نبيهم في الدنيا والآخرة ولهن المقامات العالية والفضائل الفاخرة، ويقولون:

﴿ربَّنا آغفِرْ لنا ولإِخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبِنا غِلًّا للذين آمنوا، رَبَّنا إنَّكَ رؤوفٌ رحيم﴾ [سورة الحشر: الآية ١٠]

﴿وما لَكُمْ أَلَّا تنفقوا في سبيل الله﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

## خطبة
## في صلة الرحم والأقارب

الحمد لله الذي جعل صلة الرحم مَنْسأة في العمر مَثْراة في المال، ووصل الواصلين من بِرِّه وكرمه في الحال والمآل، وقطع القاطعين في أعمارهم وأرزاقهم وإنما الجزاء من جنس الأعمال، فسبحان من جعل عباده متفاوتين في الأخلاق والفعال، متباينين في البر والصلة وفي جميع الخلال؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحدَه لا شريك له الكبير المتعال، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيد الرسل وأفضل العالمين في جميع صفات الكمال، اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه خير صحب وأشرف آل، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، آتقوا ربكم، وصَلُّوا خَمْسَكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أَمْرِكُم، وصِلُوا رَحِمَكُم تدخلوا جنة ربِّكم؛ وآعلموا أن للأقارب حقوقاً لازمة على المُتَّقين، وأنَّ القيام بها من أعظم ما يقرِّبكم إلى رب

العالمين، وكلما اشتد القرب وزاد الاتصال، صار الحق أكبرَ والثواب بالقيام به أفضل عند الكريم ذي الجلال. أما علمتم أن الله كرّر الأمر عليكم بالإحسان إلى الأقارب رحمةً من الله، وأن القاطع بعيدٌ من الرحمة ملعونٌ في كتاب الله، وأنه لا يدخل الجنة قاطعُ رَحِمٍ، فمن قَطَعها قَطَعهُ اللَّهُ؛ أما علمتم أن الصلة بركة في الأعمال والأرزاق والأموال؟ وفسحةٌ في الآجال موجبة لمحبة الأهل والآل؟ وأنه لا يتم إيمانُ عبدٍ إلّا بصلة أرحامه وأقاربه، وأن الواصل قد فاز من ربه بفضله وثوابه؟ فطوبى للواصلين برضى الله وكرمه ونواله، وما أحقهم بعلو الدرجات ونيل الكرامات في عاجل الأمر ومآله.

أيها الواصل هنيئاً لك؛ أيها القاطع بُعداً لك، أيها الواصل هنيئاً لك بطاعة الله ورسوله، ويا فوزك بثواب ربك ورضوانه وإدراك مأموله؛ أيها القاطع خيبةً لك بمعصيةِ الله ورسوله والوِزْرَ الثقيل، وما أخسر صفقتك بحرمان الخير الجزيل، تصل الصديق وتقطع القريب، وتدني البعيد وتقصي النسيب، فلا القريب حصل على برك في المقال والأفعال، ولا الصديق على ثقة من بقاء الصحبة وحسن الاتصال، فأبعدَ اللَّهُ أخلاقاً بهذه المثابة، ولا بارك في أموالٍ وأحوالٍ قد حُرِمت منها القرابة؛ فالسعيد من مقت القطيعة والعقوق، وألزم نفسه بالقيام بجميع الحقوق، فأصبح سالماً في دينه مرضياً في أخلاقه وآدابه، محبوباً في أهله وأرحامه وأنسابه:

**﴿وآتِ ذا القُربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيل﴾**

[سورة الإسراء: الآية ٢٦]

# خطبة
# في الإحسان إلى البهائم

الحمد لله الذي كتب الإحسان على كل شيء من المخلوقات، وحَرَّمَ الإضرار والإساءة بالآدميين والحيوانات، المجازي بالإحسان إحساناً، وبالإساءة عقوبةً وهواناً، ونشهد أن لا إلَه إلا اللَّهُ، وحدَه، لا شريك له إيماناً به وتسليماً وإيقاناً، وطاعةً لأمره وانقياداً لشرعه وإذعاناً؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسولُه أكمل الخلق خُلُقاً وأعظمُهم رحمة وشفقة وإحساناً؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه الذين كانوا للحق أنصاراً وأعواناً، وعلى الأخوة الدينية والشفقة الإيمانية إخواناً.

أما بعد، أيها الناس:

**﴿وآتَّقوا الله الذي تَسَاءَلون به والأرحامَ إن اللَّهَ كان عليكم رقيباً﴾**
[سورة النساء: الآية ١]

واتقوا ظلم البهائم وما ملكت أيمانُكم إنّ الله كان عليكم حسيباً، فالراحمون يرحمهم الرحمن، آرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، اللَّهَ اللَّهَ عبادَ الله فيما ملكت أيمانُكم مما سَخَّر لكم من بهيمة الأنعام، فإنها وصايا وأماناتٌ في أعناقكم لا بد أن يسأَلَكم عنها الملكُ العلّام، فإنْ أنتم قُمتم بكفاياتها، ورَعيْتُموها حقَّ رعايتها، ولاحظتموها بالأعلاف والإكرام، أثابكمَ مولانا بالأجْر الكثير، وبارك لكم في كدِّها وأتم عليكم الإنعام، وإن أنتم أَجَعْتُموها وحَمَّلْتُموها فوق طاقتها، ولم تراعُوا فيها العهد والذمام، فإن لها ربًّا سيأخذ لها حقَّها؛ وما ربُّك للعباد بظلَّام؛ أَلَا فاتَّقوا ظلمَها، فإن الظالمَ لها يعاقَبُ بالضُّرِّ والمَحْق؛ وتُنزع منه البركة وتَعسُر أحوالُه ويُضَيَّق عليه الرزق، أما رأيتم من أكرم بهائمه وخاف اللَّهَ فيها كيف أكرمه الله بالخير ونمَّاه؟ وصبَّ عليه الرزقَ وأصلحَ له دينه ودنياه؟

أما تشاهدون الظالمين لبهائمهم في شقاءٍ في معيشتهم، وضنكٍ من

أحوالهم وتعسُّرٍ في أمورهم، وما آدُّخر لهم من العقوبة أعظم، وما فاتهم من الخير أكثر، فإنه من لا يرحم لا يُرحم؟ فرحم الله عبداً عرف نعمةَ الله في تسخيرها لمصالحه فأكرمها ولم يُهِنْها، ولم يحمِّلها فوق ما تُطيق ولم يُجِعْها ولم يَلْعَنْها؛ ويا خيبة من كفر نعمة الله بها فأجاعَها وشَتَمها وآذاها. أما علمتم أن ذلك ظلمٌ متضاعفٌ ولعنتُه يعودُ عليه شَقَاها، فالله قد سخّرها لحملِكَ وحملِ أثقالك، وإخراج مائك وقضاءِ مآربك وأشغالك، وتفضَّل بها عليك للكدِّ عليك وعلى عِيالك، ثم أنت مع ذلك تكفُرُ هذه النعمةَ بقلةِ الشُّكر والإِهانة لها والتجويعِ والتعذيب، فمن أقام على هذه الحال فليُبْشِرْ بالخيبةِ والخسارِ والتَّتْبِيب، فقد عُذِّبت في النار امرأة في هِرة حَبَستها وأجاعتها عذاباً شديداً، فكيف حالُ من جَوَّع هذه البهائمَ التي أكّد الشرعُ حقَّها عليكم تأكيداً:

﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وَلَدَارُ الآخرةِ خيرٌ وَلَنِعْمَ دارُ المتَّقين﴾ [سورة النحل: الآية ٣٠]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في معنى الكَيِّس

الحمد لله الذي فاوت بين عباده في النقص والكمال، ويسَّر من أراد به خيراً لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال، وخَذَل المعرِضين عن ذِكره فارتَكَسُوا ووقعوا في أسوأ الأحوال؛ فسبحان مَنْ لَهُ الحكمةُ في أقضيته بحيث جرت أقدارُه على أكمل نظام وأحسن موقع ومنوال؛ ونشهدُ أن لا إله إلاّ اللَّهُ، وحدَه، لا شريك له، ذو العظمة والكبرياء والجلال؛ من له الأسماءُ الحسنى والصفات العليا ونعوتُ الجلال والجمال؛ ونشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه،

أفضلُ الرُّسل في جميـع الصفات والخِلال؛ اللَّهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم في العقائد والأقوال والأفعال، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، ﴿يا أيها الذين آمنوا آتقوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمَتْ لِغَدٍ وآتَّقوا اللَّهَ إنّ اللَّهَ خبير بما تعملون﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨]

فحاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبُوا وزِنُوا أعمالَكم وقابِلوا بين صالحها وسيِّئِها قبل أن تُوزَنُوا، فإن الكَيِّسَ من دانَ نفسَه وعمِل لما بعدَ الموت، والعاجزَ من أتبـعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأمانيَّ؛ فمن حاسبَ نفسَه وآجتهد في إزالة ما فيه من الأخلاق الرذيلة، وجاهَدَها للتحلِّي بالأخلاق الجميلة، فقام بحقوق ربه جاهداً مجتهداً، وسَلَك سبيلَ الهدى وكان في سبيله مقتصداً، تائباً من ذنوبِه معترفاً بعيوبه، راجياً من ربه قبول توبته وإدراك مطلوبه، ساعياً في بِرِّ والديه وصِلَةِ أرحامِه والقيـام بحقِّ معلِّميه، قـائماً بحق جيـرانه وإخـوانه ومعامِليه، متحرِّياً الصدقَ والبرَّ والإحسانَ، لا يزال لسانُه رَطْباً من ذِكر الملك الدَّيَّان، سليمَ القلب مِنَ الرِّياء والكِبْرِ والحسدِ والحِقد والهوى، حافظاً للسانه من الغيبة والنميمةِ والكَذِبِ والفُحش والزُّور والبذاء، مخلصاً في أعماله لا يريد بها سوى ثواب ربه ورضاه، محسناً في اتِّباع نبيِّه، مقتدياً بسنته وهداه، فهذا هو الكَيِّس الذي أدرك الفوزَ واغتنم الفلاح.

والعاجزُ من أخلد إلى الكسل والبطالةِ واتباعِ الشهوات؛ ففاتته المتاجرُ والأرباحُ، فهذا أحمقُ جاهلٌ تمنّى على الله الفوز بالجنات، وهو قد أعطى نفسَه هواها وترك الأعمال الصالحات:

﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢١]

فذاك حياتُه حيـاةُ خيرٍ وسرورٍ، وفي قبره قدِ افترش الديباجَ وآلْتَحَفَ بالنور، وفي حشره قد سبق وأخذ إلى الرب الغفور، وحين وصوله إلى تلك المساكن

الطيبة الأنيقة والديار، تتلقاهم الملائكةُ من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار؛ والآخَرون حياتهم حياة همٍّ وغمٍّ وكسلٍ وشقاء، وموتُهم حُزن وهلاكُ وردى؛ ومقامُهم في أضيق مكان وعذاب سرمداً؛ فما أبعدَ الفرقَ بين الفريقين، وما أشد التباين بين الطريقين:

**﴿لا يَستوي أصحابُ النَّارِ وأصحابِ الجنةِ، أصحابُ الجنةِ هم الفائزون﴾** [سورة الحشر: الآية ٢٠]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحضِّ على الزكاة

الحمد لله الذي جعل الزكاة أحدَ أركان الإسلام، ووعد من أَخرجها كاملةً مُوفَرة خالصةً الخُلفَ العاجلَ والنعيمَ المقيمَ في دار السلام، وأوعد مَنْ مَنَعَها أو مَنَعَ بَعْضَها بعقوبةِ الدُّنيا والآخرة والعذابِ الأليم في دار الآلام؛ فهو الذي أنعم على عبادِه بالأموال الجزيلة، وفَرَض عليهم فيها زكاةً مُنْمِيةً للأموالِ وللأخلاقِ الجميلة، مُطَهِّرَةً مِنَ الأخلاق الرذيلة؛ أعطاهم الشيء الكثير وطلب منهم لأنفسهم الشيء اليسير؛ وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ اللَّهُ، وحده، لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، البشيرُ النذيرُ والسِّراجُ المُنير؛ اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه الذين بذلوا جهدهم في طاعة الملك الكبير وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، آتّقوا الله تعالى، وآعلموا أن الزكاة من أفرض الفرائض وأوجب الواجبات؛ وأنها مقرونة في عدة آيات مع الصلاة، فكما أن من لا يصلي أو يصلي صلاة ناقصة فقد أخل بالإسلام والدين، فمن لا يزكِّي أو يزكِّي بعضَ مالِهِ دونَ بعضٍ فقد استحق العذابَ المهين، فقد قال تعالى في حق المانعين:

﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُون بما آتاهُمُ اللَّهُ من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يوم القيامة﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٨٠]

﴿والذين يكنِزُونَ الذَّهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذابٍ أليمٍ * يومَ يحمى عليها في نارِ جَهَنَّمَ فتُكوى بها جِبَاهُهم وجنوبُهم وظهورُهم، هذا ما كَنَزْتم لِأَنْفُسكم فذُوقوا ما كُنتم تكنِزُون﴾

[سورة التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥]

وقال ﷺ: (من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه مُثِّلَ له يومَ القيامة شجاعاً أقرعَ له ربيبتان يطوِّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ــ يعني شدقيه ــ ثم يقول: أنا مالُكَ أنا كَنْزُك. وما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدِّي حقَّها إلاّ إذا كان يوم القيامة صَفَحت له صفائح من نارٍ فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه. كلما بَرَدَت أُعيدت في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة) (وما خالطت الزكاة مالاً قطُّ إلاّ أهلَكَتْهُ). فاتَّقوا الله، عبادَ الله، وأَدُّوا زكاةَ أموالِكم كاملةً مُوفرة فقد أعطاكم ربكم الخير الكثير، وطلب منكم إخراج الشيء اليسير. وهو العشرُ أو نصفُ العشر من الثمار. وربعُ العُشر من الذهب والفضة والأموال المعدة للربح والاتجار؛ فمن أدَّاها محتسباً تَمَّ إيمانه ونَمَا مالُه وزَكَت أخلاقُه وحَصَّل الفوز بدارِ القرار. ومن بَخِل بها فقد كفر بنعمة الله، وباء بسخط من الله، ومأواه جهنم وبئس القرار.

إذا منعت زكاة مالك فأين إسلامك؟ وإذا بَخِلت بما أعطاك الله أحاطت بك خطاياك وآثامك؛ يتابع عليك مولاك النِّعَمَ وأنت تبارزه بالعظائم، وتشتكي ممن مَنَعك حقَّك وأنت في الحقيقة المسرف الظالم. وآحتسبوا رحمكم الله إخراجَها سواء أخرجتموها بأنفسكم أو أخذها منكم الولاة، ومن كانت عنده أموال متنوعة قد أعدها للبيع والشراء فعليه إذا حال الحول ألا يستقصي في تقويمها. ولا يعتبر ما اشتراها به بل ينظر إلى قيمتها وقت إخراجه الزكاة، ومن كانت له ديون عند الناس أو مضاربات فعلية أن يخرج عن أصلها

ومكسبها وفائدتها، فإن جهل مقدار ما كسبت فعليه أن يحتاط حتى يعلم براءة ذمته. وذلك ولله الحمد على ما أعطاك ربك شيء يسير، وما في ذلك من الأجر والثواب والثمرات النافعة خير كثير. مَنَّ الله عليَّ وعليكم بالقيام بشعائر الدين وهدانا لسلوك مسالك أهل الصبر واليقين، وأجارنا بكرمه من العذاب المهين:

**﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كَسَبْتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

## خطبة
## في الحثِّ على تربية الأولاد

الحمد لله الذي وهب لعباده من أصناف نِعَمه خيراً كثيراً، وأَقرَّ أَعينَهم بالأولاد الذكورِ والإناث لينالوا فوائد كثيرة وبِرًّا غزيراً؛ ونشهدُ أن لا إلّه إلّا اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، وكفى بربك هادياً ونصيرا؛ ونشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، أرسله إلى الناس كافةً بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً؛ اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد، أيها الناس ٱتَّقوا الله لعلكم ترحمون، وأطيعوا الله ورسولَه لعلكم تفلحون؛ واشكروه على أَنعامه بالقيام بحقها. وراعُوها حق رعايتِها لئلَّا تزول عنكم النِّعم بزوال بَرَكتها وبمحقِها. أَلَا وإنَّ مِنْ أجلِّ نِعَمه عليكم أَنْ وَهَب لكم الأولادَ فأحسِنوا تربيتَهم ليكونوا قرة عين لكم في الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد؛ فعلِّموهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وغذّوا أرواحَهم بالأخلاق الفاضلة فبذلك يحصل خيرُهم ويزول شقاهم؛ ومُرُوهم بالصلاة وعلِّموهم كيفيتها بالرفق واللين، وأَلْزِمُوهم كلَّ ما يستطيعون من شرائع الدين، وعوِّدوهم الصدقَ والبِرَّ والإحسان ومكارمَ الأخلاق، وكُفُّوهم عن المفاسد والأقوال السيئة ومعاشرة الفُسَّاق؛ فالمُوَفَّق لا يزال مع أولاده في حثٍّ على

الخير وترغيب، وزجرٍ عن الشرِّ وترهيب؛ وتربيةٍ عالية وتأديب، حتى يرى من فلاحهم ما تَقَرُّ به عينُه في الحياة وبعد الممات وفي المشهد والمغيب.

أتحسب أن تربية الأولاد خاصٌّ بتربية الأجسام بالطعام والشراب؟ إنما التربية النافعة تربية القلوب على ما يحبه الملك الوهّاب. أيها الآباء الكرام إذا أردتم صلاح أولادكم في حاضرهم ومستقبلهم، فإياكم والشدَّةَ عليهم والضغطَ على إرادتهم وأفكارهم، فإن الشدةَ تُميت الأفكار، وتحدثُ الخلل في العقل والهمة وربما أدَّت إلى الانفجار والعقوق الضارّ؛ فما أَوْلاَكُم أن تُعَوِّدوا أولادَكم المشاورةَ والمشاركةَ في الآراء النافعة حتى يصلوا إلى الاستقلال، وما أحقَّكم بإطلاق إرادتهم في تدبيرهم لبعض الشؤون والأحوال، وأنتم في ذلك تراقبون أعمالَهم وترشدونهم إلى الصواب وأخلاق الأخيار، وتشجّعونهم إذا سلكوا الطرق النافعة وتَرَكوا المضار.

فيا أيها الآباء الموفقون! أليس من أكبر نعم الله عليكم أن تروا أولادكم بحسن تربيتكم قد أحسنوا إدارة دينِهم ودنياهم فصاروا من الأخيار؟ أليست هذه التربية خيراً لهم وأنفعَ من المال والعقار والأنصار؟ أليس الأولاد الذين بلغوا بالتربية الصالحة كمال الأحوال، قد قُرَّت أعينُ والديهم بهم واكتسَوُا السرور في الحال والمآل؟ أليس الواحد من هذا الصنف يفوق من غيره العدد الكثير؟ فهنيئاً لمن لاحظ أولاده بالحكمة وسلوك الطرق النافعة في رفعتهم مع الرفق والتيسير، ويا ويح من أهمل أولاده أو شدد في أمرهم فأفضى به إلى الخسار والتعيير. فصار سروره فيهم حزناً وربحه خسراناً، وانقلب ما يؤمِّله من صفائهم وما يُرجى من نفعهم غَمًّا كدراً وعدواناً؛ يسعى المسكين في تنمية غرسه وزرعه وأمواله، وهو مفرط في تنمية فلذة كبده وجوهر روحه محل نفسه وموضع ثقته وآماله.. لبئسما قدّم لنفسه من ثمرات سعيه ونتائج أعماله.

**﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم ناراً وَقُودُها الناسُ والحجارة﴾** [سورة التحريم: الآية ٦]

# خطبة
## في بعض جزاء المحسنين والمسيئين

الحمد لله الذي بحكمته وحمده قامت الأرض والسموات، وبرحمته وجوده شمل جميع المخلوقات، وبواسع فضله وتمام عدله جازى المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم وعصيانهم؛ وبدقيق لطفه وإحاطة علمه علم ما احتوت عليه سرائر الصدور، واطلع على الخفايا والخبايا وما في باطن الأرض من حيوان وحبوب وبذور، وإليه المنتهى في الخلق والرزق والتدبير وجميع تصاريف الأمور؛ وأشهد أن لا إلّه إلّا اللَّهُ، وحدَه، لا شريك له في حكمه وحكمته وأحكامه، ولا نديد له في ربوبيته وإلّهيته ونقضه وإبرامه؛ وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، أرسله رحمة للعالمين، وبشيراً للمتقين ونذيراً للمجرمين؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، أيها الناس، آتَّقوا الله تعالى، وآتَّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوَفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون؛ وانظروا ما قدّمتم ليوم لا تَجْزِي نفسٌ عن نفس شيئاً ولا تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون، يومَ الحاقّة والقارعة والواقعة، يوم الراجفة والزلازل المتتابعة، تذهل فيه المراضعُ عما أَرضعت، وتُجزَى النفوس بما كسبت، يوم تُنسف فيه الجبال، وتكِعُ فيه الرجال، وتؤخذ الكتب بالأَيْمَان والشِّمال، وتترادف فيه قلاقل الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، ويصير الباطن ظاهراً والسِّرُّ علانية، والمستورُ مكشوفاً والمجهول معروفاً؛ يومَ يحصَّل فيه ما في الصدور، ويبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب هناك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات؛ يومَ تبيضُّ فيه وجوهُ أهل السُّنَّة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل البدعة والفرقة والإضاعة، تبيضُّ وجوه الطائعين، وتسودُّ وجوه العاصين المجرمين؛ تبيضُّ وجوه أهل الإيمان والإخلاص والتوحيد، وتسودُّ وجوه أهل الشرك والرِّياء والنفاق والتنديد؛ يومَ تبيضُّ وجوه

بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ولكتابه ورسوله والصدق والإنابة للكبير المتعال، وتسودُّ وجوهٌ بما في قلوب أصحابها من الغِلِّ والحِقد والخديعة والكذب والمكر والاحتيال؛ تبيضُّ وجوه المحافظين على الصلاة والزكاة الحافظين لألسنتهم وفروجهم والجوارح، وتسودُّ وجوه المضيِّعين لفرائض الله المنتهكين لأعراض عباد الله أهل الغيبة والنميمة والأخلاق السيئة القبائح:

﴿فأمّا الذين ٱسْودَّت وجوههم أكفرتُمْ بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأمَّا الذين ابيضَّتْ وجوهُهم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ١٠٦، ١٠٧]

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم.

## خطبة
## في مقارنة الاخيار

الحمد لله الذي وَفّق من اختارهم لمقارنة أهل الخير والصلاح، وأنالهم بأخلاقهم ومحبتهم الفوائد الكثيرة والأرباح، وخذل المعرِضين عن منافعهم وقيَّض لهم قُرَنَاء السوء فقادوهم إلى الأعمال القباح، وصَدُّوهم عن مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وقد توهموا النجاح؛ وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه، لا شريكَ له شهادة مستمرة في الغدو والرواح، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، الذي دلّ أمته على كل خير وفلاح؛ اللهُمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الذين مَنَّ الله عليهم بكمال التقى وحسن الخلق والسماح، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، ٱتَّقوا الله تعالى، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واستعينوا على تحقيق هذا الكمال بقُرَناء الخير والبعد عن قرناء السوء والعصيان: فقد قال ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) و(مَثَلُ الجليس الصالح كحامل المسك: إمّا

أن يَحْذِيَك وإمّا أن تجد منه رائحة طيبة؛ ومَثَل الجليس السوء كنافخ الكير: إمّا أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه رائحة خبيثة). ألاَ وإنّ أفضلَ المكاسب وأجل الفوائد اكتسابُ القرناء الأخيار، وإن من أعظم المصائب وأرذل المعائب مصاحبة الأراذل والأشرار.

ألاَ وإنّ المرء يعتبر ويقاس بجليسه، ويكون صلاحه وفساده وكماله ونقصه بحسب قرينه وأنيسه؛ فاغتنموا، رحمكم الله، صحبةَ أهل الدين والرأي والمروءات، الذين ينزِّهون نفوسهم عن النقائص والدنيَّات؛ فإن الأخلاق تتربى بأقوالهم وأفعالهم، وإن الكمال ينمو بالاقتداء بهم في محاسن أعمالهم؛ فإن لم تجدوا من استوعب صفات الكمال، فعليكم بالأمثل فالأمثل من الرجال؛ فإن القرين الصالح يعلمك إذا جهلت، ويذكرك مصالحك إذا نسيت، ويسلّيك إذا أصابتك المصائب، ويقوِّيك ويثبتك عند المخاوف والنوائب؛ ويحضك على الخير بحسب قدرته واستطاعته، ويأمرك بامتثال أمر الله وطاعته؛ ويحثك على بِرِّ الوالدين وصلة الأرحام وعلى الإحسان إلى جارك والشفقة على الفقراء والمساكين والأيتام؛ ويبدي لك النُّصح في جميع الأمور ويهديك الرشاد، ويدلُّك بأقواله وأفعاله وأخلاقه على طرق الصلاح ويذودك عن الفساد؛ ويحفظك في حضرتك ومغيبك، ويدعو لك في حياتك وبعد دفنك وتغيُّبك، ففي مقارنة هؤلاء فليتنافس المتنافسون، ولفوائد صحبتهم وثمرات أخلاقهم فَلْيَجْتَنِ العاملون.

ألاَ وإنّ القرينَ السُّوء فسادُ الدِّين والأخلاق والآداب، وفي صحبته الخسار والنقص والتَّباب؛ يزهد قرينه في كل خلق جميل، ويدعوه إلى كل خلق ذليل؛ إن رآك مُريداً للخير ثَبَّطك ونَهاك، وإن عرض لك سوء ساعده عليك وأرداك؛ وإن نهضت إلى خير ومكرمة أقعدك، وإن بعدت عن شر حاولك إليه وقرّبك؛ فأنت منه في كل وقت في انحطاط وهوان، وأمالَكَ إلى الضر والشر والخسران:

﴿الأخِلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتقين﴾

[سورة الزخرف: الآية ٦٧]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحث على أداء الديون عنك وعن والديك

الحمد لله الذي مَنَّ على من شاء من عباده فوفقهم للقيام بالواجبات، وسلَّمهم من الشرور والتبعات والموبقات، وأشهدُ أنْ لا إلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه، لا شريك لـه في جميـع الكمالات، وأن محمـدًا عبدُه ورسـولُه أشـرف المخلوقات، اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعهم في الأقوال والأفعال والاعتقادات، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس اتَّقوا الله، وآعلموا أن مِنْ أعظمِ خصالِ التَّقوى أداءَ ما عليكم من الحقوق اللازمة، والاجتهادَ في تبرئة ذممكم بهمم حازمة؛ ألَا وإنَّ حقوقَ الخلق أثقلُ حملٍ يحمله الإنسان، وإن اشتغال الذمم بديونهم موجب للعقوبة والهوان؛ فأدُّوا ما عليكم ما دُمتم متمكِّنين في مدة الإمهال، قبل أن يكون استيفاء غرمائكم لحقوقهم من صالـح الأعمال، فيـا حسرة المثقلين بديون الخلق ما أعظم خسارهم؟ ويا فضيحة من تعلقت به غرماؤه في يوم تشكو فيه الخليقة بافتقارهم؛ ويا ندامة من فرّط في حياته فمات قبل وفاء ما عليه من الديون، أمَا علم أن روحه معلقة بِدَيْنِهِ مُعذَّبةٌ في قبره؟ فيا خسران صفقة المغبون؛ أما سمـع بأن مَطْل الغنيِّ ظلم والظلم ظلمات يوم القيامة؟ أما علم أن كلَّ وقت يمضي عليه فإنه في ازدياد مـن الشر والهلاك والندامة؟ فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّاها الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله.

واعلموا ــ رحمكم الله ــ أن من أبَرِّ البِرِّ للوالدين أن تُوفُوا دَيْنَهُمْ على التمام، وأن ذلك مُقَدَّمٌ على كل شيء لعل الله أن يخففَ عنكم وعنهم

الذنوب والآثام. كيف ترضى لوالديك أن يصيرا بقبرهما في دَيْنِهما مَحْبُوسَيْن؟ وأنت مغتبط في حياتك مسرورٌ قرير العينين؟ كيف يقرّ للعاقل قرارٌ ولم يَفْتَكَّ من الأسر والديه؟ أم كيف توافقه إنسانيته ولم يبذلْ لهما ما هو قادر عليه؟ يا عجبًا لك: أما تَسَبَّبا في إيجادك ورَبَّياك صغيرا؟ أمَا بَذَلاَ كلَّ ما في وسعهما في الحنو عليك حتى صرت كبيرًا؟ ثم بعد ذلك لا تسمح نفسك بقضاء دَيْنِهما ولا تنقاد؟ وربما كان معظم الدين الذي تحمّلاه في النفقة عليك وعلى العائلة والأولاد؟ أما علمت أن من بَرَّ والديه بَرَّه أولادُه ورضي عنه مولاه؟ ومن عَقَّهم فقد باء بغضب من الله؟ وربما قَيَّضَ له من يعقه وقت كبره وحاجته وذلك بما قدمت يداه.

﴿والوزنُ يومئذٍ الحقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فأولئك هم المُفلحون﴾
[سورة الأعراف: الآية ٨]

## خطبة
## في الأمانة ورعايتها

الحمد لله الذي عرض الأمانة على المخلوقات فَنَكَصَت وتكفَّل بحملها الإنسان، فضعف أكثرُ الناس عن القيام بها لداء الجهل والظلم والعدوان، ووُفِّق أولي الألباب للقيام بها في السِّر والإعلان، فرقّاهم بذلك إلى أكمل حالة وأرفع مكان؛ وأشهدُ أنْ لا إِلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه لا شريك له، ذو الفضل والإحسان؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أفضلُ رسولٍ بعث إلى الإنس والجان؛ اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان، وسلِّم تسليما.

أما بعد: أيها الناس، اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وحقِّقوا إيمانكم بالقيام بالأمانة إن كنتم صادقين؛ أتدرون ما هي الأمانة التي عرضها الله على الجبال والأرض والسموات، فَأَبَيْنَ أن يَحمِلْنَها لما فيها من المشقات والتَّبعات،

وحملَها الإنسان، متكفِّلاً بما ﺋ ﺑﻬ من الحقوق والواجبات؟ هي تصديق الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، والقيام بحقوق الله وحقوق العباد، والجد والاستعداد بالأعمال الصالحة ليوم التَّنَادِ، واعلموا أنه كما يدخل في الأمانة الفرائض والعبادات، فإنها تشمل القيام بحقوق الخلق وكل المعاملات؛ فمن عامل الناس بالصدق والنصح وتوضيح الأمور والبيان، فهو الأمين السالم من الظلم والعدوان، ومن غشَّهم ومَكَر بهم وخادعهم، فهو الخائن الذي يبوء بالخيبة وبالخسران؛ ومن كان متولّياً على وقفٍ أو مالِ يتيم فحفظه وأصلحه ونمَّاه، أصلح الله أمر دينه ودنياه؛ ومن تولّى قسمة أو تقويماً أو شهادةً أو وساطةً بين العباد فعدل في ذلك فاز بالثواب والخير والسداد؛ ومن حابى صديقاً أو قريباً واتبع هواه، فقد علمتم ما على الخائن في عاجل أمره وعقباه.

واعلموا أن الشركاء متى سلكوا طريق الصدق والأمانة كان الله معهم بالعون والتسديد، ومتى خان أحدُهم صاحبَه خرج الله من بينهما فحلّ بهم النقص والتنكيد؛ وأن إتقان الأجير عمله من مراعاة الأمانة، وأن مَنْ توانى أو أهمل فهو الحريُّ بوصف الخيانة. ألاَ وإنّ من الأمانة حفظَ المجالس والأسرار، فمن أذاع سر أخيه فهو خائن هاتك للأستار؛ فإياك أن تستهين بسرٍّ أبداه لك من رآك أهلاً لسره وُثوقًا بأمانتك، فتفشيه لصديق أو غيره فإن ذلك عُنوان على خيانتك؛ فأي عقل وأدب لمن لم يحفظ ما استؤمن عليه؟ وأي أمانة لمن إذا بدا له طمع سارع إليه، وأي أمانة لمن لم يؤمن على الأهل والمال، ومن لا يبالي بالحقوق الواجبة معتذراً بكاذب المقال؟ وأي أمانة لمن استنصحه أخوه فلم ينصح له، وأي أمانة لمن رأى الحق مع خصمه فالتوى عنه ولم يَنْقَدْ له؟ وأي أمانة للغشاشين في البيع والشراء والصناعات، لقد سقطوا عن درجة الاعتبار والشرف ووقعوا في أقذر المهلكات.

أيها الراضي لنفسه بِسِمَات الخائنين، الزاهد سفهاً عن صفات الأمناء المتقين، تاللّهِ لو كان لك عقل لَزَجَرك عن سفاسف الأمور ورذائلها، ولعلمت

أن شرف الدنيا والآخرة مقرون بالأمانة ورعايتها؛ وأن الخائنين لهم موقف عند الله ترجف منه القلوب، ولهم مقامات فظيعة ملآنة بالأهوال والكروب، حين يَعَضُّ الظالم على يديه إذا تبين له حقيقة ما كان عليه.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٨]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الحث على الإصلاح

الحمد لله الذي أمر بالتعاون على الخيرات، ونهى عن التفرق والاختلاف والمشاحنات، وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ اللَّهُ، وحدَه، لا شريك له، فاطْرُ الأرض والسموات، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيد الرسل وأكمل المخلوقات، اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أولي الفضائل والكرمات، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وأطيعوا الله ورسولَه إن كنتم مؤمنين، وقوموا بالنصيحة بين عباد الله فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. قال تعالى:

﴿لا خير في كثيرٍ من نَجْواهُم إلاّ مَنْ أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس، ومن يفعلْ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ اللَّهِ فسوفَ نُؤْتِيهِ أجراً عظِيماً﴾
[سورة النساء: الآية ١١٤]

وقال ﷺ: (ألاَ أخبركم بأفضلَ مِن درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول تحلق الشَّعر. ولكن تحلق الدِّين) فرحم الله امرأً رأى بين اثنين عداوة فقام بتقريب بعضهم إلى بعض بالتأليف والإصلاح؛ ويا ويح من أغرى بين الناس فلقح العداوة

وغذّاها بالتفريق بين المتصافيين وراح. أما علمتم أن من أصلح بين الناس أصلح الله باله؟ ومن فَرَّق بينهم فَرَّق الله أمره وشتت أحواله؟ فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقًا للشر، وويل لمن كان مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير. أما سمعتم بأن النَّمَّام عليه العقوبة الشنيعة يوم البعث والنشور؟ فإنه ينقل الكلام بين الناس فيحدث البغضاء ويوغر الصدور؛ يجيىء النَّمَّامُ إلى قلوبٍ متآلفة متفقة فيفرقها، وإلى صداقات وصلات بين الناس فيمزِّقها؛ قد انسلخ من أعمال أهل الصلاح المصلحين، ورضي لنفسه أن يكون من المفسدين.

ألَا وإنّ المُصْلِحِين بين عبادِ الله لهم الرُّتَب السامية والمحل الأعلى، وقد حازوا الشرف والأجور الكثيرة ورِضَى المولى؛ يأتون إلى المتباعدين فيقربونهم، وإلى الذين فرقتهم الأغراض الدنيئة فيؤلفون بين قلوبهم ويجمعونهم؛ فلله دَرُّهُمْ ما أفضلَ أعمالَهم، وما أرفعَ مكانَهم وأكمل أحوالهم؛ فكم حصل بسعيهم المشكور من خيرات وبركات، وكم اندفع بعملهم المبرور من شرور ومفاسد وآفات؛ وكم قمعوا من ضغائن وإحن، وكم أخمدوا بإصلاحهم ولطفهم من شرور وفتن؛ فيا فوزهم بمكارم الأخلاق، ويا سعادتهم عند لقاء الملك الخلّاق؛ ويا فلاحهم إذا أكرموا بجنات النعيم، وَوُقُوا من عذاب الجحيم، فتمت لهم حينئذ العيشة الراضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، وقيل لهم

**﴿كُلوا وآشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾**

[سورة الحاقّة: الآية ٢٤]

بارك الله لي ولكم.

# خطبة
# في أمراض القلوب وأدويتها

الحمد لله الذي جعل لكل داء دواء، ولكل سقام ومرض طِبًّا وشفاء، وأشهد أن لا إلَه إلّا الله وحدَه، لا شريك له، الواحدُ الأحدُ الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله أفضل الرسل والأنبياء، وإمام الشفعاء والشهداء والأصفياء؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه الكرماء الأتقياء، وسلِّم تسليمًا.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله واعلموا أن أصل الخير صلاح القلوب وشفاؤها، وحصول هدايتها وكمالها وزكاؤها؛ ألَا وإنَّ القلوب تمرَض أعظم مما تمرض الأبدان، فاجتهدوا في دوائها وتزكيتها فإنها موضع نظر المنَّان؛ فكيف تهملون السعي لأدوية أمراض قلوبكم، وأنتم لطبيب أمراض الأبدان تبذلون نفائس أموالكم، وعافية قلوبكم وسلامتها تثمر الفوائد الدينية والأخروية. وبها يحصل الفوز والسعادة الأبدية؟ ألَا وإن أصل أمراض القلوب إما جهل وشكوك وشبهات، فدواء ذلك بالجد في العلوم النافعة في جميع الأوقات، فإن الجهل أعظم الداء، والعلم يبرئه فتحصل العافية والشفاء؛ وإما مرض شهوات يميل القلب بمرضه إلى محبة المعاصي وارتكاب المحارم، فدواء ذلك بتذكر ما على العاصين من العقوبات الصوارم.

ألَا وإنّ علامة هذا المرض أن يرى صاحبه ميَّالاً إلى ما يسخط علّام الغيوب، وإن دواء ذلك بالاستغفار والإنابة والتوكل والإقلاع عن الذنوب؛ ألَا وإنَّ الكِبْرَ والرياءَ من أعظم أمراض القلوب المترامية إلى الهلاك، وإن دواء ذلك بالتواضع وخفض الجناح والسلامة من الأشراك. ألَا وإن إعجاب المرء بنفسه وتيهَهُ لَمِنْ أعظم الأمراض المهلكات، ودواء ذلك أن تعرف نفسك بالجهل التام والعجز والنقص وجميع الآفات؛ فمن عرف أن أولَه نطفةٌ مَذَرةٌ وآخرَهُ جيفةٌ قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة كيف يزهى ويعجب ويتكبر؟

ومن عرف أنه مملوك فقير في كل أحواله كيف يطغى ويتجبر؟ ألاَ وإن الحسد من أعظم الأمراض المسرعة في إحراق الحسنات. فإن الحاسد ساخط لنعم الله محب للشر على عباد الله كاره للخيرات؛ ألاَ وإنّ دواء الحسد أن تمرِّن نفسك على نصح المؤمنين في كل أحوالك، وأن لا تبغي على المحسود لا بأقوالك ولا بأفعالك؛ ألا وإن من الأمراض المهلكة الغِلَّ والحِقْدَ على المسلمين، ولا دواء لذلك إلا محبة الخير لهم في أمور الدنيا والدين.

## خطبة
## في تيسير الجمع بين أمور الدين والدنيا

الحمد لله الذي بعث محمداً ﷺ بصلاح الدّارين، وجعله إمامًا وقُدوة للعالَمين. وأشهدُ أن لا إله إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريك لـه، الملكُ الحقُّ المبين. وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه إلى الناس أجمعين؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعهم إلى يوم الدين، وسلِّم تسليما.

أما بعد، إيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، وآعلموا أن الله تعالى خلقكم لمعرفته وعبادته، وأسبـغ عليكم النعم لتستعينوا بها على طاعته، وشرع لكم طريقاً تدركون به مصالـح دينكم ودنياكم، وتفوزون بجميـع مطالبكم في أولاَكُم وأُخْراكم، فقوموا بما أمركم الله به بهممٍ صادقة ونيات صالحة، واتركوا المحرَّمات، ومن اقترف سوءًا فليبادرْ إلى الاستغفار والتوبة الماحية، ألاَ وإنّ غفلتَكم عن مصالـح أنفسكم تفوِّتُ عليكم أوقاتًا ثمينة نتائجها الحرمان والخسران؛ وإنّ الحازم العاقل ينظِّم أوقاته فلا ينسى نصيبه من الدنيا ولا من طاعة الملك الديَّان؛ فكثير منكم ولله الحمد يود الخير ولكن يفوت عليه الوقت سبهللا(١)، ويحبُّ أن يكون له نصيب من الطاعات ولكن تغلبه نفسه تثاقلا وكسلاً.

(١) يمشي سبغللاً وسبهللاً، أي ليس معه سلاح، أو فارغاً، أو مختالاً، أو لا في عملِ دنيا ولا في عملِ آخرة، أو إذا ذهب وجاء في غير شيء («التاج» ٧: ٣٦٩).

فلو أن أحدكم إذا أصبح افتتح نهاره بقراءةِ وفهمِ وتدبرِ شيءٍ من القرآن، واستعمل أورادَ الصباح والمساءِ وأكثرَ من ذكر ربِّه في السر والإعلان، وانتهز الفرصة في المبادرة إلى المسجد في أول وقت الصلاة، ففعل ما يَسَّرَه اللَّهُ له من صلاة وذكر وقراءة وانتظار للعبادات، وجعل له وِردًا من صلاة الليل ولو قليلاً في أي وقت من الأوقات.. لو أنّ أحدَكم عَوَّد نفسه ذلك لحصل خيرًا كثيرًا، ونال أجرًا كبيرًا، ومع هذا فهل ترى هذا العمل أخل بشيء من مصالح دنياك وراحتك؟ أو فَوَّت عليك شيئاً من أغراض معيشتك، وهل فقدت بهذا شيئاً من مُهمٍّ حاجتك؟ أم هذا الترتيب عونٌ لك على هذه الأمور، ومغنم تنال به الأرباح والأجور؟ فوازن، رحمك الله، بين هذا الأمر الذي ترى نفسك قادرة عليه، وتراها مُيَسَّرة مقرِّبة لك إلى مولاك، مُدْنِية إليه، وبين تفويتها غفلةً وكسلا عن المأمور.. هل حصل لك بالتفويت زيادة أنس وسرور؟ وهل وَفّر لك حصول منفعة أو دفع شيء من الشرور؟ لا والله، لا يتم لمؤمن سرور في دنياه، حتى يرى أنه أدرك حظًّا وافرًا ونصيباً من طاعة مولاه؛ وانظر إلى أفرادٍ موفقين رتَّبوا في الخير أوقاتَهم، وأخذوا نصيباً مباركاً من طاعة الله وأدركوا راحاتِهم، فهل فاتهم مما يتنافس فيه الناس شيء؟ أمْ حصل لهم بهذا العمل كلُّ شيء؟ فلم ينفرد الناس عنهم بغرض من الأغراض ولا لذة من اللذات، بل شاركوهم في جميع المصالح وفاتوهم بنيل المكارم والقربات.

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكر الله ومن يَفعلْ ذلك فأولئك هُمُ الخاسرون﴾** [سورة المنافقون: الآية ٩]

# خطبة
# في نعمة الله برفع الجراد

الحمد لله الذي وعد الراضين بأقضيته أعظم الثواب، ووفّى الصابرين على ما أصابهم أجرَهم بغير حساب، وأشهدُ أنْ لا إلَـه إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، الكريم الوهاب، ذو الحكمة البالغة والأسرار الساطعة التي يفهمها حقَّ الفهم أولو الألباب؛ وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، الذي أُنزِل عليه أفضلُ كتاب؛ اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم من كل محسنٍ أوَّاب، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، واعلموا أن الله يبتليكم بالمحن والمصائب ليكفِّر خطاياكم، وينبِّهكم على عنايته بكم في دفع ما يهمكم ويعنيكم، قال تعالى:

**﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيء من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ، وبَشِّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾**
[سورة البقرة: الآيات ١٥٥ ــ ١٥٧]

فقد سمعتم ما قص الله عليكم، وأنه لا بد أن يبتليَكم بشيء من هذه الأمور، وبشَّر الصابرين بالخيرات والمغفرة والثواب والأجور؛ فتأملوا هذا الجندَ الضعيف من الجراد كيف يرسله الله فيتلفُ كثيرًا من الثمار، ليعرف العباد أن الله ذو عزة وعظمة واقتدار، وأن الخلق في غاية العجز وشدة الحاجة والافتقار؛ ومع ذلك، فمن قابل ما أصابه من النقص بالصبر ورجاء الأجر والاحتساب، وقال: اللهم أجِرني في مصيبتي وأخلفْ لي خيرًا منها أجَرَهُ الله فيها وأخلف له خيرًا منها وهو الكريم الوهّاب؛ فالخلق خلقه، والملك ملكه، له ما أخذ وله ما أبقى، وله ما منع وله ما أعطى؛ فإن كان قد ابتلى بنقص شيء من الثمار، فقد أبقى لعباده كثيرًا من الخيرات والنعم الغزار؛

فمن قام بوظيفة الصبر عند النوائب كان ما أعطاه الله من الأجر أفضل مما فاته من المطالب؛ ومن جدد عند كل مصيبة حمدًا واسترجاعًا وصبرًا، جدد الله له صلاةً ورحمةً وهدايةً وطمأنينةً وبِـرًّا؛ ومن أحدث جـزعًا وتسخـطًا على المقدور؛ تضاعفت مصيبته وازدادت فجيعته، وفاتَهُ الخير والسرور.

ثم احمدوا ربكم؛ فإن هذا الجند على كثرته لو سُلِّط عليكم لما أبقى من زروعكم وثماركم باقية، ولكن الله سلَّم وخفَّف ولَطَف ولم تزل ألطافُه بعباده من الشرور واقية؛ فكل مصيبة دون مصيبة الدِّين مآلها الزوال، وما من محنة إلّا إذا قَرَنْتَها بما هو أعظم منها رأيتها في صغر واضمحلال؛ فالعاقل يغتنم الصبر والتسليم، ويرضى بتقدير العزيز العليم، ويعلم أن الجزع لا يَرُدُّ المصيبة بل يضاعفها، ويُغضب الرحمنَ ويرضي الشيطانَ ويوهِن النفس ويضعفها؛ ومن صبر على ما أصابه من قليل أو كثير، أقلعت عنه المصائب وهو كريم، ومن جزع وتضجر سلا سُلُوّ البهائم وهو الأحمق اللئيم؛ بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في الزجر عن البخس والمعاملات المحرمة

الحمد لله الذي منَّ على من شاء من عباده بالوَرَع عن الحرام، وخذل من شاء فتجرَّأ على الذنوب والآثام؛ وأشهدُ أن لا إلَـه إلّا الله، وحدَه، لا شريك له، ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه سيد الأنام؛ اللّهمّ صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه الكرام، وسلِّم تسليماً.

أما بعد: أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، واعلموا أن أكرم الخلق عند الله أورعهم وأتقاهم، وأن من لا يبالي بالمكاسب المحرَّمة كان شرَّهم وأشقاهم. قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿إنَّ الذين يشترون بعهدِ اللَّهِ وأَيْمَانهم ثمناً قليلاً أُولئك لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يُكَلِّمهم الله ولا ينظُرُ إليهِمْ يومَ القيامة ولاَ يُزَكِّيهم ولهم عذاب أليم﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٧]

وأخبر النبي ﷺ أن (من حَلَف على يمين فاجرة يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان) وأوجب له النار وحرم عليه الجنة. فيا عجباً لمؤمن بالله واليوم الآخر يسمع هذه العقوبات العظيمة على من تجرأ على أكل أموال المسلمين، وتوسل إليها بالأَيْمان الفاجرة والخصومات الكاذبة، ثم يُصِرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها، فبشِّرْ هذا بالعقوبات المتتابعة.. يبيع دينه الذي هو مادة السعادة الأبدية، بعَرَض يسير من الدنيا الدنيّة.. يعامل الناس، ثم إذا ظهر له طمعٌ خانه ويحلف على نفي ما عليه من الحقوق الواجبة ولا يراقب ربه ولا يرعى الأمانة، يتجارى به الكلب والطمع حتى يخون في النقير والقطمير، ويطفف المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم بما يستطيعه ولو بالشيء اليسير؛ أما علم أن المعاملاتِ الجائرةَ أَهْلَكَ اللَّهُ بها قوم شُعَيْبٍ بعذاب يوم الظلة؟ وأنَّ من لم يتبْ منها فقد أوجب الله له غضبه وعقابه وحرم عليه الجنة ورماه بالقِلّة؟ أَما عَلِمَ أن الحرام يستدرج صاحِبَه، ثم في آخر أمره يمحقه محقاً، وأن المكاسب الخبيثة مع ما على صاحبها من الإِثم فإن البركة تُنزع عنها حقًّا وصدقاً؟ فوالله إن المكاسب الطيبة ليصلح الله بها الأحوال، وإن الورع عن الحرام لهو خير للعبد في الحال والمآل؛ وإن التاجر الصدوق يسعى في طاعة مولاه، ويعلم أنه لا خير له في مكاسبَ تمحقُ دنياه وأخراه؛ قد وثق بوعد ربه أنه:

﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً * ويرزُقْه من حيث لا يحتسبُ، ومن يتوكلْ على الله فهو حسبُه﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

وكفاية الله للعبد أقوى من كل سبب؛ قد اكتفى بحلال ربه عن حرامه، وبالمكاسب الطيبة عن المكاسب الخبيثة الموجبة لعقوبته وآثامه؛ قد أنزل الله

البركة في رزقه وكسبه، وأحرز الاعتبار وحسن المعاملة والشرف وطمأنينة قلبه، يقول: لا بارك الله في رزق يدخلني في معاملات غير نافعة، وكيف أرضى بذهاب ديني وشرفي وأبواب الرزق الحلال واسعة.. فهذا قد جمع الله له خير الدارين، وسَلِمَ من الصفقة الخاسرة. بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في التحذير عن فاحشة الزنا

الحمد لله الذي حَرَّم الفواحش الظاهرة والباطنة، وأوجب لأصحابها عقوباتٍ مستقبلة وعقوباتٍ راهنة، وأشهدُ أنْ لا إِلٰه إلاّ اللَّهُ الملك العظيم، الرؤوف الرحيم، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، النبيُّ الكريم، والإمام المصطفى العظيم؛ اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن سَلَكَ سبيله على الصراط المستقيم، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس. اتقوا ربكم واحذروا ما يوجب سُخْطه وعقابَه، وذروا الفواحش فإنها تَحرِمُكم خيره وثوابه. أَلَا وإنَّ فاحشةَ الزِّنا تقصم الأعمار، وتخرب الديار، وتوجب المقت والدمار، وتحل أهلها دار الشقاء والبوار؛ فاحشة تذهب بهاء الوجه بعد ذهاب الدِّين، وتنزله من الأخلاق الرذيلة إلى أسفل سافلين، وتوجب له البعد من رحمة أرحم الراحمين، فاحشةٌ تَسْوَدُّ لها الوجوه والقلوب، ويبتلى صاحبها بالهموم والغموم والفقر والشدائد والكروب، وينزع عنه الإيمان حين يزني حتى يقلع ويتوب؛ فاحشةٌ من أكبر الأسباب لسوء الخاتمة، ومن أعظم الطرق للعقوبات المتراكمة، يضيق على صاحبها قبره حتى تختلف أضلاعه، وذلك بما قدمت يداه، وللزناة والزواني في البرزخ تنانير من نار ولهب يرفعهم ثم يخفضهم من أعلاه إلى أدناه، يستغيثون من الشدة فلا يغاثون، ويَسألون تخفيف العذاب فلا يُجابون؛

قد اشتدَّت عليهم المصائب والكربات، وأنساهم سوء العذاب ما أسلفوا من الاستمتاع والشهوات؛ فيا ويلهم ما أشد شقاهم، ويا مصيبتهم حين فاتهم الخير وحضر هلاكهم ورداهم، ويا فضيحتَهم بين الخلائق إذا اسودّت وجوههم وشَقُوا؛ ويا ويلَهم ماذا حصل لهم من الشر وماذا لَقُوا. فيا من تلطّخ بشيء من هذه القاذورات تُبْ إلى ربك توبةً نصوحاً ما دمت في مدة الإمكان، واحذر من الإقامة على ما يُسْخط المولى من الإصرار على العصيان؛ فنسألك اللهم أن تحفظنا وذرياتِنا من الفواحش والذنوب، وأن تغفر لنا كل ذنب وخطأ وحوب، وأن تَقِينَا بلطفك من الشدائد والكروب، وأن توصلنا إلى كل مطلوب:

﴿ولا تَقْرَبوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً﴾

[سورة الإسراء: الآية ٣٢]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في فضل غرس النخل

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان والإخلاص في قلوب المُتقين من العباد، وسقاها ونمّاها بالأعمال الصالحة المثمرة للخير والرشاد، وأشهدُ أَنْ لا إِلَه إِلّا اللَّهُ وحدَه، لا شريك لهُ ولا كُفو ولا مضاد؛ وأن محمداً عبدُه ورسولُه، سيد الرسل وخلاصة العباد؛ اللهمّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أحقِّ الناس وأولاهم بكل خير مبنيٍّ على الاستقامة والسداد، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، اتّقوا الله تعالى. وآعلموا أن طرق الخير كثيرة، فابتدروها، وأن بعض الأعمال تجمع مصالح الدارين لكثرة منافعها، فاغتنموها؛ فقد صح عنه ﷺ أنه قال (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً

فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلاّ كان له صدقة، وما سرق منه له صدقة) وإنما رغب الشارع في غرس النخيل والأشجار، لما فيها من الخير والنعم الغزار، فإنه يشترك في الانتفاع بها بنو آدم وسائر الحيوانات، وترتزق بها الطيور والحشرات وكثير من المخلوقات؛ ومن انتفع بشيء منها في حياة الإنسان وبعد مماته فهو خير وأجر وحسنات، سواء حصل بقصده واختياره وهو أفضل الحالات، أو حصل بغير اختياره وأنه ليؤجر على ذهابه في الاختلاس والسرقات.

والنخلة شجرة مباركة لا يزال نفعها متجدِّداً على الدوام، وهي فوائد في حال وجودها وفي حالة تلفها والانعدام، ينتفع بجريدها وسعفها وليفها وحطبها مدى الأيام؛ فإذا أثمرت تضاعف نفعها لجميع الأنام، فإذا خرجت من أكمامها فإنها لا تزال تتساقط فتأكلها الخشاش والدواب والأنعام، وإذا نضج ثمرها شرع الآدميون في أكله بسراً وزهواً ورطباً وتمراً. فيكون فاكهة وقوتاً حاضرًا ومدَّخراً لطفاً من الله وذخراً؛ فبيتٌ لا تَمْرَ فيه أهله جِياع، وبيتٌ فيه التمر قد اطمأنوا إلى فضل الله وانتفعوا به غاية الانتفاع؛ وكل عام تتكرر منها هذه المنافع إلى أن تسقط وتبيد. فهي شجرة مباركة طيبة تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن الولي الحميد، وهي من الأمور التي تنفع صاحبها ولمن يأتي من قبله ولعامة المنتفعين، ومن غرسها محتسباً كان له أجرها أبقاها أو ورثها أو كان من البائعين؛ فإن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعَه وبائعَه وراميَه، والله ذو الفضل العظيم. فإن وَقَفها على بر وقُربة فذلك الثواب المضاعف والأجر الجسيم، يتلاشى صاحبها تحت أطباق الثرى وصحيفة حسناته في نمو وازدياد، وتنقطع أعمال المكلفين وهي لا تنقطع لأنها عين جارية من كرم رب العباد.

فحقيقٌ بشجرة هذا نفعها أن يتنافس فيها المتنافسون، وأن يحتسب الأجر والثواب في غرسها المحتسبون، فكم من طيور وحشرات تغذّت

بثمارها، وكم من إنسان اقتات بها على طول السنين وتكرارها، وكم ورّثها إنسان فارتفق بها ورثته الأغنياء والفقراء مدداً طويلة، وكم وقفها محتسب ففاقت على الأعمال الجليلة، وكم ذي عمل ضئيل حبسها فصارت له ذخراً نمت بها الأعمال، وانتفع بخيرها في الحال والمآل:

**﴿أَلَمْ تَرَ كيف ضرب اللَّهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء * تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها﴾**

[سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤، ٢٥]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في أيام جذاذ الثمار

الحمد لله الذي أخرج لعباده الثمار اللذيذة الشهية من يابس الغصون، وفجَّر لهم من ينابيع الأرض الآبارَ العذبة والأنهار والعيون، ويَسَّر لهم الأرزاق والنعم لعلهم يشكرون، وأَمَرهم أن يتحدثوا بِنِعَمِهِ ويذكروا آلاءَهُ لعلّهم يفلحون، وأشهدُ أن لا إلّه إلاّ اللَّهُ وحدَه، لا شريك له، الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسولُه، الصادقُ المأمون، اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه وأَتباعهم في كل حركة وسكون، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، اتّقوا الله وتحدَّثوا بِنِعَمِ الله، واذكروا آلاءَ الله، فإن الاعتراف بنعمه والتحدث بها من أعظم ما يُقرِّب إلى الله، وقد أمركم أن تنظروا بأبصاركم وبصائركم إلى ما تفضل به عليكم من النخيل وقت إثمارها وإيناعها، وأن تشكروه على ما يَسَّره من منافعها وخيرها وإمتاعها، وأن تعتبروا بهذا الطلع النضيد الذي جعله الله رزقاً للعباد، وما فيه من المنافع العاجلة والآجلة للحاضر والبادِ، وأن الذي أخرج ثمارها من يابس الأشجار، لا بد أن

يحيـي الموتى ويجازيَهم بأعمالهم وهو كامل القوة والاقتدار؛ أما تـرون قِنوانها[1] دانية يتناولها الناس من غير مشقة ولا اكتراث، عامة النفـع للخلق وخصوصاً الملاك والحرّاث؟ أليست هذه النعم مما تضطركم إلى شكر من تفضل بها على العباد؟ أليس من شُكْرها أن تُؤتوا حقَّها وقت الجذاذ كما تؤتوا حقَّ الزروع يوم الحصاد؟ فمن لم يؤد زكاتَها فما شَكَرها بل كَفَرها، ولم يُبارَك له فيها أن صرفها أو أبقاها أو ادخرها.

أما سمعتم بأصحاب الجنة الذين أقسموا لَيَصْرِمُنَّها مُصبحين، وتواصلوا بأن لا يُطعموا منها الفقيرَ ولا المسكين، فَفَجعهم الله بأشجارهم وثمارهم فأتلفها فأصبحوا نادِمين. . إنّ في قصتهم وقضيتهم لآياتٍ للمعتبرين، وإنّ من جذّ ثماره وبنى أمره على الشُّح وحَرَم منها المساكين، فإنه سيحرم خير الدنيا والدين؛ وإنّ من شكر نعمةِ الله فأعطى حقها وجاد منها على السـائلين والمحتاجين، فإن الله يدفـع عنه الآفات، وينزل له البركات، ويعطيه أجر المحسنين:

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجنا منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حبًّا متراكباً﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٩]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في تقوى الله وبيان علاماتها

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء رحمةً وعلماً، وأتقن ما صنعه وأبدع ما شرعه إحكاماً وحُكماً، تفرّد بالكمال المطلق من كل الوجوه؛ فهو المحمودُ المقصودُ في جميـع الحوائـج فكل مخلوق يؤمِّله ويرجوه، وأشهـد أنْ لا إلّه

---

(١) القُنو: ج أقناء وقِنوان، عنقود النخل، العذق.

إلّا اللَّهُ، وحدَه، لا شريك له ولا مثل ولا نظير، وليس له كفو ولا ولد ولا صاحبة ولا وزير، تبارك من عظمت صفاته وكثرت خيراته، وتعالى من عَمَّت أهلَ السمواتِ والأرض آلأؤه وهباتُه، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه الذي اصطفاه على العالمين، وجعله إماماً وسيداً للأولين والآخرين، اللَّهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه وأَتْباعهم إلى يوم الدين، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، اتّقوا الله، فإن تقوى الله وصيةُ الله للأوَّلين والآخِرين، وبها الفوز والقرب من رب العالمين، ألَا وإن التقوى أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخشى عقاب الله.

أَلَا وإنّ المُتَّقي لمّا سكن قلبَه خوفُ الله وخشيتُه ترك المحارم والمآثم، ولمّا رغب فيما عند الله سارع إلى الخيرات فأدرك المغانم، ولما رأى الدنيا وسرعة تقلبها بأهلها لم يعلق قلبه بشهواتها الخسيسة، ولما علم ما في الآخرة من النعيم المقيم بادر السعي لنيل مطالبها النفيسة.. لا تجد المتَّقي إلّا مشتغلاً بفرائض الله، متباعداً عما يكرهه الله، قد كف بطنَه وفرجَه عن الحرام، وصان لسانه عن اللغو والشتم وجميعِ الآثام، إنْ وَقَعَ في ذنوب بادر إلى التوبة منها، وإن مالت نفسه إلى المعاصي صرفها وصدف عنها، بارًّا بوالديه وَصُولاً لِأَرْحامه، منصفاً في معاملته موفياً بعهده وذمامه، طريقته كظم الغيظ والعفو والإحسان، وخليقته حسنُ المعاشرة والقيام بحقوق كل إنسان، إن أصابته المصائب الفادحة صبر عليها صبر الكرام، وإن نالته السَّرَّاء والنِّعم لم يبطر واشتغل بشكر ذي الفضل والإنعام، حشوُ قلبه الإنابة التامة والنصح للعباد، نقيًّا من الغِل والحِقد والكِبْرِ وأخلاق الفساد، لسانه رطباً من ذكر الله وأعضاؤه بكل خير تنفعل وتنقاد.

فيا متنكِّباً طريقَ التقوى لا بد أن تصبح من النادمين حتى تقول: لو أن الله هداني لكنتُ من المُتَّقين، ولو رجعتُ إلى الدنيا لكنتُ من المحسنين؛ يا

حسرتي على ما فَرَّطت في جنب الله، وإن كنت لمن الساخرين، هيهاتِ ذهبتِ اللذات وبقيت التَّبعات وتقطعت قلوب العاصين من الفوات وشدة الحسرات، فلا اعتذارهم مسموع ولا نافع، وليس لهم عمل منقذ ولا حميم شافع، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، ولم يُغنِ عنهم ما كانوا به يمتعون، بارك الله لي ولكم في القرآن.

## خطبة
## في حقوق الزوجية

الحمد لله الذي جعل أَداءَ الحقوق سبباً لصلاح الأحوال، وتوعَّد من أخلَّ بواجبها بالعقوبة الشديدة والنَّكال، وأشهدُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ، وحدَه لا شريك له، ذو العظمة والجلال؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، سيد الرسل كاملُ الخصال، اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه أولي الفضائل والأفضال، وعلى التابعين لهم بإحسان بالعقائد والأقوال والأفعال، وسلِّم تسليماً.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، وآعلموا أن لكل واحدٍ من الزوجين على الآخر حقوقاً مَنْ وُفِّق للقيام بها فهو من المتَّقين، ومَنْ أهملَها وضيَّعها كان من الظالمين؛ فللزوجة على زوجها أن ينفقَ ويكسُوَ ويقومَ بلازمها بحسب الحال، وأن يحسنَ عشرتها ويتحمل هفوتها فإنها ناقصة، فمن أين لها الكمال؟ فمن قصَّر في نفقة أو عشرة فقد بَخَسها حقَّها، ومن عاملها بشراسة الأخلاق وبذاءة اللسان فقد ظلمها وما أنصفها؛ فعليك بالعدل بين الزوجات في النفقة والكسوة وكلِّ ما تملك. فأما محبة القلب وما يتبعها فلا يكلِّف الله نفساً إلاّ وسعها. فمن لم يعدل بين زوجاته جاء يوم القيامة وشقه مائل: والمُقْسِطون على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن بإحسانهم وعدلهم الشامل.

وعلى الزوجة أن تقدِّم طاعة زوجها بالمعروف على طاعة الأبوين

والقرابات، ولا يحلُّ لها أن تمتنـع أو تتثاقل عما يجب عليها لزوجها في جميـع الحالات، ولتعتقد أن قيامها بحقه هو من أفضـل القُرُبـات، فقد قال ﷺ: (لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجدَ لزوجها من عِظَم حقّه عليها) فللرجال عليهن درجات وليس لها أن تأذن في بيته ولا تخرج منه إلا بإذنه ورضاه، وعليها الاجتهاد في حفظ ماله وتدبير النفقة بالمعروف طالبة لرضاه، وأن تشكر لزوجها إحسانه وكده ومسعاه؛ فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله، وينبغي أن يَصْبِرَ عليها ولو كَرِهها، فعسى أن تكرَهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، فربما رُزِق منها ولداً صالحاً أو انقلبت الكراهة محبة وكان الله على ذلك قديراً.

واعلموا، رحمكم الله، أنّ أبغض الحلال إلى الله الطلاق، لما فيه من المضار والنقصان، ولما يحدثـه من تشتُّت شمل العـائلة وخراب الـدور والأوطان، إلاّ إنْ ألجَأتِ الضرورة إليه، ولم يجد الزوج محلًّا للصبر يلجأ إليه، فقد أبيـح له أن يفارقها بمعروف وإحسان فيطلقها لعدتها بطلقة واحدة وهي طاهر بغير وقاع ولا غشيان، فمن طلّقها وهي حائض أو في طهر وَطِيءَ فيه ولم يثبت حملُها فقد عصى ربه وأطاع الشيطان، ووقـع طلاقه وباء بإثمها، ومن أوقـع عليها ثلاث طلقات فقد اتخذ آيات الله هزوا سيندم حيث لا تنفعه الندامة، وسيضيق الله عليه أشد الضيق فلا يلومن إلا نفسه الأمارة بالسوء اللوامة

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَرِثوا النساء كَرْهًا ولا تَعْضُلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتُموهن إلاّ أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ، وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعَلَ اللَّهُ فيهِ خيرًا كثيرًا﴾**

[سورة النساء: الآية ١٩]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
## في الإشارة إلى هجرة النبـي ووفاته

الحمد لله الذي مَنَّ على المؤمنين، إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين؛ وأشهدُ أنْ لا إلّه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المُحجَّلين؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، واذكروا نعمته عليكم بالنبـي الكريم، وكيف تنقلت به الأحوال في طاعة الرب الرحيم؛ فقد بعثه الله على رأس أربعينَ من عُمُره الشريف، والأرضُ قـد مُلِئَت من الكفر والشِّـرك والأخلاق الرذيلة، فدعا الخلق إلى توحيد الله والإحسان إلى خلقه وإلى كل خصلة جميلة؛ فلقي من الناس وخصوصاً من قومه الأذى المبين، فقاومهم وصابرهم مصابرة أُولي العزم من المرسلين، وصدع بأمر الله لا يخشى أحداً من العالمين، فاستجاب له عدة أفراد من الموفَّقين، وتكالب على عداوته وَرَدِّ دعوته كلُّ جبَّار من المتكبِّرين، ومكروا به وأرادوا قتله فمكر الله له وهو خير الماكرين؛ فاختفى في الغار هو وصاحبه ثلاثًا والله معهما بالحفظ والنصر والتأييد، وهاجر إلى المدينة برعاية الوليِّ الحميد.

وسمـع بهجرته من كان في المدينة من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فكانوا يخرجون لتلقِّيه كل يوم حتى يتعالى النهار، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيـع الأول إذا هم برسول الله قد رَمَقَتْهُ منهم الأبصار، فاحتفلوا أعظم احتفال بقدومه فَرِحين مستشرين ، وأطافوا به من جميـع الجوانب مُحفِّين معظِّمين، ولطاعته وكمال الانقياد له مستجيبين، وكل قبيلة من قبائل الأنصار تعرض عليه النزول عندها: هلُمَّ يا رسول الله إلى العَدَد والعُدة. . وهو يقول:

(دعو الناقة فإنها مأمورة بأمر الوليِّ الحميد)، فبركت في موضع مسجده فأزعجها وأثارها. ثم التفتت يميناً وشمالا فرجعت إلى مبركها الأول وقرّت قرارها. فاختط هناك مسجده الكريم وبناه، وعمل مع المسلمين في بنيانه راجياً رضى مولاه.

ثم بنى مساكن زوجاته في جوار مسجده لتكون مسكنه ومثواه، فلم يزل الله يشرع له الشرائع حتى أكمل له الدين، وأتم به النعمة على المؤمنين؛ فاختاره مولاه للالتحاق بالرفيق الأعلى من قربه وجواره، فمرض في غرة ربيع الأول وكان ثاني عشره يوم هجرته وولادته ويوم وفاته. فانزعج المسلمون لهذه المصيبة الفادحة وحق لهم الانزعاج، ورفع أهل الشِّرك والشَّر رؤوسهم وأقبلت الفتن والشرور كالأمواج، فثبَّت اللَّهُ المسلمين بأبي بكر الصِّدِّيق وقَوَّاهم، فقاوموا المرتدِّين والمُفسدين حتى ضعضعوهم وأنهكوا قواهم، وأرجعوهم إلى الإسلام وشرائعه وأدخلوهم من الباب الذي منه خرجوا، وقاموا مقام نبيهم في نصر دينه حتى سُرُّوا بقوة الإسلام وابتهجوا، وألقوه إلى من بعدهم غَضًّا طرياً سالماً من البدع والأكدار فعلينا أن نشكر الله على هذه النعم وعلى ما يسره من أسرار الأقدار،

**﴿إلَّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني آثنين إذْ هما في الغار إذْ يقول لصاحبه: لا تحزنْ، إنَّ الله معنا، فأنزل الله سكينتَه عليه، وأيَّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السُّفْلى وكلمةُ اللَّهِ هيَ العُليا والله عزيز حكيم﴾** [سورة التوبة: الآية ٤٠]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبــة وعظية

الحمد لله الذي أيقظ قلوب المؤمنين بالوعظ والتذكير، وأنالهم من كرمه وإحسانه الفضل الكبير، وأشهدُ أن لا إلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير؛ وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، البشيرُ النذيرُ والسراجُ المُنير. اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه أولي الجِد والتشمير، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، وتأملوا ما أنتم فيه من الحياة الدنيا كيف تصرَّمَت أوقاتُها، وفَنِيَت لذاتها، واضمحل نعيمها وشهواتُها، وبقيت على العاصين والمفرطين تبعاتُها وحسراتها، بينما أهلها في غضارة عيشهم يتمتعـون، وفي أنواع اللذات والشهـوات يتنعمـون، وفي غفلتهم وغيهم يعمهون، وفي سكرتهم يتخبطون، وعن آخِرتِهم وعما أمامَهم معُرضون، إذ حلت بهم المُثُلات بغتة وهم لا يشعرون، وتوالت عليهم الفجائـع فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، يتمنَّون الرجوع إلى الدنيا وهيهات لهم الرجوع، ويودُّون أن يُردوا ليتداركوا خللهم وأنّى لهم التوبة والنزوع، قد حِيل بينهم وبين ما يشتهون، تراكمت عليهم كُرُبات الموت وفوات ما كانوا يحبون، وذهاب ما كانوا يجمعون، فلو رأيتهم وقد بُدِّلوا بالضنك والضيق بسعة فسيـح الرحاب، وقد تناولوا بعد حلاوة العز والشرف مرارةَ الهوان والعذاب: هذا وقد اغتبط الطائعون بالروح والريحان وجزيل الثواب.

وأنتم لا بد أن تصيروا إلى ما إليه صاروا. وتسيروا طوعا أو كرهاً إلى الطريق الذي فيه ساروا، فاستعدوا رحمكم الله بزادٍ ينفعكم في ذلك السفر المخيف المزعـج، واعلموا أنه لا يفيدكم مجرد الأمانيِّ ولا يُسعدكم العملُ البهرج. فلا بد أن تُسألوا: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ فإن كان جوابكم: يا ربنـا إننا لم نعبـد سواك، ولم نـرجُ ونخشَ وندعُ إلا إيـاك، ولم نسلك سبيلاً غير سبيلك، ولا اقتدينا وتأَسَّيْنا بأحد غير رسولك، فهنيئًا لكم

وبُشْراكم بالنجاة من العذاب، ويا فوزَكم بجزيل الأجر والثواب؛ وإن كان الجواب بغير الصواب، خابت منكم الآمال وعميت عليكم الأنباء، وتقطعت بكم الأسباب

**﴿يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون * إلاّ من أتى اللَّهَ بقلب سليم﴾**
[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨، ٨٩]

سليمٍ من الشر والشك والشرك والشقاق، سليمٍ من الغش والحقد ومساوىء الأخلاق، ممتلىءٍ بالنصيحة للعباد والإنابة إلى الخلاق

**﴿يا أيها الذين آمنوا آتَّقوا الله وَلْتَنْظُرْ نفسٌ ما قَدَّمت لغدٍ وآتَّقوا الله إن اللَّهَ خبيرٌ بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نَسوُا اللَّهَ فأنْساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسقون﴾** [سورة الحشر: الآيتان ١٨، ١٩]

بارك الله لي ولكم.

## خطبة
## في الحث على تحقيق الإيمان وتكميله

الحمد لله الذي جعل الإيمان أُسَّ الفضائل وأعلاها، وأكمل الخصال الحميدة وأجلها وأزكاها، به تزكو الأحوال، وبه تدرك الآمال، وأشهد أن لا إلّه إلّا الله، وحدَه لا شريك له، إقراراً بمعناها وتصديقًا وانقياداً لمقتضاها، وإخلاصاً بها وإيقاناً وتحقيقاً، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، أفضلُ داعٍ إلى الإيمان، وأعلى مؤسس لقواعد الإيقان؛ اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس آتَّقوا الله تعالى، وآعلموا أن أصل التقوى أن تتحققوا بحقوق الإيمان، وأن تقوموا بلوازمه التي أمركم بها الرحمن، فإن للإيمان عقائدَ لا بُدَّ أن تعتقدوها، وله أعمالاً ظاهرة وباطنة لا يتمُّ لكم الإيمان

حتى تسلكوها، فصدِّقوا ـ رحمكم الله ـ واعترفوا بكل ما أخبر الله به ورسولَه إجمالاً وتفصيلا، واستسلموا إلى ربكم إخلاصاً وإنابةً ومحبةً وتعظيمًا وتبجيلاً، وفوِّضوا أموركم جميعها إليه، وقوموا بشكره وذكره والتوكل عليه؛ فلن يذوق عبدٌ طعمَ الإيمان حتى يرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا (ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا الله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار).

المؤمن هو من تحقق بكمال اليقين وصدق الإخلاص وصحة الطَّويَّة، ومن انبعثت نفسه بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والأقوال المرضيّة؛ المؤمن من امتلأ قلبه من محبة الرسول فقدّم قولَه على كل أحد، واتَّبعه واقتدى به، ونَصَر ما جاء به ونصح لما شَرَعه فصار بذلك من أنصاره وأحبابه؛ المؤمن من أحبَّ للمؤمنين من الخير ما يحبه لنفسه، وكره لهم من الشر ما يكرهه لنفسه؛ المؤمن من تواضع وخفض جناحه للمؤمنين، فجعل كبيرهم بمنزلة أبيه، وصغيرهم بمنزلة بنيه، والنظير بمرتبة أخيه؛ المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم واحتمل ما يلقاه من أذيتهم وجفوتهم وإعراضهم؛ المؤمن الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده لصحة إيمانه وأمانته، وسلموا من غشه وخديعته وخيانته؛ المؤمن هو التائب من الإثم والعصيان والفسوق، ومن هو مجتهد في بِرِّ القريب والجار والصاحب قائم بالحقوق؛ ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان، ولا بالفاحش ولا بذيء اللسان، وليس المؤمن من لا يأمن جاره بوائقَه، ولا يأمن من غائلته وغشه من عامله أو رافقه؛ ليس المؤمن من تسخَّط أقدار الله بقلبه أو فعله أو لسانه، ولا شكر ربه على فضله وكرمه وإحسانه، المؤمن بريء من الكذب وإخلاف الوعد والمخاصمة والفجور، معرض عن السباب واللغو وقول الزور؛ فطوبى لعبدٍ صَدَق إيمانُه بالقول والعمل، وويل لمن آدَّعى الإيمان فخالف ظاهرُه باطنَه فخاب وانقطع منه الأمل،

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ اللّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون * أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ــ ٤]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

## خطبة
## في التذكير بنِعَمِ الله وآثار الغيث

الحمد للّهِ الذي بسط لعباده النِّعَمَ الواسعة والخيرات، وأدَرَّ عليهم الأرزاق والإحسان والمبرَّات؛ نحمدُه على ما له من كمال الأسماء وعظمة الصفات، ونشكره على ما تفضل به من الفضائل والفواضل والهبات، ونسأله أن يوفقنا لشكر آلائه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن نَقَمِه وبلائه؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله، وحدَه لا شريك له في ألوهيته وربوبيته ومجده وعظمته وبهائه، ولا معين له في رزقه وتدبيره ومنعه وعطائه؛ ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه؛ خيرُ خلق وأشرف أنبيائه؛ اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه وكل من أحسن في اتِّباعه واقتفائه، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله تعالى، فإن تقوى الله خيرُ مُدَّخَرٍ وزادٍ، واشتغلوا بشكر نِعَمه فإنه كلما شُكِرَ أبقى نِعَمه وبارك فيها وزاد؛ فكم تفضَّل عليكم مولاكم بنعمٍ سابغة، وأيادٍ ومِنَنٍ جسيمة متتابعة؛ ألم يتفضل عليكم بالهداية للإسلام والإيمان؟ ألم يُؤْتِكم جميعَ النِّعم الدينية ويتمَّها عليكم بعافية الأبدان وسعة الأرزاق والأمن في الأوطان؟ ألم يعطكم الأسماع والأبصار والأفئدة والعقول؟ ألم يبينْ لكم طريق الخير وطريق الشر ويؤْتِكم كل مأمول وسُول؟ أما يَسَّر لكم من أسباب الرزق كل طريق تتمكنون به من الكسب والاعتياش؟ أما نَوَّع لكم المنافع الضرورية والكمالية وزينكم

بالرياش؟ أما أنزل لكم من فضله مطراً وسحابًا، فروى به أدوية وسهولاً وهضاباً؟ أما أخرج لكم من ألوان النباتات كل زوج كريم؟ فانتشرتم به راتعين بفضل ذي الفضل العظيم، متمتعين منتفعين بخيره العميم، أزال الله به عنكم النحوس والأكدار، وبلغكم المنى وأنالكم الأوطار، وراحت عليكم أنعامكم تزداد سِمَناً قد امتدت منها الخواصر وامتلأت الضُّروع، وهانت مؤنة السقي على أهل النخيل والأشجار والزروع؟

وقد أنزل لعباده البركة في جميع الأصول والفروع، فكم لله من نعمة في هذا الغيث الغزير، وكم تعلّق به كل مضطر وانتفع به الغني والفقير، فهذا يرعى ويرتع أنعامه في رياض الربيع، وهذا يحش فيدخر لحاجته ويحلب ويبيع، وهذا قد تيسر له مشتراه بعد العدم والفقدان، وهذا قد ملأ منازله علفًا مستعدًّا به لمستقبل الزمان. وهذا يتفرج ويبتهج على الأزهار والرياض المعشبات، وهذا يطرب من فنون الأشكال والأغصان الناعمات، فيعتبر ويستدل بذكره على وحدانية مبدعها وما له من سوابغ الهبات والكرامات، إن الذي أحياها بعد الهمود والدثور، قادر على إحياء ما في القبور للحساب والنشور:

**﴿ومن آياته أنَّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وَرَبَتْ إنّ الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾**

[سورة فُصِّلت: الآية ٣٩]

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم.

# خطبة
# في الحث على الصبر

الحمد لله الذي وعد الصابرين أجرهم بغير حساب، وجعل لهم العواقب الحميدة في هذه الدنيا ويوم المآب؛ وأشهد أن لا إلٰه إلّا اللَّهُ، وحدَه لا شريك له، الرحيم التوّاب، الكريم الودود الوهّاب، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، الذي أنزل عليه الحكمة وفصل الخطاب، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه صفوة الصفوة ولب اللباب، وسلّم تسليما.

أما بعد أيها الناس، اتّقوا الله تعالى واعلموا أن الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجثمان، فمن لا صبر له فليس له يقين ولا إيمان؛ وقد أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع الأمور، وأخبر أن الصابرين لهم الدرجات العالية والخير والأجور، فقال مخبرًا عن أهل دار القرار

**﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعمَ عُقبى الدار﴾** [سورة الرعد: الآيتان ٢٣، ٢٤]

فإن سألتم عن حقيقة الصبر، فإنه حبس النفس وإلزامها ما يشق عليها ابتغاء وجه الله وتمرينها على الطاعة وترك المحارم وعلى الأقدار المؤلمة رضى بقدر الله. فمن عرف ما في طاعة الله من الخير والسعادة هان عليه الصبر والمداومة عليها. وما في معصية الله من الضرر والشقاء سهل عليه إرغام النفس والإقلاع عنها، ومن علم أن الله عزيز حكيم، وأن المصائب بتقدير الرؤوف الرحيم، أذعن للرضى ورضي عنه الله وهدى الله قلبه للإيمان والتسليم، فيا من انتابته الأمراض وتنوعت عليه الأوصاب، أذكر ما جرى على أيوب وكيف أثنى الله عليه بالصبر وحصول الزلفى حيث قال:

**﴿إنّا وجدناه صابرًا نِعْمَ العَبدُ إنّه أوَّابٌ﴾** [سورة صٓ: الآية ٤٤]

ويا من فَقَدَ سمعَه أو أخذ الله عينيه: أما علمت أن الله لا يرضى بعوض سوى الجنة لمن صبر حين يأخذ حبيبتيه؟ ويا من فجع بأحبته وقرة عينه وأولاده وأخدانه، أما علمت أن من حَمِد وآسترجع بَنَى الله له بيت الحمد في دار كرامته، وكان زيادة في إيمانه وثقلاً في ميزانه، وأن من مات له ثلاثة من الولد أو اثنان أو واحد فصبر واحتسب كان حجابًا له من النار ورفعةً له في دار القرار؟ أما سمعت أنَّ من صبر على الفقر والجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات فإنّ له البشارة بالهداية والرحمة من ربه والثناء والصلوات؟ ويا من أصيب بآلام أو جروح أو أمراض تعتري بدنه وتغشاه، أما سمعت قوله ﷺ: (لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذىً حتى الشوكة يشاكُّها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه) (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كلُّه خير: إن أصابته سرَّاء شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صَبَر فكان خيراً له؛ وليس ذلك إلا للمؤمن).

فعليكم بالصبر على ما أصابكم والاحتساب، فإن ذلك يخفف المصيبة ويجزل لكم عند ربكم الثواب؛ ألَا وإنّ الجزع يزيد في المصيبة ويحبط الأجر ويوجب العقاب؛ فيا سعادة من رضي بالله ربًّا فتمشى مع أقداره بطمأنينة قلب وسكون، وعلم أن الله أرحم به من والديه فلجأ إليه وأنزل به جميع الحوائج والشؤون

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكم بشيء من الخوف والجوع.. [إلى آخر الآيات]﴾

[سورة البقرة: الآية ١٥٤]

بارك الله لي ولكم في القرآن.

# خطبة
# في تربية البنات تربية نافعة

الحمد لله الرؤوفِ الرحيم، القويِّ العزيزِ الحكيم، وأشهدُ أن لاإلٓه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، ذو الفضل العظيم، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، النبيُّ الكريم، اللَّهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه على الصراط المستقيم، وسلِّم تسليما.

أما بعد، أيها الناس، اتَّقوا الله، وقوموا بما استرعاكم مولاكم، وأحسنوا ولاية من تُوَلُّونه يُصلح لكم دنياكم وأخراكم، فمن أحسن إلى عباد الله وقام بتقويم من تحت يده أحسن الله إليه، ومن ربّى غيره ورقّاه في صفات الكمال أثابه مولاه وقربه إليه، قال ﷺ: (كلكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عنٍ رعيته) حتى قال: (والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولةٌ عن رعيتها) فحضُّوا ــ رحمكم الله ــ نساءكم على إصلاح ما تحت أيديهن من الأولاد والبنات، وعلى القيام بحسن التربية حتى يقمن بما عليهن من الواجبات، فأول ذلك وأولاه تعويدُهن الأخلاق الجميلة والمحافظة على الصلوات، وعلى حفظ الجوارح عن المحرَّمات وصيانة اللسان، والحث على الأقوال الطيبة والإكثار من ذكر الملك الديَّان، وأن يُلْزِمْنَهُنَّ حسنَ تدبير البيوت والقيام بكل عمل شريف، وعلى تعليم الطبخ والخبز وخدمة البيت بالكنس والتنظيف؛ وعلى الخياطة وملاحظة الأولاد الصغار.

وحُثُّوهن على التصافي والتآلف وفعل الأسباب التي تزيل الشحناء والأكدار، فإن في ذلك شرفًا ورفعة وأجرًا عند الملك الغفّار، وذلك أصل صلاح الأسرة وعليه التأسيس والمدار، فالنساء يرتقين بهذه التعاليم الشريفة إلى مراتب الكمال المَجِيدَة، ويتعودن الأعمال النافعة المفيدة، ويسلمن من مضار الكسل والبطالة التي تضر بالأجسام، وتُطفىء نورَ العقل وتمنع من الحزم وحسن الاهتمام، فمتى تربت الأنثى على الأعمال البيتية وأحسنت خدمته وبرعت في التدبير، فاقت نظائرها ولو كنَّ أجمل منها وصارت موضع

موضع الإعجاب والاستحسان والتقدير، ونفعت وانتفعت في عاجل الأمر وعقباه، وحصل لوليها بها غاية منيته ومناه.

ومتى كانت الأنثى كسلانة لا تحسن خدمة البيوت ولا تقوم بشيء من الأعمال صارت مهينة ذليلة مهملة غاية الإهمال، يا عجبًا لنا لو كان لأحدنا دابة لتعب في تعليمها وتقويمها، لينتفع بها إذا هو اقتناها ويزداد ثمنها عند بيعها وشراها، ومع ذلك نهمل من تحت أيدينا من البنات والقرابات، وندع ما نفعه عائد إلينا في جميع الحالات، ونزعم أن إكرام الأنثى توفيرها عن العمل وهو من أعظم الإهانات، وإنما إكرامها تمرينها على القيام بالشؤون والمهمات، فكم بين أن ترى أنثاك خرقاء لا تحسن شيئاً من الأعمال كسلانة لا تنفعك إن أبقيتها، ولا تجملك وتنفع غيرك إذا خرجت من بيتك وزوَّجتها، وبين أن تراها قوية عارفة بالأعمال حازمة، قائمة بجميع ما يحتاج إليه فيه مستعدة ملازمة، إن بقيت عندك قامت بأمور البيت وأغنتك عن القريب والبعيد، وإن زوّجتها جمّلتك وصرت مسرورًا مطمئن الخاطر سالمًا من التنكيد، يتنافس الخطاب في الحصول على مثلها ويتمنى كل عاقل أن له زوجة أو بنتًا على شكلها، وما بين أحدكم وبين ذلك إلاّ الاجتهاد في التعليم والتقويم، وأصل ذلك وتمامه توفيق العزيز العليم

**﴿والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرِّياتنا قرةَ أعينٍ وآجعلنا للمتقين إمامًا﴾** [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

بارك لي ولكم في القرآن الكريم.

* * *

تمَّ ما قصدنا جمعَه من الخطب النافعة المحتوية على أهم المواضيع، الجامعة للعقائد والأخلاق ولآداب الدينية والدنيوية بأوضح أسلوب وأبين العبارات المناسبة للوقت، على يد كاتبها وجامعها الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلِّ اللَّهمَّ على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

حرر في ٢٢ رجب سنة ١٣٦٥

# فهرس المجموع السادس

# (الخطب)

## الخطب المنبرية

## الفواكه الشهية في الخطب المنبرية

## مجموع خطب الشيخ عبد الرحمن السعدي

⑦ الفتاوى

# المجموعة الكاملة لمؤلفات

## الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- الفتاوى السعدية
- حكم شرب الدخان

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

# الفَتَاوى السَّعْدِيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# مقدّمة

الحمد لله الذي خلق خلقه أطواراً، وَصرَّفهم في أطوار التخليق كيف شاء عزةً وَاقتداراً، وَأرسل الرسل إلى المكلفين إعذاراً منه وإنذاراً. وَالحمد لله ربِّ العالمين، نحمده ونستعينه، ونستغفره وَنتوب إليهِ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلاَ هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وَحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبهِ وسلمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى بعث رسلَه مبشِّرين ومنذِرينَ، وأنزلَ معهم الكتاب بالحقِّ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسط، فيؤدوا ما أوجبه الله عليهم من حقوقهِ، وحقوقِ دينه وعباده، فبلَّغوا عليهم الصلاةُ والسلامُ رسالةَ ربهم، وأدَّوا أمانتهُ، ونصحُوا أمَمَهُمْ حتى لم يُبْقوا شكاً ولا رَيْباً لذي شكٍ أو ريبٍ. وقد كان أبلغهم بياناً وأعظمهم معجزة، وأعمهم رسالةً خاتمهم محمدﷺ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء، والطريقة المثلى، ليلُها كنهارِها لا يزيـغُ عنها إلا هالك، وأخذتها أمتهُ منه خالصة نقية واضحة ميراثاً مستمراً إلى أن يأتيَ أمر الله، ويأذن الله بخراب هذا العالم، فإن الرسلَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ لم يُورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما وَرَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر، فكانت أمته ﷺ تتوارث علمه عالماً بعد عالِم حتى انتهت إلى عصرنا هذا.

وكان من بين العلماء الذين حظوا بهذا التراث وبذله ونشره على الوجه المشروع من غير ملل ولا اكتراث شيخنا الشيـخ (عبد الرحمن بن ناصر السعدي)، فقد نال ـــ ولله

الحمد ـ من هذا العلم أوفر حظٍ، وما زال دائباً على نشره تعليماً سراً وجهراً بين الطلبة وعامة الناس، وتصنيفاً للكتب الصغيرة والكبيرة، وقد بذل مجهوده لإرشاد الخلق حتى نفـع الله به الخلق الكثير من المواطنين وغيرهم من سائر البلدان، ثم مضى لسبيله بعد أن قضى حياته على الوصف الذي ذكرنا، فرحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بعلومه، وجزاه الله عنا جزاء الموفقين الأبرار، وجعله من حزبه الفائزين.

وبعد وفاته اطلعْنا على فتاوى وكتاباتٍ وأسئلةٍ وأجوبة كتبها بيده، ونعتقد أنها نافعة في بابها وملائمة لوقتنا الحاضر، ولكثرة المتشوقين من أخواننا إلى مراجعتها، والانتفاع بها، قيدناها مرتبة على حسب عادة مصنفي فقهائنا الحنابلة رحمهم الله. ولم نعتمد في كتاباتنا هذه من فتاواه إلا على ما رأيناه بخط يده، ليكون ذلك أوثق، وأبلـغ طمأنينة. والله نسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه وسعينا مشكوراً لديه، ونافعاً لعباده، فإنه سميـع قريب.

# القسم الأوّل

# فيما يتعلق بأصول الدين والحديث

# المسألة الأولى

قوله ﷺ في حديث معاذ المتفق عليه: (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) أي: يخضعوا له محبة بطاعته وطاعة رسوله، فيشمل ذلك اعتقادات القلوب التي ترجع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِه، وأعمال القلوب التي مرجعها إلى الإنابة بالقلب إلى الله في الحب والخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، وتوابع ذلك من أعمال الجوارح التي بعضها أعمال بدنية قلبية: كالصلاة والصيام، وبعضها مالية قلبية: كالزكاة والصدقة، والكفارات والنفقات الواجبة والمستحبة. وبعضها مالية بدنية قلبية: كالحج والعمرة والجهاد، وبعض العبادات متعلق بحقوق الله خاصة، وبعضها متعلق بحقوق الخلق، كبِرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ونحوهم. وإلى أقوال لسانية، كقراءة القرآن، وذكر الله، والثناء عليه، والتحدُّث بنعمه، والاشتغال بالعلوم النافعة، والنصيحة لعباد الله، ونحو ذلك مما يقرب إلى الله، وتحقيق جميع ذلك وتكميله، وحصول تمام مقصوده وروحه هو الإخلاص التامُّ لله في جميع هذه العبادات، بأن يكون الداعي لها، والحامل للعبد على فعلها، امتثال طاعة الله، وطاعة رسوله، وغايتها ومقصود صاحبها ابتغاء فضل الله ورضوانه، وبذلك يتحقق التوحيد الخالص الكامل وينتفي الشركُ كله. وبذلك تترتب جميع الثمرات التي رتبها الشارع على العبادات من منافع الدين والقلب والبدن والدنيا والآخرة، والله المستعان.

## المسألة الثانية
### في أصول الدين الكبار

سئل عن أصول الدين الكبار على وجه الإيجاز والاختصار، فأجاب: هذا أعظم سؤال، وجوابه أجلُّ الأجوبة، لاستدعائه الإتيان بجميع الأصول التي تبنى عليها القواعد الإسلامية والحقائق الإيمانية، وقبل الشروع في جوابها ليعلم السائل أنّي لا يمكنني أن أستوفي ما تستحق ولا بعض ما تستحق من البسط وبيان الأدلة، ولكن ما لا يُدْرَك كُلُّه لا يُترك كلُّه، فأقول على وجه الإشارة والإيجاز: لهذا الدين العظيم أصولٌ كثيرة، ولكن أكبرها وأعظمها هذه الأصول التي سننبه عليها:

## الأصل الأول
### التوحيد

حدُّ التوحيد الجامع لأنواعه، هو: اعتقاد العبد وإيمانه بتفرد الرب بصفات الكمال، وإفراده بأنواع العبادة. فدخل في هذا التعريف: توحيد الربوبية الذي هو اعتقاد انفراد الرب بالخلق والرزق، وأنواع التدبير، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات جميع ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وتوحيد الإلهية والعبادة وهو إفراده وحده بأجناس العبادة وأنواعها، وإفرادها من غير إشراك به في شيءٍ منها مع الاعتراف بكمال ألوهيته، فدخل في توحيد الربوبية: إثبات القضاء والقدر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه الغنيُّ الحميد، وما سواه فقير إليه من كل وجه. ودخل في توحيد الأسماء والصفات: إثبات جميع معاني الأسماء الحسنى لله الواردة في الكتاب والسنة. والإيمان بها ثلاث درجات: إيمان

بالأسماء، وإيمان بالصفات، وإيمان بأحكام صفاته: كالعلم بأنه عليم ذو علم، ويعلم كل شيء، قدير ذو قدرة ويقدر على كل شيء، إلى آخر ما له من الأسماء المقدسة. ودخل في ذلك إثبات علوِّه على خلقه، واستواؤه على عرشه، ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، ودخل في ذلك: إثبات الصفات الذاتية التي لا ينفك عنها، كالسمع والبصر والعلوِّ ونحوها. والصفات الفعلية وهي كل صفة تعلقت بمشيئته وقدرته كالكلام والخلق والرزق والرحمة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا كما يشاء، وأن جميعها ثابتة لله من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف، وأنها كلها قائمة بذاته وهو موصوف بها، وأنه تعالى لم يزل ولا يزال يفعل ويتكلم، وأَنه فعال لما يريد، يتكلم بما شاء إذا شاء كيف يشاء، لم يزل بالكلام موصوفاً، وبالرحمة معروفاً. ودخل في ذلك: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه المتكلم به حقاً لفظه ومعانيه، وأن كلامه لا ينفد ولا يبيد. ودخل في ذلك: الإيمان بأنه قريب مجيب، وأنه مع ذلك عليٌّ أَعْلى، وأنه لا منافاة بين كمال قربه وكمال علوِّه، لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته. ولا يتم توحيد الأسماء والصفات حتى يعترف ويؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة، من الأسماء والصفات والأفعال وأحكامها، على وجه يليق بعظمة الباري. ويعلم أنه كما لا يماثله أحد في ذاته، فلا يماثله أحد في صفاته. ومن ظن أن في بعض العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف، فقد ضل ضلالاً مبيناً. ولا يتم توحيد الربوبية حتى يعتقد العبد أن جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وأن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأن لهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وهي متعلَّق المدح والذم، والأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأنه لا يتنافى الأمران: إثبات مشيئة الله العامة الشاملة للذوات والأفعال والصفات، وإثبات قدرة العبد على أفعاله وأقواله. ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله في جميع إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى. وتحقيق هذا

التوحيد وتمامه أن يدع الشرك الأصغر وهو: كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك.

والناس في التوحيد درجات متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفة الله، والقيام بعبوديته الظاهرة والباطنة، فأكملُهم من عرفَ تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه، وما أخبر به عن مخلوقاته، وعن اليوم الآخر والجزاء الثابتة في الكتاب والسنة، وفَهِمَ معانيها فهماً صحيحاً، فامتلأ قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه، وانجذاب جميع دواعي قلبه إلى الله؛ متوجهاً إليه وحده لا شريك له، ووقعت جميع حركاته وسكناته خالصة لله تعالى لا يشوبها شيء من الأغراض الأُخَر، فاطمأن إلى الله معرفة وإنابة، وفعلاً وتركاً، وكَمَّلَ نفسه بالإخلاص والمتابعة، وكمَّل غيره بالدعوة إلى هذا الأصل، ولا يتم له هذا التوحيد حتى يواليَ أهل الإيمان والتوحيد، ويتبرأ من الشرك والمشركين، ويواليَ لله، ويعاديَ لله، وتصير محبتهُ تابعة لمحبة الله. فنسأل الله أن يتفضل علينا بذلك بمنه وكرمه.

## الأصل الثاني

### الإيمان بنبوة جميع الأنبياء عموماً وبنبوة محمد ﷺ خصوصاً

وهذا الأصل مبناه على أن يعترف ويعتقد بأن جميع الأنبياء قد اختصهم الله بوحيه وإرساله، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه ودينه، وأن الله أيَّدهُمْ بالبراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاؤوا به، وأنهم أكملُ الخلق علماً وعملاً وأصدقهم وأبرُّهُمْ، وأكملهم أخلاقاً وأعمالاً، وأن الله خصهم بخصائص وفضلهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأن الله بَرَّأهم من كل خُلُق رذيل، وأنهم معصومون في كل ما يبلغونه عن الله، وأنه لا يستقر في خبرهم وتبليغهم إلا الحق والصواب، وأنه يجب الإيمان بهم، وبكل ما أوتوه من الله ومحبتهم وتعظيمهم، وأن هذه الأمور ثابتة لنبينا محمد ﷺ على أكمل

الوجوه، وأنه يجب معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلاً بحسب الاستطاعة والإيمان بذلك، والتزامه، والتزام طاعته في كل شيء بتصديق خبره، وامتثال أمره، واجتناب نهيه. ومن ذلك أنه خاتم النبيين، نَسَخَتْ شريعتُه جميع الشرائع، وأن نبوَّته وشريعته باقيةٌ إلى قيام الساعة، فلا نبيَّ بعده، ولا شريعة غير شريعته في أصول الدين وفروعه، ويدخل في الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمانَ بكلٍّ ما جاء به من الكتاب والسنة أَلفاظها ومعانيها، فلا يتم الإيمان إلا بذلك، وكل من كان أعظم علماً بذلك وتصديقاً واعترافاً وعملاً كان أكمل إيماناً. والإيمان بالملائكة مع القَدَر داخل في هذا الأصل العظيم، ومن تمام الإيمان به أن يُعْلَم أن ما جاء به حق لا يمكن أن يقوم دليل عقلي أو حسيٌّ على خلافه، كما لا يقوم دليل نقليٌّ على خلافه، فالأمور العقلية أو الحسية النافعة تجد دلالة الكتاب والسنة مثبتة لها، حاثة على فعلها وعملها، وغير النافع من المذكورات ليس فيها ما ينفي وجودها وإن كان الدليل الشرعي ينهى ويذم الأمور الضارة منها، ويدخل في الإيمان بالرسل.

## الأصل الثالث

### الإيمان باليوم الآخر

فكل ما جاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت، فإنه من الإيمان باليوم الآخر، كأحوال البرزخ، وأحوال يوم القيامة، وما فيها من الحساب والثواب والعقاب والشفاعة والميزان والصحف المأخوذة باليمين والشمال، وأحوال الجنة والنار، وصفات أهلها، وأنواع ما أعده الله فيها لأهلها، إجمالاً وتفصيلاً، وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

# الأصل الرابع
## مسألة الإيمان

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ما جاء به الكتاب والسنة من أن الإيمان تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح، فيقولون: الإيمان اعتقادات القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، وأنها كلّها من الإيمان، وأن مَنْ أكملها ظاهراً وباطناً، فقد أكمل الإيمان، ومن انتقص شيئاً منها، فقد نقص إيمانه. وهذه الأمور بضع وسبعون شعبة أعلاها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان[1] ويرتّبون على هذا الأصل أن الناس في الإيمان درجات: مقربون، وأصحاب يمين وظالمون لأنهم بحسب مقاماتهم في الدين والإيمان، وأنه يزيد وينقص، فمن فعل محرماً، أو ترك واجباً، نقص إيمانه الواجب ما لم يتب إلى الله، ويرتّبون على هذا الأصل أن الناس ثلاثة أقسام: منهم من قام بهذه وبحقوق الإيمان كلها، فهو المؤمن حقاً، ومنهم من تركها كلها، فهذا كافر بالله، ومنهم من فيه إيمان وكفر، وإيمانٌ ونفاق، وخير وشر، ففيه من ولاية الله واستحقاقه لكرامته بحسب ما معه من الإيمان، وفيه من عداوة الله واستحقاقه لعقوبة الله بحسب ما ضيّعه من الإيمان. ويرتّبون على هذا الأصل أن كبائر الذنوب وصغارها لا تصل بصاحبها إلى الكفر، ولكنها تنقص الإيمان من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام، ولا يخلد صاحبها في النار، ولا يطلقون عليه اسم الكفر، كما تقوله الخوارج، أو ينفون عنه الإيمان كما تقوله المعتزلة، بل يقولون: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فمعه مطلق الإيمان. أما الإيمان المطلق فينفى عنه؛ وهذه الأصول إذا عرفت على وجهها يحصل بها الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة، ويترتّب على هذا الأصل أن الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله[2]، وأن التوبة تجُبُّ ما قبلها، وأن من ارتد

---

(١) هذا لفظ حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً «يا عمرو أما علمت أن الإسلام

ومات على ذلك حَبِطَ عمله، ومن تَابَ تاب الله عليه؛ ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل صحة الاستثناء في الإيمان، فيصح أن يقول: أنا مؤمنٌ إن شاء الله، لأنه يرجو من الله تكميل إيمانه فيستثني لذلك، ويرجو الثبات على ذلك إلى الممات، فيستثني من غير شك منه بحصول أصل الإيمان، ويرتِّبون أيضاً على هذا الأصل أن الحب والبغض أصله ومقداره تابع للإيمان وجوداً وعدماً، وتكميلاً أو نقصاً، ثم يتبع ذلك الولاية والعداوة، ولهذا كان من الإيمان: الحب في الله والبغض في الله[1] والولاية لله والعداوة لله. ولا يتم الإيمان إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[2] ويترتَّب على ذلك ـ أيضاً ـ محبة اجتماع المؤمنين، والحث على التآلف والتحابب، وعدم التقاطع ويبرأ أهل السنة والجماعة من التعصبات والتفرق والتباغض، ويرون هذه القاعدة من أهم قواعد الإيمان، ولا يرون الاختلاف في المسائل التي لا توصل إلى بدعة أو كفر موجبة للتفرق.

ويترتب على الإيمان: محبة أصحاب النبي ﷺ بحسب مراتبهم، وأن لهم من السوابق والفضل والمناقب ما فُضِّلوا به على سائر الأمة، ويدينون بحبهم ونشر فضائلهم، ويمسكون عما شجر بينهم، ويعتقدون أنهم أولى الأمة بكل خصلة حميدة، وأسبقهم إلى كل خير، وأبعدهم من كل شر. ويعتقدون أن الأمة لا تستغني عن إمام يقيم لها دينها ودنياها، ويدفع عنها عادية المعتدين، ولا تتم إمامته إلا بطاعته في غير معصية الله. ويرون أنه لا يتم الإيمان إلا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر باليد واللسان والقلب على حسب القدرة والاستطاعة، وبالجملة فيرون القيام بكل أصول الشريعة على الوجه الشرعي.

---

= يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله».

(١) روى أبو داود في «سننه» عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان). وهو حديث حسن بشواهده.

(٢) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

# الأصل الخامس
## طريق أهل السنة والجماعة في العلم والعمل

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ويعلمون أنه لا طريق إلى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع، والعمل الصالح. والعلم النافع: هو ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، فيجتهدون في معرفة معانيها، والتفقه فيها أصولاً وفروعاً، ويسلكون جميع الطرق المعينة على ذلك دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام، ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسب ما آتاهم الله، ويعتقدون أن هذه هي العلوم النافعة، هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة، ومناسبات حِكميَّة وكل علم أعان على ذلك وآزره، فهو علم شرعيٌّ، كما أن كل علم ضاده أو ناقضه، فهو باطل، فهذا طريقهم في العلم.

وأما طريقهم في العمل، فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق، والاعتراف التام، والإيمان الذي لا ريب فيه بعقائد الدين التي هي أصل العبادات وأساسها، ثم يتقربون إليه بعد ذلك بأداء فرائضه المتعلقة بحق الله وحقوق خلقه، مع الإكثار من النوافل، والسعي بالإحسان إلى الخلق بكل طريق، وبترك المحرمات والمنهيات تعبُّداً لله تعالى، ويعلمون أن الله لا يقبل إلا كلَّ عمل خالص لوجهه الكريم مسلوكٍ فيه طريق النبي الكريم. ويستعينون بالله في هذه الطرق النافعة التي هي العلم النافع، والعمل الصالح الموصل إلى كل خير وفلاح وسعادة عاجلة وآجلة. فهذه الأصول العظيمة هي أصل الأصول، احتوى عليها هذا الجواب على وجه الإيجاز، والإتيان بالنكت الحسان منها، ولو فصلت وبسطت وذكرت أدلتها لاحتاجت إلى شرح كثير، وكتاب كبير، والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

**سؤال مهم:**

إذا كانت حقيقة العبادة ولبُّها مبنيةً على غاية الحب مع غاية الذل، وقد

يوجد من المخلوق للمخلوق حب وذل، أو يوجد أحدهما، فما الفرق بين ما تعلق بالمخلوق ولم يبلغ رتبة العبادة، وبين حقيقة العبادة المبنية على الأصلين المذكورين؟

الجواب: ــ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ــ: اعلم أن هذا سؤال عظيم، له شأن عظيم، ولا يعرف سر العبودية وحقيقتها، بل لا يعرف التوحيد كله إلا بمعرفة الفرق بين الحب والذل الذي هو عبادة، وبين الحب والذل الذي ليس بعبادة، ومعرفة الفرق بين الأمرين هو أعظم فُرْقَان يُفْرَقُ به بين الأمور المتباينة والألفاظ المتشابهة، والمعاني التي بينها من الفرق أعظم مما بين السماء والأرض، وبيان ذلك أنَّ الحب والذل لله تعالى هو عبادته، وكل قول وفعل واعتقاد اشتمل عليه الدين، فالتعبد به لله تعالى مقرون بحب الله تعالى والذل له الذي حقيقته الانقياد لشرعه تصديقاً لأخباره، وتقرباً إلى الله بذلك التصديق المشتمل على العلم والمعرفة النافع للقلوب الموصل لها إلى أجلِّ غاية، وأعظم مطلوب، وامتثالاً لأمره، واجتناباً لنهيه تقرباً إلى الله، وطلباً لمرضاته ونيل ثوابه العاجل والآجل، بفعل المأمور، واجتناب المحظور، فطلب التقرب إلى الله في ذلك هو حقيقة الحب، بل هو ثمرة الحب، لأن العابد لله لمّا أحب ربه، طلب السعي بكل ما يقربه إليه ويدنيه منه، وذلك السعي والعمل هو الانقياد الذي هو ثمرة الذل والتعظيم للرب، بل القوة المعنوية التي عزم عليها المؤمن وهي التزامه العام لطاعة الله ورسوله بتصديق الخبر، وطاعة الأمر، هي حقيقة الحب والذلِّ حيث قال المؤمنون: «سمعنا وأطعنا» فكل ما قاموا به من الدين، وما عزموا عليه، والتزموه منه، فإنه من آثار الحب والذل، فهذه آثار العبودية، وثمرتها القيام بالدين كله علماً وعزماً وعملاً ونية.

ولا بد أن يكون هذا الحب والذل ناشئين عن معرفة بأسماء الله وصفاته، وأن له كمال الأسماء، وعظيم الصفات التي هي جميع صفات الكمال ونهاية الجلال والجمال، وهي صفات الإلّهية ونعوتها، فالله هو المألوه ذلّاً وحباً، وتوابع ذلك لما له من هذا الكمال الذي يختص به، فلا يشاركه في ذلك مشارك،

فجميع محامده التي ذكرها في كتبه، ونطقت بها رسله، هي صفات ألوهيته التي أَلَهَهُ المحبون المتذللون لأجلها وعبدوه بسببها، فعرفوا ما له من العظمة والكبرياء والمجد والجلال، فخضعوا وذلوا، وما له من الجمال والكرم والرحمة والجود والإحسان، فامتلأت قلُوبهم من محبته، وفاضت ألسنتهم بالثناء عليه، وانقادت جوارحهم طلباً لقربه ورضاه وثوابه، وعرفوا ما له من العدل والحكم، ووضع الأشياء في مواضعها، وإيقاع العقوبات المتنوعة بأنواع المخالفين، فخافوا ورهبوا وحذروا من معاصيه، وحيث وقعت منهم على وجه الغلبة، بادروا بالتوبة والخروج من تبعتها، وعرفوا ما له من الفضل العظيم والرحمة السابغة، وأنواع الألطاف، فاشتاقوا إلى كرمه، وسعوا لتحصيل ثوابه وجوده، وهانت عليهم المشقات لما عرفوا أنها تقضي بهم إلى أجل الكرامات وأفضل الثواب، وعرفوا مع ذلك أنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الظاهرة والباطنة كلها منه، وأن كل شر وعقوبة اندفعت عنهم فبدفعه وحفظه، وانه الرب على الحقيقة، كما أنهم هم العبيد المماليك على الحقيقة ليس لهم من أنفسهم إيجاد ولا إمداد ولا إعداد، يلهم الفقراء إليه في جميع أمورهم في خلقهم وخلق جوارحهم الظاهرة والباطنة، وفي رزقهم وتدبيرهم، وأنهم مماليك محض، ليس لهم شيء ولا منهم شيء، بل كل ما حصل لهم من منافع أو دفع مضار، فمن الله. فلما عرفوا ربهم، وعرفوا أنفسهم، ذلوا وخضعوا لله، واشتاقوا إلى كل ما يقربهم منه وما يسترحمون به إلههم ومعبودهم في حوائجهم المضطرين إليها في جميع اللحظات، فتبين وظهر أن الحبَّ والذل الذي هو عبودية لله، وتألَّهَهُ له لا يشابهه غيره، ولا يلتبس بسواه وأسبابه وموجباته، فإنه حب وذل اقترن بالقيام بالدين بحسب حال صاحبه، واقترن بمعرفة الله وما له من النعوت العظيمة التي اختص بها وتوحَّد بها، واقترن بمعرفة العبد بنفسه، وأنه عبد مملوك مضطر غاية الضرورة إلى عبودية ربه، وإلى تألُّهه لشدة ضرورته وتوقف سعادته على ذلك ولكونه مستحقاً عليه لازماً له من حيث إنه عبد مملوك مأمور منهي، فكما أن المعبود المألوه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه

وكماله فالعبادة المتعلقة به لا يشبهها شيء، ولهذا كلما قويت هذه الأمور في العبد كان أكمل لتوحيده، وأبلغ في عبوديته لله، فتمام التوحيد بتمام الإخلاص لله في الاعتقاد والقول والعمل، وبتمام معرفته لله تعالى إجمالاً وتفصيلاً، وتأصيلاً وتفريعاً، وكلما ضعفت منه هذه الأمور، ضعف توحيده.

ولهذا كان الشرك في الربوبية والشرك في الإلهية، والشرك في العبودية، والشرك في أسماء الله وصفاته وأفعاله، منافياً كل المنافاة للعبودية التي هي غاية الحب مع غاية الذل، لأن من زعم أن لله شريكاً في ربوبيته وتدبيره، أو له سميٌّ أو مثيل في صفات كماله، فقد أشرك بربوبية الله، وساوى غير الله بالله، بل ساوى المخلوق بالخالق، والمُعَبَّد المدبَّر، بالرب المدبِّر، ونفى خصائص ألوهية الله تعالى التي حقيقتها تفرده بجميع الكمال. ومن أشرك في عبوديته وإخلاصه، بأن صرف نوعاً من عبوديته لغير الله تعالى، فقد نقض توحيده، وأفسد دينه الذي هو الإخلاص المحض:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾. [سورة الزمر: الآية ٣]

فأي حب وأي ذل يشتبه بهذا أو يقاربه إلا حب وذل هو عبودية لغير الله، وشرك به، وهي المحبة الشركية الصادرة من المشركين التي مضمونها تسوية آلهتهم برب العالمين في الذل والتعظيم والحب، ولهذا يقولون في وسط جهنم معترفين بشركهم نادمين أشد الندم شاهدين بغاية ضلالهم:

﴿تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلَال مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَب العَالَمين﴾.

[سورة الشعراء: الآيتان ٩٧ و ٩٨]

ومع أن هذا شرك في توحيدهم، فإنهم لا يُساوون المؤمنين في حبهم وتعظيمهم؛ قال الله تعالى:

﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يحبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله﴾. [سورة البقرة: الآية ١٦٥]

فظهر ببيان حقيقة العبودية الفرق العظيم بين حب العبادة وتعظيمها والحب الطبيعي وتوابعه. والحب الطبيعي تابع لبعض مراد النفس والشهوات

المتباينة التي تبقى ببقاء ذلك المراد، وتزول بزواله. وأما الذل الطبيعي فهو ناشىء عن خوف من عقوبة مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة، وقد يجتمع الأمران في تعلقهما بالمخلوق، فيحب غيره ويعظمه ويذل له، لما يرى له عليه من حق أبوة أو إحسان أو نحوهما، وذلك الحب والذل تابع لذلك الحق الذي فعلهما لأجله مع علمه أن المعظم المحبوبَ لَه مخلوقٌ مثله، ناقص مثله، فقير مثله في جميع أحواله، وأنه لا يملك له نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ وأما حبه لأولياء الله وأصفيائه، فهو حب تابع لحبه لله، لأنه لما رأى محبة محبوبه لهم لما قاموا به من مراضيه أحبهم لله، ولهذا تقوى هذه المحبة بسبب قوة العبودية والتوحيد.

فنسألك اللهم حبَّك، وحبَّ من يحبك، وحب العمل الذي يبلغنا إلى حبك، ونعوذ بوجهك الكريم أن نشرك مخلوقاً في الحب معك، وأن نساويه فيك في شيء من الأمور التي اختصصت بها، وانفردت باستحقاقها. ونسألك اللهم أن تجعل جميع ما أحببناه من قوة وصحة وعافية وأهل مال وولد وأصحاب وغيرهم مُعيناً لنا على محابك، ومقوياً على طاعتك، وأن ترزقنا من الإخلاص الكامل ما يأتي على ذلك أجمع، بأن تجعل نياتنا وسعينا في عباداتنا وعاداتنا طريقاً لنا إلى الوصول إليك، وأن تعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، إنك جواد كريم.

## المسألة الثالثة
## في بيان كون الله لا أصبر منه

قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (لا أحد أصبرَ من الله يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم)[1] الكمالُ المطلق التام من جميع الوجوه ثابت لله تعالى نقلاً وعقلاً في جميع الأسماء والصفات والنعوت؛ ومن أنواع الكمال: الصبر. وهذا الصبر الذي ذكره الرسول عن الله لا مثيل له من الصبر، فهو صبرٌ من كامل القوة، عظيم القدرة والبطش في مقابلة غاية الإساءة والأذية من الخلق الذين نواصيهم بيد الله، وليس لهم خروج عن قدرته، وأقواتهم وأرزاقهم وجميع ضروراتهم وحاجاتهم متعلقة بالله ليس لشيء منها حصول إلا من جوده وخزائنه، ومع ذلك فهو يعافيهم ويرزقهم، ولا يقطع عنهم بِرَّهُ في جميع اللحظات ومع ذلك يفتح لهم أبواب التوبة، ويُسَهِّل لهم طرقها، ويدعوهم إليها، ويخبرهم أنهم إن تابوا مَحَا عنهم الخطايا العظيمة، وأَدَرَّ عليهم النعم الجسيمة؛ فسبحان الحليم الصبور.

## المسألة الرابعة
## في وجه كون الحب في الله والبغض في الله مستكملاً للإيمان

قوله ﷺ: (من أحب في الله، وأَبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان)[2]، وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الإيمان الشرعي تدخل فيه أعمال القلوب التي أصلها حب الله والإنابة إليه، وتكميل ذلك أنه يحب من يحبه الله، وما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة والأحوال، ويدخل فيه أعمال الجوارح التي هي فعل وترك، وتحقيق ذلك أن

---

(١) رواه بنحوه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وهو حديث حسن بشواهده.

يكون كذلك إعطاؤه المالي الذي جرت عادة أكثر الناس أن يكون مبذولاً في مرادات النفوس وأهويتها وشهواتها، فهذا المستكمل للإيمان قد جعل عطاءه ومنعه تبعاً لمراد الله ومحبته، وإذا كان هذا حاله في البذل والمنع المالي، فالبدني من باب أولى وأحرى، وحاله هذا هي حالة المخلص لله من كل وجه.

## المسألة الخامسة
## في حكم التوسل

التوسل: يطلق على التوسل إلى الله بما جعله وسيلة إليه في مثل قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾.

[سورة المائدة: الآية ٣٥]

وذلك يشمل التقرب إلى الله بالواجبات والمستحبات، وكذلك التقرب إليه بترك المحرمات والمكروهات، فهذا توسل إليه بعبادته التي خلق الخلق لأجلها، ومن هذا التوسل إليه في دعاء المسألة بأسمائه وصفاته والتوسل إليه بمنته ونعمه، كالتوسل إليه بالإيمان به وبرسله وكتبه وبمنته عليه في توفيقه لعمل صالح، أو حصول نعمة، أو دفع نقمة، وبالإيمان بالرسول ﷺ ومحبته واتّباعه، وبالصلاة والسلام عليه؛ فهذه الوسيلة لا يتم الإيمان إلا بها.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بذوات المخلوقين وجاههم، فهذا الصواب أنه لا يحل، لأنه لا يُتَقَرَّبُ إلى الله إلا بما شرع، وهذا ليس بمشروع، وأيضاً فذوات المخلوقين وإن كان لهم عند الله مقام وقدر وجاه، فهذا ليس لغيرهم، وليس التوسل بهم سبباً لشفاعتهم لمتوسل عند الله، ولم يجعله الله من الأمور المقربة إليه، وليس ذلك توسلاً بما مَنَّ الله به على المتوسل فتعين أنه لا يجوز.

النوع الثالث: ما يسميه المشركون توسلاً وهو التقرب إلى المخلوقين بالدعاء والخوف، والرجاء والطمع ونحو ذلك، فهذا وإن سمَّوه توسلاً، فهو

توسل إلى الشيطان لا إلى الرحمن، وهو الشرك الأكبر الذي لا يغفر لصاحبه إن لم يتب. والله أعلم.

## المسألة السادسة
## الإيمان بالقدر يتفق مع الأسباب

مباشرة الأسباب والاجتهاد في الأعمال النافعة تحقق للعبد تمام الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله قدر المقادير بأسبابها وطرقها، وتلك الأسباب والطرق هي محل حكمة الله، فإن الحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها اللائقة، فقضاء الله وقدره وحكمته متفقات كل واحد منها يمد الآخر ولا يناقضه، وقد أشار النبي ﷺ حين سئل وقيل له: يا رسول الله أرأيت رُقًى نسترقيها، وأدوية نتداوى بها، وتقاةً نتقيها هل ترد من قضاء الله وقدره؟ فقال: (هي من قضائه وقدره)[1]، فهذه الأسباب حسية ومعنوية روحانية وحمية عما يضر، وهي في مقدمة الأسباب، وأخبر ﷺ أنها من قضاء الله وقدره، فمن زعم أنه مؤمن بالقدر، وقد ترك الأسباب النافعة الدينية والدنيوية التي عليها نظام القدر، فهو غالط، فإن المؤمن بالقدر يجري على أحكامه ويعمل على سننه ونظامه، ويتبع النافع في إحكامه وإبرامه، والله المعين الموفق.

وتوضيح ذلك أن أقدار الله كلها تابعة لحمده وحكمته، فكما أن أفعاله تعالى كلها محكمة في غاية الإحكام والانتظام ما ترى في خلق الرحمن من خلل ولا نقص ولا فطور ولا اختلال، ولا في شرعه عبث وسفه ومنافاة للحكمة والمصلحة والإحسان، فكذلك أفعال المكلفين دينيُّها ودنيويُّها ظاهرُها وباطنُها كلها تجري على وفق الحكمة والغايات الحميدة، وأنه كلما عظم المقصود، وكثرت منافعه ومصالحه لم يمكن إدراكه إلا بسلوك الطرق المفضية إليه، فأعظم

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» من حديث أبي خزامة وقال: هذا حديث حسن.

المقاصد على الإطلاق نيل رضى الله، والفوز بثوابه، والسلامة من عقابه، وقد جعل الله له الإيمان وشعبه الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله، وإخلاص الدين له، ولزوم الاستقامة والتقوى، جعلها الله طرقاً وأسباباً توصل إليه، فما لم يسلك العبد هذا السبيل، فمحال أن يصل إلى رضوان ربه وثوابه، فاتكال الأحمق على القدر بدون جد واجتهاد، قدح في القدر والشرع جميعاً، وكذلك المطالب الأُخَر، كنيل العلم، وإدراكه هل يمكن بغير جد واجتهاد ومواصلة الأوقات في طلبه، وسلوك الطرق المسهلة له؟ فمن قال: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدت أم لا، فهو أحمق، كما قال بعضهم:

تَمَنَّيْتَ أن تُمْسِي فقيهاً مُنَاظِراً
بغَيْرِ عَنَاءٍ والجُنُون فُنُونُ
ولَيْسَ اكتِسَابُ المالِ دُونَ مَشَقةٍ
تَلَقَّيْتَها فالعِلْمُ كَيْفَ يكُونُ

وهكذا من ترك الزواج، وقال: إن قدر لي أولاد حصلوا تزوجت أو تركته. ومَن رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث وسقي وعمل متكلاً على القدر، فهو أحمق مجنون، وهكذا سائر الأشياء دقيقِها وجليلِها، فعلم أن القيام بالأسباب النافعة، واعتقاد نفعها داخل بقضاء الله وقدره دون الإخلاد إلى الكسل. والسكون مع القدرة على الحركة هو الجنون، وإن قول من قال:

جَرَى قَلَم القَضَاءِ بِمَا يَكُون
فَسِيَّانِ التَّحَرُّكُ والسُّكُونُ
جُنونٌ منْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْق
وَيُرْزَقُ في غِشَاوَتِه الجَنِينُ

هو الغلط الفاحش. وإن هذا القياس الذي قاسه، قاسَ القادر على الحركة المأمور بها على العاجز عن الحركة، قياس عجيب غريب، ولو أن هذا الشاعر قاس من تعذرت عليه الحركة والأسباب من كل وجه على هذا لكان حسناً مطابقاً.

فإن قيل: قد توضح لنا أن السعي في الأسباب الموصلة إلى مسبباتها مطابق للقضاء، والقدر مؤيد له، وأنه يتعذر الإيمان الصحيح بالقدر بدون فعل الأسباب، فما أحسن طريق يسلكه العبد؟

فالجواب: أحسن طريق يسلكه العبد في أموره الدينية، الاجتهاد في تفهم كتاب الله وسنة رسوله، وتحقيق الإخلاص للمعبود في كل عمل وقول وعقيدة، وطريقة، وتحقيق متابعة الرسول، واجتناب البدع الاعتقادية، والبدع العملية، فهذه الطريقة الدينية فيها الخير والبركة والقليل منها أعظم ثواباً، وأبلغ نجاحاً من الكثير من غيرها. وأما الأمور الدنيوية، فالعبد مفتقر إلى الكسب لنفسه، ولمن عليه مؤونته، فعليه بسبب يناسب حاله، ويتفق مع وقته من المكاسب المباحة وخصوصاً المكاسب التي لا تشغل العبد عن أمور دينه، ولا تدخله في محظور، وليثابر على ذلك السبب، ويكون اعتماده على مسبب الأسباب، وليكثر من سؤال ربه لييسِّر أموره، وأن يختار له أحسن الأحوال، وليكن قنوعاً برزق الله، راضياً بما قسم الله، لا يحزن على مفقود، ولا يتشوش من مناقضة الأسباب لمراده، فبذلك يحصل رضا ربه وراحة قلبه. ويبارك له في القليل، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

## المسألة السابعة

### في قوله ﷺ: احرص على ما ينفعك واستعن بالله

قوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)[1] ما أجلَّ هذا الحديث وأغزر فوائده، وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة، فإن مجموع سعادة الدنيا والآخرة في حرص العبد على كل عمل ينفعه في دينه ودنياه مع

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استعانته بالله، فمتى حَرَصَ العبد على الأمور النافعة، واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها، كان ذلك كماله وعنوان توفيقه، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة، فاته من الخير بحسبها، فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة؛ بل كان كسلاناً عن النافع له في أمور دينه ودنياه، لم يدرك شيئاً، فالكسل أصل الخيبة والفشل، فالكسلان لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا دنيا. وإن كان حريصاً، لكن على غير الأمور النافعة، إما على أمور ضارة، أو أمور مفوتة للمنافع والكمال، كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخيرات، وحصول الشرور والمضرات. فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء، ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها واجتهد، لم تتم إلا بصدق اللجاء والاستعانة بالله على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على حوله وقوته، بل يكون اعتماده التام بقلبه وباطنه على ربه، فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأمور، وتحصل له الثمرات الطيبة في أمر الدين، وأمر الدنيا، لكنه في هذه الأحوال محتاج، بل مضطر إلى معرفة الأمور النافعة التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

إذا تقرر ذلك، فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع وعمل صالح، أما العلم النافع، فهو العلم المزكِّي للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان. وتعيين ما يشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان، والحالة التقريبية في نظرنا هذا: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به، فإن تعذر أو قصر عليه حفظه لفظاً، فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الأصل الذي أدركه وعرفه، فلو حفظ طالب العلم «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وثلاثة الأصول، وكتاب التوحيد للشيخ محمد، وفي الفقه «مختصر

الـدليـل» و«مختصـــر المقنـع»، وفي الحـديث «بلوغ المـــرام»، وفي النحـو «الآجرُّوميَّة»، واجتهد في فهم هذه المتون، وراجـع عليها ما تيسر من شروحها، أو كتب فنها فإنها كالشروح لها، لأن طالب العلم إذا حفظ الأصول، وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها الصغار والكبار، ومن ضيـع الأصول حُرم الوصول. فمن حرص على هذه العلوم النافعة، واستعان بالله، أعانه وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه، ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعة، فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء، كما هو معروف بالمشاهدة والتجربة. أما الأمر الثاني وهو العمل الصالـح؛ فالعمل الصالـح هو الذي جمـع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول، وهو التقرب إلى الله بما يجب باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وتصديقه، وتصديق رسوله في كل خبر أخبر به، ثم يسعى في أداء ما فرض الله على العباد من حقوقه وحقوق عباده، وكمَّل ذلك بالنوافل والتطوعات وخصوصاً المؤكدة في أوقاتها، مستعيناً بالله عـلى فعلها وتكميلها ظاهراً وباطناً، ثم تقرب إلى الله بترك المحرمات وخصوصاً التي تدعو إليها النفوس الأمارة بالسوء، فيتقرب العبد إلى الله بتركها، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات، فمتى وفق العبد لسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك، أفلـح وأنجـح، وكان كماله بحسب ما قام به، من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها. وأما الأمور النافعة في الدنيا، فالعبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن ينظر أنفـع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله فيسلكها، ويعمل عليها، وذلك يختلف باختلاف الناس. ويقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب عائلته، ومن يقوم بمؤونته، وينوي الكفاف والاستغناء بسببه عن الخلق، وكذلك ينوي القيام بالعبوديات اللائقة بالمال من زكاة وكفارة، ونذر ونفقات، ونحوها من كل ما يتوقف على المال، فمتى كان طلبُ العبد وسعيُه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفـع طريق يراه مناسباً لحاله، وسلِمَ من المعاملات الرديئة، والغش وتوابعها، كانت حركاته قربةً يتقرب بها إلى الله عز

وجل، ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله وحده راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها وأقربها تحصيلاً لمراده، ويسأل الله أن يبارك له في رزقه، فأول بركة الرزق أن يكون مؤسساً على التقوى، والنية الصالحة، ومن بركة الرزق أن يُوفَّقَ العبدُ لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة، ومن بركة الرزق والمعاملة أن لا ينسى العبدُ الفضل، قال تعالى:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضل بينكم﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

وذلك بالتيسير على المُوسِرين وإنظار المُعْسِرين، والمحاباة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل وكثير، وإقالة المستقيل، والسماحة في البيع والشراء. فمن وفق لهذا أدرك خيراً كثيراً. فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل؟ قيل: قد اختلف العلماء، فمنهم من فضل الزراعة والحراثة، لما فيها من قوة التوكل وتعلق الرجاء بالله في إنزال الغيث، ولما فيها من النفع المتعدي، ومنهم من فضَّلَ البيع والشراء، لما فيه من الشرف، وحسن الاعتبار، وتوسع المعرفة والبركة، ومنهم من فضَّلَ الصناعة، لما فيها من القيام بالمنافع الكلية، ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع في هذه المسألة إذ قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله)[1] والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الناس، فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص، ويكون الآخر أفضل في حق الآخر، ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة، ويكون فيه معونة على أمور دينك لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق. ثم إنه ﷺ في آخر الحديث حض على الرضى بقضاء الله وقدره بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع، فإذا أصاب العبد ما يكره، فلا ينسبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يخلد إلى قضاء الله وقدره، ليزداد إيمانه ويسكن قلبه، فإن «لو» في هذه الحال تفتح عمل الشيطان، وهو نقص الإيمان،

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم الرضى بقدر الله وقضائه، وتفتح «لو» باب القلق والحزن من تشوش الأسباب، وهذه الحال التي أرشد إليها ﷺ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه، كما أنها خير له في دينه وأخراه، فإن مدار سعادة الدنيا على راحة القلب وسكونه وقناعته بما قسم الله، وذلك بما دلَّ عليه هذا الحديث من الحرص على كل أمر نافع وسيلة ومقصداً مع الاستعانة بالله وقت حصوله، والرضى بالله وبقدره بعد حصوله، والله أعلم.

## المسألة الثامنة
## في طرق العلم وأقواها

ما هي الطرق التي تدرك بها العلوم وما أقواها وأصحها؟

الجواب وبالله التوفيق: هذا سؤال عظيم جداً يستدعي الإجابة عن جميع الطرق التي يتوصل بها إلى أنواع العلوم، وإلى بيان درجاتها ومراتبها في القوة والضعف، والوضوح وضده. اعلم أن الطرق والمسالك التي يتوصل بها إلى العلوم كثيرة الأجناس والأنواع والأفراد، لكن يجمع متفرقاتها، ويلُمُّ أشتاتَها ثلاثُ طرق: إحداها: طريق الإخبارات الصادقة، والثاني: الحس، والثالث: طريق العقل، ووجه الحصر في ذلك أن المعلومات إما أن تدرك بالسمع أو بالبصر أو اللمس أو الذوق، وإما أن تدرك بالعقل، وإما أن تنال بالإخبار، وكل واحدٍ من هذه الثلاثة قد يجتمع مع الآخرين، أو مع أحدهما، وقد يكون ضرورياً يضطر الإنسان إلى علمه، والتصديق به، وقد يكون نظرياً يحتاج إلى زيادة فكر وتأمل وتفكر. ثم هذه الأجناس قد توصل إلى العلم الراسخ اليقيني، وقد توصل إلى الترجيح فقط، وبين المرتبتين درجات متفاوتة، أما أقواها فما اتفقت عليه الطرق الثلاثة، واتفق على اتفاقها عليه أهل العلم المعتبرون، وأولو الألباب العارفون، ومن نفى واحداً من هذه الأمور الثلاثة أو نفى بعضه، فذاك لفساد تصوره أو لقصور علمه وانحرافه وسوء قصده،

وكلما كان المخبرون أعظم صدقاً وأعلى معرفة، والمعارف أجل وأعظم وأنفع، كان العلم الحاصل بذلك أقوى من غيره، ولهذا كان أعلى درجات العلم وأصَحُّها وأنفعها وأكثرها أدلة وبراهين وأجلاها للحقائق خبر الله وخبر رسله، فإنه ليس أصدق من الله قِيلًا، ولا أصدق منه حديثاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فكل ما قال الله ورسوله فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو يهدي إلى كل دليل على الحق نقلي أو عقلي، وإذا أردت أن تعرف الحق الصحيح، فهو ما قاله الله أو قاله رسوله، وأن ما ناقضه ونافاه، فهو باطل مضمحل مبني على جهالات ومواد فاسدة، ومقدمات ناقصة، فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسسه كيف اتفقت عليها الأدلة العقلية والحسية، انظر إلى توحيد الله وتفرده بالوحدانية، وتوحده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة بها، بل هي المقصد الأعظم وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول، وأعظمها، وانظر كيف اتفقت جميع الرسل والأنبياء وخصوصاً خاتمهم وإمامهم محمداً ﷺ على تقرير توحيد الله، وأنه متفرد بالوحدانية وعظمة الصفات من سعة العلم، وشمول القدرة والإرادة، وعموم الحجة والحكمة والملك والمجد والسلطان، والجلال والجمال والحسن والإحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق، وأولي الألباب الكاملة، والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأوضح من كل شيء، وأنه مقدم على الحقائق كلها، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديهياً قبل الأدلة النظرية، ويعلمون أن كل ما عارضه، فهو أبطل الباطل، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة، بل والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية:

ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فوجود الأشياء في العالم العلوي والسفلي وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة، كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها

بكل ما تحتاج إليه، ومن أنكر هذا، فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الأمور، وأعظم الحقائق. ومن ها هنا تعرف أن الماديين الملحدين من أضل الخلق وأجهلهم، وأعظمهم غروراً، حيث اغتروا لما عرفوا بعض العلوم الطبيعية، ووقفت عقولهم القاصرة عندها وقالوا: نثبت ما وصلت معارفنا إليه وننفي ما سواه، فتعرف بهذا أن نفيهم جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه، فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم، فهو ضال غاوٍ، فكذلك من نفى شيئاً بغير علم. وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها ووصلت إليها معارفهم، إثبات قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها، فأثبتوا بعض السبب، وعموا عن المقصود وهم في علمهم ذا حائرون مترددون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة، فهم دائماً في خبط وخلط وتناقض، وكلما جاءهم من البراهين الثابتة ما لا قِبَلَ لهم به قالوا: هذا من فلتات الطبيعة، وكلما برز أحد من فحولهم وأذكيائهم، ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه، فصدق عليهم قوله تعالى:

**﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾**. [سورة قٓ: الآية ٥]

وصدق عليهم أيضاً قوله تعالى:

**﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**. [سورة غافر: الآية ٨٣]

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلَّت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودل عليه الشرع المحكم، والقدر المعظم المتقن.

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات البينات، والأدلة الواضحات ما على مثله يؤمن البشر،

وخصوصاً إمامهم وسيدهم محمداً ﷺ فإن آيات نبوته، وبراهين رسالته متنوعة، سيرته وأخلاقه وهديه، وما جاء به من الدين القويم، وحثه على كل خلق جميل، وعمل صالح، ونفع وإحسان إلى الخلق، ونهيه عن ضد ذلك، كلها آيات وبراهين على رسالته، وما جاء به من الوحي من الكتاب والسنة، كله جملة وتفصيلاً أدلة وبراهين على رسالته مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم، وإظهار دينه على الأديان كلها، وإجابة الدعوات، وحلول أنواع البركات التي لا تُعد أنواعها فضلاً عن أفرادها، هذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة له، وعن معارضة المكذبين له، وتحديه إياهم بكل طريق، حتى عجزوا غاية العجز عن نصر باطلهم، ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً بحيث إن القائمين بما جاء به الرسول والقائمين بمعرفة دينه، يتحدون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رقيٍّ حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها. فيتبين أنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه، ودل الخلق عليه، ولولا الجهل بما جاء به الرسول، والتعصبات الشديدة، وإقامة الحواجز المتعددة والمقاومات العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح، لم يبق دين على وجه الأرض سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده إلى كل صلاح وإصلاح، وخير ورشد وسعادة، ولكن مقاومات الأعداء، ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين الحق عن نصرته، هي الأسباب الوحيدة التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته.

ثم انظر إلى الأصل الثالث: وهو إثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية، والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم، وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف التام به، وكم أقام الله عليه من الأدلة الحسية المشاهدة ما يدل أكبر الدلالة عليه، وكم أشهد عباده في هذه الدار نماذج من الثواب والعقاب، وأراهم حلول المَثُلاتِ بالمكذبين، وأنواع العقوبات

الدنيوية بالمجرمين، كما أراهم نجاة الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها في المعاد، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة إلى توحيده، وصدق رسله، وبين فساد عقولهم وسفههم، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة، وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين، والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين والقواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار، وأن جميع الحقائق الثابتة المعلومة لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة، فيدل ذلك أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين، فقد كابر عقله وحسه وعلمه، ونادى على نفسه بالتناقض العظيم، لأن الطرق التي دلته على إثبات معلوماته هي وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد.

واعلم أن المعلومات بخبر الله، وخبر رسله عامة يدخل فيها الإخبار عن الله، وعن ملائكته، وعن الغيوب كلها، وعن الشهادة، وعن أمور الشرع، وأمور القدر، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانه، وبعد هذه أخبار الصادقين عن الحوادث والوقائع التي شاهدوها، والأماكن والأعيان التي رأوها، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين وتواتر خبرهم يحصل العلم القطعي بذلك. وكذلك أخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها، والألفاظ التي نقلوها، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة، لكمال صدقهم، وشدة عنايتهم، وقوة دينهم، وأنهم محفوظون عن الاتفاق على غير الصواب.

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة تعلم حسن التوحيد والإخلاص لله، كما تعلم قبح

الشرك، وتعلم حسن الصدق، والعدل، والإحسان إلى المخلوقين كما تعلم قبح ضده، وتعلم وجوب شكر المنعم، ووجوب حق الوالدين، وصلة الرحم، والقيام بحقوق من له حق عليك، وتنهى عن ضده، وتستحسن كل صلاح، وتستقبح كل فساد وضرر. ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركوز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعته، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، ومركوز في العقول وجوب القيام بحق من كان له حق عليك، وكل ما دعت إليه الشريعة فمركوز في العقل حسنه، كما أنه كل ما نهت عنه، فإنه معلوم في العقل قبحه، ومن المعلوم بالحس ما يُدرك بالحس، كسمع الأصوات، وإبصار الأعيان، وهو من أتم المعارف، فإنه (ليس الخبر كالمعاينة)[1] فلهذا كان عين اليقين، وهو المشاهد بالبصر أعظم من علم اليقين، وهو العلم الثابت بالخبر، وأعلى منهما حق اليقين وهو المدرك بالذوق، فلهذا ينبغي للعبد أن يسعى في تحصيل العلم النافع، ولا يكتفي بعلم اليقين مع تمكنه من عين اليقين، كما طلب الخليل ﷺ من الله أن يريه كيف يحيي الموتى ليرتقي من علم إلى أعلى منه، ومن حق اليقين علمُ ما في معرفة الله وعبوديته والإنابة إليه واللهج بذكره، من مواجيد الإيمان، وذوق حلاوته القلبية، والطمأنينة التي تستقر في قلوب المنيبين الذاكرين. ومن المدرك بالحواس، ما يدرك بالشم، كشم الروائح الطيبة والخبيثة، وما يدرك باللمس كالحرارة والبرودة، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها، كل هذا من مدركات الحس، فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً، وكلما كان الشيء أعظم، ومعرفته أهم، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والنبوة والمعاد، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» وغيره من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح. وانظر الكلام عليه في «المقاصد الحسنة».

## المسألة التاسعة

## في الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب

ما هي الأسباب والأعمال التي يضاعف ثوابها؟

الجواب وبالله التوفيق: أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عشر أمثالها، فهذا لا بد منه في كل عمل صالـح، كما قال تعالى:

﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾. [سورة الأنعام: الآية ١٥٩]

وأما المضاعفة بزيادة عن ذلك، وهي مراد السائل، فلها أسباب، إما متعلقة بالعامل أو بالعمل نفسه أو بزمانـه، أو بمكانـه، وآثاره، فمن أهم أسبـاب المضاعفة، إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعـة للرسول، فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة، وقصد العبد به رضى ربه وثوابه، وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله، بأن يكون عمله صادراً عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه، كما ورد في عدة آيات وأحاديث هذا المعنى، كقوله تعالى:

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾. [سورة المائدة: الآية ٢٧]

أي: المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة، وكما في قوله ﷺ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1]. وغيرها من النصوص، والقليل من العمل مـع الإخلاص الكامل يرجـح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص، ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل

(١) متفق عليه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

بتفاضل الإخلاص ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصاً من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غير الإخلاص وقصة أصحاب الغار[١] شاهدة بذلك.

ومن أسباب المضاعفة وهو أصل وأساس لما تقدم، صحة العقيدة، وقوة الإيمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير، فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله، تضاعف أعمالهم مضاعفة كبيرة لا يحصل مثلها، ولا قريب منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة. ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم، قعدت بهم عقائدهم، ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون. ومعلوم الفرق بين من يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالاً متأولاً.

ومن أسباب مضاعفة العمل أن يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين له وقع وأثر وغَناء، ونفع كبير، وذلك كالجهاد في سبيل الله؛ الجهاد البدني، والمالي، والقولي، ومجادلة المنحرفين كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمائة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوكُ طرق التعلم والتعليم، فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عمل من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه، فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل له به طريقاً إلى الجنة، ومن ذلك المشاريعُ الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها ويتسلسل إحسانها، كما ورد في «الصحيح»: (إذا

---

(١) حديث أصحاب الغار متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

مات العبد انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أوعلم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له)(١).

ومن الأعمال المضاعفة، العملُ الذي إذا قام به العبد، شاركه فيه غيره، فهذا أيضاً يضاعف بحسب من شاركه، ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل، فهذا لا ريب يزيد أضعافاً مضاعفة على عمل إذا عمله العبد لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها، ولهذا فَضَّل الفقهاء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة. ومن الأعمال المضاعفة إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان فيه إنجاء من مهلكة وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين. فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أزيل ما يضرُّها كان الأجر عظيماً؛ وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش، فغفر لها بغيها، شاهدة بذلك(١).

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبد حسن الإسلام، حسن الطريقة، تاركاً للذنوب، غيرَ مُصِرّ على شيء منها، فإن أعمال هذا مضاعفة كما ورد بذلك الحديث الصحيح: (إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. . .) الحديث(٢).

ومن أسبابها رفعة العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام، فإن الله تعالى شكور حليم، لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرهن مضاعفاً. قال تعالى:

**﴿ومن يَقْنُتْ منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين﴾.**

[سورة الأحزاب: الآية ٣١]

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(١) متفق عليه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك العالم الرباني، وهو العالم العامل المعلم تكون مضاعفة أعماله بحسب مقامه عند الله، كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب، كان أعظم من غيرهم، لما يجب عليهم من زيادة التحرّز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

ومن الأسباب، الصدقة من الكسب الطيب، كما وردت بذلك النصوص. ومنها شرفُ الزمان، كرمضان وعشر ذي الحجة ونحوها، وشرف المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادة في الأوقات التي حث الشارع على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها، وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول المكمل مع الإخلاص للأعمال المنمي لثوابها عند الله.

ومن أسباب المضاعفة، القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية، فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر، كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفة. وأمثلة هذا كثيرة جداً، ولكن هذا ضابطها.

ومن أهم ما يضاعف فيه العملُ، الاجتهادُ في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل، فكلما كانت هذه الأمور أقوى، كان الثواب أكثر، ولهذا ورد في الحديث: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)، فالصلاة ونحوها وإن كانت تجزىء إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة، إلا أن كمال القبول، وكمال الثواب، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات، وزيادة نور الإيمان بحسب حضور القلب في العبادة[1]. ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصولُ أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل، فإن الأعمال كلما كملت، كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار، وبالله التوفيق.

---

(١) أي يكتب للإنسان من صلاته على حسب خشوعه فيها.

ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سبباً لمضاعفة الثواب، فإن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ومنهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[1]. كما أن إعلانها قد يكون سبباً للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة والاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من غيره. ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم.

## المسألة العاشرة
### في تفاوت أهل اليقظة في حفظ الوقت

سبحان من فاوت بين أهل اليقظة في قوة السير وضعفه، وفي استغراق جميع الأوقات في العبادة وعدمه، منهم من يكون سيرُه مستقيماً في ليله ونهاره، ومع ذلك يتخير من الأعمال أفضلها وأكملها، ولا ينزل من فاضلها إلى مفضولها إلا لمصلحة تقترن بالمفضول توجب أن يساوي العمل الفاضل، ويزيد عليه، وقد يكون المباح في حق هذا عبادة لكمال إخلاصه ونيته بذلك المباح أن يُجِمَّ به نفسه ويتقوى به على الخير، فتراه يتنقل في مقامات العبودية في كل وقت بما يناسبه ويليق به، لا فرق عنده بين العبادة المتعلقة بحقوق الله المحضة، وبين العبادة المتعلقة بحقوق الخلق على اختلاف مراتبهم وأحوالهم. ولقد ذكرت في هذا المقام كلاماً لبعض الشيوخ لما رأى كثرة المجتمعين ببعض أصحابه قال مؤدباً

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

له مقوماً: يا مناخ البطالين. يريد أنهم يقطعون عليه وقته عن الخير، وكلاماً أيضاً للشيخ أبي الفرج بن الجوزي في سياق الخبر عن نفسه بحفظه الوقت، وأنه رأى مما لا بد منه أن ينتابه أناس للزيارة وأنه لما رأى أن هذه الحال تقطع عليه وقته أعد للوقت الذي يجتمعون فيه إليه أشياء من أمور الخير لا تمنع من زيارتهم، ولا تقطع عليه وقته، مثل تقطيع الأوراق وتصليح المداد، وبري الأقلام التي لا بد له منها لتصنيف العلوم النافعة، وهي لا تمنع الحديث مع الناس والاستئناس بهم. فقلت: سبحان مَن مَنَّ على هؤلاء السادة بحفظ أوقاتهم، وبقوة العزيمة والنشاط على الخير، ولكن كل كمال يقبل التكميل والرقي إلى حالة أرفع منه، فلو أن هؤلاء الأجلاء الفضلاء جعلوا اجتماعهم مع الناس للزيارة والدعوات وغيرها من المجالس العادية فرصة يغتنمون فيها إرشاد من اجتمع بهم إلى الخير والبحث في العلوم النافعة، والأخلاق الجميلة، والتذكر لآلاء الله ونعمه ونحو ذلك من المواضيع المناسبة لذلك الوقت، ولذلك الاجتماع بحسب أحوال الناس وطبقاتهم، وأنهم وطنوا أنفسهم لهذا الأمر، وتوسلوا بالعادات إلى العبادات، وبرغبتهم إلى الاجتماع بهم إلى انتهاز الفرصة في إرشادهم، لحصلوا بذلك خيراً كثيراً، وربما زادتهم هذه الاجتماعات مقامات عالية، وأحوالاً سامية مع ما في ذلك من النفع العظيم للعباد، لأنه ليس من شروط نفع العالم أن يرشد فقط المستعدين لطلب العلم من المتعلمين، بل يكون مستعداً لإرشاد الخلق أجمعين بحسب أحوالهم واستعدادهم، وعلمهم وجهلهم، وإقبالهم وإعراضهم، وأن يعامل كل حالة بما يليق بها من الدعوة إلى الخير والتسبب لفعله وتعطيل الشر وتقليله، وأن يستعين الله على ذلك. فمن كانت هذه حاله، لم يتبرم باجتماعه بالخلق مهما كان حريصاً على حفظ وقته، لأن التبرم والتثاقل إنما هو للحالة التي يراها العبد ضرراً عليه، ومفوتة لمصالحه، والله الموفِّق وحده لا شريك له.

وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب، أو دفع مرهوب، أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب

إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومن كان قصده في دعائه التقرُّبَ إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها. والله الموفق.

## المسألة الحادية عشرة
### في تفسير «من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله»

ما معنى قول الحكماء: من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله؟

الجواب وبالله التوفيق: اعلم أن من أجل نعم الله على الآدمي أن أعطاه هذا العقل الذي يعقل به الأشياء يوازن به بين المصالح والمضار، ويرجح الراجح من المصلحتين، ويرتكب الأخف من المفسدتين عند الاضطرار إلى ذلك، وينظر به عواقب الأمور وما تثمره الأعمال الدينية والدنيوية من الثمرات النافعة أو ضدها، ويلزم الإرادة بالعمل الصالح، وباجتناب المضار. وأجلُّ فوائد العقل وأحلى ثمراته: العَقْلُ عن الله وعن رسوله الأخبارَ والتصديقُ بها والتعبد لله تعالى بالاعتراف بها، والأحكام الباطنة والظاهرة والتخلق بها، والعمل بالصالح، واجتناب المحرم. فهذا أجل ثمرات العقل، فبه عرف الله، وعرفت أحكامه ودينه، وبه عُبد الله وأطيع، وهذا وجه توجيه الله خطابه في كتابه: لأولي الألباب، لأولي النهى، لقوم يعقلون، لقوم يعلمون، فالعقل هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلاً حقيقياً، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع عاجل وآجل، وإنما يُخشى الشرُّ والضررُ من

أحد أمرين، إما قصورُه وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حُدَّ له إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها، أما إذا كان الخلل من قصور العقل في معرفة العبد للحقائق، بأن يظن معرفته بها وهو غالط في ذلك، فمن هاهنا يقع الخَطَل والخلل، فدواؤه في هذه الحال بتنقيح العقل وتصحيحه، بأن يسلك الطريق الموصل لمعرفة تلك الحقيقة التي وقع الغلط فيها، فإن من سلك الطرق المعوجة لم يهتد إلى الصواب، وكذلك من ضعف سلوكه للطرق النافعة، لم يصل إلى الحقيقة، ذاك يضل عنها، وهذا يقصر عنها. ولا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية، فإن الأمور لا تتم إلا بسلوك طرقها وأبوابها مع الجد التام في تحصيلها. فهذا من الأمور التي يتحرز منها بالمعرفة والاستقامة.

وأما الأمر الثاني وهو مجاوزته للحد الذي حد له، فهذا خطره كبير، وذلك أن العقل من أكبر نعم الله وأجلها على العبد، فعلى العبد أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى، ويعترف لله بها، ويستعين بها على ما خلق له، وعلى ما ينفع، فإذا نسي نعمة الله عليه، وطغى بنفسه، وأعجب بها وتاه بعقله، سُلِبَ هذه النعمة في أمور كثيرة أعظمها أن يسلب إيمانه، فإن كثيراً من الملحدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاء وفطنة حتى تكبروا على ما جاءت به الرسل، واحتقروا الرسل، وما جاؤوا به، وفرحوا بعلومهم، وصارت عقولهم الذكية غير الزكية سبباً لهذا الانحراف العظيم، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة. فعقولهم التي طغوا بها أوصلتهم إلى هذه الهاوية السحيقة، وقد يرى كثير من أهل المهارة بالأعمال الدنيوية، والاختراعات الحديثة، قدرته على ما يعجز عنه غيره، فيتيه بعقله الفاسد، ويتوهم أن معرفته بهذه الأمور المادية دليل على تفوقه في العلوم النافعة، والأعمال النافعة، ولا يخضع عقله لعلوم الرسل والدين الحق، فهذه مهالك هلك بها المعجبون بأنفسهم. وعلى العبد أن يحترز من القدح في حكم الله وشرعه، أو في قدره، بأن يقيس حكمة الحكيم الحميد بأفعال القاصرين من العبيد، فيضل ويسيء ظنه بالله، ودواء هذا أن يعلم أن

الله حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات، وفي كل ما شرعه من الشرائـع، وإن تتبـع ما أوجده الله من الموجودات يجدها في غاية الحكمة، ويجد آثار الإتقان، وحسن الخلق والانتظام التام عليها ظاهرة لا تخفى إلا على من عمي قلبه، وانقلبت عليه الحقائق، وما خفي عليه من بعض الجزئيات التي لا يهتدى إلى معرفة الحكمة فيها، فليعلم العلم الكلي أن الله لا يخلق شيئاً عبثاً، وأنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن جميـع ما صنعه، وكذلك من نظر ما احتوى عليه شرعه العظيم من المحاسن والمصالـح والمنافـع التي لا يمكن إحصاء أجناسها فضلاً عن أنواعها وأفرادها، عرف بذلك أن الله كامل الحكمة، وأضرُّ الجهلِ عـلى الإطلاق الجهلُ بحكمة الله، وأشدُّ أنواع الغرور القدحُ فيها، وما جاء هذا الغرور إلا من إعجاب العبد الجاهل بعقله الفاسد، فنسأل الله أن لا يزيـغ قلوبنا عن الهدى والرشاد إنه جواد كريم.

## المسألة الثانية عشرة
## في خطاب الحازم مـع نفسه

الحازم: هو الذي ينازع ويدافـع الأقدار المؤلمة بما يدفعها قبل نزولها، أو يرفعها بعد نزولها، أو يخففها بالطرق المباحة، أو المأمور بها، فإن أعياه ذلك، استسلم للقدر، ورضي بقضاء الله، وسلم لأمره، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: نفر من قدر الله إلى قدر الله[1]. كذلك يفر العبد مما يكرهه الله باطناً وظاهراً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً:

﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾.

[سورة الذاريات: الآية ٥٠]

ويفر من أسباب الهلاك والعطب والضرر إلى أسباب النجاة والسلامة، وحصول

(١)رواه البخاري في صحيحه، في قصة الطاعون الذي نزل بالشام.

النفـع، ولكن الشأن في معرفة الأسباب النافعة والضارة، ثم في سلوك خير الأمرين، ومدافعة أشد الضررين. والله الموفق وحـده. والتثبت في سماع الأخبار، وتمحيصها ونقلها، وإذاعتها، والبناء عليها؛ أصل كبير نافـع أمر الله به ورسوله، قال تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**. [سورة الحجرات: الآية ٦]

فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك في قوله تعالى:

**﴿أن تصيبوا قـوماً بجهالة﴾**. [سورة الحجرات: الآية ٦]

وأنه العلم والتحقيق في الإصابة وعدمه؛ فمن تحقق، وعلم كيف يسمـع، وكيف ينقل، وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك، فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة. وأحوج الناس إلى هذا الأمر الولاة على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، وأهل العلم على تفاوت درجاتهم، وذلك يحتاج إلى اجتهاد وتمرين للنفس، وتوطين لها على ملازمة التثبت مـع الاستعانة بالله، والله الموفق المعين.

ولا يزال المؤمن بإيمانه يقاوم جميـع الواردات يستدفـع بإيمانه المكـاره والشدائد، ويستديم به المحاب، إن وردت عليه الشدائد والمصيبات، تَلَقَّاها بقـوة إيمان وصبر ويقين، وهو في ذلك بثقته بربه، وقوة ظنه ورجائه في حصن حصين، فرح إذا حزن الناس، مبتهـج بذلك إذا اشتد اليأس، وإن وردت عليه المحبوبات تلقاها بطمأنينة وسكون، وحَمَلَهُ الإيمان على القيام بـوظيفة الشاكرين، يفرح بها لا فـرح أَشَرٍ وبَطَرٍ، بل لأنها من فضل ربه أوصلها بجوده إليه، ويصرفها فيها يعود عليه بالنفـع في الدنيـا والدين. وإن وردت عليه الأوامر الشرعية، تلقاها بالرضى والتسليم، وهَوَّنَ إيمانه عليه القيام بها طاعةً لربه وتكميلاً لإيمانـه، وتقوية لإيقانه، ورجاءً لموعودها، وخروجاً من تبعه الترك.

وإن دعته النفس الأمارة بالسوء إلى بعض المعاصي، قال لها الإيمان: يا نفس كيف يليق بك أن تأمريني بما يضعف إيماني، ويعود عليك بالخسار! كيف تأمرينني بلذة ساعة تُفوِّتُ لذاتٍ كثيرة مِنْ أبلغها لذةُ حلاوة الإيمان! أما تعلمين أن للإيمان حلاوة تُزْرِي بلذات الدنيا كلِّها، فالله الله يا نفس أن تفجعيني بهذه الحلاوة، ويَحكِ يا نفس أما لك نظر في عواقب الأمورِ؟! فإن خاصية العقل النظر في عواقب الأمور، كما ينظر في مباديها، وإنه لا يدخل في أمر من الأمور حتى يعرف المخرج منه بعافية وسلامة. أما علمتِ أن من وقع في المعاصي ارتكس، وكلما كررها استحكم قيده وحبسه وانتكس؟! ويحك يا نفس إذا أردت أن تعصي الله، فلا تستعيني بنعمه على معاصيه، فإن المعصية لا تتأتى إلا من القوة والعافية، ومن الذي أعطاها، ولا تتحرك إلا من توالي الشبع، ومن الذي يسر الأقوات وآتاها، ولا تكون في العادة إلا بخلوة من الخلق، ومن الذي أسبل عليكِ حلمَه وسترَه، ولا تقع إلا بنظره إليكِ، فإياكِ أن تستخفي باطلاعه وعلمه. أما تعلمين يا نفس أن من جاهد نفسه عن المعاصي، وألزمها الخير، فقد سعى في سعادتها وقد أفلح من زكاها، وأن من أطاع نفسه على ما تريد من الشر، فقد تسبب لهلاكها ودسَّاها؟! ويحك يا نفس كم بيني وبينكِ في المعاملة، أنتِ تريدين هلاكي، وأنا أسعى لكِ بالنجاة، وأنت تَحَيَّلِينَ عليَّ بكل طريق يوقع في المضار والشرور، وأنا أجتهد لكِ في كل أمر مآله الخير والراحة والسرور، فهلمي يا نفس إلى صلح شريف يحتفظ كلٌّ منا على ما له من المرادات والمقاصد، ونتفق على أمر يحصل به للطرفين أصناف المصالح والفوائد، دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدماً إلى الخيرات، متجراً فيه لتحصيل المكاسب والبركات، دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية، وكمال الرحمة، وأكمل ما نقص منه لعل الله أن يتم عليَّ وعليكِ النعمة، ولئن تركتِني وشأني لم تعترضي عليَّ بوجه من الوجوه، لأعطينكِ كلَّ ما تطلبينه من المباحات، وكُلَّ ما تؤمله النفوس وترجوه، ولئن تركتِني وشأني لأوصلنَّكِ إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها البطالون،

يا نفس أما تحبين أن تنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي أطمأنت إلى ربها، وإلى ذكره، وأطمأنت إلى عطائه ومنعه، وأطمأنت إليه في جميع تدبيره وأطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات، وأطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات، فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومناظرة حتى تنقاد لداعي الإيمان، وتكون ممن يقال لها عند الانتقال من هذه الدار:

**﴿يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيَّةً. فادْخُلي في عِبَادي. وادْخُلي جَنَّتي﴾**. [سورة الفجر: الآيات ٢٧ ــ ٣٠]

## المسألة الثالثة عشرة
### الدين النصيحة

النصيحة لله: هي القيام بعبوديته الظاهرة والباطنة بإخلاص كامل، وتكميل تام لأجزاء العبودية ظاهراً وباطناً، وفعل لما يقدر عليها منها، وعزم جازم على فعل ما لا قدرة له عليه لو قدر.

والنصيحة لكتاب الله: هي الجدُّ في تعرف ألفاظه ومعانيه بحسب ما تصل إليه القدرة، والاجتهاد في العمل به، والدعوة إلى ذلك.

والنصيحة للرسول: هي كمال الإيمان به ومحبته وطاعته، واتِّباعه، وتقديم قوله وهديه وسيرته على كل قول وهدي وسيرة، ونصر ما جاء به.

ونصيحة أئمة المسلمين وهم سلاطينهم وحكامهم وولاتهم: بالاعتراف بإمامتهم، والتدين بالسمع والطاعة لهم، ونصيحتهم وإعانتهم على الخير الذي قاموا به قولاً وعملاً.

ونصيحة عموم المسلمين: أن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويعلِّم جاهلهم، وينصح من يراه مُخلاًّ بواجب أو متجرئاً

على محرم، وإرشاد الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ما فيه صلاح لهم في أمر دينهم وأمر دنياهم، والدعوة إلى ذلك كله، ومجانبة غشهم في الأقوال والأفعال، والمعاملات، وأداء الحقوق لمن له حق على الإنسان.

## المسألة الرابعة عشرة
### في حسن المعاتبة

يعجبني ما وقع لبعض أهل العلم وهو أنه كتب له إنسان من أهل العلم والدين ينتقده انتقاداً حارًّا في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطىء فيها، حتى إنه قدح في قصده ونيته، وأدعى أنه يدين الله ببغضه بناءً على توهم من خطئه، فأجاب المكتوب له:

يا أخي إنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السيء على فرض أنه أخطأ، وتجنبت الدعوة إلى الله بالحكمة في مثل هذه الأمور، فإني أخبرك قبل الشروع في جوابي لك عما انتقدتني عليه: بأني لا أترك ما يجب عليَّ من الإقامة على مودتك، والاستمرار على محبتك المبنية على ما أعرفه من دينك انتصاراً لنفسي، بل أزيد على ذلك بإقامة العذر لك في قدحك في أخيك، بأن الدافع لك على ذلك قصدٌ حسن، لكن لم يصحبه علم يصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشارع عليه. فلحسن قصدك عفوتُ لك عما كان منك لي من الاتهام بالقصد السيء، فهب أن الصواب معك يقيناً، فهل خطأ الإنسان عنوانٌ على سوء قصده، فلو كان الأمر كذلك، لوجب رمي جميع علماء الأمة بالقصود السيئة، فهل سلم أحد من الخطأ؟! وهل هذا الذي تجرأت عليه إلا مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا يحل رمي المسلم بالقصد السيء إذا أخطأ، والله تعالى قد عفا عن خطأ المؤمنين في الأقوال والأفعال، وجميع الأحوال. ثم نقول: هب أنه جاز للإنسان القدح في إرادة من دلت القرائن

والعلامات على قصده السيء، أفيحل القدحُ فيمن عندك من الأدلة الكثيرة على حسن قصده، وبعده عن إرادة السوء ما لا يسوغ لك أن تتوهم فيه شيئاً بما رميته به، وإن الله أمر المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً إذا قيل فيهم خلافُ ما يقتضيه الإيمان، فقال تعالى:

﴿لَـوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ المُؤْمِنونَ والمُؤْمِنَاتُ بأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾.

[سورة النور: الآية ١٢]

واعلم أن هذه المقدمة ليس الغرض منها مقابلتك بما قلت، فإني كما أشرت لك: قد عفوت عن حقي إن كان لي حق، ولكن الغرض النصيحة، وبيان موقـع هذا الاتهام من العقل والدين والمروءة الإنسانية. ثم إنه بعد هذا أخذ يتكلم عن الجواب عن انتقاده بما لا محل لذكره هنا.

## المسألة الخامسة عشرة
## في القول الجامـع في البدعة

**البدعة**: هي الابتداع في الدين، فإن الدين: هو ما جاء به النبـي ﷺ في الكتاب والسنة، وما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة، فهو من الدين، وما خالف ذلك، فهو البدعة. هذا هو الضابط الجامـع. وتنقسم البدعة بحسب حالها إلى قسمين: بدع اعتقاد ويقال لها: البدع القولية وميزانها قوله ﷺ في الحديث الذي في السنن (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابـي)[1] فأهل السنة المحضة السالمون من البدع الذين تمسكوا بما كان

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو، وفي سنده ضعف، لكن يشهد له حديث معاوية عند أحمد وأبـي داود بلفظ «ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة» وسندهما صحيـح.

عليه النبي ﷺ وأصحابه في الأصول كلها، أصول التوحيد والرسالة والقدر، ومسائل الإيمان وغيرها.

وغيرهم من خوارج ومعتزلة وجهمية وقدرية ورافضة ومرجئة ومن تفرع عنهم، كلهم من أهل البدع الاعتقادية، وأحكامهم متفاوتة بحسب بعدهم عن أصول الدين وقربهم، وبحسب عقائدهم أو تأويلهم، وبحسب سلامة أهل السنة من شرهم في الأقوال والأفعال وعدمه. وتفصيل هذه الجملة يطول جداً.

والنوع الثاني: بدع عملية، وهو أن يشرع في الدين عبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، وكل عبادة لم يأمر بها الشارع أمر إيجاب أو استحباب فإنها من البدع العملية، وهي داخلة في قوله ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنُا فهو رد)[1]، ولهذا كان من أصول الأئمة الإمام أحمد وغيره: أن الأصل في العبادات الحظر والمنع، فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله، والأصل في المعاملات والعادات الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله، ولهذا من قصور العلم جعل بعض العادات التي ليست عبادات بدعاً لا تجوز، مع أن الأمر بالعكس، فإن الذي يحكم بالمنع منها وتحريمها هو المبتدع، فلا يحرم من العادات إلا ما حرمه الله ورسوله، بل العادات تنقسم إلى أقسام، ما أعان منها على الخير والطاعة، فهو من القرب. وما أَعان على الإثم والعدوان، فهو من المحرمات، وما ليس فيه هذا ولا هذا، فهو من المباحات، والله أعلم.

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

## المسألة السادسة عشرة
## أركان الشكر

لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال تعالى:

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظهوره ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ ربِّكُمْ إِذَا اسْتَـوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ. وإِنَّا إِلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

[سورة الزخرف: الآيتان ١٣، ١٤]

ذكر أركان الشكر الثلاثة، وهي الاعتراف، والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها، والثناء على الله بها، والخضوع لله، والاستعانة بها على عبادة الله، لأن المقصود من قوله:

﴿وإنا إلى ربِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾

الاعتراف بالجزاء، والاستعداد له، وأن هذه النعم الغرض منها أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله. وفي قوله:

﴿ثُم تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْه﴾

تقييـدها في هذه الحالة وقت تبوؤ النعمة، لأن كثيراً من الخلق تُسْكِرُهُم النعم، وتُغْفِلُهم عن الله، وتُوجِبُ لهم الأشَرَ والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعمة الله ليس من نفسه شيء، وإنما أصول النعم، وتيسير أسبابها، وتسهيل تحصيلهـا، ثم بقاؤهـا واستمرارها، ودفـع ما يضادها أو ينقصها من الله تعالى، ومتى استحضر العبد لذلك، خضـع لله وذل، وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعم ويبارك الله فيها، وتكون نعماً حقيقية.

## المسألة السابعة عشرة

### في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾

[سورة البقرة: الآية ١٤٣]

فسرها كثير من السلف بمن ماتوا قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة من المسلمين، وأنه أشكل أمرهم على المسلمين، فأخبرهم الله تعالى أنهم في ذلك الوقت قد عملوا بمقتضى الإيمان وهو طاعة الله في كل وقت وحال بما يتعلق بذلك الوقت والحال، فيؤخذ من هذا أن من كان على قول، أو رأي ضعيف، وقد عمل به مجتهداً متأوِّلاً، أو فعله مدة طويلة أو قصيرة، ثم تبين له صحة القول الذي ينافيه، وانتقل إلى الثاني، أن عمله الأول مثاب عليه، وهو مطيع لله فيه، لكون ذلك القول هو الذي وصل إليه اجتهاده، أو تقليده لغيره، وهو لم يزل حريصاً على الصواب راغباً فيما يحبه الله ورسوله. فمن كانت هذه حاله، فالله أكرم من أن يضيع إيمانه، وما عمل بذلك الإيمان من خير أصاب فيه أَو أخطأ، فإن الله بالناس رؤوف رحيم.

## المسألة الثامنة عشرة

### في كمال تعاليم الدين

عن سلمان رضي الله عنه قال: قال: بعض المشركين وهو يستهزىء: إني لأرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى الخراءة! قلت: أجل لقد نهانا أن لا يستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم. رواه مسلم.

ما أحسن ما أجاب به سلمانُ هذا العدوَ المستهزىء بما جاء به الرسول بهذا التعبير الذي يظن أنه يتطرق به إلى القدح، فبين سلمان رضي الله عنه أن هذه التعاليم الشرعية حتى في هذه الحال تعاليم عالية ترجع إلى تعظيم الله وتوقيره، وإجلاله باحترام بيته عن الاستقبال لـه في هذه الحال، كما كان وجوب

استقبال البيت في الصلاة مقصودُه تعظيم الله بتعظيم بيته وحرماته، وكذلك نهيه عن الاستجمار باليمين يعود إلى نظافة البدن والاعتناء بكمال النظافة البدنية، وإبعاد اليمين عن مباشرة الأوساخ والنجاسات، ففي نفس الاستجمار والآداب التي علمهم الشارع إياها في هذا الموضع تكميل عبودية الله، والتوقي التام عن النجاسات والأوساخ، والاعتناء بالنظافة. فهل أعلى من هذا الإرشاد شيء. فتضمن جواب سلمان رضي الله عنه بيان الأحكام الشرعية مع قمع المعارضين والمستهزئين، وإلقامهم الحجر، فنفس ما استهزؤوا به من أعظم الحجة عليهم، وهكذا جميع الشريعة في مصادرها ومواردها على هذا النمط.

## المسألة التاسعة عشرة
## في تقديم الأعلى من المصالح

عن قبيصة بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون عليكم أمراء من بعدي يُؤخِّرُون الصلاة، فهي لكم، وهي عليهم فصلوا معهم ما صلوا إلى القبلة) رواه أبو داود[1].

يؤخذ من هذا الحديث فائدتان عظيمتان. إحداهما: أنه إذا تزاحمت المصالح، قدم الأعلى منها، وأن العمل المفضول قد يقترن به ما يصيره أفضل من غيره، فإنه أمر بالصلاة مع هؤلاء الأمراء مراعاة لمصلحة الاتفاق والائتلاف، وعدم الاختلاف، وأن تؤخر الصلاة معهم، مع أن الأفضل عدم تأخيرها.

الفائدة الثانية: أن من كان حريصاً على تكميل العبادات بأوقاتها وحدودها وتكميلاتها، ولكنه تابع لغيره في عبادته، وذلك الغير يأتي بها على

(١) وهو حديث حسن بشواهده.

وجه ناقص، أن الحريص على التكميل الذي لا يتمكن منه لهذا السبب أنه يكمل له الأجر بنيته، ولا ملام عليه بسبب اتباعه لغيره وعدم استقلاله. ويدخل في هذا التابع لغيره في صلاة الجماعة، وفي أمور السفر، وفي المناسك والجهاد وغيرها. وكثيراً ما يبتلى العبد بتقييده عن الكمال بعمل غيره، ولكن ليكن منك على بال «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث[1].

## المسألة العشرون
### في تكرار الأجر بتذكر المصيبة

روى الإمام أحمد عن الحسين بن علي مرفوعاً «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة، فيذكرها وإن طال عهده، فيحدث عند ذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها». هذا من منن الله على المؤمنين، وفوائد المصائب، والحكمة في هذا واضحة، فإنه إذا ذكرها، جدد صبراً لله، وثناءً عليه، ورضىً بقدره، وتسليماً لأمر الله، وتلك عبوديات قلبية وقولية متجددة، كما أن العبد إذا ذكر الله، أو قرأ، أو صلى، أو صام، أو عامل الله معاملة ظاهرة أو باطنة، جدَّد الله له ثواباً مهما تكررت إذا اقترن بها شرطها وهو الإخلاص لله. وكذلك النعم إذا أنعم الله بها على العبد، فشكر الله عليها أثابه على ذلك، ثم كلما ذكرها، وتحدث بها، واعترف لله بها، ضاعف الله له الثواب، فالمؤمن لا يزال يغنم من ربه، ويكسب خيراً كثيراً.

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

## المسألة الحادية والعشرون
### في الحياة الطيبة

قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

وعد الله ـ ومن أصدقُ من الله قِيلاً ـ مَن جمع بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح أن يُحييه في هذه الدنيا حياة طيبة، وأَن يجزيه في الآخرة أفضل الجزاء وخيره، فالحياة الطيبة اسم جامع لما يحصل به سرور القلب وراحته وطمأنينته، وعدم قلقه واضطرابه في جميع مقامات الحياة، والبدن بالطبع تابع للقلب في راحته وضدها، فمن آمن إيماناً صحيحاً بأن آمن بوحدانية الله وتوحده في الربوبية والألوهية، وانفراده بالخلق والرزق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، واطمأن لخبر الله وخبر رسوله اعترافاً وتصديقاً، ولأمره ونهيه إذعاناً وانقياداً وعملاً، وذلك يتضمن تصديق الخبر، وامتثال الأمر، واجتناب النهي؛ من قام بذلك حقَّ القيام، فلا بد أن يتحقق له هذا الوعد، ومن فاته ذلك أو بعضه، فاته من هذه الحياة الطيبة بحسب ما ضيعه ونقصه، واعتبر ذلك بجميع مقامات هذه الحياة، وتنقلات العبد فيها من غنى وفقر، وسراء وضراء، ومرض وصحة، وحصول محبوبات ووقوع مكاره ومصيبات، وقيام بعبوديات وحقوق ومعاملات، وجميع ما يعرض للعبد من التصرفات، فإنه إذا استصحب الإيمان الكامل تنقل في هذه المقامات بسكون وطمأنينة وقناعة، واحتساب للثواب، وخوف من العقاب، وكان عند النعماء والمحبوبات من الشاكرين، وعند المكاره والمصائب من الصابرين المحتسبين المرتقبين من الله أعظم الثواب، وكان ساعياً في المغنم في سرائه وضرائه، وإن قام بالعبادة التي بينه وبين الله، كان داخلاً في سرور قلبه ونعيم روحه، ورأى أن قطع أوقاته ونفاد ساعاته في كل ما يقربه إلى رب العالمين خير ما تنافس فيه المتنافسون، وأن هذا هو حقيقة الحياة التي من

حرمها فهو مغبون غَبناً لا ربح بعده، وإن قام بحقوق من له حق عليه من الدين وأولاد، وأهل ومماليك وأقارب وجيران وأصحاب ونحوهم، كان الداعي له إلى ذلك طلبَ القرب من ربه، واحتسابَ الأجر عنده، واكتسابَ الفضائل، والسلامةَ من الرذائل، فكان في قيامه بها مسرورَ القلب، مطمئنَ النفس، لا يبالي بتعب بدنه ولا بنفقة ماله، لأنه يعتقد بذلك أنه تاجر مع الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وإن تناول لذاته وشهواتِه المباحة، وقام بالكسب المباح مما يسره الله له، نوى بذلك الاستعانة على طاعة المولى المنعم، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، فهو ينتقل في هذه الأمور، وروح التقرب ورجاء الثواب والأجر وارتقاب الخير العاجل والآجل ملءُ قلبه وحشوُ فؤاده، ومع ذلك، فهو يطمع في آخرته بكل خير عظيم، وثواب جسيم، فهذه الحياة لا يمكن التعبير عن كنهها ولذاتها وطيبها، فقس بها حياة فاقد الإيمان والعمل الصالح الذي لا هم له إلا ما أكل وشرب وكسب، لا غاية له يرجوها، ولا أصل له يبني عليه، فهذا من أين له الراحة والطمأنينة، والفرح والسرور، وعيشته أدنى من عيشة البهائم السالمة من الهموم القلبية، والآلام الروحية، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة، وحصلت له الصفقة الخاسرة.

## المسألة الثانية والعشرون
## في إشْكَالٍ وجوابه في أصحاب الغار

وقع إشكال في قصة أحد الثلاثة أصحاب الغار: لَمَّا عَفَّ عن بنت عمه لله تعالى في تلك الحالة التي منعه خوف الله تعالى من وقوع المحظور كيف لم يتزوجها مع أن الظاهر أنها ليست بذات زوج؟

وأشكل منه في الآخر الذي لما وجد والديه نائمين وقد حلب لهما غبوقهما كره أن يوقظهما، وكره أن يعطي أحداً من أهله وأولاده والصبية يتضاغَوْن من الجوع، كيف لم يدفع حاجة هؤلاء المضطرين مع وجوب ذلك؟ وأنه لا ينافي البر للوالدين. فجاء الجواب لذلك بأن النبي ﷺ إنما ذكر في قصة كل واحد

من الثلاثة أعلى حالة في نيل ذلك الخلق الفاضل، فذكر أعظم عفة تقدر، وأعظم بر، وأعظم وفاء، بقطع النظر عما يقترن بتلك القضايا من الأمور الأخر، إذ ليست مقصودة ولا مرادة، وقد يكون ثَمَّ موانع وأعذار تعلم أو لا تعلم، والله أعلم.

## المسألة الثالثة والعشرون
### في منزلة الحياء من الدين وفوائد أخرى

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال النبي ﷺ (إذا أحدث أحدكم في صلاته فليأخذ بأنفه ثم لينصرف)[1] فيه مع ما يدل عليه صريحه فوائد منها: أنه ينبغي للعبد أن يجتنب كل ما يستقبح ويستحيا منه عند الناس من الأقوال والأفعال، ومنها أنه إذا احتاج إلى بيانه بقوله أو فعله، فليستعمل من المعاريض القولية والفعلية ما يضيع به أفهام الناس إلى خلاف الواقع، فإن حدث الإنسان الخارج منه نوعان: نوع يستحيا منه كالريح، ونوع لا حياء فيه عادة، كالرعاف ونحوه، فأمر ﷺ عند وجود الحدث الذي يستحيا منه أن يمسك الخارج من الصلاة أنفه، ليظن الناس فيه الرعاف دون الريح. وما ألطف هذه الحيلة، ولهذا نقول: إنه يدل على جواز استعمال المعاريض والحيل الحسنة التي لا محذور فيها، بل فيها مصلحة، أو دفع مفسدة، ومنها أنه يتعين على من انتقضت طهارته أن لا يمضي في صلاته، ولو عزم على قضائها حياءً من الناس، فإن المضي فيها ولو صورة محرم. والمحرم لا يحل للعبد أن يفعله مراعاة للخلق، ومنها أن المعاريض الفعلية كهذه القضية تشبه المعاريض القولية، وفيها للبيب مندوحة عن الكذب وسلامة من الذم.

---

(١) ورواه أيضاً الحاكم في «المستدرك» ١/ ١٨٤ وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

# المسألة الرابعة والعشرون
## في جواب عن كلام في «صيد الخاطر»

كلام ابن الجوزي في أول الفصول من «صيد الخاطر» في النفس منه شيء أفتونا مأجورين؟

الجواب وبالله التوفيق، ابن الجوزي رحمه الله وغفر له إمام في الوعظ والتفسير والتاريخ، وكذلك هو أحد الأصحاب المصنفين في فقه الحنابلة، ولكنه رحمه الله خلط تخليطاً عظيماً في باب الصفات وتبع في ذلك الجهمية والمعتزلة، فسلك سبيلهم في تحريف كثير منها وخالف السلف في حملها على ظاهرها، وقدح في المثبتين، ونسبهم إلى البلاهة. وهذا الموضوع من أكبر أغلاطه، ولذلك أنكر عليه أهل العلم، وتبرأ منه الحنابلة في هذا الباب، ونزهوا مذهب الإمام أحمد عن قوله وتخبيطه فيه، ومع ذلك فإن له في المذهب كتاب «المذهب» وغيره، وله تصانيف كثيرة جداً حسنة فيها علم عظيم، وخير كثير، وهو معدود من الأكابر الأفاضل، ولكن كل أحد مأخوذ من قوله ومتروك سوى النبي ﷺ، فكلامه في كتاب التأويل، وكلامه في الفصول التي في أول «صيد الخاطر» كما أشرتم إليها يجب الحذر منها والتحذير، ولولا أن هذه الكتب موجودة بين الناس لكان للإنسان مندوحة عن الكلام فيه، لأنه من أكابر أهل العلم وأفاضلهم، وهو معروف بالدين والورع والنفع، ولكن لكل جواد كبوة، نرجو الله أن يعفو عنا وعنه، وفي «صيد الخاطر» أيضاً أشياء تنتقد عليه، ولكنها دون كلامه في الصفات، مثل كلامه عن أهل النار، وفي الخوض في بعض مسائل القدر وأشياء يعرفها المؤمن الذكي، وإننا نأسف على صدورها من قبل هذا الرجل الكبير القدر.

## المسألة الخامسة والعشرون
### لا إشكال في نص رتب فيه دخول الجنة أو النجاة من النار ونحوهما على الشهادتين.

الأحاديث الكثيرة جداً التي فيها ترتيب دخول الجنة، أو النجاة من النار، أو كليهما، أو الإسلام والإيمان على الشهادتين ليست مشكلة، بل هي ولله الحمد واضحة. فكما أن الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه جميع الشرائع الظاهرة والباطنة، فكذلك الشهادتان، فإن الشاهد لله بالوحدانية وعدم الشريك يقتضي كمال اعتقاده ذلك، وكمال الإخلاص لله، والقيام بحقوق العبودية كلها، فإنها من التأله لله تعالى. فإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصيام، والحج ونحوها داخلة في ألوهية الله تعالى، كما تدخل أعمال القلوب فيها من الإنابة لله خوفاً ورجاءً، ومحبةً وتعظيماً، ورغبة ورهبة، وكذلك متابعة الرسول ﷺ داخلة في الشهادتين بأنه رسول الله، فكمال القيام بالتوحيد والمتابعة يوجب كمال الإيمان، ويترتب عليه من الفضائل والثواب ما رتبه الشارع على جميع الأقوال والأعمال الدينية ظاهراً وباطناً، فإنها كلها تفصيل وقيام بذلك والله أعلم.

## المسألة السادسة والعشرون
### في حديث «الوسوسة صريح الإيمان»

قوله في حديث الوسوسة (ذلك صريح الإيمان)[1] و(الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[2]، وذلك أن ما يقع في القلب من وساوس الشيطان أو إلقائه إذا كان منافياً لما أخبر الله به ورسوله، فإن المؤمن لا يستريب في خبر الله ورسوله، وما دل عليه من المعاني والعقائد، والشيطان لا بد أن يلقي من

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه أبو داود من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الشبهات والشكوك ما يتوصل به إلى حصول مراده، ولكن ما مع المؤمن من الإيمان واليقين ينفي ذلك، ويكرهه أشد الكراهة، فلا يزال يكرهه ويدفعه حتى يستقر الإيمان في القلب صافياً من الأكدار، سالماً من الشبهات، فهذا صريح الإيمان الذي نفى الشبهات والشكوك، والحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة، فلم يدرك من الإنسان إلا مجرد وساوس لا قرارَ لها ولا ثبوت، بل نفيها وكراهتها يزداد به المؤمن إيماناً، والموقن إيقاناً، فالاستعاذة منه من باب دفع الشر والمكروه والصائل، والرجوع إلى الإيمان بالله ورسوله، والاعتراف بوحدانيته وصفاته من باب الرجوع إلى الأصل الثابت الذي يدفع بذاته وقوته كل شك، وشبهة الاستعاذة فيها الاستعانة بالله على دفعه، والرجوع إلى الإيمان فيه الرجوع إلى فضله ورحمته، وهذا من أعظم الأسباب على الإطلاق في دفع هذه الشبهة التي هي من أعظم الشبهات، بل هذا يدفع كل شبهة على الحق، فمتى تحقق العبد الحق، وعلمه علماً لا يستريب فيه، علم أن كل ما ناقضه، فهو باطل، ولا يتم ذلك إلا بالاستعانة بالله وتوفيقه، والله المستعان على حصول الخير ودفع الشر.

## المسألة السابعة والعشرون
### (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

لما أخبر النبي ﷺ بأن قضاء الله وقدره سابق للأعمال والحوادث، وقال بعض الصحابة: ففيم العمل يا رسول الله؟ أجابه بكلمة جامعة، مزيلة للإشكال، موضحة لحكمة الله في قضائه وقدره، فقال (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) وذلك شامل لأعمال الخير والشر، وللآجال والأعمار والأرزاق وغيرها، فإن الله بحكمته قد جعل مطالب ومقاصد، وجعل لها طرقاً وأسباباً، فمن سلك طرقها وأسبابها التامة يسر لها، ومن ترك السبب، أو فعله على وجه ناقص لا يوصل إلى مسببه، لم يحصل له، ويسر لضده، فكما أن الأرزاق ونحوها منوطة بقضاء الله وقدره، ومع ذلك إذا ترك العبد السبب الموصل إلى الرزق،

أو فعله على وجه ناقص، لم يتم له ما أراد، وإذا يسر له سبب الرزق من أي نوع كان يتيسر له بحسبه، كذلك الأعمال الموصلة إلى الجنة من يُسِّرَ إلى سلوكها تامة لا نقص في شيء من مكملاتها، ولا وجود لمانـع من موانعها، فقد علم أنه مخلوق للسعادة، وضد ذلك بضده، فالقضاء والقدر موافق للأسباب لا مناف لها شرعاً وعقلاً وحساً، فإنه قدر الأمور بأسبابها وطرقها، وهو أعلم بها ومن يسلكها، ومن لا يسلكها، فسبق علمه وتقديره لها لا يوجب ترك العمل، وإنما يوجب السعي التام لمن أحاط علمه بذلك، وعرفه حق المعرفة، فكما أن من ترك النكاح وقال: إن قُدِّر لي ولد جاءني ولو لم أتزوج، ومن ترك الغرس والحرث وقال: إن قُدِّرَ لي زرع وثمرة حصلا ولو لم أزرع، ومن ترك الحركة في طلب الرزق وقال: إن قُدِّرَ لي رزق أتاني من دون سعي وحركة؛ مَن فعل ذلك عُدَّ أَحمقَ جاهلاً ضالاً، وكذلك من قال: سأترك الإيمان والعمل الصالـح، والله إن كان قدر سعادتي حصلت، فهو أَعظم جهلاً وضلالاً وحمقاً من ذلك، وهذا واضـح ولله الحمد.

## المسألة الثامنة والعشرون
### الاحتجاج بالقدر

الاحتجاج بالقدر على الشرك والكفر وأنواع المعاصي احتجاج باطل، لأنه يدفـع أمر الله ورسوله، ويعتذر به عن معاصيه لله، وذلك من أكبر الظلم والجهل والضلال، وكذلك احتجاج العبد بعد وقوع ما يكره بأن يقول: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، فإنه تقوُّل على الله، وتكذيب لقدره الواقـع لا محالة، وأما الاحتجاج بالقدر على وجه الإيمان به، والتوحيد لله، والتوكل عليه، والنظر إلى سبق قضائه وقدره، فهو محمود مأمور به، وكذلك الاحتجاج به على نعم الله الدينية والدنيوية، فإنه يوجب للعبد شهود منة الله عليه بسبق قدره وإحسانه، وكذلك إذا فعل العبد ما يقدر عليه من الأسباب النافعة في دينه ودنياه، ثم لم

يحصل له مراده بعد اجتهاده، فإنه إذا اطمأن في هذه الحال إلى قضاء الله وقدره، كان محموداً نافعاً للعبد مريحاً لقلبه، كما قال ﷺ: (وإذا غلبك أمر فقل: قدَّر الله وما شاء فعل). وكذلك إذا احتج به بعد التوبة من الذنب ومغفرة الله له على وجه الإيمان به، كان حسناً كما حج آدم موسى، ﷺ.

وكذلك ينفع النظر إلى القضاء والقدر، ليبعث العبد على الجد والاجتهاد في الأعمال النافعة الدينية والدنيوية، فإنه إذا علم أن الله قدر الوصول إلى المطالب والمقاصد بالأسباب المأمور بها، جدَّ واجتهد، عكس ما يظنه كثير من الغالطين أن إثبات القدر يثبط، بل ينشط العاملين أبلغ مما لو كان الأمر لم يقدر له غاية، وكذلك ينفع النظر إلى القدر عند وجود المخاوف المزعجة، فإنه من علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، ولم ينزعج للأسباب المخوفة، بل يتلقاها بسكينة وطمأنينة، ويقوم بما أمر بالقيام به عندها، وكذلك نفعه في المصائب وحلول المحن عظيم، فإنه من يؤمن بالله يهد قلبه، فإذا أصيب بمصيبة، فعلم أنها من عند الله، رضي وسلم لأمر الله وحكمه، واحتسب أجره لله وثوابه، فهذا التفصيل في مسألة النظر إلى القضاء والقدر، والاحتجاج به يأتي على جميع الأحوال، ويتبين أن منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، والله أعلم.

## المسألة التاسعة والعشرون
### في الكهرباء ونتائجها

قال الله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهم أَنَّهُ الحَقُّ﴾.
[سورة فصلت: الآية ٥٣]

وقال تعالى:

﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم﴾. [سورة العلق «اقرأ»: الآية ٥]

لم تزل حقيقة الكهرباء، ونتائجها الباهرة، وأعمالها العجيبة في طي الخفاء والكتمان، ولم يصل إليها في غابر الأزمان علم أَي إنسان حتى ترقت معارف الناس، وعلومهم الطبيعية، فوصلوا إلى هذا الأمر العظيم، والكنز الثمين، وهو استخراج الكهرباء من المواد الأرضية والمائية والنارية وغيرها من المواد المتنوعة، فحققوا علمها وفرعوا نتائجها، واخترعوا فروعها بعدما أتقنوا أصولها، فأوجدوا بها المخترعات الباهرة، والصنائع الفائقة، وأوصلوا بها الأنوار والأصوات [والصور] من المحال المتباعدة، والأقطار الشاسعة في أسرع من لمح البصر. وكم وَلَّدوا بها من أمور تَبْهَرُ عقول العالمين، وما زالوا ولا يزالون في ترقية مخترعاتها وتفريعها. أفليس الذي علَّم الإنسان الذي كان ناقصاً في علمه، ناقصاً في إرادته وقدرته وعمله، أليس الذي علمه هذه الأمور التي لم تخطر ببال أَحد من البشر بقادر على أن يحيي الموتى، وأن يجمع الخلائق كلهم بنفخة واحدة؟!

﴿ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كنَفْسٍ واحدة﴾. [سورة لقمان: الآية ٢٨]

لم تزل كتب الله المنزلة على رسله، ولم تزل الرسل الكرام تقرر أمور الغيب والمعاد بأنواع البراهين والأدلة التي تجعلها من الأمور التي لا تقبل الشك، وأعداؤهم المكذبون برسالاتهم ليس عندهم ما يرد هذه الأمور العظيمة إلا مجرد استبعادات استبعدوها بعقولهم القاصرة، وآرائهم الكاسدة، يقولون: كما أن هذه الأمور متعذرة على قدر المخلوقين، فكذلك هي متعذرة على الخالق. هذا حاصل ما ردُّوا به ما جاءت به الرسل؛ ولم تزل هذه الطائفة الخبيثة في نمو وازدياد حتى طمَّ بحرهم في هذه الأوقات الأخيرة، وانسلخوا عن أديان الرسل من جميع أمور الغيب بهذه الشبهة الباطلة، ونشأ الإلحاد، وطغى الماديون الذين ينكرون ما لم تصل إليه عقولهم، فأظهر الله هذه الآية الكبرى والحجة العظمى الدالة دلالة يقينية على صدق ما جاءت به، وأخبرت به الرسل من أمور الغيب والمعاد، فرأى كل من عنده أدنى عقل وإنصاف أن ما جاء به الرسول، ونزل به

القرآن هو الحق الصريح الذي صدقت له الآيات الأفقية، فكل شبهة يدلي بها أحد من المنكرين لما جاءت به الرسل يستندون فيها إلى الأمور الحسِّية والمشاهدات المادية، وأن الذي جاءت به الرسل يخالف ما زعموا من المحسوسات، فهذه الآية من أكبر ما يزلزل شبهتهم، ويدحض باطلهم، ويردهم على أعقابهم مغلوبين مقهورين بالحق المؤيد بالمنقول والمعقول والمحسوس، فهذه المخترعات الناشئة عن الكهرباء قد كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما هو دونها، وما هو أهون منها، فيظل هؤلاء الضلال منها يسخرون وبمخبرها يكذبون، فلقد أراهم الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب:

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

والمقصود أن وجود هذه الأمور الهائلة الحاصلة من نتائج تعليم الله للآدمي بواسطة القوة التي وضعها الله في الكهرباء يزداد بها المؤمن إيماناً وبصيرة بما جاءت به الرسل، فيضاف شاهد الإيمان إلى شاهد العيان، ولا يبقى في قلبه أدنى شك بصحة ما أخبرت به الرسل، فيكون بذلك من الموقنين، وتقوى الحجة التي لا يستطيع أحد إنكارها على الجاحدين، ويعلم بذلك أن تكذيبهم للرسل وإنكارهم ما جاؤوا به مكابرة محضة، واستكبار صرف، وأنه لا شبهة لهم فضلاً عن أن تكون حجة. أليس الذي أقدر الآدمي على هذه الأمور الباهرة ـ مع أن قدرتهم وقدرة سائر الخلق ليس لها نسبة أصلاً إلى قدرة الخلاق العليم ـ بقادر على أن يحيي الموتى، ويجمع قاصيهم ودانيهم، ويعلم ما تفرق من أجزائهم وما تلاشى من أوصالهم في أسرع من لمح البصر، وذلك دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير. أليس التنادي الذي ذكره القرآن بين أهل الجنة وأهل النار مع البعد العظيم، كان في ذلك الوقت يراه المنكرون محالاً ممتنعاً، فجاءهم ما لا قبل لهم بدفعه! أليس إخبار النبي ﷺ بإسرائه إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى ما فوق السماوات، صار محل فتنة واستبعاد للمنكرين، مع أن آيات الرسل قد تقرر عند الخلق خرقها للعوائد، فهؤلاء ورثة أولئك،

فلينكروا نقل الأصوات والأنوار وغيرها من الأقطار الشاسعة. فلو أخبرهم الرسول ﷺ في ذلك الوقت أن الناس سيطيرون في الهواء، ويتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها وغيرها مما ظهر وسيظهر، فهل تظنهم إلا يزدادون له تكذيباً، وبه سخرية.

ولهذا من حكمة الله أن الله لم يصرح بذكر هذه الأمور، لأن الناس مولعون بعدم التصديق بما لم يروه أو يروا نظيره، فلم يصرح بذكره رحمة بالعباد، ولكنه ذكر في غير آية من كتابه ما يدل على ذلك بحيث إذا وقعت هذه الأمور، فهم الناس دلالته عليها، فالمؤمن يستفيد غاية الفائدة إذا نظر للمخترعات الحاضرة بنور إيمانه، ودلالتها على المطالب العالية. ولا شك أن فائدة المؤمن من معرفتها أعظم من فائدة من اخترعوها فلم ينتفعوا بها في أمر دينهم ولا في أمر دنياهم، وإنما كانت وبالاً عليهم، فنسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم. وصلى الله على محمد وسلم.

## المسألة الثلاثون

### الوقت لك أو عليك

الوقت إما لك ربح ومغنم، وإلا عليك وزر ومأثم، وإما خسارة وتفويت للمنافع، وهذه الثلاثة الأقسام لا بد للإنسان من واحد منها، فمن كان وقته في طاعة الله من صلاة وصيام وقراءة وذكر وجهاد وحج وعلم وقيام بحق الله أو بحقوق الخلق، فهو له مغنم وربح، وسيحمد غِبَّهُ بعد حين، وسيغتبط بما قدمت يداه. ولا بد لمن كان على هذا الوصف من الراحات، واستعمال ما يعين على العبادة من استعمال الطيبات، وهذه الوسائل ينسحب عليها حكم الوقت، وتكون عبادات مع النية الصالحة، ومن كان وقته في الشر وعمل المعاصي والإصرار على ما يسخط الله تعالى من جميع أجناس المعاصي المتعلقة بحق الله، أَو حق خلقه، فهو يسعى إلى دار الشقاء، وعاقبته أوخم العواقب، وسيجد غِبَّ أعماله إذا انقطعت الأسباب، فإن تمتع في الدنيا قليلاً، أعقبه

ذلك حزناً طويلاً، ومن كان وقته في الغفلات والاشتغال بما لا يعين من اللذات والمباحات، فقد خسر وقته الذي هو أنفس من كل نفيس، وخسر خسراناً مبيناً، وفاتته المتاجر والأرباح، فسبحان من فاوت بين عباده هذه التفاوت.

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ولَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾. [سورة الإسراء: الآية ٢١]

## المسألة الحادية والثلاثون
### في مقاومة الفقر والجهل والمرض

كثر بحث الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين أقطارهم في السعي في مقاومة الجهل والفقر والمرض، والسعي إلى ذلك بكل الوسائل، وزعموا أو أكثرهم أنهم ظفروا في هذه المهمة الكبيرة ظفراً لم يصل إلى قريب منه الأولون والآخرون، وصاروا يتبجحون ويفتخرون بذلك، وأن هذا العصر هو عصر النور والرقي والتقدم الباهر، وأن هذه المقاومة لهذه الأعداء الثلاثة التي يرون الأعداء والعداوة منحصرة فيها قد نجحت نجاحاً تاماً، وصاروا يصفون ما وصلوا إليه بأوصاف كثيرة، وخدعوا وانخدع بهم غيرهم في هذه الدعاوى التي إذا حققت، وبحث فيها عن الغايات والمقاصد، وعن الوسائل وما توصل إليه، وجد الأمر على خلاف ما يقولون، والواقع يعاكس ويناقض ما كانوا يظنون، وذلك أن الوسائل المطلوبة يقصد بها غاياتها الشريفة، ومقاصدها العالية، ومنافعها السامية، فمتى أوصلت الوسائل إلى الخيرات، والأمور العالية، وقمعت الشرور والأضرار والمفاسد، فهي التي يفتخر بها المفتخرون، ويتنافس فيها المتنافسون، ولمثلها فليعمل العاملون، ومتى لم تحصل غاياتها النافعة الشريفة، بل توسل بها إلى الأمور الضارة الخسيسة، صار ضررها كبيراً، وشرها مستطيراً، وعادت نقمةً على أهلها. فالعلوم والمعارف يقصد بها هداية القلوب،

وترقية الأخلاق، ومعرفة الطرق إلى الاستفادة الدنيوية والدينية من الصنائع والأعمال، وكيفية الوصول إلى نافعها وتوقي ضارها.

والمقصود من مقاومة الفقر والأمراض على اختلاف أنواعها بجميع طرقها التوسل بالأبدان الصحيحة القوية إلى كل عمل نافع ديني ودنيوي، والتوسل بالغنى إلى التحرر من رقٍّ المخلوقين، وقيام المعايش الضرورية والكمالية، وقيام المشاريع الدينية والدنيوية، والتوسل بذلك كله إلى القيام بما خلق له العباد من معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له، وقيام الدين الحق، والذب عنه، ومقاومة أهل الباطل، وقيام جميع المصالح الكلية الدينية والدنيوية. فمتى كان سعي الناس في تحصيل العلوم والمعارف، وفي الغنى وقوة الأبدان وصحتها لتلك المقاصد الجليلة، عاشوا عيشة طيبة وحياة طيبة، وتم لهم الرقي الروحي والجسدي، وهو إصلاح الدين وإصلاح الدنيا، وحصلت لهم الراحة التامة، والسلم الدائم، والحضارة الصحيحة. ومتى كانوا بعكس ذلك، وكان سعيهم مقصوراً على الأمور المادية، والأغراض الجسدية، والأهواء النفسية، ولم يكن لهم التفات إلى ما خلقوا له من صلاح القلوب، وصلاح الأخلاق، والإخلاص للخالق، والإحسان إلى المخلوق، صارت هذه الأمور وبالاً عليهم، وصار شرُّها غالباً لخيرها، وضررها مُرْبِياً على نفعها، والتاريخ والواقع يشهدان بذلك، فاعتبر بهذا الأصل أحوال الخلق تجد الأمر مطابقاً لما ذكرنا مطابقة صحيحة.

## المسألة الثانية والثلاثون

### في الميزان بين ما يخرج من الدين من الكفر والنفاق وما لا يخرج

الحمد لله يتضح هذا بذكر أصل كبير دل عليه الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة، وهو أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم خير لا شر فيه، وقسم بالعكس، والقسم الثالث: ما يجتمع فيه خير وشر، وإيمان ونفاق،

وإيمان وكفر، وهذه الأقسام إنما تتم معرفتهم بمعرفة حقيقة الإيمان، ومعرفة ما يضاده من كفر ونفاق ومعصية، وبحسب اتصاف العبد بذلك.

أما حقيقة الإيمان الصحيح التام، فهو الإيمان بجميع ما أمر الله به ورسوله من أصوله الكلية والجزئية، والاعتراف بذلك، والانقياد ظاهراً وباطناً لطاعة الله ورسوله، فمتى كان العبد متحققاً بأصول الإيمان، منقاداً بقلبه وبدنه لطاعة الله ورسوله، قد قام بجميع ذلك اعتقاداً وانقياداً وطاعة، فهو المؤمن حقاً الذي اجتمع فيه الخير كله، وتمت له السعادة والفلاح. ومتى فقد أحد الأمرين، أو كليهما، فهو كافر خارج من الدين، إما منافق يظهر الإيمان، ويبطن الكفر، وإما كافر معلن بكفره، ومتى كان معه أصل الدين واعتقاداته المجملة، ولكنه يخل بكثير من واجباته، ويتجرأ على المحرمات، فهذا قد اجتمع فيه خير وشر، وأسباب موجبة للثواب، وأسباب موجبة للعقاب بحسب ذلك، فمن تلك الخصال خصال نص الشارع على أنها من النفاق، أو صاحبها مشبه للمنافقين، كالكسل عن الصلاة، والرياء، وإخلاف الوعد، والكذب، والغدر، وعدم الوفاء بالعهد، وغير ذلك، فهذا من النفاق الأصغر الذي يوجب العقوبة ويمنع من المثوبة، ويخرج العبد من الإيمان الكامل ويدخله في أوصاف المنافقين بحسب ما فيه منها، ولكنه لا يخرج العبد من الإيمان. وكذلك الكفر والشرك: منه أكبر مخرج من الدين، كالتكذيب لله ورسوله، والشرك في عبادة الله: بأن يصرف من العبادات شيئاً لغير الله من المخلوقات، ومنه كفر وشرك أصغر، كالاقتتال بين المسلمين والنياحة، والتبرؤ من النسب، والرياء ونحو ذلك، مما أطلق الشارع عليه الكفر أو الشرك وهو لا يخرج من الدين، فإنه من شعب الكفر والشرك، ولهذا يجتمع في العبد خصالُ إيمان، وخصال كفر ونفاق، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهو الواقع، وشواهد هذا الأصل الكبير من القرآن والسنة كثيرة جداً. والله أعلم.

## المسألة الثالثة والثلاثون

### بلاد الإسلام وبلاد الشرك

سئل عن بلاد الشرك ما تصير به بلاد إسلام؟ وعما قارب لنا من بلاد العراق والبحرين وغيرهما هل هي بلاد إسلام؟ وما يطلق عليها؟ وعن السفر لبلاد الشرك لأجل التجارة وعمن يقيم فيها ثم يرغب ويتأهل فيها ويسكن، وعن إظهار الدين في بلد المشركين وما يلزم الرجل من الولاء والبراء والنطق بتكفير الكافر؟

الجواب: هذه المسائل ولله الحمد معروفة، وكلام أهل العلم فيها معروف، نورد ما تيسر لنا منه، ونرجو الله أن يرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتِّباعه، والباطل باطلاً ويرزّقنا اجتنابه، ويجعل عمل الجميع خالصاً لوجهه الكريم.

فنقول: قد ذكر أهل العلم رحمهم الله الفرق بين بلاد الإسلام وبلاد الكفار، فبلاد الإسلام: التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية، ويكون النفوذ فيها للمسلمين، ولو كان جمهور أهلها كفاراً، وبلاد الكفر ضدها، فهي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار. وهي على نوعين: بلاد كفار حربيين وبلاد كفار مهادنين، بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة، فتصير إذا كانت الأحكام للكفار، والنفوذ لهم، دار كفار، ولو كان بها كثير من المسلمين، وكل أحد يعرف ولا يشك أن العراق والبحرين وغيرهما من البلاد المجاورة ونحوها، من المستعمرات الإنجليزية، وأنهم هم الذين لهم النفوذ والحكم بها، ولكنهم يدخلون في الكفار المهادنين لما بينهم وبين المسلمين من الأمان في عدم تعدي أحدهما على الآخر، وارتباط التجارة كما هو معروف لكل أحد. وأما الهجرة من دار الكفار سواء كانت دار حرب أو دار صلح وهدنة، فنسوق فيها كلام أهل العلم وأدلتهم فيها بلفظها فقال في «المغني»:

# فصل في الهجرة

وهي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، قال الله تعالى:

﴿إن الذينَ تَوَفَّاهُم المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِمْ...﴾.

[سورة النساء: الآية ٩٦]

الآيات، وأورد الأدلة إلى آخره، وأطال الكلام رحمه الله، فمن أراد المراجعة فعليه به، وقال أيضاً في «الإقناع» وشرحه: وحكم الهجرة... إلى آخره. فمن أراد المراجعة فليراجعه، وكذلك ذكر في «المنتهى» وشرحه، وكذلك ابن مفلح في «الفروع» وكلام أهل العلم في هذه المسألة كثير، متفقون على الوجوب إذا عجز عن إظهار دينه، واستحبابه إذا كان قادراً على ذلك، وليس لأحد خروج عما قالوا، واستدلوا عليه وعللوه. يبقى علينا: ما هو إظهار الدين، وما هو الدين؟ فالإظهار ضد الإخفاء، فالمظهر لدينه هو الذي يتمكن من إعلانه، ولا يضطهد على ذلك، ولا يخفيه، والعاجز عن الإظهار هو الذي لا يقدر على إظهار إيمانه وتوحيده، وعقائد دينه وشرائعه، والدين لا يحدُّ ولا يفسر بتفسير أحسن ولا أوضح من تفسير النبي ﷺ ولا أجمع، فإنه فسره بمجموع عقائد الدين وشرائعه وحقائقه، حيث بين أن الإيمان: (هو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره). والإسلام: (هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام). والإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك) وقال في آخره: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينِكم، أو دينَكم) رواه البخاري وغيره. فجعل ذلك كله هو الدين، فمتى قدر الإنسان على إظهار هذه الأمور، وعدم إخفاء شيء منها، فهو المظهر لدينه، ومتى عجز عن إظهارها أو إظهار شيء منها، فهو عاجز عن إظهار دينه، وهذا بحمد الله واضح لا إشكال فيه، فلو كان يقدر أن يصلي ويصوم، لكن لا يقدر أن يظهر توحيده وإيمانه وعقيدته كان عاجزاً عن إظهار دينه، وقد تقدم أن بلاد الكفر نوعان: بلاد حرب واضطهاد، وبلاد عهد وهدنة وأمن، ويدل على هذا

أن النبـي ﷺ أذن لأصحابه أن يهاجروا من مكة حيث كانت بلاد كفر واضطهاد وأذية وفتنة للمؤمنين إلى بلاد الحبشة، وهي بلاد كفر، ولكنها بـلاد أمن واطمئنان، وهي أخف بكثير من بلاد الفتنة، والشر القليل أهون من الشر الكثير، ولهذا تمكن الصحابة رضي الله عنهم من إظهار دينهم فيها حتى إن الوفد الذي أرسلته قريش إلى النجاشي بهدايا كثيرة عالجوا النجاشي في تسليم المؤمنين إليهم، فلم يفعله حتى قالوا له: إنهم ليقولون في عيسى قولاً عظيماً لتهييجه على الغضب عليهم، لعله يسلمهم إليهم، إنهم يقـولون: إن عيسى عبـد الله ورسـوله. فلما دعـا النجاشي جعفـراً وأصحابـه ليسألهم عـما قالـوه عنهم، فلم يسعهم رضي الله عنهم حتى صرحوا بمقالتهم بين يدي النجاشي، وأنه عبد الله ورسوله، فاعترف النجاشي بالحق، وطرد الوفد، وأرجعهم خائبين، ولم يكن عند النجاشي قبل هذا المجلس علم بما كانوا يقولونه في عيسى.

والمقصود أنه لا بد من إظهار أصول الدين وشرائعه، فإذا نظرنا إلى ما حولنا من الممالك المذكورة في هذه الأوقات، وجدنا أنه يتمكن كل أحد من إظهار دينه ومعتقده لانتشار الحـرية، فصـار المؤمن والكافـر والبر والفـاجر كـل يعلن بما اعتقده، وإن حصل تقصير أو افتتان فهو من كثرة الشر، ولا يؤتى العبد إلا من قبل نفسه، ولهذا كان الدعاة لمذهب السلف كالشيـخ محمد رشيد، والألوسيين، والشيـخ قاسم بن مهزع وغيرهم يظهرون من مذهب السلف والدعوة إلى الدين الإسلامي أصوله وشرائعه ما هو معروف معلوم من غير معارض ولا ممانـع، وكذلك من عنده دين من أهل نجد إذا ذهبوا لتلك الأقطار المذكورة، فإنهم يتمكنون من إظهار ما هم عليه، وهذا أمر لا يشك فيه، ولكن من أعظم الأخطار الإقامة مـع العائلة هناك، وإدخالهم في المدارس التي لا يخرج منها أحد إلا وهو مختل العقيدة إلا ما شاء الله، وبهذا الذي ذكرناه يعلم أن من كان عاجزاً عن إظهار دينه لا يحل له المقام بلا شك، لكن بشرط قدرته على الهجرة. وأما السفر إلى هذه الأقطار للاتجار مـع حفظ العبد لدينه، وقدرته على إظهاره فما المانـع من ذلك. والمسلمون ما زالوا يسافرون للتجارة لبلاد الكفر في

وقت الصحابة رضي الله عنهم، وقد ذكر ذلك أهل العلم رحمهم الله تعالى وذكروا ما يدل عليه.

فقال في «المغني»: مسألة: وإذا دخل إلينا منهم تاجر حربي أمان أخذ منه العشر. وقال أَبو حنيفة: لا يؤخذ منهم إلا أن يكونوا يأخذون منا شيئاً، فنأخذ منهم مثله، لما روي عن أبي مجلز لاحق ابن حميد: قال: قالوا لِعُمَر: كيف نأخذ من أهل الحرب إذا قدموا علينا؟ قال: كيف يأخذون منكم إذا دخلتم إليهم؟ قالوا: العشر، قال: فكذلك خذوا منهم. وعن زياد بن حدير قال: كنا لا نعشر مسلماً ولا معاهداً، قال: من كنتم تعشرون؟ قال: كفار أَهل الحرب فنأخذ منهم كما يأخذون منا، وكذلك ذكر صاحب «الشرح الكبير» وهذا صريح في اتجار الصحابة ومن بعدهم من المسلمين إلى دار الحرب بالتجارة، فكيف دار الذين لهم عهد وأمان وهدنة. وقال ابن مفلح في «الفروع»: وأهل الحرب إذا دخلوا إلينا تجاراً بأمان، أخذ منهم العشر دفعة واحدة، سواء عشروا أموال المسلمين إذا دخلوا إليها أم لا. وعنه: إن فعلوا ذلك بنا، فعلناه بهم، وإلا فلا، وقد ذكر هذه المسألة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجمع بين «الشرح والإنصاف» فقال: ومن دخل دار الحرب رسولاً أو تاجراً بأمانهم، فخيانتهم محرمة عليه، إنما أعطوا الأمان مشروطاً بترك خيانتهم، وكذلك ذكر ذلك في «الإقناع» و«المنتهى» وغيرهما من كتب أهل العلم.

وكل هذا دليل على جواز الاتجار إلى بلدانهم بشرط أن يتمكن الإنسان من إقامة دينه وحفظه، ومن فضل الله أن أهل نجد أعزاء في كل مكان يأتون إليه من هذه الأقطار، وذلك بفضل الله، ثم بفضل سعي حكومتهم يتمكنون من إظهار دينهم ومعتقداتهم، ومن قصر في شيء من ذلك، فذلك من قبل نفسه، ومن تأمل الأمور وعرف الواقع لم يبق عنده ريب في هذا ولا شك، والله الموفق.

وأما قولك: وما يلزم الإنسان في الولاء والبراء والنطق بتكفير الكافر. فهذه مسألة مبنية على أصل كبير، وهو أن الله تعالى عقد الأخوة والموالاة والمحبة

بين المؤمنين كلهم، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى ومجوس ومشركين وملحدين ومارقين وغيرهم ممن ثبت في الكتاب والسنة الحكم بكفرهم، وهذا الأصل متفق عليه بين المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة كثيرة معروفة، فكل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية، فإنه تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك، فإنه يجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة، فالولاء والبراء تابع للحب والبغض، والحب والبغض هو الأصل، وأصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وأن تبغض في الله أعداءه وأعداء رسله، وكل من حكم الشرع بتكفيره، فإنه يجب تكفيره، ومن لم يكفِّر من كفَّره الله ورسوله، فهو كافر مكذب لله ورسوله، وذلك إذا ثبت عنده كفره بدليل شرعي، والله سبحانه وتعالى أعلم. وإن حصل لكم إشكال في هذا الكلام أو زيادة في البحث، فالأحسن أن يكون شفهياً، والله تعالى يتولانا وإياكم برحمته، ونسأله أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم.

## المسألة الرابعة والثلاثون
## في اختلاط المسلمين بالكفار

الاختلاط بين المسلمين والكفار الذي لا يحصل منه إلا شر وضرر وتهاون بالدين، ورغبة في أمور الكفار وأحوالهم، فهذا من أعظم المنكرات وأشدها ضرراً، وعلى ولاة الأمور ــ وفقهم الله لإقامة الدين ــ إذا ابتلوا بمثل هذا الاختلاط أن يراقبوا المسلمين، ويلزموهم بإقامة دينهم، ويمنعوهم أشد المنع من مجاراة الكفار على التهاون بأمور الدين، ويتفقدوهم تفقداً دقيقاً، فإن خلطتهم لهم فيها خطر كبير، فيجب أن يتلافى هذا الخطرَ مَنْ لهم الأمر وهم المسؤولون عن ذلك، المتعين عليهم، نرجو الله تعالى أن يأخذ بنواصيهم إلى الخير إنه جواد كريم.

## المسألة الخامسة والثلاثون
## في آداب العالم والمتعلم

ما الآداب التي ينبغي للعالم والمتعلم التخلق بها؟

الجواب: أصل الأدب لكل منهما، الإخلاص لله، وطلب مرضاته، وقصد إحياء الدين، والاقتداء بسيد المرسلين، فيقصد وجه الله تعالى من تعلمه وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، وفي مطالعته ومدارسته ومراجعته، وأن يزيل عن نفسه وغيره موت الجهل وظلمته، وينير قلبه ويحييه بالعلم النافع، فإن العلم نور يستضاء به في الظلمات وحندس الجهالات، فكلما ازداد علماً ازداد نوراً بمعرفة الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، والصحيح من الفاسد، وعرف مراتب الأشياء وطرق الخير من الشر. فالعلم عبادة تجمع عدة قربات: التقرب إلى الله بالاشتغال به، فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات ـ وذلك في أوقاتهم الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى فيها وكاد أن يضمحل ـ والاستكثار من ميراث النبي ﷺ، وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونفعه واصل لصاحبه، ومتعدٍّ إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انتفع بإرشادهم، واهتدي بأقوالهم وأفعالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته. وينبغي للمعلم أن يصبر على التعليم، ويبذل جهده في تفهيم كل طالب ما يتحمله ذهنه، ولا يشغله بكثرة القراءات، أو بما لا يتحمله ذهنه، وأن ينشطه على الدوام، ويكثر من سؤاله وامتحانه، ويمرنه على المباحثة وتصوير المسائل، وبيان حكمتها ومآخذها، ومن أي الأصول الشرعية أخذت، فإن معرفة الأصول والضوابط، واعتبارها بالمسائل والصور من أنفع طرق التعليم. وكلما ذاق طالب العلم لذة فهمه، وحسن مأخذه، ازدادت رغبته، وقوي فهمه. وكذلك ينبغي له أن يوقظ

فهمه بكثرة البحث، والسؤال والجواب، ويريه السرور إذا أورد عليه سؤالاً أو إشكالاً، أو عارضه بما قاله، فإن القصد النفع، والوصول للحق، لا الانتصار للقول الذي يقوله، والمذهب الذي يصير إليه، بل إذا أرشده من دونه إلى خلل بما قاله، شكره عليه، وبحث معه بحثاً يقصد منه الوصول إلى الحقيقة لا نصر ما هو عليه من الطريقة. ورجوع المعلم إلى فهم المتعلم حيث يكون أقرب إلى الصواب أدل شيء على فضيلته، وعلو مرتبته، وحسن خلقه، وإخلاصه لله تعالى. وإذا لم يصل إلى هذه الحال، فليعود نفسه ذلك، وليتمرن عليه، فإن المزاولات تعطي الملكات، والتمرينات ترقي صاحبها لدرج الكمالات.

وينبغي للمتعلم أن يحسن الأدب مع معلمه، ويحمد الله إذ يسر له من يعلمه من جهله، ويحييه من موته، ويوقظه من سِنَتِه، وينتهز الفرصة كلَّ وقت في الأخذ عنه، ويكثر من الدعاء له حاضراً وغائباً، فإن النبي ﷺ قال: (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)[1]، وأي معروف أعظم من معروف العلم، وكل معروف ينقطع إلا معروف العلم والنصح والإرشاد. فكل مسألة استفيدت عن الإنسان فما فوقها، حصل بها نفع لمتعلمها وغيره، فإنه معروف وحسنات تجري لصاحبها، وقد أخبرني صاحب لي كان قد أفتى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد توفي، أنه رآه في المنام يقرأ في قبره فقال: المسألة الفلانية التي أفتيت فيها وصلني أجرها. وهذا أمر معروف في الشرع (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)[2].

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم من حديث ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح. وأوله: «من استعاذكم بالله فأعيذوه...» الحديث.

(٢) هو جزء من حديث طويل، رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

وينبغي أيضاً للمتعلم أَن يلطف بالسؤال، ويرفق بمعلمه، ولا يسأله في حالة ضجر أو ملل أو غضب، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشوش الذهن. وأقل الحالات أن يقع الجواب ناقصاً، وإذا رآه مخطئاً في شيء، فلا يصرح بالخطأ، بل ينبهه بصورة متعلم وسائل، فإنه لا يزال كذلك حتى يتضح له الصواب، لأن كثيراً من الناس إذا صرحت له بخطئه، بعُد رجوعه، وصعب عليه الأمر، إلا من ملك نفسه، وخلقها بالأخلاق الجميلة، فإنه لا يبالي إذا رد عليه قوله، وصرح له بالخطأ، وهذه الحال من أندر الأحوال، وليس بين العبد وبينها إلا توفيق الله، والاجتهاد في رياضة النفس. وكذلك ينبغي للمتعلم إذا دخل في فن من فنون العلم، أن ينظر إلى كل باب من أَبواب العلم، فيحفظ منه الأشياء المهمة، وبحوثه النافعة، فيحققها ويتصورها كما ينبغي، ويحرص على مآخذها وما هي مبنية عليه، فإنه لا يزال على هذه الحال حتى يحصل له خير كثير، وعلم غزير

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

ويسأل الله التوفيق، وصلى الله على محمد وسلم.

## المسألة السادسة والثلاثون
## في فائدة السؤال لمن يوجه إليه

**س ــ ما فائدة السؤال لمن يوجه إليه؟**

ج ــ يقول الشيخ في جملة جواب له «ونحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات، لأنها قد تصير سبباً لبحث أمور لم تخطر على البال، ومراجعة محالها وهذا من طرق العلم، فلا تحرمونا ذلك، أرجو الله أن يجعل عملنا وإياكم خالصاً لوجهه. وينبغي للمفتي والعامل في مسائل الخلاف أن يتحرز غاية التحرز في الخروج من الخلاف، وأن يسلك طريق الاحتياط في فتواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفاً جداً لا ينظر إليه، وليس له حظ من النظر. هذا في ابتداء الأمر، وفي الأمر الذي يمكن تلافيه، فأما إذا مضى الأمر، وحصل العمل

بقول مفتٍ، والمسألة خلافية، والخلاف فيها قوليٌّ له حظ من النظر والدليل، فينبغي عدم الحكم بنقضه وإبطاله، لأن الأمور لها أحوالُ وقت الابتداء وإمكان التدارك، وأحوال إذا تعذر ذلك.

## المسألة السابعة والثلاثون
### في أقسام العلوم

**س ــ ما هي أقسام العلوم؟**

ج ــ العلوم قسمان: علوم نافعة تزكي النفوس، وتهذب الأخلاق، وتصلح العقائد، وتكون بها الأعمال صالحة مثمرة للخيرات، وهي العلوم الشرعية وما يتبعها مما يعين عليها من علوم العربية.

والنوع الثاني: علوم لا يقصد بها تهذيب الأخلاق، وإصلاح العقائد والأعمال، وإنما يقصد بها المنافع الدنيوية فقط، فهذه صناعة من الصناعات، وتتفاوت بتفاوت منافعها الدنيوية، فإن قصد بها الخير، وبنيت على الإيمان والدين، صارت علوماً دنيوية دينية، وإن لم يقصد بها الدين، صارت علوماً دنيوية محضة لا غاية شريفة لها، بل غاياتها دنيئة ناقصة جداً، وربما ضرب أهلها من وجهين: أحدهما: قد تكون سبباً لشقائهم الدنيويِّ وهلاكهم وحلول المثلات بهم، كما هو مشاهد في هذه الأوقات حيث صار ضرر العلوم التي أحدثت المخترعات والأسلحة الفتاكة شراً عظيماً على أهلها وغيرهم. والثاني: أن أهلها يحدث لهم الزهو والكبر والإعجاب بها وجعلها هي الغاية المقصودة من كل شيء، فيحتقرون غيرهم، ويناوئون علوم الرسل التي هي العلوم النافعة فيدفعونها ويتكبرون عنها فرحين بعلومهم التي تميزوا بها عن كثير من الناس، فهؤلاء ينطبق عليهم أتمَّ الانطباق قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بما عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ﴾. [سورة غافر: الآية ٨٣]

فنعوذ بالله من علم لا ينفـع.

## التفســير

**س ـ أي القـولـين أصـح في قـوله تعـالى: ﴿وما يعلم تـأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾؟** [سورة آل عمران: الآية ٧]

ج ـ التأويل يطلق بمعنى التفسير والعلم به، ويطلق بمعنى بيان الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، فإن كان الأول، فيكون قوله: «والراسخون» معطوفاً على قوله: «إلا الله» وعلى هذا فإن معناه أن المتشابه هو ضد المحكم وهو الذي فيه احتمالات، فالراسخون في العلم يفهمونه ويرجعونـه إلى المحكم، فالنص الصريـح يقضي على النص الذي فيه عدة احتمالات.

وإن كان الثاني، فالتأويل الذي هو بمعنى نفس حقيقة المخبر عنه من صفات الله وصفات اليوم الآخر، لا يعلم كنه ذلك وكيفيته إلا الله تعالى، فيكون الوقوف على «إلا الله» ويكون معنى قوله: «والراسخون في العلم» بمعنى أنهم يفوضون معرفة الكنه والكيفية إلى الله، ويقولون:

**﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾.** [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي: وما كان من عند ربنا، فهو حق سواء عرفنا كنهه أم لا، وكلا القولين صحيـح، وقد قال بكل منهما طائفة من السلف، والجمـع بينهما على ما ذكرنا من اختلاف معنى التأويل أولى وأحسن.

## أصول الفقه

**س ١ ـ لماذا انفردت بعض مسائل الفقه بحكم خاص؟**

ج ـ اعلم على وجه الإجمال أنه لا يوجد في الشرع مسألة واحدة انفردت عن نظائرها بحكم خاصٍ إلا لسبب ووصف امتازت به، وأَوجب لها الخروج عن نظائرها، لأن من أصول الشرع المطَّرِدَةِ أن الشارع لا يفرِّق بين المتماثلات من كل وجه، وإذا اتبعت هذا النوع، وجدت الأمر كما ذكرنا: من ذلك «باب العاقلة» فإن الأصل أن على المتلف ضمان ما أتلفه، ولكن لما كان قتل الخطأ وشبهه يكثر، والقاتل لم يتعمد تعمداً محضاً، وحمله جميع الدية شاق متعذر أو متعسر جداً، والعصبة كانوا يتعاونون ويتناصرون في كثير من الأمور، فكان من الحكمة الشرعية حمْلُهم عن القاتل الدية في هذه الحال تحقيقاً للمناصرة، وحثاً على المعاونة. وتسهيل الأمر عليهم من وجوه، من جهة تعميمهم فيها وتحميلهم بحسب حالهم، وتأجيلها عليهم ثلاث سنين، كل عام ثلثها، فحينئذ تخف عليهم، ولا تهدر الدماء المعصومة، وأيضاً متى علمت العاقلة أنهم هم الحاملون لذلك، منعوا مجانينهم وصغارهم وسفهاءهم من الأسباب التي يحصل بها القتل خوفاً من التحميل، وشفقة عليهم، فكان حملة العاقلة من المعاونات العرفية ومن المحاسن الشرعية.

ومن ذلك «القسامة»، فإن الأصل: المدعي عليه البينة، واليمين على المدَّعَى عليه، وأما القسامة، فلما تعذرت البيِّنة على المدعي، وحصل اللوث الذي هو القرائن الظاهرة القوية، قوي حينئذ جانب المدعين، فصار القول قولهم، لكن على وجه لا يكاد يقدم عليه أحد إلا بعد التروي والتحقق واليقين أو شبهه أَن المدعى عليه هو القاتل، بأن يقسم جميع رجال الأولياء خمسين يميناً على القاتل، فمع وجود القرائن الظاهرة، ومع إقدام جميع الأولياء، ومع هذه الأيمان المكررة المغلظة، يتضح حينئذ أن قبول قول المدعين أقوى من كثير من البينات، كما هو ظاهر لكل أحد.

ومن ذلك «باب النذر» مخالف الأصل الذي هو أن الوسائل لها أحكام المقاصد، والنذر عقده مكروه وهو الوسيلة، والوفاء به واجب وهو المقصود، فالشارع نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير» وأمر بالوفاء به، ومدح الموفين، والسبب ظاهر، فإن إيجاب الإنسان على نفسه شيئاً من العبادات التي عافاه الله من وجوبها تعرض للبلاء وتعرض للمعصية، والإنسان ينبغي له أن يسعى في أسباب العافية الدينية والدنيوية من كل وجه، فإذا نذر، فقد حمّل نفسه أمراً لا يدري هل يطيقه أم لا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن العبادة لله لا تتم ولا تكمل إلا بالإخلاص التام لله، والنذر فيه إخلال من الإخلاص ونقص، فإنه إذا قال العبد: لله علي نذر إن شفاني أو شفى مريضي، أو أعطاني الشيء الفلاني لأفعلن كذا أو كذا من العبادات، ثم حصل له، كان ذلك يشبه المعاوضة والمقابلة، وأنه لم يفعل العبادة التي عينها إلا بالشرط الذي علقها عليه. والإخلاص المحض أن يكون الداعي والحامل للعمل وجه الله خالصاً، لا الجزاء العاجل، ومن جهة أخرى أن الناذر جزم على الفعل، ولم يعلقه بالمشيئة، وهو من هذا الوجه كالمتعالي على الله، ومن جهة أخرى كثير من الناس يظن أن النذر سبب لحصول الأمر المنذور، وهذا كذب بنص الشارع، حيث قال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل) فهو ليس من الأسباب التي نصبها الشارع لحصول مسبباتها، وفي قوله: (وإنما يستخرج به من البخيل) إشارة إلى ضعف إخلاص الإنسان، فإن البخيل الذي لا داعي قويًا عنده، من الإيمان، يقضي على بخله، وإنما يستخرج منه مثل النذر ونحوه، فكأن خيره الذي فيه ناقص رديء، فبهذه الأسباب كان عقد النذر مكروهاً والوفاء به واجباً.

ومنها «باب الشفعة» فإن الأصل أن مال الغير لا يتملكه الإنسان إلا باختياره ورضاه، فالمشتري للشقص الذي تملكه بالشراء جعل الشارع للشريك أن يتملكه منه قهراً عليه لسبب ظاهر، وهو إزالة ضرر الشركة من غير ضرر يكون على المشتري، فالمشتري يعود إليه الثمن الذي بذله ولم يكن قبل

هذا مالكاً متصرفاً، فأباح الشارع للمالك الأصل الذي له من التصرفات السابقة والحاضرة والمستقبلة، والعمارات وتوابعها أن يتملكه من هذا المشتري الحادث إزالة لـضرره، وتتميماً لمقاصده، وحقق ذلك أن كانت الشفعة في العقارات التي لم تقسم، بخلاف المنقولات ونحوها، لأن ضرر العقارات أكثر وأدوم من غيره.

ومنها «باب الوقف» فإن الأصل في الأموال جواز التصرفات المطلقة فيها من جميـع الوجوه، والوقف قد علمت أحكامه الكثيرة الخاصة المترتبة على أنه تسبيل الأصل، وتوقيف المنافـع، وذلك لما يترتب عليه من المصالـح المتسلسلة النـافعة للحـاضرين والمستقبلين ولـلأحياء والأمـوات، وللمصالـح الخـاصة والمصالـح العامة.

ومنها: «أحكام أمهات الأولاد»، فإن الأصل أن الإماء يتصرف فيها سيدها في منافعها ورقبتها، وأم الولد تختص بأحكام تميزها عن سائر الإماء، لأنه لما تولد الولد الحر فيها من سيدها سرى منه شيء اقتضى ثبوت هذه الأحكام المتبعضة في حال حياة سيدها، وأنه يتصرف في منافعها دون رقبتها، وبعد موته يثبت لها الخروج التام عن ملكه، فهذه الخواص لهذا السبب أوجبت اختصاصها بأحكامها المعروفة.

ومنها في العبادات (الحج والعمرة)، فإن فيها خواصاً اختصت بها من بين سائر العبادات، فالعبادات لا يجب إتمام نوافلها، والحج والعمرة إذا شرع فيهما يجب إتمامهما، لأن الشروع في عقديهما بمنزلة إيجاب العبد على نفسه شيئاً من العبادات، ولذا قال تعالى:

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَـجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ولا جدَالَ في الحَـجِّ﴾.
[سورة البقرة: الآية ١٩٧]

أي: أوجبه على نفسه:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ولْيُوفُوا نُذُورَهُم﴾. [سورة الحج: الآية ٢٩]

فسمى متعبدات النسك نذوراً، إلا أنه أوجبها على نفسه بعقد الإحرام. ومنها أن من عليه حجة الإسلام لا يصح أن يصرفها عن غيرها، ولا أن يحج عن غيره، فإن فعل ذلك انقلبت إلى نفسه عن حجة الإسلام، لأن أول نسك بعد وجوبه على المكلف غير قابل لغير الفريضة الإسلامية التي هي فريضة العمر، فمهما نوى العبد فيها من النيات المنافية لهذا القصد، بطلت تلك النيات المعارضة، وبقي الأصل سالماً. ومنها أن المفرد والقارن إذا طاف للقدوم، وسعى بعده سعي الحج، ثم قلب ذلك ونسخه إلى العمرة، كان هذا المشروع، والأفضل أن ذلك الطواف الذي كان للقدوم، وذلك السعي الذي كان للحج ينقلبان للعمرة ركنين من أركانها، مع أنه أدى الطواف بنية النفل وهو طواف القدوم، وأدى السعي بنية سعي الحج، ثم انقلبا كما ترى، وهذا يعد من الغرائب، والسبب في ذلك كما قال النبي ﷺ: (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة) والعمرة أيضاً هي الحج الأصغر، وأيضاً إذا فسخ القران والإفراد ناوياً التمتع، فهو في الحقيقة لم ينقص ما سبق له من الأعمال والنيات، وإنما أتى بها على وجه أكمل، فهو لم يصرفها إلى شيء آخر، وإنما أَدارها من صفة إلى صفة أحسن منها وأتم، كما أمر النبي ﷺ أصحابه بعدما طافوا وسعَوا أن يجعلوها عمرة، واكتفوا بذلك الطواف والسعي عنها، مع أن أكثرهم لم ينسخ إلا بعدما كان السعي، فللحج والعمرة من الارتباط الوثيق ما ليس لغيرها من العبادات، فهذا الذي أوجب استغراب هذه المسائل التي لا نظير لها، بل تخالف نظائرها. ومنها لو أراد المحرم الخروج من إحرامه قبل الفراغ من نسكه بدون عذر حصرٍ أو نحوه، لم يتمكن من ذلك، وفسخه غير معتبر وغير مبطل للنسك لما ذكرنا من لزوم إتمام فرضها ونفلها، وعدم قبول النسك لشيء آخر، والله أعلم.

ومن المسائل الغريبة على ما فيها من الخلاف: مسألة منع الرجل من الماء الذي خلت به المرأة لطهارة الحدث دون الخبث، فهي غريبة من عدة وجوه، والقائلون بها لا يعللون ذلك بل يقولون: إن هذا تعبُّديٌّ، لأنهم لا يشاهدون لها

تعليلاً وجيهاً، وأما الذين يرون ضعفها، فتخرج المسألة عندهم من هذا الباب، وهو الصواب لأدلة كثيرة مذكورة في غير هذا الموضع.

ومن المسائل الغريبة: أن المسبوق في الصلاة إذا زاد إمامه ركعة سهواً لا يعتدُّ بها المسبوق، بل يأتي بركعة غيرها، ويقولون: إذ لغت في حق الإمام لغت في حقه، وهذا تعليل فيه ضعف كثير، فإن الإمام إنما لغت في حقه، لكونها وقعت موصوفة بصفتي السهو والزيادة على ما يجب عليه. أما المأموم، فلا وجه لإلغائها إذا كان مسبوقاً بركعة فأكثر، لأنها أصلية في حقه لا زائدة، وأيضاً فإنه وقع الإجماع على أنه من زاد في فريضة ركعة واحدة متعمداً، فصلاته باطلة، ولم يستثن من هذا العموم صورة واحدة، فَلِم خرجت هذه الصورة عن هذا العموم!؟ وعدم اعتبارها في حق الإمام لا يوجب خروجها، والله أعلم. ومن الغرائب أيضاً بعض عيوب الأضاحي عند القائلين بها مثل العضباء التي ذهب أكثر أذنها أو قرنها، والعصماء التي انكسر غلاف قرنها دون أن يحدث مرضاً أو جرحاً ونحوهما، فإن هذا مخالف للمعهود والمعقول من العيوب الضارة، وهي المريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البين عرجها، والعوراء البين عورها، والهزيلة التي لا مخ فيها، وما كان مثلها وأولى منها وكذلك العيوب في البيع والمعاوضات وهو ما نقص قيمة العوض أو المعوض وهذا معقول وكذلك عيوب الرقبة في الكفارة، وهو عيب واحد، وهو كل عيب يضر بالعمل ضرراً بيّناً، فكل هذا ما ينافي المقصود. وأما بعض عيوب الأضاحي المذكورة، فعند القائلين به يقولون: تعبديٌّ لأن فقدها لا يضر باللحم ولا بالقيمة لغير هذا الغرض، وأما من يقول: تجزىء وليست من العيوب المانعة، وإنما هي من الكماليات، كما هو القول القوي، فيزول هذا الاستغراب. ونظير ذلك العيوب في النكاح عينوا منها عدة أشياء، ونفوا منها عيوباً في الحقيقة هي مثلها، أو ربما كانت أعظم منها، فيعد هذا النفي من غرائب العلم عند القائلين به، مثل العمى والصمم، وقطع اليدين والرجلين والخرس، وحيث إن القول ضعيف، لا يجيب القائلون به إلا بجواب ضعيف،

وأما على القول الصحيح وهو أن هذه الأمور من العيوب للفسخ والخيار، فيزول هذا الاستغراب، لأن العيب الحقيقي ما نقص المعقود عليه، وما منع حصول المقصود كله أو بعضه، فإذا طردنا هذا، ولم نستثن شيئاً، كنا أخذنا بما هو معقول مستحسن عرفاً وشرعاً والله أعلم. ومن غرائب العلم الصحيحة أمور اختص بها النكاح لأسباب قد ذكرناها في السؤال والجواب، وهي أحكام متعددة.

ومن غرائب العلم عند القائلين به أن صلاة المأموم تبطل ببطلان صلاة إمامه، مع أنه إذا لم يعلم بالبطلان إلا بعد الصلاة أعاد الإمام، ولم يعد المأموم، ووجه الاستغراب أن الأصل الشرعي الفقهي أن كل مُصلٍّ لا تبطل صلاته إلا إذا ترك بعض الشروط أو الأركان أو الواجبات لغير عذر، أو فعل بعض المبطلات، وهذه المسألة عند القائلين بها، أبطلت صلاة المأموم بأمر خارج عن فعله وعمده، بل ببطلان صلاة إمامه، ويعللون هذا بأن صلاة المأموم مرتبطة بصلاة إمامه، فإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم، والصواب القول الآخر أنها لا تبطل، فعلى هذا القول الصحيح لا تصير من الغرائب، بل هي جارية على الأصل، والعبادة لا تبطل إلا بالأشياء التي أبطلها الشارع، وهذه ليست منها، ولهذا من لم يعلم إلا بعد الصلاة، فصلاة المأموم صحيحة، والارتباط الذي عللوا به إنما هو: وجوب المتابعة لا غير. وأما بقية الأحكام، فكل مُصلٍّ له ما كسب، وعليه ما اكتسب، ومنها بعض مسائل الاستبراء، فإن الاستبراء الغرض منه معرفة براءة الرحم من ولد الغير لئلا تختلط المياه، وتشتبه الأنساب، وذلك عند الشك في اشتغال الرحم معقول، وأما عند اليقين ببراءة الرحم كإذا ملك الأمة من امرأة أو صبي أو ممن يعلم أنه استبرأها، فإيجاب الاستبراء غريبٌ، ولكن يعللون ذلك بالتعبد تارة، وبالاحتياط وسد الذريعة تارة أخرى، وطريق الاحتياط مطلوب شرعاً وعرفاً، ومن العلماء من قال: إنه في هذه المسائل التي يعلم يقيناً براءة الرحم بها لا يجب استبراء، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. فعلى قولهم لا غرابة في هذه المسائل. وأما مسائل العدد،

فليس فيها شيءٌ غريب، لأنه ليس فيها علة واحدة، وهي طلب براءة الرحم، بل لها عدة علل، إذا فقد بعضها، فالبقية موجودة، فإنه يقصد منها براءة الرحم، وأداء حق الزوج أو الزوجة، وتطويل العدة للتمكن من الرجعة، ولجريان النفقة، وللاحتياط للولد، ولغير ذلك من الحكم الظاهرة للمتأمِّل؛ والله أعلم. ومن ذلك انتقاض وضوء الماسح على الخفين بتمام المدة، وبخلع الممسوح عند القائلين به، فإنها من النواقض الغريبة، لأنه لم يحصل شيء من نواقض الوضوء لا حدث ولا ما هو مظنة الحدث لكنهم يعللون بأن المسح ضرورة ولا يجتمع مع الغسل، وهي علة ضعيفة، ومن قال: لا ينقض الوضوء بالخلع، ولا بتمام المدة، فقوله أصحُّ، ولم يأت دليل شرعي يدل على النقض بهما، والأصل عدم النقض، وهذا القول هو الصواب، وبه تخرج المسألة عن الاستغراب، ولنقتصر من هذه الفائدة على هذه الأمثلة التي يحصل بها التوضيح وفتح هذا الباب. والله الموفق.

# القسم الثاني

# فيما يتعلق بفروع الدين

# كتاب الطهارة

**س ١ ـ ما مرادهم بكراهة الماء المستعمل؟**

ج ـ مرادهم: أن الماء المستعمل في طهارة مستحبة، مكروه كراهة تنزيه.

**س ٢ ـ ما حكم الماء المستعمل في طهارة مستحبة؟ وما حكم الوضوء والتيمم قبل الاستجمار والاستنجاء إذا كان جاهلاً؟**

ج ـ حكمه عند الفقهاء، مكروه كراهة تنزيه، وكل ما ذكروا أنه مكروه، فهو كراهة تنزيه، وكل مكروه مع الحاجة إليه، تزول منه الكراهة.

وأمَّا قولهم: «ولا يصحُّ قبل الاستنجاء والاستجمار وُضوءُ ولا تيمم»، فلا فرق في ذلك بين المتعمد والجاهل والناسي، لأن ذلك من شروط الوضوء، والشروط كلها لا تسقط بتركها عمداً ولا سهواً ولا جهلاً.

**س ٣ ـ يقول الشيخ عبد الله أبا بطين: «إذا لم ينو بغمس يده ارتفاع الحدث ولا مجرد الاغتراف، فالماء باقٍ على طهوريته في الطهارة الصغرى دون الكبرى» ما وجه التفريق؟ وهل هو موافق لكلام الأصحاب؟**

ج ـ كلام الشيخ عبد الله أبا بطين ـ في هذا المقام ـ من أحسن كلام يوجد، لأنه فصَّل فيه حاصل ما ذكره الأصحاب. من التفريعات في اغتراف المتوضِّىء والمغتسل من الحدث الأكبر من الماء القليل، فإنه ذكر ثلاث صور محيطة بكل ما ذكره الأصحاب.

إحداها: إذا نوى مجرد الاغتراف في غمس يده، فإنه لا يضر الماء شيئاً في الطهارة الكبرى والصغرى.

الثانية: إذا نوى بغمس يده رفع الحدث عنها، فإنه يضر في الطهارة الكبرى والصغرى.

الثالثة: لَمْ ينوِ هذا ولاَ هذا؛ أي: لا نوى رفع الحدث عن اليدين، ولا نوى أنه لمجرد الاغتراف، فهذا يضر في الطهارة الكبرى، ويَجعل الماءَ مستعملاً في رفع الحدث، ولا يضر في الصغرى، وهذا التفصيل مفهوم من كلام الأصحاب، لكن له ـ رحمه الله ـ فضيلة جَمْعِها وتفصيلها، وصنيعه هذا من جنس صنيع الشيخ عثمان في حاشيته على «المنتهى» في حصر كثير من المسائل وجمعها في موضع واحدٍ.

**س ٤ ـ ما الصحيح في طهارة الرجل بفضل المرأة؟**

ج ـ الخلاف في هذه المسألة مشهور، ومذهب جمهور العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد، أنه غير ممنوع للرجل الطهارة بفضل طهور المرأة، سواء خلت به أم لا، وسواء كان لطهارة الحدث أو الخبث، وهو الصحيح، بل الصواب، لحديث اغتساله ﷺ بفضل ميمونة[1]، وهو أصح من حديث النهي عن اغتسال الرجل بفضل طهور المرأة[2] بلا شك، وكثير من أهل العلم لا يرى صحته، فلا تقوم بمثله حجة، ويؤيد هذا القول العمومات في الأمر بالطهارة بالماء من غير قيد، فكل ماءٍ لم تغيره النجاسة، فإنه داخل في العموم، وأيضاً فالله تعالى يقول:

**﴿فلم تجدوا ماءً فتيمموا﴾.**

[سورة النساء: الآية ٤٣ وسورة المائدة: الآية ٦]

---

(١) رواه أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي من حديث الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه.

فلم يبح التيمم حتى يعدم الماء، وهذا يسمى ماءً بلا شك، والشارع لا يمنع من شيءٍ لغير موجب، وهذا الماء كما وصفه النبيُّ ﷺ بقوله: (إن الماء لا يجنب)[1] ولو كان الرجل ممنوعاً من الطهارة بفضل طهور المرأة مع كثرة ذلك ومشقته وعموم البلوى به، لورد فيه من النصوص الصحيحة ما يبين هذا الأمر، فتبيَّن أن هذا القول هو الصواب، أما الرواية الأخرى عن أحمد، وهي المشهورة عند المتأخرين، فمنعوا الرجل من تطهره بما خلت به المرأة لطهارة الحدث، والحديث الذي استدلوا به لا يصلح أن يكون دليلاً على هذه المسألة لضعفه ومخالفته للأدلة، ثم التقييد بطهارة الحدث وحدها لا دليل عليه.

**س ٥ ــ إذا وجد في الماء وَزَغٌ ميِّت وقد توضؤوا منه قبل أن يجدوه، والماء دون القلتين، ولم يتغير إلا الوزغ وحده، فهل يعيدون الصلاة التي صلوها بذلك الوضوء أم لا؟**

ج ــ الصواب: الرواية الأخرى عن الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ التي اختارها جملة من الأصحاب، وهو مذهب مالك ومقتضى الأدلة الشرعية، أن الماء لا ينجس إلا بالتغير بالنجاسة، وما لم يتغير، فهو طاهرٌ، قليلاً كان أو كثيراً.

ثم إذا قلنا على المذهب بتنجس القليل بمجرد الملاقاة، فهذا الماء لم نتيقن أن الوزغ وقع فيه قبل وضوئهم، فلا يجب عليهم شيء.

## باب الاستنجاء

**س ١ ــ ما يفعله بعض الناس إذا أراد أنْ يَستنجيَ مِنْ ساقية أَو بركة أو غيرهما، استطلع منها، فهل هو صوابٌ؟**

ج ــ ليس بصوابٍ وهذا الفعل المذكور، مبني على أن إزالة النجاسة يشترط لها سبع غسلات، ولا تحسب عندهم غسلة حتى يبين المغسول من الماء

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ثم يعيده إليه، وهذا وإن كان هو المشهور في المذهب عند المتأخرين، فإنه في غاية الضعف، فالصواب الذي لا شك فيه أنه متى زالت عين النجاسة بغسلةٍ، أو ثلاث، أو سبع، أو أقل أو أكثر، طهر المحلُّ، وهو ظاهر الأحاديث الآمرة بغسل النجاسة من غير اشتراط عدد، ولم يصح عدد الغسلات إلا في نجاسة الكلب.

وأما الحديث الذي يذكره الفقهاء رحمهم الله، عن ابن عمر «أُمرنا بغسل الأنجاس سبعاً» فهو موضوع لا يثبت به حكم، فعلى هذا إذا استنجى الإنسان من بركة أو غيرها، ونقَّى المحل، كفاه ذلك، ولو لم يرفع نفسه من الماء، وأما النهي عن الغسل في الماء الراكد، فلا يدخل فيه الساقية والبركة التي يخرج منها الماء أو يأتي إليها فإنه جارٍ لا يدخل في النهي، إنما النهي عنه أن يأتيَ الإنسان إلى ماءٍ راكدٍ لا يستمد من غيره، فيغتسل فيه من الجنابة، أو يغسل فيه نجاسته، فهذا الذي ينهى عنه، لأنه يقذره على غيره. والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يكره الكلام وقت الاستنجاء؟**

ج ـ لا يكره ذلك: وإنما يكره وقت قضاء الحاجة، والأولى للإنسان ترك الكلام الذي لا يحتاج إليه وقت انكشاف عورته في كل موضع.

**س ٣ ـ ما حكم الوضوء والتيمم قبل الاستنجاء أو الاستجمار؟**

ج ـ الصحيح ما قالوه: إنه لا يصح قبل الاستنجاء أو الاستجمار وضوء ولا تيمم للعالم والجاهل والناسي، لأن تقدم الاستنجاء شرط لصحة الوضوء.

# حلق اللحى

**س ١ ـ ما حكم حلق اللحية؟**

ج ـ قال رحمه الله من خطبة له[1]: «أمر ﷺ بحلق الشوارب، وإعفاء اللِّحى، وأخبر ﷺ أن حلقَ اللّحى وقصها من هدْيِ المجوس والمشركين، وحذَّر أمته من ذلك؛ فيا عجباً لمن يؤمن بالله ورسوله كيف يزهد في هدْي نبيه وأصحابه والتابعين لهم بإحسانٍ، وَيُقَدِّمُ على ذلك هدْيَ الكفار في حلق اللِّحى؟! لقد أكرم الله الرجال باللِّحى، وجعلها لهم جمالاً ووقاراً، فيا ويح من حلقها وأهانها، لقد عصى ربه جهاراً، أيظن هؤلاء أن حلقها يكسب الرجل بهاءً وجمالاً؟! كلا والله إنه ليشين الوجوه، ويذهب نورها، ويزداد كل وقت إثماً ووبالاً، ولكن الاقتداء الضار يحسِّنُ كل قبيح، ويهجِّن عند أهله كل مليح، أما قال أهل العلم، رحمهم الله: من جنى على لحية غيره فأزالها أو أزال جمالها على وجه لا تعود، فعليه الدية كاملة، أليس ذلك لأنها منفعة كبرى، ومِنَّةٌ من الله شاملة؟! ثم مع ذلك يجني الحالق لها على نفسه، أما ترون وجوه الحالقين لها كيف يذهب بهاؤها ووقارها، لا سيَّما عند المشيب، وتكون وجوههم كوجوه العجائز قد ذهبت محاسنهم وهذا من أعجب العجب!».

# بابُ فرُوْضُ الوُضُوءِ وَصِفَتُهُ

**س ١ ـ ما دواء الوسواس؟**

ج ـ ليس له دواء إلا سؤال الله العافية والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والاجتهاد في دفع الوساوس، وأن يتلهى عنها ولا يجعلها تشغل فكره، فإنه إذا تمادت فيه الوساوس، اشتدت واستحكمت، وإذا حرص على دفعها والتلهي عن الذي يقع في القلب، اضمحلت شيئاً فشيئاً. والله أعلم.

---

(١) هو الشيخ عبد الرحمن السعدي المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ.

# بَابُ المسحِ على الخفين

**س ١ ـ ما حكم المسح على الخف المخرق والمفتوق؟**

ج ـ إذا كان في الخف خرق أو فتق يصف البشرة، فالصحيح جواز المسح عليه، لأنه خف، فيدخل في عموم النصوص، ولأن خفاف الصحابة الظاهر منها أنها لا تخلو من فتق أو شق.

**س ٢ ـ إذا قلنا: التيمم يرفع الحدث، وأراد الإنسان أن يلبس خفيه وهو عادم للماء، فهل يلزمه التيمم عند لبسها؟**

ج ـ إذا عدم الماء، وأراد التيمم وهو قاصد لبس خفيه، فإنه يجوز أن يتيمم قبل لبس الخفين أو بعدهما، وسواء قلنا: إنه مبيح لا رافع، أو رافع للحدث عند جوازه، فلا تعلق للتيمم بلبس الخفين والحالة هذه، لأن التيمم إنما هو في الوجه واليدين، وإذا تيمم فيهما ارتفع الحدث عن البدن كله، ومن جملته عن الرجلين، سواء كانتا في الخفين أم لا، وأما إذا خلعهما وهو متيمم، فلا يبطل تيممه، كما لا يبطل وضوؤه على القول الصحيح: إن خلع الخفين غير مبطل للوضوء كإزالة شعر الرأس، وهو رواية عن أحمد، وأما على المذهب بأن الوضوء ينتقض بخلع الخفين ولو لم يوجد ناقض للوضوء، فلا ينبني عليه القول برفع الحدث بالتيمم، فلا تتصور المسألة على المذهب، والمقصود أنه على القول بأن التيمم رافع للحدث، لا يلزم لبسهما عند إرادة التيمم، ولا ينتقض الوضوء عند خلعهما، والله أعلم.

**س ٣ ـ إذا كان على الرجلين جوربان ونعلان[1]، فأيهما يمسح؟**

ج ـ إذا كان على الرجلين جوربان ونعلان[1]، فإن كان لا يخلع الخفين لا عند النوم ولا عند الصلاة ولا عند غيرها فيمسح على الخفين، وإذا كان يخلع الخفين، فلا يمسح إلا على الجوربين[2]، والحكم يتعلق بها للمقيم يوم

(١) في الأصل: إذا كان على الإنسان شراب وكنادر.

(٢) في الأصل: الشراب.

وليلة عبارة عن أربـع وعشرين ساعة، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن عبارة عن اثنتين وسبعين ساعة.

## باب نواقض الوضوء

**س ١ ـ هل مس الفرج سهواً ينقض الوضوء؟**

ج ـ مس الفرج سهواً ينقض الوضوء، ولا ينقضه على القول الآخر والله أعلم.

**س ٢ ـ هل ينقض الوضوء مس المرأة لشهوة؟**

ج ـ الصحيـح هو المذهب في مس المرأة لشهوة ناقض للوضوء، لأن ذلك مظنة الحدث فهو أولى من النوم والحدث المظنون هو المذي.

**س ٣ ـ هل ينقض الوضوء شحم الجزور؟**

ج ـ أما شحم الجزور، فلا ينقض الوضوء، لأنه ليس بلحم(١).

**س ٤ ـ ما مراد الفقهاء بقولهم: إن الشكوك إذا كثرت تركت؟**

ج ـ إن مرادهم بالكثرة كثرة ذلك عرفاً، فلا اعتبار بالتوالي أو التفريق، فإذا كان الإنسان كثير الشكوك، بحيث إنه قل أن يتوضأ إلا ويحصل معه شك، وقل أن يصلي إلا حصل معه شك، فهذا لا يلتفت إليه، ولو لم يحصل في الوضوء والصلاة إلا مرة واحدة، فإنه يصدق عليه أنه شك كثير، وإنما الشك الذي يعتبر هو النادر القليل الذي يقـع أحياناً، ولا فرق فيما ذكر من الأمرين، بين من هو مشتغل الخاطر وبين من ليس كذلك، لأن الفقهاء لم يفرقوا بين ذلك، وإنما اعتبروا الكثرة أو القلة، والأمور لها أسباب.

---

(١) قال شيخنا في كتابه «المختارات الجلية»: والصحيـح أن جميـع أجزاء الابل كالكرش والقلب والمصران ونحوها ناقض، لأنه داخل في حكمها ولفظها ومعناها، والتفريق بين أجزائها ليس له دليل ولا تعليل، وعلى هذا فيكون له في هذه المسألة قولان.

**س ٥ ــ هل يجوز تحريق أوراق المصحف المتقطعة؟**

ج ــ أوراق المصحف المتقطعة والمصحف المتقطع لا بأس بتحريقها لأن في تحريقها صيانة له، لئلا يمتهن ويلقى في الأرض، والأحسن أن يدفن رماده في محل طاهر زيادة في تعظيم كلام الله.

## باب الغسل

**س ١ ــ ذكروا أن وطء البهيمة يوجب الغسل، ويفسد الحج والصوم، فهل هو وجيه، أم لا؟**

ج ــ في النفس منه شيء، وقياسه على وطء الآدمي، قياس لم تتم أركانه، ولهذا قال ابن شهاب من الأصحاب: إنه لاغسل به، ولا فطر ولا إفساد حج، وهذا القول هو الذي تطمئن له النفس، لأن الأصل عدم الإيجاب والإفساد حتى يأتي من الشرع ما يدل على الوجوب والإفساد. والله أعلم.

**س ــ هل يجوز للجنب أن يؤذن ويستطرق المسجد؟**

ج ــ يجوز له أن يؤذن، ولكن الأولى أن لا يؤذن إلا على طهارة من الحدث الأكبر والأصغر، وللجنب أن يستطرق المسجد استطراقاً، ولا يجوز له أن ينام فيه، ولا يقعد فيه، وكذلك لا يجوز له تلاوة القرآن.

## باب التيمم

**س ١ ــ هل يجب على البدوي الطهارة بالماء إذا وصل البلد؟**

ج ــ إذا وصل البدوي البلد، فيجب عليه الطهارة بالماء، وليس له عذر بقوله: إني مسافر، نعم هو مسافر واجد للماء، فعليه تحصيله ولو بالشراء، فإن لم يفعل، فطهارته بالتيمم غير صحيحة.

**س ٢ ــ إذا كان به جرح لا يصيبه الماء، فماذا يعمل؟**

ج ــ يتيمم له، ويجوز له مس المصحف، كما تجوز له الصلاة.

**س ٣ ــ المجروح إذا توضأ هل يجمع بين التيمم والمسح، أم يكفيه أحدهما، أم يفرق؟**

ج ــ مراتب حكم العضو المغسول ثلاث:

مرتبة وجوب غسله مع القدرة وعدم الضرر، فإن تعذر، مسحه بالماء، وكفاه عن الغسل، ولم يجب عليه تيمم، فإن تعذر الأمران، فآخر المراتب التيمم.

فعلى هذا: متى قدر على مسحه بالماء، وجب المسح، ولم يشرع له مع ذلك تيمم، كما قال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)(١) وقد نص أهل العلم من الأصحاب وغيرهم على ذلك. والله أعلم.

**س ٤ ــ هل هو وجيه أن نقول بترك التيمم على أرض لا غبار عليها إلى التيمم على لبد أو حصير ونحوه مما فيه غبار؟**

ج ــ ليس بوجيه، لأن الله أمرنا أن نتيمم صعيداً طيباً، وهذا عام سواء كان فيه غبار، أم لا، فكيف نعدل عما أمرنا الله تعالى به إلى ما لم يأمرنا به؟! وأيضاً فالنبي ﷺ وأصحابه لم ينقل عنهم أنهم تركوا التيمم على الأرض، وقصدوا التيمم على الثياب والأمتعة ونحوها، وأيضاً فالتعبُّد لله تعالى هو أن نقصد ما أمرنا الله بقصده، من الصعيد الطيب، تقرباً إليه، وامتثالاً لأمره، وأما كونه فيه غبار، أم لا، فلم يذكر في النص، غاية ما فيه قوله:

**﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾**. [سورة المائدة: الآية ٦]

وذلك يصدق على ما فيه غبار، وما لا غبار فيه، وهذا هو الصواب، وهو قول قوي في المذهب، والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

**س ٥ ــ حصر الأصحاب جواز التيمم مع وجود الماء في ثلاث صور: إذا وصل الماء وقد ضاق الوقت، أو علم أن النوبة لا تصل إليه إلا بعد خروج الوقت، أو علمه قريباً وخاف فوت الوقت، فهل ذلك وجيه أم لا؟**

ج ــ اختيار شيخ الإسلام: جواز التيمم إذا خاف فوت الجمعة، أو العيد، أو الجنازة، ومأخذه أن في هذه الصور شبهاً بالصور السابقة، لأن الصور السابقة في فوات الوقت الذي لا ينوب غيره منابه، وهذه في فوات هذه الصلوات التي متى فاتت لا يمكن استدراكها، وهو قوي جداً، وإن كان قوله تعالى:

**﴿فلم تجدوا ماءً﴾**. [سورة النساء: الآية ٤٣ وسورة المائدة: الآية ٦)

يظهر فيه أنه يعم هذه الصور، فإنه أيضاً يعم الصور السابقة، لكنها تستثنى من هذا العموم، لوجوب إدراك الوقت أو الصلاة، فقدم هذا على هذا، وأيضاً، فالطهارة بالماء لها بدل وهو التيمم، بخلاف تفويت الوقت في الصلاة.

**س ٦ ــ قولهم: فاقد الماء والتراب، أو العاجز عنهما، يصلي على حسب حاله ولا يزيد على الواجب في الصلاة، هل هو صحيح؟**

ج ــ أما قولهم: إن فاقد الماء والتراب، أو العاجز عنهما، يصلي ولا يزيد على الواجبات في الصلاة، فهو قول ضعيف، والصحيح أنه كغيره، لأنه في هذه الحال كصاحب الطهارة الكاملة، لقوله تعالى:

**﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**. [سورة التغابن: الآية ١٦]

## باب إزالة النجاسة

**س ١ ــ هل روث «الخفاش» وهو «السحا» نجس، أم لا؟**

ج ــ المذهب أنه نجس، وعند شيخ الإسلام وابن القيم: أنه معفو عنه لكثرة البلوى فيه، وعسر التحرز عنه.

**س ٢ ـ هل دم القلب المحتقن فيه نجس؟**

ج ـ النجس إنما هو الدم المسفوح الخارج من محل مذبح الذبيحة، فأما الذي يبقى في العروق، أو اللحم، أو القلب، ولو كثر وتكاثف، فهو طاهر غير نجس، ولا فرق في بقاء الدم في مقره أو أخذه وانفصاله، فالحكم واحد.

**س ٣ ـ إذا شُقَّ قلب البعير، وسقط الدم منه على شيء، فهل هو نجس يغسل أم طاهر يباح؟**

ج ـ بل هو طاهر يباح أكله، وهو داخل في قول الأصحاب: إن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق من الذبيحة بعد الدم المسفوح طاهر، فيدخل في ذلك دم القلب ولو تكاثر، فيباح أكله، وهو طاهر قولاً واحداً في المذهب.

**س ٤ ـ إذا وقعت العصافير في ماء الاستنجاء، ثم خرجت فانتفضت فأصاب رشاشها شيئاً، فهل يجب غسله؟**

ج ـ هذا متوقف على الحكم بنجاسة ما وقعت فيه، وماء الاستنجاء بمجرده لا يحكم بنجاسته، فإن (الحِسو) مثلاً الذي يستنجي به الناس، أو يبولون ويغسلون فيه، ويجتمع ماؤه إما في حفرة أو حوض نخلة أو نحوها، فإنه محكوم بطهارته ولو كان متغيراً ريحه، فإنه من رائحة الطين المتغير الذي يسمونه (الغربة) لأن النجاسة إذا كانت على الأرض، فالغسلة الواحدة تكفي فيها، وتطهرها، فإذا استنجى منه، أو بال فيه، ثم جاءه الماء، طهره وصار طاهراً، فإذا صار طاهراً، عرف أن ما أصابه لا ينجسه، بل لو مسحه الإنسان فلا ينجسه، وإنما هو مستقذر عند الناس، وليس بنجس، نعم لو كان يجتمع في حفرة فيها «عذرات» أو غيرها، ويتغير الماء بتلك النجاسة، فإنه يكون نجساً، فما أصابه وجب غسله. والله أعلم.

# باب الحيض

**س ١ ــ إذا بلغت المرأة سبعين سنة ودمها على حالته، فهل تجلس؟**

ج ــ المرأة التي قد بلغت السبعين من عمرها، ودمها على حالته ما تنكره، فإنها تجلس فيه، لأن الصواب أن الحيض لا حد لأقل سِنِّه ولا لأكثرها، وحكم هذا الدم حكم الحيض من كل وجه.

**س ٢ ــ إذا تبين حمل المرأة، ثم رأت الدم على العادة، فهل يحكم بأنه حيض؟**

ج ــ المرأة التي تبين لها أنها حامل، ثم رأت الدم على العادة، فالخلاف مشهور، هل تحيض الحامل، أم لا؟ فالمذهب أنها لا تحيض، فيكون ما رأته دم فساد، لا تترك له العبادة، والرواية الثانية عن الإمام أحمد: أنها قد تحيض، وهي الصحيحة، وقد وجد ذلك كثيراً، فيكون على هذا دم حيض، يثبت له جميع أحكام الحيض، وهو الذي نختاره. والله أعلم.

**س ٣ ــ ما الواجب بوطء الحائض؟**

ج ــ يجب على من وطىء الحائض دينار أو نصفه كفّارة، وهو مروي عن ابن عباس، وهو وجيه، لأن الكفّارات كما تكون في الإيمان، تكون في فعل المعاصي رجاء تخفيفها، وهي من تمام التوبة منها.

**س ٤ ــ إذا اضطربت عادة المرأة في الحيض بتقدم أو تأخر، أو زيادة أو نقص، فماذا تفعل؟**

ج ــ أما ما ذكره الحنابلة أنها لا تنتقل إليه حتى يتكرر ذلك، فهو قول ليس العمل عليه، ولم يزل عمل الناس جارياً على القول الصحيح الذي قاله في «الإنصاف»: ولا يسع النساء إلا العمل به، وهو أن المرأة إذا رأت الدم جلست فلم تصل ولم تصم، وإذا رأت الطهر البين، تطهرت واغتسلت وصلت، سواء تقدمت عادتها أو تأخرت، وسواء زادت، مثل أن تكون عادتها خمسة أيام وترى الدم سبعة، فإنها تنتقل إليها من غير تكرار، وهذا هو الذي

عليه عمل نساء الصحابة رضي الله عنهن والتابعين من بعدهم، حتى الذين أدركنا من مشايخنا لا يفتون إلا به، لأن القول الذي ذكروا أنها لا تنتقل إلى ذلك إلا بتكراره ثلاثاً، قول لا دليل عليه، وهو مخالف للدليل، وكذلك على الصحيح أنه لا حد للسن التي تحيض فيها المرأة ولو دون التسع، ولو جاوزت الخمسين سنة، ما دام الدم يأتيها فإنها تجلسه، لأنه الأصل، والاستحاضة عارضة.

**س ٥ ــ إذا أخذ المرأة «الطلق» فذهلت عن الصلاة يومين أو ثلاثة، ولم تصل تلك الأيام، ولم يخرج منها دم، فهل تقضي الصلاة، أم لا؟**

ج ــ نعم تقضي، لأن الذهول من مرض أو ألم أو نحوهما لا يسقط وجوب الصلاة، ولم يخرج منها دم ليكون نفاساً.

**س ٦ ــ إذا اغتسلت من نفاسها، ثم رجع الدم عليها بعد الأربعين، وهي تعرف أنه دم نفاس، فماذا تفعل؟**

ج ــ الذي نرى أنها تجلس فيه، ولا تصوم ولا تصلي، لأن الصحيح أن النفاس لا حدَّ له، والمذكورة ليست مستحاضة، فإذا كان دماً واضحاً ليس فيه كدرة ولا صفرة، فهي تجلس فيه، وحكمه حكم النفاس.

**س ٧ ــ قول الأصحاب في النفساء: فإن عاودها الدم، فمشكوك فيه، هل هو وجيه، أم لا؟**

ج ــ ليس بوجيه، فالصواب أنه إذا عاودها فيه، فهو نفاس لا شك فيه، يثبت له أحكام النفاس كلها، وما الفرق بين قولهم في الحيض: من لها مثلاً عادة حيض عشرة أيام، ثم حاضت خمسة أيام، وانقطع عنها ثلاثة أيام، وعاد عليها في بقية العشرة: أنه حيض لا شك فيه، فهذه نظيرها من كل وجه، مع أن إثبات الحكم الذي ذكروا أنها تصوم وتصلي وتقضي الواجب، مخالف لما هو المعروف من الشرع، وإن الشارع لم يوجب على أحد العبادة مرتين، إلا لتقصيره وتفريطه فيما وجب فيها من الشروط والواجبات، وهذه وشبهها لا تقصير فيها، فلا يمكن أن تضاف إلى الشرع، وهذا القول الذي صححناه

هو أحد القولين للأصحاب رحمهم الله وجزاهم عنّا وعن المسلمين أفضل الجزاء.

**س ٨ ــ إذا تعورت الحامل، ولم يعلم هل سقط الولد وهي تحيض وقد شربت دواء أزال عنها العوار، فما الحكم؟**

ج ــ إذا علم حملها، فلا بد من اليقين أنه ليس في بطنها شيء، إما بسقوط الولد، وإما بمضي مدة طويلة يتيقن أنه ليس فيها حمل، ومن العلماء من قال: أربع سنين، وهو المذهب، ومنهم من قال: لا بد من اليقين أربع سنين أو أقل أو أكثر وهو الصحيح. والله أعلم.

**س ٩ ــ إذا تعورت الحامل، وخرج منها دم كثير، ولم يسقط الولد، فما حكم هذا الدم؟**

ج ــ هذا الدم دم فساد، لا تترك الصلاة لأجله بل تصلي ولو كان الدم يجري، ولا إعادة عليها، ولكنها تتوضأ لكل وقت صلاة والله أعلم.

**س ١٠ ــ إذا طهرت النفساء، وصامت قبل الأربعين، فهل يصح صيامها؟**

ج ــ صيامها تام، لأنه إذا حصل الطهر ولو قبل الأربعين، صارت في حكم الطاهرات من كل وجه.

**س ١١ ــ إذا رأت النفساء الدم قبل الولادة بأكثر من ثلاثة أيام، فما حكمه؟**

ج ــ صريح كلام الفقهاء رحمهم الله، أن ما رأته النفساء قبل الولادة بأكثر من ثلاثة أيام، فهو دم فساد لا يثبت له حكم النفاس، ولو مع وجود الأمارة وفي هذا نظر، فإن مبنى كلامهم يرجع إلى ما عرف واعتيد، وليس تحديد الثلاثة منصوصاً عليه، لا شرعاً ولا عرفاً، بل إذا نظرت إلى حد النفاس، وأنه الدم الخارج بسبب الولادة المحتبس في مدة الحمل، عرفت أن مقدمات الولادة قد تزيد على ثلاثة أيام، كما هو الواقع، فالرجوع إلى الحد الذي ذكروه للنفاس وإلى العرف أولى من التقييد بما لا دليل عليه. والله أعلم.

# كتاب الصلاة

**س ١ ـ هل تسقط الصلاة عن الهرم إذا خرف؟**

ج ـ نعم تسقط عنه، لقوله ﷺ: (رفع القلم عن ثلاثة، عن المجنون حتى يفيق..) إلخ.

والمجنون حيث أطلق في عرف الفقهاء: من عدم عقله بجنون أو بله أو خرف أو نحوها، فلو ترك المخرف الصلاة، فلا حرج عليه، ولا على من يتولاه، ولا تقضى عنه الصلاة إذا مات.

وأما من اشتد به المرض، فتجب عليه الصلاة على حسب حاله ولو بطرفه ولو بقلبه، ولا يحل له أن يترك الصلاة وعقله ثابت، فإن مات في هذه الحال، وعليه عدة أوقات، فلا تقضى عنه، وكذلك إذا استبد به المرض وزال شعوره من شدة المرض ومات، فلا يقضى عنه، والله أعلم.

**س ٢ ـ عن تفاضل بعض الأعمال على بعض؟**

ج ـ الأفضل الجمع بين الصلاة وقراءة القرآن لمن يقوم الليل، إلا إن كان إذا صلى غلب عليه النعاس، وإذا قرأ كان أنشط له، فالعمل المفضول قد يعرض له ما يصيِّره أفضل من الفاضل، بحسب مصلحته، وأما صلاة التراويح، فإن حصل عشر يَحصل فيهن طمأنينة وسكون فهي أكمل، وإن كان يخاف فيها من العجلة المفرطة، فالخمس التي فيها طمأنينة وسكون أولى، وتأخير الوتر آخر

الليل أفضل، لعموم الحديث الصحيح، حتى لو صلى التراويح مع الجماعة، فالأفضل أن يجعل وتره آخر صلاته إلا الإمام الذي يصلي بالناس، فيوتر بهم وتحصل له نيته.

س ٣ ــ ما الذي تكفره الصلاة من الذنوب؟

ج ــ قوله ﷺ في حديث عثمان الذي في «صحيح مسلم»: (ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله) فيه أن كمال العبادة، بتكميل وسائلها وأفعالها الظاهرة، والخشوع الباطن الذي هو مقام الإحسان وأن النقص يحصل بالإخلال بواحدة من هذه الثلاث، أو اثنتين، أو كلها، وعلى الصلاة قس جميع العبادات، واجتهد في إتقان طرقها ووسائلها، وفي تحقيق الخشوع والمراقبة فيها، مع الاجتهاد والإتيان بكل قول أو فعل واجب أو مستحب. والله المعين والموفق.

## باب الأذان

س ١ ــ ما حكم الرواتب التي تجعل للإمام والمؤذن، وهل تحل للغني؟

ج ــ أما الرواتب التي تجعل على المساجد لإمامها أو مؤذنها أو نحوهما، فهي من باب الجعالة إذا قام الإنسان بوظيفته، حلت له غنيًّا كان أو فقيراً.

س ٢ ــ إذا ترك المؤذن شيئاً من جمل الأذان، فما الحكم؟

ج ــ إذا ترك المؤذن من جمل الأذان شيئاً، أعاده وما بعده مع قصر الفصل، ومع طول الفصل لا يعيده[١] والله أعلم.

---

(١) لعل مراده: إذا كان غيره قد أذن وحصلت به الكفاية، وإلا وجب عليه إعادة الأذان من أوله. والله أعلم.

**س ٣ ـ هل يجيب المؤذن وهو في الصلاة؟**

ج ـ قال الشيخ تقي الدين: يجيب المؤذن وهو في الصلاة، ووجه ذلك أن العمومات تؤيده، وهذا الذي نختاره.

## باب شروط الصلاة

**س ١ ـ إذا أدرك من وقت العصر أو العشاء ركعة، فهل تلزمه أيضاً صلاة الظهر والمغرب؟**

ج ـ الصحيح أنه إذا أدرك من العصر ركعة، أو من وقت العشاء ركعة، فإنه تلزمه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، كما ورد به الأثر.

**س ٢ ـ هل يجوز تأخير الصلاة عن وقتها لاشتغاله في مهمة للحكومة؟**

ج ـ في أي مهمة كان الإنسان لا يحل له أن يؤخر صلاة الفريضة عن وقتها، بأي حالة تكون إلا إذا كان مريضاً أو مسافراً يجمع الوقت إلى الوقت الذي بعده.

**س ٣ ـ قولهم: يحرم استعمال منسوج أو مموه بذهب أو فضة على الرجال، فهل الأمران على السواء؟**

ج ـ فيه قول آخر في المذهب، وهو التفريق بين الذهب والفضة، وأن المنسوج والمموَّه بالفضة جائز للرجال، وقد اختاره شيخ الإسلام رحمه الله، وأنا لم يتضح لي أي القولين أرجح، وإذا لم يتضح للإنسان رجحان أحد القولين بدليل بَيِّن، فسلوك طريق الاحتياط أولى، مع أن المموه أخف حالاً من المنسوج، مثل المشالح المستعملة الآن مموَّهة بالفضة، فالظاهر إن شاء الله أنه لا بأس بها، لأن التحريم يحتاج إلى دليل ظاهر بَيِّن، والله أعلم.

**س ٤ ـ أباح الأصحاب ما استوى فيه الحرير وغيره ظاهراً، فهل هو وجيه، أم لا؟**

ج ـ ليس بوجيه، بل الصحيح الرواية الأخرى عن الإمام أحمد، أن ما استوى فيه الحرير وغيره محرم، وهو الثياب القسية التي ثبت عن النبي ﷺ

النهي عنها، وهي ثياب فيها خطوط حرير، وخطوط قطن ونحوه، فالصواب تحريم ذلك.

**س ٥ ــ قول الأصحاب: ويباح العلم من الحرير إذا كان أربع أصابع فما دون، هل مرادهم طولاً وعرضاً، أم عرضاً فقط؟**

ج ــ مرادهم بذلك العرض فقط، وأنه لو كان علماً من أعلى الثوب، كالقباء ونحوه إلى أسفله، وهو من الأربع الأصابع فما دون، أنه يجوز، وإلا فلو كان الطول مرادهم، لكان الشيء اليسير الذي أقل من أصبع عرضه، وطوله أطول من أربع، لا يجوز على هذا الاحتمال، ولكنه ليس مرادهم، بدليل أنهم أجازوا الثوب الذي فيه خط حرير، وخط قطن، والقطن لا يزيد على نصف ظاهر الثوب، وكما أنه مراد الأصحاب، فهو ظاهر النص، فإنه أباح ما هو أصبعين أو ثلاثة أو أربعة، وذلك راجع إلى العرف، والعرف أن هذا التقدير لعرضه، لا لطوله، والله أعلم.

**س ٦ ــ إذا صلى في ثوب مغصوب جاهلاً، فهل يعيد؟**

ج ــ لا يعيد من صلى في الثوب المغصوب ناسياً أو جاهلاً، كما نصوا عليه، وهو المذهب، وإنما يعيد ويأثم إذا صلى به عالماً ذاكراً، والله أعلم.

**س ٧ ــ إذا صلى وهو جنب ناسياً، فهل يعيد الصلاة؟**

ج ــ نعم عليه الإعادة بالاتفاق، بخلاف من صلى وعليه نجاسة، فإن فيها خلافاً، والمشهور الإعادة، والصحيح عدم الإعادة إذا لم يكن عالماً متعمداً.

**س ٨ ــ إذا صلى ناسياً أو جاهلاً وعلى بدنه أو ثوبه نجاسة، فهل يعيد؟**

ج ــ إذا جهل النجاسة على ثوبه وبدنه، أو نسيها، فالصحيح: لا إعادة عليه، لأن النبي ﷺ خلع نعليه لما أخبره جبريل في الصلاة أن بهما قذىً وبنى ولم يعد.

**س ٩ ــ ما حكم الصلاة في المواضع المنهي عنها، كالمقبرة ونحوها، مع الجهل؟**

ج ــ الصلاة في المواضع المنهي عنها كالمقبرة ونحوها، إذا صلى فيها جاهلاً، فالمشهور من المذهب معروف، وأن عليه الإعادة. وعنه: لا إعادة على الجاهل لها، أو الجاهل بحكمها، وهو قول جمهور العلماء، وهو الصحيح، وهو قياس المذهب في الصلاة في الثوب المغصوب.

## باب صفة الصلاة

**س ١ ــ هل يجوز تنويع الاستفتاح؟**

ج ــ الاستفتاح يجوز بكل ما صح عن النبي ﷺ في الفرض والنفل، وإذا كان الإنسان يحفظ عدة استفتاحات، فالأولى أنه ينوع فيها، تارة يستفتح بنوع منها، وتارة بالنوع الآخر.

**س ٢ ــ هل تشرع الاستعاذة في كل ركعة؟**

ج ــ الاستعاذة لا تشرع إلا في أول ركعة، لأن القراءة في جميع الركعات كأنها قراءة واحدة، فإذا استعاذ في أولها، اكتفى عن إعادتها، ومع ذلك لو أعاد الاستعاذة، فلا بأس، ولكن إذا أعادها، فمحلها قبل قراءة الفاتحة، لا بعدها.

**س ٣ ــ قولهم: من ترك من الفاتحة حرفاً أو تشديدة أو ترتيباً، لزم غير مأموم إعادتها إن تعمد؟**

ج ــ هذه العبارة من كلامهم فيها إشكال، مقتضاها أنه إذا لم يتعمد، لا يعيدها، وهو غير صحيح، فإن التارك لذلك مرتب على ترك الفاتحة، ومن تركها لم يؤد ركن القراءة وهي ظاهرة في عودها إلى الصور الثلاث، لأن كل شرط عطف عليه شيء أو أشياء، ثم صار الجواب واحداً، عاد إلى الجميع، لكن الأولى حمل هذه العبارة على من ترك شيئاً من ذلك ففاتت الموالاة بين قراءة أجزاء الفاتحة، فإنه يعيدها استدراكاً للواجب، فإن لم تفت الموالاة، أعاد المتروك وما بعده فقط. هذا الذي يظهر لي من عبارتهم هذه تنزيلاً لها على ما هو

معروف من المذهب، مع أن حمل لفظها على ما ذكرت فيه قلق. والله أعلم.

**س ٤ ــ ما المشروع في تكبيرات الانتقال ابتداءً وانتهاءً؟**

ج ــ المشروع في التكبير للانتقالات، ما بين الابتداء والانتهاء. فلو خالف ذلك، لم يجزه التكبير على المذهب، وعلى ما رجحه «المجد» وغيره: أَن ذلك معفو عنه، وهو الذي لا يسع الناس غيره.

**س ٥ ــ قوله في «شرح الزاد» في تكبيرات الانتقال: ومحلها بين ابتداءٍ وانتهاء، فلو شرع قبل، أو كمله بعد، لم يجزئه، ما مأخذه؟ وهل هو صواب، أم لا؟**

ج ــ أما مأخذه، فإن هذا الذكر مشروع في الأصل بين الأركان، ونفس الأركان مختصة بأذكارها المشروعة فيها، وهذه التكبيرات شعار وعلامة للانتقال من ركن إلى ركن، فهذا مأخذهم رحمهم الله، ولكن الصواب ما ذكره «المجد» وغيره: أن هذا هو الأَولى، وأنه لا يجب لعسر التحرُّز من ذلك، وأنه لو ابتدأ فيه قبل، أو كمله بعد، أنه يُعْتَدُّ لَهُ به، ومأخذ هذا القول الصحيح، المشقة، والعسر، وأيضاً المقصود حصل، والشعار وقع، ولو كان ما ذكروه شرطاً، لبينه الشارع مع شدة الحاجة إِليه، والله أعلم.

**س ٦ ــ ما حكم جلسة الاستراحة؟**

ج ــ فيها ثلاثة أقوال في المذهب: الكراهة، والاستحباب للحاجة، واستحباب تركها إذا لم يكن حاجة، وهو أصح الأَقوال، ولكن على الأقوال الثلاثة، لا تحرم، ولا تبطل الصلاة، والمراد بجلسة الاستراحة: جلسة خفيفة جداً بعد القيام من السجود للقيام لتتراكب الأعضاء، ويحصل نوع استراحة يستعد بها للقيام، هذه هي جلسة الاستراحة، وأما الذي يطيل الجلوس بعد السجود، ويزيد على جلسة الاستراحة في فريضة، فهذا لا يحل له، لأنه يترك القيام الذي هو ركن في الفرض.

**س ٧ ــ إذا رفع بعض أعضاء السجود عن الأرض، فهل تبطل صلاته؟**

ج ــ إن كانت رجله مرفوعة من ابتداء السجدة إلى آخرها، لم تصح

صلاته، لأنه ترك وضع بعض أعضاء الصلاة، وليس له عذر، وإن كان قد وضعها بالأرض في نفس السجدة، ثم رفعها وهو في السجدة، فقد أدى الركن، لكنه لا ينبغي له ذلك.

**س ٨ ـ قولهم: وإن عجز عن السجود بالجبهة، لم يلزمه بغيرها، هل هو وجيه؟**

ج ـ ليس بوجيه، بل يسجد على بقية الأعضاء التي يقدر عليها، وهو الموافق للقاعدة الشرعية: أن من وجب عليه عدة أشياء، وعجز عن بعضها، أنه يسقط عنه المعجوز عنه، ويأتي بما يقدر عليه، لأن جميعها مقصودة، وهو وجه للأصحاب.

**س ٩ ـ ما حكم الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة؟**

ج ـ الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة ركن، كما نصوا عليه.

**س ١٠ ـ إذا دعا بشيء من ملاذ الدنيا، فهل تبطل صلاته؟**

ج ـ إذا دعا بشيء من ملاذ الدنيا المحضة في الصلاة، فقال الأصحاب: تبطل صلاته، والقول الآخر: لا تبطل وهو الذي يدل عليه الدليل.

**س ١١ ـ ما حكم التسليمتين؟**

ج ـ التسليمتان ركن لا تصح الصلاة إلا بهما، فلا تسقطان سهواً ولا عمداً ولا جهلاً، كسائر الأركان.

**س ١٢ ـ ما حكم الصلاة إلى النار والمرأة التي تصلي؟**

ج ـ تكره صلاته إلى نار كقنديل، وشمعة، للتشبه بعُبَّاد النار، وكذلك إلى امرأة تصلي بين يديه، لما يخاف من الفتنة واشتغال القلب.

**س ١٣ ـ ما حكم الصلاة وأمامك سراج؟**

ج ـ الأولى رفع السراج عن قبلة المصلين. والله أعلم.

**س ١٤ ـ ما الذي يقطع الصلاة بمروره؟**

ج ـ على المذهب: لا يقطع الصلاة سوى الكلب الأسود البهيم، وعلى

الرواية الثانية الصحيحة: يقطعها الكلب الأسود، والحمار، والمرأة.

وحديث أبـي ذر، أصل في هذا، وهو حديث صحيـح[1]، وأما حديث أبـي سعيد[2] فهو باق على الأصل منسوخ بحديث أبـي ذر، والمثبت مقدم على النافي، فعلى هذا يجب أن يحترز النساء من مرور بعضهن بقبلة بعض إذا كن منفردات، فإن كن مـع الإمام فقد ذكروا: أن قبلة الإمام قبلة لمن خلفه فلا يقطـع الصلاة مرور بعضهن على بعض، ولكنه محرم منهي عنه، ويتدرجن بذلك إلى المرور حتى ولو كن مـع الإمام[3]، وإذا صلين جماعة أو مـع الرجال، فالمشروع أن يصففن كما يصف الرجال، ولا يصرن زمراً كعوائدهن الموجودة، فالموفق يحتسب ويعلمهن السنة والأمر المشروع، ليكون ذلك في موازينه، ويعلِّم بعضهن بعضاً.

**س ١٥ ــ ما حكم السلام على المصلي، وكيف يرده؟**

ج ــ قوله: وله رد السلام إشارة، يعني يجور فلا يجب ولا يستحب، مـع أن المسلم لا ينبغي له السلام على المصلي.

**س ١٦ ــ قوله: وله السؤال عند آية رحمة والتعوذ عند آية عذاب ولو في فرض، ما حجة من منعه في الفرض، وهل للمأموم إذا قرأ إمامه أن يسأل ويتعوذ؟**

ج ــ ليس لمانـع ذلك في الفرض حجة، لأنه من القواعد المقررة: ما ثبت في النفل ثبت في الفرض، وبالعكس، إلا ما دل الدليل على الخصوصية، وهذا الحكم لم يدل دليل على خصوصيته في النفل، فالصواب أن الفرض والنفل سواء، لكن المأموم مأمور بالإنصات لقراءة إمـامه، فـإن أشغله ذلك عن الإنصات، كره له، وإن لم يشغله، بل أعانه على تدبُّر قراءة إمامه ولم يشغل من كان معه، لم يكره له بل يستحب. والله أعلم.

---

(١) وهو أنه يقطـع صلاته الحمار، والمرأة، والكلب الأسود، رواه مسلم وأصحاب السنن.

(٢) وهو أنه لا يقطـع الصلاة شيء، رواه أبو داود، وهو حديث حسن.

(٣) لعله: مـع غير الإمام.

# باب سجود السهو

**س ١ ـ ما معنى قولهم: ولا من فارقه للعذر[1]؟**

ج ـ يعني لأنه معذور، لَأنه إذا قام الإمام لركعة زائدة، فالمأموم إذا لم يلحقه، فهو معذور، لأنه تخلف عن شيء يبطل الصلاة فعله، وهو الواجب عليه.

**س ٢ ـ إذا قام إلى ثالثة في التراويح، فماذا يفعل؟**

ج ـ إذا قام لثالثة سهواً، فيلزمه العود، فيرجع، ويجب عليه سجود السهو، ولا يكملها أربعاً، لأن المتنقل ليلاً إذا قام لثالثة يتعين عليه الرجوع، بخلاف المتنفل نهاراً، فإنه يخيَّر. والله أعلم.

**س ٣ ـ إذا سلم من ركعتين، ثم استقبل المأمومين وسألهم، وأخبروه أنه ما صلى إلا ركعتين، ثم أتم صلاته وسجد للسهو، فما الحكم؟**

ج ـ صلاته وصلاة المأمومين صحيحة، وهذا هو الواجب عليه، لأنها وقعت من النبي ﷺ مع أصحابه على هذه الصفة، وقام وصلى بهم ما بقي من صلاته، ثم سجد للسهو، وقد تكلم وتكلم الناس، ولكنهم في هذه الحالة معذورون، فهذا الذي نرى، وبعض العلماء رحمهم الله يرون أن في مثل هذه الحال يجب إعادة الصلاة من أولها، ولكنه قول ضعيف، فالقضية التي ذكرت، الصلاة صحيحة في حق الجميع الإمام والمأمومين.

**س ٤ ـ قولهم في السهو: إذا لم يذكر حتى قام، فعليه أن يجلس لينهض إلى الإتيان بما بقي من جلوس، فما حجة ذلك، وهل هو صواب، أم لا؟**

ج ـ إن حجة هذا القول أَن هذا القيام واجب للصلاة، وقد أتى به بنية غير الصلاة، بل نوى الخروج منها بالسلام، ثم قام على وجه العادة، فلما قام ذكر نقص صلاته، فأوجبوا عليه أن يأتيَ بكل ما ترك، ومن جملة ذلك القيام من

---

(١) هذه المسألة فيمن قام إمامه إلى ركعة زائدة ففارقه المأموم العالم بزيادتها فإن صلاته تصح وتبطل صلاة الإمام إذا نبهه ثقتان فأصر ولم يجزم بصواب نفسه.

الثانية أو الثالثة مثلاً إلى باقي صلاته، هذه حجتهم رحمهم الله، ومع ذلك ففي إيجاب ذلك نظر، يدل عليه أن النبي ﷺ لما ترك الركعتين وقام إلى خشبة معروضة في المسجد، وذكَّره الناس، أتى بما بقي من صلاته، ولم يذكر أحد أنه جلس ثم نهض، ولو كان واجباً لفعله، ومما يؤيد هذا أن الانتقالات إلى الأركان مرادة لغيرها إرادة الوسائل، فإذا حصل المقصود، ولم تحصل الوسيلة لعذر، لم يلزم الرجوع إليها، هذا الذي يترجح عندي، والله أعلم.

**س ٥ ـ قال الأصحاب: إذا ترك ركناً من أركان الصلاة، فذكره قبل شروعه في قراءة الركعة التي بعدها، رجع إليه، وبعده تلغو الأولى، وتكون الثانية بدلها، فما وجه كلامهم؟**

ج ـ هذا الذي ذكروه، هو المشهور من المذهب عند المتأخرين، واستدلوا عليه بأن شروعه في القراءة، شروع بركن مقصود، فإذا شرع فيه، سقط الإتيان بما مضى، ووقعت الركعة السابقة لاغية لوجوب الترتيب بين الأركان، هذا حاصل حجة هذا القول، والقول الثاني في المذهب: أنه لا فرق بين الصورتين، وأنه إذا نسي ركناً من أركان الصلاة فذكره، لزمه أن يعود فيأتي به وبما بعده ولو شرع في القراءة، أما إتيانه به، فلأنه تركه فلا يخرج من العهدة إلا بفعله، وأما ما بعده، فلوجوب الترتيب، فيقع ما بعده لاغياً، لأن من شرطه فعل ما قبله، وسواء ذكر ذلك بعد الشروع في القراءة أو قبله، وهذا القول أصح، وهو الموافق للقواعد الشرعية ولقاعدة المذهب. والتفريق بين الشروع في القراءة أو عدمه، بأن الشروع في القراءة ركن مقصود غير صحيح، فإن جميع أركان الصلاة كلها مقصودة، قيامها وركوعها وسجودها وجلوسها وأقوالها وأفعالها، ثم في كونه بعد الشروع في القراءة تلغى الركعة السابقة، فيه مفسدتان شرعيتان:

إحداهما: إهدار ما وقع صحيحاً مرتباً، وهو ما قبل الركن المتروك، فلأي دليل يهدر، والشارع قد اعتبره؟!

والثانية: زيادة أفعال في الصلاة على وجه العمد وهو القيام، وما بعده إلى الركن المتروك، فمثلاً إذا كان قد ترك السجدة الأخيرة في الركعة الأولى، ولم

يذكرها إلا بعد شروعه في قراءة الثانية، فإنه يلزمنا على هذا أن نلغي قيام الأولى وركعتها، والقيام بعد الركوع والسجود الأول، والقيام منه، والجلوس بين السجدتين، وكله واقـع في محله على وجه الصحة، ثم يعتبر قيام الثانية وما بعده إلى السجدة الثانية منها، وهذا عند التأمل فيه، يجزم بغاية ضعفه، وأن الصواب أن من نسي ركناً فذكره في الصلاة، أنه يأتي به وما بعده مطلقاً، سواء ذكره قبل الشروع في قراءة ما بعدها، أو بعده، وهذا القول هو ظاهر عموم الأدلة في الصلاة خاصة، وفي غيرها مما اعتبر له الترتيب عامة، فإن من ترك ترتيب الوضوء، أو الطواف، أو السعي، أو رمي الجمار أو نحوه، فإنه يأتي بالمتروك وما بعده فقط، ولا يأتي بالفعل الواقـع صحيحاً. والله أعلم.

**س ٦ ـ قولهم: إذا أدرك الإمام في ركعة زائدة، لم يعتد بها، هل هو صحيح؟؟**

ج ـ ليس هو بصحيـح، وإن كان هو المشهور من المذهب مذهب الإمام أحمد عند المتأخرين، لأنه لا دليل عليه، وهو مخالف للدليل، ولهذا قال بعض الأصحاب: إن المسبوق يعتدُّ بإدراكه واقتدائه بإمام زاد ركعة وهو فيها معذور، وهذا القول هو الصواب، لأن القول بأنه لا يعتدُّ بها يقتضي جواز أن يزيد في الصلاة ركعة متعمداً، وذلك مبطل للصلاة بإجماع العلماء، فيقتضي أن يصلي الفجر ثلاثاً، والمغرب أربعاً، والرباعية خمساً، والقول الذي يلزم منه خرق الإجماع ومخالفة الأدلة الشرعية، غير صحيـح، وتعليلهم رحمهم الله أنها لاغية في حق الإمام فتلغو في حق المسبوق، تعليل غير صحيـح، فإنها لاغية في حق الإمام حيث وقعت زائدة لم يتعمدها، فإنه لو تعمدها بطلت صلاته، وأما المسبوق، فإنها أصلية في حقه، فكيف نلغيها ونأمره أن يزيد في صلاته؟! بل نقول: الحكم يدور مـع علته، والإمام معذور بفعلها، لأنه لم يتعمدهـا، والمسبوق صحيحة في حقه، لأنها من صلاته الأصلية. وإذا كان الإمام إذا صلى بالمأمومين وهو محدث ناسياً لحدثه فنقول: لكل منهما حكم، الإمام يعيد، والمأمومون لا يعيدون مـع فساد صلاة الإمام وإلغائها جملة، فكيف مـع إلغاء

بعضها وصحة جميعها نلغي ما اقتدى به المسبوق فيها؟! ثم نقول على أنهى التقادير: إن الركعة الزائدة في حق الإمام إذا اقتدى به المأموم فيها كأنه صلاها منفرداً، وذلك جائز معتبر. والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا تكلم في صلب الصلاة، أو من سلم ناسياً أو جاهلاً، فهل تبطل صلاته؟**

ج ـ إذا تكلم في الصلاة ناسياً أو جاهلاً، أو سلم قبل تمامها ثم تكلم لمصلحتها أو غيره، فالصحيح في هذا كله عدم الإبطال.

**س ٨ ـ هل القهقهة تبطل الصلاة؟**

ج ـ الصواب كما قالوا: إن القهقهة في الصلاة كالكلام تبطلها.

**س ٩ ـ ما هو اللحن المبطل للصلاة وغير المبطل؟**

ج ـ ليس من اللحن شيء يبطل الصلاة، إلا إذا تعمد اللحن المحيل للمعنى، واللحن المحيل للمعنى: هو الذي يتغير فيه المعنى بسبب اللفظ المغير كما مثلوا به كجر كاف «إياك»، وضم تاء «أنعمت» أو كسرها، وأما اللحن الذي لا يغير المعنى، فإنه لا يصير به الإنسان أمياً ولا يبطل الصلاة مطلقاً. والله أعلم.

**س ١٠ ـ ما هو سجود السهو الذي أفضليته قبل السلام، والذي أفضليته بعده؟**

ج ـ أما السجود الذي محل أفضليته بعد السلام، فهو: إذا سلم عن نقص ركعة فأكثر، أو إذا بنى على غالب ظنه حيث قلنا به، وما سوى ذلك من سجود السهو، فمحل أفضليته قبل السلام. والله أعلم.

**س ١١ ـ أبطل الأصحاب الصلاة بتعمد ترك سجود السهو إن كان محله قبل السلام فقط، فهل التفريق وجيه؟**

ج ـ قد ذكر الفرق بين الأمرين، وأن ما كان قبل السلام يلتحق بالواجبات في الصلاة، فتعمد تركه مبطل، كتعمد ترك الواجبات فيها، وأمّا

ما كان بعد السلام، سواء كان محل أفضليته، أو كان قد نسيه قبل السلام ثم ذكره بعدما سلم، فإنهم ألحقوه بالواجبات للصلاة، فيحرم تركه، ولا تبطل الصلاة بالترك المذكور، لكونه خارج الصلاة، كالأذان والإقامة الواجبين لها، يحرم تركهما عمداً، مع صحة الصلاة لو تركهما، وَسِرُّ الفرق، أن ما كان داخلاً فيها من الواجبات، تبطل بتركه عمداً، وما كان خارجاً عنها، لا تبطل بتركه، نبه على هذا الفرق صاحب «الفروع»[1]، وأنا ما زال في نفسي من مسألة سجود السهو شيء، ولم أطمئن لما ذكروه، لأن الشارع أوقف كمال الصلاة على فعله، فهو مكمل للصلاة، إن كانت شفعاً كانتا ترغيماً للشيطان، وإن كان صلى وتراً زائداً، شفعن له صلاته، فهذا هو المقصود العظيم الفائدة، وأن السجدتين نابتا مناب ركعة كاملة بسجدتيها، حيث ذكر النبي ﷺ أنهما يشفعن صلاته، يفوت إذا تركهما متعمداً، فإن كان في المسألة قول آخر، فهو الذي تطمئن إليه النفس، وإلى الآن ما أذكر أني رأيت فيه قولاً غير ما ذكره الأصحاب رحمهم الله، فإن وجدت فيه قولاً لبعض الأصحاب أو غيرهم، ذكرته لجنابك، والله أعلم[2].

**س ١٢ ــ هل على المأموم سجود سهو؟**

ج ــ إذا أدرك الصلاة كلها، فلا سجود عليه للسهو، إلا إذا سها إمامه، فيسجد تبعاً له، فإن كان مسبوقاً، فإذا سها بما أدرك به إمامه أو بما يقضيه، فإن عليه السجود للسهو.

---

(١) هو الإمام ابن مفلح الفقيه المشهور في المذهب، وكتابة «الفروع» يعتبر من أمهات المصادر في مسائل الخلاف.

(٢) أقول: ذكر في «الفروع» و«الإنصاف»: رواية أخرى عن أحمد بأنها تبطل بترك سجود السهو المشروع بعد السلام، قال في «الفروع»: ومن ترك سجود السهو الواجب عمداً، بطلت بما قبل السلام، لا بما بعده على الأصح فيهما، وقال في «الإنصاف» بعد أن قدم المذهب وعنه تبطل، وهو وجه ذكره «المجد» وغيره. اهـ.

**س ١٣ ـ إذا سلم الإمام، ثم قام المسبوق لقضاء ما فاته، فذكر الإمام ومن معه: أنهم سلموا عن نقص، فماذا يصنع هذا المسبوق، هل يستمر في القضاء، أو يرجع ليتابع إمامه؟**

ج ـ يخير هذا المأموم المسبوق بين أن يرجع فيتابع إمامه، وبين أن يستمر في قضاء ما فاته.

## باب صلاة التطوع

**س ١ ـ ما أنواع السنن المتطوع بها؟**

ج ـ اعلم أنه قد تقرر في الشريعة، أن الفرائض أكمل من النوافل في ذاتها وفضلها وكثرة ثوابها، وهذا أمر معلوم من الشرع، ولكن لتعلم أن السنن التي إذا تركها العبد لا إثم عليه نوعان:

نوع: مستقل بنفسه، كنوافل الصلاة، ونوافل الصيام، والصدقة والحج وغيرها.

ونوع: تابع للفرائض غير مستقل بنفسه، فهذا النوع الأخير ينبغي للعبد أن يعتني به اعتناءً عظيماً، كما يعتني بأصل الواجبات، لأنه يكمل الفريضة، ويثاب عليه ثواب الفرض، لأن الفرض اسم للفريضة التي فعلها العبد على وجه أتى فيها بفعل واجباتها وسننها، فسنن صلاة الفريضة مثلاً، القولية والفعلية، ينسحب عليها حكم الفرائض في أحكامها إذا فعلت، وفي أجرها وثوابها، وكذلك سنن صوم الفرض والزكاة والحج وسائر الفرائض، فلهذا على العبد أن يجتهد غاية الاجتهاد في تكميل ما يتعلق بالفرض، من مكملاته وسننه، لتتم له مقاصد تلك العبادة كلها، من زيادة الإيمان، وتكفير السيئات، وزيادة الحسنات، ورفع الدرجات، وزيادة الخيرات، وذلك داخل في المسابقة إلى الخيرات، وداخل في الإحسان في عبادة الخالق. قال تعالى:

**﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾**

[سورة هود: الآية ٧ وسورة المُلك (تبارك): الآية ٢]

فتحسين الفرائض: هو الإتيان فيها بكل واجب ومسنون، ظاهري وباطني، قولي أو فعلي، والله المعين الموفق لذلك.

**س ٢ ـ متى يدخل وقت الوتر؟**

ج ـ الصحيح ما قاله الأصحاب، أن وقت الوتر يدخل بصلاة العشاء الآخرة ولو جمعت مع المغرب تقديماً، لعموم الحديث.

**س ٣ ـ ما محل القنوت المشروع؟**

ج ـ قنوت الوتر بعد الركوع مستحب، وقبل الركوع جائز.

**س ٤ ـ إذا صلى ركعتي الفجر في بيته، ثم أتى المسجد قبل الإقامة، فهل تشرع له التحية؟**

ج ـ أما على المشهور من المذهب، فلا يجوز، لأن النهي يتعلق بطلوع الفجر، ولا يجوز فيه ذوات الأسباب، وأما الصحيح وهو رواية عن أحمد، فإنه يجوز ذلك لأمرين:

أحدهما: أن الصحيح جواز ذوات الأسباب في أوقات النهي المحققة.

ثانيهما: أن الصحيح من أقوال أهل العلم، أن النهي يتعلق بصلاة الفجر، لأن الأحاديث الصحيحة التي في «الصحيحين» صريحة بذلك. من ذلك حديث أبي سعيد: (لا صلاة بعد صلاة الفجر) واللفظ الآخر: (لا صلاة بعد صلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر)، والأحاديث التي فيها (لا صلاة بعد طلوع الفجر) أحاديث ضعيفة، ومن أهل العلم من قال: إنها موضوعة، وعلى كل حال، فإنها لا تقاوم الأحاديث الصحيحة، ولكن كان من هدي النبي ﷺ أن يصلي ركعتين بعد طلوع الفجر، فإذا لم يكن سبب، فينبغي الاقتصار على ركعتي الفجر، فإن كان سبب، كتحية مسجد، وصلاة وتر ونحوه، فالأولى فعل ذلك ولو بعد طلوع الفجر، والله أعلم.

**س ٥ ـ إذا صلى راتبة الفجر ضحى، فهل تجزئه عن ركعتي الضحى؟**

ج ـ صلاة الضحى من السنن المطلقة غير المقيدة، والسنن المطلقة

لا تدخل في قولهم: إن من دخل المسجد مثلاً وصلى ينوي بها تحية المسجد والراتبة، أن ذلك يجزئه، لأنه اجتمع عبادتان من جنس واحد، فتداخلت أفعالها، ومثله صلاة الطواف، تجزىء عن تحية المسجد، وتجزىء الراتبة عن سنة الوضوء وما أشبهها من المقيدات التي لها سبب،ويزول حكمها بزوال سببها، بخلاف صلاة الضحى، فلا تدخل بذلك، كما لو نوى راتبة العشاء الآخرة، ونوى بها أيضاً قيام الليل، فإنها لا تجزىء عن الأمرين. والله أعلم.

**س ٦ ــ ما حكم تحية المسجد لمن تكرر دخوله؟**

ج ــ تسن تحية المسجد حتى ولو تكرر دخوله.

**س ٧ ــ هل يجب التكبير لسجود التلاوة؟**

ج ــ أما سجود التلاوة إذا فعل خارج الصلاة، فالصحيح أنه لا يجب فيه تكبير ولا تسليم، خلافاً لما هو المعروف من المذهب(١).

**س ٨ ــ ما حكم إحياء ليلة العيد؟**

ج ــ أما إحياؤها بأن يصلي الإنسان وحده، فهذا قد استحبه العلماء وسواء كان سراً أو علناً، وأما إحياؤها في المساجد جماعة بأن تصلى كما تصلى التراويح أو قيام رمضان، فهذا ليس بمشروع بل هو بدعة مكروهة لأن الاجتماع في ليلة من غير ليالي رمضان كليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين من رجب وكذلك ليلة العيد، كل ذلك من البدع التي ينهى عنها.

---

(١) ومن جواب آخر له قال: وأما سجود التلاوة، فإن كان في نفس الصلاة، فحكمه أنه تجب له الطهارة، وأن يكبر حين يسجد، ويكبر حين يقوم، وإذا كان خارج الصلاة، فالمذهب فيه معروف أنه يشترط فيه ما يشترط في صلاة النافلة، والصحيح فيه: أنه لا يشترط فيه الطهارة ولا استقبال القبلة، وليس له تكبير، ولكنه بالطهارة أكمل، وللقبلة أتم، كما قرره البخاري وشيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي جواب آخر له: والذي نختاره: السجود في سجدة سورة (ص) ولو في الصلاة.

**س ٩ ـ قولهم: وإن جاوز اثنتين ليلاً علم العدد أو نسيه، كره وصح، هل هو وجيه أم لا؟**

ج ـ إذا جاوز المصلي ليلاً ركعتين، فهل يكره كراهة، أو يمنع ولا يجوز له الزيادة على ذلك؟ على قولين في المذهب: جروا في موضع من كلامهم على الكراهة فقط، وفي موضع آخر قالوا: وإن قام إلى ثالثة ليلاً، فكما لو قام إلى ثالثة في الفجر، فجروا على المنع، والحديث الصحيح: (صلاة الليل مثنى مثنى)[1] يدل على هذا القول. والله أعلم.

**س ١٠ ـ هل الأفضل القراءة أو استماع العلم النافع؟**

ج ـ الاستماع للعلم النافع والذكر أفضل من اشتغال الإنسان بقراءة أو صلاة نافلة.

## باب صلاة الجماعة

**س ١ ـ ما حكم صلاة الجماعة؟**

ج ـ أصح الأقوال وهو المشهور من المذهب: أن الجماعة فرض عين في المكتوبات على المكلفين من الرجال.

**س ٢ ـ هل تجب الجماعة على العبد؟**

ج ـ المشهور من مذهب الإمام أحمد: أنه ليس عليه جمعة ولا جماعة، وفيه قول آخر: أن عليه جمعة وجماعة وهو الذي نعتقده.

**س ٣ ـ إذا حصل بين جماعة المسجد شحناء، فأراد أحد المتشاحنين أن يترك المسجد ويبني مسجداً خاصاً له في قصره، فما الحكم؟**

ج ـ على ولي الأمر إلزامه بالصلاة في المسجد القديم المعدّ لصلاة الجميع، وأما المسجد الذي بناه في قصره، فهو بمنزلة من بنى في داره مسجداً،

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فإنه لا يحل له أن يترك المسجد الذي تقام فيه الجماعة ويقول: أصلي في مسجد بيتي، فهذا مخالف للشرع.

**س ٤ ــ ما معنى الحديث الصحيح: (إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة)؟**

ج ــ قد ذكر العلماء أنه محمول على ابتداء النفل لمن يريد أن يصلي مع الإمام أنه ممنوع، وأما إتمامه، فلم يجعلوه متناولاً له جمعاً بينه وبيت قوله تعالى:

**﴿ولا تُبطلوا أعمالكم﴾.** [سورة محمد: الآية ٣٣]

وفرقاً بين الابتداء والدوام، فإن الثاني أخف حكماً من الأول.

واعلم أنه يتحرر لنا في هذا الموضع أربع صور، أو خمس:

إحداها: إذا شرع في الإقامة قبل أن يبتدىء النافلة، فهذا لا تنعقد نافلته، وهو أعظم مما دخل في الحديث.

الثانية: إذا شرع فيها ولا يمكنه أن يتمها حتى تفوته الجماعة المذكورة، إما بالسلام، وإما بركعة على أصح القولين، فهذا يجب عليه قطعها قولاً واحداً، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، ولعموم إيجاب الجماعة حتى في هذه الصورة، والابتداء في النافلة لا يسقط الوجوب.

الثالثة: إذا كان شارعاً فيها، ويمكنه أن يسلم منها ويدرك الركعة الأولى، فهذا الأولى له أن يتمها، وهو أعظم مما دخل في كلام الأصحاب وقولهم: إذا شرع فيها أتمها خفيفة.

الرابعة: من شرع فيها، وقد دار الأمر، بين إتمامها، وفوات الركعة الأولى، وبين قطعها وإدراك الركعة الأولى، فعموم كلام الأصحاب يقتضي أن الأوْلى له أن يتمها خفيفة ولو فاتته الركعة، وفيها قول آخر في المذهب: الأوْلى له قطعها في هذه الحال، وهو الصحيح عندي، لعموم الحديث، ولجواز قطع النفل، ولأن الفرض ومصلحته لا يعادله النفل، فالقليل منه يفضل الكثير من النفل، وإذا كان هـذا في ركعة، ففيما فوقها من باب أولى وأحرى.

**س ٥ ـ رجل صلى في غيبة الإمام الراتب، فلما صلى حضر الإمام الراتب وقال: أعيدوا صلاتكم فإني أعلم منه ما لا تعلمون فهل عليهم إعادة؟**

ج ـ ليس عليهم إعادة، لأنهم معذورون حين غاب الإمام الراتب عن عادته. وقوله: إنني أعلم منه ما لا تعلمون لا يوجب الإعادة عند أحد، واختلف العلماء إذا صلوا خلفه ثم تحققوا فسقه تحقيقاً لا شك فيه. والصواب في ذلك ما كان عليه الصحابة والتابعون، أن الصلاة تصح خلف كل بر وفاجر، ولكن مع وجود الإمام العدل لا شك أن الصلاة خلفه هو الأولى، وأما هذه المسألة التي ذكرت، فلا موجب فيها للإعادة بوجه من الوجوه.

**س ٦ ـ هل يتحمل الإمام القراءة عن المأموم؟**

ج ـ يتحمل الإمام عن المأموم القراءة إذا سمعه في الصلاة الجهرية دون غيرها، وهو أعدل الأقوال، واختيار شيخ الإسلام.

**س ٧ ـ هل قضاء المسبوق أول صلاته، أو آخرها؟**

ج ـ الصحيح القول الآخر: أن المسبوق ما يدركه أول صلاته، وما يقضيه آخرها.

**س ٨ ـ ماذا يعمل المقيم إذا صلى خلف المسافر؟**

ج ـ إذا صلى المقيم خلف المسافر، وقصر المسافر، فإن صلاة المقيم خلفه صحيحة، فإذا سلم الإمام، قام المأموم فقضى ركعتين.

**س ٩ ـ قولهم: المتوضىء أولى من المتيمم، هل هو واجب؟**

ج ـ هذا أولوية استحباب، وليس بواجب تقديم المتوضىء على المتيمم.

**س ١٠ ـ ما معنى قولهم: ولا تصح خلف فاسق ككافر؟**

ج ـ معنى قولهم: ولا تصح خلف فاسق ككافر: أنه قد يصلي الكافر ويظن المصلي خلفه أنه مسلم، فمتى علم بذلك، أعاد على المذهب، وقيل: لا يعيد من لم يعلم بكفره، وهو أولى، والله تعالى أعلم، ويتصور أن يصلي وهو كافر نفاقاً أو استهزاءً.

**س ١١ ــ ما حكم الصلاة خلف شارب الدخان؟**

ج ــ إن كنت تجد إماماً غيره فلا تصل خلفه، وإن لم تجد إلا إماماً يشرب الدخان، فيلزم أن تصلي خلفه، ولا تصل وحدك. والله أعلم.

**س ١٢ ــ ما حكم إمامة الصبي للبالغ؟**

ج ــ الصحيح أن إمامة الصبي للبالغ صحيحة في الفرض والنفل، وهو رواية عن أحمد، اختارها كثير من الأصحاب.

**س ١٣ ــ إذا وجد رجل أحسن من غيره للإمامة، ولكنه أعرج لا يستطيع أن يثني رجليه، فهل يقدم على غيره؟**

ج ــ الرجل الذي تذكر أنه أحسن من غيره للإمامة، وإنما هو أعرج لا يستطيع أن يثني رجله بالسجود ولا بالقعود، فلا يضر ذلك، بل هو أولى من غيره بالإمامة إذا كان أحسن من غيره وأقوى، لعموم قوله ﷺ: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله...) الحديث[1]، والنقص الذي فيه لا يخل بإمامته، لأنه لم يترك واجباً عليه في صلاته.

**س ١٤ ــ قولهم: لا تصح الصلاة خلف محدث ولا نجس يعلم ذلك، إلى قولهم: فإن علم واحد، أعاد الكل، هل هو وجيه؟**

ج ــ ليس بوجيه، وهذه الصورة من أغرب المسائل وأعجبها، فإننا إذا تنزلنا أن الإمام إذا كان يعلم حدثه ونجاسته، أنه يجب على المأموم الإعادة، وهي المشهورة عند الأصحاب، مع أننا لا نختارها، بل الذي نختار أن المأموم المعذور الذي لا يعلم حدث إمامه ولا نجاسته، أن صلاته صحيحة ولو كان الإمام عالماً بحدث نفسه ونجاسته، لأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، والمأموم لم يحصل له من مبطلات الصلاة ومفسداتها شيء، فكيف يُحْكَم ببطلان صلاته؟! بل الصواب أنها لا تبطل صلاة المأموم ببطلان صلاة إمامه في كل صورة حتى ولو بطلت في أثناء الصلاة وخرج منها، فإن المأموم يبني

(١) رواه أحمد ومسلم من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه.

على صلاته إما منفرداً، أو يصلي بهم أحدهم بقية صلاتهم، وهو رواية قوية عن الإمام أحمد، المقصود: لو تنزلنا وقلنا: تبطل صلاة المأموم إذا صلى خلف إمام محدث أو نجس يعلم ذلك الإمام من نفسه، فإن إبطال صلاة بقية المأمومين بِعِلْمِ واحد منهم دون الإمام ضعيفة جداً ليس عليها دليل شرعي ولا تعليل مُرضٍ.

**س ١٥ ــ إذا علم بعض المأمومين بحدث الإمام، فهل تبطل صلاة الباقين؟**

ج ــ إذا علم بعض المأمومين بحدث الإمام، اختص البطلان بصلاة من علم، وأما بقية المأمومين الذين لم يعلموا، فصلاتهم صحيحة بلا شك.

**س ١٦ ــ قولهم: وإن علم معه واحد، أعاد الكل، هل هو صواب، وما وجهه؟**

ج ــ هذا قول ضعيف لا وجه له، ولا حجة له، بل الصواب القول الآخر في المسألة، وهو أن الإعادة على العالم فقط، وأما الذي لم يعلم ببطلان صلاة إمامه، وصلى صلاة تامة، فبأي حجة تبطل صلاته؟! وهذا لا شك فيه.

**س ١٧ ــ ما حكم إمامة المفترض بالمتنفل وعكسه؟**

ج ــ تصح إمامة مفترض بمتنفل، وكذلك عكسه على الصحيح، لعدم الدليل على المنع، ولقصة معاذ وصلاته بقومه بعد ما كان يصلي مع النبي ﷺ.

**س ١٨ ــ إذا دخل المصلي المسجد والإمام يصلي في قيام رمضان، فهل يكره أن يصلي ركعتين أو أكثر؟**

ج ــ نعم يكره ذلك في النافلة، ويحرم في الفريضة، فمن دخل والإمام الذي يريد الصلاة معه في صلاته: فإن كان فرضاً، فلا تنعقد نافلته، لأنه إذا تزاحم الفرض والنفل، قدم الفرض، وإن كان في نافلة، كره ذلك كراهة شديدة، لنهي حذيفة رضي الله عنه عن ذلك، ولأن فيه اختلافاً على الإمام،

وفيه أيضاً أنه يصلي وقلبه مشوش كما هو مشاهد، والفضل الذي يريد تحصيله يحصل، وما هو أكثر منه إذا دخل مـع الإمام. والله أعلم.

**س ١٩ ــ أين يقف الإمام؟**

ج ــ الأفضل أن يتقدم الإمام على المأمومين في موقفه، فإن وقفوا عن يمينه أو عن جانبيه ولو لغير حاجة، فلا بأس.

**س ٢٠ ــ هل تجوز الصلاة قدام الإمام لضيق المسجد؟**

ج ــ الصلاة لا تصـح قدَّام الإمام، ضاق المسجد، أو لم يضق، إلا أن الشيـخ تقي الدين أجازها للضرورة.

**س ٢١ ــ ما حكم وقوف الرجل خلف الصف؟**

ج ــ هذه المسألة اختلف فيها العلماء على ثلاثة أقوال، طرفان، ووسط، وخير الأمور أوساطها.

فمذهب الأئمة الثلاثة أن الرجل الواحد يجوز له أن يصف خلف الصف وحده لعذر أو لغير عذر، وهذا مذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، واحتجوا بوقوف المرأة خلف الرجل، فإنها تقف خلف الرجل وحدها، وتقف خلف الصف وحدها، كما ثبت في الصحيـح، لكن في هذا الاستدلال نظر، فإن المرأة نص النبـي ﷺ على جواز وقوفها وحدها مـع الرجال، وثبت عنه في السنن أنه قال: (لا صلاة لفرد خلف الصف) رواه أحمد وابن ماجه[1]، ففرَّق ﷺ بين المرأة والرجل، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد: أن المشروع للمرأة أن تصف خلف الرجال وحدها، وأن الرجل لا يكون وحده، فإن فعل، فلا صلاة له إذا صلى ركعة فأكثر، سواء كان لعذر أو لغير عذر، للحديث السابق وعمومه.

والقول الثالث: اختاره شيـخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من المحققين، أن في هذا تفصيلاً، وهو أنه إذا وجد في الصف محلاً يقف فيه،

---

(١) من حديث علي بن شيبان رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

لم يصح أن يقف وحده خلف الصف، وإن لم يجد محلاً يقف فيه، جاز ذلك له، بل وجب عليه أن يصف وحده، ولا يترك الجماعة، وهذا هو الصواب، والدليل على هذا أن العلماء، رحمهم الله تعالى، أجمعوا على أن جميع ما يجب في الصلاة، يجب مع القدرة عليه، وأنه إذا عجز عنه الإنسان يسقط وجوبه، فإذا كان القيام وهو ركن في الفرض، يسقط إذا عجز عنه، وكذلك الفاتحة وغيرها من أركان الصلاة وواجباتها، فسقوط المصافة المختلف في وجوبها إذا تعذر الوقوف بالصف من باب أولى وأحرى، ويؤيد هذا أن صلاة الجماعة فرض عين على الرجل المكلف، فإذا أدرك الناس يصلون، ولم يجد في الصف موضعاً يقف فيه، فإن ترك الصلاة فقد ترك ما هو فرض، وهو الجماعة، وإن صلى معهم ووقف وحده، فقد أدرك هذا الفرض وسقطت عنه المصافة التي تعذرت عليه. والله أعلم.

وهذا القول هو الموافق لأصول الشريعة وقواعدها، فنقف كما قال النبي ﷺ: (لا صلاة لفرد خلف الصف...)، فمتى صلى خلف الصف لغير عذر، لم تصح صلاته إذا كان رجلاً، ونقول أيضاً: إن هذا الواجب يسقط بالعجز عنه، لقوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾. [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقوله ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم). متفق عليه، فلم يوجب علينا ما لا نستطيعه، فلا واجب مع عجز كما لا محرم مع اضطرار. والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

**س ٢٢ ـ ما حكم مصافة البالغ للصبي؟**

ج ـ المشهور عند الأصحاب المتأخرين، أنه لا تصح مصافته ولا إمامته، والصحيح الرواية الأخرى عن الإمام أحمد أنه يجوز للبالغ مصافته في الصف ولو لم يكن معه غيره، وكذلك تصح إمامته على الصحيح.

**س ٢٣ ـ إذا وجدت الصف تاماً، فهل تصح الصلاة خلف الصف منفرداً؟**

ج ـ لا بأس أن تصلي خلف الصف منفرداً، لأنك معذور، وهذا القول الوسط بين قول من يرى أن الصلاة خلف الصف صحيحة ولو لغير عذر، وقول من قال: إنها غير صحيحة ولو لعذر، والصواب هذا التفصيل: إن وجدت في الصف محلاً تقوم فيه من غير أن تزاحم أحداً، فلا يجوز أن تصف وحدك، وإن وجدت الصف تاماً من كل جانب، فهو عذر، وصف ولو وحدك وتابع الإمام. والله أعلم.

**س ٢٤ ـ ما حكم صلاة الرجال خلف النساء؟**

ج ـ أما صلاة الرجال خلف النساء والإمام رجل، فيكره ذلك، ولا تبطل به الصلاة، وكل مكروه احتيج إليه، زالت الكراهة، فالكراهة محلها إذا كان يمكنهم أن يقدِّموا الرجال على النساء، فأما إذا صادف صلاة فيها ازدحام، وأتى رجال بعد ما أخذ المأمومون من الرجال والنساء مكانهم من الصفوف، ولم يبق موضع إلا خلف النساء وليس فيه محذور كشف للنساء، فكل مكروه احتيج إليه، زالت الكراهة، كما أن كل محرم اضطر إليه زال التحريم.

**س ٢٥ ـ هل يجوز للمرأة الانفراد عن الصف ومعها نساء؟**

ج ـ إذا كان في المسجد نساء غيرها يصلين مع الإمام، فيجب عليهن المصافة كالرجال، وإذا كانت وحدها، فلا بأس.

**س ٢٦ ـ قول ابن حامد: إذا انقطع الصف عن يسار الإمام مقدار ثلاثة، بطلت صلاتهم، فما معناه، وما وجهه؟**

ج ـ أمّا قول ابن حامد: إذا انقطع الصف عن يسار الإمام مقدار ثلاثة، بطلت صلاتهم، فهذا معناه ظاهر، ولا أدري ما توجيهه وتعليله، والله أعلم.

**س ٢٧ ـ ما حكم تأخير الصبيان عن مقدم الصفوف؟**

ج ـ الصبيان إذا كانوا في الصف الفاضل، فالذي أرى أنهم لا يؤخرون، لأنهم تقدموا واستحقُّوا المكان، ويتركون لأجل ترغيبهم.

**س ٢٨ ــ ما معنى الحديث: (لينوا في أيدي إخوانكم)[1]؟**

ج ــ يعني إذا كان الصف غير مرصوص، وأراد الإنسان أن يسد الخلل، فعلى المصلي أن يلين بيد أخيه، ولا يعاند ويمتنع من التفسح.

**س ٢٩ ــ هل يجوز للمسبوق أن يقوم لقضاء ما فاته قبل أن يكمل الإمام التسليم؟**

ج ــ لا يحل له ذلك، وعليه أن يمكث حتى ينتهي الإمام من التسليمة الثانية، فإن قام قبل انتهاء سلامه، ولم يرجع، انقلبت صلاته نفلاً، وعليه إعادتها، لأن المأموم فرض عليه أن يبقى مع إمامه حتى تتم صلاة الإمام.

**س ٣٠ ــ ما حكم متابعة المرأة الإمام وهي في بيتها؟**

ج ــ الصواب جواز ذلك إذا أمكنها المتابعة، بأن سمعت تكبير الإمام، أو من وراءه، أو شاهدتهم، وبعض الأصحاب يشترط الرؤية ولو في بعض الصلاة. ويشترط أن لا يكون بينهما طريق، وهو قول ضعيف لا دليل عليه.

**س ٣١ ــ ما حكم إمامة الأجنبي نساءً لا رجل معهن؟**

ج ــ قال الأصحاب: ويكره أن يؤم نساءً أجانب لا رجل معهن، فإن كان معهن رجل أو محرم للإمام، زالت الكراهة.

## باب صلاة أهل الأعذار

**س ١ ــ إذا طرأ بعض الأعذار في أثناء الصلاة، فماذا يفعل؟**

ج ــ قولهم: إذا طرأ عليه بعض الأعذار وهو في الصلاة، أتمها خفيفة، وإن شاء قطعها، هو وجيه.

**س ٢ ــ هل تجزىء القراءة قاعداً للمعذور؟**

ج ــ إذا كان جالساً لعذر في صلاة الفرض، قرأ وهو جالس، ويجزئه ذلك، وكذلك لو قرأ بعضها.

---

(١) رواه أحمد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

**س ٣ ـ هل تجوز الصلاة في السيارة للعذر؟**

ج ـ إذا كان راكباً في سيارة، ودخل الوقت وعلم أن أهلها يقفون قبل خروج الوقت، صبر حتى يقفوا فيصلي صلاة تامة، وإن كان يعلم أنهم لا يقفون ولا يطيعونه إذا أمرهم، صلى وهو راكب بحسب ما يقدر عليه من استقبال القبلة وغيره، فإن كان عنده شك في ذلك، صبر حتى يخاف فوت الوقت، مع أنه يلزمه السعي بكل ما يقدر عليه لصلاته وصلاة من معه في الوقت مع الطمأنينة فيها، وإن أعلم، فإذا صلى في هذه الحال التي يعذر فيها ونزلوا قبل خروج الوقت، لم تلزمه الإعادة.

**س ٤ ـ ما هو السفر الذي تثبت فيه الرخص؟**

ج ـ رخص السفر كلها من قصر وجمع وفطر وغيرها، يترخص بها كل من سافر سفراً يستعد له بالزاد والمزاد دون تقديره بيومين، لأن اليومين ليس عليهما دليل، بل قَصْرُ المسلمين مع النبي ﷺ في حجة الوداع وجمعهم بعرفة ومزدلفة من غير فرق بين أهل مكة وغيرهم، يدل على أن مثل هذا السفر يترخص فيه برخص السفر. والله أعلم.

**س ٥ ـ ما حكم الجمع في سفر القصر؟**

ج ـ الجواب على ذلك من جهتين:

إحداهما: أنه يجوز الجمع في سفر القصر، وسواء جَدَّ السير، أو كان مقيماً في منزل من منازل سيره، أو في بلد وهو عازم على مواصلة سفره، كل ذلك يجوز فيه الجمع، جمع التقديم وجمع التأخير.

الجهة الأخرى: من جهة الأفضلية، فالأفضل في ذلك ترك الجمع إذا لم يكن له عذر، فإن كان له عذر، فالأسهل الأرفق هو الأفضل، فإذا أجد به السير في وقت الأولى، ونزل في وقت الثانية، فالأفضل التأخير، وإن كان الأمر بالعكس، فالأفضل التقديم، وإن كان يحصل بجمع التقديم أو جمع التأخير مصلحة، مثل تحصيل جماعة، فالأفضل الأمر الذي تحصل فيه المصلحة.

**س ٦ ــ إذا جمع جماعة يرون الجمع، أو قصر من يريد القصر، ومعهم من لا يعتقد جواز ذلك، فهل له موافقتهم على جمعهم وقصرهم؟ وهل يكون كما لو ترك الإمام شرطاً أو ركناً عند مأموم وحده؟**

ج ــ ليست هذه مثل الاقتداء بمن ترك شرطاً أو ركناً يعتقد المأموم شرطيته أو ركنيته، لأنه في هذه الحال الإمام هو الذي يترك ما يعتقد المأموم لزومه، فلا يضر اقتداء المأموم به، لأن المأموم لم يترك ذلك الشرط الذي تركه الإمام ولا ذلك الركن الذي تركه.

وأما موافقة من لا يرى الجمع لمن يجمع، ومن لا يرى القصر لمن يقصر، فإنه لا يصح منه ذلك، لأنه بنفسه فعل ما يعتقد عدم جوازه، والفرق بين المسألتين واضح عند التأمل.

**س ٧ ــ إذا نوى الإمام القصر، ولم يخبر المأموم بذلك، فهل يجوز للمأموم القصر؟**

ج ــ الصحيح أن القصر لا يشترط له نية، فإذا كان مسافراً وقد فارق عامر قريته، فله القصر، نوى القصر أم لم ينوه، فإذا نوى الإمام ولم ينو المأموم، وقصر، فلا بأس بذلك.

**س ٨ ــ ما مرادهم بقولهم في صلاة الخوف: ويجوز حمل سلاح نجس ولا إعادة؟**

ج ــ مرادهم، في هذه الحال، وأما ما سواها، فإنه يعيد عند الأصحاب، وتقدم أن الصحيح أن المعذور بجهل أو نسيان أو اضطرار، إذا صلى بثوب نجس أو على بدنه نجاسة، أنه كما لا حرج عليه، فلا إعادة عليه.

# باب صلاة الجمعة

**س ١ ـ من هو المسافر الذي قال الفقهاء: لا يؤم في الجمعة ولا يتم به العدد؟**

ج ـ مراد الفقهاء (فقهاء الحنابلة) أن المسافر سفر قصر، أو كان مقيماً ببلد وقد عزم على الإقامة دون أربعة أيام لحاجة أو غيرها، وكذلك من لم يكن من أهل البلد، كأهل القرى الذين لا تقام فيهم الجمعة، إذا أتوا للبلد الذي تقام فيه الجمعة، أن الجميع لا يحسبون من الأربعين، لأنهم إما مسافرون وإما تابعون، وإنهم لا يؤمون في الجمعة، فلا يؤمون ولا يحسبون من العدد، وأما إذا كان الإنسان مقيماً على إقامة تمنع القصر[1] فإنه يؤم فيها ويحسب من الأربعين.

كل هذا تفصيل المشهور من المذهب، وأما القول الصحيح الذي نختاره في هذه المسألة، فهو أنه يجوز لكل المذكورين أن يؤموا في الجمعة، حتى المسافر سفر قصر إذا وصل إلى بلد تقام فيه الجمعة، صح أن يؤمهم، لقوله ﷺ: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله. . .) الحديث[2] وهو في الصحيح، وهذا عام في الجمعة والجماعة، وهو يتناول المسافر إذا صار بمحل تقام فيه الجمعة. وليس عن النبي ﷺ حديث واحد يدل على المنع، وإنما الشارع لم يجعل على المسافرين جمعة ولا عيداً، رفقاً بهم، ورحمة، ولهذا إذا صلوا مع الناس الجمعة فصلاتهم صحيحة، وقول الأصحاب في تعليل المنع، لئلا يصير التابع متبوعاً، لا يصلح أن يكون علة لهذه المسألة، ولا يمنع عنها بمجرد هذا التعليل، وكذلك الذي نختاره في مسألة الأربعين أنه لا يشترط للجمعة بل كل قرية

---

(١) المعروف في المذهب أن المسافر إذا أقام إقامة تمنع القصر، فإن الجمعة تلزمه بغيره، فلا يصح أن يؤم فيها ولا يحسب من العدد، ولعل الشيخ أراد بقوله: «إقامة تمنع القصر» إقامة الاستيطان، فإن المسافر إذا أقام إقامة استيطان، فإن هذه الإقامة تمنع القصر، ويحسب من أهل البلد، فيحسب من العدد، ويصح أن يؤم فيها حينئذ. والله أعلم.

(٢) رواه أحمد ومسلم من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه.

استوطنها أهلها أقيمت فيها الجمعة ولو كانوا أقل من أربعين، لأن الحديث الذي فيه (في كل أربعين فصاعداً جمعة وأضحى وفطر) حديث ضعيف لا تقوم به حجة، والحديث الذي في مسلم حين انفضّ الصحابة عن النبي ﷺ ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، دليل على هذا القول.

وجوابهم عنه بأنه يحتمل أنهم عادوا قبل فوات ركن منها، بعيد جداً.

**س ٢ ـ هل على أهل الهجرة جمعة؟**

ج ـ أهل الهجرة الذين فوق أربعين وهم مستوطنون، تجب عليهم الجمعة، ولا يحل لهم تركها.

**س ٣ ـ قولهم: وندب تصدق بدرهم ونحوه لتاركها، أي الجمعة، هل هو وجيه؟**

ج ـ هذا وجيه، وهو من مكملات التوبة، لأن تركها معصية كبيرة لا بد لها من توبة، والتوبة: ندم، وإقلاع، وعزم على أن لا يعود، وإصلاح عمل، ومن أبلغ المصلحات الصدقة بما تيسر.

**س ٤ ـ ما حكم صلاة الجمعة إذا تعددت لغير حاجة؟**

ج ـ إذا صار في البلد جمعات متعددة لغير حاجة، ووقعت معاً، أو جهل السابق منها، أعادوها على المذهب، والذي رأى أن التبعة في التعدد لغير حاجة على من له أَمر واقتدار فيها، وأما صحة الصلاة وعدمها، فلا دخل له في ذلك. والله أعلم.

**س ٥ ـ ما حكم اشتراط الأركان الأربعة في كل من الخطبتين؟**

ج ـ اشتراط الفقهاء الأركان الأربعة في كل من الخطبتين، فيه نظر، وإذا أتى في كل خطبة بما يحصل به المقصود من الخطبة الواعظة الملينة للقلوب، فقد أَتى بالخطبة، ولكن لا شك أن حمد الله والصلاة على رسوله ﷺ وقراءة شيء من القرآن من مكملات الخطبة، وهي زينة لها.

**س ٦ ـ ما رأيكم في استعمال مكبر الصوت للخطيب؟**

ج ـ رأينا أنه لا بأس به، وهنا فائدة نافعة لهذه المسألة وغيرها، وهي أن الأمور الحادثة بعد النبي ﷺ قسمان: عبادات وعادات.

أما العبادات، فكل من أحدث عبادة لم يشرعها الله ورسوله، فهو مبتدع.

وأما العادات، فالأصل فيها الإباحة، فكل من حرم عادة من العوائد الحادثة، فعليه الدليل، فإن أتى بدليل يدل على المنع والتحريم، من كتاب الله، أو سنة رسول الله، أو قياس على أصل شرعي، فهو محذور وممنوع، وإلا فالأصل الإباحة، وقد ذكر شيخ الإسلام هذين الأصلين في «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره من كتبه. فهذه الآلات الحادثة من هذا الباب، الأصل فيها الإباحة، والمباحات كلها إن أعانت على خير، فهي حسنة، وإن أعانت على شر فهي سيئة، والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا اعتاد الرجل مكاناً في الروضة، فهل يجوز لمن رأى أحداً يريد الصلاة أن يقول: هذا مكان فلان؟**

ج ـ أما إقامته في مكان ومنعه من الصلاة فيه، فهذا لا يجوز إذا كان صاحب المكان ليس في المسجد، وأما إخباره على وجه التنبيه، على أنه يجلس فيه الأمير أو نحوه من غير أن يقيمه، فلا بأس، لأن كثيراً من الذين يجلسون فيها لا يدرون، وربما مكث فيها ثم تمت الصفوف، ثم جاء الذي من عادته أن يجلس فِيه، وأقيم ذلك الرجل، فمثل هذا على هذا الوجه، لا بأس بتنبيهه. والله أعلم.

**س ٨ ـ هل يجوز لمن له مكان مقدَّم في المسجد يوم الجمعة أن يتأخر عن المجيء إلى المسجد؟**

ج ـ يجوز له ذلك بشرط أن يأتي المكان قبل أن تتصل الصفوف، ولا يحل له أن يمكث حتى تتصل الصفوف ثم يتخطى رقاب الناس وليس له عذر يوجب التأخر إلى هذا الحد.

**س ٩ ـ ما حكم التحجير في المسجد؟**

ج ـ اعلموا رحمكم الله أن التحجر في المساجد، ووضع العصا والإنسان متأخر في بيته أو سوقه عن الحضور، لا يحل، ولا يجوز، لأن ذلك مخالف للشرع ومخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، فإن النبي ﷺ حث الناس على التقدُّم للمساجد، والقرب من الإمام بأنفسهم، وحث على الصف الأول وقال: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول) يعني من الأجر العظيم (ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا)[1] ولا يحصل هذا الامتثال وهذا الأجر العظيم إلا لمن تقدم وسبق بنفسه، وأما من وضع عصاه ونحوه، وتأخر عن الحضور، فإنه مخالف لما حث عليه الشارع، غير ممتثل لأمره، فمن زعم أنه يدرك فضيلة التقدم وفضيلة المكان الفاضل بتحجره مكاناً فيه وهو متأخر، فهو كاذب، بل من فعل هذا فاته الأجر، وحصل له الإثم والوزر. ومن مفاسد ذلك أنه يعتقد أنه إذا تحجر مكاناً فاضلاً في أول الصف، أو في المكان الفاضل، أنه يحصل له فضيلة التقدم، وهذا اعتقاد فاسد، فإن الفضيلة لا تكون إلا للسابق بنفسه، وأما المتحجر للمكان الفاضل، المتأخر عن الحضور، فلا يدرك شيئاً من الفضيلة، فإن الفضل لا يحصل إلا للسابق بنفسه، لا لسبق عصاه. فلو كان في ذلك خير، لكان أولى الناس به الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد نزههم الله عن هذا الفعل القبيح، كما نزههم عن كل قبيح، فلو علم المتحجر أنه آثم، وأن صلاته في مؤخر المسجد أفضل له، وأسلم له من الإثم، لم يتجرأ على هذا، ولأبعد عنه غاية البعد، وكيف يكون مأجوراً بفعل محرم لا يجوز؟

ومن مفاسد ذلك أن المساجد لله، والناس فيها سواء، وليس لأحد فيها حق إلا إذا تقدم بنفسه، فإذا سبقه غيره فهو أحق منه، فإذا تحجر شيئاً لغيره فيه حق، كان آثماً عاصياً لله، وكان ظالماً لصاحب الحق، وليس الحق فيها لواحد،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل جميع من جاء قبله له حق في مكانه، فيكون قد ظلم خلقاً كثيراً، ولو قدرنا أن إنساناً جاء والصف الأول قد تحجره المتحجرون بغير حق، فصف في الصفوف المتأخرة، كان أفضل منهم، وأعظم أجراً، وأسلم من الإثم، والله يعلم من نيته أنه لو وجدها خالية لصلى فيها، فهو الذي حصل فضلها، وهم حصلوا الوزر، وفاتهم الأجر.

ومن مفاسد ذلك أنه يدعوه إلى تخطي رقاب الناس وإيذائهم، وقد نهى الشارع عن ذلك، فيجمع بين التحجر والتأخر والتخطي، فيكون فاعلاً للنهي من وجوه متعددة.

ومنها أنه إذا وضع عصاه، أوجب له الكسل والتأخر عن الحضور، لأنه إذا عرف أنه يجد مكاناً في مقدم المسجد ولو تأخر، برد قلبه، وكسل عن التقدم، ففاته خير كثير، وحصل له إثم كبير.

ومن المفاسد أنه يحدث الشحناء والعداوة والخصومة في بيوت الله التي لم تبن إلا لذكر الله وعبادته.

ومن المفاسد أن صلاة المتحجر ناقصة، لأن المعاصي إذا لم تبطل الأعمال تنقصها، ومن العلماء من يرى أن صلاة المتحجر بغير حق غير صحيحة، كالمصلي في مكان غصب، لا تصح صلاته، لأنه غصبه وظلم غيره.

ومن مفاسد ذلك، أن الذي يعتاد التحجر مصرٌّ على معصية الله، لأنه فاعل لها، جازم على معاودتها، والإصرار على المعاصي ينافي الإيمان، قال تعالى:

﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

[سورة آل عمران: الآية ١٣٥]

والصغائر تكون كبائر مع الإصرار عليها. ومن العجب أن أكثر من يفعل ذلك أناس لهم رغبة في الخير، ولعله زال عنهم استقباح هذا الأمر لمداومتهم عليه، واقتداء بعضهم ببعض.

والرغبة في الخير لا تكون بالتقرب إلى الله بفعل محرم، وإنما الراغب في الخير من أبعد عن معاصي الله، وعن ظلم الناس في حقوقهم، فإنه لا يتقرب إلى الله إلا بطاعته، وأعظم من ذلك أن يتحجر لنفسه ولغيره، فيجمع عدة مآثم، وشر الناس من ظلم الناس للناس فيشترك الحامي والمحمى له في الإثم، فكيف يرضى المؤمن الموفق الذي في قلبه حياة، أن يفعل أمراً هذه مفاسده ومضاره؟!

فالواجب على كل من يفعل ذلك، أن يتوب إلى الله، ويعزم على أن لا يعود، فإن من علم أن ذلك لا يجوز، ثم أصر على هذا الذنب، فهو متهاون بحرمات الله، متجرىء على معاصي الله، يخشى أن يكون ممن يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا رياءً وسمعة، يحب أن يحمد على صلاته في الصف الأول، والمكان الفاضل، وهو آثم ظالم لأهل المسجد، غير محصل للفضيلة، ولكنه مصر على هذه الخصلة الذميمة الرذيلة، ونعتقد أن المؤمن الحريص على دينه إذا علم أن هذا محرم، وعلم ما فيه من المفاسد والمضار، وتنقيص صلاته أو فسادها، فإنه لا يقدم عليه، ولا يفعله، لأنه ليس له في ذلك مصلحة في دينه ولا دنياه، بل ذلك مضرة محضة عليه، فالموفق يستعين الله على تركه، والعزم على أن لا يعود إليه، ويستغفر الله مما صدر منه، فإن الله غفور رحيم. قال تعالى:

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

[سورة طه: الآية ٨٢]

ونسأل الله تعالى أن يحفظنا وإخواننا المسلمين من معاصيه، وأن يعفو عنا وعنهم ما سلف منها، إنه جواد كريم.

وأما من يتقدم إلى المسجد وفي نيته انتظار الصلاة، ثم يعرض له عارض، مثل حاجته إلى وضوء أو نحوه، ثم يعود، فلا حرج عليه، وهو أحق بمكانه، ولا يلحقه ذم، وكذلك من كان في المسجد، ووضع عصاه ونحوه ليصلي أو يقرأ في محل آخر في المسجد، فلا حرج عليه، بشرط أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يؤذيهم، والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم.

# كتاب الجنائز

**س ١ ـ هل يجوز استعمال الإبر للدواء؟**

ج ـ أما استعمال الإبر، فهو كسائر الأدوية، لا بأس فيها، ولا حرج، ولو لم يعلم الإنسان مفرداتها، ولو تولاها كافر، لأنها من الأدوية المعروفة، وقد تنجح، وقد لا تنجح.

**س ٢ ـ امرأة مجنونة رأت رؤيا، ودعت بدعاء سالم من الشرك فعافاها الله، فهل في ذلك حرج؟**

ج ـ لا حرج في ذلك.

**س ٣ ـ هل يجوز تعليق التمائم على المريض؟**

ج ـ أما تعليق التمائم، فبعض العلماء يرخص فيه، وبعضهم لا يرخص، ونحن من الذين لا يرخصون فيه، وخصوصاً إذا كان يؤخذ عليه أجرة.

**س ٤ ـ هل يجوز تغسيل الميت في حوش؟**

ج ـ يجوز، ولكن الأولى والأحسن أن يكون تحت سقف، والأولى أن لا يحضره إلا من يغسله ويعاونه، والولي للميت، ولا يحضره غيرهم، كل ذلك طلباً للستر على الميت.

**س ٥ ـ هل يجب على الزوج كفن زوجته؟**

ج ـ الصحيح أنه يجب على الزوج كفن امرأته، موسرة كانت

أو معسرة، وهو من النفقة، ومن المعاشرة بالمعروف، ومما يعدُّه الناس منكراً أنه إذا ماتت زوجة الغني المعسرة، أنه لا يجب عليه كفنها، بل هو وآحاد الناس سواء، وهو قول في المذهب.

**س ٦ ــ إذا مات في قصر يبعد عن البلد ربع ساعة، وشق عليهم الصلاة في البلد، فهل يجوز أن يصلى عليه ويدفن في قصره؟**

ج ــ لا حرج عليهم، لأنهم ذكروا أن فرض الصلاة على الجنازة تسقط بمكلف، رجلاً كان أو امرأة، فكيف إذا صلى عليه أكثر من ذلك، وكذلك لا يلزم الدفن بموضع معين، فلو دفنوه في أرضهم المملوكة بإذن المالكين، أو في موات، جاز ذلك، ولو كانت المقبرة ليست بعيدة عنهم، إلا أن الأولى أن يدفن في مقبرة المسلمين.

**س ٧ ــ ما معنى الحديث المشهور على ألسنة العوام، وهو أنه ﷺ «لا يؤلف تحت الأرض»؟**

ج ــ أما سؤالك عن الحديث الذي يجري على ألسنة العوام، من أنه ﷺ: «لا يؤلف تحت الأرض»، فلا زلت مستشكلاً معناه، وإذا لم يثبت الحديث، فلا يضر الجهل بمعناه، ولم أر له تفسيراً ولم أعرف معناه، إلا إن كان معناه معنى الحديث الصحيح: إن الأرض محرم عليها أن تأكل أجساد الأنبياء، فالله أعلم بذلك[1].

**س ٨ ــ هل يجوز شق بطن الميتة لإخراج الحمل الحي؟**

ج ــ يجوز للمصلحة، وعدم المفسدة، وذلك لا يعدُّ مثلة، ولقد سئلت عن امرأة ماتت وفي بطنها ولد حي، هل يشق بطنها ويخرج، أم لا؟ فأجبت قد علم ما قاله الأصحاب رحمهم الله، وهو أنهم قالوا: فإن ماتت حامل وفي بطنها ولد حي، حرم شق بطنها، وأخرجه النساء بالمعالجات وإدخال اليد على الجنين

---

(١) قلت: ذكره بعض المحدثين وقال: لا أصل له عن النبي ﷺ وقال: لعل معناه: لا يبلغ الألف. والله أعلم.

ممن ترجى حياته، فإن تعذر، لم تدفن حتى يموت ما في بطنها، وإن خرج بعضه حياً، شق للباقي، فهذا كلام الفقهاء بناءً على أن ذلك مثلة بالميتة، والأصل تحريم التمثيل بالميت، إلا إذا عارض ذلك مصلحة قوية متحققة، يعني إذا خرج بعضه حياً، فإنه يشق للباقي، لما فيه من مصلحة المولود، ولما يترتب على عدم الشق في هذه الحالة من مفسدة موته، والحي يراعى أكثر مما يراعى الميت، لكن في هذه الأوقات الأخيرة حين ترقى فن الجراحة، صار شق البطن أو شيء من البدن لا يعدُّ مثلة، فيفعلونه بالأحياء برضاهم ورغبتهم بالمعالجات المتنوعة، فيغلب على الظن أن الفقهاء لو شاهدوا هذه الحال، لحكموا بجواز شق بطن الحامل بمولود حي وإخراجه، وخصوصاً إذا انتهى الحمل، وعلم أو غلب على الظن سلامة المولود، وتعليلهم بالمثلة يدل على هذا، ومما يدل على جواز شق البطن وإخراج الجنين الحي، أنه إذا تعارضت المصالح والمفاسد، قدم أعلى المصلحتين، وارتكب أهون المفسدتين، وذلك أن سلامة البطن من الشق مصلحة، وسلامة الولد ووجوده حياً مصلحة أكبر، وأيضاً فشق البطن مفسدة، وترك المولود الحي يختنق في بطنها حتى يموت مفسدة أكبر، فصار الشق أهون المفسدتين، ثم نعود فنقول: الشق في هذه الأوقات صار لا يعتبره الناس مثلة ولا مفسدة، فلم يبق شيء يعارض إخراجه بالكلية، والله أعلم.

**س ٩ ـ هل يجوز أخذ جزء من جسد الإنسان وتركيبه في إنسان آخر مضطر إليه برضى من أخذ منه؟**

ج ـ جميع المسائل التي تحدث في كل وقت، سواء حدثت أجناسها أو أفرادها، يجب أن تتصور قبل كل شيء، فإذا عرفت حقيقتها، وشخصت صفاتها، وتصورها الإنسان تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها، طبقت على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية، فنحن في هذه المسألة قبل كل شيء نقف على الحياد

حتى يتضح لنا اتضاحاً تاماً للجزم بأحد القولين، فنقول: من الناس من يقول: هذه الأشياء لا تجوز، لأن الأصل أن الإنسان ليس له التصرف في بدنه بإتلاف أو قطع شيء منه أو التمثيل به، لأنه أمانة عنده لله، ولهذا قال تعالى:

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

والمسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه.

أما المال، فإنه يباح بإباحة صاحبه، وبالأسباب التي جعلها الشارع وسيلة لإباحة التملكات.

وأما الدم، فلا يباح بوجه من الوجوه، ولو أباحه صاحبه لغيره، سواء كان نفساً أو عضواً أو دماً أو غيره، إلا على وجه القصاص بشروطه أو في الحالة التي أباحها الشارع، وهي أمور معروفة ليس منها هذا المسؤول عنه.

ثم إن ما زعموه من المصالح للغير معارض بالمضرة اللاحقة لمن قطع منه ذلك الجزء، فكم من إنسان تلف أو مرض بهذا العمل، ويؤيد هذا قول الفقهاء: من ماتت وهي حامل بحمل حي، لم يحل شق بطنها لإخراجه ولو غلب على الظن أو لو تيقنا خروجه حياً، إلا إذا خرج بعضه حياً، فيشق للباقي، فإذا كان هذا في الميتة، فكيف حال الحي؟!

فالمؤمن بدنه محترم حياً وميتاً، ويؤخذ هذا أيضاً أن الدم نجس خبيث، وكل نجس خبيث، لا يحل التداوي به، مع ما يخشى عند أخذ دم الإنسان من هلاك أو مرض، فهذا من حجج هذا القول. ومن الناس من يقول: لا بأس بذلك، لأننا إذا طبقنا هذه المسألة على الأصل العظيم المحيط الشرعي، صارت من أوائل ما يدخل فيه، وأن ذلك مباح، بل ربما يكون مستحباً، وذلك أن الأصل إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، فإن رجحت المفاسد وتكافأت، منع منه، وصار درء المفاسد في هذه الحال أولى من جلب المصالح، وإن رجحت المصالح والمنافع على المفاسد والمضار، اتبعت المصالح الراجحة، وهذه

المذكورات مصالحها عظيمة معروفة، ومضارها إذا قدرت، فهي جزئية يسيرة منغمرة في المصالـح المتنوعة.

ويؤيد هذا أن حجة القول الأول، وهي أن الأصل أن بدن الإنسان محترم لا يبـاح بالإباحة، متى اعتبرنا فيه هذا الأصل، فإنه يباح كثـير من ذلك للمصلحة الكثيرة المنغمرة في المفسدة بفقد ذلك العضو أو التمثيل به، فإنه يباح لمن وقعت فيه الأكلة التي يخشى أن ترعى بقية بدنه؛ يجوز قطـع العضو المتآكل لسلامة الباقي، وكذلك يجوز قطـع الضلـع التي لا خطر في قطعها، ويجوز التمثيل في البدن لشق البطن أو غيره، للتمكن من علاج المرض، ويجوز قلـع الضرس ونحوه عند التألم الكثير، وأمور كثيرة من هذا النوع أبيحت لما يترتب عليها من حصول مصلحة، أو دفـع مضرة.

وأيضاً فإن كثيراً من هذه الأمور المسؤول عنها، يترتب عليها المصالـح من دون ضرر يحدث، فما كان كذلك، فإن الشارع لا يحرمه، وقد نبه الله تعالى على هذا الأصل في عدة مواضـع من كتابه، ومنه قوله عن الخمر والميسر:

﴿قل فيهما إثم كبير ومنافـع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

[سورة البقرة: الآية ٢١٩]

فمفهوم الآية أن ما كانت منافعه ومصالحه أكثر من مفاسده وإثمه، فإن الله لا يحرمه، ولا يمنعه، وأيضاً فإن مهرة الأطباء المعتبرين متى قرروا تقريراً متفقاً عليه، أنه لا ضرر على المأخوذ من جسده ذلك الجزء، وعرفنا ما يحصل من ذلك من مصلحة الغير، كانت مصلحة محضة خالية من المفسدة، وإن كان كثير من أهل العلم يجوزون، بل يستحسنون إيثار الإنسان غيره على نفسه بطعـام أو شراب هو أحق به منه ولو تضمن ذلك تلفه أو مرضه ونحو ذلك، فكيف بالإيثار بجزءٍ من بدنه لنفـع أخيه النفـع العظيم من غير خطر تلف، بل ولا مرض، وربما كان في ذلك نفـع له إذا كان المؤثر قريباً أو صديقاً خاصاً، أو صاحب حق كبير، أو أخذ عليه نفعاً دنيوياً ينفعه، أو ينفـع من بعده.

ويؤيد هذا أن كثيراً من الفتاوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال والتطورات، وخصوصاً الأمور التي ترجع إلى المنافع والمضار.

ومن المعلوم أن ترقي الطب الحديث، له أثره الأكبر في هذه الأمور، كما هو معلوم مشاهد، والشارع أخبر بأنه ما من داءٍ إلا وله شفاء، وأمر بالتداوي، خصوصاً وعموماً، فإذا تعين الدواء وحصول المنفعة بأخذ جزءٍ من هذا، ووضعه في الآخر من غير ضرر يلحق المأخوذ منه، فهو داخل فيما أباحه الشارع، وإن كان قبل ذلك وقبل ارتقاء الطب فيه ضرر أو خطر، فيراعى كل وقت بحسبه، ولهذا نجيب عن كلام أهل العلم القائلين بأن الأصل في أجزاء الآدمي تحريم أخذها، وتحريم التمثيل بها، فيقال: هذا يوم كان ذلك خطراً أو ضرراً، أو ربما أدى إلى الهلاك، وذلك أيضاً في الحالة التي ينتهك فيها بدن الآدمي وتنتهك حرمته، فأما في هذا الوقت، فالأمران مفقودان: الضرر مفقود، وانتهاك الحرمة مفقود، فإن الإنسان قد رضي كل الرضى بذلك، واختاره مطمئناً مختاراً، لا ضرر عليه، ولا يسقط شيء من حرمته، والشارع إنما أمر باحترام الآدمي تشريفاً له وتكريماً والحالة الحاضرة غير الحالة الغابرة، ونحن إنما أجزنا ذلك إذا كان المتولي طبيباً ماهراً، وقد وجدت تجارب عديدة للنفع وعدم الضرر، فبهذا يزول المحذور.

ومما يؤيد ذلك ما قاله غير واحد من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم: إنه إذا أشكل عليك شيء، هل هو حلال، أو حرام، أو مأمور به، أو منهي عنه؟ فانظر إلى أسبابه الموجبة، وآثاره ونتائجه الحاصلة، فإذا كانت منافع ومصالح وخيرات وثمراتها طيبة، كان من قسم المباح أو المأمور به، وإذا كان بالعكس، كانت بعكس ذلك، طبق هذه المسألة على هذا الأصل، وانظر أسبابها وثمراتها، تجدها أسباباً لا محذور فيها، وثمراتها خير الثمرات، وإذا قال الأولون: أما ثمرتها، فنحن نوافق عليها، ولا يمكننا إلا الاعتراف بها، ولكن الأسباب محرمة كما ذكرنا في أن الأصل في أجزاء الآدمي التحريم، وأن استعمال الدم استعمال للدواء الخبيث، فقد أجبنا عن ذلك بأن

العلة في تحريم الأجزاء إقامة حرمة الآدمي ودفع الانتهاك الفظيع، وهذا مفقود هنا، وأما الدم، فليس عنه جواب، إلا أن نقول: إن مفسدته تنغمر في مصالحه الكثيرة، وأيضاً ربما ندعي أن هذا الدم الذي ينقل من بدن إلى آخر، ليس من جنس الدم الخارج الخبيث المطلوب اجتنابه والبعد عنه، وإنما هذا الدم هو روح الإنسان وقوته وغذاؤه، فهو بمنزلة الأجزاء أو دونها، ولم يخرجه الإنسان رغبة عنه، وإنما هو إيثار لغيره، وبذل من قوته لقوة غيره، وبهذا يخف خبثه في ذاته وتلطفه في آثاره الحميدة، ولهذا حرم الله الدم المسفوح، وجعله خبيثاً، فيدل على أن الدماء في اللحم والعروق وفي معدنها قبل بروزها ليست محكوماً عليها بالتحريم والخبث، فقال الأولون: هذا من الدم المسفوح، فإنه لا فرق بين استخراجه بسكين أو إبرة أو غيرها، أو ينجرح الجسد من نفسه، فيخرج الدم، فكل ذلك دم مسفوح محرم خبيث، فكيف تجيزونه ولا فرق بين سفحه لقتل الإنسان أو الحيوان، أو سفحه لأكل، أو سفحه للتداوي به؟ فمن فرق بين هذه الأمور فعليه الدليل.

فقال هؤلاء المجيزون: هب أنا عجزنا عن الجواب عن حل الدم المذكور، فقد ذكرنا لكم عن أصول الشريعة ومصالحها ما يدل على إباحة أخذ جزءٍ من أجزاء الإنسان لإصلاح غيره إذا لم يكن فيه ضرر، وقد قال النبي ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) و(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد).

فعموم هذا يدل على هذه المسألة، وأن ذلك جائز.

فإذا قلتم: إن هذا في التوادد والتراحم والتعاطف كما ذكره النبي ﷺ، لا في وصل أعضائه بأعضائه.

قلنا: إذا لم يكن ضرر، ولأخيه فيه نفع، فما الذي يخرجه من هذا؟ وهل هذا إلا فرد من أفراده، كما أنه داخل في الإيثار، وإذا كان من أعظم خصال العبد الحميدة مدافعته عن نفس أخيه وماله ولو حصل عليه ضرر في بدنه

أو ماله، فهذه المسألة من باب أولى وأحرى، وكذلك من فضائله تحصيل مصالح أخيه وإن طالت المشقة، وعظمت الشقة، فهذه كذلك وأولى.

ونهاية الأمر أن هذا الضرر غير موجود في هذا الزمن، فحيث انتقلت الحال إلى ضدها، وزال الضرر والخطر، فلم لا يجوز؟! ويختلف الحكم فيه لاختلاف العلة، ويلاحظ أيضاً في هذه الأوقات التسهيل، ومجاراة الأحوال، إذا لم تخالف نصاً شرعياً، لأن أكثر الناس لا يستفتون ولا يبالون، وكثير ممن يستفتي إذا أفتي بخلاف رغبته وهواه، تركه ولم يلتزمه، فالتسهيل عند تكافؤ الأقوال، يخفف الشر، ويوجب أن يتماسك الناس بعض التماسك، لضعف الإيمان، وعدم الرغبة في الخير، كما يلاحظ أيضاً أن العرف عند الناس أن الدين الإسلامي لا يقف حاجزاً دون المصالح الخالصة أو الراجحة، بل يجاري الأحوال والأزمان، ويتتبع المنافع والمصالح الكلية والجزئية، فإن الملحدين يموهون على الجهال، أن الدين الإسلامي لا يصلح لمجاراة الأحوال والتطورات الحديثة، وهم في ذلك مفترون، فإن الدين الإسلامي به الصلاح المطلق من كل وجه الكلي والجزئي، وهو حَلَّال لكل مشكلة خاصة أو عامة وغير قاصر من جميع الوجوه.

# كتاب الزكاة

**س ١ ـ ما هي الواجبات في مال الإنسان الذي يملكه؟ وهل لذلك حد في الشرع؟ وما مقداره وصفته؟**

ج ـ بين الشارع للعباد كل ما يحتاجونه، وخصوصاً الواجبات التي هي أهم المهمات، الواجبات على القلب، والواجبات على البدن، والواجبات من الأقوال والأعمال، وكذلك وضح الواجبات المالية توضيحاً تاماً مجملاً، فأمر بأداء الحقوق المالية، وحث عليها، ومدح القائمين بها، وذم المانعين لها أو لبعضها، وفَصَّل ذلك بذكر الأموال التي تجب فيها الزكاة وشروطها ونصبها، ومقدار الواجب فيها، وهذا أعظم الواجبات المالية، وفَصَّل كذلك ما في المال من النفقات على النفس، والأهل، والعيال، والمماليك، من الآدميين، والبهائم، وبَيَّن أيضاً وجوب الوفاء بالعقود والمعاملات على اختلاف أنواعها وتباين أسبابها، وبَيَّنَ ما يتعلق بالمال من الحقوق العارضة بأسبابها كبدل النفوس والأموال المتلفة بغير حق وما فيه من الحقوق العارضة لحاجة الغير، من ضيف ونحوه، ولاضطرار الغير، فأوجب مواساة المضطرين، ودفع اضطرارهم.

ومن ذلك إلزام الناس بالمعاوضات التي تجب عليهم، فإن إلزام الناس بالمعاوضات والتسعير عليهم:

منها ما هو ظلم محرم، كإكراههم على البيع بثمن لا يرضونه، أو منعهم مما أباحه الله لهم.

ومنها ما هو عدل، مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل، ومثل التسعير على العمال، ومن يحتاج الناس إليهم، ومنعهم من أخذ الزيادة الفاحشة، كما يمنع الناس من هضمهم لحقوقهم.

ففي أمثال هذه المسائل، على الناس مراعاة العدل، ومنع أسباب الظلم.

وهذه الأمور منها أشياء واضحة لكل أحد، ومنها أشياء يكون فيها اشتباه والتباس يجب أن تحقق وتفحص فحصاً تاماً، لتعرف مرتبتها، فما دامت مشتبهة، فالأصل تحريم أموال الغير، والأصل إبقاء الناس على معاملاتهم واحترام حقوقهم، حتى يتضح ما يوجب الخروج عن هذا الأصل لأصل شرعي أقوى منه وأولى، وأما ما يهذي به كثير من الناس عندما انتشرت الشيوعية وشاعت دعايتها، وأثرت على كثير من أهل العلم العصريين، وأنه يسوغ لأولياء الأمور أن يلزموا أهل الغنى والثروة أن يواسوا بذلك أهل الحاجة والفقراء، وأن يفتتوا ثروتهم على أهل الحاجات، وأن يسدوا بزائد ثروتهم جميع المصالح المحتاج إليها بغير رضاهم، بل بالقهر والقسر، فهذا معلوم فساده بالضرورة من دين الإسلام، وإن الإسلام بريء من هذه الحالة الشيوعية، ونصوص الكتاب والسنة على ذلك في إبطال هذا القول صريحة جداً وكثيرة، وإجماع الأمة يبطل هذا القول المنافي لنصوص الكتاب والسنة، والمنافي للفطرة التي فطر الله عليها العباد، والفاتح للظلمة والطغاة أبواب الظلم والشر والفساد، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدِّره على من يشاء، وقد جعل العباد بعضهم فوق بعض درجات في كل الصفات، في العقل والحمق، وفي العلم والجهل، وفي حسن الخلق وسوء الخلق، وفي الغنى والفقر، وفي كثرة الأولاد والأموال والأتباع، وضد ذلك، حكم بذلك قدراً، ويسر كلاًّ لما خلق له، وأوجب على كل من أعطاه الله شيئاً من هذه النعم وغيرها واجبات حدَّدها وبينها وفصلها، وجعل لنيل

المطالب الدنيوية والمطالب الأخروية أسباباً وطرقاً، من سلكها أفضت به إلى مسبباتها، وأوصلته إلى نتائجها. وهؤلاء المنحرفون يريدون أن يبطلوا قدر الله وشرعه، ويسوغوا لآرائهم شبهاً لا تسمن ولا تغني من جوع، ويضعون ذلك الشرع تحريفاً منهم. وقد اغتر بهذه الآراء الشيوعية كثير من العصريين، وكثر الداعون إلى هذه الطريقة الشنيعة تغريراًواغتراراً، ولكن البصير لا يخفى عليه الأمر، والمعصوم من عصمه الله، وقد يروِّجون هذا الباطل بأن تضخُّم المال في أيدٍ قليلة سبب لمفسدة الترف المفسد للأخلاق، وسبب لإثارة الأحقاد من الفقراء المعدمين، وهذا غلط فاحش، فإن الغنى قد يكون سبباً للطغيان، وقد يكون سبباً للتواضع والتزود من طاعة الرحمن، وعلى فرض ما فيه من المفاسد، فإن ما حاولوه من القضاء على الثروة، سبب لشرور عظيمة، لا تنسب إليها أي مفسدة وسبب لإثارة فتن وشرور كثيرة، عكس ما قالوه، وما قالوه في زيادة ثروة المال، يقال فيه في زيادة قوة الجسد، وصحة البدن، فإنه قد يبعث على شرور، وقد يتوسل به إلى خيرات، وهكذا كل ما أعطاه الله للعباد من المميزات والفضائل البدنية والمالية، والرِّئاسات والأولاد والأتباع، كل ذلك لا بد منه، ولا يمكن محاولة إبطاله وصرف سنن الباري التي أجراها على عباده، والله تعالى قد كفى العباد مؤونة وأضرار الثروة بما شرعه من الحقوق المالية الواجبة والمستحبة التي لو قام بها أرباب الأموال، لكانوا من خير البرية أخلاقاً وأعمالاً، وأشرفهم وأعظمهم اعتباراً، ولكن لما منع أكثر الخلق ما أوجبه الله عليهم، سلط عليهم أنواع الظَّلَمة، من ولاة ظالمين، ومن فتاوى الجاهلين المتجرئين،

**﴿وكذلك نُوَلِّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾.**

[سورة الأنعام: الآية ١٢٩]

واعلم أن الشُّبَه التي تثار لنصر كل باطل، إذا فرض صحة بعضها، فإنها نظريات ضئيلة جداً، ونظر قاصر حيث نظروا نظراً جزئياً، وملاحظة جزئية، وعموا عن الأصوال التي تبنى عليها الأحكام، ويعتبرها الشرع، وتتولد عن

المصالـح الكلية، وتنغمر فيها المضار الجزئية، وتوافق الشرع والفطر، وتدع الخليقة هادئة، والأسباب قائمة، والارتباط بين الناس قائماً:

**﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾.**

[سورة الأنعام: الآية ١٣٢]

**س ٢ ــ هل في الدَّين الذي على الفلاحين (المزارعين) زكاة؟**

ج ــ الأوفق أنك تزكيه ولو لم تقبضه، لأنه وثيق، وفيه رهائن، والوقت وقت مسغبة، والزكاة تصير على رأس المال منه وعلى المصلحة إن كان هو حال، وإلا فبقسطه، والزكاة إنما هي على القيمة، فلو اشتـريت ثمرة النخـل من الفلاح، وخلصت فيها عن الدين، فالزكاة إنما هي على الدين لا على الثمرة بالنسبة لك، لأن زكاتك زكاة نقود وعروض، ثم إن صرف الزكاة للأخ والأخت المحتاجين جائز سواء كانا شقيقين أو لأب أو لأم.

**س ٣ ــ إذا كان مال الرجل في أيدي الناس، فهل فيه زكاة؟**

ج ــ أما الذي له أموال متفرقة بين أيدي الناس، أو في ذممهم من جهة زكاته، فالذي في ذمم المعسرين الذين ليس لهم وفاء، لا تجب زكاته، والذي عند غيرهم وفي ذمم الموسـرين، فعليه زكاته إذا تم حوله.

**س ٤ ــ هل تجب الزكاة في المال الموصى به؟**

ج ــ أما المال الذي هو وصية لميت، فلا تجب فيه الزكاة إذا كانت فلوساً ولو بلغت نصاباً.

**س ٥ ــ رجل عنده دراهم، فلما مضى شهر من الحول، صرفها إلى ذهب لا يبلـغ نصاب الذهب، ويبلـغ نصاب الفضة، فهل ينقطـع الحول، أو لا؟**

ج ــ هذه المسألة تحتوي على عدة صور:

إحداها: إذا كان هذا الذي صرف الدراهم التي هي نصاب الفضة بذهب في أثناء الحول قاصداً بذلك التحيل على إسقاط الزكاة، فهذا لا ينفعه، لأن كل حيلة تسقط الواجب فهي لاغية.

ثانيها: إذا لم ينو التحيل، لكن قصد صرفها لأجل الاتّجار بها، وأن يتربص بها فرصة غلائها، كما هو الغالب، فهذا ذهبه لا بد أن يبلغ نصاب عروض، وهو نصاب الفضة، فعليه زكاة عروض كما ذكروه في أموال الصيارفة، وأما الإنسان الذي عنده ذهب، فجعله فضة، أو بالعكس لقصد التريث به إلى فرصة غلائه، فإن زكاته زكاة عروض، فالغالب أن هذا قصد الصيارفة للدراهم بالذهب.

ثالثها: أن يصرف الدراهم بالذهب، ويقصد أن يبقى الذهب أبداً، ويتخرجه شيئاً فشيئاً، ولا يقصد صرفه بالفضة، بل يبقيه لأجل أنه إذا بدت له حاجة اشترى بها، والمراد بالحاجة: الحاجة التي يستعملها لأكل أو شرب أو لباس أو نحوه لا بقصد الاتجار، فهذا ينقطع الحول في حقه، لأن ماله صار ذهباً غير قاصد لصرفه بالفضة، فلا بد أن يبلغ نصاب ذهب، فتبين أن صورتين لا ينقطع الحول فيهما، وهما: إذا نوى التحيل، أو قصد صرفه عند سنوح الفرصة، وفي صورة ينقطع وهي: إذا نوى فيه القنية.

## باب زكاة السائمة

**س ١ ــ إذا كان عند الفلاح والجمّال إبل غير عاملة، فهل فيها زكاة؟**

ج ــ الفلاح أو الجمّال إذا كان لهم إبل غير عاملة، بل هي راعية للمباح في جميع الحول أو أكثره، فما دامت غير عاملة، فإن فيها زكاة إذا تم نصابها، فإن كان يسنيها أو يحطب عليها أو يحش، فهي من العوامل التي لا زكاة فيها، نعم لو كانت عقايب يسني بعضهن، ويريح بعضهن، وهن كلهن مقصود بهن السواني، ومحتاج لهن فيها، فإنها من العوامل، وأما الجمّال الذي تصير تجارته بالجمال، يصير عنده عدة بعارين، يروحهن للحجاز، أو للجبيل ونحو ذلك بالأجر والكراء، فإنها في هذه الحال تكون عروض تجارة ليست من العوامل، وإنما العوامل التي أعدها لحطبه أو حشيشه وأشباه ذلك.

## باب زكاة الحبوب والثمار

**س ١ ــ كم مقدار نصاب التمر والعيش بالصاع الموجود الآن؟**

ج ــ نصاب العيش والتمر بالصاع الموجود الآن مائتا صاع وثلاثون صاعاً بصاعنا الموجود. وزيادة.

الصاع النبوي يعني صاعاً إلا خمساً، وينقص خمس الخمس، هكذا حررناه تحريراً لا يزيد ولا ينقص فهو مائتان وثلاثون وزيادة صاع إلا خمساً، وينقص من الخمس خُمسُه، وبيان ذلك أن صاع النبي ﷺ زنته ثمانون ريالاً فرنسياً لا تزيد ولا تنقص، وصاعنا زنته مائة ريال وأربعة ريالات فرنسية، فإذا حررت ذلك، وجدته كما ذكرنا.

**س ٢ ــ متى تضم الحبوب بعضها إلى بعض في تكميل النصاب؟**

ج ــ الحبوب إذا كان الجنس واحداً، والنوع مختلفاً «كاللقيمي» و«الحنطة» و«المعية» وكالتمر بأنواعه، فإنه يضم بعضه إلى بعض في تكميل النصاب، فإذا اختلف الجنس، كالبُر، والشعير، والذرة، والشامية، فكل جنس على انفراده لا بد أن يتم نصابه كما نص الأصحاب على المسألتين.

**س ٣ ــ ما معنى قولهم: لا زكاة في المعشرات ولو بلغت أحوالاً؟**

ج ــ مرادهم بذلك إذا كان مبقياً لها لحاجته إلى أكلها، أما إذا أبقاها مرصداً لها للتجارة، فإنهم نصوا على أن فيها زكاة عروض كبقية ما أعد للبيع والشراء.

## باب زكاة النقدين

**س ١ ــ ما مقدار نصاب الزكاة بالريال العربي؟**

ج ــ نصاب الزكاة بالريال العربي إذا لم يكن فيه غش ثمان وخمسون ريالاً تقريباً وقد يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً.

س ٢ ـ هل يجوز أن يخرج عن الفضة قطعاً؟

ج ـ يجوز إذا كانت القِطَع مرغوباً بها، لأنها تجري مجرى النقدين في عرف الناس ومعاملاتهم، ولكن على المشهور من المذهب لا يجزىء إخراج القيمة عن الزكاة في النقدين وغيرها، فيرون أن القِطَع إخراجها عن الفضة بمنزلة إخراج التمر والعيش ونحوهما من السلع عن الفضة، ولكن الحاجة اليوم داعية إلى إخراج القطع عن الفضة. وعن أحمد في هذا ثلاث روايات: الجواز مطلقاً مع الحاجة وعدمها، والمنع مطلقاً، والتفصيل أنه مع الحاجة إلى إخراج القيمة يجوز ويجزىء، ومع عدم الحاجة لا يجوز، كما اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية، وعلى كل فإخراج القطع حتى على أشد الأقوال، أهون من إخراج باقي السلع، لقرب القطع من مقاصد النقدين، والله أعلم.

## باب زكاة العروض

**س ١ ـ إنسان غني فلاح، ويبقى عنده «عيش» ينفقه على السنة الثانية ويبقى الذي يسد فلاحته إلى الصيف، وكذا السنة الثانية والثالثة، فهل عليه زكاة غير المعشر؟**

ج ـ إذا رصده لحاجته ونفقته، فلا زكاة عليه ولو زاد على نفقة السنة، لأنه لم يعده للتجارة، وإنما أعده للنفقة، وكثير من الناس يعد لنفقته من التمر والبر أكثر من حاجة السنة، فالزائد على السنة لا يدخل في العروض، لأنه قنية للحاجة، وأما التاجر الذي له معاملة مع الفلاحين أو غيرهم، ويبقى عنده ما يعده ليستدين منه بعضهم من تمر أو عيش، فهو عروض تجارة.

**س ٢ ـ إذا كان عنده «دهن» عروض تجارة، فمتى تعتبر قيمته؟**

ج ـ العبرة في قيمته إذا حال الحول، فلو كان قد اشترى بألفين، وحال الحول وهو يساوي ثلاثة آلاف، زكى عن ثلاثة آلاف، والعبرة بذلك عند تمام الحول، وأما الزيادة بعد تمام الحول، فيكون للسنة المقبلة.

**س ٣ ــ هل يجوز إخراج زكاة العروض منها؟**

ج ــ إخراج الزكاة من العروض المذهب لا يجوز، والصحيح أنه إذا كان في ذلك مصلحة جاز.

**س ٤ ــ ذكروا أن من عنده عروض تجارة، فنواه للقنية، ثم للتجارة، أنه لا يكون للتجارة بمجرد النية، حتى يحصل العمل، فهل هذا وجيه؟**

ج ــ المذهب معروف أنه لا بد من نية التجارة وعملها في عروض التجارة، فإن نواها للتجارة ولم يعمل بها، ولا اتجر بها، بل رصدها طلباً لفرصة الثمن الذي يرضيه، فإنه لا يحسب الحول إلا من ابتداء عمله بها، ولكن الصحيح أن النية كافية، وهو قول في المذهب، فمتى نوى الإنسان في شيءٍ من العروض أن يتجر به، ويرصده لذلك، صار حكمه حكم العروض، و«إنما الأعمال بالنيات» وقد خرج عن القنية بنية ذلك، وقد جرت العادة أن الإنسان يتجر تارة بنفس عمله، وتارة بإرصاده واستعداده لذلك.

## باب زكاة الفطر

**س ١ ــ هل يلزم إخراج الفطرة عن الولد الغائب؟**

ج ــ أَما فطرة الولد الغائب، فإنها تلزم بشرط أن يكون فقيراً، وأبوه غني، ولا تسقط غيبته الوجوب.

## باب إخراج الزكاة

**س ١ ــ هل يلزمك أن تلزم الرجل بما تظنه عليه من زكاة، أم يكفي إِجراؤه على ظاهره؟**

ج ــ إذا حصل اليقين بأن فلاناً لا يزكي، وعنده مال زكوي وليس عليه دين، ولا مانع شرعي، فهذا يجب إلزامه بأمر الله بحسب القدرة، وأما من يغلب على ظنك من غير يقين أنه لا يزكي، فهذا ينصح ويبين له ويوعظ وعظاً عاماً

وخاصاً، والوصول إلى اليقين في الأمور الباطنة عسر جداً. أما الأموال الظاهرة، فولاة الأمور يأخذونها منهم من غير حاجة إلى التبريق بهم، ثم لك أسوة بأهل المدن مثل بريدة وعنيزة لا بد أنك تلاحظ أعمالهم وترى مجراهم مع الناس.

**س ٢ ـ هل يجوز إخراج الزكاة قبل رمضان إذا كانت عادته أن يخرجها فيه؟**

ج ـ أما تقديم الزكاة قبل رمضان لمن كان من عادته أن يخرجها في رمضان، فلا بأس بذلك، وخصوصاً إذا كان وقت مسغبة وضرورة.

**س ٣ ـ إذا كان معك مال بضاعة، فهل يجزىء إخراج زكاته من غير توكيل المالك؟**

ج ـ يجب على الذي هي في يده إذا علم أن صاحبها لا يزكي أن يعلمه ويخبره بوجوب الزكاة فيها والأحسن أن يحمله على توكيله على إخراجها، وأما إخراجه إياها من دون توكيل من المالك فلا تجزىء.

**س ٤ ـ إذا كان بيد إنسان مال لغيره وهو غائب، وحال عليه الحول، فهل يخرج زكاته، أم لا؟**

ج ـ لا يجوز له ذلك إلا بإذنه وتوكيل من صاحب المال، لأنه لا بد من نية صاحب المال أو توكيله، إلا إن كان الذي بيده المال ولياً للصغير والمجنون، صاحبي المال فإن الإخراج يتعلق بالولي، وإذا علم أن صاحب المال لا يخرج زكاته لجهله أو تهاونه، فيتعين على من بيده المال تنبيهه على ذلك، لوجوب ذلك في كل الأحوال، لا سيما في هذه الحال.

**س ٥ ـ ما حكم شراء الرجل زكاته؟**

ج ـ لا يجوز ذلك، سواء اشتراها بثمن مثلها أو أقل أو أكثر. والله أعلم.

**س ٦ ـ من عنده زكاة وحول عليه أهل البراري بها، فهل يحل لمن عنده الزكاة أن يشتريها قبل قبضها؟**

ج ـ لا تجوز من جهة أن هذا إخراج للقيمة والزكاة لا يجوز دفع قيمتها عنها إلا عند اضطرار الساعي لصاحب المال ونحوه. والله أعلم.

**س ٧ ـ ما حكم أكل الساعي عند صاحب الثمرة والزرع وترك خرص ما تجب فيه الزكاة؟**

ج ـ إذا ترك خرص ما تجب فيه الزكاة، لم تسقط الزكاة عن المالك، ولا يكون إطعامه للساعي محسوباً من زكاته، لأن الغالب أنه يقصد بذلك أن يكون كالرشوة لأجل إسقاط زكاته، فليس من الزكاة في شيء.

**س ٨ ـ قولهم: ومن علم أهلية آخذ، كره إعلامه، ومع عدم عادته لا يجزئه الدفع، إلا أن أعلمه ما مأخذ هذا القول، وهل هو الصواب؟**

ج ـ إذا علم أهليته واستحقاقه للأخذ، فمأخذ كراهة إعلامه ما نصوا عليه، أَن في ذلك تبكيتاً له وتخجيلاً له، والمقصود حاصل بالدفع من دون حاجة، لقوله: إنها زكاة، لأنه يعلم استحقاقه وأنه يعتاد أخذها، وأما من كانت عادته أن لا يأخذ الزكاة بل يردها ولو كان محتاجاً إليها، فمأخذ قولهم: لا يجزئه الدفع إليه في هذه الحال ظاهر، وهو أن من عادته أَن لا يقبل الزكاة أَصلاً، فلا يجبر عليها ولا يغر بها.

## باب أهل الزكاة

**س ١ ـ هل يجوز تخصيص بعض القرابة بالزكاة مع مساواة غيره له في الفقر من أجل أنه زوج بناته أبناؤه؟**

ج ـ لا بأس بذلك، لأنه مستحق للزكاة، ولأنه صدقة وصلة رحم، وصلة أخرى، وهي تزوج أبناء المعطي بناتِ المعطَى، ففيه ثلاث صفات: فقره وقرابته وزيادة الرحم.

**س ٢ ـ هل يجوز دفع الزكاة للأولاد؟**

ج ـ لا تجوز، ولا تجزىء، سواء كانوا مع الإنسان في بيته أم لا، ولو أنهم فقراء، لأن الزكاة لا يدفعها المزكي لأصوله ولا لفروعه على أي حال.

**س ٣ ــ هل يجزىء دفع الزكاة للأخ والأخت؟**

ج ــ الزكاة على أختك أو أخيك إذا كانا محتاجين، تجزىء على الصحيح، ولو أنك وارث لهما.

**س ٤ ــ هل يجوز أن يرصد زكاة ماله، فإذا جاءت «الفضات» دفعها إلى الأمير باسم الفضة بنية الزكاة، فهل يجوز ذلك؟ وهل تسقط عنه الزكاة؟**

ج ــ لا يجزىء ذلك عن الزكاة، وليس له وجه.

**س ٥ ــ إذا قام بوظيفة دينية، كالقضاء، والتدريس، فهل يجوز له أخذ الزكاة وهو غني؟**

ج ــ هذا القول وإن قاله بعض العلماء، كما قاله «صدِّيق» في شرح «بلوغ المرام» فإن جمهور العلماء على المنع من ذلك، فإن الله سبحانه جعل الزكاة لثمانية أصناف، وهؤلاء ليسوا منهم، فإن الزكاة لا تحل لغني إلا لعامل عليها، أو لمجاهد في سبيل الله، أو لغارم لإصلاح ذات البين، أو مؤلَّف، نعم هؤلاء المذكورون مستحقون من أموال الفيىء وبيت المال أكثر من غيرهم، لقيامهم بهذه المصالح العامة النفع، وأما الزكاة، فإن أهلها محصورون.

**س ٦ ــ هل يجوز صرف الزكاة في بنيان على مقبرة؟**

ج ــ لا يجوز، لأن الزكاة للأصناف الثمانية؛ وبنيان المقبرة أو المسجد أو غيرها لا يصلح أن يكون مصرفاً للزكاة والله أعلم.

**س ٧ ــ إذا مات من عينت له الزكاة قبل قبضها، فلمن تكون؟**

ج ــ إن كان قد قبضها وكيله، فوكيله مثل نفسه، وإن كان لم يقبضها وكيله، روجع صاحب الصدقة، إن شاء جعلها لورثة الميت إن كانوا محتاجين، وإن شاء جعلها في غيرهم.

**س ٨ ــ ما حكم الصدقة في رمضان أيام الخميس وليلة الجمعة؟**

ج ــ الصدقة في رمضان أيام الخميس وليلة الجمعة من الأمور المحبوبة ولا زال مشايخنا الذين أدركنا، وكذلك مشايخ عنيزة وبريدة وتوابعهم متفقون

على ذلك، ومكاتب المشايخ الكبار مثل أبا بطين وغيرهم كثيرة جداً، وذلك أن الصدقة في رمضان من أفضل الأعمال بالاتفاق، واعتاد الناس أن يجعلوا في وصاياهم «عيشاً» يطبخ ويعينون لهم يوماً فاضلاً، مثل يوم الخميس وليلة الجمعة لأجل أهل العوائد الذين يحضرون، أو يرسل لهم منه، يكون عندهم معلوماً، ولا أحد يشك بهذا، إلا من مدة سنتين بعض الطلبة وقع بخواطرهم من هذا شيء وهذا غلط منهم واضح.

**س ٩ ـ في قوله ﷺ: إذا جاءه سائل أو طلبت إليه حاجة: (اشفعوا تؤجروا).. الحديث؟**

ج ـ فيه الحث على إعانة ذوي الحاجات بالشفاعة والجاه وغيرهما، وفيه كمال شفقته ورحمته ﷺ على إيصال الخير لذوي الحاجات والسماع لأسئلتهم ومطالبهم، وفيه أنه كان ﷺ أكرم الخلق وأرحمهم، وفيه من الدواعي لفعل الإحسان ما لا يوجد في غيره، ولكن مع ذلك أمر أصحابه بالشفاعة لأصحاب الحاجات، وإعانتهم على مطلوبهم، ولولا هذه الشفاعة ربما لم يحصل لهم مرادهم، وفيه أنه ينبغي لفاعل الخير المتعدي نفعه، أن يتسبب لأصحابه وحاضريه بفعل الخير مباشرة، أو شفاعة أو مساعدة، فإن ذلك خير ناجز محقق، فإن حصل مطلوب الطالب حصلت المصلحتان، وإلا فالشافع المعين قد حصل خيراً وأجراً على سعيه وإعانته، وفيه أيضاً أن المسؤول إذا شفع عنده، فإنه لا يلزمه قبول الشفاعة ويبقى الأمر باختياره، وكما أنه لا يلزمه قبول ذلك، فعليه أن لا يضجر ويمل من شفاعة الشافعين، بل يحتسب لهم الأجر والخير، كما أن على الشافع أن لا يغضب ولا يعادي أحداً إذا لم تقبل شفاعته، فليس أحد أحبَّ للنبي ﷺ من أصحابه، وقد كان أحياناً يقبل شفاعتهم، وأحياناً لا يقبلها بحسب ما يراه من الأحوال والمصالح، وقلوبهم لا تزداد إلا حباً ووداداً.

# كتاب الصيام

**س ١ ـ قولهم: إذا رأى هلال شوال وحده لا يفطر، هل هو وجيه؟**

ج ـ نعم وجيه، لأن العبرة بما ثبت واشتهر، ولهذا قيل للشهر؛ شهر لاشتهاره وظهوره بين الناس، فالإنسان وإن كان قد تيقن رؤية هلال شوال وحده، ولكن الحكم الشرعي لا يعتبر رؤيته وحده، فيجب عليه اتباع الحكم الشرعي، وترك ما تيقنه من الرؤية التي لم يثبتها الشارع، ولهذا قال رسول الله في الحديث: (الفطر يوم يفطر الناس، والأضحى يوم يضحون)، وبعض الأصحاب كابن عقيل وغيره أرادوا أن يجمعوا بين الحالتين فقالوا: يفطر سراً، ولكن الصواب الذي لا شك فيه أنه لا يحل له الفطر، بل يصوم مع الناس ولو كان قد رآه، والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يجوز الصيام والفطر بسماع المدفع إذا اعتاد الناس التنبيه به على دخول الشهر أو خروجه؟**

ج ـ أما البلد الذي فيه حاكم شرعي لا يصوم الناس إلا عن أمره، ولا يفطرون إلا عن أمره، وكانوا قد اعتادوا على تنبيه البعيدين عن محل الحكم بالمدفع ونحوه، وهي عادة مطردة لا يمكن أن تشتبه بغيرها، فهي بمنزلة الخبر، بل هي الخبر بعينه، لأن بلد الحاكم بنفسه يحصل فيها الرمي، أو يشتهر الخبر، ولا يقف كل واحد من أهل البلد على صورة الثبوت ووجهتها، بل ربما كان رمي المدفع حيث يعتادونه أبلغ من الخبر الذي يتناقله الناس، لأن بلد الحكم

يتوقعون ولا يجرون حالة يحصل بها الاغترار للناس، والمقصود أَن هذا مستند وجيه ليس في النفس منه شيء.

**س ٣ ــ هل يجوز الفطر بخبر الراديو؟**

ج ــ أما خبر الراديو في الفطر فكثيراً ما يأتيني سؤال عنه وعندي فيه استشكال.

**س ٤ ــ هل يعتمد في الأخبار الدينية، كثبوت صوم وفطر، على الإذاعة السعودية، وهل حكمه كالبرقية في الاعتماد عليه؟**

ج ــ المسألة عندي فيها إشكال، لأني إذا نظرت إلى مجرد خبر المذيع، وأنه يخبر عن ثبوت ذلك الخبر الديني، فالمذيع في الغالب مجهولة حالته من عدالة وغيرها وتثبُّت أو تسرع، وهذا مما يوقف عن الجزم بالاعتماد عليه، وإن نظرت إلى أن المذيع من محطة جدة أو مكة عليه مراقبة شديدة، ولا يجسر على مثل هذا الخبر إلا بعد ثبوته عند الحكومة ثبوتاً رسمياً، قربت خبره من خبر البرقية، فعلى هذا، أما القرينة والاحتياط إذا أمكن فهو اللازم والجزم بأحد الأَمرين أتوقف فيه، وربما فيما يستقبل تعمل الحكومة عملاً للمحال التي لا برقية فيها يتمكنون بها من الجزم بخبره.

**س ٥ ــ هل يعمل بالبرقية وأصوات المدافع والبواريد في ثبوت الصوم والفطر؟**

ج ــ لا ريب أن كل أمر مهم عمومي، يراد إعلانه وإشاعته والإخبار به على وجه السرعة والتعميم، يسلك فيه طريق يحصل به هذا المقصود، فتارة ينادى فيه على وجه التصريح، أو الإجمال القولي، وتارة يعبر عنه بأصوات عالية كالرمي ونحوه مما له نفوذ وسريان إلى المحال والأماكن البعيدة، وتارة بالبرقيات المتنوعة، ولم يزل الناس على هذا يعبرون ويخبرون عن مثل هذه الأمور بأسرع وسيلة يتعمم ويشيع فيها الخبر، على هذا المعنى مجتمعون، وبالعمل به في الأمور الدينية والدنيوية متفقون، وكلما تجدد لهم وسيلة أسرع وأنجح مما قبلها،

أسرعوا إليها، وقد أقرهم الشارع على هذا الجنس والنوع، ووردت أَدلة وأصول في الشريعة تدل عليه، فكل ما دل على الحق والصدق والخبر الصحيح مما فيه نفع للناس في أمور دينهم ودنياهم، فإن الشارع يقره ويقبله، ويأمر به أحياناً، ويجيزه أحياناً، بحسب ما يؤدي إليه من المصلحة، فالشارع لا يرد خبراً صحيحاً بأي طريق وصل، ولا ينفي حقاً وصدقاً بأي وسيلة ودلالة اتصل، وخصوصاً إذا استفاض ذلك واحتفت به القرائن المتنوعة، فاستمسك بهذا الأصل الكبير، فإنه نافع في مسائل كثيرة، ويمكنك إذا فهمته أن تطبق عليه كثيراً من الأفراد والجزئيات الواقعة، والتي لا تزال تقع، ولا يقصر فهمك عنه فيفوتك خير كثير، وربما ظننت كثيراً من الأشياء بدعاً محرمة إذا كانت حادثة ولم تجد لها تصريحاً في كلام الشارع فتخالف بذلك الشرع والعقل وما فطر عليه الناس.

## فصل

فإذا فهمت هذا الأصل، فقد علم وتقرر أن الناس في كل قطر وبلد يجرون في أمورهم على الأحكام الشرعية في صومهم وفطرهم وعباداتهم، وعندهم حاكم شرعي، فإنه متى ثبت عنده بالطريق الشرعي وجوب الصوم والفطر، فإنه في الغالب لا يطلع على مستند هذا الحاكم الشرعي إلا من باشره من قاض ومباشر للقصة، ومن حضرها، وأما من سواهم من أهل البلد، فضلاً عن أهل القطر، فضلاً عن بقية الأقطار، فإنما يصل إليهم الخبر بما يثبت به ذلك الخبر ويشاع من قالة يتناقلونه أو نداء في الأمكنة المرتفعة وغيرها، أو رمي بمدافع ونحوها، أو ببرقيات ليصل الخبر إلى القريب والبعيد، فهذا عمل متصل جنسه في جميع قرون الأمة من غير نكير، وإن كان بعض أفراده لم تحدث إلا من قريب، كالبرقيات ونحوها، فعلم أن الأمة مجمعة على العمل بهذا النوع من الأدلة المعتادة.

ومما يدل على ذلك أن الاستفاضة في الأخبار من جملة الطرق الشرعية التي تفيد صدق مخبرها، حتى إن الفقهاء رحمهم الله جعلوا شهادة الشهود تارة تستند إلى ما يراه الشاهد ويسمعه من المشهود عليه، وتارة على ما يسمعه من أخبار الاستفاضة، فيشهد بما استفاض مستنداً على الاستفاضة، وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة.

ومن المعلوم أن الاستفاضة الحاصلة من رمي المدفع ونحوه والبرقيات ونحوها، أبلغ بكثير من الاستفاضات المفيدة للعلم، خصوصاً وقد أيد ذلك شاهد الحال، واحتفت به القرائن الكثيرة التي تدل دلالة يقينية على ثبوت ذلك الخبر، وكذلك العادة المطردة، والعرف المستقر الذي جرى عليه الناس في بث هذه الأخبار مع قرينة تشوف الناس والاشتباه في الوقت، مع أن الإخبار بالرمي والبرق ونحوها من الأمور الرسمية التي لا يجرؤ عليها أَحد من العامة، إلا عن طريق أمر الحكام وأولياء الأمور وإذنهم، فمتى عرفت الواقع، لم يبق عندك في ذلك الخبر شك، وعرفت أنه خبر يفيد العلم، وإذا كانت أخبار الآحاد إذا احتفت بها القرائن، أفادت العلم فكيف بمثل هذه الأخبار المستفيضة المؤيدة من الحكام الشرعيين؟!

ومما يدل على ذلك من الأصول الشرعية، أن النبي ﷺ، لما قدم المدينة وتشاور المسلمون في تعيين أمر يعرفون به الوقت والحضور للصلوات الخمس في أوقاتها، فمنهم من أَشار بالبوق، ومنهم من أشار بالناقوس، ومنهم من أشار بإيقاد النار، ومنهم من أشار ببعث من ينادي للصلاة والحضور إليها، فاختار الله هذا الأذان المبارك الذي لا تعدُّ خيراته ومصالحه ـ ولله الحمد ـ والمقصود أنهم اتفقوا على أن هذه الأشياء التي ذكروها متى اتفق الناس على واحدٍ منها، أفادتهم العلم بدخول الوقت، وبعضها أصوات تسمع، وبعضها نار تشاهد، فعلم أنه قد تقرر عندهم حصول المقصود بها، ولكنهم يبحثون أيها أنسب، ومثل هذا لا يخفى على النبي ﷺ، فلو كانت هذه الأمور ونحوها لا يحصل بها العلم المطلوب الإعلام به، لأخبرهم بذلك، ولَما أقرهم على هذا البحث.

ونفس الأذان الذي اختاره الله للمسلمين لمعرفة دخول الوقت، هو من هذا القبيل، فإن المؤذنين ينادون في أوقات الصلاة بألفاظ الأذان وهي ثناء على الله، وشهادة له بالتوحيد، ودعاء مطلق للصلاة والفلاح، فيكون هذا كالتصريح بقولهم: دخل الوقت، ومسألة رمي المدافع، وإرسال البرقيات المعتمدة في الخبر عن ثبوت الأشهر، من هذا الجنس، وهي بسبب تحريرها والعناية التامة بها أقرب إلى الصواب، لأنها لا تكون إلا بعد الثبوت والتروي من الخبر الذي لا تردد فيه، وبعد أن يعتمد عليها ولاة الأمر وحكام الشرع، فالتحقيق بها أتم والغلط فيها أبعد.

يؤيد هذا أن من قواعد الشريعة، أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما يحصل المأمور أو لا يتم إلا به فهو مأمور، وهذه الأمور متى ثبتت عند أَولياء الأمر، تعين عليهم أن يخبروا بها الناس ويبثوها بينهم، بحسب قدرتهم بأسرع وقت ممكن ليصوموا، ويفطروا، ويصلوا، ويقيموا الأمور الشرعية.

ومن المعلوم أن الرمي، وإرسال البرقيات، أبلغ من مجرد نداء المصوتين بثبوت الشهر، ويشيع الخبر بها بأسرع وقت، فأقل الحالات فيها أنها مستحبة، والقاعدة الشرعية تقتضي وجوبها مع القدرة عليها، إذا تباعدت الأقطار ولم يحصل المقصود إلا بها.

هذا من جهتها في نفسها، وأما المبلغون المخبرون بها، فإنه يتعين عليهم العمل بمضمون ما دلت عليه، من الصيام، والفطر، ودخول الأوقات وغيرها. ومما يدل على ذلك أن مقصود الإخبار بالرمي والإبراق ونحوه هو ترجمة وتعبير عما تقرر عليه الأمر عند أهل الحكم الشرعي، وهي ترجمة يفهمها كل أحد، لأنها تعبير عن أمر يتفق عليه أولو الأمر والحكام على الناس ويعرفه الناس معرفة لا يشكون فيها وفي المراد منها، وما كان هكذا فالشريعة لا ترده، بل لا تقبله، وتأمر به عند تيسره، والترجمة التي يحصل بها العلم، لم يزل العمل بها على أي

طريقة وصفة كانت، ويدل على هذا أن النبي ﷺ قد أمر بالتبليغ عنه وتبليغ شرعه وحث على ذلك بكل وسيلة وطريقة.

والتبليغ أنواع متعددة، فتارة تبليغ ألفاظ الكتاب والسنة، وتارة تبليغ معانيها، وتارة تبليغ الأحكام الثابتة شرعاً ليصل علمها إلى الناس، فيتمكنون من العمل بما شرعه الله، والإخبار بالرمي والإبراق من هذا النوع، فإنه إذا ثبت بالطرق الشرعية وجوب الصيام والفطر على الناس، أو وجوب شريعة من الشرائع، تعين على ولاة الأمر تبليغ الناس بأسرع ما يقدرون عليه، ليقوم الناس بما أمر الله به ورسوله في الصيام، والفطر، والصلاة وغيرهما، وكلما كان الطريق للتبليغ به أقوى وأسرع أو أشمل، كان أولى من غيره، وكان داخلاً في تبليغ الأحكام الشرعية، فدخل في هذا تبليغهم بجميع المقربات، وبذلك يعلم حكم إيصال أصوات المبلغين عن الشارع من الخطباء والوعاظ وغيرهم بالآلات الموصلة للأصوات إلى مسامع الخلق.

وهذه المسألة أوضح من أن يحتج لها، لكن لما حصل الاشتباه فيها على كثير من الناس احتيج إلى بيان الأصول الشرعية التي أخذت منها.

ومما يؤيد ذلك، ويوضحه، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر واجبات الدين، ومن أعظم ما يدخل في ذلك أنه إذا ثبتت الأحكام الشرعية التي يتوقف عمل الناس بها على بلوغ الخبر، فإنه يتعين على القادرين إيصالها إلى الناس بأسرع طريق وأحسن وسيلة يتمكنون بها من أداء الواجبات، وتوقي المحرمات، ولا يشك أحد أن إشاعة الأحكام وتعميمها إذا ثبتت بالأصوات والرمي، وما هو أبعد مدى منه وأبلغ انتشاراً مما يدخل في هذا الأصل الكبير.

ومما يدل على ذلك أن صدور هذه الأخبار بالإبراق ونحوه، تقع محررة منقحة يندر جداً وقوع الخطأ والغلط فيها، فضلاً عن التعمد ومخالفة ما ثبت عند ولاة الأمر، والناس قد عرفوا واصطلحوا أنها إذا حصلت، فإنها لا تصدر إلا بعد عرضها على الحكام الشرعيين وتنقيحها وثبوتها ثبوتاً لا تردد فيه، وأنها

أبلـغ من شهادة الشهود التي تحتمل السهو والغلط أكثر من هذا، وهذه الأشياء لا يمكن التقول أو الافتئات فيها على ولاة الأمر، وإذا كان الناس يعتمدونها في أمور دينهم ودنياهم، كالولايات، والوكالات في النكاح، والعقود، والمواريث، وموت الأزواج، ويثبتون مقتضى ذلك من العدة، والإحداد، والميراث وغير ذلك، وكإخراج الزكاة، والكفارات، وكالحوالات، وتنقل من محل إلى محل، ونحو ذلك مما لا يحصى، فما المانـع من قبولها في ثبوت الأشهر، والصيام، والفطر ونحوه، وهي في هذه الحال قد احتف بها من القرائن المحققات والضبط والتحرير ما لا يوجد في غيرها، خصوصاً الصادرة في مقر الحاكم الشرعي، وهذا واضـح ــ ولله الحمد ــ فالشارع لا يرد خبراً صادقاً ولا ينفي طريقاً يحصل به الثبوت، ولا يفرق بين المتماثلات، وإنما يتوقف في خبر المجهول ومن لا يوثق بخبره، أو من محل لا حاكم فيه، فهذا النوع يجب التثبت في خبره.

والحاصل أن إيصال الأخبار بالرمي والبرقيات ونحوها مما يوصل الخبر إلى الأماكن البعيدة، هو عبارة وتعبير عما اتفق عليه ولاة الأمر، وثبت عندهم مقتضاه، وهو من الطرق التي لا يرتاب الناس فيها، ولا يحصل لهم أدنى شك في ثبوت خبرها، ومن توقف فيها في بعض الأمور الشرعية فلم يتوقف لشكه في أنها أفادت العلم، وإنما ذلك لظنه أن هذا الطريق المعين لم يكن من الطرق المعتادة في الزمان الأول، وهذا لا يوجب التوقف. فكم من أمور حدثت لم يكن لها في الزمان الأول وجود، وصارت أولى وأحق بالدخول من كثير من الأمور الموجودة قبل ذلك، والله أعلم.

**س ٦ ــ المذهب وجوب صوم الثلاثين من شعبان إذا كان غيم أو قتر، فهل هو صحيـح عندكم؟**

ج ــ المسألة فيها خلاف في المذهب وغيره، والصحيـح من الأقوال، الذي تدلُّ عليه الأدلة الصحيحة، أنه لا يصام يوم الثلاثين من شعبان في الغيم، لأن النبـي ﷺ ثبت عنه أنه قال: (فإن غُمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً) وهذا صريـح يرجـع إليه الحديث الآخر: (فإن غُمَّ عليكم فاقدروا

له) ومـع ذلك فالصيام ليس بمحرم، بل هو جائز، ولكن الفطر أرجـح وأقرب للأدلة الشرعية، وهو رواية عن الإمام، اختارها شيـخ الإسلام.

**س ٧ ـ إذا ترك التماس هلال شهر رمضان ليلة الثلاثين من شعبان لتهاون أو غيره، ثم قامت البينة في أثناء النهار، فهل يلزمه القضاء على اختيار شيـخ الإسلام؟**

ج ـ لا فرق عند الشيـخ بين هذا وبين غيره، فالذي تسبب وحرص على التماس هلاله وغيره حكمهم واحد.

**س ٨ ـ إذا صام أول يوم من رمضان، ثم جاءه من شككه في أنه لم يثبت، وإنما هو شك، فأفطر، فهل عليه كفارة؟**

ج ـ نهاية ما عليه قضاء ذلك اليوم، وأما الكفارة، فلا كفارة عليه في هذا الإفطار، إلا أن يكون قد وطىء زوجته ذلك اليوم فإنه يكون عليه كفارة ظهار على المذهب، وعلى القول الصحيـح: لا كفارة على الناسي والجاهل، خصوصاً هذا المغرور والله أعلم.

**س ٩ ـ إذا صام يوم الاثنين أو الخميس، وله عادة بذلك، وقد وافق يوم الشك، ونوى إن كان من رمضان فهو فرض فهل يجزئه إن بان منه؟**

ج ـ قد ذكر أصحابنا ـ رحمهم الله ـ أن صوم الشك يجزىء إذا ظهر من رمضان إذا كان غيم ونحوه، وأما من غير مانـع فلا يجوِّزون هذا التعليق، سواء قال ذلك من يصوم النفل، أو من هو مفطر، بأن قال: إن كان غداً من رمضان، فأنا صائم، وإلا، فأنا مفطر في أوله، ويقولون: إنه لم يبن على أصل، بخلاف نيته في آخر الشهر، فإنه بانٍ على أصل.

وعلى أصل شيـخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الأحكام لا تلزم إلا ببلوغها للمكلف، فمثل هذا وما هو أشد منه، لا يلزمه أن يصوم هذا اليوم الذي ثبت بعد ذلك أنه من رمضان، وأنا أختار ما قاله الشيـخ رحمه الله، لأنه ثبت في الصحيـح العفو عن الناسي إذا فعل المفطرات، فالمخطىء شبيـه

بالناسي، بل جعل الشارع حكم الناسي والمخطىء واحداً في العفو والسماح، والله أعلم.

**س ١٠ ــ إذا رأت الحامل الدم في رمضان، وصامت، فما الحكم؟**

ج ــ هذا مبني على أن الدم الذي يأتي المرأة الحامل، دم فساد، كما هو المشهور في المذهب، فعليه: لا تفطر، بل يجب عليها الصيام والصلاة، أو هو حيض كما هو في الرواية الثانية عن الإمام أحمد، وهي الصحيحة، فيكون حيضاً، تترك له الصلاة والصيام، فإن صامت قضت، وهذا هو المختار، والله أعلم.

**س ١١ ــ قولهم: ومن نوى الإفطار أفطر، هل هو وجيه؟**

ج ــ نعم هو وجيه، وذلك أن الصيام مركب من حقيقتين: النية، وترك جميع المفطرات، فإذا نوى الإفطار، فقد اختلت الحقيقة الأولى، وهي أعظم مقومات العبادة، فالأعمال كلها لا تقوم إلا بها.

ومعنى قولهم: أفطر، معناه: أنه حكم له بعدم الصيام، لا بمنزلة الآكل والشارب، كما فسروا مرادهم.

ولذلك لو نوى الإفطار وهو في نفل، ثم بعد ذلك أراد أن ينوي الصيام قبل أن يحدث شيئاً من المفطرات، جاز له ذلك، ولكن أجره وصيامه المثاب عليه من وقت نيته فقط، وإن كان الذي نوى الإفطار في فرض، فإن ذلك اليوم لا يجزئه ولو أعاد النية قبل أن يفعل مفطراً، لأن الفرض شرطه أن النية تشمل جميعه من طلوع فجره إلى غروب شمسه، بخلاف النفل، وها هنا فائدة يحسن التنبيه عليها، وهي أن قطع نية العبادة نوعان:

نوع لا يضره شيء، وذلك بعد كمال العبادة. فلو نوى قطع الصلاة بعد فراغها أو الصيام، أو الزكاة، أو الحج أو غيرها بعد الفراغ، لم يضر، لأنها وقعت وحلت محلها، ومثلها لو نوى قطع نية طهارة الحدث الأكبر أو الأصغر بعد فراغه من طهارته، لم تنتقض طهارته.

والنوع الثاني: قطع نية العبادة في حال تلبسه بها، كقطعه نية الصلاة وهو فيها، والصيام وهو فيه، أو الطهارة وهو فيها، فهذا لا تصح عبادته، ومتى عرفت الفرق بين الأمرين، زال عنك الإشكال.

**س ١٢ ــ إذا استاك وهو صائم فوجد حرارة أو غيرها من طعمه فبلعه، فهل يضره؟ وإذا أخرجه من فمه وعليه ريق ثم أعاده وبلعه، فهل يضره؟**

ج ــ لا يضره في الصورتين، كما نص عليه الأصحاب في الأخيرة، وهو ظاهر كلامهم في الأولى، والأمر بالسواك للصائم وإباحته يشمل ذلك كله، فلا بأس به إن شاء الله.

**س ١٣ ــ إذا تسحر بليل، ونوى الصيام، ثم عرض له أن يأكل ويشرب بعد ذلك قبل الفجر، فهل يجوز؟**

ج ــ نعم له ذلك، فإن الله تعالى قال:

**﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾**. [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

ولم يفرق بين من نوى اللزوم قبل الفجر، وبين من لم ينو، ونيته في أثناء الليل أن يصوم ويترك جميع المفطرات، لا يحسب له الصوم الشرعي إلا من طلوع الفجر، فإنهم قالوا في تعريف الصوم: إنه الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهذا لا خلاف فيه. وليست نيته ترك الطعام ونحوه قبل الفجر بمحرم له، بل يجوز له الأكل والشرب والجماع في هذه الحال حتى يطلع الفجر.

## باب صوم التطوع

**س ١ ــ إذا صام ستة أيام من شوال في ذي القعدة، فهل يحصل له الأجر الخاص بها؟**

ج ــ أما إن كان له عذر من مرض أو حيض أو نفاس أو نحو ذلك من

الأعذار التي بسببها أخر صيام قضائه أو أخر صيام الست، فلا شك في إدراك الأجر الخاص، وقد نصوا على ذلك.

وأما إذا لم يكن له عذر أصلاً، بل أخر صيامها إلى ذي القعدة أو غيره، فظاهر النص يدل على أنه لا يدرك الفضل الخاص، وأنه سنة في وقت فات محله، كما إذا فاته صيام عشر ذي الحجة أو غيرها حتى فات وقتها، فقد زال ذلك المعنى الخاص، وبقي الصيام المطلق.

**س ٢ ـ ما الحكمة في إباحة الصوم في أيام التشريق للمتمتع والقارن مع عدم الهدي؟**

ج ـ يستفادمن إباحة النبي ﷺ لصيام أيام التشريق للمتمتع والقارن الذي لم يجد الهدي، دون قضاء رمضان، مع أنه أكمل وأعظم فائدتان:

إحداهما: أن الوقت إذا كان متسعاً للواجب الأعلى، متعيناً للواجب الأدنى، أنه من مرجحات المفضول على الفاضل.

وفائدة أخرى: أنه إذا تعارض واجب ومحرم، تعين تقديم الواجب، وبهذه الحال لا يصير حراماً في حق المؤدي للواجب، كما يجب على المتمتع الحلق إذا فرغ من عمرته بعد دخول ذي الحجة، ويحرم على المضحي أخذ شيء من شعره، فهذا لا يدخل في المحرم. والله أعلم.

## باب الاعتكاف

**س ١ ـ إذا نذر الاعتكاف في غير المساجد الثلاثة، فهل يكره الوفاء بنذره؟**

ج ـ إن كان يحتاج إلى شد رحل، فلا يجوز، كما صح في الحديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)، فكل موضع: مسجد أو غيره، عينه لعبادة اعتكاف أو غيره، وهو يحتاج إلى شد رحل، فإنه لا يجوز، وإن كان بعض الأصحاب كالموفق وغيره أجاز ذلك، فالذي عليه المحققون: هو ما دل عليه الحديث من المنع.

وإن كان لا يحتاج إلى شد رحل، فإن كان الذي عَيَّنَهُ تقام فيه الجمعة، وهو يتخلل اعتكافه جمعة، لم يعتكف في مسجد لا تقام فيه الجمعة، لأنه يـأتي بأقل مما وجب عليه، وإن كان المسجدان سواءً في إقامة الجمعة أو عدمها، فهو مخير، إن شاء وفى بما نذره، وإن شاء في الآخر، كما ذكر هذا الأصحاب ـ رحمهم الله تعالى ـ .

**س ٢ ـ إذا شرط في اعتكافه شيئاً مما له منه بد، فهل تكفي نيته، أم لا بد من نطقه؟**

ج ـ نيته كافية عن نطقه، كما هو الأصل في كل العبادات، إلا الاشتراط في الحـج، فلا بد من نطقه فيه، والله أعلم.

# كتاب الحج

**س ١ ــ ذكر الفقهاء أن نفقة محرم المرأة في الحج عليها، فما مرادهم من ذلك؟**

ج ــ مرادهم بذلك ما صرحوا به أن عليها الزاد والراحلة لها وله، والزاد: اسم جامع لكل ما يحتاج إليه للتزود في سفره، وأما الحوائج الأخَر غير المتعلقة بذلك السفر، فلا تدخل في ذلك.

**س ٢ ــ امرأة عجوز فقيرة كفيفة لم تحج، فهل يحج عنها؟**

ج ــ أما حجة الإسلام إذا كانت تطيق الركوب ــ واليوم كل يطيق الركوب ــ فلا بدَّ أن تحج بنفسها، لأن لها أولاداً ومحارم ولو أنهم غائبون.

**س ٣ ــ هل يجوز الحج بسيارات الحكومة إذا كان السائق يأخذ الأجرة لنفسه وأجرته على الحكومة؟**

ج ــ لا بأس أن تحج والتبعة على السائق ــ إن كان فيه تبعة، وأنت ما عليك من إثمه شيء، والله أعلم.

**س ٤ ــ ذكر الفقهاء أنه يلزم النائب أن يحج حجة الإسلام من بلد المنوب عنه حياً أو ميتاً، فهل هذا وجيه؟**

ج ــ الصحيح الذي لا شك فيه، أنه لا يلزم أن يكون من بلد المنوب عنه، ولا أبعد منه، بل يجوز من أقرب منه، ومن مكة، وهو ظاهر الأدلة

الشرعية، ولا دليل على إيجاب ذلك، وما استدلَّ به من التعليل منقوضٌ لا يتم الاستدلال به.

**س ٥ ـ اشترط الأصحاب لمن ناب عن غيره في حجة الإسلام، أن يحرم من بلد المنوب عنه، أو بلد أبعد منها عن مكة، فهل هذا وجيه؟**

ج ـ أما اشتراط الأصحاب رحمهم الله أن النائب عن الغير في حجة الاسلام لا يصح إلا من بلده، أو بلد أبعد إلى مكة من بلده، فهو قول ضعيف لا دليل عليه؛ وغاية ما استدل له أنه كان يجب على المنوب عنه السعي من بلده إلى الحج، وهذا مثله، وهذا الاستدلال ضعيف جداً، فإن المنوب عنه لو صادف أنه وقت السعي إلى الحج في بلد أقرب من بلده، بل لو كان بمكة وهو لم ينو من بلده الحج، ولكن النية لم تحصل إلا في ذلك المحل، فإنه لم يقل أحد: إنه يجب عليه الرجوع إلى بلده لينويَ بها، فنائبه أولى بها.

وأيضاً فهذا التقول مخالف لعمومات الأدلة الشرعية، فإن النبي ﷺ أجاز النيابة فيه، ولم يشترط أن يكون من بلده، ولو كان شرطاً لبيَّنَه.

وأيضاً فإن الواجب والفَرْضَ إنما هو الإحرام وما بعده من أفعال الحج، وأما ما قبله وما بعده، فلم يأت ما يدل عليه ـ أي على الوجوب ـ وهذا القول قولٌ لبعض الأصحاب، وهو الذي نختاره.

**س ٦ ـ هل يستنيب الشخص في الحج من يكمله؟**

ج ـ أما عند الأصحاب، فإنه إذا حصل للنائب عذر، فقد جوزوا له أن يستنيب فيه، وقد قالوا في عباراتهم: وتجوز الاستنابة في الحج. وفي بعضه: النفل مطلقاً، والفرض عند العذر، مع أني لم أجد عنهم تصريحاً في بعضيات النسك، إلا في الرمي فقط، وأنا ما زالت المسألة من زمان طويل في نفسي، لأن الذي وَقَصَتْهُ راحلته وهو واقف بعرفة لم يأمر النبي ﷺ أحداً أن ينوب عنه في بقية نسكه.

والمقصود أن كلامهم في هذه المسألة لا تطمئن له النفس، والقول إذا

لم يبن للإنسان دليل ظاهر عليه، فليس له أن يفتي به، مع أن الذي انعقد في خاطري أن هذا القول مخالف للدليل، ولم أر ما يدلُّ على جوازه.

**س ٧ ـ إذا مات المحرم في أثناء النسك، فهل يقضى عنه بقيته؟**

ج ـ لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أن من مات وقد شرع في النسك ولم يكمله، أنه يكمل عنه مع وجود ذلك، بل الثابت عن النبي ﷺ في قصة الذي وَقَصَتْهُ راحلته عشية عرفة أنه أمر بتغسيله وتجنيبه ما يجتنبه المحرم، وأخبر أنه يبعث ملبياً يوم القيامة، فهذا يدل على أنه من كرامته على الله، أن نسكه مستمر، وأنه يبعث يوم القيامة بصفة المحرمين.

فلو كان في الإمكان أن يناب عنه في الدنيا، لكان نائبه بمنزلته، وإذا كمل النسك، خرج منه الأصيل والنائب.

وأيضاً فالنبي ﷺ، لم يأمر فيه ولا في أمثاله أن يكمل عنه، وإنما الثابت عنه ﷺ أنه أجاز النيابة في جميع النسك، لا في بعضه.

ويؤيدهذا أن كل عبادة مات العبد قبل تكميلها، أنها لا تكمل عن صاحبها، فإما أن تسقط عنه ولا يلزم أن تقضى، وإما أن يقضى جميعها من أولها، فما الموجب لخروج النسك عن هذا الضابط العام.

**س ٨ ـ إذا عوفي المستنيب قبل إحرام النائب فما الحكم في النسك والنفقة؟**

ج ـ نقل لي بعض الإخوان عن «الغاية» للشيخ مرعي وكلام ابن نصر الله، وهذه صورته: قال في «الغاية» وأجزأ عمن عوفي لا قبل إحرام نائبه، ويتجه: ولا يرجع عليه بما أنفق قبل أن عوفي، بل بعده لعزله إذاً. وقال في الهامش: وفي القلب من إطلاق هذه العبارة شيء.

وقال في حاشية الزاد نمرة (٣١٤) من الطبع: ويتجه: ولا يرجع عليه بما أنفق قبل أن عوفي، بل بعده لعزله إذاً، وإذا لم يعلم النائب زوال عذر المستنيب، هل يقع النسك عن النائب أوعن المستنيب؟ رجح ابن نصر الله وقوعه عن المستنيب والنفقة عليه. انتهى.

وما ذكرته في الجواب[1] يوافق ما قاله ابن نصر الله، وأما الاتجاه الذي ذكره الشيخ مرعي، أنه يرجع بما أنفق بعد عافيته، فهو بعيد، كما نظر فيه صاحب الهامش.

ووجدنا أيضاً كلاماً في حاشية «المنتهى» للشيخ عثمان النجدي يوافق كلام ابن نصر الله، وهذا لفظه.

قوله: لا قبل إحرام نائبه وهل يقع إذاً عن المستنيب وتلزمه النفقة أم عن النائب فيرد النفقة؟ الأول أظهر، وعليه فيعايا بها، فيقال: شخص حل نفل حجه قبل فرضه. انتهى.

أقول: ويمكن الاستدلال عليها بكلام الأصحاب، وأخذها من كلامهم، وذلك أنهم كما ذكروا الاستنابة، وذكروا أنه إذا عوفي قبل إحرام النائب، أنه لا يجزىء عن فرض المستنيب، فدل على أنها يكون ثوابها وأجرها للمستنيب، لا للنائب، ولم يذكروا رد النفقة، فدل على أنها تكون كلها للنائب، وأنه لا يرد منها شيئاً. ومن تدبر كلام الأصحاب في جميع المسائل، عرف ما يدخل في ظاهر كلامهم ومفهومه ومنطوقه، وما لا يدخل، ويحسن به تطبيق السائل على كلامهم كما كان يفعله كثيراً صاحب «الفروع» وبعده صاحب «الإنصاف» في شرحه لـ «المقنع» وتتبع كلامه، وانظر إلى الإخلال بهذا كيف أحوجنا وأحوج قبلنا ابن نصر الله والشيخ عثمان إلى أن نستدل على هذه المسألة بأصول وكلام خارج عن عبارتهم الخاصة بهذا الموضع، ولو رجعنا إلى كلامهم في نفس المسألة التي وقع فيها الإشكال، لوجدناه يؤخذ من قريب، فجزاهم الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء، وفتح علينا من أبواب فضله وكرمه كما فتح عليهم إنه جواد كريم.

---

(١) يشير إلى جواب سابق كتب هذا تتميماً له ولم نعثر على ذلك الجواب.

**س ٩ ــ إذا استأجر من يحج عنه، فلمن تكون الحجة، وهل يدفع ما أخذه؟**

ج ــ تكون الحجة لمن باشرها وحجها، لأن العقد عليها باطل، وأما صحتها بلا نية له، فلأن الحج يخالف غيره في هذه المسألة، فإنه إذا نوى مَنْ عليه حجة الإسلام أن يحج عن غيره، انقلبت عن نفسه، وإذا نوى المفرد والقارن بعد طواف القدوم والسعي التمتع، انقلب الإحرام وما بعده من الطواف والسعي للعمرة، فكذلك هذا الذي استأجره غيره إجارة لازمة تبين فسادها، فوقعت لمن باشرها لا لمن نويت له لفساد العقد، ولكن يبقى الكلام على مسألة النفقة، فإن كان الأجير الذي باشر الحج عالماً بفساد العقد وعدم صحته عن غيره، فليس على المؤجر شيء، بل النفقة والمصرف على الذي باشر الحج. وإن كان جاهلاً بالحكم، كانت إجارة فاسدة، والإجارة الفاسدة يجب فيها أجرة المثل، وهي النفقة والمصرف الذي يحتمله مثله عرفاً. والله أعلم.

**س ١٠ ــ إذا حج بالصبي، وحمله في الطواف والسعي، فهل يجزىء؟**

ج ــ الصواب أن الطواف الواحد يجزىء عن الحامل والمحمول، عن الرجل وعن الصبي، لأنه نوى عن نفسه وعن الصبي. وبعض العلماء يرى أنه لا يكفي إلا عن واحد، ولكنه قول ضعيف.

**س ١١ ــ هل يجوز أن يرمي عن نفسه وعن الصبي في موقف واحد؟**

ج ــ إذا رمى عن نفسه وعن الصبي، بدأ بالرمي عن نفسه، والأفضل إذا كمل الجمرات الثلاث عن نفسه، استأنفها للصبي، فإن وقف عند كل واحدة من الجمار فرماها عن نفسه ثم رماها عن الصبي، فالصحيح أن ذلك جائز، لا سيما إذا كان ازدحام ومشقة فالأمر ــ ولله الحمد ــ واسع.

**س ١٢ ــ هل إذا طاف وسعى محمولاً لعذر، ونوى كل من الحامل والمحمول عن نفسه يجزىء؟**

ج ــ المشهور في المذهب عند الحنابلة المتأخرين، أنه لا يجزئه إلا عن المحمول، وهو ضعيف لا دليل عليه ولا تعليل صحيحاً يدل عليه، والصحيح

في هذا مذهب أبي حنيفة، أنه يجزىء عن كل واحد من الحامل والمحمول، وهو قول في مذهب الحنابلة، استحسنه الموفق، وهو الصواب الذي تدل عليه الأدلة، فإن من طاف حاملاً أو محمولاً لعذر أو لغير عذر على القول الآخر، فإنه قد أدى فريضة طوافه، وقد صدق على كل منهما أنه طاف بالبيت العتيق.

يؤيد هذا قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) وهذان كل واحد منهما نوى الطواف لنفسه، وفعله، يؤيد هذا أنه بالاتفاق إذا حله في بقية المناسك، كالوقوف بعرفة، ومزدلفة وغيرها، أن النسك قد تم لكل منهما، فما الفرق بينهما وبين الطواف والسعي؟

يؤيد هذا أنه لم ينقل أن أحداً من الصحابة والتابعين قال: إنه لا يجزىء عن الحامل، وقد وقع في زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه والتابعين قضايا متعددة من هذا النوع، فلم يأمروا الحامل أن يطوف طوافاً آخر وسعياً آخر، وإذا كان الولي المحرم ينوي الإحرام عن الصبي الذي لا يعقل ما يقوله ويحضره في المشاعر كلها، ويجزىء عن الجميع، فما بال الطواف والسعي.

وهذا القول كلما تدبره الإنسان، عرف أنه الصواب المقطوع به.

وأيضاً فإن طواف الراكب على بعير وغيره، يجوز على الصحيح لعذر ولغير عذر، وعلى القول المشهور من المذهب: أنه يجوز لعذر الطواف عن المحمول فجراً قولاً واحداً، فما الفرق بين الراكب على الحيوان والمحمول على ظهر الإنسان، والحاجة تدعو إلى كل منهما، بل الحاجة إلى حمل الإنسان أشد من الحاجة إلى حمل الحيوان، بل الحيوانات في هذه الأوقات متعذر دخولها إلى المسجد الحرام، كما هو معروف، والله أعلم، مع أن الحامل إذا نوى عن نفسه كان أحق بوقوعه عنه.

# باب الإحرام

**س ١ ـ هل يجب الإحرام على من قصد مكة وهو لا يريد حجاً ولا عمرة؟**

ج ـ اختلف العلماء في وجوب الإحرام عليه، والصحيح أنه لا يجب عليه أن يحرم، وإنما يستحب له.

**س ٢ ـ إذا قصد مكة وهو يريد الإقامة في الشرائع قبل، فمن أين يحرم؟**

ج ـ لا يحرم من الميقات، فإذا أراد أن يدخل مكة ويمشي من الشرائع، أحرم، إلا إذا كان قصده الحج، فلا يتجاوز الميقات حتى يحرم.

**س ٣ ـ إذا قال الجاهل: أحرم بالحج والعمرة، فلبى بهما ونيته وقصده التمتع، فهل العبرة بالنية، أم بما تلفظ به؟**

ج ـ المدار على القلب، ولهذا إذا غلط فلفظ بغير ما نوى من صلاة أو صوم أو طهارة أو حج أو عمرة، فغلطه لا يضره، والمدار على القلب، وقد ذكر هذا الفقهاء رحمهم الله حيث قالوا: ولا يضر سبق لسانه بغير ما نوى، وهذا عامٌّ في كل العبادات، وسبق اللسان إما أن يكون نسياناً أو جهلاً. والله أعلم.

**س ٤ ـ هل يجب دم التمتع والقران على أهل جدة؟**

ج ـ سألت حفظك الله عما يجب على المتمتع بالعمرة إلى الحج والقارن والمفرد.

أما المتمتع، فهو الذي يحرم بالعمرة في أشهر الحج التي أولها شوال وآخرها ذو الحجة، ثم يحج من سنته، فعليه دم شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة، فإن لم يجد، صام عشرة أيامٍ، ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجع.

ومثل ذلك القارن، وهو الذي يحرم بالنسكين، يعني بالحج والعمرة جميعاً، فعليه الهدي المذكور، فإن لم يجد، صام عشرة أيام، ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجع. ولكن هذا في حق القادم من مسافة القصر أي يومين فأكثر.

أما أهل مكة ومن كان قريباً منها مثل الشرائع وجدة ونحوها، فليس عليه هدْيٌ ولا صيام، كما قال تعالى:

﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٩٦]

واختلف أهل العلم في المقيمين بجدة، هل إذا أحرموا متمتعين أو قارنين عليهم الهدْي المذكور، أم أنهم مثل أهل مكة، والاحتياط أن يهدوا إذا تمتعوا وقرنوا، وأما المفرد الذي لم ينو إلا الإحرام بالحج وحده، فليس عليه هدْيٌ ولا صيام.

**س ٥ ــ إذا كان لا يدرك الفدية إلا بدين، هل الأفضل أن يستدين ويشتري أو يصوم؟**

ج ــ الأفضل له أن يصوم ولا يشكل ذمته، لأن الله تعالى قال:

﴿فَمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٩٦]

واتباع رخصة الله أولى.

**س ٦ ــ هل يجوز للغني أن يفرد الحج لئلا تلزمه الفدية؟**

ج ــ هذا لا بأس به، ولكن تفوته الفضيلة، فإن الأفضل أن يتمتع ويفدي ليحصل له ثواب الحج والعمرة والهدي.

**س ٧ ــ إذا أحرم بالعمرة متمتعاً واشترى الدم من الطريق وساقه، فهل حكمه حكم من ساق الهدي لا يحل إلا يوم النحر؟**

ج ــ إذا ساق الهدي من بلده، أو من الطريق بشراء أو غيره، فإنه لا يحل حتى يبلغ الهدْيُ محله.

**س ٨ ــ إذا طاف للقدوم وسعى وهو قارن أو مفرد، وأراد أن يفسخ إلى العمرة، فهل يجزئه طوافه وسعيه الأول، أم لا؟**

ج ــ نعم يجزئه طوافه الذي كان نواه للقدوم، وسعيه الذي كان نواه -

للحج عن طواف العمرة وسعيها، فينقلبان بالنية بعد الفراغ منهما من حال إلى حال، لأنهما لما فسخا نية الحج أو القران إلى عمرة منفردة، تبعها الطواف والسعي، كما تبعها الإحرام وما بعده.

فلا يقال في هذه الحال: إنه أحرم بالعمرة من مكة، بل يكون إحرامه بالعمرة من الميقات، وتكون عمرة أفقية، لا عمرة مكية، وهذه المسألة من غرائب المسائل في العلم، وهو أن الشيء ينقلب من شيءٍ إلى آخر بالنية بعد الفراغ، ومن فهم ما ذكرت، زال عنه الاستغراب، وأن هذا النسك حل محل ما قبله، وبهذا أمر النبي ﷺ لما طافوا وسعوا أن يجعلوها عمرة واجتزؤوا بالطواف المتقدم والسعي من غير إعادة.

**س ٩ ـ ما قول أصحابنا الحنابلة: إن المتمتع إذا طاف لعمرته وسعى لها وتحلل منها ثم وطىء بعد هذا الحل ثم أحرم بالحج وتممه، ثم تبين له أن طوافه للعمرة كان بغير طهارة؟**

**قالوا: لم يصح حجه، لأنه أدخل حجاً على عمرة فاسدة، وإدخال الحج على العمرة غير جائز، ولا منعقد، فهل هذا القول صحيح، وما الذي تختارونه فيها؟**

ج ـ الذي نراه في هذه المسألة المهمة، أن الحج صحيح حتى لو حكمنا على العمرة بالفساد، وعندنا في هذا الرأي عدة مآخذ.

المأخذ الأول: في أصل المسألة، وهو منع إدخال الحج على العمرة الفاسدة، لأنه لم يرد المنع من ذلك، والقران الذي هو أحد الأنساك الثلاثة قد ثبتت صحته إذا أحرم بهما جميعاً من الميقات، كما ثبت إدخال الحج على العمرة الصحيحة، فالفاسد كالصحيح.

المأخذ الثاني: أن الوطء في الحج، إنما يفسده إذا كان صاحبه غير معذور على الصحيح، كما هو اختيار شيخ الإسلام، وكما هو ظاهر العمومات الرافعة للحرج عن الخطأ والنسيان. وهذا بلا شك جاهل بالحال، والجاهل بالحال

كالجاهل بالحكم سواء، فإذا كان الصحيح أن الوطء من الناسي والجاهل في الحج لا يفسده ولا يضر، فكيف بهذا الوطء الذي هو حل صحيح، أو حل بين العمرة والحج يعتقده صاحبه صحيحاً، فهذا من باب أولى وأحرى.

المأخذ الثالث: اختلف العلماء في صحة طواف المحدث على ثلاثة أقوال: الصحة، وعدمها، والتفصيل بين ترك الطهارة عمداً، فلا يصح طوافه، وبين تركها جهلاً ونسياناً، فيصح، كما قال به كثير من أهل العلم.

فعلى القولين: قول من يقول بصحته مطلقاً، ومن يقول بصحته للمعذور، الحكم ظاهر واضح، أنه وطيء بعد عمرة صحيحة تامة، وعلى القول بعدم الصحة مطلقاً، نرجع إلى المأخذين السابقين.

المأخذ الرابع أن نقول: هب أن العمرة فاسدة بالوطء المذكور، فنخصها بالفساد ولا نعدي ذلك إلى الحج، وذلك أن الأصل أن أركان العمرة وواجباتها ومكملاتها متعلقات بها وحدها صحةً وفساداً ونقصاً وكمالاً، كما أن الحج كذلك، وكلاهما نسك مستقل في ذاته، ومستقل في أقواله وأفعاله، وبينهما حد برزخ لا من هذا ولا من هذا، والعبادات المستقلة، الأصل فيها أن كل عبادة لا تفسد بفساد الأخرى، فإدخال هذه المسألة في هذا العموم أولى من إخراجها بحجة أن العمرة والحج مرتبط بعضها ببعض، فالارتباط إنما هو في وجوب الإتيان بالحج للمتمتع الذي لم يحج أو الذي فسخ عمرته إلى الحج، لا في أفعالها، بدليل استقلال كل منهما بما فيها من طوافٍ وسعيٍ ووقوف وحلاق وغيرها. والله أعلم.

## باب محظورات الإحرام

**س ١ ـ إذا لبس في العمرة بعد الطواف والسعي، فما الحكم؟**

ج ـ إذا لبس جاهلاً بالحكم، ثم حلق بعد ما لبس، فلا شيء عليه.

ولو كان عالماً بالحكم، كان عليه فدية أذى: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة فدية ـ تخيير.

**س ٢ ـ ما حكم استظلال المحرم بالشمسية؟**

ج ـ في هذه المسألة خلاف بين العلماء، وفيها في مذهب الإمام أحمد قولان:

أحدهما: أن ذلك لا يجوز.

والثاني: أنه يجوز، والاحتياط ألا يستظل المحرم بشمسية وغيرها، ومع ذلك نحن لا ننكر على من استظل بشمسية، لأنه لم يرد فيها نص خاص. والله أعلم.

**س ٣ ـ قولهم: وإن كرر النظر فأمنى فعليه بدنة، وإلا فشاة، وإن أمنى بنظرة فشاة، هل هو وجيه؟**

ج ـ إنما أوجبوا في تكرار النظر البدنة إذا أنزل بالقياس على الوطء، وهو غير ظاهر، لأن القياس شرطه أن المقيس والمقيس عليه لا فرق بينهما، وبين تكرار النظر والوطء من الفرق شيء عظيم، فلا يصح الإلحاق، والصحيح عندي ما قاله بعض أصحابنا، أن فيه فدية أذى، وكذلك إيجاب الشاة بالإمناء بنظرة واحدة عندي فيه تفصيل، إن وقع بلا قصد، فلا يجب شيءٌ، وإن تعمده، وتعمد النظرة المحرمة، فيتوجه ما قالوه ليحصل الجبر حيث فعل المحرم بالفدية. والله أعلم.

## باب صفة الحج والعمرة

**س ١ ـ إذا تركنا ركعتي الإحرام لكوننا وصلنا المحرم بعد العصر، فما حكم ذلك؟**

ج ـ صلاة الإحرام غير واجبة ولو في غير وقت النهي، وليس على الإنسان نقص في نسكه إذا تركها، فليكن ذلك معلوماً.

**س ٢ ــ إذا نوى الإقامة بمكة مدة تمنع القصر، وخرج ليشيع أهله خارج الميقات، فهل عليه طواف لخروجه وإحرام لدخوله؟**

ج ــ أما المشهور من المذهب، فإنه يجب عليه الوداع لخروجه والإحرام لدخوله كما هو معروف من كلام الأصحاب.

وأما اختيار شيخ الإسلام في المسألتين، وهو قول في المذهب، فإنه لا يجب عليه شيء في الصورتين، فليس عليه وداع لخروجه، لعدم وجوب الوداع عنده لغير حاج، ويستدل بالحديث: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت طواف. ويرى أن هذا خاص بالحجاج والمعتمرين إذا صدروا لبلدانهم، والمشهور من المذهب التعميم، وهو ظاهر عموم الحديث. وأما إحرامه إذا تعدى الميقات، أو قدم من بلده لغير حج ولا عمرة، فالقول الثاني الذي هو اختيار الشيخ أصح من المذهب، وأنه لا يجب عليه إحرام إلا أن يشاء، والحديث الذي في «الصحيحين» صريح في هذا، وهو أنه لما ذكر النبي ﷺ المواقيت قال: (هن لأهلن ولمن مَرَّ عليهن من غير أهلهن ممن يريد الحج والعمرة) فهذا تصريح بأنه إنما يجب في هذه الحال التي يريد الإنسان فيها الحج أو العمرة، بخلاف ما إذا لم يرد حجاً ولا عمرة، والخارج من مكة يقصد الرجوع إليها، من باب أولى أن لا يجب عليه إحرام.

**س ٣ ــ ما حكم من ترك الوداع وهو غير حاج ولا معتمر؟**

ج ــ المسألة التي ذكرت أنك ما ودعت أنت والوالد بسبب أنه ما حصل، اشتغلت بالوالد، ولا تمكنت أنت وهو من الوداع، فحيث أن روحتكم القصد منها العلاج، علاج الوالد، ولا حصل فسحةٌ تتسع للوداع، فإن شاء الله ليس عليكم شيء، لا فدية، ولا غيرها.

**س ٤ ــ إذا طاف للوادع وخرج من مكة وأقام قريباً منها، فهل يجب عليه إعادة الطواف؟**

ج ــ أما من طاف للوداع ثم خرج من مكة مسافراً، ولكنه أقام بموضع

قريب كالعدل أو منى أو نحوهما يوماً أو يومين مثلاً، فلا يعيد طوافه، لأنه سافر بالفعل، وقد أبيحت له رخص السفر كلها، لأنه خرج من مكة، وإنما الإقامة التي يحتاج معها إعادة الطواف في مكة وحدها، وهذا الكلام الذي ذكرته مفهوم من كلام الأصحاب رحمهم الله تعالى.

**س ٥ ــ إذا طاف للوداع بعد أن فرغ من جميع شؤونه ثم ذكر حاجة أوصاه بها صاحب له فاشتراها فما الحكم؟**

ج ــ لا حرج عليه، سواء كان اللازم له أو لغيره.

**س ٦ ــ ما أركان الحج، وواجباته، وسننه؟**

ج ــ الحج له أركان أربعة لا يتم إلا بفعلها: الإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف، والسعي.

وله واجبات يجب فعلها ومن تركها فعليه فدية، وحجه صحيح وهي:

وقوع الإحرام من الميقات، والوقوف بعرفة إلى غروب الشمس، والمبيت بمزدلفة إلى بعد نصف الليل، والمبيت بمنى ليلة الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر إن تأخر ورمى الجمرات، والحلق، والتقصير، وطواف الوداع، والباقي من أعمال الحج وأقواله كلها مستحبة مكملات، من تركها فلا إثم عليه، ومن فعلها كان أكمل لحجه وأعظم لثوابه. والله أعلم.

القسم الثالث

# كتاب الأضاحي والهدايا والعقيقة

# الفتـاوى السعديـــة

# كتاب الأضاحي والهدايا والعقيقة

**س ١ ــ إذا ذبح الحاج ما عليه من الدماء، ثم طرحه في المذبح، فهل يكفي أم لا بد من تسليمه لمستحقه؟**

ج ــ الأحوط والأولى حيث كانت عوائد الحكومات منع الناس من الخروج في الذبائح عن المحل المعين لهم أن الإنسان يأخذ من ذبيحته شيئاً يتصدق به، ليتيقن براءة ذمته، لأنهم لا يمنعون من الأخذ من اللحم، فإذا أخذ منها ما يتصدق به، فقد تيقن براءة ذمته. وإذا لم يأخذ شيئاً، فإن كان يقدر على الأخذ وتركه، فهذا في النفس من إجزائه شيء لأنهم وإن كانوا يقولون: دعه للفقراء يأخذونه، فإنه ليس القصد تركه للفقراء، وقد لا يأخذ الفقراء منه شيئاً أصلاً، وأما إن كان معذوراً بمنع أو غيره، فالظاهر ــ إن شاء الله ــ إجزاؤه، وقد اتقى الله ما استطاع، وفعل ما يقدر عليه من الذبح، وترك ما يعجز عنه، والحمد لله على تيسير شرعه، ونفي الحرج عن هذه الأمة.

**س ٢ ــ إذا باع البدنة لمن يضحي بها واستثنى جلدها فهل يصح؟**

ج ــ إذا باع البدنة لمن يضحي بها، ثم استثنى منها جلدها، فإنه لا يصح ولا تكون أضحية، لأن الأضحية هي الذبيحة بما احتوت عليه من لحم وشحم وجلد وغيره، فكما لا يجوز استثناء شحمها، ولا جوفها، ولا غير ذلك من لحمها، فلا يجوز استثناء جلدها، ولذلك شمل الجلد حكم الأضحية بأنه لا يباع، وإنما يستعمل أو يهدى أو يتصدق به، لأنه منها.

**س ٣ ـ ما حكم التشريك في أضحية البقر؟ وكيف تقسم؟**

ج ـ لا شك أن سبع البدنة، أو سبع البقرة قائم مقام الشاة، وجميع البقرة أو جميع البدنة قائم مقام سبع شياه، وبالعكس، وهذا هو الذي تدل عليه الأحاديث النبوية، وهو الذي فهمه أهل العلم منها، ولذلك فالإفتاء بمنع إهداء سبع البدنة، أو سبع البقرة لأكثر من واحد في حياة الإنسان أو في وصيته بعد وفاته إنما حدث الإفتاء به في الأوقات الأخيرة، وهو لا شك غلط. وإلا فجميع الأصحاب في الكتب المختصرة والمطولة ذكروا أن حكم ضحية البقرة والبدنة حكم ضحية الغنم في كل شيء، كما ذكروه في آخر كتاب الجنائز، وصرح بها في ذلك الموضع صاحب «الإقناع» تصريحاً لا يحتمل الشك، وكذلك ذكروه في آخر جزاء الصيد. المقصود، ولله الحمد ليس في النفس منها شيء، فإذا كان عندك ضحية لعدد مثل وصية لوالديك أو نحوهم، فجعلتها شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة، فإنها تجزىء، والأفضل من هذه الأمور الأنفع. وأما صفة اقتسام البقرة والبدنة، فهو على العرف الجاري بين الناس حين يشتركون فيها، فيقتسمونها، وإن وقع بعض الأعضاء المستقلة في نصيب أحد الشركاء، والآخر عضو مستقل أيضاً، فلا بأس. وإن اقتسموا كل عضو سبع قسم وسبعة أجزاء، حصل المقصود.

**س ٤ ـ إذا قلنا بجواز التشريك في سبع البدنة في الأضحية فما الفرق بينه وبين الشاة إذن؟**

ج ـ لا فرق بين سبع البدنة وسبع البقرة والشاة، لأن الشارع جعل سبعها عن شاة، وجعلها عن سبع شياه، وقد أثبت الشارع لسبع البدنة أنها أضحية بلا شك، والأضحية سواء كانت من بعير أو بقرة، أو كانت شاة، فإنه يصح التشريك فيها، وهو المذهب بلا شك، وقد ذكره الأصحاب في مواضع متعددة منها قولهم في جزاء الصيد: ويجزىء عن سبع شياه بدنة وبقرة، كما تجزىء عن البدنة والبقرة سبع شياه إلا في جزاء الصيد على قول مرجوح في المذهب، وإلا فالمذهب ولو في جزاء الصيد. فهذه العبارة التي ذكروها في

المختصرات والمطولات ظاهرة جداً أَن سبع البدنة عن شاة في كل شيء بلا فرق بين أن تنوي لواحد أو متعدد. وأصرح من هذه العبارة قولهم في آخر الجنائز: وأي قربة من صلاة أو صوم أو حج أو عمرة أو صدقة أو أضحية أو نحوها فعلها وأهداها، أو أهدى بعضها لحي أو ميت مسلم، نفعه ذلك، فقد صرحوا كما ترى في قولهم: «أهداها أو أهدى بعضها» ومثلوا أيضاً بالأضحية كما صرح به في «الإقناع» وغيره. ومن قال: إنه لا يشرك في ثواب سبع البدنة أو البقرة، فقد خالف ما ذكروه مخالفة ظاهرة، إلا أن يقول: إنها لا تدخل في اسم الأضحية. ومن المعلوم أنه مخالف للنص، ولكلام الأصحاب، فإنهم أثبتوا بلا شك أن سبعها أضحية، فيثبت لها ما يثبت للشاة.

واعلم أن مستند من أفتى من المتأخرين بعدم إجزاء التشريك فيها قول الأصحاب: وتجزىء البدنة والبقرة عن سبعة، ففهم أن المراد أنه لا يشرك في سبعها، ولا يشرك بها كلها أزيد من سبعة، وليس هذا مراد الأصحاب، لأنهم صرحوا بالمسألة كما ترى.

ونحن وغيرنا نسلم أن سبع البدنة لا يجزىء إلا عن أضحية واحدة، كما أن الشاة لا تجزىء إلا عن أضحية واحدة، وأما كون الشاة يجوز إهداء ثوابها لأكثر من واحد، وسبع البدنة لا يجوز، فهذا قول بلا علم، وهو مخالف للأدلة، ولكلام الفقهاء، وللحكمة والمناسبة الشرعية. ولا فرق بين أن يتبرع بها الإنسان في حال حياته، أو يوصي بها بعد مماته، بأن يقول في وصيته: قادم في غلة ثلثي ووصيتي، ولا فرق بين أن يتبرع الإنسان بالأضحية في حال حياته بأن يشتري شاة أو سبع بدنة، فينويها عن نفسه ووالديه مثلاً متبرعاً بها، أو يتبرع بها بعد وفاته بأن يقول في وصيته: ويجعل فيها أضحية لي ولوالدَيَّ مثلاً. فكل ما يجزىء فيها شاة أو سبع بدنة، وما كان أنفع فهو أحب إلى الله تعالى. وكما أنها تؤخذ من كلام الأصحاب من المواضع التي ذكرنا، فإنها أيضاً تؤخذ من كلامهم في موضوع الوصية والوقف، وأنه يرجع في ذلك إلى عرف الشارع.

فإذا أوصى مثلاً بضحية تضحَّى له ولوالديه، ولمن أراد أن يشركه فيها، وأردنا أن ننفذ وصيته، رجعنا إلى موضوع الضحية شرعاً، فإذا وضعها الشارع لأحد ثلاثة أمور: شاة مستقلة، أو سبع بدنة، أو سبع بقرة، فأي واحد من هذه الثلاثة فعله الوصيّ، فقد نفذ الوصية، وقد قام بالواجب، وإنما عددنا المواضع التي تؤخذ هذه المسألة منها من كلام الأصحاب، لأن بعض الناس يظن أن هذه الفتوى مخالفة للمذهب، ولم يعلم أنها هي المذهب، وأن ما سواها توهم محض مستنده ما ذكرناه، والله تعالى يوفقنا إلى الصواب وجميع إخواننا المسلمين، إنه جواد كريم ـ وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

**س ٥ ـ هل يجوز التشريك في سبع الجزور؟**

ج ـ نرى أن سبع الجزور يشرك فيها كما يشرك بالغنم من غير فرق، سواء كانت الضحية من الإنسان، أو من ريع وصية فيها أشخاص.

**س ٦ ـ هل يقوم سبع البدنة مقام الشاة بكل حال؟**

ج ـ المسألة قد أشكلت على كثير من المشايخ، وذلك لاشتباه مسألة الإجزاء بمسألة الإهداء، أما مسألة الإجزاء، فإن سبع البدنة لا يجزىء إلا عن واحدٍ، كما أن الشاة لا تجزىء إلا عن واحدٍ في هدْيِ التمتع والقران، وفي الأضحية، فقد جعل النبي ﷺ البدنة عن سبعة، وهذا مذهب جمهور العلماء، وفيه قول ضعيف أن البدنة عن عشرة في هذا الباب، ولكن الصحيح قول الجمهور. المقصود في مسألة الإجزاء أن الشاة لا تجزىء عن أكثر من واحدٍ قولاً واحداً، وكذلك سبع البدنة لا يجزىء على الصحيح إلا عن واحدٍ، وأما مسألة الإهداء بأن يضحي الإنسان، ويهدي ضحيته لأكثر من واحد، سواء في الحياة، أو أوصى وصيته بعد الوفاة، فهذه تجزىء فيها الشاة، وسبع البدنة عن أكثر من واحدٍ. وقد نص الأصحاب على ذلك في آخر أبواب الجنائز، «كالمنتهى» و«الإقناع» وغيرهما حيث قالوا: وأيّ قربة فعلها الإنسان وأهداها، أو أهدى بعضها لحيّ أو ميت، نفعه ذلك، ومثلوا لكثير من القرب، وصاحب «الإقناع» مثل بالأضحية. وهذا نص منهم على أن الأضحية سواءً كانت من البدنة،

أو من البقرة، أو شاة يجزىء إهداؤها لأكثر من واحد، وكذلك يؤخذ من عموم كلامهم في قولهم في «باب جزاء الصيد»: وتجزىء البدنة عن سبع شياه، فأقاموا البدنة مقام سبع شياه، وذلك دليل على أن سبعها قائم مقام الشاة، وباب الإهداء واسع، أي شيء فعله العبد من العبادات، وأشرك فيه عدة أشخاص، فإن ذلك يصل إليهم إذا قبله الله، ويسوغ ولا مانع، ومع كثرة بحثي في هذه المسألة في كلام الأصحاب من الحنابلة المتقدمين والمتأخرين لم أجد أحداً منع إهداء سبع البدنة، أو سبع البقرة لأكثر من واحد، ولهذا قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين مفتي الديار النجدية وفقيهها حين سئل عن هذه المسألة قال: لم أجد ما يدل على المنع وبعض من أدركنا كانوا يفعلون ذلك، أي: يهدون سبع البدنة لأكثر من واحد، وإنما وجه الاشتباه على بعض المشايخ قول الأصحاب رحمهم الله وتجزىء البدنة والبقرة عن سبعة، وهذا كما ذكرنا مسلَّم، ولكنه في باب الإجزاء لا في باب الإهداء والله أعلم.

**س ٧ ــ هل يقوم سبع البدنة أو البقرة مقام الشاة في الإجزاء والإهداء؟**

ج ــ اعلم أن الكلام في هذه المسألة يتحرر في فصلين:

الفصل الأول: في إجزاء الشاة عن سبع البدنة، وإجزاء سبع البدنة عن الشاة في الأضاحي والهدي والفدية. ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا ببدنة. فقد أقام ﷺ في هذا الحديث سبع البدنة، أو سبع البقرة عن شاة، فلا يجزىء سبع البدنة إلا عن واحد في الهدي والأضاحي، كما لا تجزىء الشاة فيهما إلا عن واحدٍ، وكما هو مقتضى الحديث، فهو مذهب جمهور العلماء خلافاً لطائفة من أهل العلم، كإسحاق بن راهويه وغيره حيث قالوا: إن البدنة تجزىء عن عشرة، وعن عشر شياه، وهذا هو المتقرر في أذهان أهل العلم. ولهذا ترجم المجد في «المنتقى» لهذه المسألة فقال: باب إجزاء البدنة والبقرة عن سبع شياه. ثم ذكر حديث جابر، وحديث ابن عباس في ذلك، فهذا الباب لا تجزىء فيه الشاة الكاملة عن أكثر من أضحية، ولا يجزىء فيه سبع البدنة أو سبع البقرة كذلك عن أكثر من أضحية.

الفصل الثاني: في إهداء الشاة، أو إهداء سبع البدنة، أو سبع البقرة لأكثر من واحد في الأضاحي، فقد ثبت أنه ﷺ ذبح كبشاً، وقال: (هذا عن محمد وآل محمد) فأهدى ثواب الكبش لنفسه وآله، الحي منهم والميت، كذلك لو ذبح بعيراً، وأهدى سبعه ضحية منه لنفسه ولوالديه وغيرهم وصلهم ثوابه، كما يصل ثواب الشاة إذا أهداها للمذكورين أو غيرهم من غير فرق. ولم يفرق الشارع بين الشاة، وبين سبع البدنة في الأضاحي، فإذا فرقنا بينهما، وقلنا: الشاة يجوز إهداؤها لأكثر من واحدٍ، صار هذا الفرق لا دليل عليه، بل هو مناقض للدليل، ومن قال: الشارع لم يجعل البدنة لأكثر من سبعة يقال له أيضاً: الشارع لم يجعل سبع شياه لأكثر من سبعة. وهذا في باب الإجزاء كما تقدم في الفصل الأول، وأما في باب الإهداء، فالأمر فيه واسع، وكما أن هذا مقتضى الأدلة الشرعية فهو منصوص فقهاء الحنابلة في عدة مواضع:

## الموضع الأول
### في آخر «كتاب الجنائز»

قالوا في كتبهم المطولة والمختصرة «الإقناع» و«المنتهى» و«المقنع» وشروحها وغيرها: وأي قربة فعلها المسلم، وأهداها أو بعضها كنصفها وثلثها وربعها لمسلم حي أو ميت، جاز ونفعه ذلك، ومثلوا بالصلاة والصيام والصدقة والحج والأضحية، فمنهم من صرَّح في نفس هذه المسألة في الأضحية في هذا الموضع، ومنهم من عمم بجميع القرب. وهذا نص صريح منهم أن من أهدى أضحية، سواءً كانت من الغنم أو من الإبل، أو من البقر، أو أهدى بعضها، كالنصف والثلث والربع وأقل من ذلك، أنه يصل إلى المُهدى إليه وينتفع به. فإذا قال في حياته: هذه أضحية عني وعن والدي، وذبحها من الغنم أو البُدْن، فحكمهما واحدٌ، وكذلك لو أهداها بعد وفاته، وجعلها في وصيته، وأمر أن ينفذ له أضحية له ولوالديه أو غيرهما، جاز، سواء كانت شاة أو سبع بدنة أو بقرة، ومن قال: إن أضحية الشاة تصل إليهم، وأضحية سبع البدنة أو البقرة

لا تصل، فقد أتى بشيء من عنده، وخالف الأصحاب كما خالف دليل السنة بغير مستند شرعي، إلا أن يقول في هذا المقام: إن الأضحية لا تطلق إلا على شاة، وأما سبع البدنة، أو سبع البقرة، فلا يسمى أضحية. وهذا مخالف للنص والإجماع، وهذا مما يبين لك أن قول الأصحاب في الأضحية والهدي: وتجزىء البدنة والبقرة عن سبعة أنها تكون سبع أضاحٍ، وأنها في باب الإجزاء لا تجزىء إلا عن سبعة، كسبع شياه ليس مرادهم أن: سبع البدنة والبقرة لا يهدى لأكثر من واحدٍ، لأنه لو كان كذلك لتناقض كلامهم، ولكنه ـ ولله الحمد ـ متفق في الموضعين، ففي باب إجزاء الأضاحي يقال: إن سبع البدنة والبقرة عن سبعة، وأنها سبع أضاحٍ لا أكثر مما عليه النص الشرعي، وفي باب الإهداء يجوز إهداء سبعها لأكثر من واحدٍ كما تهدى الشاة لأكثر من واحد مع أنها أضحية واحدة لا تجزىء إلا عن أضحية واحدة، فالواجب الفرق بين البابين وألا يخلط بين البابين، فيختلط الأمر على صاحبه. يوضح هذا أنه لو أهدى صلاة واحدة، أو صيام يوم واحد، أو صدقة بدرهم واحد ونحوه لأكثر من واحد لوصل إليه، فما بال الأضحية لا تصل إلا إذا كانت من الغنم، من نظر إلى كلامهم في هذه المواضع جزم بلا امتراء أن الطريق واحد في الأضاحي كلها، سواء كانت من الغنم أو الأبل أو البقر.

## الموضع الثاني

### في باب جزاء الصيد

قال في «المنتهى» وشرحه و«الإقناع» وشرحه وما قبلهما وما بعدهما من كتب الأصحاب في آخر «باب جزاء الصيد»: وتجزىء البقرة والبدنة عن سبع شياه كعكسه، كما تجزىء سبع شياه عن البدنة والبقرة، وكلام غيره يوافقه، فانظر رحمك الله هذه العبارة، فإنها تدل دلالة لا تقبل الاشتباه أن البدن جميعها تجزىء عن سبع شياه، فإذا تقرر أن سبع شياه يجوز إهداؤها لأكثر من سبعة

أشخاص، فالبدنة والبقرة كذلك، وكما أن هذه العبارة تدل على جملة البدنة والبقرة، فإنها تدل على سبعها من باب أولى، وأن سبع كل منهما قائم مقام الشاة في كل شيء، ومن ذلك إهداؤها لأكثر من واحد. ولو كان هذا لا يجزىء لاستثنَوه من هذا العموم، ويدل على قصدهم تعميم هذه العبارة في كل الحالات، أنهم أَتبعوها قولهم: ولو في جزاء الصيد، إشارة إلى الخلاف الذي في جزاء الصيد، بل قد ورد حديث بهذا اللفظ ترجم له صاحب «المنتقى» بالترجمة السابقة وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن علي بدنة وأنا موسر لها ولا أجدها فأشتريها؟ فأمره النبي ﷺ أن يبتاع سبع شياه. رواه الإمام أحمد وابن ماجه، وكلامهم في هذا الموضع متفق على هذا المعنى، فمن ادعى استثناء شيء من هذا العموم، فعليه الدليل وأنى له ذلك.

## الموضع الثالث
### في الفدية

قالوا في الكتب المختصرة والمطولة: في الدماء الواجبة والدم الواجب شاة جذع ضأن، أو ثني معز، أو سبع بدنة، أو سبع بقرة، فهذا أيضاً صرح أن من وجب عليه دم، سواء كان لواحد كنفسه أو أبيه مثلاً أو لعدد كالوصية الواجبة فيها أضحية واجبة واحدة لعدة أشخاص، أنه يجزىء أحد الأمور الثلاثة: شاة، أو سبع بدنة أو سبع بقرة، وهذا أمر واضح.

## الموضع الرابع
### كلامهم في الوقف والوصايا

صرحوا بوجوب اتباع لفظ الموصي، فإذا قال الموصي في وصيته: فيها أضحية لوالديه ووالديهم مثلاً، نظرنا عند تنفيذ هذه الوصية ما مسمى الأضحية الشرعية، فنجد أن مسماها واحد من ثلاثة أشياء: شاة، أو سبع من بدنة،

أو من بقرة، فإذا نفذنا هذه الوصية على واحد منها كنا منفذين لوصية الموصي بحسب إطلاقات الشارع والعرف الجاري، وخرجنا من التبعة، ودعوى أن مثل هذه الوصية تختص بالشاة دون سبع البدنة والبقرة تحكم بلا دليل، بل مخالف للدليل، وقد قال الشيخ شمس الدين ابن أبي عمر في «الشرح الكبير»: ولا بأس أن يذبح الرجل عن أهل بيته شاة واحدة أو بدنة أو بقرة يضحي بها، نص عليه أحمد، وبه قال مالك، والليث، والأوزاعي، وإسحاق. انتهى.

فصرح أن البدنة والبقرة قابلة لإهدائها لأكثر من سبعة، كالشاة، والمقصود أنه لا يوجد حديث صحيح ولا ضعيف ولا قول أحد من الصحابة، ولا قول أحد من الحنابلة، ولا دليل يجب المصير إليه يمنع من حصول سبع البدنة وسبع البقرة إذا أهدي لأكثر من واحد، بل الأدلة خلاف ذلك كما ذكرناها، وليس فتوى بعض المتأخرين استناداً على عبارة الأصحاب التي ذكرناها ــ وهو قولهم: وتجزىء البدنة والبقرة عن سبعة ــ يوجب إهدار شيء مما تقدم كما تقدم بيانه. والله أعلم.

**س ١ ــ بعض الناس يجعل الجلد والرأس أحد أسباع الأضحية فهل هو وجيه؟**

ج ــ الذي أرى أنه ليس بوجيه، بل لا بد أن يكون الاقتسام على اللحم المأكول، ولكن إذا جعل الجلد مع القسم القليل من اللحم لأجل زيادة الجلد، فلا بأس بذلك، وأما كونه يجعل عن ضحية وهو جلد، فليس بمناسب، وإذا تشاحوا في الجلد عند الاقتسام، فليس له طريق إلا أن يتصدقوا به من بينهم، أو يسمحوا فيه لأحدهم صدقة أو هدية، وأما بيعه، فلا يجوز، لأنه بيع للأضحية أو لجلدها وهو لا يجوز، المقصود أن الجلد عند التشاح فيه ليس له طريق إلا الصدقة أو الهدية لهم أو لغيرهم.

**س ٢ ــ إذا كان والدا الإنسان فقيرين فهل تقدم حاجتهما على العقيقة؟**

ج ــ إذا كان والدا الإنسان فقيرين، فحاجتهما مقدمة على العقيقة، لأن دفع حاجتهما واجبة، والعقيقة سنة إلا إذا أمكن الجمع بينهما.

**س ٣ ــ هل يجزىء بعض البدنة عن العقيقة وإذا شك هل عق عنه أبوه فهل يلزمه أن يعق؟**

ج ــ أما العقيقة، فلا يجزىء ثلث البدنة، ولا سبعها، ولا يجزىء عنها إلا بدنة كاملة مع أن الشاة أفضل من البدنة الكاملة. وإذا شك الإنسان هل عق عنه والده أم لا؟ فليس عليه عقيقة، العقيقة على الأب، وأيضاً هو شاك هل عق عنه أم لا.

**س ٤ ــ هل يجب على الوكيل في الأضحية أن يجتنب ما يجتنبه من أراد أن يضحي أو يضحى له؟**

ج ــ ذكر بعض المتأخرين في هذا وجهين، ولعلهما مبنيان على أن الوكيل هل يدخل في لفظ الحديث (إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي فلا يأخذ شيئاً من شعره) وعمومه يدخل فيه الوكيل أو أنه لا يدخل في ذلك، لأن المراد من كانت الأضحية له. ويؤيده أن بعضهم علل الحكمة بأن في هذا تشبهاً بالمحرمين، وبعضهم علله بأنه لرجاء أن تشمل المغفرة جميع أجزاء المضحي، فلهذا ينهى عن إزالة شيء من أجزائه، وهذا خاص بمن له الأضحية وهذا هو الظاهر عندي.

# كتاب الجهاد

**س ١ ــ الذي يكره الآمر بالمعروف، هل يدخل في قوله تعالى: ﴿وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾.**

[سورة الحج: الآية ٧٢]

ج ــ هذا المراد به الكارهون لمن يدعوهم إلى أصل الدين، ولكن الذي يكره الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، قد عصى وفعل محرماً، فإن الواجب إعانتهم وشكرهم على أمرهم ونهيهم، والرغبة في فعلهم، وهذا عكس القضية.

**س ٢ ــ إذا استقال النائب فهل يجوز أن يأخذ ما كانت الحكومة تجعل له من الشرهة؟**

ج ــ ليس له أخذها في هذه الحال، لأنهم لم يجعلوها له إلّا عوضًا عن عمله ونيابته، فإن علمت الحكومة أنه مستقيل عن العمل، ورضيت بجريانها عليه، فلا بأس عليه بأخذها غنياً كان أو فقيراً، وأما الحالة الأولى إذا قال: آخذها وأتصدق بها فليس له ذلك.

# كتاب البيع

**س ١ ـ ما الذي يشترط لصحة التصرفات؟**

ج ـ التصرفات كلها يشترط أن يكون صاحبها جائزَ التصرف وهو البالغ العاقل الرشيد الحر، ويزاد في الأمور التي يقصد بها التبرع أن تكون ممن يصح تبرعه، وفي الإجارة والوقف أن تكون العين منتفعاً بها مع بقاء أصلها، وفي الوقف والوصية أن يكون ذلك على جهة بر.

**س ٢ ـ هل ينعقد البيع بالمكاتبة؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: وإن كان المشتري غائباً عن المجلس، فكاتبه أو راسله: إني بعتك أو بعت فلاناً داري بكذا، فلما بلغه الخبر قبل، صح، قال في شرحه: وظاهر كلام الأصحاب خلافه.. إلخ.

قال شيخنا عبد الرحمن الناصر السعدي: ولكن ما ذكره المصنف هو الصحيح الموافق للعمومات، ولنص أحمد المذكور، وللتعليل الذي ذكره المصنف.. إلخ.

**س ٣ ـ إذا احتاج المسجد إلى سعة، فعارض أهل الدكاكين أن تهدم إلا برضى فهل يجبرون على ذلك؟**

ج ـ إذا كان في ذلك ضرر عليهم محقق، ونقص من مصلحة الدكاكين، فإنه لا يسوغ، لأن توسيع المساجد مما حولها من الأسواق والطرق ومحال

الجلوس يجوز إذا لم يكن في ذلك ضرر على أحد، بل هو مصلحة محضة مع أن فيه قولاً آخر في المذهب: لا يجوز حتى في هذه الحالة. ولكن الصواب الجواز إذا كان مصلحة محضة خالية من مضرة أحد من جيرانه أو من أهل البلد.

**س ٤ ـ ما حكم بيع الأمانة؟**

ج ـ ذكر في «الإقناع» عن الشيخ تقي الدين في بيع الأمانة أنه عقد باطل، والواجب رد البيع إلى البائع، وأن يرد المشتري ما قبضه منه، لكن يحسب له منه ما قبضه المشتري من المال الذي سموه أجرة.

أقول: لكن يبقى الكلام في انتفاع البائع بالثمن ما حكمه؟ لأننا إذا أوجبنا له الأجرة اجتمع له الانتفاع بماله وبعوضه الممنوع، فالذي يظهر أنهما إذا تراجعا وقد انتفع المشتري في المبيع والبائع بالثمن أنه لا يجب لأحد على أحد شيء.

**س ٥ ـ ما حكم بيع المصحف؟**

ج ـ قال في الإقناع: ويحرم بيع مصحف ولا يصح.. اهـ.

أقول: والصحيح أنه يصح ولا يحرم بيع المصحف للمسلم لعموم الحاجة، والمنهي عنه ترك تعظيمه مطلقاً.

**س ٦ ـ ما الذي يدخل في النهي عن بيع الغرر؟**

ج ـ ثبت في «صحيح مسلم» نهيه ﷺ عن بيع الغرر ، وهو أصل كبير، وقاعدة كلية في عقود المعاوضات في البيع والإجارة ونحوها في كل ما يشترط فيه تحرير العوضين، والعلم بهما، ومن هذا الحديث أخذ الفقهاء اشتراط العلم بالثمن والمثمن، والعلم بالأجرة، والنفع الذي وقعت عليه الأجرة ومنه أخذوا اشتراط القدرة على التسليم في البيع بأنواعه، والإجارة بأنواعها، فكل المسائل التي ذكروها في هذه الشروط مأخوذة من هذا الحديث، والغرر يتفاوت تفاوتاً كثيراً، فكلما كان أعظم جهلاً وخطراً، كان أعظم تحريماً وأشد تأثيماً، ولذلك لما كانت المشاركة كلها مبنية على العدل والمساواة بين

الشريكين كانت الشروط المنافية لذلك، المبنية على الخطر منهياً عنها، لأنها داخلة في الغرر، فكل جهالة بينة، وخطر ظاهر في جميع عقود المعاوضات والشركات، فإنه داخل في هذا الحديث العظيم. والله أعلم.

**س ٧ ــ ما حكم بيع ما فتح عنوة؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: ولا يصح بيع ما فتح عنوة ولم يقسم. اهـ.
أقول: وجمهور العلماء على جواز بيع أرض العنوة وهو الصحيح.

**س ٨ ــ ما حكم بيع الراديو وشرائه؟**

ج ــ الذي نرى أنه لا حرج ولا بأس في بيعه وشرائه كسائر المباحات إلا بيعه على من يعلم منه أنه يستعمله للغناء والمعازف ونحوهما.

**س ٩ ــ هل يجوز بيع البردة قبل قبضها؟**

ج ــ لا يجوز ذلك لكثرة الغرر والتعب والتأخير، وخطر النقص، وعدم الحصول، وكلها علل تمنع الصحة. وإذا كان الدين الذي على شخص نظير ذلك وهو ثابت مأمون من إنكاره لا يجوز بيعه فبيع البردة أشد منعاً.

**س ١٠ ــ إذا اشترى شيئاً بغير نقد البلد وليس عنده وإنما يريد تحصيله بعد، مثل أن يشتري سلعة بربيات ليست عنده؟**

ج ــ نعم يجوز ذلك، وليس فيه فيما أعلم خلاف، ولا يدخل في قوله ﷺ: (لا تبع ما ليس عندك): لأنه لم يقل: لا تبع بما ليس عندك. ولا فرق بين نقد البلد وغيره من النقود التي ليست برائجة. والله أعلم.

**س ١١ ــ قولهم: لا يحل استصناع سلعة هل هو وجيه أم لا؟**

ج ــ ليس بوجيه، فإنه من البيع بالصفة، فإذا وصف ما يصنعه صنعة تزول بها الجهالة، ويرتفع الخطر، فلا مانع من الصحة، وقد قال بالصحة بعض الأصحاب، وهو الصواب، فإن الشرط موجود والمانع مفقود، ومدعي التحريم عليه إقامة الدليل، وأنَّى له ذلك في هذه المسألة.

س ١٢ ـ ما حكم استصناع الصنعة؟

ج ـ قال في «الإقناع»: ولا يصح استصناع سلعة بأن يبيعه سلعة يصنعها له. اهـ. أقول: وقيل: يصح وهو الأولى لعدم الجهالة وللتمكن من صنعته.

س ١٣ ـ الذي يمنع بيع الموصوف في الذمة، ويحتج بحديث: (لا تبع ما ليس عندك) هل هو وجيه أم لا؟

ج ـ إطلاق منع بيع الموصوف والاحتجاج عليه بالحديث المذكور فيه نظر، فالحديث يدل على منع بيع الأشياء المتعذر إدراكها أو المتعسر كالآبق والشارد ولو كان في ملكه، وكالمعين الذي في ملك غيره، أو الموصوف الذي يتعذر عليه، أو يتعسر إدراكه. وأما الموصوف في الذمة المتيسر إدراكه، فلا أرى دخوله في هذا الحديث، وهو المذهب عند الأصحاب كلهم، فإنهم أجازوا بيع الموصوف إذا استقصى من صفاته ما يتفاوت به الثمن، سواء كان عنده أم لا.

س ١٤ ـ هل يصح بيع الأنموذج؟

ج ـ قال شيخنا عبد الرحمن السعدي في حاشية له: وهذا يدل على قوة القول بصحة بيع الأنموذج لعدم الفرق بينه وبين رؤية ظاهر الصبرة المتساوية الأجزاء ونحوها، يحقق هذا أنه يجب تطبيق جميع المفردات والتفاصيل على أصل الشرط وهو العلم، فمتى حصل العلم به بأي طريق جاز، ومتى انتفى العلم لم يجز. اهـ.

س ١٥ ـ إذا باع شيئاً بصفة أو بشرط صفة فبان بخلافه فهل له الأرش؟

ج ـ قال في «الإقناع» وشرحه. فيما إذا باع شيئاً بصفة ثم وجده متغيراً واختار الإمساك أنه يمسك مجاناً بلا أرش، بخلاف البيع بشرط صفة، فإن له أرش فقدها.

أقول: إن التفريق بين المسألتين في غاية الضعف، فإنه لا فرق بين شرط صفة يتبين خلافها، أو بيعه بصفة يظهر خلافها، فالشارع لا يفرق بين المتماثلات.

**س ١٦ ـ ما حكم بيـع المسك في فأرته؟**

ج ـ قال في «الإقناع» وشرحه: ولا يصـح بيـع المسك في الفأر واختار في «الهدي» صحته. اهـ.

أقول: ويمكن الجمـع بين كلام الأصحاب، وكلام صاحب «الهدي» في المسك وغيره بأن يقال: من الأشياء ما لا يعرفه إلا أفراد من الناس كالمسك في فأرته، وأنواع الجواهر ونحوها، فبيـع هذا النوع لأهل الخبرة به صحيـح، لعدم الجهالة، ولغيرهم غير صحيـح لوجود الجهالة، ومن عرف الواقـع لم يسترب في هذا التفصيل لما ذكره من التعليل.

**س ١٧ ـ ما حكم بيع ثوب نسـج بعضه على أن ينسج بقيته؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: ولا يصـح بيـع ثوب نسـج بعضه على أن ينسـج بقيته.

أقول: وإذا قيل بجواز الاستصناع فهذه كذلك.

**س ١٨ ـ إذا باع نخلة خرصاً بشرط أنها مائة، وشرط أن يأخذها من خمس فرض المشتري، فهل ذلك صحيـح أو فاسد؟**

ج ـ لا بد من تفصيل تتضـح به المسألة، وذلك أنه إذا كان في ذمته له تمر مثلاً مائة وزنة، ثم قال له: أريد أن أخرص لك هذه النخلة عما في ذمتي لك، فهذا معلوم أنه بيـع المزابنة، لأنه لا فرق بين بيـع تمر معين بتمر على رأس النخلة، وما في الذمـة بما عـلى رؤوس النخل، فـلا يجوز من هـذا النوع إلا العرايا، وهذا النوع يدخل فيه كل مـا ثبت في الذمة من سلم أو قرض، أو ثمن بيـع أو غيرها، لأنه يأخذ مجهولاً عن معلوم، والجهل بالتماثل كالعلم بالتفاضل.

وأما الذي وقـع عليه السؤال، فهو نوع آخر، لأن البائـع ليس في ذمته للمشتري تمر، وإنما أراد أن يشتري منه النخلة جزافاً، ولكنهما أحبا أن يكون الجزاف مربوطاً بخرصه لأجل قربهما من التحرير، فإذا عرفا خرصها، وتبايعا

على أن الشراء يكون على خمس مما خرصاه، أو خرص لهما، جاز ذلك، وليس فيه محذور، لأن هذه الصورة من صور بيع الجزاف، وليست من باب التعويض عما في الذمة، ولكن لا يقع العقد حتى يعرفا خرصه، فإن وقع العقد قبل الخرص، لم يصلح لكنهما يتقاولان ويتفقان على البيع جزافاً بما يؤول إليه الخرص، ثم يقع العقد بعد ذلك، فهذا لا حرج فيه ولا منع ولا محذور، والله أعلم.

**س ١٩ ــ ما حكم بيع ثمرة الشجرة إلا صاعاً؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: وإن باعه ثمرة الشجرة إلا صاعاً لم يصح. اهـ.

أقول: وعنه: يصح، اختاره أبو محمد الجوزي وغيره، وهو الصحيح لعدم الغرر مع شدة الحاجة إليها.

**س ٢٠ ــ ما حكم بيع نصف داره الذي يليه؟**

ج ــ ذكر في «الإقناع» وشرحه: أنه لا يصح البيع إذا قال: بعني نصف دارك الذي يلي داري.

وأقول: وفي المنع من هذه الصورة نظر، فإن الجهالة منتفية، والحاجة تدعو إلى ذلك، وكونه لا يدري إلى أين ينتهي لا يزيد على جهالة الشيء المشاع الذي لا يدرى مقدار ما يأتيه عند القسمة.

**س ٢١ ــ ما حكم ما إذا أقر أنه عبده فرهنه... إلخ؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: ولو أقر أنه عبده، فرهنه فكبيع، فلا تلزم العهدة القائل حضر الراهن أو غاب على المختار. اهـ.

أقول: وعلى الرواية الثانية التي اختارها شيخ الإسلام، وصوبها في «الإنصاف»: تلزم العهدة المقر، وهو الصواب، وهو داخل في قول صاحب «الفروع»: ويتوجه هذا في كل غار.

**س ٢٢ ـ هل لأمة المعيب بعيب ينفسخ به النكاح كالجذام أن تمنعه من وطئها؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: ويصح بيع أمة لمن به عيب ينفسخ به النكاح كجذام وبرص، وهل لها منعه؟ يحتمل وجهين: أولاهما: ليس له منعه من وطئها. اهـ.

أقول: والوجه الثاني: أن لها منعه من وطئها وهو الصحيح سداً للذريعة ودفعاً لضررها.

**س ٢٣ ـ ما حكم البيع إذا كان الثمن صبرة أو صنجة مجهولة؟**

ج ـ الصحيح أن الثمن إذا كان صبرة أووزن صنجة مجهولة المقدار فالبيع غير صحيح، لأنه غرر ظاهر. اهـ.

**س ٢٤ ـ ما حكم البيع إذا باعه من الصبرة كل قفيز بكذا؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: ولا يصح البيع إن باع من الصبرة كل قفيز بدرهم ونحوه. اهـ. وأقول: والصحيح الصحة لعدم الغرر.

**س ٢٥ ـ إذا باع عشباً بتمر مؤجل، فلما حل التمر، لم يجد وفاءً، فأعطاه قيمة العشب فهل يجوز؟**

ج ـ يجوز ذلك، لكن بشرط أن لا يفارقه حتى يقبض منه الدراهم.

**س ٢٦ ـ إذا باع براً بدراهم إلى أجل، فلما حل أراد أن يعوضه عن الدراهم تمراً فما الحكم؟**

ج ـ فيها ثلاثة أقوال في المذهب، المشهور من المذهب أَن ذلك لا يجوز مطلقاً، لأنه لا يجوز بيع البر بتمر إلى أجل، فيخشى من التذرع إلى الربا والتحيل عليه.

والقول الثاني اختاره الموفق وغيره أنه يجوز مطلقاً، لأنه غالباً لا يقصد في الأصل، ولا يتحيل فيه، وهذا القول أرجح دليلاً.

والقول الثالث اختاره شيخ الإسلام: يجوز عند الحاجة، ولا يجوز إذا لم تحتج إليه، كمن حلت عليه الدراهم مثلاً وليس عنده بر وعنده تمر، فتراضيا على ذلك، وأخذه عنه، وهذا أوسط الأقوال وهو الذي ينبغي العمل به، لأنه لا يستعمله الإنسان إلا عند الحاجة، والله أعلم.

**س ٢٧ ــ رجل يداين آخر منذ سنين، ثم تخالفا، وأراد أن يمتنع بعد ذلك من دينه وقد باع عليه أشياء ورهنها عليه، فقال المدين: أريد أن تشتري رهائنك بالثمن الذي بعتها عليَّ به، وقال صاحب الدين: بل أشتريها بما تستحق اليوم دراهم، وقد كان بيعها بعيش، فهل يجوز ذلك؟**

ج ــ إن كانت الرهائن المذكورة قد تغيرت تغيراً انتقص به قيمتها فلا بأس بذلك، وإن كانت على حالها وأحسن منها، فعلى جادة المذهب إذا كان الثمن الثاني من غير جنس الثمن الأول أيضاً يجوز، فعلى المذهب: تجوز مثل هذه الحالة، وعلى القول الآخر وهو الصحيح: أنه لا يجوز بيعها على صاحبها بأقل مما باعها به ولو كان الثمن جنساً آخر سداً للذريعة. فالأولى في هذه الحال أن يبيعها على غيره، ويأخذ صاحب الدين أثمانها، لأنه أسلم لهما.

**س ٢٨ ــ إذا وكل شخصاً يستدين له، فوكل صاحب الدين من يبيع عليه، ثم اتفق الوكيلان على المعاشرة قبل العقد، ووقفاً على التمر الذي في السيارة، وعده وكيل البائع على وكيل المستدين وقال: بعه فباعه من غير تقدير الثمن فهل يجوز؟**

ج ــ لا يصلح هذا لأنه لا بد أن يبيعه وكيل البائع على وكيل المشتري وقت عده عليه بثمن معين مؤجل، فيكون العقد واقعاً على نفس التمر بأن يقول: بعتك هذه القلال بكذا وكذا ريالاً إلى الأجل الفلاني، ويقبض وكيل المشتري التمر، ثم بعد ذلك يكون التمر لحساب المشتري إن شاء باعه، وإن شاء أبقاه. والله أعلم.

# باب الشروط في البيع

**س ١ ـ قول الأصحاب: إذا شرط أن الدابة تحلب كل يوم مقداراً معيناً لم يصح فهل هذا وجيه؟**

ج ـ فيه نظر ظاهر، فإن شرط مقدار اللبن أقرب إلى العلم، وأبعد عن الجهالة، وعن المنازعة والاختلاف، كما هو ظاهر. وشرط غزارة اللبن، أو أنها لبون ونحوه يتفاوت كثيراً، وليس له ضابط يرجع إليه، ولهذا كان العمل على عكس ما ذكره الأصحاب.

**س ٢ ـ إذا اتفق مع صاحب دكان أن يبيعه شيئاً إلى أجل ثم إن صاحب الدكان أبى أن يبيعه إلا حالاً فما الحكم؟**

ج ـ هو باختياره ما دام العقد لم يصدر بعد فلا يلزمه أن يبيع عليه إلى أجل إلا بحالة وهي إذا عقد معه، وتم البيع المؤجل، وفارقا المجلس فليس لأحد أن يمتنع إلا بإقالة الآخر ورضاه.

**س ٣ ـ إذا تلف المستثنى نفعه فهل هو من ضمان البائع؟**

ج ـ قال الشيخ عبد الوهاب بن فيروز: ينظر فيما إذا تلف المستثنى نفعه من غير تفريط هل يضمن لكونه أخّر تسليمه أم لا لقولهم: كالمستأجر؟ محل نظر، والظاهر الثاني، تأمل.

أقول: هذا الذي استظهره الشيخ عبد الوهاب هو ظاهر كلامهم في أن ما عدا ما بيع بكيل أو وزن الخ من ضمان المشتري.

**س ٤ ـ على من تكون نفقة الحيوان المستثنى نفعه تلك المدة؟**

ج ـ قال في شرح «الإقناع»: ونفقة المبيع المستثنى نفعه مدة الاستثناء الذي يظهر أنها على البائع، لأنه مالك المنفعة لها من جهة المشتري كالعين الموصى بها لا كالمؤجرة والمعارة. اهـ.

ـ أقول: بل الظاهر أنها كالمؤجرة والمعارة، لأن العين انتقلت بمنافعها،

إلا هذه المنفعة إلى المشتري، فكان عليه مؤونتها، وبينها وبين العين الموصى بها فرق عظيم كما هو ظاهر.

**س ٥ ـ ما الذي يدخل في النهي عن بيعتين في بيعة؟**

ج ـ يدخل في ذلك مسائل العينة وضدها، لأنه يبيعه السلعة نقداً، ثم يشتريها منه بأكثر منه نسيئة وبالعكس، فهذا الذي يصدق عليه النهي، لأن فيه محذور الربا، وحيلة الربا، وأما تفسيره بأن يقول: بعتك هذا البعير مثلاً بمائة على أن تبيعني هذه الشاة بعشرة، فالمذهب إدخالها في هذا الحديث، والقول الآخر في المذهب عدم إدخالها، وأنه لا يتناولها النهي لا بلفظه ولا بمعناه، ولا محذور في ذلك، وهو الذي نراه ونعتقده. والله أعلم.

## باب الخيار والتصرف في المبيع والإقالة

**س ١ ـ هل يصح شرط الخيار في الإجارة؟**

ج ـ الصحيح ثبوت خيار الشرط في الإجارة حتى في الإجارة على مدة تلي العقد لدخولها في العموم، وأن المسلمين على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً، كما أن الصحيح ثبوت خيار الشرط في الصرف والسلم، وهذا كله اختيار شيخ الإسلام.

**س ٢ ـ هل يثبت خيار الشرط في الإجارة؟ وهل ينفذ عتق المشتري زمن الخيار؟**

ج ـ الصحيح ثبوت خيار الشرط في الإجارة ولو على مدة تلي العقد لدخولها في العموم، لأن إطلاق البيع شرعاً يدخل فيه بيع الأعيان، وبيع المنافع، وعلى تقدير الفسخ، فإنه يحسب ما تقدم بقسطه من المسمى، والصحيح لا ينفذ عتق المشتري زمن الخيار لتعلق حق البائع، ولأن ذلك من الغدر الذي لا يجيزه الشارع، والعتق إنما يسري إذا أريد به قربة خالية من المحاذير الشرعية، فبهذا نعلم أن الصحيح أيضاً لا ينفذ عتق الراهن.

**س ٣ ـ هل يورث خيار الشرط والشفعة؟**

ج ـ الصحيح أن خيار الشرط والشفعة يورثان ولو لم يطالب فيها قبل الموت، لأنهما من الحقوق التي يستحقها الميت، فانتقلت إلى وارثه، وتعليلهم المذكور ممنوع لا يدل على ما ذكروه.

**س ٤ ـ قولهم في خيار الشرط: ولا يصح في عقد حيلة ليربح من قرض ما معنى ذلك؟**

ج ـ صورة ذلك أنه متقرر أن كل قرض جر نفعاً فهو ربا حرام، وهذا عام في كل نفع شرط في قرض، والغالب أن يكون ذلك صريحاً، وقد يقع غير صريح، ويتحيل إليه بحيلة صورتها صورة مباحة، ومعناها محرم، فمنها هذه المسألة. فالصريح أن يقول فيها مثلاً: أقرضك ألفاً بشرط أن تسكنني دارك سنة، فهذا قرض جر نفعاً صريح، وقد يتحيلون عليه بالبيع بشرط بأن يقول: اشتريت منك دارك هذه بألف على أن لي الخيار مدة سنة، ثم يعطيه الألف ينتفع به، ويأخذ هو الدار يسكنها، فإذا مضت السنة أو قبلها قال: فسخت خياري، وارتجع ألفه، وأعطى صاحب الدار داره، فهذه مثل الأولى بلا فرق من جهة المعنى، وإنما الاختلاف يعود إلى اللفظ وهو لا يعتبر، فقد تحيلا ببيع الخيار إلى القرض الذي جر نفعاً، لأن هذا انتفع بدراهمه، والآخر المشتري انتفع بداره. والله أعلم.

**س ٥ ـ قولهم في المسترسل هو من جهل القيمة ولم يحسن المماكسة، فهل يكفي وجود أحدهما؟**

ج ـ عباراتهم كلها صريحة أنهما قيدان لا بد منهما، وأنه إذا كان يجهل القيمة، وهو يُحسن المماكسة فليس بمسترسل. وعللوه إذا غبن، فإنما هو لعجلته، وعدم تمهله، وكذلك إذا كان لا يُحسن يماكس، ولكنه قد عرف القيمة، ولم يجهلها، فليس بمسترسل. هذا مرادهم رحمهم الله، وهو مفهوم من عباراتهم وتعليلهم، مع أن في المسألة قولاً في المذهب أن الغبن مطلقاً يوجب الخيار، ولو لم يكن المغبون واحداً من هؤلاء الثلاثة، ووجه هذا أن البائع

والمشتري كل واحد منهما قد دخل على أن يتعوض بقيمة المثل، أو زيادة أو نقص قليل لا يجحف، فلما حصل الغبن بأي صورة كانت، خرجت المعاوضة عن هذا الموضوع، وعلم أن المشتري المغبون لم يرض بالغبن الفاحش، ومجرد استعجاله لا يوجب إهدار الغبن، وقد يثق بالبائع وأمانته، فيترك المماكسة لذلك وهو يُحسنها، فلا يكون له في هذه الخيار. وإذا قالوا: إن الشارع إنما أثبت خيار التلقي والمسترسل، ونحن قد أثبتنا النجوش عليه للتقرير، فيقال: هذا موجود في كل صور الغبن، فإذا أثبت الشارع خياراً، وعلمنا أن علته الغبن علمنا أن هذه العلة تتعدى لكل ما وجد فيه هذا المعنى، لأن الشارع قد ينص على أشياء مخصوصة لعلة عامة، فيتعدى الحكم بعموم علته.

**س ٦ ـ هل يثبت الخيار للركبان إذا تلقوا وان خرجت عن يد المشتري؟**

ج ـ أما إثبات الخيار لمتلقي الركبان، فالحديث مطلق، وكذلك كلام الأصحاب مطلق شامل ما إذا لم يخرج عن يد المشتري ببيع أو غيره، وما إذا خرجت، والمعنى أيضاً موجود، صح فإن الظلامة لا تزول بتصرف المشتري فيها، وحق البائع متقدم وسابق لحق من بعده، فيقدم الحق السابق مع عموم الحديث، وعموم كلام الأصحاب، ووجود المعنى الذي لأجله أثبت له الخيار والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا زادت قيمة صاع التمر على قيمة المصراة فما الحكم؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: ويرد مع المصراة صاعاً من تمر ولو زادت قيمته على المصراة.

أقول: أما لو علم تغرير المصرِّي فزاد قيمة صاع المر على المصرَّاة، ففي وجوب ذلك نظر، لأن الشارع إنما أوجبه في مقابلة اللبن وقد نهى عن التغرير، وعامل المخادع بنقيض قصده.

**س ٨ ـ ما هو الحمق؟**

ج ـ قال في «الإقناع» في تفسير الحمق: إنه ارتكاب الخطأ على بصيرة

يظنه صواباً. قال في الشرح: وقوله يظنه صواباً، فيه نظر، لأن ظنه صواباً ينافي ارتكابه على بصيرة... الخ.

أقول: الظاهر أنه لا نظر فيه، بل كما قال في الأصل: إن الأحمق يرتكب الخطأ على بصيرة يعني: أنه يظنه صواباً، لأنه لو ارتكب نسياناً لم يسم أحمق، وكذلك لو علم الفرق بين الخطأ والصواب لم يكن أحمق، ولو فعل الخطأ، لأنه متعمِّد عالم بذلك.

**س ٩ ــ هل الفسق الاعتقادي عيب؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: وليس الفسق من جهة الاعتقاد عيباً. أقول: وفي هذا نظر، فإن الفسق الاعتقادي ربما زاد عيباً على الفسق الفعلي.

**س ١٠ ــ هل الهزال عيب أم لا؟**

ج ــ قد ضبط الفقهاء رحمهم الله السبب بضابط جامع نافع لا يشذ عنه شيء، فقالوا: العيب ما نقص ذات المبيع أو قيمته، فما عده التجار عيباً علق به الحكم، وما لا فلا، فالهزال في المبيع لا بد أن المشتري قد دخل على بصيرة، وعلم منه بالهزال، ويندر جداً أن يشتريه غير عالم بهزاله، فلو فرض وقوع شرائه إياه غير عالم بهزاله، فلا شك أنه من أبلغ العيوب لمن لم يعلم به، لكن من ادعى دعوى يكذبها الحس والعادة لم تسمع دعواه.

**س ١١ ــ هل كفر الرقيق وبدعته عيب فيه؟**

ج ــ قول الأصحاب: إن الكفر والبدعة الاعتقادية في الرقيق ليس بعيب، فيه نظر ظاهر حتى على أصلهم، فإنهم قالوا: العيب هو ما نقص ذات المبيع أو وصفه، والكفر والبدعة من أعظم المنقصات. وأما قولهم: إن الأصل في الرقيق الكفر، فيقال: يعارض هذا الأصل الظاهر والقرائن الكثيرة في الأرقاء الموجودين في بلاد الإسلام، والقرائن إذا غلبت الأصل صار الاعتبار لها، اللهم إلا أن يكون الرقيق مبيعاً على إثر سبي حصل على الكفار والحربيين والعهد

قريب، فهذا يقال: الأصل فيه الكفر، وأما البدعة فلم أجدهم ذكروا لها تعليلاً.

**س ١٢ ـ ما حكم نفخ القصاب للذبيحة؟**

ج ـ أما نفخ القصاب للذبيحة التي يراد بيعها، فإنه من باب الغش، ومن غشنا فليس منا، لأن المشتري يتوهم أن اللحم المنفوخ كله لحم.

**س ١٣ ـ إذا اشترى غنماً فوجد في واحدة منها عيباً فهل له رد الجميع؟**

ج ـ الخيار للمشتري إذا كان البيع صفقة واحدة(١) إن شاء رد المعيبة بقسطها من الثمن، وإن شاء رد الجميع، وليس للبائع قبول الباقيات لأن البيعة واحدة.

**س ١٤ ـ إذا اشترى عكة سمن فوجد فيها رباً خارجاً عن العادة فهل له الأرش؟**

ج ـ ما زاد عن العادة يسقط من القيمة بمقداره، لأنه اشتراه بناءً على أن كله سمن، والرب على العادة، فظهر أنه أقل مما اشترى، فله النقص المذكور.

**س ١٥ ـ إذا ظهر عيب بأحد قلال التمر المبيع صفقة وهي متساوية القيمة أو متفاوتة، فهل يثبت الخيار فيما فيه العيب فقط أو في الجميع؟**

ج ـ قد ذكر الأصحاب رحمهم الله في هذه المسائل ونحوها أن المبيع المتعدد إذا ظهر عيب في أحد المبيعات دون الآخر أنه يثبت فيه وحده الخيار دون الآخر الذي لا يرتبط فيه، كقلال التمر والغنم ونحوها، لأنها بمنزلة المبيعات المتعددة، والحكم يدور مع علته، وهذا بخلاف زوجي الخف، وأحد مصراعي الباب ونحوها، فإن عيب أحدهما في الحقيقة يعود إلى عيب الآخر.

---

(١) سيأتي في السؤال رقم ١٥ ما يشبه هذا وقد أجاب بأنه يثبت الخيار في المعيب وحده، وعزاه للأصحاب، لكن ما ذكره هنا رواية صححها في «المحرر» و«الفائق» واختارها أيضاً بعض الأصحاب.

**س ١٦ ـ إذا اشترى تمراً في سيارة، فكشف على بعضه ولما كشف على باقيه، تبين أنه رديء فهل له الأرش؟**

ج ـ له أرش النقص، لأن هذا غش، وإن شاء رد الجميع إذا كان لم يتصرف فيه، ولم يأكل منه.

**س ١٧ ـ إذا أراد أن يرد المبيع وقد نقص السعر نقصاً فاحشاً، فامتنع البائع إلا أن يقبل الأرش فما الحكم؟**

ج ـ ثبوت خيار الرد بالعيب لا ريب فيه، ولكن لا تخلو الحال، إما أن يكون البائع قد علم بالعيب وكتمه على المشتري، وإما أن لا يعلم، فإن كان عالماً بالعيب وأخفاه على المشتري، فهذا حرام عليه، وهو آثم ظالم. وقد ذكر الأصحاب أنه لو تلف في هذه الحالة كان ضمانه على البائع، ويرجع المشتري بكل الثمن، ومن باب أولى وأحرى إذا نقص السعر عند المشتري نقصاً فاحشاً، فإنه يذهب على البائع، فإن رده استحق المشتري على البائع ذلك النقص، وإن أعطى الأرش للعيب الذي لم يعلمه المشتري، فالأمر واضح، وإن لم يدلس البائع على المشتري العيب، ووجد المشتري بما اشتراه عيباً، وكانت السلعة بحالها لم تَعِب عنده، ولم ينقص سعرها نقصاً فاحشاً، فله الرد بلا إشكال ولا نزاع، وإن لم يتبين له العيب إلا بعد أن رخص السعر رخصاً ظاهراً ثم أراد ردها، فعموم كلام الأصحاب أن له الرد يشمل هذه الحال، وعموم كلامهم الآخر في قولهم: إذا تعذر الرد تعين الأرش يقتضي أنه في هذه الحال يتعين الأرش، لتعذر رد المبيع على صفته وقت البيع، لأن من أعظم أوصافه رغبة الناس فيه، وارتفاع سعره. فالذي أرى في هذه المسألة أنه ليس له الرد، وإنما له الأرش للعيب على البائع، أو يردها ويرد معها نقص السعر. وذلك لعدة أَوجه. منها أن الشارع إنما مكنه من الرد لأجل العيب الذي كان عند البائع، ولم يمكنه لعيب يحدث عند المشتري أو لِنقص سعر، وهذا الراد لم يرده لأجل العيب وحده، وإنما رده لأجل الأمرين، وربما كان معظم مقصوده بالرد لأجل نقص السعر. ومنها أن كلام الأصحاب مطلق، ويتعين حمله على الرد

الذي تكون السلعة بحالها لم تتغير بنقص ذاتي أو عيبي أو تقويمي، فكما أنه إذا نقصت ذات المبيع عند المشتري، أو حدث بها عيب عنده، فإن هذا النقص وهذا العيب إنما حدث على ملك المشتري ليس له أن يرده، أو يحسبه على البائع، فكذلك إذا نقص السعر. ولا فرق بين هذه الأمور الثلاثة، ويؤيد هذا أن إطلاق كلامهم الذي لا يختلفون فيه أنه لا يرد السلعة لنقص السعر الحادث عنده، وأنه لو شرط ردها لنقص السعر، كان شرطاً لاغياً، فحفظنا هذا العموم الموافق للعدل أولى من الأخذ بعموم كلامهم السابق. ومنها أَنه لو اشترى شيئاً، فوجد فيه عيباً قديماً، وأراد رده بعدما حدث عند المشتري عيب جديد، لم يمكن من الرد إلا إذا أعطى المشتري البائع أرش العيب الحادث، فكذلك النقص الحادث عند المشتري لنقص السعر مثل حدوث العيب. فإن قلت: قد صرح الأصحاب في «باب الغصب» أن على الغاصب رد المغصوب، ورد نقصه إلا إذا كان النقص نقص سعر، فلا يرده. قلت: هذا القول في غاية الضعف، فإن الصحيح من القولين وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية أن الغاصب يضمن المغصوب من كل وجه حتى نقص سعره. فلو غصبه شيئاً يساوي ألفاً، فرده بعد نقص سعره، فصار يساوي خمسمائة، فعليه خمسمائة لما نقص من سعره، فهل من العدل أن الغاصب لا شيء عليه، ولا يضمن شيئاً في هذه الحال. ثم نقول: ليس من العدل أن يبيع سلعة تساوي ثمناً كثيراً وقت العقد، ثم إذا وجد فيها عيباً بعد مدة وقد نزل السعر نزولاً فاحشاً أنه يردها مجاناً، ونزول السعر إنما كان على نصيب المشتري بالاتفاق، فكيف يعود النقص على البائع، وإنما على البائع نقص العيب السابق للبيع فقط. يوضح هذا أنه لو اشترى شيئاً يساوي مائة مثلاً، ثم زاد السعر، وغلت السلع، فوجد فيه عيباً، وأراد المشتري أرش العيب، وأراد البائع رد المبيع الذي زاد عند المشتري أضعاف أرشه، فإن الأصحاب لا يمكنونه من ذلك، ولا أحد يمكنه. ويقولون: الزيادة حصلت على ملك المشتري، فهي له، فله اختيار الأرش. فإذا كانت الزيادة له، فكيف لا يكون النقص عليه، والجميع حادث في ملكه وعلى ملكه. ومنها

أَن في تمكين المشتري من الرد في هذه الحال بلا شيء إضراراً بالبائـع، إذ فوت عليه البيـع أوقات الغلاء، وفُرص المواسم والضرر مدفوع شرعاً. وأمّا ضرر المشتري الذي يجب دفعه عنه، فهو نقص العيب، فله عنه الأرش. ومنها أن التمكين المذكور يفتـح باب النزاع والخصام، فقلّ أحد يشتري سلعة، ثم تكسد عنده، وينقص ثمنها نقصاً فاحشاً إلا تتبـع ما فيها من العيب، وربما جعل ما ليس عيباً عيباً توصلاً إلى حصول غرضه من الرد حين حصلت. ومنها أن الأعمال بالنيات، والحيل على إبطال الحقوق باطلة. فإذا عرفنا أن قصد المشتري من الرد إنما هو لأجل كساد الشيء عنده ورخصه، لا لأجل العيب وحده، أو لأجل الأمرين، كان تمكينه من الرد لهذا الغرض غير سائـغ، وحيلة لا تتمشى على القواعد الشرعية. ومنها أنه إذا تعذر الرد لتلف، أو إتلاف، أو تعيب، أو تصرف يمنـع الرد تعين الأرش. وهنا تعذر رد السلعة بالحال التي هي عليها وقت العقد، ونزلت قيمتها نزولاً فاحشاً، فتعذر ردها كما هي، فتعين الأرش. فالذي ينبغي أن يقال هنا: إما أن يقبل أرش العيب أو يردها، ويرد معها نقص السعر، أو يبدلها له البائـع بمثلها سليماً من العيب إذا أمكن، وهذه المسألة كلما تأملها البصير حق التأمل عرف أن هذا هو الصواب الذي لا ريب فيه والله أعلم.

**س ١٨ ـ إذا باع بعيراً وشرطه أجرب، ولكن باعه بيـع الصحيـح، فتبين أنه أجرب فهل له الخيار؟**

ج ـ هذا فيه تفصيل، إن كان شرطه أنه أجرب مثل ما يفعل بعض الناس يشرطون شروطاً توهيماً للمشتري يعني معناه أنه لو تبين فيه جرب (تراك ما ترده علي) فهذا لا يفيد الشرط، لأنه معلوم عندهما أنه ما شرط جرباً حقيقة. وأما إذا قال: تراها جرباء، وتكلم معه كلاماً صحيحاً، وبين له أنها جرباء، فهذا هو الشرط الذي يلزم. والدليل على أن الشرط الذي ذكرت غير مقصود، أنه باعها بيـع الصحيحة، فلو أن المشتري فاهمٌ من البائـع أنه أجرب حقيقة

ما شراه مشترى الصحيح، فمثل هذا الشرط الذي لا يقصد لا عبرة به. والله أعلم.

**س ١٩ ــ إذا وجد عيباً في الدابة وردها، فهل له نفقتها مدة مقامها عنده قبل الرد؟**

ج ــ إن الأصحاب رحمهم الله صرحوا أن المشتري يملك المبيع ولو كان فيه خيارُ شرط، أو خيارُ عيب، أو غيرها من الخيارات، وأنه يترتب على ملكه له أن نفقته عليه، سواء انتفع به، أو لم ينتفع، كما أنه لو تلف قبل رده، فإنه يتلف على المشتري، لأن الخراج بالضمان، فكما أن منافعه في هذه المدة للمشتري، فمصارفه وتلفه عليه، إلا إذا دلس البائع على المشتري العيب وكتمه، ثم تلف، فإنه يذهب على البائع، لأنه كتمه وغرره. ومقتضى هذا التعليل أنه لو أنفق عليه هذه المدة، وقد دلس عليه البائع، وكتمه العيب، وأنفق عليه المشتري من غير مقابلة انتفاع، أنه يرجع بالنفقة، لكني لم أجد أحداً صرح بهذا، وأمَّا ظاهر كلامهم، فإنه يشمل هذه الصورة، وأَن النفقة على المشتري ولو كان مدلساً عليه.

**س ٢٠ ــ إذا أقر الوكيل دون الموكل بالعيب الممكن حدوثه فهل يقبل؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: فإن كان العيب مما يمكن حدوثه، فأقر به الوكيل، وأنكره الموكل، لم يقبل إقراره على موكله. أقول: وعند أبي الخطاب يقبل إقرار الوكيل هنا، وهو الموافق للقواعد، لأنه يتعلق فيما وكل فيه.

**س ٢١ ــ إذا اختلفا عند من حدث العيب فمن يقبل قوله؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن اختلفا عند من حدث العيب مع احتمال قول كل منهما، فقول مشترٍ. أقول: هذا من المفردات، والصحيح قول الجمهور أن القول قول البائع، لأنه منكر، والمشتري مدع، وأضعف أفراد هذه المسألة قوله: ومنه لو اشترى جارية... ألخ.

**س ٢٢ ـ عن كون الأمة محرمة على المشتري ليس بعيب إذا كان التحريم خاصاً به؟**

ج ـ ذكر في «الإقناع» أن تحريم الأمة على المشتري ليس بعيب إذا كان التحريم خاصاً به كأخته من الرضاع. . . ألـخ أقول: ظاهره ولو كان قصده التسري، ودلت الحال على ذلك، والأولى أن له الخيار في هذه الحال.

**س ٢٣ ـ إذا رد المعيب، فأنكر دافعه أن يكون عين ماله الذي دفعه فما الحكم؟**

ج ـ إذا حصل التقابض بين المتعاوضين للثمن والمثمن، ثم رد أحدهما على الآخر ما قبضه لدعوى عيب أو غيره، وأنكر الآخر أنه العين التي انتقلت، فالقول قول المنكر، ولا فرق في ذلك بين ما كان ثابتاً في الذمة قبل ذلك أو غيره، ولا فرق بين ما فيه خيار الشرط أَو غيره، لقوله ﷺ (البينة على المدعي، واليمين على من أنكر) ومعلوم أن المدعي هو الراد، فعليه أن يأتي ببينة أن هذا الذي رده بعيب أو نحوه هو الذي قبضه، وإلا فالقول قول المنكر بيمينه. ولو قبلنا قول الراد في خيار الشرط أو في الثابت بالذمة قبل ذلك كما هو قول متأخري أصحابنا لخالفنا هذا الحديث، ولحصل بذلك فساد وشر، فإنه لا يشاء أحد أن يقبض الشيء، ثم يبدله بمعيب ناقص، ويدعي أنه هو عين ما قبضه من صاحبه إلا فعل، وفي هذا فساد كبير، والقول الذي صححناه هو الذي عليه العمل عند أغلب الحكام، أو عندهم كلهم، وهو أحد الوجهين للأصحاب والله أعلم.

**س ٢٤ ـ عن قول الأصحاب: ويقبل قول قابض في ثابت في الذمة؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويقبل قول قابض مـع يمينه في ثابت في الذمة ألـخ. أقول: والصواب أن القول قول المنكر أن المبيـع غير المردود، معيناً كان أو في الذمة، وهو الذي ينطبق عليه (البينة على المدعي واليمين على من أنكر).

**س ٢٥ ــ إذا قطع المبيع لقصاص أو سرقة قبل البيع فهل هو كالعيب الحادث عند المشتري أم لا؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن قطع المبيع عند المشتري لقصاص أو سرقة قبل المبيع، فكما لو عاب عنده، أي المشتري على ما تقدم، أقول: في هذا نظر ظاهر، بل الصواب، فكما لو عاب عند البائع، لأن السبب وجد عنده.

**س ٢٦ ــ هل الحمل والطلع زيادة متصلة أو منفصلة؟**

ج ــ هذا السؤال فيه عدة تفاصيل، فإنه إن كان الحمل والطلع موجوداً وقت الشراء، فهو داخل في المبيع، سواء وضع الحمل، وجذَّ الثمر أم لا وإن كان وقت الشراء غير موجود، ثم وجد، وجذ الثمر، ووضع الولد قبل الرد، فهو نماء منفصل محض لا شك في ذلك، وإن كان وقت الشراء غير موجود، ثم حدث بعد العقد، واحتيج إلى رده قبل وضعه وجذه، فهذه كلام الأصحاب فيها مختلف، بعضهم كالقاضي وابن عقيل يرى أنها منفصلة، وبعضهم كالموفق يرى أنها متصلة ترد مع المبيع، ولا تكون باقية للمشتري، وهذا هو الصحيح في مسألة الرد بالعيب خاصة لوجوب رد المبيع بما اشتمل عليه. وأما في بقية الأبواب، فإلى الآن لم يتضح لي القول الصحيح، والله أعلم.

**س ٢٧ ــ عما إذا قال: أشركني عالماً بشركة الأول فله الربع أو النصف؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن لقيه آخر، فقال: أشركني، وكان الآخر عالماً بشركة الأول، فشركه، فله نصف نصيبه وهو الربع، وإن لم يكن عالماً، صح وأخذ نصيبه كله وهو النصف. اهـ.

أقول: قولهم: وإن لم يكن عالماً ألخ، فيه نظر، وغاية الأمر اعتقاد الآخر حصول جميع نصف الشيء له، واعتقاد المشرك أنه ليس له إلا نصف نصيبه وهو الربع، فلأي شيء يكون له الجميع وهو غير داخل بلفظه ولا بنيته؟!

**س ٢٨ ــ عن ثبوت الخيار في صور التخيير بالثمن؟**

ج ــ قال في شرح «الإقناع»: وما ذكره، أي: الماتن من ثبوت الخيار في

الصور الأربع إذا ظهر الثمن أقل مما أخبر به البائع تبع فيه «المقنع» وهو رواية حنبل. اهـ.

أقول: وهي الصحيحة الموافقة للقواعد والمقاصد.

**س ٢٩ ـ قول الأصحاب: إذا تحالفا في قدر الثمن وكانت السلعة تالفة رجعاً إلى قيمة مثلها هل مرادهم بالقيمة وقت التلف أو الفسخ أو العقد؟**

ج ـ مرادهم بذلك قيمتها يوم العقد الذي يزعم كل واحد منهما أنها داخلة في ملك المشتري بالثمن الذي ادعاه، فإن الخلاف إنما مناطه ومتعلقه في ذلك الوقت، وأما يوم التلف ويوم الفسخ، فلا دخل لهما في ذلك، ولا ريب فيه. والله أعلم.

**س ٣٠ ـ عن حكم الاختلاف في عين المبيع أو قدره؟**

ج ـ الصحيح أن الاختلاف في قدر المبيع أو عينه كالاختلاف في الثمن يتحالفان ويتفاسخان.

**س ٣١ ـ الذي يمنع بيع الطعام بعد قبضه حتى يحوزه إلى رحله هل هو مصيب أم لا؟**

ج ـ هذه المسألة معروفة، ومعروف الخلاف فيها، وأن المذهب في الطعام المبيع بكيل أو وزن أنه إذا كيل أو وزن، فهذا قبضه، وأنه يجوز بيعه ولو لم يحزه إلى رحله، وحجتهم في هذا مفهوم الحديث الصحيح أن النبي ﷺ نهى عن بيع الطعام حتى يستوفيه. وهو في «الصحيح» والاستيفاء: هو كيله أو وزنه. والآخرون المانعون من بيعه حتى يحوزه إلى رحله أيضاً يحتجون بالحديث الصحيح أن الناس أو التجار كانوا ينهون عن بيع الطعام حتى يحوزوه إلى رحالهم؛ وعمومه يقتضي أنه سواء كيل أو وزن، أو كان مبيعاً جزافاً، وهذا أحوط وأولى. وإذا حمل أهل المذهب هذا الحديث الأخير على الكراهة، والأول على الجواز، حصل الجمع بين الحديثين، والله أعلم بالصواب.

**س ٣٢ ـ إذا تنازع البائع والمشتري أيهما يكيل فأيهما يقبل؟**

ج ـ يقدم قول البائع، وهو الذي يتولى الكيل إلا إن أثبت المشتري أن في كيل البائع خللاً، فليوكل البائع من هو مرتضى عند الناس أو عندهما، وذلك أن الكيل والوزن ومؤونة ذلك على البائع، ولهذا قال تعالى:

**﴿ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾** [سورة المطففين: الآيات ١ ـ ٣]

فأضاف الكيل إلى البائع. وقال النبي ﷺ: (إذا بعت فكل، وإذا ابتعت فاكتل) يعني إذا كنت أنت البائع فكل أنت للمشتري، وإذا ابتعت يعني اشتريت فاكتل، يعني أن البائع يكيل لك، وليس معناه: اكتل بنفسك أيها المشتري، فتبين أن الذي يتولى الكيل البائع حيث لا مانع، ومع التراضي أَيهما كال جاز.

**س ٣٣ ـ قولهم: وإن قبض المبيع بكيل جزافاً مصدقاً لبائعِه في كيله، برىء البائع من عهدته، ولا يتصرف فيه قبل اعتباره لفساد القبض، فهل هو وجيه؟ وهل يدخل الأكل في التصرف فيه؟**

ج ـ إنه قد تقرر أن المبيع بكيل ووزن ونحوهما، لا يصح التصرف فيه قبل قبضه بكيل أو وزن أو عد أو ذرع، فإذا قبضه بذلك، صح تصرفه فيه، وإذا لم يقبضه بذلك، بل قبضه بمجرد تصديق البائع من غير علم من المشتري بكيله ووزنه أو نحوهما، فقبضه هذا تضمن أمرين:

أحدهما: أنه كالإقرار من المشتري أنه حقه حيث صدق البائع، فبرىء البائع من العهدة بحيث لا يصير كالذي لم يقبضه المشتري أصلاً يكون عهدته على البائع، بل زال الضمان عن البائع بتصديق المشتري، هذا من جهة نفسه.

والأمر الثاني: من جهة غيره، لا يتصرف فيه ببيع ونحوه قبل اعتباره،

لتعليق صحة بيعه على قبضه الصحيح المعلوم، وهذا مجرد تصديق للبائع، فلم يتحقق الشرط الذي هو العلم بقبضه بالكيل ونحوه، والمراد بالتصرف الممنوع منه قبل اعتباره: هو البيع ونحوه. وأمّا الأكل والشرب والاستعمال، فلا بأس به، لأنه استعمال لا تصرف فيه، ولم يبق للبائع فيه علقة، بخلاف المبيع الذي شرط فيه خيار للبائع، فإن المشتري ممنوع من التصرف والاستعمال إلّا للتجربة، والله أعلم.

**س ٣٤ ــ إذا أراد أن يودع شخصاً مكيلاً أو نحوه، فامتنع المودع إلا بقبضه بكيل ونحوه، ثم اشتراه المودع بعد مدة، فهل يكفي القبض الأول، أم لا؟ وهل يفرق بين ما كان متميزاً أو في ذمة المودع بأن خلطه بماله بإذن.**

ج ــ القبض المذكور، هو قبض للوديعة، فلو اشتراه المستودع بعد ذلك وهو باقٍ على حاله، لم تختلف فيه الأيدي، ولا هو من الأشياء التي تزيد أو تنقص عند مضي المدة، فإذا اشتراه بما علماه من ذلك الكيل على هذه الصفة، جاز، ولا يحتاج أن يعيد كيله، لأنه معلوم لهما، وقد علما أيضاً أنه لم تختلف فيه الأيدي التي يكون بها عرضة للنقص، ولا هو من الأشياء التي تزيد وتنقص بمضي المدة، فلو اختل شرط مما ذكرناه واشتراه، فلا بد من اعتباره إذا كان الشراء بكيل.

فإن كان جزافاً، جاز من دون اعتبار. وأما إذا أذن له أن يخلطه بماله على وجه لا يصير به شريكاً، فإنه لم يبق وديعة، بل هو دين من جملة الديون تثبت له أحكام الديون، فإذا اشتراه في هذه الحالة كان بيعاً للدين على من هو في ذمته، فيجوز بشرطه، وهو أن لا يجري بين العوضين ربا النسيئة، وأن يقبض عوضه قبل التفرق.

**س ٣٥ ــ إذا اشترى طعاماً بكيل، وكال عشرة آصع ووزنها، ثم أخذ الباقي وزناً مثل العشرة، فهل يجوز؟**

ج ــ أما المشهور من المذهب، فلا بد من اعتبار الجميع بمعياره

الشرعي، وبالذي سُمي به العقد، ويعللون ذلك بالجهالة، وعلى هذا القول فالتحريم في مثل هذه المسألة التي جهالتها يسيرة جداً أخف مما جهالته كثيرة، وهذا معنى ينبغي التفطن له، وهو أن الأصحاب رحمهم الله ذكروا تحريم جميع الصور والمسائل التي فيها جهالة، ولكن التحريم يتبع كثرة الجهالة وقلتها، فما كثرت جهالته دخل في أمور الميسر دخولاً ظاهراً، وصار من كبائر الذنوب، ولهذا كان هذا النوع مما لا يوجد فيه خلاف إلا خلافاً شاذاً لا يعتبر، وما قلت جهالته فإنهم وإن قالوا: لا يحل ولا يجوز، فلا يلحق بالأول بأنه من كبائر الذنوب، بل تحريمه عندهم أخف، وهذا النوع يكثر التنازع فيه بين أهل العلم منهم من يدخله في الغرر، فيمنعه نظراً لمجرد الجهالة أو حسماً وسداً للذريعة، ومنهم من يجيزه. لأن جهالته لا تدخله في القمار، والحاجة تدعو إليه كثيراً، وما دعت إليه الحاجة وهو لا يخالف قاعدة شرعية مخالفة بينة فالشارع من حكمته ورحمته لا يحرمه، فهذه أصول مآخذ أهل العلم، ومسألتكم من النوع الأخير. والذي أرى إذا كان الطعام جنساً واحداً، فلا بأس به وهو أحد القولين في المذهب، والوزن في الغالب أزيد تحريراً من الكيل في الأشياء التي من جنس ونوع واحد، بخلاف ما إذا كان بعضها ثقيلاً، وبعضها خفيفاً، فإن التفاوت بين كيلها ووزنها ظاهر والله أعلم.

**س ٣٦ ـ ما حكم ضمان المقبوض بعقد فاسد؟**

ج ـ قال الأصحاب في المقبوض بعقد فاسد: إنه مضمون على القابض كالمغصوب.

أقول: واختار الشيخ تقي الدين أن المقبوض بعقد فاسد غير مضمون، وأنه يصح التصرف فيه، لأن الله تعالى لم يأمر برد المقبوض بعقد الربا بعد التوبة، وإنما رد الربا الذي لم يقبض، ولأنه قبض برضى مالكه، فلا يشبه المغصوب، ولأن فيه من التسهيل والترغيب في التوبة ما ليس في القول بتوقيف توبته على رد التصرفات الماضية مهما كثرت وشقت والله أعلم.

**س ٣٧ ــ هل وعاء المشتري كيده؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه: ووعاؤه كيده، فلو اشترى منه مكيلاً بعينه، ودفع إليه الوعاء، وقال: كِلْه، فإنه يصير مقبوضاً. قال في «التلخيص»: وفيه نظر اهـ. قال في الهامش: ولعل وجهه أن قولهم: وعاؤه كيده ليس كذلك، إذ لم يخرج عن حوزة البائع.

أقول: وفيه نظر من وجه آخر، فإنه لو اشترى منه ربوياً بربوي من جنسه، أو ما يشترط فيه القبض، فسلمه وعاءه على أنه نائب عنه في القبض، لم يصح لفوات الشرط الشرعي.

**س ٣٨ ــ عن التصرف بما بيع جزافاً قبل قبضه؟**

ج ــ قال الأصحاب: ويحصل القبض في صبرة بنقلها لحديث ابن عمر: كنا نشتري الطعام من الركبان جزافاً، فنهانا النبي ﷺ أن نبيعه حتى ننقله. اهـ.

أقول: الحديث صريح في دلالته على القول الآخر أنه لا يصح التصرف بما اشتراه جزافاً إلا بعد نقله وهو إحدى الروايتين عن أحمد.

**س ٣٩ ــ قولهم: ويتميز ثمن عن مثمن بباء البدلية فهل هو وجيه؟ وهل هو خاص في بيع الأعيان أو يتناول جميع البيوع؟**

ج ــ مرادهم بذلك بيوع الأعيان، وما في الذمم، وهذا القول على إطلاقه فيه نظر، ولذلك قال كثير من المحققين: إن الثمن هو أحد النقدين إن كان أحدهما نقداً، سواء دخلت عليه الباء، أو دخلت على المعوض الذي هو المثمن، فلا فرق على هذا القول الصحيح أن يقول: بعتك شاة بدرهم أو دينار، أو بعتك ديناراً أو درهماً بشاة، ولكن لما كان الغالب أن الباء إنما تدخل على الثمن قال من قال من الأصحاب: إنه يتميز بالباء على كل حال كما هو المشهور من المذهب. ولا فرق على هذا القول بين كون البيع حاضراً، أو بدين كقوله: بعتك ديناراً بعشرين صاعاً براً، فالثمن عندهم هو البر، ولكن الصحيح

ما ذكرنا، إن كان أحد العوضين نقداً، فهو الثمن مطلقاً، وإن كان العوضان غير النقدين كالبر والشاة وبالعكس، فيتوجه القول بأن الثمن ما دخلت عليه الباء والله أعلم.

**س ٤٠ ــ إذا قال: أقلني وأنظرك في الثمن، فهل فيه محذور؟**

ج ــ لا محذور فيه إذا عين مدة الإمهال، فكأنه جعل للثمن أجلاً معيناً، وإن كان لم يعين للإمهال مدة لم يصح، لأنه يصير كأنه قرض جر نفعاً، وهذا كله على الصحيح، وأما على قاعدة المذهب حيث لم يجوزوا الإقالة بأكثر من الثمن، فإن ذلك لا يجوز، لأن المدة المذكورة زيادة عن الثمن الذي وقع عليه العقد.

## باب الربا والصرف

**س ١ ــ ما حكم الربا؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه: وهو، أي: الربا محرم إجماعاً. قال في هامش النسخة: إجماعاً، أي: في الجملة، بدليل أنه لا ربا بين السيد وعبده، وفي رواية: ومكاتبه أيضاً، وبدليل ما نقل صاحب «الفروع» عن الموجز رواية إباحته في دار الحرب.

أقول: ولا حاجة إلى هذا الاستدراك، لأنه إذا حصل الإجماع على أصل الشيء لم يضر الاختلاف في بعض الفروع كما في كثير مما حكي فيه الإجماع.

**س ٢ ــ ما هي العلة المؤثرة في الربا عندكم؟**

ج ــ ليس عندي شيء أقطع به قطعاً، لأن الخلاف كما مر عليكم فيها كثير، وليس ثَمَّ نص في التعليل يوجب المصير إليه، ولكن العلة التي ذكر الأصحاب ــ رحمهم الله ــ وهو أنه يجري الربا في كل مكيل وموزون قريبة، وعللها بعض المالكية بتعليل حسن نقلته منذ سنتين للأخ عبد العزيز العبد الله،

وربما يكون موجوداً عنده. وأيضاً ما ناب عن النقدين كالورق المتعامل فيه في هذا الزمان، حكمه كالنقدين في جريان الربا والزكاة وغيرهما من الأحكام.

**س ٣ ـ ما حكم الربا بين العبد وسيده؟**

ج ـ استثنى الأصحاب من تحريم الربا بين العبد وسيده. أقول: الأولى عدم استثناء شيء من الربا، لأن رقيقه القن إذا عامله، فهو صورة لا حقيقة، مع أن الأولى عدم التشبه بالربا، لئلا يدعو إلى فعله حقيقة، وأما تعجيل بعض الكتابة وإسقاط الباقي، فالصواب أنه ليس ربا ولا محذور فيه.

**س ٤ ـ ما معنى قولهم: الجنس ما له اسم خاص وما مثاله؟**

ج ـ أما قول الفقهاء: الجنس ما له اسم خاص يشمل أنواعاً، فمثلاً البر جنس يدخل فيه أنواعه: لقيمي، معية، حنطة، والتمر جنس وأنواعه الشقر، السكري، الحلاء، أم حمام... إلى آخرها. فإذا بيع البر بالبر ولو من نوع آخر، كاللقيمي بالمعية، وجب فيه التماثل والقبض قبل التفرق، وكذلك إذا بيع شقر بسكري، وجب فيه الأمران المذكوران، وأما بيع البر بالشعير، فهما جنسان، فلا يشترط إلا التقابض قبل التفرق. وأما المكيلات، فقد نص عليها الفقهاء، الحبوب كلها والأدقة والمائعات، فكلها مكيلة، إذا بيع بعضها ببعض، وكان الجنس مختلفاً كالبر بالدهن مثلاً، جاز التفاضل، ووجب التقابض، لأن العلة واحدة وهي الكيل.

**س ٥ ـ قولهم: اللحم والشحم والكبد... إلخ أجناس، هل هو وجيه؟**

ج ـ أما قولهم: واللحم والشحم والكبد... إلخ أجناس، فإنه وجيه، لاختلاف الاسم والمعنى والمقصود بالمذكورات.

**س ٦ ـ إذا كان لإنسان على آخر مائة وزنة تمر، وأراد أن يأخذ عنها نخلة فهل يصح؟**

ج ـ الأصل أن ذلك لا يجوز، لأن هذه المزابنة التي نهى عنها النبي ﷺ، لأنه يدخل في المزابنة بيع ثمرة النخل على رؤوسها بتمر حاضر أو في الذمة كله

واحد، ولم يرخص النبي ﷺ إلا في العرايا عند الحاجة إلى أخذ الرطب وأكله طريًّا، وليس عند المشتري ثمن يشتري به سوى التمر، وباعه بخرصه تمراً لحاجته للمقيظ، فهذا يجوز، وسواء كان التمر الذي يشتري به حاضراً أو في الذمة، لكن بالشرط المذكور أن لا يكون عنده ثمن يشتري به، وهو محتاج للرطب فيما دون خمسة أوسق.

**س ٧ ـ إذا اشترى مائة صاع بر إلى أجل، ثم قبضها منه، وأراد أن يبدلها بشعير فما الحكم؟**

ج ـ وإذا اشترى من رجل مائة صاع بر إلى أجل، ثم قبضها منه، جاز له أن يبدلها منه بشعير أو بعضها كذلك لعدم المحذور.

**س ٨ ـ إذا جعل في لزا القليب عشرة آصـع فلم تزرع، فأمرناه بأخذهن من النخل، فهل يأخذ التمر عن العيش، أو يبيـع التمر ويشتري به عشرة آصـع أو يبيـع التمر ويعطيه ثمنه؟**

ج ـ يجوز في هذه الحال ما اتفقا عليه، فيجوز أن يأخذ تمراً عن البر أو دراهم أو ثمن التمر بشرط أن لا يتفرقا وبينهما شيء، وحديث ابن عمر المشهور: كنا نبيـع الإبل بالنقيـع بالدراهم فنأخذ عنها الدنانير، وبالدنانير فنأخذ عنها الدراهم، فسألنا رسول الله ﷺ، فقال: (لا بأس بذلك إذا لم تفترقا وبينكما شيء) فهذا تعويض عما في الذمة بغير جنسه ولا محذور منـه، ولكن مـع التراضي، فإذا اختار أحدهما الأصل، وهـو عشرة آصـع، واختـار الآخر التعويض، رجـع إلى من يختار الأصل. والله أعلم.

**س ٩ ـ هل يجوز بيـع العيش بالسمن وأحدهما غير مقبوض؟**

ج ـ هذا ذكره الأصحاب ـ رحمهم الله ـ في المختصرات والمطولات في باب الربا، وأن كل شيئين اتفقا في علة الربا وهي الكيل أو الوزن، فلا يحل بيـع أحدهما بالآخر إلا بشرط القبض لكل منهما قبل التفرق والسمن مكيل والعيش مكيل، فلا بد من التقابض من الطرفين.

**س ١٠ ــ هل يجوز بيـع السمن، أو العيش بثمرة النخل؟**

ج ــ نعم يجوز بشرطه، وهو أن المتعاقدين لا يتفارقان حتى يتقابضا، فإذا قبض منه السمن أو العيش، ومشى هو وإياه إلى النخلة التي جعلت عوض ذلك، حصل الشرط، وصح البيـع، لأن المذكورات كلها مكيلات، ولكن الجنس مختلف، فهذا النوع وما أشبهه لا يشترط له إلا شرط واحد وهو التقابض قبل التفرق، ولا فرق بين بيعه كيلاً أو وزناً أو جزافاً.

**س ١١ ــ هل يجوز بيـع القرع والبطيـخ واللحم بعيش أو تمر نسيئة؟**

ج ــ نعم يجوز ذلك، أما اللحم، فلأنه موزون، والعيش والتمر مكيل، وبيـع المكيل بالموزون نسيئة يجوز وبالعكس. وأما القرع والبطيـخ، فمن باب أولى وأحرى، لأنه لا يجري فيهما ربا الفضل، ولا ربا النسيئة، لا إذا بيعت ببعضها، ولا إذا بيعت بغيرها والله أعلم.

**س ١٢ ــ قولهم: ولا يصح بيـع فرع بأصله كتمر بدبس هل هو وجيه؟**

ج ــ هو وجيه، وهو داخل في عموم النصوص المانعة من بيـع الجنس بجنسه إلا يداً بيد مثلاً بمثل، والدقيق بالحب مانـع من التماثل. ولما سئل النبـي ﷺ عن بيـع التمر بالرطب، فقال: (أينقص إذا جف)؟ قالوا: نعم، فنهى عن ذلك، فالدقيق بلا شك يزيد بطحنه والله أعلم.

**س ١٣ ــ إذا باع زيتاً ونحوه من المحروقات بعيش أو تمر إلى أجـل فما الحكم؟**

ج ــ لا يجوز إلّا يداً بيدٍ، لأن الحبوب كلها مكيلة، والمائعات كلها مكيلة، مثل الديزل والزيت، وبيـع المكيل بالمكيل لا يجوز إلّا يداً بيدٍ، ولو كان من غير الجنس، فلا يصلـح بيعها بعيش أو تمر إلّا مقابضة من الطرفين.

**س ١٤ ــ عن العجوة المتجبلة من الموزون؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه: والتساوي بين الجبن والجبن بالوزن، لأنه

لا يمكن كيله، وكذلك الزبد والسمن، قلت: ومثله العجوة إذا تجبلت، فتصير من الموزون، لأنه لا يمكن كيلها. اهـ.

أقول: يتعين أن مرادهم بالتمر إذا تجبلت بيع بعضها ببعض بالوزن، لأنهم عللوا هذا بعدم إمكان كيلها، لا بيعها بمكيل تمر أو بر أو نحوهما نسيئة، كما هو صريح النصوص الشرعية، والله أعلم.

**س ١٥ ــ هل يجوز لأحد المتصارفين أن يوكل أحدهما في قبض العوض عن نفسه؟**

ج ــ إذا تصارفا، لم يجز لأحد المتصارفين أن يوكل الآخر في قبض العوض، لأن الشارع شرط التقابض منهما قبل التفرق، ولكن يوكل غيره في ذلك.

**س ١٦ ــ هل يجوز أخذ الريال العربي بفرنسي، ويسامحه في الباقي، وهل يجوزه شيخ الإسلام؟**

ج ــ هذا لا يجوز، ولا يجوزه شيخ الإسلام ولا غيره من الأصحاب، لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة حيث اشترط النبي ﷺ في بيع الفضة بالفضة أن يكون وزناً بوزنٍ مثلاً بمثل يداً بيدٍ، ومعلوم الفرق بين العربي والفرنسي، وكل منهما نوع بانفراده، وليس هذا الذي ذكره هبة ومسامحة وإنما هو معاوضة، فإن هذه المسألة ليست بمنزلة من له على إنسان مثلاً مائة ريال فرنسي، فأخذ منه تسعين فرنسياً، وسمح له عن الباقي، فإن هذا هبة محض، ولكنه بمنزلة من له على آخر عيش حنطة أو لقيمي أو معية غير مرغوب، فأراد أن يعطيه من النوع الآخر المرغوب أقل منه عن الذي عليه، كأن يعطيه عن عشرين صاع حنطة خمسة عشر لقيمياً، ويقول: هذا بعض حقك، وسامحتك عن الباقي، فإنه أخذ الأقل عن الأكثر للرغبة الخاصة أو العامة، وهذا معاوضة لا يجوز.

**س ١٧ ــ قوله في «المنتهى»: ويقوم الاعتياض عن أحد النقدين وسقوطه عن ذمة أحدهما مقام قبضه، هل هو وجيه أم لا؟**

ج ــ نعم وجيه، لأن الاعتياض عنه قبض وزيادة، لأنه مثلاً إذا اشترى

ديناراً بعشرة دراهم، وأعطاه الدراهم، وأخذ الدينار، أو أخذ عوضه مثلاً طعاماً أو عروضاً، فقد سقط الدينار عن ذمته، وصار عوضه المذكور هو الواجب له، لكن إن كان الطعام أو العروض معيناً لا يحتاج إلى حق توفية، فقد ملكه بالعقد، وصح تصرفه فيه، وإن كان موصوفاً في الذمة، صار ديناً بدين لا بد من قبضه في المجلس، فعدم ذكرهم للقبض في المجلس، لأن فيها هذا التفصيل المذكور. وأما سقوطه عن ذمة أحدهما، فالأمر فيه ظاهر.

**س ١٨ ــ إذا افترق المتصارفان قبل القبض وقد وكل أحدهما من يقبض له فهل يصح؟**

ج ــ لا يصح ذلك، لأن العاقدين اللذين عقدا قد افترقا، والوكيل لا يقوم مقام موكله في مجرد القبض فيما قبضه شرط لصحته، فإذا أراد الصحة، فليوكل الوكيل بعقد ويقبض، فإذا وكله في ذلك حصل المقصود، وزال المحذور.

**س ١٩ ــ ما حكم المعاملة بالأنواط؟**

ج ــ أما بيعه ديناً إلى أجل، فهو ممنوع، وأما بيعه إلى غير أجل، فلا بأس به، سواء بزيادة أو نقصان، أو قبض أو غيره فقط لا يصير إلى أجل.

**س ٢٠ ــ ما حكم الأنواط وبأي نقد تلحق؟**

ج ــ أما الأنواط، فهو أنواع، إما نوط ربية، فحكمه حكمها في كل شيء في الزكاة والربا وغيرهما، ومنها أنواط دينار، وهو نوط العراق، ومنها نوط جنيه إنجليزي، فهذه حكمها حكم الذهب في كل شيء، وقد ذكرنا اختلاف أهل العصر فيها وأن الصواب الموافق للأصول والقواعد الشرعية هذا القول، والله يتولانا وإياكم بتوفيقه ولطفه.

**س ٢١ ــ ما حكم الأنواط (أوراق النقد) المتعامل بها الآن؟**

ج ــ يتحرر الجواب عنها بفصلين:

# الفصل الأول

في وجوب الواجبات بها مثل الزكاة والنفقات وغيرها، وليس الإشكال المسؤول عنه في حكم هذا الفصل، فإن أحداً من أهل العلم لا يشك ولا يستريب أن من ملك نصاب زكاة، وحال عليه الحول تجب عليه الزكاة، وكذلك تجب فيها الكفارات المالية، والنفقات على النفس والزوجات والأقارب والمماليك من الآدميين، أو البهائم، كما يجب على المستطيع بها الحج، وأداء الديون التي لله، أو للآدميين، وكذلك من عنده ما يحصل به الغنى منها لا يحل له أخذ الزكاة ونحوها، وذلك لأنها من الأموال الداخلة في النصوص الموجبة لهذه الأمور مثل قوله تعالى:

**﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾**.
[سورة التوبة: الآية ١٠٣]

**﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾**. [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

ونحوها من الآيات، ومثل قوله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (فإن هم أطاعوك لذلك، فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم)، فإنها من الأموال، ومما يحصل به الغنى، ومثل قوله تعالى:

**﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾**.
[سورة الطلاق: الآية ٧]

ونحو ذلك، وهذا واضح لا إشكال فيه ولا خلاف فيه.

# الفصل الثاني

هل يجري فيها الربا أم لا؟ وهذه المسألة هي التي اختلفت فيها أنظار أهل العلم، فمنهم من أجراها مجرى الصكوك وبيعها وبيع الديون التي في الذمم، فمنع المعاملة بها رأساً، وهذا مع ما فيه من الضيق والحصر الذي لا تأتي به الشريعة، ليس له دليل صحيح، ولا مأخذ قوي. ومنهم من أجراها مجرى النقدين، وحكم عليها بحكم الذهب والفضة نظراً للقصد، فإن المقصود بها أن تكون بدلاً من الذهب والفضة، فأوراق الدينار بمنزلة الدينار، وأوراق الدراهم بمنزلة الدراهم، فيشترط فيها على هذا القول ما يشترط في النقدين، فإذا بيع نوط الفضة بنوط الذهب، أو بيع بالذهب، اشترط التقابض من الطرفين، وإذا بيع نوط الفضة بمثله أو بفضة، ونوط الذهب بمثله، أو بذهب اشترط له شرطان: التماثل في الوزن، والقبض قبل التفرق. وهذا القول عند التأمل يتضح ضعفه، ويعلم أنه لا يتحقق فيه الشرط الشرعي وهو الوزن وتماثله إذا بيع بمثله من الأوراق أو بمثله من النقدين، وفيه أيضاً ضيق شديد ينافي ما جاء به الشرع، ويوجب على من اعتقده أمرين: إما أن يضيق على نفسه، وعلى غيره بالمعاملة إن التزمه وعمل به، وإما أن يتجرأ به على الوقوع في الحرام إن اعتقده ولم يعمل به، وهذا المأخذ الذي أخذ به صاحب هذا القول من أن المقصود من الأوراق هو المقصود بالنقدين صحيح، ولكن هذا القصد لا يكفي في المنع وجريان الربا، بل لا يدفع ذلك أن يكون داخلاً في النصوص الشرعية، فإن الشارع إنما نص على الذهب والفضة، وعلق عليها أحكام الربا، واشترط فيها التماثل إذا اتفقا في الجنس مع القبض، واكتفى بالقبض قبل التفرق من الطرفين إذا اختلف الجنس. وقد علم أن الأوراق ليست ذهباً ولا فضة، فكيف تثبت لها أحكامها، فعلم بذلك أنه يتعين أن الصواب هو القول الثالث. وهو أنه لا يحكم لها بأحكام النقدين. ونهاية الأمر أن يحكم عليها أحكام الفلوس المعدنية، يمنع فيها أن يباع حاضر منها بمؤجل، وما سوى ذلك فإنه جائز، فيجوز مثلاً بيع أنواط الفضة بأنواط من فضة، أو بفضة متماثلاً أو متفاضلاً،

بأن يبيـع ألف درهم من الأوراق بألف وعشرة نقداً وبالعكس، وبأقل، ويجوز التحويل فيها من بلد إلى بلد آخر، سواء حولت الأوراق على أوراق، أو على نقد، كل ذلك جائز، وهذا القول هو الذي تكثر عليه الدلائل، وبه يحصل التعامل والتوسعة فيها، وذلك لأن الأصل في البيوع والمعاملات الحل كما قال تعالى:

﴿وأحلَّ الله البيـع﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]

وقــال:

﴿إلَّا أن تكون تجارة عن تـراضٍ منكم﴾. [سورة النساء: الآية ٢٩]

وهذا شامل لكل بيـع وتجارة جارية بين الناس، فمن منـع شيئاً من ذلك، فعليه الدليل، ولا دليل على المنـع في هذه المسألة وأيضاً، فقد استفاضت الأحاديث عن النبـي ﷺ في تحريم الربا في النقدين الذهب والفضة، واشترط إذا بيـع بمثله التماثل والتقابض، وإذا بيـع جنس منها بآخر الشرط الأخير وهذه الأوراق الأنواط ليست ذهباً ولا فضة، لا شرعاً ولا لغة، ولا عرفاً، فكيف نلحقهـا بالذهب والفضة بمجرد أنـه يقصد بها ما يقصد بالذهب والفضة أن تكون قيم العروض وغيرها. أرأيت لو حصل بدل الذهب والفضة لؤلؤ أو جوهر أو أمتعة، واتفق الناس على المعاملة بها، هل يحكم أنها ذهب وفضة؟ كذلك هذه الأوراق وأيضاً الشارع أطلق الذهب والفضة، ولا يمكن قياس غير الذهب والفضة عليها في جريان الربا، وإلا لأدخلنا في كلام الشارع ما ليس منه، لأن الذهب والفضة يجري الربا فيهما في كل أحوالهما، سواء كانت مضروبة أو تبراً أو مجعولة حلياً، فحكم الربا دائر معها حيث دارت. وأيضاً من الأدلة الواضحة أن الشرط الذي شرطه الشارع في بيـع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، وهو التماثل في الوزن. لا يمكن في الأنواط، والأنواط لا تساويها في شيء من هذه الأمور، إلا أنها تشبهها في التقويم فقط، ولا يكفي هذا القياس الصحيـح حتى تماثلها من جميـع الوجوه باتفاق الأصوليين، فإذا بيـع عشرة أنواط مما رقم فيه عشرة دراهم، فهي

مائة ريال عربـي مثلاً، فهل يشترط أن تماثل مـع الاريل في الميزان. هذا لا يقوله، ولا يمكن أن يقوله أحد، فعشرة الأنواط في الميزان يعادلها درهم واحد، وكذلك إذا بيعت الأنواط بالأنواط، نوط خمسة، ونوط عشرة، ونوط مائة يتقاربن في الحجم، فيتعذر فيها المماثلة، وهذا واضـح، ولله الحمد. فحيث تقرر وعلم لكل أحد أن الأنواط ليست بنفسها ذهباً ولا فضة، وأنه لا يمكن أن يتحقق فيها ما شرطه الشارع في الذهب والفضة من جهة الوزن، تعين القول بأنها بمنزلة العروض، وبمنزلة الفلوس المعدنية وأنه لا يضر فيها وفي المعاملة بها الزيادة والنقص والقبض في المجلس أو عدمه، مـع ما في هذا القول من التوسعة على الخلق، والمشي على أصول الشريعة المبنية على اليسر والسهولة ونفي الحرج وتوسيـع ما يحتاج إليه الخلق في عاداتهم ومعاملاتهم.

نعم الذي لا يجوز شيء واحد وهو أنه لا يحل أن يبيـع مثلاً مائة منها حاضرة بمائة وعشرين مؤجلة، كما لا يجوز ذلك في الفلوس المعدنية على أصـح الأقوال والله أعلم.

**س ٢٢ ــ عن مناظرة بين ثلاثة في حكم الأنواط؟**

ج ــ قال أحدهم: إنه عرض له حكم سائر العروض، وقال آخر: إنه نقد له حكم سكَّته، وقال الثالث: إنه سند وبيـع للدين. وكل منهم أبدى ما عنده من الاستدلال ليقف الناظر عليها، ويرجـح أقربها إلى الأدلة الشرعية والأصول الدينية.

قال صاحب العروض: عندي على ما قلت عدة أدلة وبراهين لو لم يكن منها إلا أن هذا هو الواقـع، وأن الثمن هو النوط حيث اشترى به، كما أنه هو السلعة حيث اشترى بها، فالعقد واقـع على نفس ذلك الورق، وهو المقصود لفظاً ومعنىً، وإن كان قد جعل لروجانه ورغبته أسباب متعددة، فكثير من السلـع قد يكون لروجانها أسباب متعددة، كما يكون لضد ذلك أسباب، فالعقد لم يقـع على ذهب ولا فضة حتى يدخل في قوله ﷺ: (الذهب بالذهب ربا إلاّ هاء وهاء، والفضة بالفضة ربا إلاّ مثلاً بمثل وزناً بوزن يداً بيد) وإنما وقـع على

أوراق يخالف معدنها للذهب والفضة من كل وجه، وإن وافقه في الثمنية، فليس في تلك الموافقة ما يوجب أن يجري فيه الربا، وأن يحكم فيه بحكم الذهب والفضة، كما أن أنواع الجواهر واللآلىء ونحوها لو وافقت الذهب والفضة في غلائها، أو زادت عليه لا يحكم عليها بأحكام الذهب والفضة، فكذلك هاهنا، فتعين أنها سلع يثبت لها ما يثبت لسائر السلع من زيادة ونقصان، وجواز بيع بعضها ببعض متماثلاً أو متفاضلاً من جنس أو أجناس. يوضح هذا أن الأصل جواز المعاملات في العقود، وأن من ادعى تحريم عقد أو معاملة، فعليه أن يأتي بدليل يدل على التحريم، وأدلة التحريم في جريان الربا إنما تدل على جنس الذهب والفضة، ولا تتناول هذه الأوراق، فتبقى على الأصل، وهو حلّ المعاملة حتى يأتينا ما يخالف الأصل بدلالة واضحة بينه، وأنى لنا ذلك؟! ويؤيد هذا أن منع المعاملة بها، وجعلها بمنزلة بيع الدين بحيث لا تحل مطلقاً مع أنه قول لا دليل عليه، ففيه من الحرج والضيق، بل عدم الإمكان والتعذر، ما يوجب أن نعلم علماً جازماً أن الشرع لا يأتي به، ويضيق عليهم ما هم مضطرون إلى المعاملة فيه مع سعة الشريعة ويسرها، وكونها صالحة لكل زمان ومكان، فإنه لا يخفى أن جميع أقطار الدنيا إلّا النزر اليسير منها، كل معاملاتهم في هذه الأوراق التي تسمى الأنواط، فلو حكم لها بأحكام السندات والديون، لتعطلت المعاملات في هذا الوقت الذي تقتضي الأحوال وظروفها أن يخفف فيه غاية التخفيف، وأيضاً فمع هذا الضيق يقع التجرؤ والتوثب على المحرم، والمعاملات الخبيثة، لأن الذي يتدين بالشريعة إذا ظن واعتقد أن الشريعة تدل على تحريم المعاملة بها، ومع ذلك يرى ضرورته وضرورة غيره داعية بل ملجئة إلى هذه المعاملات، لم يصبر على هذا الضيق والشدة، وخلع من نفسه خلعة الورع، فتجرأ على هذا الذي يعتقده محرماً، وانجر به إلى عدة محرمات، لأن المعاصي آخذ بعضها برقاب بعض، وهذا معلوم بالحس والتجربة. ومن الأدلة على أنها ليست بنقود، بل عروض أن هذه الأوراق إذا سقطت حكومتها، وانهارت دولتها وشركتها التي رفعتها وأعزتها بقيت لا قيمة لها لا قليل ولا كثير،

فعلم بالحس والمعنى أنها ليست بنقود وإن كانت قائمة مقامها في الثمنية موقتاً للسبب الذي ذكرناه. فالحكم دائر مع علته، فقد قامت مقام النقد في شيء، وخالفته في أشياء في ذاتها هي أوراق، والنقد ذهب أو فضة، وإذا انهار الأصل الذي أسسها لم يكن لها قيمة، ولا لجوهرها عوض، ولا يمكن القياس مع هذه المخالفة، لأن شرط القياس أن يستوي الأصل والفرع في علة واحدة من غير فارق بينهما. نعم لا ننكر موافقتها للنقدين في وجوب الزكاة والنصاب، وحصول المقاصد، كما تشاركها العروض في هذه الأمور. ومن أدلة هذا القول أن المشهور من مذهب الإمام أحمد أن العلة في جريان الربا في النقدين كونهما موزونين، وهو مفقود في الورق كما هو مشاهد. فقال صاحب النقد: إن حكم كل نوط حكم نوط نقده في جريان الربا، كما كان حكمه في الزكاة وغيرها. قال: قد تقررت القاعدة الشرعية في مصادرها ومواردها: أن البدل له حكم المبدل، وأن النائب له حكم من ناب عنه في جمع الأشياء والناس لا يختلفون أن هذه الأنواط الذهب والفضة قائمة مقام سكّتِها، وجارية مجاريها، وحالة محالها، وذلك عام في جميع الأبواب، فما الفرق بين باب الزكاة الذي لا يختلف الناس فيه من باب الربا، والشارع قد نص في البابين على النقدين إذ هما في ذلك الوقت وبعده بأزمان كثيرة سكة الناس وثمنيتهم. فإذا قال القائل: إن الأنواط لا تدخل تحت قول النبي ﷺ: (الذهب بالذهب) إلخ لأنها أوراق وما نص عليه ذهب وفضة، فلأي شيء لا يقول القائل: إنها تدخل في إيجاب النبي ﷺ الزكاة في مائتي درهم، وفي عشرين ديناراً، فيقول: هذه أوراق وليست بدراهم، ولا دنانير، فلا زكاة فيها. ومن المعلوم أنه لا يمكنه القول بما يخالف الإجماع، فما الفرق بين البابين؟ وأن النوط يجعل في باب الزكاة نائباً وبدلاً، وفي باب الربا لا يجعل كذلك، يوضح هذا توضيحاً جلياً أن الربا الذي حرمه الله في كتابه، وحرمه رسوله، وأجمع المسلمون عليه، وهو ربا النسيئة، وكذلك ربا الفضل الذي حدد النبي ﷺ بحدوده، وشرط فيه التقابض مطلقاً، والتماثل عند اتفاق الجنس، يلزم على قول القائل: إن النوط عرض، وليس بنقد، أنه يرتفع عنه

الربا بأنواعه ربا الفضل والنسيئة، بل وربما القرض في حل المعاملات، لأنه إذا حكم لها بأنها عروض لزم من هذا جواز بيع بعضها ببعض حاضراً أو غائباً متماثلاً أو متفاضلاً، والمعنى الذي حرم الشارع الربا لأجله موجود فيها، وكل أحد لا يفرق بين بيع دينار بدينارين، أو درهم بدرهمين، وبين بيع نوط روبية بنوط ثنتين، ونوط دينار بنوط اثنين، بل لا يفرق بين بيع عشرة دنانير نقداً باثني عشر نوط دينار نسيئة. فمهما قيل بجواز ذلك بالنوط حصل من المفاسد من تعاطي الربا، وما يترتب عليه من المضار ما تمنعه الشريعة. يوضح هذا أن الأعمال بالنيات، وأن الأمور الشرعية بمقاصدها ومعانيها، لا بألفاظها ورسومها، فالمقصود من هذه الأنواط إنما هو أن تكون أثماناً بمنزلة الذهب والفضة ولو كان هذا القصد مدعوماً بالأسباب التي ذكرتموها. ولهذا إذا زالت الأسباب التي روجته أصبح كاسداً، وكل يعرف أنه ليس القصد نفس الورق وجوهرها، وإنما ثمنيتها، فتبين أن نوط الربية محكوم بأنه كسكته، وأن نوط الدينار كسكّته في الزكاة والربا وغيرهما من الأبواب. ومن أراد التفريق بينهما، فعليه الدليل. يوضح هذا أن كثيراً من الفقهاء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما قالوا: إن العلة في جريان الربا في النقدين إنما هي الثمنية، وأنها قيم الأشياء وأثمانها، فلذلك نص الشارع عليها. ولا يخفى أن الثمنية في الأنواط موجودة، فتعين جريان الربا فيها لوجود العلة. وأيضاً فالأجوبة التي وجهتموها في تعذر المعاملة وضيقها إنما توجه على قول من قال: إنها كبيع الصكوك وما في الذمم، ونحن نوافقكم على ما فيها من الحرج والضيق، وأن تنزيلها على هذا الأصل في غاية الضعف، ولكن قولنا الذي به تتفق المقاصد الشرعية، والأصول الصحيحة، والإحكام والاتقان من غير ضرر ولا عسر.

وبالجملة فمن نظر إلى المعاني الشرعية، وعرف الواقع، لم يسترب أن النوط حاله حال الأثمان، والله أعلم.

فقال الثالث الذي يرى أن النوط حكمه حكم بيع الصكوك والديون في الذمم:

لا يخفى على من نظر إلى هذه الأوراق المسماة بالأنواط أنها في نفسها لا تسمن ولا تغني من جوع، وليس لها قيمة في ذاتها، وإنما حقيقتها أن الحكومات التي بثتها، وأخذت نقود الناس قد تكفلت بنفسها، أو تكفل بعض شركاتها بهذه الأوراق، وأسسوا لذلك التأسيسات التي أمنت الناس، وجعلتهم ينقادون لذلك رغبة منهم، وجعلت كل من أتى بورقة منها، وأراد نظيرها من النقد سلمته إياه، ولم تتوقف في ذلك، فتبين بهذا أنه دين على الحكومة التي كفلته، وأنه ليس هو المقصود، وإنما المقصود عوضه، فلا يجوز على هذا بيعه، ولا شراؤه، ولا الشراء به، لأنه بيع لما في الذمم، وهي بيع الصكوك، وهي الوثائق التي فيها الديون على الناس، فما الفرق بينها وبين أوراق الأنواط إلا في سرعة الوفاء وبطئه. فالديون التي في الذمم فيها أيضاً التفاوت بين الأمرين، فتعين أنه يجب العدول عنها إلى غيرها ولو أحدثت من الضرر ما أحدثت، فإن بعض المعاملات المحرمة التي يتوهم كثير من الناس أن في تركها ضرراً أولاً أن ذلك غير مسلم، فإنه ما من أمر محرم إلا وفي المباح غنية عنه وسعة. ثانياً: أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

فقال صاحب العروض لصاحب النقد: حاصل ما احتججتم به أن هذه الأوراق معانيها والمقصود منها مقصود النقدين، وأنه يلزم من قولنا: إنها عرض ارتفاع الربا بأنواعه، فجواب هذا أنه لا حرام إلا ما حرم الله ورسوله، وما نص عليه، أو كان في معنى المنصوص عليه من كل وجه، وقد ذكرنا أنهما يتفقان في أشياء، ويفترقان في أشياء، فامتنع القياس. وأما قولكم: إنه يلزم منه ارتفاع الربا بأنواعه. قلنا: لا يلزم منه ذلك فإن الربا يجري في الأشياء التي نص الشارع عليها، وما كان مساوياً لها من كل وجه، وهذه الأشياء ما زالت ولا تزال موجودة في كل عصر ومصر، وزمان ومكان، فالحكم يدور معها حيث كانت، ولا يتعداها إلى غيرها، وما الأوراق في حكمها إلا بمثابة ما لو تعاطى الناس المعاملة بشيء من المنتوجات، أو المعمولات، أو الحيوانات التي لا يجري الربا فيها واضطردت عندهم أنها قيم الأشياء، وثمن المبيعات، فهل ينتقل حكم

الذهب والفضة إليها أم تقولون: إنه خاص بالنوط دون هذه الأشياء. وهذا تحكم لا دليل عليه، فإما أن تجعلوا حكم الجميع واحداً، وإما أن تفرقوا، ولا سبيل إلى التفريق، فتعين أن يكون حكمها واحداً لا يجري الربا فيها وهو المطلوب.

قال صاحب النقد: قد بيّنا لكم أن هذه الأنواط تابعة في جميع مقاصدها وأحوالها للنقدين المضروبين، وهذا أمر لا يحتاج إلى إيضاح، فإن كل أحد يعرف أنها هي النقود والثمن للأشياء. وأما الفرق الذي ذكرتموه أن معدنها غير معدن الذهب والفضة، فليس العبرة بالرسوم والأشباح، وإنما العبرة بالمعاني والأرواح، فمعانيها متفقة، ومقاصدها مؤتلفة. وما يراد بكل منها مشترك، فالفرق العائد إلى رسومها وأشباحها التي لا تقصد بوجه لا عبرة به، ولهذا قد اتفق الأصوليون أن العبرة في جميع القياسات والاعتبارات بالمعاني والصفات المقصودة التي متى اتفقت اتفق الحكم، ومتى اختلفت اختلف. ولهذا كان من القواعد الشرعية المقررة: أن الشارع لا يفرق بين متماثلين كما لا يجمع بين متفرقين.

وأما قولكم: إنه قد يقوم بعض العروض مقام النقد، فجواب هذا المنع، وأننا لا نُسلم وجود شيء من العروض يقوم مقام النقدين في أحواله كلها، بل ولا في كثير منها، وهذا خلاف النوط، فإنه قائم مقامها في كل شيء، بل الغالب الآن أن النقدين يروجان روجان السلع زيادة ونقصاً، والنوط أثبت منهما وأقرب إلى الثمنية، وثبوت السعر، فتعين أن تكون لها حكم النقدين في جميع الأحكام، كما قامت مقامه في كل المقاصد والأحوال. والله أعلم. وبالجملة، فالمسألة دائرة ومنحصرة في أحد هذين القولين: هل هو عروض أو حكمه كالنقد؟ وأما القول بأن حكمه حكم بيع الديون في الذمم، فقد تبين واتضح ضعفه. فقال لهم رابع ممن رأى تكافؤ الدليلين دليل من يراه نقداً، ودليل من يراه عروضاً: أرأيتم لو أن متوسطاً توسط بين القولين، وسلك طريقاً بين الطريقين بأن حكم للأنواط حكم النقود في بيع النسيئة، فمنع من بيع

العشرة مثلاً باثني عشر إلى أجل، لأن هذا هو ربا النسيئة الذي أجمع المسلمون على تحريمه، واتفق المانعون أيضاً من ربا الفضل أنه أشد حرمة، وأعظم إثماً من ربا الفضل، وأجاز بيع بعضها ببعض حاضراً، ويداً بيد، سواء تماثلت أم لا، لأن تحريم ربا الفضل إنما كان لأجل أنه وسيلة إلى ربا النسيئة، ولأن بعض العلماء أجازه وإن كان محجوجاً بالأدلة الشرعية، لكن كون الأوراق غير نقود حقيقة، ولأجل موضع الحاجة ربما ساغ أو تعين الأخذ بهذا، فهذا القول المتوسط، والتفصيل المذكور يمكن القول به مع مراعاة المعاني الشرعية، وهذا كما رجح كثير من الأصحاب مسألة بيع الفلوس بعضها ببعض حاضراً بحاضر بدون شرط التماثل، ومنع من بيع بعضها ببعض مؤجلاً، ومن بيعها بأحد النقدين مؤجلاً، والفلوس إلى النقدين أقرب من الأنواط إلى النقدين، يؤيد هذا أن بيع الأنواط بالأنواط إلى أجل هو بعينه الربا الداخل في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.

[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

فمفسدة بيع عشرة أنواط باثني عشر إلى أجل لا تنقص عن مفسدة بيع عشرة دراهم أو دنانير باثني عشر إلى أجل، والمفسدة التي حرم الشارع الربا لأجلها خصوصاً ربا النسيئة لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن ينكر وجودها بأكملها في بيع الأنواط بعضها ببعض، أو بأحد النقدين نسيئة، وتكاد تكون من الضروريات. والمقصود أنه لو سلك سالك هذا التفصيل فِراراً من ربا النسيئة، وتسهيلاً للأمر بسبب شدة الحاجة إلى بيع بعضها ببعض بالقيم لا بالمسمى المرقوم عليها مع عدم النص القاطع على المنع في هذه الحالة، كان أقرب إلى الصواب. ومن مرجحات هذا التفصيل أن ربا الفضل أبيح منه ما تدعو الحاجة إليه كمسألة العرايا، وأجاز كثير من أهل العلم بيع حلي الذهب بذهب، وحلي الفضة بفضة متفاضلاً بين الحلي والسكة جعلاً للصنعة أثرها من الثمنية والتقويم. وغير خاف حاجة الخلق في هذا الوقت لهذه المسألة، بل الاضطرار إليها في كثير من الأقطار التي يضطر أهلها على الجري على القواعد

المؤسسة عندهم في المعاملات التي لا يتمكن المعامل الخروج عنها، فالحاجة بل الضرورة مع كونه غير ربا النسيئة مع كون الأنواط غير جوهر الذهب والفضة مع اختلاف أهل العلم في حكمها مما يسوغ هذا القول، بل يرجحه، والله أعلم.

**س ٢٣ ــ إذا كنت أطلب من شخص نصف ريال عربي، فأتاني بريال، وقال: خذ حقك منه ورد الباقي فهل يجوز؟**

ج ــ إذا كان الإنسان يطلب من آخر نصف ريال عربي، فجاء إليه بريال، وقال: خذ حقك منه، ورد عليّ الباقي، فهو جائز، سواءً رد قروشاً أو رد نصف ريال عربي، لأن الوزن وأحد النصفين منه ريال تحريراً.

**س ٢٤ ــ إذا أراد أن يدين إنساناً، فهل يقول: العشر اثنا عشر مثلاً؟**

ج ــ لا يقول العشر اثنا عشر، بل يكون البيع على سلعة خام أو غير خام، يبيع مثلاً الذي يساوي مائة بمائة وعشرين أو بمائة وعشرة مثلاً.

**س ٢٥ ــ ما هو قلب الدين وما حكمه؟**

ج ــ اعلم أن أشد أنواع الربا هو القلب المعروف عند الناس الذي إذا حلّ على مدينه الدين قال له: إمّا أن تقضي ديني، وإمّا أن تربي، وبهذا أنزل الله تعالى قوله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.**

[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

وهذا الربا الصريح الذي لا يشك أحد من المسلمين في تحريمه، وأنه من أكبر الكبائر، وقد زيّن لكثير من المعاملين الشيطان في هذا النوع أن يتحيلوا عليه بأنواع من الحيل حذراً من شناعة صورته الصريحة بأمور. منها أن يحل له على مدينه دين، والمدين ليس عنده ما يوفيه، أو عنده موجودات كآلات الفلاحة وبهائمها، وهو لا يحب أن يبيع منها شيئاً لحاجة عمله إليها، ويريد صاحب الدين الحالّ أن يقلبه عليه، فيقول له: اذهب إلى فلان، واستقرض منه ما توفيني إياه، فإذا حصل الوفاء دينتك، فتوفي المقرض من ذلك.

وقد يتواطأ الثلاثة على ذلك، وقد يقول صاحب الدين للمقرض: اقرضه وأنا ضامن لك، أو يعلمه بصورة الحال، فيثق المقرض بصاحب الدين، وقد لا يقول شيئاً، ولكنه متواطىء على أن يقرض المدين، فإذا صحح عليه، رد عليه قرضه، فهذه الأمور كلها حيل قريبة لقلب الدين، والله يعلم، بل والناس يعلمون أن القرض المذكور على هذا الوجه ليس قرضاً حقيقياً، وأنهم يتوسلون بصورته إلى الربا. ولذلك لو طلب المدين من ذلك المحلل قرضاً حقيقياً يذهب بدراهمه، ويستعملها في أغراضه ولوازمه، لم يقرضه درهماً واحداً، فهذا الذي يسمونه قرضاً إنما هو حيلة للتوسل إلى المحرم، وجميع الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على تحريم الحيل على إسقاط الواجبات، واستحلال المحرمات، تدل على تحريم مثل ذلك، ونصوص الأئمة المحرمين للحيل تتناول هذا، وكذلك فقهاء الحنابلة وغيرهم قالوا: تحرم جميع الحيل المتوسل بها إلى المحرمات، وصورتها أن يظهر عقداً صورته صورة مباحة، ومعناه ومقصوده الحرام، وهذه الحيل المذكورة من أسهل الحيل لكل أحد يريد قلب الدين على مدينه الموسر أو المعسر، يقدر أن يتوسل إلى مراده بهذه الطريقة التي يعلمون جميعاً أنها غير مقصودة، فإن الله أوجب إنظار المعسر، وهذه تنافي ذلك.

ومن أنواع الحيل المحرمة في قلب الدين أن يتواطأ اثنان على معاملة ثالث وتديينه، فكلما حل عليه دين أحدهما استدان من الآخر وكفله، وليست هذه الكفالة الصحيحة التي يصححها الفقهاء، لأنه لم يكفل إلا بهذا الشرط المعروف بينهما، فهذا ربا صريح يتداوله الفريقان. ومن أنواع الحيل القريبة المستعملة في قلب الدين أنه مثلاً إذا حل عليه مائة لا وفاء لها، وأراد أن يدينه أيضاً مائة، جعل مصلحة المائة الجديدة مضاعفة، فإن كانت المصلحة عوض العشرة اثني عشر، جعل الجديدة عوض العشرة أربعة عشر مثلاً مراعاة للمائة الحالة والمدين يلتزم بذلك لاضطراره، فالواجب على العبد أن يتقي الله في أحواله كلها:

﴿ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

[سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣]

وأن يكتفي بالحلال عن الحرام، ولا يتحيل على محارم الله بأدنى الحيل ونسأل الله أن يعصمنا وإخواننا المسلمين من كل شر إنه جواد كريم.

**س ٢٦ ــ عن قلب الدين وغيره**

ج ــ قال رحمه الله في خطبة له:

أما بعد أيها الناس اتقوا الله تعالى، والزموا طاعته في العبادات والمعاملات، فإن من لزم التقوى في معاملاته، جعل الله له من كل هَمٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن تجاوز الحلال إلى الحرام، فقد تعدى الحدود، وتجرأ على المآثم، وآذن الله ورسوله بالمحاربة إن لم يتب من هذه المظالم. فأعظم أنواع الربا قلب الدين على المدينين، سواء فعل ذلك صريحاً أو تحيّلاً، فإنه لا يخفى على رب العالمين، فمن حل دينه على غريمه، ألزم بالوفاء إن كان من المقتدرين، ووجب على صاحب الحق إنظاره إن كان من المعسرين. فلو قال له: لا أرضى أن يبقى مالي في ذمتك بلا مصلحة، فإما أن تستدين مني وتوفيني الدين القديم، أو تقترض لي لأجد ذلك الدين بعد الوفاء، فقد تجرأ على إثم عظيم، فإن المقصود بذلك مضاعفة في ذمة المدين بذلك التحيل الذميم، فإنه لولا قصد الوفاء ما استدان منه ديناً جديداً، ولو علم المقرض أن قرضه لا يحصل له عاجلاً لما أقرضه قليلاً ولا كثيراً. فاحذروا البهرجة على من هو بكل شيء عليم، وإياكم وهذه المعاملات الذميمة الموجبة للمحق والعذاب الأليم، فاتقوا الله، وأجملوا في طلب الرزق الحلال، ولا يحملنكم الجشع والطمع على معصية الكبير المتعال، وعليكم بالتيسير، وحسن المعاملة، ولا تنسوا الفضل بينكم بالإحسان، والإنظار، والمماهلة، فرحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى.

فقد قال رسول الله ﷺ: (من أَنظرَ معسراً، أو وضع عنه، أظله الله في ظله، ومن سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر أو يضع

عنه) وكان رجل يداين الناس، فيقول لغلامه: إذا أتيت معسراً، فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فلقي الله، فتجاوز عنه. وقال: (خير الناس أحسنهم قضاء) وهو الذي يبادر بقضاء ما عليه، ولا يماطل، ولا يقضي عن الحق الذي عليه شيئاً رديئاً أو ناقصاً، وذلك لسوء قصده وحاله. فاجتهدوا رحمكم الله في الدخول في دعوة سيد المرسلين، وذلك بالمعاملة الحسنة الصادقة والإحسان إن الله يحب المحسنين. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

**س ٢٧ ــ هل من صور بيع الدين بالدين أن يتصارفا ما في ذمتيهما من غير إحضار أحدهما؟**

ج ــ عد في «الإقناع» من بيع الدين بالدين لو كان لكل واحد من اثنين دين على صاحبه من غير جنسه وتصارفا، ولم يحضرا شيئاً، فإنه لا يجوز.

أقول: والصحيح جواز المقاصة ولو اختلف الجنس لعدم الدليل على منعه، والأصل الحل، وليس فيه محذور شرعي.

**س ٢٨ ــ ما معنى التنبيه؟**

ج ــ فسر في شرح «الإقناع» التنبيه بأنه عنوان بحث يفهم مما قبله.

أقول: لو قالوا: عنوان بحث يتعلق بما قبله كان أولى من قولهم: يفهم، إذ لو فهم ما احتيج إليه.

## باب بيع الأصول والثمار

**س ١ ــ هل يدخل في بيع الدار مفتاحها؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولا يدخل مفتاح الدار معها. أقول: فإن كان

العرف جارياً بدخول المفاتيح دخلت بلا ريب، لأن العرف كالشرط، مع أن الوجه الآخر دخول المفاتيح مطلقاً.

**س ٢ ــ إذا باعه شجرة، فبادت هل يملك غرس بدلها؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: وإن باعه شجرة، فله تبقيتها في أرض البائع، فلو انقلعت أو بادت، لم يملك إعادة غيرها مكانها، أقول: فلو انقلعت وخلفت وديّة، نظرنا، فإن كانت موجودة وقت ملكه للأم بقيت في الأرض حتى تبيد بلا أجرة، لأنها مبيعة، وإن لم تنبت إلا بعد دخول الأم في ملكه، فهي له أيضاً محترمة، وتبقى بأجرة المثل أو يتملكها صاحب الأرض.

**س ٣ ــ عما إذا اشترط بائع الشجر ثمرته فلكل السقي لمصلحته، ولو تضرر الآخر ومؤنته على من طلبه؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولبائع سقي ثمرته لمصلحته ولمشترٍ سقي ماله إن كان، أي: السقي مصلحة، ولو تضرر الآخر، وأيهما التمس السقي فمؤنته عليه.

أقول: فلو تحقق حاجة الأصل والثمرة إلى السقي، وامتنع أحدهما من السقي لقصد انفراد الآخر بسقيه مجاناً، فمقتضي القواعد إلزامه بالسقي والمشاركة، وعليه من النفقة بقسط ماله كما في تصليح العيون والأنهار والآبار والحيطان المشتركة، وكما في الإنفاق على المحتاج للنفقة من حيوانات وغيرها مشتركة، فكل مشترك نماؤه للشركاء ونفقته عليهم، ونقصه عليهم، هذا أصل جامع.

**س ٤ ــ ماذا يدخل في قولهم: يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً؟**

ج ــ يعني أن كثيراً من المسائل لها حكم إذا كانت تابعة لغيرها، ولها حكم إذا انفردت بنفسها، مثل منع الشارع بيع الثمرة قبل أن تحمر أو تصفر، فإذا احمر شيء منها جاز بيعه، وبيع بقية الثمرة التي لم تحمر تبعاً للذي بدا صلاحه وصورها كثيرة جداً.

**س ٥ ــ ما حكم بيع الثمرة والزرع قبل صلاحها لمالك الأصل؟**

ج ــ أجاز الأصحاب بيع الثمرة قبل بدو صلاحها، والزرع قبل اشتداد حبه لمالك الأصل.

أقول: والصحيح أن بيع الثمرة لمالك الأصل، وبيع الزرع لمالك الأرض قبل بدو الصلاح ممنوع، لعموم الأدلة، ووجود المعنى الذي حرم لأجله، وكونه مالكاً للأصل أو للأرض لا يمنع بقاءه على المنع.

**س ٦ ــ نمو الخشب بعد مدة شرط قطعه فيها لمن يكون؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن أخر المشتري قطع خشب اشتراه مع شرطه، أي: القطع، فنما، وغلظ، فالبيع لازم، ويشتركان في الزيادة.

أقول: وإن أخر قطع الخشب ألخ. التحقيق أن الزيادة تكون للبائع، لأن المشتري إنما دخل على شراء الخشب الموجود، وشرط قطعه، فتأخيره لقطعه محض تعدٍّ لا يسوغ له المشاركة في الزيادة، وهذا واضح جداً، فعلى هذا يقوم وقت البيع ووقت القطع فيما بينهما فكله للبائع، وهنا وجه آخر حسن قاله بعض الأصحاب وهو أنه كله للمشتري، لكن عليه أجرة الأرض، والأصل مدة نموه، لكن الأول أحسن.

**س ٧ ــ هل يجوز بيع الثمرة قبل بدو صلاحها؟**

ج ــ الصحيح أنه لا يجوز بيع الثمرة قبل بدو صلاحها ولو لمالك الأصل، لعموم الحديث، ولأن المعنى الذي نبه عليه الحديث وهو قوله: (أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يستحل أحدكم مال أخيه؟) موجود في هذه المسألة، وأما قولهم: لحصول التسليم للمشتري على الكمال، فإنه ممنوع، فإنه لا يتم الكمال إلا باستكمال الثمرة.

**س ٨ ــ إذا اشترى شجراً وعليه ثمر للبائع فهل يجبر أحدهما على تمكين الآخر من سقي ملكه مع الحاجة؟**

ج ــ ذكر ابن رجب في القاعدة (٧٦) عن القاضي فيمن اشترى شجراً

وعليه ثمر للبائـع أَن أحدهما إذا طلب السقي لحاجة ملكه، أجبر الآخر على التمكين لدخوله على ذلك، وتكون الأجرة على الطالب، لاختصاصه بالطلب دون صاحبه، وهذا يشمل ما إذا كان نفـع السقي راجعاً إليهما، وعلل ذلك في «المغني» بأن السقي لحاجته. وظاهره اختصاصه بحالة عدم حاجة الآخر، فإن النفـع إذا كان لهما كانت المؤنة عليهما كبناء الجدار. انتهى المقصود منه.

وهذا يقيد إطلاق الأصحاب رحمهم الله في هذه المسألة المذكورة في «باب بيـع الأصول والثمار» حيث قالوا: ولكل السقي لحاجة فيتوهم المتوهم أن الآخر ليس عليه شيء مطلقاً، وهذا الكلام الذي ذكره في «القواعد» يزيل الإشكال ولله الحمد.

ثم ذكر أيضاً بعد هذا بيسير عبارة تدل على ذلك، فقال: وذكر القاضي وابن عقيل فيما لو وصى بثمر شجر لرجل وبرقبته لآخر أنه لا يجبر أحدهما على السقي، لأن أحدهما لم يدخل على حفظ مال الآخر، يدل عليه أن بائـع النخل بعد تشقق طلعه قد دخل كل منهما على حفظ مال صاحبه، لأن المشتري ينقد الثمن بسبب أن الثمرة للبائـع مبقاة، والبائـع كذلك، لأن الثمرة له مبقاة والله أَعلم.

**س ٩ ـ الذي يمنـع من بيـع المشتري ثمرة النخل قبل الجذاذ، ويحتـج بحديث: نهى عن ربـح ما لا يضمن. فهل هو وجيه؟**

ج ـ قد علمتم المذهب في هذه المسألة، وهو المذكور في كتب الأصحاب المتأخرين من «المنتهى» و«الإقناع» وغيرهما، وأن هذا جائز لا بأس به، وهذا مذهب جماهير العلماء، وقول من أَدركنا من مشايخنا ومشايخهم، وهو الصحيـح الذي ليس في النفس منه شيء، وعموم الأدلة الدالة على بيـع المملوكات تدل على صحته، وليس في منعه عن النبـي ﷺ حديث صريـح. وأما من منعه، واحتـج بحديث: نهى عن ربـح ما لم يضمن، فإنه لا يدل على هذه المسألة، إنما يدل على منـع بيـع الأشياء التي تحتاج إلى حق توفية، كبيـع المكيل قبل كيله

أو الموزون قبل وزنه، أو بيع ما في الذمم قبل قبضه، فهذا الذي يدل عليه الحديث، ويتناوله، لكونه لم يحصل القبض الصحيح. وأما بيع المشتري للثمرة، فهو جائز، وقد حصل له القبض الصحيح، وقد خلى البائع بينه وبينه. ولا يوجب كون ضمانه على البائع منع المشتري من بيعه، ونظيره من كل وجه: من استأجر شيئاً، فإن ضمان المنافع المستأجرة على المؤجر، ومع ذلك فللمستأجر أن يؤجرها لغيره بمثل الأجرة أو أقل أو أكثر، والثمرة مقبوضة قبضاً صحيحاً، ولولا أنها تحتاج إلى سقي وبقية تنمية لكانت بمنزلة غيرها المقبوضة حتى في الضمان، فهذا القول هو الصحيح إن شاء الله. والقول الآخر في منع المشتري من التصرف فيه هو رواية عن أحمد، ويحتجون بعموم هذا الحديث، ولكن كما ذكرنا لا دلالة فيه بينة، والأصل في المعاملات الصحة إلا إذا نص الشارع عليها نصاً بيناً، أو دخلت في قاعدة من قواعد المعاملات الفاسدة، كالربا والغرر ونحوهما والله أعلم.

**س ١٠ ـ إذا اشترى نخلاً خرصاً، ثم أراد أن يبيع منه وهو في رؤوس نخله فهل يجوز؟**

ج ـ لا بأس بذلك إذا اشتراه شراءً صحيحاً ثم أراد بيعه فلا محذور في ذلك إلا في مسألة واحدة وهي لو اشتراه من صاحبه نقداً ثم باعه عليه بأكثر من ثمنه نسيئة مؤجلاً كما لو اشتراه من صاحبه بمائة حالة، ثم باعه على صاحب النخل بمائة وعشرة مؤجلاً، فهذا من العينة المنهي عنها.

**س ١١ ـ إذا باع رجل إلى آخر ثمرة نخلة وقبضه، وقال البائع: بعني منه، فهل يجوز ذلك؟**

ج ـ إذا كان قد قبض من المشتري الأول ثم أراد أن يشتري البائع من المشتري بعد ذلك، فلا بأس، وإن كان قد باعه إياه نسيئة، ثم أراد أن يشتري من النخل أو بعضه نقداً بأقل مما باع به نسيئة، فهي مسألة العينة، وإن كان قد باعه إياه بثمن حال، لم يقبض، واشترى منه بمثله أو أكثر، فلا بأس، وإن اشترى منه بأقل، فعلى المذهب لا يجوز، وفيه وجه لبعض الأصحاب بالجواز،

وهو الذي عليه عمل الناس، ولا أرى في هذه الأخيرة محذوراً. وأما إذا باعه شيئاً تمراً أو غيره، نقداً أو نسيئة، ثم قال: أقلني ولك كذا وكذا دراهم أو تمر، أو غيره، فالمشهور من مذهب الإمام أحمد رحمه الله أنه لا يجوز، بل إذا أقاله أخذ ما دفعه من الثمن من غير زيادة ولا نقص، وفيه رواية عن أحمد اختارها كثير من الأصحاب أن ذلك يجوز، وليس فيه من محاذير الربا شيء، فالصواب جوازه.

وأما بيع التمر بالنوى، فذلك لا بأس به كما نص عليه الأصحاب رحمهم الله في «المنتهى» و«الإقناع» وغيرهما، لأن النوى الذي في التمر تابع غير مقصود، فليس من مسألة مدِّ عجوة.

**س ١٢ ــ إذا اشترى من إنسان ثمرة نخل، وقبضه الثمن، أو سقط وفاءً عن ذمته، فهل يجوز بيع الثمرة عليه إلى أجل؟**

ج ــ لا يجوز بيعه عليه إلى أجل بأكثر من ذلك الثمن وهي مسألة العينة، وعكسها، فإنهم وإن لم يقصدوا بالبيع الأول البيع الثاني، ولكن يكون ذريعة ووسيلة إليه، والوسائل إلى الربا ممنوعة.

**س ١٣ ــ رجل باع نخلاً بأصله، واستثنى منه نخلتين بأرضهما لأجل الغرس بعد فنائهما فهل الاستثناء صحيح؟**

ج ــ هذا السؤال يفسر بأمرين. أحدهما: أن يستثني البائع النخلتين بأرضهما من البيع المذكور، ويحوزهما، ولا يشترط على المشتري سقياً، ولا استحقاق ماءٍ، فهذا لا محذور فيه بوجه، وجوازه ظاهر لأن المبيع معلوم، والمستثنى معلوم.

والأمر الثاني وهو الذي يغلب على الظن أن السائل أراده أن يبيع الرجل ملكه المشتمل على النخل والبئر وغيرها، ويستثني منه نخلتين بأرضها، ويشترط على المشتري أن لهما ماءً وأنهما مسقيتان، إذا تلفتا غرس في أَرضهما غيرهما، ويبقى استحقاقهما من الماء على حاله، فهذا أيضاً لا محذور فيه، لأنه عبارة عن

استثناء الأرض بما فيها من النخلات، واستثناء قسطها من ماء البئر، فهو استثناء معلوم، فكل استثناء معلوم، فهو جائز، وقد نهى النبي ﷺ عن الثنيا إلا أن تعلم. فإن شرط مع ذلك أن المشتري يلتزم بسقيها مجاناً الموجودات وما وضع بعدها كان هذا الشرط فاسداً للغرر الكثير والجهالة التي لا تنضبط والله أعلم.

**س ١٤ ــ إذا وجد مشتر النخلة فيها عيباً لا يبلغ الثلث فهل له المطالبة به؟**

ج ــ نعم له المطالبة، لأنه لا يعتبر بلوغه الثلث.

**س ١٥ ــ إذا باع ثمرة نخل، وتعيب مقدار ثلثه بعسلج أو غيره، فهل يوضع عن المشتري أم لا بد من الثلث فأكثر؟ وإذا اشترى نخلاً جزافاً، فهل يجوز أن يبيع فيه وزناً قبل نقله أم لا؟**

ج ــ إذا تعيبت الثمرة بعد ما باعها على المشتري فالجائحة موضوعة عن المشتري، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. ولا فرق بين الربع والثلث، بل والخمس والسدس إلا الشيء اليسير الذي لا ضرر فيه ولا نقص، وإذا اشترى ثمرة النخل جاز أن يبيعها جزافاً، وجاز أن يبيعها بوزن، ولو قبل أن يحوزها إلى محله، لأن قبضها حصل بالتخلية بين المشتري وبينها، وليست مما يحتاج إلى حق توفية والله أعلم.

**س ١٦ ــ هل تثبت الجائحة في الزروع؟**

ج ــ الصحيح ثبوت الجائحة في الزرع، كما ثبتت في الثمار لعدم الفرق بينهما، والمشهور من المذهب اختصاص ذلك بالثمار، وما صححناه هو اختيار المجد في «المحرر» وغيره وشيخ الإسلام ابن تيمية.

**س ١٧ ــ هل يجوز بيع الخضرة التي فيها بطيخ وذرة وتوابع ذلك وقد بدا صلاح بعضه دون بعض؟**

ج ــ أما بيع الذرة ونحوها من الحبوب قبل بدو صلاحها فإنه لا يجوز، وصلاحها اشتداد حبها، فإذا خرج الفلاح لفلاح آخر ينزل الآخر منزلته،

حصل التثمين لما في الأرض من خضرة علف وبطيخ ولو لم يبد صلاحه، وجعلت الذرة ونحوها من الحبوب بسهم مزارعة بالذي تساوي. وأما التحيل لتثمين الخضرة وتوابعها بأكثر من ثمنها، ثم يجعلون للحبوب سهماً ضعيفاً عشيراً ونحوه، فهذا حيلة لا يجوز. وأما إذا أريد بيع البطيخ من دون الفلاح يبـي يطلـع وينزل الآخر منزلته، بل يبيـع البطيـخ مثلاً وهو على فلاحته، فهذا لا يجوز إلا لقطة لقطة كما ذكره الفقهاء رحمهم الله.

**س ١٨ ـ هل يجوز بيـع القرع والبطيـخ جملة وفيه صغار وكبار وشيء لم يطرح ولم يطلـع عليه؟**

ج ـ قد ذكر الأصحاب رحمهم الله أنه لا يجوز بيـع المقاثي ونحوها إلا لقطة لقطة، لأن العلم بالمبيـع شرط لصحة البيـع. فاللقطة الموجودة معلومة معروفة، فتجوز، والذي لم يخرج أو خرج ولم يعلم بلوغه وتمامه لا يجوز إيقاع العقد عليه، لما فيه من الغرر والجهالة الكثيرة، وكلامهم عام في كل الأحوال، والذي ينبغي في هذه المسألة التفصيل، وهو أنه إذا جاء لصاحب البطيـخ، فاشترى منه مبطخته للقطة الحاصلة والمتلاحقة، والذي ما بعد طرح، والبائـع يقوم عليها ويسقيها وينميها للمشتري، فلا شك أن هذا لا يجوز لما فيه من الغرر الكثير، ولم تدع الحاجة إلى مثل هذا البيـع، وأما لو أراد أن يشتري منه مبطخته، وينزل المشتري منزلة البائـع وهو الذي يسمونه التثمين للفـلاح الجديد، فالبائـع يبيـع مبطخته، وما في فلاحته من العلف ونحوه على المشتري. فهذا ما زال أهل نجد يستعملونه، والمشايـخ يقرونهم على ذلك وذلك لدعاء الحاجة إليه وما اشتدت حاجة الناس إليه وسـع فيه الشارع، فلا أرى منـع هذا. وأيضاً الصغار والذي ما خرج تابـع للموجـود، ويغتفر في التـوابـع ما لا يغتفر في غيرها والله أعلم.

# باب السلم

**س ١ ــ عن شروط السلم المستفادة من قوله ﷺ (من أسلم في شيء).**

ج ــ حديث ابن عباس المتفق عليه مرفوعاً (من أسلف في شيء، فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم إلى أجل معلوم) يحتوي على جل شروط السلم بل كلها، لأن قوله (من أسلم في شيء فليسلف) أي: ليقدم دليلاً على اشتراط قبض ثمنه قبل التفرق من مجلس العقد. كذا استنبطه الإمام الشافعي رحمه الله وغيره. وقوله (في كيل معلوم، أو وزن معلوم) أي لا بد من علم مقدار كيله، ومقدار وزنه، ولا بد أيضاً من العمل بجميع صفاته التي يختلف بها الثمن اختلافاً ظاهراً، لأن العلم يعم العلم بالمقدار والصفات، ومن اللوازم العلم المذكور، فقد اشترطوا في السلم أنه لا بد من انضباط صفاته، لأن ما لا تنضبط صفاته لا يتأتى فيه العلم. وقوله: (إلى أجل معلوم) فيه ذكر اشتراط التأجيل والعلم بذلك، فحقيقة الأمر أن الشروط كلها عائدة إلى معنى اشتمل عليه هذا الحديث الشريف والحمد لله على نعمه.

**س ٢ ــ عن اعتبار الأوصاف التي ذكروها في السلم متعسرة.**

ج ــ اعلم أن اعتبار كثير من الأوصاف التي ذكرها الأصحاب رحمهم الله تتعسر وربما تعذرت، وليس على كثير منها دليل، فالدليل دل على اعتبار العلم بالمسلم فيه، فمتى حصل العلم بين المتعاقدين حصل المقصود، حتى ولو أطلقا إطلاقاً يعرف به ما أطلقاه، كما لو أطلقا سلماً بتمر أو بر أو نحوهما، فإنه ينصرف إلى الوسط عرفاً.

**س ٣ ــ ما حكم ما إذا أسلم إلى الحصاد والجذاذ؟**

ج ــ قال الأصحاب: إذا أجل إلى الحصاد والجذاذ لم يصح.

أقول: والرواية الأخرى بصحة تأجيله إلى الحصاد والجذاذ ونحوه.

**س ٤ ــ عما إذا قال في مؤجل: محله في شهر كذا صح، وإن قال: تؤديه فيه لم يصح؟**

ج ـ قال الأصحاب: إذا قال محله شهر كذا، أو في شهر كذا، صح وحل بأوله، وإن قال: تؤديه فيه لم يصح.

أقول: إنهم نصوا على انعقاد العقود كلها بما يدل عليها مع دلالة الشرع عليه والعرف، فإذا قال: تؤديه فيه، فهو مثل قوله: يحل فيه، فالصواب جواز ذلك، ولله الحمد.

**س ٥ ـ إذا أسلم إلى شخص في شيء وقال: إن رددت علي رأس مالي أو بعضه قبل شهر، فقد أقلتك، فهل هذا من باب الخيار، فلا يجوز عند من منعه أو فسخ معلق على شرط فيكون جائزاً؟**

ج ـ الذي أرى أنه من القسم الأخير لا أنه علق على الإقالة على رده لرأس المال والإقالة. صرح الأصحاب بأنها فسخ لها أحكام الفسوخ واللفظ أيضاً يدل على ذلك، فإنه جزم بالإقالة وحصولها عند رد المال، ولم يقل: فلك الخيار، أو فلك الفسخ، أو إن شئت حين ترد المال أن أقيلك أقلتك، فهذه العبارة وما يشبهها هي التي تدل على إثبات الخيار.

**س ٦ ـ إذا أسلم إليه في ذرة على أنه لم يزرع ذرة رد رأس ماله، فهل يصح؟**

ج ـ هذا لا يجوز، وهو شرط فاسد فيه غرر يبطل السلم من أصله، لنهي النبي ﷺ عن بيع الغرر، وهذا غرر ظاهر.

**س ٧ ـ ما حكم ما إذا أسلم في جنس إلى أجلين أو جنسين إلى أجل واحد؟**

ج ـ قال الأصحاب رحمهم الله: إنه إذا أسلم في جنس إلى أجلين، أو في جنسين إلى أجل، صح إن بين قسط كل أجل، وثمن كل جنس، وإلا فلا.

أقول: وقيل: يكفي بيان قسط كل أجل من المسلم فيه دون ما يقابله من الثمن، وعليه عمل الناس قديماً وحديثاً وهو الصحيح.

**س ٨ ــ هل يصح أخذ الشعير عن البر في السلم؟**

ج ــ المذهب لا يجوز، والصحيح صحته، لكن بشرط أن لا يتفرقا وبينهما شيء، والحديث المذكور فيه كلام، ولو صح لم يدل على المنع.

**س ٩ ــ إذا أسلم في أربعين صاعاً من الحنطة، فأراد أن يعطي بدلها معية بشرط أن يحط عنه المسلم مؤونة حملها فهل يصح الشرط؟**

ج ــ لا يصح هذا الشرط، لأن هذا بعينه الذي ذكروه أنه لا يجوز له أن يأخذ أطيب مما عليه، ويعوضه عن الزيادة، فلما كانت المعية أرغب عنده من الحنطة أراد أن يجعل في مقابلة طيبها إسقاط حملها وهو تعويض لا يجوز، كما لا يجوز أن يأخذ الطيب، ويعطيه مقابل ذلك نقداً أو عرضاً والله أعلم.

**س ١٠ ــ هل يجوز الاعتياض عن دين السلم بعد حلوله؟**

ج ــ المذهب معروف أنه لا يجوز، ولكن الصحيح أنه يجري مجرى سائر الديون الثابتة في الذمم، وأنه يجوز الاعتياض عنه بشرط أن لا يفارقه حتى يقبض ما عوضه عنه وبشرط أن لا يجري بين العوضين ربا الفضل كالتعويض عن البر الطيب بالرديء أكثر منه، أو الطيب أقل منه، فهذا لا يجوز لعلة الربا. وأما القرع والبطيخ ونحوها، فلا يجري فيها الربا، لا ربا الفضل، ولا ربا النسيئة، لأنها ليست مكيلة، ولا موزونة والله أعلم.

**س ١١ ــ إذا أسلم درهماً بعيش، فلما حل الأجل أراد أن يأخذ عن العيش بعيراً أو غيره فما الحكم؟**

ج ــ لا بأس أن يأخذ عن العيش بعيراً، أو غيره من السلع، وسواء حل الأجل أو لم يحل، فإنه يجوز على الصحيح أن يأخذ منه بعيراً أو غيره من السلع المعينة، وتكون قيمة البعير ونحوه بسعر الوقت الذي يأخذ به ولو كان أكثر من رأس المال.

**س ١٢ ــ إذا أسلم في بر، فلم يكن عند المسلم إلا شعير أو ذرة فهل يجوز أخذه عن البر؟**

ج ــ المذهب لا يجوز، والصحيح أنه يجوز، لكن بشرط أن يقبضه قبل التفرق من مجلس التعويض، وسائر الديون كذلك والله أعلم.

**س ١٣ ــ إذا أسلم إليه عشرة أريل بعشرين صاع بر، فإن تعذر البر يصيرهن بذرة أو بالعكس، فهل يجوز؟**

ج ــ هذا لا يجوز، فلا بد أن يجزم بأحد النوعين، ومثل ذلك إذا أعطاه عشرة أريل بعشرين صاعاً من دون تعيين، والقصد أن يأخذ ما حصل من بر أو ذرة أو غيرهما، فهذا لا يصلح، بل لا بد من العلم بمقدار المسلم فيه وجنسه ونوعه وصفاته كما ذكره الأصحاب رحمهم الله. ومثل ذلك إذ باع رجل على آخر عشرة أصوع دخن، وقال البائع للمشتري: لك الخيار إما بعشرة فرنسية، أو بخمسة عشر عربية، وتفرقا على غير تعيين، فإن ذلك لا يصلح، بل يخيره وقت العقد، ولا يفترقا حتى يجزما على أحد النوعين.

**س ١٤ ــ ما معنى قولهم: إن دين السلم لا يصح بيعه ولا رهنه، ولا الحوالة به ولا عليه؟**

ج ــ ذكر الأصحاب رحمهم الله أن دين السلم لا يجوز الحوالة به، ولا الحوالة عليه، وهذا فيه نظر، بل الصواب جواز ذلك، وأنه كسائر الديون يجوز الحوالة به وعليه، لعدم الدليل الدالّ على المنع. وأما التولية، والشركة، فإنهم ما ذكروا المنع منها من هذا الباب لأنه من جملة الديون. والتولية والشركة إنما محلهما الأعيان لا الديون فافهم ذلك.

**س ١٥ ــ ما حكم بيع المسلم فيه والحوالة به وعليه؟**

ج ــ القول بصحة بيعه على من هو عليه مقبوضاً والحوالة به وعليه، وأَخذ الرهن والكفيل به أولى من المنع لعدم الدليل البين على المنع.

**س ١٦ ــ إذا كان لشخص علي دين، فأعطيته دين تمر أو عيش لي في أصل قليب جاهلين بالحكم فما الواجب؟**

ج ــ إن كان الشيء قد قبض، ولم تبق علاقة فيعفو الله عما مضى، وعلى

العبد أن يستغفر الله، ويتوب إليه، لأن هذا بيع دين بدين، وهو لا يجوز، وإن كان الشيء ما قبض بعد، فالطريق إلى حصول المقصود أنك توكله يقبض لك الدين للتمر والعيش، ويكون نائباً عنك، فإذا قبضه على كيسك فيستوفي حقه منه.

**س ١٧ ــ ما أخذ صفة الأرش في المقبوض في السلم؟**

ج ــ لا يخلو إما أن يكون المقبوض رأس مال السلم أو عوضه وعلى كل، فإن صفة أخذ الأرش فيهما كصفته في غيرهما إلا أنه يشترط أخذ الأرش في مجلس العقد في رأس مال السلم، لاشتراط القبض التام قبل التفرق والأرش تابع رأس المال، وصفة التأريش في الأشياء أن يقوم الشيء سالماً لا عيب فيه، ثم يقوم معيباً ونحوه، فما بينهما هو الأرش، فلينسب الثمن. لكن من قاعدة المذهب أن المسلم فيه لا أرش فيه من غير جنسه ونوعه، لأنه تعويض فيه، وهو ممنوع على المذهب، والصحيح جوازه، لأنه لا فرق بين معاوضة السلم وغيرها فيما يجوز وما لا يجوز، لعدم الفرق بين جميع الديون.

**س ١٨ ــ ما حكم التعويض عن الديون التي في الذمم؟**

ج ــ الصحيح أن جميع الديون التي في الذمم يجوز التعويض عنها بشرط أن يقبض العوض قبل مفارقة المجلس الذي حصل فيه التعويض، ولا فرق بين دين السلم وغيره، لعموم الحديث حديث ابن عمر المشهور خلافاً لما منعه الأصحاب في دين السلم من التعويضات وأخذ الوثائق فيه احتجاجاً بحديث (من أسلم في شيءٍ فلا يصرفه إلى غيره) وهو حديث ضعيف، وعلى تقدير الاحتجاج به، فإن معناه لا يجعل ما في ذمته شيئاً آخر باقياً في ذمته، ولهذا ضيق الأصحاب رحمهم الله الأمر فيه حتى منعوا أخذ الرهن في السلم، فحملوه ما لا يدل عليه والله أعلم.

**س ١٩ ــ إذا كان على زيد طعام لعمرو، فدفع إليه عمرو دراهم، وقال: أشتري لك بها مثل الطعام الذي علي لم يصح، وإن قال اشتر لي بها طعاماً، ثم اقبضه لنفسك، صح الشراء.**

ج ـ قال الأصحاب: وإن دفع زيد لعمرو دراهم،، وعلى زيد طعام لعمرو، فقال زيد لعمرو: أَشتري لك بها مثل الطعام الذي علي، ففعل، لم يصح، وإن قال: اشتر لي بها طعاماً ثم اقبضه لنفسك، ففعل، صح الشراء؛ ولم يصح القبض لنفسه.

أقول: والصحيح جواز التصرف والقبض في الصورتين، لأنه يتضمن التوكيل في التصرف، والتوكيل في القبض، والوكالة كسائر العقود تنعقد بما دل عليها.

## باب القرض

**س ١ ـ هل يجوز الجعل على الإقراض بجاهه كما قاله الأصحاب وفي ذلك نظر؟**

ج ـ قول الأصحاب رحمهم الله: وله أَخذ جعل على اقتراضه له بجاهه فيه نظر، فإنه لو قيل: أخذ الجعل على الكفالة لا عن الاقتراض لكان أولى، فإن الاقتراض من جنس الشفاعة، وقد نهى الشارع عن أخذ الجعل فيها. وأما الكفالة، فلا محذور في ذلك، ولكن الأولى عدم ذلك والله أعلم.

**س ٢ ـ إذا دين إنساناً سلعة إلى أجل، ثم وكله المدين على بيعها، فهل يجوز أن يسلفه ويستوفي؟**

ج ـ لا بأس بذلك لأنه إرفاق لأجل بيع سلعته، فلم يكسرها ولا صار بينهما شرط.

**س ٣ ـ قول الأصحاب: إن الحالَّ لا يتأجل هل هو صحيح؟ وهل له مأخذ غير تعليلهم؟**

ج ـ مرادهم بقولهم: الحالُّ لا يتأجل أنه إذا حلَّ عليه دين فرضي بتأجيله بعد حلوله أنه وعد لا يجب عليه الوفاء به، بل يسن له الوفاء به، ولو شرط على نفسه ذلك لم يلزمه، وليس له مأخذ غير ما عللوه به، ومأخذ

القائلين بتأجيله بعد حلوله إذا رضي صاحب الحق أولى، فإن الشارع أمر بالوفاء بالعهود والوعود، وذم المخلفين للوعود، وأخبر أنه من نعوت المنافقين، وهذا القول هو أحد القولين في مذهب الإمام أحمد، واختاره الشيخ، وجملة من الأصحاب. والجواب عن قولهم: الحالُّ لا يتأجل، إن أريد به أن أصله وجوبه عند حلوله، وأن من عليه الحق لا يلزم صاحب الحق بتأجيله، فهذا صحيح لا خلاف فيه، وإن أريد به أن صاحب الحق لا يؤجله ولو رضي بذلك، فهذا فيه نظر ظاهر، وهي دعوى مجردة بلا دليل، بل مخالفة للدليل، ولهذا الصواب أن القرض والعارية والديون الحالَّة تلزم بالتأجيل، ولا يطالب صاحبها قبل حلول الأجل.

**س ٤ ـ إذا كان عليه قرض، فعرضه على ربه، فأبى أخذه، فأراد المقترض أن يزيده بمقدار زكاته من غير مواطأة ولا حيلة فما الحكم؟**

ج ـ أما إذا أوفاه، وزاده في الوفاء في القدر أو الصفة من دون مواطأة ولا مواعدة، فهذا جائز، لأنه من حسن الوفاء، وأما إذا واطأه قبل الوفاء، أو وعده أو أخبر بذلك غير المقرض، وأوصل الخبر إلى المقرض، فهذا لا يسوغ لأنه يحمل على إمهاله، ويطمئن خاطره بسبب ما أوعده به.

## باب الرهن

**س ١ ـ إذا رهن عيناً واحدة لاثنين، ولم يعلم السابق، فما الحكم؟**

ج ـ معلوم أن هذا الراهن قد فعل أمراً محرماً، وغدر بكل واحد منهما، وعليه من الإثم والعقوبة الدنيوية ما على أمثاله من الغارين، وأما الغريمان، فالعدل أن يجعل الرهن بينهما بقدر دينهما، إن كان الدينان متفقين، فبالنصف، وإن زاد دين أحدهما على الآخر، وهو الدين المرهون به، كان على حسب ذلك.

**س ٢ ـ ما معنى قولهم: ما لا يصح بيعه لا يصح رهنه، وهل هو وجيه؟**

ج ـ ذكرهم أن ما لا يصح بيعه لا يصح رهنه، فيه نظر، فإن الرهن

عقد توثقة، وهو أوسع بكثير من عقود المعاوضات، ولهذا جوزوا فيه رهن الثمرة قبل بدو صلاحها، والزرع قبل اشتداد حبه، والقن دون رحمه المحرم، فالصحيح أن المسألة مطردة، وأنه يجوز رهن الديون التي في الذمم، والعبد الآبق والشارد ونحوها مما لا يجوز بيعها، لأنه بتقدير تلفها أو تلف بعضها، لا يفوت من حقه شيء، فلا محذور في ذلك، ولا مانع منه.

فعلى هذا: عمالة الخزاز والنجار عندكم إذا كان له أصواع أو أوزان تمر معروفات، وأراد رهنها بدين عليه، فلا بأس بذلك، ولكن على المقدم عند الأصحاب: لا يلزم هذا الرهن، والله أعلم.

وكذلك رهن الدراهم المأخوذة عوضاً عن الرهن، صحيح لا بأس به، والله أعلم.

**س ٣ ـ ذكر الأصحاب أن رهن المجهول لا يصح، فهل هو وجيه؟**

ج ـ اعلم أولاً أن القاعدة الشرعية والضابط الكلي، أن النبي ﷺ نهى عن بيع الغرر، وهذا شامل لجميع أنواع البيوع والإجارات كلها، لا يجوز منها الغرر والجهالة الظاهرة، وذلك داخل في الميسر، وحكمة ذلك ولله الحمد ظاهرة، وهي وجود الغرر والخطر، لأنه لا بد أن يغبن أحدهما من حيث لا يشعر، وأحدهما إمّا غانم أو غارم، وهذا هو الميسر بعينه. وأما عقود التوثيقات، كالرهن ونحوه، وعقود التبرعات، كالهبة ونحوها، فاختلف العلماء فيها. فالمشهور من المذهب إلحاقها بعقود المعاوضات، ومنع رهن المجهول، وهبة المجهول. والقول الثاني وهو الصحيح: إنها لا تلحق بها، ولا تقاس عليها، لأن شرط القياس مساواة الأصل والفرع، وإذا كان بينهما فرق فلا يلحق، مع أن مفهوم نهيه ﷺ عن بيع الغرر، يدل على أن غير البيع من الرهن والهبة لا يلحق به ولا ينهى عنه، لأن الرهن نهاية الأمر أنه وثيقة بحق الإنسان، وعلى تقدير تلفه أو نقصه أو جهالته لا يفوت من حق المرتهن شيء، ولهذا أجازوا رهن الحب قبل اشتداد حبه، والثمر قبل بدوِّ صلاحه لهذه العلة،

فرهن المجهول كذلك، وكذلك هبته. فعقود التوثيقات والتبرعات أوسع من عقود المعاوضات، فتبين أن الصحيح أن رهن المجهول جائز، خصوصاً إذا كان يؤول إلى العلم، ولكن لما كان أغلب الحكام الآن لا يحكمون إلا بالمشهور من المذهب فالإنسان يحتاط لنفسه ويتحرز.

**س ٤ ـ هل يجوز رهن المجهول الذي يؤول إلى العلم؟**

ج ـ المشهور من المذهب معروف، وهو أنه ما جاز بيعه، جاز رهنه، وما لا يجوز بيعه لا يجوز رهنه، فكما لا يجوز بيع المجهول جهالة بينة، فلا يجوز رهنه، ولا يثبت، كما صرحوا بذلك رحمهم الله.

والقول الثاني في المسألة: إن الرهن أوسع من البيع، لأن البيع معاوضة محضة، والرهن توثقة بحق ثابت من دونها، وإنما فائدته أن يتوثق صاحب الدين عن حقه بوثيقة الرهن، وهذه الوثيقة قد تكون عيناً مقبوضة، وقد تكون عيناً غير مقبوضة، وقد تكون ديناً في ذمم الناس، وقد تكون مجهولة.

والفرق بين البيع والرهن أن الشارع إنما نهى عن بيع الغرر، فالغرر الذي هو الجهالة البينة ونحوها منهي عنه في البيع. وأما الرهن، فمتى رضي المتراهنان بالرهن القليل أو الكثير، المعلوم أو المجهول، فلا غرر ولا محذور فيه، لأنه على تقدير تلفه لا يفوت الحق بفواته، وهذا القول أقرب إلى العدل والصواب، والرفق بالناس، وأحرى لأداء الحقوق، ولكن الإنسان ينبغي في هذا الوقت أن يتيقظ ويحتاط لنفسه مهما أمكنه ذلك، والله الموفق.

**س ٥ ـ امرأة لها ابن فقير، ولها أولاد غيره صغار، فاحتاج أن تبذل له حليها ليرهنه ويستدين، هل لها ذلك؟ وهل للمرتهن أن يملك بيع الرهن والحالة هذه؟**

ج ـ ليس للمرأة أن تخص بعض أولادها بعطية أو تبرع أو محاباة، وهم متساوون في الحاجة، ومن ذلك أن تعطي أحدهم من مالها شيئاً يرهنه لحاجته وحده، فأما إذا كان يستدين للنفقة له ولإخوانه الصغار أولادها، فلا بأس

بذلك. وعلى كل حال، فإذا أعطته من حليها ليرهن بإذنها، تم رهنه، فإن المرتهن يملك بيع الرهن، لأن الاصحاب رحمهم الله ذكروا أنه يجوز للإنسان أن يبذل ماله لمن يرهنه، وأنه إذا حل الدين ولم يوف الرهن، بيع الرهن، وبقي في ذمة المأذون له لصاحب الرهن قيمة الرهن، فهذه المرأة سواء جاز لها ذلك، أم لم يجز، إذا أذنت لابنها في رهن حليها، ثم رهنه، ودعت الحاجة إلى بيع الرهن، بيع واستوفى من ثمنه صاحب الحق، وما بقي فلها، ويبقى لها في ذمة ولدها ما استوفاه رب الدين والله أعلم.

**س ٦ ــ إذا رهنه شيئاً فجعله المرتهن في يده، فهل الرهن صحيح؟ وإذا باعه الراهن، فهل بيعه نافذ؟**

ج ــ أما المشهور من المذهب في هذه المسألة، فهو معروف أن القبض شرط للزوم الرهن، واستدامته كذلك شرط.

فعلى هذا: إذا أخرجه المرتهن من يده إلى يد الراهن باختياره. زال لزومه؛ وكان له أن يتصرف فيه بما شاء وفي هذا القول مشقة عظيمة على الناس، ولهذا كان علماء القصيم من وقت الشيخ عبد الله أبا بطين إلى وقتنا يعملون بالقول الآخر، وهو أن لزومه باقٍ ولو خرج من يد المرتهن إلى يد الراهن، وهو الرواية الأخرى عن أحمد، لأن في هذا مصلحة عظيمة، ويزول ضرر كثير لأن فيه معايش الناس في فلاحتهم وهم مضطرون إلى بقائها بأيديهم، ومضطرون إلى الاستدانة، والاستدانة لا تحصل إلا بالرهن غالباً. فلو كان خروجه من يد المرتهن إلى يد الراهن يزيل لزومه، لتعطلت أحوالهم، وتمكن الخائن من خيانته، والشارع لا يمكن الخائن، والمؤمنون على شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً. فعلى هذا القول الصحيح إذا أخرجه من يده إلى يد الرهن، يبقى الرهن بحاله، والله أعلم.

**س ٧ ــ ما حكم رهن الديون؟**

ج ــ قال الأصحاب في الرهن:

يشترط أن يكون عيناً معلومة القدر والصفة إلخ. أقول: لم يدل الدليل على عدم صحة رهن الديون ولا غير المقبوض، ولا على اشتراط تحرير العلم بالمرهون قدراً وجنساً وصفة، وذلك لأنه ليس ببيع، وإنما هو وثيقة قد تكون كاملة، وقد تكون ناقصة، والنهي عن بيع الغرر لا يدخل فيه الرهن، والله أعلم.

**س ٨ ــ ما حكم الزيادة في دين الرهن؟**

ج ــ الصحيح صحة الزيادة في دين الرهن، وعليه العمل.

**س ٩ ــ إذا رهن دابة فباعها بدون إذن المرتهن، فما الحكم؟ وما حكم نمائه؟**

ج ــ لا يصح بيع الراهن للرهن إلا بإذن المرتهن، فإن فعل، فالعقد فاسد إذا لم يجزه المرتهن صاحب الدين، فإن أجازه أو رضي ببيعه، صح بيعه، وإلا فلا، وإذا لم يصح بيعه لم ينتقل الملك إلى المشتري، وصار باقياً على رهنه، وما نما بعد ذلك ولو عند المشتري فهو تبع للرهن، المقصود أن العقد إذا لم يجز المرتهن غير صحيح، والملك لا ينتقل.

**س ١٠ ــ هل ينفذ عتق الراهن للمرهون؟**

ج ــ الصحيح عدم نفوذ عتق الراهن، موسراً كان أو معسراً، وهو إحدى الروايات عن أحمد.

**س ١١ ــ هل ينفذ عتق الراهن ونحوه؟**

ج ــ المشهور من المذهب عتق الراهن مطلقاً، ونفوذ عتق المفلس الذي لم يحجر عليه، ونفوذ وقف من عليه دين يضر وقفه بدينه إذا لم يحجر عليه مع التحريم في ذلك كله، والصواب في ذلك عدم النفوذ، لما فيه من إبطال حق المسلم، وهو أحد القولين في المذهب في هذه المسائل.

**س ١٢ ــ إذا أراد الراهن بيع الرهن لإيفاء المرتهن، فهل يتوقف على إذنه؟**

ج ــ نعم يتوقف على إذنه كما قاله الأصحاب جميعهم، وللمرتهن فيها حق يوجب للراهن أن يتوقف، فلا يستقل بالبيع حتى يأذن المرتهن، أو يحلّ الدين

فيبيعه لوفائه، ولكن لا بد فيه من إذنه أو حضوره، وللمرتهن أن يزيد فيها وقت السوم، ويمنع الراهن من بيعها بما شاء إذا كان يبقى من حقه شيء بعد ثمن الرهن.

**س ١٣ ــ إذا شرط كون الرهن بيد اثنين فما الطريق إلى حفظه؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن شرط جعل الرهن في يد اثنين، لم يكن لأحدهما الانفراد بحفظه، ويمكن اجتماعهما في الحفظ، بأن يجعلاه في مخزن عليه لكل واحد منهما قفل. قال في حاشية على شرح «الإقناع»: قوله: قفل مغاير للقفل الآخر كما ذكر في حاشية «المنتهى».

أقول: في كلام المحشي نظر، والظاهر عدم اشتراط المغايرة، كما هو ظاهر كلامهم وظاهر مراد المرتهن. اهـ.

**س ١٤ ــ إذا مات المرتهن والرهن بيده، فما الحكم؟**

ج ــ قال في شرح «الإقناع»: وإن مات المرتهن والرهن بيده، لم يكن لورثته إمساكه إلا برضى الراهن.

أقول: وهذه المسألة مخالفة للأصل، وهو أن الورثة قائمون مقام مورثهم في جميع حقوقه، ومن حقوقه بقاء الرهن بيده، فكذلك يبقى بأيدي ورثته، إلا أن تتضح خيانتهم.

**س ١٥ ــ إذا أعار شيئاً ليرهنه إلى أجل بدين حالٍّ، فما الحكم؟**

ج ــ قال في شرح «الإقناع»: فلو أعاره شيئاً ليرهنه إلى أجل على دين حالٍّ، يعني أنه شرط على المرتهن أن لا يباع قبل الأجل المسمى فرهنه على ذلك، صح الرهن عندي. وظاهر كلام القاضي في «المجرد» أنه لا يصح، قاله المجد في شرح «الهداية». قال في هامش «الإقناع»: قوله: وظاهر كلام القاضي... إلخ. وكأن العلة في ذلك كون الحالّ لا يؤجل، فتأمل.

أقول: ليس ما ذكره من التعليل صحيحاً، لأنه لم يؤجل الدين الحالّ،

وإنما أجل بيع الرهن المعار، وذلك صحيح كما قاله المجد، وليس لقول القاضي رحمه الله وجه صحيح.

**س ١٦ ـ ما معنى قول الفقهاء: المرهون لا يرهن، والمشغول لا يشغل.**

ج ـ يريد الفقهاء من هذا الكلام أمرين:

أحدهما: متفق عليه، والآخر: مختلف فيه.

أما المتفق عليه، فإذا رهن زيد داره مثلاً على دينه، ثم جاء رجل آخر فداينه، ثم رهنه أيضاً داره التي رهنها زيد من غير أن يأذن فيها زيد، فهذا المرهون الذي لا يرهن، والمشغول الذي لا يشغل، لأنه مشغول بدين زيد، فلا يشغل بدين غيره، وهذا القسم ظاهر، فلا يكون للراهن الثاني حق حتى يرهنه إياه بعد صدور الأول.

وأما المختلف فيه: فهو إذا رهن زيد داره المذكورة بدين له وهو مائة مثلاً، ثم استدان من زيد ديناً آخر، وأراد أن يرهنه بيته أيضاً، فهذا يدخلونه أيضاً بأن المرهون لا يرهن، والمشغول لا يشغل، وهذا المشهور من المذهب، ولكنه ضعيف ليس العمل عليه، وإنما عمل الناس على القول الصحيح، وهو قول من المذهب أن ذلك جائز، وذلك أن الإنسان يدين بدينه، فيرهن عليه عقاره أو غيره، ثم يستلحق ديناً آخر فيدخله في الرهن السابق ولا محذور في ذلك، بل فيه مصلحة.

وقولهم: المشغول لا يشغل مسلم إذا شغل بدين الغير وأما إذا شغل بدين الغريم المرتهن، فلا بأس بذلك.

**س ١٧ ـ إذا عزل الراهن المرتهن أو العدل عن بيع الرهن، فما الحكم؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن عزل الراهن المرتهن أو العدل عن بيع الرهن، أو مات، عزلا، سواء علما أو لم يعلما.

أقول: قال بعض الأصحاب: ليس له عزلها، لأنه تعلق به حق واجب للغير، وهو الصحيح.

**س ١٨ ــ لو بيعت العين المرهونة برضى المرتهن، ولم يطلب حقه ظناً منه أن حقه يتبع العين، فهل يكون رضاه مع الجهل مبطلاً للرهن؟**

ج ــ قد صرح الفقهاء أنه إذا بيع الرهن برضى المرتهن أنه يبطل حقه من الوثيقة وهي العين التي بيعت برضاه، ومن ثمنها أيضاً، إلا إذا رضي أو شرط أن يكون ثمنها رهناً، فينتقل الرهن في هذه الحال إلى القيمة، وهو الثمن. وأما إذا لم يشرط ذلك، فإنه لم يبق له حق في العين ولا في ثمنها، ولم يفرقوا بين العالم بالحكم والجاهل، لكن لو خدعه المدين وأوهمه أن حقه باقٍ في العين أو في ثمنها، وقد قامت البينة أو القرينة الظاهرة على خديعته، فإن هذه المسألة على هذا الوجه تدخل في إبطال الحيل التي يقصد بها إبطال حق المسلم من الحق أو الوثيقة، فينقل حقه إلى الثمن، والله أعلم.

والأصحاب ما أظنهم نصوا على هذه الحيلة بعينها، وإنما أردنا أن ندخلها في العموم، والله أعلم.

**س ١٩ ــ إذا رهنه شيئاً وشرط الراهن أن لا يستوفي المرتهن دينه إلا من غلة المرهون، وتراضيا، فهل يجوز؟**

ج ــ لا يجوز هذا قولاً واحداً، لأن هذا غرر، فيدخل في نهيه ﷺ عن بيع الغرر، لأنه لا يدري مقدار ما يستوفى كل عام من الدين، وشرطه أن يكون إلى أجل مسمى بعوض مسمى، وهذا عوض مجهول جهالة ظاهرة. وأما رهن الغلة وحدها، فالمذهب معروف أن الغلة الموجودة يجوز رهنها، والغلة التي لم تظهر إلى الآن لا ينعقد رهنها، وفيه قول آخر في المذهب أنه يجوز رهنها، كما يجوز وهي الديون التي في الذمم، وهو الصحيح إن شاء الله.

**س ٢٠ ــ إذا اختلف الراهن والمرتهن في عين المرهون، فما الحكم؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن قال: رهنتك هذا العبد، فقال: بل هذه

الجارية، خرج العبد من الرهينة أيضاً، لإقرار المرتهن بأنه لا رهن له عليه، ويحلف الراهن أنه ما أرهنه الجارية ثم تخرج من الرهن أيضاً.

أقول: وفي هذه المسألة نظر، لأن المرتهن لم يدع ارتهان الأمة إلا لزيادة الوثيقة، لزيادة قيمتها على قيمة العبد، فهب أننا قلنا: القول قول الراهن في تعيين رهينته العبد، فانطلاق العبد والأمة من الرهينة فيه ظلم ظاهر حتى باعتراف الراهن، كما هو ظاهر للمتأمل اهـ.

**س ٢١ ـ إذا أقر رب الدين بأنه لغيره، فهل تبطل الوثيقة؟**

ج ـ قال في شرح «المنتهى»: وإن أقر رب الدين بالدين لغيره فقال ابن نصر الله: فالظاهر بطلان الرهن والضمان، لتبين أنه رهنه بغير دين إلـخ..

ما استظهره ابن نصر الله ـ رحمه الله ـ ليس بظاهر ولا مقارب، بل الصواب بقاء الرهن والضمان ولو كان الدين لغيره، لأنه ناب عن غيره ولا يشترط في النيابة في سائر العقود أصولها ووثائقها تسمية المنوب عنه إلا في عقد النكاح خاصة، والدين المذكور كما ثبت أصله وهو لم يسم من هو له، فكذلك ما يتبعه من الوثائق، وما قاله ابن نصر الله فيه ضرر، فكثير من الناس يستدين لغيره، ويعامل لغيره من دون تسمية، والنائب هو الذي يباشر العقد ويكتب الوثيقة، ومتعلقاتها باسمه، فلو ألغينا الرهن والضمان في هذه الحال لكان فيه ضرر، ولوجب أن نلغي أصل الدين.

ومن تأمل هذا عرف أن ما قاله ابن نصر الله في غاية الضعف.

**س ٢٢ ـ قول ابن نصر الله: لو أقر رب الدين بالدين لغيره وفيه رهن أو ضمين بطل الرهن والضمين إن عين المضمون له، فهل هو وجيه؟**

**وقول الأصحاب: إذا أحال رب الدين على المدين وفيه رهن أو ضمين انفسخ الرهن وبرىء الضمين، إلا أن ورث، ما الفرق بين الأمور الثلاثة؟**

ج ـ الأصحاب يفرقون بينها بأن الميراث ينقل التركة بمالها وحقوقها كلها

إلى الوارث ويتلقاها عن الموروث، ويكون قائماً مقامه فيها، والرهن والضمين من الحقوق المالية التي توثق الأموال، وهذا بين ظاهر.

وأما لو أقر بالدين لغيره، فبإقراره بالدين لغيره يزول ملكه عنه، فإذا زال ملكه عنه بقيت الوثيقة وهي الرهن والضمان بغير حق له، أي للمقر، فبطلت، وكذلك الحوالة يرونها بمنزلة التقبيض، فإذا حول زيد عمراً على خالد بمائة درهم فيها رهن أو ضمين، فزيد كان له على خالد مائة درهم موثقة بتلك الوثيقة، فلما حول عليه عمراً فقد قبض المائة، وإذا قبضها بقيت الوثيقة بلا مال. هذا وجه كلام الأصحاب رحمهم الله وجزاهم عنا أفضل الجزاء، ولكن التعليل غير وجيه، فالتحقيق إلحاق المسألتين بمسألة الميراث، وأنه إذا أقر بالدين لغيره، فذلك الدين الذي أقر به قد وثق برهن أو ضمين، وهما من توابع الدين، فما الموجب لبطلان الوثيقة التي لا يحصل الحق غالباً إلا بها، وأيضاً فكثير من الناس يكتب الدين باسمه وهو نائب عن غيره، ويتوثق بالرهن أو الضمين عليه، فإذا حقت الحقيقة واحتج لبيان من هو له فبيَّنه وأقرَّ به لغيره، تبطل بذلك الوثيقة، هذا مع تصوره بعلم ضعفه جداً، والظاهر أن مسألة التحويل كذلك لعدم الفرق المؤثر.

**س ٢٣ ـ إذا زال العقد، فهل تزول الوثيقة؟**

ج ـ اعلم أن العقد إذا كان فيه وثيقة رهن أو ضمان أو كفالة، ثم زال الأصل تبعته وثيقته، فتزول بزواله، ولا تنتقل إلى بدله بعد زوال العقد الأول، فإن تبين أن العقد الذي فيه الوثيقة لم ينتقل، بأن كان العقد الآخر فاسداً، فالوثيقة بحالها تبع للأصل، والله أعلم.

**س ٢٤ ـ ما حكم انتفاع المرتهن بالمرهون؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويجوز للمرتهن أن ينتفع بالرهن بإذن راهن مجاناً، ولو بمحاباة، ما لم يكن الدين قرضاً. قال في هامش شرح «الإقناع»: قوله: ما لم يكن الدين قرضاً.

أقول: الظاهر أنه قيد لغير المركوب والمحلوب، وظاهر «المنتهى» أنه قيد للجميع، قاله في الحاشية. ونصه: قال في «المبدع» عقب الكلام: إن للمرتهن ركوب المرهون، وحلبه، هذا كله إذا كان الدين غير قرض، فإن كان قرضاً، لم يجز، نص عليه، حذراً من قرض جر نفعاً. وصريح هذا مع كلام المؤلف يقتضي أنه قوله: ما لم يكن الدين قرضاً قيد في المسألتين.

أقول: مسألة المركوب والمحلوب ظاهر عدم دخولها في القرض الذي يجر نفعاً، لأن المعاوضة حاصلة، وليس الركوب والحلب مراعى به الدين، إنما روعي فيه النفقة.

**س ٢٥ ـ هل يؤخر الأمين رد ما اؤتمن عليه ليشهد على الرد؟**

ج ـ قال الأصحاب: وكل أمين يقبل قوله في الرد فطلب منه الرد، فإنه لا يملك تأخير الرد ليشهد.

أقول: وقيل: له التأخير ليشهد، وهو أولى، لأنه قد لا يتمكن، أو يمكن من الاقتصار على قول لا حق له قبلي، كما هو الواقع كثيراً.

**س ٢٦ ـ هل يلزم دفع وثيقة الدين إلى من هو عليه بعد أدائه؟**

ج ـ قال الأصحاب: ولا يلزم من له دين دفع وثيقة الدين إلى من هو عليه بل الإشهاد بأخذه.

أقول: والصحيح أنه إذا لم يخف ضرراً أنه يلزمه دفع الوثيقة لإزالة ضرر غيره بلا ضرر يلحقه.

## باب الضمان

**س ١ ـ إذا كان لإنسان غريم، وأراد أن يستدين من غيره، ولا يحصل ذلك إلا بضمان صاحب الدين، فهل يصح ضمانه؟**

ج ـ لا يصح أن يستدين ويضمنه صاحب الطلب، لأن هذا حيلة لقلب الدين بواسطة الغير، ولأن ضمانه للدين مجعول فيه عوض هو حصول الوفاء،

وذلك لا يجوز، ففيه مفسدتان، كل واحدة تكفي في منعه، فكيف إذا اجتمعتا؟!

**س ٢ ـ ما حكم ضمان أحد المتضامنين صاحبه وكفالة أحد الكفيلين صاحبه؟**

ج ـ قال الأصحاب رحمهم الله: لا يصح من أحد المتضامنين أن يضمن الآخر، لأن كل واحد منهما أصل ثابت الدين في ذمته، فلا يكون فرعاً، ويصح أن يكون واحد من الكفيلين كفيلاً بالآخر لأن الكفالة بالبدن، بخلاف الضمان.

**س ٣ ـ ما معنى قولهم: لضامن إبطاله قبل وجوبه؟**

ج ـ هو أن يبطل ضمانه قبل وجوب الدين على المضمون عنه، لأنه يصح أن يقول: بع على فلان أو أعطه كذا، أو أنا ضامنه. فلو قال هذا، ثم قبل البيع والإعطاء يقول: قد أبطلت ضماني، فإن ذلك يجوز، فإن باعه أو أعطاه قبل إبطاله، لزم الضمان، وليس لضامن إسقاطه، والله أعلم.

**س ٤ ـ ما ألفاظ ضمان العهدة؟**

قال الأصحاب: وألفاظ ضمان العهدة: ضمنت عهدته، أو دركه، أو يقول للمشتري: ضمنت خلاصك منه، أو متى خرج المبيع مستحقاً فقد ضمنت لك الثمن، فلو ضمن خلاص المبيع، فقال أحمد: لا يحل. اهـ.

أقول: ومثله ضمان خلاص الثمن المعين، والظاهر أنه إذا فهم منه ضمان العهدة، فإنه صحيح في الأمرين.

**س ٥ ـ عن ضمان نقص الصنجة وقبول قوله في النقص.**

ج ـ قال الأصحاب: ويصح ضمان نقص الصنجة ونحوها، ويرجع بقوله مع يمينه. اهـ.

أقول: فيه نظر، لأن الأصل عدم النقص في المقبوض، على أنه تام ثم حصل الاختلاف.

# باب الكفالة

**س ١ ــ الكفالة من البعير الأجرب إذا كفل قيمته، والكفيل لم يعلم أنه أجرب، ولو علم لم يكفل وهو يريد فسخ الكفالة، فهل له ذلك؟**

ج ــ ليس له فسخ الكفالة في هذه الحال، وإنما يكفل قيمته معيباً، إلا إن حصل تغرير، بأن غروه بالكفالة بثمنه، وأوهموه أنه لا جرب فيه، فالمغرور لا ضمان عليه، لكن بشرط ثبوت التغرير.

**س ٢ ــ إذا قال الكفيل: متى عجزت عن إحضاره، فعلي القيام بما أقر به، فما الحكم؟**

ج ــ قال في شرح «الإقناع»: ولو قال الكفيل في الكفالة: إن عجزت عن إحضاره، أو متى عجزت عن إحضاره كان عليَّ القيام بما أقر به، فقال ابن نصر الله: لم يبرأ بموت المكفول، ولزمه ما عليه، قال: وقد وقعت هذه المسألة وأفتيت فيها بلزوم المال. اهـ.

أقول: وفي هذه الفتوى نظر ظاهر، فإن العجز المذكور هو العجز عنه في حياته، كما هو الأصل في الكفالة، وذكره هذا من باب التأكيد.

**س ٣ ــ هل السجان كفيل أو وكيل؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه والسجان ونحوه ممن هو وكيل على بدن الغريم، بمنزلة الكفيل للوجه، فإن تعذر عليه إحضاره ضمن ما عليه، قاله الشيخ. وقال ابن نصر الله: الأظهر أنه كالوكيل يجعل في حفظ الغريم، إن هرب منه بتفريطه، لزمه إحضاره، وإلا فلا. اهـ.

أقول: قول ابن نصر الله أرجح من قول الشيخ التقي، لأنه منوب لحفظه لا ملتزم لإحضاره.

**س ٤ ــ إذا قال: طلق زوجتك وعليَّ ألف، فطلقها، أو بع عبدك من زيد بمائة وعلي مائة أخرى، فهل يلزمه ما قال؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه عن «الرعاية»: ولو قال لزيد: طلق

زوجتك وعليَّ ألف، أو مهرها، فطلقها، لزمه ذلك بالطلاق. ولو قال: بع عبدك من زيد بمائة وعليَّ مائة أخرى، لم يلزمه شيء، والفرق أنه ليس في الثاني إتلاف، بخلاف الأول. اهـ.

أقول: وفي هذا الفرق نظر، فإنه إنما اختار بيعه بمئة لضمان المائة الأخرى، فكأنه لم يرض بيعه إلا بمائتين، والذي تقتضيه القواعد استواء المسألتين في الضمان.

**س ٥ ـ ما حكم ضمان المعرفة؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن ضمن معرفته، أخذ به.

أقول: والأولى أن يقال في ضمان المعرفة: إن دل في العرف على التزام إحضاره أخذ بإحضاره، وإلا أخذ بمعرفته، وتعريفه لصاحب الحق فقط.

**س ٦ ـ إذا ضمن معرفة إنسان فما حكمه؟**

ج ـ المشهور عند الأصحاب أنه من ضمن معرفته صار ضماناً تاماً يطالب هذا كما يطالب ضامن نفس الدين، ولكن الصواب التفصيل، وهو أنه إن ضمن معرفته فقط، بأن فهم من كلامهم أن قصده أنتم لا تعرفونه، فأنا أعرفكم باسمه ومحله وموضعه، فإنه إن وفى بما قاله، فلا ضمان عليه، وإن غرَّهم ولم يعرفهم به معرفة تفيدهم، فإنه ضامن. وأما إن كان ضمان المعرفة في عرفهم أنه ضمان لنفس الدين، فهو ضمان تام، ولكن العرف والعادة أن ضمان المعرفة راجع إلى الأول، فعليه أن يعرفهم به، فإن قام به برىء، وإلا فهو ضامن. اهـ.

## باب الحوالة

**س ١ ـ عما يستفاد من قول النبي ﷺ: (مطل الغني ظلم، وإذا أحيل أحدكم على مليء فليتبع).**

ج ـ جمع النبي ﷺ في قوله: (مطل الغني ظلم وإذا أتبع أحدكم على

مليء فليتبع) بين وجوب حسن قضاء الحق، وأن من عليه الحق يجب عليه أداؤه كاملاً بغير تأخر مع القدرة، وبين حسن الاقتضاء، وأن من له الحق ينبغي أن يكون سمحاً، بحيث إذا حوله مَنْ عليه الحق على مليء، لا ضرر عليه في التحويل عليه، فعليه أن يتحول إجابة لأخيه وتسهيلاً عليه، وهو لا ضرر عليه في ذلك، والله أعلم.

**س ٢ ـ تفسير الزركشي للمليء هل هو صحيح؟**

ج ـ نعم هذا المليء القادر بماله وقوله وبدنه، فماله أن يكون عنده من المال ما يوفي به، وقوله: أن لا يكون مماطلاً، وبدنه أن يمكن حضوره لمجلس الحكم، لأن المقصود من المليء التمكن من الأخذ منه، ومن جمع الصفات الثلاث أمكن الأخذ منه، ومن اختلفت فيه أو أحدها، لم يمكن الأخذ منه.

**س ٣ ـ إذا كان لزيد على عمرو مئة تحل في رجب، ولبكر على زيد فيه تحل في نفس رجب المذكور، فهل تصح الحوالة؟**

ج ـ ذكر الأصحاب جوابها. فلو تأملت شرح «الزاد» وما فوقه، لرأيت المسألة مصرحاً بها، لأن الدينين إذا اتفقا في الحلول أو التأجيل مع اتفاقهما في الجنس، فإن الحوالة تجوز لوجود الشرط وفقد المانع، وسؤالكم من هذا الباب، والله أعلم.

**س ٤ ـ عن رجوع المحتال على المحيل عند تعذر الاستيفاء.**

ج ـ القول برجوع المحتال على المحيل إذا تعذر عليه الاستيفاء بغير تفريطه أولى وأصح، سواء رضي بالحوالة أو كان المحال عليه مليئاً أو لا.

**س ٥ ـ إذا قال: أحلتك بما على الميت أو به عليه، فما الحكم؟**

ج ـ قال في «الإقناع» وشرحه نقلاً عن «الرعاية» الصغرى و «الحاويين»: إن قال: أحلتك بما عليه أي الميت، صح، لا أحلتك به عليه، فلا يصح، لأن ذمته قد خربت.

أقول: ولا مانع من إرادة الحوالة على التركة بهذا اللفظ، كما هو المتعارف.

# كتاب الصلح

**س ١ ـ هل يصح الصلح عن الشفعة؟**

ج ـ الصحيح صحة الصلح عن الشفعة، لأنها حق له، فلا مانع من المعاوضة على إسقاطه، وكذا عن حق خيار.

**س ٢ ـ ما حكم المصالحة عن المؤجل ببعضه حالاً؟**

ج ـ الصحيح جواز الصلح عن الدين المؤجل ببعضه حالاً، لأن فيه إسراع براءة الذمة، ولا محذور فيه، وقصة بني النضير تدل عليه، وكثيراً ما تدعو الحاجة إليه.

**س ٣ ـ إذا تصالحا عن دين مجهول وقت الصلح، ثم عثرا على الوثيقة، فتبين أنه لا يقابل ما اصطلحا عليه، فهل ينقض الصلح؟**

ج ـ نعم ينقض هذا الصلح، لأنهما إنما تصالحا بحسب جهالة المبلغ، فلما تبين لهما مقدار الدين، وجب الرجوع إليه، فإن كان المصالح به أكثر منه، استرد الزائد، وإن كان أقل، فله طلب الزائد إلا إن حصل الرضى بعد العلم بمقدار الدين، فالرضى سيد الأحكام، إلا إن كان المال المصالح عنه ليتيم أو لغير المصالح، فإن عليه الاجتهاد فيه، وليس له تتميم الصلح إذا كان فيه ضرر على اليتيم ونحوه.

**س ٤ ـ إذا امتنع الغريم من بذل الحق إلا بلفظ الصلح، فقد قالوا: لا يصح، لكن هل يحرم على صاحب الحق أخذه؟**

ج ــ لا يحرم على صاحب الحق أخذه، وإنما التحريم في حق من عليه إذا وقـع في حالة يهضم فيها الحق ويمتنـع من الأداء إلا في هذه الحالة، حرم عليه، لا أنه واجب عليه أداء جميـع ما عليه، وفي هذه الحالة لم يؤد إلا بعض الواجب، فإن وقوع الصلـح المذكور برضى صاحب الحق صار حلالاً حتى في حق من عليه الحق، لأن الحق لغيره، وقد أسقطه والله أعلم.

**س ٥ ــ إذا صالحت الزوجة عن ثمنها من التركة، جاز، ولم يفرقوا بين الأعيان والديون، فهل هو وجيه؟**

ح ــ عبارتهم ومرادهم ما ذكر ثم إنه يتناول الأعيان والمنافـع والديون المعلومة والمجهولة. وأما قولكم: هل هووجيه أم لا؟ ففيه تفصيل، وهذا التفصيل يتنزل على القواعد الشرعية والمعاني الفقهية. أما إذا كانت التركة مجهولة أعيانها أو ديونها أو كلاهما، ولكنه لا يتعذر ولا يتعسر علمها، فهـذا لا يجوز لأنه من نوع بيـع الغرر، وفيه مخاطرة ظاهرة، وفيه أيضاً تعويض عن الديون التي في الذمم، وكل هذه محاذير. وأما إذا كانت التركة معلومة أعيانها وديونها، فالأعيان معلوم جواز الصلـح عنها إذا كانت معلومة، وأما الديون، فإن بيـع الدين ممنوع، ولكن الصلـح أوسـع من البيـع، ويجوز فيه ما لا يجوز في البيـع، فإذا كانت خالية من الغرر والخطر، فلا نرى بذلك بأساً. وأما إذا كانت التركة مجهولة، ويتعذر علمها، فيجوز الصلـح فيها لكون الضرورة تدعو إلى ذلك، وإذا كانت مجهولة ويمكن بعد البحث والتدقيق الوقوف على كنهها مـع العسر والمشقة، فهذا موضـع اشتباه، إن نظرنا إلى ما في الصلـح من سرعة الراحة والخلاص من الخصومة والتعب، ترجـح جوازه، وإن نظرنا إلى ما فيه من الغرر وربما حصل فيه تغرير أو خداع، ترجـح المنـع، والأولى في هذا النظـر إلى القضية الخاصة، والموازنة بين مصالـح الصلـح ومضاره بتحقيق تـام، والحكم على ما ترجـح.

**س ٦ ــ إذا كان بين اثنين عرصة، وأراد أحدهما أن يبني، فهل يلزم شريكه بالمباناة؟**

ج ـ إن كان الآخر يريد بقاء عرصته فضاءً لا يريدها داراً ولا حوشاً، فلا يلزمه مباناته ما دامت في هذه الحال فضاءً لا حصنها ولا بناها، لعدم انتفاعه بما بناه جاره، ومتى أراد بناءها داراً أو حوشاً، وحصنها، فإنه يلزمه المباناة، لأن الجدار الذي بناه جاره سابقاً، صار الآن من جملة ما حصن به داره أو حوشه، لكن عليه من المباناة بمقدار ما ينتفع به، فإن كان الذي بنى أخيراً جعله حوشاً والأول قد بنى داراً أعلى منها، لم يلزم الأخير من المباناة إلا مقدار الجدار الحامي وهو تقريباً سبعة أذرع. وإن بنى الأخير مثل ما بنى الأول، لزمه مباناة تامة، وإن زاد عليه، لم يلزم الأول الزيادة، وهذا كله مأخوذ من كلام الأصحاب.

**س ٧ ـ إذا طلب من جاره المباناة، فامتنع، فهل يجبر؟**

ج ـ إن كان الممتنع أرضه بيضاء، يعني حيالة ما بنى فيها، فما دامت على هذه الحال لا يجبره الآخر على المباناة، فإذا أراد أن يحوشها بجدار أو يبني أيضاً زيادة منازل، فإنه يجبره على بذل حقه من المباناة، لكن بمقدار ما بنى الأخير، إن بنى حوشاً فقط، فيسوق له من المباناة مقدار ارتفاع جدار الحوش من جدار جاره، فإن زاد سقفاً أو بنياناً عالياً، استحق أن يأخذ منه الزيادة.

**س ٨ ـ هل يملك إحداث بئر ينقطع به ماء جاره؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويحرم إحداثه في ملكه ما يضر بجاره، ثم ذكروا أمثلة، منها حفر بئر ينقطع بها ماء بئر جاره.

أقول: وقيل: له حفر بئر في ملكه، ولو أفضى إلى نقص ماء جاره أو قطعه لأن قرار الأرض له، وما فيه من الماء المودَع هو أحق به من غيره، ولو ترتب عليه ما ذكر وهو أظهر بشرط أن لا يفعله على وجه المضارة. ومما يدل على ذلك أن له أن يحفر البئر الموجودة ويعمقها ولو أفضى إلى نقص ماء جاره، فكما أن الهواء تابع للقرار، فالقرار عماد السطح والهواء.

# باب الحجر

**س ١ ـ ما حكم منع المدين من السفر؟**

ج ـ قول الأصحاب: ولغريم من أراد سفراً طويلاً منعه، ولو كان الدين لا يحل قبل مدة السفر إلا برهن يحرز أو كفيل مليء. انتهى.

الصواب ليس له منعه في هذه الحال إذا كان الدين لا يحل قبل مدة السفر إذا لم يخش غيبته المستمرة، وهو اختيار القاضي وغيره، لأن الغريم قبل حلول دينه على غريمه ليس له أن يطالبه ولا يحبسه ولا يمنعه من شيء من عوائده التي لا تضر الغريم، هذا مأخذ، ومأخذ آخر، وهو أن المعروف بين الناس كالمشروط بينهم، وقد اضطر في العرف والعادة أنهم لا يمنعون غرماءهم الذين لا تحل ديونهم من السفر، ومأخذ ثالث، وذلك أن كثيراً من الناس أسبابهم ومعاملاتهم مضطرة إلى السفر، ومنعه ضرر كبير وتفويت لمصالحه، وربما ضر الغريم بنفسه، وإلزامنا إياه بالوثيقة إلزام بما لا يلزمه، وأكثر الناس أيضاً لا يتمكن من الوثيقة وهو محتاج أو مضطر إلى السفر، فكيف يمنع والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يمنع العاجز عن وفاء الدين من السفر؟**

ج ـ قال في «الإقناع» وشرحه: وإن أراد المدين سفراً وهو عاجز عن وفاء دينه، فلغريمه منعه حتى يقيم كفيلاً ببدنه، قاله الشيخ.

أقول: وظاهر الآية وهي قوله تعالى:

**﴿وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٨٠]

ليس له منعه من السفر ولو لم يقم كفيلاً، وهو ظاهر كلام بقية الأصحاب، لكونه لا تحل مطالبته في هذه الحال. اهـ.

**س ٣ ـ هل يحبس الأجير الممتنع من وفاء دينه الحالّ مع القدرة؟**

ج ـ قال الأصحاب: فإن أبى من له مال يفي بدينه الحالِّ الوفاء، حبسه الحاكم. قال ابن قندس: ظاهر ما ذكروه أنه متى توجه حبسه حبس ولو

كان أجيراً في مدة الإجارة أو امرأة مزوجة وعليه مشى الحكام في هذا الزمان، ولم أر المسألة مصرحاً بها في كلام أشياخ المذهب، لكن إطلاق كلامهم ظاهره أن الإجارة والزوجية لا تمنع.

أقول: وعموم كلام الأصحاب في وجوب حق المؤجر على الأجير وحق الزوج على زوجته يقابل هذا العموم، مع موافقته لظاهر الشرع، وأنه يمكن القيام بالحقين من غير حبس، فحق المؤجر والزوج لا يفوت، ويجبر على الأداء من غير حبس، وإلا فيؤخذ من ماله قهراً عند امتناعه، فإن كان حق المؤجر والزوج سابقاً، لم يبق في تقديم حقهما أدنى ريب ولا إشكال.

**س ٤ ــ ما حكم نفوذ تصرف المفلس قبل الحجر؟**

ج ــ قال الأصحاب: وكل ما فعله المفلس قبل الحجر عليه، فهو نافذ ولو استغرق جميع ماله. اهـ. وعند الشيخ تقي الدين: لا ينفذ التصرف المضر بالغريم ولو لم يحجر عليه، وهو أرجح وأقرب إلى العدل.

**س ٥ ــ هل يحلُّ الدين بالموت؟**

ج ــ هذه قد ذكرها الفقهاء من أصحابنا أنه يحل إلا إذا وثق الورثة برهن يحرز، أو كفيل مليء، فإذا وثقوا بأحد الأمرين، فالدين لا يحل حتى يحل أجله، وإذا لم يحصل توثيق، حلَّ الدين، ولا فرق على المذهب بين الدين المؤجل الذي جعل أجله بمقابلة مصلحة، أو مؤجل قرض ونحوه، ولكن الذي نحن نفتي به إذا كان الدين له مصلحة، مثل أن يبيع عليه ما يساوي مائة ريال بمائة وعشرين إلى أجل، ثم مضى نصف الأجل مثلاً، وقلنا: يحل لعدم التوثيق، فإنه لا يحق لغريم إلا مائة وعشرة، بحسب ما مضى من الوقت، وهو قول لبعض العلماء، وهو العدل الذي لا يليق القول إلا به، وهو كما لو اتفقا في حال الحياة أن يبادر بالوفاء قبل حلول الأجل، ووافقه الغريم على ذلك، فإنه يسقط المصلحة للمدة المستقبلة، ويقبض كما هو الصحيح.

**س ٦ ــ عن حلول الدين المؤجل بالفلس.**

ج ــ قال الأصحاب: ولا يحل دين مؤجل بفلس.

أقول: وقيل: إن الدين المؤجل يحل بفلس، وإنه يشارك أصحاب الديون الحالّة، لكن إن كان مؤجلاً فيه ربح، أسقط من الربح بمقدار ما سقط من المدة. فلو باع سلعة تساوي ألفًا بألف ومائتين إلى أجل، ومضى نصف الأَجل، وجب ألف ومائة، وسقطت المائة الأخرى مقابل باقي المدة، وهذا أقرب إلى العدل والصواب.

**س ٧ ــ إذا رخصت أعيان مال المحجور عليه، فهل تباع بثمن مثلها وقت الحجر، أم ينتظر بها عوده إلى حالته الأولى؟**

ج ــ قد ذكر العلماء الأصحاب وغيرهم أن فائدة الحجر على المفلس توزيع موجوداته وأعواضها على غرمائه، وأنه تباع موجوداته التي ليست من جنس الدين، ولم يفرقوا بين ما كان رخيصاً أو غيره، لأن حقهم واجب إيصاله إليهم على الفور، وهو مصلحة متحققة وبقاء ذلك إلى وقت آخر مصلحة متوهمة، فإنه قد يزيد وقد ينقص، ولكن الأولى للغرماء في هذه الحال المسايرة والمسامحة، والانتظار إذا غلب على الظن وجود مصلحة ولكن لا يجبرون على ذلك.

**س ٨ ــ عن أن الحقوق المتعلقة بالمال الحاضر مقدمة على ما تعلق بالذمة؟**

ج ــ الحقوق المتعلقة بالمال الحاضر تقدم على الحقوق المتعلقة بالذمم، أو الحقوق السابقة كما تقدم أجرة المنادي والدلال والحافظ والديون التي تستدان على التركة لمصلحتها على حقوق الغرماء، كما يقدم حق العامل ونحوه على الحقوق الأخرى.

**س ٩ ــ يقول الأصحاب: من رجع فيما ثمنه مؤجل لم يأخذ قبل حلوله، فهل هذا قوي؟**

ج ــ قولهم في رجوع الغريم المحجور عليه في عين ماله: ومن رجع فيما

ثمنه مؤجل لم يأخذ قبل حلوله، هذا قول ضعيف، ولهذا اختار ابن أبي موسى أخذه في الحال لأنه إنما يرجع في المبيع، فأي موجب لتأخيره، وهذا واضح عند القائل.

**س ١٠ ـ ذكر الأصحاب أن الزيادة المتصلة تمنع من رجوع البائع بعين ماله عند الفلس، وأن الزيادة المنفصلة للبائع، فما الفرق؟**

ج ـ الأمر كما علمتم أنه لا فرق بين الأمرين على هذا القول، وهذا الذي جرى عليه في متن «الإقناع» أن الزيادة المنفصلة للبائع، وأن أحمد نص على ذلك، وقد ذكر الشارح المذهب، وهو الذي جرى في «التنقيح» أن الزيادة المنفصلة تكون للمفلس، وهو القول الموافق للقواعد، لأنه إذا كانت الزيادة المنفصلة الحادثة بعد البيع للمشتري من خيار العيب والشرط ونحوها إذا رد المبيع ولا يردها مع المبيع، فكونها للمفلس من باب أولى، والذي جرى عليه في «التنقيح» هو المذهب المرجح عند المتأخرين، فعلى هذا القول الراجح يظهر الفرق بين الأمرين. والله أعلم.

**س ١١ ـ إذا وجد عين ماله عند من أفلس وقد خرجت عن ملكه، ثم عادت فما الحكم؟**

ج ـ ذكر الأصحاب من الأحكام التي تتعلق بالحجر على المفلس أن من وجد عنده عيناً باعها إياه فهو أحق بها، ولو بعد خروجها عن ملكه، فلو اشتراها، ثم باعها، ثم اشتراها، فهي لأحد البائعين بقرعة.

أقول: وقيل إنها للبائع الثاني، وهو أولى.

**س ١٢ ـ إذا بذل الغرماء لصاحب السلعة ثمنها، فهل تسقط أحقيته بها؟**

ج ـ قال الأصحاب: فإن بذل الغرماء لصاحب السلعة ثمنها، أو خصوه بها من مال المفلس، أو قال المفلس: أنا أبيعها أو أعطيك ثمنها، لم يلزمه قبوله.

أقول: والأولى أنه إذا حصل له ثمن سلعته على أي وجه كان، لم يكن له

أخذها، لأن الشارع إنما خصه وجعل له الحق في أخذها خوفاً من ضياع ماله، فينظر إلى المعنى الشرعي.

**س ١٣ ــ شروط الرجوع بعين ماله على المفلس، هل لها دليل؟**

ج ــ ذكر الأصحاب لرجوع المفلس في عين ماله شروطاً، وأكثر هذه الشروط في استحقاق الرجوع في العين لا دليل عليه، وظاهر الحديث يدل على رجوعه ما لم يمنع مانع، كتعلق حق، أو انتقال ملك، أو تغييرها تغييراً كثيراً بزيادة.

**س ١٤ ــ إذا كان وكيلاً على مال يتامى، وهو فقير، والمال كثير يحتاج إلى مصاريف، وأصحاب يصرفونه معه، فهل يأخذ هذه المصاريف من المال؟**

ج ــ كل ما يتعلق بمصلحة المال، فله أن يأخذ المصاريف المتعلقة به من مال اليتامى، لأن الله يقول:

**﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾**

[سورة الإسراء: الآية ٣٤]

والأمور التي فيها مصلحة لمالهم وحفظ له ولولا ذلك لتخلى الوكيل عن الوكالة، فكل هذا يؤخذ إذا كان بالمعروف وليس فيه إسراف.

**س ١٥ ــ قال الأصحاب: إذا زوج السفيه بزائد على مهر المثل ضمن الزيادة، بخلاف ما إذا أذن فيها، فهل هذا وجيه؟**

ج ــ قول الأصحاب في ولي السفيه: وتلزم ولياً زيادة على مهر المثل زوج بها السفيه لا زيادة أذن فيها لأنه لم يباشرها، ووجود الإذن كعدمه. انتهى.

وفي هذا التفريق نظر، فإن الزيادة التي أذن فيها كالتي باشرها، لأنه مؤتمن على مال السفيه. ثم قولهم: ولا تلزم أيضاً السفيه غريب، فإنهم لم يزوجوه إلا على هذه الزيادة المشروطة التي أذن فيها الولي، فإذا لم تلزم واحداً من الولي والسفيه، صار خداعاً ظاهراً.

**س ١٦ ـ إِذا مات من يتجر لنفسه وليتيمه بماله وقد اشترى شيئاً ولم يعرف لمن هو له، فما الحكم؟**

ج ـ ما نقله في شرح «المنتهى» عن شيخ الإسلام في قوله: وإن مات من يتجر لنفسه وليتيمه بماله قد اشترى شيئاً ولم يعرف لمن هو، أقرع، فمن قرع حلف وأخذ. انتهى.

في هذا التحليف نظر، ولو قيل: يقسم بين ورثته وبين اليتيم بنسبة ما لكل منهما لكان أولى، لأن المال المختلط زيادته ونقصه وما يعتريه من شك واشتباه، يجب أَن يراعى فيه العدل، وذلك بالتقسيط، وكيف يحلف في هذا، واليتيم والوارث ليس عندهم اطلاع على الأمر، فالحلف لا محل له، والله أعلم.

**س ١٧ ـ بماذا يكفّر السفيه؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويكفِّر السفيه بالصوم، ولا يكفِّر بالمال.

أقول: كون السفيه الغني لا يكفِّر بالمال في غاية الضعف، ومخالف لعموم الأدلة، فالصواب أنه يكفِّر بالمال كغيره. وقولهم في تعليل المنع: لأنه يضره، مقابل بالزكاة ومنعه، والحجر عليه من التصرفات الضارة لقصور عقله. وأما العبادات المالية، فهو وغيره سواء.

**س ١٨ ـ ما يترك للمفلس بعد الحجر؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويجب أن يترك للمفلس من ماله ما تدعو إليه حاجته من مسكن وخادم.

أقول: وعند ابن حمدان: يباع المسكن إذا استدان ما اشترى به مسكناً، وهذا هو عين الصواب. ولا يمكن أن تأتي الشريعة بخلاف هذا القول، وتفتح للناس أَكل أَموال الناس بأبطل الباطل، فلا يعجز مبطل أن يستدين ويشتري له داراً تكون مسكناً بذلك الدين ويقول: إنه معسر لا يباع مسكنه، بل لو قيل كقول كثير من أهل العلم: إن المسكن مطلقاً يباع لوفاء الدين، لكان قولاً

قوياً، لأن وفاء الدين من الضروريات، وبقاء ملكه على مسكنه من الحاجيات، ويا بُعد ما بين الأمرين.

**س ١٩ ـ ما حكم تصرف من حكم الحاكم بالحجر عليه بعد زوال رشده؟**

ج ـ قال الأصحاب: ومن حجر عليه الحاكم، استحب إظهاره لتتجنب معاملته. قال الشيخ عبد الوهاب في هامش شرح «الإقناع»: ظاهره بل صريحه أن معاملاته قبل الحجر صحيحة نافذة كما لا يخفى. اهـ.

أقول: فيه نظر، فليس بظاهر ولا صريح صحة معاملاته قبل حجر الحاكم، لأن الحاكم إنما يظهر خافياً، بل متى ثبت جنونه أو سفهه وقت تصرفه، فإنه ليس بصحيح، وهو داخل في عموم كلامهم.

**س ٢٠ ـ ما أقسام التخيير في الشرع؟**

ج ـ يتكرر في كلام الفقهاء رحمهم الله: ويخير بين كذا وكذا، ويشكل بعضه، هل هو تخيير بعدما يجتهد في الأصلح منها أو هو تخيير بحسب رغبة المخير وشهوته. وعند التتبُّع والاستقراء تجد من خُيِّر بين أمرين فأكثر لأجل ولاية ونحوها، فإنه تخيير في الاجتهاد في الأصلح، فيتعين عليه النظر في أصلح المذكورات، وذلك مثل تخيير الإمام في قسمة الأراضي المغنومة، أو ضرب الخراج عليها، والتخيير في الأسارى وفي اللقطة قبل الحول ونحو ذلك. وإن كان التخيير راجعاً إلى السهولة على المكلف، وطلب الأرفق له، فإن هذا تابع لإرادته، وذلك كالكفارات المخيرة وكأنواع الدية وكالجيران في الزكاة ونحو ذلك.

**س ٢١ ـ عن أحكام الأرقاء؟**

ج ـ العبد المملوك له أحكام كثيرة: أحكام تكليفية، وأحكام مالية، وأحكام بدنية، ولكنها على وجه التقريب لها يقال: أما أَحكام التكليف البدنية،

فالتحقيق أن حكمه حكم الأحرار حتى في وجوب الجمعة والجماعة، لعموم النصوص الدالة على وجوبها على جميع الرجال المكلفين، مع أن المشهور من المذهب أن الجمعة والجماعة لا تجب إلا على الأحرار.

وأما الأحكام المالية فهو في نفسه حكمه حكم الأموال في ضمانه وضمان منافعه إذا تلفت أو وضعت عليه اليد المتعدية فهو مضمون في ذلك كله ضمان الأموال بالقيمة، وهو لا يملك شيئاً من المال، وما اكتسبه ببدنه أو قبوله للهدية والصدقة والوصية، فلسيده. وعلى هذا ليس عليه كفارات مالية، إنما عليه الكفارات البدنية، ولا يجب عليه أيضاً الحج لتركبه من المال والبدن، لكن لو بذل له سيده ما يحج به أو يكفِّر، فالمشهور من المذهب أن لا يجزىء عنه، والصحيح أنه يجزئه عن حجة الإسلام إذا كان مكلفاً، وتجزئه الكفارة المالية إذا بذلها سيده، لأن غايته أن يكون كالحر الفقير لا تجب هذه الأشياء عليه، وإذا تيسرت له، أجزأت عنه، لأن عدم وجوبها عليه كونه لا يقدر عليها، فمع فعلها حصل المقصود: والعمومات تدل على هذا، فإن الشارع لم يفرض على المكلف إلا حجة واحدة، ولم يثبت التفريق بين الحر والعبد، كما لم يثبت بين الذكر والأنثى، وينبني على صحة تصرفاته في البيع والشراء والنكاح ونحوه، فكل ذلك منوط بإذن سيده، فمتى أذن في شيء من التصرفات، جاز وتم ونفذ، ومتى لم يأذن فيها، فالتصرف غير صحيح إلا تصرفاً متعلقاً بخصوص رغبة العبد، كالطلاق والرجعة، فالحكم متعلق بذاته، فلهذا صحح العلماء طلاقه ورجعته، ولو لم يأذن فيهما سيده، مع أن الإذن في النكاح يستلزم الإذن في هذه الأمور المتفرعة عنه. وأما الأمور المتعلقة بأقواله كفتاويه وقضائه وشهادته وإقراره ونحوها، فإنها معتبرة على التحقيق، وحكمه حكم الحر فيها من غير تفصيل بين شيء منها، لظاهر الأدلة وعمومها، وإن كان بعض العلماء يرى رد قضائه وشهادته فهو قول لا دليل عليه، وهو مخالف للدليل، وأما حاله في الحدود، فالقتل والقطع حكمه فيه كالأحرار بحسب تفاصيل أحكامهم. وأما الجلد فإنه يتنصف عليه نصف ما على الحر، وكذلك القسم بين الزوجات

الأحرار والعبيد، فعلى النصف، والعدة والطلاق على النصف، فهذا تقريب حكم العبيد، والله أعلم.

**س ٢٢ ـ قول الأصحاب: ويصح أن يشتري قناً مأذوناً له في تجارة من يعتق على مالكه، فهل هو صحيح؟**

ج ـ قول أصحابنا رحمهم الله: ويصح أن يشتري قناً مأذوناً له في تجارة من يعتق على مالكه لرحم أو قول، ويعتق بذلك أو يشتري زوج مالكه، وينفسخ بذلك النكاح. انتهى.

الصواب الذي لا شك فيه أنه لا يدخل في الإذن في التجارة، لأنه إنما أذن له أن يبيع ويشتري ما تحصل به التجارة، لا أن يشتري ما ينافيها، فهو في حال شرائه لرحم سيده وزوجه غير مأذون لفظاً ولا عرفاً، فكيف نصحح ذلك ونلزم السيد بأمر لم يلتزمه ولم يأذن به! بل أمر يضره والله أعلم.

وهذا أحد القولين للأصحاب، ومثل ذلك المضارب لا يدخل في تصرفه شراء من يعتق على رب المال ولا زوجه، فإن فعل فالتصرف لاغٍ على التصحيح.

## باب الوكالة

**س ١ ـ هل الأولى الدخول في الوكالات ونحوها، أو لا؟**

ج ـ من العلماء من استحب الدخول في ذلك لما فيه من قضاء الحاجات، وإجابة من تعلق به بوكالة أو وصاية ونحوها، ولما يترتب على تنفيذها في طرقها الشرعية، وتنفيذاتها الواجبة من الأجر والثواب حتى ولو كان ذلك بمعاوضة وأجرة، ومن العلماء من يستحب البعد منها والسلامة منها، وكان الإمام أحمد رضي الله عنه لا يعدل بالسلامة شيئاً، ولما فيها من الأخطار والبعد عن محل المحن والفتن والأغراض الضارة من القواعد الشرعية، ولما في ذلك من اتهامه وكثرة الخصومات وهي نوع من الولاية، والولاية ينبغي البعد منها، والتحقيق في

هذا التفصيل، وأنه يختلف باختلاف أحوال المولين والمولَّيْن، فمن كان يعلم من نفسه عدم الكفاءة أو يخشى من نفسه الخيانة، أو يشغله عما هو أهم منه، قوي المنع في حقه، بخلاف العكس، وكذلك من كان الذي وكله أو وصاه أو أنابه في النظر في الوقف، له حق واجب عليه ولم يجد غيره، قوي الاستحباب في حقه، وكذلك من كان يظن أنه إذا تعذر ذلك تولاه من لا يصلحه أو يظنه يضيع أو ينفذ في غير طرقه الشرعية، فدخوله فيها لأجل هذه المصلحة الشرعية مستحب أو متعين، وهذا النظر في جميع الولايات الصغار والكبار ينبغي أن لا يلاحظ فيها المصالح والمفاسد، فلا يحكم حكم كلي يشمل جميع الأشخاص، بل يتبع في ذلك المصالح الشرعية ومع الاستواء فالسلامة لا يعدلها شيء، والله أعلم.

**س ٢ ـ ما أقسام النيابة عن الغير؟**

ج ـ النائب عن الإنسان ثلاثة أقسام: نائب خاص، كالوكيل والوصي الخاص المعين باسمه أو وصفه.

ونائب عام، كنيابة الحاكم عن الغائب ونظره في الأوقاف والوصايا التي لا وصي لها ولا ناظر.

ونائب ضرورة، كنيابة الملتقط على ما يجده مع اللقيط من مال لينفقه عليه، ونيابة من مات في محل لا وصي فيه ولا حاكم، وما أشبه ذلك من محال الضرورة.

**س ٣ ـ هل للقاضي أن يستنيب إذا غاب؟**

ج ـ قد ذكر الأصحاب رحمهم الله ضابطاً حسناً يدخل فيه القاضي وغيره، فقالوا: ومن قرر في وظيفة لم يجز صرفه عنها بلا موجب شرعي، وله أن يستنيب، فالقاضي إذا استناب من فيه أهلية، وغاب خصوصاً لحاجة فإنه جائز، والله أعلم. كذلك كل من كان في وظيفة شرعية، والله أعلم.

**س ٤ ـ عن صفة التوكيل في الإقرار؟**

ج ـ قال الأصحاب: يصح التوكيل في الإقرار.

قال في شرح «الإقناع»: وصفة التوكيل في الإقرار أن يقول: وكلتك في الإقرار، فلو قال له: أَقرّ عني، لم يكن ذلك وكالة، ذكره المجد اهـ.

أقول: تفريق المجد غير واضح، فأي فرق بين قوله: وكلتك في بيع كذا وبع كذا فنظيره وكلتك في الإقرار في بيع كذا أو بيع كذا بنظره، وأقرّ عني. وظاهر كلام الأصحاب خلاف ما قاله المجد، وإن كان الشارح قد ساق كلامه كالقيد لكلامهم، فليس لهذا القيد داع.

**س ٥ ـ عن صفة الوكالة الدورية وحكمها؟**

ج ـ صحح الأصحاب رحمهم الله قول الموكل: كلما عزلتك فقد وكلتك، وقالوا: هذه وكالة دورية.

أقول: الوكالة الدورية، والعقود والفسوخ الدورية، إنما حدث الإفتاء بصحتها ودوراتها بعد القرون المفضلة، كما ذكره الأئمة وحقق المحققون أنها غير صحيحة، لمنافاتها لمقتضى العقود والفسوخ الشرعية، وجعل العقود الجائزة لازمة، وبالعكس.

**س ٦ ـ إذا وكل في شيء فما الحكم؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: وإن وكله في كل قليل أو كثير، لم يصح. قال شارحه: وكذا لو قال: وكلتك في كل شيء، أو في كل تصرف يجوز لي، أو كل ما لي التصرف فيه. اهـ.

أقول: الصحيح أنه إن عرف موضوع ما فيه الوكالة، صح التوكيل ولو عمت الوكالة كل ما له التصرف فيه، حيث لا محذور في هذا.

**س ٧ ـ هل يصح أن يقول: اشتر لي عبداً بما شئت؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن قال: اشتر لي عبداً بما شئت، لم يصح.

أقول: ليس في هذا التفويض محذور أصلاً، ولا دليل على المنع، والأصل جواز التوكيل.

**س ٨ ـ إذا أرسل معك دراهم لشخص، فأرسلتها إليه مع إنسان آخر بغير إذن الذي أرسلك، فهل تضمن؟**

ج ـ هذا الذي أرسلتها معه إن كان ثقة حافظاً للأمانة، ولكن ضاعت منه بدون تفريط ولا تعدٍّ، فالذي أرى أنه لا ضمان على الطرفين، لا عليه، لأنه محسن مؤتمن وما على المحسنين من سبيل، ولا على الذي أرسلها معه، لأنه بمنزلة وكيله ونائبه المؤتمن، والعادة أيضاً جارية بذلك، وعرف الناس متفق على أنه في هذه الحالة صانع بصاحبه معروفاً إلا إن قال له: لا ترسلها مع غيرك.

**س ٩ ـ إذا وكل شخصاً، ثم وكل بعده آخر من غير عزل للأول، فهل يشتركان؟**

ج ـ إن أَتى في كلامه أَو قرينة حاله ما يدل على عزل الأول، فتوكيل الثاني عزل للأول، وإن وكل الثاني من غير تعرض لعزل الأول لا لفظاً ولا عرفاً، فالأصل بقاء وكالته، فيشتركان في التصرف والتصريف والتدبير، ويصير نظير ما لو وكلهما دفعة واحدة، فكل فعل واحد ينيب فيه اثنين فأكثر ولم يذكر أن لكل منهما التصرف بانفراده، فإنه لا ينفرد أحدهما دون الآخر.

**س ١٠ ـ إذا باع الوكيل بثمن المثل، وثم من يزيد، فهل يصح البيع؟**

ج ـ قال الأصحاب: لو حضر من يزيد في البيع على ثمن المثل، لم يجز للوكيل ولا للمضارب بيعه به. قال في شرح «الإقناع»: فإن خالف وباع، فمقتضى ما سبق يصح البيع، وظاهر كلامهم: لا ضمان ولم أره مصرحاً به.

أقول: يعني إن لم يحصل غبن فاحش، والصواب أنه كما لا يحل له أن يبيع وثَمَّ من يزيد، فإن فعل فلربها الرد.

**س ١١ ـ هل يقبض وكيل البيع الثمن؟**

ج ـ قال الأصحاب: ولا يقبض وكيل البيع الثمن إلا بإذن أو قرينة.

أقول: يتعين الرجوع إلى عرف الناس في التقبيض والقبض في الوكالات.

**س ١٢ ـ إذا وكل في قبض حقه من زيد، فهل يقبض من وارثه؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن وكله في قبض الحق من زيد، لم يملك قبضه من وارثه، لأن العرف لا يقتضيه.

أقول: ومقتضاه أنه لو اقتضاه العرف، فله قبضه من الوارث، وهو الظاهر.

**س ١٣ ـ قولهم في التوكيل: إذا قضى الدين بغير حضور الموكل ولم يشهد أنه يضمن، فهل هو وجيه؟**

ج ـ فيها قولان في المذهب، هذا المشهور، والثاني: أنه لا يضمن، وعندي في المسألة تفصيل، وهو أن اتباع العرف والعوائد تختلف بحسب الديون وحسب الغرماء، فمن كان دينه مؤجلاً بوثيقة، ووكل المدين من يقضيه دينه، ثم قضاه بلا إشهاد عليه، فهذا لا شك أنه يعد مفرطاً، والمفرط ضامن لأنه أمره بقضاء يبرىء ذمته. وأما إن كان عنده طلب الآخر ليس فيه وثيقة، ولم يأمره بالإشهاد، بل أمره أن يعطيه حقه، والمقضي أمين، فهذا لا يعده الناس مفرطاً، فلا ضمان عليه إن لم يشهد، فالمسألة مناطها التفريط وعدمه، وتعليلهم يدل على هذا التفصيل، والله أعلم.

**س ١٤ ـ إذا قال رب الدين للمدين: اشتر لي بديني عليك طعاماً، فما الحكم؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإذا قال رب الدين للمدين: اشتر لي بديني عليك طعاماً، أو أسلف لي ألفاً من مالك في كُرٍّ طعام، لم يصح.

أقول: فيه نظر. ولو قالوا في الصورتين: إن قوله ذلك يتضمن التوكيل ثم الشراء كما قالوا في نظائره لكان أولى.

**س ١٥ ـ إذا طلب منه حقاً فامتنع حتى يشهد القابض على نفسه بالقبض، فما الحكم؟**

ج ــ قال الأصحاب: ومن طلب منه حق، فامتنـع حتى يشهد القابض على نفسه بالقبض، وكان الحق بغير بينة، لم يلزم القابض أن يشهد.

أقول: وفيه نظر، فإنه قد لا يحسن الجواب بالمجمل، وقد لا يكتفى منه بمجرد قوله: لا يستحق عليَّ شيئاً، فله أن يمكن من كل ما يدفـع عنه الضرر المحتمل.

**س ١٦ ــ إذا أشهد من له الحق على نفسه بالقبض، فهل يلزمه تسليم الوثيقة؟**

ج ــ قال أصحابنا: ومتى أشهد من له الحق على نفسه بالقبض، لم يلزمه تسليم وثيقة الحق.

أقول: والأولى إذا لم يسلم الوثيقة أن يكتب عليها القبض أو الخلاص ونحوه.

**س ١٧ ــ إذا وكل وكيلاً في تصرف عقد أو فسـخ أو غيرهما ثم بعد تصرف الوكيل ادعى الموكل أنه رجـع وفسـخ توكيله؟**

ج ــ إن كان تصرفه بعد رجوع وفسـخ الوكيل، وكان ذلك ببينة، صار تصرف الوكيل لاغياً، وكذلك إذا صدق المتصرف معه، وإن لم يكن ببينة، لم يقبل قول الموكل، لأن الوكالة ثبتت، والمتصرف المأذون فيه حصل، والأصل عدم نقضه إلا في مسألة اختلف فيها كلام الأصحاب، وهو ما إذا وكل زوجته في طلاق نفسها وطلقت نفسها، وادعى أنه رجـع قبل إيقاعها، فقيل: القول قول الزوج. وقيل: القول قول الزوجة، وهو الأظهر كغيرها من المسائل بناءً على هذا الأصل الذي ينبغي طرده، وكذلك لو وكل غير الزوجة فطلق الوكيل وادعى الزوج أنه رجـع قبل الإيقاع، والله أعلم.

# كتاب الشركة

**س ١ ـ قولهم في شركة العنان: إذا تلف أحد المالين ولو قبل الخلط فهو من مالهما، هو مقيد بما بعد التصرف كالمضاربة أو مطلق؟**

ج ـ هو من مالهما مطلقاً، سواء قبل التصرف أو بعده، لأنهما لما عقدا الشركة صار المال مشاعاً بينهما على حسب الملك وصار ما تلف من ذلك بمنزلة تلف النماء، وهذا بخلاف المضاربة، فإن المضاربة ليس له شركة في مال المضاربة حتى يحصل الربح، والله أعلم.

**س ٢ ـ قول الأصحاب في شركة العنان والمضاربة: لا يشترط كون المالين من جنس، فهل هو مطلقاً، أو فيه تفصيل؟**

ج ـ قول الأصحاب رحمهم الله في شركة العنان، وكذا المضاربة إذا كانت من متعددين: ولا يشترط أن يكون المالان من جنس واحد، فيصح أن يخرج أحدهما دنانير، والآخر دراهم، وعند التراجع كل منهما بما أخرج، ويقسمان الباقي، هذا بناء منهم على ثبات النقدين وبقائهما بقاءً مستمراً بسعر واحد لا يزيد ولا ينقص كما هو في الأوقات الماضية إذ كانت الدراهم والدنانير قيم الأشياء ونسبة بعضها لبعض لا تزيد ولا تنقص، وأما في هذه الأوقات، فقد تغيرت الأحوال، وصار النقدان بمنزلة السلع، تزيد وتنقص وليس لهما قرار يربطهما، فهذا لا يدخل في كلام الأصحاب قطعاً، وأما في هذا الوقت، فيتعين إذا أخرج أحدهما ذهباً، والآخر فضة، أن يجعل رأس ماليهما متفقاً، إما ذهب

تُقوَّم به الفضة، أو فضة يُقوَّم به الذهب، فهذا هو العدل. وهو مقصود الشركات كلها إذا كانت مبنية على العدل، واستواء الشريكين في المغنم والمغرم وتحريم ما ينافي هذا ويضاده، لأن تجويز كون مال أحدهما ذهباً ومال الآخر فضة مع عدم قرارهما، يقتضي أنه عند التراجع والقسمة إذ كان أحد النقدين زائداً سعره أن يستوعب صاحبه الربح كله، ويبقى الآخر محروماً، فكما لا يجوز لأحدهما أن يشترط له ربح أحد الزمانين، أو أحد السفرتين، أو ربح السلعة الفلانية، وللآخر ربح الشيء الآخر، فهذا كذلك، بل أولى للغرر والخطر، لأنه قمار ظاهر، وهو مقصود الأصحاب، ولا ريب لأن تعليلاتهم تدل عليه.

**س ٣ ـ إذا قال: خذ هذا فاتجر به، والربح لك، فما الحكم؟**

ج ـ قال الأصحاب في المضاربة: وإن قال مالك المال: خذه فاتجر به والربح كله لك، فقرض.

أقول: وقيل لا يكون قرضاً، بل مضاربة فاسدة، كل الربح للعامل، والوضيعة على المالك، وهو الأصح، لدخوله على عدم الضمان.

**س ٤ ـ إذا قال رب دين: ضارب بالدين الذي عليك، أو بديني الذي على زيد، فهل يصح؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن قال رب الدين: ضارب بالدين الذي عليك أو بديني الذي على زيد، لم يصح.

أقول: والصحيح صحة ذلك، ويكون توكيلاً في قبضه من نفسه ومن غيره، ثم يكون مضاربة، كما في قوله: اقبض ديني وضارب به، ومثله: هو قرض عليك شهراً، ثم هو مضاربة، وتصحيح هذه الأمور جارٍ على قاعدة انعقاد العقود بما دل عليها.

**س ٥ ـ إذا أعطى شخصاً ريالات فرنسية مضاربة، فهل يلزم عند تصفيتها أن يردها إلى أصلها فرنسية؟**

ج ـ إذا كان بيده مضاربة، وكان أصلها ريالات فرنسية، فانقلبت

بمداولة البيع والشراء إلى عربية، فلا يلزم ردها إلى أصلها عند المحاسبة إلا إن اختار صاحبها أن يردها، فيردها لأجل صاحبه. وأما لو كانت مثلاً مائتي ريال فرنسية، فآلت إلى خمسمائة ريال عربي، وتراضيا على قسمتها، إن كان قد ظهر فيها ربح، أو ردها على صاحبها بسعر الريالات الفرنسية فلا بأس بذلك، لأن ذلك ليس ببيع ولا شراء، وإنما هو تقويم، وهو مال المضارب انتقل من عين إلى أخرى، فمع التراضي منهما يجوز ذلك، وإذا اختار أحدهما ردها إلى أصلها، لزم ذلك.

**س ٦ ــ إذا كان رأس مال المضاربة فرنسية ونصف عربية، أو بالعكس ورضي رب المال بالعربية، فهل يجوز أو يفرق بين ما إذا ربحت أو خسرت، وكيف يكون إخراج الربح والحالة هذه؟**

ج ــ إن ذلك كله جائز مع التراضي، إذ لا محذور في ذلك، لأنه ليس ببيع: وإنما هو عين مال الإنسان انتقل من عين إلى أخرى، وهو باق على ملك صاحبه، فإن كان لم يربح المال، بأن كان بمقدار رأس المال، أو كان ناقصاً، فهو كله في الحقيقة مال الدافع، فإذا رضي بأخذه في هذه الحال، جاز، لأنه لم يأخذه عوضاً عن فقد آخر، وإنما هو ماله انتقل من حال إلى حال، كما له أن يأخذ عروضاً بتقويمه، وأما إذا ظهر فيه ربح، فقد صار العامل شريكاً للدافع في قدر حقه، فإذا اتفقا على قسمته وتقويمه بسعر النقد الآخر، كان ذلك إفرازاً وقسمة، وليس بيعاً، فلو كان رأس المال ألف ريال فرنسية على النصف، فنصت ألفين عربية، وصار مثلاً ما يقابل ألف ريال فرنسية ألف وستمائة ريال عربي، والباقي أربعمائة ريال عربي ربح، كان للدافع ألف وثمانمائة ريال، وللعامل مائتان. ومن أبى منهما إلا ترجيعه إلى أصله، فالقول قوله كالعروض التي ظهر فيها ربح، إذا أحبا قسمتها بالتقويم برضى الطرفين، جاز. وإن أراد أحدهما إرجاعها إلى أصلها، فله ذلك، والله أعلم.

**س ٧ ــ إذا دفع إليه مضاربة، وشرط أن يحمل عوضه على دوابه، وشرط العامل على صاحب المال أن يتولى بيعه، فهل يصح؟**

ج ــ إذا شرط أن يتولى بيعه صاحب المال، فهذه تدخل في عبارتهم أنه يصح أن يعمل مع صاحب المال بماله، ويكون له جزء معلوم مشاع، فلا بأس بذلك. وأما إذا شرط أن يحمل العامل أموال المضاربة وأعواضها على دوابه، فإن كان بأجرة فلا بأس بذلك، وإن كان بغير أجرة، فلا يجوز، لأن مبنى شركة المضاربة على المساواة في حاصل الربح، قلة أو كثرة، بحسب شرطها، وأن العامل سالم من الغرامة مطلقاً ربحت أو خسرت، وفي هذه الحال المضارب لا بد أن يذهب عليه أجرة دوابه مجاناً ربحت أو خسرت أو كافأت، وهذا مخالف لموضوعها فلا يجوز.

**س ٨ ــ إذا اختلف لمن المشروط، فلمن يكون؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن اختلفا لمن المشروط؟ فللعامل.

أقول: والصحيح أنهما إذا اختلفا لمن الجزء المشروط، أن يرجع إلى العادة والعرف في الشركة والمساقاة والمزارعة. اهـ.

**س ٩ ــ إذا فسدت المضاربة، فماذا للمالك وللعامل؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإذا فسدت المضاربة، فللعامل أجرة مثله، والربح كله للمالك.

أقول: وقال الشيخ تقي الدين: له نصيب المثل إذا فسدت المضاربة وهو الموافق للقواعد الشرعية.

**س ١٠ ــ ما حكم اشتراط المضارب النفقة له؟**

ج ــ قال الأصحاب: يصح للمضارب أن يشترط له النفقة: قال في شرح «الإقناع»: وتردد ابن نصر الله، هل هي من رأس المال أو الربح،

قلت: بل الظاهر أنها من الربح. اهـ.

قال الشيخ عبد الوهاب بن فيروز في حاشية له بخطه: بل الظاهر أنها

من رأس المال، لكونه ما أنفق إلا بإذن، ولما فيه من الضرر الذي لا يخفى، وأفاد بأنه عرضه على والده الشيخ محمد بن فيروز، فأقره. اهـ.

أقول: المعروف عند الناس أنه من جملة النوائب التي تنوب المال، فتكون مستهلكة، وعند القسمة يرجعان إلى أصل رأس المال. فهي إذن من رأس المال ومن الربح.

**س ١١ ــ هل يجوز للمضارب أن يعطي مال المضاربة لمضارب آخر؟**

ج ــ ذكر الأصحاب أنه لا يعطيه لآخر مضاربة بدون إذن صاحب المال، فإن فعل، فعليه الضمان، ويرد حصته من الربح على رأس المال.

**س ١٢ ــ هل يقبل قول العامل فيما يدعيه من تلف ونحوه؟**

ج ــ قال الأصحاب: والعامل أمين في مال المضاربة، وذكروا قبول قوله فيما يدعيه من تلف ونحوه.

أقول: وإذا قبلنا قول العامل في هذه الأمور، لم يمنع رب المال من استفصاله عن مفردات التلف والخسران وما أشبه ذلك، حيث أمكن استظهار الصدق أو عدمه، خصوصاً إذا ظهرت أمارات الريبة.

**س ١٣ ــ إذا اختلفا لمن الجزء المشروط بعد الربح، فمن يقبل قوله؟**

ج ــ قال الأصحاب: والقول قول رب المال في الجزء المشروط للعامل بعد الربح، والصواب قبول قول من يشهد له العرف.

**س ١٤ ــ إذا دفع مالاً إلى رجلين قرضاً، فنفى المال ثلاثة آلاف، فقال له ربه: رأس المال ألفان، فصدقه أحدهما، وقال الثاني: بل ألف، فما الحكم؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإذا دفع رجل مالاً إلى رجلين قرضاً على النصف، قبض المال وهو ثلاثة آلاف، فقال رب المال: رأس المال ألفان، فصدقه أحدهما. وقال الآخر: بل هو ألف، فقول المنكر مع يمينه.

أقول: فلو شهد العامل، وحلف رب المال مع شاهده، حكم له على المنكر لتمام النصاب وعدم المانع.

**س ١٥ ــ ما حكم العدولة التي يفعلها الناس؟**

ج ــ العدولة معروفة، يعطي الإنسان البهائم لمن يرعاها، وتكون الأجرة لبنها ودهنها وصوفها، وهي على المشهور من المذهب غير صحيحة، بل لا بد أن تكون بأجرة مسماة أو بجزء مشاع منها، وأما على القول الصحيح، وهو قول في المذهب اختاره شيخ الإسلام وعليه عمل الناس من قديم، فإنه يجوز ذلك لارتفاق كل منهما، الراعي يحصل له اللبن وما ترتب عليه والصوف، وصاحبها يكتفي بذلك رعيتها، وهي شبيهة ببيع المتاع بثمن معين، وما زاد فهو للوكيل في البيع. وأيضاً الحاجة داعية إلى ذلك من الطرفين من غير غرر ظاهر، فليست من باب الإجارة المحضة، ولا الجعالة، وإنما هي ارتفاق.

وأما الضالة إذا وجدها حلبها خصوصاً إذا كان بقاء اللبن يضرها، فإن كان اللبن موجوداً، وجب تسليمه لصاحبه إذا لم يسامح فيه، وإن كان قد شربه الواجد، فحلبه وإن لم يكن مأذوناً فيه نطقاً، فإنه مأذون فيه عرفاً، والحالب في هذه الحال محسن، فلا ينبغي تضمينه في هذه الحال. وأما وجوب غرمه عليه إذا ألح صاحبه بذلك، ففي النفس منه شيء، والله أعلم.

**س ١٦ ــ هل تجوز العدولة المعروفة؟**

ج ــ أما مسألة العدولة المعروفة المتعارفة بين الناس، يعطيه الغنم، ويكون على البدوي رعيها والقيام بجميع لوازمها، وله مقابلة ذلك نفعها الخارج منها، من لبن ودهن وصوف، دون نمائها، فالمسألة فيها قولان للعلماء، ولكل قول مأخذ وأصل يرجع إليه، أما المشهور عند الأصحاب، فلا يجوز ذلك، ومأخذ ذلك أن الأجرة مجهولة والمدة مجهولة، فأجروها مجرى الإجارة التي يشترط فيها تحديد الأجرة وتقدير المدة، والأمران مفقودان. هذا وجهها عندهم، والقول الثاني الصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام وغيره، وهو الذي عليه

العمل من قديم، ومشايخ نجد لا ينكرونه بل يقرونه وكثير منهم يصرح بترجيحه، أن ذلك جائز لا بأس به، ومأخذ هذا القول أن هذا ليس إجارة محضة، بل هو شبيه بالمشاركات، كالمضاربة التي يعمل فيه المضارب من غير تقدير مدة بما يسره الله من الربح، وشبيه أيضاً بمن يستأجر من يبيع ثوبه أو متاعه بثمن معلوم ويقول: ما زاد على ذلك فهو لك، وأيضاً الحاجة داعية إلى ذلك من الطرفين، المعطي يحتاج إلى تنمية ماشيته والقيام عليها، والآخذ إلى أخذ النماء المذكور مقابل القيام عليها وتنميتها، ولا محذور شرعي في ذلك، ويؤيد هذا أن الأصل في العقود والشروط الصحة حتى يأتي ما يدل على المنع، والأصل أيضاً أن ما دعت إليه الحاجة أن يوسع فيه، ويرخص فيه ترخيصاً لا يخرجه إلى مشابهة القمار، فهذه المسألة ليس في النفس منها شيء، والله أعلم.

**س ١٧ ـ هل عقد الشركة في المفاتحة على المكائن وتوابعها جائز أو لازم؟**

ج ـ لا أرغب أن أفتي فيها لا بإثبات أنها لازمة، ولا ينبغي ذلك، لأن المسائل التي يحصل فيها خصومات عند القضاة كلها ساد الباب عن الفتوى فيها ليكن معلوماً.

**س ١٨ ـ قولهم: ولا تصح شركة الدلالين، ما صفته؟ وهل هو وجيه؟**

ج ـ أما صفة ذلك، فأَنْ يشترك اثنان فيما يأخذان من الناس من الأموال التي يبيعونها فيما حصل لهما، ويكون معنى شركتهما أن كل واحد منهما يبيع ما أخذ شريكه، كما يبيع ما أخذه هو من الناس، فالمذهب عدم الجواز لأن الناس لم يوكلوا الجميع، وإنما وكلوا من باشر ذلك فقط، واختيار الشيخ جواز ذلك، وهو وجيه إذا علم الناس حالهما واشتراكهما، لأنهم وإن أعطوا أحدهما فقد علموا أن الآخر شريكه، وإذا لم يعلموا، فالمذهب هو الوجيه للعلة السابقة. والله أعلم.

# باب المساقاة والمزارعة

**س ١ ــ هل المساقاة والمزارعة من العقود الجائزة؟**

ج ــ قال الأصحاب: إن المساقاة والمزارعة عقدان جائزان، والصحيح الذي دل عليه العمل أنهما عقدان لازمان.

**س ٢ ــ إذا دفع بذراً إلى صاحب الأرض ليزرعها، وما خرج فبينهما، فهل يصح؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن دفع رجل بذره إلى صاحب الأرض ليزرعه في أرضه ويكون ما يخرج بينهما، ففاسد، ويكون الزرع لمالك البذر، وعليه أجرة الأرض والعمل. وإن قال: أنا أزرع الأرض ببذري وعواملي، وتسقيتها بمائك والزرع بيننا، لم يصح.

أقول: وعنه: يصح، وهو أولى. اهـ.

**س ٣ ــ إذا اتفق رجلان على أن يبدع أحدهما في أرض الآخر بئراً أو أوضة أو يبني فيها داراً، ولم يكن في ذلك جهالة، على أن تكون الأرض مشتركة بينهما في مقابلة عمل الآخر، فهل يصح ذلك؟**

ج ــ إذا تعاقد صاحب الأرض مع آخر على أن يبدع الآخر في الأرض بئراً، أو يصفه بالصفات التي تزيل الجهالة، ثم بعد ذلك يكون شريكاً له في الأرض بحسب ما ينفقان عليه، فهذا صحيح، وكذا لو شرط عليه مع ذلك أن يبني قصراً أو داراً موصوفة، أو غير ذلك من مرافق الملك، وكذلك إذا شرط رب الأرض على المزارع أن يكون حفر الأوضة محل المكينة عليه، وتكون الأوضة في الغالب معلومة، فكل هذه شروط صحيحة لا غرر فيها ولا محذور، والله أعلم.

**س ٤ ــ إذا شرط في المساقاة والمزارعة، أن يأخذ رب الأرض أو الشجر مثل البذور أو أوزان معينة، ثم يقسما الباقي، فهل يصح ذلك؟**

ج ــ هذا غير صحيح، وكذلك المضاربة إذا شرط أن لرب المال من

الربح قدراً معيناً والباقي بينهما أنصافاً أو أثلاثاً، فهذا كله غير جائز، لأن هذه العقود مبينة على المساواة بين العامل والأصيل في الحاصل في غنمه وغرمه، وشرط ذلك المعين يخل بهذا.

**س ٥ ــ إذا شرط في المساقاة والمزارعة على العامل ما يلزم رب المال أو بالعكس، فما الحكم؟**

ج ــ لما ذكر الأصحاب ما يلزم العامل ورب المال في المساقاة والمزارعة قالوا: فإن شرط على أحدهما ما يلزم الآخر أو بعضه، فسد العقد والشرط.

أَقول: الصحيح أنه لا يفسد العقد إلا إذا كان في الشرط غرر، لأن المسلمين على شروطهم.

قلت: ولم يصرح شيخنا عبد الرحمن السعدي بحكم الشرط هل هو صحيح أو فاسد؟ لكن قوة كلامه وتعليله يدل على صحة الشرط أيضاً حيث قال: لأن المسلمين على شروطهم، والله أعلم.

**س ٦ ــ تثمين الجمارة إذا خرج المساقي، هل هو وجيه؟ وهل له مأخذ شرعي؟ وهل بين الزيادة والنقص فرق؟**

ج ــ أما المساقي على الشجر من نخل وغيره إذا قصر فيما يجب عليه من السقي المعتاد أو المشروط، فإنه آثم ضامن لما نقص، لأنه نقص حصل بسبب إهماله ما وجب عليه، ولأنه لا يستحق جميع ما جعل له من الجزاء المشروط من الثمرة إلا بوفاء ما عليه من السقي، فكما أنه لا يرضى أن ينقص من حقه شيء، فصاحب النخل لا يرضى أن ينقص من شجره شيء وصاحب النخل قصده أمران نفع الشجرة وحصول الثمرة، فهذا من أصول العدل الذي دلت عليه الشريعة، وليس من العدل أن يأخذ المساقي جميع ماله، ويترك ما عليه، فهذا من التطفيف. فعلى هذا تثمين الجمارة مبني على الأصل، وهو ظاهر جلي، ولله الحمد.

وأما تثمين زيادة الجمارة إذا قام المساقي بأكثر مما عليه، وزادت جمارة

النخل، فإن زيادته تبرع منه لم يأمره صاحب النخل بها، ولكن إذا جرى عرف بعض البلاد بذلك، ورضي أهل النخل بأن المساقي إذا زادت الجمارة بسببه، فله حصة معروفة عندهم، ترغيباً له في ذلك، فهذا لا يمتنع العمل به، لأن المسلمين على شروطهم مع أن قاعدة المذهب في هذه المسألة لا يستحق شيئاً. اهـ.

## باب الإجارة

**س ١ ـ ما حكم كسب العمال الذين يشتغلون في الظهران عند الأمريكان؟**

ج ـ أما اشتغال العملة في الظهران عند الأمريكان، فالكسب الذي فيه خطر على دين الإنسان، لا بركة فيه، لأن كثيراً ممن يخالطونهم هناك يتضررون كثيراً في أمور دينهم، ويخشى عليهم، وخصوصاً من لا بصيرة له، ومع ذلك فهذا الكسب كسائر المعاملات من جهة حله، فالأصل الحل في معاملات الناس، سواء مع المسلمين أو مع الكفار، إلا إذا سلك صاحبها طريقاً محرماً، ولكن الكسب الذي يبعده عن هؤلاء ويسلم به دين العبد أبرك ولو كان قليلاً، نسأل الله السلامة والعافية، إنه جواد كريم.

**س ٢ ـ هل يجوز أخذ الأجرة على عقد النكاح؟**

ج ـ لا يجوز، فإن عقد لهم وأعطوه بدون شرط، فلا بأس أنه يقبل، والأولى أنه لا يقبل، لأنه ينقص الأجر.

**س ٣ ـ هل يجوز أخذ الأجرة على كتابة العزيمة للمريض ونحوه؟**

ج ـ كذلك أخذ الأجرة على كتب العزيمة التي تعلق على المريض ونحوه ما يصلح، مع أن ترك الكتب أولى، ولو أنه لا يأخذ شيئاً، والمشروع أنه يرقيه بالأدعية النافعة.

**س ٤ ـ ما حكم سلخ البهيمة بجلدها؟**

ج ـ قال الأصحاب: ولا يصح أن يسلخ البهيمة بجلدها.

أقول: وقيل: يصح، لأنه معلوم، وهو أصح.

**س ٥ ـ ما حكم استئجار الحيوان لأخذ لبنه؟**

ج ـ قال الأصحاب أيضاً: ولا يصح أن يستأجر حيواناً ليأخذ لبنه ولا ليرضعه ولده ونحوه.

أقول: وعند الشيخ تقي الدين جواز استئجار الحيوان لأخذ لبنه وإرضاعه، وهو الأولى.

**س ٦ ـ إذا استأجر أرضاً، فتوفي قبل تمام المدة، فهل تنفسخ الإجارة؟**

ج ـ الإجارة كما مر عليكم: عقد لازم لا تنفسخ بموت المؤجر ولا المستأجر، ويقوم ورثته مقامه. وأما أخذ النخلة عن التمر الذي في الذمة، كالولاة ونحوها، فهذا لا يجوز، لأنه بيع تمر بتمر. وشرطه التماثل، وهذا غير معلوم التماثل، وليست هذه كالعرايا.

**س ٧ ـ قولهم: لو غار ماء بئر دار مؤجرة فلا فسخ، هل هو وجيه؟**

ج ـ هذه العبارة ما زالت موضع إشكال، وقد حلها بعض الأصحاب حلاً لطيفاً فقال: مرادهم بقولهم: فلا فسخ، يعني معناه: لا يحصل الفسخ بمجرد غور البئر، وإنما يثبت للمستأجر الفسخ، أو فرق بين ثبوت الفسخ والانفساخ، لأن الانفساخ لا يتوقف على اختيار الفاسخ، وملك الفسخ يثبت له الخيار، إن شاء فسخ، وإن شاء لم يفسخ، وبهذا يحصل الجمع بين كلام الأصحاب فلو قلنا: ليس له الفسخ في هذه الحال، لكان تناقضاً، لأن غور الماء من أكبر العيوب والله أعلم.

**س ٨ ـ إذا استأجر صاحب سيارة يحمل له شيئاً ويسلم له العربون ثم أراد فسخ الإجارة، فهل له ذلك؟**

ج ـ إذا تقاطع صاحب السيارة هو ومن يريد أن يحمل سيارته غنماً

أو غيرها، وتم العقد بينهما، وسلم له عشرين ريالاً عربوناً ثم استخار عن شيل الغنم فليس له أن يستخير إلا برضى صاحب السيارة فإن رضي رد عليه العربون وإن لم يرض فالعربون لصاحب السيارة وله إجباره على تسليم بقية الأجرة التي اتفقا عليها، كما أنه يلزم صاحب السيارة إذا امتنع أن يحمل ما اتفقا عليه، لأن الإجارة عقد لازم، ومع الإصلاح والتراضي على حل التأجير لا بأس ولا حرج.

**س ٩ ــ إذا استأجر سيارة لحمل شيء ثم خربت في أثناء الطريق، فهل يلزم صاحبها بحمله إلى البلد؟**

ج ــ إن كانت الأجرة على عين سيارة، لم يلزم صاحبها حمله إلى المحل المعين، ولكن ليس له من الأجرة إلا مقدار ما شال من المسافة، وإن كانت الإجارة ليست على عين السيارة، إنما قال له: أجرتك لتشيل لي هذا الحمل مثلاً إلى مكة أو عنيزة، ثم خربت في أثناء الطريق، فعلى صاحب السيارة أن يستأجر لحمله إلى المحل الذي عيناه فيه، أو يتفقا على ما يتراضيان عليه.

**س ١٠ ــ هل الإجارة تنفسخ بموت الراكب؟**

ج ــ القول بأن الإجارة تنفسخ بموت الراكب في غاية الضعف، وأي فرق بين موت الراكب وبين موت المرتضع وانقلاع الغرس وموت المركوب ونحو ذلك، فالصواب في هذه الصور كلها أن الإجارة تنفسخ إذا تعذر الانتفاع على أي وجه كان، وهو الموافق لأصل الشرع وقواعد المذهب.

**س ١١ ــ قولهم: ولا يصح أن يشارطه على البرء هل هو صحيح؟**

ج ــ المسألة فيها قولان للأصحاب والمجوزون للإجارة واشتراط البرء يحتجون بحديث أبي سعيد المشهور، وهو ظاهر في مشارطتهم على البرء، والمشهور من المذهب: يحملون ذلك على أنه جعالة لا إجارة، وهو الأولى، لَأن الإجارة لا بد فيها من علم العوض، والمنفعة وحصول البرء غير مقدور ولا معلوم، والله أعلم.

**س ١٢ ـ قولهم: الأجير الخاص من يستحق الأجرة بتسليم نفسه عمل أم لم يعمل، فهل هو وجيه؟**

ج ـ نعم وجيه، لأن الأجير الخاص من استأجره لزمان خاص لا يشاركه في ذلك الزمان أحد، فإذا بذل نفسه في ذلك الزمان، فالحاجة لصاحب الإجارة، إن تركه ولم يشغله بما استأجره له فقد فوت المنفعة على نفسه، وإن شغله بذلك العمل في الزمان المستأجر فيه فهو المستحق، بمنزلة من استأجر داراً وسلمها له صاحبها، فإن سكن أو تركها، فعليه الأجرة فالتعليل ظاهر، فكذلك هذا الأجير الخاص مثلاً إذا استأجره يوماً يعمل عنده بدرهم، ثم جاء الأجير وبذل نفسه واستعد لعمل من آجره ولكن من آجره إما أنه تبدل فكره عن العمل، واشتغل أو نحو ذلك، فعليه الأجرة تامة، لأن الإجارة عقد لازم ولم يحصل موجب للفسخ، والله أعلم.

**س ١٣ ـ فرَّق الأصحاب بين الأجير الخاص بأنه يستحق الأجرة بتسليم نفسه عمل أم لم يعمل، وبين المشترك بأنه لا يستحقها إلا بتسليم عمله، فما وجه التفريق؟ وهل هو وجيه؟**

ج ـ أما وجه التفريق بينهما، فقد ذكروه حيث قالوا: إن الخاص يستحق المؤجر جميع زمانه، فإذا سلم نفسه واستعد لعمل المؤجر، وكان ترك العمل ممن أجره فقد وفى الأجير بما عليه فلا يلم المؤجر إلا نفسه، ومن أتى بما عليه، وجب ما له من الأجرة. وأما المشترك، فإن الذي عليه العمل وجهاً واحداً، وكذلك على المذهب عليه مع العمل التسليم للمعمول لصاحبه لأنهم قالوا: إنه ملتزم للأمرين فلو آجره أن يفصل له ثوباً أو يخيطه أو يقصره، ثم عمله وأتم عمله، ثم تلف قبل تسليمه من غير تفريط، لم يكن له أجرة، لأن العمل حصل، والتسليم لم يحصل، فلم يستحق، والذي يترجح عندي هو القول الآخر أن الأجير المشترك إنما عليه العمل فقط، فإنه الذي استوجب عليه، وهو المقصود من الاستئجار، فلو تلف من غير تفريط، لم تسقط الأجرة، لأنه وفى بما عليه،

وهذا القول وجه في المذهب، وهو الصحيح إن شاء الله، فهذا وجه التفريق بينهما، والله أعلم.

**س ١٤ ـ ما حكم ضمان الأجير المشترك والخاص؟**

ج ـ الصحيح أن الأجير المشترك كالخاص لا يضمن ما تلف مطلقاً إن لم يتعد أو يفرط، لأنه تلف ناشيء عن إذن في التصرف والاستعمال، فكان غير مضمون وأما تضمين علي الأُجَراء، فمحمول على أنه رأى منهم نوع إهمال أو تفريط، ولذلك قال: لا يصلح الناس إلا ذلك.

**س ١٥ ـ هل يضمن الأجير المشترك؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويضمن الأجير المشترك ما تلف بفعله ولو لخطئه كتخريق القصار ثوباً، وزلق حمال، وسقوط الحمل عن دابته ألخ.

أقول: والصحيح عدم ضمان الأجير المشترك ما تلف بزلق ونحوه ما لم يفرط، وقواه في «الإنصاف» وكذلك الصحيح أنه يستحق أجرة ما عمله إذا تلف بعد عمله بغير تفريط، لأن الأجرة في مقابلة عمله، وقد حصل. وأَما التسليم، فتابع لذلك، وهو قول ابن عقيل، وقواه في «الإنصاف».

**س ١٦ ـ إذا تلف المتاع المحمول على وجه يضمنه الحامل، فما الحكم؟**

ج ـ قال الأصحاب أيضاً: إذا تلف المتاع المحمول على وجه يضمنه الحامل، خيّر ربه بين تضمينه قيمته في الموضع الذي سلمه إليه فيه ولا أجرة له، وبين تضمينه في الموضع الذي تلف فيه، وله الأجرة إلى ذلك المكان اهـ.

أقول: وقال أبو الخطاب: يضمنه بقيمته في موضع تلفه، وله الأجرة، وهو الموافق للقاعدة.

**س ١٧ ـ عن ثبوت الأجرة فيما عمله وتلف.**

ج ـ الصحيح أن له الأجرة فيما عمل وتلف ولو قبل تسليمه إن لم يفرط.

**س ١٨ ــ ما حكم ما إذا شرط على المستأجر أن لا يستوفي المنفعة إلا بنفسه؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولو شرط على المستأجر أن يستوفي المنفعة بنفسه، فسد الشرط، ولم يلزم الوفاء به.

أقول: وقيل: الصحيح أن يشرط أَن لا يستوفي المنفعة إلا بنفسه، وهو أصح، لأنه قد يكون له غرض في ذلك.

**س ١٩ ــ ما الذي يدخل في قولهم: من أدى ما وجب عليه وجب ما جعل له عليه؟**

ج ــ هذا يدخل فيه أمور كثيرة: الإجارة، والجعالة، والوكالة بأجرة، إذا قام الأجير ونحوه بالعمل الذي شرط عليه واتفقا عليه، استحق الأجرة المحبولة على ذلك العمل، وإذا لم يقم بما عليه، لم يستحق شيئاً، إلا إذا ترك بقية العمل لعذر، فإنه يستحق من الأجرة بمقدار ما عمل، والله أعلم.

**س ٢٠ ــ إذا استأجر شخصاً لحمل كتاب، فوجد المكتوب له غائباً، ولا وكيل له، ثم رده الأجير إلى صاحبه، فله المسمى وأجرة المثل لرده، بخلاف ما إذا وجد المكتوب إليه ميتاً، فما الفرق بين الصورتين؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن استأجره لحمل كتاب إلى شخص، فوجده غائباً، ولا وكيل له، رده على صاحبه، وله الأجرة المسماة لذهابه، وأجرة المثل لرده، وإن وجده ميتاً، رده، وليس له إلا المسمى اهـ.

أقول: ولا يظهر التفريق بين الصورتين اهـ.

**س ٢١ ــ قولهم: ويصح بيع عين مؤجرة، والأجرة من حين الشراء للمشتري، هل هو وجيه؟ وهل يفرق بين علم المشتري وجهله؟ وهل تفريقهم بين كون المشتري هو المستأجر فليس له الأجرة دون الأجنبي فيستحقها، فهل هو وجيه؟**

ج ــ ما ذكره في شرح «الإقناع» عن «المغني» وهو أن الأجرة للبائع

مطلقاً، سواء استأجرها المشتري أو أجنبي، هو الصحيح، لأنه ملك الأجرة بالعقد وليس ثَمَّ مزيل لمالكه، فلم يشترط المشتري على البائع من الأجرة شيئاً، وإنما له الفسخ إذا لم يعلم أنها مستأجرة. وأما التفريق بين ما إذا كان المستأجر أجنبياً بأن الأجرة تكون للمشتري، وبين ما إذا كان المستأجر المشتري، فيجتمع للبائع عليه الثمن والأجرة، فلا وجه لذلك، وقول صاحب «المغني»: هو الموافق للقاعدة، وهي أن ورود عقد على عقد لا ينافيه صحيح، ويثبت لكل من العقدين أحكامه الخاصة، والله أعلم.

**س ٢٢ ـ عن اختلاف المؤجر والمستأجر هل هي عارية أو إجارة؟**

ج ـ ما أحسن الرجوع في مسائل هذا الفصل عند اختلافهما إلى القرائن المرجِّحة لقول أحدهما، لأن قبول قول أحدهما مطلقاً ليس عندنا فيه أصل أَصيل تطمئن إليه النفس، اللهم إلا إذا اختلفا في دعوى رد العين، فإن المستأجر ونحوه مُدَّع والمالك منكر.

## باب السبق

**س ١ ـ ما حكم اللعب بأم خطوط؟**

ج ـ أما اللعب بأم خطوط، فهي لا تحل، ولا تجوز، سواء كانت بعوض أو بغير عوض، فهي من جنس الشطرنج والنرد الذي صح الحديث عن النبي ﷺ في الزجر عنه. فاللعب المباح اشتغال العبد بمعاشه المباح، وأسبابه المباحة. وأما اللعب المحرم، فمثل الشطرنج، وأم خطوط، والمدافن، وما أشبه ذلك، فكل ذلك حرام لا يحل، ويجب نصيحة من يتعاطى ذلك وتعليمه إن كان جاهلاً والله أعلم.

**س ٢ ـ لو قال المفضول في المفاضلة للفاضل: ضع فضلك بدينار، فما الحكم؟**

ج ـ قال الأصحاب في المفاضلة: وإن فضل أحد المفاضلين صاحبه، فقال المفضول للفاضل: ضع فضلك وأعطيك ديناراً، لم يجز.

أقول: وفيه نظر، فإنه حين ترجح على صاحبه، فهو بصدد الغلبة التي يحصل فيها المال، فما المانع من تجويز وضع الفضل بعوض، والأصل جواز ما لا محذور فيه محققاً.

# كتاب العارية

**س ١ ـ ذكروا أنه إذا أعاره حائطاً، أو سفينة في اللجة أو أرضاً لزراعة، فلا رجوع له وله الأجرة في الأخيرة منذ رجع، فهل هو وجيه؟**

ج ـ الصواب في ذلك أنه لا أجرة له في الصور الثلاث، كما قاله المجد وغيره من الأصحاب، وهو مقتضى الأدلة الشرعية، فإن الخداع، وإخلاف الوعد غير جائز شرعاً، وفي استحقاق الأجرة في الأرض والحكم له في ذلك، مع أن المستعير لم يقدم على الزرع إلا مجاناً هو من أكبر المخادعات، وإخلاف الوعد الممنوع.

**س ٢ ـ إذا حمل السيل أرضاً بشجرها فنبتت في أرض أخرى فما الحكم؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: وإن حمل السيل أرضاً بشجرها، فنبتت في أرض أخرى كما كانت، فهي، أي: الأرض ذات الشجر المحمولة لمالكها، ويجبر على إزالتها. قال الشارح: لكن تقدم في حكم الجوار أن رب الشجر لا يجبر على إزالة عروق شجرة وأغصانها من أرض جاره، وهوائه، لأنه حصل بغير اختيار مالكها، ولم يظهر لي الفرق بينهما، إلا أن يقال: هنا يمنع الانتفاع بالكلية بخلاف الأغصان والعروق اهـ.

أقول: والظاهر أن العروق والأغصان قد جرت العادة بوصولها واتصالها بأرض الجار، فجرت مجرى الشاغل المأذون فيه، بخلاف ما إذا نقل السيل أرضاً بشجرها، فإنه مخالف للأول من كل وجه.

**س ٣ ـ ما حكم ضمان العارية إذا تلفت؟**

ج ـ الصحيح أن العارية غير مضمونة إذا تلفت بغير تعد ولا تفريط كسائر الأمانات، وقول النبي ﷺ: (على اليد ما أخذت حتى تؤديه).

أي: عليها رد ما قبضت لمالكها لا ضمانها، ولذلك يدخل فيها العين المؤجرة وغيرها، وقوله لصفوان: (بل عارية مضمونة) لا دليل فيه على الضمان مطلقاً، بل قد يكون فيه دليل على ضمانها عند الشرط.

**س ٤ ـ ما معنى قولهم: من ملك المنفعة، فله المعاوضة عليها دون من ملك الانتفاع؟**

ج ـ يدخل في هذا الأجير، فإنه يملك المنفعة، فله أن يؤجرها بغير إذن المالك، والمستعير لا يملك ذلك، فالمستأجر حيث إنه مالك للمنفعة جاز له أن يؤجر الذي استأجره ولو بغير إذن صاحبه، والمستعير حيث إنه ملك الانتفاع، ولم يملك المنفعة، لا يجوز له أن يؤجر إلا بإذن صاحبه المعير. والله أعلم.

# كتاب الغصب

**س ١ ـ ما يفهم من قوله ﷺ: (ليس لعرق ظالم حق)؟**

ج ـ هذا يدل على أمرين مهمين فيمن بنى أو غرس في أرض الغير.

أحدهما: يؤخذ من المنطوق وأن من بنى أو غرس في أرض غيره وهو ظالم في ذلك كالغاصب ونحوه، أنه لا حق له في ذلك، وأن صاحب الأرض يلزمه بقلـع غرسه وبنائه، إلا أن يختار تملكه بقيمته، أو اتفقا على التأجير ونحوه.

الثاني: يؤخذ من مفهوم الحديث أن غير الظالم في غرسه وبنائه له الحق، وذلك كالمؤجر ونحوه ممن وضـع ذلك بحق أنه لا يجبر على إزالة غرسه وبنائه، لأنه وضعه بحق فيتفق هو وصاحب الأرض، إما على التقويم، أو على التأجير، أو نحو ذلك. بقي مسألة وهي اليد المنتقل إليها من الغاصب كالمشتري والأجير ونحوه، إذا لم يعلم أن الأرض لغيره، فإنه في هذه الحالة معذور بلا شك، فمن أهل العلم من قال: إن الأرض إذا عادت إلى صاحبها، فلصاحبها أن يلزم الغارس والباني بقلعه ولو كان جاهلاً بالحال مغروراً ويرجـع المقلوع غرسه وبناؤه على الذي انتقلت إليه منه، لكونه غره، لأن الأرض ليس لأحد فيها حق، ولم يتفق صاحبها مـع أحد بعقد يسوغ له إبقاؤه، وهذا هو المشهور من المذهب. ومنهم من قال: إنه في هذه الحال، كما أنه معذور في غرسه وبنائه، فإنه وضعه معتقداً أنه ملكه، أو مالك لمنافعه، وهو في هذه الحال لا يوصف بأنه ظالم، فلا يدخل في قوله: (ليس لعرق ظالم حق) وهذا هو الصحيـح، ويؤيده

أنه في الغالب يكون أصلح للطرفين إبقاؤه بتقويم أو تأجير ونحوه، وربما إذا ألزمناه بقلع غرسه وبنائه يتعذر عليه الرجوع على من غره، فيصير فيه عليه ضرر كبير، وهو معذور. وقد اختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

**س ٢ ـ هل تثبت اليد على الحر بالاستيلاء عليه؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن استولى على حر لم يضمنه ولو صغيراً ولا يضمن دابة عليها مالكها الكبير ومتاعه.

أقول: والصحيح ثبوت اليد على الحر ولو كبيراً، فعليه يضمن دابة عليها مالكها إذا قهره، ويضمن أجرته إذا منعه عن العمل.

**س ٣ ـ إذا تعذر على الغاصب رد عين المغصوب، فرد المثل، ثم قدر على عين المغصوب فما الحكم؟**

ج ـ إذا قدر على عين المغصوب ولو بعد دفع مثل، فإنه يرد عين المغصوب، ويرجع بما دفعه من بدلها، لأننا إذا رجعنا إلى مثلها عند تعذرها، فحيث حصلت رجعنا إلى الأصل، لأن البدل يقوم مقام المبدل عند التعذر، واستمرار التعذر. وأما مع القدرة على أداء ما غصبه، فهو الواجب، وهذا الواجب لا يسقط إذا رد بدله، وليس هذا بمنزلة البيع والشراء، وإنما هو غرامة. ومع هذا فلو اتفقا على بقاء الأمر على حاله، وإن العين تكون للغاصب ولصاحبها ما سلمه الغاصب من مثل أو قيمة، جاز، ولكن السؤال إنما هو عند إرادة أحدهما الرجوع إلى الأصل، سواء كان الغاصب، أو صاحبها، فإن القول قوله والله أعلم.

**س ٤ ـ هل يضمن ما نقص بالسعر؟**

ج ـ قال الأصحاب: وما نقص بسعر لم يضمن.

أقول: وفي هذا نظر، فإن الصحيح يضمن نقص السعر، وكيف يغصب

شيء يساوي ألفاً، وكان مالكه بصدد بيعه بالألف، ثم نقص السعر نقصاً فاحشاً، فصار يساوي خمسمائة أنه لا يضمن النقص فيرده كما هو.

**س ٥ ـ إذا كان عندك مال مغصوب، وتعذر معرفة صاحبه، فما الحكم؟ وعلى أي قاعدة ينبني؟**

ج ـ من تعذر عليه معرفة صاحب الشيء يتصدق به عن صاحبه بشرط الضمان، أو يسلمه إلى الحاكم، ويبرأ من تبعته، وذلك مثل ما إذا كان عندك وديعة لإنسان، أو مال مغصوب، وتعذر عليك معرفة صاحبه، وأيست من ذلك، فأنت بالخيار إما أن تعطيها الحاكم، لأن الحاكم ينوب مناب الشخص المجهول ويجعلها في المصالح العامة، وإما أن تتصدق بها عن صاحبها، وتنوي: إذا وجدته خيرته بين أن تغرمها له ويكون لك أجر الصدقة بها، أو يمضي ما تصدقت به ويكون الأجر له.

**س ٦ ـ هل يضمن صاحب الكلب العقور إذا عض كلبه أحداً؟**

ج ـ إن كان صاحبه أطلقه، فعليه ضمان عضته يقدرها أهل العرف، وإن كان قد ربطه والمعضوض هو الذي أتى الكلب في موضعه، فليس على صاحب الكلب شيء، لأنه ربطه وتسبب لمنع أذاه. اهـ.

**س ٧ ـ إذا وجد بعيراً في برية، فذكاه خوفاً عليه، فهل يحل وهل يضمن؟**

ج ـ من وجد بعيراً في برية، وخشي عليه إن تركه أن يموت، فذكاه فهو محسن، والبعير حلال، ولكن لو لم يصدقه صاحب البعير فله أن يضمنه النقص إلا إذا دلت القرينة على صدقه، مثل بعير فيه مرض، أو كان الذابح رجلاً معتبراً صدوقاً فلا يضمن شيئاً.

**س ٨ ـ كيف نعجل بالقرعة إذا قلنا بها فيما إذا اختلط درهم بدرهمين وتلف اثنان؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن اختلط درهم بدرهمين لآخر من غير غصب، فتلف اثنان، فما بقي بينهما نصفان. قال في «تصحيح الفروع»: ويحتمل

القرعة، وهو أولى، لأننا متحققون أن الدرهم الواحد منهما لا يشركه فيه غيره وقد اشتبه علينا، فأخرجناه بالقرعة اهـ.

أقول: لكن صفة القرعة هل يكون لصاحب الدرهم سهم، ولصاحب الدرهمين سهم فقط، أو لصاحب الدرهمين سهمان؟ الثاني أظهر، لأنه أقرب إلى العدل. ولو قيل: صفة القسمة أيضاً لصاحب الدرهم ثلث الباقي، ولصاحب الدرهمين ثلثاه، فكذلك، لأن القاعدة أن الأموال المشتركة غير المتميزة متى تلف أو نقص منها شيء وكان عليها كلها بقسطها كما لو زادت، فالزيادة بقسطها إلا أن يميز بزيادة عمل والله أعلم.

**س ٩ ـ هل يرجع بما أنفق على عبد ونحوه تبين مغصوباً؟**

ج ـ قال الأصحاب: إذا اشترى عبداً أو حيواناً، فأنفق عليه أو أرضاً خراجية، فأخرج خراجها، ثم تبين أن العبد والحيوان أو الأرض مغصوبة لم يرجع بما أنفق ولا بالخراج، ثم عللوه.

أقول: وفي هذا التعليل نظر، فإنه إنما أنفق وأخرج الخراج بحسب سلامة ملكها له، فإذا تبين عدمه، رجع بما غرمه على من غره.

**س ١٠ ـ هل يضمن إذا دفع المفتاح للص؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن دفع مفتاحاً للص، فسرق البيت، فالضمان على اللص، لا على الدافع.

أقول: الصواب يضمن الدافع المفتاح للص، لأن هذا من أكبر الأسباب، خصوصاً إذا تعذر تضمين اللص والله أعلم.

**س ١١ ـ إذا حفر حفرة في برية موات، أو بفناء زرعه، فهل يضمن ما تلف بها؟ وهل يفرق بين من حفر عبثاً، ومن حفر للانتفاع؟**

ج ـ قال النبي ﷺ: (العجماء جبار، والبئر جبار) وهذا الحديث ثابت في الصحيح. والجبار: الهدر الذي لا شيء فيه، وهذا شامل لحفر البئر، أو لحفره

في ملكه، أو فناء زرعه لمن له أرض الموات وفي نفس الموات، وسواء قصد بحفرها الوصول إلى مائها أو الانتفاع بما يجري إليها من مياه السيول، أو جعلها خندقاً وحفرة على زرعه، أو قصد أخذ طينها، ونحو ذلك من المقاصد والأغراض، فكل هذا لا ضمان على واضعها إذا تلف بها أحد، إنسان أو حيوان أو غيره، وإنما استثنى الفقهاء رحمهم الله من حفر بئراً تعدياً، سواء وصل إلى مائها أو لا بأن حفرها في ملك غيره، أو في طريق مسلوك عام نفعه، كالطريق في البلدان، وجواد البر المسلوكة، فهذا ظالم متعد، وما تلف بها في هذه الحال، فهو ضامن له.

**س ١٢ ــ هل يضمن إذا مال حائطه إلى غير ملكه، فاتلف شيئاً؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن مال حائطه إلى غير ملكه، فأتلف شيئاً لم يضمن بكل حال، وعنه إن طولب بنقضه، وأشهد عليه، فلم يفعل ضمن.

أقول: وقيل: عليه الضمان مطلقاً سواء طولب، أو لم يطالب، لمطالبة الشرع له لوجوب إزالة ضرره، فإبقاؤه مع القدرة على إزالته تعدٍّ وعدوان، وهو الصواب.

**س ١٣ ــ هل يضمن الصائل إذا قتله دفاعاً عن غيره؟**

قال في شرح «الإقناع» قال في القاعدة السابعة والعشرين: لو دفع صائلاً عليه بالقتل، لم يضمنه، ولو دفعه عن غيره بالقتل ضمنه. وفي الفتاوى الرجبيات عن ابن عقيل وابن الزاغوني: لا ضمان عليه أيضاً. اهـ.

أقول: قول ابن عقيل وابن الزاغوني هو الصواب الموافق للقاعدة، لكونه مأموراً، بل واجباً عليه الدفع عن الغير، وما ترتب على المأذون غير مضمون.

**س ١٤ ــ إذا دخل عليه محرم لكسبه فما الحكم؟**

ج ــ من دخل عليه محرم لكسبه، فلا يخلو من ثلاث حالات. أن يكون عن منفعة محرمة استوفاها من انتقل منه المال، فهنا لا يرد المال لصاحبه، لكن

على من كان بيده التصدق به. الثانية: أن يصل إليه لا على وجه المعاوضة، كالمغصوب، فيلزم رده إلى مالكه، أو ورثته. الثالث: أن يكون بيده مال لغير من يعلمه، كالمغصوب والودائع التي جهل أربابها، فله دفعها إلى الإمام ونائبه، وله التصدق بها عنهم، لعدم إيصال نفع مالهم إليهم إلا في هذه الصورة. فإذا وجد صاحبه، أو ورثته بعدما تصدق بها، خيره بين إمضاء ذلك التصرف، ويكون الأجر لصاحبها الأصيل، وبين أن يرد هذا التصدق، ويكون الأجر للذي تصدق به، ويضمن المال لصاحبه. أما المحرم لذاته، كالميتة، فلا يجوز مطلقاً.

**س ١٥ ـ ما هي الإتلافات للنفوس والأموال بغير حق، وهل يضمنها غير المباشر؟**

ج ـ ما يتلفه العبد يكون في رقبته، ويفديه السيد بالأقل من أرش الجناية وقيمته، ومنها من أرسل صغيراً أو مجنوناً لا ولاية له على واحد منهما، أو استعمله في عمل، فأتلف أو تلف، فضمان ذلك على المرسل. ومنها الغاصب للعبد جميع إتلافاته، وتلفه ضمانة عليه. ومنها العاقلة تحمل دية الخطأ وشبه العمد، فإن تعذر ذلك، فعلى بيت المال. ومنها خطأ الحاكم في حكمه والإمام ونوابه في أحكامه وأعماله العامة، فإنها في بيت المال. ومنها خطأ الوكيل والوصي والناظر للوقف والذمي، وما أشبههم من أهل الولايات إذا أخطؤوا في تصرفاتهم وأعمالهم، فالضمان ليس عليهم إذا لم يتعدوا أو يفرطوا، بل على تلك الجهات، وكذلك الأمناء على الحيوانات والأموال ونحوها إذا لم يتعدوا أو يفرطوا. ويشبه هذا من بعض الوجوه أن البهائم جناياتها هدر إلا ما نسب صاحبها إلى تفريط، أو تعد، أو كان متصرفاً فيها. ونظير ذلك من أعطى الصغير أو السفيه أو المجنون من أموالهم ما لا يصلح أن يعطوا؛ فإنه ضامن لإتلافهم في هذه الحال والله أعلم.

# باب الشفعة

**س ١ ــ عن ثبوت الشفعة فيما انتقل بغير بيع.**

ج ــ الصحيح ثبوت الشفعة، ولو كان انتقاله بغير بيع، ويأخذه الشفيع بقيمته لأنه لا ضرر على المنتقل إليه زائد على ضرر المشتري.

**س ٢ ــ عن اشتراط المبادرة في الشفعة وأن تكون في أرض تجب قسمتها، وألا تكون بشركة وقف؟**

ج ــ اشتراط المبادرة لطلب الشفعة، ونفي الشفعة في العقار الذي لا يقسم إجباراً، وفي شركة الوقف. هذه ثلاث مسائل من مسائل الشفعة معروفات مشهورات في المذهب، وهي ضعيفة كلها، لمخالفتها نصوص الشفعة لفظاً ومعنى. أما اشتراط المبادرة في الشفعة، فليس فيه دليل صحيح، لأن الحديثين اللذين استدل بهما الأصحاب لم يثبتا عن النبي ﷺ، وإذا لم يثبتا، لم يحتج بهما في مسألة استقلالية باتفاق أهل العلم، فضلاً عن الاستدلال بهما على خلاف ما صح عن النبي ﷺ أنه أثبت الشفعة للشريك، وأجمع العلماء على ثبوتها، فعموم الحديث يدل على ثبوتها ما لم يوجد من الشفيع ما يدل على إسقاطها والرضى بشركة الشريك الجديد، ويدل على هذا أن الأصل في جميع الحقوق والخيارات الثابتة أنها لا تسقط إلا بإسقاط صاحب الحق قولاً أو فعلاً، فكيف يخرج منه هذا الحق المجمع على ثبوته! فالصواب أنها كسائر الحقوق لا تسقط إلا بما يدل على إسقاطها من قول أو فعل. وقد يحتاج الشفيع إلى التروي والمشاورة في الإقدام على الشفعة لأجل: هل يقدر على ثمن المبيع؟ وهل هو مناسب له؟ وهل يوافق الشريك الجديد، فيرغب في مشاركته؟ وهذا يحتاج إلى تأن، ولكنه يمنع من الإضرار بالمشتري بالمطاولة، بل يحدد له ما يحصل به مقصوده عرفاً.

المسألة الثانية وهو أنهم رحمهم الله لم يثبتوا الشفعة إلا في العقار الذي يمكن قسمته دون ما لا تمكن قسمته، فهذا ضعيف أيضاً، لأن حديث جابر المرفوع: قضى ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم ــ وهو في الصحيح ــ صريح في عموم الشفعة في كل عقار لم يقسم، سواء أمكنت قسمته بلا ضرر أم لا. ومن

جهة المعنى الذي أثبت الشارع الشفعة فيه للشريك لإزالة ضرر الشركة، وهذا المعنى موجود في الأرض التي لا تمكن قسمتها أكثر من غيرها، لتمكينه في غيرها بإزالة ضرر الشركة في القسمة فيما يقسم بلا ضرر، وأما ما لا يمكن قسمته إلا بضرر، فهو أعظم ضرراً من غيره، فكيف لا تثبت به! وهذا هو الصحيح، وهو أحد القولين في مذهب الإمام أحمد، وهذا المأخذ بعينه في المسألة الثالثة وهي شركة الوقف. فلو باع الشريك الذي ملكه طلق، فلشريكه الذي نصيبه وقف الشفعة، لعموم الحديث المذكور، ووجود المعنى، بل صاحب الوقف إذا لم يثبت له شفعة يكون أعظم ضرراً من صاحب الطلق، لتمكن المالك من البيع بخلاف مستحق الوقف، فإنه يضطر إلى بقاء الشركة. وأما استدلال الأصحاب بقولهم: إن ملكه ناقص، فالحديث لم يفرِّق بين الذي ملكه ناقص أو كامل، ومنعنا إياه من البيع، لتعلق حقوق من بعده به، فالصواب إثبات الشفعة إذا باع الشريك، سواء كان شريكه صاحب ملك طلق، أو مستحقاً للوقف، كما أنه لا فرق بين العقار الذي يقسم إجباراً، أو يقسم عن رضى واختيار. والله أعلم.

**س ٣ ــ هل اشتراط الفورية في المطالبة بالشفعة غير صحيح؟**

ج ــ ذكر الأصحاب من شروط الشفعة أن يطالب بها على الفور والصحيح أن حق الشفعة كسائر الحقوق لا يسقط إلا بما يدل على السقوط.

**س ٤ ــ إذا باع بألف شقصاً يساوي خمسمائة، فهل يأخذه الشفيع بذلك الثمن أم بالقيمة؟**

ج ــ يأخذ الشفيع بالألف وإن كان الشقص يساوي خمسمائة، لكون المشتري له رغبة خاصة إما لأجل الجوار، أو لأجل أنه غريم للبائع، والبائع لا تسمح نفسه ببيعه بقيمته حتى يبذل له شيئاً كثيراً، والغريم يهون عليه، لأن ثمنه وفاء ساقط عن ذمته وربما كان معسراً. المقصود أنه على أي حال كان حتى ولو وقع محابى عنه، بأن حابى المشتري البائع، فبذل فيه أكثر من قيمته، فليس للشفيع إلا أخذه بذلك الثمن الذي وقع عليه العقد، أو يترك شفعته.

وهـذا كمـا أنه ظاهر كلام الفقهاء، بل صريحه، فهو ظاهر النصوص، لأن الشارع أثبت للشريك الشفعة بالثمن الذي وقـع به العقد، سواء كان غالياً أو رخيصاً، أو مساوياً مقارباً، وأيضاً الضرر مدفوع، فلا يضار هذا البائـع الذي لم تسمـح نفسه ببيعه إلا بألف بأن يعطى خمسمائة لم يرض بها، أو يضار الشفيـع، فتفوت عليه خمسمائة، ولم تحصل له الشقص والظاهر أنه لا خلاف في هذا، وأما الذي ذكر الفقهاء إذا كان الثمن خمسمائة، ثم تحيلوا وأظهروا أن الثمن ألف، فإنه يؤخذ بالخمسمائة التي هي الثمن الحقيقي.

**س ٥ ــ إذا بيع الشقص الذي فيه الشفعة بمحاباة فهل تسقط الشفعة من أجل المحاباة أم لا؟**

ج ــ عموم الحديث، وعموم كلام الأصحاب، بل صريحه يدل على ثبوت الشفعة في كل بيـع، سواء كان بالقيمة، أو حابـى البائـع المشتري لقرابة أو صداقة أو نحوهما، أو بالعكس بأن باعه على مدينه بأكثر من قيمته، لأجل الوفاء، فالشفعة ثابتة بلا شك، له أن يأخذ، وله أن يدع.

**س ٦ ــ إذا اشترى شقصاً من عقار، ثم شفـع الشريك وأنظر ثـلاثاً أو نحوها، ثم عجز عن الثمن، أو لم يرغب في الشفعة، وأراد تركها، فهل له ذلك؟ أو يؤخذ من قول الفقهاء: إذا عجز عن الثمن سقطت الشفعة؟**

ج ــ صـرحوا بـأن سقوطهـا في هذه الحـال لدفـع ضـرر المشتـري فأما إذا لم يختر المشتري السقوط، فله ذلك. وعبارة بعضهم أنه إذا عجـز، فللمشتري الفسـخ، أي: وله الإمضاء، بل لو أراد الشفيـع الرجـوع عن الشفعة في مجلس العقد، لم يمكن من ذلك إذا لم يختر المشتري إقالته، كما نصوا أيضاً على ذلك في باب الخيار حيث ذكروا الشفعة مما لا خيار فيه والله أعلم.

**س ٧ ــ هل تجوز قسمة الشقص المشترك لأجـل ألا يكون فيـه شفعة إذا باعه؟**

ج ــ ليس هذا من الحيل الممنوعة، بل هذا توسل إلى استقلال الشقص لأجل حصول المقاصد المتعددة، والأغراض التي منها أنه إذا عرض للبيـع رغب فيه المشتري لعلمه أنه لا شفعة فيه والله أعلم.

# باب الوديعة

**س ١ ــ هل يجوز أن يستودع ممن يشك أن المال له؟**

ج ــ الأصل جواز الاستيداع، بل استحبابه، والأصل أن ما بيد الإنسان ما له، ولكن إذا دلت القرائن على أنه ليس له، فلا ينبغي أن يدخل الإنسان في أمور ربما أدت إلى ضرره في دينه أو دنياه، لأنه إذا تبين في هذه الحال أنه لغيره، ضمن المستودع ولو لم يفرط، لكنه يرجع بما غرمه على من غره واستودعه. ومن الضرر أنه ربما أسيء الظن بالوديع، وظن أنه راض بذلك وقد يكون في ذلك من المنفعة حفظها على ربها والله أعلم.

# باب اللقطة واللقيط

**س ١ ــ إذا ضاعت اللقطة، فهل يملكها الملتقط الثاني بالتعريف؟**

ج ــ قال في «الإقناع» وشرحه فيما إذا ضاعت اللقطة، فعرفها الثاني مع علمه بالأول ولم يعلمه أو أعلمه وقصد الثاني بتعريفها لنفسه، لم يملكها الثاني، لأن ولاية التعريف للأول، وهو معلوم، فأشبه ما لو غصبها من الملتقط غاصب وعرفها. والوجه الثاني يملكها، لأن سبب الملك وجد منه والأول لم يملكها.

أقول: وقد يقال: إن سبب الملك الالتقاط، وشرطه التعريف، وتعريف الثاني كالنيابة عن الأول، فيملكها الأول والله أعلم.

ويؤيده ما ذكروه في التقاط المجنون والصغير والفاسق الذي لا يؤمن عليها.

**س ٢ ــ عن تحريم نبذ الطفل لما له من مفاسد متعددة.**

ج ــ قال في شرح «الإقناع» في باب اللقيط: ويحرم النبذ، لأنه تعريض بالمنبوذ للتلف.

أقول: ليس تحريم النبذ لهذه العلة وحدها، بل يحرم النبذ لما فيه من

المفاسد المتعددة غير ما ذكر، منها أنه يسقط عن نفسه النفقة الواجبة عليه، ويحملها من لا عليه منها، ومنها ما يخشى من ضياع نسبه، وربما ادعى رقه، وربما لا يتمكن بعد ذلك من استلحاقه الوارد إلى غير ذلك.

## باب الوقف

**س ١ ـ ذكروا أن الوقف المعلق بالموت لازم من حينه فهل هو وجيه؟**

ج ـ الذي أرى أن هذا جار مجرى الوصية، والوصية يجوز الرجوع فيها، وقد جرت عادة الناس تارة يوصون بمشاع من أموالهم، وتارة يوصون بمعين يكون وصية لهم بعد موتهم، وجواز الرجوع في الوصية يتناول الأمرين، فلا أرى للتفريق وجهاً. وقد قال بعض الأصحاب: إنه غير لازم فالحمد لله على ذلك.

**س ٢ ـ عن بطلان الوقف على البيع ونحوها؟**

ج ـ قول الأصحاب في الوقف على البيع ونحوها: إنه يصح على المار بها من مسلم وذمي، ونقلهم كلام «الرعاية» في صحة وقف عبده على حجرة النبي ﷺ لإخراج ترابها، وإشعال قناديلها، وإصلاحها لا لإشعال وحده. هذا ما قالوه ونقلوه، والصواب أن هذا الوقف باطل، لأنه من أعظم الإعانة على الإثم والعدوان، فالتوقيف على بيوت الكفر لا فرق بين التوقيف عليها لمن يعمل فيها بشعائر الكفر، ولا بين إرفاق المارين بها، والمقيمين عندها، وهذا القول يعد من الأغلاط الفظيعة، وكذلك كلام «الرعاية» فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يحل الغلو في القبور، ولا إشعالها وتنويرها، ولا البناء عليها وزخرفتها، وكل هذا من وسائل الشرك، فكيف يستجاز الإعانة عليه! وأيضاً فكلام «الرعاية» في نفسه متناقض، وهو أنه صرح إن وقف على مجموع المذكورات، صح وإن خص منها الإشعال وحده، لم يصح، فإذا كان الإشعال محرماً، فلا فرق بين انفراده وانضمامه إلى غيره، وهذا مما يدل على أن هذا الكلام غير فقهي علمي، كما أنه ليس بشرعي، والله أعلم.

**س ٣ ـ ما حكم من وقف عبده على الحجرة النبوية؟**

ج ـ قال الأصحاب: ويصح وقف عبده على حجرة النبي ﷺ وهذا القول مع مخالفته للشريعة مخالف لقاعدة المذهب.

**س ٤ ـ إذا امتنع البطن الأول من الحلف فللثاني أن يحلفوا، ثم لمن يكون المحلوف عليه؟**

ج ـ قال الأصحاب رحمهم الله: إن البطن الثاني ومن بعده من أهل الوقف يتلقى الوقف من الواقف، لا من البطن الذي قبله، فإذا امتنع البطن الأول من اليمين مع شاهده لإثبات الوقف، فلمن بعدهم الحلف.

أقول: هل يكون للحالفين الذين إنما ثبت بحلفهم أم للبطن الأعلى؟ فيه تردد، والذي يترجح أنه للبطن الأعلى إلا أن يمتنعوا، فيكون للنازلين.

**س ٥ ـ كيف يقسم الوقف على أولاده؟**

ج ـ قال أصحابنا: والمستحب أن يقسم الوقف على أولاده للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن فضل بعضهم، أو خصه على وجه الأثرة كره.

أقول: اقتصارهم على الكراهة فيه نظر، فإن هذا ترك للعدل الواجب، فلا يكون إلا محرماً والله أعلم.

**س ٦ ـ إذا وقف على أولاده أو ولده، ولم يأت بلفظ دال على التشريك، ولا على الترتيب فما حكمه؟**

ج ـ المذهب فيه معروف أنه بحسب الطبقات لا تستحق الطبقة النازلة مع العالية شيئاً، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأولاد مع أولاد الصلب، ولا أولاد أولاد الأولاد مع أولاد الأولاد. وهكذا ولكن الذي نحن نرجحه في هذه المسائل أن كل من مات عن ولد، فنصيبه بين أولاده تقريب للإرث والعدل، وإبعاد عن الجور والإثم والله أعلم.

**س ٧ ـ لو وقف على آل جعفر وآل علي فكيف يقسم؟**

ج ـ قال في شرح «الإقناع» ولو وقف على آل جعفر وآل علي فقال أبو

العباس: أفتيت أنا وطائفة من الفقهاء أنه يقسم بين أعيان الطائفتين، وأَفتى طائفة أَنه يقسم نصفين، فيأخذ آل جعفر النصف وإن كانوا واحداً، وهو مقتضى أحد قولي أصحابنا اهـ.

قلت: وهو مقتضى ما تقدم في مواضـع اهـ.

أقول: ونظير هذه الفتوى لو قال: وقف على أولاد بني فلان وفلان هل يقسم على أعيان أولاد ابنيه ولو تفاوتوا، أو يجعل لكل أولاد ابن نصف؟ وهذا الثاني أقرب حتى إلى مقاصد الموقفين.

**س ٨ ــ إذا وقف على مسجد، ولم يعين للإمام، ولا للمؤذن، ولا غيره، فكيف يصرف؟**

ج ــ إن كان هناك عادة مستمرة وعمل مطرد في صرفه في بعض مصالـح المسجد عمل بذلك، وإن لم يكن عرف مطرد صرف لجميـع مصالـح المسجد من إمام ومؤذن وتصليـح ما دمر فيه، وسراج ودلو ونحوها ينفذ بحسب ما يرونه من المصلحة والله أعلم.

**س ٩ ــ إذا وقف بئراً للشرب فهل يجوز الوضوء بها؟**

ج ــ ذكر الأصحاب رحمهم الله أنه إذا سبل ماء للشرب، فإنه لا يجوز الوضوء به، وأطلقوا العبارة، والذي أرى أنه يتقيد بالماء الذي حصله في قربة أو إناء إذا سبله للشرب لا يجوز استعماله في غير ما صرح به المسبل. وأما الذي يسبل بئراً للشرب، فلا أرى دخوله في هذه العبارة لأمرين، أحدهما أَن الماء الذي في البئر لا يملك، والناس شركاء فيه، فإذا كان الماء الذي في البئر قبل وقفه لا يأخذ صاحبه من آخذه عوضاً، ولا يمنـع غيره من أخذ ما لا يضره، فكيف إذا كان وقفاً، فإنه من باب أولى وأحرى. الثاني: أَن العرف في الشرع جار مجرى اللفظ، وقد دل العرف على التسامـح في مثل هذه الأمور النافعة التي لا تضر بالشاربين، وهي نافعة لموقفها، ولكن ينبغي أن يقيد بعدم الضرر، فلو

سبل بئراً للشرب، ثم جعلها الناس مغتسلاً لهم، ومنعوا الشاربين، وقللوا الماء عليهم، فإنه في هذه الحال يتعين الرجوع إلى نص الموقف بلا ريب.

**س ١٠ ــ إذا وقف وقفاً، وجعل للناظر عليه أن يصرفه فيما هو أنفع، فهل يسوغ له أن يصرفه في دين الواقف إذا ظهر عليه دين؟**

ج ــ إذا نفذ الوقف، وتمت شروطه الشرعية، خرج عن ملك الواقف، وصار هو وغيره فيه على حد سواء إن كان قد شرط فيه الانتفاع أو الغلة مدة حياته، أو يقضي منه دينه أو نحو ذلك من الشروط، فله شرطه، وإلا فالدين الذي على الواقف ودين غيره على حد سواء، وهذا ظاهر كلام الأصحاب رحمهم الله. ولكن ليعلم أن من الموانع المانعة للوقف ونفوذه على قول المحققين أنه لا يحل للإنسان أن يوقف وقفاً يضر بغرمائه. أما تحريمه، فهو قول واحد، وأما نفوذ الوقف، فمن قال: لا يمنع تصرف الإنسان في ماله إلا حجز الحاكم كما هو المشهور من المذهب جعلوه نافذاً مع التحريم، ومن قال: إنه يصير محجوراً عليه بمجرد إفلاسه قال: لا ينفذ هذا الوقف، وأما إذا كان الدين إنما استجد بعد نفوذ الوقف، فكما ذكرنا قضاء دين الموقف وغيره سواء.

**س ١١ ــ إذا وقف المصحف على مسجد، فهل يجوز إخراجه منه؟**

ج ــ المصحف إذا وقف في المسجد، فلا يخرج منه، لكن إذا خيف عليه سرقه يخرج وقت اجتماع الناس، ويحفظ إذا تفرقوا عن أحد يأخذه، وأما إذا لم يوقف على المسجد، فلإنسانٍ أن ينظر للمصلحة، إن كانت المصلحة تقتضي أن يعطيه واحداً يستعمله ويحفظه، فهو أولى من جعله بالمسجد يخاف أن يسرق منه.

**س ١٢ ــ هل يجوز التصدق بباقي قروش جعلت للمقبرة؟**

ج ــ الذي أرى إن كان يظن أن المقبرة تحتاج لها ولو بعد ذلك فلا يصلح، لأنها بذلت في هذه الجهة، فإن كان يجزم أن المقبرة ما تحتاج لها وأهلها يغلب على الظن أنهم يرضون بذلك، فلا بأس بالصدقة بها على المحتاج.

**س ١٣ ـ إذا عين تمر لصوام المسجد، فزاد عن حاجتهم فماذا يفعل بالزائد؟**

ج ـ قد أفتينا من بطرفنا أنهم يتصدقون فيه على المحتاجين من المصلين في المسجد الذي عين فيه فطور الصوام والطريقة واحدة.

**س ١٤ ـ إذا وقف على مدرسة فتعطلت فماذا يفعل به؟**

ج ـ ينبغي أن ينتظر، ويوقف الحاصل من مغل الوقف حتى ييأس من عود المدرسة إلى الأهلية، فعند اليأس من عودها تصرف في طريق خيري عام نفعه مراعاة لقصد الموقف بحسب الإمكان، ويراجع في ذلك أهل الخبرة أَيُّ المشاريع أنفع لأهل البلد، وأقرب إلى حصول مقصود الوقف.

**س ١٥ ـ إذا جعل في قليب عشرة أصوع كل سنة لإمام مسجد، ثم تعطلت سنتين، وزرعت الثالثة، فهل يعطى للسنتين من ريع هذه السنة؟**

ج ـ إذا قال الموقف هذه العبارة الموجودة في السؤال استحق إمام المسجد لجميع السنين التي زرعت فيها والتي تعطلت، لأن الريع عبارة عن حاصل القليب ونحوها، وقد يوجد كل عام وقد يوجد عاماً بعد عام. واستحقاق إمام قد نص على أنه كل سنة، وأما الريع فلم يقيده بزرعها، فالاستحقاق مقيد، والريع غير مقيد، فلو قيد بزرعها كان كما قال.

**س ١٦ ـ إذا جعل عشرة أصوع في لزا القليب، ثم تعطلت الأرض، فهل يؤخذ من النخل؟**

ج ـ نعم يؤخذ من النخل، لأن مقصود الموقف أن هذه العشرة قادمة في ريع هذا القليب، سواء حصل منه غلة زرع ونخل، أو غلة زرع وحده أو غلة نخل وحده، وأيضاً لفظه دال على هذا، فإن وقف عشرة أصوع في لزاه، معناه ما جرى عليه ماء القليب من نخل أو زرع أو بطيخ أو غيرها.

**س ١٧ ـ إذا تعطل فعل الوقف سنين، ثم حصل ريع فهل يعطى للسنين الفائتة؟**

ج ـ هذا السؤال مجمل يحتمل أن مرادكم به إذا تعطل الوقف على الجهات الدينية كعلى أئمة المساجد والمؤذنين والمدارس ونحوها، وهو مرادكم، لأنكم حولتمونا على نقل صاحب «الفروع» لكلام شيخ الإسلام حيث قال: ولو عطل فعل وقف مسجد سنة تقسطت الأجرة المستقبلة عليها وعلى السنة الأخرى، لتقوم الوظيفة فيهما، فإنه خير من التعطيل، ولا ينقص لإمام بسبب تعطل الزرع بعض العام. هذا كلام الشيخ، ثم قال صاحب «الفروع»: في توجيه كلام الشيخ: فقد أدخل مغل سنة في سنة.

مثال هذا: لو جعل لإمام المسجد مائة صاع كل سنة من مغل الأرض، ثم تعطلت في عام بالكلية، ثم حصل منها ريع في العام الآخر، فإن كان الريع يكفي لتسديد هذا العام الذي حصل فيه المغل وللعام السابق المتعطل بأن كان الريع مائتين فأكثر أعطي مائة للعام الماضي، ومائة للعام الحاضر، وإن كان لا يكفي لهما، بل كان الريع في العام الحاضر مائة فقط، قسطت المائة على السنة الماضية والمستقبلة، فيجعل لكل سنة خمسون صاعاً. وهذا الذي ذكره عن الشيخ هو الذي يتعين المصير إليه في الأوقاف على الجهات الدينية، لأنها في مقابلة الأعمال، فريع العام الحاضر مثلاً يقابل عمل السنة الماضية، والسنة الحاضرة، وليس هذا بمنزلة وقف الريع على مجرد الأشخاص والأوصاف الذين ليس منهم عمل كالوقف على بني فلان، وعلى زيد وعمرو ونحوهما من غير مقابلة عمل، بل القصد مجرد بر ذلك الشخص، أو تلك الأوصاف، فهذا يعتبر كل عام على حدته.

ثم قال صاحب «الفروع» مقرراً لهذا الذي نقله عن الشيخ: وأفتى غير واحد منا في زمننا فيما نقص عما قدره الواقف كل شهر أنه يتمم مما بعد، وحكم به بعضهم بعد سنين، فهذا الكلام الذي نقله عن غير واحد من الحنابلة يؤيد ما قاله الشيخ، ثم قال صاحب «الفروع» ناقلاً قول من يعتقد خلاف هذا القول، فقال: ورأيت غير واحد لا يراه، فهذا نقله مجرداً ليس فيه تعليل ولا استدلال، ومن المعلوم أن القول الأول الذي علله الشيخ بتلك العلل الحسنة

الموافقة للقواعد الشرعية، ولمقاصد الواقفين، ولعموم مصلحة الجهات وقيامها، أنها أصح وأولى. فهذا آخر ما يتعلق بنقل صاحب «الفروع» في هذه المسألة، والذي أوجب لكم الاشتباه في كلامه أنه رحمه الله حريص جداً على الاختصار، ولو كان فيه غموض، فرحمه الله وغفر له.

**س ١٨ ــ رجل جعل في قليبه عشرة أصوع براً وشعيراً وبعض السنين ما تزرع في الشتاء، وتزرع في القيظ، فهل يؤخذ من زرع القيظ ما يشتري به؟**

ج ــ يؤخذ من زرع القيظ ما يشتري به براً وشعيراً، لأن لفظه وقصده يدلان على ذلك. أما لفظه فظاهر، لأنه قال: كل سنة ولم يقيد ذلك بزرع الشتاء، وأما قصده، فلأن قصد الجاعل لهذه العشرة أنها تكون من مغل الأرض من غير أن يقصد أنه لا بد أن تزرع في الشتاء، فكل سنة يحصل فيها ما يغل المذكور، تعين صرفه إلى ما سماه والله أعلم.

**س ١٩ ــ إذا كان عند رجل نخلتان في أضحية لوالده وجده، ونخلة في أضحية لخالته وعيالها، ولم تكف كل نخلة لما جعل فيها فما الحكم؟**

ج ــ يجمع مغل النخلتين مع الثالثة، ويشتري فيهن أضحية واحدة، وينويها عن أهل الوصيتين ينويها عن جده ووالده، وعن خالته وعيالها، وكل له نصيبه من الأجر بقدر مغل وصيته، مثل لو كان عندك عدة عشبات صاع للوصية الفلانية، وصاعان للوصية الفلانية أو أكثر، وجمعتهن جميعاً، وفرقتهن كل له نصيبه من الأجر أحسن من كونه يجمع المغل سنتين أو ثلاث أو أكثر حتى يتمن أضحية، وهذا الذي نحن نفتي فيه الجماعة أن من كان عنده عدة وصايا، وكل واحدة ما تضحي، فإذا جمعهن في أضحية واحدة ضحين، فهو أولى من التعطيل والله لا يضيع أجر العاملين، ويعلم مقدار كل عامل وعمله.

**س ٢٠ ــ إذا أراد أن يوقف في ملكه شيئاً بعد موته، وجعل له شيئاً مقدماً في غلته مقدراً وهو حين الموت أقل من الثلث، فهل يكون هذا العقار حكمه حكم الموقوف، ويعطى حكم الوقف، فلا يباع أم لا؟ وهل تحصر هذه الصبرة في قسط منه، ويتصرف بالباقي؟**

ج ــ أما التوقيف بعد الموت، فحكمه حكم الوصية ينفذ إذا كان من الثلث فأقل للأجنبي، والعبرة بخروجه من الثلث وعدمه وقت الموت لا وقت الوصية، لأنه الوقت الذي تلزم به الوصية، فإذا قال الإنسان مثلاً: ملكي الفلاني قادم في ريعه بعد موتي مائة درهم أو مائة وزنة تمر أو حب أو نحوها، نظرنا، فإن كان ملكه المذكور إذا قوم بأصله وقت موته، فهو من الثلث فأقل صار ذلك الملك وقفاً بعد موته أصله وغلته، لأن قوله: قادم في غلته كذا وكذا درهماً أو تمراً أو حباً كناية عن وقفه، وهذا من خصائص الوقف ومعانيه، وما زاد عن الغلة المذكورة المقدرة، فمصرفه مصرف الوقف المطلق، أو المنقطع على الخلاف المعروف فيه، إما على ورثته من النسب والولاء على قدر مواريثهم، أو على الفقراء والمساكين، أو على أقاربه الفقراء والمحتاجين، وهو أصح الأقوال. وأما إن كان الملك المذكور يزيد على الثلث وقت موته، فإن أجازه الورثة أعطي حكم ما تقدم، وإن لم يجيزوه حصرت الوصية في ذلك الملك المعين، وأخرج منه مقدار الثلث، أي: ثلث تركته كلها، والباقي ملك للورثة يتصرفون فيه بما شاؤوا، فإن أحبوا الاقتسام للملك إذا لم يكن في قسمته ضرر فعلوا، وإن أحبوا بقاءه على الشيوع والشركة بقي بعضه ملكاً، وبعضه وقفاً مشاعاً والله أعلم.

**س ٢١ ــ ما معنى قول شيخ الإسلام تجب عمارة الوقف بحسب البطون، والجمع بين عمارة الوقف، وأرباب الوظائف حسب الإمكان أولى، بل قد تجب.**

ج ــ هذا الكلام الذي قاله الشيخ، ونقله الفقهاء عنه مرتضين له تضمن أمرين. أحدهما: وجوب عمارة الوقف وإن لم يشترط الواقف تعميره، لأن هذا العرف المطرد في الأوقاف، لأنه لا يحفظ ماليتها، ولا يتم استغلالها إلا بالتعمير، فالواقف وإن لم يشرطه بلفظه، فهذا مقتضى العرف الذي تحمل عليه المطلقات، لكن هذا التعمير يوزع على حسب البطون، فلا يجعل على البطن الأول، فيكون عليه ضرر وهو المقدم في القصد والاستحقاق، فإنه إذا عمر من

مغله الحاضر فربما استوعب المغل جميعه عدة سنين، فيحرم منه البطن الأول، ويكون إذا خلص من نفقة التعمير للبطون المتأخرة خالصاً معمراً، فهذا ليس من الإنصاف، بل العدل الواجب أن توزع النفقة، أو يوزع التعمير على البطون كلها، فإذا فرضنا أنه يستوعب من النفقة للتعمير ثلاثة آلاف، وأمكن استدانتها آجالاً كثيرة كل عام يحل منها قسط يؤخذ من الريع، وتبقى البقية من المغل لأهل البطن المستحق حتى تكمل الآجال، وإما أن يعمر شيئاً فشيئاً، فينظر الأصلح للجميع من أحد الأمرين للوقف وأهل الوقف، وهذا معنى قوله: والجمع بين العمارة وأرباب الوظائف حسب الإمكان أولى، بل قد يجب، فيكون في ذلك مراعاة للموقف ولأهل الوقف واستمرار النفقة وأما قول الأصحاب إنه لا يجب عمارة الوقف إذا لم يشرطه الواقف، فهذا ضعيف مخالف لمقاصد الموقفين، ومناف للعرف، وإضرار في الحال والمال، وتسليط للمستحقين الأولين على استغلاله استغلالاً يتلف أصله كما هو معروف. وكلام الشيخ هذا عدل، وهو الطريق الوجيه لإصلاح الأوقاف واستمرار نفعها والله أعلم.

**س ٢٢ ـ لم اشترط أهل العلم في الأوقاف ونحوها أن تكون في جهة بر مع أن لإنسان يجوز له بذل ماله في الأمور المباحة؟**

ج ـ السبب في ذلك أن الأموال جعلها الله قياماً للناس تقوم بها أمور دينهم وأمور دنياهم، فما دام العبد في قيد الحياة، فإنه يجوز له بذلها في المباحات والمنافع المتنوعة كما يبذلها في الطاعات، فإذا مات العبد، انقطع عنه المنافع الدنيوية، ولم يبق إلا المنافع الأخروية، فهذا هو السبب، وهو ظاهر كما ترى. ولهذا من كان عنده مال لغيره وقد جهل صاحبه، وتعذر عليه معرفته أو معرفة وارثه، صرفه فيما ينفع صاحبه في الآخرة، فتصدق به عنه، أو صرفه في المصالح الدينية، لأنه لما تعذر عليه الانتفاع في ماله في حياته ومنافعه الدنيوية، تعينت المصالح الأخروية. ولهذا أيضاً كان الجزاء في الآخرة من الأعمال حين تعذر الوفاء من المال.

# باب الهبة

**س ١ ـ إذا قال: خذ من هذا الكيس، أو من هذه الدراهم ما شئت فهل له أخذ الجميـع؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: لو قال: خذ من هذا الكيس ما شئت، كان له أخذ ما به جميعاً، وخذ من هذه الدراهم ما شئت، لم يملك أخذها كلها، ثم ذكر في «الشرح» علة الفرق عن ابن الصيرفي.

أقول: وفي هذا الفرق الذي ذكره ابن الصيرفي نظر، والتحقيق عدم الفرق في العرف وما يبدو للأذهان والألفاظ يرجـع فيها إلى ما يقصده المتكلمون بها.

**س ٢ ـ رجل له أبناء وأحدهم قائم بأعمال والده وأشغاله، والآخرون ليسوا مثله في ذلك، فهل يجوز أن يخصص له خمسمائة ريال زائدة عن إخوانه؟**

ج ـ الابن المذكور له حالة عالية محمودة، وحالة لا حرج عليه فيها، ولا يلام عليها، أما الحالة العالية، فهو أنه يبقى على خدمة والده والقيام بأشغاله يرجو بذلك الأجر من الله، والبر بوالده وإخوانه، ويحمد الله تعالى أنه وفق لهذه الحالة التي هو عليها، ومن كانت هذه نيته، فهو غانم للأجر، وعاقبته حميدة. وأما الحالة الأخرى فهو إذا لم يرغب إلا أن يكون لقيامه بأشغال والده له على ذلك مصلحة، فالطريق في ذلك أن يعقد معه أبوه عقد إجارة كل شهر، أو كل سنة بشيء معين مثلما يأخذ غيره من الناس، فهذا يصير مثل الأجير مشاهرة أو مدة يتفقان عليها. وأما تخصيص المبلـغ المذكور زيادة على إخوته فهذا ما يصلـح، لأنه لا يدرى هل هو مقدار استحقاقه أو أقل أو أكثر وأيضاً وسيلة إلى محاباته، ووسيلة إلى أنه ينسب إلى الحيف والتخصيص لبعض أولاده دون بعض بخلاف عقد الإجارة، فإنها معاملة مـع ابنه، كمعاملته مـع الناس ببيـع أو إجارة أو غيرها والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وسلم.

**س ٣ ـ ما حكم وقف المريض ثلثه على بعض ورثته؟**

ج ــ قال الأصحاب: وإن وقف ثلثه في مرضه على بعض ورثته بوقفه عليهم جاز.

أقول: وتخصيص بعض الورثة بوقف ثلثه عليه أو تفضيله قول ضعيف جداً، والرواية الثانية لا يجوز ذلك، وهو مذهب جمهور العلماء، وعليه تدل الأدلة الشرعية في إيجاب العدل بين الأولاد، ومنع الوصية لوارث والله أعلم.

**س ٤ ــ هل تصرف الابن بما وهبه له أبوه يمنع الرجوع؟**

ج ــ قال الأصحاب: كل تصرف لا يمنع الابن من التصرف في رقبة ما وهبه له أبوه كالوصية والإجارة، فإنه لا يمنع رجوع الأب في هبته، وإذا رجع، فإن كان التصرف لازماً كالإجارة بقي بحاله، وإلَّا بطل قال في «شرح الإقناع»: لكن تقدم أن الأخذ بالشفعة تنفسخ به الإجارة، والفرق أن للأب فعلاً في الإجارة، لأن تمليكه لولده تسليط له على التصرف فيه، ولا كذلك الشفيع. هذا ما ظهر لي والله أعلم.

أقول: والتحقيق في الفرق بينهما أن حق الشفيع متقدم على حق المستأجر بخلاف حق الأب في الرجوع فإنما يثبت وقت الرجوع الذي تقدمه حق المستأجر والله أعلم.

**س ٥ ــ هل تمنع الزيادة المتصلة رجوع الأب فيما وهبه لولده؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولا رجوع للأب فيما وهبه لابنه مع زيادة متصلة.

أقول: والرواية الثانية لا تمنع الزيادة المتصلة رجوع الأب وهي الصحيحة.

**س ٦ ــ ما حكم ما إذا أقر الأب بقبض دين ولده وأنكر الولد؟**

ج ــ قال الأصحاب: لو أقر الأب بقبض دين ولده، فأنكر الولد أو أقر، رجع على غريمه، ورجع الغريم على الأب، قال في «شرح الإقناع» فقول الإمام في رواية مهنا: ولو أقر بقبض دين ابنه، فأنكر رجع على غريمه وهو على

الأب، لا يعول على مفهومه من أنه لو أقر لا يرجـع، لأنه يمكن أن يكون جواباً عن سؤال سائل، فلا يحتـج بمفهومه.

أقول: والأولى التعويل على مفهوم قول الإمام أحمد خصوصاً إذا قلنا بجواز إبراء نفسه وإبراء غريم ابنه من دين الابن، وجواز قبض ديون الابن كما يجوز قبض أَعيان ماله، وهو الصحيـح، لقوله ﷺ: (أنت ومالك لأبيك) فيشمل الأعيان والديون والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا أخذ من مال ولده شيئاً، ثم انفسـخ سبب استحقاقه، فهل يرجـع على الأب بما قبضه؟**

ج ـ نقل الأصحاب عن الشيـخ تقي الدين أنه لو أخذ من مال ولده شيئاً، ثم انفسـخ سبب استحقاقه بحيث وجب رده إلى الذي كان مالكه مثل أن يأخذ صداق ابنته، ثم يطلق الزوج، فالأقوى في جميـع هذه الصور أن للمالك الأول الرجوع على الأب قال في «الإقناع» بعد نقله كلام الشيـخ ويأتي في الصداق: لو تزوجها على ألف لها، وألف لأبيها، أي: فإنه يرجـع عليها لا على أبيها، قال في شرح «الإقناع»: وهو يقتضي أن المذهب خلاف ما قاله الشيـخ اهـ.

أقول: وما قاله الشيـخ هو الصواب، لأن يد الأب كيد ولده بالنسبة إلى من له الاستحقاق، ولسد الذريعة عن الحيلة.

# كتاب الوصية

**س ١ ـ قول الأصحاب: ويجوز الرجوع في الوصية، هل هو قبل قبض الموصى له أو مطلقاً؟**

ج ـ مرادهم بالرجوع أن يرجع وهو حي قبل موته، فإذا مات الموصي قبل رجوعه تثبت للموصى له، ولا يمكن في هذه الحال الرجوع لا قبل القبض ولا بعده، ولكن لا بد من قبول الموصى له للوصية بعد موت الموصي بقول أو فعل والله أعلم.

ويترتب على هذه المسألة وهي أن الموصي له الرجوع في وصيته، سواء كتبها وأشهد عليها، أو لم يكتبها ولم يشهد عليها، وسواء كان على معين أو غير معين، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

**س ٢ ـ ما الفرق بين الهبة والوصية؟**

ج ـ بين الهبة والوصية فروق مع أنهما من قسم التبرع. الهبة لا تقبل التعليق، والوصية لا تكون إلا معلقة، والهبة لا بد فيها من القبول قولاً أو فعلاً وقتها، والوصية بعد الموت، والهبة من جميع المال إلا إذا وقعت في مرض الموت، والوصية من الثلث لأجنبي، والهبة تصح لعبد غيره، والوصية لا تصح، والهبة لا تصح لعبده، والوصية تصح له بنفسه، أو بمشاع من ماله لا بمعين غير نفسه، والهبة أفضل من الوصية إذا لم يكن للوصية مزية ترجيح،

وهذا كله على المشهور من المذهب. وتصح الوصية للابق وللحمل في البطن دون الهبة، وتصح الوصية بالمعدوم دون الهبة.

**س ٣ ـ متى تدخل التركة في ضمان الورثة؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: ويستقر الضمان على الورثة بمجرد موت مورثهم إذا كان المال عيناً حاضرة يتمكن من قبضها.

أقول: وقال القاضي وابن عقيل: لا تدخل في ضمانهم إلا بالقبض كالديون وهو أولى.

## باب الموصى له

**س ١ ـ ما حكم الوصية لعمارة القبور؟**

ج ـ وكلام صاحب «الترغيب» مردود فإن عمارة القبور من أعظم مناهج الشرك، وتنفيذ هذه الوصية من أعظم التعاون على الإثم والعدوان، كما هو ظاهر لا يخفى على من له أدنى معرفة بأمور الشرع.

**س ٢ ـ إذا قال: يخدم عبدي فلاناً سنة، ثم هو حر فرد الموصى له، فهل يعتق العبد حالاً؟**

ج ـ قال في «الإقناع»: وإن قال يخدم عبدي فلاناً سنة، ثم هو حرٌّ، صحَّت الوصية، فإنْ لم يقبل الموصى له بالخدمة، أو وهب له الخدمة، لم يعتق إلا بعد السنة، قال في شرح «الإقناع»: وفي «المنتهى» وغيره يعتق في الحال.

أقول: قول صاحب «المنتهى» أقرب إلى حصول مراد الموصي، لأنه قصد حريته وملكه منافع نفسه إلا تلك المنفعة التي وهبها له صاحبها.

**س ٣ ـ لو قال الموصي: أُعتق عبداً نصرانياً، فأعتق مسلماً فما الحكم؟**

ج ـ قال في شرح «الإقناع» قال أبو بكر: لو قال الموصي: أُعتق عبداً نصرانياً، فأعتق مسلماً، أو أدفع ثلثي إلى نصراني، فدفعه إلى مسلم، ضمن. قال أبو العباس: وفيه نظر. اهـ.

أقول: لعل مراد أبي بكر ليس مجرد كونه نصرانياً، بل قصد به وصفاً مقصوداً شرعياً كالقريب والجار، فلا يبقى فيه نظر.

**س ٤ ــ إذا أوصى لفرس زيد، فمات الفرس، فلمن يكون الباقي؟**

ج ــ قال في «الإقناع»: وتصح الوصية لفرس زيد ولو لم يقبله، ويصرف في علفه، فإن مات فالباقي للورثة.

أقول: لا يخفى أن مراد الموصي نفع صاحب الفرس، ولكنه عين ذلك لنفع يصرفه إلى علف فرسه، فإذا تعذر الإنفاق عليها، فالذي ينبغي أن يكون لصاحب الفرس.

**س ٥ ــ إذا أوصى له ولجبريل بثلث ماله فماذا يكون لزيد؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولو وصى له ولجبريل أو له وللحائط بثلث ماله، فله جميع الثلث.

أقول: الأصل انتقال جميع التركة للورثة إلا وصية صحيحة معتبرة، فعلى هذا إذا أشرك بينه وبين من لا يصح تمليكه، كجبريل والحائط كان ما جعله لجبريل والحائط للورثة، ومثل هذا الصواب إبطال وصية من أمر بدفن ثلثه أو إحراقه ونحوه مما يعد متلاعباً، فلا نجعل لكلامه معنى لم يرده، بل نلغي لفظه بالكلية.

## باب الموصى به

**س ١ ــ عن حكم ما إذا أوصى بإحراق ماله أو دفنه في التراب؟**

ج ــ الصواب بطلان الوصية في هذه المذكورات، وهي إذا أوصى بإحراق ثلث ماله أو دفنه بالتراب، فمراده بذلك، إما إضرار بالورثة أو السفه أو العبث، وهو فاسد لا يمكن اعتباره، وإما إبطال حق الورثة الذي فرضه الله لهم، وإنما أبيح للإنسان ثلث ماله عند الوفاة إذا وصى بما فيه خير ونفع إذا كان ثابت العقل والله أعلم.

**س ٢ ـ إذا أوصى بعشاء، فهل يطبخ أو يخرج حباً، وهل يجوز أن يخرج بدله تمراً؟**

ج ـ إذا كان الموصي قد جعل في وصيته عشاء في رمضان والقصد أو التصريح أنه يطبخ، اتبع في ذلك نصه، ولا يخرجه حباً إلا إنْ كان قد أذن أو جعل الأمر بيد الوصي، وعند إطلاق العشاء في رمضان، فإن الموصين يريدون به الطبخ، ويريدون به أيضاً العشاء، فعلى هذا لا يخرج عن العشاء المطلق تمراً إلا مع الإذن، ومع عدم الإذن لا يخرج التمر ولو فطوراً للصائمين اتباعاً لنص الموصي.

**س ٣ ـ إذا أوصى أن يضحى عنه بغنم، فتعذر حصولها، فهل يعدل إلى البقرة؟**

ج ـ نعم يعدل إليها، لأن الأضاحي الثلاث وهي الشاة من الغنم، وسبع البدنة، وسبع البقرة يقوم بعضها مقام بعض خصوصاً وقد تعذر عليه التضحية بالشاة لسبب قلة دراهم الوصية.

**س ٤ ـ إذا أوصى بأضحيتين وكان الريع لا يكفي، فهل تجمعان في واحدة؟**

ج ـ إن كانت الوصية لواحد بأن كان في وصيته، أبي: الإنسان أضحيتان مثلاً واحدة له، وواحدة لوالديه، ولم تبلغ إلا واحدة، فإنها تجمع في واحدة، وينوى عنه وعن والديه ونحوهما. وإن كانت الوصية لاثنين بأن كان وصية أبيك فيها أضحية واحدة ووصية أخيك فيها أضحية واحدة، وكل واحدة من الوصيتين لا تبلغ ثمن الأضحية، فإنهما لا يجمعان، لأنهما لاثنين، فالتي تكفي يضحى بها، والتي لا تكفي ينتظر بها إلى أن تتم والله أعلم.

**س ٥ ـ إذا كان عنده وصية أو وصايا بعدة أضاحي والمغل لا يكفي فما الحكم؟**

ج ـ أما من كان عنده وصية واحدة وفيها عدة أضاحٍ، فإن كان بعضها مقدماً على بعض بأن قال مثلاً: في مغله أضحيتان واحدة لفلان، فإن

فضل فواحدة لفلان، فهذا على نص الموصي وتقديمه، ولو لم يغل سوى واحدة، لزم تعينه للمقدم كل عام وإن لم يصرح الموصي بتقديم أحد على أحد، كما هو الغالب في الوصايا، وكان المغل لا يكفي لجميع المعينات، فإنه يضحى بما حصل من المغل ولو واحدة، وينويها عن الجميع من عينهم الموصي في وصيته، لأن هذا غرضه ومقصوده وإنما عددها بناء على أن الريع سيكفي فإذا تبين عدم كفايته لم تعطل لقوله تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾. [سورة التغابن: الآية ١٦]

ولحصول مقصود الموصي، وحصول الأجر للمعينين. وأما من عنده وصيتان فأكثر فيهما أضاحي وريع كل واحدة لا يكفي لواحدة، فإذا جمعت كفى، فالذي أرى أن يجمع مثل هذه إلى هذه، ويشترى بها أضحية تنوى عن الجميع، وكل له من الأجر قدر ماله من المغل والله أعلم مقدار ما بكل منهما من الأجر والثواب، وهو الكريم الجواد.

وذلك أننا إذا نظرنا إلى مراد أهل الوصايا، وأن قصدهم أن تنفذ وصاياهم كل عام، وهم كثيراً ما يصرحون بمرادهم، فيقولون: ينفذ كل عام كذا وكذا، فتنصيصهم على العدد بناء على أن المغل يكفي لما عينوه، فحيث ظهر أنه لا يكفي عملنا بمرادهم، وجمعناها مع غيرها، ونفذناها كل عام، ويكون لكل ما يقابل وصيته منها حرصاً على تنفيذ الوصايا بحسب القدرة كما قال تعالى:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

[سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]

فهذا مأخذ قوي جداً، ويدل على ذلك أن تجويز جمعها كما ذكرنا أقرب إلى التنفيذ وأبعد عن إهمالها، وأما بقاء كل واحدة وجمعها سنين حتى تكمل ما فيها من الأضاحي، فإنه ربما كان سبباً لعدم التنفيذ بموت الوصي أو نسيانه، أو يصعب استخراجها منه بعد ذلك لعسرة أو غيرها، ويؤيده أن الوصايا

يستحقها كل عام من يستحق مغل وقفها، فإذا كانت لا تكفي إلا إذا ضمت مـع غيرها، صار ضمها سبباً لوصول كل مستحق إلى حقه كل عام من غير اشتباه ولا منازعة، وإذا بقيت عامين أو ثلاثة أو أكثر، ثم تمت بعد ذلك وقد زال في هذه المدة استحقاق المستحقين أو بعضهم، وانتقل الاستحقاق إلى غيرهم، فوقـع الاشتباه، وربما كان الحادثون هم المنتفعين بها، وربما كان للأولين كما هو الواقـع، وربما كان الحاصل عند ورثة الأولين، فلم يتمكن الآخرون من إخراجه. فكونها تنفذ كل عام بحسبها سبباً لدفـع هذه المحاذير ومـراعاة للمصالـح. وقال في «حاشية المنتهى» على قوله في الظهار: أو أعتق نصفي رقبتين أجزءا، لأن الأشقاص كالأشخاص. قوله: كالأشخاص. وكذا هدي وأضحية وعقيقة، وأشار عثمان إلى ذلك في «تصحيـح الفروع» كذا. فعلى ما ذكره المحشي بإلحاق المذكورات بالعتق بالتشقيص يدل على هذه المسألة، وأن الوصيتين إذا كان كل منهما لا يكفي إلا نصف أضحية مثلاً، فجعلتها في واحدة، فإنه يجزىء، ويحصل به المقصود. ويؤيد ما سبق أن الموصين ينصون في وصاياهم، ويسمون ما يريدون تسميته من الخيرات، وأنه ينفذ كل عام، فنصهم عليها كل عام يوجب عدم التعطيل، كفت أو لم تكف إلا إذا نفوا هذه الحال. . . ويدل على ذلك أيضاً أن الموصين إذا قدروا شيئاً معيناً من دراهم أو طعام أو ثياب أو غيرها، فلم تكف الوصية جميـع المعين أنه ينفذ الحاصل من الريـع بحسبه، فالأضحية كذلك، ويدل على ذلك أيضاً إيجاب الأصحاب رحمهم الله أن يحـج عنه النائب من بلده إذا كان الحـج فرضاً إلا إذا لم يكف، فيحـج عنه من حيث بلـغ ولو من مكة، فهذا كذلك، إذا لم يكن واحدة، فبعض واحدة، ويدل على ذلك كله القاعدة المشهورة: إذا عجز عن جميـع المأمورات أجزأ البعض، ووجب عليه الإتيان به. ومسائل هذا الأصل كثيرة جداً، ومنها هذه المسألة: إذا عجز الريـع عن جميـع الأضاحي المنصوص عليها، فعل ما يكفي منها، وإذا عجز عن الأضحية الواحدة اكتفى ببعضها والله أعلم.

**س ٦ ـ إذا أوصى له بثمر بستان أو شجرة، فهل يلزم الآخر بالسقي معه؟**

ج ـ قال الأصحاب: إذا أوصى له بثمر بستان أو شجرة، فإن كل واحد من الوارث والموصى له لا يملك إجبار الآخر على السقي.

أقول: الأصل وجوب إلـزام أحد الشريكين الآخر في تعمير ما يحتاج إليه المال المشترك، وهذه المسألة تخالف الأصل، ففيها نظر ظاهر.

## باب الموصى إليه

**س ١ ـ إذا قال للوصي: اصنـع بمالي ما شئت ونحوه، فما الحكم؟**

ج ـ قال في شرح «الإقناع»: وإن قال: اصنـع في مالي ما شئت، أو هو بحكمك افعل فيه ما شئت ونحو ذلك من ألفاظ الإباحة لا الأمر، قال أبو العباس: أفتيت أن هذا الوصي له أن يخرج ثلثه، وله ألا يخرجه، فلا يكون الإخراج واجباً ولا حراماً، بل هو موقوف على اختيار الوصي.

أقول: هذه الفتوى من أبـي العباس تخالف فتواه المعروفة في مثل هذه الألفاظ أنه يجب فيها العمل بأصلـح ما يراه وهو الظاهر من مراد الموصي، إلا إن كانت العبارة إن شاء تملكها، وإن شاء أخرجها فهو على ما قال والله أعلم.

**س ٢ ـ إذا باع الوصي واشترى في ثلث الميت، فهل له أجرة؟**

ج ـ إن كان متبرعاً، فلا شيء له، وإن كان بجعل، فله الجعل الذي شرطه الميت، فإن لم يشترط شيئاً، فله ما جرت به عادة الناس والله أعلم.

# كتاب الفرائض

**س ١ ــ هل أداء الحقوق واجب على الفور؟**

ج ــ أما أداء الحقوق لله من العبادات والديون فهي على الفور ما لم يكن عذر، وكذلك ديون الآدميين المطالب بها، أو الذي عين صاحبها وقتاً لوفائها، وكذلك الأمانات التي حصلت في يده بغير رضى صاحبها بعد علمه بصاحبها والتمكن من إيصالها إليه، فيجب فيها إما الرد أو إعلام من هي له بها، ثم صاحبها يطلبها متى شاء، وكذلك الأمانات إذا فسخت والأعيان المملوكة بعقد على من هي في يده التمكن منها، وأما الأعيان المضمونة، فتجب المبادرة إلى ردها في كل حال، ويندرج تحت هذه الضوابط والصور شيء كثير.

**س ٢ ــ امرأة توفيت وهي ناشز، ولم تقبض المهر من زوجها فهل يكون ميراثاً أم لا؟**

ج ــ نعم يكون جميع ما خلفت يورث عنها حتى الصداق الذي ماتت عنه ولم تقبضه، ولا أبرأت زوجها منه، فيكون محسوباً على الزوج من ميراثه، وليس له حجة في نشوزها، لأن النشوز إنما يسقط النفقة. وأما الصداق، فهو كسائر الديون لا يسقط إلا بقبضه أو الإبراء الصحيح منه والله أعلم.

**س ٣ ــ إشكال وجوابه في موضع من كلام الأصحاب حول اشتراط العلم بجهة الإرث، أشكلت علينا هذه العبارات من كلام الأصحاب التي ظاهرها التعارض، فهل لها حل ظاهر؟ وهي قولهم من الفرائض: أحد شروط الميراث**

العلم بالجهة المقتضية للإرث. وقولهم في طريق الحكم وصفته: وإن ادعى إرثه ذكر سببه لاختلاف أسباب الإرث، ولا بد أن تكون الشهادة على معين، فكذا الدعوى. وقال في «المنتهى» وشرحه في كتاب الشهادات: ومن ادعى إرث ميت، فشهد الشاهدان أنه وارثه لا يعلمان غيره، أو قالا: لا نعلم وارثاً غيره في هذا البلد، سواء كان من أهل الخبرة الباطنة أو لا، سلم المال إليه بغير كفيل، أو سلم بكفيل إذا شهدا بإرثه فقط، بأن لم يقولا: ولا نعلم وارثاً سواه. تتمة: قال الأزجي فيمن ادعى إرثاً: لا يحوج في دعواه إلى بيان السبب الذي يرث به، وإنما يدعي الإرث مطلقاً، لأن أدنى حالاته أن يرث بالرحم وهو صحيح على أصلنا، فإذا أتى ببينة، فشهدت له بما ادعاه من كونه وارثاً حكم بـه. انتهى.

قال منصور: وفيه شيء وقال في «المنتهى» وشرحه أيضاً في باب الإقرار: والمريض ولو مرض الموت المخوف يصح إقراره بوارث. قال ابن نصر الله: يسأل عن صورة الإقرار بوارث هل معناه أن يقول: هذا وارثي ولا يذكر سبب إرثه؟ أو معناه: أن يقول: هذا أخي أو عمي، أو ابني أو مولاي، فيذكر سبب الإرث، وحينئذ إذا كان نسباً اعتبر الإمكان والتصديق وأن لا يدفع به نسباً معروفاً. انتهى.

قلت: تقدم عن الأزجي أنه يكفي في الدعوة والشهادة، ثم ذكر كلامه السابق هذا من «المنتهى» وشرحه. ورأيت بهامشه نقلاً عن ابن ذهلان إذا أقر من هو من قبيلة معروفة أن أقربهم إليه فلان صح، لأنه لم يدفع به نسباً معروفاً. ولو كان له وارث بفرض. وقوله: فلان لحمة لي أو قريب لي، فلا يرث منه إلا على قول الأزجي. هذا الكلام الذي نريد حله لما فيه من الإشكال؛ أفتونا أثابكم الله.

وبالله التوفيق ونسأله الإعانة لإصابته.

ج ـ الصواب الذي يظهر لي من كلامهم، ومرادهم بحسب عباراتهم وتعليلهم أنه إذا ادعى أنه وارث فقط، وأقام بينة على أنه وارث من غير أن تبين البينة للسبب، وكذلك إذا أقر المريض بوارث، ولم يعين جهته، فهذه البينة المطلقة لا يخلو الحال إما أن يكون هناك عصبة، أو أصحاب فرض تستغرق

التركة أولا، فإن كان هناك عصبة معروفون أو أصحاب فروض تستغرق، فلا تكون تلك البينة التي شهدت لذلك الشخص أنه وارث، ولم تعين سبب إرثه، وكذلك ذلك الإقرار المطلق لا يكون ذلك مبطلاً لحقوق العصبة المعروفين، ولا لأصحاب الفروض المستغرقة، وذلك لوجهين:

أحدهما: أن استحقاق المذكورين وهم العصبة وأصحاب الفروض ثابت محقق وثبوت ميراث المشهود به والمُقَرِّ به متوهم مجمل غير واضح، والأصل عدم المزاحم أو الحاجب للورثة المعروفين المحقق.

الوجه الثاني: أن المشهود له والمقر له مدع مشاركة الورثة المعروفين أو حجبهم وهم منكرون، والبينة على المدعي، واليمين على من أنكر، وتلك البينة التي أدلى بها، وذلك الإقرار لا يفيد رفع أيديهم ومزاحمتهم وثمة وجه ثالث.

وهو اتفاق أهل العلم أن من شرط الإرث العلم بالجهة المقتضية للإرث، وتلك البينة المطلقة والإقرار لا نستفيد به العلم بالجهة المقتضية، فيتعين في هذه الحال الحكم بالإرث الذي علمت جهته وتحققت، وكلام الأصحاب الذي نقله السائل ليس في شيء منه ما ينافي هذه الحال، بل إما موافق له أو يمكن حمله على الحال الأخرى الآتية مع موافقة ما ذكرت للقواعد والأصول.

الحالة الثانية ألا يكون هناك عصبة ولا أصحاب فرض بالكلية لا مستغرقة ولا غير مستغرقة، ففي هذه الحال كلامهم في الشهادات والإقرار ظاهر في أن هذا المدعي للإرث بالبينة التي شهدت أنه وارث فقط من دون تعيين الجهة، وبالإقرار المذكور يقتضي ذلك أنه يستحق الميراث، وتعليلهم كذلك من أن هذه الشهادة، وذلك الإقرار يفيد أنه وارث إما بفرض، أو تعصيب، أو رحم. وعلى كل من هذه الأحوال توافق القاعدة المشهورة أن من ادعى شيئاً لا يدعيه أحد، ولا يدعيه من هو في يده، اكتفي فيه بأقل ما يكون من البينة أو القرينة كما ورد ذلك في اللقطة إذا وصفها مدعيها اكتفي بوصفه لكون من هي في يده لا يدعيها

لنفسه، وكذلك من بيده مال جهل صاحبه. ومن ادعى شيئاً بيد من يدعيه لنفسه أو أظهر وجه استحقاقه له، فلا بد من البينة التامة الموضحة، فالحالة الأولى يدعي استحقاق أو مزاحمة ورثة معروفين قد ظهر استحقاقهم، وبانت جهتهم، فلا يكتفى بتلك البينة المطلقة، والإقرار المطلق. والحالة الثانية لا يدعي الميراث أحد لكون الميت ليس له وارث بفرض أو تعصيب، فإذا حصلت تلك البينة ولو كانت مطلقة، فإنها تفيد الاستحقاق، وهذا واضح ولله الحمد.

الحالة الثالثة: إذا كانت هذه الدعوى المبينة على تلك البينة، وذلك الإقرار المطلق مع صاحب فرض لا يستغرق فرضه المال، فظاهر كلام ابن ذهلان المذكور في السؤال يقتضي قبول هذه الدعوى، وأنه يرث مع صاحب الفرض المحقق، وكذلك عموم كلام الأزجي وإن لم يكن ظاهراً في هذا، ولكن في هذا نظر، كما قال الشيخ منصور لما ذكر كلام الأزجي قال: وفيه شيء ومراده والله أعلم أنه مخالف لظاهر كلام الأصحاب، فإنهم كلهم اشترطوا العلم بالجهة المقتضية للإرث، وكلهم قالوا: إذا انفرد صاحب الفرض، أخذ المال فرضاً ورداً، فصاحب الفرض هنا قد ثبت استحقاقه للمال كله قطعاً بتقدير عدم المزاحم ولم يثبت هنا ثبوتاً شرعياً يقتضي مزاحمته، ففي الحقيقة هذه الحال الثالثة لا فرق بينها وبين الحالة الأولى التي فيها عاصب أو ورثة مستغرقون. ثم نقول أيضاً: ما يظهر من كلام الأزجي ومن صريح كلام ابن ذهلان عند التأمل يعلم ضعفه الواضح، فهذا الذي ادعى بتلك البينة المطلقة الميراث ما المقدار الذي نعطيه يتوقف على معرفة جهته. فحاصل هذه الأقسام أنه إذا كان هنا وارث محقق بفرض أو تعصيب أو متفرع عليهما من ذوي الأرحام أو فرض مستغرق بدون رد أو مستغرق مع الرد أن البينة المطلقة والإقرار المطلق لم يبينا وجه الإرث لا يثبت فيها حكم ولا ميراث وإن لم يكن هناك ورثة بالكلية لا بفرض ولا تعصيب، ولا ما يتفرع عنهما اعتبرناهما إذ هذا أولى من جعل التركة لبيت المال، لكن الاحتمالات المذكورة عند إطلاق الشهادة والإقرار تفيد

الإرث المطلق على كل تقرير، وهذا التفصيل المذكور هو الذي نعتقده ونقول به لما ذكرنا من بنائه على الأصول الشرعية والقواعد المرضية عند الأصحاب وغيرهم والحمد لله رب العالمين.

**س ٤ ـ من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه ما الذي يدخل تحتها؟**

ج ـ يدخل في هذه القاعدة إذا قتل المورِّث مورثه لم يرث أو الموصى له الموصي لم يستحق الوصية وغير ذلك.

**س ٥ ـ هل تحجب الإخوة الأم إذا كانوا محجوبين بالأب؟**

ج ـ قال الأصحاب: إن الإخوة إذا كانوا اثنين فأكثر يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وإن كانوا محجوبين بالأب.

أقول: وعند شيخ الإسلام أن المحجوب من الإخوة لا يحجب الأم من الثلث إلى السدس مطلقاً سواء بوصف أو بشخص، وقوله أظهر، لأن كل من ذكر الله من الوارثين حيث ذكر إرثه وإرث غيره، فإن الوارث غير المحجوب وذلك بالاتفاق في غير هذه المسألة، بل بالاتفاق فيها بالحجب بالوصف ولأنه من الحكم في حجبها بجمع الإخوة ليتوفر عليهم، فإن كانوا محجوبين عدم هذا المعنى.

**س ٦ ـ إذا لم يكن له أب شرعاً فمن عصبته؟**

ج ـ قال الأصحاب: ومن لا أب له شرعاً، فعصبته من الإرث عصبة أمه قال في شرح «الإقناع»: واختار أبو بكر عبد العزيز أن عصبة نفس أمه فإن لم تكن فعصبة عصبتها.

أقول: واختاره أيضاً شيخ الإسلام وهو أقوى دليلاً من المذهب لأنه لما انقطعت النسبة إلى أبيه انحصرت في الأم، وتفرعت على عصباتها، وأما كون عصبتها عصبة وهي ليست بعصبة، فهذا مخالفته لظاهر النص لا حظ له في القياس، بل إما أن نقول بتعصيبها أو بقول الجمهور: إنها لا تعصب ولا أحد ممن يدلي بها مطلقاً.

**س ٧ ـ عن ميراث الجد مع الإخوة؟**

ج ـ قال الأصحاب: والجد لأب مع الإخوة لغير أم كأخ منهم ثم ذكروا تفصيل إرثهم.

أقول: والراوية الثانية عن الإمام أحمد الموافقة لقول الصديق وغيره هي الصحيحة، بل هي الصواب المقطوع به لوجوه كثيرة. منها أن الجد نزله الشارع منزلة الأب في أبواب كثيرة بل وفي المواريث، وذلك بالإجماع. ومنها أنه بالإجماع أن الابن النازل بمنزلة ابن الصلب فكذلك الأب العالي بمنزلة الأب ومنها أن القياس الذي ذكره المورثون منقوض عليهم بابن الأخ مع جد الأب، فإنه محجوب بالجد إجماعاً، وبأنه لو كان بمنزلة الإخوة لأب لسقط بالأشقاء، ولا قائل بذلك. ومنها أنه على تقدير ميراثه معهم تقتضي الحال أنه كواحد منهم مطلقاً، ولم يجعلوه كذلك، بل جعلوه يخير تارة بين الثلث والمقاسمة، وتارة بين القاسمة وثلث الباقي وسدس جميع المال، وهذا لا أصل له في الشرع يرجع إليه. ومنها أنه لو كان مثلهم، لكان للأم السدس مع جد وأخ. ومنها مسائل معادة الأشقاء للإخوة لأب عليه، ثم أخذهم ما بأيديهم، وهذا لا أصل له يرجع إليه، ومحال معادة من لا ميراث له. ومنها مسألة الأكدرية، فإنها متناقضة مخالفة للنص من جهة إرثها معه، ومن جهة العول والفروض أقل من المال، وهي نصف الزوج، وثلث الأم وأنها فرض لها أولاً، فأعيلت ثم عاد المفروض عصباً بين الجد والأخت، وهذا لا يمكن تطبيقه على نص ولا قياس ولا أصل أصلاً. ومن جهة أن الله فرض للأم الثلث مع عدم الأولاد وجمع الإخوة، وللزوج النصف مع عدم الأولاد ولم يحصل ذلك لهما فهذا القول كما ترى متناقض لا ينبني على أصل صحيح، ولا معنى رجيع، ولا ظاهر نص ولا إشارته. وأما القول بسقوطهم مطلقاً بالجد، فهو الموافق لظاهر الكتاب والسنة والموافق لمواقع الإجماع في غير هذه المسألة، والموافق للمعاني الصحيحة وهو قول منضبط لا تناقض فيه ولا غموض ولا إشكال كما هو شأن الأقوال الصحيحة ولله الحمد.

**س ٨ ــ هل ترث أم الأب مع وجوده؟**

ج ــ والجدة أم الأب ترث مع وجود الأب كما هو المذهب وهو الصحيح ومن باب أولى أم الأم.

**س ٩ ــ هل ترث الجدة إذا أدلت بأب أعلى من الجد؟**

ج ــ قال الأصحاب: كل جدة أدلت بأب أعلى من الجد، فلا ترث، والرواية الأخرى اختارها شيخ الإسلام: أن كل جدة أدلت بأب أو جد وارث، فإنها ترث، وهو أصح، لأنه الموافق للقاعدة الصحيحة، وهي أن كل جدة أدلت بوارث من ذكر أو أنثى، فهي وارثة، ومن تدلي بغير وارث فلا إرث لها.

## باب أصول المسائل والعول والرد

**س ١ ــ هل يرد على الزوجين؟**

ج ــ قال الأصحاب: ولا يرد على الزوجين، وما روي عن عثمان أنه رد على زوج، فقال الموفق في «المغني»: لعله كان عصبة أو ذا رحم، فأعطاه لذلك، أو أعطاه من بيت المال لا على سبيل الميراث. اهـ. واختار شيخنا هو الشيخ عبد الرحمن السعدي صاحب هذه الفتاوى الرد على الزوجين كغيرهما، وقال: لأن الأصل الذي ورث فيه أهل الفروض بزيادة على فروضهم وهو خوف سقوط بعضهم أو إضراره بالآخر موجود في الزوجين، وإذا كان الزوجان يشاركان أهل الفروض في العول ونقص الفروض، فالقياس يقتضي أيضاً مشاركتهم إياهم في الرد وزيادة الفروض، ويؤيد هذا أن الله قدر الفروض بحسب حكمته قلة وكثرة، فكان يقتضي ذلك أن ما زاد عليها وزع عليهم بقدرها والله أعلم. اهـ.

# كتاب النكاح

**س ١ ـ ما حكم تكرار عقد النكاح والتزويج على مهر ريال؟**

ج ـ أما المسألة الأولى، فلا يشرع أن يقول الولي للزوج وقت العقد: زوجتك فلانة، ثم إذا قبل أعاد عليه، وقال: أنكحتك فلانة، ثم يقبل، فلم يرد هذا التكرار عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، ولم يذكر ذلك أحد من الأصحاب فيما علمت، والذين يستعملونه من الناس لم يستدلوا على ذلك بدليل ولا بكلام أحد من أهل العلم المعتبرين، وإنما يفعلونه على وجه الاستحسان منهم، والأولى بلا شك ترك هذا التكرار، والاكتفاء بإحدى اللفظتين في الإيجاب والقبول لعدم وروده، ولأنه لا نظير له في جميع عقود المعاملات والتبرعات وغيرها، ولأنه إذا انعقد باللفظ الأول، فقد تم الزواج، وصارت زوجته بلا خوف فإعادتهم للعقد ثانياً من باب العبث. هذا كله بقطع النظر عما يقترن به من الاعتقاد الفاسد، فإن الناس إذا داوموا على ذلك، اعتقدوه مشروعاً واجباً ومستحباً، فتعين تركه والله أعلم.

وأما المسألة الثانية وهو ما اعتاده أكثر الناس أنهم يسمون المهر والصداق يقولون: على صداق ريال مثلاً، والحال أن الريال ليس هو الصداق، ولا جزءاً يسيراً من الصداق. والسبب الذي حملهم على هذا أنهم لما سمعوا أنه يسن تسمية الصداق في العقد، وكان الصداق المستعمل عند أهل نجد شيئاً من الكسوة والفرش ونحوهما يدفعها الرجل إلى أهل المرأة، فيرضون به، ويخجلون

من التصريح بذكره وقت العقد، فاستحبوا تسمية الريال تبركاً بذكر التسمية. هذا مبنى من استحب ذلك، ومن المعلوم أن هذا لا يوجب استحباب التسمية المذكورة، لأن الاستحباب حكم شرعي لا يجوز إثباته إلا بدليل شرعي، وأما مجرد الاستحسان الخالي من الدليل، بل المعارض للدليل، فلا يصلح أن نثبت به الأحكام الشرعية، ولهذا ينبغي أو يتعين ترك هذه التسمية لوجوه متعددة. أحدها: أن هذا إثبات حكم بلا دليل شرعي. الثاني: أنه لم يقله أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا من الأصحاب المتقدمين والمتأخرين، وإنما ذكر استحباب المهر الحقيقي، وهو الذي يدفع الزوج لزوجته عوضاً في النكاح حالاً أو مؤجلاً، وعللوا استحباب التسمية لئلا يقع النزاع فيه، فتسميه هذا المهر الحقيقي هو الذي يقطع النزاع. وأما تسمية ما ليس بمهر، وإنما جيء به على وجه التبرك، فهذا لا يقطع النزاع. الثالث: أن هذا من باب العبث وخلاف الحقيقة، فإنهم يسمون هذا الريال وهم يعلمون أن الصداق غيره، فلهذا نقول: الرابع: إن هذا يخشى من دخوله في الكذب، فإن الكذب هو الإخبار بغير الواقع، وهذا من باب الإخبار بغير الواقع، كما هو معلوم لكل أحد، فكيف يدخل الإنسان في باب التبرك من باب الكذب، والإخبار بغير الحقيقة. الخامس: أنه لو كان هو الصداق، لوجب أن تترتب عليه أحكام الصداق كلها، لأنه هو المسمى، فإذا مات الزوج قبل الدخول، أو دخل بها، لم يثبت إلا ذلك الريال، وإذا طلق قبل الدخول وقد دفع لها ما يساوي عدة مئات، وقد عقدوا على ريال، تنصف ذلك الريال، فصار نصفه للزوج، ونصفه للمرأة، إلا أن يعفو أحدهما عن نصفه. وأما ذلك المدفوع كله، فيرجع إلى الزوج، ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يقول أحد بشيء من ذلك، فعلم أن المهر الذي يُستحب تسميته، وتترتب عليه الأحكام الشرعية، من تقرره، أو سقوطه، أو ثبوت نصفه، هو الذي يسوقه ويدفعه الرجل إلى المرأة. وأما هذا الريال، فهو لغو غير مقصود، ولا يتعلق به شيء، فكيف يعلق عليه استحباب التسمية. ولما كان متقرراً عند الناس أنه لغو غير مقصود، صار من يعقد لهم لا يسألهم عن المهر،

بل هو من عند نفسه يقول للولي: قل: زوجتك على صداق الريال من غير أن يسألهم عن المهر ومقداره، لا فرق بين الغني والفقير عندهم، والذي حمل الناس على الاسترسال في هذه العادة جريان العادة، فإن العوائد المستمرة تقيد الأذهان عن النظر في الأدلة، وتوجب التسليم من المتأخر للمتقدم جرياً على العادة، والعادات المباحة لا بأس بها في العادات وغير الأحكام الشرعية. أما الأحكام الشرعية، فالعباد مقيدون فيها بأحكام الشريعة، فلا يوجبون ولا يستحبون ولا يحرمون إلا ما دل الدليل الشرعي عليه، وأما مجرد الاستحسان، فلا عبرة به إذا تجرد عن المعارضة، فكيف إذا عارضته الأدلة الشرعية والله أعلم.

**س ٢ ــ قول الشيخ منصور في شرح «المنتهى»: ولا يكون المعلق عليه ماضياً، هل هو وجيه؟**

ج ــ ذكروا في تعليق النكاح بالشرط الفرق بين الشرط المستقبل فلا يصح، وبين الماضي أو الحال، فيصح، ومثلوا لذلك بقوله: إن كانت بنتي، أو كنت وليها، فقد زوجتكها، أو إن كانت انقضت عدتها، فقد زوجتكها، وهما يعلمان ذلك؛ فيصح، لأنه لا محذور فيه، مع أن الصحيح أن التعليق للعقود كلها بالشروط المعلومة غير المجهولة جائز لا محذور فيه، والله أعلم.

**٣ ــ إذا خطبت، فقالت: إذا رضي وليي هذا، فإني راضية، فهل يصح؟**

ج ــ نعم إذا رضي بعد ما قالت هذا القول، ولم ترجع عن رضاها، لأن العبرة برضاها، خصوصاً إذا كان وليها غير أب والله أعلم.

**س ٤ ــ هل يجوز توكيل الأب في قبول النكاح لابنه وكيف يقبل؟**

ج ــ إذا أراد الأب أن يزوج ابنه، فإن وكله على ذلك، وشهد بذلك شهود أن الابن وكل أباه بتزويجه، صح ذلك، وإذا قبل الزواج لابنه، قال: قبلت نكاحها عن ابني فلان، وأما إذا قال الأب: إن ابني وكلني من دون شهادة أنه وكله، فلا يكفي ذلك.

**س ٥ ـ ما حكم التوكيل في النكاح؟**

ج ـ التوكيل في نكاح المولية على ثلاث حالات:

الأولى: أن يعين، فيقول: زوج فلانة بفلان، فلا يستفيد إلا العقد الأول.

الثانية: أن يفوض ذلك إليه، فيجوز له التزويج متى شاء بمن يشاء.

الثالثة: أن يطلق، فلم أر من صرح تصريحاً يزيل الإشكال، ويتوجه أن ينظر إلى قرائن الأحوال.

**س ٦ ـ ما حكم التهاني في المناسبات؟**

ج ـ هذه المسائل وما أشبهها مبنية على أصل عظيم نافع، وهو أن الأصل في جميع العادات القولية والفعلية الإباحة والجواز، فلا يحرم منها ولا يكره إلا ما نهى عنه الشارع، أو تضمن مفسدة شرعية، وهذا الأصل الكبير قد دل عليه الكتاب والسنة في مواضع، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، فهذه الصور المسؤول عنها وما أشبهها من هذا القبيل، فإن الناس لم يقصدوا التعبُّد بها، وإنما هي عوائد وخطابات وجوابات جرت بينهم في مناسبات لا محذور فيها، بل فيها مصلحة دعاء المؤمنين بعضهم لبعض بدعاء مناسب لتلك الأحوال، فليس فيه محذور، وفيه من المصلحة أيضاً أنه سبب للمحبة وتآلف القلوب، كما هو مشاهد. أما الإجابة في هذه الأمور لمن ابتدأ بشيء من ذلك، فالذي نرى أنه يجب عليه أن يجيبه بالجواب المناسب مثل الأجوبة بينهم، لأنها من العدل، ولأن ترك الإجابة يوغر الصدور ويشوش الخواطر. ثم اعلم أن هاهنا قاعدة حسنة، وهي أن العادات المباحات قد يقترن بها من المصالح والمنافع ما يلحقها بالأمور المحبوبة لله بحسب ما ينتج عنها وما تثمره، كما أنه قد يقترن ببعض العادات من المفاسد والمضار ما يلحقها بالأمور الممنوعة، وأمثلة هذه القاعدة كثيرة جداً.

**س ٧ ـ هل يجوز للأب أن يزوج ابنه الصغير بأكثر من واحدة أو يتقيد ذلك بالمصلحة، فإن قلنا: لا يجوز إلا لمصلحته فزوجه، فهل النكاح صحيح وإذا صح، فهل الصداق عليه أو على الابن؟**

ج ـ إن الأصحاب لم يختلفوا في جواز إنكاحه واحدة، وإنما اختلفوا إذا زوجه أكثر من واحدة، والمشهور من المذهب أنه يجوز له أن يزوجه بأكثر من واحدة، لكن إذا رأى الأب مصلحته، وبعض الأصحاب أطلق الكلام، ولم يقيده بالمصلحة، فعلى المذهب باشتراط المصلحة إذا زوجه لغير مصلحته أزيد من واحدة، لم يكن له ذلك، أي: لا يجوز له ذلك، وليس معناه أن نكاحه إياه فاسد، وإنما قالوا ذلك، لأنهم عللوا ذلك بأنه إذا لم يكن في ذلك مصلحة، والنكاح يترتب عليه الصداق والنفقة وغير ذلك، ولا حاجة للولد بما زاد على ذلك، بل عليه مضرة من جهة نقص ماله لغير فائدة، وهذا التعليل يدل على أن النكاح صحيح، وإنما الأب أساء بما ركب على ابنه من الصداق والمهر. وعلى كل حال، فالمهر والنفقة وتوابع ذلك من مال الصغير ليس على الأب منها شيء إلا ما تبرع به، وسواء زوجه واحدة أو أكثر لمصلحته أم لا، كل هذا الصداق في مال الابن.

**س ٨ ـ هل يجوز إجبار البنت على تزويجها بمن لا ترضاه؟**

ج ـ لا يجبرها أبوها، ولا تجبرها أمها على تزويجها، ولو أنهما يرتضيان لدينه.

**س ٩ ـ هل يجوز أن يزوج اليتيمة بلا إذن؟**

ج ـ البنت اليتيمة لا يزوجها أخوها إلا بإذنها، وإذن الثيب أن تنطق وتأذن له، وإذن البكر، إما الكلام، وإما السكوت، بأن لا تقول: لا. وإذا كانت أمها أو خالتها أو أختها ثقة، وقالت: إنها راضية قبل قولها، فلا يحتاج إلى إشهاد على إذنها إلا إذا خيف أن أخاها أو وليها يريد إكراهها على الزواج، فلا بد من الشهادة على إذنها.

**س ١٠ ـ إذا زوج موليته ولم يعلم أثيب هي أم بكر فما الحكم؟**

ج ـ من زوج امرأة ولم يعلم العاقد أنها ثيب أو بكر ولم يسألهم فيلزم المرأة أن تأذن، فإن كانت بكراً، فنطقها بالإذن، أو سكوتها إذا استؤذنت كافٍ، وأما الثيب، فلا بد من نطقها، ولا يكفي سكوتها فعلى هذا إذا علم العاقد أنها نطقت بالإذن، أما سمعها، أو شهد بذلك مرضي الشهادة، عقد لهما، ولو لم يعلم أنها بكر أو ثيب، وأما إذا لم يعلم أنها نطقت، فلا بد أن يسأل هل هي بكر أو ثيب لأجل الفرق بين البكر والثيب.

**س ١١ ـ ما حكم الولي والشهادة في النكاح، وما اختيار شيخ الإسلام في ذلك؟**

ج ـ اختيار شيخ الإسلام كغيره من الأصحاب اشتراط الولي في النكاح، كما دل عليه الكتاب والسنة وعمل الصحابة، والقول بعدم اشتراطه قول الحنفية، وهو قول ضعيف لا دليل عليه، وإنما الذي اختاره الشيخ رحمه الله أنه يميل إلى القول بعدم اشتراط الإشهاد على النكاح، لكن بشرط أن يعلن النكاح، فإذا أعلن ولو من دون شهادة جاز عنده، وهو رواية عن الإمام أحمد، واحتجوا بضعف الحديث الوارد في الشهادة، وأما الأدلة على الوالي، فهي قوية جداً، ومع ذلك فالاحتياط في النكاح الجمع بين الإعلان والإشهاد، ولا شك أن هذا هو المشروع.

**س ١٢ ـ إذا كان الولي مشكوكاً في بلوغه، فهل يجب الاحتياط بأن يوكل من بعده من الأولياء أو لا يحتاج إلى ذلك؟**

ج ـ لا يجب التوكيل، لأن الأصل عدم بلوغه، فما لم يتيقن بلوغه، فهو محكوم عليه بالصغر، والنكاح المعقود في هذه الحال إذا عقده مثلاً الأخ البالغ العاقل مع وجود الابن المشكوك في بلوغه لاتبعة فيه، لأن الله تعالى قال:

**﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**. [سورة التغابن: الآية ١٦]

وهذا نهاية المستطاع حتى ولو كان في نفس الأمر بالغاً ونحن لم نتيقن بلوغه، فلا حرج علينا في ذلك ولله الحمد.

**س ١٣ ـ ما حكم اشتراط العدالة في ولاية النكاح؟**

ج ـ اشتراط العدالة في ولاية النكاح قول ترده الأدلة، ويرده عمل السلف.

**س ١٤ ـ ما معنى الكفاءة في النكاح؟**

ج ـ لا يطمئن القلب في الكفاءة إلا أنها الدين فقط، وهو الذي يقوم عليه الدليل الشرعي بخلاف العوائد والعرف الحادث.

**س ١٥ ـ إذا وكل الولي الغائب وكيلاً على نكاح موليته؟**

ج ـ له ثلاث صور، إما أن يعينه، فيقول: وكلتك في تزويج فلانة فلاناً، فهذا لا يستفيد به الوكيل إلا العقد الأول، فمتى حصلت فرقة فيه، وأريد تزويجها زوجاً آخر، احتيج توكيل غير الوكيل الأول. وإمّا أن يفوض له الوكالة بأن يوكله أن يزوجها متى شاء على أي زوج شاء، فهذا يستفيد به الوكيل العقد الأول وما بعده. الثالث: أن يوكله ويطلق لا يفوضه ولا يعين له زوجاً، بل يقول مثلاً: وكلتك في تزويج موليتي، فهل يستفيد به العقد الثاني وما بعده، أم لا يستفيد به إلا العقد الأول؟ لم أر من صرح تصريحاً يزيل الإشكال في هذا، ويتوجه أو يرجع في ذلك إلى قرائن الأحوال، فإنهم قالوا: ينعقد التوكيل مما دل عليه، فإن دلت قرائن الأحوال على أنه وكيل بكل عقد تزوج به المرأة، وصار غرض الولي اتصال موليته بلا زوج، وأن لا يعطلها عن الزواج، صار بمنزلة التفويض، وإن كان غرضه فقط هذا الزواج الخاص، اختص به، والله أعلم.

## باب المحرمات في النكاح

**س ١ ـ إذا وطىء ابن ثمان امرأة بالغة، أو وطىء بنت ثمان من يولد لمثله، فهل يثبت به تحريم المصاهرة؟**

ج ـ إذا وطىء ابن ثمان سنين امرأة بالغة، أو وطىء بنت ثمان من يولد لمثله. الوطء المذكور لا يخلو من حالين، إما أن يكون الوطء حراماً، فالصحيح

الذي لا ريب فيه أن الوطء الحرام لا ينشر الحرمة، سواء كان الواطىء أو الموطوءة كبيراً وصغيراً، لأنه لا يمكن قياس السفاح على النكاح بوجه من الوجوه، ولا يدخل في لفظ النكاح ولا في معناه، والمشهور من المذهب انتشار التحريم، لكن في وطء ابن عشر سنين، وبنت تسع. فعلى القولين كليهما وطء من دون تسع من ذكر أو أنثى إذا كان حراماً لا ينشر على المذهب، لأنه لا يصلح للوطء، والقول الآخر لعدم ثبوته بالكلية، والحال الثاني أن يكون الوطء في ابن دون عشر، أو بنت دون تسع في نكاح، أو ملك يمين، فهل ينشر حكم المصاهرة؟ على وجهين. المذهب منهما أنه لا ينشر ولو وجد الوطء، لأنهما غير صالحين للوطء، ولو فرض وجوده، فالنادر لا حكم له. هذا تعليل المشهور من المذهب. والوجه الثاني وهو أصح إذا وجد منهما وطء حقيقي، ثبتت به المصاهرة وسائر ما يترتب على مجرد الوطء من غسل وغيره، وهو ظاهر النصوص الشرعية حيث علق هذه الأحكام بوجود الوطء من غير اشتراط سن لا للذكر ولا للأنثى، والناس يتفاوتون في هذه الحال جداً، فقد يوجد من له دون عشر يصلح للوطء، ومن لها دون تسع كذلك، وقد يكون من له أزيد من عشر، أو لها أزيد من تسع لا تصلح للوطء، فالأحكام يجب أن تعلق على ما علقها عليه الشارع، كما يجب تعليق أحكام السفر على ما يسمى سفراً، وأحكام الحيض على وجوده لا عبرة بسنها قلة أو كثرة، ولا بزيادته ونقصه، أو تقدمه أو تأخره، أو قلته أو كثرته، فربط الأحكام بالنصوص الشرعية هو الواجب على المكلفين حتى يأتي من الشرع بالقيود التي يجب المصير إليها والله أعلم.

**س ٢ ـ إذا طلق الرجل زوجته طلاقاً رجعياً أو بائناً، فهل يباح له خطبة أختها أو خامسة من دون عقد؟**

ج ـ الطلاق إذا كان رجعياً، فإنه بالإجماع لا يجوز نكاح أختها أو نكاح خامسة ما دامت في العدة، وإذا كان النكاح باطلاً محرماً بالإجماع، فالخطبة كذلك حرام، لأن الخطبة سعي في هذا النكاح المحرم، بل أعظم مساعيه، ووسائل المحرمات كلها محرمة. فكل أنثى لا يحل نكاحها لا يحل خطبتها

إلا ما استثنى الله تعالى. وهي المتوفى عنها زوجها، ومثلها البائن، فإن الله أباح التعريض فقط، وأما التصريح فلا، ويوجد في بعض فتاوى المشايخ المطبوعة طبع الشيوخ جواز خطبة أخت مطلقته، وهذا وهم ظاهر لا مستند له، ومخالف للأدلة الشرعية ولكلام الفقهاء، فكل المحرمات في النكاح، سواء كان تحريمها مؤبداً أو إلى أمد لا تحل خطبتها، وتتبع سائر المحرمات تجدها كذلك، وأما إذا كان الطلاق بائناً، بأن كان على عوض، أو في نكاح فاسد، أو كان آخر ثلاث تطليقات، فالخلاف في هذا مشهور المذهب عند المتأخرين أنه لا يجوز نكاح أختها أو خامسة ما دامت في العدة، فعلى هذا تحرم خطبتها، والرواية الثانية عن أحمد وهو مذهب كثير من أهل العلم، واختاره شيخ الإسلام جواز نكاح خامسة في عدة البائن على عوض أو نكاح فاسد، أو آخر ثلاث تطليقات، وهو الصحيح لعموم الأدلة، ولعدم أمر الشارع بذلك، وليس حكمها حكم الزوجات بخلاف الرجعية، ومثل ذلك نكاح أختها، فإذا جاز النكاح، فالخطبة من باب أولى، ولكن كثير من الناس يظنون أن اختيار شيخ الإسلام في المبتوتة ثلاثاً بلفظ واحد أنه يجوز له نكاح خامسة في عدتها، وهذا غلط فاحش، فإن شيخ الإسلام يرى أن المبتوتة ثلاثاً بكلمة واحدة، أو كلمات قبل الرجعة أنها واحدة له الرجوع بها، فعلى قوله وعلى المذهب المطلقة ثلاثاً باللفظ الواحد لا يجوز في عدتها نكاح خامسة ولا أختها، والخطبة تابعة لجواز النكاح أو لعدمه على نكاحه.

**س ٣ ـ هل يجوز تزويج المطلقة قبل أن يتيقن انقضاء عدتها؟**

ج ـ أما المطلقة من ذوات الحيض، فلا يحل لوليها أن يعقد لها حتى يتيقن أنها حاضت بعد الطلاق ثلاث حيضات تامات، وأما مع الشك، فلا يحل، ولا يجوز، والأشهر ما تنوب مناب الحيض إلا في حق الأيسات واللاَّئي لم يحضن من الصغار ونحو ذلك، فيجب التحري التام من جهة العدة، فالتي تحيض وإن طال زمن حيضها، كالتي ترضع، فإن عدتها ثلاث حيض تامات.

**س ٤ ــ إذا طلق زوجته ثلاثاً على عوض ثم أراد أن يراجعها فهل تحل له؟**

ج ــ مسألة الطلاق الثلاث أنا لا أكاد أفتي فيها بالكلية.

**س ٥ ــ عن قولهم: من لا فرقة بيده لا أثر لنيته، وفرعوا عليه ما هو من أعظم صور التحليل؟**

ج ــ في «المنتهى» قوله: ومن لا فرقة بيده إلى آخره، تجويز من جوز هذه الصورة مع نهي الشارع البليغ عن نكاح المحلل لا يخفى أنه من أعظم صور التحليل، بل أقواها، لأن هذا العبد في الحقيقة آلة لها وهبتها لمن تثق به ليست حقيقية، ثم زواجها صوري غير معنوي، بل هو في الحقيقة تزوج لسيدته الممنوع نكاحها له إجماعاً، وأين المناسبة بين قولهم: لا فرقة بيدها وبين التحليل، فإن الذي يسعى لحله متوقف على الرجل والمرأة وهو بيده ويدها، فالصواب المقطوع به ما استظهره في «التنقيح» أنه من نكاح التحليل، والله أعلم. ولا ريب أن تجويز هذه الصورة فتح لباب التحليل المحرم شرعاً وعقلاً.

**س ٦ ــ عن نكاح الكتابية إذا لم يكن أبواها كتابيين.**

ج ــ الصحيح أنه لا يشترط لجواز نكاح الكتابية أن يكون أبواها كتابيين وأن العبرة بها بنفسها. واختاره الشيخ تقي الدين.

**س ٧ ــ عن تقييد توبة الزانية.**

ج ــ تفسير الأصحاب رحمهم الله توبة الزانية بأن تراود فتمتنع، أنكره الموفق وغيره، ويحق لهم إنكاره، فإن المراودة من أعظم المنكرات، ولو كان الغرض منها التجربة والامتحان، وهي داخلة في قوله تعالى:

**﴿ولا تقربوا الزنا﴾**. [سورة الإسراء: الآية ٣٢]

فإن المراودة من أقرب الوسائل لوقوع المختبر والمختبرة في الفاحشة، فإن راودها فاجر وقع الفجور أو كاد، وإن راودها تقي خشي عليه وعليها من وقوع المنكر، فإن أحست أن تلك المراودة لأجل الاختبار، لم يحصل بها المقصود، وليست هذه المسألة نظير من أراد معاملة شخص، أو صداقته وهو يجهل حاله، أن طريقه

الاختبار، فذلك يحصل المقصود به من غير حصول فتنة، وهذه المسألة على قولهم ليس لها نظير في الشرع، فهي مضرة محض.

**س ٨ ــ عن بطلان منع الأبوين من نكاح عبد ولدهما.**

ج ــ قول الأصحاب: ليس لحر أو حرة نكاح أمة أو عبد ولدهما إلخ. ذكر هذه المسألة القاضي أبو يعلى فمن بعده، والقول الثاني: يجوز، وهو ظاهر الأدلة الشرعية، وليس في ذلك محذور شرعي، والتعليل الذي ذكروه لا يصلح مخصصاً لعموم الإباحة، وهو قياس ضعيف، ورتبوا على هذا القول الضعيف إذا ملك ولد أحد الزوجين لزوج الآخر انفسخ، والحاصل أن هذا القول الذي اختاروه لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل المبيح، فعلى المانع أن يجيب عن عمومات الإباحة بجواب يصلح للتخصيص، وأنى له ذلك.

## باب الشروط والعيوب في النكاح

**س ١ ــ عن قول الأصحاب: إذا شرطت أن لا يخرجها من منزل أبويها فتعذر سكنى المنزل فله أن ينزلها حيث شاء؟**

ج ــ قولهم: فمن شرطت ألا يخرجها من منزل أبويها فتعذرت سكنى المنزل لنحو خراب، فله أن يسكن بها حيث أراد. قولهم هذا غير ظاهر، إذ عرف أن القصد عدم مفارقتها لأبويها في أي منزل يكونان.

**س ٢ ــ عما إذا شرطت في زوجها صفة فبان أقل.**

ج ــ قولهم في النكاح: وإن شرطت في زوجها صفة، فبان أقل منها، فلا فسخ لها، وقيل: لها الفسخ بفقد صفة مقصودة، وهو الصواب، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلت به الفروج، وكذلك الصحيح الرواية الثانية عن الإمام وهي ثبوت الخيار لمن مكنت زوجها الرقيق جاهلة عتقها، أو ملكها الفسخ وهي الصحيحة كسائر الحقوق لا تسقط إلا بالرضى، أو بما يدل عليه والله أعلم.

**س ٣ ــ إذا كان بالمرأة عيب وهي ووليها جاهلان به؛ فهل يرجع الزوج على أحد بما غرم؟**

ج ــ لا يشترط في عدم رجوعه على أحدهما الجهل بالحكم، وإنما الذي اشترطوا الجهل بالعيب، فإذا كان الولي غير عالم بالعيب، فالرجوع عليها، فإن كانت أيضاً جاهلة بعيب نفسها، وهو ممكن جهلها بعيبها، وممكن صدقها، لم يرجع على أحد، لأن المهر استقر بالدخول وليس ثم مغرر يرجع إليه في المهر، وأما إذا علم أحدهما بالعيب لكنه يجهل الحكم الشرعي، فليس بعذر في الرجوع عليه وتغريمه لوجود التغرير.

**س ٤ ــ إذا تزوج معيبة غير عالم بعيبها، ولم تكن عاقلة، وحلف وليها أنه لا يعلم العيب، أو كانت عاقلة، والعيب باطن، فحلفت هي ووليها أنهما لا يعلمان، فماذا نفعل؟**

ج ــ مراد السائل بسؤاله بعد الدخول، لأنه قبل الدخول الأمر واضح، وإذا حصل الدخول بها فوجدها معيبة، وحلف وليها أنه لا يعلم بعيبها، وأمكن صدقه، فإنه في هذه الحالة يفوت الصداق على الزوج، ولا يرجع على الزوجة لأنها غير عاقلة، ولا على الولي، لكونه غير عالم، والصداق يتقرر للزوجة بالدخول، وأما إذا كانت عاقلة وادعى وليها عدم علمه بعيبها، وأمكن صدقه، حلف وبرىء ولكن هي إذا ادعت أنها لا تعلم بعيب نفسها، فهذا غير معقول أن الإنسان لا يدري بعيب نفسه وهو عاقل، وكل دعوى يكذبها الحس فهي مردودة. فعلى هذا يرجع عليها بما أصدقها لوجود التغرير منها، وقد سبق في جواب المسألة قبلها ما يدل على إمكان جهلها بعيب نفسها وهو ظاهر مثل أن يكون بها برص في جسمها بمحل لا تراه.

**س ٥ ــ إذا تزوج امرأة، فوجدها معيبة، ثم اعتزلها لأجل أن يفسخ النكاح، ثم نسي فوطئها، فهل يبطل خياره؟**

ج ــ قد ذكر الأصحاب أن خيار العيب يسقط بما يدل على الرضى من وطءٍ أو تمكين مع العلم بعيبها، ولم يفرقوا بين الوطء الواقع عمداً أو نسياناً، فعلى هذا لا خيار له حيث وطىء بعد علمه بعيبها.

# كتاب الصداق

**س ١ ـ عن رجل دفع لزوجته صداقاً وعباءة وفراشاً، ثم أقام عندها شهراً، فحصل بينهما كلام، فذهب أهل المرأة بها، فطالبهم الزوج بإرجاعها إلى بيته، فأخذ أهلها الفراش والعباءة، فلما طالبهم بهما، قالوا: هي بنتنا وأخذناهما، وإذا أردت أهلك، فهم مستعدون.**

ج ـ أما ذهاب المرأة عن بيت زوجها، فليس لها حق أن تذهب، وعلى أهلها أن يرجعوها إلى بيت زوجها ولا يؤدي الواجب عنهم قولهم: إن أردت أهلك فهم مستعدون، بل عليهم إرجاعها إلا إن كان هنا موجب وداعٍ لخروجها تعذر فيه، وأما مسألة الفراش والعباءة، فهي للزوجة إلا أن الفراش ما دام أنها في عصمة الزوج، فليس لها تصرف فيه، لأن هذا هو العادة، والشرط العرفي كاللفظي، هذا الذي نرى.

**س ٢ ـ هل يجوز للأب أن يأخذ من صداق ابنته شيئاً؟**

ج ـ للأب أن يأخذ من صداق ابنته ما شاء ولو كان أكثره، لأن له أن يتملك من مالها، فكيف بصداقها والله أعلم.

**س ٣ ـ إذا تزوج بصداق بعضه حالٌ، وبعضه جرت عادتهم أنه لا يحلّ إلا بموت أو فراق، فهل يصح؟**

ج ـ هذا التأجيل صحيح، سواء تلفظوا به أو جرت عادتهم المطردة بذلك، وعلى ذلك، فليس للمرأة ولا لأهلها المطالبة في المؤجل والزوجة في

حباله، وليس لها الامتناع حتى تقبض الصداق المؤجل لأنهم اتفقوا وقت العقد على تأجيله التأجيل المذكور، وإذا ذهبت إلى أهلها، وقالوا: لا نسلمها حتى يسلم الزوج الصداق، فليس لهم ذلك، وامتناعهم عن تسليمها بغير حق، ولو استمرت على هذا الامتناع بهذه الحجة فقط، فليس لها على الزوج نفقة، لأنها ناشز، والناشز بغير حق ليس لها نفقة.

## باب الوليمة

**س ١ ـ ما سبب كراهية الفقهاء للنثار؟**

ج ـ أما كراهية الفقهاء للنثار فهو النثار الذي ينثر في الأعراس، ويعللون الكراهة بأن فيه دناءة، وفيه امتهان للأطعمة، وأما النثار الذي يستعمله بعض الناس في عاشر محرم، ففيه مع المذكورات أنه أثر اعتقاد فاسد لضعفاء العقول يزعمون أنه يطيل العمر، وأيضاً فإنه من بدع الناصبة الذين يقابلون الرافضة بضد عملهم، فيحدثون في عاشوراء شعائر السرور ضد إحداث الرافضة شعائر الحزن، وهذا لا يكفي فيه الكراهة وحدها، بل الذي ينبغي أن يكون محرماً لما فيه من هذه المفاسد مع ما يترتب على ذلك من ذم الصبيان وغيرهم من لم ينثر عليهم، والله أعلم.

**س ٢ ـ ما الفرق بين القيام للرجل وإليه وعليه؟**

ج ـ أما الأول، فمكروه، إلا أن يكون في تركه مفسدة، وقد استحبه طوائف من العلماء لأهل الفضل والولاة والوالدين ونحوهم. وأما الثاني ـ وهو أن يقوم إليه أي: لإنزاله إذا كان راكباً أو كان قادماً من سفر فهو مستحب. والثالث محرم للنهي، فهذان الفرقان بين الأمور الثلاثة يوجب لك أن تعطي الأمور حقها من التأمل، وتنظر الداعي والسبب الحامل عليها، كما تأمل ما يترتب عليها من الخير والشر والمصالح والمفاسد.

# باب عشرة النساء

**س ١ ـ هل يجب القسم للحائض والنفساء؟**

ج ـ المشهور من المذهب وجوب القسم لكل منهما، لأن الجميع زوجات، ولكن الصحيح الذي عليه العمل أن الحائض لها القسم، وأما النفساء، فلا قسم لها لجريان العادة بذلك، ورضاها بترك القسم، بل الغالب أن المرأة ما دامت نفساء لا ترغب أن يقسم لها زوجها، وهذا وجه في المذهب.

**س ٢ ـ ما حكم الدخول إلى بيت الضرة في ليلة الأخرى أو يومها؟**

ج ـ أما تحريم الدخول إلى غير ذات ليلة إلا لضرورة في الليل، أو لحاجة في النهار، فالصواب في هذا الرجوع إلى عادة الوقت، وعرف الناس، وإذا كان دخوله على الأخرى ليلاً أو نهاراً لا يعده الناس جوراً ولا ظلماً، فالرجوع إلى العادة أصل كبير في كثير من الأمور خصوصاً في المسائل التي لا دليل عليها، وهذه من هذا الباب.

**س ٣ ـ هل تجب التسوية بين الزوجات في النفقة والكسوة؟**

ج ـ الصحيح الرواية الأخرى التي اختارها شيخ الإسلام أنه يجب التسوية في ذلك، لأن عدم التسوية ظلم وجور ليس لأجل عدم القيام بالواجب، بل لأن كل عدل يقدر عليه بين زوجاته فإنه واجب عليه، بخلاف ما لا قدرة له عليه كالوطء وتوابعه.

**س ٤ ـ إذا كان لرجل زوجتان، فألجأته أمه إلى التقصير في حق إحداهما، فخير زوجته بين أن تبقى عنده، وتصبر على التقصير، وبين الفراق، فاختارت البقاء، فهل يجوز له ذلك؟**

ج ـ هذا لا حرج عليه إذا خيرها واختارت البقاء، ولا إثم عليه، وإنما الإثم والحرج على أمه التي ألجأته إلى هذه الحال، فإن تمكن من نصيحة أمه بنفسه، أو بواسطة من تقبل منه، وأنه لا يحل لها هذا، ويخشى عليها من العقوبة الدنيوية والأخروية، فهو اللازم، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

**س ٥ ــ إذا تزوج شخص ولم يقدر على وطء الزوجة الجديدة وكان يطأ الأولى، فما السبب وهل له دواء؟**

ج ــ أما اعتقاد بعض الناس أن النكاح ينفسخ، ثم يعقد ثانية، فهذا لا يصلح لا شرعاً ولا ينفع طباً، ولوزعم بعض الناس أنه مجرب، فليس بصحيح، وأكثر الأسباب في هذا أن يكون قد أحب الزوجة الأولى دون الثانية، وعدم الحب لا صلة فيه، فأنت تسأله إن كان ليس بقلبه عدم رغبة لها، بل هو راغب فيها، فلا طب له إلا السؤال من الله، وكثرة التعوذات والورد أول النهار وآخره، وإن كان ليس بخاطره لها رغبة، فهذا هو السبب الأقوى لعدم المحبة فالأحسن أن يؤمر بالصبر لعل الله أن يبدل الرغبة عنها بالرغبة فيها، والله أعلم.

**س ٦ ــ هل تجبر الزوجة الذمية على غسل الجنابة؟**

ج ــ الصحيح فيه أنه يجبرها عليها، كما يجبرها على كل ما يعود بنظافتها، ويمنعها من كل ما يكره منها، لأن طاعته واجبة، وحقه واجب، وهذا من حقه.

**س ٧ ــ هل ما يبعثه الحاكم للنظر بين الزوجين عند الشقاق حكمان أو وكيلان؟**

ج ــ الصواب أنهما حكمان كما سماهما الله تعالى، فعلى هذا يحكمان بما يريانه من جمع، وتفريق بعوض، وبغير عوض، برضاهما أو أحدهما، أو بغير رضى، وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها الشيخ وغيره.

## باب الخلع

**س ١ ــ إذا خالع امرأته على عوض، ثم أراد الرجوع بعد المقاولة وقبل قبض العوض، فهل له ذلك؟**

ج ــ إن كان قد خلعها فعلاً، بأن جرى بينهما الفسخ ولم يبق إلا تسليم العوض، فهذا لا خيار فيه، ولو لم يقبض عوضه، وإن كان قد تقاولا من دون أن يفسخها وإنما اتفقا على أنه سيخلعها إذا سلمته العوض، فهذا لم يحصل منه

فسخ، وإنما حصل منه وعد أنه سيفسخها، فإذا كان لم يفسخها بعد، فله الرجوع عما نواه، ولم يفعله، وإن كان قد قال لها: إن أعطيتيني كذا وكذا، فقد خلعتك، أو فسختك، فالمذهب ليس له الرجوع. وعند الشيخ: إذا لم يقبض العوض فله الرجوع، والأحوط إن كانت جرت هذه الصورة الأخيرة، وأرادا الاتفاق، أن يعقدا عقداً جديداً ليخرجا من الخلاف.

**س ٢ ـ ذكروا أن الخلع لنقص دين الزوج مباح، فهل هذا صحيح، أو يجب الخلع؟**

ج ـ إن كان النقص الذي فيه ترك عفة، أو ترك صلاة فريضة، أو صيام، أو بدعة كرفض ونحوه، فالصواب أنه يتعين عليها أن تسعى بمفارقته بكل طريقة، لأنه لا يحل لها الإقامة مع من هذه حاله إذا لم يمكن تقويمه، وإن كان النقص التجرؤ على بعض المحرمات خصوصاً الصغائر، فلا يجب عليها أن تختلع إذا لم يجبرها على فعل محرم.

**س ٣ ـ إذا خالعت الصغيرة أو المجنونة والسفيهة فهل يصح الخلع؟**

ج ـ أما المجنونة، فليس لها مباشرة شيء من الأموال ولو بإذن وليها، وليس للولي أن يأذن لها في مثل هذه الأشياء، لعدم العقل والمعرفة منها، وأما السفيهة أو الصغيرة، فمخالفتها بغير إذن وليها ظاهر أنه غير صحيح، كسائر المعاملات، وأما إذن الولي، فالصحيح أنه كسائر المعاملات، فكما يصح بيع الصغير والصغيرة، والسفيه والسفيهة، وإجارته ونحوها بإذن وليه، فكذلك مخالفتها لا فرق بين الأمرين، لكن وليها لا يحل له أن يأذن فيما فيه مضرة عليها أو لا مصلحة لها فيه والله أعلم.

**س ٤ ـ إذا طلبت الزوجة أن يطلقها زوجها فأبى إلا أن تبرئه عما في ذمته لها، فأبرأته، فهل يصح وإن لم يأذن أبوها؟**

ج ـ إن كانت عاقلة رشيدة لم يشترط إذن والديها، فاتفاقها مع الزوج على الإبراء المذكور يثبت ولو أبى الوالدان، وإما إن كانت غير رشيدة،

إما صغيرة، وإما سفيهة، فليس لها الإبراء إلا بإذن والدها أو أخيها إذا كان لها في ذلك مصلحة مثل راحة كل منهما من الآخر.

**س ٥ ــ إذا خالع زوجة ابنه الصغير أو المجنون من مال الولد، أو خلع ابنته من مالها، فهل له ذلك؟**

ج ــ أما خلع الأب زوجة ابنه الصغير أو المجنون بشيء من مال الولد، وخلع ابنته بشيء من مالها، فالمشهور من المذهب معروف أنه لا يملك ذلك، ولكن لا وجه له، ولا دليل عليه، فالصواب أنه يملك ذلك خصوصاً، والأب له أن يتملك، ويأخذ من مال ولده ما شاء بلا مضرة على الولد، فكيف لا يملك مفاداة ابنته، وإزالة الغرر عنها بشيء من مالها، أو قبول الفداء لابنه بشيء تبذله زوجته إذا كانت العشرة بين الزوجين غير مستقيمة؟! وأما إذا حسنت العشرة، فلا ينبغي للأب ولا لغيره السعي في كل أمر فيه التفريق بينهما بخلع وغيره.

**س ٦ ــ هل للأب أن يخالع من مال ابنته الصغيرة، أو عن ابنه الصغير؟**

ج ــ للأب أن يخالع عن ابنه الصغير، ويطلق، وكذلك له أن يخالع من مال ابنته الصغيرة، ومال إليه الموفق والشارح حيث رأى فيه مصلحة، وصوبه في «الإنصاف» وهذا هو الموافق للأصل، لأن الأب نائب مناب ولده الذي لا يستقل بأموره في أحوالها كلها.

**س ٧ ــ إذا لم يكن في الخلع عوض فهل يقع؟**

ج ــ أما الخلع؛ فكما قالوا: لا بد أن يكون بعوض لأنه ركنه الذي ينبني عليه، وإذا خلا منه، فليس بخلع، بل يكون طلاقاً رجعياً إذا نوى به الطلاق.

**س ٨ ــ هل يصح الخلع بالمجهول؟**

ج ــ أما الخلع بالمجهول كما في نيتها من دراهم ونحوها، فهو صحيح، لاغتفارهم الغرر في الخلع، لأن المقصود منه الافتداء، كما اغتفروا ذلك في الوصية بالمجهول، والإقرار والصداق، وطرده صحته في الهبة ونحوها لوجود

العلة، لأن ما كان عوضه غير مالي دخله من المسامحة والمساهلة ما لا يدخل الأعواض المالية، وما كان تبرعاً فكذلك، لأنه لا مقابل له، فيحتاج أن يحرر ويعرف.

**س ٩ ــ هل يصح جعل نفقة الحامل عوض خلع؟**

ج ــ يصح ذلك وهو المشهور من المذهب، لأنها وإن كانت للحمل فهي في حكم المالكة لها، والله أعلم.

**س ١٠ ــ عن فتوى ابن نصر الله فيمن قال لزوجته: إن أبرأتني من حقوق الزوجية، ومن العدة، أي: نفقتها، فأنت طالق، فأبرأته بعدم البراءة، وعدم وقوع الطلاق. وفي هذه الفتوى نظر.**

ج ــ في فتوى ابن نصر الله نظر سواء قلنا بصحة البراءة من نفقة العدة قبل الشروع فيها، كما هو الصحيح فيها وفي إسقاط كل حق انعقد بسببه، أو لم نقل بذلك. وحينئذ، فإن مراده ولفظه صريح في تعليق طلاقها على مجرد الإجابة والإبراء المذكور.

**س ١١ ــ إذا علقت طلاقها بصفة، ثم أبانها، فوجدت، ثم نكحها، فوجدت، فهل تطلق؟**

ج ــ ذكروا بأنها تطلق من غير تفريق بين الصفات التي يقصد بها التعليق المحض كدخول شهر، أو سنة، أو قدوم أحد، أو الصفات التي يقصد بها الحلف، كتعليقه على دخول دار، وتكليم أحد مما يقصد به الحث أو المنع، وشيخ الإسلام يفرق بين الاثنين، فيجعل الأخير من باب الحلف الذي فيه كفارة يمين. سواء كان وقوعها في النكاح الذي علقها به أو في غيره، ولا شك أن قوله هو الصحيح والله أعلم.

# كتاب الطلاق

**س ١ ــ هل يجب الطلاق بتركها الصلاة أو العفة؟**

ج ــ الصواب وجوب طلاقها إذا لم يمكنه تقويمها كما اختاره الشيخ وغيره.

**س ٢ ــ هل يقع طلاق الغضبان؟**

ج ــ أما طلاق الغضبان، فهو واقع كما قالوا، لأنه لا يكاد الطلاق يصدر إلا في الغضب، وليس بمعذور بغضبه، إلا إن غضب حتى أغمي عليه، وزال تمييزه وعقله، فهو في حكم المجنون، وكذلك السكران على الصحيح أنه لا يقع طلاقه، ولا إقراره، ولا تصح جميع معاملاته لعدم عقله.

**س ٣ ــ هل يعد تلزيم أهله بالطلاق إكراهاً؟**

ج ــ أما تلزيم أهله عليه بالطلاق، فلا يقال له: إكراه ولو أكدوا عليه ولزموا عليه كثيراً، فإن الإكراه الذي لا يقع به طلاق من إكراه، إذا ألجىء بضرب أو تهديد بقتل أو نحو ذلك، هذا المكره الذي لا يقع طلاقه ولا جميع تصرفاته والله أعلم.

## باب صريح الطلاق وكنايته

**س ١ ــ ما هو الحد الذي يعرف به الصريح من الكناية؟**

ج ــ ذكروا ضابطه، وهو أن اللفظ الذي لا يحتمل غير معناه، فهو

صريح، وما يحتمله ويحتمل غيره، فهو كناية، وذلك في الطلاق والخلع والرجعة، والعتق ونحوها.

س ٢ ـ ما هي الصيغ المعتبرة في الطلاق؟

ج ـ الأصحاب رحمهم الله حصروها بألفاظ معينة جعلوا الصريح لفظ الطلاق، وما تفرق منه، والكناية قسموها إلى ظاهرة وخفية، وذكروا ألفاظ كل منها كما هو موجود عندكم في شرح «الزاد» و«المنتهى» و«الإقناع» وأما الصحيح وهو قياس المذهب، واختيار الشيخ وغيره من المحققين، فإنه لا ينحصر، ولا يتعين بلفظ مخصوص، بل كل لفظ أفاد معنى الطلاق، فإنه يصلح أن يكون من ألفاظ الطلاق، كما في ألفاظ المعاملات وغيره والله أعلم.

س ٣ ـ عما ذكر من صرائح الطلاق؟

ج ـ صريح الطلاق أنواع لفظه وما تصرف منه غير ما استثني. الثاني: الجواب الصريح الألفاظ. الثالث: إذا عمل معها عملاً، وقال: هذا طلاقك. الرابع: إذا أشركها ونحوه فيمن طلقها بصريح الطلاق. الخامس: قول النجديين: أنت بالثلاث ونحوه. السادس: الألفاظ الصريحة في اللغات الأخرى إذا كان عارفاً بمعناه.

س ٤ ـ ما معنى قولهم: يديَّن في كثير من ألفاظ الطلاق؟

ج ـ أما معنى قولهم: يدين في كثير من ألفاظ الطلاق التي فيها نوع احتمال لغير الطلاق، فإنهم لا يقبلون حكمًا حيث رافعته إلى الحاكم وطلبت من الحاكم أن يحكم عليه بما صدر منه، فالحاكم لا يسعه أن يحكم إلا بما يقتضيه لفظ الذي نطق بالطلاق، إلا أنه إنما يحكم بالظاهر من لفظه، لا بما قال: إنه نواه، لاحتمال كذبه، فأما إذا لم ترافعه زوجته، فإن العبرة بما نوى. ومعنى قولهم: يدين، أي: يرجع إلى دينه وأمانته، وإن هذا أمر بينه وبين الله تعالى لا يطلع عليه إلا الله، فحيث عرف من نفسه أنه لم يقصد الطلاق، وإنما قصد معنى آخر، لم يقع عليه، والله أعلم.

**س ٥ ـ هل كنايات الطلاق محصورة؟**

ج ـ أما على المذهب، فهي محصورة بما ذكروه، وأما على القول الصحيح الذي لا شك فيه، فلا تنحصر الكنايات ولا الصرائح بعدد، بل كل لفظ دل دلالة واضحة لا احتمال فيه على الطلاق، فهو صريح، وكل لفظ احتمل الطلاق وغيره، فهو كناية لا بد أن ينضم إليه ما يقويه من نية أو قرينة، وكما أنه الصواب، فهو الموافق لقاعدة المذهب أن العقود والفسوخ تنعقد وتنفسخ بما دل عليها من أي لفظ كان.

**س ٦ ـ إذا ألجأته زوجته ألا يتزوج عليها حتى يطلقها، فتخلص من إلجائها بأن أودع رجلاً شهادة بأنه سيقول لها: أنت بالثلاث، ويقصد بالثلاث مناصب القدر، فهل يقع الطلاق؟**

ج ـ لا يقع على مثل هذا طلاق، لأنه صرح لهذا الرجل الذي أودعه الشهادة على مراده بقوله: أنت بالثلاث أنه يريد ويعين المناصب الثلاث لا وقوع الطلاق عليها، وهذا أبلغ مما لو قال بعد ما نطق بصريح الطلاق: أريد طلاقاً من وثاق أو زوج قبلي، أنه يُدَيَّن فيما بينه وبين الله، ويرجع إلى نيته، وهو مجرد دعوى. وهذه دعوى قد قارنتها القرينة وهو الإلحاح منها، والإلجاء بغير حق، وصاحبها يودع هذه الشهادة التي بنى كلامه عليها، وإذا كانت الأعمال بالنيات، والنية يرجع فيها إلى ما نوى الناطق، فكيف وقد اجتمع أمور ثلاثة: نية المتكلم، وقرينة الحال، وإيداع الشهادة، فهذا ليس في النفس شيء من قضيته أنه لا يقع عليه شيء. وهنا ملاحظة رابعة، فإن قوله: أنت بالثلاث نهاية ما تكون أن تلحق بقوله: أنت بالطلاق الثلاث إذا خلت من نية أو قرينة، لأن قوله: أنت بالثلاث صفة لموصوف محذوف، فلو كان هذا المذكور موجوداً في الكلام، كان حكمه ما تقدم عدم الوقوع، فكيف وهو ملحق إلحاقاً مع عدم القرائن بالكلية، وهذا مما يزيد المسألة وضوحاً وطمأنينة والله أعلم.

**س ٧ ـ كم طلاقاً يقع بالكناية الظاهرة؟**

ج ـ أما وقوع الطلاق ثلاثاً مع الكناية الظاهرة، فهو ظاهر المذهب،

واختار أبو الخطاب وغيره أنه يقع واحدة إلا إنْ نواه ثلاثاً، وهو رواية عن الإمام أحمد، وأما اختيار شيخ الإسلام، فهو معروف.

## باب ما يختلف به عدد الطلاق

**س ١ ـ إذا قال لزوجته: إن عقبت هذا المحل، فأنت طالق، ولم يذكر عدداً، فعقبت المحل؛ فكم تطلق؟**

ج ـ نرى أنه لا يقع على الزوجة إلا طلقة واحدة، فإذا كانت في العدة، فله أن يراجعها، وإن كانت قد خرجت من العدة، فلا بد من عقد زواجٍ بشهود وصداق وولي وغيرها من شروط النكاح والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يقع الطلاق إذا أضيف إلى الروح؟**

ج ـ الصواب وقوعه، وإن كان المشهور غيره، وأما إضافته إلى السن والشعر، فعندي فيه توقف وإشكال لا أجزم بواحد من الأمرين.

**س ٣ ـ هل يصح الاستثناء، وإن لم ينوه حال تلفظه بالمستثنى منه؟**

ج ـ أما إذا استثنى في الطلاق، واتصل استثناؤه بكلامه، فالصحيح اعتبار هذا الاستثناء، سواء نواه قبل كمال لفظ الطلاق، أو لم ينوه حتى فرغ من اللفظ، ولكنه حالاً وصله بالطلاق.

## باب الشك في الطلاق

**١ ـ إذا شك في الطلاق أو شرطه فهل يقع؟**

ج ـ أما حكم الشك في الطلاق أو في شرطه، فكما قالوا: يبنى على اليقين، فإن الأصل العصمة، وبقاء الزوجية، فمتى شككنا في وجود ما يزيلها، ألغينا ذلك حتى نصل إلى اليقين.

**س ٢ ـ إذا قال: إن كان هذا الطائر غراباً، ففلانة طالق، وإن كان حماماً ففلانة، وجهل، فهل يقع الطلاق عليهما أو على إحداهما؟**

ج ـ الأمر كما قالوا إذا قال: إن كان الطائر غراباً، ففلانة طالق، وإن كان حماماً، ففلانة طالق: أنه لا تطلق واحدة منهما، لاحتمال أنه غيرهما من الطيور حيث جهلت الحال.

**س ٣ ـ إذا قال لمن ظنها أجنبية: أنت طالق، فتبين أنها امرأته، فهل تطلق؟**

ج ـ المشهور أنها تطلق اعتباراً بأنه خاطبها بالطلاق، والقول الآخر في المذهب أن زوجته لا تطلق، لأنه لم ينوها، بل ظنها أجنبية، والأعمال بالنيات، وهذا أقوى مأخذاً.

**س ٤ ـ ما رأيكم في قول الأصحاب رحمهم الله في بعض مسائل الطلاق المشتبه فيه أو في وجود ما علق عليه أن الاحتياط التزام الطلاق؟**

ج ـ فيه نظر ظاهر، فإن الاحتياط يحسن في توقي المشتبهات إذا لم تدخل العبد في محذور شرعي، فإذا أدخلته فيه، فتركه الاحتياط هو المتعين، وذلك أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، لما فيه من كثير المفاسد، وزوال كثير من المصالح، فمتى قلنا: الاحتياط التزام الطلاق، وقعنا في هذه المحاذير، ونحن معنا الأصل وهو العصمة، فإن الأصل بقاء النكاح حتى يجزم بزواله، فتمسكنا بهذا الأصل أولى بنا من تركه، وتمسكنا بالاحتياط، ونظير ذلك أن من عنده مال مشتبه، وعليه دينٌ أو واجبات مالية لا يمكن أداؤها إلا بذلك المال المشتبه، فليس له أن يقول: أنا أحتاط وأترك هذا المال المشتبه، فيترتب عليه ترك واجب محقق والله أعلم.

## باب تعليق الطلاق بالشروط

**س ١ ـ قولهم: لو علق الطلاق ولم يملك تعجيله وهل على كلامهم إذا علق ثلاثاً قبيل موته، ثم أراد فراقها، فهل يملك شيئاً أم يعايا بها؟**

ج ـ أما قولهم: إذا علق الطلاق ولم يملك تعجيله. وجه ذلك أن التعليق للطلاق لازم ليس له إبطاله ولا تغييره، فكما لا يملك إذا قال لزوجته: إذا جاء رمضان، فأنت طالق، لا يملك الرجوع عنه، ولا يملك بعد هذا التعليق أن يؤخره إلى ذي الحجة مثلاً، فلا يملك جعل بدل رمضان شهراً قبله كرجب وشعبان، بل إذا قال: عجلته وأراد طلاقاً جديداً وقع والمعلق بحاله، فصار الحاصل أنه لا يملك إبطاله ولا تقديمه ولا تأخيره ولا تغييره، وإن وقع شيئاً، صار شيئاً جديداً، وأما قولهم: إذا علق ثلاثاً قبيل موته، ثم أراد فراقها، فإنه يملك الفراق، ولا تصير هذه المسألة من مسائل المعاياة، لأنكم ظننتم أن الثلاث المعلقة قبيل الموت تمنع من وقوع فرقة قبلها، فحينئذ تصح المعاياة، ولكنه ظن لو تأملتموه لعرفتم أنه لا دخل لهذا التعليق بالفراق الأول، وإنما انقلبت عليكم المسألة السريجية التي من صورها أن يقول: متى وقع عليك طلاقي، فأنت طالق قبله ثلاثاً، وأنه لا يقع على هذا القول طلاق، ولكنه قول معروف ضعفه وشذوذه.

**س ٢ ـ قولهم: إذا قال: أنت طالق؛ وعبدي حر إن شاء الله وإن لم يشأ الله بالنفي والإثبات وقعا؛ هل هو وجيه؟**

ج ـ نعم وجيه، لأنه أوقعه، فإذا أوقع الطلاق والعتق، فقد وقعا، فقوله بعده: إن شاء الله أو لا إن يشأ الله، لا يرفع ما وقع، فإنه مع الإثبات حقيقة، وأما مع النفي فبأي شيء نعرف أن الله لم يشأ وقوعه وقد وقع، بل وقوعه دلنا أن الله شاءه، لأنه ما شاء كان ولا بد من وقوعه.

**س ٣ ـ من حلف بالطلاق ألا يفعل شيئاً، ثم حنث وفعله وقد تزوج قبل حنثه وبعد حلفه، فهل يقع بها أم لا؟**

ج ـ لا يقع إلا بزوجة موجودة وقت تعليقه، ووقت حنثه، وأما الزوجة

التي يستحدثها بعد تعليقه، وقبل حنثه، فلا يقع بها، وقد صرح به الأصحاب، وعلته ظاهرة، لأنه إنما حلف على الفعل الذي يملكه، وهو الذي قصد الامتناع منه، فعلقه على فراق من يكره فراقها، والعبرة بذلك وقت عقد يمينه، وأما الإشكال الذي نشأ لكم من كلام صاحب «الفروع» نقلاً عن «الروضة» وهو قوله: فإن لم يبق تحته أحد، ثم تزوج أخرى، وفعل ذلك، وقع أيضاً، كذا قال، فصاحب «الفروع» رحمه الله كفاكم الإشكال، لأن قوله عنه: كذا قال، تضعيف له، وبيان أنه مخالف للقواعد ولما عليه الأصحاب، مع أن كتاب «الروضة» لا يعلم مصنفه، ولكنه كتاب فيه فوائد جليلة، وله اعتبار عند الأصحاب، ولكن فيه بعض المسائل المخالفة للمذهب، كهذه المسألة والله أعلم.

**س ٤ ــ إذا طلقها بشرط أن تبرئه من نفقة الحمل، فما الحكم؟**

ج ــ قد نصوا على جوازه، وعلى هذا فإذا كانت حاملاً صار طلاقاً على عوض، فيكون بائناً، وليس عليه من نفقة الحمل شيء، وإنما جوزوا الخلع على نفقة ما في بطنها، لأنها في حكم المالكة لها، لأنها في التحقيق لها، ولو كانت المفاداة المذكورة ظانة أنه ليس فيها حمل، ثم تبين بعد ذلك، فإن العوض في الخلع قد اغتفروا فيه الجهالة ما لا يغتفر في غيره.

**س ٥ ــ قولهم: وإن خرجت إلا بإذني، وأذن لها ولم تعلم، ثم خرجت طلقت، فهل هو وجيه؟**

ج ــ نعم هو وجيه لأنه قيده في هذه الحال، وهو الموقع له، فإذا أزال هذا القيد من نفسه، فالأمر راجع إليه، لا إليها. أما هي، فإنه وإن كان لا يحل لها الخروج حتى تعلم أنه أذن، لكن الطلاق تعليقه وإيقاعه ليس بيدها، بل بيده هو، فما ذكروه وجيه، والله أعلم.

**س ٦ ــ إذا قال لزوجته: إن أخرجت شيئاً من بيتي بغير إذني قليلاً كان أو كثيراً، فأنت طالق، ثم بعد ذلك بيومين استثنى: إلا ما أخرجت لسائل ونحوه، هل يقع، أم لا؟ وهل هو يمين، أو شرط؟**

ج ـ هذا يمين بالطلاق، لأن اليمين الذي يقصد منه الحث أو المنـع، وهذا قصده منها بكلامه لها من الإخراج من بيته. وأما استثناؤه بعد يومين لسائل ونحوه، فإن كان قصده أولاً قصداً، فلا تخرج من بيته شيئاً لا لسائل ولا لغيره، فلا ينفعه هذا الاستثناء، لأنه لم يتصل بكلامه، والاستثناء الذي لم يتصل لا يفيد شيئاً، لأنه لو أفاد، لخرجت الأَيْمان عن المقصود بها وأما إذا كان لم يقصد السائل ونحوه، وعلامة ذلك أنه لو قيل له حال تكلمه باليمـين المذكورة: هل أردت دخول السائل بيمينك، أم لا، لقال: قصدي إخراجها لغير السائل، فإن نيته كافية إذا أخبر بعد ذلك أنه لم يدخلها في يمينه، وكذلك لو كان سبب اليمين الذي هيجها أمر لا يدخل فيه إطعام السائل، لم يدخل في يمينه المقصود. والأصل أن كلام الحالف عامّ، إلّا إنْ نوى تخصيصه وقت حلفه، أو كان السبب أمراً خاصاً، والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا قال: علي الطلاق أني لا أدخل المحل الفلاني، ثم دخله؛ فما الحكم؟**

ج ـ من قال: عليَّ الطلاق أني لا أدخل المحل الفلاني، ثم دخله متعمداً غير ناسٍ، وقـع عليه طلقة واحدة، فإن لم يدخل المحل المذكور، لم يقـع عليه شيء.

**س ٨ ـ إذا حلف على شيء ليفعله، فهل يبرأ بفعل بعضه؟**

ج ـ إذا حلف على شيء ليفعله، ففعل بعضه وهو يمكنه فعل جميعه، فإنه لا يبرأ حتى يفعله جميعه إذا كان نوى ذلك أو أطلق، وأما إذا نوى أنه يفعل بعضه، فالأَيْمان كلها مبناها على النية، وإذا حلف لا يفعـل شيئاً، ففعل بعضه، قالوا: لا يحنث. وعندي فيه تفصيل، وهو أنه إن كانت النية أو سبب اليمين الذي هيجها أن القصد الامتناع من فعل الشيء جميعه أو بعضه، ككثير من الأمور التي يحلف أنه لا يفعلها، والقصد منه أن لا يفعل شيئاً منها، فهذا يحنث بفعل البعض، وإن كان القصد الذي يتبادر إلى الأذهان من هذا الحلف أنه يمتنـع من فعل جميعه، فالأعمال بالنيات، وقد ذكر الأصحاب في «باب الأَيْمان»

وجوب تقديم النية في الأَيْمان على كل شيء، ثم سبب اليمين التي هيجها، ثم مقتضى الألفاظ، والله أعلم.

**س ٩ ـ إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو جاهلاً، فهل يحنث؟**

ج ـ الصحيح أنه إذا فعل المحلوف عليه ناسياً أو جاهلاً، فلا يحنث في الطلاق والعتق كغيرهما من الأَيْمان، ومثله المتأول والمقلد والعاقد يظن صدق نفسه، الجميع حكمها واحد.

## باب الرجعة

**س ١ ـ إذا طلق زوجته طلقة واحدة، ثم تبين أنها حامل، فهل له رجعتها وإن كرهت؟**

ج ـ نعم له أن يراجعها قبل الوضع، رضيت أو كرهت، وأما بعد الوضع، فلا يراجعها، لكن له أن يتزوجها زواجاً جديداً بصداق وولي وشهود.

**س ٢ ـ بماذا تحصل الرجعة؟**

ج ـ أما الرجعة، فإنها تحصل بالقول، كقوله: راجعتها، وينبغي أن يشهد على ذلك، وأوجبه بعض العلماء، وكذلك تحصل بالوطء إذا قصد به الرجعة، وأما إذا لم يقصد بالوطء الرجعة، فالمشهور من المذهب: تحصل به الرجعة، والرواية الأخرى عن الإمام: لا بد فيه من النية، وهو الصحيح. وأما مجرد الخلوة، فلا تحصل به الرجعة، لأن الرجعية زوجة في جميع الأحكام: يجوز أن تتزين له وينظر إليها ويخلو بها إلا أنه لا قسم لها. فالحاصل أن الرجعة تحصل بالقول، وما يدل عليها من الفعل، وهو الوطء خاصة، مع النية أو مع عدمها، على ما ذكرنا من الخلاف.

**س ٣ ـ إذا طلق زوجته، ثم راجعها ظناً منه أن عدتها لم تنقض فتبين انقضاؤها، فعقد عليها عقداً جديداً، ثم طلقها، فهل تحل له رجعتها؟**

ج ـ إذا راجعها قبل انقضاء عدتها بعد الطلقة الثانية، فله ذلك، ولا

يحتاج إلى عقد إن كانت العدة لم تنقض، فإن كانت العدة قد انقضت، احتاج إلى عقد جديد بجميع الشروط.

**س ٤ ــ قال الأصحاب: إذا طهرت من الحيضة الثالثة ولم تغتسل، فله رجعتها، فهل هو وجيه؟**

ج ــ فيه نظر، فإن جميع الأحكام تتعلق بانقطاع دمها من الحيضة الثالثة، فيجب أن يكون هذا منها، وهو قول جمهور العلماء، وهو ظاهر القرآن، حيث قال تعالى:

**﴿وبُعولتُهن أحقُّ بردِّهن في ذلك﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

والإشارة إلى ما تقدم من القروء فهي بعد الطهر ليست في قروء لأن القروء الحيض.

**س ٥ ــ ما حكم المطلقة الرجعية؟**

ج ــ حكمها حكم الزوجات يجوز له النظر إليها، والخلوة بها، ويجوز لها خدمته ما دامت في العدة، وينبغي عليها أن لا تخرج من منزله حتى تتم العدة.

**س ٦ ــ إذا كانت قد انقضت عدتها، فقال الزوج: كنت قد راجعتك قبل، فكذبته، فما الحكم؟**

ج ــ الذي جرى عليه صاحب متن «الزاد» أنه نظير قولها ابتداءً: انقضت عدتي قبل أن تراجعني، أن القول قولها حتى يأتي ببينة تشهد بأنه راجع قبل انقضاء العدة وهو الصحيح، لأنه لا فرق بين أن يكون هو المبتدىء أو هي المبتدئة، والقاعدة أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، سواء ابتدأ أحدهما بالدعوى أو ابتدأ الآخر. أما الشهور، فيفرقون بين ابتدائه وابتدائها، فيجعلون ابتداءه يقبل فيه قوله، ولكنه قول ضعيف جداً.

**س ٧ ــ هل تحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول إذا وطئها الثاني حال الحيض أو كان خصياً أو موجوءاً أو نحوهما؟**

ج ــ عند الموفق، والشارح: يحلها لزوجها الأول اعتباراً بحقيقة الوطء،

والمشهور عدم الإحلال لعدم الإحلال، كذا بخطه. وعندي فيهـا إشكال لا أرجـح واحداً من القولين.

وأما وطء الخصي والموجوء ونحوهما، فإذا وجد حقيقة الوطء، أحلها بذلك لتحقيق الشرط الذي ذكره النبـي ﷺ وهو ذوق العسيلة.

## باب الإيلاء

**س ١ ــ هل تحصل الفيأة من المكره والناسي والجاهل ونحوهم؟**

ج ــ قال الأصحاب: تحصل الفيأة من المكره والناسي والجاهل والمجنون والنائم، والأمر كما قالوا.

# كتاب الظهار

**س ١ ــ هل يصح الظهار من الأجنبية؟**

ج ــ الصحيح أنه كطلاقها، فلا يقع على أجنبية طلاق وظهار، سواء نجزه بأن قال: أنت طالق، وأنت علي كظهر أمي، أو علَّقه على تزويجه لها، كقوله: إن تزوجتك فأنت طالق، أو عليَّ كظهر أمي، هذا هو الصحيح، وهو إحدى الروايتين، وهو ظاهر النصوص، والمشهور من المذهب أن الطلاق لا يصح، والظهار يصح من الأجنبي، وهذا قول غريب، فإن الظهار فرع عن الطلاق، فإذا لم يصح طلاقها وهو فراق يؤول إلى البينونة، فعدم صحة الظهار أولى.

**س ٢ ــ هل يصح ظهار المميز؟**

ج ــ أما الصبي المميز، فإن ظهاره وإيلاءه مبني على صحة طلاقه، فإذا صح طلاقه كما هو المذهب، صح ظهاره، وإذا لم يصح طلاقه كما هو أحد القولين في المذهب، لم يصح ظهاره، أما الإيلاء فإنه يمين، واليمين لا تنعقد من الصغير، بل لا بد أن يكون بالغاً.

**س ٣ ــ إذا قال لزوجته: أنت علي حرام أو كالميتة فما الحكم؟**

ج ــ إذا قال لزوجته: أنت علي حرام، أو كالميتة والدم، فهو مظاهر، كما قال الأصحاب، فإنه صريح في الظهار.

**س ٤ ـ إذا ظاهرت الزوجة من زوجها، فهل يكون ظهاراً؟**

ج ـ الأصحاب قاسوها على الزوج في وجوب كفارة الظهار عليها لا في الظهار، وهو قياس متناقض مخالف لظاهر القرآن، فإن حكم الكفارة المذكورة في القرآن إنما هو في ظهار الزوج من زوجته، وهو الرواية الأخرى الصحيحة عن الإمام.

**س ٥ ـ إذا كرر الظهار، فهل تتكرر الكفارة؟**

ج ـ وإذا كرر الظهار من زوجة واحدة فعليه كفارة واحدة، إلا إن ظاهر ثم كفر ثم ظاهر بعد الكفارة، فعليه كفارة أخرى.

**س ٦ ـ ما المعتبر في الكفارات؟**

ج ـ المعتبر في الكفارات كلها وقت وجوبها، فلو أيسر أو أعسر بعد ذلك، كان النظر للوقت الذي وجبت فيه.

**س ٧ ـ هل يشترط لوجوب الرقبة في الكفارة أن تفضل عن حاجته؟**

ج ـ الشروط التي ذكر الأصحاب في شراء الرقبة من كونه واجداً ما يزيد عن حوائجه الأصلية وقضاء دينه وما تتعلق به حاجته، هو وجيه، لأن ما تعلقت به حاجة الإنسان شبيه بالمعدوم.

**س ٨ ـ قولهم في شرح «الزاد»: تمهل الرقبة ثلاثة أيام، مفهومه لا يمهل للصيام والإطعام، فهل هو وجيه؟**

ج ـ نعم وجيه، لأن الكفارات كلها تجب على الفور، والإطعام متيسر، والرقبة في الغالب غير متيسرة، فلذلك حصل فيها الإمهال المذكور، والأولى أن لا يقيد بثلاثة أيام بل بالعرف.

**س ٩ ـ ما هي الرقبة التي تجزىء في العتق؟**

ج ـ الذي يجزىء في العتق في جميع الكفارات، هي الرقبة المؤمنة، السليمة من العيوب الضارة بالعمل، لأن العيوب لها عدة إطلاقات عند الأصحاب، ففي الأضاحي عيوبها معينة معروفة، وفي البيع وأنواع التجارة

ما عده التجار عيباً، وفي هذا الباب ما سلم من كفر وعيب ضار بالعمل، والعيوب في النكاح مضبوطة عندهم معينة، فإذا أعتق رقبة لا تجـزىء في الكفارات، عتقت ولم تجز، وأما إذا أعتقه عنه غيره بغير أمره، فلا ينفذ ولا يجزىء إن كان العبد ملكاً للمكفر، لأن المعتق غير مالك ولا مأذون له في العتق، وإن كان المعتق الذي نوى عن غيره أعتق عبد نفسه بهذه النية، وقـع العتق ولم يقـع عن المنوي عنه لعدم النية ولعدم دخوله في ملكه.

**س ١٠ ــ هل يمنـع قطـع أصابـع الرِّجْل من إجزاء الرقبة في الكفارة؟**

ج ــ ظاهر كلام الأصحاب إجزاء ذلك، لأن قطـع أصابـع الرجلين إذا لم يحدث مرضاً لا يضر بعمل.

**س ١١ ــ ما الذي يقطـع التتابـع في صيام الكفارة؟**

ج ــ هي الفطر من غير عذر سفر أو مرض أو عيد أو تشريق أو حيض أو نفاس، فما عذر فيه عن صيام رمضان عذر فيه عن تتابـع صيام الكفارة.

**س ١٢ ــ هل يجزىء إخراج القيمة في الكفارة؟**

ج ــ أما إخراج القيمة في الكفارات، فلا ينبغي إذا لم يحتـج إلى ذلك، فإن احتيـج إلى ذلك، بأن كانت المصلحة في إخراج القيمة أرجـح، فالصحيـح جواز ذلك.

**س ١٣ ــ إذا عجز عن الكفارة وقت الوجوب، فهل يسقط؟**

ج ــ الصواب إبقاؤها في ذمته ديناً من غير فرق بين كفارة وكفارة، كسائر الديون التي لله أو للآدميين.

**س ١٤ ــ إذا وطىء أثناء التكفير، فهل ينقطـع التتابـع؟**

ج ــ أما المكفر بالإطعام في الظهار، فقد ذكروا أنه لا يحل له الوطء قبل أن يكمل الإطعام، فإن فعل فهو آثم، وبنى على إطعامه السابق، بخلاف الصيام، فإن الوطء للمظاهر منها في أثنائه مـع تحريمه يقطـع التتابـع والله أعلم.

# كتاب اللعان وما يلحق من النسب

**س ١ ـ هل يصح اللعان قبل الدخول؟**

ج ـ نعم لأنها زوجة، فتدخل في عموم قوله تعالى:

﴿**والذين يرمون أزواجهم..**﴾ [سورة النور: الآيات ٦ ـ ١٠]

إلى آخر الآيات لأنها تصير فراشاً بمجرد العقد، ولو لم يحصل دخول، فيحتاج إلى نفي الولد قبل الدخول كما يحتاج إليه بعده، وعلى هذا فيثبت لها نصف الصداق، فإنه وإن لم تحصل الفرقة إلا بتمام التعانها، فإنها كأنها صادرة منه.

**س ٢ ـ ما الذي يعتبر في إلحاق النسب؟**

ج ـ هذا سؤال مهم جداً، وفيه اختلاف كثير بين أهل العلم، وأصل ذلك كله أن النبي ﷺ قال: (الولد للفراش) فمتى كانت المرأة فراشاً، زوجة كانت أو سرية، فوجد منها الولد، كانت لصاحب الفراش، ولكن بأي شيء يتحقق الفراش؟ أما على المشهور من المذهب فإن الزوجة تكون فراشاً بمجرد العقد إذا أمكن اجتماعه بها، وإن لم يتحقق اجتماعه، وأمكن أنه منه، بأن تأتي به لأكثر من ستة أشهر أو لستة أشهر منذ عقد عليها، أو قبل أربع سنين منذ أبانها، ومع هذا الفراش لا يعتبر شبه ولا دعوى أحد ولا غيرها، فأما إذا لم يمكن اجتماعه، كمن تزوجها ثم أبانها في مجلس العقد، أو علم أنه لم يجتمع بها، كمن هو في بلد بعيد، ولا يخفى مسيره، فإنه لا يلحق، وكذلك إذا ولدته

لدون ستة أشهر منذ عقد عليها أو أكثر من أربـع سنين من وقت بينونتها، فإنه لا يلحقه، هذا كله في حق الزوجة. وأما السرية، فإنها لا تكون فراشاً حتى يطأها ويثبت وطؤها بإقراره أو بالبينة، فإذا ثبت الفراش فيها، فحكمها كما تقدم، وأما إذا لم يقرَّ بوطئها إذا لم تقم البينة به، فلا تكون فراشاً. هذا تحرير المذهب في ذلك. واختار الشيـخ تقي الدين أن الزوجة كالأمة لا تكون فراشاً إلا بتحقيق الوطء، وقوله أقرب للصواب، وكذلك الصحيـح أن أكثر مدة الحمل لا تتقيد بأربـع سنين، بل قد تكون أكثر، وهو قول في المذهب، ورجحه بعض الأصحاب، لأنه الموافق للواقـع.

**س ٣ ــ عن تبعض الأحكام؟**

ج ــ قـد تتبعض الأحكام في المحـل الواحـد، وذلك بسبب تبـاين الأسباب، ولذلك أمثلة كثيرة.

منها أنه يتبـع الولد أباه في النسب وأمه في الحرية والرق، وفي الدين يتبـع المسلم منهما، وفي الطهارة والنجاسة أخبثهما. ومنها إذا ثبتت السرقة بشاهد وامرأتين أو يمين، يثبت المال دون القطـع. ومنها اللقيط يتبـع من ادعاه في النسب، لا في الدين والرق. ومن هذا الباب قوله ﷺ «هو لك يا عبد بن زمعة، واحتجبـي منه يا سودة» فأعمل الفراش وأعمل الشبه.

# كتاب العُدَد

**س ١ ـ ذكروا أن العدة تجب إذا خلا بها ولو مع مانع حسي أو شرعي فهل هو وجيه؟**

ج ـ نعم هو وجيه، فإذا خلا بها واستحل منها بذلك ما لا يستحله ممن لا تحل له، ولو كان لم يطأ، فالصداق تقرر، والعدة تثبت، والحكم معلق بالخلوة التي هي مظنة الوطء، والمظنات تعتبر ولو لم توجد الحقيقة، خصوصاً وقد حكم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بوجوب العدة على من خلا بها، وأطلقوا ذلك والله أعلم.

**س ٢ ـ هل تلزم العدة بالخلوة إذا كان فيهما أو في أحدهما مانع حسي أو شرعي؟**

ج ـ إذا حصل الدخول وجبت العدة ولو مع المانع المذكور، لعموم قوله تعالى:

**﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

واستثنى منها غير المدخول بها للآية:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إِذا نكحتم المؤمنات. . .﴾**

[سورة الأحزاب: الآية ٤٩]

ولأن العدة لها عدة مقاصد:

١ ــ العلم ببراءة الرحم.

٢ ــ أداء حق الزوج الأول.

٣ ــ الاستبراء لحق الزوج الآخر.

٤ ــ الانتظار لعله يراجع في الرجعية.

إلى غير ذلك من المقاصد الشرعية، فلو كان المقصود منها غير المعنى الأول فقط، توجه الإشكال، وبمعرفة هذه الأشياء ينحل الإشكال.

**س ٣ ــ هل تلزم العدة من خلا بها مكرهة؟**

ج ــ الصواب أن الخلوة مكرهة كخلوته بها مطاوعة، لعموم قضاء الخلفاء الراشدين، ولاحتمال الوطء هنا احتمالاً قوياً، فكيف تكون الخلوة مع الجب والعنة والرتق موجبة للعدة، والخلوة مكرهة غير موجبة؟ فإن هذا أحق بلا ريب.

**س ٤ ــ هل تلزم العدة بتحمل الماء من الأجنبي أو الزوج؟**

ج ــ إذا تحملت بماء الزوج، فالصواب وجوب العدة، مع أن كلام المتأخرين من الأصحاب مختلف، ولكن علمنا بتحملها ماءه يوجب اشتغال رحمها بماء الزوج، فيتعين الاعتداد. وأما تحملها بماء الأجنبي، فعلى المذهب حكمه حكم الزوج في الخلاف فيه. وعلى مقتضى اختيار شيخ الإسلام أنه لا يجب فيه إلا الاستبراء فقط، لأن عند الشيخ جميع الفسوخ والطلاق في النكاح الفاسد ووطء الشبهة والزنا، كله موجب للاستبراء فقط، وقوله الصحيح.

**س ٥ ــ إذا مات الحمل، فهل يسقط الاعتداد به؟**

ج ــ على كلام شارح «المنتهى» قوله: وظاهره: ولو مات ببطنها لعموم الآية. قلت: وقد يقال: إن قوله تعالى:

**﴿أجلهن أن يضعن حملهن﴾** [سورة الطلاق: الآية ٤]

أَنه الوضع المعتاد، فمتى وضعته حياً وميتاً، خرجت من العدة، ومتى بقي في بطنها حياً أو ميتاً يرجى خروجه، فهي في العدة، فإن مات في بطنها ولم يبق رجاء بين لخروجه، فهذه إن أمرت بالبقاء حتى يخرج من بطنها وهو لا يظن له وقت يخرج فيه، كان عليها من الضرر شيء عظيم، فيظهر أنها متى تحققت موته وصار بحال لا يرجى له خروج، أنها تقيد بغير الحمل لسقوط حكمه، كما سقطت نفقة الحامل بذلك. يؤيد هذا الظاهر أن الحكمة في الاعتداد بالحمل لئلا تختلط المياه وتشتبه الأنساب، وهو مفقود هنا، فالذي يظهر لي أنه في هذه الحال يسقط حكمه بلا اعتداد، كما سقطت بقية أحكامه من الميراث واستحقاق الوصية ونحوها والنفقة، والله أعلم بالصواب.

**س ٦ ـ ما هي أكثر مدة الحمل؟**

ج ـ قد مضى ما يدل على أن الذي نختاره أنه لا يحد بأربع سنين، بل قد يكون أكثر، وهو الواقع كثيراً، والشارع لم يحد له حداً، فعلم أنه رجعة إلى الوجود، والله أعلم.

**س ٧ ـ إذا طلق زوجته وهي حامل، ثم وضعت، فماذا تعتد؟**

ج ـ إن كان طلاقها صادراً من زوجها قبل أن تضع حملها، فعدتها وضع الحمل ولو مدة يسيرة، وإن كان طلاقها صادراً من الزوج بعدما وضعت حملها، مثل أن وضعت حملها في ذي الحجة، وطلقها في محرم أو صفر، فعدتها ثلاث حيض ولو طالت مدة ذلك، لأن المرضع تبطىء عنها الحيضة.

**س ٨ ـ إذا مات زوج المعتدة، فهل ترثه؟ وهل تنتقل إلى عدة الوفاة، أو لا؟**

ج ـ أما المعتدة الرجعية، فحكمها حكم الزوجات ما دامت في العدة، فترثه وتعتد عدة وفاة، سواء كان الطلاق في المرض أو الصحة. وأما المعتدة البائن، فإن كانت أمة أو ذمية وزوجها مسلم أو سألته الطلاق، فلا ترث، ولا تعتد عدة الوفاة، وكذلك لو كانت إبانتها في صحته، فلا ترث، ولا تعتد عدة

وفاة، بل تبني على عدة الحياة. وإن أبانها في مرضه من غير سؤالها، وكان مرض الموت المخوف، ومات عنها، ورثته ولو انقضت عدتها، وكذلك تعتد أطول العدتين مراعاة لميراثها ومراعاة لانقطاع علقه منها، والله أعلم.

**س ٩ ــ إذا وردت عدة على عدة، فهل تدخل أحدها على الأخرى، أم يلزم إتمام كل واحدة منها، أم ماذا؟**

ج ــ في هذا تفصيل على مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

وصورة ذلك أن تكون المرأة معتدة ثم توطأ في عدتها، فلا يخلو، إما أن يكون الواطىء فيها صاحب العدة الأولى، أو يكون غيره، فإن كان صاحب العدة الأولى، وكان في الوطء الواقع في العدة وطء شبهة أو نكاح فاسد، فإنها تبتدىء العدة منه، وتدخل فيها الأولى، لأن النسب ملحق في الوطء الأول والآخر، وإن كان الوطء الواقع منه زناً، أتمت العدة الأولى، ثم استأنفت عدة الواطىء الثاني، لاختلاف الوطأين، لأن الوطء الأول يلحق فيه الولد، ووطء الزنا لا يلحق، فوجب تمييز العدتين وعدم تداخلهما. وإن كان الوطء غير صاحب العدة، وجب لكل واحد من الأول والآخر عدة مستقلة، فتعتد للأول، ثم تعتد للثاني، إلا أنه إذا وطئها الثاني، فإن من وطئه إلى مفارقته لا تحتسب من العدة، فإذا فارقها، ثبت على عدة الأول، ثم تعتد للثاني عدة كاملة، إلا إن حملت من أحدهما، وولدت منه فإنها تنقضي عدتها منه، ثم تكمل عدة الأول. هذا كله بناء على المذهب. وأما على ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أن الموطوءة بشبهة أو زنا أو نكاح فاسد ليس عليها إلا الاستبراء، فإن الأمر في هذه الصورة واضح، وهو أنه بعد الوطء الثاني، سواء كان من صاحب العدة أو غيره تكتفي ببقية العدة إن تضمنت الاستبراء أو تستبرى براءة معتبرة تبرأ الوطء الثاني، فعدة الأول لا بد منها، والوطء الثاني مطلقاً يكتفى فيه باستبراء داخل في عدة الأول، وإلا فمستقل، والله أعلم.

**س ١٠ ــ ما السبب في تنصيف عدة الأمة. وما مستند هذا القول؟**

ج ــ سببه أنه ورد حديث في «السنن» (عدة الأمة حيضتان) ولكن الحديث فيه كلام لأهل العلم، وإنما مستند الإمام أحمد، أن الصحابة رضي الله عنهم: عمر، وعلي وغيرهما من الصحابة حكموا بأن عدتها حيضتان ولم يخالفهم أحد، وقاسوا ذلك على تنصيف الجلد في قوله تعالى:

﴿فعليهنَّ نصفُ ما على المحصنات﴾ [سورة النساء: الآية ٢٥]

وقاسوا عدة الوفاة على عدة الحياة، وفي عدة الوفاة قول قويَ في المذهب أنها تعتد بأربعة أشهر وعشر كالحرة، لوجود المعنى الذي قدره له تلك المدة في حقهما معاً، والله أعلم.

**س ١١ ــ ما هي عدة المطلقة التي تحيض؟**

ج ــ من كانت تحيض، فعدتها ثلاث حيض، سواء زادت على ثلاثة أشهر أو نقصت لا عبرة بالأشهر إلا في حق من لا تحيض لصغر أو إياس.

**س ١٢ ــ إذا طلق زوجته وهو غائب عنها سنين، فماذا تعتد؟**

ج ــ تعتد بثلاث حيض من وقت طلاقه ولو أنه كل هذه السنين ما واجهها باتفاق العلماء، والله أعلم.

**س ١٣ ــ إذا طلق زوجته وهي ترضع، فبماذا تعتد؟**

ج ــ لا تعتد بالأشهر بإجماع العلماء، إنما عدتها ثلاث حيض، ولو طال عليها الوقت لو يمكث الدم عنها سنة أو سنتين، فليس لها عدة إلا بالحيض ثلاث مرات بعد الطلاق.

**س ١٤ ــ ما عدة من ارتفع حيضها من مرض أو رضاع أو غيرهما؟**

ج ــ من ارتفع حيضها من مرض أو رضاع أو غيرهما ولم تعلم ما رفعه، فالمذهب، لا تزال في عدة حتى يعود الحيض أو تبلغ سنَّ الإياس فتعتد عدة آيسة، والصحيح القول الآخر الذي اختاره الموفق والشيخ وغيرهما أنها تنتظر

تسعة أشهر احتياطاً للحمل ثم تعتد بثلاثة أشهر، لأن القول الأول لا دليل عليه، وفيه ضرر لا يوافق أصلاً من أصول الشريعة بوجه.

**س ١٥ ــ إذا قدم المفقود بعد تزوج امرأته، فهل يلزم الزوج الثاني تطليقها؟**

ج ــ لا يلزمه تطليقها، لأن الخيرة في بقائها ورجوعها إلى الزوج الأول، وهو شبيه بتصرف الفضولي إذا قدم، إن شاء أبقاها عند الثاني وأجاز النكاح من غير حاجة إلى عقد ولا تطليق، وإن اختار رجوعها فكذلك.

**س ١٦ ــ هل تحل الموطوءة بشبهة أو نكاح فاسد لمن له العدة ويلحقه نسبه؟**

ج ــ نعم وهو المذهب. وأما كلام بعض الأصحاب المتأخرين في بعض المواضع بخلاف هذا، فإن لهم كلاماً آخر في جواز ذلك.

وتعليله أن الولد لاحق به، والعدة له دون غيره.

**س ١٧ ــ هل يلزم الإحداد في النكاح الفاسد؟**

ج ــ يلزم لأنه جارٍ مجرى الصحيح في كثير من الأحكام، خصوصاً في الأحكام التي يحتاط لها، وهذا من باب الاحتياط.

**س ١٨ ــ هل يلزم الورثة بذل المسكن للمتوفى عنها لتعتد فيه؟**

ج ــ لا يجب عليهم ذلك، لأن الله قسم تركة الميت بينهم على قدر حقوقهم، ولم يجعل فيها شيئاً زائداً ولا موقوفاً، فلا يجب على الورثة الإسكان، ولكن ينبغي لهم، ويندب في حقهم، لأن فيه جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، واحتساباً لحصول السكن المأمور به، فحيث بذلوه وجب عليها، وحيث لم يبذلوه لم يجب عليها، والله أعلم.

**س ١٩ ــ قولهم في المعتدة: إذا لم تجد كراء المسكن إلا من مالها لم يلزمها أن تقيم فيه، فهل هو وجيه؟**

ج ـ ظاهر الأدلة تدل على هذا القول، لأن الله خاطب الأولياء والورثة أن لا يخرجوها بقوله: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾. ثم قال:

﴿ولا يخرجن﴾. [سورة الطلاق: الآية ١]

فدل على أنهم متى بذلوا لها المسكن ولم يخرجوها، وجب عليها السكنى، وإذا لم يبذلوا ذلك، فليس عليها أن تكتري من مالها، فعليها السكنى لا تحصل المسكن من مالها.

**س ٢٠ ـ هل يجوز للمعتدة أن تخرج لسماع حديث أو خطبة إذا لم يرها الرجال؟**

ج ـ لا يجوز لها ذلك، لأنه لا يجوز لها الخروج إلا لحاجة وأمر هي محتاجة له، وهذا بخلاف ما ذكر، وليس لعلة رؤية الرجال لها، وإنما نفس الخروج من منزلها هو المحذور إذا لم يكن ضرورة أو حاجة.

**س ٢١ ـ قولهم في المعتدة: ولها لباس الأبيض ولو كان حسناً، هل هو وجيه؟**

ج ـ ليس بوجيه، فإن الأبيض الحسن كالأخضر والأصفر، والعلة موجودة فيه كما هي موجودة في سائر الألوان ولم يتعبدنا الشارع بالألوان، وإنما منعها من الزينة حيثما كانت، وهو قول في المذهب اختاره ابن القيم وغيره.

**س ٢٢ ـ هل تستبرىء الآيسة والصغيرة؟**

ج ـ المذهب معروف أنهما يستبرئان بشهر، واختيار الشيخ تقي الدين أن الاستبراء إنما يكون حيث شك في اشتغال الرحم، وأما مع اليقين أن رحمها غير مشتغل كالصغيرة التي لم يأت وقت حيضها، والآيسة ومن ملكها من امرأة أو صبي، أو رجل صدوق قد أخبره أنه لم يطأ أو أنه استبرأ، فلا يجب عنده الاستبراء في هذه المواضع لعدم فائدته، وقوله أقرب إلى الصواب.

# كتاب الرضاع

**س ١ ــ هل يجوز رضاع الطفل الذي فوق السنتين؟**

ج ــ لا بأس برضاعه، لكنه لا يفيد التحريم أي لا تكون المرأة التي أرضعته بعد الحولين أمًّا له من الرضاع على المذهب.

**س ٢ ــ إذا تزوجت ذات اللبن بزوج آخر، فمن يكون الرضيع ولداً له من الزوجين الأول، أم الثاني؟**

ج ــ إذا لم يطأها الزوج الثاني، أو وطئها ولكن اللبن لم يزد، فالرضيع ولد للأول، وكذلك إذا زاد في غير وقته، فهو للأول، سواء حملت من الثاني أم لا. وإن حملت من الثاني وزاد اللبن في أوأنه، صار ولدهما جميعاً.

هذا كله إذا لم ينقطع لبن الأول، فإذا انقطع ثم ثاب بحملها من الثاني، فهو لهما على المذهب، وعلى الصحيح: يكون للثاني، ومتى ولدت، فاللبن للثاني وحده، لأن زيادته بعد الولادة تدل على أنه لحاجة المولود، فتمنع المشاركة فيه، وإن استمر حتى ولدت من الثاني فهو لهما. هذا تفصيل القول في ذلك.

**س ٣ ــ قولهم: وإن أفسدت نكاح نفسها بعد الدخول لم يرجع عليها بشيء، هل هو وجيه؟**

ج ــ اختار الشيخ تقي الدين في هذه أنه يرجع عليها بالمهر، لأن

خروج البضع من الزوج يتقوم، وهو الصحيح الموافق للأدلة كما يرجع عليها إذا حصل التغرير منها بعيب من العيوب، بل هذا أولى.

## باب النفقات

**س ١ ــ قولهم: ولها الكسوة كل عام؛ هل هو وجيه؟**

ج ــ الصواب أن الكسوة تابعة لحاجتها إليها وللعرف، فمتى كانت الكسوة باقية، لم يلزمه شيء ولو بعد عام، ومتى بليت وجبت ولو قبل أن ينقضي العام، وهو أحد القولين للأصحاب، وهو الصحيح.

**س ٢ ــ قولهم: إذا غاب الزوج ولم يدع لها نفقة وتعذر أخذها من ماله واستدانتها عليه، فلها الفسخ، فما معنى الاستدانة؟ وهل هذا وجيه؟**

ج ــ معنى الاستدانة: أخذ الدين من الغير على أن الوفاء يكون من مال الزوج. ومعنى هذا أن المستدين سواء كانت هي التي باشرت أو وليها الخاص أو العام، أو ولي الزوج: لا يلزمه وفاء الدين، وإنما يوطن صاحب الدين نفسه على أن القضاء لا يلزم إلا من مال الزوج، ويدخل في الاستدانة الاقتراض وشراء طعام وكسوة ونحوها بثمن يكون ديناً على الزوج، وشراء عرض بثمن مؤجل يكون قضاؤه من مال الزوج، كل هذا يدخل في الاستدانة.

وأما قولكم: هل هو وجيه؟ فنعم هو وجيه لأن الزوج هو المقصِّر بما وجب عليه، حيث لم يَدَعْ لها شيئاً تنفق منه، وهي معذورة لعدم الوجود والتوجيد، فلا تجد من ماله ما تنفق، ولا تتمكن، من إيجاد ذلك بالاستدانة، فكانت بذلك معذورة، أما التي فيها الخلاف القوي، فهي التي يعسر زوجها بالنفقة، والله أعلم.

**س ٣ ــ إذا أسقط حق زوجته عشر سنين، ثم أرادت الرجوع إليه فاعتذر بأنه لا يتحمل امرأتين وقصدها تعجيزه، فما الحكم؟**

ج ــ لا يسقط حق المرأة إذا رجعت إلى بيت زوجها وطاعته، ولو أسقطها

الزوج لم تسقط، فهو يجبر على ضمها بإحسان أو تسريحها بإحسان، وعصيانها السابق لا يسقط حقها إذا عادت إلى طاعته.

**س ٤ ــ إذا أنفق على البائن يظنها حاملاً، فبانت حائلاً، فهل يرجع عليها؟**

ج ــ نعم يرجع عليها، وعلته ظاهرة لأنه أنفق بحسب وجوبه عليه، فتبين بخلافه، كما ترجع عليه بعكسها.

**س ٥ ــ هل نفقة الحامل للحمل، أو لها من أجله!**

ج ــ فيه قولان، المذهب: أنها تجب للحمل لا لها من أجله، لأنها تجب بوجود الحمل، وتسقط بعدمه، وتجب حتى للناشز. فلو كانت لها من أجله، لم تجب للناشز، ومأخذ الاختلاف أنه لما كانت نفس النفقة الجارية على الحامل لها بنفسها قوتاً وكسوة مثلها ومسكن مثلها، ولا يجب عليها المشاركة في النفقة بل هي على من تلزمه مؤنة ما في بطنها، وهي من غرائب العلم، إذ الأصل أن جميع الأمور المشتركة على كل واحد من المشتركين القيام بمقدار حقه والمشاركة في تحصيل المصالح ودفع المضار. وهذه المرأة مضطرة إلى النفقة، ونفقتها على نفسها، لأنها ليست في حباله، بل بائن عنه، والذي في بطنها نفقته على وليه، والحال مضطرة من جهتها وجهته ما في بطنها إلى إيصال النفقة إلى المرأة لتحيا فيتغذّى ما في بطنها، ومع ذلك وجبت النفقة كلها نفقة زوجته على الولي له. وكنت وقت كتابتي لهذه الأسطر مستغرباً لها ولعلتها، فقدح في ذهني مناسبة لا تبعد أنها هي الحكمة في ذلك، وهي وإن كان الأصل التشارك في النفقة لأجل بقاء الحياتين، ولكن نفقته على ما في بطنها واجبة على وجه الانفراد، وحملها للولد في بطنها، والمشقة الناشئة عن ذلك أوجب أن تكون كالأجرة لها وجبر خاطرها، وأن لا يكون عليها فيها شيء، وهذا من تمام الحكمة والرحمة والعدل، والله أعلم.

**س ٦ ــ إذا تزوجته عالمة بعسرته أو رضيت بها، فهل لها الفسخ؟**

ج ــ المذهب فيها معروف وهو أنها تملك الفسخ، وهو ضعيف جداً لا دليل عليه بل الأدلة الشرعية، والعملية تدل على أنها لا تملك الفسخ حيث

تزوجته عالمة بعسرته أو رضيت بها بعد ذلك، بل لو لم ترض بعسرته إذا أعسر بعد العقد، فإنها على الصحيح لا تملك ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿لينفق ذو سَعَةٍ من سَعَتِهِ ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله﴾.

[سورة الطلاق: الآية ٧]

ولم يثبت لها الفسخ، وكذلك النبي ﷺ لم يثبت لها الفسخ، وإنما يثبت لها الفسخ إذا امتنع من الإنفاق وهو قادر عليه، أو تزوجها وهو قد أظهر لها أنه غني فتبين فقره وغرَّها بذلك، وكما أن هذا مقتضى النصوص الشرعية، فإنه عمل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، يعسرون ويفتقرون ولا تطلب نساؤهم الفسخ، ولا تمكَّن من ذلك لو طلبت.

**س ٧ ــ هل يشترط في نفقة القريب أن يكون وارثاً له؟**

ج ــ لا بد في وجوب نفقة الأقارب من شرطين: غنى المنفق، وفقر المنفق عليه. وفي عمود النسب لا يشترط غيرهما. وأما في الحواشي يشترط أن يكون وارثاً بفرض أو تعصيب، واختار الشيخ تقي الدين أن الإرث ليس بشرط مطلقاً، وأن الشرط إنما هو غنى المنفق وفقر المنفَق عليه، وكونه من الأقارب لوجوب صلتهم وتحريم قطيعتهم. ومن المعلوم أن من قطع النفقة لم يبر ولم يصل والله أعلم.

**س ٨ ــ هل يشترط لوجوب النفقة اتفاق الدِّين؟**

ج ــ المذهب: الاشتراط مطلقاً. والرواية الثانية: عدم الاشتراط مطلقاً. والثالث وهو الصحيح: أن الأصول والفروع تجب نفقتهم وإن تباينت أديانهم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

**س ٩ ــ هل تجبر الزوجة على إرضاع ولدها بلا ضرورة؟**

ج ــ المذهب معروف أنها لا تجبر، والصواب الإجبار في الموضع الذي جرت العادة بإرضاع الأمهات لأولادهن، كما هو العادة في وقت السلف، وكما هو العادة المعروفة الآن، وجميع الحقوق الواقعة بين الزوجين راجعة إلى العرف والعادة، فمن أراد الخروج عن العرف في شيء مما يكون بين الزوجين، وأراد

الآخر العمل والرجوع إلى العرف، كان الصواب الرجوع إلى العرف، كما أراد الله ورسوله أمورهما إلى ذلك، فمن ذلك الرضاع ينزل على هـذا الأصل الشرعي، وكما أنه الشرع، فهو الذي يستحسنه الناس، ويستقبحون ضده، والله أعلم.

**س ١٠ ــ إذا كان سبب الحق ظاهراً؛ جاز لمن هو له أن يأخذ قدر حقه ممن هو عليه إلا إن كان سببه خفياً، فما مثال ذلك؟**

ج ــ مثال الظاهر، مثل المرأة تأخذ من مال زوجها نفقتها ونفقة أولادها إذا كان الزوج مقصراً فيها ولو لم يعلم، ومثل أخذ الضيف إذا امتنـع من ضيافته من مال من أضافه ولو لم يعلم. هذا الحق ظاهر، وأما الخفي فمثل من له طلب على إنسان من دين، وامتنـع من الوفاء، فليس لصاحب الدين أن يأخذ من مال المدين، لحديث: (ولا تخن من خانك) لأن السبب خفي، وذلك يجر إلى مفسدة.

**س ١١ ــ هل تجب نفقة الرقيق الآبق والناشز؟**

ج ــ مراد الأصحاب رحمهم الله في قولهم: إنها تجب نفقة الرقيق الآبق والناشز، أنه لو رده أحد من إباقه، وأنفق عليه، فإنه يرجـع على سيده، لوجوب النفقة عليه، ولا يمكن أن يجعل مثل الزوجة التي تسقط نفقتها بنشوزها لأنه لا مال له ولا ملك، وكذلك الرقيق إذا نشز، بأن عصى سيده، فإن وجوب نفقته باقية، ولا تسقط بعصيانه، ولا يكون عصيانه لسيده مسقطاً لنفقتـه، وبمعرفة مرادهم يظهر المعنى، وإلا فبمجرد مرور العبارة على الإنسان يستغرب من ذلك والله أعلم.

**س ١٢ ــ هل للرقيق أن يتسرى؟**

ج ــ فيها قولان مشهوران، هما روايتان عن أحمد الإمام: المذهب منهما والصحيـح: أنه ليس له ذلك. ووجه ذلك أن الله تعالى لم يبـح للإنسان إلا زوجته أو ما ملكت يمينه، وهذا العبـد المأذون لـه في التسري ليس زوجـاً

ولا مالكاً. أما كونه ليس بزوج، فظاهر، وأما كونه ليس بمالك لها، فلأن الرقيق لا يملك شيئاً. وإن ملك سيده، فلا يزول ملك السيد عن الجارية بالإذن له في التسري، بل لو قال لعبده: هي لك ملك لك، لم يملكها العبد بهذا، ولا يحل له وطؤها، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه. وأما تزويجه إياها، فهذا هو الذي يجوز ويحل، والله أعلم.

**س ١٣ ــ ما الذي يدخل في قولنا: من أدى عن غيره ديناً واجباً عليه رجع عليه؟**

ج ــ مثل إنسان يطلب من إنسان ديناً، فتوفيه من مالك ناوياً الرجوع على من قضيته عنه، فلك الرجوع عليه بما قضيته عنه. ومثل أن تنفق على أهله وبهائمه لغيبته، وتنوي الرجوع عليه، فلك أن ترجع عليه بالنفقة الآن. هذا واجب عليه، وأنت قد أديت عنه واجباً والله أعلم.

**س ١٤ ــ إذا كان الوالد يكسو ولده، وينفق عليه، ثم مات الولد وعنده شيء من النفقة والكسوة، فهل يكون تركة، أو يرجع للوالد؟**

ج ــ هذه المسألة ترجع إلى العرف، كما أن أصل النفقة والكسوة يعتبر فيها العرف، فالنفقة الماضية قبل الموت، والثياب التي قد لبسها الولد، لا ترجع للوالد. وأما الثياب التي لم يلبسها، والنفقة التي لم يستعملها، فإنها باقية في ملك الأب، لأن الأب إنما يدفع ذلك لولده على وجه القيام بالواجب، لا على وجه الهبة والعطية، ولا يجب عليه نفقة ولده إلا ما دام حياً، فإذا مات وقد بقي عنده من النفقة شيء، رجعت للأب، والله أعلم.

**س ١٥ ــ ما رأيكم في قول الأصحاب رحمهم الله في نفقة الزوجة ولا يعتاض عن النفقة الماضية بربوي، كأن عوضها عن الخبز بحنطة أو دقيقها، فلا يصح ولو تراضيا عليه، لأنه ربا؟**

ج ــ فيه نظر، لأن هذا ليس بمعاوضة حقيقية، فإن الشارع لم يعتبر الواجب بأكثر من الكفاية، فأي شيء حصلت الكفاية به، كان ذلك

هو الواجب. ولهذا قال ﷺ لهند بنت عتبة: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)، فقدَّر ذلك بالكفاية، وإنما صير إلى إيجاب الخبز عند الاختلاف لترجحه، بكونه القوت المعتاد، فالأصل أن الواجب لزوجته ما يكفيها، فأي شيء كفاها، من خبز، أو تمر، أو زبيب، أو شعير، أو ذرة، مما ينفق ويوافق العرف، كان هذا هو الواجب وقت الوفاء، وهذه ليست في الحقيقة عوضاً في شيء معين مستقر في الذمة، وهذا القول رجحه الشيخ الموفق في «المغني»، وكذا ذكر الأصحاب وجهاً أنها إذا قبضت الكسوة، ومات الزوج أو ماتت: أنها تملكها، ولا يرجع عليها بشيء منها، وهو المختار.

## باب الحضانة

**س ١ ـ هل تسقط حضانة الفاسق؟**

ج ـ حضانة الفاسق، وولايته لأولاده لمالهم ولأنكحتهم، وإمامته الجميع، المشهور فيها أنها تسقط ولايته بالفسق، ولا تصح إمامته، وهو قول في غاية الضعف، مناقض للأدلة الشرعية، والعمل المستمر، والصواب فيها جميعها بقاؤه على ولايته لأولاده مالاً ونكاحاً وحضانة، وأنها تصح إمامته، وشفقة الأب ولو فاسقاً على أولاده، وحميته عليهم لا يشابهه فيها أحد، وهي المقصود بالولاية والحضانة والله أعلم.

**س ٢ ـ هل للرقيق والمبعض حضانة؟**

ج ـ على المذهب: لا حضانة له. وقال ابن القيم: اشتراط الحرية في الحضانة قول لا دليل عليه، وهو كذلك، فإن رأفة الأم ولو رقيقة لا تشبهها رأفة أحد، والحضانة لا تشغلها عن خدمة سيدها، بل تتمكن من القيام بالحقين، والله أعلم.

**س ٣ ـ قولهم: ولا حضانة لمتزوجة بأجنبي من محضون، فما الفرق بينه وبين القريب؟**

ج ـ إذا تزوجت بقريب من المحضون، ولم يمنع من حضانته، فحقها

ثابت لعدم ما يسقطه. وأما الأجنبي، فلأنها إذا تزوجت واجتمع مع شغلها بالزواج وعدم شفقة الأجنبي عليه غالباً، أنه مظنة لتضييع بعض مصالح المحضون، فهذا ما يمكن أن يعلل به.

**س ٤ ـ إذا تزوجت بأجنبي، فهل لها حضانة؟**

ج ـ المذهب: لا، والصحيح أنه إذا رضي فحقها باقٍ، لأن سقوط حقها لأجل قيامها بحقه، فإذا رضي ببقائها على حقها، فهي باقية، وهذا قياس المذهب في جميع الحقوق.

**س ٥ ـ من أحق بحضانة الأنثى بعد تمام سبع سنين؟**

ج ـ المشهور من المذهب: أنها لأبيها، والرواية الثانية: أنها لأمها. وهذان القولان مع قيام كل منهما بما يجب ويلزم. فأما إذا أهمل أحدهما ما يجب عليه من حضانة ولده، وأهمله عما يصلحه، فإن ولايته تسقط، ويتعين الآخر. والذي أرى في ترجيح أحد القولين: أنه ينظر للمصلحة الراجحة، فمن كانت المصلحة في حق الصبي بقاؤه عنده، رجح، لأن هذا الباب منظور فيه إلى مصلحة المحضون، حتى قال الفقهاء: ولا يقر المحضون بيد من لا يصونه ويصلحه، وقدَّموا من قدموا مراعاة للمصلحة، وبهذا الأصل يتضح ترتيب الفقهاء في الأحق بالحضانة، ومن هو أولى: أن هذا كله حيث كان للمحضون مصلحة في تقديم المتقدم منهم، ومن ترك منهم ما يلزم، سقط حقه. وأما أي القولين أصح في الترتيب، هل هم قرابة الأم، أو قرابة الأب؟ فشيخ الإسلام وابن القيم يقدِّمان قرابة الأب، لأنهم هم القرابة المقدمون في كثير من الأحكام. والمذهب تقديم قرابة الأم، والله أعلم بالصواب من القولين، فإني لم أعرف الراجح منهما، والله أعلم.

**س ٦ ـ قول الأصحاب: إذا اختار أمه كان عندها ليلاً فقط، فهل هو وجيه؟**

ج ـ قد عللوا ذلك بأن النهار محل التربية، والذي يقوم بها الأب، فتعين

أنه للأب، ولو اختار أمه مرعاة للمصلحة. فلو كان الأب لا يقوم بمصالحه، ويهمله، بقي عند أمه ليلاً ونهاراً، إذا كانت قائمة بذلك، غير مهملة وقته.

**س ٧ ـ هل تلزم الحضانة من استؤجرت للرضاع؟**

ج ـ لا تلزمها كما قال الأصحاب بلا شرط، فإن شرطت حضانتها للطفل، أو كان العرف جارياً بذلك، فهو كالشرط، والله أعلم.

# كتاب الجنايات

**س ١ ــ مَثّلَ الأصحاب القتل العمد: أن يضرب به بما فوق عمود الفسطاط، فما مرادهم؟**

ج ــ مرادهم بذلك التمثيل، فإنهم قالوا في حد العمد: أن يقتله بجناية تقتل غالباً، ومثلوا بذلك، والمثال لا يفيد الحصر والاقتصار عليه، بل كل ما دخل في الحد الجامع فهو نظيره، فاعرف هذا.

**س ٢ ــ هل للقاتل عمداً توبة؟**

ج ــ دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أن كل ذنب مهما كان، كفراً أو قتلاً أو زناً أو غيرها، ولو تكررت الذنوب، فإن التوبة مقبولة، ولا يستثنى من هذا شيء، والنصوص من الكتاب والسنة على هذا أكثر من أن تحصى. وأما ما روي عن ابن عباس وغيره، أن توبة القاتل لا تقبل، فهذا مع مخالفته للأدلة السابقة، محمول على أنهم أرادوا أنه إذا تاب القاتل، أن حق المقتول لا يضيع في الآخرة، بل لا بد أن يعوضه الله عنه، وهذا مسلَّم لا شك فيه، فإذا تاب القاتل توبة نصوحاً، جامعة لشروطها، فتوبته مقبولة، وذنبه ساقط. ومن تمام فضل الله تعالى أن يعوِّض المقتول في الآخرة من جوده وكرمه عن مصيبة قتله، ولا يضيع من ذلك شيئاً، مع مغفرته للقاتل. وقصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً بغير حق، وكمل المائة بالعابد في «الصحيحين»، وهي صريحة في قبول التوبة، وقوله تعالى:

﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾. [سورة الزمر: الآية ٥٣]

أي للتائبين من أي ذنب كان، وكم آية وحديث يدل على ذلك، فمن فهم أن قول ابن عباس ـ إن صح ـ أنه لا تقبل لقاتل توبة، أنه لا يعفى عنه إثم قتله، فقد فهم غلطاً فاحشاً.

**س ٣ ـ إذا رمى كافراً معصوماً أو بهيمة محترمة، فأصاب مسلماً، لم يقصده، فهل يكون عمداً أو خطأً؟**

ج ـ هذا وإن كان لا يجوز له ذلك الفعل لعصمة المقتول، فإذا ثبت أنه نوى بقتله كافراً ولو معصوماً، فأصاب مسلماً، فهو خطأ، ومن باب أولى إذا قصد برميه بهيمة لا يحل له رميها فأصاب مسلماً، فكل هذا من قسم الخطأ.

**س ٤ ـ إذا أكره مكلف عالم بتحريم القتل على القتل، فهل عليه قود؟**

ج ـ نعم عليه القود، فإن الإكراه على قتل المعصوم لا يتيح له ذلك، فلا يباح له إحياء نفسه بقتل غيره، فبقي على الأصل، يجب عليه القود، بخلاف الإكراه على التكلم بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنه يباح له، لأنه حق لله فقط، ومبنى حقوق الله على المساهمة. وأما القتل، فحق الآدمي يوجب القصاص، ولا يحل بلا إكراه عليه.

**س ٥ ـ إذا اشترك في القتل اثنان لا يجب القود على أحدهما، فما حكم الآخر؟**

ج ـ قد ذكر الأصحاب صوراً متعددة، وأن الآخر حيث اجتمعت فيه الشروط، فإن عليه القود، وإن سقط القود عن الآخر لمانع، وذلك مثل إذا شارك الأب غيره، أو شارك القِنَّ حرٌّ في قتل القن، أو شارك المسلم الكافر في قتل كافر، أو شارك غير المكلف المكلف في قتل أو مكلف، وسبع أو مقتول شارك قاتله، فكل هذه الصور القود على شريك الأب، وشريك الحر، وشريك المسلم، وشريك غير المكلف، وشريك السبع، والله أعلم.

**س ٦ ــ عن فرق بين أشياء متشابهة في الجنايات وغيرها.**

ج ــ : ١ ــ وإن نكح من أبانها في عدتها، ثم طلقها قبل الدخول، بنت على العدة الأولى. وإن راجعها في العدة ثم طلقها قبل الدخول، استأنفت.

٢ ــ وإن قالت: انقضت عدتي، فقال: كنت راجعتك قبل انقضائها، فقولها. وإن ابتدأ فقال: كنت راجعتك قبل انقضائها، وقالت: بل انقضت قبل رجعتك، فقوله على المذهب، وعلى الرواية الصحيحة قولها.

٣ ــ إذا اشترك في القتل اثنان لا يجب القود على أحدهما، فإن كان القصور في السبب كالعامد مع المخطىء ونحوه، لم يجب القود على الآخر. وإن كان السبب تاماً، لكن قام بالشريك مانع من أبوة ونحوها، وجب القود على الآخر.

٤ ــ إذا كان مستحق القصاص صغيراً أو مجنوناً، حبس الجاني إلى بلوغه وإفاقته، فإن احتاجا إلى نفقة، فلولي المجنون العفو إلى الدية، لا ولي الصغير.

٥ ــ ينعزل الوكيل بعزله ولو لم يعلم على المذهب، إلا في القصاص.

٦ ــ سراية الجناية مضمونة ما لم يقتص قبل البرء وسراية القود مهدورة.

٧ ــ من سرق تمراً أو كسراً أو جماراً أو ماشية من غير حرز أضعفت عليه القيمة دون غيرها على المذهب، والصواب استواء الجميع لوجود العلة.

**س ٧ ــ هل تجب على الصغير والمجنون كفارة القتل؟**

ج ــ نعم كما قال الأصحاب رحمهم الله للعمومات، وليس المراد بالكفارة أنها تكفِّر ذنباً، فإنها تجب على المخطىء وهو لا إثم عليه، بل هي بمنزلة وجوب ما يجب في أموالهما، والله أعلم.

## باب استيفاء القصاص

**س ١ ـ هل يقوم الولي مقام الصغير والمجنون في استيفاء القصاص؟**

ج ـ المذهب أنه ينتظر في القصاص بلوغ الصبي، وإفاقة المجنون، وأن الولي لا يقوم مقامهما في استيفاء القصاص، إلا أنهم قالوا: إن المجنون إذا احتاج إلى نفقة، فلوليه العفو إلى الدية في هذه الحال لأنه لا يرجى له إفاقة، بخلاف الصغير. والقول الآخر في المذهب: إنه يقوم مقامه في استيفاء القصاص، كما يقوم مقامه في جميع التصرفات، وما ينوبه مما له وعليه، وهو الأقرب إلى الصواب، وأطرد للقاعدة، ولما يترتب عليه من فوات وتفويت أو غيرها، والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يجب استيفاء القصاص في النفس أن يكون بالسيف؟**

ج ـ نعم يجب ذلك على المذهب مطلقاً، والصحيح التفصيل، وأنه إن قتله بتحريق، أو إلقاء من شاهق، أو رض رأس، أو تقطيع أو نحوها: أنه يفعل به كما فعل، كما رض النبي ﷺ رأس اليهودي برضه رأس الجارية، ولأنه هو العدل والقصاص الواجب، وإلا قتل بالسيف، وهذا رواية عن الإمام أحمد اختارها شيخ الإسلام.

## باب العفو عن القصاص

**س ١ ـ إذا عفا عن الجاني وأطلق، فما الواجب؟**

ج ـ إذا عفا مطلقاً، فلم يقل: عفوت على قصاص ولا دية، فله الدية، لأن إطلاق العفو ينصرف إلى القصاص، لأنه المطلوب الأعظم.

**س ٢ ـ إذا هلك الجاني ولا مال له، فعلى من تجب الدية؟**

ج ـ إذا كانت الجناية خطأً أو شبه عمد، فإنها على عاقلة الجاني، هلك أو بقي، وإن كان عمداً عدواناً ولم يخلف تركة، فهي من جملة الديون التي تتلف بتلف محلها، والله أعلم.

**س ٣ ـ إذا عفا على غير مال، فهل تضمن السراية.**

ج ـ لا ضمان في السراية في هذه المسألة، لأن الجناية قد عفي عنها، فعفي عما ترتب عليها، بخلاف ما لو عفا على مال، فإنه لم يرض إلا بالتعويض، فيجب التعويض عن السراية، كما وجب التعويض عن أصل الجناية والله أعلم.

## باب ما يوجب القصاص فيما دون النفس

**س ١ ـ هل الأمن من الحيف شرط لوجوب القصاص أو لاستيفائه؟**

ج ـ ذكر الفقهاء رحمهم الله أنه شرط للاستيفاء لا للوجوب، والفرق بين الأمرين أنه إذا تمت شروط وجوب القصاص التي هي تكليف القاتل، وعصمة المقتول، والمكافأة بينهما بالدين والحرية والرق وعدم الولادة من القاتل، فإنه يجب على القاتل القود، ولكن قد يجب الامتناع من القود لموجب، مثل أن يكون الجاني امرأة في بطنها ولد، فإنه لا يحل قتلها مع وجوب القصاص عليها حتى تضع الولد وتسقيه ما يعيش به.

**س ٢ ـ إذا اتفقا على أخذ يمين بيسار، أو بالعكس، فما المانع وهل الحق لهما؟**

ج ـ ينبغي أن تعرف أصلاً تتبين فيه هذه المسألة وغيرها، وهو أن الحقوق الجارية بين الناس نوعان، حق محض للآدمي، كالتصرفات المالية، والحقوق المالية، فهذا النوع يرجع إلى رضى المتصرفين ومن بينهما حق من الحقوق، ولهذا لو بذل الإنسان الرشيد جميع ماله، أو أسقط كل حق له مالي، لم يمنع إلا إذا تضمن ظلماً للغير، كغريمه ونحوه. والنوع الثاني: حقوق الله، وفيها أيضاً حق للآدمي، فهذا النوع الناس مقيدون فيه بالقيود الشرعية والحدود التي لا يحل مجاوزتها، والسؤال المذكور من هذا النوع، أرأيت لو أن الجاني رضي بأن تؤخذ العين باليد، والرجل باليد، ورضي الآخر، فإنه لا يجوز ذلك، وكذلك لو كانت الجناية خطأً أو شبه عمد، ورضي الجاني أن تؤخذ نفسه أو بعض أطرافه عن الدية، هل يسوغ ذلك؟ بل لو قال الإنسان: اقتلني أو اجرحني، هل

يحل ذلك؟ فكذلك اليد اليمنى باليد اليسرى، لأن الله شرط في هذا النوع القصاص، وهو المماثلة والمواساة من كل وجه، فهذا جواب السؤال.

**س ٣ ــ ما الفرق بين أخذ أذن السميع بأذن الأصم دون العين الصحيحة بالقائمة؟**

ج ــ بينهما فرق ظاهر، فإن العين الصحيحة إذا أخذت بالقائمة، وهي التي ذهب بصرها مع وجود بياضها وسوادها، فهو ظلم للجاني، لأن الجاني لم يأخذ إلا نفس الحدقة، ويراد أن يؤخذ منه الحدقة والبصر الذي هو نور العين المفقود في العين القائمة، بخلاف نفس الأذن، فإن أخذ أذن السميع بأخذ أذن الأصم فيه عدل، لأنها أخذت أذن بأذن، والسمع لم يؤخذ لأن السمع في الدماغ، وإنما عضو الأذن مجرى له وطريق، وبهذا علل الفقهاء.

## باب الديات

**س ١ ــ ما حكم ضمان ما تتلفه السيارات أو يتلف من جرائها من نفس أو مال؟**

ج ــ ينبغي في مثل هذه المسائل وشبهها أن تبنى على الأصول الفقهية ليكون أخذها منها متيسراً. فنقول: لا يخلو الإتلاف المذكور إما أن يكون عمداً مثله يقتل غالباً أو خطأً، ولا يخلو الخطأ إما أن يحصل بتفريط من السائق والمدبر أو تعدٍّ، أو لا يخلو إما أن يكون إتلاف من السيارة وصاحبها، أو يكون تلفاً بغير إتلاف. أما إذا كان الإتلاف عمداً عدواناً، ومثله يقتل غالباً، فإنه يدخل في أحكام القتل العمد الموجب للقصاص أو الدية، على حسب شروطه المذكورة في كتب الفقه، وهي معروفة، وكذلك إتلاف الأطراف والجروح كما هو معروف. وأما إن كان الإتلاف للنفوس المحترمة خطأً أو عمداً لا يقتل مثله غالباً، ففيه الدية، وهو داخل في كلام الأصحاب الحنابلة رحمهم الله وهنا لا فرق بين إتلاف النفوس والأموال. . .

وإنما مثلاً الصبيان ونحوهم إذا تعلقوا بها، فسقطوا منها أو نزلوا اختياراً، وتلفوا من شدة جريها، وصاحب السيارة لا يعلم بذلك، لعل الجواب:

فلا ضمان. وأما إن تعلق صبي أو غيره، وعلم به صاحب السيارة، السائق، أو من له قدرة على منع سير السيارة في تلك الحال، فأجراها حتى تلف المتعلق، فإنه وإن لم يكن له تسبب في ابتداء الأمر، فإنه بعدما علم وجود ذلك الصبي ونحوه في سيارته عليه أن يفعل الأسباب المانعة من تلفه، فإن لم يفعل، كان ظالماً؛ وترتب عليه الضمان، وليس له أن يقول: هو الذي تعلق بها من نفسه، فلا ضمان عليَّ، فيقال له: وأنت بعدما علمت يجب عليك أن تسعى له في سبب السلامة، ويحرم عليك أن تعينه على سبب العطب. وأما من ركب في السيارة بأجرة أو غيرها، ثم نزل منها وهي تسير، فحصل بذلك عطب أو تلف، فلا ضمان على السائق لأنه لم يعلم بنزوله، وهو الذي جنى على نفسه. وأما إذا أمره السائق أو غيره بالنزول وهي تسير، وهو جاهل لا يدري، ثم نزل، فإن القائل له قد غره، فعليه ضمانه، فهذه المسائل وما أشبهها، ينبغي لأهل العلم أن يطبقوها على الكلام الكلي للأصحاب، وينظروا ما يطابقه وينطبق عليه ليتم لهم معرفة مأخذ الصور، ويسهل عليهم تطبيق الحوادث الجزئيات على النصوص الكليات، ولا يأخذ المسائل مجردة عن الأصل الذي أخذت عنه، فإن هذا قصور، ولا تكاد الجزئيات في هذه الحال تثبت في الذهن، ولا يزال الإشكال عند طالب العلم قائماً، فإن أهل العلم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء، قصدوا في كلماتهم المحكمة الكلية أن تحيط بجميع ما يحدث من الجزئيات، ولهذا لا يكاد البصير أن يجد مسألة خارجة عن دخولها في عباراتهم، نسأل الله أن يفتح علينا وعليكم كما فتح على أوليائه، فعليك بهذا الأصل النافع فإنه يقضي لك حاجات كثيرة.

**س ٢ ـ إذا وضع حجراً أو قشر بطيخ في الطريق، فهل يضمن ما تلف به؟**

ج ـ قد ذكر الأصحاب أنه إذا وضع شيئاً من المذكورات في الطريق، فإنه يضمن ما تلف، بل ذكر بعضهم أنه إذا بالت دابته في الطريق، فزلق ببولها أحد، ضمنه، قالوا: لأنه غير مأذون فيه. والذي أرى في ذلك التفصيل، وأن

وضع الأحجار والأخشاب ونحوها في طريق المارة على وجه التعدي فيه الضمان، وما جرت به العادة من رمي قشر بطيخ أو بول الدواب فيه، ولو كان متصرفاً فيها بركوب أو غيره، فإن هذا النوع لا يعد في العرف تعدياً، فلا ضمان فيه في هذا، وهو وجه للأصحاب، وهذا الذي يراه المسلمون حسناً.

**س ٣ ـ إذا أخذ أحد صبيين الماء كله، وانفرد به عن الآخر فمات الآخر من جراء ذلك، فهل في ذلك دية؟ وعلى من تكون؟**

ج ـ هذا فيه الدية على العاقلة، سواء كان الآخر متعمداً أو مخطأً، لأن عمد الصبي وخطأه واحد، ولكن بشرط أن يتحققوا أن موت الصبي بسبب أخذ الآخر الماء، وقد ذكر الأصحاب رحمهم الله هذه المسألة في عموم قولهم في أحد صور القتل، أن يأخذ طعامه أو شرابه فيموت من الجوع أو العطش. وأما إذا لم يتحقق أن موته بهذا السبب، وإنما دلت القرينة فقط، فلا تجب الدية، لأن شروط وجوبها تحقق وجود السبب الذي حصل به القتل، ولكن في هذه الحال لو صار صلح برضى، ويكف النزاع بين الطرفين لكان حسناً، والله أعلم.

**س ٤ ـ إذا غصب حراً فمات بمرض فأي الروايتين أصح الضمان أو عدمه؟**

ج ـ إذا كان مرضه بسبب غضبه بانزعاج أو رداءة بقعة، أو كون الغضب أثر معه تأثيراً يوجب المرض أو موته فهذا لا شك في ضمانه كما نص عليه كثير من الأصحاب، وإن كان بغير سبب أصلاً ولا تأثير، فلا ضمان لأن الحر لا تثبت عليه اليد.

**س ٥ ـ إذا طلبت المرأة للحضور عند الحاكم، فماتت فزعاً، أو مات الجنين، فما الدليل على الضمان؟**

ج ـ أما الدليل على تضمين الولد، فلأنه بسببه حيث طلبها أو استعدى عليها فهو وإن لم يكن فعل محرماً، بل ربما كان أمراً واجباً على الحاكم طلبها، فإنه ترتب على ذلك هلاك الجنين الذي يضمن متلفه بكل حال، ولهذا وجبت

الدية في الخطأ وإن لم يكن فيه إثم. وأما ضمانها إذا تلفت، ففيه الخلاف المعروف، والأصح: لا ضمان لأنه تلف بفعل مأذون فيه، وما ترتب على المأذون غير مضمون.

**س ٦ ــ إذا أجرت عادة البدو أو السواويق بتحمل بعضهم ما يصدر من بعض من قتل أو جراح أو إتلافات، فهل يلزمون بها؟**

ج ــ أما الالتزامات والعوائد بينهم في ذلك، فإنها عوائد طيبة حسنة، ولا تنافي الشرع، بل توافقه، لأنها تعاون على القيام بالمصائب التي تنتابهم. وأما إلزام الممتنع منهم، فلا يلزم قهراً، وإنما يشار عليه، ويشجع على المجابرة المذكورة من غير تحتيم، وهكذا كل ما كان في معنى ذلك من العوائد التي فيها نفع بلا محذور شرعي، فإنها تجري هذا المجرى، والله أعلم.

## باب مقادير ديات النفس فما دونها

**س ١ ــ هل الأجناس التي ذكروا أنها أصول في الدية كما ذكروا، أم فيها خلاف؟**

ج ــ فيه خلاف مشهور في المذهب، وهو رواية قوية عن الإمام أحمد أن الأصل في الدية الإبل، والباقي من الأصناف تقويمات لا بأس بالتراضي عليه، فعند طلب الأصل المذكور إذا طلب أحدهما فله ذلك، وهو قول تكثر الأدلة على ترجيحه، ولو لم يكن، إلا أن جميع الجروح وقطع الأعضاء وكسر العظام مقدر بالإبل، والغرة ونحو ذلك، وهو القول الذي ما زلنا نختاره ونقرره، والله أعلم.

**س ٢ ــ ما قولكم في مقدار دية المشركين؟**

ج ــ ليس عندي فيها ما يعارض ما ذكر الأصحاب، وأن دية المشركين ثمانمائة درهم، للأثر المروي في ذلك والله أعلم.

**س ٣ ــ هل تضعف دية الكتابي المعصوم؟**

ج ــ نعم، وهو مبني على أصل ذكره ابن رجب في «القواعد»، وهو أنه

من سقطت عنه العقوبة لموجب، ضوعف عليه الغرم، لأن قتل المسلم له في هذه الحال عمد عدوان، ولكن لأجل كفر المقتول وإسلام القاتل سقطت العقوبة، وضوعف الغرم كما يضاعف غرم من سرق من غير حرز لأنه لا قطع عليه، فيضمنه بقيمته مرتين، وكما يضاعف الغرم على من قلع عيناً من صحيح العينين، والقالع أعور، فإنه لا يقتص منه، لأنه يتضمن أخذ جميع بصره، ولكن عليه دية كاملة، ولها نظائر ذكرها في «القواعد» وبهذا الأصل يعرف الجواب عن السؤال.

**س ٤ ـ إذا قلع الصحيح عين أعور عمداً مماثلة لعينه أو بالعكس، فما الواجب؟**

ج ـ قال الأصحاب: وإن قلع صحيح عين أعور، أقيد بشرطه، وعليه مع ذلك نصف الدية، وذلك لأنه أذهب عينه فيقتص له، وأذهب جميع البصر، ففيه دية كاملة يسقط منها نصفها، لأنه اقتص عنها، والله أعلم.

## باب ديات الأعضاء ومنافعها

**س ١ ـ ما الفرق بين قول الفقهاء: إذا قلع سنه، أو أزال شعره، ثم عاد على حاله، سقط ما وجب فيه من الدية، وإن كسر ضلعه ونحوه، ثم عاد مستقيماً أو أجافه ثم برىء، لم يسقط ما وجب فيه؟**

ج ـ الفرق بين الأمرين أن الشعور والسن في حكم المنفصلات التي لا ثبوت لها، فإذا أزال الموجود، ثم عاد مثل الأول من غير نقص، فكأن الجناية ما كانت، فيسقط موجبها. وأما إذا كسر عظمه، ثم جبر مستقيماً وعاد كما كان، أو أجافه ثم برىء من جائفته، وعادت صحته كما كانت، فإن موجب ذلك من الدية لا يسقط، لأن الدية لم تجب فيه بإذهاب عضو يعود بدله، وإنما وجبت لأجل اختلاله بالكسر، فإن عاد مستقيماً، كانت الدية الموجبة فيه في مقابلة ذلك الألم عند الكسر وبعده، وعند الجرح وبعده، إلى تمام الاستقامة والصحة، فلو أسقطنا ذلك، كان ظلماً للمجني عليه، ولذلك إذا جبر غير مستقيم، وجب

فيه حكومة تشتمل على المقدر وزيادة لنقصه المستمر، فإذا قال لنا قائل: فكذلك السن كسره فيه من الألم المقارن للكسر، وربما يعقب الكسر أيضاً ألم بدني وألم قلبي لفقد السن، وكذلك الشعر، فهذا الإيراد، يعكس علينا التعليل الذي ذكرناه، وليس لهم عنه جواب، إلا أن الشعر والسن منفصلات فقط، وغيرها متصل ليس فيه ذهاب شيء، هذا أقصى ما تعلل به، ومع هذا فهذا التعليل لا يشفي ما في النفس واستشكالكم لهذه الصور في محله والله أعلم.

## باب العاقلة وما تحمله

**س ١ ـ إذا كان الجاني غنياً، فهل يلزمه أن يحمل مع العاقلة؟**

ج ـ المذهب معروف أنه لا شيء عليه مطلقاً، والقول الآخر في المذهب أنه يحمل مع العاقلة، لأنهم حملوا بسببه، ولا ينافي هذا أن الشارع جعل الدية على العاقلة، فإنها من باب التحمل، لأنها في الأصل على المتلف، ولكن لما كانت الدية مبلغاً جسيماً ناسب أن يكون العصبة المتساعدون يتعاونون على حملها، فلا يناسب ذلك ألا يحمّل القاتل وهو غني، وهذا القول هو الذي نختاره.

**س ٢ ـ قولهم: إذا عرف الجاني من قبيلة، ولم يعلم من أي بطونها، لم يحملوا عنه، فهل هو صحيح؟**

ج ـ لما كان حمل العاقل الدية على خلاف الأصل المستقر أن المتلفات على من أتلفها، صار لا يحمل إلا من علم اتصال نسبه، وكيفية قرابته، فكما أنهم لا يرثون حتى تعلم الجهة المقتضية للإرث، فكذلك لا يعقلون، والله أعلم.

**س ٣ ـ ما قدر ما يحمل كل واحد من العاقلة؟**

ج ـ ليس لذلك قدر معين، وإنما عند تمام الحول يحمِّل الحاكم كلاًّ منهم ما يتحمله بحسب غناه وعدمه، وقربه وبعده، إلا أن اتفقوا فيما بينهم على تقدير، فالأمر راجع إليهم والله أعلم.

# باب القسامة

**س ١ ــ من ادعى عليه القتل بلا لوث، فهل يجب عليه الحلف؟**

ج ــ المذهب معروف أنه لا يحلف، لأنه في هذه الحال لا يقضى عليه بالنكول، فإنه لا يحلف[1] وفيه قول آخر: أنه يحلف، فإن حلف برىء، وإن نكل صار نكوله مع دعوى المدعي لوثاً يترتب عليه مقتضاه، وهذا مقتضى اختيار شيخ الإسلام، لأن عنده اللوث، كل قرينة يغلب على الظن أنه القاتل، ومع نكول المدعى عليه يغلب على الظن أنه القاتل، والله أعلم.

(١) فهم من هذا التعليل أن فرض السؤال فيما إذا كانت الدعوى بقتل عمد. وأما إذا كانت بقتل خطأ، فإن المدعى عليه يحلف، فإن حلف وإلا قضي عليه بالدية لنكوله.

# كتاب الحدود

**س ١ ـ هل للسيد إقامة الحد على مكاتبه؟**

ج ـ المكاتب يدخل في عموم قوله: ولسيد مكلف عالم به وبشرطه، إقامته بجلد، وإقامة تعزير على رقيق كله. وأما القطع في السرقة والقتل، فلا يقيمه عليه مطلقاً، وإنما ذلك للإمام.

**س ٢ ـ قولهم: ولا تعتبر الموالاة في الجلد، هل هو صحيح؟**

ج ـ الصحيح اعتبار الموالاة لأنه يفوت المقصود من النكاية والزجر إذا لم تحصل الموالاة، ولأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه فرق الحد تفريقاً طويلاً يفوت الموالاة والله أعلم.

**س ٣ ـ هل يؤخر الحد لمرض أو حر ونحوه؟**

ج ـ المذهب معروف أنه لا يؤخر لشيء من المذكورات، فإن أمكن إقامته على المعهود، وإلا أقيم بطرف ثوب ونحوه، وبعض الأصحاب يرى أنه يؤخر ليستوفى على الوجه الشرعي، وهذا أولى إن شاء الله.

**س ٤ ـ ما رأيكم في ولاية الإمارة؟**

ج ـ الإمارة كبيرة كانت أو صغيرة من ضرورات الناس، ومن الواجبات الشرعية، لما ترتب عليها من المصالح الكثيرة، ودفع المفاسد المتنوعة، فيجب على من تولى على الناس أن يتخذ الولاية ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، ووسيلة

يتوسل بها إلى إقامة الشرع والعدل، وأن يجتهد في تحقيق هذه النية ويخلص لله فيها، ويستعين بالله على إقامة ما يتعلق بولايته من الواجبات العامة والخاصة، فبذلك يعينه الله، وتهون عليه المشاق المعترضة في إقامة العدل، وبذلك تعلو درجته عند الله، ويعلو مقامه عند الخلق، وبذلك يمكنه الله ويدفع عنه الأعداء من الحاسدين وغيرهم، ولا تشبه الموفق بأغلب الناس الذين لا غرض لهم في مثل الولاية، إمارة أو غيرها إلا الترأس، والتوسل إلى المآكل والأطماع الضارة، ومع ذلك، فمن كانت هذه حاله الغالب أن تكون عاقبته أسوأ العواقب، وطريقه شر الطريق، فأولى بالعبد أن ينظر إلى واجبه الحاضر وإلى ما يقربه إلى مولاه وإلى العواقب المتأخرة المترتبة على سلوك طريق العدل، أو على ضده، نسأل الله تعالى أن لا يكلنا وإياكم إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يمدنا وإياكم بعونه وتوفيقه.

## باب حد الزناء

**س ١ ــ هل حد اللوطي كالزاني؟**

ج ــ الصواب أن حد اللوطي القتل برجم أو غيره على كل حال، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، اختارها شيخ الإسلام، وفيه آثار عن الصحابة تدل على ذلك والله أعلم.

**س ٢ ــ إذا وطىء ما فيه شبهة معتقداً تحريمه، فهل عليه الحد؟**

ج ــ قد ذكر الأصحاب رحمهم الله أن الشبهة مانعة من إقامة الحد، سواء كانت شبهة عقد أو شبهة اعتقاد، وأنه لا فرق في سقوط الحد بين المعتقد الحل أو التحريم، لكن بشرط أن تقوم شبهة بينة تدرأ الحد لأجلها، ولكن ثم مسائل ذكروها ضعيفة شبهها، وفيها خلاف، والصحيح أن الاحتمالات البعيدة لا تعتبر في سقوط الحد، إذا لم يعتقد الواطىء الحل والله أعلم.

**س ٣ ــ إذا أكره الرجل على الزنا فهل يجب عليه الحد؟**

ج ــ الإكراه على الزنا أو شرب الخمر أو السرقة ونحو ذلك، لا حد على المكره فيها، وبعض الأصحاب قال: إن الزنا لا يتصور الإكراه عليه، لأنه إذا انتشرت آلته فقد اختار، وليس هذا بصحيح، فإنه قد يكون قوي الشهوة، فيكره على الزنا وهو لا يختار، وشدة شهوته توجب له الانتشار ولو على الإكراه.

## باب حد القذف

**س ١ ــ هل قذف المجبوب والرتقاء يوجب الحد والتعزير؟**

ج ــ نعم يوجب التعزير، والسبب في ذلك أن القذف إنما أوجب الحد، لأنه يهتك المقذوف ويعرضه للظنون المتنوعة، ومن كان مجبوباً أو رتقاء، فالوطء ممتنع منه وعليه، وهذا يدفع كثيراً من الظنون المتوجهة إليه، كما لو قذف أهل بلد أو جماعة لا يتصور الزنا منهم عادة، فعليه التعزير دون الحد والله أعلم.

**س ٢ ــ هل القذف حق لله أو للآدمي؟**

ج ــ المذهب أنه حق للآدمي يسقط بعفو المقذوف. وقيل: لا يسقط بعفوه، لأن فيه حقاً لله تعالى، ولهذا أمر الله بإقامته ولم يشترط رضى المقذوف.

## باب التعزير

**س ١ ــ إذا ظلم صبي صبياً أو بهيمة، أو فعل به محرماً، فهل عليه تعزير؟ وهل يعزره الوالي أو الولي؟**

ج ــ الصبي إذا فعل محرماً أو تكلم بمحرم يعزر تعزيراً يردعه عن ذلك الفعل، وليس فيه شيء مقدر، ولكنه يختلف باختلاف الأفعال المحرمة وقبحها والذي يتولى تعزيره في ذلك الولي للآمر، من أمير ونحوه، لأنه لو ترك الناس يعزر بعضهم بعضاً لكثر الشر ولم يقفوا على حد محدود، وأكثر الناس لا يقف

عند المشروع، فلذلك وجب تفويض هـذه الأمور إلى ولي الأمـر ليحصل المقصود، ولينحسم الشر وتقل الفتن والله أعلم.

**س ٢ ــ إذا دخل بيتاً فيه امرأة متهمة وادعى أن له شغلاً فهل يقبل منه أو يعزر؟**

ج ــ لا يطاع قوله بمجرد ذلك، بل ينظر، فإن كان صادقاً على وجه مباح، بأن كان في البيت محارم له فلا شيء عليه، وإن كان على وجه محرم، مثل أن يدخل على امرأة أجنبية وليس له في البيت محارم، فهذا عليه الأدب، وخصوصاً إذا كان متهماً وهي متهمة، فيتعين عليهما الأدب.

**س ٣ ــ هل تجوز الزيادة في التعزير على عشرة أسواط؟**

ج ــ المذهب: لا تجوز الزيادة على العشرة إلا في مسألتين: إذا وطىء أمة مشتركة بينه وبين غيره، فيعزر بمائة سوط إلا سوطاً، وإذا شرب مسكراً نهار رمضان، فيعزر بعشرين مـع الحد، فيكون عليه مائة، ثمانون للحد، وعشرون للفطر في رمضان[1] واختار الشيـخ تقي الدين مراعاة المصلحة، وأنها تجوز الزيادة على العشرة حيث لم يحصل الردع إلا بها، والله أعلم.

**س ٤ ــ هل يحرم التعزير بحلق اللحية وأخذ المال، وما مصرف المال إن أبيـح التعزير به؟**

ج ــ على المذهب كذلك، وعلى الصحيـح فيه تفصيل، أما حلق اللحية، والأمور المحرمة شرعاً، فلا يحل التعزير فيها. وأما التعزير بأخذ المال ونحوه إذا كان في ذلك مصلحة، فيجوز بحسب المصلحة، والمال المأخوذ في هذا النوع يصرف للمصالـح العامة، وهو اختيار شيـخ الإسلام.

(١) وهنا موضـع ثالث وهو وطء أمة أمراته التي أحلتها له فيعزر بمائة بلا تغريب، فإن لم يكن أحلتها له حد حداً.

## باب حد السرقة

**س ١ ـ قولهم: من سقطت عنه العقوبة لموجب ضوعف عليه الغرم، فما مثاله؟**

ج ـ يدخل في هذا من سرق من غير حرز، فعليه ضمانه بقيمته مرتين، وإذا قلع الأعور عين الصحيح المماثلة لعينه الصحيحة عمداً فلا يقتص منه، ولكن يلزمه قيمة ذلك مرتين، فيلزمه دية كاملة، دية عينين.

## باب حكم المرتد

مناظرة في تكفير الشخص المعين بصدور ما يوجب الكفر عنه.

قال أحد المذكورين: قد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، أن من دعا غير الله تعالى، ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنمًا أو غير ذلك، أنه كافر بالله، مشرك مخلد في نار جهنم، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة لا يمكن إنكاره، فمتى فعله أحد من الناس، فهو مشرك كافر لا فرق بين كونه معانداً أو جاهلاً أو متأولاً أو مقلداً، ولهذا جعل الله في كتابه الكفار كلهم كفاراً، لم يفرق بين التابع والمتبوع، ولا بين المعاند والجاهل، بل أخبر أنهم يقولون:

**﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾**

[سورة الزخرف: الآية ٢٢]

وهذا أمر لا يشك فيه أن كثيراً منهم يظن أنه على حق كما قال تعالى:

**﴿الذين ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسَبون أنهم يحسنون صنعاً. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم﴾** [سورة الكهف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥]

**فلم يمنعهم تكفيرهم اعتقادهم أن ما فعلوه إحسان، فهكذا من دعا غير الله، أو استغاث بما لا يقدر عليه إلا الله، فهو مشرك كافر، عاند أو لم يعاند، عرف الدليل أو عُرِّفه أو لم يعرف. وأي فرق بين تكفير جهلة اليهود والنصارى وغيرهم**

وجهلة من يشرك ولو انتسب إلى دين الإسلام؟ بل أي فرق بين تكفير من ينكر البعث ولو جهلاً، وبين من يدعو غير الله ويلوذ به ويطلب منه الحوايج التي لا يقدر عليها إلا الله فالكل كفار، والرسول بلغ البلاغ المبين، ومن بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، سواء فهمها أو لم يفهمها. قال الآخر: ما ذكرت من دلالة الكتاب والسنة والإجماع، على أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك وكفر مخلد في النار، فهذا لا شك فيه، ولا ريب، وما ذكرته من مساواة جهلة اليهود والنصارى وجميع الكفار الذين لا يؤمنون بالرسول ولا يصدقونه بجهلة من يؤمن بمحمد ﷺ، ويعتقد صدق كل ما قاله في كل شيء ويلتزم طاعته، ثم يقع منه دعاء لغير الله وشرك به، وهو لا يدري ولا يشعر أنه من الشرك، بل يحسبه تعظيماً لذلك المدعو، مأموراً به، وما ذكرته من المساواة بين هذا وبين ذاك، فإنه خطأ واضح، دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان على التفريق بين الأمرين، فإنه من المعلوم من الدين بالضرورة كفر جهال اليهود والنصارى وجميع أصناف الكفار، وهذا أمر لا يمكن إنكاره. وأما من كان مؤمناً بالرسول، ومصدقاً له في كل ما قاله، وملتزم لدينه، ثم وقع منه خطأ في الاعتقاد أو القول والعمل، جهلاً أو تقليداً أو تأويلاً، فإن الله يقول:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

عفي له عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فالمقالة والاعتقاد وإن كان كفراً، ويقال: من اعتقدها أو عمل بها، فهو كافر، لكن قد يقع ويوجد مانع في بعض الأشخاص يمنع من تكفيره لعدم علمه أنه كفر وشرك فيوجب لنا التوقف في إطلاق الكفر على عينه، وإن كنا لا نشك أن المقالة كفر لوجود ذلك المانع المذكور، وعلى هذا عمل الصحابة والتابعين في البدع، فإن البدع التي ظهرت في زمانهم كبدعة الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم مشتملة على رد النصوص من الكتاب والسنة وتكذيبها وتحريفها، وذلك كفر، لكن امتنعوا من تكفيرهم بأعيانهم، لوجود التأويل، فلا فرق بين تكذيب الخوارج لنصوص الشفاعة وتكذيبهم للنصوص الدالة على إسلام وإيمان أهل الكبائر، واستحلالهم

لدماء الصحابة والمسلمين، وتكذيب المعتزلة بالشفاعة لأهل الكبائر، ونفي القدر والتعطيل لصفات الله، وغير ذلك من مقالاتهم، وبين تأويل من أجاز دعاء غير الله والاستغاثة به، وقد صرح شيخ الإسلام في كثير من كتبه، كردِّه على البكري والاخنائي وغيرهما حين ذكر وقوع مثل هذه الأمور من بعض المشايخ المشار إليهم، فذكر أنه لا يمكن تكفيرهم لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة، حتى تبين لهم الحجة التي يكفر منكرها، وكلامه معروف مشهور، فاتضح لنا من ذلك أن من وقعت منه مثل هذه الأمور جهلاً وتقليداً، أو تأويلاً من غير عناد، أنه لا يحكم بتكفيره بعينه وإن كانت هذه الأمور الواقعة منه كفراً، للمانع المذكور، فقال الأول: أما قوله تعالى:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

ورفع الشارع المؤاخذة عن هذه الأمة بالخطأ، فإنما ذلك في الخطأ في المسائل الفرعية والاجتهادية، أما أصول الدين، بل أصل الدين على الإطلاق الذي هو التوحيد، فالخطأ فيه والعمد الكل على حد سواء كما ذكرنا في تكفير مقلدة الكفار، وأما قولكم: إن هذا مصدق للرسول ملتزم لطاعته، فهو ممنوع، فكيف يصدقه من كان مكذباً له في وجوب توحيد الله، ووجوب إفراد الله بالدعاء والاستغاثة وغيرها من أنواع العبادات؟! وكيف يكون ملتزماً لطاعة الرسول من عصاه في أصل الطاعات وأساس الدين، وهو التوحيد؟ فجعل يدعو غير الله ويستغيث به ناسياً ربه، مقبلاً بقلبه على المخلوقين، معرضاً عن رب العالمين، فأين الالتزام وأين التصديق، وأما الدعوى المجردة، فإنها غير مقبولة حتى يقام عليها الدليل والبرهان. وأما تشبيهكم هذا ببدع الخوارج والمعتزلة إلى آخر ما قلتم، فما أبعد الفرق بين الأمرين؟ بين التوحيد الذي هو أصل دين الرسل وأساس دعوتهم، وهو الذي جاهد عليه الرسول ﷺ، وكاد القرآن من أوله إلى آخره أن يكون في بيان هذا تأصيلاً وتفصيلاً وتبياناً وتقريراً، وبين البدع التي ضل أهلها وأخطأوا في عقائدهم وأعمالهم مع توحيدهم وإيمانهم بالله ورسوله، فالفرق بين الأمرين فرق واضح، والجامع بينهما مخطىء لم يهتد إلى الصواب.

فقال الثاني: إن القول بأن الخطأ المذكور في الآية وغيرها من نصوص الشرع إنما هو الخطأ في الفروع لا في الأصول، قول بلا برهان، فلم يفرق الله ورسوله بين مسائل الأصول والفروع في العفو عن هذه الأمة، وما ذكرناه من عدم تكفير السلف لأهل البدع حيث كانوا متأوِّلين إلا مسائل أصول الدين، خصوصاً من عطل صفات الباري من المعتزلة ونحوهم، فإن التوحيد مداره على إثبات صفات الكمال لله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، فكما امتنعنا من التكفير المعين الذي لم تقم عليه الحجة في القسم الأول إذا أنكر بعض الصفات جهلاً وتأويلاً وتقليداً، فكذلك نمتنع من تكفير من صرف بعض العبادات لبعض المخلوقات جهلاً وتأويلاً وتقليداً، والمانع في هذا كالمانع في هذا، وكلا الأمرين قد أتى به الرسول وبلغه لأمته، لكن الضُلَّال من أمته ضلوا في البابين أو فيهما، وسلكوا ما علم بالضرورة من دينه أنه جاء بإنكاره والنهي عنه والتحذير لأمته عن هذا المسلك، فمن علم ما جاء به في البابين، وعانده وشاقَّه من بعد ما تبين له الحق، فهو الكافر حقاً، ومن كان مؤمناً به ظاهراً وباطناً، لكنه ضل في ذلك وجهل الحق فيه، فإنا لا نجزم بكفره في هذه الحال مع وجود هذا المانع حتى تقدم عليه الحجة التي يكفر معاندها، وبهذا المعنى امتنعنا نحن وأنتم من إطلاق الكفر على من جرت منه مثل هذه الأمور، كالصرصري ونحوه، ممن في كلامهم من الاستغاثة بالرسول ودعائه، وطلب الحوائج منه لهذه العلة المذكورة، وهو وأمثاله ممن يدخل في كلام شيخ الإسلام السابق.

وأما قولك: إن إنكار البعث ممن أنكره لا تتوقَّفون في تكفيره كما كفره الله ورسوله من غير تفريق بين المعاند وغير المعاند، فنحن نقول: الباب واحد، ولكن حصل التأويل وراج الأمر في مسائل الصفات والتوحيد على كثير ممن هو مصدق للرسول في كل شيء، بخلاف مسألة إنكار البعث، فإن هذا لا يكاد يوجد، ومع ذلك لو فرض وجوده ممن نشأ في بلد بعيد، أوحديث عهد بإسلام، فإنه يعرَّف حكمه، وبعد ذلك يحكم بكفره، فكل من كان مؤمناً بالله ورسوله، مصدقاً لهما ملتزماً طاعتهما، وأنكر بعض ما جاء به الرسول جهلاً

أو عدم علم أن الرسول جاء به، فإنه وإن كان ذلك كفراً، ومن فعله فهو كافر، إلا أن الجهل بما جاء به الرسول يمنـع من تكفير ذلك الشخص المعين من غير فرق بين المسائل الأصولية والفرعية، لأن الكفر جحد ما جاء به الرسـول أو جحد بعضه مـع العلم بذلك، وبهذا عرفت الفرق بين المقلدين من الكفار بالرسول، وبين المؤمن الجاحد لبعض ما جاء به جهلاً وضلالاً لا علماً وعناداً.

**س ٢ ـ ما يجوز للمكره فعله، فهل الأولى فعله أم الصبر؟**

ج ـ قد فصل العلماء رحمهم الله ما يجوز للمكره فعله، وما لا يجوز. أما الأقوال، فلا أعظم من كلمة الكفر، وقد قال تعالى:

**﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** [سورة النحل: الآية ١٠٦]

فالإكراه على الأقوال كلها يحل للمكره إنجاء نفسه من الإكراه بالقتل ونحوه بالتكلم بها، ولكن لا يترتب عليه شيء من أحكـامها، ولـذلك إذا طلق أو أعتق، أو عقد أو فسـخ عقداً، فلا حرج عليه، ولا يصـح منه. وأما الإكراه على الأفعال، كشرب الخمر، والزنا ونحوه، مما ليس فيه قتل ولا قطـع طرف، فكذلك لا حرج على المكره فيها. وأما الإكراه على القتل وقطـع الأطراف ونحوها، فلا يبيـح ذلك، ولذلك لا يجوز أن ينجي نفسه بقتله لغيره.

# كتاب الأطعمة

**س ١ ـ أي المكاسب أولى؟**

ج ـ اختلف أهل العلم أي المكاسب الدنيوية أولى وأرجح؟ فمنهم من فضل الحرث والزراعة، ويحتج لهؤلاء بما ورد في الحديث الصحيح (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير إلا كان له حسنات) فالحرث من ثمار وزروع يحصل فيها لصاحبها خير كثير، فالحيوانات والطيور والحشرات تقتات منها، وذلك أجر لصاحبها، خصوصاً إذا كان محتسباً للأجر والثواب. وأيضاً فإن صاحب الثمار والزروع يترتب على غلته من الزكاة، ومن الهدايا والصدقات ما لا يوجد في غيرها. وأيضاً فصاحب الزرع مثلاً يكون عنده من التوكل على الله والطمع في فضله وبرجاء الغيث الذي منه مادة حراثته ما يعدُّ من أعظم المكاسب. وأيضاً فصاحب الحراثة تتوقف حراثته على عملة كثيرة بحسبها، وهؤلاء العملة بأسبابه اعتاشوا، وكل من انتفع بسببك في دينه أو دنياه، فإنك عند احتساب الأجر مثاب على ذلك.

وأيضاً، فمغل الحراثة من حبوب وثمار وخضر وعلف وغيرها، داخل في المنافع العمومية التي تنفع الناس، ولا تستهون بذلك، فمن نوى هذه الأمور كلها حصَّل خيراً كثيراً، ومنهم من فضل البيع والشراء والتجارة بأقسامها، ويحتج لهم بالحديث المرفوع (أفضل الكسب عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور) وقوله ﷺ: في البائع والمشتري (فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما).

فهذه البركة التي وعدها التاجر الصدوق تمتاز على غيرها، وكذلك الحديث الآخر يقول الله تعالى: (أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر...). إلى آخره، فمعيته للمشترك في التجارة لا يفضلها شيء. وقد يقال: إن الحديث كما يحتج به أهل التجارة، فإنه يحتج به أهل الحراثة وأهل الصناعات كلها، وهو حجة لكل مشتركين في مراد يراد به الكسب والنفع، والله أعلم.

وأيضاً فالتاجر الذي يبيع ويشتري، إذا تقيد بالشرع، حصَّل خيراً كثيراً، فإن نفس المعاملة الصحيحة السالمة من المعاملات الخبيثة، يثاب العبد عليها من جهتين، من جهة تجنُّبه للمكاسب المحرمة، ومباشرته للمكاسب الطيبة، ومن جهة ما يحصل له من معاملات الناس من الفضل والإحسان، فإن الله تعالى قال:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضل بينكم﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

ومن أعظم ما يدخل في الفضل كل معاملة مسامحة ومراعاة ومحاباة وعدم استقصاء، فالتاجر الموفق إذا أسقط من بعض الثمن، أو زاد المشتري عما يجب له أو أنظر المعسر أو يسر على معسر، فيستفيد بذلك خيراً كثيراً. وأيضاً فالبيع والشراء فيه من الفوائد أنه تتوسع فيه معارف العبد في المعاملات، ويهتدي إلى طرقها النافعة، ويحترز من طرقها الضارة، ولهذا أمر الله باختبار اليتامى وتعليمهم المعاملات النافعة، فالتجارة نفس مباشرتها مباشرة للتعليم بالفعل، فكم بين من هو مستقل في أموره مدير لشؤونه لا يزال يترقى ويتنور وينتقل من حالة إلى أرقى منها ممن هو مدبر خادم لغيره، أفعاله وحركاته تحت تدبير غيره، قد جمد ذهنه وكلَّ عقله، ولم يحدِّث نفسه بالاستقلال بمصالحه، ولا طمحت نفسه بالانتقال من حالته التي هو عليها إلى أرقى منها، ولهذا نجد الفرق بين معارف هؤلاء ومعارف الأولين بلا نسبة، ومن العلماء من فضل العمل باليد والصنائع والحرف، كالنجارة، والحدادة، والخياطة، والكتابة، والاحتشاش

والاحتطاب، وغيرها، واحتجوا بما تقدم من الحديث (أفضل الكسب عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور) وبأن الصناعات أجورها معلومة، وفوائدها حاصلة وإن كانت كثيرة تكون قليلة، فهي مكاسب متيقنة، والتجارة والحراثة ونحوها تارة وتارة، أحياناً تكسب، وأحياناً تخفق، والصناعة بحسبها ثمرتها معروفة، وأجرها مقدر أيضاً، فقد قال كثير من أهل العلم: إن الصناعات كلها من فروض الكفاية، لعموم الحاجة إليها، فالمشتغل بها مشتغل بفرض من الفروض، وقائم عن غيره بهذا الواجب. وأيضاً فمنافع الصناعات عمومية يحتاجها الناس لدينهم كما يحتاجونها لدنياهم وخصوصاً الصناعات التي فيها إعانة للمسلمين على الجهاد في سبيل الله الداخلة في قوله تعالى:

﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وثبت في الصحيح أن الله جل وعلا يدخل في السهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه، وراميه، والممدَّ له.

وأيضاً من الصنائع الكتابة، ولا يخفى ما في كتابة أصناف العلوم النافعة من الفضل والخير، وأن من كتب كتاباً فله أجر من انتفع به. وفي الصنائع من الفوائد شيء كثير. وأحسن ما يقال في هذا الباب: أن الأفضل لكل أحد ما يناسب حاله، فالمعتاد للبيع والشراء الذي لا يحسن حراثة ولا عملاً آخر، فالأولى له الاشتغال بالتجارة، والحراث ينبغي أن يلزم حراثته، ولا يشتغل بأمر لا يدري عن كفاءته فيه، وكذلك الصانع الأولى لزوم صنعته إذا كان لا يثق من نفسه أن يحسن غيرها، فإن كان الإنسان يحسن الأمور كلها أو بعضها، فلينظر في حاله وفي وقته أيها أكثر كسباً، وأبلغ ثمرة، ولينظر أيضاً أن كل كسب فيه راحة ومساعدة على الطاعة، فهو أفضل، وكذلك كل كسب يكون أسلم لصاحبه من الإثم والحرام، فهو أفضل من كسب يخشى وقوع صاحبه في أمور محرمة، ولا بد في جميع المكاسب من النصح وعدم الغش والقيام بالواجب للمعاملين والعملة من جميع الوجوه، والله أعلم.

**س ٢ ـ هل كيل الطعام سبب لبركته؟**

ج ـ قوله ﷺ في حديث المقدام (كيلـوا طعامكم يبارك لكم فيه) أصـح ما قيل فيه وفي معناه أنه الطعام الذي يخرجه صاحب البيت على عائلته، وهو الذي يدل عليه، وهو المناسب للمعنى، وهذا الكلام من النبـي ﷺ أصل كبير، وقاعدة أساسية، وميزان لما دلت عليه الآية الكريمة:

**﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.**

[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فمعنى «كيلوا طعـامكم» أي قدِّروه بمقدار كفاية المنفق عليهم من غير زيادة ولا نقصان، فإن في ذلك سلوكاً لطريق الاقتصاد، والحزم والعقل والبركة المعقولة في هذا من وجوه:

أولاً: امتثال أمر الشارع الذي هو البركة، وخير وسعادة وصلاح.

ثانياً: أن في الكيل المذكور يخرج المنفق من خُلُقين ذميمين، وهما التقتير والتقصير في النفقات الواجبة والمستحبة، وإذا حصل التقصير، اشتغلت الذمم بالحقوق الواجبة والمآثم الحاضرة، ولم يقـع الإحسان والإنفاق موقعـه، بل لا يصير له في هذه الحالة موقـع أصلاً، فيقـع الذم موقـع الحمد والتضجر والتسخط بدل الشكر والدعاء والثناء والخلق الثـاني: التبذير والإسراف، فإن هذا خلق ينافي الحكمة وهو من أخلاق الجاهلية، وما أسرع ما يؤدي هذا الخلق بصاحبه إلى القلة والذلة، فإذا سلم من هذين الخلقين، أنصف بخلق الحكمة والعدل، والقوام الذي هو أصل الخير ومداد الصلاح.

ثالثاً: أن في سلوك هذا الطريق النافـع السالم من التقصير والتبذير، تمريناً للنفس على التوازن والتعادل في كل الأمور، وفي هذا من الخـير والبركـة ما لا يخفى.

رابعاً: أن النفقات إذا خرجت عن طورها وموضوعها، تفرع عنها الشره والفساد، فإنه إذا لم يكل ويقدر ما يطعمه لمن يعوله، فإما أن يكون أزيد من

الكفاية، فالزائد إما أن يأكلوه وهو عين ضررهم إذا كان زائداً عن الحاجة، فكثير من الأضرار البدنية والآلام إنما تنشأ من زيادة الطعام، وإما أن يتلف عليه، وذلك فساد، وقد يوجد الأمران، وقد يتصدق به بعض الناس، لكن الصدقة في هذه الحال لا يكون لها موقع إلا في حق المعطي، لأنه يعرف أنه لا يعطي إلا ما زهد فيه صاحبه، وقد يكون قد اكتفى واستعد لنفسه بطعام؛ ولا في حق المتصدق، لأن النية غير تامة لكون الحامل له من الإنفاق خوف تلفه لا الإخلاص المحض، فإذا سلك الطريق الذي أرشده إليه النبي ﷺ، وهو الكيل والتقدير بحسب ما يليق بالحال سلم من هذه الأمور، فهذا الحديث ينبغي أن يكون أصلاً من أصول التربية المنزلية والنفقات العائلية، وأن يكون عليه المعوَّل، فقد بعث ﷺ بكل أمر فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، فأخلاقه وإرشاداته وهديه يغني عن كل شيء، والحمد لله على نعمه.

## باب الذكاة

**س ١ ــ ذكر الأصحاب صحة الذبح بالعظم غير السن، فهل ذلك وجيه أم لا؟**

ج ــ هذا الذي ذكروه هو المشهور من المذهب، وأنه لا يستثنى من العظام إلا السن، والصحيح القول الآخر في المذهب، اختاره ابن القيم وغيره، أن جميع العظام لا تحل الذكاة بها، كما علل بذلك النبي ﷺ حيث قال: (أما السن فعظم) فتعليل الخاص بالمعنى العام يدل على ربط الحكم بالمعنى العام، وأنه بمنزلة نهيه عن الذبح بكل عظم، وهذا واضح ولله الحمد، ومن الحكمة في ذلك أنها إن كانت نجسة فلنجاستها وإن كانت طاهرة، فلتنجيسها على إخواننا من الجن، والله أعلم.

**س ٢ ــ ذكر الأصحاب أنه إذا وضع مناجل الصيد وذكر اسم الله عليها أنها تحل، فهل هو وجيه؟**

ج ــ ليست بوجيهة، ويعسر تطبيقها على الأسباب التي تحل بها الذبيحة،

فإن الأسباب التي ورد بها الحل، إما مباشرة الذبح من آدمي عاقل لمقدور عليه بذبحه في محله وغيره مقدور عليه بإصابته بمحدد من الآدمي العاقل، أو بجرح الجوارح المكلبة، ومع هذا فاشترطوا لذلك شروطاً متعددة معروفة، وهذه الصورة المذكورة ليست منها ولا شبيهة بها، فإنه لا بد من مقارنة مباشرة الذابح وفعله للذبح، أو تقدمه يسيراً، وهذه ذكروا ولو طال الزمن بين الوضع والإصابة أنها تحل، مع أن الأصل في الذبح الحظر حتى نتيقن سبب الحل.

**س ٣ ــ إذا ذبح ذبيحة فانجذب جرانها قبل الذبح، فماتت والدم يسيل فهل هي حلال، أو لم تحت مذبحها هل هي حلال أيضاً؟**

ج ــ هذا السؤال فيه ألفاظ غامضة، ولكن الظاهر منه مراد المقصود، أن الذابح إذا قطع جرانها ولو بعد انجذابه ما دامت حية وقطع مع ذلك المريء، حلت، فالجران هو الحلقوم والمريء مجرى الطعام والشراب، فلا بد من قطعهما قبل موت الذبيحة، فإن ماتت قبل قطعهما، أو قبل قطع أحدهما، لم تحل، وانجذاب الجران من دون قطع لا قبل ولا بعد، لا يفيد، فإذا حصل قطع الحلقوم والمريء، حلت الذبيحة، سواء كان ذلك في أعلى الرقبة أو أسفلها أو وسطها، فأما إذا ارتفع عن المذبح ولم يقطع الحلقوم ولا المريء، لم يحل، وأما الأسفل، فلا يتصور فيه إلا القطع، لاتصال الحلقوم والمريء.

**س ٤ ــ إذا وجد أكيلة السبع تضطرب كاضطراب الذبيحة، ثم ذبحها فخرج منها دم، فهل تحل؟**

ج ــ أما المذهب، فإن أكيلة السبع إذا وجدها تتحرك حركة ضعيفة، مثل حركة المذبوح أو أقل، فإنها لا تحل، بل لا بد من الحياة المستقرة، وهي ما تزيد على حركة المذبوح، وكذلك على المذهب لو قطع السبع أمعاءها وحشوتها، لم تحل ولو بقي لها حركة أكثر من حركة المذبوح، لأنه يتيقن أنها لا تبقى بعد هذا، ولكن القول الآخر في المذهب الذي اختاره شيخ الإسلام رحمه الله، وهو الذي تدل عليه النصوص الشرعية، أن أكيلة السبع، سواء قطع أمعاءها أو حشوتها، أم لا، إذا أدركها وفيها حياة، ولو علمنا أنها لا تبقى

معها، ثم أتم ذكاتها وذبحها الذبـح الشرعي، وسال منها الدم الذي جرت العادة بسيلانه من الذبيحة، فإنها حلال، لأن الله تعالى لما ذكر عدة أشياء فقال:

﴿وما أكل السبـع إلا ما ذكيتم﴾. [سورة المائدة: الآية ٣]

أي تممتم ذكاته، وهو عام فيما فيه حركة طويلة أو قصيرة، وما قطعت حشوته، وما ليس كذلك، فإذا ذكاه قبل أن يموت، حل ذلك، ومن أبلـغ ما يعرف به الميتة إذا جمد الدم واسود، فقد جرت العادة أنها قد ماتت.

**س ٥ ــ هل يجوز تخليل الجراد المتعدد بعود ونحوه؟**

ج ــ هذا من أشنـع المحرمات، فإنه لا يحل تعذيب شيء من الحيوانات وفي «صحيـح مسلم» مرفوعاً (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) فإن كان لا يحل الذبـح بآلة كالَّة، ولا على وجه يكون فيه تعذيب للحيوان، فكيف بجعل الجراد يخل مـع صدورها في عود ويبقى مدة طويلة يلعب به الصبيان، هذا يخشى على صاحبه العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، وقد لعن رسول الله ﷺ من جعل ما فيه الروح غرضاً. وفي «مسند الإمام أحمد» مرفوعاً (من مثل بذي روح ثم لم يتب، مثل به يوم القيامة)، فيجب النهي الشديد عن هذه الحالة التي هي شنيعة في الدين والعقل، نسأل الله العافية.

# كتاب الإيمان

**س ١ ــ إذا حلف ألا يأكل من لحم هذه البقرة، فاشتراها آخر فدعاه وأكل منه، فهل يحنث، أم لا؟**

ج ــ إن كان قصده ألا يأكل منه وهو في ملك الأول، بأن كان قصده الامتناع من منته، فلا يحنث، وإن لم يقصد ذلك، وأكله عالماً ذاكراً غير ناس ولا جاهل الأمر، ولا جاهل الحكم، حنث، لأن هذا عين ما حلف على تركه، ولا عذر له من جهل ولا نسيان ولا إكراه فإن كان له عذر من ذلك، فلا حنث، والله أعلم.

**س ٢ ــ قول الأصحاب: إذا حلف لا يتزوج أو لا يتطهر أو لا يتطيب فاستدام ذلك، لم يحنث. وإن حلف لا يركب أو لا يلبس، فاستدام ذلك حنث، فما الفرق بين المسألتين؟**

ج ــ قد ذكروا الفرق بينهما، بأن الحلف في المسائل الأولى يقتضي أن لا يوجد منه تزوج جديد، أو طهارة جديدة، أو طيب جديد للعلم بأنه ليس مراده أن إمساك زوجته الموجودة وقت حلفه داخل في حلفه على الزواج واستدامة الطهارة الموجودة والطيب الموجود وقت الحلف داخل في يمينه وأما حلفه ألا يركب وهو راكب، ثم استدام ذلك، فإنه بعد حلفه حصل له ركوب جديد، لأن مفردات الركوب منفصل بعضها عن بعض، وكذلك اللبس، بخلاف الأول. واعلم أن مرادهم في هذه الألفاظ وما أشبهها مجرد، يدخل في اللفظ

الذي عقده الإنسان، وما لا يدخل في لفظه، فلو قارن اللفظ نية أو قرينة تدخل الاستدامة أو تخرجها، وجب اعتبارها، والله أعلم.

**س ٣ ــ قولهم: وإن حلف على نفسه أو غيره ممن يمتنـع بيمينه كالزوجة والولد، هل يختص بهما أو يعم كل ذي رحم؟**

ج ــ هو عام لكل من وجدت فيه هذه الصفة، وهو الذي يمتنـع بيمينه من قريب، بل ومن صديق مشفق، فمن يمتنـع بيمينه ولو كان غير قريب، فإنه داخل في هذا، ومن لا يمتنـع ولو كان ولداً قد عرف امتناعه عن طاعة أبيه ومخالفته له، وإنما هذا من باب التمثيل والعبرة على المعنى الذي علق عليه الحكم، والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم.

**س ٤ ــ رجل نزل به ضيف، فدعاه أناس فأقسم الرجل المضيف ألّا يجيب دعوة أحد، فخالفه الضيف وأجاب الدعوة، فهل على الحالف كفارة؟**

ج ــ أما على المذهب، ففيه الكفارة، لأنه حنث بإجابة الضيف الذي حلف على عِدم الإجابة، وهو عالم ذاكر اليمين، فإن كان الضيف أجاب ناسياً ليمين صاحب المحل، أو جاهلاً لها، أو كان في نية صاحب المحل أنه لا يجيب بنفسه مباشرة دون ضيفه، فإنه لا يحنث في هذه الصورة، والظاهر أن حلفه أنه لا يجيب ولا يجيب الضيف.

**س ٥ ــ رجل حلف على آخر أن يأتيه في الوقت الفلاني، فلم يأته فهل يحنث أم لا؟**

ج ــ إذا ترك المجيء متعمداً ذاكراً غير مكره، فإنه يحنث، إلا أن شيـخ الإسلام رحمه الله قال: من حلف على غيره ظاناً أنه يكرمه ويطيعه فلم يطعه، وأخلف ما ظنه فيه، أنه لا كفارة فيه، لأنه يراها من لغو اليمين، لكن الأحوط أن يكفر كما هو المذهب.

**س ٦ ــ حلف على شخص ألا يجلس في هذا المكان، أو قال: علي الحرام أن لا يجلس فيه، ثم جلس فيه، فهل يحنث؟**

ج ــ هو حانث، عليه كفارة يمين، إطعام عشرة مساكين، لكل مسكين

مُدُّ بُرٍّ أو نصف صاع تمرٍ أو شعير عن الحلف، وعن التحريم إلا إذا نوى بقوله: عليّ الحرام، يريد زوجته يعني عليه الحرام من زوجته، فإن كان نوى ذلك، فعليه كفارة ظهار كفارة غليظة: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطـع، فإطعام ستين مسكيناً.

وأما إذا ما نوى زوجته، فكما ذكرنا ليس عليه إلا كفارة يمين إطعام عشرة مساكين.

## باب النذر

**س ١ ـ إذا اختلفا في عين بعير، فقال أحدهما: هي لفلان، وقال الآخر بل لفلان، ونذر كل واحد نذراً، فما الحكم؟**

ج ـ ليس هذا بنذر، وإنما هو مراهنة وميسر لا يحل، سواء كان بلفظ المراهنة أو الصدقة أو النذر أو نحوها، فإن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ.

**س ٢ ـ إذا نذر ذبح فاطر، فهل يجوز أن يذبح بدلها جملا!؟**

ج ـ من نذر فاطر، فليس له أن يذبح بدلها جملاً، لأن لحم الأنثى أطيب وأحسن، وكذلك لا يذبح إلا ما يجزىء في الأضحية فإذا كانت لخسته، فيها شحم والعظام لا مخ فيها، فلا تجزىء عن نذره، كما لا تجزىء عن أضحيته. وأما الأكل بما نذره، فله في ذلك اليوم الذي يذبحها أن يأكل منها هو وأهل بيته، والباقي يتصدق به، وليس له أن يدخر منها شيئاً والله أعلم.

# كتاب القضاء

**س ١ ــ من قال: كل هدية على فعل قربة أو دفع شر لا يحل قبولها على مقتضى منصوص أحمد، فهل هو وجيه؟**

ج ــ أما إطلاق هذه العبارة وتعميمها، فعندي فيه إشكال، وفي النفس منه شيء إلا أنه يوجد في الشرع مسائل تدخل فيها، كمن أهدي إليه ليكف شره، ولـولا الهدية لما انكف شره، فإنه يجب عليه، كف شره، أهدي له أم لا، وإذا أعطي على هذا الوجه فهو حرام عليه، وكذلك هدايا العمال غلول، وكذلك هدية من يشفع له شفاعة حسنة لا يحل قبولها، وأمثال ذلك. ويوجد أيضاً مسائل أخر لا يحرم قبول الهدية فيها، كمن أحسن إلى غيره إحساناً متقرباً به إلى الله، فإنه إذا كافأه على ذلك، فلا بأس، بل هو مأمور بالمكافأة، وكذلك من أهدي له هدية لأجل تقربه إلى الله بقيامه بعبادة من العبادات القاصرة والمتعدية، ويوجد صور متعددة من هذا النوع، فعلم أن هذا الإطلاق فيه نظر، والله أعلم.

**س ٢ ــ من توسط لغيره أو شفع له في أمر من الأمور الدينية أو الدنيوية كالوظائف والعطايا ونحوها، فما حكمه؟**

ج ــ حكم ذلك تابع للأمر المتوسط فيه، إن كان مأموراً به بأن كان المتوسط له مستحقاً لتلك الوظيفة أو ذلك العطاء فالتوسط محمود، بل قد يكون واجباً، وإن كان المتوسط فيه منهياً عنه، بأن كان المشفوع له لا يستحق العطاء،

أو لا يستحق الولاية أو غيره خيراً منه وأنفـع، كان التوسط مذموماً غشاً لله ورسوله، لأن ذلك معصية وغش للمتوسط عنه، لأنه يجب عليه أن ينصـح له فيمن يولى أو يعطى، ومن هو الأولى والأنفـع، وغش أيضاً لمن توسط له لكونه أعانه على ما هو منهي عنه، وكل هذا داخل في قوله تعالى:

**﴿من يشفـع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفـع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾**. [سورة النساء: الآية ٨٥]

والله أعلم.

## باب طريق الحكم وصفته

**س ١ ـ إذا تساب الخصمان أمام القاضي، فهل عليهما تعزير؟**

ج ـ أما تساب الخصمين بين يدي القاضي، فإن كان متعلقاً بنفس الدعوى، وهو السب الذي مضمونه تكذيب كل واحد منهما للآخر، وتفجير بالكذب، فإن كل واحد يدعي ظلم الآخر، والسب المذكور يتعلق بدعواه واعتقاده، وهو يرى أنه مصيب فيه، والحاكم في هذه الحال إنما ينظر في قضيتهما، ويقطـع النظر عما تعلق بهما من سب أحدهما الآخر بما يتعلق بنفس الدعوى، وعلى هذا النوع ينطبق كلام الخطابـي على الحديث الذي ذكرت. وأما لو سبه سباً لا يتعلق بالدعوى، فهذا يجب تعزيره، كما لو وجد بدون دعوى، فليست الدعوى مما تسقط حق الآخر، لأن الكلام الصادر من الساب أجنبـي عن الدعوى، وإنما حمل عليه مغاضبة الخصم، وليس ذلك عذراً والله أعلم.

## من باب آداب القاضي

**س ١ ـ هل تجوز محاباة الموظف من أجل وظيفته؟**

ج ـ لا بأس بذلك إلا إذا كان غرض المحابـي التوسل بذلك إلى أمر لا يجوز، وإلا ليس في ذلك محذور.

# باب القسمة

**س ١ ـ إذا اشترك جماعة في ناقة، وطلب بعضهم ذبحها للأكل، وطلب بعضهم بيعها، فمن نأخذ بقوله؟**

ج ـ إذا لم يتفقوا، كان القول قول من يريد بيعها، ولو أنهم القليل، فيبيعونها، إما على شركائهم أو على آخرين.

**س ٢ ـ هل تجوز قسمة الثمار خرصاً، وإذا كان سهم فيه زيادة، فماذا يؤخذ عنها؟**

ج ـ نعم تجوز قسمة الثمار من النخل وغيره خرصاً، والقسمة تمييز للحقوق وإفراز لها لا بيع، وإذا حصل في أحد السهام زيادة على الآخر، فإن شاؤوا نظروا الزائد مثل نخلتين أو ثلاث أو أكثر، وقسموها على القسمة الأصلية، وإن شاؤوا باعوا حقوقهم منها على الذي عنده الزيادة بدراهم ونحوها، وإن شاؤوا أبقوا ما زاد على حدته ثم يقسمونه بعد جده بالميزان. وأما أخذ بدل الزيادة تمراً في الميزان، بأن يكون مثلاً لزيد عند عمرو زيادة نخلة تخرص بثلاثين وزنة فيعطيه عنها ثلاثين موزونة، فلا ينبغي ذلك خوفاً أن يكون داخلاً في بيع التمر بالتمر، والله أعلم.

**س ٣ ـ إذا كان العقار بعضه وقف، وبعضه طلق وهو لا ينقسم إلا بضرر، هل يجوز بيعه؟**

ج ـ إذا نظرنا إلى عموم كلام الأصحاب أن الوقف لا يجوز بيعه إلا إن تعطلت منافعه، كانت هذه الصورة المسؤول عنها داخلة في العموم، وأنه لا يجوز بيعه، لكن في هذه الحال صاحب الملك إذا منع عن بيعه، تضرر ضرراً كبيراً، وإن بقيت الحال على ما هي عليه، صارت حالته حالة أهل الوقف، فيكون بمنزلة الممنوع من التصرف في الرقبة، وهذا لا نظير له في الأملاك، وإن قسمنا له، تضرر الوقف والملك، فالأولى جواز البيع دفعاً للضرر، وتنزيله على كلام الأصحاب من قولهم في الوقف الذي اعتراه خراب: يجوز بيع بعضه لإصلاح

باقيه إذا كان عيناً واحدة ولم تنقص القيمة بالتشقيص، فإن نقصت، جاز بيعه جميعه، فهنا أجازوا بيع الجميع مع إمكان أن يباع بعضه لتعمير باقيه، فالمسألة المسؤول عنها مثل هذه، وهو أن بيع الملك وحده فيه ضرر بالتشقيص إذا لم يبع معه الوقف، ولا فرق بين المسألتين والله أعلم.

## باب الدعاوي والبينات

**س ١ ـ عن قوله ﷺ (البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر)؟**

ج ـ قوله ﷺ: (البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر) يا له من كلام ما أبلغه وأجمعه لجميع الوقائع والجزئيات الواقعة بين الناس في الحقوق والأموال والديون عند الاختلاف والتنازع، وعند الإشكالات، فهذا أصل تنطبق عليه جميع هذه المشكلات، فحكم ﷺ أن البينة على المدعي شيئاً من ذلك، واليمين على من أنكر تلك الدعوى، ويدخل في هذا أمور:

أحدها: من ادعى حقاً على غيره دماً أو مالاً أو غيرهما، وأنكر المدعى عليه.

الثاني: من ثبت عليه حق من الحقوق، ثم ادعى براءة ذمته بقضاء أو إبراء أو غيرهما، وأنكر صاحب الحق.

الثالث: من ثبت له اليد على شيء من الأشياء، وادعى آخر أنه له، وأنكر صاحب اليد.

الرابع: من كان الشيء تحت يده على وجه الأمانة، وادعى تلفاً أو تصرفاً، وأنكر من له المال، وذلك الوكيل والوصي وناظر الوقف وولي اليتيم، وكذلك الشريك في المضاربة والعِنان وشركة الوجوه ونحوها، وأنكر الآخر التلف أو التصرف.

الخامس: الغارم إذا ثبت عليه غرم متلف، أو مبيع أو غيره، واختلف مع صاحب الحق في مقدار ما يغرم، فالقول قوله.

السادس: من يتصرف لنفسه ولغيره، أو اشترى شيئاً أو استأجره وقال: إنه لنفسه، وقال الآخر: إنه تبع للمال الذي معه لي، فالقول قول المتصرف.

السابع: إذا اتفقا على عقد من العقود، وأنه صدر، وقال أحدهما: إن العقد مختل لفقد شرط من شروطه، أو ركن من أركانه، أو وجد مانع، وأنكر الآخر، فالقول قول مدعي السلامة.

الثامن: من ادعى شرطاً من الشروط أو قيداً، أو شرط صفة أو أجلاً، أو خياراً أو رهناً ونحوها، وأنكر الآخر، فالقول قول المنكر.

التاسع: من ادعى فسخ عقد من العقود من بيع أو إجارة أو رهن أو نكاح أو غيرها، وأنكر الآخر، فالقول قول المنكر.

العاشر: من ادعى زيادة أو نقصاناً في أمر اتفقا عليه، وادعى الآخر خلافه، فالقول قول من ادعى عدم الزيادة أو عدم النقصان.

الحادي عشر: من ثبت عليه مال بعدَّة أسباب يتفاوت حكمها، فقضى المدين البعض، أو أبرأ من له الحق من البعض، واختلفا بعد ذلك، فالقول قول القاضي والمبرىء.

الثاني عشر: من أدى عن غيره واجباً بنية الرجوع، رجع، وإلا فلا، فإذا اختلفا، فالقول قول المؤدي، نوى الرجوع أم لا.

الثالث عشر: مسائل الإقرار بالمجملات عند الاختلاف، القول فيها قول المقر.

الرابع عشر: جميع الاختلافات الواقعة بين الناس، إذا كان مع أحدهما أصل، فالقول قوله، وفي جميع هذه الصور من كان القول قوله، إذا لم يقم الآخر بينة، فإنه يحلف ويبرأ.

الخامس عشر: الجعالات والمعلومات التي تجعل على من قام بعمل من

الأعمال، إذا وقع الخلاف فيها، فالقول قول الجاعل، وكل من قلنا: القول قوله، فشرط ذلك ألاَّ يخالف الحس ويخرج عن العادة خروجاً يكذِّبه الواقع، فحينئذ يسقط قوله، ويرجع في ذلك إلى قول أهل الخبرة والعرف.

السادس عشر: مسائل الكنايات في العتق والطلاق ونحوهما التي يرجع فيها إلى نية المتكلم، إذا اختلف مع غيره في إراده شيء من ذلك، فالقول قول المتكلم نوى أو لم ينو.

السابع عشر: قول المرأة مقبول في الحيض والحمل، وجوداً وعدماً، وعند الاختلاف مع عدم البينة، يقبل قولها.

**س ٢ ــ إذا وقع الاختلاف بين اثنين في الحقوق المالية، فمن نقدم؟**

ج ــ إذا وقع الاختلاف بين اثنين فأكثر في الحقوق المالية، ولم يكن لأحدهما بينة يقدَّم بها قوله، قدِّم قول من معه الأصل منهما، لأنه منكر، والآخر مُدَّعٍ، والبينة على المدعي، واليمين على من أنكر، فإن كان أحدهما أميناً على الآخر قد ائتمنه بوكالة أو ائتمنه عليه الشارع بولاية، واختلفا، قدم قول الأمين، لأن هذا فائدة الائتمان، وقد تكون القرائن وشواهد الحال يحصل بها التقديم لمن هي معه، والحاصل أنه يقدم قول من معه مرجح ظاهر من بينة أو أصل أو قرينة أو أمانة أو غيرها، وعند تتبع هذه الضوابط في كلام الفقهاء يظهر عظيم فائدتها، والله أعلم.

**س ٣ ــ ما معنى قولنا: الأصل بقاء ما في الذمم حتى يجزم بزواله؟**

ج ــ معنى هذا، إذا كان لزيد على عمرو طلب دراهم أو طعام أو غيرهما، فالأصل أنه باقٍ، فلو تخالفا، فقال عمرو: وفيتك حقك، وقال زيد: ما وصلني شيء، فالقول قول زيد، إلا إذا أتى عمرو ببينة أنه أعطاه الذي بذمته له، والله أعلم.

**س ٤ ـ إذا وجد ضالته بيد إنسان، وحكم له بها، فطلبها من هي بيده بالقيمة ليتمكن من ردها على من صدرت عنه، فأبى من حكم له بها، فهل يجبر على ذلك؟**

ج ـ الأصل أنه لا يجبر على إبقائها عند من عرفت عنده بالقيمة، وأيضاً الفقهاء أطلقوا الكلام، أن له أخذها، ولم يستثنوا حالة من الأحوال، ولكن قد يقال: إما أن يوافقه من ثبتت العين له على الأخذ بالقيمة، أو يبقيها بيده مدة يتمكن فيها عرفاً من إقامة البينة ليسترجع ما بذله من الثمن، وإذا قيل: من أين نأخذ هذا؟ فيقال: إن هذا الذي عرفت عنده ليس بغاصب، لأن الغاصب لا ينظر إلى مضرته في وجوب ترجيعه العين، وإنما هو مغرور، وقد كان أيضاً سبباً لوصولها إلى ربها، فلا يضر وقت أخذها منه، فلا ضرر ولا إضرار. وأيضاً فهو شبيه بالمستنقذ لمال غيره من الهلاك، فأقل ما له أن ينفى عنه الضرر، والأصحاب نصوا على مسائل كثيرة في إبقاء العين عند غير صاحبها حتى يزول ضرره، ونصوا أيضاً على مسائل كثيرة في الإجبار على البيع لإزالة ضرر الشريك لسبب من الأسباب، فهذه المسألة لا يبعد أن تكون من هذا النوع، هذا الذي نرى في هذه المسألة، والله أعلم.

**س ٥ ـ إذا رعى له إبلاً أو نحوها مدة سنة، ثم مات صاحب الماشية، فادعى الراعي أنه لم يسلم له الأجرة، فهل يقبل قوله؟**

ج ـ هذا ينظر في حاله، إن كانت العادة جارية أنه يسلم له كل وقت بوقته، فلا تقبل دعوى الراعي، وإن كانت العادة ليست جارية على ذلك، فالأصل أن الأجرة باقية في ذمة صاحب الماشية، فيحلف الراعي أن أجرته ما وصلته، ويعطى أجرته من تركته.

# باب اليمين في الدعاوى

**س ١ ـ قولهم: الأَيْمان على البت لا على نفي فعل الغير نفي العلم، هل هو وجيه؟**

ج ـ وبالله التوفيق إطلاق هذه العبارة وإدخال بعض الفروع فيها، فيه نظر، فإن القول الصحيح الذي لا شك فيه، أن الأمور المحلوف عليها نوعان:

نوع يحيط به الحالف ويعرفه تماماً، كحلفه على أفعال نفسه التي قد عرفها، أو على أفعال غيره التي حضرها وأحاط علمه بها، فهذا يتعين حلفه على البت، لأن عنده علم ثبوتها ونفيها، فحلفه على نفي العلم لا معنى له، ولا يحصل به المقصود.

وأما النوع الثاني وهي أفعال الغير التي لم يحضرها، أو الدعوى التي ادعيت عليه ونفى أسبابها، فله الحلف على نفي العلم بصحة دعوى المدعي، لأنه لو حلف على البت في مثل هذه الأشياء التي لم يحط علمه بها، أو لم يصل علمه إليها، علمنا أنه قائل ما لا علم له به، وحالف على ما لم يتيقنه، والأدلة الشرعية تمنع ذلك، فهذا التقسيم الذي ذكرناه هو الذي يتعين القول به، وهو قول في المذهب، وأحمد رحمه الله لما نص على بعض فروع هذا الأصل، استشهد بقوله ﷺ: (لا تضروا الناس بأَيْمانهم، أن يحلفوا على ما لا يعلمون) نقله في «الإنصاف» عن الزركشي.

# كتاب الشهادات

**س ١ ـ هل يجوز أن تكتب أو تشهد على من لا تعرفه؟**

ج ـ إذا أردت أن تكتب أو تشهد على إنسان لا تعرفه، فلا يصلح إلا إذا عرَّفك فيه من تثق بقوله وتطمئن إليه. وأما إذا لم تعرفه، ولم يحضر أحد يعرِّفك على ما تطمئن إليه، فليس لك أن تكتب عليه، ولا أن تشهد على اسمه.

نعم لك أن تشهد على شخصه، وإذا احتج إلى أداء الشهادة وأنت شاهد على شخصه، فلا بد من مشاهدته، والله أعلم.

**س ٢ ـ هل يعمل بورقة الطلاق إذا لم يعرف خط الكاتب؟**

ج ـ أما ورقة الطلاق إذا لم يعلم خط الكاتب، فلا يعمل بها.

**س ٣ ـ هل يحكم بنقل الشهادة في الطلاق، أي بالشهادة على الشهادة فيه؟**

ج ـ الطلاق لا بد فيه من شهادة رجلين عدلين يشهدان بذلك، فإن تعذرت شهادتهما لغيبته، وحمل كل واحد منهما شهادة لرجل عدل، كفى ذلك، فإن حملاها من دون عذر، لم يشهدا، ولم تفد شهادتهما.

**س ٤ ـ إذا نقل شهادة من الولي أنه راض بتزويج موليته، فهل يكفي؟**

ج ـ أما نقل الشهادة من الولي، وأنه راض بزواج موليته وهو غائب، فيكفي إذا كان الناقل عدلاً ثقة.

**س ٥ ــ ما حكم الغناء وآلات اللهو؟**

ج ــ اعلموا رحمكم الله أن الغناء والمعازف وآلات اللهو من المحرمات، فاجتنبوها، فقد جاءت نصوص الشرع بتحريمها، وحذَّر منها العلماء وحرَّموها، وقد تهاون بذلك بعض الذين يفتحون الراديو على إذاعات العزف والغناء، وذلك لا يحل ولا يجوز، وفيه مفاسد وشرور كثيرة تصد القلوب عن الخير، وترغبها في الشر، ويؤذون المارين والسامعين والجيران، فمن فتح على الغناء والمعازف، فقد باء بإثمه وإثم كل من سمعه من رجال ونساء وأَصحاب وإِخوان

**﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾**

[سورة لقمان: الآية ٦]

وفي الحلال غنية للمؤمن عن الحرام، فاكتفوا رحمكم الله بالفتح على الإذاعات المباحة والإذاعات النافعة، كقراءة القرآن والأخبار والمحاضرات والإفادات الدينية والدنيوية، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وسلم من الإثم، ونال الثواب، ومن تجرأ على الحرام، فقد تعرض للعقاب، فتوبوا إلى ربكم واستغفروه، وتمسكوا بالهدي الصالح ولازموه قبل

**﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾**

[سورة الزمر: الآية ٥٦]

يا ليتني حذرت من قرناء السوء، واتبعت رسول الله، يا ليتني أرجع إلى الدنيا وأعمل صالحاً، وأتوب، فالآن فات المطلوب، وحصل العاصي على كل مرهوب، وأحاطت به الخطايا والذنوب.

**﴿ويومَ يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾.** [سورة الفرقان: الآيات ٢٧ ــ ٢٩]

**س ٦ ــ ما حكم الاستماع إلى الراديو؟**

ج ــ هذا يختلف باختلاف المسموع منه، إن كان محرماً كالغناء وآلات الملاهي، فهو حرام لا يحل سماعه، ولا تمكين من يقصد فتحه على ذلك، وأما

سماع ما فيه من الأخبار والأحاديث التي هي غير محرمة، فهذا داخل في حكم المباح، وخصوصاً سماع ما فيه من المحاضرات العلمية وقراءة القرآن فإنه لا بأس بذلك ولكنه مع ذلك يلهي الإنسان عن كثير من الأمور النافعة، وقد يتدرج بالمباح إلى المحرم، فعلى العبد التحفظ عن الأمور الضارة، والبلوى قد عمت بذلك.

نسأل الله العافية.

والحمد لله رب العالمين.

# فوائد
# في آداب المعلمين والمتعلمين
# وحسن الخلق

# فائدة تشتمل على نبذ

# من آداب المعلِّمين والمتعلمين

يتعين على أهل العلم من المتعلِّمين والمعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم الإخلاص الكامل، والتقرب إلى الله تعالى بهذه العبادة التي هي أجل العبادات وأكملها وأنفعها وأعمها نفعاً، ويتفقدوا هذا الأصل النافع في كل دقيق من أمورهم وجليل، فإن درسوا أو دارسوا، أو بحثوا أو ناظروا، أو أسمعوا أو استمعوا، أو كتبوا أو حفظوا، أو كرروا دروسهم الخاصة، أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب الأخرى، أو جلسوا مجلس علم، أو نقلوا أقدامهم لمجالس العلم، أو اشتروا كتباً، أَو ما يعين على العلم، كان الإخلاص لله واحتساب أجره وثوابه ملازماً لهم، ليصير اشتغالهم كله قوة وطاعة، وسيراً إلى الله وإلى كرامته، وليتحققوا بقوله ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) فكل طريق حسي أَو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أَو يحصله، فإنه داخل في هذا.

ثم بعد هذا يتعين البداءة بالأهم فالأهم من العلوم الشرعية، وما يعين عليها من علوم العربية. وتفصيل هذه الجملة كثير معروف يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، وينبغي أَن يسلك أَقرب طريق يوصل إلى المقصود الذي يطلبه، وأَن ينتقي من مصنفات الفن الذي يشتغل فيه أَحسنها وأَوضحها، وأَكثرها فائدة، ويجعل جلَّ همه واشتغاله بذلك الكتاب حفظاً عند الإمكان، أَو دراسة تكرير بحيث تصير معانيه معقولة في ذهنه محفوظة، ثم لا يزال يكرر ما مر عليه ويعيده.

وعلى المعلم أَن ينظر إلى ذهن المتعلم، وقوة استعداده أَو ضعفه فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حاله، فإن هذا من عدم النصح، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم وللنسيان، وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقرير لدرسه بقدر ما يتسع فهمه لإدراكه. ولا يخلط المسائل بعضها ببعض، وينبغي أن لا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يتصور ويحقق السابق، فإنه درك للسابق، وبه يتوفر الفهم على اللاحق. فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض قبل فهم المتعلم، فإنه سبب لإضاعة الأول، وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم المسائل التي لم يحققها على ذهنه فيملها، ويضيق عطنه عن العود إليها، فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر.

وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم والصبر على عدم إدراكه، وعلى عدم أدبه، وجفائه مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقوِّمه ويهذبه ويحسن أدبه، لأن المتعلم له حق على المعلم حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس، وحيث توجه للمعلم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلم هو عين بضاعة المعلم فيحفظها وينميها، ويتطلب بها المكاسب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له، قال تعالى:

﴿فهب لي من لدنك ولياً. يرثني ويرث من آل يعقوب﴾

[سورة مريم: الآيتان ٥، ٦]

والمراد وراثة العلم والحكمة، فالمعلم مأجور على نفس تعليمه، سواء أفهم المتعلم أو لم يفهم، فإذا فهم ما علمه، وانتفع به بنفسه، ونفع غيره، كان أجراً جارياً للمعلم ما دام ذلك النفع متسلسلاً متصلاً. وهذه تجارة بمثلها يتنافس المتنافسون، فعلى المعلم أن يسعى سعياً شديداً في إيجاد هذه التجارة وتنميتها، فهي من عمله، وآثار عمله. قال تعالى:

﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدَّموا وآثارهم﴾

[سورة يس: الآية ١٢]

فما قدموا: ما باشروا عمله، وآثارهم: ما ترتب على أَعمالهم من المصالح

والمنافع أوضدها في حياتهم وبعد مماتهم. وينبغي أن يرغِّب المتعلم بكل طريق، وينشطه ولا يمله بإشغاله بما يعسر على فهمه من أنواع العلم ومفرداته.
وعلى المتعلم أن يوقِّر معلمه ويتأدب معه غاية ما يقدر عليه لما له من الحق العام والخاص. أما العام، فإن معلم الخير قد استعد لنفع الخلق بتعليمه وفتواه، فحقه على الناس حق المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إحسان من يرشد الناس لأمر دينهم ويعلمهم ما جهلوا، وينبههم لما عنه غفلوا، ويحصل من الخير وانقماع الشر، ونشر الدين والمعارف النافعة ما هو من أنفع شيء للموحدين، ولمن أتى من بعدهم من ذريتهم وغيزهم، فلولا العلم كان الناس كالبهائم في ظلمة يتخبطون. فهو النور الذي يُهتدى به في الظلمات والحياة للقلوب والأرواح والدين والدنيا، والبلد الذي ليس فيه من يبين للناس أمور دينهم، ويرشدهم لما ينتابهم مما هم في غاية الضرورة إليه، فقد فقد أهله من ضروراتهم ومصالحهم ما يضر فقده بدينهم ودنياهم. فمن كان هذا إحسانه، وأثره على الخلق كيف لا يجب على كل مسلم محبته وتوقيره، والقيام بحقوقه؟!

وأما حقه الخاص على المتعلم، فلما بذله من تعليمه والحرص على ما يرشده ويوصله إلى أعلى الدرجات، فليس نفع الآباء والأمهات نظيراً لنفع المعلمين المربين للناس بصغار العلم قبل كباره الباذلين نفائس أوقاتهم، وصفوة أفكارهم في تفهيم المسترشدين بكل طريق ووسيلة يقدرون عليها. وإذا كان من أحسن إلى الإنسان بهدية مالية ينتفع بها ثم تزول وتذهب له حق كبير على المحسن إليه، فما الظن بهدايا العلم النافع الكثيرة المتنوعة الباقي نفعها ما دام العبد حياً وبعد مماته، المتسلسل بحسب حال تلك الهدايا، فحينئذ يعرف أن له من الحق والتوقير وحسن الأدب معه والوقوف مع إشارته، وعدم الخروج عما أشار إليه مما ينفعه من الأمور التي قد جربها وهو أعرف بها منه من كيفيات التعليم ونحوها ما ليس لغيره.

وليجلس بين يديه متأدباً، ويظهر غاية حاجته إلى علمه ويدعو له حاضراً وغائباً، وإذا أتحفه بفائدة أو توضيح لمشكل، فلا يظهر أنه قد عرفه قبله، وإن

كان عارفاً له، بل يصغي إليه إصغاء المتطلب بشدة إلى الفائدة. هذا فيما يعرفه، فكيف بما لم يعرفه، ولهذا كان هذا الأدب مستحسناً مع كل أحد في العلوم والمخاطبات في الأمور الدينية والدنيوية، وإذا أخطأ المعلِّم في شيء فلينبهه برفق ولطف بحسب المقام، ولا يقول له: أخطأت، أو ليس الأمر كما تقول، بل يأتي بعبارة لطيفة يدرك بها المعلم خطأه من دون أن يتشوش قلبه، فإن هذا من الحقوق اللازمة، وهو أدعى إلى الوصول إلى الصواب، فإن الرد الذي يصحبه سوء الأدب وإزعاج القلب، يمنع من تصور الصواب ومن قصده، وكما أن هذا لازم على المتعلم، فعلى المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق، ولا يمنعه قول قاله ثم رأى الصواب في خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه، فإن هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق، فالواجب اتباع الصواب، سواء جاء على يد الصغير أو الكبير، ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تلاميذه من ينبهه على خطئه ويرشده إلى الصواب ليزول استمراره على جهله، فهذا يحتاج إلى شكر لله تعالى، ثم إلى شكر من أجرى الله الهدى على يديه متعلماً كان أو غيره.

ومن أعظم ما يجب على المعلمين أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله أعلم، وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويستدل به على كمال دينهم، وتحريهم للصواب.

وفي توقفه عما لا يعلم فوائد كثيرة.

منها أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها أنه إذا توقف وقال: الله أعلم، فما أَسرع ما يأتيه علم ذلك من مراجعته أَو مراجعة غيره، فإن المتعلم إذا رأى معلمه قد توقف جدَّ واجتهد في تحصيل علمها وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر.

ومنها أنه إذا توقف فيما لا يعرف، كان دليلاً على ثقته وأمانته وإتقانه فيما

يجزم به من المسائل، كما أن من عُرِف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعياً للريب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها أن المعلِّم إذا رأى منه المتعلمون التوقف فيما لا يعلم كان ذلك تعليماً لهم وإرشاداً لهذه الطريقة الحسنة، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

ومما يعين على هذا المطلوب أنه يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج، وأن يكون القصد واحداً، وهو اتباع ما رجحته الأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم، تنورت الأفكار، وعرفت المآخذ والبراهين، واتبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي معرفة الحق واتباعه.

فالحذرَ الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة والمباحثة نصر القول الذي قاله، أو قاله من يعظِّمه، فإن التعصب مُذهِب للإخلاص، مزيل لبهجة العلم، مُعْمٍ للحقائق، فاتح باب الحقد والخصام الضار، كما أن الإنصاف هو زينة العلم وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح.

ثم الحذرَ الحذرَ من طلب العلم للأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة، من المباهاة، والمماراة، والرياء، والسمعة، وأن يجعله وسيلة للأمور الدنيوية والرياسة، فليست هذه حال أهل العلم الذين هم أهله في الحقيقة. ومن طلب العلم أو استعمله في أغراضه السيئة فليس له في الآخرة من خلاق.

ومن أعظم ما يتعين على أهل العلم الاتصاف بما يدعو إليه العلم من الأخلاق والأعمال والتعليم، فهو أحق الناس بالاتصاف بالأخلاق الجميلة والتخلي من كل خلق رذيل، وهم أولى الناس بالقيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، وترك المحرمات لما تميزوا به من العلم والمعارف التي لم تحصل لغيرهم، ولأنهم قدوة للناس، والناس مجبولون على الاقتداء بعلمائهم شاؤوا أم أبوْا في

كثير من أمورهم، ولأنهم يتطرق إليهم من الاعتراض والقوادح عندما يتركون ما يدعو إليه العلم أعظم مما يتطرق على غيرهم. وأيضاً فكان السلف يستعينون بالعمل على العلم، فإن عمل به استقر ودام ونما وكثرت بركته، وإن ترك العمل به ذهب أو عدمت بركته، فروح العلم وحياته وقِوامه، إنما هو بالقيام به عملاً، وتخلقاً، وتعليماً، ونصحاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلماً وتعليماً، فإذا شرع المعلم في مسألة وضحها وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير، ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلقين، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تعليمه وتقريره إلى موضوع آخر حتى يحكموه ويفهموه، فإن الخروج من الموضوع إلى غيره قبل الانتهاء منه يحرم الفائدة كما تقدم.

وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان والحث على المذاكرة والمراجعة وتكرار الدرس، فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السقي لها، وإزالة الأشياء الضارة عنها، لتنمو وتزداد على الدوام.

وكما أن على المعلم توقير معلمه، والأدب معه، فكذلك أقرانه والمتعلمون معه عليه من مراعاة حقوقهم، والأدب معهم أعظم من حقوق الأصحاب بعضهم على بعض، فالصحبة في طلب العلم تجمع حقوقاً كثيرة، لأن لهم حق الأخوة والصحبة وحقوق الاحترام لما قاموا به من الاشتغال بما ينفعهم وينفع الناس، وحق الانتماء إلى معلمهم، وأنهم بمنزلة أولاده، وحقاً لنفع بعضهم بعضاً. ولهذا ينبغي أن لا يدع ممكناً من نفع من يقدر على نفعه منه بتعليمه ما يجهل، والبحث معه للتعاون على الخير وإرشاده لما فيه نفعه. وينبغي أن يكون اجتماعهم في كل وقت غنيمة يتعلم فيها القاصر ممن هو أعلى منه. ويعلِّم العارف غير العارف، ويتطارحون من المسائل النافعة، وليجعلوا همهم معقوداً

عما هم بصدده، وليحذروا من الاشتغال بالناس، والتفتيش عن أحوالهم، والعيب لهم، فإن ذلك إثم حاضر، والمعصية من أهل العلم أعظم منها من غيرهم، ولأن غيرهم يقتدي بهم، ومن كان طبعه الشر من غيرهم جعلهم حجة له، ولأن الاشتغال بالناس يضيع المصالح النافعة، والوقت النفيس، ويذهب بهجة العلم ونوره.

واعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغلون بالعلم، فإنه كالمتعين عليهم، لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية وإقبال المتعلم على ما هو بصدده.

ومن آداب العالم والمتعلم النصح وبث العلوم النافعة بحسب الإمكان حتى لو تعلم الإنسان مسألة واحدة، ثم بثها، كان من بركة علمه، ولأن ثمرات العلم أن يأخذه الناس عنك، فمن شح بعلمه، مات علمه بموته، وربما نسيه وهو حي، كما أن من بث علمه، كان حياة ثانية، وحفظاً لما علمه، وجازاه الله من جنس عمله.

ومن أهم ما يتعين على أهل العلم معلمين أو متعلمين، السعي في جمع كلمتهم وتأليف القلوب على ذلك وحسم أسباب الشر والعداوة والبغضاء بينهم، وأن يجعلوا هذا الأمر نصب أعينهم يسعون له بكل طريق، لأن المطلوب واحد، والقصد واحد، والمصلحة مشتركة فيحققون هذا الأمر بمحبة كل من كان من أهل العلم، ومن له قدم فيه واشتغال أو نفع، ولا يَدَعُون الأغراض الضارة تملكهم وتمنعهم من هذا المقصود الجليل، فيحِبُّ بعضهم بعضاً، ويذبُّ بعضهم عن بعض، ويبذلون النصيحة لمن رأوه منحرفاً عن الآخر، ويبرهنون على أن النزاع في الأمور الجزئية التي تدعو إلى ضد المحبة والائتلاف لا تقدم على الأمور الكلية التي فيها جمع الكلمة، ولا يَدَعُون أعداء العلم من العوام وغيرهم

يتمكنون من إفساد ذات بينهم وتفريق كلمتهم، فإن في تحقيق هذا المقصد الجليل والقيام به من المنافع ما لا يعدُّ ولا يحصى، ولو لم يكن فيه، إلا أن هذا هو الدين الذي حث عليه الشارع بكل طريق، وأعظم من يلزم القيام به أهله، وأنه من أعظم الأدلة على الإخلاص والتضحية اللذين هما روح الدين، وقطب دائرته، وأن بهذا الأمر يتصف العبد أن يكون من أهل العلم الذين هم أهله الذين ورد في الكتاب والسنة من مدحهم والثناء عليهم ما لا يتسع هذا الموضع لذِكره.

وفيه أيضاً من تكثير العلم، وتوسعة الوصول إليه، وتنوع طرقه ما هو ظاهر، فإن أهل العلم إذا كانت طريقتهم واحدة تمكن أن يتعلم بعضهم من بعض، وأن يعلم بعضهم بعضاً، وإذا كان كل طائفة منهم منزوية عن الأخرى، منحرفة عنها، انقطعت الفائدة، وحل محلها ضدها، من حصول البغضاء والتعصب والتفتيش من كل منهما عن عيوب الطائفة الأخرى وأغلاطها والتوسل به للقدح، وكل هذا منافٍ للدين والعقل، ولما عليه السلف الصالح حيث يظنه الجاهل من الدين.

فالموفق تجده:

ناصحاً لله بتوحيده، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً بإخلاص واحتساب وتكميلاتها بحسب وسعه.

وناصحاً لكتاب الله بالإيمان بما اشتمل عليه، والإقبال على تعلُّمه وتعلم ما يتعلق به ويتفرع عنه من علوم الشريعة.

وناصحاً لرسوله ﷺ بالإيمان بكل ما جاء به من أصول الدين وفروعه وتقديم محبته على كل محبة بعد محبة الله، وتحقيق متابعته في شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وناصحاً لأئمة المسلمين من ولاتهم وعلمائهم ورؤسائهم في محبة الخير لهم والسعي في إعانتهم عليه قولاً وفعلاً ومحبة اجتماع الرعية على طاعتهم، وعدم مخالفتهم الضارة.

وناصحاً لعامة المسلمين، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في إيصال النفـع إليهم بكل ممكن، ويصدِّق ظاهرُه باطنَه، وأقواله أفعاله، ويدعو إلى هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم، فنسأله تعالى أن يرزقنا حبه وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبه، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله في أحيانه كلِّها.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

غفر الله له ولوالديه وجميـع المسلمين آمين

# حسن الخلق

كم في الكتاب والسُّنَّة من النصوص الحاثَّة على حسن الخُلق، المثنية على أصحابه، الذَّاكرة ما لهم من الفضائل والفواضل، وذلك لما اشتمل عليه من الخُلُق الجميل، وما يترتَّب عليه من المنافع، والمصالح العامة والخاصة، فمن أجَلِّ فوائده، امتثال أمر الله وأمر رسوله. والاقتداء بخُلُق النبي ﷺ العظيم، وإنه في نفسه عبادة عظيمة تتناول من زمان العبد وقتاً طويلاً وهو في راحة ونعيم مع حصول الأجر العظيم.

ومن فوائده أنه يحبِّب صاحبه للقريب والبعيد، ويجعل العدوَّ صديقاً، والبعيد قريباً، وبه يتمكَّن الداعي إلى الله والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخلق إليه بقلوب راغبة، وقبول واستعداد، لوجود السبب، وانتفاء المانع

**﴿فبما رحمة من الله لِنْت لهم ولو كنت فَظًّا غليظ القلب لَانْفَضُّوا من حولك﴾**. [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وهو بنفسه إحسان قد يزيد على الإحسان المالِيِّ (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم حُسْن الخُلُق) فمتى اجتمع الأمران، فهو الكمال، ومتى فقد الإجمال المالي ناب عنه حُسن الخُلُق والإحسان الحالي والمقالي، فربما صار له موقع أكبر من نفع المال.

وبالخُلُق الحسن، وطمأنينة القلب وراحته يتمكن من معرفة العلوم التي سعى لإدراكها، والمعارف التي يفكِّر في تحصيلها.

وبه يتمكَّن المناظر والمخاصم من إبداء حجته، وفهم حجة صاحبه، ويسترشد بذلك إلى الصواب قولاً وعملاً، وكما أنه سبب لهذين الأمرين في نفسه، فهو من أقوى الدواعي لحصولهما لمن خاصمه أو ناظره (إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف).

وبالخلق الحسن يسلم العبد من مضار العجلة والطيش لرزانته وصبره ونظره لكل ما يمكن من الاحتمالات، وتجنُّب ما يخشى ضرره.

وبالخلق الحسن يتمكن من الوفاء بالحقوق الواجبة والمستحبة والأهل والأولاد والأقارب والأصحاب والجيران والمعاملين وسائر من بينه وبينه مخالطة أو حق، فكم من حقوق أُضيعت من جراء سوء الخلق، وإن حسن الخلق ليدعو إلى صفة الإنصاف، فإن صاحب الخلق الحسن يسلم غالباً من الانتصار لنفسه، والتعصب لقوله، لأن الانتصار للنفس والتعصب يحمل على الاعتساف وعدم الإنصاف، وإن صاحب الخلق الحسن في راحة حاضرة ونعيم عاجل، فإن قلبه مطمئن ونفسه ساكنة، وهذا مادة الراحة العاجلة، وطيب العيش، كما أن سيء الخلق في شقاء حاضر، وعذاب مستمر، ونزاع ظاهري، وباطني مع نفسه وأولاده ومخالطيه، يشوش عليه حياته، ويكدر أوقاته مع ما يترتَّب على ذلك من فوات تلك الآثار الطيبة، والتعرض لضدها، وبهذا ونحوه يتبين معنى قوله ﷺ: (إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم).

فإن قلت: إذا كان حسن الخلق له هذه الفضائل والآثار الحسنة، فهل للإنصاف به أسباب يتمكن العبد من فعلها؟ أم هي مجرد موهبة؟

قلت: ما من صنعة حميدة ظاهرة أو باطنة إلا وقد يسر الله للعبد حصولها، ونهج الطرق الموصلة إليها، وأعان عليها بكل وسيلة، وكلما كملت

الصفات، كثرت الطرق المفضية إليها، مـع أن الغرائز والطبائـع الأصلية أعظم عون عليها، وصاحبها إذا سعى أدنى سعي أدرك مراده.

فاعلم أن من أعظم ما يعين على هذا الخلق الجميل، التفكُّر في الآثار السابقة المترتبة عليه، فإن معرفة ثمرات الأشياء وحسن عواقبها من أكبـر الدواعي إلى فعلها والسعي إليها، وإنْ عظم الأمر واعترضت الصعوبات، فإن المواراة إذا أفضت إلى ضدها، هانت وحلت، وكلما تصعبت النفس عليه، ذكَّرها تلك الآثار وما تجتني بالصبر من الثمار، فإنها تلين وتنقاد طائعة، منشرحة الصدر، محتسبة راجية حصول تلك المطالب.

ومن أعظم الأسباب علو الهمة، ورغبة العبد في مكارم الأخلاق، وأنها أولى ما اكتسبته النفوس، وأجلُّ غنيمة غنمها الموفَّقون، فبحسب قوة رغبته في ذلك يسهل عليه نيل هذا الخلق الجميل.

ومن الأسباب أن يتأمل هل يجلب له سوء الخلق إلا الأسف الدائم والهمِّ الملازم، والآثار القبيحة، فيربأ بنفسه عن هذا الخلق الذميم.

ومن الأسباب رياضة النفس وتمرينها على هذا الخلق، وتوطينها على كل سبب يدرك به هذا الخلق الفاضل، فيوطنها على معارضات الأقوال، وأنه لا بد من مخالفتهم في العلوم والإرادات. ولا بد أيضاً من أذية قولية أو فعليـة، فليتوطن على تحمل الأذى، وليعلم أن الأذى القولي لا يضر إلا مَنْ قاله، وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلام يقصد به إحفاظه وإغضابه، بل يعلم أنه إذا غضب أو تأثر، فقد أعان المتكلم على نفسه. وإن لم يبال به، ولم يلقه باله، ولم يهتم به، ويكترث به، فقد قابل القائل بما يكرهه. لأن جل مقصد عدوه إيلام قلبه، وإدخال الهم والغم والخوف على قلبه، فكما يسعى بدفـع ما يريد إيلام ظاهره، فليسـع بدفـع ما يريد إيلام باطنه بترك الاهتمام به. وما أنفـع في هذا المقام وغيره أن يجعل الإنسان نصب عينيه وجل مقصده الإبقاء على قلبه من المشوشات والواردات المؤلمة، وأن يحفظ راحة قلبه

بكل ما يفضي إلى الراحة من تحصيل الأسباب المريحة للقلب، ودفع كل معارض لها، فإن راحة القلب أصل طيب العيش في هذه الدار، فلو كان الإنسان بكل نعيم، وتوفَّرت لديه أسباب الراحة، وقلبه في قلق وحرج، لا يخرج من هم إلا وقع في آخر، ولا يفرح بموجود ومحبوب إلا وجد حشو قلبه ما يكدره، فإنه حتى الآن لم يصل إلى المقصود الذي يسعى له أهل العقول الراقية، فإنهم يسعون أولاً لراحة قلوبهم وطمأنينتها بالإنابة إلى الله في مهماتهم وملماتهم وأحوالهم كلها، ويتممون ذلك بالحلم وحسن الخُلُق، وحفظ قلوبهم من كل مشوش يكدر عليهم حياتهم الطيبة، ونعيمهم العاجل والآجل.

فتأمل في بعض قصص الأخيار وما هم عليه من الحياة الطيبة، سواء كانوا في فقر أو غنى، أو شدة أو رخاء، وحيث تنقلت بهم الأحوال، فإنك تجد الواحد منهم أبسط الناس خلقاً وأروحهم نفساً وأقرهم عيناً، بل تجد من هو في يسارة منهم وفقر راضياً قانعاً غير متسخط على الله وعلى الخلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

## الرجاء ممدوح شرعاً وعقلاً، واليأس مذموم شرعاً وعقلاً

لا ريب أن الشارع مدح الرجاء الذي هو الرجاء، وأمر به وبكل وسيلة توصل إليه، وذم اليأس ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب، وكذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من ضد ذلك. مثال ذلك أن الراجي لرحمة الله ومغفرته بحسب قوة رجائه يسعى بكل طريق يوصل إلى الرحمة والمغفرة اللتين تعلق بهما رجاؤه، بل لا يكون الرجاء حقيقياً حتى يقوم بالأعمال الموصلة إلى الرحمة والمغفرة. قال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾. [سورة البقرة: الآية ٢١٨]

فخص هؤلاء برجاء رحمة الله لما حصل منهم من السبب الأقوم الذي تنال به الرحمة. وقال تعالى:

**﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ. . .﴾.**

[سورة آل عمران: الآيتان ١٣٣، ١٣٤]

إلى آخر الآية التي فيها ذكر الأسباب الموصلة إلى ذلك، المحققة له، فقوة الرجاء تحمل العبد على كل عمل صالح، فإذا عمله على الوجه المرضي، قوي رجاؤه فلم يزل في ازدياد من الأعمال، ورغبة فيما يقرب إلى الله تعالى ورضوانه وثوابه، وكلما ضعف رجاؤه كسل عن الخيرات، وتجرأ على السيئات، ودعته نفسه الأَمَّارة بالسوء إلى كل سوء، فانقاد لها لأنه ليس عنده من رجاء رحمة الله ومغفرته ما يكسر سورتها ويقمع شرها، ثم لا يزال الرجاء يضعف من قلبه، واليأس يقوى، فيضعف إيمانه، وتضعف دواعيه إلى الخير، كما تقوى دواعيه إلى الشر، فيقع في اليأس المحض من روح الله، فلا يزال مكبًّا على الذنوب،مصِرًّا على المعاصي، لا يحدث نفسه بتوبة ولا يرجع إلى ربه لاستيلاء اليأس عليه، وضعف الرجاء، وهذا هو الهلاك المبين، ومع أنه هلاك يرجى إن سعى في علاجه أن يزول وتعود الصحة، وذلك بأن يتأمل ويتفكر في الأسباب التي أوصلته إلى هذه الحال، وأنها أسباب قابلة للزوال، إذا مرَّن نفسه على إضعاف اليأس الذي ترامى به إلى الهلاك، وتقوية الرجاء الحامل له على التوبة والإنابة، لأنه إذا علم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ولو بلغت الحال ما بلغت، طمع في مغفرة ربه، واستعان به على التوبة التي هي الإقلاع عن المعاصي والندم على ما مضى منها، والتصميم على أن لا يعود، وحصل من علوم الإيمان وأعماله ما يقوي عزيمته، ويوقظ همته، خصوصاً الإيمان الخاص في هذا المقام، وهو توحيده وعلمه أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وأن العبد إذا تاب توبة نصوحاً، فإن الله يغفر له ويتقبل منه، فلا يزال إيمانه يمد توبته، وتوبته تمد إيمانه، ويعمل من الأعمال الصالحة ما يتم به الإيمان والتوبة،

ويسلك الصراط المستقيم في علمه وعمله حتى يضمحل يأسه، ويقوى رجاؤه، ويسير إلى ربه سيراً جميلاً، فهذا كلام عام في أمور الدين كلها العلمية والعملية.

ومن مفردات هذا، طالب العلم إذا اشتغل بفن من فنونه، فبعد اشتغاله به رأى من صعوبته وبطء فهمه لمسائله ما أوجب له اليأس من تحصيله، فإنه يملكه اليأس ويدعوه إلى تركه، وكلما خطر بباله الاشتغال به أو ذكر لهذا الأمر، فإذا اليأس من إدراكه ماثل بين عينيه كأنه حجر عظيم في طريقه، فإن هو أخلد إلى هذه، واسترسل معها قتله اليأس، ورأى هذا المطلوب من المستحيلات عليه، وإن كان موفقاً ينظر إلى حقائق الأشياء على ما هي عليه، ولم يملكه الخيال الضار، علم أن الآدمي قابل لتعلم كل علم، مهيأ لذلك، وأن مجرد اشتغاله بالعلوم النافعة ولو لم يحصل منها ويستفد شيئاً يذكر مصلحة وعبادة، لأنه تصحبه النية الصالحة، وإن لم يشتغل به إلا لنفع نفسه ونفع غيره، فلا يزال ساعياً في هذا الأمر، إذا لم يحصل له مراده أو بعضه في وقت، حدَّث نفسه أنه سيحصله في وقت آخر إذا استمر على السعي والاجتهاد، فيقوى حينئذ رجاؤه، وينشط في المسير في طلبه، وينفض عنه غبار اليأس حتى يرتقي إلى درجته اللائقة به، وكما أن الإنسان يطبق هذا المعنى على نفسه فليستعمله في غيره، إذا أراد هداية أحد، أو دعوته إلى الإسلام، أو أصل من أصوله، أو فرع من فروعه، أو تعليمه لعلم نافع، ثم رأى من المدعو نفوراً وإعراضاً، أو بلادة وقلة فطنة، فإن أخذه الملل واليأس من إدراك المقصود منه، وعدم رجاء انتفاعه، لم يلبث إلا قليلاً حتى يدع دعوته وتعليمه، فيفوت بذلك خير كثير، وإن هو سلك مسلك نبيه ﷺ في دعوته وهداية الخلق، وعلم أنه مكث مدة طويلة يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد، فلا يلقى أذناً سامعة، ولا قلباً مجيباً، فلم يضعف ولم ين، بل لم يزل قوي الرجاء، عالماً أن الله سيتم أمره ماضياً على دعوته، حتى فتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وبلغت دعوته وهدايته ما بلغ الليل والنهار، فإذا جعل هذا بين عينيه، لم يشتدَّ عليه أمر من الأمور، ولو لم يحصل له إلا أن

مجرد دعوته إلى الله من أكبر الحسنات لكفى الموفق داعياً إلى الصبر والرجاء، وكم من أمر مأيوس منه، انتقل من طي العدم إلى الوجود بالصبر والمزاولة، فلا يزال راجياً طامعاً في إدراك معقوده أو بعضه، ساعياً السعي اللائق به حتى يرى من آثار سعيه خيراً كثيراً، وكما أن هذا المعنى ثابت في دقيق الأمور وجليلها، فخير ما استعمل هذا الأصل المهم في أحوال المسلمين اليوم حيث كانوا من زمان طويل والتفرق سارٍ فيهم، والعداوة قائمة بينهم، وكثير من مصلحات دينهم متروكة حتى تفككت قواهم، وضعف أمرهم، وتملكهم اليأس والقنوط، خصوصاً إذا نظروا إلى أعدائهم الحقيقيين وقد بلغوا من القوة مبلغاً هائلاً فحينئذ يستولي عليهم الكسل واليأس، ويتوهمون أنه كالمحال وجود قوة كافية تدفع عنهم عادية الأعداء، فضلاً عن أن يكونوا في صفوف الأمم القوية، ومن حدَّث نفسه بهذا أو غيره، فقد حدثها بالمحال فاستولى عليهم الذل وتوهمت نفوسهم أنهم طعمة لكل أحد، وهذا ناشيء من ضعف الإيمان واستيلاء اليأس وضعف الرجاء. فلو أنهم جعلوا الرجاء لرحمة الله ونصره وإعزاز دينه نصب أعينهم، وعلموا أن من ينصر الله ينصره، ويثبت قدمه، فَسَعَوا بما يمكن تلافيه من أمرهم، وجمعوا كلمتهم، وجعلوا وحدة دينهم وحفظه من كل عادٍ هو الجامعة التي تربط أقصاهم وأدناهم، وتركوا لهذا كل ما عارضه من الأغراض الفاسدة، والأهوية الضارة، وقاموا في هذا الأمر قياماً حقيقياً، ولم يمنعهم ما يعترض لهم من العقبات والتهويلات، لكان أول فائدة يجنونها الأمن على دينهم الذي لولاه لم يسعدوا دنيا ولا أخرى، وسلامتهم من الضربات المعدة له ولهم الموجهة إليهم، ولأمكنهم أن يعيشوا بأنفسهم ومع الأمم بطمأنينة وحفظ للمصالح الدينية والدنيوية من غير أن يضربوا بسلاح، ولا يشوشوا على أحد، لأن كل منصف يعذرهم حيث سَعَوا لحفظ كيانهم ودفع الظلم عنهم بكل طريق، وهو حق يدلي به القوي والضعيف، ثم يَسْعَوْن في الاستعداد الكافي لمقاومة المعتدين، فلو جعل الرؤساء هذا الأمر الواجب قبلة قلوبهم وجل مقصدهم، وحصل البحث التام في كيفية الوصول إلى هذا المقصد، ومن

أي طريق ينفذ، ورَجَوا عواقبه الحميدة، لرأوا من آثاره خيراً كثيراً، فنرجو الله أن يوفق جميع المسلمين في أقطار الأرض كلها للقيام بدينهم حق القيام، وأن يكونوا يداً واحدة على من ناوأهم واعتدى عليهم، وأن ييسر لهم الأسباب النافعة، ويزيل عن قلوبهم الذي استولى على أكثرهم، فلو نظروا بأعينهم لبعض الأمم الصغيرة التي عملت لوحدة مصالحها الخاصة كيف عاشت مع الأمم القوية حتى سادتهم في حفظ الحقوق والنظام والمصالح، خصوصاً في هذا الوقت العصيب الذي وقع فيه التفاني بين أكبر قوة في العالم مع نظيرتها، وكل واحدة منهما تبدىء وتعيد أنها ستخرج العالم من الظلم والاعتداء، وتجعل لهم نظاماً جديداً من العدل يحفظ جميع الأمم؛ فلا علينا أن يكون هذا الكلام منهم حقيقة، وإنما هو دعاية، فالمسلمون أحق الناس كلهم للتنبه لهذا الأمر، وفيهم من الكثرة والقوة المستعدة ما يؤهلهم إلى أعلى المقامات من الإيمان والعون الإلهي وقوة الرجاء، وما في دينهم من الدعوة إلى كل إصلاح ونبذ كل ضار.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

**مما قال المرحوم الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي رحمة الله عليه.**

**نظم معنى الحديث الذي في «الصحيحين» قوله ﷺ: (مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل غيث أصاب أرضاً...) إلى آخر الحديث.**

**قال رحمة الله يحث على طلب العلم:**

قد طال شوقي إلى الأحباب والفِكَر ... وقد عَراني لذاك الهَمُّ والسَّهَرُ
وكم يَجيش الهوى قلبي فَيَتْرُكُني ... لا أستفيق لما آتي وما أذَرُ
وكَمْ نصيحٍ أتى يوماً لِيَعْذُلَني ... فَصَار يَعذُرُني فيهم ويَعْتَذِرُ
يا لائمي في الهوى صعْباً أضرَّ به ... طولُ البِعاد عن الأحباب مذ هَجَرُوا
فبات يرعى الدراري مِنْ تشوُّقه ... قد بات منه الحشا والقلب ينفَطِرُ
لو كنتَ تدري الهوى أوقد بُليت به ... وذُقْتَ آلامه كالنارِ تَسْتَعِرُ
لما نَطَقتَ ولم ينْطقْ بلائمةٍ ... لَوْمُ المحبينَ ذنبٌ ليس يُغتَفَرُ
دَعْ عنك ذِكر الهوى والمولعينَ به ... وانهضْ إلى منزلٍ عالٍ به الدُّرَرُ
تسلو بمربأه عن كُلِّ غالية ... وعَنْ نعيم لدينا صَفْوُهُ كَدَرُ
وعن نديم به يلهو مُجالِسُه ... وعن رياضٍ كساه النَّوْرُ والزَّهَرُ
انهض إلى العلم في جدٍ بلا كسل ... نهوض عبد إلى الخيرات يَبْتَدِرُ
واصبر على نيله صبرَ المُجِدِّ له ... فَلَيْسَ يُدركُه مَنْ ليس يصطبر
فكم نصوص أتت تثني وتمدحه ... للطالبين بها معنىً ومعتبرُ

أمـا نـفى الله بـين الـعـالمين بـه ... والـجـاهلين مـسـاواةً إذا ذُكِـروا
وقـال للمصطفى مـعْ مـا حباه بـه ... ازْدَدْ مِنَ العِلْم في عـلم بـه بَصـرُ
وخَصص الله أهـل العِلمِ يشهـدهم ... على العبـادة والتـوحيـد فـاعتبـروا
وذَمّ خـالـقـنـا لـلجـاهلين بـه ... في ضمنه مدح أهـل العلم منحصـرُ
وفي الحديث إن يُرِدْ ربُّ الورى كرماً ... بـعبـده الخيـرَ والمخلوقُ مُفْتَقِـرُ
أعـطاه فقهـاً بـديـن الله يَحْمِلُهُ ... يـا حبـذا نِعَمـاً تـأتي وتنتـظرُ
أمـا سمعت مثـالاً يُستضـاءُ بـه ... ويستفـز ذوي الألبـاب إن نـظروا
بـأن علم الهـدى كـالغيث يُنْـزِلـه ... على القلوبِ فمنهـا الصفوُ والكـدرُ
أما الريـاض التي طابت فقـد حسنت ... منهـا الـرُّبى بنبـات كلُّه نَضِـرُ
فـأصبح الخلقُ والأنعـامُ راتعـة ... بكـلِّ زوجٍ بهيجٍ ليس يَنْحصِـرُ
وبعضهـا سَبِخٌ ليست بقـابلةٍ ... إنبـات عُشْبٍ بـه نفعٌ ولا ضَـررُ
يكفيك بـالعلم فضـلاً أنَّ صـاحبـه ... بـالعز نـال العـلا والخيـرُ ينتـظرُ
يكفيك بـالجهل قُبحـاً أن صـاحبه ... ينفيـه عن نفسـه والعلم يبتكـرُ
يكفيـك بـالجهـل قبحـاً أن مُؤْثِـرَه ... قـد آثـر المطلبَ الأدنى ويفتخـرُ
أَيُّ المفـاخر تـرضى أن تُزَان بهـا ... أجهلُك النفس جهـلاً مـا لـه قـدرُ
أم بـالجهـالـة منك في شـريعتـه ... كيف الصـلاة وكيف الصوم والطهرُ
أم كيف تعقـد عقداً نـافـذاً أبـداً ... كيف الطلاق وكيف العتق يـا غُـدَرُ
أم افتخـارُك بـالجهـل البسيط نَعمْ ... وبـالمركَّبِ لا تُبقـي ولا تَـذَرُ
تبـاً لعقـل رزين قـد أحـاط بـه ... مـع الجهـالـة دينُ الـذنبِ والغَـرَرُ
كم بين من هـو كسلان أخـو ملل ... فمـا لـه عن ضيـاع الوقت مُزْدجرُ
قـد استلان فـراشَ العجزِ مـرتفقاً ... حتى أتى المضعفـات الشيب والكبرُ
وبين من هـو ذو شوق أخـو كلف ... على العلوم فـلا يَبْدُو لـه الضّجـرُ
يـرعى التقيّ ويـرعى من تحفـظه ... أوقـاتـه مـن ضيـاع كـله ضـررُ
لا يستـريح ولا يُلوي أعِنّتـه ... عن الـوصول إلى مطلوبـه وطـرُ
يلفيـه طـوراً على كُتْبٍ يطالعُهـا ... يحلو لـه من جناهـا مـا حوى الفكرُ
تلهيـه عـن روضـة غنـاء مـزهـرةٍ ... أطيـارهـا غـرَّدت والمـاء منهمـرُ
وبـاحثـاً تـارة مـع كـل منتسبٍ ... يبغي الـرشـاد فـلا يطغى ويحتقـرُ
واهـاً لـه رجـلاً فـرداً محـاسنـه ... بـالحزم والعزم هان الصعب والعسرُ

## بسم الله الرحمن الرحيم

**قال رحمه الله يمدح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومؤلفاتهم.**

يا طالباً لعلوم الشرع مجتهداً ... يبغي انكشاف الحق والعرفانِ
إحرص على كتب الإمامين اللذيـ ... ـن هما المحكُّ لهذه الأزمانِ
العالِمَيْن العامِلين الحافِظَيْنِ ... المُعْرِضَين عن الحُطَامِ الفاني
عاشا زماناً داعيين إلى الهدى ... من زائغ ومقلد حيرانِ
صبرا النفوس على جهاد عدوها ... للقلب والأقوال والأركانِ
كم نالهم من نكبة وأذيةٍ ... هانت لذات الخالق الديانِ
نشر الإله لهم ثناءً صادقاً ... إذ أحسنوا في العلم والإيمانِ
فقلوب أهل الخير من حُب لهم ... قد أشرِبتْ وثناؤهم بلسانِ
أعني به شيخ الورى وإمامهم ... يُعْزَى إلى تيمية الحرّانِ
والآخر المدعوُّ بابن القيم ... بحر العلوم العالم الرَّباني
فهما اللذان قد أودعا في كتبهم ... غُرَرَ العلوم كثيرة الألوانِ
فيها الفوائد والمسائل جُمِّعتْ ... من كل فاكهة بها زوجانِ
إن رمت معرفة الإله وما له ... من وصفه وكماله الرباني
أو رمت تفسير الكتاب وما حوى ... من كثرة الأسرار والتبيانِ
أو رمت معرفة الرسول حقيقة ... وجلالة المبعوث بالفرقانِ
أو رمت عقد الدين مرتبطاً به ... أصل الدليل أدلة الإتقانِ
أو رمت معرفة القصائد كلها ... للمبطلين وردها ببيانِ

أورمت معرفة الفنون جميعها   من نحوها والطب للأبدانِ
تلقَ الجميع مقرراً وموضحاً   قد بيناها أحسن التبيانِ
جمعت على حسن العبارة رونقاً   وبهاء معنى جل ذو الاتقانِ
تدعو القلوب إلى محبة ربها   والذكر للرحمن كل أوانِ
يدري بهذا من له نوع اعتنا   في كتبهم مع صحة العرفانِ
فاحمد إله الخلق إن كنت امرءاً   تشتاقها وتحبها بجنانِ
واحمد إله الخلق أيضاً ثانياً   في نشرها في هذه الأزمانِ
حتى غدت بين العباد كثيرة   مشهورة في سائر البلدان
فعسى الذي بعث القروم لنشرها   أن يبعث العَزَمَاتِ بعد توانِ
حتى تكون إلى العلوم سريعة   مشتاقة للعلم والعرفانِ
ويزيل عن هذي القلوب موانعاً   عاقت وصول العلم والإيقانِ
ويَلُمَّ هذا الدين بعد تشعث   قد كاد أن ينهد للأركانِ
ويفتِّح الأبواب بعد مضيها   دهراً على التغليق والأدرانِ
ويؤلف الرحمن بعد تفرق   أرواح أهل العلم والإيمانِ
بجلاله وجماله متوسلاً   يا دائم المعروف والإحسانِ
وعلى الرسول مصلياً ومسلماً   والصحب والأتباع بالإحسانِ

وقد توفي ثلاثة من أخصاء أصحابه وهم مشتغلون في طلب العلم ودائبون عليه مع الديانة والصيانة وحسن الأخلاق، وقال في مرثيتهم وقد وقف على مرثية الموفق لعز الدين وشرف الدين ومحب الدين المقدسيين مع سلب أبياتها وتغيير الروي وزيادة بعض الأبيات، وأول نظم موفق بن قدامة:

مات المحب ومات العز والشرف     أئمة سادة ما منهمُ خلف

إلى آخره. . .

فقال الشيخ عبد الرحمن السعدي يرثي أصحابه

مات المحب ومات الخل يتبعه     ومات ثالثهم والوقت مقترب
ماتوا جميعاً وما ماتت فضائلهم     بل كان فضلهم للناس يكتسب
كانوا نجومَ دياج يُستضاء بهم     لهفي على فقدهم من بعد ما ذهبوا
كانوا جميعاً ذوي فضلٍ ومنقبة     كلٌ إلى عالي الأخلاق يُنتدب
كانوا جميعاً ذوي حلم ومكرمة     وفعل خير وإحسان كما يجب
وقد تربَّوا على الخيرات مذ نشأوا     وعن فعال الردى والزور قد رهبوا
ما ودعوني غداة البين إذ رحلوا     بل أودعوا قلبيَ الأحزان وانقلبوا
شيَّعتهم ودموعُ العين ساكنةٌ     لفقدهم وفؤادي حشوُه لهب
أُكفكِفُ الدمع من عيني فيغلبني     وأحبس الصبر في قلبي فلا يجب

وقلت ردوا سلامي أو قفوا وهَناً ... رفقاً بقلبي فما ردُوا ولا اقتربوا
ولم يَعوجوا على صبٍ بهم دَنِفٍ ... يخشى عليه لما قد مسه العطب
أحبابَ قلبيَ ما هذا بعادتكم ... تركُ السلام مع الهجران والغضبُ
ما كان عادتكم يوماً سوى أدبٍ ... يبدي وداداً صفاً من غشِّه الذهب
لله ما أورث البين المُشِتُّ لنا ... من صدعة في سواد القلب تنشعب
كانوا أحبة قلبي إنْ هموا رحلوا ... وإن أقاموا إذا تنتابنا نوب
لما رأيت فؤادي غير ساليهم ... ولم يزل لصنوف الحزن ينجذب
فقلت للقلب يا قلبي على مهل ... لا اصطباراً عن الأحباب تكتسب
اصبر على فرقة الأحباب محتسباً ... فضل الثواب فعند الله يحتسب
واسأل إلهك خلفاً عاجلاً بهم ... هو المجيب لمن يدعو ويرتقب

**وقد كان بعض أصحابه معه فتور عن الاجتهاد في طلب العلم فكتب إليه بهذه الأبيات:**

سلام الله يتبعه سلام ... على من في الضمير له مقام
على الحِب المكرمِ من ترقى ... إلى أعلى مكارم لا تُرام
وفاق الطالبين ذكاً وحرصاً ... وآداباً ومعرفة تُسام
وفارق للقواطع باشتياق ... ومن طلب المكارم ما يلام
وخلا كل مشتغل ينادي ... ألا ليتي بمنزله أقاموا
فبعد الدأب ترضى أن تساوي ... لأرباب البطالة أو تنام
وبعد صعودك الدرج العوالي ... تجاذب للنزول فذا سقام
فما ألهاك عن علم تسامى ... إلى تحصيله الغُرُّ الكرام
أألهاك اشتغالُك بالدنايا ... وعزَّ عليك يا هذا العظام
أم الهاك اقتداؤك بالكسالى ... فضاع الوقت وانفرط النظام

**وقال أيضاً في جواب لصاحب له قد كتب إليه وهو في بلدة نائية فقال:**

وقفت على كتابك يا حبيبي ... فأذكى الشوق من حسن الخطاب
تريد حبيبَنا منا جواباً ... ودمعُ العين أحرى بالجواب
متى ذكرت ضمائرنا زماناً ... مسرٌ باجتماع بالجناب
سكتنا بهْتة ورضاً وصبراً ... كفعل الصابرين على المصاب

لعل الله يلطف ثم يُدني فلطف الله يأتي باقتراب
فكم لله من لطف خفيٍّ يصيب العبد من غير احتساب

**وقال رحمه الله أيضاً أول ما ركب السيارة مسافراً للحج:**

يا راحلين إلى الحمى برواحلٍ تطوي الفلا والبيد طيَّ المسرع
ليست تبول ولا تروث وما لها رُوحٌ تَحِنُّ إلى الربيع المُمْرع
ما استولدت من نوقنا بل صنعها من بعض تعليم اللطيف المبدع
كم أوصلت دار الحبيب وكم سرت بحمولها نحو الديار الشُّسَّعِ

**وكتب إليه بعض الأصحاب حين خرج للحج عام ١٣٣١ يعتذر عن الوداع وأنه لا يقدر على تحمل ألمه وتجرع غصصه، فكتب إليه هذه الأبيات وأرسلها مع المشيعين:**

إلى الله أشكو ما ألم فأوجعا من البين والتفريق بين أحبتي
لقد أسف القلب المعنَّى لبعدكم وكاد من الوجد العظيم يُفتَّت
وقد كان وقتي عامراً بلقائكم بكم ينجلي همي وتحصُلْ مسرتي
فنرجو الذي قد قدر البعد بيننا يعيض ثواباً للنوى والمصيبة
فلولا حبيب يستحق جميعنا حوته القلوب من صفا ومودة
لما رحلت يوماً من الدار رحلنا وخل الديار بالأحبة نزهتي
ولكنه كيف التخلف بعدما توالت دواعي الشوق نحو الخليقة
فلبى لها قوم أصاخت قلوبهم فحنت إلى ذاك الحمى فاستمرت
فخلت جميع الألف مع حبها له تسير بهم عيس السرى مستقلة
ولما دنا منهم وصول ربوعه تبين ما في القلب من عظم صبوة
تأدبت الأقوام عند ازدلافهم إلى بابه نعم المرجّى لشدة
يريدون من رب كريم تفضلاً وعفواً وتقريباً لأعظم حضرة
ونحن وإن كنا بغير صفاتهم فقد يسعد المصحوب عنهم بصحبة
عسى وعسى من فضل ربي يعمنا بمغفرة من فضله وسعادة

وورد عليه كتاب من بعض أصحابه فيه نظم أبيات يرثي بها بعض المحبين الذي هو وإياهم في محبتهم مشتركون، فأجابه بهذه الأبيات:

صدع الفؤاد وهاج للأحزان ... خط أتى من شاسع البلدان
من بلدة بالهند يبكي إلفه ... وينوح نوح الفاقد الثكلان
ويعدد الأوصاف في كلماته ... ندب الحمام على غصون البان
يبكي لمن ملكوا الفؤاد وفارقوا ... بالروح والأشباح والسلوان
يبكي لمن ملك الضمير بحبهم ... والصبر عزٌّ لفقدهم للعاني
يبكي لمن لو كان يمكن عدلهم ... لفديتهم بالروح والولدان
يبكي لمن كانوا لعين قرةً ... ومسرةً للواله الحيران
أرجو من الرحمن أن قد خصهم ... بوفاتهم بالروح والريحان
أرجو من الرحمن أن قد عمهم ... من فضله بالجود والإحسان
أرجو من الرحمن يجمعنا بهم ... في جنة الفردوس والرضوان
أرجو من الرحمن يعظم أجرهم ... ويزيدهم من واسع الغفران
أرجو من الرحمن يجعل قبرهم ... ذا بهجة ومسرة وأمان
هيجتنا يا خلنا وحبيبنا ... وبعثت منا كامن الأحزان
وفجعتنا برسالة تذكي الحشا ... وتشب فيها موقد النيران
لولا الرجا لجزائه لرأيتنا ... قد هدمت منا قوى الأركان
لكننا نرجو جزيل عطائه ... فيهون عنا متلف الأحزان
أو ما علمت بأنه وعد الذين ... صبروا لوجه الله بالرضوان

أوما علمت بأنه سبحانه أعطاهمُ أجراً بلا حسبان
أوما علمت بأنه أولاهُمُ غرف الجنان ومنزل الرضوان
وحباهمُ من فضله صلواته معْ رحمة وهداية المنان
وتسلم الأملاك في دار الرضا حقاً عليه بصبرهم بتهان
والصبر خير للعباد إذا نووا وجهَ الإله ومنة المنان
والصبر في حكم الإله وأمره فرض علينا لازم الإنسان
والعبد إن عرف الإله وأنه مولىً حكيم دائم الإحْسان
صبر النفوس على البلاء لعلمه بفضيلة الصبر الجميل الشان
يا دائم الإحسان يا مولي الثنا يا صاحب المعروف كل أوان
يا خالقي يا رازقي ومدبِّري ومُصرِّفي في سائر الأحيان
يا سيدي وذخيرتي في شدتي يا مبدعي من أضعف الأركان
أنت الذي أعطيتني ومنحتني ويلوتني بلوى القريب الداني
فاربط على قلبي وثبت خاطري وارزقنيَ التسليم مع رضوان
واجعل ثوابي يا إلهي مضعفاً متجدداً بتجدد الأزمان
واقذف بقلبي من ودادك ما به أسلو عن الأهلين والولدان
واجعل لساني دائماً مترطباً بالذكر في الإسرار والإعلان
واجعل صلاتك والسلام على الذي قد جاء بالقرآن والتبيان
ما ناحت الأحباب عند فراقهم أحبابهم أوما استقال الجاني

**وقال أيضاً:**

بين العقيقِ وبين سَلْعٍ موضع للقلب فيه والنواظر مرتع
يا منزلاً فيه لأرباب الهوى مرأىً يروق من الجمال ومسمع
ويعرض الحادي بجرعاء الحمى والجزع من واد الأراك فأجزعُ
شوقاً لبانات العقيق وإنما وجه اشتياقي بالحجاز مبرقع
أسفاً لجسم بالقصيم مخلف وفؤاده مغرىً بطيبة مولع
ولكيف لا تحنو الأضالع نحوها شوقاً وتذرف في هواها الأدمع
وبها رسول الله خير منبأ تحدو الركاب إلى حماه وتوضع

أزكى البـريـة عـنـصـراً وأعـزهـم بيـتـاً وأولى بـالـفـخـار وأجـمـع
وأمـدهـم بـالـجـود ثـم أتـمـهـم حلمـاً وأصـدق في المقـال وأبـرع
وأشـدهم بـأسـاً إذا التقت الـوغى والـسـمـهـريـة بـالأسـنـة تـشـرع
جمعت لـه كـل المنـاقب مـفخـراً ولـه الـمـقـامـات التي تـتـرفـع

# حكم شرب الدخان

# مقـدّمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه.

أما بعد، فإن العلماء في هذا العصر كثير، ولكن قل منهم من يستقي الحكم من منبعه، ويسنده إلى أصله، ويتبـع القول العمل، ويتحرى الصواب في كـل ما يـأتي ويذر، وإن من ذلـك القليل فيـما اعتقد الشيـخ الجليـل عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله، فإن من قرأ مصنفاته وتتبـع مؤلفاته وخالطه وسبر حاله أيام حياتهِ عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة، وسماحة الخلق واستقامة الحال وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه وطلب السلامة فيما يجر إلى شر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق فرحمه الله رحمة واسعة. وإن من مؤلفاته تلك الكلمة الوجيزة الجامعة التي كتبها جواباً عن سؤال الأخ الكريم علي الحمد الصالحي في حكم شرب الدخان فهي على قصرها قد أصابت الهدف وصدعت بالحق وقامت بها الحجة على من عاند واتبـع هواه بغير هدى من الله. حيث استند فيها المؤلف إلى عموم نصوص الكتاب والسنة الدالة على تحريم شرب الدخان وإلى ما ينشأ عن شربه من الأضرار المالية والبدنية والاجتماعية. وليس لأحد أن يتشبث بالمطالبة بذكر دليل خاص على تحريم الدخان بخصوصه غير قانـع بعمومات النصوص إلا أن يكون قصير النظر ضعيف الفكر جاهلاً بمصادر الشريعة والاستفادة منها. فإن الأدلة الشرعية كما تجيء جزئية أحياناً تجيء كثيراً قواعد كلية يتعرف منها أحكام

الجزئيات التي تتضمنها وتندرج تحتها وإن الطالب الحق الباحث عنه لا يقف في سبيله مثل هذه الشبهة. إنما يتعلل بذلك من غلبته نفسه واستمكنت منه العادة فكان أسيراً لها واستهواه الشيطان فاتخذه إماماً له يزين له الخبائث ويحببها إلى نفسه ويزيغ قلبه بما يلقيه من الوساوس والشبه الزائغة.

ولقد ظهر ما في شرب الدخان من الخطر والضرر وقرر علماء الطب ذلك. وسأذكر لك شيئاً من المنقول عنهم لا لأستدل بذلك على حكم شرب الدخان فإن الغني في دينه من أغناه الله بكتابه وسنة نبيه، فهما المنهاج الواضح والطريق المستقيم وفيهما المقنع لمن رزقه الله سداداً وكان على نور من ربه. إنما أذكر ذلك لأولئك الذين ابتلوا بتقليد من يرون أنهم رجال العلم والحضارة وأهل الذوق والمدنية ليتبينوا أن من يدينون لهم قد اعترفوا بضرره فيرجعوا عن شربه وإن رأوهم يدمنون شربه.

وإليك النقول من كتاب البيان للشيخ ابراهيم عبد الباقي رحمه الله. قال الدكتور في أدب المحلى ص ١٢٢ الطنباك والدخان لحضرة النطاسي اسماعيل رشدي مفتش صحة الغربية: هو نبات سمته العرب الطباق وبتحليله اتضح أنه يحتوي على مادة سامة إذا وضع منها نقطتان في فم كلب مات في الحال وخمس نقط فقط منها تكفي لقتل جمل والأمم المتوحشة تمضغه. وهذه أكثر الطرق ضرراً لدخوله في المعدة مع الريق. وقد فشا استعمال الطباق بين الأمم على ما به من ضرر.

وقد أثبت الأطباء أن الطباق يؤثر في القلب فيحدث فيه الخفقان، وفي الرئتين فيحدث سعالاً، وفي المعدة فينشىء فيها ضعفاً في شهوة الأكل، وفي العينين فيحدث فيهما رمداً وفي المجموع العصبي فتوراً. اهـ.

وقال الدكتور (دمرداش أحمد):

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

لا أظن الجنس البشري منذ بدء الخليقة ضعف واستكان أمام عدو من أعدائه كما فعل أمام تدخين التبـغ، كما أسرته هذه العادة وأوثقته وأذلت كبرياءه، استوى في ذلك صغار العمال الكادحين الذين يقتطعون من أقواتهم وأقوات عيالهم وكبـار الأطباء والفـلاسفة المفكرون الذين أضـاءت الكون عبقرياتهم وكشفوا هذه الآفاق البعيدة في مختلف العلوم والفنون، وقد كان السائد المعروف أن التدخين باعتدال قليل الضرر أو عديمه للشخص السليم ولكن البحوث العلمية المتصلة في السنين الأخيرة أثبتت أن الضرر الذي يحدثه التدخين لم يخطر أبداً على بال مدخن. وإليك الحقائق التي أثبتتها هذه البحوث.

قال الأستاذ (ديموند بالمير) بتتبـع عشرين ألف حالـة منهم مسرفـون ومعتدلون وممتنعون، أنشأ لكل منهم سجلاً خاصاً بجامعة جون (هوبكنز) أثبت فيه كل ما يتعلق بصحتهم وأمراضهم وعوائدهم وبدأت أبحاثه سنة **١٩١٩** وانتهت سنة **١٩٤٠** بالنتيجة الآتية:

يؤثر تدخين التبـغ على حياة الإنسان أثراً بالغاً فتقـصر هذه الحياة قصراً بيناً يتناسب مـع كمية التبـغ، والممتنعون أطول أعماراً من المعتدلين والمعتدلون أطول من المسرفين. اهـ.

وأسأل الله سبحانه أن يهدينا سواء السبيل وأن يرزقنا قبول النصيحة ويجنبنا ما فيه خطر ومضرة، وأن يرحم المؤلف وينفـع بتأليفه ويجمعنا به في دار كرامته. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

**عبد الرزاق عفيفي**

# حكم شرب الدخان

هذه رسالة من فضيلة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله. كتبتها إليه حينما دار البحث بيني وبين رجل من المسلمين في حكم الدخان، وحيث لم تكن هذه الرسالة موجودة عند غيري كان لزاماً عليَّ إبرازها للوجود خوفاً من معرة كتمان العلم، راجياً من الله أن ينفعني بها وكاتبها والمسلمين إنه جواد كريم.

نص السؤال والجواب ما يلي منقولاً من خط الكاتب رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الولد علي حمد الصالحي: إلى فضيلة الشيخ المكرم عبد الرحمن الناصر السعدي، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أرجوكم الإفادة عن حكم شرب الدخان والاتجار به على وجه التوضيح هل هو حرام أو مكروه أفتونا مأجورين.

الجواب وبالله التوفيق: نسأله الهداية لنا ولإخواننا المسلمين.

أما الدخان شربه والاتجار به والإعانة على ذلك فهو حرام لا يحل لمسلم تعاطيه شرباً واستعمالاً واتجاراً، وعلى من كان يتعاطاه أن يتوب إلى الله توبة

نصوحاً، كما يجب عليه أن يتوب من جميـع الذنوب، وذلك أنه داخل في عموم النصوص الدالة على التحريم، داخل في لفظها العام وفي معناها، وذلك لمضاره الدينية والبدنية والمالية التي يكفي بعضهـا في الحكم بتحريمـه، فكيف إذا اجتمعت.

## فصل

أما مضاره الدينية ودلالة النصوص على منعه وتحريمه فمن وجوه كثيرة.

منها قوله تعالى:

**﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾**

[سورة الأعراف: الآية ١٥٧].

وقوله تعالى:

**﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**

[سورة البقرة: الآية ١٩٥].

وقولـه:

**﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾**

[سورة النساء: الآية ٢٩].

فهذه الآيات ومـا أشبهها حـرم الله بها كـل خبيث أو ضار، فكـل ما يستخبث أو يضر فإنه لا يحل، والخبث والضرر يعرف بآثاره وما يترتب عليه من المفاسد، فهذا الدخان له مفاسد وأضرار كثيرة محسوسة كل أحد يعرفها، وأهله من أعرف الناس بها، ولكن إراداتهم ضعيفة، ونفوسهم تغلبهم مـع شعورهم بالضرر، وقد قال العلماء: يحرم كل طعام وشراب فيه مضرة.

ومن مضاره الدينية أنه يثقل على العبد العبادات والقيام بالمأمورات

خصوصاً الصيام، وما كرَّه العبد للخير فإنه شر وكذلك يدعو إلى مخالطة الاراذل ويزهد في مجالس الأخيار كما هو مشاهد، وهذا من أعظم النقائص أن يكون العبد مؤالفاً للأشرار متباعداً عن الأخيار، ويترتب على ذلك العداوة لأهل الخير والبغض لهم، والقدح فيهم والزهد في طريقهم، ومتى ابتلي به الصغار والشباب سقطوا بالمرة ودخلوا في مداخل قبيحة، وكان ذلك عنواناً على سقوط أخلاقهم فهو باب لشرور كثيرة فضلاً عن ضرره الذاتي.

## فصل

وأما أضراره البدنية فكثيرة جداً، فإنه يوهي القوة ويضعفها ويضعف البصر وله سريان ونفوذ في البدن والعروق فيوهن القوى ويمنع الانتفاع الكلي بالغذاء، ومتى اجتمع الأمران اشتد الخطر وعظم البلاء، ومنها إضعاف القلب واضطراب الأعصاب وفقد شهية الطعام.

ومنها السعال والنزلات الشديدة التي ربما أدت إلى الاختناق وضيق التنفّس، فكم له من قتيل أو مشرف على الهلاك، وقد قرر غير واحد من الأطباء المعتبرين أن لشرب الدخان الأثر الأكبر في الأمراض الصدرية، وهي السل وتوابعه، وله أثر محسوس في مرض السرطان، وهذه من أخطر الأمراض وأصعبها.

فيا عجباً لعاقل حريص على حفظ صحته وهو مقيم على شربه مع مشاهدة هذه الأضرار أو بعضها، فكم تلف بسببه خلق كثير، وكم تعرض منهم لأكثر من ذلك، وكم قويت بسببه الأمراض البسيطة حتى عظمت وعز على الأطباء دواؤها، وكم أسرع بصاحبه إلى الانحطاط السريع من قوّته وصحته.

ومن العجب أن كثيراً من الناس يتقيدون بإرشادات الأطباء في الأمور التي هي دون ذلك بكثير، فكيف يتهاونون بهذا الأمر الخطير، ذلك لغلبة الهوى

واستيلاء النفس على إرادة الإنسان وضعف إرادته عن مقاومتها وتقديم العادات على ما تعلم مضرته.

ولا تستغرب حالة كثير من الأطباء الذين يدخنون وهم يعترفون بلسان حالهم أو لسان مقالهم بمضرته الطبية، فإن العادات تسيطر على عقل صاحبها وعلى إرادته، ويشعر كثيراً أو أحياناً بالمضرة وهو مقيم على ما يضره.

(وهذه المضار التي أشرنا إليها إشارة مع ما فيه تسويد الفم والشفتين والأسنان وسرعة بلائها وتحطمها وتآكلها بالسوس وانهيار الفم والبلعوم ومداخل الطعام والشراب حتى يجعلها كاللحم المنهار المحترق تتألم مما لا يتألم منه).

وكثير من أمراض الالتهابات ناشئة عنه ومن تتبع مضاره وجدها أكثر مما ذكرنا.

## فصل

وأما مضاره المالية فقد صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال، وأي إضاعة أبلغ من حرقه في هذا الدخان الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا نفع فيه بوجه من الوجوه، حتى أن كثيراً من المنهمكين فيه يغرمون الأموال الكثيرة وربما تركوا ما يجب عليهم من النفقات الواجبة، وهذا انحراف عظيم، وضرر جسيم فصرف المال في الأمور التي لا نفع فيها منهيٌّ عنه، فكيف بصرفه بشيء محقق ضرره..

ولما كان الدخان بهذه المثابة مضر بالدين والبدن والمال، كانت التجارة فيه محرمة، وتجارته بائرة غير رابحة، وقد شاهد الناس أن كل متجر فيه وإن استدرج ونما ماله في وقت ما فإنه يبتلى بالقلة في آخر أمره ويكون عواقبه وخيمة. ثم إن النجديين ولله الحمد جميع علمائهم متفقون على تحريمه ومنعه، والعوام

تبـع للعلماء فلا يسوغ ولا يحل للعوام أن يتبعوا الهوى ويتأولوا ويتعللوا أنه يوجد من علماء الأمصار من يحلله ولا يحرمه، فإن هذا التأويل من العوام لا يحل باتفاق العلماء، فإن العوام تبـع لعلمائهم ليسوا مستقلين وليس لهم أن يخرجوا عن أقوال علمائهم وهذا واجبهم كما قال تعالى:

**﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**

[سورة النحل: الآية ٤٣].

وما نظير هذا التأويل الفاسد الجاري على ألسنة بعض العوام اتباعاً للهوى لا اتباعاً للحق والهدى إلا كما لو قال بعضهم يوجد بعض علماء الأمصار لا يوجبون الطمأنينة في الصلاة فلا تنكروا علينا إذ اتبعناهم، أو يوجد من يبيح ربا الفضل فلنا أن نتبعهم، أو يوجد من لا يحرم أكل ذوات المخالب من الطير فلنا أن نتبعهم ولو فتـح هذا الباب فتـح على الناس شر كبير وصار سبباً لانحلال العوام عن دينهم وكل أحد يعرف أن تتبع مثل هذه الأقوال ــ المخالفة لما دلت عليه الأدلة الشرعية ولما عليه أهل العلم ــ من الأمور التي لا تحل ولا تجوز.

والميزان الحقيقي هو ما دلت عليه أصول الشرع وقواعده وقد دلت على تحريم الدخان لما يترتب عليه من المفاسد والمضار المتنوعة وكل أمر فيه ضرر على العبد في دينه أو بدنه أو ماله من غير نفـع فهو محرم: فكيف إذا تنوعت المفاسد وتجمعت، أليس من المتعين شرعاً وعقلاً وطباً تركه والتحذير منه ونصيحة من يقبل النصيحة؟

فالواجب على من نصـح نفسه وصار لها عنده قدر وقيمة أن يتوب إلى الله عن شربه ويعزم عزماً جازماً مقروناً بالاستعانة بالله لا تردد فيه ولا ضعف عزيمة، فإن من فعل ذلك أعانه الله على تركه وهون عليه ذلك.

ومما يهون عليه الأمر أن يعرف من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وكما أن ثواب الطاعة الشاقة أعظم مما لا مشقة فيه، فكذلك ثواب تارك معصية إذا شق عليه الأمر وصعب أعظم أجراً وأعظم ثواباً فمن وفقه الله وأعانه على ترك

الدخان فإنه يجد المشقة في أول الأمر ثم لا يزال يسلو شيئاً فشيئاً حتى يتم الله نعمته عليه فيغتبط بفضل الله عليه وحفظه وإعانته وينصح إخوانه بما ينصح به نفسه والتوفيق بيد الله، ومن علم الله من قلبه صدق النية في طلب ما عنده بفعل المأمورات وترك المحظورات يسره لليسرى وجنبه العسرى وسهل له طرق الخير كلها، فنسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى الخير وأن يحفظنا من الشر إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ــ في ربيع الأول سنة **١٣٧٦** نقله من خطه الفقير إلى الله علي الحمد الصالحي.

تقريظ فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن ابراهيم آل الشيخ والمدير العام للمعاهد والكليات.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين. أما بعد: فقد اطلعت على ما كتبه العالم العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي في جوابه لمن سأله وطلب منه الإفادة عن حكم شرب الدخان والاتجار فيه هل هو حرام أو مكروه فوجدته قد أجاب بجواب سديد مفيد ووضح في جوابه الأدلة الصريحة الصحيحة من القرآن العزيز ومن السنة النبوية ومن كلام أهل العلم بما يثلج الصدور بعبارات واضحة ظاهرة مبينة لضرره الديني وضرره البدني وما يترتب على ذلك من إضاعة المال وسقوط حرمة شاربه بين الناس، وقد وضح فيما كتبه بتحريمه وتحريم التجارة فيه، وذكر أن ذلك باتفاق العلماء وذكر على ذلك الأدلة الإجماعية. فجزاه الله خيراً وغفر له ورحمه ــ قال ذلك وأملاه الفقير إلى عفو مولاه عبد اللطيف ابن ابراهيم آل الشيخ، وصلى الله على محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد القائل: ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله إلا وبينته لكم وأمرتكم به، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله إلا وبينته لكم ونهيتكم عنه، فما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه

فانتهوا، أو كما قال ﷺ. وبعد: فقد سمعت جواب فضيلة الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي رحمه الله وغفر له، في حكم شرب الدخان، والحق أنه جواب مختصر مفيد، ولو أراد إنسان أن يتكلم في الدخان بأوسع مما تكلم به الشيخ رحمه الله لوجد مجالاً للكلام وأدلة تناسب هذا المقام مثل قول الرسول ﷺ لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه أو كما قال ﷺ. ويقول الله تعالى:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾

[سورة الأعراف: الآية ٣١]

ويقول أيضاً:

﴿ولا تبذر تبذيرا﴾

[سورة الإسراء: الآية ٢٦]

وهذا في المباح الذي لا شبهة فيه، فكيف بما تضافرت الأدلة النقلية والعقلية على تحريمه مع ما فيه من الرائحة الكريهة وتقليل شهوة الطعام التي تدعو إلى تقليل شهوة الناحية الجنسية وضعف النسل وانحراف صحة الجسم إلى غير ذلك. أملاه الفقير إلى الله الشيخ عبد المهيمن أبو السمح إمام المسجد الحرام.

# فهرس المجموع السابع

# (الفتاوى)

## الفتاوى السعدية ٣ ـ ٤٧٦

## حكم شرب الدخان